نسيم الرياض

في شرح شفاء القاضي عياض

تأليف

شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر

الخفاجي المصري

المتوفى سنة ١٠٦٩هـ

ضبطه وقدم له وعلق عليه

محمد عبد القادر عطا

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

نسيم الرياض

في شرح شفاء القاضي عياض

تأليف
شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر
الخفاجي المصري
المتوفى سنة ١٠٦٩هـ

ضبطه وقدم له وعلق عليه
محمد عبد القادر عطا

الجزء الأول

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م

دار الكتب العلميـة
بيروت ـ لبنان
رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ ـ ١١ بيروت ـ لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، الحمد لله الذى منَّ علينا بالأنبياء والرسل، ليرسموا لنا معالم الطريق إلى النجاة، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد.

وصلاة وسلامًا على خير من أشرقت عليه الشمس منذ أن خلقها الله، خاتم الأنبياء والمرسلين، محمد ﷺ المبعوث رحمة للعالمين.

أما بعد: فقد مر على الإنسانية حين من الدهر وهى تتخبط فى هوة من الضلال متسعة الأرجاء، وتسير فى غمرة من الأوهام وفوضى الأخلاق وتنازع الأهواء، ثم أراد الله لهذه الإنسانية المعذبة أن ترقى بروح من أمره، وتسعد بوحى من السماء.

وكانت البداية هى نهاية خلوة طويلة فى غار بعيد عن مكة حيث لم يكن يسمع غير جلال الصمت، أو زمجرة العواصف، أو زئير الوحوش، ولم يكن يرى غير وعورة الجبال وأغوار الوديان، وكل ما تحتويه البيئة من ظواهر العنف والقوة الفطرية التى لم تعبث بها يد الإنسان، وفوق ذلك جلال السماء والكواكب، وروعة الظلام المطبق حينما يحتويه قلب الغار، حيث يرتد كل ما حوله من مظاهر الجلال إلى ذاته الداخلية بالاستجماع واستصحاب آيات الله فى الآفاق إلى رحلة النفس.

ومن خلال هذا العنف برز الجمال، ومن خلال هذا الظلام انبجس النور، ومن بطن الغار كانت آخر مرحلة من مراحل إعداد النبى ﷺ العالمى لمهمته التى خرج ليواجهها فى إصرار نادر، وقوة غالبة.

من هنا فى هذا المكان، وهذا الزمان انطلقت دعوة الحق، ودعوة النبوة، التى محا الله بها الظلمات، وقوة غالبة.

لقد اصطفى الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم، وأعده إعدادًا كاملاً ليتحمل أسمى رسالة، فأنزل على نبيه كتابًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقد حث الله المسلمين على اقتفاء آثار النبى محمد ﷺ واتباع سنته، وجعل هذا الاتباع شرطًا فى الظفر بحب الله، ولقد حث النبى ﷺ أمته على اتباع سنته، ونقل إلينا أصحابه أهل النور تلك الوصايا الجليلة فى أحاديث تفوق الحصر.

ولقد عرف الصحابة والتابعون مدى الخير العميم الفياض من الاستمساك بهذه السنن كفاية لهم، وقوة لشأنهم، ورعبًا لعدوهم، وجمعًا لأمرهم، فحرضوا الناس على الحرص عليها، ومعانقتها فى حب وإخلاص، لئلا يفشلوا أو تذهب ريحهم.

ولما كان واجبًا على كل مسلم التمسك بالسنة النبوية الشريفة، كان لازمًا علينا معرفة حقوق المصطفى ﷺ، فجاء كتاب «**الشفا بتعريف حقوق المصطفى**»، وهو من خير الكتب التى عرفت بحقوق المصطفى، فقد أحاط بصفات الرسول ﷺ، وما يجب له من حقوق؛ وقد اعتمد المؤلف فى ذلك كله على الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، يؤيد بها رأيه، واستدل بآراء المفسرين والمحدثين والفقهاء فيما جاء به.

ولهذا عده كثير من أفاضل العلماء وجهابذة المؤرخين والمحققين من خير الكتب فى موضوعه، فقد قال عنه المقرى فى أزهار الرياض: مما كمل تأليفه، رضوان الله عليه، «الشفا» الذى بلغ فيه الغاية القصوى، وسار صيته شرقًا وغربًا، ولقد لهجت به الخاصة والعامة، عجمًا وعربًا، ونال به مؤلفه وغيره من الرحمن قربًا.

ثم قال: وفضائل هذا الكتاب لا تستوفى، ولا يمترى من سمع كلامه العذب السهل المنور

فى وصف النبى ﷺ، أو وصف إعجاز القـرآن، أن تلـك نفحـة ربانيـة، ومنحـة صمدانيـة، خص الله بها هذا الإمام، وحلاه بدرها النظيم، وذلـك فضـل الله يؤتيـه مـن يشـاء، والله ذو الفضل العظيم.

وقال القارى: كتاب «الشفا» فى شمائل صاحْب الاصطفاء أجَمعُ ما صنف فى بابه مجملاً فى الاستيفاء.

وقد اعتنى الأئمة بشرح هذا الكتاب والتعليق عليه، وكما اعتنى الناس بذلك اعتنوا أيضًا بتصحيحه وضبطه وإتقانه.

* * *

شروح الشفا

١ - الشهاب الخفاجى، وقد شرحه شرحًا مطولاً، أسماه: «نسيم الرياض فى شرح شفاء القاضى عياض، «وهو الكتاب الذى بين أيدينا».

٢ - شرح «المُلاّ على القارى»، وقد شرحه شرحًا متوسط الطول.

٣ - الشيخ حسن العدوى الحمزاوى، وقد شرحه شرحًا مختصرًا، وأسماه: «المدد الفياض».

٤ - كتاب «مزيل الخفا عن ألفاظ الشفا» تأليف العلامة تقى الدين أحمد بن محمد بن حسن الشمنى التميمى الدارى الحنفى.

٥ - كتاب «المقتفى فى حل ألفاظ الشفا» تأليف العلامة برهان الدين إبراهيم بن محمد ابن خليل الحلبى سبط ابن العجمى.

٦ - ولما كان القاضى عياض قد اعتمد فى مؤلفه «الشفا» على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فقد عنى السيوطى به، وخرج أحاديثه فى كتابه: «مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفا».

* * *

القاضى عياض فى سطور

هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبى السبتى. وهو من أهل سبتة، وأصله من مدينة بسطة.

ولد فى منتصف شعبان من سنة ست وسبعين وأربعمائة، وتوفى، رحمه الله، بمراكش مغربًا عن وطنه وسط سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

وقدم الأندلس طالبًا للعلم، فأخذ بقرطبة عن جلة علمائها.

وأخذ بالمشرق عن القاضى الصدفى، وعن غيره، وعُنى بلقاء الشيوخ والأخذ عنهم، وجمع من الحديث كثيرًا، وله عناية كبيرة به واهتمام بجمعه وتقييده.

وقد استقضى ببلده، مدينة سبتة، مدة طويلة حمدت سيرته فيها، ثم نقل منها إلى قضاء غرناطة، فلم تطل مدته بها.

وقال هو عن نسب أجداده: استقر أجدادنا فى القديم بجهة بَسْطَة من بلاد الأندلس، ثم انتقلوا إلى مدينة فاس، وكان لهم استقرار بالقيروان، فلا أدرى أكان قبل استقرارهم بالأندلس أم بعد.

قال: وكان عمرون والد جد أبى رحمة الله على جميعهم، رجلاً خيرًا صالحا، من أهل القرآن، انتقل من مدينة فاس إلى مدينة سبتة بعد دخول بنى عبيد المغرب(١).

وقال عنه ابنه: نشأ أبى على عفة وصيانة، مرضىّ الحال، محمود الأقوال والأفعال، موصوفًا بالنّبْل والفهم والحَذْق، طالبًا للعلم، حريصًا مجتهدًا فيه، معظما من الأشياخ من أهل العلم، كثير المجالسة لهم، والاختلاف إليهم، إلى أن برع أهل زمانه، وساد جملة أقرانه؛ فكان من حفاظ كتاب الله تعالى، مع القراءة الحسنة، والحظ الوافر من تفسيره وجميع علومه.

---

(١) الصلة (١ - ٤٥٣)، أزهار الرياض (١ - ٢٨).

وكان من أئمة الحديث فى وقته، أصوليًا متكلمًا، فقيهًا حافظًا للغة والأخبار والتواريخ، حُلْو الدعابة، صبورًا حليمًا، حسن العِشْرَة، جوادًا سمحًا، دَءُوبًا على العمل، صَلِيبًا فى الحق(١).

وفى أزهار الرياض يتمثل بقول ابن عاصم فى وصف عياض: قد كان، رحمه الله، علَم الكمال، ورجل الحقيقة، وقارًا لا يخفّ راسيه، ولا يعرى كاسيه، وسكونا لا يَطْرَق جانبُه، ولا يُرْهب غالبه؛ وحِلْمًا لا تزل حصاتُه، ولا تمهل وَصاته، وانقباضا لا يُتَعَدّى رسْمُه، ولا يتجاوز حكمُه؛ ونزاهة لا ترخصُ قيمتُها، ولا تلين عزيمتها، وذهنًا لا يخبو نوره، ولا ينْبُو مطروده، وفهمًا لا يخفى فلقُه، وحفظًا لا يُسْبَر غورُه، ولا يذبل نَورُه، وطلبًا لا تَتحِد فنونُه، ولا تتعينّ عيونُه؛ بل لا تحصر معارفُه، ولا تقصُر مصارفه(٢).

وقال الملاحى: كان القاضى رحمه الله بَحْرَ عِلْمٍ، وهضبة دين وحِلْم، أحكم قراءة كتاب الله بالسبع، وبلغ من معرفته الطول والعرض، وبرّز فى علم الحديث، وحمل رايةَ الرأى، ورأس فى الأصول، وحفظ أسماء الرجال، وثقب فى علم النحو، وقيّد اللغة، وأشرف على مذاهب الفقهاء وأنحاء العلماء، وأعراض الأدباء(٣).

وقال المقرى فى أزهار الرياض: وكان القاضى أبو الفضل كثير الاعتناء بالتقييد والتحصيل.

قال ابن خاتمة: كان لا يبلغ شأوه، ولا يبلغ مداه فى العناية بصناعة الحديث، وتقييد الآثار، وخدمة العلم من حُسن التفنّن فيه، والتصرف الكامل فى فهم معانيه، إلى اضطلاعه بالأداة، وتحققه بالنظم والنثر، ومهارته فى الفقه، ومشاركته فى اللغة والعربية، وبالجملة فقد كان جمال العصر، ومفخر الأفق، وينبوع المعرفة، ومعدن الإفادة، وإذا عدَّت رجالات المغرب فضلا عن الأندلس حسبناه منهم.

وقال: وكان، رحمه الله، معظّمًا للسنّة، عالمًا عاملاً، خاشعًا قانتًا، قَوَّالا للحق، لا يخافُ

(١) أزهار الرياض (٣ – ٢٧).

(٢) أزهار الرياض (٣ – ٦).

(٣) أزهار الرياض (٣ – ٧).

فى الله لومة لائم، وكان معتنيًا بضبط الألفاظ النبوية على اختلاف طرقها، وكتابه «المشارق» أزكى شاهد على ذلك.

وكان حاضر الجواب، حادّ الذهن، متوقّد الذكاء، جامعًا للفنون، أخذ منها بالحظ الأوفر، وكان بارع الخط المغربى، حسن العبارة، لطيف الإشارة؛ وتآليفه شاهدة بذلك. وله فى الفقه المالكى اليد الطولى، وعليه المعوّل فى حل ألفاظ المدونة، وضبط مشكلاتها، وتحرير رواياتها، وتسمية رواتها[1].

* * *

(١) أزهار الرياض (٥١٨).

نبذة عن حياة الشهاب الخفاجى

هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجى المصرى، ولد سنة سبع وسبعين وتسعمائة، لأب كان من خيرة علماء عصره، هو محمد بن عمر الخفاجى.

وقد نشأ الشهاب فى كنف أبيه يعلمه ويؤدبه، وعليه تخرج فى كثير من الفنون، ثم انطلق إلى رحاب أوسع، فدرس النحو، وعلوم العربية على خاله أبى بكر بن إسماعيل بن شهاب الدين الشنوانى المتوفى سنة تسع عشرة بعد الألف، ثم درس المنطق، وبقية علوم العربية، وكتب المذهبين: الحنفى، والشافعى.

وقرأ «الشفا» بتمامه على جمال الدين إبراهيم العلقمى المصرى، وأجازه به وبغيره وله من المؤلفات:

١ - أمالى الشهاب الخفاجى.

٢ - شرح الفرائض.

٣ - حديقة السمر.

٤ - خبايا الزوايا فيما فى الرجال من البقايا.

٥ - ديوان الأدب.

٦ - ريحانة الألبا.

٧ - شرح درة الغواص.

٨ - شفاء الغليل.

٩ - نسيم الرياض فى شرح شفاء القاضى عياض، وهو كتابنا الذى نقدمه لك.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[مقدمة الشارح]

الحمد لله الذى نور الخافقين ببعثه النور المبين، وجعلها شفاء لما فى الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين، فأزال ظلمات الضلال المدلهمة، فإذا همت أفواه الأباطيل بإطفاء نوره أبى الله إلا أن يتمه، حين أشرق به مصباح الهداية، وقد كاد أن يهم بالانطفاء، واتضح منهج الحق بعدما اندرس رسمه وعفا، برسالته التى شرح الله بها الصدور وشفا، وانهار به ركن الباطل بعدما صار من الغواية على شفا، فأكمل الله به المنة على البرية، وأحيا به موؤدات المعارف الإلهية فى فترة الجاهلية، فصلى الله عليه وزاده تبجيلاً وتكريمًا، كما أمر بذلك فقال: ﴿صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] وعلى عترته وصحبه الذين باعوا له أرواحهم بالجنة وسلموها تسليما، ما ذر مسك المداد على كافور الطروس، فعطر أردان الأذهان والنفوس.

(وهذا وإن كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى) كتاب قدره جليل، وهو على جلالة مصنفه أدل دليل؛ فإنه كما فى مطمح الأنفس، أجل أعيان الأندلس جاء بها على قدر، وسبق لنيل المعانى وابتدر، فاستيقظ لها والناس نيام، وورد ماءها وهم صيام، فتحلت به للعلوم نحور، وتجلت له منها عرائس حور، كأنهن الياقوت والمرجان، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، وألحقته بالأصالة ردائها وسقته درها وندائها، وألقت إليه لرياسة مقاليدها، وملكته طريفها وتليدها، وهو على اختصاصه بهذه المرتبة الرفيعة، واعتنائه بإعلاء معالم الشريعة، يعتنى بإقامة أود الأدب، وينسل إليه أربابه من كل حدب، مع عفاف وصون، أعدم الفساد بعد الكون، وقد وفى ببيان بعض ما يجب من آياته، ونشر على كاهل الدهر ألوية الثناء بين يدى صفاته، مما يحق له أن يكتب بالنور، فى صحائف وجنات الحور، وينقش بقلم العقل معانيه، ويخط على ألواح الأذهان

لأطفال الأرواح مبانيه، صحف أنزعت بشهد حلا، فى كل ذوق لذاك كان شفا، ولعمرى لقد نثر الدر فيه من فيه، وبلغت أمانيه ما كانت تنويه من التنويه، حديث لو أن الميت نودى باسمه، لأصبح حيا بعدما ضمه القبر.

فلما كنت قديمًا وحديثًا يحتنى حادى الشوق نحوه حثيثًا، وقطب الصبا غضة مورقة الأفنان، ورياضه الزاهرة محفوفة بروح وريحان لشغفى بصفاته وموصوفه، وطربى بسماع تليده وطريفه، ثملا بحميا سقت عنها ظروف حروفه، لا أزال أقف العين بالأثر منشدًا، وقد ناب السمع عن البصر، فاتنى أن أرى الديار بطرفى، فلعلى أرى الديار بسمعى، وكان يصدنى عنه ما فى الباع من القصر، وزمان لا يعرف فيه ورد من صدر.

فلما رأيت له شروحًا ربما تنشرح لها الصدور، وإن لم تخل قصورها المشيدة من قصور، وفى بعضها أغاليط وتطويل ممل وتخليط، إلا أن تقليد الناس لبى صريح ندائها، والبحث قد أمن على دعائها، فتلألأ ما فيها من تلاعب الظنون ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

فسودت بعض الأمالى رجاء لأن يبيض بها صحف أعمالى، فيسر بها كاتب اليمين، وترفعها أيدى الكرام الكاتبين.

فلما رآه بعض الأصحاب سألنى أن أبرز مخدراته من خلف الحجاب، وألح علىَّ فى ذلك دفعة بعد دفعة، وأنا أقول له: هذا ياسمين لا يساوى جمعه، وهو يمد أنامله لاقتطاف وردة له لا تجتنى، ويهم بذوق ثمراته الغضة الجنا، وقضبه بريح القبول ما ترنحت، ووردته بنسيم السحر ما تفتحت، كعذراء أبصرها مبصر، فغطت بأكمامها رأسها.

ثم عرض لى بغتة ما عرض، مما أضر بجوهرى القوى من العرض، فقصدت شفاء الروح والبدن، بإسناد الجسم الضعيف لحديثه الصحيح الحسن، رجاء للظفر بسعادة الدارين، مما فيه من عين القرة وقرة العين، لتشفى به أمراض القلب إذا أتت الساعة، فنلت منه بحمد الله ترياقا مجربا وبرء ساعة، ولما انجلى على منصة التمام، وفض منه مسك الختام سميته: «**نسيم الرياض فى شرح شفاء القاضى عياض**» رجاء أن يهب عليه ريح القبول، وإن كانت نسمات الآمال عليلة، وتشمله نفحة من نفحات الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، فتشفى من الظلماء عليله.

واعلم أن سندى فى هذا الكتاب وغيره من كتب الحديث سلسلة الذهب من طرق عالية أعلاها: روايتى عن خاتمة المحدثين الشيخ إبراهيم العلقمى، وهو عن أخيه الشمس

العلقمى شارح الجامع الصغير، عن مؤلفه الجلال السيوطى بقراءتى عليه من أوله إلى آخره بالجامع الأزهر، وسند السيوطى رحمه الله أشهر فى رابعة النهار، وعن شيخ الإسلام شافعى زمانه الشيخ العلامة شمس الدين محمد الرملى، عن والده الشيخ أحمد الرملى، عن شيخ الإسلام زكريا الأنصارى، وعن والدى قدس الله روحه، عن الشيخ شهاب الدين بن حجر الهيثمى، وهكذا كابرًا عن كابر إلى المصنف، وهو عياض بن موسى بن عياض بن عمر بن موسى بن عياض اليحصبى السبتى الغرناطى المالكى، قاضى سبتة بالمغرب، صاحب التصانيف الجليلة، كشرح مسلم وغيره كالمشارق أى فى تفسير وله مدة طويلة، ثم نقل إلى غرناطة فى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ولم يطل أمده بها، ثم ولى قضاء سبتة ثانيًا وكان مولده بسبتة فى شهر شعبان سنة ست وسبعين وأربعمائة، فهو سبتى الدار والميلاد أندلسى الأصل، فإن أصوله نشاءوا قديمًا بالأندلس، ثم انتقلوا إلى مدينة فاس، وكان لهم استقرار بالقيروان ، وانتقل إلى سبتة بعد سكنى فاس وهو بحر فى العلوم النقلية والعقلية.

وأما أدبه وبلاغة شعره فحدث عن البحر ولا حرج، ووفاته يوم الجمعة بمراكش فى جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وما قيل من أنه قتل لا أصل له، وفيه يقول على بن هارون:

ظلموا عياضا وهو يحلم عنهم ... والظلم بين العالمين قديم
جعلوا مكان الراء عينا فى اسمه ... كى يكتموه وشأنه معلوم
لولاه ما فاحت أباطح سبتة ... والروض حول فنائها معدوم

وفى طبقات ابن فرحون لعلماء المالكية: أنه كان إمامًا فى الفقه والتفسير والحديث وسائر العلوم، خطيبًا بليغًا، وذكر من تأليفه نحو ثلاثين تأليفًا جليلة، وأنشد له من شعره:

الله يعلم أنى منذ لم أركم ... كطائر خانه ريش الجناحين
ولو قدرت ركبت الريح نحوكم ... وإن يكن بعدكم حين جناحين

وقال:

انظر إلى الزرع وخاماته ... يحكى وقد ماست أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة ... شقائق النعمان فيها جراح

قال: واليحصبى بفتح المثناة التحتية وسكون الحاء المهملة وتثليث الصاد المهملة نسبة إلى يحصب بن مالك أبو قبيلة باليمن، والغرناطى نسبة إلى غرناطة بفتح الغين المعجمة

وسكون الراء المهملة ونون وألف بعدها طاء مهملة وهاء، ويقال: أغرناطة بألف قبل الغين أيضًا، انتهى. ويأتى لذلك مزيد بيان. وسبتة مدينة مشهورة.

وقرأت فى ديوان ابن المقرى اليمنى الشافعى رحمه الله أن كتاب الشفا مما شاهدوا بركته حتى لا يقع ضرر لمكان كان فيه، ولا تغرق سفينة كان فيها، وأنه إذا قرأه مريض أو قرىء عليه شفاه الله، وهو مما جرب، وكان ابتلى بمرض فقرأه فعافاه الله منه، وقال فى ذلك:

ما بالكتاب هواى لكن الهوى ... أمسى بمن أمسى به مكتوبا

كالدار يهوى العاشقون بذكرها ... شغفا بها لشمولها المحبوبا

أرجو الشفاء تفاؤلا باسم الشفا ... فحوى الشفاء وأدرك المطلوبا

وبقدر حسن الظن ينتفع الفتى ... لاسيما ظن يصيح مجيبا

ويأتى لذلك مزيد بيان.

وأنا ممن جرب بركته وشاهدها، ولله الحمد، وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرًا.

وأعلم أن فى الشفا بعض أحاديث ضعيفة، وقليل ممن قيل إنه موضوع تبع فيه ابن سبع فى شفائه، وقد نبه على ذلك كله الجلال السيوطى، رحمه الله تعالى فى كتابه «مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفا»، ولم ينصف الذهبى فى قوله: إنه محشو بالأحاديث الموضوعة والتأويلات الواهية الدالة على قلة تفقده مما لا يحتاج قدر النبوة له، ثم قال: فعليك بدلائل النبوة للبيهقى رحمه الله، فإنه كله هدى ونور.

وقال الذهبى أيضًا: إنه قلد فيما ذكره ابن سبع وكفى المرء نبلاً أن تُعد معايبه، وهو تحامل منه لا ينبغى، وسترى إن شاء الله ما ذكره فى محله، فإنَّا لم نترك شيئًا يحتاج إليه قارئ هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

* * *

[مقدمة كتاب الشفا]

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ) ابتدأ بالبسملة مردفة بالحمدلة عملاً بالحديث وهو: «كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع»[1]، وفى رواية: «ببسم الله الرحمن الرحيم»، وفى أخرى: «بذكر الله».

والإشكال فى تعارض هذه الروايات مشهور، وكذا التوفيق بينهما بحمل الابتداء على العرفى الممتد أو مجرد التقديم على المقصود، وهما متقاربان، وكذا ما قيل من أن رواية البسملة يرد عليها الأذان والخطبة ونحوهما من بعض الأمور بما لم يبدأ بها فيه.

وأجيب: بأن المراد فى الروايات كلها الابتداء بأحدهما أو بما يقوم مقامه بدليل الاكتفاء تارة بالبسملة، وتارة بالحمدلة، وتارة بغيرهما، فاندفع الإشكال، وإشكال التدافع أيضًا بحمل المقيد على المطلق وهو ذكر الله، والكلام على هذا أشهر من «قفا نبك» فلا فائدة فى الإعادة.

وهنا إشكال أبداه شيخ مشايخنا السيد عيسى الصفوى، رحمه الله، وتلقاه من بعده بالقبول من عامة من رأيناه، وهو أن جملة البسملة لا تخلو إما أن تكون خبرية أو إنشائية، ويتجه على الأول أن من شأن الخبر الصادق أن يتحقق مدلوله بدونه فى نفس الأمر، ويكون الخبر حكاية عنه كما اتفقوا عليه، وما نحن فيه ليس كذلك لأن مصاحبة الاسم والاستعانة به من تتمته، وهما لا يتحققان إلا بهذا اللفظ، اللهم إلا أن يجوز مثل ذلك فى نحو قولك: أتكلم أو أقوم متكلمًا مخبرًا بتكلم حصل بهذا اللفظ، وفيه توقف.

وعلى الثانى: إن من شأن الإنشاء أن يتحقق مدلوله به، وأصل جملة البسملة ليس كذلك غالبًا إذ الأكل والسفر ونحوهما مما ليس بقول لا يحصل بالبسملة، فإن كانت لإنشاء المصاحبة أو الاستعانة يلزم أن تكون الجملة لإنشاء بتعلقها والأصل، أى ويكون الأصل غير مقصود بوجه.

ولو قيل: إن المعنى أبتدأ، أو أفتتح، أى أجعله بداية الفعل، والجملة لإنشاء الجعل، وأنه بداية كل شىء كما نقل عن الإمام لا يلزم ما مر إلا أنه خلاف المشهور، ولا يتم أيضًا على تقدير الخبرية؛ لأن المصاحبة والاستعانة به من تتمة الخبر، وهما لا يتحققان

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٨٩٤)، والطبرانى فى الكبير (٧٢/١٩)، والبيهقى (٢٠٩/٣)، والدارقطنى (٢٢٩/٢).

إلا بهذا اللفظ، وهو شأن الإنشاء على أنه لا يجرى حقيقة إلا فى نحو التأليف مما يمكن أن يكون بدائية له حقيقة وإجراؤه فيما سواه يحتاج للمسامحة فى جعله بدءًا له.

أقول: الظاهر أن هذه الجملة إنشائية لإنشاء التبرك الموقوف على التلفظ بالبسملة وما توهمه هذا القائل على تقدير الإنشاء من الخيالات الواهية والأوهام الفارغة.

وقوله: إنها حينئذ لإنشاء المتعلق، ومثله فى غاية الندور وعدم صحته فى غاية الظهور، ألا ترى أن أدوات الاستفهام بأسرها تدخل على الجمل المتحقق مضمونها خارجا فتصير بجملتها إنشاء، كما يقول من رأى شخصًا قائمًا لم يخط بتشخصه وأحواله خبرًا من قام، أو على أى حال قام، وهكذا مما لم يخط به نطلق الحصر، ولم يحم حوله الندور.

ولا يقال: أنه مع تحقق القيام فى الخارج أنه لإنشاء المتعلق، وكذا كم غلط وقع منك ورب صواب صدر من غيرك كما صرح به الرضى.

وأما لكونه لإنشاء الجعل، فتعسف من غير داع لارتكاب مثله، وأنا أعجب من هذا الفاضل، كيف زعم ورود ما قال وممن ارتضاه بعده من فحول الرجال:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

وفى النسخ: **(قال القاضى الفقيه الإمام أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض)** بكسر العين المهملة وفتح الياء المثناة، وبعدها ألف وضاد معجمة **(اليحصبى رضى الله عنه)**.

قال فى القاموس: يحصب مثلثة الصاد حى، والنسبة مثلثة أيضًا لا بالفتح فقط، كما زعم الجوهرى، ويحصب قلعة بالأندلس، انتهى. وفى «لباب الأنساب» لابن الأثير: «اليحصبى» بفتح الياء وسكون الحاء المهملة وكسر الصاد المهملة، وقيل: بضمها وكسر الباء، وهذه النسبة إلى يحصب وهى قبيلة من حمير سميت باسم أبيها يحصب بن مالك.

قلت: هكذا ضبطه أبو سعيد بالصاد المكسورة، والصحيح فتحها لأن يحصب بالكسر فتفتح فى النسب كنمرى، وتغلبى، انتهى.

قلت: بهذا عرفت أن رد صاحب القاموس على الجوهرى مردود لا لأنه قول، بل لأنه القياس المطرد فى أمثاله، وما خالف شاذ لا يعول عليه، وهذه الأوصاف ليست من كلام المصنف رحمه الله تعالى، وإنما كتبها من بعده توقيرًا له، ولقب بأبى الفضل كما قيل:

أبى الفضل من أجرى إلى الفضل يافعا فصار به يدعى وصار به يكنى

(الحمد لله) الحمد: هو الوصف بالجميل على الجميل الصادر بالاختيار حقيقةً أو حكمًا على وجه التعظيم، ظاهرًا وباطنًا بأن لا يصدر ما يخالفه، ولا يلزم اعتقاد اتصاف

المحمود بالجميل المذكور عند متأخرى المحققين، وفى هذا المقام كلام طويل الذيل ليس هذا محله.

والله اسم للمعبود بحق المستوجب جميع المحامد، وفى علميته وفى أصله ما يغنيك عن ذكر شهرته. والمراد أن جنس الحمد أو جميع أفراده مختصة به تعالى، فإن قلنا: الاختصاص الذى يدل عليه اللام بمعنى الانحصار وضعًا، أو بمعونة المقام يحمل الاختصاص الذى ذكر على الفرد الكامل. أما على المبالغة تنزيلاً لغيره منزلة العدم أو منزلة حمده تعالى؛ لأنه مبدأ كل جميل أو على الحقيقة؛ لأن المحمود عليه بحسب صدوره بالاخيار بالذات، ولا اختيار لغيره بالذات عند البعض، وهذا بناء على حمل الاختيار على الحقيقى الذاتى، والأول بناء على حمله العرفى الظاهرى، ولكل وجهة ولو أريد بالاختصاص هنا العلاقة والمناسبة الكاملة، فلا تكلف على ما فصله شراح المطول والعضد.

وفى شرح السيد أن جملة الحمد لإنشاء الحمد، لأنها من صيغ الحمد شرعًا، أو لدلالتها على الاتصاف بجميل، ولو عرفًا فيصدق تعريف الحمد عليها وفيه نظر.

وهاهنا بحث أبداه ابن الهمام، رحمه الله، فى شرح البديع، فقال: جملة الحمد صيغة إنشاء معنى كصيغ العقود، وبالغ بعضهم فى إنكار كونها إنشاء لما يلزم عليه من انتماء الاتصاف بالجميل قبل حمد الحامد ضرورة أن الإنشاء يقارن معناه لفظه فى الوجود ويبطل من قطعتين:

إحداهما: أن الحامد ثابت قطعًا بل الحامدون، **والأخرى:** أنه لا يصاغ لغة للمخبر عن غيره من متعلق إخباره اسم قطعًا، فلا يقال لقائل: زيد ثبت له القيام قائم، فلو كان الحمد إخبارًا محضًا لم يقل الحمد لله حامد، ولا ينفى الحامدون وهما باطلان، فبطل ملزومهما، واللازم من المقارنة انتفاء وصف الواصف المعين لا الاتصاف. وهذا لأن الحمد إظهار صفات الكمال الثابتة لا ثبوتها نعم يتراءى لزوم كون كل مخبر منشئًا حيث كان واصفًا للواقع مظهرًا له، وهو توهم.

فإن الحامد مأخوذ فيه مع ذكر الواقع كونه على وجه ابتداء التعظيم وهو ليس جزء ماهية الخبر، فاختلف الحقيقتان وظهر أن الغفلة عن اعتبار هذا القيد جزء ماهية الحمد، وهو منشأ الغلط أو بالغفلة عنه ظن أنه إخبار لوجود خارج يطابقه، وهو الاتصاف ولا خارج للإنشاء وأنت تعلم أن هذا خارج جزء المفهوم، وهو الوصف بالجميل وتمامه، وهو المركب منه، ومن كونه على وجه ابتداء التعظيم لا خارج له، انتهى.

أقول: هذا صنو ما مر فى البسملة وهو تعسف لا وجه له، فإن هذه الجملة يصح فيها الخبرية والإنشائية من غير ارتكاب لمثل هذه الأوهام، فإن إنكاره الإنشاء لأنه يلزمه الاتصاف بالجميل واهٍ جدًا؛ لأنه إنما انتفى الوصف لا الاتصاف، وشتان ما بينهما، وقد كفانا ببيان مزيته.

وأما إبطاله الخبرية بقولهم: «حامد» و«حماد» فمغالطة عجيب؛ لأنه ليس نظير من قال: زيد قائم، بل نظير من قال: زيد متكلم، فإنه مخبر، ويصح أن يوصف بأنه متكلم أيضًا لاتصاف المخبر بما أخبر به عن غيره ومشاركته له فى ذلك، كما أن المخبر عن الحمد والاتصاف بالجميل واستحقاقه للتعظيم مع اعتقاده لذلك ظاهر معظم، فهو حامد وواصف له، وهو ظاهر لمن نور الله تعالى بصيرته، وهو أن الحامد إلخ ممنوع، فإنه إنما يوجد فيه ذلك إذا لم يتمحض للإخبار، فحينئذ يكون التعظيم وابتداؤه لازم له لا جزؤه، وقد بسطنا هذا فى العناية فحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.

(المنفرد) قال الراغب: الفرد الذى لا يختلط بغيره، وهو أعم من الوتر وأخص من الواحد، وجمعه فرادى. قال الله تعالى: ﴿تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ [الأنبياء: ٨٩] أى: وحيدًا، ويقال فى الله فرد: تنبيهًا على أنه مخالف للأشياء كلها فى الازدواج المنبه، بقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقيل: معناه المستغنى عما عداه، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، فإذا قيل: هو فرد، فمعناه منفرد بوحدانيته مستغن عن كل تركيب وازدواج تنبيهًا على أنه مخالف للموجودات كلها.

و«**منفرد**» فى كلام المصنف ضبط بالنون والتاء الفوقية من باب الانفعال والتفعل، ومعناه ما مر. وفسر أيضًا بعدم مشاركة غيره له فى ذاته وصفاته، وكل ما يختص به من نعوت جلاله، والمراد هنا تفرد مخصوص بمتعلقه الآتى وإطلاقه على الله تعالى، إما لثبوته كما يشعر به كلامهم أو للاكتفاء بورود ما يشاركه فى مادته ومعناه، أو بناء على جواز إطلاق ما لا يوهم نقصًا مطلقًا، أو على سبيل التوصيف دون التسمية كما ذهب إليه الغزالى رحمه الله، والانفعال للمطاوعة.

والمراد أنه بدون صنع، فتفرده بذاته لذاته، وكذا التفعل للصيرورة بدون صنع أيضًا؛ كتحجر الطين، أى: صار حجرًا صلبًا من غير مدخل للغير، كتكون وتولد، وكذا توحد إلا أنه قيل فيه: إنه فى الأصل للتكلف، فأريد به غايته، وهى الكمال والمبالغة، لأن المتكلف يبالغ فيما تكلفه ويتأنق فيه كما قيل فى المتكبر: **(باسمه الأسمى)** الباء صلة

المنفرد والاسم إما من السمة بمعنى العلامة، أو من السمو كالعلو لفظًا ومعنى.

قيل: وفى قوله: الأسمى، إيماء إلى الثانى، والبا إما للتعدية لأنه يقال: تفرد وانفرد بكذا إذا استقل به، أو للملابسة، والأول الأرجح. ويرجح الثانى بإفادته التفرد المطلق وتضمنه الرد على من يقول بمشاركة ذاته لسائر الذوات فى الماهية وتميزها بالصفات العلية.

والأسمى أفعل تفضيل بمعنى الأعلى من السمو، وهو العلو والإضافة تأتى لما يأتى له اللام، فإن كانت للعهد بأن يراد به لفظ الله لاشتهار أنه اسم الذات وما سواه أسماء صفات، فالمفضل عليه ما سواه من أسمائه الكريمة، وفيه إشارة إلى أنه الاسم الأعظم كما ذهب إليه كثير، وفيه أقوال أخر مشهورة. أو للجنس، فالمراد به أسماؤه المختصة به كالرحمن والرازق، أو مطلق أسمائه لاختصاصها به فى الحقيقة.

وإن أطلق بعضها على غيره كالملك، فإنه بمعنى آخر فى «البدائع»، لابن القيم أسماؤه تعالى التى تطلق عليه، وعلى غيره كحى وسميع هل هى حقيقة فيه تعالى مجاز فى غيره أو مجاز فيه حقيقة فى غيره، أو حقيقة فيهما؟ أقوال أظهرها الأخير فتدبر.

وعلى الثانى المراد أن كل اسم من أسمائه أشرف مما سواه، وشرف الاسم بشرف مسماه.

فإن قلت: قال أبو حنيفة، رحمه الله تعالى، فى «الفقه الأكبر»: أسماء الله تعالى وصفاته مستوية فى العظم، والفضل لا تفاوت بينها، وهو مناف لما ذكر.

قلت: مراده روح الله روحه إنها من حيث إضافتها إلى المسمى والموصوف، لأن مسمى جميع الأسماء، والموصوف بجميع الصفات واحد، وهو الله تعالى، وهذا لا ينافى التفاوت فى حقائقها من حيث أن بعضها فى حيطة بعض لتقدمه رتبة وبحسب الظهور، كالألوهية التى تشمل حيطتها أكثر الصفات والعلم، وقد صرحوا أيضًا بتفاوت الصفات فى نفس معانيها وحقائقها كالعلم بالنسبة للقدرة، والقدرة بالنسبة للإرادة، فعدم التفاوت بين الأسماء ليس إلا لاستوائها بحسب الإضافة إلى الذات، كما فصله الشيخ بهاء الدين فى شرح «الفقه الأكبر».

وفيه أيضًا: أن آيات القرآن متساوية فى الفضل، قال الشارح: تساويها من جهة القرآنية وإضافتها إلى الله تعالى، وإن كان لبعضها فضيلة الذكر والمذكور، كآية الكرسى، وآيات القصص، وعليه يترتب ما روى فى فضائل السور.

(المختص) اختص يكون لازمًا ومتعديًا، يقال: اختصه بكذا فاختص، فيجوز فى

المختص أن يكون اسم فاعل ومفعول على التقديرين فيه قبل الإدغام، والأظهر أنه اسم فاعل من اللازم بمعنى منفرد ومستقل، وفى الصحاح: خصه بالشىء خصوصًا وخصوصية، والفتح أفصح، وخصيص واختصه بكذا خصه به.

وفى شرح السيد: القياس أن تدخل الباء التى هى صلة الاختصاص على ما لا يوجد الشىء فى غيره، فتقول: المختص به الملك، كما يقال: اختص السواد بزيد، وكثيرًا ما تدخل على ما لا يوجد فى الغير كما فعله المصنف، وهو فصيح أيضًا، والمعنى على التقديرين واحد، أى: هذا الملك لا يكون لغيره، والثانى أكثر استعمالا، والاختصاص حينئذ مجاز عن التمييز، أى تميز عن غيره بالملك، وهذا ملخص ما قاله كما فى شروح الكشاف وحواشى المطول، وهو مع اشتهاره وتلقيه بالقبول عند من يرى التقليد شريعة منسوخة غير مقبول.

وفى شرح المفتاح للسعد: إدخال الباء فى المقصور عليه هو الاستعمال العرفى العام، وإدخالها فى المقصور هو الاستعمال الشائع العربى، وقال قدس سره: الأصل فى لفظ التخصيص والاختصاص، والخصوص أن يستعمل بإدخال الباء فى المقصور عليه، فيقال: اختص الجود بزيد، أى صار مقصورًا عليه، إلا أن الأكثر فى الاستعمال إدخالها على المقصور بناء على تضمن ذلك معنى التمييز والإفراد، وقيل: إنه مجاز صار بمنزلة الحقيقة لشيوعه؛ هذا زبدة ما مخضته الأفكار.

وأنا أقول: هذا كلام غير محرر؛ لأن الظاهر أنه يسند حقيقة لكل منهما، وقد يترجح أحدهما بحسب المقام، فإن الفاعل الحقيقى من قام به الفعل لا من أوجده، كما حقق فى الأصول فإذا أسند إلى أحدهما حقيقة تعين دخول الباء على الآخر؛ لأن قيام الاختصاص به إما بحسب الأمر والاستحقاق أو بقهر وتغلب، فعلى الأول يسند حقيقة للمقصور؛ لأنه اختص بنفسه.

وعلى الثانى يسند للمقصور عليه حقيقة لأنه بفعله، مثاله: لو مات رجل عن ابن وخال يختص المال بالابن، فتقول: اختص مال فلان بابنه دون خاله، فلو كان له ابنان وحاز أحدهما المال كله تغلبًا فاللائق أن تقول: اختص الابن بالمال، فيتعين دخول الباء على المقصور عليه، وفى الثانى بالعكس. فالظاهر أن كلا منهما فصيح صحيح لغة حقيقة فيهما، وليس المعنى فيهما واحدًا كما تقرر وزعمه مع هذا أنه مجاز خبط.

وفى كلام اللغويين ما يصرح بما قلناه، ثم إن قوله تعالى: ﴿**يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ**﴾ [البقرة: ١٠٥] يختص فيه متعد، وإسناده إلى الله وإدخال الباء على الرحمة

إشارة إلى أنه بمحض كرمه ولطفه، ولو أسنده لمن أو للرحمة أوهم خلافه فتأمله، فإنه دقيق جدًا.

(بالملك) الظاهر أنه هنا بضم الميم، وإن جوز فيه الكسر والفتح، وهو أبعدها، وهو الاختصاص بقدرة التصرف فى الأمور المملوكة بتنفيذ الأوامر والنواهى، وفسر بالاحتواء على الأشياء، قادر على الاستبداد بها، وقد يراد به الأشياء المحتوى عليها والعظمة، والفرق بين المضموم والمكسور له تحقيق بديع فى كشف الكشاف، وبينهما عموم وخصوص فإن الأول السلطنة، والثانى ملك الأعيان، وقد يجتمعان ويأتى أن الملكوت فسر بالملك والسلطنة، وتاؤه للمبالغة، كرحموت وجبروت، وقد فرق بينهما بأن الملك عالم الشهادة والأجسام، والملكوت عالم الغيب والأرواح، وهو فرق لغوى، وقيل: الاصطلاحى لأهل الحكمة والتصوف، والباء داخلة على المقصور، وقد سمعته آنفًا.

(الأعز) أفعل تفضيل من العز والمنعة، قال الراغب: العز حالة مانعة للإنسان عن أن يهان أو يقهر ويغلب، من قولهم: «أرض عزاز» أى صلبة كأنه فى عزاز أى محل يصعب الوصول إليه كالجبل الشامخ، وهذا مما قاله أهل اللغة قاطبة، ومن لم يقف عليه.

قال فى شرحه: معنى كونه أعز أن احتواءه عليه أغلب من كل احتواء، ولا ينبغى أن يفسر الأعز هنا بالأشد؛ لأنه لا معنى لوصف الملك بالشدة والصلابة.

(الأحمى) أفعل تفضيل من حميته حماية فهو محمى وحمى إذا صنته، والمحمى مصون وأصله أرض ممتنع من قطع نباته ورعيه، وكانوا يفعلونه فى الجاهلية كما يريدون، فلما جاء الإسلام نهى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: «لا حمى إلا لله ورسوله»[1]. فلذا منع شرعًا إلا بإذن الإمام لمصلحة.

وأحمى اسم تفضيل على خلاف القياس، إن كان بمعنى المفعول كأشغل من ذات النحيين، أى ذات زقى السمن، وهى امرأة من تيم الله بن ثعلبة كانت تبيع السمن فى الجاهلية، فأتاها خوات بن جبير الأنصارى قبل إسلامه فساومها، فحلت له نحيا مملوءًا، فقال: أمسكيه حتى أنظر الآخر، فحل الآخر، وقال: أمسكيه، فلما شغلها بشغل يديها غشيها وهى لا تقدر على الدفع عن نفسها فى النحيين وشحها بضياع السمن، فلما قام عنها، قالت له: لا هناك الله، فهى فى هذا المثل مفعولة، لأنها شغلت بالنحيين.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٧١، ٧٣)، الدارقطنى (٤/٢٣٨)، الحميدى (٧٨٢)، البيهقى فى الكبرى (٦/١٤٦)، الطبرانى فى الكبير (٨/٩٥).

أو على القياس بمعنى الفاعل بجعله كأنه يحمى نفسه لعظمته أن يصل إليه أحد، فحمايته أعظم من حماية كل حام لملكه كجوهرة نفيسة وجدها فقير لا يسعه أن يدعى أنها ملكه، لعظمة قدرها عنده كأنها حمت نفسها عن تمليك مثله لها، كما قيل فى مقدمة الكتاب إذا كانت من قدم المتعدى كأنها قدمت نفسها، وهو المناسب لقول الأعز، فإسناده مجازى.

والمعنى على الأول: أن ملك غيره إذا كان محميًا فملكه تعالى محمى بحماية أقوى من كل حماية لأنه ملك لا يصير لغيره ألا إلى الله تصير الأمور، ولا حاجة لتجريده عن معنى التفضيل على أنه وما قبله بمعنى العزيز المحمى، كقوله[1]:

بيتًا دعائمه أعز وأطول

على رأى. وإن قيل بأنه مقيس؛ لأن المسموع خلافه كقوله[2]:

أكر وأحمى للحقيقة منهم وأضرب منا بالسيوف القوانسا

وما قيل من أنه على القياس من غير حاجة لما مر، لأن ملك الله احتواؤه على العوالم أكثر منعًا لغيره من التوصل إليه، وأشد منعًا لغيره من التوصل إليه بما يضره، فهو أشد منعًا من سائر أملاك المالكين، لا محصل له؛ لأنه إن أراد الادعاء فهو بعينه ما قدمناه وتوهم أنه غيره من قلة التدبر، وإن ادعى غير ذلك فلا معنى له.

(الذى) صفة لله أو للملك، يعنى: مالك الملك لا شىء قبله ولا بعده. **(ليس دونه)** **«دون»** لها معان، قال الصاغانى: يكون بمعنى عند ونقيض فوق، وبمعنى أمام ووراء؛ فهى من الأضداد، ويكون بمعنى غير، وبمعنى خسيس وشريف، والأول مشهور وعليه قوله[3]:

إذا ما علا المرء رام العلاء ويقنع بالدون من كان دونا

ولا فعل له، قيل: يقال: «دان يدون دونا» وهى هنا بمعنى فوق وأمام، ولا يجوز أن

---

(١) عجز بيت، وصدره:

إن الذى سمك السماء بنى لنا

وهو للفرزدق فى ديوانه (٢/١٥٥)، الأشباه والنظائر (٦/٥٠)، شرح المفصل (٦/٩٧، ٩٩)، الصاحبى فى فقه اللغة (ص٢٥٧)، لسان العرب (٥/١٢٧)، تاج العروس (١٥/٢٢٧).

(٢) البيت للعباس بن مرداس فى ديوانه (ص٦٩)، الأصمعيات (ص٢٠٥)، حماسة البحترى (ص٤٨)، شرح التصريح (١/٣٣٩)، خزانة الأدب (٨/٣١٩).

(٣) البيت بلا نسبة فى لسان العرب (١٣/١٦٤)، جمهرة اللغة (٦٨٦).

يكون بمعنى وراء أو غير.

(منتهى) اسم مكان أو مصدر ميمى من انتهى إذا بلغ النهاية، ويكون انتهى بمعنى انزجر وانكف كما فى قوله:

لا تنتهى الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

وكونه اسم مفعول مع لزومه ولا صلة معه تكلف بغير داع **(ولا وراءه)** «وراء» نقيض «قدام»، ويكون بمعناه أيضًا، فهو من الأضداد، وهو ما وراءك سواء وارى عنك غيرك، أو واراك عن غيرك فهو مشترك بينهما اشتراكًا معنويًا وليس من الأضداد، ويكون بمعنى بعد، وبمعنى غير.

(مرمى) بميمين مفتوحين بينهما راء مهملة ساكنة، وهو مقصور مفعل من الرمى، وقد ورد استعمال هذا اللفظ بعينه وإطلاقه فى حق الله تعالى فى الحديث، فروى المصنف، رحمه الله تعالى، فى مشارقه، وابن الأثير فى نهايته، ليس وراء الله مرمى، وتكلمت به العرب العرباء، وبما هو بمعناه قديمًا كقول النابغة(١):

حلفت فلم تترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مطلب

قال فى النهاية: أى ليس بعد الله لطالب مطلب؛ لأن العقول وقفت ثمة فليس وراء الله ولا وراء معرفته والإيمان به غاية تقصد. انتهى. كما قيل:

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منه نصيب ولا سهم

فى المشارق: ليس وراء الله مرمى، أى: مطلب لطالب، والمرمى الغرض الذى يرمى إليه، وإليه ينتهى سهم الرامى، وبه يحوز السبق كما إلى الله انتهت العقول ووقفت، فليس وراء معرفته والإيمان به ملتمس ولا غاية يرمى إليها، انتهى.

فالذى إن كان صفة للملك فالمراد أنه ليس قبل ملكه شىء ينتهى إليه، ويتصل آخره بأوله، وليس بعده شىء تتصوره العقول، وإن كان صفة لله فالمراد أنه الدائم الواجب الوجود وما عداه فهو حادث أوجده وأبدعه فهو بمعنى الأول الآخر، فيتصل بما بعده اتصالا ظاهرًا.

وعلى الأول يكون كالاحتراس المتمم لما قبله؛ لأنه لما ذكر اختصاصه بالملك الأعز، قد يتوهم مشاركة غيره أو اختصاصه بملك غير أعز، فقال: ليس قبل ملكه شىء ولا بعده شىء، فهو مالك كل ملك وخالقه، فلا يخرج شىء عن حوزة ملكه، وعلى كل حال فالمرمى محل الرمى، والهدف أريد به الغرض الأقصى الذى ترمى له الآمال، وتتوجه

(١) البيت فى ديوان النابغة (ص٧٢)، تهذيب اللغة (١٥/٣٠٤).

نحوه وجوه التضرع والابتهال، فهو استعارة تمثيلية استعيرت من حال الرامى فى توجه لإصابة المرمى بحال العارف الذى معرفة الله أقصى مطالبه ومطمح خواطره كما قيل:

يا مطلبا ليس لى فى غيرك إرب إليك آل التقصى وانتهى الطلب

ولك أن تقول: إن كلام المصنف، رحمه الله، فى فاتحة خطابه كقول رب العزة فى فاتحة كتابه، فإن قوله: الحمد الله المختص، إلى آخره، إشارة إلى المبدأ الفياض وأن الكل منه، وله: كـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وقوله: وليس دونه منتهى إلى آخره إشارة إلى المعاد كقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، ولما كان ذكره بصفاته وأنعامه فى الدارين المقتضى للتوجه إليه بكل وجه حتى يصير كالمشاهد المحسوس الذى يوجه إليه الخطاب كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلى آخره.

وأتى هنا بما هو فى منزلته وهو قوله: **(الظاهر)** هذا هو المناسب للمقام وبما ذكرناه من أنه على سبيل التمثيل لا يرد عليه أن وراء ودون وما معه أمور تقتضى التحيز والجهة، ومثله لا يجوز استعماله فى حقه تعالى، لأن الاستعارة التمثيلية لا تجوز فى شىء من مفرداتها وأجزائها، وما قيل من أن معناه ليس تحته محل انتهاء ولا بعده مرمى.

ومنتهى بمعنى مجاز مرسل كمرمى لأنه مقصد الرمى، أريد به مطلق القصد صحيح، لكن ما ذكرناه أنسب بالمقام، وأولى بأداء المرام وما قيل عليه من أنه خطأ؛ لأنه لابد فيه من كونه فردًا من أفراد المطلق، والهدف قد لا يكون مقصودًا مع أن ابن الأثير، رحمه الله تعالى، جعل العلاقة فيه المشابهة كلام لا وجه له ولا طائل تحته؛ لأن الهدف دائمًا يقصد للرمى، والقصد بالفعل ليس بلازم، وما قاله ابن الأثير رحمه الله مخالف للجمهور، ولا يلزمنا اتباعه.

وقيل: المعنى أنه ليس فى جهة ولا حيز، فنفى الشىء بنفى لازمه، والظاهر من أسمائه تعالى، وهو فى الأصل اسم فاعل من ظهر إذا بدا و لم يخف ويقابله الباطن، ثم عم كل محقق معلوم بالبصر أو البصيرة.

وهو المراد هنا لمقابلته بالباطن، ويصح أن يفسر بالغالب من ظهر عليه إذا غلبه، وقد صح وسمع كما ورد: أنت الظاهر، فليس فوقك شىء، وفى شرح المواقف، الظاهر المعلوم بالأدلة القاطعة، فهو صفة إضافية. وقيل: الغالب فهو صفة فعلية من ظهر عليه إذا قهره، والباطن المحتجب عن الحواس بحيث لا يدرك أصلاً فهو صفة سلبية. وقيل: العالم بالخفيات، انتهى.

وقال الراغب: الظاهر الباطن من صفات الله، ولا يقال إلا مزدوجا كالأول والآخر،

فالظاهر قيل: إنه إشارة إلى معرفته البديهية، فإن الفطرة تقتضى فى كل نظر أنه موجود، ولذا قال بعض الحكماء: طلب المرء فى الآفاق ما هو معه، والباطن باعتبار معرفته حقيقته وذاته، ولذا قال الصديق: غاية معرفته القصور عن معرفته وقيل: هو ظاهر بآياته باطن بذاته. وقال المرتضى: تجلى لعباده من غير أن يروه، فأراهم نفسه من غير أن يتجلى لهم، انتهى.

أقول: قد عرفت مما ذكرناه أن للظاهر إذا أطلق على الله معانى هو باعتبار بعضها مقابل للباطن ولا يستعمل حينئذ إلا مزدوجًا، وباعتبار الآخر يطلق عليه مفردًا كما قاله الراغب، رحمه الله تعالى، ليس على إطلاقه، وفيه كلام حققناه فى شرح أسماء الله الحسنى.

(لا تخيلاً ولا وهمًا) يعنى أن ظهوره تعالى متحقق مكشوف للعقول ويقين صادق عند من له بصيرة لقيام الأدلة القاطعة والبراهين البينة الدالة على وجوده ووحدانيته لا بحسب التخيل والوهم، وقيل: لا بحسب الظن أو السهو، وقيل: لا بحسب الطرف الراجح أو المرجوح أولا بحسب إدراك القوة المتخيلة أو الواهمة، فإن من شأنهما إدراك ما لا تحقق له، فغلبت المتخيل والموهم على كل ما لا تحقق له، فنفى أن يكون ظهوره كذلك، انتهى.

وهذا الأخير هو الأصوب، وذكر السهو لا وجه له، وإن وقع ذلك فى كلام أهل اللغة؛ لأن الاستعمال على خلافه، وقال الراغب: التخييل تصوير خيال الشىء فى النفس، والتخيل تصوره، وخلت بمعنى ظننت، يقال: باعتبار تصور خيال الشىء المظنون فى النفس.

وفى حواشى شرح المطالع: الفكر حركة النفس فى المعقولات، والتخيل حركتها فى المحسوسات، والوهم خطرات القلب ومرجوح طرفى التردد والغلط. وفى المقتفى: الوهم بسكون الهاء. وفى الصحاح: وهمت فى الحساب أوهم وهما بسكون الهاء إذا غلطت، وفيه سهوت، ووهمت فى الشىء بالفتح، أوهم وهما بسكون الهاء إذا ذهب وهمك إليه وأنت تريد غيره.

وقال ابن القطاع: وهمت إلى الشىء ووهم وأوهم بمعنى، ونصبهما على الحال أو التمييز أو بنزع الخافض فالمعنى ما مر. وقيل: المراد أن معرفته بحسب اليقين لا بإدراك القوة المتخيلة أو الواهمة التى تدرك ما لا تحقق له، والفرق بينهما أن المتخيلة هى القوة المتصرفة فى الصور والمعانى بالتركيب والتفصيل كتصور شخص برأسين، واختراع ما لا

حقيقة له كالغول، والواهمة القوة المدركة للمعانى الجزئية الموجودة فى المحسوسات، كإدراك الشاة عداوة الذئب، ورد بأن هذا مبنى على فلسفة لا يرتضيها أعلام أهل السنة إلا أن يقال: إنه إبطال ونفى له، ولا ضير فى مثله، وليس فى وصف الله بأنه ظاهر ما يدل على أن ذات الله معلومة للبشر بالكنه، وإن اختلف فى وقوع ذلك وإمكانه على ما فصل فى الأصول، فلا حاجة للتعرض له هنا على أن فى اقترانه بقوله: (**الباطن**) ما يدل على خلافه، لأنه بمعنى الذى لا يدرك بالأبصار إدراك إحاطة لقوله: ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾ [الأنعام: ١٠٣] كما حقق فى محله، وقد وقع فى أكثر النسخ بدون عاطف كما ذكرناه، وهو الصحيح رواية؛ لأن الصفات كلها وقعت متصلة بدون عاطف لما بين المنفرد والمختص من كمال الاتصاف، ولما بين الظاهر والباطن من التقابل، فلو عطف هنا توهم أنهما لا يجتمعان كما فى قوله عز وجل: ﴿**مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا**﴾ [التحريم: ٥]؛ فإن عطف الصفتين الأخيرتين فيه لعدم اجتماعهما، وهنا ليس كذلك؛ لأن المراد أنه فى حالة واحدة ظاهر بكثرة الأدلة وقوتها، وبنعوت ذاته وأفعاله التى لا تخفى باطن خفى عن إدراك كنه ذاته وحقيقة صفاته، وحجب أنوار اللاهوتية فى عالم الغيب والشهادة عن مشاهدته، وهذا مما أهمله أهل المعانى فى مباحث الفصل والوصل، بل فى كلام بعضهم ما يدل على خلافه، وقد تعرض له بعض المتأخرين، رحمه الله، وأشار إليه العلامة الزمخشرى فى مواضع من كشافه كأول سورة غافر.

وقال السيد عيسى: الصفات الجارية على واحد قد تذكر بالعطف للمناسبة والتصريح بالاجتماع، وقد يترك عطفها إشعارًا باستقلال كل منها، وقد يذكر فى موضع ويترك فى بعض تفننًا، فإنه يوجب توجه الذهن أو لزيادة مناسبة، فرعاية الأنسب أبلغ، والأبلغ أنسب، ولما كان الظهور والبطون متقابلين كان التصريح بالاجتماع أنسب، انتهى.

وهذا بناء على ما فى النسخة الأخرى من ذكر العاطف، ولا يخفى ما فى توجيهه من القصور لإهماله العطف لعدم الاجتماع كما مر فى ثيبات وأبكارًا، وكأنه اعتبر بما وقع لهم فى قوله تعالى: ﴿**حم ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ**﴾ [غافر: ١ - ٣] والذى ذكره الزمخشرى فى نزغة اعتزالية كما نبه عليه شراحه، وليس هذا محل تفصيله.

وقد علمت مما قلناه معنى الظاهر والباطن، وقال السهيلى: معناه العالم بما ظهر، وبما بطن.

(تقدسًا لا عدمًا) إعرابه كإعراب ما قبله، والتقديس تفعل من القدس، وهو الطهارة والتنزه، أى أن بطونه وخفاه لتنزهه وعلوه من أن تحيط به البصائر والأبصار لا لكونه معدومًا أو غائبًا، أو لا من جهة عدمه أو عدم كمال منه، بل لقصور غيره وتنزهه عن أن يحيط بكنهه إن أريد بالباطن الخفى عن البصر فى الدنيا، فالتقدس التنزه عن مشابهة الحوادث عن قبول الرؤية فيها.

والعدم بضم فسكون من عدمته أعدمه كعلمته أعلمه عدما وعدمًا بفتحتين بمعنى فقدته، واختار الأول هنا للسجع، وما قيل من أن معنى العدم هنا الفقد كما فى الصحاح، أى ليس خفاؤه لافتقاره كما يختفى بعض الفقراء لفقره، فهذيان محموم، ولبعض الشراح هنا كلام لا معنى له تركناه؛ لأنه غنى عن النقد والتزييف.

(وسع كل شىء رحمة وعلما) العلم مطلقًا معلوم، وفى صفات الله تحقيقه فى الكلام والرحمة ميل الطبع ورقته، وهو مما لا يوصف الله تعالى به فيعتبر باعتبار غايته ولازمه، فيراد به الإنعام أو إرادته، وذهب الباقلانى، رحمه الله، إلى أنه تجوز به عن معاملته معهم معاملة الراحم بمن يرحمه، وذهب الأشعرى، رحمه الله، إلى أنه تجوز به عن إرادته ذلك، فعلى رأى القاضى يجوز أن يقال: اللهم اجمعنا فى مستقر رحمتك، وعلى رأى الشيخ لا يجوز، وفى القرآن مواضع تناسب كلا من الرأيين، فقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] يناسب بحسب الظاهر الإرادة لاقترانها بالعلم الذى هو صفة ذاتية، وقوله: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: ٩٨] إشارة إلى أن السيد يناسبه الإحسان كذا فى شرح الأربعين الرازية للقرافى.

ولبسط الكلام فيه مقام آخر يأتى أوائل الباب الأول، ووجه ارتباط هذا بما قبله أنه لما كان مطمح نظره فى هذا الكتاب بيان شرف المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنه النعمة العظمى على جميع المخلوقات بدأ بحمد الله تعالى ونعمته بما يدل على عظمته فى ذاته، وأن الملك له لا تصرف فيه لأحد سواه، ثم ثنى ببيان حال خلقه فى ملكه، وما يعاملهم به على وجه ينساق إلى المراد، يقال: وسع إلى آخره.

ولو قال: الذى وسع كان أولى، والسعة ضد الضيق استعيرت للشمول والشىء الموجود مطلقًا أو أعم منه على الخلاف المشهور فيه، وهو هنا ما سوى الله، وإن صح إطلاقه عليه كما فى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩]؛ لأن شمول الرحمة للذات لا يصح وإن شمله العلم، وشموله لما سواه ظاهر؛ لأن كل شىء منعم حتى المعذب بترك الأشد والمعدوم.

ورحمة وعلما منصوبان على التمييز، والجملة مستأنفة، وتعلق العلم بكل شىء كليًا وجزئيًا مبرهن عليه فى الأصول.

وفى شرح السيد هنا نقلا عن التفسير الكبير: أنّا لا نعلم كنه صفات الله كما لا نعلم كنه ذاته، وإنما المعلوم لنا أنّا لا نعلمها إلا بلوازمها وآثارها، وذاته لم تكمل بها لأن الذات كالمبدأ لها فيلزم استكمال الذات بالممكن بالذات بل كمال الذات يستلزم الصفات.

وفى عوارف المعارف: أجمع الصوفية على أن له تعالى صفات ثابتة لا بمعنى أنه محتاج إليها ويفعل بها، بل بمعنى نفى الضد وثبوتها قائمة به، وهذه مسألة نفيسة سكت عنها الأصوليون وربما أوهم كلامهم خلافها، وتوضيحها أنه لا احتياج له تعالى إلى الصفة الموجودة فى تحقق أثرها، بل لو لم تكن موجودة كان الأثر بحاله إلا أن وجودها أكمل لاقتضاء كمال الذات لها، ويدفع قول الحكيم الكمال بالذات أعلى من الكمال بما سواه لاستلزامه الاستكمال، وظهر أن مذهب أهل السنة أعلى عقلا ونقلا، إلا أن فيه إيهام تعطيل الصفة، ويدفعه أن مجرد وجودها فائدة وإن سلم فليكن سببًا عاديًا للآثار كسائر الأسباب عند الأشعرى رحمه الله، فلا استكمال ولا تعطيل، فتدبر واحفظه فإنه عزيز، انتهى.

أقول: قوله لاستكمال الذات بالممكن بالذات إشارة إلى ما قاله فى تعليقه له أن الخلق هو الإيجاد بعد العدم مطلقًا، ولذا لا يقال: صفات الله تعالى مخلوقة لأنها لم تسبق بالعدم، وإن كان التحقيق أنها ممكنة بالذات، أى محتاجة إلى الغير؛ لأن كل محتاج ممكن فليست واجبة بالذات بذواتها، والألزم تعدد الواجب لذاته، وذلك لا يجوز. والصفات ليس شىء منها مسبوقًا بالعدم بل موجودة أزلاً وأبدًا، وإن جاز أن يقال فى سائرها أنها مخلوقة، وأن الذات خلقتها وأوجدتها ونحوه لكن بمعنى أنها محتاجة إلى الذات لا أنها أوجدتها بعد العدم، لكنهم يتحاشون عن استعماله، وإن كان صحيحًا، ويرون الخوض فى مثله سؤالاً وجوابًا بدعة لعدم وروده فى الشرع، فلا محذور فى تلك التعرض له إلا إذا ألجأت له الضرورة.

ولذا قال فى التفسير الكبير: الذات المقدسة كالمبدأ للصفات، وقد استشكل ظاهره؛ لأنها إذا لم تكن مبدأ لم تكن الصفات ممكنة بل واجبة، فيلزم تعدد الواجب وهو لا يجوز.

وأجيب: بأن المتبادر من المبدأ أنه موجد بعد العدم والصفات غير مسبوقة بعدمها بل

لم تزل موجودة إلا أن الذات تقتضيها وتحتاج إليها وتتوقف عليها، فالذات بالنسبة إليها كالمبدأ لا مبتدأ لما مر، انتهى.

واعلم أن بعض علماء المغاربة، قال: إن الفلاسفة أجمعت على نفى الصفات لشبه تقرب مما قاله المعتزلة، فقالوا: لو وجدت الصفات لزم افتقارها للذات لاستحالة قيامها بنفسها، وبعضها شرط لبقاء بعض، كالحياة للعلم فيلزم الافتقار والتأخر، وهو مناف للوجوب.

وأجيب: بمنع الملازمة، فإن الافتقار للغير إن كان فى إفادته الوجود كان حادثًا، ونحن لا ندعى هذا بل نقول: جميع صفاته واجبة الوجود غنية عن مقتضى الوجود، فإن عنيتم بالافتقار عدم الانفكاك فهو لا ينافى الوجوب. ولما اعتقد الإمام رحمه الله صحة قول الفلاسفة أن الافتقار مطلقًا يوجب الإمكان وأن وجود الصفات تقتضى التركيب، والمراكب مفتقر لجزئه فلا يكون إلا ممكنًا، واستشعر النقص بصفاته تعالى، فقال: نستخير الله فى القول بإمكانها لذاتها، ثم جزم به وفاه بكلمة، والعياذ بالله تعالى، لم يسبق إليها، فقال: هى ممكنة باعتبر ذاتها واجبة بوجوب ذات الله تعالى، والذات قابلة لصفاتها وفاعلة لها. وهى زلة شنيعة.

أقول: هذا من نفائس الذخائر المستودعة خزائن القلوب، وقد تكلم فيها قدماء الحكماء والمتكلمين كما نقله الإمام فى المسائل الأربعين عن الرئيس، وجزم بأن علة الإمكان الافتقار، ونازعه فيه العلامة القرافى فى حواشيه على هذه المسائل، فقال: الصفات يجب قيامها بالموصوف، ويستحيل عليها القيام بنفسها، فإن عنيتم بالافتقار هذا القدر فمسلم، لكن العبارة ردية، ولا يلزم منه الإمكان إذ الافتقار على هذا التقدير فى القيام لافى الوجود، ولا يلزم من الافتقار فى القيام الافتقار فى الوجود، فإن العرض مفتقر للجوهر فى قيامه، ومستغن عنه فى وجوده، فإنه من الله فلا يلزم من مطلق الافتقار الإمكان، فبطل قوله كل مفتقر ممكن بل المفتقر يكون افتقاره باعتبار تركيبه وباعتبار قيامه، ومنه افتقار الصفة لموصوفها باعتبار وجوده كافتقار الأثر للمؤثر، وهذا هو المقتضى للإمكان، فالافتقار أعم، والإمكان أخص، والاستدلال بالأعم على الأخص غير مستقيم، انتهى.

أقول: تحرير محل النزاع مع بيان الحق فيه أن مطلق الاحتياج للغير مستلزم للإمكان والاحتياج فى الوجود فقط، فالرئيس ومن حذا حذوه جزموا بالأول والقرافى ومن نحا نحوه كالسنوسى منعوه، وقالوا بالثانى، وشنعوا على من خالفهم ولا يتم لهم هذا بسلامة الأمر، فإن كل ما احتاج لسواه حاجة تامة بحيث لا يوجد بدونه سواء كان علة

أو شرطًا لوجوده، كالجوهر للعرض مثلا لا يمكن وجوده بدونه، فيلزم إمكان عدمه بالذات وإن لم يكن حادثا، وهذا لا محذور فيه فى صفات الله القائمة به، وإن كان الأدب ترك التصريح به كغيره، وهذا من محذرات الأسرار التى لا تدرج لغير محرم، فنقول: الذات المقدسة غير مفتقرة للصفات التى ليست عينها، بل الصفة مفتقرة للذات لإسنادها له وعدم صحة استغنائها عنه بديهة، وإذا كانت الذات غير محتاجة للصفات ولا مستكملة بها لا يلزم تعطيلها أيضًا؛ لأن وجودها فائدة لكونها صفات كمال فليست مؤثرة بالذات ولا واجبة بالذات بل الإسناد للذات التى هى كالمبدأ لها؛ لأنها قديمة ليست منفكة لكن وجوبها ليس لذاتها بل لغيرها، وهذا لا ينافى الإمكان ولا يقتضى الحدوث الزمانى.

وبقولنا: كالمبدأ ظهر أن قول المعترض أنها مبدأ وفاعل تقول عليه، وقال الأسنوى فى شرح منهاج البيضاوى بعدما نقل قول الإمام فى الأربعين: إن صفات الله ممكنة لذاتها واجبة الوجود لوجب الذات قد تلخص مما قاله الإمام أن الصفات واجبة للذات لا بالذات، أى واجبة لأجل الذات المقدس لا أن ذات الصفات اقتضت وجود نفسها، انتهى.

وقال بعض فضلاء العصر: فتكون الصفات ممكنة فى حد أنفسها معللة بالذات القديم لكن يجب أن يكون الذات موجبًا بالنسبة إليها، وإن كان مختارًا بالنسبة إلى ما سواها من مخلوقاته، والإلزام حدوثها بناء على ما تقرر من أن الصادر عن المختار حادث البتة، انتهى.

(وأسبغ) أى أتم وأكمل، وهو فى الأصل صفة للدرع والثوب الطويل استعيرت من الطول والسعة لما ذكر، ثم صار حقيقة فيه لشيوعه.

(على أوليائه) جمع ولى فعيل بمعنى فاعل أو مفعول، أى موالى ويطلق على الله، وعلى غيره نحو: ﴿**ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ [البقرة: ٢٥٨] ﴿**أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ**﴾ [يونس: ٦٢]، وهو من الموالاة، وهى الاتصال والقرب ويكون ذلك فى النسب والدين والصداقة والنصرة، وله معنى يعم كل مؤمن وآخر يختص بمن أخلص لله فولاه أمره واختص منه، وهو من أفاض الله عليه من فضله به على غيره من أسرار ومعارف إلهية أنار بها بصيرته حتى يشاهد صنعه وينكشف لنفسه القدسية خفايا الملك والملكوت، وهى مرتبة جليلة، ويأتى لذلك مزيد بيان، وكل نبى ولى ولا عكس. وقيل: ولاية النبى أفضل من نبوته، كما أن نبوته أفضل من رسالته، ولا يلزم منه تفضيل الولى على النبى كما توهم، والمراد هنا الأول أو الثانى، ويحتمل أن

يكون الإسباغ هنا على حقيقته بأن يشبه النعم المسبغة بملبس يصونه على أنه استعارة مكنية وتخييلية كما فى قوله:

إذا ما عزا دهرى وخفت خطوبه   علـى دروع مـن نـداه سوابـغ

(نعمًا) جمع نعمة، وهى ما أنعم الله به، وأعطاه من فواضل إحسانه، ويكون بمعنى الإنعام والإحسان، والحمد على الإنعام أمكن من الحمد على النعم كما فصل فى محله.

(عما) هو بعين مهملة مضمومة وميم مفتوحة مشددة تلتها ألف إما زائدة كألف زيد فى قولك: رأيت زيدًا حالة الوقف، فألفه زائدة، أو بدل من التنوين كما فى سائر المنصوبات المنونة، أو هى ألف مقصورة كألف حبلى، ومعناه عميمة أى عامة شاملة لكل شيء من الأجزاء والجزئيات. قال ابن عصفور فى شرح شواهد الإيضاح عند الكلام على قول الشاعر(١):

طافت به الفرس حتى بذ ناهضها   عم لَقِحْـنَ لقاحًـا غيـر مُبْتَسَـرِ

العم الطوال النخل، واحده عميمة، عن أبى حاتم ويعقوب، وكأنه خفف من عمم ثم أدغم لاجتماع المثلين. وقال اللحيانى: نخلة عم ونخيل عم، أى طوال، فعم على هذا مصدر وصف به الواحد وغيره، ويبعد أن يكون من باب ذلك لقلته. وقال ابن دريد: العم العظام واحدها عمى كحبلى، وهذا أقيس لوجوه، انتهى.

واقتصر على التسهيل على أنه فعل بضم فسكون جمع عميمة؛ لأن فعيلة تجمع على فعل قياسًا، وفى كتاب النبات للدينورى فى باب النخل: العمة: النخلة التى يصعد إليها إذا جنيت، وهى العميمة أيضًا، والنخل العم الذى استحكمت وكملت وطالت، وكذا فى جميع النبات.

وفى العم يقول: فعم كعمكم يافع، وطفل كطفلكم يؤمل، أى كبار بلغ نفعهم ككباركم وصغار تؤمل كصغاركم، فسمى صغارها أطفالاً، انتهى.

ومما قصصناه عليك علمت أن قول المصنف: «عما» إما منون أو غير منون مقصور، وأنه يجوز فيه أن يكون جمعًا ومفردًا بمعنى عظيمة أو عميمة شاملة، فأفاد وصف نعم الله بالزيادة فى الكم والكيف، وللشراح رحمهم الله فيه كلام غير واف بحق المقام، ثم لما كانت بعثة الرسل أجل النعم وأجلها بعثة خاتم الرسل عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام عطف على قوله: أسبغ، إلخ.

---

(١) البيت من البسيط، وهو لتميم بن مقبل فى ديوانه (ص٩٢)، شرح شواهد الإيضاح (ص٤٤٩)، لسان العرب (٥٨/٤)، (بسر).

قوله: **(وبعث فيهم)** من عطف الخاص على العام لبراعة الاستهلال وما قبله تمهيد له، والبعث فى الأصل الإثارة أو الإيقاظ من النوم، وبمعنى الإحياء والنشر من القبور، وبمعنى إرسال الرسل، وهو المراد هنا، فإذا تعدى بفى، فمعناه أنه جعله بين أظهرهم، وإذا تعدى بإلى فمعناه أنه مرسل لدعوتهم سواء كان فيهم أم لا، وقد يستعمل كل منهما بمعنى الآخر، وضمير «فيهم» للأولياء بمعنى المؤمنين من غير تكلف؛ لأنه ليس قبله ما يصلح للرجوع له غيره.

والمراد مطلق المؤمنين وبعثه صلى الله تعالى عليه وسلم فيهم لا يقتضى تخصيص البعثة بهم، فينبغى أن لا تجعل فى بمعنى إلى حتى يرد عليه أن البعثة عامة للثقلين غير خاصة بهم، وأنه ينبو عنه قوله الآتى عربًا وعجمًا، وقيل: إن ضمير فيهم يفسره قوله: عربًا وعجمًا ليس راجعًا لغيره، وقيل: إنه راجع لكل موجود من الثقلين المفهوم من قوله: قبل كل شىء، وقيل: بعث بمعنى أرسل فيما بينهم بأن أوحى إليه بتبليغ الشرائع، والبعث وإن كان فى الكفار، فإن كثيرًا منهم قد علم منه أنه سيصير من أهل ولايته ومنهم من أشرف عليها، وهو المراد بالأولياء أو هذا ليس بيانًا لأول البعثة، ثم قال: البعثة إنما هى فى العرب بل فى أهل مكة، والمبعوث فيهم جماعة هو بين أظهرهم، فضمير فيهم لأولياء العرب وضمير أنفسهم الآتى للعرب والعجم، لقوله: عربًا وعجمًا، فلا تكون الأولياء مرجعًا لهم إلا بالتكليف بأن يقال: كان فيهم العجم، والأوجه أنه استخدام أو أريد بالبعثة فيهم وجودهم فى زمنها، ويكون مبعوثًا فى الكل، أو فى بمعنى إلى، أو يراد مطلق الأولياء أعم من الكل والبعض والبعثة باعتبار فرد والأنفسية باعتبار الجميع.

أقول: هذا تعسف نحن فى غنية عنه، والحق أنه لما ذكر عموم الرحمة اتبع ذلك ببيان أن رحمته الكاملة الشاملة مخصوصة بأوليائه وهم مطلق المؤمنين، وأن من أعظمها عليهم بعد الإيمان بالله بعثة هذا الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيهم واتباعهم له، ولا يلزم منه تخصيص الرسالة بهم كما فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] كما يأتى، وهو مبنى على أن مطلق النعمة عامة للبر والفاجر، والنعمة التامة مخصوصة بالمؤمنين وليس العامة مخصوصة، كما قيل: لا نعمة لله على كافر، وعموم رسالته، صلى الله تعالى عليه وسلم، مشهور معلوم من غير هذا.

وقوله: **(رسولا)** مفعول بعث، ولم يذكر المرسل إليهم إشارة إلى عموم رسالته، صلى الله تعالى عليه وسلم، والرسول بمعنى المرسل وهو نبى أوحى إليه ما أمر بتبليغه، والنبى

من أوحى إليه مطلقًا فبينهما عموم وخصوص مطلق، وذهب صاحب القاموس، رحمه الله، إلى: أنه وجهى، وفيه نظر، وسيأتى تفصيله عند كلام المصنف عليه فى الباب الرابع من القسم الأول.

(من أنفسهم) بضم الفاء جمع نفس ولها معان منها: العين والذات الشاملة للروح والجسد، ومنها: الروح، ومرجع الضمير كالسابق، والمراد أنه من جنس البشر، وإنما امتاز عنهم بالرسالة والخصائص المودعة فى ظاهر عنصره التى أهله الله تعالى بها؛ لأن يكون أهلاً لأمانته، ولم نفسره بما فسر به قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ بأنه من جنسهم عربى مثلهم، لأن المخاطب ثمة العرب امتنانا عليهم، وإقامة الحجة لديهم، وإن فسر أيضًا بما هنا ولكل مقام مقال، لأنه لا يناسب التعميم بعده وفيه تجنيس لما بعده، وبعثه فى الجنس يجعل ما للبعض للكل، كما يقال: بنو فلان قتلوا قتيلاً والقاتل واحد منهم، فلا ينافى كون المبعوث فيهم طائفة مخصوصة.

وبعضهم فتح هذه الفاء، قالوا: وهو خطأ رواية ودراية «**أنفسهم**» بفتح الهمزة والفاء والنصب على البدلية من قوله رسولا لجواز إبدال المعرفة من النكرة أو بتقدير عامل له، ويجوز رفعه على أنه خبر مبتدأ مقدر وجره على البدلية من أنفسهم قبله، ورجح بأنه المروى والموفق لقراءة الآية، وفيه إشارة إلى القراءتين وهو أفعل تفضيل من النفاسة من نفس بالضم صار مرغوبًا فيه، فهو نفيس عظيم فى النفوس يحرص عليه، وقيل: الأنفس الأعلى والأشرف، ومنه الحديث: سئل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: أى الرقاب أفضل؟ قال: «أنفسها عند أهلها»(١) أى أفضلها، وفيه نظر وهو قريب مما قبله.

(عربًا وعجمًا) بضم أولهما وسكون ثانيهما هنا للفاصلة، وفيه لغة أخرى بفتحهما. والعرب: الجيل المعروف، والعجم: من عداهم، وهو المراد، ثم غلب على صنف من فارس، والعرب اسم جنس جمعى واحده: عربى، وقيل: لا واحد له، وقد يخص بسكان القرى والأمصار منهم كما يخص الأعراب بسكان الأخبية والبوادى، ولذا قيل: لا واحد له؛ لأن العرب مغاير لهم أو أعم، فلا يصح أن يكون مفردًا له حتى غلط سيبويه، رحمه الله تعالى، فى القول به.

وقال الراغب فى توجيهه: الأعراب جمعه فى الأصل، ثم صار اسما لسكان البادية والغلبة بعد الجمعية كالأنصار، ولذا نسب له بلفظ فلا يرد ما قالوه، وسميت العرب لسكناهم فى بلدة تسمى عربة كما قاله الأزهرى.

---

(١) رواه مسلم (٨٤/١٣٦)، ابن ماجه (٢٥٢٣)، أحمد (١٥٠/٥)، البيهقى فى «الكبرى» (٨١/٦).

وما قيل من أن أولهم إسماعيل، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكلهم من نسله ليس بمقبول عندهم؛ لأنهم كانوا قبله بنواحي اليمن، وأبوهم قحطان، وأمهم أو مقدمهم جرهم والعمالقة، وإسماعيل، صلى الله تعالى عليه وسلم، تزوج منهم فتكلم بالعربية كما يأتى بيان ذلك.

والعرب قسمان: عاربة، ومستعربة، فالعاربة بمعنى الخلص، وعرب عارية كليل أليل، والمستعربة: ولد إسماعيل، عليه السلام، ومن بعده طرأت عليه العربية، وعليه حمل أول العرب أى المستعربة، وقحطان ابن شالخ بن سام بن نوح، عليه الصلاة والسلام، وكونه من ولد إسماعيل، عليه الصلاة والسلام، غلط نشأ من اشتراك اسمى كما فى الروض الأنف وغيره، ونصبهما على التمييز أو بنزع الخافض.

(وأزكاهم) أفعل تفضيل من الزكاة، وهى الزيادة محسوسة كانت أو معنوية، والطهارة الحسية والمعنوية أيضًا، أى هو صلى الله تعالى عليه وسلم، أكثرهم عبادة وتقوى ومعرفة بالله وشرفًا، وأطهرهم وأنزههم عن القبائح عنصرًا وخلقا لعصمته صلى الله تعالى عليه وسلم، من دنس البشرية كما سيأتى.

(محتدًا) بفتح الميم وسكون الحاء المهملة وكسر التاء الفوقية وآخره دال مهملة وهو الجرثومة والأرومة، والمنصب والعنصر والضئضى بمعنى، وهو أصل النسب كما فى فقه اللغة، وفى الصحاح حتد بالمان محتدا أقام وثبت، والمحتد الأصل وفى القاموس من معانيه الأصل والطبع فأصل معناه الأصل مطلقًا، وظاهر كلام الثعالبى أن حقيقته أصل النسب، فكأنه مشترك، وعلى كل حال فما فى شرح المواقف من أنه مكان أقام به، والعرب تقول: «لله بلد اطلعتك» يعنون به شرف النسب، كقولهم: «لله درك» لا يخلو ما فيه من القصور لمن تدبر.

والمراد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، أشرف العرب والعجم وأعظمهم نسبًا فما قيل من أنه لا يناسب عموم التفضيل ليس بشىء يحتاج للرد.

(ومنمى) بميمين مفتوحتين بينهما نون ساكنة اسم زمان، أو مكان، أو مصدر ميمى من نميته إذا نسبته أو من نمى المال إذا زاد، أى أن حسبه صلى الله تعالى عليه وسلم، ونسبه الذى انتمى إليه أذكى من جميع الأحساب، وأشرف من سائر الأنساب، فلا وجه لما قيل: إن المراد به أزكى من جميع المؤمنين الذى بعث فيهم، أو أن محل نمائه، أى مكة أو المدينة أزكى مما عداه لازدياد الدين وظهوره بها، ويجوز أن يراد أن ذاته فى نما العمر والصبا أظهر على أنه مجاز عقلى لما عرف منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى طفوليته

من نزع حظ الشيطان منه وشق صدره ورفع خفة الصبا عنه، ولا يرد عليه أن عيسى عليه الصلاة والسلام، كان نبيًا فى الصغر كما قيل، ونصبهما على التمييز أيضًا.

(**وأرجحهم عقلاً**) رجحان العقل زيادته ووصفه به مشهور فى الكتب القديمة، وسيأتى ويقابله الخفة والنقص، وهو فى الأصل يستعمل فى الموزون، ثم صار حقيقة عرفية فى مطلق الزيادة الممدوحة تمثيلاً أو مجازًا مرسلاً أو استعارة مكنية من رجحت كفة الميزان إذا زيد ما فيها، فأريد به لازمه، والاستعارة فيه أحسن كما قال الأخطل:

وإذا وزنت حلومهن إلى الصبا ... رجح الصبا بحلومهن فمالا[1]

وفيه إشارة لما فى الحديث كما يأتى من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لما شق صدره قال أحد الملكين للآخر: «زنه بعشرة» إلى أن قال: «لو وزنته بجميع أهل الأرض رجح»، والوزن فيه كما قالوه اعتبارى، والرجحان إنما هو فى الفضل، وفائدة فعل الملكين ذلك ليعلمه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وأمته، فالعقل يقال للقوة القابلة للعلم ولما يستفاد بواسطتها، وقيل: هو نور روحانى تدرك به النفس، ومحله القلب أو الدماغ، أو هو مشترك بينهما، فيه خلاف مشهور. يقال: العقل عقلان مستفاد ومكتسب ومطبوع ومسموع، وهو من عقل الدابة لمنعه الإنسان عن القبائح، كما قال الشاعر فى التلميح لأصله[2]:

قد عقلنا والعقل أى وثاق ... وصبرنا والصبر مر المذاق

(**وحلمًا**) وهو قوة توجب الصبر على الأذى، وقال الراغب: الحلم ضبط النفس عن هيجان الغضب، وقيل: الصبر على الأذى، وقيل: الحليم من عفا بعدما ستر، وقيل: من لا يعجل بالانتقام إن عزم عليه فهو حقود وإن عزم على عدمه فهو عفو غفور فأين الحلم؟ ومعناه إلا أن يقال إنه من يعزم على أن لا ينتقم البتة بشرط أن لا يظهر ذلك، فإن أظهره فهو عفو، وبهذا يظهر الفرق بين الحلم والعفو، وقد فهم من كلام السلف أن الحلم صفة تعارض الانتقام وتمنعه، ومنع الانتقام وحده هو العفو، وقد يمنع الحليم تعجيل العقوبة مع القدرة عليه ويؤخر لحكمة خفية، ويفارقه بأن صاحبه لا يقدر على الانتقام حالاً مع انتظاره للفرصة، ولا يخفى ما فيه وهو فى صفات البشر أن يملك نفسه فلا يغضب إذا أوذى أو رأى ما يكره مع تمام الوقار، فإذا وصف به الله أريد غايته لامتناعه عليه فهو ترك الانتقام أو تعجيله مع القدرة عليه، ومغايرة الأول للحقد والعفو

---

(١) البيت من الكامل، وهو فى ديوان الأخطل (ص٢٥٢).

(٢) البيت من البسيط، وهو بلا نسبة فى تاج العروس (عقل).

ظاهرة، وأما الثانى فلا مناسبة بينه وبين الحقد، فإنه تعالى لا يوصف به، وكذا مغايرته للعفو بحسب المفهوم وبحسب الماصدق فإنه قد يحلم ولا يغفر كما فى حلمه على الكفرة فى الدنيا، وقد يقال: غفر له، ولا يقال: حلم، فتدبر.

(وأوفرهم) أى أكثرهم وأتمهم من الوفرة، وهى الكثرة والسعة **(علمًا وفهمًا)** العلم هو الإدراك الجازم، وحصول صورة الشىء فى العقل أو الصورة الحاصلة فيه أو عنده مفردًا كان أو مركبًا، وقد يراد به المعلوم الحاصل فى الذهن، والملكة والتهيؤ، وأكثريته ظاهرة، والفهم هيئة للنفس يتحقق بها ما يحس، قال الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقول الجوهرى كغيره: الفهم العلم على عادتهم فى التسامح فليسا مترادفين حتى يكونا هنا كقوله: «وألفى قولها كذبا ومينا» إذ العلم مطلق الإدراك، والفهم سرعة إنتقال النفس من الأمور الخارجية لغيرها، فالمعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، أعلم الناس وأحذقهم، وفيه إشارة إلى أن علمه صلى الله تعالى عليه وسلم، كعلم غيره من البشر ضرورى وكسبى، وقول بعض الصوفية إن العلوم كلها بالنسبة إليه ضرورية قد رده الشيخ زروق بأنه إن حمل على ظاهره لزمه أن ينتفى عنه التكليف؛ لأن العلوم الضرورية لا يكلف بها ولا يؤخر عليها، وإن أريد أنه لشدة ذكاء نفسه القدسية علمه بالكسبيات كغيرها فهو صحيح.

(وأقواهم يقينا)، اليقين والإيقان اتقان العلم بنفى الشبه عنه، فلا يوصف به الضرورى، ويتفاوت قوة وضعفًا، ولذا قال المصنف، رحمه الله: «أقواهم» وشهد له الوجدان، وقيل: إنه لا يتفاوت وإنما التفاوت فى آثاره، ولذا قيل: لو كشف الغطا ما ازددت يقينا، ونسب للحنفية وإمام الحرمين فما يتخيل أنه أقوى إنما هو أجلى عند العقل.

(وعزما) العزم والعزيمة عقد القلب على إمضاء الأمر، يقال: عزمت الأمر وعليه وبه ومنه: ﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، لقوة بأسهم وإمضاء عزمهم فى تنفيذ أوامر الله وتبليغ شرائعه، فمن توهمه معنى آخر فقال: ليس المراد بالعزم مطلق عقد القلب بل ما فى قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] لم يصب، وعزم الله إيجابه، وفى التهذيب عزمة من عزمات الله أى حق من حقوقه واجب مما أوجبه، والعزم الصبر، وقول السيد عيسى: قال المرزوقى: والعزم توطين النفس وعقد القلب على ما قصد فعله، ولا يجوز إطلاقه على الله، والعرب تمدح بقوته لدلالته على قوة الطبيعة وعدم التزلزل فى الرأى والتدبير، وإلا لربما يظهر أولوية غير ما عزم عليه فيتردد، وقد علمت ما يخالفه من أنه ورد إطلاقه على الله تعالى كما ورد فى

مسلم وصححه شراحه إلا أن يريد أنه لا يطلق بالمعنى المذكور ولا يخفى بعده.

(وأشدهم بهم رأفة ورحمًا) الرحم بضم الراء وسكون الحاء المهملتين، يقال: رحمه رحمة ورحمًا كقفل، ورحمى كرجعى، فهو هنا منصوب أو مقصور، والرحمة العطف، والشفقة والإنعام والرأفة بمعناه فذكره هنا للتأكيد أو هو عطف تفسيرى، أو الرأفة أخص، لأنها أشد الرحمة كما فى الصحاح وغيره، وعلى هذا قدم الأخص الأعلى فى الإثبات على عكس المعروف فى استعمال البلغاء للفاصلة، كما قاله الشراح، وتبعًا للقاضى فى التفسير وغيره، ولا وجه له كما بيناه فى حواشيه؛ لأن الرأفة قارنت الرحمة قدمت عليها ولو فى غير فاصلة، كقوله تعالى: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد: ٢٧] حيث قدمت فى الحشو، والذى غرهم كلام الجوهرى وغيره، والحق تغايرهما حيث اجتمعا فإن معنى الرحمة الإنعام أو إرادته، والرأفة التلطف والمعاملة برفق؛ لأنه يقابله العنف والتجبر كما يعرفه من يفهم كلام العرب، فلابد من تقديمها على الرحمة كما قيل فى المثل: «الإيناس قبل الإمساس»، وكما قال: «أضاحك ضيفى قبل أنزال رحله».

وقال الحسن: الكرم التبرع بالمعروف قبل السؤال والرأفة مع البذل، ويوضحه قول قيس الرقيات:

ملكه ملك رأفة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

ومن تتبع مواقعه وعرف مقابله جزم بما قلناه، ويأتى لهذا مزيد بيان أيضًا فى الباب الأول.

وقال: أشد هنا تفننًا وإيهامًا للمطابقة كقوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

(زكاه روحًا وجسمًا) التزكية التطهير والتقديس والتنمية والزيادة، أى خلقه زائدًا على من سواه، منزهًا عن دنس البشرية ووسخ العناصر، والكلام على الروح، وأنه جوهر مجرد أو سار فى البدن سريان ماء الورد أوهى ما لا يدرك كنهه، ولا ينبغى الخوض فيه مبسوط فى تأليف مستقل به، والنفس تكون بمعنى الروح أيضًا، فتزكيته صلى الله تعالى عليه وسلم، كونه فى أكمل تقويم وأحسن صورة مكملاً بالقوى الظاهرة والباطنة مطهرًا من حظ الشيطان ودنس فى نفسه وبدنه بشق قلبه وغسله كما سيأتى، وفصل هذه الجملة وأتى بها فعلية، لأنها كالمؤكدة لما قبلها، ولتلوين الخطاب.

(وحاشاه) فعل ماض، يقال: حاشاه يحاشيه، قال: «ولا أحاش من الأقوام من أحد»،

وليس هذا مأخوذًا من حاشى الاستثنائية، فإنها مشتركة بين معان ثلاثة فيكون فعلا متصرفًا بمعنى جنب وباعد وأداة تنزيه كما فى قوله تعالى: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٣١]، وتكون للاستثناء وأحكامها مفصلة فى بابها، وليس هذا محله، وهل هو بمعنى أخرج أو بمعنى نزه فنصب ما بعده على نزع الخافض، أى من عيب أو عن عيب أو بمعنى جنب فنصبه على أنه مفعول به، وهذا أقرب سواء ورد عن العرب أم لا، وهذا تجوز أو تضمين، فمعناه منزه، وعزله عن النوع السابق الإنسانى الذى هو عيبة العيوب، والضمير راجع للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: نصب ما بعده على التمييز كامتلأ الإناء ماء، وفى الحديث: «أسامة أحب الناس إلىّ ما حاشا فاطمة»[(١)]، وليس هذا محل الكلام فيه، فالمعنى جنبه.

(عيبًا ووصمًا) أى كل عيب ووصم، لأن النكرة فى سياق النفى معنى للعموم، مع أن النكرة قد تعم فى الإثبات، والوصم بفتح الواو وسكون الصاد المهملة إن فسر بالعيب فهو من عطف أحد المترادفين على الآخر إطنابًا فى مقام الخطابية تتميمًا للفاصلة، وإن فسر بالعار كما فى القاموس فهما متقاربان، والتوصم فى الجسد كالتكسر والفترة، والكسل، فعلى هذا يفسر بالتوانى وهو أبلغ.

والمعنى: أن الله نزهه عن العيوب الحسية والمعنوية ووفقه للجد فى أموره من غير توان لتوفيقه للجد فى أموره.

(وآتاه) بالمد بزنة أعطاه ومعناه فيتعدى لمفعولين. **(حكمة)** فى القاموس أنها العدل والحكم، والنبوة، والعلم، والقرآن، والكلام الحق وهى من أحكمه عن كذا إذا منعه لأنها تمنع صاحبها عن النقائص، ومن حكمة الدابة. وقال البيضاوى: هى فى عرفهم استكمال النفس الإنسانية باقتباس النظريات وكسب الملكة التامة، والمداومة على الأفعال الفاضلة بقدر الطاقة البشرية، قيل: ولما لم يشمل ما ذكره القاضى فى تعريفه حكم الله، قال بعض المحققين: إنها العلم بالأشياء كما هى والعمل به كما ينبغى، وفيه نظر.

(وحكمًا) أى: قضاء، وفصلا للأمور على الحق، سواء كان إلزامًا للغير أم لا، ويجوز أن يراد به خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين، والأول أظهر، ولذا اقتصر عليه الشراح ويكون بمعنى الحكمة، وليس مرادًا هنا وهى مساوية لها للاشتقاق السابق، وبينهما نوع من الاشتقاق يجوز أن يكون من جناس التحريف وما فيه من السؤال والجواب بعدم

---

(١) رواه أحمد (٩٦/٢)، الحاكم فى المستدرك (٥٩٦/٣)، الطبرانى فى الكبير (١٢٢/١).

النظر لها أمر سهل لا ينبغى تكثير السواد بمثله.

(وفتح به) أى بسببه أو الباء للآلة **(أعينًا عميا)** جمع عين وفتح العين بمعنى فتح أجفانها وهو كناية أو مجاز عن جعلها مبصرة بعد أن لم تكن كذلك، أو هو عبارة عن كونه واسطة فى نيل سعادة الدارين بسبب دعوته صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: إنه سبب عادى لأن الله تعالى جعل إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام أمارة لخلق الهداية فيمن أرسل إليهم، كالشبع والرى «الأعين» جمع قلة وكان مقتضى المقام جمع الكثرة لكنه اتبع اللفظ الوارد فيه كما ستراه وجمع القلة قد يكون للكثرة كعكسه، أو هو هنا لنكتة كعده قليلة بالنسبة لقدرته تعالى، أو لكونها كانت قليلة فى الابتداء، وسيأتى تحقيقه، «وعميا» جمع عمياء ويكون جمع أعمى، وهو صفة من العمى، وهو عدم البصر عما هو من شأنه، فإن لم يرد المعنى الأول فهو استعارة لا تمثيل، وتشبيه جعلت الحواس التى لا ينتفع بها كالمفقودة، فمن توهم أن ذكر الأعين المشبهة مانع من استعارة لم يفتح عينه، وليس هذا كقول المتنبى:

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم

لأن معناه أن كلامه لبلاغته وحسنه شاع وذاع وملأ الأسماع حتى كأن الأعمى يراه والأصم يسمعه.

(وقلوبًا غلفا) جمع قلب وهو العضو المعروف، يراد به العقل، وقد فسر به هنا، وهو الظاهر لقوله: «غلفا» بضم العين المعجمة وسكون اللام جمع أغلف بمعنى ذى غلاف وغطاء فهى مغطاة فى أكنة، ومنها غلام أغلف بمعنى أقلف من غلفت السيف ونحوه، ويكون جمع غلاف فاصله غلف بضم اللام، فخفف وبه قرىء قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨] ويصح إرادته هنا على أنه بدل اشتمال فيكون المفتوح غلافه وغطاؤه، وعلى الوجه الأول الأولى عطفه على الأعين المفتوحة تغليبا، أو بتقدير وإزالة غباوة قلوب غلف على نهج قوله(١):

متقلدا سيفا ورمحا

وهذا مبنى على أن القلب محل العلم والقوة المدركة قائمة به لا بالدماغ، وتغطية

---

(١) عجز بيت وصدره:

يا ليت زوجك قد غدا

وهو من مجزوء الكامل، وهو بلا نسبة فى خزانة الأدب (٢/٢٣١ - ٣/١٤٢)، الخصائص (٢/٤٣١)، لسان العرب (١/٤٢٢)، الإنصاف (٢/٦١٢).

المحل يلزمها تغطية ما فيه، ومعناه أن قلوبهم كانت محجوبة عن الهداية، فأزال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حجابها، وكشف غطاءها حتى اهتدت، ففيه استعارة تمثيلية أو تخييلية أو مكنية، كما حقق فى الكشاف وشروحه، وهو لا ينافى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ [الروم ٥٣]؛ لأنه فيمن طبع على قلبه، وهذا فى غيره أو المنفى الدلالة الموصلة، والمثبت مطلق الدلالة، والأول أولى.

(وآذانًا صمًا) آذان جمع أذن بضمتين وتسكن تخفيفًا وهى الجارحة المعروفة، وصما بالضم، ثم التشديد جمع صماء كعمى وعمياء، ويجوز فتح صاده على أنه مفرد مؤنث ممدود قصر للوقف وصف به الجمع كجبال راسية، والصمم آفة تمنع السمع وفتحه إزالته مجاز مشهور، ويقال فى ضده: انسدت، استعير هنا لعدم الإذعان للحق والانتفاع به، لأنها لم تسمع السمع المعتد به فنزل سمعها منزلة العدم، فلما أرشدوا للحق وكشفت عنهم الحجب المظلمة، وانقادوا مذعنين كانوا كمن زال صممه.

(فآمن به) أى بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وحقيقة الإيمان جعل الغير فى أمان فهو متعد بنفسه، ثم ضمن معنى الإقرار والاعتراف فعدى بالباء كآمن بالله بمعنى صدقه واعترف به، وقد يعدى باللام وهو فى الشرع التصديق بما علم مجىء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم به ضرورة تفصيلاً فيما علم تفصيلاً، وإجمالاً فيما علم إجمالاً، وتلفظ القادر به شرط له فمن أخل به فهو كافر، فهو كالعمل خارج عنه، وذهب بعضهم إلى أنه جزء منه داخل فى حقيقته إلا أنه عند بعض المحققين جزء لا يلزم من عدمه كالشعر والظفر من الإنسان، والأوراق والسعف من الشجر، كما ذهب إليه بعض السلف وتفصيله فى كتب الكلام.

(وعزره ونصره) بعين مهملة وزاى معجمة ثم راء مهملة، بمعنى: وقره وعظمه، ويكون بمعنى أعانه على عدوه، والأول المراد لما فيه من التأسيس، وأصل العزر بفتح فسكون المنع فاستعمل فيما ذكر لما فيه من المنع عن الإهانة ونحوها، وكذلك التعزير المعروف أطلق عليه لمنعه عن العود للجناية و لم يعدل عنه لإيهامه المعنى الأخير لدفع السياق له، ويرجحه موافقته للقرآن فى قوله عز وجل: ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٥٧] مع ما فيه من الاعتماد على أقوى الدليلين وهو اللفظ والفعل، ولا يلتفت لما قيل لولا القرآن لكان الأولى أن يقال: عززه بمعجمتين احترازًا عن المشترك بين الإهانة وضدها، وسيأتى أنه قرئ بهما فى آية الفتح، والإعانة النصر والدفع عنه ما يضره، ويقال: نصرت السحابة إذا أمطرت ونصره إذا أعطاه، وقدم التوقير على النصر لموافقة الواقع ودفع الاحتمال.

تنبيه: فى القاموس أن التعزير فى اللغة من أسماء الأضداد؛ لأنه يطلق على التفخيم والتعظيم، وعلى التأديب، وعلى أشد الضرب، وعلى ضرب دون الحد، قال شيخ مشايخنا ابن حجر الهيثمى: والظاهر أن هذا الأخير غلط؛ لأن هذا وضع شرعى لا لغوى؛ لأنه لم يعرف إلا من جهة الشرع فكيف ينسب إلى أهل اللغة الجاهلين بذلك من أصله، والذى فى الصحاح بعد تفسيره بالضرب ومنه سمى ضرب ما دون الحد تعزيرًا فأشار إلى أن هذه الحقيقة الشرعية منقولة عن الحقيقة اللغوية بزيادة قيد هو كون ذلك الضرب دون الحد الشرعى، فهو كلفظ الصلاة والزكاة ونحوهما المنقولة لوجود المعنى اللغوى فيها بزيادة، وهذه دقيقة مهمة نظر لها صاحب الصحاح وغفل عنها صاحب القاموس، وقد وقع له نظير ذلك كثيرًا وكله غلط يتعين بالتفطن له، انتهى.

وقوله: **(فكيف ينسب إلى آخره)**، قال شيخنا ابن قاسم: لا يقال هذا لا يأتى على أن الواضع هو الله تعالى، لأنا نقول هو تعالى إنما وضع اللغة باعتبار ما تعارف الناس مع قطع النظر عن الشرع.

وقوله: **(من)** موصول تنازعه الفعلان **(جعل الله له)** أى قضى وقدر كما علم بالنص كقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ و«كل ميسر لما خلق له»[1]، و«إذا يسر الإله سعيدًا لأناس فإنهم سعداء». وليس فى هذا إيجاب ولا جبر كما توهم.

(فى مغنم السعادة) مغنم كمقعد بمعنى الغنم، والغنيمة، وهى الفوز بما يطلب من الفيء ونحوه، ويطلق على ما يغتنم من كل شيء، والسعادة ضد الشقاوة ويختص بالفوز بالنعيم الأخروى، وإضافة المغنم بالمعنى المصدرى لامية وهى بيانية إن كان بمعنى ما يغتنم، ويجوز أن يكون كلجين الماء كما قيل، وهو حسن لأن المغنم والغنيمة ما أخذ من العدو قهرًا فكأن المؤمنين لما اختصوا بالسعادة دون غيرهم كما أنهم سلبوهم إياها، والجامع بينهما أن كلاً منهما له فائدة عظيمة لا تحصل إلا بجد وجهد، ولا وجه لما قيل إن وجهه خفى أو أقوى فى المشبه فإنه ظاهر لمن له أدنى تأمل.

(قسمًا) بكسر القاف بمعنى الحظ والنصيب، يوجوز فتحها، قال فى المصباح: قسم من باب ضرب، والقسم بالكسر اسم مصدر، ثم أطلق على الحصة والنصيب ومناسبته للغنم ظاهرة. **(وكذب به)** يقال: كذب بكذا تكذيبًا إذا أنكره وجحده، وكذبه إذا جعله كاذبًا فى كلامه، هذا هو المعروف فى الفرق بين المتعدى بنفسه وبالباء، فالمراد أنه أنكر ذاته صلى الله تعالى عليه وسلم، من حيث النبوة والرسالة، ولم يقل كذبه لأنه بمعنى ما بعده، فمن فسره بأنه جعله كاذبًا أو أنكره فقد خالف الظاهر، وقيل: المراد إن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٤٩/٩)، أبو داود (٤٧٠٩)، الترمذى (٣١١١)، ابن ماجه (٧٨، ٩١).

هذا الوعيد والشقاء الأبدى ثابت لمن أنكره كان وصفه بغير صفته، كأسود أو غير قرشي، فقد فسره بغير مراده.

(وصدف) بمهملتين وذا بمعنى أعرض **(عن آياته)** جمع آية وهى العلامة والأمارة، وآية القرآن ألفاظ منه ذات مقطع ومبدأ وتكون بمعنى المعجزة التى هى علامة النبوة، ويجوز إرادة كل معانيه هنا ووزنها فعلة ساكنة أو محركة أو فاعلة، ويأتى بيان ذلك مع زيادة، أى أعرض عن تدبر علامات نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم، مكابرة، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧] والآيات تضاف إلى الله تعالى، وإلى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، كما هنا لأنه جاء بها وجرت على يديه تصديقًا له، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(من كتب عليه الشقاء حتمًا) كتب بمعنى حكم وقدر فى الأزل أو أوجب أو كتبه فى اللوح المحفوظ، وقيل: إنه يكتب السعادة والشقاوة فى بطن أمه على جبينه، أو بين عينيه، أو فى رق لا يرى فى عنقه كما ورد، وهو إما تمثيل لسبق شقاوته وسعادته، أو هو على حقيقته، وظاهره. وحتمًا بمعنى لازمًا وواجبًا لابد منه، ولما كان الشقى لا يهتدى لعمى بصيرته نبه على حاله مقتبسًا من القرآن، فقال: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ﴾ الدار الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ عن مشاهدة الآيات الظاهرة ﴿فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢]، أتى بالصيغة البديعة من الاكتفاء المسجع وعماه لعدم رؤيته طريق النجاة، وهذه إشارة للدنيا، أى من كان فى الدنيا أعمى القلب والبصيرة لا يبصر رشده كان فى الآخرة أعمى على طريق النجاة لا يراها، وأضل سبيلاً منه فى الدنيا لزوال الاستعداد، أو لأن الاهتداء بعد لا ينفعه، والأعمى مستعار من فاقد الحاسة.

وقيل: أعمى، الثانى أفعل تفضيل كأجهل وأبله ولذا لم يمله أبو عمرو ويعقوب، فإن أفعل التفضيل تمامه بمن فألفه فى حكم المتوسطة كأعمالكم بخلاف النعت، فإن ألفه متطرفة لفظًا وحكمًا، فكانت عرضة للإمالة من حيث إنها تصير ياء فى التثنية، وأمالها حمزة والكسائى وورش على أصله بين بين فيهما، وأورد عليه أنه ينتقض بمثل قوله الذى هو أدنى الكافرين ألا ترى أن حمزة والكسائى وأبا بكر أمالوها فى الموضعين مع قيام هذا الاحتمال فى الثانى.

ويمكن أن يقال: مراده أن ألفه فى حكم المتوسطة والموضع اللائق للإمالة آخر الكلمة حيث تصير ياء عند التثنية، فنبه أبو عمرو ويعقوب على الفرق بين الكلمتين بإمالة الأول دون الثانى، أو يقال: من أمال الثانى راعى المشاكلة بينه وبين أصله، وهو المعنى الحقيقى.

وفى بعض الشروح، قالوا: لكونه اسم تفضيل أمال أبو عمرو والأول دونه لأن ألفه غير متطرفة لما مر كما قاله الفارسى والزمخشرى، وفيه أنهم أمالوا ولا أدنى من ذلك مع التصريح بمن لا يميلوه إذا قدرت معه أولى وأخرى.

أقول: ذكروا للإمالة أسبابًا كمجاورة الكسرة أو الهاء، ولا يشترط فيه تطرف وكونها منقلبة عن ياء أو تصير ياء فى التثنية ونحوها، وهذا يشترط فيه أن يكون ألفه متطرفة كما فى التسهيل، ثم أنهم قالوا: أسباب الإمالة مجوزة لا موجبة، فإذا اتصل بها ما يجعلها فى حكم المتوسطة، وقارنت ما هى متطرفة حقيقة فترك إمالته إذا أميل الثانى، للفرق بينهما أرجح من الإمالة فيه، فسقط ما ذكر برمته لأنهم لم يعنوا أن أفعل التفضيل مع من ظاهرة أو مقدرة فيه مانع من الإمالة، بل مرجح لتركها لاسيما مع قصد الفرق بين أفعل التفضيل وغيره، وليس فيما ذكره ما يأباه، وأما الكافرين فلا يحتاج للعذر لما مر.

فإن قلت: شرط أفعل التفضيل أن لا يصاغ وصفه على أفعل فعلى كالعيوب وما قابلها والألوان؛ لأن حق فعله أن يكون ثلاثيًا، وفعل هذا النوع أفعل المشدد اللام، ولذا صحت عينه إذا كان ثلاثيًا كعور رعاية لأصله، وقال ابن مالك رحمه الله تعالى: الأقرب أن يقال: لما كان بناء الوصف من هذا النوع على أفعل كأعور لم يبن منه اسم تفضيل لئلا يلتبس أحدهما بالآخر.

قلت: قد أجيب عنه بأنه فى العيوب الظاهرة، وهذا من العيوب الباطنة، وهذا على التعليل الأول ظاهر، وأما على الثانى فغير تام إلا أن يقال حق وصفه أن لا يكون على أفعل فعلا ويشهد له قول الجوهرى: عمى وما خالفه محمول على غيره شذوذًا، فإذا أريد بالعمى عمى البصيرة فلا إشكال فيه، فإن أريد عمى البصر عقوبة لهم فوجه التوفيق بينه وبين قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] أن فى القيامة مواقف مختلفة لاختلاف أحوالهم والاقتباس هنا مبين لما قبله ومثبت له، وعطفه رعاية للنظم فإنه لما ذكر أن من كذبه وأعرض عن آياته متحتم الشقاوة عقبه بما يدل عليه من كلام الله، وفى الكشف أن العمى حقيقة فى البصر والبصيرة، والعمه مخصوص بالثانى، فحينئذ يجوز بناء اسم التفضيل منه، فإن كان حقيقة فى البصر فقط لم يتجه بناؤه كما فى درة الحريرى؛ لأن ما يمتنع فى الحقيقة فى مجازها، لأنّا إذا قلنا: لا يجوز بناء التعجب من الموت لا يصح أن يقال: ما أموته، فمن منع بناء التفضيل من الألوان والعيوب لا يجوزه بعد التجوز فيه، وأما القول بأنه تمثيل فلا يجدى إلا الفساد، إذا لا تجوز فى مفرداته فهو غفلة من قائله، وسيأتى الكلام على الاقتباس فى آخر الخطبة، ولما ذكر أنه صلى الله

تعالى عليه وسلم، وصل إلى أعلى مراتب الكمال، وأن كمال غيره إنما هو بهدايته والاقتباس من نور شريعته ناسب أن يعظمه ويدعو له أداء لبعض حقه، وتوسلاً به إلى الله فى قبول حمده وإتمام قصده، فقال: (**صلى الله عليه وسلم**).

والصلاة فى العرف عبادة معروفة، وفى اللغة الدعاء، وفى اشتقاقها كلام مفصل فى محله كما سيأتى بعض الكلام عليه، وما اشتهر من أنها من الله رحمة ومن الملائكة استغفار ومن الآدميين تضرع ودعاء صح عن السلف، وبه تمسك الشافعى فى الجمع بين معنى المشترك، ورده صاحب التوضيح بما هو مذكور فى كتب الأصول، ولما فيه من معنى التعطف عدى بعلى للمنفعة مع تعدى الدعاء بها للمضرة.

وعقب الحمد بالصلاة لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] فإن السلف فسروه بـ«لا أذكر إلا وتذكر معى» كما سيأتى الكلام عليه، ولذا ذهب كثير من الشافعية إلى كراهة إفراد الصلاة عن السلام لفظًا وكتابةً، أو هو خلاف الأولى كما سيأتى بيانه.

والسلام اسم مصدر بمعنى التسليم، وخص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بالصلاة والسلام استقلالا، كما خص الصحابة رضوان الله تعالى عليهم غالبًا بالترضية، وغيرهم بالترحم كما سيأتى فى محله، والأصح أنه لا يكره الدعاء بالرحمة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، كما لا يكره التسليم على الصحابة رضى الله تعالى عنهم، وإن كان من آداب الشريعة تركه رغمًا للشيعة فى التسليم على آل البيت، وعندى أنه يكره الدعاء بالرحمة للنبى صلى الله عليه وسلم، من العامة فى مواطن لم تؤثر فيه لاسيما منفرد.

(**صلاة**) اسم مصدر منصوب على المفعولية المطلقة لإفادة تقوية عامله وتقرير معناه.

(**تنمو وتنمى**) - كذا فى غالب النسخ - كما قاله التلمسانى، وفى بعضها تنمى بفتح المثناة وكسر الميم وتُنمى بضم المثناة الفوقية، وفتح الميم، وفى المقتفى: أن الأول أصح وأوضح رواية ودراية، وفى المصباح: نمى الشيء ينمى من باب رمى نماء بالفتح والمد أكثر، وزاد، وفى لغة نما ينمو من باب قعد، ونميته إلى أبيه نسبته نميا، وانتمى انتسب، وضبط الثانى على الرواية الأولى بفتح المثناة والميم مضارع نمى ينمى، كأبى يأبى، وعلى ضمة تائه وفتح ميمه وهو مجهول من نمى الحديث ينميه، أى رفعه وبلغه، فالمراد بالأول أنها تكثر وتضاعف تضاعف الحسنات أو هو دعاء بتكثيرها إلى غير النهاية، والثانى بمعنى ترفع إلى الملأ الأعلى لقبولها ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

وقيل: تنمى الأول بصيغة المعروف أى تزيد وترفع بنفسها كالشجرة، وفى نسخة صحيحة بالواو، وضعف بأن صاحب الصحاح ضعفه ويرده حكايته فى القاموس، وغيره، انتهى.

والظاهر أن تنمو الأول بمعنى تزيد، والثانى بمعنى تبلغ وترفع وتبلغه لما سيأتى من أن لله ملائكته تبلغه صلى الله تعالى عليه وسلم صلاة من صلى عليه، فلا حاجة لما قيل من أن الثانى بصيغة المجهول، أى يزاد عليها بإنضمام مثلها معها، فاندفعت المناقشة بأن كل رحمة تنمى فهى تنمى على أنه يحتمل التأكيد انتهى، فإنه تعسف أنت فى غنية عنه بما قدمناه وكذا ما قيل من أن المطلوب صلاة مستقرة مستمرة تنميها فتنمو وتزيدها فتزيد، وهذه الجملة للإنشائية والخبرية نبهناك عليه.

(وعلى آله) عطف على قوله عليه، وقيل: على المجرور بإعادة الجار وأصل معناه الاتباع، ولذا فسره بهم فيما سيأتى ولم فى يضف الأكثر المطرد إلا إلى العقلاء الأشراف، وزيد قيد الذكور والكل أغلبى لقولهم: آل الله، وآل البيت، قال[1]:

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

فهو أخص من الأهل، ثم خص فى العرف ببنى هاشم وبنى المطلب، وقيل: هم عترته وأهل بيته، وقيل: هم جميع أمته كما سيأتى فى كلام المصنف مع الكلام عليه، واختاره الإمام مالك والنووى، والأصح جواز إضافته إلى الضمير، وإن زعم المبرد أنه من لحن العامة، وأنه إذا أضيف يقال أهله وأصله أول من آل يؤل إلى كذا إذا رجع إليه بقرابته ونحوها؛ لأن الكثير يرجع إليه فى المهمات، وقيل: أصله أهلى فقلبت الهاء همزة، والهمزة ألفًا، واستدل بتصغيره على أهيل، ولا دليل فيه؛ لأنه قيل: أهل وأهيل، وآل وأويل.

قيل: كان ينبغى ذكر الصحب مع الآل لأن الصلاة عليه تستحب عليهم، وأجيب بأن معناه هنا الأمة والأتقياء منهم فيشملهم مع الاختصار، وهو مذهب مالك، والمصنف، رحمه الله مالكى المذهب، وقد تفرد ابن عبد السلام، رحمه الله، بأنه لا يستحب الصلاة إلا على من ورد ذكره فى الحديث من الآل والأزواج والذرية وهو غير مرضى.

(وسلم تسليما) سلم بصيغة الماضى أو الأمر، وهذا موجود فى أكثر النسخ وقد

---

(١) البيت من مجزوء الكامل، وهو لعبد المطلب بن هاشم فى لسان العرب (١١/٦١٩)، (محل)، (١٥/١١٧)، (غدا)، تاج العروس (محل) (غدا).

سقط من بعضها كما في بعض الشروح، وهو يحتمل أن يكون تسليمًا على من ذكر قبله تأكيدًا له بحسب المعنى لفعله ومصدره أو لقوله: وعلى آله بعطفه على صلة الصلاة السابقة على السلام بعد تشريكه معهم فى أصل الصلاة والتسليم تميزًا لشرفه وعلو قدره، ولما كان المستحب أن لا يفرد الآل بالصلاة عن السلام أردفه به تتميما للمقام كما ارتضاه الشارح الفاضل، ويحتمل أن يفيد العطف التشريك فى الصلاة والسلام أى على النبى وآله إذ لفظ سلم فى الصلاة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليست من كلام المصنف، وإن اقتضى كلام الشارح أنه ثابت فى كلامه ويكون ما ذكرناه تأكيدًا له، وهذا دعاء المقصود به تعظيمه صلى الله تعالى عليه وسلم.

ومعناه السلام عليه أو جعله سالمًا من النقائص والآفات، وأما تأكيد السلام بالمصدر دون الصلاة اقتداء بالنظم المجيد، فلأن الصلاة من الله ومن الملائكة رحمة وتعظيم واقعة منهم بلا تردد.

وأما البشر فلما صدر عن بعضهم كالكفرة ما صدر من أذيتهم وتنقيصهم أمروا مع الصلاة بالتسليم من النقائص والانقياد، وأكد لوقوع الإنكار وما يخالفه، وهذا خفى على بعض الناس. وقال الفاكهانى فى الصلاة: لما أكدت بالإعلام بأن الله وملائكته يصلون عليه وبتقديمها اعتناء بشأنها ولا كذلك السلام فحسن تأكيده بالمصدر جبرًا له، وهو لا يجزى هنا كما توهم؛ لأنه أخبر أن الله عز وجل صلى عليه بقوله: ﴿**صلى الله عليه**﴾ فيكون قوله بعده: «وسلم» بصيغة الأمر، أى سلم، أى أوجد السلام عليه فيطابق الآية لفظًا ومعنى، وهو تعسف غنى عن الرد.

ثم إن المصنف أتى بسجع الخطبة على روى واحد، ولم يجعل كل فاصلتين على حدة وهو أسلوب من أساليب السجع، ثم ذيله بما هو خارج عن السجع، ومثله كثير فى الخطب، فمن توهم أنه منه وأورد عليه أنه يطول بعض فقره وهو معيب فقد توهم إذ لا يتوهم أن تسليما كالقافية هنا إلا بتكلف.

(**أما بعد**) أما حرف شرط لوقوع الفاء بعدها لفظًا أو تقديرًا وتوكيد؛ لأن معناها مهما يكن من شيء فقد علق مشروطها على قوع شيء ما فى الكون مما لا يخلو عنه ضرورة، فكأنه قال: إنه واقع على كل حال البتة، وتفصيل غالبًا أو دائمًا بتقدير معادل فيما لم يذكر، ويفصل بينهما وبين الفاء بأمور ذكرها النحاة، منها: الظرف كبعد هنا، والعامل إما فعل مقدر أو ما فى حيز الجواب، وهو مبنى على الضم كغيره من الظروف المقطوعة عن الإضافة، وأجاز هشام فتحه من غير تنوين، وقال ابن النحاس: إنه غير معروف، وروى عن سيبويه رفعها ونصبها كما فصل فى محله، وأما بعده قيل: إنها

فصل الخطاب، واختلفوا في أول من تكلم بها على أقوال.

(أشرق الله قلبي وقلبك) أشرقت الشمس ونحوها بمعنى أضاءت وهو لازم كما قال الله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] وقد استعمل متعديا في كلام المولدين كما هنا فيكون إما حملاً له على أضاء؛ لأنه بمعناه والشيء يحمل على نظيره وضده، وأضاء جاء متعديًا ولازمًا كما صرحوا به، أو هو متضمن معناه أو معنى التصيير أي صير الله قلوبنا مشرقة كما قيل به في قوله(١):

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها   شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

والخطاب هنا للسائل الآتي، وهذه جملة دعائية معترضة بين الشرط والجزاء؛ لأنه بعد ذكر الظرف لا يذكر فاصل آخر، والقلب معروف ويطلق على العقل والروح، وما قيل إنه لطيفة ربانية لها تعلق بالقلب الجسماني لا يوقف على حقيقتها تبع فيه بعض الصوفية، وكأنه أراد الأخير، ثم إن المصنف، رحمه الله تعالى، بدأ بنفسه في الدعاء كما ورد في القرآن: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨]. وفي حديث رواه الترمذي: «كان صلى الله تعالى عليه وسلم إذا ذكر أحدًا ودعا له بدأ بنفسه».

وقد وقع ما يخالفه كثيرًا، فقال الزركشي في حواشي ابن الصلاح: بأن ذلك إذا كان المدعو به واحدًا، فإن تغاير فهو مخير. وقال النخعي، رحمه الله تعالى: كان يقول: إذا دعوت فابدأ بنفسك، فإنك لا تدري في أي دعائك يستجاب لك، فبين العلة فيه، وهذا ليس مخصوصًا بالحديث الآخر، وهو: «كان صلى الله تعالى عليه وسلم إذا ذكر أحدًا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بدأ بنفسه»(٢)، فقال: رحمة الله علينا وعلى أخي كذا، فإنه لم يذكر للتخصيص.

وفي شرح العقيدة البرهانية للتفريني: إنه يقدم الدعاء للإخوان إيثارًا لهم لما ورد في الحديث: «إن العبد إذا دعا لأخيه المسلم، قال الله تعالى: لبيك عبدي وبك أبدأ»، فأي فضيلة تلتمس وراء هذه وهي كونه مبدوء به في الإجابة، فمقام الإيثار مقام عال شريف، وإن شاء بدأ بنفسه، وإن شاء بدأ بغيره، انتهى.

فقد علم مما قالوه أنه إذا دعا لنفسه وغيره في الأفضل من طرقه أقوال قد يجمع بينها بأنها بحسب المقام ولكل امرئ ما نوى.

---

(١) البيت من البسيط، وهو لمحمد بن وهيب في الأغاني (١٩/٧٩، ٨١)، وبلا نسبة في تاج العروس (٢٥/٥٠٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٢/٢٣٨٠)، والترمذي (٣٣٨٥)، وأحمد (٥/١٢٢).

(بأنوار اليقين) الأنوار جمع نور، وهو كالضوء إلا أن بينهما فرقًا، ولذا قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وفيه تفصيل ذكرناه فى حواشى البيضاوى، وهل هو جرم أم لا؟ فيه كلام فى كتب الحكمة، فقيل: عرض يحصل فى الأجرام عند مقابلة النير بتوسط جرم شفاف كالهواء والماء والمفيض له المبدأ الفياض للصور بالشروط المعدات للإفاضة، فلولا قصور البشرية ما احتاجت إلى واسطة، وقد قيل: إن مشاهدة كل ما يرى بتوسط نور على ما يقبل الإضاءة بمثابة علم اليقين، ومعاينة جرم النار المفيض للنور على ما يقبل الإضاءة بمثابة حق اليقين والاتصال به عين اليقين، ثم إن النور لما كان ظاهرًا بنفسه مظهرًا لغيره شاع إطلاقه على ما ضاهاه كالرسل والعلم والعقل، فإن فهمت فنور على نور.

واليقين إيقان العلم بنفى الشك والشبه عنه بالاستدلال، ولذلك لا يوصف به علم الله، والمعنى الحضورى والضرورى، فنور اليقين أما من قبيل لجين الماء، أى اليقين الذى هو كالنور فى قوة الظهور، وقيل: المراد الأدلة المبينة له استعارة، أو العقل أى رزقنا الله عقلاً سليمًا نهتدى بنوره إلى سبيل الرشاد، وشرح مشكاة صدورنا لنعلم علوما نافعة ساطعة البرهان، ودعا بذلك؛ لأن ما سأله يتوقف عليه، وقيل: المراد بنور اليقين العلم اللدنى وهو معرفة الذات والصفات بمشاهدة كثيفة لا بمجرد أدلة عقلية ونقلية، ومنه علم الخضر عليه الصلاة والسلام، وهذه مرتبة فوق مرتبة الإيمان بالغيب ولا يخفى بعده.

(ولطف لى ولك) لطف كعقد من اللطف هو الرفق والرأفة، وهو من صفات الله تعالى، وفيه تفاسير منها الترفيق والبر والإحسان أو معاملة عباده بذلك وإيصاله من حيث لا يشعرون، ولذا يوصف بالخفاء، وجعل تذييلاً لقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ومن ثمة قيل: إنه من اللطافة المقابلة للكثافة، وقيل: إنه العلم بالدقائق التى لا يهتدى لها والمشهور تعديته بالباء كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ١٩] وجاء تعديه باللام فى قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، لما فيه من معنى الترقيق والتيسير أو تضمين لهذا أو لمعنى الإيصال كما ذهب إليه صاحب العمدة والراغب، وذهب صاحب المجمل إلى أنه حقيقة وفى النهاية يقال: لطف به وله، إذا رفق، وإليه أشار من قال: هو اجتماع الرفق فى الفعل والعلم بدقائق المصالح وإيصالها لمن قدرت له، وكذا جمع المصنف رحمه الله تعالى بين حرفى التعدية.

فقال: **(بما لطف به لأوليائه المتقين)** وهو إنما يتعدى بإحداهما فأما أن يقدر لأحدهما متعلقًا، أو تجعل الباء سببية لا متعدية، وفى نسخة: بما لطف بعباده بالباء فيهما، وهو

أيضًا مما مر فلا غبار على كلامه كما توهم الأولياء جمع ولى فعيل بمعنى فاعلى؛ لأنه موال لله، أو بمعنى مفعول، لأنه تعالى تولى أمره، وله معنى عام، وهو: كل مسلم منقاد لله، وخاص هو: العارف بالله وصفاته المواظب على طاعته المجتنب للمعاصى المعرض عن اللذات والشهوات المستغرق فى شهود اللذات المتجلى بكل خلق محمود، وله مرتب إلا أنه لا يشترط فيه أن يكون له كرامة.

وقال الدوانى: هو المتقى العارف بالله وصفاته المتوجه بكلية قلبه إلى جناب قدسه، قالوا: والمراد بالمعرفة ما كان عن كشف صريح بعد التهذيب، أو ملاحظة ذاته وصفاته فى كل أفعاله، وعند الصوفية: هو الفانى فى الله الباقى به، والفناء الاستغراق فى شهادته القلبية حتى لا يشعر بغيره حتى بنفسه، وعدم شعوره وهو انتهاء السير إليه والبقاء به لكونه مظهرًا لأفعال الله وإراداته من غير اختياره فى غير اختياره.

والمتقين صفة كاشفة أو المراد بها معنى خاص؛ لأن المتقى اسم فاعل من الوقاية وهى الصيانة، وفى العرف من يقى نفسه عما يضره فى الآخرة، وله مراتب: **أولها**: التوقى عن العذاب بالتبرى عن الشرك، وعليه قوله: ﴿**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ**﴾ [الفتح: ٢٦]، **وثانيها**: التجنب عما يؤثم فعلاً وتركًا حتى الصغائر عند قوم، وعليه قوله: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا**﴾ [الأعراف: ٩٦]، **وثالثها**: أن يتنزه عما يشغله عن الحق فينقطع إليه بكليته، وهو المراد بقوله: ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾ [آل عمران ١٠٢]، فهو دعاء بأن يوفقه لتيسير ما يسره.

(الذين شرفهم الله عز وجل بنزل قدسه) الشرف فى الأصل المكان العالى نقل لعلو المرتبة والمنزلة، والنزل بضمتين ويخفف بتسكين ثانيه، وهو الفضل والريع فى الطعام، يقال: كثير النزل فاستعير للحاصل من الشىء، وهو أيضًا ما يهيأ للضيف إذا نزل، ثم قيل: لمطلق الزاد والكرامة، وهذا هو المراد هنا ويكون بمعنى المنزل والمسكن، قال الله تعالى: ﴿**كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا**﴾ [الكهف: ١٠٧] ويصح إرادته أيضًا.

والقدس بضمتين ويخفف ثانيه مصدر بمعنى الطهر، واسم جبل القدس لطهارته بالعبادة فيه، والقدس من أسماء الله تعالى بمعنى المنزه عما لا يليق به، والمبارك وقدس الله وحظيرة قدسه الجنة، وهو المراد أى شرفهم بإكرامه لهم فى جنته، أى بإسكانه إياهم فيها، أو بكرامة تطهيره إياهم، أو بجعل الطهارة نزلاً على الإضافة البيانية كما قيل، والحاصل أنه خصهم بتشريفه وعلو منازلهم وتطهيره لهم عن النقائص، ولتقدم التخلى على التحلى عقبه بقوله: **(وأوحشهم عن الخليقة بأنسه)** فى نسخة من بدل عن وأوحش **ماض** بمعنى صيرهم فى وحشة ونفرة عما لا يلايم، ومنه الوحش والأنس ضده وهو

التقرب مع الانبساط لما يهوى.

ولذا قيل: الأنس ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة، وقيل: هو انبساط المحب إلى المحبوب، والوحش بالسكون والوحش بكسر الحاء صفة منه، بمعنى القبيح ولذا تظرف القائل:

ووحشة لم تزل تحركها يد النوى فهى دائمًا وحشة

والخليقة بمعنى الخلق والناس ويكون بمعنى الخلق والطبيعة، وبمعنى الجديرة، يقال: طبيعة خليقة بكل مدح، وخليقة جديرة، وباء بأنسه سببية يعنى أن أنسهم بالله، واستغراقهم فى مشاهدته تغرقهم عن من سواه، والأنس هنا روحانى كما قيل:

فالجسم منى للجليس موانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيس

(وخصهم من معرفته) من بيانية مبينة لما الآتية، إن قلنا بجواز تقديم البيان على المبين كما ذهب إليه بعض النحاة، والمانع يقول هو بيان لأمر مقدور، والآتى تفصيل لما أبهم، وأجمل فى ذلك المقدر ومعرفة الله معرفة ذاته وصفاته بوجه ما، ولها مراتب، وهذا مما لا خلاف فيه إنما الخلاف فى معرفة الذات بالكنه هل هى واقعة أم لا؟ ممكنة أم لا؟ كما فصل فى الكلام، ومعنى المعرفة معروف.

(ومشاهدة عجائب ملكوته) المشاهدة المعاينة من الشهود وهو الحضور، والملكوت صيغة مبالغة من الملك كالرحموت من الرحمة، وقد يخص بما يقابل عالم الشهادة، ويسمى عالم الأمر كما أن مقابله يسمى عالم الشهادة، وعالم الملك، قيل: وهو المراد هنا، فهو ما غاب عن الحس، وقيل: بل المراد هنا الملك المشاهد، ومن فى قوله: من معرفته ابتدائية لا بيانية، أى أن الله خص أولياءه بما سرهم وولههم؛ لأنهم لما عرفوه نظروا فى عجائب مصنوعاته فنشأ لهم ما يملأهم نضرة وسرورًا، ثم نزلت بهم حيرة بين الطمع فى الوصول واليأس:

حيرة عمت فأى فتى رام عرفانا فلم يحر

ومن تحتمل البيانية بناء على جواز تقديمها كما مر ففيه احتمالان لكل منهما وجهة.

(وآثار قدرته) الآثار بالمد جمع أثر، وآثار القدرة المقدورات البارزة فى الوجود، بعد تعلق القدرة بها، من بين الممكنات، وقد حمل على هذا عالم المشاهد المحسوس وما قبله على عالم الغيب كما سمعته آنفًا، وهو الأحسن من حمله على الثانى.

(بما ملأ قلوبهم حبرة) بفتح الحاء المهملة وسكون الباء الموحدة، ويجوز فتحها كما قال التونسى، ثم راء مهملة تليها هاء تأنيث، وملأ مهموزًا ضد فرغ، والحبرة السرور،

وهو منصوب على التمييز وما الموصولة عبارة عما انكشف لهم من المعارف الإلهية، وتفسيره بلطيفة روحانية تكلف كما مر.

(ووله عقولهم فى عظمته حيرة) وله مشدد اللام تفعيل من الوله، يقال: وله يوله ولهًا من باب تعب وفى لغة قليلة من باب وعد والذكر والأنثى واله، ويجوز فى الأنثى والهة، كذا فى المصباح، والوله الحزن أو ذهاب العقل الناشىء منه، وفى المصباح وله إذا ذهب عقله من باب فرح أو حزن، وقيل: الوله لغة نفس الحيرة، والعقل قوة للنفس بها إدراك الإنسان وتمييزه عما سواه:

لولا العقول لكان أدنى ضيغم   أدنى إلى شرف من الإنسان

والحيرة بفتح الحاء المهملة وسكون المثناة التحتية والراء المهملة، قال فى المصباح: حار فى أمره يحار حيرًا من باب تعب، وحيرة الأمر لم يدر وجه الصواب فيه، فهو حيران، وقال الأزهرى: أصله أن ينظر الإنسان إلى شىء فيغشاه ضوءه فيصرف بصره عنه.

وفى الصحاح: الوله ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد، وهو فى العرف كونه مبهوتًا واقفًا بين المعرفة والذهول، فإن اعتبر فيه الفعل أو الحيرة فلابد فيه من التجريد وإلا فلا، وهو منصوب على أنه مفعول مطلق لوله وتمييز، والمعنى أنهم عجزوا عن إدراكها، فلما ازدادت العظمة ازداد العقل تحيرًا وثبورا، فإن العظمة جلال الله وكبرياؤه التى تقف العقول دونها.

وفى التفسير فى حديث: «الكبرياء ردائى والعظمة إزارى»(١)، إشارة إلى الفرق بينهما، وهو أن الكبير من هو فى ذاته كبير سواء استكبره غيره أم لا، وسواء عرفت هذه الصفة أم لا، والعظمة عبارة عن كونه بحيث يستعظمه غيره، فالصفة الأولى لا الثانية، والذاتية أعلى وأشرف فلذا جعلها إزارًا وتلك رداء، وقيل له: متكبر دون متعظم، فتأمله وفى العبارة تجنيس ولف ونشر.

إن قلنا: الذى ملأ القلوب سرورًا معرفته، والذى حير العقول عجائب ملكوته وآثار قدرته؛ لأن من عرفه ابتهج بعبودته، وترقب فيضه، والعبد يزهو على مقدار مولاه وأثرت تلك المشاهدة الوله والحيرة؛ لأن عيون البصائر لا تطيق النظر لأشعة أنوار القدس.

(فجعلوا همهم به واحدًا) الفاء تعقيبية أو تعريفية، والهم فى الأصل مصدر بمعنى

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٤١٤)، ابن حبان (٤٩)، الحميدى (١١٤٩)، الحاكم (٣/٤٥٣).

الحزن والعزيمة والإرادة، وكل مطلوب يهمك ويعنيك، وكل من المعانى غير الأول جائز هنا، أى لما شاهدوا باهر قدرته تحيرت عقولهم فى كبرياء عظمته، علموا أن ما سواه كلا شىء فوجهوا جميع وجوه الإرادة والعزيمة إليه، وجعلوا قبلتهم واحدة، فلا مراد لهم سواه لإشغالهم به عما عداه:

تملك بعض حبك كل قلبى   فإن ترد الزيادة هات قلبا

وفى التفسير الكبير ورد عنه صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه قال: «من جعل همومه هما واحدًا كفاه الله هم الدنيا والآخرة»[1]، فكان العبد يقول: همومى فى الدنيا والآخرة غير متناهية، فلا يقدر عليها إلا الموصوف بقدرة غير متناهية فأنا لا أقدر على دفع حاجاتى، ولا تحصيل مهماتى بل القادر عليها الله سبحانه، فأنا لذلك أجعل همى مشغولاً بذكره، ولسانى واقفًا على ذكره، فإذا فعلت ذلك كفانى برحمته مهمات الدنيا والآخرة. قلت أنا فى معناه:

من صير همه جميعًا هما   يكتال به السرور كيلاً جما
والحر فتى بذاك حتمًا هما   من يسبح لا يخاف بحرًا طما

وباؤه سببية لا صلة الهم، أى جعلوا قصدهم واعتناءهم به تعالى حال كونه واحدًا فى القصيدة، فلا مقصد سواه، أو حال كونه قصدهم واحدًا والمآل واحد.

وقيل: المعنى أنهم جعلوه واحدًا فلم يريدوا منه إلا إياه، إلا أن فيه قصورًا فعرفوا أنهم لم يبق لهم طلب وتطلب فقصدوه لا لشىء، وهذا معنى قولهم: آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الجاه، فتجلى لهم جمال ذى الجلال حتى نسوا أنفسهم، ونسيانهم، وهو كلام نفيس لكنه لا يناسب كلام المصنف، رحمه الله تعالى، والجار والمجرور يجوز أن يكون مفعولاً ثانيًا لجعل وواحدًا حال من الضمير المجرور، أو من الضمير المستتر فى الجار والمجرور وهو الأولى.

(ولم يروا) حقيقة لا مجازًا، وقيل: لا حقيقة ولا مجازًا **(فى الدارين)** الدنيا والآخرة، وأصل معنى الدار معروف، وقد شاع فى لسان الشرع استعماله فيما ذكر حتى صار حقيقة فيهما فكأنهما لقلتهما عند الله بمنزلة دار أنزل فيها بعض عبيده، والغافل يظنه مجانًا سكنها، والحال نقد عمره كراءها.

(غيره مشاهدًا) الضمير لله وجملة لم يروا معطوفة على جملة جعلوا، لأنهم إذ لم يهتموا بغيره ذهلوا عما عداه ويحتمل عطفها على أول الجمل، وهذا محتمل لمعنين:

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٥٧، ٤١٠٦)، الحاكم (٢/٤٤٣- ٤/٣٢٨)، أبو نعيم فى الحلية (٢/١٠٥).

الأول: أن يريد أن في الكون مشاهدات سواه، ولكن العارف المستغرق في مشاهدة جماله وجلاله لا يراها، وهذه مشاهدة الصديقين وتسميها الصوفية الفناء في التوحيد، **والثاني:** أن يريد أنه في الوجود غيره؛ لأن كل شيء هالك إلا وجهه، وكان الله ولا شيء معه، وهو الآن كما كان على ما قاله أرباب الشهود، فالمراد أنه لا مشاهد حتى يروه على حد قوله(١):

ولا ترى الضب بها ينجحر

ورجح بعضهم الأول، والمشاهد اسم مفعول بمعنى المدرك بحاسة البصر من الشهود، وهو المعاينة أو الحضور، وفي الشروح هنا كلام طويل ولا حاجة لنا به.

(فهم بمشاهدة جماله وجلاله يتنعمون) الجمال الحسن الذاتي لا الصوري، والمتبادر من الحسن الثاني، ولذا لا يوصف به الله بدون تقييد وورد وصف الله به في الحديث، فقال: «إن الله جميل يحب الجمال»(٢)، وليس للمشاكلة كما فصله شراحه، والجلال العظمة يعني أنهم يشاهدون جمال ربهم وأنوار ذاته بعيون البصائر، والبصر في الآخرة يرونه دون إحاطة كرؤية غيره ويومئ إليه جعل المشاهدة نفس الجمال والتنعم الترفه والتلذذ، فلا نعيم بغير تلك المشاهدة كما قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] على ما بينه المفسرون، ولم يخلق الجن والإنس إلا للعبادة وبها تصفية الباطن وصقل الحواس حتى يعبد الله كأنه يراه، وقوله: بمشاهدة متعلق بيتنعمون قدم عليه للحصر ولرعاية الفاصلة.

وفي نسخة: «كماله» بدل «جماله»، والتنعم بالجمال والكمال ظاهر، وأما بالجلال، فقيل: إنه يقتضي الأدب والخوف فلا يناسب التنعيم فيحتاج للتأويل، أو التغلب وليس كذلك، فإن القرب ممن عظم وجل من أن يتقرب لحظائر قدسه أعظم وقعًا من غيره، فإن من تقرب من سلطان جليل يسر ويفتخر بقربه، وفي حكم ابن عطاء الله: النعيم وإن تنوعت مظاهره، إنما هو بشهوده واقترابه، والعذاب وإن تنوع إنما هو بوجود حجابه.

---

(١) عجز بيت، وصدره:

لا تفزع الأرنب أهوالها

وهو من السريع، وهو لابن أحمر في ديوانه (ص٦٧)، أمالي المرتضى (٢٢٩/١)، خزانة الأدب (١٩٢/١٠)، وبلا نسبة في الخصائص (١٦٥/٣، ٣٢١).

(٢) أخرجه مسلم (٩١/١٤٧)، أحمد (١٣٣/٤، ١٣٤، ١٥١، ٢٤١)، الحاكم (٢٦/١)، الطبراني في الكبير (٢٤٠/٨، ٢٩٣)، أبو عوانة (٣١/١).

(**وبين آثار قدرته**) أى مقدوراته، (**وعجائب عظمته يترددون**) يعنى أنهم قائمون فى مقام جائلة فيه أفكارهم لا يفترون عن الجرى فى ميادين الاعتبار، فتذهب تارة إلى بدائع المصنوعات المشاهدة فى مرائى آثار باهر قدرته، وتارة ترقى لسرادق عظمته فتظل أعناقهم خاضعة وعيون أبصارهم خاشعة، والتردد المجىء والذهاب فشبهت حركات الأفهام المعنوية بحركات الأجسام، ومنه التردد بمعنى الشك، قال الشاعر:

لا تنكرن عدم الزيارة سيدى فمحبتى طبع بغير ترددى

والمراد أنهم مواظبون على التفكير فى عظمة الله ففيه استعارة تمثيلية.

(**وبالانقطاع إليه**) الانقطاع مطاوع قطعه إذا فصله فانقطع، ثم شاع فى التوجه لأخذ من شىء لأمر وترك غيره، وهو المراد هنا، ولذا عداه بإلى، ويتعدى باللام أيضًا، يعنى: أنهم لما توجهوا إلى الله ظاهرًا وباطنًا، وقطعوا علائق الخلائق لتوكلهم عليه ورضاءهم بما قضاه وقدره وبجعلهم أمورهم مفوضة إلى الله عزوا وتقووا؛ لأن عبد الملك العظيم الملازم لسدته قوى عزيز، ولذا ورد فى الحديث: «من خاف الله خوف الله منه كل شىء»[1].

(**والتوكل عليه يتعززون**) والتعزز تفعل من العز ضد الزل، ويكون بمعنى القوة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: ١٤] وكل من المعنيين جائز هنا. (**لهجين**) جمع لهج بزنة حذر، أى ملازمين مداومين لذكر الله، وقولهم هذا من اللهجة بفتح الهاء وسكونها، وهى فى اللغة اللسان، أو طرفه، ويطلق على الكلام، يقال: فهو فصيح اللهجة، ولهج بالشىء من باب تعب أولع به ولزمه كما فى المصباح.

(**بصادق قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾** [الأنعام: ٩١]) يعنى أن هؤلاء المخلصين لله المختصين به الذين شغلوا ظاهرهم وباطنهم بمحبته، وردهم دائمًا ذكر الله والإعراض عما سواه متمثلين بهذه الآية، يعنون أنهم مراقبون لله معرضون عن غيره، فلذا يأمرون أنفسهم أو يأمر بعضهم بعضًا بما ذكر، والصدق مطابقة الخبر للواقع مع الاعتقاد كما هو معروف وصفت هذه الجملة الإنشائية به نظرًا لما تضمنته، أو لقول: مقدر كربنا الله، ونحوه، أو لأن الأمر للمتاركة مآله نحن لا نعبأ بكم.

ومقصود المصنف: التمثل به، كما تمثل به الشبلى، رحمه الله تعالى، لمن قال له: أوصنى؟ فقال: عليك بالله ودع ما سواه وكن معه، ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ

(١) انظر: اتحاف السادة المتقين (١٣٦/٦)، تذكرة الموضوعات (٢٠)، الفوائد المجموعة (٢٥٠)، كشف الخفا (٣٤٤/٢، ٤٢٩).

﴿يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، وبهذا سقط ما أورده الشراح من أنه كيف وصف الإنشاء بالصدق وأن الآية ليست مناسبة هنا فإنها هكذا ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١] إلى آخره، أى قل الله الذى أنزل التوراة، أو أنزلها الله فأمره الله بجواب منكري الوحى، أما لتعين الجواب، أو تنبيها على أنه لا يمكن غيره، أو تنبيهًا على أنهم مبهوتون لا يقدرون على الجواب لهم، ثم قال: ذرهم فى أباطيلهم فما عليك إلا البلاغ، وجملة يلعبون حالية فتمثل بها المصنف، رحمه الله تعالى، لترك ما سوى الله، والانقطاع له، كما تمثل بها الشبلى، رحمه الله تعالى، وإن كان سياقها فى التلاوة لمعنى آخر إذ يكفى لمثله المناسبة بوجه ما.

وقيل: وصف هذا القول بإنه صادق وصف له بصفة صاحبه مثل كتاب صادق، وقيل: الصدق هنا هو الخلوص، أو الثبات والكمال الصادق الحلاوة، ومنه الصداقة ولا حاجة إليه لما مر، وإضافة صادق كجرد قطيفة واستعارة الخوض من المشى فى الماء للاقتحام فى الباطل كما قدره المفسرون، ونحوه استعارة الحياض.

وفى بعض النسخ، بعد قوله تعالى، وهى جملة معترضة أو حالية للتعظيم والتمييز، والإشارة إلى أن ضمير إليه لله، فليس هذا اقتباسًا كما توهم، لأن شرطه أن لا يذكر أنه من كلام الله، ثم إنه قيل: إن معنى هذه الآية، قل يا محمد جوابًا لهم عن قولهم من أنزل التوراة، الله أنزلها ثم ذر الكفار فى أباطيلهم، وهو لا يناسب هذا المقام إلا أن يقال: مآله الأمر بقول الحق والإعراض عن الباطل.

أقول: ما ذكروه لا يتراءى فى بادى النظر، وليس بشىء لما مر، وإن سلمه الشراح، وأجابوا بأن المراد لهجين بمثل هذا اقتداء بقوله تعالى فى دفع المنكرين المغرورين بالدنيا، التى أمرها لهو ولعب باطل، إلا ما فيها من ذكر الله، فيتم الاقتباس من نور التنزيل، ويناسب المقام ومقام المصنف أجل من أن يخفى عليه مثله، وهو على طرف التمام وهاهنا بحث، وهو أنه قيل: إن ذكر الله بتكرير الجلالة بدعة لا ثواب فيها.

قال الخطاب فى شرح مختصر الشيخ خليل: سئل العز بن عبد السلام، رحمه الله تعالى، عمن يقول الله الله مقتصرًا على ذلك، هل هو مثل سبحان الله والله أكبر ونحوه؟ فأجاب: بأنه بدعة لم ينقل مثله عن أحد من السلف، وإنما يفعله الجهلة، والذكر المشروع لابد فيه كله من أن يكون جملة مفيدة والاتباع خير من الابتداع، ونحوه ما أفتى به البلقينى، رحمه الله، فى قوم لا يزالون يقولون: محمد محمد كثيرًا، ثم يقولون فى آخره: مكرم معظم؟ فأجاب: بأنه ترك أدب وبدعة لم تنقل ولا يثاب عليها، وكذا

قولهم: على محمد وتابعه عليه كثير من العلماء.

أقول: ما ذكره في اسم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، مكررًا من كونه بدعة ظاهر؛ لأنه مع كونه لم يتعبد بمثله داخل فيما نهى عنه لقوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] كما سيأتي بيانه، ولم يرد تعظيم النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلا بالدعاء له، والصلاة والسلام عليه، فلو عظم بمثل ذلك كان مراغمًا للسنة، ولو ذكر أحد سلطانًا باسمه زجروه وأهانوه فما بالك بأشرف الخلق وأعظمهم.

وأما ذكر الله تعالى فقد ورد الأمر به، ووعد ذاكره بالثواب في آيات وأحاديث لا تحصى كقوله تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وفي الحديث القدسي: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»(١)، إلى غير ذلك مما لا يحصى، ولم يقيد بقيد على أن الذاكر قصده التعظيم، والتوحيد، فهو إذا قال: الله ملاحظًا لمعناه، فكأنه، قال: معبودي واجب الوجود مستحق لجميع المحامد، ولم يزل أهل الله من العلماء والصلحاء يفعلونه من غير نكير، وكان الأستاذ البكري، رحمه الله، يفعله ويقول: استغفر الله مما سوى الله، وكل شيء يقول الله، وفي مجلسه أجلة العلماء والمشايخ، وهذا هو الحق، وقد صنف في رد مقابلة ابن عبد السلام هذه عدة رسائل رأيناها وممن صنف فيها القطب القسطلاني، والعارف بالله المرصفي، والشيخ عبد الكريم الخلوتي، وبه أفتى من عاصرناه، اللهم احشرنا في جملة الذاكرين، ولا تجعلنا من الغافلين.

(فإنك) جواب أما وأكده لأن المسئول عنه يحسن توكيده والخطاب لسائل معين محقق سأله أو لغير معين مفروض، وما قيل من أن مقام المصنف، رحمه الله، أعلى من أن يفرض سائلاً يخاطبه، وأن قوله الآتي كررت السؤال وما بعده يأباه ليس بشيء؛ لأنه كثيرًا ما يقع من المصنفين مثله، وفرض الأمور لنكت واقع في القرآن والحديث كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ [السجدة: ١٢] وغيره مما لا يحصى، ويجوز أن يكون من باب التجريد كقوله(٢):

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٢٦)، البخاري في التاريخ الكبير (٢/١١٥)، ابن عبد البر في التمهيد (٦/٤٦).

(٢) صدر بيت، وعجزه:

بُعيد الشباب عصر حان مشيب

وهو من الطويل، لعلقمة الفحل في ديوانه (ص٣٣)، الأضداد (ص١٤٩)، خزانة الأدب=

طحا بك قلب فى الحسان طروب

وما بين أما والجواب معترض. **(كررت على السؤال)** التكرار إعادة ذكر الشيء مرة فصاعدًا، ويطلق على الذكر الثانى والأول ومجموعهما، والجار متعلق بكررت لما فيه من معنى الإلحاح والسؤال الطلب ويكون سؤال استفهام، وسؤال استعظام وهما معروفان.

(فى مجموع) المجموع اسم مفعول من الجمع ضد التفريق، وفى العرف كتاب يجمع من كلام الغير كما فى قوله:

لله مجموع له رونق كرونق الحبات فى عقدها
كانت مجامع الورى عنده تموت للخلجة فى جلدها

ففى عبارته هضم لنفسه بأنه ليس فيه إلا الجمع والتقدير فى تأليف مجموع وتقدير فى شأن مجموع ركيك، وفى متعلقة بالسؤال لا بكررت؛ لأنه لا يتعدى بفى بخلاف السؤال، فإنه يتعدى بنفسه وبعن ومن فى إذا كان بمعنى الرجاء والشفاعة دون الاستعطاء، فتقول: سألت الأمير فى كذا، ويحتمل أن يكون للتعليل، كـ«دخلت امرأة النار فى هرة»[1]، فيصح تعلقه بكررت أيضًا.

(يتضمن) التضمين جعل الشيء فى ضمن الشيء وداخله فالتعبير به، لأنهم يجعلون اللفظ ظرفًا للمعنى؛ لأنه المقصود منه، أو هو من ظرفية الكل للجزء لما فيه من زيادة شرح وبيان وغير ذلك، وقد يعكس كما فصل فى شرح المفتاح، فالمعنى أنه يحتوى عليه وتفسيره بتحصيل منه وبسببه فيه تسمح.

(التعريف بقدر المصطفى) التعريف الإعلام وأصله جعل الغير عارفًا، والتعريف فى الميزان معروف ويجوز إرادته هنا على بعد فيه، وقدر الشيء مقداره غلب فى رتبة شرفه، وأصله تقدير الشيء بوزن ونحوه، والمصطفى المختار المنتخب افتعال من الصفوة، وهو صفة غلبت على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم تبلغ لحد العلمية كالرحمن، ولو كان علمًا بالغلبة لزم تعريفه باللام، أو الإضافة، وليس كذلك، وإنما ذكر فى الأسماء لأنهم لم يخصوها بالإعلام، كما سيأتى فيما قيل من أنه لقب وضعى، أو بالغلبة، واللام للمح الأصل ليس بشيء؛ لأنه لم يسمع فى عهده وأسماؤه، صلى الله تعالى عليه وسلم، توقيفية على المشهور، كما سيأتى، قيل: ولو قال ببعض قدر المصطفى، صلى الله تعالى

=(٣٩٢/٤)، لسان العرب (٥/١٥)، (طحا)، وبلا نسبة فى جمهرة اللغة (ص٩٩)، رصف المبانى (ص٣٥٤).

(١) أخرجه البخارى (٣٤٨٢)، مسلم (٢٦١٩/١٣٥).

عليه وسلم، كان أحسن، ولا يخفى أنه لا يلزم من سؤاله وقوع مسئوله، وكذا قال فما يأتى: حملتنى «أمرًا أمرًا» على أنه إذا أريد الإجمال سقط القيل والقال.

(عليه الصلاة والسلام) وفى نسخة: «صلى الله تعالى عليه وسلم»؛ لأنه لم يقصد السجع حتى يرد عليه أن الأوفق بالسجع الأول، وأنه يلزم طول الفقرة الأخيرة ويعتذر له بأنه إشارة لجوازه، والأمر فيه سهل، وإسناد الصلاة لله كما سيأتى أكثر تعظيمًا.

(وما يجب له من توقير) تعظيم **(وإكرام)** أفعال من كرم، بمعنى نفس بالضم، وعز، أى عده موقرًا معظمًا بمحبته وتعظيم آله وأصحابه. **(وما حكم من لم يوف)** أى يتمم ويكمل من وفاه حقه إذا أعطاه إياه وافيًا تامًا، والحكم ما حكم به العلماء فيه، أو خطاب الله المتعلق به.

(واجب عظيم ذلك القدر) أى مقامه الشريف، وهو من إضافة الصفة لموصوفها، أى القدر العظيم، وإضافة واجب لامية وأحد مفعولى يوف محذوف، أى لم يوفه أو يوف النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو لم يوف واجب قدره حقه، فالمحذوف الأول والثانى، أو هو بمعنى يتمم ويكمل فلا حذف لتعديه لواحد، وما يجب فى محل نصب معطوف على تعريف، وكذا ما حكم وما استفهامية، أى يتضمن جواب هذا السؤال، وقيل: موصولة، والعائد مقدر وعلى الأول المضاف المقدر هو المفعول، وهو وإن اكتسب الصدارة مما أضيف إليه لا يصح عمل ما قبله فيه إلا أنه قصد به لفظه على طريق الحكاية أى جواب قولك: ما حكم، إلى آخره، فلا يلزمه عمل ما قبل الاستفهام فيه، ولا تعليق العامل عن المعطوف دون المعطوف عليه، وتعليق يتضمن، وليس من أفعال القلوب فيجاب بأنه ضمن معناه وذلك من وضع الظاهر موضع المضمر، وتعليق العامل بواسطة حرف حتى يجاب بإثبات النحاة له كما فى شرح التسهيل. ومنه تعليق فكر ونظر ونحو: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ [الكهف: ١٩] لتعديهما بفى والواجب اعتقاده فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(أو قصر فى حق منصبه الجليل) التقصير والإقصار ترك ما لابد منه وفى المحكم، قيل: قصر عنه إذا تركه وهو لا يقدر عليه، وأقصر إذا تركه، وهو لا يقدر عليه وحقه ما يستحقه مما لابد منه، والمنصب بفتح الميم وكسر الصاد المهملة فى كلام العرب بمعنى الحسب والشرف كما ذكره أهل اللغة، واستفاض فى كلام الفصحاء كما قال أبو تمام:

ومنصب عناه ووالد سما به

وفى المصباح يقال له: منصب وزان مسجد، أى علو ورفعة، وفلان له منصب

صدق يراد به المنبت والمحتد، ومن لم يقف على هذا قال: إنه لغة المرجع ويطلق على المرتبة، وقيل: القدر، فكأنه من نصب إذا جد وارتفع، وأما المنصب بمعنى العمل فمولد لم يرد فى كلامهم أصلاً كقوله(١):

نَصَبُ المنصِبِ أوْهَى جَلَدى ... وعنائى من مُدَاراة السَّفِلْ

فكأنه لأنه نصب فيه للنظر فى الأمور أو هو من النصب والحيلة، وإطلاقه كذلك إطلاقه على ما يوضع عليه القدر كقول أبى تمام:

كم قلت لما فار غيظًا وقد ... أزيح عن منصبه المعجب

لا تعجبوا إن فار من غيظه ... فالقلب مطبوع على المنصب

وفيه مع استعماله المولد تحريف آخر.

(قلامة ظفر) أى تقصير قليل بمقدار قلامة ظفر فنصبه لإقامته مقام المصدر، أو بنزع الخافض بعد حذف المضاف، وقلامة فعالة من القلم، وهو القطع من الأطراف سواء كانت من ظفر أو غيره كالشجر، ولذا سمى القلم به لقطعه، وهو قبل القطع يراعى ونصبه كما ذكره أهل اللغة، وإضافته إلى الظفر لامية كيد زيد فلا وجه للقول بأنه تجريد وزنة فعالة تكون لما يلقى من الشىء كالقمامة والكناسة وشذ منه الخلاصة مع ما فيه، والظفر للإنسان معروف وفيه لغات أفصحها ظفر بضمتين، وتسكن للتخفيف، وجمعه أظفار وربما جمع على أظفر، ويقال: ظفر بزنة حمل وأظفور كأسبوع، وقول الجوهرى: إنه جمع ظفر سهو أو من طغيان القلم أراد أن يقول أظفر فزاد الواو، وقلامة الظفر كناية عن القلة والحقارة، كما قال أبو نواس:

أيها المدعى سليمى شفاها ... لست منها ولا قلامة ظفر

وبقلامة الظفر يشبه الهلاك وتظرف فيه سعد الدين ابن عربى حيث قال:

ناديت من أهواه وهو مقلم ... أظفاره يا نزهة المتأمل

أبعدت ظفرك وهو بعضك فالذى ... يهواك أجدر بالبعاد الأطول

فأجابنى أتظننى قلمتها ... عن حاجة لكن لمعنى عن لى

لأريك يا من بالهلال تقيسنى ... إن الهلال قلامة من أنملى

يعنى أنه حقير مبتذل عنده، والمراد بعدم توفية حقه ترك ما حقه أن يذكر كله، أو بعضه، والتقصير ترك ذكره على ما ينبغى فهو مغاير لما قبله فلا يلزمه عطف الخاص على العام بأو وقد أباه النحاة، أو يعتذر بأن الأول بمعنى كثيرًا، وهذا بمعنى قليلاً ونحوه.

(١) البيت من الرمل، وهو لابن الوردى فى ديوانه (ص٤٣٨)، تاج العروس (٢٨١/٤) (نصب).

(وأن أجمع لك ما لأسلافنا) جمع سلف، وسلف جمع سالف، وهو من مضى من أصولك وأقربائك، ثم عم لكل متقدم من الناس، والمراد من تقدمه من العلماء، وهو المتبادر عند الإطلاق، وهذا فى محل جر معطوف على مجموع.

(وأئمتنا فى ذلك) أى أئمة الدين المقتدى بهم من أصحاب الكتب والمذاهب جمع إمام، وأصله أئمة بهمزتين، فأبدلت الثانية ياء، قيل: ويجوز أن يراد أئمة مذهب المالكية.

(من مقال) بيان لما **(وأبينه بتنزيل صور وأمثال)** أبين بالنصب عطف على أجمع، أى يوضح ما ينقله عن المتقدمين بذكر بعض أفراده أو صفاته أو أمثلته، فاستعير التنزيل وهو الإهباط من علو إلى أسفل لذكر الأفراد الخارجية، فإن الكلى لعدم تحققه فى الخارج بعيد عن الإفهام كالعالى والجزئى محسوس فهو كالسافل، والصور بزنة كبر بصاد مهملة جمع صورة، وهى النوع أو الصفة أو الفرد، كما ذكره أهل اللغة، ومنه قول العلماء صورة المسألة كذا، والأمثال جمع مثال أو مثل.

وفى بعض النسخ: «سور» بسين مهملة، كما ذكره ابن رسلان، قال: والمراد الآيات من تسمية البعض باسم الكل مجازًا، أو التنزيل معروف والفرق بينه وبين الإنزال مشهور على ما فيه، وقيل: إنه هنا بمعنى الترتيب، كما ذكره، وهذا كله تكلف فالحق أنه بالصاد فإن المراد توضيحه بتصويره بما يحاكيه فى الخارج وذكر نظائره.

(فاعلم) أى إذا لم ترجع عن إلحاحك فى الطلب، فاعلم أمره بالعلم لصعوبة ما طلبه قبل الشروع فيه ليلقى فكره له وسمعه اعتناء به وبجوابه وكثيرًا ما يأتى به المصنفون لذلك، ويأتى الكلام عليه، وأنه قد استعملته العرب، كما فى قوله(١):

فاعلَم فَعِلْمُ المرءِ ينفعه أن سوف يأتى كل ما قُدِرَا

فلذا خصه بالدعاء له بالإكرام، فقال: **(أكرمك الله)** بعدما دعا لنفسه وله سابقًا، وهى جملة معترضة دعائية، أى جعلك الله تعالى معززًا مكرمًا لحسن سؤالك وعظم ما سألت عنه، وكونك باعثا لى على تدوين مثله، ويجوز أن يقال: إنه أكرمه بسؤاله له لاعتقاده أنه أهل لما طلبه منه مخصوص به فى عصره، فلذا جازاه بهذا الدعاء.

(إنك حملتنى) بالحاء المهملة، أى كلفتنى ما يشق علىَّ كحمل الأثقال، فهو استعارة تمثيلية، كما فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا**﴾ [الأحزاب: ٧٢]. **(من ذلك)** الإشارة للمسئول عنه ومن بيانية على أحد

---

(١) البيت من الكامل، وهو بلا نسبة فى جواهر الأدب (ص٢٤٣)، الدرر (٢/٢١٨)، همع الهوامع (١/١٤٥).

القولين فى جواز تقدمها على المبين كما مر، أو ابتدائية لأن حمله لذلك ابتداء مما يطلبه منه، ثم انتهى إلى الزيادة ويحتمل أن تكون تعليلية.

(أمرًا إمرًا) أمرًا الأول بفتح الهمزة واحد الأمور ويحتمل أن يكون واحد الأوامر، والأول أولى، والثانى بكسرها وهو بمعنى عظيم، أو منكر، أو عجيب، والكل محتمل هنا ألا الأول أولى، أى كلفتنى أمرًا عظيمًا لا أصفه أو منكرًا عندى أو عجيبًا طلبه منى؛ لأنى لست بأهل له ففيه تواضع وهضم لنفسه.

(وأرهقتنى) بتاء الخطاب، والإرهاق والرهق تكليف ما لا يطاق، وأصل معنى رهق غشيه وقد فسر قوله: ﴿**وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا**﴾ [الكهف: ٧٣] بلا تكلفنى أمرًا صعبًا لا أقدر عليه، وهو التحفظ عن التقصير فيما سأله.

(فيم ندبتنى إليه) أى طلبته منى ومنه المندوب **(عسرًا)** بزنة فعل، وهو الأمر العسير **(وارقيتنى)** من الرقى وهو الصعود للمكان العالى، أى ألجأتنى إليه بتكرير سؤالك وإلحاحك علىَّ فى طلب الإجابة. **(بما كلفتنى)** ما صدرية، أى بتكليفك ما سألته وهو من الكلفة وهى المشقة، والتكاليف المشاق، وكلفته الأمر حملته بمشقة ويتعدى لمفعول ثان بالتضعيف، والكلف تغير فى الوجه كالبهق كما قلت فى قصيدة:

للبدر قلت وقد حكى وجهًا له فصح التكلف شيمة المتكلف

(مرتقى) مصعدًا أو صعود **(صعبًا)** وعرًا شاقًا. **(ملأ قلبى رعبًا)** خوفا وفزعا، وفيه استعارة مكنية وتخييلية، وفى جعله عاليًا إشارة إلى علو قدره وشرفه. **(فإن الكلام فى ذلك)** المسئول وهو تعليل لما ذكر من الصعوبة والمشقة. **(يستدعى تقرير أصول)** أى يقتضى ما لابد منه من التقرير وهو التحقيق والتثبيت، وفى النهاية التقرير ترديد الكلام على المخاطب حتى يفهمه، ومنه تقرير الدرس للطلبة، وأصل معناه جعل الشىء قارًا فى مكانه، والمراد قراره فى الذهن أو الخارج، والأصول جمع أصل وهو فى اللغة الأساس، وفى الاصطلاح ما يبتنى عليه غيره، والقاعدة الكلية والدليل، ويصح إرادة كل منها هنا وتقديمه على ما بعد ظاهر.

(وتحرير فصول) أى تهذيب أمور مفصلة والفصول جمع فصل، بمعنى فاصل أو مفصول وتحرير الشىء تلخيصه وإظهار زبدته، وأصل معناه جعل الشىء حرًا، أى خالصًا، ومنه حر الوجه لأكرم موضع منه، وحر الطين ما لم يخالطه غيره، والحر مقابل العبد، وأما التحرير بمعنى الكتابة فخاص أريد به عام وأصله الكتابة الملخصة، أو الكتابة العتاقة والحرية كما فى كشف الكشاف. **(والكشف)** أى الإظهار والتبيين، وهو

منصوب معطوف على مفعول يستدعى لا على الكلام كما توهم فإنه تعسف لركاكة المعنى وإن صح.

(عن غوامض) جمع غامض، أو غامضة وهو خلاف الواضح، وأصله المكان المنخفض من الأرض فأريد به ما ذكر لخفائه وجعله غامضة ليناسب الحقائق فى التأنيث أمر تافه لا يلتفت لمثله، لا لأن فاعل الصفة لا يجمع على فواعل؛ لأنه مخصوص بصفات من يعقل بشروطه، أما أسماء الأجناس وصفات ما لا يعقل فيجوز فيها فجعلها بمنزلة الأسماء غفلة.

(ودقائق من علم الحقائق) جمع دقيقة فعيله من الدقة وهى خلاف الغلظة، أو صغر الجرم فاستعير لما يصعب إدراكه، ثم شاع حتى صار دقيقة عرفية، لأن الدقيق كذلك، والمراد به بعض أحواله التى لا تدركها العقول القاصرة مما يدرك بالكشف، ومشاهدة عين البصيرة الصافية فليست هى الغوامض السابقة لاسيما إذا فسرت بأمره قبل البعثة، فليستا بمعنى لأن المقام يغتفر فيه التكرار، وكيف يأتى هذا مع قوله: من علم الحقائق، وهى جمع حقيقة، وهى الذات والماهية المركبة من الذاتيات، أو العلوم المدركة بتصفية الباطن كما اصطلح عليه أرباب السلوك، وهى غير منافية للمعنى الأول وهى فى كلام العرب الأمور التى يحق حمايتها، والأنفة عن تركها عن الرؤساء، وقال الخليل: الحقيقة ما يصير إليه حق الأمر ووجوبه كما قال:

ألم تدر أنى قد حميت حقيقتى وباشرت حد الموت والموت دونها

قاله المرزوقى.

(مما يجب للنبى)، صلى الله تعالى عليه وسلم، بيان لما قبله، وقيل: إنه بيان للمكشوف، وما يجب له كالعظمة وعموم الرسالة وشرفه ذاتًا وحسبًا ونسبًا ونحوه، **(ويضاف إليه)** أى ينسب له ويوصف به وعطفه بالواو؛ لأنه غير مقابل لما قبله وهو كالقيد له، وقيل: المراد به خصائصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا يرد عليه ما سيصرح به لما سيأتى.

(أو يمتنع عليه) كالعيوب والنقائص وما لا يليق بمقام الرسالة. **(أو يجوز عليه)** من أمور البشر كالأسقام والأمراض التى لا تورث نفرة ويضاف، وما بعده معطوف على الصلة لا صلة موصول محذوف كما جوزه الكوفيون فى نحو قوله:

أمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

كما بين فى محله.

(ومعرفة معنى النبى والرسول والرسالة والنبوة والخلة والمحبة) روى بالنصب عطفًا على مفعول يستدعى، وروى بالجر عطفًا على ما يجب لا على دقائق كما فى المقتفى، وقيل: على المضاف إليه تقرير، والمراد بالمعرفة هنا معناها المشهور لا التعريف وإن جاز، وإنما استدعى الحال معرفة هذه لابتناء كثير من صفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، عليها.

(وخصائص هذه الدرجة العلية) مجرور معطوف على النبى والدرجة واحدة الدرج، وهى المراقى، والمراد بها هنا رتبة النبوة والرسالة لنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، وغيره ولذا لم يقل خصائصه، وقيل: الجامعة لهذه الصفات كلها، والخصائص ما يختص به، ولا يتعداه لغيره جمع خاصة، أو خاصية على كلام فيه شرح المفتاح.

(وهاهنا مهامه) هاهنا إشارة إلى المسلك الذى سلكه للوصول لمقصده والمهامه جمع مهمه كجعفر، وهو القفر والمفازة البعيدة، قيل: إنما سميت بها لأنها لكونها مخوفة يخفض فيها الأصوات فيقول كل لرفيقه مه مه كما سميت المفازة أصمت.

(فيح) بفاء مكسورة وياء ساكنة وحاء مهملة جمع أفيح، أو فيحاء وهى الأرض الواسعة والمهمه يذكر ويؤنث كما قال:

ومهمه مغبرة أرجاؤه

وفى هذا الاستشهاد نظر، وهذه استعارة تمثيلية شبه بيان ما ذكر لصعوبته بفلاة لاحتياجه لسعة الاطلاع وتوقفه على أنظار دقيقة فى معرفته مقام النبوة، فإنه قد يقع فيها ولا يليق به، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يصفه بما ليس فيه فيدخل فى زمرة من كذب عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا من عطف القصة على القصة لبيان صعوبة ما كلفه السائل بطريق آخر، حيث جعله أولاً جبلاً شامخًا وعرًا صعوده، ثم بعد النزول منه بمفازة بعيدة كما قيل:

كيف الوصول إلى سعاد ودونها قلل الجبال ودونهن حتوف

ومما يقضى منه العجب ما قيل: إنه جواب سؤال مقدر، أى كيف زعمت أنك كلفت أمرًا عظيمًا صعبًا وهذا أمر لا صعوبة فيه، فأجاب بأنه كيف لا يصعب وسالكه محتاج لاقتحام مهامه فيح هذا شأنها، وكيف يصح جعله جوابًا بالسؤال مقدر مع اقترانه بالواو مع أنه لا وجه للسؤال، ولا للجواب سوى تسويد وجه الصحف.

(يحار فيها القطا) حار يحار كخاف إذا لم يهتد قصده وضمير فيها للمهامه، والقطا طائر معروف واحدته قطاة، وهى توصف بسرعة الطيران والاهتداء فى الظلمات

والتبكير حتى يقال: إنها ترد الماء من مسيرة عشرة أيام، ثم تعود من ليلتها، فلا تخطئ صادرة ولا واردة، ولذا ضرب بها المثل فقيل: أهدى من القطا، كما قيل:

والناس أهدى فى القبيح من القطا وأضل فى الحسنى من الغربان

وهذا ما داخل فى التمثيل أو ترشيح له للمبالغة فى بعد هذا المقصد، والمراد أنه مما يضل أرباب الهداية وتتحير فيه، وقيل: إنه استعارة أخرى تصريحية.

(**وتقصر بها الخطا**) وفى نسخة: بها بدل عنها، وتقصر بفتح التاء وسكون القاف وضم الصاد مضارع قصر بزنة كرم ضد طال، والخطا بضم الخاء جمع خطوة بضم الخاء وفتحها، وهى ما بين القدمين، والمعنى أن هذه المهامه مع سعتها، وكونها لا يعلمها سالكها، وغيره، ولكونها وعرة ذات شوك وصخور تمنع الماشى فيها من مد الخطا وباء بها، بمعنى فى أو سببية، وعلى النسخة الأخرى قصرها عنها بمعنى العجز عنها لما مر، أو طولها أو هو على حد قوله:

لا ترى الضب بها ينجحر

فالمراد أنها لا تسلك أصلاً، وهو من جملة الترشيح، أو التمثيل، أو هو تمثيلية أخرى وعلى كل حال، فالمراد صعوبة ما كلف به، وأن الأفكار فيها بطيئة الحركات أو عاجزة عنها رأسا، وما بعده كالتجريد كما ستراه.

(**ومجاهل**) مرفوع غير منون جمع مجهل، وهو المفازة التى لا أعلام فيها، كما فى المقتفى، وهو المراد هنا، وقيل: المجهل: المفازة أيضًا، وفى القاموس المجهل: ما يحملك على الجهل، وجهله تجهيلاً نسبه إليه، وأرض مجهل كمقعد لا يهتدى فيها ولا يثنى ولا يجمع، انتهى. وقال ابن سيدة فى قوله(١):

إنا لنصفح عن مجاهل قومنا

مجاهل فيه ليس له واحد يكثر غلبة إلا قولهم جهل وفعل لا يجمع على مفاعل فهو من قبيل ملامح ومحاسن، انتهى، وفيه نظر لا يخفى، وعلى القول بأن مجهل اسم الأرض لا يثنى ولا يجمع، فجمع المصنف له، أما على القياس لأن مفعل ومفعلة يجمعان اطرادًا على مفاعل، أو يكون ثبت ذلك عنده.

فإن قلت: ما معنى قوله فى القاموس: «ما يحملك على الجهل؟».

---

(١) صدر بيت، وعجزه:

ونقيم سالفة العدو الأصيد

وهو من الكامل، لمضرس بن ربعى الفقعسى فى لسان العرب (١١/١٢٩) (جهل).

قلت: يريد ما ذكره أهل اللغة والعربية من أن صيغة مفعل تكون للزمان، وتكون فى كلام العرب لا يقتضى وقوع ما اشتق منه، ويدعو إليه، وإن لم يقع بالفعل، كقولهم: الولد مجبنة مبخلة، أى يجعله المرء جبانا لتخلفه بسببه عن الحرب، وبخيلاً لحرصه على بقائه ليربى ولده، وبخيلاً ليبقى ماله لولده، وهو من نوادر العربية فاعرفه.

(تضل فيها الأحلام) تضل بفتح الفوقية وكسر الضاد المعجمة مضارع ضل إذا لم يهتد أو بمعنى هلك، والأحلام جمع حلم بكسر الحاء وسكون اللام، بمعنى العقل أى العقول غير مهتدية لمعرفتها على الاستعارة المكنية والتخييلية أو هو إسناد مجازى، وهو أحسن من تقدير ذى الأحلام؛ لأنه يزيل بها رونق الكلام وجعل الأحلام مجازًا عن أصحابها، والمراد الصعوبة بعيد.

(إن لم تهتد بعلم علم) تهتد مبنى للفاعل، أى إن لم يحصل لها الهداية لتمسكها بها وسلوكها بدليلها ويجوز بناؤه للمجهول، وعلم بفتحتين العلامة المنصوبة فى الطريق لتعرف بها، ولذا سميت نصبًا ويكون بمعنى الجبل أيضًا لأنه يهتدى به كما قالت الخنساء(١):

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

وفى قولها: صخرًا، وهو اسم أخيها لطيفة اتفاقية هنا لمناسبة الجبل، وعلم ضد جهل لإضافة المشبه به للمشبه كقوله:

ذهب الأصيل على لجين الماء

وقد يضاف المشبه للمشبه به كما تقول: «نهر شربت منه الدر المذاب»، ولك أن تقول: إنه إشعار العلم بفتحتين للكبير من العلماء، لاهتداء الناس بعلمه، كما يقال: فلان جبل فى العلم، أو لعلو قدره واشتهاره، كما فسر به فى البيت وبين يعلم وعلم تجنيس، وقيل: فى عبارة المصنف، رحمه الله تعالى، أن علم الأول بكسر فسكون، والثانى بفتحتين عكس المشهور، وهو وإن لم يخل من وجه صحة خلاف الأولى.

(ونظر سديد) النظر بمعنى الإبصار والفكر، وهو ترتيب أمور معلومة للتأدى إلى مجهول، وقيل: ملاحظة المعقول لتحصيل المجهول، والملاحظة توجه النفس نحو المعلوم الحاضر فى ذهنه، والسديد ما له سداد بفتح السين، وهو الصواب من القول والعمل، وإن لم يحصل بالنظر.

(ومداحض) معطوف على مهامه، وهو مكان الدحض بدال وحاء مهملتين وضاد

---

(١) البيت من البسيط، وهو فى ديوان الخنساء (ص٤٠).

معجمة وهو الزلق وسقوط الماشى، ونحوه مما يزيل الأقدام عن محالها لوحل ونحوه، وفيه استعارة تصريحية بتشبيه الوقوع فى الخطأ لغموض المطالب ودقتها بزلة القدم فى المزالق المؤدية للسقوط.

وقوله: **(تزل بها الأقدام)** بفتح حرف المضارعة وكسر الزاى المعجمة، أو فتحها من الزلل، وهو الزلق فى الطين ونحوه ومتحرز به عن الخطأ فهو تأكيد لمداحض وترشح أو تجريد نحوى، والأقدام جمع قدم وهو معروف وهو استعارة تمثيلية لكثرة الخطأ، وما قيل: من أن المراد بالأقدام المعقول فى الأذهان المدركة بجامع الإيصال إلى المرام على أنه استعارة تصريحية، غير سديد، واستعارة الرجل للعقل لا تخفى ركاكتها على من له عقل.

(إن لم تعتمد على توفيق من الله عز وجل وتأييد) الاعتماد افتعال من العمدة، وهى فى الأصل ما يتكأ عليه ويستند إليه ثم شاع فى كل ما يعول عليه، وهو بمعناه الأصلى مناسب لمداحض، والثانى مناسب للمقصود ففيه تورية، والتوفيق خلق القدرة على الطاعة، وقيل: خلق الطاعة، وقيل: تسهيل سبيل الخير، وأصله جعل لأسباب على وفق المسببات، وهو تفعيل من الوفق كما أن الاتفاق افتعال منه، ثم خص بما ذكر، وهو أوفق بأصله من قول المعتزلة إنه إظهار الآيات الدالة على وحدانيته وإبداع ما يعرف به فى الإنسان كالعقل والسمع والبصر، لطفًا منه تعالى، والتأييد التقوية والإعانة من الأيد، وهو القوة، والمعنى أنه إن لم يعنه الله بتوفيقه وتأييده زل وأخطأ، وما أحسن تذييل الحيرة والضلال بقوله: إن لم يهتد، إلخ، وتذييل الزلل والدحض، بقوله: إن لم يعتمد ولما كان ما ذكر للسائل من صعوبة مطلوبه وتوقفه على أمور خطيرة يشعر بعدم إجابته استدرك دفعه بقوله:

(لكنى ما رجوته) بكسر اللام الجارة وتخفيف ما الموصولة والعائد لها الهاء، ويجوز أن تكون موصوفة، وليس لما بفتح اللام وتشديد الميم ولا ما المصدرية لاحتياجه للتكلف والجار والمجرور متعلق بمقدر مقدم أو مؤخر للحصر، أى أجبتك لهذا دون غيره، أو دون غيرك والرجاء بالمد ترقب ما يرجى حصوله، والفرق بينه وبين الطمع أن الراجى مؤمل لعدم الفوت بسبب رجائه له، وقد يستعمل كل منهما بمعنى الآخر كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾ [الشعراء: ٨٢].

(ولى ولك) قدم نفسه لمطابقته للمقام ولأن المرء يبدأ بنفسه فى الخير، وليس الإيثار مطلوبًا فى كل محل، ولذا استحب تقديم المرء نفسه فى الدعاء كما مر لا لما قيل: من أن النفس تراعى حالها أو لا إلا من شرفت نفسه فإنه يؤثر غيره.

(فى هذا السؤال والجواب من نوال وثواب) فيه لف ونشر غير مرتب؛ لأن النوال والثواب ناظر لقوله: لى، والسؤال والجواب لقوله: لك، والنوال العطاء كالنائل والمنال والتناول تفاعل منه، والثواب من ثاب إذا رجع، وهو الجزاء بخير أو شر لكن العرف والشرع خصصه بالخير كما فى النهاية، وهو المراد هنا، ومن بيانية مبينة لما على الوجهين، وقد يقال: ليس فيه توزيع، لتعلق كل منهما بكل منهما، كما ذهب إليه بعض الشراح؛ لأن للمصنف، رحمه الله تعالى، عطاء من الله لما صنفه، وله ثواب عليه، وللسائل نوال وعطاء لوصوله لمسئوله، وثواب لتسببه لإيجاد هذا الكتاب، والدال على الخير - كما سيأتى - كفاعله ووجه الأول أن النوال عطاء دنيوى عاجل السائل بسؤاله، والثواب آخروى للمصنف، رحمه الله تعالى، على إجابته، لأن المتبادر من النوال الدنيوى، ومن الثواب الآخروى فلا وجه لما قيل: من أنه لا دليل عليه، وفى بعض النسخ: ثواب النوال بالإضافة، وهو مؤيد للثانى.

(بتعريف قدره الجسيم) التعريف التبيين والباء سببية، والقدر شرف الرتبة، والجسيم العظيم الجسم، فأريد به مطلق العظيم على أنه مجاز مرسل أو استعارة بتشبيه العظيم المعنوى بالحسى، والقدر الجسيم إن كان علو مرتبة عند الله والناس فهو مغاير لما بعده، وعطفه عليه ظاهر، وإن أريد اتصافه بكل صفة حميدة فهو من عطف الخاص على العام، وإلى كل منهما ذهب بعض الشراح.

(وخلقه العظيم) الخلق بضمتين ويسكن ثانيه تخفيفًا، وهو الطبيعة والسجية وقد عرفوه بأنه ملكة للنفس تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير فكر وروية، فخرج بالملكة كل عارض غير قار من الأحوال، وبصدوره عن النفس ما يصدر عن الجوارح كالكتابة وغيرها من الصنائع وبقيد السهولة ما كان بصعوبة كالصبر على بعض النوائب، وكذا ما صدر بغير تفكر فكله لا يسمى خلقًا، والخلق للنفس بمنزلة الخلق للبدن، والخلق الحسن من أعظم المنن من الله، وفى الحديث: «أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله، وحسن الخلق»(١)، وخلق النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أعظم الأخلاق، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وسيأتى الكلام فيه.

(وبيان خصائصه) جمع خصيصة وهى ما خصه الله تعالى به فانفرد به عن كل ما سواه، أو انفرد به عن غيره من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أو عن أمته، والأولى خصائص مطلقة حقيقية وما عداه إضافية، وليس جمع خاصة؛ لأنها كالخاص خلاف العامة لا بمعنى ما تفرد به، ولا الخاصة، بمعنى الأثر الذى لا يظهر سببه كجذب

---

(١) أورده المنذرى فى الترغيب والترهيب (٣/٤٣).

المغناطيس الحديد فى مصطلح الأطباء، كخواص التراكيب عند أهل المعانى، على ما فصل فى شرح المفتاح، وما ذهب إليه بعض علماء الشافعية من منع الكلام على الخصائص النبوية، أو كراهته، قيل: إنه متأول، وقيل: غير صحيح، كما فى الخصائص الكبرى للسيوطى، وسيأتى بيانه، وقيل: محل الخلاف بيان ما حرم عليه كنزع لامته وخائنة الأعين، وفيه نظر، والحق أن منها ما يلزم ذكره لئلا يقتدى به غيره، أو يدفع توهم ارتكابه لغير المشروع، كزيادة زوجاته على أربع، وما هو مستحب كغيرها، ويدخل فيها ما اختصت به أمته عليه الصلاة والسلام.

وإذا عرفت هذا فقوله: **(التى لم تجتمع قبله فى مخلوق)** بيان شامل لسائر الأقسام؛ لأن المراد أنه تفرد بمجموعها دون كل فرد فرد منها فاعرفه. **(وما يدان الله تعالى به)** أى يعبد ويطاع لأمره به من الدين المعروف، وهو معطوف على خصائصه، وقيل: على قدره. **(من حقه)** بيان لما، وقد ورد فى الأدعية المأثورة: «أسئلك بحق محمد»، فقالوا: المراد بحقه رتبته ومنزلته، أو الحق الذى جعل الله له على أمته تفضلاً به عليه، كما فى الدر المنظم لابن حجر، والمراد هنا الثانى، وهو ما يجب له، صلى الله تعالى عليه وسلم، على أمته من حق بمعنى ثبت، ويجوز أن يراد به ما يقابل الباطل من اليقين الثابت حقيته بالدليل كما قيل، وفيه تكلف كالقول بإن من للتبعيض لأن إضافته للعموم، فلو كانت بيانية لزم ادعاء بيان جميع حقوقه، أو المراد جنس الحقوق فتأمل.

(الذى هو أرفع الحقوق) صفة مادحة، والمراد إنها أرفع من غيرها من حقوق البشر لا مما عداها، حتى حقوق الله وأرفع من الرفعة، وهى العلو والشرف فتعريف الحقوق للعهد أو الاستغراق العرفى، ويجوز أن يكون صفة مخصصة للحق وتخصيص الأرفع منها بالذكر اهتمامًا به، والمراد بيانه على طريق الإجمال إذ التفصيل يضيق عنه الحصر.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، الاستيقان استفعال من اليقين من يقن كفرح، واستيقن وتيقن وأيقن بمعنى علم علمًا محققًا لا شبهة فيه، لإتقانه بالأدلة النافية للشبه، ولذا قيل: إنه لا يوصف به علم الله، ويقال: بلج اليقين دون العلم كما فصلناه فى عناية القاضى، وقوله: ويزداد انفعال من الزيادة، وفيه دليل على أن الإيمان يقبل الزيادة والنقص، والكلام فيه مفصل فى محله لا حاجة لنا به هنا.

واقتبس المصنف، رحمه الله، الآية هنا تعليلاً لتعريف قدره وخلقه وخصائصه الذى به يتيقن ذلك، أو لكون أنعمه بدت ببيان حقوقه، فكأنه قال بتعريف فضائله وخصائصه بتحقق تيقن أهل الكتاب حقية رسالته، لموافقته لنعمته المذكورة فى كتبهم، ويزداد إيمان المؤمنين من أمته بتحقق ما له، صلى الله تعالى عليه وسلم، من المحامد، فالمراد بأهل

الكتاب اليهود والنصارى، والكتاب التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية، وتخصيص هؤلاء بالذكر ليس للحصر؛ لأن المراد تعميمه وشموله لجميع أهل العلم بأحوال الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لا بمجرد اتباع معنى النظم القرآنى، وإن لم يطابق السياق، كما قيل.

وقد يقال: المراد بالذين أوتوا الكتاب، أهل العلم بالتفسير والحديث، وبمن بعدهم من عداهم من المؤمنين، والمعنى أن هذا التعريف المتيقن ما تضمنه العلماء، ويزيد إيمان العوام ويجوز للمقتبس أن يقصد غير المراد به على طريق التمثيل، وإن كانت هذه الآية وردت فى عدد خزنة جهنم وكونهم تسعة عشر، فإنه مما استيقنه أهل الكتاب لموافقته ما عندهم وازداد إيمان غيرهم لعلمهم بذلك، وفى الآية دليل على أن الإيمان يقبل الزيادة والنقصان، والكلام فيه مشهور فلا حاجة لذكره إذ لا يخفى أن إيمان الأنبياء والملائكة، عليهم الصلاة والسلام، ليس كإيمان غيرهم، فإن قلنا بدخول الأعمال فيه، فهو ظاهر كما بين فى الأصول.

(ولما) بكسر اللام وتخفيف الميم من ما الموصولة، أو الموصوفة وتقدير العائد كما مر، وهو علة ثانية للتعريف المستفاد من هذا الكتاب. **(أخذ الله على الذين أوتوا الكتاب)** المراد بالذين أوتوا الكتاب هنا أيضًا أهل العلم مطلقًا، أو أهل الكتب المتقدمة فى النزول، أو اليهود، كما هو أحد التفاسير فى هذه الآية، وقد استدل بها على وجوب نشر العلم، والمراد بما العهد والميثاق الذى أخذه الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، على أممهم أن يبلغوا ما سمعوه كما قال نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم: «ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب» ونحوه، وقيل: المراد ما أخذ من العهد يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فى عالم الذر.

(ليبيننه للناس ولا يكتمونه) ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ولم يتل الآية بتمامها لعدم مناسبة باقيها لما أراده، والضمير إن المنصوبان للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعلمه مما سبق فى كلام المصنف، رحمه الله تعالى، وإن كان فى النظم بخلافه، فلا حاجة إلى القول هنا بأنه علم من السياق، وإن لم يجر له ذكر كما قيل، وقيل: هما للكتاب وهو عام للعلوم والعلماء، ويدخل فيه أمر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلام، دخولا أوليا ولم يؤكد يكتمونه كما أكد ليبينن قبله، أما لأنه جملة جوابية، ولا يكتمونه حالية، وليست كما قيل بتقدير مبتدأ، أى وهم لا يكتمونه لأجل الواو الحالية؛ لأن الحال المنفية يجوز فيها الوجهان وليست كالمضارع المثبت كما صرح به النحاة، أو هو معطوف على الجواب فهو جواب، والجواب المنفى

لا يؤكد، قيل: وهو أصوب.

(تنبيه): قال الزركشي في قواعده: تصنيف كتب العلم لمن منحه الله فهمًا واطلاعًا فرض كفاية، ولن تزال هذه الأمة مع قصر أعمارها في ازدياد وترق في المواهب، والعلم فلا يحل كتمه فلو ترك التصنيف لضيع العلم على الناس وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٨١] إلخ، وفي التوراة علم مجانًا كما علمت مجانًا، انتهى.

فإن قلت: قوله ليبيننه هل هو جواب قسم معلوم من السياق أو مقدر؟ **قلت**: هذا محتمل إلا أن ابن الأثير قال في البديع: إن للعرب ألفاظًا تتلقاها تارة بما يتلقى به القسم كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٨٧] الآية، وتارة لا تتلقاها به كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]، وتارة يكون الذي بعدها يحتمل الأمرين كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤] وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

قال شيخ والدي الشهاب ابن حجر: قال ابن عباس وجماعة: إنها نزلت في اليهود والنصارى، وقيل: في اليهود لكتمهم صفته، صلى الله تعالى عليه وسلم، التي في التوراة، وقيل: هي عامة، وهو الصواب لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ثم ذكر الآية التي ذكرها المصنف، رحمه الله تعالى، وقال: إنها نزلت في اليهود وكتمهم صفته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وغيرها، والعبرة فيها أيضًا لعموم اللفظ والبينات ما نزل على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، من الكتب والوحي والهدى الأدلة العقلية والنقلية، قال: وقوله في الآية الثانية: من بعد ظرف لقوله يكتمون لا لأنزلنا لفساد المعنى، يعني أن البيان متأخر عن الكتم لا عن الإنزال لسبقه عليه، وهو غير مسلم لجواز أن يراد بما أنزل، وبين ما أنزل في التوراة، وبين لأسلاف بني إسرائيل،، وبالكتم كتم اليهود الذين كانوا في زمن نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى هذا يجوز تعلقه بكل منهما، ولما استدل على مدعاه بالنظم الكريم عقبه بالاستدلال بالحديث فقال:

(ولما) بكسر اللام وتخفيف الميم أيضًا **(حدثنا به أبو الوليد هشام بن أحمد الفقيه رحمه الله)** هو الإمام القرطبي الزاهد المحدث المعروف بابن العواد أحد شيوخ المصنف، وقد اجتمع للمصنف من الشيوخ بين من سمع منه، وبين من أجازه، مائة شيخ، وهو ممن عرض عليه القضاء ولم يقبله، وتوفي بقرطبة سنة تسع وخمسمائة، ومولده سنة اثنين

وخمسين وأربعمائة.

وفى نسخة: هو ابن هشام بن خالد الأندلسى الوقشى، بفتح الواو والقاف وبالشين المعجمة، نسبة إلى وقش قرية من قرى طليطلة بالأندلس، الكتانى الحافظ الفقيه، ولد سنة ثمان وأربعمائة، واشتغل بالفنون، وسمع من أبى عمر الطليطلى، وابن عمر السفاقسى، وأبى عمر بن الحداد وروى عنهم، ومهر فى النحو والعربية واللغة وفنون الأدب، واعتنى بالحديث، قال القاضى عياض: كان فى غاية الحفظ والإتقان وله تنبيهات وردود على كبار المصنفين فى بعضها، فقال: وكان ينظر فى الأصول، واتهم بالاعتزال.

وقال الرشادى: ولى القضاء ببلاد من بلاد الأندلس، وكان من المنقبين فى ضروب المعارف، وكان يعرف الشروط والهندسة والفرائض وغيرها، مات فى جمادى الآخرة سنة تسع وثمانين وأربعمائة.

(بقراءتى عليه) قال المحدثون: من سمع من لفظ شيخه يقول حدثنا وأخبرنا وأنبأنا، قال العراقى: وهو متجه، ومن قرأ عليه، أو سمع بقراءة غيره عليه، فالأجود أن يقول: قرأت على فلان، أو قرأ عليه وأنا أسمع، وفى العرض يقول: حدثنا فلان بقراءتى عليه، أو قرئ عليه وأنا أسمع كما فصل فى مصطلح الأثر، ولذا قال المصنف بقراءتى عليه.

(قال: حدثنا الحسين بن محمد) هو الحافظ أبو على الغسانى المشهور، قال: **(حدثنا أبو عمر)** أى قال الحسين: حدثنا أبو عمر، وهو شيخ الإسلام حافظ المغرب ابن عبد البر ابن عاصم النمرى القرطبى صاحب الاستيعاب وغيره من الكتب الجليلة، ولد فى ربيع الآخر سنة ثمان وستين وثلثمائة بقرطبة، وتوفى بشاطبة ليلة الجمعة سلخ ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وأربعمائة وعمره خمس وتسعون سنة، وقوله: النَمَرى بفتح النون والميم نسبة إلى نَمِر بفتح النون وكسر الميم اسم قبيلة، وهو فى الأصل اسم جدهم نمر ابن قاسط بن هنب، وفتحت ميمه فى النسبة تخفيفًا لئلا تتوالى كسرتان، وياؤه مشددة على القياس المطرد فى كل مكسور العين مضموم الفاء، أو مكسورها أو مفتوحها، فإن كان مكسورها كإبلى جاز فيه الفتح وإبقاء كسرها كما ذكره النحاة.

قال: **(حدثنا أبو محمد بن عبد المؤمن)** فى المقتفى هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن القرطبى من قدماء شيوخ ابن عبد البر، وفى الميزان إنه كان تاجرًا صدوقًا، لقى الكبار، وأخذ عنهم، إلا أنه لم يكن جيد الضبط، فربما وقع له الخلل، والمصنف، رحمه الله، نسبه لجده.

قال: **(حدثنا أبو محمد بن بكر)** المعروف بابن داسة من مشايخ الحديث المشهورين

وداسة بدال مهملة تليها ألف، ثم سين مهملة بعدها هاء تأنيث، وهو أحد رواة سنن أبي داود.

قال: (**حدثنا سليمان بن الأشعث**) هو الإمام الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمر الأزدى السجستانى صاحب السنن، ولد سنة اثنتين ومائتين، وسمع بمصر والحجاز والعراق من خلق كثير، وروى عنه ابن داسة وغيره، وله ترجمة مفصلة فى التواريخ، ومات فى سادس عشر شوال سنة خمس وسبعين ومائتين بالبصرة.

قال: (**حدثنا موسى بن إسماعيل**) هو أبو سلمة بن إسماعيل المنقرى التبوذكى نسبة لتبوذك بمثناة فوقية مفتوحة، فموحدة مضمومة، فذال معجمة مفتوحة تليها كاف، اسم موضع نزل قوم من أهله عند أبى سلمة هذا فقيل له: تبوذكى، أو لأنه كان له دار بها وأصل معنى التبوذكى من يبيع ما فى بطون الدجاج ككبدها ونحوه، وقيل: إنه نسبة أيضًا لبيع التبوذك، وهو السرجين، وموسى هذا روى عنه أصحاب السنن ووثقوه، وقيل: إنه فيه لين، توفى سنة ثلاث وعشرين ومائتين.

قال: (**حدثنا حماد**) أطلقه، والمراد به كما قاله البرهان الحلبى حماد بن سلمة بن دينار أحد الأعلام مولى قريش، أو تيم، وهو ثقة لم يتهمه إلا من رق دينه، وقيل: إنه كان من الأبدال؛ لأنه تزوج كثيرًا و لم يولد له، وهو من عادتهم كسرعة الصلاة لطى الزمان لهم، أو لغيره كما ذكره السيوطى فى ترجمة ابن الهمام، رحمه الله، وكان مجاب الدعوة، و لم يرد حماد بن زيد، وإن كان من الكبار أيضًا؛ لأن التبوذكى تفرد بالرواية عن حماد بن سلمة، و لم يرو عن حماد بن زيد، كما قاله ابن الجوزى فى كتاب «الجمال فى أسماء الرجال»، فما فى بعض الحواشى من أنه حماد بن زيد وهم توفى سنة مائة وسبع وستين، وله ترجمة فى الميزان.

قال: (**حدثنا على بن الحكم**) البنانى البصرى، وقد روى عنه الحمادان وعداه من المحدثين، توفى سنة إحدى وثلاثين ومائة، وهو ثقة، وقيل: فيه لين.

(**عن عطاء**) هو اسم مشترك بين جماعة منهم: ابن أبى رباح أبو محمد المكى القرشى مولاهم أحد الأعلام، روى عن عائشة وجابر وابن عباس وزيد بن أرقم، رضى الله تعالى عنهم، وروى عنه الأوزاعى وأبو حنيفة وغيرهما، وعاش ثمانين سنة، وتوفى سنة خمس أو أربع عشرة ومائة، وهو من كبار التابعين المتفق على توثيقه وجلالته، وفى المقتفى إنما ميزته لاشتراك اسمه بين جماعة رووا عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، وهذا هو المراد هنا دون غيره.

وقال التلمسانى: المراد به عطاء بن يسار الهلالى، مولى ميمونة أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، ورجح الأول، بأن الذهبى وابن الجوزى لم يذكرا لعطاء بن يسار رواية له عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، ولا يخفى أنه لا يلزم من عدم ذكرهما أن لا يكون له رواية عنه فى الواقع مع أن النووى وغيره قالوا: له رواية عنه.

أقول: هذا كله خبط عشواء، فإن المصنف، رحمه الله، روى هذا عن ابن عبد البر، وقد ذكره فى كتاب العلم وصرح أنه ابن أبى رباح كما رأيته فيه، وعبارته: «قال: قرأت على عبد الوارث بن سفيان بن قاسم بن أصبغ، حدثهم قال: حدثنا بكر بن حماد، قال: حدثنا مسدد، قال: حدثنا عبد الوارث، عن على بن الحكم، عن رجل، عن عطاء بن أبى رباح، عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وساق الحديث، والرجل الذى يرويه عن عطاء يقولون: إنه الحجاج بن أرطأة، وليس عندى كذلك، والحجاج بن أرطأة مشهور بالتدليس، ورواه حماد بن سلمة عن على بن الحكم، ولم يقل به رجل، وكذلك رواه عمارة الصيدلانى، عن على بن الحكم، عن عطاء، عن أبى هريرة رضى الله عنه، ثم ذكر له طرقًا أخر.

وقال الحسن: دخلنا فاغتممنا وخرجنا فلم نزدد إلا غمًا، اللهم إليك نشكو هذا الغثاء الذى كنا نحدث إن أجبناهم لم يفقهوا، وإن مسكنا عنهم وكلناهم إلىعىّ شديد لولا ما أخذ الله على العلماء فى علمهم ما أنبأناهم بشىء أبدًا.

وكان أبو هريرة، رضى الله تعالى عنه، يقول: لولا آيتان فى كتاب الله ما حدثتكم شيئًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا﴾ [البقرة: ١٥٩]، والتى تليها الحديث، انتهى.

فأخذ المصنف، رحمه الله، ما قاله ابن عبد البر وقدم فيه وأخر وغير، والمراد أنه فى أصله صرح بأن عطاء هو عطاء بن أبى رباح فما فى الحواشى ناشئ من عدم الوقوف على ما تقول الأئمة.

(عن أبى هريرة) الدوسى وهو ممن غلبت كنيته اسمه، ولذلك اختلف فيه، وقيل: إن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كناه بها لما رآه يحمل هرة فى كمه، وقيل: المكنى له غيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى اسمه أقوال نحو الثلاثين أشهرها أنه عبد الله أو عبد الرحمن، وكان اسمه فى الجاهلية عبد شمس وأسلم عام خيبر وشهدها ولازم مجلس النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، صابرًا زاهدًا، ولذا عد من أحفظ الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، وروى عنه ما لم يرو غيره.

وفى البخارى عنه أنه قال: لم يحفظ أحد أكثر منى إلا عبد الله بن عمرو بن العاص،

فإنه كان يكتب وأنا لا أكتب، وكان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم دعا له بالحفظ، فلم ينس شيئًا سمعه بعد، والحديث فيه معروف، ومات بالمدينة، وقيل: بالعقيق، وفى الشروح الجديدة نقلا عن الحافظ ابن حجر: إن هريرة مجرور بالكسرة؛ لأن المجموع علم منقول، والمنقول يبقى على أصله قبل النقل؛ لأن جزء العلم غير علم، فلا يخرج عن تذكيره وصرفه، ولو أعطى مثله حكم العلم لم تدخل اللام فى مثل شمس الدين، فيجوز أبو الهريرة وأبى هريرة بالتنوين، وكونه غير منصرف للعلمية والتأنيث؛ لأن المضاف والمضاف إليه ككلمة واحدة، ورد عليه أنه يلزمه رعاية الأصل والحال فى لفظة واحدة فيعرب إعراب المضاف إليه نظرًا لأصله، ويمنع صرفه نظرًا للحال.

ثم قال: إن البرهان الحلبى، قال: هريرة لا ينصرف لكثرة الاستعمال وأطال فيه من غير طائل. **وأنا أقول:** هذا كلام ناشئ من عدم التأمل، وهو مما يقضى منه العجب فإن السماع فيه منع الصرف وكتب العربية مشحونة بنقله عن علماء العربية، وهو مصرح به فى إيضاح ابن الحاجب، وفى كتب ابن مالك، ونقله شراح التسهيل، واتفق عليه شراح الكشاف، فإنهم بقاطبتهم قالوا: فى شهر رمضان المركب الإضافى إذا جعل علما فجزؤه الثانى هو المنظور إليه فى أحكام العلمية، ولزوم «ال» إذا قارنت الوضع، وامتناعها فى غيره كابن داية، وصرح به سيبويه وأبو على، رحمهما الله تعالى، وإنما غرهم فيه كلام بعض المتأخرين من المغاربة، نعم فى بعض حواشى المفصل؛ أنه لا مانع من لمح أصله إلا أنه يأباه السماع، وقد أشبعنا الكلام عليه فى السوانح، فإن أردت شفاء العليل فانظره.

(قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة») قال السيوطى، رحمه الله، فى تخريج أحاديث هذا الكتاب: هذا الحديث أسنده المصنف، رحمه الله، من طريق أبى داود، وأخرجه الترمذى وحسنه، وابن حبان والحاكم وابن ماجه بسند صحيح من طريق محمد بن سيرين، انتهى.

وأسنده أيضًا ابن عبد البر من طرق كما مر فما نقل عن الإمام من أنه لم يصح، وعن غيره من أنه ضعيف، لا يلتفت إليه، وفى ألفاظ طرقه اختلاف، ففى بعضها: «كتم علما ينفع الله به الناس»، وفى بعضها: «ثم كتمه»، بدل: «فكتمه»، والمراد كما قالوا بالعلم المتوعد على كتمه ما يلزم تعليمه ويتعين، كتعليم حديث عهد بإسلام ما يتعلق بالصلاة، ومستفت فى الحلال والحرام، ولا حاجة لتقييده بأهلية السائل لحديث: «واضع العلم عند غير أهله كمقلد الدر رقاب الخنازير»[1]؛ لأنه ليس على إطلاقه، فإن الإفتاء

---

(١) أخرجه السهمى فى تاريخ جرجان (٣١٦).

فرض كفاية، فإن تعين كان فرض عين.

وقال الفقهاء، أيد الله الدين ببقائهم: يجب على الإمام فى كل مسافة قصر أن يضع فيها من يعلم الناس أمر دينهم، ومن العلم ما هو فرض كفاية كالفقه، وما هو فرض عين كمعرفة الله، وما يجب له وما يستحيل عليه، ومباح كالعلوم التى ليست بدينية وحرام كالسحر والشعبذة، والكتم الإخفاء ولجام بزنة ركاب، ما يوضع فى فم الدابة معروف، وهو معرب لكام أو لغام، وقيل: إنه عربى لتصريفه كألجم وملجم، وهو فى المعرب نادر، وألجمه إذا وضعه فى فمه، وألجمه الغرق إذا وصل الماء لفمه، ويقال: ألجم إذا سكت، قال أبو نواس(١):

مت بداء الصمت خير ... لك من داء الكلام

إنما السالم من ... ألجم فاه بلجام

والإلجام فى السكوت والغرق مجاز شاع حتى صار بمنزلة الحقيقة، وألجمه الغرق بمعنى أهلكه أبلغ من علا عليه الماء، لما فيه من بيان سبب هلاكه، بمعنى النفس، والمقصود هنا أنه يحرق جملته كما فى ألجمه الغرق، وأن يراد إحراق لسانه بدخول النار لفيه، أو بوضع حديدة محماة فيه، ويجعل ذلك علامة عليه كالحيوانات العجم فجوزى من جنس عمله لفظًا ومعنى، فهو مستعار لما يمنع الكلام كاللجام المانع من الجماح، أو هو مجاز مرسل والاستعارة التخيلية غير مناسبة هنا وباء بلجام للآلة أو المصاحبة، وقيل: إن الله يخلق له صورة لجام من نار يوضع فى فيه، وقيل: إنه تشبيه لما وصل لفيه من النار، وخص اللجام لتشبيهه بدابة منعت عما تريد، وهو تكلف، وهذا لا ينافى قوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ [النور: ٢٤] الآية؛ لأن فى القيامة مواقف متعددة لكل منها حال يخصه يوم القيامة، سمى به اليوم الموعود لقيام الناس فيه من قبورهم، أو لوقوفهم فيه، كما يقال له: الموقف، وهو يوم الحشر والحساب من قام بمعنى ظهر.

(تتمة وفائدة مهمة): قال النووى فى الأذكار: ذكر الفقهاء والمحدثون أنه يجوز ويستحب العمل فى الفضائل والترغيب والترهيب بالحديث الضعيف ما لم يكن موضوعًا، وأما الأحكام كالحلال والحرام والمعاملات فلا يعمل فيها إلا بالحديث الصحيح أو الحسن، إلا أن يكون فى احتياط فى شىء من ذلك كما إذا ورد حديث ضعيف بكراهة بعض البيوع، أو الأنكحة، فإن المستحب أن يتنزه عن ذلك، ولكن لا يجب. انتهى.

---

(١) البيتان من مجزوء الرمل، وهما فى ديوان أبى نواس (ص٥٠١).

وخالف ابن العربى المالكى فى ذلك، فقال: إن الحديث الضعيف لا يعمل به مطلقًا. وقال السخاوى فى كتابه القول البديع: سمعت شيخنا ابن حجر، رحمه الله تعالى، مرارًا يقول: شرائط العمل بالحديث الضعيف ثلاثة:

الأول: متفق عليه، وهو أن يكون الضعيف غير شديد كحديث من انفرد من الكذابين والمتهمين من فحش غلطه. **والثانى:** أن يكون مندرجًا تحت أصل عام فيخرج ما يخترع بحيث لا يكون له أصل أصلاً. **والثالث:** أن لا يعتقد عند العمل ثبوته لئلا ينسب إلى النبى ﷺ ما لم يقله. والأخيران عن ابن عبد السلام وابن دقيق العيد، والأول نقل العلائى الاتفاق عليه، وعن أحمد: أنه يعمل به إذا لم يوجد غيره، وفى رواية عنه: ضعيف الحديث أحب إلينا من رأى الرجال، وذكر ابن حزم الإجماع على أن مذهب أبى حنيفة أن ضعيف الحديث أولى عنده من الرأى والقياس إذا لم يجد فى الباب غيره، فتحصل أن فى العمل بالحديث الضعيف ثلاثة مذاهب: لا يعمل به مطلقًا، يعمل به مطلقًا، يعمل به فى الفضائل بشروطه، وقيد ابن الصلاح، رحمه الله تعالى، جواز رواية الضعيف باحتمال صدقه فى الباطن، وهل يشترط فى الاحتمال أن يكون قويًا، أم لا؟ فيه خلاف، وظاهر كلام مسلم، رحمه الله تعالى، أنه إذا لم يكن قويًا لا يعتد به، انتهى.

وللعلامة الدوانى فى إنموذجه على هذه المسألة إشكال أورده على القوم، وحاول الجواب عنه بما زاده إشكالاً، وليس بشىء، وهو أنه قال: اتفقوا على أنه لا يعمل بالحديث الضعيف، ولا يثبت به الأحكام الشرعية، ثم إنهم ذكروا أنه يجوز بل يستحب العمل به فى فضائل الأعمال، كما فى الأذكار، وفيه إشكال؛ لأن جواز العمل واستحبابه من الأحكام الخمسة الشرعية، فإذا استحب العمل به كان ثبوت ذلك بالحديث الضعيف، وهو ينافى ما تقدم ويناقضه.

وحاول بعضهم التقصى عنه بأن المراد أنه يجوز روايته، وهو لا يرتبط بما قالوه، والذى يصلح للتعويل عليه أن يقال: إذا وجد حديث فى فضيلة عمل من الأعمال لا يحتمل الحرمة والكراهية يجوز العمل به ويستحب؛ لأنه مأمون الخطر ومرجو النفع إذ هو دائر بين الإباحة والاستحباب فالاحتياط العمل به رجاء للثواب، فإن دار بين الحرمة والاستحباب لا يعمل به، وإن دار بين الكراهة والاستحباب، فلينظر أيهما أقوى خطرًا يرجع إليه، وإن دار بين الإباحة والاستحباب فهو أسهل؛ لأن المباح يصير بالنية مستحبًا، فجواز العمل به واستحبابه مشروط بعدم احتمال الحرمة، إلا أنه إذا لم توجد الحرمة فجواز العمل به ليس لأجل الحديث، على أن الإباحة أيضًا من الأحكام الخمسة فالحق أن الجواز معلوم من خارج، والاستحباب معلوم من القواعد الشرعية الدالة على

استحباب الاحتياط فى الدين، فلم يثبت شيء من الأحكام بالحديث، انتهى.

أقول: إذا أحطت خبرًا بما قدمناه فى كلام الحافظ السخاوى عرفت أن ما قاله الجلال مخالف لكلامهم برمته، وما نقله من الاتفاق غير صحيح مع ما سمعته من الأقوال والاحتمالات التى ابداها لا تفيد سوى تسويد وجه القرطاس، والذى أوقعه فى الحيرة توهمه أن عدم ثبوت الأحكام به متفق عليه، وأنه يلزم فى الفضائل والترغيب أنه يثبت به حكم من الأحكام وكلاهما غير صحيح.

أما الأول: فلأن من الأئمة من جوز العمل به بشروطه وقدمه على القياس، **وأما الثانى:** فلأن ثبوت الفضائل والترغيب لا يلزمه الحكم، ألا ترى أنه لو روى حديث ضعيف فى ثواب بعض الأمور الثابت استحبابها، والترغيب فيه، أو فى فضائل بعض الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم، أو الأذكار المأثورة لم يلزم مما ذكر ثبوت حكم أصلاً، ولا حاجة لتخصيص الأحكام والأعمال كما توهم، للفرق الظاهر بين الأعمال وفضائل الأعمال، وإذا ظهر عدم الصواب؛ لأن القوس فى غير يد بارئها ظهر أنه لا إشكال ولا خلل ولا اختلال.

(فبادرت) بادر فاعل بمعنى فعل، والمبادرة العجلة إلى فعل ما يرغب فيه، وهو يتعدى بنفسه وبإلى يقال: بادرته وبادرت إليه، ولما كانت الفاء لا تدخل فى خبر كان لاسيما إذا كان ضميرًا فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها، قالوا: إنه معطوف على مقدر هو الخبر المتعلق به قوله: لما، أى لكنى أجبتك لما رجوته فبادرت إلى آخره.

(إلى نكت) أى إلى جمع نكت وتأليفها، ونكت جمع نكتة كنقط ونقطة، ويجمع أيضًا على نكات بالكسر كبقعة وبقاع، وعليه اقتصر فى القاموس وسمع فيه أيضًا نكات بالضم، وقيل: ألفه للإشباع، والنكتة المعنى الدقيق النادر والكلام القليل الحسن وهى فى الأصل فعلة من النكت، وهو النبش الخفيف فى التراب بعود ونحوه، والإنسان يفعله إذا تفكر فى أمر خفى فنقلت لما ذكر، أما لتأثيره فى النفس، أو لأنه يحتاج لفكر وتأمل، أو هى منقولة من النكتة بمعنى نقطة من لون تخالف ما هى فيه، إما لدقتها فى النظر بالنسبة لما هى فيه، أو لمخالفتها لغيرها من الكلام، وما قيل من أنها تطلق على قليل صدأ فى وجه المرآة، أو السيف كالوسخ كما ورد فى حديث الجمعة، لا يناسب المقام مع أنه مأخوذ مما مر.

(مسفرة) وفى نسخة: «سافرة» وفى أخرى: «مسفرة»، سافرة بالجمع بينهما وهو الكشف مطلقًا، وقوله فى القاموس: سفرت المرأة كشفت عن وجهها تمثيل لا تخصيص

حتى يكون تجريدًا كما قيل لقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤]، وفى المقتفى سفر بمعنى كشف، قال:

سفــرن بــدورا وانتقبن أهلــة   وملن غصونــا والتفتن جــآذرا

وعلى نسخة سافرة مسفرة ينبغى أن يتغاير، فمسفرة بمعنى مشرقة مضيئة، وسافرة بمعنى كاشفة للغرض بحيث لا يحتاج لكتاب آخر، قيل: وفى وصف النكت بالإسفار لطافة ونكتة، أى لأنها تكشف ما تحت التراب وهو أمر سهل.

(عن وجه الغرض) الوجه بمعنى الجهة المقصودة، والوجه الذى به المواجهة ويستعار لخيار الشىء وأوله، ولرئيس القوم، والغرض بغين وضاد معجمتين بينهما راء مهملة مفتوحة كأوله الهدف ويتجوز به عن الفائدة المقصودة من الشىء، وهو حقيقة عرفية لكونه مقصدًا وهو قبل الشيوع استعارة، أو مجاز مرسل من استعمال المقيد فى المطلق، أو الشىء فى لازمه والنكت المسفرة العبارات الدالة على المراد والوجه إن كان بمعنى الجارحة، ففى الغرض استعارة مكنية يرشحها سافرة، أو هو استعارة أيضًا.

(مؤديًا من ذلك الحق المعترض) مؤدى اسم فاعل من أداه تأدية إذا أوصله من الأداء، وهى حال من فاعل بادرت، أو من وجه الغرض، والإشارة على الأول للغرض الذى هو تعريف حق المصطفى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن الداخلة عليه بيانية بناء على جواز تقدمها على المبين أو تبعيضية؛ لأن حق المصطفى أكثر من أن يحيط به كتاب، وهو الحق وعلى الثانى الإشارة للحق الذى هو نعت اسم الإشارة، وهو على الوجهين مفعوله لتعديه لمفعولين، والثانى على الأول الحق والمفترض صفته، وعلى الثانى هو المفترض ويصح أن يفسر هنا بموصلا إلى السائل مراده أو قاضيا لحقه كأنه ليقين إجابته عليه دين فى ذمته يلزمه أداؤه، والافتراض افتعال من الفرض، والمراد به اللازم جعله فرضًا مبالغةً، والكلام فى الفرض، والواجب مشهور ولا فرق بينهما عند الشافعية، وعندنا ما ثبت بنص قطعى فرض وغير واجب، وما ثبت بدليل ظنى واجب وقد يستعمل كل منهما بمعنى الآخر، واعتقاد ما فى هذا الكتاب واجب جملته لا بيانه كتابة وتأليفًا، ولذا قيل: إنه هنا فرض كفاية، وأعاد المصنف، رحمه الله تعالى، اللام الجارة فى قوله: لما إشارة إلى استقلال كل منهما بالعلية لإجابة سؤاله ولا شك فى كفاية كل واحد منها، فإن الأجر الجزيل والعطاء الجليل إذا ترتب على فعل يكفى فيه تقريره، وإن لم يدون، والمقصد إذا كان له طريقان فالسلك مخير فى سلوك أيهما شاء، لاسيما وهذه الطريق أكثر ثوابًا وأحسن لعدم انقطاعها، وفى الحديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث؛ صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به».

وأما كراهة بعض السلف تدوين الكتب فلا صحة له على إطلاقه، فإن السلف على خلافه، وقد أمر عمر بن عبد العزيز، رضى الله تعالى عنه، وناهيك به الزهرى بتدوين الحديث وكتابته كما فى البخارى، وكان مالك أول من صنف فى الحديث لا أول ما كتب منه، فإن من الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، من كتبه كلما مر، ولذا حكى بعضهم الإجماع على جوازه، وإنما منع بعضهم منه فى العصر الأول لخوف التباسه بالقرآن، إذ لم يكن حينئذ يدون غيره، مع عدم الاحتياج له، فسقط ما قيل من أن العلتين الأخيرتين لا يقتضيان المقصود هنا، واقتضاء إعادة العامل الاستقلال فى غاية الظهور، فلا حاجة لإثباته كما قيل.

(اختلستها) الاختلاس الأخذ بسرعة خفية، فقوله: **(على استعجال)** تأكيد أو تجريد، فإن فسر بالأخذ خفية أو بالاستلاب كما فى القاموس فهو تأسيس، ومنهم من أخذ فيه قيد القهر، أو المكابرة، ففيه لطف لجعله كالمحارب للزمان لينال فرصة ينتهزها كما قيل:

انتهز الفرصة إن الفرصة   تصير إن لم تنتهزها غصة

وفى المقتفى: اختلسوها بضمير الجمع وتكلفوا لتوجيهه بأن المراد أن القوم اختلسوها من يد العوائق وأنا تلقيتها منهم ودونتها، وصحح رواية هذه النسخة. وقال السيد المشهور خلافه وهو الوجه لا الصواب كما توهم.

(لما المرء بصدده) المرء مثلث الميم الإنسان، وفسره بعض اللغويين بالرجل، والأول أظهر، وليس هذا التفات ولا تفنن؛ لأن المراد التعميم، ولذا لم يقل لما أنا والصدد بفتحتين ومهملات بمعنى المقابلة، أو القرب، والثانى أقرب، وهو تعليل للمبادرة والاستعجال، أو للاختلاس، يعنى أنه أسرع فيه لخوف أن تحول العوائق بينه وبين مراده.

(من شغل البدن والبال) الشغل بضم الشين المعجمة، ويجوز فتحها، وبالغين المعجمة المضمومة وإسكانها يقال: شغله إذا عاقه، وأشغله بالهمزة لغة ردية وكتبه بعض عمال الصاحب له فى رقعة، فوقع عليها من يكتب إشغالى لا يصلح لأشغالى، ولا وجه لترديد صاحب القاموس فيه، والبدن معروف، والبال له معان منها الفكر، والحال، والقلب وهو أقرب هنا، ولو فسر بالقلب صح، أى الأمراض والهموم عائقة عما يريد، وقلما يخلو عاقل من مثله، فإن الهموم بقدر الهم.

(بما طوقه) ماض مجهول بضم الطاء المهملة وكسر الواو المشددة ويتعدى لمفعولين أولهما المستتر القائم مقام الفاعل، والثانى ضمير الغائب، وهو من الطوق بمعنى الطاقة والوسع، فالمعنى بما كلف، وابتلى به أو طوق العنق، فهو استعارة لما لزم به، ومن طوق

الحمامة لبياض فى عنقها، كما قال المتنبى:

أقامت فى الرقاب له أياد هى الأطواق والناس الحمام

وهذا ورد فى كلام العرب لكل أمر لازم، محمودًا كان أو مذمومًا.

وقوله فى كشف الكشاف: أنه لم يرد إلا فى الذم، لا وجه له؛ لأنه سأل حاتمًا، ابن له، عن إبل له أفناها القرى، فقال له: طوقتك مجد الدهر طوق الحمام، كما ذكره فى مرآة الزمان، ويأتى فى الفصل الثالث مزيد بيان فى الشرح هنا كلام طويل بغير طائل.

(من مقاليد المحنة) بيان لما، والمقاليد إما جمع لا واحد له من لفظه أو واحدة مقليد أو مقلاد أو أقليد، وهو معرب أكليد، بمعنى القفل، ومعناه بعد التعريب المفتاح أو الجزء منه، والأول أنسب بأصله. وورد بمعنى الحبل المفتول ومنه: ضاقت مقاليده، أى أموره، هذا محصل ما قالوه فى معناه، وحينئذ فالمراد به ما كلفه ولزمه من الأمور الشاغلة.

ومنه: تقليد الأعمال السلطانية من الأمور الدنيوية، على أنه مأخوذ من المعنى الأول والثانى؛ لأنها كالمفتاح لغيرها أو أسباب لغيرها، أو كالخزانة أو كالحبل المفتول فى عنقه الذى يربطه على ما كلف به، ويعوقه عن السعى فيما يريده أو هو كناية عن كل محنة؛ لأن من أعطى مفتاح شيء، فكأنه مسلم له، فالمعنى أنه ابتلى بجميع المحن أو بكثير منها، فإن فسر طوقه يجعله طوقًا له، أو جعلت المقاليد بمعنى الحبال المفتولة وجعل كونها فى خناقه بمنزلة العقود والأطواق التى يتحلى بها، على أنه استعارة تهكمية، كما قاله السهيلى فى قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥]، كان وجهًا وجيهًا.

وأما جعل المقاليد بمعنى القلائد لاقتضاء التطويق له كما قيل، فلو ساعدته اللغة كان حسنًا، والمحنة اسم للامتحان، بمعنى الاختبار والتجربة، ويكون بمعنى المصيبة أو البلية، أما لأن المرء مختبر بها، فيعرف صبره وتجلده، أو لأن الله يختبر بها عباده، أى يعاملهم معاملة المختبر، فيجزيهم الجزاء الأوفى، أو لأن المبتلى بها يختبر بها زمانه وأصدقاءه وإخوانه.

جزى الله المصائب كل خير عرفت بها عدوى من صديقى

وفى المقتفى: المراد بالمحنة هنا مباشرة القضاء الذى ابتلى به المصنف، رحمه الله تعالى، وكأنه صح له بنقل عنه، فإنه ثقة. والقضاء أعظم مصيبة؛ لكونه على خطر عظيم.

(التى ابتلى بها) صفة كاشفة أو مؤكدة إن فسرت المحنة بالبلية، والابتلاء مختص بما يسوء الناس وإن كان فى الأصل بمعنى الاختبار، والمرء قد يختبر بما يحب؛ لينظر هل

يشكر؟ وبما يكره لينظر هلى يصبر أم لا؟ فالبلاء يكون حسنًا وسيئًا، ولذا قيل: أبلى بلاء حسنًا، فالصفة حينئذ مخصصة.

(فكادت تشغل عن كل فرض ونفل) أى عوائق الدهر، ومحنه قاربت أن تعوقه عما يهم من أمور الدين، و لم يقل شغلت؛ لأنه غير واقع والادعاء ليس بمناسب للمقام، وتشغل بفتح المثناة الفوقية والغين المعجمة الحلقية، بمعنى تعوق، وضم التاء وكسر الغين لغة ردية، ويقال: كل فرض ليدخل فيه المطلوب والفرض والواجب والمكتوب متقاربة المعانى، وقد فرق بينها كما مر بأن الأول ما ثبت بدليل قطعى وغيره بخلافه، وقيل: الفرض ما لا خلاف فيه أو ثبت بذلك، والنفل والسنة والمستحب والتطوع ما لم يطلب طلبًا جازمًا، ومنهم من فرق بينها كما فصل فى محله.

(وترده بعد حسن التقويم إلى أسفل سفل) أى ترد فى تلك الشواغل والعواتق، بعد حسن ونضارة روض شبابى، واستقامة غصن قوامى، لعكس ذلك من تعويج قناتى، وتصوب ماء حياتى، أو تعدل بى عن الطريق المستقيم المستبين، إلى أسفل سافلين، وسجن سجين، ليثقلها عن عبادة رب العالمين، أو المراد ترد نوع الإنسان بعدما كان فى أحسن صورة مستجمعًا لخواص الكائنات؛ لأنه النسخة الكبرى قائمًا بوظائف عبوديته إلى ضد ذلك؛ لأن المراد بقوله السابق: لما المرء بصدد ما استعدله كل أحد بالطبع فى أمور دينه ودنياه، وذكر الأمر العام المسلم يقتضى دخول المتكلم فيه بطريق برهانى، وهو أبلغ وأسفل سفل، كأسفل سافلين.

وقد فسره المفسرون: بالنار وأرذل العمر، والهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة، والمراد هنا الأخير، وفيه لف ونشر بقوله: بما طوقه ناظر لشغل البال وترده، إلخ، لشغل البدن؛ فإنه نهاية ضعفه وظهور عجزه، فإن فسر بالنار على أن شغل البدن داخل فى المحنة، والمشغول عن جميع الفرائض والنوافل من أهل الدرك الأسفل، وليس هذا للمصنف، ولا لإنسان معين بل للجنس، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، ومع ذلك كاد فى الإثبات نفى، فلا يرد عليه شىء كما يتوهم، وهو لم يذكر الآية حتى يرد عليه ما قيل: المراد بالتقويم الاستقامة فى الدين، وأسفل سفل اتباع الهوى وإيثار الدنيا على مرضاة ربه كأكثر من تولى القضاء، وهو المذكور فى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، فهو الأسفل هنا لا المذكور فى سورة التين؛ لأنه غير ملائم هنا لاختصاصه بالكفرة. وقد مر لك ما يتضح به هذا الكلام من الخلل، والسفل ضد العلو، ويكون حسيًا ومعنويًا.

ثم شرع فى التأسف على ما ابتلى به نوع الإنسان، وعلى ما ضاهاه بما ابتلى به هو

فى نفسه، فقال: **(ولو أراد الله بالإنسان خيرًا)** أى لو أراد الله تعالى بجنس الإنسان وجميع أفراده خيرًا، حتى أكون مندرجًا فيهم، وخيرًا بمعنى خير محض بحيث لا يصدر عنه سواه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩]، وهذا مراد من قال: خيرًا كاملاً، ومن ظن تغايرها فقد وهم، إذ الخير إنما يكمل إذا لم يكن معه شر، كما لا يخفى.

(لجعله شغله) فاعل شغل المستتر الظاهر أنه لله، ويجوز أن يكون للإنسان، وأما الضمير المضاف إليه فهو للإنسان لا غير، والمراد يشغله ما يشغل به نفسه من أفعاله وأقواله لوقوعه فى مقابلة همه، وقيل: المراد به ما يشغل قلبه وقالبه من العبادة، فإن منها قلبية كمعرفة الله، وبه نية كالحج، فلا وجه لتخصيصه.

(وهمه) أى ما يهتم ويعتنى به، أو ما يعزم عليه عزمًا مصممًا من هممت بالشىء، أهم بالهم من باب قعد يقعد، فعطفه على الأول من قبيل عطف المتغايرين، وعلى الثانى من عطف الخاص على العام، ويجوز أن يراد به الحزن، فهو من عطف المتغايرين والحزن، وبينهما فرق وقد يجيئان بمعنى لكن الأول أقعد لأن هذا لايلايم ما بعده؛ لأن الحزن لا يكون إلا مستقبلاً، ولذا احتاجوا لتأويل قوله: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ [يوسف: ١٣].

وأيضًا الحزن لا يكون فيما يحمد إلا بتكليف كاعتبار فواته، فمن اقتصر عليه فقد قصر حيث قال: الهم الحزن، والمراد بالشغل الفعل الاختيارى، والحزن انفعال النفس لخوف ما سيأتى، وليس المراد به الإرادة كما توهم من وهم بكذا إذا أراده، فإن كلام المصنف مقتبس من الحديث، وهو قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم، فإن من كانت الدنيا أكبر همه أنساه الله صنيعته وجعل فقره بين عينيه، ومن كانت الآخرة أكبر همه جعل الله غناه فى قلبه، وجمع شمله، وأتته الدنيا راغبة»(١).

ولا يخفى أن ما فسر به الحزن غير مستقيم، وأن لكلام المصنف، رحمه الله، معنى آخر، بدليل سياقه وسباقه، مع أن الهم فى الحديث أيضًا يجوز أن يكون بمعنى الإرادة، ويعضده ما وقع فى بعض طرق الحديث: «وكانت الآخرة نيته»، فتدبره.

وقوله: **(كله)** تأكيد للشغل والهم معًا، أو تأكيد للثانى، وتأكيد الأول مقدر كما

---

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٢٤٧/١٠)، وقال الهيثمى: «وفيه محمد بن سعيد بن حسان المصلوب، وهو كذاب»، وأبو نعيم فى الحلية (٢٤٧/١٠).

قيل، و لم يتعرض صاحب المغنى فى أنواع الحذف له، فإن حذف التأكيد ينافى المقصود منه مع أنه لا مانع منه، ويجوز جعله تأكيدًا للثانى كما قيل؛ لأن الهم إذا لم يكن فى شىء يدل على عدم الاشتغال به بفحوى الخطاب، وجعل مبنى للفاعل وبناؤه للمجهول خلاف الظاهر، وإن احتمل.

وقوله: **(فيما)** متعلق بجعل أو بالشغل والهم على التنازع فيقدر فى أحدهما. **(يحمد غدًا أو يذم محله)** بفتح الحاء لا بكسرها، فإنه غير مناسب هنا، وهو بمعنى المكان الذى يحل فيه، وسيأتى المراد منه، والحمد والذم ضدان معروفان، والغد اليوم الذى بعد يومك، ويكون بمعنى المستقبل مطلقًا، وقد يراد به يوم القيامة، وهو المراد هنا، وفى المثل لكل يوم غدًا، وأما قوله:

وسوف ترى يومًا وليس له غد

فهو كناية عن يوم الموت، وأصله غدو وربما جاء على الأصل فى ضرورة الشعر كقول ذى الرمة[1]:

وما الناس إلا كالديار وأهلها بها يوم حلوها وغدوا بلاقع

وفى الشروح: يجوز فى يحمد ويذم أن يبنيا للفاعل وينصب محل على التنازع، ويجوز بناؤهما للمجهول والرفع، وضميره لله، أو للإنسان أيضًا، والمحل مكانة الإقامة، وليس المحل بملغى كالمقام فى قول الشماخ[2]:

وما قد وردت بغيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

وهذا هو الظاهر إلا أن زيادة الأسماء ممنوعة، ولذا قيل: إن حمد المحل وذمه كناية عن حمده وذمه فى نفسه، على أبلغ وجه، أو بجعل حمد جزاءه وذمه كحمده فتجوز فى نسبته، وقيل: المراد بمحله من صدر عنه وعبر به عن الفاعل إيماء لما عليه الأشعرى، رحمه الله، من أن الفاعل الحقيقى هو الله، والعبد محل للكسب ومباشرته لما خلقه الله وأوجده.

---

(١) البيت من الطويل، وهو لذى الرمة فى ملحق ديوانه (ص١٨٨٧)، وهو للبيد فى ديوانه (ص١٦٩)، أمالى المرتضى (١/٤٥٣)، شرح المفصل (٦/٤)، الشعر والشعراء (١/٢٨٤)، لسان العرب (١٥/١١٦)، وبلا نسبة فى خزانة الأدب (٧/٤٧٩)، المنصف (١/٦٤- ٢/١٤٩).

(٢) البيت من الوافر، وهو فى ديوان الشماخ (ص٣٢١)، جمهرة اللغة (ص٩٤٩)، خزانة الأدب (٤/٣٤٧، ٣٤٨)، شرح المفصل (٣/١٣)، لسان العرب (١٣/٣٨٨)، المنصف (١/١٠٩)، المعانى الكبير (١/١٤٩).
وصدره فى الديوان:

ذعرت به القطا ونفيت عنه

فإن قلت: كيف يكون شغل العبد الذى يريد الله به خيرًا مما يذم وهو الحرام وما يقرب منه؟ **قلت:** أجيب بأن الشغل أعم من الشغل بالفعل وبالترك، فيشغله فيما يحمد بفعله، وفيما يذم بتركه فيجعل شغله واهتمامه بفعل ما يحمد من الواجب والمندوب، وترك ما يذم من الحرام والمكروه، وقيل: إنه تكلف، والمراد بالشغل بما يذم اشتغال قلبه به ويؤيده عطف الهم عليه فالاشتغال بالطاعة بفعلها وبالمعصية الحذر منها، ولا يخفى أنه لا فرق بينه وبين ما قبله وقد يقال: الاشتغال فيما يحمد والهم بمعنى الحزن فيما يذم، وهو حسن، أو التقدير فى معرفة ما يحمد ويذم كما قيل:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ... ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

ولك أن تقول إن المراد بما يحمد ويذم الأمور المهمة التى من شأنها ذلك، يعنى أن اشتغاله وهمته فى معالى الأمور دون سفسافها، وغدًا قيد لهما كما هو معروف فى القيد المتوسط، وقد يفسر غدًا بالمستقبل للإنسان بعد موته كما قيل:

وإنما المرء حديث بعده ... فكن حديثًا حسنًا لمن وعا

أو يقدر مثله فى الثانى، وإذا اشتمل الشغل القلبى فأولا تأباه، ولا حاجة لجعلها بمعنى الواو، وقيل: المراد بما يحمد ويذل التجرد عن العلائق مما يحمد فى القيامة، ويذم اليوم لفقر صاحبه فغدًا قيد للأول فقط، وأو لتغاير محليهما وفاعليهما.

وفى بعض النسخ: محله مرفوع نائب عن الفاعل وجعل مجهول وما بعده مرفوع أيضًا رعاية للفاصلة، وهو متجه أيضًا، وفى بعض النسخ: أو لا يذم، بزيادة لا فيه على أن ما يحمد الطاعات، وما لا يذم المباحات، أى شغله وهمه المباحات، أو الطاعات فلا يلزم وقوع، أو بين المترادفين لبعده إلا أن همه فى المباحات لا يناسب المقام، فإن نصب روى الأولى وبنى جعل للفاعل نصب محله على الظرفية، إشارة إلى اعتبار الزمان والمكان فى كليهما كما قيل فى قوله تعالى: ﴿لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١] إذ لم يقابل الضر بالنفع، والرشد بالغى، والأظهر أن يقال: إنه لما ذكر أنه مطوق بالمحن الشاغلة عن الخيرات عقبه بأن هذا مقتضى النظرة الأولى، ومن أراد الله به خيرًا صرفه عن الالتفات إلى المصائب، وجعله شغله مقصورًا على كسبه الخير، وحزنه على ما فرط فيه من اشتغاله بما يذم، فإنه قل ما يخلو منه أحد، ومن حاسب نفسه قطع العلائق، ولم تقعده العوائق، كما قيل:

أراك تطلب دنيا لست تدركها ... فكيف تدرك أخرى لست تطلبها

(فليس ثمة) بفتح المثلثة، والميم المشددة، وهو اسم إشارة مبنى على الفتح ، وترسم

بهاء السكت؛ لأنها ملحقة فى الوقف، وقيل: إنها تاء تأنيث فى لغة قليلة، واختلف فيه هل هو موضوع للبعيد أو القريب؟ وكل منهما صحيح هنا، وفى شرح التسهيل كونها للقريب أقرب، وهى من قولهم: ومن ثمة كان كذا إشارة لمعنى يكون منشأ لغيره، وكذا فسروها بمن أجل، وهو استعارة بجعل منشأ الشيء كمكانه ويؤخذ منه التعليل، فإن كانت من تعليلية فهو ظاهر، وإن كانت ابتدائية فالتعليل يفهم من السياق كما أفاد شيخنا، رحمه الله تعالى، فى الآيات البينات ، والفاء فصيحة أو تعليلية تفريعية، والإشارة للدار الآخرة ومكان القيامة كما قيل؛ لأنها نصب عين المؤمن، وهى تعلم من قوله: غدًا، والأحسن أنها إشارة إلى الزمان الدال عليه، فإنها قد يشار بها إليه، أى إذا انكشف الغطاء فى ذلك اليوم عرفت أنه ليس فيه غير ما ذكر.

(سوى حضرة النعيم) سوى بمعنى غير، والحضرة مصدر حضر ضد غاب كالحضور، وفى النهاية: حضرة الرجل قربه ويكون بمعنى المجلس، والفناء والكتاب فى الإنشاء يستعملونه للتعظيم كالمقام الغالى، وحضرة الخليفة تأدبًا بإضافة ما له لمحله، فالمراد هنا تعظيم النعيم، أو المراد به الجنة لمقابلته بالجحيم، والنعيم المسرة والترفه فى المعيشة. وفى نسخة: نضرة النعيم، أى بهجته وحسن منظره.

(أو عذاب الجحيم) العذاب العقاب الشديد، والجحيم المكان الشديد الحر والنار المتأججة، واسم لجهنم، والإضافة لامية لا بمعنى فى، ولا لأدنى ملابسة كما قيل؛ لأنه عدول عن الظاهر بغير فائدة، والحصر بالنسبة لما يجزى به المرء، أى ليس فى الآخرة إلا أحد هذين الأمرين، وليس فيها تصرف لأحد فينبغى الاهتمام بأمرها، وبهذا ظهر المراد، وأنه ينبغى للعاقل أن لا يزال مفكرًا فى الآخرة ومعرفة ما يذم ويؤدى للعذاب الأليم، وما يحمد فيؤدى للنعيم المقيم، فيدأب فى الطاعة والعمل الصالح حتى تحمد عاقبته، وعذاب بالجر عطف على حضرة، أو النعيم تهكمًا به، والأول أولى، وهذا إما بناء على عدم الاعتراف، أو بإدخالها فى النعيم باعتبار المآل للنعيم، أو يعد نعيمًا بالنسبة للجحيم.

(ولكان عليه بخويصته) وفى نسخة: بخويصة نفسه، وهو عطف على جواب لو، وأعاد الكلام فيه إشارة إلى أنه جواب آخر مستقل، وليس من تتمة ما قبله، والضمير المستتر فى كان للإنسان، وجعله لله بتقدير، لكان الله متصرفًا فى شأنه، ليلزم خويصته تعسف من غير داع، وعليه متعلق بمقدر.

وكذا بخويصة، أى لكان الواجب عليه اهتمامه بنفسه؛ لأنه لما ذكر أنه استعجل بما طلب من الخير وخاف من محن الدهر الشاغلة عنه، وعروض ما يضعف عزمه، وبدنه العائق عنه، وغيره من العبادة، كالقضاء وأمور الدنيا عقبه بأن من يرد الله به خيرًا وفقه

لاشتغاله بما هو خير؛ لأن مآله لجزاء عمله من خير وشر، فينظر ما يقدم عليه، ويتقيد بإصلاح نفسه بالعمل الصالح والعلم، فيدع العوائق من أمور غيره، وأمور نفسه التى لا تهمه، فـ«إن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

فعلى هذا عليه ليس مفعولاً للأمر، وقيل: إنه اسم فعل للإغراء، وهو الحث والطلب؛ لأنه يقال: عليك، وعليه، وعلى، بمعنى ألزم، والأخير شاذ، وعلى هذا يتعدى بنفسه، وقد يتعدى بالباء نحو عليك بذات الدين فيفسر بما يناسبه.

وقال الرضى: الباء زائدة، وهى تزاد كثيرًا بعد أسماء الأفعال لضعفها فى العمل؛ لأنه فسر على بناء ولين عليه بيلزم. وقال ابن عصفور فى حديث: «من لم يستطع، فعليه بالصوم»: الصوم مبتدأ خبره عليه، والباء زائدة، واعترض بأنه يقتضى إيجاب الصوم، وزيادة الباء فى مبتدأ غير حسب، وفيه كلام طويل فى كتب العربية، فعليه متعلق بمقدر، أو اسم فعل، وبخويصة متعلق بمقدر كما مر أو بعليه أو هو مبتدأ، والباء زائدة، وعليه خبر مقدم لتأكيد الحصر، والجملة خبر كان كما بيناه، وخويصة بضم الخاء وفتح الواو وسكون الياء؛ لأن ياء التصغير لا تحرك، وصاد مهملة تصغير خاصة، وهى ما يختص، وحيث وقع خويصة مع النفس، وأريد به النفس لم يرد إلا مصغرًا، والتصغير للتقليل والتحقير، وقد يرد لغيره، والأولى هو الأصل، ففيه إشارة إلى أن من تقيد بنفسه قلت أموره، وخفت أحواله فلم يصرف زمانه إلا فى المهمات.

وفى الحديث: «عليك بخويصة نفسك»(١)، فالمراد بالخويصة النفس وإضافتها لتغاير اللفظ، والمفهوم كعرق النساء، أو هو من إضافة العام للخاصة كمدينة بغداد، والمراد عوارضها الذاتية المختصة بها، وبنفعه دون الناس وما لا يفيد، وقيل: هو ذكر الموت وتهيئة أسبابه ولا يخفى بعده.

(واستنقاذ مهجته) المهجة لها معان، منها: الروح، وهو المراد والاستنقاذ والإنقاذ التخليص، أى عليه بتخليص روحه من العذاب بإصلاحها وصونها عن القبائح.

(وعمل صالح يستزيده) الاستزادة طلب الزيادة، وليس الطلب مرادًا بل المراد المبالغة فى زيادته، ويجوز إبقاءه على أصله، ووصفه بالزيادة إشارة إلى أنه ليس بفرض، والصالح المحمود شرعًا، وقدمه على العلم؛ لأنه المقصود أو للترقى.

(وعلم نافع يفيده أو يستفيده) من العلوم الشرعية، وما لابد منه كالعقائد الحقة وقدم الإفادة، وإن كانت مؤخرة عن الاستفادة؛ لأنها أنسب بالمقام وأشرف.

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٥٢٥/٤)، وأبو نعيم فى تاريخ أصفهان (١٤٩/١).

(جبر الله صدع قلوبنا) الجبر إصلاح ما انكسر، ومنه الجبيرة، والصدع الشق، وهو الكسر الذى لم يبن فى الأجرام الصلبة كالزجاج والعظم، وفيه إشارة إلى أن هذه القلوب كالحجارة قسوة، ففيه استعارة فى الجبر، أو تجوز بالإطلاق فى المقيد، أى أزال الله ما فى قلوبنا من النقائص، وأصلح ما فيها من العيوب، والأحسن أن يقال: دعاء بأن يزيل الله ما فى قلبه من الغفلة والقسوة المانعة عن قبول ما ينفعه، فشبه القلوب القاسية بإناء صلب مكسور لا يقر فيه شيء، ففيه استعارة مكنية فى قلوبنا وتخييلية فى صدع والجبر ترشيح، وهذا أولى مما فى الشروح.

(وغفر عظيم ذنوبنا) من إضافة الصفة للموصوف بحسب الأصل، وخص العظيم، إما لأن الصغائر من الله بمغفرتها بالمكفرات المشهورة كالصلوات الخمس ونحوهما، أو لأن من يغفر الذنب العظيم يغفر غيره بالطريق الأولى، أو لأن كل ذنب عظيم نظرًا لعظم من عصى كما قيل: إن الذنوب كلها كبائر.

فإن قلت: ما الفرق بين العفو والمغفرة؟ **قلت:** بين مفهومهما بحسب الوضع عموم وخصوص، فإن المغفرة من الغفر وهو الستر، والعفو بمعنى المحو، ولا يلزم من الستر المحو وعكسه، كأن يحاسبه بذنب على رؤس الأشهاد، ثم يعفو عنه، أو يستره ويجازيه عليه، إما بالنظر بكرم الله، فهو إذا ستر عفا، فبينهما عموم وخصوص مطلق، ولذا يقال فى مقام الملاطفة فى الأكثر عفا الله عنه، كما سيأتى فى تفسير قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: ٤٣].

(وجعل جميع استعدادنا) معنى الاستعداد طلب العدة بالضم، وهى ما لابد منه لوجود الشيء، ثم شاع فى لازمه وهو التهيؤ، وهو المراد هنا، ويكون بمعنى الاستحقاق كما فى المحاكمات وهما متقاربان.

(لمعادنا) أى جعل اشتغالنا بما فيه عونًا لنا على النجاة والفوز بالسعادة فى الآخرة، والمعد محال العود فخص بالمحشر لعود الأرواح لأبدانها فيه أو تعود للقاء الله ليجزيهم بأعمالهم كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وللمفسرين فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] أقوال، منها: ما ذكر ومنها أنه الجنة؛ لأنهم كانوا فيها فى عالم الذر، أو لكونها معدة لهم كأنهم كانوا فيها، فإن العرب تجرى ما هو بالقوة الممكنة مجرى ما بالفعل، فيقولون: جفنته يقعد فيها ثلاثة رجال، أى واسعة وعليه قول ابن القيم:

فحى على جنات عدن فإنها   منازلك الأولى وفيها المخيم

(وتوفر دواعينا) معطوف على جميع، أو استعداد، والتوفر الكثرة والقوة، والدواعى جمع داع أو داعية، وهى ما يحمل على فعل الشىء، قال الإسنوى فى شرح منهاج البيضاوى: إذا علم الإنسان، أو ظن أو اعتقد أن له فى الفعل، أو الترك مصلحة راجحة حصل فى قلبه إليه ميل جازم، فهذا العلم نحوه، هو المسمى بالداعية مجازًا من دعاه لكذا إذا طلبه فكان علمه بالمصلحة طلب منه الفعل، وقد يسمى الداعى غرضًا، وهذا هو المراد؛ لأنه المعروف فى كلامهم. وقيل: المراد دعوتنا وطلبنا ودواعى الدهر ما يستدعيه من الحوادث، والمراد أعمالنا، وما نطلبه، انتهى.

فالمقصود: الدعاء بأن يجعل الله ميله مصروفًا لما ذكر، وهذا كله بيان لما قدمه.

(فيما ينجينا) هو أفعال، أو تفعيل من النجاة، وهى الخلاص مما يخشى كعذاب الله، وما يبعد عنه، وكان الظاهر أن يقول لما ينجينا؛ لأنه على المعنى الأول يتعدى باللام لكنه جعل شدة ميله له كأنها متمكنة فيه، فالظرفية مجازية كقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] وقيل: الدواعى تضاف لما يترتب عليه الوطء، وليس بلازم كقولهم: دواعى الدهر، وكما فى عبارة المصنف: **(ويقربنا إليه زلفى)** زلفى فعلى من أزلف بمعنى أدنى وقرب، قال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] فالمراد قرب أو تقريب كامل، فهو مفعول مطلق منصوب بالفعل المذكور من معناه كجلس قعودًا، أو بمقدر من لفظه ففيه إيجاز بليغ كما فى تبيان الطيبى؛ لأن معنى «أنبته نباتا» «أنبته فنبت نباتا»، والمراد قرب المنزلة، والرتبة المعنوية بإكرام الله تعالى الذى هو أقرب من حبل الوريد.

(ويحظينا) بضم المثناة التحتية، من الحظوة بضم الحاء وكسرها، وهى القبول وعلو المرتبة عند من تحب، وهى قريب معنى مما قبله؛ لأن القرب المكانى ينزه عنه البارى، وما ورد فى حقه فى القرآن والحديث المراد به قرب معنوى باعتبار علمه، أو كرامته لديه، وهذا هو المراد هنا، ولذا فسر بعضهم الحظوة بالتفضيل على الغير، فالمعنى أنه طلب من الله أن يكرمه ويفضله على غيره لتغاير الجملتان بحسب الظاهر، وإن تقاربا معنى، وما أورد عليه من أنه لا يفيد ما ذكر هنا؛ لأنه يفيده إذا تعدى بعلى كما قاله الجوهرى، رحمه الله، ولا صلة له هنا، ولا وجه له؛ لأنه غير مسلم مع أن باب القدر واسع.

(بمنه) متعلق بما قبله، وهو خبر، وقيل: تنازع فيه هو وما بعده على القول بتوسط المتنازع فيه، ولا حاجة إلى جعله متعلقًا بمصادر تلك الأفعال؛ لأنه تقدير لا داعى إليه، والمنة تكون بمعنى تعداد الجميل، وهى تحسن من الله، ومن أسمائه المنان، ويقبح من غيره، ولذا قيل: المنة تهدم الصنيعة، والظاهر إنها مكروهة لغير من كفر النعمة وجحدها،

وقيل: إنها حرام من كل أحد، وقيل: حرمتـها مخصوصـة بـالنبى، صلـى الله تعـالى عليـه وسـلم، لقولـه تعـالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثـر: ٦]، فإنكـاره مـن عـدم الاطـلاع، وتكون نفس الأنعام.

(ورحمته) بالجر معطوف على منه، وهى فى الأصل رقة القلـب، ولامتنـاع ذلـك فـى حقه تعالى، أريد بها غايتها، وهـى اللطـف والإحسـان، فـهى مـن صفـات الأفعـال، أو إرادته فهى صفة ذاتية، والباء فى قوله بمنه سببية، وقيل: إنـها بالاستشـفاع، وأورد عليـه أنه معنى غريب لم يقله أحد من النحاة ورد بأن مراده أنها للتعدية، ولكن أريـد التشـفع بمدخولها كما يقال فى باء البسملة: إنها للتبرك، فالمراد أنه توسـل إلى الله بـه كمـا ورد: «أعوذ بك منك»، ولك أن تقول: إنها للقسم الاستعطافى ومآله الاستشفاع، وتمثيله لـه بقوله بحياتك صريح فيما قلناه، فلا غرابة ولا استغراب إلا مـن عـدم التدبـر، نعـم يبقـى الكلام فى أن القسم الاستعطافى الواقع فى السؤال هل يختص بالباء والوقوع بعـد الأمـر أم لا؟ ظاهر كلامهم: أنه لم يسمع إلا كذلك، وفى الكشاف فى أول سورة النساء أنـه غير لازم.

(ولما نويت) لما بالفتح والتشديد ظرف زمان عامله جوابه، والنية القصد، وفى العرف القصد المقارن للفعل وغير المقارن عزم.

(تقريبه) أى جعله تقريبًا إلى الأفهام أو إلى الحصول بالتدريج الآتى ونحوه، والتقريـب عند أهل المعقول سوق الدليل على وجه يقتضى المطلوب.

(ودرجت تبويبه) أصل التدريج جعل درجة بعد درجة، وفـى الصحـاح: درجـة إليـه أدناه على التدريج، وتبويبه مصدر مبنى للمفعول، أى جعله ذا أبواب، والمـراد أنـه رتبـه بابًا بابًا، وقد يراد بالتدريج التأنى والمهل، كما قال:

درج الأيـــــام تـــــندرج وبـيـــوت الـهـــم لا تـلـــج

يعنى أنه سهله ورتبه ترتيبًا حسنًا متناسبًا.

(ومهدت تأصيله) أصل التمهيد بسط المهاد، وهو الفـراش، والتـأصيل ذكـر القواعـد والأصول، يعنى أنه ذكر فيه قواعد وأدلة تبتنى عليها مسائل أبوابه، فليست مجرد دعوى خالية عن الأدلة، والنقول الصحيحة، وليس المراد أنه سهله وأوضحه كما لا يخفى.

(وخلصـت تفصيلـه) أى مـيزت فصولـه، أو فـروع قواعـده، وتفاصيلـها عـن الإجمال،والأدلة، وأصل التخليص الإخراج والإبعاد من الخلاص، قيل: ويحتمـل أن يـراد بالتأصيل الإجمال وعبر به رعاية للفاصلة، ولو قيل: إنه على هذا من الأصـول والقواعـد

كان أظهر.

(وانتحيت حصره) بالحاء المهملة، أى قصدت من نحا نحوه إذا قصده، وأصله انتحوت، وفى نسخة: «انتخبت» بالخاء المعجمة والباء الموحدة، والحصر أصل معناه الحبس، والمراد به حصر الكل، أو الكلى فى أجزائه أو جزئياته، أى قصدت أو اختصرت حصر أنواعه فى هذه الأبواب المعينة، فلا وجه لتفسيره بالاختصار على النسخة المشهورة، وحصر الكل فى أجزائه ظاهر، وقوله فى عروس الأفراح: أنه لا يمكن لأن الحصر جعل الشىء فى محل محيط به، فالمحيط حاصر، والمحاط محصور مظروف، وشأن الكل مع أجزائه على العكس؛ لأن الكل محيط بالأجزاء، والأجزاء منحصرة فى الكل فكيف يجعل الكل منحصرًا فيها ليس بشىء؛ لأنه اصطلاح لا مشاحة فيه، والمراد أن الأجزاء المفصلة لا يخرج عنها الكل كما لا يخرج المظروف عن ظرفه، وهو أمر سهل.

(وتحصيله) أى جعله حاصلاً فيه بعد جمعه من الكتب المعتبرة، وقيل: المراد أن الناس يحصلونه لاختصاره وضبطه، فإن ما كان من طلب العلم حصله ولا كل من حصله أصله، ولا كل من أصله فصله، ولا كل من فصله وصله.

(ترجمته) جواب لما، والمراد سميته، وأصل معنى الترجمة التعبير عن لغة بأخرى، ويكون بمعنى التبليغ لما خفى من الكلام لبعد قائله، أو لحائل بينه وبين سامعه، أو لقصور فهمه كما فى شرح البخارى، ومنه قوله(١):

إن الثمانين وبلغتها ... قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

وإطلاق الترجمة على التسمية على طريق التشبيه لجعل معرفة المسمى باسمه كمعرفة المعنى بالتعبير عنه بلغة أخرى، وهو مجاز متعارف، والقول بأن التسمية قبل الخروج من الذهن إلى الخارج؛ لأنه لما كان غير معلوم عبر عنه بالترجمة لجامع بينهما تكلف لا حاجة إليه لما عرفته، والترجمان هو المبلغ عربى، وقيل: إنه معرب درغمان تصرفوا فيه، وفيه لغات فى كتب اللغة.

(بالشفا) متعلق بترجمته بمعنى سميته. **(بتعريف حقوق المصطفى)** الباء سببية متعلقة بالشفا، أو بمعنى فى، قال ابن الجوزى، رحمه الله تعالى، فى كتاب نزهة العيون: الشفا

---

(١) البيت من السريع، وهو لعوف بن محلم فى الدرر (٣١/٤)، شرح شواهد المغنى (٨٢١/٢)، طبقات الشعراء (ص١٨٧)، معاهد التنصيص (٣٦٩/١)، وبلا نسبة فى شرح شذور الذهب (ص٥٩)، مغنى اللبيب (٣٨٨/٢)، همع الهوامع (٢٤٨/١).

ملائم النفس يزيل عنها الأذى، ويستعمل فى القرآن على ثلاثة أوجه الفرح كقوله تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]، أى يسرهم، والعافية كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، والبيان كقوله: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، وهو مع ما بعده هنا علم منقول، والكلام فى أسماء الكتب هل هو أسماء جنس، أو أعلام جنسية، أو شخصية، ومسماها المعانى، أو الألفاظ أو النقوش أو مجموعها احتمالات ليس هذا تفصيلها، والشفاء ممدود قصر هنا للوقف على فواصل السجع كالقوافى، والممدود يجوز أن يقصر إذا وقف عليه حقيقة، أو تقديرًا أو هو لمشاكلة مصطفى، وهو مجوزة محسنة فلا غبار عليه، وما قيل: من أنه قصر؛ لأنه قصر عن شأن هذه الحقوق لطيفة لا تصلح للتوجه، وقيل: إنه ضرورة والضرورة كما تجرى فى الشعر تجرى فى السجع، كما فى شروح التسهيل، وهو غريب من قائله، وأغرب منه تجويز مد المصطفى وغيره مما لا طائل تحته، واسمه موافق لمسماه، فإن السلف الصالحين، قالوا: إنه جرب قراءته لشفاء الأمراض وفك عقد الشدائد، وفيه أمان من الغرق والحرق والطاعون ببركته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإذا صح الاعتقاد حصل المراد، وقد كنت حال كتابة هذا المحل فى ضيق صدر وحرج، وأنا الآن منتظر لكل خير وفرج، كما قلت:

يا رب ظهرى مثقل بالعنا وما أقاسى من شديد الجفا
والمتن قد كل وصدرى به ضيق فوسعه بشرح الشفا

اللهم صلى على محمد، وعلى آل محمد النبى الآمى الطاهر الزكى صلاة تحل بها العقد وتفرج بها الكرب.

(وحصرت الكلام فيه فى أقسام أربعة) ضمير فيه للكتاب، أو لتعريف حقوق المصطفى، والجار والمجرور متعلق بالكلام أو [قيل][(١)] منه، والحصر والقصر بمعنى الحبس لغة، واصطلاحًا تخصيص شىء بحيث لا يتجاوزه، ووجه الحصر فى مثله استقرائى وجعله عقليًا بالعناية تكلف، وضمير فيه إن كان للكتاب كما هو المتبادر فهو من حصر الكل فى أجزائه، وتسمية الكل جزء باعتبار معناه لغة، والفرق بين الجزء والجزئى، أن الأول لا يطلق المقسم عليه إذ كل واحد منهما لا يسمى كتابًا حقيقة، وفى الاصطلاح القسم الجزئى لا الجزء، فإن أطلق عليه فهو مجاز لمشابهته له كما يقال تقسيم الكل إلى أجزائه، وادعى بعضهم أنه حقيقى أيضًا، ولا مانع منه، وإن لم يرتضه بعضهم، فإن أعاد الضمير للتعريف فهو من تقسيم الكلى لجزئياته، والأقسام على ظهرها.

---

(١) ما بين المعقوفتين كذا فى الأصل، «أو» ثم بياض، ثم «لام»، وما أوردناه يقتضيه السياق.

(**القسم الأول فى تعظيم العلى الأعلى لهذا النبى**) الكريم، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**قولاً وفعلا**) التعظيم والتبجيل والتفخيم بمعنى، وهو توقيره وتكريمه بما يرفع قدره أو يظهر رفعته، والعلى من أسمائه تعالى من العلو إذ هو، جل شأنه، هو العلى حقيقة علوًا منزها عن الجهة والحلول، ويوصف بالأعلى أيضًا، وإن كان لا علو لغيره بالنسبة إليه، وأعلى المقادير بعد قدر الله نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا يخفى موقع العلى الأعلى هنا، فإن التعظيم إنما يعتد به من العظيم، وعلو رتبة النبى ، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإن ناسبت أن يشار إليها بما يدل على البعد إلا أن المصنف، رحمه الله، آثر إشارة القرب إشارة إلى أن تعظيم الله له قربه منه، وأدنى منزلته، وأنه ينبغى لمن يحبه أن يكون نصب عينه كأنه حاضر عنده، ولذا قال: النبى دون الرسول؛ لأن النبوة اتصال صرف بالله، وبالرسالة وساطة بينه وبين الخلق، وبهذا الاعتبار كانت أفضل كما فى قواعد القرافى، وسيأتى مفصلاً الكلام فيه، والإشارة تأتى للتعظيم كما بينه أهل المعانى.

(**وتوجه الكلام فيه**) توجه بصيغة الماضى، أى تم وكمل من قولهم توجه إذا صار ذا جاه، وليس المراد كما فى بعض الشروح أنه حصل وجه الكلام فيه، والوجه السبيل، والجهة المقصودة بالتوجه لما فيه من التكلف.

وقوله: (**فى أربعة أبواب**) من حصر الكل فى أجزائه لا الكلى فى جزئياته كما توهم. (**الباب الأول فى ثنائه عليه وإظهاره عظيم قدره لديه، وفيه عشرة فصول**) الباب يطلق على الفرجة التى يدخل منها للدار، وعلى ما يسد به ويغلق من خشب ونحوه، ويطلق فى عرف المصنفين على مسائل من الكتاب متناسبة أفردت بترجمة؛ لأن ما فيها من المسائل والقواعد يتوصل به لمعرفة جزئياته، أو لأنه يصونها ويحفظها، وقيل: إنه بمعنى البابة، وهى النوع، وهو سمج بارد.

وهو قد يشتمل على الفصول جمع فصل، وهو نوع من المسائل مفصول عن غيره، أو ترجمته فاصلة بينه وبينه، فهو مصدر فاعل أو مفعول كما يشتمل الكتاب على الأبواب غالبًا والثناء الوصف بالجميل، ولا يختص باللسان فى المشهور لقوله: «أنت كما أثنيت على نفسك» على ما فيه وقدر الشىء مقداره، وشرفه رتبته، ويكون بمعنى التعظيم كما فى قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٦٧]، أى ما عظموه حق تعظيمه فى أحد الوجوه فيه فيجوز تفسيره هنا بكل منهما، ولديه: بمعنى عنده، وبينهما فرق مشهور، وإذا قيل: عند الله، فله معان لاستحالة حقيقته عليه تعالى، فيكون بمعنى علم الله، أو حكمه كما فى قوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]، وبينهما فرق دقيق بيناه فى حواشى القاضى فى سورة النور، ويكون بمعنى فضل

الله كما فى قوله تعالى: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: ٣٧].

(الباب الثانى فى تكميل الله له المحاسن خَلْقًا وخُلقًا) المحاسن جمع حسن، على خلاف القياس، أو هو جمع لواحد مقدر كحسن بزنة مقعد أو لا واحد له، وهى الأمر الحسن مطلقًا، أو الحسن الخفى، وخَلْقا وخُلْقا بفتح فسكون وضم وسكون منصوبان على التمييز، والخلق الإيجاد، والخلق السجية والطبيعة، وهى ملكة راسخة فى النفس لا تقبل الزوال بسهولة على الأصح، وهى للنفس كالخلق للجسم؛ لأن أحدهما صورته الباطنة، والآخر صورته الظاهرة، وبحسن الأخلاق وقبحها يكون الحمد والذم وما يترتب عليه، وحسن الصورة يدل على حسن السيرة، ولذا يمدح به كمل الرجال، ولذا خطأ الأمدى، رحمه الله تعالى، من اعترض على أبى تمام فى وصف ممدوحه بالجمال لأنه يليق بالغزل لما ذكرنا.

(وقرآنه جميع الفضائل) القرآن بوزن العيال مصدر بمعنى الجمع، وجميع مفعوله والفضائل جمع فضيلة، وهى الصفة الحميدة مطلقًا سواء كان لها أثر متعد أم لا، وقد يختص بالثانى الفضائل، وبالأول الفواضل، وكان شيخنا الزيادى، رحمه الله تعالى، يقول فى مثله: إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا كالفقير والمسكين، وهو كلام حسن.

(الدينية والدنيوية) الدينية منسوبة للدين، وهو وضع إلهى سائق لذوى العقول باختيارهم المحمود إلى ما هو خير لهم بالذات فى العقبى فيخص بالدين الحق الذى جاءت به الرسل، عليهم الصلاة والسلام، ويستعمل فيما يشمل الباطل كما فى قوله تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، إن لم تقل إنه تشاكل أو بحسب اعتقادهم، والمراد الأول هنا، وللدين معان أخر كالجزاء والطاعة، والدنيوية منسوبة للدنيا وهى الأرض وما عليها من المخلوقات وأحوالها ويطلق على المال وما يملك، وفى النهاية: أنه اسم لهذه الحياة والمراد بالأول العبادة ونحوها، وبالثانى نحو حسن خلقه صلى الله تعالى عليه وسلم وصحة بدنه وغير ذلك، وهى فعلى مؤنث أدنى من أفعل تفضيل، لكنها جرت مجرى الأسماء وجردت من معنى التفضيل ولوازمه، ولذا ورد تنوينها شذوذًا، وفى النسبة إليها ثلاث لغات حذف ألفه فيقال: دنى وقلبها واوًا، فيقال: دنيوى، وزيادة ألف، فيقال: دنياوى، كما بين فى علم التصريف، وداله مضمومة وقد يكسر من الدنو بمعنى القرب، وقيل: من الدناءة كما قال الشاعر:

أعاف دنيا تسمى من دناءتها ... دنيا وإلا فمن مكروهها الدانى

ووجه التسمية ظاهر، والدنيا قد تقابل بالدين كما ورد فى الحديث وغيره، وقد

تقابل بالآخرة أيضًا وكل منهما صحيح فصيح، فلا وجه لما قيل من أن الدنيا بمعانيها لا تقابل بالدين، لكن ساغ مقابلتها له وهو المراد بقرينة المقابلة، أو المراد ما نسب إلى الدنيا فقط، فإن المنسوب إلى الدين منسوب إلى الآخرة أيضًا، ولا يخفى ما فيه من الخلل فتدبر.

(**فيه نسقًا**) ضمير فيه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو متعلق بقرآن أو بقوله: نسقًا بناء على جوازه، ونسقًا حال من جميع، فإن كان مصدرًا، فهو مأول بصفة وإلا فهو على ظاهره، يقال: در نسق، وكلام نسق على نظام واحد، فالمراد أنه جمعها على وجه متناسب يأخذ بعضه بحجز بعض وفسرها التلمسانى تبعًا ولا وجه له.

(**وفيه سبعة وعشرون فصلاً**) قال السيد: ليس فى الكتاب إلا ستة وعشرون، فالظاهر أنه عد ما بين ترجمة الباب إلى الفصل فصلاً، وإن لم يسمه به، وكذا الحال فى جميع ما عد من الفصول إلا ما فى موضعين يقل الكلام فيهما بين الترجمة والفصل فلا تغفل، لكنه لم يعد ما بين القسم إلى الباب بابًا؛ لأن العادة تسمية المسائل الجمة بالباب ولم يدخل فى باب لتعلقه بالأبواب كلها، وقد سبقه إليه التلمسانى وزاد عليه أنه لم يذكر أوصاف الفصول بالعدد، بحيث يقول الأول والثانى إلخ، فيعلم منه أن الصدور عنده من جملة الفصول وبذلك يستقيم الأمر ويتم العدد.

(**الباب الثالث فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها**) الخبر فى العرف واللغة: ما ينقل عن الغير، وزاد فيه أهل اللغة: واحتمل الصدق والكذب فى حد ذاته، والمحدثون يستعملونه بمعنى الحديث وقد يفرقون بينهما، فيقولون: الحديث ما جاء عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، والخبر ما جاء عن غيره، ولذا قيل لصاحب التاريخ إخبارى بصيغة الجمع، وقيل: بينهما عموم وخصوص، فكل حديث خبر ولا عكس، وعبر به المصنف، رحمه الله تعالى، هنا لأنه أشمل، وإذا كانا بمعنى فالمراد به ما أضيف إليه صلى الله تعالى عليه وسلم قولاً أو فعلاً أو تقريرًا أو نحوه، ويدخل فيه ما هم به قلبه إذا علم به بوجه من الوجوه، وكذا ما يتعلق بحليته الشريفة، وفى هذا المقام تفصيل مذكور فى مصطلح الحديث، والصحيح والحسن كل منهما إما لذاته أو لغيره؛ لأنه إذا رواه عدل تام الضبط واتصل سنده ولم يكن معللاً ولا شاذًا فهو الصحيح لذاته، فإن لم يسلم مما يضعفه وانجبر بتعدد الطرق ونحوه فهو الصحيح لغيره، وما لم يشتمل على أعلى صفات القبول فهو حسن، والمشهور ما تعددت رواته ولم يصل إلى حد التواتر، ويطلق على ما شاع مطلقًا وإن لم تتعدد طرقه سواء كانت شهرته بين المحدثين أم لا، وهو الذى عناه المصنف هنا ولذا عطفه على الصحيح، وأهل الحديث استعملوه بهذا المعنى أيضًا كما ذكره ابن

حجر، ويدل عليه قول المصنف فى أول هذا الباب: اعلم أن الأحاديث الواردة فى ذلك كثيرة جدًا، وقد اقتصرنا على صحيحها ومشهورها، انتهى. وقيل: المراد اشتهر بين المحدثين على أنه عطف الخاص على العام.

(بعظيم قدره) متعلق بورد لأنه مصدر بمعنى رفعته أو منزلته، وقيل: إنه حال من قدره وجاء من المضاف إليه؛ لأن المضاف صفة له، فكأنه هو المعمول؛ لأن تقديره قدره العظيم حال كونه كائنًا.

(عند ربه) فتدبر **(ومنزلته)** أى: رتبته الرفيعة عنده أيضًا، والعرب تقول: المنزلة فى المعنوى كالمكان والمكانة، فكأن التاء للنقل. **(وما خصه به فى الدارين)**: الدنيا والآخرة تسميتها بهذا شائعة كما مر لأنهما سكن ابن آدم، فأما أن تكون الدار حقيقتها هذا ثم خصت بما يحيط به بناء ونحوه، أو تكون مجازًا صار حقيقة عرفية، وخواص النبى صلى الله تعالى عليه وسلم منهما ما خص به عن سائر الخلق حتى الرسل، ومنها ما هو بالنسبة للرسل عليهم الصلاة والسلام، ومنها ما هو بالنسبة لأمته كما مر وسيأتى.

(من كرامته) أى: مما فيه تكريم وتبجيل له صلى الله تعالى عليه وسلم، فمن بيانية أو تعليلية كقوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾ [نوح: ٢٥]، وهو بيان لأن المذكور هنا بعض الخصائص التى خص بها تعظيمًا له صلى الله تعالى عليه وسلم دون ما خص به صلى الله تعالى عليه وسلم من بعض الأحكام الجزئية المخصوصة بالتحليل والتحريم، مما لا يظهر فيه التكريم وإن تضمنه فى الجملة و لم يذكر لذلك، وهو غير مناسب لغرض التأليف.

(وفيه اثنى عشر فصلاً): هكذا هو فى النسخ كلها، وهو المروى عنه مع أن الفصول خمسة عشر، وقد سلك الشراح فى الجواب عنه مسالك:

منها: ما قاله التلمسانى أن الثلاثة الزائدة بعدما أكمل العدد أجنبية من هذا الباب مناسبة للباب الأول؛ لأنه ذكر جملة من أسمائه صلى الله تعالى عليه وسلم فى أثنائه كقوله: ﴿رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [النور: ٢٠]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير: ٢٠]، ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النور: ٣٥]... إلخ، إلى آخر ما ذكره فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم، ففهم منه أن الفصول الثلاثة إنما وضعها بعد أن تم مراده ولاح فى خاطره أمر يعذر تركه أوجب ذكرها وجعلها ذيلاً لهذا الباب، وذكر من كلامه ما يدل عليه.

ومنها: أنه كان عازمًا على جعلها اثنى عشر، فلما وصل إلى الباب الثالث اقتضى الحال زيادتها وهذا بناء على أن الخطبة مقدمة على التأليف، والقول بأن قوله السابق:

نويت ودرجت يأباه غير مسلم وهكذا، كما أنه جعل القسم الرابع بابين مع أنه زاد عليه ثالثها.

ومنها: أن مفهوم العدد غير معتبر وهذا أضعفها؛ لأن كلامهم فى الاستدلال به فى النصوص، وأما فى المخاطبات فلا فالحاصل أنها ذيل للأثنى عشر المقصودة أو أمر زاده على ما كان فى تصوره وذهنه.

(الباب الرابع فيما أظهره الله على يديه من الآيات والمعجزات) الآيات: جمع آية ولها معان، منها: العلامة الدالة على نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم وفى أصلها أربعة أقوال لأهل العربية.

أحدها: للخليل رحمه الله تعالى، وهو أن أصلها آيية بفتحتين بزنة فعلة، فقلبت الياء الأولى ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها على خلاف القياس، إذ هو يقتضى قلب الثانية أو الإدغام لتقدمه على الإعلال.

الثانى: للكسائى رحمه الله تعالى، أن أصلها آييه على وزن فاعلة فحذفت عين الكلمة والقياس الإدغام كدابة.

الثالث: للفراء رحمه الله تعالى، أصلها أيية بسكون الياء الأولى فقلبت ألفا على خلاف القياس.

الرابع: لبعضهم أصلها آيية بكسر الياء الأولى فقلبت لثقل التضعيف.

والمعجزة أمر خارق للعادة معجز للبشر أظهره الله على يديه صلى الله تعالى عليه وسلم، وإسناده إلى الله تعالى؛ لأنها من أفعاله كما قال ابن الهمام رحمه الله تعالى، وأما كونها قد تكون من قبيل الترك كأن يقول نبى: آية صدقى أن أضع يدى على رأسى ولا يقدر أحد على ذلك فلندوره لا يعتد به، أو لأنه باعتبار أنه كف كالفعل الوجودى، وكذا إخباره عن الغيب وإنما أسند إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم باعتبار صدوره عنه، وإن كان بإيجاد الله وخلقه على ما عليه أهل السنة.

والآية والمعجزة يشتركان فى الدلالة على صدقه، لكن الآية أعم لأنه لا يشترط فيها مقارنة النبوة والتحدى، فكل معجزة آية ولا عكس، فشق صدره صلى الله تعالى عليه وسلم، وتسليم الحجر عليه قبل البعثة ونحوه آية، وليس بمعجزة. وأما قول السهيلى رحمه الله تعالى فى بعض الخوارق أنها علامة للنبوة لا معجزة بناء على عدم اقترانها بالتحدى المشروط عنده، فرده ابن الهمام رحمه الله تعالى بأن أمره مبنى على دعوى النبوة فى كل زمان وهو غير وارد عليه وسيأتى للمصنف رحمه الله تعالى، كلام فى هذا.

(وشرفه به من الخصائص والكرامات وفيه ثلاثون فصلاً): المذكور فى الكتاب تسعة وعشرون لكنه عد صدر الباب فصلاً كما مر ونبه عليه التلمسانى، والخصائص جمع خصيصة وهى الصفة الخاصة به سواء كانت فى ذاته، أو صفاته، أو فيما يصدر عنه صلى الله تعالى عليه وسلم من معجزاته وكراماته، فهى تشتمل على أمور كثيرة ذكر منها فى الباب الثالث تفضيله فى ذاته وسيادته صلى الله تعالى عليه وسلم لبنى آدم فى الدارين وقربه من ربه بالإسراء والمحبة والخلة، وذكر هنا ما جرى على يديه من المعجزات وما ضاهاها من الكرامات، فمقصد البابين وما ذكر هنا مختلف معنى وإن تشابه العنوان، كما يعرف بالنظر فى الكتاب، فلا يرد عليه أن ما ذكر هنا بعينه فى الثالث من قوله وما خصه وهو قبيح، وغاية ما يقال فى توجيهه أنه أراد فى كل موضع بيان سابقة، فالمراد بالثالث الكرامات التى لم يقصد بها إثبات النبوة، وكونها علامة كالإسراء والأمور الأخروية، وفى الثانى ما يقصد به ذلك وفيه ما فيه، انتهى.

وقد عرفت سقوطه وإنما أوقعه فيه اتحاد العنوان ظاهرًا وهو على طرف التمام، على أنا نقول: إنهما متغايران معنى كما يعرف بالتأمل الصادق، وقيل: إن الخصائص والمعجزات آيات كما سيأتى فى بابه. والكرامة لغوية لا اصطلاحية فلا تنافى المعجزة، وأما الكرامة التى خص بها صلى الله تعالى عليه وسلم فى الدارين المذكورة قبله فقد قيل: إنها مما لم يقصد به إثبات النبوة ولا كونها علامة عليها كالإسراء ولا طائل تحته. وقيل: إن الكرامات هنا الخوارق التى قبل دعوى الرسالة، وفى شرح المواقف أنها تسمى كرامة وإرهاصًا وهو التأسيس، ولسبقها على إظهار الرسالة كانت كالتأسيس لها.

فإن قلت: إخباره عن المغيبات كيف يعد معجزة؟.

قلت: هو على قسمين، ما وقع فى حياته صلى الله تعالى عليه وسلم كعير قريش ونحوه ولا شبهة فى كونه معجزة، وما وقع بعده كإخباره صلى الله تعالى عليه وسلم بالخوارج وذى الثدية. وتسميته كرامة أقرب لعدم مقارنته للتحدى، والقول بأنه معجزة لعجزهم عنه سواء كان العجز عدمى أم لا، لا يجدى.

(القسم الثانى فيما يجب على الأنام) أى: يلزمهم حتى يأثموا بتركه والأنام الخلق، أو الإنس والجن، أو كل ما على وجه الأرض، والمناسب هنا الثانى، وقيل: إنه ما يعتريه النوم **(من حقوقه)** صلى الله تعالى عليه وسلم: جمع حق وهو الأمر الثابت له وقد مر تفسيره. **(ويترتب القول فيه فى أربعة أبواب)**: يترتب أى يتمكن أو يذكر مرتبًا، من الترتيب وهو جعل كل شىء فى مرتبته اللائقة به، وكونه من تقسيم الكل أو الكلى تقدم مع ما فيه.

(الباب الأول فى فرض الإيمان به) أى: كون التصديق برسالته صلى الله تعالى عليه وسلم فرضًا، فالإضافة للمفعول أو هى لامية أو بيانية فيجب الإيمان به صلى الله تعالى عليه وسلم وبشريعته، وأنها ناسخة لغيرها ووجوب ذلك على كل من بلغته الدعوة. **(ووجوب طاعته)** أى: إطاعته، صلى الله تعالى عليه وسلم، والانقياد له. **(و)** وجوب **(اتباع سنته)** أى: طريقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، التى أمرنا باتباعها أمر إيجاب. **(وفيه خمسة فصول)** وقد أجاد فى تفننه فعبر بالفرض تارة وبالوجوب أخرى، كما قال فى القسم الأول، وتوجه الكلام فيه وفى الثانى ويترتب القول فيه، وفى الثالث وتحرير القول فيه، وفى الرابع وينقسم الكلام فيه.

(الباب الثانى فى لزوم محبته ومناصحته) صلى الله تعالى عليه وسلم **(وفيه ستة فصول)** النصح والنصيحة والمناصحة، إرادة الخير للغير وإرشاده له وهى كلمة جامعة كما سيأتى، والمفاعلة على حقيقتها؛ لأنها أن يفعل ويقول لصاحبه ما يفعله الآخر به وإن لم يتحدا، فنصيحة الأمة إيمانهم بما جاء به صلى الله تعالى عليه وسلم وانقيادهم لأوامره ونواهيه، ونصيحة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لهم بتبليغهم ما أمر بتبليغه وإرشادهم للخير، وقيل: إنه بمعنى النصح كالمخادعة فى قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٩]، وما ذكر فى الكتاب من ثواب محبته ونحوه استطرادى، وله تحقيق فى شروح الكشاف.

(الباب الثالث فى تعظيم أمره) أى: شأنه وحاله كتعظيم حديثه وآله صلى الله تعالى عليه وسلم، قيل: اللائق هنا تقديم اللزوم الآتى لا توسيطه، فيقول: لزوم تعظيم أمره وتوقيره فكأنه أشار إلى تقديمه تقديرًا؛ لأن من اللازم تعظيم أمره وتوقيره فهو من عطف العام على الخاص، وليس الأمر بمعنى الطلب هنا، وفى ذكره إيماء إلى أن توقيره أشد لزومًا من توقير أمره مع ما فى تركه أولاً من المبادرة إلى ذكر تعظيمه لشدة الاعتناء بنفس التعظيم، ففى كلامه ترق من الأدنى إلى الأعلى.

(ولزوم توقيره وبره وفيه سبعة فصول): توقيره تعظيم ذاته وأحواله ومن ينسب إليه وأمته ومعاهده وآثاره بحيث لا يدانيه أحد فيه، فدل صراحة على لزوم تعظيمه صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا وجه لما مر، وبره بكسر الباء وأصل معنى البر السعة، ومنه البر بالفتح مقابل البحر، ثم شاع فى الشفقة والإحسان والصلة، وهو المراد هنا وصلته صلى الله تعالى عليه وسلم بصلة أتباعه من أهله وغيرهم ممن مر ذكره.

(الباب الرابع فى حكم الصلاة عليه) صلى الله تعالى عليه وسلم **(والتسليم)** من الفرضية والاستحباب على كيفية مخصوصة فقوله: **(وفرض ذلك)** أى: فرضيته أو المفروض منه من عطف الخاص على العام **(وفضيلته)** أى: فضيلة المذكور من الصلاة

والسلام، ولتأويله بما ذكر أفرد الضمير ويكثر مثله في اسم الإشارة كقوله تعالى: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]. **(وفيه عشرة فصول)** مع ما ذكر معه استطرادًا كفضيلة المدينة وسكناها ومسجدها، وفضل الصلاة فيه، وفي مسجد مكة، وزيارته صلى الله تعالى عليه وسلم.

(القسم الثالث فيما يستحيل في حقه) صلى الله تعالى عليه وسلم، أي: يمتنع امتناعًا قويًا حتى يلحق بالمحال عقلاً كالكذب ونحوه، وأصل معنى الاستحالة التغير من حال إلى حال، ومنه استحال الخمر خلا، ويقال: استحال إذا صار أعوج، وقد ورد في كلام العرب استعماله في كلامهم كثيرًا كما وقع في عبارة الكتاب، ومن لم يقف عليه اعتراض على قول المتنبي، كأنك مستقيم في محال. **(وما يجوز عليه)** أي: يصح أن ينسب إليه سواء كان واجبًا أو جائزًا، أو المراد ما يصح اتصافه به صلى الله تعالى عليه وسلم، كإعراض لا يشين رتبته العلية من الأمور المتعلقة بالدين وغيرها؛ لأن الجواز بمعنى الإباحة من الأحكام الشرعية فقوله: **(وما يمتنع ويصح من الأمور البشرية أن يضاف إليه)** المراد به الأمور المتعلقة بالدنيا دون الدين، فيصح التقابل؛ لأن معناه ما يعرض لنوع الإنسان في بدنه، ويجوز أن يريد به ما يستحيل، ويجوز على أنه عطف تفسيري فلا يرد عليه ما قيل إنه لم يذكر ما يجب، واللائق ذكره أو لأنه إذا بين ما يستحيل منه فقد بين ما يجب؛ لأن استحالة الشيء تستلزم وجوب نقيضه فلذا أجمل واختصر، والمراد بإضافته أن يقول: إنه متصف به، وإما أنه من ذكر ما يجب وقد تعرض له فيما يأتي فيأباه جعله ثمرة ولبا؛ لأنه من أعظم الثمرات كما لا يخفى.

(وهذا القسم أكرمك الله) جملة دعائية، والمعنى: جعلك الله مكرمًا مبجلاً. **(هو سر الكتاب)** أي: خلاصته أو أفضله أو الخفي منه، والمراد أنه المقصود بالذات منه، ولما كان ما تضمنه من بيان ما تصح إضافته إليه وما لا تصح مما تمس الحاجة إليه في تعريف عظيم مقامه وجليل مقداره هو المقصود من التأليف، لئلا يقع أحد فيما لا يليق بمقامه أو يترك ما لابد منه كان ما ذكر هنا زبدة الكتاب ولبه، وقيل: السر بمعنى الأصل لأن ما سبقه مبني على العصمة من الرذائل ولا تساعده اللغة.

(ولباب ثمرة هذه الأبواب) لباب كل شيء خالصه، كما قال الزبيدي، ومنه اللب للعقل، ولبيك أي إجابة مع إخلاص، والثمرة بمعناها الأصلي، وتكون بمعنى الفائدة والنتيجة والغاية وهو مجاز مشهور، والأبواب المشار إليها جملة أبواب الكتاب أو البعض السابق من الأبواب بناء على أنه كالقواعد لما بعده، وما بعده كالأمور المبنية عليه فهو كالثمرة له فإضافة اللباب بيانية، كما قيل وهذه استعارة مصرحة بتشبيه مقصوده بثمرة

ذات لب، وقيل: إنها مكنية وتخييلية بجعل الكتاب بمنزلة شجرة مثمرة تشبيهًا مضمرًا فى النفس، وإثبات الثمرة تخييل وإضافته كذهب الأصيل، ورد بأن القواعد تأباه إذ لا ذكر للكتاب فى هذه الفقرة، ولا يخفى أن مراده بالكتاب هذه الأبواب؛ لأن الكتاب عبارة عنها، وقيل: المراد بالثمرة ما يستفاد من غيره أو المقصود، ولما كان غيره كالدليل عليه كان كالدليل، أو المراد أن ثمرته أى تعلمه والانتفاع به لباب الثمرات.

(وما قبله له) أى: ما ذكر قبل هذا القسم من الأبواب والأقسام ما هو **(كالقواعد)** القواعد فى الأصل الأساس وخشبات تركب الهودج فيها والعمد، وأتى بالكاف؛ لأنها ليست قواعد كلية بل شخصية، إذ موضعها ذات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كما قيل، والأظهر تشبيهها بالقواعد الحقيقية.

(والتمهيدات) جمع تمهيد، أى: أمر تمهد وهو فى الأصل مصدر بمعنى اتخاذ المهاد والفراش كما مر، والمراد أنها مقدمة وتوطئة له.

(والدلائل على ما نورده فيه): ضمير فيه للقسم ونورده بمعنى نذكره من ورد الماء وهو الذهاب للشرب، ويقابله الصدر، ثم تجوز به عن الإتيان بشىء ما، والدلائل جمع دليل على خلاف القياس، وفى الآيات البينات أنه جمع دلالة فإن فعالة يجمع على فعائل قياسًا. وذكر إمام الحرمين أنها تكون بمعنى الدليل والظاهر أنه مجاز، ويأتى إيضاح ذلك مبسوطًا عند قوله فصل، ومن دلائل نبوته وعلامات رسالته.

(من النكت البينات): قد مر أن النكت الأمور الدقيقة الغامضة، فجعلها بينات جمع بينة بمعنى واضحة بالنسبة للأذكياء، ولما كان ما قبله من استحقاق التوقير والجلالة وثبوت النبوة والرسالة كالدليل على ما يجب له صلى الله تعالى عليه وسلم ويمتنع عليه؛ لأنه إذا قيل يستحيل عليه النقائص لعلو قدره وظهور شرفه صح جعله دليلا، إلا أنه لما لم يكن مستلزمًا له استلزامًا عقليًا، جعل كالدليل والاستدلال عليه يعلم من علم الكلام وما فى غيره إقناعى، وإن كان لا شبهة فيه لمن جلا الإيمان مرآة ذهنه، وتحتمل البينة هنا أن تكون بمعنى بينة المدعى أو هو إيهام وتورية، لقوله بعده:

(وهو الحاكم على ما بعده) تشبيه بليغ، أى كالحاكم على القسم الرابع من جزاء سابه ومنقصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، والحكم خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين وإجراؤه وإبرازه أيضًا، ولا يخفى موقعه هنا، والحاكم فى الحقيقة هو القاضى ونحوه لا هذا القسم ونحوه، فإن مسائله ومن يعلمها إذا حقق ما يجب له ويجوز تبين له ذلك، فجعل تبين ذلك كالحكم فى شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم وشأن منتقصه.

(والمنجز من غرض هذا التأليف وعده) الوعد معروف وإنجازه إيقاع ما وعد به وإعطاؤه، وأصل معناه الإتمام أو الإحضار من نجز الأمر، والغرض هو المقصود من الشيء، ومن ابتدائية أو بيانية، والمراد بالغرض هنا تعريف حقوق المصطفى وضمير وعده راجع لما رجع له قوله هو أو للحاكم لا للغرض، والمنجز بصيغة الأفعال أو التفعيل وفاعله ما رجع إليه الضمير أيضًا، والفاعل الحقيقى هو المصنف رحمه الله تعالى، فالنسبة مجازية أو استعارة مكنية مخيلة مرشحة بجعل هذا القسم لتتميمه غرض التأليف كأنه كريم، وعده التفضل بمقصوده وإجابة السائل لما سأل منه من تأليف جملة الكتاب، فكأنه بهذا منجز للوفاء بالكلى أو هو من قبيل الحج عرفة، والسائل وإن لم يسئل ما فى هذا القسم صريحًا، إلا أنه لما استدعى ذلك كان كأنه مقصود له بالذات، فلذا اعتنى به المصنف رحمه الله.

(وعند التقصى) هو تفعل من الاستقصاء بالقاف والصاد المهملة، وهو بلوغ أقصى الشيء وغايته أو طلبه كما فى قوله:

يا طالبا ليس لى فى غيره إرب   إليك آل التقصى وانتهى الطلب

وفى بعض النسخ التقضى بضاد معجمة من تقضى الأمر إذا تم ومضى، أو بمعنى التقاضى والإلحاح، ويحتمل على الوجهين أن يكون أصله تقضض فأبدل إحدى المثلين ياء للتخفيف، كما قيل فى تظنبت واللام فى قوله: **(لموعدته)** بمعنى وعده أو موعوده صلة له أو تعليلية، وإنجاز الموعد مقابل لخلفه قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١]، وتقدر عندهم أن الوعد يكون فى الخير والثواب والوعيد فى ضده، ويجوز الخلف فيه ولو من الله، وقد يكون الكلام الواحد وعدًا ووعيدًا باعتبارين كقول الله تعالى: «لأهلكن من عادى رسلى»، فإنه نصرة لهم، وهاهنا إشكال مشهور وهو أن تخلف الوعيد كذب غير جائز على الله تعالى.

وعن أنس، رضى الله عنه، أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «من وعده الله على عمل ثوابًا فهو منجزه له، ومن أوعده على عمل عقابًا فهو بالخيار»(١).

وسئل أبو عمرو بن العلاء رحمه الله، أيجوز أن يعد الله على عمل ثوابًا ثم لا ينجزه؟ قال: لا. قال: فإذا أوعد عقابًا أفلابد أن ينجزه؟ فقال له: من قبل المعجزة. وأنبئت أن

---

(١) أخرجه أبو يعلى، والطبرانى فى الأوسط، كما فى مجمع الزوائد (٢١١/١٠)، وابن أبى عاصم فى السنة (٤٤٦/٢)، وابن عدى فى الكامل (١٢٨٨/٣).

العرب كانت شرفها أن تفى بالوعد وأن لا تفى بالوعيد، قال[1]:

وإنـــى وإن أَوْعَدْتُــهُ أو وَعَدْتُـــهُ لَمخْلِفُ إيعادى ومُنْجِزُ مَوْعــدِى

قالوا: ولا يلزمه الكذب لا لأن الكذب يكون فى الماضى والخلف فى المستقبل؛ لأن فساده ظاهر؛ لأنه عدم المطابقة مطلقًا بالاتفاق؛ بل لأن الوعيد مشروط بشروط مقدرة مسلمة معلومة من شىء آخر كعدم الإصرار، أو عدم التوبة، أو عدم العفو، فيكون فى قوة الشرطية فلا يلزم الكذب أصلاً. وقيل: إن الوعد والوعيد إنشاء لا يتصف به كما ذكره علماء الرسوم فى مثل قولهم: الصبى يقاوم الأسد أنه لإنشاء التعجب، وفى قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]، لإنشاء التحسر.

وقال بعض المشايخ: الوعد حق العبد والوعيد حق الله، والكريم قد يترك حقه ولا يشاحح فيه، وفى قواعد القرافى: اختلف فى لزوم الوعد والوفاء به الفقهاء، فقال مالك: لا يلزم، وبه قضى عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه. وقال سحنون: يلزم إذا دخل فى أمر كقوله لآخر: بع دارك وأنا أقرضك دراهم تشترى بها دارًا تسكنها. هذا ما قالوه برمتهم فى هذه، ولها تتمة لعل الدهر ينجز ميعادها.

(والتفصى عن عهدته) هو تفعل بالفاء والصاد المهملة منقوص بمعنى الخروج والخلاص وبينه وبين ما قبله تجنيس، والعهدة بضم العين المهملة وهاء ساكنة يليها دال مهملة ضمان ما يتعهده العاقل فى ذمته فيلزمه، وأصل معناه الوثيقة، فجعل المصنف، رحمه الله، إجابة سائله كأمر التزمه فى ذمته يلزمه أداؤه، ففيه استعارة تصريحية، وعن متعلق بما بعده من قوله:

(يشرق به صدر العدو اللعين): يشرق من شرق يشرق، كفرح يفرح من الشرق، وهو وقوف الشراب ونحوه فى الحلق، والغصة مثله لكن استعمالها فى غير المايعات أكثر، والمعروف إسناده للحلق الذى هو مجراه كقوله:

لـو بغيـر المـاء صـدرى شـرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى

ويسند للإنسان نفسه، وأما إسناده للصدر كما فى عبارة المصنف، رحمه الله، فغير معروف، فكأنه قصد به المبالغة فى كثرته وعدم الخلاص منه؛ لأن الغصة تكون سائغة لسعته، فإذا كان الصدر نفسه شرقًا لا يدفع، وشرق هنا بمعنى تألم واغتاظ كما فى قول

(١) البيت من الطويل، وهو لعامر بن الطفيل فى ديوانه (ص٥٨)، لسان العرب (٣/٤٦٤)، (وعد)، وبلا نسبة فى إنباه الرواة (٤/١٣٩)، مراتب النحويين (ص٣٨).

الأعشى[١]:

وَتَشْرَقَ بالقول الذى قد أذَعْتَهُ كما شَرِقَتْ صدر القَنَاةِ من الدم

وليس فى قوله: صدر القناة شاهد للمصنف، رحمه الله، وتعريف العدو جنسى أو استغراقى وهم أعداء الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، ووصفه باللعين للذم لا للتقييد إذ كل عدو له، صلى الله تعالى عليه وسلم، كافر مستحق اللعنة، وأصله المطرود مطلقًا كما فى قول الشماخ[٢]:

ذعرت به القطا وتعيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

ثم خص بالمطرود عن رحمة الله أو للعهد وأراد به إبليس بقرينة اللعين؛ لأنه مطوق باللعنة ليوم الدين، وقيل: يشرق بمعنى يضيق كضيق صدر من شرق بريقه عند موته، وفى المقتفى يضيق صدره حسدًا.

(ويشرق قلب المؤمن باليقين) مضارع أشرق إذا أضاء، وهو لازم، وجوز بعضهم تعديه كما فى قوله[٣]:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

والباء آلية أو سببية كما فى قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]، والقلب مشبه بما يقبل الإضاءة أو بمشكاة، واليقين مشبه بالنور كما يشبه به مطلق العلم، ويشبه الجهل بالظلمة، ويجوز فتح ياء يشرق؛ لأنه يقال: شرقت الشمس وأشرقت بمعنى والمعروف المزيد، وأن أثبت أهل اللغة ثلاثية أيضًا، والإشراق صفة الكواكب ونحوها وما يقع عليه الضوء من الأجرام.

(وتملأ أنواره) الضمير المضاف إليه لليقين والإضافة له مع أنه جعل قبله النور عين اليقين، إما لأنه من قبيل لجين الماء إشارة إلى أن الإضافة لا تخص القلب بل تفيض على ما حوله فتملأه، أو المراد بالأنوار أنوار أخر حاصلة من ذلك النور أيضًا، كالهداية إلى

---

(١) البيت من الطويل، وهو للأعشى فى ديوانه (ص١٧٣)، الأزهية (ص٢٣٨)، الأشباه والنظائر (٢٥٥/٥)، خزانة الأدب (١٠٦/٥)، الدرر (١٩/٥)، شرح أبيات سيبويه (٥٤/١)، الكتاب (٥٢/١)، لسان العرب (٤٤٦/٤)، المقاصد النحوية (٣٧٨/٣).

(٢) البيت من الوافر، وهو للشماخ بن ضرار فى ديوانه (ص٣٢١)، جمهرة اللغة (ص٩٤٩)، خزانة الأدب (٣٤٧/٤)، شرح المفصل (١٣/٣)، لسان العرب (٣٨٨/١٣)، المعانى الكبير (١٩٤/١)، المنصف (١٠٩/١).

(٣) تقدم الاستشهاد به.

الحق ودفع الشبه ونحوه، كما أن نور الشمس الذاتى يحصل منه أنوار أخر تملأ الكون، والمراد بكونها مالئة له أنها عامة شاملة له وهو استعارة مكنية مخيلة حيث شبهت الأنوار بالمياه الفائضة من البحار، وأثبت لها الملئ ويجوز عود الضمير للقلب.

(جوانح صدره) جمع جانحة وهى الضلوع التى تلى الصدر تحت الترائب، كالضلوع مما يلى الظهر ولذا أضيفت للصدر، وإضافة الصدر بضمير القلب لما بينهما من الملابسة التامة، والقلب معروف وتفسيره بلطيفة مدركة مرتبطة بهيكل الإنسان وقع لبعض الصوفية وهو مخالف للغة، ومراد المصنف، رحمه الله، فلا وجه له كما مر.

(ويقدر العاقل النبى) صلى الله تعالى عليه وسلم **(حق قدره)** يقدر بزنة ينصر يعرف مقداره ويتصور عظيم مقامه صلى الله تعالى عليه وسلم كما هو، وقد فسر ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، بما عرفوه حق معرفته والعاقل، بعين مهملة وقاف، وفى حواشى التلمسانى أنه بغين معجمة وفاء، قال: المراد أنه يكون سببًا لتنبه الغافل وقدرته ولو لم يقل أنه رواية، قلنا: إنه تحريف من الناسخ ومن له لب إذا تنبه لما قاله المصنف وأحاط به خبرًا عرف إجمالاً جلالة شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، ولمعت من أفق اليقين له بوارق برهانه، وإن لم يحط بجملته فإنه لاتسعه العقول ولا يحيط به نطلق البيان كما قال:

إنما مثلوا صفاتك للناس كما مثل النجوم الماء

ويقدر معطوف على يشرق **(ويتحرر الكلام فيه)** أى: يتم ويجىء محررًا مهذبًا فى هذا القسم وفيه متعلق بالكلام؛ لأنه مصدر أو اسم مصدر يعمل عمل فعله أو حال منه، وقوله: **(فى بابين)** متعلق بيتحرر.

(الباب الأول فيما يختص بالأمور الدينية) أى: الأمور المتعلقة بما يجب ويجوز ويمتنع عليه بحسب الشرع والدين. **(ويتشبث به القول فى العصمة)**: التشبث بمثناة فوقية وشين معجمة وباء موحدة مشددة ومثلثة التعلق والتمسك بما فيه ضعف، كقولهم الغريق يتشبث بالحشيش أى النبات، وضمير به لما فهم مما قبله أى بما ذكر أو بما يختص إلى آخره، وجعله لكونه مرتبطًا به كأنه متمسك به، وفى التعبير به مع العصمة لطف؛ لأنها فى الأصل بمعنى الربط، ثم صارت بمعنى المنع، وخصت عرفا بمنع الله عبده عن جميع ما لا يرضاه من الذنوب بمجرد حفظ الله له، أو بخلق الله له صفة نفسانية تمنعه من ارتكابها، ولكونها بخلق الله لمن يختار تفضلاً منه لا يتوهم أنه مبنى على القول بالإيجاب، وأن النبوة كسبية وهو ليس بمذهب أهل السنة، ويكون أيضًا بمعنى صونه عن أذية

أعدائه بحيث لا يقدرون عليها كما فى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، كما سيأتى، وإذا وقع لبعض الأولياء تسمى حفظًا لا عصمة، فلا يقال لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنه معصوم، ولذا اختلف فى الدعاء بالعصمة لغيرهم هل يجوز أم لا؟ والصحيح كما قاله ابن حجر فى الزواجر: إنه يجوز لأنه ورد فى الأدعية المأثورة: اللهم اعصمنا فى الحركات والسكنات. لكنه بمعنى مطلق الحفظ وسيأتى تحقيقه وتعلق العصمة بما ذكر؛ لأنها مبدأه ومنشأه.

(وفيه): أى فى هذا الباب **(ستة عشر فصلا)** يأتى بيانها.

(الباب الثانى فى أحواله الدنيوية) أى: الطارئة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم فى الدنيا من جهة الأشباح لا من جهة الأرواح، ولذا قال:

(وما يجوز طرؤه عليه): أى عروضه وحدوثه، يقال: طرأ مهموزًا بزنة قعد طرؤًا كقعودًا، وتبدل همزته واوًا فتدغم فى مثلها! فيقال: طرو كعلو وقد سمع ذلك كما فى كتب اللغة القاموس وغيره، ولا فرق بينهما وإن كان فى كلام ابن القطاع ما يقتضيه، وفى المقتفى: أنه ضبط هنا بتشديد الواو، وإذا أسند إلى الناس كان بمعنى القدوم يقال: طرأ علينا فلان، أى قدم فلذا قال:

(من الأعراض البشرية) جمع عرض بفتحتين وهو ما يعرض له من جهة ظاهرة سواء كان عرضًا قارا أم لا، والأطباء يخصونه بغير القار فيقولون: عرض ومرض، ووصف الأعراض بالطرد والحدوث حقيقة، ولو فسر بالقدوم كان مجازًا لكنه لا داعى له لما مر والبشرية المنسوبة للبشر، ففيها إشارة إلى أنها غير مختصة به، وما يجوز احتراز عن الأعراض المنقصة التى لا تجوز عليه فلا إطناب فيه كما توهم.

(القسم الرابع فى تصرف) هو تفعل من التصريف الذى هو التحول. **(وجوه الأحكام)**: مر معنى الحكم، والوجوه جمع وجه، له مغان مجازية؛ منها: النوع والقسم يقال: الكلام على أربعة أوجه، وتصرفها تحولها وتبدلها كتصريف الرياح، وقيل: تبينها وكونه بمعنى تنويعها وذكر الوجوه تجريد عدول عن الجادة بلا فائدة، والمراد بيان أنواع الأحكام المتعلقة بها وما يلزم من قالها.

(على من تنقصه) فتعلق بتصرف أى: نسبة ما فيه نقص لجنابه صلى الله تعالى عليه وسلم المبرأة عن النقائص.

(أو سبه) السب: الشتم، أى: بيان حكم من سبه صلى الله تعالى عليه وسلم، والفرق بينه وبين ما قبله أن السب المجاهرة بالصفات الذميمة والتنقيص أعم منه، فإن من قال له:

يا محمد فقد تنقصه وليس بشتم له، وينبغي أن يخص بغير الشتم فليسا متساويين ولا بينهما عموم وخصوص حتى يرد عليه أنه لا يصح العطف بأو هنا أو يتكلف، فيقال: حكم العام غير حكم الخاص، أو يقال: السب بمعنى اللعن وعلى متعلقة بتصرف أو بالحكم، وكونها بمعنى إلى أى تحول وجه الأحكام إليه على أنه استعارة تعسف من غير داع، ويجوز كون الجار والمجرور حالا.

(وينقسم الكلام فيه فى بابين) ضمن ينقسم معنى يتحرر ويتم، كما عبر به قبيله، فمن قال معناه إلى بابين أو حال كونه فيهما إلى أمور فقد تكلف.

(الباب الأول فى بيان ما هو فى حقه سب ونقص) النقص هنا أعم من السب أو بمعناه كما مر، فلذا عطف بالواو، وليسا بمعنى، كما قيل، وقيل: الواو بمعنى أو كما يفهم من كلامه الآتى.

(من تعريض أو نص وفيه عشرة فصول) المراد بالنص هنا الصريح وله معان أخر، كلفظ القرآن، ولفظ الحديث، والدلالة على ما لا يحتمل اللفظ غيره، والتعريض ما يفيد معنى يلوح له الكلام ويومئ إليه، كأنه يؤخذ من عرضه أى جانبه يقال: نظر إليه بعرض وجهه وهو قسم من أقسام الكناية، والمراد به هنا ما يقابل النص لوقوعه عديلا له وفيه كلام طويل فى كتب المعانى والتفسير بيناه فى حواشى البيضاوى.

(الباب الثانى فى حكم شانئه) هو اسم فاعل مهموز الآخر من الشنآن وهو البغض والعداوة، ويجوز إبدال همزته ياء وفتح نونه وتسكينها. **(ومؤذيه)** هو الآتى بما فيه أذية له قولاً أو فعلاً، يقال: أذاه يؤذيه إيذاء وإذاء ولا عبرة بما فى القاموس من إنكاره للإيذاء كما بيناه فى كتابنا شفاء الغليل. **(ومتنقصه)** بتشديد القاف وفى نسخة صحيحة منتقصه بتقديم النون على المثناة الفوقية، يقال: انتقصه وتنقصه إذا أتى بما فيه نقص لكمال قدره من قول أو فعل أو ترك يقتضى ذلك.

(وعقوبته) بالجر عطف على حكم أو على شانئه، والضمير عائد على كل واحد لتأويله بالمذكور أو على أحدهما؛ لأنه عين الأخير، والعقوبة ضد العفو ما يقع فى مقابلة ذنب، وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]، فهو مشاكلة أو بمعناه اللغوى.

(وذكر استتابته) معطوف على حكم، والمراد به ما يتعلق بتوبته من القبول وعدمه إثباتًا ونفيًا، وأصل معناه طلب التوبة، وقيل: الاستفعال للتحويل عن أصله إلى غيره كقوله:

إن البغــاث بأرضنـــا يستنســر

أى يتحول من البغاثية إلى النسرية، فالمراد بـه التحـول إلى التوبـة بعـد الكفـر فتدبـر. **(والصلاة عليه)** أى الصلاة على جنازة من ذكر بعد موته. **(ووراثـه)** أى حكـم وراثتـه نفيا وإثباتًا كما فى ميراث المرتد وهل يرث هو من غيره أو لا؟ وتأخير الصلاة والوراثـة عن الاستتابة فى غاية الأحكام لمصادفته محزه.

(وفيه عشرة فصول): كذا فى كثير من النسخ وهو سهو من قلم الناسخ، والصـواب كما فى بعض النسخ خمسة فصول، وهو الذى صححه مغلطاى والشمنى فـى حواشيه وهو الظاهر، ولا يتأتى فيه ما مر فى الزيادة كما قيل، إذ لو كـان زيـادة لم يضر ضرر النقص، فكأن المصنف بيض له ولم يلحقه بعد، **أقول**: هذا ما قالوه برمتهم وسيأتى قريبًا ما يرشدك إلى الصواب فيه.

(وختمناه)، أى: جعلناه ختام هذا القسم لا الباب الثانى كما قيل أو الضمير للكتاب **(بباب ثالث جعلناه تكملة لهذه المسألة ووصلة للبابين اللذيـن قبلـه)** أى: لمـا ناسـب هـذا القسم جعله مكملاً لما قبله من المسائل ومتصلاً به بأن عده بابًا ثالثًا من هذا القسم، وإن لم يكن منه، والوصلة بضم الواو الاتصال وهو اسم مصدر بمعنى اسم الفاعل، فلـولا مـا قصده كان هذا خاتمة الكتاب أو قسمًا خامسًا.

(فى حكم من سب الله ورسله) عليهم الصلاة والسلام مطلقًا أو غير نبينـا، صلـى الله تعالى عليه وسلم، **(وملائكته وكتبه وآل النبى)** عليه الصلاة والسلام **(وصحبه)** رضى الله تعالى عنهم، أى: فى حكـم مـن صـدر منـه سـب لواحـد مـن هـؤلاء، أو للجميـع، أو الفريقين منهما مجتمعًا أو منفردًا، ولا ينافيه كون من الموصولة تفيد العموم حتـى يتوهـم أنه بقى حكم من سب فردًا من هؤلاء غير مذكور، والعطف بالواو لا يقتضـى أنـه فـى حكم من سب هؤلاء على سبيل الاجتماع، مع أن المراد الأعم من ذلك كما لا يخفـى، ولا حاجة إلى أن يقال: الواو بمعنى أو، فإن العموم يكفـى لصحـة إمكـان شمولـه سـواء كان ذلك فى الواقع أو لا، مع أن مثله إنما يدقق فيه إذا كـان فـى كـلام يسـتدل بلفظـه كالقرآن والحديث، أما فى كلام المصنفين فلا، مع أن تعريف الموصول كـاللام فيجـرى فيه أقسامها، فسقط ما فى بعض الشروح هنا من التعسف.

(واختصـر الكـلام فيـه) بالمـاضى المجهول، وفـى بعـض النسـخ نختصـــر بالمضــارع، والاختصار تقليل اللفظ مع تكثير المعنى، أى جعل الكلام متصفًا بالاختصار فيما ذكر.

(فى خمسة فصول) قيل: الصـواب فـى عشـرة كمـا فـى بعـض النسـخ وهـو المطـابق

للواقع، وأما كون الزيادة بدت له بعده بناء على تقدم الخطبة علـى التـأليف أو العـدد لا مفهوم له، فلا ينافى الزيادة فقد مر ما فيه، ولك أن تقـول: إن ضمـير فيـه ليـس للبـاب الثالث حتى يرد عليه ما ذكر، بل لما تقدم إجمالاً، والمعنى أنه كـان هـم أن يجعـل البـاب الثانى عشرة فصول فاختصره فى خمسة، وأفرد للخمسة الباقية بابا ثالثًا فصارت فصولـه خمسة، وهذا وإن كان فى غاية الخفاء أحسن من حمله على الخطأ، وهذا ما وعدناك به، فإن صادف محـز القبـول وإلا فاطرحـه فـى زوايـا الفضـول، ويكـون هـذا معنـى قولـه: **(وبتمامها)** أى: بتمام هذه الفصول المكملة لما قبلها.

(ينتجز الكتاب) تفعل من نجز بجيم وزاى معجمة: أى تم وانقضى فهو مطـاوع نجـز، قال ابن القطاع: نجزت الحاجة وأنجزتها فتنجزت قضيتها، وقالوا: أنجـز بـالفتح والكسـر أشهر، وفى غـيره أنـه بمعنى يحضـر أو يتـم أو ينقطـع، وفـى المقتفـى: أنجـزت حـاجتك قضيتها، والكتاب حاجة للسائل موعود بها وهو مختلف فـى النسـخ، ففـى بعضـها مـن الافتعال وفى بعضها من التفعل، والكل بمعنى، واختار المزيد؛ لأنه أبلغ، وقيل: ليفيد أنـه بفعله.

تنبيه: فى الملائكة أقوال لأهل اللغة، فقيل: جمع ملك بزنة فعل شذوذ أو قيـل: مفـرد ملئاك كشملال حذفت همزته بعد إلقاء حركتها على ما قبلها، ثم ردت للجمع فوزنـه فعائلة وهمزته زائدة، وقيل: ملأك على وزن مفعـل فميمـه زائـدة ووزن جمعـه مفاعلـة، وقيل: مفرده مألك فنقلت فوزن جمعه مفاعلة، وقيل: مفرده ملاكـة كفعالـة مـن لاكـه يلوكه فحذفت عينه تخفيفًا، ووزنه مفل، وملائكة وزنه مفاعلة ويقال فيه: ملائك أيضًا.

(وتتم الأقسام) يعنى الأربعة المذكورة **(والأبواب ويلوح فى غـرة الإيمـان لمعة منـيرة)** يلوح بالحاء المهملة بمعنى يبدو ويظهر، والغرة فى الأصل بياض فى جهة الفرس، ويطلـق على ظاهر كل شيء وأوله، واللمعة بضـم الـلام مـن لمـع الشـيء يلمـع لمعانـا إذا أضـاء وجمعه لمع ولماع كبرمة وبرام، واللمعة أيضًا البقعـة فيـها كـلأ، والقطعـة مـن النبـت إذا يبست فابيضت وموضع لا يصيبه ماء الغسل ذكره الصغانى، وعليـه اسـتعمال الفقـهاء، وأما اللمعة بالفتح فمصدر لمع والرواية هنا على الضم، ومنـيرة مـن أنـار ويكـون لازمًـا ومتعديًا أى ذات نور، ويكون بمعنى بين واضح ومبين ومظهر، والمراد أنـه إذا تم مـا فـى كتابه وانتقش فى صحائف الأذهان ازداد نور الإيمـان؛ لأن الإيمـان بـالله ورسله عليـهم الصلاة والسلام إذا قرن بتعظيم هذا النبى الكريم ومحبته والعلم بما تؤدى إليه مخالفته مـن النكال أوصل صاحبه لأعلى عليين، إذا عرفت هذا فيلوح إن قرئ بالمثناة الفوقية ففاعلـه لمعة، وإن كانت بالتحتية ففاعله ضمير ما ذكره، ولمعـة الموصـوف تمـيز أو حـال وغـرة

الإيمان أشرفه وأظهره، فإضافته حقيقة أو هو كلجين الماء؛ لأنه به يثمر صاحبه وتظهر سعادته فى الدارين، أو يظهر أنه جواد سابق فى حلبة السابقين الأولين ففيه استعارة مكنية وتخييلية، وعلى الرفع فيه تجريد كقوله: وفى الرحمن للضعاف كاف.

واللمعة: هى الغرة أو غرة الإيمان بمعنى ظاهره وأعلاه، على أنه استعارة مصرحة، وجعل ما ذكر فيه لمعة فيه أى: نورًا لائحًا عليه؛ لأنه زيادة فى إيمانه، وأشار بأنه لمعة إلى أنه من جنسه لا يكاد يتميز عنه، وإن كان البياض يقبل الزيادة حتى يتميز بعضه عن بعض بشدة بياضه، ولذا وصفه بالإنارة، فإن فهمت فهو نور على نور.

وفى بعض الشروح أنه شبه الإيمان بفرس ينجى صاحبه من المهالك، والأغر محمود فى جنسه ففيه استعارة مكنية، وإثبات الغرة تخييل أو شبه كتابة هذا بلمعة منيرة فى غرة فرس على نهج الاستعارة المصرحة، وكنى بغرة الإيمان عن الكتب المؤلفة فى شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، وكنى باللمعة عن كتابه وأن له من بينها شأنًا لجمعه ما تفرق فيها، وفاعل تلوح لمعة لا ضمير الكتاب كما توهم، أو الغرة مطلق البياض والإيمان التصديق بما جاء به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وإضافته من إضافة الصفة لموصوفها أى: فى الدين النقى يلوح لمعة منيرة، واللمعة كتابه فكأنه زاد بياض الدين ونوره وتنكير لمعة للتعظيم أو للتقليل بالنسبة لشرف مقامه الأول أولى، ولا يلزم من كون كتابه منيرًا سلب النور عن غيره من الكتب حتى يكون ذمًا له غايته أن له زيادة عليها.

واعترض على المصنف رحمه الله تعالى، بجعله اللمعة فى الغرة بأنها لا تظهر فيها، فكان عليه أن يقول: يلوح فى جبهة الإيمان غرة، وبما قررناه علم أن هذا بمراحل عن المرام، وأنه غنى عن الرد، ولك أن تقول اللمعة هنا جزء من الغرة لا أمر زائد عليها، والمعنى أن الإيمان كالغرة المميزة لصاحبها؛ لأن هذه الأمة غر محجلون، ويعنى أن هذا الكتاب شعبة من شعبه وهذا أحسن وأوضح مما قالوه.

وقوله: **(وفى تاج التراجم درة خطيرة)** أى عبارته الدالة عليه لاستلزامها لإظهار الإيمان، والإقرار به بمنزلة تاج على رأس عظيم لدلالتها على رفعة قدره، وما يدل منها على هذه المعانى كدرر مكللة بها التاج، ومناسبة الغرة للتاج والدرة ظاهرة فهو على هذا خبر مبتدأ فتدبر عبارته، أو هى درة على الاستخدام؛ لأن ما تقدم معان، وهذه ألفاظ وكونها زينة ظاهر، وفيه استعارة مكنية لتشبيه العارف بها بذى سلطان وأثبت له ما هو من لوازمه.

والتراجم: جمع ترجمة، بمعنى العبارة فى كلامهم كثير، كقوله فى أدب الكاتب:

ترجمة تروق بلا معنى، وقد أمر أنه معرب، وفى شرح أدب الكاتب أنه عربى وهى تفعلة من الرجم يقال: رجمت إذا ظننت، قال الله تعالى: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [الكهف: ٢٢]، قال: ما كان من غيب ورجم ظنون. فكان الترجمان الذى يصيب بظنه معنى كلام المتكلم بلسانين، ويقال: ترجمان وترجمان، وفى النهاية تراجم جمع ترجمان بفتح التاء وضمها، وهو المترجم، وفيه نظر.

وخطيرة: بخاء معجمة وطاء، وراء مهملتين بمعنى ذات قدر عظيم، وقيل: التراجم ما ألف فى معناه كدلائل النبوة لترجمتها عن نعوت النبوة، وجوز بعضهم أن يراد بالتراجم العلماء بناء على أنه جمع ترجمان وهو بعيد جدًا، ولما ذكر أن كتابه من الأنوار الربانية أردفه بجعله من بين نظائره كدرة باعها، إما على أنه شبه التراجم أى الكتب بالملوك للانقياد لها والعمل بما يقتضيه، أو تشبه كتب السير بتاجها الذى به محزها وكتابه بدرة نفيسة تشبيهًا بليغًا، أو استعارة تمثيلية أو مكنية مخيلة مرشحة وتاج التراجم كلجين الماء، وفيه إشارة إلى أن كتب المتقدمين فى غنى عنه، وفى تاج معطوف على قوله فى غرة فهو متعلق بيلوح.

(تزيح كل لبس) تزيح كتزيل وزنًا ومعنى، والضمير المستتر فيه راجع لما يرجع له ضمير يلوح وهو جملة الأقسام والأبواب، ويجوز رجوعه للمعة وهو أولى من رجوعه لدرة لإزالتها بضيائها ظلمة اللبس، وإن رجحوه لقربه وعدم العاطف، ومثل هذه الجمل بعد النكرات المتبادر أنها صفات وإن جاز أن تكون استئنافية، وأما كونها حالاً فبعيد، واللبس فى الأصل الخلط والاختلاط، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢]، فالمراد الاشتباه أو الشبه، يعنى أن كتابه يزيل الاشتباه فى أحواله صلى الله تعالى عليه وسلم أو فى الدين فى الجملة، وقيل: اللبس هنا بضم اللام الشبهة.

(وتوضح كل تخمين وحدس) لفظ حدس سقط من بعض النسخ ووقع فى بعضها على أنه قافية فهو فقرة مستقلة، وفى المقتفى أنه سقط من نسخة المصنف فتخمين قافية ما بعدها على نمط واحد وله وجه، والتخمين والحدس متقاربان وهما الاعتقاد بمجرد الظن والتوهم، وعند أهل الميزان الحدسيات أمور يحكم فيها العقل بما يلوح للنفس من الأمارات الدالة عليه، كالحكم بأن القمر يستفيد الضوء من الشمس بواسطة تشكلات نوره بحسب قربه وبعده منها، فالمراد هنا أن كتابه هذا يوضح الأمور المتوهمة بحيث يشرق عليها أنوار اليقين فيضمحل التخمين، ويطلق الحدس أيضًا على سرعة الانتقال من المبادى للمطالب، والمراد الأول؛ لأنه حقيقة لغة. **(ويشفى صدور قوم مؤمنين)** مناسبة هذا للكتاب وللمعنى المقصود فى الآية ظاهر؛ لأن المراد أنه يشفيهم من مرض

الجهل والشبه والغيظ حيث حكم بقتل العدو، كما حكم هنا بقتل الساب، إلا أنه وقع هنا فى نسخة يشف بدون ياء فى آخره؛ لأنه مجزوم فى النظم الكريم، وفى نسخة بياء فى آخره؛ لأنه مستأنف مرفوع فى كلام المصنف رحمه الله، إذ لم يتقدمه ما يقتضى الجزم، قالوا: وهو مصحح هكذا فى نسخ المشايخ كمغلطاى، والنسخة الأولى لا وجه لها هنا إلا قصد حكاية لفظ التلاوة والاقتباس، وأورد عليه أنه جعله من كلامه ولا موجب للحذف فيه، وكيف تقصد التلاوة والضمير فى الآية لله لا للدرة واللمعة، حتى يرد عليه أنه ينبغى أن تكون العبارة تشفى بالتاء الفوقية؛ لأن فاعله ضمير المؤنث، ويعتذر عنه بأنه عائد عليها باعتبار كونها كناية عن الكتاب، كما قيل: فإنه تكلف أنت فى غنى عنه بما سمعته آنفًا وأول الآية ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]، وهو مجزوم فيها فى جواب أمر غير مذكور ولا يقدر فى كلام المصنف رحمه الله تعالى، ولا يخفى أن الحكاية مسوغة لما ذكر، والمقتبس قد يبقى بلفظه وقد يتغير كما فى قول ابن الرومى[1]:

فقد أنزلت حاجاتى بواد غير ذى زرع

فإن المراد به فى القرآن واد لا نبات فيه وفى الشعر رجل لا خير فيه، كما أن المراد فى النظم بالقوم بنو خزاعة وهنا مطلق المؤمنين، والمراد أنه يشفى صدورهم بما يقفون عليه من صفاته صلى الله تعالى عليه وسلم لإيمانهم، حتى يقال: إن المؤمنين قلوبهم مشفية، ويجاب بأن الإيمان يقبل الزيادة وزيادة الشفاء شفاء، فإنه كلام ناشئ عن سوء الفهم، وقد اختلفوا فى جواز الاقتباس، فأجازه بعضهم مطلقًا، ومنعه آخرون مطلقًا، وفصل بعضهم فقال: الحق جوازه ولو مع تغيير لفظه إذا لم يقصد التلاوة ولم ينقل إلى معنى سخيف من هزل ونحوه، فإن فيه تلاعبًا بالقرآن لا يجوز، ولذا نقل عن الإمام مالك رحمه الله، أنه لا يجوز التفاءل من المصحف. وما وقع فى فتاوى الصوفية من أن عليًّا كرم الله وجهه فعله لا أصل له، وفى كتب فقه الشافعية جواز ذلك مع الكراهة.

(وتصدع بالحق) أى: تجهر بما يدل على الحق وهو الأمر الثابت فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال ابن عرفة رحمه الله تعالى فى قوله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الزمر: ٩٤] أى: فرق بين الحق والباطل، يقال: تصدع القوم إذا تفرقوا، أى يظهر به أو يحكم أو يفصل، ويأتى الكلام على هذه الآية عند ذكر المصنف لها، وما قيل أنه يحتمل ينشق بالحق أى: يظهره من خلال تراكيبه تعسف لا داعى له، وقيل: المراد بالحق هنا القرآن لما

(١) البيت من الهزج، وهو فى ديوان ابن الرومى (ص١٥٥٣)، عيون الأخبار (١٤٣/٣)، الأغانى (٨٩/٢٠)، وبلا نسبة فى العقد الفريد (٢٨٥/١).

فيه فى كثير من آياته، وقد جاء الحق مرادًا به القرآن فى الآيات وهو تكلف أيضًا، وهو فى الأصل استعارة من صدع الإناء إذا شقه، وقيل: المراد ينشق القلوب بما فيه من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

(وتعرض) بضم أوله وكسر ثالثه رباعى أى: يصد **(عن الجاهلين)** بحقوق الله ورسوله والغافلين عن على قدره، وإعراض الكتاب عنهم استعارة لعدم التفاته لأقوالهم ذكرًا وردًا كمنكر الحشر ونحوه، فلا يعبأ بهم فإنه إنما صنف كتابه للمؤمنين، أو المراد عدم انتفاعهم به فإنهم كتبت عليهم الشقاوة، والسامع للحق إما مؤمن يستشفى به صدره ويزداد إيقانًا، أو كافر له عقل سليم يرتجى قبوله الحق، أو ذو غباوة مفرطة أو معاند فأشار إلى الأول بقوله: تشفى، وإلى الثانى بقوله: تصدع، وإلى غيره بقوله: تعرض إلخ. وهذا لا يلاحظه المصنف فى كلامه؛ لأن كتابه إنما صنفه للمؤمنين كما صرح به، وقد يراد فى بعض الأقسام من يضاهيهم فى بعض الصفات.

(وبالله سبحانه لا إله سواه أستعين) فى النسخ هنا اختلاف، ففى بعضها بدل سبحانه وتعالى، وفى بعضها إسقاطهما، وفى بعضها لا إله إلا الله الحق المبين، وليس فيه اختلاف معنى، والتسبيح التنزيه عما لا يليق، وسبحان مصدر سبح، والكلام عليه ليس هذا محله، وطلب المعونة من الله على ما قصده من التأليف والانتفاع به وسبحه؛ لأن السائل ينبغى أن يقدم الحمد والتعظيم قبل الطلب كما وقع فى الفاتحة فنزهه أن يجيب قاصده، ولذا قال: لا إله سواه، أى: لا معبود ولا مقصود فى المهمات سواه، والجملتان معترضتان بين أستعين ومعموله المقدم للاهتمام وإفادة الحصر؛ لأن الاستعانة الحقيقية لا تكون إلا من الله وغيره وسائط، ولذا استشكل حصر الاستعانة فى إياك نستعين مع الاستعانة فى باء بسم الله على أحد الوجوه.

وأجيب: بأن طلب المعونة لا يكون إلا من الله، وأما معونة الشفاعة والتوسل فيكون من غيره كأنبيائه ورسله كما ذكره شراح الكشاف. والمعونة إما ضرورية يتوقف عليها الفعل كالآلة، أو مسهلة كالراحلة للقادر على المشى كما فصله القاضى فى تفسير وإياك نستعين، قيل: وعلى نسخة بالله لا سواه إشكال لأن التقديم يفيد الحصر والعطف بلا يفيده أيضًا، ولذا منع أهل المعانى العطف به بعد الحصر كما فى عبارة المصنف، وقالوا: إنه غير صحيح عندهم، ثم أجاب بأن الذى متعوه بعد ما وإلا فلا يقال ما قام إلا زيد لا عمرو، وأما بعد حصر التقديم ونحوه فلم يقف عليه، فيجوز أن يفرق بينهما مع إفادته الحصر وقصده غير متعين إلى آخر ما قرره فأطال فيه.

أقول: هذا عجيب منه، فإن هذه المسألة ذكرها عبد القاهر والسكاكى، ووقع فى

كلام الزمخشرى فى مواضع ما يخالفه كقوله تعالى فى سورة آل عمران.

(ما هى إلا شهوات لا غير)، وذكـر شـراحه كلـهم أن هـذا لم يقـم عليـه دليـل عنـد العلامة، والخلاف إنما هو بعد ما وإلا والنفى الصريح لا فـى غـيره، فالسـؤال والجـواب ساقط وقد تكلمنا عليه فى السوانح.

ثم أنه شرع فى المقصود فقال:

[القسم الأول فى تعظيم العلى الأعلى لقدر هذا النبى قولا وفعلا]

(**القسم الأول فى تعظيم العلى الأعلى**) أسماء الكتب وألفاظ التراجم فيها احتمالات مشهورة أقر بها أن المراد بها الألفاظ، والمعروف أنها ظروف وقوالب للمعانى، فإذا عكس كما هنا فهو بتقدير مضاف أى فى بيان تعظيم إلخ، والبيان يكون بهذا اللفظ وغيره، فهو من ظرفية الخاص فى العام لدخوله فيه وشموله له، فشبه أحد الشمولين بالآخر، وعلى المشهور المعنى لما يخيل أو لا، وأتى له بلفظ تقديره كان، كالمظروف المقصود الذى يؤتى له بظرف مناسب، أو هو كاللباس كما فصلوه، وقيل فى بمعنى اللام، والمراد بكونه فيه أنه مقصود منه فلا ينافى ذكر غيره بطريق التبعية، والعلى هو شأنه فى نفسه والأعلى عما عداه، فالأول بالنظر لذاته فلذا قدم، والثانى بالنظر لغيره، وليس للتفضيل على معنى فإنه لا يشاركه ولا يدانيه شىء، ولذا عدى بعن فقال الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الإسراء: ٤٧]، لبعده عن مخلوقاته ولذا قال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

فإن قلت: لما نزلت هذه الآية؟ قال: اجعلوها فى سجودكم. ولما نزل ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦]، قال: اجعلوها فى ركوعكم فما وجهه؟.

قلت: هو إلهام وإلهام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وحى، وقد فهمه من الموحى به؛ لأن تنزيه الخالق المنعم عن مشاركة مخلوقاته فى علوه وتعظيمه يكون قولاً واعتقادًا وفعلاً، ومشاركة القول للاعتقاد، والفعل بالتلبس بما يدل عليه وأظهره وضع أشرف أعضائه فى تراب الذل الذى ينبت العز، وكل مكان ينبت العز طيب فلذا كان العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد، وكان دعاؤه مستجابًا، ولما كثر تعظيم العظماء بالانحناء قائمًا أمر بأن يقول: سبحان ربى العظيم فى الركوع، ومن هنا يفهم وجه ذكر الاسم والرب، وفى تعبير المصنف رحمه الله من البلاغة ما عرفته، فإن تعظيم العظيم أعظم، والعلو فى المكان فعله علا يعلو كدعا يدعو، وفى الرتبة على يعلى كرضى يرضى.

(**لقدر النبى المصطفى**) صلى الله تعالى عليه وسلم وتقدم معناه. (**قولا وفعلا**) وفى نسخة: لقدر المصطفى وهو متعلق معنى بتعظيم واللام للتقوية، وفى تعظيم قدره، أى رتبته تعظيم أبلغ من تعظيم ذاته، والمراد بالقول ما ورد فى القرآن والكتب السماوية

والأحاديث القدسية، وبالفعل ما خصه به من التأييد ورفع ذكره ودينه ونسخ شريعته لما عداها، وإكرامه صلى الله تعالى عليه وسلم بالمعجزات وغيرها، ولا وجه لتخصيص الأول بالقرآن والثانى بالمعجزات، إلا أن يكون قد اقتصر على أعظم ما أعظم به فليس بسهو كما قيل.

(قال القاضى الإمام أبو الفضل وفقه الله تعالى وسدده): هو عياض بن موسى السبتى بفتح السين نسبة لسبتة بلدة بالمغرب؛ لأنه كان بها قاضيًا كما مر، ولذا اشتهر بالقاضى اليحصبى بالحركات الثلاث فى الصاد كما مر، وهى قبيلة من العرب وقد قدمنا ترجمته، وقد أفردها بعض أهل العصر بجزء سماه: **(زهر الرياض فى محاسن عياض)**، وما وقع فى النسخ من قوله الإمام من تلامذته النساخ؛ لأنه لا يمدح نفسه كما تقدم.

(لا خفاء على من مارس شيئًا من العلم) أى: ليس شىء من الخفاء والاستتار عند من له علم، ومارس بمعنى عالج ولازم من الممارسة، وهى وضع الحبل فى البكرة للسقى، ويقال: مرس الشىء إذا عركه كما فى أفعال ابن القوطية، ثم شاع فى كل ملابسة مع المزاولة والملازمة. وشيئًا المراد به شىء قليل أو شىء يعتد به، والأول أبلغ، والثانى أنسب بالممارسة ونفس الأمر، والمراد بالعلم المعلومات أو الأصول والقواعد مطلقًا أو الشرعى منها، وليس المراد به الملكة ولا الصورة الذهنية، والشىء ما يصح أن يعلم ويخبر عنه والوجود فى الخارج ويصح إبقاؤه على عمومه، كما يقال: فلان ليس بشىء أى ليس مما يصدق عليه لفظ شىء ولا مانع منه كما قيل.

(أو خص بأدنى لمحة من فهم) خص بضم الخاء على صيغة المجهول الماضى بمعناه الأصلى من التخصيص، وقيل: إنه بمعنى فضل، أى صار ذا فضل إن لم يكن التخصيص إضافيًا والمقام يأباه؛ لأن المراد أن الله تعالى خصه بشىء قليل من الفهم دون أن يعطيه شدة فهم وذكاء، فإن ما ذكر إذا لم يخف على مثله لم يخف على أحد غيره، وأو على أصلها لأحد الشيئين، أى: لا يخفى على مثل هذين ولا حاجة إلى جعلها بمعنى الواو والفهم تصور المعنى من اللفظ أو سرعة الانتقال، ويجوز أن يكون أو بمعنى بل كما فى قول جرير[1]:

كانوا ثمانين أو زادوا ثمانية لولا رجاؤك قد قتلت أولادى

---

(١) البيت من البسيط، وهو فى ديوان جرير (ص٧٤٥)، جواهر الأدب (ص٢١٧)، الدرر (١١٦/٦)، شرح شواهد المغنى (٢٠١/١)، شرح عمدة الحافظ (ص٦٢٧)، مغنى اللبيب (٦٤/١)، المقاصد النحوية (١٤٤/٤).

فهى للترقى ممن عنده علم إلى من له أدنى فهم، وأدنى يكون بمعنى أصغر مقابل الأكبر، وبمعنى أقل مقابل الأكثر، وبمعنى أخس وأرذل مقابل أشرف، كما فى قوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، والكل من مادة دنى، وقيل: الأخيرة مقلوب أدون من الدون وهو الردى أى أردأ، ولمحة بفتح اللام من اللمح وهو كما فى القاموس اختلاس النظر وسرعته فلذا كنى بها عن القلة، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧]، وقال التلمسانى: اللمحة بالضم قليل النظر، وبالفتح المرة، قيل: فإن صح الضم هنا فالمراد بالأدنى الأقل وبالفهم قليله، وهذا بطريق الكمية والأول بطريق الكيفية، ومن فى قوله من فهم إن كانت بيانية فهو استعارة بجعل ما للبصر للبصيرة، ويؤيده أنه وقع فى نسخة: بأدنى لحظة. واللحظ النظر بمؤخر العين، وإن كانت ابتدائية أى لمحة ناشئة من فهم، فهو يجوز فيه أن يكون باقيًا على حقيقته، وفى نسخة من الفهم معرفًا.

(بتعظيم الله قدر نبينا) أى: مرتبته وشرفه صلى الله تعالى عليه وسلم، والباء قيل: إنها للملابسة، وقيل: بمعنى فى، وقيل: بمعنى من أى جهته، وقيل: إنها سببية. وهل هو مستقر أو لغو فى متعلقه؟ احتمالات وجوه أشار إليها الشراح، وعلى كل حال لم يأتوا بما يثلج الصدر، والظاهر أن مراد المصنف رحمه الله تعالى، أنه لا خفاء فى تعظيمه صلى الله تعالى عليه وسلم، عند من له أدنى بصيرة، وحينئذ فخفاء اسم لا، وقوله على آخره متعلق به؛ لأنه يتعدى بعلى، يقال: خفى عليه كذا فهو حينئذ منون لشبهه بالمضاف بتعلق الجار، ويجوز بناؤه على الفتح على لغة حكاها نحاة بغداد، وقد روى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا مانع لما أعطيت» بلا تنوين، فقال المحقق الحفيد، رحمه الله تعالى: جمهور النحاة على وجوب التنوين فى مثله بجعل الظرف معمولاً له فيكون شبيهًا بالمضاف، وأما جعله معمولاً لمقدر على أنه خبر لا فلا يناسب المعنى، إذ المقصود كونه للاسم لا للخبر كما لا يخفى، لكن بعض النحاة جوز ترك التنوين وكذا جوزه الزمخشرى وتبعه القاضى فى قوله: ﴿تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]، إلا أنه منعه فى قوله: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ﴾ [الأنفال: ٤٨]، فكأنه مال إلى المذهبين فى الموضعين انتهى.

فإن قلنا: على متعلقة بخفاء على الوجهين فقوله بتعظيم إلى آخره خبر لا، والباء بمعنى فى، أو للملابسة، أو بمعنى من والظرف مستقر. **فإن قلنا:** إنه لغو فالباء متعلقة بعلم أو بفهم؛ لأن العلم قد يتعدى بالباء وقدر بالنصب متعلق بتعظيم.

(وخصوصه إياه) أى: تخصيصه نبيه الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم من بين سائر

الناس، فالخصوص بمعنى التخصيص لا بمعنى التفضيل كما توهم، فإنه عدول عن الظاهر بغير داع، وهو مصدر مضاف للفاعل، وهو ضمير الله والضمير المنفصل للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو مفعوله.

(بفضائل ومحاسن ومناقب) كلها مجرورة بالفتح لمنع الصرف، والجار والمجرور متعلق بخصوص، والمراد ما أعطاه الله له من الكمال النفسى والبدنى خَلقا وخُلقا وصورة وسيرة، من الأمور الدينية والدنيوية التى لا يدانيه فيها أحد، وهذه عبارات متقاربة معنى متغايرة مفهوما، وقد تفسر بمعان متغايرة متباينة، فيقال: المراد بالفضائل ما تفرد به من العلم والعمل، وبالمحاسن ما يتعلق بذاته الكريمة، وبالمناقب ما يفتخر به من عموم رسالته صلى الله تعالى عليه وسلم وسيادته وشفاعته فى المحشر، كما هو مقتضى العطف، وأصل الفضائل جمع فضيلة وقد يخص بما لا يتوقف تحققه على تعدى أثره ويقابله الفواضل كما مر، والمحاسن الحسن فى الصورة جمع حسن على خلاف القياس أو جمع محسن، وهو الموضع الحسن من البدن كما فى القاموس، والمناقب ما يفتخر به كما مر وضده المثالب، وحاول بعضهم إثبات تغايرها بما لا تساعده اللغة عليه ويأتى فى الحديث: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»(١)، أى: أنا لا أفتخر به كعادة الناس، وإن كان لا فخر أعظم من فخره وقوله: «ولا فخر»، احتراس وتكميل، وهو يكون فى الأول والآخر والوسط خلافًا لمن خصه بالأخيرين، فالأول كقوله(٢):

ألا يا أسلمى يا دار مى على البلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر

والآخر كالحديث والوسط كقوله(٣):

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الحياء وديمة تهمى

فإن الدعاء بالسلامة أولا احتراس، ولا ينافيه قوله: لازال كما صرح به بعض الأدباء، وإن غفل عنه من فضل بيت طرفة عليه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٨/٣)، والترمذى (٣١٤٨، ٣٦١٥)، وأحمد (٢٨١/١)، وابن حبان (٢١٢٧)، والبغوى فى شرح السنة (٢٠٤/١٣).

(٢) البيت من الطويل، وهو لذى الرمة فى ديوانه (ص٥٥٩)، الإنصاف (١٠٠/١)، تخليص الشواهد (ص٢٣١)، الخصائص (٢٧٨/٢)، الدرر (٤٤/٢- ٦١/٤)، شرح التصريح (١٨٥/١)، شرح شواهد المغنى (٦١٧/٢)، لسان العرب (٤٩٤/١٥)، مجالس ثعلب (٤٢/١)، المقاصد النحوية (٦/٢).

(٣) البيت من الكامل، وهو لطرفة بن العبد فى ديوانه (ص٨٨)، تخليص الشواهد (ص٢٣١)، الدرر (٩/٤)، معاهد التنصيص (٣٦٢/١).

(لا تنضبط بزمام) فتنضبط بالتاء الفوقية ويجوز بالتحتية على أن الضمير للفضائل وما معها أو للمذكور، وأصل الضبط الحفظ بالإمساك بيد ونحوها، وأما كونه بمعنى الإحصاء والحصر ومنه الضابط للقضية الكلية، وقيل: بينهما فرق عرفى فلم يرد فى اللغة، وإنما استعمله المصنفون والمولدون كان الكلى لجميع أفراده حافظ لها وممسك وللتجوز وجه، أى ما ذكر لا يمكن إحصاؤه وتفصيله.

وبزمام: روى بالباء واللام كما قاله التلمسانى والأول أظهر والثانى أشهر، فإن باء السببية ولام التعليل متقاربان معنى، والزمام بكسر الزاى المعجمة ما يزم به أى يشد البغل والناقة، ولا تختص بالثانى كما فى القاموس، وفى كلامه هنا استعارة تصريحية أو تمثيلية، فالقول بأنه لا استعارة فيه وإن فسر بمطلق الشد لا وجه له، وإنما هو كما قيل فى المثل كثرة الشد ترخى فافهم، وأما جعله استعارة مكنية بتشبيه الفضائل بناقة قوية تغلب صاحبها فركيك جدًا.

(وتنويهه من عظم قدره) يقال: نوهت باسمه إذا رفعت ذكره وأشعت تعظيمه، قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، وفى حديث عمر رضى الله تعالى عنه، أنا أول من نوه بالعرب، أى: رفع ذكرهم بالديوان والإعطاء، وهو مجرور بالعطف على التعظيم أو الخصوص، وعظيم قدره بمعنى قدره العظيم، وفى نسخة لعظيم قدره باللام والمشهور بمن المبينة لمقدر يفسره قوله:

(بما تكل عنه الألسنة والأقلام) أوله بناء على جواز تقديم البيان على المبين كما ذهب إليه بعض النحاة، فلا وجه لرده بمنع تقديم ما فى حيز الصلة عليها؛ لأنه على هذا متعلق بمقدر أو حال من الموصول، وقيل: من بمعنى اللام أو زائدة وبما متعلق بتنويه، وما عبارة عن أمور أو وجوه، وتكل بمعنى أعيى وتعجز الألسنة والأقلام عن إحصائها، أو على تشبيه الألسنة والأقلام بالناس، أو هو من كل السكين بمعنى عدم قطعها فهو أيضًا استعارة مصرحة أو مكنية، وبين الألسنة والأقلام مناسبة تامة، فإنهم قالوا: القلم أحد اللسانين فيشبه أحدهما بالآخر وينسب له، كما قيل:

وألسنة الأقلام تشكر دائمًا صنيع الذى أوليت فى اليد والفم

(فمنها) أى: مما عبر عنه بما من الفضائل **(ما صرح به فى كتابه)** الضمائر لله، أى: نص عليه وأظهره، وقال المرزوقى رحمه الله تعالى فى قوله[1]:

---

(١) البيت من الهزج، وهو للفند الزمانى فى أمالى القالى (١/٢٦٠)، حماسة البحترى (ص٥٦)، الحيوان (٦/٤١٦)، خزانة الأدب (٣/٤٣١)، سمط اللآلى (ص٥٧٨، ٩٤٠)، شرح ديوان=

فلما صرح الشر أمسى وهو عريان

فقال: صرح الشر بالنصب إذا أظهره، وصرح هو إذا انكشف، ومثله بين الشر وبين هو فيكون لازمًا متعديا بالباء ومتعديا بنفسه. **(ونبه به)** أى: بما ذكر فى كتابه وأصله معنى إيقاظ النائم وتذكير الغافل، ويراد به مطلق الذكر كما هنا، والمصنفون يخصون بذكر أمر تبين أو سبق ذكره، ومنه تنبيه فى التراجم.

وقال التلمسانى: أصل التنبيه أن يكون فى شيء وقعت فيه الغفلة عنه من قول أو فعل فلا إشكال ولا التباس.

(عن جليل نصابه) فى المصباح كغيره من كتب اللغة النصاب والمنصب كمسجد العلو والرفعة، وله منصب صدق: أى منبت ومحتد، وامرأة ذات منصب: أى حسب وجمال لأنه رفعة لها انتهى.

فأصل معنى النصاب والمنصب العلو والشرف حسبًا ونسبًا من الانتصاب وهو القيام، أى أن الله جل وعلا بذكره له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى كتابه المنزل نبه على جليل رفعته وشرفه، وهذا هو أصل معناه فى استعمال العرب، فما قيل إنه لم يظهر هنا إلا أن يكون مأخوذًا من نصاب الزكاة مجازًا عن مقامه الذى ساد فيه الخلق كلهم، كلام ناشئ من عدم فهم كلام العرب وعدم معرفة اللغة، وقد سبق الكلام فيه فتذكره، ويأتى أيضًا الكلام عليه.

(وأثنى به عليه من أخلاقه وآدابه) بيان لما، أى: ما مدحه الله به مما ذكر، والثناء ممدود بتقديم المثلثة، قال الجواليقى: هو تكرير الحمد ولا يكون فى الذم، وهو فعال من ثنيت وأثنيت عليه ثناءً حسنًا، والثناء الاسم وربما استعمل فى الشر، قال زهير[1]:

سيأتى آل حصن حيث كانوا من الكلمات ما فيه ثناء

ولقائل أن يقول: إنما سمى الذم ثناء على سبيل التهكم، والنثا بتقديم النون والقصر فى الخير والشر، والفعل منه نثا ينثو، ويأتى فى صفة مجلس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، لا تنثى فلتاته فلا يلتفت إلى من قال إنه لا يبنى منه فعل، وقال بعض أهل اللغة: الثناء يكون فى الخير والشر، والنثا لا يكون إلا فى الذكر الجميل، والقول الحق هو الأول انتهى.

فالصحيح أن الثناء مخصوص بالمدح، والنثا عام فيه وفى مقابله وليس مخصوصا

=الحماسة للمرزوقى (ص٣٤)، المقاصد النحوية (١٢٢/٣)، شرح التصريح (٢٣٩/٢).

(١) البيت من الوافر، وهو فى ديوان زهير بن أبى سلمى (ص١٨).

باللسان كما مر، فثناء الله حقيقى ولا دخل للاصطلاح فيه كما توهم، فهو إظهار الصفات الكمالية مطلقًا والله تعالى لما مهد بساط الوجود ومد مائدة الجود فى ساحة الإمكان، كشف كمال صفاته وأظهر نعم مبدعاته.

والأخلاق جمع خلق بضمتين وبضم فسكون الطبع والسجية التى فطره الله عليها، والآداب بالمد جمع أدب والآدب فى اللغة كما قاله البطليوسى أدبان، أدب نفس، وأدب درس، ويقال: أدب خبرة وأدب عشرة كما قيل:

يا سائلى عن أدب الخبرة أحسن منه أدب العشرة

وقال الجواليقى فى شرح أدب الكاتب: الأدب الذى كانت العرب تعرفه هو ما يحسن من الأخلاق وفعل المكارم، كترك السفه وبذل المجهود وحسن اللقاء، قال الغنوى[1]:

لم يمنع الناس منى ما أردت ولا أعطيهم ما أرادوا حسن ذا أدبا

كأنه ينكر على نفسه أن يعطيه الناس ولا يعطيهم، واصطلح الناس بعد الإسلام بمدة طويلة على أن يسموا العالم بالنحو والشعر أديبًا، ويسموا هذه العلوم أدبًا، وهو من كلام المولدين واشتقاقه من الأدب وهو العجب، أو من الأدب مصدر أدب القوم إذا دعاهم. قال طرفة[2]:

نحن فى المشْتَاةِ ندعو الأجْفَلَى لا ترى الأدب فينا ينتقر

فكأنه تعجب منه لحسنه أو من صاحبه لفضله، إذ يدعو الناس إلى المحامد والفضل وينهاهم عن القبائح والجهل، والفعل منه أدبت فأنا أديب، انتهى.

فالأدب هنا بمعناه اللغوى وهو اجتماع خصال الخير، والفقهاء يطلقونه على ما يقرب من السنن فى العبادة، وفى بعض الشروح الأدب حسن التناول والأخذ.

(وحض العباد على التزامه) الحض بحاء مهملة وضاد معجمة والحث بمثلثة الطلب الشديد السريع، والالتزام افتعال من اللزوم فهو بمعنى الإلزام البليغ، ويكون بمعنى المعانقة وهو مجاز عن اللزوم أيضًا، أو كناية متفرعة على المجاز وعلى كل حال، فالمراد به عدم

---

(١) البيت من البسيط، وهو لسهم بن حنظلة فى الأصمعيات (ص٥٦)، خزانة الأدب (٩/ ٤٣١، ٤٣٢)، لسان العرب (١٣/ ١١٥)، وبلا نسبة فى الأشباه والنظائر (٦/ ٢٢)، إصلاح المنطق (ص٣٥)، تذكرة النحاة (ص٥٩٩)، الخصائص (٣/ ٤٠).

(٢) البيت من الرمل، وهو فى ديوان طرفة (ص٥٥)، أدب الكاتب (ص١٦٣)، إصلاح المنطق (ص٣٨١)، خزانة الأدب (٨/ ١٩٠)، لسان العرب (١/ ٢٠٧)، نوادر أبى زيد (ص٨٤).

المفارقة لما كان عليه من الأخلاق والآداب، كما قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم كانت له طاعات ومحاسن، فأمر الناس باتباعه فيها، وأمرهم الله تعالى أيضًا بذلك بقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، وفيه إشارة إلى إنها على قسمين، قسم أمر باتباعه، وقسم لم يؤمر به، كالأمور الجبلية والخصائص النبوية، ولذا وصف الإسوة بحسنة وإن كان كل ما هو عليه حسن، قيل: والمراد به ما كان فرضًا ونفلاً، فإن التزم ذلك فرضًا فنحن نلتزم فعله وفريضته، وإن التزمه نفلاً فنحن نلتزمه ونلتزم كونه نفلاً، والحاصل أنَّا نلتزم ما التزمه على الوجه الذى التزمه إذا لم يختص به كما يعلم من مقابله، وهذا كلام حسن إلا أنه ينبو عنه قوله:

(وتقليد إيجابه) لمنافاة الإيجاب للنفلية، ولك أن تقول إنما عنى المصنف أن ما أمرنا باتباعه فيه على قسمين مستحب أشار إليه بقوله: حض العباد على التزامه، فإن الطلب يكون إيجابيًا وغير إيجابى كما بين فى الأصول، وواجب أشار إليه بقوله: تقليد إيجابه فليس هذا تأكيدًا لما قبله كما قيل، وحمل الفقرتين على الإيجاب يخل بالآداب، والتقليد وضع القلادة فى الجيد استعير للالتزام استعارة تصريحية أصلية لا تبعية، ويجوز جعله مجازًا مرسلا، والتقليد والإيجاب مصدران مضافان للمفعول، ويجوز فى الثانى أن يكون مضافًا للفاعل، وما قيل من أن الثانى أخص من الأول والإيجاب ليس بمعناه الحقيقى، بل هو مبالغة الاحتراز عن تركه أو مجاز عن الإتيان من أوجب إذا آتى بالوجبة، والضمير أن لما صرح به أو للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، أى ما حض به على التزام أمره تعسف لا ينبغى أن يصدر عن مثله.

(فكان جل جلاله) الجلال العظمة وفى جعل الجلال جليلاً مبالغةً فى تعظيمه، كما حققه الإمام المرزوقى فى جد جده، وقال الأصمعى: الجلال لا يوصف به غير الله لغة، وقيل: إنه قد يوصف به غيره كقول الحماسى:

ألمم على أرض تقادم عهدها ... بالجزع واستلب الزمان جلالها

ويجوز أن يكون المعنى جلت عظمته عن أن يساويها عظمة غيره مما يسمى عظمة عند الناس، فالإسناد حقيقى، فإن أريد جلت ذاته من جهة كبريائها، فالإسناد مجازى كجد جده، والتفريع على ما قبله على ما أعطاه الله لرسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، والثناء عليه وإعلاء مقامه فإنه يدل على أنه **(هو الذى تفضل وأولى)** أى: أنعم وأعطى أفضل رسله عطايا جزيلة جليلة، بأن خلقه أعظم الناس حسبًا ونسبًا وجعله أشرف الرسل وأكثرهم أمة، وهذا ناظر لقوله: تعظيم قدره، وأولى بمعنى أعطى وفى النهاية أن

العطاء من غير مكافأة، فعلى الأول هو عطف تفسيرى، وعلى الثانى من عطف الخاص على العام.

(ثم طهر وزكى) الطهارة الحسية معلومة والمعنوية نظافة الظاهر والباطن من الأوصاف الذميمة والأخلاق الردية، وزكى يكون بمعنى طهر وبمعنى نمى، ويجوز إرادة كل منهما، فالمعنى أنه طهره وزاد طهارته وهذا ناظر لأخلاقه وآدابه صلى الله تعالى عليه وسلم، والعطف للتراخى الزمانى أو الرتبى لما بين التخلية والتحلية من البعد، وليست هذه التحلية مؤخرة على ما فسرناه.

(ثم مدح بذلك وأثنى) على رسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى مواضع كثيرة من القرآن كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ونحوه مما يأتى، وهذا ناظر لقوله وأثنى إلخ، والمدح الثناء بكل جميل اختياريًا كان أو لا، ولذا اختاره، وأما كونه للإشعار باختصاص الحمد بالله فبعيد جدًا، والكلام على الثناء قد مر، وقيل: المراد بالتفضل هنا التفضل علينا بهذا النبى الكريم والرسول العظيم الذى هو نعمة ورحمة، والتطهير تطهيرنا من الشرك والآثام، والثناء علينا بكنتم خير أمة وغيره وهو لا يناسب السياق والسباق.

(ثم أثاب عليه الجزاء الأوفى) أثاب بمعنى أعطى الثواب، وهو الجزاء، فأما إنه تجريد أو أثاب بمعنى أعطى، أو الجزاء مفعول مطلق من غير لفظه، كجلست قعودًا فلا حاجة إليه مع الأوفى وهو يتعدى لمفعولين، فالأول مقدر أى أثابه وعليه ضميره راجع لما تفضل عليه، والوافى بمعنى التام، والأوفى أفعل تفضيل منه.

(فله الفضل عودا وبدأ) أى: أولاً وآخرًا، والبدء الابتداء والعود الرجوع، والابتداء يقابل بالانتهاء ويقابل بالعود أيضًا، ومنه المبدئ والمعيد، والفضل الإنعام والإحسان مطلقًا، أو من غير مقابل وهما منصوبان على الظرفية، وقيل: على نزع الخافض، أى: أنه تعالى ابتدأ بأنعامه على نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم، بأن خلقه على أتم خلقة وأكملها، ثم زكاه وطهره ظاهرًا وباطنًا، ثم عاد على إحسانه فتممه وزاده الثناء الجميل والثواب الجزيل، ولو لم يثبه لأنه أوجده وأقدره تفضلاً منه كان ذلك له. وقيل: المراد بالبدء الخلق والإيجاد، وبالعود الجزاء والمعاد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣]، والسياق يأباه لتفرعه على ما قبله بالفاء الواقعة أحسن موقع، فالمراد أنه تفضل عليه بما أولاه من المحاسن والمناقب ونسب ما فعله تكرما له، ثم مدحه به وأثابه عليه أتم ثواب، كان بذلك متفضلاً فى البدء والعود.

(والحمد أولى وأخرى)، أى هو مستحق للحمد فى أول الأمر وآخره، أو فى الدنيا والآخرة؛ لأنه المتفضل دائمًا فى الدارين، وقيل: تقديره أولى الحمد وأخراه؛ لأنه صيغة تفضل، وقد حقق أهل اللغة أنه يكون اسما للتفضيل وظرفا، بمعنى قبل، فيجرى عليه أحكامه ووزنه على الأول أفعل، وعلى الثانى فوعل، وهذا ينون فيقال: أولاً، وإذا كان اسم تفضيل تجرى عليه أحكامه ومؤنثه أولى ومؤنث الأول أولة، وقد ثبت ذلك عن العرب كما ذكره المرزوقى فى شرح الفصيح ومقابلهما أخرى وآخرة، وقد تغلب عليهما الأسمية للدارين فيصيران بمنزلة اسمين جامدين يستعملان استعمالهما؛ لأن اسم التفضيل يلزم التذكير والإفراد إن لم يضف أو يقترن بالألف واللام، ولذا خطئ أبو نواس فى قوله(١):

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها حصباء در على أرض من الذهب

وإن أجابوا عنه كما فصلناه فى شرح الدرة، وأما كونه وصفًا مجردًا عن التفضيل، ومثله يجوز فيه المطابقة وعدمها فرد بأنه سماعى كما فى التسهيل وغيره، وبأن معنى التفضيل مراد منه بلا شبهة؛ لأن الدنيا متقدمة والأخرى متأخرة، فلا يصح أن يقال: إنهما تجردا عنه ولا يخفى ما فيه فإنه سمع فى القرآن والكلام، ومثله كاف فى ثبوته مع أنه يرد على مدعاه بالنقض؛ لأنه إذا كان التفضيل مرادًا منه كيف يقال: إنه غلبت عليه الأسمية فهل هذا إلا جمع بين الحادى والملاح.

(واعلم أن ما ذكره المصنف معنى بليغ) فإنه ذكر أنه تعالى ينعم بأنواع النعم ثم يمدح عبده ويثنى عليه لقبوله لنعمائه ويجزيه على ذلك أتم جزائه، وهو أحسن من قول ابن طباطبا فى ممدوحه:

لا تنكرن إهداءنا لك منطقا منك استفدنا حسنه ونظامه

فالله عز وجل يشكر فعل من يتلو عليه وحيه وكلامه

وله نظائر فى معناه فى كتب الأدب وفى لئام الخلق عكسه، فإن منهم من إذا رأى من أنعم عليه متجملاً قد يحسده ويؤذيه، وهو أحد الوجوه فى قول المتنبى:

وأظلم أهل الأرض من بات حاسدًا لمن بات فى نعمائه يتقلب

(ومنها ما أبرزه) أى: أظهره ظهورًا تامًا؛ لأن أصله جعله على براز بالفتح أى مكان

---

(١) البيت من البسيط، وهو لأبى نواس فى ديوانه (ص٣٤)، خزانة الأدب (٢٧٧/٨)، شرح قطر الندى (ص٣١٦)، شرح المفصل (١٠٢/٦)، وبلا نسبة فى شرح الأشمونى (٣٨٦/٢)، ومغنى اللبيب (٣٨٠/٢).

مرتفع، **(للعيان ما يشاهد)** بفتح العين ولا تفتح فيه العين؛ لأنه مصدر عاينه معاينة وعيانًا كقتال، وفى المثل كما سيأتى فى كلام المصنف ليس الخبر كالعيان، بل ورد فى الحديث وروى كثيرون منهم أحمد وابن حبان: «يرحم الله أخى موسى ليس المعاين كالمخبر أخبره ربه تبارك وتعالى أن قومى فتنوا به، فلم يلق الألواح، فلما رأهم وعاينهم ألقى الألواح فتكسر منها ما انكسر»(١)، وروى للعيان ما أبرزه الله للعيان فاللام للتعدية أو للتعليل، قيل: والمراد به ما علم يقينًا سواء كان مشاهدًا أو منقولاً نقلا صحيحًا بحيث يتيقن ويصير كالمشاهدة؛ لأنه عد منها تأييده بالمعجزات وليست كلها مشاهدة مع أنه بالنسبة لمن بعد عصره غير مشاهد، إلا أنه بمنزلته لصحته لا لتواتره؛ لأن ادعاءه فى جميعها التواتر غير مسلم، ولك أن تقول إنه تغليب لقوة المشاهد ولكثرته.

(من خلقه) بفتح الخاء وسكون اللام كما قيده الشمنى وفى المقتفى أنه بضمها، وهو بارز للعيان بالمعنى السابق، والمعطوف هو التخصيص به فلا تكرار، فما قيل إنه غير سديد، لأنه ما أبرزه للعيان ولأنه سيذكره غير سديد، قيل: والمناسب لقوله وتخصيصه وتأييده أن يكون الخلق بمعنى التخليق والإيجاد، وهو تأويل من غير حاجة وضمير خلقه لله أو للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم.

واعلم أن هذا كله إنما يحتاج إليه إذا جعل قوله وتخصيصه الآتى مجرورًا معطوفًا على خلقه، أما لو رفع وعطف على ما أبرزه لم يحتج إلى تكلف، وعلى الأول كيف يعترض على من جعل الخلق بضم الخاء فتدبر.

(على أتم وجوه الكمال والجلال) الجار متعلق بخلقه سواء كان بمعنى تخليقه أم لا أو صفة مصدر مقدر، أى خلقًا كائنًا على آخره أو حال من المضاف، قيل: والتقدير: إذا قرئ بالضم المطبوع على أتم الوجوه أو هو متعلق بمضاف مقدر أى إبراز خلقه، أو هو حال والوجوه الأنواع، والمراد أتم الوجوه المتحققة فى زمن ما أو الوجوه الممكنة، وهو أحسن إذ لم يوجد مخلوق يدانيه صلى الله تعالى عليه وسلم فضلاً عن أن يساويه، ولا داعى لهذه التكلفات فإنه غنى عن التأويل والمراد بالجلال مهابته فى عين رأيه.

(وتخصيصه بالمحاسن الجميلة): مر بيان المحاسن، والجميلة من الجمال وهو الاتصاف بالصفات الحميدة ولذا ورد إطلاقه على الله كما مر فى حديث: «إن الله جميل يحب الجمال»(٢). وفى عرف اللغة حسن الصورة المشاهد، وهو بهذا المعنى لا يطلق على الله، وهو مراد المصنف، وفى الحواشى التلمسانية الجميلة والحميدة كلاهما نعت، فالأول

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/١١٨).

(٢) تقدم تخريجه.

بمعنى فاعل؛ لأن الفعل منه جمل بضم الميم أى لازم، والثانى بمعنى مفعول ولابد من لحوق التاء فى آخر كل واحد منهما لأنه صفة للجمع، ولا يجوز أن يوصف الجمع بمفرد بخلاف ما إذا كان للواحد، فإنه لا يخلو إما أن يكون بمعنى فاعل كعليم أو بمعنى مفعول كجريح، وفى المحصور للفخر التاء فى فعيلة للنقل من الوصفية إلى الأسمية الصرفة، فلا يقال: شاة أكيلة ونطيحة يعنى لغلبة الأسمية، وتقديره أن هذه التاء من فعيل بمعنى مفعول إذا كان تابعًا لموصوف لم يلفظ بالتاء، وقد ثبتت كخصلة حميدة وصفة حميدة، فإذا حذف موصوفه جرى مجرى الأسماء فتثبت فيه التاء كهذه جريحة، وأما إذا كان فعيل بمعنى فاعل فإنه بالتاء فتحققه فإنه مفيد.

أقول: فهم من كلامه أن الموصوف إذا كان جمعًا تثبت تاؤه على كل حال، ولم نر من ذكره غيره وبقية كلامه ظاهر.

(والأخلاق الحميدة) أى: المحمودة وهى الصفات المعنوية التى هى للباطن كالصورة للظاهر، وعليها مدار كمال البشرية والثواب والعقاب، قيل: وهو مبالغة أو مجازًا والتخصيص فى الجملة لأنه لم يرد عد الخصائص هنا فقط، ولذا فسر التلمسانى التخصيص بالتعيين ولا مانع من جعله على ظاهره نظرًا لكمالها أو مجموعها.

(والمذاهب الكريمة) المذاهب جمع مذهب وهو الطريق، ويطلق على ما اختير من الأفعال وغيرها، كما يقال مذهب الفقهاء، والمراد مسالكه صلى الله تعالى عليه وسلم فى أحواله مع أمته أو فى نفسه.

وللناس فيما يعشقون مذاهب

وهو مأخوذ من الذهاب وهو الخروج إلى المقاصد سواء وصل إليها أم لا، ولذا اختلف فقهاؤنا فيه، فقيل: لا يشترط الوصول، وقال نصير: يشترط لقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٤٣]، فإنه بمعنى أيتياه، والكريمة بمعنى الحسنة النفيسة المطلوبة لأهل الكمال، وقيل: هى بمعنى العزيزة المنزهة عن النقائص.

(والفضائل العديدة) أى: المعدودة من المفاخر، من قولهم: فلان عديد بنى فلان إذا كان يعد فيهم ويعتد به، أو المراد الكثيرة، قال صاحب المحكم فى قوله تعالى: ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١]، جعله الزجاج مصدرًا، وقال: المعنى تعد عددًا، ويجوز أن يكون نعتًا لسنين، والمعنى ذوات عدد والفائدة فى قوله عددًا فى الأشياء المعدودة أنك تريد توكيد كثرة الشىء؛ لأنه إذا قل فهم مقداره وعدده فلم يحتج إلى أن يعد، وإذا كثر احتاج إلى العد فالعدد فى قولك: أقمت أيامًا عددًا تريد به الكثرة، انتهى.

فقول بعض الشراح نقلا عن التلمسانى أنه من العد بالكثر للماء الكثير، تكلف نشأ من أن ذكر العدد يدل على القلة كما ذكره ابن هشام عن ابن عبد السلام فى هذه الآية، من أن عددًا بمعنى معدودة ذكر ليدل على القلة؛ لأن ما كثر فى الغالب لا يمكن عده، ولا يمكن هذا هنا لأنها ذكرت لتعظيم القصة، فلعل ذكرها لمناسبة رءوس الآى، انتهى.

(**وتأييده بالمعجزات الباهرة**) التأييد النصر والتقوية من الأيد وهى القوة، والمعجزات جمع معجزة اسم فاعل من الإعجاز أفعال من العجز ضد القدرة، والمراد إثبات العجز وإظهاره ممن شأنه التحدى، وقيل: العجز مجاز عن عدم القدرة كالجهل لعدم العلم وهما فى الأصل أمر وجودى، أو متعلق به فيمن شأنه القدرة، فلا يقال: عجز الحجر عن الحركة وهو أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى، أو بزمانه على وجه يدل على صدق مدعى النبوة الذى من شأنه التحدى، ولا يشترط فيه التحدى بالفعل، والباهرة بمعنى العجيبة أو الظاهرة ظهورًا لا يمكن ستره، ومنه قمر باهر أى تام الإضاءة أو الغالبة لمن يهم بمعارضتها وبه فسر قوله(١):

ثم قالوا تحبها قلت بهرا عدد الرمل والحصى والتراب

(**والبراهين الواضحة**) جمع برهان وهو الدليل القوى الذى يحصل به اليقين، وليس المراد به البرهان المنطقى لميا وانيا وإن شمله، والواضحة بمعنى الظاهرة. (**والكرمات البينة**) جمع كرامة وهى أمر أكرم الله به من اصطفاه من عباده المتقين بدون تحد، ودعوى نبوة فيكون للنبى والولى وأعم من المعجزة لاشتراط مقارنة النبوة والتحدى بالقوة أو بالفعل، وبقولنا أكرم ألخ، خرج السحر وما يصدر من الكهنة والشياطين وجعل الوصف بها شاملا لما قبلها حتى البراهين تعسف ركيك.

(**التى شاهدها من عاصره**) أى: كان فى عصره ومدة حياته، والمشاهدة الرؤية بالعين من الشهود وهو الحضور عنده، أو المراد علمها علمًا متيقنًا فيدخل فيه نحو ابن أم مكتوم، رضى الله تعالى عنه، ويشمل ما سبق مما لا يدرك بالبصر.

(**ورآها من أدركه**) أصل معنى الإدراك اللحوق، يقال: أدرك زمنه إذا لحقه، ومنه أدرك الطعام والثمر أى لحق حال النضج، وإدراك الغلام بلوغ حال الرجولية، فإدراك

(١) البيت من الخفيف، وهو لعمر بن أبى ربيعة فى ديوانه (ص٤٣١)، الأغانى (١/٨٧)، أمالى المرتضى (٢/٢٨٩)، الدرر (٣/٦٣)، جمهرة اللغة (ص٣٣١)، الخصائص (٢/٢٨١)، شرح أبيات سيبويه (١/٢٦٧)، شرح شواهد المغنى (ص٣٩)، شرح المفصل (١/١٢١)، لسان العرب (٤/٨٢)، مغنى اللبيب (ص١٥).

البصر لشيء لحقوقه برؤيته ثم شاع فى معنى العلم مطلقًا، وهذه الجملة مفسرة لما قبلها فليست حشوًا زائدًا كما توهم، ويمكن الفرق بينهما بأن يراد بالأولى من طالت صحبته له صلى الله تعالى عليه وسلم وشاهد حاله كله من الأولين والسابقين، وبهذه من بعدهم على أن الإطناب فى مقام الخطابة مستحسن، وفى نسخة عاصرها وأدركها والأولى أولى.

(وعلمها علم يقين من جاء بعده) من التابعين فمن بعدهم لتواتر بعضها واشتهار بعض آخر منها ونحو ذلك مما ينفى الشبه، وعلم اليقين كشجر الأراك فإضافته لامية أو بيانية على رأى، ويلحق به ما كان بطريق الكشف.

(حتى انتهى علم حقيقة ذلك إلينا) أصل معنى انتهى بلغ النهاية، ولذا يكون كما فى قوله. وكل شيء بلغ الحد انتهى. والمراد أنه بلغنا ووصل إلينا؛ لأن من انتهى إليه شيء وصله، وضمير إلينا للمتأخرين ومن بعدهم إلى الحشر، وهذا يناسب ما مر من تفسير من أدركه بمتأخرى الصحابة ممن ولد بعد الهجرة؛ لأن لفظ الإدراك يشير إليه إشارة ما فيكون عبارته شاملة لجميع الأمة تفصيلاً وإلا فهذا داخل فيما قبله؛ لأنهم ممن جاء بعده.

(وفاضت أنواره علينا) أصل معنى الفيض فى الماء ونحوه من المايعات، يقال: فاض السيل إذ كثر وأفاض بالألف لغة، وفاض الإناء فيضًا امتلأ، وأفاضه صاحبه ملأه، وفاض الخير كثر، واستفاض الحديث انتشر واشتهر فهو مستفيض، ولا يقال مستفاض وهو لحن عند الأصمعى، وأثبته بعضهم فشبه الأنوار وانتشارها بماء سائل متدفق، والمراد بأنواره ما ظهر من بركته صلى الله تعالى عليه وسلم، والضمير للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو للعلم؛ لأنه ورد إطلاق النور على كل منهما، أو أراد بالنور الإيمان وما يترتب عليه من العلوم الشرعية الموصلة لسعادة الدارين المنقذة من ظلمة الضلال، وفى نسخة: **(وفاضت حقيقته)** وأنوارها أى الحقيقة المحمدية وما لها من الكمال فى نفس الأمر وضمير أنوارها للحقيقة أو للكرامات.

(صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا)، أى: دائمًا عقب ما ذكر مما وصل للأمة من خيره بالدعاء له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولآله الذين هم واسطة بيننا وبينه صلى الله تعالى عليه وسلم فيما وصل إلينا، ففيه شبه لف ونشر.

(حدثنا القاضى الشهيد أبو على الحسين بن محمد الحافظ قراءة منى عليه) قراءة منصوب بنزع الخافض، أى: بقراءة منى عليه، أو مفعول مطلق، أى: وأنا أقرأ قراءة

وقراءة منى عليه صفتان له، وهذا الحديث أسنده المصنف رحمه الله تعالى من طريق الترمذى وهو حديث حسن، أخرجه أحمد والبيهقى فى سننه، والقاضى المذكور شيخ المصنف قرأ عليه بالأندلس وهو ابن فيرة بن حيون الصدفى السرقسطى الأندلسى المعروف بابن سكرة، وهو من المشهورين بعلم الحديث وترجمته مفصلة فى أسماء الرجال، وقال الشهيد: لأنه استشهد ببعض ثغور الأندلس فى وقعة تعمتترة وقعت فى سادس ربيع الأول سنة أربع عشرة وخمسمائة، وله من العمر نحو من ستين سنة، والحافظ: وصف لكل من أكثر رواية الحديث وأتقنها وقد انقطع هذا فى عصرنا، وكان آخر الحفاظ السيوطى والسخاوى، وبيّن بقوله قراءة ألخ، وجه الأخذ عنه، فإنه كما تقدم يكون بقراءة الشيخ وقراءة التلميذ عليه وقراءة غيره وهو يسمع، والغالب الأول، فإذا كان غيره احتاج البيان حتى منع ابن الصلاح رحمه الله تعالى، أن يقول من قرأ على الشيخ، حدثنا مطلقًا، وإن أجازه غيره كما فصلوه.

(قال: حدثنا أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار) بن أحمد المعروف بالحمامى، بفتح الحاء المهملة وتخفيف الميمين، سمع من ابن شاذان وخلق كثير بعده، وكان من أهل الخير والصلاح، **(وأبو الفضل أحمد بن خيرون)** فى المقتفى: هو الحافظ الناقد أبو الفضل أحمد بن الحسن بن أحمد بن خيرون البغدادى الباقلانى، سمع من أبى على بن شاذان، وأبى بكر البرقانى، وروى عنه خلق كثير، وروى عنه شيخه الخطيب أبو بكر، وأبو على بن سكون، وأبو عامر العبدرى، وترجمته مشهورة، وهو عدل متقن، توفى فى رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وله من العمر أربع وثمانون سنة، وقد ذكره فى الميزان وصحح عليه، وخيرون بفتح الخاء المعجمة تليها مثناة تحتية ساكنة، وعن المزنى أن الأصل فى خيرون الصرف إلا أن المحدثين لا يصرفونه لشبهه بجمع المذكر السالم، انتهى.

يعنى أن هذه الصيغة لما لم تعهد فى الأعلام المفردة أشبه من الاسم الأعجمى، وهو أحد الوجوه فى أمثاله من الأعلام التى على هذه الزنة، كزيدون وعبدون، كما فى شرح التسهيل، فإن فيه لغات فيعرب بالحروف إعراب الجمع حكاية لأصله، ويعرب بالحركات مع لزوم الياء كغسلين، أو الواو كهارون، ويمتنع حينئذ من الصرف كما ذكرناه، وقال أبو العلاء المعرى فى كتاب عبث الوليد: إن بعض العرب يجعل ألف نحو الصلاة واوًا فهذا منه، ولذا منع صرفه وهو غريب جدًا، فقول بعضهم: كأنه أراد بمنع الصرف مجرد منع الكسر والتنوين وإلا فشرطه صيغة منتهى الجموع، وتبعه الشارحان خبط ناشئ من عدم الوقوف على كلام النحاة فى أمثاله.

(قالا: حدثنا أبو يعلى البغدادى) أحمد بن عبد الواحد بن محمد بن جعفر، ويعرف

بابن زوج الحرة، كما ذكره ابن ماكولا رحمه الله تعالى، وقال: إنه سمع على بن على السنجى بجامع الترمذى ببغداد، ويعلى بفتح المثناة التحتية وسكون العين المهملة واللام المفتوحة مقصورة.

(قال: حدثنا أبو على السنجى) بكسر السين المهملة ثم نون ساكنة ثم جيم ثم ياء نسبة لسنج مرو، وهو كما قال ابن ماكولا أبو على الحسين بن محمد بن أحمد بن شعبة المروزى السنجى، ورد ببغداد، وحدث عن الترمذى بجامعه عن أبى العباس محمد بن أحمد بن محبوب عن الترمذى وسمع منه، وروى عنه زوج الحرة وغيره.

(قال: حدثنا محمد بن أحمد بن محبوب) هو أبو العباس المحبوبى المروزى راوى جامع الترمذى.

(قال: حدثنا أبو عيسى بن سورة الحافظ) سورة بفتح السين المهملة تليها واو ساكنة ثم راء مهملة وهاء، والد أبى عيسى الترمذى الضرير المحدث المشهور هو وتصانيفه كالجامع والسنن، قيل: إنه ولد أكمه، وسمع ابن قتيبة وغيره، مات بترمذ فى رجب سنة مائتين وتسعة وسبعين، قال الذهبى فى الميزان: إنه ثقة مجمع عليه ولا عبرة بطعن ابن حزم فيه؛ لأنه لم يعرف أحواله وترمذ بفتح المثناة الفوقية وكسر الميم وبكسرهما وهو المشهور، وبضمها كما قاله السمعانى، ونصبهما كما قاله النووى فى التهذيب.

(قال: حدثنا إسحاق بن منصور) الكوسج الحافظ المشهور، توفى سنة إحدى وخمسين ومائتين وهو ثقة فى الرواية.

(قال: حدثنا عبد الرزاق) بن همام بن نافع أبو بكر الصنعانى، أحد الأعلام الثقات الذين يروى عنهم أصحاب الكتب الستة، وهذا حديث حسن مسند فى الترمذى وغيره، ولم يرو إلا عن عبد الرزاق فهو غريب كما قاله صاحب المقتفى والسيوطى فى تخريج أحاديث هذا الكتاب قال:

(أخبرنا معمر) هو بفتح الميمين بينهما عين ساكنة مهملة وبالراء معمر بن راشد بن عروة البصرى عالم اليمن، ثقة له أوهام معروفة، احتملت له فى سعة ما أتقن وله ترجمة فى الميزان، توفى فى رمضان سنة ثلاث أو أربع وخمسين ومائة باليمن، أخرج له الجماعة، قال معمر: طلبت العلم سنة مات الحسن ولى أربع عشرة سنة.

(عن قتادة) هو ابن دعامة أبو الخطاب السدوسى الأعمى، الحافظ المفسر، روى عن عبد الله بن سرجس وأنس وخلق كثير، وعنه أيوب، وشعبة وخلق. توفى سنة سبعة عشر بعد المائة، وقيل غير ذلك، وله ترجمة فى الميزان.

(عن أنس بن مالك) الصحابى المشهور، رضى الله تعالى عنه، وستأتى ترجمته فى الباب الثانى **(أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أتى بالبراق)** بصيغة المجهول أى أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام به، فحذف فاعله لشهرته كما صرح به فى غير هذه الرواية؛ ولأنه يعلم من آخر الحديث، وبراق كغراب دابة فوق الحمار ودون البغل سمى به لشدة سرعته، كما يقال: مر كأنه برق خاطف، أو لشدة تلألئه وبريقه أو بياضه، وقال المصنف رحمه الله تعالى: إنه سمى به لأنه ذو لونين كما يقال: شاة برقاء إذا كان خلال بياض صوفها طاقات سود، وأورد عليه أنه مخالف لما صرح به فى بعض طرق هذا الحديث من أنه أبيض إلا أن يقال إنه باعتبار الأغلب فيه، وفى كتاب خيل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن وجهه كوجه الإنسان، وذنبه كذنب الغزال، وقوائمه كقوائم الثور، وجسده كالفرس.

وقال الثعلبى: جسده كالإنسان، وذنبه كذنب البعير، وعرفه - بعين مضمومة وراء مهملتين وفاء - كعرف الفرس، وقوائمة كالإبل، وأظلافه كالبقر كأنها ياقوتة، وظهره كدرة بيضاء وله جناحان فى فخذيه يضع حافره عند منتهى طرفه، كما ورد فى الصحيح، وهو مذكر وسمع تأنيثه باعتبار الدابة، وقيل: تذكيره كتذكير الملك وتذكير وصفه، فإن مبنى التذكير على عدم التأنيث؛ لأنه الأصل لفظًا ومعنى، وقال ابن الملقن: إنه ليس بذكر ولا أنثى، وقول جبريل فى رواية: «تأنى يا براق لا تنفرى»، لا ينافيه؛ لأنه نظرًا لظاهر حاله واحتمال التأويل أو نظرًا للحوق تاء الوحدة إذ لم يقم دليل على أحد الشقين، وقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، أغلبى أو مخصوص بدواب الأرض، وصيغة المذكر لا تختص بما له مؤنث؛ لأنها أصل فلا جمع بين معنين متنافيين فى قائم وقائمة كما توهمه الكندى، وهو ملك خلق على هذه الصورة لحمل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا مانع منه كديك العرش، أو هو دابة مخلوقة فى الجنة، وقد قالوا: إنها يدخلها بعض دواب الأرض أيضًا، وبلغوها نحو عشرة ونظموها فى شعر مشهور **(شعر)**:

براق شفيع الخلق ناقة صالح   وعجل لإبراهيم كبش لنجله
وهدهد بلقيس ونملة بعلها   حمار عزير كلب كهف لمثله
وحوت ابن متى ثم باقورة لمن   يبر بام فى رخاه ومحله
فهذه عشر فى الجنان وغيرها   يكون ترابا يوم حشر لكله

(ليلة أسرى به) بصيغة المجهول والجار والمجرور قائم مقام فاعله، وليلة منصوب على الظرفية لأتى، والإسراء كان ليلاً فى سبع وعشرين من ربيع الأول، وقيل: لسبعة عشر

خلت من رمضان، وقيل: سبع وعشرون من ربيع الآخر، وقيل: من رجب، وقيل: إنه كان فى شوال وكان ليلاً؛ لأنه أدل على القرب وسنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، خمسون سنة وتسعة أشهر، وأسرى وسرى، بمعنى وهما سير الليل، وقيل: أسرى لأوله وسرى لآخره، واختار السهيلى أن سرى لازم وأسرى متعد ترك مفعوله، والإسراء والمعراج كانا فى ليلة واحدة يقظة بجسده على الأصح وبينهما فرق سيأتى،لأن ما ذكر هنا استطرادى.

(ملجمًا مسرجًا): مخففان بزنة مصحف، أى: مهيأ للركوب بسرجه ولجامه وهما حالان من البراق، وهل هو علم أو اسم جنس منحصر فى فرد كالشمس؟ الظاهر الثانى لوروده معرفًا ومنكرًا والقول بتعدده والاستدلال عليه بقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] مما لا ينبغى الاشتغال به، لكن الإمام السهيلى، رحمه الله تعالى، أفاد أنه كان قبل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، تركبه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ذكره فى شرح السيرة وستسمعه عن قريب.

(فاستصعب عليه) ضمير استصعب للبراق أو للركوب المعلوم من السياق، وضمير عليه للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما أراد ركوبه لم يقر حتى يركبه، ويجوز عود ضمير عليه للبراق أيضًا أى: صار الركوب صعبًا على البراق،كما قيل، وهو تكلف والفعل مبنى للفاعل ويجوز بناؤه للمفعول؛ لأنه سمع من العرب لازمًا ومتعديًا، يقال: استصعب الأمر علينا بمعنى صعب واستصعبت الأمر أى وجدته صعبًا، يعنى أنه امتنع وأبى أن يركب بسهولة، ولذا فسر ينفر أى شمس كما ورد فى بعض الروايات، ويقال: دابة شموس وشموص بمعنى حرون، وروى أن جبريل عليه الصلاة والسلام مسك ركابه وميكائيل عليه الصلاة والسلام زمامه، ومن هنا علم أن قول بعض الشعراء فى مدحه صلى الله تعالى عليه وسلم جبريل خادمه وميكائيل. ليس بمنكر لما فيه من ترك الأدب كما توهم، وسبب استصعابه فيه وجوه، منها أنه لم يركبه أحد قبله، قال الشمنى رحمه الله تعالى: وهو مبنى على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم تركبه، أو هو لبعد عهده بالركوب لطول زمن الفترة، وما قيل من أن الخلاف فيه الظاهر أنه فى ركوب هذا النوع لجواز تعدد شخصه، وهذا الشخص لم يركبه أحد منهم وإن ركبوا غيره، أو لما فى جبلة الفرس الأصيل من عدم التذلل كلام واه رواية ودراية، وقيل: إنه كان نشاطًا وفرحًا بركوبه صلى الله تعالى عليه وسلم ويأباه ما روى من أنها نفرت ونفشت عرفها، وقيل: كان خوفا من تقصيره فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: إنما توقف حتى يأخذ عليه العهد أن يركبه فى الجنة كما فى قصة

الجزع وحنينه، ومن الغريب ما فى تذكرة القرطبى فى تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك:٢] أن الموت خلق فى صورة كبش والحياة فى صورة فرس أنثى بلقاء، وقد كانت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يركبونها، وحكاه ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وطعن الحلبى فى صحته عنه، وقال السهيلى فى الروض الأنف بعد ما نقل الخلاف فى أن البراق هل كانت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تركبه قبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أو لا؟ وما ورد فيه أن سبب نفاره ما ورد فى كتاب البعث «أن جبريل عليه الصلاة والسلام قال له: يا محمد، هل مسست الصفراء اليوم؟ فقال: ما مسستها ولكن مررت بها، فقال: تبًا لمن يعبد من دون الله». وقد اختلفوا فى المراد بالصفراء فيه، فقيل: الذهب وعبادتها حبها كما يقال: عبد الدرهم والدينار، وقيل: لكل شىء مغناطيس ومغناطيس الإنسان الذهب، وقيل: هو صنم مذهب كسره صلى الله تعالى عليه وسلم يوم الفتح، وسبه له إما إهانة أو لإرادة كسره أو غير ذلك، وقال ابن حجر رحمه الله تعالى: هذا أواهٍ جدا.

أقول: فى الخصائص الكبرى: إن أبا يعلى وابن عدى والبيهقى وابن عساكر أخرجوا عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما، «أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم شهد مع المشركين بعض مشاهدهم، فسمع ملكين خلفه أحدهما يقول لصاحبه: اذهب بنا حتى نقوم خلف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: كيف نقوم خلفه وإنما عهده باستلام الأصنام قريب، فلم يعد بعد ذلك لمشاهدهم» قال الطبرى والبيهقى: معنى قوله: إنما عهده إلى آخره أنه شهد من استلم الأصنام لا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم استلمها أو المشاهد مشاهد الخلف ونحوه لا مشاهد الأصنام. وقال ابن حجر: هذا الحديث أنكروه، وإنما المنكر منه قوله إنما عهده إلى آخره، فإن ظاهره أنه باشر الاستلام وليس بمراد إنما المراد أنه شهد استلام المشركين لها، وروى أيضا «أن بوانة صنم كانت لقريش تشهده يومًا فى السنة، وأبو طالب معهم، فكلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى أن يحضره فأبى فغضب هو وعماته، فقالوا له: يا محمد، ما تريد أن تحضر لقومك عيدًا أو تكثر لهم جماعة، فلم يزالوا به حتى ذهب وغاب فعاد مرعوبًا فزعًا، فقالت له عماته: ما دهاك؟ قال: إنى أخشى أن يكون بى لمم، فقلن له: ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك فما رأيته قال: إنى كلما دنوت من الصنم منها تمثل لى رجل أبيض يصيح وراك يا محمد لا تمسه، فما دعا صلى الله تعالى عليه وسلم إلى عيد لهم حتى تنبأ» وإنما فصلنا هذا؛ لأن الإمام السهيلى تردد فيه فى الروض، بقى هنا أنه هل أردف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جبريل أم لا؟ فذكر

البرهان أنه أردفه خلفه، وفى رواية أنه ركب قدامه، والذى ظهر لى أنه إنما استصعب لما لم يعرف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وظن أنه غير نبى، فلذا عرق خجلاً لما أعلمه جبريل عليهما الصلاة والسلام بأنه نبى الله.

(فقال جبريل) عليه الصلاة والسلام للبراق لما فعل هذا وجبريل علم للملك المشهور، وفيه لغات وصلت أربعة عشر لغة، جبريل، وجبرين، وغيرهما مما يأتى فى أثناء الباب الثانى، وببعضها قرئ وهو عبرانى أو سريانى، ومعناه عبد الله على الأصح، وإيل اسم الله تعالى فى لغتهم وليس بمعنى عبد، وما قيل من أن إيل لا يعرف من أسماء الله تعالى ليس بشىء.

(أبمحمد تفعل هذا) فى نسخة زيادة يابراق، وفى رواية ابن حبان «ما حملك على هذا ما ركبك خلق قط أكرم على الله منه» وروى البيهقى «يا براق والله ما ركبك مثله» وروى البزار «يا براق لا تنفرى من محمد فوالله ما ركبك ملك مقرب ولا نبى مرسل أفضل من محمد ولا أكرم على الله منه، قال: قد علمت أنه كذلك وأنه صاحب الشفاعة وأنى أحب أن أكون فى شفاعته، فقال: أنت فى شفاعتى إنشاء الله» قيل: ففى رواية المصنف رحمه الله تعالى اختصار، فإن قيل: بتعدد الإسراء فالأمر سهل وليس كما قال، فإنه اختلاف رواية لا اختصار والاستفهام إنكارى، وقدم الظرف لتخصيص الإنكار أو زيادته به، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم أجل من علاه فلا يليق النفار منه والإشارة راجعة لمصدر استصعب أو لما فهم منه، كما أشار إليه بقوله: **(فما ركبك أحد أكرم على الله منه)** الفاء للسببية وأكرم أفعل تفضيل من الكرم وهو وصف جامع لكل خير وشرف، وضده اللؤم، والكرم فى العرف بمعنى الجود فيقابله البخل، والمراد هنا الأول.

فإن قلت: المراد أنه ليس أحد عند الله أكرم منه ولا أفضل ولا مثله ولا يدانيه والعبارة قاصرة.

قلت: قال فى شرح المقاصد: استدلوا على تفضيل الصديق بحديث: «ما طلعت شمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أحد أفضل من أبى بكر رضى الله تعالى عنه» ومثله وإن كان ظاهره نفى أفضلية لكن إنما يساق لإثبات أفضلية المذكور، ولهذا أفاد أفضلية أبى بكر رضى الله تعالى عنه، والسر فيه أن الغالب فى حال كل اثنين هو التفاضل دون التساوى، فإذا نفى أفضلية أحدهما ثبت أفضلية الآخر انتهى.

وقيل: إذا قيل ليس فى البلد أفضل منه فالمراد ليس فيها من يساويه ويدانيه فضلا ممن

يزيد عليه، وهو معروف فى استعمال البلغاء، وروى هنا ما ركبك مثله وهو يؤيده، فهو كناية إذ الأفضل لا بد له من مساواة المفضول من بعض الوجوه وإن زاد فى بعض آخر، فقصد بنفيه نفى لازمه وهو المساواة وفيه بحث، وظاهر الحديث أن البراق ركبه غير نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وقد مر أنه ثابت، وقال النووى: إنه لم يصح، وقال ابن حجر: رواياته كلها واهية، ولذا قيل هنا: إن المعنى هنا أنه لم يركبك أحد فكيف ركبك أكرم منه على حد قوله. ولا ترى الضب بها ينجحر.

وقيل: الذى رواه النسائى والسهيلى وابن هشام والقرطبى أنه ركبه غيره من الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، حتى قيل: إن إبراهيم صلى الله تعالى عليه وسلم كان يحج عليه فى كل سنة حتى قيل له: براق إبراهيم، وقول النووى: اشتراك جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيه يحتاج لنقل صحيح يحتمل أنه إنكار لعموم المشاركة، ثم إن ركوبه صلى الله تعالى عليه وسلم له إنما هو لبيت المقدس، ثم ربطه فى الصخرة و لم يصعد عليه بل على رفرف أى معراج من نور. وقال الشيخ عز الدين بن غانم المقدسى فى كتاب شجرة الإيمان: إن مركبه صلى الله تعالى عليه وسلم إلى بيت المقدس الأول البراق، ثم مركبه الثانى إلى سماء الدنيا المعراج، ثم مركبه الثالث من سماء الدنيا إلى السماء السابعة أجنحة الملائكة، ثم مركبه الرابع إلى سدرة المنتهى جناح جبريل، ثم مركبه الخامس الرفرف الأخضر من النور مد ما بين الخافقين.

(قال:) هو من كلام الراوى عن أنس رضى الله تعالى عنه.

(فأرفض عرقا) أرفض بهمزة وراء سا كنة مهملة وفاء وضاد معجمة مشددة بزنة أحمر بمعنى سال وتصبب، وعرقا تمييز محول عن الفاعل وعرقه لخجله أو مهابته من استصعابه وثبوت الخجل لنحوه غير مستبعد، وقيل: أرفض بمعنى ترشرش عرقه، وقال ابن رسلان عن المصنف رحمه الله: أرفض بمعنى خر على الأرض وبرك كما روى أنقض أيضا، والمعروف فى كتب اللغة الأول، وفى بعض الروايات أرفض عرقا وقر وفى السيرة ثم قر، وفسر بأنه جرى عرقه ثم سكن وانقاد وترك النفار، وقلت فى معناه بديهة:

عرق البراق وقد أراد محمد يعلو عليه لأجل جل مصالحه
فكأنه لنفاره خجلا غدا لتأسف يبكى بكل جوارحه

واعلم أن المصنف رحمه الله تعالى إنما ذكر هذا الحديث مسندًا على خلاف دأبه فى هذا الكتاب، وغير أسلوبه فى غيره من الأقسام والأبواب، لأنه لما كان هذا أول الأقسام

وتاج التراجم والمرام وتقديمه له لاهتمامه به صدره بحديث ثابت، فيه من الدلالة على ما أراد بيانه من التعظيم قولاً وفعلاً ما لم يتيسر لغيره من الأنبياء عليهم السلام مما يقصر عنه الأفهام، وتتحير فيه العقول والأوهام، وهو دعوة الملك الجليل له ليلا لحظائر قدسه كما يدعى المقرب المطلع على الأسرار، وأرسل لدعوته عظام ملائكته ببراق مسرج ملجم على عادة الملوك إذا عظموا من دعوا وأرسلوا له بعض المقربين بمركوب، كانوا يسمونه فرس النبوة فأوصله إلى حرم عزته لمكان لا يصل إليه سواه، وكلمه بغير واسطة وتجلى له بلا حجاب، ولذا قال جبريل عليه الصلاة والسلام «إنه أكرم خلقه عليه» وسيأتى تفصيله فى بابه إن شاء الله تعالى.

* * *

[الباب الأول: فى ثناء الله تعالى عليه وإظهار عظيم قدره لديه]

(**الباب الأول فى ثناء الله تعالى عليه**) الثناء المدح كما تقدم تقريره (**وإظهار عظيم قدره لديه**) بقول غير ثناء ظاهر كالقسم به والأمر باتباعه، فهما متغايران إذ الأصل فى العطف التغاير، أو أراد بالفعل القول الصريح فى ثناء وغيره، والمراد عظيم قدره، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالنسبة لغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أو مطلقًا فبينهما عموم وخصوص وجهى وهو تباين جزئى، فالثناء من غير تفضيل ينفرد به الأول وينفرد الثانى بالإسراء ونحوه، ومادة الاجتماع تفضيل بالقول على غيره، فإن أريد بالثناء ما يدل على الكمال مطلقًا بطريق المجاز فالعطف للتفسير والتوضيح.

(**اعلم أن فى كتاب الله العزيز**) بالجر صفة لله أو للكتاب، لأن العزيز معناه القوى الغالب، ويقال: عزه إذا غلبه، وفى المثل من عز بز، وهو من أسمائه تعالى ويوصف القرآن به، وهو المراد بالكتاب؛ لأنه بمعانيه وإعجازه فاق كل كتاب وغلبه، واعلم أمر من العلم يصدر به ما يعتنى به من الكلام تقوية وتأكيدًا وحثا على إلقاء البال لما بعده تنبيهًا على أنه مما ينبغى أن يعلم ولا يترك، وقد ورد كذلك فى القرآن وكلام العرب كقوله: (**فاعلم أنه لا إله إلا الله**) ولذا التزم بعده غالبًا أن المؤكدة كقوله[1]:

فاعلم فعلم المرء ينفعه أن سوف يأتى كل ماقدرا

(**آيات كثيرة**) اسم إن كثيرة وصفته جمع آية، وأصل معناها العلامة والجماعة، ثم خصت بمقدار من القرآن وجمع من الحروف له مبدأ ومنقطع مندرجة فى سورة فى الأكثر وفى اشتقاقها وتصرفها ما مر شىء منه.

(**مفصحة بجميل ذكر المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم**) أى مبينة له والإفصاح لغة الكشف، ويقال: أفصح إذا أتى بكلام فصيح، وهو يتعدى بعن، والمصنف رحمه الله تعالى عداه بالباء و لم يسمع، فهى بمعنى عن فإنها تأتى بمعناها، ولا يختص هذا بمادة السؤال كما فى قوله عز وجل: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩] أو هو مضمن معنى ناطقة أى دالة أو محمول على ما هو بمعناه كأتى، أو المراد أنها مبينة فى حد ذاتها والباء للملابسة من أفصح اللبن إذا ذهبت رغوته، وجميل ذكره بمعنى ذكره الجميل،

---

(١) البيت من الكامل، وهو بلا نسبة فى الدرر (٤/٣٠)، شرح شواهد المغنى (٢/٨٢٨)، شرح ابن عقيل (ص١٩٥)، معاهد التنصيص (١/٣٧٧)، مغنى اللبيب (٢/٣٩٨)، المقاصد النحوية (٢/٣١٣)، همع الهوامع (١/٢٤٨).

وتفسيره بأن الذكر الجميل يظهر بها لا يخفى ما فيه، والجميل المحمود من الصفات، وخصه بعضهم بالاختيارى ولنا فيه كلام فى حواشى التهذيب.

(وعد محاسنه) أى تفصيلها لما بينهما من الملازمة فى الجملة، وفيه إيماء إلى أن تفصيلها لا يحيط به نطاق البيان.

(وتعظيم أمره) أى شأنه وماله فى نفسه، أو هو مقابل النهى، والمراد إيجاب اتباعه فترك النهى اكتفاء لأن الأمر بالشئ نهى عن ضده، أو المراد مطلق الطلب مجازًا.

(وتنويه قدره) أى: رفعه بإشاعته على وجه التعظيم والتكريم، يقال: نوه باسمه تنويها إذا رفعه، كما قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤] قيل: هو تصريح باللازم أو تعميم بعد التخصيص.

(اعتمدنا منها) أى: من الآيات، والمراد باعتماده على بعضها اقتصاره عليه أو جعله عمدة مقصودًا بالذات وغيره بالتبع، ويقال: اعتمد على كذا إذا اتكأ عليه، وليس بمراد هنا، وجملة اعتمدنا صفة آيات وجمعنا الآتى بعده معطوف عليه، وقيل: إنها حال من المجرور بعدها على رأى من جوز تقديم الحال على صاحبها المجرور وفيه نظر.

(على ما ظهر معناه وبان فحواه) ظهر وبان بمعنى أى اتضح وانكشف، والمعنى ما فهم من اللفظ ويراد به ما يقال، بل الذات، والمراد الأول، والظهور ضد الخفاء لا ما اصطلح عليه الأصوليون، والفحوى لغة كالمعنى، والفحوى عند الأصوليين بمعنى مفهوم الموافقة ويمد ويقصر والأشهر فيها القصر، كذا قال أبو على فى المقصور والممدود مأخوذ من الفحا وهى التوابل والإبراز. قيل: وينبغى أن يراد به هنا مطلق المفهوم وهو معتبر بلا خلاف، ولذا اعتبره فقهاؤنا فى ظاهر الرواية وإنما الخلاف فى صحة الاستدلال به من النصوص، فلا وجه لما قيل أن المصنف مالكى المذهب، ومالك، رضى الله تعالى عنه لا يقول بالمفهوم حتى يجاب بأن صاحب الملخص نقل عنه أنه قائل به لخروجه عن سنن السداد، وقيل: إنه بمعناه اللغوى فهو من عطف أحد المترادفين على الآخر، وقد تخص الفحوى بما يفهم قطعًا أو من خلال التراكيب، وإن لم يكن بالمطابقة.

(وجمعنا ذلك) المعتمد عليه **(فى عشرة فصول:**

* * *

(الفصل الأول فيما جاء من ذلك مجئ المدح والثناء)

وليس من قبيل الفصول المذكورة، والمدح والثناء متقاربان وليس من عطف الخاص على العام كما قيل.

(وتعداد المحاسن) بالجر عطف على المدح، وذكر الحلبى أنه صحيح نصبه، ووجهه بأن أصله ومجئ تعداد على أنه مفعول مطلق معطوف على مثله بعد حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكونه منصوبًا على الحالية سهو، وتعداد بفتح التاء مصدر بمعنى التعديد.

(كقوله) تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] بالنصب بتقدير أعنى أو أذكر أو أقرأ إشارة لبقية الآية اختصارًا، قال بعض المفسرين: هذه الآية آخر آية نزلت،وقد قيل: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ [النساء: ١٧٦] فى آخر النساء وآخر سورة براءة، وقيل: آية الربا، وأراد بعضهم التوفيق فلم يساعده التوفيق، ووقع فى حديث جمع القرآن أن هذه الآية لم توجد إلا مع خزيمة الأنصارى رضى الله تعالى عنه، ووقع فى البخارى مثله فى قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٢٣] إلى آخره، واستشكل ذلك بأنه ينافى اتفاقهم على تواتر القرآن، وأجيب بأن المراد التثبت فى تلقيها ممن تلقاها عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بغير واسطة، والمبالغة فى استظهار ما كتب بين يدى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أو أنه وجد من شاركه فى حفظها فتواترت، وقيل: المنفى وجودها مكتوبة لا محفوظة فتدبره.

(قال أبو الليث السمرقندى) رحمه الله تعالى نسبة لسمرقند مدينة معروفة بما وراء النهر، قال التلمسانى: المصحح فى النسخ بفتح السين والراء وسكون الميم والمعروف فتح الميم وسكون الراء وتبع فيه صاحب القاموس إذ قال: إسكان الميم وفتح الراء لحن وفيه نظر، وهى معرب شمر كند وشمر اسم رجل وكند بمعنى قرية، والسمرقندى هذا هو الإمام الجليل المعروف بإمام الهدى، وهو نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الفقيه الحنفى المشهور صاحب التصانيف الجليلة كالتفسير، والنوازل، وخزانة الفتاوى، وتنبيه الغافلين، والبستان، توفى ليلة الثلاثاء لإحدى عشرة خلت من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين وثلاث مائة، ومن أئمة الحنفية أيضًا آخر يدعى بأبى الليث السمرقندى متقدم على هذا كما قاله السمعانى، وهذا يعرف بالحافظ، وبهذا اللقب يفرق بينهما.

(وقرأ بعضهم من أنفسكم بفتح الفاء وقرأ الجمهور بالضم) أى بفتح الفاء وضمها، والواو فى قوله وقرأ من المحكى فهو معطوف على مذكور فى أصله، وفى عبارة المصنف على مقدر، وفى المحتسب لابن جنى أنها قراءة عبد الله بن قسط الملكى، ومعناها على الفتح من خياركم وأشرفكم، ومنه قولهم: هو من أنفس المتاع، أى أجوده وخياره، ومنه المنافسة وهى اشتداد الرغبات فى أمر يقتضى التحاسد عليه والغبطة، وهى كما فى شرح أدب الكاتب مأخوذة من النفس، فكأن المنافس فيه لرغبته وحرصه عليه مثل نفسه

عنده، وهذه القراءة شاذة كما يعلم من نسبة الضم للجمهور، وعزاها بعضهم لابن محيص، وروتها فاطمة رضى الله عنها، عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم «وأنفس» على الفتح أفعل تفضيل،وجوز التلمسانى فيه أن يكون اسم فاعل وهو بعيد، وعلى الضم جمع نفس لأنه ما من قبيلة إلا وقد ولدت من نسله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما يأتى إلا بنى ثعلب لتمسكهم بالنصرانية، والجمهور: بالضم كثير من الخلق جمعه جماهير، وحكى التلمسانى فتح جيمه وهو غريب.

(**قال القاضى الإمام أبو الفضل**) عياض وهو رواية بالمعنى لأنه لا يمدح نفسه، وعبارة المصنف كما فى بعض النسخ: قال أبو الفضل وفقه الله تعالى، وقد سقط كله من بعض النسخ المتداولة.

(**أعلم**) ماض من الإعلام. (**الله تعالى المؤمنين**) جعل المخاطب هنا المؤمنين لقوله تعالى فى سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، والقرآن يفسر بعضه بعضا، وهذا الخطاب هو المسمى فى الأصول بخطاب المشافهة، وهل هو مختص بالموجودين منهم فى زمان النزول أو النازلين فى مهبط الوحى، أو يعم الموجودين منهم وغيرهم ممن سيوجد من هذه الأمة؟ أقوال اختلف فيها بعد الاتفاق على دخولهم فى حكمه، وإنما الخلاف فى كونه يدل عليهم وضعا أو لا؟ فالدلالة هل هى قياس أو إجماع أو دليل آخر؟ وليس هذا محل تفصيله وهو شبيه بالخلاف المذكور فى النطق بين الفارابى وأبى على فى عنوان موضوع القضية، وإن لم يتنبهوا له ووجه التخصيص بالمؤمنين أنهم المنتفعون ببعثته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الدارين، وإن كان رحمة لجميع العالمين، والمقصود بهذا الخطاب الامتنان عليهم أو إعلامهم بمضمونه، وإن كان منهم من يعلمه تغليبًا اهتمامًا بإرشادهم، ولذا أكد بالقسم أو هو للإشارة إلى أن نطاق علمهم لا يحيط بعظيم قدره، وقيل: إنه لتنزيل العالمين منهم منزلة غيرهم لغفلتهم عن عظيم هذه النعم والتقصير عن شكرها، وقيل: هو لقصد إعلام الجاهل وإظهار المنة على العالم، واستبعد، وقيل: إن قوله بالمؤمنين التفات مراعى فيه نكاته، أو هو من وضع الظاهر موضع المضمر تشريفًا لهم وإهانة لمن عداهم، وفى الالتفات بعد هنا، ورد بأن المؤمنين لاسيما الصحابة رضى الله تعالى عنهم عالمون بمدلول هذا الخبر، فلا إعلام لهم بحسب الحقيقة إلا أن ينزلوا منزلة غيرهم لغفلتهم عن هذه النعمة وشكرها والعمل بمقتضاها، وأراد مجرد توجيه الكلام نحوهم والأظهر أن المقصود هنا إظهار المنة وتنبيه من غفل عن هذه الصفات وفوائدها كما مر.

أقول: هذا زبدة القيل والقال هنا وتحت الرغوة اللبن الفصيح، فإن هذا مع ما فيه من

التكرار والتقصير يحتاج للتنقيح والتقفير، فإن وضع الظاهر موضع المضمر لا يخرجه عن الالتفات، وإن جاز أن يقال إنه تجريد بناء على عدم المغايرة بينهما، ولما كان الكلام هنا ليس محل التأكيد لعدم جهل المؤمنين وترددهم فى مضمونه احتاج للتوجيه فتدبر.

(**أو العرب**) على أن المراد بأنفسهم جنسهم، وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، عربى مثلهم وقد رجح هذا أكثر المفسرين لتبادره، ولأن قوله بعده: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ [التوبة:١٢٩] يدل على عموم اختصاصه بالمؤمنين، وقول إبراهيم عليه الصلاة السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:١٢٩] قد فسر بما ذكر، لأن ضمير منهم عائد على الأمة المسلمة السابقة فى قوله ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا﴾ [البقرة: ١٢٨] أى إبراهيم وإسماعيل، إذ لا أمة من ذريتهما إلا العرب كما قيل، واحتمال اختصاص بعثته، صلى الله تعالى عليه وسلم بهم مدفوع بالقرآن والأدلة القاطعة، وهذا لأن العرب كلهم من ذرية إسماعيل عليه الصلاة والسلام، والصحيح عند أهل التاريخ خلافه، وقال ابن قتيبة فى كتاب تفضيل العرب: إسماعيل ليس أول من نطق بالعربية؛ لأن العرب من ولد قحطان، وهو أول من تكلم بالعربية حين تبلبلت الألسن ببابل وسار حتى نزل باليمن هو وأولاده، ثم نطق بعده ثمود بلسانه وشخص حتى نزل بالحجر، فكان منهم تسعة قبائل قديمة فنطقت ألسنتهم بالعربية، وبعث فيهم هود وصالح وشعيب عليهم الصلاة والسلام، ولما بوأ الله إسماعيل الحرم وهو صغير وانبط له زمزم ومرت به رفقة من جرهم فرأوا ما لم يكونوا رأوه، فأخبرتهم أمه بنسبه وحاله فتبركوا به وبمكانه ونزلوا معه، فنشأ إسماعيل عليه الصلاة والسلام معهم بين ولدانهم وتكلم بلسانهم فأنكحوه منهم، وقالوا: نطق بالعبرانية، ثم غيروه فقالوا بالعربية لسان العجمى، ويقال لهم: العرب العاربة ولغيرهم المتعربة، والمستعربة الداخلة فى العرب كتبرز وتعيس انتهى.

والذى قاله الأزهرى كما مر أنهم نزلوا ببقعة أو سكنوا بلدة يقال لها عربة فسموا بها عربا.

(**أو أهل مكة**) لأنهم أقرب نسبًا إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو لأنهم أول من جاء إليه، أو لأنهم أشرف العرب وهو أشرفهم، فهو خيار من خيار وهذا لا يقتضى تخصيص بعثته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بهم، لأن التخصيص المذكور لا يفيد الحصر وإنما يقتضى الترجيح، وعموم الرسالة مخصوص به، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما صرحت به النصوص واتفقوا عليه، ولا يرد عليه أن نوحًا، عليه الصلاة والسلام، كان مبعوثًا لأهل الأرض كافة بعد الطوفان؛ لأنه لم يبق على الأرض إلا من كان معه، فعموم رسالته لهم لعدم وجود غيرهم كآدم صلى الله تعالى عليه وسلم، وأما نبينا صلى

الله تعالى عليه وسلم، فعموم رسالته من أصل بعثته، على أن دعوة نوح عليه الصلاة والسلام لم تعم من بعده، وكون نوح عليه الصلاة والسلام أول الرسل كما ورد فى الحديث الصحيح فقد بينه شراح البخارى بما لا مزيد عليه، واستدل لعموم رسالة نوح صلى الله تعالى عليه وسلم بدعائه على جميع أهل الأرض حتى هلكوا غير أهل السفينة، وأجيب بجواز بعثة غيره فى زمانه وعلمه بأنهم لا يؤمنون به، فدعا على من لم يؤمن من قومه وغيرهم، إلا أنه لم ينقل لنا، وأيضا شريعة نوح عليه الصلاة والسلام لم تبق إلى يوم القيمة لنسخها.

وقال ابن عطية: إنه دعا قومه للتوحيد وبلغهم فأشركوا فدعا عليهم، لأنه عليه الصلاة والسلام لطول مدته اشتهر أمره فى جميع الأرض.

وقال ابن دقيق العيد رحمه الله: الدعوة للدعوة يجوز أن تكون عامة فى حق بعض الأنبياء عليهم السلام وإن لم تعم فروع شريعته؛ لأن منهم من قاتل غير قومه على الشرك وهو كلام حسن.

(أو جميع الناس) من بنى آدم الموجودين فى عصره ومن بعدهم إلى يوم القيامة لا من تقدمه؛ لأن المذكور هنا ليس البعثة وحدها، بل بعثته لمن صعب عليه عنته وحرص على هدايته لشفقته التامة عليهم، وقد رجح بعضهم هذا التفسير على غيره، لما فى الثلاثة الأول من إيهام الاختصاص، وإن دفع بأن الأدلة قد قامت على خلافه، وقد مر أن فى الأول وضع الظاهر موضع المضمر لتشريفهم والإشارة إلى منشئ ما ذكر، ولذا رجحه بعضهم، وقد مر الكلام فى ترجيح بعض هذه الوجوه، والمنة عليه بكونه من جنسهم لمشاهدتهم معجزاته التى تدعوهم للسعادة مع ما فيه من الرفق بهم؛ لأن الجنس لجنسه أميل وآنس به، ولذا قيل: لو كان ملكا بهيبته الأصلية لم يتيسر لهم التلقى عنه ولا التبس عليهم.

فإن قلت: ما وجه قول بعض الشراح المراد بالناس جميع المكلفين فيشمل الجن وقد صرح فى القاموس بإطلاقه عليهم؟

قلت: قد صرح به جماعة من أهل اللغة والتفسير، وصرح به ابن خالويه رحمه الله تعالى، والعرب تقول ناس من الجن، وفى الحديث: «جاء قوم فوقفوا فقيل لهم من أنتم؟ فقالوا: ناس من الجن»، ولذا جوز بعضهم فى قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٦] أن يكون بيانًا للناس،ومن الغريب قول السبكى أنه مشترك بينهما، فتارة يكون بمعنى الإنسان وأصله أناس، وتارة يكون شاملاً لهما وأصله على هذا نوس بمعنى

تحرك، وقيل: الناس هنا شامل لمن تقدم عهد الرسالة بنظر دقيق، والظاهر على الثلاثة الأخيرة أنه نزل الكل منزلة الجاهل فأعلمهم أو العالم فقصد إظهار المنة أو غلب، وقيل: قصد إعلام الجاهل وإظهار المنة للعالم وفى صحته نظر.

أقول: وجه جعل المجئ شاملاً لمن تقدم أنه أخذ عليهم الميثاق على أن يؤمنوا به ويخبروا أممهم بأنه سيبعث، فلما جائهم خبره جعل كأنه جائهم حقيقة أو لأنه سيشفع لهم فى المحشر، فكان مجيئه لهم كغيرهم ولا يخفى بعده وإن صح، ثم إن إعلام الله بفائدة الخبر أو لازمها إذا كان لكثيرين لا مانع من قصد إعلام بعض والامتنان على بعض، كما أنه لا مانع من قصدهما معًا للجميع بأن يعلمهم بما فيه نفع عظيم ويمتن به، فالتردد فى صحته لا وجه له.

(على اختلاف المفسرين) أى: إعلامنا مبنيًا على اختلافهم فى اختيار بعض لبعض هذه الوجوه وآخر لآخر، لما بدا لهم من وجوه الترجيح كما أشرنا إليه.

(من المواجه بهذا الخطاب) من بفتح الميم اسم استفهام نونه مكسورة لالتقاء الساكنين، وكونه بكسر الميم حرف جر بيان للمؤمنين، أى: من الذين وجه إليهم الخطاب بعيد غير لائق ، والمواجه بضم الميم اسم مفعول مرفوع خبرًا أو مبتدأ على القولين، والمواجه المخاطب لمقابلة وجهه لوجهك، أو لخطاب مصدر خاطبه إذا شافهه بالكلام، ويطلق على توجيه الكلام للغير وعلى الكلام الموجه، وعلى ما يدل عليه كالكاف، ويصح إرادة كل منها هنا، وعلى مامر متعلق بمقدار صفة أو خبر مبتدأ مقدر، أى: هذا أو ما ذكر مبنى إلى آخره، وأصله فى جواب القائل من المواجه إلى آخره، والاختلاف مصدر متعد بالحرف يقال: اختلف فى كذا، والاختلاف مامر من التخصيص والتعميم، فالمطلوب تعيين أحد الوجوه للسائل، وهو كما قيل عنه عامله وإن تعدى بالحرف تعليق أفعال القلوب، إما لتضمنه معنى العلم كما قالوه فى قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] أو على قول يونس يجريه فى جميع الأفعال، أو الجملة الاستفهامية مستأنفة كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ﴾ [الدخان: ٣٠، ٣١] فى قراءة من بفتح الميم فمتعلق الاختلاف متروك أو مقدر، كأنه لما ذكر الآية قيل: فيم اختلفوا؟ فقيل: فى جواب القائل كما قدروه، وقد قيل عليه أنه مع سماجته فيه أن هذا السؤال المقدر لا يتولد من ذكر الاختلاف، وأيضًا المصنف رحمه الله تعالى لم يقصده، وليس مرادًا فى هذه الآية إلى آخر ما طوله بغير طائل مع ذكره أمورًا مفصلة من العربية ليس هذا محلها، والخلاف والاختلاف متقاربان، إلا أن علماء الحنفية فرقوا بينهما كما ذكره الخصاف فى أدب

القضاء، فقال: الخلاف ما وقع فى محل لا يجوز فيه الاجتهاد، وهو ما كان مخالفًا للكتاب والسنة والإجماع، والاختلاف بخلافه بأن يكون فى محل يجوز فيه الاجتهاد، فالأول لو حكم به قاض ورفع لغيره يجوز له فسخه بخلاف الثانى، وهذا معنى قولهم: خلاف لا اختلاف.

(أنه بعث فيهم رسولا من أنفسهم) أن بالفتح وهو مع ما بعده ساد مسد مفعولى أعلم، وإن كان مصدرًا مفردًا بحسب التأويل، إلا أنه لاشتماله على النسبة فى حكم الجملة فليس كالمصدر الصريح من جميع الوجوه كما بينه النحاة كما ذكروه، وقد أفردناه بالتأليف فى الرسائل، ولذا قال المحققون: إنه لا يحتاج لتقدير مضاف إذا وقع خبرًا كما توهموه، وأنفسهم هنا بضم الفاء جمع نفس، والضمير فى بعث راجع لله وكون أنه بعث الخ بدلا من قوله بهذا الخطاب بدل كل أو اشتمال تكلف غير محتاج إليه، وهذا جار على الوجوه كلها، فإن كان الخطاب للمؤمنين فالمراد بكونه من أنفسهم أنه على طريقتهم ومعتقدهم، وإن كان للعرب فالمراد أنه من صميمهم ونوعهم، وإن كان لأهل مكة فالمراد أنه نشأ من تربتهم وبين أظهرهم، وإن كان للناس فالمراد أنه من جنسهم وليس هذا على بعض الوجوه كما توهم،وفيه إشارة إلى شرف من بعث منهم، ومن هنا تعلم أن شموله للجن غير مناسب للمقام.

(يعرفونه) بيان لفائدة كونه منهم، وهى معرفتهم لذاته وصفاته وأحواله، وذكره فى الكتب القديمة وتواتر أخباره وإضاءة أنواره، وهذا جار على الوجوه كلها أيضًا، والمراد بالمعرفة، المعرفة بالفعل أو بالقوة؛ لأن عندهم ما لا يخفى من ذلك، وبالفعل على التغليب و لم يرد معرفة نبوته حتى يكون كفرهم عنادًا كما قيل وإن صح بالتأويل السابق.

(ويتحققون مكانه) أى: قدره ورتبته، ويحتمل أن يراد محله الحقيق خصوصًا إذا كان الخطاب لأهل مكة، وهذا ليس تحته كبير فائدة، إلا أن يكنى به عن معنى بعيد مثل أنهم يهابونه ولا يقدرون على أذيته، أو أنهم يعلمون أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يأخذ ما جاء به عن أحد، وفى نسخة مكانته بالتاء وهى أولى؛ لأن المكان الحقيق والمجازى بخلاف المكانة، فإنها تختص بالثانى كما صرح به أهل اللغة، فكان التاء فيه للنقل وهذه النسخة أنسب بالمقام وبقوله يتحققون، فتدبر.

(ويعلمون صدقه وأمانته) لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان معروفا بذلك حتى كان يدعى قبل البعثة بالأمين، وتوضع عنده الودائع والأمانات، وهذا على إطلاقه من غير نظر لدعوى النبوة ولما قبلها فلا حاجة إلى أن يقال: المراد ما عداها، ويؤيده حديث

هرقل مع أبى سفيان رضى الله تعالى عنه المذكور فى الصحيحين.

(ولا يتهمونه بالكذب) أى: لا يصفونه به ولو افتراء وتهمة؛ لأنه نشأ بين أظهرهم وجربوه، فلم يسمع من أحد منهم ما يتهم به، ولذا قال هرقل فى حديث البخارى: «ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى» وهم يهم بمعنى غلط أو ظن، واتهمه أدخل التهمة عليه أو نسبها له، وفى القاموس تهمة كهمزة ما يأتيهم به، وفى معنى التقريب أن هاءه قد تسكن، وفى النهاية: اتهمته ظننت فيه ما نسب إليه وباء بالكذب للسببية أو للملابسة، أى: لا ينسبون ولا يظنون ملابسته بالكذب أو لا يتهمونه بسبب الكذب، وقيل: إنها للتعديه.

(وترك النصيحة لهم) ترك بالجر معطوف على الكذب، أى: لم يتهمه أحد بترك النصيحة حتى كانوا يرجعون إليه فى مشكلهم ومشاورتهم قبل الدعوة للنبوة، والنصيحة ضد الغش وفى معناها لغة اختلاف، فقيل وهو الأشهر: معناها الخلوص، يقال: نصحه إذا أراد له الخير وأظهره وغشه فى ضده، ومنه التوبة النصوح وهى الخالصة ظاهرًا وباطنًا الذى لا يرجع صاحبها عنها أصلاً.

ورأيت فى فتاوى ابن تيمية أن من الناس من قال: إن نصوحًا اسم رجل كان فى زمن عيسى صلى الله تعالى عليه وسلم تاب توبة مشهورة، فأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتوب الناس توبة كتوبته، قال: وهو كذب من قائله إذ لم يسمع بأحد سمى نصوحا فى الأعصر المتقدمة، و لم يقل هذا أحد من المسلمين فضلاً عن العلماء، وإنما ذكرت هذا لأنى سمعت بعض جهلة الوعاظ من الروم يذكرونه فى مجالسهم فإياك أن تغتر بمثله.

(لكونه منهم) متعلق بيعرفون أو به وبما بعده على التنازع؛ لأنه تعليل لمجموع الكلام، أو هو خبر مبتدأ، أى: هذا لكونه إلى آخره وهو جار على الوجوه كلها، وقيل: إنه متعلق بيعلمون فإن القريب يعرف حال القريب، أو بلا يتهمون فيكون دليلاً له، وقد مر أن الكلام يحتمل أن المراد أنهم يعلمون نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم بالقوة أو بالفعل وقد تقدم ما فيه فتذكره.

(وأنه لم يكن فى العرب قبيلة إلا ولها على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولادة أو قرابة) أنه بالفتح وهو وما بعده فى محل جر عطف على كونه، وهو عطف مغاير أو تفسير تفصيلى، وهذا أولى من عطفه على أن الأولى لبعده، ولأنه لم يعلم به إلا بتكلف بأن ينزل وقوعه منزلة الإعلام، وقبيلة بفتح القاف بنو أب واحد وجمعه قبيل، وقيل:

هما بمعنى وهو الجماعة، وقيل: بينهما فرق فالأول بنو أب واحد والثانى من أباء مختلفة، أو هو أعم، وطبقات أنساب العرب ستة: وهو الشعب بالفتح وهو أكبرها، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة، وهى العشيرة وقد نظمها فى قوله (شعر):

شعب بفتح الشين والقبيلة من بعدها عمارة أصيله
وهى بكسر العين تروى ثم قل بطن وفخد بعدها ولا تحل
وسادس فصيلة تؤويه وهى العشيرة التى تليه

والشعوب بضم العين جمع شعب بفتحها فى العجم، والأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب، ولذا قيل لمن يفضل العجم على العرب شعوبية ونسب له، وهو جمع لأنه كأنصارى وقوله إلا ولها إلى آخره، يعنى به: أن فى كل قبيلة من العرب له صلى الله تعالى عليه وسلم أب أو جد أو أم ولو جده بدون واسطة أو بواسطة، وفى هذه الجملة الواقعة بعد إلا مع الواو وقولان، فذهب الزمخشرى إلى أنها صفة والواو لإلصاقها بالموصوف تشبيهًا لها بالحال، والجمهور على أنها حالية، والمعنى لم تكن قبيلة على حال من الأحوال إلا على هذه الحال من اتصال النسب لامتناع الواو، والتفريع فى الصفات كما فصل فى محله، والمراد بالقرابة القرب من عمود النسب الفرعى والأصل مطلقًا، إلا أنها فى العرف إذا أطلقت خصت بالفرعى، ولذا لو أوصى أو وقف على أقاربه به لم تدخل فروعه وأصوله، والفرق ظاهر بينه وبين أقرب أقاربه، والقرابة بالفتح تكون مصدرًا بمعنى القرب، يقال: هو ذو قرابة ولا يقال من قرابته إلا تجوزًا، أو يكون اسم جمع بمعنى الأقارب، وإنكار الحريرى له فى الدرة بينا رده فى شرحها، والمراد فى عبارة المصنف رحمه الله تعالى، بالقرابة المعنى العرفى؛ لأنه لو كان بمعناه الحقيق لغة لزم عطف العام على الخاص بأو، وهو إنما يكون بالواو كعكسه، وفى شرح السيد أنه يكون بأو نادرًا والأول هو المعروف عند النحاة كما فى المغنى وغيره، وقوله: لم يكن فى العرب الخ ورد فى الأثر كما أخرجه أبو نعيم فى الدلائل من طريق الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى تفسير هذه الآية، قيل: ومثله لا يكون من قبل الرأى فهو فى حكم الحديث المرفوع وفيه بحث، إلا أنه سيأتى رفعه أيضًا، وأخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: «لم يكن بطن من قريش إلا وله صلى الله تعالى عليه وسلم به قرابة» كما قال حسان رضى الله تعالى عنه[1]:

---

(١) البيت من الخفيف، وهو فى ديوان حسان (ص٢٢٣).

وسطت نسبتى الذوائب منهم كل دار فيها أب لى عظيم

ووقع فى بعض نسخ الشفاء عند بعض الشراح هنا زيادة وهى قوله:

(وهو عند ابن عباس وغيره معنى قوله تعالى:) ﴿أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣] قال السيوطى رحمه الله فى تخريج أحاديث هذا الكتاب: إن هذا له طرق كثيرة استوفيناها فى الدر المنثور، منها ما أخرجه البخارى من طريق طاوس، عن ابن عباس رضى الله تعالى عنها، أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «لم يكن بطن من قريش إلا كان لى فيهم قرابة ألا تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة». وأخرج الطبرانى نحوه من طريق سعيد بن جبير عنه.

فالقربى على هذا قرابة أهل مكة خاصة، وعلى ما رواه أبو نعيم فى الدلائل كما مر قرابة جميع العرب لاتصال نسبه صلى الله تعالى عليه وسلم بهم كما مر، فمعنى الآية عند ابن عباس رضى الله عنهما ألا تودونى لأجل القرابة بينى وبينكم، والخطاب لقريش خاصة لما رواه الضحاك من أن المشركين كانوا يؤذونه فنزلت، وما روى من أنها نزلت فى آل البيت خاصة، فقال ابن حجر: إنه موضوع، وما روى من أنها نزلت فى الأنصار لأنه لما قدم المدينة قالوا له: يا رسول الله إنك تنوبك نوائب وقد جمعنا لك ما تستعين به عليها، فنزلت. قال ابن حجر: إنه ضعيف ويبطله أن الآية مكية، وأقوى ما ورد فى سبب نزولها ما أخرجه قتادة من أن المشركين قالوا: لعل محمدًا يطلب أجرًا على ما يتعاطاه فنزلت، وهذا محصل ما قالوه فى سبب نزولها، وقيل: الآية مكية والذى صححه ابن حجر يخالفه، وفى قوله فى القربى تعليلية كما فى: «أن امرأة دخلت النار فى هرة»[1] الحديث أو هى للظرفية المجازية وهو حال، أو صفة إن جوزنا تقدير المتعلق معرفة، فكأن القربى ظرفًا لمودة.

واعلم أنهم اختلفوا فى هذا الاستثناء هل هو متصل أو منقطع؟ فقيل: إنه متصل والآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ: ٤٧] وقيل: هو منقطع؛ لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يبغون على تبليغهم أجرًا، فالمعنى إنى أذكركم المودة فى القربى، وفى زاد المسير: أنه اختيار المحققين فلا يشوبه نسخ، وفى شرح البخارى أن الآية نزلت لاستكشاف شر الكفار فهى منسوخة بآية القتال، وهو لا يتم على كونها مدنية، ويعضد الانقطاع ما فى الكشاف من أن المودة ليست أجرًا حقيقة؛ لأن قرابته قرابتهم وصلته لازمة لهم مودة وهو مقتضى السياق، فما فى الشروح

(١) تقدم تخريجه.

من أن الصحيح الذى يرتبط به كلامه ما أخرجه البخارى من أنه لم يكن بطن من قريش إلا وله صلى الله تعالى عليه وسلم فيهم قرابة، لا ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى، كما أخرجه أبو نعيم ليس بصحيح، وفيما ذكره الزمخشرى نظر إذ لزوم اتصال شيء لأحد لا ينافى كونه أجرًا مطلوبًا بعمل، نعم المتبادر من الأجر أنه ما لا يستحق إلا بالعمل وما لزم بدونه لا يسمى أجرًا والثواب لازم للعمل فيه، وذهب بعضهم إلى جواز الوجهين فإن نظر إلى الظاهر أو أن المراد بالأجر مطلق ما يترتب على شيء، أو بالمودة لوازمها يكون متصلاً، وهو المراد فى هذه الآية، إن أريد حقيقته فهو منقطع وهو المنفى فى الآية الأخرى فلا منافاة ولا نسخ وهو كلام حسن.

أقول: هذا زبدة ما مخضه التتبع وقد ظهر لك منه جواز الوجهين، وأن المودة إما مودة أقاربه له أو مودة بعضهم لبعض، وما طلب أجره بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم لحرصه على هدايتهم وشفقته عليهم عد طاعتهم نفعًا له، لما فيها من كثرة اتباعه وقوة شوكته، والقربى ذوى القرابة القريبة أو البعيدة كما قيل:

إذا كان أصلى من تراب وكلها بلادى وكل العالمين أقاربى

فكلام المصنف رحمه الله تعالى منزل على الأقوال كلها، والضمير فى قوله وهو عند إلخ لجميع ما ذكر قبله أو للأخير فلا غبار عليه، ثم شرع فى توجيه القراءة بالفتح الشاذة فقال: **(وكونه)** ولم يعطفه بأو لتحقيق المعنيين والقرائتين كما قيل، وقد جوزوا فيه أن يكون عطفًا على مدخول اللام فى قوله لكونه، والنصب لعطفه على مفعول أعلم أو تعلمون، والرفع على أنه مبتدأ خبر قوله نهاية إلى آخره، واقتصر عليه فى المقتفى واستبعده بعضهم، ولا وجه له فإن الدراية والرواية تؤيده؛ لأنه ابتداء كلام لبيان القراءة الشاذة ولذا أخره.

(من أنفسهم وأرفعهم وأفضلهم على قراءة الفتح) أى بناء على قراءة الفتح للفاء وهذه المتعاطفات متقاربة، ولك أن تفسرها بما يجعلها متقاربة والأمر فيه سهل، وإفادة النظم لزيادة شرفه وفضله؛ لأنه إخبار من الله تعالى الذى لا يتوهم عاقل خلافه، فلا يرد عليه ما قيل من أن المبنى على القراءة كونه معلما به ومرادًا من فحوى النظم لا أصله، ولا ما توهم من أن الأمر كذلك قطعًا، فلا ينبغى على القراءة الشاذة، نعم يرد على رفع كونه ويدفع بالتأويل وكذا ما قيل من أنه مبنى على القراءة المتواترة أيضًا فلذا قدمها وهو ظاهر السقوط بغير دفع.

(وهذه) أى المنقبة والصفة الجميلة التى تضمنتها الآية على هذه القراءة أو على

القرائتين، أو هذه الآية باعتبار ما تضمنته وكون الإشارة للوصف بالأنفسية، والتأنيث لرعاية الخبر ارتكاب لما يحتاج للتأويل من غير داع له.

(**نهاية المدح**) فى بابه ونهجه المقصود منه، وهذا يمكن عوده إلى القرائتين وإن كان الظاهر الثانى فقط، فعلى القراءة الأولى نهاية المدح بعلو الحسب والنسب؛ لأن العرب أشرف الناس وقد حازت كل قبيلة نوعًا من ذلك، فمن اتصل بجميعهم حاز جميع محاسنهم وحلاوة ألسنتهم، فكان صلى الله تعالى عليه وسلم أجل منهم كلهم وهذا هو المقصود بكونه منهم، وكذا إذا قلنا: المراد جميع الناس وإن توهم خلافه فى قولك: هو واحد من الناس، أو من بنى فلان ونحوه، وعلى الثانى هو نهاية النهاية؛ لأنهم أنفس الناس وهو أجلهم وإفادته لهذا من بديع الكناية على نمط قوله عز وجل: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم:١٢] وقوله: فلان من العلماء فإنه أبلغ من كانت قانتة وفلان عالم، ولذا عدل عنه مع أنه أوجز لإفادته أنه مع اتصافه به له قدم راسخ فيه لا دخيل، كقوله: مثلك لا يبخل كما فى شرح المفتاح وهو مأخوذ من كلام ابن جنى فى المحتسب، وعبارته العرب تقحم لفظ مثل توكيدًا، وسببه أنهم يريدون جعله من جماعة هذه أوصافهم تبيينًا للأمر وتوكيدًا له، ولو كان فيه وحده لعلق منه موضعه، ولم ترسخ فيه قدمه، ولم يؤمن عليه انتقاله إلى ضده، ومثله قولهم فى مدح الإنسان: أنت من القوم الكرام، أى: لك فى الفضل سابقة وأول وأنت مقيم عليه محفوف به لست دخيلا فيه من غير أول ولا أصل فيخشى بنوك عنه، ولما أريد مثل هذا فى الثناء على الله ولم يجز أن يكون تابعًا فيه لسلفه، ولا موجودًا فيه نظير عدلوا به إلى وجه ثالث، وهو أن يجعل قديمًا وراسخًا عليه فكان أثبت له وذلك نحو: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤] انتهى.

إذا عرفت هذا فقول بعض الشراح هنا أنه يفهم من هذا الإعلام أمر أن كونه من أشرفهم، لأن من كان أشرف وهو رسول الله فهو أشرف من الإشراف، وهو نهاية المدح بالنسبة لغيره، فلا يرد عليه أن كونه من جملة أشرفهم ليس نهاية المدح انتهى. ليس بشىء فانظر إلى هذا مع سماجته وإفلاسه من إفادته، وانظر بعين الإنصاف لا بعين الرضا فيما قلناه.

واعلم أن دخول من على أفعل التفضيل كما فى عروس الأفراح على وجهين، **الأول**: أن تكون جماعة فاضلة مستوية فى الرتبة فى زيادتها على غيرها، فتقول فى كل منها هو من الأفضل ولا يقال ذلك عند تفاوتها، **الثانى**: أن يكون نوع أفضل الأنواع فيقال فى كل فرد منه: إنه من الأفضل كما فى قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [النحل: ٧٢]

على قراءة الفتح فتنبه لهذه الدقيقة، انتهى.

أقول: هذا على ما قاله إنما يفيد مدح قوم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أولا، ولا يلزم من شرف قوم شرف جميع أفراده كما لا يخفى، فالحق ما قدمناه فإنه أنفس، وأعجب من هذا ما قيل إن فى كلام المصنف رحمه الله تعالى بحثًا ظاهرًا؛ لأن ما فى الآية على هذه القراءة ليس نهاية المدح، لأن قولك: هو نفس الخلق وأفضلهم أبلغ منه، مع أن الخطاب لم يشمل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإنما يتم إذا كانت من بيانية لا ابتدائية أو تبعيضية كما هو المتبادر، فكونها نهاية مدح فى القرآن فيه خفاء فالأظهر أنه مبالغة أريد بها الكمال انتهى. فانظره فإنه مع عدم وقوفه على مراد المصنف لا محصل له، ويقتضى أن الآية فيها عدول عن الأبلغ وهذا يقتضى منه العجب.

(تنبيه) قال بعض الفضلاء رحمه الله تعالى هنا فى حديث: **(أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش)** أى: من نطق بالضاد العربية، وبيد بمعنى من أجل، ولا يلزم من كونه من قريش الذين هم أفصح العرب أن يكون أفصحهم وممدوحًا بالفصاحة، وقد ترددت فيه زمانًا حتى رأيت الفاضل الكورانى فى شرح الجوامع قال بعد ما ذكر الحديث: وأن بيد بمعنى من أجل وفيه نظر قوى، وهو أن كونه من قريش لا يقتضى كونه أفصح من قريش، فالحق أنها بمعنى غير من المدح الذى يشبه الذم.

أقول: هذه غفلة؛ لأنه ترك آخر الحديث وهو: «تربيت فى بنى سعد» والذى صححه ابن حجر فى تخريج أحاديث الرافعى: **(أنا سيد ولد آدم بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد واسترضعت فى بنى زهرة)**. ويروى: «أنا أفصح العرب» الخ واللفظ الأول مقلوب فإنه نشأ فى بنى زهرة واسترضع فى بنى سعد.

وأما «أنا أفصح من نطق بالضاد»[1] فلم يصح، يعنى أنه انفتق لسانه فى قبيلتين هما أفصح العرب وأملحهم، فحاز لب اللسانين المليحين، وكل أحد إنما يفوق فى لسانه قومه فقط، فلزم منه أن يكون أفصح من جميع العرب، ثم إن ما ظنه منجا لا منجا فيه فإنه لا يفيد، أو لا كونه أفصح من سائر قريش فقد وقع فيما فر منه، ثم إن شيخنا الشهاب أحمد بن قاسم رحمه الله فى الآيات البينات ذكر كلام الكورانى، ورده على عادته فى التصعب عليه انتصارًا للجلال بما حاصله أن فيه جملة مقدرة ومثله كثير، تقديرها وأنا أفصح منهم فزاد فى الطنبور نغمة لا تطرب ولا تضحك.

(ثم وصفه بعد) أى بعد الإعلام المذكور. **(بأوصاف حميدة)**: أى محمودة أو حامدة على التجوز فى النسبة. **(وأثنى عليه بمحامد كثيرة)** قيل: ثم هنا بمعنى الفاء كما فى

---

(١) انظر: تذكرة الموضوعات (٨٧)، والدرر المنتثرة (٢٣)، وكشف الخفا (١/٢٣٢).

قوله: جرى فى الأنابيب ثم اضطرب لعدم الفاصلة بين الإعلام والوصف، فالترتيب فى الأخبار دون الحكم كما قاله النحاة، ورده ابن عبد السلام فى كتاب المجاز بأن فى صحته نظر، لأن الترتيب فيه أن ثم لا تفيد التراخى إلا بتعسف يرجع لغيره من الوجوه، فالأحسن أن يقال: إنها للتفاوت الرتبى؛ لأن بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام وأشرفهم نعمة عظيمة لكافة الخلق، وحرصه على هدايتهم وشفقته دونها بمراتب، ولك أن تقول وجه ما قاله النحاة أن الترتيب المذكور لما كان على ما يقتضى من الألفاظ يعطى حكم البعيد، كما قرره الزمخشرى فى الإشارة إليه بذلك فى قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢] على أن ما ذكر كل منهما أمر ممتد يجوز عطفه باعتبار آخره بالفاء وباعتبار غيره بثم، كما قالوه فى قول الساكى فأوضح، ثم ليقل فهو تأسيس لا تأكيد، والأوصاف جمع وصف بمعنى الموصوف به لا المصدر، وحميدة بمعنى محمودة عند الله والناس، والمحامد جمع محمدة وهى المحمود به أيضًا، والثناء بالمحامد لا يغاير الوصف بالصفات الحميدة ولا يعاب مثله فى مقام الخطابة، مع أنه لما كانت الأوصاف جمع قلة عقبه بجمع الكثرة دفعًا للإيهام، والأول مطابق لظاهر الآية والثانى لما تضمنته مما لا يحصى.

(من حرصه) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(على هدايتهم ورشدهم وإسلامهم)**: من بيانية مبينة لما قبلها من الأوصاف وما بعده، والحرص فرط الشره، وقيل: هو الشح على الشيء أن يضيع وفيه نظر، والمراد هنا شدة الطلب لما يريده ويحبه، والهداية الدلالة مطلقًا أو الموصلة، وقيل: المراد بها هنا الاهتداء لعطف الرشد عليها، وقيل: المراد ما قاله الأشاعرة من أنها خلق الاهتداء إلى الإيمان لا الدعوة إليه والطاعة كما ذهب إليه المعتزلة، لأن حرصه صلى الله تعالى عليه وسلم ليس على الدعوة التى على عادته ولا يخفى ما فيه وحرصه صلى الله تعالى عليه وسلم على الدعوة، المراد طلب تأثيرها لا مجردها، والرشد وإن كان ضد الغى فهو الهداية فينبغى تفسيره بالصلاح ظاهرًا وباطنًا لتغايرها كما يقتضيه ظاهر العطف.

وهاهنا بحث: وهو أن ابن عبد السلام رحمه الله قال فى القواعد فى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦]: أكثر الأحكام تبنى على ظاهر الأمر حتى يظهر خلافه وما يبطله؛ لأنه لو شدد بطلت التجارات والمعاملات وهذا يشكل على اشتراط الشافعية فى الرشد حسن التصرف فى المال والصلاح فى الدين، بحيث لا يلم بكبيرة ولا يصر على صغيرة، فإن إجماع المسلمين على معاملة المجهولين والحكم لهم وعليهم وقبول إعتاقهم وهداياهم مما يأباه، والآية لا تدل على ما ذكروه، والعجب من الإمام فإنه قال

فى النهاية: إذا بلغ الصبى و لم يوجد منه ما يخالف الرشد انفك الحجر عنه.

أقول: قد رد كلام الفقهاء بوجوه ثلاثة؛ مخالفة الإجماع، ونص القرآن، ومناقضة كلام النهاية له مع أنه تبعهم فيه فكلامهم فاسد والله يعلم المفسد من المصلح.

فإن الذى قالوه معنى الرشد وحقيقته، وهو صلاح الدين والدنيا بلا شبهة، والمشروط فى الآية استئناس الرشد، وهو كما قاله المفسرون إحساسه وإبصاره وذلك بظهور أماراته فمآله النظر لظاهر الحال، وهو الذى عول عليه الفقهاء وأشار إليه فى النهاية، فلا مخالفة بين ما قالوه، والإسلام معروف وهو مغاير لما قبله ولذا عطف بالواو، ثم إنه قيل: إن المصنف قدم هذه الصفة مع تأخيرها فى الآية؛ لأن المقام مقام المدح وهو فى الحرص أتم وأكمل، وسياق الآية للامتنان وهو كونه يعز عليه لحالهم فأشار إلى تفاوت المقامين.

فإن قيل: المنة فى الحرص أتم.

قلنا: مسلك الآية على الترقى، وما هنا بخلافة للتفنن فتدبر تدر مقاصد المصنف ولطف نظره، أو يقال: لما كانت العزة منشأ لحرصه صلى الله تعالى عليه وسلم قدمت فى الآية على وفق الواقع لبيان حاله فى ابتداء أمره، فلما حكاه المصنف رحمه الله بيانًا لمحامده قدم المقصود بالذات الذى به الحمد، ثم إنه جعل متعلق الحرص فى كلامه هدايتهم للإيمان وصلاح شأنهم كما ذهب إليه المفسرون لدلالة السياق عليه، ولقوله فى غير هذه الآية: ﴿**إن تحرص على هداهم**﴾ [النحل: ٣٧] فإن القرآن يفسر بعضه بعضا والحرص لا يتعلق بالذوات (**وشدة ما يعنتهم**) من الإعنات قال الله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٢٠] أو من العنت وبكل منهما روى كلام المصنف رحمه الله وأثبتهما أهل اللغة، فقالوا: يقال: عنته وأعنته والعنت المشقة أو الوقوع فيها، ويجئ بمعنى الإثم والفساد والهلاك، وقد اعترض صاحب المواهب رحمه الله تعالى على عبارة المصنف رحمه الله هذه، بأن ظاهرها أن قوله شدة معطوف على مجرور على التى تعلقت بالحرص ولا يستقيم عليه المعنى، ولذا قيل: إنه بتقدير مضاف مجرور معطوف على الحرص المجرور بمن، أى وكراهة شدة إلى آخره.

أقول: هو كما قال معطوف على حرصه ولكن لا حاجة فيه إلى تقدير؛ لأن معنى شدته عليه أنه صعب شاق عليه فيراد به أنه مكروه تأباه نفسه، فالمعنى من حرصه على هدايتهم ومن كراهته لما يضرهم، وصاحب المواهب لم يخف عليه العطف ولكن أوقعه التقدير فيما وقع فيه وعزته عليه الآتية معطوف عليه، وقد تنازع الشدة والعزة قوله عليه

وما موصولة أو مصدرية، وفى قول المصنف المذكور إشارة إلى جواز الموصولية فالتقدير ما عنتموه لا ما عنتم به؛ لأن حذف العائد المجرور ضعيف، فما قيل من أن المصنف أشار إلى أن المراد فى الآية ما عنتم به وقد جعلت ما مصدرية، أى عنتكم فيتفاوت المعنيان وإن تلازما لا وجه له، قال فى المصباح: تعنته أدخل عليه الأذى وأعنته أوقعه فى العنت، وفيما يشق عليه تحمله انتهى.

(**ويضر بهم فى دنياهم وأخراهم**): يضر بفتح الياء وضم الضاد المعجمة مضارع ضرورى، وبضم الياء وكسر الضاد مضارع أضر؛ لأنه يقال: أضره وأضر به فلا يلتفت لمن أنكره لظنه أن همزته إنما تكون للتعدية، ومعنى أضره وأضر به أوقعه فى الضرر والدنيا تقال فى مقابلة آخرة وأخرى كما فى عبارة المصنف.

(**وعزته عليه**) عطف على شدة عطف تفسير لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ﴾ [يوسف:٨٦] ففيه إشارة إلى تفسير عزيز فى الآية، وأنه من عز عليه كذا إذا صعب وشق كما قال:

يعز علينا أن نفارق من نهوى

وله معان أخر مفصلة فى كتب اللغة تركناها لعدم مناسبتها هنا، قيل: كان المناسب للتفسير وعطفه أن يؤخر الأشهر الأظهر، فيقول: عزته وشدته، لكنه عكس للمبادرة لما يعتمد المراد حتى يسلم السامع من عنب الانتظار، ولا حاجة لجعل الشدة غير العزة للتنازع فى عليه فإن التفسير لا ينافى التنازع.

(**ورأفته**) صلى الله تعالى عليه وسلم، (**ورحمته بمؤمنيهم**) معطوف على حرصه، وقوله: بمؤمنيهم متعلق بما قبله على التنازع، ولا تنازع فى الآية إلا على رأى من يجوز التنازع فى المتقدم، والرأفة مع الرحمة حيث وقعت مقدمة لا للفاصلة كما قاله القاضى ومن تبعه لوقوعه، كذلك فى الحشو، كقوله تعالى: ﴿رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ [الحديد:٢٧] بل أصل معنى الرأفة التلطف والشفقة ويقابلها العنف والجبروت، كما يشهد له كلام فصحاء العرب كقول قيس الرقيات(١):

ملكه ملك رأفة ليس فيه جبروت لهم ولا كبرياء

فلذا قدمت على الرحمة بمعنى الإنعام كما فى المثل: «الإيناس قبل الإمساس» والذى غرهم قولهم فى كتب اللغة الرأفة أشد الرحمة كما فى الصحاح وغيره، والرحمة فى كلامهم بمعنى رقة القلب فى حق البشر، وهى فى حقه تعالى بمعنى الإنعام أو إرادته

---

(١) تقدم الاستشهاد به.

نظرًا لغايتها، وقد قلت هذا بطريق البحث، ثـم رأيـت الإمـام القرطبى قـال فـى شـرح الأسماء الحسنى ما نصه: قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧] الآية، وحيث ذكر هذان الوصفان قدم الرؤوف على الرحيم فى الذكـر، وسببه أن الرحمة فى المشاهد إنما تحصل بمعنى فى المرحـوم مـن فاقتـه وضعفـه وحاجتـه، والرأفة تطلق عندنا علـى مـا يحصـل الرحمـة مـن شـفقة علـى المرحـوم. وقـال المشـايخ: الرؤوف المتعطف والذى جاد بلطفه ومن يعطفه انتهى.

فحمدت الله تعالى على موافقة الصواب، ثم إضافـة مؤمنيـهم للضمـير ظـاهر فـى أن الضمير ليس للمؤمنين فقط، ودخوله تحت قوله السـابق أعلـم الله إلى آخـره يشـعر بـأن رأفته ورحمته صلى الله تعالى عليه وسلم بمؤمنى المخاطبين على الأقوال كلها، حتى علـى القول بأن المخاطبين المؤمنين وبينهما تدافع كما قيل، ودفع التدافع بـأن الإضافـة بيانيـة، أى: بالمؤمنين الذين هم المخاطبون، وأتى بالظاهر ليبين علة الرأفة والرحمة، ولو قال بـهم لغات هذا، أو قصد عود الضمير على ذكر غير المؤمنين فى الوجه الأول، ولا يخفى بعده وركاكته والأولى أن يقال الضمير عائد على شىء مفهوم من الكـلام كالمخـاطبين، أى: من ذكر أو الأمة.

(وقال بعضهم:) القائل هو الحسين بن الفضل. **(أعطاه)** أى أعطى الله نبـيه صلـى الله تعالى عليه وسلم فى هذه الآية تشريفًا له صلى الله تعالى عليه وسلم.

(اسمين من أسمائه رؤوف رحيم) الظاهر رفعه موافقة للنظم على أنه خبر مبتـدأ مقـدر، أى: هما رؤوف رحيم، ويجوز نصبه بمقدر وهو أعنى ونحوه، أو على أنه بدل من اسمين وجره على أنه بدل من أسمائه، والاسم يكون بمعنى العلم وما يقابل الفعل والحروف وما يقابل الصفة المشتقة، والمراد هنا ما يطلق على ذات ومسمى صفة كان أم لا، وفى بدائع ابن القيم: الأسماء التى تطلق على الله وعلى غيره كحى وعليم، هل هـى حقيقـة فـى الله مجاز فى غيره أو على العكس أو حقيقة؟ فيهما أقوال ثلاثة؛ أظهرها الأخير انتهى.

وقول المصنف رحمه الله تعالى أعطاه إلى آخره فيه ميل إلى القول الأول.

فإن قلت: كيف يصح ما قاله عقلاً ونقلاً وبعض الأسماء مجاز فيهما كالنور وبعضـها مجاز فى الله حقيقة فى غيره كالرحيم؛ لأن الرحمة رقة القلب أو بالعكس كمـالك الملـك وقاضى القضاة.

قلت: لم يعن بالحقيقة الوضعية اللغوية: ولو أراد ذلك لم يصح، بل العقلية أو العرفيـة الشرعية، وقيل: إنها مشتركة اشتراكا لفظيا لعدم تشاركهما فى معنى، ونقل عن الغزالى رحمه الله تعالى.

فإن قلت: كثير من أسمائه تعالى يطلق على غيره كحى وكريم وسميع وغيرها، فكيف يكون هذا من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم؟

قلت: قال الغزالى: المراد أنه تعالى أعطاهما له بمعنى من المعانى التى أطلق بها على الله، فجعله صلى الله تعالى عليه وسلم متحليا ببعض صفاته كما جعله متخلقًا بأخلاقه بوجه ما، وإن لم يكن على الوجه الأكمل اللائق بجناب العزة، كما قيل: كل ما يصلح للمولى على العبد حرام، والمقصود أنه لما ذكره صلى الله تعالى عليه وسلم فى القرآن وصفه بصفتين خلع عليه منها خلعتى إكرام دال على تميزه عما عداه، وفى تفسير ابن المنير المسمى بالبحر الكبير.

فإن قلت: ما وجه اختصاصه صلى الله تعالى عليه وسلم بتسميته باسمين من أسمائه تعالى وقد سمى موسى عليه الصلاة والسلام كريما فقال تعالى: ﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان:١٧] وبالأعلى حيث قال: ﴿تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [طه: ٦٨] وسمى إبراهيم عليه الصلاة والسلام حليمًا، وإسماعيل عليه الصلاة والسلام عليمًا حليمًا فقال فى آية: ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر:٥٣] وفى أخرى حليم.

قلت: وجه الخصوصية إيرادهما معًا فى سلك واحد ونسق متصل فى القراءة، ولا يكاد يوجد هذا فى وصف الله تعالى لنفسه، فهى كرامة أكرمه الله تعالى بها ليدل على مكانته صلى الله تعالى عليه وسلم، وأن رتبته فوق سائر الرتب.

(تتمة) اعلم أن الآيات القرآنية حيث ختمت بأسمائه تعالى وقعت مكررة، وما كرر إما فى معنى ما قبله كغفور رحيم فيفيد مبالغة فى تلك الصفة على وجه يليق بالربوبية، أو مغاير له كعزيز حكيم لإفادة احتراس وتكميل،لأن العزيز قد يفعل بعزته ما لا تقتضيه الحكمة، فلما أجرى ما هو من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم كان من الاختفاء به ما لا يخفى فتدبر.

(ومثله فى الآية الآخرى قوله تعالى) سقط هذا من بعض النسخ ووقع بدون واو ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [آل عمران:١٦٤] الآية، بالنصب كما مر أى اقرأ الآية أو اذكرها، فإنها مماثلة لتلك فى الدلالة على أنه مبعوث فى قوم هو من جنسهم سواء ضمت الفاء أو فتحت، لأنه إذا كان صلى الله تعالى عليه وسلم من أشرفهم كان منهم ضرورة، وفى تفسير ابن المنير: ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ من جنسهم يعرفون حاله وأنه ما قرأ ولا درس، وقد جاءه العلم دفعة فقص سير الأولين والآخرين على ما هى عليه حرفا بحرف، فيعلم العاقل أنه أمر خارق من عند الخالق، كل ذلك

إبلاغ فى ظهور حجته ووضوح معجزته، فكيف يليق أن يجعل المقتضى مانعًا فيلحدون ويجحدون انتهى.

وقوله فى الآية الأخرى: صفة مثله؛ لأنه نكرة متوغل فى الإبهام لا يتعرف بالإضافة، وليس بحال لأنها لا تجئ من المبتدأ على الأصح، لا لأن مثله لا يكون ذا حال كما توهم؛ لأن الإضافة ولو للنكرة مسوغة بلا خلاف، ويجوز أن يكون مثله مبتدأ خبره فى الآية وما بعده بدل منها.

والمن: الإنعام مطلقًا، أو على من لا يطلب ويكون بمعنى تعداد النعم استكثارًا لها، وهو غير محمود إلا من الله تعالى؛ لأنه بمنه يذكر العبد فيبعثه على الشكر ومن الخلق قبيح مطلقا، ولذا نهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عنه لقوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦].

حتى قيل: إن من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم حرمة المن وهو مكروه من غيره، ولذا قيل: إنه حرام أيضًا، فإن كان لغرض صحيح جاز، ولذا قيل: المنة تهدم الصنيعة، كما قال الله تعالى: ﴿تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وكما قال الشاعر:

وإن امرئ أهدى إلىَّ صنيعة ... وذكرنيها إنه لبخيل

وقال آخر:

إذا زرعت جميلاً فاسقة غدقا ... من المكارم حتى يثمر الشجر
ولا تشنه بمن منك تتبعه ... فشيمة المن أن تؤذى به الثمر

والمنعم المالك الحقيقى، وعطاؤه عز وعطاء غيره ذل لأخذه بجعل يده سفلى. (**وفى الآية الأخرى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾** [الجمعة: ٢] فى هذه الآية امتنان وثناء عظيم كما تقدم، والأمى هو الذى لا يكتب ولا يقرأ الخط وإن قرأ ما حفظه بالسماع من غيره، وإنما سمى أميًا نسبة إلى الأم كناية كيوم ولدته أمه، فإنه يكون على جبلته من غير أن يحسن كتابة ونحوها، أو لأمة العرب لأنهم كانوا أميين الكتابة معدومة فيهم إلا نادرًا لا حكم له، كما ورد فى الحديث: «بعثت إلى أمة أمية»، ثم أطلق الأميون على من كتب منهم ومن لم يكتب، كما قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما تغليبا، وقيل: الأمى الذى يقرأ ولا يكتب، والمراد بكونه منهم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أمى مثلهم، قال الله تعالى: **﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾** [العنكبوت: ٤٨]، ففيه إشارة إلى حكمته وأنه

معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم لكونه مع ذلك أظهر علم الأولين والآخرين وقصص سيرهم وأخبارهم، وفيه أيضًا موافقة ما تقدم من بشارة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام به ونعته فى كتبهم بأنه أمى، وإليه أشار البوصيرى رحمه الله تعالى بقوله[1]:

كفاك بالعلم فى الأمى معجزة فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

وبالإشارة إلى الوجه الأول تظرف القائل:

من أعجب الأشياء أنى امرئ عمى خالى وأبى أمى

(تنبيه) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله فى كتاب تخريج أحاديث الرافعى: عد فقهاء الشافعية رحمهم الله أن مما حرم الله عليه صلى الله تعالى عليه وسلم الخط والشعر، وإنما يتجه التحريم إن قلنا إنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يحسنهما، واستدل بالآية المذكورة بحديث: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»[2] والأصح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان لا يحسنها ولكن يميز بين جيد الشعر ورديه، وادعى بعضهم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم صار يعلم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها لقوله: «من قبله» فى الآية، فإن عدم معرفته صلى الله تعالى عليه وسلم سبب الإعجاز، فلما نزل القرآن واشتهر الإسلام وكثر المسلمون وظهرت المعجزة وأمن الارتياب عرف حينئذ الكتابة.

وقد روى ابن أبى شيبة وغيره «ما مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى كتب وقرأ»[3] قال مجاهد: ذكرت هذا للسدى فقال: قد سمعت أقوامًا يذكرون ذلك. وليس فى الآية ما ينافيه، وروى ابن ماجه عن أنس رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «رأيت ليلة أسرى بى على باب الجنة مكتوبًا الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر»[4] والقدرة على قراءة المكتوب فرع معرفة الكتابة، وأجيب باحتمال إقدار الله تعالى له على ذلك من غير تقدم معرفة الكتابة وهو أبلغ فى المعجزة، أو فيه تقدير أى سألت عن المكتوب فقيل لى هو كذا.

وفى حديث سهل بن الحنظلية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما أمر معاوية رضى الله تعالى عنه أن يكتب للأقرع بن حابس وعيينة بن حصين، قال عيينة: أترانى أذهب إلى

(١) البيت من البسيط، وهو فى ديوان البوصيرى (ص١٧٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٥/١٠٨)، وأبو داود (٢٣١٩)، والنسائى (٥/١٣٩)، وأحمد (٢/٤٣، ٥٢)، وابن أبى شيبة (٣/٨٥)، والبيهقى (٧/٤٢).

(٣) أخرجه البيهقى فى الكبرى (٧/٤٢).

(٤) أخرجه ابن ماجه فى سننه، كتاب الصدقات، باب القرض (٢٤٣١)، وفى إسناده خالد بن يزيد، قال أحمد: ليس بشىء، وضعفه الدارقطنى.

قومى بصحيفة كصحيفة المتلمس، فأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الصحيفة فنظر فيها فقال: «قد كتب لك بما أمر»(١) قال يونس بن ميسرة راويه: فنرى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كتب بعد ما أنزل عليه. ومن الحجة عليه ما أخرجه البخارى فى صلح الحديبية: أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ الكتاب وليس يحسن أن يكتب فكتب: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله»(٢) الحديث. وقال ابن دحية: وإليه ذهب أبو ذر، وأبو الفتح النيسابورى، وأبو الوليد الباجى، وصنف فيه كتابا وسبقه إليه ابن أبى شيبة وقال: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم كتب بيده فى الحديبية. وقال أبو بكر بن عربى: لما قال الباجى هذا طعنوا عليه ورموه بالزندقة، وكأن الأمر عندهم متثبتًا فعقد مجلسا للمناظرة، فأقام الباجى الحجة ونسبهم إلى عدم المعرفة، فكتب بذلك لعلماء الآفاق إفريقية وصقلية وغيرهما، فجاءت أجوبتهم بموافقته، ومحصل ما تواردوا عليه، وأن معرفة الكتابة بعد معرفة أميته صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينافى المعجزة، بل هى معجزة أخرى بعد معرفة أميته وتحقق معجزته، وعليه تتنزل الآية السابقة والحديث، فإن معرفته صلى الله تعالى عليه وسلم من غير تقدم تعليم معجزة.

وصنف أبو محمد بن معوز كتابًا رد فيه على الباجى وبين خطأه، وحكى أن أبا محمد الهورى كان يرى الباجى، فرأى فى النوم أن قبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم انشق وماج فلم يستقر، فاندهش لذلك وقال: لعله لاعتقادى لهذه المقالة، ثم عقدت التوبة مع نفسى فسكن واستقر، ثم قص الرؤيا على ابن معوز فعبرها بذلك واستظهر بقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠] الآية، ومحصل ما أجاب به ابن معوز عن ظاهر حديث البراء، أن القصة واحدة والكاتب فيها على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وقد وقع فى رواية البخارى من حديث البراء أيضًا: لما صالح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أهل الحديبية كتب على رضى الله تعالى عنه بينهم كتابًا، فكتب فيه: محمد رسول الله، فتحمل الرواية الأولى على أن معنى كتب أمر الكاتب، ويدل عليه رواية المشهور فى هذه القصة أيضًا، «والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى اكتب محمد بن عبد الله»(٣) وقد ورد كثيرًا فى الأحاديث كتب بمعنى أمر، كحديث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كتب إلى قيصر، وكتب إلى النجاشى، وكتب

(١) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٧/٢٥).
(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الصلح (٢٦٩٩).
(٣) أخرجه البخارى (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، وأحمد (٤/٣٣٠)، والبيهقى (٩/٢٢٠)، والطبرانى فى الكبير (١٠/٣١٤).

إلى كسرى، ونحوه، وكلها محمولة على أنه أمر بالكتابة، ويشهد له قوله فى بعض طرق الحديث لما امتنع الكاتب أن يمحو محمد رسول الله قال لـه صلى الله تعالى عليه وسلم «أرنى» فأراه موضعه فمحاه، ثم ناوله لعلى رضى الله تعالى عنه فكتب بأمره ابن عبد الله بدله، وأجاب بعضهم بأنه على تقدير حمله على ظاهره، يحتمل أن يراد أنه كتب مع عدم علمه بالكتابة وتمييز الحروف كما يكتب بعض الملوك علامتهم وهم أميون، وإلى هذا ذهب القاضى أبو جعفر السمنانى انتهى، ولا يخفى بعد هذا الجواب وإن شاهدنا مثله نادرًا.

(وقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥١] الآية) فى هذه الآية غاية المدح كالتى قبلها لما فيها من أنه يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، ولذا صرح بالمنة فيها كما بين فى التفسير فلا حاجة إلى إعادته كما فى الشرح الجديد، وفى هذه إيذان بأنه تعالى أتم النعمة بإرساله صلى الله تعالى عليه وسلم كما أكمل دينه، وفى الكاف وجهان أحدهما ما ذهب إليه ابن جرير من أنها متصلة بما قبلها من دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [البقرة:١٢٩] فبعث الله محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم ووعده بأن يجعل من ذريته أمه مسلمة، فمعنى الآية لأتم نعمتى عليكم بالشريعة الحنيفية وأهديكم لدين إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ [البقرة:١٥١] إجابة لدعوته فهو متصل بما قبله كما ذهب إليه الفراء، وهى متعلقة بما بعدها وهو: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢]، والخطاب جار على الوجوه السابقة، فبعثه بأنه كما قاله إبراهيم تاليًا لكلام ربه، مزكيًا لأمته، معلمًا لحكمته، وقدم يزكيهم هنا وآخره فى دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام نظرًا للقصد وللفعل فيهما، كما قاله القاضى أحمد رحمه الله تعالى، يعنى أن التزكية هى المقصودة بالذات من تعليم الكتاب والحكمة، فلذا قدمت فى الآية الآتية لأنها أهم، وبالفعل لا توجد إلا بعده فلذا أخرت فرقًا بين المقامين، قيل: ولو استشهد المصنف رحمه الله تعالى بآية دعوة إبراهيم لكان أحسن وأوفى بالمقصود لما اشتملت عليه من المدائح، مع إفادة ذكره على ألسنة الأنبياء السابقين عليه وعليهم الصلاة والسلام، وليس كما قال، لأن ما هنا إخبار من الله تعالى عما ذكر فيقيد وقوعه والدعاء لا يقيده، والباب معقود لثناء الله عليه صلى الله تعالى عليه وسلم لا لثناء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،وإن حكاه الله تعالى فهذا ناشئ من عدم معرفة مقاصد الكتاب.

(وروى عن على رضى الله تعالى عنه، عنه صلى الله تعالى عليه وسلم فى قوله تعالى ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة: ١٢٨] قال الفاضل الحلبى: يعنى فى قراءة من فتح الفاء

كما قاله ابن رسلان، ويعضده ما فى المواهب اللدنية عن ابن مردويه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قرأ: ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ بالفتح وقال: «أنا أنفسكم نسبًا»(١) إلى آخر ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى من الحديث المرفوع، وهذا مما أهمله المخرجون لأحاديث هذا الكتاب.

فلذا (**قال: نسبًا وصهرًا وحسبًا**) تمييز لاسم التفضيل لإبهام المفضل به الذى يفسر بتمييزه، وقد فسره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كما عرفته، والنسب القرابة مطلقا أو من جهة الآباء، وفى النهاية: النسب الولادة القريبة، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم أشرف الخلق نسبًا وكذلك سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما ورد فى الحديث «لم يبعث نبى إلا وهو ذو نسب فى قومه».

وفى المصباح: النسب مصدر مطلق الوصلة بالقرابة، يقال: بينهما نسب أى قرابة سواء جاز بينهما التناكح أو لا، وجمعه أنساب ومنه استعيرت النسبة فى المقادير. والصهر: واحد الأصهار، قال الخليل: أهل بيت المرأة. وقال الأزهرى رحمه الله تعالى: الصهر يشتمل على قرابات النساء من ذوى المحارم، وذوات المحارم كالأبوين والإخوة وأولادهم والأعمام والأخوال والخالات، فهؤلاء أصهار زوج المرأة، ومن كان من قبل الزوج من ذوى قرابته فهم أصهار المرأة أيضًا.

وقال ابن السكيت: كل من كان من قبل الزوج من أبيه أو أخيه أو عمه فهم الأحماء، ومن كان من قبل المرأة فهم الأختان، ويجمع الصنفين الأصهار، وصاهرت إليهم إذا تزوجت منهم، والحسب بفتحتين ما يعد من المآثر وهو مصدر حسب بالضم، وقال ابن السكيت: الحسب والكرم يكون فى الإنسان وإن لم يكن لآبائه، ورجل حسيب أو كريم بنفسه، وأما المجد والشرف فلا يوصف بهما الشخص إلا إذا كان ذلك فيه وفى آبائه.

وقال الأزهرى رحمه الله تعالى: الحسب الشرف الثابت له ولآبائه، وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم «تنكح المرأة لحسبها»(٢) لأنه مما يعتبر فى مهر المثل، والحسب الفعال الحميدة له ولآبائه، مأخوذ من الحساب وهو عد المناقب، لأنهم كانوا إذا تفاخروا عدوها.

---

(١) أخرجه ابن مردويه فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٣/٢٩٤).

(٢) أخرجه البخارى (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦)، وأحمد (٣/٨٠)، والدارقطنى (٣/٣٠٣)، والبيهقى (٧/٧٩).

(ليس فى آبائى من لدن آدم) عليه الصلاة والسلام **(سفاح كلنا نكاح)** وفى نسخة «كلها نكاح» بالهاء بدل النون، وكذا وقع فى سنن الترمذى مرويا بالوجهين، أى: ليس فى آبائى من حيث أبوتهم، فيلزم أن لا يكون فى أمهاته صلى الله تعالى عليه وسلم أيضًا ذلك كما يدل عليه السياق. ولدن ولدى ظرف مكان بمعنى عند إلا أنهما لا يستعملان إلا فى الحاضر، يقال: لدنه ولديه مال إذا كان حاضرًا، وجاء من لدنا رسول، أى: من عندنا. وقد يستعمل لدى فى الزمان وإذا أضيف لمضمر قلبت ألفه ياء إلا فى لغة بنى الحارث، وما قيل من أن لدن بمعنى عند إلا أنها لا تصح إلا فى ابتداء الغاية، كما فى عبارة المصنف رحمه الله تعالى الحصر فيه لا وجه له فإنه أغلبى.

والسفاح: الزنا والفجور، من سفحت الماء إذا صببته فكأن أراق ماءه وأضاعه، وعلى رواية كلها الضمير المؤنث للوطئات، وإسناد النكاح لها حقيقة إن كان بمعنى الجماع، ومجاز إن كان بمعنى العقد، فلا وجه للإطلاق فى محل التقييد، وعلى الأخرى وهى أفصح الضمير للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولآبائه، وإسناد النكاح لهم بتأويل ذى نكاح ونحوه، أو على التجوز فى الإسناد كأنهم تجسموا من النكاح كقوله: «فإنما هى إقبال وإدبار».

والنكاح يطلق على الوطء والعقد بلا خلاف، إنما الخلاف فى أنه حقيقة فيهما أو فى أحدهما على أقوال مفصلة فى الفروع والأصول، وقيل: ولم يرد فى القرآن إلا بمعنى العقد؛ لأنه فى الوطء صريح فى الجماع، وفى العقد كناية عنه وهى أوفق بالبلاغة والأدب كما ذكره الزمخشرى والراغب، وإذا كان بمعنى العقد هنا فالمراد به عقد صحيح موافق لدين الإسلام أو لغيره من الأديان السالفة، وحيث أخبر عنه صلى الله تعالى عليه وسلم فهو بوحى من الله أنبأه به أنه صانه وأسلافه عما يشين، وطهر أرحامهم عن دنس السفاح فلم يزل كما قال ابن الجوزى رحمه الله فى الوفاء: ينقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الطيبة مصفى مهذبا لم يتشعب شعبتان إلا كان فى خيرهما.

وقال السيد: إن المؤرخين اتفقوا على أن هاجر أم إسماعيل عليه الصلاة والسلام كانت مِلكًا لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، فإن لم يكن هناك عتق وزواج تعين أن يكون المراد فى الحديث النكاح بعموم المجاز عقد صحيح يبيح الوطء، إذ المقصود نفى الفجور فيشمل الزواج وغيره من غير محذور كما حققوه، هذا وظاهر الحديث أنه لا فجور فى الآباء مطلقًا، لكن الأظهر بشهادة ما سبق وما يأتى وما فى المواهب مرفوعا

من أنه: «لم يلتق أبواى على السفاح»[١] أن المراد طهارة النسل كما أشرنا إليه وتبعه تلميذه ابن الحنبلى، أقول: ويمكن أن معنى لم يلتق نسب أبواى بقرينة الروايات الأخر جمعًا بينهما.

(قال ابن الكلبى): هو محمد بن السائب الكلبى أبو نصر المفسر النسابة المحدث، أخرج له الترمذى، وستأتى ترجمته مفصلة، ونسبته إلى الكلبى وهى قبيلة معروفة، وتوفى فى السنة التى مات فيها الشافعى وهى سنة أربع وثمانين ومائة، قاله الحلبى وصاحب المقتفى، هذا والمشهور أن الشافعى توفى شهيدًا يوم الجمعة سلخ رجب سنة أربع ومائتين، وقال التلمسانى وصاحب المواهب: إنه هشام بن محمد بن السائب فالكاتب هو الوالد فلعله نسب الكتابة الآتية تارة إلى نفسه حقيقة أو تجوزًا فرواه المصنف كذا قال السيد.

(كتبت للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم خمسائة أم فما وجدت فيهن سفاحا) أى: وطئا بطريق الزنا، قيل: أراد بالأم ما يشمل الجدات ومن فى حكمهن كأم العم والعمة وأم عم الأب ونحوه، فإن الجدات الحقيقية لا تقارب ذلك، وقد عدوا إلى آدم عليه السلام سبعة وأربعين أبا، ويعلم من هذا النقل أن السفاح لم يقع فى الأقارب كما فى الشرح من أن ذلك النقل أحط رتبة لا طائل تحته.

أقول هذا إشارة إلى السؤال المشهور على ما قاله ابن الكلبى رحمه الله تعالى من أن أمهاته صلى الله تعالى عليه وسلم وجداته لا تبلغ هذا العدد، فكيف ما قاله، وأنت إذا تأملت قول المصنف السابق لم تكن قبيلة من العرب إلا ولها على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قرابة أوولادة عرفت أنهم لم يقفوا على المراد، فإنهم جعلوا النسب شجرة لها ساق وعمود وشعب وأغصان متفرقة متفرعة، فان نظرنا إلى عمود النسب وما عليه ومحاذيه، لم يبلغ عدد الأمهات ما يدانيه فضلا عن أن يساويه، وإن نظرنا إلى الفروع والشعب وسائر قبائل العرب فجميعهم لهم به صلى الله تعالى عليه وسلم اتصال نسبى ونساؤهم أمهات له، وإحاطة ابن الكلبى وأضرابه بمثل ذلك غير مستبعدة، فإنهم لهم اعتناء بالأنساب يعدونها من أعظم علومهم، وتوضيحه أنك إذا نظرت لقبيلة وجدتها من نسل رجل واحد، فجميع ذكورهم آباء له صلى الله تعالى عليه وسلم وأعمام أو أخوال، وجميع نسائهم جدات أو عمات أو خالات لعدة قرابتهم ولادة له، والمراد أن نسبه صلى الله تعالى عليه وسلم بحواشيه وأطرافه جميل لم يمسه دنس عار، فإذا

---

(١) أخرجه البيهقى فى الكبرى (٧/٩٠)، وفى دلائل النبوة (١/١١)، والسهمى فى تاريخ جرجان (٣٦١).

فتحت عين البصيرة لم تجد غبارًا فاعرفه، وإنما أطلت الكلام لأنى رأيتهم استشكلوه و لم يأت أحد فيه بما يشفى الغليل.

(ولا شيئًا مما كانت عليه الجاهلية): وفى نسخة: «مما كان» وفى نسخة: «أهل الجاهلية» وعلى النسخة الأخرى: أهل مقدر، أو المراد الأمة، أو المراد بالجاهلية أهلها كما يطلق المجلس والمقام على أهله، والجاهلية زمان كثرت فيه الجهالة أو ناس كذلك، وهى ما قبل الإسلام أو أيام الفترة، وقد تطلق على زمان الكفر مطلقًا، وعلى ما قبل الفتح، والمراد أنه ليس فى نسبه صلى الله تعالى عليه وسلم زنا ونحوه مما يعاب، وعطف قوله: «ولا شيئًا» الخ من عطف العام على الخاص لا من عطف الخاص على العام كما قيل، فإنهم كانت لهم أنكحة لا يعدونها سفاحًا فحرمها الشرع كنكاح المصافحة، وعد منها فى بعض الشروح أمورًا أكثرها زنا، وأطال فيها من غير طائل، ومنها: نكاح المقت: وهو نكاح زوجة الأب وأورد عليه الزبير بن بكار ما ذكره المؤرخون أن كنانة خلف على برة بنت أد زوجة أبيه خزيمة، على ما كانت عليه الجاهلية تفعله إذا مات الرجل خلف على زوجته بعده أكبر بنيه من غيرها، ورد بما روى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «ماولدنى من سفاح الجاهلية شىء، ما ولدنى إلا نكاح كنكاح الإسلام»[1] وبما ذكره المصنف رحمه الله عن الكلبى.

وقد أجيب عنه بأجوبة منها: أنه لم يكن سفاحًا محرمًا، قال السهيلى رحمه الله تعالى: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء:٢٢]، فإن الاستثناء يدل على تحليله وأنه ليس فى نسب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يعاب، وأنه لم يكن فى نكاح أجداده صلى الله تعالى عليه وسلم سفاح، ألا ترى أنه لم يقل فى شىء نهى عنه فى القرآن: ﴿إِلَّا مَا قَدْ﴾، نحو ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ و﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [الإسراء:٣٣]) ولا يستثن من المعاصى التى نهى الله عنها إلا فى هذه وفى الجمع بين الأختين؛ لأنه كان مباحًا فى شرع من قبلنا، كما جمع يعقوب بين راحيل وأختها إليا، فقوله إلا ما قد سلف التفات إلى هذا المعنى وتنبيه على هذا المغزى، ونقل هذه النكتة عن ابن العربى، وهذا بناء على أن نكاح زوجة الأب كان جائزًا قبل الإسلام، وكانوا إذا مات أحدهم ورث أولياؤه نكاح زوجته ولو كرهًا، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ [النساء:١٩] وظاهر كلام بعض المفسرين أن نكاح زوجة الأب كان جائزًا فى أول الإسلام ويأباه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٢٢]

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٣٩٩/١٠)، والبيهقى فى الكبرى (١٩٠/٧).

فإن كان هنا بمعنى لم ينزل وهو أحد معانيها لا زائدة، فإنها لا تزاد إذا عملت، وذهب بعض المفسرين إلى أنه لم يكن حلالاً أبدًا، وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء:٢٢] لا يدل عليه ولذا اعترض على من استدل به ودفع ما مر بما نقله الجاحظ من أن كنانة بن خزيمة وإن خلف على زوجة أبيه بعده، وهى برة بنت أد بن طابخة، وهى أم أسد فهى لم تلد منه ذكرًا ولا أنثى حتى تكون جدة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ولكن كانت بنت أخيها وهى برة بنت مر بن أد بن طابخة، أخت تميم بن مرة عند كنانة بن خزيمة فولدت له النضر بن كنانة، وإنما غلط كثير من الناس لما سمعوا أن كنانة خلف على برة لاتحاد اسمهما وتقارب نسبهما، قال: وهو الذى عليه أهل العلم بالنسب، ومعاذ الله أن يكون أصاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نكاح مقت، وقد قال: «ما زلت أخرج من نكاح كنكاح الإسلام» ومن اعتقد غيره وشك فى هذا الخبر فقد أساء وأخطأ، وكذا ما قيل من أن هاشمًا خلف على واقدة زوجة أبيه، فإنه رد بأنها ليست جدة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن أم عبد المطلب أنصارية ولذا كانت الأنصار أخواله صلى الله تعالى عليه وسلم كما فصل فى السير.

واعلم أن المصنف رحمه الله تعالى لما ذكر آيات قرآنية فيها الثناء على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سردها فى ترتيب أنيق لم ينبه عليه أحد ممن تكلم عليه، فإنه بدأ بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] الآية الدالة على أن الرسول الذى جاءهم أزال عنهم العنت والمشقة، وهداهم للنور المبين وهو منهم معروف فيما بينهم، ثم عقب ما ذكر من التخلية بما يدل على التحلية، من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ﴾ إلخ فدل على أنه منة ونعمة عظيمة لتعليمه وإرشاده للعلوم والحكم، والإتيان بكتاب لم يشرف بما بدأ منه أحد من الأمم، ثم يختمه بما يؤكد هذه المنة من أنهم أميون لا قدرة لهم على القراءة والكتابة مع أن الكتب السالفة ليست بلسانهم، فلو لم يبعث منهم هذا النبى الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينقذوا من الضلالة ويهتدوا للسعادة فاعرفه.

(وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩] قال: من نبى إلى نبى حتى أخرجتك نبيًا) وروى أخرجك، قال السيوطى: هذا الحديث أخرجه ابن سعد والبزار وأبو نعيم فى الدلائل بسند صحيح عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، وهو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الصحابى المشهور، حبر هذه الأمة، وترجمان القرآن، الفائق فى العلم والكرم، أحد العبادلة، توفى سنة ثمان وستين فى أيام ابن الزبير، وقد كف بصره كما سيأتى، والتقلب تفعل من

القلب وهو التحول من جهة إلى أخرى وجعل أعلى الشيء أسفله، وهو بالمعنى الأول فى الآية وفيها وجهان آخران ما ذكره ابن عباس، أحدهما: أن المراد تردده فى تصفح أحوال الصحابة فى تهجدهم بعد ما نسخ فرضية قيام الليل وأن بيوتهم مملوة بالذكر والصلوة، ولهم دوى كدوى النحل، او تصرفك بين المصلين قيامًا وركوعًا وسجودًا، ولذا قيل: إنه لم يذكر صلا الجماعة إلا فى هذه الآية، وعلى هذا اقتصر أكثر المفسرين، وعلى الأول اقتصر الرازى فى أسرار التنزيل واستدل بها على إسلام آباء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأجداده، فقال: إنه كان ينتقل ذرة من ساجد إلى ساجد فتدل على أن آباءه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكونوا مشركين، ويدل عليه أيضًا ما ورد فى الحديث من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يزل ينقل من أصلاب وأرحام طاهرة، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨] وسيأتى تفصيله فى حال الأبوين ولا دلالة له فيما ذكر؛ لأن المراد بتقلبه انتقاله من صلب نبى إلى نبى ولو مع الوسائط.

والمراد بالحديث أنه ليس فى أصوله سفاح كما مر، وفى الحديث تصريح بأن هذا هو المراد، فالمراد تعظيمه صلى الله تعالى عليه وسلم والثناء عليه بعد مدحه، بأن الله طهر أصوله كما طهر فروعه، وملائمة هذا لما قبله وهو: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ﴾ [الشعراء:٢١٧،٢١٨] إلخ، ظاهرة؛ لأن المعنى فوض أمورك كلها فى جميع أحوالك إلى من يراك إذا قمت لكل صلاة، أو لصلاة الليل ويراك فى أخفى من هذا إن كنت ذرة فى أصلاب المصلين، وعبر عن الصلاة بالسجود؛ لأنه أعظم وأقرب إلى الله، فإن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد، فالمراد أنه يراك فى ظهورك وبطونك لاستواء الظاهر والخفى فى علمه خلافا لمن توهم أنه لا ملائمة بينهما، وبهذا ظهر أيضًا مناسبة هذه الآية لما قبلها فى كلام المصنف ووجه تأخيرها.

والمراد بالرؤية ظاهرها أو الحفظ والكلاءة والرعاية، كما يقال نظر الله إليك أى حفظك فى جميع حالاتك من حين كنت نطفة، فكيف لا يحفظك من أعدائك وينصرك عليهم، وسقط أيضا ما يتوهم على هذا التفسير أنه أريد أن جميع الأصلاب التى حوته كذلك، فالواقع خلافه وإلا فلا فرق بينه وبين غيره من بنى إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وقد روى عن ابن عباس أيضًا ما ذكره غيره من المفسرين ففيه روايتان عنه.

(وقال جعفر): وهو جعفر الصادق أبو عبد الله **(بن محمد)** بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنهم، وأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، روى الحديث عن أبيه، وعن نافع، وعطاء، والزهرى

وغيرهم، وروى عنه كثير كمالك، والسفيانين، وابن جريج، وابن إسحاق، واتفقوا على إمامته وجلالته وسيادته، ولد سنة ثمانين وتوفى سنة ثمان وأربعين ومائة، قيل: مسموما ودفن بالبقيع مع أبيه وجده وعمه فى قبر واحد، ويقال: إنه ولد فى الصديق مرتين؛ لأن أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد ابن الصديق وأمها أسماء بنت عبد الرحمن ابن الصديق، وكذا يقال: ولد مرتين لمن انتسب من جهتين، ووثقه فى روايته الشافعى وابن معين، وأبو حاتم، والذهبى، وهو من فضلاء أهل البيت وعلمائهم، والأحاديث المروية عنه مقبولة إلا رواية أولاده إذا لم ترد من طريق آخر، فإنهم رووا عنه مناكير كثيرة حتى ذهب بعض الناس إلى تمريضه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء:١٥] وكأنه لذلك لقب بالصادق.

(**علم الله تعالى وتقدس عجز خلقه عن طاعته**) فى نسخة: «ضعف خلقه» والطاعة اسم مصدر هو الإطاعة من أطاع إذا انقاد واتبع الأمر فلم يخالفه، قال ابن فارس: إذا مضى لأمره فقد أطاعه إطاعة، وإذا وافقه فقد طاوعه، والاستطاعة الطاعة والقدرة، أى: أنه عز وجل علم عجز القوى البشرية عن إطاعته كما ينبغى من غير أن يكون بينهم وبينه واسطة من جنسهم لها تجرد باعتباره، وتعلق بمقتضى الفطرة به يفيض على من هو دونه، ولذا كانت الرسالة سفارة بين يدى الله وبين العقلاء يزيح بها عللهم فيما قصرت عنه عقولهم من مصالح الدنيا والآخرة، ولا حاجة هنا كما قيل إلى تفضيل معنى النبوة والرسالة.

(**فعرفهم ذلك**) العجز، وأنهم لو لم يكونوا عاجزين لم يقم بينهم وبينه رسولاً موصوفًا بما سيأتى، ولذا أقام الله عذر من لم يأته رسول فقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

(**لكى يعلموا أنهم لا ينالون الصفو من خدمته**) ينالون بمعنى يصلون ويأخذون والصفو بمعنى الصافى الخالص بفتح الصاد المهملة، والصفوة مثلثة وخدمته بمعنى عبادته وطاعته، وصفوتها خلوصها من الخطوط النفسية فلا يشوبها ما يكدرها من التقصيرات.

(**فأقام بينهم وبينه**) وفى نسخة «بينه وبينهم» بتقديم المفيض على المستفيض لتقدمه ذاتًا ورتبة، وفى الأولى قدمهم لأنهم المحتاجون للوساطة فقدموا رعاية للمقام وإقامته بينهم جعله قائما موجودًا بينهم، أو أقامه خليفة له.

(**رسولا مخلوقًا من جنسهم**) وسقط «رسولا» من بعض النسخ أى بشر منهم، فليس الجنس منطقيا بل لغوى، وهو أعم من المصطلح لشموله النوع وغيره، وما قيل من أن

المراد من جنس أشرافهم إذ أصل الكلام بالنظر إلى الإنسان الأشرف، أو المراد من العناصر ونحوها مما يعم الثقلين، ولذا عدل للجنس كلام لا يناسب المقام، وفيه تعقيد من غير حلاوة فتركه خير وفى الأخير يكون الظرف لغوًا، والقصد بهذا زيادة الالتئام وسهولة الاتباع.

وقوله: **(فى الصورة)** أى: جنسيته صلى الله تعالى عليه وسلم إنما هو بحسب الصورة الظاهرة لا لمعنى الباطنى لما سيأتى فى القسم الثالث، لتكون له المناسبة بين الجانبين فيتأهل للوساطة بين الله وعباده.

(وألبسه) أى: كساه الله حللا **(من نعته الرأفة والرحمة)** ففيه استعارة مكنية، والنعت والصفة بمعنى، ورأيت فى بعض كتب العربية أن بعض النحويين فرق بينهما فقال: النعت لا يقال إلا فى غير الله، لقولك: نعت الثوب ونعت الفرس، ولا يقال: نعت الله بخلاف الوصف والصفة والمشهور هو الأول، وعليه كلام المصنف رحمه الله، والضمير المضاف إليه نعته لله والرأفة مفعول ألبس الثانى، وقد قدمنا لك الفرق بين الرأفة والرحمة ووجه تقديمها وما وقع لهم من الغلط فيه فليكن على ذكر منك، فإن بعض الشراح أطال فيه بغير طائل.

(تنبيه) قال القرافى فى التقييد شرح مسائل الأربعين: الرحمة أصلها ميل الطبع ورقته وهو مستحيل على الله تعالى فيصرف للمجاز، وهذه الرأفة لها لوازم؛ لأن من رق طبعه أراد الإحسان وأحسن، فكلاهما يصح التجوز به، وذهب الباقلانى إلى أن التجوز عن الفعل فقال: رحمته معاملته معاملة الراحم المرحوم، وذهب الأشعرى إلى أنها إرادته فعلى رأى القاضى الرحمة محدثه، وعلى رأى الشيخ قديمة، وعلى رأى القاضى يجوز أن يقال: اللهم اجعلنا فى مستقر رحمتك وهو عنده الجنة، وعلى رأى الشيخ يحرم ذلك؛ لأن مستقرها الذات، وفى القرآن مواضع لا تستقيم إلا على أحد الرأيين، فقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧] يتعين فيه الإرادة لاقترانها بالعلم وهو صفة ذاتية والوسع، وقوله: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف:٩٨] الإشارة إلى السد وهو من باب الإحسان انتهى.

وهل هى مجاز مرسل أو استعارة تبعية أو تمثيلية؟ احتمالات بينها فى حواشى القاضى.

واعلم أن المصنف رحمه الله تعالى لما ذكر فى هذا المحل آيات دالة على نهاية الثناء على نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان معناها كلها أن الله بعث فى هذه الأمة

الأمية رسولا هو أعظم مخلوقاته حسبًا ونسبًا أودعه فى الأصلاب الطيبة والأرحام الطاهرة، وجعل واسطته أنبياء ورسلاً، وأوحى إليه بكتاب هو أعظم الكتب السماوية، وجعله مشتملا على علوم الأولين والآخرين فأقام به الملة السمحة، وأتم به دينه ونصرهم على أعدائهم وملكهم الدنيا، ولطف بهم إذ جعله بشرًا مثلهم يخاطبهم بلسانهم، وفى ذلك رأفة بهم وأتم نعمه عليهم وعلى نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم مثل ذلك، إذ رأف بهم وأنعم عليهم بنعم الدنيا والآخرة، ولذا وصفه بصفتين متجاورتين فى قوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] ومثله مما خص الله به نفسه، فلما جعل خليفة الله خلع عليه خلعة فوق خلعة تمييزًا له وتكريمًا كما يفعله الملوك، فقوله: ألبسه من نعته الرأفة والرحمة يعنى به المذكور فى الآية السابق ذكرها و لم يجمع له غيرهما.

فإن قلت: كيف هذا وقد وصفه بصفات غيرهما وجمع له بين صفتين أيضًا فى قوله تعالى فى آية الإسراء: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١] بناء على أن الضمير لعبده.

قلت: هذا مما ذهب أكثر المفسرين إلى خلافه وأن الضمير لله تعالى، ولو قلنا إنه له فهاتان الصفتان لم يجر لهما ذكر هنا ولا مناسبة لهما بهذا المقام فلذا خصهما المصنف بالذكر، فما قيل معنى إلباسه الرأفة والرحمة أنه وصفه بهما بما شاركه فى أصل المعنى وإن تغايرا فى الحقيقة، وأن بينهما مشاركة لفظية ومناسبة ما، وإنما خصهما من بين الصفات لكمال مناسبتهما لبعثته للثقلين ووساطته بينهما مع شدة الاحتياج لذلك، كما قال صاحب معيار المريدين فى قوله: (**تخلقوا بأخلاق الله**) معناه: اتصفوا بالصفات المحمودة وتنزهوا عن الصفات المذمومة، وليس معناه أن يأخذ من صفات القديم شيئًا، ومثاله من يوقد سراجًا من سراج أو يأخذ علمًا من عالم، فإنه لا يأخذ عين سراجه ولا عين علمه، بل يحصل له من إشراق سراجه سراج، ومن إفاضة علمه علم آخر هو كلام من لم يصل إلى العنقود مع أنه لا تحصل له وليس تحته كبير فائدة.

(**وأخرجه إلى الخلق سفيرًا صادقًا**) المراد: أنه أخرجه من العدم والتقدير إلى الوجود الخارجى العينى، أو من الأصلاب والأرحام، والسفير الرسول والمصلح بين القوم، والمراد الأول، أى: رسولاً من الله لهم وهو مأخوذ من سفرت الشىء سفرا إذا كشفته وأوضحته، لأنه يوضح ما أمر به ويظهر، ومنه إسفار الصبح، والمراد بالخلق جنسهم أو جميعهم لعموم رسالته صلى الله تعالى عليه وسلم كما سيأتى وصدقه، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن الله تعالى عصمه من الكذب و لم يؤثر عليه تهمته به فضلاً عن وقوعه كما مر فى حديث هرقل.

(وجعل طاعته طاعته وموافقته موافقته) طاع وأطاع بمعنى، أى: انقاد وأذعن، وقيل: طاع بمعنى انقاد وأطاع بمعنى اتبع الأمر ولم يخالفه، وليس بينهما بعد بحسب المآل، والموافقة ضد المخالفة ومعناها الاتفاق، والتظاهر أى: من اتفق معه على ما كان عليه فى دينه وقبول ما جاء به فقد وافق الله، والضمير الأول للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، والثانى لله ويجوز العكس؛ لأنه لا إطاعة لله إلا بإطاعة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا إطاعة للرسول إلا بإطاعة الله، والمراد الاتحاد الحقيقى لأنه لا ينطق عن الهوى فهو مبلغ والآمر هو الله، أو لأنه لا يأمر إلا بما فيه طاعة الله وعبادته فإطاعته عبادة، وقيل: المراد أن طاعته مثل طاعته فى الوجوب؛ لأن الله أمرنا بإطاعته، قيل: وهو قصور أو خفاء وذكر الموافقة بعد الطاعة، وهى بمعنى الإطاعة للتأكيد، قيل: وتوضيح الاتحاد الحقيقى أن من أطاع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ليس له إطاعة لا يكون مطاعها الحق، وهذا كما قيل: إن وجود العرض فى نفسه هو وجوده فى الموضوع، فليس للسواد وجود لا يكون تابعًا للموضوع، ولذا امتنع انتقاله عنه بخلاف وجود الجسم فى الحيز، فلذا انتقل عنه كما قاله التفتازانى ورد بأنه لا يستقيم هذا؛ الأن الاتحاد الحقيقى هو أن يصير شيئًا بعينه شيئًا آخر من غير أن يزول عنه شىء أو ينضم إليه شىء، وهنا قد انضم إلى أوامره ونواهيه كونها وحيًا من الله تعالى ليست كأوامره ونواهيه بأمور طبيعية قبل النبوة.

وهذا كقول السلطان لوزيره: مر الناس عنى بكذا، فإنه صادر من الوزير صورة ويعد أمرًا للوزير، وهو فى الحقيقة أمر السلطان فالاتحاد مجازى بطريق الانتقال والتغير، كما يقال: صار الماء هواء، أى: زالت عن هيولاه صورة خلقتها أخرى، أوهو من قبيل صار الأبيض أسود أو انضم إليه شىء آخر، كصار التراب طينًا، ما قيل فى توضيحه أيضًا غير صحيح؛ لأن الاتحاد الحقيقى وعدم المغايرة والعرض له حقيقة مغايرة لحقيقة موضوعه، فلا يقال: إن حقيقة السواد هى حقيقة الجسم وهذا الفاضل جعل حقيقة طاعة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هى طاعة الله، وأين الوجود من الحقيقة وقد تقرر أن وجود العرض والجوهر زائد على ماهيتهما، ولهذا لم يصدق تعريف الجوهر بأنه ماهية إذا وجدت فى الخارج لم يكن فى موضوع على ذات البارى؛ لأن وجوده عين ذاته، ثم إن معنى قولهم إن وجود العرض هو وجوده فى موضعه أنهما لايتمايزان فى الإشارة الحسية، وقد توهم من هذه العبارة أن وجود السواد مثلاً فى نفسه هو وجوده فى الجسم وليس بشىء، إذ يصح أن يقال: وجد فى نفسه فقام بالجسم وهذا يقتضى المغايرة.

أقول: إنما نقلت هذا مع طوله لئلا يظن أن فى السويداء رجالا وتحقيقه أو المدلولين إذا تغايرا بحسب المفهوم واتحدوا فى الخارج بحسب الماصدق، كالحيوان والمتحرك بالإرادة يكون الاتحاد حقيقيا بحسب الخارج،وإطاعة الله وإطاعته كذلك من غير شبهة، فإن الله تعالى إذا أوجب الصلاة وأمر بها فأمر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بها الخلق فامتثلوا، فإطاعة الله وإطاعة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم إقامة الصلاة وهى أمر واحد فى الخارج، وإن تغاير مفهوماهما فإنه أمر إضافى يختلف باختلاف المضاف إليه، وكذا وجود العرض فى نفسه ووجوده فى موضوعه لعدم التمايز والانتقال، بخلاف وجود الجسم وما انضم إليه شيء آخر كالخشب والسرير، والماء المنقلب هواء ليس من هذا القبيل لتغايرهما فى الخارج، فهذا القائل خبط خبط عشواء وأطال من غير طائل.

فإن قلت: كيف يتم هذا إن قلنا باجتهاده صلى الله تعالى عليه وسلم فإذا أمرهم باجتهاده هل يقال إطاعة أمره طاعة لله مع احتمال أمره بخلافه كما فى قصة الإسراء.

قلت: نعم هو إطاعة لله لقوله: ﴿**وأطيعوا الرسول**﴾ من غير قيد، ولذا عقبه المصنف رحمه الله تعالى بقوله: (**فقال تعالى** ﴿**مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ**﴾ [النساء: ٨٠]) تقدم أن ضميرى طاعته طاعته فيهما وجهان، وقد قيل هنا: إن جعل الضمير الأول لله يفيد أن طاعة الله منحصرة فى طاعة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لتعريف الطرفين، لأن المعتبر منها ما وافق الشرع والشرع من الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فهو أبلغ، إلا أن دلالة هذه الآية عليه ليست بظاهرة، وتوضيحه كما قيل: إن معناها ليست له صلى الله تعالى عليه وسلم إطاعة إلا وهى لله بتنزيل الموجود منزلة المعدوم، كما فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ**﴾ [الأنفال:١٧] ويحتمل أن يكون معناها من يطع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى تفاصيل ما جاء به فقد أطاع الله فى قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ**﴾ [النور:٥٤]، إلا أن هذه الآية هى الدالة على أنه جعل طاعته كطاعته فى أصل الوجوب لا فى ذاته ووصفه، لا الآية التى تلاها المصنف رحمه الله تعالى، فلا يصح أن يقال معنى جعل طاعته طاعته أنه جعلها قبلها فى الوجوب، لأن قوله: «فقال الخ» يأباه لتفسيره أو تفريعه عليه ما يخالفه كما سيأتى، ورد بأنه لا ينبغى قصر الدلالة على وجوب طاعته فى الآية الثانية، لأن الآية التى تلاها المصنف رحمه الله تعالى دالة على ذلك أيضا، فإن مضمونها أنه جعل طاعته صلى الله تعالى عليه وسلم طاعة الله وطاعة الله واجبة شرعًا وعقلاً، فطاعته صلى الله تعالى عليه وسلم كذلك وإن لم يكن مثلها فى كل الوجوه، فدل ذلك على أنه يجوز أن يكون مراد

جعفر الصادق بقوله: إنه جعل طاعته مثل طاعته فى الوجوب وهو كلام حسن، والذى جنح إليـه القـائل أن القـاضى وغـيره قـال فـى تفسـير قولـه تعـالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء:٨٠] الآية أن الرسول صلى الله تعالى عليـه وسـلم مبلـغ والآمـر هـو الله، وهـذا الحصر يقتضى أنه لا آمر ولاناهى سواه، وأنه لا إطاعة لغيره إلا بحسب الظاهر.

وأنا أقول: هذا كله من ضيق العطن، فإن كون الأمر كله لله ليـس فيـه اشـتباه، ومـا على الرسول إلا البلاغ، لكن لما كان العباد لا تطلع على ذلـك إلا بـأمر الرسـول صلـى الله تعالى عليه وسلم وكانت إطاعته وتصديقه واجبان علينا جعل أمرًا ونهيًا، ومثله يعـد حقيقة بحسب اللغة كما قال فى البردة[1]:

نبينا الآمر النـاهـى فـلا أحـد أبـر فى قـول لا منـه ولا نـعـم

وفى هذا التفريع خفاء ليس هذا محل بيانه، فأى ماس فى النظر بهذين الأمرين، وقوله طاعته تشبيه بليغ، كقولك: أبو يوسف، أبو حنيفة، ويجوز عكسه وجعل عينه ادعاء فلا ينافى الآية؛ لأن الشرط والجزاء متغايران نظرًا لما فى نفس المقام ولكل مقام مقال.

وقـال الله تعـالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبيـاء:١٠٧]) هـذا إمـا ابتداء كلام فى ذكر ما جاء فى الثناء من الله تعـالى علـى رسـوله صلـى الله تعـالى عليـه وسلم، أو من تتمة كلام جعفر رضى الله تعالى عنه، وبه جزم فى الشـرح الجديـد وهـو حينئذ متصل بأول كلامه، أى لما علم عجزهم عن نيل صفـو خدمتـه أقـام بينـه وبينـهم سفيرًا من جنسهم رحمة لهم، فإنه إنما بعث رحمة للعالمين، أو بقوله: ألبسه من نعته الرأفـة والرحمة وهو أقرب.

والعالمين عام شامل للمتقين والعصاة والكافرين كما سيأتى مـن أنـه صلـى الله تعـالى عليه وسلم رحمة للكافرين بتأخير العذاب ومنع الاستيصال، فمن خالفه فعذابه من نفسه كعين جرت فانتفع بها قوم وكسل آخرون فهى رحمـة لهمـا، ومـا قيـل إن المفسـرين لم يتعرضوا لبيان نفى الغضب مع وقوعه منه صلى الله تعالى عليه وسلم كثـيرًا، وقـد قصـد الله تعالى ببعثته أن لا يؤمن به قوم فيعذبهم، وليس الحصر هنا نظرًا لعموم العـالمين؛ لأنـه لو أريد به هـذا قيـل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبيـاء:١٠٧] أو يقـال: القصد بالذات الرحمة والغضب بالتبعية وهو فى جنب الرحمة كـالعدم، أو المعنـى لأجـل الرحمة على الكل لا الغضب على الكـل إلى آخـر مـا قالـه وأطـال فيـه مـن غـير طـائل، ولعمرى أن ما ظنه مشكلاً فى غاية الظهور فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم رحمـة عامـة

(١) البيت من البسيط، وهو للبوصيرى فى تاج العروس (لا).

شاملة كما ورد «إنما أنا رحمة مهداة»(١)، فإنه لم يرد لأحد ضررًا، وقد اجتهد فى نفع كل أحد، ولكن من يضلل الله فما له من هاد، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم لا يغضب لنفسه وإنما يغضب لانتهاك حرمات الله كما سيأتى بيانه، ولعمرى أن صاحب الكشاف أجمل وأجمل فلا حاجة للإطالة هنا.

ورحمة مفعول له وللعالمين متعلق به أى: ما أرسلناك إلا لنرحم بك العالمين بهدايتك إياهم لسعادة الدارين. وفى مسلم قيل: يا رسول الله، ادع الله على المشركين، فقال: «إنى لم أبعث لعانًا إنما بعثت رحمة»(٢). ويجوز أن يكون حالاً من الكاف، أى: إلا ذا رحمة أو هو عين الرحمة وليس للعالمين متعلق بأرسلناك، لأن ما قبل إلا لا يعمل فيما بعدها إلا فى الاستثناء المفرغ، نحو: ما مررت إلا بزيد والمعنى إلا لأرحم بالبناء للفاعل لا للمفعول كما قيل.

(قال أبو بكر بن طاهر): قال الشمنى، والبرهان الحلبى: هو أبو بكر بن طاهر بن مفوز بن أحمد بن مفوز المغافرى الشاطبى، وقال التلمسانى: هو عبد الله بن طاهر الأبهرى وهو من أقران الشبلى ومن مشايخ الجبلى عالم ورع، مات قرب الثلاثين وثلاثمائة، وهناك أبو بكر بن طاهر واسمه محمد بن أحمد بن طاهر الإشبيلى القيسى،يروى عن ابن على الغسانى وروى عنه السهيلى، والأول أقدم من الثانى وهو المراد والله أعلم. والذى عند سيدى أبو الحسن: أبو بكر بن طاهر بن مفوز بن أحمد بن مفوز المغافرى الشاطبى، والله أعلم أيهم هو انتهى.

(زين الله محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم بزينة الرحمة): يعلم من هذه العبارة أن فى قوله السابق ألبسه الرأفة والرحمة استعارة مكنية بجعل كل منهما كالحلة والخلعة البهية.

(فكان كونه رحمة وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق): الفاء هنا للتفسير والتفصيل وكونه مرفوع اسم كان وهو مصدر كان التامة أى وجوده، ورحمة منصوب خبرها وكونه لا خبر له وتقديره: من ربنا قبيح، وما بعده معطوف عليه، والزينة ما يتزين به لباسًا أو غيره، وإضافته للرحمة كلجين الماء أو بيانية، وقيل: الزينة هنا اللباس أى ألبسه الله رحمة رحمانية شاملة له، وفيه إشارة إلى أنها منة من الله بها عليه غير الجبلة البشرية.

والشمائل: جمع شمال بالكسر مثل شمال خلاف اليمين، قال الأزهرى: الشمال خلقة

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة (١١/٥٠٤)، وأبو نعيم فى دلائل النبوة (١/١٥٨)، وابن سعد فى الطبقات (١/١/١٢٨)، وابن عدى فى الكامل (٤/١٥٤٦).

(٢) أخرجه مسلم (٨٧/٢٥٩٩)، والبخارى فى الأدب المفرد (٣٢١)، والطبرانى فى الكبير (١٩/١٨٩)، والبغوى فى شرح السنة (١٣/٢٤٠).

الرجل، أى خلقه، وجمعه شمائل، ورجل كريم الشمائل أى: فى أخلاقه ومخالطته انتهى، وبه سمى كتاب الشمائل، وما ألطف قول ابن الوردى فيه مضمنا:

يا ألطف مرسل كريم ما ألطف هذه الشمائل
من يسمع لفظها تراه كالغصن مع النسيم مائل

فعطف صفاته من عطف العام على الخاص إن لم يخصص بالصفات الظاهرة، والشمائل بخلافها، وقال الشارح: صفاته صلى الله تعالى عليه وسلم تشمل غضبه وظاهر مرآه؛ لأنه لا يغضب لنفسه وإنما يغضب لله، وغضبه للإصلاح وهو رحمة فى ذاته، وأما مرآه الحسن فإنه لمحبته والتصديق به، ألا ترى أن عبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه لما رآه صلى الله تعالى عليه وسلم آمن به وقال: إنى لما رأيت وجهه الشريف تبينت أنه ليس بوجه كذاب، فإن أريد بالخلق جميعهم كما مر.

فقوله: **(فمن أصابه شىء من رحمته فهو الناجى فى الدارين)** أى: فى الدنيا والآخرة، والناجى بمعنى السالم من إصابة ما يكرهه ويضره، قيل: المراد به من انتفع انتفاعًا معتدًا به بأن يكون مصدقا به أو انتفع بشىء معتد به، أو أن وجوده صلى الله تعالى عليه وسلم وصفاته هداية فمن اهتدى بشىء منهما نجا. وقيل: المراد بشىء من رحمته أنه اهتدى بهدايته؛ لأن من لم يهتد كأنه لم تصبه الرحمة، كما أن من شرب الماء و لم يرو كأنه لم يشرب، وهذا هو التفسير الصحيح وما قبله تكلف، فالمعنى أن من هداه الله للإيمان به صلى الله تعالى عليه وسلم سلم من كل مكروه ونال كل مرغوب، فأسقام الدنيا وآلامها لا تعد مكروها بعد العلم بما فيها من تكفير السيئات ونيل الحسنات.

(من كل مكروه) يلحق من لم يهتد فلم يؤمن به فى الدنيا كالقتل والسبى وأخذ الجزية، وفى الآخرة العذاب المخلد.

(والواصل فيهما إلى كل محبوب) أما فى الدنيا، فإن كان ذا غنى ونعمة فظاهر، وإلا فالمؤمن العاقل إذا صبر وقام بوظائف العبودية فى دنيا سريعة الزوال، كان ما أصابه من المكروه لإيصاله للنعم الآخروية محبوبًا عنده، وأما حاله فى الآخرة فغنى عن البيان، فما قيل إنه يشكل عمومه بالمؤمن العاصى المعذب، وبأنه مصائب المؤمنين فى الدنيا كثيرة إلا أن يقال فى الدارين متعلق بالمكروه والمحبوب، أو المراد أنه سبب فى الجملة أو الكل بمعنى الجل لا وجه له فإنه من قسم الوسواس.

ألا ترى أن الله يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]) وفى نسخة: «ألم تر»، وفى نسخة: إسقاط إن، أى ألم تعلم أن الله لما قصر بعثته على الرحمة

علم أنه من أصابته هذه الرحمة لم ينل مكروها إذ نيله ينافى الحصر وهذا ترغيب، كما فى حديث: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة» فلا مسامحة فى المدعى حتى يحتاج للتأويل، وهذه العبارة تسميها العلماء تنويرًا لأنها تشير إلى أن ما بعدها موضح لما قبلها، ولذا عبر بالرؤية لجعله كالمحسوس، وهذا من كلام ابن طاهر فلا تكرار فيه، والكلام على الآية مبسوط فى التفسير وشهرته تغنى عن ذكره.

(فكانت حياته رحمة ومماته رحمة كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «حياتى خير لكم وموتى خير لكم») هذا الحديث رواه ابن مسعود رضى الله عنه بسند صحيح، ورواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده بسند صحيح أيضًا، والحديث الذى بعده فى صحيح مسلم وفى رواية موته بدل مماته، أى كل منهما نافع لأمته صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا يتوهم انقطاع نفعه صلى الله تعالى عليه وسلم عنا بموته، لأن كثيرًا منا إذا مات انقطع عمله عنه وعن غيره إلا ما استثنى والخير النفع الذى يرغب فيه، وهو يكون صفة مشبهة وأفعل تفضيل مخفف من أخير كشر من أشر، ولا ينطق بأصله إلا نادرًا كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(بلال خير الناس وابن الأخير)** وقرئ فى الشواذ: «سيعلمون غدًا من الكذاب الأشر» ويكون صفة كالخير بالتشديد ويجوز كل منهما هنا أى كل من حياته صلى الله تعالى عليه وسلم، وموته نفع لمن دخل تحت الخطاب، أو أن حياته أنفع من موته فى وقتها وموته أنفع فى وقته من وجه لنفعه صلى الله تعالى عليه وسلم لهم، لنحو شفاعته عند عرض أعمالهم عليه يوم الاثنين، وفتح باب الاجتهاد وترك الاتكال والمشى على الاحتياط، وكالإثابة بالحزن لموته وتسهيل كل مصيبة بمصيبته، والاعتبار به، والرحمة الناشئة من اختلاف أمته، وارتفاع الشديد بتوقيره، وفى الحديث زيادة فى بعض التعاليق وهى: «أما حياتى فأبين لكم السنن وأشرع لكم الشرائع، وأما موتى فإن أعمالكم تعرض علىَّ فما رأيت منها حسنًا حمدت الله، وما رأيت منها سيئًا استغفرت»(١) وأيضًا فإن الملائكة عليهم الصلاة والسلام تعرض عليه صلى الله تعالى عليه وسلم صلاة من صلى عليه وتبلغها له فى وقت واحد وإن لم يحص عددها كما سيأتى.

كالشمس فى كبد السماء وضوءها   يغشى البلاد مشارقا ومغاربا

كما فى بعض الشروح ونقل فى بعضها ما لا مساس له بالمقام، وفيه نقلا عن ابن عربى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «إذا مت لا أزال أنادى فى قبرى أمتى أمتى

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٢/٢/٢)، وابن عدى فى الكامل (٩٤٥/٣)، وأورده ابن حجر فى المطالب العالية (٣٨٥٣).

حتى ينفخ فى الصور» فطنين الآذان لما تدركه الروح المتكمنة فى قلبه ورأسه من ذلك النداء، فلذا استحبت الصلاة عليه إذا طنت الآذان إداء لشىء من حقه كما فى العطاس، كما قاله الترمذى رحمه الله تعالى، ولعظم الأجر على مصيبته صلى الله تعالى عليه وسلم، ولذا سادت فاطمة أمها خديجة رضى الله تعالى عنهما وجميع أخواتها من مات فى حياته صلى الله تعالى عليه وسلم لما فى صحفها من مصيبتها به صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد قيل: إنه لا شبهة فى ثوابها بهذا الرزء العظيم، ولكنها لم تفضل أمها بذلك بل بكونها بضعة من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولذا قال فى سنن أبى داود: «لا أعدل ببعضة من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحد» وأما تفضيلها على أخواتها فلحديث: «فاطمة أفضل نساء العالمين إلا مريم ابنه عمران»[1] ونحوه، ولو كان تفضيلها بهذه المصيبة فضلت عائشة رضى الله تعالى عنها خديجة رضى الله تعالى عنها، والأكثر على خلافه، ثم أورد على حد الاجتهاد من الخير الذى حصل بموته صلى الله تعالى عليه وسلم أن الاجتهاد من الصحابة رضى الله تعالى عنهم كان فى زمنه أيضًا كما بين فى كتب الأصول، ولك أن تقول: المراد كثرته مع ما يتفرع عليه من المذاهب والتأليف، قيل: وعرض الملائكة عليهم الصلاة والسلام الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم ممن لا يحصي فى وقت واحد لم يثبت، وهو مردود بأنه ورد من طرق صحيحة كما سيأتى مفصلاً فلا وجه لإنكاره، والأحسن أن رحمته لهم فى حياته لأنه هداهم لسبيل الخير، ومادام صلى الله تعالى عليه وسلم بين أظهرهم فهم آمنون من عذاب الاستئصال والمسخ والخسف ونحوه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ [الأنفال: ٣٣]، ورحمته لهم فى مماته لتقدمه صلى الله تعالى عليه وسلم فرطًا لهم كما سيأتى وبه فسر قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ [يونس: ٢] ثم إن تفضيل فاطمة وعائشة رضى الله تعالى عنهما بما مر لا ينافى كون خديجة رضى الله تعالى عنها أفضل، لأنه قد يكون فى المفضول ما ليس فى الفاضل كما لا يخفى.

واعلم أنه حكى عن الأشعرى والقشيرى وأصحابه أنهم قالوا: إن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليس بنبى فى قبره، وإن رسالته صلى الله تعالى عليه وسلم انقطعت بموته، وقد شنع عليهم بذلك جماعة وقالوا بتكفيرهم، وقال السبكى: إنه افتراء عليهم وقد كتب بذلك إلى الآفاق، وكيف يقال مثله مع ما صح فى الحديث من أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أحياء فى قبورهم يصلون، وإنما فهم هذا عنهم الكرامية وادعوا

---

(١) أخرجه البخارى فى التاريخ الكبير (٢٣٢/١).

أنه لازم لمذهبهم ولازم المذهب ليس بمذهب، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم حى فى قبره باق على ما كان عليه، حتى سئل النووى رحمه الله تعالى عمن رآه صلى الله تعالى عليه وسلم فى منامه يأمر بأمر هل يجب عليه أم لا؟ فأجاب بأنه إن لم يخالف الشرع وكان له فى خاصة نفسه ينبغى العمل به، وإنما لم يجب لأن النائم لم يضبط ما قيل له وربما لم يفهمه، أو يكون إشارة لما يحتاج للتأويل وهو كلام حسن فلا ينافى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «من رآنى فقد رآنى حقا»(١) الحديث.

(**وكما قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «إذا أراد الله رحمة بأمة قبض نبيها قبلها فجعله لها فرطًا وسلفًا»**) هذا الحديث صحيح متنًا وسندًا، رواه مسلم عن أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه فقال: إذا أراد الله تعالى رحمة أمة من عباده قبض نبيها قبلها فجعله لها فرطًا وسلفًا بين يديها، وإذا أراد هلكه أمة أحيا نبيها فأهلكها وهو ينظر، فأقر عينه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمره»(٢). وهكذا فى النسخ بتقديم الفرط ووقع فى بعضها مؤخرًا وكأنه من الناسخ، والذى فى مسلم بإضافة رحمة لأمة مخالف لما فى الشفاء، فقول المخرجين إنه حديث مسلم لا يخفى ما فيه فلعله رواه من طريق آخر، إلا أن يقال إنه رواه بالمعنى واقتصر على بعضه. والأمة الجماعة ثم شاع فيمن بعث إليهم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ووجب عليهم اتباعه، فإن اتبعوه فهم أمة الإجابة وهم وغيرهم أمة الدعوة، والمراد الأول، والقبض فى الأصل أخذ الشىء واستيفاؤه، يقال: قبض المال والمتاع ويقال: قبض الله أو الملك زيدًا أو روحه، والمشهور فى الاستعمال الأول، وكان العدول عنه هنا إشارة إلى [أن] الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أحياء فى قبورهم ولا تأكل الأرض أبدانهم، فموتهم ليس كموت غيرهم فهم كمن أرسله الملك لأمر فأتمه وعاد إليه.

والفرط: بفتحتين أصله من يرسله الناس قدامهم لمنزل رحلتهم ليهيأ لهم لوازمهم، أو لينظروا ما به من ماء وعشب وأنه هل يحسن نزول السفراء به أم لا، أو ليزيل ما يخاف وينظر هل به عدو أم لا، من فرط بمعنى تقدم، فهو فعل بمعنى فاعل كتبع بمعنى تابع لا جمع له كخدم وخادم لإطلاقه على الواحد وغيره، ويطلق على الطفل الذى يموت قبل أبويه أو أحدهما كما ورد فى دعاء الجنازة، وهو من هذا القبيل لا معنى آخر، فهو إما لأنه يحصل بسببه أجر كمنافع المنازل، أو لما ورد من أنه يقف على الحوض ليسقى أبويه، وفيه استعارة بديعة لجعله القبر منزلاً كل أحد سائر إليه وموردا وكل وارد عليه،

(١) أخرجه مسلم (٢٢٦٨/١٢)، وأحمد (٣٦١/١، ٣٥٠/٣).
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٨٨/٢٤).

ولذا يقال: حيا من الدنيا ومَوردها من صيرته الحياة فى ظهر فالموت ورد لابد أن يرده، وأن الناس مسافرون ليست الدنيا دار إقامة لهم:

وإنا لفى الدنيا كركب سفينة نظن وقوفا والزمان بنا يسرى

ويقال: أفرط فلان ابنه إذا مات قبله. والسلف بوزنه معناه ما تقدم إعطاؤه فى المال كالسلم ورد بمعنى القرض، وسلف المرء من مضى من آبائه وأقربائه لتقدم موته، ولذا يسمى الصدر الأول السلف الصالح، فكان ما أصاب الأمة بفقد نبيها صلى الله تعالى عليه وسلم جعل سلما أو قرضا للأجر الذى يجازوا به على الصبر:

والصبر يحمد فى المواطن كلها إلا عليه فإنه مذموم

ولذا قيل لما قدم من العمل الصالح: فرطًا، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أب لأمته لأنه سبب لحياتهم الأبدية، كالأب الذى هو مبدأ الحياة ولذا كانت زوجاته صلى الله تعالى عليه وسلم أمهات المؤمنين، ففى حياته صلى الله تعالى عليه وسلم من الرحمة ما لا يخفى كما مر، فإذا ارتحل ومات انتقل لجوار ربه مع الرفيق الأعلى وهو راض عنهم، لقبول ما بلغهم ونصرتهم ومحبتهم له وشهادتهم على إبلاغه، ولولا ذلك لأهلكوا فكانت رحلته صلى الله تعالى عليه وسلم لهم مع ما أصابهم من الأجر بمصيبة، وحمده واستغفاره لهم إذا عرضت عليه أعمالهم قريبًا فجزاه الله حيًا وميتًا خير الجزاء.

(وقال السمرقندى) الإمام الحنفى: وقد تقدمت قريبا ترجمته **(رحمة للعالمين يعنى الجن والإنس)** هذا تفسير للآية المذكورة بأن المراد به جنس العقلاء من الثقلين بقرينة صيغة جمع المذكر السالم، وإن كان جمع عالم وهو كل ما يعلم به الصانع من العقلاء وغيرهم، فالمفرد أعم من جمعه فخص، ثم جمع بجعله صفة أو ملحقًا بها؛ لأن فاعل بالفتح اسم آلة كالخاتم والقالب، وقيل: غلب العقلاء أو جعل اسما لذوى العلم من الثقلين أو الثقلين والملك أو الإنس. قال الشريف الجرجانى: يطلق على كل جنس لا فرد فهو للقدر المشترك بين الأجناس فيصح إطلاقه على كل جنس وعلى مجموعها لا للمجموع، وإذا عرف بلام الاستغراق شمل كل فرد من جنس كالأقاويل، فمن فسره بجميع الخلق فعلى الأصل، ومن فسره بالجن والإنس فعلى بعض الوجوه، أو خصه لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم مبعوث إليهما، ومن فسره بالمؤمن والكافر أراد أنه يشملهما لا أن معناه ذلك، وهذا يقتضى أن هذا غير مخالف لقوله.

(وقيل: الجميع الخلق) وسياقه مع تمريضه يأباه، فالحق كما فى بعض الشروح أنه لما اختار تفسير العالمين بالثقلين ذكر تفسيرًا لم يرضه، ثم أخذ فى بيان ما به تكون الرحمة

على ما اختاره فقال:

(للمؤمنين رحمة بالهداية) أى: أرسله صلى الله تعالى عليه وسلم لمن آمن بهداية تزيد على هداية الإيمان، أو لمن قدر إيمانه، قيل: وهو على الثانى عام شامل للملائكة والجمادان، قلنا: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم مرسل إليهم على أحد القولين فيه وسيأتى تحقيقه وإن عمته رحمته أيضًا، وقوله: «للمؤمن» إلى آخره بدل من قوله: «للعالمين» أو متعلق بمقدر، وعلى الأول هو بيان لمختاره وهو الظاهر وعلى الثانى يصلح لهما.

(ورحمة للمنافق بالأمان من القتل) مطلقا بخلاف الكافر، فإنه لا يأمن إلا بالأمان أو أداء الجزية، والنفاق اسم إسلامى معناه إخفاء الكفر وإظهار الإسلام، مأخوذ من نافقاء اليربوع أو من النفق بمعنى السرب.

(ورحمة للكافر بتأخير العذاب) وفى نسخة: «المؤمنين والمنافقين والكافرين» بالجمع والمراد تأخيره لما بعد الموت، وأما عذاب الدنيا بالقحط وغيره فلا يختص بطائفة، وقيل: المراد نفى الاستئصال والمسخ والخسف، وأورد عليه أيضًا أن الزنديق سواء أدخل فيه أو فى الكافر عذابه مؤخر أيضًا، فالظاهر اشتراكهما فيه وتمييز المنافق بإجراء أحكام الإسلام عليه ظاهرًا، أو يقال: إنه أراد فى كل قسم ذكر رحمة مخصوصة من غير تخصيص، والأمان أنسب بالمقام للعموم، ثم ذكر أن من رحمة الكافر أيضًا الشفاعة له من هول الموقف، ورحمته صلى الله تعالى عليه وسلم لسائر المخلوقات فائضة، إذ لولاه ما خلقت فتأمله.

(وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما) فى تفسير هذه الآية وبيان من شمله العالمين **(ورحمة للمؤمنين والكافرين إذ عوفوا)** أى: عافاهم الله تعالى بالعفو عنهم عاجلا **(مما أصاب غيرهم من الأمم الكاذبة)** أى: المكذبة للأنبياء السالفة، فإن الله عاقب من كفر منهم بالاستئصال والخسف والمسخ، وما نزل عليهم من السماء، فلا يرد من قتل فى غزوات نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، وأما النفاق فلم يشتهر فى الأمم السالفة حتى يعلم حكمه، وقول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هذا مسند إليه فى الطبرانى ودلائل البيهقى وفى تفسير ابن جرير وابن أبى حاتم.

(وحكى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال لجبريل) عليه الصلاة والسلام: حكى بالبناء للمجهول كما صححه البرهان فى المقتفى، فهو مقطوع عن كلام ابن عباس، وما قيل من أن كونه مقطوعا غير مقطوع به بعيد، ويجوز بناؤه للفاعل، وهذا لم يوجد

فى شىء من كتب الحديث نقله كما فى تخريج السيوطى وغيره.

(هل أصابك من هذه الرحمة شيء): فيه إشارة إلى أنه مرحوم مقرب، وإنما السؤال عن رحمة زائدة نالته من رحمة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا إن كان من كلام ابن عباس رضى الله عنهما ناظر لما فى الآية على مختاره الأول، فكأنه قال له: هل دخلت فى العالمين، فناسب السؤال لإرادة الثقلين، وإن كان على الثانى فكأنه قيل: هل دخل فى الخلق فأصابه شىء من هذه الرحمة؟ وقيل: لا شبهة فى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم واسطة كل رحمة وخير، وأن رحمته أصابت جبريل وسؤاله إما ليعترف ويتحدث بالنعمة أو للتلذذ، أو من باب طرح المسئلة والاختبار وهذه كلها أمور واهية، وجبريل عليه السلام غير محتاج للاعتراف وكثرة اجتماعه به صلى الله تعالى عليه وسلم تغنى عن التلذذ وطرح المسئلة ليس بشىء.

(قال:) جبريل عليه الصلاة والسلام: **(كنت أخشى العاقبة)** بتقدير مضاف أى سوء العاقبة، أو المراد بالعاقبة السيئة بجعل التعريف للعهد بقرينة الخشية فإنها بمعنى الخوف، وإنما يكون فى المكروه والعاقبة ما يعقب الشىء، ويحصل منه خيرًا كان أو شرًا **(فآمنت)** بفتح الهمزة المقصورة وكسر الميم الخفيفة مبنى للفاعل من الأمن ضد الخوف، وسيأتى فيه ضبط غير مقبول.

(لثناء الله عز وجل عليَّ بقوله ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠] ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠، ٢١]): عند الله فى علمه أو فى حكمه وقضائه إذ ثناء العظيم يقتضى رضاه وقبوله، وهو لا يرضى ويقبل إلا من كان مرحومًا مقربًا، فلما علم ذلك من القرآن الذى هو رحمة نازلة بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم اطمأن خاطره وأمن سوء الخاتمة، وأما ما ورد من أنه قال: «ما جفت لى عين منذ خلقت النار مخافة أن أعصى فيقذفنى فيها» «وأن الله تعالى قال له: لم تبكى وقد أمنتك؟ فقال: من يأمن مكرك» كما فى الإحياء، فهو لا ينافى ما ذكر؛ لأن المقرب لا يزال خائفًا ممن يهابه فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، أو لأنه من عظمة الله هل يذهل عن الأمان، وقد مدح فى الآية بأمور منها القوة وهى معلومة من الأحاديث الواردة فى اقتلاع المداين والجبال وإهلاك صيحة كل من سمعها، وهبوطه الأرض وصعوده فى طرفة عين إلى غير ذلك، ومكانته منزلته عند الله جلت عظمته وشأنه، ولذا قال: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ ولم يقل الله ونحوه، وقربه من سرادقات عزه إلى ما لم يصل إليه غيره من المقربين، وهو مطاع فى السماء والأرض أمين على سر الغيب والوحى وموازين القيامة، لكن سيأتى أنهم اختلفوا فى رسول كريم وأن الأصح أنه جبريل عليه

الصلاة والسلام لقوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير:٢٣] فإن الرائى هو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو المعبر عنه بصاحبكم، والمرئى جبريل فى صورته الأصلية، وأكثر المفسرين أن المطاع الأمين سيد العالمين، وقد مر أن آمنت بزنة علمت مبنى للفاعل، وقال التلمسانى: إنه مبنى للمفعول بضم الهمزة و لم يزد على ذلك و لم يسنده لرواية والمشهور خلافه، وعليه فإن كان بتشديد الميم فهو ظاهر وإن كان بتخفيفها فهو ركيك جدًا، لأنه إن كان من الأمانة ضد الخيانة فهو غير مناسب للمقام، وإن كان من الأمن فكذلك لا؛ لأن أمن لازم فإنه متعد، ألا ترى قوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٩٩] بل لأن مفعوله الثانى من المعانى دون الذوات فيحتاج لتقدير، وحذف على أن أصله أمن سوء عاقبتى ومثله لا داعى له، وكريم بمعنى جامع لأنواع الخير ففيه شهادة له بعلو الرتبة، وليس المراد كريم مرسله كما قيل به فى ألقى إلىّ كتاب كريم، وإن جاز وفسره المصنف رحمة الله تعالى فيما سيأتى فى الكلام على هذه الآية فى الفصل الخامس من هذا الباب بقوله: أى كريم عند مرسله.

(وروى عن جعفر بن محمد الصادق) تقدمت ترجمته قريبا **(فى قوله تعالى)** فى سورة الواقعة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٩١] فى هذه الآية وجوه ذكر منها هنا ما روى عن جعفر الصادق لمناسبته لكونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، رحمة ونعمة تامة، ولما عقد له الفصل من ثناء الله عليه وهو قوله: ﴿فَسَلَٰمٌ﴾ أى سلامه ﴿لَّكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ **(أى بك)** فسره به بناء على أن اللام تعليلية، والعلة والسبب متقاربان وإن فرق بينهما، أى لأجلك وأجل كرامتك، ومعناه أنه:

(إنما وقعت سلامتهم من أجل كرامة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم) قد جعل الله فى هذه الآية من حضره الموت ثلاثة أقسام مقربين، وأصحاب اليمين، ومكذبين ضالين، والمقربون فسرهم ابن عطية بوجهين.

الأول: الأصناف الأربعة المنعم عليهم فى قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩].

والثانى: من لا حساب عليهم من المؤمنين، وقد فسر به السابق أيضا فى قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

أو أصحاب اليمين من غلبت حسناته سيئاته أو عفى عنه ولو بعد حين، والمكذبون

الضالون الكفرة والمنافقون، وله تفصيل فى التفسير لا ينبغى تكثير السواد به هنا، وفسر مكى قوله: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩١] بأن الله سلمه من عذابه، قيل: وعليه المخاطب بقوله لك المحتضر المذكور أولا، وأصله فسلم أيها المحتضر سلامًا حاصلا لك، فحذف الفعل ورفع سلام بعد نصبه مفعولا مطلقا ليدل على الدوام والاستمرار، وقولك: صفة سلام ومن تعليلية أى من أجل أنك من أصحاب اليمين، وقيل: المخاطب بقوله لك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وسلام مبتدأ ولك خبره، ومن أصحاب اليمين حال من الضمير المستكن فى الخبر، أى: فلك يا محمد سلامة من جهة أصحاب اليمين، أو من أصحاب اليمين خبره ولك حال واللام تعليلية، أى: سلامة وأمن من عذاب الله من جهة أصحاب اليمين حال كون ذلك لأجلك لشفاعتك فيهم وهذا مراد جعفر، وقدم الجار والمجرور الذى هو حال على عامله وهو متعلق من أصحاب اليمين لإفادة الحصر، أى إنما سلم أصحاب اليمين لأجلك ومن للابتداء، أى: سلامة ظهرت منهم إنما هى لأجلك فليست إنما لمجرد المبالغة؛ لأن أصحاب اليمين لم يكونوا مقربين ففيهم مما يقتضى عدم السلامة، فكأنه قيل: إنما سلموا لأجلك ولكرامتك على الله تعالى ولا قلب فى الآية. وقال قتادة: المعنى سلموا من عذاب الله وسلمت عليهم الملائكة، أو المعنى لك يا محمد منهم سلام تحية إذ يزورونك فى الجنة، وقيل: المعنى يدعون لك بأن يصلى الله ويسلم عليك، أو هو تحية أصحاب اليمين ففى السلامة هنا أقوال هذا محصل ما فى بعض الشروح على طول فيه، وهو رد لما فى شرح ابن الحنبلى من أنه على قول جعفر الصادق فى الآية قلب، والمعنى فسلام منك حاصل بالمعنى المذكور لهم، ففسر لك بقوله بك لأنه واقع موقع منك، أى: من أجلك وفى القلب تنبيه على شرف أصحاب اليمين كما فى عكس التشبيه فى نحو قوله:

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

فإن إفادة الآية أن ليست سلامتهم إلا من أجل كرامتك بمعونة المقام، فإنما للمبالغة مع الحصر وإلا فلمجرد المبالغة، كما فى الجنى الدانى عن ابن عطية أن إنما لا تفارقها المبالغة، فإن ساعد المعنى على الأصح صح وإلا بقيت للمبالغة. وقيل: فسلام لك منهم لأنهم معك فى الجنة، واللام بمعنى على، وقيل: معناه تقول الملائكة لمن مات من أصحاب اليمين مبشرين له ببشارتين: سلام لك إنك من أصحاب اليمين انتهى.

أقول: الظاهر أن مراده أن السلام بمعنى السلامة من العذاب واللام تعليلية بمعنى الباء كما مر، وقوله: إنما إلى آخره، بيان لحاصل المعنى المراد، وأصحاب اليمين بمعنى الفائزين؛ لأن اليمين يتبرك بها كما يتشأم بالشمال، ولك متعلق بمقدر وهو كائن، ومن

متعلقة بمعدود أى سلامة المعدود من أصحاب اليمين لأجلك، أو لك متعلق به مقدم من تأخير لإفادة الحصر، أى: لم يجعلهم الله تعالى من أصحاب اليمين إلا بسببك، أى: لاتباعهم أو لشفاعتك لهم وفيه إقامة الظاهر مقام الضمير، وتوضيحه أن فى الآية معان كما مر اختار منها المصنف رحمه الله تعالى ما ذكر لإفادته، ما ذكر من ثناء الله على نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن أما يفصل بينها وبين جوابها بشىء من أجزاء الجواب مفردًا، وفى حكمه كجملة الشرط فما بعد الفاء جملة هى جواب الشرط وسلام مبتدأ لأن أصله سلامتهم ولك خبره، ومن أصحاب إلخ حال من المضاف المقدر أو من الضمير المستتر فى الخبر، والمعنى إن كان من أصحاب اليمين فسلامتهم لأجلك وإن كانوا من أصحاب اليمين، والحصر من سياق التقسيم أو من التعليل ولا قلب كما توهم فتدبر.

(وقال الله تبارك وتعالى: ﴿۞اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] **الآية)** أى اقرأ الآية أو اذكرها وهى: ﴿۞اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥] إلى آخره، وفى هذه الآية أسرار ولطائف أفردها بالتأليف الإمام الغزالى فى كتاب سماه «مشكاة الأنوار» وفيه فوائد جمة، وكذا الإمام السهيلى.

(قال كعب) هو كعب الأحبار بن ماتع بالمثناة الفوقية ابن هينوع ويقال: عمرو بن قيس بن معز بن حسم بن شمس بن وائل بن عوف بن حمير بن قطن بن عوف بن زهير ابن أيمن بن حمير بن سبأ الحميرى الشافعى، أدرك زمن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يره، وأسلم فى خلافة أبى بكر، وقيل: فى خلافة عمر وصحبه، وأكثر الرواية عنه وعن غيره من الصحابة، وروى الصحابة عنه أيضًا، وكان أدرك الجاهلية على اليهودية وسكن اليمن ثم سكن حمص بعد إسلامه، وبها توفى فى خلافة عثمان سنة اثنين وثلاثين، ويقال له: كعب الحبر - بفتح الحاء المهملة وكسرها - لكثرة علمه ويأتى فيه كلام متعلق به، وأخرج له أصحاب السنن وغيرهم.

(وابن جبير) هو سعيد بن جبير الوالهى مولاهم أبو عبد الله أو أبو محمد التابعى العابد الزاهد الثقة أحد أعلام رواة الحديث، وروى عن ابن عباس وغيره وروى عنه من لا يحصر، وخرج له أصحاب السنن وغيرهم، وقتله الحجاج ظلما فى سنة خمس وتسعين، ولم يسلط على أحد بعده بدعوته رضى الله تعالى عنه عليه بذلك وقصته معه مشهورة.

(المراد بالنور الثانى هنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم) النور: من نار ينور إذا نفر، ومنه نوار للظبية وبه سميت المرأة فوضع له لانتشاره أو لإزالته الظلام، فكأنه ينفر منه، ثم أطلق على الله وعلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى القرآن كما فى هذه

الآية، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول فى دعائه: «اللهم لك الحمد نور السموات والأرض ومن فيهن» والنور كما بينته فى عناية القاضى عند الحكماء كيفية تدركها الباصرة أولا وبواسطتها سائر المبصريات، كما يفيض من النيرات على الأجرام الكثيفة، وزعم بعضهم أنه أجرام صغار تنفصل من المضىء وتتصل بالمستضىء كما فصلوه فى كتبهم ويقرب منه الضوء، إلا أن الزمخشرى قال: الإضاءة فرط الإنارة، فقيل: إنه جعل الضوء أبلغ من النور لقوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس:٥] وأنكره فى الفلك الدائر، وقال: ليس له فى اللغة شاهد ولا فى الاستعمال مساعد وقد سوى بينهما ابن السكيت ولا دليل فى الآية، وأجيب بأن كلام ابن السكيت بحسب أصل الموضع، وما ذكر بحسب الاستعمال كما فى الأساس، والتحقيق ما فى الكشف من أن الضوء فرع النور وهو الشعاع المنتشر، ولذا أطلق النور على الذوات دون الضوء، ولكون الأبصار تمد حلبة الضوء كان فيه مبالغة من جهة أخرى، وتنويره ما حققه فى الروض الأنف فى قول ورقة:

ويظهر فى البلاد ضياء نور يقيم به البرية أن تموجا

بأن فى البيت ما يوضح الفرق بينهما، فإن الضياء الشعاع المنتشر عن النور فالنور أصله ومبدؤه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة:١٧] وجعل الشمس ضياء لأن القمر لا ينتشر عنه ما ينتشر عنها لا سيما فى طرفى الشهر، ولذا سمى الله القمر نورًا دون ضياء، فعلم أن بينهما فرقًا لغةً واستعمالاً، وأن فى كل منهما أبلغية من جهة، وأن إطلاق النور على الله وجهه ظاهر فسقط ما قيل ينبغى أن يكون المنور على الإطلاق أقوى لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النور:٣٥] لكنه إنما يتجه إذا لم يكن بمعنى المنور، والظاهر أن إطلاق النور على الله مجاز إما بمعنى المنور أو استعارة، إلا أن الغزالى رحمه الله تعالى قال فى المشكاة: إنه حقيقة؛ لأن النور معناه الظاهر بنفسه المظهر لغيره، فإن فهمت فهو نور على نور وهو ميل لما قاله الإشراقيون، قال العلامة فى شرح حكمة الإشراق: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥] لا بمعنى منورهما على ما يقوله بعض المفسرين هربًا من إطلاق اسم النور عليه، بل بمعنى أنه محض النور البحت وأن سائر الأنوار شرر من نوره انتهى.

وقد عرفت أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سمى نورًا أيضًا فتفسير النور الثانى به كما قالوه ظاهر، إلا أن قوله يأتى ما فيه.

(وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور: ٣٥] **أى: مثل نور محمد صلى الله تعالى عليه وسلم)** والمثل المماثل والمشابه والصفة العجيبة، وللإمام الغزالى كلام لطيف فى النور

نورده وإن طال؛ لأن كلام الحبيب لا يمل وهو النور يشير إلى الظهور، وهو أمر إضافى فقد يظهر الشيء لإنسان ويبطن عن غيره، وإضافة الظهور إلى الحواس الداركة أقوى وأجلاها حاسة البصر، والأشياء بالنسبة إليها ثلاثة أقسام، منها: ما لا يبصر بنفسه كالأجسام المظلمة. ومنها: ما يبصر ولا يبصر به غيره كالشمس والسراج. والنور اسم لهذا القسم الثالث وهو عبارة عما يبصر بنفسه ويبصر عنده غيره، وقد يطلق على ما يفيض منه على ظواهر الأجسام الكثيفة فيقال: وقع نور الشمس على الأرض، ولما كان سر النور وروحه هو الظهور للإدراك، كان الإدراك موقوفًا على وجود النور فهو الظاهر المظهر، واسم النور بالنور الباصر أحق منه بالنور، فلذا أطلقوا على نور العين المبصرة، وقالوا للأعمى: فقد نور البصر، فسموا الروح الباصرة نورًا إلا أنه موسوم بأنواع النقصان، فإنه يبصر غيره ولا يبصر نفسه، ولا ما بعد ولا ما هو وراء حجاب ويبصر الظاهر دون الباطن، ولا يبصر ما لا يتناهى ويغلط كثيرًا فيرى الكبير صغيرًا وعكسه، والبعيد قريبًا وعكسه، والساكن متحركًا والمتحرك ساكنا، ثم إن قلنا: إن فى قلب الإنسان روحًا ونفسًا إنسانية وعقلاً، وهو أولى باسم النور لسلامتها من تلك النقائص، إلا أن المبصرات ليست عندها متساوية لتفاوتها بالبداهة ونحوها، وعند إشراق أنوار الحكمة يصير العقل مبصرًا بالفعل بعد أن كان مبصرًا بالقوة، وأعظم الحكمة كلام الله تعالى، فمنزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة إذ يتم به الإبصار، فلذا سمى القرآن نورًا، فقال: والنور الذى أنزلنا فالعين عينان عين ظاهرة هى من عالم الشهادة، وعين باطنة هى من عالم الغيب دقيقة إذا كان ما يبصر نفسه وغيره أولى باسم النور، فإن كان من جملة ما يبصر به غيره أيضًا مع أنه يبصر نفسه وغيره فهو أولى باسم النور من الذى لا يؤثر فى غيره أصلا بل بالحرى، وأن يسمى سراجًا منيرًا لفيضان أنواره إلى غيره، وهذه الخاصة توجد للروح القدسى النبوى إذ تفيض بواسطته أنوار المعارف على الخلائق، وبهذا ظهر معنى تسمية محمد صلى الله تعالى عليه وسلم سراجا منيرًا وكذا الأنبياء والعلماء وإن تفاوتوا، والذى يقتبس منه السراج جدير بأن يكنى عنه بالنار، وهى التى تؤنس من جانب الطور، وهذه السرج الأرضية إنما تقتبس من أنوار علوية والروح القدسى النبوى ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾ [النور: ٣٥] ولكن إنما يصير نورًا على نور إذا مسته النار، ويقابل النور الظلمة ولا ظلمة أشد من كتم العلم انتهى.

وقد اعترض على عبارة المصنف رحمة الله تعالى بأنها غير محررة وآخرها مناف لأولها لأن أولها؛ يقتضى أن النور أطلق على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هنا فإنه يطلق

عليه كما مر، فإذا كان المراد بالنور فى قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ [النور:٣٥] صلى الله تعالى عليه وسلم فاللائق التفريع وأن يكون الضمير راجعًا لله سبحانه، والمعنى مثل نبيه فقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ [النور:٣٥] أى نور محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لا يصح بوجه، والموافق أن يقول نور الله أى محمد، وأجيب بأنه غير وارد؛ لأنه ليس كلامًا واحدًا صدر من كعب وابن جبير، بل كلامان أولهما لابن جبير وثانيهما لكعب على اللف والنشر المشوش، وذلك مغن عما قيل من أن إضافة النور لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم بيانية، فالنور منحصر فى ذاته وعلى غيره الإضافة للتشريف والتعظيم بأنه ليس فى كلامه قرينة تدل على ما قاله و لم يقله غيره، والمنقول عن كعب وابن جبير أن الضمير المجرور لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم كما نقله المصنف عنهما، وهو المنقول فى تفسير القرطبى والوقف الحسن على الله نور السموات والأرض، فقول المصنف رحمه الله تعالى: «المراد بالنور الثانى محمد» يعنى به أن المقصود من النور الثانى ما هو شأن محمد، فليس محمولاً عليه حمل هو غايته أنه تجوز فى العبارة، وهذا أقرب وأسلم من التكلف، إلا أنه لا ينبغى منع كون الإضافة بيانية أيضًا.

أقول: هذا محصل ما قالوه من الاعتراض، والجواب، وأنت إذا تأملته رأيته متعسفًا، ومثله لا يخفى على هؤلاء، والذى ظهر لى أن النور الثانى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بطريق المجاز، **والأول:** هو الله أضيف لجميع مخلوقاته للتعميم. **والثانى:** مضاف لله للتشريف والتعظيم.

والثالث: إضافته كلجين الماء. أتى به بيانًا للتشبيه الذى بنيت عليه الاستعارة، فالمعنى أنه نور عم نوره جميع مخلوقاته، وخص نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بأوفر اسم منه فسماه باسمه وألبسه حلته كما ألبسه الرأفة والرحمة، ثم فسره بنور محمد أى: هو محمد النور المبين، وبهذا ترتبط الآيات بما قبلها، ويأخذ كلام المصنف بعضه بحجز بعض فينشط من الإشكال كما ينشط الفحل من العقال، وفى نسخة «أى محمد» بإسقاط مثل ولا غبار عليها.

(وقال سهل بن عبد الله) بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التسترى كما سيأتى الصالح المشهور، الذى لم يسمح الدهر بمثله علمًا وورعًا وله كرامات مشهورة، صحب ذا النون المصرى بمكة، وتوفى سنة ثلاث وثمانين فى المحرم، وقيل: سنة ثلاث وسبعين ومائتين بالبصرة، ومولده سنة مائتين، وقيل: إحدى ومائتين بتستر وهى بلدة من كور الأهواز، ويقال: ششتر بمعجمتين وبها قبر البراء بن عازب، وقال النووى رحمه الله تعالى: هى بمثناتين من فوق الأولى مضمومة والثانية مفتوحة بينهما سين مهملة

ساكنة مدينة نحو رستان.

(المعنى الله هادى أهل السموات والأرض) هذا التفسير هو المأثور عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، وقال الإمام الرازى فى شرح الأسماء الحسنى: هذا حسن إلا أن تفسيره بما ذكر فى الأسماء الحسنى التسعة والتسعين لا يجوز، لأنه يصير تكرارًا محضًا، وأجيب بأنه يجوز أن يكون الهادى أعم كما قالوه فى الرؤوف الرحيم، أو يعتبر فيه هداية بالغة إلى حد لا يتنافى فيحصل به المغايرة فى الجملة كالرحمن الرحيم، وقوله: لا يجوز لا وجه له فإن له نظائر فى هذه الأسماء، وفى شروح الكشاف معنى نور السموات والأرض هادى العالمين مبين ما يهتدون به، ويتخلصون من ظلمات الكفر والضلال بوحى منزل ونبى مرسل، والتأويل الذى عليه التعويل ما يساعده النظم سياقًا وسباقًا وما قبله من قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ [النور:١] إلى هنا إشارة إلى ضمن ما بين من الأحكام إلى نزاهة المؤمنين وطهارة ساحة أفضل المرسلين هدانا بها إلى معالم الحكم، فذكر بعدها أنه الهادى، ثم قال: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٣٥] فأخذ الكلام بعضهم بحجز بعض، فما قيل من أن تشبيهه بالنور فى الهداية وبناء كلام ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عليه مستبشع عندى كلام لا وشه له، فأى استبشاع فى مثله، وفى ذكر أهل إشارة إلى أن الإضافة فى الآية للسموات والأرض مجازية تجوز فى نسبتها الإضافية، كما فى قوله تعالى: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] أو هو بتقدير مضاف والأول أولى، وفى بعض الشروح: الرواية عن المصنف رحمه الله تعالى قراءة عليه نصب أهل والمعروف الكسر ثم **(قال)** أى سهل رضى الله تعالى عنه:

(مثل نور محمد) صلى الله تعالى عليه وسلم**(إذ كان مستودعا فى الأصلاب)** وفى نسخة «أصلاب آبائه» وهذا من تتمة تفسيره المذكور، وقيل: إنه على تفسير آخر منقول عن سهل أيضًا كما نقله عنه البغوى فى تفسيره، والظاهر الأول لأن قوله «ثم» إلى آخره نص فيه والضمير المستتر فى كان راجع لنور محمد أو لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم نفسه، ورجحه بعضهم بأن محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم كان فى صلب آبائه لا نوره وفيه نظر، أى: مثل نور محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وصفة العجيبة وقت كونه إلى آخره، والأصلاب جمع صلب بضم فسكون وقد تضم اللام اتباعا وفيه لغات تقدمت، وأصل معناه الشديد فسمى به الظهر وعظم فيه ممتد ما بين الكاهلين إلى عجب الذنب وهى قفار الظهر الممتدة فيه كالسلسلة، قيل: كان نوره صلى الله تعالى عليه وسلم فى جبهة آبائه من آدم إلى أبيه عبد الله وهو نور حسى كالقمر فى الليلة الظلماء، والمستودع فى الأصلاب مادة جسمه اللطيف، والنور تابع لتلك المادة، وكان يظهر فى

أمهاته أيضًا كما ورد فى صحيح الأخبار، واستيداعه فى الأصلاب وجوده فيها كما قيل:

أنـــواره كـــانت بجبهـــة آدم لا تختفـى عـمـن لـه عينـان
وبصلب آدم كان وقت هبـوطه وبصلب نوح وهـو فى الطوفـان

قلت: أنكر أولاً أن يكون النور فى الأصلاب ثم اعترف به، وكونه تابعًا للمادة يقتضيه اقتضاء ظاهرًا، والمستودع بالفتح سيأتى بيانه.

(كمشكاة صفتها كذا) فى نسخة «وصفها كذا» وكذا كناية عن قوله: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥] إلى آخره فإنها استعملت كذلك، أى صفة نور محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كصفة نور مشكاة، والمشكاة كوة غير نافذة، والكوة بفتح الكاف وضمها اسم ما لا ينفذ ولا يخرج، وقيل: إنها معربة من الحبشة، وقيل: هى القنديل، وقيل: هى موضع الفتيلة، وقيل: معلاقه. والصباح: القنديل، وقيل: الفتيلة مأخوذ من المصباح أو الصباحة، والسراج الفتيلة الموقودة، والناس يطلقه على محلها وهو مجاز مشهور هذا معناه لغة، وأما المراد هنا فأشار إليه المصنف بقوله:

(وأراد بالمصباح قلبه وبالزجاجة صدره) الزجاجة بالضم وهى مثلثة لكن هذا أعرفها وأفصحها، وعلى ما ذكره المصنف تكون المشكاة جسده الشريف، وكون القلب فى الصدر أى فى جانبه الأيسر مما لا شبهة فيه، وهذا من تتمة كلام سهل، وقيل: إنه ليس منه وللسلف تفاسير أخر هنا منها: أن المشكاة أبدان آبائه، والزجاجة أصلابهم، والمصباح نوره صلى الله تعالى عليه وسلم المستودع فيهم كما سيأتى فى شعر العباس رضى الله تعالى عنه، وإنما جعل المصباح فى المشكاة لأنه يكون فيها أقوى ضوء، وقيل: المشكاة إبراهيم عليه الصلاة والسلام فالزجاجة إسماعيل عليه الصلاة والسلام والمصباح محمد صلى الله تعالى عليه وسلم.

(أى كأنه) أى صدره الشريف. **(كوكب درى)** فى الزاهر لابن الأنبارى: الدرى الكوكب المضىء، وفيه خمس لغات، ضم الدال، وكسرها، وفتحها مع الهمز، وبدونها مشدد الياء، قيل: إنه منسوب إلى الدار لحسنه وصفائه، فوزنه فعلى وهو بالضم والهمز فعيل من درأ الكوكب جرى أو دفع أو طلع بغتة، وهو شاذ لأن فعيل من أبنية العرب ومريق اسم العصفر أعجمى، وعده سيبويه رحمه الله تعالى من أبنيتهم. وقال أبو عبيدة: أصله دروء كسبوح فجعلت الضمة كسرة والواو ياء، كما قالوا فى عتو عتى، ومن قال درى بكسر الدال كسره من أجل الياء التى بعد الراء مجانسة لها، ومن قال: إنه

منسوب للدر بناه على عدم فعيل، فالهمزة من تغيرات النسب، وعلى الكسر هو فعيل كشريب وسكيت صفة مشبهة وهو أفصحها والضم نادر، والقول بأنه لحن غير صحيح بعد وروده فى القرآن، وأما درئ بفتح الدال والهمز فشاذ لا نظير له إلا سكينة بفتح السين فى لغة حكاها أبو زيد، فدرى بمعنى متلألئ مشرق غاية الإشراق، و لم يجعلوا الضمير للقلب لاستتاره، قيل: و لم يشبهه بالشمس أو القمر لما يعرض لهما من الخسوف والكسوف ورد بأن المصباح يعرض له الانطفاء بالكلية وهو قابل له فى كل أوقاته، فالصواب أن يقال: إن هذا أوفق بالتشبيه باعتبار أن النيرين لا يحويهما مكان ضيق منيران فيه، وأيضًا إشراقهما عام للبر والفاجر بخلاف المصباح، ولو تركوا هذا كله لكان أحسن.

وقوله: (**لما فيه من الإيمان والحكمة**): ضمير فيه للصدر وجعل ذلك فيه بواسطة القلب، ولو أرجع للقلب لم يبعد، والحكمة العلم النافع ولا وجه لتخصيصها بعلوم القرآن، وقيل: المراد بها هنا النبوة كما فى قوله تعالى: ﴿**ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ**﴾ [النحل:١٢٥] ﴿**يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ**﴾ [النور:٣٥] فى يوقد قراءات بالفوقية والتحتية والضم والفتح على الماضوية والمضارعية ولا تعين لشىء منها هنا، وذهب بعضهم إلى أنه بالفوقية المفتوحة ماض كتكسر، وإيثاره على قراءة توقد بضم المثناة الفوقية وفتح القاف المخففة، لأن الضمير فيها إما للمشكاة أو للزجاجة، والضمير فى الأول إنما هو للمصباح مرادًا به القنديل الذى فيه الزجاجة، ونسبة التوقد إليه أولى من نسبة الإيقاد إليهما، وإن قيل: أوقد المسجد ما فى التوقد من النسبة المكملة للأصل المشبه به السارية إلى فرعه ومن للابتداء، أى: ذلك المصباح يوقد من زيت هذه الشجرة، مباركة بمعنى متيمن بها لكثرة منافعها وثباتها، وللزيتون بركة عظيمة مشاهدة، حتى ذكر فى كتاب الفلاحة أن الحكماء يصفون شيئا من أغصانها فى بيوتهم فى كل رأس سنة تبركًا بها.

(**أى من نور إبراهيم**) المراد بتوقد المصباح من هذه الشجرة وصول نور النبوة من أبيه إبراهيم إليه عليهما الصلاة والسلام، لأن النسب يشبه بالشجرة وإبراهيم عليه الصلاة والسلام أبو الأنبياء وجد نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ودعوته.

(**وضرب المثل بالشجرة المباركة**) المثل كلام شبه مضربه بمورده وضربه ذكره كذلك من ضرب اللبن، والخاتم إذا صنعه على قالب مخصوص فضربه بمعنى بيانه، ويكون المثل تشبيهًا واستعارة تمثيلية فى الأكثر، والمراد هنا الثانى؛ لأنه شبه ظهور نبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم المتصلة بأبيه إبراهيم صلى الله تعالى عليه وسلم وتشبيه المتصل به

بمصباح أضاء بزيت من شجرة مباركة، واقتصر على بعض أجزاء التمثيل لظهور ما فيه، وفائدة التمثيل كما فى الكشاف إبراز المعقول فى هيئة وفى المخصوص لتتضح وترسخ فى الأذهان، ولذا أكثر فى الأحاديث والكتب الإلهية، وفى بعض الشروح كما ضرب صدر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بالزجاجة وقلبه بالمصباح، وما فيه من الإيمان والعلم والحكمة بالنور، وضوء المصباح الذى تتحقق توقده من نار زيت هذه الشجرة، ووصفها بلا شرقية ولا غربية إشارة إلى أن إبراهيم صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا، بل حنيفا مسلمًا كما فسره به ابن عمر رضى الله تعالى عنهما؛ لأن النصارى تصلى للمشرق واليهود للمغرب، وعلى ما اختاره المصنف رحمه الله تعالى بعد قول سهل لا بد من اعتبار أن التقدير فى الآية كمثل نور مشكاة، كما قدرنا على قول سهل، فسقط ما قيل من أن التقدير كمصباح فى مشكاة، أى كمثل ضوء فى مشكاة بناء على أن فى جانب المشبه قلبا كقوله:

وكأن النجوم بين دجاها سنن لاح بينهن ابتداع

وفى شرح البخارى: أن هذا الذى حكاه المصنف من أن المصباح كناية عن قلب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، والزجاجة عن صدره، والشجرة عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، تأويل بعيد عن ظاهر القرآن، والصحيح ما عليه جمهور المفسرين من أنه تعالى ضرب هذا مثلاً لنوره وتمثالا لقصور أفهام الخلق، إذ لولاه ما عرف الله، قال: وما أشبه هذا التأويل بتأويل المفضل قول الفرزدق(١):

أخذنا بِأَطْرافِ السماء عليكم لنا قَمَرَاهَا والنجوم الطَّوالعُ

لما سأله الرشيد عنه فقال: أراد بالقمرين إبراهيم ومحمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم، وبالنجوم الطوالع أنت وأباؤك، فقال له: أحسنت انتهى وفيه نظر.

(وقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ [النور:٣٥] أى يكاد نبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم تبين للناس قبل كلامه) أى: تكليمه ودعواه النبوة وتحديه **(كهذا الزيت)** تبين مضارع بأن بمعنى اتضح، والكلام يكون مصدرًا بمعنى التكليم كقوله(٢):

(١) البيت من الطويل، وهو فى ديوان الفرزدق (٤١٩/١)، الأشباه والنظائر (١٠٧/٥)، خزانة الأدب (٣٩١/٤ - ١٢٨)، شرح شواهد المغنى (١٣/١- ٩٦٤/٢)، مغنى اللبيب (٦٨٧/٢)، لسان العرب (١٠٧/١٥).

(٢) عجزه بيت، وصدره:

فأشفى نفسى من تباريح ما بها

وهو من الطويل، وهو لذى الرمة فى الدرر (٢٦٣/٥)، ولم أجده فى ديوانه، وبلا نسبة فى =

فإن كـلاميهـا شفـاء لما بيـا

أو المراد به ما يتكلم به فيقدر مضاف، أى قبل إيراد كلامه الذى يتكلم به، وقبل أن يوحى إليه، فعلى هذا شبه نبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بزيت أخذ من شجرة للإضاءة، فإن النور المحمدى المأخوذ من النور الخليلى سبب لإضاءة سراج قلبه الذى أضاء به الكون، وشبه الكلام بالنار لإظهاره النبوة والدين، وأورد عليه أن نور محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كان فى الأصلاب قبل خلق جسمه الشريف وما فيه من قلب وصدر، فكيف يصح تشبيه القلب والصدر بما مر، إلا أن يقال: أصل المادة موجود مع كل واحد من أجزائها الأصول موجودة فى الأصلاب كما سيأتى من تعلق الروح به فيتم التشبيه، والأوجه ما روى عن كعب من أنه مثل ضربه الله لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم قال: المشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح نبوته توقد من شجرتها، ومحاسنه تظهر قبل الكلام وأن يوحى إليه، وإذا فسر النور بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم والمشكاة بالصدر، فالمراد: كمثل ذى مشكاة أو أن التشبيه باعتبار الأجزاء فلا تقدير انتهى.

وقيل: إضاءة الزيت قبل أن تمسه النار إشارة إلى أن نبوة إبراهيم التى هى بمثابة زيت تلك الشجرة، وهكذا إيمانه يكاد يبين للناس قبل كلامه، ولما كان قلب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بمثابة المصباح الذى يوقد ما فيه من زيت تلك الشجرة التى تكاد تضىء ولو لم تمسسه نار، وكان ما فيه من نور الإيمان والنبوة بمثابة نور ذلك الزيت، كانا بحيث يبينان للناس قبل كلامه، فأشار إلى ذلك مكتفًا بذكر أحدهما إحالة للآخر على المقايسة بقوله: كهذا الزيت، والإشارة للذى فى الآية الموصوف بالإضاءة قبل اقتباس النار، فالإيضاح كالإضاءة كما أن الخفاء كالإظلام والتكلم كإمساس النار فى ترتب ظهور شىء ما عليه.

(وقد قيل فى الآية غير هذا والله تعالى أعلم) من الوجوه المنقولة فى التفاسير، واقتصر المصنف رحمه الله على ما ذكر لما فيه من الثناء على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وقد سماه الله فى القرآن فى غير هذا نورًا وسراجًا منيرًا) لما ذكر أن بعضهم فسر النور فى مثل نوره بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو مما استبعده كثير من العلماء، أردفه بما يغنى عنه أو يدفع الاستبعاد عنه، فقال: إن الله أطلق عليه النور فى غير هذه الآية، حيث سماه نورًا على ما تقدم فى كلام الغزالى وغيره، من أنه المرشد أى الهادى

= شرح المفصل (٢١/١)، همع الهوامع (٩٥/٢).

للناس بما يفيض عليه من الأنوار القدسية والمنير الزائد النور أو المظهر لغيره ما خفى عليه.

(فقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١٥]) الخطاب لأهل مكة فى قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ﴾ [المائدة:١٥] الخ وقد فسر النور بالإسلام والكتاب شامل للتوراة والإنجيل، وكانوا يخفون ما فيها من صفات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وغيره، فلذا افسر النور به وبالقرآن، فسماه نورًا لكشفه ظلمات الجهل والضلال، ولذا وحد الضمير لاتحاد الطريق فى هدايتهما فإن خُلقه صلى الله تعالى عليه وسلم القرآن كما سيجئ.

(وقال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [الأحزاب:٤٥،٤٦]) الإذن على ظاهره؛ لأن أمره إذن له، أو المراد به الإرادة فإنه كثيرًا ما يتجوز به عنها وعن الأمر كما فى مجاز القرآن لابن عبد السلام رحمه الله تعالى وفسر بتوفيقه أيضًا وتيسيره.

﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٦] وإطلاق النور مر بيانه ولإطلاقه على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والإسلام والقرآن، فإن بكل منها تتقوى البصيرة على إدراك المعقولات كما يتقوى بالنور على إدراك المحسوسات، وسماه شاهدًا لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم يشهد على أمته بالقبول والإنكار، وعلى الرسل بالتبليغ، وعلى أممهم وهو المبشر لهم بالجنة ونعيمها، والنذير بضده لمن كفر وهو الداعى إلى توحيد الله وطاعته، وتشبيهه صلى الله تعالى عليه وسلم بالسراج فى غاية الوضوح والبلاغة، لأنه يستضىء من الوحى ويضىء للناس بما أتاهم به، ففيه من البلاغة ما ليس فى قوله شمسًا وقمرًا، ووصف السراج بأنه منير للتوكيد، وقيل: لأن من السراج ما لا يضئ إذا أرق فتيله وقل زيته، وقد قيل: ثلاثة تضر رسول بطىء، وسراج لا يضئ، ومائدة ينتظر إليها من يجىء.

(ومن هذا) القبيل الذى عقد هذا الفصل لذكره من ثناء الله على نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم (قوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الشرح:١] إلى آخر السورة) الهمزة لإنكار النفى ونفى النفى إثبات فناسب عطف المثبت عليه، وقوله إلى آخر السورة يقتضى أنها كلها ثناء من الله على نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن الكلام فيه والثناء بحسب الظاهر إنما هو فى أوائلها إلى قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، قلت: هذا بحسب بادئ النظر كما قيل، وعند التحقيق هى كذلك بأسرها، فإنها تدل على نعم أنعم الله بها على رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهى متضمنة للثناء عليه بما أعطاه الله تعالى من الكمال الذى لم ينله سواه، ولا يداينه فيه أحد وهو من أبلغ الثناء.

ففى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥] إشارة إلى أنه ثبت جأشه لما اقتحمه من الشدائد كضيق الصدر والوزر المنقض للظهر فى مكابدة قومه وإيذائهم له، وهو مداوم على الدعوة والتبليغ، ثم إنه بشره بأنه كرر يسره وزاده على عسره، فإنه لا يغلب عسر يسرين على قاعدة إعادة النكرة والمعرفة المشهورة.

وفى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ [الشرح:٧] أى: إذا فرغت من التبليغ فاتعب فى العبادة إشارة إلى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أدى الأمانة ونصح الأمة وتمت له النعمة المستحقة لأبلغ الشكر وهو العبادة، فالسورة كلها متضمنة لتعديد النعم عليه صلى الله تعالى عليه وسلم مع مدحه والثناء عليه وأمر بالشكر على ما أولاه، والابتهال إليه لا إلى غيره فى كل ما ينو به، وبهذا تبين أن السور كلها من هذا القبيل.

(**شرح أى وسع**) الشرح، قال الراغب: أصل معناه بسط اللحم ونحوه، ومنه شرح الصدر وهو بسطه بنور إلهى، وقال غيره: التوسعة مطلقًا فلا تختص بالظرف، كما قيل: إنه من صفات الظروف باعتباره إمكان ظرفيتها لأمور، فوصف القلب به باعتبار اتصافه بأمور، فإذا قيل: شرح به أوله فهو متصف به، وإذا أطلق كما فى الآية فالمراد تخليته لليقين وتحمل المشاق من غير قلق ونحوه من الكمال، ويراد به الفرح وعدم الانقباض، ومنه شرحت الحديث إذا بينته وفسرته، وشرحت اللحم قطعته طولا، وقد فسر ما هنا بالأخير بناء على أنه بيان لشق قلبه فى صباه كما ذكره القاضى، ومما يدل على أن أصل معناه الاتساع المقابل للضيق، قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥]، وتفسير المصنف له بالماضى المثبت؛ لأن الاستفهام الإنكارى نفى معنى ونفى النفى إثبات كما مر و لم يقلب المضارع ماضيا، واختاره فى النظم على شرح وهو أوضح وأوجز، لأنه أبلغ لأنه ذكر الشىء بلازمه وهو إثبات بينة، لأنه كناية عن الإثبات اللازم له، أى: أن الله وسع قلبه صلى الله تعالى عليه وسلم لما جاءه الحق ودعوة الخلق، أو بما أودع فيه من العلم والحكمة، أو بما يسره من تلقى الوحى بعد ما شق عليه كما ذكره المفسرون.

(**والمراد بالصدر هنا القلب**) فهو تسمية للحال باسم المحل، والظرف باسم المظروف، والقلب معروف وتفسيره بلطيفة يمتاز بها الإنسان عمن عداه ليس بشىء كما مر.

(**وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: شرحه بالإسلام**) وروى بالإيمان، أى: التصديق الكامل المقرون بالعمل والكلام عليه وعلى الإسلام ليس هذا محله، أى بحلوله فيه وقبوله وإذعان حقيقته واتباع مقتضاه، وهذا أخرجه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ابن مردويه وابن المنذر من طريق عطاء وابن أبى حاتم عن عكرمة.

(وقال سهل) قد تقدمت ترجمته وقوله **(بنور الرسالة)** رواه الطيبى، والرسالة هى إرسال الله إياه لتبليغ وحيه، والمعنى أنه شرحه برسالة شبيهة بالنور لإظهارها للشريعة وسائر العلوم، فهو كلجين الماء، أو المراد آى آثارها المضاهية له لجعله معدنا للحقائق والباء للتعدية أو للسببية.

(وقال الحسن) هو الحسن بن أبى الحسن البصرى التابعى واسمه يسار بالتحتية والمهملة، وهو من أجل التابعين، وهو فى الزهد والعلم وإظهار الحق بمرتبة عالية غنية عن البيان، مكث ثلاثين سنة لم يضحك ولم يخرج من محل الطاعة، ولقى كثيرًا من الصحابة وتُروى عنه أحاديث كثيرة، وحيث أطلق المحدثون الحسن فهو المراد، وجلالته لم يختلف فيها ولم يجرح، وإنما اختلفوا فى كونه لقى عليا رضى الله تعالى عنه، وروى عنه، فذهب كثير منهم إلى أنه لم يثبت رؤيته له، ولا أنه ألبسه خرقة المشايخ الصوفية قدس الله أرواحهم ونفعنا بسرهم على الطريقة المعروفة بينهم، وذهب كثير من المحدثين إلى أنها بدعة لم تصح، ولكن الجلال السيوطى، رحمه الله تعالى، صنف فيها جزءًا لطيفا، وقال: إنها ثابتة وأثبت أيضًا أن الحسن رحمه الله تعالى اجتمع بعلى كرم الله وجهه، وكذا ذكره الحافظ ابن حجر فلا عبرة بإنكار مثله، وسن الحسن متحمل له، والمثبت مقدم على النافى فإنه مولى للأنصار، وولد لسنتين بقيا من خلافة عمر رضى الله تعالى عنه، ومات بالبصرة سنة عشر ومائة وهو ابن ثمان وثمانين سنة، وكانت أمه تخدم أم سلمة زوجة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ورضى عنها، فكان إذا بكى عندها فى صغره وضعت ثديها فى فمه فأصابه بركتها حتى صار يضرب به الأمثال فى العلم والزهد والفصاحة، وله قصة مع الحجاج مشهورة.

(ملأه حكمة وعلما) وروى كما فى بعض النسخ «حكما» بضم الحاء المهملة وسكون الكاف أو بكسرها وفتح الكاف جمع حكمة وهى العلم بالحقائق النافعة والشرعية، والحكم بالضم أيضا يكون بمعناها كما ورد فى الحديث: «إن من الشعر لحكما»[1] وحكمة وقيل: إنه يريد رواية الحكمة هنا ما فى حديث الشق لصدره من أنه حشى إيمانا وحكمة، والحكم بالضم الفقه أو القضاء بالعدل أو التصديق أو الكمال العطف للتأكيد والتتميم، وملأه مجاز من عدم سعة شىء غيره، أو عن كثرته، وقيل: إنه جعل على صورة جسم ثم ملئ به فهو حقيقة، وبعض أهل البصيرة يرى الإيمان والعلم مجسما شمعا ومصباحا ومشعلا، وأنا أرى ذلك من ثمرتهما كما سيجئ. انتهى.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٩/١، ٢٧٣، ٣٢٧، ١٢٥/٥)، والدارمى (٢٩٧/٢)، وأبو داود (٥٠١٠)، وابن حبان (٢٠٠٩، ٢٠١٧)، والبيهقى (٦٨/٥، ٢٣٧/١٠).

(وقيل معناه ألم نطهر قلبك): أى ننظفه من حظ الشيطان ودنس الأوهام، وهو إشارة إلى ما ورد فى شق صدره الشريف وإخراج علقة سوداء منه، وقوله: «هذا حظ الشيطان منك» وسيأتى مفصلا مشروحا، وفى بعض النسخ «لك قلبك» كما فى الآية وزيادة لك مع عدم الحاجة لها قيل للإشارة إلى أن الله غنى عن العالمين، فاللام للتعليل أى: فعلنا ذلك لأجلك لا لأجلنا لعدم احتياجنا لشىء من المخلوقات، وفى تفسير القاضى: أنه للإبهام قبل الإيضاح فيفيد مبالغة، وهذه النكتة جارية فى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:١ - ٤] يعنى أنه لما ذكر الفعل علم أن ثمة مشروح ومرفوع ولما قيل لك اشتد إبهامه وتوهم أنه أعرض عن ذكره، فلما ذكر بعده صار أوقع فى النفس وآكد، لأنه فى قوة ذكره مرتين مجملاً ومعينًا؛ لأن لك بمعنى شيئا لك، ثم قال: صدرك عينه، قيل: والفضل للمتقدم.

(حتى لا يؤذيك الوسواس) قال ابن مالك: فعلل ضربًا صحيح كدحرج وثنائى مكرر نحو كبكب ولهما مصدران مطردان فعللة وفعلال بالكسر كزلزال وهو أقيس فيه، وأما الفتح فورد فيه شاذًا لكنه كثير فى المكرر كتمتام وفأفاء، وهو للمبالغة كفعال فى الثلاثى، والحق أنه صفة وجعله مصدرًا أريد به الفاعل أو بتقدير ذو مما لا داعى له كما جنح إليه الزمخشرى ومن تبعه انتهى.

فعلى ما اختاره هو الوسواس بالفتح بمعنى الموسوس صفة حقيقية من غير تأويل فهى بمعنى الشيطان، وعلى ما اختاره الزمخشرى يفسر بالوسوسة لأنه مصدر عنده، ويجوز تفسيره بالشيطان على أنه مجاز، وتطهير قلبه مما ذكر من حظ الشيطان والوسوسة إما بأن خلقه سالم الصدر، أو هو إشارة إلى ما ورد فى الحديث الصحيح من شق صدره وقلبه وإخراج علقة سوداء منه، وقول الملك: «هذا حظ الشيطان منك» وغسله لما أراد الله تقديسه وتنويره بنور منه حال طفوليته، ليستعد لقبول الوحى ومشاهدة الملكوت ونحوه مما لا تطيقه القوى البشرية، وهذا مما يؤذن بأنه على حقيقته وظاهره ولا يحتاج لتأويله، وقد فسر شرح الصدر بهذا، وقيل: بقوة المجاهدة، وقيل: بعدم التوجه لغير الله.

وقال بعض الشراح: الأولى شرح الشرح بجميع الكمالات القلبية الشاملة لجميع ما ذكر جمعًا بين الأقوال، فإن التخصيص بلا مخصص غير متجه، وبهذا يندفع الإشكال فى هذه التفاسير وأمثالها من أنه ثبت كل منهما بنقل فما وجه الجمع بين المنقول، وإلا فما وجه العدول عن التعميم مع ظهوره؟ فنقول: مقصود السلف أن ما ذكر مراد من غير حصر، والوسوسة وحديث النفس والهواجس والخواطر القلبية، وأصل معناها الهمس

والأصوات الخفية، ولذا قيل لصوت الحلى: وسواس، وقد اشتهر ذلك فى كلام العرب، وما أحسن قول الباخرزى فى المعنى:

وخريدة تكسو الجمال لباسا ... قاسى الفؤاد لحبها ما قاسى
حنت خلاخلها بنغمة ساقها ... ولذاك سمى جرسها وسواسا

وما أحسن قول أبى الفتح الطيبى:

شعرك وسواس هذيت به ... وقد يقال لصوت الحلى وسواس

وفى الحديث: «إن الله تجاوز عن أمتى ما وسوست به صدورها ما لم يعمل به أو تتكلم» والكلام فى أن جميعه معفو عنه وفيه تفصيل كما بين فى محله لا حاجة للتطويل به هنا كما فى بعض الشروح، وأما شق الصدر وما فيه فسيأتى فلا حاجة لتلقى الركبان به.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح:٢،٣]) الوزر الحمل الثقيل ووضعه إزالته عنه، لأنه إذا تعدى بعلى كان بمعنى التحميل، وإذا تعدى بعن كان بمعنى الإزالة، وقال ابن عبد السلام فى مجاز القرآن: شبه إسقاط مؤاخذته بما سبق النبوة بإسقاط مشاق الأحمال الثقيلة، والوزر يكون بمعنى الذنب أيضًا، والإنقاض حصول النقيض وهو صوت فقرات الظهر، وقيل: صوت الجمل أو الرجل أو المركوب إذا ثقل ما عليه، ولا يدل هذا على عظم وزره، بل المراد استعظامه لشدة خوفه وإجلاله لله انتهى.

فالإنقاض الثقيل فى الحمل حتى يسمع له نقيض أى صوت كما قاله الأزهرى. وقال ابن عرفة: هو إثقال يجعل ما حمل عليه نقضا أى مهزولا ضعيفا، قيل: وهذا تمثيل فإن الظهر إذا ثقل حمله فله نقيض، والفعل بالمعنى المجازى على ظاهره أو على إرادة القرب، أى يكاد ينقص أو على التشبيه البليغ، أو على تقدير لو كان، وفيه بعد ولا يخفى ما فيه من التكليف فاختر لنفسك ما يحلو، وسيأتى للمصنف كلام فى هذه الآية.

(**قيل: ما سلف من ذنبك يعنى قبل النبوة**): مرضه لما سيأتى من عصمته صلى الله تعالى عليه وسلم من الصغائر والكبائر قبلها وبعدها، وهذا بناء على جواز صدور تقصيرات تعرف عقلا أو بشرع سابق أنه خلاف الأليق، أو من أمور حرمت عليه فى دينه فعدها أوزارًا وإن لم تكن كذلك، فاندفع ما قيل من غير مناسب لكلامه الآتى فتدبر.

(**وقيل: أراد ثقل**) هو ضد الخفة بكسر المثلثة وفتح القاف ويجوز تسكينها تخفيفا،

وللإثقال معان أخر مذكورة فى كتب اللغة، أى أراد بالوزر: **(أيام الجاهلية)**: هى زمن الفترة بعد عيسى صلى الله تعالى عليه وسلم إلى بعثته صلى الله تعالى عليه وسلم، وثقلها عدم رضاه بما هم عليه منها من الشرك وعبادة الأصنام والحروب والمقاتلة للحظوظ النفسانية، وغير ذلك مما استقبحه صلى الله تعالى عليه وسلم لسلامة فطرته.

(وقيل: المراد بذلك ما أثقل ظهره من الرسالة حتى بلغها حكاه الماوردى) أى: الوزر مستعار من الحمل الثقيل لما قاساه من المشقة فى ابتداء تلقيه الوحى من هيبة الملك وحفظ ما يلقى إليه، وتكذيب قومه وغيرهم لما عرض نفسه على القبائل وشدة أذيتهم له صلى الله تعالى عليه وسلم ولأصحابه رضى الله تعالى عنهم، ووضع ذلك عنه بما فيه من قوة الصبر وتسهيل الله ذلك عليه بعد ما كان يخاف أن لا تبلغ الأمانة ولا يقوى على مقاومتهم وهو بين أظهرهم، لأن هذه السورة مكية ووضع الوزر فى القولين السابقين مجاز عن عدم خلق الذنب أو خلق القدرة عليه، كالحذف المستعمل عند المصنفين فى عدم الإتيان بالمحذوف حقيقة عرفية، وحقيقته اللغوية إسقاطه بعد ذكره، وقيل: المراد بالوزن ثقل ذنوب أمة الإجابة الموضوعة عنهم بالشفاعة.

والماوردى: هو على بن حبيب القاضى أبو الحسن الماوردى، نسب أبوه لعمله أو لبيعه والقياس الوردى، وهو صاحب التصانيف الجليلة فى التفسير وفقه الشافعية والأصولى والحديث كالحاوى، والأحكام السلطانية، وهو كتاب جليل لم يصنف فى بابه مثله، و لم ينصفه إمام الحرمين حيث قال فى تصنيفه المسمى بالغياثى: إنه قال فى الأحكام: يجوز أن يكون الذمى وزيرًا ومن هذا مبلغ علمه ومنتهى فهمه كيف يتصدى للتصنيف والفتوى: قال ابن الملقن فى طبقاته: والذى جوزه، أى: الماوردى إنما هو وزارة التنفيذ لا التفويض فتنبه له، قلت: قد تنبهنا لذلك فرأينا جوابه غير صحيح، وله رحلة لأبى حامد ودرس بالبصرة وبغداد، واتهم بالاعتزال مع أنه خالفهم فى بعض أقوالهم، ومات رحمه الله تعالى سنة خمسين وأربعمائة وقد بلغ ستا وثمانين سنة.

(والسلمى) بضم السين المهملة وفتح اللام منسوب لسليم بالتصغير، وهو أبو عبد الرحمن السلمى صاحب الحقائق، واسمه محمد بن الحسين بن موسى النيسابورى شيخ الصوفية وصاحب تاريخهم وطبقاتهم وتفسيرهم، ولد سنة ثلاثين وثلاثمائة وتوفى فى شعبان سنة اثنتى عشرة وأربعمائة، ونقل الذهبى عن يوسف القطان أنه قال: كان يضع الأحاديث للصوفية، وقد خالفه فيه الخطيب وقال: إنه ثقة صاحب علم وحال، كما نقله السبكى فى طبقاته وأطال فى ترجمته بما لا يناسب الكتاب.

(وقيل: عصمناك ولولا ذلك لأثقلت الذنوب ظهرك حكاه السمرقندى) قيل: إنه

يعني أن الوضع مجاز عن أن لا يخليه بتحمل الذنوب، وهذا القول بعيد، والتعليل بأن العصمة ثابتة له صلى الله تعالى عليه وسلم فاسد، إذا المقصود إذكار النعمة والثناء عليه، وسيأتي الكلام على هذا في القسم الثالث.

أقول: لا بعد فيه فإنه تقدم أن وضعه بمعنى رفعه وإزالته، فإذا أريد منعناك منها لعدم خلق الذنب ودواعيه فيك أولعدم إقدارك عليه، لم يبعد لما في كل منهما من عدم تلبسه بالوزر، وأي بعد في هذا وقد ورد مثله كثيرًا لتنزيل ما بالقوة منزلة ما بالفعل، ألا ترى إلى قوله في الحديث: «رفع القلم عن ثلاث»[1] ولم يوضع عليهم قلم حتى يرفع، والقول بأن أحدًا من أهل اللغة لم يفسر وضع بمعنى عصم عجيب من قائله ومثله غني عن الرد، وقد نقل هذا القرطبي في تفسيره، والسمرقندي تقدم الكلام عليه.

﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ **قال يحيى بن آدم: بالنبوة):** يحيى بن آدم بن سليمان الأموي مولاهم الكوفي، أبو زكريا، أحد الأعلام الذين أخرج لهم أصحاب الكتب الستة، وقد وثقه ابن معين وغيره، وتوفي سنة ثلاث بعد المائتين، وروى عنه أحمد بن حنبل وغيره، ومن فسر رفع الذكر بالنبوة فشرح الصدر عنده إما مفسر بالرسالة أو المراد قبولها أو يفسر بغير ذلك، ولنا فيه كلام سنبينه ولا يلزم من رفعه صلى الله تعالى عليه وسلم بالنبوة تفرده بها عن غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إذ يكفي رفعه على من في عصره، وقيل: المراد بالنبوة ما سبق بها سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الأزل، وآدم عليه الصلاة والسلام بين الماء والطين حيث أخذ الميثاق على أن من أدركه صلى الله تعالى عليه وسلم منهم اتبعه، ولا دليل عليه في كلام المصنف.

أقول: هذا كلام شراح هذا الكتاب، وإنما يحتاج إليه إذا نقل المراد سواء تعلقت الباء برفع أو بذكر أنه شرف ذكره صلى الله تعالى عليه وسلم حيث خاطبه بيا أيها النبي، ويا أيها الرسول، فعظمه وقال الله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النور:٦٣] وهو المذكور في شروح الكشاف، أما إذا قلنا بذلك فلا يحتاج إليه، ولكن هذا غير ما ذكره عندهم ولا وجه له.

(**وقيل: إذا ذكرت**) بضم التاء والضمير لله (**ذكرت معي**) بفتحها والخطاب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم والفعل مجهول فيهما.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٠٠)، وأبو داود (٤٣٩٨، ٤٤٠٠، ٤٤٠٣)، والنسائي (٦/ ١٥٦)، وابن ماجه (٢٠٤١)، وابن حبان (١٤٩٦، ١٤٩٧)، والدارقطني (٣/ ١٣٩)، والبيهقي (١/ ٥٦، ٥٧).

(قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله) قول بالرفع بدل من الجملة قبله، أو خبر مبتدأ مقدر بهو ويجوز نصبه بتقدير أعنى وما يضاهيه، أى: أعنى بذكرك معى ذكر لا إله إلى آخره، وفى بعض النسخ روى قول: «إلى آخره» قيل: وهذا بناء على العادة الغالبة أو على الأفضل المأمور به، وهذا جواب عن سؤال أنه قد يقول المؤمن لا إله إلا الله مقتصرًا عليها وأيضًا، كثيرًا ما يذكر الله وحده نحو سمع الله لمن حمده وربنا ولك الحمد، كما ورد فى كثير من مواطن العبادة، وأجيب بأن إذا الشرطية لاعموم لها، ولذا قال المنطقيون: إن قضيتها جزئية وليس قول لا إله إلا الله من جملة كلام من فسر، ورفعنا إلى آخره بقوله إذا ذكرت ذكرت معى لما سيذكره المصنف عن الخدرى، وكذا هو فى زاد المسير وفيه عقبه، قال قتادة: فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا يقول أشهد أن الا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله الآتى فى كلام المصنف رحمه الله، وهذا تفسير مأثور عليه الجمهور، والحصر فيه مشكل بما مر، والظاهر أن يحمل ذكره تعالى على أفضل الذكر وهو لا إله إلا الله إلى آخره، حتى ورد أنه يقوم مقام كل الأذكار وكل الصيد فى جوف الفرا، والقرينة على هذا المقام مقام امتنان وتذكير بالنعم، وكونه مذكورًا معه إذا ذكر أفضل الذكر أليق بمقامها وتوسيط المصنف هنا، قيل: وهى صيغة تمريض، والقول للجمهور لا يخفى ما فيه انتهى.

ولم يرض هذا الشارح الجديد فقال: المراد ذكر المؤمن وهو لا يذكر الله إلا ويذكر معه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فالمصلى إذا قال: سمع الله لمن حمده، هل يقولها إلا وفى ذهنه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه الذى أمره بها فليس المراد بالذكر الذكر القولى فقط، بل الأذكار الفعلية والتزكية والقلبية، والقائل فهم أن المراد بالذكر اللفظى وهذا فهم من لم يتبع مقاصد الشريعة ثم أطال فى هذا ما محصله ما ذكره ولم يأت بشيء غير أن زاد فى الشطرنج بغلة وفى الطنبور نغمة.

أقول: هذا جملة ما قالوه فى هذا التفسير المأثور ولم يأتوا بما تقرر به عين التقرير، فإن قوله: «إذا ذكرت ذكرت معى» إن أخذ كلية خالف الواقع، فإنه كم ذكر الله وحده وكم ذكر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وحده، وإن عين موضعًا فهو ترجيح بلا مرجح، وإن جعلت القضية مهملة فلا يخفى ما فى الإهمال من الركاكة، وقد أمعنت فيه النظر فلم أر ما يثلج الصدر وترديد السائل غير صفر، حتى لاح لى أن الجواب الحق أن يقال: الذكر محمول على الذكر فى مجامع العبادة ومشاهدها، فإن ذكره صلى الله تعالى عليه وسلم مقرون بذكره فيها فى الواقع فى الصلوات والخطب، فلا ترى مشهدًا من مشاهد الإسلام إلا وهو كذلك، فلا ينفك ذكره صلى الله تعالى عليه وسلم عن

ذكره تعالى فى يوم من الأيام ولا ليلة من الليالى، بل ولا فى وقت من الأوقات المعتد بها فتتجه الكلية.

فإن قلت: من أين لك هذا التقييد فهل هو إلا ترجيح من غير مرجح؟.

قلت: المقام ناطق بهذا القيد، فإن المراد التنويه بذكره صلى الله تعالى عليه وسلم وإشاعة على قدره الدال على قربه صلى الله تعالى عليه وسلم من ربه كقرب اسمه من اسمه، وإنما يكون هذا بذكره فى المحافل والمشاهد والجوامع والمساجد، وأى إشاعة أقوى من الأذان لا فى الأسواق والطرق التى يطرح فيها كل ذكر، ثم أنهم اعترضوا على المصنف رحمه الله تعالى بإتيانه بقيل فى تفسير الجمهور المأثور وليس بمناسب، وهذا أيضًا من قلة التيقظ فإنه بالنظر إلى تمامه وقول لا إله إلا الله وهو كذلك.

وقوله: **(وقيل فى الأذان)** دال عليه فسقط ما قيل الوجه التقديم بدون التمريض، ثم الترديد فى البيان وفى الأذان ظرف لذكرت أو رفعنا، قيل: وهو الأظهر على ما نقله فى المعالم عن مجاهد، وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى الأذان والإقامة والخطب والتشهد، لعل ذكر مجاهد الأذان ليس للتخصيص أو لتخصيصه برفع الصوت على المبالغة، وقيل: فى الآخرة، وقيل: بأخذ الميثاق على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالمتابعة، قيل: وهذا مبنى على الغالب أيضًا، والإفقد يقتصر فى الخطبة على ذكر الله تعالى وهو جائز عند أبى حنيفة، ومثله نادر فى حكم العدم، وفى بعض النسخ: «فى الأذان والإقامة» والنسخة الأولى أشهر، ولما كانت الإقامة كالأذان وصفا وحكما أدخلت فيه بطريق التغليب، وقد ورد إطلاق الأذان على الإقامة أيضًا والشئ بالشئ يذكر.

واعلم أن تحقيق هذا المقام ما قاله الشافعى فى أول رسالته الجديدة، وبينه السبكى فى تعليقه على الرسالة، فقال رحمه الله تعالى: قال الإمام رضى الله تعالى عنه: عن مجاهد فى تفسير الآية: لا أذكر إلا ذكرت معى: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله. قال الشافعى: يعنى ذكره عند الإيمان بالله والأذان، ويحتمل ذكره عند تلاوة القرآن وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية. قال السبكى: هذا الاحتمال من الشافعى جيد جدًا، وهو مبنى على أن المراد بالذكر الذكر بالقلب وهو صحيح، فعلى هذا يعم لأن الفاعل أو الكاف عن المعصية امتثالا لأمر الله تعالى به ذكرًا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقلبه، لأنه المبلغ لها عن الله، وهذا أعم من الذكر باللسان فإنه قاصر على الإسلام والأذان والتشهد والخطبة ونحوها. قال الشافعى: فلم تمس بنا نعمة ظهرت ولا بطنت نلنا بها حظا فى دين أو دنيا أو دفع عنا بها مكروه فيهما أم فى واحد منهما، إلا

ومحمد، صلى الله تعالى عليه وسلم سببها. انتهى.

أقول: علم من هذا أنه إن أبقى العموم والحصر على ظاهره حمل الذكر على الذكر القلبى، فيشمل كل موطن من مواطن العبادة والطاعة، فإن العاقل المؤمن إذا ذكر الله تذكر من دل على معرفته وهداه إلى طاعته وهو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، كما قيل: فأنت باب الله أى أمر به أتاه من غيرك لا يدخل، ومن كلام النبوة الأولى: «من أراد الوصول إلى الله تعالى من غير باب النبوة قطعه الله تعالى عنه» ولك أن تقول المراد برفع ذكره تشريفه صلى الله تعالى عليه وسلم بمقارنته لذكره فى شعائر الدين الطاهرة، وأولها كلمتا الشهادة وهما أساس الدين، ثم الأذان والصلاة والخطب فالحصر إضافى.

(**قال القاضى أبو الفضل**) عياض المؤلف، وقد مر أن هذا من تصرف النساخ وإلا فهو يقول: الفقير ونحوه: (**هذا تقرير من الله جل اسمه لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم**) الإشارة لما وقع فى سورة ألم نشرح وهو بيان لحاصلها، قال فى المغنى: التقرير حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر ويجب أن يليها، أى الهمزة الشىء الذى يقرره به وحمل الزمخشرى قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦] على التقدير، مراده به التقرير بما بعد المنفى لا بالنفى. وغيره يجعله إنكارًا إبطاليا فيكون إثباتا للنفى، والمصنف رحمه الله تبع فيما ذكره الزمخشرى.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨]، فعلى هذا التقرير تفعيل من الإقرار وقد يكون من قر قرارًا فيكون بمعنى تثبيت الحكم، قيل: وفى حمل ما هنا عليه تكلف؛ لأنه لابد فيه من إيلاء المقرر أداة الاستفهام نحو أزيدًا ضربت فى تقرر المفعول، وهنا وليها المنفى و لم يقصد تقريره فينبغى أن يحمل على الأول، ويؤيده ما ورد فى الحديث من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «سألت ربى عز وجل فقلت: يا رب إنه قد كان أنبياء قبلى منهم من سخرت له الريح إلى آخره فقال: يا محمد ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]»(١) الحديث.

أقول: يجوز أن يراد بتثبيت ما بعد النفى كما أريد فى الأول الإقرار بما بعده، فإن كلا منهما تأويل على خلاف الظاهر كما صرح به ابن هشام، وادعاء الظهور فى أحدهما دون الآخر تحكم، وقد فسر التلمسانى التقرير هنا بالتمهيد

(**على عظيم نعمه لديه وشريف منزلته عنده وكرامته عليه**) على متعلقة بالتقرير سواء

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٦/٣٢١).

كان من الإقرار أو بمعنى التثبيت، أما الأول فلتأويله بحمله على الإقرار وحمل يتعدى بعلى، فلما كان مأولاً به عدى تعديته، وأما على الثانى فظاهر، وقيل: إن على بمعنى الباء لأن الإقرار يتعدى بها، فنقول: أقر بكذا وهو كقوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، وهذا منه وليس بمعنى التثبيت وإلا لقال المصنف رحمه الله تعالى تقرير من الله تعالى جل اسمه لعظيم نعمه، وقيل عليه: إنه من التثبيت أى تثبيت من الله عز وجل لنبيه على ما أحاط به علمه من عظيم نعمه، وذلك لأن هذه النعم علمها وخشى لعدم شكره أن لا يكون منعمًا، فثبت فؤاده على مشهود أنها نعم جسيمة، ولا يخفى ما فيه والباقى بأن شرح الآتى للسببية، أو هى متعلقة بالتقرير على أنه من الإقرار، وعلى متعلقة بمقدار أى منبها على عظيم إلى آخره، فلا حاجة إلى ما قيل أن على بمعنى الباء، والمنزلة تقدم أنها الرتبة العلوية علوًا معنويًا وكرامته عليه يعنى كونه مكرمًا معززًا عنده موقرًا.

(**بأن شرح قلبه للإيمان والهداية**) تقدم معنى الشرح وأن شرح بمعنى وسع وفسح، فهو لسعته يقبل ما يدخل من إيمانه وتصديقه بالله فى أول أمره وزيادة مراتب إيمانه، والهداية بمعنى الاهتداء أو المراد قبول الهداية أو هدايته الناس، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام:١٢٥].

(**ووسعه لوعى العلم وحمل الحكمة**) معطوف على شرح عطف تفسير، والوعى الحفظ والحكمة فسرت بالنبوة وبالفقه فى الدين وفهم القرآن والاتباع له، وقيل: الورع، وحملها العلم بها والعمل مع الإتقان، وهذا ناظر لتفاسير الآية السابقة وترك بعضها اكتفاء بحكمته فتذكره.

(**ورفع عنه ثقل أمور الجاهلية عليه**) أى أزالها وثقل بزنة عنب ويجوز تسكينه وعليه متعلق به وهذا ناظر لقوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:٢] وتفسيره بمعنى عام شامل لما مر، والجاهلية ما كانت العرب عليه قبل الإسلام من الجهل بالله والشرائع، وارتكاب أمور رفعها الله لما جاء الحق وزهق الباطل كما مر.

(**وبغضه لسيرها ولما كانت عليه**) السيرة فعلة من سار يسير ويكون لازمًا ومتعديا، ويقال منه سار وأسار وسير والسيرة جمعها سير كسدرة وسدر وهى الهيئة والحالة، وشاعت فى الطريقة يقال: سار سيرة حسنة أو قبيحة كما قال:

وأول راض سيرة من يسيرها

وغلبت السير والسيرة فى السنة أهل الشرع على المغازى كما فى المصباح، والضمير

المضاف إليه للجاهلية، وقال التلمساني: سيرها عوائدها وبغضه في النسخ فعل ماض مشدد مبني للفاعل، وفي الطرة بغضه مصدر أي بضم الموحدة وسكون المعجمة وعليه صح، والصواب أن يقال: بغض له سيرها بالتضعيف والفاعل هو الله، قال الشارح: ولكن لم يوجد في نسختي سوى ما ذكرته أولا انتهى.

وفي بعض الشروح الذي في النسخ المقروءة على أبي ذر المحدث، أو البرهان الحلبي بغضه بصيغه الفعل المشددة المعطوف على رفع عنه، وليس بالاسم المجرور بالعطف على أمور الجاهلية؛ لأنه لم يرفع عنه ثقل بغضه لسيرها لبقائه وبقاء لوازمه، وأما عطفه على وعى ففاسد مع ما فيه من ذكر معنى الوضع من أثناء معنى الشرح، وذكر معنى الشرح في معنى الوضع، إذ معناه الرفع والحط إلا أن ثقل البغض إذا قارن العجز عن إزالته زاد، وهذا كما قيل مع تكلفه غير مناسب لمعنى الآية، أو هو إشارة إلى أنه عبارة عن العصمة عن حيه.

أقول: ما في الحواشي التلمسانية من تصحيح بغضه بصيغه المصدر المجرور وهو الصحيح، وهو معطوف على العلم المضاف إليه، وعى بمعنى فهم، وضمير بغضه المضاف إليه راجع لله أي وسع الله قلبه لفهم العلوم والحكم، وفهم بغض الله لما هم عليه حتى كان لا يخالطهم في أعيادهم ومجامعهم قبل البعثة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات:٧]، وهذا كله ناظر لشرح صدره للإسلام ولا إدخال فيه لتفسير في تفسير كما توهموه، وعلى قراءة بالفعل يكون في كلامه قلب من غير نكتة، وحق العبارة بغض له سيرها.

(**بظهور دينه على الدين كله**) متعلق بشرح، وقيل: برفع، وقيل: الباء للمصاحبة بمعنى مع، والظهور بمعنى الغلبة عليه حيث قهر أهله وأبطل حكمه، ولذا تعدى بعلى، وأصله ضد الخفاء، والدين للجنس الشامل للأديان ولذا أكده بكل.

(**وحط عنه عهدة أعباء الرسالة والنبوة**) معنى الحط التنزيل وهو قريب من الوضع فهذا إشارة لتفسير قوله: ﴿**ووضعنا عنك وزرك**﴾ [الشرح:٢] والرسالة والنبوة غير محتاجة للبيان لاسيما هنا، والأعباء بالمد كالأحمال والأثقال وزنا، ومعنى جمع عبء بكسر العين المهملة وسكون الموحدة وهمزة، والعهدة بضم فسكون فعلة من العهد وله معان منها الأمان والموثق والذمة، ويقال: تعهدته وتعاهدته إذا ترددت إليه وأصلحته وحفظته، وتسمى وثيقة البيع عهدة لأنه يرجع إليها عند الاحتياج، ويقال: عهدة هذا عليك أي تبعته وما تلزم منه، فالمعنى هنا أن الله حمله أحمال الرسالة والذمة بإجراء أحكامها وتبليغها، فكان في أول الأمر في حرج ومشقة من خوف التقصير، فلما يسر

الله له ذلك انشرح صدره واستراح من ثقلها، وبرئت ذمته من عهدتها لما بلغ الأمة وأدى الرسالة، فامتن الله عليه بما يتضمن الثناء العظيم من أنه قدره على التحمل والصبر، ولذا قيل: إن حط العهدة مجاز عن توفيقه لمعالجة تلك الأثقال وتحملها على الوجه اللائق وهو كلام حسن.

(لتبليغه للناس ما نزل إليهم) وروى بتبليغه بالباء بدل اللام وهما متقاربان، أى حط عنه تلك الأحمال وأراحه من الأثقال، لأجل أنه بلغ ما أمر به وما على الرسول إلا البلاغ، وقيل: معناه فعل ذلك لأجل التبليغ فالسببية غايته، أو أراد بيان الحط بأن وفقه على التبليغ على الكلام، ولا يخفى أنه غير مناسب للمقام مع ما فيه من التعقيد بلا فائدة، وإنما خص الناس وهو مبعوث للثقلين بالاتفاق وللملائكة أيضا كما سيأتى بيانه، لأن حط الأعباء إنما هو بتبليغ الناس وتسخيرهم وكسر شوكتهم، فإنهم الذين عادوه وحاربوه وكذبوه، وأما الجن فمجرد سماع القرآن أطاعوه ولم يقع منهم ما يتعبه وإن كان منهم من لم يؤمن، وليس الكلام فى بيان رسالته وعمومها حتى يعترض بتركهم عليه، وقيل: إنه اكتفاء كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل:٨١] وقيل: المراد بالناس ما يشمل الجن فإنه ورد إطلاقه عليهم، وفى الحديث: «ناس من الجن» وبه فسر قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١] وجعل قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٦] بيان له، وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وذهب بعضهم إلى أنه حقيقة. وقال السبكى: إنه لفظ مشترك بحسب الظاهر وهما معنيان متقاربان ولفظان متغايران، فالناس بمعنى بنى آدم أصله أناس، ومادته أن الناس من الأنس ضد الوحشة، وبالمعنى العام للثقلين أصله نوس بمعنى تحرك، وقيل: إنه اقتصر على الأشرف المقصود بالذات وأنت فى غنى عنه كله بما مر.

(وتنويهه بعظيم مكانه وجليل رتبته ورفعة ذكره وقران اسمه اسمه) قد مر أنه يقال: ناه بالشئ نوهًا ونوه به تنويهًا إذا رفع ذكره وعظمه، ومر فى حديث عمر «أنا أول من نوه بالعرب» أى رفع ذكرهم بالديوان والإعطاء كما فى المصباح، وهذا إشارة لمعنى قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] وتنويهه بالجر معطوف على قوله لتبليغه، لأن تعظيم الله له ورفع ذكره له يروح قلبه ويسره؛ لأنه يدل على قبول رب العزة لما فعله من أدائه ما فى عهدته وبذل جسمه وروحه فى تتميم خدمته،وهذا فى غاية الظهور، وقيل: معطوف على أن شرح، وقيل: على تقريره فهو مرفوع والداعى لارتكابه مع بعده أنه كان الظاهر أن يقول: نوه تفسيرًا لرفعنا على سننه السابق، وإنما عدل عن التعبير بالفعل إلى عطف المصدر الصريح على المأول لئلا يتوهم أنه كلام مستأنف، والباء

فى قوله بعظيم متعلقة بتنويهه وليست زائدة، فإنه قيل: نوهه ونوه به كما قيل، لأن الأشهر هو التعدية بالباء كما مر فى كلام سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه، وقوله: رفعة ذكره بكسر الراء وآخره تاء تأنيث مضاف لذكره، وروى بفتحها وإضافته للضمير ونصب ذكره، وروى رفيع عطف على جليل ورفعة ذكره، إما بهذا الرفع أو برفع زائد عليه، واسمه الثانى منصوب مفعول قران بكسر القاف مصدر بمعنى الضم والجمع، ومنه قران التمر وأقران غلط فيه، وقيل: رواية وفى نسخة وقرانة اسمه مع اسمه.

(قال قتادة: رفع الله ذكره فى الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله) قد مرت ترجمة قتادة رحمه الله تعالى، وتأتى أيضًا، ومر أيضًا تحقيق هذا الكلام إلا أنه بقيت أمور ينبغى التنبه لها، وهى أن بعضهم قال هنا: إن ما ذكر هنا هو الأكمل الجارى فى العرف والعادة بعد البعثة، إذ الشهادة ليست شرطًا فى أصل الخطبة، وهذا فى الدنيا ويعلم أمر الآخرة بالمقايسة عليها، وفى الحديث: «كل خطبة ليس فيها شهادة فهى كاليد الجذماء»[1] والمراد بالصلاة الفرد الكامل المتبادر، فلا ترد صلاة الجنازة، والمتشهد من تشهد بالوحدانية سواء كان بهذا اللفظ، كمن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، المروى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه وعليه أبو حنيفة، فلا يرد أنه قد يقتصر فى خطبة الجمعة والعيدين وغيرهما على ذكر الله بالتسبيح ونحوه، قيل: وهذا إنما يرد لو كان قتادة رحمه الله تعالى قائلا به فى عصره، وهذا ليس بشىء يتصدى بجوابه، وقيل: إن مراد قتادة بيان رفعة ذكره فى الدنيا التى هى عنوان رفعة الآخرة، وقوله: «فليس خطيب» إلى آخره يريد أن الخطباء قبله كانوا يعدون مآثرهم ومفاخر قومهم، فلما محاه الإسلام صارت الخطبة اسما للمشروعة بأى مذهب كان، وأى خطبة كانت كما فى الحج والخسوف والعيد والجمعة وغيرهما، وفاعل ذلك كله يعتقد وحدانية الله تعالى شاهدًا بأن محمدًا رسول الله ممتثلا لأمره مقتديا بهديه، والمصلى لا يعتد بصلاته حتى يعتقد ذلك، وأنت ترى ما فى هذا الكلام الذى لا محصل له ولا يجدى شيئا، فالقول ما قالت حزام والتمرة تدل على الشجرة، وقوله «ألا يقول» مستثنى من أعم الأحوال، أى ليس يوجد فى حال من الأحوال إلا قائلا، وما قاله قتادة رواه عنه البيهقى وابن أبى حاتم.

فإن قلت: ما وجه التفريع فى قوله فليس إلى آخره وأمر الآخرة لا يعلم بالمقايسة

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٤٣)، وأبو داود (٤٨٤١)، والترمذى (١١٠٦)، وابن حبان (٥٧٩، ١٩٩٤).

والمتشهد أعم من الخطيب والمصلى، فكان ينبغى تقديمه أو تأخيره.

قلت: أخذه من إطلاق الآية والحديث، والتفريع وجهه أن من رفع الله ذكره فى الدارين حقيق بأن يشهد له بذلك، والمتشهد المراد منه الآتى بكلمة الشهادة فى غير الخطبة والصلاة، لأن غيره يقال له خطيب ومصل فتدبر.

(**روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه**) وهو سعد بن مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة بن عبيد بن الأبجر، وهو خدرة المنسوب إليه على الأصح وسيأتى، الصحابى الأنصارى، ونسبته بخدرة بضم الخاء المعجمة وسكون الدال المهملة يليها راء مهملة وهاء، وهو من الأنصار سمى باسم جدهم ثم نسب إليه كتميم، فلا منافاة بينهما، وقيل: خدرة أمه، وهذا الحديث كما قاله السيوطى والشيخ قاسم فى تخريج أحاديث هذا الكتاب أخرجه أبو يعلى فى مسنده، وابن حبان فى صحيحه، والطبرى فى تفسيره وإسناده حسن، فلا وجه لما قيل من أن فى زاد المسير ما يخالفه فإن ذاك من واد وهذا من واد، ولما قيل إن فى المعالم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم سأل جبريل عن هذه الآية فقال: قال الله تعالى إلى آخره، فلعله بعد السؤال جاء وقال: «إن ربى» إلى آخره، وقوله: «قال الله» نقل بالمعنى لأن الرواية المسندة ما فى كلام المصنف رحمه الله.

وقوله (**أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال: أتانى جبريل فقال: إن ربى وربك يقول: تدرى كيف رفعت ذكرك**) تقديره أتدرى فحذف منه حرف الاستفهام وهو جائز مع القرينة فى النظم والنثر كما فى المغنى وغيره، وقول التجانى: إنه قليل مخصوص بالشعر مخالف للرواية والدراية، وقد روى هذا الحديث أيضًا أتدرى، بثبوت الهمزة على أصلها سواء كان الاستفهام حقيقيا كقوله: «وإن زنا وإن سرق» أو غير حقيقى كقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ [البقرة:٦] على قراءة، والاستشهاد بهذه الآية للحقيقى سهو والاستفهام هنا غير حقيقى لاستحالته على علام الغيوب والسرائر، بل هو تقريرى ليقر بعد علمه فيعلمه من لدنه، والمشهور فى مثله أن معناه أتدرى جواب هذا السؤال، وليست كيف فيه خارجة عن معنى الاستفهام على أن المعنى كيفية رفع ذكرك، وإن كانوا يقولونه فى بيان حاصل المعنى، فما قيل من أنه مخرج عن معنى الاستفهام أى تدرى كيفية الرفع، وهذا من الانبساط مع المحبوب لأجل زيادة التوجه والانتظار، لكنه أعجمية مع أن لفظ الكيفية لم يسمع من العرب كما صرح به أهل اللغة، وتدرى متعلق عن الجملة التى بعده كما فى قوله زهير(١):

(١) تقدم الاستشهاد به.

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

وكيف فى محل نصب على الحال من المفعول على القاعدة المشهورة فى إعرابها، من أنها إن وقعت قبل كلام تام فهى حال و إلا فهى خبر، إلا أن هذه القاعدة غير مسلمة كما فى المغنى وشروح الكشاف وهى سؤال عن الحال والصفة، أى على أى حال، ومعنى رفعت لك ذكرك وليست منصوبة بتدرى لأن لها الصدر، ووقع فى بعض النسخ «فقلت».

(الله ورسوله) المراد به هنا جبريل عليه السلام لأنه من رسل الملائكة الذين يرسلون بالوحى لأنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام.

(أعلم) كذا عندى فى نسخة مصصحه مقروءة على المشايخ، وفى نسخة شرح عليها الشارح الجديد إسقاطها، وقال: لم أجدها فى نسخة من الشفاء، واللائق عدم ذكرها وليس كما قال، والتفضيل إما فى الزيادة فى مطلق العلم فلا يلزم ثبوت أصل العلم له فى هذه المسئلة، أو المراد أعلم فيها نظرًا إلى أن حصول بعض الوجوه له تجويزًا وظنا فالتراجيع فى الكيفية، والمطلوب حصول اليقين أو وجه آخر، وأعلمية جبريل عليه الصلاة والسلام منه صلى الله تعالى عليه وسلم، مع أنه عَلم عِلم الأولين والآخرين كما ثبت فى الصحيح، أو بالنظر إلى علم الله فعلمهما أتم من علمه وإن كان علمه أتم من علم أحدهما، أو بالنظر إلى أن تلك الحالة لم تكن دائمة له صلى الله تعالى عليه وسلم، كذا قاله الشارح المدقق.

أقول: الظاهر أنه أراد تفضيلهما عليه صلى الله تعالى عليه وسلم فى خصوص هذا العلم أو على الإطلاق، أما على الله فظاهر وأما جبريل فعلمه ببعض الأمور التى لم يعلمها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لإعلام الله له بها، أو لكونها فى الملأ الأعلى، ولا يلزم من هذا شك ونقص لمقام النبوة حتى يلزم تكلف ما ادعاه، وأما ما ورد فى الحديث من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم علم علم الأولين والآخرين فليس المراد به ما فهمه، لأنه لو كان كذلك علم المغيبات كلها، وقد أمره الله بأن يقول لا أعلم الغيب.

(ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) وقال: **(لا أدرى ما يفعل بى ولا بكم)** وهذا مما لا شك فيه، وإنما المراد أنه علمه كل علم عند الأولين والآخرين متعلق بمعرفة الله وأحوال الأمم السالفة والآتية إجمالا من خير وشر، وأوحى إليه ببعض المغيبات أيضًا وأخبر بها بعض أصحابه كما فى حديث حذيفة، فمتعلق أفعل منى أو من كل واحد غيرهما، أو لا متعلق له كما فى قوله: «الله أكبر» فى أحد الوجوه، وقيل: المراد أعلم

من كل عالم نحو الله أكبر، أو أعلم منى بناء على أنه علم رفع ذكره، وهذا مما لا ريب فيه، أو فهم من جبريل عليه الصلاة والسلام أنه عالم بكيفية الرفع دونه وأنه جاء مخبرًا بها له، ولو كانت مما استأثر الله به قال لجبريل: «ما المسؤل عنها بأعلم من السائل» كما فى حديث آخر، أو المراد أنهما سيان فى عدم العلم؛ لأن قولك ما زيد بأعلم من عمر، والمراد به نفى المساواة كما مر، وهو أحد احتمالات فى مثله، وأما ما ورد من [أن] علم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم علم الأولين والآخرين، فلعله كان آخر أحواله بعد انقطاع إيحاء جبريل له، وقيل: المراد أن الله أعلم من كل عالم ومنه يستمد العلم، أى لا أعلم إلا ما علمنى ربى، وأما كونه عَلم عِلم الأولين والآخرين فهو نعمة من الله خصه بها و لم يرد أنها انقطعت عنه، والكريم لا يقطع عوائدة كما أنعم الله فيما مضى كذلك ينعم فيما بقى، واحتياجه صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الوحى مقتضى مقام العبودية وإظهار الافتقار من لوازمها، وكون هذه آخر أحواله غير سديد، لأن هذه القصة وقعت ليلة الإسراء وهى من أول أحواله، وجبريل عليه الصلاة والسلام لم ينقطع عنه حتى فارق الدنيا، ومع هذا ابتنائه على ما عنده من الطراز الأول وكذا ما قبله، ولولا خوف أن يظن أن بالسويداء رجالا تركته رأسا (**قال: إذا ذكرت معى**) قد مر شرحه.

(**قال ابن عطاء: جعلت تمام الإيمان بذكرى معك**) لم يسم المصنف رحمه الله تعالى ابن عطاء، فلم يدر ما مراده به لأن المشهور به اثنان، فلذا قال التلمسانى: هو أبو عبد الله محمد بن عطاء شيخ وقته وهو مات كما قاله القشيرى سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، وقال الشمنى: إنه أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الزاهد البغدادى الآدمى، وجزم بأنه المراد هنا الشارح الجديد، لأن المشايخ قالوا: إن له لسانًا فى فهم القرآن يختص به، وكان صحب الجنيد وسئل رضى الله تعالى عنه عن الوجد والسماع فقال: هو صحيح، فقيل له: إنه لم يبلغنا عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين أنه تواجد، فقال: أما الصحابة فكوشفوا بالشريعة فى سرهم فكانوا لا يغلبون عن تحمل الأحوال بخلاف من بعدهم فإنه لم ينل هذه الرتبة، وقوله بذكرى معك روى «بذكرك معى» وهذه النسخة واضحة، والأولى مشهورة مخالفة للظاهر، لأن مع تدخل على المتبوع وقد تجىء لمطلق المصاحبة، وقد تقدم أنه باعتبار الأكثر المعتاد فى مواطن وأقوال مخصوصة، كقول المتشهد أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وقد قيل: إن فى كلام المصنف رحمه اله تعالى تكرارًا وانتشارًا، واللائق بالمصنف ذكر الأقوال، ثم حاصل معنى الآيات وفى بعض العبارة قلب إيماء إلى شرفه صلى الله تعالى عليه وسلم، كقوله:

«لا يذكرك أحد بالرسالة إلا ذكرنى بالربوبية» فإن الظاهر عكسه كما قيل.

وأنا أقول: هذا من عدم الوقوف على مراده، لأنه لما ذكر السورة لما فيها من الثناء عليه صلى الله تعالى عليه وسلم الذى هو بصدده، عقبها بذكر أقوال المفسدين فيها، ثم لخصه ووضحه بعبارة فصيحة، ثم ذكر الدليل على ما قالوه رواية مسندة، ثم ختمه بكلام أرباب الطريقة من مشايخ الصوفية، فإنه مسك الختام، ونقل لهم عبارات ثلاثة فقال: ذكرك معى وذكرى معك وذكرك عين ذكرى وهذا بحسب المقامات، كقولهم: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله أو معه أو بعده، أما الأول فظاهر لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم رسوله وخليفته، وهذا بحسب الحقيقية فى نفس الأمر، وأما الثانى فلأنهم إنما عرفوا الله منه وبعد معرفته كما قيل وقد تقدم:

فأنت باب الله أى امرئ أتاه من غيرك لا يدخل

وأما الثالث فلأنه من ذكره من حيث كونه رسولاً مبلغًا عن الله فقد ذكر الله، ومن هنا قيل: «من رآنى فقد رأى الحق» فلا تكرار ولا قلب إلا لمن ليس له قلب ينظر بعينه الحق، وجعل ذكره تمام الإيمان، أما لأن الإيمان عنده تصديق بالجنان باللسان كما هو قول لأهل السنة، وأما من يقول بأنه مجرد التصديق فجعله تمامًا باعتبار أنه لا يعتد به بدونه، ولا يترتب عليه الأحكام ما لم يأت به لسانًا، لأن الأمر مبنى على الظاهر والله أعلم بالسرائر، قيل: وهذا قول غير قتادة لأنه لم يعتبر كونه من تتمة الإيمان فتوهم العينية فاسد وفيه نظر فتدبر.

(قال أيضا): أى وقال ابن عطاء المعرى قولا كالذى قبله، وأيضًا مفعول مطلق لفعل مقدر من آض إذا عاد ورجع، قيل: واستعير هنا لمجرد الانضمام ولك أن تبقيه على معناه الحقيقى لأنه عاد لكلام ابن عطاء رحمه الله تعالى.

(جعلتك ذكرًا من ذكرى فمن ذكرك ذكرنى) ذكرًا مفعول ثان لجعل والظرف بعده صفة أو تمييز محول عن المفعول والجار والمجرور هو الثانى، والمعنى واحد أى كان ذكرك عين ذكرى لعدم انفكاكه عنه غالبًا، أو هو مثله فى التقرب به والإجراء وهو معدود من أفراده لما رد أن كل مطيع لله ذاكره، والإسناد مجازى والفاء تفسيرية أو تفريعية.

(وقال جعفر بن محمد الصادق): تقدم بيانه قريبا. **(لا يذكرك أحد بالرسالة إلا ذكرنى بالربوبية)**: الاستثناء من أعم الأحوال والجملة التى بعد إلا حالية، ولا حاجة لتقدير قد معها كما ذكره النحاة، والربوبية صفة مصدر من الرب وهذه الياء تسمى الياء المصدرية، ولا بد معها من تاء التأنيث وفى هذه الياء بحث ذكرناه فى رسالة المصدر

والسوانح، ومعنى كلام جعفر رضى الله تعالى عنه أنه لا يعترف أحد برسالتك إلا بعد أن يعترف بواحدانية الله وربوبيته، لأنه يجب معرفة الله عقلا قبل ذلك لئلا يلزم الدور كما ذهب إليه الماتريدية، أو سمعها كما ذهب إليه غيرهم كما تقرر فى الأصول، وقيل: المراد إلا وقد أراد ذلك أو عبر بالماضى عن المضارع مبالغة فى تحقق وقوعه، وفى الأول إشكال لعدم مقارنة الحال العامل، وذلك لأن المراد بالرسالة أنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، والعادة أن يقال: رسول الله ورسول رب العالمين ونحوه، أو لأن معنى الرسالة شرعًا أنه إنسان بعثه الله لتبليغ أحكامه والإلوهية جامعة للربوبية، وخصت الربوبية هنا لمناسبتها للرسالة لمربوبية الرسول للمرسل إليه، وقيل: المراد أن من آمن بك آمن بى وفيه تكلف ظاهر، ثم إن ما قاله الصادق وغيره يشترك فيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بحسب الظاهر، فالأنسب حمله على ما يظهر فيه الاختصاص والتمييز انتهى.

وقد عرفت معناه وأنه محمول على الإيمان بالله ورسوله، والاعتراف بذلك المقتضى لمقارنة اسمه لاسمه مع التعبد بإظهاره والنداء به على رؤوس الأشهاد، كما يفصح عند التعبير بالرفع الذى بينه وبين الوضع صنعة الطباق، وأما عدم مقارنة الحال فظاهرى السقوط لتقدم الإيمان بالله أو إرادته على الإيمان بالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، وأما التلفظ بما يدل على ذلك فلذكره عقبه من غير فاصل بعد مقارنًا عرفًا، ومثله يكفى عند النحاة فلا حاجة إلى جعل الحال مقدرة، وأما ما ادعاه من عدم الاختصاص بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم، فقد علم مما مر أن هذه المقارنة فى نداء الأذان والإقامة والخطب والصلاة، والإتيان بكلمة الشهادة المعتبر فى الإعداد بالإيمان، وهذا كله مختص بهذه الأمة، فيختص القرآن والواقع فيه بهذه الكيفية بسيدها ونبيها عليه أفضل الصلاة والسلام اختصاصا حقيقيا بالنسبة لكل من عداه من الرسل والأمم وهذا فى غاية الظهور.

(وأشار بعضهم فى ذلك إلى مقام الشفاعة): المراد بالبعض من فسر قوله عز وجل ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] المشار إليه بقوله فى ذلك جعلنا ذكرك مرفوعا فى لدنيا والآخرة، فإنه فى الآخرة بالشفاعة، وهو أحد أقوال خمسة فيه، وقيل: هو الماوردى وقال البرهان لا أعرفه.

(تتمة لطيفة) لما ذكر الله عز وجل فى آخر السورة التى قبل هذه قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥] إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] ثم أتى بقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] قال بعض المشايخ: إشارة إلى أن شكر النعمة والاعتراف والرضا بها مما ينشأ منه انشراح الصدر،

ورفعة الذكر، ثم وسط بينهما أعباء الرسالة التى تنقض الظهور فذلك عسر بين يسرين فلذا قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥] إلى آخره، ثم أشار إلى أن مقصوده من الدنيا إنما هو أداء خدمة الأمانة وأنه لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه الذى هو مطلبه لا ماسواه، فلذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ [الشرح:٧] ولم يقل له استرح، بل اجتهد فيما يقربك إلى الله تعالى، ﴿فَٱرْغَب﴾ كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر:١] إلى آخرها فتنبه لأسرار التنزيل.

(ومن ذكره معه أن قرن طاعته بطاعته واسمه باسمه فقال: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران:٣٢] ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦]) لما قرر الثناء من الله برفعة قدره وذكره فإنه إذا ذكر ذكر معه كما مر، وذكر القرآن فى كلام الناس وما يحكى عنهم اتبعه بما هو من قبيلة وهو ذكر الله جل وعلا لنفسه، وذكر الرسول معه معطوفًا عليه من غير فاصل، كالآيتين المذكورتين وفيهما زيادة على ما ذكر لابن عطاء لفظا قران طاعته لطاعته، لأن أحدهما لا ينفك عن الآخر، كما قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] والمقارنة المصاحبة كما قال:

عن المرء لا تسئل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدى

ومصاحبة الاسمين ظاهرة فيما ذكر، وأما مصاحبة الطاعة للطاعة فهى معنوية لا لفظية هنا بمعنى أنها لا تنفك عنها، بل هى عينها كما مر، وجعل هذين من قبيل الذكر المقارن لذكره أمر حقيقى لا من قبيل عموم المجاز، ولا من قبيل الجمع بين الحقيقة والمجاز، كما قيل: فإنه فى الآيتين كذلك لاقتران الطاعة لله بطاعته فى قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران:٣٢] لأنه بمعنى وأطيعوا الرسول، وأما قوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦] فمثال لمقارنة الاسم الاسم على اللف والنشر المرتب، وبعضهم جعل كل آية مثالاً لهما فاحتاج إلى التكلف، فقال: معنى الطاعة الانقياد، وقد يكون بحسب الظاهر كالإسلام الذى هو الانقياد والاستسلام، وقد يكون بحسب الظاهر والباطن كما قدمنا فى الإيمان، ومنهم من قال: الذكر هنا عدم الغفلة، ومطيع الله ذاكر له كمطيع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، فكل من قرن طاعته بطاعته وقرن اسمه باسمه ذاكر لله عز وجل ولرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم معه حقيقة، وليس هنا ذكر مجازى، فمن زعم أن الذكر الأول مجاز والثانى حقيقة، وأن الآية من باب عموم المجاز إذ المراد بالذكر هنا معنى يعمهما فرارًا من الجمع بين الحقيقة والمجاز، فقد ارتكب شططًا. انتهى.

والحاصل أن المصنف، رحمه الله تعالى، إن قصد اقتران الاسمين وزاد الطاعة لوقوعها

فى الآية والحديث، فالأمر فى الحقيقة ظاهر من غير ارتكاب شىء مما قالوه، وإن أراد بيان كل منهما على اللف والنشر، لأن فى كليهما اقتران الاسمين فظاهر أيضًا، وإن أراد اقتران الطاعتين والاسمين فى كل منهما فهو الذى يحتاج للتكلف، ومن ذكره خبر مقدم وإن قرن مبتدأ مؤخر، وأما كون من مبتدأ لأنها بمعنى بعض كما قيل فى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ [البقرة:٨] فى البقرة فلا وجه له.

(فجمع بينهما بواو العطف المُشَرِّكة) بكسر الراء المشددة وضمير بينهما للاسمين، وقيل للاسمين والطاعتين وجعلها مشتركة لإفادتها لمشاركة المتعاطفين فى الحكم من غير ترتيب، والجمع به دال على التعظيم والمناسبة بخلاف ثم لدلالتها على تفاوت الرتبة لا التسوية، وكذا الفاء والواو محتملة للأمور الثلاثة التقدم والتأخير والمعية على التصحيح. **(ولا يجوز جمع هذا الكلام فى غير حقه عليه السلام)** قيل: أى جوازًا من غير نهى فلا يباح.

واعلم أن الجواز يطلق فى لسان حملة الشرع على أمور، كرفع الجرح أعم من أن يكون واجبًا أو مندوبًا أو مكروهًا، وعلى مستوى طرفى الفعل والترك وعلى ما ليس بلازم وهو اصطلاح الفقهاء فى العقود وهذا كله ظاهر، والغريب ما فى قواعد الزركشى إن جاز كذا استعملوه فى الوجوب، قال: وهو ظاهر فيما إذا كان الفعل دائرًا بين الحرمة والوجوب، فيستفاد من قولهم يجوز رفع الحرمة فيبقى الوجوب أى تشريك الله تعالى وغيره بالعطف بالواو، فى حكم من الأحكام لا يجوز إلا فى حق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه أمر شرف به رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم كما مر فى تفسير: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح:٤] وقد اعترض بعض الشراح على هذا، وقال: إن القاضى وهم فيه، فإن الذى لا يجوز لغير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جمع اسم الله واسمه مع اسم غير النبى فى ضمير يعود على الله وعلى صاحب الاسم، فلا يجوز لنا أن نستعمله إلا أن يرد عن الله كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب:٥٦] وأما عطف اسم ظاهر بالواو على اسم الله فما أظن أن أحدًا يمنعه، وكيف يختص هذا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٩٨] وقوله: ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥] وفى الحديث القدسى: «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين»(١)، وقيل أيضًا: إن أراد أن مثله لم يرد فى القرآن وغيره فليس كذلك، وإن أراد أنه لا يجوز لنا فأى مانع من أن يقال أطع الله وأطع القاضى أو الأمير لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ

---

(١) أخرجه الترمذى (٢٩٥٣)، والحميدى (٩٧٣)، والبيهقى (٢/٣٧، ٣٨، ٣٧٥).

﴿ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩] وأجاب بعضهم بأن مراده أنه منهى عنه تنزيهًا وأدبًا، لورود الحديث بما يدل على رعاية الأدب فى اللفظ وترك ما يوهم خلافه بالاتفاق، وأطلق نفى الجواز اعتمادًا على تصريح الخطابى وغيره ولا دليل فى الآية لما سيجىء، ولاحتمال الجواز بالتبعية، نعم يشكل هذا بقوله تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥] ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة:٩٨] و﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان:١٤] ومثله فى الحديث إلا أن يقال إنه لبيان الجواز، وهو من الشارع بالفعل أولى وأقوى وأن يختص النهى بالأمة، والله تعالى يفعل ما يريد كما ذكره القرطبى فى معنى الجمع بالضمير، وأن تكون المواضع الواردة مختصة أو الممنوع جمع الأمة معه فلا يرد إلا ولأن فتأمل، وقال تلميذة ابن الحنبلى: قوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩] فيه التشريك بين الطاعتين طاعة الله وطاعة غيره بالواو فى حق غير الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، لكنه بالتبعية ولذا لم يكرر أطيعوا مرة أخرى كما لم يكرر اللام فى حديث: «الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»(١). فى العامة فاندفع ما مر، وقيل: كلام الغزالى فى الإحياء يدل على أنه حرام كما ذكره فى باب آفات اللسان، إلا أن الله تعالى يعفو عن العوام مثله ونقل كلامه وأطال بما هذا محصله، وسيأتى تحقيق هذا المقام فى شرح الحديث الآتى بما يثلج به الصدر إن شاء الله تعالى.

قال: (حدثنا الشيخ أبو على الحسين بن محمد الجيانى الحافظ فيما أجازنيه وقرأته على الثقة عنه) الشيخ من طعن فى السن ثم شاع فى كل من تصدر لإفادة العلوم، وأبو على الحسين بن محمد بن أحمد الغسانى الجيانى، بفتح الجيم وتشديد الياء التحتية وألف ونون تليها ياء النسبة إلى جيان، وهى بلدة بالأندلس، ولد فى المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمائة، وحمل عن ابن عبد البر وغيره من الأئمة، وروى عن ابن الحكم وابن سكرة وزهير وخلق، وتوفى فى ليلة الجمعة لاثنى عشر خلت من شعبان سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، و لم يخرج من الأندلس.

وقوله: «وقرأته على الثقة عنه» الثقة كعدة مصدر وثق به، ومنه إذا أئتمنه واستوثق أحكم، ثم تجوز بالمصدر عن المؤتمن على الحديث وغيره، وشاع حتى صار حقيقة، و لم يعين المصنف رحمه الله تعالى من أراد، قال البرهان: لا أعرفه وكأنه ابن سكرة وقد تقدمت ترجمته.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٥/٥٥)، والترمذى (١٩٢٦)، والنسائى (١٥٧/٧)، وأحمد (٢٩٧/٢)، والدارمى (٣١١/٢)، والحميدى (٨٣٧)، وأبو عوانة (٣٧/١).

وقوله: «أجازنيه» يعنى أنه روى عنه بالإجازة وإن كان يمكنه السماع منه، فذكر أن روايته عنه بواسطة، قال السيد رحمه الله تعالى: وتوثيق مثل المصنف رحمه الله تعالى لشخص يخرجه عن حكم المجهول، وإيهام التعديل فيه خلاف فى كتب المصطلح، فمنهم من قبله بناء على الاحتجاج بالمرسل، ومنهم من قال: لا يكتفى به، ومنهم من فرق بين تعديل العالم وغيره، كقول مالك أخبرنى الثقة، وكذا يقوله الشافعى رضى الله تعالى عنه، وقيل: يقبل ممن عرف أنه إذا أطلق يعنى به معينًا.

وقال أبو حاتم الرازى: إذا قال الشافعى حدثنى الثقة عن ابن جريج فهو مسلم بن خالد الزنجى، وإذا قال: أخبرنى الثقة عن ابن أبى ذئب فهو ابن أبى فديك، وإذا قال: أخبرنى الثقة عن الليث بن سعد فهو يحيى بن حسان، وإذا قال: أخبرنى الثقة عن الوليد ابن كثير فهو عمرو بن أبى سلمة، وإذا قال: أخبرنى الثقة عن صالح مولى التوأمة فهو إبراهيم بن أبى يحيى.

والإجازة يأتى الكلام عليها وهى أن يقول له: أجزتك أن تروى عنى كذا أو جميع مروياتى، وفى تصحيح لفظها كلام فى ابن الصلاح فيه كلام كتبناه فى حاشية ليس هذا محله وهى مقبولة، ولا عبرة بقول أبى طاهر الدباس أنها لا تقبل، نعم هى أنزل من غيرها وإنما قدمها المصنف رحمه الله تعالى لعلو سنده فيها على السماع الذى بعدها وإن كان بينهما فرق.

قال: (**حدثنا أبو عمر النمرى**) هو العلامة الحافظ ابن عبد البر وقد تقدمت ترجمته.

قال: (**حدثنا أبو محمد بن عبد المؤمن**) هو عبد الله بن عبد المؤمن أحد شيوخ ابن عبد البر تقدم ذكره أيضًا، وكذا أبو بكر بن داسة الذى ذكره بقوله:

(**حدثنا أبو بكر بن داسة قال: حدثنا أبو داود السجزى**): وهو سليمان بن الأشعث صاحب السنن وسيد الحفاظ كما تقدم، والسجزى بكسر السين المهملة تليها جيم ساكنة وراى معجمة منسوب إلى سجستان على خلاف القياس، وقيل: إنه منسوب إلى سجز وهو اسم سجزتان، أو بلدة منها، قال فى جامع الأصول: وهو الأشبه، وهو أقليم بقرب خراسان.

قال:(**حدثنا أبو داود الطيالسى، قال: حدثنا شعبة، عن منصور، عن عبد الله بن يسار، عن حذيفة**)رضى الله تعالى عنه (**عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم**): الطيالسى هو هشام بن عبد الملك الإمام المتقن الثبت، ومن ظرف أخباره أنه روى عن سبعين امرأة، وهذا فى غاية الغرابة، وروى عنه أحمد وأبو داود، وقال أحمد: إنه كان فى عصره شيخ

الإسلام، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، توفى سنه سبع وعشرين ومائتين وله من العمر أربعة وتسعون سنة كما فى الميزان.

وأما عبد الله بن يسار فبمثناة تحتية ثم سين مهملة الجهنى الكوفى، أخرج له أبو داود والنسائى، توفى عام إحدى وثلاثين ومائة، وهم عبد الله بن يسار كنيته أبو همام، لكن قال الحافظ البرهان: إنه لم نر لواحد منهما رواية عن حذيفة فى الكتب الستة، وأما خارجها فلا أدرى وليس فى الكتب الستة أحد يقال له عبد الله بن بشار بالموحدة والشين المعجمة انتهى.

وهذا الحديث روى من طرق كثيرة، وأما حذيفة فترجمته مسطورة مشهورة فلا حاجة لذكرها، وشعبة هو ابن الحجاج بن الورد الحافظ أمير المؤمنين فى الحديث كما قاله ابن الجوزى، وممن يقال له هذا اللقب أيضًا سفيان الثورى.

(قال: لا يقولن أحدكم ما شاء الله وشاء فلان ولكن ما شاء الله ثم شاء فلان) قال التلمسانى: وقع فى نسخة بإثبات ما بعد ثم أى ما شاء وعليه صحح العزفى، وفى الطرة ثم شاء بدون ما وهو كذا بخط القاضى وهذا هو الأشهر، وهو المروى فى شرح مسلم للنووى، وهذا النهى تنزيهى لرعاية الأدب بترك العطف بالواو الموهمة للتساوى كما سيأتى، بخلاف ثم الدالة على البعد رتبة وزمانا، وفى شرح التجانى: إنما جاء النهى عن التشريك فى المشيئة بين الله وغيره، لإيهامه أن مشيئة الله تعالى موقوفة على مشيئة غيره تعالى عن ذلك،فإذًا لو خلصت المشيئة لله جاز أن يعلق الفعل على مشيئة غيره مجازًا، ثم التى للتراخى وعطف مشيئة العبد على مشيئة الله على أن تكون ما موصولة، أو عطف مشيئة العبد على مشيئة الله على أن تكون مصدرية، وعلى الوجهين الخبر محذوف أى كائن أو كائنة انتهى.

ثم إنه قيل: إن هذا وإن لم يكن فيه عطف غير اسم الله على اسمه فيه التنفير عما يوهم سوء الأدب لفظًا، واستنباطه مما ذكر على أن قوله: ما شاء الله إلى آخره، وقوله: ما شاء الله وفلان هو شامل لما شاء الله ومحمد، ويعضده ما ورد فى الحديث عن الطفيل أنه رأى ناسًا من اليهود والنصارى فقالوا له: نعم القوم أنتم لولا قولكم ما شاء الله وشاء محمد.

وفى رواية أنهم قالوا له: إنكم تشركون ولا تدرون، فأخبر به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقام خطيبا ونهى عن ذلك وسوغ أن يقال: «ما شاء الله وحده ثم محمد» وقول المصنف رحمه الله السابق لا يجوز هذا الجمع فى غير حقه لا يوجب جوازه فى

حقه فى الأماكن كلها، وإنما يدل على جواز الجمع بين الاسمين والطاعتين، وقد صرح بعضهم بكراهة أعوذ بالله وبك ولولا الله وفلان انتهى.

ثم هذا الحديث روى بلفظ آخر وهو: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد بل قولوا ما شاء الله ثم شئت» قال العلامة الطوفى فى كتاب اللآلى: هذا تنبيه على تراخى رتبة المخلوق على الخالق، والواو تفيد الجمع والتشريك بلا ترتيب.

فإن قيل: قد أقرهم صلى الله تعالى عليه وسلم على قولهم الله ورسوله أعلم ولم يأمرهم أن يقولوا ثم رسوله.

أجيب: بأن فى ما شاء الله وشئت تسوية بينهما فى أصل المشيئة وقوتها لفظًا ولا كذلك الله ورسوله أعلم، فإن أعلميته بالنسبة إليهم حق وبين الله ورسوله اشتراك فى أصل الأعلمية، لأن الله أعلم من الرسول وكل أحد، والرسول أعلم من غيره من الصحابة وغيرهم، ولأنه تعالى صرح بتبعية الخلق له فى المشيئة، لقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] وفيه نظر؛ لأن علم الخلق متأخر عن علمه تعالى أيضًا، وبقى فى هذا المقام كلام سنذكره بعد شرح الحديث الآتى.

(قال الخطابى:) بالمعجمة والتشديد والموحدة، وهو أبو سليمان حمد بفتح الحاء المهملة وسكون الميم، وقيل: اسمه أحمد بن محمد بن إبراهيم البستى المعروف بالخطابى، وجاء عنه أنه قال: إن اسمى الذى سميت به حمد لكن الناس كتبوا أحمد فتركته، قيل: إنه نسبة إلى زيد بن الخطاب بن نفيل العدوى أخى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، قال الذهبى: لم يثبت هذا، وكان رأسًا فى سائر العلوم لاسيما الحديث والفقه والأدب، شافعى المذهب، أخذ العلوم عن كثيرين، فالفقه عن القفال، واللغة عن أبى عمرو الزاهد، وصنف التصانيف الجليلة المشهورة، منها: معالم السنن، وغريب الحديث، وشرح أسماء الله الحسنى، وغير ذلك، وله شعر حسن توفى ببست سنة ثمان وثلاثمائة رحمه الله.

(أرشدهم صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الأدب فى تقديم مشيئة الله على مشيئة من سواه) أرشده دله وهداه لما فيه الرشاد والصلاح، وفى المصباح عن أبى زيد يقال: أرشده إليه وله وعليه، والأدب رياضة النفس ومحاسن الأخلاق، وفعله أدبته وأدبته ومنه أدبه تأديبًا إذا عاقبه على إساءته، لأنه يدعوه إلى حقيقة الأدب أى دلهم على رعاية الأدب فى كلامهم هذا، وأما الأدب المعروف بين الناس ومنه العلوم الأدبية فاصطلاح لم يرد فى كلام العرب العرباء، والمشيئة الإرادة وفرق الحنفية بينهما كما فصلوه فى

الأصل والفرع لكنهما متقاربان معنى وليس هذا محل تحقيقه، وقال ابن عطاء الله: الأدب الوقوف مع المستحسنات.

(واختارها بثم التى للنسق والتراخى بخلاف الواو التى هى للاشتراك) ضمير اختارها لمطلق المشيئة أو لمشيئة الله أو لمشيئة من سواه، أى اختار المشيئة ملتبسة على المشيئة بثم على المشيئة بالواو وليس هذا من باب الحذف والإيصال، وأصله اختار لها كقوله تعالى عز وجل: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ﴾ [الأعراف:١٥٥] فإنه لا داعى له هنا، أى أرشدهم إلى أن يراعوا الأدب فى هذا، بتقديم مشيئة الله وتأخير مشيئة غيره معطوفة بثم، والنسق بأحد الحروف المشهورة من نسقه إذا ضمه، والتراخى تفاعل من الرخاء وأصل معناه الاتساع، ومنه تراخى الأمر تراخيًا امتد زمانه، وفى الأمر تراخ أى فسحة كما فى المصباح، والواو لمطلق الجمع والاشتراك فى الحكم ونحوه من غير دلالة على ترتيب، ولا تنافيه فى الواقع أيضًا، فليس فى ذكرها رعاية الأدب والدلالة على عدم المساواة، بل ربما يوهم خلافه لاسيما إذا لوحظ العدول عن ثم إليها، فاندفع ما قيل من أن الواو لمطلق الجمع لا للمساواة الدالة على ترك الأدب، وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى هو الصحيح عند النحاة، وقد أنكر الفراء دلالة ثم على التراخى، وقال بعضهم: إن الواو تفيد الترتيب والترتيب يكون حقيقيًا رتبيًا وذكريًا، ولابن عبد السلام كلام فيه فى كتاب المجاز كفانا ترك المصنف له مؤنة ذكره، وهذا الحديث أخرجه أبو داود والنسائى غيرهما وهو حديث صحيح، ثم إنه قيل هنا: إن المنع فى الحديث إن كان لأجل الجمع بين الله وغيره فى حكم الإتيان بالواو فالاستشهاد به ظاهر، وإن كان الأمر فى المشيئتين فهو يدل على النهى عما يوهم خلاف الحق وترك الأدب، فيفيد مدعى المصنف استنباطًا فلا يرد عليه أن المنع فى الحديث إنما هو لأجل أن مشيئة العبد متأخرة عن مشيئة الله تعالى لا العطف والجمع، وأيضًا فى الكلام إيهام توقف مشيئة الله على مشيئة العبد فمنع لهذا؛ لأنه على التقديرين يفيد مدعاه أيضًا كما مر، ثم أن ظاهر كلام المصنف يقتضى أنه لا يمنع الجمع بين مشيئة الله ورسوله بالواو، وينافيه ما رواه البيهقى رحمه الله تعالى فى حديث طويل: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد» فإن صح خص بما ذكره المصنف من الطاعة والإيمان ونحوه مما لم يرد فيه نهى.

(فائدة) فى بعض الشروح أن قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» إذا ضم لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: ٣٠]، أنتج أن ما تشاءون كائن لا محالة، وهو خلف لتخلف كثير من مشيئتهم، وأجيب بأن المعنى ما تشاءون شيئًا كائنًا إلا ما شاء الله كينونته.

(**ومثله الحديث الآخر**) أى هو مثله فى التنزيه عما يوهم من العبارة، وهو حديث صحيح فى صحيح مسلم وسنن أبى داود مسندًا (**أن خطيبا خطب عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم**) هذا الخطيب هو عدى بن حاتم كما قاله الطوفى، وقال البرهان الحلبى: لا أعرف اسمه، وقال بعض الحفاظ: إنه ثابت بن قيس بن شماس وهو خطيب الأنصار الصحابى الأنصارى الذى شهد له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالجنة، وأن فى عبارة المصنف مفتوحة ويجوز كسرها على الحكاية، والخطبة مصدر خطب ويطلق على الكلام نفسه وهى معروفة، وهذا الخطيب كان قد خطب قومه عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على عادة العرب فى الخطب للأمور المهمة، وللنكاح قاعدًا أو قائمًا، وكذا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يخطب للأمور، ثم حدث المنبر بعد الهجرة.

(**فقال: «من يطع الله ورسوله فقد رشد»**) قال فى المصباح: الرشد الصلاح وهو خلاف الغى والضلال، ورشد رشدًا من باب تعب، ورشد يرشد من باب قتل فهو راشد، والاسم الرشاد، ويتعدى بالهمزة انتهى. وقد قال مثله غيره من أهل اللغة فشين رشد فى الحديث مفتوحة وهو المشهور رواية، ويجوز كسرها، وروى من باب علم أيضًا.

ومن الغريب ما حكاه السبكى فى طبقاته أن شهاب الدين بن المرجل قرأ على الحافظ المزى رشد بكسر الشين فرد عليه وقال: رشد بالفتح، وقال له: قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦] فقال ابن المرجل: وكذلك قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٤] فسكت يعنى الحافظ أن يفعل المضموم مضارع فعل مفتوحًا أو مضمومًا، والثانى غير محتمل فتعين الأول فأجابه بأن مصدره ورد على فعل بالتحريك وهو مصدر فعل المكسور.

قال ابن هشام: والذى فى كتاب سيبويه رشد كسخط فجاء السماع على وفق سماع ابن المرجل فلله دره، قال السبكى رحمه الله: ولا وجه للقياس مع الرواية فإن المروى فى الحديث هو المشهور فى اللغة انتهى. وكذا نقله السيوطى فى شرح سنن أبى داود، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.

(**ومن يعصهما**) قيل: آثر المصنف رحمه الله تعالى رواية الوقف على يعصهما ليظهر منشأ القول بأن المنع للوقوف وإن لم يرض به كما ستراه، وقد خفى هذا على المعلقين انتهى. قلت: كيف يخفى وقد ذكره الدلجى فلا ينبغى مثله من مثله.

(فقد غوى) فى النهاية: غوى يغوى من باب ضرب، والغى والغواية الضلال والانهماك فى الباطل، وفى شرح سنن أبى داود غوى روى بفتح الواو وكسرها، قال عياض: والصواب الفتح انتهى.

(فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم «بئس خطيب القوم أنت قم أو قال اذهب») وفى سنن أبى داود «قم اذهب بئس خطيب القوم أنت» فإن لم تتعدد القصة فبعضها رواية بالمعنى إلا أن قوله: «أو قال» يقتضى شك الراوى، ويحتمل أنه اختلاف فى الرواية إن كان القائل غير الراوى الأول، وهو معطوف على مقدر مثله أو هو معطوف على الأول فتدبر، و لم يكتف بقوله: «بئس» إلى آخره حتى زاد طرده للزجر تنبيهًا على أن من لا أدب له لا يصلح لصحبته والتكلم بحضرته، والمراد بقم أيضًا اذهب من مجلسى كما قال:

كأس إذا أبصرت فى القوم محتشما فى الحال قالت له قم غير مطرود

وأما على الرواية الأخرى فاذهب بدل من قم مفسر له أو بإسقاط العاطف أى قم فاذهب، وبئس مستوف لجميع الذم كاستيفاء نعم لجميع المدح، وقم لما كان المراد به الطرد كما عرفته لم يقتض كونه قاعدًا، وهذه الخطبة يخطبها القاعد والقائم كخطبة النكاح، فمن قال: لعله كان يخطب قاعدًا ولعلها لم تكن خطبة مشروعة كالجمعة، فإنها يجب فيها القيام لغير عاجز بل خطبة نصيحة أو مفاخرة على عادتهم فقد أخطأ فى فهم المراد، وكيف يتوهم أن يخطب للجمعة غيره بحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم.

(قال أبو سليمان:) هو الخطابى **(كره)** أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم **(منه الجمع بين الاسمين بحرف الكناية)** أى كره أن يعبر عنهما بضمير واحد، ففيه مضاف مقدر أى بين مسمى الاسمين بكلمة واحدة وهى ضمير التثنية فى قوله يعصهما، والحرف لها معان منها الوجه والكلمة المخصوصة عند النحاة ومطلق الكلمة والطريقة، قال الأزهرى فى التهذيب: كل كلمة تقرأ على وجوه من القرآن تسمى حرفًا، فيقال: هذا حرف ابن مسعود رضى الله تعالى عنه، أى الكلمة التى قرأها أو قراءته، ومنه الحديث: «أنزل القرآن على سبعة أحرف»(١) فى أحد الأقول، وللناس فيه كلام كثير حتى أفرد بالتأليف، وأما مجىء الكناية بمعنى الضمير فاصطلاح كما فى الكشاف فى أول سورة البقرة، وقال الرضى: الكناية فى اللغة والاصطلاح أن يعبر عن معنى لفظا كان أو معنى بلفظ غير صريح فى الدلالة عليه، إما للإبهام على السامع كجاءنى فلان

---

(١) تقدم تخريجه.

أو للاختصار كالضمائر الراجعة إلى متقدم انتهى.

فحرف الكناية بمعنى وجه الكناية أو طريقة الكناية أو كلمتها وهى الضمير، وهذا مما لا شبهة فيه، وإن نوقش فى الاختصار بأن بعض الضمائر أطول من بعض الظواهر كزيد وإياه، فقيل: بأنه أغلبى، وعدل عنه الشريف فى شرح الكشاف وعلل بدفع التكرار، والأمر فيه سهل، فمن قال هنا: حرف الكناية آلته وهى ضمير الغائب بأن أراد معناها من ضمير واحد، والحرف لغوى أفرد لإرادة الجنس أو لشدة الاتصال، ولأنه الأصل لها.

وقال الرضى: الكناية غير الصريح لدلالته على المعنى بواسطة المرجع، ولا يخفى أن أنا وأنت فيهما تصريح بالمراد، وقال التلمسانى: الضمير مطلقا يسمى كناية من الكن وهى الستر انتهى.

فقد نفخ في غير صوم فإنه كيف يعد صريحا وهو صادق على كل متكلم ومخاطب، وإنما يدل صريحًا بواسطة حضور معناه، والعجب ممن نقل إطلاق الحرف على الكلمة عن حواشى الشمسية للعماد وممن تبعه، وقال: إنه اصطلاح منطقى، وفى الشرح الجديد أن الكراهة هنا تنزيهية وكلام الإحياء يقتضى أنها تحريمية، وفيه أن ثابتا كان خطيب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كما كان حسان رضى الله تعالى عنه شاعره، ولما قدم وفد تميم على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقام خطيبهم فخطب وافتخر، قام ثابت رضى الله تعالى عنه فخطب بكلام جزل، وهو من كبار الصحابة الأنصار شهد المشاهد فبشره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالجنة كما ورد فى الحديث، فكيف يقال له: «بئس خطيب القوم أنت»، وأجاب عنه بأنه لا ينافى ذلك زجره لخطأه بمخالفة الأدب، لاسيما وقد ورد فى الحديث الصحيح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «شارطت ربى فقلت: اللهم إنما أنا بشر فأى المسلمين لعنته أو سببته أو آذيته وشتمته فاجعله له زكاة وأجرًا ورحمة»(١) وفى رواية: «اجعله كفارة له يوم القيامة»(٢) وفى رواية أبى داود فى السنن بدل قوله فقد غوى: «فإنه لا يضر إلا نفسه».

(لما فيه) أى الجمع **(من التسوية)** الآتى بيان المراد بها **(وذهب غيره إلى أنه إنما كره له الوقوف على بعضها، وقول أبى سليمان أصح لما روى فى الحديث أنه قال: «ومن يعصهما فقد غوى» ولم يذكر الوقوف على يعصهما)** وقال النووى: الصواب أن سبب النهى أن الخطبة شأنها الإيضاح واجتناب الرمز، ولهذا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا لتفهم لا كراهة الجمع بين الاسمين بالكناية، لأنه ورد فى

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٢/٩٤)، وأحمد (٤٥٤/٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠١/٩٣).

مواضع منها قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» وقال العلائي في كتاب الفصول المفيدة: قيل في الجمع بين هذه الأحاديث وجوه:

منها: أن هذا خاص بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فإنه يعطي مقام الربوبية حقه، ولا يتوهم فيه تسوية له بما عداه أصلاً بخلاف غيره من الأمة فإنه مظنة التسوية عند الإطلاق والجمع في الضمائر بين الله وغيره، فلذا أجاز الجمع بينهما في كلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في قوله: «من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» وغير ذلك، وأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الخطيب بالإفراد لئلا يوهم كلامه التسوية، والمخاطب الوفد الذين قرب عهدهم بالإسلام، ومثله قوله: «لا تقولوا ما شاء الله وشئت»(١) إلى آخره، ويعلم منه ما في كلام الله بالطريق الأولى، ويرد عليه حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه الذي علم فيه الأمة ما يقولونه عند الحاجة، فإن فيه: «ومن يعصهما» فيدل على عدم الخصوصية إلا أن يقال: يؤخذ من مجموع الحديثين أنهم يقولون في خطبة الحاجة ومن يعص الله ورسوله ولا يجمع فيها وفيه نظر.

ومنها: أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حين أنكر على ذلك الخطيب، كأن هناك من يتوهم منه التسوية بين المقامين عند الجمع في الضمير، ولعل هذا أقرب مما قبله.

ومنها: أن ذلك الجمع لم يكن على وجه التحتم، بل على وجه الندب والإرشاد إلى الأول لما في أفراد اسم الله عز وجل من التعظيم له، بدليل أنه ورد خلافه في الأحاديث وهو قريب مما قاله الأصوليون من أن الواو لا تفيد الترتيب.

ومنها: أن ذلك الإنكار كان مختصًا بذلك الخطيب؛ لأنه فهم منه التسوية فيختص بمن كان حاله كذلك، ولعل هذا الجواب هو الأقوى لأنها واقعة حال وذاك احتمال، إلا أنه إذا انضم إليه حديث أبي داود الذي علم فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أمته كيفية خطبة الحاجة قوى الاحتمال، ومثله قيل في حديث: **(لا تفضلوني على موسى عليه الصلاة والسلام)** انتهى.

أقول: في هذا المقام اضطراب وإشكال، لأن مقصود المصنف رحمه الله تعالى ذكر ثناء الله على رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم وما يدل على رفعة قدره، فلما انتهى إلى أنه رفع ذكره حيث قرنه بذكره وأدرج فيه أنه قرن طاعته بطاعته بالواو المشتركة، عقبه

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٧٢)، والدارمي (٢/٢٩٥)، وابن حبان (١٩٩٨)، والحاكم (٣/٤٦٣)، وعبد الرزاق (٣٠٦٤، ١٩٨١٣).

بحديث النهى عن قول ما شاء الله وشاء فلان مؤيدًا به أنه لا يجوز العطف بالواو فى حق غير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بناء على هذه الرواية، والنهى عن عطف مشيئته بالواو دون ثم، ثم ترقى إلى النهى عن جمع اسم الله وغيره فى كلام واحد، وهو كلام متجاذب الأطراف بحسب الظاهر سواء، قلنا: النهى تنزيهى على الصحيح أو تحريمى، لكن إذا تأملت كلامه وجدته مخالفًا لما فى نفس الأمر، فإن العطف بالواو على اسم الله لا يختص بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لوروده فى حق غيره صلى الله تعالى عليه وسلم، كثيرًا فى القرآن والحديث، ولا مانع منه عقلا وشرعا، والحديث الأول فيه رواية أخرى صحيحة كما مر «ما شاء الله وشاء محمد» فلا يكون مؤيدًا له بل مخالفًا، وجمع الضمير ورد فى القرآن والأحاديث كقوله: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

ولما رأى هذا مخالفًا للمأثور ذهب بعضهم إلى التوفيق وبعضهم إلى التلفيق، فقال بعضهم: إنه كان فى ابتداء الهجرة ثم نسخ، وقيل: الخطبة شأنها الإفصاح وأن كلام الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، جملة واحدة إيقاع الظاهر فيها قليل لغة بخلاف كلام الخطيب، وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لو أفرد كان معظمًا، وهو أعظم الناس تواضعًا، وقيل: إنه أدب شرعى مخصوص بغير كلام الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فلا يرد ما فى القرآن والحديث، وقيل: فعله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لبيان الجواز.

وأما الحديث الأول فذهب بعض المحققين إلى أنه مخصوص بالمشيئة لقوله: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] فإنه ندب لتعليق الأمور بمشيئة الله وحده، فلا يجوز تشريك مشيئة غير الله بمشيئة سواء فى ذلك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وغيره إلا بثم الدالة على التراخى، فإن نفس مشيئة العبد بمشيئة الله أيضًا لأنه الذى خلق فيه الدواعى، وغاية ما يوجه به كلام المصنف أنه مكروه عنده فى حق غير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذا كان فى كلام غير الله وكلام الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لما فيه من الإبهام، وإنه لما ذكره فى العطف أتى بالمشيئة وما بعده استطرادًا.

إذا عرفت هذا فقوله لما فيه من التسوية أى فى تثنية الضمير وجمعه تسوية بينهما، لأنه لفظ واحد متصل لاسيما إذا لوحظ العدول عن العطف الدال على التفاوت بالتقديم والتبعية، ولذا قال: ليقل ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الجن: ٢٣] وليس فى الواو تسوية عند المصنف رحمه الله تعالى كما قيل، بل تشريك، إذ الواو تقتضى التغاير

والاستقلال لقيامها مقام تكرار العامل أو تقديره معها، وقول النحاة العطف بالواو بمعنى الضمير لم يريدوا من جميع الوجوه.

وقوله: ذهب غيره أى غير الخطابى إلى أنه كره من الخطيب وقوفه على يعصهما بناء على أنه فعل ذلك لعى أو سعال أو نحوه، فيوهم عطفه على الفاعل فيكون العاصى راشدًا وهو فاسد، قيل: المراد بالوقوف سكتة خفيفة بقطع النفس لا قطع الكلام مرة واحدة كما مر، وإنما سكت إشارة لمحل الذم واكتفاء بالمقصود وتنبيهًا على جواز الحذف، أو ذهولاً ونسيانًا ولا حاجة لما تكلفه وصرفه عن ظاهره.

وقوله: وقول أبى سليمان أصح، أى: من القول بأن الإنكار عليه لوقفه لا للجمع فى الضمير، لأن قوله له قل: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الجن:٢٣] صريح فيه، وأما القول بأن الجمع وارد أيضًا إلى أخره فقد عرفته وما فيه فلا حاجة للتطويل به، وأما قوله أصح دون الصحيح فلأن عدم ذكره الوقوف والرد عليه بما مر، والرد عليه بما ذكر لا يعينه لاسيما مع احتمال تعدد القضية.

(وقد اختلف المفسرون وأصحاب المعانى) قال بعض الشراح: لم يرد بعلم المعانى هنا علم البلاغة المشهور، بل أراد من لهم زيادة اختصاص بالبحث عن معانى الكتاب والسنة غير المفسرين بقرينة المقابلة، وجوز أن يراد المعنى المعروف لما فيه من المجاز الذى هو من مباحثه كما سيأتى.

(فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب:٥٦] واو **يصلون راجعة)** وعائدة **(على الله تعالى والملائكة أم لا؟)** وفى نسخة «وعلى ملائكته» ورجع يتعدى بعلى وإلى، والمراد بالرجوع والعود إرادتهما منه بقرينة ما قبله وهو معروف غنى عن الشرح، وهل هنا بمعنى الهمزة فلذا عادلتها، أم كما ورد فى الحديث «هل تزوجت بكرًا أم ثيبًا؟» والكلام عليه مبسوط فى محله. وقوله: فى قوله متعلق باختلف والتقدير المشهور فى أمثاله اختلفوا فى جواب هل إلى آخره إذ لا اختلاف فى الاستفهام، وإنما الخلاف فى الرجوع وعدمه، فهل الضمير عائد على الله تعالى والملائكة أم على الملائكة فقط، وخبر الجلالة محذوف أى أن الله يصلى وملائكته يصلون.

(وأجازه) على الرجوع إليهما **(بعضهم ومنعه آخرون لعلة التشريك)** أى للزوم التشريك بين الله والملائكة والتسوية بينهما فى عبارة واحدة، وهو ضمير الواو، وإن كان معنى الصلاة فى حقهما واحدًا كما مر، من أنه ممنوع لما فيه من عدم رعاية التعظيم الدال على التفريق بالتفريق أو بنفسه على ما فيه، فإن كان هذا التعليل نقل

مذهبًا لبعض من منع فلا كلام فيه، والمصنف رحمه الله تعالى ثقة وأجل من أن يكون لم يفهم مرادهم، فسقط ما فى بعض الشروح من أنه لم يقله أحد سواه.

والمنع له علة أخرى مذكورة فى كتب أصول الفقه وهى لزوم استعمال اللفظ المشترك فى معنييه، أو الجمع بين الحقيقة والمجاز، فإنهم قالوا: «الصلاة من الله تعالى رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن الآدميين تضرع ودعاء» فإن كانت هذه معان حقيقية لزم الأول، وإلا بأن يكون فى واحد منها حقيقة وفى غيرها مجازًا لزم الثانى.

وأجيب: بأنه على تسليم صحة النقل من عموم المجاز، وهو استعماله فى معنى عام مجازى شامل لهما على الاحتمالين أو من عموم المشترك، فلا يلزم ما ادعاه المجوزون الذين استدلوا بهذه الآية، وبأن المنع على ما ادعاه المصنف رحمه الله تعالى إنما هو فى غير الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى مقام يوهم تسوية الله بغيره، لأنه حق لهما يفعل الله فيه ما يشاء، ويخلعه عمن يشاء وهو لا يسأل عما يفعل كما مر تحقيقه، وقد صرح به القرطبى فى تفسيره هنا.

وفى تفسير القاضى لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤٣] يصلى عليكم بالرحمة وملائكته بالاستغفار لكم، والاهتمام بما يصلحكم، والمراد بالصلاة المعنى المشترك وهو العناية بصلاح أمركم وظهور شرفكم، مستعار من الصلاة بمعنى الدعاء وقيل الترحم، والانعطاف المعنوى مأخوذ من الصلاة المشتملة على الانعطاف الصورى، وفى دقائق المنهاج للنووى أن التفسير المذكور للصلاة شرعى، وكلام شيخ الإسلام زكريا يقتضى أنه لغوى.

(واعلم أن فى تفسير الصلاة كلامًا لنا فيه رسالة مستقلة وليس هذا محلها) فحسبك من القلادة ما أحاط بالجيد **(وخصوا الضمير بالملائكة وقدروا الآية أن الله يصلى وملائكته يصلون)** أى: من ذهب إلى أن العلة التشريك ولم يجوزه مطلقا، خص الضمير بالملائكة وقدر فى الأول خبرًا، فالتقدير عنده أن الله يصلى وملائكته يصلون، فحذف من الأول ما يدل عليه الثانى على عكس المشهور فى الحذف والتقدير، ولكن مثله جائز إن قرأ بنصب ملائكته عطفًا على اسم أن فإن رفع تعين كونه كذلك، وعلته عند المصنف رحمه الله تعالى الهرب من التشريك وعند غيره مامر، وكون الحذف من الأول لدلالة الثانى عليه ضعيف غير مسلم مع أنه قيل عليه أيضًا إنه على هذا التقدير، وإن اندفع التشريك لم يندفع إيهامه بحسب الظاهر من اللفظ.

(وقد روى عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه قال: من فضيلتك عند الله أن جعل طاعتك

طاعته فقال: ﴿**مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ**﴾ [النساء:٨٠]) من فضيلتك خبر مقدم وعند متعلق به، وأن جعل مبتدأ مؤخر والعكس بجعل من التبعيضية لكونها بمعنى بعض مبتدأ خرق للسياج من غير احتياج، وإن ذكره بعضهم فى قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ**﴾ [البقرة:٨] كما مر.

وهذا الحديث قال المخرجون إنهم لم يجدوه فى شيء من كتب الحديث، وإن ورد ما هو بمعناه فى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه: (**من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ومن عصى أميرى فقد عصانى**) (**وقد قال الله تعالى** ﴿**قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ**﴾ **الآيتين** [**آل عمران:٣١**]) هذا يحتمل أن يكون استينافا من المصنف رحمه الله تعالى، ويحتمل أن يكون من كلام عمر رضى الله تعالى عنه أيضًا، وهو المقصود بالذكر هنا، وإنما نقل أول كلامه ليكون مذكورًا بتمامه، فلا يرد عليه ما قيل من أنه قد سبق بلفظه فلا فائدة فيه غير الإطالة، وقيل: إنه لا تكرار فيه على كلا التقديرين لاختلاف المقامين، فإنه أولاً ذكر اقتران اسمه باسمه وطاعته بطاعته لرفع ذكره وإعلاء قدره، وذكره هنا لأن الله عظمه مع تأدبه مع ربه فجعل طاعته نفس طاعته، ولا يخفى أنه لا محصل له، نعم لك أن تقول: إن ما نحن فيه أبلغ مما مر فيكون ترقى فى مدحه، لأن اقتران شيء بشيء دون كونه عينه بحيث لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر، وأن من عصى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، عصى الله فإن كان هذا مراده فمرحبًا بالوفاق، وعلى كل حال فليس فى ذكر هذا مع ما مر كبير فائدة، فلو اقتصر على أحدهما حصل المراد، وقال القاضى فى تفسيره: المحبة ميل النفس إلى الشيء لكمال أدرك فيه بحيث يحملها على ما يقربه إليه، والكمال الحقيقى ليس إلا الله عز وجل وأن ما يراه العبد كمالا من نفسه أو من غيره فهو من الله وبالله وإلى الله، فلا ينبغى المحبة إلا لله وفى الله، وذلك يقتضى إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه له، فلذا فسرت المحبة بإرادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ومطاوعته، وبهذا علمت وجه الملازمة فى الشرطية.

وقال الإمام: اتفق المتكلمون على أن المحبة نوع من أنواع الإرادة، وأن الإرادة لا تعلق لها إلا بالحوادث والمنافع فيستحيل تعلقها بذاته وصفاته، فإذا قيل: العبد يحب الله فمعناه يحب طاعته وثوابه ونحوه، وأما محبة الله له فهى عبارة عن إرادة الخير له فى الدارين، ونقل الشارح الفاضل أن العارفين قالوا بأن العبد يحب الله لذاته، وأما حبه لشيء آخر فدرجة نازلة، والقول الأول ضعيف؛ لأنه لا يمكن أن يقال: إن كل شيء إنما كان محبوبا لمعنى آخر، إذ لا بد من الانتهاء إلى شيء يكون محبوبا لذاته، فكما نعلم أن

اللذة محبوبة لذاتها كذلك نعلم أن الكمال محبوب لذاته، فمن سمع أخبار رستم فى شجاعته مال قلبه إليه مع القطع بأن محبته معصية، فعلمنا أن الكمال محبوب لذاته وأكمل الكمال لله فيقتضى أنه محبوب لذاته من ذاته، وقيل: المراد هنا إن صدقتم فى دعوى المحبة فاتبعونى فإن اتباعى علامة ذلك، فإذا اتبعتمونى يزيدكم الله فضلا فيحبكم فتعم الملازمة أو هى أمر اعتبارى، أى إنما تعتبر محبتكم باتباعى أو هى قضية اتفاقية أو بواسطة قضية ضرورية عرفية.

أقول: هذا محصل ما قالوه، وفى الشرح الجديد هنا كلام طويل من غير طائل، والحق الحقيق بالقبول أن المصنف رحمه الله تعالى قصد بعدما ذكر أن الله رفع ذكره وطاعته قرينى ذكره وطاعته، أن يبين أن طاعته تقتضى محبة الله تعالى ورضوانه الذى هو أكبر من جميع ما مر، لأن محبة الله واجبة إذ بها يكمل الإيمان، فإنه لا يؤمن أحد حتى يكون الله أحب إليه من نفسه. وحبه لا يكون إلا بطاعته، إن المحب لمن يحب مطيع، وطاعته إنما تكون بطاعة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنها أعظم مأمور به لقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء:٥٩] ومتابعة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم اتباعه فى أوامره ونواهيه، فإذا كان هذا تحقق محبة الله ومن أحب الله أحبه كما قيل:

لا وحق الخضوع عند التلاقى ما جزا من يحب إلا يحب

وبهذا علمت أن ذكر آية الطاعة أمر لازم هنا ليتم الدليل على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أحب الخلق إلى الله تعالى، لأنه يحب من اتبعه، فادعاء التكرار من قصور الانظار، وما بعده من فتق الديباج وترقيعه بالخيش، وبهذا عرفت معنى محبة الله لعبده ومحبة عبده له.

وروى كما رواه ابن الجوزى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وابن المنذر عن مجاهد وقتادة **(أنه لما نزلت هذه الآية قالوا)** أى الكفار أو المنافقون، والقائل منهم عبد الله بن أبى بن سلول، لعنه الله، نزل قوله منزلة قولهم كلهم لعظمته عندهم.

(أن محمدًا يريد أن نتخذه حنانا كما اتخذت النصارى عيسى) صلى الله تعالى عليه وسلم **(فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾** [آل عمران:٣٢] **فقرن بطاعته رغمًا لهم)** الحنان بفتح الحاء المهملة بعدها نون مخففة يليها ألف ونون ومعناه الرحمة والعطف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [مريم: ١٣]، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: ما أدرى ما الحنان.

وفى النهاية: إن ورقة مر ببلال رضى الله تعالى عنه وهو يعذب فى الله فقال: والله

لئن قتلتموه لاتخذته حنانا، والحنان الرحمة والعطف والرزق والبركة، أى لأجعلن قبره موضع حنان أى مظنة رحمة وبركة فأتمسح به كما يتمسح بقبور الصالحين الذين قتلوا فى سبيل الله من الأمم الماضية، والمعنى على هذا هنا أن محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم يريد أن يجعلنا ممن نتبرك به ونخضع له خضوعًا يؤدى لعبادته، كما عبدت النصارى عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، لأن محبة الله بالإطاعة والخضوع له بالعبادة، وقد جعل اتباعه يتوقف عليه محبة الله.

قيل: وفيما ذكره صاحب النهاية نظر، لأن بلالاً رضى الله تعالى عنه إنما عذب بعدما أسلم وورقة مات قبل البعثة وفيه تأمل. فإنه قيل: إن القائل ذلك زيد بن عمرو بن نفيل، وأما قول المعترض أن ورقة أسلم قبل البعثة فليس بصحيح لما فى البخارى مما يخالفه صريحًا، وإنما الذى لم يدرك البعثة زيد المذكور، والنصارى مفرده عند سيبويه نصران ومؤنثه نصرانة و لم يستعمل بياء النسبة، وقال الخليل: واحده نصرى كمهرى ومهارى. وقيل: هو منسوب إلى نصرة وهى قرية نزلها عيسى عليه الصلاة والسلام. وقال قتادة: هى ناصرة ولكنه غير فى النسب، ونصارى ممنوع من الصرف للألف وهم قوم عيسى عليه الصلاة والسلام، وقد افترقوا فرقًا بسبب قصة يونس المفصلة فى التواريخ وذكرها هنا التلمسانى أيضًا.

وعيسى ابن مريم بنت عمران بن ماتان، قال التلمسانى: لم يذكر الله امرأة فى القرآن باسمها إلا مريم ذكرها فى نحو ثلاثين موضعًا، والحكمة فيه أن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائر زوجاتهم بأسمائهن، بل يكنون عنهن بالأهل والعيال ونحوه، فإذا ذكروا الإماء لم يكنوا و لم يحتشموا عن التصريح، فلذا صرح باسمها إشارة إلى أنها أمة من إماء الله، وابنها عبد من عبيد الله ردًا على اليهود الذين قالوا فى عيسى عليه الصلاة والسلام ومريم ما قالوه، وهو كلام حسن جدًا، وعيسى ليس بمشتق من العيس بمعنى البياض لأنه اسم أعجمى معرب، والاشتقاق مختص بكلام العرب وإن كانوا إذا عربوه ألحقوه بكلامهم وتصرفوا فيه، فقد يفرضون اشتقاقه لبيان وزنه وحكمه.

وعيسى عليه الصلاة والسلام رفع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة أو أربع وهو الأشهر عند المفسرين والمحدثين، وقيل: ثمانين سنة، وقيل: مائة وعشرين سنة كما نقله ابن حجر فى الإصابة، واختلف أيضًا فى مكثه فى الدنيا بعد نزوله من السماء، فقيل: سبع سنين، وقيل أربعين، وقيل: غير ذلك. ونزول الآية ردًا لما قالوه لأمره بطاعته وتوقيره بما يليق به ففيه تكذيب لهم وتسفيه.

ورغما بالراء المهملة والغين المعجمة والميم مثلث الراء بمعنى تذليل وقهر وإكراه،

وأصله من الرغام وهو التراب؛ لأن المهان يسحب فى الأرض على التراب، ثم عم فقيل: أرغم الله أنفه ورغما عليه أى قهرًا وذلاً وغيظًا وهو منصوب مفعول له، أى إرادة ذلك بهم وتحصيله، وفيما ذكر من تعظيمه صلى الله تعالى عليه وسلم وتذليل أعدائه أتم مناسبة بغرض المصنف رحمه الله هنا.

(وقد اختلف المفسرين فى معنى قوله تعالى فى) سورة **(أم الكتاب)** وهى سورة الفاتحة، ولها أسماء كثيرة مبينة فى محلها لا حاجة لنا بذكرها هنا، ووجه هذه التسمية فيها وجوه أشهرها أنها سميت به لأنها مبتدؤه ومفتتحه فكأنها أمه، أو لاشتمالها على مقاصده إجمالاً، ووجه التسمية لا يلزم اطراده مع ما فيها من المرجحات وفيه تحقيقات تكفلت بها شروح الكشاف فعليك بها إن أردتها.

(اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم، فقال أبو العالية والحسن البصرى): تقدمت ترجمته، أما أبو المعالية فهو اسم مشترك، والذى رجحه الشراح أنه رفيع بن مهران التابعى الذى أسلم فى خلافة الصديق رضى الله تعالى عنه، فإنه خرج له الشيخان وله تفسير، مات فى سنة تسعين على الصحيح، وقيل: هو زيادة بن فيروز البراء بتشديد الراء المهملة، لأنه كان يبرى النبل، وهو أيضًا ممن خرج له الشيخان، ومات فى سنة تسعين أيضًا. وتردد بعضهم فى المراد به هنا، ورفيع بالتصغير كما قاله النووى فى تهذيبه الرياحى نسبة لامرأة من بنى رياح أعتقته سائبة فهو مولاها، أسلم بعد عامين من موت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وروى عنه أصحاب الكتب الستة، ومعنى السائبة أن يعتق ويترك ولاؤه وميراثه طلبًا للأجر، وهذا مما كان فى الجاهلية، ونهى عنه فى الإسلام، وهذا التفسير مما أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية عن ابن عباس رضى الله عنهما وصححوه، ورواه الحسن البصرى كما ذكره المصنف رحمه الله تعالى، وتسميتها أم الكتاب وأم القرأن على طريق الاستعارة مأثور مشهور، وإن أطلق الأول على غيره كاللوح المحفوظ، والقول بأن هذه التسمية مكروهة مما لا يلتفت إليه وإن ذكره بعضهم تكثير للسواد، وقيل: وإنما صرح المصنف رحمه الله باسم السورة مع ظهوره وكونه على خلاف عادته فيما يذكره من الآيات، لما فيه من تعظيم الله له واعتنائه بشأنه حيث ذكره فى أول كتابه ومبدأ خطابه.

(الصراط المستقيم هو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وخيار أهل بيته وأصحابه) جملة اهدنا الدعائية بيان للمعونة المطلوبة، والكلام على الهداية وتعديتها ومراتبها مفصلة فى حواشينا على تفسير البيضاوى، والصراط جادة الطريق من السرط وهو الابتلاع، ومثله تسميته لقما لأنه يلتقمه، وقرئ بالصاد والسين وباشمامها زائا وبها خالصة فى

رواية ضعيفة وهو يذكر ويؤنث، والمراد به هنا طريق الحق وهو ملة الإسلام أو القرآن أو الإيمان وتوابعه والإسلام وشرائعه، أو السبيل المعتدل، أو طريق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما، أو النبيين عليهم الصلاة والسلام، أو طريق الجنة أو طريق السنة والجماعة، أو طريق الخوف والرجاء، أو جسر جهنم وهذا ما عليه أكثر المفسرين.

قال الإمام السهيلى: ويرد على بعضها أن المراد بهذا ما بعد من قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ﴾ إلى آخره.

قلت: هذا ليس بمتفق عليه، نعم يرد على ما ذكره المصنف أنه إذا فسر بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه يصير المعنى اهدنا النبى وصحبه، ولا معنى له إلا بتقدير طريق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ونحوه، وفيه ركاكة لا تخفى، ولذا قيل: الظاهر على هذا أنه شبههم بالطريق الحق فى إيصاله للمطلوب، أى: اهدنا إياهم لنؤمن بهم ونتبعهم، وقيل: سمى المرشد للطريق طريقا تسمية للدال باسم المدلول، أى: المسبب باسم السبب فهو مجاز مرسل كما قيل، وفى المعالم حكاية هذا القول بلفظ طريق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فهو إما رواية أو إشارة إلى حذف مضاف فيه كما ذكر، والمستقيم المستوى من غير اعوجاج، والاستقامة تكون حسية ومعنوية، وقوله: «وأصحابه» يجوز فيه الرفع عطفًا على رسول الله أو خيار، ورجح هذا لما سيأتى، والجر عطفًا على أهل بيته وبه جزم فى المقتفى، فالمعنى خيار أصحابه والإضافة بيانية هنا وهناك إذ جميع أهل بيته وأصحابه خيار عدول حتى من لابس الفتن منهم لاجتهادهم، وعلى عدالتهم مشى ابن الهمام فى تحريره وجزم به العراقى وابن عبد البر وعليه الأكثر، وحكى إجماع أهل السنة والجماعة عليه، ويجوز أن تكون الإضافة لامية سواء جعلت الخيرية بمعنى العدالة أم لا لتفاوت مراتبهم فيها، والنعمة لين العيش وخصبه وأصلها من النعومة وهمزة أنعم للتصيير، وهو أحد معانى صيغة أفعل وهى نحو أربعة وعشرين معنى.

(حكاه عنهما أبو الحسن الماوردى) وقد تقدمت ترجمته، وهذا الأثر رواه الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وصححه.

(وحكى مكى نحوه عنهما) وهو أبو محمد بن أبى طالب شيخ الصوفية وأهل السنة، المتبحر فى التفسير وغيره من العلوم، وله تفسير كبير وكتابه القوت كتاب جليل، توفى بقرطبة سنة سبع وثلاثين وأربعمائة، وأصله من القيروان ولد بها ثم انتقل إلى الأندلس وسكن قرطبة وبها توفى ودفن. **(وقال:)** مكى **(هو)** أى الصراط المستقيم فى الفاتحة.

(**رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصاحباه**) العطف إما تفسيرى فالجملة المبنية للمحكى أو هو قول آخر، فللمكى فيه قولان وليست الجملة مستأنفة إلا أن يراد أنها معطوفة على جملة مستأنفة. وقوله: (**أبو بكر وعمر رضى الله عنهما**) بدل من صاحباه أو عطف بيان، وأبو بكر رضى الله تعالى عنه أفضل الصحابة وأسبقهم فى الصحبة، وهو أفضل من طلعت عليه الشمس بعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم باتفاق أهل السنة، ولا عبرة بخلاف الشيعة فيه، أسلم هو وأبواه وابنه وحفدته، وهو الصاحب فى الغار وفى السر والجهار، ولم يزل ملحوظا بعين الرضى موحدًا لم يسجد لصنم قط.

وقال أبو الحسن الأشعرى: لم يزل بعين الرضا منه وقد اختلف فى مراده فقيل: لم يزل مؤمنًا قبل البعثة وبعدها، وقيل: لم يزل بحالة غير مغضوب عليه فيها، لعلم الله بأنه سيؤمن ويصير من خلص الأبرار. وقال السبكى: لو كان كذلك ساواه كثير من الصحابة رضى الله تعالى عنهم فى ذلك، وهذه العبارة لم تثبت عنه والصواب أن يقال لم يثبت عنه كفر بالله.

قلت: هذا هو المعنى الأول بعينه، والذى أراه أن ضمير منه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، والمراد أنه لم يفارقه طرفة عين، ولم يخالفه ببنت شفة وبهذا استحق التقدم على غيره، وتوفى سنة أربع عشرة وله أربع وستون سنة.

وعمر هو ابن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى العدوى أبو حفص أمير المؤمنين، روى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحاديث كثيرة، وروى عنه كثير من الصحابة والتابعين، وقد صنف ابن كثير كتابا مستقلا فى ترجمته وسيرته وما روى عنه، مات رضى الله تعالى عنه سنة ثلاث وعشرين وعمره ثلاث وستون على المشهور وفضائله غنية عن البيان.

(**وحكى أبو الليث السمرقندى**) تقدمت ترجمته (**مثله عن أبى العالية**) السابق ذكره، والمراد بالمماثلة مشاركته فى تفسير الصراط بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم، وإن اختلفا فى تخصيص الأصحاب وعدمه.

(**فى قوله صراط الذين أنعمت عليهم**) هو بدل مما قبله أو عطف بيان فهو عين الأول، وقال السبكى رحمه الله تعالى: من الغريب ما قيل إنه غير الأول، فكأنه على رأى من يجوز حذف حرف العطف، واختلف هل لله على كافر نعمة فأثبتها المعتزلة ونفاها غيرهم، وبناء أنعمت للفاعل استعطاف الدعاء بالهداية وغير وصف عند سيبويه، وبدل

من الذين عند أبى على، ومن الضمير عند غيره على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة والإيمان والسلامة من غضب الله تعالى، انتهى.

فالمراد عند هذا القائل بالذين أنعمت عليهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وخيار أهل بيته وصحبه، فهو بدل، أو هذا التفسير مع ما سبق على الاحتمال والبدل، فلا حاجة إلى القول بأن أبا العالية هذا غير القائل بأن الصراط النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيما سبق لتنافيهما، ولا يخفى أن قوله مثله يأباه.

(قال) أى أبو الليث **(فبلغ ذلك)** أى سمع هذا التفسير **(الحسن)** السابق ذكره **(فقال: صدق والله ونصح)** أى: صدق أبو العالية فيما قاله، وأنه تفسير للآية، والقسم لتأكد صدقه وجزمه بما قاله أو غلبة ظنه، وقال بعض الشراح: أكثر المفسرين على أن المنعم عليهم فى هذه الآية هم المذكورون فى قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [النساء: ٦٩] وهو قول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، وإذا نظرت إلى قوله: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩] وجمعت بينه وبين قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٦] تجده شرحا له، لأن الصراط الطريق وهو محتاج للرفيق، وفى الحديث: «خير الرفقاء أربعة» يعنى قوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء:٦٩] إلى آخره فإنهم أربعة، وهذا مما نبه عليه الإمام السهيلى.

أقول: ونحوه من اللطائف ما قاله الحوى تلميذ الفخر الرازى فى كتاب له سماه «أقاليم التعاليم»: إن بسم الله الرحمن الرحيم إشارة إلى حقيقته الكاملة التى لا يحيط بها، إدراك مدرك وهو فى الأزل خلق الخلق برحمته، ولهذا لا يقال: رحمن لغيره، ثم بعد الخلق أبقى المخلوق بالرزق ورزقه بالرحمة، فهو رحيم أى له رحمة بها يرزق ولذا قيل لغيره رحيم، لأنه قد يجرى الرزق على يد غيره، فهو إذًا رحمن رحيم خلق ورزق فتمت نعمته فوجب شكره، فلذا قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] ثم إنه تعالى فى مرة أخرى بعد الموت والفوت يخلق المكلفين كما كانوا، ويرزقهم فى الدار الآخرة فهو رحمن رحيم كما كان، فلذا قال ثانيًا: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣] باعتبار المعاد الذى هو مالكه، فلذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] فإذا تبين أنه الخالق الرازق أولا وآخرًا فلا عبادة إلا له فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] ولما كانت النعمة لا تفنى ولا يفنى بها الشكر من عباده الضعفاء، قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] لتكون العبادة كما يرضى لعباده ويليق بجلاله، فإذا عبدناه وأعاننا ينبغى الوصول إليه ليحصل الشرف الأقصى بالمثول بين يديه،

وذلك بسلوك طريق يوصل إليه، فقال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ومن أراد سلوك طريق بعيد لابد له من رفيق فقال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ﴾ [الفاتحة: ٧] إلى آخره، أى النبيين والصديقين فهم أحسن الرفقاء، ثم إذا وجد الطريق خيف قطاع الطريق فقال: (غير) إلى آخره، وإذا أمن منهم خيف الضلال فى الطريق لاشتباه معالمه فقال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] انتهى.

(وحكى الماوردى) السابق ذكره **(ذلك فى تفسير صراط الذين أنعمت عليهم عن عبد الرحمن بن زيد)** بن أسلم المدنى، وهو يروى عن أبيه وابن المنكدر وروى عنه أصبغ وقتيبة وهشام وضعفوه، وله تفسير وترجمة فى الميزان، وأخرج له أصحاب السنن، وتوفى سنة اثنين وثمانين بعد المائة. وفى تفسير الصراط بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأتباعه من الثناء والتعظيم مالا يخفى، لاسيما ذكره فى أم الكتاب، ومبدئه الواجب قراءته فى كل صلاة، وهو ذكر اسم السورة على خلاف عادته كما مر.

(وحكى أبو عبد الرحمن السلمى) مر ذكره وترجمته **(عن بعضهم فى تفسير قوله تعالى ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦] أنه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم)** أول الآية ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ﴾ [البقرة:٢٥٦] إلى آخره، والطاغوت ما يعبد من دون الله، وقيل: الشيطان، وفى وزنه واشتقاقه كلام فى التفسير، واستمسك مبالغة فى التمسك، يقال: مسك وأمسك وتمسك واستمسك بمعنى، والعروة فى الأصل النبات الثابت فى الأرض، ويقال: لما تعقد فى الحبل ليدخل فيه اليد للتمسك ومنه عروة القميص والكوز، ثم استعيرت لكل ما يستعصم به ويلتجأ إليه، ووثقى فعلى من الوثاقة وهى الإحكام والشد الوثيق الربط المحكم الذى لا انفصام له، أى لا انقطاع ولا انفصال، فإذا أريد بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فهو استعارة ومجاز على المجاز لشهرة الأول والتحاقه بالحقيقة، والمراد: أن من صدق وآمن به سلم من كل سوء فى الدنيا والآخرة فهو استعارة تصريحية، والاستمساك ترشيح أو استعارة تبعية، فإن فسرت بالتوحيد والإسلام كما روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى صحيح البخارى، فالمراد أن نفعه والسلامة بسببه محكمة متصلة فى الدارين وصاحبه آمن من السقوط والانقطاع، وقوله: «عن بعضهم» قال بعض الشراح: لم يسمه ولم أره ولا وجه لاستبعاد ما ذكر مع صحته وظهور وجه التجوز فيه.

(وقيل: الإسلام، وقيل: شهادة التوحيد) أى قال بعضهم: هذا معنى العروة الوثقى وهو ظاهر مما مر، وشهادة التوحيد قول: أشهد أن لا إله إلا الله، وقريب منه تفسيره بلا إله إلا الله وهى كلمة التوحيد، أى الإيمان بواحدانية الله تعالى عز وجل، قيل: وأول

هذين القولين ألصق بقوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] إلى آخره وعليهما ففيه ثناء على ما جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ويلزمه الثناء عليه نفسه، والظاهر عند التجانى غيره وأن الآية استعارة لعقدة لنفسه عقدًا وثيقًا لا تزل معه قدمه، ومن شأن العرب تشبيه المعانى بالذوات المرئية، فيشبه فى الآية التمسك بالدين بالتمسك بعروة وثيقة لا تنقطع، ونحوه قول السعد فى شرح الكشاف: شبه التدين بالدين الحق والثبات على الهدى، والإيمان بالعروة الوثقى فى الحبل المحكم المأمون من انقطاعه، فذكر المشبه به وأريد المشبه، ولا يمتنع كون العروة استعارة للعهد أو الكتاب كما فى قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٠٣] انتهى. وعد هذا أقرب من استعارته لذات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا يرد عليه شىء مما مر.

(وقال سهل:) هو سهل بن عبد الله التسترى وقد قدمنا ترجمته. **(فى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾** [إبراهيم: ٣٤] **قال: نعمته بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى هذه الآية بلاغة عظيمة حيث قال: نعمة الله ولم يقل نعم الله، والتاء للوحدة بحسب الأصل والعد يقتضى الكثرة، ولذا قال: الحساب الواحد ليس بعدد، إلا أنه قد يعم ويستغرق نوعية أو جنسية، فلك أن تقول فيه إيماء إلى أن النعمة الواحدة ولو كانت الوحدة حقيقية تشتمل على نعم لا تحصى، فالصحة نعمة واحدة مثلاً، وهى تشتمل على صحة كل جزء جزء فى كل حين ظاهرًا وباطنًا، فلو أراد أحد تفصيلها عجز، وفى حواشى المطول للسيرافى المعنى: أن تشرعوا فى عد إفراد نعمة من نعم الله لا تطيقون عدها، وإنما أتى بأن وعدم العد مقطوع به نظرًا إلى توهم أنه يطاق. انتهى. وأصل معنى الإحصاء العد بالحصا، وكانت العرب تفعله كما قال الأعشى:

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العِزَّةُ للتكاثر[1]

ثم صار حقيقة فى العد مطلقًا، والمراد هنا الحصر والاستقصاء، لأن ما ليس كذلك لا يعد وإلا لكان المعنى أن تعدوا نعم الله لا تعدوها، أو المراد أن تريدوا عدها، وقوله قال تعالى أعاده تأكيدًا للأول وللفصل بين كلام الله وتفسيره، والقائل هو سهل، والنعمة تكون بمعنى الإنعام والمنعم به، فإن أريد الأول فالباء للتعدية تقول: أنعم عليه بكذا ومحمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو المنعم به، لأنه النعمة العظمى لكونه رحمة

---

(١) البيت من السريع، وهو فى ديوان الأعشى (ص١٣٩)، الاشتقاق (ص٦٥)، وأوضح المسالك (٣،٢٩٥)، خزانة الأدب (١/١٨٥ - ٣/٤٠٠ - ٨/٢٥٠)، الخصائص (١/١٨٥)، شرح التصريح (٢/١٠٤)، شرح شواهد الإيضاح (ص٣٥١)، شرح المفصل (٦/١٠٠)، لسان العرب (٥/١٣٢)، المقاصد النحوية (٤/٣٨).

لسائر الخلق كما وقع فى نسخة مروية عن المصنف: «نعمته محمد» من غير باء، وإن أريد الثانى فالباء سببيه، فالمعنى نعمته كائنة بسببه أو إنعامه ففيه فوائد ومنافع لا تحصى، فلا منافاة بين عدم الإحصاء وكون المنعم به محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا وجه لما قيل من أنه من أعظم النعم، والمراد بالمعنى الأعم المتناول لها بقوله: «لا تحصوها»، وإلا فالنعمة به من أعرف المعارف المعلومة، والإحصاء إنما يكون فى المعدود، لقوله تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨] انتهى. وإضافة نعمة يجوز أن تكون للعهد أو الاستغراق؛ لأن الإضافة تأتى لما تأتى له اللام كما تقرر فى الأصول، فعدم الإحصاء لها أو لما يترتب عليها.

(وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣] الآيتين أكثر المفسرين على أن الذى جاء بالصدق هو محمد صلى الله تعالى عليه وسلم) وفى المراد بالذى هنا تفاسير، منها أنه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أكثر المفسرين وهو فى غاية الوضوح، واقتصر عليه المصنف رحمه الله تعالى لمناسبته لما عقد له الفصل من المدح والثناء عليه بأنه صادق مصدق، وقيل: هو جبريل عليه الصلاة والسلام، وقيل: إنه مفرد لفظًا جمع معنى لأن تقديره الفريق أو الجنس الذى بعضه جاء بالصدق وهو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وبعضه صدق به وهم المؤمنون، وقيل: معنى جاء بالصدق آمن بالصدق الذى هو لا إله إلا الله أو القرآن، فأولئك هم المتقون مبنى على أن المراد هو ومن تبعه كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون:٤٩] أو تنزيل الواحد منزلة الجماعة تعظيما له. وقال التفتازانى: الأوجه أن يراد بالثانى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والأمة فأولئك على ظاهره وفيه نظر، واختلف فى تفسير الذى صدق به كما أشار إليه المصنف رحمه الله تعالى بقوله: **(وقال بعضهم وهو)** أى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم.

(الذى صدق به) المراد بالبعض ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، لأنهم نقلوا هذا التفسير عنه، ومعنى صدق به آمن به كما فى الكشاف، وفى المعالم: معناه صدق الرسول به أى: بلغه إلى الخلق. وقال البيضاوى: صدق به الناس فأداه إليهم كما نزل أو صار صادقًا بسببه لأنه معجز يدل على صدقه. انتهى.

وقيل: فى هذا خفاء إلا أن يقال معناه جعل الخلق مصدقا به وهو بالتبليغ فليتأمل. وقيل: ضمير به للصدق فيتناول الرسول والمؤمنين، والذى مبتدأ خبره أولئك، وهذه الآيات قد دلت على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم جاء من عند ربه بصدق، دلت معجزاته على صدقه قطعًا وأنه صدق جبريل عليه الصلاة والسلام فيما آتاه به ووصفه

بأنه متق، وحصر التقوى فيه، لأن المراد به تقوى كاملة لا تتيسر لغيره، والحصر من تعريف الطرفين وفيه مدح عظيم له.

واعلم أن الذى قد يأتى بمعنى الذين ويغنى عنه فى غير تخصيص كثيرًا إذا أريد به الجنس لا أفرادًا منه مخصوصة فلفظه مفرد، ومعناه جمع لتقدير موصوف له مفردًا للفظ مجموع كالفريق ونحوه كما مر. وفى شرح التسهيل: التقدير فى هذه الآية الجمع أو الفريق الذى جاء إلى آخره فله جهتان بحسب اللفظ، والمعنى روعى اللفظ فوصف بالمفرد، وروعى المعنى فعاد عليه ضمير الجماعة، كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] وليس الذى أصله الذين فخفف بحذف النون كما جوزه بعض النحاة، لأنه لو كان كذلك لم يجز إفراد عائده، فإن أريد بالموصول جماعة معينة لم يجز إفراده إلا نادرًا كقوله:

وإن الذى حانت بفتح دماؤهم ... هم القوم كل القوم يا أم خالد

قاله ابن مالك فى شرح التسهيل.

(وقرئ) فى الشواذ والقارئ هو عكرمة وأبو صالح **(وصدق على التخفيف)** قال فى المصباح: صدق خلاف كذب وصدقته يتعدى ولا يتعدى، وصدقته بالتثقيل نسبته إلى الصدق وقلت له صدقت. انتهى.

والصدق يكون فى الأفعال أيضًا فيقال: حمل حملة صادقة كما قاله الراغب، أى: أخبر عن الله بما هو صحيح نسبته إلى الله مطابق لما فى الواقع، وهو أيضًا معتقد ومصدق به كأنه قد يقول الإنسان أمرًا واقعا لا يعتقده، كقول الدهرى: العالم حادث أوجده الله، أو المراد أنه صدق فى تبليغه الوحى كما أنزل إليه. وقيل: المعنى أنه صادق بسببه لكونه معجزة له فسقط ما قيل من أنه مكرر مع قوله الذى جاء بالصدق، والتأسيس أولى من التأكيد مع ما فيه من الخطأ وترك الأدب، لأن القراءة لا يعترض عليها ولو كانت شاذة.

(وقال غيرهم:) وفى نسخة: «قال غيره» والإفراد نظرًا لإفراد لفظ البعض، والجمع نظرًا إلى المعنى لأنهم جماعة، والقائل قتادة ومقاتل.

(الذى صدق به المؤمنون) يعنى على القراءتين وتفسير الذى جاء بالصدق بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم، فالإخبار بأولئك إلى آخره على ظاهره، لكنه كما قيل يلزم فيه تقدير موصول، أى: والذين صدقوا به وهو ممنوع عند بعض النحاة وجوزه آخرون، وقال: إنه الحق رواية ودراية إذا دل عليه دليل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ

أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] أى: وما أنزل إليكم. وقول حسان رضى الله تعالى عنه(١):

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

وارتضاه ابن مالك، والمانعون يمنعون تخريج الآية عليه ويقولون: هى حالية بتقدير قد أو يقولون الذى بمعنى الجنس الذى الخ من غير حاجة إلى التقدير.

(وقيل: أبو بكر رضى الله تعالى عنه، وقيل: على كرم الله تعالى وجهه، وقيل: غير هذا من الأقوال) كتفسيره بجبريل أو بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: الذى جاء بالصدق وصدق به المؤمنون الذين يجيئون فى القيامة بالقرآن، ويقولون: هذا هو الذى جاء بالصدق وقد اتبعناه، وأما تخصيص أبى بكر رضى الله تعالى عنه فلأنه الصديق الأكبر الذى سبق الناس كلهم لتصديقه صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يصدر منه غيره قط، وكذا كرم الله وجهه فإنه يسمى الصديق الأصغر الذى لم يتلبس بكفر قط، ولم يسجد لغير الله مع صغره، وكون أبيه على غير الملة ولذا خص بقول كرم الله تعالى وجهه، وقيل: تخصيصهما للأولية فى التصديق أو للتصديق فى أول اللقاء وهذا منقول عن مجاهد، ولا يرد على هذا ولا على ما قبله أنه يلزم حذف الموصول بدون الصلة، أو أن يرد بموصول مع صلة شىء ومنه مع صلة أخرى آخر، لأن الموصول هنا واحد لفظا جمع معنى بتقدير موصوف كذلك كفريق ونحوه، والصلة له على التوزيع أى جمع بعضه جاء به، وبعضهم صدقه فلا محذور فيه كما ذكره الطيبى، وهذا جار فى الوجه الأخير إذ لا مانع منه، فلا وجه لقول القاضى ومن تبعه، أنه إذا كان الجائى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والمصدق أبو بكر ونحوه يلزم إضمار الذى وهو غير جائز، مع أنه ذكر هذا فى الوجه السابق وليس بينهما فارق، والفرق بأنهما فردان متشخصان هنا لا يجدى نفعًا لما مر، ولا حاجة إلى أن الذى أصله الذين فخفف بحذف النون لطوله بالصلة.

أقول: الذى غر هؤلاء أن الذى لا يراد به متعدد إلا إذا كان غير مخصص بمعين، قال فى التسهيل: يغنى عن الذين الذى فى غير تخصيص كثيرًا وفيه للضروة قليلا. انتهى.

(وعن مجاهد) قال السيوطى: رواه عنه ابن جرير وابن أبى حاتم، ومجاهد من كبار التابعين، وهو محمد بن جبر بفتح الجيم وسكون الموحدة والراء المهملة المقرئ المفسر الزاهد العابد، روى عنه أصحاب السنن وغيرهم، ووثقه المحدثون كما ذكره الذهبى فى

---

(١) البيت من الوافر، وهو فى ديوان حسان بن ثابت (ص٧٦)، تذكرة النحاة (ص٧٠)، الدرر (٢٩٦/١)، مغنى اللبيب (ص٦٢٥)، المقتضب (١٣٧/٢).

ترجمته، ومولده فى خلافة عمر رضى الله تعالى عنه سنة إحدى وعشرين، وتوفى بمكة سنة اثنين أو ثلاث ومائة وهو ساجد، وقيل: كنيته أبو الحجاج وأن اسم أبيه جبير بالتصغير، وقيل: إنه رأى هاروت وماروت فكاد يتلف.

(**فى قوله تعالى:** ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] **قال: بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه رضى الله تعالى عنهم**): قيل: إنه مبالغة لكونه سببًا للذكر آمرًا به، جعل عين الذكر كرجل عدل، وعلى تقدير مضاف أى ذكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كقوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٢] ولا وجه لما قيل من أنه بعيد خارج عن النص، وإفراده على المعنى الأول نظرًا لا صلة، فإنه يستوى فيه الواحد المذكر وغيره، واطمئنان القلب سكونه وعدم اضطرابه، يقال: اطمأن بالموضع إذا أقام به واتخذه وطنًا، وموضع مطمئن منخفض، واختلف أهل اللغة فيه فقيل: إن أطمان كأحمار ثم همز، وقيل: كانت الهمزة مقدمة على الميم فقلبت، والمشهور أن الذكر على ظاهره. واطمئنان القلب به لاستئناسه به، والتعبير بالمضارع للاستمرار التجددى لدوام ذكره، وروى عن مجاهد أيضًا أن المراد بذكر الله هنا القرآن، وفى الحديث القدسى: «إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بذكرى جعلت همه ولذته فى ذكرى» اللهم اجعلنا ممن يطمئن قلبه بذكرك وتكون همته مصروفة بحمدك وشكرك.

* * *

[الفصل الثانى: فى وصفه تعالى له بالشهادة وما يتعلق بها من الثناء والكرامة]

(**الفصل الثانى فى وصفه تعالى بالشهادة**) أى بأنه صلى الله تعالى عليه وسلم شاهد على أمته بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم لهم، وفى بعض النسخ الصحيحة: «فى وصفه له تعالى» بتقديم له والمعنى ظاهر، وليست إحدى النسختين جديرة بالحك والحكم بالسقم كما قيل لظهور المعنى، وأن ضمير وصفه والمستتر فى قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ وضمير له للرسول وتوهم خلافه بعيد، كما فى قوله تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح:٩] فإنه لا يتوهم عود ضمير تسبحوه لرسوله، والقول بعوده له على أن المعنى يسبحوا معه مستبعد جدًا، والشهادة مشتقة من المشاهدة، وهى المعاينة، والمراد بها الخبر القاطع، تقول: شهد علىَّ كذا ويكون شهد بمعنى حضر.

(**وما يتعلق بها من الثناء والكرامة**) أى الإكرام له، ويكون اسم مصدر بمعنى الحاصل

بالمصدر وهو الإكرام، يعنى أن المقصود فى الفصل الأول ثناء الله ومدحه لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بكونه أنفس الناس ذاتًا وحسبًا ونسبًا، وكونه خيرًا ورحمة عامة فى حياته ومماته، وكونه نورًا محضا منورًا للعالم، وكونه ذا صدر واسع منشرح ورفعة قدره واسمه بمقارنته لاسم ربه وذكره، وأنه الصراط المستقيم، والمقصود هنا أن الله جعله شاهدًا على أمته وسائر الأمم وأنبيائهم، وما ذكر فيه من الثناء والإكرام مذكور بالتبعية للشهادة استطرادًا لمناسبته له، وبهذا تبين مغايرة ما عقد له الفصلان فلا تكرار ولا عموم ولا خصوص بقرينة المقابلة كما قيل وستقف عليه قريبا.

(قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥] الآية) أى: وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا كما مر وشاهدًا، وما عطف عليه حال مقدرة، ومن عادة المصنف رحمه الله أن يذكر الآية فى محل لغرض ثم يسوقها فى محل آخر لغيره، فذكر هذه الآية أولاً لتأييد كونه نورًا، ثم ذكرها هنا لكونها شاهدًا على التبليغ فلذلك قال: **(جمع الله تعالى له)** صلى الله تعالى عليه وسلم.

(فى هذه الآية ضروبا) أى أنواعًا جمع ضرب أى صنف، أو هو جميع ضرب وضرب بالفتح والكسر وهو النظير، أى أمورًا متناسبة متماثلة.

(من رتب الأثرة وجملة أوصاف من المدحة) رتب بضم ففتح جمع رتبة، وهى كالمرتبة والمنزلة المقام المعنوى، والأثرة كما فى المقتفى بضم الهمزة وسكون المثلثة ثم راء مهملة يليها تاء تأنيث كذا ضبط هنا، والأثرة بالفتح فى الهمزة والثاء وبضم الهمزة وكسرها مع إسكان الثاء الاستبداد بالشىء والانفراد به، والمدحة بكسر الميم الثناء والذكر الحسن، فإذا فتحت الميم قلت: المدح. انتهى.

وقيل: الأثرة بضم الأول وكسره وسكون المثلثة وبفتحها وهو الأفصح كما ذكره النووى الانفراد بالشئ، ويكون اسمًا لما به الانفراد كذا قرروه، ومقتضاه أن فى الآية أمورًا مخصوصة انفرد بها صلى الله تعالى عليه وسلم وليس كذلك، فالوجه أنها بالضم المكرمة كما فى القاموس، أو المراد الإفراد بالذكر أو فى الجملة، أو تحمل الأوصاف على معنى يختص به، يعنى أنها إذا فسرت بالمكرمة والفضيلة فلا إشكال فى كلام المصنف رحمه الله تعالى، وإن فسرت بالانفراد اقتضى أن ما ذكر هنا من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم وليس كذلك فيحتاج للتأويل بما قاله، وقد تبعوا فيه بعض الشراح فى اعتراضه بقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١] لأن قوله هؤلاء للمبعوث إليهم، اللهم إلا أن تحمل الإشارة على جميع أهل المحشر، ولا دليل فيه. انتهى.

ولا يخفى أن ما ذكر من الجواب والسؤال لا وجه له، أما الأول فلأن قوله الآتى وهى من خصائصه يأباه، وأما الثانى فلأنه بعد تفسير الشهادة بأنها شهادة على الأمة بإبلاغهم ما أرسله الله تعالى به، والبشارة لمن أطاعه فى ذلك، والنذارة لمن عصاه، كيف يتوهم مشاركة غيره له فى ذلك، وهذا مما يقتضى منه العجب عندى، وهذا حديث إجمالى فلذلك فصله فقال:

(**فجعله شاهدًا على أمته لنفسه بإبلاغهم**) مصدر مضاف إلى مفعوله الأول أى سبب إبلاغه إياهم. (**الرسالة**) مفعوله الثانى وأعجب منه أنه فسره بقوله أى مقبولاً، قوله عند الله من غير طلب بينة كما هو شأن الشاهد العدل صرح به الزمخشرى، فالشهادة مجاز. انتهى.

(**وهى**) أى شهادته عليهم لنفسه (**من خصائصه**) صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال الفاضل ابن الحنبلى: إنما كانت الشهادة المذكورة من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإن كان ذا شهادة بمقتضى قوله تعالى: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ [النساء: ٤١] إلا أنه مطالب بالبينة، وشهادته لا تقبل إلا بشهادة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وأمته له بالتبليغ لقومه، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم أخبرنا بالتبليغ لأممهم فنحن نشهد بذلك، قد بين الله تعالى هذا بقوله تعالى: ﴿**لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ [البقرة: ١٤٣] فقد ولانا الله ببركته الشهادة على جميع الخليقة، وجعلنا أولاً مكانًا وإن كنا آخرًا زمانًا، فلله الحمد على ذلك.

وفى صحيح البخارى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «يدعى بنوح عليه الصلاة والسلام يوم القيامة فيقول: لبيك رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول له: من يشهد لك؟ فيقول: محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأمته فيشهدون»(١) الحديث. وقيل: الشهادة فى هذه الآية شهادة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بتبليغهم، وهى من خصائصه أيضًا بالنسبة لبقية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لشهادة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم عليهم بذلك، وقد مر فى الفصل الأول عن اللباب ما فيه تعميمها لشهادات متعددة وهو الوجه حيث لا مخصص. انتهى. وفى شرحه هنا خبط وخلط لا حاجة لنا به.

(**ومبشرًا لأهل طاعته ونذيرًا لأهل معصيته**) فيه كلام سيأتى فى الفصل التاسع،

(١) أخرجه البخارى (٦/٢٦)، وأحمد (٣/٣٢)، وابن أبى شيبة (١١/٤٥٤)، والطبرى فى تفسيره (٣/١٤٦).

والإنذار والتخويف والإعلام بما يحذر منه، والتبشير الإخبار بما يظهر سرور المخبر به، ولذا قالوا: لو قال شخص لعبده: أيكم بشرنى بقدوم زيد فهو حر، فبشروه فرادى، عتق أولهم لأنه هو الذى أظهر سروره، فلو قال: أخبرنى عتقوا جميعًا. ومنه البشرة وتباشير الصبح، وأما قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤] فعلى التهكم، كقوله تحية بينهم ضرب وجيع فهو مجال من استعمال اللفظ فى ضد معناه، كذا فى الشرح الجديد، وفيه خطأ فاحش تبع فيه غيره، فإن أردت تحقيقه فانظره فى حواشينا على البيضاوى فإنك لا تجده فى غيرها.

(وداعيًا إلى توحيده وعبادته) داعى اسم فاعل من الدعوة وهى طلب الإقبال، أى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم دعا الناس إلى اعتقاد وحدانية الله تعالى، ونفى الشريك والإيمان به تعالى وعبادته، قال فى المصباح: دعوت الله تعالى ابتهلت إليه بالسؤال، ودعوت زيدًا ناديته وطلبت إقباله، فمن قال: إن أصل الدعوة للطعام لم يصب، والعبادة خدمة الله والخضوع له، ولا يتم إلا بالإخلاص، فلذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وتفسير التوحيد هنا بالدين عدول عن الظاهر بلا سبب، وقيل: إن المصنف رحمه الله أشار إلى أن الدعاء إلى الله يراد به الدعاء إلى الإقرار بوجوده وتوحيده، وما يجب الإيمان به من صفاته وما يجب تنزيهه عنه، وقيده بقوله «بإذنه» أى: تيسيره إشارة إلى أنه أمر صعب لا يتأتى إلا بمعونته، ويجىء بمعنى العلم كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥] أى بعلمه وتوفيقه. انتهى.

أقول: هذا كلام غير منقح والتحقيق فيه ما قاله العز بن عبد السلام فى كتاب «مجاز القرآن» أن إذن الله مشيئته وإرادته، لأن الغالب فى الإذن أن لا يقع إلا بمشيئة واختيار، والملازمة الغالبة تصحح المجاز، أو بأمر التكوين، فإن الأمر يلازمه مشيئة الآمر غالبًا، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١] بأمر الله، وقوله: «كن» وهو من مجاز التمثيل، شبه سهولة الأشياء بقدرته بسهولة هذه الكلمة على الناطق بها تفهيمًا لسرعة نفوذ مشيئته وقدرته فيما يريده، ويعبر بالإذن عن التيسير والتسهيل كما فى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢١] أى: بتيسيره وتسهيله، إذلا يحسن أن يقال دعوته بإذنى ولا قمت وقعدت بإذنى، ولذا قال الزمخشرى: يجوز أن يراد بالإذن هنا الأمر، أى يدعوكم إلى المغفرة بأمره إياكم بطاعته، وكلاهما من مجاز الملازمة انتهى.

(وسراجًا منيرًا يهتدى به للحق) وروى يهدى به، وهو إشارة إلى وجه التشبيه

وتنوير له، وكلاهما مجهول مضموم الياء مروى عن المصنف رحمه الله تعالى وقد مر تفسيره، وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم يهتدى به فى ظلمات الجهالة ويقتبس من أنواره، وقد وصفه الله تعالى فى هذه الآية بخمس صفات قابل كلا منها بما يناسبها غير صفة الشهادة، إذ لم يقل له راقبنى؛ لأن الأمر بالمراقبة يناسب المشاهدة فما بعده كالتفضيل له، فقابل البشارة ببشارة المؤمنين بالفضل الكبير، وقابل الإنذار بالنهى عن متابعة الكفار والمبالات بأذاهم، وقابل الدعوة بتيسيره بالأمر بالتوكيل عليه، والسراج المنير بالاكتفاء بربه؛ لأن من أتاه الله برهانًا حقيق بأن يكتفى به عمن سواه. وقال ابن عطية رحمه الله تعالى: هذه الآية أرجى آية فى القرآن، لأنه أمره بتبشير المؤمنين بالفضل الكبير، وقد فسر هذا الفضل بقوله فى آية أخرى: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الشورى:٢٢].

(**حدثنا الشيخ أبو محمد بن عتاب**) بفتح العين المهملة وتشديد المثناة الفوقية وألف وباء موحدة، علم منقول من صفة بمعنى كثير العتب، والشيخ فوق الكهل وهو فى العرف اسم لكل من تصدى لإفادة العلم كما مر، وهو عبد الرحمن بن عتاب شيخ المصنف رحمه الله تعالى، سمع منه فى رحلته للأندلس وهو من علماء الحديث، توفى فى جمادى الأول سنة عشرين وخمسائة وله سبع وثمانون سنة.

قال: (**حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد**) وهو أبو القاسم حاتم بن محمد بن عبد الرحمن بن حاتم التميمى المعروف بابن الطرابلسى تلميذ أبى على الغسانى، قرأ عليه البخارى مرات، وروى عنه وعن القابسى وغيره.

قال: (**حدثنا أبو الحسن القابسى**) وهو الحافظ الفقيه العلامة أبو الحسن على بن محمد ابن خلف المغافرى، أخذ بإفريقية عن ابن مسرور بن الدباغ ودارس ابن إسماعيل وبمصر عن حمزة بن محمد الحافظ، ولد سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، وتوفى فى ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعمائة بمدينة القيروان، وكان ضريرًا وكتبه فى نهاية الصحة ضبطها له ثقات أصحابه، والقابسى بقاف وألف وباء موحدة وسين مهملة وياء نسبة لقابس، وهى بلدة بالمغرب بين صفاقص وطرابلس، ولم يكن منها ولكنه عرف بعمه وعمه كان يشد عمامته شد أهل القابس.

قال: (**حدثنا أبو زيد المروزى**) وهو محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد الإمام النحرير الزاهد العابد، المجمع على جلالته وعظمته، جاور بمكة وحدث بها وببغداد بصحيح البخارى عن الفربرى، وهى أجل الرواية عنه لجلالة أبى زيد، وتوفى بمرور يوم الخميس

ثالث عشر رجب سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة، وترجمته مشهورة، ونسبته لمرو البلدة المعروفة، وإذا نسب الناس زيدت الزاى على خلاف القياس، وفى الثياب وغيرها يقال مروى فرقًا بينهما، ومن اللطائف قولى فى هذا فى أرجوزة:

ومروزى جاء فى الأناسى والثوب مروى على القياس

قال: (**حدثنا أبو عبد الله محمد بن يوسف**) هو الفربرى المشهور، سمع البخارى من مصنفه مرتين، مرة بفربر ومرة ببخارى ورواه، وفربر بكسر الفاء وفتحها وفتح الراء المهملة وسكون الباء الموحدة تليها راء مهملة قرية من قرى بخارى، وهو ثقة ورع زاهد حافظ، ترجمته مشهورة، ولد سنة إحدى وثلاثين ومائتين، وتوفى سنة عشرين وثلاثمائة لعشر بقين من شوال. ويوسف اسم أعجمى مثلث السين وليس مشتقًا من الأسف وإن وافق ذلك لفظه فى قول الله تعالى: ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤].

قال: (**حدثنا البخارى**) وهو الإمام الحافظ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفى البخارى، الإمام الورع الزاهد المتفق على جلالته، وتأليفه أصح الكتب بعد كتاب الله، وترجمته مشهورة، ولد سنة أربع وتسعين ومائة، وتوفى بقرية خرتنك من أعمال بخارى سنة ست وخمسين ومائتين.

قال: (**حدثنا محمد بن سنان**) هو محمد بن سنان العوفى الإمام أبو بكر، يروى عن همام وجرير بن صارم وفليح، وروى عنه أصحاب السنن.

قال: (**حدثنا فليح**) بفاء ولام وحاء مهملة، وهو لقب له تصغير فلح صفة مشبهة من الفلاح، ويحتمل أن يكون تصغير مفلح أو أفلح تصغير ترخيم، وهو فليح بن سليمان بن أبى المغيرة بن حنين واسمه عبد الملك، توفى سنة ثمان وستين ومائة وهو عدوى مدنى، روى عن سعيد بن الحارث وضمرة بن سعيد ونافع وغيرهم، وروى عنه ابنه وأصحاب الكتب الستة، وقال ابن معين وأبو حاتم والنسائى: إنه ليس بالقوى. وقال الحافظ ابن حجر: صدوق لكنه كثير الخطأ ولكن الشيخان اعتمداه.

قال: (**حدثنا هلال**) هو هلال بن على، وهو هلال بن أبى ميمون يروى عن أنس وعطاء بن يسار وأبى سلمة، وعنه مالك وفليح وغيرهما، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، وقال النسائى: ليس به بأس. قال الواقدى: مات فى آخر خلافة هشام ابن عبد الملك.

(**عن عطاء بن يسار**) بفتح الياء التحتية والسين المخففة المهملة، أبو محمد المدنى، من كبار التابعين، توفى سنة أربع وتسعين أو ثلاث ومائة، وهذا الحديث تفرد به البخارى

وأخرجه فى التفسير بغير هذا السند أيضا.

(قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص) واو عمرو مشهورة، قال ابن التلمسانى: جوز بعضهم تركها، وعبد الله هذا هو أبو محمد، ويقال: أبو عبد الرحمن القرشى السهمى الزاهد العابد الصحابى، كان بينه وبين أبيه فى السن اثنتى عشر سنة، وأمه ريطة بنت منبه، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: «نعم أهل البيت عبد الله وأبو عبد الله، وأم عبد الله»، أسلم عبد الله قبل أبيه، وكان كثير العبادة والرواية عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حتى قيل: إنه أكثر رواية من أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، لأنه كان يكتب وأبو هريرة لم يكتب، وإنما لم تشتهر روايته كأبى هريرة لأنه سكن مصر والواردون إليها قليل، وأبو هريرة سكن المدينة والمسلمون يقصدونها من كل وجهة، وتفصيل ترجمته مشهورة، توفى بفلسطين وعمره ثلاث وسبعون سنة، وعمرو أبوه أشهر من أن يذكر، والعاصى يرسم بالياء وبدونها وإثباتها أولى. وقال ابن الصلاح: كتبه كثير فى حالة الوصل بالياء وفى حالة الوقف بحذفها، ولا وجه لمن أنكره فإنه لغة لبعض العرب، شبهوا ما فيه الألف واللام بالمنون لتعاقب اللام والتنوين، وبها قرئ فى السبعة الكبير المتعال ونحوه، والذى غر المنكر أن النحاة خصوه بالمنكر كما ذكروه فى باب الرسم.

(فقلت: أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم) يعنى صفته صلى الله تعالى عليه وسلم المذكورة فى التوراة، بدليل قوله فى الجواب: إنه لموصوف فى التوراة، فإن السؤال يعاد فى الجواب صراحةً أو ضمنًا وهو من القواعد الأصولية، كما وقع مصرحًا به فى الرواية الصحيحة، وأخبر يتعدى للأمر المسئول عنه وللمنقول عنه الخبر أيضًا، كالخبر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وإن كان المشهور فى الأول تعديته بالباء، وهذا مما لا شبهة فيه عندى، فلا حاجة لما قيل من أنه إنما تعدى بها هنا وهو مخبر به لا عنه لتضمنه معنى الكشف، أى أخبرنى كاشفًا عنها وموضحًا لها، وقوله: إنه يجوز أن يريد جعل صفة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم موضوعًا يحمل عليه ما ذكر فى التوراة، وأنه لا يصح تضمينه معنى السؤال تعسف خارج عن جادة الصواب، وكذا ما قيل: إنه نظر للفظ فتدبر.

(قال: أجل والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن) أى: قال عبد الله رضى الله تعالى عنه لمن قال له أخبرنى عن صفته صلى الله تعالى عليه وسلم فى التوراة **أجل** أى: نعم، هى مذكورة فيها لأن كلامه يقتضى أن صفته صلى الله تعالى عليه وسلم مذكورة فيها، وأجل كما فى المغنى لتصديق المخبر وإعلام المستفهم ووعد الطالب،

وصرح فى القاموس بأنها تجىء بعد الاستفهام وغيره، فقال: أجل كنعم إلا أنه أحسن منه فى التصديق، ونعم أحسن منه فى الاستفهام. وقال الرضى: هى لتصديق المخبر ولا تجىء بعد ما فيه معنى الطلب وهو المنقول عن الزمخشرى وجماعة، فالوجه على هذا كما قيل إنه بعد خبر ضمنى، وهو أنه موصوف فى التوراة، وأما تقدير الاستفهام أو جعله لتصديق خبر عن نفسه فليس بشىء، انتهى.

وهو رد على بعض الشراح حيث قال: أجل بمعنى نعم حرف إيجاب، وهو مأول عند من شرط فيه تصديق المخبر، أو هو تصديق لخبر نفسه، ولذا أردفه بقوله: «والله» والتأكيد لا القسم للاعتناء؛ لأن السائل غير منكر، أو لتنزيله منزلته لغفلته عنه، أو لما شاع من إنكار اليهود وتحريفهم.

وفى شرح التسهيل: أجل لتصديق الخبر ماضيًا أو غيره مثبتًا ومنفيًا، ولا تجىء بعد الاستفهام. وعن الأخفش: أنه يجىء بعده إلا أنه فى الخبر أحسن من نعم، ونعم فى الاستفهام أحسن منها. و لم يذكر مجيئها بعد الطلب كما فى هذا الحديث إلا أنه يقطع النزاع كما قيل: صحح نحوك بالحديث ولا تصحح الحديث بنحوك، وهذا بناء على جواز إثبات الأحكام النحوية وفيه تفصيل فى شرح المغنى. وفى قوله: «والله» دليل على جواز الحلف من غير تحليف بلا كراهة، وقد ورد كثيرًا فى الأحاديث، والتوراة اسم لكتاب الله المنزل على موسى صلى الله تعالى عليه وسلم، وهى كلمة غير عربية بل معربة، وفى وزنها وأصل معناها كلام طويل ليس هذا محله.

فإن قلت: عبد الله رضى الله تعالى عنه قرشى عربى فلا يناسب سؤاله عما فى التوراة، والتوراة وغيره من الكتب القديمة، قال الفقهاء: لا تجوز قراءته فما وجه هذا؟

قلت: إن عبد الله كان يقرأ ويكتب كما مر.

وقال البرهان الحلبى فى المقتفى: إنه رضى الله تعالى عنه كان يحفظ التوراة، وقد روى البزار من حديث ابن لهيعة عن وهب أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهما رأى فى المنام فى إحدى يديه عسلاً وفى الأخرى سمنًا وهو يلعقهما، فلما أصبح ذكر ذلك للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له: «تقرأ الكتابين التوراة والقرآن» فكان يقرؤهما، ذكر هذا الحديث بعض شيوخى. انتهى.

وأما النهى عن قراءتها وإن صرح به الفقهاء فليس على إطلاقه، لوقوعه فى زمن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لكثير من الصحابة رضى الله تعالى عنهم من غير إنكار، **فهو** مقيد بمن لم يميز المنسوخ والمحرف منها ويضيع وقته فى الاشتغال بها، وأما غيره فلا يمنع منه بل قد يطلب لإلزامهم فيما أنكروه منها كما فى قصة الرجم، ويأتى لذلك

مزيد بسط عن هذا. وقوله: «بعض صفته فى القرآن» فى بعض النسخ: «ببعض ما فى القرآن»، وفيه دلالة على أن وصفه صلى الله تعالى عليه وسلم فى القرآن أكثر مما فى التوراة لتفضيله، وإن تفرق فى آيات وسور متعددة، وهذا مما لا شبهة فيه، فما قيل من أن فيه كلفة تامة إلا أن يقال المراد توافق الكتابين على بعضها، وإن زاد كل منهما على الآخر لا وجه له عند من له أدنى بصيرة، وقوله فى التوراة كما سيأتى: أهب لك كل خلق كريم، ولو سلم أنه اشتمل من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] مخصوص بمدح خُلقه صلى الله تعالى عليه وسلم والصفات أعم منه، فلا حاجة إلى تكلف الجواب بأنه وعد يحتمل عدم التنجيز أو التعليق والتخصيص، وقد وقع فى الشروح هنا كلام طويل بلا طائل.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب:٤٥] بدل من بعض أو بيان له وقد تقدم تفسيره، ولفظ النبى صادف محزه مع قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ [الأحزاب:٤٥] وخطاب نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم بما فى التوراة خطاب للحاضر فى العلم بما جعل كالماضى لتحققه، أو حكاية لما يقال فى المستقبل، أو لجعله على نهج استحضار الصورة الآتية، والتعبير بما يعبر به فى ذلك الزمان على قياس حكاية الحال الماضى، أو نادى الكليم ثم خاطب الحبيب التفاتًا، قيل: كونه بتقدير سيقول له فى المستقبل كما قيل فى قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠] أن تقديره يقال لهم فى القيامة كنتم فى الدنيا يأباه أن ما سيقال فى المستقبل ليس فيه حرزًا للأميين، والذى فيه داعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وما ذكره من الالتفات إنما يتمشى على رأى السكاكى كذا قيل.

وفى الشرح الجديد: هذا نوع من الالتفات غريب ذكره ابن أبى الأصبع وسماه الالتفات فى الضمائر، كأن يذكر ضميرين لمخاطبين أحدهما لواحد والآخر لغيره، أو ضميرين لغائبين كذلك، وهنا ضمير فى أصل النداء أى: أدعوك أيها النبى وهو للكليم صلى الله تعالى عليه وسلم، والآخر فى قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ [الأحزاب: ٤٥] لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا هو المراد بالالتفات المذكور لا ما ذهب إليه الجمهور ولا السكاكى. انتهى.

أقول: الغرابة منه، فإن ما ظنه غريبًا ذكره جميع أهل المعانى وهو عندهم يسمى الافتنان وتلوين الخطاب، والأدباء سموه التفاتًا، والاعتراض إنما يأتى إذا وقف على أول عبارة التوراة فإن كان قبله خطاب لموسى صلى الله تعالى عليه وسلم فاعتراضه وارد **وإلا فلا.**

(**وحرزًا للأميين**) الحرز: بكسر الحاء وسكون الراء المهملتين ثم زاى معجمة هو فى الأصل مصدر بمعنى الحفظ، ثم شاع وصار حقيقة فى المكان الذى يحفظ فيه، فيقال: حرز حريز كحصن حصين، ومنه احترز عن كذا أى تحفظ منه، وأحرز قصب السبق أى حازه فجعله نفسه حرزًا مبالغة لحفظه أموالهم وأنفسهم فى الدارين، والمراد بالأميين العرب لغلبة الأمية فيهم، وقيل: لأنهم لا كتاب لهم، وخصهم مع عموم دعوته صلى الله تعالى عليه وسلم لشرفهم أو لإرساله صلى الله تعالى عليه وسلم بين أظهرهم، أو لأن الحفظ من العجم اختص بهم، وقيل: المراد حفظه لهم من آفات النفوس وغوائل الدهر، أو من آفات العجم وتغلبهم، أو من مطلق العذاب ما دام صلى الله تعالى عليه وسلم فيهم لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣] أو من عذاب الاستئصال لحديث: «سألت ربى عز وجل ثلاث خصال فأعطانى اثنتين ومنعنى الثالثة». والاثنتان هلاك السنة، والغرق، والثالثة كون بأسهم بينهم.

(**أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل**) قدم العبودية لشرفها كما قال:

لا تدعنى إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائى

ولذا خص وصفها بالذكر فى الإسراء وليست بالمعنى العام الذى يتصف به كل مخلوق، بل بالمعنى الخاص الذى رضيه الله لعبده حتى أطلعه على حظائر قدسه، وجعله رسولا مبلغا عنه، وكفاه جميع مؤناته، فقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦]، فإن الملك لا يرضى بوقوف عبده بباب غيره واحتياجه لسواه وإهانة أحد له، فإنه هو الذى يؤدبه، فلذا قال: سميتك المتوكل دون جعلتك أو وصفتك، وقدم العبودية هنا تشريفًا وتعظيمًا، إذ المراد الكامل فى العبودية، وانظر قوله: سميتك دون جعلتك أو وصفتك المنادى بشدة توكله الذى صيره علمًا له، ولذا قيل: إن فيه إشعارًا بشدة توكله صلى الله تعالى عليه وسلم السارى فى أمته.

(**ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق**) فيه التفات من الخطاب، إذ مقتضى الظاهر أن يقول: لست، إن لم يكن هذا كلام آخر من التوراة ضمه عبد الله رضى الله تعالى عنه إلى الأول، وفى الالتفات هنا بعد النظرية هنا حسن الاقتباس، إذ لم يوجهه بمثله وإن كان منفيًا.

والفظ كما فى المصباح: الرجل الشديد الغليظ القلب، يقال: منه فظ يفظ من باب تعب فظاظة إذا غلظ حتى يهاب فى غير موضعه، وغلظ خلاف رق غلظة بالكسر، وحكى فى البارع التثليث. وعذاب غليظ شديد الألم، وغلظ الرجل اشتد، وأغلظ له

فى القول عنفه، وغلظ بالتخفيف أكدها. انتهى.

فمعنى ليس بفظ: أنه ليس له قسوة قلب ولا تشديد على الناس لأن ملته سمحاء، وليس بغليظ إما تأكيد له أو بمعنى أنه لا يعنف الناس، والمراد أنه ليس بسيئ الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩] ولذا قيل: المعنى ليس بسيئ الخلق ولا غليظ القلب ليوافق الآية، وقيل: ليس شديد القول فلا تكرار فيه ولا ينافيه وقوع الغلظة والشدة اللائقة، أو الواجبة أحيانًا لأنها لا تنافى حسن الخلق، فالمراد نفيهما بحسب الطبيعة والخلقة أو فى غير محلهما.

وأما ما وقع فى الصحيح فى حق عمر رضى الله تعالى عنه: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقيل: لم يقصد قائله التفضيل بل هو لأصل الفعل، قيل: ولفظ من يأباه، وقيل: إنه من قبيل الخل أحلى من العسل، واختاره الدمامينى فى حواشى البخارى، أى غلظتك يا عمر أشد من رقته صلى الله تعالى عليه وسلم، والوجه أنه بالنظر إلى الفظاظة اللائقة فى محلها، فما وقع من أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه أزيد مما وقع منه صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه رحمة للعالمين وشفيع للمذنبين، فهو يختار الأيسر الأحسن فيما هو محله، والفاروق رضى الله تعالى عنه اختار الفظاظة اللائقة فاختار كل منهما الأحسن له، وغايته أن الفاروق ترك فى بعض الأوقات الأولى لاحتياجه لما لم يحتج له صلى الله تعالى عليه وسلم ولا محذور فى مثله.

والسخاب والصخاب صيغة مبالغة من الصخب، وهو ارتفاع الصوت وشدته، وهما لغتان فى كل صاد لاصقت حرف الحلق، وهو من غير داع أمر مذموم جدًا والصاد أفصح، والسين لغة ربيعة وقد روى بالوجهين هنا.

وقوله فى الأسواق جمع سوق وهو موضع يجتمع فيه الناس للبيع والشراء ونحوه يذكر ويؤنث، والسوق خلاف الملك، ولما كان فى الغالب محلاً لارتفاع الأصوات والصياح لاسيما من الدلالين قيده به. والمراد نفيه عنه صلى الله تعالى عليه وسلم مطلقًا، لأنه إذا انتفى فى المحل المعتاد فيه انتفى فى غيره بالطريق الأولى، وهو أبلغ من الإطلاق وأفصح، لأنه نفى بدليل على حد قوله(١):

ولا ترى الضب بها ينجحر

وللعرب فى مثله ثلاث مقاصد نفيهما ونفى القيد ونفى المقيد وهذا هو الأرجح هنا، لأن فيه إثبات دخوله صلى الله تعالى عليه وسلم للأسواق تواضعًا وتركًا لعادة الجبابرة

(١) تقدم الاستشهاد به.

من الملوك وردًا لقولهم.

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]: لأنهم قالوا: لما أظهر صلى الله تعالى عليه وسلم الدعوة، أنه ينبغى أن لا يأكل ولا يشرب ويكون ملكا، أو لا يدخل السوق ليكون ملكًا. وفى الشرح الجديد: المراد أنه ليس بسخاب فى موضع من المواضع، فالنفى للمقيد لانتفاء المطلق، وإنما نفى المقيد ابتداء للتصريح بنفى ما هم عليه من التقبيح، أو للمبالغة فى نفى المطلق بجعله دليلاً لكونه مقررًا معروفًا.

وقال الطيبى رحمه الله: المراد نفى الصخابية، وكونه فى الأسواق وهو عجيب؛ لأن نفى الصخابية فيها لا ينافى كونه فيها بلا صخابية، ولا الصخابية من غير كونه فيها بشهادة الذوق، وقال شيخنا: الأقرب إلى الفهم أنه نفى المقيد لشناعته مع أنه مظنته وموضع اعتياد الناس، ليفيد أنه لا يفعله فى غيره بالأولى، ولا يرد أن صخابا صيغة مبالغة، فبتقدير توجه النفى إلى قيده وهو فى الأسواق تثبت له الصخابية، لأنَّا نمنعه بأن الصيغة هنا للنسبة كخياط ومنه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] فى أحد الوجوه، ولا ضير إذا كان المراد نفى الصخابة المقيدة لانتفائها مطلقةً، لأن نفى مطلقها لا ينافى ثبوت أصل الصخب له، وهو قد ثبت فى محله كالخطبة والتلبية ونحوهما. انتهى.

أقول: فيه نظر من وجهين.

الأول: أن رده على الطيبى وتعجبه ليس فى محله لما عرفت من أنه أحد الاحتمالات فى أمثاله، وما ذكره أمدح؛ لأنه نفى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم اعتياد صخب واعتياد دخول الأسواق كأرباب الدنيا.

الثانى: أنه ادعى أن المبالغة لا تناسب هنا، والتجأ إلى جعل الصيغة للنسب، وليس بلازم لجواز كون المبالغة فى النفى لا فى المنفى كما ذهب إليه خاتمة المفسرين فى الآية، إلا أن فيه نظرًا؛ لأن صرف المبالغة للقيد الذى فى الصيغة ليس بالسهل مع إمكان التقصى عنه بوجه.

وفى هذا المقام مباحث أخر مذكورة فى غير هذا المحل، وقد أفردناها فى رسالة مستقلة.

(ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر) لأن خُلقه صلى الله تعالى عليه وسلم القرآن، وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾

[الشورى: ٤٠] فلذا قال: «ولكن يعفو ويغفر فلا يسيئ لمن أساء اليه ويدفع بالتى هى أحسن»، وفى الآية مشاكلة، وكذا فى كلام المصنف وإن كان نفيا فتدبر. وفى ذكر المغفرة بعد العفو تأكيدان كانا بمعنى أو يعفو تارة ويستر أخرى، فلا يفصح فيقول فى خطبة: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا» قيل: وفى كلام التفتازانى ميل للأول.

وقيل: بين العفو والمغفرة فى حق غير الله فرق، فإن العفو لغة بمعنى المحو فهو إزالة السيئة من ظاهره وخاطره، والمغفرة مشتقة من الغفر وهو الستر، ولا يلزم من سترها إزالتها، وقوله: «ولكن» إلى آخره استدراك بأنه لا يلزم من عدم جزائها بمثلها العفو لجواز أن يكله إلى الله تعالى ويؤخره للآخرة، انتهى.

أقول: قد ورد العفو الغفور فى أسماء الله عز وجل وتغاير مفهوميهما واشتقاقهما مما لا شبهة فيه، ثم بعد ذلك قيل: إنهما متساويان وهو المشهور. والتحقيق أن بينهما فرقًا من وجوه، منها ما نقله الإمام القرطبى رحمه الله تعالى فى شرح الأسماء الحسنى عن بعض العلماء، أن الغفران ستر لا يقع معه عقاب وعتاب، والعفو إنما يكون بعد عقاب أو عتاب، فإن استعمل فى غيره فهو بطريق المجاز، ومر فى الخطبة الكلام فيه أيضا فتذكره.

(ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء) الملة الدين وبينهما فرق، والعوجاء مؤنث أعوج وهوضد المستقيم، ولكثرة إطلاق الملة على الكفر فسرها بعضهم هنا به، وقال الشارح المحقق: العوج ضد الإستقامة، وهو كما فى النهاية بفتح العين فى المرئى وبالكسر فى غيره، وكلام القاموس يدل على التعميم، وإقامة المعوج جعله مستقيمًا، والمراد بالملة هنا ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام التى عوجتها العرب بتغييرها، كما قال الله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [النحل:١٢٣]لا ملة الكفر كما توهم فإنه أزالها، انتهى.

وفى النهاية: الملة العوجاء ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام التى غيرتها العرب عن استقامتها؛ لأنهم ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وكانوا يزعمون أنهم على ملته الحنيفة والحنيف من يوحد الله ويعبده، لأن الحنف فى اللغة الاستقامة وإنما قيل للمائل الرجل أحنف تمليحا أو تفاؤلا، وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام حنيفًا أى مستقيمًا، وبهذا تعين المراد بالملة، وقبضه الله أى توفاه وقبض روحه، وأصل القبض أخذ المال واستيفاؤه فإطلاقه على هذا بتشبيه الحياة والروح بالمال كما قال عمارة:

إذا كان رأس المال عمرك فاحترس عليه من الإنفاق فى غير واجب

أو هو من باب استعمال المقيد فى المطلق ثم شاع فصار حقيقة فيه.

(بأن يقولوا لا إله إلا الله) اقتصر على هذا وجعله عبارة عن الدين القيم، لأن العوج الواقع عموده الشرك وعبادة الأصنام وبهذا يستقيم، وقيل: المعنى أنهم يأتون بكلمة التوحيد وذلك كما قيل عصمة دمائهم وأموالهم، غير أن المنجى هو التصديق بها عن صميم القلب، وإنما لم يقل محمد رسول الله وهى قرينة كلمة التوحيد التى لا تكاد تنفك عنها اكتفاء على حد سرابيل تقيكم الحر، والقول بأنها زيادة على الملة الإبراهيمية، فلذا لم يذكر هاهنا فيه أنه يجب على أمة الخليل قبل وجود محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أن تصدق بأن محمدًا رسول الله كما صدق به إبراهيم نفسه، وقيل: المراد الرجوع إلى التوحيد ولا ينافيه زيادة الإيمان بشىء آخر، ففيه إشارة إلى الاعوجاج من جهة الشرك، هذا محصل ما فى الشرح وفيه بحث، لأنَّا لا نسلم أنه بعينه داخل فى الإيمان التفصيلى للأمم السابقة.، ومثله لا يقال بالرأى، وما ذكر لا يناسب مانحن فيه.

(ويفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا): قد مر هذا فى الخطبة، وهذا الحديث مروى فى البخارى بتأنيث ضمير بها على أنه راجع لكلمة التوحيد، والمصنف رحمه الله ذكره فجعله عائدًا عليها باعتبار اللفظ أو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وروى البيهقى عن كعب: «ليبصر الله به أعينًا عوراء، ويقيم به ألسنة معوجة حتى تشهد» إلخ، وهو هنا بنصب أعينًا وما عطف عليه ويفتح بالتحتية، وعلى رواية البخارى بالفوقية المضمومة ورفع الأعين وما بعده، ووقع فى رواية: «أعين عمى» بالإضافة، وكذا الكلام فى الآذان والقلوب، وعلى هذا فالعمى جمع أعمى، وكذا الصم جمع أصم، وعلى الأول جمع عميا وصما، قيل: والظاهر ثبوتها فى التوراة فلا إشكال.

أقول: لا يخفى أن التوراة عبرانية، وهذه ترجمة وإن اختلف لفظها معناها واحد فلا إشكال فيها لعدم تغايرها إلا فى العمى والعور والذى فى القرآن ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨]: وكأن النكتة فيه أن التوحيد إثبات اللّه ونفى ما سواه، فهم لما أثبتوا اللّه تعالى والشريك كانوا كفاقد إحدى عينيه، أو العور عبارة عن ذهاب العين مطلقًا، ثم إن العمى يوصف به العين وصاحبها حقيقة فقصره على الثانى تقصير، وفتح العين عبارة عن الإبصار، إما لما فيه من فتح الأجفان أو لتشبيه الأبصار بفتح الباب، وقد شاع هذا حتى صار حقيقة، وعكس حتى شبهت الأبواب المغلقة بالأعين العمى كما قيل:

قد أغلقت أبوابه دائما كأنها أجفان عميان

وقال:

وأقسم لو جاد الخيال بزورة لصادق باب الجفن يفتح مقفلا

وفيه معنى دقيق ليس هذا محله، وإزالة الإحساس فى الحواس المذكورة بآفات تصيبها فشبهت لعدم نفعها بالموت، إلا أنه لا يقال فتح أذنه وقلبه، فهو على حد قولهم متقلدًا سيفًا ورمحًا، والغلف جمع أغلف وهو الذى عليه غلاف أى غشاء وغطاء، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨] بضم فسكون، وقرئ بضمتين على أنه جمع غلاف كحمار وحمر، أى هى أوعية للعلم وليس هذا مناسب هنا فهو بالسكون لا غير، إذ المعنى لا ينظر ولا يسمع ولا يعى ما جئت به.

(وذكر مثله) ذكر بصيغة المجهول والذى فى البخارى ذكره فى صحيحه تعليقا.

(عن عبد اللّه بن سلام وكعب الأحبار) عبد اللّه بن سلام بفتح السين المهملة ولام مخففة لا غير، ونقل التلمسانى أنه يخفف ويشدد وكذا سلام بن أبى الحقيق، ومحمد بن سلام شيخ البخارى، وسلام بن مشكام، وما عداه بالتشديد وقال العراقى فى ألفيته:

نحو سلام كله فثقل لا ابن سلام الحبر والمعتزلى

وابن سلام هذا أسلم فى عهد رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم لما قدم المدينة، وكان حبرًا عالما بالتوراة والقرآن، وشهد له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالجنة، وتوفى سنة ثلاث وأربعين، وهو إسرائيلى من ولد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وكان اسمه فى الجاهلية حصينا فسماه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عبد اللّه، ونزل فى فضله قوله تعالى: ﴿شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وحضر مع عمر رضى اللّه تعالى عنه فتح القدس والجابية، وهو أنصارى خزرجى بالولاء، وكان من كبار الصحابة، روى له أصحاب الكتب الستة وغيرهم.

وقد مر أن كعب الأحبار هو كعب بن ماتع بالمثناة من فوق ابن هينوع، يكنى بأبى إسحاق الحميرى التابعى المشهور، أدرك زمن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يره، وأسلم فى خلافة أبى بكر رضى اللّه تعالى عنه، وقيل: فى خلافة عمر رضى اللّه عنه، وكان على اليهودية، وصحب عمر رضى اللّه عنه، وروى عنه كثيرًا وعن غيره كصهيب وابن المسيب، وسكن حمص بعد ما كان باليمن، واتفقوا على سعة علمه وشدة دينه وتوثيقه، وتوفى فى خلافة عثمان سنة اثنين وثلاثين متوجهًا إلى العراق.

وقيل: توفى بحمص كما مر.

وكما يقال له كعب الأحبار يقال له كعب الحبر بكسر الحاء وفتحها كما مر بإضافة الاسم للقب، ولقب به لكثرة علمه أو لكثرة كتابته، فالحبر بمعنى المداد الذى يكتب به، والحبر أيضًا بمعنى العالم كذا فى المصباح وتهذيب الأسماء للنووى وفى مثلثات ابن السيد، فقوله فى القاموس: كعب الحبر ويكسر ولا تقل الأحبار غير صحيح.

وهذا الحديث أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى ودلائل النبوة، وذكره ابن ظفر فى كتابه «خير البشر» الذى أفرده كما فى الكتب السالفة، من التبشير بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو كتاب بديع فى معناه رأيناه ورويناه، ومر أن هذا الحديث رواه البخارى مسندًا عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص كما ذكره المصنف رحمه اللّه، ورواه عن ابن سلام تعليقا على عادته فى تعليق ما كان بعض رجاله على غير شرطه كما بينه شراحه، وفيما ذكروه مخالفة لما فى فتوح الشام للواقدى.

(وفى بعض طرقه عن ابن إسحاق) الطرق جمع طريق وهى معروفة وتطلق على الروايات والأسانيد لاتصالها بالحديث وتلمح القائل.

له حديث فى الجود مشتهر   ترويه عنه الركبان من طرق

وفى المقتفى للبرهان: كان هذا فى الأصل عن أبى إسحاق فضرب عليه وكتب فى الهامش ابن إسحاق، وهو الإمام محمد بن إسحاق بن أبى بكر، ويقال له: أبو عبد اللّه، المطلبى مولاهم المدنى صاحب المغازى، رأى أنسًا رضى اللّه تعالى عنه وروى عن عطاء والزهرى وطبقته، وعن شعبة والحمادان وخلق كثير، وكان من بحور العلم صدوقًا وله غرائب ربما تستنكر لسعة حفظه، ولذا اختلف فى الاحتجاج به، وحديثه حسن وفوق الحسن صححه جماعة، وأخرج له أصحاب السنن، وله ترجمة فى الميزان، توفى سنة إحدى وخمسين ومائة، وقيل: اثنين، وقيل: سنة خمسين، وجده من سبى العراق وهو أول سبى دخل المدينة منها، وقد طعن فيه هشام لروايته عن فاطمة بنت المنذر وقال: كيف يراها وليس بشىء، لجواز أن يسمع منها وهى خلف الحجاب، كما روى الناس عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها وغيرها، وكذلك طعن فيه الإمام مالك وقال: إنه دجال من الدجاجلة، إلا أنه روى عنه أنه رجع عن ذلك، والقادح فيه غير منصف؛ لأنه كان أعلم الناس بالأنساب، وإنما أنكر عليه ما كان يأخذه عن أولاد اليهود الذين أسلموا بعض ما ذكر فى الغزوات من عورات المسلمين وأشعار الهجاء فيهم، لحرصه على الرواية مع أن عليه المعول فى المغازى، وكان شعبة وسفيان يوثقانه ويقولان: هو

أمير المؤمنين فى الحديث، قال السيوطى: هذه الطريق أخرجها ابن أبى حاتم عن وهب ابن منبه فى تفسير سورة الفتح، ووقع فى حواشى التلمسانى هنا زيادة، وعبد الرحمن ابن يزيد وقال: وهو عمرو بن عبد الله بن على السبيعى، رأى عليا وأسامة بن زيد والمغيرة بن شعبة رضى الله تعالى عنهم و لم أر هذه فى النسخ.

(**ولا صَخِب فى الأسواق**) بكسر الخاء صفة مشبهة تفيد المبالغة باعتبار إفادة الثبوت وقد مر بيانه.

(**ولا متزين بالفحش**) فحش كقبح وزنًا ومعنى، فكل شىء جاوز الحد فهو فاحش، والفحش القول السيئ ويطلق على الزنا، وقيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ﴾ [الطلاق:١] أى لا يزنين، والحاصل أنه كل قبيح قولاً كان أو فعلاً، ومتزين روى بزاء معجمة ومثناة تحتية ونون، وروى بدال مهملة من الدين وروى منقوصًا متزى بياء بدل النون من الزى وهو اللباس والهيئة، أى: لا يتلبس بأمر قبيح أو يتجمل به ويباهى به، ولا يرد على ظاهره أنه يوهم أنه قد يأتى به غير متجاوز وغير متزين به؛ لأنه لا مفهوم له لجريه على عادة أرباب الفحش فى المباهات بها، وقيل: إنه إستعارة تهكمية، وقيل: التزين بمعنى الاتصاف على التجريد، أو المراد أنه لا يرى الفحش زينة فهى مكنية، وهذا علامة من علامته صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه نشأ بين قوم يتزينون بالفواحش كالقتل والزنا والطواف عراة فأتى بما يخالف عادتهم.

(**ولا قوال للخنا**) قوال فعال صيغة مبالغة أى كثير القول، والخنا بخاء معجمة ونون مقصور قبيح الكلام، وهذا مع ما قبله يفيد أنه لا يصدر عنه صلى الله تعالى وسلم شىء منه قليلا أو كثيرًا؛ لأن الفحش بمعناه، وقيل: فعال هنا للنسبة، أى: ليس بذى قول للخنا كثمار ونبال، وليس المراد أنه إشارة إلى أنه ربما يقوله لموجب، لأن ما كان لموجب ليس بفاحش، وقيل: المراد نفى المبالغة و لم ينف أصل قوله للصيانة عن توهم الكذب فى كلامه تعالى لو صدر عنه ما يوهم فحشًا ما، وعن الهلاك الذى يثمره ذلك التوهم فوق الهلاك الذى يثمره توهم أنه ربما يقول الخنا، ولما ذكر صفات التخلية بقوله: «ليس بفظ» إلى آخره أخذ فى صفات التحلية بطريق الوعد ممن لا يخلف وعده فقال:

(**أسدده لكل جميل**): مستأنفًا لمقصد أعلى مما قبله، ولذا لم يعطفه، وقيل: إنه جواب سؤال تقديره فما تفعل به بعد أن صنته عن النقائص، فقال: أسدده إلى آخره، والجميل الحسن صورة كان أو معنى ومر فى الحديث (**إن الله جميل يحب الجمال**)، والتسديد التوفيق للسداد وهو الصواب، والقصد من القول والعمل وتسديده يشمل تسديد جميعه وبعضه، فقوله بكل جميل ليس تجريدًا كما قيل والكلية للمبالغة، أو هو كاستغراق جمع

الأمير الصاغة أى بكل جميل يليق به.

(واهب له كل خلق كريم) أهب بفتحتين مضارع وهب بمعنى أعطى، والخلق بضمتين وتسكن اللام: السجية والطبيعة التى فطره اللّه عليها، وهو يوصف بالكرم بمعنى الخير والكمال، يقال: كرم كرمًا إذا نفس وعز ويكون بمعنى العطاء الكثير وليس بمراد هنا، وإن أوهمه قوله أهب ففيه تورية، وقيل: هو من قبيل عطف الخاص على العام للاهتمام، ويقال: لكل صفة خلق ولذا يجمع على أخلاق، فلا حاجة إلى تقدير كل فرد خلق كما توهم، وهو وعد منه تعالى وهو لا يخلف الميعاد وفيه نظر، وكونه جامعًا لمكارم الأخلاق غير محتاج للبيان وسيأتى نبذ منه.

(واجعل السكينة لباسه والبر شعاره) اجعل مضارع المتكلم وهو اللّه، والسكينة بفتح السين وكسر الكاف المخففة ثم ياء ونون وهاء وفيها لغة بكسر السين وتشديد الكاف، نقلها المصنف رحمه اللّه تعالى فى مشارقه وبها قرئ فى الشواذ، وهى فعيله من السكون، والمراد بها هنا الوقار والطمأنينة، ووردت فى القرآن فى قوله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤] ووردت فى الأحاديث الصحيحة بمعان أخر، قيل: إنها مشتركة فيها، وللمفسرين فيها أقوال، فعن على رضى الله تعالى عنه أنها ريح هفافة، وقيل إنها ملك له وجه إنسان وله رأسان وعيون ذات أشعة، وطست من ذهب تغسل فيه قلوب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقيل: إنها شىء كان يلقى فيه موسى، عليه الصلاة والسلام الألواح والعصى. وقيل: هى رحمة. وقال السيوطى رحمه اللّه تعالى: إنها اسم ملك مخصوص، وفى حديث الوحى: «غشيته صلى اللّه تعالى عليه وسلم السكينة» وهى ما كان يلحقة عند نزوله. وقيل: إنها صورة هو مع بنى إسرائيل إذا ظهرت انهزمت أعداؤهم، وفى حديث بناء الكعبة: «فأرسل اللّه السكينة» وهى ريح سريعة المرور، والمراد هنا الأول، وأما هذه المعانى فيحمل عليها ما رود فى الأحاديث ولا حاجة لذكرها هاهنا، ولما كان السكون والوقار مبدؤه ما يلوح لقلبه فى مراقبته وجعله فى الآية فى القلب، ويلزمه ما يظهر عليه من الخشوع والتثبت، وباعتباره جعله لباسًا له من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، فلكل منهما وجه وجيه بليغ، فلا حاجة إلى التوفيق بينهما بأن ما فى الآية بمعنى ملك يسكن قلب المؤمن ويؤمنه أو العقل كما قيل.

والبر الطاعة والإحسان أو زيادته، والخير والرحمة والشعار بمعنى اللباس الذى يلى الجسد، سمى به لأنه يمس شعره وبدنه، ويكون بمعنى العلامة أيضًا، والمناسب هنا الأول لذكره مع اللباس، ويقابل الشعار بهذا المعنى الدثار وهو ما يتغطى به الإنسان، وفى

الحديث: «الأنصار شعار والناس دثار»(١) أى هم خاصة له صلى الله تعالى عليه وسلموالناس عامة، أو هم أقرب إليه من غيرهم وهو بزنة اللباس، ولما كانت السكينة ظاهرة فيه صلى الله تعالى عليه وسلم فى سائر أحواله، ويراها كل أحد برًا وفاجرًا جعلها لباسا، والبر والخير والرحمة وإن لازمه أيضًا وعم أحواله، إنما يقف عليه المؤمنون ببصائرهم جعله شعارًا فانظر حسن موقعه مع ما قبله وما بعده أيضًا، وهو قوله: **(والتقوى ضميره)**: لأن الضمير ما يضمر فى القلب وينوى فى خاطره بحيث لا ينساه، والاسم الضمير والمضمر الموضع والمفعول، قال:

مستقر لها فى مضمر القلب والحشا سريرة ود يوم تبلى السرائر

ويسمى القلب ضميرًا لخفائه، أو لأنه محله فانظره كيف انتقل من الظاهر للخفى، ثم الأخفى مع ما فيه من شبه اللف والنشر مع الأمور السلبية. والتقوى: عبارة عما بقى من العذاب فى الآخرة ولها مراتب؛ أولها: التبرى عن الشرك، والثانى: التنزه عن كل ما يؤثم، والثالث: أن يتنزه عما يشغل سره عن الله وبهذا علمت التيامها مع الضمير.

(والحكمة معقولة) الحكمة كالحكم كل كلام جامع لما يرشد إلى الحق، فيشمل المواعظ والأمثال لانتفاع الناس بها، وتطلق على العلوم الشرعية، وتطلق على القضاء بالعدل، وبه فسر قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، والقرآن وتفسيرها هنا بالعلم بأحوال الموجودات على ماهى عليه بقدر الطاعة، أو مطلق المعلومات كما قيل غير مناسب وإن صح، والمعقول يكون مصدرًا واسم مفعول، فالمراد أنها بعقله وإدراكه أو ما يعقله كله حكم ومواعظ وعلوم نافعة، لأنه لا ينطق عن الهوى

(و) اجعل **(الصدق والوفاء طبيعته)** أى: لا ينطق بغير ما وافق الواقع، وإذا عاقد أحدًا أو وعد وعدًا لا يخلفه، وهذا أمر طبيعى له جعله الله فيه.

(والعفو والمعروف خُلقه) المعروف والعرف قال فى المصباح: هو الخير والرفق والإحسان، ومنه قولهم: من كان آمرًا بالمعروف فليأمر بالمعروف، أى: من أمر بخير فليأمر برفق. انتهى. ويقابله المنكر، والمعروف ما تعرفه وتألفه العقلاء، ولذا قيل: المعروف كاسمه معروف.

(والعدل سيرته) العدل: القصد فى الأمور وهو ضد الجور، والسيرة فعلة فهى فى

(١) أخرجه البخارى (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١/١٣٩)، وأحمد (٤٢/٤)، وابن ماجه (١٦٤)، والبيهقى (٣٣٩/٦).

الأصل الهيئة فى السير، ثم صارت اسما للطريقة يقال: سار سيرة حسنة أى طريقه وحاله العدل وعدم الخروج عن الحق، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] قيل فى تفسيره: العدل الفرائض والإحسان النافلة، وقيل: العدل استواء السريرة والعلانية والإحسان أن تفضل السريرة العلانية، وقيل: العدل الإنصاف والإحسان التفضيل. وقال ابن عطية: العدل فعل كل مفروض من العقائد والعبادة وأداء الأمانات، والإنصاف والإحسان فعل المندوب.

وقال البغوى: العدل بين العبد وربه إيثار حقه على حظ نفسه، واجتناب الزواجر وامتثال الأوامر، وبينه وبين نفسه منعها عما فيه هلاكها، والصبر بينه وبين غيره بذل النصيحة وترك الخيانة وإنصافهم من نفسه، والصبر على أذاهم، قيل: جعل العدل سيرته صلى اللّه تعالى عليه وسلم لا ينافى أن يكون الإحسان سيرته فى محل يليق به، ولا أن يكون العفو طبيعة له، صلى الله تعالى عليه وسلم لمصلحة تليق بالمقام، وقيل عليه: إن الإحسان أخص من العدل، فإن تمثيل المشركين بحمزة رضى اللّه تعالى عنه فى أحد، وعدم تمثيل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقتلاهم إحسان، ولو فعله كان عدلاً، ومقتضى هذا أن الإحسان ينفرد عن العدل وليس كذلك، وأما العفو: فإن كان بإذن الشرع كعفوه صلى الله تعالى عليه وسلم عن الذى اخترط سيفه ليقتله فهو عفو وعدل، وعفوه عما لم يؤذن كالحدود لم يقع منه لعصمته صلى اللّه تعالى عليه وسلم عن مثله.

أقول: هذا القائل فسر العدل بالمساواة فى المكافاة، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، والإحسان: أن يقابل الخير بمثله وزيادة والشر بأقل منه، ومقتضاه تغايرهما ومراده المقابلة فيما لابد من مقابلته وترك العفو عنه، فلو أذن له فى العفو، أو التقليل وفعل ذلك لم يكن عدلاً ولا جورًا؛ بل مرتبة زائدة على العدل، والمعترض ظن أن كل ما ليس بعدل جور وليس وكذلك.

(والحق شريعته) الذى رأيناه فى النسخ المقروءة بنصبهما عطف على مفعول أجعل، وحينئذ لا يرد عليه شىء كما أورد على الرفع، فإن تعريف طرفى المسند والمسند إليه يقتضى الحصر، فيقتضى بمفهومه أن ما عداه من الشرائع باطل وليس كذلك، ولذا قال بعضهم: المراد الحق الكامل الذى لا ينسخ؛ وقيل: الحصر على ظاهره ولا يحتاج فى تصحيحه إلى تقدير ذلك الوصف، أو جعل التعريف عهديًا عبارة عنه، لأن شريعته فى زمن موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام لم يكن فى الشرائع حق غيرها وما سواها باطل، كذا فى النسخة التى عندى ولا محصل لها، ولا يندفع السؤال بما قاله، ولك أن تقول إن شريعته فى زمانه هى الحق لا غيرها لانتساخ الشرائع بها، والكلام يفيد هذا

بدون تقدير والحق الثابت وخلاف الباطل وما يستحقه الإنسان على غيره، والشريعة دينه صلى الله تعالى عليه وسلم الذى شرعه اللّه لأمته، وهى قانون إلهى وضعه اللّه على لسان رسله عليهم الصلاة والسلام ليسوقهم إلى خير الدارين.

والشريعة قيل: إنها فى الأصل الطريق الواضح المستقيم كالشرعة قال اللّه تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، ويكون بمعنى المشرعة المورِدة، أى: المحل الذى يشرب منه من حافة نهر ونحوه، ثم نقلت للدين إما لأنه طريق الخير والسعادة أو لتضمنها ما هو سبب للحياة الباقية، كالموردة المتضمنة لسبب الحياة الفانية، ورد بأن معناها إنما هو الطريق، والموردة إنما سميت بها لأنها موصلة للماء وفيه نظر لا يخفى.

(والهدى إمامه) والهدى: الدلالة بلطف ولذا اختصت بالخير ولها أنواع؛ **أولها**: خلق القوى والمشاعر الظاهرة والباطنة التى لا يتمكن بها من الاقتداء لمصالحه.

والثانى: نصب الدلائل الحقة.

والثالث: إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام وإنزال الكتب.

والرابع: أن يكشف عن قلوبهم حتى يشاهدوا الأشياء.

فإن قلت: كيف تشتمل هذه الأنواع والأول لم يدلهم اللّه عليه؟ **قلت**: هذا من سوء الفهم، فإن المراد أن خلقها بمنزلة الدلالة فيها، وقوله: «إمامه» بكسر الهمزة بضبط البرهان الحلبى وهو الظاهر، وضبطه بعضهم بفتحها، وهو بمعنى قدام إحدى الجهات الست، ومعناه على الأول مقتداه ومتبعه، وبه سمى الإمام للاقتداء به، وقال تعالى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، أى: أنه متبع للهدى وهو كناية عن ملازمته له وعدم انفكاكه عنه، وقيل: إن تعريفه للعهد أى هدى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام:٩٠]

والمراد بهداهم: ما اتفقوا عليه من التوحيد والأصول لا الفروع، ويجوز أن يراد بإمام الطريق كما قيل فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:٧٩] وعلى الفتح فالمراد بطريق الكناية، أى إنه ملاحظ له كما يقال فى ضده أنه ظهرى وخلف ظهرى.

(والإسلام ملته): بنصبهما ورفعهما كما مر، والأول هو الصحيح. فى النسخ التى عندنا وهو الأحسن، قيل: المراد أن الإسلام اسم لهذه الملة، فالمعنى أنه جعلها خير الملل وسماها بهذا الاسم، أو هو عام والمراد الكامل منه، وهذه التسمية فى التوراة صريحًا أو

مضمونًا لقوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨] أى من قبل نزول القرآن سماهم بهذا فى الكتب الإلهية، والظاهر أن هذه الصفات السلبية والإيجابية ذكرت فى التوراة والإنجيل تعريفا له صلى الله تعالى عليه وسلم، فينبغى حملها على الكامل منها ليكون من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم التى تميز بها عن غيره، والملة كالدين والشريعة تطلق على الإسلام وغيره وهى متغايرة بحسب المفهوم متحدة بحسب الخارج.

والإسلام أصل معناه اللغوى الاستسلام والانقياد، ثم خص فى لسان الشرع بالانقياد لما جاءت به الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام بلا خلاف، إنما الخلاف فى اختصاص الإسلام بأمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، والمشهور أنه لا يختص بهم فيقال: لكل ملة إسلام ولأهلها مسلمون، ولكل نبى أنه مسلم لقوله تعالى فى حق لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٦] وقيل: إنه توصف به هذه الأمة ويوصف به غيرهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دون أممهم.

وارتضى هذا السيوطى وصنف فيه رسالة مستقلة، وأطال فيها، وتبعه بعض الشراح هنا، ثم قال: إن الإسلام بالمعنى الشرعى المتضمن للشهادتين، وسائر الأحكام المفروضة على هذه الأمة يختص بهذه الأمة دون جميع من عداهم من الأمم والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهو اسم منقول كالصلاة، وأما بالمعنى اللغوى وهو الانقياد: فهو عام لكل منقاد لشريعة من الشرائع، ويؤيده قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨]

أقول: فيما قاله السيوطى نظر لا يخفى، ثم إن معنى الإسلام والفرق بينه وبين الإيمان مفصل فى كتب الأصول فلا حاجة لذكره هنا.

(وأحمد اسمه) أى جعل اسمه أحمد وسماه به فى الكتب القديمة قبل وجوده، وهو علم منقول من اسم التفضيل، أى هو أكثر حمدًا لله من سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وجميع الخلق،وهو صاحب لواء الحمد يوم القيامة كما سيأتى، وقال السخاوى فى سفر السعادة: إنه صفة كأحمر وأبيض نقلت لهذه، وسيأتى الكلام عليه فى أسمائه صلى الله تعالى عليه وسلم، ولما ذكر صفاته الموصوف بها فى نفسه شرع فى صفاته التى لوحظ فيها غيره، وهو جواب لسؤال مقدر تقديره: هل ينفع بهذا الظاهر المظهر الكامل فى نفسه غيره؟.

فقال: **(أهدى به بعد الضلالة)** كما قيل، وقيل: إنما فصله لعلو مرتبة الهداية سواء

كانت الإيصال أو الدلالة الموصلة، وأهدى بفتح الهمزة مضارع هدى وفيه تقوية لمدحه السابق، والمراد الهداية إلى ما به النجاة، وإلى ما به تكميل الناجى، فلذا قال: (**وأعلم به بعد الجهالة**) والضلالة بمعنى الضلال وهو سلوك غير الطريق الموصلة، ويقال: أضل الشىء إذا ضيعه وهى تكون عن قصد وعمد وبغير قصد كقوله تعالى: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء:٢٠] أى المخطئين، وبين الهداية والضلالة صنعة الطباق البديعية والباء للسببية أو للتعدية، وأعلم مضارع بضم الهمزة وتشديد اللام كما فى المقتفى، والجهالة بفتح الجيم مصدر كالضلالة بمعنى الجهل، والجهل والجهالة ضد العلم وهو الاعتقاد الذى لا يطابق الواقع، وفى المصباح: جهلت الشىء جهلاً وجهالةً خلاف علمته، وفى المثل: كفى بالشك جهلا.انتهى.

(**وارفع به بعد الخمالة**) ضبطه ابن رسلان بفتح الخاء المعجمة والميم، ونقل عن بعض النحاة أنه لا يقال خمالة وإنما هو خمولة، وفى الصحاح: الخامل الساقط الذى لا نباهة له، وقد خمل يخمل خمولا وأخملته أنا. وفى الجمهرة: رجل خامل الذكر بين الخمول والخمولة هو ضد النبيه والنابه.

أقول: هذا الحديث صحيح، وثبوت هذه اللفظة فيه يكفى دليلاً لصحتها، أو هو لمشاكلة الضلالة واللازدواج معها، ولو قلنا: إنه غير قياس والمراد برفعه جعل الدين والتوحيد بعدما ترك فى الفترة لغلبة الجهل مشهورًا شائعًا فهو مجاز، كقوله تعالى عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤] وبين الجهالة والخمالة طباق أو شبهة.

(**وأسمى به بعد النكرة**) يقال: أسميته كأكرمته، وسميته بالتشديد ككرمته ويتعدى بنفسه وبالباء، كسميته زيدًا ويزيد إذا جعلته اسمًا له وعلما، وبالتشديد ضبطه البرهان فى المقتفى، وروى بضم الهمزة وسكون السين المهملة، والنكرة بضم النون وسكون الكاف وبفتح النون وكسر الكاف خلاف المعرفة، ويطلق بمعنى المجهول كقول الشاعر فى مجهول النسب:

وأمه معرفة لكن أبوه نكرة

والباء للسببية أى: أعرف الناس بسببه أو بما أوحيه إليه الناس المجهولين، أو أعرفهم ما جهلوه من التوحيد، أو أعرف الناس ما لم يعرفوه من الأنبياء وقصصهم، وقيل: الأولى التعميم، وقيل: المراد أعرف به من هو فى حكم النكرة غير معروف ولا بشهرة موصوف، وهو تكلف، وبين التعريف والتنكير شبه الطباق، ومعنى هذا وما قبله أنى أرسله فى زمان جهالة وضلالة وفترة، فيؤمن به أول مساكين الناس وضعفاؤهم على

عادة الرسل عليهم الصلاة والسلام، فيصيرون به بعد خمولهم وكونهم مجهولين أعز الناس وأكرمهم، فإن من الصحابة رضى اللّه تعالى عنهم من كان بدويا أو أعرابيا، وبعد إشراق نور النبوة صار صدرًا تقبل الجبابرة يديه ورجليه وقد كان الدين والعلم قبيل بعثته عليه الصلاة والسلام نكرة لكن لا تقبل التعريف، فأفاض اللّه منه على أمته ما لم تسمع به الأمم، حتى أبدعوا علومًا وتواليف تحار فيها الأفكار، فجزاه اللّه خير الجزاء وهذا من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم.

(**وأكثر بعد القلة**) أكثر بضم الهمزة وسكون الكاف وكسر المثلثة وتخفيفها، أو بفتح الكاف وتشديد المثلثة المكسورة؛ لأنه يتعدى بالهمزة والتضعيف، قال اللّه تعالى: ﴿قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ﴾ [هود: ٣٢]، وقولهم: أكثر من الأكل، يحتمل زيادة من وحذف المفعول، أى: أكثر الفعل من الأكل كما فى المصباح، والمراد أنه يكثر به الأرزاق مطلقًا، أو على من اتبعه، أو أكثر أمته بعد قلتها فى ابتداء أمره، أو بعد عدمها؛ لأن القلة ترد فى كلام العرب بمعنى العدم أيضًا وهو بعيد، وقيل: المراد أكثر به قواعد الملة بعد القلة؛ لأنهم كانوا بملة عوجاء فأقامها وأعاد منها ما نقص بكلمة التوحيد وهو تكلف.

(**وأغنى به بعد العيلة**) أغنى مضارع من الإغناء وهو إعطاء الغنى، والعيلة بفتح المهملة وسكون التحتية الفقر، قال اللّه تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨] من عاله إذا قام بأمره وكفله، والعامة تقول: عيلة بمعنى عيال جمع عيل كجياد وجيد، ولو استعمله بليغ كان له وجه من المجاز، والصحيح ورود العيلة بمعنى عيال كما فصله البيهقى فى كتاب الانتصار للشافعى، والمراد: ما كان هو وأمته عليه فى ابتداء أمره، ثم صار بعد ذلك لهم من النعم والسعة بما أحل لهم من الغنائم وفتح من الممالك ما هو غنى عن الشرح والبيان.

(**وأجمع به بعد الفرقة**) أى: أجمع به بين الناس بعد افتراقهم وتنافر قلوبهم لما بينهم من العداوة المؤدية للحروب وترك الديار، كما كان بين العرب والعجم، وبين قبائل العرب وبين القبيلة الواحدة، ألا ترى ما كان بين المسلمين والمشركين مما أدى إلى الهجرة وترك الأوطان، وبين الأوس والخزرج من الحروب والمهاجاة، بل بين الأب والابن والأخ وأخيه، كما قال أبو فراس:

وقبلى كان الغدر فى الناس شيمة وذم زمان واستلام خليل
وفارق عمرو بن الزبير شقيقه وخلى أمير المؤمنين عقيل

فلما جاء الإسلام ألف بين قلوبهم وسل أحقادهم وضغائنهم، حتى صار الواحد

منهم ينزل عن إحدى زوجتيه للآخر ويقطع برده نصفين، أو المراد أنه جمع العقائد والملل على التوحيد وملة الدين، والمراد الأعم منها.

فقوله: (**وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء متشتتة وأمم متفرقة**) عطف تفسير لما قبله، ومتفرقة كما قال التلمساني بتقديم التاء على الفاء من التفرق، وبتقديم الفاء على التاء من الافتراق، في نسخة العوفي «والتأليف» جعل الأشياء مؤتلفة مجتمعة، أي أجمع بينهم على مودة وائتلاف بعد الافتراق والعداوة، كما قال اللّه تعالى: ﴿**وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا**﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وإسناد التأليف إلى اللّه في الآية لا ينافي كون التأليف بسبب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه السبب الظاهري والفاعل الحقيقي هو اللّه تعالى عز وجل، والتأليف بين القلوب يستلزم التأليف بين الذوات فلا منافاة بينهما كما توهم، أو المراد التأليف بين عقائدهم، بحيث تكون عقيدتهم واحدة متفقة على الحق والتوحيد، والأهواء جمع هوى وهو ميل النفس لما تشتهيه وتحبه، والمتشتتة المتفرقة، أي اجعل مهويهم واحدًا متفقًا محمودًا. والهوى غلب إطلاقه على المذموم كما قال تعالى: ﴿**وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ**﴾ [الرعد: ٣٧].

والأمم جمع أمة وهي الفرقة من الناس وغيرهم، يعني أن كل أمة كانت على دين واعتقاد وعلى طريقة، فمنهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الكواكب، ومنهم من هو على دين موسى عليه الصلاة والسلام، ومنهم من هو على دين عيسى عليه الصلاة والسلام، فنسخ اللّه بشريعته صلى الله تعالى عليه وسلم جميع الشرائع، وجعل الدين دينًا واحدٌ قيمًا من حاد عنه هلك وشقي في الدارين.

(**واجعل أمته خير أمة أخرجت للناس**) كما قال اللّه تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١١٠]، أي: أنه تعالى قضى بذلك وقدره في الأزل وعالم الذر، وأخرجت بمعنى أوجدت، وخلقت وأخرجت من العدم، والمراد أمة الإجابة وهم من آمن به صلى الله تعالى عليه وسلم، ويطلق على أمة الدعوة وهم جميع الناس الموجودين بعد بعثته صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: المراد كنتم مذكورين في الأمم الذين قبلكم موصوفين بأنكم خير لخيرية نبيكم ودينكم، أو بما بينه من قوله بعده: ﴿**تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١١٠] وفي هذه الآية دليل على أن إجماعهم حجة.

(**وفي حديث آخر: أخبرنا رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم عن صفته في التوراة**) رواه الطبراني وأبو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود رضي اللّه تعالى عنه، والدارمي عن

كعب موقوفا، ورواه بإسناد ضعيف.

(عبدى أحمد المختار) أضافه إليه تشريفًا له، وأحمد عطف بيان أو بدل، والمختار الذى اختاره من جميع خلقه وهو بمعنى المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم .

(مولده بمكة) أى موضع ولادته صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه البقعة الشريفة.

(ومهاجره) أى محل هجرته الذى هاجر إليها صلى الله تعالى عليه وسلم.

(بالمدينة أو قال: طيبة) والمدينة المصر الجامع وزنها فعيلة؛ لأنها من مدن، وقيل: مفعلة بفتح الميم من دان غلبت على مدينة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، والجمع مدائن بالهمزة على القول بأصالة الميم، ووزنها فعائل وبغير همزة على القول بزيادتها ووزنها مفاعل، لأن للياء أصلا فى الحركة فترد إليه كما قيل فى معايش.

والهجرة فى اللغة الترك، ثم خصت بترك مكان لآخر وكانت واجبة قبل فتح مكة، وللمسلمين هجرتان، للحبشة والمدينة، وغالب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقع لهم الهجرة لعداوة الناس لهم.

وكان اسم المدينة يثرب، فكره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك لما فيه من إيهام معنى التثريب، ولها أسماء منها ما ذكر وهو طيبة بفتح الطاء وتخفيف الياء الساكنة مؤنث طيب بالفتح لغة فى الطيب بمعنى الرائحة الطيبة، أو هى مخففة من طيبة بالتشديد، ويقال: طابة أيضًا والمراد أنها مطهرة من الشرك والخباثة، وقوله «أو قال» شك من الراوى فيما قاله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وطيبة مجرور بالفتح لمنعه من الصرف تقديره أو قال بطيبة، لا مرفوع تقديره مهاجره طيبة وإن جاز على بعد فيه، قيل: وظرفية طيبة لمهاجره بضم الميم وفتح الجيم من ظرفية الكلى للجزئى كما يقال الإنسان فى زيد، وكذا مولده بمكة ولو قيل أنه مصدر ميمى لم يبعد.فتدبر.

(أمته الحمادون لله على كل حال) الحمادون الكثيرون الحمد، وتعريف الطرفين يفيد الحصر، فكثرة الحمد مختصة بهذه الأمة على كل حال، من قيام وقعود واضطجاع، وسفر وحضر فى السراء والضراء، لأن الله تعالى مستحق الحمد استحقاقا ذاتيًا فلا يختص بحال دون حال، وهو بالنظر للمجموع أو الغالب أو المتعين منهم، أو هذا من شأنهم، وحمله على الكل تكلف كما قيل، والحمد لا يلزم أن يكون فى مقابلة النعمة كالشكر، فلا يحتاج الحمد فى الضراء للتوجيه، وإن كان العبد منعمًا عليه فى كل حال بنعمة الإيجاد، والجوارح والحواس والضراء منفعة بالثواب عليها وحفظه عن الإصر، ولك أن تقول: كثرة الحمد فى هذه الأمة لما فى أوقات الصلوات من قراءة الحمد،

والثناء على الله فيها على أبلغ وجه لم يقع لغيرهم من الأمم.

واعلم أن فى بعض الشروح الاعتراض على المصنف وغيره ممن أكثر النقل من التوراة وغيرها من الكتب المنسوخة، وقد حرم الفقهاء قراءتها والنظر فيها فإنها محرفة مبدلة، وبالغ بعض الفقهاء فقال: يجوز الإستنجاء بأوراقها وهذا مما لا ينبغى التلفظ به، ثم أنهم اختلفوا بعد ذلك فى تحريفها وتبديلها، هل هو بتغييرها بالزيادة والنقصان أو بتأويلها وتفسيرها بغير مراد منها؟ وقالوا: الاشتغال بها ينافى الغرض من نسخها فلا يجوز، وذهب بعضهم إلى أن التحريف فى التأويل لا غير لاستحالته بعد انتشارها وكثرة نسخها، ولا مانع من قراءتها لمعرفة صفة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيها ولإلزامهم بما أنكروه، وكيف يحرم هذا وقد قال الله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا﴾ [آل عمران:٩٣] ووقع فى الأحاديث النقل عنها، ولو حرفوها لحرفوا آية الرجم التى ألزمهم عبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه بها، وقد ارتضى هذا ابن تيمية، وفى شرح التجانى: إذا وجد فيها ما يقوم النظر على عدم تبديله، وأفاد النظر فيه مقصدًا شرعيًا، فلا يبعد أن يباح النظر فيه والاشتغال به وهو كلام حسن.

(وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧])، أى اقرأ واذكر هاتين الآيتين بتمامهما، أعنى ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧، ١٥٨] وإنما اقتصر المصنف على بعضها للإختصار ونحن ذكرناهما إيضاحًا لمن لم يحفظ، وادخار الثواب التلاوة، وإنما ذكر المصنف هاتين الآيتين لأن الفصل معقود للشهادة، أى لكونه عليه الصلاة والسلام شاهدًا على أمته وغيرهم ولما يتعلق بها، فذكر أولاً ما يدل على مقصوده من القرآن العظيم، ثم بين بأنه موصوف بذلك فى الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل، ثم ذكر هذه الآيات لتعلقها بما ذكر؛ لأنها تدل على صحة ما نقل من التوراة فى ذكره فيها، وقد قال فى الترجمة: ذكر الشهادة وما يتعلق بها، وقد قيل: إنه ذكر استطرادا لما فى الآية الأولى من التنبيه على أن وصفه واسمه مذكور فى التوراة كما نقله، وفى الثانية ذكر كونه رسولاً ونبيًا أميًا كما فى التوراة، وقيل: ذكرت لما فرض من الثناء والمدح له صلى

الله تعالى عليه وسلم.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] قال إبليس، لعنه الله تعالى: أنا شيء، فطمع فى الرحمة فلما سمع قوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦] آيس من أن تناله الرحمة.

وقالت اليهود والنصارى: نحن متقون داخلون فى هذه الرحمة، فلما سمعوا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] إلى آخره خرجوا عن العموم، وهذا كما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال: «كتبها الله لهذه الأمة»، وهو كما قيل مبنى على أن الذين يتبعون خبر مبتدأ تقديره هم الذين إلخ، أو بدل بعض أن كان تعريف الموصول هنا للإستغراق، فإن كان للعهد فهو بدل كل من كل، فإن جعل الذين مبتدأ وقوله يأمرهم إلى آخره خبر، فلا تخصيص، إلا أنه يخالف التفسير المأثور عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، والقول بأن البدل مخصص ذهب إليه كثير من الأصوليين كابن الحاجب وغيره، وأنكره الهندى لأن المبدل منه فى نية الطرح، ولا حجة له فيه؛ لأنه وإن لم يكن مطروحًا من كل الوجوه فطرحه يدل على خلاف مدعاه، ونقل عن الشافعى رحمه الله تعالى أنه كان يقول: بدل البعض والاشتمال من المخصصات وهو الحق.

والأمى: هو الذى لا يقرأ ولا يكتب، وهو صفة مادحة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد مر تقديره، والقول بأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كتب بيده بعد ذلك تقدم ما فيه، وأنه نسبة لأم القرى أو لأمه التى ولدته. وفى شرح التاجى: أنه قرئ فى الشواذ الأمى بفتح الهمزة منسوب إلى الأم بمعنى القصد؛ لأنه مقصود كل أحد باتباعه واتباع شريعته، وفى تقديم الرسول على النبى مع أنه أخص منه مخالفة للظاهر، فقيل: لأنه أرسل فأنبأ عن الله، يعنى أنه بمعناه اللغوى وهو المنبئ لا بمعنى من أوحى إليه بشرع سواء أمر بتبليغه أم لا. وقيل: قدم الرسول للإهتمام به، ولذا رد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على البراء بن عازب رضى الله تعالى عنه لما قال: آمنت بكتابك الذى أنزلت وبرسولك الذى أرسلت، وقال له: «قل ونبيك الذى أرسلت» ليكون الكلام جاريا على الترتيب اللائق به وليسلم من التكرار، وقيل: إنما أخر النبى لدفع احتمال أن يراد بالرسول معناه اللغوى، واحتمال أن يراد بالنبى معناه وحقيقته اللغوية أيضًا، أجيب عنه بأنه يحصل من الاحتمال معنى ليس فى الانفراد، وقيل: ليس الصفة مجرد النبى بل النبى الأمى لاشتهاره بذلك فى الكتب السالفة، فالمقصود الإخبار بمجموعهما، كالرمان حلو حامض فهو أخص من الرسول، أو ذكر النبى للتعميم فذكر أولا الأعلى ثم الأدنى

ليستوعب جميع صفاته لا للترقى، ومعنى وجدانه فى التوراة والإنجيل، أنهم يجدونه فيهما اسما وصفة والمعروف ضد المنكر، وهو ما عرف أنه طاعة لله من ترك الأوزار، ومن الإتيان بمكارم الأخلاق كصلة الرحم.

والطيبات: كل حسن حلال، والخبائث: ما كان بخلافه كالخنزير وكل مستقذر ويدخل فيه الربا، والسحت: بمعنى الرشوة التى تسحت البركة، ووضع الإصر بمعنى الثقل أو العهد؛ لأن بنى إسرائيل أخذ عليهم العهد بالتزام أمور شاقة كقرض موضع النجاسة وتحريم الغنائم، فخفف الله عن هذه الأمة بعدم التكليف بها.

وعزروه: بمعنى وقروه وعظموه ونصروه بدفع أعدائه عنه، والمراد بالنور الذى معه القرآن، أى اتبعوا القرآن مع اتباعه إشارة الكتاب والسنة، والمفلحون الفائزون بكل الخير.

(وقال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ الآية) [آل عمران: ١٥٩] ذكر هذه الآية لتعلقها بما تقدم فى التوراة من قوله: «ليس بفظ ولا غليظ»، أى فبرحمة من الله وما مزيدة لتأكيد الكلام وتزيينه، وزعم ابن كيسان أنها نكرة تامة فى محل جر، ورحمة بدل، والأول هو الوجه، أى برحمة الله لك وتوفيقه ولطفه بك أن خلقك لينًا مهذب الأخلاق وحمولاً صبورًا لا يؤاخذ الناس بما فرط منهم حتى جبلت القلوب على محبتك، ولو لم تكن كذلك كنت فظًا أى شديدًا غليظ القلب متجاوزًا للحد لا يألفونك فيتفرقون عنك، يقال: فضضت الشىء فضا فانفض إذا فرقته، قيل: فامتناع التفرق عنه لامتناع كونه فظًا غليظًا كما هو شأن لو، فالشرطية ينتج فيها استثناء نقيض التالى لزوم نقيض مقدمه، أى: لم ينفضوا من حوله فلم يكن فظًا غليظًا، فانتفاء كونه فظًا غليظًا اللازم لانتفاء الانفضاض ثابت بإبطال الانفضاض المرتب على كونه فظًا غليظًا بطريق قياس الخلف، لأنه إثبات مقصود بإبطال نقيضه، وقيل: الأولى أن يقال: المعنى لكن لم تكن فظا فلذلك لم ينفضوا، والمقصود إظهار المنة وأن عدم الانفضاض من اللين الذى هو من رحمة الله، ففيها ترهيب وترغيب ولكل وجهة، وقيل: ليس المراد الاستدلال بانتفاء الانفضاض على لينه وانتفاء كونه غليظ القلب، كما فى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إلخ [الأنبياء: ٢٢] حيث استدل بانتفاء الفساد على انتفاء تعدد الآلهة؛ لأن التحقيق أن لولا تفيد امتناع الشرط لامتناع الجزاء، وإنما تقتضى انتفاء ما يليها واستلزامه لتاليه كما قرره على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم عالم بحاله وأنه ذو لين.

وقوله: **(فبما رحمة الخ)** ليس لإفادة أنه ذو لين، وإنما هو لإفادة أن لينه ليس إلاّ برحمة

منه تعالى، وما ذكر إنما يكون استدلالاً لو لم يكن عالمًا بحاله، إلا أن يقال المقصود بالاستدلال غيره تعريضًا، ولو قيل: لأن بالغيبة لم يكن تعريضًا أصلاً فتدبر. وقال فى الكشاف: ما مزيدة للتوكيد والدلالة على أن لينه صلى الله تعالى عليه وسلم لهم ما كان إلا برحمة من الله، ونحوه قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقال المحقق التفتازانى فى شرحه: الحصر إنما استفيد من تقديم الجار والمجرور، وزيادة ما إنما تفيد تأكيد ذلك فلذا قيل: إن فى كلامه حذفا، أى ما مزيدة والظرف مقدم للتأكيد والدلالة إلى آخره. انتهى. فهو من باب اللف التقديرى وتبعهم بعض الشراح هنا.

أقول: ما ارتكبوه من التكلف من عدم الوقوف على مذهب الزمخشرى فى هذه المسئلة فإنه ذهب إلى أن زيادة حرف فى التركيب يفيد الحصر والذوق السليم شاهد له، فإن تقوية الحكم قد يقتضى الحكم أن لا يشاركه غيره فيه.

قال ابن هشام فى رسالته المشهورة فى إعراب لا إله إلا الله: ذهب الزمخشرى إلى أن الله مبتدأ وإله خبره. وقال فى أثناء تقريره: إن نحو ما جاءنى رجل يفيد نفى واحد غير معين فيجوز السامع مجىء اثنين، فإذا قيل: ما جاءنى من رجل علم أنه لم يجئه أحد من جنس الرجال، ومن ثمة صح أن يقال: ما جاءنى رجل بل رجلان، ولم يصح ما جاءنى من رجل بل رجلان، وكذا فبرحمة من الله لنت لهم وفبما نقضهم ميثاقهم لعانهم لو لم يؤت بما جوزنا أن اللين واللعن كانا للشيئين المذكورين ولغيرهما. وحيث دخلت ما قطعنا بأن اللين لم يكن إلا للرحمة وأن اللعن لم يكن إلا لنقض الميثاق. انتهى.

ويؤيده قول الفقهاء: إن السبب الموهوم لا تعتبر إلا فى مقابلة السبب الظاهر، كما إذا رأينا قتيلا فى محلة أعدائه لا يقال: إن غيرهم قتله وحمله إلى محلتهم كما فى شرح الهداية، ثم قال: فإذا كنت مجبولاً على اللطف واللين فاعف عنهم ما صدر منهم فى حقك، واستغفر الله واطلب منه المغفرة لهم، وطيب قلوبهم بمشاورتهم فيما تريد، فإذا اتفقت الشورى على أمر اعزم وتوكل فإنك منظور بعين الرضى والمحبة.

(قال السمر قندى) رحمه الله تعالى تقدم بيانه وترجمته. **(ذكرهم)** أى: ذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المؤمنين. وفى نسخة: «ذكره» وذكر مشدد فيهما، وقيل: إنه مخفف **(منته)** أى إنعامه أو امتنانه عليهم.

(أنه جعله رسولاً رحيمًا رؤوفًا لين الجانب) بفتح الهمزة بدلاً من منته، أو بتقدير بأنه والضمير لله أو للشأن، وخص المؤمنين بالذكر مع عموم رحمته؛ لأن الآية فى حقهم

والضمير راجع إليهم، وقد تقدم الفرق بين الرأفة والرحمة فى موضعين، وقوله: «لين الجانب» يصح أن يكون تفسير الرؤوف، والجانب أى الذى يليهم منه، وهو كناية عن معاملته لهم ومواجهته لهم، ولين بتشديد الياء وروى بتخفيفها من اللين بكسر اللام ضد الخشونة.

(**ولو كان فظًا خشنًا فى القول لانفضوا من حوله**) المعروف أن الخشونة ضد النعومة والملاسة، إلا أن الجوهرى جعلها ضد اللين، و هو الواقع فى كلام العرب كقول الحماسى(١):

أذن لقام بنصرى معشر خُشُنٌ   عند الحفيظة أن ذو لوثةٍ لانا

لأن اللين فى الغالب من الرقة والملاسة، فهى عبارة عن الشدة فى القول والفعل، وقد يمدح بها إذا كانت على من يستحقها كما فى البيت، وقوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وكونها طبعًا وسجية مطردة غير ممدوح، وقد قيل: إن ظاهر قول المصنف رحمه اللّه تعالى هنا أن خشونة القول صفة مبينة للفظاظة، فيكون التفرق مرتبًا على مجرد الخشونة وعلى أمر واحد، وهو فى الآية مرتب على أمرين الفظاظة وغلظة القلب، فما فسربه الآية غير موافق لها، فيحتاج هذا للتصحيح والتوفيق، فأما أن يقال: إنه أشار إلى أن التفرق مترتب على الأول، وحينئذ يلزمه ترتبه على ما تركب منه مع غيره من جنسه، وفيه أن لزوم ترتبه على خشونة القول والفعل غير مسلم، ويجوز أن يكون فظًا فى كلامه بمعنى غليظ القلب وخشنًا بمعنى فظًا، ولما كان منشأ الخشونة هذه الغلظة قدمها فى الآية واقتصر عليها المصنف رحمه الله تعالى، فإن الأمر القلبى إنما يثمر بعد قول أو فعل فتأمل.

أقول: لك أن تقول ترتب التفرق فى الآية على أمرين الذى سلمه المعترض غير مسلم؛ لأن الجوهرى قال: الفظ الغليظ، وقال فى المصباح: رجل فظ: شديد غليظ القلب، يقال منه: فظ القلب يفظ من باب تعب فظاظة إذا غلظ حتى يهاب فى غير موضعه. انتهى.

فتكون الصفة الثانية فى الآية مبينة للأولى كقوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿19﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿20﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١]، ففظا

---

(١) البيت من البسيط، وهو لقريط بن أنيف فى خزانة الأدب (٤٤١/٧)، شرح شواهد المغنى (٦٨/١)، وللحماسى فى مغنى اللبيب (٢١/١)، وبلا نسبة فى خزانة الأدب (٤٤٥/٨)، شرح المفصل (٨٢/١)، لسان العرب (١٤٠/١٣)، مجالس ثعلب (٤٧٣/٢)، تاج العروس (خشن).

فى التفسير بمعنى غليظ القلب وقوله: «خشنا فى القول» بيان لما به تظهر الفظاظة، ففى الآية صفة واحدة وفى التفسير اثنتان عكس ما توهمه المعترض، ومن دأبه أن يستسمن الورم على أن ما بنى عليه كلامه من كون خشنًا صفة أساس فى الهوى، وما بناه عليه كبنيان القصور على الثلوج.

(**ولكن جعله الله سمحًا سهلاً طلقًا برًا لطيفًا**) سمح بوزن ضرب مصدر كالسماحة بمعنى سهلا، ومنه الحديث: «آتيتكم بالملة الحنيفة السهلة» وفسره بعضهم بجواد كريم، والسهل بزنته، وكذا كل ما بعده الذى لا صعوبة فيه أو لا فظاظة ولا غلظة، والطلق بالفتح هنا ويجوز تثليثه صفة مشبهة، وهو فى الأصل يوصف به فيقال: طلق الوجه أى غير عبوس فيه بشاشة وسرور، ويوصف به صاحبه أيضًا كما هنا، ويكون بمعنى الجواد وليس بمناسب للمقام كما قيل، وفيه لغات نظمها ابن مالك رحمه الله تعالى فى قوله:

من دأبه الإفصاح حين ينطق طلق طليق طلق وطلق

والبار من فيه خير وشفقة ورفق وإحسان ورحمة، واللطيف الشفيق لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم أشفق الناس على أمته وهو من أسمائه تعالى، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:١٩] وفسر بالخبير العالم بخفيات الأمور، وهذه الصفات تفهم من اللين ونفى غلظة القلب، فإن البخل فى محل الإنفاق من عدم الشفقة، وطلاقة الوجه من عدم الفظاظة لأنها تلزمه غالبًا والباقى ظاهر.

(**هكذا قاله الضحاك**) قال البرهان الحلبى: هو ابن مزاحم الهلالى الخراسانى التابعى، روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه وابن عباس رضى الله تعالى عنهما وغيرهما من الصحابة، ضعفه بعضهم، لكن أحمد وابن معين وثقاه، وروى عنه أصحاب السنن وغيرهم، وله ترجمة فى الميزان، وتوفى سنة خمس ومائة، وقيل غير ذلك، ومن أجلة التابعين أيضا الضحاك بن قيس المعروف بالأحنف، ولشهرته بالأحنف لم يجوز أحد من أرباب الحواشى أن يكون المراد به هذا. ومن حسن الاتفاق موافقة معنى اسم الراوى للمروى، وهكذا بمعنى مثل هذا وها للتنبيه والكاف للتشبيه وإذا اسم إشارة، والمماثلة والمغايرة باعتبار أن اللفظ القائم بمتكلم غير القائم بآخر وإن اتحد نوعهما، أو حرف التشبيه مقحم غير مقصود أى هذا وسترى تحقيقه قريبًا.

(**وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾**) [البقرة:١٤٣] سيأتى تفسير هذه الآية، وفسر بعض الشراح رحمه الله تعالى قوله كذلك، فقال: اسم الإشارة المجرور بالكاف التى للتشبيه واللام قبل

كاف الخطاب لبيان كون المشار إليه بعيدًا وهو ما فهم من الآية قبلها، أى وكما جعلناكم مهتدين إلى صراط مستقيم أو جعلنا قبلتكم أصل القبلة.

أقول: هذا خلاف ما ارتضاه المحققون من شراح الكشاف فيه وفى أمثاله، قال العلامة التفتازانى رحمه اللّه تعالى فى قول الكشاف: أى ومثل ذلك الجعل يريد أن ذلك إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعده، لا إلى جعل آخر، يقصد تشبيه هذا الجعل العجيب به على ما يتوهم من أن المعنى ومثل جعل الكعبة قبلة جعلناكم أمة وسطا، و إذا تحققت هذا فالكاف مقحمة إقحامًا كاللازم لا يكادون يتركونه فى لغة العرب وغيرهم، هكذا ينبغى أن يفهم هذا المقام. انتهى.

أقول: هكذا قاله الطيبى وغيره، و لم أزل أبحث عن هذا كل من ناقشته من الفضلاء فلم أظفر بما يثلج الصدر، فتصفحت الدفاتر وراجعت خزائن الضمائر، فرأيت فى شرح القصائد الطوال فى شرح قول زهير(١):

كذلك خيمهم ولكل قوم إذا مستهم الضراء خيموا

نقلاً عن الجرجانى أنه قال: لفظ كذلك يكون تثبيتًا لخبر متقدم أو متأخر، فهى تفيض كلاً لأنها تنفى ذلك، فمعنى البيت أن هرمًا وأباه ثبت لهم حسن فى دفع الملمات إذا نزلت بقومهم، وإن كانت الأخلاق تتغير عند نزول الشدائد وحلول العظائم، ومثله قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ١٢] انتهى.

فقد علمت من هذا ما ذهب إليه أهل المعانى من أن كذلك يكون فى كلام العرب لتثبيت ما بعدها وتقريره، من غير نظر للتشبيه، وأنه طريق مسلوك لبلغاء العرب، وتوضيحه أن وجه الشبه يكون كثيرًا فى النوعية والجنسية كقولك: «هذا الثوب كهذا الثوب» فى كونه خزًا أو بزًا، وهذا التشبيه يستلزم وجود أمثلة، وثبوته فى ضمن النوع، فأريد به على طريق الكناية مجرد الثبوت لما بعده، ولما كانت الجملة تدل على الثبوت كان معناها موجودًا بدونها وهى مؤكدة له فكانت كالكلمة الزائدة، وهذا معنى قولهم: إنها مقحمة، وأما دلالتها على كون ما بعدها عجيبًا غريبًا، فلأن ما ليس كذلك لا يحتاج لبيان، فلما اهتم بإثباته فى كلام البليغ علم أنه أمر غريب، وبهذا تبين لك معنى قوله: «ومثل هذا الجعل العجيب».

فإن قلت: ما مناسبة كونهم أمة وسطا شهداء على الناس لما سبق له النظم من تحويل القبلة؟.

---

(١) البيت من الوافر، وهو فى ديوان زهير (ص١٢٠).

قلت: وجهه أن أهل الكتاب لما أنكروا تحولهم عن قبلة من قبلهم، رد عليهم إنكارهم بأن هذه الأمة وأهل هذه الملة شهداء عليكم يوم الجزاء، وشهادتهم مقبولة عند الله، فإنهم أحق باتباعهم والإقتداء بأهل قبلتهم، ولا وجه لإنكاركم عليهم؛ لأن قولهم وفعلهم مقبول دونكم، وهذا تحقيق لم أسبق إليه فعليك بادخار جواهره فى حقاق الأذهان فإنك لا تراه فى غير هذا المكان.

(قال أبو الحسن القابسى) تقدم الكلام فى ترجمته ونسبته.

(أبان الله تعالى): أى: بين وأظهر. **(فضل نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وفضل أمته بهذه الآية)** : الباء للتعدية أو السببية واختار بعضهم كونها ظرفية بمعنى فى لقوله:

(وفى قوله فى الآية الأخرى) وهى قوله تعالى: ﴿**هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ**﴾ [الحج: ٧٨] ضمير هو أى الله عز وجل سماكم به فى المسلمين، فيما أوحاه لرسله عليهم الصلاة والسلام فى الكتب القديمة، ثم سماكم به فى القرآن كما تقدم، وقيل: المعنى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام سماكم المسلمين قبل هذا الوقت فى قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ**﴾ [البقرة:١٢٨] أو إبراهيم عليه الصلاة والسلام سماكم مسلمين كما نقل عنه هذا القرآن.

وقوله: «ليكون» متعلق بسماكم وفسرت شهادته بتزكية شهادة المخاطبين وتصديقها، على أن على الأولى بمعنى اللام، وشهادتهم للأنبياء عليهم الصلاة والسلام على أممهم، وعلى الثانية على أصلها إن كان المراد بالناس أممهم، أو بمعنى اللام إن كان المراد إياهم فتطابق هذه الآية وما قبلها كما سيأتى فى كلام المصنف وتعاكسهما لفظا؛ لأن التزكية مؤخرة زمانًا عن الشهادة فى الأولى، والمزكى مؤخر رتبة عن المزكى فى الثانية، وترقى فى مدح المخاطبين فى الثانية ببيان أنهم سيشهدون ويزكيهم من لا ينطق عن الهوى، وللاهتمام به قدم ذكره فى الثانية وأن مثله سيزكيهم، ومنهم من فسر شهادتهم بما مر وشهادته على المخاطبين بالتبليغ فيتطابق الآيتان على هذا، والظاهر أن شهادتهم هذه قبل شهادتهم تلك، فلذا قدمت فى إحديهما وأخرت فى الأخرى، لأن السياق لهم بدلالة صدرها، وإن ذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيها وشهادته بالتبليغ وهم غير منكرين؛ لأنهم لم يقضوا حق ما افترض عليهم فنزلوا منزلة من يبلغه لعدم الجرى على موجبها فهى كالشهادة عليهم، واستشكلوا كون لام ليكون للتعليل إذا أريد شهادة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بالتبليغ على المخاطبين؛ لأنها لا تتوقف على تسميتهم مسلمين وجعلهم مسلمين، بدليل أن من الرسل عليهم الصلاة

والسلام من يشهد على أممهم بالتبليغ ولا إسلام لهم، فلذا فسرت بالشهادة بالتبليغ مع الإطاعة. وقيل: مناط العلية الشهادة الثانية وفيه ما لا يخفى، ومنهم من جعلها لام العاقبة.

(**وكذلك**) أى كما أبانت الأولى فضلهم أبان (**قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ الآية**) [النساء: ٤١] المراد بالأمة جماعة فيها نبيها، والشهيد هو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الذى يشهد ما عملوه، أى كيف يكون حالهم إذا شهد بصلاحهم وفسادهم، أو بالأخير فقط، أو على التبليغ، ويجوز التعميم، واقتصر أكثرهم على الأول؛ لأنه أنسب بالتوبيخ والآية بالنصب أى اذكرها أو بقيتها، وهو قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]أى جئنا بك يا محمد على هؤلاء الشهداء شهيدًا على صدقهم، وعلى الأمم، وعلى التبليغ، أو على أمتك بالتزكية، ولا منافاه بين كون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم شاهدًا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وعلى الأمم، وبين ما سيأتى من أن أمته صلى الله تعالى عليه وسلم يشهدون وهو يزكيهم، إما لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم يشهد معهم ثم يزكيهم، أو أنه جعل التزكية شهادة لأنها فى حكمها.

(**وقوله تعالى: ﴿وَسَطًا﴾** [البقرة:١٤٣] **أى عدلا خيارًا**) الوسط بفتح السين ماوقع بين الطرفين بحيث تكون نسبته إليهما متساوية، وقد يراد به ما يكشف من جوانبه ولو من غير تساو كما فى المصباح، وبسكونها بمعنى بين وفى الفرق بينهما كلام لأهل اللغة بيناه فى شرح الدرة، ثم استعير لأحسن الشىء وخياره ولذا قيل: «خير الأمور أوسطها» وقال الشاعر:

حب التناهى غلط خير الأمور الوسط

ورد هذا الإمام السهيلى فى الروض الأنف وقال: الوسط يكون مدحًا وذمًا كقولهم: «أثقل من مغن وسط» وقالوا: الوسط أخو الدون، وإنما يمدح به فى مقامين؛ أحدهما: الشهادة، لتوسط الشاهد فى الحق وعدم ميله إلى أحد الجانبين. والثانى: النسب كما قيل فى وصف أم المؤمنين خديجة رضى الله تعالى عنها أنها كانت وسيطة فى قومها، لأن وسط القبيلة أعرفها وصميمها لإحاطة الأباء والأمهات به من كل جانب، فلذا كان مدحًا، والأطراف يتسارع إليها الخل والأوساط محمية عنه، وإلى هذا المعنى أشار الطائى بقوله فى وصف قلعة:

كانت هى الوسط المحمى فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

وأورد عليه التجانى فى شرحه إنه مخالف للغة، فإنهم متفقون فيها على أن الوسط صفة مدح، ومنه الصلاة الوسطى وليس واردًا عليه، فإن إستعمال الوسط فيما ذكر مجاز فلا يلزم إطراده، والسهيلى رحمه اللّه تعالى لا ينكر كونه بمعنى الخيار وإنما ينكر لزوم ذلك له كما قاله بعضهم، ومن هنا عرفت أنه يرد بمعنى العدل وبمعنى الخيار وبهما فسرت الآية، والعدل معناه ظاهر والخيار يكون اسمًا مفردًا بمعنى المختار، والاختيار، ويكون جمعًا لخير كسهم وسهام كما صرح به فى المصباح، والعدل فى الأصل مصدر فلذا أطلق على الواحد والجماعة، وقد يجمع فيقال عدول ولذا أفرده المصنف رحمه اللّه هنا وجمعه فيما سيأتى، فلا منافاة بينهما، وقيل على المصنف: إن النبى عليه السلام فسر الوسط فى هذه الآية بالعدل فى حديث رواه الترمذى وصححه وثبت تفسيره به فى صحيح البخارى، والعدل والخيار معنيان متغايران، وقد رجح الأول بتقديمه لشمول الثانى للجماد، ولذا أخره، وعطفه الزمخشرى بأو فجمع المصنف بينهما إن أراد أنهما مرادان معًا فى الآية فالأكثر على منع مثله، إن أراد أحدهما فلا ينبغى العدول عما صح عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، إذ الظاهر أنه يبين مراد اللّه حتمًا لا احتمالاً والمصنف أعلى شأنا من أن يعرف مثله، إلا أن يقال: أنه ذكر الثانى بالتبعية للأول للزومه له. انتهى.

أقول: قد ظهر لك مما قدمناه أن الخيار بمعنى الخير والمختار وكل عدل فهو خير مختار، فذكر المصنف له بعد العدل دون عطفه بالواو، أو بأو لجعله صفة مادحة للعدل؛ لأن العدل من هذه الأمة لابد أن يكون خيرًا، فلا منافاة بين ما ذكره وبين الحديث، وليس مثله مما يستشكل ويستصعب، وفيه إشارة إلى أن التفسيرين مآلها واحد، وعطف الزمخشرى له بأو للتخيير بين التفسيرين اللذين ذكرهما السلف فإن مآلهما واحد، فإن إختيارهم للشهادة يدل على أنهم عدول فلا ينافى التفسير المأثور، بل يناسبه مناسبة تامة، فلا وجه لما قيل هنا من أن كلام المصنف رحمه اللّه تعالى محل تأمل، حيث أفرد عدلاً هنا ووصفه بخيار وهو جمع خير، مع جمعه فى قوله عدولا خيارا لما عرفته.

والعدل يطلق على الواحد وغيره كما فى الصحاح، يقال: قوم عدل وعدول، فما ذكره كله من ضيق العطن وقحط الفطن، وفى تركيبه هنا حزازة لأنه يحتاج إلى تقدير، أى قوله: «وسطا» أى عدلا خيارا فيه تفضيل لهم ومدح.

وقوله: **(ومعنى هذه الآية وكما هديناكم فكذلك خصصناكم وفضلناكم، بأن جعلناكم أمة وسطًا خيارًا عدولاً لتشهدوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على أممهم، ويشهد لكم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بالصدق)** إشارة إلى أن المشبه به فى هذه

الآية وهى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣] إلى آخره، الهداية المذكورة قبله فى قوله تعالى: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢] وقيل: المعنى كما اصطفينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أو كما فضلناكم بهذه القبلة، وقد بينا لك أن المحققين من شراح الكشاف على أن المشار إليه ما بعده و لم يقصد التشبيه بما قبله وقد مر تفصيله، وهو على هذا صفة مصدر مقدر للفعل المذكور بعده والجار والمجرور فى محل نصب، أى: جعلناكم جعلاً كذا، وهذا مع ظهوره غفل عنه من قال: اسم الإشارة هنا على هذا فى محل رفع على الابتداء، على أن جعلناكم بتأويل جعلنا إياكم فيكون كالضمير الذى يفسره خبره نحو: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ [الأنعام:٢٩] وهذا تعسف لا معنى له.

وقوله: «بأن» إلى آخره تنازعه الفعلان ويشهد بالنصب والتخصيص بهذه الأمة من فحوى الخطاب، لأنهم إذا كانوا شهداء على جميع الأمم السالفة وأنبيائهم والرسول شاهد لهم، لم يبق أحد من بنى آدم غيرهم يشهد هذه الشهادة فانحصرت، أو تقول المصنف رحمه اللّه تعالى مالكى المذهب، ومذهب مالك رحمه اللّه تعالى إفادة لام التعليل والحصر، كما نقله الخطابى فى شرح الآثار عنه في استدلاله بقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل:٨] على حرمة أكلها، فإن أردت تفصيله فانظره، فما قيل من أن التخصيص من السياق، أو نظرًا للواقع إلى آخره ما ذكره وأطال فيه من غير طائل بعدما استشكله غير ظاهر.

وفى قوله: «**ليشهدوا**» إلخ إشارة إلى أن على بمعنى اللام لا للمضرة؛ لأنها إذا دخلت على المشهود به لا تكون للمضرة، وقيل: ضمن الشهيد معنى الرقيب وقدم للتخصيص متعلقة، وعليه فالناس فى الآية بمعنى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا بأس به.

(**قيل:إن اللّه جل جلاله**) هذا أبلغ من قوله جل وعلا؛ فإنه على نهج جد جده (**إذا سئل الأنبياء**) عليهم الصلاة والسلام (**هل بلغتم**) ليظهر حال الأمم وفضل هذه الأمة، فإنه يعلم السر وأخفى.

(**فيقولون: نعم فتقول أممهم ما جاءنا من بشير ولا نذير، فتشهد أمة محمد صلى اللّه تعالى عليه وسلم للأنبياء**) عليهم الصلاة والسلام (**ويزكيهم النبى صلى اللّه تعالى عليه وسلم**) قال السيوطى رحمه اللّه فى تخريجه: هذا حديث مرفوع أخرجه البخارى من حديث أبى سعيد الخدرى رضى اللّه تعالى عنه، وقيل عليه: إن البغوى روى أن اللّه يجمع الأولين والآخرين فى صعيد واحد، ثم يقول للكفار: ألم يأتكم نذير؟ فينكرون ويسأل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن ذلك فيقولون:كذبوا قد بلغناهم فيسألهم البينة

وإقامة الحجة، فيؤتى بأمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فيشهدون أنهم قد بلغوا فتقول الأمم: من أين علموا هذا وهم أتوا بعدنا، فيقولون: يا ربنا أرسلت إلينا رسولا وأنزلت علينا كتابا أخبرتنا فيه بتبليغ الرسل، ثم يؤتى بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بصدقهم[1].

وما ذكره المخرج فيه نظر واضح، إذ ما أخرجه البخارى إنما هو فى نوح عليه الصلاة والسلام وأمته لا ما ذكره المصنف رحمه اللّه تعالى، ولذا قال: قيل: والحكمة: فى إظهار فضل نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفضل أمته على سائر الأمم بقبول شهادتهم وتزكية أفضل الخلق لهم واللّه تعالى عالم غنى عن السؤال، وفيه معنى حسن لكونهم وسطًا لتوسطهم بين الأمم والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، لظهور علمهم وعدالتهم وإقامة الحجة على غيرهم.

وقيل: معنى الآية إنكم حجة على من خالفكم. قال فى المقتفى: إنكم بفتح الهمزة وفى النسخة التى ذكرت بفتحها وكسرها بالقلم، أى إجماعهم حجة وشهادتهم مقبولة معتبرة، والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، حجة على الجميع كما قال السمرقندى أيضًا.

(**وقال اللّه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾**) [يونس:٢] أى: لهم تقدم ورتبة رفيعة عند اللّه، عبر عنها بالقدم لأن السبق بها كما سميت النعمة يدًا؛ لأن بها العطاء وإضافة إلى الصدق لبيان فضله ومزيته. قال أبو عبيد: كل سابق خير قدم. وفيه إشارة إلى أن الصدق هنا بمعنى الخير مجازًا، قيل: كان حقه أن يذكر هذا فى فصل الشفاعة، وأجيب عنه بأن هذا الفصل لما كان معقودًا لوصف اللّه له بالشهادة وما يتعلق بها، كالتبشير بما يدل على فضله وفضلهم عند اللّه تعالى، استطرد التبشير بالشفاعة مع احتمال أن يراد بقدم الصدق تزكيته المقرونة بتصديقه ففيه مناسبة تامة لما نحن فيه.

(**قال قتادة، والحسن، وزيد بن أسلم**) قتادة هو أبو الخطاب بن دعامة الدوسى الحافظ المفسر، روى عنه خلق كثير وهو ثقة ثبت، إلا أنه قيل فيه: إنه مدلس، توفى كهلاً سنة سبعة عشر أو ثمان عشرة بعد المائة، وترجمته مفصلة فى الميزان. والحسن البصرى تقدمت ترجمته، وزيد بن أسلم هو الفقيه مولى عمر رضى اللّه تعالىعنه وهو ثقة، حديثه صحيح، توفى سنة ست وثلاثين بعد المائة وله ترجمة فى الكامل والميزان.

---

(١) أخرجه البخارى (١٧٢/٤)، والطبرانى فى الكبير (٢٢٢/١٠).

(قدم صدق) مبتدأ خبره المفسر له قوله: **(هو محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يشفع)** فى نسخه: «لهم» وروى ليشفع وشفيع فالقدم على هذا الشفيع، سمى قدما لتقدمه وسيأتى قريبا تفسيره بالشفاعة عن أبى سعيد الخدرى، بتقدير قدم إنسان صدق أى صادق كرجل عدل، والشفاعة طلب نفع للغير ومثله لا يوصف بالصدق والكذب، فإما أن يتجوز بالصدق عن القبول لمشابهته لتحقق ما شفع فيه فيصير كالخبر المطابق للواقع، أو يقال: المراد شفاعة يقدم صاحبها على رجائها كما فى قولهم: «حمل حملة صادقة» وقيل: المراد أن الشفيع صادق فى خبره ومن يكون كذلك تقبل شفاعته.

(وعن الحسن أيضًا: هى مصيبتهم بنبيهم) أى: وفاته صلى الله تعالى عليه وسلم قبلهم، كما تقدم أنه فرط لهم وسابقة ينفعهم حياته ومماته:

كالغيث إن جئته وافاك ريقه   وإن تأخرت عنه لج فى الطلب

(وعن أبى سعيد الخدرى) رضى اللّه تعالىعنه، تقدم أن اسمه سعد بن مالك بن سنان ابن عبيد بن ثعلبة بن عبيد بن الأبجر بموحدة وجيم، وهو ابن خدرة بضم الخاء المعجمة وإسكان الدال المهملة الذى نسب إليه على الأصح، وقيل: خدرة أم الأبجر الصحابى الرفيع القدر المشهور من فقهاء الصحابة، ومن أصحاب الشجرة، توفى بالمدينة ودفن بالبقيع سنة أربع وستين، وقيل: أربع وسبعين وروى عنه أحاديث كثيرة.

(هى شفاعة نبيهم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وهوشفيع صدق عند ربهم): جعلت الشفاعة سابقة لتقدمها أو تقدم صاحبها، وقوله: «وهو شفيع» إلى آخره إشارة إلى أن الصدق صفة مضاف مقدر، والصدق بمعنى الصادق أو بمعناه المصدرى، وقيل: إنه إشارة إلى جواز تفسير القدم به صلى الله تعالى عليه وسلم باعتبار الشفاعة أيضا كما مر، أو إلى المسامحة فى تفسيره بالشفاعة فتوافق الأقوال.

(وقال سهل بن عبد اللّه التسترى) تقدم الكلام عليه **(هى سابقة رحمة أودعها اللّه تعالى فى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم)**: قال التلمسانى: أودعها بفتح الهمزة والدال والعين، وفى نسخة العزفى: بضم الهمزة وكسر الدال وضم عين المضارع وفتحه إذا سقطت فى، ورفع محمد على أنه نائب عن الفاعل وهو اللّه وليس ما قاله بشىء، لأن ودع يتعدى بنفسه لمفعولين على كل حال فتضمن معنى الحفظ ونحوه هنا ولا بأس به، ومعناه اجعله متصفًا بها لينتفع الناس بها عند الحاجة والسبق لما مر، أو فى الأزل سابقة رحمة بمعنى رحمة سابقة، أو الإضافة بيانية، وقيل: هى رحمة قدمها بوفاته لما فى الحديث: «إذا أراد اللّه بأمة رحمة قبض نبيها قبلها»[1] فجعله فرطًا لها وسلفًا وتقدم

(١) أخرجه ابن عدى فى الكامل (٢/٤٩٦).

تفصيله، ومثل القدم هنا ما ورد فى الحديث فى صفة النار: «يضع الجبار فيها قدمه» أى: من تقدم فى علم اللّه خلقه لها، و الجبار اسم اللّه، وقيل: الجبار بمعنى الجبارين، والقدم على ظاهره وليس هذا محل تفصيله.

(**وقال محمد بن على الترمذى**) الإمام الحافظ أبو عبد اللّه محمد بن على بن الحسن ابن بشر الزاهد المؤذن الحكيم، وليس هو صاحب السنن، وهذا يروى عن أبيه وقتيبة بن سعيد وغيرهما، وروى عنه خلق كثير لما قدم نيسابور سنة خمس وثمانين ومائتين، وعاش نحوًا من ثمانين سنة، وقد طعن الناس فى اعتقاده لكلام صدر عنه فى بعض تصانيفه واللّه أعلم بالسرائر، وترمذ فيها لغات تقدمت.

(**هو إمام الصادقين والصديقين الشفيع المطاع والسائل المجاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم حكاه عنه السلمى**) بضم السين وفتح اللام، أبو عبد الرحمن شيخ الصوفية، وقد تقدم الكلام عليه وهو ضمير عائد على قدم صدق، وتذكيره رعاية لمعنى العضو ونحوه، والصادق معناه ظاهر. وقال الفاضل الزملكانى: الصديق فعيل من الصدق، وأصله فى القول والخبر، واختلفوا فى تفسيره، وورد فى الشرع لمعان يجمعها كلها المبالغة فى الصدق وتكثيره.

فأما أقوال العلماء فيه فقيل: الصديق من كثر منه الصدق، وقيل: من لم يكذب قط، وقيل: من لم يتأت منه الكذب لتعوده الصدق، وقيل: من صدق بقوله واعتقاده وحقق بصدقه فعله، واشتهر حتى بلغ درجة تلى درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وورد فى القرآن العظيم فى مواضع كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾ [الحديد: ١٩]، وأولئك إشارة لمن اتصف بالصفات السابقة، فمن اتصف بها هو الصديق والشهيد، ويعنى بالشهداء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين هم شهداء على الناس يوم القيامة، فلهم أجر ونور لم تره عين ولا أذن به سمعت إلى آخر ما فصله ونقل فيه كلام أرباب الكشف.

والصديقية: مرتبة قبل النبوة وليس فوقها درجة إلا النبوة فهى الولاية، وتنضم للنبوة أيضا كولاية النبى، ولذا قال اللّه تعالى فى حق إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١] ووصف به النبى هنا، ومناسبة هذه الآية وتفسيرها لما عقد له الفصل ظاهرة، لأن العدل فى الشهادة المقبول قوله لا يكون إلا صادقًا صديقًا، وقد قرنت الشهادة بالصديقية فى القرآن على القول المرضى، فما قيل من أن هذه الآية ليس فيها الوصف بالشهادة وما يتبعها، وأنها ليست من الفصل وتخصيصها بالاستطراد غير واضح لا وجه له، سيما وكونه صلى الله تعالى عليه وسلم إمامًا مطاعًا مجابًا لما سأل،

يدل على قبول كلامه وعدم رد شهادته.

* * *

[الفصل الثالث: فيما ورد فى خطابه إياه مورد الملاطفة والمبرة]

(**الفصل الثالث فيما ورد فى خطابه إياه**) أى خطاب اللّه تعالى لنبيه الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم، والخطاب فى الأصل مصدر بمعنى المخاطبة وهى توجيه الكلام لغيره، ويطلق على الكلام المخاطب به، وعلى الأول هى نسبة بين المتخاطبين وهى بالنسبة إلى الكلام الأزلى القائم بالنفس محال، ولذا اختلف فى صدق الخطاب على الكلام النفسى كما حكاه ابن الحاجب، ويصح إرادة المعنيين هنا فالظرفية مجازية من ظرفية الخاص فى العام، وقيل: إنه بتقدير حين والورود بمعنى المجىء والوقوع مجاز مشهور أو حقيقة عرفية، وقيل: إنه تجوز فى إسناد الورود إلى ما خوطب به مجازًا عقليًا، بتشبيه المبرة والملاطفة بشريعة الماء بجامع الانتفاع، ففيه استعارة مكنية وتخييلية ولا يخفى ما فيه فتدبر تدر، وكون فى معنى من تأويل من غير داع.

(**مورد الملاطفة والمبرة**) مورد اسم مكان أو مصدر ميمى بمعنى الورود، والملاطفة المعاملة بلطف وشفقة، والمفاعلة مجازية لتنزيل استحقاقه له بمنزلة فعله، أو هى لأصل الفعل من غير مشاركة، ولذا عطف عليه المبرة بمعنى البر وهو الإحسان والخير، ولا يخفى أن الفصول معقودة لمعانى متغايرة وتغيرها ظاهر، فلا حاجة لما قيل: إن المراد هنا لطف ومبرة لم يكن مما سبق من المدح والشفقة أو القسم.

(**فمن ذلك قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾** [التوبة:٤٣]) فى نسخة بدل قوله تعالى: «عز وجل» وضمير هم للمنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك، وذلك إشارة لما ورد على الوجه المذكور، قال فى الكشاف وتبعه البيضاوى: إن هذا كناية عن الخيانة؛ لأن العفو مرادف لها ومعناه أخطأت وبئسما فعلت، وقد شنع الناس عليه فى هذا حتى كان سببًا لمنع الناس من قراءة كتابه، كما حكى عن الإمام السبكى لما فيه من ترك الأدب.

وقال ابن المنير فى تفسيره المسمى بالبحر: عفا اللّه عنك دعامة فى الكلام يقصد المتكلم بها ملاطفة المخاطب، وهو عادة العرب فى التلطف بتقديم الدعاء لاستدعاء الإصغاء، أو خبر معناه لا عهدة عليك؛ لأنه تعالى غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فهو تخصيص وتمييز، لا أن الأذن ذنب متعلق به العفو؛ لأن تحمله ومساحته لهم مع أذاهم حملاً للمشقة على نفسه، وإسقاط للحظوظ فهو عتب عليه بلفظ لا ملامة فيه، أى قد بلغت فى الامتثال والاحتمال الغاية، وزدت ما أجحف بك فى محبة اللّه وطاعته،

والرفق بالبر والفاجر، وأين هذا من التخطئة، والزمخشرى نزع هنا عرق العجمة لإساءة الأدب على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وأراد بعضهم أن يصلح ذلك فأفسد، فقال: بدأ بالعفو قبل الذنب ولو عكس انقطع نياط قلبه، وكله ذهول عن عتب الحبيب فى حيفه على نفسه وهو تخفيف لا تعنيف ومدح لا قدح، وهذا كما قيل له إذ جهد وجد فى العبادة ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١، ٢] ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ [الكهف: ٦] والعفو وإن كان يستدعى ذنبا كاستدعاء رضى الله تعالىعنك لغضب سابق، فهو هنا تنبيه على أنه أمر أن يرفق بنفسه. فكأنه قيل له: إن أبيت إلا الحلم والاحتمال فأنت غير مؤاخذ بل مثاب، كمن يرخص له فى لذة وراحة فيعمل بالعزيمة، فيقال له: ما كان هذا بلازم لك، فإذا احتملته فلا عهدة عليك إيجابًا لحقه ورفعًا لقدره لالتزامه ما لا يلزمه، وذلك أنهم ادعوا الطاعة وزاحموا المطيعين فى رتبتهم، فاستأذنوا ليكون قعودهم بإذن لا ينافى دعواهم، ولو لم يؤذن لهم هتكوا حجاب الهيبة وخلعوا ربقة الطاعة وقامت الحجة عليهم، فإنهم ليسوا فى ورد ولا صدر، فلما أذن لهم تمت مكيدتهم وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ﴾ [التوبة:٤٣] إلى آخره، وليس فى هذا مخالفة مصلحة مرضية، فإن الله تعالى بين أنه بإذنه لهم طبق نحو الكراهة فإنه لا مصلحة فى خروجهم، بل فيه مفسدة شوهاء وعاقبة شنعاء؛ لأنهم لو خرجوا كانوا مخذلين باعثين للفتنة يمشون بالنمائم ويثيرون غبار الضغاين مشتتين للشمل، كالظربان فإنهم ذباب يقعون على الدبر والقذر، فكانت المصلحة العظمى فى قعودهم، وإن كان فيه سترة أمرهم واحتمالا لمكرهم وغاية الغائلة التباس أمرهم وقيام حجتهم، وهو قد عرفهم وانكشف له عورتهم ولكن لم يفضحهم حلما وكرما واتساع صدور كم ضاق نطاق عمر رضى الله تعالى عنه عن ذلك، وأشار بضرب أعناقهم فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم : «لا يا عمر يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه» فإنه قد يخدش الصدور السليمة ويرقع فى حصائد الألسنة فأشفق على العدو فاستبقاه، وعلى الولى أن تزحزحه الشبه عن رتبة تقاه، وحمل عبأ ذلك نفسه فى ذات الله تعالى. انتهى.

أقول: جزاه الله خيرًا عما أهداه للعقول السليمة من أنفس التحف، ودافع به عن حرمة النبوة العالى الرتبة لمن عرف، وأنت إذا تأملت ما بعده من النظم تراه مصرحًا بما أفاده، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾ [التوبة:٤٧] فأى رأى أشد من الإذن فى تخلفهم، وأى حلم أعظم من الستر عليهم، فكيف يكون فى أول الكلام عتاب وآخره بيان؛ لأن ما وقع عين الصواب، لو كان هذا فى رسالة كاتب مزقها سلطانه، فما ظنك

بمالك الملك تعالى شأنه.

(**قال أبو محمد مكى: قيل: هذا افتتاح كلام**) أى: هذا جار على نهج البلغاء وأرباب الترسل والإنشاء فى ابتداء كلامهم بالدعاء توقيرًا وتعظيمًا، وفيه إشارة إلى أن هذه الجملة إنشائية دعائية على أرجح الاحتمالين فيها كما سمعته آنفا.

(**بمنزلة أصلحك اللّه وأعزك اللّه**) أى: هو مثله فى أنه دعاء للتعظيم لم يلتفت إليه لما يوهمه الدعاء بالصلاح من الفساد ولغيره من الذل، كما ورد فى الحديث: «لقد عجبت من يوسف عليه الصلاة والسلام وكرمه وصبره واللّه يغفر له»[1]، وقد قدم هذا المصنف؛ لأنه التحقيق المرضى عنده لما ستعرفه فى قوله.

(**وقال عون بن عبد اللّه: أخبره بالعفو قبل أن يخبره بالذنب**) وعون هذا هو ابن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود الهذلى الكوفى الزاهد الفقيه، أخو عبيد اللّه الراوى عن أبى هريرة وابن عباس وجمع، وقيل: روايته عن الصحابة مرسلة وليس بتابعى، لكن له حديث عن ابن عمر رضى اللّه عنهما فى مسلم، وروى عن الزهرى وأبو حنيفة وأبو العميس، وأخرج له أحاديث كثيرة وهو ثقة، توفى فى حدود الستين بعد المائة، وفى نسخة «خبره» بدل أخبره، والمعنى واحد، وكذا يخبره، لكن فى المقتفى أن يخبره فى النسخة المصححة بالتشديد وهو الصحيح، وهو مع أخبره من تنويع الكلام؛ لأن أخبره وخبره بمعنى، والتنويع أن يكون فى الكلمة لغتان فيجمع بينهما كقول بشار[2]:

إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها   خرجت مع البازى على السواد

ففى العبارة ثلاثة أوجه؛ قيل: المراد بالذنب هنا خلاف الأولى والأليق؛ لأن الإبرار سيئات المقربين والوجه هو الأول، وبعض الشراح أرجع هذا لما قبله، ورد بأن بينهما فرقًا ظاهرًا؛ لأنه على الأول لا ذنب أصلاً، والجملة إنشائية دعائيه، وعلى هذا هى خبرية فإن أراد أن المآل واحد صح ما قاله، ثم إن هذا كيف يعد ذنبا، وإن لم نقل الجهاد فرض كفاية فتخلف بعضهم بالإذن لا بأس فيه، لاسيما إذا كان فى ذلك مصلحة ونفع. وقال نفطويه الآتى ذكره: إذا أمر الملك أحدًا على جيش كان ذلك تخييرًا له فيما يأمرهم وينهاهم، فيمتنع العتب عليه فيما فعله لمصلحة، لا سيما إذا كان مقامه فى غاية الجلالة عنده.

(**وحكى السمرقندى عن بعضهم أن معناه عافاك اللّه يا سليم القلب لم أذنت لهم**): فيه

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٢٠٦/٩)، وابن كثير فى تفسيره (٣١٩/٤).

(٢) البيت من الطويل، وهو فى ديوان بشار (ص٣٧٠).

إيهام؛ لأن عفا من المعافاة لاشتراكهما فى أصل المادة وليس بمراد، بل قصد التجنيس للفرق بينهما، ولذا ورد الجمع بينهما فى الحديث: «نسألك العفو والعافية» والمعافاة الدائمة، وفيه إشارة إلى أن الذنب كالمرض والعفو عنه بمنزلة الطب الشافى له، إلا أنه قيل عليه أن سليم القلب ليس بمناسب هنا؛ لأنه وإن كان مدحًا فى نحو قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٩] لأن معناه خلوصه من الغل والغش، إلا أنه صار فى الاستعمال عبارة عن الغفلة، وضعف الرأى، وقلة الحزم والعزم كما فى لباب التفاسير، وأجيب عنه بأن ما ورد مدحًا فى القرآن يجوز التعبير به فى مقام المدح، وإن أوهم خلافه لعرف طار عليه، وفيه نظر، وقد تقدم الكلام على السمرقندى وترجمته.

(**قال: ولو بدأ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله لم أذنت لهم**) بدأ مبنى للفاعل وفاعله ضمير يعود على الله، والنبى منصوب مفعول وبدأ مهموز بمعنى ابتدأ لا معتل بمعنى ظهر. (**لخيف عليه**) أى لخاف عليه من يحبه لا الله.

(**أن ينشق قلبه من هيبة هذا الكلام**) لتأثيره فى قلبه وجلالة قائله ومهابته خصوصًا ممن هو أخوف الناس منه لعلمه بما لم يعلمه غيره، وسيأتى الكلام عليه، وفيه مبالغة، والمراد كما قيل: إنه كاد أن يخاف عليه أو يخاف عليه من لا يعرف أنه آمن مغفور له، أو خيف عليه بحسب الظاهر أن يكون شأنه ذلك فى ذاته، ومثله لا يوجب خللا فى المقصود كما توهم، وهذا مبنى على أن خوف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من العقاب بعد تأمين الله له غير جائز وسيأتى تفصيله، وانفطار القلب وانشقاقه عبارة عن الخوف المهلك، كما تنشق الأجسام من خشية الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

(**لكن الله تعالى برحمه أخبره بالعفو حتى سكن قلبه**) سكن ماض بالتشديد والتخفيف، وفى نسخة: «سكن» وقلبه مرفوع أو منصوب، وروى يسكن مضارع مضموم الأول مشدد وقلبه منصوب مفعول ويجوز تخفيفه ورفع قلبه، يعنى أنه تعالى لرأفته به صلى الله تعالى عليه وسلم ورحمته قدم العفو أولاً، ليسكن قلبه أى يطمئن ويأمن، قيل: المراد به يدوم له السكون وعدم الاضطراب لأمنه، أو هو من قبيل سبحان من صغر البعوض، واعترض عليه بعض الشراح بأنه لا طائل تحت هذا الكلام؛ لأنه خوطب بأشد منه نحو: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] ولم يضطرب لتأمين الله له بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح:٢] ونحوه، ورد بأنا لا نسلم أنه أشد منه أو مثله، فإنه نهى عن الوقوع فيه من غير عتب وتخويف كما سيجىء، ولو سلم فهذا اعتراض أشد تخويفًا من النهى،

مع أنه لا يلزم من عدمه الرعاية فى مقام عدمها فى مقام آخر، ولا من الرعاية واللازم الأمن من النار ونحوها، على أن الوعد لا يمنع الدهشة والخوف من الصدمة كما سيقع للأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى يوم القيامة، والعشرة المبشرة بالجنة يخافون من سوء العاقبة لاحتمالات، وسيأتى تحقيق هذا إن شاء اللّه تعالى فى محله.

(**ثم قال له: لم أذنت لهم بالتخلف حتى يتبين لك الصادق فى عذره من الكاذب**): ثم هنا لمجرد الترتيب الذكرى بغير مهملة أو بمهملة لتنزيل ما تقتضى، وانعدم بمنزلة البعيد كما حقق فى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:٢] فى أحد الوجوه، ويتبين بمعنى يتضح ويظهر، ويتميز هذا من هذا وينفصل، فيتعلق من به باعتبار ما تضمنه من الانفصال، وحتى متعلق بمقدر لا بأذنت لفساد المعنى، أى: حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين، أى: لم أذنت للمنافقين بالتخلف عن تبوك كان عليك أن لا تأذن لهم حتى يتبين إلى آخره، كما فى لباب التفاسير وغيره والاستفهام فيه إشعار بما قدروه (**وفى هذا**) المذكور من تقديم العفو وتأخير السؤال.

(**من عظيم منزلته عند اللّه ما لا يخفى على ذى لب**) المنزلة المرتبة المعنوية، وعند ظرف مكان إذا أضيف إلى المنزه عن المكان فهى بمعنى فى علم اللّه أو فى حكمه، كما فى قوله تعالى: ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٣] وبينهما فرق دقيق، وتكون للقرب المعنوى كما فى قوله تعالى: ﴿ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١] وبمعنى إحسانه وإنعامه كما فى قوله تعالى: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧] كما مر، فاختر لنفسك ما يحلو، واللب العقل، والمراد: الكامل أو هو على ظاهره مبالغة، ومن بيان مقدم على المبين عند من أجاز تقديمه، أو هو بيان لمقدر مبهم وما بعده بيان أو صفة أخرى للمبهم.

(**ومن إكرامه تعالى إياه**) صلى الله تعالى عليه وسلم. (**وبره به**) لرعاية خاطره، والتسلية له، وتقديم الدعاء والعفو فى أول خطابه كما مر فتذكره.

(**ما ينقطع دون معرفة غايته نياط القلب**) نياط: فعال من النوط وهو التعليق، ومنه المناط فقلبت واوه ياء لانكسار ما قبلها، وهو عرق غليظ يعلق به القلب من الوتين، وقيل: هو الوتين نفسه، فإذا انقطع مات صاحبه، فلذا كنى به عن الموت، قال ابن خالويه فى كتابه ليس فى أسماء المنية: قال اللّه عز وجل: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة:١١٠] معناه: إلا أن يموتوا، يقال: قطع قلبه، ورمى بنيطه، ورماه بذنبه، وطالبه بحقه إذا مات .انتهى. وللنياط معان آخر كالعرق المستوطن الصلب، والمراد أن له صلى الله تعالى عليه وسلم منزلة عند اللّه ورتبة أكرمه بها، وأنعم عليه بما لا تطيق العقول

معرفة كنهه وغايته ولا تفى الأعمار بتحصيله.

وعلى تفنن واصفيه بحسنه   يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

فانقطاع النياط كناية عن تعذره وصعوبة مسلكه، أو عبارة عن عدم وفاء الإعمار به وحيلولة الموت دونه، وما قيل من أنه يجوز أن يكون إشارة إلى من عرف كمال إكرام اللّه تعالى عز وجل ورعايته له، عرف أنه فى غاية التقصير، فيخاف خوفا يثمر الهلاك تعسف وارتكاب لما يأباه فحوى الكلام، والغاية هنا النهاية، وتفسيرها بالفائدة غير مناسب، ومنهم من فسرها بجملة الشيء وجعله استعارة وهو بعيد، ودون هنا بمعنى قبل كقولك دون الدار منازل.

(**قال نفطويه:**) هو لقب لأبى عبد اللّه إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان بن المغيرة بن حبيب بن المهلب بن أبى صفرة الأزدى النحوى الواسطى صاحب التصانيف الجلية، توفى فى صفر سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وقيل: سنة أربع ببغداد، وقيل: بواسط، وولد سنة أربع وأربعين ومائتين، وقيل: خمسين، ولقب به لدناءة منظره، والنفط معروف عند العرب معرب، وفى هذا وأمثاله كسيبويه الأصل الصحيح فيه فتح الواو وسكون الياء، وبعضهم يسكن الواو ويفتح الياء، وقيل: إنه من غير تغيير المحدثين تجنبا من لفظ ويه، ولذا قيل فى هجائه:

أحرقه اللّه بنصف اسمه   وصير الباقى صياحا عليه

وقال المعرى: إن هذا مما أحدثه المولدون، وويه بلغة أهل البصرة أداة تصغير، ويجوز فيه كسر النون وفتحها ويجوز فى مثله الإعراب والبناء على كسر الهاء لتركيبه تركيب مزج وهو الأقيس.

(**ذهب ناس إلى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم معاتب بهذه الآية وحاشاه من ذلك**) أى: والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم منزه عن أن يفعل ما يستحق العتاب عليه، وقد تقدم الكلام على حاشا مفصلاً، وأنه لا عتاب فى هذه الآية، بل فيها إعزاز وإكرام بالدعاء له وتصويب لفعله، والتعبير بالعتاب فيه إشارة إلى أن ما فعله خلاف الأولى عند صاحب القيل.

(**بل كان مخيرًا**) بين الإذن وعدمه إذ لم يتقدمه نهى كما قيل وفيه نظر، والأولى أن يقول لنزول وحى عليه صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك لقوله تعالى: ﴿**فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ**﴾ [النور:٦٢] كما سيأتى فى أول القسم الثالث، إلا أن ابن الجوزى قال: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿**فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ**﴾ [النور:٦٢] إلى آخره، ولفظ

مخيرًا هنا قد علمت أنه بالمثناة التحتية. وقال البرهان الحلبى: إنه فى بعض النسخ مخبرًا بموحدة مخففة وهما نسختان مصححتان عنده، فالأولى أولى والمعنى على هذه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مأذون له بوحى غير متلو لم يخبرهم به تحريضًا لهم على الجهاد.

(**فلما أذن لهم أعلمه الله أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا لنفاقهم**): وهم يدعون بطلب الإذن أنه لو لم يأذن لهم ما تخلفوا، فإذا ظهر كذبهم وانكشف مغطاهم لزم شق العصا وما يترتب عليه، فكان ما فعله أولى وأصوب.

(**وأنه لا حرج عليه فى الإذن لهم**) أى: ليس فيما فعله ضيق وإثم، لكن لو صبر تبين أمرهم، وفيه إشارة إلى كمال الرفق به صلى الله تعالى عليه وسلم والرعاية له، وأنه لم يقع منه تقصير العتاب ولا خطأ فى الجتهاد، ولا ارتكاب لخلاف الأولى كما توهم.

(**قال الفقيه القاضى أبو الفضل**) هو المصنف عياض كما مر. (**يجب على المسلم المجاهد نفسه**) بتهذيب الأخلاق والصبر وكسر شهوتها، كما يدل عليه ما بعده فإنه الجهاد الأكبر، قيل: الوجوب هنا أعم من الشرعى، بل ما لا يليق تركه وهو شائع بهذا المعنى، كما صرح به فى شرح المواقف وغيره، فيشمل المسنون والمندوب، وفى تعبيره بالمسلم المجاهد لطف لم ينبهوا عليه لتعريضه بأنهم منافقون تاركون للجهاد.

(**الرائض بزمام الشريعة خلقه**) هو من رضت الدابة أروضها إذا أذللتها لتنقاد لما تريد وتلين شكيمتها، والزمام ما يقودها كاللجام، ففيه استعارة مكنية وتخييلية، والزمام بمعناه الحقيقى أو عبارة عن الأحكام الشرعية على حد ينقضون عهد الله، وفسر التلمسانى الرياضة بالتعليم والزمام بالسبب والطريقة، وفى كلامه تسامح ولا يستغرب مثله.

(**أن يتأدب**) فاعل يجب (**بأدب القرآن**) وفى نسخة: «بآداب القرآن» بصيغة الجمع، والأدب كما قاله الأزهرى وغيره يقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان فى فضيلة من الفضائل، ومنه أدبه إذا عاقبه على إساءته؛ لأنه داع لحقيقة رياضة محمودة فيخرج بها الإنسان فى فضيلة الأدب، وأدب أدبا من باب ضرب صنع صنيعا كالطعام به، ودعى الناس إليه فهو آدب بزنة فاعل قال(١):

نحن فى المشتات ندعو الأجفلى لا ترى الأدب فينا ينتقر

ومنه المأدبة للمائدة، والقرآن مأدبة الله، وهو الداعى إليها، وفى كلام المصنف رحمه

---

(١) البيت من الرمل، وهو لطرفة بن العبد فى ديوانه (ص٥٥)، أدب الكاتب (ص١٦٣)، إصلاح المنطق (ص٣٨١)، خزانة الأدب (١٩٠/٨ - ٣٧٩/٩)، لسان العرب (٢٠٧/١)، أساس البلاغة (شتو)، ونوادر أبى زيد (ص٨٤).

الله إشارة إلى الحط على مثل الزمخشرى مما خاطب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وأساء الأدب فى مقامه الشريف بما لم يقله له رب العزة إذ قال له: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة:٤٣] ودعا له وقال له: هنا أخطأت وبئسما فعلت، وقد تقدم ذلك بما فيه.

(**فى قوله وفعله ومعاطاته ومحاوراته**) الجار والمجرور متعلق بيتأدب، ومعاطاته من العطاء والعطية وهى ما تعطيه، قال فى المصباح: ومنه المعطاة لأنها مناولة لكن استعملها الفقهاء فى مناولة خاصة، ومنه فلان يتعاطا كذا إذا قدم عليه. انتهى. فالمعاطاة هنا مصدر المراد به الأفعال الواقعة معه، فهى أخص من الفعل كما أن المحاورة مخاطبته ومصاحبته فهى أخص من القول، فما قيل من أن المعاطاة الفعلية جمع معاطاة كمعادة ومعادات فى قوله:

موكل بمعاداة المعادات

على ما فيه من احتمال إفرادهما وربط تائهما ومحاوراته القولية جمع محاورة بالحاء المهملة، وهى المجاوبة ومعاطاته وإن احتملت الإفراد، إلا أن محاوراته جمع قطعًا فناسب أن يكون مقابله جمعًا. انتهى. لا وجه له كما مر.

(**فهو**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**عنصر المعارف الحقيقية وروضة الآداب الدينية والدنيوية**) ضمير هو للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كما علم أو للقرآن، وهذا أرجح وعليه الشراح، والعنصر بضم الصاد المهملة ويجوز فتحها بمعنى الأصل، وفسره التلمسانى بالمنبع ولا وجه له، والمعارف العلوم أو المعلومات، والحقيقية المتحققة فى نفس الأمر، والروضة أرض ذات مياه وأشجار وأزهار طيبة منتزهة، والمراد بالدينية هو ما يتعلق بالعبادة والتوحيد، ونحوه من الأمور الشرعية، والدنيوية ما يؤخذ من الشريعة متعلقه بالدنيا فهى دينية أيضًا، ككرم الأخلاق وحسن العشرة وتدبير المعيشة، شبهه بالرياض لما فيه بما يدفع الكدورات البشرية ويسر الأرواح الزكية، أو شبه الآداب بالمياه والأزهار فهو تشبيه لذكر الطرفين فيه، لا لأن وصفه بالدينية والدنيوية يأباه كما قيل، ولا يصح كونه استعارة كما قيل إلا على قول أو تأويل بعيد فتدبر.

(**وليتأمل**) التأمل تفعل من الأمل، وهو رجاء ما يبعد حصوله من الخير نقل لمعنى آخر، وهو كما فى المصباح التدبر وإعادة النظر فى الشىء مرة بعد أخرى حتى تعرفه، والمصنفون رحمهم الله تعالى يستعملونه فيما فيه دقة أو شبهة، واللام لأمر الغائب وفاعله ضمير راجع للمسلم، وفى العبارة حزازة، ولو أسقط اللام وعطفه على يتأدب كان أولى، وعلى هذه النسخة قال بعض الشراح: إنه أمر معطوف على يجب أن يتأدب ميلا مع المعنى؛ لأنه فى معنى ليتأدب، فهو كما قيل فى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ

ﭐلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ [الروم:٤٦] أى ليبشركم وليذيقكم، إن كان الأولى أنه بتقدير وأرسلها ليذيقكم كما فى المغنى، ومن العجب ما قيل إنه أمر معطوف على يتأدب، ولو قيل إنه من عطف القصة على القصة كان أسهل.

(**هذه الملاطفة العجيبة**) كما تقدم حيث قدم الدعاء والتبشير على ما يوهم الاعتراض والعتاب مراعاة لخاطره صلى الله تعالى عليه وسلم، وتطيبا لقلبه وهو العلى الغنى عن عباده الفعال لما يريد، فكيف بالأمة الذين يجب عليهم التأدب معه؟.

(**فى السؤال من رب الأرباب**) متعلقة بملاطفة أو صفة لها بتقدير الكائنة، والرب الموجد المربى، والسيد المالك مصدر وصف به مبالغة أو صفة مشبهة، وفى اختصاصه به تعالى أقوال، فقيل: يختص به إذا أطلق من غير إضافة وكان مفردًا، فإذا جمع كما فى عبارة المصنف رحمه الله تعالى جاز لعدم الإيهام بالواحد الأحد، كقوله تعالى: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ﴾ [يوسف:٣٩] وأما قوله[1]:

وهو الرب والشهيد علىَّ ... يوم الحوارين والبلا بلا

(**وقوله**)[2]:

أرب يبول الثُّعْلُبانُ رأسه ... لقد ذل من بالت عليه الثعالب

فنادر جاهلى لا يعتد به، وليس الكلام فى صحته بحسب اللغة، بل الشرع هل هو حرام أو مكروه؟ وقيل: إنما ينهى عن كثرة استعماله وإضافته للعقلاء بخلاف رب العرش والدار، والأصح أنه ينهى عنه إذا أوهم معنى المعبود فمحل التعجب بكون السؤال من الرب العالم الغنى عن خلقه كما أشار إليه بقوله:

(**المنعم على الكل المستغنى عن الجميع**) لم يبين ما أنعم به واستغنى فيه ليفيد العموم، وكذا كل إطلاق لم تقم قرينة على تقييده، والسين هنا ليست للطلب بل للتأكيد للغناء، وعرف الكل بالألف واللام كقولهم بدل الكل والبعض، وهما لم يسمعا معرفين بها فى كلام العرب كما ذكره الجوهرى وغيره من أئمة اللغة، وقد جوزه الجوهرى فقال: كل

---

(١) البيت من الخفيف، وهو للحارث بن حلزة فى ديوانه (ص٢٩)، لسان العرب (٣٩٩/١)، خزانة الأدب (٣٦٣/٤)، شرح القصائد السبع (ص٤٧٥)، شرح القصائد العشر (ص٣٩٠)، شرح المتعلقات السبع (ص٢٣٦)، معجم البلدان (٣١٥/٢)، تاج العروس (٤٥٩/٢)، وفيه الحيارين: بدلاً من الحوارين.

(٢) البيت من الطويل، وهو للعباس بن مرداس فى ملحق ديوانه (ص١٥١)، ولراشد بن عبد ربه فى الدرر (١٠٤/٤)، شرح شواهد المغنى (٣١٧)، وبلا نسبة فى أدب الكاتب (ص١٠٣، ٢٩٠)، جمهرة اللغة (ص١١٨١)، مغنى اللبيب (ص١٠٥)، همع الهوامع (٢٢/٢).

وبعض معرفتان، ولم يجىء عن العرب بالألف واللام وهو جائز؛ لأن فيهما معنى الإضافة أضفته أو لم تضف. انتهى. يعنى أنه يلزم الإضافة لفظًا أو تقديرًا، إلا أن الألف واللام قد تقوم مقام الإضافة وتسد مسدها كما صرح به النحاة، والقياس يقتضى صحة دخولها عليهما إلا أنه تسمح فى قوله معرفتان وتجوز به عن مضافين؛ لأنهما يضافان للنكرة كثيرًا وطردًا نحو: كل رجل يقول كذا مع أن فيما قالوه نظر، لأن كل ما لم يسمع بعينه يمتنع، وقد ذكر ابن خالويه فى كتاب ليس أنه سمع نادرًا فالحق ما قاله الجوهرى ولا اعتراض عليه، وأردف المصنف المنعم بالمستغنى إشارة إلى أنه لم يرد بإنعامه فائدة، ولا حاجة له به، وعلم مما تقرر أنه إنما أمر بالتأمل حثًا على رعاية الأدب فى حقه تعالى.

(**ويستثير ما فيها**) أى فى الملاطفة أو الآداب القرآنية. (**من الفوائد**) ويستثير بالمثناة الفوقية والمثلثة بعد سين الطلب من آثار الأرض، كما قال الله تعالى عز وجل: ﴿ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ﴾ [الروم: ٩] أى يحركه ويبرزه كما يثار الصيد من مكمنه والتراب من مقره، ومنه إثارة الفتنة والشر، والمعنى يظهره لنفسه وغيره، وفى نسخة ابن رسلان «يستبين» بالنون بدل الراء، وفى نسخة بعض الشراح: «يتبين ويستثير» وهو كالعطف التفسيرى كما قال، وهو مجزوم معطوف على يتأمل، أى يتعرف ويتفحص، ويجوز رفعه وقد وقع فى نسخة: «ويستثير» بمعنى يبحث ويستخرج مرفوعان. انتهى. فيجوز جزمهما عطفًا على يتأمل ونصبهما عطفا على يتأدب أو فى جواب الأمر بتقدير أن بعد الواو، أى ليكن منه الأمران التأمل والاستثارة. وتعيين هذا كما فى بعض الشروح لا داعى له.

والفوائد: جمع فائدة، وهى ما يتنبه له الزكى من ملاطفة اللّه له وحسن خطابه ولينه، والسؤال عما هو أعلم المشير إلى أنه خبير بما صدر منه، واقف على ما حققوه من مكائدهم حارس لضباب حقدهم من نافقائها، وتعظيمه ورونق خطابه فى المبدأ والختام المقتضى للزوم الأدب معه.

(**وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب، وآنس بالعفو قبل ذكر الذنب إن كان ثمة ذنب**) كيف اسم استفهام يسئل به عن الكيفية والحال، وقد يخرج عن الاستفهام والصدارة كما فصله شراح البخارى فى باب كيف كان بدء الوحى، ولا حاجة لنا به هنا، وابتدأ بفتح التاء والهمزة وثمة تقدم الكلام عليها، وأنها اسم إشارة بمعنى هناك والهاء المرسومة للسكت والوقف، وفيه لغة أيضًا بتاء التأنيث وهى احتمال هنا، وفى قوله إن كان ذنب إشارة إلى أنه لا ذنب له صلى الله تعالى عليه وسلم، بل هو من محاسنه كما قال البحترى:

إذا محاسنى اللاتى أدل بها　　كانت ذنوبى فقل لى كيف أعتذر

وإذا لم يكن ذنب ولا ارتكاب لخلاف الأولى لم يكن عليه ملامة وعتب، فهذا يدل على أن قوله قبل العتب المراد منه إن كان هناك عتب، ولظهوره استغنى المصنف عن ذكره، فهذا من بدائع الاكتفاء، وقد حام حول هذا من قال: لم يقل المصنف رحمه الله إن كان عتب، كما قال إن كان ذنب اكتفاء بالثانى عن الأول لأنهما نظيران، وشيخنا حمل العتب على ما هو صورته لئلا ينافى ما سيذكره من أنه لا عتب عليه أصلا، وغلطوا من ذهب إليه، والمراد بالذنب خلاف الأولى، وهذا كله من ضيق العطن فتدبر، وكذا من الزوائد جعله كيف مقحمة وآنس بمد الهمزة بزنة قاتل، وروى بالقصر وتشديد النون، وقوله وكيف قيل: إنه معطوف على ما فيها، والظاهر أنه معطوف على هذه الملاطفة، أى وليتأمل كيف الخ ويعينه قوله فيما سيأتى، ثم انظر كيف بدأ فتنبه له.

(**وقال الله تعالى:** ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾) [الإسراء: ٧٤] أى لولا أن ثبتناك على الحق والسداد قاربت الميل إلى مرادهم ميلا ما قليلا، ففى الآية تصريح بأن الله عصمه صلى الله تعالى عليه وسلم الميل على إلى خلاف الصواب، فضلاً عن الوقوع فيه دليل ظاهر على ما قدمه من أنه لا ذنب له رأسا، وفيما فسروه به إشارة إلى أن العفو ليس عن ذنب وتقصير.

(**قال بعض المتكلمين:**) أى المفسرين الذين تكلموا على هذه الآية، وكثيرًا ما يستعمله المصنف رحمه الله وغيره بهذا المعنى اللغوى، ويجوز أن يراد المعنى المصطلح أى أهل علم الكلام وأصول الدين، لتعلق هذا بعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهى من مباحثه، فلا وجه لما قيل أن المنقول عنهم من غير ذلك العلم.

(**عاتب الله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعد الزلات، وعاتب نبينا محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم قبل وقوعه**): العتب والعتاب مخاطبة من توده بما صدر منه مما لا يناسب ليزيله، أو يترك العود له، وهو يكون ناشئًا عن المحبة والإدلال. والزلات: جمع زلة بالفتح من الزلل وأصله دحوض القدم، ثم عبر به عن الوقوع فيما يرضى من غير قصد ولذا فسر بالخطأ، وفى التعبير بالوقوع بمعنى الصدور فى الواقع مع الزلل لطف، لأن من زل يقع وضمير وقوعه للذنب، ويجوز عوده لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم بتقدير قبل وقوعه فى الذنب، ولك أن تقدره قبل احتمال وقوعه كما يدل عليه تعبيره فى الآية بقوله: ﴿كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٧٤] أى: تميل؛ لأن القرب من الميل للذنب يقتضى عدم وقوعه، والمراد بزلات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام خلاف الأولى، الذى هو بالنسبة لعلو مقامهم كالزلة من غيرهم، ولخفائه قيل: كان اللائق مع عدم وقوعه

فإن القبلية تقتضى الوقوع بحسب الظاهر وإن صرحوا بأنه غير لازم، بدليل قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف:١٠٩] وفى بعض الشروح معترضًا على ما نقله المصنف رحمه اللّه تعالى، بأنه لا عتب فيما ذكر، وإنما هو تذكير بنعمة العصمة له صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو مناف لما سيأتى عن عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن الكبائر والصغائر، ومقامهم منزه عن الزلات وإن صدر عنهم ما هو بصورتها فهو لحكمة، كبيان الجواز والتشريع للأمم. وقال الصفوى: العتاب قبل وقوع الذنب يستلزم أمرين، أحدهما وقوع العتاب فى زمن لم يقع فيه الذنب، والآخر وقوع الذنب بعده فاستعمله فى لازمه فقط مجازًا.

فإن قلت: العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة، يقال: عاتبه وعتب عليه قال:

إذا ذهب العتاب فليس ود ويبقى الود ما بقى العتاب(١)

قلت: جزم محققو المفسرين بأنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يهم بالركون إليهم، والعتاب عتابان منجز كما قال: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٧٤] وهذا إنما يكون مع كيدودة الركون، وعتاب معلق فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ [الإسراء:٧٤] إلى آخره، وهذا إنما يكون مع عدمه أى لو لم نثبتك وقع منك ذنب القرب من الركون لكنا ثبتناك فلم يقع، والمنقول عن بعض المتكلمين وإن أقره المصنف رحمه اللّه تعالى لا ينافى ما جزم به من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يعاتب أصلا، لأن المنفى المنجز المستلزم للوقوع والمثبت خلافه، كذا قيل ولا يخفى ما فيه فتأمل.

(**ليكون بذلك**) المذكور أو العتب على ما ادعاه (**أشد انتهاء**) أى أقوى فى تركه لما ذكر مما لا يليق به، والانتهاء افتعال من النهى يقال: نهاه فانتهى لا من النهاية.

(**ومحافظة لشرائط المحبة**) أى مداومة لما تقتضيه المحبة من قصر الهمة على ما يرتضيه المحبوب. (**وهذه غاية العناية**): من اللّه به صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذه إشارة إلى المعاتبة قبل الوقوع لما ذكر من الفوائد، ولذا أنت أو هو لرعاية الخبر، والعناية قصد المساعدة والاعتناء بحفظه وأمره يقال: عنيت بأمر فلان بالبناء للمفعول عناية وعنيا شغلت به، وهذه أقوى من عناية اللّه بغيره من الأنبياء فلذا جعلها غاية، وقيل: إنما جعلها غاية مبالغة.

(١) البيت من الوافر، وهو بلا نسبة فى لسان العرب (٥٧٧/١)، كتاب العين (٧٦/٢)، مقاييس اللغة (٢٢٧/٤)، كتاب الجيم (٢٩١/٢)، تاج العروس (٣٠٩/٣)، العقد الفريد (٣١٠/٢).

(ثم انظر كيف بدأ بثباته وسلامته قبل ذكر ما عاتبه عليه وخيف أن يركن إليه): أتى بثم لبعد مرتبة هذا مما قبله؛ لأن فى المعطوف عليه احتمال صدور الزلة، وفى هذا إكرامه وتأمينه من صدورها منه، وهو من كلام المصنف رحمه اللّه تعالى، أو ممن تتمة كلام ذلك البعض ملتفتا من الغيبة إلى الخطاب، إيقاظا للمأمور وحثًا له على التأمل، وهو من عطف القصة على القصة أو عطف على المقدر، أى: تأمل ما ذكر ثم انظر، والنظر بمعنى التفكر والتدبر مستعار من نظر البصر، وقيل: ثم مجردة عن المهلة؛ ولأن الفراغ من ذلك التأمل إنما يكون بعد مهلة وبدأ بثباته، أى: لم يقل لقد كدت تركن لولا أن ثبتناك، وقال بثباته و لم يقل بتثبيته كما فى الآية؛ لأن قوله كدت يدل عليه وهو محل المدح، أو لأن تثبيت اللّه يلزمه الثبات والسلامة عما خيف عليه والمعاتب عليه الركون، وخيف مبنى للمجهول أى وقع الخوف ممن هو شأنه، وقيل: فاعله المقدر هو اللّه وإن كانت حقيقة الخوف مستحيلة عليه؛ لأن المراد معاملته معاملة من يخاف عليه على ما ذكر كما قالوا فى قوله عز وجل: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] ليعاملكم معاملة المحبة ولا اختبار ولا ابتلاء، أى خاف عليه القرب من الركون وفيه مبالغة؛ لأنه إذا خيف عليه القرب من شيء خاف عليه ذلك الشيء بالطريق الأولى، وهذا لا محذور فيه، حتى يقال: المراد بالركون فى عبارة المصنف رحمه اللّه تعالى الوقوع، لأنه هو الخوف فهو غير الركون المذكور فى الآية، وقيل: إن كدت من أفعال المقاربة وقد أخبر به مؤكدًا بقوله لقد، ومثله مما يعتب عليه إلا أن قوله شيئًا قليلاً يدل على أنه مما لا يضر لقلته، وهو عناية به صلى الله تعالى عليه وسلم ونعمة عظمى؛ لأنه تعالى صفاه وحماه من شوائب الخطرات القلبية التى لا ثبات لها، وإنما يؤاخذ بما وقع عن عزم وتصميم كما قالوه فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] وله تفصيل ليس هذا محله.

(ففى أثناء عتبه براءته، وفى طى تخويفه تأمينه وكرامته) أثناء الشيء بالمد خلاله وتضاعيفه، يقال: جاء فى أثناء الناس أى بينهم جمع بكسر فسكون وياء تحتية، أو ثنى بالقصر والمراد يكون البراءة فى أثناء العتب أنها معه فى كلام واحد بلا فاصل، فلا يعترض عليه بأنه مقدم هنا كما قيل؛ لأن الدال على البراءة قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ [الإسراء:٧٤] وفى طيه أى داخله، أو ضمنه أو فى تخويفه للطى فيما ذكر إذ لم يفهم منه صريحا، قيل: وفيه بعد، وتأمينه وكرامته تثبيت اللّه تعالى له وتنزيهه عن القرب إلى الميل، يعنى أنه عتب بالركون للأعداء وتخويفه بقوله: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ﴾ [الإسراء:٧٥] العذاب معلق بما هو صريح فى عصمة الله تعالى له صلى الله تعالى عليه وسلم، عن

القرب فضلا عن الوقوع فيه تعريضًا بالمنافقين وإسماعا لهم على حد قوله:

إياك أعنى فاسمعى يا جارة

وقد تقدم أنه لا عتب ولا ذنب وإنما هو تكريم، فلذا قيل: إنه كان ينبغى للمصنف رحمه اللّه تعالى تركه، وكلامه فى غاية الظهور فلا حاجة لأن يقدر فيه أثناء الكلام الدال على العتب والتخويف فإنه لا داعى له.

(ومثله قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ الآية [الأنعام:٣٣]) أى مثل ما تقدم فى اللطف به، أو مثل لولا أن ثبتناك فى الشفقة والتسلية وهو أقرب، أو مثل عفا اللّه عنك فى الملاطفة والتهوين، وضمير أنه للشأن وقد للتحقيق، والمضارع بمعنى الماضى أو بمعنى ربما بالنسبة لسائر معلوماته، والذى يقولونه أنه ساحر أو مجنون أو شاعر أو كذاب ونحوه مما لا يضره، أى لا تحزن لنفسك كما فى الكشاف، ويدل عليه ما بعده: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣] وهو خبر أريد به لازم الفائدة كقوله: ﴿إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران:٦٣] إذ المقصود تطييب قلبه صلى الله تعالى عليه وسلم.

(قال على رضى اللّه عنه) وكرم وجهه وهذا رواه الترمذى وصححه الحاكم.

(قال أبو جهل): هذه كنيته كناه بها رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان يكنى أبا الحكم فاللّه كناه أبا جهل والناس كنوه أبا الحكم، والجهل وإن كان ضد العلم فالمعروف فى كلام العرب أنه ضد الحلم كما قال(١):

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وهو عمرو بن هشام فرعون هذه الأمة، وقد قيل: إنه مع جهله وكفره كان يحنى العصاة، ولذا قيل له: مصفر إسته، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم فى أول الإسلام يرجو إسلامه ويقول: «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين أبى جهل وعمر بن الخطاب»(٢) فلما أسلم عمر رضى اللّه تعالى عنه علم أنه هو الذى أجيبت فيه دعوته صلى الله تعالى عليه وسلم، وأما أبو جهل أشقاه اللّه تعالى فقتل ببدر، واختلف فى قاتله كما فصل فى السير، وأسلم ابنه عكرمة وحسن إسلامه ونصر اللّه به الدين تحقيقا لرجاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم.

---

(١) تقدم الاستشهاد به.

(٢) أخرجه أحمد (٢/٩٥)، والترمذى (٣٦٨١، ٣٦٨٣)، والحاكم (٣/٥٠٢)، وأبو نعيم فى الحلية (٥/٣٦١).

(للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم إنَّا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به) وفى نسخة مصححة من الشفاء: «ما جئت به بدون بالجحده لآيات اللّه تعالى عنادًا وبغيًا، أى ننكره ونجعله كذبًا مع أنك صادق عندنا، وفى لباب التفاسير قال أبو ميسرة: إن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مر بأبى جهل وأصحابه فقال: واللّه يا محمد أنَّا لا نكذبك إنك عندنا لصادق، ولكنا نكذب ما جئت به، فنزلت هذه الآية، وهذا هو سبب نزولها كما قال المصنف رحمه اللّه تعالى.

(فأنزل اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ الآية [الأنعام: ٣٣]) وعزاه ابن الجوزى إلى ناجية بن كعب من المفسرين، وقد فسره به على قراء يكذبونك بالتشديد، وما فى الكاشف واللباب من قوله: «وإنك عندنا لصادق» مروى فى الحديث، قال السيد عيسى: وهذا بظاهره فاسد؛ لأن كذب القول يستلزم كذب قائله، إلا أن يكون نقلاً غير ملتزم للصحة، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم إنما ذكره على أنه حق من عند اللّه. وقال الطيبى: لا نعتقدك كاذبًا وإنما ننسب الكذب لما جئت به عنادًا أو حسدًا، فقوله: «لكن نكذب ما جئت به» فى موضع نحسدك إقامة للسبب مقام المسبب، وفيه بعد لأنهم لا يقرون بذلك، وقيل: المعنى لا نقصد نسبتك الكذب وتعييرك به، لأنا جربناك فوجدناك على خلافه، وإنما غرضنا إبطال الكلام، أو لا نقول أنت من عادتك الكذب، لكنا ننكر النبوة فلا يلزم أن يكون كذابًا، أو أنك غير مفتعل متعمد للكذب، بل تخليت أمرًا باطلاً فالتكذيب بالنسبة لافتعاله فما كذبناك ليكون عيبًا، وهذا أحسن التأويلات، وقيل: أنت ناقل ونحن نكذب المنقول لا الناقل وفيه ما مر. انتهى.

وفى اللباب: المعنى لا نخصك بالتكذيب، ونقل ابن الجوزى عن قتادة: لا يكذبونك بحجة بل بهتانًا وعنادًا، ولا يكذبونك اعتقادًا بل قولاً، وهذا ما ارتضاه الطيبى، هذا زبدة كلامهم وسيأتى فى كلام المصنف رحمه اللّه تعالى ما يوافقه.

(ويروى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما كذبه قومه حزن، فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام) قال السيوطى فى تخريجه: هذا لم أجده وكذا قاله غيره، قيل: وهذا من قصوره ولم يزد على هذا وهو غريب منه.

(فقال: ما يحزنك، قال: كذبنى قومى): لما حرف وجود لوجود، أو وجوب لوجوب كما فصله النحاة، والأكثر الأفصح فى جوابه عدم اقترانه بالفاء وورد اقترانه بها، ومن يأباه يقدر لها جوابا محذوفًا. وقوله: «حزن» هو الجواب، وحزن وأحزن لغتان شائعتان فصيحتان بهما جاء التنزيل، فقوله: «يحزنك» يجوز فيه فتح الياء وضمها. وقوله: «كذبنى» بالتشديد، وروى أكذبنى وهى لغة أيضًا، وأراد تكذيبهم حيث قالوا: إن ما

جاء به كاذب دون أن يقولوا إنه كاذب، أو حيث قالوا: إنه كاذب وإليه أشار المصنف رحمه اللّه تعالى بما سيأتى، من أنهم معترفون بصدقه صلى الله تعالى عليه وسلم قولاً واعتقادًا، ويروى أو اعتقادًا إشارة إلى القولين السابقين كما مر.

(فقال: إنهم يعلمون أنك صادق فأنزل اللّه تعالى الآية) فهو سبب النزول على أحد القولين، وفيه دليل على أن المنفى فى الآية العلم.

(ففى هذه الآية منزع لطيف المأخذ): منزع بفتح الميم والزاء المعجمة والعين المهملة محل النزع مصدر ميمى بمعنى المفعول، فسره التلمسانى بالمأخذ، ورد بأن ما بعده يأباه، فالمراد به شىء يرجع إليه، قال فى القاموس: المنزعة ما يرجع إليه الرجل من أمره ورأيه، واقتصر عليه صاحب المقتفى، والمنزع بكسر الميم السهم يقال: نزعت فى القوس نزعًا وانزع بمنزع أى سهم، وفى المثل: عاد السهم إلى النزعة. أى رجع الحق إلى أهله، قاله الإمام المرزوقى. ولطيف المأخذ أى حسن دقيق أخذه واستنباطه منها.

(من تسليته تعالى له عليه الصلاة والسلام وألطافه فى القول) قال البرهان: ألطافه بكسر الهمزة فى النسخ التى وقفت عليها، مصدر من ألطفه بكذا إذا بره به كما فى الصحاح، والتسلية تطييب القلب بما يذهب حزنه ويفرج كربه، ومن لبيان المنزع بتقرير أنه صادق عندهم قولاً واعتقادًا كما أشار إليه بقوله.

(بأن قرر عنده أنه صادق عندهم، وإنهم غير مكذبين له معترفون بصدقه قولاً واعتقادًا، وكانوا يسمونه قبل النبوة الأمين) الباء سببية أو آلية، وقرر بمعنى بين وحقق هذا بحيث قر وثبت فى نفسه لما فى الآية من بيان ذلك مؤكدا بأن، وجعلهم ظالمين جاحدين لما قالوه، وكونهم غير مكذبين له مر تحقيقه وستسمعه قريبا، ومر أنه روى أو اعتقادًا إشارة إلى القولين فى الآية. وروى أن الأخنس قال لأبى جهل لعنه اللّه يوم بدر: ليس هنا غيرى وغيرك أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فقال: إنه واللّه لصادق وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لقريش. ثم إنه قيل هنا: إن عدم الكذب يستلزم الصدق عند الجمهور، فالاعتراف بأحدهما كأنه اعتراف بالآخر فلا يرد أن عدم الكذب أعم، وإن ورد أن عدم نسبة الكذب إليه لا يستلزم نسبة الصدق، لجواز أن لا يعترفوا بأحدهما ولو سلم فالآية فسرت بالنفى اعتقادًا وقولاً، فمن أين تقرير الأمرين إلا أن يقال إن المراد بعدم الكذب الحكم بعدم الكذب؛ لأنهم لم يسكتوا فى حقه وهو بمنزلة الحكم بالصدق، فالمصنف رحمه اللّه تعالى جمع بين التفسيرين وهو عادته، والأوجه أن عدم التكذيب وإن لم يستلزمه لكنه قد يكون كذلك، فحمل عليه بقرينة ما عرف منهم لا بطريق اللزوم،

وهم وإن كذبوه لكن منهم من لم يكذبه فى بعض الأحيان كما مر، والأظـهر أن المراد نفى التكذيب بأحد الوجوه والتأويلات السابقة فلاينافى التكذيب ظاهرًا كما أشار إليـه البيضاوى، وهذا غاية ما يمكن هنا انتهى ملخصًا. وقوله: واعتقادا على نهج قوله:

وزججـــن الحـواجـب والعيـونـا

وكلام النحاة فيه مشهور، وتسميته صلى الله تعالى عليـه وسـلم قبـل البعثـة بـالأمين مشهور فى كتب الحديث، ويسمى يتعدى بنفسه وبالباء.

(فدفع بهذا التقرير ارتماض نفسه بسمة الكذب) الدفع بالدال المهملة منع الشيء قبـل وصوله وبعد الوصول يكون رفعًا، ولذا قالوا: الدفع أسهل مـن الرفـع، وفـى التعبـير بـه إشارة إلى عدم تلبسه صلى الله تعالى عليه وسلم بما افتروه، والتقرير برائين مـهملتين هـو ما تضمنه قوله: «بأن قرر» إلى آخره، وفى بعض النسخ التقدير بـالدال بـدل الـراء كمـا ذكره التلمسانى وقال: إن الذى فى أصل القاضى بالراء، ومعناه على تلك النسخة فرض الشيء وتصويره، وبالراء بمعنى تبيينه وتمـهيده وكـل واحـد منـهما قريـب مـن الآخـرة. والارتماض براء ساكنة وآخره ضاد معجمة افتعال من الرمضاء وهى شدة الحرارة، شبه بها ما اشتد عليه وأقلقه من ألم قلبه، والسمة العلامة وأصلها وسمة فحذفت فاؤه كعدة، والمراد وصفهم له بها والإضافة لامية أو بيانية أى سمة هى الكذب فى قولهم إنه كاذب.

(ثم جعل الذم لهم بتسميتهم جاحدين ظالمين، فقـال تعـالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]) إلخ عطف على قرر وثم للـتراخى الرتبـى، والإشـارة إلى بعـد الذم عنه أو هى للترتيب الذكرى، ولا حاجة لتجريدها لمجرد العطف كمـا قيـل، والمـراد بتسميتهم وصفهم بما ذكر وعبر به إشارة إلى أن ذلك صار كالعلم لهـم، وبـين التسـمية والسمة تجنيس، وتسميتهم جاحدين؛ لأنه لمـا أخـبر عنـهم بأنـهم يجحـدون فكأنـه قـال جاحدين، وقدم الجحد مع تـأخره فـى الآيـة؛ لأنـه المقصـود بـالذكر ولأن ظلمـهم هنـا بجحدهم، ولذا وضع الظاهر موضع المضمر، ولم يقل ولكنهم تنبيـها علـى أن جحدهـم نشأ من ظلمهم الثابت فيهم، لأن ترتيب الحكم على وصف يشعر بعلته، ولذا عدل عـن جاحدين إلى وجحدهم بآيات الله، أما إنكار حقيقتها أو إنكار كونها مـن اللـه، والبـاء قيل إنها لتضمين الجحد معنى التكذيب، إلا أنه قال فى القـاموس: جحـد حقـه وجحـد بحقه إذا أنكره وهو مقتضى خلافه.

(فحاشاه من الوصم) حاشاه فعل ماض، أى: نزه الله عز وجل النبى صلـى الله تعـالى عليه وسلم وبرأه من الوصم، بالصاد المهملة فى اللغة مطلق النقص والعيـب، والمـراد بـه الكذب المذكور فى الآية.

(وطوقهم بالمعاندة) طوق فعل ماض من الطوق، وهو ما أحاط بالعنق ثم صار مثلا للزوم. وقال فى الكشاف فى شرح قوله: «طوقهم بها» طوق الحمامة. أنه لا يقال إلا للأمر المذموم الذى لا يفارق من اتصف به، فخصه بالذم كقول حسان رضى الله تعالى عنه:

لولا سوابقك طوقتك بها طوق الحمامة

أقول: فى اختصاصه بالذم نظر لما نقل فى مرآة الزمان عن حاتم الطائى أنه قال لابنه لما سئله عن إبله التى نحرها للقرى وقال له: مافعلت الإبل؟ فقال: طوقتك مجد الدهر طوق الحمامة وعليه قول المتنبى:

أقامت فى الرقاب له أياد هى الأطواق والناس الحمام

والباء للتعدية وقيل: إنها للسببية. **(بتكذيب الآيات حقيقة الظلم)** هذه الباء متعلقة بالمعاندة، وحقيقة منصوب مضاف للظلم مفعول ثان لطوق، بمعنى جعلهم كالطوق فى أعناقهم للزومها لهم، ففيه استعارة مكنية وجعله حقيقة الظلم الذى هو وضع الشىء فى غير موضعه؛ لأنهم وصفوه صلى الله تعالى عليه وسلم بالكذب وهم كاذبون، وعبر عنه بالاسم الدال على الثبوت، وكون اسم الفاعل للحدوث كما ذكره النحاة غير مسلم عند أهل المعانى كما قيل.

أقول: ما ذكره غير واضح؛ لأن اسم الفاعل إنما يدل على الثبوت إذا ألحق بالأسماء كالمؤمن والكافر، ولا خلاف فى هذا بين النحاة، وأهل المعانى كما مر. إذ الجحد إنما يكون ممن علم الشىء ثم أنكره للتفاوت الرتبى أو الحقيقى كما مر، وهذا ما صرح به أهل اللغة، ففى القاموس والصحاح وغيرهما جحد أى أنكر مع العلم، فما قيل إنه بعيد بعيد، ووجه استبعاده أنه يكون ممن جهل كما قاله، ولذا [قال:] أئمتنا الحنفية فى الأصول إنه لو قال للخصم: أمقر أنت أم جاحد؟ فإن قال: مقر أو جاحد فقد أقر، وينبغى أن يقيد هذا ممن كان من أهل اللسان.

(كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]) أتى بهذه الآية استدلالاً على ما ادعاه، وقيل عليه: إنَّا لا نسلم دلالتها على مدة، فإنه لو قيل أنكروها واستيقنتها أنفسهم كان صحيحًا، فيكفى لمدعاه النقل من أئمة اللغة كما مر، ولذا ذهب بعض الشراح إلى أنه تمثيل لا استدلال وفيه نظر، واستيقن وتيقن بمعنى، وقال الزمخشرى: الاستيقان أبلغ من الإيقان، ولم يقل استيقنوها مع أنه لبيان أنهم أخفوا علمها وأسروه، لأن فائدة ذكر الأنفس أنهم جحدوا بألسنتهم واستيقنوها فى قلوبهم وضمائرهم، والعلو هنا بمعنى التكبر عن الانقياد للحق عنادًا.

وفى شرح الصفوى أقول: اليقين فى اصطلاحهم الاعتقاد الثابت الجازم المطابق للواقع والعلم أعم موردًا، فلو أريد بالجحود الإنكار مع العلم كما ذكره المصنف رحمه الله، أفاد قوله واستيقنتها معنى جديدا على هذا الاصطلاح فلا بعد فيما ذكره، لكن اللغويين وأهل العربية فسروا اليقين بالعلم، والأظهر حينئذ أن يكون المراد فى الآية مجرد الإنكار، ليكون قوله استيقنتها تأسيسًا لا تأكيدًا لما فهم ضمنا، ولذا فسر كثير من المفسرين الجحود بالإنكار واليقين بالعلم، ويمكن أن يكون مراد المصنف رحمه الله تعالى أن الجحود يطلق على الإنكار بشرط أن يكون مع العلم، وهو خارج عن مفهومه شرط لصحة إطلاقه، وهو فى الآية كذلك قطعا لقوله: «واستيقنتها» فيتم الاستشهاد بالآية بلا نزاع، واستيقنتها تصريح بما يمكن أن يفهم منه فتأمله فإنه دقيق. انتهى.

وقيل: وهو مبنى على أن الشاهد والمثال سيان فى جواز وقوعهمابعد الكاف، ويعضده مجئ الكاف للتعليل، كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وعلى أن اليقين بمعنى العلم شرط خارج عن مفهوم الجحود، وأنه إنما يتم الاستشهاد على التقدير الأول لا الثانى مع أنه لا يتم الاستشهاد عليهما جميعًا، والحق أنه تمثيل.

أقول: إذا علمت بأن حقيقة الجحد إنكار عن علم، فادعاء أنه شرط خارج تعسف وجريرة، والآية الثانية إنما أجابها المصنف للاستشهاد المعنوى، وبيانه أنه تعالى قال فى الآية الأولى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣] والدليل النقلى والعقلى دال على أن المراد إنكارهم عن علم، وإلا لم يكونوا ظالمين بجحدهم؛ لأن الجهل قد يعذر صاحبه، لكن لما كان فيها خفاء أتى بالآية الثانية لما فيها من التصريح بأنهم كانوا عالمين، فالاستدلال بمعناها لا بلفظ الجحد فيها كما توهموه فوقعوا فيما وقعوا فيه، نعم فى ذكر اليقين تأكيد إن لم يكن أخص من العلم وهذا ظاهر، فانظر كيف خفى على من يدعى أنه بيضة البلد.

(ثم عزاه وآنسه بما ذكره عمن قبله ووعده النصر بقوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ الآية [الأنعام: ٣٤]) التعزية من العزاء وهو الصبر ومعناها تسلية المصاب بما يخفف حزنه قال:

هى الشمس مسكنها فى السماء   فعز الفؤاد عزاء جميلا

وتختص فى العرف بما يقع عند الموت كقول أبى فراس:

كن المعزى لا المعزى به   إن كان لابد من الواحد

وآنسه بفتح الهمزة من غير مد وتشديد النون، أو بالمد و تخفيفها، أى: أذهب وحشته وقلقه مما لقيه منهم. ورجح الأول لمشاكلته لعزاه ووعده النصرة فى الآية لقوله تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤]، أى مواعيده بنصره أنبيائه، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١، ١٧٢] وقوله تعالى فيها: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، والوعد فيها له ولهم ظاهر، ولا حاجة لما قيل أن فى هذه الآية دليلاً على تحقيق مقام النبوة، فإنه غنى عن البيان.

وقوله: «بما ذكره عمن قبله» روى «عمن كان قبله» أى فهون عليك واصبر حتى يأتيك النصر فقد كذب إخوانك وصبروا حتى نصروا، وهذه الآية تدل على أن نفى التكذيب فى الآية السابقة ليس على إطلاقه كما ذكره البيضاوى، ويحتمل أن يكون المعنى هون عليك جحودهم لآيات اللّه وما جئت به، واصبر فإن إخوانك قد كذبوا وأوذوا حتى نصروا، فلا تدل الآية على ما ذكر، وقد قيل فى معنى الآية: أنها كقول السيد لعبده: ما أهانوك بل أهانونى قاصدًا تعظيم الأمر، وتقريره: إن أهانتك أهانتى لا نفى الإهانة وهو كلام حسن جدًا.

(فمن قرأ لا يكذبونك بالتخفيف فمعناه لا يجدونك كاذبًا) هى قراءة نافع والكسائى، من أكذبه كأبخله إذا وجده كاذبًا وبخيلاً، وهذا أحد معنى صيغة الأفعال كما ذكره النحاة فى أبنية الفعل، ومعناه أن صيغة الثلاثى موضوعة لاتصاف الفاعل بالحدث، فإذا دخلت عليه الهمزة كان لمعان أخر، منها وجد أن الفاعل للمفعول متصفًا بالحدث الذى دل عليه الثلاثى، وهو معنى حقيقى وضعت له هذه الصيغة، ويلزم من كونهم لا يجدونه متصفًا به أنهم لا يعتقدون كذبه، سواء قالوا إنه كاذب أم لا ففيه تسلية له صلى اللّه تعالى عليه وسلم أيضًا.

(وقال الفراء والكسائى: لا يقولون إنك كاذب) الفراء: هو الإمام أبو زكريا يحيى ابن عبد اللّه بن منظور الأسلمى الدؤلى الكوفى النحوى اللغوى المفسر، كان أبرع الكوفيين وأعلمهم بفنون الأدب، وتفسيره من أجل التفاسير وعليه اعتماد الزمخشرى، توفى سنة سبع ومائتين بطريق مكة وعمره ثلاث وستون سنة، وإنما لقب بالفراء لأنه كان فصيحًا يقرر الكلام ويفصله، فليس نسبة للفراء لعملها أو بيعها.

والكسائى: هو أبو الحسن على بن حمزة بن عبد اللّه بن بهز بن فيروز الأسدى الكوفى، أحد القراء السبعة، إمام النحو واللغة والقراءات، عاش سبعين سنة ومات فى سنة ثلاث وثمانين ومائة بزيقونة قرية من قرى الرى، وقيل: بطوس، ولقبه بالكسائى

حمزة شيخه؛ لأنه كان يجيئه ملتفا بكساء، وقيل: لأنه أحرم فى كساء.

ولما لم يجد هذا المعنى السابق فى كتب النحو المشهورة السيد الصفوى، قال هنا: إن هذا بناء على أن أكذب ككذب للنسبة كما صرح به الإمام والقاضى، أو أن معناه بين كذبه كما فى القاموس، ويؤيده ما نقله الواحدى عن الفراء: أن معناه لا يجعلونك كذابًا، بل يقولون: إن ماجئت به باطل، وفى الصحاح نقلا عن الكسائى: أن أكذبته بمعنى أخبرته، أنه جاء بالكذب وهو لا يوافق المنقول.

وبالجملة إن فى هذه النقول اضطرابًا، وتبعه ابن الحنبلى فى شرحه، وهو كله من قصر الباع وقلة الاطلاع، فإن هذا المعنى صرح به أئمة العربية، قال ابن عصفور فى كتاب «الممتع»: من معانى أفعل التسمية كقولهم: أكفرته وأخطاته، أى: سميته كافرًا ومخطئا. انتهى. وهو معنى النسبة فى العرف، لأنهم يقولون نسبه للزنا إذا قال إنه زان، فالاضطراب إنما هو من عدم الوقوف على الصواب.

(**وقيل: لا يحتجون على كذبك ولا يثبتونه**) عطف تفسير؛ لأن معنى يحتجون يقيمون حجة مثبتة لما ادعوه، وفى بعض النسخ: «لا يجتمعون» قيل: كأنه تفسير باللازم فإن من معانيه لا يجعلونك كاذبًا، والجعل إنما يكون إذا أثبتوا كذبه فيلزم من نفى الجعل نفى الاحتجاج، ومعناه على النسخة الأخرى أن منهم من يعرف بطلان قوله فلا اعتداد به إلا أنه لا يناسب قوله: «ولا يثبتونه».

أقول: الصحيح الأول، وتوجيهه أن أفعل يكون للدلالة على الشىء والإيصال إليه، وهو إنما يكون بالبيان والحجة لا بما ذكره، قال فى «الممتع»: تقول أبصره أى دله على وجود المبصر، وأغفلته أى وصلت غفلته إليه، وأما على النسخة الأخرى فالمعنى ظاهر وبما قررناه علمت سقوط ما قيل من أن هذا التفسير لا يناسب المقام ولا يلائم الجحد.

(**ومن قرأ بالتشديد فمعناه لا ينسبونك إلى الكذب**) كقولهم: فسقته إذا نسبته إلى الفسق، وتممته إذا نسبته لبنى تميم، وهذه النسبة أعم من النسبة المصطلح عليها، وهذا على الوجوه السابقة.

(**وقيل: لا يعتقدون كذبك**) وهذا توفيق بين ما ورد فيه التصريح بتكذيبهم له صلى الله تعالى عليه وسلم، وما فى هذه الآية من قولهم: «لا يكذبونك» بأن المثبت قولهم والمنفى اعتقادهم، لمعنى ما قالوه، وأورد عليه أن الاعتقاد المنفى لا يخلو من أن يكون جازمًا، فيكون عين التفسير الأول وحكايته تقتضى أنه غيره أو غير جازم، بأن يظنوا صدقه ويتوهموا كذبه، وهذا مما يشق عليه فليس فيه تطمئن له كما فى الأول، ورد بأن

المراد الأول بلا شبهة واحتماله للثانى بعيد، وقصد المصنف بعد ما قرره نقل أقوال المفسرين فى القراءتين لينزل ما قاله عليه، بدليل تفريعه عليه بالفاء فى قوله: «فمن قرأ» إلى آخره، والمعترض توهم أن ما هنا مخالف ومغاير لما قبله فقال ما قال، والظاهر أنه لا اختصاص لهذين القولين بقراءة دون قراءة، ولو قيل بالاختصاص لم يكن فيه بأس، فإن منهم من جعل القراءتين بمعنى كما قالوا: قللت وأقللت، وكثرت وأكثرت، ولك أن تقول المعنى على أن هذا نفى تكذيبهم مطلقًا لجعل ما قالوه بمنزلة العدم لعلمهم بخلافه، كما قيل فى قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢] مع كثرة المرتابين فيه، وهذا يدل على أنهم معترفون بصدقه اعتقادًا فقط إلا أن قولهم بمنزلة العدم، وما قرره المصنف وارتضاه مبنى على أنهم معترفون بصدقه حقيقة قولاً واعتقادًا فلا غبار عليه.

(**بما ذكر من خصائصه**) صلى الله تعالى عليه وسلم. (**وبر اللّه تعالى به**): الخصائص جمع خصيصة وهو ما خص به دون غيره تمييزًا له صلى الله تعالى عليه وسلم وتفضيلاً له على غيره كما مر، وأتى بمن أشاره إلى كثرتها حتى أفردت بالتضعيف، وبر اللّه به إحسانه ولطفه كما مر.

(**إن اللّه تعالى خاطب جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأسمائهم فقال: يا آدم**) بدأ به لأنه أبو البشر صلى الله تعالى عليه وسلم المقدم عليهم، وهو علم ممنوع من الصرف بالاتفاق للعلمية والعجمة، ووزنه فاعل كآزر وعاذر، وجمعه أوادم وآدمون، وقيل: إنه عربى مشتق من أديم الأرض أو من الأدمة لون بين السوداء والحمرة، وأصله على هذا أءدم بالهمزة فأبدلت الثانية ألفا ووزنه أفعل، ومنعه من الصرف للعلمية ووزن الفعل، ومن الغريب ما قيل: إنه منقول من فعل الرباعى كما حكى عن الطبرى وفيه نظر.

(**يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى، يا داود، يا عيسى، يا زكريا، يا يحيى**) وروى تقديم يا عيسى على ما قبله، وهذه الأعلام ووقوع الخطاب بها فى القرآن كقوله تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة:٣٣] غنى عن البيان.

(**ولم يخاطب هو**) بصيغة المجهول وضمير هو للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، أى لم يخاطبه اللّه فى القرآن باسمه، وفى نسخة «لم يخاطبه» بالبناء للفاعل والضمير المتصل، وقيل: هو الأولى والأوجه له (**إلا**) بعبارة فى ندائه دالة على تعظيمه وملاطفته لمنزلته عند ربه كقوله: (**يا أيها النبى، يا أيها الرسول، يا أيها المزمل، يا أيها المدثر**) معنى النبى والرسول معلوم وقدم النبى لأنه أعم كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١، ٢] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢]، وقيل: الخاصة إنما هى عدم الخطاب

بالاسم، وجعله خاصة بحسب الظاهر المشهور لئلا يشكل بما سيجئ من أن يسين بمعنى محمد، ونحوه ما قيل فى طه أيضًا، فيتعذر عنه بأنه بناء على عدم ثبوت هذا، وفى العدول عن الاسم إلى الصفات الحسنة تعظيم فى العرف يعرفه كل أحد، وفى شرح التجانى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يذكر باسمه فى النداء وذكر فى الخبر، كقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]؛ لأنه ورد مورد التعيين والتعليم؛ لأن صاحب هذا الاسم هو الرسول، ونحو قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] لما لم يرد هذا المورد لم يذكر اسمه، والمزمل أصله المتزمل، أى الملتف بثوب ونحوه وفيه تفاسير أخر.

والمدثر أصله المتدثر، أى لابس الدثار وهو البرد الذى فوق الثياب، وفيهما تلميح إلى قوله لخديجة رضى الله عنها حين رجع من حراء: «زملونى زملونى» وفى رواية «دثرونى دثرونى» والقصة مشهورة فى كتب الحديث أى غطونى، وذكر المدثر والمزمل للملاطفة والتأنيس على عادة العرب بخطابهم بما يدل على حاله حين الخطاب، كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم لعلى رضى الله تعالى عنه: «يا أبا تراب»(١) لما رآه نائما عليه، فلو ناداه سبحانه باسمه وبأمر عار عن مثل هذه الملاطفة وفؤاده يرجف شق عليه، فلذا بدأه بما يؤنسه وفيه نكتة ذكرها الإمام السهيلى، وذلك لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «أنا النذير العريان» وهو مثل للعرب فتمثل به صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان يقول: من بالغ فى الإنذار يقرب العدو، لأن المستغيث كان يتعرى ويرفع ثوبه ليرى من بعيد لئلا يسبق العدو صوته، وقيل: أصله أن رجلا سلبه العدو فجاء قومه منذرًا على تلك الحالة فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢].

وقوله: «أنا النذير العريان» أى مثلى مثله فيه إشارة إلى أن المدثر يضاد النذير ففيه تلميح وتظرف للملاطفة، كما فى الاستعارة التمليحية التى ذكرها أهل المعانى وإن لم يكن منها، وما ذكره المصنف رحمه الله فى خطاب الله له باسمه فى القرآن، فلا يرد عليه كما توهم خطاب الله له بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦] قوله له فى المحشر: «ارفع رأسك وقل يسمع لك يا محمد» و لم يقل يا أيها النبى ويا أيها الرسول، فإن قيل: الحكمة فيه أنه أخصر ففيه سرعة إجابة، وتطويل الكلام غير مناسب فى مقام الإذن فى الشفاعة. وقال السيوطى: إن الله شرف أمته صلى الله تعالى عليه وسلم بخطابهم فى القرآن لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٤] وخاطب الأمم السابقة بيا أيها المساكين.

---

(١) أخرجه البخارى (٥/٢٣، ٨/٥٦)، وأحمد (٤/٢٦٣)، والحاكم (٣/١٤١).

واعلم أنه قال فى «الإمتاع»: إن من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لا يجوز لأحد أن يناديه باسمه فيقول: يا أحمد، يا محمد، بل يقول يا نبى الله، يا رسول الله، لقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢] وبهذا فسرها مجاهد، والضحاك، ومقاتل، وسعيد بن جبير.

وأجيب عن قول الأعرابى: «يا محمد أتانا رسولك» الحديث بأنه قبل النهى، أو هو صدر منه قبل إسلامه، وهل مثله الكنية نحو يا أبا القاسم فيه نظر. انتهى. ويأتى الكلام على ذلك، والظاهر أن ذلك مخصوص بخطاب المشافهة فى حضوره حال حياته.

* * *

[الفصل الرابع: فى قسمه تعالى بعظيم قدره ﷺ]

(**الفصل الرابع فى قسمه تعالى**) وفى نسخة: «عز وجل» (**بعظيم قدره صلى الله تعالى عليه وسلم**) وفى نسخة «تسليمًا» والقسم يكون بمعنى الإقسام وهو الإتيان بالقسم، وهوالمراد، ويكون بمعنى المقسم به، وقال النحاة: إنه مصدر ليس بجار على فعله وقياسه الإقسام، وهو فى عرفهم جملة إنشائية يؤكد بها جملة أخرى لا على جهة التبعية.

(**قال الله تعالى**: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾) [الحجر:٧٢] المقصود من هذا الفصل بيان القسم نفسه، والمقسم عليه كما فى الفصل الذى بعده فيغايرهما، والفرق بينهما ظاهر، فالباء بعظيم قدره متعلقة بالقسم لا سببية حتى يتداخل المقصدان فيحتاج لارتكاب تكلفات فى الفرق بينهما وعظيم قدره، أما بمعنى قدره العظيم أو الإضافة بيانية والمقسم به حياته وذاته ونحوهما، والمقصود من القسم به تعظيمه وتقرير المقسم عليه فى الذهن وتمكينه، والعرب من عادتها أن تقسم بالشئ إذا أرادت تعظيمه حتى تجعل الجمل قسمًا من غير حرف القسم، وهذا هو القسم الذى عدوه من أنواع البديع كقوله:

أبقيت وفرى وانحرفت عن العلا ولقيت أضيافى بوجه عبوس
إن لم أشن على ابن حرب غارة لم نخل يومًا من نهاب نفوس

قال المرزوقى: هذا من الأيمان الشريفة، ولفظه لفظ الخبر، وظاهره الدعاء ومحصوله القسم، وكرر هذا فى مواضع من شرح الحماسة، وأشار إليه الزمخشرى، وقل من تنبه له، وهذه الآية فى قصة لوط عليه الصلاة والسلام، وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى مبنى على أن هذا الخطاب لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم على أحد الوجهين فيها، **وفى الكشاف أنه** على إرادة القول، أى: قالت الملائكة للوط عليه الصلاة والسلام

لعمرك، وقيل: الخطاب لرسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم فرجح الأول لأنه المناسب للسياق، ورجح المصنف رحمه اللّه تعالى الثانى لأنه تعالى لما قص عليه قصته بتمامها إلى قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١] خاطبه ببيان ماهم عليه من الضلالة مقسمًا بحياته، واختاره لموافقته لمقتضى الحال، وضمير إنهم لقوم لوط، وسكرتهم غفلتهم، وغلبة الهوى والشهوة عليهم حتى صاروا سكارى لا يميزون الخطأ من الصواب، ويعمهون يتحيرون لعمى بصائرهم، والعمى فى البصر والعمه فى البصيرة كما مر، وفيه استعارة تحقيقية مرشحة بالعمه وشبه تمكنهم فى الغفلة المحيطة بهم بتمكن المظروف فى الظرف، لأنهم لم يفدهم النصح للأمة طبائعهم وخسة أنفسهم، ففيه استعارة أخرى تبعية حرفية، وقيل: إن ضمير إنهم لقريش، وقال التجانى: إنه بعيد لانقطاع الآية به عما بعدها وما قبلها، ولذا قيل: إن الجملة على هذا معترضة، وعبر بالمضارع حكاية للحال الماضية أو لتشبيه الماضى بالحال فتدبر.

(**اتفق أهل التفسير فى هذا**) الكلام أو اللفظ الذى هو لعمرك (**أنه قسم من اللّه جل جلاله**) هو إسناد مجازى كجد جده وسعد سعده كما مر، وتحقيقه فى كتب المعانى.

(**بمدة حياة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم**) المدة بالضم مقدار من الزمان قليلاً كان أو كثيرًا، من مده إذا بسطه، وفى بعض الشروح القسم للتعظيم إذ لم يقسم بحياة أحد غيره، والكلام مسوق للأخبار بقبائح قوم لوط عليه الصلاة والسلام، وإهلاكهم تنبيهًا على أن من كان هذا دأبه لم ينفع نصحه، وتنفيرًا عن ارتكاب مثله من المفاسد، ودعوى المصنف رحمه اللّه تعالى الاتفاق دعوى بينتها غير مقبولة، لقول جماعة من المفسرين أنه قسم بمدة حياة لوط عليه الصلاة والسلام إذ قالت له الملائكة ذلك بشهادة السياق. انتهى. وكذا القول بأنه تعالى لم يقسم بمدة حياة أحد غير محمد صلى الله تعالى عليه وسلم على ما يأتى، وقيل أيضًا: العمر مطلق الحياة أى سواء كانت المدة بتمامها أو بعضها، وقيل: المراد البقاء فلا اتفاق أيضا على أحدهما إلا أن يريد بمدة الحياة معنى يشملهما وفيه نظر، والجواب بأن المراد اتفاق من عليه المدار ولو عند المصنف لا يجدى نفعًا، كالقول بأن الاتفاق إنما هو على القسمية، ولو قيل: المراد بأهل التفسير مفسر، والسلف الذين اقتصروا على التفاسير المأثورة كابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما لكان وجيهًا، وعلى هذا فتأخيره وحكايته بقيل غير مناسب، وعلى كل حال فالكلام لا يخلو من الكدر.

(**وأصله ضم العين من العمر، ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال**) قال ابن مالك رحمه اللّه تعالى فى باب المبتدأ والخبر: يحذف الخبر وجوبًا إذا كان المبتدأ صريحًا فى القسم،

ومثلوا لـه بقولهـم: لعمـرك لأفعلـن كـذا، أى: لعمـرك قسـمى أو مـا أقسـم بـه، وقـال الدمامينى فى شرح التسهيل: جواب القسم ساد مسد الخبر، والعمـر والعمر بمعنى ولا يستعمل مع اللام إلا المفتـوح، لأن القسـم موضـع التخفيـف لكثرة استعماله، واحـترز بالصريح عن نحو عهد اللّه فيجوز حذف خـبره وإثباتـه؛ لأنـه غـير صريـح فـى القسـم، واستشكله شيخنا ابن قاسم بأن الفقهاء صرحوا بأن كل منهما كناية لا تنعقد به اليمين إلا بالنية، وقالوا: المراد بالعمر البقاء والحياة، وأجاب بأن المـراد بصراحـة الأول إشـعاره بالحلف مطلقًا فى استعمالهم، وأرادوا بنفى كونه يمينًا أنه لا يعتد بـه شـرعًا، وقـالوا فـى باب القسم: يقال: عمرك اللّه بنصب عمر ويجوز فى اللّه النصب والرفع، وعمر مصدره محذوف الزوائد؛ لأن فعله عمـر بالتشـديد، ويقـال: عمرتـك فـى القسـم أيضًـا ومعنـاه ذكرتك باللّه أو عمرت قلبك بذكره، قال الشاعر(١):

أيـــهـا المنكح الثـريا سـهيـلا عمرك الـلّـه كـيـف يلتـقيـان

وفيه كلام فى شروح الكشاف لا يسعه هذا المقام، وقال السيوطى فى مختصر نهايـة ابن الاثير المسمى بالدر النثير: فى الحديث «خرجوا أعمارًا» أى معتمرين جمع عـامر مـن عمر بمعنى اعتمر، وإن لم يسمع فلعل غيرنا سمعه، قال الزمخشرى: وعَمرك اللّه أى أسأله أن يطيل عمرك، والعمر بالفتح العَمر، ولا يقال فى القسم إلا بالفتح ولعَمر إلهـك قسـم ببقاء اللّه ودوامه. انتهى.

وفى شرح الصفوى: قال فى المواهب: إنه قسم عند الحنفيـة والمالكيـة، وكنايـة عنـد الشافعية واللام لتأكيد القسم وأنهم جوابه، ووقع فى بعض النسـخ بفتـح العـين وجعـل الضم أصلاً لم يذكره أهل اللغة، لكن فى تفسير القاضى أن الفتـح لغـة فـى الضـم وهـو يشعر بما ذكره المصنف انتهى ملخصًا. ومثله فى شرح التجانى، وقال: إن المصنف رحمه اللّه تعالى لم يحقق هذا الموضع، وفى التقريب فى شـرح الغريـب العمـر بضـم وبضمتـين الحياة وهو يشعر بعكسه.

أقول: هذا ما قاله الشراح برمته، وهو لم يصف من الكدر، وتحقيق هـذا المقـام علـى وجه ينفض عنه غبـار الأوهـام، أن العمـر بـالفتح مصـدر عمـر المشـدد وأصلـه التعمـير فحذفت زوائده، وله معنايان تعمير اللّه إياك، أوقلبك وهو على هذا صفـة مـن صفـات اللّه، فيصح القسم به حقيقة، وهذا ما جنح له ساداتنا الحنفية والنحاة.

والعُمر بضم العين مخصوص بالإنسان، وهو مدة وجوده فى الدنيا فلا يصح القسم به

---

(١) البيت من الخفيف، وهو بلا نسبة فى تاج العروس (٤٤٦/١).

شرعًا، لكن اللّه له أن يقسم بما شاء كقولـه تعـالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى:١، ٢] فالضم أصل فى المعنى لاختصاصه به فى غير القسم، فإذا أريد بالمفتوح هذا لا بأس أن يقال: إنه من قبيل معناه أو معدول به عنـه، ويؤيـده مـا فـى شـرح أدب الكاتب للإقليلى أنه سمع نادرًا لعُمرك بضم العين، وإذا لم يرد هذا المعنى فى قسم الناس، صح أن يقال إنه كناية لتوقفه على النية كالمشترك، وأما العرب فيقسمون بمـا أرادوا فـلا منافاة بين ما ذكره النحاة وما ذكره الفقهاء، ولا حاجة لما قاله شيخنا مع ما فى قوله لا يعتد به شرعا من الوهم، وبهذا اتضح ما قاله القاضى.

(ومعناه: وبقائك يا محمد، وقيل: وعيشك، وقيـل: وحيـاتك) البقـاء جملـة حياتـه فـى الدنيا وتمام عمره، والحياة أعم منه لصدقها على البعض والكل، فالمغايرة بينـهما ظـاهرة، والعيش له معان فى اللغة منها الحياة، فإن فسر به هنا كانت المغايرة بينه وبـين مـا بعـده لفظية، ولذا فسره التلمسانى به هنا لئلا يتكرر مع ما بعده، وقيـل: إنـه بعيـد ولـو فسـر بالمعيشة فى دنياه، وجعل عبـارة عـن الزهـد والتقشـف لم يبعـد، وقيـل: المـراد معيشـته الواسعة: الفائضة على غيره فهو عبارة عن سخائه وجوده، وهذه التفاسير كلـها مـأثورة عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما من طرق مختلفة، ونقل الأخفش معنى آخـر وهـو: وحقك على أمتك، قيل: وعرض لوط صلى اللّه تعالى عليه وسلم بناته، إنمـا هـو إشـارة إلى نساء أمته لأنه كالأب لهم، أى إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فعليكم بالحلال، ولـو حمل على ظاهره من تزوجهم بناته لا مانع منه، وقيل: المـراد دوام أبـد الآبـاد معـه كمـا قيل:

وإنمـا الـمـرء حـديـث بعـده   فكن حديثًا حسنًا لـمـن وعـى

وهو بعيد، ومن الغريب ما نقل عن مجاهد أن المعنى: لعمرك مـن قولهـم لعمـر اللّـه، أى بعبده والمعانى التى ذكرها حقيقة لتصريح أهل اللغة بـها فـلا وجـه لدعـوى التجـوز فيها.

(وهذه نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف) تأنيث الإشارة لأنها للكلمة المقسم بها أو باعتبار الخبر، وإنما كان كذلك لأن العظيم إذا قال لأحد عبيده وحيـاتك كـان ملاطفـة وتكريمًا، فكيف برب الأرباب فى مثل هذا الكتاب، وقيـل: وجـه كونـه نهايـة التعظيـم كون ربه أقسم به، وقيل: إنه فى خصوص القسم بالحيـاة؛ لأنـه فـى العـرف يـدل علـى كمال الألفة والمحبة كما يشهد به الذوق والطبع السليم فتأمله.

(قال ابن عباس رضى اللّه عنهما: ما خلق اللّه وما ذرأ وبرأ أنفسًا أكرم عليه من محمد صلى اللّه تعالى عليه وسـلم): الخلـق الإيجـاد، وذرأ وبـرأ بـالهمزة فيـهما وإن كـان معنـاه

فيكون ذكرها للتوكيد، وقد يفرق بينهما بالاعتبار، بأن يكون ذرأ من الذرية وبرأ بمعنى صور، أى: لم يوجد أحدًا أشرف منه ذاتًا ونسبًا وصورة أكرم من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد عرفت فيما سبق أن مثل هذه العبارة يفيد أنه ليس أحد أفضل منه ولا مساويًا له وقد حققناه قبل هذا، ودخل فيه الملائكة عليهم الصلاة والسلام مطلقًا، حتى خواصهم كجبريل عليه الصلاة والسلام بناء على المذهب الحق أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل منهم، ولا عبرة بمن اختار خلافه كالزمخشرى وغيره من المعتزلة.

وقد سئل بعض البصريين عمن يقول بتفضيل الملائكة على البشر على الإطلاق هل يفسق بذلك؟ فأجاب: إن عنى هذا القائل بالإطلاق دخول المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك، فهذا أمر فوق الفسق لمخالفته للإجماع، وإن عنى من عداه صلى الله تعالى عليه وسلم فالخلاف فيه مشهور والإمساك أسلم، كما قال الشافعى رضى الله تعالى عنه لما سئل عن مثل ذلك: كنا نتكلم فى فضول الأصول فصرنا نتكلم فى أصول الفضول، فقيل له: أجزم بالصواب من الجواب؟ فقال: هذا عار عظيم المصارع يخشى على قناعه من المقارع والمسئلة طويلة الذيل.

وما وقع من صاحب الكشاف فى سورة التكوير، من تفضيل جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام فهو خرق لإجماع من يعتد بإجماعه، وقد تصدى للرد عليه فيه ابن خليل السكونى وغير واحد فليحذر كلامه، أعنى الكشاف، كم له من أمثال هذا بما يخالف السنن القويم.انتهى. وسيجىء تحقيقه، إلا أن بعض الشراح تعقبه المصنف بأنه لو قال: روحا أى: ذا روح، كأن أصرح فى تفضيله على الملائكة عليهم الصلاة والسلام، أى لأن النفس ربما يقال إنها لا تطلق عليهم لتفسير بعض أهل اللغة لها بالجسد، وإن جاز تفسيرها بالروح فإنه أحد معانيها، وعلى هذا يتجوز أو يقدر فى قوله من محمد من نفس محمد كما قيل.

(وما سمعت اللّه تعالى) قيل: المراد ما علمت من أطلا السبب على مسببه إذ السماع قد يفيد العلم، وقيل: إنه هنا من النواسخ الداخلة على المبتدأ والخبر، على أن المفعول الأول مصدر الخبر المضاف إلى المبتدأ، وإليه ذهب الرضى وغيره فى فعل السماع الداخل على الذوات، كسمعت زيدًا يقول: كذا بشرط كون الخبر مما يسمع، والتقدير ما سمعت إقسام اللّه تعالى، لا من نبى ولا من كتاب يتلى، وقصره على الثانى قصور والجملة مبنية للمقدر، وفيه أنهم شرطوا فيه أن يكون السماع بغير واسطة كما صرح به فى حواشى المطول، وفيه كلام فصلناه فى طراز المجالس.

(أقسم بحياة أحد غير محمد صلى الله تعالى عليه وسلم) وفى بعض النسخ غيره، وبعد

ما ذكر هذا ابن عباس رضى الله تعالى عنهما تلى الآية لعَمـرك إلى آخره، وكلمة غير مجرورة صفة أحد أو بدل منه إلا على هذا، كما قيل: لا يفيد أنه أقسم بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنما يفيد أنه لم يقسم بغيره، ولذا تلى الآية ليستفاد منها المعنيان معًا بخلاف ما لو نصب على الاستثناء فإنه يفيدهما صراحة ولا وجه له، فإنه يفيدهما على الوجهين بقرينة السياق كما مر فى قوله: ما خلق نفسًا أكرم من محمد، وأما أحد فقال شراح الكشاف فى قوله تعالى: ﴿نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]: أنه يستوى فيه المفرد والجمع والمذكر والمؤنث، وهو فى حيز النفى يعم القليل والكثير مجتمعًا ومنفردًا بخلاف الواحد، فإنه يقال: ما فى الدار واحد بل اثنان، ولا يقال مثله فى أحد، وذكره التفتازانى وقال: معناه ما ذكره أهل اللغة من أن أحدًا اسم لمن يصلح أن يخاطب، فيستوى فيه الواحد المذكر وغيره، فإذا أضيف إليه بين وأعيد إليه ضمير جمع ونحوه، فالمراد به جمع من الجنس الذى يدل عليه الكلام، فمعنى لا نفرق بين أحد: لا نفرق بين جميع الرسل، ومعنى فما منكم من أحد: ما منكم من جماعة، وكثير من الناس يسهو فيزعم أن معنى ذلك أن نكرة وقعت فى سياق النفى فعمت، فكانت بهذا الاعتبار فى معنى الجمع كسائر النكرات، وفى التلويح نقلاً عن النحاة: إنك إذا قلت: خذ أحد هذين فألفه منقلبة عن واو، ولا يجوز استعماله فى الإثبات، وإذا قلت: ما جاءنى أحد فألفه ليست فألفه منقلبة عن واو ويستعمل فى الإثبات، وهذا مشكل لأن اللفظين صورتهما واحدة، ومعنى الوحدة موجود فيهما والواو فيها أصلية فيلزم قطعًا انقلاب الألف عنها فيهما، وإذا كانا مشتقين من الوحدة، وأما جعل أحدهما مشتقًا منها دون الآخر، فترجيح من غير مرجح، ولم أر من تعرض لهذا، حتى رأيت العلامة القرافى فى كتابة «العقد المنظوم فى ألفاظ العموم» أجاب عنه بأن أحدًا الذى لا يستعمل إلا فى النفى، معناه إنسان بإجماع أهل اللغة، وأحد الذى يستعمل فى الإثبات معناه الفرد من العدد، وإذا كان مسمى أحد اللفظين غير مسمى الآخر غايره فى الإشفاق، فإنه مناسبة بين اللفظين فى الحروف والمعنى ولا يكفى فيه أحدهما، فعلم من هذا أن أحدًا الذى لا يستعمل إلا فى النفى ما هو واحد المستعمل فى النفى والإثبات، فإن كان المقصود منه إنسانًا فهو الأول، وألفه ليست منقلبة عن واو، وإن كان المقصود منه نصف الاثنين فهو الصالح للنفى والإثبات وألفه أصلية .انتهى. وفيه بحث، وقد أشار إلى هذا هنا بعض الشراح ولم يهذبه.

(**وقال أبو الجوزاء**) بفتح الجيم وواو ساكنة وزاى معجمة يليها المد، ولهم أبو الجوزاء **أيضًا غير** هذا، وأبو الحوراء بمهملتين راوى حديث القنوت، وهذا اسمه أوس ابن عبد

اللّه الرابعى البصرى يروى من عائشة رضى اللّه عنها، وصفوان بن عسال رضى اللّه تعالى عنه وغيرهما، وهو ثقة كما قاله الحاكم، وأخرج له الستة، وتوفى سنة ثلاث وثمانين مقتولاً فى الجماجم.

(ما أقسم اللّه تعالى بحياة أحد غير محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه أكرم البرية عنده): صلى الله تعالى عليه وسلم، قيل: غير هنا منصوب على الاستثناء، وقد سمعته آنفا مع ماله وعليه، وقد مر أيضًا أن عند ظرف مكان فلا يضاف إليه تعالى حقيقة، وورد فى القرآن لمعان منها الحلم والعلم كما فى آية الإفك، فى قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥] وقد يراد بها القرب ورفعة المرتبة، وهو يكون بالثواب على أنواعه، ويصح إرادة كل منها هنا، والبرية الخليقة من برأ النسمة فيجوز همزه وتخفيفه، والثانى أفصح وأكثر وهو يدل على أنه غير معتل من البرى بمعنى التراب، كما ذهب إليه بعض أهل اللغة، ثم إنه قيل: إن الأكرامية لا تقتضى حصر القسم فيه دون غيره، ولا قصرها على حياته دون ذاته، فالتعليل غير تام إلا أن يقال عادة العرب لمن أحبوه وعظموه أن يقسموا بحياته دون ذاته، فإن القسم بالذات إنما يقتضى العظمة والشرف، ولا يلزم من التعظيم القسم ولا التخصيص به، فإن القسم مطلقًا قد يتعدد القسم به وقد يقسم بفاضل مع وجود الأفضل، وكون الأكرمية تقتضى التخصيص ببعض الأمور، فلذا خص بما ذكر؛ لأنها تقتضى هذا بخصوصه لا يخفى ما فيه.

أقول: هذا كله من التعسفات التى لا حاجة إليها. فإن فيما ذكر تكريمًا وتعظيمًا خصه اللّه به على ما اختاره المصنف رحمه الله تعالى، فلا يحتاج إلى إقامة برهان منطقى عليه وكله من ضيق العطن، وإنما تعرضت له لئلا يظن أن فى السويداء رجال، وأكرم من الكرم، وهى صفة جامعة لكل خير، ويقال: هذا تكرم على أى عزيز عظيم فى قلبى ونظرى، وهو فى العرف يختص بالجود وليس بمراد هنا لا بمعنى أنه أكثر جامعية لكل خير عنده.

(وقال اللّه تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ الآيات [يس: ١، ٢]) لم يصرح ببقية الآيات لأنها ليست مما نحن فيه، بل بإعتبار المقسم عليه من الفصل التالى، ولم يذكرها هناك اكتفاء بما ذكره هنا، وتفننا فى التصريح ببعض المقاصد والتلويح لبعضها، والتفنن فى التعبير فن من فنون البلاغة، وسيأتى فى أسمائه صلى الله تعالى عليه وسلم ما يتعلق بيس.

(اختلف المفسرون فى معنى يس على أقوال، فحكى أبو محمد مكى) رحمه اللّه تعالى

تقدم الكلام فى ترجمته، والأقوال فيه كثيرة، حكى منها بعض الشراح ستة وهى أن معناه يا سيد، أو يا إنسان فى لغة طى كما يأتى، أو هو اسم من أسماء اللّه تعالى لأنه السيد الحقيقى، أو يا محمد أو يا رجل، أو هو اسم من أسماء القرآن كله، أو سورة منه وما عدا الأخير فى كلام المصنف رحمه اللّه تعالى، وفيه قراءات فتح الياء وكسر النون وفتحها وكسر الياء، وإظهار النون، وهل هو معرب أو مبنى؟ وجهان أيضًا، ومعنى الحكيم ذو الحكمة أو الحكيم صاحبه أو المحكم.

(أنه روى) بصيغة المجهول، وفى شرح الشيخ قاسم أنه أخرجه ابن عدى فى «الكامل» من حديث على وجابر وأسامة بن زيد وابن عباس وعائشة رضى اللّه تعالى عنهم، وفى سنده مقال. وقال السيوطى: إنه رواه أبو نعيم وابن مردويه بإسناد فيه أبو يحيى الوضاع وسيف بن وهب وهو ضعيف، ولكن سيأتى عن قتادة مرفوعًا، وتعدد طرقه قد يجبر ضعفه وليس مما يتعلق بالأحكام.

(عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «لى عند ربى عشرة أسماء») تقدم أن عند اللّه بمعنى فى علمه، فالمعنى أنه هو الذى سماه به لاعتنائه به وتكريمه، ولذا قال: «ربى» دون اللّه والعدد لا مفهوم له فلا ينافى الزيادة وإليه أشار بقوله.

(ذكر أن منها طه ويس) وورد تسميته بهما فى لسان العرب كقول الشريف الحميرى:

يا نفس لا تمحصى بالنصح جاهدة ... على المودة إلا آل ياسينا

أى إلا آل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وزاد قوله: «ذكر» إما لأن فى الحديث زيادة على ما ذكر، أو لأنه لم يحفظ لفظه بعينه، وطه قيل معناه: يا رجل، وقيل: أصله طأها أى الأرض وسيأتى الكلام عليه.

(اسمان له) أى هما اسمان له صلى الله تعالى عليه وسلم بحذف حرف النداء أو القسم، ويجوز على بعد أن يكون خبر إن.

(وحكى أبو عبد الرحمن السلمى عن جعفر الصادق أنه أراد يا سيد) فيه إطلاق السيد على غير اللّه، وقد قيل بامتناعه لحديث رواه البيهقى مسندًا فى كتاب «الصفات» عن مطرف قال: انطلقت فى وفد بنى عامر إلى رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم فقلنا: أنت سيدنا، فقال: السيد اللّه إلى آخره، وتحقيقه أن فيه للسلف أربعة أقوال:

الأول: وهو الصحيح أنه يجوز إطلاقه على اللّه وعلى غيره مطلقًا، فإذا أطلق على **اللّه فمعناه العظيم المحتاج إليه** وفى غيره بمعنى الرئيس المتبع وله شواهد فى الكتاب

والسنة وكلام العرب.

الثانى: وهو منقوله رحمه اللّه تعالى أنه لا يطلق إلا على غير اللّه إذ لم يثبت إطلاقه عليه فى الأحاديث المشهورة، ولأنه من السؤدد وهو الرياسة على قومه وفخره، ولذا لما أطلق على اللّه فسروه بغير هذا كما مر.

الثالث: أنه مختص باللّه؛ لأن معناه المحتاج إليه المتصرف على الإطلاق، وهذا لا يليق بغيره تعالى.

الرابع: التفصيل فى المعرف بأل فيختص باللّه، وغيره يجوز إطلاقه عليه وعلى غيره.

فإن قلت: ما تصنع بالحديث وهو قوله عليه السلام: «السيد هو اللّه» المفيد للحصر بتعريف الطرفين؟.

قلت: إذا ثبت وصف لشىء وأريد سلبه عن غيره حقيقة، أو ادعاء فلهم فيه طرق: **الأول**: التصريح بأداة الحصر، كقولك لا معبود إلا اللّه.

الثانى: أن يعرف الطرفان وهو فى معنى ما قبله إلا أن فيه إيماء إلى ذكاء المخاطب لإستغنائه به عن التصريح فقد يكون أبلغ من الأول.

الثالث: وهو أدق طرقه أن يجعل من أثبته الزاعم له الصفة على من هى له حقيقة، فيقال: الدهر الذى يضيف الأمور للدهر، الدهر هو اللّه أى لا تصرف لغير اللّه فى جميع الأمور سواء الدهر وما سواه.

فأثبت التصرف كله للّه ونفاه بطريق برهانى عما سواه على حد قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] وهو نوع من إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، يسمى التلوين فصله عبد القاهر فى «دلائل الإعجاز» وهو مذكور فى «الكتاب» أى كتاب سيبويه رحمه اللّه تعالى، كقولهم: «عتابه السيف» و«تحية بينهم» «ضرب وجيع» وما نحن فيه إن جرى على ظاهره فهو من هذا القبيل فلا دليل فيه، وقد مر بيانه أيضًا فاعرفه، فإنه من نفائس الذخائر المستودعة فى دفاتر الخواطر، ولنا عودة إلى ذلك فى الكلام على الأسماء الشريفة عند قوله: «سيد ولد آدم»

(مخاطبة لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم) بفتح الطاء منصوب بدل مما قبله، أو مصدر فعل مقدر، أى خاطبه به مخاطبة مخصوصة به.

(وعن ابن عباس) رضى اللّه تعالى عنهما **(يس يا إنسان أراد محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم)**: رواه ابن أبى حاتم، وعن مقاتل: إنها لغة حبشية يسمون الإنسان يس، وعن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما أنها لغة طى، فقيل: إن أصله يا أنيسين مصغرًا،

فاقتصر على بعضه لكثرة النداء به كما قاله الإمام تبعًا للزمخشرى، وتعقبه أبو حيان بأن المنقول عن العرب فى تصغير إنسان أنيسيان بياء قبل الألف، واستدل به على أن أصل إنسان إنسيان؛ لأن التصغير يرد الأشياء إلى أصولها ولم يسمع فى تصغيره أنيسين، ولو سلم تصغيره لذلك فلا بد من بنائه على الضم، مع أن التصغير أصله التحقير فيمتنع فى حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولذا لما قال ابن قتيبة فى المهيمن: إنه تصغير مؤمن وأصله مؤيمن أبدلت همزته هاء، قيل: إنه قريب من الكفر فليتق الله قائله، وأيضًا الحذف من أول المنادى غير معروف وسيأتى الكلام عليه فى فصل أسمائه صلى الله تعالى عليه وسلم.

وعلى هذا المنوال ما تقدم من أن أصله يا سيد، فإنه قيل: إنه اكتفاء ببعض الكلمة عن باقيها وهو مذهب للعرب مسموع فى كلامهم حكاه سيبويه وغيره، فيقولون: ألا تا بمعنى ألا تفعل فيقول: بلى فا أى أفعل، فيكتفون عن الكلمة ببعض حروفها، وورد فى الحديث: «كفى بالسيف شا»[1] أى شاهدًا. وقال التجانى: التحقيق أنهم يكتفون ببعض حروف الكلمة معبرين باسم بعض حروفها، كقولهم: قلت لها قفى فقالت قاف، أى: وقفت، فيحتمل ياسين أن يكون عبر عنه باسمين من أسماء حروفه لا بمسماه كما قاله الرازى، وإن كانت العرب قد تكتفى ببعض الكلمة كقوله:

كانت مناها بأرض لا تبلغها لصاحب الهم إلا الناقة الأحد

أى مناياها، وقوله:

درس المنا بمتالع فأبان

أى المنازل وله نظائر كثيرة.

أقول: هذا محصل ما قالوه هنا. وقال الأدباء كما نقله النواجى فى كتاب «الشفاء فى بديع الاكتفاء»: إن الاكتفاء كما قال علماء البديع أن يدل موجود الكلام على محذوفه، وهذا الحد صادق على نحو واسئل القرية على أحد القولين فيه، ثم قسمه إلى الاكتفاء بكلمة كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل:٨١] أى والبرد إلى الاكتفاء ببعض الكلمة، قال: وهذا النوع مما اخترعه بعض المتأخرين من أصحاب البديع، وأكثر منه الشعراء المتأخرون والتزموا فيه التورية، كقول الدمامينى رحمه الله تعالى:

يقول مصاحبى والروض زاه وقد بسط الربيع بساط زهر

(١) أخرجه أبو داود (٤٤١٧)، وابن ماجه (٢٦٠٦)، وعبد الرزاق (١٧٩١٨).

تعالى نباكر الروض المغدى وقم نسعى إلى ورد ونسرين

وقول ابن حجر رحمه اللّه تعالى:

دع يا عذر لى رقى الملام فمذ سرى عنى الحبيب فليت دام له البقاء

والطرف مذ فقد الرقاد بكى بما يحكى الغمام فليس يهدى بالرقا

وأمثاله مما لا يحصى وفيه إشكال، لأن النحاة اتفقوا على أنه لا يجوز الترخيم فى غير المنادى بشروطه المذكورة فى بابه، فيكون هذا وأمثاله مخلا بالفصاحة لمخالفته القياس، فكيف يجوز أن يعد هذا من المحسنات البديعية التى إنما تستحسن بعد الفصاحة؟ وكيف يجوز أن يخرج على مثله القرآن الكريم وإن كان فيه تورية؛ لأنها لا يجوز مثله اللهم إلا أن يقولوا إنه مقيس يغتفر فى الشعر، وما وقع فى القرآن ليس منه، بل هو من ذكر اسم حرف من كلمة إيماء إلى بقيتها وليس من قبيل الترخيم، وهو الذى أشار إليه المفسرون فانظره، فإنه مما حاك فى صدرى و لم أر من تعرض له، وفى كلام التجانى الذى مر آنفًا إشارة ما إليه وإن لم يفصح به.

(وقيل: هو قسم وهو من أسماء اللّه تعالى) قال السيوطى رحمه اللّه تعالى: أخرجه ابن جرير، وحرف القسم مقدر معه والقسم بمعنى المقسم به.

(وقال الزجاج) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد، شيخ العربية، الإمام فى الأدب، صاحب التصانيف الجليلة وتفسيره مشهور، وكان متينا فى الدين، توفى ببغداد سنة ست أو إحدى عشرة وثلاث مائة وقد بلغ سنه الثمانين، وإليه ينسب الزجاجى صاحب الجمل.

(قيل: معناه يا محمد، وقيل: يا رجل،وقيل: يا إنسان) فسين أو يسين علم له، والمراد بالرجل والإنسان محمد صلى اللّه تعالى عليه وسلم أيضًا، وأما إرادة النوع وأنك التفات كما قيل فبعيد لا ينبغى حمل التنزيل على مثله وتقدير يا، وجعل العلم مجموع يس لاشتهار علميته لا يرد عليه أنه شاذ، كقولهم أصبح ليل كما قيل، لأنا نحمل جعله بمعنى إنسان ورجل فى أصل وضعه، ثم نقل وجعل علمًا، أو نقول: هو بالغلبة التقديرية فلا يحتاج إلى أن يقال: إن بعض هذه المعانى تقدم وإنما أعيدت هنا تتميمًا لكلام الزجاج.

(وقال ابن الحنفية) رواه البيهقى فى دلائل النبوة. وابن الحنفية هو أبو عبد اللّه محمد ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى اللّه تعالى عنه، والحنفية أمه، واشتهر بنسبته إليها تمييزًا عن السبطين رضى اللّه تعالى عنهما، وهو إمام عظيم أخرج له الشيخان وغيرهما، ولد لسنتين بقيا من خلافة عمر رضى اللّه تعالى عنه، وتوفى بالمدينة فى سنة

ثمانين على الأشهر، وفيه أقوال أخر فصلها البرهان فى المقتفى وترجمته مفصلة فى التواريخ، وهو من كبار التابعين رضى اللّه تعالى عنهم.

(**يس يا محمد**) أى: معناه هذا؛ لأنه وضع له ابتداء أو بواسطة كما مر، وإنما ذكره وإن تقدم لبيان قائله وتعدد طرقه.

(**وعن كعب الأحبار**) تقدم الكلام عليه (**يس قسم**) أى: مقسم به أو جعله قسمًا لتضمنه له أو مبالغة.

(**أقسم اللّه به قبل أن يخلق السماء والأرض بألفى عام**) لم يبين المقسم به ففيه الاحتمالات السالفة، وفى المواهب فى نقل كلام ابن الحنفية: أقسم اللّه باسمه وكتابه وفيه فائدة ستراها، والعام والسنة متقاربان معنى، وللسهيلى رحمه اللّه تعالى كلام فى الفرق بينهما، والمراد بمقدار ألفى عام وإلا فقبلهما لا تتحقق السنين والأعوام؛ لأن الزمان مقدار حركه الفلك، أو المراد مجرد الكثرة أو عدم النهاية مجازًا فلا يقتضى الحصر وينافى الزيادة، قيل: ولو سلم أن الزمان مقدار حركة الفلك لايرد هذا؛ لأن الفلك الأعظم العرش وهو مخلوق قبل السماء والأرض لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] كما قال زين العرب فى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «كتب اللّه تعالى مقادير الخلائق كلها قبل أن يخلق السماء والأرض بخمسين ألف سنة» وفيه نظر، ثم إنه قيل إنه مشكل أيضًا، لأن كلام اللّه تعالى قديم فلا قبلية فيه ولا بعدية وخلقهما محدث.

وأجيب بأن المراد أبرزه فى أم الكتاب أو اللوح المحفوظ المكتوب فيه جميع الكائنات، و لم يرتضه التجانى فقال: الأولى أن يضعف مثل هذه الروايات ما أمكن، فإن صحت ترك علمها إلى اللّه تعالى إذ مثله لا يقال بالرأى ولا يدرك بالاجتهاد، وقيل: القبلية المذكورة متعلقة بالإقسام وليس المراد معناه النفسى القديم، بل إحداث ما يدل عليه عند الأشعرية وتعلقه بأسماعه، وعروض إضافة مخصوصة بلا واسطة معتادة، وهذا التعلق حادث قبل خلقهما ولا محذور فيه، غير كون الزمان موجودًا قبل خلقهما وقد عرفت اندفاعه، وكون التعلق حادث ارتضاه بعض أئمتنا كالنسفى، ومن لم يقل به يدخل من باب التأويل وهو واسع مع أن منهم من جوز تعلق الكلام الأزلى بالمعدوم والذى سيوجد، فلا ينافى الإقسام به أزليته، ألا ترى إلى قولك الزمان الماضى قبل المستقبل، حيث يقصد مجرد بيان تقدمه لا يخطر ببالك أن للزمان زمان أو ظرفية لنفسه.

أقول: مثل هذا ورد فى الحديث وهو كثير، فالطعن فيه لا يليق، ولابد من تأويله

وهو ظاهر، لأن المراد أنه أطلع عليه ملائكته عليهم الصلاة والسلام قبلهما بهذا المقدار أو قديما، وهو المناسب هنا لإفادته إظهار عظم قدره فى الملأ الأعلى ومجرد تقدم العرش لا يقتضى الزمان بالمعنى المتعارف فتدبر.

(**يا محمد إنك لمن المرسلين**): ليس قوله يا محمد تفسيرًا ليسين؛ لأنه غير مناسب لما سبق له الكلام، من أن الله أقسم به ولذا ذكر أنك لمن المرسلين الذى هو جواب القسم توضيحًا لمراده، بل هو بيان للمخاطب، وليس مراده أنه جواب مقدر للقسم بيسين حتى يلزم عليه إجتماع قسمين من غير عطف على جواب، وهو مما أباه النحاة كما صرح به فى الكشاف، وقال: إن العرب تكرهه وبينة الذوق لا تسمع إلا مع شاهد فالقسم واحد والواو عاطفة لا قسمية، وقد خطر لى توجيهه بأن القسم جملة فإذا تعدد كان بين الجملتين مناسبة تامة، لأن كلا منهما قسم يقسم به على شىء واحد فيقتضى العطف، واجتماع واوين وهوثقيل أو حذف أحدهما وفيه لبس، وترك المصنف رحمه الله تعالى بقية التفاسير ككونه اسم السورة؛ لأنه ليس بما هو فيه، وجوز بعضهم أن يكون إشارة إلى جواز تعدد القسم لزيادة التعظيم والتأكيد، وهو مخالف لما قالوه.

(**ثم قال**: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾) [يس: ٢، ٣] هذا من كلام المصنف رحمه الله تعالى، أى: قال يس والقرآن إلى آخره، وما قيل من أنه تنبيه على أن هذا قسم مستقل والمذكور جوابه، وجواب الأول مقدر وهو مراد كعب أيضًا، وإن خالف كلام النحاة لا وجه له.

(**فإن قدر**) بكسر الدال المهملة المشددة أى: إن قيل بهذا، وعبر به لأنه فيه وجوهًا أخر (**أنه**) الضمير ليسين والفاء فصيحة، أى: إذا عرفت ما مر فإن قدر إلى آخره أنه (**من أسمائه صلى الله تعالى عليه وسلم وصح أنه قسم**) كما سمعته عن كعب ومكى، وصح بمعنى ثبت أو أريد به ذلك فى نفس الأمر لاحتماله عقلاً. وإن فى قوله: «فإن قدر» ليس للشك بل هى شرطية وجوابها قوله: (**كان فيه**) أى فى القسم، وقيل: فى يس، وقيل: فى التخصيص، ورد بأنه لا تخصيص فيه إلا أن يريد التخصيص بالذكر.

(**من التعظيم ما تقدم**) من القسم بقوله: «لعَمرك» وأورد عليه أن القسم بالحياة فيه من التعظيم ما مر، ولذا أقسم الله بذات غيره ولم يقسم بحياته، فالمراد ما تقدم من التعظيم العظيم، وكأنه نسى قوله قبل هذا بأسطر، أن كل أحد يحلف بالعظيم عنده، وعلى هذا فهو منصوب بنزع الخافض لا إنه فى محل الجر، لأنه لم يرد فى غير لفظة الله إلا شذوذًا وفيه بحث.

(ويؤكد فيه القسم عطف القسم الآخر عليه) عطف مرفوع فاعل يؤكد، والقسم منصوب على إنه مفعول مقدم، والقسم بمعنى الإقسام وضمير فيه ليسين أو للنظم، فالمعنى مظروف فى اللفظ والآخر بالمد وفتح الخاء وكسرها كما قاله البرهان الحلبى، وفى شرح الصفوى: المعنى أنه ذكر بعده مقسمًا به بالواو، والمتبادر منه العطف، ويسين إذا كان مقسما به فهو معطوف على مثله، وإلا لم تكن الواو عاطفة ولا القسم تلو مثله، أو كان المقسم به عطفًا على غيره والأول أحسن وأنسب، وفى العبارة مؤاخذات؛ لأن عطف قسم ثان على الأول مثله مبنى على أن يسين قسم، فكيف يؤيده مع أنه مقسم به لا قسم، فالوجه أن تقول يؤكد ذكر المقسم به الآخر وعطفه عليه لو كان قسمًا، وذلك العطف أولى فكذا تسميته.

أقول: هذا مما لا ينبغى أن يصدر من مثله؛ لأن كون القسم بمعنى القسم به ظاهر فاعتراضه ساقط، وعطف القسم على المنادى الذى زعم أنه حسن باطل، وتعين قسمية الثانى لجره، فإن كانت الواو عاطفة وقد فرض قسمية الأول أيضًا كان مؤكدًا له، فلا معنى لما اعترض به، وتوضيحه أن المصنف رحمه اللّٰه تعالى لما نقل أن يس بمعنى محمد، أتبعه بيانه على وجه اختيار العطف لمزيته فقدمه، والمعترض توهم أن قوله: «ويؤكد» إلى آخره استدلال على القسمية بالعطف والتأكيد، وهما إنما يتحققان إذا كان قسمًا، والاستدلال على الشىء بما يتوقف وجوده عليه فاسد فقال ما قال، وكم له مثل هذه مما قرعت له العصا فيه، ومما يدلك على ما قلته قوله:

(وإن كان بمعنى النداء فقد جاء قسم آخر بعده لتحقيق رسالته، والشهادة بهدايته) أى: إن كان يسين متلبسًا بمعنى النداء وهو منادى بتقدير يا أو بدون تقدير كما مر، وفيه، أى فى الكلام، قسم آخر بالقرآن المنزل عليه، فلا يكون مما نحن فيه بل مما يتعلق بالفصل الخامس، لكنه مناسب لما هنا لما اشتمل عليه من تعظيمه وتحقيق ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٣] والشهادة بهدايته فى نفسه وغيره بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يس: ٤] فالمقسم عليه رسالته وتحققها الدال عليه أن، واللام والجملة الأسمية؛ لأنه بمعنى رسالته المحققة والقسم المؤكد لها، ثم استأنف لتوضيح معنى الرسالة والطريق المستقيم، فقال مبينًا له على هذا الوجه وهو كون يس قسمًا.

(أقسم اللّٰه تعالى باسمه) أى أقسم الله قسمًا متلبسًا باسمه، وهو يس العلم الدال على ذاته ولا بعد فيه كما قيل، لأن الظاهر أن يقول: أقسم به أو بذاته كما يقال: واللّٰه والجزم بالقسم باسمه وهو يسين العلم الدال على ذاته إنما يتمشى إذا كان لفظ الاسم مقحمًا، أو المراد ما يراد اسمه وهو بعيد انتهى.

وقوله: **(وكتابه)** بالجر عطف على اسمه لا على الضمير المجرور من غير إعادة الجار، لما فيه من مخالفة الأفصح، والاحتياج إلى التأويل والقسم بكتابه متعين، وأما بذاته فعلى الأرجح عنده كما سمعته آنفًا، والضمير أن للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا لله، لما فيه من مخالفة الظاهر وانتشار الضمائر، وعلى النداء لا ينافى ما مر من إنه لم يناده باسمه كما مر فتذكره.

(إنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده) بكسر إن لتقدير القول، والحكاية بالمعنى أى قائلا إنه إلى آخره، ولذا لم يقل إنك والإرسال بمعناه اللغوى، ولذا ذكر الوحى بعده لتخصيصه أو بمعناه الشرعى على التجريد، ومجرد ملاحظة الثانى لا يكفى كما قيل.

(وعلى طريق مستقيم من إيمانه) بيان للطريق، وأن المراد بها التوحيد أو هى تعليلية وزاد الواو إشارة إلى أنه خبر ثان مقصود مقسم عليه لا متعلق بالمرسلين، أى ممن أرسل على هذه الطريقة، فالقسم على أمرين كما قال قبله: إن الإرسال على أمرين رسالته والشهادة بهدايته لا لأمر واحد، وهو أنه صلى الله تعالى عليه وسلم رسول مهدى على طريقة مستقيمة ولا حال كما قيل، لأنه قريب من هذا وإن كان جعله قيدًا لا ينافى القصد؛ لأن هذا واضح وأتم فى المدح.

(أى طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق) أى بفتح الهمزة وسكون الياء المخففة مفسرة للطريق المستقيم، وهذا أعم من الإيمان فهو تفسير ثان على الأول، وتشديد الياء على أن المعنى طريق وأى طريق؛ لأنه لا اعوجاج فيه ولا عدول إلى آخره تفسير لعدم الاعوجاج مخالف للرواية وللظاهر وإن جاز، وقد تذكرت هنا قولى:

من أحسن العشرة فليلتزم   سماحة النفس وترك اللجاج
ويستر المعوج من خلقهم   أى طريق ليس فيه اعوجاج

(قال النقاش) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن أحمد الموصلى البغدادى المقرى المفسر، روى عن أبى مسلم الكجى وطبقته، وقرأ بالروايات حتى صار شيخ المقرئين فى عصره على ضعف فيه، وقيل: إنه كان يكذب فى الحديث فلذا قالوا: إن روايته منكرة، وتفسيره ليس فيه شفاء للصدور، والغالب عليه القصص، إلا أن أبا عمرو الدانى أثنى عليه وروى عنه حكاية تقتضى رده، وفى حاشية التلمسانى أنه مغربى توفى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، وله ترجمة فى الميزان وطبقات القراء، وقال أبو شامة فى شرح الشاطبية: إنه ضعيف عند أهل النقل. وقال الجعبرى رحمه اللّه تعالى: المضعف له غالط.

(لم يقسم اللّه لأحد من أنبيائه) عليهم الصلاة والسلام **(بالرسالة فى كتابه إلا له)** أى

بسبب الرسالة، أو لم يقسم على رسالة أحد غيره كما فى هذه الآية، وهذا وإن دل على غيره مرسل أيضًا، إلا أن المقسم عليه بالقصد الذاتى رسالته صلى الله تعالى عليه وسلم، وعدل إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٣] عن قول رسول اللّه أو مرسل، وهو أخصر لتثبيت رسالته وأنه عريف فيها على نهج قوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢] لأن فلانًا من العلماء أبلغ من عالم كما قرره علماء البيان وفصلناه فى غير هذا المحل، أى لم يذكر هذا القسم فى القرآن لغيره تشريفًا له صلى الله تعالى عليه وسلم وتعظيمًا له، ولشدة إنكار قومه لرسالته فلذا جاء مؤكدًا بتأكيدات.

(**وفيه من تعظيمه وتمجيده على تأويل من قال: إنه ياسيد ما فيه**) التمجيد تفعيل من المجد وهو العز والشرف، والتأويل حقيقته فى اللغة معرفة مآل الشىء وما يرجع إليه من آل، ثم شاع فى معنى التفسير مطلقًا، وقد يخص التفسير بما كان منقولا عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والصحابة رضى اللّه تعالى عنهم، والتأويل بغيره، وقد يخص بحمل الكلام على المعنى الخفى دون الظاهر.

وقال القرافى رحمه اللّه تعالى: المأول هو الكلام الذى فيه الاحتمال الخفى مع الظاهر كالحقيقة والمجاز، والعموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، وضمير فيه الأول ليسين، وقوله ما فيه إيجاز ومبالغة، أى فيه أمر عظيم لا يمكن الوقوف عليه كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١، ٢] لوصفه بالسيادة المطلقة المفيدة للعموم فى المقام الخطابى، فيفيده تفوقه على من سواه، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم واسطة كل خير، وقد تقدم الكلام فى إطلاق السيد على اللّه ومعناه ووزنه فيعل بكسر العين من السؤدد فأصله سيود، وقيل: إنه فيعل بفتح العين فغير على ما مر، وحملهم على هذا أنهم لم يجدوا فى الصحيح فيعلا بالكسر بل بالفتح كصيقل وضيغم، ولذا ذهب بعضهم إلى أن أصله فيعل، ورد بأنه لا مانع من اختصاص المعتل بوزن يخصه، ثم عقب هذا بحديث السيادة ويدل على عمومها فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم فقال:

(**وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «أنا سيد ولد آدم»**) أى جميع أولاد آدم وكل البشر، لأن الولد واحدًا وجماعة كما قاله التلمسانى، وفى نسخة: (**ولا فخر**) الفخر: ادعاء العظمة والشرف والإعلان بذكره، أى: لا أقوله تبجحًا ولا افتخارًا، بل تحديثًا بنعم اللّه وشكرًا له كما قاله ابن الاثير، وقال ابن قرقول: أى لا فخر فى الدنيا عندى، أى لا أتعظم ولا أتكبر بذلك فيها وإن كان الفخر الأكبر فى الدنيا والآخرة، فى هذا الحديث روايات منها: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة» (١) كما رواه مسلم والترمذى،

---

(١) تقدم تخريجه.

قال التجانى: فيه إشارة إلى التجاء جميع الخلائق له صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك اليوم من غير منازع كما فى الدنيا، وهو كما قال اللّه تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦].

وفيه دلالة على جواز مدح المرء نفسه إذا قصد التحدث بنعم اللّه تعالى، وقد قيل: إنه واجب عليه صلى الله تعالى عليه وسلم لتبليغ أمته ما يجب فى حقه، ولذا قال اللّه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] وهذا لا ينافى سيادته صلى الله تعالى عليه وسلم على الملائكة وما سوى اللّه تعالى، وقوله: «ولا فخر» احتراس عما يتوهم من الكبر على حد قوله(١):

فسقى ديارك غير مفسدها   صوب الحياء وديمة تهمى

وهذا مذكور على طريق الأستطراد والتتميم، ومر فى الخطبة الكلام فيه وأن الاحتراس على ثلاثة أقسام.

(وقال اللّه تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد:١، ٢]) يعنى لا نافية للقسم وإقامة الظاهر مقام المضمر، ولم يقل وأنت حل به استعظاما لحلوله فيه، والبلد مكة حرسها اللّه تعالى كما أشار إلى توضيحه بقوله: (**قيل: لا أقسم به إذا لم تكن فيه**) وروى إن لم يكن وهما بمعنى هنا أى (**بعد خروجك منه حكاه مكى**) رحمه اللّه تعالى تقدمت ترجمته، أشار إلى أن عدم القسم به لخروجه منه، ولو قال: إذا خرجت كان أوضح وأخصر، وفيه إيماء إلى أن القسم فى سورة التين بقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:٣] لكونه فيه فلا تنافى بين الآيتين إذا كانت البلد فيهما بمعنى، فإذا كان صلى الله تعالى عليه وسلم فيها فهى حقيقة بالإقسام بها؛ لأن شرف المكان بأهله: كما قيل(٢):

وما حب الديار شغفن قلبى   ولكن حب من سكن الديارا

وهو منتظم مع ما بعده من قوله: «ووالد» إلى آخره، أى لا أقسم بالبلد وأقسم بغيره، أو أقوله بغير قسم بناء على انسحاب النفى عليه، أو لا أقسم بهذا لجلالة القسم والمقسم عليه، وإن كان ما يذكر مما يقسم به لعظمته، ففيه تعظيم لما نفى القسم عنه فلا وجه لتوهم عدم الانتظام، وقدم هذا الوجه لرجحانه عنده كما ذهب إليه الإمام رحمه

(١) البيت من الكامل، وهو لطرفة بن العبد فى ديوانه (ص٨٨)، تخليص الشواهد (ص٢٣١)، الدرر (٩/٤)، معاهد التنصيص (٣٦٢/١).

(٢) البيت من الوافر، وهو للمجنون فى ديوانه (ص١٣١)، خزانة الأدب (٢٢٧/٤، ٣٨١)، وبلا نسبة فى رصف المبانى (ص١٦٩)، مغنى اللبيب (٥١٣/٢).

الله تعالى.

(وقيل: لا زائدة أى أقسم به) زيادتها نظرًا للمعنى المقصود وليست لغوًا لإفادتها تأكيد الكلام وتقويته وتحسينه، وإن كان حذفها لا يغير أصل المعنى فاندفع قول الإمام إنه مانع من الانتظام، وموهم لجعل الإثبات نفيًا، ويلزمه عدم الاعتماد على القرآن مع أن لا تأتى زائدة مع القسم كثيرًا وقد تزاد فى غيره أيضا، وذهب بعض النحاة والمفسرين إلى أنه لا يطلق على مثله أنه زائد، بل يقال: تأد بأصله وهو كلام حسن، وقيل: لا أنا فحذفوا أنا وأشبعت اللام، ويؤيده أنه رسم فى الإمام بلا ألف، وأنه قرئ شاذًا لا قسم بلام الابتداء.

(وأنت به يا محمد حلال أو حل لك ما فعلت فيه) جملة حالية وهذا مبنى **(على التفسيرين)** فى هذه الآية بالإثبات والنفى، أو فى معنى الحل أو على كليهما ليكون الكلام أفيد، وحل له معان فيكون ضد الحرمة، وبمعنى الإقامة بالمكان، والاسم منهما حل بالكسر وحلال بمعنى جائز ومقيم، وفعل يكون اسما كجذع وصفة كنقض مصدرًا كعلم، وإلى كل من المعنيين هنا ذهب بعض المفسرين، فالمعنى أقسم بهذه البلدة وأنت مقيم بها بشرفك وعظمتك عندى، أو أنى حللت لك ما لم أحل لغيرك فى هذه البلدة من القتل وغيره، وهذا إما لنسخ حرمتها أو هو خصوصيته له صلى الله تعالى عليه وسلم لقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [البقرة:١٩١] سواء حمل على ظاهره أو فسر بالحرم، وهذه الآية محكمة عند ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد، لما رواه الشيخان من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم الفتح: «إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ولم تحل لأحد قبلى ولا بعدى، وإنما أحلت لى ساعة من نهار ثم عادت حرامًا إلى يوم القيامة» وقتاله صلى الله تعالى عليه وسلم، وأمره بقتل من لجأ إلى الحرم كابن خطل من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم كما روى عن السلف، وأورد عليه الجعبرى فى كتاب «النسخ» بأن قوله: «أحلت» يدل عن الحرمة فيكون نسخًا، ولو كان لاستمر فيكون رخصة؛ لأنها استباحة مع المانع، وبه قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى، وقال قتادة والضحاك: هى منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥] وبآيات أخر فى معناها، وتمسك بفعله صلى الله تعالى عليه وسلم ولا دليل فيه لتصريحه بالتخصيص، وبه قال الشافعى. انتهى.

وفى الآية تسلية له صلى الله تعالى عليه وسلم، أى إن أخرجوك منها فستعود لها وتفعل فيها ما تريد، وتثبيت ووعد بالنصر، والأول على تقدير ثبوت القسم والثانى على انتفائه، أو كل منهما جار على التفسيرين وفيه تفاسير أخر، فقيل: المعنى وأنت

حلال أى غير محرم مقيم بها، أو المعنى يستحلون إيذائك وإخراجك منها، وهو تثبيت له منه وتعجيب مما جرى عليه، أو إشارة إلى علة عدم القسم، فاندفع الاعتراض بأن الحال يقتضى عدم القسم بعد الخروج فيتنافيان، ويجوز إجراؤه على الوجهين، وقيل: المعنى لا أقسم وأنت مستحل أو أنت حال، فإنه حينئذ ينبغى القسم لك إلا أنه لا يناسب كلام المصنف رحمه اللّه تعالى وهو أمر سهل.

وقال القسطلانى: فإن قلت: هذه السورة مكية أى على ما يأتى وأنت حل بهذا البلد إخبار عن الحال، والواقعة التى ذكرت فى آخره هجرة المدينة فكيف الجمع بين الأمرين؟ وأجيب بأنه قد يكون اللفظ للحال والمعنى مستقبلا كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] واستشكل هذا بأنه يلزمه اختلاف زمنى الحال وعاملها، إلا أن يقال الجملة معترضة لا حالية، فتتضمن وعدًا فيه مبالغة بواسطة تنزيل المستقبل المحقق منزلة الحال لا الماضى، كما يدل عليه قوله، أو حل لك ما فعلته فيه، قيل: وفيه إشارة إلى عظيم شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم بعد التنبيه على عظم مكانه دفعًا لما يتوهم من أن المكان أشرف، وأن شرفه مكتسب فيه.

(**والمراد بالبلد عند هؤلاء**) المفسرين (**مكة**) وقيل، غيرها كما سيأتى.

(**وقال الواسطى**) نسبة لواسطى مدينة مشهورة، وهو الإمام العارف باللّه تعالى أبو بكر موسى، وهو ممن صحب الجنيد، وتوفى بعد الثلاثمائة والعشرين وهو من أجلة العلماء والصوفية.

(**أى نحلف لك بهذا البلد الذى شرفته بمكانك فيه حيًا وببركتك ميتًا**) نحلف: بنون مفتوحة وحاء مهملة تليها لام مكسورة وفاء كذا ضبطه فى المقتفى، ولو قرئ بالياء التحتية صح أيضًا، وفاعل الحلف على كل حال هو اللّه تعالى، وتسمى هذه النون نون العظمة؛ لأن أصلها للمتكلم مع الغير كنحن، إلا أن العظيم يتكلم بها ويطلقها عليه غيره تعظيما لعده بمنزلة جماعات كثيرة، أو لأن له أتباعًا فى خدمته إذا أراد فكنى عنه وعنهم، ولذا قال الراغب فى مفرداته: إن اللّه تعالى إنما يوردها فى كلامه فيما يفعله بواسطة ملائكته عليهم الصلاة والسلام كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] وفى شرح التسهيل: إنه مقصور على السماع لإيهامه التعدد فلا يجوز استعمالنا له، وبه أفتى علماء الحنفية، فالأولى حينئذ الغيبة هنا وعلى نون العظمة تذكرت ما تظرف به ابن نباتة المصرى فى قوله:

أغـمزه بناظر ولم أفه بكلمة   يجيبنى بحاجب لكن بنون العظمة

وقوله: «الذى شرفته بمكانك» أى: حصل له ذلك لأجلك ولأجل تعظيمك، فتشريفه لأنه بحوله فيها صارت حرمًا ومهبطًا للوحى، ومنبعًا للدين، وقد قالوا: إن هذا القسم أدخل فى تعظيمه صلى الله تعالى عليه وسلم بذاته وبحياته، كما أشار إليه عمر رضى الله تعالى عنه بقوله: «بأبى أنت وأمى يا رسول الله قد بلغت من الفضيلة عنده أن أقسم بتراب قوميك»، فقال: لا أقسم بهذا البلد بمعنى كونك وحلولك فيه مصدر ميمى ولذا أعمله كقوله(١):

أظَليم إن مصابكم رجلا ... أهدى السلام تحية ظُلم

ولو كان اسم مكان لم يعمل كما صرحوا به، ولو قال المصنف بمكانك وبركتك حيًا وميتًا كان أولى، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أحياء فى قبورهم حياة حقيقية، وإن قيل: إنه تفنن؛ لأن بركته صلى الله تعالى عليه وسلم فى حياته كنار على علم.

(**يعنى المدينة والأول أصح لأن السورة مكية**) يعنى أن هذا القائل أراد بالبلد المدينة؛ لأنها مكانه صلى الله تعالى عليه وسلم فى حياته وفى مماته، وهى على القول الأصح عند المفسرين مكية؛ لأن هذه السورة نزلت بمكة، فالإشارة فى حال النزول تعين أنها مكية؛ لأن هذا يشار به للقريب الحاضر وقت الخطاب، والمدينة على هذا ليست كذلك، ولذا قيل: إنه مجمع عليه وتنزيلها منزلة الحاضر القريب مخالف للظاهر رواية ودراية، وأشار بالأصح إلى قول ضعيف نقله ابن عطية، أن السورة مدنية فلا وجه للاعتراض به على المصنف رحمه الله تعالى كما فى شرح التجانى، ولشدة ضعفه وضعف ما بنى عليه لم يعتد به مدعى الإجماع.

(**وما بعده يصححه**) مبتدأ وخبر، أى ما بعد القسم وهو قوله تعالى: ﴿**وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ**﴾ [البلد:٢] يدل على صحة أن المراد مكة وفساد قول الواسطى، فقوله: (**قوله حل بهذا البلد**) خبر مبتدأ مقدر مع الاقتصار على مناط الدليل، وأصله وهو قوله تعالى: ﴿**وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ**﴾ [البلد:٢] ويجوز أن يكون بدلاً مما قبله بلا تقدير، وفيه بحث كما أشار إليه بعض الشراح، لأن القائل لا يسلم أن السورة مكية، فالبلد فى الموضعين عنده المدينة والإشارة فيهما لها، وحل: بمعنى حال مقيم، فكيف يقام الدليل عليه بما لا

(١) البيت من الكامل، وهو للحارث بن خالد المخزومى فى ديوانه (ص٩١)، الاشتقاق (ص٩٩، ١٥١)، الأغانى (٩/٢٢٥)، خزانة الأدب (١/٤٥٤)، الدرر (٥/٢٥٨)، وللعرجى فى ديوانه (ص١٩٣)، درة الغواص (ص٩٦)، مغنى اللبيب (٢/٥٣٨)، شرح التصريح (٢/٦٤)، ولأبى دهبل الجمحى فى ديوانه (ص٦٦)، وبلا نسبة فى الأشباه والنظائر (٦/٢٢٦)، أوضح المسالك (٣/٢١٠)، مجالس ثعلب (ص٢٧٠)، مراتب النحويين (ص١٢٧).

يسلمه؟ فاللائق الاقتصار على رواية خلافه لصحتها واشتهارها، وقيل: إن قوله لأن السورة إلى آخره بمجموعه علة للأصحية، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ﴾ إلخ [البلد: ٢] وكونها مكية إلا أنه إنما يتم على تفسير حل بما لا يتصور فى حق المدينة، كالحلال غير المحرم، ومن الجائز أن يفسره الواسطى بالحال النازل ويقول: البلد فيهما المدينة كالحلال غير المحرم، والسورة مدنية فلا يلزمه شىء مما مر، ولا يخالفه قاعدة إعادة المعرفة معرفة كما إذا أريد بالأول المدينة وبالثانى مكة، على أنه وعد له صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه سيكون بها حالاً غير محرم، على ما فيه من الإشارة فى كلام واحد لغائب وحاضر بتنزيل الغائب منزلة الحاضر لنكتة، والمراد بالأول القول بأنها مكية كما بيناه، وقيل: يجوز أن يريد به القول الحاكم بأن لا ينافية للقسم وما بعده القول الحاكم بأنها زائدة، ويصححه قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد:٢] إذ فى كونه حلاً به إشعار بثبوته مع كونها زائدة.انتهى. ولا يخفى ما فيه من التكلف.

ونحوه قول ابن عطاء فى تفسير قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:٣] أصل معنى النحو القصد، ومنه علم النحو؛ لأنه يقصد نهج كلام العرب إفرادًا وتركيبًا، ثم يستعمل للناس بمعنى مثل وشبه، وشاع حتى صار حقيقة فيه، أى مثل ما تقدم من القسم بمكة لتعظيمه صلى الله تعالى عليه وسلم، أو نحو قول الواسطى فى أن لحلـه صفة مدح بواسطة قول ابن عطاء، وإن كان قول الواسطى فى حق المدينة، وقول ابن عطاء فى حق مكة، وذاك بسببه، وهذا لتشريفه بما فيه من الأمان بدعوة الخليل، وتعليق الأقسام على صفة الأمان تفيد عليته له، والأمين فعيل بمعنى فاعل فهو آمن لقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران:٩٧] وقيل: بمعنى المأمون على ما أودعه من البركات، أو لأنه مأمون عن الغائلة، وتحقيقه فى الكشاف وشروحه.

(قال: أمنها الله لمقامه فيها وكونه بها) فى المقتفى إمنها بقصر الهمزة وتشديد الميم كما فى النسخ، ولا أعرف فيه إلا مد الهمزة وفتح الميم، يعنى أن المعروف فى اللغة مجيئه ثلاثيا ومن باب التفعيل، وأما الإفعال فمن الإيمان، وقوله لمقامه بضم الميم بمعنى إقامته ويجوز فتحها بتكلف والوجه الأول، وعطف كونه بها على ما قبله مرادف بمعنى وجوده فيها، وفى نسخة: «بمقامه» بالباء السببية فالأمان بسببه، وقد فهم من الآية أن الأقسام لإشعار الترتب بالعلية فيكون الإقسام لسببه أيضًا.

(فإن كونه) أى: وجوده **(أمان)** أى: موجب للأمان **(حيث كان)** أى: حيث وجد بذاته الشريفة، والحيثية قد ترد للتعميم أى فى أى مكان كان لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣] ، وهذا الأمان كان بعد وجوده

وقريبا من وجوده، كما آمنه به من الفيل وأصحابه، لأن ولادته صلى الله تعالى عليه وسلم كانت فى ربيع الأول من عام الفيل، وقصة الفيل فى المحرم، وقال بعض الشراح: الأظهر أن هذا الأمان كان بدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقوله تعالى: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران:٩٧] وأجاب الله دعاءه فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٥] وأجيب عنه: بأنه لا يبعد أن يكون كل ذلك ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم وبمن وجوده فيه، فلما علم علم الله أنه سيصير مقام حبيبه عليه الصلاة والسلام عظمه وقبل دعاء خليله، أو يكون استدامة ذلك واستمراره بسببه، ولا يبعد أن يقال: إن المصنف رحمه الله تعالى أشار إلى هذا بقوله:

(**ثم قال عز وجل:** ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد:٣]) عطف على البلد، والمفسرون اختلفوا فى تفسير الوالد، فمنهم (**من قال أراد آدم**) عليه الصلاة والسلام (**فهو عام**) أى ماولد على هذا التفسير عام شامل لجميع أولاده لا يختص بفرد منهم، فالقسم على هذا بنوع الإنسان؛ لأنه أشرف مخلوقاته. ونسخة توحيده فى ذاته وصفاته، وعلى هذا الجمهور لتبادره إلى الأذهان من غير داع للعدول عنه، وقيل: المراد على هذا الصالحون منهم، قيل: ولا يبعد أن يراد الفرد الكامل منهم وهو محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، فيكون القسم بالأول والآخر، ولا أدرى ما وجه تركه وعدم تعرض أحد المفسرين له، وكأنه لعدم دليل عليه فتدبر.

(**ومن قال هو إبراهيم**) عليه الصلاة والسلام (**وما ولد**) ضمير هو للوالد، أو مجموع الوالد والولد والثانى أولى، وقيل: الأولى أن يقول على منوال ما سبق، ومن قال: أراد إبراهيم عليه السلام والضمير فى قوله: (**فهى إن شاء اللّه تعالى**) للقصة وأنت باعتبار الخير، وهو قوله: (**إشارة إلى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم**) يعنى هو المراد من قوله وما ولد عند هذا القائل، وهو ابن عمران الجونى كما نقله فى زاد المسير، وقيل: هم العرب، أولاد إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أو الصالحون منهم، ولكونه غير متعين من النظم أطلق عليه الإشارة لخفائه، والمشهور إطلاق الإشارة على ما يدل عليه اللفظ دلالة التزامية كإشارة النص.

وقوله: «إن شاء اللّه» قيل: إنه للتبرك والاهتمام بما بعده، أو هو تأدب منه فى الحكم بأن مراد اللّه، أو إشارة إلى أن فيه احتمالاً آخر، وجوز بعضهم أن يكون تعليقًا على ظاهره، وقد ذهب إلى هذا كثير من المفسرين، لأنه لما حمل الوالد على أكمل أفراده ناسب حمل ما بعده على مثله، وقيل: المراد بالوالد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم

لحديث: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد» والولد أمته أو ذريته صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال فيه ما دون من وما فى الأصل لما لا يعقل، قيل: لأن كثيرًا من النحاة جوزوه أو لتأويله بالمبهم، أى الولد الكامل الذى لا يدرك كنه ذاته لتناهيه فى الكمال.

أقول: المختار عند صاحب الكشاف وغيره من المحققين أنه مطرد فيما قصد به المعنى الوضعى، كالمولود هنا نظرًا للصفة فإنها ليست من جنس العقلاء كما فصل فى حواشى الكشاف، قال الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿فَأَنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣] التفرقة بين من وما إنما هو إذا أريد الذات، وأما إذا أريد الوصف فيجوز ذهابًا إلى الوصف، وقد خفى هذا على بعض الأفاضل، وظاهر كلامهم أنه معنى حقيقى، فإن قيل: بأنه يجوز أن يكون فيه تغليب، قيل: هو دقيق لم ينبهوا عليه وهو تغليب أحد جزئى المدلول، وإنما ذكروه فى الجزئيات، والتنكير فيه للإبهام المستقل بالمدح والتعجب كما قيل.

(فتتضمن السورة القسم به صلى الله تعالى عليه وسلم فى موضعين) أشار بالفاء إلى نشأته مما قبله، أى: إذا كان كذلك ففى ضمن هذه قسم بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم مرتين، إحداهما: فى البلد التى هى محله فإن القسم بمكانه قسم به صلى الله تعالى عليه وسلم أبلغ من القسم لذاته وحياته كما مر فى تحقيقه. والثانى: فى قوله: «ومولود» على هذا التفسير، والقول بأنه لما أقسم بوالده وهو فى صلبه، فكأنه أقسم به بعيد غاية البعد، وأما القول بأنه لتفسير الوالد بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم كما فى الكشاف فغير صحيح، لأنه ليس فى كلام المصنف رحمه الله تعالى ذكر له بوجه من الوجوه، وهو عجيب من قائله اللهم إلا أن يقال: من أقسم بأحد ممن مضى من آبائه قاصدًا تعظيمه فكأنه أقسم به، أى بصفة من صفاته وهى شرف حسبه فتأمل.

(وقال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١، ٢]) ذلك إشارة إلى الم على أنه طائفة من الحروف، أو اسم السورة، أو القرآن تنزيلا له منزلة المحسوس المشاهد البعيد لرفعة قدره، أو لتقضيه كما فصله المفسرون.

(وقال ابن عباس) رضى الله تعالى عنهما **(هذه الحروف أقسام أقسم الله تعالى بها وعنه وعن غيره فيها غير ذلك)** الإقسام جمع قسم بمعنى المقسم به لقوله بها، وقد روى عن ابن عباس وغيره من مفسرى السلف فى هذه وفيما ضاهاها أقوال غير ما ذكر، قال الشريف: كما روى عن الخلفاء الأربعة أنها مما استأثر الله به، قال البيضاوى: ولعلهم أرادوا أنها أسرار بين الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، ورموز لمن يقصد بها إفهام غيره، إذ يبعد الخطاب بما لا يفيد، وفيه: أنهم صرحوا بأنه مما لا يعلمه إلا الله فإنه

أخفى لحكمة فلم يتحاشوا عما فر منه.

أقول فيه: إنهم قالوا إن التعقيد المعنوى يخل بالفصاحة فكيف بما لا يمكن علمه، وما ذكره لا يدفع ما قاله، فالحق فى جوابه ما قاله الفاضل الليثى: بأن هذا إنما يشترط فيما قصد به تفهيم المخاطب كما فصله فى حواشى المطول، وهذه الحروف إشارة لما ذكر، أو إلى جميع حروف المعجم، كما يقولون: تعلمت أ، ب أى جميع الحروف المقطعة كما قال ابن قتيبة، فهى أقسام متعددة جوابها مقدر، أى لقد بينت لكم السبل وأوضحت لكم الدلالة بهذا الكتاب المنزل بقرينة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:٢] وفيها أقوال كثيرة تكفلت بها التفاسير فلا حاجة لذكرها هنا، وإلى هذا أشار بقوله:

(وقال سهل بن عبد اللّه التسترى) تقدم ما فيه. قال السيوطى رحمه اللّه تعالى: رواه ابن جرير وابن أبى حاتم.

(الألف هو اللّه تعالى واللام جبريل، والميم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم) قيل: إن هذا غير واضح المعنى ولابد له من مأخوذ، وفى تفسير الأصبهانى نحو عشرين قولاً لم أر فيها هذا، إلا أنه حكى عن الضحاك أن اللام من جبريل، والميم من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، والألف من اللّه. وهى أقسام أقسم اللّه تعالى بها. وهو فى غاية اللطف والدقة، فإن كان المراد هذا فهو واضح؛ لأنه إذا أقسم بحرف من اسم دل على شرفه، وفى هذا تقديم جبريل عليه الصلاة والسلام عليه صلى الله تعالى عليه وسلم؛ فربما تعلق به مدعى التفضيل وإن لم يلزمه مطلق التفضيل، يعنى أنه لم يقل إنها حروف من أسمائهم بل جعلها دالة عليهم، ووجهه فى غاية الخفاء، فإن نزل على ما ذكره الضحاك اتضح، لكن العبارة غير ظاهرة فيه، فرده بأنه لا طائل تحته دعوى بلا دليل، وإن كان فيه قسم بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وهو مناسب لما هو بصدده، وأما تقديم جبريل عليه الصلاة والسلام هنا فلأنه واسطة بين اللّه ورسوله، فالاعتراض به فى غاية السقوط كما أشار إليه بقوله:

(وحكى هذا القول السمرقندى ولم ينسبه إلى سهل وجعل معناه اللّه أنزل جبريل) عليه الصلاة والسلام **(على محمد)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(بهذا القول)** وفى نسخة بهذا القرآن **(لا ريب فيه)** كما حكاه القاضى بمعناه عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما، يعنى أنه لوضوح شأنه وإعجازه لا يرتاب عاقل فيه بعد النظر، وإن كثر المرتابون كما قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ [البقرة:٢٣] إلى آخره **(وعلى الوجه الأول)** الذى رواه عن ابن عباس وهو القسم بالحروف.

(يحتمل القسم أن هذا الكتاب حق لا ريب فيه) أن بالفتح أى أنه على أنه قسم وفى قول سهل: وعلى هذا فجواب القسم لا ريب فيه، وقيل: الجواب مقدر يدل عليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: ٢] لا جواب بتقدير اللام؛ لأنه لا يسوغ حذفها إلا إذا استطال القسم كما فى المعنى وحذف الجواب، ورد فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص:١] بأنه لمعجز وأنك لمن المرسلين فأتى بدل ذلك بهذا؛ لأن التعظيم يكون بإشارة القريب والبعيد كما تقرر فى المعانى، والنكات لا تتزاحم والتردد فى أنهما على حد سواء أم لا، كما قيل لا طائل تحته، وفى شرح السيد التحرير: أنه أشار بهذا إلى أن الظاهر الإشارة بالقريب الحاضر فى الذهن، وإنما عبر بذلك لتنزيله منزلة البعيد للتعظيم، و لم يرد تقدير حق بل بيان أن لا ريب خير بمعنى حق.

(ثم فيه من فضيلة قران اسمه باسمه نحو ما تقدم) أى فى الم، أو فى هذا القول، أو القسم، أو الكتاب على قول سهل مطلقًا، أو على ما ذكر السمرقندى لدلالة الحروف المقطعة من الأسماء، أو لدلالتها عليها كأنها أسماء، وأشار بقوله نحو ما تقدم إلى ما مر فى قوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح:٤]، ولا يخدش القرآن توسط اللام المفسرة بجبريل لما فى وقوعها فى ذكر واحد من القرآن، لاسيما وجبريل عليه الصلاة والسلام سفير محض بينهما لا يعد فاصلاً، قيل: وكون الألف من أول اسم الله والميم من وسط اسم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، واللام من آخر اسم جبريل مناسب لما ذكر.

(وقال ابن عطاء فى قوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق:١] أقسم بقوة قلب حبيبه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم) فالقاف بمعنى القوة على طريق الاكتفاء كما فى قوله:

قلت لها قفى قالت قاف

والظاهر أن مثله لا يقال بالرأى، فلا وجه للاعتراض بأنه لا يجوز أن تكون من قدرة الله تعالى ونحوه، وقد تقدمت ترجمة ابن عطاء رحمه الله تعالى.

وقوله: **(حيث حمل الخطاب والمشاهدة)** أى: حيث تحمل وأطلق خطاب الله له ورؤيته ليلة الإسراء، ومشاهدة الملكوت، ومهابته مما شهد له الجبال ولا تطيقه الملائكة، وعلى أحد تفسيرى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ [سبأ:٢٣] أو مشاهدة التجليات القلبية.

(ولم يؤثر ذلك فيه لعلو حاله) أى: لم يصعب ويشق عليه حتى يمنعه من تحمل مثله،

وقوله: «لعلو حاله» تعليل لما قبله، أى أن له صلى الله تعالى عليه وسلم حالاً فى ثبات جنانه ورفعة شأنه لما أودع فى قلبه من اليقين.

(وقيل: هو اسم للقرآن) ضمير هو لقاف، وهذا القول تفسير مأثور عن قتادة، فما قيل من أنه فى غاية الركاكة لأنه يصير المعنى القرآن والقرآن، المجيد تهجم لا يليق بالأدب، والعجيب منه حيث رواه بعد ذلك؛ لأنه على هذا يجوز أن يذكر تفسير الخفاء ما قبله، ولذا قيل: إنه فى غاية الوجاهة من حيث المعنى، إذ حاصله أن هذا القرآن أقسم به وأظهره فى مقام الإخبار ليمكن وصفه ودخول القسم عليه، ومن حيث اللفظ؛ لأن الركاكة إنما هى لو صرح باسم القرآن لا إذا عبر عنه بغيره، وهذا هو السر فى العدول فتفطن وتأدب، على أنه يحتمل أن يراد بالقرآن هذه السورة.

(وقيل: هو اسم للّه تعالى) على نهج ما مر من إطلاق حرف من الاسم على مسماه، فهو على هذا بمعنى قيوم أو قدير ونحوه، أو هو مما لم يطلع على معناه، ويؤيد الأول ما حكاه القرطبى رحمه اللّه من أنه افتتاح اسمه القدير القاهر القريب.

(وقيل: جبل محيط بالأرض) ينبع منه جميع المياه، وهذا رواه ابن الجوزى رحمه اللّه عن مجاهد، قيل: إنه من زمردة خضراء وخضرة البحر من انعكاس شعاعه.

(وقيل غير هذا) فيه أقوال تزيد على عشرة، منها: أنه اسم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال أبو بكر الوراق: معناه قف عند أمرنا ونهينا ولا تتعداهما، والخطاب للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وقال جعفر بن محمد الصادق) تقدمت ترجمته رضى اللّه تعالى عنه **(وفى تفسيره)** وفى نسخه فى تفسير بدون ضمير، قيل: إن لجعفر تفسيرًا لم يشتهر. ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم:١] أنه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وهوى بمعنى نزل أو صعد إلى السماء فى المعراج من الهوى، بتشديد الياء وفتح الهاء وهو الذهاب فى انحدار، أو مع ضمها وهو الذهاب فى ارتفاع، وهذا التفسير نقله البغوى رحمه اللّه تعالى فلا غرابة فيه رواية ودراية، لأن وجه الشبه ظاهر.

(وقال) أى جعفر: فله فيه تفسيران أو عنه روايتان على البدل أو الاجتماع إن جوز.

(والنجم قلب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هوى انشرح من الأنوار) الربانية المتنزلة على قلبه فى مشاهداته من العلوم والحكم وأنواع الكمال، وتشبيه قلبه صلى الله تعالى عليه وسلم بالنجم لا يخفى ظهوره لإشراقه بنور ربه وهداه ومثله مشهور، وأما تفسير هوى بانشراح، فلأنه يقال: هوى إذا فتح فما أو مديدا، ولا يضرنا عدم اشتهاره لمعرفة

العرب أهل اللغة له.

(وقال) أى: جعفر الصادق فى رواية أخرى عنه فى تفسير هوى **(انقطع عن غير الله)** وهذا أظهر مما قبله؛ لأنه من هوى النجم إذا سقط من بين نوعه من النجوم، وهو إذا انقطع إلى ربه فارق الناس، وقال الإمام المرزوقى فى شرح أشعار هذيل: قال الأصمعى: يقال: هوى العقاب إذا انقض لغير الصيد، وأهوى إذا نقض له، وقيل: هما بمعنى، وقال بعضهم: يقال: هوى يهوى هويًا بفتح الهاء من أعلى إلى أسفل، وهويا بضمها بعكسه. انتهى.

فقول بعض الشراح: أنا لم نر هذا المعنى فى مشاهير كتب اللغة ساقط، والمثبت يقدم على النافى، وقوله: إلا أن يقال: إنه من هوى الجوف إذا خلا كما فى التقريب، فيكون هذا لخلوه عن غير الله، أو من هوى ذهب فى جهة العلو لارتفاعه إلى الله تعالى تعسف غير محتاج إليه، وتوقفه فى هذا دون ما قبله غريب من مثله وقد سبقه بعضهم لهذا، وفى النجم هنا تفاسير آخر، فقيل: هو الثريا، وقيل: الزهرة، وقيل: الرجوم، وقيل: مطلق النجوم، وقيل: ما نزل من القرآن منجما، وقيل: الهوى نزوله من المعراج وسيأتى الكلام فيه.

(وقال ابن عطاء) تقدم الكلام عليه **(فى قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾** [الفجر: ١، ٢] **الفجر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن منه تفجر الإيمان)** تفجر بفتح التاء وتشديد الجيم المضمومة، على أنه مصدر مضاف للإيمان، أو بفتح الجيم المشددة على أنه ماض فاعله الإيمان، من تفجر الصبح طلع كما قاله ابن رسلان، وهذا إما على تشبيه الإيمان بالنور المشرق من أفق الوحى الماحى لظلمة الكفر، أو هو استعارة لتشبيهه بالماء على نهج المكنية وإثبات التفجر له على طريق التخييل كما قيل، والأحسن عندى أن يشبه الصبح وأنواره بماء متفجر، ثم يستعار ذلك لشهرته بما ظهر منه صلى الله تعالى عليه وسلم من الدين والتوحيد، كما قال ابن تميم رحمه الله تعالى:

انظر إلى الصبح المنير وقد بدا ... يغشى الظلام بمائه المتدفق
غرقت به زهر النجوم وإنما ... سلم الهلال لأنه كالزورق

وفيه تفاسير أخر تركها المصنف رحمه الله تعالى لشهرتها، واقتصر منها على ما يناسب غرضه، إلا أن الشراح قالوا: إن هذا مع غرابته بعيد غير مقبول؛ لأنه مخل بالانتظام، فإن عطف ليال عشر عليه بالواو من غير جهة جامعة كقولك الشمس، ومرارة الأرنب والباذنجان محدثة، ومثله مخل بالبلاغة.

أقول: نقل الشراح هذا لأنه وارد غير مندفع وليس كذلك، وفيه سوء أدب وتهجم على كتاب الله تعالى عز وجل، وهذا منقول عن السلف والخلف ومأثور منهم، وهم أهل لسان، ومن فسر الفجر بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم يفسر الليالى العشر بعشر رمضان، وقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يجتهد فى العبادة والخيرات فيه، ويرى ليلة القدر، فيصير المعنى على هذا قسم بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى حالته التى جد فى عبادتى والتقرب إلىّ فيها، وأى مناسبة أتم من هذه كما قلت:

وحبيب هو المنى وليال ... كان فيها وصاله ورضاه
وزمانا بالأنس كان ربيعا ... لأطيعن عاذلا فى هواه

أترى هذا كالباذنجان وبزوره الهذيان، أو كوجه الحبيب وغيبة الرقيب، والذى عليه المحققون من المفسرين أنه على حقيقته، أو هو بتقدير مضاف أى صلاة الفجر والليالى العشر عشر ذى الحجة، أو الفجر فجر عرفة، أو النحر والعشر أول محرم وأواخر رمضان، ومما يضاهى قول المصنف رحمه الله تعالى قول الرازى: إن الضحى وجه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، والليل إذا سجى شعره.

* * *

[الفصل الخامس: فى قسمه تعالى جده لتحقق مكانته عنده]

(**الفصل الخامس فى قسمه تعالى جده**) بفتح الجيم وتشديد الدال، ويكون بمعنى الحظ والغنى، ومنه: «ولا ينفع ذا الجد منك الجد» يقال جد بمعنى عظم واستعاد التعالى له للمبالغة، كما يقال: جد جده فهو إسناد مجازى أو استعارة مكنية، وفى بعض النسخ (**له**) متعلق بالقسم والضمير للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم.

(**لتحقق مكانته عنده**) اللام للتعليل والأولى صلة فلا يلزم تعدى عامل بحرفين متحدى اللفظ والمعنى. وقوله (**صلى الله تعالى عليه وسلم**) متعلق بحسب المعنى بضمير عنده، ولتحقق بمعنى لتبين حقيقة حقه عنده والمكان معروف، فإذا زيدت فيه الهاء أريد به المرتبة المعنوية كالمنزل والمنزلة، وفى بعض النسخ لتحقق، وفى بعضها لتحقيق بصيغة المصدر، والكل بمعنى، واللام قيل إنها مثلها فى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] بمنزلة الفرض لاغرضًا، لأن أفعاله تعالى لا تعلل بالأغراض، وهذا وإن اشتهر فالذى ارتضاه النسفى خلافه، وإن ذهب السيد الشريف لخلافه، والتحقيق أن الخلاف لفظى، وعند مثلث العين والكسر أفصح، وبدأ الفصل بسورة الضحى لمناسبتها لخاتمة الفصل الذى قبله وتضمنها لكريم خطابه وعميم نعمه عليه تشريفا له.

فقال: (**قال جل اسمه**) كما جل وعلا فى نفسه وفيه تأدب وتأس (﴿**وَالضُّحَىٰ** ۝١ **وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ**﴾ **السورة** [**الضحى**:١، ٢]) بالنصب إن لم يوقف عليها بتقدير اذكر أو اقرأ السورة إلى آخرها، والسورة طائفة من القرآن مترجمة أقلها ثلاث آيات، فإن كانت معتلة فهى منقولة من سور المدينة؛ لإحاطتها بما فيها من مدائن العلم ومنازله، وإن كانت مهموزة فهى من السؤر وهو البقية كما بين فى محلة.

(**اختلف فى سبب نزول هذه السورة**) سبب النزول أمر حادث فى زمن النبوة ينزل القرآن فى حقه ويجوز تعدده، وكما أن للقرآن أسبابًا كذلك الحديث، وقد صنفوا فى كل منهما تصانيف جليلة وإن كان المشهور هو الأول.

(**فقيل: كان ترك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قيام الليل لعذر نزل به، فتكلمت امرأة فى ذلك بكلام**) روى أن هذه المرأة هى أم جميل بنت حرب، واسمها العوراء امرأة أبى لهب، وكان أبو بكر بن العربى رحمه الله تعالى يسميها أم قبيح، وهذا ما رواه الحاكم فى مستدركه وقال: إسناده صحيح، إلا أنى وجدت فيه علة، وهذه المرأة كان بعضهم لكراهتها لا يحب أن يسميها، ولذا قال المصنف رحمه الله تعالى: امرأة، أو لما فيها من الخلاف، وهذه السورة مكية اتفاقا، وروى عبد الله بن السكن أنها إحدى عمات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وروى ابن جرير أنها امرأة من أهله أو من قومه، ونقل عن امرأة أخرى وهو غير صحيح، وفى شرح التجانى كلام طويل هنا، وقال المصنف رحمه الله تعالى بكلام ولم يصرح به لقباحتة؛ لأنه روى أن أم قبيح قالت له صلى الله تعالى عليه وسلم: يا محمد إن شيطانك تركك لما رأيت من عدم قيامك، ولم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث كما ذكره البخارى، قيل: وهو أصح ما قيل فيه، وعذره الذى ترك به ما روى أن حجرًا أصاب إصبعه صلى الله تعالى عليه وسلم فدميت، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم:

هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

وقيل: إنما قالت أم قبيح ذلك لإبطاء الوحى عنه، وروى أبو داود بإسناد صحيح أن أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها قالت له: «إن ربك» وفى رواية «إن صاحبك قد قلاك» فنزلت، وإنما قالته رضى الله عنها على سبيل الاستكشاف والشفقة، أو هو بتقدير الاستفهام، وجمع بينهما بتعدد سبب النزول، وفيه إطلاق الصاحب على الله، وقد ورد فى حديث: «اللهم أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل»(١) ولم يقل صاحبى

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٦/١، ١٤٤/٢، ١٥٠، ٤٠١، ٤٣٣)، وأبو داود (٢٥٩٨)، والحاكم (٩٩/٢)، وابن حبان (٢٣٥٠)، وابن خزيمة (٢٥٣٣)، والبيهقى (٢٥٢/٥).

وصاحبك، أو ربى وربك كما هو مقتضى الظاهر لنكتة وهى الإشارة إلى شدة مراقبته لله وقربه منه قربًا لا ينبغى لسواه.

(**وقيل: بل تكلم به المشركون عند فترة الوحى فنزلت السورة**) أى تكلموا بكلام من نوع الكلام المذكور فى سبب النزول الأول لا بشخصه وعينه، والفترة مدة قليلة بين شيئين، والسكون والمراد انقطاعه عنه ومنه قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩]، وكان الوحى تأخر عنه صلى الله تعالى عليه وسلم بضعة عشر يومًا، وقيل: سنتين ونصف، والأول أصح، فقالت قريش: إن محمدًا ودعه ربه وقلاه. وقيل: إن اليهود سألوه صلى الله تعالى عليه وسلم عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذى القرنين فوعدهم بالجواب و لم يقل إن شاء الله تعالى فانقطع عنه الوحى. وقيل: بل كان فى بيته جرو كلب، قيل: ولا مانع من تعدد السبب كما مر، وقول المصنف بل الخ كأنه إشارة إلى أن القائل الثانى ادعى رد القول وجزم بخلافه فالاضراب لذلك، وقيل: بل لإفادة أنهم تكلموا به أيضًا فهو اتفاقى للترقى وهو بعيد ومر منه، لأن الأول أصح.

(**قال الفقيه القاضى أبو الفضل**) المصنف عياض رحمه الله (**تضمنت هذه السورة**) أى: اشتملت سورة الضحى (**من كرامة الله تعالى له وتنويهه به**) كرامة الله تعالى إكرامه، أى: توقيره واللطف به، وتنويهه به رفعة قدره وجعله مشهورًا بذلك وإشاعة فضله. (**وتعظيمه إياه**) جعله عظيما مهيبا فى عيون الناس وقلوبهم فهو مغاير لما قبله، ومن بيانية إن قلنا بجواز تقدم البيان على المبين كما ارتضاه بعضهم، وإلا فهو بيان لمقدر يفسره ما بعده وليست زائدة للتعظيم كما قيل.

(**ستة**) مفعول تضمنت (**وجوه**) والوجوه جمع وجه وهو مستقبل كل شيء، وما يواجهك منه ويطلق على الحال، فيقال: فلان أحسن القوم وجهًا أى حالاً، وقول الفقهاء الوجه كذا، أى القوى وهذا وجه أى مأخذ، والمراد الأول وهو جمع كثرة استعمله المصنف رحمه الله فى القلة، لأن كلا منهما يقوم مقام الآخر، وقد يقال: إنه إشارة إلى أنها أكثر من ذلك كما قيل.

(**الأول: القسم له عما أخبره به من حاله**) بيان لما والمراد حاله التى له فى الدنيا والآخرة. (**فقال: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٢]**) والضحى جمع ضحوة كقرية وقرى وهى أول النهار، وسجى إذا دخل وأظلم وأصله من السجية وهى التغطية لستره بظلمته، ولذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ: ١٠] وقلت:

للأنس لما اختلينا وغاب داعى الهموم

فـــى حلة للـــــديا جـــــى مــــــزرورة بـــــالنجـــوم

ومنهم من فسره بأقبل أو ذهب، وقيل: معناه سكن، والمراد: سكون الأصوات أو أصحابه ولكل جهة.

(أى ورب الضحى) هذا بناء على الظاهر الذى ذهب إليه الفقهاء من أن القسم لا يجوز بغير الله وصفاته من المخلوقات، فيقدر فيما ورد مخالفًا له رب ونحوه، والظاهر أن هذا مخصوص باليمين التى تنعقد ويكون لها كفارة، وأما ما يذكر للاستعطاف والملاطفة ونحوه من التعظيم، فلا يختص بما ذكر كما ورد من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم بأبى أنت وأمى، وأمثاله مما لا يحصى و لم ينكره السلف. وقيل: النهى مخصوص بالناس تعظيمًا لله، وأما الله عز وجل فله أن يقسم بما أراد، ونحوه الصلاة فإنها لا تجوز لغير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم استقلالاً على ما فيه، وأما هو فله أن يصلى على من أراد كقوله: «اللهم صلى على آل أبى أوفى»(١) والضحى صدر النهار كما مر، وقيل: هو هنا النهار كله، وأما الليل فعلى ظاهره، وما نقل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما من أنهما وقت الخلوة مع المحبوب، أى: وحق قربك منا وأنه وجه وجيه فى تعظيمه صلى الله تعالى عليه وسلم كما نقله رحمه الله تعالى غير ظاهر بالنسبة للضحى فتأمل.

(وهذا من أعظم درجات المبرة) أى القسم المذكور، والمبرة مصدر ميمى بمعنى البر وهو الإحسان وفعل الخير، وكل أمر مرضى، وفيه كما قيل استعارة مكنية لجعله المبرة منزلاً عاليًا له درجات توصل إليه، ويجوز أن يكون استعارة تصريحية فى الدرجات للمراتب، وفى كلام المصنف رحمه الله تعالى نظر لم ينبهوا عليه؛ لأنه على تقدير رب يكون التعظيم الذى يفيده القسم لله، فكيف يدل على ما قاله بعض الشراح من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أوتى ما لم يؤت أحد من الرتب العالية، والدعوة العامة، والمعجزات الباهرة، ونحوه مما لا يحصى.

(الثانى: بيان مكانته عنده وحظوته لديه) مر مرارًا أن المكانة المرتبة المعنوية، والحظوة بحاء مهملة مثلثة، وكذا كل فعلة لامها واو كما قيل وفيه نظر، وبعده ظاء معجمة مشالة، ويقال فيه: حظية بالكسر والياء أيضًا من حظى عنده إذا كان له عنده فضل يقربه ويحببه إليه، وذكر الشمنى وبعض الشراح معترضًا على المصنف رحمه الله أن الوجه الأول إنما يكون تعظيمًا إذا انضم للمقسم عليه المذكور فى هذا الوجه، فجعله وجهًا مستقلاً فيه نظر وهو مثل ما قلنا أولاً، وأجيب عنه: بأن المراد أن فى هذا القسم

---

(١) أخرجه البخارى (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨/١٧٦)، وأحمد (٣٥٣/٤، ٣٥٥، ٣٨١)، وابن ماجه (١٧٩٦)، والبيهقى (١٥٢/٢).

والمقسم عليه لفظين متغايرين، أحدهما بيان المكانة والآخر القسم عليها، وإن توقف أحدهما على الآخر، وهذه حرزة لا محصل لها.

(**بقوله: ما ودعك ربك وما قلى**) الوداع له معنيان فى اللغة الترك وتشييع المسافر، فإن فسر بالثانى هنا على طريق الاستعارة يكون فيه إيماء إلى أن الله لم يتركه أصلاً، فإنه معه أينما كان، وأما الترك لو تصور من جانبه ظاهر مع دلالته بهذا المعنى على الرجوع، والتوديع إنما يكون لمن يحب ويرجى عوده، وإليه أشار الرازحانى بقوله:

إذا رأيت الوداع فاصبر ولا يهمنك البعاد
وانتظر العود عن قريب فإن قلب الوداع عادوا

فقوله: «وما قلى» مؤكد له، وهذا لم أر من ذكره مع غاية لطفه، وكلهم فسروه بالمعنى الأول، ولما رأوا صيغة التفعيل تفيد زيادة المعنى والمبالغة فيه فيقتضى الانقطاع التام، قالوا: إن المبالغة فى النفى لا فى المنفى، فتركه لحكم عليه لا لضرره بهجره، أو لنفى القيد والمقيد، وقرأ عروة بن هشام: «ما ودعك» بالتخفيف، وورد فى الحديث: «شر الناس من ودعه الناس لاتقاء فحشه» وورد فى الشعر كقوله:

فكان ما قدموا لأنفسهم أعظم نفعًا من الذى ودعوا

ولذا قال فى المصباح: بهذا علم أن قولهم فى علم التصريف أماتوا ماضى يدع ويذر خطأ، وجعله استعارة من الوديعة تعسف.

وقوله: (**أى ما تركك وما أبغضك، وقيل: ما أهملك بعد أن اصطفاك**) تفسير للقلى، واختار الأول لمناسبته لما قبله، وإن كان المشهور الثانى، والإهمال عدم التصديق مع الترك فهو ترك مخصوص، وقوله «بعد أن اصطفاك»: أى اختارك وقربك بيان للواقع، ويحتمل أن يكون من معناه الوضعى كالهجران، فإنه إنما يكون بعد المودة، وهذا مروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وحذف مفعول قلى اختصارًا للعلم به، وليجرى على نهج الفواصل التى بعده، أو لئلا يخاطبه بما يدل على البعض، وقيل: الأحسن أنه حذف ليعم نفسه وأصحابه وأمته، فكأنه قال له صلى الله تعالى عليه وسلم: ما هجرتك لبغض وسترى منزلتك.

(**الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤] قاله ابن إسحاق**) صاحب المغازى وقد تقدمت ترجمته (**أى مالك فى مرجعك**) ما موصولة، وروى مآلك بمد الهمزة أى: ما يؤول إليه حالك، ومرجعك اسم زمان أو مصدر فى تقدير وقت رجوعك من الدنيا إلى الله فى الآخرة.

(عند الله) أى: فى دار كرامته وجنته، وهو متعلق بمالك أو بأعظم، ولام للآخرة لام ابتداء مؤكدة، أو جواب قسم ففيه تعظيم آخر، أى: كما أعطاك فى الدنيا يعطيك فى الآخرة ما هو أعلى وأكثر، فلا تبال بما قالوه فهو وعد فيه تسليه بعد ما نفى ما يكره، فهو تحلية بعد تخلية.

(أعظم ما أعطاك من كرامة الدنيا) من تقريبك وإعزازك ونصرك وقوة عينك بما تريد. **(وقال سهل)**: التسترى السابق ترجمته فى تفسيره **(أى ما ذخرت لك)** بالذال والخاء المعجمتين، أى ما أعددته لك من الذخيرة وهو ما يخبؤه الإنسان من النفائس، ومن الغريب ما قيل هنا أن الذخر بالمعجمة ما يكون فى الآخرة، وبالمهملة ما يكون فى الدنيا، قال التلمسانى: وهذا غلط أوقعه فيه قولهم تدخرون.

(من الشفاعة) بل الشفاعات التى ستأتى **(والمقام المحمود)** هو مقام الشفاعة العظمى الذى يحمده فيه الأولون والآخرون، أو كل مقام يتضمن كرامة محمودة، وعلى هذا يكون بمعنى ما قبله، وقيل: المراد أن أحوالك الآتية خير من السابقة فى الدارين، وقيل: الدار الآخرة خير فى المحبة والوصلة.

(الرابع: قوله) أى ما يقوله مما يتضمن ذكره، أو هو بالمعنى المصدرى ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ**﴾ [الضحى:٥] وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه ولسيعطيك واللام للتأكيد. وقال الزمخشرى: إنها لام الابتداء وهى لا تدخل إلا على المبتدأ تقديرها ولانت، ورده ابن الحاجب بأنه تكلف لما فيه من الحذف، وخلع اللام عن معنى الحال لئلا يجتمع دليلان حال واستقبال، وليست اللام للقسم؛ لأنها لا تدخل على المضارع إلا مؤكدًا بالنون.

(وهذه آية جامعة لوجوه الكرامة وأنواع السعادة) حيث أجمله ووكله إلى رضاه، وهذا غاية الإحسان، فإذا قلت: كلما ترضاه وتريده فقد عممت عمومًا بليغًا، ووجوه بمعنى ضروب أو استعارة من الوجه المعروف وهذه فقرة مع قوله: **(وشتات الأنعام فى الدارين والزيادة)**: والشتات مصدر بمعنى التفرق أريد به متفرقاته، ويعنى أنه تجمع فيك كل نوع من أنواع النعم التى أنعم الله بها على غيرك ممن اختاره واصطفاه، والزيادة على ذلك بما خصه به، أو الزيادة على النعم المعروفة بلقائه ورضوانه، كما قال الله تعالى: ﴿ ۞ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ** ﴾ [يونس:٢٦] أو الأول ما فى مقابلة عمله وهذا غيره، أو الأول ما وعده وأعطاه وهذا ما لم يخطر بباله مما سيعطيه، وما قيل من أنه عطف تفسير للأنعام لا وجه له.

(قال ابن إسحاق: يرضيه بالفلج فى الدنيا) الفلج بفتح الفاء واللام وبالجيم وبضمها وسكون اللام الفوز والظفر بالأعداء، ويكون بمعنى مطلق الفوز، وبفتح الفاء وسكون اللام أيضًا، فالمراد أنه يفوز فى الدنيا وينصره الله ويحميه.

(والثواب فى الآخرة) الثواب: الجزاء بالخير على فعل الخير فى الآخرة، وهذا هو المراد، وإن كان حقيقته الأصلية مطلق الجزاء خيرًا وشرًا دنيا وآخرة، وهذا كالوجه السابق على بعض الاحتمالات السالفة، فإن جعلت الآية شاملة لكل ما أعطاه الله من كمال النفس، وظهور الأمر، وما ادخر له مما لا يعرف كنهه سواء كان أيضًا قريبا مما قبله. وقيل: إنه إشارة إلى فتح مكة فى الدنيا.

(وقيل: يعطيه الحوض والشفاعة) الحوض: ما يحفر مع بناء أو بدونه ليجعل فيه الماء للحاجة، ووقع ذكر هذا الحوض فى حديث مسلم بينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى المسجد أغفا إغفاءة ثم رفع رأسه وقال: «نزلت علىَّ آنفا سورة» وتلى سورة الكوثر ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟ هو نهر وعدنيه ربى عليه خير كثير، هو حوض ترده أمتى يوم القيامة»(١) إلى آخره، وقوله: «هو حوض» إن كان الضمير للنهر فالحوض هو الكوثر، وإن كان للخير الكثير فهو غيره، كما ورد فى حديث آخر: «الكوثر نهر فى الجنة عليه حوض يمده» وهذا التفسير روى عن على وابن عباس والحسن رضى الله عنهم، قيل: إن أريد أنهما مرادان ولو مع الغير فلا كلام، وإن أريد التخصيص فلابد من قرينة. وفى مسلم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «أمتى وبكى، فقال الله تعالى لجبريل: قل له سنرضيك فى أمتك ولا نسوئك فيشفع حتى يقول رب رضيت».

أقول: إن أراد الاعتراض فلا وجه له؛ لأن اللفظ متحمل له، والنقل مساعدة فما المانع من حمله عليه.

(وروى عن بعض آل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم) هو على رضى الله تعالى عنه. قال السيوطى: أخرجه أبو نعيم فى الدلائل موقوفًا، وأخرجه الديلمى فى مسند الفردوس من حديثه مرفوعا، وقال البرهان الحلبى: روى أنه الحسن بن محمد بن الحنفية، وقال الذهبى: إن أول من تكلم فى الإرجاء زر بن عبد الله بن زرارة الهمدانى، ورواه الثعلبى مسندًا وصاحب المعالم عن محمد بن على، ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما، وهذه طرق تعضده.

(أنه قال: ليس آية فى القرآن أرجى منها) أى من قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ﴾

(١) أخرجه مسلم (٥٣/٤٠٠)، وأحمد (١٠٢/٣)، وابن أبى شيبة (٤٣٨/١١).

[الضحى: ٥] إلى آخره) وأرجى أفعل تفضيل من الرجاء، معناه أكثر رجاء، والمعنى أن هذه الآية الكريمة أكثر رجاء من سائر آيات الوعد، وهو مجاز أصله ليس سامع للقرآن وآيات الوعد أرجى من سامع هذه الآية، فجعل الآية نفسها ترجو مبالغة وهو من بليغ الكلام.

(**تنبيه**): اختلف فى أرجى آية فى القرآن، فقيل: هذه الآية، وقيل: وهل يجازى إلا لكفور، وقيل: إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى. وقيل: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠] وقيل: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر:٥٣] إلى آخره وقيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم﴾ [البقرة:٢٨٢] لأنه احتاط لدنيانا فكيف لا يحتاط لآخرتنا. وقيل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ﴾ [النور: ٢٢] إلى آخره، وقيل: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠] وأخوف آية: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠] وقيل: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن:٣١] وقيل: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير:٢٦] وقيل غير ذلك.

(**ولا يرضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يدخل أحد من أمته النار**): وقد استشكل هذا الحديث بأن دخول بعض العصاة النار أمر مقدر، فلو لم يكن من رضاه لزم الخلف فى الوعد، ولذا قال القرافى رحمه الله: لا يجوز الدعاء بالمغفرة لجميع المؤمنين، وإن رد بأنه ورد فى الآثار، وفى قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح:٢٨] وبأن عدم الخلود مغفرة أيضًا، واعلم أنه أورد هنا أن مقام الرضا بما يريده الله والتسليم مقام عظيم للسالكين، فكيف لا يكون لسيد المرسلين؟ ولذا قال صاحب المواهب: ما يغتر به بعض الجهال من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لا يرضى واحد من أمته فى النار، أو أن يدخلها أحد من أمته من غرور الشيطان، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم يرضى بما يرضى به ربه، وهو أعرف بحقه من أن يقول لا أرضى إلى آخره، ورد أيضًا بأنه جراة وسوء أدب، والوجه توجيه الحديث لثبوت رواياته وإن ضعفت، ولا يبعد أن يكون عذاب العصاة لعصيانهم غير مرضى لله تعالى، فلا يرضى به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أيضًا؛ لأن رضاه على وفق رضى ربه، والرضا بالقضاء قد يكون مذمومًا، فإذا لم يرض بعصيانهم ودخولهم النار لعدم رضى ربه به يدخلهم الله الجنة ولو بالآخرة للوعد به، والرضا بفعل الله إنما يجب من حيث أنه فعل للمولى الكريم الحكيم، لا من حيث هو فى ذاته وهو المنفى فى الحديث الثانى، فهو صلى الله تعالى عليه وسلم لا يرضى بدخول أحد من أمته

النار من حيث هو فى ذاته، لا من حيث أنه مراد الله فلا إشكال، أو الرضا مجاز عن ترك الطلب أى لا أترك طلب العفو وأحد من أمتى فى النار، ولا يلزم منه عدم الرضا حقيقة، وكم طلب صلى الله تعالى عليه وسلم لأمته أمورًا وهو فى مقام الرضا دائما، وإذا وعد بالإرضاء فلابد من إدخالهم الجنة لا ترك الطلب فافهمه فإنه دقيق.

فلا ينبغى أن يجترئ أحد على إبطال الروايات بأوهام الشبهات، وهذا محصل ما فى شرح المواقف، من أن للكفر نسبة إلى الله باعتبار فاعلية له وإيجاده، ونسبته إلى العبد باعتبار محليته واتصافه به، وإنكاره باعتبار النسبة الثانية، والرضى باعتبار النسبة الأولى.

وفى بعض الشروح: يجوز أن يكون المراد نفى الرضا بالخلود على نهج المبالغة والاستدلال، ويجوز أن يكون المراد ولا يرضى أن يعص الله أحد من أمته، فعبر بالمسبب عن السبب، إلا أن سياق الكلام يأباه. وقيل: مقام الرضا إنما هو فى حق نفسه وهو: بعيد.

(**الخامس: ما عده الله عليه من نعمه وقرره من آلائه**): النعم والآلاء بمعنى، وعبر فى النعم بالعد، وفى الآلاء بالتقرير أى التحقيق موافقة لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١٨] وفى قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣] فانظر حسن مقاصده، وفى واحدة الآلاء لغات منها آلى بفتح الهمزة والكسر مع القصر، وآلى وإلى بسكون اللام مع فتح الهمزة وكسرها والواى فى بيان عد ما عده. (**قبله**) بكسر القاف وفتح الباء الموحدة بزنة عنب، أى: عنده وفى جهته، ويقال: ليس لى بكذا قبل أى طاقة.

وقوله: (**فى بقية السورة**) متعلق بعد وهو من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ [الضحى:٦] إلى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ﴾ [الضحى:٩] إلى آخره تنبيهًا على أنه كما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقى، ثم أشار إليه بقوله:

(**من هدايته إلى ما هداه له أو هداية الناس به على اختلاف التفاسير**): بيان لما وما هداه له عام شامل للقولين فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَهَدَىٰ﴾ [الضحى:٧]، أى: فهداك أو هدى الناس بك، فهدايته مصدر مضاف للفاعل أو للمفعول، أى هداك للشريعة ومعالم النبوة والقرآن وتعليم ما لم تعلم، أو الطريق التى ضل فيها فى طريق الشام، أو فى شعاب مكة فى صغره صلى الله تعالى عليه وسلم وكلها أقوال مذكورة فى كتب التفسير.

(**ولا مال له فأغناه بما آتاه**) قيل: إنه معطوف على مجرور من تقدير أنه لا مال إلى

آخره، ولو جعلت حالا جاز، ووجد فى الآية بمعنى علم وآتاه بالمد بمعنى أعطاه، ولو قصرت على معنى آتاه من عند الله بما أغناه الله به، كمال خديجة وأبى بكر رضى الله تعالى عنهما ومال الغنائم، بل بما فى خزائن الغيب الذى لو طلب ظهوره ملأ الأرض لجاز، وقيل: عياله فى الآية الذين اتبعوه من أمته إذا أغناهم الله به صلى الله تعالى عليه وسلم.

(أو بما جعله فى قلبه من القناعة والغناء) القناعة فى اللغة: الرضا بما قسم الله أو الاكتفاء بقدر الضرورة والرضا به، كما قيل:

ما كل ما فوق البسيطة كافيا وإذا قنعت فكل شىء كافى

والقناعة كنز لا يفنى، والغنى غنى النفس كما ورد فى الحديث، وقد رفع الله قدره صلى الله تعالى عليه وسلم عن الاحتياج لخلقه، وقد خيره بين أن يكون نبيًا ملكا أو نبيًا عبدًا فاختار العبودية، وقيل: المراد غنى الظاهر والباطن وهو تكلف لا حاجة إليه.

(ويتيما فحدب عليه عمه وآواه إليه) أى وجده صلى الله تعالى عليه وسلم يتيمًا لموت أبيه قبل ولادته أو بعدها بمدة يسيرة، واليتيم الصغير الذى لا أب له ولا يتم بعد البلوغ، قيل: واليتيم فى غير الإنسان من الأم وفى الطير منهما. وحدب بفتح الحاء المهملة ودال مهملة مكسورة يليها موحدة واشتهر بفتح الدال، وكذا وقع فى بعض النسخ إلا أنهم قالوا: إنه غلط، وهو من حدبة الظهر، والمراد به العطف والشفقة. وعمه فاعله وجوز بعضهم نصبه أى عطف الله عليه عمه وليس بغلط كما قيل، والمراد به أبو طالب واسمه عبد مناف، وحنونه على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومحبته له أمر مشهور فى السير، وكان يعظمه ويعرف نبوته ولكن لم يوفقه الله للإسلام. وفى الإمتاع: أن فيه حكمة خفية من الله؛ لأنه عظيم قريش لا يمكن أحد منهم أن يتعدى على ما فى جواره، فكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى بدء أمره فى كنف حمايته يذبهم عنه كما قال[1]:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا

فلو أسلم لم يكن له ذمة عندهم، ولذا لم يكن له صلى الله تعالى عليه وسلم بعد موته بد من الهجرة، ومن الغريب ما نقله بعضهم من أن الله أحياه له صلى الله تعالى عليه وسلم فآمن به كأبويه، وأظنه من افتراء الشيعة، وقوله: «وآواه» بالمد متعد أى: ضمه

(١) البيت من الكامل، وهو لأبى طالب فى الجنى الدانى (ص٢٧٠)، خزانة الأدب (٣/٢٩٦)، الدرر (٤/٢٢٠)، شرح شواهد المغنى (٢/٦٨٦)، مغنى اللبيب (١/٢٨٥)، همع الهوامع (٢/٤١).

إليه لتربيته وحمايته، وآوى بالقصر بمعنى نزل صحيح هنا والضمير للعم، وأما جده عبد المطلب فمات فى صغره وعدم احتياجه قبل البعثة لمن يحميه، فما قيل من أنه إنما لم يتعرض لعطف جده عليه أولا؛ لأنه كالأب فكأنه لا يتم معه، أو لأن عطفه أمر عادى لم ينفعه حين ظهور الأعداء ونحوه، والأوجه التعميم خطأ منه.

(وقيل: آواه إليه) أى: قيل فى تفسير هذه الآية أن معناها: آواه الله أى ضمه إلى نفسه و لم يحوجه لحماية أحد وإيوائه، وهذا فى معنى ما حكى عن جعفر الصادق أنه سئل: لم كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يتيمًا فى صغره؟ فقال: لئلا يكون عليه حق لمخلوق. وقد روى هذا عن الحسن أيضًا، وقيل فيه: إن عليه فى صغره حقًا لغيرهما قطعًا كأبى طالب، وحق أبويه أولى وأسهل من حق غيرهما، فالوجه أن يقال فى حكمته: إن فيه تسلية ليتامى أمته، وأن فيه مع أبويه توطئة لشكر نعمائه من عطفهم عليه ولا وجود لأبويه، ولا يخفى أن حق الأبوين عظيم وتربيتهما وشفقتهما ليست كغيرهما، فلو كانا حيين معه لكان ينسب إليهما إيواؤه صلى الله تعالى عليه وسلم، فلما فقدا علم عناية الله به.

وآواه: روى بالمد والقصر، ومعناه بالمد ضمه إليه كما مر، وهو أولى وأظهر، وبالقصر من آوى إلى منزله يأوى من باب ضرب أويا أقام، قال فى المصباح: وربما عدى بنفسه فقيل: آوى منزله، وأنكر بعضهم تعديه. وقال الأزهرى: إنه لغة فصيحة وقرئ بها الشواذ، وهو غير ظاهر هنا، ولذا قيل: إنه بمعنى رحمه ورباه، أو جعل له مأوى عنده، وفاعل آوى ضمير مستتر يعود إلى الله كضمير إليه، وفى نسخة: «وقيل: أواه الله تعالى» وروى آوى إلى الله أى لجأ إليه، وكان الظاهر أن يقول: آواه الله إليه، قيل: وإنما عدل عنه لما ذكر، و لم يقل وآواه إليه لئلا يتوهم عود الضمير لعمه فيكون بمعنى ما قبله، وههنا أمران.

الأول: أن المصنف رحمه الله غير ترتيب النص، فذكر الهداية، ثم الإغناء، ثم الإيواء وأبقى الأولين على ترتيبهما فيه، وقدم الثالث على أخويه، وقد اعترض عليه بعض الشراح، ووجه ما فى النظم أنه قدم عدم تركه وقلاه اهتمامًا بالرد لما قالوه فى سبب النزول لأنه جواب لهم، ثم أردفه بأنه فى الآخرة أيضًا غير متروك ولا مقلى، وفيه إرغام لأنوفهم وجواب أقوى من الأول، ثم قال: إنه سيعطيه فيما يأتى كلما يحب ويرضى فى الدنيا والآخرة، ثم ذكر على ذلك التفصيل حاله المؤيدة لجوابه، فقال: إنه أواه فى صغره ويتمه وعدم الغنى له فكيف يتركه بعد كبره وقدرته، فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى:٦] فهذا ناظر لقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:٣] وعقبه بأنه أبعده

عن الضلال وهداه وهدى به لسبيل الرشاد، فمن كان هذه حال دنياه فحال آخرته كذلك، وهذا ناظر لقوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ [الضحى:٤] إلى آخره، وثلث بأنه أغناه عمن سواه مع فاقته وعليته، فهو ناظر لقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ﴾ [الضحى:٥] إلى آخره، ففيه شبه اللف والنشر على أتم نظام وكذا ما بعده كما سيأتى، وهذا هو مقتضى المقام حال النزول، والمصنف لما ذكر نعم الله عليه وعدها قدم أعظمها وهو الهداية التى فيها سعادة الدارين، ثم الغنى فى اليد والقلب الذى هو أعظم النعم الدنيوية بعد الهداية لسبيل الرشاد، وهو لا يكون إلا بهدايته، ثم الإيواء الذى هو بمعناه الظاهر دون هذين. فغير الترتيب وأتى بترتيب متسق أقرب إلى العقول الآن، إشارة إلى أن النكات لا تتزاحم وأن الحسن يحسن فى كل أناس، وقيل: إنه قدم الثالث على أخويه لتقدمه بتفسيره الأزل فى الواقع، وتأخره فى كلام المصنف لتأخره عنهما فى النظم تأخر ثانيهما عن أولهما فيه، مع أن المقام مقام بيان عظم شأنه، فاللائق تقديم الأعظم فالأعظم، وقيل: الأظهر أن الآية وردت فى مقام الاستدلال كما ذكروه فقدم الأظهر فالأظهر، فإن اليتم والغنى معلومان بالمشاهدة وقد اختار صلى الله تعالى عليه وسلم الفقر والقناعة، وفى غنا خفاء بالنسبة لتعليم الشرائع، والمصنف رحمه الله تعالى قدم الأشد تعظيمًا وآثر هذا الأسلوب إشارة لأثر فيه، وإلى أن الأنسب فى مقام التعظيم تقديم الأعلى كما فى البسملة، وهذه أمور متكلفة لا تنزل ساحة التنزيل، فالوجه ما قدمناه.

الثانى: أن فى قوله: «أواه الله» على إحدى النسخ نكتة، وهو أنه لو قال أواه إليه لزم تعدى الفعل بالواسطة إلى ضمير هو عين الفاعل، وهو ممنوع عند النحاة فى غير أفعال القلوب وعدم وفقد، كما ذكروه فى نحو قوله تعالى: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة:٢٦٠] فيحتاج لتقدير مضاف ظاهر فلذا عدل المصنف عنه، ولنا فيه كلام فصلناه فى كتاب السوانح.

(**وقيل: يتيمًا لا مثل لك**) وفى نسخة: «لا مثال لك» (**فأواك إليه**) أى: قيل فى معنى يتيمًا أنه لا نظير له، من قولهم درة يتيمة أى لا نظير لها، وتسمى فريدة أيضًا لانفرادها عن نظائرها، أى عملك عديم النظير؛ لأنه كان واحدًا فى قريش بل فى جميع الخلق، قال التجانى: وهو قول ضعيف حكاه صاحب المشرع الروى، وجعله فى الكشاف من بدع التفاسير، وفيه ما تقدم من تعديه بضمير الفاعل، ومعنى أواك إليه كما مر اصطفاك أو ضمك إلى عمك ونحوه، ففى مرجع ضمير إليه وجهان. وفى نسخة: «لا مال لك» قيل: ويؤيده ما فى المعالم من تفسيره بألم يجدك يتيمًا فقيرًا حين مات أبواك، وأورد عليه أنه سيصرح به فلا حاجة لذكره مع أن اليتم لا يدل على الفقر، وأجيب بأنه اعتبر الفقر

فيه بدلالة الواقع وتنكير يتيمًا؛ لأن غنى اليتيم مرغب فى رعايته وكفالته، فالمنة فى ضم اليتيم بدون المرغب أتم والنعمة أعظم، وأعاد ذكره ليمن عليه بإزالته فذكر الأول بالتبعية والثانى لذاته.

(**وقيل: المعنى ألم يجدك فهدى بك ضالاً، وأغنى بك عائلاً، وأوى بك يتيمًا**): حكاه بقيل إشارة إلى ضعفه، والحامل عليه أن وصف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالضلال بحسب معناه المشهور غير ظاهر، فلذا صرفه عن ظاهره، ولذا حمله بعضهم على فقده فى صغره أو خطوه فى الطريق فى سفره كما مر. وقال التجانى: هذا القول لا يساعده إعراب ولا يصحبه صواب فالأولى تركه لما فيه من تقديم المنصوب على عامله والفاء العاطفة لا الزائدة، كما فى قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر:٣] مع وجود عامل مقدم ملاصق وهو مالا تجوزه النحاة، ولوجعل وجد متعديًا لاثنين حذف أحدهما، أى: وجدك رحيمًا فآوى بك يتيمًا ومهديًا فهدى بك ضالا لكان أقرب، أكثر النحاة أبوه أيضًا، وقيل فى توجيهه: إن قائله ذهب لما قاله السدى أنه من قبيل خطاب السيد بما لعبيده، أى وجد قومك ضالين فهداهم، وقس عليه أخويه، والمصنف رحمه الله تعالى نقله بالمعنى، أو القائل فسره بما يؤول إليه، ثم إن قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ [الضحى:٦] هنا تفسير لوجدك بها آل معناه لتقاربهما، وفى النظم غاير بينهما تفننا، ووجدك بتقدير أما المساوية لألم معنى، فكأن الثلاثة داخلة تحت قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾، فلذا أدخلها تحته ولا يخفى ما فيه من التكلف، ولذا قال بعض الشراح: إنه صرف للايآت عن ظاهرها بلا دليل من غير مقتضى.

(**ذكره بهذه المنن**) ذكره بتشديد الكاف تفعيل من الذكر، أى: جعله متذكرًا. والمنن جمع منة وهى الإحسان، وقيل: ذكره بمعنى وعظه لأن التذكير ورد بهذا المعنى، كما فى قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، أى عظه به، والذكر على الأول خلاف النسيان، والمراد ذكره بتفصيلها أو تفضيلها، وإن كان ذاكرًا لها، وكيف ينسى مثله وقد قام حتى تورمت قدماه، وقال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا». وما قيل إنه لعدم شعوره بكونها مفصلة على ما رواه ابن عباس رضى الله عنهما، أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «سألت ربى مسألة وددت أنى لم أكن سألتها، قلت: أى ربى قد كان أنبياء قبلى منهم من سخرت له الريح وذكر سليمان عليه السلام، ومنهم من كان يحيى الموتى وذكر عيسى عليه الصلاة والسلام، فقال الله تعالى: ألم أجدك يتيمًا فآويتك؟ قلت: بلى. قال: ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ قلت: بلى. قال: ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟

قلت: بلى»(١). الحديث. مما لا ينبغى ولا دلالة فى الحديث لما ادعاه، وما أحسن قول بعض الشراح: المراد إعلامه بما أنعم به عليه، وقيل: إنه لاشتغاله بتذكر النعم العظيمة المتجددة، أو النعم كلها على الإجمال يغفل عن تفصيلها وشكره كذلك، أو أنه جعل بمنزلة الغافل وعامله معاملته لنكتة، وإن سلم أن هذا غير مناسب، فالتذكير بمعنى الوعظ لئلا يغفل فلا تغفل والباء زائدة، ثم أخذ فى تقرير دليل هذه السورة على أنه ما قلاه بعدما اصطفاه.

فقال: **(وأنه على المعلوم من التفسير)**: وروى: «على المعهود» قال: فى المعلوم للعهد، والمراد به جعل اليتم وأخويه من أحواله لا من أحوال غيره وعلى متعلقة بما بعده، وقيل: بالتذكير والإرادة المفهوم من الكلام.

(لم يهمله فى حال صغره وعيلته ويتمه وقبل معرفته به) الضمائر الظاهرة كلها له صلى الله تعالى عليه وسلم غير ضمير أنه فإنه لله أو للشأن أو له، ويهمله: بمعنى يتركه ويخلى بينه وبين نفسه، والعيلة: مصدر عال يعيل فهو عائل والجمع عالة كما فى المصباح بمعنى الاحتياج والفقر، يقال: عال إذا افتقر وأعال إذا كثر عياله، وليست العيله بمعنى العيال كما يقوله الناس، حتى يقال الأولى أن لا يوسطها بين الصغر واليتم، والصغر بوزن عنب معروف مفهوم من اليتم، وقبل معرفته تفسير لقوله ضالاً ولم يصرح به تأدبًا وإن وقع فى الآية موقعا حسنا، والضلال قد يراد به ما وجد من غير قصد مأخوذ من الضلال عن الطريق، ولذا نسب للأنبياء وغيرهم مع ما بينهما من البون البعيد، كما فى هذه الآية ونظائرها لقوله تعالى: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء:٢٠] ولله أن يقول فى حق عباده ما شاء، وليس لنا أن نقول مثله إلا على سبيل الحكاية، ألا ترى أن السلطان يدعو أكبر خواصه باسمه ويسمه بوسمه فيعده تعظيما وملاطفة، ولو خاطبه به غيره كان ترك أدب يغضب به، كذا فى عمدة الحفاظ وهو كلام حسن وقال الهروى: المراد قبل أن يعرف الشرائع والأحكام كقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء:١١٣] وليس فى على استعارة لتشبيه المعلوم بمكان عال مرتفع كما قيل.

(ولا ودعه ولا قلاه): أى ما تركه ولا أبغضه فى هذه الحالة، وهذا مفهوم مما فى ضمنه، إذ لو كان هذا لما هداه إلى ما هدى، وإذا كان هذا حاله قبل البعثة وإتمام النعمة ومعرفته بربه **(فكيف بعد اختصاصه واصطفائه)** وكيف للاستفهام الإنكارى على من قال إنه ودعه، كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨] أى فى أى حال

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٦٣/٧).

يكون هذا بعد اختصاصه بمسمى زيادة قربه، أو جعل مخصوصًا بفضائله الجليلة.

واصطفائه: أى اختياره من بين خلقه، قيل: المراد إظهار ذلك فى عالم الشهادة، وتقرير الدليل على ما قاله الإمام أن كمالك وعبادتك بعد هذه الأمور أتم، حيث رقيناك قبل ذلك الكمال إلى ذروة العلى، فبالأولى أن لا نتركك ولا نبغضك بعد الكمال والعبادة، وقيل عليه: إنه لا يناسب تفسير الغنى بالغنائم ونحوها مما لا يتحقق بعد النزول، فإن جعلت بمنزلة المحقق إذ لابد من تحقق أمر قبل الكمال ليعلم ثبوت مثله بعده بالأولى، والإثبات والمجاز المذكور لا يفيده، فالأظهر فى الاستدلال بالمعنى حينئذ أن يقال سنخصك بألطاف جليلة، أو أنَّا قدرنا لك ذلك فلا نتركك ولا نبغضك؛ لأنه مناف له فتدبر.

أقول: الثابت فى كتب التاريخ أن التفسير الكبير وصل إلى سورة الأنبياء، وكمله تلميذه الخوى فنسبة ما ذكر للإمام لا ينبغى، وما أورده عليه غير وارد، لأنه ليس فى تفسيره المذكور تعرض للغنى فكيف يلزمه بما لم يقله؟ ومن نظر تفسيره عرف ما قلناه.

(السادس: أمره) أمره بصيغة المصدر المضاف لفاعله كما ضبطه به بعض الشراح، أو الفعل الماضى كما فى المقتفى والأول أظهر، ولا حاجة لتقدير أن المصدرية قبله كما فى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ [الروم:٢٤] كما قيل، لأنه هنا لا قرينة تدل عليه.

(بإظهار نعمته عليه) هو شامل لجميع ما أنعم به عليه، وقيل: المراد بالنعمة هنا النبوة أو القرآن والأظهر الأولى هو الأول، والخطاب والأمر وإن كان خاصًا به صلى الله تعالى عليه وسلم لأمته تعليمًا لهم، والتحديث بالنعمة شكر لها، وقد قالوا: إنه يحسن من الإنسان الثناء على نفسه وذكر محاسنه وفضائله فى مواضع استثنوها من الأصل الغالب على الكم من هضم أنفسهم.

وروى عن على كرم الله وجهه أنه قال: إذا أصبت خيرًا فحدث به إخوانك. ومن مواطن التحدث بالنعم، ما إذا جهل قدره ونوزع فى أمر، وللسيوطى رحمه الله تعالى تأليف فى هذا سماه «نزول الرحمة فى التحدث بالنعمة» وقد روى مثله عن كثير من الصحابة، وأمره تعالى له صلى الله تعالى عليه وسلم بالتحدث بما أولاه يقتضى تعظيمه، لأن من أمر غيره بشكر نعمة من نعمه إنما يأمره فى العادة بما عظم عنده، لاستهجان طلب الشكر على أمر حقير، وهذا يقتضى عظم الأمور أيضًا. وقال بنعمة ربك دون بنعمتى إشارة إلى أنه رباه، وفيه أيضًا إشارة إلى عظم قدره عنده وعنايته به، ففى هذا

تعظيم ليس فى الأمرين الآخرين، ولذا لم يذكرهما المصنف رحمه الله تعالى، فاندفع ما قيل من أنه بقى هنا شىء لم يذكره، وهو إرشاده لمكارم الأخلاق بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى:٩] إلى آخره، وخص اليتيم لأنه لا ناصر له إلا الله والسؤال ذل، وكسرهما منصوبان بالفعل بعدهما بتقدير مهما يكن من شىء، فأما إلى آخره فلا حاجة لما تكلف فى الجواب عنه.

(وشكر ما شرفه به بنشره وإشادة وذكره بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]) مجرور معطوف على إظهار وليس عطف تفسير كما قيل، بل بيان؛ لأن إظهار النعم إذا لم يكن رياء ولا لغرض آخر يكون شكرًا للمنعم، ونشره إذاعته وإظهاره للناس، والإشادة بكسر الهمزة وشين معجمة ودال مهملة هو رفع الصوت به وهو كناية عن إعلام الثقلين، وقوله: «بقوله» تنازعه أمره وما بعده.

(فإن من شكر النعمة التحدث بها) أتى بمن التبعيضية إشارة إلى أن للشكر طرقا أخر هذا منها، كإظهار الملابس والمطاعم والمركب، وفى الحديث: «التحدث بالنعمة شكر». وفيه: «إذا أنعم الله على عبد بنعمة أحب أن يرى أثرها عليه». وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى هنا منقول عن مقاتل وليس فيه تخصيص بنعمة كما توهم.

(وهذا خاص له) صلى الله تعالى عليه وسلم **(عام لأمته)** الإشارة إلى الأمر المذكور أى بحسب الظاهر، والمورد خاص به صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه المأمور بحسب الظاهر وهو عام شامل لجميع الأمة، لأن أمره أمر لهم ما لم تقم قرينة على أنه من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم، فهم مأمورون بهذا الأمر أو بأمر آخر، والقول بأن المراد لأنهم مأمورون بالشكر لأنه واجب عليهم تكلف.

(وقال الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم:١] إلى قوله: ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٨]) فقوله تعالى جملة معترضة، وقيل: إنها حال لازمة من فاعل، قال: أى متعاليًا عما لا يليق بجنابه، ذكر هذه الآية لتضمنها القسم لأجله صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم استطرد فذكر ما معها من الآيات استقصاء لما فيه تعظيمه.

(اختلف المفسرون رحمهم الله تعالى فى قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم:١] بأقاويل معروفة) أقاويل جمع أقوال جمع قول فهو جمع جمع، عبر به للدلالة على كثرتها، والباء متعلقة بالمفسرين أو بمقدر من جنسه؛ لأنه يقال فسره بكذا فيتعدى بالباء، وهو وإن كان بعيدًا ظهر مما قيل أن تقديره اختلافًا مصحوبًا بأقاويل، أو مفصحًا عن أقاويل، وإذا فى هذا ونحوه قيل إنها للحال ظرف للقسم، أو كائنا لمقدر وليست للاستقبال؛

لأن إقسام الله قديم وقد قال ابن هشام: لا يصح تعلقه بأقسم الإنشائى لأن القديم لا زمان له لتقدمه على الزمان، فهو متعلق بكائنًا باق على استقباله بدليل صحة مجىء الحال المقدرة،، وأجاز بعضهم أن يكون متعلقا بالعظمة المفهومة من القسم، فالمعنى: أقسم بالنجم العظيم إذا هوى، فإن أريد بالنجم الجنس وهوية غروبه، فعظمته دلالته على حدوثه الدال على وجود الصانع، وإن أريد القرآن المنجم نزوله فعظمته بدلالته على الأحكام، وإن أريد به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ونزوله بعد المعراج فعظمته بدلالته بتكريم من هو أعظم من كل عظيم كما قيل، وفسر الهوى بالطلوع أيضا.

أقول: هذا كلام غير مهذب، فإن كلام الله قديم لفظه أو معناه النفسى، وكل ما فيه يدل على الزمان كالظروف والأفعال ليس بمجاز، بل حقيقة باعتبار متعلقه وظهوره، لأن علم شىء فى زمان لا يقتضى أن يكون ذلك العلم فى ذلك الزمان كما حققه علماء الكلام، وهذا المقام لا يسع تفصيله وتحقيقه مع أنه لشهرته غنى عن البيان.

(منها النجم) محمول. **(على ظاهره)** فيراد به جنس النجم أو الثريا أو الزهرة؛ لأن من المشركين من كان يعبدها، والثريا ليست نجمًا واحدًا، بل عدة نجوم اختلف فى عددها على أقوال، قيل: ستة، وقيل: تسعة، وقيل: إحدى عشر نجمًا، وقيل: اثنى عشر. والنجم صار علمًا لها بالغلبة، وفى الحديث: «ما طلع نجم» فظاهر، وفى الأرض من العاهة شىء، والهوى الغروب أو الطلوع كما مر، ولا حاجة إلى جعل الثانى مفهومًا من النجم، لأنه يقال: نجم قرن الشاة إذا طلع، والقسم به لأنه مخلوق بديع دل على صانعه وقدرته، وكذا فى الهوى بمعنييه.

(ومنها القرآن): لأنه نزل نجومًا متفرقة بحسب المصالح، وقال بعض المفسرين: إنه نجوم القرآن من قولهم نجم الدين إذ جعله حصصا، ومن الغريب ما قيل: إنه الصحابة رضى الله تعالى عنهم لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «أصحابى كالنجوم». حكاه التجانى هنا، وهو يهم موتهم على هذا وهو بعيد.

(وعن جعفر بن محمد) الإمام الصادق تقدمت ترجمته **(أنه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم)** و لم يقل ومنها لأنه مع ما قبله كوجه واحد لشدة مناسبته له، وهذا وإن سبق لا يعد تكرارًا لاختلاف الغرض فيها، والقول بأنه ليس منها لا وجه له، فالمقسم به وله واحد، وهو أمر مستحسن عند البلغاء كما ذكره الزمخشرى لقول البحترى:

وثنايـــاك إنهـــا أعريـــض

فانظره فى شروح الكشاف، ولنا فيه كلام فى السوانح، وقد تقدم تفسير هوية على

هذا.

(وقال) أى جعفر مرة أخرى، وفى نسخة: «وقال سهل» وتقدمت ترجمتهما **(هو قلب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم)** إطلاق النجم عليه صلى الله تعالى عليه وسلم ظاهر كما أطلقه الشراح، وأما إطلاقه على قلبه فلإشراقه بالأنوار الإلهية وهو منبعها، ومنع الهداية وإن كان فيه خفاء، وقيل: إنه النبات الساقط على الأرض، والنجم ما لا ساق له وما له ساق شجر، وقيل: تقديره ورب كما مر، وذكر المصنف رحمه الله تعالى السلام دون الصلاة، وقد قيل كما مر أنه مكروه كعكسه، مع أن الذى فى النسخ الصحيحة صلى الله تعالى عليه وسلم، مع أنه يحتمل أنه تلفظ به ولم يكتبه، أو مذهب المصنف رحمه الله تعالى عدم كراهته:

(وقد قيل فى قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ **[الطارق: ١ - ٣])** الثاقب: المضىء، كأنه يثقب الظلام بشدة إضاءته، والطارق: أصل معناه من يأتى ليلاً؛ لأنه يطرق الباب المغلق ليلاً أو الأرض برجله، ثم غلب على النجم لظهوره ليلا، ومنه الطريق؛ لأنها مطروقة بالأرجل، وقيل: الطارق زحل وكل ما يرى ويظهر ليلا يسمى طارقًا، قال الزمخشرى: أراد الله أن يقسم بالنجم الثاقب تعظيمًا لما فيه من عظيم قدره ولطيف صنعه، فأبهمه ثم فسره.

(أن النجم هنا أيضا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم) وذكره لأن الله أقسم به على حفظ كل نفس، فكيف بمن هو أنفس الأنفس؟ فهو إشارة إلى عصمته صلى الله تعالى عليه وسلم، وبهذا الاعتبار يكون مما نحن فيه، فإن لم يلاحظ هذا يكون تأييدًا لقول جعفر، فلا وجه لما قيل من أن الأحسن ذكره فى فصل القسم به السابق، ولا للقول بأنه إشارة إلى عدم الاستيفاء، أو أنه غفل عن ذكره هنا فتذكر وذكر، وعلى هذا فالطارق إشارة إلى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أتى وقد دجى الكفر وأظلم، أو لأن معناه سالك الطريق كما قاله الراغب. **(حكاه السلمى)** بضم السين وفتح اللام وتقدمت ترجمته.

(تضمنت هذه الآيات من فضله وشرفه العد) التضمن الاشتمال، وجعله فى ضمنه أى اشتملت أو وفيت بها كما يفى الضامن بما ضمنه. قال المؤلف: والعد بكسر العين وتشديد الدال المهملتين الماء الدائم الجريان الذى لا تنقطع مادته والقديم والكثير، ويصح إرادة كل منهما، وعلى الأول فيه تشبيه له لكثرة الانتفاع به، مع أنه لا ينقطع عنه مدد الفياض وفيه تجنيس.

(ما يقف دونه العد) بالفتح والتشديد شبه العد والإحصاء برجل يجرى ليصل إلى الإحاطة بمناقبه، فبعد عنه حتى أعيي وانقطع دون مرامه ففيه استعارة تمثيلية، وتقدير صاحب العد يذهب برونق الكلام ومائه، ودون هنا بمعنى قبل كما فى قول ابن دريد:

إن امرء القيس جرى إلى مدى فأعناقه حمامة دون المدا

وقد تقدم الكلام عليها فى الخطبة.

(وأقسم جل جلاله) وهو كجد جده كما مر، وفى نسخة جلا اسمه **(على هداية المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم وتنزيهه عن الهوى)** هذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:٢] وإن توهم فى بادئ النظر أن بينهما واسطة، فإن الصغير ونحوه ليس بضال ولا مهدى، لكنه لما أكده بنفى الغواية دل على أن المراد إثبات الهداية على وجه بليغ، وكذا نفى النطق بالهوى المراد به أنه ليس له هوى، ولا نطق به على منوال قوله: ولا ترى الضب بها ينجحر. ولذا ذهب المفسرون لما ذكر، والهوى ميل القلب إلى خلاف الصواب وحب الشهوات.

(وصدقه فيما تلا وأنه وحى يوحى) فيما تلاه متعلق بصدقه، أو تنازع فيه هو وما قبله، والذى تلاه هو القرآن، والتلاوة فى عرف اللغة والشرع تختص به، وإن كانت قد تطلق على مطلق التكلم، لأنه من تلاه يتلوه إذا تبعه وهو وحى متبع، وضمير إنه راجع لما وهو القرآن، والوحى يطلق على معان كالكتابة والإشارة والرسالة والإلهام ونحوه مما فيه خفاء، وأتى بيوحى بعد الوحى للتأكيد ودفع المجاز وإفادة أنه يتجدد شيئا فشيئا كما يشير إليه النجم، أو الأول بالمعنى اللغوى فهو تأسيس، وقيل: الوحى كل ما ينطق به، وأنه يجوز فى قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ﴾ [النجم: ٤] إلى آخره، أن يكون استينافا غيره مقسم عليه، وفى ضمير ينطق أن يكون للقرآن، ويمكن تطبيق كلام المصنف رحمه الله تعالى عليه، و لم يذكر الحصر المذكور فى النظم إشارة إلى أن فحوى الكلام يفيده؛ لأن المقصود نفى وجوه البطلان، وإذا بين أنه وحى أكد على وجه دل على هذا كما لا يخفى، فلا يرد عليه ما قيل أنه أخل بالحصر والقسم به على الإثبات، والنفى الذى أفاده قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] وهو أنسب بتعظيم القرآن الذى جاء به النظم المقتضى لتعظيم من جاء به وتبجيله، وهو المناسب لما قصده المصنف رحمه الله تعالى، ثم أتى بكلام أوهم أنه أبو عذرته ماله ما ذكرناه وهو مسبوق به، ثم قال: كيف يتوجه القسم إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ﴾ [النجم:٤] إلى آخره، مع أنه لم يدخل به القسم و لم يعطف على مدخوله وجوابه، والجواب أنه بيان لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم:٣] سواء كان المراد أنه ينطق بوحى متلو هو القرآن، أو أن كل ما ينطق

به بما يتعلق بالدين وحى من عند الله، ولذا رجح القسطلانى عود ضمير هو إلى النطق المفهوم من ينطق وليس عائدًا للقرآن، فإن نطقه بالقرآن والسنة وكل منهما وحى من عند الله، ولذا فسر قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء:١١٣] بالقرآن والسنة لأنها كانت تنزل عليه صلى الله تعالى عليه وسلم كما ينزل القرآن.

(**أوصله إليه عن الله تعالى جبريل عليه الصلاة والسلام وهو الشديد القوى**) أى أوصل الوحى بمعنييه كما بيناه، فلا وجه لما قيل: إن كان المراد به القرآن فلا خاف فيه، وإن كان كل ما ينطق به فهو على التغليب، أو المراد أنه أوصله بواسطة غيره أو بلا واسطة، والشديد القوى من إضافة الصفة المشبهة لفاعلها، أى قواه شديدة والقوى جمع قوة، وأصل معناه طاقة الحبل المفتول، وجبريل عليه الصلاة والسلام موصوف من بين الملائكة بالقوة العلمية، لتلقيه عن الله ما لا يقدر غيره على تلقيه، والقوة الحسية لقلبه قرى قوم لوط عليه الصلاة والسلام، وإهلاكه بعض القوم بصيحة منه، ونزوله من فوق السموات إلى الأرض فى أقل من طرفة عين، وقيل: الشديد القوى هو الله العظيم القدرة.

(**ثم أخبر تعالى عن فضيلته بقصة الإسراء**) الباء للإلتصاق متعلقة بأخبر أو للتشبيه بقصته، وثم للإشارة إلى بعد هذه القصة عما قبلها لزيادة شرفها، والإسراء: إسراءه من مكة للبيت المقدس، والمعراج عروجه منه إلى الملأ الأعلى، فلا يناسب تفسير الأول بالثانى، وإن كان كل منهما على الآخر، والفضيلة ما أكرمه الله به من تقريبه وتشريفه بما لا يعلمه غيره، وابتداء القصة من قوله: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ [النجم:٦] إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [النجم:١٨] إلى آخره، فإنها فى المعراج فى قول طائفة، قيل: والأصح أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ [النجم:١٣] المراد به رؤية جبريل عليه الصلاة والسلام على صورته الأصلية، ويؤيده أن ما قبله ليس حكاية عما فى المعراج على رأى الأكثرين، ولم يتعرض المصنف رحمه الله تعالى لتفصيله، بل أتى بثم معقبًا بقوله:

(**وانتهائه إلى سدرة المنتهى**) السدرة: واحدة السدر وهى شجرة النبق، وهذه من جنسها، ولذا ورد فيها أن نبقها كقلال هجر، وهى عن يمين العرش، وورد أنها فى السماء السادسة والسابعة، ووفق بينهما بأن أصلها فى السادسة وفرعها تنتهى للسابعة، وأضيفت للمنتهى بمعنى الانتهاء أو محله؛ لأنها ينتهى إليها علم المقادير أو الأروح أو الملائكة، وسيأتى تفصيل حالها فى مبحث الإسراء، وفى الرؤية فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:١٣، ١٤] وفى المرئى اختلاف أيضًا: هل هو الله تعالى أو جبريل عليه الصلاة والسلام على صورته الأصلية؟ والمعراج هل

كان إلى السماء أو الجنة أو لما فوقها؟ وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى من انتهائه إليها لا ينافى أنه لما فوقها.

(وتصديق بصره فيما رأى) أى تصديق الله له فى رؤيته فى قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ [النجم: ١٧] إلى آخره كما سيأتى، أى ما رآه واعتقده بسبب رؤيته حق مطابق للواقع، والرؤية وإن كانت فعلاً إلا أنه يقال صدقت فعله إذا أثبته إثباتًا متيقنًا؛ لأنه لم يجاوز بصره ما رآه ولم يمل عنه ولم يعدل عما أمر برؤيته، ومدح الله تعالى له دليل على عدم خطأه كما لتركه الالتفات تأدبًا، فلا وجه لما قيل أن ذلك لا يدل على تصديقه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:١١] أى ببصره كما مر، أى ما كذب بصره فيما حكاه له فإن الأمور القدسية تدرك بالقلب، ثم بالبصر أوما قال فؤاده لما رآه لا أعرفك، ولو قاله لكذب؛ لأنه عرفه بفؤاده كما رآه ببصره يقينًا لا تخيلاً، كما قال بعض الشراح.

وقوله: **(وأنه رأى من آيات ربه الكبرى)** إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨]، ومن بيانية مبينة لمقدر أو تبعيضية أو زائدة، أى: رأى صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة الإسراء الكبرى من آيات ربه وعجائب ملكوته. وقال البيضاوى: أى والله لقد رأى الكبرى من آيات ربه، وعجائبها الملكية والملكوتية ليلة المعراج، وقيل: إنها المعينة بما رأى والكبرى صفة الآيات والمفعول محذوف أو مفعول، ومن آيات حال مقدمة، وعلى البيان فهو راء لجميع الآيات، وعلى التبعيض المرئى بعضها وزيادة من فى الإثبات مرجوحة عند النحاة، فالمعنى أنه رأى ما رآى مما لا يمكن وصفه، قيل: والإضافة إلى الرب تدل على أنها غيره ولو رآه لكان الظاهر ذكره دون آياته، قاله صاحب الكشاف، وفيه كما قيل نزعه اعتزالية وفيه نظر.

(وقد نبه على مثل هذا فى أول سورة الإسراء) ضمير نبه لله تعالى، والتنبيه يكون بمعنى إيقاظ النائم وإرشاد الغافل ومطلق البيان وهو المراد، لكنه إيماء إلى كونه بالليل يشير إلى قوله فى أول سورة الإسراء: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] وجعله مثله؛ لأنه فى سورة النجم ذكر تحقق رؤيته بخلاف هنا، مع شموله لما قبل العروج وبعده، ولقول المفسرين: إن المعنى لنريه من آياتنا برؤية السموات وما فيها من العجائب، ومشاهدته لبيت المقدس، ومقامات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومواطن عباداتهم وتمثلهم له، وبينهما مناسبة بدلالتهما على رؤية الآيات الكبرى، إلا أن فيها إشارة بإضافة الإرادة له بضمير العظمة، وجعل نفسه هو السميع وهو البصير إلى زيادة قربه وعظمته، كما لا يخفى على من له ذوق، وافتتحها بسبحان الدالة على التنزيه

نفيًا للجهة المتوهمة، وإشارة لبراءة ساحته عن استبعاد ما استبعدوه حتى قالوا ما قالوه.

(ولما كان ما كاشفه صلى الله تعالى عليه وسلم من ذلك الجبروت) لما بالتشديد وفتح اللام، وما موصولة، وكاشف فاعل من الكشف وهو رفع الغطاء، والكشف عن الشىء يقتضى معاينته ومشاهدته، ولذا وقع هنا عبارة عن المعاينة، ولذا علق به قوله من الجبروت وعطف عليه.

قوله: **(وشاهده من عجائب الملكوت)** عطف تفسير، فلا وجه لما قيل: المناسب أن يقول: فشاهده؛ لأن المشاهدة أثر الكشف لصحة قولك كشف فشاهد، لكنه راعى السجع، إذ لا يصح أن يقال رفع غطاء ما هناك من الجبروت، لأن المراد أنه عاين الجبروت واطلع عليه لا رفع غطاء، والجبروت فعلوت بفتح الفاء والعين واللام مضمومة يليها واو ساكنة وتاء طويلة، وتسكين الباء والهمز غلط كما قاله ابن مكى فى تثقيف اللسان وهو بمعنى العظمة والجلالة، من الجبر وهو القهر من تجبر بمعنى تعظيم كما فى القاموس، وله معنى آخر غير مناسب هنا، وقيل: المراد بالمكاشقة الدلالة؛ لأنه معنى من المعانى لا يشاهد ولو أبقى على ظاهره جاز، وقيل: المكاشفة غير المشاهدة، فالفعلان ليسا صلة لموصول واحد، بل المراد الجنس الذى كاشف بعضه وشاهد بعضه، أو أنه يقدر موصول بناء على تجويز حذفه مع بقاء صلته وهو تكلف لا حاجة إليه، ومر أن الملكوت عالم الغيب والملك عالم الشهادة، قال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ [الأعراف:١٨٥] وهو مصدر ملك مع المبالغة وهو مختص بالله. قيل: وكان الأظهر أن يقول: وعجائب الملك والملكوت وفيه نظر.

(لا تحيط به العبارات) والعبارة اللفظ المعبر به عن المعنى من العبور وهو المرور، قال الله تعالى: ﴿**إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ**﴾ [النساء:٤٣] أطلق عليه لتوهم أن الفهم يعبر به. وفى المصباح: العبارة البيان بكسر العين. وحكى فى المحكم فتحها أيضًا. انتهى. أى تقصر العبارة عن أدائه لكثرته، بحيث لا تفى العبارة بتفصيله وهو على إطلاقه مبالغة، قيل: وهو ناظر إلى مشاهده.

وقوله: **(ولا تستقل بحمل سماع أدناه العقول)** ناظر إلى ما كاشفه على اللف والنشر المشوش، وهو مبنى على تغايرهما كما مر، وتستقل استفعال من أقله عن الأرض إذا رفعه، ثم صار بمعنى حمله ومنه القلة ويكون الاستفعال من القلة، أى عدك الشىء قليلا واستقل بالأمر استبد وانفرد كما قيل:

ربما قصر الصديق المقل … عن حقوق بهن لا يستقل

وهذا هو المراد، أى: لا يقدر على حمله إلا بقوة قدسية ومساعدة ربانية، وقيل: المراد الأول أى: لا تطيق العقول غير عقل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حمله، وأدنى أفعل تفضيل بمعنى أقل، أى: لا يقدر على أقله فضلاً عن كله وأكثره، وفى كلامه مبالغة وإغراق حيث أضاف الحمل للسماع وهو كالتحمل لنقل الحديث، يعنى أن التعبير عنه غير ممكن، ولو أمكن لا يتحمله ويعيد سامعه.

(**رمز عنه تعالى بالإيماء والكناية الدالة على التعظيم**) جواب لما وفاعله ضمير مستتر لله عز وجل، والرمز فى الأصل: الإشارة الخفية بالعين أو الحاجب ونحوه، والإيماء: الإشارة بالرأس يتعدى بإلى، قال الشاعر:

رمـــزت إلىّ مخافــة مــن بعلها

والمصنف رحمه الله تعالى عداه بعن لتضمينه معنى التعبير، والكناية فى عرف أهل المعانى ما يراد به لازم معناه الحقيقى مع جواز إرادته، وعند أهل الأصول ما يقابل الصريح، وهو المراد هنا يعنى أنه أتى بالموصول الإسمى المبهم ومثله يستعمل للتعظيم لما فيه من الإشارة إلى أنه لا يدرك كنهه، كقوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨] وقوله:

وكــان ما كان مما لست أذكره فظن خيرًا ولا تسـأل عن الخبر

مع ترك المفعول أيضًا، وهذا مما اتفق عليه النحاة وأهل المعانى، إلا أن فيه إشكالا لأنهم اشترطوا فى الصلة أن تكون معروفة معهودة حتى يتعرف بها الموصول، فإذا كانت مبهمة لم يعرف معناها حتى يعرف غيرها بها، وقول ناظر الجيش: إن هذا فيما إذا لم يقصد إبهامه لا يجدى نفعًا وإن تبعه من بعده كالدمامينى، فالتحقيق أن يقال الإتيان بها مبهمة من أعلى طبقات البلاغة، لأن الذهن يذهب كل مذهب فيقع فى النفس موقعًا عظيما فيتصوره السامع بهذه الطريق، ويرتسم فى ذهنه أشد ارتسام، وليس المراد بالعهد إلا هذا فاعرفه.

(**فقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾** [النجم:١٠]) هذا وما سيأتى تفسير تفصيل للرمز عما كشفه وشاهده، مع الإشعار بما فى الإبهامين من التعظيم، وقيل: إن هذا مبنى على أن الكبرى صفة الآيات ومن تبعيضية، وفاعل أوحى الأول والثانى رب العزة، أى أوحى الله ما أوحاه إلى نبيه عليه الصلاة والسلام، أوهما ضميو جبريل عليه الصلاة والسلام لا أن الأول لله والثانى لجبريل أو بالعكس، وإن كانت ما فيهما مبهمة ظاهرًا، وكلام المصنف فى الباب الثالث يقتضى اختلاف الضمير فيهما.

أقول: يعنى أنه على بعض الوجوه لا يكون من قبيل النوع المذكور عند أهل البلاغة الآتى ذكره كما صرح به القائل، والصور على هذا اثنى عشر وجهًا تجرى فى هذه العبارة، من ضرب وجوه من الثلاثة فى أربعة جاءت من اتحاد الضميرين واختلافهما، فإن ضربناها فى وجهى الكبرى كانت أربعة وعشرين، ولكن ما قاله لا وجه له، فإن البلاغة والمبالغة إنما جاءت من الإبهام، وهو الوجود فى سائر الوجوه لدلالتها على أن ما أوحى إليه لا يحيط به نطاق العبارة، ولا تسعه الأسماع والأذهان البشرية، ولا تطلع على شرفاته الأنفس القدسية.

(وهذا النوع من الكلام يسميه أهل النقد والبلاغة بالوحي والإشارة، وهو عندهم أبلغ أبواب الإيجاز) الإيماء الإشارة والوحى كلها بمعنى واحد هنا، وهذا نوع من محاسن الكلام البليغ، صرح به المبرد فى كامله وسماه الإيماء، وصرح به التبريزى فى شرح ديوان أبى تمام، وفى الكشاف إشارة إليه، وقد وقعت هذه التسمية فى كلام العرب أيضًا، كقوله:

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحى المريب مخافة الرقباء

وهو أن يقصد بالكلام معنى غير ما وضع له، وغير لوازمه المعروفة فيؤخذ منه معنى لطيف يفهمه أهل اللسان الأذكياء، ولدقته سموه بهذا الاسم ومثلوا له بقوله:

جاؤا بمذق هل رأيت الذئب قط

فإنه أراد أنه مزج بماء كثير حتى مال لونه للرمادية، ثم كنى به عن لؤمهم وبخلهم، ومنه قول المنازى فى صفة واد:

تروع حصاه خالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

وقد صرح به أهل المعانى، قال أبو هلال فى كتاب الصناعتين فى فصل عقده بهذا: الإشارة أن يكون اللفظ القليل مشارًا به إلى معان كثيرة بإيماء إليها ولمحة تدل عليها، وذلك كقول الله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم:١٦] وقول الناس: لو رأيت عليا بين الصفين. انتهى. ثم أورد له أمثله وشواهد كقوله: أتعيرنى وأنا أنا. وقوله:

هذا رجائى وهذى مصر معرضة وأنت أنت وقد ناديت من أنت

كما فصلناه فى طراز المجالس، وهذا ليس له عبارة مخصوصة كالموصول وما نحن فيه، فإن الإيجاز من لوازمه، وهنا لما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم:١٠] قصد أنه أوحى إليه بأسرار عجيبة بواسطة غير البشر، وبغير واسطة لا يمكن تفصيلها،

ولا تقدر العقول على إدراك حقائقها، وأراد بهذا أنه له مرتبة عظيمة وله من الزلفى والقرب منزلة لم يصل إليها سواه، ولذا عبر بالعبد إشارة إلى أنه ليس بأجنبى فى مقامه إلى غير ذلك من المعانى التى لو فصلناها ضاق عنها نطاق البيان، وبعض الشراح لما لم يقف على مراده قال: تسميته بالإشارة واضح، لكن الذى عليه أهل البلاغة أنه تفخيم نحو: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨].

وأما تسميته وحيًا فلعله اصطلاح قديم، وهو نكتة لإيراد المبتدأ موصولاً والأبلغية فيه بالإيجاز، وفيه أنه ليس بلازم هنا كما إذا قلت فى شىء واحد علمت ما هو كراهة أن يطلع عليه غيرك، فما ذكره ممنوع، وتعقبه أى المصنف رحمه الله تعالى من قال: إنه أتم أنواع الإيجاز، لأداء المراد بلفظ أقل من المتعارف فيه، وقد ترك المصنف رحمه الله تفصيله لعظمته، فمنع منعه وزعم دفعه بما لا محصل له، ولبعض الشراح هنا كلام لا محصل له أضربنا عنه لعدم فائدته، والعجب من عدم اطلاع هؤلاء وخبطهم خبط عشواء، والنقد تمييز الجيد من الردئ بنظر سديد، ففيه استعارة لتشبيه الكلام بالذهب ونحوه، والعارف به يسمى بالصيرفى، وقوله: «وهذا النوع» إشارة إلى هذا الكلام وأمثاله، أو إلى النوع الذى فى ضمن جزئى من جزئياته فلا يرد عليه أن ما ذكر ليس بنوع بل كلام لشخص، والمراد بأهل البلاغة البلغاء أو العلماء بعلم البلاغة والبلاغة عندهم معروفة.

(وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ **[النجم:١٨] انحسرت الأفهام عن تفصيل ما أوحى، وتاهت الأحلام فى تعيين تلك الآيات الكبرى)** انحسر بمعنى أعيى وكل، وتاه من التيه وهو الضلال فى الطريق والتحير، والأفهام جمع فهم وهو الإدراك، والأحلام جمع حلم بزنة قفل وهو العقل، ويكون بمعنى ما يراه النائم وليس بمراد هنا خلافًا لمن توهمه، وشبه الطالب للوقوف على المعنى بسالك فى الطريق الطويلة التى يتعب المسافر فيها، وقد يخفى عليه فيضل فيها، فبين قوله تاه وانحسر مناسبة تامة، والتفصيل التمييز وضد الإجمال والتعيين تحقيق عين الشىء، وفى ذكر التفصيل مع الانحسار والتعيين مع التيه لطف تام، والإشارة بتلك الآيات لجميع ما رأى، وقيل: للمرئى منها وهو آيات كبرى لا إلى جميعها، لما مر من أن احتمال رؤية البعض هو الراجح، فيليق حمل كلام المصنف رحمة الله تعالى عليه، وإن كان خلاف الظاهر مع أن التعظيم إنما يستفاد من حذف المفعول به الذى هو بعضها، واعتبار أن التقدير: لقد رأى من آيات ربه الكبرى ما رأى وفيه نظر.

(قال القاضى أبو الفضل) وهو المصنف عياض رحمه الله تعالى **(اشتملت هذه الآيات على إعلام الله تعالى بتزكية جملته صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى مجموعها من قوله:

﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ [النجم:١] إلى قوله: ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [النجم:١٨] إن لم يكن كل واحدة منها مشتملة عليه، والتزكية تطهيره عن النقائص البشرية، وجملة ذاته وصفاته الظاهرة والباطنة ونفسه القدسية، وإذا أخبر الله تعالى بذلك فقد جعله زكيا. **(وعصمتها من الآفات فى هذا المسرى)** العصمة: من عصمه يعصمه من باب ضرب إذا حفظه وصانه، واعتصمت بالله امتنعت به، والاسم العصمة، والمسرى مكان السرى أو نفس السرى على أنه مصدر ميمى، والآفات جمع آفة وهى ما يعرض من المفاسد، ولما أخبر الله تعالى فى هذه الآيات بما حصلت به التزكية كان كأنه أعلم بها نفسه، ولذا فسره المصنف رحمه الله تعالى.

بقوله: **(فزكى فؤاده ولسانه وجوارحه)** قال السيوطى رحمه الله تعالى: وقع فى نسخة: «وزكى» بالواو، والصحيح أنه بالفاء التفسيرية المفسرة لقوله اشتملت، والواو مخلة بالمعنى، ولا وجه لما قاله، فإن العطف التفسيرى كما يكون بالفاء يكون بالواو، كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ﴾ [يوسف:٨٦] وقد يكون أبلغ إذا قصد أنه لمغايرته بالتفصيل والإجمال، كأنه غيره، والفؤاد القلب عبر به أو لموافقة الآية، وعبر بعده بالقلب فرارًا من صورة التكرار، وقيل: الفؤاد وعاء القلب، فذكر المحل وأراد الحال، وقيل: هو داخله ويكون بمعنى العقل، ويجوز إرادته هنا والأول أصح وأوضح، واللسان معروف، والجوارح جمع جارحة وهو العضو الذى يكتسب به كما فى الصحاح، ويعلم ما جرحتم أى كسبتم والظاهر اختصاصها بالأعضاء الظاهرة كاليدين، وجعلها شاملة للقلب لاكتسابه بعض الأمور، أو على التغليب فهو تعميم بعد تخصيص تكلف، ولم يذكر هنا إلا اللسان والبصر، ولذا قيل: المراد بعض جوارحه أو هو بناء على أن أقل الجمع اثنان، أو هو بالنظر لكل من المعنيين، أو لجعل هذين العضوين بمنزلة الجميع أو عبارة عنهما، لأن المرء بأصغريه قلبه ولسانه، وهما كالسلطان والوزير وما عداهما تبع لهما، والذى فى نسخ الشراح هنا **(قلبه بقوله ما كذب الفؤاد ما رأى)** بدون إتيان واو وهو الظاهر، لأنه بدل مما قبله بدل مفصل من مجمل، وقد جوز فى مثله أن يكون بدل كل وبعض بتقدير ضمير أو بدونه، وفيه كلام فصلناه فى غير هذا الكتاب، وفى بعض النسخ: «وقلبه» بالواو على نهج ما مر فى العطف التفسيرى، وروى فزكى قلبه بالفاء التفصيلية التفسيرية على اللف والنشر، أو هو استئناف جواب سؤال مقدر تقديره كيف زكاه فقال قلبه إلى آخره، والمقام مقام بسط وتطويل وهو مقبول من مثله، فالقول بأن فيه طولا، ولو قال فزكى قلبه بقوله إلى آخره مع نصب القلب وما بعده أولى وأخصر غير متجه، والكذب معروف يوصف به الكلام والمتكلم، وقيل: المعنى ما

كذب الفؤاد ما رآه أى اعتقده، وهو غير مقبول عند المصنف رحمه الله تعالى لأنه يأباه.

(ما زاغ البصر وما طغى) وقال المفسرون: إن القلب لم يوهم العين ولم ينكر ما رأته ويلزم من تزكيتها تزكيته، فلا يقال: إن التزكية حينئذ للعين لا للقلب؛ لأن قبوله الحق تزكية له، وهذا مراد من قال ما قال فؤاده للذى رآه بصره لم أعرفك كما قاله القاضى، ولو قال ذلك كان كاذبًا؛ لأنه عرفه وهل المزكى الرب أو غيره وسيأتى تفصيله، والمراد نفى الخطأ عن اعتقاداته.

(ولسانه بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم:٣]) وهذا وإن لم يكن مخصوصا فيكفى شموله له إلا إذا خص بالقرآن، كما ذهب إليه الأكثر، إلا أنه بنى كلامه على بعض الأقوال.

(وبصره بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧]) أى ما مال بصره صلى الله تعالى عليه وسلم يمينًا وشمالاً، ولا تجاوز حده فى نظره لما هو أمامه، ففيه تزكية لبصره وهو تزكية له، وبيان لثبات جنانه أو كمال أدبه وهو فى رؤيته لربه جل وعلا فى معراجه كما سيأتى.

(وقال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ [التكوير:١٥،١٦] إلى قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير:٢٥]) هى النجوم.

فالخنس: الكواكب الرواجع وهى ما عدا النيرين من السيارات، ولذا وصفها بالجوار لسيرها. والكنس: التى تغيب فى مغاربها من كنس إذا دخل كناسه، والكناس نقر الظبى كالغيل للأسد، والوكر للطير، والجحر للحشرات، والبيت للإنسان، فهو على التشبيه.

والخنس: تقعر الأنف والظباء توصف به، والشيطان من الجن مردتهم، وقد يخص بإبليس من شاط إذا احترق، أو من شطن إذا بعد، وهو أنسب بالرجيم لأنه المرجوم بالشهب، **(لا أقسم. أى: أقسم أنه ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير:١٩] أى كريم عند مرسله)** وهو الله عز وجل، فعلى عدم الزيادة أنه واضح غير محتاج للتأكيد بقسم وغيره، وهو قول لأكثر المفسرين لأنه الأصل، وعلى الزيادة لمناسبة المقام، ولقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٦] ولثبوت الزيادة فى قوله: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة:٧٥] مع اشتراك المقامين فى بيان شأن القرآن، واختاره المصنف رحمه الله تعالى لمناسبته لما عقد الفصل، وأشار لعدم القسم فيما سبق لما فيه من التعظيم، أو إشارة لجواز الأمرين، أو الفرق بين الموضعين مع أن فى الآية ما يناسب

النفى، وإيهام عدم جواز غيره لا يعتد به، وضمير أنه للقرآن أو لما أخبر عنه من المغيبات، والقول بمعنى المقول والرسول المرسل، ولم يغير لفظ القرآن كما هو دأبه، وقيل: التقدير لقول مرسل رسول، والكريم بمعنى العظيم، أو الجواد بسعادة الدارين، قيل: فاعل أقسم جبريل وإضافة القسم له لإلقائه له صلى الله تعالى عليه وسلم كلامًا مؤلفًا، ثم صرفه عنه بقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠]. وكريم ومكين صفة جبريل عليه الصلاة والسلام على الأصح، وقيل: المراد به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وتفسير المصنف رحمه الله تعالى بكريم عند مرسله لا حاجة إليه مع قوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] والغرض أنه عنده غير الأصح، ولذا نقله عن الرمانى فيما يأتى.

أقول: يجوز جعل ضمير أقسم لله عز وجل، واعتراضه على المصنف رحمه الله تعالى لا وجه له، سواء أراد أن المكانة عند الله يستلزم كرمه عنده، أو أن العندية من قوله عند ذى العرش؛ لأنه مقام مدح فيقتضى التصريح بما يدل عليه، مع أن ما ذكره غير مسلم والعندية تشريف وتعظيم فتأمل.

(ذى قوة على تبليغ ما حمله من الوحى) حمله بالتشديد مع البناء للفاعل أى حمله الله، أو المفعول والتحميل فى الرسالة لثقلها مشهور وهو فى الأصل استعارة لثقل الأمانة، وعند ظرف لمكين والقوة معروفة، وقد تفسر بالمنزلة كما يقال: فلان قوى عند السلطان، فيتنازع هو ومكين فى الظرف أو الظرف صفة أخرى، والقوة صفة جبريل عليه الصلاة والسلام لما حمله إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، أو هو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما بلغه لأمته، والمراد بالوحى القرآن لقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥].

(مكين أى متمكن المنزلة من ربه رفيع المحل عنده) يعنى أن مكين بمعنى متمكن المنزلة، أى معظم مبجل رفيع المقدار عنده، ومعنى العندية معلوم مما مر فى إعرابها، وتفسيره بالتمكن لا يخالف ما تقدم من أن المكانة المنزلة عند الملك كما قيل: **(﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ [التكوير: ٢١] أى فى السماء)** ثم بفتح المثلثة وتشديد الميم مبنى على الفتح اسم إشارة إلى المكان بمعنى هناك، وترسم بالهاء للوقف بها عليه، ونقل أنه لغة فيه أيضًا كما مر، ودل على قوله: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ قوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ [التكوير: ٢٠]، وإشارة البعيد والمقام وهو قريب من قوله فى الكشاف: ﴿مُّطَاعٍ﴾ ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ [التكوير: ٢٠] فى ملائكته، ويجوز تعلقه بالأمانة وبهما.

(أمين على الوحى) وخصه بذلك لأن المقام يقتضيه، وهو مؤتمن عليه وعلى غيره،

ولذا فسر بمقبول القول فصدق فيما يقول، ويجوز فيما ذكر أن يراد به جبريل والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لإطلاق الأمين على كل منهما، وكون جبريل عليه الصلاة والسلام مطاعًا فى السماء أظهر، وإن قيل: النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مطاع فيها، أيضًا لإمامته بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيها وما جرى بينه وبين ملك الجبال وغيره إلا أنه خلاف الظاهر، وجوز فى ثم أن يكون إشارة للظرف السابق، أى: مطاع عند ذى العرش مقبول الشفاعة وهو بعيد.

(قال على بن عيسى رحمه الله تعالى) فى المقتفى الظاهر أنه أبو الحسين على بن عيسى ابن على بن عبد الله الرمانى الإمام فى النحو واللغة والتفسير والكلام، له تفسير عظيم لم نقف عليه، وهو تلميذ ابن دريد، ويروى عنه جماعة، توفى ليلة الأحد حادى عشر جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، وقيل: سنة اثنين وثمانين، ومولده ببغداد سنة ست وتسعين ومائتين، وأصله من سرير أو الرمان نسبة إلى بيع الرمان أو إلى قصر رمان، وهو قصر معروف بواسط كما قال ابن خلكان، وله ترجمة فى الميزان. **(الرسول الكريم هنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، فجميع الأوصاف بعد على هذا له صلى الله تعالى عليه وسلم)** هذا قول الجمهور، وبعد هنا منهم من قال: إنه بالموحدة بلفظ بعد ضد قبل، أى بعد ذكره على هذا القول والتفسير، ومنهم من قال: إنه بالمثناة الفوقية فعل مجهول من العدد، والجملة خبر وعلى الأول الظرف متعلق بقدر وله خبر، وعلى متعلق بما تعلق به أو بالشيء المقدر، وضمير له عليهما، أى على القولين للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، أى على هذا القول الأوصاف المذكورة بعده، أو المعدودة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم حتى مطاعيته فى السماء كما مر، وما قيل من أنه فى الصفات المذكورة ما يعين أنه جبريل عليه الصلاة والسلام مبنى على الظاهر المتبادر، وردوه بأن ملك الجبال قال: أمرنى ربى أن أطيعك ولا يتخلف ملك عن إمرة، بل الشجر والدواب كذلك لا يخفى ما فيه.

(وقال غيره: هو جبريل عليه الصلاة والسلام فترجع الأوصاف إليه) ضمير غيره هنا راجع لعلى بن عيسى، ولم يلتفت لغيره المذكور لعدم تعينه ولا تابع له، أو هو راجع لهما بتأويله بغير من ذكر ومثله كثير، فالغير هنا غير الذى وافقه على القول المذكور، أما كونه هو على أن عنه روايتين فى التفسير فتعسف لا وجه له، وإن جوزه بعضهم، وكون المراد بالرسول الكريم جبريل عليه الصلاة والسلام وهو قول جمهور المفسرين، ويؤيده ما رواه الواحدى من أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال له: «ما أحسن ما أثنى عليك ربك» بقوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ [التكوير: ٢٠] إلى آخره.

وما مر من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ فقال: كنت أخشى العاقبة حتى نزلت هاتين الآيتين» وعلى القول الأول يحمل ما وقع فى خطبة المقامات للحريرى، فلا وجه لتشنيع ابن الخشاب عليه، ولا لقول الشريشى أنه عثرة، وضعف القول الأول السهيلى بأن الآية وردت لتكذيب الكفار أن محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم تقول القرآن، فأضافة الله لجبريل عليه الصلاة والسلام، وإن كان فى الحقيقة قوله تعالى لأن جبريل هو الذى جاء به إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فصار كأنه قوله فلا يسوغ على هذا أن يكون الرسول الكريم محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم وإن كان رسولاً كريمًا، قيل: ما ذكره ظاهر إن ثبت أنها وردت لهذا الغرض، ورد بأن لإرادة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مساغًا، ولو سلم ما قاله لأن مدعى الكفار أنه مقال محمد من تلقاء نفسه، وقوله ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩] ناطق بأنه قول من أرسله كما مر، فينتفى كونه من تلقاء نفسه فتدبر.

(**ولقد رآه يعنى محمدًا، قيل: رأى ربه، وقيل: رأى جبريل فى صورته**) يعنى الرائى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم عن التفسيرين، واختلف فى المرئى؛ فالجمهور على أنه جبريل على صورته الأصلية بستمائة جناح، ومنه يعلم نكتة تخصيصه بالأفق، قيل: ولم يره غير مرة بهذه الصورة، وقيل: رب العزة، قال بعض الشراح: هو قول ابن مسعود رضى الله عنه، وقدمه المصنف رحمه الله تعالى لموافقته لغرضه وهو قول غريب، قيل: إنه لم ينقل عن أحد ممن يعتمد عليه ويأباه كل الإباء.

قوله تعالى: ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير:٢٣] سواء كان نواحى السماء أو حيث تطلع الشمس، إذ لم يقل أحد أنه رأى ربه بالأفق، وأجيب بأنه إذا جاز عود ضمير رآه لربه فرؤيته بالأفق كاستوى على العرش، أو المراد بالأفق الذى فوق السماء السابعة، وحينئذ فقوله: ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم:٨] من قبيل دنو المكانة لا المكان، أو المراد به المنزلة العالية كما أشار إليه الإمام، وقولهم لم يقل به أحد يرده أنه روى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه.

(**وما هو على الغيب بظنين أى بمتهم**) الغيب: الغائب عن الحسن الذى أخبر به، أو ما هو وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على إخبار الغيب، فيشمل الذات والصفات والقرآن، فيستدل به على غيره، أو المراد ما غاب عن علمكم، فيشمل إخباره عن الشاهد والغائب، والظنين: بالظاء المشالة ما ينسب إلى التهمة للوهم والغلط، أو المراد ليس مظنونا به ما نسب إليه مما اتهمته به الكفرة، فالنفى فيه كالنفى فى قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] وقرئ فى السبعة بالضاد أيضًا، كما أشار إليه بقوله: (**ومن**

قرأها) أى الآية أو الكلمة، وروى قرأه أى هذا اللفظ **(بالضاد)** وهو نافع، وعاصم، وحمزة، وابن عامر من الضن والضنة وهى البخل.

(فمعناه ما هو بخيل بالدعاء به والتذكير بحكمه وبعلمه، وهذه لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم باتفاق) الفاء زائدة فى خبر الموصل لتضمنه معنى الشرط، وضمير معناه للفظ أو القول المذكور، وقوله بالدعاء به: الدعاء بالمد بمعنى الدعوة أو المدعو إليه، والباء فى به على هذه الرواية إشارة إلى أن على فى النظم بمعنى الباء، أو هى بمعنى إلى أو للسببية، والمدعو إليه أحكام الشريعة كلها، وروى الدعاء له أو الدعاية بكسر الدال ومثناة تحتية بعد الألف، والتذكير التنبيه أو الوعظ، وحكمه بضم الحاء وسكون الكاف، أو بكسرها وفتح الكاف جمع حكمة وهو الكلام النافع، والعلم ما علم منه من كل أمر فيه علم وحكمة، أى ما هو ببخيل على الناس فى تبليغ ما أوحى إليه وقد أمر بتبليغه، وهذه إشارة للآية أو الصفة على هذه القراءة، والاتفاق على هذه بخلاف قراءة الظاء؛ لأن هذه العلوم والحكم أمر نفيس فيه سعادة الدارين، ومثله مما يضمن به البشر فنزهه عن مثله لكرم جبلته.

(وقال الله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: ١] **الآيات)** أى اقرأ الآيات إلى آخرها، أو أذكر أو أعنى.

(أقسم الله تعالى بما أقسم به من عظيم قسمه) أبهم المصنف ذلك إشارة إلى عظمته كما مر، وإلى عظمة ما فيه بناء على أن نون قسم هنا وهى الحرف، أو الدواة، أو اسم للسورة، فأقسم بالقرآن وما كتب به، والقلم هو المعروف، أو قلم اللوح، وقيل: نون الحوت الذى عليه الأرض، والقسم على ظاهره أو بمعنى المقسم به.

(على تنزيه المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم مما غمصه) وفى نسخة: «غمصته» **(الكفرة به وتكذيبهم له)** غمصه بفتح العين المعجمة والصاد المهملة، وغمص بمعنى عابه وحقره، قال ابن القطاع: غمص الناس غمصًا احتقرهم وعابهم والشئ كذلك، وغمص النعم وأغمصها كفرها. وقال التلمسانى: الغمص بالصاد المهملة العيب والتنقيص، وأكثر ما يكون فى الدين. وقال ابن حبيب فى غريب الموطأ: الغمض بضاد معجمة أخت الصاد تصغير النعمة وتحقيرها، وبالصاد المهملة إذا صغر الناس وازدرى بهم، واستحسن هذا الفرق بعد أن قال: إنهما سواء.

فيجوز فى كلام المصنف رحمه الله تعالى الإهمال والإعجام، إلا أن الأول أرجح وعليه اقتصر الشراح، وقوله: «وتكذيبهم» بالجر عطف على ما، والمراد بالتكذيب الواقع

فى كلام المصنف كما فـى بعض الشروح هو قولهم: «هذا ساحر كذاب» وأجمل بعضهم فقال: المراد التنزيه عن الكذب المضر القادح أو ما كذب به.

أقول: لا يخفى أن المصنف رحمه الله تعالى لم يذكر من الآيات ما يدل على التكذيب نفيًا وإثباتًا، وليس فى كلامه غير ما أنت بنعمة ربك بمجنون، وما قيل أولا لا مساس له بكلامه، ونظر المصنف رحمه الله تعالى فى مقاصده دقيق لمن عرف مغزاه، فالمراد أنه تعالى أنعم عليه بما علمه، وأعطاه من نعم الدارين، وأغناه عما سواه ونصره على أعدائه، ومن أوتى مثل هذا لا يكذب، فإن فعل أو تكلم بما لا يليق فهو مجنون، ولذا قال الفاضل الحلبى: إنه تعالى نزهه عن تكذيبهم وهو واقع، لأن معنى الآية: ما أنت بمجنون بسبب أنه تعالى أنعم عليك بكمال العقل والمعرفة، فأفادت تنزيهه عن الكذب وأن تكذيبهم كلا تكذيب لعدم الاعتداد مع قيام الدليل على خلافه.

(وأنسه وبسط أمله) أنس فعل ماض معطوف على أقسم بقصر الهمزة وتشديد النون من التأنيس، أو بالمد والتخفيف من الإيناس، يقال: آنست به وآنسته إذا أذهب وحشته وسكنته كما مر، والأمل: الرجاء، وبسطه: توسيعه وتكثيره، أو من الانبساط وهو المسرة، كما ورد فى الحديث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «عائشة يبسطها ما يبسطنى» أى يسرها ما يسرنى فهو استعارة تدل على أنه عامله صلى الله تعالى عليه وسلم بألطافه حتى كثر رجاءه أو سره.

(بقوله محسنًا خطابه ما أنت بنعمة ربك بمجنون) محسنًا حال من الضمير، وروى مخففًا ومشددًا من الإحسان والتحسين، والثانى أحسن عند من له ذوق، ولذا اقتصر عليه البرهان رحمه الله تعالى، وخطابه مفعول بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ [الشعراء:١٨٦] إلى آخره مقول القول، وهو جواب القسم فى النظم وتوسيع الأمل لجعله ملتبسا بنعم الكريم الذى رباه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾ [القلم:٣] إلى آخره، وفيه إيماء لدوامها وازديادها، وقيل: خطابه المقرون بتخليته وتحليته وسع أمله؛ لأن من أثنى على أحد وسع أمله، وهو تكلف أنت فى غنى عنه بما عرفته، والباء للسببية أو الملابسة أو المصاحبة، وقال الشريف: المعنى أن عدم الجنون لإنعام الله عليه ولطفه، أو حال كونه ملتبسًا بنعمة العقل والنبوة والأخلاق العلية مما يدل قطعًا على كذبهم، وهو حال من معمول معنى النفى أى انتفى عنك أو من فاعل بمجنون كما ذهب إليه الزمخشرى، والباء زائدة ليصح العمل، وضعف بأنه يلزم نفى الجنون المقيد لا مطلقًا، وأجيب بأن القيد دائمى فيصح المعنى، ولعل غرضه أن مقام رد المعاند يقتضى ما لا يوهم ولو فى بادئ الرأى والتقييد

موهم، وفيه أن تقييد النفى موهم أيضًا لكن إيهامه أقل، والقيد للإخبار ومثله كما ذكره ابن الحاجب، فالحكم بعدم الجنون فى زمن تلبسه بالنعمة وعدم الجنون مطلق، وقيل: الباء للقسم وبه جزم فى لباب التفاسير، وضعف بأن القسم لا يدخل على القسم. انتهى.

أقول: هذا ليس بشىء؛ لأنه وقع مثله فى الكتاب العزيز ولم يلتفت فيه لمثل هذا الإيهام، لأن السياق ومقام المدح شاهدا صدق لا يحتاجان لتزكيه، ألا ترى أن أبا البقاء رحمه الله تعالى أعرب قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة:٨،٩] حالا والعامل اسم الفاعل وهو بمؤمنين، وذو الحال الضمير المستتر فيه، ولما خطأه أبو حيان رحمه الله بمثل ما قاله المعترض رده المحققون بما قلناه، فالاعتراض على الزمخشرى غير مسموع أصلاً، ولا حاجة إلى ما أجابوا فإنه كله من ضيق العطن، ولولا خوف الملل لأطلناه ولكن الثمرة تدل على الشجرة.

(تنبيه): خطر ببالى هنا نكتة، وهى أن الله تعالى أقسم بالقلم وما خط به لمناسبة المقسم عليه، لأن المجنون مرفوع عنه القلم، فإتيانه به يدل على تكذيبهم فيما قالوه فله موقع هنا ليس لغيره.

(وهذه نهاية المبره فى المخاطبة، وأعلى درجات الآداب فى المحاورة) الإشارة للأمور المذكورة من التنزيه عما قالوه فى حقه تعالى. **(بقوله ما أنت)** إلخ، والتكذيب الذى دل عليه والتأنيس بتقديم الدليل بقوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ [القلم:٢] قطعًا لعرق الشبهة من أول الأمر، ثم بيان تحقيق آماله بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم:٣] به عليك أو غير مقطوع، وهذا غاية البر والإحسان فى خطابه له صلى الله تعالى عليه وسلم، وأقصى مراتب الأدب اللائق بمقامه صلى الله تعالى عليه وسلم تعليمًا لعباده، والمحاورة بالحاء والراء المهملتين كالمراجعة والمجاوبة وزنًا ومعنى، ففيه وجوه أكثر من خمسة، فلم يكتف بمجرد الرد عليهم كمن رأى من يحبه فى هجوم أعدائه بمقالهم فكذبهم وبين وجه كذبهم، ثم ذكر ما يطرد وحشته، ثم وعده بما هو أعظم مما ذكره.

(ثم أعلمه سبحانه وتعالى بما له عنده من نعيم دائم وثواب غير منقطع) أى بعد أن برأه ونزهه أعلمه بما أعده له بعد من الثواب على ما قاساه.

وعطفه بثم إشارة إلى بعد ما بين الأمرين من تعبه السريع الانقطاع، ونعيمه الدائم الواقع فى مقابلة تكذيبهم له، والأجر المضاعف على عمله وصبره على طعنهم، ورميهم له بما لا يليق ففيه تسلية له صلى الله تعالى عليه وسلم، كأنه قال له: لا تحزن فقد تبين

كذبهم بداهة، فلا نقص يعود عليك مما قالوه، فلك نعيم مؤبد فى مقابلته والصبر على الشدائد والمقاساة فى التبليغ، ففيه تثبيت وتخصيص، فالثواب هو الأجر وغير منقطع تفسير لقوله غير ممنون.

(**لا يأخذه العد**) أى: لا يحصى ولا يعد، ففيه استعارة كأنه إذا عد أخذه، أو لا يغلبه العد ويحيط به كما قيل فى قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥] ومنه يعلم وجه تقديم السنة، والمراد المبالغة فى كثرته.

(**ولا يمن به عليه**) يمن: بصيغة المبنى للمجهول من المن، وهو تعداد المنعم نعمه وصنيعه، والتقدير: لا يمن أحد من الخلق بها عليه لأنها من الكريم الوهاب، أو لا يمن بها الخالق، ويؤيده أنه روى بصيغة المبنى للفاعل. وقال الطيبى رحمه الله تعالى: إن من شأن الكرام أن لا يمنوا، ولذا قيل: إن ذكر الأجر يفيد أنه لا منة، والثواب لا ينقص بالمنة فنفيها تأكيد للأجر. وقيل عليه: إنه تكلف مردود، فإنه تعالى يمن على عباده كما صرح به فى مواضع عديدة، والأجر محض تفضل منه تعالى، إذ العمل لا ينفى بشكره ونيل المراتب العلية فضل آخر، وإعطاء ما لا يجب عليه فضل ثالث فتجرى وجوه المنة منه وهى تشريف منه، والتحقيق أنها لما قبحت من غيره تعالى واعتادت النفوس النفرة منها، لا يفعلها الله تعالى لإيهامها ما لا يليق به، وإن حسنت منه ففيه تأسيس لتعظيم يستفاد منه تدقيق النظر.

أقول: ما ذكره من التحقيق ليس بشىء، فإن المنة فعلاً وقولاً مستحسنة منه تعالى، وقد ورد التصريح بها فى نحو قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾ [الحجرات:١٧] بل قد يستحسن من غيره أيضًا، ولذا قيل: إن هذا شبيه بقول المعتزلة فافهم، وفى قول المصنف رحمه الله تعالى إشارة إلى تفسير آخر فى قوله: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم:٣].

(**فقال** ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم:٣]: أتى بالفاء لأنه متفرع على ما قبله من الإعلام، أو تفصيل له فى الجملة، أى: لك علىَّ ما احتملته من أذاهم ثواب غير منقطع، أو غير ممنون به عليك من غيره لأنه موهبة الهبة، وأتى بتأكيدات أربع للاهتمام والتقرير والإنكار وزيادته، فأكد المجموع بالمجموع أو هى موزعة على ما ذكر، وإن لم يكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم منكرًا، فإنه قد يراعى حال السامع كما فى التعريض، وقد علمت أن المن له معانى القطع والنقص وتعديد النعم، وأشار المصنف رحمه الله تعالى إلى ذلك كله بقوله غير منقطع، وقوله: «لا يأخذه العد» إلى آخره، إلا أنه قيل عليه: إنه لا يتم ما ذكره من الإعلام بالكل إلا على القول بجواز استعمال المشترك فى معانيه، أو

جوازه فى النفى أو إرادته على البدل، فقول المصنف رحمه الله تعالى السابق: ثم علمه إلى آخره، وعطفه بالواو غير حسن إلا أن يكون بمعنى أو، وكل قسم على تفسير، وفى تحرير ابن الهمام: المشترك يعم فى النفى وهو المختار، والقول بأنه أعلمه بما له عنده، والبيان من المصنف رحمه الله تعالى بثبوت التفاسير تكلف وتحميل للعبارة ما لا تطيقه، والظاهر أنه بيان للوجوه المذكورة فى الآية على وجه يفيد ثبوتها كلها، لاستلزام عدم العد لعدم الانقطاع والنقص بحسب عرف التخاطب.

(**ثم أثنى عليه بما منحه من هباته**) عظم بثم لما مر، أى: مدحه بما وهبه وأعطاه من موهوباته السنية (**وهداه إليه**) من معرفته وتوحيده، أو من القرآن وآدابه ودلالته دلالة موصلة، فإن أفعال العبد وصفاته بإيجاد الله فيه كما هو مذهب أهل الحق.

(**وأكد ذلك تتميمًا للتمجيد**) أى التعظيم من المجد وهو الكرم، أى: تتميمًا لنسبته إليه.

(**بحرفى التأكيد**) زيادة لتعظيمه واهتمامًا به، ففيه تعظيم على تعظيم، وهما اللام، وإن مع القسم وأسمية الجملة، ولذا قيل: الأولى أن يقول بوجوه التأكيد، إلا أنه اقتصر على التصريح منه، فإن الأسمية قد لا يقصد بها التأكيد ولذا قالوا: إن نحو زيد قائم يلقى لخالى الذهن لكنه غير تام بالنسبة للقسم.

(**فقال**: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] أتى بعلى إشارة لاستعلائه عليه لكونه مجبولا عليه بغير تكلف. (**قيل: القرآن**) هذا مروى عن عائشة والحسن رضى الله عنهما وغيرهما كما سيأتى، والمراد أنه اتصف بكل صفة جميلة تعلم منه، ومنزه عن كل ما لا ينبغى مما أنهى عنه، فليس هذا تفسير آخر كما قيل.

(**وقيل: الإسلام**) ولذا قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى تفسيره: على دين عظيم والخلق يجىء بمعنى العادة والطريقة.

(**وقيل: الطبع الكريم**) أصل معنى الطبع الختم، وطبع السيف ونحوه عمله، ثم صار بمعنى الجبلة التى خلق الإنسان عليها، ومثله الخلق والخلاق وهو ملكه نفسية لا تقبل التغير بسهولة، وقال ابن الجوزى: حقيقته ما يأخذ الإنسان به نفسه من الآداب، وأما ما طبع فيسمى ختمًا، وقد اجتمع فيه صلى الله تعالى عليه وسلم من المكارم ما لم يجتمع فى غيره. وقال الإمام: المراد التخلق بمجموع أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهى مرتبة عظيمة، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم أمر بالاقتداء بهداهم، ولم يرد أصول الشرائع لعدم مناسبة التقليد فيها بالمراد ما مر، قيل: فى دليله نظر لجواز أن يراد الاقتداء

فى تحصيل اليقين بالأصول والعمل بمقتضاها فلا يلزم التقليد.

أقول: لا يخفى أن تقليد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لمن قبله من الأنبياء فى الأصول الدينية غير صحيح، وهو الذى أراده الإمام رحمه الله تعالى، فإن أراد مجرد سلوك طريقهم الموصلة لها لا نفسها فلا خلاف بينهما فتدبر.

(**وقيل: ليس لك همة إلا الله جل جلاله**): الهمة كما فى المصباح: أول العزم، من هم بالشىء، ويكون بمعنى العزم، يقال: له همة عالية، والمراد هنا الثانى، وهذا محكى عن الجنيد رحمه الله تعالى، قال: إنما سمى الله خلقه عظيمًا؛ لأنه لم يكن له همة فى غير الله سبحانه، فكان صلى الله تعالى عليه وسلم معاشرًا للخلق بجسمه ومزايلاً لهم بقلبه، فظاهره مع الخلق وباطنه مع الحق، يعنى أن عزمه صلى الله تعالى عليه وسلم فى إعلاء كلمة الله وتبليغ ما يوصل إليه، وفكره فى ذاته وتوحيده، فقول بعضهم إنه بعيد جدًا لا وجه له.

(**قال الواسطى**) فى الأول وتقدمت ترجمته (**أثنى الله عليه بحسن قبوله لما أسداه إليه من نعمه**) أسدى بمعنى أعطى أو أوصل وهما متقاربان، ومن بيان لما الموصولة والباء صلة اثنى أو سببية، والنعم فسرها الفاضل الشريف بالأخلاق العظيمة التى انتظمها الخلق فى الآية، وتبعه تلميذه ابن الحنبلى.

(**وفضله بذلك**) أى بما أسداه أو بحسن قبوله. (**على غيره**) من جميع المخلوقات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وغيرهم.

وقوله: (**لأنه جبله على ذلك الخلق**) أى خلقه مطبوعًا على خلقه العظيم الكامل الذى لا ينفك عنه، وضمير قبوله السابق للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وجوز فيه أن يكون لله، أى قبول الله أخلاقه، أو أنه جعل حسن قبوله مثنيًا عليه والأول أولى ولذا اقتصر عليه أكثر الشراح، وقيل: إن فى كلامه مناقشة؛ لأن المجبول على الشىء الذى طبع عليه بمعنى أنه خلق، كذلك لا يقال فيه إنه قابل لذلك الذى جبل عليه، لأن ما بالقول لا يكون ذاتيًا، فكان الأحسن أن يقول أثنى عليه بحسن ما جبله عليه ولله المنة المطلقة، فإنه المنعم بالشئ والمثنى عليه، وتتمة كلام الواسطى تشير لذلك، ورده السيد بأنه تقرر فى العلوم العقلية أن ما اتصف به المرء إما على الفاعلية أو القابلية، والمراد بالقبول تأثره وتحققه فيه، فصرح بأنه قابل لا فاعل ردا لطبيعيين، بل حسن قبوله أيضًا من الله فهو قابل له أيضًا، فأثنى عليه لا لفعله إياه بل لقبوله، وقبوله أيضًا ليس منه فظهر أن الاعتراض غير قابل للقبول بل للرد.

أقول: هذا الكلام كله تكلف مبنى على غير أساس، وتقريره أن مراد الواسطى بيان محصل معنى الإياب كلها فالنعم فى كلامه ليس بمعنى الأخلاق، بل كل ما أنعم الله به عليه لعموم الموصول وحسن القبول، مأخوذ من إشارة النص بقوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢] أى لست ممن تستخفك النعم والبطر لمعرفتك بالله ومقدار نعمه، وتفضيله على غيره من كونه له أجر لا يحصى، وقوله: «لأنه» الخ تعليل لمجموع ما قبله، يعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لسلامه طبعه وكمال أخلاقه حسن قبوله للنعم واستحق الثناء، وبهذا التقرير سقط الاعتراض، لأن الأخلاق وإن كانت بخلق الله فيما جعله قابلا لكنه غير مراد هنا، فما ذكره المجيب صلح من غير تراض فتدبر.

(فسبحان اللطيف الكريم المحسن الجواد الحميد) الكلام على سبحان مفصل فى محله، وهو منصوب على المصدرية، ومعناه تنزيه الله عما لا يليق بجلال ذاته ويكون كثيرًا للتعجب، فيقال عند رؤية كل أمر عجيب تنزيهًا عن أن يوجد شيئًا من غير حكمة وإن خفيت علينا، فالمراد هنا التعجب من كرم الله وإسدائه النعم الجليلة، ثم الثناء على من قبلها وجزاه بالأجر وليس للعبد فى ذلك تأثير، وقد ذكر المصنف رحمه الله تعالى مثله فى آخر الخطبة، وفيما ذكره من الأسماء إشارة لهذا، فاللطيف للطفه بعباده إذ وفقهم لحسن القبول، والكريم بما أسداه وأنعم به، والمحسن لهم بالثناء عليهم، والجواد بما أعطاهم من الثواب والأجر، والحميد المحمود فى كل أفعاله المذكورة، أو الحامد لهم أو لنفسه، فالجواد بتخفيف الواو كثير الجود والتشديد غير مسموع فيه. وقال فى عمدة الحفاظ: لا مانع منه إن قصدت المبالغة وفيه نظر، وقيل: السخى بناء على جواز وصفه بالسخاء كما بيناه فى شرح أسماء الله الحسنى. وقال ابن عصفور فى الممتنع: امتنعوا من وصف الله تعالى بسخى، لأن أصله من الأرض السخاوية وهى الرخوة، بل وصفوه بجواد لأنه أى بالتخفيف أوسع فى معنى العطاء، وأدخل فى صفة العلاء انتهى. وقد ورد إطلاق الجواد عليه تعالى فى حديث قدسى رواه الترمذى والبيهقى: «إنى جواد ماجد» ووقع فى بعض النسخ هنا بدل الحميد المجيد، أى ذو المجد والكرم وهوأنسب هنا.

(الذى يسر للخير وهدى إليه ثم أثنى على فاعله) يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] وتيسيره تسهيله بتهيئة أسبابه، ثم خلقه فيه وهداه لمنافعه حتى سعى فى كسبه وفاعله المباشر له، فإن الفعل ينسب وإن كان الفاعل حقيقة هو الله، والثناء كما يكون على الفعل يكون على الفاعل، كما قال: «أنت كما أثنيت على نفسك» وقوله: «فأنت كما تثنى وفوق الذى تثنى» فالاعتراض ساقط.

(وجازاه عليه) هو ناظر للأجر ثم كرر التعجب لتكرر الإحسان فقال: **(سبحانه ما أغمر نواله)** أغمر فعل تعجب بالغين المعجمة من الغمر وهو الماء الكثير، استعير لمطلق الكثرة والنوال العطاء. **(وأوسع أفضاله)** السعة معروفة شاعت فى الشمول والعموم والأفضال الأنعام. قال فى المصباح: تفضل عليه وأفضل إفضالاً بمعنى، وفضلته على غيره صيرته أفضل منه. انتهى. فما قيل الأفضال مصدر أفضله جعله فاضلاً وأفضله غريب خبط لا وجه له.

(ثم سلاه) بتشديد اللام من التسلية وهى إزالة الغم. **(عن قولهم بعد هذا)** أى: عما قالوه فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم وبعد متعلقة بسلاه، وهذا إشارة لكل ما ذكر من الرد والثناء، والظرف مؤكد لما تدل عليه ثم، وكونه للإشعار بأنه لم يكتف بالتسلية غير ظاهر.

(بما وعده له من عقابهم): أى تعذيبهم بما صدر منهم، وفى نسخة بالباء الجارة، وفى نسخة عقوباتهم بصيغة الجمع لتعدد المعاقب وأنواع العقاب، وروى عقباهم أى عاقبة سوء حالهم وما يؤول إليه، وفى نسخة عقباه أى عقبى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى نصره عليهم والانتقام منهم، ولما كان عذابهم وهلاكهم فيه مسرة وشفاء لصدور المؤمنين كما قيل: «مصائب قوم عند قوم فوائد» ، وكان وعدًا له، فلا وجه لما قيل: إنه استعمل الوعد فى الشر مجازًا، أو لأنه فى أصل وضعه عام، وجعل الموعود هو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى قوله: «وعده» متعين، والقول بأنه عدى بقوله له باعتبار أنه ذكر له تغيير فى وجوه الحسان، قيل: ما ذكر دليل على عدم رجاء إسلامهم، إذا لو كان ذلك مرجوًا لوعده به لأنه أحب إليه، والأحسن أن يقول على عقاب طائفة منهم، ولذا قيل: إن الوعيد تعريض بأبى جهل والوليد وأضرابهما، ورود بأن المصنف رحمه الله تعالى لم يقصد العموم، ولو سلم فما ذكره ممنوع لأنه يقال لكل كافر إن لم تنته فستبصر، ومقابله الوعيد بقوله:

(وتوعدهم بقوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ [القلم:٥] الثلاث الآيات) يأتى ما ذكره كله، أى: ذكر وعيدهم وتهديدهم، والجار متعلق بتوعد أو به وبما قبله على التنازع، والثلاث منصوب بمقدر كما مر، والآيات بدل منه منصوب بالكسرة لا مجرور بالإضافة لضعف نحو الثلاثة الأثواب، والمقدر أعنى أو أقرأ ونحوه ولا فرق بينهما كما تقدم.

وقوله تعالى: ﴿بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦] أى: أيكم الذى افتتن بالجنون اسم مفعول الباء زائدة أو مصدر؛ لأنه يجىء على زنة مفعول قليلا، أى بأيكم الفتنة والباء بمعناها أو بمعنى فى، ويجوز هذا إذا كان اسم مفعول أيضًا، أى: المفتون فى أى الفريقين

فريق المؤمنين أم فريق الكافرين أو من يستحق هذا الاسم، والإبصار بمعنى العلم ما بعده معموله أو مستأنف، أى: فى أيهما يوجد، والعقاب مفهوم من سياق التهديد وبقية الآيات ظاهر.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ [**النحل:١٢٥**]) أى بالمجانين على الحقيقة وهم من ضل ﴿عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥] بحيازتهم كمال العقل.

(**ثم عطف بعد مدحه**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**على ذم عدوه وذكر سوء خلقه وعد معايبه**) بعد منصوب على الظرفية مضاف لمدحه، أو مقطوع على الإضافة مبنى على الضم، فمدحه منصوب على المفعولية لعطف وهو الثابت رواية عن المزى، قيل: وفيه نظر لأنه يقتضى تقدم الذم على المدح وليس كذلك فى النظم، فالأحسن أن يقرأ بالإضافة، وقوله عطف أى التفت أو مال إليه، وعلى رواية المزى المعنى أنه ثنى مدخلا فلا يقتضى تقدم الذم إلا أن تعديته بعلى، وجعل الذى مما ثنى به مدحه تكلف فالوجه الأول، وكون المراد بالمدح قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ﴾ [القلم:٨] على أن المعنى أنه ذم على ترك إطاعتهم وهو مدح له صلى الله تعالى عليه وسلم وإن تضمن ذمهم، فالمراد عطف مدحه مع ذمهم بعيد جدًا، وذكر وعد مصدر مضاف أو ماض معطوف على قوله عطف، وعدوه كل من عداه لا معين كما مر، والعدو يطلق على الواحد وغيره، والمعايب جمع معيبة بمعنى العيب.

واعلم أن العطف يتعدى بعلى بمعنى الشفقة والحنو، وبعن للصرف والصد، ويقال: إذا ثنيته وأملته، والعطف النحوى يتعدى بعلى أيضًا، وما فى عبارة المصنف عطف لغوى لا نحوى، وتجويزه هنا لكونه بالفاء غير صحيح؛ لأنها ليست عاطفة فارتكابه والتحمل له تعسف وسوء خلقهم مقابل لعظم خلقه.

(**متوليًا ذلك بفضله ومنتصرًا لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم**) حالان من ضمير عطف، أى: لم يكمل ذلك لأحد، ولم يجعل بينه وبينه واسطة؛ بل فعله بنفسه اهتماما بتعظيمه ونصرته كما ذكره بكلامه النفسى أو اللفظى فى قوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ [القلم:١٦] إلى آخره.

(**فذكر بضع عشرة**) روى بضعة عشر، وفي المصباح: بضع بالكسر فى العدد وبعض العرب تفتحه، واستعماله من الثلاثة إلى تسعة يستوى فيه المذكر والمؤنث، ويستعمل أيضًا من ثلاثة عشر إلى تسعة عشر، لكن تثبت التاء فى بضع مع المذكر وتحذف مع المؤنث كالنيف، ولا يستعمل فيما زاد على العشرين، وأجازه بعضهم فتقول: بضعة

عشرون رجلا وبضع عشرون امرأة، وكذا قال أبو زيد. وعلى هذا المعنى البضع والبضعة فى العدد قطعة مبهمة غير محدودة. انتهى. وفيه اختلاف لأهل اللغة، وكلام المصنف رحمه الله تعالى ليس مخالفًا لما قالوه كما توهم، وما هنا ثلاث عشر أو اثنى عشر أو إحدى عشر بناء على عد المداهنة والاستظهار بالمال والبنين منها.

(**خصلة من خصال الذم فيه**) أى فى عدوه، والخصلة بفتح المعجمة الصفة مطلقا وغلبت فى صفات المدح إذا أطلقته، (**بقوله تعالى:** ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [**القلم:٨**]) فيما دعوك له من تعظيم آلهتهم ونحوه، وهو تهييج له صلى الله تعالى عليه وسلم على تصميمه فى مخالفتهم. (**إلى قوله تعالى:** ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [**القلم:١٥**]) أى أباطيلهم المنقولة عنهم، وهو جمع أسطار جمع سطر، وما وقع منه فى القرآن منقول عن النضر بن كلدة، لأنه دخل بلاد فارس وتعلم أخبار رستم وغيره، فكان يقول أنا أحدثكم بأحسن مما يحدث به صلى الله تعالى عليه وسلم، فنزل ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله.

(**ثم ختم ذلك**) أى ما عد من المعايب أورده عقبه كالخاتمة له. (**بالوعد الصادق**) لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم كما مر، وفى نسخة: «بالوعيد» وروى أيضًا الوعيد بالنصب صفة ذلك وصدقه لعدم تخلفه، وإن كان الوعيد يجوز تخلفه لكن لكونه وعدًا لا يخلفه من لا يخلف الميعاد، أو الصادق هنا بمعنى الخالص الذى لا يشوبه غيره كما يقال صادق الحلاوة.

(**بتمام شقائه وخاتمة بواره**): متعلق بختم أى بشقائه التام، والبوار: الهلاك، وعبر به فى نسخة الذى هو خاتمة أمره وآخر أحواله، أو حاله تجر إليه فسمى به.

(**بقوله** ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [**القلم:١٦**]) الوسم العلامة والكى، والخرطوم وخراطيم كعصفور وعصافير الأنف هنا، وأصله يختص بالحيوان كالفيل ونحوه، فاستعير للإنسان لإيذائه باستحقاقه والتهكم به، وهو كناية عن تشهيره بالقبائح فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما، وقيل: وسمه تسويد وجهه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، وخص الأنف لأنه أظهر الأعضاء تذليلاً للمتكبر عن الحق الذى عنده شمم فى أنفه فعوقب بضده.

(**فكانت نصرة الله له صلى الله تعالى عليه وسلم أتم من نصرته لنفسه**) أى: نصرته التى تولاها بنفسه فى قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم:١٦] إلى آخره، ونصرة نفسه على أعدائه هى لله أيضًا؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان لا ينتقم لحق نفسه الصرف وما فعله العظيم عظيم.

(ورده تعالى على عدوه أبلغ من رده لنفسه): رده بتكذيبهم بنفسه أبلغ من رد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وإقامة الحجة، وإن كان هذا أيضًا ليس من تلقاء نفسه. وقيل: المراد لو كان له رد ونصرة وهو عليه الصلاة والسلام فعل ما فعل لله ومن كان لله كان الله له.

(وأثبت فى ديوان مجده) أى: أعظم وأقوى ثباتًا وأبقى فى صحف الدهر من أن يثبته هو بنفسه، فإن ما أمضاه الله لا نقض له، والديوان بكسر الدال المهملة وقد تفتح منهم من قال: إنه فارسى معرب وأصله جمع ديو، وهو العفريت شبه به أهله، وقيل: إنه عربى من التدوين وهو الكتابة، وهو واوى خفف بقلب إحدى واويه ياء، ويجمع على دواوين ودياوين وهو مجتمع الصحف والكتاب للسلاطين، وأول من وضعه فى الإسلام عمر رضى الله تعالى عنه، ويطلق على نفس الدفتر والكتاب، وعبارة المصنف رحمه الله تعالى تحتملها، وهو استعارة فاستعار لمجده أى عظمته ديوانًا يثبت فيه، فإذا أثبته الله كان أتم وأكثر ثباتًا، وهكذا هو باق إلى يوم القيامة.

* * *

(الفصل السادس: فيما ورد من قوله تعالى فى جهته عليه الصلاة والسلام مورد الشفقة والإكرام)

يعنى ما جاء فى القرآن من الآيات الدالة على إكرام الله له والشفقة به، والشفقة اسم مصدر من شفق بغيره عطف وحنى فهو شفيق، وهذا ونحوه مما لا يوصف به الله فتجوز به عن التلطف بمن يحبه، والجهة معناها الجانب والمراد بها هنا شأنه وحقه، والمورد مصدر ميمى منصوب على المصدر، أو اسم مكان منصوب على الظرفية، وأصله المحل الذى يؤخذ منه الماء فاستعير له لعموم نفعه، وقيل: الشفقة حرص الناصح على حال المنصوح، وقد يطلق على ما فيه دفع المضرة ونحوه. والمراد بالإكرام إكرام مخصوص ولو عم شمل ما فيه غيره من الفصول.

(قال الله تبارك وتعالى: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١، ٢] قيل: طه اسم من أسمائه) أى: من أسماء النبى (**صلى الله تعالى عليه وسلم**) وقدم للاهتمام به لمناسبته للمقام، والبلغاء يقدمون مثله لأن البلاغة يعتبر فيها رعاية مقتضى المقام فما يقتضيه عندهم أهم مما له ذاتى كما قرروه فى تقديم الأمر بالقراءة فى قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] فتذكره.

(وقيل: هو اسم لله تعالى) هذا منقول عن ابن عباس رضى الله عنهما، واستدل لما قبله بحديث: «لى عند ربى عشرة أسماء طه ويس» **(وقيل: معناه يا رجل)** أى: معناه رجل

وحرف النداء مقدر معه، وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أيضًا كما ذكره البيهقى، وقال عكرمة إنه لغة معروفة فى عكل وعك، وقيل: إنها لغة حبشية أو عبرانية أو سريانية أو نبطية، ومعناه: يا حبيبى. وقيل: لعل أصله يا هذا فقلبوا الياء طاء واقتصروا على ها، وهو بعيد جدًا.

(وقيل: يا إنسان): رواه البغوى عن الكلبى وقال: إنه لغة عك فإن صحت الروايات فهذا مشترك **(وقيل: هى حروف مقطعة لمعان)** الجمع لما فوق الواحد لقوله:

(قال الواسطى: أراد يا طاهر يا هادى) فالطاء من طاهر والهاء من هادى، وقيل: الطاء طول الغزاة والهاء هيئتهم، وقيل: طوبى والهاوية، وقيل: إنه قسم بطوله صلى الله تعالى عليه وسلم وهدايته، وقيل: معناه أيها البدر لأن الطاء والهاء فى الجمل أربعة عشر.

(وقيل: هو أمر من الوطئ) بالقدم فأبدلت الهمزة ألفًا **(والهاء كناية عن الأرض)** أى الضمير راجع إليها لعلمها من قرينة الحال، والضمير يسمى كناية عند النحاة كما ذكره أهل العربية، وهذا قول ذكره القرطبى والبيضاوى، وقيل: إن ها اسم لحروف مأخوذة من هاء اسم الضمير، فهى كناية اصطلاحية عنه لا أنه ضمير كما قيل فى طا ورد البيضاوى هذا القول بأنه يأباه كتابتها بصورة الحرف، ورد بأنه رسم المصحف غير قياسى فيه كما رسم: **(أيه المؤمنون)** بلا ألف فى الأمام، وقرئ طه بسكون الهاء وأصله طأ فأبدلت الهمزة هاء كأياك وهياك، أو هو أمر والهاء للسكت والمفعول محذوف أى طأ الأرض، ويحتمل أنه أراد الهاء من هاء وحدها ضمير كما قاله بعض النحاة.

(أى اعتمد على الأرض بقدميك ولا تتعب نفسك بالاعتماد على قدم واحدة) الاعتماد الاتكاء والاستناد على الأرض بقدمه أو قدميه، ويقال: اعتمد على القدم وعلى الأرض وظاهر هذا، وسيأتى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقوم على قدم واحدة إتعابًا لنفسه، ليزيد أجره فى عبادته فإن الأجر على قدر المشقة، وإن لم يثبت فى الشرع أن القيام على رجل واحدة من التطوعات حتى يفعله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ويخالفه ما روى ابن عباس وابن مردويه عن على رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قام الليل كله حتى تورمت قدماه، فجعل يرفع رجلا ويضع رجلا، فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام وقال له: «طاء الأرض بقدميك» وظاهره أن وضع إحدى قدميه كان راحة له صلى الله تعالى عليه وسلم لا تعبًا، وصرح به البغوى ونقله عن الكلبى، فالوجه أن المعنى لا تتعب حتى تحتاج إلى الإستراحة برفع قدم دون الأخرى، لا ما ذكره المصنف، والجمع بينهما أنه لما تورمت قدماه وتروح برفع واحدة، وقع فى مشقة القيام برجل واحدة لنقل الاعتماد عليها، فأمره بالاستراحة وترك التعب

وما يوجبه كما خفف عنه قيام الليل.

أقول: هذا مما لا طائل تحته، فإنه لا شبهة فى أن القيام على رجل واحدة أشق من القيام على الرجلين، كما قيل:

إذا الحمل الثقيل توزعته ... أكف القوم هان على الرقاب

وإن كان فى القيام على واحدة راحة للمرفوعة، فيصح نسبة الراحة لكل من الأمرين، وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى متعين من السياق على هذا التفسير، فإنه إذا قال له: ضع قدميك فإنا لا نريد تعبك دل على الراحة، ولا منافاة بينه وبين ما رواه والتوفيق الذى ذكره تكلف فتدبر.

(تنبيه): كون الأجر على قدر المشقة كما ورد فى حديث عائشة رضى الله تعالى عنها: «أجرك على قدر نصبك»[1] كما فى مسلم. قال ابن عبد السلام فى قواعده: ليس هذا على إطلاقه، إنما هو إذا اتحد العملان فى الشرف والشرائط والسنن وكان أحدهما شاقًا، فيثاب على تحمل المشقة كالغسل فى الصيف والشتاء، أما إذا لم يتساويا، فلا فإن الإيمان أفضل من الأعمال مع خفته، ثم اختار أن أفضل الأعمال إنما هو بالمصالح الناشئة عنها، فتصدق البخيل أفضل من قيامه، وإنقاذ الحاكم مظلومًا أفضل من قيامه الليل وصيام النافلة، ونقله الزركشى فى قواعده وارتضاه، ولنا عودة إلى ذلك.

(وهو قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ٢] نزلت فيما كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يفعله من السهر والتعب وقيام الليل) الضمير راجع للنهى عن إتعاب نفسه المستفاد من النفى فى الآية، أى: هو المراد من الآية، والشقا أصل معناه التعب، قيل: إنه عبر به ليدل على سعادته، والنفى على هذا التعب مخصوص كما يقتضيه سبب النزول، وإن كان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والمورد فلا يخص بما ذكر، ولأن تعبه بتأسفه على كفرهم.

(أخبرنا القاضى أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن وغير واحد) أى رواه المصنف عنه وعن كثير من العلماء غيره، وهو ابن عبد الرحمن بن على بن شبرين، بشين معجمة مكسورة وباء موحدة ساكنة وبعد الراء مثناة من أسفل، من أصحاب الباجى ثقة حافظ، توفى الخميس رابع رجب سنة ثلاث وخمسمائة بإشبيلية.

(عن القاضى أبى الوليد الباجى) بالموحدة نسبة لباجة من بلاد المغرب، وباجة بموحدة وجيم بلدة بقرب إشبيلية، وقيل: هى باجة القيروان، وأبو الوليد هذا هو سليمان بن

---

(١) أخرجه البخارى (١٧٨٧)، ومسلم (١٢١١/١٢٦).

خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبى القرطبى الذهبى، أصله من مدينة بطليوس وانتقل جده لباجة التى نسب إليها هو والحافظ أبو محمد الباجى، ولد فى ذى القعدة ببطليوس سنة ثلاث وأربع مائة، وأخذ عنه جماعة كابن عبد البر والخطيب والحميدى وغيرهم، ورحل للحج وجاور بالحرم ثلاثة أعوام، ولازم أبا ذر الهروى وخدمه ثم رحل لبغداد ودمشق، وأخذ عن العلماء وتفقه على أبى الطيب الطبرى، وأخذ علم الكلام عن أبى جعفر السمنانى، وأقام بالموصل ثم رجع إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر عاما، وقصته فى كتابة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بيده مشهورة تقدمت الإشارة إليها، وقال ابن سكرة: إنه مات بالمدينة فى تاسع عشر رجب سنة أربع وسبعين وأربعمائة.

(**إجازة ومن أصله نقلت**) الإجازة فى كلام العرب قديما كما نقله أهل اللغة الإذن فى الانصراف، من جاز المكان إذا تجاوزه، ومن ثم تعدى بالهمزة للمفعول الثانى، وقد يقتصر على أحد مفعوليه لأنه من باب كسى، ومعنى أجازه أذن له فى الجواز، ثم استعمل لمطلق الإذن، وخصه المحدثون بالإذن فى نقل الحديث فصار حقيقة عرفية وهذه لفظة عربية قديمة، فالجائزة بمعنى العطية، وقد وقع هنا فيها كلام لابن الصلاح لنا فيه كلام بيناه فى حواشيه، والمراد بأصله كتابه الذى ضبط فيه وجعله ملكًا له لا السماع.

وقوله: «نقلت» الخ هو من كلام أبى عبد الله، يعنى أنه لم يسمعه منه وإنما نقله من كتابه الذى أجازه به. وقال ابن الحنبلى: إنه من كلام المصنف رحمه الله تعالى لا من كلام شيخه كما قيل، فإن تعلق عن بأخبرنا يأباه، ولو قيل: كان بدلا عن قال: لم يكن من كلام المصنف رحمه الله تعالى، والأصل أصل شيخ شيخه لعود الضمير على الأقرب، وإنما قيده به لأن العنعنة يتبادر منها السماع وعليه المحدثون، فلو لم يقيد أوهم خلاف المراد، وقد يقولون أخبرنا وحدثنا فى الرواية بالإجازة والمختار خلافه إلا أن يصرح بالإجازة، ورواية السماع أقوى من الإجازة وسوى بينهما الطوفى فى قواعده، والخلاف فى ذلك فى الكتب المدونة كذلك.

(**قال: حدثنا أبو ذر الحافظ**) الهروى العلامة عبد بدون إضافة، ابن أحمد بن محمد بن عبد الله الأنصارى، المالكى، ابن السماك، سمع بهراة وغيرها كثيرًا من المشايخ، وصنف التصانيف الجليلة، وروى عنه الكبار، وترجمته مشهورة، توفى فى شوال سنة أربع وأربعمائة قال:

(**حدثنا أبو محمد الحموى**) هو عبد الله بن حمد بن حمويه السرخسى الحموى، بفتح الحاء المهملة وضم الميم المشددة ثم واو مكسورة ثم ياء مشددة للنسبة إلى جده حمويه، قال البرهان: ورأيت فى بعض النسخ التى وقفت عليها من الشفا بعد الواو همزة

مكسورة وفيها نظر، والذى فى حواشى ابن رسلان والشمنى الأول لا غير، وقيل: اسم جده بفتح الميم المخففة فالنسبة على هذا بالفتح والتخفيف وكسر واو، أو فى ضبط النسخ اختلاف، لهذا قلت: لعل الهمزة المخففة رسمت إشارة إلى إبدال الواو المضموم ما قبلها همزة فإنه لغة، وهو نزيل هراة وبوسنج، ووصل لما وراء النهر، وهو أصولى محدث ثقة، توفى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة فى ذى الحجة، ومولده سنة ثلاث وتسعين ومائتين قال:

(حدثنا إبراهيم بن خزيم الشاشى) بخاء معجمة مضمومة وزاى معجمة مفتوحة مصغر وهو شاشى، ترجمته مشهورة، وهو أبو إسحاق بن عثمان، ومن قرأه براء مهملة أخطأ، وشاش بمعجمتين بلدة بما وراء النهر قال:

(حدثنا عبد) بلا إضافة **(بن حميد)** بحاء مهملة مصغر، والذى جزم ابن حبان والبخارى أن اسمه عبد الحميد الكشنى بالإعجام والإهمال، وهو ثقة حافظ، مات سنة تسع وأربعين ومائتين قال:

(حدثنا هاشم بن القاسم) أبو النضر المعروف بقيصر، مات سنة عشرة ومائة.

(عن أبى جعفر) قال التلمسانى: هو محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، وهو والد جعفر بن محمد الصادق، ويقال له: الباقر، سمى باقرًا لتبحره فى العلم من البقر وهو الشق والتوسعة، تابعى عدل ثقة، وإمام مشهور، توفى سنة أربع عشرة ومائة على الأصح، ودفن مع أبيه وعمه بالبقيع، وهو من تلاميذ الربيع ومشايخ هاشم.

وفى المقتفى أنه اختلف فى اسمه فقيل: عيسى بن أبى عيسى بن ماهان، وقيل: عيسى بن عبد الله بن ماهان مولى تميم مروزى، روى له الأربعة وترجمته مشهورة.

(عن الربيع بن أنس) أبو حاتم البكرى البصرى التابعى، صدوق لكن له أوهام كما قاله ابن حجر، وما فى حواشى التلمسانى من أنه أنس بن مالك رضى الله عنه سهو، وحديثه هذا مرسل لأنه لم يذكر صحابيه، توفى سنة مائة وتسع وثلاثين.

قيل: والحديث المتقدم أولى سندًا ومعنى، ويمكن التوفيق بينهما بحمل الصلاة فيه على صلاة الليل، والقيام على رجل ورفع الأخرى على ما كان يفعله بسبب تورم قدميه، فإن ثبت أنه كان يفعله اختيارًا منه تطوع كما مر فلعله تسمح، لأن الفقهاء لم يبيحوه بغير ضرورة وفيه نظر.

(قال: كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله تعالى طه يعنى طأ الأرض يا محمد، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلى آخره) هذا

كما مر من غير فرق، فما مر لا وجه له، وهذا كان قبل النهى فحكم الفقهاء بالكراهة كان بعد النهى فلا إشكال فيه.

(تنبيه) لم نزل نتوقف فى كيفية صلاة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قبل الإسراء، حتى رأينا ما نقله السيوطى فى الخصائص الكبرى أنها لا ركوع فيها، وأن المفسرين قالوا فى قوله تعالى: ﴿**وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ**﴾ [البقرة:٤٣] أن مشروعية الركوع فى الصلاة خاص بهذه الأمة، وصلاة بنى إسرائيل لا ركوع فيها، فلهذا أمرهم الله تعالى بالركوع مع الراكعين فى هذه الآية، ويدل عليه ما أخرجه البزار والطبرانى فى الأوسط عن على، كرم الله وجهه، أنه قال: «أول صلاة ركعنا فيها العصر» فقلت: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: «بهذا أمرنا»(١).

ووجه الاستدلال أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، صلى قبل ذلك الظهر، وصلى قبل فرض الصلوات الخمس قيام الليل ونحوه، فكون الصلاة السابقة بلا ركوع قرينة لخلو صلاة الأمم السالفة عنه، وكذلك الجماعة كما فى شرح المجمع انتهى.

أقول: هذا أمر مقرر إلا أنه لخفائه لم يعرفه كثير من الصحابة المتأخر إسلامهم، لأن الساجد لا بد له من الركوع فى هويه، لكنه إن لم يفصله عنه بانتصاب لم يكن ركنًا مستقلا وعبادة.

(ولا خفاء بما فى هذا كله من الإكرام وحسن المعاملة) الباء بمعنى فى، أى: فى المذكور مما فى الآية وما يتعلق بها، وإكرامه صلى الله تعالى عليه وسلم بإنزال القرآن عليه، وشفقته عليه بنهيه عما يتعبه من عبادته فما بالك بغيرها من أمور، أتراه يرضى له تعبًا فيها، فمعاملة الله تعالى له وخطابه بهذا فيه من اللطف ما يدركه من له ذوق سليم.

(وإن جعلنا طه من أسمائه صلى الله تعالى عليه وسلم كما قيل، أو جعلت قسمًا لحق الفصل بما قبله) أى إن جعل لفظ طه علمًا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم مقسمًا به، أو جعل اسمًا لله ونحوه مقسما به أيضًا، التحقت هذه الآية المذكورة فى هذا الفصل بالفصل الذى قبله، لإتيانه بما أقسم به تعالى تحقيقا لمكانته عنده وبما أفاده من نهاية المبرة فى مخاطبته وأعلى درجات الأدب فى مجاورته، وقد قيل عليه: إن لحوقه بالفصل الذى قبله على القسمية واضح، وأما إذا كان من أسمائه فلا، فإن تكلف وقيل إنه متضمن للقسم يأباه جعله قسما لعطفه بأو. انتهى. وقد علمت سقوطه مما بيناه، وإن كان فى عبارته مسامحة والقسم له لا ينافى كونه به أيضًا، وما قيل من أن فيه مسامحة تامة

---

(١) أخرجه ابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٤/٢١٤).

بالحذف أو المجاز والاستخدام، وأنه إن كان قسمًا باسمه فهو من الرابع بل الخامس أيضًا، وإن كان قسمًا بغيره فهو من الخامس لأنه قسم لتحقيق المكانة، لكن لو كان اسمًا غير قسم لم يلحق بأحدهما فلا يناسب قوله أو جعلت، ولم يرد الإلحاق بالثالث لأنه لا يبتنى على أحد الأمرين فلعل أو بمعنى الواو، أو بل انتهى. وفيه ما لا يخفى.

(ومثل هذا من نمط الشفقة والمبرة) فى المصباح: النمط بفتحتين ثوب من صوف ذو لون من الألوان، ولا يكاد يقال للأبيض نمط، والنمط أيضًا الطريق والجماعة من الناس، ثم أطلق النمط اصطلاحا على الصنف والنوع، فقيل: هذا من نمط هذا، أى: من نوعه. انتهى. فالمعنى أنه نوع من الإحسان واللطف أو من جملتها فكأنه من جماعتها، وهذا مسموع فلا يتوهم أنه استعمال غير مسموع، وفى الحديث: «خير هذه الأمة النمط الأوسط».

(قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦] أى: قاتل نفسك لذلك غضبًا أو غيظًا أو جزعًا) لعل كما تكون لرجاء المحبوب تكون للإشفاق من المكروه، والمراد هنا الثانى على لسان العباد، أو بإرادة لازمه لاستحالته عليه تعالى، وباخع: من بخع نفسه من باب نفع قتلها من وجد أو غيظ، وبخع لى بالحق بخوعًا انقاد وبذله كما فى المصباح.

قال البيضاوى: شبهه لما تداخله من الوجد على توليهم عن الإيمان بمن فارق أحبته فهو متحسر على آثارهم، ومبخع نفسه وجدًا عليهم أو إذا ماتوا على الكفر، تقول العرب: بكى على أثر فلان إذا بكى على فراقه، وهذا كما تقول لمن أهمه ما يحزنه من غيره: اطرح ما أنت فيه وكل أمرك لله ولا تهلك نفسك، والمراد بالحديث القرآن وهو يطلق عليه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] وأما اختصاصه بحديث الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فعرف طارئ، وقوله: «فلعلك» أى لأجل عدم إيمانهم بهذا الحديث؛ لأن الشرط قد يفيد العلية نحو إن كانت الشمس طالعة فالنهار موجود، ويؤيده قراءة إن لم يؤمنوا بفتح الهمزة، قال القاضى: قرئ بالفتح على تقدير لا، فلا يجوز إعمال باخع إلا إذا جعل حكاية لحال ماضية، يعنى على هذه القراءة؛ لأن عدم الإيمان على القراءة الأولى مستقبل لأنه فى حيز الشرط، فباخع مستقبل عامل وعلى الثانية ماض، فلذا جعل حكاية وقوله غضبا إلى آخره، فللأسف معان ثلاثة مأثورة ثابتة فى اللغة، وقيل: حزنا أو ندما والغضب ضد الرضاء والغيظ أشده أو سورته أو ما أضمر فى النفس وفيه كلام، وفسر بالغضب أيضًا وليس بمراد لئلا يتكرر ولا يصح التفسير لعطفه بأو والجزع ضد الصبر. وفى عمدة الحفاظ: الأسف

الغضب والحزن معًا ويطلق على كل منهما بانفراده، وحقيقته ثوران دم القلب لإرادة الانتقام، فمتى كان على من تحته انتشر فصار غضبًا، أو على من فوقه انقبض فصار حزنا، وهى منصوبة مفعول له أو حال.

(**ومثله قوله أيضًا**) مصدر آض يئيض إذا رجع، ومعناه عودًا لما قبله لمشاركته له فى معناه، فلذا فسرت بالتشبيه أى بما أورد مورد الشفقة والإكرام له بشهادة لعل إذ هى للإشفاق، وهو مفعول مطلق أو حال ومثله نظرًا لمعناه، وأيضًا نظرًا للفظه فلا تكرار، ولو حذف كان أولى.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣] تفسيره أيضًا يعلم مما مر، والمقصود منهما منع الغم شفقة عليه، قيل وإنما ذكر هذه الآية لما فيها من توقع انقيادهم ووقوع أمنيته صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن كانت لا زائدة ففيها غاية الإشفاق عليه.

(**ثم قال: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]**) المراد بالآية هنا آية مخصوصة وهى الملجئة قسرًا إلى الإيمان، أو فيه عذاب وعقاب، وإلا فكم من آية نزلت وما انقادوا لها، والخضوع التذلل والانقياد، وقوله: فظلت معطوف على الجواب لصحة وقوع الماضى موقعه، وعبر بالماضى لتحققه بعد نزول هذه الآية، والأعناق الأعضاء المعروفة ويعبر بها عن الرؤساء كما يعبر بالرأس، وعلى هذا فخاضعين بجمع العقلاء ظاهر، وعلى الأول فلما نسب لهم ما ينسب للعقلاء من الخضوع عبر بعبارتهم كما فى قوله: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف:٤] أو فى الأعناق مقدر، أو المضاف اكتسب صفة العقلاء من المضاف إليه كما يكتسب منه التذكير والتأنيث، وفى الآية تسلية له صلى الله تعالى عليه وسلم تزيل غمه، وهو شفقة عظيمة ففيه مناسبة لما المصنف بصدده.

(**ومن هذا الباب**) الباب معروف ويطلق على القبيل والنوع إطلاقًا شائعًا، فيقال: هذا من باب كذا أى من جنسه ونوعه وهو المراد، أى من قبيل ما نحن فيه من شفقة الله على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا يتوهم أن الظاهر أن يقول من هذا الفصل.

(**قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر:٩٤] إلى قوله: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر:٩٧] إلى آخر السورة**) وأصل معنى الصدع صدم الإناء ونحوه فينشق، فاستعير للأمر المؤثر تأثيرًا ظاهرًا وللكلام المؤثر فى النفس، **وقيل**: الصدع الفرق بين الشيئين، فكأنه قيل له أفرق بين الحق والباطل، وكان صدع

على وجهة البيان والتشبيه لظلمة الجهل والشرك بظلمة الليل، ولنور القرآن بنور الفجر، لأن الفجر يسمى صديعًا كما قال[1]:

ترى السرحان مفترشًا يديه ... كأن بياض غرته صديع

وما مصدرية أو موصولة، والعائد محذوف وأصله بما يؤمره على حد أمرتك الخير، ولا يخفى أن هذا على الحذف والإيصال فالظاهر أن يقدر بما تؤمر به، ولا يشكل بأن شرط حذف عائد الموصول المجرور أن يجر بمثل ما جر به الموصول لفظًا ومتعلقًا، نحو ويشرب مما تشربون أى منه، لأن الصدع بمعنى الأمر كما مر، ولا يشترط المماثلة اللفظية، ولا يخفى مناسبة الآية للفصل، إذا المراد لا تحزن لمخالفتك فإنها لحكمة سترى عاقبتها لك وعلى أعدائك، وأى شفقة وتكريم أحسن من هذا، ولم يقل فى الآية التى قبلها إلى آخر السورة تصريحا بما فيه زيادة دلالة على التسلى والشفقة به، وما يقولونه هو الشرك والاستهزاء والطعن فى القرآن وهى منسوخة بآية القتال.

قيل: كان ينبغى أن يذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر:٩٥] **قلت:** ذكرها ضمنًا فى إلى قوله، وأيضًا استغنى عنها بالآية التى عقب هذا وهى فى قوله.

(وقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ١٠] **الآية) أى (فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن)** والمستهزؤن خمسة من أشراف قريش كانوا يبالغون فى إيذائه صلى الله تعالى عليه وسلم، فأهلكهم الله كما نقله المفسرون، وهى إرادة على نهج الشفقة، والتسلية، والوعد بأنه سيكفيكهم بإهلاكه، وورد بصيغة الماضى تحقيقًا له، ولهذا عقبه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر:٩٦] أى عاقبته فى الدارين كما ذكره القاضى، واقتصر فى اللباب على أن عاقبة أمرهم يوم القيامة.

وقوله **(فحاق الخ)** أى أحاط بهم حيث أهلكوا، لا طلب الاستهزاء بإطلاق السبب على المسبب؛ لأن المحيط العذاب لا المستهزأ به، أو نزل بهم وباله فوضع موضعه، وهذه الآية فى الأنعام والأنبياء، ويحتمل أنها آية الرعد وتمامها ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢] أى أمهلتهم برهة من الزمان فى دعة وأمن ثم أخذتهم، فكيف كان عقابى إياهم؟.

(١) البيت من الوافر، وهو لعمرو بن معديكرب فى ديوانه (ص١٤٦)، لسان العرب (١٩٥/٨)، تاج العروس (٣٢٥/٢١)، جمهرة اللغة (ص٥١٢)، وبلا نسبة فى كتاب العين (٢٩٢/١)، كتاب الجيم (١٩١/٢)، تهذيب اللغة (٣٤٥/١١)، تاج العروس (٣٠٩/١٧).

(قال مكى) تقدمت ترجمته رحمه الله تعالى **(سلاه الله تعالى بما ذكره وهون عليه ما يلقى من المشركين)** من استهزائهم وعنادهم، وإنما يسلى من يحبه ويشفق عليه، والتسلية بأن إخوانه من أولى العزم ابتلوا بمثله فصبروا وكانت النصرة والعاقبة لهم عليهم الصلاة والسلام فى الدارين، والتأسى بما يثلج الصدر كما قيل:

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى

وفى التأخير حكم كثيرة وإن كان تعجيل الانتقام ممن آذى المنسوبين لأنهم لا يتيقنون عاقبة أمرهم فلذا قال:

(وأعلمه أن من تمادى على ذلك يحل به ما حل بمن قبله): أعلم فعل ماض فاعله ضمير الله ومفعوله ضمير الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، وتمادى: أى تأخر وتطاول تفاعل من المدى و هو الغاية، ومنه مدى البصر، وفى المصباح: تمادى فى غيه إذا لج ودام على فعله من أمداه أبعده، أو من ماديته إذا أمهلته، وقوله على ذلك حال أى كائنا ومستمرًا على استهزائه، قيل: فيه قرينة على إرادة آية الرعد، ويحل به: أى ينزل به العذاب الذى نزل بأمثالهم، فهو بضم الحاء وكسرها من الحلول بمعنى النزول؛ لأنه الذى يتعدى بالباء، لا من حل بمعنى وجب لأنه يتعدى بعلى. قال فى المصباح: حل العذاب يحل ويحل حلولا هذه، وحدها بالضم والكسر والثانى بالكسر فقط. انتهى. وفى القاموس: حل المكان وبه يحل ويحل نزل، وفى الصحاح بالكسر وجب وبالضم نزل، وتبعه بعض الشراح وفيه نظر، يعنى أنها عادة الله فى مثله.

(ومثل هذه التسلية قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤]) أى مثل التسلية السابقة ما فى هذه الآية من تهوين مالقيه بأنه له فيه إسوة بمن تقدم من الرسل، وأنه سيكون له صلى الله تعالى عليه وسلم مثل ما كان لهم من نصره وعلو قدره والانتقام من أعدائه، والتسلية لئلا يحزن ويشق عليه ويحزنه ذلك، وهو غاية الشفقة به والتعبير بالآية الواقع فى بعض النسخ، وأطلق فيه الآية وأراد جميعها إلى قوله: ﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٤] فهو من إطلاق الجزء على الكل، كما تقول: قرأت بانت سعاد أى القصيدة كلها، فالمناسبة للفصل والمماثلة فى غاية الظهور.

(ومن هذا) القبيل فى التسلية والشفقة الدال على علو منزلته عند الله. **(قوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢])** المشار إليه بقوله كذلك الأمر الذى وقع له صلى الله تعالى عليه وسلم من تكذيبه، وقولهم إنه ساحر أو مجنون كقولهم افترى على الله كذبا أم به جنة، وتمام هذه الآية: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣] والاستفهام تعجبى، تعجب من توارد أقوالهم

وأفعالهم وآرائهم على تكذيب الرسل عليهم الصلاة والسلام، مع بيان أزمانهم والإضراب عن تواصيهم بما ذكر، إلى تجاوز حدهم فى العناد الجامع فيما ذكر.

وقوله: **(ما أتى)** إلى آخره كالتفسير لما قبله كما قاله البيضاوى، وقيل: الوجه أن يكون الأمر عبارة عما جعله المشار إليه، وأن يكون المشار إليه تكذيب الذين من قبلهم رسلهم، وتسميتهم كل رسول أتاهم أى جاءهم وبعث إليهم كذابًا أو ساحرًا أو مجنونًا، لأن المقصود تشبيه فعل هؤلاء المتأخرين مع رسلهم، بفعل أولئك المتقدمين مع رسلهم وإسنادهم لهم ما هم منزهون عنه لعصمة الله لهم فالمناسبة تامة.

(عزاه الله) أى: حمله على الصبر كما صبروا؛ لأنه تفعيل من العزاء وهو الصبر. **(بما أخبره به عن الأمم السالفة)** الباء للتعدية أو سببية، والسالفة بمعنى المتقدمة والوصف بالمفرد المؤنث لتأويله بالجماعة وهو مقيس مطرد.

(وما لها) بالجر معطوف على الأمم ويجوز عطفه على مجرور الباء كما فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامِ﴾ [النساء:١] فى قراءة الجر، أى: وبمقالها والأول أقرب ولا تكلف فيه كما قيل، وفى نسخة مقالتها.

(لأنبيائهم قبله) والقبلية تصريح بلازم ما فى الآية، لأن كون أنبياء أولئك قبل هؤلاء يستلزم كونهم قبله صلى الله تعالى عليه وسلم. **(ومحنتهم بهم)** وفى نسخة: «محنته» أى محنة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بهؤلاء المكذبين له، وعلى الأول محنة الأنبياء بأممهم والمحنة الابتلاء والاختبار، وهذه النسخة أولى وأنسب بقوله.

(وسلاه بذلك عن محنته بمثله من كفار مكة، وأنه ليس أول من لقى ذلك) فذلك إشارة إلى ما وقع للأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أممهم مما يضاهى ما وقع له صلى الله تعالى عليه وسلم، وقوله: «وبمثله» الضمير فيه راجع للمشار إليه وأفرده لتأويله بما ذكر، وروى بمثلهم وهو تسلية بالتأسى كما مر، ومن كفار مكة متعلق بالمحنة وضمير أنه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو معطوف على ذلك، وبين وجه التسلية بقوله: «ليس» إلى آخره.

(ثم طيب نفسه وأبان عذره) ثم للبعد اللفظى أو الرتبى ونحوه كما مر، وأبان عذره عطف على طيب نفسه عطف تفسير؛ لأن حزنه صلى الله تعالى عليه وسلم لعدم إطاعة كفار مكة له خوفًا من تقصيره فى مرتبة الرسالة والتبليغ، فأظهر الله له أنه معذور فى إعراضهم وعدم انقيادهم فطابت نفسه صلى الله تعالى عليه وسلم من نسبة شىء من التقصير إليه، فلا لوم ولا عتب عليه فى مثله، وفيه غاية الشفقة واللطف به صلى الله

تعالى عليه وسلم وتفريج كربه وهمه.

(**بقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [الذاريات: ٥٤] أى أعرض عنهم**) وهذه الآية منسوخة بآية السيف، وقيل: بقوله، وذكر أى أعرض عن المجادلة وما يتعبك، أو عن الهم والحزن المكدر لقلبك المضيق لصدرك، أو أعرض تارة وذكر أخرى فلا نسخ، وما ذكر من أن النسخ بقوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، هو ما قاله ابن الجوزى رحمه الله. قيل: وهو غريب لعطف الناسخ على المنسوخ بالواو المشتركة، إلا أن تكون الواو للاستفتاح كما ذكره بعضهم، وعلى تفسير المصنف رحمه الله تعالى معنى ذكر دم على التذكير والموعظة فتدبر.

وقوله: (**فما أنت بملوم**) أصله ملووم فنقلت الضمة وحذفت الواو، والمنفى لوم مخصوص من جهة مخصوصة كما أشار إليه بقوله: (**أى فى أداء ما بلغت وإبلاغ ما حملت**) مبنى للمجهول مشدد الميم، وما حمله أمانة الرسالة وقد أداها صلى الله تعالى عليه وسلم وبذل الجهد، فلا يتوجه إليه لوم، وفيه من المدح والإشفاق ما لا يخفى، أى أنت لا تلام من جهة الأداء على التقصير، فإنك لم تقصر وإنما أنت مذكر ما عليك إلا البلاغ وقد فعلت وبذلت مقدورك، قيل: والأولى ما قال البيضاوى من أن المراد نفى اللوم على بذل جهده فى البلاغ، إذ المقصود نفى اللوم مطلقًا، وكلام المصنف رحمه الله تعالى موهم لنفيه مقيدا.

وقيل: اللوم على عدم إيمانهم فقيل له: لا تهتم بهم ولا تحزن، ولا يبعد أن يراد لا تلتفت لقولهم لك: لم تركت ملة الأباء لما أمرتنا به ونحو ذلك، فإنك لست بملوم عندنا وفى نفس الأمر، بل فى اعتقادهم أيضًا فلا نعتبر ما قالوه وذكروه، وعلى هذا فلا نسخ كما مر.

قلت: التقييد لا ضرر فيه هنا، وإيهام لست ملوما فى هذا أنه يلام فى غيره لا يلتفت إليه؛ لأنه على حد قوله(١):

ولا ترى الضب بها ينجحر

فيفيد عدم اللوم على غيره بالطريق الأولى، وليس فى قوله إبلاغ ما حملت تكرار ما قبله، لأن الثانى فيه كناية عن الأول كما توهم، لأن المعنى إنك بلغتنا الكل وأديته كما ينبغى، فالأولى لحسن أداء والثانية للشمول والتعميم، أو الثانية تعميم بعد تخصيص ففيه إطناب حسن كما قيل؛ بل لأن الأولى تفيد أنه بلغ ووفى حق ما بلغه، والثانية تفيد

(١) تقدم الاستشهاد به.

أنه مأمور بالتبليغ كمن أرسل برسالة وأمانة فأوصلها.

(ومثله) في التسلية الدالة على الشفقة والمحبة **(قوله تعالى:** ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور:٤٨]**)** أي دم على الصبر في تنفيذ ما حكم الله تعالى به، ولا تحزن ولا تخف من الأعداء فإنك محفوظ ومحروس لا يصلون إليك، ولا يدب بساحتك عقارب كيدهم، أو اصبر لأجل حكم الله، أي: لتبليغ أحكامه. وفي المعالم: اصبر إلى أن يقع ما حكمنا به، أو إلى أن نحكم أو ننزل حكما، وفيه الإيماء إلى قتالهم، واللام بمعنى على أو للتعليل، أو بمعنى إلى والحكم ما حكم الله به وقدره في الأزل، أي: لا تنزعج بالتعب في سبيلنا ودم على الجد فإنك محفوظ معصوم من الناس. والأعين: جمع قلة للعين، والضمير المضاف إليه لله بصيغة التعظيم، ولإيهامه التعدد لا يجوز إطلاقه منا عليه، بل نقتصر فيه على ما قاله الله في حق نفسه كما نقله الدماميني في شرح التسهيل. والمراد بالعين: الحفظ والحراسة على الاستعارة أو المجاز المرسل، كما يقال هو بعيني أو على عيني وبمرأى ومسمع مني وجمع، قيل: لمناسبة المضاف إليه أو لكثرة أسباب الحفظ، فإن رؤيته تعالى تتعلق بكل شيء وليست مخصوصة بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، يعني أن جمع القلة مستعار هنا للكثرة، ولك أن تقول: إن حفظ جميع مخلوقاته قليل بالنسبة لجلاله وعظمة ذاته، وإلى هذا أشار بقوله:

(أي اصبر على أذاهم فإنك بحيث نراك ونحفظك) بيان للمراد من هذه الآية، وإرادة الحفظ والمجازاة بعيد، ولا تلفت لما قيل أنه غير بعيد فإنه مكابرة. وفي الشرح الجديد: دلالة ما ذكر على الحفظ، لأنك إذا قلت فلان بعيني استحال حقيقة الظرفية على أنه داخل العين فتعين إرادة لازمه، وهو في حفظك بغير طريق الرؤية؛ لأن ما استقر في عينك كان محفوظًا فوق الرؤية، إذ من شرط الرؤية عدم مماسة العين للمرئي، فإن أريد معناه الحقيقي على أن الباء للظرفية المجازية، فالحفظ مراد بطريق الكناية لصحة الجمع بين المعنيين فيها دون المجاز، فالمراد بمجرد الرؤية بغير جارحة لاستحالتها في حقه تعالى. وذهب البيضاوي في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [هود:٣٧] إلى أن الباء للملابسة والتعبير بكثرة آلة الحس الذي به يحفظ الشيء ويراعى عن الاختلال، والزيغ عن المبالغة، والحفظ والرعاية على طريق التمثيل، فلا كناية فيه أصلا على هذا، ومنه يفهم وجهه الجمع كما مر.

(سلاه الله بهذا) أي بمثل هذا الكلام وما في معناه بذكره. **(في آي)** بمد الهمزة وتخفيف الياء جمع آية، أو اسم جنس جمعي لها، ولا حاجة لجعل في بمعنى مع كما قيل وإن صح هنا. **(كثرة)** كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ

﴿وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام:٣٤].

(من هذا المعنى) من بيانية والتقدير كائنة من مثل ما يدل على هذا المعنى، وهو الحفظ والوعد بالتأييد والأمر بالصبر للتسلية والشفقة، والمعنى مفعل من عناه بمعنى قصد. قال فى المصباح: تقول العامة: لأى معنى فعلت، والعرب لا تعرف المعنى ولا تكاد تتكلم به، نعم قال بعض العرب: ما معنى هذا بكسر النون وتشديد الياء، وقال أبو زيد: هذا فى معناه هذا وفى معناه سواء، أى فى مماثلته ومشابهته دلالة ومضمونًا ومفهومًا. وقال الفارابى: معنى الشىء ومعناته واحد ومعناه وفحواه ومقتضاه ومضمونه، كما هو ما يدل عليه اللفظ. وفى التهذيب: عن ثعلب: المعنى والتفسير والتأويل واحد، وقد استعمل الناس قولهم هذا فى معنى كلامه وشبهه، يريدون هذا مضمونه ودلالته، وهو مطابق لقول أبى زيد والفارابى، وأجمع النحاة وأهل اللغة على عبارة تداولوها وهى قولهم: هذا بمعنى هذا، وهذا وهذا فى المعنى واحد وسواء، أى مماثلة ومشابهة. انتهى. ولنا فيه كلام فى حواشى الرضى.

* * *

(الفصل السابع: فيما أخبر الله تعالى به فى كتابه العزيز)

أى العظيم الشريف أو القوى أدلته ومعانيه، أو الذى لا نظير له فى الكتب **(من عظيم قدره وشريف منزلته على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وحظوة رتبته)** وفى بعض النسخ: «عليهم» أى على جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والمراد تفضيل نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم على جميع الأنبياء كما سترى تفصيله، والمنزلة والرتبة متقاربان بمعنى علو القدر، والحظوة بضم الحاء المهملة وكسرها وسكون الظاء المشالة، أى اختصاص رتبته صلى الله تعالى عليه وسلم بالحظ الأوفر من حظى عند غيره يحظى، من باب تعب حظة كعدة إذا أحبوه ورفعوا منزلته فهو حظى على فعيل، وقوله على الأنبياء متعلق بما قبله لتضمينه معنى العلو.

(قوله تعالى) وفى بعض النسخ «قال الله تعالى»: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، يعنى قوله: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، وفى بعض النسخ تلاوتها بتمامها. قال ابن المنير فى تفسيره البحر الكبير: يحتمل أن يراد أخذ الله الميثاق على النبيين أو على الأمم الميثاق الذى شرع النبيون تعظيمه فأضيف إليهم، أو هو بتقدير مضاف أى ميثاق أمم النبيين، ويحتمل أن يراد بالنبيين مدعو النبوة

تهكما بهم، وقد كان اليهود يقولون نحن أحق بالنبوة من العرب، وعدلوا عن الأول مع ظهوره لأنهم لم يدركوه فهو على الفرض والتقدير وهو تكلف، ولما آتيتكم يحتمل الشرطية والموصولية واللام موطئة للقسم لأن أخذ الميثاق فى معنى الاستخلاف، وعلى الشرطية جواب القسم ساد مسد الأمرين وهو قوله: «لتؤمنن به»، وقرأ حمزة لما بالكسرة، أى لأجل إيتانى إياكم بعض الكتاب والحكمة، ثم لجئ رسول موافق لكم مصدق لما معكم، فكل من هذين الأمرين جدير بأن يكون علة وسببا فى نصرتكم إياه، لأنكم أوتيتم الحكمة ومقتضاها نصرة الحق كائنًا من كان، ولأنه جاء بما هو مظاهر لكم مصدق لما معكم، فإذا كانت ما شرطية أو موصولة فمن بيانية، وإن كانت مصدرية فتبعيضية لأنه ليس هناك ما يبين، وإنما امتن عليهم ببعض الكتب لأنه كاف فى الحجة، ويجوز على قراءة الكسر، والتعليل أن تكون ما موصولة أى أوجبت على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام نصرة النبى المدعو به فى المستقبل، لأجل الكتاب الذى آتيته كل واحد منهم، وجملة جاءكم معطوفة على الصلة أقيم فيها الظاهر مقام المضمر، والتقدير: لما آتيتكموه من الكتاب ثم جاءكم رسول مصدق له. وقرأ ابن جبير لما بالتشديد وهو يقوى المصدرية، وقيل: أصل لما لمن ما ادغمت النون فاجتمع ثلاث ميمات فحذف إحداهما، والمعنى: لمن أجل ما آتيتكم من كتاب وهو قريب من قراءة حمزة بالكسر. انتهى.

واعلم أن هذه الآية أجل آية فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد أفردها التقى السبكى برسالة سماها التعظيم والمنة فى معنى قوله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران:٨١] قال فيها: فى هذه الآية من التنويه به صلى الله تعالى عليه وسلم وتعظيم قدره العلى ما لا يخفى، وفيها مع ذلك أنه تقدير مجيئه صلى الله تعالى عليه وسلم فى زمانهم يكون مرسلا إليهم، فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق من آدم عليه الصلاة والسلام إلى يوم القيامة، وتكون الأنبياء وأممهم كلهم من أمته صلى الله تعالى عليه وسلم، ويكون قوله: «وبعثت إلى الناس كافة» لا يختص بالناس من زمانه إلى يوم القيامة، بل يتناول من قبلهم أيضًا، ويتبين بذلك معنى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد»، وأن من فسره بعلم الله تعالى بأنه سيصير نبيا لم يصل إلى هذا المعنى؛ لأن علم الله محيط بجميع الأشياء، ووصف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالنبوة فى ذلك الوقت ينبغى أن يفهم أنه أمر ثابت له فى ذلك الوقت، ولهذا رآى آدم عليه الصلاة والسلام مكتوبًا على ساق العرش محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا بد أن يكون ذلك معنى ثابتًا فى ذلك الوقت، ولو كان المراد بذلك

مجرد العلم بما سيصير فى المستقبل، لم يكن له صلى الله تعالى عليه وسلم خصوصية بأنه نبى وآدم بين الروح والجسد، لأن جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يعلم الله نبوتهم فى ذلك وقبله، فلابد من خصوصية للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، لأجلها أخبر هذا الخبر إعلامًا لأمته ليعرفوا قدره عند الله فيحصل لهم الخبر بذلك.

فإن قلت: أريد أن أفهم ذلك القدر الزائد، فإن النبوة وصف لابد أن يكون الموصوف به موجودًا، وإنما يكون بعد بلوغ سنه أربعين سنة، فكيف يوصف به قبل وجوده؟ وقيل: إرساله وإن صح ذلك فغيره كذلك.

قلت: قد جاء أن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد، فالإشارة بقوله: «كنت نبيا» إلى آخره إلى روحه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم، أو إلى حقيقته والحقائق تقصر عقولنا عن معرفتها، وإنما يعلمها خالقها ومن أمده بنور إلهى، ثم إن تلك الحقائق يؤتى الله بها كل حقيقة منها ما يشاء فى الوقت الذى يشاء، فحقيقة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد تكون من قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام، آتاها الله ذلك الوصف بأن يخلقها متهيئة لذلك، وأفاض عليها من ذلك فصار صلى الله تعالى عليه وسلم نبيًا وكتب اسمه على العرش، وأخبر عنه بالرسالة ليعلم ملائكته عليهم الصلاة والسلام وغيرهم كرامته صلى الله تعالى عليه وسلم عنده، فحقيقته موجودة من ذلك الوقت وإن تأخر جسده الشريف المتصف بها، واتصاف حقيقته بالأوصاف الشريفة المفاضة عليه من الحضرة الإلهية، وإنما تأخر البعث والتبليغ وكل ما له من جهة تأهل ذاته الشريفة، وحقيقته تعجل لا تأخر فيه، وكذلك استنباؤه وإيتاؤه الكتاب والحكم والنبوة، وإنما المتأخر تكونه وتنقله إلى أن ظهر صلى الله تعالى عليه وسلم وغيره صلى الله تعالى عليه وسلم من أهل الكرامة، وقد تكون إفاضة الله تلك الكرامة عليه بعد وجوده بمدة كما يشاء سبحانه وتعالى، ولا شك أن كلما يقع فالله تعالى عالم به من الأزل، ونحن نعلم علمه بذلك بالأدلة العقلية له والشرعية، ويعلم الناس منها ما يصل إليهم عند ظهوره، لعلمهم بنبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم حين نزل عليه القرآن فى أول ما جاءه جبريل صلوات الله تعالى عليهما وسلامه، وهو فعل من أفعاله سبحانه من جملة معلوماته، من آثار قدرته وإرادته واختياره فى محل خاص يتصف بها، فهاتان مرتبتان الأولى معلومة بالبرهان والثانية ظاهرة للعيان، وبين المرتبتين وسائط من أفعاله سبحانه وتعالى يحدث على حسب اختياره سبحانه وتعالى، منها ما يظهر لهم بعد ذلك، ومنها ما يحصل لهم كمال لذلك المحل وإن لم يظهر لأحد من المخلوقين، وذلك ينقسم إلى كمال يقارن ذلك المحل من حين خلقه وإلى كمال يحصل له بعد ذلك، ولا يصل علم

ذلك إلينا إلا بالخبر الصادق، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم خير الخلق، فلا كمال لمخلوق أعظم من كماله ولا محل أشرف من محله، فعرفنا بالخبر الصحيح حصول ذلك الكمال من قبل خلق آدم لنبينا محمد صلى الله تعالى عليهما وسلم من ربه سبحانه وتعالى، وأنه أعطاه النبوة من ذلك الوقت، ثم أخذ له المواثيق على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليعلموا أنه المتقدم عليهم وأنه نبيهم ورسولهم، وأخذ المواثيق في معنى الاستخلاف، ولذلك دخلت لام القسم فى قوله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١].

(**لطيفة**): هذا كإيمان البيعة التى تؤخذ للخلفاء وكأنها أخذت من هنا، فانظر هذا التعظيم للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم من ربه سبحانه وتعالى، فإذا عرفت ذلك فالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم هو نبى الأنبياء، ولقد أظهر ذلك فى الآخرة بكون جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تحت لوائه وفى الدنيا، كذلك ليلة الإسراء إذ صلى بهم، ولو اتفق مجيئه صلى الله تعالى عليه وسلم فى زمن آدم وغيره وجب عليهم وعلى أممهم الإيمان به ونصرته، وبذلك أخذ الله الميثاق عليهم، فنبوته صلى الله تعالى عليه وسلم ورسالته إليهم معنى حاصل له، وإنما أمره متوقف على اجتماعه معهم، فتأخر ذلك لأمر راجع إلى وجودهم لا إلى عدم اتصافهم بما يقتضيه، وفرق بين توقف الفعل على قبول المحل وتوقفه على أهلية الفاعل، فهذا لا يتوقف من جهة الفاعل ولا من جهة ذات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنما هو من جهة وجود العصر المشتمل عليه، فلو وجد فى عصرهم لزمهم اتباعه بلا شك، ولهذا يأتى عيسى عليه الصلاة والسلام فى آخر الزمان على شريعته صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو نبى كريم على حاله، لا كما يظنه بعضهم من أنه يأتى واحد من هذه الأمة، نعم هو واحد منها لما قلناه من اتباعه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنما يحكم بشريعة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم بالقرآن والسنة وكل ما فيها من أمر أو نهى، فهو متعلق به كما يتعلق بسائر الأمة، وهو نبى على حاله صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينقص منه شيء، وكذا لو بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى زمنه أو زمن موسى وغيره، كانوا مستمرين على نبوتهم ورسالتهم إلى أممهم، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم نبى عليهم ورسول إلى جميعهم، فنبوته صلى الله تعالى عليه وسلم ورسالته أعم وأشمل وأعظم، ومتفق على شرائعهم فى الأصول لأنا لا نختلف، وتقدم شريعته فيما عساه يقع الاختلاف فيه من الفروع إما على سبيل التخصيص وإما على سبيل النسخ أو لا نسخ ولا تخصيص، بل يكون شريعة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى تلك الأوقات بالنسبة إلى أولئك الأمم ما جاءت به أنبياؤهم،

وفـى هـذا الوقـت بالنسبة إلى هـذه الأمـة هـذه الشـريعة والأحكـام تختلـف بـاختلاف الأشخاص والأوقات، وبهذا بان لنا معنى حديثين خفيا علينا.

أحدهما: قوله صلى الله تعالى عليه وسلم (**بعثت إلى الناس كافـة**) كنـا نظـن أنـه مـن زمانه إلى يوم القيامة، فبان أنهم جميع النـاس أولهـم وآخرهـم. **والثانى:** قولـه صلـى الله تعالى عليه وسلم «كنت نبيًا» إلى آخره، كنا نظن أنه بالعلم فبان أنه زائد على ذلك على ما شرحناه، وإنما يفترق الحال بين ما بعـد وجـود جسـده صلـى الله تعـالى عليـه وسـلم وبلوغه الأربعين، وما قبل ذلك بالنسبة إلى المبعوث إليـهم وتأهلـهم لسـماع كلامـه، لا بالنسبة إليه ولا إليهم لو تأهلوا قبل ذلـك، وتعليـق الأحكـام علـى الشـروط قـد يكـون بحسب المحل القابل، وقد يكون بحسب الفاعل المتصرف، فبان أن التعليق إنما هو بحسـب المحل القابل وهو المبعوث إليهم، وقبولهم سماع الخطاب والجسد الشريف الذى يخاطبـهم بلسانه، وهذا كما لو وكل الأب رجلا فـى تزويـج ابنتـه إذا وجـدت كفـوا، فـالتوكيل صحيح وذلك الرجل أهل للوكالـة ووكالتـه ثابتـة، وقـد يحصـل توقـف التصـرف علـى وجود كفو ولا يوجد إلا بعد مدة، وذلك لا يقدح فى صحة الوكالـة وأهليـة الوكيـل. انتهى.

أقول: بعد ما أقدم لك حديثًا رواه أبو نعيم فى الحلية عـن أنس أنـه صلـى الله تعـالى عليه وسلم قال: «أوحى الله إلى موسى عليه الصلاة والسلام: أنه من لقينى وهو جـاحد بأحمد أدخلته النار، قال: يا رب ومن أحمد؟ قال: ما خلقت خلقًا أكرم علىَّ منه، كتبت اسمه مع اسمى فى العرش قبل أن أخلق السموات والأرض، إن الجنة محرمـة علـى جميـع خلقى حتى يدخلها هو وأمته. قال: ومن أمته؟ قال: الحمادون يحمدون صعودًا وهبوطًـا وعلى كل حال، يشدون أوساطهم ويطهرون أطرافهم أسود بالنهار رهبان بالليل، أقبـل منهم اليسير وأدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا الله، قال: اجعلنى نبى تلك الأمـة قـال: نبيها منها قال: اجعلنى من أمة ذلك النبى، قال: استقدمت وأسـتأخرت ولكـن سـأجمع بينك وبينه فى دار الجلال»(١). انتهى وورد بمعناه من طرق كثـيرة كمـا فـى الخصـائص الكبرى.

واعلم أن معنى كون أحد من أمة نبى من الأنبياء، أنه مكلف باتباعه واتبـاع شـريعته علمًا وعملاً وهى أمة إجابة، ويلزم من أجابه من أمته تعظيمه وتوقـيره واعتقـاده صدقـه فى كل ما جاء به وإعزازه ومحبته، ولا يلزم من تعظيمه ومحبته واعتقاد صدقـه أن يكـون مكلفًا باتباع شريعته والتعبد بها، ألا ترى أن الله أعـزه وعظمـه وأحبـه ولا يتصـور فيـه

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٢/٣٤٣، ٥/٤٥، ٧/١٢٧).

ذلك، وكذلك الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعهم معظمون له ومحبون؛ لأنهم أعرف به من غيرهم، مع أنهم غير مكلفين بأحكام شرعه، وإلا لم يكونوا أصحاب شرع وكتاب مستقل، والنصوص العقلية والنقلية ناطقة بخلافه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣] وما فى معناها من الآيات.

إذا عرفت هذا فاعلمْ أن ما قاله السبكى رحمه الله تعالى واحتج به واستحسنه هو ومن بعده ممن وقف عليه، لا وجه له عند من له بصيرة نقادة، وإياك أن يخطر ببالك أن هذا يقتضى أن من تقدمه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وعلماء الملل السالفة غير ما مبالغين فى تعظيمه وتصديقه ومحبته، فإن هذا معنى والتعبد بشرعه معنى آخر، ومن ظنها أمرًا واحدًا لا يعتد به.

وقوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٨١] دون شرعه مناد عليه، وكيف يتأتى ما قاله مع قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: ٩٥] فإنه عكسه، وقد طلب موسى عليه الصلاة والسلام أن يكون من أمته عليه الصلاة والسلام، فأجابه الله بما سمعته آنفا فى الحديث الصحيح، فقوله: إنه على تقدير مجيئه فى زمانهم يكون مرسلاً إليهم إلى آخره لا معنى له.

وقوله فى حديث: «كنت نبيا» إلى آخره أنه فى عالم الأرواح معنى صحيح، ومن فسره بالعلم فقد يقال مراده علم أظهره الله لغيره من الملائكة والأرواح، تشريفًا له صلى الله تعالى عليه وسلم وتعظيمًا، وكونه إشارة إلى حقيقته إن أراد به روحه رجع لما قبله، وإن أراد غيره فأمر لا يعقل عند من خلع ربقة التلقيد من جيد أعناقه. وقوله فى حق عيسى عليه الصلاة والسلام: «إنه يأتى فى آخر الزمان على شريعته، وهو نبى كريم جمع بين الضب والنون».

وهنا بحث وهو أن بين ظرف مكان معناه مكان توسط بين شيئين أضيف لهما، وقد يكون للزمان وهو فى الأصل مصدر بمعنى افتراق، ويتجوز به عن معان أخر كما يقال بين الخوف والرجاء، أى متردد بينهما يكون تارة خائفا وتارة راجيًا، وبين الحلو والحامض أى مز والكلمة بين اسم وفعل وحرف أى منقسمة لها.

وقوله فى الحديث: «بين الروح والجسد» ليس بمعناه الحقيقى لاقتضائه وجود روح آدم عليه الصلاة والسلام وجسده حين بعث نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا يصح هذا ولا شىء من المعانى السابقة، فالظاهر أنه ظرف زمان، أى فى زمان كان بين خلق

روحه وجسده فيفيد ظهور نبوته بعد خلق روحه، وقيل: خلق جسده على أنه نبأه فى عالم الأرواح، وأطلع الأرواح على ذلك وأمرها بمعرفة نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم والإقرار بها، وهذا المعنى يفيده قوله: «بين الماء والطين»، أى بعد خلق عناصره غير مركبة ولا منفوخ فيها الروح، فهو بمعنى الحديث الذى صححوه، فيكون رواية بالمعنى إن لم يثبت بهذا اللفظ، وهذا مما لم يحم أحد حول حماد والحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا نهتدى لولا أن هدانا الله، واذ متعلقة باذكروا مقدرًاموحده أواذكروا أهل الكتاب، فقوله: يا أهل الكتاب إن أريد به جميعهم فظاهر، وإن أريد به الموحدون فى زمن نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فلتنزيل ما جاء آباءهم بمنزلة ما جائهم، أو يقدر إذ جاء آباءكم، والميثاق: العهد واليمين. وقيل: إنه متعلق بأقررتم وإن أخر، والمراد بالكتاب الجنس، والحكمة الشريعة، والاعتقادات الحقة، والمراد بالنبيين مطلقهم أو مع أممهم أو أنبياء بنى إسرائيل، ومن تبعيضية أو بيانية واللام موطئة أو ابتدائية.

﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ التنوين والإبهام للتعظيم، لأن المراد به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: إنه عام، وأن العهد أخذ على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يصدق بعضهم بعضا، ويأمر باتباعه والإيمان به، وهو مروى عن ابن جبير كما مر.

﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر كما مر، وقيل: تقديره جاءكم به فالعائد محذوف وهو تكلف. ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ أى رسالته، تقدم أنه جواب القسم، وهو ساد مسد جواب الشرط إن كانت ما شرطية أو جوابها محذوف وعلى كل حال، أى سواء كانت شرطية أو موصولة مبتدأ لابد فى الجواب أو الخبر من التقدير وفيه تكلف، وقال التجانى: قد يستغنى بعود الضمير إلى ما فى أثناء الجملة عن العود إلى المبتدأ أو الشرط لارتباط بعض الكلام ببعض، قيل: هو غريب جدًا، ولما كان المراد الإيمان بالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، فلابد من التقدير، أى أن ضمير به لما بتقدير المصدقة أى رسالته مصدقة.

أقول: ما عده غريبًا أشهر من قفا نبك وهو مذكور فى متن التسهيل، وقال فى شرحه: إنه مذهب الأخفش والكسائى، وصرح به السيد فى شرح الكشاف فى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة:٢٣٤]، وفى الروض الأنف: أن ما فى هذه الآية مبتدأ بمعنى الذى والخبر لتؤمنن به ولتنصرنه، وإن كان الضميران عائدان على رسول، ولكن لما كان رسول مصدق لما معكم ارتبط الكلام بعضه ببعض، واستغنى بالضمير العائد على الرسول عن ضمير يعود على المبتدأ وله نظائر فى التنزيل. انتهى.

﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ على عدوه قال الله لهم ﴿ءَأَقۡرَرۡتُمۡ﴾ للاستثبات ﴿وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ﴾ أى قبلتم على ذلك المذكور ﴿إِصۡرِيۖ﴾ عهدى وميثاقى ﴿قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ﴾ أى الملائكة على إقرارهم أو بعضكم على بعض ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] على ما سبق.

(**قال أبو الحسن القابسى**) تقدمت ترجمته فى أول الفصل الثانى من هذا الباب، وفى أنساب السمعانى قابس بلدة بالمغرب. (**استخص الله تعالى**) استخص وخص واختص بمعنى فالسين للتأكيد لا للطلب، وقيل: المعنى طلب تخصيصه وهو مجاز عن لازمه، وهو الإرادة وإرادة الله تعالى لا تتخلف، فمعنى أراد كذا فعله وهو تكلف لا حاجة إليه (**بقوله**) أى بسبب قوله هذا فى الآية للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد سقط هذا من بعض النسخ.

(**محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم بفضل لم يؤته غيره**) مؤكدًا للتخصيص دفعًا لتوهم المجاز أو إرادة التخصيص الذكرى. (**أبانه به**) أى: أظهر ذلك الفضل له أو فضله وميزه به عن غيره وهو مؤكد لما قبله أيضًا، سواء كان مستأنفا أم لا وبائه للتعدية أو سببية (**وهو**) أى الفضل المختص به.

(**ما ذكره فى هذه الآية**) قيل: إن هذا على بعض التفاسير، لما مر من أن بعض المفسرين قال: إنها عامة، وأن كل نبى أخذ عليه العهد بأن يصدق بمن بعده وأن يؤمن بعضهم ببعض. وقال البغوى والثعلبى: إنه عليه كثير من المفسرين ولذا استشكل بعضهم اختصاص هذا بنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، ولو فسر الرسول هنا بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه أمر ثابت بغير هذه الآية مقرر عندهم، وأجيب بأن العهد المأخوذ على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إجمالى من غير تعيين، وهذا معين باسمه وصفته، أو أن الفضل المخصوص به صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ العهد بأن يؤمنوا به ويتبعوه إن أدركوه حتى يكونوا من أمته، والآية محمولة على هذا كما مر عن السبكى فلا إشكال.

(**قال المفسرون:**) أى بعضهم وكون التعريف للعهد لا قرينة عليه. (**أخذ الله الميثاق بالوحى**): إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وحمل هذا على ما وقع فى عالم الذر حين أخرجهم من صلب آدم عليه الصلاة والسلام، وأخذ العهد عليهم بالإيمان به صلى الله تعالى عليه وسلم، فيكون أخذ عليهم عهدًا بالإيمان بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم أيضًا، فالوحى مجاز عن مطلق الإعلام أو هو إعلام نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك إذ أوحاه بعيدًا جدًا، والحق أن هذا أمر آخر فى هذه النشأة كما يدل عليه قوله:

(**فلم يبعث نبيا إلا ذكر له محمدًا ونعته**) بصيغة المصدر المنصوب والماضى، أى ذكر له صفته، أى لم يبعثه فى حال من الأحوال إلا حال ذكره له والبعث زمانه ممتد فالذكر الواقع فى أوله أو بعده مقارن له، فالحال فى زمن من العامل.

(**وأخذ عليه ميثاقه إن أدركه ليؤمنن به**) ضمير به للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى قوله: «لم يبعث نبيا»، أى ميثاق ذلك النبى المأخوذ عليه أو لله تعالى، والأول أوفق بإضافة الميثاق للنبيين فى الآية أو لمحمد، أى الميثاق المأخوذ لأجل محمد فالإضافة لأدنى ملابسة، وهذا الميثاق إشارة إلى أن شريعته صلى الله تعالى عليه وسلم ناسخة لجميع الشرائع، فيجب على كل من أدركه اتباعه، فيعلم الرسل به أممهم ويأمروهم بتبليغه لمن بعدهم، وفى الحديث: «لو كان موسى عليه الصلاة والسلام حيًا ما وسعه إلا اتباعى»(١). وسيأتى ما فى التوراة والإنجيل وغيرهما من التصريح بهذا، ومعنى أدركه أنه عاش حتى يجىء زمنه فيلقاه فى الدنيا، قال الشريف هنا: ما نقل عن السبكى رحمه الله من أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا من أمته وعلى دينه فى زمنهم، والاختلاف بحسب الزمان والعباد مما لا دليل له عليه ولا قائل به، والاحتمال المخالف للظاهر لا اعتداد به. انتهى. وما نقله عن السبكى غير صحيح، وإن كان كلامه مردودًا من وجه آخر كما بيناه فى صدر هذا الفصل.

(**وقيل:**) معنى هذه الآية (**أن يبينه لقومه ويأخذ ميثاقهم أن يبينوه لمن بعدهم**) أى أخذ الله العهد على كل نبى أن يؤمن به صلى الله تعالى عليه وسلم وينصره إذا أدرك زمنه، وفى هذا من تشريفه وإعلاء قدره ما لا يخفى، والإيمان لابد فيه من مطابقة القول للاعتقاد فإذا تلفظ به علانية فقد بينه، فما قيل من أن حمل الإيمان على مجرد البيان بعيد جدًا، ولعل المراد ما فى بعض التفاسير أنه يصفه ويقول: من أدركه منكم فليؤمن به غنى عن الرد، وقال التجانى: إن المصنف رحمه الله تعالى نقض ما قدمه عن المفسرين من أخذ الميثاق على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بقوله.

(**وقوله ثم جاءكم الخطاب لأهل الكتاب المعاصرين لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم**) وتبعه بعض الشراح فقالوا: هذا لا يصح على القول بأنه تعالى أخذ ميثاق النبيين بذلك، إذ من قاله لا يجعل جاءكم إلا لهم، إنما يصح عند من قال: أخذ ميثاق معاصريه وأضيف للنبيين نظرًا إلى أنهم هم الآخذون على أممهم، وأنهم يأخذونه على من بعدهم إلى أن يبعث، أو سموا نبيين تهكما كما مر، ورد بأنه من تتمة القول الثانى لا الأول لتصريحهم بخلافه ومنافاته له، والمراد أن الخطاب فى جاءكم وآتيتكم لمن ذكر، فالمعنى أنه أخذ

(١) أخرجه الذهبى فى مختصر العلو برقم (٦١)، وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٤٨/٢).

الميثاق على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يبينوا لكم أيها المعاصرون بواسطة أصحابهم وجوب الإيمان ونصره، وليس المراد الخطاب فى جاءكم فقط لأنه بعيد جدًا، ولا حاجة لتكلف أن يقال: إن المعنى أنه قيل للأنبياء إذا جاء بعضا بعدكم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولما كان ذلك البعض هم المعاصرون ذكر عند حكاية القصة لهم ثم جاءكم، ولم يتأمل هذا من قال: من يقول إن الميثاق مأخوذ على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يجعل الخطاب فى قوله: «ثم جاءكم إلا لهم»، ومن يقول: إنه لأهل الكتاب المعاصرين للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ويتأول إضافته للنبيين بأنهم الذين أخذوه عن الله تعالى، فالإضافة إلى الآخذ الفاعل لا إلى المأخوذ عليهم، وكونه من تتمة الثانى ممنوع؛ لأن محصله أنه تعالى أخذ الميثاق على كل نبى أن يبين محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم لقومه ليؤمنوا به وينصروه، ويبلغوا ذلك لمن بعدهم ليكونوا كذلك، فكيف يكون الخطابان للمعاصرين أو لأهل الكتاب مطلقا كما نقل عن الربيع، واستدل بقراءة أبىّ وابن مسعود رضى الله عنهما: «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب»، ثم أن الطيبى رحمه الله تعالى نقل عن بعضهم الوقف على النبيين، وأن الله تعالى أمرهم بعد ذلك فقال: قولوا للأمة عنى مهما آتيتكم من كتاب وحكمة ورسول لتؤمنن به، فبطل حينئذ القول بأن من يقول الميثاق مأخوذ على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لا يجعل الخطاب إلا لهم؛ لأن منهم من جعله للأمم لا لهم، فيحتمل أن المصنف رحمه الله ماش على هذا فالخطاب للمعاصرين وأخذ الميثاق على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وما نقله عن المفسرين تفسير لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٨١] فقط لجواز الوقف عليه فتأمل.

(**قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى عنه**) وهذا رواه ابن جرير وابن كثير بإسناد صحيح، والبغوى بعبارات مختلفة محتملة للنقل بالمعنى، أو تعدد القول المروى عن على رضى الله عنه.

(**لم يبعث الله نبيًا من آدم فمن بعده**) فى حال من الأحوال (**إلا**) فى حال أن (**أخذ الميثاق عليه**) وفى لفظ العهد عليه (**فى**) حق (**محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لئن بعث**) محمد (**وهو**) أى ذلك النبى (**حى**) ليؤمنن به ولينصرنه، وأمر بأخذ العهد على قومه ليؤمنن به ولينصرنه من أدركه منهم كما قاله البغوى، وأشار إليه المصنف رحمه الله تعالى بقوله: (**ويأخذ العهد على قومه بذلك**) أى بالإيمان به ونصرته، وعدى أخذ بعلى والمعروف تعديته بمن كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ [الأحزاب:٧] إشعارًا بمضرته لهم إذ فرطوا فيه أو نقضوه، كما أن فيه منفعتهم إذا

حفظوه، والعهد الوصية والتقدم فى الشىء واليمين وكل منها محتمل هنا كما قاله التلمسانى، ومن فى قوله: «من آدم» لابتداء الغاية.

وقوله: «فمن بعده» أى واحدًا بعد واحد، ويأخذ قال الشمنى: بالنصب رواية عن المصنف رحمه الله تعالى، وهو كذلك فى النسخ الصحيحة المصححة، وجزم بأنه معطوف على تؤمنن به بتقدير نون التوكيد الخفيفة، ورده السيد عيسى بأنه يكون حينئذ من جزاء الشرط، فيلزم كون الأخذ من الأمة بعد بعثة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، وليس المراد إلا أن يأخذ الأنبياء فى زمنهم من أممهم أنه إذا بعث وهم أحياء ليؤمنن به، ويؤيده ما فى اللباب وتفسير البغوى عن على رضى الله تعالى عنه: «ما بعث الله تعالى نبيًا إلا أخذ عليه العهد فى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وأمره بأخذ العهد على قومه بأن يؤمنوا به وينصروه إذا أدركوا زمانه»، وحينئذ فالعطف على جملة لئن بعث إلى آخره على أنها فى موضع مفرد من باب زرنى فأكرمك، أى إلا أخذ العهد عليه فى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بالإيمان به والنصر إن بعث وهو حى، وبأن يأخذ فالوجه أن التقدير: وأمر أن يأخذ، كقوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ [الزمر:٦٤] فيمن نصب أى بأن أعبد على نهج علفتها تبنا وماء، ويعضده ما مر من التفسير.

أقول: ما ذكره الشمنى ذكره أيضًا القسطلانى فى حاشيته، وكذلك كونه مؤكدًا بالنون الخفيفة على نهج قوله:

لا تهين الفقير علك أن   تركع يومًا والدهر قد رفعه

وعلى هذا ففى الكلام مقدر، أى: ويأخذ العهد على قومه إن لم يبعث وهو حى، وهذا التقدير لابد منه على حال فاعرفه.

(ونحوه عن السدى وقتادة) أى مثل ما ذكر عن على مروى عن السدى وعن قتادة، والسدى بضم السين وتشديد الدال المهملتين هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبى كريمة المحدث المشهور، واختلف فيه فقيل: ثقة، وقيل: كذاب لا يحتج به، وقال الشمنى: إنه كوفى تابعى مفسر صدوق إلا أنه متهم بالتشيع، وثقه ابن حبان وضعفه أبو حاتم، مات سنة سبع وعشرين ومائة، ونسبته إلى السد موضع بالمدينة، والمشهور أنه منسوب إلى سدة مسجد الكوفة، وهى ما يبقى من الطاق المسدود لبيعه المقانع فيه كما فى القاموس. وفى المصباح: السدة الباب وينسب إليها على لفظها فيقال: سدى جماعة، ومنهم الإمام المشهور إسماعيل السدى؛ لأنه كان يبيع المقانع ونحوها فى سدة مسجد الكوفة، وقتادة تقدمت ترجمته، وهذه الرواية عنهما أثبتها ابن جرير **(فى آى)** أى: هذا

المذكور مروى فى جملة آى جمع آية كآيات.

(تضمنت فضله صلى الله تعالى عليه وسلم من غير وجه واحد) وهذه الجملة صفة آى، وآى بالمد وتخفيف الياء، قال التلمسانى: هذا متصل بقوله فى أول الفصل ما أخبر الله تعالى به فى كتابه العزيز فى الآية المذكورة مع آيات دلت على فضله من وجوه كثيرة، وقيل: المعنى قال الله تعالى: **(وإذا أخذ)** فى جملة آيات، أو عن السدى فيها وفى آى أخر، ولو تعلقت بأول الفصل وجب تقديمه على الآية؛ لأنه من جملة الترجمة وليس ما قاله متعينًا كماظنه.

(قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الأحزاب: ٧] الآية) قيل: أخذ عليهم الميثاق بتبليغ الرسالة وتصديق بعضهم بعضا. وقيل: بأن يعلنوا بنبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ويعلن محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه لا نبى بعده، ففيها تفضيل له صلى الله تعالى عليه وسلم من وجوه كما سيأتى. وقال التجانى: ذكر الله فى هذه الآية النبيين جملة، ثم خص بالذكر بعضا منهم تشريفًا لهم، وقدمه صلى الله تعالى عليه وسلم تشريفًا على تشريف والتقديم لشرف ذاتى، كقوله تعالى: ﴿مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [النساء: ٦٩] أو لتقديم زمانى لتقدم نوح على إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، ويجوز أن يكون تقديم نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم للأمرين لحديث: «كنت أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث»[(١)]، وإن لم تكن الواو للترتيب ولذا ورد فى الحديث: «ابدؤا بما بدأ الله به»[(٢)]. وقد راعى هذا الفقهاء فى الوصايا كما فصله الشراح هنا، وإن لم يكن محله، وتمام الآية: ﴿وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧] أى عظيما شأنه أو مؤكدًا باليمين، وكرر لبيان وصفه تعظيمًا له، وقدم نوح فى قوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣] لاقتضاء المقام له؛ لأن السياق لوصف دين الإسلام بالإصالة فى الاستقامة فتدبر.

(وقال عز وجل: ﴿۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ﴾ [النساء:١٦٣] **إلى قوله ﴿وَكِيلًا﴾** [النساء:١٧١] كذا فى النسخ، وفى بعضها إلى قوله **﴿شَهِيدًا﴾** يعنى قوله: **﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾** [النساء: ١٦٦]**)** وليست الأولى بخطأ كما توهم، لأن بعد شهيدًا آيات أربع

(١) أخرجه البغوى فى تفسيره (٥/٢٣٢)، وابن الجوزى فى زاد المسير (٦/٣٠٥)، وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/١٨٤).

(٢) تقدم تخريجه.

آخرها وكيلا تشتمل على ذم الكفرة ووعيدهم، ونعته صلى الله تعالى عليه وسلم بالرسالة ومجيئه من الله تعالى بالحق والأمر بالإيمان برسله الذين هو منهم، وهو مما يدل على فضله صلى الله تعالى عليه وسلم فيناسب ذكره هنا، فالقول بأنه وهم ينبغى إصلاحه، أو أنه قراءة شاذة أو قراءة بالمعنى وهم، وارتكاب أمور لا تليق، واعتراض على المصنف رحمه الله تعالى بأن هذه الآية غير تامة الغرض فيما عقد له الفصل من تفضيله صلى الله تعالى عليه وسلم على غيره، إلا أن يقال قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء:١٦٦] إلى آخره، يدل على الفرض إذ لم يذكر مثل ذلك فى حق غيره صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: التشبيه لوحيه بالوحى إلى الكل يدل فى الجملة على التفضيل على كل واحد، والجواب الأول ضعفه ظاهر، وإن كان الفصل فى بيان المنزلة مطلقًا، وما ذكره استطرادى فلا إشكال، يعنى ما وقع فى نسخ الترجمة من خطورة رتبته مطلقًا من غير قوله عليهم، والجواب الذى استضعفه هو الحق؛ لأن الاستدراك بلكن يقتضى اختصاصه بشهادة الله لما أوحاه له، وأنه أنزله بعلمه مع أن كل ما نزل بعلمه، ففيه إشارة إلى أن له شأنًا عظيمًا لا يعلمه إلا الله، وفى هذا من التفضيل والتشريف له صلى الله تعالى عليه وسلم على غيره ما لا يخفى، وسيأتى جواب هو الحق عندى، وذكر نوح دون آدم عليهما الصلاة والسلام لأنه أول مشرع عند بعضهم، أو لأنه أول نبى عوقب قومه، أو أول الرسل أو لعموم دعوته، وعلى الثانى فيه تهديد للمشركين.

(روى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه) قال السيوطى فى تخريجه: لم أجده فى شيء من كتب الأثر، لكن صاحب اقتباس الأنوار وابن الحاج فى مدخله ذكراه فى ضمن حديث طويل، وكفى بذلك سندًا لمثله فإنه ليس مما يتعلق بالأحكام.

(أنه قال فى كلام بكى به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم) أول هذا الكلام: «بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لقد كان لك جذع تخطب عنده، فلما كثر الناس اتخذت منبرًا لتسمعهم فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن، فأهلك أولى بالحنين عليك حتى فارقهم. بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته فقال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك فى أولهم فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب:٧] الآية.

بأبى أنت وأمى يا رسول لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا

أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦] بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لئن كان موسى عليه الصلاة والسلام أعطاه الله حجرًا تتفجر منه الأنهار فما ذاك بأعجب من أصابعك حين نبع الماء منها صلى الله تعالى عليه وسلم.

بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لئن كان سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أعطاه الله ريحًا غدوها شهر ورواحها شهر، فماذا بأعجب من البراق حين سرت عليه إلى السماء السابعة ثم صليت الصبح فى ليلتك بالأبطح صلى الله تعالى عليه وسلم.

بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لئن كان عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام أعطاه الله إحياء الموتى، فما ذاك بأعجب من الشاة حين كلمتك وهى مسمومة فقالت: لا تأكلنى فإنى مسمومة.

بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لقد دعا نوح عليه السلام على قومه فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦] ولو دعوت مثلها علينا لهلكنا من عند آخرنا، فلقد وطئ ظهرك وأدمى وجهك وكسرت رباعيتك، فأبيت أن تقول إلا خيرًا «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون»(١).

بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لقد اتبعك فى قلة سنينك وقصر عمرك ما لم يتبع نوحًا عليه الصلاة والسلام فى كثرة سنينه وطول عمره، فلقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا قليل.

بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لو لم تجالس إلا كفوك لما جالستنا، ولو لم تنكح إلا كفوك لما نكحت إلينا، ولو لم تواكل إلا كفوك لما واكلتنا، ولبست الصوف وركبت الحمار ووضعت طعامك بالأرض، ولعقت أصابعك تواضعا منك صلى الله تعالى عليك وسلم. انتهى.

ويأتى شرح بعض تلك الألفاظ عند ذكر المصنف له.

وبكى فى كلام المصنف مخففة ولا يجوز تشديدها كما فى المواهب اللدنية، لأنه يقال: بكاه وبكى عليه إذا بكى لميت ونحوه فى غيبته، وأبكاه وبكاه إذا حمل غيره على أن يبكى بوجه ما، ولو كان هذا مشددًا كان المعنى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بكى وليس هذا مرادًا قطعًا هنا، وإن سلم وروده بمعنى المخففة لقول الجوهرى: بكيت

(١) أخرجه البخارى (٤/٢١٤)، وأحمد (١/٤٤١)، والطبرانى فى الكبير (٦/١٤٦)، والطبرى فى تفسيره (١/١٣)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٣/٢١٥).

الشيء مخففا ومشددًا، أى: بكيت عليه لأن الاستعمال على خلافه، ألا ترى إلى قوله:

ولا يغرركم منى ابتسام ففعلى مضحك والقول مبكى

فلا وجه لما قيل: المراد أنه بكى على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بهذا الكلام وذكره بعد وفاته كما نقله الرشاطى، أو المعنى أنه بكى غيره عليه به، ويحتمل أنه بكى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فما فى المواهب خطأ على خطأ. انتهى.

(**فقال**) أى عمر رضى الله تعالى عنه، والفاء عاطفة لمفصل على مجمل كقوله تعالى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [هود:٤٥] ولا تقدير ولا تأكيد كما توهم.

(**بأبى أنت وأمى يا رسول الله**) هذا مما تقوله العرب لمن تريد تكريمه وإظهار محبته، أى لو نزل بك أمر يقبل الفداء بأحد من البشر بذلت فى فدائك أبوى فضلاً عن المال وغيره، وقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقولها لمن يتلطف به من أصحابه رضى الله تعالى عنهم، وهذا الكلام مما قيل بعد وفاة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فخطابه بأنت لتنزيله منزلة الحاضر لكونه نصب عينه منتقشا حاله فى صحيفة ذهنه، وخطاب الأموات بمثله كثير غنى عن شاهد، وأنت مبتدأ والجار والمجرور خبر مقدم، أى: أنت مفدى بأبى وأمى، أو أصله أفديك بأبى وأمى، فلما حذف الفعل انفصل الضمير بصيغة المرفوع وتأخر، والباء للمقابلة الدال عليها الفداء ومنع الثانى لا وجه له.

(**لقد بلغ من فضيلتك عند الله**) أى فى علمه وحكمه وتقربك منه، ومن فى من فضيلتك جوز فيها أن تكون زائدة فى الإثبات على رأى فضيلتك فاعل، أو المعنى بعض فضيلتك على أن من التبعيضية فاعل ميلاً مع المعنى، كما جوز التفتازانى أن تكون مبتدأ فى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ [البقرة: ٨] الآية، أى بلغ بعض فضيلتك هذه المراتب الحسنة فما بالك بكلها، وأن بعثك الآتى مفعول على الوجهين لا فاعل، ويجوز كونها بيانية مقدمة على رأى من جوزه كما تقدم.

(**أن بعثك آخر الأنبياء**) أى جعل بعثتك الظاهرة فى آخرهم بحسب الزمان، ليختم بك النبوة وينسخ بشريعتك سائر الشرائع، ويبقى دينك إلى يوم القيامة.

(**وذكرك فى أولهم**) بصيغة الماضى، أى: قدم ذكرك على ذكرهم فى التفضيل.

(**فقال**: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ **[الأحزاب: ٧] الآية**) ليدل على أنك عنده أعظم من سائر الرسل وأشرف، وبهذا الذى قال عمر رضى الله تعالى عنه علم أن هذه الآية دالة على ما عقد المصنف رحمه الله تعالى له الفصل، وعلم مراده من إيرادها فالإشكال السابق ناشئ من عدم الوقوف على ما أراده، وما مر من الأجوبة

بمنعزل عما قصده، وهذا ما وعدناك به، والأولية التقدم فى الشرف والرتبة، أى: أن من خص بالذكر فى الآية من أولى العزم مقدم الرتبة على غيره، فهم أول أنت منهم أو أعلاهم، فلذا قال فى أولهم و لم يقل أولهم، كما قال: آخر الأنبياء؛ لأنه لا خاتم للرسالة غيره مع التفنن البديع.

(**بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده**) فيما تقدم مزيد بيان لهذا (**أن أهل النار**) من أمة الدعوة لك كلهم أو بعضهم كما سيأتى (**يودون أن يكونوا أطاعوك**) وروى: «لو أنهم يكونوا أطاعوك» والود فى الأصل المودة وهى دوام المحبة، ثم صارت بمعنى اليمين، والذى تمنوه طاعته صلى الله تعالى عليه وسلم واتباعه.

(**وهم بين أطباقها يعذبون**) جملة حالية، والطباق جمع طبق وهى المنزلة والمرتبة واحدًا بعد واحد، وما تراكب بعضه على بعض، ويعذبون بيان لما أورثهم دخولها، وذكره لكشف حالهم ولو حذف تم المعنى بدونه.

﴿يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦]، يا للتنبيه أو للنداء والمنادى نفسهم كقوله: وهل تطيق وداعا أيها الرجل، أو لبعض المعذبين أو للزبانية وهو تجريد على الأول، وضمير ليتنا للقائلين والمقول لهم المنادون، وحذف المنادى مبادرة لتمنى ما فات إظهارًا للتحسر، وأنهم لشدة العذاب عاجزون عن النطق، كما قيل فى القراءة: يا مال ليقض علينا ربك بالترخيم، وإليه أشار العلاء الموصلى رحمه الله بقوله:

ما كان أغنى أهل نار جحيم   إذ رحموا يا مال وسط جحيم
عجزوا عن استكمال كلمة مالك   فلأجل ذا نادوه بالترخيم

ثم إنه قيل: المراد بأهل النار بعض أمته صلى الله تعالى عليه وسلم أو أهلها عامة، على أنهم تمنوا أن يكونوا من مطيعى الله تعالى لرؤيتهم حسن حالهم، فتمنوا أنهم أدركوا زمانه صلى الله تعالى عليه وسلم وأطاعوه، وحينئذ يستفاد فضل نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم على غيره من الأنبياء، ويناسب الفصل، ويعلم وجه ذكر المصنف رحمه الله تعالى له، وإلا فكل طائفة جهنمية من أمة رسول تود لو كانت أطاعت رسولها فلا يكون له صلى الله تعالى عليه وسلم حينئذ فضل على سائرهم من هذه الجهة.

وقال التجانى: كلام عمر رضى الله تعالى عنه قاله بعد تحقيقه من أبى بكر رضى الله تعالى عنه موت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ورجوعه فى ذلك إلى قوله لما توفى وارتفع البكاء عليه ودهش الناس، كما روى عن غير واحد من الصحابة رضى الله تعالى عنهم أنهم طاشت عقولهم، ومنهم من خبل، ومنهم من خرس، ومنهم من أقعد، فكان

ممن خبل عمر رضى الله تعالى عنه جعل يقول: إن رجالا من المنافقين زعموا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد توفى، وأنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه عز وجل كما ذهب موسى عليه الصلاة والسلام، وغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كما رجع موسى عليه الصلاة والسلام، فستقطعن أيدى رجال زعموا أنه مات. وأما عثمان رضى الله تعالى عنه فأخرس حتى جعل يذهب به ويجاء ولا يتكلم، وأقعد على كرم الله وجهه، وبلغ الخبر أبا بكر رضى الله تعالى عنه وهو بالسنخ فجاء وعيناه تهملان وزفراته تتردد فى صدره وهو مع ذلك جلد العقل والمقال، حتى دخل على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فأكب عليه وكشف وجهه ومسحه وقبل جبينه وجعل يبكى، ثم خرج إلى الناس وهم فى عظيم غمراتهم وشديد سكراتهم، فقام فيهم بخطبته المشهور، فلما فرغ منها التفت إلى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقال: يا عمر، أنت الذى بلغنى عنك أنك تقول على باب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كذا وكذا، والذى نفس عمر بيده مات نبى الله، أما علمت أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال يوم كذا وكذا قال الله تعالى فى كتابه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] قال عمر: فكأنى والله لم أسمع بها فى كتاب الله تعالى قبل ذلك لما نزل بنا، ثم قال: أشهد أن للكتاب كما أنزل، وأن الحديث كما حدث، وأن الله تعالى حى لا يموت وعنده نحتسب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم اسقط رضى الله تعالى عنه إلى الأرض وجعل يبكى ويقول فى بكائه: بأبى أنت وأمى إلى آخر ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى. وبما ذكرناه لك علم مناسبة ما ذكر من حال أهل النار لهذا الفصل فسقط ما يتوهم من أنه حينئذ غير مناسب فاعرفه.

(وقال قتادة: إن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «كنت أول الأنبياء فى الخلق وآخرهم فى البعث») هذا رواه البغوى والثعلبى مسندًا عن قتادة عن الحسن عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عنه صلى الله تعالى عليه وسلم بلفظ: «كنت أول النبيين». ورواه أبو نعيم وابن أبى حاتم بسند فيه راو اسمه مجهول.

وقال الغزالى: أى كنت بحسب التقدير و لم يرد العلم الأزلى، فإنه لا ترتيب فيه بل علم الكل دفعة، وإنما أراد تقدير ما كان فى اللوح المحفوظ، أو فى علم مالك لما فى صحيح مسلم مرفوعًا: «إن الله عز وجل كتب مقادير الخلق قبل السموات والأرض بخمسين ألف سنة»(١) الحديث. فقدم هنا المقصود بالذات، ويؤيده ما روى فى بعض

(١) أخرجه مسلم (١٤٣٨/١٢٦)، والحاكم (١/٥، ٥٦٢، ٢/٢٦٠).

الطرق: «كتبت» بالتاء الفوقية والباء الموحدة الساكنة من الكتابة، فالمعنى: كنت أول الأنبياء فى تقدير الخلق وآخرهم فى البعث، لأنه تعالى كتب مقادير الخلق كلها كما مر، قيل: ولا يجدى فى حل الإشكال على الحديث الذى ذكره المصنف رحمه الله تعالى ما قيل من أنه تعالى لما صور طينة آدم عليه السلام أخرج منها ذرة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ونبأها، وأخذ الميثاق عليها ثم أعادها لظهره، وهذا معنى حديث: «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» أى خفى قبل نفخ الروح فيه، كأنه أخفى بين الماء والتراب الذى كانت منه طينته، ونظيره الحديث المار، وهو ما رواه أبو هريرة رضى الله تعالى عنه: «وآدم بين الروح والجسد»، أى ثبتت لى النبوة وآدم صورة بلا روح كما فى شرح المصابيح، وحاصل معنى الحديث اللأول أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان نبيا وآدم عليه الصلاة والسلام تراب بلا ماء يعجن به ليصير بعد ذلك طينًا على مجاز الأول.

فإن قلت: إن أريد بالحديثين تعلق علمه تعالى، فما فائدة ذكر الماء والطين والروح والجسد؟.

أجيب: بأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كلمهم على قدر عقولهم، وأراد ثبوتها عند الله زمانًا طويلاً، وجواب ثان عن الحديث الثانى، وهو أنه أراد أنه تعالى لما خلق آدم وحكم بأنه سيكون من صلبه نبى آخر الزمان، وجبت لى النبوة من ذلك الزمان، لأن ما حكم به وعلمه كائن لا محالة، هذا لا ينطبق على إشكال الحديث الأول، فالوجه أن يقال: المراد بالحديثين أنه تعالى لما حكم بأن سيكون نبى يسمى آدم من الماء والتراب ومن صلبه نبى يسمى محمدًا فى آخر الزمان، وجبت لى النبوة وجوبًا مستمرًا قبل نفخ روح آدم. فظهر بهذا معنى قوله: «إنى خاتم النبيين وآدم منجدل فى طينته» إلى آخر ما فصله.

أقول: مجرد تقدمه فى الكتابة حين التقدير أمر ظاهر ليس فيه تقدم وجودى، فالأنسب ما قيل: إن الله تعالى خلق روحه قبل خلق الأرواح، ونبأها وأخذ عليها الميثاق، وأعلم بذلك أهل الملأ الأعلى، أو ذلك فى عالم الذر وهو المراد بالأحاديث السابقة.

وعن كعب الأحبار: إن جبريل عليه الصلاة والسلام قبض من موضع قبره الشريف طينة منيرة عجنت بماء الجنة فصارت ذرة ذات شعاع، فطافت الملائكة بها حول العرش وفى السموات والأرض، فعرفه الخلق وفضله ونبوته قبل معرفة آدم وفى العوارف: إن ذرة المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم هى التى أجابت لما قالت: «أتينا طائعين» ومنها دحيت الأرض فهى الأصل، والمراد أن نوره صلى الله تعالى عليه وسلم أول مخلوق كما

ورد فى الأحاديث، وهذا أمر آخر غير الروح وهو المتنقل فى الأصلاب.

وقوله: (**ولذلك وقع ذكره مقدمًا هنا قبل نوح وغيره**) من كلام قتادة تعليلاً لكونه أول فى الخلق، وهذا إشارة للآية، وقيل: بدل من مقدما أو وصف مبين لكيفية التقدم، وفى نسخة «على نوح» وقد رواه القرطبى أيضًا.

(**قال السمرقندى: فى هذا تفضيل نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم لتخصيصه بالذكر قبلهم**) هذا إشارة إلى الكلام المذكور قبله، أى: فيه ما يدل على تفضيله ويظهره، أو فيه ما يشاء من تفضيله، لكونه خصه بتقديمه على من ذكره، وإن كان فى الآية تفضيل لكل من ذكر لتخصيصه بالمذكور بعد التعميم، والثانى لا يختص به ففيه تفضيل له من وجهين، وأما تقديم نوح على إبراهيم وإن كان المشهور أن إبراهيم أفضل بعد نبينا عليهم الصلاة والسلام فلتقدمه بالزمان، أو لأنه أول رسول مشرع، أو لما وقع له مما قاساه وصبر عليه.

(**وهو آخرهم**) زمانًا وبعثًا وخلقًا، فلا يرد عيسى عليه الصلاة والسلام أى قدمه والحال أنه آخرهم، والتقدم فى الذكر فى الكلام المعجز لابد له من نكتة، وهى إما لتقدم زمانه أو لتقدم ذاته بحسب الشرف، وقد انعدم الأول فتعين الثانى إذ لا وجه له غيرهما، وإن كان التقدم عند الحكماء على وجوه خمسة؛ منها هذان لأن غيرهما لا مناسبة له بما نحن فيه، وقد مر أن التقدم يجوز أن يكون بحسب الوجود أيضًا نظرًا لروحه وحقيقته، والحاصل أنه للفضل إلا أن الجهات مختلفة كذا فى الشروح إلا أن قوله: (**المعنى أخذ الله عليهم الميثاق إذ أخرجهم من ظهر آدم عليه الصلاة والسلام كالذر**) سواء كان من كلام السمرقندى، أو من كلام المصنف يأبى ما قالوه، لأن المراد أن تقدمه فى الذكر لتقدمه فى أخذ الميثاق فى عالم الذر كما نطق به السياق، وإلا لم يكن لذكره هنا التئام مع ما قبله. والذر: واحده ذرة، وهى كما قاله التلمسانى النملة الصغيرة أو الحمراء، أو جزء من مائة وأربعة وعشرين جزأ من شعيرة، وقيل: جزء من ألف وسبعة وعشرين جزأ منها، وقيل: أصغر شىء لا يعلمه إلا الله تعالى، وعدى أخذ بعلى لتضمنه معنى التقدير لا التكليف كما قيل، لأنه لا يتعدى بعلى. وقوله: «إذ أخرجهم»، أى وقت إخراجهم كلهم على هيئة ذرات، واعترض عليه بعض الشراح بأن هذا الميثاق إن كان ما فى قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] إلخ، فهو شامل للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم من غير بيان لتقدمه فيه، وكذا إن كان الميثاق المأخوذ فى التبليغ والإيمان بالرسل السابق، وقد رود بأن البغوى رحمه الله تعالى نقل تقدمه فى ذلك، ومثله لا يقال من قبل الرأى لنقله عن الله، وقد تقدم أن الأخذ على

نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم كان قبل ذلك اليوم، فلعل ذاك كان فى مرة أخرى، والسمرقندى لم يرد أن تقديمه لتقدم الأخذ وهو كلام لا محصل له، وأخذ هذه الذرات كلها سواء كان من ظهر آدم عليه الصلاة والسلام بغير واسطة أو بواسطة أصولهم وآبائهم وتركيب العقل والإدراك فيهم ليأخذ العهد والميثاق عليهم بالإيمان به، ويشهد على ذلك أمر نؤمن به ونصدقه، وإن كنا لا نقف على حقيقته كما هى، فالبحث عنه كما فى الشروح لا نتيجة له، فينبغى الكف عنه كما ذهب إليه السلف وهو ثابت فى القرآن والأحاديث الصحيحة. وفى قوله: «كالذر» إشارة إلى أن الذرية فعلية من الذر وذالها مثلثة، ويكون واحدًا وجمعًا، وقيل: إنها من ذرأ الله الخلق فتركت همزته للتخفيف.

(وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] الآية) الإشارة إلى جماعة سبقوا فى الذكر، أى أو معلومين للمخاطب أو لجميع الرسل عليهم السلام، وما ورد من عدم الفرق والتفضيل بالنسبة لأصل النبوة، أو مأول كما سيأتى، وقال التفتازانى رحمه الله تعال: أجمع المسلمون على أن أفضل الرسل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، قيل: ثم آدم، وقيل: نوح، وقيل: إبراهيم، وقيل: موسى، وقيل: عيسى عليهم الصلاة والسلام. انتهى. والراجح عندهم أنه إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما ورد فى الحديث أنه خير البرية. وقال السيوطى: اتفق أهل العلم أن الأفضل بعد نبينا إبراهيم ثم موسى وعيسى ونوح، ولم يذكروا مراتب بقيتهم، انتهى وفيه نظر.

واعلم أن القاضى بدر الدين المالكى صاحبنا قال فى كتاب «الابتهاج»: وقع للطوفى فى تفسيره المسمى بالإشارات الإلهية فى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ﴾ [الأنعام: ٩٠] أنه احتج بهذه الآية على أن نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لأنه أمر بالاقتداء بجميعهم والاقتداء بفعلهم الإتيان بمثل ما فعلوه، ولابد أنه امتثل هذا الأمر وحينئذ قد فعل صلى الله تعالى عليه وسلم وحده من الطاعة مثل ما فعل هؤلاء جميعهم، والواحد إذا فعل مثل فعل جماعة كان أفضل منهم. ويحكى أن هذه المسئلة وقعت فى زمن العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى، فأفتى فيها بأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان أفضل من كل واحد منهم؛ لا أنه أفضل من جميعهم، فتمالأ جماعة من علماء عصره على تكفيره فعصمه الله عز وجل منهم انتهى.

أقول: نحن لا نشك فى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل من كل واحد منهم ومن الجميع أيضًا، وما ذكره الطوفى رحمه الله تعالى مأخوذ من التفسير الكبير إلا أن فى

الدليل بحثًا، لأنه لا يلزم من إتيانه بكل مأتى به واحد منهم إلا مساواته للمجموع لا أفضليته عليهم، وكأنه الداعى للغر على ما قاله، بل قد يتوقف فى المساواة أيضًا. فإنك لو أنعمت على أربعة فأعطيت واحدًا دينارًا وآخر دينارين وآخر ثلاثة وآخر أربعة، كان لصاحب الأربعة زيادة على كل واحد دون جميع ما لغيره، ولو أعطيته ستة كان مساويًا لهم، ولو أعطيته عشرة زاد عليهم، فينبغى أن يقال: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم قد ساواهم فى العمل وزاد عليهم بأنه أعلم منهم بالله وأكثر من جميعهم خصائص ومعجزات، وهذا التفضيل فى القرب وعلو المنزلة وهو أكثرهم ثوابًا، وأمته صلى الله تعالى عليه وسلم أكثر من جميع الأمم وأجرهم له إلى يوم القيامة، ولو كانت للناس مساكن بعضها فوق بعض كان الذى فوق الأخير أعلى من الجميع، وفى الآية الآتية إيماء لهذا حيث أبهم وعبر برفع الدرجات دون أن يسميه، ويقول: إنه أعظم أو أفضل فاعرفه.

ثم اعلم أن قوله فى تتمة الآية منهم من كلم الله فيه وجهان؛ أحدهما أنه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة العراج، ومنهم من قال: إن المراد موسى عليه الصلاة والسلام، والمناسب هنا الأول وإن كان الأشهر الثانى.

(قال أهل التفسير: أراد بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣] محمد صلى الله تعالى عليه وسلم) أى رفع الله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فالمراد بالبعض محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فأبهمه للتعظيم ولأنه لا يلتبس، كما قيل:

وأقول بعض النـــاس عنك كناية خــــوف الوشاة وأنت كل الناس

وقيل: المراد بالبعض أولوا العزم، وقيل غير ذلك، ولما أبهم أولا فى التفضيل أخذ فى التفصيل فقال: منهم من كلم الله، ومنهم من رفعه درجات، ومنهم من أتاه المعجزات، وغير الأسلوب فى القسم الثانى بذكر بعضهم دون منهم، وذكر برفع الدرجات الكثيرة كما يفيده التنكير إشارة إلى مباينة هذا القسم لغيره، ونظيره قول الحماسى:

ومـــن الرجـــال أســـنة مذروبـــة ومزنـــدون شـــهودهم كالغـــائب
منهم ليوث ما تـــرام وبعضهـــم مما قمشت وضـــم حبل الحاطـب

(لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم بعث إلى الأحمر والأسود) أى: جميع الناس، أو العرب والعجم، أو العرب وغيرهم، أو الإنس والجن. وأشهر الأقوال الثانى، والمراد بالأحمر الأبيض مطلقًا، فإن العرب تقول فى المرأة حمراء بمعنى بيضاء، والبياض عندهم فى صفة الناس النقاء من العيوب، فإذا أرادوا اللون قالوا: أحمر، وهذا قول ثعلب من أئمة اللغة،

ورده فى النهاية باستعمال الأبيض فى صفات الناس كثيرًا كقول امرئ القيس[1]:

مهفهفـــة بيضـــاء غيـــر مفاضة

وجاء فى الحلية الشريفة كما سيأتى: «أبيض اللـون مشـربًا بـالحمرة». وعـن أنـس رضى الله تعالى عنه: «أبيض كأنما صيغ من فضة» ولا منافاة بينهما؛ لأن الأول فى نعت وجهه صلى الله تعالى عليه وسلم، وقول أنس فى وصف جسده الشريف، وعن البكرى مثل ما قال ثعلب، وعن جرير والأخطل أو صفتان للخز والحمر أى النساء الحسان، ولا منافاة بين القولين أيضًا؛ لأن العرب إذا مدحت الناس بالبياض مطلقًا تعنى بياضًا مشـربًا بالحمرة، لأن البياض الخالص كبياض الجـير غـير ممـدوح فـى النـاس لقربـه مـن الـبرص، والممدوح منه ما خالطه حمرة من الـدم أو صفـرة خفيفـة وإليـه الإشـارة بقولـه تعـالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩] ولذا يشبه بالدر، وهذا كلـه باعتبـار الأغلـب، وما ورد فى المثل الحسن أحمر محمول على هذا، أو على أنه ترتكب له المشاق والشـدائد التى تحمل على إراقة الدم هذا هو التحقيق، والعرب تغلب على ألوانهم السمرة والأدمـة فلذا عبر عنهم بالأسود.

(وأحلت له الغنائم) جمع غنيمة من الغنم وهو الكسب والربح، ويقابله الغرم وهى ما يؤخذ من مال الكفار قهرًا. ولم تكن الغنيمة تحل للأمـم السـالفة كمـا لهـذه الأمـة، لأن منهم من لم يؤمر بالجهاد، ومنهم من أمر به ووضع الغنائم فتنزل نار من السماء فتحرق ما يقبل منها كالصدقات والذبائح فلـم تحـل لأحـد قبلـه صلـى الله تعـالى عليـه وسـلم، وكانت الأمم لا تتصرف فى مال الغنائم مما لم تأكله لأنفسها، وهذا هو الذى عـد مـن خصائص نبينا صلـى الله تعـالى عليـه وسـلم وأمتـه، وبـهذا يجـاب عمـا ورد فـى بعـض الأحاديث الدال على أنه كانت لهم غنائم.

(وظهرت على يديه المعجزات) أى: أظهر الله له صلى الله تعالى عليه وسلم معجـزات لم تكن لغيره من الأنبياء عليه الصلاة والسلام، فما مـن معجـزة لنبـى إلا ولـه صلـى الله تعـالى عليـه وسـلم مثلـها أو أعظـم، مـع زيـادة معجـزات بـاهرة لا يقاربـها شـىء مـن المعجزات، كانشقاق القمر، ولو لم يكن إلا القرآن الذى لا يشبهه معجزة إذ فيــه مـا لا يحصى لكفاه.

فمبلـــغ العلـــم فيـــه أنـــه بشر وأنـــه خيـــر خلـــق الله كلهـــم

ولم يقل ظهر له المعجزات وأتى باليدين إشارة لعظمها وكثرتها؛ لأنه كأنـه يظـهرها

(١) تقدم الاستشهاد به.

بكلتا يديه ظهورًا محسوسًا مشاهدًا مكشوفًا لاخفاء فيه حتى نطق بها الحيوانات العجم والجمادات، وبهذا ظهر نظمها فى سلك الخواص.

(**وليس أحد من الأنبياء أعطى فضيلة أو كرامة**) قيل: المراد بالفضيلة ما فى ذاته العلية، والكرامة ما أكرمه الله به مما يشمل المعجزات وغيرها، أو الأول ما فضل به على غيره والثانى أعم، وهما وإن اتحدا المعنى متغايران مفهوما، أو الأول ما اقترن بدعوى الرسالة والثانى ما لم يقترن بها، والظاهر من العطف بأو أن يفسر بما يقتضى تغايرهما كما لا يخفى.

(**إلا وقد أعطى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم مثلها**) أى: ما هو من جنسها ونوعها ومما هو مشابه لها بحسب الظاهر، وإن كان أعظم منها فى الحقيقة كانشقاق زورق القمر له المقابل لانقلاب البحر لموسى عليه الصلاة والسلام، كما قلت:

شهد البدر أنه حسنا عن جميع البدور إذ تم خلقا
ثم لما رأى الشهادة ترضى أن تثبت فشق فى الحال شقا

وفى مثل هذه الجملة التى بعد الإخلاف فذهب الزمخشرى إلى أنها صفة والواو زائدة للإلصاق، أى: لا فضيلة ذات صفة من هذه الصفات إلا هذه الصفة، وغيره إلى أنها حال، أى ليس لها حال من الأحوال إلا هذه الحال، والتقدير مريدًا إعطاؤه مثلها أو مقدرًا لتقارن الحال صاحبها، وفيه أن المراد إعطاء المثل لا تقديره وإرادته، مع أنه لا يتأتى فى نحو لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وقيل: يجوز الاكتفاء بالمقارنة إلا دعائيه بجعل ما لم يتحقق كالمحقق، أو المعنى أن الله أعطاه ذلك من زمن إعطاء الأنبياء، صلى الله تعالى عليهم وسلم، وقد ذهب المفسرون فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات:٦،٧] أن تتبعها حال وبين النفختين أربعون سنة، لاعتبار مدة الخراب إلى آخر الدنيا زمنًا واحدًا ممتدًا، ويمكن اعتباره هنا بلا تكلف، وقول الرضى المقارنة فى الحال أغلبية كما فى: خرج الأمير صائدًا غدًا، بجعل المعزوم عليه كالواقع يأباه قول النحاة، أن الحال هيئة للمعمول حين تعلق العامل به بلا استثناء يقضى، أم المقارنة لازمة إلا أنها قد تترك ظاهرًا فيجب التأويل، ولا يخفى ما فيه من الاضطراب، وقوله: «مثلها» يفيد تفضيله صلى الله تعالى عليه وسلم على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما سمعته آنفا فى قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] ولا يحتاج إلى أن يقال مع تفضيله صلى الله تعالى عليه وسلم بمثل انشقاق القمر وغيره، أو جعل كرامات أمته كرامة له صلى الله تعالى عليه وسلم.

(**وقال بعضهم**) تقدم الكلام عليه وأعاده هنا إشارة إلى أنه من الفصلين باعتبارين.

(ومن فضله) عليه الصلاة والسلام معطوف على مقدر كالعطف التلقينى، أى من فضله ما ذكر. **(أن الله خاطب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأسمائهم وخاطبه بالنبوة والرسالة فى كتابه)** أى القرآن الكريم. **(فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال:٦٤] و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا﴾ [المائدة: ٤١])** وقد مر أنه باعتبار الأغلب تعليمًا للأمة، ولذا نهاهم أن ينادوه صلى الله تعالى عليه وسلم باسمه فقال الله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النور: ٦٣]، وهذا مخصوص بحياته صلى الله تعالى عليه وسلم كما تقدم.

(وحكى السمرقندى) تقدم الكلام عليه **(عن الكلبى)** محمد المفسر أو هشام ابنه وقد تقدم أيضًا. **(فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الصافات:٨٣] أن الهاء عائدة على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم)** وإن لم يتقدم ذكره لدلالة الكلام عليه، فكأنه مذكور، كما فى قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء:١١] أى الميت، والشيعة الأتباع والمعروف فى كلام العرب إطلاقه على المتأخر زمانًا، وقد يطلق على المتقدم كما فى قول الكميت(١):

ومالى إلا آل أحمد شيعة ... ومالى إلا مذهب الحق مذهب

لأن من كنت على منهاجه ودينه فهو على منهاجك ودينك أيضًا، وإذا أضيفت الشيعة للمتقدم اقتضت تفضيله، لأن المتبوع بحسب الظاهر المتبادر أفضل من التابع، فإذا أضيفت للمتأخر اقتضت تفضيله بالطريق الأولى، لأن العدول عن المعروف لابد له من نكتة وليست إلا التفضيل، ألا ترى أن أبا نواس لما قال(٢):

كيف لا يدنيك من أمل ... من رسول الله من نفره

شنعوا عليه كما سيأتى بيانه لاقتضائه تفضيل ممدوحه، ولا فرق بين من نفره ومن شيعته.

فإن قلت: هذا يقتضى تفضيل نوح على إبراهيم عليهما الصلاة والسلام على القول بأن الضمير راجع إليه، مع أن إبراهيم أفضل منه كما تقدم.

قلت: قد عرفت أنه إنما يفيد التفضيل إذا أضيف للمتأخر، ونوح عليه الصلاة

(١) البيت من الطويل، وهو فى شرح هاشميات الكميت (ص٥٠)، الإنصاف (ص٢٧٥)، تخليص الشواهد (ص٨٢)، خزانة الأدب (٣١٤/٤)، الدرر (١٦١/٣)، شرح أبيات سيبويه (١٣٥/٢)، شرح التصريح (٣٥٥/١)، شرح شذور الذهب (ص٣٤١)، شرح قطر الندى (ص٢٤٦)، المقاصد النحوية (١١١/٣).

(٢) البيت من المديد، وهو فى ديوان أبى نواس (ص٢٥٧).

والسلام متقدم وهو آدم الثانى وأول الرسل، والشرائع متفقة فى الأصول، فجعل من كان على نهجه من ذريته شيعة له لا يدل على ما ذكر، مع أن المفضول قد يفضل من جهة على الفضل، ويحتمل أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام جعل من شيعة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم لما مر من تقدم خلقه ونبوته عليهم، وعلى كل حال فالآية دالة على تفضيله بالتفضيل على الأفضل على الجميع، وهو المقصود، فلذا قدم هذا القول.

(أى على دينه ومنهاجه) أى طريقه الواضح من نهج الأمر إذا وضح، والمشايعة المتابعة والموافقة، فالمراد الموافقة فيما ذكر.

(واختاره الفراء وحكاه عنه مكى) رحمهما الله تعالى وتقدم الكلام عليهما وترجمتهما، وأشار بهذا إلى أنه قول صحيح منقول عن المفسرين، لأن منهم من ضعفه وادعى أنه بعيد وأن ما أخره ومرضه بقوله:

(وقيل: المراد نوح عليه الصلاة والسلام) هو القول الصحيح، وفى نسخة: مكان اختاره أجازه بالجيم والزاى المعجمة، على أنه مجرد احتمال لما بين نبينا والخليل عليهما الصلاة والسلام من المناسبة التامة الظاهرة، وهذا لا يفيد تفضيل نوح على إبراهيم عليهما الصلاة والسلام كما سمعته آنفا، والمراد بكونه من شيعته أنه من نسله وعلى منهاجه فى الدين والتوحيد، ومشابهته له لأن نوحًا عليه الصلاة والسلام أبو الناس، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام أبو الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والعرب، وإلى هذا ذهب أكثر المفسرين لظهوره لتقدم ذكر نوح عليه الصلاة والسلام، ولذا قيل: إن قيل هنا أريد بها مجرد النقل لا التمريض وأنه عادته فى هذا الكتاب.

* * *

(الفصل الثامن: فى إعلام الله عز وجل خلقه بصلاته عليه وولايته له)

أى نصره وتأييده لا بمعنى توليته، والواو يجوز فيها الفتح والكسر، فمن اقتصر على الثانى فقد قصر، قال فى المصباح: وليت الأمر إليه بكسرتين ولاية بالكسر توليته والولاية بالكسر والفتح النصرة انتهى.

(ورفعه العذاب بسببه صلى الله تعالى عليه وسلم) روى رفعه بالراء والدال وتقدم الفرق بينهما أن الرفع بعد النزول والدفع قبله ولذا قالوا: الدفع أسهل من الرفع.

قيل: هذا هو المناسب لقوله: «ودرئه العذاب» كما سيأتى، والرفع قد يجىء بمعنى الدفع كما فى: «رفع القلم عن الصبى»[1] وكذا الدفع يجىء بمعنى الرفع والأول هو

(١) تقدم تخريجه بلفظ: «رفع القلم عن ثلاث».

الأصل المتبادر، ثم إن المصنف رحمه الله تعالى اختار اللف على عكس النشر؛ لأنه الأصل الكثير فى كلامهم كما صرح به النحاة، وإن جعل أهل المعانى كلا منهما من فنون البلاغة وتسمية هذا مشوشا يقتضى مرجوحيته عندهم.

(قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣]) قيل: هذا يدل على عدم التعذيب. وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٤] على التعذيب، فقيل: الثانية ناسخة بناء على جواز نسخ الخبر وخلف الوعد، أو كل منهما مقيد بوقت وإليه أشار بقوله: **(أى ما كنت بمكة)** أى انتفى تعذيبهم مدة كونك مقيما بمكة معهم، أو المثبت مطلق التعذيب والمنفى عذاب الاستئصال كما قاله الزمخشرى.

(فلما خرج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة وبقى من بقى فيها من المؤمنين نزل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]) هذا التأويل منقول عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وغيره من السلف كما فى تفسير ابن الجوزى، قالوا: كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] فلما أخرجوا أنزل الله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٤] فلما أخرج للمدينة وبقى المستضعفون من المسلمين بمكة يستغفرون أنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣] إلى آخره، فاندفع التدافع بين الآية الأولى والثانية، على قول من جعل مفادها انتفاء التعذيب لوجود الاستغفار وبين الثالثة، إذ المراد أنهم يعذبون بعد خروج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومن بقى من المسلمين، بعد أن كانوا لا يعذبون وهو فيهم أو هم يستغفرون، ومنهم من قال: بنسخها للأولى وفيه ما تقدم، ومقتضاه عود ضمير معذبهم لكفار مكة، وعود ضمير هم للمؤمنين الباقين بعده صلى الله تعالى عليه وسلم لفهمهم من السياق وإن لم يتقدم لهم ذكر، أو عود كليهما إلى الفريقين على أنهم وصفوا بعضهم كبنى فلان قتلوا قتيلا والقاتل واحد منهم، وأما عود كليهما إلى المؤمنين فقول آخر أسند المصنف رحمه الله لبيانه الحديث الآتى، وإن قال التجانى إنه غريب؛ لأنه يدور سنده على إسماعيل بن مهاجر وهو ضعيف عند المحدثين، وقول التلمسانى إنه أبو البشر الأسدى، قيل: إنه وهم، وقيل: مفاد الآية الثانية نفى الاستغفار عن كفار مكة، وأنها ليست كالأولى فى انتفاء التعذيب لوجود الاستغفار، كانتفائه بوجود النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيهم، لأن إستحقاق العذاب يدل على عدمه إذ لو استغفروا ما استحقوه.

وفى حواشى الفاضل اليمنى أنه نوع من الكناية نظيره: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧] فإن الإهلاك دليل على إفسادهم إذ لو

أصلحوا ما أهلكهم. انتهى. وفي تفسير ابن الجوزي معنى الآية على قول: لو استغفروا لما عذبهم ولكنهم لم يستغفروا فاستحقوا العذاب، كما تقول: ما كنت لأهينك وأنت تكرمني، أي ما كنت لأهينك لو أكرمتني، فأما إذا لست تكرمني فأنت مستحق لإهانتي وهو مختار أهل اللغة، وتغيير الأسلوب تفننًا للإشعار بأن عدم عذاب المستغفر أمر مستمر، وقيل: معذبهم وارد على الأصل، وعبر بالفعل أولا ليتهيأ دخول اللام على خبر كان لتأكيد النفي وإفادة المبالغة في نفي التعذيب بسببه وبالاستغفار، فظهر الفرق بين مقامه ومقامهم حتى لو قيل: معذبهم فيهما لم يظهر، وهذا على رأى الكوفيين من أن اللام في مثله زائدة لتأكيد النفي، وعند البصريين أنها جارة متعلقة بخبر كان المقدر في: ما كان زيد ليفعل، أي قاصدًا لأن يفعل، وعلى هذا يفيد المبالغة أيضًا؛ لأن نفي القصد أبلغ من نفي الفعل ولذا قالوا في قوله(1):

يا عاذلاتي لا تزدن ملامتي

أنه أبلغ من لا تلمني، **فإن قلت:** إن كان المراد المنفي فقد انتفى ببعثته صلى الله تعالى عليه وسلم فلا وجه لتقييده، وإن كان المثبت غيره فلا حاجة لتقييده بالخروج. **قلت:** أجيب بأن النفي استئصال كل كافر والمقيد من هو فيهم، أو نفي مطلقًا ومقيدًا والتقيد في المثبت لبيان الواقع، ونزول الآية فيه وخصوص المورد لا ينافي عموم الحكم، وهذه أجوبة متكلفة باردة، والحق عندي أنه لا منافاة بين الآيتين؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٤] معناه: أي شيء لهم استحقوا به عدم العذاب في أنفسهم، فإن حل بهم فباستحقاقهم وإلا فبحكمة منه، وليس فيه أنه نزل بهم عذاب حتى تكلف لدفعه، وإن قلنا: المنفي الاستئصال فالقيد مبين سببيته، وهو وجوده صلى الله تعالى عليه وسلم بين أظهرهم واستغفار مؤمني أمته، وهذا أمر غير منقطع إذ ليس المراد استغفار المستضعفين فقط، والمثبت غير الاستئصال له أنواع كثيرة كالقحط والقتل والأسر، والواقع بعد خروجه صلى الله تعالى عليه وسلم نوع غير ما كان قبله، فالتقيد في محله كما لا يخفى، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣] أي: وفيهم مؤمن أو وفي أصلابهم من سيؤمن ويستغفر، وهذا كله بسبب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ففيه من مدحه والتنويه بشأن الاستغفار ما لا يخفى.

---

(١) صدر بيت وعجزه:

إن العواذل لسن لي بأمير

وهو من الكامل، وهو بلا نسبة في الخصائص (١٧٤/٣)، شرح شواهد المغني (٥٦١/٢)، مغني اللبيب (٢٣٢/١).

(وهذا مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ [الفتح:٢٥]) هذا إشارة إلى ما ذكر من رفع العذاب عن أهل مكة بسببه صلى الله تعالى عليه وسلم وبسبب أصحابه، وما لأصحابه إنما هو ببركته أيضًا، ولأجل عين ألف عين تكرم وأمهالهم ما ذكر فى هذه الآية أيضًا، وهو قوله تعالى فى سورة الفتح: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح:٢٥] ومعنى تزيلوا تميزوا وتفرقوا، أى تميز المؤمنون من الكفار بخروجهم من بينهم، وروى القرطبى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن معناه: لو تزيل المؤمنون عن أصلاب الكفار، واستشكل بأن الوصف بالوطئ والمعرة لا يصح فى الذين فى الأرحام.

وأجيب بأنه يجعل مرجع الضمير الموجودين على الاستخدام، أى لو انتفى الأمر أن عذبوا، أى لولا كراهة أن توقعوا برجال ونساء مؤمنين معلومين القتل ووطئ الخيل فتلحقكم معرة أى عيب وعار من جهتهم، أو من المشركين بقولهم: إنكم قتلتم أهل دينكم لعذب أهل مكة عذابًا أليمًا بالقتل، وإن تطؤهم بدل من المرفوع بتقدير كراهة أن، وغلب الرجال على النساء فى الضمير وجواب لولا محذوف لدلالة جواب لو عليه، وسد مسده لاتحاد معناهما مآلا، وبقية الكلام على الآية مفصل فى كتب التفسير.

(وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ [الفتح: ٢٥] الآية) هذا مع ما قبله كلام واحد، وهذا مقدم فى التلاوة وإنما أخره المصنف رحمه اللّه تعالى، وأفرز ما تقدم عنه مع أنه من تتمته للتنبيه على أن الاستشهاد لما قاله بموضعين من هذه الآية، وأن قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ [الفتح:٢٥] ليس تأكيد لما قبله، ولعذبنا جواب الأول كما جوزه بعضهم فلا استشهاد فيه، فأشار بعكس الترتيب إلى: رده بأبلغ وجه، والحاصل أن المعنى: أن بين الكفار جماعة مسلمين و لم يعرفوهم لولا كراهة أن توقعوا بهم من غير علم، فيصيبكم ما تكرهون من الغرم والدية لعذبنا الكفار بتسليطكم عليهم. وعن الضحاك: «لولا جماعة فى الأصلاب والأرحام نكره أن تطؤا آباءهم وأمهاتهم فتلحقهم المعرة، بأنهم لو لم يقتلوا جاءت أمة مسلمة منهم كما مروا»، ولولا من علم اللّه تعالى أنه سيؤمن منهم، وبالجملة فالمراد أن وجود المؤمنين مانع وإن اختلفت جهة المنع.

(فلما هاجر المؤمنون) من مكة و لم يبق أحد منهم مختلطًا بالكفار. **(نزلت)** آية. **(﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٤] الآية)** فيوقع بهم القهر والقتل، وهو اعتذار من الرجوع من الحديبية. **(وهذا من أبين)** أى: من أظهر شيء فى رفعة قدره صلى الله تعالى عليه وسلم عند ربه كما أشار إليه بقوله:

(ما يظهر مكانته صلى الله تعالى عليه وسلم) وقوله: **(ودرئه العذاب)** بدال مهملة مفتوحة وراء مهملة ساكنة يليها همزة مقصورة، وضميره للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كما فى أكثر النسخ المصححة، وفى بعضها: «درأته» بتاء مصدر بزنة الضربة وهى بمعنى ما قبلها أيضًا، وفى بعضها: «درأبه» فعل ماض بعده جار ومجرور متعلق به. وفى شرح الشريف: أنه فى غالب النسخ معطوف ومعناه يظهر بتكلف أو حال، وفى بعض النسخ بالعذاب وهو من غلط الكتاب والصواب العذاب بلا باء، وفى حواشى التلمسانى: درأته، وقال: هكذا فى نسخة الشارح اسم بكسر الدال المهملة وسكون الراء وتاء أى دفعه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ [النور:٨] أى: يدفع، قال: ودرأته معطوف على قوله: «من أبين ما يظهر مكانته» ووقع بخط العوفى، وهو الذى عند ابن سيدى الحسن: «ودرأبه» فعل ماضى. انتهى. وعلى الأولى وهى الأصح هو منصوب معطوف على مكانته.

(عن أهل مكة بسبب كونه) أى: وجوده صلى الله تعالى عليه وسلم فيها. **(ثم كون أصحابه بعده بين أظهرهم)** ثم أشار إلى مكثهم مدة متطاولة والبعد باعتبار آخر المدة، أو هى للتراخى الرتبى، وأما جعلها للتعقيب بلا مهلة فغير ظاهر، وبين أظهرهم بمعنى الإقامة معهم، يقال: هو نازل بين ظهرانيهم بفتح النون. قال ابن فارس: ولا تكسر، وقال جماعة: الألف والنون زائدتان للتأكيد، وبين ظهرهم وأظهرهم كلها بمعنى بينهم، وفائدة إدخاله فى الكلام أن إقامته صلى الله تعالى عليه وسلم بينهم على سبيل الاستظهار بهم والإسناد إليهم، وكأن المعنى أن ظهرًا منهم قدامه وظهرًا وراءه، فكأنه مكنون من جانبيه هذا أصله، ثم كثر حتى استعمل فى مطلق الإقامة، هذا ما عليه أكثر أهل اللغة كما فى المصباح والنهاية، فتفسيره بالعزة أو بعدم الغيبة والظهور؛ لأن الظهر أظهر من البطن غير مناسب للغة وحال المستضعفين.

(فلما خلت مكة منهم) أى: من الصحابة رضى الله تعالى عنهم. **(عذبهم الله)** أى: كفار مكة. **(بتسليط المؤمنين عليهم وغلبتهم إياهم)** وليس فيه تفكيك الضمير لظهور المعنى، وليس الظاهر أن يقول تغليبهم بدل غلبتهم كما توهم، ومثله مما لا يلتفت إليه. **(وحكم فيهم سيوفهم)** حكم: بتشديد الكاف أى جعلها حاكمة على رقابهم وهى استعارة لطيفة، أى جعلهم فى قهرهم متمكنين من قتلهم والتصرف فيهم، ولذا كان الأنسب التعبير بالغلبة قبله.

(وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم) أن فسرت الأرض بما لا بناء فيه مما يعد للزراعة ونحوها، والديار بالمساكن المبنية، والأموال بما عدا ذلك من المتاع، والأنعام والنقود

وسائر المنقولات فهى متغايرة، والعطف ظاهر، وليس فيها عطف عام على خاص كما قيل، بأن تحمل الأموال على مطلق ما يملك، والتعبير عن الحيازة والتملك بالإرث مجاز مشهور صار حقيقة فيما ذكر، والتعبير به هنا فيه لطف لما بينهم من القرابة، وفى كلامه ما يرشد إلى أن مكة فتحت عنوة كما ذهب إليه أبو حنيفة رحمه الله تعالى والجمهور، كما جزم به البرهان الحلبى وتبعه بعض الشراح، وما قيل أنه لا ينافى كونها فتحت صلحًا كما توهم لا وجه له، وفيها قول ثالث: أن بعضها فتح صلحًا وبعضها عنوة، ثم إن البرهان رحمه الله استطرد هنا ذكر خبر مكة وتفصيل فتوحاتها باعتبار الصلح والعنوة، والصحيح أن فتح مكة عنوة عند إمامنا الأعظم كما مر.

(**وفى الآية أيضًا تأويل آخر**) تعريف الآية للعهد والمراد بها: ﴿**وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الأنفال:٣٣] والتأويل السابق محصله أن الله لا يعذب الكفار وأنت فيهم، ولا يعذبهم أيضا وبقية الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فيهم يستغفرون الله، فضمائر الغيبة للكفار إلا ضميرهم وضمير يستغفرون، ولذا ذهب بعض الشراح إلى أن المراد بالتأويل الآخر جعل الضميرين الآخيرين للكفار والجملة حالية، أى ما كان الله معذب الكفار لو تابوا واستغفروا من كفرهم، واختاره الطبرى، أو هو إشارة إلى ما سبق فى علم الله من أن منهم ومن ذريتهم من يسلم، أى ما كان الله معذبهم ومنهم من سيخرج فيؤمن ويستغفر، واختاره الزجاج، أو هو إشارة إلى قولهم فى دعائهم: «غفرانك اللهم» فجعله الله أمانًا لهم واختاره ابن عطية. وقوله أيضًا إشارة إلى التأويل السابق أو إلى غيرها من الآيات المأولة ولا مسامحة فيه كما قيل، وفيها تأويلات كما مر من أن المنفى الاستئصال فى الدنيا والمثبت عذاب الآخرة، أو الأوليان من مقالة الكفرة والثالثة رد لهما. وقيل: إن المصنف رحمه الله تعالى أشار إلى ما يفهم من الحديث من أن حياته صلى الله تعالى عليه وسلم واستغفار المؤمنين مطلقا دافع للعذاب، أو المؤمن لا يعذب ما دام مستغفرًا، فضمير الغائبين للمؤمنين أى ما كان الله ليعذب المؤمنين بضرب من عذاب من قبلهم وأنت حى وهم يستغفرون، أو الآية على تأويلها الأول، ولكن إذا لم يعذب الكفار بهذين السببين فالمؤمنون بالطريق الأولى، ففيها أمان للفريقين. والأمة فى الحديث الآتى المراد بها أمة الدعوة وإن كان فى بعض التأويلات أمة الإجابة.

(**حدثنا القاضى الشهيد أبو على رحمه الله تعالى**) ابن سكرة الحافظ وقد تقدمت ترجمته. (**بقراءتى عليه**): أى لا بالسماع وغيره من وجوه الرواية، قال: (**حدثنا أبو الفضل بن خيرون**) تقدم الكلام عليه أيضًا (**وأبو الحسين الصيرفى**) قال البرهان: كان فى

الأصل أبو الحسن فصحح فى الطرة الحسين بالتصغير وهو الصواب، وهو المبارك بن عبد الجبار كما تقدم، وقد وقع له ذكر أيضًا فى أول فصل تفضيله صلى الله تعالى عليه وسلم فى القيامة، وكتبه أبو الحسن أيضًا ولم ينبه أحد فكتب تجاهه ما مر.

(قالا: حدثنا أبو يعلى ابن زوج الحرة) هو أحمد بن عبد الواحد بن محمد بن جعفر وقد تقدم الكلام عليه، والحرة بضم الحاء المهملة وتشديد الراء وبالهاء.

قال: **(حدثنا أبو على السنجى)** الحسن بن محمد وقد تقدم الكلام عليه، وضبط السنجى بكسر السين المهملة والنون الساكنة والجيم وياء النسبة. قال: **(حدثنا محمد بن محبوب المروزى)** تقدم الكلام عليه وعلى نسبته وأنه راوى جامع الترمذى.

قال: **(حدثنا أبو عيسى الحافظ)** هو الإمام الترمذى صاحب السنن وتقدم الكلام عليه.

قال: **(حدثنا سفيان بن وكيع)** أبو محمد بن الجراح الكوفى وله ترجمة فى الميزان، وهو ممن ضعفه الذهبى، توفى سنة سبع وأربعين ومائتين وروى عنه فى السنن. قال: **(حدثنا ابن نمير)** بالنون والميم وآخره راء مهملة بصيغة التصغير، وهو محمد أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن نمير المحدث الهمدانى الكوفى توفى سنة أربع وتسعين ومائة، وقيل: سنة أربع وثلاثين ومائتين وهو الأصح.

(عن إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر) وابن مهاجر سقط من بعض النسخ وهو بجلى من تبع التابعين، وقول التلمسانى أنه أبو بشر الأسدى، قيل: إنه وهم كما مر، وفى التقريب أنه ابن إبراهيم بن مقيم، وهو ثقة، وابن مهاجر ضعيف.

(عن عباد بن يوسف) بفتح العين المهملة وتشديد الموحدة وهو كندى حمصى ثقة، وقيل: اسمه عبادة الذى صححه المزى وابن حجر الأول وهو ثقة مقبول الرواية.

(عن أبى بردة ابن أبى موسى) عامر بن عبد الله وبردة بضم الموحدة وهو ثقة، توفى سنة أربع ومائة على قوله.

(عن أبيه) أبى موسى الأشعرى الصحابى المشهور واسمه عامر بن عبد الله بن قيس، وقيل: الحارث أحد الحكمين توفى بمكة أو بالكوفة سنة أربع وأربعين أو اثنين وخمسين ومائة، ونسبته إلى أشعر لقب لأبى القبيلة المعروفة باليمن، لقب به لأنه ولد وعليه شعر، وهذا الحديث أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهم موقوفًا بمعناه، وهو حديث غريب ضعيف وفيه نظر.

(قال:قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : «أنزل الله تعالى علىَّ») أى أوحى

إلىّ بقرآن يدل على (**أمانين لأمتى**) أى شيئين فيهما ما يدل على ما يدل، على أن اللّه أمن أمتى من العذاب بهما، وهما قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣] ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣]) وقد تقدم أن الآيتين فى المؤمنين أو الكفار أو فيهما، وكذا هذا الحديث محتمل لذلك، لأن المراد أمة الدعوة والإجابة على ما مر، فما قيل: إن مقتضى الحديث شمول الآية للمؤمنين وظاهر النص، وكلام المفسرين أن الآيتين فى الكفار إلا أن يجمع بينهما بأن حال المؤمنين يعلم بدلالة النص والطريق الأولى، وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم علم منهما عموم الحكم، وحمل الحديث على الكفرة بعيد جدًا، وعلى ظاهر الحديث يجوز عود الضمير فى الآية على الأمة لكونه فيهم مدة حياته صلى الله تعالى عليه وسلم سواء كانوا مؤمنين أو كافرين، فيعم الحكم بنوع تكلف كلام مضطرب متكلف.

(**فإذا مضيت**) أى ارتحلت للآخرة (**تركت فيكم**) وفى رواية: «فيهم» أى خلفت بعدى بضم تاء المتكلم.

(**الاستغفار**) أى: إذا مت بقى فيكم الأمان الآخر، فإذا تركتموه حل بكم العذاب جزمًا أو احتمالاً، والاستغفار هو الدعاء بالمغفرة المعروف، وقيل: المراد به الصلاة، وقيل: الإسلام، وعلى رواية فيكم فيه التفات من الغيبة للخطاب، إشارة إلى أن انتفاء التعذيب عنهم بالاستغفار دون انتفائه بكونه فيهم، وبه يعلم وجه قوله ليعذبهم أولا دون معذبهم وهو مناسب لنزول صدر الآية بمكة، وعجزها بعد خروجه صلى الله تعالى عليه وسلم وترك بقية المؤمنين بها كما قيل وفيه نظر.

(**ونحو منه**) منه متعلق: بنحو لتضمنه معنى قريب، أى فيه نوع مماثلة بحسب المعنى لما مر من رحمة الكفار بتأخير العذاب.

(**قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾** [الأنبياء:١٠٧]) أى لجميع الخلق حتى الكفار والجماد والحيوان، لإصلاحهم وإسعافهم فى أمور معاشهم ومعادهم وأمنهم من الخسف والمسخ، وعذاب الاستئصال وغير ذلك مما نزل بالأمم السالفة، وكل ذلك ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم.

(**قال رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم: «أنا أمان لأصحابى»**) كونه صلى الله تعالى عليه وسلم أمانًا لأصحابه من كل ما يخافون أمر قطعى، وهو أعم مما حكاه المصنف رحمه اللّه تعالى بقيل الآتى، وينبغى أن يكون هذا مندرجًا تحت قوله وروايته له **كما قيل**، وهذا الحديث رواه مسلم عن أبى موسى رضى اللّه تعالى عنه: صلينا المغرب

مع رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلى العشاء، فخرج علينا فقال: «مازلتم هاهنا؟» قلنا: يا رسول اللّه، صلينا المغرب معك ثم قلنا نجلس حتى نصلى معك العشاء، فقال: «أحسنتم» ورفع رأسه إلى السماء وكان كثيرًا ما يرفعها فقال: «النجوم أمنة للسماء فإذا ذهب أتى للسماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابى فإذا ذهبت أتى أصحابى ما يوعدون، وأصحابى أمنة لأمتى فإذا ذهبت أصحابى أتى أمتى ما يوعدون»(١). فما ذكره المصنف رحمه اللّه تعالى رواية موافقة لرواية مسلم، أو هى رواية مسلم بالمعنى، لأن أمنة بفتحات مصدر بمعنى أمان وإن ورد جمعًا لأمين بمعنى الحافظ كخدمة كما فى النهاية، والمراد الأول لقول ابن مسعود رضى اللّه تعالى عنه: «كان صلى الله تعالى عليه وسلم أمانًا لهم والاستغفار فهاجر وبقى الاستغفار» كما رواه فى اللباب، ومن هنا علم أنه يجوز أن يكون معنى مضيت السابق هاجرت فلا التفات، وإن احتمل أيضًا.

والمراد بذهاب النجوم انتثارها بشهادة ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ [الانفطار: ٢] وما توعده السماء انفطارها وتبديلها المذكور فى قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار:١] و﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وهو تمثيل وإيماء إلى أصحابه صلى الله تعالى عليه وسلم كالنجوم فى الأمة، وما أوعد به أصحابه رضى اللّه تعالى عنهم الفتن والردة بعده، والموعود به الأمة ما أنذرهم من البدع، والاختلاف والهرج، وغلبة الروم، وتخريب مكة والمدينة، وغير ذلك مما كان أكثره وبقى ما لاشك فى كونه، وفيه دلالة على ظهور الشر بعد ذهاب أهل الخير، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم ما دام حيا لم يقع شىء من ذلك ولا اختلاف وبعده وقع الاختلاف، ثم لما انقرض عصر الصحابة رضى اللّه عنهم قويت الظلم لذهاب الأنوار كالسماء عند ذهاب النجوم، قيل: الأمان المذكور ما كان فى حياته صلى الله تعالى عليه وسلم لا فى حياته وموته كما توهم كما لا يخفى، فمن حمله عليه فقد أخطأ وفيه نظر.

(**قيل: من البدع**) جمع بدعة وهى ما لم يعلم من الشرع لا صريحًا ولا إستنباطًا، وليست كلها مردودة كما يوهمه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار»، فإن الفقهاء قالوا: تجرى فيها الأحكام كلها، فمنها ما هو حرام كأنواع السياسة التى لم تكن فى العصر الأول، ومنها ما هو مكروه كتكبير العمامة وتوسيع اللباس وتطويله، ومنها ما هو مباح كإحداث بعض الأطعمة، ومنها ما هو واجب كدقائق علم الكلام التى تلزم بها الكفرة وأهل الأهواء، وما هو مستحب

(١) أخرجه مسلم (٢٠٧/٢٥٣١)، وأحمد (٣٩٩/٤)، والحاكم (٤٤٨/٢).

كإحداث المدارس والرباطات، وقد استوفى أقسامها ابن الحاج في «المدخل» وهو كتاب لم يصنف في بابه مثله وإن كان فيه أمور غير مسلمة.

(وقيل: من الاختلاف والفتن) المراد بالاختلاف ما يشمل الخلاف وهو مخالفة العلماء والفقهاء والحكام من غير دليل معمول به، وإن كان ذلك مطلقًا لم يقع في حياته صلى الله تعالى عليه وسلم لمعرفة حقيقة كل أمر بالوحي، وأما الاختلاف الذي وقع عنده صلى الله تعالى عليه وسلم كما ورد في الأحاديث الصحيحة، من أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال في مرضه: «ايتوني بدواة أكتب لكم كتابا لا تضلون به من بعدي» فقال عمر رضي الله تعالى عنه: إن الرجل ليهجر حسبنا كتاب الله، فلغط الناس، فقال: اخرجوا عني لا ينبغي التنازع لدي. فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فهذا مما شنع به الرافضة على عمر رضي الله تعالى عنه، وسيأتي بيان ذلك آخر الكتاب.

وقال صاحب الملل والنحل: هو أول إختلاف وقع في الإسلام. وقال ابن تيمية في كتاب «الرد على الرافضة»: لا يخفى أن عمر رضي الله تعالى عنه ثبت من فضله وعلمه ما لم يثبت لغيره، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن يكن في أمتي محدث فعمر» وقصة هذا الكتاب قد جاءت مفصلة في الصحيحين عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال لها في مرضه: «ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب كتابًا فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل أنا أولى بالخلافة، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»(١) وقد اشتبه على عمر رضي الله عنه قوله هذا، هل كان من شدة المرض أم لا؟ والأنبياء عليهم الصلاة والسلام غير معصومين عن أعراض المرض، ولذا عبر بالرجل وقال: «اهجر» ولم يجزم بأنه هجر، وعلم أن الكتاب لا يرفع الشك.

وأما قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الرزية الخ فلأن الحائل عنه رزية في حق من شك، ومن توهم أنه خلافة على كرم الله تعالى وجهه فهو ضال والحاضرون جماعة يجيء منهم جحده ولو كتب، فلذا تركه لتحقق ما فيه عنده انتهى.

وحديث: «اختلاف أمتي رحمة»(٢) لم يثبت وهو مأول أيضًا، والصحابة رضي الله تعالى عنهم عند الاختلاف مجتهدون في إدراك الوقائع والإتفاق أولى على كل حال،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٨٧/١١)، وأحمد (١٠٦/٦)، وابن سعد (٢٤/٢/٢).

(٢) انظر: كشف الخفاء (٦٨/١)، تذكرة الموضوعات (٩٠)، إتحاف السادة المتقين (٢٠٤/١، ٢٠٥).

وقد يؤدى الخلاف إلى ما لا ينبغى. وقيل: والحق أن المجتهد إذا غفل وأخطأ فله أجر، كما أنه إذا أصاب فله أجران ولا يضره خطاؤه بل ينفعه.

أقول: هذا وإن اشتهر فقد قال ابن عبد السلام: الحق خلافه، والحديث الذى رواه عمرو بن العاص رضى اللّه تعالى عنه أنه سمع رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: «إذا حكم الحاكم واجتهد وأصاب فله أجران، وإن حكم واجتهد ثم أخطأ فله أجر»(١) قال ابن عبد البر فى «كتاب العلم»: اختلف العلماء فى تأويل هذا الحديث، فقال قوم: «لا يؤجر من أخطأ لأن الخطأ لا يؤجر أحد عليه، وحسبه أن يرفع عنه الإثم»، وردوا هذا الحديث بحديث بريدة رضى اللّه تعالى عنه: «القضاة ثلاثة»(٢) وبقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «تجاوز اللّه لأمتى عن خطائها ونسيانها»، وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم﴾ [الأحزاب:٥] ونحوه. وقال آخرون: يؤجر أجرًا واحدًا لظاهر الحديث. وقال الشافعى: يؤجر لا على الخطأ لأن الخطأ فى الدين لم يؤمر به أحد، وإنما يؤجر لإرادته الحق الذى أخطأه وسعيه فيه. انتهى. وهو معنى لطيف جمع به بين القولين.

والفتن: جمع فتنة، وأصل معناها الاختيار فأطلقت على المصائب وما يختبر به، والمراد بها الحروب والارتداد وكل ما جرى بعده صلى الله تعالى عليه وسلم بين الصحابة فهو عام ومناسبته للترجمة ودخوله فى ولايته له ظاهر.

(قال بعضهم: الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم هو الأمان الأعظم ما عاش وما دامت سنته باقية): فذاته الشريفة نفس الأمان، أو وجوده صلى الله تعالى عليه وسلم أمان من كل مكروه بالدفع والرفع، فهو الأمان لا غيره لتعريف الطرفين، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] وسنته طريقته التى شرعها، ومنها الاستغفار، ولذا فسر بما مر، وبقاؤها ببقاء نوعها والعمل بمثلها.

(فهو باق): الضمير للأمان أو للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن بقاء شرعه كبقائه فيكون الأمان الأعظم كالباقى لتنزيل بقاء سنته منزلة بقائه، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣] وهذا مبنى على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أمان للمؤمنين والكافرين كما مر، ولذا كان أعظم، وما فى

(١) أخرجه البخارى (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦/١٥)، وأبو داود (٣٥٧٤)، والنسائى (٢٢٤/٨)، وابن ماجه (٢٣١٤)، وأحمد (٢٠٤/٤)، والبيهقى (١١٨/١٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٧٣)، والترمذى (١٨٣)، وابن ماجه (٢٣١٥)، والحاكم (٩٠/٤)، والطبرانى فى الكبير (٥/٢).

الجملتين ظرفية مصدرية والثانية معطوفة على الأول، وقيل: هو ركيك وكأنه جعل الثانية شرطية وجملة الشرط معطوفة على ما قبله، أى إن دامت السنة فالرسول وأمانه باق كما بينه بقوله.

(**فإذا أميتت سنته فانتظروا البلاء والفتن**) وفى بعض النسخ فانتظر مفردًا باعتبار المخاطب، وإن كان الحكم عامًا ومعنى اميتت بصيغة المجهول تركت على الاستعارة، أى لم يعمل بها ولم يحرص الناس على تعلمها بأن غلب فيهم ذلك لا الترك بالكلية فإنه من أشراط الساعة، والبلاء بفتح الباء وبالمد المصائب كالطاعون، والظلم والفتن محاربة الناس بعضهم بعضا كما مر، نسأل اللّه تعالى العفو والعافية، وليسا مترادفين كما قاله التلمسانى، وفى كون الاستغفار قائمًا مقام الأمان الأعظم دون غيره سر لم ينبهوا عليه فتنبه.

(**وقال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية [الأحزاب:٥٦]**) إنما ذكر هذا هنا لدلالته على عظم شأنه وتولى اللّه أموره، وسيأتى الكلام مفصلاً فى الصلاة فى الباب المعقود لها بإذن اللّه تعالى: أظهر أو فصله عن غيره فضل نبيه صلى اللّه تعالى عليه وسلم بصلاته عليه ثم بصلاة ملائكته، ثم للتراخى الرتبى أو الذكرى بجعل مقصيه كبعده كما فصل فى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:٢] قيل: وفيه إشارة إلى اختيار أحد القولين فى الضمير فى قوله: ﴿يُصَلُّونَ﴾ [الأحزاب:٥٦] أنه للّه والملائكة كما تقدم.

(**وأمر عباده**) أمر مصدر مجرور بعطفه على صلاته، أو فعل معطوف على أبان كما صححه البرهان لا على فضل بتقدير أن المصدرية، لأنه تكلف من غير داع، والمراد بعباده المؤمنون المكلفون، أو الأعم بناء على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، وكون الأمر للوجوب أو الندب سيأتى، وعباد جمع عبد وله جموع كثيرة تزيد على عشرين جمع ابن مالك رحمه اللّه غالبها فى شعره المشهور:

عباد جمع عبد وأعبد ... أعابد معبوداء معبدة عبد
كذاك عبدان وعبدان اثنتا ... كذاك العبدا وامدد إن شئت أن تمد

وزاد عليه بعض أصحابنا فقال:

جموع عبد عبود أعبد عبد ... أعابد عبد عبدون عبدان
عبد عبدى ومعبودًا ومدهما ... عبدة عبدا عباد عبدان
عبيدًا عبدة عباد معبدة ... معابد وعبيدون العبدان

(بالصلاة والتسليم عليه) صلى الله تعالى عليه وسلم، وسيأتى تفصيل معناهما فله صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك الفضل على غيره، وقد قيل عليه: إن المؤمنين شاركوه فى مجرد صلاة اللّه وملائكته لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب:٤٣]، وفى الحديث مثله كثير، كحديث: «إن اللّه وملائكته يصلون على ميامن الصفوف». وقد ذكر أن الآية الأولى لما نزلت قال أبو بكر: يا رسول اللّه، ما أعطاك اللّه من خير إلا أشركتنا فيه، فما بالك لم تشركنا فى هذا الخبر؟ فنزلت هذه الآية، فإذا كان نزول هذه بعد الأولى ظهر فضله صلى الله تعالى عليه وسلم على غيره بها حيث نزلت أولا من غير مزاحم فيها، مع التأكيد بأن الإسمية وفى تمييزه بمجموع ما ذكر، وأيضًا المضارع يدل على الاستمرار التجددى فى حقه دونهم فيظهر الاختصاص.

وعن الإمام الرازى: إن صلاة الملائكة على المؤمنين بطريق التبعية لصلاته تعالى عليهم، لتأخر ذكرها، وصلاتهم عليه بطريق الأصالة، ففى الآية الأولى تفضيل له على غيره، كما إذا قيل: يدخل فلان وفلان فإنه يدل على تقديم الأول بخلاف فلان وفلان يدخلان، وأورد عليه أن الواو لمطلق الجمع بلا ترتيب فى أى الركنين كانت.

وأما قول أبى حنيفة رحمه اللّه تعالى: من قال لغير مدخول بها إن دخلت الدار فأنت طالق واحدة وواحدة تقع واحدة، بخلاف أنت طالق واحدة وواحدة إن دخلت الدار حيث يقع ثنتان، فليس مبنيًا على أن الواو للترتيب، بل لأن المعلق بالشرط كالمنجز عند وقوعه، وهو لو نجز الأول حقيقة لم يقع الثانى، فكذا إذا صار كالمنجز حكما بخلاف ما إذا أخر الشرط، لأن صدر الكلام توقف على آخره لوجود المعنى فى آخره، فكان فى حكم البيان كما بين فى محله، وليس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم داخلاً تحت المخاطبين بالآية الثانية، ليقال: إنه لما ميز بالصلاة عليه من مجموعهم دل ذلك التمييز دلالة واضحة على ترجيحه فيها، كأحب القوم وأحب زيدًا بتقديم الأول أو تأخيره؛ لأن المخاطبين بها المؤمنون خاصة بقرينة السياق. انتهى.

أقول: القول ما قالت حزام، فإن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مخصوص بالصلاة عليه استقلالا منا كما صرح به الفقهاء بأسرهم، أما من اللّه ورسوله فيجوز استقلالا وتبعا، لأنه تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء:٢٣]، والصلاة حق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فله أن يعطيه من شاء مع أن الصلاة عليه رحمة وتعظيم مخصوص به والصلاة على غيره مطلق الرحمة، والمثال الذى ذكره الإمام مآله لما قاله أبو حنيفة بعينه، وليس هذا من الواو كما مر نظيره فى قصة الخطيب ففعله تعالى وأمره لنا أمر مخصوص به، فلا حاجة لما ذكر من الحزيزة لمن فى بصيرته نور من اللّه، وخص المؤمنين بالتسليم

المؤكد لبيان لزوم رعاية التعظيم من الأمة فى حقه؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم المنقذ لهم من الضلال وافتقارهم له ولأنعامه أكثر من غيرهم، والمراد التسليم من النقائص التى عصمه اللّه تعالى منها و لم يسندها له غير البشر الذين هم من نوعهم، وخصه بالتأكيد وتنوين التعظيم أى تسليمًا عظيمًا تعريضًا بمن لم يسلم، وقيل: لأن المراد تسليما لا كتسليم غيره من الأمة، والصلاة ليست مما يشاركه فيها الأمة فيفهم منها التعظيم فى نفسها من غير تأكيد، أو لأن التسليم لم يثبت للّه والملائكة فهو فى معرض المساهلة فى الجملة وهو كلام حسن.

(**وقد حكى أبو بكر بن فورك**) بفاء مضمومة وواو ساكنة وراء مهملة وكاف عربية وهو لفظ اختلف فيه، فقيل: إنه عربى، وفور بمعنى فار فالكاف إما زائدة فيه، كما قالوا فى هندى هندكى أو للتصغير، فإن العرب إذا صغروا ألحقوا آخر الاسم كافا، ورد بأن فور بمعنى فار لم يسمع من العرب، والثابت فى اللغة فور جمع فائر بمعنى الظبى، والذى فى اللغة الفارسية أنه بمعنى لون التراب، قالوا: فور خاك رنك، وفى شرح النخبة أنه ممنوع من الصرف؛ لأن الكاف أداة تصغير فى الفارسية، قيل: وليس هذا علة تمنع الصرف؛ لأن شرط العجمة كونه علمًا فى العجمية قبل استعماله وليس كذلك، إنما الشرط أن لا يستعمله العرب إلا علمًا كقالون على ما فيه، وقيل: فور عربى فلا ينقلب بلحوق الكاف أعجميًا.

أقول: اللفظ العربى إذا غيروه وعجموه بإلحاق أداة من أدواتهم و لم يستعمل إلا علمًا، فالظاهر أنه يصير أعجميًا ممنوعًا من الصرف، كبابك فإنه فى الأصل بابًا بمعنى أب فصغر بالكاف على قاعدتهم المذكورة، وقد استعمل ممنوعا فى شعر أبى تمام ولا عبرة بالتردد فيه، ولا جعله كما هك كما فى بعض حواشى المطول، وفى حواشى الفاضل الحفيد على المطول بابك والد عبد الصمد الشاعر المشهور ممنوع من الصرف، وقيل: مبنى على السكون. انتهى. والبناء وهم لا يعتد به، وفى حواشى البرهان الحلبى: هو مصروف بضبط القلم فى النسخ المصححه، والظاهر أنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، وهو محمد بن الحسن الأصبهانى الإمام الجليل والبحر الذى لا يجارى فقها ونحوًا وأصولاً وكلامًا مع جلالة وورع زائد، وقد امتحن فى الدين وجرت له مناظرات أدت إلى عزله، ومات مسمومًا شهيدًا فى الطريق لما عاد من غزنة سنة ست وأربعمائة ونقل إلى نيسابور ودفن بها، وقبره يزار ويستجاب عنده الدعاء، وهو شافعى المذهب. قال التلمسانى: انتهى إلى أن يكلمه الملك فى اليقظة.

وقوله: «وقد حكى» إلى قوله الآتى: «إلى يوم القيامة» لم يثبت فى الأصل الذى عليه

خط المصنف، وثبت فى الأصل المروى عن أبى العباس العزفى انتهى.

وفى حواشى الكمال بن أبى شريف على النخبة أنه فارسى مصغر غير منصرف، ومعناه فوير تصغير فار؛ لأن الكاف عندهم للتصغير، وجعل فى العجم علمًا، لكن فى القاموس أن لفظ فور علم له و لم يعده من العجمى كما هو عادته، وقيل: وهو يدل على أن التفخيم بإدخال الكاف بعد العلمية، ولذا قيل: إنه تفخيم غير معتبر وفيه نظر.

(**إن بعض العلماء رحمهم اللّه تعالى تأول قوله عليه الصلاة والسلام: «وجعلت قرة عينى فى الصلاة» على هذا**). والحديث: «حبب إلىَّ من دنياكم ثلاث، النساء، والطيب، وجعلت قرة عينى فى الصلاة»(١). وفى إثبات لفظ ثلاث ومعنى الحديث كلام سيجىء، والمقصود هنا أن بعض العلماء فسر الصلاة هنا بالدعاء، والمعروف أنه الصلاة الشرعية ذات الركوع والسجود لما فيها من المناجات والمعارف وكشف الأسرار.

(**أى فى صلاة اللّه على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وملائكته وأمره الأمة بذلك إلى يوم القيامة**) ذلك إشارة إلى الصلاة المذكورة فى الآية، وذكره لتأويله بالمذكور أو الدعاء ودوامه إلى يوم القيامة بدوام أمته ولعدم نسخه، وإلى متعلقة بالأمر ويجوز تعلقه به وبما قبله على التنازع، وإنما غياه بما ذكرلعدم التكليف فى الآخرة، والمراد بالقيامة: معناها المعروف أو خراب الدنيا وكون إلى بمعنى مع تكلف، وخص ذلك قيل: لاندراج كل فضيلة فيه، والآية تدل على تجدد الرحمة وكثرتها على ما يليق بمقامه عليه الصلاة والسلام.

(**والصلاة من الملائكة ومنا له دعاء**) وفى نسخة: «من الملائكة استغفار ومنا دعاء» وهو الذى اشتهر عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما، وما فى هذه النسخة سيأتى وهما مشتركان فى أنهما دعاء، ومعنى الاستغفار وتخصيصه بالملائكة سيأتى تحقيقه، والمراد من قوله: «منا» بنو آدم المكلفون كما قيل.

(**ومن اللّه رحمة**) إنعام ولطف أو ثناء وتعظيم. (**وقيل:**) معنى (**يصلون يباركون**) أى يعطيه اللّه البركة والملائكة يطلبونها له، والبركة النمو والخير الكثير أو الدائم، من برك البعير أو من بركة الماء كما حققه فى الكشف وأشار بقوله: (**و**) قد (**فرق**) بتخفيف الراء ويجوز تشديدها إن لم نقل أن المخفف يختص بالمعانى والمشدد بالأجسام كما قاله القرافى أى ميز وفصل.

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٨/٣، ٢٨٥)، والنسائى (٦١/٧)، والحاكم (١٦٠/٢)، وابن عدى (١١٥٠٣/٣).

(**النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حين علم**) بتشديد اللام (**أصحابه**) رضى اللّه تعالى عنهم (**بين لفظ الصلاة والبركة**) فى حديث: «قد أمرنا أن نصلى عليك فكيف نصلى؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد»(١) أو حيث عطف أحدهما على الآخر فى حديث آخر فقال: «صليت وباركت» والظاهر أن مراده الأول إشارة إلى اعتراض على هذا القول، ولا يخفى أن المغايرة بينهما بحسب المفهوم لا تنافى تفسيره به وعطفه عليه وإن كان الأصل ذلك وسيأتى تتمة هذا.

(**وسنذكر حكم الصلاة عليه**) من الوجوه والكيفية وغير ذلك، وفى نسخة: (**صلى اللّه تعالى عليه وسلم تسليما كثيرًا إلى يوم الدين**) والمراد التأبيد، أى: إلى يوم القيامة لظهور أمر الدين فيه أو الجزاء عليه، أو خضوع كل أحد له فالغاية غير مرادة، وقيل: هى للكثرة كقوله: «ملأ السموات والأرض».

(**وذكر بعض المتكلمين**) أى المفسرين بدليل قوله: (**فى تفسير حروف كهيعص**) والجار والمجرور متعلق بذكر أو بالمتكلمين، وليس المراد به المتسمين بعلم الكلام كما قيل لعدم مناسبته هنا. (**أن الكاف من كاف**) أى حرف من اسمه تعالى الكافى، و لم يقل من الكفاية كما قيل فيما بعده مع أنه المناسب لتفسيره بقوله:

(**أى كفاية اللّه لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم**) وعبارته لا تخلو من اضطراب فإنه اكتفاء بحرف من الكلمة على طريق الرمز والإشارة إليها، وأما من كاف الذى هو اسم له أو من الكفاية التى هى صفته، وما قيل من أنه ميل إلى أنه إشارة إلى اسم اللّه باعتبار الصفة، و لم يقل الهاء من الهادى ونحوه وهو المراد بالاكتفاء الأول، أو لأنه أراد الإشارة إلا ما وقع فى القرآن، والذى فيه فى الأول اسم اللّه وفى الثانى نسبة الصفة إلى الله فذكر على نهج ما ورد.

أقول: هذا كلام من فر من المطر فوقف تحت الميزاب، أما الأول فلأن الإشارة إلى الاسم باعتبار الصفة تكلف لا داعى له وهو غير صحيح فى الصاد التى هى إشارة إلى الصاد من مصلى، أو صلاته عليه الآتى إذ ليس من أسمائه المصلى، وأما الثانى فغفلة عن قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:١٣٧] ونحوه، والذى يظهر أنه أراد أن كل حرف مقتطع من صفة من صفات الأفعال وأنها باعتبار تعلقها به لا مطلقها، وأنه لما ذكره أولا باسم من أسمائه الحسنى تبركًا به وبيانا لوجه تقديمه؛ لأنه أهمها وأعمها

(١) أخرجه البخارى (٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦)، والنسائى (١٢٨٨)، والحاكم (١٤٨/٣).

فسره بما ذكره لئلا يتوهم جريانه فيما بعده فإنه منقول فيما سيأتى، وأن المراد إثبات معناه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا أنه منادى، ولأنه مقتضى ما عقد له الفصل فتدبر فالكاف من كاف والمعنى: أنه كاف له عما سواه، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٦٤] وإليه أشار بقوله: أى كفاية الله كائنة منه لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم وسكت عن الباقى لظهوره، فالحروف منتزعة من صفات مشتقة لا من مبادى اسمها كما توهم، ولا يشترط فى الحرف أن يكون من أول الاسم، وهذا مروى فى بعض التفاسير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ومثله لا يقال بالرأى، فقول بعض الشراح إن هذا لا ينبغى فإن الحروف لا تدل على غير مسماها، ولم لم تكن الكاف من كريم أو كبير وهذا من بدع التفاسير كما فى الكشاف.

وفى هذه الحروف أقوال أخر: أحدها: أنه من المتشابه الذى لا يعلمه إلا الله، وقيل: إنها أسماء للسور أو القرآن فيه نظر، والعجب أنه بعدما أنكر ما هنا نقل قولا بأنها أسماء لله، وقيل: إنها بيان لمدة هذه الأمة أو بعضها وقد نقل علماء الحرف لها خواص كما فى حياة الحيوان، منها أن من خاف سلطانًا أو ظالمًا عقد أصابع يده اليمنى بكهيعص يبدأ بإبهامها، واليسرى بحمعسق يبدأ بخنصرها، ثم يقرأ فى نفسه سورة الفيل ويكرر لفظ ترميهم عشر مرات، يفتح فى كل مرة أصبعا من أصابعه المعقودة يأمن شره، قال: وهو عجيب مجرب انتهى.

(قال) الله فى كتابه الكريم: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦] فسر عبده بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم، ويحتمل العموم بدليل أنه قرئ عباده فيدخل النبى بالطريق الأولى، والاستفهام إنكارى للمبالغة فى إثبات الكفاية، ويحتمل أن يزاد غيره، والمعنى أنه إذا كفى غيره من العباد كيف لا يكفيه صلى الله تعالى عليه وسلم. **(والهاء هدايته له)** لم يقل من هدايته لأنه يعين أن الهاء من هاد لإثبات هدايته له، وما قيل إنه لم يقل من هدايته تفننًا ولئلا يتعين الاكتفاء ببعض الكلمة لا وجه له، وكذا ما قيل: إنه بتقدير مبتدأ ومضاف أى الكاف والهاء رمز كفاية، والكاف من كفايته لا من كاف فيتدافع كلامه، والجواب بأنها إذا كانت رمز الكاف كانت رمز الكفاية فى ضمنه. **(قال: ويهديك صراطا مستقيما)** من الدين الأكمل والصلاح أو يعينك على ذلك، وقيل: يهدى بك.

(والياء تأييده له قال الله تعالى: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٦٢]) التلاوة ليس فيها واو، والضمير فى تأييده لله وفى له للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم. وفى نسخة تأييده بدون له والضمير يحتمل عوده لله وللرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، والتأييد

التقوية والإعانة على أعدائه وبالأدلة والمعجزات والملائكة ونصره على أعدائه، وفى اللباب: لم يرو عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى الثانى، ووجه بأنه لم يأت فى أسماء الله ما أوله ياء، وقد علمت أن حرف الرمز لا يلزم أن يكون أولا وقد نقل هو أن الياء من حكيم، والقول بأنها من يمين وهم لأنه ليس اسما لله، وأما قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧] فلا شاهد فيه، والإضافة تأباه، وعندى أن هذا مما لا ينبغى ذكره.

(**والعين عصمته له قال الله تعالى**: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]) أى يحفظك من كيدهم ومكرهم ويمنعك من أذاهم، وهو وعد ممن لا يخلف الميعاد، وقد كان له صلى الله تعالى عليه وسلم حرس فلما نزلت قال لهم: «انصرفوا فإن الله يحرسنى»(١)، والقول بأن معنى الآية أنه يحفظه عن الذنوب من بين سائر الناس تكلف، وإن كان صلى الله تعالى عليه وسلم مصونًا عنها كما سيأتى.

وفى زاد المسير: **فإن قلت**: كيف ضمان العصمة له صلى الله تعالى عليه وسلم وقد شج جبينه وكسرت رباعيته وبولغ فى أذاه؟.

قلت: إنما عصم، صلى الله تعالى عليه وسلم ، عن القتل والأسر لا عن عوارض الأذى، أو هذه الآية نزلت بعد ما جرى عليه؛ لأن المائدة من آخر ما نزل كما فى الشرح الجديد ويأتى له مزيد بيان.

أقول: هذا بناء على أن هذه الآية مدنية والعصمة بعد الهجرة وهو المشهور، وذكر خاتمة المحققين الإمام الخيضرى فى خصائصه، وهو كتاب لم يصنف مثله، ما حاصله أن وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب عليه صلى الله تعالى عليه وسلم من أول أمره إلى آخره، واستدلوا عليه بأن الله وعده بالعصمة فكيف يكون هذا بالمدينة، وكون هذه الآية مدنية فيه بحث؛ لأنه وإن اشتهر يرده ما رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره عن جابر رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان إذا خرج بعث معه أبو طالب من يكلؤه حتى نزل: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فذهب ليبعث معه، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «يا عم، إن الله قد عصمنى لا حاجة إلى من تبعث». وروى مثله الطبرانى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وفيه أنه قال لأبى طالب: «إن الله قد عصمنى من الجن والإنس»(٢) وهذان الحديثان يدلان على أن الآية

---

(١) أخرجه الترمذى (٣٠٤٦)، وأبو نعيم فى الحلية (٢٠٦/٦)، والبيهقى فى دلائل النبوة (١٨٤/٢).

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٢٥٧/١١)، والواحدى فى أسباب النزول (١٣٥).

نزلت بمكة فى أول الأمر.

وفى الصحيحين عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها أنها قالت: أرق رسول اللّه ذات ليلة فقال: «ليت رجلاً صالحًا من أصحابى يحرسنى الليلة» إذ سمعنا صوت السلاح، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «من هذا»؟ قال: أنا سعد بن أبى وقاص جئت لأحرسك، فنام صلى الله تعالى عليه وسلم حتى سمع غطيطه(١).

وروى الترمذى عن عائشة رضى اللّه تعالى عنهما أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يحرس حتى نزلت هذه الآية، فأخرج من القبة رأسه فقال لهم: «يا أيها الناس انصرفوا عنى فقد عصمنى اللّه»(٢) قال الترمذى: وهو حديث غريب، رواه الحاكم فى المستدرك وقال: صحيح الإسناد و لم يخرجاه، وفى سنده من هو ضعيف إلا أن له متابعات، ولذا احتج به مسلم رحمه اللّه تعالى. وهذا يدل على أن ذلك كان بالمدينة؛ لأن عائشة رضى اللّه تعالى عنها أخبرت عن مشاهدة وهى لم تكن معه صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة، فيحتاج إلى الجمع بين الروايات، وما فى الصحيح أولى لكنا نلتزم تأخير نزول الآية بالمدينة، وندعى أن وجوب الإنكار عليه كان داخلاً فى عموم التشريع، ثم إنهم لم يبينوا إما المراد بالخوف، هل هو من القتل أو أعم؟ وظاهر كلامهم أنه الأول، فكان يحرسه أصحابه فى الفزع والخوف حتى هاجر إلى المدينة وأمر بالقتال فأنزل اللّه عليه آية العصمة، مع أنا ندعى أنه كان يعلم ذلك من غير هذه الآية وإنما نزلت تطييبًا لخاطره.

فإن قلت: إذا كان صلى الله تعالى عليه وسلم يعلم أن اللّه عصمه من أعدائه وأمنه من كيدهم وشرهم، فما باله اختفى بالغار إذ خرج من مكة، وما باله كان يحرس ويلبس الدروع، وما باله كسرت رباعيته وشج وجهه ونحوه بعد نزول الآية؟.

قلت: كان ذلك تشريعًا لأمته ليقتدوا به صلى الله تعالى عليه وسلم فيما ليس من خصائصه، مع أن فى ذلك حكما لطيفة، فاختفاؤه فى الغار خوفًا على الصديق رضى اللّه تعالى عنه لا على نفسه كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿**إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ**﴾ [التوبة: ٤٠] فأعلم أبا بكر به تطييبًا لخاطره، وليظهر له من المعجزات ما يعلم به غيره، وأنه هو لا يحتاج لزيادة علم كخروجه والكفار يرصدونه، ونثر التراب عليهم، ولو خرج ظاهرًا لظن أنه لحماية بعض قومه فأريد أن لايكون لأحد عليه منة، واحتراسه للخوف على من عنده من أهله وإظهار اعتماده على أصحابه وأمانتهم، ولبس اللأمة ليرهب الأعداء، ويظهر أن عنده عدة وسلاحا، لظن بعض الكفار أنهم

---

(١) أخرجه البخارى (٤/٤١)، ومسلم (٤٠/٢٤١٠)، وأحمد (٦/١٤١).

(٢) تقدم تخريجه.

فقراء تحدثًا بنعمة الله، وأما كسر رباعيته صلى الله تعالى عليه وسلم وشجته، فبيانا لما فطره الله عليه من العدل لعلم الله أنه يصيب المؤمنين بأحد مصاب عظيم، فجعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مشاركًا لهم فى ذلك ليحصل أجره له وتسليتهم بمصيبته، وعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لها معنيان، أحدهما حفظه من الناس بما ذكر، والثاني: صونه عن ارتكاب الذنوب كما سيأتى.

فإن قلت: هل يجوز طلب العصمة بالمعنى الثانى لأحد غير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم؟

قلت: قال شيخ والدى ابن حجر الهيثمي فى شرح العباب: اختلف الفقهاء فيها، فقيل: يجوز لقول مالك والشافعى، نسأل الله تعالى العصمة، وقال الشاذلى فى حزب البحر: «أسئلك العصمة فى الحركات والسكنات» وفى حديث أخرجه النسائى: «ليقل من دخل المسجد: اللهم اعصمنى من الشيطان»(1) وقيل: يمتنع لاستحالته. والحق ما قاله بعض المتأخرين أنه إن قصد التوقى عن جميع المعاصى والرزائل فى جميع الأحوال امتنع لأنه سؤال مقام النبوة، وإن قصد التحفظ من الشيطان والتحصن من أفعال السوء فهذا لا بأس به. انتهى. وفيه نظر فى حالة الإطلاق، ثم رأيت شيخنا ابن قاسم بعد نقله لذلك واستوجاهه له، قال: ويبقى الكلام فى حالة الإطلاق، والمتجه عندى الجواز لعدم تعينه للمحذور، واحتماله الوجه الجائز، وفى كلام مشايخ الصوفية كما مر أنه يقال فى النبى معصوم وفى غيره محفوظ وكأنه تأدب منهم.

(والصاد صلاته عليه قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٦]) قيل: المراد الإخبار عن هذه الأمور، أو القسم بهذه الصفات، وهذا التفسير وأمثاله ليس على الحتم ولا احتمال محض، فما قيل من أنه غير واجب التسليم لا طائل تحته فتأمل.

(وقال اللّه تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ [التحريم: ٤] أى وليه) تظاهرا عليه بالتشديد والتخفيف بمعنى يتعاونا ويتناصرا. والخطاب لعائشة وحفصة أمى المؤمنين رضى اللّه تعالى عنهما على الأصح، أو عائشة وسودة أم المؤمنين رضى اللّه تعالى عنهما، أى تتفقا فى أمر يسوؤه عن إفشاء السر، أو شدة غيرة النساء، أو أمر النفقة فلن يعدم من يعينه واللّه يعينه.

(الآية) أى اقرأها لتتم بقوله تعالى: **﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ**

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٧٧٣)، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة (٨٤).

ظَهِيرٌ﴾ [التحريم:٤] والولى والمولى المعين والناصر، وتعريف الطرفين والضمير يفيد الحصر، أى لا مولى له حقيقة سواه، وما ذكر بعده وإن كان لا يعتمد على غير الله بناء على الظاهر، تطييبًا لخاطره وتطمينًا لقلبه وإظهارًا للفضل والشرف، وجبريل مبتدأ وظهير خبر عنه وما بينهما عطف عليه أو هو وصالح عطف على اللّه والملائكة مبتدأ خبره ظهير، وأفرده بجعل من ذكر لاتفاقهم على ذلك كالواحد، أو لأنه اسم جمع كطفلا فى قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧] أو لأن فعيلا قد يقع للواحد وغيره كما فى قوله:

إن العواذل ليس لى بأمير

ويترتب على ذلك الوقف على مولاه أو المؤمنين أو ظهير، وقد اختار كل واحد منها جماعة من القراء والوجه الأول، وذلك إشارة للنصر والتظاهر أو للّه، وسبب نزول هذه الآية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم دخل على حفصة رضى اللّه تعالى عنها فى نوبتها، فخرجت لحاجة لها، فأرسل صلى الله تعالى عليه وسلم لمارية جاريته فأتته فواقعها، فلما رجعت حفصة رضى اللّه تعالى عنها علمت بذلك فغضبت وبكت وقالت: أمالى حرمة عندك؟ فقال: صلى الله تعالى عليه وسلم ليرضيها: «إنها حرام علىَّ بعد اليوم» وحلف أن لا يقربها، وأخبرها أن الخليفة بعده أبوها وأبو عائشة، وقال لها: «لا تخبرى أحدًا بهذه القصة» فلما خرج صلى الله تعالى عليه وسلم من عندها أخبرت عائشة بالقصة، وقالت: أراحنا اللّه من مارية، وكان بينهما مصادقة، وتظاهر، فأنزل اللّه هذه الآية أى أن تتوبا إلى اللّه، من إيذائه وحب ما يكره تحقق بذلك ميل قلوبكما عن الحق على حد قوله تعالى: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:٧٧] فى جنس التأويل دون شخصه، لأن مضمون الشرط فيه محقق بمضمون الجزاء فيما نحن فيه، محقق له ضرورة أن التوبة عن الذنب محققة، فإن كان الميل إلى الحق لم يحتج إلى هذا التأويل.

(وصالح المؤمنين قيل: الأنبياء عليهم الصلاة والسلام): هذا مروى عن قتادة.

فإن قلت: الصلاح إنما يوصف به آحاد الأمة دون الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

قلت: لما فطن بهذا بعض المفسرين قال: الصفة قد تذكر لمدح الموصوف، وقد يقصد مدح الصفة نفسها بمدح العظماء بها كما هنا، فكأنه قيل: الصلاح صفة عظيمة فى نفسها؛ لأنها مما يوصف بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذا كما قال حسان رضى اللّه تعالى عنه:

ما إن مدحت محمدا بمقالتي لكن مدحت مقالتي بمحمد(١)

وخالفهم السبكى رحمه اللّه تعالى فى فتاواه فقال: الصلاح من أبلغ الصفات، وإذا أردت معرفة ذلك فانظر الحديث فى مدح القلب بأنه مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله إلى آخره، فصلاح القلب بالإيمان والعرفان والأحوال، وصلاح الجسد بالطاعة، والخلق تتفاوت فى ذلك تفاوتًا كبيرًا، فصلاح العبد بصلاح قلبه وبدنه على قدر مقامة وهى صفة ذاتية تفضل اللّه بها، وما سواها من النبوة والرسالة وغيرهما ناشئ عنها فلذا كانت أعظم الصفات، وقوله: من قال الصالح من قام بحق اللّه تعالى وحق العباد كلام إجمالى لازم له، وإنما السر فى المعنى الذى ابتنى عليه ذلك، وهى صفة حقيقية أودعها اللّه تعالى فى العبد بها تنال سعادة الدارين، وصلاح كل أحد بحسب صلاح حاله فأعظم الصلاح صلاح محمد صلى الله تعالى عليه وسلم انتهى.

(**وقيل: الملائكة**) رواه القرطبى عن أبى زيد، قال السيد عيسى رحمه اللّه: هذا بعيد والعطف للتفسير أو للتأثير بالمفهوم خلاف الظاهر، ولك أن تقول: المراد خواص الملائكة كإسرافيل وحملة العرش، والمراد بالملائكة بعده بقيتهم أو جميعهم، وذكر للتعميم بعد التخصيص، وتعبيره عنهم بصالح المؤمنين قرينة على ذلك ظاهرة، وكان الحامل له على ذلك توسطه بين جبريل والملائكة فإنه أخفى مما استبعده، إذ مقتضى الظاهر أن يقول جبريل والملائكة وصالح المؤمنين.

(**وقيل: أبو بكر وعمر**) رواه القرطبى والثعلبى عن عكرمة وابن جبير مرفوعًا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وزاد بعضهم عثمان رضى اللّه تعالى عنه، ووجه التخصيص على الأول أنهما أبوا زوجتيه اللتين أسر لهما ما مر، فمن قال إنه دعوى بلا بينة لم يصب، يعنى أنهما وإن تظاهرا فأبواهما أشفق الناس عليهما لا معهما، وهذا تفسير منقول عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كما رواه من ذكر، وكذا رواه ابن مسعود رضى اللّه عنه، وقيل: هم الصحابة، وقيل: الخلفاء. وصالح المؤمنين يحتمل أن يكون مفردًا فى معنى الجمع لعموم الإضافة، أو اسم جمع كحاضر وسائر، أو جمع مذكر سالم تقدير صالح المؤمنين، حذفت واوه لالتقاء الساكنين، وكون حذفها للدلالة على سرعة النصرة لما فى الواو من المد والبعد بعيد جدًا، والمراد صالح هم المؤمنين على أن الإضافة بيانية، أو الصالح منهم الأصلح الذين تولاهم اللّه وأعانهم فتولوا رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم ونصروه.

---

(١) البيت من الكامل، وهو بلا نسبة فى تاج العروس (٢٤١/١٦)، ولم أجده فى ديوان حسان.

(وقيل: على) كرم اللّه وجهه، وفى نسخة: (رضى اللّه تعالى عنهم أجمعين) وهذا التفسير رواه أيضًا القرطبى والثعلبى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قيل: ولا منافاة بين الأحاديث لأنه لم يرد الحصر وإن كان بعيدًا.

(وقيل:المؤمنون) كلهم بناء (على ظاهره) المتبادر من لفظه من غير مانع واختاره الإمام الرازى رحمه اللّه، والآية دالة على ولاية اللّه له بنصره وتسخير القلوب له الذى هو من مقاصد هذا الفصل.

* * *

(الفصل التاسع فيما تضمنته سورة الفتح من كراماته صلى اللّه تعالى عليه وسلم)

تقدم الكلام فى تطبيق التراجم، والكرامة ما أكرمه اللّه به من إعزازه وتعظيمه، وقد يخص بما يكون خارقًا للعادة، والفرق بينها وبين المعجزة سيأتى، والفتح أصله إزالة الغلق فى المحسوسات، ثم استعير لتيسير الأمور معنوية كانت أو حسية، كفتح اللّه بالمال، وفتح البلاد، ومكة، وشاع حتى صار حقيقة عرفية فيه، والسورة مدنية بالاتفاق، وهذا لا ينافى كونها نزلت بالحديبية؛ لأن المراد بالمدنى ما نزل بعد الهجرة على أحد الأقوال، وقيل: لا خلاف بين تفاسير الفتح، فمن فسره بفتح مكة اقتصر على المقصود، والمراد فتح مكة وما كان وسيلة له كقصة الحديبية، ومن فسره بالحديث بالحديبية سماه فتحًا لأنه وسيلة لما بعده من الفتوح فاندرج غيره فيه بطريق الإشارة، وفى سبب نزولها قولان:

أحدهما: أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما كان بالحديبية حيل بينه وبين دخول مكة، وعسر ذلك على الصحابة رضى اللّه تعالى عنهم، نزلت وعدًا له صلى الله تعالى عليه وسلم بفتحها ودخولها، وعبر عنه بالماضى على عادة اللّه عز وجل فى إخباره لتحققها، وفيه من الفخامة والدلالة على شأن علمه ما لا يخفى، وهذا هو المشهور.

والثانى: أنه كما رواه عطاء عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما لما نزل عليه صلى الله تعالى عليه وسلم.

(**وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم**) قالت اليهود: كيف نتبع ما لا يدرى ما يفعل اللّه به، فاشتد ذلك عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، فنزلت بيانًا لما يؤل إليه أمره فى الدنيا والآخرة.

(**قال اللّه تعالى:** ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١] **إلى قوله:** ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾

[الفتح: ١٠] تقدم أن الفتح إزالة الغلق والإشكال حسيًا كان أو معنويا، والمراد منه النصر على العدو، وقيل: المراد ما فتحه الله عليه من العلوم الإلهية والهداية الدينية التى هى سبب لنيل أُعلى المقامات المحمودة والثواب الجزيل، ولذه عقبه بقوله: «ليغفر» الخ ولا يخفى أنه مخالف لسبب النزول المشهور، وما عليه الأكثر من أنه صلح الحديبية، وما تضمنه من إحاطة المشركين بهم وسماعهم كلامًا حتى اشتمالهم، كان سببًا لإسلام كثير منهم وسألوهم الصلح والأمان، وروى أحمد بإسناد قوى أن عمر رضى الله تعالى عنه قال: أو فتح هذا يا رسول الله؟ قال: «نعم والذى نفسى بيده إنه لفتح»(١) وروى «بل هو أعظم الفتوح» وقال الفراء: الفتح قد يكون صلحًا وقد كان الصلح مع المشركين متعذرًا ففتحه الله. وعن أنس رضى الله عنه: أنه فتح مكة، وقيل: خيبر. قيل: وليت شعرى لم قدمه القاضى؟.

قلت: قدمه لأنه المعنى الحقيقى للفتح مع ما فيه من البلاغة والفخامة التى أشار إليها، وإن حمل الفتح على المقدر أو معنى شامل للماضى والمستقبل بعموم المجاز شمل كل فتح، وحصل التوفيق بين الأحاديث إذ لم يقصد الحصر.

(**تضمنت هذه الآيات**) أى وقع فى ضمنها أو دلت (**من فضله**) أى فضل الله وإنعامه، أو فضيلة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم. (**والثناء عليه وكريم منزلته عند الله ونعمته لديه**) أى: نعمة الله لدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.

(**ما يقصر الوصف**) بضم الصاد المهملة والتخفيف وفيه استعارة تمثيلية، شبه الوصف بحبل مد ونحوه ليتوصل به إليه فلم يف به لكثرته أو بعده، فلذا قال: (**عن الانتهاء إليه**) أى بلوغه أو الوصول لنهايته لتعذر تفصيله وقصور الإجمال عن أداء حقه.

(**فابتدأ جل جلاله**) السورة (**بإعلامه بما قضاه له**) إعلام مصدر مضاف لفاعله، أى: الله تعالى، أو مفعوله وهو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، قيل: فيه إشارة إلى أن الفتح السابق من الفتاحة بالضم وهى القضاء، كما فى قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ**﴾ [الأعراف: ٨٩] أى: احكم ومنه الفتاح للقاضى، والقضاء الحكم الأزلى أو الكتابة فى اللوح أو القدر والإظهار للعيان.

(**من القضاء البين**) أى المقضى الظاهر الذى لا يشتبه. (**بظهوره وغلبته على عدوه**) الظاهر تعلقه بالبين وغلبته معطوف عليه، ولا حاجة لجعله عطف تفسير، ولا لجعل بظهوره بدل من بما قضاه، أى: أعلمه بظهوره كل الظهور وبينه أكمل تبيين، وعلى

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٣٦)، والحاكم (٢/١٣١).

عدوه تنازع فيه الظهور والغلبة، والعدو جميع الكفار أو مشركو مكة.

(وعلو كلمته) المراد بكلمته كلمة التوحيد والنبوة التى أتى بها صلى الله تعالى عليه وسلم وأمر بقبولها والانقياد لما يتعلق بها من التكاليف لنفاذها وعلوها بما أسقط ما عداها عن درجة الاعتبار، أو المراد كل ما أتى به من أمر ونهى وغيره، وعلى الأول أضافها له لأنه الذى أصدرها وشهرها، وإن كانت كلمة اللّه فى الحقيقة، وإيثار الكلمة على الكلام لعلم غيرها بالطريق الأولى.

(وشريعته) علوها بالانقياد لها وإجراء أحكامها، وتذليل من أنكرها بالجزية وغيرهما، ونسخ ماعداها من الشرائع، وليس فى كلام المصنف رحمه اللّه ما يقتضى كون المراد بالفتح فتح مكة كما قيل، وإن كان من فسره بالقضاء حمله على ذلك فلزمه مخالفة الحديث، وكأنه مال إلى التعميم الشامل لما وقع وما سيقع.

(وأنه مغفور له غير مؤاخذ بما كان وما يكون) أى إعلامة صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه مغفور له إلى آخره بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢] والمغفرة من الغفر وهو الستر وهو العفو متقاربان كما مر، والمؤاخذ من الأخذ.

قال فى المصباح: أخذه بذنبه عاقبه عليه وآخذه بالمد مؤاخذة، والأمر منه آأخذه بمد الهمزة وتبدل واوًا وفى لغة اليمن، فيقال: وآخذه مآخذة كذلك، وقرئ به فى السبعة والأمر منه واخذ. انتهى. فعبارة المصنف رحمه اللّه تعالى بالواو والهمزة، وليس المراد بمؤاخذته معاقبته لأنه يصدر عنه صلى الله تعالى عليه وسلم ما يقتضيها لأنه معصوم، بل عتابه على بعض ما صدر منه مما هو بالنسبة لعلى مقامه كالذنب، ومن قال: المراد ما تقدم من ذنبه قبل النبوة وما تأخر بعدها من الصغائر فهو مبنى على تجويزها على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن لم يجوزها قال إنه للمبالغة، كما يقال أعطى من يراه ومن لم يره وهو الذى ندين اللّه به ونعتقده.

(قال بعضهم: أراد غفران ما وقع وما لم يقع): أى مما يصح أن يعاتب عليه كما فى قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ [الكهف: ٦] و﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ [عبس:١، ٢] أو أنه لو وقع منك ذنب أى ذنب كان غفر، وهذه مرتبة عظيمة جدًا. وقال السيد: سنح لى معنى بديع وهو أن العبد لا يأتى بما يليق بجلال كبرياء ربه ولذا قيل: «سبحانك ما عبدناك حق عبادتك». وهذا قصور بالنسبة لكمال القرب ذنب يجازى مبالغة فى التخويف، ثم شرفه بما لم يحم حول الفكر، وهو ستر ذلك القصور بعد عبادته عبادة لائقة بجلالته وأى مرتبة فوق هذه المرتبة، ولا يعد عد مثله

قصورًا لتشريفه فإنه تعالى لكمال حكمته جعل أعمالا خلقها بقدرته ذنوبًا ممن هو مضطر فى صورة مختار، وله أن يعاقب عليها وإن لم يفعل، ونحوه قول التجانى: الظاهر أن هذه وردت مورد التشريف له صلى الله تعالى عليه وسلم بهذا الحكم، كما يقال لمن يراد إظهار محبته: لو كان لك ذنب قديم أو حديث غفرناه، ولم يرد إثبات ذنب له ولا مغفرة.

أقول: قد سنح لى ما هو أحسن من هذا، وهو أن المغفرة لما كان معناها الستر المقتضى لعدم الرؤية أريد منه لازمه، وهو أنه لاذنب لك يرى، أى لا ذنب لك أصلاً، إذ لو كان لرئى على نهج قوله. ولا ترى الضب بها ينجحر. ويؤيده أن المتأخر لا وجود له. وقد سوى بين المتقدم والمتأخر، ففيه إشارة إلى انتفائها كما فى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس:٤٩]، ولما كان التقدم يوهم التحقيق قدم الذنب وقرنه به مبادرة لنفيه بمغفرته. والمراد بالمتقدم والمتأخر ما قبل النبوة وما بعدها، أو ما قبل الفتح وبعده أو قبل نزول الآية.

(أى أنك مغفور لك) كأنه أراد بتفسيره هذا أن التقدم والتأخر عبارة عن عموم المغفرة ودوامها.

(وقال مكى) رحمه الله تعالى تقدمت ترجمته. **(جعل الله المنة سببًا للمغفرة)** اختلف أهل المعقول والمنقول فى الفرق بين السبب والعلة، فقيل: إنهما سواء. وقيل: بينهما فرق عند النحاة واللغويين، ولذا قال ابن مالك: الباء للسببية والتعليل وعليه أكثر عباراتهم، فالسبب ما يتوصل به والعلة ما يدور على التأثر فى أمر آخر، ومثلوا للسببية بقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢٢] وللعلة بقوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا﴾ [النساء:١٦٠] وفرقوا بينهما وبين الاستعانة، وأما أهل الشرع فعندهم السبب والعلة يشتركان فى ترتيب الأمر عليهما، ويفترقان بأن السبب ما يحصل الشىء عنده لا به، والعلة ما يحصل به فلذا قال الشاعر:

ألم تر أن الشىء للشئ علة ... يكون به كالنار تقدح للزند

واختار السمعانى أن السبب الموصل للشئ مع جواز المقارنة بينهما ولا أثر له فيه، ولا فى تحصيله كالحبل للماء، والعلة ما يتأثر الشىء عنه بغير واسطة ويعبر عنها بالباعث، وقد تحل اللام محلها كما فى القواعد للسبكى، ووقع الخلاف فى أفعاله تعالى، هل تعلل بالأغراض حقيقة أم لا؟ فالمشهور أنها لا تعال وإنما لها ثمرات وحكم تجعل عللا، كما اختاره الجرجانى ولم يذكروا ذلك فى السببية، فعدول المصنف رحمه الله عن

التعبير بالعلة المذكورة فى التفاسير هنا كأنه بناء على الفرق بينهما، فما وقع فى الشروح هنا فى تفسيره بالتعليل غير مناسب، والمراد بالمنة: الامتنان أو النعمة التى هى الفتح أو قضاؤه، ولما كان الفتح ناشئًا عن جهده وسعيه مع ما يترتب عليه من الأمور العظيمة صار سببًا للمغفرة، قيل: ولا تكلف فيه؛ لأن ما يترتب على فعل العبد بلا واسطة يعد فعلاً له عرفًا وشرعًا مثاب عليه بالمغفرة وعكسه، كأنه قال: أجرينا على يدك الفتح ليكون سببًا للمغفرة، وقيل عليه: لا نسلم أنه عد فعلاً له إذ لم يقل أنك فتحت ونحوه إلا أن يقال إنه عد فعلاً له، وأبرزه فى صورة يستفاد منها أنه فعله تعالى كما هو فى نفس الأمر، ومنهم من قال: التقدير فاستغفر ليغفر إلى آخره كما فى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر:١] إلى قوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ [النصر:٣] والأسهل أن اللام للعاقبة. ويحتمل كلام مكى على السبب والعلة المجازية لأنها مستعارة لما يشبه التعليل كما صرح به الزمخشرى وصاحب المغنى، فقال: لما كانت المغفرة نتيجة فتحه تعالى له بالفتح المبين، وثمرته شبهت بالداعى بناء على أن أفعاله لا تعالى بالأغراض، وإن أريد بالفتح القضاء فباعتبار أن المقضى فعله كأنه قال: قضينا بترتبه على فعلك لتثاب، وقيل: المعنى لتجتمع هذه الأمور لك واجتماعها فرع تحقق الفتح فصح التعليل وهذا ما اختاره فى الكشاف، وفى شروحه هنا كلام طويل الذيل بيناه فى حواشى البيضاوى.

أقول: ما أورده ظاهر الدفع ولا حاجة لما تكلفه، فإنه ناشئ من عدم الفرق بين الفاعل اللغوى والفاعل الحقيقى، فإن الأول ينسب حقيقة لمن قام به أو باشره لا إلى اللّه وإن كان هو الفاعل فى نفس الأمر كما حققه الأبهرى فى حواشى العضد، وسيأتى الكلام عليه فى الآية الآتية، فإسناد الفتح بمعناه المتبادر والحقيقة ظاهرة، وهو الذى بنى عليه القائل كلامه وإليه أشار بقوله: (**وكل منهما**) أى من المنة والمغفرة حاصل.

(**من عنده لا إله غيره**) فهو الذى سبب السبب وهداه له وأقدره عليه، وفى نسخة: «لا إله إلا هو» وجعل الخلق والتأثير من خواص الألوهية المستلزمة له، فنفى الملزوم لينتفى لازمه المساوى فهل من خالق غير اللّه؟ ولذا جعل أحد الفعلين سببًا للآخر لترتبه من غير تأثير للغير فلا دخل لتعليل الأفعال فيه.

(**منة**) بالمغفرة أو بالفتح. (**بعد منة**) بخلق السبب فيه وتيسيره عليه. (**وفضلاً بعد فضل**) أى تفضلاً وإنعامًا بعد تفضل وإنعام إن كانت المنة بمعنى الإنعام فهو تفسير مؤكد لما قبله. وقيل: المنة بمعنى الامتنان من مَنَّ بمعنى امتن كما قاله الجوهرى.

(**ثم قال: ويتم نعمته عليك**) عطف على قوله قال أولا ولا حاجة لتفسيره بأقول ثم

أقول، وعطفه بثم باعتبار آخر ما ذكر، أى ذكر هذه الآيات إلى قوله: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦] فعبر بالجزء عن الكل، كقولك: قرأت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] ويراد السورة بتمامها، كما قيل بقرينة قوله الآتى فاعلمه إلى آخره المعطوف على قال عطف مفصل على مجمل، ولولا هذا لم يف ما ذكر بما فسره، واقتصر على ما ذكر لما اعترض بما يتضمن الخلاف فى معناه الذى أشار إليه بقوله: **(قيل)** فى تفسيره **(بخضوع من تكبر عليك لك)** والجار الأول متعلق بتكبر والثانى بخضوع، وسقط عليك من بعض النسخ، والخضوع التذلل والانقياد ضد التكبر والتعظم.

(وقيل: بفتح مكة والطائف) واد بقرب مكة كثير الفواكه والمياه كان به بلاد ثقيف، سمى به لأنها طافت على الماء فى الطوفان، أو لأن جبريل عليه الصلاة والسلام طاف بها على البيت، ونقلت من الشام إلى الحجاز بدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أو لغير ذلك مما فى القاموس وغيره. وزاد بعضهم: «خيبر». وقال الكرمانى: بإعلاء دينك وقهر أعدائك وفتح البلاد على يدك وغير ذلك، والتعميم أنسب بتتميم النعمة والمقام إلا أن يقال التخصيص اقتصار على الأهم، وتفسير فتح مكة بالحديبية لما وقع فيها مما كان سببًا لفتحها خلاف الظاهر. وقيل أيضًا: بالنبوة وإعلاء دينه على سائر الأديان.

(وقيل: يرفع ذكرك فى الدنيا وينصرك ويغفر لك) الثلاثة بصيغة المضارع المرفوع مصحح فى النسخ المقروءة على ولد المصنف رحمهما اللّه تعالى، وما فى المقتفى من أن يرفع بالباء الجارة المصدر المضاف لذكرك فيه ركاكة ومخالفة للرواية، وخص الدنيا لأن المذكور فى الآية فى أحوالها، وإن كان ذكره مرفوع أى مشهور فى الدنيا والآخرة فلا حاجة لتقدير والعقبى كما قيل، وقيل: بانضمام الملك إلى النبوة، ولا حاجة لهذا التخصيص كما مر، إلا أن يكون صدر من مشكاة النبوة مع أن ذكر الملك مناف لما ورد فى الحديث الآتى، من أن اللّه خيره بين أن يكون عبدًا نبيًا أو ملكًا نبيًا فاختار الأول ولنا فيه كلام سيأتى، وما قيل من أن النصر وما بعده رويا مصدرين مجرورين مخالف للرواية والدراية كما مر مع تحريف يغفر لك بغفرك، والغفر بمعنى المغفرة غير مستعمل كثيرا.

فإن قلت: هذا لا يناسب تفسير الإتمام لأنهما مذكوران معه والغفران مقدم على الكل، فلم قدم النصر عليه ورفع الذكر ليس له فى النظم والأفعال على المختار هنا مرفوعة، وفى الآية منصوبة فما وجه العدول؟.

قلت: هذا تفسير لما تضمنه النظم من أوله إلى قوله حكيما كما مر، وليس المراد

حكاية ما فى القرآن حتى يلزمه نصبه، ورفع الذكر والنصر معنى الفتح المبين؛ لأن الفتح العظيم فيه إشارة ذكره والنداء به غاية النصرة له علـى أعدائـه وأقربـهم إليـه، وفيـه مـن السعى ما يقتضى المغفرة، ومن هنا علم وجه آخر فى كلامه، وهو أن يكـون مـا ذكـره أولا توطئة لتفسير يتم وما بعده مفرع عليه لا تفسير له، فما قيل فى الجواب عمـا ذكـر أن فى الآية تعميمًا وتخصيصًا. والمراد بالإتمام جميع النعم فعد فيه ما ذكر واستبعاده بأنـه يقتضى إعادته فى قوله الآتى فاعلمه.

ثم قال: المراد بالغفران ثوابه فى الآخرة كما فى العالم، وهو تفسير لقوله: «يـهديك» ولذا قدم النصر لتقدم وجوده تعسف بغير فائدة، وكذا ما قيل مـن أنـه رفـع المنصـوب؛ لأنه ليس مضمونه بل مأخوذ منه وأنه من باب تسـمع بـالمعيدى، وأصلـه بـأن يرفـع إلى آخره فحذف الباء، وأن رفعه إشارة إلى أن فتح اللّه لـه للهدايـة والمغفـرة والنصـر وإتمـام النعمة بالأخيرين، ورفع الذكر ولو كان عين مضمونه كان تعميمًا بعد التخصيص ومثله كثير فى الكلام البليغ، وهذا مع تناقضه تكلف بما لا حاجة إليه، ولولا ظن الغفلة طويناه وقلنا تسمع بالمعيدى خير من أن تراه.

(**فأعلمه**) فى الفاء وجهان سمعتهما آنفا. (**بتمام نعمته عليـه بخضـوع متكـبرى عـدوه له**) مر أن الخضوع التذلل والانقياد، ومتكبرى جمع حذفت نونه للإضافة، ومر أن العدو يكون بمعنـى المفـرد والجمـع كمـا فـى قولـه تعـالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ﴾ [النساء: ٩٣] فالمعنى المتكبرين من أعداء اللّه أو أعداؤه المتكبرون وهـم صناديد قريـش كأبى سفيان والمغيرة بن شعبة.

(**وفتح أهم البلاد عليه وأحبها له**) يعنى مكة، وأهم أفعل تفضيل من الهم بمعنى العزيمة أو الحزن، يقال: منهما هم واهم والمهم ما يلزمك الاعتناء به وتقديمه على غيره قال:

فقلت لـه هاتيـك نعمـى أتمهـا ولا تبتئـس إن المهـم المـقـدم

فالمعنى: أن فتحها مطلوب له صلى الله تعالى عليه وسلم مقـدم علـى جميـع الفتـوح عنده؛ لأنها كانت مأوى المشركين وسادة العـرب، وجميـع العرب ينتظـرون إسـلامهم وفتحها، فإذا تم ذلك أسلموا فلذا دخلـوا بعدهـا أفواجـًا أفواجـا فـى الإسـلام، ولأنـهم أخرجوه صلى الله تعالى عليه وسلم والمسلمين منها، فكان عودهم لها أقـوى فـى إظـهار شوكة الإسلام لدخولهم لها رغمًا على أنفهم. وأيضًا هـى القبلـة ومعبـد الأنبيـاء عليـهم الصلاة والسلام فتطهيرها من الشرك والأصنام من أعظم المـهمات، ووقـع مصحفـًا فـى بعض النسخ أسنى بسين مهملة ونون مقصورًا إما من السناء بمعنى الرفعـة والشـرف، أو

من السناء بمعنى الضوء، والمراد أظهر، وعلى هذا بدل أهم، ويحتمل على بعد أن يجمع معها، أى أسنى أهم البلاد نحو زيد أعمل أعلم العلماء، وعداه بعلى لما فيه من الصعوبة أو الوجوب، وهى أحب البلاد إليه صلى الله تعالى عليه وسلم كما ورد فى الحديث: «إنك لأحب أرض اللّه إلىّ»؛ لأن الطباع السليمة مجبولة على حب الوطن فلا يلزم من هذا تفضيلها على المدينة حتى يرد على المصنف أنه مخالف لمذهبه كما سيأتى كما فى بعض الشروح، لأنه قد يكون فى المفضول ما ليس فى الفضائل، وفى بعض النسخ إليه مكان له، وظاهر كلام الشراح كلهم أن النسختين بمعنى، وهو مخالف لما قاله النحاة أن فعل التعجب، وأفعل التفضيل إذا أخذ مما يفهم حبًا أو بغضًا يتعديان إلى الفاعل بإلى وإلى المفعول باللام، فتقول: ما أحبنى إليه إذا كان هو المحب بكسر الحاء، وما أحبنى له إذا كنت تحبه. وهذه المسئلة من مسائل الكتاب وقد فصلناها فى السوانح، فالظاهر هنا إلى؛ لأن اللام محتاجة للتجوز بجعلها محبة له وهو خلاف الظاهر، وما قيل من أن قوله فأعلمه إلى آخره من قبيل الحل البديعى تكلف.

(ورفع ذكره) بالجر، أى: وبرفع ذكره السابق، واعترض عليه بأنه لا قائل بإرادة هذا المجموع من إتمام النعمة، فلا إعلام بهذا المجموع عند أحد، وإن سلم صحته فلا يصح تفريعه على الخلاف، إلا أن تكون الواو بمعنى أو ويراد إعلام كل واحد على قول، والأوجه أنه إشارة جواز إرادة المجموع لثبوت الجميع وعموم اللفظ، ووجه التفريع أنه لما صح الحمل على ما فهم من الأول ولا مخصص فالائق الحمل على جميعها. انتهى. وهو كلام حسن جدا.

(وهدايته) بالجر معطوف على التمام أو الخضوع إشارة إلى ما ذكر من التمام **(الصراط المستقيم)** وفى نسخة: «إلى الصراط» لأنه يتعدى بنفسه وباللام وإلى **(المبلغ)** بتشديد اللام المكسورة.

(إلى الجنة والسعادة) فى الدارين أو السعادة الكاملة فى الآخرة، أى أعلمه بهدايته إياه لدين الإسلام المبلغ للجنة بتبليغ الطريق المستقيم المسلوك إلى المطلوب، أو بتبليغ الصراط المعهود. وقال البيضاوى: صراطًا مستقيمًا فى تبليغ الرسالة وإقامة مراسيم الرياسة، ولا وجه للتخصيص بهما لا يقال حال المخاطب والمقام قرينة عليه؛ لأن التعميم أقيد وأبلغ، وما ذكر يندرج تحت العموم إندراجًا أوليا، فالأولى ما فى المدارك من قوله: «نثبتك على الدين المرضى» فاندرجا فيه مع أمور أخر من وظائف العبودية والمعارف الإلهية، وإنما فسر بالتثبيت لأنه المترتب على الفتح دون أصل الهداية فإنها حاصلة له قبله.

(**ونصره النصر العزيز**) بالجر مصدر، والنصر مفعول مطلق له أو بـدل منـه، والعزيـز المعز لصاحبه، أو المراد أنه نفيس قليل النظير لا ذل بعده، أو الغالب من قولهـم فـى المثـل من عز بز، قيل: ليس قوله: وهدايته وقوله: ونصره عطفًا على ما به تمام النعمة، لأن من جعل النصر منه جعل المغفرة منه أيضًا، فلو وافقه المصنف رحمه اللّـه تعـالى لذكرهـا مـع النصر ولو مع زيادة ذكر الهداية، إذ لا وجه لتبديلها بـها كمـا لا وجـه لكـون وهدايتـه عطفًا على ما به وقع إعلامه، وكون ونصره عطفًا على ما بـه تمـام النعمـة لفسـاد نظـم العبارة عند العارف بأساليبها.

(**ومنته**) أى أعلمه بنعمته. (**على أمته المؤمنين بالسكينة والطمأنينة**)، عطف تفسـيرى؛ لأن السكينة لها معان منها الطمأنينة، والطمأنينة مصدر أو اسـم مصـدر مـن اطمـأن إذا سكن قلبه بما يشرحه ويزيل رعبه.

(**والتى جعلها فى قلوبهم**) يشير بذلـك لقولـه تعـالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:٤] يعنى ما كان فى صلـح الحديبيـة مـن الأمـن بعـد الخـوف وعـدم القتال، فلم تنزعج قلوبهم بعدما كانت تزيغ لما صدهم المشركون عن البيت، حتـى قـال عمر رضى اللّه تعالى عنه: علام نعطى الدنيئه فى ديننا، فقـال لـه رسـول اللّـه صلـى الله تعالى عليه وسلم: «أنا عبد اللّه ورسوله لن أخالف أمره ولـن يضيعنـى» فـأوقع اللّـه عـز وجل الرضا فى قلوب المؤمنين فسلموا وأطاعوا، وهذه نعمة أخرى مختصة بالمؤمنين بعـد ذكر النعم المتعلقة به صلى الله تعالى عليه وسلم زادتهم إيمانا بحقيـة ذلـك، وأن المصلحـة فيه، وهذه الزيادة فى اليقين من نور أودعه اللّه فى قلوبهم به يعرف الصـواب، وسـيأتى تفصيله فى الباب الثانى.

(**وبشارتهم بما لهم بعد**) ظرف مبنى على الضم، أى تبشير المؤمنين بما لهم بعد ذلك أو بعد الحياة الدنيا مـن النعيـم المخلـد فـى الجنـة بقولـه تعـالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الفتح:٥] إلى آخره، وفى نسخة عند ربهم، واللام فى قوله ليدخل علة لما يستـنبط مـن السياق من أول السورة إلى ههنا، وإليه أشار فـى الكشـاف بقولـه: «وإنمـا قضـى ذلـك ليعرف المؤمنون نعمة اللّه فيها فيستحقوا الثواب فيثيبهم ويعذب الكافرين بمـا غاظـهم». وخالفه البيضاوى فى التعلق دون العلية فقال: علة لما دل عليه قوله تعـالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح:٤] من معنى التدبـير، أى دبـر مـا دبـر مـن تسـليط المؤمنـين ليعرفوا نعمة اللّه فيشكروها فيدخلوا الجنة، ويعـذب الكفـار والمنـافقين لمـا غاظـهم مـن ذلك، واختاره لقرب ما يستنبط منه وعدم ظهور مدخلية بعض الأمور المذكورة فيه، أو علة لأنزل، وإنما قالوا ما قالوا لئلا يتعلق حرفان بمعنى بمتعلق واحد، فالظاهر أن القـاضى

إنما عدل عنه لإيهامه ما فر منه كما وقع فيه من قال إنه متعلق بفتحنا، إلا أن يقال إنه بدل من العلة الأولى. وقيل: لم يعطف لأنه مستأنف لأنه نزل جوابًا لقولهم هذا لك فمالنا فأنزل اللّه ذلك، أو للإشعار باستقلاله وفيه نظر وللمفسرين هنا كلام لا يسعه هذا المقام.

(وفوزهم العظيم) الفوز النجاة والظفر بالخير، يعنى بذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:٥] وذلك إشارة لدخول الجنة وتكفير السيئات المذكورين قبله لأنهما منتهى الطلب، وقدم الفوز بدخول الجنة على التكفير فقال: **(والعفو عنهم والستر لذنوبهم)** فى قوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ﴾ [الفتح:٥] مع أنه بعد العفو؛ لأنه المقصود بالذات مع موافقه النظم، وأشار بالستر إلى معنى التكفير، لأنه حقيقته لغة، ومنه الكفر لستره الإيمان والحق، ولذا سمى الليل كافرًا لستر ظلمته، وما أحسن قول ابن الفارض رحمه اللّه تعالى فى طول ليل البحر(١):

لى فيك أجر مجاهد ... إن صح أن الليل كافر

وقيل: تقديمه الفوز بنعيم الجنة، لأن الستر الكامل بتكميل الدرجات من غير نقص، وهو لا يظهر إلا فى الجنة فظهور التكفير بعد الدخول، قيل: ويحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى ثانى الأمرين وإن قرب لفظًا لبعده درجة بالنسبة لعدمه أو لهما بتأمل ما ذكر، ويؤيد الأول تفسير الفوز بالنجاة والتقصى من الشيء، والثانى تفسيره بالظفر بالخير من طول السلامة وهو الملائم لقوله تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران:١٨٥] وفيه نظر، وقدم المصنف رحمه اللّه تعالى الفوز مع تأخره فى النص والواقع، لأن المراد ما حصل من الأمرين، وقيل: ذلك إشارة لمجرد الدخول، وأشار بالبعيد لبعد رتبته؛ لأن الدخول إذا كان وحده فوزًا فكيف مع العفو؟ وهو معنى أنيق لم يذكروه. قلت: لم يذكروه لما فيه لأن الدخول بغير عفو لا يصح.

(وهلاك عدوه) أى أعلمه اللّه تعالى بهلاك أعدائه بقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ [الفتح:٦] أى: يعذب أهل النفاق والشرك كما يعم المؤمنين لظنهم باللّه أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدًا، والمراد بالعذاب المذكور العذاب **(فى الدنيا)** بالقتل والخزى ونحوه. **(والآخرة)** بجهنم والأول يعلم بالواقع، وقوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ [الفتح:٦] أى يحيط بهم ما ظنوه بالمؤمنين. **(ولعنهم)** أصل معنى اللعن والطرد والبعد، ثم خص كما أشار

(١) البيت من مجزوء الكامل، وهو للبهاء زهير فى ديوانه (ص١٥٦)، تاج العروس (٥٤/١٤)، ولم أجده فى ديوان ابن الفارض.

إليه بقوله: **(وبعدهم من رحمته)** أى أعلمهم بلعنهم وبعدهم بقوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦] أى انتقم اللّه تعالى منهم بإبعادهم من رحمته وتهيئة جهنم التى هى أسوء مقر لهم.

(وسوء منقلبهم) بفتح اللام اسم مكان، وقال الحلبى: مصدر بمعنى الانقلاب، والأول أولى بقوله: ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، ولم يتعرض المصنف رحمه اللّه تعالى لذكر غضبه المذكور فى الآية؛ لأن لعنهم وإعداد جهنم لهم يدل عليه، والأولى ذكره لأن الإطناب فى الأبعاد أبلغ مع ما فيه من الإشارة إلى أن عذابهم ليس لتطهيرهم وإنما هو ناشئ من الغضب عليهم **(لما قال)** متعلق بأعلمه وفى نسخة ثم قال **(تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا﴾ الآية** [الأحزاب:٤٥]) أحوال مقدرة للإعلام ببعض ما أوتيه صلى الله تعالى عليه وسلم والآية بالنصب، أى اقرأ الآية متمما لها بقوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح:٩]، وهذا مبنى على أنها آية واحدة لا اثنان، لأن ربط لتؤمنوا بأنا أرسلناك يحسنه، وإن كان من ذهب إلى غيره يقول إنه لا ينافيه، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ [الصافات:١٣٧] آية تامة مع ربط قوله وبالليل به.

(فعد محاسنه) الفاء للتفصيل والمحاسن تقدمت فعطف فيه المفصل على المجمل. **(وخصائصه)** فضائله التى اختص بها اختصاصا حقيقيا أو نسبيا. **(من شهادته على أمته لنفسه)** شهادة مقبولة لدعواه ومن بيانية، وقيل: ابتدائية لاستحالة كون ما بعدها مبينًا لمحاسنه وخصائصه مع كثرتها، وجعل قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥] بتقدير وكونه مبشرًا وكونه منذرًا على العطف على شهادته تكلف فتدبر.

(بتبليغ الرسالة لهم) لا حاجة لتأويله بإليهم لتعديه باللام **(وقيل: شاهدًا لهم بالتوحيد)** فالمراد بالأمة المؤمنون وفيه كلام تقدم، وفى بعض التفاسير شاهدًا للأمة بالقبول وعليهم بالإنكار، وللرسل عليهم الصلاة والسلام بالتبليغ، وعلى أممهم بالجحد فعمم وهو أفيد.

(ومبشرًا لأمته بالثواب) قيل: إنه معطوف على شهادته بتأويل كونه شاهدًا ومبشرًا والثواب قطعا على العمل الصالح ولو بعد دخول النار. **(وقيل بالمغفرة)** والنجاة من النار أو العفو فى الجملة فيشمل الكل.

(ومنذرًا عدوه بالعذاب) أى منذرًا أعداءه الكفار، والإنذار معناه التخويف والتبشير بحسب الظاهر لأمته المسلمين، والإنذار للكافرين وقد يعم كل منهما، فيكون الإنذار لكل من عصى وخالف الأمر مؤمنًا وكافرًا، والتبشير لكل من اطلع مؤمنًا وكافرًا فإن

للكافر تبشيرًا معلقا لقوله تعالى: ﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨] وهذا يختلف بإختلاف المقامات، ولذا قيل فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨] أنه على ظاهره من غير توزيع وإن احتمله.

(وقيل) فى تفسيره قوله ونذيرًا **(محذرا من الضلال)** قيل: إنه شامل للمؤمن والكافر لكن قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣٢] **(ثم به صلى الله تعالى عليه وسلم من سبقت له من اللّه الحسنى)** يأباه إلا أن يفسر بيثبت ويدوم أو يزداد ويرقى فى إيمانه ولا حاجة إليه، والتراخى زمانى ويجوز أن يكون رتبيًا أو أعم منهما، والحسنى الصفة الحسنى، قيل: المراد بها السعادة فى الدارين وقد فسرت بالجنة وبالبشارة بها، وهذا أنسب بما هو بصدده من تفسير مبشرًا ونذريرًا، والمراد بسبقها كونها مقدرة فى علمه الأزلى ومن عبارة عن القوم روعى لفظه فأفرده ضميره ومعناه فقال: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الفتح:٩] أى برسالته وبما جاء به وقرأ بالخطاب والغيبة فيه وفيما بعده من قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ [الفتح:٩] إلى آخره، والخطاب له صلى الله تعالى عليه وسلم وللأمة؛ لأنه كما يجب على الأمة الإيمان باللّه وبه صلى الله تعالى عليه وسلم يجب عليه ذلك أو لهم ففيه التفات، أو ينزل خطابه صلى الله تعالى عليه وسلم منزلة خطابهم.

(ويعزروه) براء مهملة بعد المعجمة وهو بصيغة الخطاب والغيبة فى القراءة **(أى يجلونه)** كذا فى النسخ بالنون مع أن المفسر لا نون فيه، وينبغى حذفها إن قلنا الجملة المفسرة تابعة لما فسرت به وفيه بحث، والإجلال التعظيم وكذا التوقير، فعلى هذا يكون تاكيدًا وقد فسر التعزير فى اللغة بالنصر والتقوية فالأولى التفسير به وليكون تأسيسا. فقوله: **(وقيل ينصرونه)** ينبغى تقديمه لا تأخيره وتمريضه، لاسيما وقد ذكر الثعلبى فى تفسيره أن هذا التفسير روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وروى تجلوه وتنصروه بلا نون.

(وقيل: يبالغون فى تعظيمه) وجه تمريضه أن كان ينبغى تأخيره عن توقروه على هذا، وما قيل من أن الأمر بالتعظيم بعد الأمر للمبالغة، فيه إشعار بأن الأصل مما يجب أن يعنى به كل الاعتناء، وأما المبالغة فقد تسامح فيها، ويحتمل أن هذا القائل حمل التوقير على معنى التعظيم، وعود ضمير توقروه للّه بمعنى قوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣] أى لا تخافون عظمته بعيد.

(ويوقروه أى يعظموه) روى بنون وبغير نون **(وقراءة بعضهم)** هو الجحدرى **(وتعززوه بزائين من العز)** من العز خبر قراءة، وقوله بزائيين بهمزة وياء بعد الألف كما **قال التلمسانى**، لأن فى اسم المعجمة ثلاث لغات زاء بالمد والهمز وزاى بالياء وزى بزنة

كى وهو بمعنى التعزير، وقال: من العز وهو القوة والغلبة والرفعة والشدة، لأن مصدر المزيد من مصدر المجرد عند بعضهم أو هو تسمح منه.

(والأكثر والأظهر أن هذا فى حق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم) يعنى أنهم اختلفوا فى هذه الضمائر، هل كلها لله أو للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم؟ لئلا يلزم تفكيك الضمائر أو بعضها لله وبعضها للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لسبق ذكرهما، فاختار الزمخشرى وتبعه القاضى الأول لتعينه فى يسبحوه وتشتيت الضمائر وتفكيكها غير متجه لما فيه من الركاكة ومخالفة الظاهر، واختار المصنف رحمه الله تعالى عود ضمير يعزروه ويوقروه فقط للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم للقرينة المعنوية التى تدفع هجنة التفكيك، لأن التعزير والتوقير لا يستعملان فى حقه تعالى ففيه بعد لا يناسب بلاغة القرآن، وقد رجعت هذه الضمائر له فى آية الأعراف: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ [الأعراف:١٥٧] ولهذا وقف كثير من القراء على قوله: «توقروه» للفصل بين ضمير الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وضمير الله، وما قيل من أن التعزير بمعنى التعظيم يطلق على الله بمعنى النصر والإعانة، بمعنى نصر دينه ورسوله هو نصر له، وأما التوقير فلا إشكال فيه كقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ [نوح: ١٣] إنما الإشكال فى التعزير؛ لأنه من الأضداد ويستعمل فيما لا يليق، كالتأديب لا يدفع الأظهرية الموافقة لما عليه الاداء والتفكيك مع ظهور القرائن كثير فى كلامهم، والأكثر مبتدأ والأظهر معطوف عليه، وأن هذا إلى آخره خبرهما إما بتقدير على بقطع النظر على التابع وتغليب المتبوع مع موافقته بحسب الظاهر، وقيل: الأظهر مبتدأ ما بعده خبره ويقدر مثله لقوله الأكثر، ولكن على تقدير على نحو قول ابن الحاجب، وما وقع ظرفًا فالأكثر أنه مقدر بجملة.

(ثم قال: ويسبحوه فهذا راجع إلى الله تبارك وتعالى) أشار بثم الدالة على التراخى إلى ما عليه أهل الأداء من الوقوف على توقروه ردًا على من خالف، فعين رجوع هذا الضمير كما فى نظيره السابق لله. قال الزمخشرى: يسبحوه من التسبيح أو من السبحة وهى الصلاة فيه على هذا حذف وإيصال، كما أشار إليه القاضى رحمه الله تعالى بقوله فى تفسيره: تنزهوه أو تصلوا له.

(قال ابن عطاء) الذى تقدمت ترجمته **(جمع للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه السورة نعم مختلفة)** أى متعددة كثيرة متغايرة لفظا ومعنى، ولذا عقد لها المصنف رحمه الله تعالى فصلا مخصوصا. **(من الفتح المبين)** الظاهر فى نفسه المظهر لدينه ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم. **(وهو من أعلام)** بفتح الهمزة جمع علم بمعنى أمارة ودليل.

(الإجابة) أى إجابة دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم بالنصر الذى سبق منه فى مواطن كثيرة كذا قالوا، ولعله أراد أنه تعالى أجابه ونجز له كل ما يرجوه منه، فإن فتح مكة أعظم مطالبه وأجل نعمه، ولذا يقول الملبى: «أعز عبده وأنجزه وعده»

(والمغفرة وهى من أعلام المحبة) فيه إشارة إلى أن المغفرة المراد بها إظهار شدة محبة اللّه له، كما تقول لمن تحبه: كل ما يصدر منك مغفور لدى، وكل ما يفعل المحبوب محبوب. **(وتمام النعمة وهى من أعلام الاختصاص)** أى هو دليل على أنه تعالى جعله من خواص أنبيائه عليهم الصلاة والسلام لإنعامه عليه بما لم ينله غيره، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة:١٠٥]

(والهداية وهو من أعلام الولاية) أى أن اللّه تعالى تولى أموره إذ هداه إلى الطريق الموصل إلى قربه. والولاية بكسر الواو وفتحها كما مر النصر والتأييد، فهدايته إما إليه وهى علامة لتوليه أموره من التبليغ وغيره وتثبيته عليه المؤدى لنصرته، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ثم فرع عليه قوله: **(فالمغفرة تبرئة من العيوب)** أى هى كناية عن شدة محبته له وهو لا يحب إلا من كان كامل الخَلق والخُلق مبرأ مما لا يحبه، وفيه إشارة لما سلف، وتبرئة بزنة تكرمة مصدر مهموز من البراءة، أو بضم التاء وفتح الموحدة وكسر الراء المشددة وهمزة مضمومة مضارع منها كما قاله الحلبى رحمه اللّه تعالى. وفى بعض النسخ: «تنزيهه» بالزاء المعجمة مصدر من النزاهة، بمعنى أنه تعالى أولاه الفتح المبين لتنزهه عما لا يليق بمنصبه العالى. قيل: فيكون فى مقام التجلى ويبلغه بتمام النعمة عليه درجة كاملة كما ذكره المصنف، يترتب عليها التجلى بالمشاهدات القلبية الناشئة عن التجليات، ولم يذكر الفتح لاندراجه فيما ذكر لا لظهوره فتدبر.

(وتمام النعمة إبلاغ الدرجة الكاملة) غير المشاهدة فأنجح مطلوبه ونزهه عن كل عيب، وحلاه بكمالات مهيئة لمشاهدته وتدعوه لها، كما أشار إليه بقوله: **(والهداية وهى الدعوة إلى المشاهدة)** لما مر من أن المشاهدات القلبية الناشئة عن التجليات الجليلة لا ما وقع له ليلة المعراج، لتقدمها على فتح مكة وصلح الحديبية، وكون المراد بالفتح القضاء المتقدم تعسف لا يفيد.

(وقال جعفر بن محمد) الصادق الذى تقدمت ترجمته فى تفسير هذه الآية. **(من تمام نعمته عليه)**: أى من إتمام نعمته التى أنعم بها عليه. **(أن جعله حبيبه)** أى: اصطفاه وخصه وأكرمه إكرام المحب لحبيبه حتى لقب بالحبيب، كما ورد عنه صلى الله تعالى

عليه وسلم: «أنا حبيب الله ولا فخر»(١). (**وأقسم بحياته** فى قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر: ٧٢] على أحد الأقوال المتقدمة (**ونسخ به**) أى بشرعه (**شرائع غيره**) جميعها أو تنوعها فلم تبق شريعة أحد بكمالها وإن بقى بعض منها، ولا بأس بإبقائه على ظاهره فإنه لا يجوز العمل بشىء غيره، إلا من حيث أنه صار شرعا له صلى الله تعالى عليه وسلم بتقريره له.

(**عرج به**) بالبناء للمجهول والتخفيف، أى أعرجه ورفعه بناء على أنه لا يلزم مصاحبة الفاعل إن لم يكن التقدير عرج جبريل عليه الصلاة والسلام به، وقيل: عرج به بمعنى صعد به لا أصعده، وفى الصحيح: «عرج بى جبريل إلى سدرة المنتهى». فإن صح وروده بمعنى أصعده، كذهب الله بنورهم أى أذهبه فلا كلام فيه وإلا فهو كبنى الأمير المدينة، أى أمر جبريل بالعروج به عليه الصلاة والسلام. (**إلى المحل الأعلى**) الجنة أو العرش أو ما فوق العالم كما حكاه التفتازانى. (**وحفظه فى المعراج**) أى: فى ليلة المعراج أو فى عروجه أو فى مصعده كما سيأتى.

(**حتى ما زاغ البصر وما طغى**) تقدم تفسيره (**وبعثه**) أرسله صلى الله تعالى عليه وسلم: (**إلى الأحمر والأسود**) جميع الخلق كما تقدم وسيأتى تفصيله (**وأحل له صلى الله تعالى عليه وسلم ولأمته الغنائم**) التصرف فيها كما تقدم. (**وجعله شفيعًا**) أى أذن له صلى الله تعالى عليه وسلم فى الشفاعة وخصه ولقبه بها. (**مشفعا**) مقبول الشفاعة. (**وسيد ولد آدم**) بل سيد الأولين والآخرين وجميع العالمين كما ورد فى الأحاديث الصحيحة.

(**وقرن ذكره بذكره**) فى التشهد والأذان وفى مواضع تزيد على عشرين فى القرآن، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤] كما مر (**ورضاه برضاه**) مصدران مقصوران، أى جعل رضاء الله برضى رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، أو رضى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم برضاء الله يعنى طاعته للزوم الرضا للطاعة، لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] والأظهر أنه إشارة إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢] .

(**وجعله أحد ركنى التوحيد**) أصل معنى التوحيد فى عرف الشرع اعتقاد توحيد الله تعالى، وانفراده فى ذاته وصفاته وألوهيته، وأنه لا معبود سواه، ويطلق ويراد به ما يجب الإيمان به، وأصل معنى الركن الجانب وأركان الشىء أجزاؤه الخارجية أو أجزاء ماهيته

---

(١) أخرجه الترمذى (٣٦١٦)، والبغوى فى شرح السنة (٢٠٤/١٣).

الداخلة فيها، بخلاف الشرط فإنه الخارج الذى يتوقف عليه صحته، ولما كان الإيمان الكامل إنما يتحقق بالتصديق والإقرار بنبوته صلى الله تعالى عليه وسلم ورسالته، جعل ركنا من التوحيد لا يتم ويقبل بدونه، سواء كان بالمعنى الأول أو بالمعنى الثانى كالإقرار بذلك، إلا أنه على المعنى الأول مبالغة وعلى الثانى حقيقة، والظاهر تفسير الإتمام بما كان بعد الفتح لعطفه على مدخول اللام، وعد الإمام منه ما كان قبله؛ لأنه أراد بالفتح القضاء أو جعل العلة اجتماع ما ذكر أو أراد بيان نعم يحصل باجتماعها التمام لا بيان الإتمام نفسه.

(ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] **يعنى بيعة الرضوان)** هذا كالدليل على ما قبله، وعطفه بثم نظر الأول ما قبله لتراخيه عنه فلا حاجة للتراخى الرتبى، والمبايعة أخذ العهد والميثاق على أمر، وكان من عادتهم وضع اليد على اليد إشارة إلى التعاضد والتمسك فلذا قال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] وبيعة الرضوان كانت بالحديبية وسميت بها لقوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨] وهى شجرة سمرة وعضاه وقعت تحتها البيعة وبقيت إلى زمن عمر رضى الله تعالى عنه، وكانوا ألفًا وأربعمائة أو خمسمائة، والمبايعة كانت على أن لا يفروا أو على الموت ولا مخالفة بينهما، وقيل: كانت على السمع والطاعة فى النشاط والكسل، وعلى النفقة فى العسر واليسر، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعلى أن يقول فى الله لا تأخذنا لومة لائم، وعلى أن ننصره إذا قدم علينا يثرب فنمنعه مما نمنع منه أنفسنا و أرواحنا وأبنائنا ولنا الجنة.

(فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) وهذا وهم من ناقله، فإن هذا إنما قيل فى بيعة العقبة، و لم يتخلف أحد منهم عن البيعة غير الجد بن قيس وعثمان رضى الله تعالى عنه لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان بعثه لقريش ليخبرهم أنهم لم يقدموا لحرب وإنما جاؤا زوارًا للبيت، فبايع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقال: «هذه يد عثمان» وكان وقع الإرجاف بقتله.

(أى إنما يبايعون الله ببيعتهم إياك) والمبايعة مفاعله من البيع لقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١] فالله تعالى باع منهم الجنة بأنفسهم وأموالهم، وهم باعوا أنفسهم وأموالهم بها، فالبيع والشراء مقابضة والتسليم فى المعركة، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ [التوبة: ١١١] إلى آخره، لا سلم كما فى بعض شروح الكشاف، قيل: ولذا قال: بأن لهم الجنة دون بالجنة وفيه نظر، والمراد المعاهدة والمعاقدة كما يرشد إليه قوله: ﴿وَمَنْ

أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١١١] ولما ورد أنه كيف أثبت مبايعة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله ونفاها فى ضمن الحصر؟.

أجيب عنه بأجوبة؛ منها أن المثبت بحسب الصورة والمنفى بحسب الحقيقة، وليس المراد نفى الحقيقة من حيث هى بلا تأويل، بل نجعلها كأنها معدومة ادعاء من المؤمنين الواصلين لمقام الإحسان بطئ الوسائط لغلبة الشهود فالقصر ادعائى، وقيل: إنه حقيقى على التشبيه فكأنه بلا واسطة وفيه تعظيم، وقيل: النفى غير مراد والحصر مجاز عن تأكيد الحكم لا إضافى ردًا على من زعم أنه مع الجن، وأولى الوجوه الأول، ولما جعل المبايعة مع اللّه حقيقة أكد ذلك بقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠] على سبيل التخييل كما ستراه فلذا قال:

(يريد عنه البيعة) أى المبايعة على عادتهم فى وضع اليد فوق اليد وهذا من المتشابه، وجمهور السلف فيه على تفويض علمه إلى اللّه وتنزيهه عما لا يليق به، وذهب بعضهم إلى تأويله بما يليق به بشرط موافقته لكلام العرب، وذهب ابن الهمام رحمه اللّه تعالى إلى أنه إن دعت إليه حاجة جاز وإلا فلا، وذهب ابن دقيق العيد رحمه اللّه تعالى إلى أنه إن كان التأويل قريبًا جاز وإلا فلا، وإليه أشار المصنف بما ذكره هنا. قال الأشعرى رحمه اللّه تعالى: اليد ورد بإطلاقها عليه تعالى الشرع، فالمراد بها صفة قريبة من القدرة إلا أنها أخص كالإرادة والمحبة، فإن فى اليد تشرفًا لازمًا وفى الكشاف لما قال: **(إنما يبايعون اللّه)** أكده على طريق التخييل فقال: **(يد اللّه إلى آخره)** يريد يد رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم التى فوق يد المبايعين وهو منزه عن الجوارح، فالمراد تقرير أى أن عهد الميثاق مع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم كعهده مع اللّه من غير تفاوت، وتبعه البيضاوى حيث قال: الجملة حال أو استئناف مؤكد على سبيل التخييل، وبيانه كما قيل أنه لما شبه مبايعة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بمبايعة اللّه تشبيهًا بليغًا، ومن ضرورة ذلك تشبيه الذات المقدس بالمبايع تشبيهًا مضمرًا فى النفس تحققت هناك استعارة مكنية، وهى التشبيه المضمر عند صاحب التلخيص، وعند السكاكى لفظ المشبه المستعمل فى المشبه به ادعاء، وعند غيرهما عبارة عن اسم المشبه به المتروك المرموز إليه بذكر لازمه، ولا يصح هنا ما قال السكاكى للزوم استعمال الجلالة فى غير ذاته تعالى وهو لا يجوز إجماعًا، فالتخييل الذى قالوه هنا عبارة عن إثبات اليد التى هى من لوازم المشبه وهو المبايع للمشبه، وهى قرينة الكناية على رأى الغزوينى، وعلى رأى غيره عبارة عن لفظ اليد المشبه للمشبه، والفرق بين مذهب السكاكى ومذهب الجمهور أن **التخييلية لا تتحقق لمعناها** حسًا ولا عقلاً؛ بل هى صورة وهمية لا يشوبها شىء من

التحقيق، كإظهار المنية فإنه لما شبه المنية بالسبع فى الاغتيال صورها الوهم بصورته واخترع لها صورة أظفار، وأطلق عليها لفظ الأظفار ولا يمكن هنا اعتبار مذهبه بأن يخترع لله صورة وهمية مرادة من لفظ اليد، وقد صرح الزمخشرى بأن المراد يد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم التى تعلو أيدى المبايعين، وأضيفت لله لنكتة ذكرها، وكلامه يدل على بطلان مذهبه؛ لأنه يدل على تحقق التخييل فى مادة لا يتصور فيها اعتبار الصورة الوهمية، إلا أن يقال إنه لم يعترف بوجود التخييل هنا. وقوله أكد تأكيدًا على طريق التخييل، معناه أن التشبيه البليغ فى إنما يبايعون الله أفاد أن عقد الميثاق مع الله والرسول صلى الله تعالى عليه وسلم سواء بلا تفاوت، والمكنية المقرونة تفيد هذا، فالجملة المشتملة على الاستعارة تأكيد لجملة التشبيه البليغ على رأى أهل المعانى دون النحاة ولذا لم يعطف، وإنما ذكر التخييل دون الكناية لاستلزامه لها وذكره صريحًا فاكتفى بأحد المتلازمين عن الآخر.

فإن قلت: المشبه به فى التشبيه المضمر المقرون بالتخييل إما المبايع المطلق أو الخاص وهو الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى الأول لا يصح جعل يد الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من لوازم المشبه به لعموم المشبه وخصوص يد الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى الثانى يرد عليه أن يد الله لعمومها لا تختص بيد الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن العام لا دلالة له على الخاص فكيف يصح قوله يريد يد الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم؟

قلت: نختار الأول ونجعل التخييل عبارة عن إثبات اليد مطلقًا وخصوص إضافتها من المقام أو الثانى، واليد وإن عمت الأيادى كلها مقرونة بما يخصها وهو قوله تعالى: ﴿**فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ [الفتح: ١٠] لأن اليد التى فوق أيديهم إنما هى يد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فالتخييل إثبات يد الرسول للمشبه، وهذا كله بناء على حمل كلامه على اصلاح أهل المعانى وهو الظاهر، فإن حمل التخييل على اللغوى فإن إضافة اليد للمنزه عن الجارحة مجرد تخييل وتصوير لقصد المبالغة، والتأكيد لم يحتج إلى الاعتبارات المذكورة، إلا أنه مع بعده مخالف لعادته فى الجرى على المصطلح، وروى: «إنما يبايعون الله» أى لوجه الله. وقال التلمسانى: الصواب أن يقول معناه عند البيعة وإلا فالإرادة والعناية إنما هى فى كلام المخلوقين، ولا ينبغى أن يقول المفسر يعنى ولا يريد بل يقول من معناه أو يجوز أو يحتمل ونحوه وهذا مما لا وجه له.

(قيل:) فى تفسير اليد **(قوة الله)** هذا على مذهب الخلف الذاهبين إلى تأويله المتشابه، أى المراد باليد هنا القوة فإنه تعالى يوصف بها، ومن أسمائه القوى أى قوة الله وقدرته

فى نصر رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فوق قواهم فهو مجاز مرسل؛ لأن آثارها يظهر باليد، قيل: فعلى هذا تكون نعمة مستقبلة وعد اللّه بها رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا مانع من اعتباره فى الحال.

(وقيل: ثوابه) أى المراد باليد ثواب اللّه لرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فوق ثوابهم فى مبايعتهم والوفاء بعهدهم وهو قريب من قوله.

(وقيل: منته) أى نعمته عليهم ببيعتهم مما منحوه من العز فى الدنيا والثواب فى الآخرة، فوق منتهم عليك بمبايعتهم وبذل أنفسهم وأموالهم، وإطلاق اليد على النعمة لكونها بمنزلة العلة الفاعلية لها شائع فى كلام العرب، ووردت بهذا المعنى مفردة ومجموعة على أيدى وأيادىْ وهو جمع الجمع، وبعض أهل اللغة قال: اليد الجارحة تجمع على أيدى، وبمعنى النعمة على أيادى، والصحيح الأول، والدليل عليه قوله(١):

لجودك فى قومى يد يعرفونها وأيدى الندى فى الصالحين قروض

وقوله(٢):

سأشكر عمرًا إن تراخت منيتى أيادى لم تمنن وإن هى جلت

قيل: وإلى هذا المعنى يرجع ما قبله، وما قيل من أنها من اللّه الثواب ومن المبايعين الطاعة غير ظاهر.

(وقيل:) اليد هنا معناها **(عقده)** قيل: معنى العقد ربط الحبل ونحوه ثم استعير لمعان؛ منها العهد والميثاق، ويقال: عاقدته على كذا وعقدته بمعنى عاهدته كما فى المصباح وهو المراد هنا، أى اليد عبارة عن عقد العهدة وهى المبايعة المذكورة، فإن كان بمعناه المصدرى فهو إيجاده عهد البيعة وإتمامه، بمعنى أن اللّه تعالى أوجد هذه البيعة وتممها فاستعار لايجاده عقدها اسم اليد؛ لأن الناس يفعلونها فهو من إطلاق المسبب على السبب. وفوق أيديهم: ترشيح للاستعارة اللغوية فإن لها ترشيحًا كما صرحوا به وأيديهم على حقيقته كما فى شرح التجانى، واعترض عليه بأن أول كلامه ظاهر فى أن اليد عبارة عن العقد. وقوله استعارة لإيجاد عقده يقتضى استعارتها للإيجاد وعليهما

(١) البيت من الطويل، وهو لبشر بن أبى خازم فى ديوانه (ص١٠٧)، لسان العرب (٤٢١/١٥)، وصدره:

تكن لك فى قومى يد يشكرونها

(٢) البيت من الطويل، وهو لعبد الله بن الزبير فى ملحق ديوانه (ص١٤٢)، خزانة الأدب (٢٦٥/٢)، وبلا نسبة فى تذكرة النحاة (ص٤٧٤).

التجوز فى المفرد وهو اليد، فالمعنى أن عقد الله تعالى وإيجاده فوق أيديهم وهو مخالف لتفسيره بأن الله تعالى عز وجل أوجد هذه البيعة وتمم عقدها، وهذا المعنى إنما يستفاد من مجموع يد الله فوق أيديهم فإنه لازم معناه التركيبى، وأنه لو كان له يد فوق أيديهم وجارحة فوق جوارحهم لكان هو الذى أوجد هذه البيعة، والتحقيق أنه مجاز مركب كتقدم رجلاً وتؤخر أخرى وبهذا يظهر مناسبته لما قبله.

أقول: إن العقد مصدر فيطلق على المعنى المصدرى وعلى الحاصل به، وعلى هذا فلا تنافى بين أول كلامه و آخره، إلا أن كون اليد الثانية بمعناها الحقيقي غير متجه، نعم ما ادعاه من أنه مجاز مركب له وجه سواء كان استعارة أو مجازًا مرسلاً، وأما قول الرازى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] أى: حفظه فوق جارحتهم بحفظهم على البيعة كما أنه قد توضع اليد على يد المتابعين ليتم عقدهم، فقد قيل: إنه ناظر إلا الاستعارة التمثيلية، إلا أنه لا يقتضى أن المبايعين للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم مبايعون الله كما مر، وإنما يقتضى أنهم مبايعو الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ليس إلا والله حافظ لا مبايع، ومنهم من ذهب إلى أن فى يد الله مكنية وتخييلية، بأن شبه الله برسوله ثم ذكر المشبه مثبتًا له يدًا على التخييل كما نقله بعض الشراح، وهو مما لا ينبغى نقله لبشاعته إن سلمت صحته كما قيل فتدبر.

(وهذه استعارة وتجنيس) أى: مستعار أو التقدير ذات استعارة، وقد عرفت مما مر أنه يجوز فى الاستعارة أن تكون مكنية وتخييلية أو تصريحية أو استعارة لغوية وهى المجاز المرسل، أو أعم منه ومن الاستعارة المصطلحة، وحدها الرمانى بأنها تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على سبيل النقل، أو هى تمثيلية كقوله تعالى: ﴿۞إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ [التوبة:١١١] فإنها تمثيل لإثابة الله تعالى إياهم الجنة على بذل أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله، وقوله استعارة راجع لما قبله أو للوجه الأخير، فهو من مقول القول أو كلام مستأنف من كلام المصنف رحمه الله تعالى متعلق بالأخير، وجزم به بعض الشراح قال: لأنه فيما قبله ليس استعارة بل مجاز مرسل أو حقيقة وفيه ما لا يخفى. والتجنيس وقع بعض النسخ مكانه تحسين بحاء وسين مهملتين، والمشهور هو الأول، وهذا التجنيس جار على أحد الوجود، وهو أن أيديهم مستعمل فى معناه الحقيقى، ولا شك أن يد الله ليست تستعمل بهذا المعنى فيتم الجناس من غير شبهة لأنه توافق الكلمتين لفظًا، سواء كان المعنيان حقيقيين أو مجازيين، أو أحدهما حقيقية والآخر مجازًا كما فيما نحن فيه، وهو تام إن قلنا أن التخالف بالإفراد والجمع لا ينافيه وإلا فهذا نوع لم يتعرض له أرباب البديع، وعلى هذا يزداد على ما فى

الإتقان من أنه لم يقع الجناس التام فى القرآن إلا موضعين، ولم يذكر هذا فيه، على أنّا لو قلنا أنهما بمعنى مجازى ففيه تجنيس بناء على أن الصفات المشتركة بين الله وعباده كالمنعم، هل هى بمعنى أو بينهما تخالف بحسب الحقيقة؟ احتمالات كما فصله ابن القيم فى كتاب «الفوائد»، والعجيب من الشراح حيث اعترضوا على المصنف رحمه الله فيه، حتى قال بعضهم: إنه لم يرد التجنيس البديعى بل اللغوى وهو مطلق المناسب، لأن العقد إذا أطلق عليه اسم اليد فإنما يراد الجارحة، فبينهما وبين الأيدى مناسبة وهذا مع فساده لا وجه له، ثم ذكر بعضهم كلامًا فيه خبط وخلط، ثم قال: ما زعمه ابن دريد من أن الأصمعى كان يدفع قول العامة هذا مجانس لهذا ويقول إنه مولد فغير قادح فى صحة أن يقال: إن فى هذا تجنيسا بين هذا وهذا لاختلاف الصورة، وإن اتحدت المادة بناء على أنها من الجنس الذى هو الضرب هو أعم من النوع كما نبه عليه الجوهرى، وهذا لم يفهم كلام الأصمعى، فإن مراده أن الجنس جامد لم يسمع اشتقاق منه كاستحجر، وأما استعمال المصنف رحمه الله تعالى له فإنه خطأ مشهور وهو خير من الصواب المهجور، فإن المصنفين لا يبالون بمثله كما فى كشف الكشاف، ولفظ الجناس أيضًا مولد، واختلف فيه هل هو بكسر الجيم أو فتحها ؟ ولم يذكره أهل اللغة.

(**وتأكيد لعقد بيعتهم إياه**) أى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من حيث جعل بيعتهم له كبيعتهم مع الله لا تفاوت بينهما، فيده التى تعلو أيديهم هى يد الله على ما مر.

(**وعظم شأن المبايع صلى الله تعالى عليه وسلم**) عظم بزنة عنب مصدر بمعنى العظمة مجرور معطوف على عقد، والمبايع اسم فاعل أو مفعول، والأول أنسب بالمقام ولذا اقتصر عليه التلمسانى رحمه الله تعالى، والمراد به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ودلالته على تعظيمه لجعل يده يد الله وطاعته طاعته وفيه تعظيم لمن بايعه أيضًا وهو تعظيم له داخل فيما ذكره المصنف رحمه الله تعالى، وقول بعضهم: إن فيه تشبيه ذات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بذات الله يلزمه إطلاق الجلالة على غير الله وهو لا يجوز إلا أن يقال: إن مثله يجوز فى الاستعارة المكنية على بعض الأقوال كما مر، وفيه تأكيد لما قبله من جعل بيعته بيعته (**وقد يكون من هذا**) القبيل الذى جعل فيه فعل العبد عين فعل الله كما فى هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا﴾ [الفتح:١٠] إلى آخره، وقد للتحقيق أو هى مجاز عن كونه محتملا وفيه بعد.

(**قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]**) أى: لم تقتلوا قريشًا إذ سلطكم الله عليهم ونصركم، ولكن الله

قتلهم إذ هو الخالق لهذا الفعل فيكم وإن كنتم مباشرين له، وهذه الآية نزلت فى غزوة بدر أو حنين كالتى بعدها.

وقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ [الأنفال:١٧] إلى آخره إشارة إلى ما وقع ثمة إذ رمى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المشركين بكف من حصباء وتراب كما يعلم مما يأتى، وقال: «شاهت الوجوه» فلم يبق أحد منهم إلا ملئت عينه منه فاشتغل وانهزم فشد عليهم المسلمون حتى قتلوهم ونزلت الآية، والمتشابهة بين الآيات أنه أثبت لنفسه فعلاً كان لغيره بحسب الظاهر، وجعل الثلاثة منحصرة فيه وليس فيه وفيما بعده اتباعا للمعتزلة فى خلق الأفعال كما توهم، وكلا الآيتين من قبيل إنما يبايعون الله لما فيهما من النفى والإثبات كما يفيده قوله: ﴿يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:١٠] فمن قال: ليس فيهما نفى وإثبات لا صريحًا ولا دلالة لم يصب. **(وإن كان الأول من باب المجاز)** أى وإن كان المذكور أولا من قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:١٠] من نوع المجاز.

(وهذا) أى القتل والرمى المسند إلى الله **(من باب الحقيقة)** وليس هذا إشارة إلى القتل فقط، وروى فى باب الحقيقة أى داخل فيه والمجاز بأنواعه والحقيقة أمر مشهور لا حاجة لبيانه هنا كما فى بعض الشروح، والمراد بالمجاز اللغوى لا العقلى الواقع فى النسب، وصرف بعضهم المجاز إلى المبايعة والحقيقة إلى اليد والفوقية، فورد عليه أنه يجوز أن يكون تشبيها بليغا، فاحتاج إلى الجواب بأنه على رأى من يقول إنه مجاز وليس فيه أداة مقدرة، أو أنه راجع إلى اليد على بعض الوجوه، وقال بعضهم: إن المصنف رحمه الله تعالى لم يبق المبايعة فى الآية على إطلاقها إذ قيدها باليد المستحيلة فى حق الله تعالى فى قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:١٠] إلخ، فالمعنى: أن الذين يبايعونك المبايعة التى يوضع فيها الأيدى على الأيدى إنما يبايعون الله تلك المبايعة، فتعين أن قوله: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:١٠] مجاز لغوى مركب، أى لا يكون إيجاد مبايعتهم منك بل من الله وفيه بحث يعلم مما قدمناه.

(لأن القاتل والرامى فى الحقيقة) وفى أكثر النسخ «بالحقيقة» ومعناهما واحد، والمراد بالحقيقة نفس الأمر والواقع ويلزمه أن يكون حقيقة اصطلاحية. **(هو الله)** لا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولا المخاطبون، ثم ذكر علة كون الرامى حقيقة هو الله لا غيره؛ لأنه المتعلق بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأدرج فيه القتل، فقال: **(وهو خالق فعله)** أى الله خالق فعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كسائر العباد، ويحتمل عود الضمير إلى العبد لفهمه من السياق. **(ورميه)** تخصيص بعد التعميم أو تفسير.

(وقدرته عليه ومشيئته) المشيئة بمعنى الإرادة وبينهما فرق مفصل فى كتب الكلام،

وفى نسخة وضمير عليه للفعل، وفى نسخة مصححة: مسببة بالسين المهملة وتشديد الموحدة المكسورة اسم فاعل مرفوع معطوف على خالق، ويجوز جره عطفا على فعله فيكون بمعنى السبب، ثم أشار إلى تعليل ثان ودليل على كون الفعل فى الآيتين حقيقة، وإعادة اللام إشارة إلى استقلاله ومغايرته لما قبله فقال: **(ولأنه ليس فى قدرة البشر)** فهذا لفظ مشترك يقال على الإنسان ويستوى فيه الواحد وغيره فلا يجمع، ويقال: بشر وأبشار جمع بشرة وهى أعلى الجلد.

(توصيل تلك الرمية حيث وصلت) أى مكان وصولها من وجوههم؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال لعلى كرم الله وجهه ببدر: «ناولنى كفًا من الحصباء» فناوله فرمى به وجوه القوم فما بقى إلا من وقع فى عينيه منها، وقيل: أخذ قبضة من تراب ورمى بها وقال: «شاهت الوجوه» فما بقى مشرك إلا شغل بعينيه يعالج التراب الذى فيهما فنزل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧] ذكره ابن الجوزى وذكر أن سبب نزوله قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧] الخ، أن الصحابة رضى الله عنهم لما رجعوا من بدر جعلوا يقولون: قتلنا وأسرنا فنزلت فجعل لهما سببى نزول، وهو لا ينافى ما ذكره المصنف رحمه الله من أن الملائكة عليهم الصلاة والسلام قاتلوا؛ لأن ما قالوه بناء على ما رأوه بحسب الظاهر وإلى ما ذكر أشار بقوله:

(حتى لم يبق منهم من لم تملأ عينيه) أى لم يبق من المشركين أحد لم تملأ رميته صلى الله تعالى عليه وسلم عينيه من التراب ودقيق حصبائه حقيقة أو نظرًا للأكثر، ولذا قيل: عرفا فإنه روى هنا وهذا فعل الله لا فعله صلى الله تعالى عليه وسلم، والفرق بين التعليلين أن الأول بناء على أن الله تعالى خالق لفعل العبد ولقدرته عليه وموجد لسببه وهو غير مختص بما نحن فيه ولذا قدمه، والثانى مبنى على أن هذا الفعل ليس مقدورًا للبشر، فعلى الأول هو حقيقة باعتبار الواقع دون عرف اللغة، وعلى الثانى حقيقة لغوية وعرفية. والمذاهب فى الأفعال ثلاثة، فقيل: إن العبد موجد لفعله بكسبه والله خالق لقدرته وتمكينه منه. وقيل: الفاعل هو الله لا غير.

وقيل: إن الله والعبد موجدان للفعل ولا مانع من اجتماع مؤثرين على أثر واحد، وللجلال تحرير مستقل فى هذه المسئلة، وعلى كل حال فالعبد مباشر فيصح النفى عنه والإثبات له ولله، إذ الفعل ينسب إلى الموجد والمباشر كليهما على الحقيقة اللغوية، واعترض بأنه لو صح هذا صح ما صليت والله صلى، وكذا فى المعاصى.

وأجيب: بأنه إن أراد صحة نسبة جميع الأفعال إلى الله فهو ممنوع، إذ قد يمنع عنها مانع مع صحة المعنى كإيهام أو بشاعة، كما قيل فى العارف وخالق الخنازير وإطلاق

الشارع لا يقاس عليه، وإن أراد صحة النفى عن العبد وإثباته حقيقة لله فبطلانه مسلم، وخص هذا المقام بذكره لأنه مظنة الخيلاء إذ قالوا: قتلنا وأسرنا فنزلت تعليما وتأديبا فلا يروا ذلك إلا من الله، وقد صرح المحقق فى شرح المقاصد بأن الفعل لا يسند حقيقة إلا لمن قام به لا لمن أوجده وشنع على من قال بخلافه، وبه صرح شراح الكشاف فى قوله تعالى: ﴿شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس:٢٦] فإسناد القتل والرمى إلى الله مجاز على ما فيه، أو أراد أن القتل والرمى ثابتان له خلقا دون البيعة معه واليد فليست بالمعنى المصطلح، ثم كونه تعالى خالق القدرة والسبب لا دخل له فى المدعى وإنما ذكر للمناسبة انتهى ملخصا.

أقول: الفرق بين الفاعل اللغوى والفاعل الحقيقى الذى وعدناك به أمر مهم ولم يحققه أحد كالأبهرى فى شرح العضد حيث قال: الفاعل يجب أن يكون سببا قابليا لفعله ليصح الإسناد إليه لغة، فإذا خلق الله شيئا فى محل يقوم به يسند ذلك الشىء إلى محله، وإن لم يكن له مدخل فى التأثير إلا إليه تعالى، وكذا نحو الطاعة والمعصية والعيب مما يقوم بالعبد يسند إليه دون الله وإن كان أوجده، ولذا شدد النكير على المعتزلة فى إسناد الكلام إلى الله لكونه أوجده ولم يقم به لعدم صحته لغة بالاستقراء، وأذا اسند الفعل لغير السبب القابلى لم يجعل مجازًا عن فعل آخر مناسب له، ويكفى فى هذا أن يعد سببا قابليا فى عرف اللغة ولا يجب أن يكون محلا له فى الحقيقة، كما فى: «سرتنى رؤيتك» فلا تجد أحدًا من العرب يخطر بباله عند إسناد الضرب لعمرو والمسرة إلى الرؤية أن فاعلهما غير المذكور، هكذا يجب أن يفهم هذا المقام لتندفع به الأوهام، إلى آخر ما حققه بما لا مزيد عليه، ولم يذكر فيه اختلافا مع طول باعه وسعة اطلاعه، وإذا عرفت هذا ففيما ذكره هذا القائل أمور:

منها: أن قوله: إن الفعل ينسب للموحد والمباشر حقيقة لغوية غير صحيح، لأنه لا ينسب إلا لمن قام به وعد محلا له عند أهل اللسان، مع أن أول كلامه غير مناسب لآخره.

ومنها: أن الحقيقة تطلق على ما يقابل المجاز الاصطلاحى وعلى الواقع ونفس الأمر، والمصنفون إذا أرادوا الأول قالوا هذا مراد به كذا لا حقيقته، وإذا أرادوا الثانى قالوا هو فى الحقيقة بمعنى كذا، فتردده فى كلام المصنف لا وجه له.

ومنها: أن قوله: إن العارف لا يطلق على الله لإيهامه يعنى أنه يختص بالجزئيات أو بما يسبقه جهل، والأول يوهم اختصاص علمه تعالى والثانى يوهم ما لا يليق به جل وعلا تبع فيه غيره، وقد رده الحافظ العراقى رحمه الله تعالى فى نكته على المنهاج بأن إمام

الحرمين رحمه الله تعالى فسر العلم بالمعرفة وتبعه البيضاوى فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنفال:٦٠] فقال: أى الله يعرفهم إن كان العلم بمعنى المعرفة متعديا واحد واعترض عليه الفاضل المحشى. وقال الجوهرى: علمت الشيء عرفته، وقد وقع إطلاق المعرفة على الله فى كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وأقوال الصحابة، وأهل اللغة فلا حاجة للالتجاء للمشاكلة ونحوها. والعجب من صاحب المواقف حيث قال: علم الله لا يسمى معرفة إجماعا لا اصطلاحا ولا لغة، ولنا عودة إلى بيان ذلك.

ومنها: أن قوله: إن كون الله خالقا للقدرة إلخ، لا دخل له فى مدعاه عجيب منه، فإنه إذا خلق فعل العبد وقدرته عليه وسببه كان ذلك أبلغ من نسبته له على أتم الوجوه فأى مدخلية أعظم من هذه.

(**وكذلك قتل الملائكة لهم حقيقة**) منهم لمباشرتهم له، وحقيقة يجوز رفعه خبرًا لقتل ونصبه على الحالية، وكذلك خبر مقدم، وهذا مبنى على أن الملائكة عليهم الصلاة والسلام قاتلوا فى بدر. وأن قوله (**ولكن الله قتلهم**) بتقدير ولكن ملائكة الله قتلوهم، ومنهم من منع قتالهم معهم كما ذكره المفسرون. وقال بعض الشراح: ما أحق هذا بالتعجب لأن القاتل حقيقة بالنسبة إليهم هو الله الخالق لأفعالهم وقدرتهم وهم المباشرون، فلا خصوصية لهم بكون قتلهم حقيقة لم يسند لله. وأيضًا لا يظهركون لم يقتلوهم مثل أن الذين يبايعونك إلا أن يقال: إن اللفظ على معناه وعلى كماله المقصود منه، فأطلق أولاً على ما وضع له من نفى القتل والرمى مع صدوره صورة فى قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ [الأنفال:١٧] وما رميت، ثم ثانيا على المقصود من قذف الرعب فى قلوبهم ومنفعة الرمى وتأثيره. ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال:١٧] ولكن الله رمى فهو من إطلاق السبب على المسبب، ورد بأن الملائكة عليهم الصلاة والسلام باشروا القتال فإسناده حقيقة إليهم لا إلى الصحابة رضى الله تعالى عنهم، فيصح النفى عنهم فما ذكر من قصور الفهم، ثم قال: إن هذا الدليل إنما يدل على أن النفى عن العبد حقيقة لا الإسناد إلى الله، إذ لا يلزم من كون الإيصال من الله والقتل من الملائكة عليهم الصلاة والسلام أن يكون القتل والرمى من الله، فلعله ساق الدليل الأول لحقيقة الإسناد إلى الله تعالى، والثانى لحقيقة النفى فالمجموع دليل على الإثبات والنفى، أو الثانى دليل لبعض المدعى ومثله شائع وهذا ليس بشيء، والحق ورود اعتراضه وقصور فهم من رده وأما الثانى فغير وارد وقد علم جوابه مما قررناه أولا.

(**وقد قيل فى هذه الآية الأخرى**) وهى ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾

[الأنفال:١٧] **(أنها على المجاز العربى)** وفى نسخة: العرفى بالفاء، ولما كان الفاعل الحقيقى هو الله تعالى كما مر تحقيقه كان إطلاق الفعل على غير فعله وإسناده لغيره ليس حقيقيا، فيكون مجازًا بالنسبة للحقية إلا أن عادة العرب ولغتهم وعرف تخاطبهم على عد غيره فاعلا حقيقة، والقرآن ورد بلسانهم وجرى على نهج كلامهم، وهذا معنى قوله العربى والعرفى فهما بمعنى، ولذا جعل بعضهم المجاز العربى شاملا للمجاز فى اللفظ والإسناد، وإن كان المراد هنا الأول والمراد بالعرف عرف اللغة، وقيل: المراد بالعربى اللغوى وهو اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له فى اصطلاح التخاطب، وهو احتراز عن المجاز العقلى فى الإسناد والنسبية، وللتلمسانى هنا كلام يتعجب منه، وهو المراد بالعرفى ما عدل به عما وضع فى عرف غير اللغة والشرع ولا وجه لإيراده فى هذا المقام إلا أن يراد به ما يعلم عرف اللغة فهو فى مقابلة العقلى وقد عرفت أنه كلام ساقط برمته. وكذا ما قيل: إن المجاز لا يختص بلغة العرب إلا أنه لما كان مبحوثا عنه فى علم البيان للفظ العربى سمى عربيا وهو اصطلاح لم نجده لغيره.

(ومقابلة اللفظ ومناسبته) بجرهما عطفا على المجاز وعطف مناسبته على مقابلة عطف تفسيرى إن اتحدا، والظاهر تغايرهما فإنه الأصل، والمراد بالمقابلة صنعة الطباق وهى الجمع بين متضادين فى الجملة سواء كانا مثبتين نحو: **(وتحسبهم إيقاظا وهم رقود)** أو أحدهما مثبت والآخر منفى، نحو: **(ولكن أكثر الناس لا يعلمون، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا)** كما فى التلخيص، وليس المراد المقابلة التى ذكرها السكاكى، والمراد بالمناسبة ذكر اليد فى الجانبين والقتل والرمى فيهما، فهى بالمعنى اللغوى كالمقابلة وليس المراد بها المشاكلة على حد قوله:

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه   قلت اطبخوا لى جبة وقميصا

كما قيل. وقال التلمسانى رحمه الله تعالى: المراد بالمقابلة إيراد الألفاظ متوالية متماثلة فى الترتيب والمادة كما ذكره ابن رشيق، وهو أكثر ما يقع فى ألفاظ الكتاب كقول البحترى:

تطيب بمسراها البلاد إذا سرت   فينعم رياها ويصفو نسيمها

والمناسبة ذكر الشىء مع ما يناسبه على جهة الاستعارة أو التشبيه، كقول المتنبى:

سقيتها عبرات ظنها مطرا   وسائلا من جفون ظنها سحبا

انتهى. والأول لا مناسبة له بوجه من الوجوه والثانى يمكن إرادته.

(أى ما قتلتموهم وما رميت أنت إذ رميت وجوههم بالحصباء والتراب) الحصباء بالمد

الأحجار الصغار، وقيل: المختلطة لتراب، لأن الغالب أن الحصباء مع التراب، وفى نسخة «ما قتلتموهم إذ قتلتموهم» أى لم توجدوا ذلك وتلحقوه ولم يكن منكم ما ثبت الله من رمى قلوبهم بالخوف والجزع لقوله: (**ولكن الله رمى قلوبهم بالجزع**)، أى رمى ما رماه من الجزع وهو عدم الصبر لشدة الخوف، ولم يتعرض لمعنى القتل المجازى لفهمه مما ذكر، ولو جعل الرمى شاملا لاتصال الحصباء لعيونهم الشاغل لهم كان أولى فالله وهو الموجد لما ذكر والممكن منه، وقيل: كان مقتضى الظاهر أن يقول: وما شغلت قلوبهم بالجزع ولكن الله شغلها به، فعبر عن شغلها بالرمى لمشاكلة قوله: رميت قاصدًا بالرمى الجزع فى قلوبهم على تقدير المفعول كما قصد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رمى الحصباء.

(**أى أن منفعة الرمى كان من فعل الله تعالى**) المنفعة والنفع بمعنى، وهو ما يقابل النصر، وفى لحن العامة للزبير إذا ذكر الضر مع النفع فهو بفتح الضاد كقوله تعالى: ﴿لَآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف:١٨٨] وإذا ذكر وحده فبالضم كقوله: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء:٨٣] والنفع بالضر والغلبة والقوة، أو شغل قلوبهم بالجزع وسكت عن القتل لعلمه منه، فالمراد بالفعل فائدة الموضوع له.

(**فهو القاتل والرامى بالمعنى**) والحقيقة لأنه الموجد له ولسببه ومنفعته المقصودة منه فكأنه هو الذى فعله، وتفريع القاتلية يدل على أنه مقدر قبله أو فى حكمه، أو منفعة الرمى التى هى الجزع والرعب سبب القتل، فإذا كانت من الله فهو القاتل؛ لأنه الموجد لسببه والرمى لأنه الموجد لفائدته، فلا تقرير، والمعنى المقصود والفائدة من أجل سببها فهو الموجد لها.

(**أنت بالاسم**) أى بتسميتك راميًا وإطلاق لفظه عليك لغة لمباشرتك، وإن كان الفاعل هو الله تعالى، وفى عبارة المصنف رحمه الله تعالى إشارة إلى أنه تعالى لو قال: فلم تقتلوهم إذ قتلتموهم، جاز أن يكون الخطاب للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين، كما أنه فى قوله: «إذ رميت» له خاصة ولا ضير فيه وإن لم يباشر القتل بنفسه، لجواز أن يسمى قاتلاً لأنه السبب والآمر بالقتال، أو لينسب القتل للجميع تغليبا للأكثر على الأقل؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يقاتل بنفسه فى وقعة بدر كما قاله التجانى وغيره.

* * *

[الفصل العاشر: فيما أظهره الله تعالى فى كتابه العزيز من كرامته عليه ومكانته عنده وما خصه به من ذلك]

(الفصل العاشر فى) ذكر **(ما أظهره الله تعالى فى كتابه العزيز)** أى العديم النظير، أو الغالب لغيره من الكتب بالنسخ، أو الممتنع من مضاهاته بإعجازه أو من التغيير والتحريف لحفظ الله له. **(من كرامته عليه)** يقال: كرم عليه لتضمنه معنى العزة، أو هى بمعنى عنده وعدل عنها لئلا تتكرر مع قوله: **(ومكانته عنده)** أى علو مرتبته وشرفه عند الله كما مر **(وما خصه به من ذلك)** المذكور من الكرامة والمكانة وهو تخصيص بعد تعميم، أى فيه كرامات وتشريفات مشتركة ومخصوصة به صلى الله تعالى عليه وسلم **(سوى ما انتظم فيما ذكرناه قبل)** أى غير ما دخل فيما قبله من الفصول، وقبل مبنى على الضم وانتظم يكون لازما ومتعديا كما صرح به أهل اللغة وفيه استعارة ظاهرة، وقيل: متعلق به أو بذكرنا على التنازع فيه، ولما لم تستوعب كراماته قبل أردفه بفصل كمله به ولم يدرجه فى بعض ما سبق، كالملاطفة لترجيح هذه الطريق.

(من ذلك ما قصه الله تعالى) من قصصت الخبر إذا ذكرته على وجهه كما فى المصباح، فهو أخص من الذكر مع مجانسته لقوله: **(من قصة الإسراء فى سورة سبحان و)** سورة **(النجم)** وهو متعد بنفسه فلا حاجة لجعله بمعنى قص عليه على الحذف والإيصال، والإسراء سيره صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة إلى الأقصى، وما فوقه معراج وعروج، ويطلق على ما يشملهما أيضًا كما مر، وهذا وإن تقدم مفصلاً إلا أنه ذكره هناك استطرادًا وهنا أصالة، لعقد الفصل لأمثاله. **(وما انطوت)** أى اشتملت **(عليه القصة من عظيم منزلته وقربه)** من الله المفهومين من قوله وغير ذلك.

(ومشاهدته ما شاهد من العجائب): وهذا بناء على أن المراد بالدنو الآتى دنو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من الله، أو دنو الله منه دنو منزلة ومكانة لا منزل ومكان، بخلاف القول بأن المراد دنو جبريل عليه الصلاة والسلام منه، والعجائب ما رأى من آيات ربه الكبرى، ورؤية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وذهابه صلى الله تعالى عليه وسلم وإيابه فى برهة من الليل إلى غير ذلك **(ومن ذلك)** عطف على من ذلك المتقدم أى ومما أظهره، وقيل: الإشارة إلى عظيم منزلته وقربه.

(عصمته من الناس) أى: حفظه صلى الله تعالى عليه وسلم عن أن يصل إليه كيدهم ومكرهم الذى أشير إليه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة:٦٧] أى: يحميك عن القتل وما لا يليق من الإهانة، وقد تقدم الجمع بين هذا وبين كسر ثنيته صلى الله تعالى عليه وسلم بأحد، بتخصيص العصمة بالقتل أو تأخر نزول هذه الآية، والمراد

بالناس الكفار كما فى قوله: «أمرت أن أقاتل الناس»[(١)] الحديث.

(وقوله تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ [الأنفال: ٣٠] الآية) أى ومن العصمة قوله إلى آخره، وهو مجرور معطوف على قوله، وكذا ما بعده وتمام الآية: ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وهذا كان لما بايع صلى الله تعالى عليه وسلم الأنصار بالعقبة، وأمر أصحابه رضى الله عنهم بالذهاب للمدينة أشفقت قريش من ظهوره صلى الله تعالى عليه وسلم فاجتمعوا بدار الندوة للمشاورة فى أمره، فأتى إبليس إليهم بصورة رجل نجدى، وقال: سمعت ما اجتمعتم له فأحببت أن أكون معكم، ولم تقدموا من رآى نصحا، فقال بعضهم: احبسوه موثقًا وتربصوا به ريب المنون، فقال الشيخ: ما هذا برأى يوشك أن يثب أصحابه فيأخذونه من بين أيديكم، فقال آخر: أخرجوه من بين أظهركم، فقال: ما هذا برأى يجمع جموعًا ويأتى لكم، فقال أبو جهل، لعنه الله تعالى: نأخذ من كل قبيلة غلامًا معه سيف فيضربونه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل، فلا تطيق قريش تقدر على حربهم كلهم، فيقبلون العقل ونستريح منه. فقال إبليس، لعنه الله تعالى: هذا هو الرأى. وتفرقوا فأتاه جبريل عليه السلام وأخبره بذلك، وأمره أن لا يبيت بمضجعه فى هذه الليلة، فأمر عليًّا كرم الله وجهه بأن يرتدى ببرده وينام مكانه،ففعل فأتوا وأحاطوا بمكانه، فلما أصبحوا أتوه فرأوا عليًا، وقد خرج صلى الله تعالى عليه وسلم ليلاً إلى الغار على ما فصل فى السير، وعلى أول من باع نفسه لله تعالى كما قال:

وقيت بنفسى خير من وطئ الثرى ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر

فى شعر نسب له، ويثبتوك معناه يوثقونك ويحبسونك، ويمكر الله مشاكلة بمعنى يجازى مكرهم بما يليق به، كقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧] قال التجانى: وخير الماكرين أقدرهم وأعزهم جانبًا، لأنه أثبت للكفار مكرًا فصح التفضيل عليهم فيه، وقيل عليه: إنه يقتضى أن أصل المكر ثابت له كما ثبت لهم، إلا أنه خير منهم مع أن الثابت له إنما هو المجازاة المعبر عنها بالمكر مشاكلة، وإذا ثبت لهم المكر الحقيقى وهو إيصال المكروه حقيقة وله المجازاة عليه، فيكون الماكرين بمعنى المجازين وهو ممنوع عند النحاة كتثنية العينين المشتركتين، فالحق أن المراد خير المجازين على المكر، كما قيل فى أحسن الخالقين إنه بمعنى المقدرين وفيه بحث.

---

(١) أخرجه البخارى (١/١٣، ١٠٩، ٢/١٣١، ٤/٥٨)، ومسلم فى الإيمان (٣٢، ٣٣، ٣٥)، وأبو داود (١٥٥٦، ٢٦٤٠)، والترمذى (٢٦٠٦، ٢٦٠٧، ٣٣٤١)، والنسائى (٧/٧٧، ٧٨)، وابن ماجه (٣٩٢٧، ٣٩٢٨، ٣٩٢٩)، وأحمد (١/١١، ١٩، ٣٥، ٤٨، ٢/٣٧٧، ٤٢٣، ٥٢٧).

(وقولــه تعــالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التوبة: ٤٠] إلى آخره) بالجر كما روى بالرفع عطفًا على العصمة، وفى هذه الآية تتميم لما قبلها، والمعنى إن لم تنصروه فسينصره من نصره قبل ذلك وهو بين أعدائه، وقد هموا به فأذن له صلى الله تعالى عليه وسلم فى الهجرة أو أمده بالملائكة، وظرفية الإخراج للنصر لأنه سبب له، أو لأنه سلمه من أعدائه وأعمى أبصارهم عنه صلى الله تعالى عليه وسلم وحماه فى الغار، وقصة سراقة معه فلا إشكال فيه، والآية نزلت فى غزوة تبوك ونسب الإخراج إلى الكفار وإن كان منه بإذن الله تعالى، لأنهم سببه كما قصصناه عليك.

(وما دفع الله به) أى: بحفظه من غير معين له أو ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم. (فى هذه القصة) المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] إلى آخره فى الهجرة والغار والطريق. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

(من أذاهم) أى أذيتهم له صلى الله تعالى عليه وسلم بما سيأتى، ومن مبينة لما المعطوفة على الناس، واختار بعضهم عطفها على عصمته، على أن ما مصدرية أو موصولة ومن بيان لمقدر، والتقدير ودفع الله بسبب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عنه أو للكرامة التى دفع الله تعالى بسببها عنه أمرًا عظيمًا، ولا يخفى ما فيه من التكلف من غير داع. (بعد تحزبهم) بحاء مهملة وزاى معجمة وموحدة، وفى نسخة تحريهم براء مهملة ومثناة تحتية أى قصدهم، والأولى بمعنى تجمعهم فى مشاورتهم مع أحزابهم وقرار رأيهم. (لهلكه) بضم فسكون أى هلاكه وهو مصدر أو اسم مصدر.

(وخلوصهم نجيا فى أمره) أى بعد إخلاصهم فى أذيته منفردين فى دار الندوة للمشاورة فى أمره، والخلوة أعون على الجسم والرأى، ونجيا بمعنى متناجين ومناجين فهو بمعنى فاعل أو مفعول، للمبالغة فى التجوز ويقع على الواحد والجمع، أو الأخذ على أبصارهم عند خروجه عليهم: حقيقة الأخذ التناول باليد ونحوها، ومنه أخذه الله بمعنى أهلكه، ومعنى أخذ الله على أبصارهم منعها من رؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم مع ترقبهم له لما خرج من داره مارًا عليهم، والأخذ مجرور معطوف على تحزبهم وروى مرفوعًا بالعطف على ما، وقيل: تقديره من الأخذ على أبصارهم عند خروجه لما أرادوا قتله، وهو خطأ لاقتضائه دفع الأخذ وهو ثابت.

(وذهولهم عن طلبه فى الغار) الذهول: ذهاب العقل والنسيان والغفلة، والمراد هنا الأخير، وفى الغار متعلق بالطلب، أى ذهلوا عن أن يكون طلبهم له فى الغار لا حال

من ضميره، لأنهم طلبوه وهو فيه لما اقتصوا أثره حتى بلغوه، فصدهم عنه نسخ العنكبوت وبيض الحمام ببابه، والغار: نقب فى الجبل كالمغارة فإذا اتسع فهو كهف، وتعريفه للعهد لغار ثور القريب من مكة بمقدار ساعة.

(**وما ظهر فى ذلك**) الغار أو الأمر وهذا معطوف على عصمة، أى ومن ذلك ما ظهر. (**لهم**) أى: للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأبى بكر رضى الله تعالى عنه فيما ذكره من قصة الهجرة والغار، وجمع ضميرهما تعظيمًا وجمع ضمير المثنى كثير، ولهم فى أكثر النسخ، والقدح فيه لتوهم أن الضمير للكفار و لم يظهر لهم نزول السكينة عليه تعسف.

(**من الآيات**) الدالة على نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم كوقوع كف من تراب على جميع رؤس جماعة رصدوه فقتلوا كلهم ببدر، ونبات شجرة تسمى الراء كاسم الحرف ببابه، ونسج العنكبوت وتعشيش الحمام وبيضه به، وشفاء الصديق رضى الله تعالى عنه من لدع الحية بريقه الشريف، وشرب الصديق من ماء الجنة لما عطش به كما نقله الفيروزآبادى والطبرى، وفتح جبريل عليه الصلاة والسلام لطرف الغار الآخر عند خروجهما.

(**ونزول السكينة عليه**) أى: على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أو على أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، لما فى مصحف حفصة رضى الله تعالى عنها، فأنزل الله سكينته عليهما، وقيل: الحق الثانى لأنه هو الذى كان منزعجا بدليل قوله قبله: ﴿يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: ٤٠] وقول التجانى فى عود الضمير على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أو أبى بكر رضى الله تعالى عنه قولان، وفى أحكام القرآن لابن العربى: الأقوى أنه لأبى بكر رضى الله تعالى عنه؛ لأنه خاف على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأنزل الله على قلبه سكينة أى طمأنينة وأمنا، وفى الشواذ عليهما ولذا قيل الضمير فى عليه لهما واكتفى بإعادته على أحدهما، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢] كما ذكره ابن الجوزى عن ابن الانبارى بعد ترجيح عوده لأبى بكر رضى الله تعالى عنه، وإن كان ضمير وأيده بجنود للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بلا خوف؛ لأنه لا يحتاج للسكينة إلا المنزعج، ونظيره ما مر فى قوله تعالى: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ [الفتح: ٩]، والقراءة الشاذة مأوله بنسبة ما للواحد إلى الاثنين كـ ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] إلا أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٢٦] يصح عودها هنا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أيضًا، والسكينة فسرت

بطمأنينة الأمن والرحمة والوقار، فتفسر فى كل محل بما يليق به مع أن طمأنينته صلى الله تعالى عليه وسلم ليست كغيره، لأنها عن جزم بعدم وصولهم له وعدم قدرتهم ولو وصلوا إليه على أذيته، أو للرضى بما قدره الله تعالى وعدم المبالاة بما يناله لأجله، كما قيل:

وبما شئت فى هواك اختبرنى فاختبارى ما كان فيه رضاكا

(**وقصة سراقة**) بضم السين المهملة وراء مهملة وقاف (**بن مالك**) وسيأتى تفصيلها وهو ابن مالك بن جعشم بن مالك بن تيم بن مدلج بن مرة بن عبد مناف بن كنانة المدلجى الصحابى الحجازى رضى الله تعالى عنه، وجُعشُم بضم الجيم والشين المعجمة بينهما عين مهملة ساكنة، وما نقله البرهان عن الجوهرى من أنه بفتحهما ليس موجودًا فى نسخة كما قيل، وكانت هذه القصة قبل إسلامه، وأسلم فى غزوة الطائف بعد فتح مكة ومات سنة أربع وعشرون، وكان شاعرًا، وبنو مدلج كلهم قافة، والقيافة: من علوم العرب، وقلما يخطؤن فيها، وقد عمل بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى بعض الأنساب.

(**حسبما ذكره أهل الحديث والسير فى قصة الغار وحديث الهجرة**) حسب بفتح السين وسكونها منصوب، أى موافقًا لما ذكر، وفى الحديث: «يجزى المرء على حسب عمله» أى على مقداره، وله معان أخر، والحديث أقواله صلى الله تعالى عليه وسلم وأفعاله وأحواله وتقريراته، ويطلق على قول الصحابى ونحوه أيضا كما فصل فى محله. وأهله علماؤه المعتنون به، والسير: جمع سيرة بمعنى الطريقة والخصلة، ثم خص بغزوات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأسفاره المفردة بالتدوين. والهجرة: الانتقال من دار لأخرى وهى هنا للعهد، أى هجرته صلى الله تعالى عليه وسلم للمدينة المنورة. (**ومنه**) معطوف على قوله من ذلك.

(**قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر:١] إلى آخره**) أكده مع ضمير العظمة إيماء إلى عظمة المعطى والمعطى وتشويقًا ونفيًا للشبهة فيه، وعبر بالماضى لمضيه إن كان الكوثر مطلق الخير الكثير، كما قال(١):

وأنت كثير يا ابن مروان طيب وكان أبوك ابن الفضائل كوثرا

وكذا إن كان اسم الحوض أو نهر فى الجنة أحلى من العسل، وأبيض من اللبن،

(١) البيت من الطويل، وهو للكميت فى ديوانه (٢٠٩/١)، لسان العرب (١٣٣/٥)، تهذيب اللغة (١٧٨/١٠)، جمهرة اللغة (ص١١٧٤)، تاج العروس (١٨/١٤)، وبلا نسبة فى مقاييس اللغة (١٦١/٥)، مجمل اللغة (٢١٦/٤)، المخصص (٣/٣).

وأبرد من الثلج كما ورد فى الحديث، لتقدم العطاء. وفى الروض الأنف: عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت: «الكوثر نهر فى الجنة لا يدخل أحد أصبعيه فى أذنيه إلا سمع خرير ذلك النهر». ونحوه مما ثبت فى الأحاديث الصحيحة.

فإن قلت: ما تسمع من الدوى إذا سدت الأذان بالأصابع إنما هو لارتفاع الهواء المانع للأذن عن سماع حركة الأبخرة التى فى داخل الدماغ، وهو أمر طبيعى كما قال المتنبى فى صفة الحرب:

وتسمع فى الدنيا دويا كأنما   تداولت الأذان أنا ملك العشر

فما معنى الحديث؟.

قلت: الجنة موجودة الآن كما هو مذهب أهل السنة، وهو الذى نعتقده وما تدركه الحواس الظاهرة يدركه الحس المشترك بعد غيبته؛ لأنه كالحوض الذى ينصب فيه أنهار خمسة، فلا مانع من أن النفس كانت سمعته فى عالم الذر بحاسة ظاهرة، فلما غاب عنها ولم تشتغل بالسمع الآن لسده أدركته أو أدركت دويا آخر كما قاله الحكماء، فتذكرته وجعل تذكره سماعًا على طريق الاستعارة، وليس هذا مما يقال بالرأى. وفى كلام العماد بن كثير: ومعناه من أحب أن يسمع خرير الكوثر أى نظيره أو مما يشبهه لا أنه يسمعه بل بعينه، بل شبهت دويه بدوى ما يسمع إذا وضع الإنسان إصبعيه فى أذنيه، وقد قلت وأنا بالروم وأتشوق لمصر:

لحديث نيلك مصر أمسى مصيغا   حتى يخوضوا فى حديث غيره

يا كوثرا إن سد عنه مسمعى   ألقاه فيه قد جرى بخريره

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر:٢] أمر بالصلاة مطلقا أو التهجد، وكان الظاهر فاشكر فعدل عنه؛ لأن مثل هذه النعمة العظيمة ينبغى أن يكون شكرها كذلك، وأعظم ذلك العبادة وأعظمها الصلاة، وعدل عن التكلم إذ لم يقل لنا إلى الظاهر بقوله مخلصًا لربك التفاتًا تطرية للسمع وتقوية لداعية الشكر، لتقدم إنعامه بالترتيبة قبل الشكر فكيف بعده، وقوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] أمر بتقريب البدن لأن النحر يختص بها، وفى غيرها يقال ذبح، وهذا عبارة عن جميع أنواع العبادة المالية والبدنية، ولما رآى بعضهم عدم المناسبة غفلة عما ذكر جعل الصلاة صلاة العيد. وقال: معنى انحر ضع يدك على صدرك فى الصلاة لأنها تكون تحت النحر. وقول بعضهم: إن الصلاة وقعت قرينة للنحر كثيرًا نحو: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ [الأنعام: ١٦٢] لا يجدى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر:٣] أى: المقطوع العقب والقليل، ولم يقل جعلناه أبتر لئلا يسند الشر لنفسه.

(أعلمه الله بما أعطاه): حقيقة أو قدره له أو بما هو موجب للعطاء فسمى به، وتأويله بيعطى يفوت هذه النكات، ثم شرع فى تفسير الكوثر وسرد أقوال المفسرين فيه، و لم يقصد بقوله قيل فى الستة الأقوال الآتية تضعيف ذلك، وإنما أراد الحكاية فقال: **(والكوثر حوضه)** صلى الله تعالى عليه وسلم فى القيامة وسيأتى بيانه. **(وقيل: نهر فى الجنة)** غير الحوض وهو الصحيح **(وقيل: الخير الكثير)** فهو صيغة مبالغة من الكثرة فى اللغة، وخص بالخير بمقتضى المقام وأحسن فى تعقيبه بقوله: **(وقيل: الشفاعة)** التى هى من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم فى مقام لا يسع غيره النطق به، وهذا أعظم الخير والنفع وأكثره.

(وقيل: المعجزات الكثيرة، وقيل: النبوة، وقيل: المعرفة) أى العلوم اللدنية التى أفاضها الله تعالى فلفيضها بغير واسطة كأنها كوثر، وهكذا النبوة والمعجزات فما قيل إنه لا وجه للتخصيص فيها، وأن الظاهر ما قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما من أنه جميع ما أنعم الله به عليه لا وجه له، ثم إنهم اختلفوا فى الحوض ونهر الكوثر هل هما شىء واحد أو أمران متغايران؟ أو الحوض مأخوذ من الكوثر وأنه يمده بمجارى تأتيه منه؟ على أقوال استدل لكل منها بأحاديث تركناها لطولها.

(ثم أجاب الله عنه عدوه) تقدم أن العدو يطلق على الواحد والجمع والمراد سفهاء قريش والعاص بن وائل السهمى كما قاله المفسرون، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما مات ابنه القاسم قالوا: إن محمدًا صار أبتر أى لا عقب له، فنزلت السورة جوابًا لهم مصدرة بما أعطاه عوضا عن مصيبته بابنه القاسم، وقيل: عبد الله وقيل: قائل ذلك أبو جهل لعنه الله، وقيل: كعب بن الأشرف، والسورة نزلت بتمامها جوابًا لهم. وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن آخرها نزل جوابًا لقول أبى جهل بتر محمد، وكلام المصنف رحمه الله تعالى ماش على هذا، وأورد على القول الأول بأنها جواب للعاص، وأن الأبتر من لا ولد له وأنه قد كان العاص ذا عقب وولد، وابناه هشام وعمرو ماتا مسلمين، وهشام قديم الصحبة أسلم بمكة وهاجر للحبشة وقدم للمدينة بعد ما حبسه أبوه وقومه، وعمرو قدم هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة مسلمين فنظر لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال: «رمتكم مكة بأفلاذ كبدها» بالمعجمة جمع فلذ وهى القطعة.

وأجاب التجانى بأن العاص وإن كان له عقب فقد انقطعت عصبته منهم بإسلام ولا توارث بينهم، وصاروا أتباع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه أب لهم وأزواجه أمهاتهم كسائر المؤمنين فلا قرابة بينهم وبينه، وقد روى أنه انقطع نسله كما سيأتى،

وقد قرئ أزواجه أمهاتهم وهو أب لهم ولا تنافى بينهما وبين قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠] لأن المنفى الإبوة الحقيقية، وأجاب غيره بأن من قال إنه أبتر لم يقصد ظاهره وإنما قصد أنه سيموت ولا يذكر، وقد ورد هذا مصرحًا به فى بعض الروايات، فالرد باعتبار المقصود وأن شانئه هو الذى لا ذكر له فإن المراد ذكر الأب بخير بعد موته، ولا شك أن عقبه لا يذكرونه بخير بعد إسلامهم، وأما ما قيل من أن صدر السورة لا دخل له فى الرد فإنها كانت نزلت جملة فكيف يقال إنها نزلت للرد؟ فمدفوع بأنه لا مانع فى الجواب من أن يزاد فيه، والأحسن أن يقال: إنه مؤيد للجواب وموطئ له إذ المعنى إنا أعطيناك عطايا عظيمة فى الدنيا والآخرة يجب عليك شكرها، وجعلنا لك عبادة وشريعة باقية، ومن هذا شأنه لا يكون أبتر إنما الأبتر من ليس كذلك، فإن المقصود من الولد الذكر، وأى ذكر أبقى من ذكرك وأقوى، ولك أن تقول: ليس سبب النزول قولهم هذا بل سببه موت ذكور أولادهم، وقولهم شماتة نسبته أنه أبتر، ومعنى السورة مطابق له بتمامها فإن من مات من الأولاد فرط لأبائهم يثابون عليه فى الآخرة، فالمراد أنا أعددنا لك الكوثر لما احتسبته منهم، واللائق بك إنما هو الاشتغال بالعبادة فإن أمتك ومن هداه الله تعالى بك عقب لك إلى يوم القيامة، ومن كان هكذا فليس بأبترا إنما الأبتر عداه، وأى مناسبة أتم من هذه.

(ورد عليه قوله) أنه منقطع العقب والذكر بوجه يتضمن شتمه وتنقيصه. **(فقال تعالى)** وفى نسخة قال على الاستئناف أو البدل. ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ لا أنت لبقائك وبقاء ذكرك فهو علة لمقدر، أى لا تلتفت لمقاله فإنه أبتر وهو استئناف نشأ مما قبله، أى أمرتك باشتغالك بالعبادة المالية والبدنية لأنها لا عائق لك عنها من عدوك الأبتر. وقيل: هو مع الأمر قبله معطوف على جملة الأمر الأول وغير فيها الأسلوب تفننا وفيه تكلف، وتعريف الطرفين وضمير الفصل المفيد كل منهما الحصر، ولم يكتف بأحدهما لزيادة الاهتمام بنفى ما ذكر عنه وإثباته لعدوه على أتم الوجوه، ويحتج بعض الشراح هنا بأمور لا طائل تحتها غير التطويل.

(أى عدوك ومبغضك) أصل معنى الشنأن البغض ويلزمه العداوة فى الأكثر وهو الواقع هنا، فلذا ذكرهما لا أنهما مترادفان كما قيل، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة: ٩١].

(والأبتر الحقير الذليل): أصل معنى البتر القطع، وفى حديث الضحايا: «نهى عن المبتورة». أى المقطوعة الذنب، ثم استعير لمن لا عقب له، وشاع فيه حتى صار حقيقة وبجرد عدم الولد لازم فيه، وإنما يذم باعتبار لازمه وهو انقطاع العمل لحقارته وذلته

كما ورد فى الحديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله»(١) إلى آخره، مع أن عقبه صلى الله تعالى عليه وسلم من فاطمة لم ينقطع ففيه رد وزيادة إذ الحقير لا يذكره أحد، وقيل: الأبتر مشترك بين من لا عقب له والحقير وليس ببعيد **(أو)** معناه **(المفرد)** بفتح الراء **(الوحيد)** بمعناه تأكيد له وفى القاموس: الأبتر الذى لا عقب له أو مقطوع الذنب وهذا المعنى مأخوذ منه، ولذا فسر الأبتر بالمنفرد الذى لا ناصر له ولا يبلغ مأموله، وروى هذا عن الحسن، ونسل أعدائه انقطع بإسلامهم كما مر ومنه ما انقطع بقاؤه حقيقة أو العاصى كما قالوه **(أو الذى لا خير فيه)** فلا يذكره أحد، وفيه مقابلة بينه وبين قوله الكوثر إذا فسر بالخير الكثير، ومن كرامته التى ذكرها الله تعالى ما أشار إليه بقوله. **(وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧])** والمثانى جمع مثنى معدول عن اثنين، ومن بيانية أو تبعيضية أى من جملة الآيات المثانى، قال فى مرقاة الصعود: هى السورة التى تقصر عن المئين وتزيد على المفصل، كأن المئين جعلت مبادى فالتى تليها جعلت مثانى والقرآن وصف أو اسم وخص السبع بالذكر لفضلها، وأما كون الفاتحة لم تكتب فى مصحف ابن مسعود كما نقله الإمام فلا وجه له.

(قيل: السبع المثانى فى السور الطوال) بكسر الطاء جمع طويلة وأما بعضها فمفرد كرجل طوال بتخفيف الواو وتشديدها للمبالغة. **(الأول)** بضم الهمزة وفتح الواو المخففة جمع أولى مؤنث أول، وليس الطوال جمع طويل حتى يرد عليه أن جمعه إنما هو طول أى السور الطوال واختلف فيها على هذا القول، فقيل: هى البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والسابعة الأنفال وبراءة معًا بناء على أنهما سورة واحدة، وقيل: يونس، وقيل: يوسف.

وضعف أبو العالية هذا القول بأن هذه الآية نزلت ولم يكن إذ ذاك نزل شىء من هذه السور، والمثانى إما صفة القرآن كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣]، ومن تبعيضية أو بيانية، ومعنى وصف القرآن بها أن قصصه ومواعظه وأوامره تثنى وتكرر فلا تمل كغيرها من الحديث المعاد، أو هى المثانى نفسها فمن تجريدية، وأجيب بأن أعطيناك بمعنى نعطيك فى المستقبل عبر به لتحققه، وقيل: المثانى من الثناء عليه صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى أقاربه والعامل به كقوله قرآن كريم ومجيد، وهذه الآية مكية والسورة مدنية.

(والقرآن العظيم) على هذا التفسير.

---

(١) أخرجه مسلم (٣/١٦٨٢/١٣)، وأبو داود (٢٨٨٠)، والترمذى (١٣٧٦)، والنسائى (٦/٢٥١)، وأحمد (٢/٣٧٢)، والبيهقى (٣/٣٧٧).

(أم القرآن) أى الفاتحة، وجعلها أما لاشتمالها على معانيه وغير ذلك من المعانى التى ذكرها المفسرون، وإطلاق القرآن عليها بخصوصها وهو بمعنى المقروء وإما بجعل التعريف للعهد أو لمخصص آخر، أو لأنه جعل علما عليها وإن لم يذكره فى أسمائها، وتفسير السبع بما ذكر مروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، وإطلاقه عليها مروى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه مع تفسير السبع المثانى بها أيضًا، فإنه روى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قرأ عليه أبى رضى الله تعالى عنه أم القرآن، فقال: «والذى نفسى بيده ما أنزل الله فى التوراة والإنجيل والزبور والفرقان مثلها هى السبع المثانى والقرآن العظيم»(١) فما قيل: إن ما ذكره فى القرآن ضعيف مهجور عقلا ونقلا لا يخفى ما فيه.

(وقيل: السبع المثانى أم القرآن) وعليه أكثر الصحابة والتابعين وهو قول الجمهور من المفسرين، وورد به الحديث الصحيح فى البخارى وغيره كما سمعته آنفا، والمراد على هذا أنها سبع آيات بعد البسملة آية منها أو بعد. ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ آية وما بعدها آية أخرى على الخلاف المشهور، ويأتى أنها إنما سميت مثانى لتثنيتها فى الصلاة وغيره من الوجوه المشهورة. **(والقرآن العظيم)** على هذا التفسير والقول بأنه غير مخصوص بها كما مر.

(سائره) أى جميعه أو باقيه بعد الفاتحة، وفى كتب اللغة أن السائر الباقى مهموز من السؤر وهو البقية أو معتل من السور المحيط فهو بمعنى الجميع، وقد ورد كل منهما فى كلام العرب، وقد أشبعنا الكلام عليه فى شرح درة الغواص، ويأتى له مزيد بيان فى أول الباب الآتى، وقول صاحب القاموس هو الباقى، ووهم الجوهرى فى تفسيره بالجميع ليس بشىء، والواهم ابن أخت خالته وكلام المصنف رحمه الله تعالى يحتملهما، وما قيل من أنه هنا بمعنى الجميع فإنا لا نعلم أحدًا قال إن السبع المثانى أم القرآن والقرآن باقيه ليحمل كلامه عليه، وإن قيل: السبع المثانى الطوال والقرآن العظيم جميعه أمر غريب منه فإنهم متفقون على أن القرآن يطلق على الجميع، وعلى معنى كلى شامل له ولبعضه والعطف قرينة قوية على الثانى، وخصت بالامتنان بها لشرفها وزيادة فضلها وثوابها واشتمالها على المعانى القرآنية إجمالا، فالحاصل أنهم اختلفوا فى السبع فقيل: السور، وقيل: الفاتحة، وعلى التقديرين جوز فى القرآن كونه الفاتحة أو السائر. وفى الصحيح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم: «أم القرآن هى السبع المثانى والقرآن العظيم»

---

(١) أخرجه البخارى (١٠٢/٦)، والبغوى فى شرح السنة (٤٤٥/٤)، والطبرى فى تفسيره (٤٠/١٤).

وفى رواية: «الذى أوتيته» فذهب الأكثرون إلى مقتضاه فى هذه الآية فوصف الفاتحة بوصفين، قيل: والعدول عنه يلزم التكلف فى الحديث، والمصنف رحمه الله تعالى عدل عن الأقوال المعتبرة إلى تقديم قول ضعيف مهجور، يوهم أن القائل بأن السبع هى السور أو الفاتحة جزم فى القرآن بما نقله وليس كذلك، فتأويله بأن مراده نقل ما قيل فى كل مفردًا مفردًا بعيد مع أن اللائق حينئذ نقل ما قيل فى السبع ثم ما قيل فى القرآن فتدبر.

(**وقيل: السبع المثانى**) فى هذه الآية (**ما فى القرآن من أمر ونهى وبشرى وإنذار وضرب مثل وإعداد نعم**) أى المراد بها سبعة معان يشتمل عليها القرآن، والمراد بالأمر الطلب إيجابا أو ندبًا لا صيغة، وإن كان يطلق عليها، والنهى طلب الكف عما يحرم أو يكره على سبيل الاستعلاء.

والبشرى: بضم الباء وكسرها بمعنى البشارة اسم مصدر، والإنذار ضده وهو التخويف منجزًا أو معلقًا، وضرب المثل تشبيه شىء بشىء وهو المراد بالمضرب والمورد، وإعداد النعم بكسر الهمزة أى تهيئتها وجوز فتحها على أنه جمع وعدد وبه جزم البرهان الحلبى، وقال ابن رسلان: إنه الواقع فى النسخ المعتمدة، وكذا قال الدلجى، والعدد بمعنى المعدود أو التعديد، والنعم جمع نعمة بمعنى الإنعام أو المنعم به، والذى عده المصنف رحمه الله ستة، فقيل: إن السابع سقط سهوًا أو من الكاتب.

وأما قوله: (**وآتيناك نبأ القرون**) فقيل: إنه إشارة إلى السابع، ويؤيده قوله فى تاج القراء: والسابع أنباء قرون، والأنباء جمع نبأ وهو الخبر والقصص التى قصها الله تعالى فى القرآن لما فيها من الفوائد كالعبر وتسلية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وحكم شتى، وغير الإسلوب إشارة إلى مغايرته لما قبله تفننا كما قيل به فى حديث: «حبب إلىَّ من دنياكم ثلاث النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة»(١) فإن الثالث ما تضمنه قوله: وجعلت إلخ، وعدل عن الظاهر فى قوله: «وجعلت قرة عينى» إشارة إلى أنه ليس من لذائذ الدنيا المعروفة وإن عد منها، لقوله فيها على ما اختاره ابن فورك وغيره كما بين فى محله الآتى، وليس هذا تفسير للقرآن العظيم ليشمل ما مر وغيره، وارتضاه السيد عيسى ورده بعضهم فقال: ليس هذا إشارة إلى السابع بإرادة نبأ القرون؛ لأن مقتضى النظم حينئذ أن يترك قوله: (**آتيناك**) ليوافق المعطوف الأخير ما قبله فى الأفراد، بل هو إشارة إلى أن القرآن العظيم منصوب بالعطف على سبعا من المثانى، والمعنى: آتيناك القرآن وزاد نبأ بمعنى شأن لتعظيمه، والنبأ يكون بمعنى القرآن كما فسر به فى قوله

---

(١) تقدم تخريجه.

تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١، ٢].

(وقيل: سميت أم القرآن مثانى لأنها تثنى فى كل ركعة) قيل: الأولى ترك الواو لإيهامها أنه قول آخر فى تفسير الآية مع أنه بيان لوجة تسمية الفاتحة مثانى، وكونها سبع آيات تقدم منا بيانه، وفى نسخة: «تثنى كل ركعة» بإسقاط فى ونصبه على الظرفية المجازية، والركعة على ظاهرها، والمراد فى كل ركعة بعد أخرى أو الكل المجموعى، أو المراد بالركعة الصلاة إطلاقًا للجزء على الكل لخروج صلاة الجنازة والمأموم عند أبى حنيفة، لكونهما على خلاف الأصل المتبادر لكماله، والركعة الواحدة لا تسمى صلاة وقد فسر قوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة:٤٣] بصلوا مع المصلين لما مر، والتثنية من جعل الشىء ثانيا كربعتهم وثلثتهم إذا كنت رابعهم أو ثالثهم، أو بمعنى التكرير أو من التثنى بمعنى العطف، قيل: أو لتكرار مضمونها فى القرآن أو هى من الثناء بها أو عليها، وتثنى بضم أوله وفتح ثانيه والتشديد، أو بسكون ثانيه والتخفيف وعليه اقتصر التلمسانى.

(وقيل: بل الله استثناها لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وذخرها) فالمثانى من الاستثناء المعروف وأصله الثنى بمعنى العطف، واستثناها بمعنى ميزها وأخرجها من بقية كلامه، وذخرها بذال وخاء معجمتين وفى نسخة: «ادخرها» بالمهملة المشددة والمعنى واحد فالأصل من الذخر وهو ما يدخر من النفائس، والمراد أنه اختارها أو حفظها و لم يبذلها لغيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولذا قال: **(له)** أى لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم لتنزيلها عليه.

(دون الأنبياء): وروى دون سائر الأنبياء فلم يدخرها ويعطها لغيره لتميزه من بينهم، وفى الحديث: نادى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبيا رضى الله تعالى عنه وهو يصلى، فلما فرغ لحقه فوضع يده على يده وهو يريد الخروج من باب المسجد وقال: «إنى لأرجو أن لا تخرج من المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل الله فى التوراة والإنجيل مثلها» فجعلت أبطئ فى المشى رجاء ذلك، ثم قلت: يا رسول الله، السورة التى وعدتنى؟ فقال: «كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة؟» فقرأت عليه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] إلى آخره، فقال: «هى هذه، وهى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أعطيت»[1]. وبه استدل على خروج البسملة منها وفيه كلام ليس هذا محله، يعنى أنها اشتملت على ما لم يكن فى غيرها، ولها من الفضل وإجابة الدعاء بها ما لم يشاركها فيه غيرها كما ذكره مشايخ الصوفية والخرق، حتى قال ابن برجان فى

---

(١) أخرجه أحمد (٤١٣/٢)، والطبرى فى تفسيره (٤٠/١٤).

تفسيره: لو قيل لك إن أحدًا أحيا بها الموتى فإياك من إنكاره، ومن اطلع على تفسيره فهم ما قلنا، فالاعتراض بأن هذا لا يختص بالفاتحة لوجوده فى سائر السور ساقط.

(**وسمى القرآن مثانى**) أى فى هذه الآية ونحوها دفع لما يتوهم أنه سمى به لما مر أو هو جواب سؤال مقدر. (**لأن القصص**) بكسر القاف جمع قصة وهو الظاهر من القصص وهو الاتباع لاتباع من يحكى الخبر للآثار، وروى بفتحتين كقوله تعالى: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ**﴾ [يوسف:٣] فقوله: (**يثنى فيه**) بالياء التحتية والضمير للقرآن وعلى الأول بالمثناة الفوقية والرواية هنا كما قيل بتشديد النون لا غير، والقصص مطلق الحكاية ويخص فى العرف بحكاية أخبار الأمم السالفة، ومجرد هذه المناسبة كافية فى تسميته مثانى فلا يرد عليه أنه كرر فيه غير القصص كالفرائض والحدود والأمثال، وقد ذكروا هذا وجها لتسمية الطوال مثانى فلعله اقتصر فى كل منهما على وجه ليعلم إجراء كل فى كل يقينا، والقول بأن وجه التخصيص بها أنها مع إعجازها لا يزداد تاليها إلا رغبة فيها وغيرها من القصص لو كرر محبة الطبع، وهذا كلما كررته يحلو كما قال الشاطبى:

وخير جليس لا يمل حديثه وترداده يزداد فيه تجملا

لا يخفى ما فيه، ولك أن تقول: الأحكام لازمة لأمة عظيمة فتكرارها ليتعلموها وتثبت فى حفظهم بخلاف القصص ونحوها من الأمثال، ألا ترى أن الأستاذ يقرر المسئلة مرارًا على الطالب لهذا.

(**وقيل: السبع المثانى**) معناها فى قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي**﴾ [الحجر: ٨٧] إنا (**أكرمناك بسبع كرامات**) هذا مروى عن الإمام جعفر الصادق فأتيناك بمعنى أعطيناك تكريمًا لأنها كالهدية التى ترسل للتكريم، وكان الظاهر أن يقول: سبع أكرمه بها، أو آتيناك بمعنى أكرمناك فالسبع مبتدأ بعده خبر بتقدير مضافين، أى: معنى آتيناك السبع المثانى أكرمناك إلى آخره، أو السبع مبتدأ وقوله الهدى إلى آخره، وقوله أكرمناك جملة معترضة، وقيل: إنه بدل بعض من السبع أو خبر مبتدأ مقدر، وعن الإمام جعفر أنه قال: السر فى هذا أنه ذكر فى هذه السورة لجهنم سبعة أبواب فذكر سبع كرامات إشارة إلى أن من أكرم بها أمن من تلك.

(**الهدى، والنبوة، والرحمة، والشفاعة، والولاية، والتعظيم، والسكينة**): يجوز فيه الحركات الثلاث وهو ظاهر. والهدى: ما هداه الله إليه من المعارف والدين، والمراد بالنبوة نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم الكاملة المختصة به الخاتمة الناسخة لما عداها. والرحمة العامة: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ**﴾ [الأنبياء:١٠٧] أو ما طويت عليه

جبلته والشفاعة العامة والخاصة كما سيأتى، والولاية بفتح الواو وكسرها كما مر ولاية الله له بنصره، أو توليه لجميع أمورهم بحيث صار أولى بهم من أنفسهم، أو الولاية التى هى صفة له كالنبوة والتعظيم، جعل الله إياه أعظم من سائر خلقه فى السكينة الوقار والهيبة بحيث يخافه كل من يراه وهو لا يخاف إلا الله، قيل: تخصيص هذه الأمور وتغايرها مع إمكان اندراج بعضها فى بعض يحتاج لسند ودليل فتدبر.

(**وقال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾** [النحل:٤٤] **الآية**) لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون، وهذا متعلق بالآية المذكورة ومناسبة لما بعدها لدلالتها على عموم الرسالة، إذ لا عهد ولا تقييد أى: لتخبر الناس بالوحى ولا تكتم شيئا منه، أو لتبين لهم ما فيه من التكاليف والشرائع، قيل: أورد فى هذه الآية الإنزال والتنزيل بمعنى، وقد فرق بينهما بأن التنزيل ما كان تدريجيا والإنزال ما كان دفعة واحدة وهذا بحسب الأصل، وقد يرد كل منهما بمعنى الآخر وتفصيله فى شروح الكشاف، ووضع فيه الظاهر موضع المضمر، أى ليبينه إشارة لتغايرهما لأن المنزل لفظه والمبين معانيه وأحكامه، والمعانى منزلة تبعًا لألفاظه ولا حاجة لتقدير مضاف فيه.

(**وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨]**) الكافة مأخوذة من الكف وهو المتع أو الجمع والإحاطة كما قاله الهروى، ومعناه جميعا وتاؤه للمبالغة كعلامة وهى فى الأصل للتأنيث نظرًا للغاية والنهاية، أو الجماعة وهو منصوب على الحالية من المجرور المتأخر أو من الضمير المنصوب، أو هو صفة مصدر قام مقامه أى إرساله كافة، وفى المغنى: إنها تختص بمن يعقل، ووهم الزمخشرى فى جعلها صفة لإرساله، وذكر بعض النحاة أنها تلزم التنكير والحالية، وتبعه الحريرى فجعل تعريفها والإضافة إليها لحن وليس كما قالوا، فإنه سمع بخلافه كما فصلناه فى شرح الدرة، وإنما قدم لتدخل على المقصود حصره، ولو قيل: وما أرسلناك إلا للناس كافة أوهم نفى الإرسال لغير الناس وهو غير صحيح، وقيل: المعنى ما أرسلناك إلا جامعًا للناس بالدعوة وكافًا لهم عن المعاصى، والمراد: جميع بنى آدم أو ما يشمل الجن وإنما خصوا على الأول، لأنهم المقصودون بالذات وليس المراد أهل زمنه كما توهم.

(**وقال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨] الآية**) تقدم ما يعلم منه أنه لا يعترض على ذلك بأن آدم ونوحا كانا مبعوثين إلى أهل الأرض؛ لأنه لم يبق بعد الطوفان إلا من كان مؤمنا معه وهو مرسل إليهم، لأن العموم لم يكن فى أصل بعثته وإنما اتفق لحادث وقع، وأما نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فعموم رسالته من أصل البعثة، وأما كون ثمة رسول الله غيره فى أثناء

مدته فيحتاج إلى النقل، أو المراد بقاء شريعته بحيث لا يطرؤ عليها ناسخ إلى غير ذلك مما فصله ابن حجر فى شرح البخارى. واختلف فى خطاب يا أيها الناس ونحوه هل هو للموجودين ويثبت لمن بعدهم بدليل آخر، كإجماع وقياس ونص آخر، أو للجميع ويدخل فيه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم؟ وإن كان مخاطبًا بقل لأنه يلزمه ما يلزم أمته بطريق الأولى ما لم يعرض له مخصص، ولا حاجة لتخصيص الناس بالمكلفين كما قيل لدخول الصبى فى بعض الأحكام.

(قال الفقيه القاضى) عياض المصنف رحمه الله تعالى **(فهذه)** أى الصفة أو البعثة العامة **(من خصائصه)** صلى الله تعالى عليه وسلم جمع خصيصة وهى ما لم يشاركه فيها غيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام، كما عليه أهل الملة للحديث الآتى، ومر الكلام على بعضه: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلى نصرت بالرعب، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا، وأحلت لى الغنائم، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة»(1) وروى: «عامة» وقد تقدم ما يرد عليه، وجوابه وقوله فيه: «كان النبى» إلخ المراد به الاستغراق لأنه ورد «وكان كل نبى» وهو صريح فيه فلا وجه لقول الإمام: الخاصة مجموع ما ذكر فلا يلزم اختصاص عموم البعثة به صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد وقع مثله للداودى فى شرح السنن، قال ابن حجر رحمه الله تعالى: وهو غفلة عظيمة منه فإنه نظر إلى أول الحديث، وغفل عن آخره فإنه نص على خصوصيته بقوله: «وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة» وما قيل من أنه احتمال بعيد إذ لا يظهر لتخصيص الخمس تارة والأربع الاثنين أخرى جليل فائدة، وغير متجه لأنه إذا سلم عموم رسالة آدم ونوح يكون له فائدة وأى فائدة، وقد وقع بما مر. وقيل: المراد بالناس من فى زمنه إلى يوم القيامة وهذا لم يكن لغيره صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا أمر غير بقاء الشريعة لاعينه كما توهم، أو يقال: هو مبعوث لجميع الناس من قبله ومن بعده بحيث لو أدركه من قبله لزمه اتباعه، أو هو مبعوث إلى الأصناف والأقوام وأصحاب الملل المختلفة وآدم ونوح عليهما الصلاة والسلام ليسا كذلك.

أقول: هذا كلام لا طائل تحته أما رده الأول بأن ما ذكر هو غير بقاء الشريعة فليس بصحيح، لأن مراده البقاء مع العموم ولم يصرح به لظهوره، وأما جوابه الأخير فظاهر الفساد.

---

(١) أخرجه البخارى (١/١١٩)، ومسلم فى المساجد (٣)، وأحمد (٣/٣٠٤، ٥/١٤٨)، والدارمى (٢/٢٢٤)، والبيهقى (١/٢١٢، ٢/٣٢٩، ٤٣٣)، وابن أبى شيبة (١١/٤٣٣)، والحميدى (٩٤٥).

(**وقال الله تعالى:** ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم:٤]) أى إلا بلغة من بعث إليهم. (**ليبين لهم**) ما بعث به إليهم، وأما نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فبعث إلى قومه وغيرهم من جميع الأمم كما عرفته. (**فخصهم بقومهم وبعث محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الخلق كافة**) الإنس والجن والملك كما سيأتى تحقيقه، وقيل: كلامه يقتضى أن غير نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم مبعوث بلسان من بعث إليه، ونبينا صلى الله تعالى عليه وسلم بعث إلى الخلق فيخص الرسول بغيره وهو مخالف للظاهر ولما عليه المفسرون، ويقابله على غير النهج المعروف مع أنه شامل لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، أيضًا فإن لسانه عربى وكتابه عربى ليأخذه عنه قومه بغير واسطة وينقل نقلا مستفيضا، ولا دلالة فيه على تخصيص بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام بقومهم، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وإن أرسل إلى الناس كافة يكون لسانه وكتابه واحدا لا ينافيه لفهم معانيه لغير قومه بالترجمة، ولو أتى بغير لغته فات إعجازه المقصود منه، وأجيب عنه بأنه معطوف على قال الأخير ناظرًا إليه مبينا لضعفه، فإنه فسر بما ذكر كما نقل عن تفسير تاج القراء وفيه بحث.

(**كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم**) فيما رواه البخارى وأحمد والبيهقى (**بعثت إلى الأحمر والأسود**) أى العرب وغيرهم أو الإنس والجن كما مر.

(**وقال الله تعالى:** ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [**الأحزاب:٦**]) يدخل فيه النساء على ما بين فى الأصول، لأنهم تبع لهم فى الأحكام فيدخلون بالتغليب إن ذهب بعضهم إلى أنهن لا يدخلن فى مثله إلا بدليل وقرينة، لظهور أنهن يعلمن بالطريق الأولى إلا أن قوله: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب:٦] مرجع الضمير فيه لذكور المؤمنين فقط لأن المراد تحريم نكاحهن وهو خاص بالذكور ولذا لم يسمع أمهات المؤمنات.

وقيل: إنه عام أيضًا وهن أمهات للمؤمنين والمؤمنات، واقتصر على الأول واكتفى به لأنه الأهم الأشرف فيجوز إطلاقه عليهن أيضًا. وقوله: ﴿مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب:٦] المراد به ذواتهم وأزواجهم، يعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مقدم عند كل أحد على نفسه، وليس المراد أنه أولى من بعضهم ببعض فى نفوذ حكمه وطاعته كما قيل فى قوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النور: ٦١] أى ليسلم بعضكم على بعض، وإن جاز فإن الأول أبلغ فيما ذكر، وهذا معنى ما قيل: ﴿أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٦] فيما قضى فيهم كما أنك أولى بعبدك فيما قضيت وهو قريب من قول المصنف رحمه الله.

(**قال أهل التفسير: أولى بالمؤمنين من أنفسهم أى فيما أنفذه فيهم فهو ماض عليهم كما يمضى حكم السيد على عبده**) فيفعل ما يأمره به ويختاره على ما يريده ويختاره

لنفسه، فكان أحق بكل أحد من نفسه، ومضى الحكم بمعنى نفاذه وجريانه، وهذا معنى اشتهر حتى صار حقيقة من مضى السيف أو السهم، وأصل معنى المضى الذهاب وأولى بمعنى أحق، وقيل: إنه من الولاية والتسلط وإنما ذكر مبنيا على قول العرب السيد أولى بعبده من نفسه، أى: نافذ فيه حكمه فحمل الآية عليه مجازًا أو كناية، وروى أن سبب نزول هذه الآية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما أمر الناس بالخروج لغزوة تبوك قال قوم: نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت، أى طاعة الرسول أوجب عليكم من طاعة آبائكم وأمهاتكم وأنفسكم، وليس فيه تأييد للتفسير الثانى كما توهم.

(وقيل: اتباع رأيه أولى من اتباع رأى النفس) هذا مروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بالمعنى، فالأولى هنا بمعنى أولوية اتباعه، وقيل: أولوية محبته، وقيل: معناه أرأف وأعطف، والأحسن ما فى الكشاف من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أولى بهم فى جميع أمور الدين والدنيا من غيره فإنه سبب حياتهم الأبدية. وفى البخارى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة، اقرءوا إن شئتم ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ » [الأحزاب: ٦] الآية، «فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبه، فإن ترك دينا أو ضياعا فليأتنى فأنا مولاه». قال القرطبى: هذا تفسير الولاية ولا عطر بعد عروس، والظاهر كما قيل إنه تفريع على الأولوية العامة لا تفسير فلا ينافى ما سبق، وفيه إشارة إلى أن مقتضى الأولوية أن يراعى فى جانب الرسول أيضًا ومعاملته معهم، فينفعهم أكثر من نفعهم لهم حيث رد على الورثة المنافع وتحمل المضار والتبعات فافهم.

(و) قوله **(وأزواجه أمهاتهم أى هن)** وفى نسخة «هم» وهو سهو، وكونه للفظ الأزواج لا وجه له، أى كالأمهات فى التعظيم وحرمة النكاح لا الإرث والنفقة والنظر والخلوة لآية الحجاب، ولا يقال لبناتهن أخوات على ما يأتى، وفى كونهن أمهات المؤمنات قولان تقدمت الإشارة إليهما قريبا.

وإلى ما ذكر أشار بقوله: **(فى الحرمة كالأمهات حرم نكاحهن عليهم بعده)** أى بعد نكاحه أو بعد وفاته صلى الله تعالى عليه وسلم كما سيأتى، واختلف فيمن طلقها قبل الدخول أو أكثر على ما سيأتى على قولين، فجوزه كثير من الشافعية وبه قضى عمر رضى الله تعالى عنه.

(تكرمه له وخصوصية) بضم الخاء وفتحها أى: هو مخصوص به صلى الله تعالى عليه وسلم دون غيره من الأمة، فما يقع لبعض جهلة الصوفية من منع تزوج المريد زوجة شيخه جهل منهم وترك أدب، والمراد بالحرمة حرمة النكاح أى تحريمه لقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ اللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]. وفى خصائص الإمام الخيضرى: اختلف فى تعليل ذلك فقيل: لأنهن أمهات المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، أى مثل أمهاتهم فى وجوب احترامهن وطاعتهن، وقيل: لما فى إحلالهن لغيره صلى الله تعالى عليه وسلم من النقص لمنصبه الشريف. وقيل: لأنهن أزواجه صلى الله تعالى عليه وسلم فى الجنة كما ذكره غير واحد من المفسرين والفقهاء؛ لأن المرأة فى الآخرة لآخر أزواجها فى الدنيا كما قاله القشيرى وورد به التصريح فى الحديث. وقيل: لأجل أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، حى، ولذا حكى الماوردى أنه لا تجب عليهن عدة الوفاة. واختلف فيمن فارقها فى حياته صلى الله تعالى عليه وسلم كالمستعيذة على أقوال ثلاثة:

أحدها: وهو مروى عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، أنها تحرم، فالتقدير من بعد نكاحه لوجوب محبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وزوج المرأة الثانى يكره الأول فيؤدى لكفره. قال النووى رحمه الله تعالى: وهو الأرجح والأشبه بظاهر القرآن.

الثانى: أنها لا تحرم فالبعدية مخصوصة بما بعد الموت.

والثالث: أنه يحرم المدخول بها دون غيرها.

وكذا اختلف فى الأمة الموطوءة له صلى الله تعالى عليه وسلم بغير نكاح على ثلاث أوجه؛ فقيل: لا تحل لغيره كمارية رضى الله عنها. وقيل: تحل فإنها لم تسم أم المؤمنين لنقصها بالرق وأمومتهن لا تتعدى، فلا يقال لبناتهن أخوات ولا لإخوانهن أخوال، فلا يقال معاوية رضى الله عنه خال المؤمنين وفيه خلاف أيضًا، وأما كون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أبا للمؤمنين فقال الواحدى: لا يسمى به لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠] والقراءة به منسوخة لفظا ومعنى. وقيل: يجوز والمنفى الإبوة الحقيقية. انتهى. ويأتى هذا الأخير فى قوله: وقد روى فما قيل الحرمة للاحترام فيشمل التعظيم وعدم الإيذاء وحرمة النكاح، فإن فيه ذلا واكتفى بحرمة النكاح لأنه مقصود ومخصوص بهن.

وقال ابن كثير: لا يقال لهن أمهات النساء لعدم العلة فيهن وهى حرمة النكاح. ورجح ابن حجر جوازه. وقول القرطبى: الظاهر التعميم إذ لا يختص بالرجال مرفوع بما ذكر، فإن أريد التشبيه فى التعظيم فلا منع وإلا فلا إنه يوهم أنه مراده فى الآية كلام غير محرر لما سمعته آنفا.

وقوله: **(ولأنهن له)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(أزواج فى الآخرة)** أحد الأقوال فى

الآية كما عرفته، والأمهات جمع أم، قيل: أصلها أمهة ولذا تجمع على أمهات، وأجيب بزيادة الهاء وأن الأصل أمات للفرق ويأتى لذلك مزيد بيان، والوجه ما فى البارع أن فيها أربع لغات؛ أم بضم الهمزة وكسرها، وأمه، وأمهة، فالأمهات والأمات لغتان ليست إحداهما أصلا للأخرى، ولا حاجة إلى دعوى حذف ولا زيادة كما فى المصباح.

(**وقد روى هو أب لهم**) أى قرئ به فى الشواذ وهى على وجهين؛ فقرأ ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم» وهو صلى الله تعالى عليه وسلم أب لهم بدون أزواجه أمهاتهم، وقرأ أبى رضى الله عنه: «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم»، فجمع بينهما، فقول بعض الشراح قرأها أبى وابن عباس رضى الله تعالى عنهما من غير تمييز بين القراءتين خلط موهم وقد علمت الكلام فيه، وإبوته صلى الله تعالى عليه وسلم برأفته ورحمته لهم أو لكون أزواجه أمهاتهم، أو لكونه سبب حياتهم الحقيقية الأبدية كما مر.

وفى سنن أبى داود: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم»(١).

(و) حكم الشاذ أنه (**لا يقرأ به الآن لمخالفته المصحف**): وروى أن عمر رضى الله تعالى عنه مر بغلام يقرأها فقال للغلام: «حكه من المصحف» والمراد بالمصحف مصحف عثمان رضى الله تعالى عنه، المتواتر بالإجماع ومخالفته أيضًا بعدم تواتره ونسخ تلاوته ولفظه ومعناه على قول كما مر. قيل: وإنما نسخ لئلا يوهم حرمة زوجة الولد فتأمل. وقول التجانى إنهم أجمعوا على أن قراءة أبى رضى الله تعالى عنه المذكورة مما نسخ من القرآن، مع أن مضمونه خبر مجمع على أنه لا يصح نسخه ليس بشىء، لأن فى نسخ الخبر خلاف مقرر فى الأصول، ولو سلم فيلزمه أحكام يصح نسخها كتلاوته وتسميته به وجواز الصلاة به.

(**وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] الآية**) **﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾**. والكتاب القرآن والحكمة الشريعة والمواعظ والسنة كما مر. وهذا كقوله تعالى فى سورة اقرأ: **﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾** [العلق:٥] ولما كان التعليم إنما يحصل به ما لم يعلم ورد السؤال على الآيتين والفرق بينهما، فقيل: المراد بما لم تعلم ما لا يقدر على علمه من الخفايا أو مما لم يتصوره ولم يكن مطلوبًا لك فيفيد ذكر المفعول، وقيل: لو قيل ما لم تعلم أى ما كان مجهولاً لك أفاد فائدة تامة حسنة لدلالته على إشراق نور العلم ورفع ظلمة الجهل، أو المراد ما

---

(١) تقدم تخريجه.

لم تعلمه بقوة نفسك واجتهادك. وأما ذكر الكون فى آية النساء دون آية اقرأ لاسيما إذا أريد بالإنسان نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فقط؛ فلأن الثانية وردت فى مقام خال عن اعتبار القوة والاجتهاد فلا يناسبه ذكر الكون والأولى وردت فيه.

أقول: هذا السؤال غير وارد أصلا رأسا، ولذا لم يعتن به جهابذة المفسرين كالزمخشرى، إلا أنا نقول فى تحقيقه: إن نفى الكون أبلغ من نفى الشىء نفسه، فإن الثانى يصدق بما بقى على عدمه الأصلى ولم يشمل رائحة الوجود، والثانى يشمله، وما عدم بعد وجوده والأول أبلغ، ولما كان المنفى علمه أولا علمه بالدين والحكم والوحى، ونحوه مما لم يتيسر لمن شاء فى أمة أمية ولا يمكن بغير عناية إلهية، أشار فى الأول إلى أن انتفاءه عنه أمر محقق مقرر قوى فأكده بذكر الكون، ولذا امتن به عليه وجعله فضلا عظيما، ولما كان الثانى قابل الوجود متيسر الكسب؛ لأن الإنسان قابل للقراءة والعلم وصنعة الكتابة لم يؤكده لأن انتفاءه أمر اتفاقى، وأما الفائدة فى المفعول فظاهرة إذ ليس المراد بها أمرًا ما بل أمرًا عظيمًا معلومًا بخصوصه مما قبله، وإنما أبهم ليدل على عظمته كما فى قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم:١٠] فلا حاجة لقوله فى عروس الأفراح، إنما ذكر لأنه أوضح فى الامتنان وإلا فلا فائدة فيه. وفى بعض حواشى المطول نقلا عن السعد رحمه الله تعالى أنه قال فى درسه: إن الأولى بصاحب التلخيص أن يقول ما لم نكن نعلم كما فى قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء:١١٣] وإلا فلا فائدة فى ذكره، لأن التعليم إنما يكون لما لم يعلم؛ لأن ما لم تكن تعلم فيه إشعار بأنه لولا تعليمه لم يحصل العلم به، لأنه علم خفى لا يمكن الإحاطة به إلا لعلام الغيوب وهو بعيد، إذ ربما يتوهم أنه يحصل العلم به من غير تعليمه له تعالى، ورد بأنه مثل الآية فذكره لإفادة العموم، كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٣٨] إلى آخره، وبما قررناه لك تبين أنه كلام قشرى ولنا عودة إلى بيان ذلك عند إعادة المصنف الآية.

(**قيل: فضله العظيم**) فى هذه الآية (**بالنبوة**) مطلقًا فإنها أعظم النعم التى تفضل بها أو بنبوته الخاصة به الكاملة.

(**وقيل: بما سبق له فى الأزل**) الأزل مولد وهو القدم والوجود الذى لا أول له، قال فى المجمل: الأزل القديم: ويقال: هو أزلى والكلمة ليست مشهورة فى كلام العرب، وأحسب أنهم قالوا فى القديم لم يزل ثم نسب إليه فلم يستقم إلا باختصار. وقالوا: يزلى ثم أبدلوا الياء الفا، وقيل: الأزل اسم لما يضيق القلب عن بدايته من الأزل وهو الضيق فهمزته أصلية، والمراد بما سبق للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى علمه وتقديره

من كل ما أعطاه إلى الأبد، فيعم جميع ما أنعم الله به عليه إذ لا مخصص. وقيل: المراد ما أعطاه له وسبقه باعتبار تقديره ففيه مضاف مقدر وهو تقدير، وعلى الأول الامتنان بالتقدير صريحًا والقدر ضمنا لعدم تخلفه عنه، ولفظة فى مثله تدل على الأزلية فى حق الله تعالى كما صرحوا به.

(وأشار الواسطى) رحمه الله تعالى تقدم ذكره وترجمته والإشارة فى اللغة الإيماء إلى الشىء بغير نطق ويكون فى كلام المصنفين مقابلة للتصريح، والمراد هنا مطلق الذكر وعبر به مشاكله لما بعده.

(إلى إنها إشارة إلى احتمال الرؤية) وضمير إنها للآية، وقيل: الكلمة الفضل، والاحتمال فسر بالطاقة والقدرة على رؤية الله تعالى ومشاهدته ليلة المعراج على قول من قطع أنه رآه ببصره، ولما كانت هذه من أجل الفضائل وأخصها به حمل الفضل عليها وإن كان فيها الاختلاف، إلا أنها لما كانت عند المصنف رحمه الله تعالى راجحة لم يلتفت للخلاف، فلا يرد عليه أنه تفسير للمقطوع به بالمحتمل، فالاعتراض على الواسطى رحمه الله تعالى بأنه لا دلالة فى النظم على ما ذكره غير متجه، وحمل الرؤية على القلبية التامة يأباه ظاهر قوله.

(التى لم يحتملها موسى) بن عمران عليه الصلاة والسلام حيث قال: ﴿**لن ترانى**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ**﴾ [الأعراف: ١٤٣] وموسى ممنوع من الصرف للعجمة والعلمية وأصله كما قيل موشى فغير، وهو بالعبرانية مركب من مو وهو الماء وشا وهو الشجر، فسمى به لأن أمه ألقته فى ماء النيل فى صندوق من خشب الشجر، والقول بأنه من ماس يميس إذا تبختر، ومنع صرفه لألف التأنيث بعيد جدًا، وأما موسى بمعنى آلة الحلق فعربى فى وزنه اختلاف عندهم، وفى معربات الجواليقى أن موسى لم يسم به أحد من العرب قبل الإسلام وبعده، سمى به تبركًا بأسماء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. قال التجانى: أكثر المفسرين على أن الفضل العظيم عصمة الله للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن أن يضله أحد من الكفرة لقوله تعالى قبله: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْۖ**﴾ [النساء:١١٣] وهذا آخر الباب الأول فالحمد لله على تيسير شرحه والنظر فى حقائقه ودقائقه الرائقة. وشفاء غليل الصدر من موارد فضائل سيد الخلق الفائقة. وأنا أرجو ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم ويمن صفاته أن يشرح صدرنا وييسر أمرنا ويفيض علينا من بركاته صلى الله تعالى عليه وسلم أمين.

* * *

[الباب الثانى: فى تكميل الله سبحانه وتعالى له ﷺ المحاسن خَلْقا وخُلقا وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نسقا]

(الباب الثانى: فى تكميل الله سبحانه وتعالى له صلى الله تعالى عليه وسلم المحاسن) جمع حسن على خلاف القياس أو جمع مفرد مقدر لم يسمع كما تقدم، والحسن المحسوس تناسب الأعضاء وكونها على صورتها الأصلية مع صفاء البشرة واعتدال القامة. وفى ذكر التكميل إشارة إلى أن النوع البشرى مخلوق على الكمال فى أحسن تقويم، وصورة هذا الحبيب صلى الله تعالى عليه وسلم وسيرته فى غاية الكمال، وكون النوع أحسن لا ينافى التفاضل والتفاوت بين أفراده حتى ذهب بعض الحكماء إلى أن كل فرد منه ماهية مستقلة.

(خلقا) بفتح الخاء وسكون اللام وتقدمه لتقدمه على ما بعده فى الوجود وهو منصوب على التمييز، أى من جهة المخلوقية وليس بمعنى المخلوق كما توهم، وخلقه صلى الله تعالى عليه وسلم على أحسن ما يكون كما قال فيه أبو العباس الإشبيلى الواعظ رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته:

من أنت محبوبه من ذا يغيره ومن صفوت له من ذا يكدره
هيهات عنك ملاح الناس تشغلنى والكل أعراض حسن أنت جوهره

(وخلقا) بضم الخاء واللام وتسكن تخفيفًا، وهو فى الأصل الطبيعة والجبلة ويطلق على الصفات المعنوية الراسخة فى النفس، وهو للنفس والصورة الباطنة وأوصافها بمنزلة الخلق للصورة وترتب الثواب والعقاب على هذه. وقال الراغب: هما فى الأصل بمعنى وخص المفتوح بالهيئة والصورة المدركة بالبصر، والمضموم بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة، وهو كيفية راسخة فى النفس تقتضى سهولة صدور الأفعال عنها من غير احتياج لفكر وروية، ويطلق على ما يترتب على تلك الكيفية، ويخص فى العرف بما يتعلق بمعاشرة الناس كما سيأتى. وقال الآمدى رحمه الله فى كتاب «الموازنة»: جمال الوجه وحسنه مما يتمدح به؛ لأنه يتمين به ويدل على الخصال الممدوحة ويزيد فى الهيئة والذمامة يذم بها لعكس ذلك، وقد غلط فيه من توهم أنه لا يدخل فى مدح العظماء انتهى.

قلت: وقد أشار إلى هذا فى الحديث الشريف بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم:

«اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه» ولله در الصرصرى رحمه الله تعالى فى قوله:

ألا يـا رسـول الإلـه الـذى هدانـا بـه الله مـن كـل تيـه
سمعنـا حديثًـا مـن المسـندات يسـر فـؤاد النبيـل النبيـه
وإنـك قلـت اطلبـوا الحوائـ ـج عنـد حسـان الوجـوه
ولم أر أحسن من وجهك الـ كريم فجدلى بمـا أرتجيـه

فإن قلت: قول الراغب رحمه الله تعالى أن هذين المصدرين وضعا للهيئة ينافيه قول النحاة أن الهيئة والمصادر يعبر عنها بفعلة بكسر الفاء كالجلسة.

قلت: لا منافاة بينهما فإن الهيئة التى ذكرها النحاة هى الهيئة العارضة فى الأفعال كالخلقية.

(**وقرانه**) بكسر القاف كما علم مما مر مجرور معطوف على تكميل أى جمعه. (**جميع الفضائل الدينية**) الممكنة اللائقة به والدينية المتعلقة بدين الإسلام. (**والدنيوية**) المنسوبة للدنيا المعروفة، وفيه وفى أمثاله مما رابعه ألف تأنيث كحبلى إذا نسب إليه ثلاث لغات دنيى ودنيوى ودنياوى كما فصل فى كتب العربية. (**فيه نسقا**) حال من قرانه، أى قرن الفضائل فيه متناسبة منتظمة، وفسرها التلمسانى بتبعا ولا وجه له، وقد تقدم الكلام فيه.

(**اعلم أيها المحب لهذا النبى الكريم**) اعلم دأب المصنفين كما تقدم أنهم يأتون به فى ابتداء الكلام لتنبيه السامع وتنشيطه لاهتمامه بما يلقونه له، والمخاطب به من سأله تأليف هذا الكتاب، أو كل سامع، فهو عام لكل من يصلح لخطابه، وكونه خطابًا لنفسه على التجريد بعيد مع مخالفته لدأبهم. والكريم الشريف العظيم أو الجواد. (**الباحث**) أى الطالب المتفحص عما خفى؛ لأن أصله كما قاله التلمسانى الحافر للتراب لشىء تحته. (**عن تفاصيل جمل قدره العظيم**) جمع تفصيل المصدر تفعيل من الفصل وهو تمييز الشىء وإفرازه عن غيره، ثم استعمل فى تبيين كل أمر باستيفاء أفراده وتوضيحها، ويطلق على المبين نفسه، وجمل جمع جملة وهو الأمر المجموع فى عبارة مختصرة فهو بمعنى الإجمال، فما قيل إن المشهور فى مقابل التفصيل والمفصل الإجمال، والمجمل، فاللائق إجمالات أو مجملات قدره، إلا أن يريد بالجمل المجمل وهو ما اشتمل على متعدد بلا تمييز لا وجه له، وقدر بالسكون والفتح مقدار الشىء ومماثلته وحرمته ووقاره كما فى المصباح، ومنهم من فسره هنا بمبلغه من الكمال والمرتبة، والمراد تفصيل ما جمع من أنواع صفاته صلى الله تعالى عليه وسلم كعلمه وحلمه.

(أن خصال الجمال والكمال فى البشر) وفى أكثر النسخ: «الجلال» بلامين وأن وما معها مفعول اعلم، والخصال: جمع خصلة وهى الصفة المعتادة محسوسة كانت أم لا. والجلال: العظمة. والجمال: ما يستحسن. والكمال: التمام فيما يفضل به الشىء على غيره، وخص البشر لأن مجموع ما ذكر مختص به، ولأن المقصود بيان حاله وقد تقدم عن الأصمعى أن الجلال لا يجوز أن يوصف به غير الله و لم يسمع فى غيره، وخالفه فيه أكثر أهل اللغة لوروده فى كلامهم كقول هدبة[1]:

فلا ذا جلال هِبْنَهُ كجلاله ولا ذا ضياع هن يتركن للفقر

(نوعان) منحصرة فيهما وإن توهم كثير من الشراح أنها أربعة؛ لأنها إما ضرورية أو كسبية وكل منهما إما دنيوى أو أخروى، حتى اعتذر عنه بعضهم بأنها قضية مهملة فى قوة الجزئية، فالمراد بعضها الغالب فيها وهذا ناشئ من عدم تدبر كلامه فإنها كانت أربعة، إلا أنها فى الواقع لا تخلو من نوعين عنده، لأن الدينى منسوب للدين وهو وضع إلهى سائق لهم باختيارهم إلى ما هو محمود فلا يكون ضرورة. والدنيوى لا يعد منه من صفات الكمال إلا ما كان جبليا أو ملحقا به وما عداه غير معتد به فسقط منه قسمان، وسيأتى معنى الإلحاق وتحقيقه، والمراد بالنوع القسم لا النوع المنطقى.

أحدهما: **(ضرورى)** منسوب للضرورة وهى هنا أعم من شدة الحاجة ومن عدم الاختيار، وليس المراد به ما يقابل النظرى كما توهم، فإن الضرورة لها معان منها هذا.

(دنيوى) لا يتعلق به ثواب وكمال أخروى من حيث هو.

(اقتضته الجبلة) قال التلمسانى: اقتضته بمعنى دعت إليه والمقتضى والداعى والسبب بمعنى واحد، قيل: ظاهره أن الطباع أسباب للخصال ودون إثباته خرط القتاد وفيه ميل لمذاق الحكماء، والمراد أن الله تعالى خلقه فيه من غير اختيار، وعبر بالاقتضاء على طريق الافتنان وهذه دقة فى غير محلها، لأن الجبلة ما جبله الله عليه وخلقه فمأله لما ذكره من غير دندنة. قال البرهان الحلبى: الجبلة الخلقة قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٨٤] والمطبوع على الشىء لا يتحول عنه كالجبل، والمراد جبلته صلى الله تعالى عليه وسلم أو جبلة ما يتعلق به كأرضه وقومه، وفى الجبلة لغات ذكرها الصاغانى فى كتاب «العادة» بضمتين مشدد اللام، وجبيلة بزنة فعيلة وجبلة بتثليث الجيم وسكون الباء وجبلة بكسرهما مع التشديد.

(١) البيت من الطويل، وهو لهدبة بن الخشرم فى ديوانه (ص٩٧)، خزانة الأدب (٩/٣٣٧)، شرح أبيات سيبويه (١/٨١)، الكتاب (١/١٤٥)، لسان العرب (٥/٧٤)، وبلا نسبة فى الرد على النحاة (ص١١٣)، شرح المفضل (٢/٣٧).

(وضرورة الحياة الدنيا) قيل: إنه عطف تفسير، والمراد بما اقتضته الجبلة ما لا يمكن الحياة بدونه، الأظهر أنه قسم آخر للضرورى الدنيوى لم يقتضه، ولا يرد عليه أنه ينبغى عطفه بأو لأن العطف فى التقسيم بالواو كثير لاجتماع الأقسام فى مقسمها.

(ومكتسب دينى) أخروى حصل له فى حياته بعد أن لم يكن حاصلاً، قيل: إنه شامل لما هو بجهده وهو وهبى فيشمل النبوة، وليس على ظهره لينضبط ويلتئم ولا يخفى ما فيه.

(وهو) قيل: إنه عائد على مطلق الدينى. **(ما يحمد)** شرعا وعقلا. **(فاعله)** وهو من اتصف به. **(ويقرب إلى الله زلفى)** مصدر بمعنى قربه مؤكد ليقرب كقعدت جلوسا، لأنه أمر دينى يعد عبادة يثاب عليها ما لم يعرض له ما يفسده أو بغير نية فاعله كالرياء، وبقى قسمان آخران؛ الدنيوى المكتسب والدينى الضرورى وقد تقدم الكلام عليهما.

(ثم هى) أى خصال الجمال والجلال والكمال جميعها لا بعضها، والجملة معطوفة على ما قبلها عطف القصة بثم للبعد الرتبى، لأن الأول تقسيم حقيقى وهذا اعتبارى. **(على فنين أيضًا)** أى على ضربين ووجهين آخرين، كما أنها على قسمين بحسب القسمة الأولى، وجعله بعضهم تقسيمًا للمكتسب الدينى ويأباه قوله المحض الآتى.

(منها) أى من تلك الخصال. **(ما يتخلص)** أى يصير خالصًا غير مختلط بغيره **(لأحد الوصفين)** أى: الضرورة والكسب المفهومين من التقسيم السابق لا الضرورة الدنيوية. والكسب الدينى وهو تقسيم لمطلق الكمال سواء كان فى واحد من الأنواع السابقة أو أكثر.

(ومنها ما يتمازج ولا يتداخل) التمازج والتداخل والخلط معان متقاربة وقد يراد بكل منها الآخر، إلا أن أصل المزج خلط بعض المائعات ببعضها بحيث لا يمكن تمييز بعضه من بعض كالماء والخل، ومنه مزاج الإنسان، والتداخل أعم منه لأنه دخول أجزاء شىء فى آخر مائعًا كان أم لا، يمكن تمييزه أم لا، والاختلاط أعم منهما لأنه وجود أمور مع أمور تداخلت أم لا كاختلاط قوم بقوم، ومراده بالتمازج وجود الوصفين فى شىء، ولما كان أمرًا معنويا لا امتياز فيه حسا عبر به، ثم عطف عليه لدخول بعض الأنواع فى بعض، والتفاعل فيه على حقيقته، فالمعطوفان متغايران، وقيل: المعنى أن يختلط الكسب بالضرورة ويدخل كل منهما فى الآخر، والتفاعل لأصل الفعل أو هو على ظاهره وبينهما عموم وجهى، والممتزج ما كان أصله جبليا وكماله كسبيا، أو نوع يكون تارة كسبيا وتارة جبليا.

وقال التلمساني: التمازج والتداخل بمعنى واحد والكلام يفسر بعضه بعضا. وذلك توسع كما قرره الشارح. وقال ابن سيدى الحسن: يتمازج أى يختلط ومزج خلط، لكن المزج جعل الاثنين واحدًا لأجل التشابه فى الصورة، ولا كذلك الخلط فهو مثله أو خلافه، وكل مزج خلط وليس كل خلط مزجا، والتداخل دخول بعض الشىء فى الشىء وهو تفاعل. ومعنى الامتزاج أن يكون الشىء الخارج فى شدة تمكنه كالأصل لا يمتاز عنه، ومعنى التداخل أن يمتاز الفرع عن الأصل، لكن يقرب شبهه منه فيكون كالأصل فهذا هو التداخل هنا. انتهى. وكل هذا خلط أنت غنى عنه بما مر.

(**فأما الضرورى المحض**) أى الخالص الذى لم يخالطه غيره ولا دخل لكسبه فيه واختاره، فليس دينيا كما أشار إليه بقوله: (**فما ليس للمرء**) بفتح الميم وسكون الراء والهمزة بمعنى الإنسان. (**فيه اختيار ولا اكتساب**): الاختيار هنا مقابل الاضطرار، قيل: اصطلاح لأهل المعقول وأصل معناه لغة فعل ما هو خير، كما قال الله تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ**﴾ [القصص:٦٨] فيحصل له سواء أراده أم لا من غير كسب وأسباب عادية، ثم مثل له بعد ما فسره توضيحا له فقال: (**مثل ما كان فى جبلته**) أى فطرته التى فطره الله عليها.

(**من كمال خلقته**) وإيجاد أجزاء بدنه تامة معتدلة المقادير، وقيل: كان الأحسن أن يقول ما فى جبلته من الكمال، إذ الجبلة هى الخلقة كما تقدم وهو أمر سهل. (**وجمال صورته**) أى حسن صورته الظاهرة فى جسده بتناسب أعضائه وصفاء واعتدال قده، وقيل: المراد حسن وجهه. (**وقوة عقله**) وهو نور أو قوة أودعه الله فى الإنسان يميز به بين الأشياء، وله تفاسير أخر كالعلم والعلوم الضرورية، وهل محله القلب أو الدماغ؟ قولان؛ وسيأتى بيان ذلك وأصل معناه المنع، ومنه العقال لمنعه عما لا يليق كما قال:

قد عقلنا والعقل أى وثاق وصبرنا والصبر مر المذاق(١)

(**وصحة فهمه**) أى إدراكه المعلومات بسرعة وإضافة القوة للعقل بيانية، وفى إضافة القوة للعقل والصحة للفهم غاية المناسبة.

(**وفصاحة لسانه**) الفصاحة لغة واصطلاحا مشهورة ويوصف بها المفرد والكلام، فيقال: كلام فصيح، والمتكلم كما يقال خطيب فصيح واللسان يطلق على الجارحة المعروفة وعلى اللغة، ويصح إرادة كل منهما هنا، والمراد فصاحة نفسه لا أن المراد باللسان الذات ولا بالفصاحة عدم اللكنة، وما قيل من أن الفصاحة جبلية تتكامل

---

(١) البيت من الخفيف، وهو بلا نسبة فى تاج العروس (عقل).

بمباشرة الأسباب فهى من الممتزج، إلا أن يريد القدر السليقى منها كما فى الأخلاق الآتية، وإطلاقه يقتضى أنها ضرورية محضة، فإما أنه لم يعتد بالمكتسب منها أو للتقسيم لما ذكر مطلقا، أو الأسباب إنما ترفع الموانع عن القوة ولا تزيدها، وإن كان هذا بعيدًا جدًا كلام ناشئ من عدم معرفة الدخيل من الناشئ.

(وقوة حواسه) المراد: الحواس الخمس الظاهرة من السمع وأخواته لا الباطنة، فإن أهل الشرع لم يثبتوها و لم ينفوها وقوتها بزيادة إحساسها وسلامتها عن الآفات واعتدالها.

(وأعضائه) جمع عضو بضم العين وكسرها وسكون الضاد المعجمة، وهى أجزاء البدن التى يزاول بها الأعمال ونحوها كاليد والرجل، وبقوتها تتم أعماله وما به كماله كما قيل ليس فى الإنسان جارحة أحب إلى الله تعالى من اللسان لنطقه بتوحيده.

(واعتدال حركاته) الاعتدال: قيل: إنه وقوعها بين الإفراط والتفريط فى السرعة.

وقيل: سلامتها عن الآفات. والمراد كونها على نهج قويم، حيث جعل فى كل عضو أعصابًا وعضلا يتحرك جميعها فردًا فردًا، كالرأس والظهر والكف والأصابع والزند، وهكذا الجيد ينحنى ويمسك ويطلق ويقعد ويلتفت إلى غير ذلك مما ليس فى غيره، فقدرته على ذلك ومنشأه ليس باختياره فى الحقيقة، والحركة ضد السكون لا الحركات الفكرية، ولا الأعم منها، ولا الحركة فى النحو والكم ونحوه مما ذكر فى الحركة لبعده عن مقاصد المصنف رحمه الله تعالى، فإذا أريد باعتدالها سلامتها أو المعنى الآخر باعتبار منشئه ومبدئه، لم يشكل بأنها أمور كسبية اختيارية فلا يصح ذكرها هنا، إلا أن يقال: إنها لم تذكر قصدًا، بل تبعًا لقوة الأعضاء وهو بعيد.

وما قيل من أنه لو أريد مطلق الانتقال من حال إلى حال لم يبعد، والحركة وإن كانت كسبية يجوز أن لا تكون صفاتها بالاختيار لجواز أن يغفل عنها، وفى الجبلة أن يؤتى بها على ما ينبغى، فهذا الاعتدال غير صادر بالاختيار عند المحققين، وكذا الملكة المقتضية لها قريب مما قلناه.

(وشرف نسبه) أى: شرفه الحاصل له بسبب نسبه فإنه صفة لم تحصل باختياره إلا أن تسميته جبلة تسمح، أو على التغليب ومثله بعيد، والشرف والمجد بالآباء والحسب به وبآبائه معا كما قاله ابن السكيت، ولا شك أن نسبه صلى الله تعالى عليه وسلم أشرف الأنساب لما فى سلسلته من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وصميم قريش، ومثله يدعو لعلو الهمم وتوقى سفساف الأمور لاسيما إذا انضم لشرف الذات الذى لا يساويه

غيره، كما قال ابن الرومى[(١)]:

كم من أب قد علا بابن ذوى شرف كما علت برسول الله عدنان

(وعزة قومه) القوم الجماعة إذا أضيف لأحد كانوا معه مجتمعين فى أب. **(وكرم أرضه)** التى هى موطنه ومولده وهى من أحب البلاد إلى الله والحرم الآمن من فيه ومقصد الحجيج وقبلة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومهبط الأنوار والملائكة عليهم الصلاة والسلام، وأعدل الأرض وإن لم تكن لغيرها ذات غياض ورياض، وليس المراد بالأرض الأم؛ لأنها فراش وموضع حرث كما جوزه التجانى، فإن السياق يأباه وهذا مما لم يكن باختياره، وشرف البقاع يؤثر فى الطباع فغير بعيد جعله من الجبلة، ثم إن المصنف رحمه الله تعالى لم يعتبر فى الضرورى غير عدم الاختيار والاكتساب، ولم يلتفت لعدم الانفكاك، فلا وجه لما قيل: إن المراد ما لم يكن بكسبه وإطلاقه موهم، والمراد بما فى الجبلة الخلقى سواء كان فى طبيعته أو خارجًا عنه فصح جعل الثلاثة الأخيرة منها، وإن أريد بالضرورة ما لا ينفك دائما فالفصاحة وقوة الأعضاء ليس كذلك، وإن أريد فى بعض الأوقات فكل مكتسب كذلك إلا أن يقال: المراد إنه لا ينفك فى وقته اللائق به أو أنه ناشئ عن كيفية مستمرة.

(ويلحق به) لحوق الشىء بالشىء تبعيته له وألحق الولد بأبيه أخبر بأنه ابنه لنسبة بينهما كما فى المصباح، فالمراد أنه أبعد منه لشبهه به وسيأتى بيانه، وهو بضم الياء مبنى للمجهول، وفى الشروح أنه جوز فيه البناء للفاعل وفتح الياء، أى ملحق بالضرورى المحض أمور منها.

(ما تدعوه ضرورة حياته إليه) إليه متعلق بتدعو أو بضرورة أو بهما على التنازع، وروى تدعو بغير ضمير والضرورة شدة الاحتياج باعتبار العادة البشرية، وفى عبارته لطف لإيمائه إلى أنه ليس مضطرًا إليه كغيره، وإنما الضرورة هى التى دعته وطلبته كما قال البوصيرى رحمه الله ونفعنا به[(٢)]:

وكيف تدعو لى الدنيا ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

وإنما كان ملحقا لأنه اختيارى لا يدخل فى الضرورة المحضة كما مر.

(من غذائه): بغين مكسورة وذال معجمتين ومد، وهو ما يتغذى به من الطعام والشراب، وجوز فيه الفتح والدال المهملة وهو طعام أول النهار، والأول أصح

---

(١) البيت من البسيط، وهو فى ديوان ابن الرومى (ص٢٤٢٥).

(٢) البيت من البسيط، وهو فى ديوان البوصيرى (ص١٦٧).

والاضطرار له لقيام البنية به.

(ونومه) وهو حالة معروفة تقتضى عدم الحس والحركة بسبب تصاعد الأبخرة وارتخاء الأعصاب وهو من الأمور الضرورية لراحة البدن واستراحة الحواس، وقال المعرى:

وفضيلة النوم الخروج بأهله … عن عالم هو بالأذى مجبول

(وملبسه) بفتح الميم اللباس. **(ومسكنه)** بفتح الكاف وكسرها وهو المنزل وهو ضرورى بحسب العادة، وروى مكتسبه بتأخير التاء عن الكاف الساكنة وبالباء الموحدة وكسر السين وفتحها، أى اكتسابه للرزق وهو مما يضطر إليه عادة إلا أنه يغنى عنه قوله: وماله الآتى وقد يفسر بما به يغاير.

(ومنكحه): أى ما ينكح من النساء بعقد أو تسرى، وهو ضرورى عادة ومثله قوله: **(وماله)** أى ما يملكه وهو معروف يذكر ويؤنث، وهو عند العرب يختص بالإبل، وفى العرف العام بالنقدين. **(وجاهه)** المنزلة والقدر عند الناس، وأصله وجه فقلب، وفى عده من الضروريات الملحقة بعد وإن احتاج إليه بعض الناس عادة، فلعل المراد ما يحمى به ماله واتباعه. **(وقد تلحق)** بضم التاء الفوقية وفتحها، وقد للإشارة إلى أنها فى الأكثر غير ملحقة بها.

(هذه الخصال الأخيرة بالأخروية) الدينية المثاب عليها فى الآخرة نسبة للأخرى بمعنى الآخرة، وهو المعروف فى النسبة، فتكون بحسب القصد والنية أخروية؛ لأن لها حكمها، وإن كانت بحسب الأصل دنيوية، فلا تخرج عن النوعين كما توهم، وانقلابها بالنية من العادة للعبادة المثاب عليها صرح به فى الإحياء، ومنهم من قال: الثواب إنما هو على النية والفعل على حاله. وقيل: الخلاف فى ذلك ما لم يصر واجبًا وعلى هذا يمكن عدها أخروية، وإلحاقها بها إما لمشابهتها لها حتى كأنها ضرورية، أو لاستلزام الضرورى لها، وعلى هذا يمكن أن يقال: إن الغذاء والنوم ملحق بكمال الخلقة، والصورة والملبس والمسكن والمنكح ملحق بالعقل والفهم، والجاه والمال بشرفه وعز قومه ويمكن غير ذلك فتأمل.

(إذا قصد بها التقوى) بفتح المثناة الفوقية والقاف وتشديد الواو المكسورة تفعل من القوة، وما بعده كالتفسير له، وجوز فيه فتح التاء وسكون القاف والواو المخففة من الاتقاء، والأول أقوى وأظهر، وعلى الثانى المراد التحرز عن المناهى وامتثال الأوامر بأن يريد بما يفعله ذلك مع قضاء وطره الدنيوى به وقصده معه، فإن الباعث على الشىء قد ينفرد وقد يتعدد مع غلبة أحدهما وبدونها. وقيل: ليس المراد النية بل انبعاث النفس

وميلها إلى فعل يعتقد أنه يترتب عليه الفرض الباعث الطالب إجابة للباعث على تحصيل الفرض، وإرادة الشيء قد لا يتيسر للتوقف على الميل النفسانى الذى ليس باختياره إلى آخر ما طوله بغير طائل.

(**ومعونة البدن**) المعونة مصدر بمعنى الإعانة، وهى المساعدة، وهو من الشواذ كما ذكر فى التصريف. والبدن: هو الجسد ما سوى الأطراف أو ما سوى الرأس كما قاله الأزهرى، ويطلق على جملة الجسد كثيرًا. وما قيل: من أن حذفه أولى إذ قد يقصد معونة الروح أيضًا لا وجه له؛ لأن المراد أنه يقصد تقوية بدنه بالغذاء ونحوه ليقوم بوظائف العبادة كما أشار إليه بقوله:

(**على سلوك طريقها**) أى الآخرة، أى ليدخل فى طريق الآخرة أو طريق الخصال الأخروية، مع أن هذا لا يكون بمجرد البدن فهو يدل على ما ذكره، والمراد أن يكون متلبسا بما ينفعه فى الآخرة، أو فى طريق يوصله لنعيم الآخرة بقصد ما يحمده الشرع من العبادة والعفاف عن المحرم ومتابعة السنة ونحوه، لا مجرد قضاء الشهوة وحق النفس. وأما قوله فى الحديث: «إن لنفسك عليك حقاً»(١) فلا ينافى هذا إلا لأنه بامتثاله لأمر الشارع مثاب، بل لأنه أمر لازم له جائز شرعا وتركه إذا أخر غير جائز فهو مباح فوقه مرتبة أخرى يصير بها أحسن ولكل مقام مقال. واللحوق بالأخروى يجرى فى كل مباح حتى اللعب، كما إذا مل من عبادة فاشتغل بمباح ينشطه، بل قال الغزالى: لهوه هذا أفضل من صلاته وعبادته. ووجه بأن تنفله بكسل من غير توجه مكروه يثاب على تركه.

(**وكانت على حدود الضرورة**) الحدود جمع حد وهو نهاية الشيء وغايته المحيطة به، ومعنى كونها على حدودها أن يأخذ منها بمقدار حاجته من غير زيادة وإسراف ونقص وتفريط بالشح ونحوه، فإنها إذا كانت كذلك لم تكن محمودة ملحقة بالأخروية، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٢٩] وما كان كذلك لا يفيد فيه نية صالحة، كمن نوى بطعامه التقوى للعبادة وزاد على الشبع أو زاد فى الألوان، ومن جمع المال لينفقه وانهمك فى جمعه، ولكل ضرورة حد ومرتبة لا ينبغى تعديها، والأمور الدنيوية ليست مقصودة لذاتها، وفى بعض الشروح هنا كلام لا محصل له.

(**وقوانين الشريعة**) القوانين جمع قانون، وهو الأصل والقاعدة المنطبقة على جزئياتها

(١) أخرجه أحمد (٦/٢٦٨)، والحاكم (٤/٦٠).

والإضافة لامية أو بيانية لا لأدنى ملابسة كما قيل، والمعنى أن يكون ما يفعله من هذه الأمور على وفق الشريعة المطهرة، فإنه إن لم يكن كذلك لا ينفعه نية التقرب به إلى الله تعالى عز وجل، كمن يأكل حرامًا ويلبس مغصوبًا ليتعبد له أو يتصدق بمال حرام، قال:

ومطعمة الأيتام من كد فرجها   فليتك لم تزنى ولم تتصدقى

وقال الغزالى رحمه الله: لا تظنن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية، كبناء الرباط بالحرام فإنه جهالة عظيمة وله فيه كلام مفصل. وعن العز بن عبد السلام: إن المعصية قد تصير قربة بالنية، كمن شهد زورًا لدفع ظلم، إلا أن منها ما لا يتغير حرمته كالزنا. وذهب ابن القيم إلى أن من أنفق مالا حرامًا فى قربة يثاب عليه، وإن عوقب على كسبه من غير حل كالصلاة فى أرض مغصوبة، وفى هذا المقام كلام طويل ليس هذا محله.

(وأما) الخصال **(المكتسبة الأخروية)** الدينية **(فسائر الأخلاق)** جمع خلق وهو الوصف الذى طبعه الله تعالى عليه أو اكتسبه، وسائر هنا بمعنى الجميع أو الباقى، وقد اختلف فيه أهل اللغة، فذهب الأكثر إلى أنه لم يرد فى كلامهم إلا بمعنى الباقى، ثم اختلفوا فقيل: هو الباقى مطلقا قل أو كثر، لأنه من السؤر بالهمزة وهو البقية. وقيل: إنه الباقى الأقل، والأول هو الصحيح، وذهب الجوهرى وغيره إلى أنه يكون بمعنى الجميع وخطأهم فيه كثير كابن قتيبة والحريرى فى «الدرة» لأنه مخالف للسماع والاشتقاق؛ لأنه من السؤر فلا يصح كونه بمعنى الجميع، وقد انتصر قوم للجوهرى رحمه الله تعالى وأن ما قالوه غير صحيح، أما الأول فلأنه سمع من الفصحاء كقوله:

ألزم العالمون حبك طرا   فهو فرض فى سائر الأديان

وأما الثانى فلأن القائل به يقول: إنه مشتق من السير، أى يسير فيه هذا الاسم ويطلق عليه، وقد أشبعنا الكلام فيه فى شرح «الدرة» فانظره.

(العلية) أى الشريفة المحمودة عند العقلاء وأهل الشرع، المكتسبة لا الجبلية إذا أريد بها وجه الله تعالى. **(والآداب الشرعية)** التى هى أعم من الأخلاق أو مقابلة لها فيشمل أنواع العبادة، ثم بين ما أجمله بقوله: **(من الدين)** أى التدين والعبادة والانقياد لأوامر الله والإيمان. **(العلم)** بما له وعليه مما به نظام معاشه ومعاده. **(والحلم)** وهو ملكة يقتدر بها على الصبر على الأذى.

(والصبر) وهو حبس نفسه إذا أصابته مصيبة أو ناله ضررًا، وقل رزقه بأن يتصور ما خلق له ورجوعه إلى الله تعالى، وأن كل شىء بقضائه وقدره لحكم فيتسلى بذلك ويرضى.

(**والشكر**) بأن يحمد الله على نعمه ويحمد من أولاه معروفا ويصرف ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله.

(**والعدل**) بأن يجتنب ما لا يحل فعله ويتوقى ما يضر غيره.

(**والزهد**) بترك الدنيا والرغبة عما فى أيدى الناس، وترك المحرمات والشبهات وترك ما سوى الله تعالى مريدًا وجه الله وهو زهد المقربين.

(**والتواضع**): أى الخضوع والتذلل ولين الجانب.

(**والعفو**): وهو الصفح والتجاوز وعدم المؤاخذة.

(**والعفة**): وهى قمع النفس عن تعاطى ما لا ينبغى.

(**والجود**): وهو بذل ما ينبغى ولها طرفان الجبن والتهور.

(**والحياء**): وهو الانقباض عن القبيح حذر الذم من غير وقاحة وعدم مبالاة وتفريط فيه وهو الخجل، وهو انكسار يعترى القوة الحيوانية فيردها عن أفعالها.

(**والمروءة**): وهى فعولة بالضم مهموز وقد تبدل همزته واوًا وتدغم وتسهل بمعنى الإنسانية؛ لأنها مأخوذة من المرء وهى تعاطى المرء ما يستحسن وتجنب ما يسترذل، كالحرف الدنية والملابس الخسيسة، والجلوس فى الأسواق.

(**والصمت**): وهو الصموت بمعنى السكوت، والمراد ترك الكلام فيما ينبغى وترك الفضول؛ فإنه كما ورد فى الأثر: الصمت حكم وقليل فاعله يحمد فى محله. ولذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه: إنه قفل للفم. كما قيل:

وكم فاتح أبواب شر لنفسه إذا لم يكن قفل على فيه مقفل

وهو كثير فى النساء ولذا يذم أحيانا إذا كان عيا، وقيل: الصمت منام اللسان، والتكلم يقظته، والمرء مخبوء تحت طى لسانه لا تحت طيلسانه. وقيل: من لم ينطق فسد عقله ومات خاطره. وهذا فى الخير.

(**والتؤدة**) بضم التاء الفوقية وفتح الهمزة والدال المهملة تليها الهاء وهى: التأنى وترك العجلة والمبادرة بالكلام وغيره، كما قيل: قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل. وروى التودد أى إظهار الود والمحبة للناس من غير تملق ومداهنة (**والوقار**) وهو: السكون والطمأنينة من غير طيش ولا خفة.

(**والرحمة**) الشفقة والتعطف. (**وحسن الأدب**) مع الناس بإكرامهم وتنزيلهم منازلهم.

(**والمعاشرة**) معطوف على الأدب، أى: حسن المعاشرة والاختلاط مع الناس وترك

التحجب وهجر الإخوان بغير داع.

(وأخواتها) بالجر من كل ما يشبه هذه الخصال مما سيأتى فى الفصل الذى يليه.

(وجماعها) بكسر الجيم أى: يجمع هذه وأخواتها ويشملها كلها. وفى الحديث «حدثنى بكلمة تكون جماعًا» أى جامعة للكلمات كما فى النهاية.

(حسن الخلق) فإنه عبارة يدخل فيها كل ما ذكر وغيره، وهو معاملة كل أحد بما يرضيه ولا يوحشه، كما قاله أبو مدين رحمه اللّه تعالى. وحسن الخلق بمعنى الخلق الحسن كما فى قولهم: العلم حصول الصورة الحاصلة، وفيه مبالغة يجعله كأنه عينه للزومه، وفيه تفصيل فى حواشى المطول فى تعريف الفصاحة، فما قيل إن الصواب الخلق الحسن لأنه هو الشامل وهو المراد إلا أن يريد بالجمع المشترك بين الكل، لأن الخلق هو الصفة المعنوية والصورة الباطنة ليس بصواب ولا حاجة لما تكلفه.

(وقد يكون من هذه الأخلاق ما هو فى الغزيرة) هى والطبيعة والجبلة بمعنى كما مر.

(وأصل الجبلة لبعض الناس) خلقه اللّه وأنشأه عليها كما ترى من بعض كرم الناس وحسن خلقه من غير تعلم من أحد.

واعلم أن مراده بالكمال الذى عقد له هذا الباب كمال الإنسان فى خلقته الذى ذكره اللّه تعالى بقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] وما يلحق به من أمور معاشه وما له دخل فيه كأرضه وأصله، وما له دخل فى بقائه من أمور معاشه، وهو الذى أشار إليه الحكماء بقولهم: لما كان الإنسان خلق لأشرف الصور التى هى النفس الناطقة خصه اللّه تعالى بأشرف الأمزجة وأعدلها، وجعلها بحكمته تقدست أسماؤه مدينة فيها أعضاء رئيسية ومرؤسة. ومراده بصفاته الأخروية صفات ممدوحة فيها عقلا لا تختص بعصر ولا بنوع منه ولا بشريعة؛ بل بما يدركه ويحمده كل عقل سليم كالسخاء والشجاعة وغيره، وهذه لا يدخل فيها صرف العبادة كالصلاح والحج ونحوه مما يخصه العرف باسم العبادة، وإن كانت هذه الصفات فيمن عرف نفسه وربه وقصد بها القربة تسمى عبادة أيضًا، لأن الشارع أمر بها وحث عليها، فمن فعلها امتثالا لأمره كان متعبدًا بها. ومن لم يعرف مقاصده خلط وتكلف توجيهات لا حاجة إليها، فقوله وأصل الخلقة عطف تفسير للغريزة، وهذه فيها ما هو قسم من الضروريات أيضًا، والأخلاق تطلق على الملكات والكيفيات النفسانية وعلى آثارها مسامحة، وكذلك تسمى جبلة مسامحة، ويشترط فى كون هذه دينية إرادة وجه اللّه تعالى بها كما عرفته، فما قيل على المصنف رحمه اللّه تعالى، أن مقتضى كلامه أن الجبلى والوهبى كالنبوة

لعدم القصد والعمل لا يكون دينيًا، وأن التحقيق أن التقرب إلى اللّه بتعظيمه وحسن الحال والمآل يكون لكمال فى الجبلة ووهب فى الحياة بلا اختيار، فإن المعرفة والتصديق الوهبى والجبلى كما فى بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والانتساب إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بمحبته، كمالات تقرب وتنفع وإن لم تكن أعمالاً يثاب عليها، وكم فى الآخرة من أمر يقرب وليس بعمل، وهذا لا ينكره من له إنصاف، والأخلاق التى مدحها الشارع أمور كسبية وإن كان كمالها بكونها جبلية كما سيذكره المصنف رحمه اللّه تعالى، والظاهر أنها توجب التقرب والتكريم فى حد ذاتها، وباب الجدال لا يسده طول المقال إلى آخر ما أطال فيه قد عرفت أنه خارج عن نهج السداد.

(**وبعضهم لا تكون فيه فيكتسبها**) هذا معلوم من جعله مكتسبًا، وإنما ذكره توطئة لما بعده. وقوله: (**فيكتسبها**) بالنصب كما قاله البرهان الحلبى، وقال بعض الشراح: الصواب الرفع على الاستئناف وتقدير المبتدأ، وهكذا كل ما أريد به نفى ما قبله وإثباته، كقولك لمن تكره إتيانه: لا تأتينى فأكرمك إذا قصدت إكرامه لأجل عدم إتيانه كما ذكره ابن هشام فى الشذور، وفى الإقليد وكتب العربية ما يخالفه وليس هذا محل تفصيله.

واعلم أنهم اختلفوا فى الأخلاق، وهل هى كلها غريزية من غير كسب أو كلها كسبية أو بعضها كسبية وبعضها غير كسبية؟ وإليه ذهب المحققون. قال التجانى: وإليه ذهب المصنف رحمه اللّه تعالى كما سيصرح به فى الفصل الحادى عشر من هذا الباب، والشعراء فى تخيلاتها أن ما ليس بغريزى لابد من زواله كما قاله المتنبى:

وأسرع مفعول فعلت تغيرا تكلف شيء فى طباعك ضده

وقال ذو الأصبع العدوانى:

كل امرء راجع يوما لشيمته وإن تكلف أخلاقا إلى حين

(**ولكنه لابد أن يكون فيه من أصولها فى أصل الجبلة شعبة كما سنبينه إن شاء اللّه تعالى**) لابد من كذا أى لا محيد عنه ولا مفارقة، من بددت الشيء إذا فرقته، ولا يستعمل إلا فى النفى ولا يرد عليه قوله:

فمن ظن أن لابد عنه فإن عنه ألف بد

لقصد التمليح وهو مولد، وما وقع فى بعض حواشى المطول من تفسيره بالسعة وتوجيهه لا وجه له، وأصل الجبلة إضافة بيانية. والشعبة: بضم الشين وسكون العين المهملة الحصة من الشيء، وأصل معناه الفرقة والقطعة، وأحال المصنف على ما سيأتى

فى فصل الخصال المكتسبة.

(**وتكون هذه الأخلاق دنيوية**) أى آثارها المترتبة عليها أو اكتسابها والتطبع بها، يعنى تنقلب من حسنها المحمود المثاب عليه إلى أنها تكون دنيوية صرفة لا يثاب عليها، كما أن الدنيوى ينقلب دينيا بالنية الصالحة، ولذا قيل: طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله. قيل: وهذا تصريح بنوع رابع غير النوعين المذكورين أولا وهو الدنيوى المكتسب، فالأنواع أربعة دينى أو دنيوى وكل منهما ضرورى أو مكتسب وقد عرفت ما فيه. (**إذا لم يرد بها**): بالبناء للمجهول أو إذا لم يرد فاعلها بالبناء للفاعل وقد تقدم معنى الإرادة والقصد. (**وجه الله**) أى ذاته بأن لم يقصد عبادته والتقرب إليه واتباع أمره.

(**والدار الآخرة**): التى فى مقابلة الدنيا أى نعيمها. وما فيها من الثواب والجزاء وما كان لله ولوجهه فهو للآخرة، وبالعكس. وقيل: الأول إشارة لعبادة الخواص التى لا ينظر فيها لجنة ونار، وإنما هو لإجلال الله وامتثال أمره، وقد يجعل هذا على قسمين؛ ما قصد به الكمال فالنظر والقرب والرضى ونحوه. وما قصد به التعظيم وامتثال الأمر وفعل ما يستحقه. وهذه عبادة خواص الخواص، قال الغزالى رحمه الله تعالى: وهذا قل أن يفهمه أحد فضلا عن أن يأتى به، واعترض على عبادة الخواص بأن البراءة من الحظوظ من خواص الألوهية، حتى نقل عن الباقلانى رحمه الله تكفير من ادعى به البراءة من الحظ بفعله، وأجاب الغزالى بأنه حق، ولكن مرادهم أن فعلهم لحظ غير حظ العوام وهو التلذذ بمعرفته تعالى ومناجاته والنظر له. وقيل عليه: هذا لا يصح فى القسم الثانى إذا ليس نظرهم لتلذذ أنفسهم و لم يبق لهم مطلب ولا مريد ولامراد، فالحق فى الجواب أن عدم الحظ بمعنى عدم التأثر عن شيء فإنه غنى، وهذا نقص ولا يليق به لأنه يلزمه الإمكان والاحتياج، وهم معترفون بأنهم محظوظون متأثرون ولكن يدعون عدم ملاحظة الحظ، وقصده بالفعل ولا دليل على اختصاصه فيجوز فى فعلهم الغير الاختيارى، وأما الاختيارى ففيه نظر، لما تقرر من أن الفعل الاختيارى من الممكن لابد أن يسبق بالتصديق بفائدة وغرض باعث عن الفعل يعود إلى الفاعل، ولذا نفوه عن الله، فكيف تكون العبادة لمحض استحقاق الذات، والظاهر أن ذلك غير مسلم عند الحكماء، والثانى إشارة إلى عبادة العوام مما كان لنيل النعيم والخلاص من الجحيم، وهذه على مراتب: **منها** ما يفعل لعبادة الله وإطاعة أمره راجيا النجاة بحيث لو لم يكن لفعل وهذه أعلاها.

ومنها: ما فعل لذلك والباعث لعبادته أمر أخروى، بحيث لو لم يكن لم يفعل وهذه دونها.

ومنها: ما يفعل مع الغفلة عن أمر الله وطاعته وإنما القصد مجرد النجاة والنعيم.

إلا أن هذه حكم الرازى رحمه الله تعالى ببطلانها وفاقا، فقال فى تفسيره: أجمع المتكلمون على أن من عبد الله ودعاه لأجل خوف النار وطمع الجنة لاتصح عبادته ودعاؤه، وذلك لأن التكاليف بمقتضى الألوهية والعبودية عند أهل السنة لو مع كونها مصالح عند غيرهم فوجه الوجوب والحرمة الأمر والنهى، فمتى أتى بها لاتباع الأمر والنهى صحت، ومتى أتى بها خوفًا وطمعًا لم تصح اتفاقا، لأنه لم يأت بها على وجه وجوبها. انتهى.

ومنه يظهر أن المراد وجوب أن يكون الغرض الامتثال ونحوه، ولم ينف انضمام شيء آخر بأحد الوجهين مالم يصر رياء، فلا ينافى هذا قول النووى رحمه الله تعالى: لو قال أحد لآخر صل لنفسك ولك على كذا فصلى بهذه النية صح، ومن لم يفهم مراده توهم المنافاة، هذا ومن العبادات الظاهرة ما لايحتاج إلى نية بل يكفى عدم الصارف كالصدقة والعتق وغيرهما، فلا يبعد أن يكون فى الأخلاق العلية ما هو كذلك، وإذا لم تجب فى الصدقة ونحوها، فبالأولى أن لا تجب فى العلوم الشرعية والعدالة، وإذا كان الكلام فى الآثار فقد يكون عين ما ذكروه، وحينئذ إنما تكون دنيوية إذا أريد بها غير الله، وأما إذا أريد بها الآخرة وغيرها ففيه تفصيل وخلاف، ولنا هنا تحقيقات خارجة من مقاصد الكتاب انتهى ملخصا.

أقول: ذكر هذا الإمام فى تفسير الفاتحة واستدل بقوله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥] وقد أقره على ذلك جماعة. وقد قال شيخ مشايخنا ابن حجر الهيثمى فى شرح «الإرشاد»: وهذا عجيب، فقد صرح الفقهاء بأن من قصد بالصلاة الدنيا تصح صلاته فبالأولى هذا فالوجه خلافه، وقد حث الشارع على العبادة بذكر الثواب والعقاب، ففيه دليل على أن مثله لا يضر، وقد صرح فى «الإحياء» بأن قصده لا ينافى الكمال، والعامل للجنة عامل لبطنه وفرجه كالأجير السوء، ودرجته درجة البله الذين هم أكثر أهل الجنة.

وفيه: رد لما قاله الفخر، ونحوه قول السبكى رحمه الله تعالى: العاملون على أصناف؛ صنف عبدوه لذاته وإن لم يخلق جنة ولا نارًا ومع ذلك يسئلونه الجنة ويستعيذونه من النار اتباعا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد قال: حولها ندندن. ومن اعتقد خلاف ذلك فهو جاهل، وصنف عبدوه خوفا من ناره وطمعًا فى جنته وهو دون الأول. وكلاهما يعتقد وجوب الطاعة واستحقاقه تعالى لها انتهى.

وحمله بعضهم على من جعل عبادته فى مقابلة ذلك وأنه واجب على اللّه تعالى، كالمعتزلة فهو غير جازم بالنية حينئذ فيبطل عمله عند أهل السنة، وحمله على أنه لولا ذلك ما عبد تكلف إذ الكلام فى إسلامه حينئذ، وفى «الإحياء» عن مكحول: من عبد اللّه بالخوف فهو حرورى، ومن عبده بالرجاء فهو مرجى، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق، أى المؤمن لابد له من الخوف والرجاء لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف:٨٧] إلى آخره، فمن عبده بالخوف ولم يوجد منه رجاء أو وجد ما لا وزن له معه فهو حرورى، لحكمه على العاصى بالانسلاخ من الرحمة والخوف من الذنب، كالخوارج على علىّ كرم اللّه وجهه وهم فساق أو كفرة، فتجريد الخوف يوجب الالتحاق بهم، ومن عبد بالرجاء دون الخوف فهو كالمرجئة الذين يقولون لا يضر مع الإيمان ذنب، ومن تجرد رجاؤه قد يقال لا تصح صلاته ولا شىء من عبادته؛ لأن نية الفرضية شرط فيها، وإذا انتفى الخوف بتقدير الشرك انتفى اعتقاد الوجوب؛ لأن الفرض ما يذم تاركه أو يعاقب، أو يخاف من العقاب على الخلاف فى حده، ومن اعتقد العقاب والذم يخاف منه العقاب، فعلم أن انتفاء الخوف لا تصح معه عبادة واجبة، لأنه إرجاء لا يقال ينافيه قولهم: «نعم العبد صهيب»[1] إلى آخره، لأنا لم نقل أن انتفاء الخوف لا يوجب الإرجاء مطلقا، بل تجريد الرجاء هو الموجب له، وثمة حالة أخرى أكمل منه وهى الحياء المانع من المعصية.

ومعنى الثالث أن تمحض المحبة مع انتفاء الخوف والرجاء يستلزم العمل لأجلها لا لاستحقاقه تعالى واعتقاده كفرًا بمن يظهر الإسلام فهو كالزنديق، ومعنى قولهم ما عبدناك خوفا من نارك ولا طمعا فى جنتك إنه لذاتك المستحقة لذلك كما مر. انتهى.

وإنما أطلنا فى هذه المسئلة لأنها من المهمات والوقوف عليها لازم، إلا أن ما ذكروه غير متجه بوجه من الوجوه، لأن كلامهم فى العبادة المعروفة فى عرف الشرع وما نحن فيه ليس من هذا القبيل كما حققناه لك فلتكن على ذكر، مع أن فى كلامه سقطات يعرفها من له ذهن وقاد؛ وفكر لزيوف المعارف نقاد، فلنجذب عنان التحرير، ليستريح جواد القلم من التسطير، وإلى ما ذكر من أن ما نحن فيه ليس من قبيل العبادة المعروفة فى عرف الشرع أشار بقوله: **(ولكنها كلها محاسن وفضائل)** أى هى كلها أمور حسنة تفضل بها صاحبها فى حد ذاته بقطع النظر عن الشرع، فإن صحبها مقاصد حسنة وخلوص نية أثيب عليها وإلا فلا.

---

(١) انظر: كشف الخفاء (٢/٤٤٦)، الدرر (١٦٥)، تذكرة الموضوعات (١٠١)، الفوائد المجموعة (٤٠٩).

(باتفاق أصحاب العقول السليمة): وإن كانت قد تذم لأمر عارض كالرياء والصمت عما يجب إنكاره، كما يعرض لبعض الكمال ما يجعله ناقصا. **(وإن اختلفوا فى موجب)** بكسر الجيم لا بفتحها كما توهم أى سبب. **(حسنها وتفضيلها)** على غيرها هل هو لذاتها لما يترتب عليها، أو لتحسين الشارع وتفضيله بناء على أن الحسن والقبح أمر يعرف من الشرع لا من غيره مطلقًا كما ذهب إليه الأشعرى، أو فى بعض الأمور كما ذهب إليه الماتريدى، أو من العقل مطلقًا كما قاله المعتزلة، والخلاف فى الحسن والقبح الذى يترتب عليه الثواب والعقاب لا مطلقًا كما توهم.

* * *

[فصل فى خصال محمودة مخصوصة به ﷺ]

فصل: قد عرفت أن فصول هذا الباب سبعة وعشرون، وأنه عد ما تقدم فصلا ولم يعد الفصول لذلك أو للاختصار، ولم يترجم بعض الفصول لعدم انضباطها، وهذا الفصل معقود لخصال محمودة مخصوصة به صلى الله تعالى عليه وسلم مقتبسة من الكتاب والسنة، منها ما يذكر فى الفصول التى بعده.

(إذا كانت خصال الكمال والجلالة) المتقدم ذكرها كما أشار إليه بقوله: **(ما ذكرناه)** فى أول هذا الباب **(ووجدنا الواحد منا)** معاشر البشر، وهذا معطوف على ما قبله أو حال بتقدير قد، والمعنى أن الواحد **(يشرف)** كما وجدناه ويشرف بفتح الياء وضم الراء أى يحصل له الشرف على غيره **(بواحدة منها أو اثنتين)** أى: بسببه إذا كانت فيه على ما يليق به. **(إن اتفقت له)** قيد للشرف أو للوجدان والحصول، ومعنى الاتفاق حصولها على وجه يشرف به بغير كسب، والضمير للخصلة المفهومة من السياق، والمراد نوعها وجنسها، فيشمل المتعدد وتعبيره بالواحد إشارة إلى أن أهل الكمال **(فى كل عصر)** قليل كما قيل:

إنى لأفتح عينى حين أفتحها ... على كثير ولكن لا أرى أحدا

والعصر: الدهر، وكل مدة ممتدة غير محدودة يحتوى على أمم وينقرض بانقراضهم، والجار والمجرور متعلق بوجدنا أو بيتشرف، ويجوز تعلقه باتفقت، والمراد بالواحد الجنس أى واحد فى عصر وآخر فى عصر بعد عصر لا فى أيام قلائل، وأشار بقوله واحدة أو اثنتين إلى أن اجتماعها كلها أو أكثرها نادر، وفى بعض النسخ **(وأوان)** وهو زمن مخصوص كزمن الربيع وليس من عطف الخاص على العام كما قيل.

(أما من نسب أو جمال أو قوة) فى الأعضاء أو القوى. وقيل: هى بمعنى البطش

والشدة (**أو علم**) أى علم من العلوم الشرعية أو العقلية. (**أو حلم أو شجاعة أو سماحة**) وجود كما مر (**حتى يعظم قدره**) غاية لقوله يشرف ولوصفه بما ذكر أى يرتفع حتى يصير معظما مبجلا عند الناس فى حياته، قيل: وهو مع ما بعده غاية إذ العظمة أعلى من العلو والشرف.

(**أو مقيدة بقوله: تضرب باسمه الأمثال**) فى حياته ومماته كما يقال: هو حاتم فى الجود. والأمثال: جمع مثل وهو المشبه به، وضربه بيانه وتشبيه غيره به، وضرب الأمثال باسمه ذكره بجعله مشبها به وليس اسم مقحما للتعظيم والمبالغة هنا كما قيل، والمثل يضرب للإيضاح بإبرازه فى معرض المحسوس ليدل على غاية وضوحه وكماله فى وجه الشبه والضرب أصله إيقاع شىء على آخر ويختلف باختلاف متعلقه، فالضرب فى الأرض السير لإيقاع الأرجل، وضرب الدراهم صوغها لإيقاع المطارق، ومنه أخذ ضرب المثل لتأثيره فى النفوس كما أشار إليه بقوله: (**ويتقرر له بالوصف بذلك فى القلوب أثرة**) بضم الهمزة وكسرها وسكون المثلثة وبفتحها، وهى المأثرة والمكرمة من تلك الخصال التى وصف بها وانفرد واستأثر عن غيره.

(**وعظمة وهو منذ عصور خوال**) أى والحال أن ذلك الموصوف بها من ابتداء أزمنة ماضية إلى ظهور عظمة قدره، وضرب الأمثال به، ومنذ مبنى على الضم كما قرره النحاة مختص بالزمان بخلاف من على ما فيه.

(**رمم**) بكسر الراء وقد يضم جمع رمة أو رميم وهى العظام وأجزاء البدن البالية، فقوله: (**بوال**) جمع بالية تأكيد كنفخة واحدة أو تجريد أو بيان لرمم، لأنه قد يغفل عن معناها وهو قريب من التأكيد فلا وجه لرده، وليس فى حمل الرمم على ما هو باعتبار أجزاء بدنه تكلف، ولم يكتف بالمفرد لأن المراد أن الواحد يعظم قدره بعد موته بالاتصاف بواحدة أو اثنتين منها، مع صيرورته عظاما تفرقت جموعها، فما الظن بمن عظم قدره بما فوق ذلك وقد حرم الله جسده على الأرض، وأحياه فى قبره كسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد رأيت فى بعض الكتب أن السلف اختلفوا فى كفر من قال: إن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما انتقلت روحه للملأ الأعلى تغير بدنه.

وروى أن وكيع بن الجراح حدث عن إسماعيل بن أبى خالد أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما توفى لم يدفن حتى ربا بطنه، وانثنى خصره واخضرت أظافره، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم توفى يوم الاثنين وتركه لليلة الأربعاء لانشغالهم بأمر الخلافة وإصلاح أمر الأمة. وحكمته أن جماعة من الصحابة رضى الله تعالى عنهم قالوا: لم يمت، فأراد الله أن يريهم آية الموت فيه، ولما حدث وكيع بهذا بمكة رفع إلى الحاكم

العثمانى، فأراد صلبه على خشبة نصبها له خارج الحرم، فشفع فيه سفيان بن عيينة وأطلقه، ثم ندم على ذلك، ثم ذهب وكيع للمدينة فكتب الحاكم لأهلها: إذا قدم إليكم فارجموه حتى يقتل، فأبرد له بعض الناس بريدًا أخبره بذلك، فرجع للكوفة خيفة من القتل، وكان المفتى بقتلة عبيد المجيد بن رواد. وقال سفيان: لا يجب عليه القتل. وأنكر هذا الناس وقالوا: رأينا بعض الشهداء نقل من قبره بعد أربعين سنة فوجد رطبًا لم يتغير منه شيء، فكيف بسيد الشهداء والأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، وهذه زلة قبيحة لا ينبغى التحدث بها.

(**فما ظنك بعظم قدر من اجتمعت فيه كل هذه الخصال**) أى: الواحد منا إذا حصلت له خصلة أو خصلتان منها حصل له شرف قدر، ووقع فى القلوب، ورفيع قدره لا يزول بموته وصيرورته عظامًا بالية، فكيف بمن جمع جميعها وهو باق فى قبره، وهو خاتم النبيين وسيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا جواب إذا، والظن الاعتقاد الراجح الغير الجازم، ويكون بمعنى العلم وعظيم قدره بمعنى قدره العظيم، والاستفهام إنكارى بمعنى النفى، أو للحمل على الإقرار بغاية عظمته، أو للتعجب وليس بعجيب كما توهم، والمراد بالخصال السابقة حال كونها متجاوزة.

(**إلى مالا يأخذه عد**) أى لا يعد لكثرته ولعدم اطلاعنا على كثير منه، ومعنى لا يأخذه لا يحيط به أو يغلبه كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] كما مر، فهو استعارة ولا حاجة إلى ما قيل: إنه ادعاء أو مبالغة وإلى ما قلناه أشار بقوله: (**ولا يعبر**) بكسر الموحدة المشددة. (**عنه قول**) فاعل يعبر، أى مقول، وروى به مقال أى لا يعرب به ويظهره مقال. (**ولا ينال**) أى يحصل ويوصل إليه (**بكسب**) وتحصيل بأسباب عادية. (**ولا حيلة**) أى حذق وتصرف بجودة نظر وهو أعم من الكسب.

(**إلا بتخصيص الكبير المتعال**) استثناء مما قبله منقطع، أى لكن لا ينال إلا بأمر ونهى يخص الله به من يشاء، وقيل: يحتمل أن يكون متصلا، أى إلا بحال مصاحبة للتخصيص فيقدره على كسب بعض ويهبه بعضا، وفيه نظر والكبير: العظيم شأنه. وقال الرازى: الكبير: ما كبر فى ذاته والعظيم ما يستعظمه غيره، فلذا أكثر وصفه تعالى بالكبير دون العظيم فتأمله، والمتعال بحذف الياء للموقف تخفيفًا المستعلى على كل ما سواه والعالى شأنه عن جميع شوائب النقص.

وقوله: (**من فضيلة النبوة والرسالة**) بيان لما فى قوله مالا يأخذه عد، أى لم يذكر قبله، وقيل: للكل من الخصال المذكورة، ومما لا يجوز به العد مما هو مذكور فى الكتاب

ليقف عليها الباحث عنها مجتمعة، فيكون أقرب إلى الضبط وأدعى إلى التعظيم، والتخصيص أعم من السببى والحقيقى، وإن كان الظاهر أنه لم يرد الخصائص لعد المشتركات ولا داعى للتكلف للتخصيص، والقول بأنه لا يناسب عد المواهب من الغرائب. انتهى.

وفى قواعد القرافي: النبوة أفضل من الرسالة عند العز بن عبد السلام من جهة أنها عبارة عن خطاب الله نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بما يتعلق به وبذاته، والرسالة متعلقة بالأمة. وقيل: الرسالة أفضل لعظم ثمرتها وعموم نفعها ولكل وجهة وسيأتى تفصيله.

قلت: بهذا يظهر السر فى أن الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم وردت مقرونة بلفظ النبى لتعلقها لذاته الشريفة، ولذا قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ**﴾ [الأحزاب:٥٦] لا لأنه إذا صلى عليه باعتبار النبوة علمت بالأولى تلك، وليس ذكر الرسالة مستدركا هنا كما توهم.

(**والخلة**) بضم الخاء من المخاللة (**والمحبة والاصفاء**) افتعال من الصفوة بالفتح والكسر وهى الاختيار، والاجتباء بالجيم تناول جبايته وجمعها فيه، وسيأتى الكلام على المحبة والخلة، وهذا إشارة إلى ما ورد فى الحديث الآتى: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشا، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم»[1]. (**والإسراء**) إلى المسجد الأقصى وسيأتى تفصيله.

(**وبالرؤية**) لربه وآياته الكبرى أو جبريل عليه الصلاة والسلام فى صورته الأصلية، فلا يرد عليه ما قاله البرهان الحلبى من أنه هنا جزم برؤية ربه، وقال فيما سيأتى: إن ذلك لم يثبت عنده لاحتمال أن يراد بالرؤية غير ما ذكر أو يذكره هنا تبعا لغيره، وقيل: الذى رآه رفرفًا أخضر سد الأفق فى الجنة.

(**والقرب والدنو**) لقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ**﴾ [النجم: ٨، ٩] على القول بأن الضمير للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وليس هذا قربًا مكانيًا إن كان المراد به من القرب من الله تعالى لاستحالة المكان والجهة على الله، وقد ذكر فى الآية على سبيل المدح، فالأولى فى قوله تعالى: ﴿**فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ**﴾،

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٧/٤)، والترمذى (٣٦٠٥)، وابن سعد (٢/١/١)، وابن أبى شيبة (٤٧٨/١١).

والثانى فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ فهما متغايران هنا أو هو عطف تفسير.

(والوحى) مصدر وحى بمعنى أوحى، والأكثر فى الاستعمال الفعل المزيد ومصدر الثلاثى، وهو إعلام نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بما يريده من شرع وغيره بكلام أو إرسال ملك أو إلهام ونحوه، وأصل معناه الكلام الخفى.

(والشفاعة والوسيلة) المراد مطلق الشفاعة فى أمته صلى الله تعالى عليه وسلم، أو الشفاعة العظمى، وله صلى الله تعالى عليه وسلم شفاعات ستأتى. والوسيلة أصلها ما يتوصل به ويتقرب ويتوصل بها لمراجعة ربه، وقيل: هى الشفاعة يوم القيامة. وقيل: هى منزلة فى الجنة وحمله هنا عليها أرجح. **(والفضيلة)** هى إما فضيلة خاصة به صلى الله تعالى عليه وسلم، أو شاملة لجميع ما منحه الله من الفضائل والكمالات، إذ كل صفة حادثة قابله للزيادة ولذا قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ولهذا قال بعض الشراح هنا: إنه يجوز فى الدعاء للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يقال: اجعل ذلك زيادة فى شرفه لقبول الصفات الحادثة للزيادة والنقص بخلاف صفات الله، ولذا أثنى الله على نفسه ومنع غيره من الثناء على نفسه بقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢] واستثنى منه محال.

منها: الأمين الواثق بأمانته كقول يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

ومنها: الشجاعة: كقول علىّ كرم الله وجهه: «أنا مفرق الكتائب أنا ليث بنى غالب».

ومنها: العالم والنسيب إذا لم يعرف انتهى ملخصا.

(والدرجة الرفيعة) واحدة الدرجات وهى الطبقات والمراتب، وهى المنزلة المختصة به والرفيعة المرفوعة العالية.

(والمقام المحمود): هو مقام يقوم فيه صلى الله تعالى عليه وسلم للشفاعة العظمى، فيحمده فيه الأولون والآخرون، ولا شك أنه مغاير للشفاعة، وإن احتوى عليها فهو مغاير لها لتقدمها، وهذا أولى من القول بأنه الشفاعة لإخراج طائفة من النار، ومن القول بالعموم والخصوص، أو تغاير المفهومين وهو حيث يعطى صلى الله تعالى عليه وسلم لواء الحمد ويكون أقرب من جبريل. وقال البرهان: إنه الشفاعة العظمى فى إراحة الناس من الموقف. وعن كعب بن مالك رضى الله تعالى عنه: أن رسول الله صلى

الله تعالى عليه وسلم قال: «يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتى على تل، فيكسونى ربى حلة خضراء، فأقول ما شاء اللّه أن أقول، فذلك المقام المحمود»[1] رواه أبو حاتم. وهذا لا ينافى ما تقدم كما قاله الطبرى لقوله: (**فأقول إلى آخر**) فيجوز التغاير وعدمه.

وقوله: (**فذلك إلى آخره**) فذلكة لما قبله والإشارة لمجموعه، كقوله تعالى: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٦٨] ولا حاجة لتقدير مضاف، أى فمقام ما ذكر أو الإشارة للمقام وإن لم يسبق ذكره، وفيه زيادة لقبول مقامه وإلباسه تلك الحلة الفاخرة، ثم إن البرهان ذكر عن ابن مسعود رضى اللّه تعالى عنه أن عبد اللّه بن سلام رضى اللّه عنه سأل رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم عن صفة لواء الحمد فقال: «طوله ألف وستمائة سنة من ياقوتة حمراء، وقضيبه من فضة بيضاء، وزجه من زمردة خضراء، له ثلاثة ذوائب ذؤابة بالمشرق وذؤابة بالمغرب وذؤابة وسط الدنيا، مكتوب عليه ثلاثة أسطر الأول: بسم اللّه الرحمن الرحيم، والثانى: الحمد اللّه رب العالمين، والثالث: لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه، طول كل سطر مسيرة ألف عام» قال: صدقت يا محمد.

وفى الرياض النضرة فى فضائل العشرة للطبرى: عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما أنه صلى الله تعالى عليه وسلم سئل عن لواء الحمد، فقال: «له ثلاث شقق كل شقة ما بين السماء والأرض، على الأولى مكتوب: بسم اللّه الرحمن الرحيم فاتحة الكتاب، وعلى الثانية مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول اللّه، وعلى الثالثة مكتوب: أبو بكر الصديق، عمر الفاروق، عثمان ذو النورين، على الرضى». انتهى. رضى اللّه تعالى عنهم، وتصديق ابن سلام رضى اللّه تعالى عنه إظهار لخلوص اعتقاده، أو موافقته لما فى الكتب الإلهية عنده لأنه حبر بنى إسرائيل كما مر.

ثم إن كونه جسمانيًا على هذه الصفة المروية خالف فيه صاحب النهاية، فقال: قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لواء الحمد بيدى» أراد به انفراده صلى الله تعالى عليه وسلم بالحمد يوم القيامة وشهرته به على رءوس الخلائق، والعرب تضع اللواء موضع الشهرة. انتهى. ووجه تسميته لواء الحمد كتابة الحمد عليه، أو أنه يتبعه فيه جميع الناس حامدين له، أو أنه حمد اللّه حين رفعه بمحامده اللائقة به. (**والبراق**) تقدم الكلام عليه.

(**والمعراج**) بكسر الميم وقد تفتح المصعد، مفعال من العروج وهو اسم آلة، والمراد عروجه صلى الله تعالى عليه وسلم على المعراج إلى السماء، وفى رواية: «أنه رآى معراجًا كسلم» فسمى به بهذا الاعتبار واشتهر بذلك وإن لم تشتهر تلك الرواية. وفى

(١) أخرجه أحمد (٣/٤٥٦)، وأبو داود فى البعث (٣)، وابن حبان (٢٥٧٩)، والحاكم (٢/٣٦٣)، والطبرانى فى الكبير (١٩/٧٣).

الصحاح: المعراج السلم، ومنه ليلة المعراج ولا بعد فيه كما قيل، وقال التلمسانى رحمه الله تعالى: إنه سلم من نور تصعد فيه الملائكة، أو المراد الدرجات الصورية كالسموات، أو المعنوية التى عرج عليها، وقد يطلق على العروج وبه فسر فى بعض المواضع، والقاموس: عرج يعرج عروجًا ومعراجًا ارتقى، فإذا كان خلقة فعرج كفرح أو مثلث فى غير الخلقة، وهو أعرج بين العرج. انتهى. ومن لطائف الفاضل قوله فى رسالة فى أعرج:

قامت العصا بيده مقام رجله وقلمت أعواد الأغصان من أجله
فعرج به من الأرض إلى السماء وغرس العود بكفه ولكن ما أورق ونما
ولعمرى حمل العصا هو العذاب الأليم وما أفلح من لازمها بعد موسى الكليم

(تنبيه) قال الحافظ الدمياطى: الإسراء عبارة عن سيره صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة للمسجد الأقصى، والمعراج سلم من نور أو من جواهر تصعد فيه الأرواح إلى السماء، ويطلق كل منهما على ما يشمل الآخر كما مر.

(والبعث إلى الأسود والأحمر) أى عموم رسالته صلى الله تعالى عليه وسلم لما ذكر كما تقدم، والأسود العرب أو الجن والأحمر غيرهم، لأن الغالب على ألوان العرب السمرة وعلى العجم البياض **(والصلاة بالأنبياء)** عليهم الصلاة والسلام، أى إمامته لهم حين اجتمع بهم بالمسجد الأقصى حين أسرى به صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يراع المصنف رحمه الله تعالى الترتيب بين ما ذكر ولو راعاه كان أحسن.

(والشهادة بين الأنبياء والأمم) يوم القيامة كما فى قوله تعالى: ﴿**وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ**﴾ [البقرة: ١٤٣] كما مر. **(وسيادة ولد آدم)** أى سيادته لجميع الخلق وآدم وولده كما ثبت فى الحديث الصحيح، لأنه أكرم الخلق على الله كما مر. **(ولواء الحمد)** تقدم الكلام عليه وسيأتى أيضًا، واللواء أكبر من الراية ولا يشترط فيها التربيع قاله التلمسانى ويجمعها العلامة. **(والبشارة والنذارة)** بكسر أولهما أى كونه بشيرًا ونذيرًا كما فى القرآن الكريم.

(والمكانة عند ذى العرش والطاعة ثم) بفتح المثلثة أى هناك **(والأمانة)** على الوحى وأسرار الألوهية المذكورة فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ**﴾ [التكوير: ١٩] الآية على قول من جعلها له كما مر، مع أنها ثابتة له فى نفس الأمر بأدلة آخر.

(والهداية) له المذكورة فى أول سورة الفتح، أو كونه هاديًا للخلق. **(ورحمة للعالمين)** بالنصب بكون مقدر، وروى بالجر لقوله تعالى: ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ**﴾

[الأنبياء: ١٠٧] كما تقدم.

(**وإعطاء الرضا والسؤل**) بضم السين وسكون الهمزة وتبدل واوًا وهو المأمول وكل مسؤل، والرضا كل ما يرضيه لقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥] والسؤل قريب من الرضا، قيل: والذى ورد فى الآية الرضا، والسؤل ورد فى حق موسى فى قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٣٦] أى ما سأله بقوله: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٥، ٢٦] قال التجانى: ولا شك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أعطى الرضا، لأن من أعطى ما به الرضى فقد أعطى، وأما السؤال فكم أعطى سؤلا ونال مأمولا ومسؤلا، وإن لم يعبر فيه بهذا اللفظ فى حق موسى عليه الصلاة والسلام، فلعل المصنف رحمه اللّه أراد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أعطى سؤل موسى السابق، لقوله تعالى له: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥] و﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] إلى غير ذلك مما هو معناه، وهذه تكلفات لا حاجة إليها ولذا لم يلتفت له الشراح.

(**والكوثر**) تقدم الكلام عليه.

(**وسماع القول**): أى سماع اللّه لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم وقبوله الوارد فى حديث الشفاعة الطويل بقول: «قل يسمع لك، وسل تعط»، واحتمال أن يراد بالقول القرآن وسماعه العمل بموجبه، أو استماع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لقول اللّه كما قيل بعيد.

(**وإتمام النعمة والعفو عما تقدم وتأخر**) المذكور فى قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢] كما تقدم (**وشرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر**) المذكور فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشبرح:١] الخ (**وعزة النصر**) كما مر فى قوله تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٣].

(**ونزول السكينة والتأييد بالملائكة**) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ﴾ [التوبة:٤٠] يعنى الملائكة عليهم الصلاة والسلام ببدر كما مر. وقال ابن العربى فى «أحكام القرآن» اتفقوا على أن الأقوى فى هذه الآية أن الضمير فيها عائد على أبى بكر رضى اللّه تعالى عنه لا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد تقدم ما فيه، والمراد بالسكينة الرحمة. وفى «أنوار التنزيل» فى تفسير قوله تعالى: ﴿سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨] أى ما تسكنون إليه وهو التوراة. وقيل: صورة من زبرجد أو ياقوت لها رأس وذنب كرأس الهرة وذنبها، ولها جناحان

فتثن فيزف التابوت نحو العدو وهم يتبعونه، فإذا ثبت ثبتوا وحصل النصر، وهو غير ملائم لهذا المقام، ثم السكينة قد علم أنها بفتح السين وتخفيف الكاف المكسورة فعيلة من السكون وبه جزم ابن قرقول وغيره، وما حكاه الصاغانى من كسر السين وتشديد الكاف قول مرغوب عنه، والأظهر أنها الأمن والثبات أو الرحمة أو الوقار، وقيل: المراد الملائكة عليهم السلام والتأييد التقوية. وعن كعب الأحبار: «ما من فجر يطلع إلا وينزل سبعون ألفا من الملائكة يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم، فيصنعون مثلهم، حتى إذا انشقت الأرض خرج سبعون ألفا من الملائكة». رواه البيهقى فى شعبه.

(**وإيتاء الكتاب والحكمة**) الكتاب القرآن والحكمة النبوة، والعلم النافع على ما مر. (**والسبع المثانى والقرآن العظيم**) تقدم الكلام فيهما.

(**وتزكية الأمة**) لقوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وفيه فضيلة له صلى الله تعالى عليه وسلم ظاهرة. (**والدعاء إلى الله**) قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف:١٠٨] وقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٦] كما تقدم. وأما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣] فعامة أو المراد به نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم. وعن عائشة رضى الله تعالى عنها: «إن هذه الآية نزلت فى الأذان» واستشكل بأنها مكية، والأذان إنما شرع بالمدينة، وكذا ما قيل المراد بذلك بلال بخصوصه رضى الله تعالى عنه. والجواب: بأن المراد أن الأذان داخل فيها يأباه ظاهرة.

(**وصلاة الله والملائكة**) عليه صلى الله تعالى عليه وسلم كما فى الآية والأحاديث الآتية. (**والحكم بين الناس بما أراه الله**) لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، أى عرفه بالوحى والاجتهاد الذى أراه طريقه.

(**ووضع الإصر**): أى ثقل التكاليف التى كانت فى الأمم السابقة. (**والأغلال عنهم**): أى المواثيق اللازمة لهم لزوم الغل فى العنق، وفيه استعارة مصرحة، قال أبو على فى قوله تعالى: ﴿عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]: أى بتخفيف ما يشدد فى التوراة على بنى إسرائيل وأخذ عليهم العهد به، كقتل القاتل بدون دية أو عفو، أو قطع الأعضاء الخاطئة وقطع محل النجاسات من الثبات، وضمير عنهم لأمته أو له ولهم.

(والقسم باسمه) كما مر والاسم ما أطلق صلى الله تعالى عليه وسلم، فيشمل نحو: والنجم، أى إيراد اسمه صلى الله تعالى عليه وسلم فى القسم، فلا يراد القسم إنما هو معناه.

(وإجابة دعوته) أى: دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم فى مواضع لا تحصى. **(وتكليم الجمادات)** كالطعام والحصا والأحجار كما ورد فى الحديث «إنى لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم علىّ»(١) قيل: هو الحجر الأسود. وقيل غيره، والمراد تكلمها عنده ولأجله صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا يرد قول بعضهم أنه لا يدخل فيه تسبيح الطعام فى يده كما ظنه التجانى، نعم هو داخل فى تسبيح الحصا لشبهه به وسيأتى ذلك. والجمادات جمع جماد من الجمود ضد الذوبان، والمراد به ما ليس بحيوان، قال: وقبلنا سبح الحودى والجمد. وقيل: إنه اصطلاح العلماء والأسماء المذكورة التى لم يسمع لها جمع تكسير من العرب يجوز جمعها بالألف والتاء كحيوانات، وأما ما جمع جمع تكسير فلا إلا فى الشاذ القليل كما قاله التجانى، وظاهره أنه مقيس، وكلام الحريرى فى الدرة يصرح بخلافه.

(والعجم) أى وتكليم العجم بضم العين وسكون الجيم وليس بفتح العين والجيم رواية ودراية، والمراد به الحيوان الذى ليس من شأنه النطق وأراد به ما ورد من نطق الظبى، والضب، والحمار المفصل فى معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو جمع أعجم كما فى المقتفى وحاشية الشمنى، وقال ابن رسلان: جمع عجماء ومنه الحديث: «إذا ركبتم هذه الدواب العجم»(٢) و«جرح العجماء جبار»(٣). وكلاهما جائز، وفى النهاية ومختصرها للسيوطى: «ورد بعدد كل فصيح وأعجمى» أى: آدمى أو بهيمة، فقول التجانى الأعجم يطلق على من فى لسانه عجمة وإن كان عربيا وليس بمراد هنا، وعلى من لا يصح منه كلام من الحيوانات غير الناطقة إن أراد الاعتراض فغير مسلم، وتفسير بعضهم له بخلاف العرب غير صحيح، وجمع بعض الناس كتابًا مستقلا فى هذا سماه «النطق المفهوم» طالعته فلم أره محررًا. وفى «عرى الإيمان» للبارزى اختلف أهل النظر فى هذا، فمن قائل إنه كلام وأصوات يخلقها الله فى الجماد وتسمعها من غير تعبير وهو مذهب الأشعرى والباقلانى. وذهب آخرون إلى إيجاد الحياة فيها أولا ثم

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٧/٢)، وأحمد (٨٩/٥، ٩٥)، والدارمى (١٢/١)، والطبرانى فى الكبير (٢٥٧/٢)، وفى الصغير (٦٢/١)، وابن أبى شيبة (٤٦٤/١١).

(٢) أورده الهندى فى كنز العمال (٢٤٩٥٣).

(٣) أخرجه أحمد (٤٧٥/٢)، والنسائى (٤٥/٥)، والدارمى (٢٩٦/٢)، والبيهقى (١٥٥/٤)، والبغوى فى شرح السنة (٥٧/٦).

الكلام بعده. وللمنصورى فى قصيدة نبوية:

يـا ألسن الفصحـاء قد خرست إن الجـماد بفضلـه نطقـا

وسيأتى الكلام فيه مفصلا.

(وإحياء الموتى) أى إحيائه صلى الله تعالى عليه وسلم الموتى بحسب الظاهر، والمراد إحياء اللّه الموتى له جمع ميت، كما ورد فى إحياء أبويه له صلى الله تعالى عليه وسلم وغير ذلك مما سيأتى. **(وإسماع الصم)**: أى إسماع اللّه بسببه صلى الله تعالى عليه وسلم الحجارة الصم ونحوها من الجماد كالشجر، جمع أصم وهو الحجر الصلب، كما ورد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أمر الحجارة أن يجتمعن عليه لما لم يجد ما يستتر به عند البراز كما ذكره التجانى، وهذا لا يخالف قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٠]، فإنه مستعار للكفار لكونهم غير منتفعين بحواسهم وليس المراد به الصمم المعروف.

(فائدة): قال الحافظ ابن حجر رحمه اللّه تعالى: لم يكن فى حياته صلى الله تعالى عليه وسلم أحد من الصحابة رضى اللّه تعالى عنهم أصم، وهذا من كراماته صلى الله تعالى عليه وسلم، لأنه مبلغ لهم أوامر ربه والصمم يمنع منه بسهولة بخلاف العمى.

(ونبع الماء من بين أصابعه) أى حدوثه من بينها كما سيأتى بيانه، والأصابع جمع إصبع وفيه عشر لغات نظمها ابن مالك رحمه اللّه تعالى فى فوائده، بتثليث الهمزة مع تثليث الباء، وإصبوع كيربوع فهى عشر، ومما قلته فى هذا من مقطعات النيل:

لا تقل لى أصابع النيل تحكى ما جرى من أصابع المختار

وهو عذب جرى بغير قياس زائدًا رائقًا بغير انكسار

(وتكثير القليل) من الطعام وغيره، أى تكثير اللّه له بسببه صلى الله تعالى عليه وسلم، أو تكثيره هو له بحسب الظاهر والعادة، وهو ضم الأمثال كما فى قصة جابر وطلحة رضى اللّه تعالى عنهما المروية فى كتب الحديث لما «أمر صلى الله تعالى عليه وسلم بجمع الزاد القليل ودعا وبرك فيه فكثر حتى ملئ منه كل وعاء معهم»

(وانشقاق القمر) لأجله بدعائه صلى الله تعالى عليه وسلم، كما روى أنس رضى اللّه تعالى عنه أن قريشا سألته ذلك فانشق القمر فلقتين. وروى مرتين. وروى أنه ذهبت فلقة وبقيت فلقة وله طرق صحيحة، وليس المراد بما فى الآية أنه سينشق يوم القيامة كما فى الكشاف وغيره، لأنه إخراج للقرآن عن ظاهره وترك لتفسيره بما هو من أعظم معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم، وسيأتى بسط الكلام فيه كالذى قبله.

(ورد الشمس) عليه صلى الله تعالى عليه وسلم فى حفر الخندق، وصبيحة الإسراء، ولصلاة علىّ كرم اللّه وجهه وسيأتى تفصيله. وفى حواشى التلمسانى أنها وقفت ليلة الإسراء لتصديقه صلى الله تعالى عليه وسلم، وردت لعلّى كرم اللّه وجهه بعد الغروب حتى صلى العصر، وستقف فى أيام الدجال لطول أيامه فيوم كسنة وشهر وجمعة، قيل: كان علم النجوم صحيحا حتى وقفت الشمس ليوشع عليه الصلاة والسلام فبطل بعضه، وبطل باقيته بقصة علىّ كرم اللّه وجهه، وإلى هذا أشار القائل رحمه اللّه تعالى:

وردت علينا الشمس والليل راغم بشمس لها من جانب الخدر مطلع
فواللّه ما أدرى أأحلام نائم ألمت بنا أم كان فى الركب يوشع

(وقلب الأعيان) جمع عين وهى ذات الشىء ونفسه، وهى مشتركة بين معان مشهورة كثيرة، كعصا عكاشة رضى اللّه تعالى عنه يوم بدر حيث تناولها صلى الله تعالى عليه وسلم بيده فصارت سيفا صارمًا، ونحوه مما سيأتى، وقلب الأعيان بقدرة اللّه تعالى ممكن واقع، ومن ينكره وإن لم يعتد بإنكاره يقول لم تقلب عينه وإنما عدمت وأوجد اللّه مكانها مثلها.

(والنصر بالرعب) بضم فسكون وهو الخوف وسيأتى تفصيله.

(والاطلاع على الغيب) بتشديد الطاء أى اطلاع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على بعض المغيبات بإقدار اللّه له صلى الله تعالى عليه وسلم على ذلك، ليكون معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم، ويقع مثله لبعض الأولياء كرامة لهم خلافا للمعتزلة حيث نفوه، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] والجواب عنه مفصل فى التفاسير وكتب الأصول، وقال التلمسانى: الاطلاع بسكون الطاء ولا يشدد لفساد المعنى؛ لأن الله هو الذى أطلعه لا أنه اطلع بنفسه، وقد يقال: الاطلاع فيما يمكن من مقدور الإنسان يخلق قدرة من اللّه تعالى ولا كذلك الغيب؛ لأنه ليس من مقدوره وإنما يطلعه اللّه تعالى عليه وليس بشىء.

(وظل الغمام) أى تظليلها له صلى الله تعالى عليه وسلم لئلا يؤذيه حر الشمس، وقد كان ذلك فى أول أمره فإن لم يثبت بعده فلاستغنائه عنه.

(وتسبيح الحصا) فى كفه الشريف وإن كان ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤] لأن هذا تسبيح خاص يسمعه الناس والحصا صغار الحجارة، ومن أحسن ما قلته فيه:

رسول لـه وارى زناد عزيمة فليس به صم الحجارة يقدح
رمى بالحصا قومًا بغاة فكفهم بكف به بحر السماحة يطفح
فكل لسان ناطق بتعجب لذاك الحصا فى راحتيه يسبح

(**وإبراء الآلام**) جمع ألم وهو الوجع لغة، والمراد ما يعم الأمراض والأوجاع والأحاديث فيه كثيرة مشهورة.

(**والعصمة من الناس**) من بطشهم به بالقتل ونحوه وتقدم ما فيه.

(**إلى مالا يحويه محتفل**) هذا كقوله قبله إلى ما لا يأخذه عد متعلق بمحذوف معلوم من السياق، أى: منتهية أو مضمومة إلى ما ذكره، ويحويه بمعنى يشمله ويجمعه فيحتوى عليه، ومحتفل اسم فاعل من مزيد حفل القوم فى المجالس إذا اجتمعوا، ومنه المحفل، ولا يحتفل به أى لا يهتم، والمعنى أن من اهتم بجمع هذه الصفات وأمثالها لا يمكنه الإحاطة بها و يبينه قوله: (**ولا يحيط بعلمه**) أى بالوقوف عليه على أتم وجه.

(**إلا مانحه ذلك**) أى إلا اللّه الذى أعطاه ذلك، وأصل المنحة كما فى المصباح شاة ونحوها يعطيها رجلا لينتفع بلبنها ثم ترد، وكثر ذلك حتى صار لمطلق العطاء، يقال: منحته منحا من باب نفع وضرب أعطيته، والاسم المنحة والمنيحة، ولا يلزم من الاتصاف بشىء أن يعلمه الناس، لأن منه أمور باطنية غير ظاهرة لغيره، بل منها ما لا يعلمه الموصوف بالكنه والكمال فلا خلل فى الحصر.

(**ومفضله**) على غيره مما أودعه من الفضائل.

(**به**) أى بكل ذلك ومجموعه.

(**لا إله غيره**) إشارة إلى الفاعل للتفضيل والعلم على أبلغ وجه، وإلا للحصر أى ليس علمه وإعطاؤه إلا اللّه الخالق لا المخلوق العاجز؛ لأنه المعطى الحقيقى المحيط علمه بكل شىء، وقد تستعمل هذه الكلمة للتعجب، كسبحان اللّه، كما صرح به النووى رحمه اللّه تعالى فى «الأذكار».

(**إلى ما أعد له فى الدار الآخرة**) أى هيأه له فيها من المنح والمنازل العالية، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، قيل: إنه حال من معمول التجاوز المقدر، فالتجاوز إلى ما يحويه فى الدنيا حال التجاوز عنه إلى ما أعد، أو بدل، أو حال بعد حال أفرز للتصريح لكثرة الأنواع فى الدارين.

(**من منازل الكرامة ودرجات القدس**) أى من مراتبه المقدسة أو الموجبة للقدس أو **الكائنة** منه وما فوقها مما لا يتناهى، فلا يقال الظاهر تقديم الدرجات على المنازل،

والقدس بضمتين وتسكن داله ولا حاجة لتقدير الحلول فى منازل الكرامة، وأصل بمعنى القدس الطهر فسمى به المكان لأنه يطهر فيه العائد من الذنوب، واسم الجبل يقال: إنه غير منصرف وأنشدوا لكثير:

كالمصرخى غدا فأصبح واقعا فى قدس بين مجاثم الأوعال

قاله التبريزى فى شرح ديوان أبى تمام.

(**ومراتب السعادة**) التى يترقى لها فى رفيع الدرجات. (**والحسنى والزيادة**) معطوف على مراتب أو السعادة، أى والمثوبة الحسنى من اللقاء للّه والرضوان، ولا حاجة لتخصيص هذا ولا تخصيص ما قبله من غير داع. (**التى**) صفة للزيادة أو للمجموع. (**تقف دونها**) أى عندها، والظاهر أنه قبل الوصول إليها. (**العقول**) فلا تصل لإدراكها وتقدر عليه. (**ويحار**): يتحير، وهو مفتوح الياء التحتية. (**دون أدانيها**) وروى دون إدراكها والأدانى جمع أدنى بمعنى أنزل وأسفل أو أقرب من الدنو، أى لا يدرك العقل سافلها فضلا عن عاليها، ولا يصل لما يقرب منها فضلا عما يبعد عنها. (**الوهم**) وهو قوة يدرك بها الجزئيات المحققة وغيرها، وجناب القدس أعلى من أن تحوم حوله الأوهام والتخيلات، وإن كانت قد تفرض المحالات، وفيه من الترقى ما لا يخفى، والقول بأن من هذه الخصال ما هو محض موهبة فلا يناسب المقام من جملة الأوهام.

(**لتمة**) لابد من التنبيه عليها فإنها من المهمات. اعلم أن أفعاله صلى الله تعالى عليه وسلم صنف فيها العلامة أبو شامة كتابًا سماه: «تحقيق الوصول إلى أفعال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم» لم أر فى بابه مثله، وقد طالعته ولخصته هنا، وتقريره أن أفعاله تشارك أقواله فى حكم الإسناد ويختص بأحكام، ولا خلاف فى الاستدلال بأفعاله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقيل: يستدل بمجردها على الوجوب أو الندب أو الإباحة أقوال، وقيل: يستدل بها باعتبار الوجه فإن علم اتبع وإلا فضربان، إما بيان لمجمل دال على وجوب وغيره أو لا. والثانى: لا يدل على وجوب وغيره. والأول تابع لما بينه والمختار الأول وهو على أقسام.

الأول: ما فعله امتثالا لأمر كالحج والصلاة وهو مساو لأمته فيه.

والثانى: ما وقع منه جبلة مما لا يخلو البشر عنه كالأكل والشرب والحركة والسكون والسفر والإقامة والقيلولة فى منزل، وتحت شجر، وهو سواء فيه وأمته، ومنه تتبعه الدباء، وأكله القثاء بالرطب، ومحبته الحلوى والبارد، وسائر ما ورد فى طعامه ولباسه مما لا يظهر فيه قصد قربة، ومنه كراهة أكل الضب لا الثوم والبصل.

والثالث: ما ثبت أنه من خواصه كزيادة الزوجات والوصال وقيام الليل وجوبا.

والرابع: ما فعله بيان المجمل فى القرآن كالصلاة وقطع يد السارق من الكوع.

والخامس: ما صدر ابتداء وليس بيانا ولا خصوصية له ولا جبلة، وهو إما بعلم وجوبه أو ندبه أولا، وهذا إما أن يظهر فيه قصد القربة أو لا.

فالأقسام سبعة وفى حكمها مذاهب، فما ساواه فيه أمته ظاهر والجبلى والضرورى لا يسوغ اتباعه فيه، وكذا كل ما فعله على الإباحة من أكله ولباسه ولا يستحب، كلبسه العمامة السوداء وفعله وتركه سواء إلا أن يكون استنكافا عن مثله. وحكى القاضى ابن الطيب قولا بأن التأسى به مندوب. وقال الغزالى فى «المنخول» إنه غلط. ومن الغريب القول بأنه يجب علينا فعل كل مافعله ولا وجه له، وإلى الاستحباب ذهب ابن عمر رضى اللّه تعالى عنه، فكان يتحرى آثاره صلى الله تعالى عليه وسلم، والفقهاء يستحبون بعضه كاتباع منازل حجه ومقدار وضوئه وغسله. وأما خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم فمنها ما وجب عليه دون أمته فيجوز التشبيه به، كالوتر عند الشافعى رضى اللّه تعالى عنه، والمشاورة لأن المختص به صلى الله تعالى عليه وسلم الوجوب، وكذا المحرم كالأكل من الزكاة بخلاف ما أبيح له صلى الله تعالى عليه وسلم دوننا، وما فعله بيانا لمجمل وتقيد المطلق فهو كما بينه وقيده، والفعل المبتدأ على وجوه ما علم وصفه من وجوب وغيره فمتعبد به كما علم، وما لم يعلم فإن قصد به القربة فأصله الوجوب ما لم يدل دليل على خلافه. وقيل: يحمل على الندب. وقال الغزالى: يحمل على الوجوب فى العبادات وعلى الندب فى العادات. وقيل: على الإباحة. وقيل: على الحرمة. وقيل: بالوقف. وقيل: ما ظهر فيه القربة بين الوجوب والندب وغيره مباح، فالأقوال سبعة. وما لم يظهر فيه القربة قال الآمدى: فيه الأقوال أيضًا، غير أن القول بالوجوب والندب أبعد مما قبله، والوقف والإباحة أقرب. قال: وبعض من جوز على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المعاصى، قال: إنها على الخطر، والمختار أنه محمول على القدر المشترك بين الوجوب والندب والإباحة، وهو رفع الحرج عن الفعل والفعل دليل عليه. وقال المازرى: أفعال المكلفين دائرة بين الوجوب والحظر وغيرهما، فإن قلنا: بعصمتهم من الصغائر سقط عنهم قسم الحظر، وإن قلنا: بجواز وقوعها لم يجز تكررها فتقع فلتة، فإذا صدر منهم و لم يقارنه ما يدل على أنه معصية يحمل على الجواز، لكن لا يقتدى بهم، وهو كما قال. ومن قال بالحظر أراد حظر اتباع غيرهم لهم بناء على أن التحريم هو الأصل لا الإباحة.

إذا علمت هذا فأفعاله صلى الله تعالى عليه وسلم الجبلية مباحة وما وقع امتثالا أو

خصوصية له فهو ظاهر، وكذا المرسل الذى ظهر فيه قصد القربة وعلمت صفته، وما لم يعلم متردد بين الوجوب والندب والظاهر الندب، ويعتقد المشترك بينهما من غير تعيين، وما لم يظهر فيه قصد القربة إن كان من أفعال الجبلة فمباح، وإن تردد بين العبادة والعادة فالمتحقق فيه القدر المشترك بين الإباحة والندب وهو رفع الحرج، كنزوله صلى الله تعالى عليه وسلم بالمحصب، وما كان بيانا فهو واجب عليه. وقيل: بيان الواجب واجب، والمندوب مندوب، والمباح مباح، هذا بالنسبة إليه صلى الله تعالى عليه وسلم. وأما بالنسبة للأمة فما ظهر فيه قصد القربة وكان معلومًا الصفة فنحن مندوبون إلى إيقاع مثله، وكذا ما كان محتملا للقربة وغيرها فيستحب التأسى به فيها إلا أن الثانى محطوط الرتبة عما قبله. وقال المازرى: التأسى به أبرك. انتهى.

وهو كلام نفيس ينبغى حفظه وسيأتى فى عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تتمة له، والمقصود هنا إنما هو بيان انقسام أفعاله، ثم إنه ذكر بعد هذا أدلة المذهب ولا حاجة لنا به هنا.

* * *

(فصل)

ثالث لما مر حتى يتم العدد (**إن قلت: أكرمك الله وفى نسخة: وإن قلت**) بالواو دعاء له بأن يكون معظمًا عزيزًا ببركه حبيبه صلى الله تعالى عليه وسلم جامعًا للفضائل، والكريم من كرمت نفسه عن التدنس بالرذائل من الكرم ضد اللؤم، والخطاب للمحب السابق أول الباب أو لكل من يصلح للخطاب والجملة معترضة. (**لا خفاء**) بالفتح اسم لا وخبرها (**أنه**) الآتى أى فى أنه (**على القطع**) أى على سبيل القطع. (**بالجملة**) المصنفون يقولون فى كلامهم فى هذا فى الجملة كذا، وبالجملة، والجملة، بمعنى الإجمال ضد التفصيل، ويريدون به على كل حال، لأنه إذا قطع بشىء مع الإجمال فمع التفصيل أولى، فالمراد لاخفاء قطعا فالجار والمجرور متعلق بالخفاء، ويجوز تعلقه بالقطع. والمراد به المجموع، فالمعنى لاخفاء إذا قطعت بجميع ما تقدم. وقيل: المعنى لاخفاء فى المجمل أى لاستر على القطع بالمجمل، أو جعل الإجمال الذى هو صفة أعظمية القدر متعلقا بالقطع أو عدم الخفاء مجازًا أو مسامحة، والمراد أن هذا المجمل قطعى لا حاجة إلى بيانه بخلاف التفصيل لا أن التفصيل كذلك كما توهم.

(**أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أعلى الناس قدرًا**) أى فى أنه والضمير للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا للمجمل كما توهم، والقدر المرتبة وآثر الناس على الخلق، قيل: لأنه ليس بواضح على القطع. (**وأعظمهم محلا**) تعظيم أبلغ من تعظيمه كما لا يخفى، قيل:

ولو قال أعلاهم وأعظمهم قدرًا كان أحسن، وقدرًا ومحلا تمييز من النسبة محمول عما يلزمه والتقدير علا قدره فتأمل. (**وأكملهم محاسن وفضلا**) فى ذاته وعلى غيره.

(**وقد ذهبت**) أى سلكت أو قصدت أو اعتقدت، قال فى المصباح: ذهب مضى، وذهب مذهب فلان قصده، وذهب فى الدين مذهبًا رأيا حسنا وتاء ذهبت مفتوحة للخطاب كما ضبطه البرهان. (**فى تفاصيل خصال الكمال مذهبًا جميلاً**) حسنا، والمذهب المسلك وجمعه مذاهب، قال أبو فراس:

ومن مذهبى حب الديار لأهلها ... وللناس فيما يعشقون مذاهب

والمراد بتفاصيلها ما تقدم من كونها ضرورية وكسبية.

(**شوقنى**) وفى نسخة: «شوقتنى» بتاء الخطاب، والتأنيث للمذهب بمعنى الطريقة وهو تكلف لا داعى له، والشوق الحنين ونزاع النفس، يقال: شوقنى إلى كذا أى هيجنى، وقال فى هياكل النور: فى الإنسان قوة شوقية محركة طبيعية. وللجلال الدوانى فى شرحه كلام طويل فى الفرق بينه وبين العزم لا يليق إيراده هنا لابتنائه على تخيلات فلسفية. (**إلى أن أقف**) أى أطلع (**عليها**) أى الخصال؛ لأن من وقف على شىء عرفه، ويقال: وقف الأمر على كذا أى علقه عليه.

(**من أوصافه صلى الله تعالى عليه وسلم تفصيلا**) وهو حال من ضمير عليها لأنه قد وقف عليها مطلقا فلا بيان لها إلا من حيث أنها من أوصافه صلى الله تعالى عليه وسلم، تفصيلا بمعنى مفصلة حال أو مفعول مطلق لمقدر.

(**فاعلم**) خطاب خاص أو عام كما مر. (**نور الله قلبى وقلبك**) بنور منه يزيل ظلمة الغباوة حتى تعلم ما قصدته وقدم نفسه لما مر، ولأنه هنا معلم مقدر رتبته (**وضاعف**) أى زاد، وضعف الشىء مثله أو أكثر، وفيه كلام لأهل اللغة والمفسرين طويل الذيل.

(**فى هذا النبى الكريم حبى وحبك**) الجار والمجرور متعلق بالصدر مقدم عليه وإن منعه بعض النحاة لتجويز الأكثر له إذا كان ظرفًا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ [الصافات:١٠٢] أو كما فى الحديث: «الحب فى الله والبغض فى الله»(١) فهى تعليلية كما فى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن امرأة دخلت النار فى هرة»(٢) وهى أبلغ من اللام، وإن كانت بمعناها لدلالته على شدة حبه له حتى كأنه فى ذاته، والإشارة بهذا

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٢١٢/١٠)، والخطيب فى تاريخه (٣٩١/٣)، والشجرى فى أماليه (١٣٣/٢).

(٢) تقدم تخريجه.

مؤيدة له لدلالته على قربه وتعظيمه، وقوله الكريم أى الجامع لخصال الخير الحميدة ودعاؤه بزيادة الحب مناسب جدًا، لأن من أحب شيئا أكثر من ذكره ففيه حث له على التفحص عن أخلاقه صلى الله تعالى عليه وسلم وفهمها وتفهيمها.

(**إنك إذا نظرت إلى خصال الكمال التى هى غير مكتسبة وفى جبلة الخلقة**) أى طبيعتها وأصلها والإضافة لامية أو بيانية، وهذه شاملة للطبيعة وغيرها، وقوله إنك إلى آخره مفعول اعلم.

(**وجدته صلى الله تعالى عليه وسلم**) أى علمت يقينيا أنه كان (**حائزا**) أى جامعا (**لجميعها**) ومتصفا بها على أكمل وجه يليق به (**محيطا بشتات**) بفتح الشين مصدر بمعنى التفرق أريد به هنا المفرق (**محاسنها**) أى وجوه حسنها المختلفة المتفاوتة، أى جميع ما تفرق فى غيره منها وأحاط به كما ينبغى (**دون خلاف**) أى متجاوزًا عن اختلاف الناس إلى اتفاقهم.

(**بين نقلة الأخبار**) نقلة بفتحات جمع ناقل ككاتب وكتبة، أى لم يقع اختلاف بين رواة الأخبار فى جمعه صلى الله تعالى عليه وسلم للمحاسن والكمالات. (**لذلك**) متعلق بنقلة وهو إشارة للمذكور من حيازته صلى الله تعالى عليه وسلم للمحاسن ثم انتقل لما هو أبلغ فقال:

(**بل قد بلغ بعضها مبلغ القطع**) الجزم اليقينى لتواتره وكثرة رواته المثمرة للجزم، ومبلغ بمعنى إلى مبلغ مفعول لبلغ لا مفعول مطلق، ثم شرع فى تفصيل الصفات المذكورة فقال: (**أما الصورة**) أى هيئة جسده الظاهرة، وقد تطلق الصورة ويراد بها الصفة، ومنه قولهم صورة المسألة كذا، ومنه ما ورد فى الحديث: «إن الله خلق آدم على صورته»(١) على أحد الوجوه فيه (**وجمالها**) حسنها (**وتناسب أعضائه فى حسنها**) أى كل عضو مناسب لمقابله وملاصقه فى صفاته المستحسنة ووصفه كالطول والقصر والصغر والكبر كما مر.

(**فقد جاءت الآثار**) جمع آثر وهو والخبر، والحديث يطلق كل منها على الآخر وقد يفرق بينها. (**الصحيحة والمشهورة**) ليس المراد بهما ما اصطلح عليه المحدثون وإن جازوا حينئذ الصحيح دون المشهور فلا وهم فيه كما توهم، وإذا أريد به المعنى اللغوى فبينهما عموم وخصوص وجهى، أى تلك الأخبار والآثار منها ما هو صحيح وما هو مشهور

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦١٢/١١٥)، وأحمد (٢٤٤/٢، ٢٥١، ٣٢٣، ٤٦٣)، والحميدى (١١٢٠، ١١٢١).

وليس فيه لف ونشر. **(الكثيرة بذلك)** متعلق بجاءت لأنه يتعدى بالباء تقول: جئت به وأجاته أى ألجأته إلى المجيء، وذلك إشارة لما ذكر من الأخبار والآثار. **(من حديث على)** كرم الله وجهه بيان لما قبله من الأخبار والآثار وقد تقدم معنى الحديث وترجمة على رضى الله تعالى عنه معروفة.

(وأنس بن مالك) الأنصارى الخزرجى الصحابى رضى الله تعالى عنه، خدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو ابن عشر أو ثمان، ولازمه عشر سنين، وروى عنه ألفى حديث ومائتين وستة، ودعا له صلى الله تعالى عليه وسلم بالبركة فى ماله وولده وعمره والمغفرة، فكان رضى الله تعالى عنه من أكثر الناس مالا، ودفن لصلبه بضعًا وعشرين ومائة من الأولاد، وكان له بستان يحمل فى السنة مرتين، وعاش حتى سئم من الحياة، وتوفى سنة ثلاث وتسعين وله مائة سنة، ودفن بقرب البصرة بقصر أنس، وحديثه فى الصحيحين كما قاله النووى.

(وأبى هريرة) رضى الله تعالى عنه وقد تقدم أن اسمه عبد الرحمن بن صخر على الأصح. من ثلاثين قولا، وقيل: كان اسمه فى الجاهلية عبد عمرو أو عبد شمس، وفى الإسلام عبد الله أو عبد الرحمن، وكنيته التى كناه بها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبو هريرة، وهو ممنوع من الصرف على الأصح كما فصلناه قبل ذلك.

(والبراء) بفتح الموحدة والراء المهملة المخففة والمد على الصحيح علم منقول من البراء كالقضاء بمعنى التراب. **(بن عازب)** بعين مهملة وزاء معجمة وموحدة، الصحابى الأنصارى، أسلم فى صباه قبل الهجرة، وشهد أحدًا ومشاهد على رضى الله تعالى عنه، وأسلم أبوه وتوفى بالكوفة فى أيام ابن الزبير رضى الله تعالى عنهما.

(وعائشة أم المؤمنين) بهمزة بعد الألف وعامة المحدثين يبدلونها ياء، ويقال عيشة فى لغة ضعيفة، وهى الصديقة بنت الصديق وحبيبة حبيب الله صلى الله تعالى عليه وسلم المأمور بحبها رضى الله تعالى عنها، الطيبة الطاهرة النازل فى حقها: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور: ٢٦]، تزوجها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهى بنت تسع ولم يتزوج بكرًا غيرها، وقيل: بنت ست، وابتنى بها فى السنة الثانية من الهجرة على الصحيح، ودفنت بالبقيع سنة سبع أو ثمان وخمسين، وروت ألفان ومائتى حديث وعشرة أحاديث، وسيجيء بعض حديثها، وهذا الحديث فى وصف حلية الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يروى فى الشمائل، وعنها: «نظرت إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يخصف نعله وقد عرق جبينه وجعل عرقه يتولد نورًا فبهت، فقال: «مالك تبهتين؟» فقالت: نظرت لعرقك يتولد نورًا فلو رآك أبو كثير الهذلى لعلم أنك أحق

بقوله[١]:

ومبرأ من كل غبر حيضة ... وفساد مرضعة وداء مغيل
وإذ نظرت إلى أسرة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهلل

فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقبل بين عينى وقال: «جزاك الله عنى خيرًا ما سررت بشىء كسرورى بهذا»[٢] قال التجانى: معناه أن أمه صلى الله تعالى عليه وسلم لم تحمل به فى آخر الحيض بعد انقضائه واستئصال طهرها، وهو محمود مصلح للولد، به يكون صحيح الجبلة محكم البنية، كما قال الشاعر:

حملته غراء فى أول الطهـ ... ـر وقد لاح للصباح بشير

وقال المعرى:

وإنى لمثر بابن آخر ليلة ... وإن غبر مالى فالقنوع ثراء

قال ابن السيد فى شرحه: أراد أن أمه حملت به فى آخر ليلة من طهرها حين استقبلت الحيض وهو مذموم مفسد للولد، وغبر بضم الغين المعجمة وفتح الباء الموحدة المشددة وبالراء المهملة بقاياه كما قاله الجوهرى.

(**وابن أبى هالة**) بالهاء وتخفيف اللام علم منقول من هالة البدر وهى الدائرة المحيطة به، وهو ابن مالك أخو بنى أسيد بن عمرو بن تميم حليف بنى عبد الدار، واسمه هند، ولأبى هالة ثلاثة أولاد هند، وهالة وبه كنى، والطاهر، وأشهرهم هند، ولاشتهاره لم يسمه المصنف رحمه الله تعالى، ويقال له هند الوصاف لاشتهار وصف حلية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عنه، لأنه كان ابن خديجة أم المؤمنين من زوجها الأول، وكان ربيب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخًا لفاطمة وخال الحسنين رضى الله تعالى عنهم، فكان لصغره يتشبع من النظر لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ويديم النظر لوجهه لكونه عنده داخل بيته، فلذا اشتهر وصف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم دون غيره من كبار الصحابة رضى الله تعالى عنهم، فإنهم لكبرهم كانوا يهابون إطالة النظر إليه صلى الله تعالى عليه وسلم فأحاط به نظره إحاطة الهالة بالبدر والكمام بالثمر هنيئًا له، مع أن ما قاله قطرة من بحر:

---

(١) البيتان من الكامل، وهما فى شرح أشعار الهذليين (ص١٢٥٢)، لسان العرب (١١/٥١١)، (غيل)، جمهرة اللغة (ص١٠٥١)، وللهذلى فى المخصص (١١/٤٥)، وبلا نسبة فى جمهرة اللغة (ص١١٠٦).

(٢) أخرجه البيهقى (٧/٤٢٣)، وأبو نعيم فى الحلية (٢/٤٦)، والخطيب فى تاريخه (١٣/٢٥٣).

وعلى تفنن عاشقيه بوصفه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

شهد بدرًا، قيل: وأحدًا، وقتل مع على رضى الله تعالى عنه يوم الجمل، قال التجانى: ولهند ابن أبى هالة ولد يسمى هندًا أيضا توفى بطاعون البصرة الذى مات فيه نحو من سبعين ألفا، فاشتغل الناس بجنائزهم عن جنازته فلم يوجد من يحملها، فصاحت نادبته واهند بن هنداه وربيب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فلم تبق جنازة إلا تركت وحملت جنازته على أطراف الأصابع إعظامًا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذكره الدولابى. وقيل: الذى مات فى الطاعون هند ابن أبى هالة والصحيح الأول.

(وأبى جحيفة) بضم الجيم وفتح الحاء المهملة والفاء مصغر، واسمه وهب بن عبد الله، ويقال وهب بن وهب السوائى بضم السين وتخفيف الواو والمد نسبة لسواء بن عامر بن صعصعة صحابى مشهور، توفى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو مراهق، وتوفى هو سنة اثنتين وسبعين، وروى له أحمد وغيره.

(وجابر بن سمرة) بفتح السين المهملة وضم الميم والراء المهملة ابن جنادة بن جندب، يكنى أبا عبد الله وهو ابن أخت سعد بن أبى وقاص، وتوفى بالكوفة سنة أربع وسبعين، وقيل: وستين، وفى التهذيب أنه وهم، ولكن التجانى وغيره اقتصر عليه.

(وأم معبد) بفتح الميم وسكون العين والباء والدال المهملتين، واسمها عاتكة بنت خالد بن منقذ، وفى الإكمال عاتكة بنت خليف بن منقذ بن ربيعة بن أصرم بن حنيس ابن حرام بمهملتين، ابن حبشية التى نزل عليها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى هجرته وهى خزاعية كعبية صحابية، خرج لها أبو يعلى الموصلى، وكان منزلها بقديد، ولم ينقل لها تاريخ، قال البرهان الحلبى: وحزام فى نسبها بالحاء المهملة وبالزاى كذا ضبطه الأمين، وزاد السهل بن كعب ابن عمرو وهو أبو خزاعة. انتهى. وهى أخت حبش بن خالد، انتهى.

(وابن عباس) رضى الله تعالى عنهما وترجمته معروفة.

(ومعرض بن معيقيب) مُعَرِّض بضم الميم وفتح العين المهملة وكسر الراء المهملة المشددة والضاد المعجمة معناه القوى العرض، ثم نقل علما، وهو صحابى روى له ابن قانع من طريق القديمى، ولم يذكره ابن ماكولا ولا الذهبى، وفى تجريد الصحابة أن اسم أبيه معيقيل باللام بدل الباء، قال البرهان الحلبى: وكذا هو فى نسختى ولا أدرى أصحيح هو أم لا، وفى تنقيح ابن الجوزى معيقيب بالباء وأبوه شهد بدرًا، وتوفى فى زمن على رضى الله تعالى عنه وهو يمامى.

(وأبى الطفيل) اسمه عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمر بن جابر الكنانى، صحابى له رؤية ورواية، وولد فى أوائل الهجرة وروى عن أبى بكر، وعمر، ومعاذ بن جبل وغيرهم، وروى عنه الزهرى وقتادة وغيرهما، وكان من محبى على رضى الله تعالى عنه، مات سنة عشر ومائة، وقيل: سنة مائة، وهو آخر من مات من الصحابة، وكان شاعرًا مفلقا، والطفيل بطاء مهملة مضمومة مصغر.

(والعداء بن خالد) بعين مهملة مفتوحة ودال كذلك مشددة ومد، معناه: الشديد الجرئ، وهو ابن خالد بن هودة بن ربيعة بن عمر بن عامر بن صعصعة، أسلم يوم الفتح وقيل: يوم حنين، وحسن إسلامه، وهو الذى اشترى من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم غلامًا أو أمة كما رواه الترمذى، وذكره الفقهاء، وتأخر إلى بعد المائة. وروى له الطبرانى، كان حسن السبلة، والعرب تسمى اللحية سبلة.

(وخريم بن فاتك) بضم الخاء المعجمة وفتح الراء المهملة وميم مصغر، وفاتك بفاء ومثناة فوقية، قيل: إنه نسبة لجد جده، وقيل: إنه لقب أبيه أخرم بن شداد بن عمرو، وفى التهذيب أنه حزيم بن فاتك بن أحزم وهو غريب، شهد بدرًا، وقيل: لم يصح، ومات بالرقة فى زمن معاوية رضى الله تعالى عنه، وروى عنه ابن عساكر.

(وحكيم بن حزام وغيرهم) حكيم بفتح الحاء المهملة وكسر الكاف، وحزام بكسر الحاء المهملة وبالزاء المعجمة يليها ألف وميم، ابن أخ خديجة بنت خويلد أم المؤمنين المعمر، عاش مائة وعشرين سنة نصفها فى الإسلام وولد قبل عام الفيل بثلاث عشرة سنة داخل الكعبة، ولم يولد فيها أحد غيره، وكان من المؤلفة ثم حسن إسلامه رضى الله تعالى عنه، ولما حج فى الإسلام أهدى مائة بدنة وألف شاة، ووقف بمائة وصيف فى أعناقهم أطواق فضة منقوش عليها عتقاء الله عن حكيم بن حزام، ومات سنة ستين بالمدينة، وقيل: غير ذلك، وأكثر من ذلك من روى حديث الحلية بيانًا لشهرته وتأييدًا لكلام قبله.

وأشار بقوله: **(وغيرهم)** إلى من رواه غير هؤلاء ككعب بن مالك، والفاروق، والصديق، وبنت معوذ كما فى كتاب الدلائل والوفاء وغيرهما.

(من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم) قيل: إنه بيان آخر لما بينه الأول منه، أو مستأنف، أو بيان لقوله ذلك، والأظهر أنه بيان لحديث، وليس المراد أن جميع من ذكر أن كل واحد منهم روى هذا الحديث بتمامه، بل بمجموعهم فإنه ملفق من رواياتهم.

(كان أزهر اللون): صفة مشبهة للفاعل، وفى الأزهر هنا تفاسير منقولة عن أهل

اللغة فقيل: نير، وقيل: حسن، ومنه زهرة الحياة الدنيا لزينتها. وقيل: أبيض. وقد اختلف الرواة هنا فى لونه صلى الله تعالى عليه وسلم، فقيل: أبيض كما فى حديث عائشة رضى الله تعالى عنها: «وأبيض مشرب بحمرة»(١) عن على كرم الله وجهه، وفى رواية أنس رضى الله تعالى: «أزهر اللون»(٢) كما هنا، وعنه أيضا: «أنه كان أسمر»(٣) وفى الصحيح عن أنس: «لم يكن بالأبيض الأمهق» أى الخالص البياض كلون الجير، فإنه غير محمود، وما وقع فى رواية فيه عنه «أمهق ليس بأبيض» مقلوبة أو وهم من الراوى كما قاله المصنف، أو المهق بمعنى الخضرة كما قاله ابن حجر الهيثمى.

(وليس بالآدم) بالمد أى الأسمر ورد الطبرى فى الأحكام رواية أسمر ورواه غيره كالترمذى فى الشمائل، وعامة المحدثين فسروا الأزهر بالأبيض المنير المشرق، وكذا ذكر فى صحاح الجوهرى، وقد وفقوا بين الروايات بأن المراد بالبياض البياض المعتدل المعتاد، ويؤيده «ليس بالأمهق» كما مر، ولا ينافيه أنه مشرب بحمرة، وأنه كان أسمر فى بعض الأوقات لمقابلته الشمس فتعتريه سمرة أحيانا، وهو المراد بكونه آدم، وليس المراد أنه شديد السمرة؛ لأنه سمى به لشبهه بأديم الأرض، كما أن الأبيض الأمهق الشديد البياض الذى لا يخالطة حمرة كالبرص، والأحاديث دالة على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن شديد البياض ولا شديد السمرة، وعن الخطابى فى الجمع بين حديثى السمرة والبياض: أن السمرة فيما برز للشمس من بدنه الشريف والبياض فيما تواريه الثياب. ويؤيده رواية ابن أبى هالة رضى الله تعالى عنه: «أنور المتجرد». وأيضا ففى الحديث: «أنه مشرب بحمرة»(٤) والحمرة إذا أشبعت حكت السمرة. وقيل: إن ما فى الشمائل عن أنس رضى الله تعالى عنه: «أبيض كأنما صيغ من فضة»(٥) لا يعارض وصف علىّ كرم الله وجهه له بالحمرة، لأنه عنى وجهه الشريف وأنس جسده كما مر وستجىء.

(تتمة) أقول: ما ذكر من أنه عارض من تأثير الشمس يأباه السياق؛ لأن الظاهر من لونه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أمر خلقى لا عارض، لأن مثله لا يقال إنه لونه، والراوى له أنس رضى الله تعالى عنه وكان قريبا منه صلى الله تعالى عليه وسلم ملازما له لا يخفى عليه أمره، قال ابن حجر الهيثمى: الأولى حمل السمرة على الحمرة التى تخالط

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢١٢/١)، وابن سعد (١٢٢/٢/١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٧/٣، ٢٨٨)، والبيهقى فى الدلائل (٢٧١/١).

(٣) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٢٧٢/٨).

(٤) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢٠٦/١).

(٥) أخرجه الترمذى فى الشمائل (ص ١٢، ٢٥).

البياض، وهو المراد، والعرب تطلق على من كان كذلك أسمر، ويؤيده رواية البيهقى عن أنس رضى الله تعالى عنه: «كان أبيض بياضه إلى السمرة»(١). وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: «أحمر إلى البياض» فثبت من مجموع الروايات وصفه ببياض فيه حمرة، ورواية أنه شديد البياض محمولة على الأمر النسبى فإنكار رواية أسمر لا وجه له. انتهى.

فالحق أنه كان أبيض مشربًا بحمرة، وهو أحسن الألوان لدلالته على قوة المزاج واعتداله وهذا معنى أزهر، ويقال له: أسمر نظرًا لميله للحمرة، ومن أطلق عليه آدم عنى هذا، وأما قوله: «كأنما صيغ من فضة» فلم يرد به بياضه بل حسن منظره ورونقه، وأما جعل لونه عبارة عن لون وجهه فبعيد أيضًا، وقوله: «أنور المتجرد» أى ما تحت الثياب لا يساعده، وقالوا: برنس الجمال وما سواه ملاحة.

فإن قلت: كيف قال بعض الصحابة أن سمرته صلى الله تعالى عليه وسلم من تأثير الشمس وقد كان الغمام يظله؟.

قلت: أجيب بأن ذلك إنما كان فى أول أمره إرهاصًا لنبوته كما مر، وأما بعده فلم يحفظ ذلك كما قاله ابن حجر فى شرح الشمائل، كيف وقد أظله أبو بكر رضى الله تعالى عنه بثوبه لما وصل المدينة، وأظل عليه بثوب وهو يرمى الجمار فى حجة الوداع.

(تنبيه) قال ابن حجر أيضًا: قال أئمتنا الشافعية: من قال إن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان أسود، أو غير قرشى، أو توفى أمرد، كفر لأن نعته صلى الله تعالى عليه وسلم بغير صفته نفى له وتكذيب، ومنه يعلم أن كل صفة ثبتت له بالتواتر نفيها كفر، وسيأتى الكلام على ذلك آخر الكتاب.

فإن قلت: لونه صلى الله تعالى عليه وسلم أشرف الألوان وكذلك أهل الجنة، فلم جاء فى صفتهم أن لونهم بياض يشوبه صفرة كما فسر به قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩].

قلت: البياض المشرب بالحمرة يدل على غلبة الدم المورث لقوة المزاج واعتداله الناشئ عن الغذاء فى الدنيا، وأما غذاء الآخرة فله شأن آخر، والصفرة فيها بريق ولمعان يناسب النساء دون الرجال، ولذا مدحن به فى أشعار العرب مع أنه ناشئ عن ترك الحركة وكثرة النوم والترفه، ولذا قالوا: الأولى لهن أن لا يلبسن البياض لما فيه من التشبه بالرجال.

(أدعج) وعن الترمذى: «أدعج العينين» والدعج بفتحتين شدة سواد العين مع سعتها،

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/٢٠٤)، وأورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٦/١٦).

وقيل: سواد السواد وبياض البياض ويشكل ذلك بأنه (**أنجل أشكل**) من النجلة وهى سعة شق العين، ومنه طفته نجلا، ومن فسر الدعج بشدة سواد العين مع سعتها فيه عنده تجريد أو توكيد، وأشكل بشين معجمة من الشكلة وهى الحمرة فى بياض العينين، وكان أصله مطلق الحمرة لقوله(١):

فما زالت القتلى تمج دماءها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

أى أحمر، وقال ابن دريد: يسمى به للحمرة والبياض المختلطين فيه. وفى المقتفى: أن فى صحيح مسلم عن سماك بن حرب أن معنى أشكل: طويل شق العين وهو وهم بالاتفاق.

وقال التجانى: الشكلة حمرة يسيرة فى بياض العين، فإن كانت فى السواد فهى شهلة، والرجل أشكل وأشهل وكلاهما مستحسن، وبمعنى أشكل أسجر بسين وجيم وراء مهملتين، وفى حديث جابر رضى الله تعالى عنه: «كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ضليع الفم أشكل العينين»(٢) خرجه مسلم. وقال الأصمعى: الأسجر الأشهل. وأكثر اللغويين على خلافه، وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان أسجر العينين ولم يرد الشهلة فى وصفه صلى الله تعالى عليه وسلم.

(**أهدب الأشفار**) الهدب: بضم الهاء والدال ويجوز تسكينها الشعر النابت على الجفن، والأهدب الطويل الأهداب أو الكثيرة، وهذه الصفة فى حديث رواه الترمذى والبيهقى ووقع فى رواية فيه: «طويل الأهداب»، وفى البيهقى وصفه بالكثرة وكل منهما شاهد للتفسيرين السابقين. والأشفار جمع شفر بضم الشين وقد تفتح طرف الجفن والجفن غطاء العين الأعلى والأسفل، وإنما خلقت هذه الأجفان وأهدابها لتقى ناظر العين الأذى، وهى تمسحه فى انطباقها وانفتاحها وتذب عنه بأهدابها، كما قال: فلما افترقا ماذب عن ناظر شفر. ولذلك كان الذباب يمسح دائمًا بيديه عينيه؛ لأنه خلق بغير أجفان، وإليه أشار عنترة فى تشبيهه البديع بقوله:

---

(١) البيت من الطويل، وهو لجرير فى ديوانه (ص١٤٣)، الأزهية (ص٢١٦)، الجنى الدانى (ص٥٢٢)، خزانة الأدب (٤٧٧/٩)، الدرر (٣٢/٤)، شرح المفصل (١٨/٨)، اللمع (ص١٦٣)، مغنى اللبيب (١٢٨/١)، المقاصد النحوية (٣٨٦/٤)، وللأخطل فى الحيوان (٣٣٠/٥)، وبلا نسبة فى أسرار العربية (ص٢٦٧)، شرح الأشمونى (٥٦٢/٣)، لسان العرب (٣٥٧/١١)، همع الهوامع (٢٤٨/١- ٢٤/٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣٩/٩٧)، وأحمد (١٠٣/٥).

وقـــع المكب على الزناد والأجزم

وفى الجفن وطول أهدابه زينة ونفـع وحسـن، وإضافـة أهـدب الأشـفار مـن إضافـة الشىء لمكانه، فإنه يجوز إضافته للمكان والزمان نحو عالم بغداد ومالك يوم الدين، وهى لامية أو على معنى فـى، والأهـدب يوصـف بـه الرجـل فيقـال: رجـل أهـدب والجفـن والشفر، وليس فيه إطلاق الأشفار على الأهداب مجازًا من باب إطلاق الحال على المحل، كما تسمى الخمر كأسا وإن جاز، وليس المراد بالشفر الجفن مجازًا بـإطلاق الجـزء على الكل ولا تجريد فيه ولا تقدير مضاف، أى شعر الأشفار كما توهم.

(**أبلج**) من البلج بفتحتين وهو نقاء ما بين الحاجبين من الشعر، ووقع فـى حديـث أم معبد وصفه بالقرن وأنه أقرن، وهو مخالف للرواية المشهورة فى حديث الحلية، ولهـذا رد بعضهم هذه الرواية ووفق بينهما لأنه كأنه بينهما شعر خفيف جدًا ربمـا يظـهر إذا وقـع عليه الغبار فى سفر ونحوه، وحديث أم معبد سفرى، وفى كتاب «خلق الإنسان» لثابت رجل أقرن وامرأة قرناء، فإذا نسب إلى الحاجبين قالوا مقرون الحـاجبين ولا يقـال أقـرن الحاجبين، وقد تمدحوا بالبلج قديمًا وحديثًا كما قال بعض المحدثين:

إذا راش سـهم النـاظرين بهدبـه　　وإن كـان سلما غير يـوم هيـاج
غدًا موتـرًا مـــن حاجبيه حنية　　لهـــا البلـج الوضاح قبضته عاج

ومنه أخذ ابن سناء الملك قوله:

رمانى ومن أجفانـه السهم صائبـا　　ومن حاجبيه القوس والقبضة البلج

والحنية بمعنى المحنية القوس، والقبضة وسطها الـذى يقبضـه الرامـى، والعـرب تسـمى السيد بالأبلج، ووصف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم به مشهور. وقال أبو طالب فى مدح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم[1]:

وأبلـــج يستسقى الغمام بوجهه　　ثمـــال اليتامـــى عصمة للأرامل

على إحدى الروايات، وأنشد بعضهم: «وأبيض» والثمال الملجأ اسم مفرد كالغيـاث لفظًا ومعنى.

(**أزج**) بفتح الهمزة والزاء المعجمة وتشديد الجيم، وهذا وكل مـا وازنـه فـى حديـث الحلية صفات مشبهة لأنها تجرى كذلك فـى الصفـات، والحلـى، ويوصـف بـه الرجـل،

(١) البيت من الطويل، وهو لأبـى طـالب فـى خزانـة الأدب (٢/٦٧، ٦٩)، شـرح شـواهد المغنـى (١/٣٩٥)، لسان العرب (١١/٩٤) (ثمل)، (١٢/٤٠٤)، (عصـم)، مغنـى اللبيـب (١/١٣٥)، تاج العروس (ثمل) (عصم)، وعندهم: وأبيض بدل: وأبلج.

والحاجب فى المدح والزجج كما فى تحفة العروس للتجانى دقة مخط الحاجبين وامتدادهما إلى مؤخر العين غير عريض ولا كثيف وضده الزبب، وقال الشمنى: أزج مقوس الحاجب مع طول وامتداد، وقال حسان رضى الله تعالى عنه:

أزج كشق النون من يد كاتب

وقال رؤبة(١):

ومقلة وحاجبا مزججا

والزجج خلقة والتزجيج ما كان يصنع كما قال(٢):

وزججنا الحواجب والعيونا

أى صنعنا ذلك هو ما تسميه العامة تخفيفًا بالحاء المهملة، وهذا أيضًا مما رواه الترمذى رحمه الله تعالى.

(أقنى) كما وقع فى حديث هند الذى رواه الترمذى رحمه الله تعالى، وفى حديث علىّ كرم الله وجهه أقنى العرنين، والعرنين الأنف، والقنا طوله ودقة أرنبته مع حدب فى وسطه، وفسره الجوهرى بالحدب، والمصنف رحمه الله تعالى بالسائل المرتفع الوسط، وقد يبدل السيلان بالدقة. وقيل: إنه نتوء فى الوسط وضيق المنخرين، وقال التجانى: القنا أحيدياب قصبته مع نزول الأرنبة، وهى رأس الأنف مما يلى الفم، والشمم استواء أعلى قصبة مع ارتفاع يسير فى الأنبة، وهو من صفات الجمال والمدح وعلامة السؤدد فى الرجال. قال حسان رضى الله تعالى عنه(٣):

بيض الوجوه كرائم أحسابهم   شم الأنوف من الطراز الأول

---

(١) الرجز للعجاج فى ديوانه (٣٤/٢)، لسان العرب (٢٩٨/٢)، تاج العروس (٣٦/٦)، جمهرة اللغة (ص٤٥٨)، مجمل اللغة (١٣٨/٣)، كتاب العين (٥٣/٦)، وبلا نسبة فى تهذيب اللغة (٥٨٢/١٠)، مقاييس اللغة (١٥٦/٣).

(٢) عجز بيت وصدره:

إذا ما الغانيات برزن يومًا

والبيت من الوافر، وهو للراعى النميرى فى ديوانه (ص٢٦٩)، الدرر (١٥٨/٣)، لسان العرب (٢٧٨/٢)، المقاصد النحوية (٩١/٣)، شرح شواهد المغنى (٧٧٥/٢).

(٣) البيت من الكامل، وهو فى ديوان حسان (ص١٢٢)، لسان العرب (٣٦٨/٥)، تهذيب اللغة (١٧٨/١٣)، مقاييس اللغة (٤٤٦/٣)، تاج العروس (١٩٧/١٥)، وبلا نسبة فى جمهرة اللغة (ص٧٠٤).

وقال الفرزدق(١):

بكفه خيزران ريحه عبق   من كف أروع فى عرنينه شمم

وورد فى الحديث: «أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان أشم» وبهذا وصفه أصحابه رضى الله تعالى عنهم، كما ورد فى الأحاديث، ويعارضه ما أشهر من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان أقنى، وجمع بينهما بأن القنو كان خفيفًا، فإن زيادته غير ممدوحة كما مر فى البلج، ويدل عليه قول ابن أبى هالة الآتى: «أقنى العرنين يحسبه من لم يتأمل أشم» وقول بعض الشراح هنا: فمن رآه متأملا عرفه أشم، ومن لم يتأمله ظنه أقنى انعكس عليه الأمر فتأمل.

(**أفلج**) الفلج بفتحتين تباعد ما بين الثنايا أو ما بين الأسنان، وهو من قولهم: فلجت الشىء إذا شققته فلجين أى نصفين، وفلج فلوجا ظفر. وقال ابن دريد وتبعه صاحب القاموس رحمه الله تعالى: إنه لا يقال رجل أفلج إلا إذ ذكر معه الأسنان، أى إذا قيد بها سواء كان بلفظ الأسنان أو الثنايا أو غيرهما، لئلا يلتبس برجل أفلج أى بعيد ما بين القدمين أو اليدين، فإنه ورد استعماله مطلقًا فى كلامهم دون الأول، فإنه ورد مقيدًا بإضافة وغيرها، ومن هنا قد اعترض على المصنف رحمه الله تعالى بأن قوله أفلج مخالف للغة إذا لم يستعمل فيها إلا مقيدًا كما عرفته، وقد استعمله الحريرى كذلك، ثم ما قاله أهل اللغة مخصوص بهذه الصفة، فإن غيرها كثير من غير تقيد كقول العجاج:

أزمان أبدت واضحا مفلجا

وفيه بحث لأن هذا الاستعمال مروى فى الحديث هكذا، وابن أبى هالة راويه من خلص فصحاء العرب، ولا عبرة بقول بعض النحاة لا يستدل به فى إثبات العربية.

واعلم أن العرب إذا وضعت كلمة لمعنى فقد تستعملها مطلقة وقد تلتزم تقييدها بإضافة مطلقة أو معية كوحدة أو نحوها، وقد تلتزمه فى حالة مخصوصة كأب وأخ إذا أعرب بالحروف، وقد تلتزم هيئة مخصوصة نحو كافة وقاطبة وتعريف الآن، وقد تلتزم تقييده شىء كما فيما نحن فيه، ثم إن هاهنا شيئًا، وهو أنه إذا ورد استعمال لفظ عن العرب على هيئة مخصوصة كما مر، ما المانع من استعماله فى ذلك المعنى من غير تغيير لبنيته فى موضع آخر كما فيما نحن فيه، وإذا جاز التجوز فيها ونقلها عن معناها قياسًا فهذا بالطريق الأولى خصوصا، وقد عضده السماع. والفلج ممدوح لأنه يطيب رائحة

---

(١) البيت من البسيط، وهو فى ديوان الفرزدق (١٧٩/٢)، لسان العرب (٢٣٨/٤)، تاج العروس (١٥٩/١١)، وبلا نسبة فى تهذيب اللغة (١٤٠/٢)، مقاييس اللغة (٤٨٢/١).

الفم والأسنان لعدم بقاء المأكول بينهما، مع المعاونة على خروج الحروف من المخارج سهلة فصيحة، ومن الملح فيه قول ابن نباتة:

أفدى الذى جبينه وشعره طرة صبح تحت أذيال الدجا
مالى به مع قرب دارى ملتقى فهل رأيت ثغرة المفلجا

(**مدور الوجه**) عبر فى الشمائل بقوله: «لا بالمكلثم» وكان فى وجهه تدوير، وفسر بأنه لم يكن شديد تدوير الوجه، بل فيه تدوير مع استطالة قليلة وهو أحلى وأحسن، وهو المراد هنا. والمكلثم بالمثلثة فسر بالمدور والسمين والنحيف فهو ضده، وفى النهاية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم «كأن أسيل الوجه». وروى البغوى: «مسنون الوجه» أى فيه طول والروايات يفسر بعضها بعضا، وما ورد من أنه مدور الوجه كالبدر محمول على الضياء والحسن فلا منافاة بينهما.

(**واسع الجبين**) السعة ضد الضيق، والجبين والجبهة هل هما بمعنى أو بينهما فرق، وأكثر أهل اللغة على الفرق بينهما بأن الجبهة موضع السجود المحاذى للناصية من الحاجب إلى قصاص الشعر وجانباها جبينان، وقيل: إنها تطلق على الجبهة والمجموع، وأنكره بعضهم، وخطأ المتنبى فى استعماله بهذا المعنى، إلا أن ابن عاصم قال فى شرح قول زهير[1]:

يقينى بالجبين ومنكبيه وأنصره بمطرد الكعوب

أنه أراد بالجبين الجبهة وسعة الجبين ما يدل على قوة العقل والفهم والحواس، إذا لم يكن مفرطًا، وسعة الجبهة حسنها وشخوصها أو طولها كما قيل، والظاهر من العبارة أنه أريد بالجبين الجبهة إذا لم يقل الجبينين بالتثنية.

(**كث اللحية**) هذه الصفة فى الترمذى والبيهقى عن هند وعلى وأم معبد رضى الله تعالى عنهم، والكث فى اللحية أن تكون كثيفة غير خفيفة لا يرى منها ما تحتها لكثرة أصولها، محيدة ملتفة وليست بطويلة ولا قصيرة الشعر فى العرض، وإليه أشار بقوله: (**تملأ صدره**) الشريف يعنى أنها طولا وعرضا بمقدار صدره فجعلها كأنها حالة فيه، لأن المظروف لا يزيد على ظرفه، ومثله: «قد ملأت نحره» ونحر الصدر أعلاه أو موضع القلادة منه، فمراد المصنف رحمه الله تعالى أعلى الصدر وإلا لطالت، وقد ثبت قصرها، وقيل: المراد أنها تملأ ما يقابل الصدر بها فاستوت طولاً وعرضًا، والحاصل من ذلك أن لحيته صلى الله تعالى عليه وسلم معتدلة طولا وعرضا غير خفيفة.

---

(١) البيت من الوافر، وهو لزهير فى تاج العروس (جبن)، وليس فى ديوانه.

واعلم أن اللحى واللحاء ما ينبت عليه الأسنان واللحية مأخوذ منه.

فإن قلت: ورد فى الحديث: «من سعادة المرء خفة لحيته»(١) وهو ينافى كونها كثة؟.

قلت: المراد من ذلك عدم طولها جدًا لما ورد فى ذمه، وقد قيل: اعتبروا عقل الرجل فى ثلاث فى طول لحيته، ونقش خاتمه، وكنيته. وقال الشاعر:

ونقصان عقل الفتى عندنا ... بمقدار ما طال من لحيته

مع أنه ورد خفة لحييه بالتثنية وفسر بخفته فى حركته للذكر.

(سواء البطن والصدر) هو بتنوين سواء ورفعه وبنصبه وإضافته أى مستويهما، والبطن مبتدأ وسواء خبر مقدم، ولا حاجة لتقدير منه، ولا لجعل أل بدلاً من الضمير كما قاله التلمسانى، وهو إشارة إلى اعتدال خلقهما وعدم خروجهما أو أحدهما عن الاعتدال، فإن البطن إذا كان بارزًا أو مضمرًا لم يكن من الصفات الحسنة، وكذلك إذا برز أو تضامن وسواء الشىء قد يكون بمعنى وسطه، وليس بمراد كما قاله التلمسانى.

(واسع الصدر) عبر فى المواهب عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه بقوله: «رحب الصدر»(٢) وفى الترمذى والبيهقى: «عريض الصدر» وقال البيهقى: «كان بطنه صلى الله تعالى عليه وسلم غير مستفيض» فهو مساو لصدره، وصدره عريض مساو لبطنه والعريض والواسع بمعنى، وقال الصفوى: يجوز أن يكون مجازًا عن الحلم واحتمال الأمور كما يقال فى صدره غير ضيق الصدر. وقال تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢] وعدل المصنف رحمه الله تعالى إلى السعة ليكون أظهر فى احتمال المعانى.

أقول: هذا غير صحيح هنا؛ لأن الكلام فى الحلية الحسية وليس هذا منها، فلو قال الدلجى إن معناه واسع الصدر حسا ومعنى ليكون كناية كان أولى فتأمل.

(عظيم المنكبين) مثنى منكب بفتح الميم وكسر الكاف وبالموحدة، وهو مجمع عظم العضد والكتف، أى ضخمهما. وروى البيهقى مسندًا: «جليل مشاش المنكبين» ومشاشهما بالضم رؤسهما. وروى الواقدى رحمه الله تعالى: «ضخم العضدين والمنكبين» وفى الشمائل: «جليل المشاش» أى رؤس العظام كالمرفقين والركبتين والمنكبين.

وهو معنى قوله: **(ضخم العظام عبل العضدين)** الضخم: الغليظ كما فى الصحاح،

---

(١) أخرجه ابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٤/٣٦٤).

(٢) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٦/٢٣).

أو العظيم الجرم الكثير اللحم. وفى حواشى عبد المجيد اليمنى ضخم العظام غليظها، تقول: أضخمت إذا انتصبت قائما، والمضخم المنتصب، والعظام جمع عظم وعظيم كما فى ضرام السقط لصدر الأفاضل، وبعض الجهلة توهم أن قولهم الموالى العظام غلط لأنه لا يكون إلا جمع عظم. وروى الترمذى وغيره: «ضخم الكراديس» قال أبو نعيم: هى العظام، أى عظيم الألواح. وقيل: رؤس العظام. وقال البغوى: الأعضاء. والمراد: عظام يحسن عظمها كالجوارح والأطراف، وقد ثبت «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان عظيم الأطراف والجوارح» والعظام أساس الإنسان بعظمها يقوى ويحسن وتتم الحواس. «وعبل» بفتح المهملة وسكون الموحدة ويليها لام بمعنى ضخم قوى، والعضدين تثنية عضد بفتح العين وضم الضاد المعجمة وتسكن تخفيفا وفيه لغات، وهو ما بين المرفق والكتف ويسمى ساعدًا.

(**والذراعين**) أى وعبل الذراعين، والذراع هو ما بين مفصل الكف والمرفق، أو من المرفق إلى أطراف الأصابع.

(**والأسافل**) جمع أسفل، قال التلمسانى: يريد به رجليه وباقى جسمه. وقال غيره: المراد بها الفخذان والساقان، وذلك كله مما يؤذن بكمال قوته لما فى الحديث «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أعطى قوة ثلاثين رجلا». وفى مسند أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه: «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان شبح الذراعين بعيد ما بين المنكبين يقبل جميعا»(١) والشبح: بفتح الشين المعجمة وسكون الباء الموحدة وبالحاء المهملة بمعنى العريض.

(**رحب الكفين والقدمين**) أى واسعهما. وقال التجانى: أى كبيرهما. وهو محمول على ظاهره من كبر الجوارح لدلالته على كمال الخلق بخلاف صغرهما، وتأوله بعضهم فى الكفين على أنه كناية عن جوده وسماحته، قال: والحق أنه إن روى بمجموع رحب الكفين والقدمين، فلا مجال لهذا التأويل للجمع بين الحقيقة والمجاز، وإن ورد «رحب الكفين» فقط فإن كان فى مقام بيان خلقه بالفتح فلا مناسبة له، أو فى مقام بيان خلقه بالضم فله مناسبة، وقد ورد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان شثن الكفين والقدمين(٢)، والشثن بمعنى الغليظ لا الواسع، وهو لا ينافى ما مر، وفسر الأصمعى رحمه الله تعالى الشثن بالغليظ الخشن، فقيل له: إنه ورد فى صفة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما ينافيه، وقد ورد فى البخارى وغيره عن أنس رضى الله تعالى عنه: «ما

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٣٨)، والبيهقى فى الدلائل (١/٢٤٤).

(٢) أخرجه البخارى (٧/٢٠٨)، وابن سعد (١/٢/١٢٤)، والبيهقى (١/٢٤٣).

مسست حريرًا ولا ديباجا ألين وأنعم من كف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم» فآلى على نفسه أن لا يفسر شيئًا فى الحديث. وقيل: لين جلده صلى الله تعالى عليه وسلم ونعومة ملمسه خلقة، وخشونته باعتبار عمله فى جهاده ومهنته. وتفسير أبى عبيد الشثن بالغليظ القصير مردود بما صح من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم سائل الأطراف الآتى.

واعلم أن البارزى رحمه الله تعالى قال فى توثيق عرى الإيمان: إنه روى «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان خمصان الأخمصين» أى متجافى أخمص القدم وهو الموضع الذى لا تناله الأرض من وسط القدم. وروى «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان مسيح القدمين» أى أملسهما. ولذا قال: «ينبو عنهما الماء». وفى حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ما يخالفه؛ لأنه قال فيه: «إذا وطئ بقدميه وطئ بكلهما ليس له أخمص» وهذا موافق رواية «مسيح القدمين» قال: وسمى عيسى عليه الصلاة والسلام بالمسيح لأنه لم يكن له أخمص فى أحد الوجوه فيه. وقيل: معنى مسيح القدمين لا لحم عليهما، وهو يخالف رواية شثن القدمين. انتهى.

وفيه نظر، ففى شرح الشمائل: «مسيح القدمين أملسهما لينهما فليس فيهما تكسر ولا تشقق» ويفسره قوله: «ينبو عنهما الماء» أى يسيل سريعًا لملاستهما فكان غليظ أصابعهما. وروى أحمد وغيره: «أن سبابتى قدميه صلى الله تعالى عليه وسلم أطول من غيرهما». وفى البيهقى: «كانت خنصر رجله صلى الله تعالى عليه وسلم متظاهرة». وما اشتهر من إطلاق كانت سبابته صلى الله تعالى عليه وسلم أطول من وسطاه غلط، فإنه خاص بأصابع رجليه. انتهى. وما قيل إن سعة القدمين لم ترد إلا أنه بمعنى العظم المذكور فى البخارى فيه نظر.

(سائل الأطراف) وفى شمائل الترمذى: «سائل الأطراف أو شائل الأطراف» بالشك من الراوى من أنه بالسين المهملة من السيلان بمعنى ممتدها امتدادا معتدلا بغير إفراط ولا تفريط، أو المعجمة من شال الميزان إذا ارتفع إحدى كفتيه. والمراد منه ما قبله والمراد بالأطراف الأصابع، وروى «شائن» بالنون المبدلة من اللام كما قال التلمسانى. وطول الأصابع مما يتمدح به العرب، وسائل بهمزة مبدلة من الياء كما تقرر فى الصرف، وقوله فى المقتفى: «إنه بالياء» إن أراد أنه روى كذلك على خلاف القياس فصحيح وإلا فلا، وفسر بالطول من غير تعقد، ويروى: «كأن أصابعه قضبان فضة» أى أغصانها. قيل: والأوجه فى تفسيره التعميم لما روى من «أنه سبط القصب» وفسر بكل عظم ذى مخ والسبوطة الامتداد قاله أبو نعيم.

(أنور المتجرد) أنور بمعنى نير صفة مشبهة لأنه من باب الألوان، وعليه اقتصر التلمسانى والبغوى، والمتجرد بضم الميم وفتح الجيم والراء المشددة والدال المهملتين، بمعنى الجسد الذى من شأنه أن يجرد عنه الثياب، والعرب تقول: فلان حسن المجرد، والمتجرد والجردة والعرية والمعرى والكل بمعنى، وقيل: أنور أفعل تفضيل مضاف لغير المفضل عليه كما ذكره النحاة، أى متجرده أنور من متجرد غيره، والمتجرد بالضم مصدر ميمى يقال: امرأة بضة المتجرد والمجرد أى عند التجرد والتعرى، والمحدثون فسروه بما جرد عنه الثياب أى نزع، وليس على القلب أى ما جردت الثياب عنه أو هو اسم موضع التجرد، أو اسم مفعول على الحذف، والإيصال كالمشترك لأنه ثبت عن العرب فلا يقال إنه غير قياسى، واسم مفعول لا يبنى من مثله بغير صلة كممرور به، والقول بأنه جعل تجرد بمعنى جرد المتعدى كما جعل رحم المتعدى بمعنى رحم اللازم، وبنى منه الصفة المشبهة وجعله من الحقائق والدقائق من زخرف القول الذى لا طائل تحته، وتفسيره بسائر البدن باعتبار أغلبه وأكثره كلام حسن وجعله وهما خرافات واهية.

(دقيق المسربة) دقيق بالدال المهملة والقاف، والمراد أنه ليس بعريض ولا متكاثف الشعر، وروى بالراء المهملة وهما بمعنى، والمسربة بفتح الميم وسكون السين المهملة وضم الراء كذلك وفتحها، وبالموحدة شعر مستطيل من الصدر للسرة فهو خط من الشعر بينهما. قيل: والذى يظهر أنه شعر دقيق من الصدر إلى البطن يطول ويقصر ابتداء، ولذا وصفت مسربته بالطول من أوائل الصدر إلى السرة، والوصف بالدقة للمبالغة، والمسربة من السرب وهو دخول الطريق والانسراب فيها.

(ربعة القد) القد بمعنى القامة، ورجل ربعة وامرأة ربعة بفتح الراء وسكون الباء، وفى المصباح حذف الهاء فى المذكور وفتح الباء لغة فيهما، ورجل مربوع مثله أى معتدل، وفى القاموس: الربع الرجل بين القصير والطويل، وتأنيثه باعتبار النفس والذات وليس فى إضافته للقد تكلف كما توهم، وفيه ضمير للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالتأويل المذكور، وروى الترمذى وغيره: «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان أطول من المربوع». وفى البيهقى عن أنس رضى الله عنه: «فوق الربعة» فالمراد بكونه صلى الله تعالى عليه وسلم ربعة أنه بين الطول الفاحش والقصر أو من نفى الطول أراد الفاحش، ولذا قال:

(ليس بالطويل البائن) كذا فى الصحيحين عن أنس رضى الله تعالى عنه أى لم يكن مفرط الطول، فهو من بان بمعنى ظهر لظهور طوله، أو بعد لبعده عن قدر الرجال الطوال، أو لبعده عن الاعتدال، أو المفارقة والانقطاع لانفصال بعضه عن بعض، أو عن

غالب الناس، أو عن الاعتدال.

(ولا القصير المتردد) أى المتناهى فى القصر من التردد بمعنى الرجوع أو الدخول، كأن بعضه يدخل فى بعض ويرجع إليه، وهذه صفة خلقته صلى الله تعالى عليه وسلم لذم الطول المفرط والقصر المفرط، وللتلمسانى هنا كلام فى تفسيره لا محصل له.

(ومع ذلك) مع كونه ربعة معتدلا **(فلم يكن يماشيه أحد)** من الناس، بأن يمشى معه وبجنبه بحيث يعرف مقدار القدود، قيل: الأولى عدم الفاء إلا أن يقال هذه بيان للحالة السابقة، يعنى لأنها خلقة وهذه عارضة فتدبر.

(ينسب إلى الطول الإطالة) المراد بنسبه له اتصافه به وكونه معروفًا به مشهور، كما يعرف المرء بالنسبة فيقال: القرشى ونحوه فهو استعارة، وقوله الإطالة أى غلبه فى الطول وزاد عليه فهو من باب المغالبة المعروف، فلذا تعدى مع لزومه، أو أصله طال عليه على الحذف والإيصال. وروى البيهقى وغيره زيادة «ربما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما فإذا فارقا عاد ربعة».

وفى المواهب عن ابن سبع: «وإذا جلس صلى الله تعالى عليه وسلم كان كتفه أعلى من الجالسين» وهل هذا محض أراءه لذلك أو حقيقى يرجع عنه؟ فيه تردد، ولم يخلق أطول من غيره لخروجه عن الاعتدال الأكمل المحمود، ولكن جعل الله له هذا فى رأى العين معجزة خصه الله تعالى بها، لئلا يرى تفوق أحد عليه بحسب الصورة، وليظهر من بين أصحابه تعظيمًا بما لم يسمع لغيره، فإذا فارق تلك الحالة زال المحذور وعلم التعظيم فظهر كماله الخلقى.

(رجل الشعر) يقال: شعر رجل بفتح الراء وكسر الجيم وفتحها وهو ما فيه تثن قليل، وما لا تثنى فيه فهو سبط، والأول أحسن وأمدح، وروى «شعره بين شعرين لا رجل ولا سبط» وفى مثله مبالغة فى قلة التثنى وفيه كلام بسطناه فى السوانح، وفى الصحيحين: «لا بالجعد القطط ولا بالسبط» والقطط: بفتح الطاء وكسرها الشديد الجعودة. والسبط: بكسر الباء ضده وهو المسترسل بغير تكسر، فشعره صلى الله تعالى عليه وسلم بين هاتين الصفتين لا تجعيد فيه كثير.

(إذا أفتر ضاحكًا أفتر عن مثل سنا البرق) هذا رواه البيهقى مسندًا. ومعنى أفتر كشف على أسنانه متبسما وضاحكا، ويفتر يضحك ضحكا حسنا بمعناه، وفى النهاية تبسم حتى تبدو أسنانه من غير قهقهة، وهو افتعال من فرت الدابة إذا كشفت شفتها ليعرف مقدار سنها، ومنه أخذ السن بمعنى العمر. وفى حواشى عبد المجيد اليمنى: ومنه

فرة الحر أوله يعنى بكسر الفاء وتشديد الراء وتبعه بعض الشراح، ومن قال: إنه وهم لم يفهم مراده. والسنا مقصور، ورواية مده لا أصل لها فإن الممدود بمعنى الشرف، كما قال ابن عباد المغربى:

أيها الصاحب الذى فارقت عيـ ـنى ونفسى منه السنا والسناء

أى إذا كشف صلى الله تعالى عليه وسلم عن أسنانه فى حال ضحكه ظهر من فمه وبياض أسنانه لمعان كلمعان البرق، وإنما خص التشبيه بحال التبسم والسرور، وشبه ذلك بالبرق دون ما هو أضوء منه، كالشمس والبدر إشارة إلى أنه لا يدوم ضحكه وانفتاح فمه، لأن كثرة الضحك غير محمودة و لم يكن ذلك دأبه صلى الله تعالى عليه وسلم؛ ولأن تبسمه لمخاطبه يعقبه نفع وخير من عطائه وكلامه ورضاه، كما يعقب البرق المطر والرحمة العامة، وما قيل إن الأظهر أنه إذا استمر يتلألأ فيظهر تارة ويختفى أخرى فالمناسب البرق، ويؤيده رواية مثل سنا البرق إذا تلألأ مخيلة برق خلب، وهذا تشبيه لنور ثغره.

وقوله: **(وعن مثل حب الغمام)** فى بياضه ونقائه وصفائه، حب الغمام: هو البرد بفتح الراء وتسكينها. قال المصنف رحمه الله: ويروى تسكينها والأول أصح. وقيل: حب الغمام حبابه على الماء شبه به ما على أسنانه من قليل الريق وبلته وهو الظلم بالفتح الذى تسميه الشعراء شنبا، كما قال ابن الوكيل:

يا بارقا قد حكاه فى تبسمه لقد حكيت ولكن فاتك الشنب

والأول أصح لرواية البيهقى عن هند رضى الله عنه: «عن مثل البرد المنحدر عن متون الغمام» قاله السيد رحمه الله تعالى، شبه ما يظهر من أسنانه فى التبسم بذلك فى البياض والصفا واللمعان والاعتدال، وفى النهاية: «وفى البرد» وهو بعيد، ومن قال حب الغمام قطرته شبه بها ما يطفو على الثنايا من الريق فقد وهم، لأن الثنايا ليس عليها عادة إلا بلل، فلو اجتمع لم يحس، قيل: وما أحسن عدوله عن تشبيهه بالحباب لحب السحاب لتنزهه عن تشبيهه بأمر محرم. وقيل عليه: ما أحقه صلى الله تعالى عليه وسلم بقول البحترى:

كأنما تبسم عن لؤلؤ منضد أو برد أو إقاح[1]

وقول الحريرى:

نفسى الفداء لثغر راق مبسمه وزانه شنب ناهيك من شنب

---

(١) البيت من السريع، وهو بلا نسبة فى تاج العروس.

يفتر عـــن لؤلؤ رطب وعن برد   وعن إقاح وعن طلع وعن حبب

وليس الحبب حباب الماء ونفاخاته، ولا حباب الخمر، بل نضـرة الأسنان كمـا قالـه الجوهرى، فلا ميل فى التشبيه لمـا قالـه وهـو وهـم منـه، فـإن الحبـاب والخبـاب بـالمعنى المذكور مما لا شبهة فيه، وما قاله الجوهرى لا يصح هنا لما فيه من تشبيه الشيء بنفســه، كما قيل:

أقــام يعمـــل أيامــا قريحتـــه   وشبـــه الـماء بعد الجهد بالماء

(إذا تكلم يرى كالنور يخرج من ثناياه) وقع عندنا يرى مضاع رأى المجـهول، والـذى صححه التلمسانى وغيره رواية رئ براء مكسورة وياء ساكنة تليها همـزة بـوزن، قيـل: وفى رواية رئى بضم الراء وهمزة مكسورة يليها ياء مجهول رآى، والكل صحيح روايـة ودراية، وهذا رواه الترمذى فى شمائله والدارمى والبيهقى عن ابن عباس رضى الله تعـالى عنهما. والثنايا: جمع ثنية وهى أربع أسـنان اثنـان فوقانيـة واثنـان فـى مقابلـهما، والمـراد وصف ثناياه صلى الله تعالى عليه وسلم بشدة البياض والبريق والصفـاء، وأول الحديـث: «كان صلى الله تعالى عليه وسلم أفلج إذا تكلم» إلى آخـره، وروى ابـن كثـير رحمـه الله رئى النور من ثنيته وهى الأظهر، ولذا قيل: الكاف زائدة ويحتمل أنـها اسـم بمعنـى مثـل وهى أو الجار والمجرور نائب الفاعل، وهـو صفـة لمقـدر أو تـلألأ أوشئ وضمـير يخـرج للنور، وقيل: إنه للكلام المفهوم مما قبله أى يخرج منه كلام شبيه بالنور فى ظهوره.

(أحسن الناس عنقا) رواه البيهقى مسندًا وفيه: «أحسن عباد الله عنقـا» وفـى روايـة: «من أحسن الناس» والمراد أحسن جميع الناس أو الناس الموجودين ولا تكلـف فيـه كمـا توهم، وحسنه باعتداله وبياضه وصفاء لونه، ويستحسـن فـى العنـق التلـع وهـو إشـراقه وانتصابه، والتنطع وهو طوله، قال التجانى: وقد جاء هـذا فـى وصفـه صلـى الله تعـالى عليه وسلم، قال: وطول العنق مما يستحسن ما لم يفرط، فـإذا أفـرط فـهو مذمـوم وقـد هجر، وأصل بطول عنقه ولقب به. واعلم أن السهيلى قـال فـى «الـروض الأنـف»: إن العنق والجيد بمعنى إلا أن الجيد يستعمل فى المدح والعنق بخلافه فنقول: صفعت عنقـه لا جيده، ولما ورد عليـه قولـه تعـالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد:٥] قـال: إنـه تهكم وتمليح بجعل الحبل كالعقد لها وفيه نظـر، لأن الاستعمال بخلافـه كثـير كمـا هنـا وكقوله.

وفى عنق الحسناء يستحسن العقد

(ليس بمطهم ولا مكلثم) المطهم كمـا فـى القـاموس كمعظـم السـمين الفـاحش، والنحيف الجسم الدقيقه، وهو من الأضداد والمنتفخ الوجه والمجتمعه مـدوره وقليـل لحـم

الوجه، ومكلثم اسم مفعول من الكلثمة، وهذه الصفة مروية عن عليّ كرم اللّه وجهه فى سنن الترمذى والبيهقى بإسناد غير متصل، وسيأتى. وعن عائشة رضى اللّه تعالى عنها وله معان منها ما تقدم ومنها كما فى الترمذى: «بادن كثير اللحم» والمجاوز لونه السمرة إلى السواد، ويصح إرادة كل منها غير التدوير إذا فسر به المكلثم لئلا يتكرر، وإعادة لا مع العاطف تأبى كونه تأكيدًا، وأما معناه المذكور فى القاموس وهو البارع فى الجمال فلا يصح هنا لنفيه، وقد ثبت أنه وسائر أعضائه فى غاية الكمال والجمال، ومكلثم اسم مفعول مروى عن على وعائشة رضى اللّه تعالى عنهما مسندًا، وفسر بمدور الوجه مطلقا ومع كثرة اللحم والباقى الوجنة، وقيل: هو قصير الذقن. وفى النهاية: إنه القصير الحنك الدانى الجبهة المستدير مع خفة اللحم؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان أسيل الوجه لا مستديره، ولا ينافى هذا ما مر عن عليّ كرم اللّه وجه ورضى اللّه تعالى عنه من وصفه بأنه مدور الوجه، لأن المنفى الاستدارة المفرطة المذمومة والمثبت خلافه كما صرحوا به، إلا أن فى شرح السنة أن الكلثمة لا تكون إلا مع كثرة اللحم، وكذا فى الصحاح، والمراد غير المفرطة أيضًا فهو من الأضداد، والصفتان للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا للعنق كما توهم وهو غلط فاحش هنا.

(**متماسك البدن**) وهذا مروى فى حديث هند رضى اللّه تعالى عنه كان بادنًا متماسكا، أى معتدل الخلق كأن أعضاؤه يمسك بعضها بعضا لقوتها وعدم استرخائها، وقال الغزالى: لحمه متماسك على خلقه الأول لم يضره السن الذى من شأنه أن يسترخى اللحم فيه بخلاف الشباب.

(**ضرب اللحم**) ضرب: بفتح الضاد المعجمة وسكون الراء المهملة والموحدة بزنة المصدر، أى قيل لحم البدن خفيفه لا إلى حد الهزال وهو يمتدح به، كما قال طرفة:

أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه   خشاشا كرأس الحية المتوقد[1]

وهذا معنى قولهم: «لحمه بين اللحمين لا ناحل ولا مطهم» وذكر اللحم مع قول أهل اللغة الضرب الرجل الخفيف لبيان معناه؛ لأنه مشترك أو للتجريد، وهذه الصفة فى حديث أم معبد رضى اللّه تعالى عنها. وفى حديث رواه البيهقى وهى لا تنافى ما ورد فى حديث آخر من أنه «كان بادنًا» أى جسيمًا أو كثير اللحم؛ لأن القلة والكثرة والخفة ومقابلها أمور نسبية فحيث أثبتت أريد بها رتبة معتدلة، وحيث نفيت أريد الإفراط أو أن هذا كان فى أول عمره، وكونه بادنًا فى آخره ولما فى الصحيح: «إنه

(١) البيت من الطويل، وهو فى ديوان طرفة بن العبد (ص٢٩)، أساس البلاغة (ص١٠٠)، تاج العروس (حول).

صلى الله تعالى عليه وسلم لما كبر سنه كثر لحمه» ولا خفاء أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن نحيفًا قط ولا سمينا، وقال التلمسانى: معنى كونه بادنًا كثير لحم البدن، ولكنه لكونه متماسكا يقوى بعضه بعضا ويشده ويمسكه فهو خفيف بهذه النسبة.

(**قال البراء بن عازب رضى اللّه تعالى عنه**) تقدمت ترجمته، وهذا الحديث رواه الترمذى وصححه، ورواه بتقديم أحسن الآتى. (**ما رأيت من ذى لمة فى حلة حمراء أحسن من رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم**) من زائدة أو مبنية لمقدر أى أحدًا، واللمة بكسر اللام وتشديد الميم ما طال من شعر الرأس فى أحد جانبيه، قال التلمسانى:قيل: هى الوفرة، وقيل: فرقها إذا ألم الشعر بالمنكب فهو لمة، وقيل: إذا جاوز شحمة الأذن، وقيل: دون الجمة، وقيل: فوقها والجمة مابلغ المنكبين.انتهى.

وقد اختلف فى الفرق بين هذه الثلاثة اللمة بالكسر، والجمة بالضم، والوفرة بالفتح، فقيل: اللمة ما جاوز من شعره شحمة الأذن وسميت بها لإلمامها بالمنكبين، وإن زادت فهى الجمة وهى ما سقط على المنكب كما فى شرح السنة، والمراد بإلمامها به قربها كما فى المصباح لا بلوغ أولها، وسقوطها وقوعها متصلة بها منبسطا بعضها عليه قليلا، وقيل: تجاوزه لما ورد فى الحديث: «كان شعره يضرب منكبيه»[1] وفيه نظر. وفى القاموس: الوفرة ما سال على الأذن أو جاوز الشحمة، ثم الجمة، ثم اللمة، ووافق ما فى الجوهرى تارة، وتارة قال: اللمة ما جاوز الشحمة فإذا بلغ المنكب فهو جمتة فوهم فيه السهو أو التناقض، وهو محمول على ما فى شرح السنة، وقيل: يتعين حمل كلامهم على أن فى الجمة لغتين أى معنيين؛ ما سقط على المنكب وما لم يبلغه لما مر، فاقتصر بعضهم على أحدهما والآخر على الآخر، وذكرهما الجوهرى، وفى الشمائل: «جمته تضرب شحمة أذنيه» فهى ثالثة من غير تناقض، ومنهم من أول الحديث بأنه جمة، قيل: وربما وصل لما ذكر بعده وهو بعيد، بل غير سديد. انتهى.

أقول: الجمة بمعنى الكثرة الشعر، ومنه الجم الغفير، والوفرة من الوفور، وهو الكثرة، واللمة من الإلمام وهو القرب أو النزول، ولا يخفى أن الكثرة والقرب ونحوهما أمور نسبية تتفاوت بحسب ما ينسب إليه، فلا تعارض بين معانيها بحسب الأصل والاشتقاق، فلكل منها معنى يجوز استعماله فى المعانى المذكورة بحسب القرائن، فاللمة ما يلم بالأذن أو بشحمها أو بالمنكب بأن تقرب منه أو تنزل عليه، والكثرة إما فى نفسها أو بالنسبة للمة، فإذا لوحظ كل من هذه صحت المعانى فتدبر.

---

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل (١/٣٢١).

والحلة بضم الحاء المهملة وتشديد اللام كما فى القاموس إزار ورداء براد وغيره، ولا تكون حلة إلا من ثوبين أو ثوب له بطانة انتهى. فلا تكون ثوبا واحدًا ولا ثوبا ليس له بطانة كما قاله الخليل، والثوب لا يختص بالمحيط بل يعمه وغيره، وفى النهاية: إنها من برود اليمن ولا تكون إلا ثوبين من جنس واحد، وتاؤها للوحدة الصورية كما يقال: جنس واحد أو للإسمية. وقال التجانى: فى الحديث دليل على أن الحلة قد تكون ثوبًا واحدًا يعنى لتاء الوحدة، ووصفها بحمراء واللغويون مطبقون على أنها لا تطلق إلا على ثوبين. والحديث صحيح متفق علي تخريجه، ووهم المصنف رحمه اللّه تعالى فى مشارقة فقال: إنما سميت بذلك لحلولها على الجسم أو على ثوب تحتها، وهو باطل لاقتضائه أن كل ملبوس يسمى حلة من أى نوع كان.

أقول: ما نقله من اشتراط كونها ثوبين واتفاق أهل اللغة عليه قد نقلناه لك عن صاحب القاموس، وعن الخليل ما يخالفه فأى اتفاق يصح بعد هذا، وأما اعتراضه على المصنف رحمه اللّه تعالى فى وجه التسمية فليس بشىء؛ لأن وجه التسمية مناسبة لحظها الواضع لا يلزم اطرادها ولا انعكاسها فهو غفلة منه، ثم اعلم أن الإمام الشافعى رضى اللّه تعالى عنه ومن وافقه استدل بها الحديث على جواز لبس الأحمر، ولو كان قانيا كالمعصفر والمزعفر، ومن ذهب إلى كراهتهما كراهة تحريم، أجاب بأن المراد أنه كان فيه خطوط حمر وليس أحمر خالصا، وبأن هذا منسوخ، قال محمد رحمه اللّه تعالى فى شرح «السير الكبير»: لبس الأحمر مكروه. وفى حديث ابن عمر رضى اللّه تعالى عنهما أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «إياكم والحمرة فإنها زى الشياطين»[1]. وما روى من حديث البراء بن عازب رضى اللّه عنه: «ما رأيت ذا لمة فى حلة حمراء» إلى آخره كان فى الابتداء ثم كره استعماله للرجال بعد ذلك. انتهى. أو هو من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم، وضرب عمر رضى اللّه تعالى عنه من لبس حلة معصفرة وقال: دعوا هذه الثياب للنساء. أو الكراهة تنزيهية وفعله للجواز. وسئل الشيخ قاسم ابن قطلوبغا عن لبس الأحمر الذى فيه النزاع وهو الأحمر الصرف هل هو مكروه أم لا؟ فأجاب بأنه مكروه كراهة تحريم للأحاديث الواردة فى النهى عنه، ثم أورد كلام محمد فى السير وأنه كرهه بعد ذلك لما فى حديث ابن عمر رضى اللّه تعالى عنهما: «نهانا رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم عن لبس المعصفر»[2]. وإنما لبسه الشعبى رحمه اللّه تعالى فرارًا من القضاء لما كلفوه مرارًا، فلبس المعصفر ولعب بالشطرنج وخرج مع

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٤٨/١٨).

(٢) أخرجه الترمذى (١٧٢٥)، والنسائى (١٦٨/٨).

الصبيان لينظر الفيل فتركوه، وإذا ورد ما يقتضى الإباحة وما يقتضى التحريم فالثانى ناسخ نسخًا اجتهاديًا كما يشير إليه كلام السير. وما ذكر عن الشعبى جواب عما يقال لو كان النسخ مشهورًا ما لبسه الشعبى.

وقال بعض المتأخرين: حديث البراء ليس من محل النزاع لأن الحلة برود اليمن المخططة. انتهى. وفيما قاله الشيخ نظر، لأن النهى عن المعصفر العملى الذى شاع فى عهد النبوة لبس النساء له لا يستلزم النهى عن الأحمر المنسوخ كذلك، وفرار الشعبى عن القضاء لا يبيح له الحرام. وقيل: «حلة حمراء» فى حديث البراء: «يأبى كونها مخططة» فالحق أن الكراهة تنزيهية ولذا قال النووى فى شرح المهذب: لبس الأحمر جائز بالإجماع. أى مع الكراهة التنزيهية، وإن قال بعض أصحابنا من المالكية بجوازه أى من غير كراهة، وقول بعض الحنفية بالكراهة لا ينافى الجواز، ومراد النووى الإجماع المذهبى، وما ذكره الشيخ قاسم من النسخ بالاجتهاد محل بحث فليحرر.

(وقال أبو هريرة) تقدم الكلام فيه وأنه غير منصرف. **(ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)** هذا أبلغ من الحديث الذى قبله؛ لأنه فضله فى لباس مخصوص، وخصه لأنه يظهر فيه النور والحسن أكثر من غيره، وقال فى هذا: ما رأيت شيئا أى من الناس أو غيرهم مطلقا.

(كأن الشمس تجرى فى وجهه) كأن بالتشديد فى الرواية هنا وإن جاز تخفيفها، وهى أداة تشبيه وترد للظن والتشكيك وهو مبنى على التشبيه، والشمس منصوب اسمها وجملة تجرى خبرها، وجريان الشمس حركتها الفلكية كما قال عز وجل: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨] قيل: شبه لمعان وجهه تارة بالشمس وتارة بجريان الشمس، إلا أن المنتقل لمعانه فالمناسب أن يقال: كأن نور الشمس، أو يراد بالشمس نورها فالأوجه أنه شبهه بنورها وجريانه، لكنه لما كان يتبعها حكم بأنها تجرى وهو دقيق بليغ، أو شبه محل اللمعان بقرصها وتغيره تارة وتارة بجريان القرص وفيه بعد. وقال الطيبى رحمه الله تعالى: يجوز تعلق الخبر بيستقر فهو من تناسى التشبيه وجعل الوجه مقر الشمس، فكأنه جعل تجرى حالاً وكان للظن والادعاء أو فعلاً ناقصًا وهو بعيد. انتهى. وقيل: المعنى أن الشمس الجارية فى فلكها مشبهة بما يجرى فى وجهه من عرق ونحوه، ففى وجهه ما هو شبيه بالشمس، ولذلك الشبيه ما هو شبيه بذلك الجريان من التلألأ والانبساط، ففيها مشبه ومشبه به، وصفة هى للمشبه ظاهرًا وللمشبه به حقيقة على أسلوب، كأنى قائل أى أنا كالرجل القائل فحول إسناد الجريان، وفيه مشبهان مطويان على سنن الاستعارة، وهما ما فى وجهه من التشبيه

بالشمس والتشبيه بذلك الجريان، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ [فاطر: ١٢] على ما فصل في شرح المفتاح. أقول: هذا كله تكلف وتعسف لا طائل تحته، وبيانه أن مراده المبالغة في وصف وجهه الشريف بالنور، كما أشار إليه بقوله:

(**وإذا ضحك يتلألأ في الجدر**) فشبه وجهه الشريف بالشمس في الإشراق والنور، ثم عكس التشبيه ليكون أبلغ فقال: كأن الشمس وجهه، ثم زاد في المبالغة على طريقة التجريد فانتزع منه شمسًا جعلها وجهه، كقوله تعالى: ﴿فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فصلت: ٢٨] وأقحم تجري على أنه حال وأصله كأن وجهه الشمس، ثم كأن الشمس وجهه، ثم كأن الشمس في وجهه، إنما قيدها بكونها جارية إما لأن المراد ظاهرة سائرة على وجه الأرض، أو لأن تلألأ النور في وجهه كتحركها وهو أقوى في التشبيه، وهذا هو الذي عناه، وأما تناسي التشبيه فمراده به تشبيه وجهه بالشمس؛ لأن منطوقه تشبيه الاستقرار أو الجريان لما عرفته لكنه تسامح في العبارة، وأما ما سنح له الشراح فلا وجه له، ومن الغريب هنا قول التلمساني: إن معنى تجري في وجهه يتوهج كتوهج الشمس، وأشار إلى ظهور الأمران كراهة أو إصابة كرب في وجهه، كظهور ذلك في الشمس من سحاب أو غيره، ومنه قوله في الحديث: «فرأيت لوجهه صلى الله تعالى عليه وسلم ظللا» وهي جمع ظلة. انتهى.

والتلألأ اللمعان والإضاءة، وجُدُر بضمتين جمع جدار وهو الحائط والناس تستعمله بمعنى الأساس، وأما الجدار بفتح فسكون فهو الحاجز الذي يحبس الماء كما سيأتي في حديث الزبير رضي الله تعالى عنه: (**اسق يا زبير حتى يبلغ الجدر**) وليس مفردًا بمعنى الجدار كما توهم، وهذا رواه أحمد والترمذي وابن حبان، والجمع على ظاهره من غير حاجة إلى جعل التعدد باعتبار الأوقات، أي نور وجهه الشريف يشرق إشراقًا يصل إلى الجدران المقابلة له، كما يكون ذلك من الشمس والقمر، وقيل: إنه من نور يخرج من ثناياه وفمه إذ أفتر وتبسم، وروى ابن كثير عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «يكاد يتلألأ في الجدر» فتفاوته بحسب الأوقات أو بحسب خفة ضحكه وشدته، وأما هنا محمول على المبالغة على تقدير تكاد.

(**وقال جابر بن سمرة**) الذي مر ذكره. وهذا مما رواه الشيخان عنه، (**وقال له رجل**) جملة حالية بتقدير قد أو معطوفة على ما قبلها. وفي الشمائل: سأل رجال البراء بن عازب (**كان وجهه صلى الله تعالى عليه وسلم مثل السيف**) بتقدير الاستفهام كما ورد مصرحًا به في الشمائل، ويجوز عدم التقدير هنا، والظاهر الأول تشبيهه به في البريق

واللمعان لا مطلقا ولا فى الطول كما توهم. وروى البيهقى: «أكان وجهه حديدًا كالسيف»؟ ولا يظهر وصفه بالحدة وإن أريد بحدته نفاذ أمره وإمضاؤه فى الدين وقصد الخير، كما فى النهاية، فلا وجه لتخصيصه بالوجه وكذا التعميم ولذا رده جابر **(فقال لا)** قيل: قال: تأكيد لقال الأولى وعطفه لجواز عطف المؤكد على المؤكد بالفاء وثم، كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤، ٥] وإنكار أهل المعانى غريب، أو هو لتفصيل ما قبله، أو أنه لم يقصد الجواب، ووقع فى مسلم بدون عاطف ورده بلا إما لإيهامه الطول ومخالفته فى اللون أو لأن لمعانه أقوى، والمشبه ينقص عن المشبه به كما قال:

ظلمناك فى تشبيه صدغك بالمسك ... فمن عادة التشبيه نقصان ما يحكى

(بل مثل الشمس والقمر) شبهه بشيئين والمشبه به قد يتعدد فيعطف بأو كقول البحترى المتقدم(١):

كأنما تبسم عن لؤلؤ ... منضد أو برد أو إقاح

وبالواو كقول الحريرى المتقدم أيضًا:

يفتر عن لؤلؤ رطب وعن برد ... وعن إقاح طلع وعن حبب

فلا وجه لقول السيد: اللائق أن يقول الشمس أو القمر أو الواو بمعنى بل، والشمس يمتنع استيفاء الحظ من رؤيتها فاللائق القمر، وما فى الوفاء من أنه لم يقم مع الشمس قط إلا غلب ضوؤه ضوءها، لا ينافى التشبيه بها لأنها أعرف وأشهر. وقال التلمسانى: إنه أضرب عن تشبيهه بالسيف لعدم مناسبته وإنما يشبه به نفس الإنسان فى نفاذ أمره وشدته كما قال:

وكالسيف إن لاينته لان متنه ... وحداه إن خاشنته خشنان

قال: ويقال: لابل ولابن ونابل. انتهى. وهو غريب، وفى شرح الشمائل لابن حجر: الشمس يشبه بها غالبا فى الإشراق والضياء والرفعة، والقمر يشبه به فى الملاحة والحسن، فبين جمع وجهه للمعنيين مع نوع استدارة وطول، وفى حديث كعب بن مالك رضى الله تعالى عنه: «كان صلى الله تعالى عليه وسلم إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر»(٢) وفى رواية: «فلقة قمر» وفى رواية للطبرى: «التفت إلينا كأن وجهه شقة

---

(١) تقدم الاستشهاد به.

(٢) أخرجه البخارى (٢٢٩/٤)، ومسلم (٢٧٦٩/٥٣)، وأحمد (٤٥٩/٣)، والحاكم (٦٠٥/٢)، والطبرى فى تفسيره (٤٥/١١).

القمر» وإنما أرادوا تشبيه بعض وجهه؛ لأن السرور كان يبدو فى جبهته فشبه بعضه ببعضه، وبهذا اندفع ما قيل إن وجهه الاحتراز عما فى القمر من السواد فشبهه ببعضه الخالى منه. انتهى.

(**وكان**) وجهه الشريف (**مستديرا**) فيه استدارة كما مر، وهذا مؤكد للتشبيه لا لعدم المشابهة التامة، أى هو أحسن منه وأضوء لاستدارته دونه هذا لا وجه له، لأن استدارته وكريته كسائر الأجرام العلوية مبرهن عليه فى الهيئة، وقيل: التشبيه بالنيرين إنما يتبادر منه الضوء والملاحة فبين الاستدارة ليكون التشبيه فيها أيضًا.

(**وقالت أم معبد**) وهى كما تقدم عاتكة بنت خالد الصحابية رضى اللّه تعالى عنها التى كانت نازلة بخباء فى طريق المدينة، وقد نزل عليها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى هجرته لما خرج من غار ثور، وقصتها معه مشهورة مروية من طرق عديدة تعضدها وتصححها، وكان زوجها غائبا فلما أتاها أخبرته به فاستوصفها إياه، فقالت: «رأيت رجلا ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبه محله ولم تزريه صقله، وسيم قسيم، فى عينيه دعج، وفى أشفاره عطف، وفى صوته صحل، وفى عنقه سطع، وفى لحيته كثافة، أقرن، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماه وعلاه إليها، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب» إلى آخر ما قالته فى نعته من كلام بليغ مشروح فى السير منه.

(**فى بعض ما وصفته به**) أى فى بعض كلام وصفته به من رواية البيهقى فى دلائله عن أخيها حبيش بن خالد عنها، وأقحم لفظ بعض إشارة إلى أنه كلام طويل مشتمل على وصفه وغيره من قصة الشاة وغيرها، وما نقله المصنف رحمه اللّه تعالى بعض الصفة لا كلها، وإضافة بعض لامية من إضافة البعض للجزء لا بيانية كما توهم.

أقول: تفصيله كما فى شرح الكتاب لابن غالب تلميذ الشلوبين: إن النحاة اختلفوا فى إضافة بعض القوم، فقال ابن خروف: لا يمتنع بعض من القوم وجزء من الشىء فهو على معنى من ولا يكون ذلك فى كل، فقد يكون للشئ حكم لا يكون لمقابله، ويجوز فى بعض المال ويراد به إما الباقى منه فيتصف هذا بأنه بعض له كان مضافا له، والإضافة تتحقق بأدنى ملابسة، وقد يراد به بعض للكل المتحقق. وقال السهيلى: البعض فى مقابلة الكل وإضافة كل على معنى اللام فيجب ذلك فى بعض مقابلها، وأيضًا فالإضافة على معنى من إنما تكون جنسًا للأول يصدق عليه كخاتم حديد، وليس بعض الدرهم درهما ولا بعض زيدا، وهذا فيه تفصيل وهو أنك إذا أضفت البعض لجنسه كبعض الحديد وبعض الطعام، وإذا أضفته لذى صورة له اسم كزيد كان له

حكمه. انتهى.

(أجمل الناس من بعيد) الظاهر أنه صفة رجلا فى قوله: «رأيت رجلا» كما سمعته آنفا، ويجوز رفعه على القطع والمدح والجار والمجرور حال من ضمير أجمل أى مشاهدًا من بعيد، والجمال البلهاء والحسن، والذى فى الرواية السابقة أجمل الناس وأبهاه، فالمصنف إما يكون أسقطه لكونهما بمعنى أو ظفر برواية فيها هكذا، وكون الإطناب فى المدح محمود أسهل، والناس اسم أو جمع نادر، وأصله أناس كما فصله شراح الكشاف، وجعل الجمال من بعيد لأنه يحقق الناظر النظر فيه لمهابته، بحيث لا يطيل النظر له من قرب منه إلا من يكون صغير السن، كابن أبى هالة، أو من محارمه أو من الأعراب الجفاة، فإذا فعل ذلك أدرك فوق الجمال مرتبة أخرى كما قال:

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا

وإلى ذلك أشار بقوله: **(وأحلاه وأحسنه من قريب)** وفى نسخة: «وأحسنهم» والعرب تفرد الضمير فى مثل هذا حملا على لفظه أو على الجنس، كأنه قال: وأبهى هذا الجنس، وكذلك قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش، أحناه على ولد فى صغره وأرعاه على زوج فى ذات يد»(١) الحديث أى خير هذا الجنس؛ لأن الناس والنساء من أسماء الأجناس. وفى النهاية إنما وجد الضمير هنا ذهابا إلى المعنى، وأن التقدير أحنى من وجد أو من هناك كذا قرره بعض الشراح.

أقول: تحقيق هذه المسئلة أن العرب تقول أحسن الفتيان وأجمله بإفراد الضمير، بمعنى أحسن فتى. وفى التسهيل: إنه ليسد واحد مسدهم. ومثله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ [النحل: ٦٦] لأن الأنعام تسد مسد النعم قاله ابن مالك فى شرح التسهيل. وقال أبو حيان رحمه الله تعالى: مذهب الفارسى أن إفراد الضمير لأنهم يقولون تارة هو أحسن فتى فيفردون وتارة أحسن الفتيان فيجمعون، فتوهموا ذلك فى حالة الجمع فأفردوه، والذى يدل عليه كلام سيبويه رحمه الله تعالى أنه أفرد كما أفرد فى: ضربنى وضربت قومك على معنى من ذكر وهو الصحيح . ويدل عليه الحديث السابق، فلو كان على ما يقوله الفارسى قال: أحناها وقد يعود الضمير على الاثنين والإناث مع أفعل مفردًا كقوله(٢):

---

(١) أخرجه البخارى (٧/٧، ٨)، ومسلم (٢٠٠/٢٥٢٧)، وأحمد (٢/٢٧٥، ٤٤٩)، والحميدى (١٠٤٧)، والبيهقى (٧/٢٩٣).

(٢) البيت من الوافر، وهو لذى الرمة فى ديوانه (ص١٥٢١)، الأشباه والنظائر (٢/١٠٦)، خزانة الأدب (٩/٣٩٣)، الخصائص (٢/٤١٩)، الدرر (١/١٨٣)، شرح المفصل (٦/٩٦)، لسان=

ومية أحسن الثقلين جيدا وسالفة وأحسنه قذالا

وقوله:

شربوا منها وأغواه لها ركبت عنز بجدح جملا

وضمير الإناث السابق، ويكون ذلك دون أفعل قليلا، وفيه كلام حققناه فى غير هذا المحل. قال التلمساني: وهو مقيس عند ابن مالك وسماع عند سيبويه، وإفراده لإرادة مامر لا لأنه اسم جنس كما توهم، وأحلى من قولهم حل بعينه وقلبه إذا أعجبته واستحسنه فعطف أحسنه عليه عطف تفسير. والحاصل أن الصورة الإجمالية المشاهدة أجمل من غيرها، وكذلك التفصيلية المشاهدة من قريب، وكثيرًا ما يتفاوت البعد والقرب إذا دقق النظر.

(وفى حديث ابن أبى هالة) الآتى وتقدمت ترجمته **(يتلألأ)** يضئ ويشرق. **(وجهه تلألؤ القمر)** منصوب على المصدرية، أى مثل تلألأ **(ليلة البدر)** أى عند تمامه وهو أنور ما يكون وأحسنه، وقالوا: يسمى ليلة طلوعه والثانية والثالثة هلالا، ثم يسمى قمرًا إلى ثلاثة عشر، ثم يستوى ليلة ثلاث عشر فتسمى تلك الليلة ليلة السواء ثم يليها ليلة البدر، لأنه إذا بدرت الشمس للغروب بادرها بالطلوع وقابلها. وقيل: من البدرة وهى ألف دينار لتمام عدده ثم يستوى ليلة النصف قمرًا ويسمى زبرقانا.

(وقال علىّ) بن أبى طالب كرم اللّه وجهه كما رواه الترمذى والبيهقى عن محمد ابن الحنفية فى حديث مرسل ضعيف. **(فى آخر وصفه له صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى فى حديث طويل فى صفته وحليته آخره ما نقله المصنف رحمه اللّه تعالى، وليس المراد أنه آخر مجلس وغيره مما تمحله بعضهم.

(من رآه بديهة) أى فجأة وبغتة قبل مخاطته حاله وخلقه، ويقال: لكل ما يفعل عجلة من غير تأمل بديهة كما قال المعرى: إن الطعان بداية الفرسان. وفى كتابه «البدائع» البداية البديهة مشتقة من بداه، كما يقال: مدح ومده وأصله فى الكلام، وغلب فى الشعر من غير روية وتفكير والارتجال أسرع من البديهة.

(هابه) أى خالفه وقد يرتعد من يقوم بين يديه، وفى النهاية: هابه عظمه ووقره، فالمعنى أن من رآه ابتداء وقره ولو كان من أعدائه، فإذا تدبر كماله وحلمه أحبه ومن أحبه عظمه، فالتوقير لازم له على كل حال، والمحبة بعد الخلطة كما قال.

=العرب (٨٨/١١)، وبلا نسبة فى أمالى ابن الحاجب (٣٤٩/١)، رصف المبانى (ص١٦٨)، شرح شذور النهب (ص٥٣٦)، همع الهوامع (٥٩/١).

(ومن خالطه) أى مازجه وصاحبه ويلزمه معرفته فلذا قال: **(معرفة)** وهو حال أى ذا معرفة أو مفعول مطلق، أى مخالطة معرفة، أو لأجل المعرفة لا لأجل النفاق والعداوة والانتقاد، لما يراه من لين جانبه وحلمه وكرمه وشفقته على جميع عباد اللّه.

(أحبه) لظهور محاسنه التى توجب محبته، ولأن اللّه تعالى سخر القلوب لمحبته، وإذا أحب اللّه تعالى بعض عباده ألقى عليه محبة الناس، ولا يحتاج إلى أن يقال إنه ربما كان يتصرف منه معجزة،كما روى أنه عليه الصلاة والسلام وضع يده على صدر رجل فما رفعها حتى صار أحب الناس إليه بعدما كان أبغضهم عنده. وفى رواية: «من خالطه فعرفه» وهى قريبة من رواية المصنف رحمه اللّه تعالى بلا تعنت.

(يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله) كلام مستأنف فصله لاستقلاله، وناعته واصفه أى كل من يريد وصفه من شأنه نعت ما يراه، والنعت يغلب فى الوصف الحسن، وقال الطيبى رحمه اللّه تعالى: أى ناعته يقول ذلك عند العجز عن وصفه ولا تكلف فيه كما توهم، والرؤية بصرية أو علمية، والمثل المساوى والمشابه ونفى المماثلة المطلقة مبالغة، والمراد مثله فى حسنه وكماله، ونفى المثل يقتضى نفى من يفوقه بالطريق الأولى، ولأن كل فائق مثل وزيادة فيلزم من نفيه نفيه كما يراد بنفى الأفضلية إثبات الأفضلية كما مر، وقول بعضهم: كل من شأنه النعت هذا يقتضى أنه مثل له حقيقة، وإلا لم يكن من شأن من رآه نعته بذلك كما لا يخفى.

(والأحاديث) الواردة **(فى بسط صفته)** فالجار والمجرور صفة بلا تكلف بتقدير الكائنة أو كائنة على أنه حال من المبتدأ، أو من فاعل الخبر وفى الظرفية كلام مر، والبسط التطويل. **(مشهورة كثيرة)** شهرة لغوية أو عرفية أو اصطلاحية، وفى كلام بعضهم: وليس المراد بالشهرة مصطلح أهل الأثر فإنه غير صحيح، بل الشهرة العرفية. انتهى. وما اشتهر تغنى شهرته عن ذكره فلذا قال: **(فلا نطول)** الكتاب والكلام **(بسردها)** سرد الشىء تعداده متواليًا متتابعًا مفصلاً من سرد الدرع نسج حلقه.

(وقد اختصرنا) أى أوردنا مختصرًا غير مطول **(فى وصفه صلى الله تعالى عليه وسلم نكت ما جاء فيها)** أى فى تلك الأحاديث، والنكت: اللطائف والدقائق الخفية من النكت فى الأرض كما مر، أو المعانى اللطيفة التى تتأثر منها النفس لحسنها. **(وجملة)** بضم فسكون أى قدرًا مجموعا. **(مما فيه الكفاية)** من بيانية أى جملة هى الكفاية أى الكافية، أو تبعيضية أى جملة هى بعض الكافى، وقيل: المراد من جملة أمور يكفى كل منها لا أنها جزء الكافى؛ لأنه مع ما فيه ينافيه التقيد بالمشية الآتى فتدبر.

(فى القصد إلى المطلوب) من وصفه صلى الله تعالى عليه وسلم متعلق بالكفاية، والقصد الوصول إلى ما طلبه فى هذا المقام من بيان كماله وجماله وحسن جملته وتفصيله، من قصد السهم أصاب مرماه، أو المراد به الإتيان يقال: قصد له وإليه إذا أتى، أو المراد الاعتدال والتوسيط بين الاختصار والتطويل فيما يفضى إلى الغرض المطلوب. وقوله: **(إن شاء الله تعالى)** وقع فى بعض النسخ هنا وليس فى أصلنا وهو للتبرك والتيمن، أو تعليق للقصد والكفاية.

(وقد ختمنا) جملة معطوفة على ما قبلها، ويجوز أن يكون حال، ولا وجه لجعل الماضى بمعنى المضارع استعارة لتحقق وقوعه بإبرازه فى صورة الحاصل تفاؤلا، أو إظهارًا للرغبة فيه أو جعل مضيه باعتبار عزمه، أو كونه فى المسودة لما فيه من المقارنة العرفية فتدبر. **(هذه الفصول)** المراد فصول هذا الباب. **(بحديث جامع لذلك)** أى لصفات حليته المنتشرة فى الأحاديث المشتملة على أكثر أنواعها وأصنافها، وإن فاته شىء من إفرادها فلا تكلف فى الجامعية كما توهم، وهذا الحديث وإن لم يكن آخرها بحسب الظاهر لا يضر؛ لأن ما بعده كالتتمة والخاتمة للمقصود منه وهذه زهرة لا تحتمل الفرك **(تقف عليه هنالك)** وروى هناك وهما للمكان وقد يكونان فى آخر الباب أو فى زمان الوصول إليه، والأول للبعيد والثانى للمتوسط، والبعد والتوسط بالإضافة لأمر آخر دائر على الاعتبار فلا منافاة بينهما. **(إن شاء الله تعالى)** قيد للوقوف لتوقفه على المشيئة، وقول المصنف قبل هذا وقول على ونحوه تعليق وهو حذف أول السند، وقد يسمى مثله معضلا، فإن اعتقد أن لقائله صحبة فلا كلام فيه وإلا فينبغى إيراده بصيغة التمريض، والكلام على هذا مفصل فى كتب ابن الصلاح وغيرها.

* * *

تم بحمد الله الجزء الأول من كتاب نسيم الرياض لشهاب الدين الخفاجى رحمه الله
فى شرح الشفاء للقاضى عياض
ويليه المجلد الثانى، وأوله:
فصل هو رابع الفصول السابق ذكرها. **(وأما نظافة جسمه)**

* * *

المحتويات

نسيم الرياض

في شرح شفاء القاضي عياض

تأليف

شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر
الخفاجي المصري
المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ

ضبطه وقدم له وعلق عليه
محمد عبد القادر عطا

الجزء الثاني

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م

دار الكتب العلميـة
بيروت ـ لبنان
رمـل الظريف، شـارع البحتري، بنايـة ملكـارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ ـ ١١ بيروت ـ لبنـان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3209-1



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

(فصل) [فى نظافة جسمه ﷺ]

هو رابع الفصول السابق ذكرها. **(وأما نظافة جسمه)** عطف على قوله أما الصورة إلى آخره فى الفصل الذى قبله، أى تفاوته من نظف بالضم ضد قذر.

(وطيب ريحه) المراد بالريح هنا الرائحة التى تدرك بالشم، وروى: «رائحته» وهما بمعنى.

(وعرقه) بفتحتين وهو ما يترشح من البدن وقد يستعار لغيره كماء الورد المستقر منه.

(ونزاهته عن الأقذار) أى بعده وخلوه منها وتنزيهه عنها، والضمائر للجسم أو لصاحبه المعلوم التزاما، والأقذار جمع قذر والقذر والقذار ضد النظافة هو مؤكد لما قبله وكالتفسير له.

(وعورات الجسد) أى البدن، وعورات بسكون الواو وقد تحرك، وبه قرئ جمع عورة وهو كل ما يوجب خللا فيه أو يستر ويستحى منه مما يشين وينقص، ولذا قيل: إنها مشتقة من العار الذى يذم بسببه، يقال: عورات الجسد والكلام.

(فكان صلى الله تعالى عليه وسلم) الفاء تفصيلية **(وقد خصه الله تعالى)** وفضله وميزه عمن سواه **(فى ذلك)** المذكور **(بخصائص)** أى فضائل لا توجد فى غيره كما أشار إليه بقوله:

(لم توجد فى غيره) من الأمم أصلا، أو لم توجد فى الأكثر وهذه صفة مخصصة أو مبنية مؤكدة. **(ثم تممها سبحانه)** تنزيه الله تعالى المنزه له واقع فى محزه والضمير للخصائص.

(**بنظافة الشرع**) متعلق بتممها، أى: تمم ما فطر عليه من ذلك وما خصه به مما شرعه له من النظافة الدينية كالوضوء، وإضافة النظافة للشرع لملابستها له وكونها بسببه فهى لامية، قيل: المراد أنه جعل بعضا منها فى جبلته بحصوله فيها أو باقتضاء طبعه وعقله مما لم يعط لغيره، ثم أمره بما لم تكن كذلك كالطهارات، ووقفه لاتباعه على أكمل الوجوه فاتصف بالنظافة الكاملة، سواء كان الشرع شرعه أو شرع من قبله، إن قلنا باتباعه له مع أنه صار شرعًا له، وأما ما نسخ فقد زال، فما قيل من أن هذا إنما يستقيم إن لم يكن متعبدًا بشرع من قبله، أو المراد بالنظافة عدم الإصر والأغلال تكلف من غير داع، وبالجملة فشرعه صلى الله تعالى عليه وسلم شامل لكل ما ينبغى على الوجه الأكمل.

(**وخصال الفطرة العشر**) من عطف الخاص على العام، والفطرة أصل معناها فى اللغة الطبيعة، والجبلة التى خلق عليها مركوزة فيه من فطر بمعنى خلق، ومنه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:١] وأصل معنى الفطر الشق كما قاله الراغب، وفسرها المحدثون هنا بالسنة، وأعترض عليهم ابن الصلاح بأنه لا يناسب المعنى اللغوى، ووجه ذلك بعضهم بأن مرادهم أن فى الكلام مضافا مقدرًا، أى سنة الفطرة بمعنى الصفة الناشئة عن الفطرة السليمة، ورد بأنه وقع تفسيرها بها فى صحيح البخارى، والقول ما قالت حزام فلا عبرة بمن أنكره من اللغويين كصاحب المغرب، أقول: السنة الطريقة المألوفة المعتادة والإنسان لاسيما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إنما يألفون ما تقتضيه فطرتهم السليمة المبنية على النظافة والنزاهة، وما يعتاد مما يقتضيه الطبيعة ملحق بها فلا بعد فى تسميته باسمها، كما قالوا العادة طبيعة ثانية. فالقول بأنه لا مناسبة بينهما غير صحيح، والجواب المذكور إقناعى لا يجدى نفعا، وللسيد هنا كلام لا محصل له رأينا تركه خيرًا من ذكره ورده، وأول من سن هذه السنن إبراهيم الخليل صلى الله تعالى عليه وسلم وكونها عشرًا رواه مسلم فى حديث مرفوع: «عشرة من الفطرة؛ قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظافر، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء»(١). قال مصعب: نسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة. وروى أبو داود «المضمضة والختان» بدل من إعفاء اللحية. وقال المصنف رحمه الله تعالى: المنسى الختان. وروى أيضا فى الحديث الصحيح: «خمس من الفطرة» فالحصر غير مقصود أو أن السنن كانت تزيد شيئا فشيئا. وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٤]، أنه أمر بعشر خصال ثم عدهن كما مر،

(١) أخرجه مسلم (٥٦/٢٦١)، وأبو داود (٥٣)، والنسائى (٨/١٢٦)، والترمذى (٢٧٥٧)، وابن ماجه (٢٩٣)، وأحمد (٦/١٣٧)، والبيهقى (١/٣٦، ٥٢، ٣٠٠)، والدارقطنى (١/٩٥).

وأشار بقوله: «من الفطرة» إلى أنها غير منحصرة فيهما ذكر وهذه كلها ظاهرة والسنة المراد بها الطريق كما مر فيشمل السنة والواجب.

والختان سنة عند الأكثر فى حق الرجال وهو قطع جلدة الكمرة، وفى حق النساء مكرمة، ويسمى خفاضًا بكسر الخاء المعجمة والفاء والضاد المعجمة، وهو قطع جلدة فى أعلى الفرج على ثقب البول، وقطع أدنى شىء منه كاف، واستحسن مالك رحمه الله تعالى ختان الصبى من سبع إلى عشر، وكرهه فى اليوم السابع لأنه عادة اليهود. ولم يعين له أبو حنيفة رحمه الله زمانًا.

وقص الشارب سنة وقيل: حلقه أحسن وتقصير اللحية حسن كما مر، وهيئته تحصل بقص ما زاد على القبضة ويؤخذ من طولها أيضًا على ما يأتى. وأما حلقها فمنهى عنه لأنه عادة المشركين.

وأما السواك فسنة مطلقا. وقيل: إنه سنة فى الوضوء. وقيل: هو سنة للرجال دون النساء لضعف أسنانهن فأقيم العلك لهن مقامه، ولذا كره للرجال إلا فى الخلوة لعذر. والمضمضة والاستنشاق من سنن الوضوء.

وانتفاض الماء هو استنجاء ويكون واجبًا وسنة كما بينه الفقهاء، وهو بالفاء والمهملة أو المعجمة، والمذكور فى اللغة أنه بالقاف والمهملة، وأما بالفاء فنضحه على الذكر، وقد ورد الاستنقاض بقاف ومعجمة بمعنى الاستنجاء، قال فى المغرب: والقاف والصاد غير المعجمة تصحيف، وفيه أن رواية القاف هى المشهورة. وقال الصاغانى: انتفاض الماء بالفاء والمهملة رشه على الذكر، وقيل: الانتقاص بالقاف تصحيف، وأشعر بأن ما فى المغرب ضعيف.

وقص الأظافر وتقليمها سنة ورد النهى عنه فى يوم الأربعاء، وأنه يورث البرص. وحكى عن بعض العلماء أنه فعله فنهى عنه فقال: لم يثبت هذا فلحقه البرص من ساعته، فرأى النبى عليه السلام فى منامه فشكى إليه ما الله أصابه، فقال له: ألم تسمع نهى عنه؟ فقال: لم يصح عندى. فقال: يكفيك أنه سمع ثم مسح بدنه بيده الشريفة فذهب ما به فتاب عن مخالفة ما سمع.

وغسل البراجم إزالة وسخها بالماء، والبراجم عقد أصابع من ظهر الكف، والرواجب عقدها من بطنها وهما بالجيم الموحدة. وقال التجانى: البراجم مفاصل الأصابع فعمم.

ونتف شعر الإبط معلوم ولا بأس بحلقه، وحلق العانة وهى ما حول الذكر والفرج، وإذا قص أظافره وحلق شعر إبطه وعانته أو حجم أو افتصد فينبغى دفن ظفره وشعره

لحديث: «ادفنوا الأظافر والشعر والدم»(١) فإنه سنة، فإن ألقاه فلا بأس به ولا يترك السبال وإن طال. وفى الإحياء: اختلف السلف فيما طال من اللحية، فقيل: يقص ما تحت القبضة وكرهه الحسن وقتادة لحديث: «اعفو اللحى» أى اتركوها على حالها، وأصل خلقتها، ورجحه النووى. وما ورد من أنه عليه السلام كان يأخذ من طول لحيته وعرضها ضعيف لا يحتج به، وإن احتج به بعضهم فهو مكروه.

وأما المرأة إذا نبتت لها لحية وشارب وعنفقة فيستحب حلقها، وقيل: لا ينبغى تغيير خلقتها.

أقول: إنه صح فى لفظ الانتقاص فى الحديث ثلاث روايات؛ الأولى: انتفاض بفاء وضاد معجمة، والثانية: انتفاص بفاء وصاد مهملة. والثالثة: انتقاض بقاف وضاد معجمة. ومعناه الاستنجاء أو رش الفرج بالماء دفعا للوسواس، وروى انتضاح فلا وجه لما فى المغرب، وتفصيله فى شرح الحديث.

وأما تقليم الأظافر وكيفيته وتفصيله فقد أفرده السيوطى رحمه الله تعالى بالتأليف فلا حاجة للتطويل بذكره كما فى بعض الشروح. ويكره ترك العانة والأظافر أكثر من أربعين يوما.

(قال): إن كان معطوفا على تمم فالمعنى قال الله لرسوله، وإن كان مستأنفا أو حالا بتقدير قد فالمعنى قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ويؤيده أنه وقع فى نسخة. **(صلى الله تعالى عليه وسلم بنى الدين على النظافة)** النظافة مصدر نظف وهى ضد الدنس، وفى قوله «بنى الدين» استعارة مكنية وتخييلية بتشبيه الدين ببيت قائم على أعمدة أو أساس حفظه لأهله. وقيل: إنه تشبيه مضمر أو منسى الأداة، والمراد النظافة الحسية من الحدث والخبث والدنس، والمعنوية كالعقائد الفاسدة والأخلاق الردية والتهاون بالعبادة، والمراد أنه مما بنى عليه فلا يعارض «بنى الإسلام على خمس»(٢). وقد أورد هذا الحديث فى القوت وفى الإحياء فى كتاب العلم، وقال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء: لم أجده هكذا.

وفى الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة رضى الله تعالى عنها: «تنظفوا فإن

---

(١) أخرجه البيهقى فى الكبرى (٢٣/١)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (١٩٨/٢).

(٢) أخرجه البخارى (٤٥١٥)، ومسلم (١٦/٢٠)، والترمذى (٢٦٠٩)، وأحمد (٢٦/٢، ٩٣، ١٢٠، ٣٦٣/٤، ٣٦٤)، والحميدى (٧٠٣)، وابن خزيمة (٣٠٨)، والبيهقى (٣٥٨/١)، والطبرانى فى الكبير (٣٧١/٢).

الإسلام نظيف»[١]. وللطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف عن ابن مسعود رضى اللّه تعالى عنهما: «النظافة تدعو إلى الإيمان»[٢]. انتهى. وفى الترمذى: «إن اللّه نظيف يحب النظافة» وهو بعض حديث ذكره فى كتاب الاستئذان عن سعد بن أبى وقاص أحد العشرة رضى اللّه تعالى عنهم، وقال: إنه حديث غريب فى سنده خالد بن إياس أو إياس وهو ضعيف. وقال السيوطى فى تخريجه هنا بعد ما ساق كلام العراقى. قلت: رواه الترمذى عن سعد بن أبى وقاص مرفوعًا: «إن اللّه نظيف يحب النظافة فنظفوا أفنيتكم»[٣] وروى الرافعى فى تاريخ قزوين بسنده عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه مرفوعا: «تنظفوا بكل ما استطعتم فإن اللّه بنى الإسلام على النظافة، ولن يدخل الجنة إلا كل نظيف». انتهى.

وبما ذكرناه من أن الحديث روى من طرق متعددة تجبر ضعفه، علم أنه خرج من الضعف إلى مرتبة الحسن ومعناه صحيح موافق للشرع، فلا يرد على المصنف ماقيل إن الحديث الضعيف لا يؤتى فيه بصيغة الجزم كقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ونحوه، لأنه يقتضى صحته والجزم به فينخرط فى سلك «من كذب علىّ»[٤] وهو تساهل قبيح، فينبغى أن يقول: قيل أو روى ونحوه من صيغ التمريض، وأما إضمار صيغة التمريض أو قصد معناها اعتمادًا على القرينة، فلا يتأتى مع الجزم وبقية الكلام عليه مستوفاة فى أصول الحديث، فلا يلتفت لما ذكره بعض الشراح هنا من الخرافات المزخرفة، ثم إن إطلاق النظيف على اللّه فى الحديث السابق و لم يذكره أحد فى أسمائه تعالى كما قيل، وقع للمشاكلة والمتقدمون يسمونها ازدواجًا أيضًا فلا وجه للاعتراض عليه لتوهم أنه الازدواج المذكور فى بديع المفتاح فإنه من قصور النظر. وقيل: إنه لا حاجة للمشاكلة فيه لأنه بمعنى القدوس وكفى لثبوته هذا الحديث.

(**حدثنا سفيان بن العاصى**) سفيان بتثليث السين والعاصى بعين وصاد مهملتين، وهو سفيان بن أحمد بن العاصى بن سفيان بن عيسى أبو بحر الأسدى، ولد سنة تسع وثلاثين

---

(١) انظر: كشف الخفا (٣٤١/١)، والأسرار المرفوعة (١٥٣).

(٢) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٢٣٦/١)، وأبو نعيم تاريخ أصفهان (١٨٣/١).

(٣) أخرجه الدولابى فى الكنى والأسماء (١٦/٢)، وأورده العجلونى فى كشف الخفا (٣٤١/١)، والسيوطى فى الدرر المنتثرة (٦٠).

(٤) أخرجه البخارى (٣٨/١، ١٠٢/٢، ٢٠٧/٤)، ومسلم (٣/٣)، والترمذى (٢٦٥٩، ٢٦٦١)، وأحمد (١٦٥/١، ٢٩٣، ٣٢٣، ٤٠٥)، والدارمى (٧٦/١)، وابن حبان (١٤٦١، ١٨٤٤)، والحميدى (١١٦٦)، والبيهقى (٢٧٦/٣)، والحاكم (٧٧/١، ١٠٢).

أو أربعين وأربع مائة، وتوفى بقرطبة لثلاث بقين من جمادى الآخرة وقد جاوز الثمانين سنة أو دونها سنة عشرين وخمسمائة، و فيها توفى ابن رشد.

(وغير واحد) تنبيه على أنه رواه عن غيره أيضا. **(قالوا: حدثنا أحمد بن عمر)** هو أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذرى صاحب كتاب الإعلام بإعلام النبوة: ولد ليلة السبت لأربع خلون من ذى القعدة سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وتوفى سنة ثمان وسبعين وأربع مائة بالمرية.

(قال: حدثنا أبو العباس الرازى) نسبة إلى الرى بزيادة زاى معجمة فى النسبة على خلاف القياس، كما قالوا مروى فى النسبة لمرو، وهو أحمد بن الحسين بن بندار الخراسانى.

(قال: حدثنا أبو أحمد الجلودى) بضم الجيم وفتحها نسبة لجلود قرية ببغداد أو الشام، أو محلة بنيسابور، أو إفريقية، أو لبيع الجلود، وهو محمد بن عيسى بن عمرويه الشيخ الصالح كان على مذهب سفيان الثورى قاله التلمسانى. ولا وهم فيه كما توهم، وفى اسمه ونسبه اختلاف لا حاجة لنا به. وقال النووى: الجلودى بضم الجيم وليس هو منسوبا إلى جلود بفتح الجيم قرية. وهو قول ابن السكيت، وابن قتيبة، ثم قال: الجلودى بالفتح، وأن العوام يقولونه بالضم إنما قالاه فى المنسوب إلى القرية لا فى هذا الجلودى راوى صحيح مسلم، وهذا الذى نبهت عليه لا خلاف فيه.

(قال: حدثنا ابن سفيان) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن سفيان بن محمد المروزى الفقيه الزاهد، توفى سنة ثمان وثلاث مائة وكان زاهدا مجاب الدعوة، روى عن مسلم صحيحه قرأه عليه إلا ثلاث مواضع رواها إجازة أو وجادة.

(قال: حدثنا مسلم) بن الحجاج القشيرى النيسابورى وطنا، صاحب الكتاب المشهور الذى تلقته الأمة بالقبول وشهرته تغنى عن تفصيل حاله، توفى سنة إحدى وستين ومائتين.

(قال: حدثنا قتيبة) علم منقول من مصغر القتبة وهى الإمعاء، وهو قتيبة بن سعيد بن حميد بن طريف بن عبد الله الثقفى، يكنى أبا رجاء، من الليث ومالك وابن عيينة وغيرهم، وتوفى سنة أربعين ومائتين، وولد ببلخ يوم الجمعة لست مضين من رجب سنة ثمان وأربعين ومائة.

(قال: حدثنا جعفر بن سليمان) البصرى الضبعى بالضم لنزوله فى بنى ضبعة الزاهد الأمى، وهو كما فى التقريب صدوق وإن كان يتشيع، والأصح قبول رواية من يتشيع إن لم يكن متعصبا ولا داعيا.

(عن ثابت) البصرى أبو محمد بن سلم، قال الذهبى: وهو ثقة كان من أعبد أهل زمانه، وكان يلبس الثمينة.

(عن أنس) بن مالك الصحابى السابق ذكره وترجمته رضى الله تعالى عنه. **(قال: ما شممت عنبرا)** شممت بكسر الميم وفتحها من باب علم ونصر، والعنبر: طيب معروف طاهر بلا كلام، وقال الماوردى: أكثر العلماء على طهارته وفيه إشعار بأن فيه خلافا، والأصح أنه شمع عسل ببلاد الهند يجمد وينزل للبحر، ونحله يرعاه من الزهور الطيبة فيكتسب طيبه منها، وليس نباتا ولا روث دابة بحرية، وأجوده الأبيض وما قرب إلى البياض، والأسود منه غير مرغوب فيه، وفى النسائى: «أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تطيب به».

(قط) بفتح القاف وتشديد الطاء المضمومة المبنية وفيه لغات ذكرها النحاة، وأصل معناه ما انقطع من الزمان أى مضى، ولذا اختص بالماضى المنفى فى الأشهر، وذكر ابن مالك رحمه الله تعالى أنه أكثرى وأنه سمع فى المثبت فى أحاديث عدة، وأما استعماله فى المستقبل فقال فى الدرة: إنه لحن وفيه كلام لنا فى شرح الدرة، وقيل: معناه الدهر والأبد وفيه نظر.

(ولا مسكا) هو طيب معروف، وهو فى الأصل دم يتجمد عند سرة بعض الظباء فى زمن معين بناحية من أقصى بلاد الترك تسمى تبت، بمثناتين فوقانيتين أولاهما مضموم بينهما موحدة مشددة بزنة سكر، والصحيح أنه طاهر وإن كان دما لاستحالته كخل الخمر، قيل: إنه خصهما لأنهما أشرف الطيب وأشهره، وقدم الأعز الأشرف منهما وعمم بقوله:

(ولا شيئا) وإن علم حال غيرهما منهما بالطريق الأولى، فشمل الشىء غيرهما من كل ذى ريح طيبة مفردا كالورد والنرجس، أو مركبا كالغالية، وقد يكون المركب أطيب رائحة، والمراد: ما شممت رائحة عنبر إلى آخره، مع أن العرب تجعل ذا الريح نفسه مشموما من غير تجوز فيه عرفا، ولذا كانت رائحته صلى الله تعالى عليه وسلم مس طيبا أولا، حتى أنه كان إذا مر فى بعض أزقة المدينة علم مروره صلى الله تعالى عليه وسلم به برائحته، وهذا الحديث رواه مسلم فى صحيحه فى موضعين؛ أحدهما كما ذكره المصنف رحمه الله، فمن قال الذى فى مسلم عن ثابت رضى الله تعالى عنه: «ما شممت عنبرا ولا مسكا ولا شيئا أطيب من ريح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا مسست قط ديباجا ولا حريرا ولا شيئا ألين مسا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم» فزيادة قط فى كلام المصنف رحمه الله تعالى بعد العنبر ليست فى

محلها، أو هو رواية بالمعنى اقتصر على أحد الموضعين، والعنبر بالنون الموحدة وكونه بباء موحدة ومثناة تحتية وهو أخلاط طيب مخصوصة تصحيف، ثم إنه قيل إنه ترق على حد ما مر فى قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، والمعروف أن يبتدأ بالأدنى ثم الأعلى فى الإثبات ويعكس فى النفى، ليكون الكلام مقيدًا فيقول: أعطيته درهمًا ودينارًا وما أعطيته دينارًا ولادرهمًا، ولو قدم نفى الدرهم علم نفى الدينار بالطريق الأولى إلا أنه قد يراعى الترتيب الوجودى.

أقول: هذا هو المشهور، وهى قاعدة كلية إلا أن التحقيق فيها أنه إن ذكر فى الكلام أدنى وأعلى، وقصد إثباتهما فى نفسهما من غير إثبات شىء آخر فالأمر كما ذكر، فإن أضيف إلى ذلك شىء وقيد آخر فالترقى والتدنى بحسبه لا بالنظر لذلك كما فى الآية، فإن المنفى فيها الأخذ وهو بمعنى الغلبة، وغلبة السنة دون غلبة النوم، فإذا قيل: لا تغلبه السنة يتوهم أن النوم الأقوى قد يغلبه فنفى غلبته، وهذا ترتيب مفيد بقطع النظر عن الترتيب الوجودى، فإن لم ينظر لهما بل أريد بنفيهما التعميم، فلك البداءة بأيهما شئت فتقول لا صغيرًا ولا كبيرًا، ولا كبيرًا ولا صغيرًا، كما فصله فى المثل السائر وبيناه فى حواشى القاضى، وهذا هو المقصود هنا، فإن المراد أنه لا طيب كطيبه صلى الله تعالى عليه وسلم مع أن طيب العنبر دون طيب المسك، كما قالوا: ليس الطيب إلا المسك وعزته وكونه أغلى منه لا دخل له فيما نحن فيه، ثم إن وصفه صلى الله تعالى عليه وسلم بلين الملمس لا ينافى ما ورد كما سبق من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان شثن الكفين والقدمين، فإن المراد غلظ جلدهما وعظمهما؛ لأنه أقوى له ولا ينافى ذلك ملامسته، فإن فسر بغلظ فى خشونته فإما أن يخص بهما ولين الملمس فى غير ذلك من جسده الشريف، أو هذا بالنسبة لأصل الخلقة وذاك لمزاولة الأعمال والأسفار كما مر والأول أصح.

(أطيب من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم) ولا مثله ولا قريب منه كما مر، من أن نفى الأفضلية يقصد بها نفى المساواة بطريق الكناية، وليس المراد أيضًا نفى شمه له بل نفى وجوده، فلا يرد أن نفى الشم لا يدل عل نفى الأطيبية وهو المقصود، على أنه قد يراد بنفى العلم ونفى الوجدان نفى المعلوم والموجود، والمراد رائحته صلى الله تعالى عليه وسلم الذاتية لا المكتسبة؛ لأنها لا مدح فيها بل لا يصح إرادة المكتسبة لا وحدها؛ لأن المكتسب منه مثله، ولا مع رائحته الذاتية لأن المركب ليس مثل ريحه صلى الله تعالى عليه وسلم فتأمل.

(تنبيه) قد عرفت ما اعترض به على المصنف رحمه اللّه تعالى من أنه غير الحديث

وجوابه، وعلى هذا قيل: إنه اختصر الحديث وقد اختلف فى جوازه، والصحيح جوازه إن يكن المذكور يتوقف فهم معناه على ما قبله بحيث يختل المعنى كالشرط والاستثناء، وما فيه ضمير راجع لمعنى ولم يكن قرينة معينة، وأما النقل بالمعنى فممنوع لمن لم يكن عالما بالعربية ودقائقها، فإن علم بذلك جاز على الصحيح، وفى «جامع الأصول» له تفصيل ولعل هذا كله فى غير الأمثال وما جرى مجراها نحو «أخوك البكرى» و «من أعدى الأول» وله تفصيل فى ابن الصلاح وشروحه.

(وعن جابر بن سمرة) بضم الميم وقد تقدمت ترجمته رضى اللّه تعالى عنه **(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مسح خده)** هذا الحديث أخرجه مسلم أيضًا، واقتصر المصنف رحمه اللّه تعالى على بعضه لمناسبته للفصل بناء على جواز الاختصار فى الحديث كما مر، وأما مسح الخد بيده فإنما ذكره توطئة لما بعده، وكان من عادته صلى الله تعالى عليه وسلم مسح وجوه الأطفال تأنيسًا لهم وتطييبا لقلوب والديهم وشفقة عليهم، فإن إحضارهم عنده يمنًا وتبركًا به صلى الله تعالى عليه وسلم مشهور، وأول الحديث: «صليت مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثم خرج وأنا معه فاستقبله ولدان، فجعل يمسح خدى أحدهم واحدًا واحدًا، وأما أنا فمسح خدى فوجدت ليده بردا أو ريحا كأنما أخرجها من جونة عطار». كذا فى مسلم «أو ريحا» بأو بدل الواو الآتى وكثيرًا ما يوجد بدونها، قيل: ولعله رواية فيه والتقدير أو قال جابر.

(قال) أى جابر **(فوجدت)** أى أحسست **(ليده)** أى كفه وما قاربها **(بردا)** وفى صحيح البخارى: «فإذا هى أبرد من الثلج» وهذا يدل على أن البرد على حقيقته وأنه ليس بعارض لمس ماء ونحوه. وقيل: إنه عند العرب ممدوح لاسيما فى زمن الحر، ولا بعد فى عده من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم مع كمال حرارته الغريزية، وقيل: إنه عبارة عن لين كفه ورطوبته، والأقرب أنه بمعنى الراحة واللذة والطيب، وقد فسر قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ [النبأ: ٢٤] براحة لاشتهاره بهذا المعنى، كما قال:

تبسمت بالرضى مواعده فقلت يا بردها على كبدى

وفى النهاية: «كل محبوب عندهم بارد» و «برد الظل طيب العيش» و «الغنيمة الباردة الهنية» واللام للاختصاص والجار والمجرور حال من النكرة التى كانت صفة لها قبل تقدمها، لا يقال إذا كان البرد بمعنى الراحة يكون من باب وجدت للمريض راحة، فيكون المعنى ذو الراحة يده كما أن المريض كذلك؛ لأنا نقول اللام تعليلية أى وجدت راحة لأجل وضع يده فإن كان على ظاهره فهى اختصاصية.

(وريحا كأنما أخرجها) أى اليد لأنها مؤنثة سماعية. **(من جونة عطار)** الجونة بضم الجيم

وسكون الهمزة، ويقال: بواو ساكنة يليها نون وهاء تأنيث، وهى شبه صندوق صغير مغشى بأدم وزند مستديرة يضع فيها العطار عطره، واختلفوا هل الواو أصلية تبدل همزة لضم ما قبلها كما قالوا فى موسى مؤسى تنزيلاً لضم ما قبله منزلة ضمه، أو الهمزة أصل أبدلت واوًا على القياس كما قرئ يؤمنون ويومنون وكأن أداة تشبيه وما كافة،وهل هى مركبة أو بسيطة خلاف مشهور؟ أى كان ريحها ريح ما أخرج من جونة العطار مضمخا بالعطر، والجملة صفة ريح أو مستأنفة، وعطار للنسبة كجمال لا للمبالغة وهو بائع العطر وهو كل ما طابت رائحته.

وفى البخارى: عن أبى حنيفة رضى اللّه تعالى عنه «خرج رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم بالهاجرة فى الأبطح فتوضأ ثم صلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين وبين يديه عنزة يمر المار من ورائها، وقام فجعل الناس يأخذون يده الشريفة فيمسحون بها وجوههم، فأخذت بيده الشريفة فوضعتها على وجهى، فإذا هى أبرد من الثلج وأطيب رائحة من المسك» وهذا ظاهر فى أن البرد حقيقى وأن برده لمسه الماء إن كانت الواقعتين واحدة، أو هو مأول كما مر ووضع اليد المذكورة من حسن أخلاقه صلى الله تعالى عليه وسلم وتواضعه للصغير والكبير.

وورد فى حديث رواه ابن العماد عن أنس رضى اللّه تعالى عنه: أن ظهور نفحات الطيب منه صلى الله تعالى عليه وسلم ظهر بعد الإسراء وهو ظاهر، لأنه طيب العنصر لكنه لما اتصل بالملأ الأعلى والجنان وهبت عليه نفحات القدس ازداد طيبًا، وكان له صلى الله تعالى عليه وسلم طيب لا يشبه طيب الدنيا، فله طيب ذاتى وطيب مكتسب من العالم الأقدس لا يفارقه وهو أطيب الطيب، ولا ينافيه حديث: «حبب إلىَّ من دنياكم الطيب» كما مر ويأتى، لأن الطيبات للطيبين والزائد قابل للزيادة.

(وعن غيره) أى روى عن غير جابر بن سمرة، وفى نسخة وقال غيره، وفى بعضها قال بدون عاطف، وهذا الحديث رواه البيهقى وأبو نعيم بسند فيه ضعف، وفى لفظه اختلاف فلذا أبهمه.

(مسها بطيب أو لم يمسها) المس واللمس متقاربان إلا أن لمس يقال لما معه إدراك بحاسة السمع واللمس إدراك بظاهر البشرة ويتجوز به عن الطلب، ومنه التماس وضمير مسها للكف واليد، وفيه قلب إذ الظاهر مس بها طيبا أو لم يمس، وأول الحديث: «فكأن كفه كف عطار» ولما كان قوله: «كأنما أخرجها من جونة عطار» بمعناه اكتفى به عن سياق أول الحديث فلا خلاف فيه، وليس متعلقا بما بعده ولا اختصار فيه كما توهم، و إنما هو رواية بالمعنى وهذا إشارة إلى أن طيبه صلى الله تعالى عليه وسلم ذاتى،

والقول بأن الكلام في الخلقي فلا حاجة لهذا لغو من الكلام.

(يصافح) أو يمس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بصفحة يده **(المصافح)** مفعوله وهو بفتح الفاء اسم مفعول وهو من يريد مصافحته فإنها سنة عند الملاقاة، وفي رواية: «يصافحه المصافح» بكسر الفاء والرفع على أنه فاعل، والمصافحة مفاعلة بمعنى جعل كل من المتصافحين يده على يد الآخر، وفي النهاية أنها إلصاق صفح الكف بالكف عند الملاقاة، وفي معناه قول التلمساني: وضع باطن الكف على باطن الكف مع ملازمة على قدر ما يقع منه من سلام أو كلام إن عرض.

واختطاف اليد وتقبيلها وضربها مكروه، وقد يشد كل واحد يد صاحبه، وقيل: لا ينبغي فعله وهي بعد الصلاة بدعة عندنا، والأصح أنها مباحة لما فيها من الإشارة إلى أنه كأنه قدم من غيبة؛ لأنه كان عند ربه يناجيه فافهم.

(فيظل يومه) يظل بفتح الظاء المشالة مضارع ظللت بكسرها وظللت بفتحها ويقال: ظلت بحذف إحدى اللامين، قال الراغب: يعبر به عما يفعل بالنهار ويجري مجرى صرت، قال تعالى: ﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه:٩٧] فهو فعل ناقص لثبوت الخبر في جميع النهار كما قاله الرضي، لأنه لوقت فيه ظل الشمس من الصباح للمساء أو من الطلوع للغروب، فإذا كانت بمعنى صار عمت النهار وغيره، وكذا إذا كانت تامة بمعنى الدوام. وقوله في القاموس: يظل نهاره يفعل كذا وليله يسمع في الشعر لا وجه له، ويومه منصوب على الظرفية ولا توكيد فيه ولا تجريد لاسيما مع دلالته على الاستغراق.

(يجد ريحها) أي يجد المصافح من طيب يده وإضافة ريحها للعهد، أي ريحها الطيبة طيبا خلقيا خصه الله به مكرمة ومعجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم.

(ويضع يده على رأس الصبي فيعرف) مبني لما لم يسم فاعله **(من بين الصبيان بريحها)** هذا بعض من حديث طويل، رواه أبو نعيم والبيهقي مسندًا عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عبل الذراعين والعضدين، طويل الزندين، سبط العصب، شثن الكفين، رحب الراحة، سائل الأطراف، كأن أصابعه قضبان الفضة، وكانت كفه ألين من الحرير، وكأن كفه كف عطار مسها بطيب أو لم يمسها، يصافحه المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضعها على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مسح على رأسه»[١]. والمخرج رحمه الله تعالى ظن هذا حديثا مستقلا فبيض له، وليس المراد بالصبي معينا، والمراد بريحها رائحتها

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١/٣٠٥).

التى حصلت بمسه والباء للسببية، والمراد أنه يعرف بأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مسه فيتميز من بينهم، وفى نسخة: «لريحها» باللام التعليلية والمعنى واحد، وفى رواية: «من ريحها» وذلك إما فى يومه كما مر فيؤكد أو أنه يستمر مدة طويلة، والمضارع فى موضع الماضى لنكتته المشهورة، ثم إنه ذكر بعضا من حديث رواه مسلم واقتصر منه على ما يناسب المقام اختصارًا فقال:

(ونام رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم فى دار أنس) بن مالك الصحابى رضى اللّه تعالى عنه السابق ذكره **(على نطع)** بسط له، وكان النطع لأمه رضى اللّه تعالى عنها، قيل: والإضافة لأدنى ملابسة؛ لأن الدار كانت لأمه كما فى صحيح مسلم ولا خلل فيه لأنه كان ساكنًا معها، ولأنه لو قال دار أم أنس احتمل أن يكون كنية لغيرها فلا تعلم الجائية بالقارورة، مع ما فى هذا من الدلالة على أن رواية أنس رضى اللّه تعالى عنه الحديث بغير واسطة.

(فعرق صلى الله تعالى عليه وسلم فجاءت أمه) وهى أم سليم بضم السين المهملة والتصغير، واسمها سهلة أو غيرها، قال النووى رحمه اللّه تعالى: وهى أم أنس بلا خلاف، وقول الغزالى وغيره أنها جدته غلط بالاتفاق، توفيت فى خلافة عثمان رضى اللّه تعالى عنه، وهى أخت أم حرام بنت ملحان الصحابية المدفونة بجزيرة قبرص، سيدة الشهداء من النساء، وهى التى روت حديث غزاة البحر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو مشهور، وهذا الحديث فى صحيح مسلم عن ثابت عن أنس رضى اللّه تعالى عنه قال: «دخل علينا رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم فقال عندنا فعرق، فجاءت أمى بقارورة فجعلت تسلت العرق، فاستيقظ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: ما هذا الذى تصنعين يا أم سليم؟ قالت: هذا عرقك نجعله لطيبنا وهو أطيب الطيب»[(١)]. وله روايات من وجوه أخر فيها أنه كان كثيرًا ما يقيل فى بيتها وينام على فراشها، وكان كثير العرق فكانت تجمع عرقه صلى الله تعالى عليه وسلم من وجهه الشريف ومن نطعها وتعصره فى قارورة لها.

وفى رواية: أنها قالت: «نرجو بركته لصبياننا وكانت تجعله فى سك لها»[(٢)] وهو بضم السين وتشديد الكاف طيب معروف مركب مع غيره، وكانت تبسط للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم نطعا من آدم فيقيل عليه عندها وروى فى الوفاء «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يدخل بيتها فينام على فراشها وليست فيه، فأتت فقيل لها هذا

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣١/٨٣).
(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣١/٨٤).

النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نائم على فراشك، فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه قطعة آدم ففتحت عتيدتها وجعلت تنشف ذلك العرق وتعصره، وأخذت من عرقه وشعره فجمعته فى قارورة، فلما حضرت أنسًا رضى اللّه تعالى عنه الوفاة أوصى أن يجعل فى حنوطه من ذلك» وقد استشكل ذكر الشعر فيه، والواقع فى سائر الأحاديث العرق فقط، وأجيب بأنه ورد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما حلق رأسه بمنى أخذ أبو طلحة رضى اللّه تعالى عنه شعره وأتى به أم سليم، فجعلته فى سكها فالمعنى أنها كانت تضيف بعد ذلك ما أخذته من العرق للقارورة التى فيها الشعر، ثم إن نوم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عندها وعند أختها أم حرام استشكل بأنه صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن خلوة الرجل بغير ذى محرم وهو يقتدى بفعله، فلا يدفعه كونه معصوما، وأجاب ابن عبد البر وغيره بأنهما كانتا خالتاه من الرضاع فهما محرماه، فلذا كان صلى الله تعالى عليه وسلم ينام عندهما ويخلو بهما ويفليان رأسه الشريف. وقيل: هذا من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم لملكه إربه وليس هذا قبل نزول آية الحجاب كما توهم، وكونه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يخل بهما لأن عنده خادمًا ونحوه غير مسلم.

(بقارورة تجمع فيها عرقه) صلى الله تعالى عليه وسلم، تقدم الحديث وأن أم سليم رضى اللّه تعالى عنهما لم تكن فى بيتها لما جاء صلى الله تعالى عليه وسلم، كما يدل عليه قوله فجاءت ووقع فيه بدل القارورة ففتحت عتيدتها ولا منافاة بينهما، ولا حاجة للجمع بتعدد القصة؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعتاد القيلولة عندنا، لأن العتيدة الصندوق الذى فيه القارورة وهى إناء من زجاج يوضع فيه الطيب ونحوه، وقد يطلق على غير الزجاج، وجملة تجمع صفة قارورة أو مستأنفة لا حال لتكلفه، ومن فسر العتيدة بالحقة جنح لتعدد الواقعة ولا بعد فيه.

(فسألها رسول صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك) كما فى صحيح مسلم أنه قال لها: «ما هذا الذى تصنعين؟» وفى رواية: «ما هذا» وفى أخرى: «ما تصنعين؟» والسؤال ليعلم غرضها وقصدها بفعلها إما حقيقة أو ليظهره لغيرها. **(فقالت:)** هذا عرقك **(نجعله فى طيبنا)** وفى رواية «لطيبنا» أى نخلطه كما روى «أذوف» أى أخلط وتقدم رواية «نرجو بركته لصبياننا» والواقعة متعددة أجيب فى كل منها بجواب، فإن كانت واحدة فهو من تصرف الراوى وروايته بالمعنى والمآل واحد، وقد قال لها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أصبت.

(وهو) أى عرقه صلى الله تعالى عليه وسلم **(من أطيب الطيب)** قيل: يحتمل أن يكون ذلك من مقولها، ويحتمل غير ذلك، والواقع الأول، ووقع فى مسلم: «أطيب» بدون من

وهى أولى، فإن كان الضمير للمخلوط من عرقه وغيره فظاهر، لأن خالص عرقه أطيب منه، ولا شك فى طيبه وأطيبيته كما مر «ما شممت عنبرًا ولا مسكًا أطيب» فليس خلطه بالطيب لتطييبه أو للتبرك فقط كما توهم.

فإن قلت: إذا كان أطيب الطيب فلم خلط بالطيب؟!.

قلت: لأن ما اجتمع من عرقه صلى الله تعالى عليه وسلم ليس كثيرا يكفى لطيبهم فخلط بكثير منه ليكون كثيرًا.

(**وذكر البخارى**) رحمه الله تعالى إمام أهل السنة السابق ذكره (**فى تاريخه الكبير**) وهو تاريخ ذكر فيه رواة الحديث وأحوالهم وليس كغيره من التواريخ كما يتوهم، بل كتاب من كتب الحديث معنى، ورواه أيضا الدارمى والبيهقى بالمعنى. (**عن جابر**) بن عبد الله الصحابى رضى الله تعالى عنهما الجليل الأنصارى، شهد المشاهد إلا بدرًا واستغفر له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خمسًا وعشرين مرة لما قضى دين أبيه، وهو آخر صحابى مات بالمدينة سنة سبعين وشىء، وروى ألفًا وخمس مائة حديث.

(**لم يكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يمر فى طريق**) فى رواية البزار وأبى يعلى بسند جيد عن أنس رضى الله تعالى عنه «كان صلى الله تعالى عليه وسلم إذا مر فى طريق من طرق المدينة وجد فيه رائحة المسك؛ فيقال: مر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من هذا الطريق»(١) (**فيتبعه**) بالرفع (**أحد**) أى يأتى بعد ذهابه منه لا يمشى تابعًا له، والضمير للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا للطريق، كما قيل: إن معناه يتبع الطريق ويدل عليه قوله: «إلا عرف أنه سلكه»، وذكر ضمير الطريق وهى مؤنثة لشرفها بمروره كما قيل:

عليك بأرباب الصدور فمن غدا مضافا لأرباب الصدور تصدرا

والمراد: علوق تلك الرائحة بالمكان الذى يمر صلى الله تعالى عليه وسلم فيه وهو توهم لا يساعده اللفظ ولا المعنى. ويتبع كيعلم أو بالتشديد، وجوز فيه النصب، والمراد أنه يمشى بعده بزمان قليل فالفاء للتعقيب، والقول بأن الفاء لعدم المهلة عرفا وحكما بقرينة الحال لا وجه له، وقوله أحد فاعل يتبع على حال من الأحوال. (**إلا**) على حال أنه (**عرف أنه**) أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (**سلكه**) أى دخله ومر فيه، والضمير للطريق فإنه يذكر ويؤنث فلا حاجة لتأويله كما توهم. (**من طيبه**) أى عرف من طيب الطريق مروره صلى الله تعالى عليه وسلم به، أو من أجل طيب الطريق برائحته الطيبة

---

(١) أخرجه أبو يعلى والطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٨/٢٨٢).

المخصوصة به الباقية فيه، وهذا لا يكون إلا منه صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وذكر إسحاق بن راهويه) هو أبو يعقوب المروزى الإمام الزاهد الثقة المجتهد، أمير المؤمنين فى الحديث كما قاله ابن حنبل رحمه اللّه تعالى، وهو الذى أحيا السنة بالمشرق، ما سمع شيئًا إلا حفظه وما حفظ شيئًا فنسيه، قال: «كأنى أنظر إلى مائة ألف حديث فى كتبى وثلاثين ألف حديث أسردها» وراهويه لقب أبيه إبراهيم بن مخلد التميمى الحنظلى لقب به لأنه ولد بطريق مكة، وراه بالفارسية معناه الطريق، وهو بالهاء والواو المفتوحتين والمثناة التحتية الساكنة والهاء المكسورة فى المشهور، ويقال: بضم الهاء وسكون الواو وتحتانية مفتوحة كنفطويه، وهو أحب عند المحدثين آخره هاء والتاء خطأ، فما فى بعض النسخ من التاء المفتوحة على أنه ممنوع من الصرف خطأ **(أن تلك)** الرائحة التى كانت تشم منه وتبقى فى الطريق. **(كانت رائحته)** الذاتية المدركة منه صلى الله تعالى عليه وسلم **(بلا طيب)** يمسه ويتطيب منه من خارج **(صلى الله تعالى عليه وسلم)** وقد تقدم ما يدل عليه من الأحاديث، فما قيل إنه لم يظهر من رواه والظاهر ثبوته عندهم من قلة التتبع، ولا ينافيه كونه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يستعمل الطيب ويحبه لأنه لتكثيره والمبالغة فيه كما مر.

(وروى المزنى) بالضم ثم فتح نسبة لمزينة قبيلة مشهورة، وهو أبو إبراهيم بن إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزنى المصرى الزاهد كان مجاب الدعوة، وقال الشافعى رضى اللّه تعالى عنه فيه: لو ناظر الشيطان لغلبه. وله تصانيف مشهورة، ولد سنة خمس وسبعين ومائة، وتوفى لست بقين من رمضان سنة أربع وستين ومائتين، ودفن بالقرافة بالقرب من قبر الشافعى.

(والحربى) هو فى بعض النسخ وهو إبراهيم بن إسحاق الحربى الحنبلى نسبة إلى الحربية محلة من بغداد، وهى تنسب لحرب بن عبد اللّه صاحب المنصور، مات سنة سبع ومائة **(عن جابر)** بن عبد اللّه السابق، فقد قيل: إنه المراد إذا أطلق وهذا مما وقع فى بعض النسخ وكأنه من إلحاقه بالأصل.

(قال: أردفنى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم) أى أركبنى **(خلفه)** أى وراء ظهره وهو راكب، يقال: أردفه وردفه ويقال: أردفه أعم، فعلى ذلك قوله خلفه لدفع توهم المعنى الأعم أو تأكيد، قال البرهان الحلبى: جمع الحفاظ أرداف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فبلغوا نيفًا وثلاثين ولم يذكر فيهم جابر. وقال الشمنى: جمع بعضهم من أردفه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على فرس أو غيره فبلغوا نيفًا وأربعين وما ذكره من التأليف لم نقف عليه، والذى عدوه ممن أردفه صلى الله تعالى عليه وسلم أسامة بن

زيد أردفه فى مرجعه من عرفة على إكاف، والصديق رضى اللّه تعالى عنه فى الهجرة، وعثمان رضى اللّه تعالى عنه فى قدومه من بدر، وعلىّ كرم اللّه وجهه فى حجة الوداع، وعبد اللّه بن جعفر، وقثم، وعبد اللّه بن عباس وأخواه عبيد اللّه والفضل فى نزوله من مزدلفة، والحسن والحسين رضى اللّه تعالى عنهما، ومعاوية، ومعاذ بن جبل على حماره عفير، وأبو ذر، وزيد بن حارثة، وثابت بن الضحاك، والشريد بن سويد، وسلمة بن الأكوع، وزيد بن سهل، وسهيل بن بيضاء، وعلى بن العاصى، وعبد اللّه بن الزبير، وغلام من بنى عبد المطلب، وأسامة بن عمر، وصفية بنت حيى، وأبو الدرداء، وأمية الغفارى، وأبو قاسم، وأبو هريرة، وقيس بن سعد، وخوات بن جبير، وجبريل عليه الصلاة والسلام على البراق فى الإسراء، والعباس، وصفية الجهنية، وعقبة بن عامر، وآخرون لعل النوبة تفضى لذكرهم على التفصيل.

(فالتقمت خاتم النبوة بفمى) الالتقام أخذ الشيء وجعله فى فيه سواء ابتلعه أم لا، والابتلاع والاستراط بمعنى، ولذا سمى الطريق سراطا ولقما كأنه يبتلع السابلة، وخاتم بفتح التاء وكسرها وسيأتى تفصيله، وقوله: «بفمى» تأكيد لدفع توهم المجاز؛ لأنه يقال: ألقم كفه ركبته، وفى العبارة ما يقتضى أن خاتم النبوة كان ذاتيا مرتفعا حتى تمكن من التقامه وهو بين كتفيه، وفيه روايات، فقيل: كان كأثر المحجم، وقيل: كبيضة الحمامة أو التفاحة، أو الجمع بضم الجيم وسكون الميم وهو ضم الأصابع للكف، يقال ضربه بجمع كفه، وقيل: كركبة العنز، وقيل: كزر الحجلة، وعلى هذه الروايات يمكن التقامه، وروى عن أبى سعيد الخدرى أنه بضعة ناشرة هكذا ووضع سبابته على مفصل إبهامه أو دونه بقليل، وأما على رواية أنه شامة خضراء محتفرة فى اللحم إن صحت فالتقامه مجاز عن إخفائه بوضع فمه عليه، وزر الحجلة بيضة طائر معروف، وقيل: إن الحجلة حكمة السرير التى تسميها العامة الناموسية وزرها ما يدخل فى عروتها، وصححه فى الروض الأنف وقال: تفسير الترمذى له ببيضة الطائر وهم. وقال التجانى: إنما هو على هذا رز بتقديم المهملة على المعجمة ومعناه البيض، ومنه رز الجراد لبيضه، وكان الخطابى الذى فسره به وحده فى رواية، وتفسير الحجلة ببياض بين عينى الفرس لا وجه له، فإن كان مجازًا عن التحجيل فبعيد جدًا، قال: ووضع هذا الخاتم لهذا الفاتح الخاتم هل هو من ابتداء خلقه أو من بعد ما ولد أو بعد ما نبئ.

وروى ابن أبى الدنيا عن أبى ذر رضى اللّه تعالى عنه مرفوعا أنه قال: قلت: يا رسول اللّه كيف علمت أنك نبى واستيقنت؟ قال: «يا أبا ذر أتانى ملكان وأنا ببطحاء مكة فوقع أحدهما بالأرض والآخر بين السماء والأرض، فأخرج قلبى وأزال منه مغمز

الشيطان وعلق الدم فطرحهما وخاط بطنى، وجعل الخاتم بين كتفى كما هو الآن ووليا عنى، فكأنى أعاين الأمر معاينة»[1] وفيه بيان لوقت الوضع وكيفيته إلا أنه قيل: إن قوله: «ببطحاء مكة» وهم من الراوى، لأن ذلك كان فى بنى سعد وهو مع حليمة كما سيأتى، وقول المصنف: إنه أثر الشق بين كتفين موافق لهذا الحديث سواء قرئ أثر بفتحتين أو بكسر فسكون، أما على الثانى فظاهر، وأما على الأول فلأنه لما وقع بعده وبسببه جعل أثرًا له، فقول النووى رحمه اللّه تعالى إنه باطل لأن الشق إنما كان فى صدره وبطنه، وكذا قال القرطبى، وأثره إنما كان خطًا واضحًا من صدره إلى مراق بطنه كما فى الصحيحين، ولم يثبت قط أنه بلغ بالشق حتى نفذ من وراء ظهره، ولو ثبت كان مستطيلا بين كتفيه فى محاذاة صدره، قال: فهذا غفلة منه. انتهى غير متجه.

وكذا قال ابن حجر فى شرح البخارى، وذكر أنه مروى من طرق أخر فالوهم إنما هو فى فهم كلامه، قال: وهذا أصح ما قيل أنه ولد به، وظاهر كلامهم أنه مختص به صلى الله تعالى عليه وسلم. وفى كتاب «القيافة» أنه موجود فى كل نبى وأنه من علامات النبوة، وكان أهل الكتاب يعرفونه صلى الله تعالى عليه وسلم به. وقال البرهان الحلبى: لا أستحضر فيه شيئا، والذى يظهر أنه من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه إشارة إلى أنه خاتم النبيين، وما رواه ابن حبان من أنه كبيضة النعامة نسب فيه إلى الوهم، والصواب الحمامة، وقيل: إنه شامة سوداء أو خضراء مكتوب عليها محمد رسول اللّه، أو سر فأنت المنصور، أو اللّه وحده لا شريك له ونحوه. ولم يثبت فيه ما يعتد به، وفى رواية «كسلعة أو غدة أو بندقة عند غضروف كتفه اليسرى ورفع عند موته صلى الله تعالى عليه وسلم» وإنما وضع هناك لأن الشيطان إذا وسوس وضع خرطومه ثمة، وقد رآه بعضهم فى صورة ضفدع له خرطوم كخرطوم البعوضه أدخله فى منكبه الأيسر إلى قلبه ووسوس له فإذا ذكر اللّه خنس.

وقوله: **(وكان ينم على مسكا)** اسم كان المستتر ضمير الخاتم ويتم من قولهم نمت الريح إذ جلبت الرائحة. قال البرهان رحمه اللّه تعالى: وهو مستعار من النميمة، ومنه سمى الريحان نماما لطيب رائحته وهى استعارة لطيفة شائعة، وقد استعير نمام للريحان ثم للعذار، كما قال بعض المولدين:

لافتضاحى فى عوارضه سبب والناس نيام
كيف يخفى ما أكابده والذى أهواه نمام

وينم روى بضم النون وكسرها، وعن المزى رحمه اللّه الكسر فى اللازم والضم فى

(١) أخرجه الدارمى (٩/١)، وأبو نعيم فى دلائل النبوة (٧١/١).

المتعدى. وفى القاموس: نم المسك سطع، والمتعدى بمعنى ينقل أو يحكى، واللازم بمعنى يظهر، وممسكا تمييز محول عن الفاعل، ومن قال محول عن المفعول فقد وهم، وروى يثج بضم المثلثة لا بالفتح كما قيل وتشديد الجيم، وهو متعدد ولازم والضمير فيه للخاتم أو للفم، أو تندفع رائحته مرة بعد مرة من ثج الماء، وهو خروجه متدفقا بسرعة. قال التجانى: وفى بعض النسخ بكسر المثلثة والجيم أى يسيل. والذى فى الصحاح أنه بالضم لا غير، فإنه متعد من الثج بمعنى التسييل أى كأنه يسيل منه المسك فمسكا منصوب تمييز أو مفعول به.

(**وقد حكى بعض المعتنين بأخباره**) أى المهتمين بنقل أخباره وأحواله صلى الله تعالى عليه وسلم. (**وشمائله**) أخلاقه وصفاته اعتناء تتبع وعلم وأعلام، وهو البيهقى عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها (**أنه**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**كان إذا أراد أن يتغوط**) أى يأتى الغائط وهو المكان المنخفض من الأرض على عادتهم فى البراز لأنه أستر، قال اللّه تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [النساء: ٤٣] ثم كنى به عما يقع فيه، ومنه الغائط للبستان، ويقال: غيط للفرق بينه وبين غيره. (**انشقت الأرض فابتلعت غائطه وبوله وفاحت لذلك**) المذكور من البول والغائط (**رائحة طيبة**) وهذا الحديث رواه البيهقى عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها وقال: إنه موضوع وسنبينه لك.

(**وأسند محمد بن سعد كاتب الواقدى**) الإمام الكبير الحافظ الثقة، وهو أبو عبد اللّه محمد مولى بنى هاشم صاحب «الطبقات» مات سنة ثلاث ومائتين، والواقدى هو محمد ابن عمر بن واقد قاضى العراق، مات فى ذى الحجة سنة إحدى عشرة ومائتين.

(**فى هذا**) أى فى أن الأرض تبتلع ما يخرج منه صلى الله تعالى عليه وسلم ويفوح له رائحة طيبة. (**خبرًا عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها أنها قالت للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم: إنك تأتى الخلاء**) بالمد أى المكان الخالى البعيد عن البيوت؛ لأنهم كانوا قبل وضع المراحيض فيها يأتونه لقضاء الحاجة، ثم عبر به بعد ذلك عن محل التغوط مطلقا، ثم صار عرفًا اسما للبناء المعد لذلك. (**فلا نرى منك شيئا من الأذى**) بالذال المعجمة والقصر أصله ما يضر، ثم أريد به هنا ما من شأنه أن يكره، فالمراد هنا الغائط.

(**فقال لها: يا عائشة أو ما علمت أن الأرض تبتلع ما يخرج من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلا يرى منه شىء**) تبتلع تفتعل من البلع إدخال الطعام والشراب فى الحنجرة والمرئ فاستعير لمطلق الإخفاء كما فى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ [هود:٤٤] وقوله: فلا يرى منه شىء تفسير للمراد من البلع وتأكيدًا وبيان لحكمته فليس بمستدرك كما توهم، وإخفاؤه مع طيبه وعدم استقذاره، قيل: لأنه لعدم الإنكار بمحله الخارج منه

أو لتبرك الأرض به. والظاهر أنه لأنه ينبغى ستره لأنه من المروة أو لأنه يخشى من أخذ الناس له.

(وهذا الحديث) وفى نسخة الخبر. **(وإن لم يكن مشهورًا)** قال ابن دحية :سنده ثابت وهو أقوى ما فى هذا الباب، فلذا نفى المصنف عنه الشهرة دون الصحة، فلا وجه للاعتراض عليه بأنه لا يلزم من نفى الشهرة نفى الصحة.

(فقد قال قوم من أهل العلم بطهارة الحدثين منه صلى الله تعالى عليه وسلم وهو قول بعض أصحاب الشافعى) المراد بالحدثين الخارجين كناية للعذر من ذكر ما يستهجن، وظاهر أن القول بالطهارة مبنى على هذين الحديثين فكأنه من وصفهما بالطيب، وأما ابتلاع الأرض فلا يدل عليه بل على خلافه، وتحقيقه ما فى الخصائص للخيضرى وهو كتاب لم يصنف فى بابه مثله كما مر. قال الرافعى فى كتاب الطهارة لما تكلم على نجاسة الفضلات: وهل هى كذلك من رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم؟ وجهان؛ فقيل: لا لأن أبا طيبة الحجام شرب دمه صلى الله تعالى عليه وسلم و لم ينكر عليه، وأم أيمن شربت بوله صلى الله تعالى عليه وسلم و لم ينكر عليها. وقال: «إذن لا تلج النار بطنك» ويروى: «شرب علىّ كرم اللّه وجهه وابن الزبير رضى اللّه تعالى عنهما دمه» وقال معظم الأصحاب: حكمهما منه صلى الله تعالى عليه وسلم كحكم غيره وحمل الأخبار على التداوى، وروى أنه قال للحجام: «لا تعد فإن الدم كله حرام» أى على ما يأتى.

وقال النووى رحمه اللّه تعالى: حديث شرب البول صحيح حسن. وذلك كاف فى الاحتجاج إذ لم ينكر عليها ولا أمرها بغسل فمها ولا نهاها عن العود لمثله. وقال القاضى حسين: الأصح القول بطهارة الجميع، واختاره كثير من المتأخرين، وجواب التداوى يرده.

(لن يجعل اللّه تعالى شفاء أمتى فيما حرم عليها) والسر فيه غسل الملكين لجوفه وتطهيره ولا خلاف فى طهارة شعره، والأحاديث فى هذا الباب كشرب ابن الزبير دمه وشرب أم أيمن بوله الذى كان فى قدح يوضع تحت سريره ليبول فيه بالليل كثيرة.

فإن قلت: ما الحاجة لوضع هذا القدح والأرض تبتلعه فلا يرى له أثر؟. **قلت:** لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يكره الخروج ليلا من بيته وبيته مصلى نافلته ومحل نزول الوحى والملائكة، فلا يليق أن يمس باطنه وظاهره شىء من الفضلات ولو كانت طاهرة تعظيما لعبادة ربه وتأدبا، ألا ترى إلى قول القائل:

من عظم الناس عظموه وفاز بالعز و الرياسة
ومزدريهم لو كان مسكا لقيل فى أصله نجاسة

وأما التداوى بالحرام كالخمر، فقيل: يجوز إذا أخبره ثقة بنفعه ولم يجد دواء غيره، وقيل: إنه لا يجوز لحديث: «لن يجعل اللّه شفاء أمتى فيما حرم عليها»[1] وقيل: إنه لا يأباه لأنه يكون حلالاً له غير محرم عليه. وقيل: إن اللّه تعالى إذا حرم شيئا أبطل نفعه، وكون علىّ كرم اللّه وجهه شرب دمه لم يثبت كما أشار إليه الدميرى فى منظومته فى الفقه بقوله:

غريبة فضلة سيد البشر طاهرة على خلاف انتشر
وابن الزبير بدم الهادى البشير نال الذى رام كما له أشير
وهو الذى خص بويل الناس وهم بويله من الإبلاس
فى مسند البزار ثم البيهقى والطبرانى رواه فثق
والدارقطنى وقول ابن الصلاح ليس له أصل يفى فى الاصطلاح
وأم أيمن استزادت شرفا إذ شربت بول النبى المصطفى
وسقيت إذ هاجرت للسنة ماء رويا من شراب الجنة
فبعده ما مس جوفها ظما ولم تذق إلى الممات الماء
صححه الحاكم والمروى فى شرب علىّ دمه لم يعرف
وابن الصلاح قال فى شرب أبى طيبة أنه ضعيف السبب
قال ابن سبع ويقينا كانت تبلعها الأرض ومنها ازدانت
ولم تبل من تحته بهيمة ولم تر الدهر به سقيمه

وهذه فائدة تفرد بها، وهى أن الدواب لم تبل وهو صلى الله تعالى عليه وسلم راكب عليها، ولم تسقم دابة ركبها فى حياته، ثم وقع فى فقه الشافعية أيضًا أن حكم جميع فضلات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كذلك طاهرة لحديث عائشة رضى اللّه عنها بذلك، وفى بعض نسخ الشفاء هنا.

(حكاه الإمام أبو نصر الصباغ فى شامله) وهو الإمام البحر أبو نصر عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن جعفر الصباغ الذى انتهت إليه رياسة الشافعية فى عصره، وكان ورعا تقيا زاهدًا، وله كتاب الشامل فى الفقه لم يؤلف فيه مثله، وهو أول من درس بالمدرسة النظامية التى بناها نظام الملك للشيخ أبى إسحاق رحمه اللّه تعالى فامتنع وأبى أن يخرج من مسجده، فلما ألحوا عليه أذن لأبى نصر هذا فى التدريس بها،

(١) أخرجه أحمد فى الأشربة (٣٢)، والبيهقى (١٠/٥)، وانظر فتح البارى (١/٣٣٩، ١٣/٢٦١).

وتوفى أبو نصر رابع جمادى الأول سنة سبع وسبعين وأربع مائة بعد ما كف بصره.

(وقد حكى القولين عن العلماء فى ذلك) أى فى فضلات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أو الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وحكمها فى الطهارة وضدها، وقيل: قوله العلماء شامل الحنفية وغيرهم.

(أبو بكر بن سابق المالكى) أى العالم المقلد لمذهب الإمام مالك، وسابق بباء موحدة وقاف. قال البرهان: وفى بعض النسخ مصححًا أبو بكر وهو أبو الحسن محمد بن سابق الصقلى المالكى لا النسب. **(فى كتابه البديع فى فروع المالكية وتخريج ما لم يقع لهم منها على مذهبهم من تفاريع الشافعية)** يعنى أنه ألف كتابه المسمى بالبديع فى فروع فقهية لم يذكرها علماء المالكية، فخرجها على حكم ما ذكره الشافعية فيها لتصريحهم بها، وليس هذا تقليدًا لهم وإنما هو نظر فى دليلهم وإثبات لذلك الحكم بالدليل، فهو اجتهاد مذهبى ويقع مثله لغيرهم من الفقهاء أيضًا، والتخريج فى اصطلاح الفقهاء أن ينص صاحب المذهب على حكمين مختلفين فى صورتين متشابهتين لم يظهر فارق بينهما، فينقلون نصه فى كل صورة إلى أخرى، كمسئلتى الاجتهاد فى الأوانى والقبلة إذ منع فى الأول العمل بتغيير الاجتهاد وجوز فى الثانية، فنقلوا منعه فى تلك لهذه وتجويزه فى هذه لتلك، فصار فى كل قولان منصوص ومخرج المنصوص فى كل هو المخرج فى الأخرى، والتخريج عند المحدثين أن يجد حديثًا فى كتاب فينقله مسندًا مبينا حاله فى الصحة وضدها أو غير مسند.

(وشاهد هذا) أى دليل القول بالطهارة **(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن منه شىء يكره ولا غير طيب)** أى فإن النجاسة للاستقذار وكراهة التلوث، ولم يكن منه صلى الله تعالى عليه وسلم شىء مكروه عند الطباع السليمة، وهذا دليل عقلى مؤيد لنظر أهل الشرع فلا يرد عليه أنه لا يدل على مدعاه، لأن من المستقذر ما هو غير نجس ومن النجس ما هو غير مستقذر.

(ومنه) أى من الشاهد على أنه لم يكن منه صلى الله تعالى عليه وسلم شىء يكره ولا غير طيب **(حديث علىّ رضى الله تعالى عنه)** الذى رواه ابن ماجه وأبو داود فى مراسيله **(غسلت النبى ﷺ)** بتشديد السين؛ لأنه المستعمل فى الميت ويخفف فى غيره كالثياب.

(فذهبت أنظر ما يكون من الميت فلم أجد شيئا) ذهب هنا من أفعال المقاربة، أى جعلت أنظر ومثله كثير فى كلامهم، فالقول بأنه بمعنى أردت، استعير للذهاب بمعنى

المرور للإرادة بجامع التلازم بينهما تكلف مفسد للمعنى، لأن قوله: «فلم أجد» لا وجه لتفريعه ويكون تامة بمعنى يوجد، وما يوجد من الميت تغير رائحة وخروج فضلات، وهذا من أعلام النبوة وطهارة عنصر طينته، وقد مكث صلى الله تعالى عليه وسلم بعد موته يومين فلم يتغير منه شىء ما وهذا مما يستأنس به، لأن طيبه يدل على طيب ما يحصل منه، وكل إناء بالذى فيه يرشح. وليس برهانا عقليا كما يرشدك إليه تعبيره بالشاهد، فلا يرد عليه أن عدم وجوده كيف يدل على ما نحن فيه من طهارة الفضلات، ويأتى قريبا أن الذى غسَّل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم علىّ والعباس وابنه أى الفضل يعينانه وقثم وأسامة وشقران يصبون الماء، وغسلوه وأعينهم معصوبة تأدبا، ولأنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «لا يرى أحد عورتى إلا طمست عيناه»(١) كما سيأتى. وروت عائشة رضى اللّه تعالى عنها أنهم ترددوا فى تجريده للغسل، فسمعوا قائلا لم يروا شخصه يقول: لا تجردوا نبيكم من ثيابه فغسلوه وعليه قميصه بسبع قرب من بئر غرس ثلاث مرات، الأولى بماء قراح، والثانية بماء وسدر، والثالثة بماء وكافور، وإنما قال علىّ رضى اللّه عنه فذهبت أنظر بناء على العادة لتأخير دفنه؛ لأنه مات يوم الاثنين ودفن يوم الأربعاء لاشتغالهم بأمر الخلافة ولدفع وهم بعضهم أنه لم يمت.

(**فقلت: طبت**) بفتح تاء الخطاب (**حيا وميتا**) والمخاطب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على عادتهم فى مخاطبة الأموات عند التوجع والثناء، كما ورد فى المراثى، أو لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ليس كغيره فيسمع كما يسمع فى قبره من يصلى عليه كما سيأتى.

(**قال: وسطعت منه ريح طيبة لم يجدوا مثلها قط**) أى ظهرت وارتفعت، وأصل السطوع فى النور فاستعمل فى مطلق الظهور، وروى ابن بكير فى سيرته أن أم سلمة رضى اللّه تعالى عنها وضعت يدها على صدر رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم فمكثت جمعا لا تأكل ولا تتوضأ إلا وجدت ريح المسك بين يديها.

(**ومثله**) أى مثل قول على رضى اللّه عنه هذا (**قال أبو بكر الصديق**) رضى اللّه تعالى عنه (**حين قبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد موته**) إشارة إلى ما فى الصحيحين عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها: «أن أبا بكر رضى اللّه تعالى عنه لما نُعى له رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم وهو بمسكنه بالسنح بضم السين المهملة وضم النون وقد تسكن ثم حاء مهملة، بعوالى المدينة على مقدار ميل من المسجد النبوى، جاء فدخل المسجد ولم يكلم أحد حتى دخل بيت عائشة رضى اللّه تعالى عنها والنبى صلى الله

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٥/٢٦١).

تعالى عليه وسلم مسجى ببرد حبرة، فكشف عن وجهه الشريف وأكب عليه يقبله وهو يبكى ويقول: بأبى أنت وأمى يا نبى اللّه، لا يجمع اللّه عليك موتتين، أما الموتة التى كتبت عليك فقد ذقتها، فسل عمر رضى اللّه تعالى عنه سيفه وجعل يتوعد من يقول إنه صلى الله تعالى عليه وسلم مات، ويقول: إنما أرسل إليه كما أرسل إلى موسى عليه الصلاة والسلام فلبث أربعين ليلة ثم رجع، وإنى واللّه لأرجو أن يرجع رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم كما رجع موسى ويقطع أيدى رجالا وأرجلهم». وفى رواية: «أن الصديق لما كشف عن وجهه بكى وقال: بأبى أنت وأمى طبت حيا وميتا» والصحابة منهم من خبل، ومنهم من أخرس، ومنهم من أقعد، فلما خرج أبو بكر رضى اللّه تعالى عنه قال لعمر: أيها الحالف على رسلك، فجلس فصعد أبو بكر المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم قد مات، ومن كان يعبد اللّه فإن اللّه سبحانه وتعالى حى لا يموت، وقد قال اللّه تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠] وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤] الآية، فنشج الناس يبكون. وروى: «أنه لما قبل وجهه وقال طبت حيا وميتا، زاد: وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء، ولو أن موتك كان اختيارًا لجدنا لموتك بالنفوس اذكرنا يا محمد عند ربك عز وجل ولنكن من بالك، وجعل يقول، وهو يبكى: واخليلاه واصفياه وانبياه» وتقدمت الإشارة لشيء من ذلك فى الفصل السابع.

(ومنه) أى من الشواهد على ما ذكر ما رواه البيهقى والطبرانى فى معجمه الأوسط عن أبى سعيد الخدرى، والأول دليل عقلى وهذا نقلى. **(شرب مالك بن سنان دمه يوم أحد ومصة إياه)** مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة بن الأبجر بموحدة وجيم، وهو أبو أبى سعيد الخدرى رضى اللّه تعالى عنهما وقد تقدم الكلام على ترجمتهما ونسبهما، وهو من كبار الصحابة، قتل شهيدًا يوم أحد رضى اللّه تعالى عنه، وأحد بضمتين اسم جبل وقعت فيه الواقعة العظيمة بعد قدومه صلى الله تعالى عليه وسلم من نجران، وقد غزاه كفار قريش فى شوال سنة ثلاث وقدموا بنسائهم وحلفائهم، وقصدوا المدينة فنزلوا قرب أحد على شفير الوادى بقناة مقابل المدينة، فرآى رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم فى منامه أن فى سيفه ثلمة وأن بقرًا له تذبح، وأنه أدخل يده فى درع له حصينة، فتأولها بأن رجالا من أصحابه يقتلون، وأن رجلا من أهل بيته يصاب، وأن الدرع الحصينة هى المدينة، ورؤيا الأنبياء وحى، فأشار على أصحابه أن لا يخرجوا من المدينة ويتحصنوا بها، فإن قربوا منها قوتلوا، ووافقه على رأيه عبد اللّه بن أبى بن سلول وأبى

كثير من الأنصار إلا الخروج ليكرم الله من شاء بالشهادة، فلما رأى صلى الله تعالى عليه وسلم عزيمتهم، دخل بيته يوم الجمعة ولبس لامته وخرج، فقال قوم ممن ألح فى الخروج: إن شئت فارجع: فقال: «ما ينبغى لنبى إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل»[1] فخرج فى ألف من أصحابه واستعمل ابن أم مكتوم رضى الله تعالى عنه على الصلاة بمن بقى بالمدينة، فلما سار صلى الله تعالى عليه وسلم إلى القوم انصرف عنه ابن أبى بثلث الناس مغاضبا لمخالفة رأيه، فنهض صلى الله تعالى عليه وسلم لما عزم عليه وذكر له قوم من الأنصار الاستعانة بحلفائهم من اليهود، فأبى وسلك على حرة بنى حارثة، وشق أموالهم حتى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى، وجعل ظهره إلى أحد، ونهى الناس أن يقاتلوا حتى يأمرهم، وسرحت قريش الظهر والكراع فى زروع المسلمين بقناة، وتعبى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم للقتال فى سبع مائة والمشركين ثلاثة آلاف فيهم مائتا فارس، وقيل: كان فى المسلمين خمسون فارسا ورماة المسلمين خمسين رجلا أمر عليهم عبد الله بن جبير رضى الله تعالى عنه وهو معلم بثياب بيض، فرتبهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خلف الجيش، وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم، وظاهر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين درعين، ودفع اللواء لمصعب بن عمير رضى الله تعالى عنه أخى بنى عبد الدار، وأجاز سمرة بن جندب والفزارى ورافع بن خديج بالخروج، وكان سن كل واحد منهما خمسة عشر سنة، وكان رافع راميا وجماعة ورد من لم يبلغ، وقيل: الإجازة استحقاق السهمين والرد عدم ذلك، وجعلت قريش على ميمنتهم فى الجبل خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل، وأعطى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سيفه إلى أبى دجانة وكان شجاعا يختال فى الحرب، وكان أبو عامر المعروف بالراهب وسماه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الفاسق سيدًا فى الأوس تنسك وترهب فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام غلب عليه الشقاء ففر عن المدينة لبغضه لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وخرج إلى مكة فى جماعة من الأوس، وشهد يوم أحد مع الكفار ووعدهم بانحراف قومه إليه، فكان أول من خرج فى عبدان أهل مكة والأحابيش، فلما نادى قومه وعرفهم بنفسه قالوا له: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق، فقال: لقد أصاب قومى بعدى شر، ثم قال: لما التقى الجمعان قاتل المسلمون قتالا شديدًا وأبلى يومئذ على وحمزة وأبو دجانة وأبو طلحة رضى الله تعالى عنهم بلاء حسنا وكذا جماعة، وأصيب

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/١٢٩)، والبيهقى فى الكبرى (٧/٤١)، وفى دلائل النبوة (٣/٢٠٥)، وانظر فتح البارى (١٣/٣٤١).

منهم مقبلين غير مدبرين، وقاتلوا قتالا شديدا ببصائر ثابتة، فانهزمت قريش واستمرت الهزيمة عليهم، فلما رآى ذلك الرماة قالوا: قد هزم اللّه تعالى أعداء اللّه فما لنا ههنا قاعدون، فذكرهم ابن جبير أميرهم رضى اللّه تعالى عنه أمر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لهم أن لا ينزلوا من مواضعهم فلم يلتفتوا لقوله، وقالوا: قد انهزموا وقاموا فتولى المسلمون وقد كر المشركون عليهم ففروا، وثبت من أكرمه اللّه بالشهادة، وإنما خالفوا لظنهم الأمر مقيدًا ببقاء العدو، فإذا انهزموا سقط الخطاب فغلطوا فى التأويل، فوصلوا إلى رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم منهزمين وقاتل دونه مصعب بن عمير رضى اللّه تعالى عنه حتى قتل، وجرح رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم فى وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى بحجر وهشمت البيضة برأسه، وكان الذى يتولى ذلك عمرو بن قميئة الليثى وعتبة بن أبى وقاص، وقد قيل: إن عبد اللّه بن شهاب هو الذى شجه، وأكب الحجارة على رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم حين سقط فى حفرة كان أبو عامر الراهب حفرها مكيدة فى المسلمين فخر عليه السلام على جنبه، فأخذ علىّ كرم اللّه وجهه بيده واحتضنه طلحة حتى قام، ومص مالك بن سنان من جرح رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم علاجًا ومداواة له حتى لا يختم الجرح قبل التصفية من الدم، ولذا لم يقل له صلى الله تعالى عليه وسلم كما قال لابن الزبير حين شرب دمه كما يأتى، وتشبثت حلقتان من درع المغفر فى وجهه الشريف، فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح رضى اللّه تعالى عنه وعض عليهما بثنيتيه فسقطتا وكان اهتم يزينه هتمه.

وقد اختلف فى هذا هل كان قبل الوعد من العصمة أو بعدها، والعصمة إنما هى عصمة النفس من القتل لا الجرح ونحوه، وبقى له ثوابها والتأسى به فيها، وقد تقدم ما فى ذلك، وأعطى رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم الراية حين قتل مصعب بن عمير رضى اللّه تعالى عنه عليا كرم اللّه وجهه، فأخذها علىّ كرم اللّه تعالى وجهه وصار رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم تحت راية الأنصار، وقتل صاحب لواء المشركين فسقط لواؤهم فرفعته عمرة بنت علقمة الحارثية، فاجتمعوا إليه وحملوا على رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم، فكر دونه نفر من الأنصار سبعة أو عشرة فقتلوا كلهم، وأصيبت عين قتادة رضى اللّه تعالى عنه فسالت على وجنته، فردها رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم إلى محلها فكانت أجمل عينيه وأصحهما، ولذا قال بعض ولده لعمر بن عبد العزيز لما قدم عليه وقال له: من أنت؟ فقال:

أنا ابن الذى سالت على الخد عينه ... فردت بكف المصطفى أحسن الرد
فعادت كما كانت لأول أمرها ... فيا حسن ما عين ويا حسن ما رد

فقال عمر:

تلك المكارم لا قيعــان مـن لـبـن

وأحسن جائزته، وانتهى أنس بن النضر إلى جماعة من الصحابة وقد ألقوا بأيديهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم. قال: فما تصنعون بالحياة بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه، وأول من ميز رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم بعد الجرح له كعب بن مالك الشاعر، فنادى بأعلى صوته: معشر المسلمين، هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وأشار إليه رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم أن انصت الناس، فلما عرفوه صلى الله تعالى عليه وسلم مالوا إليه ونهضوا معه نحو الشعب فيهم أبو بكر، وعمر، وعليّ، وطلحة، والزبير وغيرهم رضى اللّه عنهم، فلما أسند فى الشعب أدركه أبي بن خلف فتناول صلى الله تعالى عليه وسلم حربة الحارث بن الصمة وطعنه بها فى عنقه فمات عدو اللّه مرجعه بسرف. وقصة أحد مفصلة فى السير بأبسط من هذا، وما يتعلق بأبى بن خلف سيأتى الكلام عليه مطولا فى كلام المصنف رحمه اللّه تعالى فى قوله: فصل وأما الشجاعة إلى آخره.

وأشار بقوله: شربه ومصه إلى أنه كان يفيض أولا، فلذا جعل أخذه بفيه وابتلاعه إياه شربًا، ثم لما قل وجعل يجذب ما قل منه بالمشقة لما فيه جعله مصًا، فإن المص بالميم والصاد المهملة أخذ المائع القليل بجذب النفس، فقال رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم: «من مس دمه دمى لم يخالطه ذنب»[1] وهكذا من مازج بدنه شيئا منه، وكان فيه إشارة إلى أنه يستشهد وقد كان كذلك، وقد علمت أن هذا رواه البيهقى والطبرانى فى الأوسط وكذا أصحاب السير، وضمير إياه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ووجه دلالته على ما قاله المصنف، أن الدم غير طاهر من غيره صلى الله تعالى عليه وسلم، فلو كان دمه الشريف طاهرًا لنهاه عن ازدراده، إلا أنه لا يدل على طهارة بقية الفضلات منه قياسا لفرق الماوردى رحمه اللّه تعالى بين الدم والشعر وغيرهما بأنهما من أجزاء بدنه بخلافها.

وقوله: **(وتسويغه صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك)** أى شرب دمه ومصة **(له)** أى لمالك بن سنان رضى اللّه عنه، وتسويغه بالسين المهملة والغين المعجمة بمعنى تجويزه له من غير إنكار ومدحه له، وهو مستعار من ساغ الشراب فى الحلق إذا سهل انحداره فيه.

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٨/٢٧٠)، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٦/١١٢).

ومنه: ﴿لَبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ [النحل:٦٦] والتعبير بـه هنـا فـى غايـة الحسـن والتورية لما فيه الشرب (**وقوله**) أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لمالك (**لن تصيبه النار**) كناية عن فوزه بنعيم الجنان، وفى رواية: «من سره أن ينظر إلى من خالط دمه دمى فلينظر إلى مالك بن سنان»

(**ومنه شرب عبد الله بن الزبير**) بضم الزاى والتصغير (**رضى الله عنهما دم حجامته**) قال البرهان الحلبى: هذا الحديث رواه البزار والحاكم والبيهقى والبغوى والطبرانى والدارقطنى من طرق يقوى بعضها بعضًا والعجب من قول ابن الصلاح أن هذا الحديث لم أجد له أصلاً، وهو مذكور فى هذه الأصول، وقد كان عليه الصلاة والسلام قال لما ولدته أمه ونظر إليه هو هو فكفت أمه عن إرضاعه فقال: «أرضعيه ولو بماء عينيك كبش كبش بين ذئاب عليها ثياب ليمنعن البيت أو ليقتلن دونه» وهذا من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم لإخباره بالمغيبات فإنه بيان لقصته مع الحجاج، فإن ابن الزبير رضى الله تعالى عنهما استخلف سنة أربع أو خمس وستين بعد وفاة معاوية رضى الله تعالى عنه، فحاصره بعد ذلك الحجاج عند البيت العتيق سنة ثلاث وسبعين حتى قتل شهيدًا وقصته مشهورة، وهو أحد العبادلة، الإمام الزاهد العابد الشجاع ابن الشجاع، وهو أول مولود ولد للمهاجرين، وحنكه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بتمرة لاكها بفمه فخالط ريقه ريقه، وله رضى الله تعالى عنه من شرف النسب مالا يوصل إليه؛ لأن أمه أسماء رضى الله تعالى عنها ذات النطاقين بنت أبى بكر الصديق، وأبوه الزبير رضى الله عنهما أحد العشرة سيف الله، وجدته صفية رضى الله عنها بنت عبد المطلب، وعمته خديجة أم المؤمنين، وخالته عائشة رضى الله عنها، وجده لأمه أبو بكر رضى الله تعالى عنه، وكان صوامًا قوامًا لا ينام ليله، وكان أطلس لا لحية له.

وقوله: (**فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم «ويل لك من الناس، وويل للناس منك»**) بيان لما تسبب عن شرب ذلك الدم وويل للتحسر والتألم من الأمر، قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]، وهو إشارة إلى قتله وتعذيبه وتحقيره لقتل الحجاج له ومن عاونه ظلما له، وويل للناس منه لما أصاب الناس من خروجه لطلب الخلافة لا من المدينة لمكة، ومحاصرة مكة بسببه وقتل من قتل ثمة، وما أصاب أمه وأهله من المصائب، وما لحق قاتليه من الإثم العظيم، وتخريب البيت وهدمه بسببه، وإنما جعله ناشئا عن شرب دمه فإنه بضعة من النبوية نورانية بما قوت قلبه حتى زادت شجاعته وعلت همته، عن أن ينقاد لغيره ممن لا يستحق الإمارة فضلاً عن الخلافة، وما قيل: إنه إشارة إلى ما يلحقه من قدح الجهلة فيه بواسطة شربه الدم، وما

يلحقهم من الإثم بذلك القدح ما لا ينبغى ذكره وسقوطه مغن عن رده وسيأتى تحقيقه، ودمه صلى الله تعالى عليه وسلم مما تغدى قطراته بالأرواح، ولله در القائل:

يجرى العلا فى عرقه جرى الندا ... فى عوده فهو اللباب صفاء
لو يقد الأحرار حين أرقته ... جعلوا له حب القلوب وعاء
أو بويعوا قطراته معدودة ... أعطوا به مهج النفوس شراء
واسترخصوا فى سعرها أن يبذلوا ... عن كل واحدة جرت حوباء

وقد شرب دمه صلى الله تعالى عليه وسلم أيضًا أربعة رجال؛ أبو طيبة واسمه دينار أو نافع، وسالم بن أبى الحجام وهو الذى قال له صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا تعد فإن الدم كله حرام على ما فيه»(١). وسفنة كما رواه البيهقى، وعلىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ذكره الرافعى فى الشرح الكبير. وقال ابن الملقن: إنه غريب لم نجده لغيره وقد مر ذلك.

(ولم ينكر عليه) هذا هو محط الدليل، فإن عدم إنكاره صلى الله تعالى عليه وسلم عليه دليل على جوازه وطهارته، قال السخاوى: سئل شيخنا العلامة ابن حجر عن حديث ابن الزبير ومالك بن سنان، وقوله للأول: «ويل لك» إلخ، وقوله لمالك: «لا تمسك النار» ما الحكمة فى تنوع القول مع اتحاد السبب؟ فأجاب بأن ابن الزبير رضى الله عنهما شرب دم الحجامة و هو قدر كثير يحصل به الاغتذاء، وقوة جذب المحجمة تجلبه من سائر العروق أو كثير منها، فعلم صلى الله تعالى عليه وسلم أنه يسرى فى جميع جسده فتكتسب جميع أعضائه منه قوى من قوى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فتورد به غاية قوة للبدن والقلب، وتكسبه نهاية الشهامة والشجاعة، فلا ينقاد لمن هو دونه بعد ضعف العدل وقلة ناظره وتمكن الظلمة وكثرة أعوانهم، فيحصل له ما أشار إليه صلى الله تعالى عليه وسلم من تلك الحروب الهائلة التى تنتهك بها حرمته، أى الناشئة من حرمته صلى الله تعالى عليه وسلم وحرمة البيت العتيق، فقيل: ويل له لقتله وانتهاك حرمته، وويل لهم لظلمهم وتعديهم عليه وتسفيههم.

وأما مالك رضى الله تعالى عنه فازدرد ما مصه من الجرح الذى فى وجهه صلى الله تعالى عليه وسلم وهو أقل من دم الحجامة، وكأنه صلى الله تعالى عليه وسلم علم أنه يستشهد فى ذلك اليوم فلم يبق له من أحوال الدنيا ما يخبر به، فأعلمه بالأهم له بما يتلقاه من أنواع مسرات الجنان. انتهى. ولا عطر بعد عروس.

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٨/ ٢٧٠).

(**وقد روى نحو من هذا**) المذكور فى شرب دمه صلى الله تعالى عليه وسلم (**عنه**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**فى امرأة شربت بوله**) سيأتى بيان هذه المرأة (**فقال لها: «لن تشتكى وجع بطنك»**) أى لا يصيب بطنك وجع منذ اليوم لبركة ما دخل فى جوفها، فعبر بنفى الشكاية عن نفى لازمه وهو الوجع بطريق الكتابة التى هى أبلغ من التصريح. (**أبدًا**) وفى رواية بعدها (**ولم يأمر واحد منهم**) أى ممن شرب دمه ومن مصه ومن شرب بوله. (**بغسل فم**) ولو كان نجسًا لأمر به، ونهاه عن عوده لمثله؛ لأن تناوله لم يكن بإذنه فلذا قال: (**ولا نهاه عن عوده**) ضمير نهاه وكذا ضمير عوده المضاف إليه إن كان بالضمير لواحد وليس الضمير لواحد للشرب كما توهم، وقال البرهان: إنه لعودة بتاء التأنيث كدولة فكأنه رواية، ولو كان نجسًا حرم تناوله ووجب تطهير محله ولم يقر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على مثله، وكونه للتداوى والعلاج خلاف الظاهر على ما فيه.

(**وحديث هذه المرأة التى شربت بوله صلى الله تعالى عليه وسلم صحيح ألزم الدارقطنى مسلمًا والبخارى إخراجه فى الصحيح**) يعنى أنه مستجمع لشرطهما فهو فى أعلى درجات الصحة، فكان ينبغى ذكره فليس الإلزام على ظاهره، والدارقطنى منسوب إلى دار القطن محلة ببغداد، وهو الإمام الحافظ الذى لم ير مثله فى عصره، وهو على بن عمر بن أحمد بن مسعود بن النعمان بن دينار بن عبد الله أبو الحسن الذى انتهى إليه علم الأثر ومعرفة العلل، وأسماء الرجال وأحوالهم مع الصدق والعدالة والمعرفة بمذاهب الفقهاء، فلذا قيل: إنه أمير المؤمنين فى الحديث، ولد سنة ست وثلاثمائة وتوفى سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، وما ذكره المصنف من أن الدارقطنى قال: حديث المرأة التى شربت بوله صلى الله تعالى عليه وسلم صحيح يخالفه أنه قال فى علله: إنه مضطرب، جاء عن أبى مالك النخعى وهو ضعيف وروى عنه الحاكم.

(**واسم هذه المرأة بركة واختلف فى نسبها**) قال البلقينى رحمه الله تعالى فى الخصائص: إن أم أيمن وأم يوسف شربتا بوله صلى الله تعالى عليه وسلم ولم ينكره عليهما. وفى تجريد الذهبى: إن بركة الحبشية قدمت مع أم حبيبة وهى التى شربت بوله، وهى غير بركة بنت يسار المهاجرة إلى الحبشة مع زوجها قيس بن عبد الله الأسدى، وغير بركة أم أيمن، وهى بركة بنت ثعلبة بن عمرو والدة أيمن بن عبيد، وأم أسامة بن زيد، فاسم هذه المرأة بركة ولكن فى الصحابيات من اسمها بركة عدة نساء، فاختلف فى التى شربت بوله صلى الله تعالى عليه وسلم أيتهن هى، وإلى ذلك أشار المصنف رحمه الله تعالى بقوله: اختلف فى نسبها، فقيل: هى أم أيمن بركة بنت محصن

ابن ثعلبة بن عمرو بن حفص بن مالك بن سلمة بن عمرو بن النعمان مولاة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وحاضنته الحبشية معتقة أبيه، أسلمت هى وابنها أيمن بن عبيد الحبشى، ثم تزوجها زيد بن حارثة، وأخرج لها أحاديث فى كتب السنة، وأدركت خلافة عثمان كما فى التهذيب وذكره الواقدى، ورد بما فى مسلم من أنها توفيت بعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بخمسة أو ستة أشهر، ولم يكن بأم أيمن غيرها، وقيل: إن التى شربت بوله صلى الله تعالى عليه وسلم بركة بنت يسار مولاة أبى سفيان بن حرب المهاجرة السابقة، وكانت ظئرًا لأم حبيبة رضى الله عنهما، فلما تنصر عبد الله بن جحش ثبتت أم حبيبة على الإسلام، وخلف عليها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بتزويج النجاشى إياه صلى الله تعالى عليه وسلم لها وإصداقه إياها أربع مائة دينار، وبعثها له صلى الله تعالى عليه وسلم مع شرحبيل بن حسنة فقدمت ومعها بركة تخدمها، وهى القائلة: إنه كان له صلى الله تعالى عليه وسلم قدح تحت سريره يبول فيه فشربته ليلا، وهذا مخالف لما قاله البرهان الحلبى من أن القادمة معها غير بركة بنت يسار، ولما قاله الذهبى من أنها بركة الحبشية إلا أن يريد بالحبشية المهاجرة للحبشة وهو خلاف الظاهر، وروى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال لها: «لا ييجع بطنك أبدًا»[(١)] بفتح الياء الأولى وكسرها وهما لغتان فى يوجع سوى ياجع وعلى الكسر روى قوله:

ولا تنكئى قرح الفؤاد فييجعا

وروى كما مر: «إذن لا تلج النار بطنك».

(وقيل هى) أى بركة المذكورة **(أم أيمن وكانت تخدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** تأييد لكونها التى شربت بوله صلى الله تعالى عليه وسلم ليلا، لأنها إذا كانت خادمة له صلى الله تعالى عليه وسلم تمكنت من الوصول لذلك فى مثل ذلك الوقت، وتمكنت من الوقوف على حاله، فلذلك **(قالت: كان لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قدح من عيدان)** والقدح ليس المراد به ما يشرب به الشراب كما هو عند العامة، بل هو الإناء الذى يشرب منه، وأصغره الغمر بضم الغين المعجمة وهو الذى لا يروى، ثم القعب وهو ما يروى، ثم القدح وهو ما يروى الاثنين والثلاثة، ثم العس وهو ما يشرب منه الجماعة، ثم الرقد، ثم التبن، ثم الجفنة، وعيدان جوز فيه التلمسانى كسر العين على أنه جمع عود، والذى عليه الشراح أنه بفتح العين المهملة تليها ياء مثناة تحتية ثم دال مهملة

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٨/٢٧١)، وقال الهيثمى: «وفيه أبو مالك النخعى، وهو ضعيف».

وألف ونون، ووزنه فيعال أو فعلان، والعيدان والعيدانة النخلة الطويلة، قال الشاعر:

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت   عيدان نجد ولم يعبأن بالرتم

ويقال للنخل إذا طال وتناولته اليد: عضيد، فإذا فات اليد فهى الجبارة، فإذا ارتفعت فهى الرقلة والعيدانة، وكان للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم عدة أقداح، قدح يسمى الريان، آخر يسمى المغيث، وآخر مضبب بسلسلة من فضة، وقدح من زجاج، وهذا القدح كان (**يوضع تحت سريره يبول فيه من الليل**) والسرير معروف ومن ظرفية بمعنى فى لا زائدة، وقد عده من معانيها الكوفيون وابن مالك، وأنشدوا:

عسى سائل ذو حاجة إن منعته   من اليوم سؤلا ناله بعد فى غد

وقال الله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة:٩] أى فيه (**فبال فيه ليلة ثم افتقده**) الافتقاد افتعال من الفقد وهو العدم، وليس الافتقاد هنا بمعنى العدم وإن ورد بمعناه كما فى الصحاح، بل الطلب والتفتيش، يقال: تفقده وتعهده بمعنى، إلا أن الفرق بينهما كما قال الراغب: إن التفقد حقيقته تعرف فقدان الشىء والتعهد تعرف العهد المتقدم (**فلم يجد فيه شيئا**) من بوله.

(**وسأل**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**عن بركة فقالت: قمت وأنا عطشانة**) المذكور فى كتب اللغة أن يقال عطشان وعطشى وجماعة عطاش إلا فى ألفاظ قليلة جاءت على فعلان فعلانة، ولغة بنى أسد فى كل فعلان فعلانة فيصرفون فعلان؛ لأن شرط منع صرفه وجود فعلى، أو فقد فعلانة فما ورد فى هذا الحديث إما سماعى على خلاف القياس، أو هو على لغة بنى أسد فتوقف البرهان فيه لا وجه له، وقد كانت قريش تتكلم بغير لغتها لكثرة وفود القبائل عليهم، وحكى صاحب «القاموس» امرأة عطشانة من غير تقييد بلغة، وقيل: الظاهر أن من قال عطشى لا يقول عطشانة وفيه نظر، وقد علم أن هذا يدل على طهارة بوله صلى الله تعالى عليه وسلم إذ لم ينهها عنه، ولم يأمرها بغسل فمها، ولا بإعادة الصلاة وإن كانت صلت، ولا ينافيه قولها: (**فشربته وأنا لا أعلم**) لأنه لبيان طيبه وأنها لم تجد له ريحًا وطعمًا كغيره، أى لا أعلم أنه بوله لما ذكر، فلا ينافى قولها: إنه كان له قدح يضعه تحت سريره إلى آخره فتأمل.

(**وروى حديثها**) أى بركة أم أيمن المذكورة (**ابن جريج وغيره**) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج بجيمين أولاهما مضمومة، وهو إمام ثقة، ولد سنة ثمانين وتوفى سنة خمسين ومائة، ويكنى أبا الوليد وهو مولى لآل صفية بنت حيى، قيل: وهو أول من صنف فى الإسلام، وكان يقول: ما دون العلم أحد تدوينى. وقيل: أول من صنف سعد

ابن أبى عروبة. وقيل: الربيع بن فصيح، وقد اختلف فى فوله السابق امرأة شربت بوله، وقصة أم أيمن فى قدح العيدان هل هما قصتان أو قصة واحدة؟ فروى الحاكم والدارقطنى عن أم أيمن أنها قالت: قام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الليل إلى فخارة من جانب البيت فبال فيها، فقمت وأنا عطشانة فشربت ما فيها وأنا لا أشعر، فلما أصبح قال: «يا أم أيمن قومى فأهريقى ما فى تلك الفخارة» فقلت: شربت ما فيها. فضحك ثم قال: «والله لا ييجعن بطنك أبدًا»(١) ونحوه.

وأخرج عبد الرزاق عن ابن جريج قال: أخبرت أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يبول فى قدح من عيدان، ثم يوضع تحت سريره، فجاء فإذا القدح ليس فيه شىء، فقال لامرأة يقال لها بركة كانت تخدم أم حبيبة رضى الله تعالى عنها جاءت معها من الحبشة: «أين البول الذى كان فى القدح؟» فقالت: شربته، فقال لها: «صحة يا أم يوسف»(٢) وكانت تكنى أم يوسف، فما مر بها حدث غير مرض موتها.

وأخرج أبو داود وابن حبان عن أميمة بنت رقيقة أنها قالت: «كان لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قدح من عيدان»(٣) إلى آخره. قال ابن دحية رحمه الله تعالى: هما قصتان لامرأتين وبركة أم يوسف غير بركة أم أيمن.

أقول: وفى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم «صحة» ما يدل على أن الدعاء به بعد الشرب سنة لا بدعة عامية، وحكمته أن الأكل والشرب يخشى منه السقم ونحوه فلذا دعى به كما قال:

فإن الداء أكثر ما تراه ... يكون من الطعام أو الشراب

وفى بعض النسخ وهو ساقط من الأم وأكثرها (**وروى**) فى بعض الروايات (**عن أمه آمنة قالت: ولدته**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**نظيفًا ما به قذر**) أى شىء مما يكون على المولود، أى نقيا من الوسخ والدرن، وفى بعض النسخ تأخيره عن قوله: (**وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد ولد مختونا مقطوع السرة**) وفى بعض الروايات: «ولد مختونا مسرورًا» وفيه تورية لأنه من السرور أو من قطع السرة، ومثلها فى الحسن أنه ولد معذورًا مسرورًا ومعنى معذورًا مختونا، يقال: عذرته وأعذرته إذا قطعت عذرته وهى القلفة، وكونه صلى الله تعالى عليه وسلم ولد مختونا مقطوع السرة ورد فى

(١) أخرجه الحاكم (٤/٦٣، ٦٤)، وأبو نعيم فى دلائل النبوة (١٥٩).
(٢) أخرجه البيهقى فى الكبرى (٧/٦٧).
(٣) أخرجه أبو داود (٢٤)، والنسائى (٣٢).

حديث روى عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما، وعلى هذا فهو تكريم له صلى الله تعالى عليه وسلم حتى لا يرى أحد عورته، وقد وقع هذا لكثير من الناس، والعرب تسميه ختان القمر، وأصله أن الطفل إذا ولد فى ليلة مقمرة واتصل بحشفته ضوء القمر وهى إذ ذاك لم تنضج جلدته أثر فيها حتى تقلصت وانمحقت، فإن القمر يؤثر ضوءه فى اللحم ويغيره، إلا أنه لا يكون قاطعًا لها بالكلية، ولذا لم يتمدحوا به، قال الشاعر:

إنى حلفت يمينا غير كاذبة لأنت أقلف إلا ماجنى القمر

وقيل: إنه يشير إلى أن النمو فى خلقة الإنسان يحصل فى زيادة القمر، ويحصل النقصان عند نقصانه كما فى الخز والحرير، فهذا النقصان منسوب لنقصان القمر، وقيل: إن عبد المطلب لما رآه صلى الله تعالى عليه وسلم ولد مختونًا قال: «ليكونن لابنى هذا شأن». ولا يخفى أن سند هذا الحديث ضعيف جدًا، والذى صححه المحدثون كما فى التمهيد لابن عبد البر أن جده عبد المطلب ختنه يوم سابعه وجعل له مأدبة وسماه محمدًا، وكانت العرب تختن لأنه سنة توارثوها من إسماعيل وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وليس ذلك لمجاورة اليهود، وقد ورد هذا فى قصة هرقل وواقعته التى قيل له فيها إن ملك الختان قد ظهر، وروى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم ختن يوم شق قلبه الشريف وهو عند مرضعته حليمة، وقد ذكره ابن القيم فى كتابه «الهدى» وهو أرجح الأقوال، وطعن فى القول الأول من الأقوال الثلاثة، وقال: إنه روى فى حديث لم يصح. وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات، ومن الغريب قول الحاكم فى المستدرك: إن الأخبار تواترت بأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولد مسرورًا مختونا، وتعقبه الذهبى وقال: لا نعلم صحة ما ذكره فكيف يكون متوترًا. والقول بأنه أراد بتواتره شهرته بين الناس لا ما اصطلح عليه المحدثون بعيد.

وقد وقع فى هذه المسئلة نزاع بين ابن طلحة والكمال ابن العديم، فألف ابن العديم فى تأييد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم ختن بعد ولادته تأليفًا أوضح فيه الدلائل والنقول، إلا أنهم لم يرضوا قول ابن الجوزى إنه موضوع وردوه، ومع قوله أنه موضوع نقل عن كعب الأحبار أن ثلاثة عشر نبيا ولدوا مختونين، أى على صورتهم وهم آدم، وشيث، وإدريس، ونوح، وسام، ولوط، ويوسف، وموسى، وشعيب، وسليمان، ويحيى، وعيسى، ومحمد، وزيد عليهم حنظلة بن صفوان، قيل: ولا تعارض بين كلاميه ولا يخفى ما فيه، وزيد عليهم إلى سبعة عشر، وقد نظمهم بعضهم فى قوله:

وفى الرسل مختون لعمرك خلقة ثمان وتسع طيبون أكارم
وهم زكريا شيث إدريس يوسف وحنظلة عيسى وموسى وآدم
ونوح شعيب سام لوط وصالح سليمان يحيى هود ياسين خاتم

(تتمة) قد علم أن أمه صلى الله تعالى عليه وسلم آمنة بنت وهب بن عبد مناف زوجها عبد المطلب ابنه عبد الله فولدت له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى وقت وفاتها سبعة أقوال، فقيل: هو بعد ست سنين، أو سبع، أو ثمان، أو خمس، أو أربع، أو تسع، أو اثنى عشر وتسعة شهور من ولادته، أو غير ذلك وماتت بالأبواء راجعة من عند بنى النجار أخواله، وفى زيارة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قبرها وإحيائها له كلام سيأتى.

ثم إنه ورد فى الحديث أن رجلا سأله صلى الله تعالى عليه وسلم ما حقيقة أمرك منذ نشأت؟ فقال: «أنا دعوة أبى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وبشرى أخى عيسى صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنى كنت بكر أمى وأنها حملتنى كأثقل ما تحمل النساء وجعلت تشتكى لصواحبتها ثقل ما تجد»[1] الحديث، وهذا الحديث يعارضه ما رواه الواقدى أن أمه آمنة قالت لما حملت به: «ما شعرت أنى حملت به ولا وجدت له ثقلا كما تجد النساء وإنما أنكرت رفع حيضتى». وجمع بينهما الحافظ أبو نعيم بأن النقل كان فى ابتداء علوقها به، والخفة عند استمراره فيكون فى الحالين خارجا عن المعتاد المعروف، وهذا الجمع لا يتأتى مع قولها كما روى: «إنى لما أنكرت رفع حيضتى أتانى آت وأنا بين النائم واليقظان فقال: هل شعرت بأنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها» فكونها أنبئت بالحمل يقتضى أن النقل لم يكن فى ابتدائه، والذى ينبغى فى التوفيق أن الثقل يكون معنويا وهو الوجع والألم الذى يحصل للحوامل وهو المنفى، وحسيا وهو رزانته وزيادة مقداره من غير ألم وتعب؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم وزن بجميع أمته فرجحهم، وهذا هو المثبت وبقية أحوال حمله ومولده مفصلة فى كتاب المولد لابن حجر وغيره.

(وعن عائشة رضى الله عنها) أنها قالت: **(ما رأيت فرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قط)** وروى أنها قالت: «ما رأيت منه ولا رآى منى» يعنى العورة، وحذف المفعول لاستهجان ذكره، وسيأتى الكلام على ذلك عند إعادة المصنف له فى الكلام على الحياء والإغضاء، وقد اختلف فى نظر أحد الزوجين عورة الآخر، فقيل: يكره وهو

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٦٩/١)، وابن سعد (٩٦/١/١)، والبغوى فى تفسيره (١١١/١)، وابن جرير فى تفسيره (٤٣٥/١).

الأصح، وقيل: يحرم لأنه يورث العمى، وورد تعليل النهى عنه بذلك. ونقل عن علماء الشافعية الاختلاف فى هذا العمى، فقيل: عمى الناظر، وقيل: عمى الولد، وقيل: عمى القلب.

(وعن على رضى الله تعالى عنه: أوصانى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا يغسله غيرى فإنه لا يرى أحد عورتى إلا طمست عيناه) قال المخرج: هذا الحديث رواه البزار والبيهقى، أى لا يمر يده على جسده للغسل غيره لأنه من أقربائه وأقدمهم صحبة. وأما قول الحافظ مغلطاى: إنه غسله صلى الله تعالى عليه وسلم على والعباس وابنه يعينانه، وقثم وأسامة وشقران يصبون الماء عليه وأعينهم معصوبة من وراء الستر، فلا ينافيه أنهما أعاناه بتقليب جثته الشريفة، والثلاثة أعانوه بصب الماء وهو يغسله بنفسه، وقوله: «من وراء الستر» يعنى قميصه من غير تجريد منه كسائر الموتى، لما روى عن عائشة رضى الله عنها: «أنهم اختلفوا هل يجردونه أم لا فسمعوا مناديا من ناحية البيت يسمعون صوته ولا يرونه يقول: غسلوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وعليه ثيابه فلم يجردوه» وقوله: «وأعينهم معصوبة» أى مربوطة بعصابة حتى لا ينظرون جسده الشريف وهو يغسل، خيفة أن يبدو من بدنه الشريف ما لم يؤذن فى النظر إليه، وضمير أعينهم للعباس وابنه وقثم وأسامة وشقران لا للكل، فعلى رضى الله عنه لم يعصب عينه لأنه المباشر فهو مأذون له فى ذلك، وخص بالإذن لأنه كان أقدرهم على الغض، وغيره ربما حانت منه لفتة فيطمس عيناه، ولذا ورد أنه نودى وهو يغسله أن ارفع طرفك نحو السماء خوفا من أن يديم النظر إليه، وطمست بفتح الطاء والميم من الطمس وهو إزالة الأثر بالمحو، وطمس العين إزالة ضوئها وصورتها وهو لازم، قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ [يونس:٨٨] ويتعدى كقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ [النساء:٤٧]، وكفن صلى الله تعالى عليه وسلم فى ثلاثة أثواب بيض سحولية، والسحولية بضم السين وفتحها نوع من ثياب اليمن قطن وبيان النسبة مفصلة فى الفائق، وفى هذا دليل على أن الله تعالى صانه صلى الله تعالى عليه وسلم عن أن يرى أحد محل العورة منه قبل النبوة وبعدها، فمن نظر إليها عن قصد عمى، ولم يرد ما ينافيه إذ لم ينقل أن أحدًا رآها فى صغره كأمه ومرضعته، وأما ما روى «من أن قريشا لما بنت الكعبة وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ينقل الحجارة معهم فكان يضع إزاره على عاتقه ويضع الحجر عليه، فإذا دنا من الناس لبسه فلكمه لاكم لكمة شديدة، فاستغاث شاخصًا بصره للسماء، فقيل له: ما شأنك؟ فقال: نهيت أن أمشى عريانا وكان ذلك أول شىء رآه من أمر النبوة» فليس فيه أن أحدًا نظر لعورته صلى الله تعالى عليه وسلم.

(**وفي حديث عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما**) عكرمة منقول من العكرمة بمعنى الحمامة، وهو عكرمة بن عبد الله البربرى مولى ابن عباس أحد فقهاء المدينة وتابعيها، ومن الأئمة المقتدى بهم فى التفسير والحديث، توفى سنة سبع ومائة، وقيل غير ذلك، وهذا رواه الشيخان وغيرهما وهو حديث صحيح.

(**أنه صلى الله تعالى عليه وسلم نام حتى سمع له غطيط**) الغطيط: صوت النائم إذا ارتفع نفسه لانطباق مجراه وضيقه، ويقال: خطيط بالخاء المعجمة أيضًا وهى بدل من الغين، كما يقال: اغن واخن. قال التلمسانى: وثبتت به الرواية أيضًا.

(**فقام فصلى ولم يتوضأ**) لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان لا ينتقض وضوءه بالنوم مضطجعا بخلاف غيره، وهو من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم. وحكى الشافعية قولاً أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كغيره فى الانتقاض بذلك، والكلام على الانتقاض بالنوم فى المذاهب الأربعة مفصل فى كتب الفقه، وإنما كان ناقضًا لأنه مظنة خروج شيء من ريح ونحوه من النواقض، ومذهب الشيعة وبعض السلف أنه لا ينقض. وفى أحد قولى الشافعي أنه ينقض مطلقا، وليس هذا محل تفصيله، والأحاديث الدالة على أن نومه صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينقض وأنه تنام عينه ولا ينام قلبه كثيرة صحيحة، منها: ما ذكره هنا وهذا مخصوص به بالنسبة للأمة لما صح من حديث: «إنا معشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا»(١) قال ابن عباس رضى الله عنهما: لأن رؤياهم وحى فيفارقون سائر البشر فى نوم القلب ويساوونهم فى نوم العين، فلو سلط النوم على قلوبهم لم يكن رؤياهم مفارقة لرؤيا غيرهم، وهذا فضل من الله خصهم به.

وأما ما روى من وضوئه صلى الله تعالى عليه وسلم بعد نومه، فلم يقل إنه لحدث وإنما كان أحيانا تجديدًا للوضوء، فإنه كان يستحبه أو هو بالنسبة لأمته للتشريع لهم.

فإن قلت: يشكل على هذا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم نام فى الوادى حتى طلعت الشمس، ولو كان قلبه غير نائم ما أخرج الصلاة عن وقتها.

قلت: أجيب عن هذا بأجوبة:

أحدها: أنه لا مخالفة بينهما، فإن القلب يقظان فيحس بما يدركه القلب مما يتعلق بالبدن بخلاف ما يدرك بالعين كطلوع الشمس والفجر. **ثانيها**: أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان له نومان؛ نوم مستغرق تنام فيه عينه وقلبه، ونوم غير مستغرق تنام فيه عينه فقط. قال النووى فى شرح مسلم: والمعتمد الأول فلعل قلبه صلى الله تعالى عليه وسلم

(١) أخرجه ابن عبد البر فى التمهيد (٢٠٨/٥)، وفى الاستذكار (٩٩/١).

كان مستغرقا بالوحى والمشاهدة، فلا يلزم وصف قلبه بالنوم كما كان عند نزول الوحى عليه فى اليقظة فلاشتغال باطنه بالقدس تعطل عن حقوق الظواهر، كما قال الشاعر:

فو الله ما أدرى إذا ما ذكرتها اثنتين صليت العشا أم ثمانيا

وهذا هو الذى اختاره ابن عبد البر وابن المنير، لأن ظاهر الحديث عمومه لسائر أحواله، وما خالفه وجهه ما ذكر وحكمته التشريع، وهذا جواب ثالث. **ورابعها**: أنه يستغرق قلبه وينام ولكن لايبلغ مرتبة عدم الشعور بالحدث.

(تنبيه) على القول بأن المس ينقض الوضوء ذهب بعضهم إلى أنه لغيره صلى الله تعالى عليه وسلم وأما هو فلا، ثم اعلم أنه إذا كان رؤياه صلى الله تعالى عليه وسلم وحيا، فهل أوحى إليه فى نومه بشىء من القرآن؟ قال الرافعى فى أماليه: وإنما نزل عليه صلى الله تعالى عليه وسلم كله يقظة، وما ورد من قراءته سورة الكوثر فى النوم محمول على أنها خطرت على قلبه بعد نزولها يقظة.

وقوله: «يتوضأ» بسكون الهمزة لدخول الجازم عليه ويجوز إبدالها ألفًا لينة على القياس، وحينئذ فيجوز فيه جزمه بحذف الحركة المقدرة وإبقاء الألف المعارضة، ويجوز جزمه بحذف ألفه لمعاملته معاملة يخشى فلك أن تقول: لم يتوضا و لم يتوض كما ذكره النحاة.

(قال عكرمة): فى بيان وجه ما ذكر **(لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان محفوظا)** قيل: هذا جواب عن الإشكال السابق، حاصله أن النوم ليس ناقضًا بنفسه وإنما نقض لأنه مظنة الحدث، والله تعالى حفظه صلى الله تعالى عليه وسلم عن وقوع ذلك منه، ولو وقع نبهه عليه وهو مع ضعفه مخالف لظاهر الحديث، فالظاهر أن المراد أن الله حفظه عن أن ينام قلبه، وقد علمت مما مر أن هذه خاصة إضافية بالنسبة للأمة أو الأمم، لأن سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كذلك، وقيل: إن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى كأنه لم يطلع على حديث: «إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا». أو لم يصح عنده، فحكم بأن الصلاة بعد النوم من غير وضوء من خواصه صلى الله تعالى عليه وسلم وتبعه مغلطاى، وإليه ذهب بعض الشافعية، ولذا قال ابن الوردى رحمه الله تعالى فى البهجة الوردية:

وبعض ما أكرمه الله به منامه بالعين دون قلبه

أقول: لا وجه لما قالوه، فإن الحكم بغفلة مثل سفيان، أو قوله فيما صح من

الأحاديث أنه غير صحيح مع أنه لم يصرح به، فالتقول عليه بمثله غير لائق، وحمل المؤمن وقوله على الصلاح أولى، فنقول: إنما أراد هؤلاء أنه لو سلم أن الأنبياء السالفة صح أنهم كانوا يتوضؤن لصلاتهم كوضوئنا، فلم يسمع من أحد أن وضوءهم ينتقض بنواقض شرعنا فتكون الصلاة بعد النوم من خواص نبينا على الإطلاق، وعدم نوم قلوبهم أمر آخر، وهذا أمر أوضح من الصبح. ومما قلته فيما نحن فيه:

وعينيك ما قلب النبي غفا ولا عيون له في برودة الليل راقدة
ولكنما الأجفان منه تهجدت وباتت بمحراب الحواجب ساجدة

* * *

(فصل) في قوة عقله ﷺ وشدة إدراك حواسه وذكائه

وفيه ما يدل على كمال قوة بنيته **(وأما وفور عقله)** الوفور: بضم الواو والفاء مصدر كالعقود بمعنى التمام لا الكثرة، وقيل: يحتمل أنه جمع وفر بمعنى كثير، والعقل قوة وغريزة أودعها الله في الإنسان ليتميز عن الحيوان بإدراك الأمور النظرية، وقيل: إنه نور يقذف في القلب يستعد به لإدراك العلوم والأمور العقلية، وفي حقيقته ومحله خلاف وكلام لا حاجة لتفصيله، واشتقاقه من العقل بمعنى المنع، ومنه العقال لمنعه الإنسان عما لا يليق، ولذا تظرف القائل:

قد عقلنا والعقل أي وثاق وصبرنا والصبر مر المذاق

وهذه القوة تتفاوت بالشدة والضعف، وتزيد بأمور مكتسبة من التجربة ومخالطة العقلاء، فلذا قيل: العقل عقلان، عقل غريزي، وعقل مكتسب، وقد علمت أن المراد بوفور عقله صلى الله تعالى عليه وسلم تمامه وكماله لاكثرته، حتى يقال: إن المصنف رحمه الله وصف العقل بالكثرة باعتبار آثاره الصادرة عنه، قال في الصحاح: الموفور الشيء التام، ووفرت الشيء وفرا ووفر الشيء بنفسه وفورا بمعنى أنه تام ولازم، والوفور لم يذكر أنه جمع.

(وذكاء لبه) الذكاء بفتح الذال المعجمة والموحدة الفؤاد بسرعة إدراكه وفطنته، لأنه في الأصل الاشتعال والتوقد، ولذا يقال: الذكي متوقد الذهن، وقال الشاعر:

لو لم يحل ماء الندا فيه لأحرقه ذكاؤه

واللب: بضم اللام وتشديد الموحدة التحتية بمعنى العقل، ولب كل شيء قلبه وخالصه، فلو فسر اللب هنا بالقلب جاز أيضًا، يقال: لب يلب إذا صار لبيبا، وعلى الأول غاير بين اللب والعقل تفننا ولا تكرار في كلامه كما توهم.

(وقوة حواسه) الخمس الظاهرة، وهى: اللمس، والذوق، والشم، والسمع، والبصر، وهذه مما لا كلام فى ثبوتها للإنسان وللحيوان، إلا أن الحصر فيها لأنا لم نعثر على غيرها لا فينا ولا فى غيرنا، وإن أمكن كما صرحوا به، وأما الحواس الباطنة كالحسن المشترك، والخيال، والقوة الفكرية، والوهم، والحافظة ومحالها من الدماغ فلم يثبتها أهل الشرع على أنهم فى إثباتها وتعيين محالها فى حيص بيص كما يعرفه من وقف على كلامهم. والحاسة بمعنى المدركة من حس بمعنى أحسن، والثانى هو الأعرف الأفصح، وبه جاء القرآن قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ [الأنبياء:١٢] ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ [آل عمران: ٥٢] وهو استعارة لجعله لشدة ظهوره كالمحسوس، وقوة الحواس مما يتمدح به.

(وفصاحة لسانه) هذا وما قبله مرفوع بالعطف على وفور وسيأتى الكلام على الفصاحة قريبًا.

(واعتدال حركاته) أى حركاته الظاهرة فى بدنه وأعضائه جارية على نهج الاستقامة والأدب، فإنها عنوان لما فى قلبه من الخشوع والخضوع ومراقبة ربه الذى هو دائما فى حضرته، ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم لما رآى رجلا يعبث بلحيته فى صلاته: «لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه». **(وحسن شمائله)** جمع شمال بالكسر وهو الطبع والأخلاق والصفات المحمودة.

(فلا مرية) بكسر الميم وقد تضم وسكون الراء المهملة يليها مثناة تحتية أى لا شك ولا شبهة، أو لا جدال ولا محاجة. وقال الراغب: المرية التردد فى الأمر وهى أخص من الشك، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ [السجدة:٢٣] والامتراء والمماراة المحاجة فيما فيه مرية، وقال الله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢] وأصله من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها للحلب.

(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان أعقل الناس وأذكاهم) أى أقواهم وأشدهم عقلا وأكثرهم فطنة وذكاء، ووضح ذلك وبينه بما هو معلوم لأهل العلم والبصيرة، فقال: **(ومن تأمل)** فى الصحاح تأملت نظرت فيه مستبينًا، فكأنه مأخوذ من الأمل وهو الرجاء، لأن من دقق النظر فى شيء أعمل الفكر فيه رجاء حصوله وانكشاف كنهه.

(تدبيره أمور بواطن الخلق وظواهرهم) أى الوقوف على ظواهر أحوالهم وخفياتها حتى يصلحها ويرشدهم للأحسن منها، وأصل معنى التدبير التفكير فى عواقب الأمور وإدبارها، وتدبير مفعول تأمل، وأمور مفعول تدبير؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم

بعث داعيًا إلى الله وهاديًا للعباد، وهذا إنما يكون بإصلاح باطنهم وظاهرهم وهو يتوقف على معرفة ذلك.

(وسياسة العامة والخاصة) منصوب معطوف على تدبيره، والسياسة مصدر ساس الناس يسوسهم إذا دبر أمورهم وتصرف فيها، قالت حرقة بنت النعمان:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا   إذا نحن فيهم سوقة نتنصف

وقول علامة الروم: إنه معرب سه يسق غلط لا أصل له، وقد أخذه من كلام من لا يعتد به، والعامة عوام الناس وجهلتهم من أرباب الصنائع والرعية، مأخوذ من العموم؛ لأن أكثر الناس كذلك والخاصة خلافهم، وللمسعودى والجاحظ كلام فى وصف العامة منه. أتباع لكل جاهل، لا يفرقون بين حق وباطل، فتراهم مهر عين لقائد دب، أو ضارب دف متشوقين إلى اللهو واللعب، مختلفين لمتعبد متخرق، واقفين عند قاص كذاب، مجتمعين حول مضروب، واقفين عند مصلوب، ينعق لهم فيتبعون ويصاح بهم فلا يرتدعون، إذا اجتمعوا ضروا، وإذا تفرقوا نغعوا، وسياسة الخاصة بالدلالة على الخير والنصيحة، وسياسة العامة بالزجر والقهر، والضرب والنهر.

وسئل العتبى عن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾ [المائدة:٤٤] وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ [الحديد:٢٥] أى مناسبة بين ذلك وبين الحديد وما هو إلا كالجمع بين الضب والنون، فأجاب بأن مالك الملك أرسل رسله لإجراء أوامره ونواهيه بين عباده وهما قسمان، عقلاء ذوو بصيرة وإرشادهم بالكتب الإلهية وما حوته من الأدلة القطعية، وجهلة عوامهم وتسخيرهم بالقهر والإرهاب بالسيف والسنان، فصار المعنى أرسلناهم بضابطى العامة والخاصة، وأى مناسبة أتم من هذه وإن ترائى عدم المناسبه بينهما بحسب النظرة الحمقاء.

(مع عجيب شمائله وبديع سيره) جمع سيرة مضاف للضمير، وقد تقدم أنها هيئة السير، ثم خصت بحاله فى غزواته ونحوها، والعجيب: الأمر الذى من شأنه أن يتعجب منه لكونه لا نظير له، وكذا البديع بمعنى المبدع، وغاير بينهما تفننا فى العبارة و لم يعطفهما، وأتى بمع للدلالة على أن انضمام هذا لما قبله سبب كونه عجيبا بديعا، كما تقول: فلان يجود مع فقره؛ لأن الجود فى هذه الحالة أغرب، يعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مع سياسته العامة للخاصة والعامة مهذب الأخلاق موطئ الأكناف حسن السيرة، وقلما تتفق السياسة العظمى إلا مع التجبر والتعظيم والتحجب كما نراه من الملوك، **فهذا دليل قوة عقله وفطنته صلى الله تعالى عليه وسلم.**

ثم قال: **(فضلا عما أفاضه من العلم)** أى: وزاد على ما ذكر بكثرة العلم الذى علمه الناس وجعله شائعا بينهم من أفاض الحديث أذاعه، وقوله: من العلم: أى علوم الأولين والآخرين.

(وقرره من الشرع) أى ما قرره للناس من الأمور الشرعية، لمعرفته بشرائع من قبله وبيانه لأمور شريعته، والكلام على فضلا وتعديه بعن مفصل فى شروح المفتاح والكشاف، ويأتى بعض منه، والإفاضة أصلها من فيض الماء ثم شاعت فيما مر.

(دون تعلم سبق) متعلق بأفاض وما بعده، أى فعل ذلك من غير تعلم، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يسكن غير بلده، و لم يقارن غير أهل جلدته، و لم يكن ثمة من يمكن تعلمه منه.

(ولا ممارسة تقدمت) منه والممارسة: معالجة ومزاولة بالاعتياد على فعله، أى لم يتعلم من غيره و لم يحاوله حتى يعلمه من نفسه باجتهاد فى استخراجه بعقله.

(ولا مطالعة الكتب منه) أى لم ينظر فى شىء من الكتب؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان أميا بين قوم أميين، وهذا دليل على شدة ذكائه صلى الله تعالى عليه وسلم وفطنته واستقامة طبيعته وفطرته، فلذا قال: **(لم يمتر)** أى لم يشك و لم يرتب **(فى رجحان عقله)** أى فى زيادة عقله **(وثقوب فهمه)** أى نفوذه وظهوره، وهو بالمثلثة من تثقيب النار وهو تذكيتها، يقال: تثقبت النار ثقوبا إذا اتقدت. **(لأول بديهته)** أى لم يمتر و لم يشك فى أول نظرة نظرها.

فإن قلت: هو صلى الله تعالى عليه وسلم تعلم ما ذكر من الوحى المنزل عليه وهو سفير محض.

قلت: تلقى الوحى من الملك، وضبطه وفهمه وإجراؤه فى مجاريه من غير تكلف منه يدل على ما ذكر وكم من عالم قرأ ودرس العلوم إذا أراد تقرير ما علمه لم يجد له قدرة ولا رونقا، وبعض الفقهاء إذا ولى القضاء لا يحسن الحكم بين الناس، ولك أن تقول المراد بما ذكر أمر آخر غير ما قلته من الأمور العرفية التى أكثرها برأيه وحسن تدبيره، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان مأذونًا له فى الاجتهاد.

(وهذا مما لا يحتاج إلى تقريره) وبيانه بما ذكرناه **(لتحققه)** بالمشاهدة فى عصره، والتواتر بعد ذلك بحيث لا يشك فيه مسلم وعاقل، وبما قررناه عرفت أن قول بعض الشراح هنا أن قوله: «ومن تأمل» إلى آخره غير واقع موقعه؛ لأن العلم بمثل هذا ملحق بالبديهيات، وقد استشعر ذلك فقال: «وثقوب فهمه لأول بديهة» فهذا تطويل غير

مفتقر إليه ممن عدم التدبر.

(**وقال وهب بن مُنَبِه:**) بضم الميم وفتح النون وكسر الباء المشددة بزنة اسم الفاعل، وهو وهب بن منبه بن سيج بسين مهملة مفتوحة، وقيل مكسورة ثم مثناة تحتية ساكنة ثم جيم الإنبارى اليمانى، أخو همام بن منبه، وكنية وهب أبو عبد الله، ويقال له: الذمارى نسبة إلى ذمار بكسر الذال المعجمة وهى قرية بقرب صنعاء، تابعى مشهور بالمعرفة بالكتب القديمة، سمع من جابر بن عبد الله رضى الله عنه، وقيل: إنه لم يلحقه. وروى عن ابن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبى سعيد الخدرى، وأبى هريرة، والنعمان بن بشير وغيرهم رضى الله عنهم، واتفقوا على توثيقه وعبادته، وتوفى سنة أربع عشرة، وقيل: ست عشرة ومائة، وهو ابن ثمانين سنة، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، وله ترجمة طويلة فى الميزان.

(**قرأت فى أحد وسبعين كتابا**) من الكتب القديمة النازلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وغيرها. (**فوجدت فى جميعها أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أرجح الناس عقلا وأفضلهم رأيا**) يعنى أن عقله أزيد من عقول الناس، والمراد أشد من عقولهم جميعا وآرائهم، وقد تقدم أنه كان يعرف الكتب القديمة ويقرؤها. قال التجانى فى كتاب المعارف لابن قتيبة: عن وهب أنه قال: «قرأت من كتب الله سبحانه وتعالى اثنين وسبعين كتابا» فيمكن أن يكون وجد أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أرجح الناس عقلا وأفضلهم رأيا فى أحد وسبعين كتابا منها فقط، ولم يجد ذلك فى الكتاب الثانى والسبعين، ويمكن أن يكون الروايات عنه مختلفة بزيادة ونقص، والذى قاله وهب من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم منوه بذكره فى الكتب المتقدمة يعضد قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] (**وفى رواية أخرى**) عن وهب أيضًا (**فوجدت فى جميعها**) أى فى جميع الكتب التى قرأها (**أن الله تعالى لم يعط جميع الناس**) حتى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام (**من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل فى جنب عقله صلى الله تعالى عليه وسلم**) أصل معنى الجنب الجارحة ثم استعير للناحية التى تليها كاستعارة سائر الجوارح لذلك كاليمين والشمال، وقوله: «فى جنب الله» أى فى أمره وحده الذى حده لنا كما قاله الإمام الراغب، فالمراد بقوله تعالى: ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٦] فى حده ومقداره الذى أعطاه الله تعالى له.

(**إلا كحبة رمل من رمال الدنيا**) يعنى أن عقله صلى الله تعالى عليه وسلم كجميع رمال الدنيا وعقل جميع الناس كحبة منها، وهذا على طريق التمثيل لأن عقولهم لا تقاس

بعقله صلى الله تعالى عليه وسلم، كما ضرب الخضر لموسى عليهما الصلاة والسلام مثلا بماء في منقار عصفور من ماء البحر بالنسبة لسائره، فشبه به علم الله تعالى وعلم ما عداه، وقد ورد على كونه أفضل الناس رأيا، أنه ورد ما يخالفه في كثير من الوقائع الثابتة في الحديث، ورجوعه عن رأيه إلى رأى غيره كما في قصة بدر، ورجوعه لرأى الحباب بن المنذر، حيث نزل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأدنى ماء من مياه بدر، فقال له الحباب: أهذا منزل أنزلكه الله فلا تتقدم ولا تتأخر عنه أو هو رأى ومكيدة حرب؟ فقال: «بل هو الرأى والمكيدة» فقال: ليس هذا بمنزل، بل الرأى أن نسير حتى نأتى أدنى ماء من مياه بدر فننزله ثم نغور ما وراءه ونبنى عليه حوضا ونملؤه ثم نقاتل ونشرب ولا يشربون، فقال: «أشرت بالرأى»[1] ورجع صلى الله تعالى عليه وسلم لما قاله.

وكذا في قصة أسارى بدر والفداء، وكذا في قصة تأبير النخل ونحوه مما سيأتى مما لا حاجة للتطويل بذكره هنا، وأجاب التجانى بأن رجحان رأيه على ما سواه مخصوص بما أمضاه من سنن الشرع واجتهاداته في أمور الدين، فلا ينافى رجوعه في آراء الدنيا لغيره كما صرح به في قصة التأبير إذ قال: «إنما أنا بشر مثلكم فإذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر أخطئ وأصيب»[2] وهذا نص فيما ذكر، ورد بأن مختار أهل الأصول أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان متعبدًا فيما لا وحى فيه بانتظار الوحى، ثم بالاجتهاد بعد وقت الانتظار، وقيل: له الاجتهاد مطلقا في الأمور الشرعية والدنيوية وهذا مذهب مالك، وأحمد، والشافعى، وهو المنقول عن أبي يوسف وغيره. واختلف في جواز خطابه في اجتهاده، فذهب الرازى وغيره إلى أنه لا يجوز، وفي التوضيح يجوز لكن لا يقرر عليه، وعدم الإقرار بالإجماع لوجوب اتباعه المقتضى لعصمته، وجواز الخطأ عقلا لا مانع منه بمقتضى البشرية، وقوة عقله صلى الله تعالى عليه وسلم وكمال حدسه وسداد رأيه لا ينافيه لأنه من لوازم الطبيعة البشرية، وإذا جاز سهوه في صلاته ومناجاته ففي غيرها بالأولى، فقول التجانى أن جميع أموره الدينية صواب خلاف المختار عند علماء الأصول، وحينئذ فمعنى كونه أفضل الناس رأيا واجتهادًا مع جواز الخطأ أحيانا أن رأيه لو خلى ونفسه من غير معارض فيما تقتضيه الطباع البشرية، كان أفضل من رأى غيره واجتهاده إذا خلى ونفسه أيضًا، مع رجحان رأيه بعدم التقرير عليه إذا خالف الأولى، وآراؤه صلى الله تعالى عليه وسلم

---

(١) أورده القرطبى في تفسيره (٧/٣٧٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٠/٢٣٦٢)، والطبرانى في الكبير (٤/٣٣٤).

كلها صواب بعد التقرير عليها وقبله، لا إلا على قول من يقول كل مجتهد مصيب، والحاصل أن كون رأيه أفضل الآراء لا ينافى رجوعه لغيره ومشاورته له، فإن العبرة بما وقع عليه القرار لا ببادئ الرأى فافهم.

(وقال مجاهد) رحمه الله تعالى: تقدم الكلام على ترجمته فيما رواه عن ابن المنذر والبيهقى مرسلا بلفظ: **(كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا قام فى الصلاة يرى من خلفه كما يرى من بين يديه)** قال البرهان: فى الأصل الذى وقفت عليه من بفتح الميم موصولة وخلفه صلته منصوب على الظرفية وكذا من بين يديه، وفى غيره بمن الجارة فيهما، وهذا الحديث رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه لكن بلفظ: قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «هل ترون قبلتى ههنا؟ فوالله ما يخفى على ركوعكم ولا خشوعكم وإنى لأراكم من وراء ظهرى»[1]. ورواه مالك وأحمد وغيرهما، وفى لفظه اختلاف كما يأتى، والمعنى متفق.

واختلفوا فى هذه الرؤية هل هى مختصة بحال الصلاة أم لا؟ وهل هى رؤية حقيقية أم علمية قلبية؟ فقال ابن الصباغ فى الشامل: إن المراد بها الحس والتحفظ. وقيل: المراد العلم بأن يوحى إليه صلى الله تعالى عليه وسلم كيفية فعلهم أو يلهم ذلك، وفيه نظر لأنه حينئذ لا معنى لتقييده بقوله: «من وراء ظهرى». وقيل: المراد من عن يمينه وشماله وهو تكلف، والصواب أنه محمول على ظاهره، وأن الإبصار حقيقى خاص به على طريق خرق العادة له صلى الله تعالى عليه وسلم، ولذا أخرجه البخارى فى علامات النبوة، ثم إنه على ما ذكر يجوز أن يكون برؤية عينيه خرقًا للعادة، فكان يرى بها من خلفه كما يرى ما يقابله، فعلم لأنه لا يشترط فى الرؤية المقابلة ولا العضو المخصوص عند أهل السنة كما قرروه فى رؤية الله تعالى، وهذه أمور عادية تجوز الرؤية مع عدمها عقلا، وإذا قلنا الرؤية علمية فمعنى أرى من خلفى أراكم وأنتم من خلفى.

وقال الزاهدى الحنفى صاحب القنية فى رسالته الناصرية «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كانت له عينان بين كتفيه كسم الخياط يبصر بهما لا يحجبهما ثوب ولا غيره» والظاهر أن مثله لا يقال بالرأى، وقيل: كانت صورهم تنطبع فى حائط قبلته صلى الله تعالى عليه وسلم كما تنطبع فى المرآة فيشاهد أفعالهم، ولا ينافى هذا ما ورد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم جعل شابًا حدثًا من وفد عبد القيس خلفه لئلا يراه، ولا قوله: «إنى لأعلم ما وراء جدارى هذا». إن صح ولا قوله فى الحديث الآخر: «أيكم الذى ركع

(١) أخرجه البخارى (١/١١٤)، ومسلم (١٠٩/٤٢٤)، وأحمد (٢/٣٠٣، ٣٦٥، ٣٧٥)، وأبو عوانة (٢/١٣٨).

دون الصف»[١] فقال أبو بكر رضى الله عنه: أنا يا رسول الله. فلو كان يرى كما ذكر ما احتاج للسؤال، لأن الأول تشريع، والثانى المراد به نفى علمه صلى الله تعالى عليه وسلم بالمغيبات، مع أن عدم رؤية ما وراء الجدار لا ينافى الرؤية من غير حائل، وهذا إن لم نقل أنه مخصوص بالصلاة كما فى الامتناع.

وأجاب ابن عبد البر عن حديث أبى بكر رضى الله تعالى عنه بأن هذه القضية كانت قبل أن فضله الله تعالى بهذه الفضيلة، فإن شئونه صلى الله تعالى عليه وسلم تتزايد دائما، وقيل: معنى قوله: «إنى أراكم» إن قصدت ذلك ولم يكن صلى الله تعالى عليه وسلم قصد ذلك، كما أن الإنسان قد لا يستعمل نظره أحيانا، أو أنه رآه ولم يعلم عينه أو أراد تقريره ليذكر له ما ذكره وارتضاه بعضهم، وارتضى غيره أنه كان خلفه صفوف كثيرة فلا يرد عليه عدم رؤيته؛ لأنه لم يكن خلفه فى الصف الأول فلا حاجة لما تكلفوه من الأجوبة وهو كلام حسن.

(**وبه فسر**) بالبناء للفاعل، أى فسر العلماء أو بعض المفسرين: (**قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾** [الشعراء:٢١٩]) أى نرى تقلب بصرك فى المصلين خلفك لتراهم وتعلم ما يفعلون، وهو امتنان بهذه النعم، وهذا مؤنس لاختصاصه بالصلاة كما ورد التصريح به فى بعض الأحاديث.

(**وفى الموطأ**) بصيغة المفعول المشدد الطاء المهملة المهموز، سمى به لما فيه من أحاديث الأحكام الممهدة للشريعة، وسياق هذا الحديث للاستدلال به على قوة حواسه صلى الله تعالى عليه وسلم فيناسبه التفسير بأنه يراهم بعينيه حقيقة كما مر.

(**عنه صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنى لأراكم من وراء ظهرى» ونحوه عن أنس رضى الله تعالى عنه فى الصحيحين، وعن عائشة رضى الله تعالى عنها مثله قالت:**) ورؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم ما أكرمه الله تعالى به دون غيره (**زيادة زاده الله تعالى إياها فى حجته**) وفى نسخة فى محجته والأولى أصح.

(**وفى بعض الروايات**) لعبد الرزاق والحاكم (**«إنى لأنظر من ورائى كما أنظر من بين يدى» وفى أخرى**) أى فى رواية أخرى لمسلم: (**إنى لأبصر من قفاى كما أبصر من بين يدى**) والمراد بحجته الدلائل الدالة على نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم وصدقه، وقيل: فى حجته على الكفار لأن هذه معجزة من معجزاته خارقة للعادة، وقوله زيادة بالرفع أى هذه زيادة ويجوز نصبه. وقول عائشة رضى الله تعالى عنها هذا لإثبات رؤيته من

(١) أخرجه الطحاوى فى شرح معانى الآثار (١/٣٩٥).

خلفه، وأكثر المفسرون في هذه الآية الأقوال، **فمنها**: ما ذكره المصنف رحمه الله عن عائشة رضي الله تعالى عنها هنا، **ومنها**: ما مر من أن المراد انتقالك من صلب نبي لنبي ولا يأتي تتمته، وقيل: ترددك في تصفح أحوال المتهجدين؛ لأنه لما نسخ فرض الليل دار صلى الله تعالى عليه وسلم على بيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصا على طاعتهم، فوجدها كبيوت الزنابير من الذكر والتلاوة، وقيل: معناه نرى تقلبك في جماعة المصلين إذا أممتهم، وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى عن الموطأ بعض حديث رواه مالك عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «هل ترون قبلتي ههنا فوالله ما يخفى عليَّ خشوعكم ولا ركوعكم، وإني لأراكم من وراء ظهري»[1]. وأول الحديث قال أنس: صلى بنا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذات يوم فلما أقبل علينا بوجهه قال: «أيها الناس إني أؤمكم فلا تسبقوني بالركوع ولا بالقيام ولا بالانصراف فإني أراكم أمامي ومن خلفي»[2]. إلى آخر الحديث، والكلام عليه مستوفى في شروحه.

(**وحكى بقي بن مخلد**) بقي بفتح الموحدة وتشديد القاف المكسورة تليها ياء مثناة تحتية، ومخلد بفتح الميم واللام وخاء بينهما معجمة ساكنة ودال مهملة، هو الإمام أبو عبد الرحمن القرطبي الجياني الحافظ الزاهد العابد الثقة صاحب المسند الكبير والتفسير الجليل، الذي قال ابن حزم: إنه لم يصنف في التفسير مثله، مولده في رمضان سنة إحدى ومائتين، وسمع من ناس كثيرين منهم يحيى بن يحيى الليثي القرطبي، وأبا مصعب الزهري، ويحيى بن بكير، وإبراهيم بن المنذر الحربي، وابن أبي شيبة، وطاف الشرق والغرب وشيوخه مائتان ونيف وثمانون، وروى عنه كثير كابنه أحمد، وكان مجتهدًا لا يقلد أحدًا، وعد من أضرب أهل السنن وكان مجاب الدعوة، يقال: إنه كان يختم القرآن كل ليلة في ثلاث عشرة ركعة ويسرد الصوم، وحضر سبعين غزاة وتوفي سنة ست وسبعين ومائتين رحمه الله تعالى.

(**عن عائشة رضي الله تعالى عنها**) أنها قالت: (**كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يرى في الظلمة كما يرى في الضوء**) وفيه رواية: «كما يرى في النور» ولا شك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان كامل الخلقة قوي الحواس، فوقوع مثل هذا منه غير بعيد، وقد رواه الثقات كابن مخلد هذا فلا وجه لإنكاره، وقد أخرجه البيهقي عن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٤٢٦/١١٢)، وابن خزيمة (٩٥٨٧)، والبيهقي في الكبرى (٩٢/٢)، وابن أبي شيبة (٣٢٨/٢).

عائشة رضى الله عنها أيضًا، ونقل ابن دحية فى كتابه «الآيات البينات» عن ابن بشكوال أنه ضعفه لأن فى سنده ضعيفا، وأخرجه عن ابن عباس بلفظ: «كان صلى الله تعالى عليه وسلم يرى بالليل فى الظلمة كما يرى بالنهار فى الضوء».

ثم قال: وليس بالقوى. وذكر ابن الجوزى فى «العلل» حديث عائشة هذا وقال: لم يصح. وقال العقيلى: فى سنده من لا يعتمد عليه كما فصله، وذكر هذا الحديث الذهبى فى ميزانه فى ترجمة عبد الله بن محمد بن المغيرة الكوفى مع جملة أحاديث قال إنها موضوعة. وقال السهيلى رحمه الله تعالى فى «الروض»: إن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما ابتنى بأم سلمة رضى الله تعالى عنها دخل عليها بيتها فى ظلمة فوطئ على زينب فبكت، فلما كان من الليلة الأخرى دخل فى ظلمة أيضًا فقال: «انظروا زينبكم أن لا أطأ عليها».

وفى هذا الحديث توهين لحديث أنه كان يرى بالليل كما يرى بالنهار. انتهى. ولا يخفى أنه لا معارضة بين الحديثين تقتضى ما ذكره، لأن زينب رضى الله تعالى عنها كانت بنتا صغيرة نائمة مغطاة بإزار ونحوه فى جانب من البيت، ومثلها قد لا يرى بالنهار أيضًا، وهذا على ما فيه أقرب مما قيل إن عدم رؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم لها كان لتغير حصل فى بصره الشريف، لأن الأعراض البشرية كانت تعتريه صلى الله تعالى عليه وسلم كما فى قصة السحر، فكان إذ ذاك كذلك، فإن مثله لا يقال من غير سند ورواية مجازف.

(والأحاديث كثيرة صحيحة فى رؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم الملائكة والشياطين) هذا مما لا شبهة فيه، وإنما ذكره المصنف رحمه الله تعالى دليلا على قوة بصره صلى الله تعالى عليه وسلم وأنه يرى ما لا يراه غيره، أما رؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم الملائكة فورد فى أحاديث كثيرة، منها: ما فى البخارى من أنه قال لعائشة رضى الله تعالى عنها: «هذا جبريل يقرأ عليك السلام». فقالت: وعليه السلام ورحمة الله بركاته، إنك ترى ما لا نرى.

والأحاديث فى رؤيته الملائكة غير جبريل حيث لا يراها غيره كثيرة، كما فى حديث العقبة ورؤيته ملك الجبال المشهور، وفى هذا دليل على بصره صلى الله تعالى عليه وسلم حيث يرى ما لا يراه غيره، وليس هذا مخصوصا بتشكل الملائكة فإنها جواهر مجردة قابلة للتشكل عندنا، وعند الحكماء لقوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] وليس ذلك لها بنقص فيها أو زيادة، بل للطافتها تنتشر تارة وتتضام أخرى، كما تراه فى لهب النار عند تلاعب الريح بها، وكذلك الجن فإنها مخلوقة من النار إلا أن الملائكة من

نورها الصافى والجن من النار المختلطة بالدخان، ولذا ذهب بعض الحكماء إلى أنهما جنس واحد وأن الاستثناء متصل، وفى بعض الشروح:

فإن قلت: فما معنى تشكل الملائكة والجن فى صور مختلفة ولا قدرة لمخلوق على تغيير خلقته؟

قلت: قال القاضى أبو يعلى: لا قدرة للجن على تغيير خلقتهم ولا على نقل صورتهم إلى صورة أخرى، لأن ذلك إنما يكون بنقض البنية وتفريق الأجزاء، وإن انتقضت البنية بطلت الحياة واستحال وقوع النقل من الجملة فكيف ينقل بعينها، وإنما ذلك باعتبار جواز أن يعلمهم الله كلمات وضروبا من الأفعال، إذا فعله أحدهم أو تكلم به نقله من صورة إلى صورة، فيقال: إنه قادر على التصوير والتخييل وحمل عليه تصور جبريل عليه الصلاة والسلام فى صورة دحية رضى الله تعالى عنه، وتصوره لمريم بشرًا سويا، ويجوز أن يكون الله تعالى قد جعل لهم قوة التشكل عند إرادتهم ذلك لأنهم أرواح. انتهى. وفيه كلام آخر ليس هذا محله.

وأما رؤية الجن فقد ثبت فى أحاديث كثيرة، منها: ما رواه مسلم عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه قال: كنا معه صلى الله تعالى عليه وسلم ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب، فقلنا: اغتيل، فبتنا بشر ليلة، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، فسألناه، فقال: «أتانىّ داعى الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن وسألوه الزاد فقال: لكم كل عظم لم يذكر اسم الله عليه فهو طعام لكم وكل بعر علف لدوابكم»(١) ووردت أحاديث أخر فى رؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم لهم وإيمانهم به مفصلة فى كتاب «لقط المرجان فى أحكام الجان».

قال بعض فضلاء عصرنا: ظاهر كلام المصنف رحمه الله أن رؤية الملائكة والشياطين من خصائص النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فلا يراهم غير الأنبياء. وفى حاشية الحلبى فى سفره صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الشام فى قول الراهب رأيت ملكين يظللانه من الشمس، فيه ما يدل على جواز رؤية الملائكة كالجن، وقد صرحوا به، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧] محمول على الغالب، أى وفيه بحث يأتى آخر الكتاب، ولو كانت رؤيتهم محالة ما قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «هممت أن أربطه بسارية من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم» وقال المصنف رحمه الله تعالى: قيل: رؤية الجن على صورتهم الأصلية ممتنعة إلا للأنبياء عليهم

---

(١) تقدم تخريجه.

الصلاة والسلام، ومن خرقت له العادة، وإنما يراهم بنو آدم فى غير صورهم الأصلية، ورده النووى بأنه دعوة مجردة لا مستند لها.

(ورفع النجاشى له صلى الله تعالى عليه وسلم حتى صلى عليه) يعنى أن الله تعالى رفع بيت النجاشى وجنازته وهو ببلاد الحبش، فرآه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من المدينة وصلى على جنازته، وهذا دليل على قوة بصره الشريف بحيث يراه مع بعد ما بينهما من المسافة البعيدة والبحر، ورفع مبنى للمجهول، وتقريره رفعه الله وصلى فاعله ضمير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، قيل: ويجوز أن يكون رفع مصدرًا مضافًا لمفعوله مبتدأ خبره مقدر أى ثابت أو معجزة، ويجوز أن يجر عطفًا على قوله فى رؤيته الملائكة والأخبار كثيرة فى ذلك، وفى رفع النجاشى بمعنى أنه نقل بطرق كثيرة ولا مانع من ذلك والأول أولى وأظهر، والنجاشى ملك الحبشة واسمه أصحمة بفتح الهمزة وسكون الصاد وفتح الحاء المهملتين والميم والهاء، ابن أبجر بفتح الهمزة وسكون الموحدة بعدها جيم مفتوحة وراء مهملة. وقال مغلطاى: ابن بحرى. وقيل: اسمه صحمة بمهملتين مفتوحة فساكنة، وقيل: صمحة بتقديم الميم، وقيل بالخاء المعجمة كما نقله البرهان الحلبى عن بعض مشايخه، وقيل: سليم بضم السين، وقيل: حازم، وقيل: مكحول بن صصة بمهملتين أولاهما مكسورة والإدغام. والنجاشى بفتح النون المشددة والجيم وتخفيفها، وصوب المحب الطبرى التخفيف كما قيل فى ابن جنى لأنه معرب كنى، والنجاشى غلب على المذكر كالنجم للثريا، وهو فى الأصل كل من ملك الحبشة كقيصر لكل من ملك الروم، وكسرى لمن ملك الفرس، وخاقان لملك الترك، وفرعون للقبط، والعزيز لملك مصر، وتبع لحمير، ودهمى وفغفور لملك الهند، وغاية للزنج، وبطليموس لليونان، وفطيون بكسر الفاء وسكون الطاء المهملة ومثناة تحتية مضمومة يليها واو ونون، أو صالح بفتح اللام والخاء المعجمة أو شالح لليهود، وللصابئة نمرود، وتبع ملك اليمن، وجالوت من ملك البربر، وأخشيد من ملك فرغانة، ونعمان من ملك العرب من قبل العجم، وجرجير من ملك إفريقية، وشيربان من ملك خلاط، وفور من ملك السند، والأصفر من ملك علوى، ورتبيل من ملك الخنزر، وكابل من ملك النوبة، كذا فى المقتفى وغيره، وفى سيرة مغلطاى أن من ملك اليمن يسمى تبعا، فإن ترشح للملك سمى قيلا، بفتح القاف وسكون المثناة التحتية وهو كالوزير، وأصله قيلا بالتشديد كما حققه أهل اللغة، وفرعون من ملك مصر والشام، فإن أضيف إليها الإسكندرية فهو العزيز أو المقوقس.

ومعنى أصحمة عطية أو عطية الله، وأصحمة هذا هو النجاشى كما علم، وهو ملك

جليل المقدار آمن بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان بينه وبينه مهاداة ومكاتبة إلا أنه لم يلقه ولم يجتمع به، ولذا لم يعد فى الصحابة لأن شرطها الملاقاة، إلا على قول ضعيف ذكره فى التقريب أنه يكفى فيها المعاصرة مع المعاهدة والإيمان، لاسيما من كان له عذر فى التخلف كهذا، وله أخبار حسنة منها أنه لما بلغه وقعة بدر بعث لمن قبله من المسلمين، فلما دخلوا عليه وجدوه لبس مسحا وقعد على التراب فقالوا له: ما هذا أيها الملك؟ فقال: أنَّا نجد فى الإنجيل إن الله سبحانه وتعالى إذا أنعم على عبده بنعمة وجب عليه أن يحدث له تواضعًا، وأن الله تعالى أحدث لنا ولكم نعمة عظيمة، وهى ما بلغنى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم التقى هو وأعداؤه بواد يقال له بدر، كنت فيه أرعى غنمًا لسيدى فهزم الله أعداءه ونصر دينه.

وروت عائشة رضى الله تعالى عنها أنه بعد موته كان يرى على قبره نور، وقوله: «كنت أرعى» إلخ يدل على أنه دخل بلاد العرب، وأما ما ذكره التجانى من أنه من بيت الملك وأن الحبشة قتلت أباه وملكوا عمه، وكان له ميل إليه فخافوا أن يملكه بعده فيقتلهم بأبيه. فقالوا له: لا بد من قتله أو إخراجه من أرضنا، فباعوه، ثم إن الله جعله ملكا عليهم بعد ذلك، فلا دلالة على ما ذكر كما توهمه؛ لأن بقية القصة مذكورة فى الروض الأنف، وفيها ما يدل على خلاف ما ذكره، ثم إن ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى من رفع النجاشى للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم حتى رأى جنازته قال السيوطى فى كتابه «مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفاء»: إنه لم يجده فى كتب الحديث، وإنما الوارد فيها أنه رفع إليه معاوية المزنى حتى صلى عليه، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بتبوك، كما أخرجه أبو يعلى والبيهقى عن أنس رضى الله تعالى عنه. انتهى. ويأتى بطوله.

أقول: الذى أنكره المخرج إنما هو رفع جنازته إليه، فإنه روى فى خصائصه الكبرى من طرق مثبتة أنه صلى الله تعالى عليه وسلم نعى لأصحابه النجاشى لما مات، وخرج وصلى عليه مع أصحابه وكبر أربع تكبيرات، والصلاة عليه ثابتة فى الصحيحين، وإنما ذكر المصنف رحمه الله تعالى قصة الرفع مدرجة فى الحديث بناء على الاختلاف فى الصلاة على الغائب وصحتها مطلقًا كما يأتى، وكانت وفاته فى السنة التاسعة من الهجرة فى رجب. وعن أبى إسحاق أن نيزر، أو أبا نيزر، بنون ومثناة تحتية وزاى معجمة وراء مهملة النجاشى، كان مولى لعلى بن أبى طالب بعد موت أبيه وطلبته الحبشة ليتوجوه فأبى، وقال: لا أريد الملك بعد أن من الله علىَّ بالإسلام، وكان طويل القامة صبيح الوجه، ورؤية النور على قبر النجاشى غير مستغرب فإنه يُرى على بعض

قبور الشهداء، ويصدقه قوله تعالى: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد:١٩]، وإذ قد علم أن قصة النجاشى فى الصحيحين من أعلام النبوة، لإخباره صلى الله تعالى عليه وسلم بموته فى اليوم الذى مات فيه مع بعد المسافة، ولما صلى عليه قال بعض المنافقين: صلى على علج من علوج الحبشة، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:١٩٩] الآية، واستدل به من قال بالصلاة على الغائب؛ وبه قال أحمد والشافعى وبعض السلف، لأن الصلاة على الميت دعاء له فكيف لا يدعى له وهو غائب أو فى قبره كما يدعى له وهو حاضر. وذهب الحنفية والمالكية إلى أنه لا يشرع ذلك. وعن بعضهم: يجوز لمن كان فى جهة القبلة بخلاف مستدبرها.

وأجاب من قال بعدم الصلاة على الغائب عن هذه القصة بأمور، **منها**: أنه كان بأرض لا يصلى بها فشرعت لذلك، ولذا قال الخطابى: لا يصلى على الغائب إلا إذا مات بأرض لا يعرف بها الصلاة على الميت كبلاد أهل الشرك، وكذا قال أبو داود، فإذا مات بها وجب على المسلمين أن يقوموا بحقه فى الصلاة، فلو علم أنه صلى عليه لا يصلى عليه من كان غائبًا، فإن لم يصل عليه لعذر أو عائق سن الصلاة عليه ولا يترك لبعد المسافة.

ومنها: أن هذا مخصوص بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما روى: «أنه سويت له الأرض حتى أبصر النجاشى» وقد رد هذا بأنه إذا فعل شيئا من أفعال الدين كان علينا اتباعه فيه، والتخصيص لابد له من دليل، ونقل ثابت لا بمجرد الاحتمال، ولو فتح هذا الباب لم يبق شيء يوثق به، ولو كان كذلك توفرت الدواعى بنقله، ويؤيد كلام المناهل المار قول ابن حجر: إن نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم أهل لذلك الرفع والإحضار، فإنه قادر على ما هو أعظم من ذلك، لكنا لا نخترع حديثًا ونقوله من عند أنفسنا، ومثل هذه الأمور الضعاف تلاف بلا تلاف.

وقال الكرمانى رحمه الله تعالى: رفع الحجاب ممنوع، ولئن سلمناه فهو غائب فى حق الصحابة الذين صلوا مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، قد وقع فى حديث مجمع ابن حارثة ما يؤيده فإن فيه: «فصففنا خلفه صفين وما نرى شيئا» كما فى سنن ابن ماجه والطبرانى، وأجاب الحنفية بأنه يصير كالميت الذى يصلى عليه الإمام وهو يراه، والمأموم لا يراه، فإنه جائز اتفاقا، فإذا ورد عليه أنه ليس النزاع فى الرؤية وعدمها، فإنه لا يشترط فى صحة الصلاة رؤية الميت ولا سريره، وإنما النزاع فى كون الميت فى بلد والمصلى فى أخرى، وعلى تقدير أنه رآه لم يقع النزاع، فإن قلتم: إن سريره رفع ووضع

عنده صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن غائبا، والحاصل أن هنا ثلاثة أمور:

أحدها: أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم علم بموته وهو بالحبشة وصلى عليه بالمدينة هو والصحابة، وعلى هذا هو دليل للشافعية.

الثاني: أن يكون رفع له سريره أو روحه وهو فى مكانه وأزيل الحجاب، فهذا أيضًا صلاة على الغائب مع أنا نطالب مدعيه بنقل صحيح.

الثالث: أن تحمل جثته لحضرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيصلى عليه وهو صلاة على حاضر، ولم يقل أحد أنه ورد ولا ثبت.

فقول الحنفية إنه دليل فاسد لا وجه له، وكان الأولى للمصنف الاستدلال على قوة بصره صلى الله تعالى عليه وسلم بحديث معاوية المزنى، الذى رواه ابن عبد البر فى الاستيعاب عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه: «أن جبريل عليه الصلاة والسلام نزل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: يا محمد مات معاوية بن معاوية المزنى أفتحب أن تصلى عليه؟ قال: نعم فضرب بجناحه الأرض فلم يبق شجرة ولا أكمة إلا تضعضعت ورفع له سريره حتى نظر إليه، فصلى عليه وخلفه صفان من الملائكة فى كل صف سبعون ألف ملك، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لجبريل: بم نال هذه المنزلة من الله تعالى عز وجل؟ قال: بحبه قل هو الله أحد وقراءته إياها جائيا وذاهبا وقائما وقاعدا»(١). وهذا حديث صحيح كما فى شرح البخارى لابن حجر.

أقول: بعد صحة هذا وبيان كيفية الصلاة فيه على الغائب والأحاديث يفسر بعضها بعضا، علم أن قصة النجاشى ورفع السرير وإزالة الحجاب أمر خارق للعادة لا يتيسر لغير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فتبين صحة جواب الحنفية وقوته وسقط الاعتراض عن المصنف رحمه الله تعالى أيضًا، وقد اختلف فى النجاشى كما فى بعض الشروح أهو علم شخص أم علم جنس لكل من ملك الحبشة، كفرعون هل اسم لكل متفرعن أو هو علم شخص؟ وقد يجمع بأنه علم شخص نقل للعلمية ولا وجه لإنكار النقل فيه كما قيل.

(تنبيه) فى حديث النجاشى أمران:

أحدهما: أنه وقع فيه نعى موت النجاشى، وقد ورد فى الحديث أنه نهى عن النعى، ولذا اختلف الفقهاء فيه، فقيل: مكروه، وقيل: إنه مستحسن ولا خلاف بينهما، فإن معنى النعى الإخبار بالموت، فإذا فعل من غير صراخ وإطراء بما لا ينبغى فهو سنة، ولو

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٩/٤٢٩).

بالنداء فى الأسواق لما فيه من الدعاء للخير بتكثير الجماعة، والاتعاظ، فإن كان بخلافه على عادة الجاهلية فمكروه.

الثانى: أن الشافعية بعد ما ذكروا دليل الخصم فى التأويل قالوا: لا دليل فيه، فقيل: إنه فاسد؛ لأن الدليل ملزوم لا يلزم من نفيه نفى اللازم ودعوى الفساد غير ظاهرة، فإن مرادهم أن الصلاة على الغائب ثابتة بالأحاديث الصحيحة، فتأويلها من غير مستند لا يكون دليلا، إذ لابد لكل مدع من النقل، فالجواب الصحيح ما نقلناه إذ المنع المجرد لا يسمع فى مقابلة النص.

وقوله: (و) رفع **(بيت المقدس حين وصفه لقريش)** بالرفع معطوف على النجاشى، ويجوز جره كما مر، ومقدس كمرجع اسم مكان أو مصدر ميمى من القدس وهو الطهر، أى المكان الذى يطهر الله فيه العباد من الذنوب، أو يطهر من الأصنام، وجاء فيه ضم الميم وفتح القاف والدال المشددة اسم مفعول من التقديس وهو التطهير، وجاء بكسر الدال اسم فاعل لأنه يقدس العابد فيه من الأثام، ويقال البيت المقدس بالتوصيف، والأشهر فيه الإضافة، وقدس بضمتين وضم فسكون الطهر واسم جبل معروف، قال التبريزى: يقال: إنه غير مصروف ولا يمتنع واستشهد للأول بقول كثير:

كالمصرخى غدا فأصبح واقعا فى قدس بين مجاثم الأوعال

انتهى.

فانظر دخول الألف واللام عليه، ورفع بيت المقدس إشارة إلى ما وقع فى حديث الإسراء الذى رواه الشيخان وغيرهما عن جابر رضى الله تعالى عنه بسند صحيح متصل، وهو: «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما أسرى به وأصبح بمكة أتاه عدو الله أبو جهل فقال له: هل كان من شىء؟ قال: نعم إنى أسرى بى الليلة إلى بيت المقدس. قال: بم أصبحت بين أظهرنا؟ قال: نعم. قال: فإن دعوت قومك أتحدثهم بهذا؟ قال: نعم، فقال: يا معشر قريش، يا معشر بنى كعب بن لؤى، فانفضت إليه المجالس حتى جاءوا، فقال: حدث قومك بما حدثتنى؟ فحدثهم فصاروا بين مصفق وواضع يده على رأسه متعجبا. فقالوا: هل تستطيع أن تنعت لنا بيت المقدس وكم فيه من بات؟ فكربت كربًا لم أكرب مثله قط، فجعل الله لى بيت المقدس وكشف الحجب بينى وبينه حتى رأيته، فنعته لهم وأنا أنظر إليه، وجاؤوا أبا بكر وقصوا عليه القصة وقالوا: تصدقه؟ فقال: نعم، إنى أصدقه بأخبار السماء». فسمى لذلك صديقا ولا استحالة فيه، فقد أحضر عرش بلقيس فى طرفة عين، وهذا مؤيد لما ذكره المصنف من قوة بصره حتى رآه مرفوعًا و لم

يغب عنه شيء منه، فما قيل من أن الأليق درج هذا فيما له عليه الصلاة والسلام من الكرامات والمعجزات لأنه أمر زائد على تكميل الذات لا وجه له.

(والكعبة حين بنى مسجده) أى رفعت له صلى الله تعالى عليه وسلم الكعبة وهو بالمدينة حين بنى مسجده بها على الوجهين السابقين فى الإعراب. قال السيوطى رحمه الله تعالى فى «مناهل الصفا»: رفع الكعبة له حين بنى مسجده رواه الزبير بن بكار فى أخبار المدينة عن ابن شهاب ونافع بن جبير بن مطعم مرسلا، ثم ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى مشكل لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما أتى المدينة ونزل بقباء أيامًا ثم أسس مسجدها، وهو أول مسجد أسس على التقوى، ثم خرج منها راكبًا ناقته، ثم أتى دور بنى النجار فبركت ناقته فى موضع مسجده، فبناه على ما فصل فى السير والأحاديث الصحيحة، وكانت القبلة بيت المقدس إذ ذاك خمسة عشر شهرًا أو نحوها، فكيف يصح أن يقال إن الكعبة رفعت له صلى الله تعالى عليه وسلم حين بنائه، كما وقع فى حديث الشفاء بنت عبد الرحمن الأنصارية أنها قالت: «كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين بنى مسجده يؤمه جبريل إلى الكعبة ويقيم له القبلة». وهذا كله فى غاية الإشكال مع وروده فى الحديث، وكذا فى الحديث المرسل الذى نقله السيوطى فى تخريجه، ولذا قال التجانى رحمه الله تعالى فى شرحه: إنه غريب، والمعروف أن جبريل عليه الصلاة والسلام أعلمه بحقيقة القبلة وأراه سمتها، لا أنه رفع له الكعبة حتى رآها، وبهذا جاءت الآثار من غير تقييد.

وفى العتبية من سماعات مالك أنه قال: سمعت أن جبريل عليه الصلاة والسلام هو الذى أقام لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبلة مسجده مسجد المدينة. قال ابن رشد فى «البيان والتحصيل»: يعنى أراه السمت إليها وبين له جهتها، والصواب أن ذلك كان حين تحولت القبلة لا حين بناء مسجده، وكون جبريل عليه الصلاة والسلام أراه سمتها لا يقضى رفعها ومثله لا يقدم عليه من غير رواية، والحاصل أن ما فى حديث الشفاء من أن جبريل عليه الصلاة والسلام حين بنى مسجده كان يؤمه إلى الكعبة فى غاية الإشكال، لأن القبلة لم تكن إذ ذاك الكعبة بل بيت المقدس، اللهم إلا أن يقال إن توجهه إليها لم ينسخ وكان مخيرًا بين التوجه لها وللصخرة، وقد وقع فى كتاب «الناسخ والمنسوخ» ونحوه.

وأما ما قاله ابن الحنبلى فى شرحه من أن معنى قول الشفاء: يؤمه، أى يصير له إمامًا أى متبعا فى التوجه إلى الكعبة، لأجل إقامة القبلة وبيان جهتها، كما يكون الرجل إمامك إذا استهل الهلال ليريكه وأنت متبع له فى التوجه ليريك سمته، فمع تكلفة لا

يجدى شيئا، ولما استشعر هذا حاول توجيهه بما ذكره تاج القراء فى سبب نزول قوله تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢] الآية، أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يحب التوجه للكعبة قبل تحويل القبلة، فلما قوى رجاؤه، وتمكن أن يكون سأل جبريل عليه الصلاة والسلام أن يبين له جهتها عسى أن تكون قبلة ففعل، أو سأل الله ذلك، والإمام المتبع فى الأقوال والأفعال مطلقًا، كما فى «عمدة الحفاظ» وبه فسر قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] وبمجرد هذا الاحتمال لا يندفع الإشكال، وفى الشرح الجديد هنا كلام طويل بغير طائل رأينا تركه أكثر فائدة من ذكره، ثم إنى رأيت فى تذكرة الحافظ العلامة العلائى بخطه أن الراجح عند العلماء أن الكعبة كانت قبلة الأنبياء عليهم السلام، أما إنها كانت قبلة إبراهيم صلى الله تعالى عليه وسلم فمما لا شك فيه، وفى الأحاديث أنه عليه الصلاة والسلام كان يحب أن يتوجه إلى قبلة أبيه إبراهيم الكعبة، وفى الآثار ما يقضى أن توجه اليهود إلى بيت المقدس كان عن اجتهاد منهم أو عناد، وفى كتاب «الناسخ والمنسوخ» لأبى داود مسندًا إلى الحسن فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:٩٦] الآية، قال: أعلم قبلته فلم يبعث نبيا إلا وقبلته البيت، ووقع فى قصة ذكرها مع سليمان بن عبد الملك أن خالدًا قال: قرأت التوراة فلم أجد قبلة بيت المقدس فيه، ولكن تابوت السكينة كان على الصخرة فلما غضب الله تعالى على بنى إسرائيل رفعه، فكانت صلاتهم إلى الصخرة عن مشاورة منهم.

وقال أبو داود: خاصم يهودى أبا العالية فى القبلة، فقال: إن موسى عليه الصلاة والسلام كان يصلى عند الصخرة مستقبل البيت الحرام، فقال له: بينى وبينك مسجد النبى صالح عليه السلام، فقال: إنى صليت فيه وقبلته الكعبة. فهذه الآثار تدل على أن الكعبة كانت قبلة الأنبياء كلهم انتهى باختصار.

أقول: وكذا قبلة عيسى عليه الصلاة والسلام، وإنما غيرها للمشرق بولس كما صححوه، إذا عرفت هذا علمت أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كانت قبلته قبل الهجرة الكعبة، ولكن كان يجعلها بينه وبين البيت المقدس، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يوافق أهل الكتاب فيما لم يوح إليه فيه، فلما هاجر إلى المدينة استمر على ذلك وهو يعلم أن القبلة الحقيقية الأصلية إنما هى الكعبة، وهى قبلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقد أمره الله بالاقتداء به ولم ينص على القبلة، فعنده صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه سيصرفه الله إليها ولكنه منتظر لأمر الله مراعيًا للأدب، فلا مانع من أن يسأل صلى الله تعالى عليه وسلم جبريل عليه الصلاة والسلام أن يريه سمتها، حتى إذا وقع

ذلك لم يتردد ويتحيز فيه، وهذا هو الحق الحقيق بالقبول فاعرفه، ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالى ما يدل على قوة حواسه صلى الله تعالى عليه وسلم فقال:

(وقد حكى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه كان يرى فى الثريا أحد عشر نجما) قال السيوطى رحمه الله تعالى فى «مناهل الصفا»: هذا لم يوجد فى شيء من كتب الحديث، والثريا مصغر ثروة وهى الكثرة، وهى منزل من منازل القمر فيه نجوم مجتمعة جعلت علامة. فقول بعض الشراح: إنها كوكب وهم منه، قال فى «مباهج الفكر»: وهى ستة أنجم صغار طمس، ويظنها من لا معرفة له سبعة وهى مجتمعة بينها نجوم صغار كالرشاش. وحكى أن الثريا اثنى عشر نجمًا لم يحقق الناس منها غير ستة أو سبعة، ولم ير جميعها غير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لقوة جعلها الله تعالى فى بصره، والنجم علم لها بالغلبة كالكواكب للزهرة، وذكر السهيلى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يرى فيها اثنى عشر نجمًا. وقال القرطبى فى كتاب «أسماء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنها لا تزيد على تسعة فيما يذكرون، ونظمه فى أرجوزته فقال:

وهو الذى يرى النجوم الخافية ... مبينات فى السماء العالية
أحد عشر نجما فى الثريا ... لناظر سواه ماتهيا

وفى كتاب «التفهيم» لأبى ريحان البرونى بكسر الموحدة والنون أنها ستة كواكب كعنقود عنب، ويظن العوام والشعراء أنها سبعة وهو ظن غير مصيب، قيل: وهو غير مصيب لنقصه عما رآه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد علمت أنه لم يثبت ما نسب إليه صلى الله تعالى عليه وسلم هنا. وقال الإمام الخضيرى فى خصائصه: ما ذكره القرطبى والسهيلى لم أقف له على سند وأصل يرجع إليه، وقال التلمسانى: إنه جاء فى حديث ثابت من طريق العباس رضى الله تعالى عنه ذكره ابن أبى خيثمة.

(وهذه) الأمور المذكورة **(كلها)** من رؤية النجاشى والكعبة والثريا وغيره مما ذكر **(محمولة على رؤية العين)** أى مفسرة بما ذكر وهو المراد منها، والحمل يستعار لذلك فى كلامهم استعارة مشهورة، من حمل الأحمال بجعل اللفظ كحمل على ظهر المعنى، وقريب منه الاحتمال.

(وهو قول أحمد بن حنبل وغيره وذهب بعضهم إلى ردها إلى العلم) أى إلى تأويل الرؤية بالعلم وصرفها عن ظاهرها فتعبيره بالرد توطئة لقوله: **(والظواهر تخالفه)** أى ظاهر العبارة تخالفه ولا مقتضى لصرفها عن الظاهر. **(ولا إحالة فى ذلك)** أى ليس فى حملها على الرؤية البصرية أمر محال يقتضى العدول لأجله. **(وهى من خواص الأنبياء عليهم**

الصلاة والسلام وخصالهم) أى قوة البصر والحواس من صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلا وجه لاستبعادها وتأويل ما يدل عليها، ثم أيد ذلك بالنقل فقال:

(كما أخبرنا) قيل: الظاهر من الكاف فى قوله كما أنها التعليلية مثلها فى قوله: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ [البقرة:١٥١] والمعنى إنما قلنا هذا من خواص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأجل ما أخبرنا.

(أبو محمد عبد الله بن أحمد العدل من كتابه) قال التلمسانى: هو التميمى، مات بسبتة سنة إحدى وخمسمائة، وهو من شيوخ المصنف، وقوله من كتابه إشارة إلى أنه قراءة وهو يسمعه من كتابه لا من حفظه، وقد اختلف فيمن لا يحفظ ويحدث من كتابه، فالصحيح أنه تجوز روايته ويحتج بها وإليه ذهب ابن الصلاح، وقيل: لا يحتج إلا بما يرويه من حفظه، واختلف أيضًا فيما إذا لم يتذكر ما فى كتابه وتفصيله فى ابن الصلاح وحواشيه قال:

(حدثنا أبو الحسن المقرئ الفرغانى) بالفاء والغين المعجمة بينهما راء مهملة نسبة إلى فرغانة بلدة مشهورة بالمشرق، ويحتمل نسبته لفرغان بلدة بفارس، وباليمن وهو على بن عبد الله المقرى نزيل مكة قال:

(حدثتنا أم القاسم بنت أبى بكر عن أبيها) هى بنت أبى بكر محمد بن يعقوب البخارى الزاهد الصوفى المعروف بالخفاف، صاحب كتاب «الأخبار بفوائد الأحبار» قال:

(حدثنا الشريف أبو الحسن على بن محمد الحسنى) هو الشريف أبو الحسن على بن محمد بن على بن موسى الرضا بن جعفر بن محمد بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم، توفى فى خلافة المعتز بالله لأربع بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ومائة، وهو ابن أربعين سنة، وقيل غير ذلك قال:

(حدثنا محمد بن محمد بن سعيد) قال: **(حدثنا محمد بن أحمد بن سليمان)** قال: **(حدثنا محمد بن محمد بن مرزوق)** قال: **(حدثنا همام)** هو همام بن الحارث النخعى الكوفى، سمع حذيفة وعمارًا وروى عنه إبراهيم النخعى، وتوفى أيام الحجاج بن يوسف، ولفظ همام وقع فى كثير من النسخ، والصواب هانئ كما أصلح وهو هانئ بن يحيى السلمى وشيخه الذى أشار إليه بقوله:

(حدثنا الحسن) هو الحسن بن أبى جعفر الجفرى بضم الجيم والفاء نسبة للجفر، وهو مكان بالبصرة، أحد الضعفاء، وقد رواه أبو القاسم الطبرانى عن أحمد بن الحسين بن

بهرام الإيذجى، حدثنا محمد بن مرزوق البصرى، حدثنا هانئ فذكره، وقال فى آخره: لم يروه عن قتادة إلا الحسن بن أبى جعفر، تفرد به هانئ بن يحيى.

وقوله: **(عن قتادة)** هو ابن دعامة التابعى الجليل وتقدمت ترجمته **(عن يحيى بن وثاب)** بفتح الواو وتشديد المثلثة وألف وموحدة، وهو يحيى بن وثاب الأسدى مولاهم، روى عن ابن عباس، وعمر، وعلقمة رضى الله تعالى عنهم، وروى عنه الأعمش وعميس، وهو ثقة محدث مقرى، توفى سنة ثلاث وخمسين ومائة، وأخرج له أصحاب السنن، إلا أن روايته عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ليست فى الكتب الستة. **(عن أبى هريرة)** رضى الله عنه تقدم الكلام فى اسمه وترجمته.

(عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «لما تجلى الله لموسى عليه الصلاة والسلام كان يبصر النملة على الصفا») الصفوان والصفا الحجر الصلد الأملس. **(فى الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ)** جمع فرسخ وهو ثلاثة أميال، والميل أربعة آلاف ذراع طولها أربعة عشرون إصبعا وعرض كل إصبع ست حبات شعير ملصقة ظهر البطن، وقيل: ثلاثة أميال والميل أربعة آلاف خطوة، كل خطوة ثلاثة أقدام يوضع قدم أمام قدم ويلصق به، وشين عشر ساكنة ومفتوحة، ولفظ الفرسخ معرب، وقيل: عربى معناه السكون، لأنه بقطعه يسكن، وقيل: معناه الراحة والفرحة، وقيل: معناه ساعة من ساعات النهار.

والتجلى كما قاله الراغب فى مفرداته الكشف والظهور، وقد يكون بفعله بالذات نحو: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ٣] وقد يكون بالأمر والفعل نحو: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] انتهى.

وإذا كان التجلى بغير الذات يشمل الخطاب والكلام، فيحمل تجلى الله لموسى عليه الصلاة والسلام على خطابه وتكليمه وتجليه للجبل أمر آخر، فلا يرد على المصنف أنه مخالف للقرآن، فإن التجلى فيه للجبل لا لموسى عليه الصلاة والسلام مع أنه غير مسلم، فإن القرطبى رحمه الله تعالى نقل فى تفسيره قولا بأن موسى صلى الله تعالى عليه وسلم رأى ربه ولذا خر صعقًا، وأما تجليه للجبل واندكاكه فإما بمعنى أمره وفعله به ما أراد، أو نقول بأن الله خلق فيه إدراكًا علم به تجلى الله فتفتت وانهد من هيبته، ولعل المصنف رحمه الله ارتضى هذا، وعليهما فاللام صلة التجلى لأنه يتعدى بها، وقال التجانى فى الجواب: إن اللام تعليلية بتقدير مضاف، أى فلما تجلى لأجل سؤال موسى رؤيته وأن هذا لابد منه فى الحديث للتوفيق بينه وبين الآية، وقال بعضهم: المراد تجلى أمره أو نوره والمقدر لهذا من المعتزلة لإنكارهم الرؤية، ومن أهل السنة لاستبعاد أن يكون للجبل

إدراك أو روح تدرك وليس مثله بمستبعد من القدرة.

أقول: قد ارتضى هذا بعضهم وهو غير ثابت هنا لوجهين، الأول: أن ما ذكره خلاف الظاهر لا يجوز الحمل عليه من غير قرينة. الثاني: أنه لا يناسب سياق الحديث ولا كلام المصنف، لأن تجلى الله للجبل حتى صار دكًا، وخوف موسى عليه الصلاة والسلام حتى يخر صعقا لا يقتضى التأثير فى حواسه حتى يرى النملة المذكورة، بل يقتضى خلافه، ولا يصح تفسير كلام المصنف به لمنافاته لفرضه، فالحق ما قلناه، وتحقيقه أن الله تعالى لما قربه حتى سمع كلامه النفسى بناء على ما قاله الأشعرى من أنه يجوز سماعه، أو كلامًا بغير واسطة يدل عليه إن لم نقل بقدم الألفاظ كما ذهب إليه كثير من السلف، حصل له قوة روحانية واتصل به نور إلهى أثر فى الروح الحيوانية وزاد فى نورها، الذى بانتشاره فى البدن يحصل الإدراك على ما حققه الحكماء فى الحواس، فأدرك بذلك إدراكًا خارقًا للعادة، فإذا كانت زرقاء اليمامة التى ضرب بها المثل فقيل: «أبصر من زرقاء اليمامة» ترى من أميال وهى امرأة من الجاهلية، فما بالك بهؤلاء، وفى تخصيص النملة والظلمة والصخرة الملساء مبالغة لا تخفى، وقيل: معنى الحديث أن الله تعالى لما خص موسى عليه الصلاة والسلام بمناجاته، ظهرت له أنوار ربانية ساطعة أضاءت بها الأرض إضاءة عجيبة، حتى صار يرى الصغير من بعيد كما يرى الكبير من قريب، والمهم المقدم فإن فهمت فهو نور على نور، وهذا الحديث رواه الطبرانى فى مسنده الصغير وصححه، ولما كانت هذه القوة حصلت للكليم بالتجلى فحصولها للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد الإسراء مع ما رآه أظهر، فلذا قال:

(ولا يبعد على هذا أن تختص نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم بما ذكرناه) من رؤيته للملائكة والجن، ورؤيته بالليل كما يرى بالنهار. **(من هذا الباب)** أى من نوع هذه الرؤية، فإن الباب والبابة ورد بهذا المعنى. **(بعد الإسراء)** قيده به لأنه وقع بالمدينة والإسراء كان بمكة، ولأنه يكون بعد تجلى الله لرؤيته على ما عليه الأكثر، فيزيد قوته الروحانية والجسمانية كما سمعته آنفا **(والحظوة بما رأى من آيات ربه الكبرى)** الحظوة زيادة القرب مع المحبة وزيادة وهى بضم الحاء وكسرها، وأما آيات ربه الكبرى فسيأتى الكلام عليها فى الإسراء.

(وقد جاءت الأخبار بأنه صلى الله تعالى عليه وسلم صرع ركانة أشد أهل وقته) أشد: أعظم قوة بدنية من جميع من كان بالقوة الجسمانية، وهذا إثبات لتفوقه صلى الله تعالى عليه وسلم على غيره فى قوته البدنية بعد ما أثبت قوة إدراكه صلى الله تعالى عليه وسلم، وركانة: بضم الراء المهملة وكاف مفتوحة يليها ألف ونون وهاء، قال الحافظ

برهان الدين الحلبى فى المقتفى: هو ركانة بن عبد يزيد بن هاشم القرشى المطلبى الحجازى المكى ثم المدنى، أسلم يوم الفتح، وهو الذى صارعه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فصرعه، قال الحافظ عبد الغنى المقدسى: وهذا مثل ما روى فى مصارعته صلى الله تعالى عليه وسلم لغيره. ورواه أبو داود والترمذى مرسلا، قال الترمذى: وليس إسناده بالقائم. وأخرجه أبو داود عن قتيبة عن محمد بن ربيعة عن ابن الحسن العسقلانى عن أبى جعفر محمد بن ركانة عن أبيه صارعه، فذكره. وأخرجه الترمذى بهذا السند، وزاد المزى ما لفظه: هكذا رواه أبو الحسن بن العبد وغير واحد عن أبى داود مثل رواية الترمذى. ورواه البيهقى فى المراسيل عن سعيد بن جبير رضى الله تعالى عنه، قال البيهقى: «وهو مرسل جيد». وروى بإسناد آخر متصل إلا أنه ضعيف، وأشار إلى ما تقدم وقد رأيت ما نقله فى مراسيل أبى داود فى أطراف المزى كما قاله، لكن فيه أنه عليه الصلاة والسلام كان بالبطحاء فأتاه يزيد بن ركانة، أو ركانة بن يزيد فذكره بالشك، والله تعالى أعلم. وتوفى ركانة بالمدينة سنة اثنين وأربعين، وقيل: فى خلافة عثمان رضى الله تعالى عنه.

وقال النووى فى تهذيبه: وقع فى المهذب فى باب المسابقة أنه عليه الصلاة والسلام صارع يزيد بن ركانة وهو خطأ، والصواب: ركانة بن يزيد انتهى. وقال السهيلى فى روضه: إن أبا أسد بن الجمحى واسمه كلدة بن أسيد بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، وكان بلغ من شدته فيما زعموا أنه يقف على جلد البقرة فيجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدميه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه، وقد دعى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلى المصارعة وقال: إن صرعتنى آمنت بك، فصرعه عليه الصلاة والسلام مرارًا ولم يؤمن. انتهى. والحاصل أن الذى صارعه صلى الله تعالى عليه وسلم ركانة فى أصح الروايات.

(وكان دعاه إلى الإسلام) فلم يسلم أولاً ثم أسلم بعد ذلك كما تقدم، قيل: كان ينبغى ذكر هذا قبل ذكر ما اشتمل عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من قوى الباطن ليترقى منه إليه، إذ هذا من قوى الظاهر وهو أدنى من قوى الباطن، ولا مرية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان من أشجع الناس وأقواهم.

(وصارع صلى الله تعالى عليه وسلم أبا ركانة فى الجاهلية) أى قبل ظهور الإسلام بمكة. قال البرهان: الذى صح أنه ركانة، وأما أبو ركانة فلم يصح، والصواب ركانة. وكذا ما نقل من أن أبا جهل صارعه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يصح أيضًا، وذكر بعضهم عن السهيلى أن أبا أسد الجمحى صارعه وكان من أشد الناس وقد مر، وغير

هذين لم يصح، والجاهلية منسوبة إلى الأمة الجاهلية أو الفترة، والجاهلية تطلق على ما قبل مبعثه صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى ما قبل الفتح، قيل: والمراد هنا الثانى. **(وكان)** أى أبو ركانة **(شديدًا وعاوده ثلاث مرات)** أى صارعه مرة بعد مرة **(كل ذلك يصرعه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)** كل منصوب بنزع الخافض، أى: يصرعه فى كل ذلك.

قال البرهان وغيره: وأما حديث ركانة الذى تقدم فهو ما رواه البيهقى أنه قال: «كنت أنا والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى غنيمة لأبى طالب نرعاها، فقال لى ذات يوم: هل لك أن تصارعنى؟ فقلت له: أنت؟ قال: أنا. فقلت: على ماذا؟ قال: على شاة من الغنم فصارعته فصرعنى وأخذ منى شاة، ثم قال: هل لك فى المعاودة الثانية؟ قلت: نعم فصارعته فصرعنى وأخذ منى شاة، فجعلت ألتفت هل رآنى إنسان من الرعاة فيجترئ علىَّ وأنا فى قومى أشدهم، فقال: هل لك فى الثالثة ولك شاة؟ قلت: نعم فصارعته فصرعنى وأخذ منى شاة فقعدت كئيبا حزينًا، فقال: مالك؟ فقلت: أرجع لصاحب الغنم وقد أعطيت ثلاثا من غنمه وكنت أظن أنى أشد الناس، فقال: هل لك فى الرابعة؟ فقلت: لا بعد ثلاث، فقال: أما الغنم فإنى أردها عليك فردها، فلما ظهر أمره أتيته وأسلمت»[1] وفى رواية: «أنه راهنه على عشرة وأنه قال له: ما هذا إلا سحر».

فإن قلت: ما حكم المصارعة شرعًا؟.

قلت: ذهب البغوى رحمه الله تعالى إلى تحريمها؛ لأنه لا منفعة لها فى الحرب، والأصح أنها تجوز من غير عوض؛ لأنه ربما تدعو إليها المحاربة، وبهذا أفتى شيخنا الرملى، وأما أخذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم العوض من ركانة فإنما كان بنية رده وليرغب فى المصارعة، وليكون ذلك سببًا لإسلامه، مع أن المروى أن ركانة هو الذى طلبها، ثم ذكر ما يدل على قوته صلى الله تعالى عليه وسلم أيضًا.

فقال: **(وقال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه: «ما رأيت أحدًا أسرع من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى مشيته»)** بكسر الميم وسكون الشين المعجمة والياء المثناة التحتية المفتوحة يليها تاء تأنيث مضافًا لضمير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وهى هيئة المشى، وروى مشيه بفتح الميم دون تاء تأنيث قاله التلمسانى، وقال التجانى: كثيرًا ما يقع فى الشفاء وغيره مكسور الميم والصواب فتحها، لأن المشية بالكسر هيئة

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٦/٢٥١).

الإنسان، وبالفتح مصدر، فإذا فتحت كان المعنى أسرع من مشى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وإذا كسرت فالتقدير أسرع من هيئة مشيته ولا معنى له، ورد بأن المشى والمشية بمعنى ولم يرد الهيئة والمقصود واحد، لأن المشية تكون مصدرًا، أو هو كما تقول جمال زيد أكمل وأنت تريد زيد أكمل فى جماله، فالمعنى أسرع من مشيه فى هيئته المخصوصة، ولم يرد تفضيل الهيئة كما فى قولك فلان أحسن الناس جلسة أى هيئة أحسن من هيئة غيره فى الجلوس.

أقول: هذا تكلف نشأ من توهمه أن المشية مفضل عليها وليس كذلك، فإن المفضل مطلق حركته ومشيه وفى بمعنى مع، أى لا يرى أسرع من حركته مع هيئته المخصوصة فى مشيه، فليس المقصود تفضيل الهيئة، يعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مع تؤدته واعتدال حركاته تراه يسرع كأنه الماء الجارى من غير اضطراب، ولولا هذا ناقض ما ذكر من اعتدال حركاته فى أول الفصل فلذا قال:

(كأنما الأرض تطوى له)، فإنه يدل على أن مشيه ليس بالجرى والهرولة، وورد أن الأرض كانت تطوى له صلى الله تعالى عليه وسلم ولا منافاة بينهما، إما لحمل هذا على غالب أحواله وذاك على أسفاره ونحوها، وقيل: إنهما بمعنى فإن أحدهما استعارة أو تشبيه بليغ وهذا تشبيه صريح، كما تقول هو الأسد وكأنما هو الأسد.

(إنا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث) نجهد مضارع إما من الجهد بفتح الجيم وهو المشقة والتعب، أو بضمها وهو الطاقة والمقدرة، أى: أنا نتعب أنفسنا فى مساواة مشيه وهو صلى الله تعالى عليه وسلم مستريح لا يرى له مشقة، أو أنا نبذل وسعنا وطاقتنا وهو غير مبال بمشيه، ومكترث بالكاف والتاء المثناة الفوقية وراء مهملة ومثلثة اسم فاعل من الاكتراث وهو المبالاة والاعتناء بالأمر، قالوا: لا يستعمل اكترث إلا فى النفى، وورد فى الإثبات نادرًا فى حديث ذكره صاحب «النهاية».

وقد ورد فى صفة مشيه صلى الله تعالى عليه وسلم كما يأتى فى الحديث عن علىّ كرم الله تعالى وجهه وغيره: «إذا مشى مشى تكفيا كأنما ينحط من صبب، وإذا وطئ وطئ بقدمه كلها ذريع المشى» أى خطاه متباعدة، وكان أصحابه رضى الله تعالى عنهم يمشون بين يديه صلى الله تعالى عليه وسلم وهو خلفهم، ويقول: «خلوا ظهرى للملائكة». وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى بعض من حديث أوله: «ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كأن الشمس تجرى فى وجهه، وما رأيت أحدًا أسرع» إلى آخره. رواه صاحب الشمائل، والمصنف رحمه الله تعالى اختصره وغير بعض ألفاظه، وفى المصححة نسخة مشيته موافق لإحدى النسختين هنا، وقد

علمت ما ورد عليه وجوابه، فلا حاجة لما قيل إن المشية أعم من المشى لدلالة الأول على الحدث، والثانى على الحدث مع الهيئة، وكلما دل على الحدث مع الهيئة دل على الحدث ولا عكس، والحدث المطلق إذا أضيف إلى من صدر عنه استفيد منه خصوص الهيئة، لأن الهيئة التى تدل عليها فعلة المكسورة ألفا حالته التى عليها الفاعل عند تلبسه بالفعل، وهى لازم لكل مصدر، فكل مشى مشية من غير عكس، لأنه تكلف.

(وفى صفته صلى الله تعالى عليه وسلم أن ضحكه صلى الله تعالى عليه وسلم كان تبسمًا): الضحك انبساط الوجه وظهور الأسنان، فلذا سمى مقدمها الضواحك والتبسم ابتداؤه والأخذ فيه، وقيل: هو الضحك من غير قهقهة، وفى الحديث: «كان ضحكه صلى الله تعالى عليه وسلم تبسما»(١) كذا فى «عمدة الحفاظ» وعلى كل حال فالتبسم بعض من الضحك أو نوع منه، وعليه قول النحاة فى قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل:١٩] أن ضاحكًا حال مؤكدة، وقول الزمخشرى أى شارعًا فى الضحك وآخذًا فيه، يعنى أنه قد تجاوز حد التبسم إلى الضحك لا يقتضى التفرقة، ولأن المراد بالضحك أمر مخصوص فلا اعتراض على النحاة ولا على الزمخشرى كما توهم، وقد ورد فى بعض الأحاديث: «أن ضحك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن إلا تبسما» وورد فى بعضها: «أنه ضحك حتى بدت نواجذه» وفى بعضها وصفه صلى الله تعالى عليه وسلم بمطلق الضحك، وجمع بينهما بأن التبسم كان غالب أمره صلى الله تعالى عليه وسلم، وأن غيره وقع منه أحيانا على الندرة فلا منافاة بينهما، وقيل: المراد بقوله: «ضحك حتى بدت نواجذه» المبالغة لا حقيقته، ولا حاجة إليه فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصحابة رضى الله تعالى عنهم كانوا يضحكون إذا رأوا عجبًا وأمرًا يسرهم ولنا فيهم أسوة حسنة، وإنما المكروه الإكثار كما ورد فى الحديث: «كثرة الضحك تميت القلب». كمن غلبه ذلك من أهل اللهو والبطالة.

وروى فى قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ [النمل:١٩] أنه كان فرحًا بفضل الله تعالى عليه، ولم يكن بطرًا وأشرًا، لاسيما ما فيه من تأنيس الناس وتعليمهم لحسن العشرة، وأما ما روى عن الحسن رضى الله تعالى عنه من أنه ما رئى ضاحكًا ولا متبسمًا لا فى أهله ولا وحده ولا فى جماعة، فذلك غير منكر لشدة خوفه من الله تعالى ومراقبته له، وهو مقام آخر لا يخالف فعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه فلا وجه للاعتراض به عليه.

(إذا التفت التفت معا) فلا يسارق النظر ولا يلوى عنقه يمنة ولا يسرة كما يفعله من

---

(١) أخرجه ابن حجر فى فتح البارى (٢٨٨/٩).

به طيش وخفة، بل يقبل جميعًا ويدبر جميعًا، ومعنى معًا بجميعه. **(وإذا مشى مشى تقلعًا)** رواه الترمذى فى الشمائل: «إذا مشــى تقلـع» وفـى روايـة: «إذا زال قلعًـا يمشـى تكفيًـا ويمشى هونًا» وفى النهاية الأثيرية أن المراد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم يرفع رجليه من الأرض رفعًا قويًا من غير مقاربة للخطا فإنه مشى النساء والمختالين، وقلعًـا: روى بفتـح القاف وضمها مصدر بمعنى الفاعل، أى قالعًا رجليه. وفـى غريـب الأنبـارى والتـهذيب بفتح القاف وكسر اللام وهو قريب من قوله:

(كأنما ينحط) أى ينحدر **(مـن صبـب)** أى بتثبـت مـن غـير عجلـة ومبـادرة شـديدة. وروى فى صبب بفتح الصاد المهملة وفتح أولى الموحدتين وهــو الموضـع المرتفـع، أو مـا انحدر منه كسفح الجبل فمن على ظاهرها، وقيل: إنها بمعنــى إلى وينحـط بمعنىَ يتـدلى، وكذا ينحدر، وفى رواية: «كأنما يهوى من صبــوب» بفتـح الصـاد وضمـها مصـدرًا أو جمع صبب وهو وصف بغاية السرعة كالنازل من علو.

* * *

(فصل: وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول)

معنى الفصاحة فى اللغـة كمـا فـى كتـاب الصنـاعتين لأبـى هـلال الإظـهار، تقـول العرب: أفصح الصبح إذا أضاء، واللبن إذا انجلت عنه الرغوة وظهر، وتمامـها بتمـام آلـة البيان وهى اللسان. قال: ولتضمن الفصاحة معنى الآلة يوصف بها اللسان فيقال: لسان فصيح، ولا يوصف بها الله سبحانه وتعالى عز وجل، فلا يقال فيـه: فصيـح وإن وصـف بها كلامه. والبلاغة من بلغت الغاية إذا انتهيت إليها وبلغتــها، فسـميت بلاغـة لبلوغـها النهاية، أو لإبلاغها المعنى لفهم السامع، ومعنى الفصاحة عنــد أهـل المعـانى معلـوم فـى كتبه، وتقدم أنه يوصف بها اللسان والمفرد والكلام والمتكلـم، وفـى وصـف المفـرد بـها كـلام ليـس هـذا محلـه، والمـراد بـالقول هنـا جنـس اللفـظ الموضـوع مطلقًـا أو تعريفــه للاستغراق، أى جمع أقواله بليغـه وأضـاف الفصاحـة للسـان، والبلاغـة للقـول تفننـا أو للدلالة على كمال كلامه وآلة نطقه، فإن من العرب من كان كلامه فصيحًـا بليغًـا مـع نقص آلته، كزياد الأعجم فإنه كان لا يقيم الحروف فيقول للحمـار همـار، ولـذا لقـب بالأعجم، ويحتمل أن يريد باللسان اللغة.

(فقد كان صلى الله تعالى عليه وسـلم مـن ذلـك) المذكـور وهـو الفصاحـة والبلاغـة. **(بالمحل الأفضل والموضع الذى لا يجهل)** المحل والموضع بمعنــى وإن تغـاير مفهومــهما؛ لأن الأول مكان الحلول، والثانى مكان الوضع، ففى عبارته تفنن فرارًا من التكرار، أى كان صلى الله تعالى عليه وسلم أفصح البشر وأبلغهم، فكنى عن ذلك بجعلـه فـى **أفضـل محـل**

البلاغة وفى موضع لها لا يجهله أحد، كما فى قوله:

إن الفصاحـــة والسماحة والندى   فى قبـة ضربت على ابن الحشرج

فهو كالإثبات بدليل ومرتبته فى ذلك دون مرتبة الإعجاز، وهو أقرب إليها من كـل بليغ، وقوله: بالمحل خبر كان ومن بيانية على القول بجواز تقدمها، وقيل: تبعيضية والجار والمجرور حال من المحل والموضع، أى كان بالمحلين كائنين بعض ذلك أى بعض مطلق الفصاحة والبلاغة والمرتبة التى له من ذلك، ويؤثر عنه من الكلمات البليغة ما لا تصل إليه القوى البشرية.

(**سلاسة طبع**) وفى نسخة: «مع سلاسة طبع» والسلاسة السهولة، أى كانت سليقته صلى الله تعالى عليه وسلم فى البلاغة تنقاد له بسهولة من غير تكلف، وسلاسة وقع بالنصب على نزع الخافض أو هو مفعول له، ولو رفع بتقدير له سلاسة طبع جاز، ومن الغريب أن الشارح العرضى بعدما أعربه مفعولا قال: إنه فى جواب سؤال تقديره هل كانت فصاحته سليقة أو بتتبع تراكيب البلغاء وقوانينهم.

(**وبراعة منزع**) البراعة: بفتح الباء والراء المهملة من برع الرجل بضم الراء وفتحها إذا فاق غيره، وكثيرًا ما يستعمل بمعنى الفصاحة، ولذا فسرها بها هنا بعض الشراح وليس ببعيد، والمنزع من نزع إلى أهله إذا اشتاق، وأراد الرحيل إليهم، ونزع القوس جذبها والدلو استقى بها، فالمنزع إن كان بفتح الميم فاسم مكان أو مصدر ميمى، وفسروه هنا بالمأخذ وما يرجع إليه الرجل من رأيه وأمره، والظاهر أن المراد أصله ومقره، يعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مع بلاغته الجبلية من قوم وجلدة هم أفصح الناس، وإن كان بكسرها كما عليه التلمسانى فهو اسم آلة كالمفصل وفسر باللسان، وأصله السهم يقال: نزعت فى القوس نزعًا وأنزعت بمنزع أى سهم، وفى المثل: عاد السهم إلى النزعة. أى رجع الحق لأهله.

(**وإيجاز مقطع**) الإيجاز التعبير عن معان كثيرة بلفظ قليل، ويقابله الإطناب والمساواة كما بينه أهل المعانى، وهو بفتح الميم اسم مكان أو مصدر، أى موجز فى محل القطع والفصل للأمور، فإنه محل للإيجاز لا كمقام الخطابة فإنه يحمد فيه التطويل، فلذا اقتصر عليه، لا لأنه يعلم من البلاغة كما قيل، وجوز فيه كسر الميم على أن المراد به القول وتفسيره بتمام الكلام لظهوره عنده تكلف.

(**ونصاعة لفظ**) النصاعة الخلوص والوضوح، أى أن لفظه صلى الله تعالى عليه وسلم خالص من كل بشاعة ولكنه واضح لكل أحد لمخاطبته كل أحد على قدر عقله وبلغته.

(**وجزالة قول**) بفتح الجيم والزاء المعجمة وهو القوة والإتقان وضدها الركاكة.

(**وصحة معان**) أى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مع فصاحة ألفاظه ووضوحها، معانيه صحيحة لا فساد فيها لاحتوائها على الأحكام والحكم الفصل.

(**وقلة تكلف**) لأنه يتكلم عن رؤية وسلاسة طبع عن غير تشدق ورعاية سجع ومشقة، والمراد أنه لا يتكلف، فالقلة هنا بمعنى النفى كما أثبته النحاة وأهل اللغة فاندفع قول بعضهم، ولو قال وعدم تكلف لكان أحسن وأليق.

(**أوتى جوامع الكلام**) أى آتاه الله قوة ناطقة بحيث ينطق بالكلمات الجامعة للمعانى التى هى بمنزلة الأمثال، فإن من تأمل كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم رأى فيه من المعانى مع الوجازة التى تستخرج الطبع الغواص منها جواهر يحار فيها العقول، وقيل: المراد بها القرآن والحديث وفيه نظر.

(**وخص ببدائع الحكم**) أى خص صلى الله تعالى عليه وسلم بنطقه بكل حكمة بديعة لم يسبق إليها، والحكمة العلم النافع لمن وعاه من الزيغ والضلال. وقال ابن عرفة: الحكمة عند العرب ما تمنع من الجهل ولذا سمى الحاكم حاكمًا لمنعه التعدى.

(**وعلم ألسنة العرب**) أى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم يعلم لغاتهم، لأن اللسان يطلق على اللغة، وعلم مخفف ماض مبنى للفاعل أو مشدد مبنى للمجهول، أى علمه الله، أو مصدر مجرور معطوف على بدائع الحكم.

• (**يخاطب كل أمة منها**) أى كل قبيلة وجماعة منهم.

(**بلسانها**) أى لغتها لاختلاف لغاتهم.

(**ويحاورها بلغتها**) أى يصاحبها ويراجعها بلغتها.

(**ويباريها فى منزع بلاغتها**) المباراة بالراء المهملة غير مهموز، والمباراة والمجاراة المعاوضة وفعله مثل فعله.

(**حتى كان كثير من الصحابة**) رضى الله تعالى عنهم مع أنهم فصحاء علماء وهذا غاية لجميع ما قبله، أى لقوة فصاحته قد لا يفهمون كلامه لما فيه من المعانى البديعة التى لم يسمعوا بها، أو لما يليها من تكلمه بجميع الألسنة؛ لأن السامع قد لا يعرف لغة غيره.

(**يسألونه فى غير موطن**) أى فى مواطن كثيرة.

(**عن شرح كلامه وتفسير قوله**) لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما أرسله الله لجميع الناس علمه جميع اللغات، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾

[إبراهيم:٤] وهو صلى الله تعالى عليه وسلم مرسل للجميع.

(من تأمل حديثه وسيره) جمع سيرة، وروى وسبره بسين مفتوحة مهملة وباء موحدة كما ذكره البرهان، أى تتبعه وفتش عليه، وأصله من سبر الجرح إذا اختبر غوره.

(علم ذلك وتحققه وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد) قريش: قوم من ولد النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، سموا بذلك لتقرشهم أى تجمعهم بعدما كانوا متفرقين فى غير الحرم فجمعهم مضر أو قصى، أو لأنهم كانوا يتقرشون البياعات والأمتعة أى يجمعونها، أو سموا بالقريش وهو دابة بحرية يخافها دواب الأرض.

والأنصار: جمع ناصر أو نصير، سموا بذلك فى الإسلام لنصرتهم لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهم الأوس والخزرج قبيلتان سموا باسم جدهم، كتميم.

والحجاز مكة والمدينة والطائف وما يليها، سمى به لأنه حجز بين تهامة ونجد، أو بين نجد والسراة، أو احتجزت بحرار خمس معروفة.

ونجد بفتح فسكون ما ارتفع من الأرض ويقابله تهامة وهى من أعمال اليمامة كما بين فى معجم البلدان وغيره.

(ككلامه مع ذى المشعار الهمدانى) بسكون الميم ودال مهملة بينها ألف ونون وياء نسبة لهمدان وهى قبيلة عظيمة باليمن، وأما همدان بهاء وميم مفتوحتين وذال معجمة فبلدة بخراسان بناها همدان بن الفلوح بن سام بن نوح، والمعروف بين العجم إهمال داله فكان هذا تعريب له، وذو المشعار بميم مكسورة ثم شين معجمة ساكنة، وقال التلمسانى: إنه بشين معجمة ومهملة وغين معجمة ومهملة، واقتصر فى القاموس على الثانى وراء مهملة، وفى الروض الأنف أنه أبو ثور مالك بن نمط وهو من بنى خارف أو من أيام وكلاهما من همدان، وهو صحابى وفد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مرجعه من تبوك، وخارف بخاء معجمة وراء مهملة وفاء، ويام بمثناة تحتية ويقال أيام بهمزة وهو الذى ذكره المصنف، وهو همذانى خارفى أرحبى، ووهم ابن إسحاق فى قوله فى سيرته: مالك بن نمطو أبو ثور، ولك أن تقول: إنه من عطف الكنية على الاسم ولا بعد فيه، والذى صححه الصاغانى فى كتاب «الذيل والصلة» أن المشعار بعين مهملة وأنه إنما قيل له ذى المشعار؛ لأن المشعار موضع باليمن ينسب إليه وسيأتى ما قاله للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما قدم.

(وطهفة النهدى) بكسر الطاء المهملة وسكون الهاء وبالفاء تليها هاء تأنيث وهو ابن

زهير، ويقال ابن أبى زهير، وسماه الذهبى فى تجريده طهية بالمثناة التحتية بدل الفاء. وقال ابن الجوزى: إنه طخفة بالخاء المعجمة، وقيل: طغنة بالغين المعجمة، وقيل: طقفة بقاف وفاء، وقيل: قيس بن طحفة، وقيل: اسمه يعيش واسم أبيه أبو ذر. وقال التلمسانى: إنه فى بعض الشروح بظاء مشالة مفتوحة ويقال بكسرها، والنهدى بالنون والهاء والدال المهملة منسوب لهند وهو اسم قبيلة باليمن، وهو خطيبها ووافدها للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى سنة تسع لما قدمت عليه وفود العرب، ولما قدم قام وقال، أتيناك يا رسول الله من غورى تهامة بأكوار الميس ترمى بنا العيس نستحلب الصبير، ونستخلب الخبير، ونستعضد البرير، ونستجيل الرهام، ونستحيل الجهام من أرض غائلة المنطا، غليظة الوطا، قد نشف المدهن وييس الجعثن، وسقط الأملوج ومات العسلوج وهلك الهدى، ومات الودى برئنا يا رسول الله من العنن والوثن، وما يحدث الزمن لنا دعوة السلام وشريعة الإسلام، ما طمى البحر وقام تعار، ولنا نعم أغفال ما تبض ببلال ووقير قليل الرسل وكثير الرسل، أصابتنا سنة حمراء موزلة ليس لها علل ولا نهل. فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «اللهم بارك لهم فى محضها، ومخضها، ومذقها، وابعث راعيها فى الدثر بيانع الثمر، وافجر له الثمد، وبارك له فى المال والولد» وهذا ما أشار إليه المصنف رحمه الله كما يأتى.

ونقلت من خط العلائى بسنده إلى عمران بن حصين رضى الله تعالى عنه قال: قدم وفد بنى زيد على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقام طهية بنى أبى زهير النهدى بين يديه صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: أتيناك يا رسول الله من غورى تهامة، على أكوار الميس، ترمى بنا العيس، ونستحلب الصبير، ونستخلب الخبير، ونستعضد البرير، ونستحيل الجهام، من أرض غائلة المنطا، غليظة الوطا، قد نشف المدهن، وييس الجعثن، وسقط الأملوج من البكارة، ومات العسلوج، وهلك الهدى، ومات الودى، برئنا يا رسول الله من الوثن والعنن، وما يحدث الزمن، لنا دعوة المسلمين وشريعة الإسلام ما طمى البحر وقام تعار، ولنا نعم همل إغفال لا تبض ببلال، ووقير كثير الرسل قليل الرسل، أصابتنا سنة حمراء موزالة ليس لها علل ولا نهل، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «اللهم بارك لهم فى محضها ومخضها، ومذقها ومزقها، واحبس راعيتها على الدثر ويانع الثمر، وبارك لهم فى الولد، ومن أقام الصلاة كان مؤمنا، ومن أدى الزكاة لم يكن غافلا، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مسلما، لكم يا بنى نهد ودائع الشرك ووضائع الملك ما لم يكن عهد ولا موعد، ولا تثاقل عن الصلاة ولا تلطط فى الزكاة، ولا تلحد فى الحياة، من أقر بالإسلام فله ما فى الكتاب، ومن أقر بالجزية فعليه

الزكاة، وله من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الوفاء بالعهد فى الذمة». وكتب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع طهية بن أبى زهير كتابًا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى بنى نهد بن زيد: السلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، عليكم بالوظيفة الفريضة، ولكم الفارض والفريش، وذو العنان الركوب والضبيس، لا يؤكل كلكم ولا يقطع سرحكم، ولا يحبس دركم ولا يعضد طلحكم، ما لم تضمروا الرماق وتأكلوا الرباق»(١). انتهى.

وتفسيره: الميس: الرحال. والعيس: الإبل. والصبير: السحاب المتفرق. والرهام: القداح. والجهام: السحاب بلا مطر أمطر ببلد آخر. غائلة المنطا بعيدة المسافة. ييس المدهن: غدير الماء. والجعثن: عروق الشجر. البكارة: البكر أدركه الهزال بعد السمن. العسلوج: عروق الشجر تتشعب ورقه. والودى: العسيل. والعنن: الخلاف. وما تبض ببلال: أى ليس لها لبن. ووقير قليل الرسل: يعنى الصرمة من الغنم ليس لها أولاد. كثير الرسل: يقول سديد العرف فى طلب المرعى. وقوله: فى مخضها وفرقها ومذقها كلها من اللبن. والدثر: الخصب. ويانع الثمر: نضيجه. والثمد: قليل الماء يخرج من الأرض. والضبيس: الصعب. والرماق: النفاق. والرباق: الرعاء. وذو العنان: الفرس يركب ويزلل بالعنان لأنه لا يركب فيلجم. والرباق: حبل يربط. قلت غورى تهامة: ما انخفض منها وغور كل شىء عمقه. وقيل: تهامة ما بين ذى عرق على مرحلتين من وراء مكة، وقيل: إنها إلى اليمن أقرب: والميس: شجر صلب تتخذ منه الرحال وترمى تقصد. والعيس: إبل بيض إلى صفرة. والصبير: سحاب أبيض متكاثف كأن بعضه صبر على بعض أى حبس. يستحلبه: يستقطره. والخبير: النبات والعشب شبه بخبير الإبل وهو وبرها، واستخلابه احتشاشه بالمخلب وهو المنجل. والبرير: ثمر الأراك إذا اسود. ويستعضده: يحتشه من عضده إذا قطعه. والرهام: جمع رهم بالكسر وهو مطر وفسر بالقداح وهو غلط. والاستجالة: الاستمطار من الجولان. والجهام: سحاب صب ماؤه. ونستحيله روى بحاء مهملة أى ينظر إليه لجامعه فى منظره. وغائلة المنطا: كذا سمعناه. والذى رواه ابن الأثير النطاء بكسر النون من غير ميم وغائلة مهلكة، والمنطا: البعيدة، والمدهن: نقرة فى الجبل فيها ماء المطر. والبكارة: جمع بكر الإبل. والأملوج قيل: ورق شجر يشبه الطرقاء. وقيل: نبت. وقيل: نوى المقل. وقال الزمخشرى: إنه استعارة لما ذهب من سمن الإبل الراعية. والعسلوج: غصن طرى قريب عهد بالطلوع. والهدى: ما يقدم للنحر أراد به مطلق الإبل. والعنن: الاعتراض من عن له كذا. وطمى البحر: ارتفع

(١) أخرجه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/١٧٩).

موجه. وتعار: بكسر التاء وعين مهملة مخففة اسم جبل. وهمل: إبل لا راعى له. والإغفال ما لا سمة له. وقيل: هما ما لا لبن له. والوقير: قطيع الغنم. والمحض: بمهملة الخالص وبمعجمة اللبن المخوض ليخرج زبده. والمذق: لبن مزج بالماء والفرق بكسر فسكون إناء يحلب فيه. وقيل: بفتحتين مكيال والأول أقرب هنا. وودائع الشرك: العهود والمواثيق بينهم فى الجاهلية. وقيل: ما استودعوه من أموال الكفار الذين لم يسلموا فأحلها لهم، كذا بخط العلائى.

(**وقطن بن حارثة العليمى**) قطن: بفتح القاف والطاء المهملة ونون، والعليمى بعين مهملة مصغر، وحارثة بحاء وراء مهملتين ومثلثة وهو منسوب لبنى عليم بن جناب ابن كلب فهو كلبى، وقيل: عليم بن جناب هبل من بنى عذرة من قبائل كلب، وهوصحابى قدم على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وافدًا لقومه، فكتب له كتابًا بعد ما كلمه بكلام فصيح غريب، وصورة الكتاب: «هذا ما كتب رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم لعمائر كلب وأحلافها، ومن طارة الإسلام من غيرهم مع قطن بن حارثة العليمى بإقامة الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة بحقها فى شدة عقدها، ووفاء عقدها بمحضر من المسلمين سعد بن عبادة، وعبد اللّه بن أنيس، ودحية بن خليفة الكلبى عليهم فى الهمولة الراعية البساط الظفار فى كل خمسين ناقة غير ذات عوار، والهمولة البائرة لهم لاغية، وفى الشوى الورى مسنة حامل أو حائل، وفيم سقى الجدول من العين المعين العشر من ثمرها، ومما أخرجت أرضها، وفى الغدى شطره بقيمة الأمين لا يزاد عليهم ولا يفرق، شهد اللّه على ذلك ورسوله» وكتبه ثابت بن قيس بن شماس.

(**والأشعث بن قيس**) ابن معدى كرب بن معاوية بن جبلة بن معدى كرب أبو محمد، وهو من ولد آكل المرار الكندى الشريف الصحابى، توفى بالكوفة بعد موت علىّ كرم اللّه وجهه بأربعين ليلة، وصلى عليه الحسن رضى الله عنه، وكان شريفًا مطاعًا فى قومه، وفد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سنة عشر فى ستين راكبًا فأسلموا ورجعوا إلى اليمن. قال فى الاستيعاب: ثم ارتد بعد وفاة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم رجع إلى الإسلام بعد ما أتى به أبو بكر رضى اللّه تعالى عنه أسيرًا، فجعل يعدد عليه أفعاله فلم ينكرها، وهو فى الحديث حتى أتم مقالته فقال له الأشعث: استبقنى وزوجنى أختك فرأى أبو بكر رضى اللّه عنه أنه الرأى ففعل وزوجه أخته أم فروة، وروى أنه لما خرج من عنده استل سيفه فلم يلق ذات أربع من الأنعام إلا عقرها. فقيل لأبى بكر: إنه ارتد ثانية، فقال: انظروا فى شأنه فرأوا الناس اجتمعوا عليه وهو يقول: يا قوم هذه وليمتى ولو كنت بأرضى لأولمت كما يو لم مثلى فأعدوا علىَّ وخذوا

أثمان ما عقرت لكم. وفى ذلك يقول ابن قيس الخزرجى:

لقد أو لم الكنـدى يوم مـلاكـه وليمـة حمال لثقـل الجـرائـم

فقل للفتى الكنـدى أمـا لقيتـه ذهبت بأسنـى مجـد أولاد آدم

ولقب بالأشعث لأنه كان رأسه أشعث دائما، وقد أخرج للأشعث أصحاب الكتب الستة وأحمد فى مسنده، وصرحوا بأنه صحابى بناء على أن الردة لا تبطل الصحبة، وإن أبطلت ثوابها إذا رجع للإسلام قبل موته وهو الأصح، وبه صرح الشافعى فى الأم، ونقل عن أبى حنيفة، وقيل: إنها تحبطها مطلقًا، و لم يذكر المصنف رحمه اللّه كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم معه ولا كلامه حين وفد عليه، وهو كما فى تاريخ ابن عساكر، ونقله الذهبى ومن خطه نقلت عن هشام بن الكلبى: «أن الأشعث وفد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى سبعين رجلا من كندة، فقال له عليه الصلاة والسلام: هل لك من ولد؟ فقال: غلام ولد مخرجى إليك، ولوددت أن يتبع القوم مكانه، وروى: لوددت أن لكم به قصعة من خبز ولحم. فقال له رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا تقولن ذا فإن فيهم أجرًا إذا قبضوا وإنهم لمجبنة ومخزنة، وأنهم لثمرة القلوب، وقرة العين»(١). انتهى. وهذامن بليغ الكلام، ومن الحديث أخذ ابن الهيارمة قوله فى الصادح والباغم:

لا خيـر فـى الأولاد والأهـل والسـفـاد

وليـس فيهـم فـائـدة إلا ظـنـون فـاسـدة

مـجـبـنـة ومـبـخـلـة مـجـدلـة ومـقـتـلـة

لـولاهـم مـا ذلا ذو أدب وقـلا

(ووائل بن حجر الكندى) نسبة لكندة بكسر الكاف وسكون النون ودال مهملة وهاء، وحجر بضم الحاء المهملة وسكون الجيم وراء مهملة، ووائل بواو وألف يليها همزة لا ياء مثناة من أسفل كما فى حواشي التلمساني وغيره، ويقال له: أبو هنيدة، ويقال: أبو هنيد بغير هاء ابن ربيعة بن نعم الحضرمى كما قاله ابن عبد البر، وفى شرح التجانى أنه ابن حجر الكندى بن ربيعة بن وائل بن نعم الحضرمى، وما فى الشفاء من أنه وائل بن حجر الكندى غلط بغير شبهة، والصواب ما تقدم، ولعل الكندى كان وصفًا للأشعث بن قيس مقدمًا على قوله وائل بن حجر، فأخره الناسخ سهوًا أو جعله وصفًا لوائل، وفيه خلاف ذكره ابن الجزرى فى كتاب الجمال، فقال: وائل بن حجر

(١) أخرجه أحمد (٤/٢٧٦)، والطبرانى فى الكبير (١/٢٠٧).

ابن سعد بن مسروق أبو هنيدة الحضرمى، وأبو هنيد الكندى الصحابى، ووافقه ابن عساكر فقال: وائل بن حجر بن سعد بن مسروق بن وائل بن صمعج، فيمكن أن يكون كنديا عند المصنف رحمه الله تعالى فليس وصفه به غلطا فيكون كنديًا حضرميًا، وهو قيل من أقيال حضرموت وهو لقب ملك من ملوكهم، فدعوى أنه غلط قال فى العباب: كندة أبو حى من اليمن وهو لقب له واسمه ثور بن عنبس بن عدى، ولقب به لأنه كند نعمة أبيه ولحق بأخواله، فقال له أبوه: كندت نعمتى، ولما وفد على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مسلمًا بشر به أصحابه قبل قدومه بثلاثة أيام، وقال لهم: «يأتيكم وائل بن حجر من أرض بعيدة من حضرموت راغبًا فى الله ورسوله طائعًا». وهو بقية من أبناء الملوك، فلما دخل عليه رحب به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأدناه منه وبسط له رداءه وأجلسه عليه، وقال: «اللهم بارك فى وائل بن حجر وولده وولد ولده»[1]. وفى التهذيب للأزهرى عن وائل بن حجر أنه قال: «كتب لى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم «لاجلب ولا جنب ولا شعار ولا وراط، ومن أجبى فقد أربا»[2]، وفسر من أجبى بمن غبن وهو حسن. وعن أبى عبيد: الإجباء: الحرث قبل أن يبدو صلاحه. انتهى. وله قصة مع معاوية رضى الله تعالى عنه لما أرسله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم معه، وتوفى فى زمن معاوية سنة تسع وأربعين فى ذى الحجة، وسبب إسلامه كما قاله ابن ظفر فى «كتاب البشر» أنه كان له صنم من عقيق يعبده ويسجد له، فبينما هو نائم عنده فى الظهيرة سمع صوتًا منكرًا هاله، فأتاه وسجد له فسمع هاتفا يقول:

واعجبا من وائل بن حجر ... يخال يدرى وهو ليس يدرى
ماذا ترجى من نحيت صخر ... ليس بذى عرف ولا ذى نكر
ولا بذى نفع ولا ذى ضر ... لو كان ذا حجر أطاع أمرى

فرفع رأسه وقال: بماذا تأمرنى؟ فقال:

ارحل إلى يثرب ذات النخل ... وسر إليها سير مستقل
قبل تقضى العمر الممولى ... فدن بدين الصائم المصلى
محمد المبعوث خير الرسل

---

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٥/٧٩).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٩١، ١٥٩٢)، والترمذى (١١٢٣)، والنسائى (٦/١١١، ٢٢٧)، والطبرانى (١٨/١٤٨، ١٧٢)، والدارقطنى (٤/٣٠٣).

ثم خر الصنم، فقام إليه وجعله رفاتا، ثم سار حتى أتى المدينة ودخل المسجد، فلما رآه رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم أدناه وبسط له رداءه وأجلسه معه، ثم صعد المنبر وقال: «يا أيها الناس هذا وائل بن حجر أتاكم من أرض بعيدة راغبًا فى الإسلام» فقال: يا رسول اللّه بلغنى ظهورك وأنا فى ملك عظيم فتركته واخترت دين اللّه، فقال: «صدقت، اللهم بارك فى وائل وولده وولد ولده»[1]. ثم إنه طلب من رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم مكاتيب ثلاثة بإقرازه على أرضه وملكه، فأعطاه ذلك. وقد بسط ذلك ابن حديدة فى كتابه الذى ألفه فى كتاب رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم ومكاتيبه.

(وغيرهم) أى غير من ذكر من العرب **(من أقيال حضرموت وملوك اليمن)** الأقيال: جمع قيل بفتح القاف وإسكان المثناة التحتية واللام، وهو الملك من ملوك حمير واليمن، وقيل: الملك مطلقا، وقيل: من دون الملك الأعظم كالوزير.

وفى النهاية الأثيرية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كتب لوائل بن حجر: «إلى الأقوال العباهلة» وفى رواية «الأقيال» فقيل: إنه من القيالة وهى الأمارة، وقيل: من القول لنفوذ قوله وأمره، فأصله على هذا، قيل: بتشديد الياء أعل أعلال ميت، ولولاه لم يكن لقلب الواو ياء وجه وأقوال على الأصل، وأقيال على لفظ قيل كما قيل: ريح وأرياح والقياس أرواح، لكنه لم يرجع لأصله فرقا بينه وبين جمع روح. والعباهلة هم الذين قر ملكهم وبقى متروكًا على ما كان عليه من عبهات الإبل إذا تركتها ترعى متى شاءت واحدة عبهل، فالتاء لتأكيد الجمعية كقشعم وقشاعمة، أوجمع عبهول وأصله عباهيل فحذفت الياء وعوض منها التاء كما فى فرازنة وفرازين، وفى تثقيف اللسان: العباهلة بالياء الموحدة هم الذين لا يد عليهم لأحد، وبالمثناة التحتية الشيال، وكلاهما مدح كما قاله التلمسانى. وحضرموت بفتح الحاء المهملة وإسكان الضاد المعجمة وفتح الميم، وقال صاحب المطالع: إنه بضم الميم وجعله وجهًا جائزًا فيه، وهو علم مركب تركيبًا مزجيًا غير مختوم بويه، وفى مثله ثلاثة أوجه؛ فتح رائه وإعرابه إعراب ما لا ينصرف للعلمية والتركيب، وإجراء الأول على حسب العوامل، وإضافته للثانى وبناؤهما كخمسة عشر. وقال النووى فى تهذيبه: حضرموت اسم بلدة باليمن واسم قبيلة، واليمن الأقاليم المعروف وينسب إليه يمنى ويمان بالتخفيف، وبالتشديد وهو شاذ، وتسمى به لأنه عن يمين الكعبة ويجمع يمنى على يمنيين ويمانيون بالتشديد.

(وانظر فى كتابه) أى اعرفه وقف عليه بأى طريق كان، من استعمال المقيد فى

(١) أخرجه الطبرانى فى الصغير (١٤/٣).

المطلق، أى كتاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الذى كتبه (إلى همدان) بسكون الميم والدال المهملة كما مر كتبه لما وفد غلبه ذو المشعار الهمدانى، فهذا رجوع إلى بيان كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم مع غير أهل الحجاز، وتقدم أن همدان قبيلة من بطونها خارف ويام بالتحتية، ويقال: أيام ولذا ينسب إليه أهل الحديث أيامى، وقال ابن دريد، إن همدان اسم لأب القبيلة. وقيل: اسمه أو سلة وأنه أخبر بما غمه فقال: هم دان فلقب به، وليس هذا مما يلتفت انتهى كلامه فى الجمهرة.

ولم يذكر فيه مادة هـ م ذ بالإعجام؛ لأنه غير عربى عنده وتقدم الكلام عليه، وقصة الكتاب: «أن ذا المشعار قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما لاقاه بتبوك: يارسول الله نصية من همدان من كل حاضر وباد أتوك على قلوص نواج متصلة بحبائل الإسلام لا تأخذهم فى الله لومة لائم، من مخلاف خارف ويام وشاك، أهل السود والتود، أجابوا دعوة الرسول وفارقوا آلهة الأنصاب، عهدهم لا ينقض ما أقام لعلع وما جرى العصفور بصلع. فكتب لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لمخلاف خارف، وأهل جناب الهضب، وخفاف الرمل، مع وافدها ذى المشعار مالك بن نمط ومن أسلم من قومه، على أن لهم فراعها ووهاطها ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها ويرعون عافيها، لهم بذلك عهد من الله ورسوله، وشاهدهم المهاجرون والأنصار» وروى: «هذا كتاب من محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لمخلاف خارف ويام، عهدهم لا ينقض عن سنة ماخل وأهل جناب الهضم وخفاف الرمل، مع وافدها ذى المشعار مالك بن نمط ومن أسلم من قومه، على أن لهم فراعها ووهاطها وعزازها ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها ويرعون عافيها، لنا من دفئهم وصرامهم ما أسلموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثلب، والناب، والفصيل، والفارض، والداجن، والكبش الحورى، وعليهم فيها الصالغ والقارح» فقال فى ذلك مالك:

ذكرت رسول الله فى فحمة الدجا ... ونحن بأعلى رحرحان وصلدد
وهن بنا خوص طلائح تعتلى ... بركبانها فى لاحب متمدد
على كل فتلاء الذراعين جسره ... تمر بنا مر الهجف الخفيدد
حلفت برب الراقصات إلى منى ... صوادر بالركبان من هضب قردد
بأن رسول الله فينا مصدق ... رسول إلىّ من عند ذى العرش مهتدى
فما حملت من ناقة فوق رحلها ... أشد على أعدائه من محمد

وأعطى إذا ما طالب العرف جاءه   وأمضى بحد المشرفى المهند

وإلى بعض من هذا أشار بقوله: **(إن لكم فراعها)** بالفاء المكسورة وراء وعين مهملتين بينهما ألف، وهى ما ارتفع من الأرض من مرتفعات البقاع، أو أعالى الجبال، جمع فرعة بفتح فسكون، يعنى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أقطعهم ذلك.

(ووهاطها): بكسر الواو وبالهاء والطاء المهملة جمع وهطة كفرعة، وهى الوهدة وما سفل وانخفض، والضمير للأرض المخصوصة. والوهاط والوهاد بمعنى، ويحتمل أن أحدهما مبدل من الآخر.

(وعزازها) بفتح العين المهملة وزائين معجمتين مخففتين وهو ما اشتد وصلب من الأرض مما لا ملك لأحد عليه، فيوطأ ويحرث فيصير رخوًا، ومنه العز لصلابة جانبه.

(تأكلون علافها) بكسر العين المهملة واللام والفاء، قال فى النهاية: جمع علف وهو ما تأكله الماشية مثل جمل وجمال، وفى قوله مثل جمل لطف، إلا أنه إذا كان علف الماشية فقوله تأكلون بالخطاب لهؤلاء القوم غير مناسب هنا، إلا بتجوز بأن يقدر تأكل دوابكم أو يجعل تأكلون بمعنى تملكون، ولعل للعلاف معنى غير هذا فى لغة أهل اليمن والشراح لم ينبهوا على هذا.

(وترعون عفاءها) بفتح العين والفاء والمد، وفسروه بما ليس لأحد فيه ملك ولا أثر، من عفا الشىء إذا اندرس، أو من عفا يعفو إذا خلص، ومنه الحديث: «أقطعهم ما كان عفا» وقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقال التجانى: روى عفاء بكسر العين جمع عفو كجبل وجبال وهو بمعنى الأول، وقوله: ترعون أيضًا ما مر، وجوابه أن الرعى مخصوص بأكل البهائم، ولذا قال بعض الجهلة لبعض الأدباء: أنت عندى كالأب بتشديد الباء، قال له: فلذا تأكلنى. قال الدمامينى فى كتابه «نزول الغيث»: لو قال فلذا ترعانى كان ألطف لما فيه من التورية؛ لاحتمال أن يكون من الرعى أو الرعاية. كما فى الأب من احتمال معنى الوالد على لغة فيه، ومعنى اللبن لأنه عنى أنه لجهله كالأنعام.

(لنا من دفئهم وصرامهم) الدفء بكسر الدال المهملة وسكون الفاء فالهمزة وفسروه هنا بالإبل، والغنم سميت بذلك لأنها يتخذ من أصوافها وأوبارها أثاث يتدفأ به ويجعل منها البيوت من الشعر ليتدفأ بها، وقال الله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ [النحل: ٥]، أى ما يتدفأ به من الصوف والوبر، وهو فى الحديث بمعنى الأنعام التى يؤخذ منها ذلك، والصرام بكسر الصاد المهملة جمع صرمة بكسر فسكون وهى القطعة

من النخل، ويجوز أن يكون الثمر نفسه لأنه يصرم من النخل، أى يجذ ويقطع، فسمى بالمصدر، ويجوز فتح الصاد؛ لأنه يقال: صرمت النخل صرامًا، وما قيل من أنه لا يجوز أن يكون جمع صرمة كما توهم؛ لأنها القطعة من الإبل من الثلاثين والقطعة من السحاب، وهو لا يصح ساقط لوجهين.

(ما سلموا بالميثاق والأمانة) ما موصولة خبرها مقدم، المراد العهد الذى أخذ عليهم أو الإسلام، والمراد بما سلموا بتشديد اللام ما يعطوه من الزكاة المفروضة، والأمانة أى كونهم مأمونون على أموالهم؛ لأن رب المال فى الزكاة يصدق بقوله، وقال التلمسانى: أراد بها الطاعة أو الغناء أو العبادة وهو بعيد، أى لا يؤخذ منهم شىء قهر إبل عن طيب نفس وغنى من غير تجاوز عما حده اللّه، ولم يبين من يسلمون فيجوز أنهم يسلمون بأنفسهم أو للسعاة فلا يتكلف له، ويقال: إن المراد الأول؛ لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم علم منهم الرغبة فى رضى اللّه ورسوله، وأنهم يؤدون ما يجب عليهم بلا سعاة، وإنما يجب بعث السعاة إذا لم يتيسر وصول الصدقة بدونهم.

(ولهم من الصدقة الثلب) المراد بالصدقة الزكاة، والثلب: بمثلثة مكسورة ولام ساكنة وموحدة معناه الجمل المسن الهرم الذى سقطت أسنانه، والأنثى ثلبة فهو مخصوص بالذكور كما قاله الهروى.

(والناب) مثل الثلب معنى، إلا أنه مخصوص بالنوق الإناث فلا يقال للجمل ناب وإن أسن، وإنما سميت نابًا لأنها إذا هرمت طال نابها.

(والفصيل) ولد الناقة الصغير الذى فصل عن رضاع أمه، والفصيلة أنثاه، والجمع فصال وفصلان، وقيل: هو من أولاد البقر والمعروف فى اللغة الأول.

(والفارض الداجن) الفارض البقرة الهرمة المسنة، قال اللّه تعالى: ﴿فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ [البقرة: ٦٨] وقال الراغب: الفارض المسن من البقر. قيل: سمى لكونه فارضًا للأرض أى قاطعًا، أو فارضا لما يحمل من الأعمال الشاقة من الفرض وهو القطع. وقيل: بل لأن فريضة البقر تبيع ومسنة، فالتبيع فى حال دون الحال والمسنة يجوز بذلها فى كل حال فسميت المسنة فارضًا، فعلى هذا يكون اسما إسلاميا انتهى.

والداجن: الشاة التى تكون فى البيت لا ترسل للمرعى، وكذا الراجن بالراء كما فى الصحاح، وعلى هذا فالداجن غير الفارض فينبغى عطفها كغيرها، وهو فى غالب النسخ بغير عطف اللهم إلا أن يقال: ما ذكر معناه الحقيقى، وهى هنا صفة مجردة عن كونها شاة وجعلت وصفا للفارض. قلت: ضمير لهم السابق لأصحاب المال ومن تؤخذ

منهم الصدقة، والمعنى أن ما ذكر يترك لهم ولا يؤخذ منهم لمقابلته لقوله لنا: والذى يؤخذ فى الصدقة من أوسط مالهم لا أعلاه ولا أدناه، كالصغير جدًا والمسن الهرم. فالفارض لما كان بمعنى المسن الذى يؤخذ فى الصدقة، والمراد خلافه هنا، وصفه بقوله الداجن بمعنى الذى يربض حول المنازل فى شدة الهرم، فلا يسرح للمرعى ولا يصلح للعمل والحمل، وهذا هو المراد من غير حاجة لتكلف ودعوى تجريد. وقيل: الفارض المسن من الإبل، وفى بعض النسخ والداجن بالعطف ومعناها شاة صغيرة تربى فى البيت كما وقع فى حديث الإفك.

(والكبش الحورى) الكبش الذكر الكبير من الغنم الذى يقودها غالبًا، ولذا أطلق على الرئيس فى المدح بخلاف التيس، والحورى اختلفوا فيه، فقيل: إنه بحاء مهملة وواو مفتوحتين وراء مهملة يليها ياء نسبة. وفى النهاية الأثيرية: أنه منسوب إلى الحورة وهى جلود تتخذ من الضأن. وقيل: هو ما دبغ من الجلود بغير القرظ، وهو أحد ما جاء على أصله و لم يعل إعلال ناب انتهى. وقال ابن رسلان: الحورى بفتح الحاء وسكون الواو نسبة للحور وهى الجلود المذكورة، والذى فى الصحاح أن الحورة وجمعها الحور بفتح الواو فيهما واقتصر أرباب الحواشى كالشمنى والحلبى والقسطلانى على ما فى النهاية، ونقل عن الكاشغرى فى كتابه «مجمع الغرائب ومنبع العجائب»: أن الحورى المكوى نسبة إلى الحوراء، وهى كية مدورة يقال حوره إذا كواه، وأنه على هذا بسكون الواو؛ لأن الحور بالقصر والمد للكية ساكنة الواو. وقال التجانى: الحورى بفتح الواو وضرب من الكباش حمر الجلود، وروى الحوارى بزيادة الألف ومعناه الأبيض لا الأحمر، ولذا قيل: الحواريون لأنصار عيسى، عليه الصلاة والسلام؛ لأنهم كانوا قصارين يبيضون الثياب، و لذا فسر بعض أرباب الحواشى الحورى بغير ألف بالأبيض الجيد لما ذكر، أو لأن موضع الكية يبيض.

أقول: الحاصل أن فى لفظ الحديث وكلام المصنف ثلاثة أوجه، **أشهرها:** الحورى بفتح الواو. **والثانى:** الحورى بسكونها. **الثالث:** الحوارى بألف بعد الواو. وكلها بمعنى، والمراد الكبير من الغنم وهو لا يؤخذ فى الصدقة لكونه أنفسها، ولأنه مما يحتاج إليه للضراب، فلا يؤخذ منه إلا إذا أعطاه، كما لا يؤخذ ما ذكر من الهرم وكل ناقص كما فصل فى كتاب الزكاة، وعلى الأول لم يعل مع تحرك الواو وانفتاح ما قبلها إما على خلاف القياس كما هو ظاهر كلام النهاية السابق، أو تبعًا لفعله وهو حور كفرح، أو لئلا يلتبس الواوى باليائى الذى من مادة الحيرة. وقول التجانى: إنه من الكباش إن لم يقله أحد من أهل اللغة ففيه نظر، لأنه كان ينبغى له أن يقول الكباش التى تتخذ منها

الجلود الحمر، ولبعضهم هنا كلام طويل بلا طائل.

(وعليهم فيها الصالغ والقارح) الصالغ: بصاد مهملة ولام وغين معجمة، ويقال سالغ، فإن كل صاد تبدل سينا مع الغين كما فصل فى محله، وهو من البقر والغنم ما كمل وانتهى سنه فى السنة السادسة. وقيل: هو من ذوات الأظلاف كلما أكمل ست سنين ودخل فى السابعة. لأن ولد البقر فى أول سنة عجل، ثم تبيع، ثم جذع، ثم ثنى، ثم رباع، ثم سديس، ثم صالغ وسالغ سنة وسنتين. وما وقع هنا فى بعض النسخ ضالع بضاد معجمة وعين مهملة تحريف، ونقله عن النهاية وهم.

والقارح: بقاف وراء وحاء مهملتين بعد الألف وهو الفرس الذى دخل فى الخامسة. وفى القاموس: القارح من ذى الحافر بمنزلة البازل من الإبل. وقال التجانى: القارح من ذوات الحافر ما أكمل خمس سنين، وهو فى السنة الأولى حولى بسكون الواو، ثم جذع، ثم ثنى، ثم رباع، ثم قارح. وفى هذا المكتوب زيادة على ما قاله المصنف رحمه اللّه تعالى، وروايات أخر منها ما قدمناه، ومعنى قوله: وعليهم إلى آخره، أنه إذا وجد عندهم هذا النوع يؤخذ منه ما ليس هرما ولا معيبا كما مر، وهذا مبنى على أن الخيل تجب فيها الزكاة إذا كانت سائمة وذكورا وإناثا لا صرف ذكور، وإن شاء أعطى عن كل فرس دينارًا أو قومها وأعطى زكاتها إذا حال الحول وتم النصاب. والشافعى يحمله على ما كان معدًا للتجارة وأدلتها مبسوطة فى كتب الفقه.

(وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم لنهد) نهد قبيلة من اليمن تقدم الكلام عليها، وهذا إشارة لما قاله عليه الصلاة والسلام لطهفة النهدى السابق ذكره، فاللام صلة القول بتنزيل قوله لبعضهم منزلة قوله لكلهم، أو لتنزيل كتابه منزلة خطابه، أو هى للتعليل، وقيل: إنه هنا متعين لأن هذا ليس مقولا لهم، والمخاطب بهذا الكلام الآتى هو اللّه تعالى عز وجل لما سألوه صلى الله تعالى عليه وسلم أن يستسقى لهم فدعا لهم وقال: **(اللهم)** أى يا أللّه **(بارك لهم)** أى اجعل البركة وزيادة الرزق وثباته مقسومًا وواصلاً لهم. قال الإمام الراغب رحمه اللّه تعالى: أصل البرك صدر البعير وإن استعمل فى غيره، وبرك البعير ألقى بركة واعتبر فيه معنى اللزوم، ومنه بروكا الحرب لمكان يلزمه الأبطال، والبركة لمحبس الماء، والبركة ثبوت الخير الإلهى فى الشىء، قال اللّه تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف:٩٦] لثبوت خيرها ثبوت الماء فى البركة، والمبارك ما فيه ذلك الخير، ولما كان الخير الإلهى يصدر من حيث لا يحس على وجه لا يحصى ولا يحصر، قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة مبارك وفيه بركة، وإلى هذه

الزيادة أشير بما روى: «لا ينقص مال من صدقة»(١). لا إلى النقصان المحسوس، كما قال بعض الخاسرين حيث قيل له ذلك بينى وبينك الميزان، وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١].

(تنبيه) على ما يفيض علينا بواسطة هذه البروج، والنيرات المذكورة فى هذه الآية وكل موضع ذكر فيه تبارك، فهو تنبيه على اختصاصه تعالى بالخيرات المذكورة مع ذكر تبارك، وهو تحقيق لا مزيد عليه، ومنه أخذ صاحب الكشاف ما قاله فى أول سورة الملك، وقد تقدم أن طهفة وفد من قومه على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهم فى قحط شديد أصابهم، فشكى له ما مسهم فى كلام ذكرناه أولا فدعا لهم وقال: «اللهم بارك لهم».

(فى محضها ومخضها) متعلق ببارك، والمحض بفتح الميم وسكون الحاء المهملة والضاد المعجمة والمخض مثله، إلا أن خاءه معجمة، ومعنى الأول الخالص كما مر، ومادته كلها تدل على الخلوص والصفاء، ومنه: «محض الإيمان» فى الحديث، ومحضت له الود وعزتى محض ونحوه، والمخض أصله تحريك السقاء الذى فيه اللبن حتى يتميز من زبده فيؤخذ منه، ويسمى اللبن الذى أخذ زبده مخيضا، وهو صفة لا مصدر سمى به كما توهم.

(ومذقها) بفتح الميم وسكون الذال المعجمة والقاف، وأصل معناه الخلط والمزج ثم استعمل فى اللبن المخلوط بالماء قال:

جاؤا بمذق هل رأيت الذئب قط

والضمير راجع لأرضهم أو لأنعامهم المذكورة فى كلام طهفة السابق الذى شكا فيه محل بلادهم، وهلاك دوابهم، فدعا لهم صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله: «اللهم بارك لهم فى ألبانهم». بأقسامها ما كان خالصا لم يتميز زبده، وما ميز منه زبده، وما مزج بالماء، ومجموعه كناية عن خصب أرضهم وسعتها، فإن الألبان إنما تكثر بنبات المرعى، وهو إنما يكون بالمطر، فكأنه قال: اللهم اسق بلادهم واجعلها مخصبة مليئة، كما يدل عليه قوله: **(وابعث راعيها فى الدثر)** ابعث بمعنى ارسل، يقال: بعث اللّه رسوله للناس أى أرسله، والراعى الذى يرعى الإبل وغيرها. والدثر: بفتح الدال المهملة وسكون المثلثة والراء المهملة، وهو الإبل الكثيرة ويقع على الواحد فما فوقه، ويجوز فتح ثائه. وقيل: الدثر الخصب وكثرة النبات؛ لأنه من الدثار وهو الغطاء لأنها تغطى وجه الأرض.

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (١٩٣/١)، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠٥/٣).

(وافجر له الثمد) افجر: بضم الجيم من فجر يفجر كقعد يقعد من تفجير الماء، وهو جعله جاريًا معينًا، والثمد: بفتح المثلثة وفتح الميم وقد جوز تسكينها وآخره دال مهملة وهو الماء القليل، وافجر له مجاز عن معانى التكثير للزومه له غالبًا، فالمراد: كثر ما قل من مائه، وضمير له للراعى، وإذا كثر له كثر لغيره.

(وبارك لهم فى المال والولد) معطوف على ما قبله أو على بارك الأول، والمال: كل ما يتولد أو يملك، وهو فى كلام العرب فى الأكثر يختص بالإبل، ويجوز إرادة كل منهما هنا.

(من أقام الصلاة كان مسلمًا) أى مسلمًا كاملاً كقوله: «المسلم من سلم الناس من يده ولسانه»(١). والمراد أنه يحكم بإسلامه بحسب الظاهر، أو المراد الحث على إقامة الصلاة، والمراد بإقامة الصلاة المداومة والمحافظة عليها كما حقق فى الكشاف وشروحه. وقيل: إنه على ظاهره؛ لأن من تركها مستحلاً لتركها كفرا، ولأن تاركها كافر فى أحد قولى أحمد، أو هو فى حكم الكافر لأنه يقتل كما سيأتى بيانه.

(من آتى الزكاة) بمد آتى أى أعطاها وأداها **(كان محسنا)** أى منعما متفضلا على الفقراء، وآتيا بأمر حسن مطلوب فى الدين.

(ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصًا) أى: من أتى بكلمة التوحيد وأعلن بها فهو مخلص فى إيمانه، لأن الظاهر مطابقة قوله لما فى قلبه. وهذا من باب حمل أحوال المؤمن على الصلاح، والمراد بالإخلاص عدم النفاق، وقيل: المراد من قال كلمة الشهادة وهى لا إله إلا الله محمد رسول الله، فهو كما يقال: قرأت حم والكتاب المبين أى السورة بتمامها، وعليه يحمل نظائره الواردة فى الأحاديث.

(لكم يا بنى نهد ودائع الشرك) لكم خبر مقدم للاهتمام لا للحصر القلبى بناء على ما سيأتى من تفسيره، وجملة النداء معترضة لبيان المخاطب. وودائع الشرك: المراد بها كما فى النهاية العهود والمواثيق التى كانت بينهم وبين من جاورهم من الكفار فى المهادنة، يقال: توادع الفريقان إذا أعطى كل واحد منهم الآخر عهدًا أن لا يغزوه، ويسمى ذلك العهد وديعا بغير هاء، فيقال: أعطيته وديعا أى عهدًا. والظاهر: أن المراد عهودهم التى وقعت بينهم بعد الحروب بعدم المؤاخذة بما قتلوا إذا تحاربوا وقتل بعضهم

---

(١) أخرجه البخارى (١/٩، ٨/١٢٧)، ومسلم (٦٥/٤١)، وأبو داود (٢٤٨١)، والترمذى (٢٦٢٧)، والنسائى (٨/١٠٥)، وأحمد (٢/١٦٣، ١٩٢، ١٩٥، ٢٠٣، ٢١٢)، والدارمى (٢/٣٠٠)، والبيهقى (١٠/١٨٧)، والحاكم (١/١٠).

بعضا، وما أراقوا من الدماء هدر كما فى الحديث الآخر: «كل دم فى الجاهلية تحت قدمى هذه». أى متروك هدرًا. وقيل: معناه أنهم كانوا التزموا مهادنة بعض الكفار فغير الإسلام ذلك الحكم، فلو وجب عليهم الوفاء بما التزموا لأمرهم بغزوهم لمن خالف دينهم، فأطلقوا من قيود ما التزموه فى الشرك من ذلك، ولا يخفى بعده وتكلفه، ثم قال فى النهاية: ويجوز أن يراد أن ما استودعوه من أموال الكفار حلال لهم؛ لأنها مال أخذ من الكفار من غير إيجاف خيل وقتال فهو فئ، وهكذا حكم ودائع الكفار فهو جمع وديعة بالهاء على هذا، ولا ينافيه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما هاجر خلف عليا كرم الله وجهه ليرد ما كان عنده صلى الله تعالى عليه وسلم من الودائع والأمانات، لأنه كان قبل حل الغنائم له، أو لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم فر من نسبته للخيانة وذهاب شهامته وأمانته، فيطعنوا فى الإسلام ويبعدوا من الإيمان.

(ووضائع الملك) الوضائع: جمع وضيعة بمعنى موضوعة، والملك: بكسر الميم أى ما كان يوضع على الأملاك من الزكاة والصدقة ثابت لكم كسائر المسلمين، يلزمكم ما يلزمهم من الوظائف من غير زيادة ولا نقص، أو الملك بضم الميم والمعنى أن ما كان ملوك الجاهلية يوظفونه على الرعاية ويستأثرون به من غنائم الحروب لا يأخذ منكم، فهو على ظاهرها بتقدير التفسيرين الأخيرين للودائع والوضائع، وبمعنى على كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء: ٧] على التفسيرين الأولين لهما. وقيل عليه: إن العهد إذا لزم الوفاء به يكون على المعاهد لأنه فرض مطلوب، وعهود مهادنتهم قبل الإسلام لا يجب الوفاء بها بعد الإسلام، والقائل ظن وجوب الوفاء بها فحمل اللام على ما حمله وليس كذلك كما مر، لأن عهد الكافر لا يعتد به. وأما الوضائع بمعنى تكاليف الزكاة فهى وإن ثقلت على بعضهم فهم باعتبار الأجر عليها، وقد علمت أن هذا مبنى على تفسيره وليس بمتعين كما مر مع ما فيه.

(لا تلطط فى الزكاة) تلطط: بضم التاء المثناة وسكون اللام وكسر الطاء المهملة الأولى وجزم الطاء المهملة الثانية بلا الناهية، وفى الزكاة متعلقة به أى لا تمنعها. قال ابن الأعرابى: لط الغريم إذا منع حقه، وأصله من لطت الناقة فرجها بذنبها إذا ضمته وقد أرادها الفحل. وفى شعر الأعشى الحرمارى فى امرأته وقد نشزت:

أخلفت الوعد ولطت بالذنب وهن شر غالب لمن غلب

ولط الغريم إذا اختفى.

(ولا تلحد فى الحياة) هو مضبوط بضم التاء المثناة أوله ولام ساكنة تليها حاء مهملة

مكسورة ودال مهملة مجزومة، من ألحد إلحادًا إذا جار وعدل عن الحق، وأصله مطلق العدول، ويقال: ألحد ولحد قليلا، والذى فى الشفاء هو الذى رواه القتيبى بالفعل والخطاب الواحد. والذى رواه غيره: «ما لم يكن عهد ولا موعد، ولا تثاقل فى الصلاة، ولا تلطط فى الزكاة، ولا تلحد فى الحياة» بالاسم المصدر وتشديد عين الآخرين وهو الوجه؛ لأنه خطاب للجماعة واقع على ما قبله، وكذا فى النهاية الأثيرية، يعنى أن هذه الرواية بلفظ المصدر من التفاعل والتفعل هو الوجه الواضح؛ لأنه كلام خوطب به جماعة فى قوله: «يا بنى نهد» وهذا جار على غير أسلوبه لوجه الخطاب لواحد من بينهم، وإن كان ما قبله مشتملا على ضمير الجماعة المخاطبين دونه، وقد جاء التلطط بمعنى الإلطاط المتقدم يقال: تلطط وألطط وألطى، بإبدال الأخيرة بالتخفيف. وقال ابن رسلان: لا نلطط أو نلحد بالنون، من باب نهى الإنسان نفسه لينتهى غيره. قيل: ولا ضير فى رواية القتيبى إذ الخطاب فيها لمن تلقى الكلام له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من بين جمع ما خوطبوا ابتداء، أو نظيره فى أفصح الكلام ثم عفونا عنكم من بعد ذلك حيث خوطب من يتلقى الكلام بلفظ ذلك، ولم يقل ذلكم، وتخصيص واحد من الحاضرين بخطاب النهى للتعريض بالباقين، والصون لهم عن توجه صيغة النهى إليهم رجاء الانقياد للامتثال بألطف وجه، ويحتمل أن الخطاب لهم برمتهم أولا ثم توجه لواحد فى المجلس خارج عنهم فنهاه تعريضًا بهم، أو نهاهم نهى غنية لتنزيلهم منزلة الغائبين عند توجيهه إلى غيرهم، ولم يقل: لا يلطوا ويلحدوا بلفظ جماعة الذكور الغائبين، بل لا تلطط وتلحد، أى هى والضمير لبنى نهد وبنون، وإن كان جمع مذكر سالم ومثله لا يعود له ضمير المؤنث ولا تلحقه التاء، فلا يقال: الزيدون قامت ولا قامت الزيدون ولا العمرون تقعد، بخلاف قامت الرجال والرجال تقوم بتاء التأنيث، إلا أنه لما غير مفرده عند جمعه أشبه جمع التكسير فأعطى حكمه، فجاء إلحاق التاء بفعله نحو قامت البنون، ومنه قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] فصار ذلك داعيًا إلى جواز البنون قامت وتقوم، ونحوه بتاء التأنيث، وذهب بعض النحاة إلى أنه جمع تكسير بدليل جواز إلحاق التاء. قال فى ضوء الذبالة: هذا مذهب غريب ورأى غير مصيب. قلت: المخطئ مخطئ، وهذه المسئلة مذكورة فى شروح كتاب سيبويه، والذى قال إنه قول غريب ارتضاه ابن خروف، ولولا خوف الملل فصلناه. وقيل عليه: إن قياس الضمير على حرف الخطاب المتصل باسم الإشارة لا وجه له للفرق بينهما، وما فى الحديث يوجه بأنه خاطب القوم أولا بقوله: «يا بنى نهد»، وعلم أن فيهم واحدًا متبعًا لهوى نفسه فخصه من بينهم بالخطاب بما يليق به، أو جعله تعريضًا

لباقيهم لئلا نثقل عليهم المواجهة بالنصيحة.

ونقل عن ابن الباذش أن الخطاب المفرد بعد الجمع له تأويلان، إما تخصيص واحد من بينهم أو تأويله بمفرد لفظا مجموع معنى كالفريق، وجوز فيه أن يكون التفاتًا وأتى بما لا يسمن ولا يغنى من جوع على عادته فى التطويل الممل من غير فائدة. **وأنا أقول:** هذا كله مبنى على قاعدة ذكرها النحاة كما فى شرح الكافية للرضى، وهى أنه لا يكون فى كلام واحد خطابا لمخاطبين متغايرين من غير عطف ولا جمع تثنية، وهذه القاعدة ذكرت فى باب الإشارة وقد تتبعت كلامهم فرأيتها مقيدة بأربعة قيود:

الأول: أن يكون فى جملة واحدة، فلو قلت: ءانت يا زيد تضرب ءانت يا عمر وتشتم لم يمتنع.

الثانى: أن لا يتغايرا، فلو كان أحدهما غير الآخر جاز نحو: اذكر إذ قال ربك كما قدره المفسرون فى مثله وغفل عنه بعضهم. فاعترض بما لا محصل له.

الثالث: أن لا يكون أحدهما بعض من الآخر نحو: رأيتكما كما ذكره النحاة فى أفعال القلوب، وصرح به المرزوقى رحمه الله تعالى فى قوله:

اجدوا قومها لكم يا جرول

فقال: جرول اسم رجل جعل أول الكلام خطابًا لجماعتهم، ثم خص بالنداء واحدًا منهم جعله المأمور بما أراد كقول الهذلى:

أحيبى إياكن يا ليلى الأماديح

فقال: إياكن، ثم قال: يا ليلى. انتهى.

الرابع: أن يبقى الخطاب على حقيقته كما ذكره الرضى فى باب التعجب، وقد بسطنا الكلام على هذه المسئلة فى كتاب طراز المجالس، وللمعترض والمجيب خبط هنا خبط عشواء، فإن هذا التركيب صحيح من وجهين؛ لكونه بعضًا فى جملة أخرى فاحفظه فإنه من نفائس الذخائر، ثم إنه ذكر فى إعراب قوله فى الرواية السابقة ولا موعد كلام يقتضى منه العجب، وأجاب عنه تلميذه بأعجب وأعجب، إلا أن المصنف رحمه الله كفانا مؤنته؛ لأنه لم يذكره فلذا أضربنا عنه، فإن أردت فانظره. وقوله فى الحياة أى لا تلحد ما دمت حيا.

(ولا تتثاقل عن الصلاة) بجزم اللام والكلام فيه كالذى قبله، أى لا تتوانى وتكسل عن الصلاة وتتركها، والتثاقل يجعل كناية كأن عليه ثقلا يمنعه عن الحركة إليها.

(وكتب لهم فى الوظيفة) أى أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكتب لهم كتاب

يبين فيه ما يلزمهم بعد الإسلام والوفاء بأركانه. وضمير لهم لبنى نهد وهو متعلق بكتب، والوظيفة: بالظاء المشالة والفاء بزنة سفينة وهى المعين فى كل يوم، أو فى زمان معين من الطعام وغيره من الرزق، ويطلق على العهد والشرط وجمعه وظائف ووظف بضمتين كسفن كما قاله أهل اللغة، والمراد الأخير، أى كتب فى العهد وما شرط عليهم فى الزكاة لهم فيما يؤخذ منهم من الوظائف المرتبة عليهم.

(الفريضة) أى ما فرض عليهم ففريضة بمعنى مفروضة، فإن كانت الفريضة بمعنى الهرمة المسنة كالفارض لفرضها سنها، أى قطعها له أو لانقطاعها عن العمل والانتفاع بها، فهى غير مرادة لأنه روى: «عليكم فى الوظيفة» أى فى كل نصاب ما فرض فيه، وهذه الرواية مفسرة للمراد به، ولأن قوله **(ولكم الفارض)** يأباه لما بينهما من التدافع غاية ما فيه إطلاق الوظيفة على النصاب، لأنه وظيفة لأصحاب الأرزاق مقدرًا لهم كوظيفة الأرض المعينة التى وضعها عمر رضى اللّه عنه كما ذكر فى باب الوظائف، فلا تجوز فيه كما توهم.

والفارض: بالفاء كما ضبطه البرهان الحلبى وقد تقدم تفسيرها، ويؤيده ما فى الحديث الآخر: «ولكم الفارض والفريض» يعنى لا يؤخذ منكم ولا يكون على الأنصباء لأنه لا تصح به الزكاة، وضبطه التجانى بالعين المهملة بدل الفاء، وقال: العارض المريضة التى أصابها كسر وهى لا تقبل فى الصدقة فهى باقية لأصحابها. وفى مزيل الخفاء أنه وقع فى بعض النسخ بالعين المهملة، وهى الناقة التى يصيبها كسر أو مرض فتنحر، وفى العز بين فى بعض نسخه الفارض بالفاء وقيل: بالعين التى أصابها كسر ولم يتعرض لمرضها، يقال: عرضت الناقة إذا أصابها آفة أو كسر، وبنو فلان أكالون للعوارض إلا إذا لم ينحروا إلا ما أصابه مرض أو كسر خوفًا أن يموت فلا ينتفعون به. والعرب تعير بأكله. **قلت**: كأنه سقط من عبارة التجانى لفظ أو عد الكسر مرضا، وفى الشرح خلط هنا لم نسود به وجه الطرس.

(والفريش) بفتح الفاء وكسر الراء المهملة والمثناة التحتية الساكنة والشين المعجمة الحديث العهد بالنتاج كالنفساء من النساء، وحكى أنه مالا يطيق حمل الأثقال من الإبل لصغره، كما حكى أنه يقال: فرش وفريش بمعنى، وإن كان المشهور فيه الفرش كما فى الآية: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ [الأنعام:١٤٢] وقيل: الفرش ما انبسط على وجه الأرض من النبات وهو بعيد هنا، يعنى أن هذه كلها لا تؤخذ فى الزكاة، أما على الأولى فلأنها لبون نفيسة، وأما على الثانى فلخستها.

(وذو العنان الركوب) العنان بكسر العين ونونين بينهما ألف، والركوب بفتح الراء

هو المركوب الذلول، قال اللّه تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ [يس: ٧٢] ووصفه بذى العنان فى محله، يعنى لا يؤخذ الزكاة من الفرس المعد لركوب صاحبه فلا يؤخذ فى الزكاة، وإن قلنا بزكاة الخيل، وكذا الصغير لأنه ليس من أوسطها، والركوب بالرّفع صفة ذو، وروى بالجر صفة العنان.

(والفلو) بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو المهر الصغير من الخيل لا يؤخذ فى الزكاة، وسمى فلوا لأنه يفلى من أمه أى يقطع بالفطام عنها. قال الجوهرى: يقال فلوته إذا فطمته. وعن أبى زيد: إذا فتحت الفاء شددت الواو، وإذا كسرتها خففت فقلت فلو كجرو. وفى القاموس إنه يقال: كجرو، وعد،وسمو. وقال: إنه الجحش والمهر. وقيل: صغار أولاد ذوات الحافر مطلقًا، وروى الفلو بدون واو عطف والأول أصح.

(الضبيس) بفتح الضاد المعجمة، ووهم من قال: المهملة، والموحدة المكسورة والمثناة التحتية والسين المهملة، أى المهر العسر الركوب الصعب، وهو من الرجال كذلك، وكأنه كنى به عن صغره، ولو عطف كان المراد به الحرون إلا أنه وقع بلا عاطفة.

(لا يمنع) بالبناء للمفعول **(سرحكم)** بإهمال السين المفتوحة وسكون الراء المهملة والحاء المهملة، وهى الماشية التى تسرح بالغداة للمرعى، والمراد أن مطلق الماشية لا تمنع عن مرعاها، يقال: سرحت الماشية تسرح إذا خرجت للرعى، وفعله يتعدى ولا يتعدى، فإذا رجعت قيل: أراحت، قال اللّه تعالى: ﴿حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦]، وهذا كما قال فى كتاب أكيدر: «لا تعدل سارحتكم وفاردتكم من مرعى» إلا أنه عبر بالسارحة لمشاكلة الفاردة كما عبر هنا بالسرح لمشاكله قوله:

(ولا يعضد طلحكم) يعضد بمعجمة بين مهملتين بمعنى يقطع، يقال: عضده عضدًا إذا قطعة، والطلح بفتح الطاء المهملة وسكون اللام والحاء المهملة شجر عظام يقال له: العضاة، وأم غيلان، وكل شجر عظيم له شوك يقال له عضة، والطلح فى قوله تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٩] قيل: هو الطلح. وقيل: شجرة الموز. والمراد: لا يقطع لكم شجر طلحًا كان أو غيره، وخصه لأنه لا ثمر له فإذا منع قطعه علم عدم قطع غيره بالطريق الأولى.

(ولا يحبس دركم) بفتح الدال وتشديد الراء المهملتين، وأصل معناه اللبن. والمراد به هنا الأنعام ذوات الدر لا تحبس عن المرعى فى مكان يجتمع فيه ليعدها من يأخذ الصدقة، لما فيه من ضرر صاحبها بعدم رعيها ومنع درها عنه. وروى: «لا يحشر دركم» أى: لا يجتمع فى مكان عند المصدق وهما بمعنى لما مر من الضرر. وما قيل من أن ما

رواه المصنف لا يختص بالحبس عن المرعى لشموله لحبسها عند صاحبها على وجه يمنعها من المرعى، وحبسها عند المصدق ليعدها عليه مع مخالفته لكلامهم وللسياق لا طائل تحته. وكذا ما قيل إن معناه لا يؤخذ الدر نفسه إلا أن يكون منحة، وكل هذا مناف للغرض، وقد ورد فى صلح أهل نجران: «لا تحشروا ولا تعشروا»، ومقصوده، صلى الله تعالى عليه وسلم، الرفق بمن يؤخذ منهم الزكاة فيؤتى لمنازلهم من غير سوق لمواشيهم وحبس لها.

(ما لم تضمروا الرماق) تضمروا بمعنى تخفوا أو تكتموا، الرماق: بكسر الراء المهملة وميم وألف وقاف وهو النفاق. يقال: رامقته رماقا وهو النظر الشرر من العدو، والمعنى ما لم تضق قلوبكم عن الحق، يقال: عيش رماق أى ضيق يمسك الرمق وهو بقية الروح وآخر النفس كما قاله ابن الأثير.

(وتأكلوا الرباق) بكسر الراء المهملة والموحدة والقاف، وقال الشمنى: جمع ربقة وهى حبل فيه عرى يشد به للبهائم، وفى الحديث: «خلع ربقة الإسلام من عنقه»[(١)] قال ابن الأثير: شبه ما يلزم من العهد بالرباق واستعار الأكل لنقضه، فإن البهيمة إذا أكلت الربق خلصت من الشدة وما مصدرية ظرفية، وهو إما قيد لما قبله أو لجميع ما تقدم، والمعنى أن هذا أمر مقرر عليكم منا ما لم تنقضوا العهد وترجعوا عن الإسلام، فإذا كان كذلك فعليكم ما على غيركم من الكفرة، وهذا معنى لا غبار عليه، والترتيب فى محزه؛ لأن المعنى ما لم تضمروا النفاق ثم تظهروا نقض العهد، وقريب منه تفسيره بالغدر والنكث والعداوة فإنها إذا ضمرت كانت نفاقًا، وأما تفسير إضمار الرباق بإخفاء قطيع من الغنم يعنى عن المصدق، فإنه خيانة يقتضى تضييق المصدق عليهم بحشر أنعام درهم وحبسها، فهو على هذا متعلق بقوله: «لا يحبس دركم» وهذا معنى صحيح موافق للغة، لأن الرمق القطيع من الغنم فارسى معرب كما قاله الجوهرى، إلا أن المشهور المأثور فى تفسير الحديث ما تقدم، فاعترض البرهان عليه بأنه لم ينظره فى غير الصحاح، وأخشى أن يكون أحد قاله قبله بما لا يليق ذكره، وكذا القول بأن النفاق إضمار للغدر مع إظهار خلافه، فتفسيره غير مستقيم ليس بشىء، وكذا تفسير الرباق بالموحدة بالغنم مجازًا لعلاقة المجاورة فكله بعيد بمراحل عن المرام، وفى الكلام استعارة تمثيلية أو تصريحية، والمراد بالعهد التزام أوامر الله ورسوله ونواهيه، وفى الشرح الجديد قال البرهان عن المعلق: إن الرباق مجاز عن الغنم، ولا أدرى من هذا المعلق، وعلى هذا التقدير معناه ما لم تأكلوا الغنم ولا معنى لهذه الظرفية حينئذ، إذ يؤل إلى أدوا زكاتكم ما

(١) جزء من حديث تقدم تخريجه.

لم تأكلوا الغنم، ومثله سمج لا يليق بحديث الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم المسوق لبيان فصاحته عليه الصلاة والسلام. وفى الحواشى التلمسانية: تضمروا الإماق بهمزة مكسورة وميم ساكنة وهمزة ممدودة يليها قاف بزنة الإكرام، ومعناه الغدر والبغض، يقال: إماق يميق رباعيا وقد يخف همزته، هكذا ثبت عند العزفى. وفى بعض نسخ الشفاء: الرماق بكسر الراء والميم بعدها وهو بخط القاضى رحمه اللّه تعالى انتهى. والشراح وأرباب الحواشى متفقون على الرواية الثانية.

(من أقر فله الوفاء بالعهد والذمة) ال فى العهد للعهد، فالمراد ما عرف من عهود الإسلام أو ما عاهدهم اللّه ورسوله فيما كتب لهم، والذمة قال البرهان الحلبى: بمعنى العهد والأن والضمان والحرمة والحق، والمراد الأولان، وسميت الذمة ذمة لأن تركها يوجب الذم، ثم سمى محل الالتزام بها فى قول الفقهاء ثبت فى ذمته كذا، ومن الفقهاء من قال إنها معنى يصير به الآدمى على الخصوص أهلاً لوجوب الحقوق له وعليه، كما قاله تاج الشريعة فى شرح الهداية. وقال القرافى رحمه اللّه فى قواعده: لم يعرف أكثر الفقهاء معناها المستعملة فيه وحقيقتها، حتى ظنوا أنها أهلية المعاملة أو صحة التصرف وليس كذلك، لأن كلا منهما يوجد بدون الآخر وهى عبارة عن معنى مقدر فى المكلف قابلة للالتزام، واللزوم مسبب عن أشياء خاصة فى الشرع وهى البلوغ والرشد وعدم الحجر، وهى من خطاب الوضع انتهى. وسمى أهل الذمة بذلك لدخولهم فى عهد المسلمين وأمانتهم، والمراد: أن من اعترف وصدق بما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فله الوفاء بالعهد والذمة.

(ومن أبى) أى امتنع من قبول العهد أو نقضه بعد قبوله ودخوله فيه من منع الزكاة **(فعليه الربوة)** والربوة بتثليث الراء المهملة وسكون الباء الموحدة والواو والهاء كما فى القاموس، فالاقتصار على بعضها تقصير وهى الزيادة، ومنه الربا لأخذه زيادة على ما أعطاه، وفسرت الربوة بأن يؤخذ منه زيادة على فريضة الزكاة عقوبة له، وروى: «من أقر بالجزية فعليه الربوة»[1] أى من امتنع عن الإسلام لأجل الزكاة كان عليه من الجزية أكثر مما يجب عليه بالزكاة، قاله ابن الأثير. وقال التجانى: عنى صلى الله تعالى عليه وسلم أن من أبى من أداء الزكاة أخذ منه الفرض وزيد عليه مثله، كما فى حديث أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه الصحيح: أن رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم ندب الناس إلى الصدقة، فقيل له: منعها خالد بن الوليد وفلان وفلان، فقال: «أما خالد فالناس يظلمونه لأنه احتبس أدراعه وأعدها فى سبيل اللّه، وأما فلان فلم ينقم منا إلا إن

(١) انظر الجامع الكبير (٥٧٦/٢).

كان فقيرًا فأغناه اللّه ورسوله، وأما فلان فإنها عليه ومثلها معها»[١] وروى: «فإنها عليه صدقة ومثلها معها» وفى رواية البخارى: «أن عليه صدقة واجبة تؤخذ منه» وليس معناه أنه يعطاها ويعطى مثلها معها، لأن المذكور من أهل البيت لا تحل له الصدقة، وذهب أبو عبيد فى معنى هذا الحديث إلى أن رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم إنما ألزمه إياها ومثلها معها؛ لأنه كان قد أخر عنه صدقة العام الماضى ومثله جائز للإمام إذا علم حاجته وفقره، ولكن ظاهر الحديث يخالفه لأنه فى معرض العقوبة والجزاء، فلو كان كذلك لمن يكن فيه ردع له انتهى. وفى رواية البخارى احتمال أنها كانت قبل تحريم الصدقة على أهل البيت كما فى بعض شروح مسلم.

واعلم أنه، أى التجانى، لم ينقل الحديث على وجهه، فإنه هكذا فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه أنه قال: بعث رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم عمر رضى اللّه تعالى عنه على الصدقة، فقيل: منع ابن جميل وخالد بن الوليد والعباس، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «ما ينقم ابن جميل إلا إن كان فقيرًا فأغناه اللّه تعالى، وأما خالد فإنكم تظلمونه وقد احتبس أدراعه فى سبيل اللّه، وأما العباس فهو علىَّ ومثلها، أما تعرف أن عم الرجل صنو أبيه»[٢]. وفى رواية البخارى: «فهى عليه صدقة ومثلها معها». وفى رواية: لم يقل صدقة ففيه ثلاث روايات، ومعنى الأولى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، التزم بإخراج ذلك عنه وبين سببه بقوله: «عم الرجل» إلخ تشريفًا له، ويحتمل أنه صلى الله تعالى عليه وسلم تحملها عنه لتعلق الزكاة. وجمع ابن الجوزى بين رواية علىَّ وعليه بأنهما بمعنى، وزيد فى الثانية هاء السكت فى علىَّ. وقيل: معنى علىَّ أنها عندى لأنى أخذت منه صدقة عامين. وقد ورد مصرحًا به فى رواية أخرى بناء على جواز تعجيل الزكاة. وفى الحديث وجوه أخر فى شروح الصحيحين لا حاجة لنا بها هنا، ومن هذا علمت ما فى قوله، لكن ظاهر الحديث يخالفه؛ لأنه ورد فى معرض العقوبة إلى آخره، فإنه لا زجر فيه إلا لابن جميل لا للمقول فى حقه فهى عليه ومثلها كما سمعته آنفًا.

(ومن كتابه صلى الله تعالى عليه وسلم لوائل بن حجر) تقدم الكلام عليه **(إلى الأقيال العباهلة)** أى الملوك القار ملكهم، وقد تقدم تفسيره وبيان لغته وضبطه.

(والأرواع) بهمزة وراء مهملة وواو بعدها ألف وعين مهملة، وهم السادة الزهر

---

(١) أخرجه أحمد (٣٢٢/٢)، والبيهقى (١١١/٤).

(٢) أخرجه مسلم (٩٨٣/١١)، وأبو داود (١٦٢٣)، والنسائى (٣٣/٥)، وابن خزيمة (٢٣٣٠)، والدارقطنى (١٢٣/٢)، والبيهقى (١١١/٤).

الألوان الحسان الوجوه، وقيل: إنه جمع رائع وهـم الذين يروعون الناس أى يخوفونهم بمنظرهم لجمالهم وهيأتهم قاله ابن الأثير. قيل: والأول أولى وجمع فاعل على أفعال نادر جدًا.

أقول: ما قاله ابن الأثير هو الذى ارتضاه المبرد فى الكامل لما فيه من البلاغة، فإن الحسن الزائد إذا رآه من له إدراك أدهشه وحيره فيشبه الخائف الفزع، ومن وقف على كلام المبرد عرف حسنه، وقيل: إنما كان هذا غير موجه؛ لأن الهيئة التى كانت لهم هيئة تجبير وظلم أزالها الإسلام، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم إنما أراد مدحهم بالحلم والرأفة وليس بشىء.

(الشابيب) بفتح الميم والشين المعجمة بعدها ألف ثم موحدتين بينهما مثناة تحتية جمع مشبوب وهو الحسن الأزهر اللون، قال ذو الرمة[1]:

إذا الأروع المشبوب أضحى كأنه ... على الرحل مما مسه السير أحمق

والمراد: السيد الظاهر الأزهر الملون المنير، كأنه أوقد فى وجهه سراج منير، وهو يجمع مع الأرواع فى كلامهم كما فى البيت، فإن النار مما تروع ناظره، وروى: «الأشباء» بزنة الأخلاء جمع شبيب كخليل، وقيل: هم الرجال الذين وجوههم بيض وشعورهم سود، فهذا كما يقال للحسناء ذات الذوائب المسود شعرها يشب لونها أى يظهره ويحسنه، وقيل: المراد الأذكياء. **(وفيه)** أى فى كتابه صلى الله تعالى عليه وسلم لوائل.

(فى التيعة شاة) التيعة بكسر التاء الفوقية وسكون المثناة التحتية والعين المهملة الأربعون من الغنم، وقيل: الخمس من الإبل، وقيل: هى أدنى ما تجب فيه الصدقة من الغنم والإبل، وهو المقدار المذكور، وقيل: هى ما يأخذه الساعى من الزكاة وهو غير مناسب هنا، وهو من التبع وهو الفىء، وقد وقع التشبيه به فى حديث.

(الراجع فى هبتة كالراجع فى قيئه) ويقال: تاع قيئه وأتاع، ويقال: تاع بمعنى ذهب، قيل: وجه المناسبة سرعة المبادرة عليها كسرعة القىء، أو لذهاب الساعى إليها، والأحسن أن يقال: إنها فضلة ووسخ يستريح بدفعها لأن الصدقة أوساخ الناس، كما ورد فى الحديث، ولذا منع أهل البيت منها لشرفهم.

(لا مقورة الألياط) مقورة بميم مضمومة وقاف ساكنة وواو مفتوحة مخففة وراء

---

(١) البيت من الطويل، وهو فى ديوان ذى الرمة (ص٤٨٤)، لسان العرب (٤٨١/١)، ديوان الأدب (١١٦/٣)، تاج العروس (٩٨/٣).

مهملة مشددة من الأقوال، كمحمرة من الاحمرار، وهى المسترخية الجلد من الهزال فلا تؤخذ فى الصدقة لرداءتها، وقيل: هى المتشججة من الهزال أيضا. وقيل: هى السمينة فهى من الأضداد كما ذكره الصاغانى فى كتاب الأضداد، وهذه لا تؤخذ لأنها أعلى والمأمور بأخذه الوسط، وفى بعض النسخ مقورطة مفوعلة قال التلمسانى: قال ابن سيدى الحسن: ولا أعلم الآن معناه ولعله مصحف مقريطة، يقال: أقريط الجلد انضم بعضه لبعض مقريطة وهو بمعناه، والألياط بلام وياء مثناة تحتية وطاء مهملة جمع ليط بكسر اللام وهو قشر العود، فاستعير للجلد من لاطه يلوطه إذا ألصقه. وقيل: المقورة المقطوعة والمعنى بها الناقصة فالتفاسير متقاربة.

(ولا ضنناك) بفتح الضاد المعجمة وكسرها. قال التجانى: يجوز ضمها وخطئ فيه لأنه بمعنى الزكام ولا مناسبة له هنا، وفى ضبطه نظر لما فى العباب للصاغانى: الضناك بالفتح، قاله الفارابى. وقال غيره. هو بالكسر وهو الصواب، وهى الكثيرة اللحم السمينة فلا تؤخذ لجودتها.

(وأنطوا الثبجة) إنطاء بمعنى إعطاء لغة لأهل اليمن ولبنى سعد، وروى فى الدعاء: «لا مانع لما انطيت» وقرئ شاذًا: «أنا أنطيناك»، والثجة بالمثلثة والموحدة والجيم المفتوحات والهاء بمعنى الوسط والهاء للنقل من الإسمية للوصفية، وقال التجانى: إن الباء الموحدة مكسورة ومنه ثبج البحر لوسطه، وفى الحديث «خيار أمتى أولها وآخرها، وبين ذلك ثبج» والمقصود أنه لا يؤخذ فى الزكاة الأعلى لإضراره برب المال إلا أن يكون برضى منه، ولا الأدنى ولا المعيب إلا أن يكون الكل كذلك؛ لأن الجود بالوجود وتفصيله فى كتب الفقه. قال البرهان: وفى بعض النسخ بكسر الباء وتشديد الجيم وفيه نظر، وقال التلمسانى رحمه اللّه تعالى: وروى الشبجة بالشين والجيم من شبج سار بشدة وارد إعطاء القوى للضعيف فتأمله.

(وفى السيوب الخمس) السيوب بضم السين المهملة والمثناة التحتية وواو وباء موحدة جمع سيب، وهو الركاز بمهملة وكاف وزاى معجمة بزنة كتاب، بمعنى مركوز وهو المال المدفون الجاهلى، من ركز الرمح إذا غرزه فى الأرض وأقره، أو من الركز وهو الإخفاء، قال اللّه تعالى: ﴿تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:٩٨] أى صوتًا خفيًا، وسمى سيبا لأنه عطية من اللّه تعالى. وقيل: هو الذهب والفضة المعدنى من تسيب بمعنى تكون من غير صاحب له فكأنه مسيب، والخمس بضمتين وضم فسكون، ويقال له، خميس، ومنه اسم الجيش لكونه خمسة أقسام: ميمنة، وميسرة، ومقدمة، وساقة، وقلب، وقوله فى

الحديث: «المعدن جبار وفى الركاز الخمس»(١) يدل على أن الركاز غير المعدن، واتفقوا على وجوب الخمس فى الركاز إلا الحسن البصرى رحمه الله، فقال: إن وجد فى دار الحرب ففيه الخمس وفى غيره الزكاة، ولا فرق فيه بين النقدين وغيرهما، والقليل والكثير، ولا يشترط الحول كالزكاة. وعند الشافعى: إن كان وجده فى ملكه فهو له إن ادعاه وإلا فهو لقطة.

(ومن زنا مم بكر فاصقعوه مائة) قوله: «مم بكر»، وما يأتى من قوله: «مم ثيب»، أصله كما فى النهاية من بكر ومن ثيب فقلبت النون ميما؛ لأنها إذا سكنت قبل الباء تقلب ميما سواء كان من كلمة نحو عنبر، أو من كلمتين نحو من بكر، وتقدم أن لام التعريف تبدل ميما فى لغة حمير نحو: ليس من أم برام صيام فى أم سفر، فإما أن يكون ما نحن فيه الثانى فأصله من البكر، فحذفت نون من على حد قولهم فى بنى الحارث بلحارث فيكون بكر حينئذ غير منون، واستعمل البكر موضع الأبكار والأشبه أن يكون نكرة منونة وأبدلت نون من ميما انتهى. وقيل عليه: إن كون بمعنى أبكار لأجل من التبعيضية، فتقديره من زنى ببكر من الأبكار، ويجوز أن يكون لبيان الجنس فبكر على أصلها، وهو على هذا يحتمل أن يكون بمعنى الأبكار لما فى مِنْ من العموم، ثم إنه إذا قلب النون ميما على نهج الانقلاب التجويدى لا يتأتى فى قوله مم ثيب، فلذا قال فى مزيل الخفاء: إنه من باب الازدواج والمشاكلة، كما فى قولهم: ما قدم وحدث بضمهما مع أن حدث بالفتح، فإن قلنا: إنه إنما قيل مم بكر بقلب النون ميما؛ لأنها تعاقبها كثيرًا كما فى قولهم بنان وبنام ودان ودام كما قاله التجانى، لم يحتج لما ذكر، وقوله فاصقعوه بهمزة وصل ثم صاد مهملة ساكنة ثم قاف مفتوحة ثم عين مضمومة مهملة، أى فاضربوه، ويقال: اسقعوه، بالسين أيضًا من الصقع وهو الضرب، وأصله الضرب على الرأس، وقيل: هو الضرب ببطن الكف، وضبطه بعض الشراح فاصفعوه بالفاء بدل القاف كما نقله التلمسانى، يقال: صفعت فلانا أصفعه صفعًا إذا ضربت قفاه بجمع كفى، ورجل مصفعانى يفعل به ذلك، والعامة تقول لمن سرقت عمامته: إنه صفع، وهى استعارة عامية ركيكة، كما قال ابن نباتة رحمه الله:

أسفت لشاشى الذى قد مضى ... وفاز به سارق حاشه
ووالله ما بى مما جرى ... سوى قولهم صفعوا شاشه

وتطفل عليه الصفدى رحمه الله تعالى على عادته فقال:

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٢٨، ٢٥٤، ٢٧٤، ٢٨٥، ٣١٩، ٣٨٢، ٤٥٤، ٤٦٧، ٥٠١)، والحميدى (١٠٧٩)، والطبرانى فى الكبير (١٠/١٠٧)، والدارقطنى (٣/١٥٣، ١٥٤).

قد سرق الشاش بليل وما قدره اللّه فما يندفع
الحمد للّه الذى لم يكن شاشى على رأسى لما صفع

والمراد هنا حد الجلد، والمراد بالبكر غير المحصنات كما بين فى الحدود.

(واستوفضوه عاما) بهمزة وصل وسين مهملة ساكنة ومثناة فوقية وواو وفاء وضاد معجمة ثم واو ساكنة، وهاء الضمير بمعنى انفوه وغربوه من فوضت الإبل إذا تفرقت،والعام والسنة بمعنى هنا، وإن كان الإمام السهيلى فرق بينهما فى الروض الأنف باعتبار أصل الوضع، فإن السنة من دور الشمس إلى عودها لمحها لأنها من سنى بمعنى دار، ومنه السانية، والعام ما اشتمل على الفصول الأربعة بتمامها.

(ومن زنا مم ثيب) أى محصنة وتقدم ما فيه **(فضرجوه بالأضاميم)** ضرجوه بضاد معجمة مفتوحة وراء مهملة مكسورة مشددة وجيم مضمومة من التضريج وهو التدمية، أى ارجموه حتى يسيل دمه ويقتل. قال: إن بنى ضرجونى بالدم. والأضاميم بفتح الهمزة والضاد المعجمة وميمين أولاهما مكسورة بينهما ياء مثناة ساكنة الحجارة، واحدها إضمامة بكسر الهمزة أو أضموم بضمها كأقنوم، سميت بها لأنه يضم بعضها لبعض ويطلق على كل مجتمع من الناس وغيرهم، والمراد: الرجم الذى هو حد المحصن كما فصل فى كتب الفقه، واختلافهم فى كون التغريب من الحد أم لا مشهور فى الفروع شهرته تغنى عن ذكره.

(ولا توصيم فى الدين) توصيم تفعيل من الوصم بالصاد المهملة وهو العيب والعار، أى: لا كبر ولا عيب ولا عار ولا كسل فى إقامة حدود اللّه فلا تحابوا فيها، وهذا فى معنى قوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٢] ولذا حرم الفقهاء الشفاعة فى الحدود دون التعزير.

(ولا غمة فى فرائض اللّه) الغمة بضم الغين المعجمة وتشديد الميم، أى لا يخفى وتستر فرائضه تعالى؛ بل تظهر ويجهر بها إقامة وإظهارًا لشعائر الدين، وهذا يقتضى أن إظهار الفرائض أكمل، فينبغى إظهار أداء الزكاة دون إخفائها، فقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢٧١] محمول على صدقة التطوع، فإن الأفضل إخفاؤها، وقيل: إنه شامل للزكاة، وقد يستحب إخفاؤها إذا خاف الرياء ونحوه، وقيل: إنه يختلف باختلاف الأحوال والزمان، ولو قيل: إن المراد هنا أن الحرام بيّن والحلال بيّن لم يحتج للتقييد، ويؤيده أنه روى هذا لا عمه بفتح العين المهملة والميم المخففة والهاء أى لا حيرة ولا تردد فيها، وروى لا

غمد بكسر الغين المعجمة وسكون الميم والدال المهملة ومعناها لا ستر ولا خفاء كتغمدنا اللّه برحمته أى سترنا بها.

(وكل مسكر حرام) هذا حديث صحيح رواه مسلم وهو أنه قال: «كل مسكر خمر» وكل مسكر أى ما من شأنه الإسكار فهو حرام، أى ولو قطرة منه، والخلاف فى المثلث بشروطه معلوم، ويدخل فيه الحشيش على الأصح، وللزركشى رحمه اللّه تعالى فيه تأليف مستقل، وإنما ذكر هذا لأنهم سألوه وقالوا: يا رسول اللّه، إن شرابا يصنع بأرضنا يقال له المزر والبتع، وأهل تلك الديار لهم ولع به، فلذا بينه لهم والكلام على الحديث مفصل فى شرح مسلم.

(ووائل بن حجر) تقدم بيانه **(يترفل على الأقيال)** يترفل بالراء المهملة والفاء واللام والترفل أصله تطويل الرداء والثوب، ومثله يكون فخرًا وعظمة فاستعير، أو جعل كناية، وهذا أظهر لجعله رئيسًا عليهم محكمًا فيهم وفى أخذ صدقاتهم؛ لأن الترفل للتعظيم والرئيس والحاكم أعظم، فجعل هذا عبارة عن أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جعله واليًا على أمورهم وقبض صدقاتهم. قال التجانى: أى يتأمر ويترأس، وهذا كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى كتاب آخر له وقد وجهه إلى المهاجر بن أبى أمية: «من محمد رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم إلى المهاجر بن أبو أمية، أن وائلاً يستعير ويترفل على الأقيال حيث كانوا من حضرموت»، أى هو مستعمل على الصدقات وأمير على الأقيال، قال الشاعر(١):

إذا نحن رفلنا امرأ ساد قومه ... وإن لم يكن من قبل ذلك يذكر

وقد تقدم معنى الأقيال وأصله، ومن الترفل هذا الترفيل المذكور فى العروض، وقوله: ابن أبو أمية كذا صحت روايته بحكاية أول أحواله وأشرفها كما يقال على بن أبو طالب. قال التجانى: وقريش لا تغير الأب فى الكنية فتجعله بالواو فى أحواله الثلاثة، وحكاه أبو زيد عن الأصمعى فى نوادره فليس بلحن كما يتوهم، كما يقولون: يا زيد فهذه لغة خامسة لكنها لكونها مخصوصة بالكنية لم يذكروها.

(أين هذا من كتابه صلى الله تعالى عليه وسلم لأنس رضى اللّه تعالى عنه فى الصدقة المشهور) أين استفهام عن المكان، والمراد: أن بينهما بون وفرق، فإن ذاك جاء بلغة أهل اليمن وهذا بلغة قريش وتهامة المألوفة بينهم، ففيه إشارة إلى فصاحته صلى الله تعالى

---

(١) البيت من البسيط، وهو لأبى الصلت الثقفى فى تاج العروس (نعم)، وبلا نسبة فى لسان العرب (٥٨٤/١٢).

عليه وسلم ومعرفته باللغات، وخطاب كل أحد بلسانه ولغته، وهذا إشارة إلى الكتاب الذى دفعه أبو بكر رضى اللّه تعالى عنه لأنس، رضى اللّه تعالى عنه، حين أرسله فى خلافته إلى البحرين وأمره أن يعمل به، وهو من كلام رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم، وبعضهم وقفه على أبى بكر رضى الله تعالى عنه، وبعضهم رفعه إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال: إنه كان عند أبى بكر رضى اللّه تعالى عنه يعمل به وهو الذى سلمه لأنس رضى اللّه تعالى عنه، ولما دفعه إليه كان عليه خاتم رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا الكتاب ذكره البخارى فى صحيحه والنسائى وأبو داود والترمذى وغيرهم على اختلاف بينهم فى كثير من ألفاظه، والبخارى ذكره مفرقًا فى كتابه، و لم يخرجه مسلم، واختلف فى سبب تركه له مع صحته وشهرته، فقيل: للاختلاف فى كونه من كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أو من كلام أبى بكر رضى اللّه تعالى عنه.

وقيل: لاختلاف المحدثين فى الكتاب والعمل به، وإن كان الأصح أنه يعمل به ولا فرق بينه وبين غيره من الأحاديث وله طرق مختلفة، وأوله: «بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذه فريضة اللّه التى فرضها رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم، فمن سألها من المسلمين على وجهها فليعطها، ومن سئل فوقها فلا يعطه فيما دون خمس وعشرين من الإبل الغنم فى كل خمس ذود شاة، فإذا بلغت خمسًا وعشرين ففيها بنت مخاض»(١). وبقية الكتاب مذكور فيه أحكام الزكاة، وهو مذكور فى المطولات، ولكن ذكرنا هذا المقدار منه تبركًا؛ لأن الثمرة تدل على الشجرة، وفى مزيل الخفاء، قيل: لم يكتب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلى أنس وإنما أبو بكر رضى اللّه تعالى عنه هو الذى كتب إليه، وأجيب بأن الدارقطنى ذكر بإسناد صحيح رواية هذا الحديث عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وذكر أبو داود عن ابن عمر رضى اللّه عنهما أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كتب كتاب الصدقة و لم يخرجه فى حياته، فعمل به أبو بكر رضى الله تعالى عنه بعده، ثم عمر رضى اللّه تعالى عنه. وعلى هذا ففى كلام المصنف رحمه اللّه تعالى مقدر دل عليه خصوص الواقعة، أى فى كتابه الذى كتبت نسخته لأنس رضى الله تعالى عنه لما فى صحيح البخارى: أن أنسًا حدث أن أبا بكر رضى اللّه تعالى عنه كتب له هذا الكتاب لما وجهه إلى البحرين، ثم إن المصنف رحمه اللّه بين وجه التباين فقال:

(لما كان كلام هؤلاء) الإشارة إلى جميع من تقدم من الأنصار وقريش وأهل نجد وأهل الحجاز، والهمدانيين والنهديين، أو إلى الأخيرين لقربهم. **(على هذا الحد)** أى على هذه

(١) أخرجه الشافعى فى المسند (٨٨).

الصفة. قال الراغب: حد الشيء الوصف المحيط بمعناه المميز له عما عداه. **(وبلاغتهم على هذا النمط)** أى على هذه الطريقة.

(وأكثر استعمالهم هذه الألفاظ استعملها معهم) يعنى أن استعمال هذه الألفاظ مع من هى لغتهم لا تخل بالفصاحة؛ بل هو من أعلى طبقاتها وإن كان فيها ما هو غريب وحشى بالنسبة لغيرهم، فإن الجاحظ نص فى البيان على أن كلام أهل البادية الوحشى بالنسبة لهم فصيح، وإن كلام أهل المعانى قد يوهم خلافه، وأنه يخل بالفصاحة مطلقًا، وهذا مما غفلوا عنه، وله فى هذا فصل بديع منه: من أراغ معنى كريمًا فليلتمس له لفظًا كريمًا، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما، ولا تعود من أجله أن يكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما، فكن فى ثلاث منازل، أولها أن يكون لفظك رشقًا عذبًا وفخمًا سهلاً، ويكون معناه ظاهرًا مكشوفًا وقريبًا معروفًا، أما عند الخاصة إن كتبت للخاصة قصدت، وأما عند العامة بأن يكون للعامة أردت، والمعنى: ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة ولا يتضع بأن يكون من معانى العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال إلى آخر ما فصله.

(ليبين للناس ما نزل إليهم وليحدث الناس بما يعلمون) إشارة إلى أنه لما كان مبعوثًا لجميع الناس، كان يتكلم بكل لغة مع أهلها لأنه أبلغ فى الإبلاغ وأنفع.

(وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث عطية السعدى) منسوب لقبيلة بنى سعد ابن بكر، وفى العرب سعود غيرهم؛ سعد تميم، وسعد قيس، وسعد هذيل، وسعد بكر، هؤلاء وغيرهم، وعطية هذا هو ابن عروة السعدى، ويقال: عطية بن عامر، ويكنى أبا محمد، وروى عنه أهل اليمن والشام، وهو جد عروة بن محمد بن عطية، روى ابن عبد البر بسنده إلى عروة بن محمد بن عطية قال: حدثنى أبى أن أباه حدثه أنه قدم على رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم فى ناس من بنى سعد، قال: وأنا أصغرهم فخلفونى فى رحلهم، ثم أتوه صلى الله تعالى عليه وسلم فقضى حوائجهم، ثم قال: «هل بقى منكم أحد». قالوا: يا رسول اللّه، غلام منا خلفناه فى رحالنا، فأمرهم أن يبعثوا إليه، فأتوا إلىّ وقالوا: أجب رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم، فأتيته، فلما رآنى قال: «ما أغناك اللّه تعالى فلا تسأل الناس شيئًا»[1].

(فإن اليد العليا هى المنطية واليد السفلى هى المنطاة) تمامه: «ومال اللّه مسئول

---

(١) أخرجه البيهقى فى الكبرى (٤/١٩٨)، والحاكم (٤/٣٢٧)، وابن سعد (١/٢/٦١).

ومنطى» وروى: «يودك وينطى» وهذا حديث صحيح، رواه الحاكم وصححه من طريق عروة، وتمامه كما رواه الواقدى فى قصة وفود السعديين: عن ابن النعمان منهم، عن أبيه قال: قدمت على رسول اللّه وافد فى نفر من قومى وقد أوطأ رسول اللّه البلاد إلى أن قال: ثم انصرفنا إلى رحالنا، وقد كنا خلفنا عليها أصغرنا، فبعث رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم فى طلبنا، فأتى بنا إليه فتقدم صاحبنا فبايعه على الإسلام، فقلنا له: يا رسول اللّه إنه أصغرنا وخادمنا، فقال: «أصغر القوم خادمهم بارك اللّه عز وجل عليه» فكان والله خيرنا وأقرأنا للقرآن لدعاء رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم أمره رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم علينا، فكان يؤمنا، ولما أردنا الانصراف أمر بلالاً رضى اللّه تعالى عنه فأجازنا بأواقى فضة لكل رجل منا، فرجعنا إلى قومنا فرزقهم اللّه تعالى الإسلام. وهذا يشعر بأنه كان أمير القوم وأذكاهم، فلذا نصحه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بما ذكره المصنف رحمه اللّه تعالى.

(قال) أى عطية السعدى. **(فكلمنا رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم بلغتنا)** ورواه السيوطى رحمه الله فى تخريجه فكلمنى، ولا تخالفه رواية المصنف رحمه الله تعالى؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ألقى إليه الكلام، وتوجه إليه لما تفرس فيه الخير لمخايل نجابته والقوم يسمعون، فيصح أن يقال: كلمهم وكلمه، وقيل: أراد بقوله: «كلمنا» نفسه بنون العظمة إظهارًا لأنعام الله تعالى عليه بخطاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم له وبعثه إليه، وتأميره عليهم، والمقام يأباه، وقوله: «بلغتنا»، أى بلغة بنى سعد؛ لأنهم كانوا يقولون: انطى ينطى انطاء، بمعنى أعطى، ولا ينافيه ما قيل إنها لغة يمانية، لأنه يجوز كونها لغة لهم، وقال التلمسانى: قيل: لغة حمير انط بمعنى اسكت. وكتب رجل بين يدى رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم كتابًا فدخل أخر فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم: «انط» أى اسكت سترًا لسره.

واليد العليا اليد المعطية، والسفلى يد السائل الآخذه، وهى المعطاة، وقد جاء تفسيره بذلك فى حديث آخر، وهو أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال على المنبر وهو يذكر الصدقة والتعفف عن المسئلة: «اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا المنفقة والسفلى السائلة»[1]. وهو حديث صحيح رواه الشيخان. أو المنفقة بنون وفاء وقاف، ويروى المتعففة بعين وفائين أى التى لا تسأل أحدًا. وقيل: المنفقة بتشديد الفاء. وقيل:

(١) أخرجه البخارى (٢/١٣٩، ٧/٨١، ٨/١١٦)، ومسلم (٩٤/١٠٣٣)، وأبو داود (١٦٤٨)، والترمذى (٢٣٤٣)، والنسائى (٥/٦١، ٦٩)، وأحمد (٢/٤، ٦٧، ٩٨، ٣٦٢، ٣٩٤، ٤٧٥، ٥٠١، ٥٢٤)، وعبد الرزاق (٢٠٠٤١)، والبيهقى (٤/١٧٧، ١٨٠، ١٨٢، ١٩٠، ١٩٧).

يد اللّه تعالى فوق يد المعطى، ويد المعطى فوق يد المعطى بالفتح، فهى أسفل الأيدى، والأيدى ثلاثة. وقيل: اليد السفلى الآخذة بسؤال ودونه، وما قيل: إن هذا لا ينبغى؛ لأن الصدقة تقع أولا فى يد اللّه تعالى ليس بشىء؛ لأن هذا ليس على حقيقته، لأن المراد أنه يقبلها ويدخرها له. وقيل: اليد العليا المعطية والسائلة المانعة. وقيل: اليد العليا يد الفقير لتحصيلها الثواب لصاحب المال ودفع البلاغة، واختاره بعض مشايخ الصوفية فيده أفضل عند اللّه. قال ابن قتيبة: وما أرى هذا إلا كلام قوم استحبوا السؤال وحسنوه، وكل هذا مضمحل بعد التصريح بتفسيره فى الأحاديث الصحيحة، وإن قيل فيه إنه مدرج، والخلاف مبنى على أن المراد بالعلو المحسوس بنا على الغالب أو المعنوى من علو الشرف، كما قال الشاعر:

إذا كان باب الذل فى جانب الغنا   سموت إلى العلياء فى جانب الفقر

والتعبير عن المعطى بالمنفق وذى اليد العليا بناء على الغالب المتبادر، فلا يقال: يد السائل قد تكون فوق إذا أخذ من كفه، وإن المنفق قد لا يكون متصدقا، وأن الأخذ قد لا يكون سائلاً بأن يعطى ابتداء، والسائل قد لا يكون متصدقا عليه كسائل القرض وغيره، وهو ظاهر لا ينبغى التطويل بمثله، وتحصل فى الحديث ثلاثة أوجه:

أحدها: أن معناه يد المعطى ويد السائل بطريق الكناية.

الثانى: أن معناه المنفق والآخذ.

الثالث: عكس الأول، والأول أصح رواية ودراية.

وبقى وجه آخر وهو أن يراد بالعلو ومقابله العلو المعنوى لعلو رتبة المنعم وانحطاط رتبة الأخذ.

(وقوله) صلى الله تعالى عليه وسلم **(فى حديث العامرى حين سأله فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** العامرى، نسبة لعامر اسم قبيلة وتسمى بنى عامر، سموا باسم جدهم كتميم، وكانوا وفدوا على رسول اللّه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيهم عامر ابن الطفيل، وأربد وتواعدا أن يقتلاه صلى الله تعالى عليه وسلم غيلة، فهلكا فى الطريق لما رجعا من عنده صلى الله تعالى عليه وسلم وقد حماه اللّه وعصمه، أما أربد فأصابته صاعقة أهلكته، وأما عامر فأصابه طاعون مات فيه فى بيت أمرأة سلولية، وسلول قبيلة مذمومة مسترذلة عند العرب، فكان يقول: أغدة كغدة البعير وموت فى بيت امرأة سلولية، فجرت مثلاً لاجتماع أمرين حقيرين. وأربد أخو لبيد الشاعر، وقد هداه اللّه للإسلام بعد موت أخيه أربد وحسن إسلامه، ولم يقل شعرًا بعد إسلامه غير قوله:

الحمـد للـــه إذ لـم يأتنـى أجلـى حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

وهذا العامرى اسمه عطية، توفى فى حدود الثمانين، وفى العقد لابن عبد ربه أن اسمه لقيط بن عامر بن المنتفق، وساق له حديثا على وجه آخر.

(سل عنك) بفتح العين وسكون النون عن الجـارة وكـاف الخطـاب، وهـذا الحديـث رواه أبو نعيم فى الدلائل عن شداد بن أوس، ولم أر من صحح لغة بنى عامر هذه وبـين وجهها، ورأيت فى شرح ديوان الأعشى فى قوله[1]:

فاذهبـى مـا إليـك أدركنى الحـ لـم عدانـى هجاكـم أشفاقـى

أن العرب تقول: اذهب إليك وسرى عنك بزيـادة إليـك وعنـك انتـهى. والمصنـف رحمه الله تعالى ثقة واسع الاطلاع، لو لم يقف على أن هذه لغة لبنى عـامر لم يذكرهـا، ووجه البلاغة فيها أنها جعلت كناية عن سل عن كل شىء، فإن كل أحد أدرى بنفسه، فإذا أمره بسؤاله عنها فكأنه قال له: أنا أعلم بـك منـك، وإذا كـان كذلـك فـهو عليـم بجميع أحواله، وهذا يدل على المراد بطريق برهانى بليغ.

(أى سل عم شئت وهى لغة بنى عامر) عم وقع فى بعض النسخ، عمـا بـالألف وفـى بعضها عم بدون ألف، والأولى أولى؛ لأنها موصولـة كمـا لا يخفـى، وإن أردت تحقيـق هذا المقام فاعلم أن ابن قتيبة قال فى «أدب الكاتب»: إذا جرت مـا الاستفهامية بحـرف جر سقطت ألفها فرقا بينها وبين الموصولة إلا بم شئت، فإن العرب تقول: أدع بما شئت فى الموصولة والاستفهامية، فإن جرت باسم مضاف لم تحذف، وفى شرح النيلى: أما إذا كان الجار لها اسما متمكنا لم يفعلوا ذلـك، وقـول العـرب: مجئ م ومثـل م شـاذ، وإنمـا حذفت مع الحرف تخفيفا فرقا بين الاستفهام والخبر، وخص الاستفهام لأنـه اسـم تـام فصارت مع الحرف كاسم واحد، فحذف الألف لطول الاسم، وجـاء نـادرا: سـل عـم شئت فإن جره اسم متمكن لم يفعلوا ذلك، وجاء مع بعد وعلـى لعـدم تمكنـها فألحقـها بحروف الجر. وقول العرب: مجئ م جئت ومثل م أنت شاذ. انتهى. وهو تفصيـل نفيـس قل من حرره هذا التحرير، ومنه عرفت أن قوله: عم شئت صـادف محزه، وأنـه لا يـرد عليه شىء مما قالوه. وفى شرح التسهيل لأبى حيان أن الأخفش، قال فـى الأوسـط: إن أنا وقد ذكر أن كثيرا يقولون: سل عم شئت كأنهم حذفوا ألفها لكثرة استعمالهم إياها. انتهى. وحينئذ لا حاجة إلى ما قيل إن المصنف رحمه الله تعالى وقف على أنها لغـة لبنـى عامر فقد تجانس المفسر والمفسر، وما قيل من إنه لا وجه لهذه النسخة من قصـور النظـر وقصر باع الاطلاع.

---

(١) البيت من الخفيف، وهو فى لسان العرب (١٥/٤٣٥)؛ تهذيب اللغة (١٥/٤٢٧).

(وأما كلامه المعتاد) أى كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الذى اعتاده فى مجالسه مع قومه وأهل أرضه وغيرهم، **(وفصاحته المعلومة)** لكل أحد من كلامه. **(وجوامع كلمه)** كما ورد فى الحديث الصحيح: «أوتيت جوامع الكلم»(١) والجوامع جمع جامعة، أى كلمة جامعة لوجوه الفصاحة، والكلم اسم جنس جمعى لكلمة لا جمع ولا اسم جمع على الأصح، والمراد أن الله تعالى مَنَّ عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بإقداره على التكلم بكلمات بليغة جزلة حاوية لمعان نافعة من المواعظ ونحوها، وقيل: المراد بها القرآن، والأصح الأنسب بالمقام الأول، وقول الهروى: معنى جوامع كلمة القرآن جمع الله تعالى له فيه معانى كثيرة فى اللفظ يسيرة، وكلامه صلى الله تعالى عليه وسلم كان كذلك عرفت ما فيه. وقال ابن شهاب: بلغنى أن جوامع الكلم ما جمعه الله تعالى له من الكتب التى كانت قبله فى الأمر الواحد والأمرين ونحوه، والحاصل أنهم عدوا من فضائله صلى الله تعالى عليه وسلم وكمالاته، أنه كان يتكلم فى محاوراته بقليل الألفاظ المحتوية على المعانى التى لا حصر لها، ومنه ما ورد فى الحديث: «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يستحب الجوامع من الدعاء»(٢) وهو ما يجمع الأغراض الصالحة والمقاصد الصحيحة، وأما ما يجمع أنواع السؤال وآداب المسئلة، كما قلت فى قصيدة فى مدحه صلى الله تعالى عليه وسلم:

وجوامع الكلم التى فتحت له   سجدت لها البلغاء والأقلام

(وحكمه المأثورة) هو من الأثر، وهو ما يدل على الشىء من آثاره وعلاماته، ومنه أثرت العلم إذا رويته أثره أثرًا وإثارة وأثرة، إذا تتبعت أمره كما قاله الراغب، فالمأثورة المنقولة المروية، والحكم جمع حكمة وهى الكلمات النافعة فتشمل المواعظ فهى أعم من جوامع الكلم.

(فقد ألف الناس فيها الدواوين) الفاء جواب أما والضمير للحكم أو للمذكورات كلها، والمراد بها هنا الكتب المستقلة. والدواوين جمع ديوان بكسر الدال وفتحها فى لغة. وقال أبو عمرو: إنه خطأ ولو صح كان جمعه دياوين ولم يسمع كما قاله الجواليقى، وفى الأحكام السلطانية: الديوان موضوع لحفظ الأموال والأعمال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال، ووجه التسمية بذلك أن كسرى اطلع على كتبة ديوانه وهم يحسبون مع أنفسهم فقال ديوانه أى مجانين، ثم خفف بحذف الباء وقيل: إن الديوان بالفارسية اسم للشياطين جمع ديو بكسر الدال والألف والنون، علامة للجمع فى

(١) أخرجه مسلم (٥٢٣/٧)، وأحمد (٢/٢٥٠، ٣١٤، ٤٤٢، ٥٠١).
(٢) أخرجه أبو داود (١٤٨٢).

الفارسية كزاهد وزاهدان، فسموا به لحذقهم بالأمور ووقوفهم على الجلى والخفى، ثم سمى به مكانهم، وأول من وضع الديوان عمر رضى الله تعالى عنه وهو معرب كما قال الجواليقى، وأطلق على الدفتر ثم قيل: لكل كتاب، وقد يختص بالشعر لشاعر معين مجازا، وشاع حتى صار حقيقة فيه، فمعانيه خمسة: الكتبة، ومحلهم، والدفتر، وكل كتاب، ومجموع الشعر.

(**وجمعت فى ألفاظها ومعانيها الكتب**): المراد كتب الحديث المسندة وغيرها وشروحها، وجمعت مبنى للمفعول فلا وجه لما قيل إن الألفاظ قوالب المعانى، فمتى تجردت عنها كانت مهملة.

(**ومنها ما لا يوازى فصاحة**) يوازى مبنى للمجهول أى يماثل ويقابل ويساوى، من الموازاة وواوه مبدلة من الهمزة، يقال: آزى الشىء يوآزيه إذا حازاه، وفى شرح الكرمانى للبخارى آزيته ولا وازيته، يعنى لا يقال ذلك فى ماضيه، وأما المضارع فيجوز إبدالها فيه واوا لانضمام ما قبلها فتدبر.

(**ولا يبارى بلاغة**) أى لا يعارض فيؤتى بمثله وهو مجهول، بضم المثناة التحتية والموحدة وراء مهملة بين ألفين، وإنما لم يمكن معارضته لقربه من مرتبة الإعجاز، ففى تعبيره بالموازاة فى الفصاحة وبالمباراة فى البلاغة حسن لا يخفى وجهه، فلا يرد عليه أن الذى لا يعارض هو الكلام المعجز، والإعجاز يختص بالقرآن كما توهم، وفصاحة وبلاغة منصوبان على التمييز.

(**كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: « المسلمون تتكافئ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم»**) التكافؤ التماثل من الكفؤ بالهمزة وهو المثل، أى هم متساوون فى القصاص والدية فشريفهم ومشروفهم، وصغيرهم وكبيرهم، وفقيرهم وغنيهم، وأميرهم وسوقتهم سواء، وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، خلافا لما كان عليه الجاهلية من قتل الجمع الكثير بالواحدة، كما فى قصة كليب وغيرها، فجاء الشرع بإبطاله فلا يقتل الجمع بالواحد إلا إن تواطئوا عليه، وكان فعل كل واحد منهم يقتل لو انفرد، وبهذا الحديث استدل على أن المسلم لا يقتل بالكافر لا بناء على العمل بمفهوم المخالفة، بل لما ورد من التصريح به فى الأحاديث، كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا يقتل مسلم بكافر، ولا ذو عهد فى عهده»(١). والقائل بأنه

(١) أخرجه البخارى (٨٤/٤، ١٤/٩، ١٦)، وأبو داود (٤٠٠٦)، والترمذى (١٤١٢، ١٤١٣)، وابن ماجه (١٦٥٩، ٢٦٦٠)، وأحمد (٧٩/١، ١٧٨/٢)، وابن حبان (١٦٩٩)، والبيهقى (٣٠/٨، ١٩٤).

يقتل المسلم بالكافر الذمى قال: المراد بالكافر هنا الحربى، وفى وجه التخصيص كلام للفقهاء والأصوليين، وقد أفرد هذا الحديث بجزء مستقل، وهذا الحديث أخرجه أبو داود والنسائى عن على كرم الله وجهه وصححوه، وإلى عدم قصاص المسلم بالكافر ذهب أبو حنيفة خلافا للشافعى، وتساوى دمائهم: كناية عن التساوى فى القصاص والدية كما مر.

وقوله: «ويسعى بذمتهم أدناهم» المراد بالذمة العهد والأمان، فإنه إذا أمن أحد من المسلمين واحدا من الكفار، كان ذلك جاريا على جميع المسلمين لا يجوز نقضه لأحد منهم، وأدناهم أقلهم مقدارا فيشمل كل وضيع بالنص وكل شريف بالفحوى، فيدخل فيه الصبى والمرأة، واختلف فى أمان العبد، فقيل: يقبل، وقيل: إن كان مقاتلا جاز وإلا فلا، والصبى قيل: إن أمانه يقبل، وقيل: إن كان مراهقا قبل وإلا فلا، والمجنون لا يصح أمانه بلا خلاف، ومنهم من استثنى الأجراء والأسراء فى دار الحرب، ومعنى يسعى يباشر ويفعل.

وقوله: «وهم يد على من سواهم» فى النهاية معناه أنهم مجتمعون على أعدائهم يعاون بعضهم بعضا فلا يخذله، فجعل أيديهم كأنها يد واحدة فى الإنفاق، ولذا لم يقل أيدى، واليد يستعمل فى القهر والقوة والقدرة، أى هم مستولون قاهرون لغيرهم من أهل الملل، فهم فى الاتفاق باليد الواحدة فهو تشبيه بليغ أو استعارة، وفى هذا الحديث: «ويرد عليهم أقصاهم» وتفسيره مذكور فى كتب الحديث.

(**وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: الناس كأسنان المشط**) مناسبته لما قبله ظاهرة، والمشط: بضم الميم وكسرها وفتحها وشينه مثلثة أيضا، ويقال: ممشط كمنبر وهو آلة معروفة يسرح بها الشعر، وهذا مثل فى تساوى الأخلاق، فهو قريب من قوله: «تتكافى دماؤهم» وهو مثل كذا فى الشروح، وهذا الحديث أخرجه ابن لال عن سهل بن سعد فى مكارم الأخلاق، واعترض على هذا التفسير وجعله نظيرا لما قبله بأن تفاوت الناس فى الأخلاق مقرر، فالظاهر أن المراد تساويهم فى الأحكام الشرعية، والمراد بالناس المسلمون؛ لأن غيرهم لا يساويهم فى ذلك، أو الجمع باعتبار أغلب الأحكام، أو المراد تساويهم فى الأنساب فإنهم كلهم أولاد آدم، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣] إلى آخره، فالمراد نفى ما كان عليه الجاهلية من التفاخر بالنسب، فلا شرف إلا بالعلم والتقوى، كما ورد فى الحديث: «يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، لا فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى». وفى معناه ما نسب لعلى كرم الله وجهه:

الناس فى عالم التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

والشعر بتمامه مشهور، وليس المراد أن النسب لا يعتبر مطلقا.

(والمرء مع من أحب) رواه الشيخان عن أنس رضى الله عنه وغيرهما، وهو حديث صحيح مروى من طريق، منها: ما أسند إلى ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: يا رسول الله، كيف تقول فى رجل أحب قوما و لم يلحق بهم؟ فقال: «المرء مع من أحب فمن أحب الأبرار فهو مع الأبرار، ومن أحب الفجار فهو مع الفجار»(١). وفى الحديث: «لا يحب الرجل قوما إلا حشر معهم»(٢) وفيه: «يحشر المرء مع خليله فلينظر المرء مع من يخالل»(٣) وروى: «من يخال» بالتشديد، ومصداقه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] وأمثاله كثيرة لا تحصى، والمرء بمعنى الرجل، والمراد به هنا مطلق الإنسان الشامل للمرء والمرأة بطريق التغليب، ويحتمل التخصيص؛ لأن المرأة تحشر مع زوجها ولو أحبت غيره لله تعالى، والمراد المعية فى الحشر ومنازل الآخرة فيرتقى لمنزلتهم بسبب خلوص المحبة. قال الغزالى رحمه الله تعالى: وهذا لمناسبة روحانية باطنية خفية، وأسباب لا يطلع عليها، كما ورد فى الحديث: لو أن مؤمنا دخل مجلسا فيه مائة منافق ومؤمن واحد، فجاء حتى يجلس إليه فالمعية لدنو وقرب دينى لا فى مجرد الإكرام وضده فضلا من الله تعالى لا يعلمه إلا الله؛ ولذا قال فى آخر الآية السابقة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٧٠] وإن لم يعمل عمل من أحبه، ولو كانت المعية فى مطلق الإكرام ناله كل مؤمن صالح وإن لم يحب.

فإن قلت: من أخلص محبة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كيف يكون معه وقد خصه الله تعالى بدرجة رفيعة لا يصل إليها أحد،وهذا هو الداعى، فمن جعل المعية فى مجرد الإكرام بقطع النظر عن خصوص المرتبة ؟.

قلت: هذا ارتضاه بعضهم وقد عرفت ما فيه، وقد ارتضى غيره خلافه وقال: يدل عليه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(أنا وكافل اليتيم كهاتين)** ولا يلزم مساواته من

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٤٠/١٦٥)، وأبو داود (٥١٢٧)، والترمذى (٢٣٨٦)، وأحمد (٣٩٢/١، ١٠٤/٣، ١١٠، ٢٠٠، ٢٢٨)، والحميدى (٨٨١).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٥/٦)، والحاكم (٣٨٤/٤).

(٣) أخرجه أحمد (٣٠٣/٢، ٣٣٤)، والترمذى (٢٣٧٨)، وأحمد (٣٠٣/٢).

كل الوجوه، وقد أطال فى الشرح الجديد هنا بما لا محصل له على عادته، ويجوز أن يراد بكونه معه كونه فى الجنة، ولابن حجر رحمه اللّه:

وقائل هل عمل صالح أعددته ينفع عند الكرب
فقلت حسبى خدمة المصطفى وحبه فالمرء مع من أحب

وقلت أنا:

وحق المصطفى لى فيه حب إذا مرض الرجاء يكون طبا
ولا أرضى سوى الفردوس مأوى إذا كان الفتى مع من أحبا

(ولا خير فى صحبة من لا يرى لك ما ترى له) هو حديث رواه ابن عدى فى «الكامل» بسند ضعيف كما قاله السيوطى فى تخريجه، وأوله كما قال التلمسانى: «المرء على دين خليله، ولا خير فى صحبة من لا يرى لك من الخير مثل ما ترى له»(١). وروى: «من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه». قال: وروى يرى بالياء والتاء للبناء للفاعل والمفعول، والصحبة بضم الصاد وسكون الحاء المهملتين والموحدة مصدر كالرفقة، أى يكون عنده من الرغبة والمودة والنفع مثل ما عندك له، كما قال ابن الأحنف:

إذا كان لا يدنيك إلا شفاعة فلا خير فى ود يكون بشافع

(والناس معادن) رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه وتمامه: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف». والمعادن جمع معدن بكسر الدال وفتحها خطأ منبت الذهب والفضة، ونحوه من عدن بمعنى أقام لإقامة أهله فيه أو لإنباته فيه، ويطلق على مكان كل شىء فيه أصله، وعلى كل أصل، وعلى بيوت العرب، ويعنى صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك أن بنى آدم يختلفون باختلاف أصلهم، فمن كان أصله شريفًا أعقب مثله وسرى طيب عرقه لفرعه، ومن كان دون ذلك كان عقبه مثله، ومن كان خبيثًا كان فرعه خبيثًا، ألا ترى أن الشجرة الكريمة تنبت فرعًا طيبًا وثمرة جنية وضدها كذلك، فعروق الحنظل لا تنبت إلا حنظلا ولو سقيت شهدا، ومنبت الذهب لا يتكون فيه الحديد والنحاس، لكن خيارهم حسبًا لا يصير خيارًا فى الإسلام إلا بالتقوى والعفة والعلم، فإذا كان كذلك طاب أصلاً وفرعًا، وإلا فلا ينفعه حسبه كأبى جهل لعنه اللّه وأضرابه.

(١) أخرجه ابن عدى فى الكامل (١٠٩٧/٣).

وهاهنا نكتة: وهي أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «كمعادن الذهب والفضة» ولم يذكر معادن غيرهما من الأمور الخسيسة كالحديد والملح، إشارة إلى خلقة الإنسان وجبلته خلقت على الكرم والشرف، كما قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وكقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(كل مولود يولد على الفطرة)**.

وقوله: «فقهوا» بضم القاف من الفقه وبكسرها بمعنى الفهم، ويجوز في الأول الكسر أيضا. والفقه حذق الرجل بما يعلمه وعلمه وفهمه، ثم خص بعلم الشريعة مطلقا، ولذا قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: هو معرفة النفس ما لها وما عليها، وسمى كتابه في العقائد «الفقه الأكبر»، ونقل لعلم الفروع وتعريفه والكلام عليه مفصل في كتب أصول الفقه.

وقوله: «الأرواح جنود مجندة» يعني أنها خلقت قبل الأجساد أقساما مجتمعة، فمن وافقت روحه الروح التي هي من قسمه ألفتها، كما قال أبو نواس:

إن النفوس لأرواح مجندة لله في الأرض بالأهواء تأتلف
فما تعارف منها فهو مؤتلف و ما تناكر منها فهو مختلف

(و) من جوامع الكلم قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(ما هلك امرؤ عرف قدره)** قال السيوطي: قال السمعاني رحمه الله تعالى: إنه حديث روى مسندا عن علي كرم الله وجهه، وفي سنده من لا يعرف حاله. وقال التجاني: لا أعرف له سندا صحيحا إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنما هو من كلام أكثم بن صيفي في وصيته، فإن ثبت عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فعله تمثل به. وأكثم هذا بالمثلثة من بلغاء العرب وعده بعضهم في الصحابة، والأكثم على خلافه، وفي كتاب «جوامع الكلم، وبدائع الحكم» هو من كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم، وذكره مسندا يعني أن من عرف مقدار نفسه ونزلها منزلتها نجا في الدنيا والآخرة من الهلاك، ومن تعدى طوره فتكبر ورفع نفسه فوق حده هلك وهو ظاهر.

(والمستشار مؤتمن وهو بالخيار مالم يتكلم) المستشار اسم مفعول من المشاورة وسينه للطلب أي طلب رأى من يشاوره، وسيأتي أن المشورة بفتح الميم وسكون الشين، وأن الأفصح فتحها وضم الشين وكلاهما جائز بمعنى الشورى من شار العسل إذا اجتباه؛ لأنه بأراءه الصواب كأنه أطعمه شهدا، أو من شار الدابة إذا عرضها، ومنه المشوار لمكان تعرض فيه الدواب، والعامة تطلقه على جريها من إطلاق اسم الحال على المحل، فاختر لنفسك ما يحلو، فسميت بها لعرض أمره على من استشاره، وإنما كان المستشار

مؤتمنا؛ لأنه أودعه سره وما خفى من أمره وجعله أمانة عنده، فعليه أن يحفظه ولا يظهره، وأن ينصحه فيما استشاره فيه وقد أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالمشاورة، وناهيك بعلو مقامه ومعرفته بعواقب الأمور، حتى قيل إنها كانت عليه فى الحروب تشريعا لأمته وتطييبا لقلوب أصحابه، كما قيل:

شاور صديقك فى الخفى المشكل واقبل نصيحة ناصح متفضل
فالله قد أوصى بذاك نبيه فى قوله شاورهم وتوكل

وقوله: «وهو بالخيار» الخ معناه أنه مخير إن شاء أشار عليه بما شاوره فيه، وإن شاء سكت و لم يتكلم، فإذا تكلم لزمه بيان رأيه ونصحه وذكر الصواب عنده.

وهذا الحديث أخرجه أحمد عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ولفظه: «المستشار مؤتمن وهو بالخيار إن شاء تكلم وإن شاء سكت، فإن تكلم فليجتهد رأيه»(١). أى فليجتهد فى رأيه ويفكر فى الصواب فيه. وأخرج صدره فقط الأربعة من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، والحاكم من حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما.

(و) من جوامع الكلم النبوية قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(رحم الله عبدا قال خيرا فغنم، أو سكت فسلم)** هذا الحديث أخرجه أبو الشيخ عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه، والديلمى عن أنس رضى الله تعالى عنه، لكنه رواه: «رحم الله امرأ بدل عبدا» والعسكرى أيضا رواه مرفوعا عن أنس أيضا، وله شواهد وروايات تقويه وتصححه، فرواه البيهقى فى الشعب، والخرائطى فى الأخلاق. أما كونه إذا قال خيرا كالذكر والعلم والعظة، فإنه يغنم الأجر والذكر الجميل، وربما يحصل الغنم فى الدنيا. وقوله «أو سكت» أى خلاف الخير فيسلم من وباله وما يندم عليه كما لا يخفى.

(و) قوله: **(أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين)** من حديث رواه الشيخان فى كتابه الذى كتبه صلى الله تعالى عليه وسلم لهرقل ملك الروم، وروى: «أسلم تسلم» «وأسلم يؤتك الله» إلى آخره، وهو ظاهر، وعلى الأول فالثانى بدل مما قبله، أو جواب بعد جواب، أو مجزوم بجازم مقدر، وفيه من البديع التجنيس والانسجام والإيجاز، ومعناه تسلم من عذاب الدارين ومن ذل الجزية، ويؤتك الله أجرين أجرا باتباعك عيسى عليه الصلاة والسلام وإيمانك به، وأجرا أعظم منه بالإسلام واتباع خير النبيين عليه أفضل

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٤/٥)، وأبو داود (٥١٢٨)، والترمذى (٢٨٢٢)، وابن ماجه (٣٧٤٥، ٣٧٤٦)، والدارمى (٢١٩/٢)، وابن حبان (١٩٩١)، والحاكم (١٣١/٤)، والبيهقى (١١٢/١٠).

الصلاة والسلام، ومرتين منصوب على الظرفية. وهذا كما ورد في حديث آخر: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين»[١]؛ فذكر منهم رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فآمن به إلى آخره بخلاف المشركين، وكتابه صلى الله تعالى عليه وسلم لهرقل كان في سنة ست حين ماد قريشا، وقيل: في سنة خمس، وصورته: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين» إلى آخره، وهو مذكور في الصحيحين مشروح في شروحهما. والدعاية بكسر الدال مصدر بمعنى الدعوة. وكتب إلى المقوقس فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد ابن عبد الله ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى المقوقس. وقال فيهما: عظيم الروم وعظيم القبط ولم يقل ملك الروم ولا ملك القبط، لأنه لا يستحق ذلك العنوان إلا من كان مسلما وقع ذلك فلم يخل بتعظيمهما تليينا لقلوبهما في أول الدعوة إلى الحق. وهرقل بكسر الهاء وفتح الراء المهملة وسكون القاف كما قال جرير[٢]:

وأرض هرقل قد قهرت وداهرا ويسعى لكم من آل كسرى النواصف

وقيل: إنه بسكون الراء وكسر القاف، ولعلها لغة فيه لتلاعبهم بالأعجمي وهو علم ممنوع من الصرف، ولقبه قيصر، ويلقب به كل من ملك الروم كما مر، ولم يقل: ويؤتك بالعطف لتكرار أسلم لفظا أو تقديرا في حقه صلى الله تعالى عليه وسلم على الإسلام، ومناسبة لكون أجره مرتين وليكون له أجرين أيضا، أو الأمر الأول للدخول في الإسلام، والثاني للدوام عليه، ووصل له الكتاب مع دحية رضي الله عنه وهو بحمص في المحرم سنة سبع، فلما قرأه كتب إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: إني مسلم ولكني مغلوب. فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «كذب عدو الله، إنه على نصرانيته» وقيل: إنه آمن. قال ابن عبد البر: كيف هذا وقد قاتل الصحابة رضي الله تعالى عنهم بتبوك؟ وواعد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يأتيه في العام المقبل فنزل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إلى تبوك فلم يجيء، ثم أخذت البلاد منه فمكث بالقسطنطينية إلى أن هلك على نصرانيته سنة عشرين، ولذا لم يلقبه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بالملك، مع أنه اعترف بأنه مغلوب، والمتغلب المغلوب معزول عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، ففي هذا إخبار بالغيب.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) البيت من الطويل، وهو في ديوان جرير (ص٦٨٦)، لسان العرب (٤/٢٩٥)، تهذيل اللغة (٦/١٩٥)، تاج العروس (١١/٣٥١).

فإن قلت: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص:٥٤] نزلت فى أهل الكتابين التوراة والإنجيل وهو فى النصارى صحيح، وأما فى اليهود فلا إذ لا يؤجرون على دينهم بعد نسخه بشريعة عيسى صلى الله تعالى عليه وسلم؟ **قلت:** قد ثبت أنها نزلت فى عبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه وأضرابه ممن أسلم من اليهود واستمر قبل ذلك على دين اليهود، ولم يتبع عيسى عليه الصلاة والسلام، فقيل: إنهم لإيمانهم بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ودينه يؤجرون عليه، وإن كان دينهم منسوخا.

وأما القول بأنهم لم تبلغهم دعوة عيسى عليه الصلاة والسلام فبعيد، ولأنهم مأولين بأنه مبعوث لبنى إسرائيل خاصة وهم من العرب، لاسيما وهم ينكرون النسخ. وأما القول بأنها نزلت فى كعب الأحبار فغير صحيح؛ لأنه ليس له صحبة ولم يسلم فى زمن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، إلا أن يؤل بأنها نزلت فى أمثاله ممن آمن من أهل الكتاب وهو بعيد، وقال الكرمانى رحمه الله تعالى: إن هذا مخصوص بمن آمن به صلى الله تعالى عليه وسلم فى عصره، لأن من بعده ينسخ دينه وبلغته دعوة الإسلام، وصحح غيره أنه عام لكل من أسلم من أهل الكتاب لما مر، وبه أفتى الإمام البلقينى فلا إشكال.

(وإن أحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون): هذا أيضا من جوامع كلمه صلى الله تعالى عليه وسلم وبدائع حكمه، وهذا الحديث رواه الترمذى، عن ابن مسعود، وجابر رضى الله تعالى عنهما، ورواه الطبرانى وزاد فيه: «وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون المتشدقون» وزاد غيره: «المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الملتمسون للبرآء العيب» واقتصر المصنف رحمه الله تعالى على بعضه، وفيه روايات مختلفة بالزيادة والنقص، وأحب أفعل تفضيل من المبنى للمجهول وفعله ثلاثى؛ لأنه يقال: حبه بمعنى أحبه فهو محبوب، وإن كان قليلا، وصوغه من المجهول مقصور على السماع فى الأصح، ومجالس جمع مجلس وهو محل الجلوس منصوب على أنه تميز، والتمييز يجوز إفراده وجمعه كما بينه النحاة، ونسبة القرب له كناية عن رضاه عنهم وشفاعته صلى الله تعالى عليه وسلم لهم فى الموقف. وأحاسن: جمع أفعل تفضيل وجمع لمطابقة ما هو له وهو المضاف إليه، واستدل النحويون بهذا الحديث على أن أفعل التفضيل إذا أضيف لمعرفة يجوز أن يطابق موصوفه، وأن لا يطابقه لإفراده أحب وأقرب، وجمع أحاسن بخلاف ما إذا أضيف لنكرة فإنه يلزمه الإفراد والتذكير، ولا حاجة إلى القول بأنه انسلخ عن معنى التفضيل وصار بمعنى حسن، وإن ورد كثيرا فى كلامهم كما قال ابن مالك رحمه الله تعالى، بناء على أن الأحبية وكثرة الثواب بحسن الخلق فى الجملة، والأخلاق

جمع خلق وقد تقدم بيانه. والموطئون: بضم الميم وفتح الواو والطاء المهملة المشددة وبعدها همزة مضمومة جمع موطأ اسم مفعول. وقال البرهان الحلبى: إنه فى الأصل الذى وقف عليه بفتح الطاء من غير تشديد، وهو من فيه لين ورفق وسهولة من التوطئة وهى التمهيد والتذليل، يقال: دابة وطئه أى لا تحرك راكبها وفراش وطئ لا يؤذى النائم عليه، وهو فى الأصل على طريق التمثيل والاستعارة، كأنه يمكن غيره من وطئه بأقدامه فأريد به ما مر، والأكناف: جمع كنف بزنة جمل وهو الناحية والجانب، أى من يلين جانبه لغيره، والمراد: من يلتجأ إليه ويعتمد عليه، والأول أنسب بما بعده من قوله: «الذين يألفون ويؤلفون»، أى: الذين يألفهم الناس ويألفونهم من الألفة بالضم وهى الاجتماع مع حسن المعاملة والعشرة، والثرثار: الكثير الكلام فيما لا يعنى، مستعار من عين ثرثارة إذا كانت كثيرة الماء، وكذا المتفيهق وهو مفيعل من الفيهقة، من فهق الغدير يفهق بفتح الهاء فيهما إذا كثر ماؤه، والمتشدقون: الذين يتكلفون فى كلامهم بفتح أشداقهم كما قيل:

تشادق حتى مال بالقول شدقه وكل خطيب لا أبا لك أشدق

وورد فى هذا الحديث أن الصحابة رضى الله تعالى عنهم قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون». وهو غير مخالف لما تقدم، لأن المعجب بنفسه وكلامه تدعوه حاله إلى التكبر، وفى التقريب: الفهق الاتساع وكل شىء توسع فقد تفهق، وأنشد المبرد(١):

تفهق بالعراق أبو المثنى وعلم قومه أكل الخبيص

وفهق الغدير يفهق فهقا وفهق الرجل بالكلام امتلا. انتهى.

ثم عقبه بما يناسبه من جوامع الكلم فقال: **(وقوله)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه)** هذا حديث صحيح روى من طرق بعضها موافق لكلام المصنف رحمه الله تعالى، وفى بعضها مالا ينقص، وفى بعضها مالا يضره، وضميره راجع للرجل المذكور فى أول الحديث الذى رواه البيهقى عن أنس رضى الله تعالى عنه فى الشعب: أن رجلا من الصحابة استشهد بأحد فقالت له أمه: يا بنى ليهنئك الشهادة فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لها: «وما يدريك لعله». الخ وأخرج الترمذى من حديث حفص بن غياث عن الأعمش عن أنس رضى الله تعالى عنه

(١) البيت من الوافر، وهو للفرزدق فى ديوانه (١/٣٨٩)، لسان العرب (٣/٤٨٣)، تهذيب اللغة (٥/٤٠٤)، المخصص (١٣/١٧٩)، ديوان الأدب (٢/٤٥٧).

قال: توفى رجل من الصحابة فقالوا له: أبشر بالجنة، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «أو لا تدرون فلعله قد تكلم بما لا يعنيه أو بخل بمالا ينقصه» وأخرجه البيهقى من هذا الوجه أيضا وقال: هذا هو المحفوظ، قال خاتمة الحفاظ الجلال السيوطى رحمه الله تعالى: ومعناه أنه لا يهنئ ويبشر بالجنة إلا من لم يصدر عنه مثل هذا، فلعله يعاقب عليه. ويعنيه بفتح المثناة التحتية وسكون العين المهملة والنون بمعنى يهمه وينفعه من عناه يعنيه، ومنه الحديث: «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه»(١) وفيه نهى عن التكلم بما لا يلزم ولو مباحا لما فيه من تضييع الأوقات، ومن ترك الأهم كذكر الله تعالى عز وجل وتلاوة القرآن، وإذا نهى عن هذا فما بالك بالتكلم بكل قبيح كالغيبة والنميمة.

وقوله: «ويبخل بما لا يغنيه»: بضم المثناة التحتية وسكون الغين المعجمة وبين يعنيه ويغنيه تجنيس، والبخل ترك البذل ومنع العطاء اللازم كالزكاة والنفقة على من تلزمه نفقته، أو المستحسن مروءة كالتصدق على الفقراء وتفريج ضيق الإخوان وإطعام الطعام، وتخصيصه بالأول غير ظاهر، وكان الظاهر أن يقال بما لا يحتاج إليه كما فى الرواية الأخرى: «لا يضره ولا ينقصه» فعدل عنه لأنه أبلغ، فهو كناية عما ذكر، لأنه يعلم منه بالطريق الأولى، أو المراد مالا غناء له عنه. والبخَل: صفة ذميمة لا تعقب إلا الخسارة، كما ورد عنه صلى الله تعالى عليه وسلم: (بشر مال البخيل بحادث أو وارث). وقال الشاعر كما مر:

يغنى البخيل بجمع المال مدته ... وللحوادث والوراث ما يدع
كدودة القز ماتبنيه يهلكها ... وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

(وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها) هذا حديث رواه أبو داود عن عمار بلفظ: «ذو الوجهين وذا اللسانين فى النار» فيقال له ذو الوجهين وذو اللسانين، ويقال له ذو الأوجه كما قال:

وكم من فتى يعجب الناظرين ... له ألسن وله أوجه

وإذا كان ذو الوجهين كذا فذو الأوجه معلوم بطريق الأولى، وبين الوجه والوجيه جناس اشتقاق، كقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣] وفيه لطافة لما فيه من جعل كونه له حالين متخالفين وكلامين غير متوافقين عند رجلين على وجه الإفساد إذا كانا متحابين، أو على وجه الإضرار إذا كانا متعاديين، بمنزلة من له وجهان يأتى هذا بوجه وهذا بآخر، كما قالوا: خرج بوجه وأتى بوجه غيره، والوجيه الذى له

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠١/١)، والترمذى (٢٣١٨)، وعبد الرزاق (٢٠٦١٧).

قدر ومنزلة، والمراد بكونه لا منزلة له عند الله تعالى أنه لا يرضاه ولا يحبه لقباحة فعله، أما لو فعل ذلك لإصلاح ذات البين وإزالة ضغائن القلوب ونحو ذلك، فهو أمر حسن ليس داخلا فيما مر، وقال التجانى: ذو الوجهين هو الذى يأتى كل قوم بما يرضيهم خيرا كان أو شرا، فيظهر لأهل المنكر أنه راض عنهم فيستقبلهم ببشر منه وترحيب، ويظهر لأهل الحق أنه عنهم راض فيريد إرضاء كل فريق منهم، ويظهر أنه معهم وإن كان ليس كذلك باطنا. وروى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه، عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «إن من شر الناس ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»[١]. خرجه مسلم. وعن أنس رضى الله عنه، عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «من كان ذا لسانين فى الدنيا جعل الله له لسانين من نار يوم القيامة»[٢].

(**ونهيه عن قيل وقال**) هذا حديث صحيح رواه الشيخان عن مغيرة بن سهم، وفيه ثلاثة أوجه، فقيل: القيل والقال مصدران بمعنى القول. وقيل: فعلان أحدهما مبنى للمجهول. والثانى: غير مجهول وجوز فيه أن يحكى مبنيا على الفتح، وأن يعرب إعراب الأسماء وينون، ومنه تعلم أن نقل الجمل يجرى فى غير الإعلام كما صرح به المرزوقى، وذكر له نظائر هذا ما يتعلق بلفظه، وأما معناه فالنهى عن كثرة الكلام لما يؤل إليه من الخطأ، وكونهما بمعنى لا وجه له، فقيل: إنه إشارة إلى حكاية كلام الناس، فالأول حكاية عن غير معين. والثانى عن معين. وقيل: الأول عبارة عن السؤال والثانى عن الجواب. فالمعنى أنه نهى عن كثرة البحث والجدال فى الدين وغيره مما لا يلزم. وقيل: إنه نهى وزجر عن كثرة الكلام مبتديا ومجيبا.

(**وكثرة السؤال**) أى سؤال الناس ما بأيديهم استعطاء، وهو للقادر على الكسب من غير ضرورة حرام، وهو الذى ارتضاه علماؤنا. وقيل: مكروه، أو السؤال عن أخبار الناس وأحوالهم. قيل: وهذا يغنى عنه قوله عن قيل وقال، أو السؤال عن المشبهات والبحث عنها والتكلف فى تخريجها وتوجيهها، وقد ورد النهى عن ذلك، أو المراد نهيهم عن سؤال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن أمور لا يؤذن فى السؤال عنها، كما قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١] ويرد عليه أنه لو أريد هذا قال: وعن السؤال من غير ذكر الكثرة، وأجيب بأن كثرته بضمه لما أذن فى السؤال عنه، وهذا يتضمن النهى عن أحدهما؛ لأن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٢٦/٩٨)، والبيهقى (١٦٤/٨، ١٩٦/١٠).

(٢) أخرجه ابن حبان (١٩٧٩)، والبخارى فى الأدب المفرد (١٣١٠)، والبيهقى (٢٤٦/١٠)، وأبو نعيم فى الحلية (٢٨٢/٨).

النهى عن مجموع أمرين أحدهما هو المنفى عنه فى نفس الأمر نظرا إلى هيئتهما المجموعة يتضمن النهى عن خصوص ذلك المنهى عنه، ولا يخفى ما فيه من التكلف لادعاء أمر لا يدل عليه اللفظ.

(وإضاعة المال) بأى طريق كان سواء كان ماله أو مال غيره كالإنفاق فى الحرام، وإهمال ماله وعدم تنميته حتى يهلك، ودفع مال السفيه له، والإسراف فيما لا فائدة فيه، كل ذلك منهى عنه، وعد من إضاعته حبسه وعدم صرفه فيما يليق، كما قيل:

وما ضاع مال أورث المجد أهله . ولكن أموال البخيل تضيع

ومن هان عليه المال توجهت إليه الآمال، ومن بسط راحته آنس ساحته، وكما قلت:

وتكرم نفس المرء إن هان ماله وكل كريم النفس فهو كريم

وقيل: تصدق المحتاج والمديون حرام، وكذا تصدقه بجميع ماله. وقال السبكى رحمه الله تعالى فى فتاواه: الضابط فى إضاعة المال أن لا يكون لغرض دينى أو دنيوى، فإذا انتفيا كان إضاعة، ومحل حرمة ما مر إذا لم يصبر ويتوكل على الله حق التوكل، لقوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩].

(ومنع وهات) منع منون مجرور، وجوز فيه أن يكون فعلا ماضيا وهو بعيد، والمراد منع بذل ما يجب أو يستحسن أو مطلق الإمساك. وهات بكسر المثناة الفوقية أى طلب ما عند غيره وسؤاله، وهو فعل أمر أصله آت فقلبت همزته هاء وهو مذهب الخليل رحمه الله تعالى، وعليه أكثر النحاة.

(وعقوق الأمهات) العقوق مخالفة الوالدين وإيذاؤهم ضد البر من العق وهو القطع، والأمهات جمع أمهة وهى الأم، وأصل الأم أمهة لجمعه على أمهات وتصغيره على أميهة، وقد جاء أصله من المضاعف لقولهم أمات وأميمة، وقال بعضهم: أكثر ما يقال أمات فى البهائم ونحوها مما لا يعقل، وأمهات فى الإنسان، وخص الأمهات مع أن عقوق الوالدين من الكبائر؛ لأنهن أكثر حمقا وشفقة على الولد، ولذا لما سأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» ثلاثا. قال: ثم من؟ قال: «أبوك»[1]. وهو حديث صحيح. وأيضا لما لم يكن للنساء تلك الحرمة خصهن ليحثهم على برهن وينبه

(١) أخرجه البخارى (٢/٨)، ومسلم (١/٢٠٤٨)، وأبو داود (٥١٣٩)، والترمذى (١٨٩٧)، وابن ماجه (٣٦٥٨)، وأحمد (٢/٣٢٧)، والحاكم (٤/١٥٠)، والبيهقى (٤/١٧٩).

على ما يجب لهن، قيل: ومنه يؤخذ أنه إذا أعطى والديه شيئا يزيد عطية الأم على الأب وأكثر العقوق يكون لهن، وقال: حكمة الثلاث فى الحديث مشقة الحمل والوضع والرضاع. وذهب الجمهور إلى أنها تفضل على الأب فى البر، ونقل عن مالك وبعض الشافعية التسوية بينهما والأول أصح.

(ووأد البنات) الوأد: بفتح الواو وسكون الهمزة والدال المهملة، وأصله الصوت الشديد، وهو دفن البنات فى حياتهن، إما أنفة وغيرة من النكاح أو خوفا من الفقر، والمدفونة حية حالة الدفن تصيح غالبا. وما فى الشرح الجديد من أنها سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب فيؤدها أى يثقلها ومنه: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥] غلط فاحش لاختلاف مادتيهما، فإن مادة الأول وأد والثانى أود، واختلاف معنييهما كما بينه أهل اللغة، وادعاء القلب لا حاجة إليه وكان هذا فى الجاهلية، وأول من فعله قيس بن عاصم التميمى فتبعه العرب على ذلك، وكان بعضهم يقتل أولاده مطلقا، وكان مصعب بن ناجية جد الفرزدق منع الوأد فى الجاهلية، كما قال(١):

وجدى الذى منع الوائدات وأحيى الوئيد فلم يوأد

وخص البنات لأنه الغالب، وكانوا على فريقين، فمنهم من يحفر حفيرة تلد المرأة عندها، فإن وضعت ذكرا أبقته وإن وضعت أنثى ألقتها فى الحفيرة وردم عليها التراب، فإن لم يفعل ذلك وصارت سداسية، ذهب أبوها لبئر ورماها فيها بعدما طيبتها أمها وزينتها. وفى الجاهلية من نهى عن ذلك كزيد بن عمرو بن نفيل، فلما جاء الشرع أبطل ذلك، وقد جعلوا العزل وأدا خفيا وهو الموؤدة الصغرى، ووجهه ظاهر وهو حرام أو مكروه، وفيه تفصيل ذكره الفقهاء، ثم نهيه صلى الله تعالى عليه وسلم عن الثلاثة الأول من هذه الأمور الستة نهى كراهة وعن البقية نهى تحريم، لكن ليس بصيغة النهى بل يقتضى الحديث الآخر الصحيح، وهو أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات»(٢) إلى آخره وبقى كلام زائد على مقتضى المقام.

(وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم اتق الله حيث كنت) وفى نسخة الدلجى: «حيث ما كنت» وهذا الحديث رواه أحمد والترمذى والحاكم عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه، ولا فرق بين الروايتين معنى؛ لأن ما زائدة والتقوى حفظ النفس عن ارتكاب المعاصى ولها مراتب فصلها القاضى فى أول سورة البقرة، وحيث ظرف مكان يضاف للجمل،

---

(١) البيت من المتقارب، وهو للفرزدق فى ديوانه (١/١٧٣)، كتاب العين (٨/٩٧)، جمهرة اللغة (ص٢٣٣)، تهذيب اللغة (١٤/٢٤٣)، تاج العروس (٦/٥٩١).

(٢) أخرجه البخارى (٣/١٥٧، ٨/٤)، ومسلم (١٢/٥٩٣)، والبيهقى (٦/٦٣).

والمراد بها هنا التعميم أى فى أى مكان وأى حال، وقيل: إنها هنا ظرف زمان بناء على مجيئها للزمان؛ لأن التقوى فى جميع الأزمنة أعم منها فى جميع الأمكنة، وقيل: إن الرواية: «حيث ما كنت» وقال غيره: إنه روى بحذفها أيضا، والأمر لرواية أو لكل من يقف عليه ليعم كل مأمور، وباعتباره أفرد الضمير كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام:٢٧] ولنا فيه كلام ليس هذا محله.

(واتبع السيئة الحسنة تمحها) هذا وما قبله وما بعده حديث واحد، رواه الترمذى وقال: إنه حديث حسن صحيح، والمراد باتباعها إياها فعلها بعدها وجعلها تابعة لها، أى واقعة بعدها بحيث تقرب منها، وفى معنى الحديث قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، ومحوها وإذهابها بمعنى تكفيرها وعدم مؤاخذة الله بها فكأنها لم تكن، والمراد بالسيئة الصغيرة لقوله فى الحديث: «الصلاة إلى الصلاة كفارة لما عدا الكبائر». وقالت المرجئة: إنه شامل للكبائر والصغائر. وقال بعض المعتزلة: المراد أن الحسنة تكون سببا لترك الذنب ولا تكفر شيئا أصلا. ويحتمل أن المراد بالمحو حقيقته، والمعنى أنها تمحى من كتاب أعماله وتمحها مجزوم فى جواب الأمر، ولا بعد أن هذا مقيد بغير حقوق العباد، أما هى كالغيبة فإنه لا يمحوها إلا الاستحلال إذا بلغت من قيلت فيه بعد بيان جهة الظلامة إن أمكن، وإلا فقالوا: ينبغى أن يكثر من الاستغفار والدعاء له، ويكثر من فعل الحسنات لحديث: «إذا اغتاب أحدكم أخاه من خلفه فليستغفر له فإن ذلك كفارة»(١) ولهذا زيادة بيان وتفصيل فى كتاب المكفرات للسيد السمهودى رحمه الله تعالى.

وقوله: **(وخالق الناس بخلق حسن)** قد علمت أنه من تتمة ما قبله، وخالق: أمر من خالقه يخالقه بمعنى عاشرهم وخالطهم وعاملهم بما تحب أن يعاملوك به، فليس المقصود المفاعلة بل هو لأصل الفعل، أو هو على أصله بجعل المطلوب منهم بمنزلة الواقع، والخلق بضمتين وضم فسكون السجية والطبيعة التى طبعوا عليها، وفيه إشارة إلى أنه يمكن اكتسابه وإلا لم يكن للأمر به فائدة كما ورد: « يا معاذ حسن خلقك مع الناس»(٢) أى عاملهم بطلاقة وجبر الخواطر، وكف الأذى، فإن ذلك مؤدى لاجتماع القلوب وانتظام الأحوال، وهو جماع الخير وملاك الأمر، كما قلت:

---

(١) أخرجه ابن الجوزى فى الموضوعات (١٨/٣)، وابن عدى فى الكامل (١٠٩٨/٣)، وأورده الذهبى فى الميزان (٣٤٩٥)، وابن حجر فى اللسان (٣٣٢/٣)، والسيوطى فى اللآلى (١٦٢/٢).

(٢) أورده الزبيدى فى الإتحاف (٣٣٢/٧).

إن رمت أن تحظى بعز وهنا فاجتنب الناس وكن عنهم غنى
وإن تخالطهم فكن ذا عفة وخالق الناس بخلق حسن

(**وخير الأمور أوسطها**) لما كانت الملكات المحمودة لها طرفا إفراط وتفريط مذمومان، والمحمود ما بينهما وهو الوسط كالكرم بين التبذير والبخل، والشجاعة بين التهور والجبن، جعل الوسط منها مطلوبا على ما بين فى علم الأخلاق، وبه ورد التصريح فى الحديث الذى رواه العسكرى عن الأوزاعى بسنده، وهو: «ما من أمر أمر الله تعالى به إلا عارض الشيطان فيه بخصلتين أيهما فعل أصاب الغلو والتقصير»(١). وروى أبو يعلى بسند عن وهب بن منبه: أن لكل شىء طرفين ووسطا، فإذا أمسك بأحد الطرفين مال الآخر، وإذا أمسك بالوسط اعتدل الطرفان، فعليكم بالأوساط من الأشياء ويشهد له قوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾ [البقرة: ١٤٣] أى بين غلو النصارى وتفريط اليهود. قال الشاعر:

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

وقال الحريرى:

حب التناهى غلط خير الأمور الوسط

وقال:

خير الأمور عندنا الأوساط ويكره التفريط والإفراط

وليس الوسط عندنا بمعنى الخير والحسن مطلقا، بل فى أمور مخصوصة اقتضى توسطها خيريتها، ألا ترى إلى قولهم: «أخو الدون الوسط»، وقولهم: «أثقل من مغن وسط لا مطرب ولا مضحك»، كما فى الروض الأنف. وهذا الحديث أخرجه السمعانى فى ذيل تاريخ بغداد عن على كرم الله وجهه عنه صلى الله تعالى عليه وسلم، وابن جرير فى تفسيره عن مطرف بن عبد الله ويزيد بن مرة الجعفى، وكذا أخرجه البيهقى بلا سند، وذكره الديلمى بلا سند عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولفظه: «داوموا على أداء الفرائض فخير الأعمال أوسطها»(٢). ويناسبه قوله: «أحب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما وأبغض بغيضك هونا عسى أن يكون حبيبك يوما ما»(٣)، والهون بفتح الهاء وسكون الواو والنون

(١) أورده الزبيدى فى الإتحاف (٧/٣٣٦).
(٢) أورده ابن عراق فى تنزيه الشريعة (٢/٤١١).
(٣) أخرجه الترمذى (١٩٩٧)، وابن حبان فى المجروحين (١/١٣٥)، وابن عدى فى الكامل=

مصدر كالقول: من هان عليه الشيء إذا خف وسهل، ومنه الهون فى المشى وهو الرفق واللين، فأرشد صلى الله تعالى عليه وسلم المتحابين إلى الاقتصاد فى المحبة وعدم المبالغة فيها، وكذا المتباغضين اللذين بينهما عداوة لا ينبغى لهما المبالغة فى العداوة وإظهارها، فليكن ذلك على قدر متوسط فإن خير الأمور الوسط، فقد ينتقل الحب إلى البغض والبغض إلى الحب، فيقبح تفاوت حالك وتغير أقوالك وأفعالك، فالهون هنا بمعنى التوسط وعدم الإفراط، وقد فسره به أهل اللغة، قال فى النهاية: أى لا تسرف فى الحب والبغض فعسى أن يصير الحبيب بغيضا والبغيض حبيبا فيندم ويستحى. فدخل هذا الحديث تحت ما قبله. وقال ارسطاليس للأسكندر: لا تملأن قلبك بمحبة شىء ولا تستولين عليك بغضه، واجعلهما قصدا، فإن القلب كاسمه يتقلب. وقال بعض العرب:

وأحبب إذا أحببت حبا متفاوتا فإنك لا تدرى متى أنت نازع
وأبغض متى أبغضت غير مباين فإنك لا تدرى متى أنت راجع

وبين علته ابن الرومى بقوله:

احذر صديقك مرة واحذر عدوك ألف مرة
فلربما انقلب الصديـ ـق فكان أعرف بالمضرة

فإن قلت: كيف يدل على هذا التوسط وقد قالوا: إن ما تدل على القليل سواء قلنا إنها زائدة أوسط على ما فصله فى قوله تعالى: ﴿مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ [البقرة:٢٦] وهى هنا مشددة لقلب النون ميما وإدغامها فيها؟ **قلت**: لأن الوسط قليل بالنسبة للأعلى، وقيل: إنها تفيد تقليل التوسط والحب إذا كان على وجه التوسط فى القليل كان قليلا، ولكن غير خارج عن مراتب التوسط، بل عن مرتبة التوسط الوسطى، ومن الجائز أن يكون له مراتب متفاوتة قربا من الطرفين وبعدا منهما وعدم قرب وبعد منهما، وعند عدم القرب والبعد منهما يكون التوسط الكثير، ونعنى به التوسط التام كما بالتوسط القليل التوسط الناقص، والحق أنه لا تقليل فيها، وإنما المراد أى هون كان وما فى ذلك للتأكيد كما فى الآية، والتقليل لو سلم يفيده تنكير هونا. انتهى. وفيه نظر؛ وهذا الحديث كما قال السيوطى أخرجه البخارى فى الأدب، والترمذى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، وقال التجانى: الأكثر على أنه من كلام على كرم الله وجهه. ورواه الحسن بن أبى جعفر مسندا عن على رضى الله تعالى عنه يرفعه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بإسناد ضعيف. وقال الترمذى: الأصح أنه موقوف على على، وذكر

=(٥٩٣/٢)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٢٤٨/٢).

الترمذى أيضا أنه ورد عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه. قال: وأراه رفعه وهو غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه، وممن رفعه القضاعى فى الشهاب، ورواه الماوردى مرفوعا فى أدب الدين والدنيا، وكذا الغزالى فى الإحياء، ورواه فى مسند الفردوس.

(والظلم ظلمات يوم القيامة): الظلم وضع الشىء فى غير موضعه، وقد يكون بمعنى النقص. قال تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣] أى لم تنقص منه شيئا، وأرض مظلومة أى لم تمطر فكأنها نقصت عن غيرها، والمراد به تعدى الحدود سواء كان فى حق أو فى غيره وتعريفه يراد به العموم، وأفرد الظلم وجمع الظلمات إما لأنه جمع معنى لاستغراقه فيكون كمقابلة الجمع بالجمع، أو إشارة إلى أن الظلم الواحد تعقبه ظلمات متعددة لفظاعته.

وقال ابن الجوزى: إن من ظلم نفسه أو غيره نشأ ذلك عن قسوة قلب، ثم يعقب ذلك تعديد ومبارزة ربه بمخالفته، فلذا تعدد جزاؤه، وتلك الظلم إما حقيقة حسية كما أن المؤمن المطيع له نور يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد:١٢] الآية. ومنهم من حمل الظلمة على الأهوال والشدائد كما فسر به قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام:٦٣] أى شدائدهما، ولاحاجة إلى صرفه عن حقيقته مع إمكانها، وهذا الحديث صحيح أخرجه البخارى، وترجم له وأسنده إلى ابن عمر رضى الله تعالى عنهما، ورواه كما رواه المصنف: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[١] ورواه مسلم: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[٢]. وبذلك علم أن ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى من حذف إن رواية فيه، فلا يقال إنه أخل بلفظه أو وقع على رواية فيه غير مشهورة، وحمل على الظلم الظلمات وجعلها عينه لأنه سببها مبالغة.

(وقوله) أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم **(فى دعائه)**: أى فى بعض دعواته المأثورة، وقد جمع العلماء أدعيته فى كتب مستقلة من وقف عليها رأى فيها من هذا النمط أمورا عجيبة، وهذا الحديث رواه الترمذى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما

---

(١) أخرجه البخارى (١٦٩/٣)، والترمذى (٢٠٣٠)، وأحمد (١٣٧/٢)، والبيهقى (٩٣/٦، ١٣٤/١٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٨/٥٦)، وأحمد (٩٢/٢)، والحاكم (١١/١)، والبخارى فى الأدب المفرد (٣٨٣).

وقال: إنه غريب. قال: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول ليلة حين فرغ من صلاته: **(اللهم إنى أسالك رحمة من عندك)**، وفى رواية عن المصنف «رحمة» بدون قوله: «من عندك» والأولى هى المذكورة فى الترمذى، وعند إذا أضيف إلى الله لها معان، منها العلم كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم:٥٥] وتكون بمعنى الحكم نحو: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:٥] وبمعنى التفضيل والإنعام من غير مقابلة عمل، نحو: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧]، وبهذا فسره البرهان هنا، أى أطلب منك إحسانا بمجرد فضلك لا فى مقابلة عمل. وقيل: بل معناها قرب المنزلة أى أسالك رحمة تقربنى إليك. والهداية وغيرها بمحض فضل الله إذ لا يجب عليه شيء، فقوله: «من عندك» ليس معناه لا فى مقابلة طاعة لإشعاره، بل ما كان فى مقابلتها ليس بمحض الفضل، فذلك نسبة تشريف وتعظيم وتنويه وتكريم. انتهى. وليس بوارد لأن ما فى مقابلة العمل ليس بطريق الوجوب، بل بمقتضى وعده وحكمه السابق، وهو تفضل مخصوص منه أيضا. وقيل: معنى العندية عموم نفعها وجدواها بدون وسائط، وهو تكلف لا يساعده اللفظ والرحمة بمعنى الإنعام أو إرادته كما حقق فى محله.

(تهدى بها قلبى) أى تدله أو توصله إلى ما يقربنى من حضرة قدسك لأشاهد نفحات أنسك.

(وتجمع بها أمرى) أى تنتظم بها أمورى وشأنى حتى لا يكون لها تشتت.

(وتلم بها شعثى) أى تلم برحمة من عندك وتجمع ما تشعث وتفرق من أمرى، وهو كالتفسير لما قبله. قال الجوهرى: الشعث انتشار الأمر، يقال: لم الله تعالى شعثك أى جمع أمرك انتهى. وأصله انتشار الغبار فى الهواء.

(وتصلح بها غائبى) بالغين المعجمة والباء الموحدة فسروه بباطنى، أى ما خفى من أمورى عنى وعن غيرى. وقيل: المراد قلبى وصلاحه بصلاح صفاته من الإخلاص والصدق والتوكل والتوحيد.

(وترفع بها شاهدى) أى ظاهرى من الشهود وهو الحضور والمعاينة، وهو مقابل لقوله غائبى وبينهما صنعة الطباع، وقيل: أراد بهما الدنيا والآخرة. ورفعها: أى جعلها عالية رفيعة بالأعمال الصالحة والصفات الحسنة. وقيل: المراد بظاهره جسده ورفعته سلامته من الآفات وعصمته من البليات، وقد دل صلاح قلبه عليه بصلاحه صلاح غيره، لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن فى القلب مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله».

(وتزكى بها عملى) أى برحمة وتفضل منك تجعل عملى كله مباركا مقبولا سالما مما ينقصه كالرياء، أو هو من تزكية الشهود، أى تجعله ممدوحًا وهما متقاربان.

(وتلهمنى بها رشدى) الإلهام إيقاع الخير فى القلب، والرشد والرشاد السداد والاستقامة. والرشيد فى أسماء الله تعالى هو الذى يرشد عباده لمصالحهم ويدبره.

(وترد بها ألفتى) بضم الهمزة وكسرها وسكون اللام وفتح الفاء يليها تاء تأنيث وياء متكلم مصدر بمعنى المفعول، أى: ما كنت آلفه كالأليف ما تحبه وتريد اجتماعه، وردها عودها إلى ما كانت عليه. والمراد: عشيرته وأقرباؤه وأهل جلدته، فدعا الله أن يألفهم ويهديهم للإسلام، كما يقال: رد الله عليه ضالته أى جمع بينه وبينها. وقيل: المراد حاله التى كان عليها فى عالم الذر والأرواح من حب الله وتعظيمه وخلوصه من الكدورات الجسمانية وهو بعيد.

(وتعصمنى بها من كل سوء) أصل معنى العصمة المنع والحماية، أى يصوننى ويحفظنى مما يسوءنى، والباء فى المواضع كلها سببية. وزاد التجانى هنا: اللهم أعطنى إيمانا ويقينا ليس بعده كفر، ورحمه أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة.

(اللهم إنى أسألك الفوز فى القضاء) وروى فى العطاء. والفوز والنجاة والظفر فى القضاء والقدر بالفتح والسكون بمعنى فى اللغة، ومنهم من يفرق بينهما فيجعل القدر: تقدير الله الأمور قبل أن تقع. والقضاء: إنفاذ ذلك القدر وخروجه من العدم إلى حيز الوجود وهو الصحيح، لأنه قد جاء فى الحديث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مر بكهف مائل للسقوط فأسرع المشى حتى جاوزه. فقيل له: أتفر من قضاء الله؟ فقال: «أفر من قضائه إلى قدره» ففرق بين القضاء والقدر، وبين أن الإنسان يجب عليه أن يتوقى ما يضره قاله البطليوسى. فالمعنى أنه سأل الله النجاة من كل سوء قضاه على غيره أو عليه معلقا على أمر.

وقوله: **(ونزل الشهداء)** النزل بضم النون والزاى وتسكن، وهو مصدر جعل اسما لما يعد للضيف إذا نزل من القرى والكرامة، أراد ما لأرواحهم فى البرزخ ولهم فى الجنان من الإكرام والرزق والثواب، وقد فاز صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك لما منحه الله من الشهادة مع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

(وعيش السعداء) إما أن يريد بالعيش الحياة بأن يكون سعيدًا فى الدنيا معززًا مكرمًا موفقًا لما يرضاه، فائزًا بكل شىء يتمناه، أو فى الآخرة بأن يحييه حياة مخلدة منعمًا فيها بما يليق بجنابه، لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [هود:١٠٨]

الآية. والأحسن أن يريد مجموعهما. والعيش أصل معناه الحياة. والسعداء: جمع سعيد ضد الشقى وبعده فى الدعاء ومرافقة الأنبياء:

(والنصر على الأعداء) أى الانتصار عليهم وغلبتهم، والأعداء جمع عدو وضده الصديق، وتمامه: «اللهم أنزلت بك حاجتى يا قاضى الأمور، ويا شافى الصدور، كما تجير من البحور أن تجيرنى من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور، ومن فتنة القبور، اللهم وما قصر عنه رأيى وضعف عنه علمى و لم تبلغه نيتى أو أمنيتى من خير وعدته أحدا من عبادك، أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك، فإنى أرغب إليك فيه، وأسئلك يا رب العالمين اللهم اجعلنا هادين مهديين غير ضالين ولا مضلين، حربا لأعدائك وسلما لأوليائك، نحب بحبك الناس ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك، اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة، وهذا الجهد وعليك البلاغ، ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم ذا الحبل الشديد، والأمر الرشيد، أسئلك الفوز يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود، والركع السجود، الموفين بالعهود، فإنك رحيم ودود وأنت تفعل ما تريد، سبحان من تفرد بالعز، وقال به، سبحان الذى لبس المجد وتكرم به، سبحان الذى لا ينبغى التسبيح إلا له، سبحان ذى الفضل والنعم، سبحان ذى القدرة والكرم، سبحان ذى الجلال والإكرام، سبحان الذى أحصى كل شيء بعلمه، اللهم اجعل لى نورا فى قلبى، ونورا فى قبرى، ونورا فى سمعى، ونورا فى بصرى، ونورا فى شعرى، ونورا فى بشرى، ونورا فى لحمى، ونورا فى دمى، ونورا فى عظامى، ونورا فى يدى، ونورا من خلفى، ونورا عن يمينى، ونورا عن شمالى، ونورا من فوقى، ونورا من تحتى، اللهم اعط لى نورا واجعل لى نورا». انتهى.

وقوله اعط لى باللام لمشاكلة اجعل لى، فلا وجه لما قيل أعطنى؛ لأنه لا يتعدى باللام إن صحت الرواية، وفى رواية: «اللهم أعظم لى نورا وأعطنى نورا واجعل لى نورا»[(١)] وما وقع فى هذا الدعاء من السجع لا ينافى ما قيل من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يكرهه، لأن محله ما إذا كان عن تصنع وتكلف ملتزما، فأما ما جاء من غير تكلف فلا بأس به. وقد روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه كان يكره السجع إذا كان عن تعمد، لأنه من التكلف وهم براء منه، فمجيئه منه كتكلمه بالنظم منزه عنه، أما صدوره منه أحيانا وإن التزم كما هنا فغير مكروه كما ورد فى القرآن، ولذا قيل: إنه يصح إطلاق السجع عليه، ثم أشار إلى أن ما ذكره قطرة من بحر، فإن شئت الوقوف على غيره فأضف ما ذكر.

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/ ٤٢٠).

(إلى ما روته الكافة عن الكافة) فما رواه كثير من الناس لا يحصون فكافة، وإن كان بمعنى جميعا لأنه اسم فاعل أو مصدر كالعافية والفاتحة فى قول من كف إذا جمع أطرافه، أو من كف بمعنى منع لأنه كان يمنع من الزيادة عليه، أريد به الكثرة كما وردت كل كذلك كثيرا إذ لم يروه جميع الناس ولا جميع المحدثين، لكنه لما شاع وذاع فكأنه كذلك، ثم إن سيبويه قال: إن كافة يلزم التنكير والنصب على الحالية كعامة وقاطبة وطرأ ونحوه، وزاد غيره أنها لا تثنى ولا تجمع ولا تطلق على غير العقلاء، ولم يرد ذلك فى كلام الله تعالى ولا كلام العرب، ووهموا من استعملها على خلاف ذلك كابن نباتة فى خطبة، وصاحب الكشاف فى كشافه، وفى قوله فى خطبة المفصل: محيط بكافة الأبواب لإخراجه لها عن النصب والتنكير واستعمالها فيما لا يعقل. وأما قول الجوهرى: الكافة الجميع من الناس فلا وهم فيه، لأن النكرة إذا أريد لفظها يجوز أن تعرف فلا وهم فيه، كما توهم صاحب الدرة وتبعه بعض الشراح هنا، فإنه ليس مما نحن فيه.

أقول: هذا وإن اتفقوا عليه لا وجه له رواية ودراية، أما الأول: فلأن العرب إذا استعملت لفظا فى معنى وضعته له على وجه خصوص من الإعراب لم يلزم غيرهم اتباعهم فيه، ولو قلنا بذلك لأدى إلى التضييق على الناس فى استعمال الألفاظ العربية، وعد هذا ونحوه لحنا كما قاله الحريرى لا وجه له، وأما الثانى: فلأنه روى عن عمر رضى الله تعالى عنه استعماله فى كتاب لبنى كاكلة المروى عنه رواية ثابتة، وعن على كرم الله تعالى وجهه فى ذلك أيضا، حيث كتبه بعينه بين جمع من الصحابة، وناهيك بهم فصاحة، فإن أردت تفصيله فانظره فى شرحنا لدرة الغواص.

وقوله: **(من مقاماته ومحاضراته)** بيان لما فى ما روته، والمقامات: بفتح الميم جمع مقامة مفتوحتها، وهى اسم لمكان القيام وتوسعوا فيه فاستعملوها لمطلق المكان، كقوله:

وكالمسك ترب مقاماتهم وترب قبورهم أطيب

ثم كثر فيه فاستعملوه لمن قام فيه كما سموهم مجلسا فى قوله:

واستب بعدك يا كليب المجلس

وزادوا فى التوسع حتى سموا به الكلام الصادر فيه مقامه كمقامات البديع والحريرى، ومثله من التجوز كثير، ومنه تعلم أن المجاز على المجاز لا يقتصر على مرتبة واحدة كما يوهمه كلامهم، فالمراد به الكلام الصادر منه فى مجالسه وخطاب أمته صلى الله تعالى عليه وسلم فى حال حكمه وحروبه، ولا يخص بالخطب لكونه يخطب قائما لذكره لغيره، وإن كان المقام مقام خطابة يغتفر فيه الإسهاب، ولما أريد به هنا الكلام

وقع بيانا لما روته الكافة عن الكافة، والمحاضرات جمع محاضرة لا محضرة كما توهم، بضم الميم وحاء مهملة وضاد معجمة وراء مهملة أصل معناها، كما قاله الجوهرى: من حاضرته إذا جاثيته أى جالسته عند السلطان، وهو كالمبالغة والمكاثرة، وحاضرته حضارا عدوت معه. انتهى. يعنى أنها مفاعلة من الحضور عنده، أو من الحضر بالضم فمعناها مجاراة الجليس جليسه فى الكلام، بأن تتكلم بما عندك فيما يخطر على بالك، ويتكلم هو فى ذلك معك، فالمراد مصاحبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع أصحابه أحيانا، ومصاحبتهم له كالتحدث بأمور سلفت ونحوها مباسطة ولا ملاطفة. ومنه كتب المحاضرات الأدبية كمحاضرات الراغب.

(وخطبه) جمع خطبة بضم فسكون من خطب الخاطب خطابه بالفتح، وخطبة بالضم إذا تكلم بكلام فى أمر مهم، سواء كان قائما على منبر والكلام مسجع أم لا وهى معروفة.

(وأدعيته) جمع دعاء كوعاء وأوعية، وهى سؤال الله وتوجهه إليه فيما يهمه **(ومخاطباته)** أى توجيه الخطاب لغيره حسبما اتفق.

(وعهوده) أى كلامه إذا أخذ العهد والميثاق على غيره من المسلمين كما فى كتبه للملوك وغيرهم، وقيل: المراد وصاياه.

(مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يقاس بها غيره) أنه بتقدير فى أنه لإطراد حذف الجار، قيل: إن وأن كما ذكره النحاة والضمير للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أو لما، وذلك إشارة إلى البلاغة والفصاحة لسبقهما، أو للعلم بهما من سياق كلامه، ونزل منزلة ومرتبة أى محلا عاليا، ووصل إلى حد لا يصل إليه غيره، والمنزلة تستعمل فى الشرف والتاء للنقل، وفى بعض النسخ: «مرقبة» بالقاف أى محلا عاليا من شأنه أن يرقبه فيه ويطلع على أحوال غيره، وقوله: لا يقاس إلى آخره أى لا يساويه غيره، وضمير بها للمرتبة وضمير غيره للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، أو للكلام والقياس يتعدى بالباء وعلى يقال قاسه بغيره وعليه كما فى القاموس والأساس، وفى حواشى العضد للأبهرى: القياس تقدير شىء بأخر، وعدى بعلى لتضمنه معنى البناء، وهو مخالف لما فى القاموس مع أن تعدى البناء بعلى فيه كلام فى حواشى تهذيب المنطق، وأما تعديته بإلى فى قول المتنبى(١):

بمن أضرب الأمثال أم من أقيسه ... إليك وأهل الدهر دونك والدهر

---

(١) البيت من الطويل، وهو فى ديوان المتنبى (٢/٢٣٠)، تاج العروس (١٦/٤١٦).

فلتضمنه معنى الضم والجمع كما قاله الواحدى.

(وحاز فيها سبقا) حاز: بالحاء المهملة والزاى المعجمة بمعنى حوى واشتمل، وضمير فيها للمرتبة. والسبق: بفتح السين وسكون الباء الموحدة مصدر سبق، وأما السبق بفتحهما فما يجعل من المال للمراهنة فى المسابقة، أى ما توعد بإعطائه لمن سبق غيره وهو أولى هنا، فكأنه قال: لتحقق سبقه أخذ وفاز بما يعد للسابقين. وأما السبق فى قول صدر الشريعة حفظته سبقا وسبقا فالمورد المعين لحفظ الأطفال وهو مولد مأخوذ من هذا.

(لا يقدر) بضم المثناة التحتية وفتح الدال المهملة المخففة مبنى للمجهول. **(قدره)** بسكون الدال أى مقداره، أى سبق كثير لا يلحقه فيه أحد ولا يعرف حقيقته، كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١].

(وقد جمعت من كلماته صلى الله تعالى عليه وسلم التى لم يسبق إليها) ضبطه الدلجى وتبعه الشارح الجديد بالبناء للمفعول وسكون تاء التأنيث، والجار والمجرور نائب الفاعل ومن للتبعيض، أى جمع الرواة بعض كلماته لم يسبق إليها و لم يتكلم بها غيره صلى الله تعالى عليه وسلم، أو من زائدة وكلماته نائب الفاعل، إلا أن فيه زيادة من فى الإثبات ومدخولها معرفة، أو نائب الفاعل ضمير الكلمات المعلومة من السياق، وهذا كله تكلف حملهم عليه أنه روى كذا، والفعل المجهول لا يؤنث إذا كان نائب فاعل جار ومجرور مؤنث، فلا يقال: أخذت من هند وعدوا مثله خطأ، لكن ابن جنى رحمه الله تعالى قال فى إعراب الحماسة: إنه سمع نادرا وبه قرئ فى الشواذ فى قوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ﴾ [التوبة: ٦٦] فمن خطأ صاحب التلخيص فى قوله صوحبت معها لم يصب وسيأتى وجه آخر أظهر من هذا، وهو أن نائب الفاعل ما الموصولة فى قوله: ما يدرك الناظر، ولو قرئ بالبناء للفاعل وحذف المفعول جاز.

(ولا قدر أحد أن يفرغ فى قالبه عليها) قدر: بالتخفيف من القدرة، ويفرغ: بضم المثناة التحتية وسكون الفاء وكسر الراء المهملة والغين المعجمة، وهو صب المايعات فى ظرف، وقالب: بفتح اللام اسم آلة كالعالم على خلاف القياس وقد تكسر لامه، وقيل: إنه معرب كالب، وقيل: إنه غير صحيح، والقالب ما يصب فيه ما يذاب من الجواهر كالفضة ليصاغ، ففيه استعارة مكنية تخييلية لجعله الكلام بمنزلة الجواهر وأسلوبه بمنزلة هيئة صياغته،وإثبات القالب له تخييل، وعليها بتقدير على هيآتها، وإن تحاكى، وفيه من البلاغة والمبالغة ما لا يخفى. وقيل: المراد بالقوالب الألفاظ لأنها قوالب المعانى، قال الجاحظ: استعمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المتوسط وهجر الغريب ورغب عن

الهجر، فلم يأت إلا بكلام حق وسدد بالتأييد جمع الرقة والجزالة تدخل الإذن بغير إذن ليحفظ وينقل عنه.

(كقوله حمى الوطيس) هذا حديث مروى عن العباس رضى الله عنه، ورواه مسلم والبيهقى عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما، وأنه قاله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم حنين، وقيل: إنه أول ما قاله بأوطاس، ففى التعبير به مناسبة لفظية متضمنة لبلاغته وإبداعه، أى اشتد الحرب، والوطيس: بفتح الواو وكسر الطاء المهملة يليها مثناة تحتية وسين مهملة وهو التنور أو شىء يشبهه، وقد فسره بضراب الحرب أراد المعنى المجازى، وقيل: هو الوطئ الشديد الذى يطس الأرض أى يدقها، وقيل: هو حجارة مدورة إذا حميت لم يقدر أحد أن يطاها. قيل: ولم يسمع هذا الكلام من أحد قبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو من بليغ الكلام، وفيه استعارة مصرحة مرشحة بقوله: حمى أى اتقد، وقد حماه إذا سخنه وهى عامية، وهو طرف من حديث طويل فى مسلم، ورماهم بحصى فانهزموا فإن كان الوطيس بمعنى الحجارة ففيه مناسبة.

(ومات حتف أنفه) أى من غير ضرب ولا قتل ولا حرق ولا غرق ونحوه على فراشة، كأنه سقط على أنفه فمات. والحتف: الهلاك. وقيل: كانت العرب تتوهم أن روح المريض تخرج من أنفه وروح المجروح من جراحته، فكلمهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على قدر عقولهم، وهذا بعض حديث صحيح رواه عبد الله بن عتيك قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الذى يخرج مجاهدا فى سبيل الله: «إن لسعته دابة أو أصابه شىء فهو شهيد، ومن مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله، ومن قتل فقد استوجب المآب»[1] قال عبد الله بن عتيك: فوالله ما سمعت قوله حتف أنفه من أحد من العرب قبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. وعلى هذا بين المصنف رحمه الله تعالى كلامه وعدها من كلامه الذى ابتدعه وهو المشهور، وذهب بعض أهل اللغة إلى أن هذه الكلمة تكلمت بها العرب قبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وصححه فى المصباح واستدلوا بقول السموأل:

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل

وأجيب بأن هذه القصيدة اختلف فى قائلها، فقيل: هو السموأل وهو شاعر جاهلى، وقيل: عبد الملك بن عبد الرحمن الحارثى وهو إسلامى، وقيل: إن الرواية ليست هكذا وإنما هو: «وما مات منا سيد فى فراشه» فعلى هذا لا يرد على من عدها من مبدعاته

(١) أخرجه الحاكم (٢/٨٨)، وابن أبى شيبة (٥/٢٩٤).

صلى الله تعالى عليه وسلم لأن الشاعر الجاهلى لم يقلها. والإسلامى: أخذها من كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم كقول عتيد بن عمر التابعى: «ما مات من السمك حتف أنفه فلا تأكله» أى ما طفأ على الماء من غير سبب ظاهر لموته، أو أنه لم يسبقه أحد من أهل زمانه و لم يسمعه من غيره فتأمله.

(ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) هذا حديث صحيح رواه أبو هريرة رضى الله تعالى عنه، وفى لفظه اختلاف لا يضر، ففى بعضها من جحر واحد، وفى بعضها من تقديم المؤمن وهو من الأمثال النبوية.

وفى كتاب ابن مسكويه المسمى بجاودان خرد الذى جمع فيه حكم اليونان: أن من أمثالهم: «لا يرمى العاقل بحجر مرتين» فانظر الفرق بين كلام النبوة وغيرها، فإن العاقل إذا أدخل يده فى جحر فلدغ هل يدخلها مرة أخرى. وقد قيل: «من لسعته الحية من الحبل يخاف» يعنى: أن المؤمن الفطن لا ينخدع مرة بعد مرة، ولا يؤتى من جهة الغفلة فيقع فى مكروه وهو لا يعلم، فينبغى أن يكون متيقظا فى أمر دنياه وآخرته، ويلدغ بالياء المضمومة المثناة التحتية واللام الساكنة وبالدال المهملة والغين المعجمة. وأما بالذال المعجمة والعين المهملة فهو إحراق النار. والجحر بضم الجيم وحاء ساكنة مهملة حفرة فى الأرض يكون فيها الحيات والحشرات، وهذا قاله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأبى عزة الشاعر، وكان يحرض الناس بشعره على قتال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأسر مرة فقال: إنى محتاج ذو بنات، فمن عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأطلقه بغير فداء، وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحدا، فقال يمدحه صلى الله تعالى عليه وسلم:

من مبلغ عنى الرسول محمدا ... فإنك حق والمليك حميد
وأنت امرء تدعو إلى الله والهدى ... عليك من الله العظيم شهيد
وأنت امرؤ بوئت فينا مباءة ... لها درجات سهلة وصعود
فإنك من حاربته لمحارب ... شقى ومن سالمته لسعيد

ثم نقض عهده وأتى مع الكفار لحربه صلى الله تعالى عليه وسلم فأخذ أيضا بأحد، فسأله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يمن عليه على مثل شرطه الأول، وقال: غلبت فأقلنى فلم يفعل وقال: «لا أدعك تمسح عارضيك بمكة تقول خدعت محمدا مرتين، وأن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين وأمر بضرب عنقه فقتل صبرا»[1]. ومرتين أريد به التكرار كقوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/٣١٣، ٤/٤٦).

[الملك:٣، ٤] لكنه اقتصر على الأقل؛ لأنه أنسب بالحزم فكان محاربا شقيا كما قال فى شعره، والفال موكل بالمنطق، ولما فيه من الميل للحلم جرد من نفسه مؤمنا يقظا منتقما لا ينخدع لغادر متمرد، وانتقم صلى الله تعالى عليه وسلم منه و لم يعف عنه، فإن غضبه لله يأبى الحلم، كما قيل[1]:

ولا خير فى حلم إذا لم يكن له ... بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

وإن كان صلى الله تعالى عليه وسلم، يغضى عن أمور كثيرة ويتغافل عنها فى مقام آخر، كما قال أبو فراس:

ليس الغبى بسيد فى قومه ... لكن سيد قومه المتغابى

قال التجانى: ما وقع فى شعر أبى عزة من مدح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، والتصريح برسالته ليس له مخرج إلا أن يكون قصد به خداعه.

(والسعيد من وعظ بغيره) المراد بالسعيد المبارك المرضى عند الله تعالى والناس، والوعظ ذكر ما يلين القلوب من ثواب وعقاب، أى من نصحته الحوادث النازلة بغيره فذكرته عواقب الأمور من خير وشر، فاتعظ بها فقلبها فهو سعيد، ومن يوعظ به غيره فهو شقى وأبلغ من هذا، وإن كان معنى آخر ما ورد فى الحديث: «إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من نفسه»[2]: كما رواه الماوردى فى أعلام النبوة. وفى معناه قول الشاعر:

لا تنته الأنفس عن غيها ... ما لم يكن منها لها زاجر

وفى معناه قلت:

الزهد فى الدنيا وترك الهوى ... عن كل أمر ضائر حافظ
ومن يرد خيرا به ربه ... كان له من نفسه واعظ

وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى بعض حديث طويل رواه مسلم عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه، وفيه: «الشقى من شقى فى بطن أمه، والسعيد من اتعظ بغيره، والسعيد سعيد فى بطن أمه»[3]. وأخرجه العسكرى مرفوعا إلى النبى صلى الله تعالى

(١) البيت من الطويل، وهو للجعدى فى ديوانه (ص٦٢)، لسان العرب (١٥/٢٧٩)، تهذيب اللغة (١٥/٢٨٩).

(٢) أورده الزبيدى فى الإتحاف (٧/٢٢٨، ٩/٦١٤).

(٣) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٣/١٩٤)، وفى الصغير (٢/٥)، وابن عبد البر فى التمهيد (٦/٣٥٠)، وابن أبى عاصم فى السنة (١/٧٨).

عليه وسلم فليس من كلام ابن مسعود رضى الله تعالى عنه كما توهم، وإنما تمثل به كما قاله الحافظ ابن حجر وشيخه العراقى.

وقوله: **(فى أخواتها)** جمع أخت أى فى الكلمات المشابهة لها بحسب البلاغة، يقال: هذا أخو هذا لمشابهته مواخيا به لغلبة التشابه بين الأخوات، فهو استعارة أو مجاز مرسل، وفى بمعنى مع كقوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ﴾ [الأعراف:٣٨] أو هى على أصلها كان أخواتها لكثرتها محيطة بها إحاطة الظرف بالمظروف، ففيه استعارة وهى فى الحقيقة أكثر من أن تحصى، كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات»(١) و«المجالس بالأمانات»(٢) و«الحرب خدعة»(٣) و«إياكم وخضراء الدمن المرأة الحسناء فى المنبت السوء»(٤) وغيره مما لا يحصى، وقد افردناه بالتأليف، وذكر الشارح منها جانبا فيه وفى شرحه وهو بمعزل عن شرح الكتاب، فلذا أضربنا صفحا.

(ما يدرك الناظر العجب فى مضمنها) قيل: ما نائب فاعل جمعت المبنى للمجهول كما تقدم ضبطه وأنث رعاية لمعناه لأنه بمعنى الكلمات المجموعة، وجملة يدرك بمعنى يلحق، والعجب فاعله أو الناظر فاعل والعجب مفعول ويدرك من الإدراك بمعنى التصور، ومضمنها بضم الميم وفتح الضاد المعجمة والنون اسم مفعول، أى ما تضمنته من المعانى البديعة والتراكيب الصحيحة، أى يتعجب فى ذلك كل من يراها وفى نسخة مضمونها.

(ويذهب به الفكر فى أدانى حكمها) أى يذهب بالناظر فكره فى أقلها وأقل ما تضمنته من الحكم فالضمير فى به للناظر، وأدانى جمع أدنى بمعنى أقل عددا أو كلما فما بالك بالأكثر، ومعمول يذهب محذوف لقصد العموم أى فى كل مذهب، فمعنى الذهاب به أنه يتحير فيها، فهو على حد قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٥] ففيه استعارة تمثيلية أو كناية.

(وقد قال له أصحابه) صلى الله تعالى عليه وسلم **(ما رأينا الذى هو أفصح منك)** هذا الحديث رواه البيهقى فى شعب الإيمان مسندا، وذكره القالى فى أماليه، وشرحه وهو أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يوما جالسا مع أصحابه فنشأت سحابة، فقال صلى الله

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه الرامهرمزى فى الأمثال (٨٤)، والقضاعى فى مسند الشهاب (٩٥٧)، وأبو عبيد فى الغريب (٣/٩٩).

تعالى عليه وسلم: «كيف ترون قواعدها» إلى آخره، وستراه قريبا، ومثله ما رواه أبو نعيم فى الدلائل قال: لما خطب عنده صلى الله تعالى عليه وسلم بعض خطباء الوفود فأجابه بكلام عذب فصيح، فقال له على كرم الله وجهه: يا رسول الله نحن وأنت بنو أب واحد ونشأنا فى بلد واحد، وإنك تكلم العرب بلسان ما يفهم أكثره. فقال: «إن الله عز وجل أدبنى فأحسن تأديبى، ونشأت فى بنى سعد بن بكر». والحاصل أن الصحابة رضى الله عنهم أكثروا من مخالطة فصحاء العرب وخلصها، وكانوا لا يفقهون أحيانا كلامهم حتى يفسره صلى الله تعالى عليه وسلم لهم. وقد ورد أيضا كما يأتى أن لغة إسماعيل عليه السلام كانت اندرست، فعلمها له جبريل عليه الصلاة والسلام كما علم آدم الأسماء.

(فقال: وما يمنعنى وإنما أنزل القرآن بلسانى لسان عربى مبين) أى ما يمنعنى من أن أكون أفصح الناس، أو من أن لا تروا أفصح منى، والكتاب الذى أنزل على بأفصح اللغات وفى أعلى طبقات البلاغة، هذا من تتمة الحديث السابق فى وصف السحابة وهو حديث صحيح، رواه التجانى مسندا عن عباد بن عباد بن حبيب بن المهلب عن موسى بن محمد بن إبراهيم التميمى عن أبيه عن جده قال: بينما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذات يوم جالسا مع أصحابه إذ نشأت سحابة فقالوا: يا رسول الله هذه سحابة، فقال: «كيف ترون قواعدها»؟ قالوا: ما أحسنها وأشد تمكنها قال: «وكيف ترون رحاها؟» قالوا: ما أحسنها وأشد استدارتها. قال: وكيف ترون بواسقها؟ قالوا: ما أحسنها وأشد استقامتها. قال: «وكيف ترون برقها أوميضا أم خفيفا أم يشق شقا؟» قالوا: بل يشق شقا. قال: «وكيف ترون جونها؟» قالوا: ما أحسنه وأشد سواده. فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «الحيا» فقالوا: يا رسول الله ما رأينا الذى هو أفصح منك، فقال: «وما يمنعنى من ذلك وإنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين».
وقواعد السحابة أسافلها واحدتها قاعدة، وأما القواعد من النساء فواحدتها قاعد، وهى التى قعدت عن الولد. ورحاها وسطها ومعظمها وكذا رحى الحرب وسطها ومعظمها حيث ابتدار القوم. وقال الجوهرى: مستدارها وبواسقها ما علا منها وارتفع، وكل شيء علا فقد بسق، وقال بن الأثير: ما استطال من فروعها. والوميض: اللمع الخفى، يقال: أومض إيماضا، وأومض بعينه غمز والخفى بزنة الضرب، وبالإعجام البرق الضعيف، كما قاله القالى. قال التجانى: التقدير أترونه وميضا أو ذا خفى، لقول الجوهرى: خفا البرق يخفو خفوا ويخفى خفيا إذا لمع ضعيفا معترضا فى نواحى الغيم، فإن لمع قليلا ثم سكن فهو الوميض، فإن شق الغمام فاستطال فهو العقيقة وجونها

أسودها وهو من الأضداد، لأنه يكون بمعنى الأبيض. والحيا: بالقصر الغيث وجمعه أحياء، والعناية بوصف السحاب مشهورة بين فصحاء العرب.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم **(مرة أخرى بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد)** قال السيوطى: هذا الحديث أورده أصحاب الغريب ولا يعرف له إسناد، والطبرانى من حديث أبى سعيد ولفظه: «أنا أعرب العرب، ولدت فى قريش، ونشأت فى بنى سعد، فأنى يأتينى اللحن»(١). وقال قطلوبغا فى تخريجه: أخرجه أبو عبيد بلاغا، وأخرج الطبرانى فى الكبير عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب، أنا أعرب العرب، ولدتنى قريش ونشأت فى بنى سعد، فأنى يأتينى اللحن»(٢). وفى سنده مقال. وأما ما اشتهر من «أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أنى من قريش»(٣) فقالوا: إنه لم يثبت وإن ذكر فى كتب النحو والأصول.وبيد فيها لغتان أخريان مبد بالميم وبايد كما ورد فى الحديث، قال فى النهاية: و لم أقف عليه، ولعله بأيد أى بقوة فحرف وفسر بغير الاستثنائية، وبمن أجل التعليلية وبعلى أن كما يقال هو كثير المال على أنه بخيل، وتلزم الإضافة لأن المشددة وصلتها، وهى فى الحديث بمعنى والاستثناء ههنا منقطع على حد قوله:

ولا عيب فيه غير أن نزله يعاب بنسيان الأحبة والوطن

واستدل أبو عبيدة على مجيئها بمعنى من أجلى بقوله:

عمدا فعلت ذاك بيد أنى أخاف إن هلكت أن ترنى

وقولهم: ما رأينا الذى هو أفصح منك عنوا به ولا يساويك كما مر تحقيقه وجوابه بقوله بيد إلخ، إن فسر بغير فظاهر لإفادته أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أفصح من جميع العرب، وأما تفسيرها بمن أجل فقد استشكل بأن مفهومه أنه من قريش وهم أفصح العرب، ولا يلزم منه أن يكون أفصح العرب بل من أفصحهم، وهذا الإشكال أورده بعض الشراح على أنه من بنات أفكاره، ومر أنه قد سبقه إليه الكورانى فى شرح «جمع الجوامع» وتقدم ما فى ذلك مبسوطا فى أول الكتاب، ووجهه أن العلة موجودة فى غيره، وهو نقض للحكم بوجود علته فى غيره، وأورد عليه أن كثيرا من الأصوليين

---

(١) أخرجه ابن سعد (١/١/٧١)، وأورده ابن كثير فى البداية (٢/٢٧٧)، والعجلونى فى كشف الخفا (١/٢٣٢، ٢٣٨).

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٦/٤٣).

(٣) انظر: تذكرة الموضوعات (٨٧)، والدرر المنتثرة (٢٣)، وكشف الخفا (١/٢٣٢)، والفوائد المجموعة (٣٢١).

كالبيضاوى والهندى ذهبوا إلى أن تخلف الحكم إن كان لمانع أو فقد شرط لا يقدح فى علية العلة مطلقا سواء كانت منصوصة أم لا، والتقدير هنا مع كونى نبيا، فالتعليل هنا صحيح مطرد على ما فصل فى العضد وغيره، ويسمونه خصوص العلة، وهذه خزيرة لأن الحديث: «بيد أنى من قريش، واسترضعت فى بنى سعد» وفى رواية: «وأنزل القرآن بلسان عربى مبين».والمجموع هو العلة ولا توجد فى غيره، أى أنى من قبيلتين هما أفصح العرب وقد نشأت بالحاضرة والبادية، فجمع لى من الرقة والجزالة ما لم يجتمع لغيرى، أو المعنى أنى أنزل على القرآن على أسلوب لا يوجد فى غيره جامع لزبدة جميع اللغات، فآثر فى سلامة طبعى وانتقش فى صحف ذهنى مالا يتصور لغيرى. وأما النبوة فلا دخل لها هنا، أو نقول كونه أفصح من قريش معلوم؛ لأن السائلين له صلى الله تعالى عليه وسلم منهم وهو بين أظهرهم لا يخفى عليهم حاله.

وأما كونه نشأ فى بنى سعد واسترضعوه، فلأن حليمة السعدية رضى الله تعالى عنها أرضعته بعد ثويبة جارية أبى لهب، وحليمة بنت أبى ذؤيب وزوجها الحارث أبوه من الرضاعة، وبنو سعد من أكرم العرب وأفصحهم، وحليمة من أوسطهم ولذا اختارها الله تعالى لرضاعه صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن الرضاع يؤثر فى الطباع، ووقع عندها شق صدره الشريف وسيأتى بيانه وأنه وقع مرارا، ثم إن التجانى قال: اختلف المتكلمون فى كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هل منه ما هو معجز كالقرآن بناء على هذه الأحاديث أم لا؟ فذهب فى بعضهم إلى إعجازه، وأن إعجازه دون إعجاز القرآن. وذهب الباقون إلى أنه فى معناه فى الفصاحة ولكن لا يبلغ إلى رتبة الإعجاز وهذا هو الصحيح. واحتج الأولون مما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه اشتبه عليه كون المعوذتين من القرآن، وعد بعض الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين القنوت من القرآن وهم فصحاء عالمون بمراتب الإعجاز، والصحيح أن هذا باطل لم يثبت عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه وغيره، أو متأول بأنه لم ينكر كونهما من القرآن ولم يشك فيه، وإنما أنكر كتابتهما فى المصحف؛ لأنه لم يبلغه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أمر بكتابتهما وهو محجوج بقراءته وقراءة الصحابة رضى الله تعالى عنهم بهما فى الصلاة، وسيأتى لذلك مزيد بيان فى آخر الكتاب.

فإن قلت: ما مر من تكلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحشى الغريب مخالف لفصاحته صلى الله تعالى عليه وسلم؟

قلت: لا، لما مر من أن الوحشى من أهله وممن يتكلم معهم فصيح، فلا حاجة إلى القول بأنه غير غريب لثبوته فى كتب اللغة من غير احتياج لتنقير وتفحص، وإلى ما

ذكرناه أشار المصنف رحمه الله تعالى.

بقوله: (**فجمع له صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك قوة عارضة البادية**) جمع مبنى للمجهول، وأصله جمع الله له فحذف للعلم به، وذلك إشارة لكونه من قريش ونشأ فى بنى سعد، وإنما نشأ صلى الله تعالى عليه وسلم فيهم على عادة قريش فى دفعهم أولادهم لمرضعات البادية ليتفرغ النساء لشأنهن، ولأن هواها أصح، وليكون مع أولاد الأعراب فيتدرب لترك الترفه، ولذا كان عادة ملوك بنى أمية والعارضة التجلد والقدرة على الكلام، ويقال: بعير عرضة للسفر أى قوى عليه، وإضافة القوى لها بيانية، والبادية والبداوة والباداة خلاف الحاضرة، وتبدى أتى البادية، وتبادى تشبه بأهلها وهى خلاف الحاضرة، أى الأمصار، والمراد بالبادية أهلها أو هو بتقدير مضاف.

(**وجزالتها**) بفتح الجيم والزاء المعجمة خلاف الركاكة، أى جزالة كلامها يقال: كلام جزل أى قوى شديد، ومنه الحطب الجزل للغليظ، وليس من الركيك وهو الضعيف من الألفاظ المحلول التركيب، فتكثير السواد به وهنا غير مناسب.

(**ونصاعة ألفاظ الحاضرة**) النصاعة كالفصاحة مصدر بمعنى الخلوص، والمراد خلوصها من التعقيد والغرابة الوحشية، وصاده وعينه مهملتان من نصع الشىء إذا ميز جيده من رديه، والحاضرة خلاف البادية سكان القرى والأمصار.

(**ورونق كلامها**) الرونق البهاء والحسن، فإن كلام أهل البادية قوى متين لعدم تصنعهم، وكلام أهل الحاضرة رقيق لطيف فجمع كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم بين هاتين الصفتين مضموما ذلك (**إلى التأييد الإلهى الذى مدده الوحى**) ومدده بمعنى ممده لا بمعنى زيادته، والتأييد التقوية من الأيد وهو القوة، وأمده بإيحائه وإنزاله عليه كلامه المعجز، ولذا صح أن أهل الجنة يتكلمون بلغة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ولغة أهل الجنة، فلا صحة لما رواه بعضهم أن لسان أهل الجنة الفارسية الدرية، وهذا فى معنى ما روى من أن عمر رضى الله تعالى عنه قال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم: مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «كانت لغة إسماعيل قد درست فجاءنى بها جبريل عليه الصلاة والسلام فحفظتها»(١).

(**الذى لا يحيط بعلمه بشرى**) أى إنسان منسوب للبشر وهم الناس والضمير للتأييد الإلهى.

(**وقالت أم معبد**) هى كما مر عاتكة بنت خالد بن زمعة إحدى نساء كعب بن

---

(١) أورده الهندى فى كنز العمال (٣٥٤٦٢).

عمرو بن خزاعة، وزوجها عبد الملك بن وهب، وقيل: لا يعرف اسمه، توفى فى حياة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ويقال: إنه صحابى له رواية، وكانت تنزل بين مكة وجباها فنزل عليها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأبو بكر رضى الله تعالى عنه لما هاجرا فقرتهما، فلما جاء زوجها أخبرته بذلك ووصفته له فى حديث ذكره أهل السير أفرده الحافظ العلائى بالشرح.

(وفى وصفها له) مصدر مضاف لفاعله وضمير له للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ويحتمل أن يكون له خبر مقدم والأول أولى.

(حلو المنطق) الحلو فى المطعومات مستلذ، فاستعير لما يعجب السامع ويستلذ بسماعه ذوقه، أو كلجين الماء.

(فصل) مصدر بزنة ضرب بفاء وصاد مهملة ولام، أى فاصل بين الحق والباطل، أو بين ظاهر قاطع للشك لا لبس فيه، أو يفسره قوله: **(لا نزر ولا هذر)** كما قاله العلائى رحمه الله تعالى، أو ذو فضل بين أجزائه لقول عائشة رضى الله تعالى عنها: «ما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يسرد سردكم هذا، ولكن كان إذا تكلم بكلام بينه فيحفظه من يجلس إليه» كما فى المصباح، ونزر: بفتح النون وسكون الزاى قليل لا يفهم. والهذر: بالهاء والذال المعجمة المفتوحتين يليه راء مهملة كذا ضبطه العلائى وهو راو ثقة، وتبعه بعض أرباب الحواشى، وضبطه ابن الحنبلى بسكون الذال مصدر هذر يهذر فى كلامه، والاسم الهذر بالتحريك وهو كثرة الكلام بحيث يمل، وهذا غير مناف لما ورد فى الحديث: «أوتيت جوامع الكلم واختصر لى الحديث اختصارا»[(١)]؛ لأن المنفى الإيجاز المخل لا المقبول منه.

(كأنه منطقه) أى ما ينطق به **(خرزات نظمن)** أى متناسبة لها رونق كالعقد المنظوم من الجواهر، والخرز: ما ينظم من الجواهر وليس كما تفهمه العامة من تخصيصه بنوع كما فى الصحاح من الخرز وهو المثقب.

(وكان جهير الصوت حسن النغمة صلى الله تعالى عليه وسلم) العرب تتمدح بعلو الصوت وتذم بضده، ولذا تمدحوا بسعة الفم وذموا بصغره كما قاله الجاحظ فى كتاب البيان، وقد ورد فى وصفه صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث ابن أبى هالة أنه كان يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، كما قال العجير السلولى:

جهير وممتد العنان مناقل ... بصير بعورات الكلام خبير
لو أن الصخور الصم يسمعن صوته ... لزحن وفى إعراضهن فطور

---

(١) تقدم تخريجه.

والجهير والجهورى العالى الصوت فليس فيه خفاء ولا تكسر ككلام النساء. **أقول:** هذا لا ينافى ما مر من ذم التقعر والتشدق فى الكلام، فإن ذلك إذا أفرط وكان تصنعا، ثم إن المدح بسعة الفم لدلالته على الفصاحة وقوة القدرة على الكلام بخلاف غيره، والمراد ما لم يفرط بحيث يشوه الخلقة لاسيما مع غلظ الشفتين، ولا عبرة بمدح شعراء العجم ومن تبعهم من المتأخرين لضيق الفم فإنه مقصد فاسد، كما قال ابن سناء الملك:

له فم ضيق فلم يستطع أن يخرج اللفظ بتقويم
ولفظ سكران من ريقه فهو لهذا غير مفهوم

وقال أيضا:

بمهجتى أفديه من فصيح لفظ من معجمه
لا يستطيع اللفظ أن يخرج من ضيق فمه

وكان صلى الله تعالى عليه وسلم إذا قرأ بالليل أو خطب يسمع صوته، وأما حسن نغمته فلما ورد فى الحديث عن على كرم الله وجهه: «لم يبعث الله تعالى نبيا إلا حسن الوجه حسن الصوت، وكان داود صلى الله تعالى عليه وسلم إذا قرأ الزبور لم تبق دابة إلا أنصتت» إلا أن قراءة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم لم تكن على طريقة الألحان والموسيقى فإنه غير ممدوح، وحديث **(ليس منا من لم يتغن بالقرآن)** الكلام فيه مشهور.

(غريبة) ذكرها التلمسانى هنا قال: قال ابن سيدى الحسن: كان شيخنا أبو زكريا يحدث عن شيخه منصور بن على التجانى، عن أبيه وغيره من شيوخه يقول: إنما كانت المصامدة فيهم بركة، لأنه وفد منهم رجل، وقيل: رجلان، وقيل: بل هم سبعة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حين بعث، فلما دخلوا المسجد الحرام لم يعرفوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وكانوا لا يعرفون العربية، فقال رجل منهم بلغته: من أبون أسيران وأسير بلغتهم النبى أو الرسول، أى أيكم رسول الله، فلم يفهم الحاضرون قوله، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم «اشكد اور» ومعنى اشكد تعالى وأقبل هلم وهو بهمزة وشين معجمة ساكنة وكاف مفتوحة ودال مهلة ساكنة مشددة، واور معناه هنا أو إلينا، وجعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجيبه بلغته ولا يفهم القوم، فأسلم وبايع وانصرف لقومه، وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أخبرهم بقدومه ولغته، قال أبو زكريا: كان شيخه منصور يحدث لهذا الحديث فى هذا الفصل فسبحان من علمه ذلك إنه المنعم الكريم. قال: وقبورهم موجودة إلى الآن انتهى.

* * *

(فصل)

(وأما نسبه وكرم بلده ومنشائه) الشرف: رفعة القدر. والكرم: يجمع أنواع الخير وإن خصه العرف بمعنى الجود. والمنشأ: محل نشأ فيه وتربى.

(فمما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه لظهوره، ولا بيان مشكل، ولا خفى منه) المراد: أنه لاخفاء فيه ولا إشكال حتى يحتاج إلى البيان على حد قوله: ولا ترى الضب بها ينجحر.

(فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم نخبة بنى هاشم) النخبة بضم النون وسكون المعجمة وفتحها وبالموحدة كهمزة المختار من بينهم المنتقى. **(وسلالة قريش وصميمها)** السلالة بالضم بمعنى النسل المستخرج منهم والصميم الخالص. **(وأشرف العرب وأعزهم نفرا)** أى قوما، والنفر: رهط الإنسان وعشيرته، وهو اسم جمع لاواحد له يقع على الرجال خاصة من الثلاثة إلى العشرة، وذكر الكرمانى أنه يقع على الواحدى كما ذكرناه فى شرح الدرة **(من قبل أبيه وأمه)** كما هو مبين فى السير.

(ومن أهل مكة من أكرم بلاد الله على الله) لتشريفها وجعلها قبلة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومقصد الحجيج **(وعلى عباده)** إذ لم تزل الناس تعظمها فى الجاهلية والإسلام. وقال التجانى وتبعه بعض الشراح هنا بعد ما ذكر حديث: «إنك لأحب أرض الله إلى ولأحب أرض الله إلى الله»(١). الذى قاله صلى الله تعالى عليه وسلم عندما خرج منها مهاجرا وأجمعوا على أن مكة والمدينة أفضل البقاع، وإنما اختلفوا أيهما أفضل؟ فنسب للمالكية تفضيل المدينة، والشافعى، وأبو حنيفة والأكثر على تفضيل مكة لما لها من المزية بأن الله حرمها وحرم صيدها، وقيل: بتغليظ الذنب ودية القتل فيها وأنه لا يقام الحد فيها، وغير ذلك من الرحمة التى ليست لحرم المدينة والصلاة بها ثوابها زيادة على غيرها، وهذا فى غير البقعة التى وضع فيها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وسيأتى أن المصنف رحمه الله تعالى فضل على مكة المدينة فجعلها أشرف وأكرم، فكلامه هنا مناف لمذهبه ولكلامه الآتى، ولهذا اعترضوا عليه وفيه خلاف عند المالكية أيضا كما سيأتى، فلا حاجة لما قيل من أن كلام التجانى يكفى دليلا على فضل مكة فى مذهب مالك رحمه الله تعالى.

وقال الطبرى: بيت خديجة يلى المسجد الحرام فى الفضيلة، وأجيب بأنه غير متناقض

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٣٠٥)، والترمذى (٣٩٢٥)، وابن ماجه (٣١٠٨)، والدارمى (٢/٢٣٩)، والحاكم (٣/٧).

لما سيأتى؛ لأنه لم يقل مكة أكرم وأشرف البلاد بل من أكرم البلاد، ومن فيه تبعيضية لا بيانية، وكون الشيء بعض الأشرف لا يقتضى أنه أشرف، فإن البلاد الثلاثة التى تشد الرحال لها شريفة وهذا منها.

أقول: لو قال أشرفها لم يشكل أيضا؛ لأن الكلام فى منشأه ومولده وهى فى زمن ولادته وقبل هجرته كانت أشرف البقاع على الإطلاق، إذ المدينة إنما صارت حرما مكرما بعد هجرته تكريما له صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان المعترض لاحظ أن المراد تفضيل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على جميع خلقه بشرف منشأه، فيناسب كونه أشرف من جميع ماعداه فتدبره، ووقع فى نسخ بعض الشراح أكرم بدون من فلعل كلامهم مبنى على هذه النسخة.

(حدثنا قاضى القضاة حسين بن محمد الصدفى) نسبة إلى الصدف وهو اسم قرية من قرى القيروان، ووقع للفقهاء اختلاف فى جواز إطلاق قاضى القضاة فقال بعضهم: لا يجوز كملك الملوك وشاهنشاه أى سلطان السلاطين، فإنه هو الله تعالى والحق جوازه كما أفتى به كثير من أرباب المذاهب الأربع، فإن القرينة ظاهرة فى أن المراد قضاة عصره ومملكته، فإنه يطلق على من يكون قاضيافى تحت الملك، ويؤذن له فى تولية قضاة الأطراف، ولهذا عدلوا عنه وقالوا قاضى العسكر، ولكن قوى بعضهم منعه لورود التصريح بمنعه فى الحديث. والصدفى: هو ابن سكرة وهو إمام ثقة ترجمته مشهورة.

قال: **(حدثنا القاضى أبو الوليد سليمان بن خلف)** هو الإمام العلامة الحافظ أبو الوليد الباجى وقد تقدمت ترجمته أيضا.

قال: **(حدثنا أبو ذر عبد بن أحمد)** هو الإمام الحافظ أبو ذر الهروى وقد تقدمت ترجمته، وعبد اسمه من غير إضافة.

قال: **(حدثنا أبو محمد السرخسى)** نسبة إلى سرخس بفتح السين والراء بلد عظيم بخراسان وهذا هو المعروف، وأما قول التلمسانى نقلا عن ابن مرزوق أنه بكسر السين وفتح الراء، وأنه يقال بزنة درهم وجعفر فلا نعرفه، **(وأبو إسحاق)** المستملى واسمه إبراهيم بن أحمد بن داود المستملى الإمام الثقة، **(وأبو الهيثم)** هو محمد بن المكى بن زراع الكشميهنى بضم الكاف وسكون الشين المعجمة وكسر الميم وسكون المثناة التحتية وفتح الهاء وكسر النون وياء النسبة، نسبة لقرية من قرى مرو قديمة خربت وخرج منها جماعة، قاله ابن الاثير: قال التلمسانى: ويقال الكشماهنى ويأتى الكلام عليه أيضا بأبسط من هذا **(قالوا: حدثنا محمد بن يوسف)** هو الفربرى وقد تقدمت

ترجمته. **(قال: حدثنا محمد بن إسماعيل)** هو حافظ الإسلام البخارى وقد تقدمت ترجمته. **(قال: حدثنا قتيبة بن سعيد)** تقدمت ترجمته.

(قال: حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن) بن محمد بن عبد الله القارى منسوب للقارة قبيلة المدنى نزيل الإسكندرية، وهو يروى عن زيد بن أسلم وسهل بن أبى صالح وغيرهما، وروى عنه قتيبة ويحيى بن بكير توفى سنة إحدى وثمانين ومائة، وأخرج له أصحاب السنن ووثقه ابن معين.

(عن عمرو) بن عمرو ويقال: ابن أبى عمرو مولى المطلب، وروى عن أنس وعكرمة وطائفة، وروى عنه مالك والداوردى ووثقه. وقال التلمسانى: إنه ليس بالقوى، وقال أحمد: ليس به بأس. وقال أبو زرعة: إنه ثقة. وأخرج له الأئمة الستة، وتوفى فى أول خلافة المنصور وله ترجمة فى الميزان.

(عن أبى سعيد المقبرى) بتثليث الباء سمى به لسكونه بقرب المقابر كذا وقع فى بعض النسخ، قال البرهان الحلبى: وضرب المصنف رحمه الله تعالى على لفظ أبى وهو الصواب، فإنه سعيد بن أبى سعيد المقبرى، واسم أبى سعيد كيسان وكنية سعيد أبو سعيد، وفيه نظر وهو يروى عن أبيه وأبى هريرة وعائشة وغيرهما، وروى عنه الليث ومالك وخلف، وثقه النسائى وأبو زرعة وغيرهما. وقال أحمد: ليس به بأس، توفى سنة ثلاث وثلاثين، وقيل: خمس وعشرين ومائة، وأخرج له أصحاب الكتب الستة. **(عن أبى هريرة)** رضى الله تعالى عنه تقدمت ترجمته والكلام فى اسمه.

(أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: بعثت من خير قرون بنى آدم) هذا حديث صحيح انفرد البخارى بإخراجه، وعنه روى المصنف رحمه الله تعالى، وفى القرن عشرة أقوال، فإنه مقدار من الزمان ويطلق على أهله، فقيل: عشرة، وعشرون، وثلاثون، وأربعون، وخمسون، وستون، وسبعون، وثمانون، وتسعون، ومائة، ومائة وعشرون. ومطلق الزمان كما قاله البرهان الحلبى. قال: وابتداء قرنه عليه الصلاة والسلام من بعثته أو من حين فشا الإسلام، وقيل: القرن كل عصر فيه نبى أو كبار من العلماء فليس زمان الفترة بقرن نقله التلمسانى. وقال التجانى: القرن فى اللغة كل طبقة من الناس مقترنين فى وقت واحد، وربما سمى الوقت قرنا لأنه يقرن ناسا بناس، واحتج القائلون بأنه مائة سنة بأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مسح رأس غلام وقال: «عش قرنا» فعاش مائة سنة كما ذكره الهروى. والمختار ما قيل إن القرن كل أمة هلكت فلم يبق منها أحد انتهى. وفيه نظر. والظاهر أن المراد بالقرن فى الحديث طائفة وجيل من الناس فى عصر واحد وزمان متقارب اشتركوا فى أمر من الأمور المقصودة.

وقوله: «من خير» إلى آخره من فيه لابتداء الغاية أو بيانية لا للتبعيض، لأن المراد أن قرنه الذى بعث فيه خير القرون لا أنه بعث فى بعض القرن، بدليل ما روى فى الحديث الصحيح: «خير القرون قرنى» والمراد به عصره صلى الله تعالى عليه وسلم وعصر صحابته رضى الله تعالى عنهم، لأنهم انقرضوا بعد مائة من انتقاله صلى الله تعالى عليه وسلم وكسور اختلف فيها، قيل: وهذا الحديث يدل على أن أصحابه صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل هذه الأمة وسائر الأمم غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأن ذلك ثابت لكل واحد منهم لا لمجموعهم، وإليه ذهب الجمهور؛ لأن فضل الصحبة ونورها لا يعدله شىء ولا يساويهم فى الفضل، وإن تفاوتوا فيه بقدم الصحبة ونحوه خلافا لابن عبد البر رحمه الله تعالى حيث جوز أن يكون بعد الصحابة من هو أفضل من بعض إلا من قاتل معه صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنفق ماله فى سبيله فإنه لا يعدله غيره بالاتفاق،واستدل بحديث: «أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره»[1]. وهو حديث صحيح. وأجاب النووى رحمه الله تعالى بأن المراد بآخره من أدرك عيسى عليه الصلاة والسلام، ورأى ما فى زمانه من الخير والبركة وانتظام كلمة الإسلام واضمحلال الكفر وهو متق، وأوله من لم يدركه فى صدر الإسلام غير الصحابة وسيأتى الكلام عليه مفصلا.

(قرنا فقرنا) هذا كقولهم: قرأت النحو بابا بابا وهو حال بتأويل مرتبا و لم يذكره النحاة معطوفا، وكأنه الحامل لبعض الشراح على جعله معمولا لحال مقدرة والفاء للترتيب فى الوجود أو الفضل نحو خذ الأكمل فالأكمل ومنه: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾ [الصافات:١،٢] وهذا قريب من قول ابن الرومى:

كم من أب قد علا بابن ذوى شرف كما علا برسول الله عدنان

(حتى كنت من القرن الذى كنت فيه) قيل: حتى غاية لبعثته وأراد به تقلبه فى أصلاب آبائه من إبراهيم عليه السلام، ثم من نابت بالنون ابن إسماعيل، ثم من النضر ابن كنانة، ثم من قريش بن النضر، ثم من عبد الله بن عبد المطلب، ثم أيد هذا بحديث رواه البيهقى مسندا فى دلائله، والترمذى وحسنه، وهو ما أشار إليه بقوله.

(وعن العباس رضى الله تعالى عنه قال: قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: إن الله خلق الخلق) أى المخلوقات كلها من إنس وملك وجن. **(فجعلنى من خيرهم)** أى أوجدنى وصيرنى من خير جنس منهم وهم الإنس، ومن خير نوع وهم العرب، ومن

---

(١) أخرجه العقيلى فى الضعفاء (١/٣١٠)، وابن عبد البر فى الاستذكار (١/٢٣٩).

خير قرن وهو قرنه صلى الله تعالى عليه وسلم وقرن أصحابه، فلذا أبدل منه قوله: **(من خير قرنهم)** بدل بعض من كل **(ثم تخير القبائل)** أى اختار من قرنه خيارهم أى أشرفهم. **(فجعلنى من خير قبيلة)** من العرب وهم قريش، والقبيلة واحدة القبائل الجماعة من أب واحد، والقبيل بغير هاء بنو آباء مختلفة أو هو أعم وقد يكونا بمعنى، والقبيلة تحتوى على جماعات من آباء منتسبة للأب الأول تسمى بيوتا وبطونا؛ لأنهم من بطن واحدة ويجمعهم بيت واحد، وأصل البيت المسكن الذى يبيتون فيه؛ فأطلق على أهله وصار حقيقة فيهم فلذا قال: **(ثم تخير البيوت)** بضم الباء ويجوز كسرها.

(فجعلنى من خير بيوتهم) يعنى بنى هاشم، وقيل: المراد بالبيت هنا الشرف أى تخير الله جهات الشرف وأشباهه المقتضية له واختار لى أعلاه والأشرف، والأول هو الموافق للغة: نعم البيت يخص بمن له شرف.

(فأنا خيرهم) أى جميع من ذكر **(نفسا)** أى روحا وذاتا **(وخيرهم بيتا)** أى حسبا وشرفا وأصلا، وفيما ذكر إشارة إلى الطبقات الست من الناس، فإن العرب كما تقدم تقسم الناس لشعب، وقبيلة، وعمارة، وبطن، وفخذ، وفصيلة، كل طبقة تجمع ما بعدها، وما قيل من إنه لا يلزم من كونه خيرهم بيتا، أن يكون هو خيرا لمشاركة أهل البيت له فى شرفه، والجواب أن المراد أنه خيرهم بالقياس إلى غير بيته لا إلى كل واحد من أهل بيته ليس بشىء؛ لأنه لو كان كذلك لم يصح، فتفريعه على كونه خيرهم نفسا فهذا كقولهم فلان من العلماء، وهو أمدح من قولهم عالم كما قرره أهل المعانى، لسوق فضله وخيرته مساق المعلوم المسلم وبيان عراقته وأصالته فى ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢] كما مر.

(وعن واثلة بن الأسقع) رضى الله تعالى عنه، وفى التذكرة فى رجال الكتب العشرة لأبى المحاسن العلوى: واثلة بمثلثة ولام ابن الأسقع بن كعب بن عامر أبو الأسقع، ويقال أبو قرصافة الليثى، أسلم قبل تبوك وشهدها، وكان من أهل الصفة، وروى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وعن أبى مرثد الغنوى، وأبى هريرة، وأم سلمة رضى الله تعالى عنهم، وروى عنه بناته ومكحول وجماعة قالوا: مات سنة ثلاث وثمانين وعمره مائة وخمس سنين، وقال البرهان: خمس وتسعون سنة وخدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاث سنين، وذكر نسبه مخالفا لما ذكرناه فقال: ابن عبد العزى بن عبد ياليل بن ناشب بن عبرة بن سعد بن بكر بن عبد مناف بن كنانة، وقيل: ابن عبد الله، وقيل: غير ذلك، والأسقع بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وفتح القاف وعين مهملة.

(قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إن الله اصطفى) أى اختار وارتضى

(من ولد إبراهيم إسماعيل) عليهما الصلاة والسلام فهو أفضل أولاده، وكان له غير إسماعيل وإسحاق ستة أولاد من قنطورا.

(واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة) قال السهيلى: ولإسماعيل بنون ذكر أسماهم ابن إسحاق وهم اثنى عشر؛ منهم نابت بالنون كما تقدم وهو جد كنانة وبينهما ثلاثة عشر أبا، وسمى بكنانة السهام التى تسمى جعبة ولقب به، وحكى أبو حاتم عن الأصمعى أن رجلا وقف عليه مع أخيه أسد يسلخان جزروا لهما، فقال الرجل: ما جلاء الكاشطين؟ فقال له: خائبة المصارع وهصار الأقران، فقال: يا كنانة ويا أسد أطعمانى من جزوركما فأطعماه، فكنى له الرجل عن كنانة بخابئة المصارع يعنى السهام لأنها تصرع ما أصابته، وروى المصادع بالدال بدل الراء جمع مصدع، والهصر من صفات الأسد، وجلاء بكسر الجيم، والمد أى ما اسمهما الذى يكشف اللبس عنهما، والكشط بمعنى السلخ والولد صفة مشبهة جرى مجرى الأسماء يشمل الواحد وغيره.

(واصطفى من بنى كنانة قريشا) ولد كنانة لصلبه النضر، وله أربعة أولاد ومن ذريته قريش وأول قريش، فى الأصح فهر بن مالك بن النضر، وقيل: النضر أول قريش واختلف هل قريش اسمه أو لقبه واسمه فهر، وبه جزم العراقى فى ألفية السيرة، ويطلق قريش على بنيه فيصرف ولا يصرف باعتبار القبيلة كما يقال: تميم وربيعة وكذا النضر، فمن لم يكن من ولد النضر ليس بقرشى، قال الشعبى رحمه الله تعالى: النضر بن كنانة هو قريش، وإنما سمى قريشا لأنه كان يتقرش عن أرباب الحاجات ليقضى حوائجهم، والتقريش التفتيش. وقيل: التقرش التجمع فسموا به لتجمعهم فيكون اسما للقبيلة، ولذا جاز منع صرفه كما علم. وقيل: هو اسم سمكة عظيمة سمى به القبيلة لأنه كان يأكل السمك ويقهرها، فسمى به القبيلة أو أبوها لشدتهم وتصغيره للتعظيم. قال الشاعر[(١)]:

وقريش هى التى تسكن البحر   وبها سميت قريش قريشا

(واصطفى من قريش بنى هاشم) واسمه عمرو وهو علم منقول من معان؛ منه العمر بالضم، وواحد عمور الإنسان وهو اللحم المطيف بها، وهاشم اسم فاعل من هشم بمعنى كسر سمى به لأنه هشم الثريد لقومه فى سنة مجدبة. قال:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه   ورجال مكة مسنتون عجاف

أو كان يهشمه للحاج وهذا الشعر لمطرود بن كعب الخزاعى والقافية مرفوعة،

---

(١) البيت من الخفيف، وهو للمشمرج بن عمرو الحميرى فى خزانة الأدب (١/٢٠٤).

وتوارد مع عبد الله بن الزبعرى فى قوله[١]:

يا أيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد مناف
الخالطين غنيهم بفقيرهم والقائلين هلم للأضياف
عمرو العلا هشم الثريد لقومه قوم بمكة مسنتين عجاف

وخلط الرواة فى الشعرين فزعموا أنه أقوى وليس كذلك.

(واصطفانى من بنى هاشم) هذا الحديث رواه مسلم والترمذى، وما قاله المصنف رحمه الله تعالى هو بلفظه فى الترمذى، ولفظ مسلم: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم»[٢] وفيه دليل على تفاضل العرب فيما بينهم، إلا أنهم اختلفوا فى التفاضل بين قريش على ما فصله الفقهاء فى باب النكاح فى أحكام الكفاءة، وقد تبرع به بعضهم هنا ولا داعى له.

(قال الترمذى: وهذا حديث صحيح) ونقل المزى عنه أنه قال: إنه حديث صحيح غريب. **(وفى حديث عن ابن عمر رضى الله عنهما)** رواه الطبرانى فى الأوسط بسند حسن و**(رواه الطبرى)** هو الإمام الفرد الحافظ ابن جرير أبو جعفر أحد الأعلام صاحب التصانيف المشهورة من أهل طبرستان، كان كثير الطواف والعبادة وسمع من محمد بن الشوارب والسكوتى وإسحاق بن إسرائيل وغيرهم، وأخذ القراءات عن جماعة، وروى عنه كثير، توفى سنة عشرة وثلاثمائة ودفن بداره وولد سنة أربع وعشرين ومائتين وترجمته مشهورة.

(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: إن الله عز وجل اختار خلقه) أى أراد أن يخلق خلقه ويوجدهم، فلما أوجدهم تخيرهم **(فاختار منهم بنى آدم)** وقيل: اختار خلقه بمعنى اختار منهم ففيه حذف وإيصال، وقوله: فاختار إلى آخره بيان له.

وكذا قوله: **(ثم اختار بنى آدم فاختار منهم العرب)** وهم الجيل المعرفون كما تقدم، وقيل: معناه ميز بنى آدم من بينهم عن غيرهم، ثم اصطفى من بنى آدم على غيرهم أو معناه، فاصطفى من بينهم بنى آدم ثم دام على اصطفائه إياهم، وكثيرا ما تضمن الأفعال معنى الدوام نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النساء:١٣٦] وإلا فلا معنى

---

(١) البيت من الكامل، وهو لمطرود بن كعب الخزاعى فى الاشتقاق (ص١٣)، أمالى المرتضى (٢٦٨/٢)، معجم الشعراء (ص٢٠٠).

(٢) تقدم تخريجه.

لاصطفائهم واختيارهم مرة بعد أخرى، وليس العرب كلهم من ولد إسماعيل كما قاله بعضهم، فإنه قول غير صحيح لشهرته لا حاجة لذكره.

(ثم اختار العرب) أى بطنا من خيارهم ليزيده لطفا **(فاختار منهم قريشا، ثم اختار قريشا فاختار منهم بنى هاشم، ثم اختار بنى هاشم فاختارنى منهم، فلم أزل خيارا من خيار)** أى لم أزل من أصل مبدئى وأصولى إلى أن أنشأنى الله خيارا مخلوقا من خيار وشريفا من شريف.

(إلا) حرف استفتاح وتنبيه على ما علم مما قاله وتحقيق لما بعده. **(من أحب العرب فبحبى أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم)** الظاهر أن الباء للسببية أى من أحبهم بسبب محبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لهم ولمحبته، فإن من أحب أحدا يحب لأجله قومه وأصوله، وكذا البغض وهو عدم المحبة ولا يكمل إيمان المرء حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه، ونقل عن بعض المالكية أن من سبهم وجب قتله. قيل: وهذا ينبغى أن يقيد بالحيثية فإنه ملاحظ فى كثير من القضايا، أى من حيث كون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم منهم، أو من حيث أنهم عرب لا من أبغضهم أو ذمهم لأمر آخر، كقوله تعالى: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾ [التوبة:٩٧] ويدل عليه حديث: «أحب العرب لثلاث؛ لأنى عربى، والقرآن عربى، ولسان أهل الجنة عربى»(١). والمراد الحث على محبتهم. وقد صنف العراقى رحمه الله تعالى كتابا فى هذا سماه: «نيل القرب فى محبة العرب» وفى هذا رد على الشعوبية وهم قوم يفضلون العجم على العرب، ولهم أدلة على مقالتهم بينوها وما عليها، وأوردوا الأحاديث الموضوعة نصرة لهم، منها: «أن الله تعالى إذا تكلم بالرضا تكلم بالفارسية، وإذا تكلم بالغضب تكلم بالعربية» وفى الشرح الجديد الأحاديث الواردة فى فضل اللغة الفارسية كلها موضوعة، وفضلهم فى الكرم والشجاعة والحلم والعلم أكثر من أن يحصى. وقيل: إن أبا عبيدة كان شعوبيا صنف كتابا فى مثالب العرب، وقد قيل: إنه كذب عليه.

فإن قلت: إن تقديم المتعلق أعنى بحبى وببغضى يقتضى الحصر ومحبتهم لشرف نسبهم وحسبهم وما فيهم من الأمور المحمودة لا يتوقف على محبته صلى الله تعالى عليه وسلم.

قلت: إن كانت الباء للآلية الادعائية كما فى نحو: نظرت بعينى وسمعت بأذنى فلا إشكال، لأن المعنى من أحبهم أو أبغضهم فينبغى أن يحبهم بمثل حبى ويبغضهم بمثل بغضى، وهو الحب فى الله والبغض فى الله، إن كانت للسببية فالمراد أنه بسبب حبى

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١١/١٨٥).

يحبهم لا للعصبية، وأمور الجاهلية فتدبر.

قلت: وهذا الحديث رواه أيضا البيهقى عن محمد بن ذكوان عن عمرو بن دينار عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: إنا لقعود بفناء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذ مرت امرأة فقال بعض القوم: هذه ابنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال أبو سفيان: مثل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى بنى هاشم مثل الريحانة فى وسط العين، فانطلقت المرأة وأخبرت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فجاء يعرف فى وجهه الغضب فقال: «ما بال أقوام يبلغنى عنهم ما يبلغنى أن الله عز وجل خلق الخلق واختار من الخلق بنى آدم، واختار من بنى آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشا، واختار من قريش بنى هاشم، واختارنى من بنى هاشم، فأنا خيار من خيار إلى خيار، فمن أحب العرب»[1] إلى آخره.

وقوله: **(عن ابن عباس)** رضى الله عنهما قال السيوطى: هذا الحديث رواه ابن أبى عمر العدنى فى مسنده **(أن قريشا)** بفتح همزة أن المشددة والمصدر مبتدأ خبره الجار والمجرور قبله. **(كانت نورا بين يدى الله تعالى)** هو مستعار مما بين الجهتين المسامتتين لثدى الإنسان لأنهم من الله بمنزلة توجب إجلالهم ومحبتهم لشأنهم وحثا على محبتهم، وقيل: إنه كناية عن غاية القرب من محل رضاه، كما يقال: فلان بين يدى الملك، وإن كانت الحقيقة هنا متعذرة فهو مجاز متفرع على الكناية كما فى قوله: «لاينظر الله إلى فلان» كما فى شرح المفتاح.

(قبل أن يخلق آدم عليه الصلاة والسلام بألفى عام) هو على حقيقته، أو المراد طول المدة، أى قبل أن يظهره فى عالم الشهادة، ثم بين حكمة إظهاره بقوله: **(يسبح ذلك النور وتسبح الملائكة)** اقتداء **(بتسبيحه)** أى بتقديسه وتنزيهه الله، والمراد بكون قريش نورا أرواحها، أو أن الله تعالى مثلها بهذا المثال وأبرز صورها فى الملأ الأعلى تسبحه ليعلم أنها بشرية وملكية، ولذا قال الله تعالى لهم لما قالوا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٣٠] يعنى أنهم سبحوا قبل ما سبحتم فى الأزل فهم لم يعلموا بذلك لأنهم ظنوا أن تلك الأنوار ملكية صرفة، وكان نور محمد صلى الله تعالى عليه وسلم مدرجا إذ ذاك فى أصوله من قريش وغيرهم بجملة أصلابه المسبحة، وإن لم يشعروا به وإن من شىء إلا يسبح بحمده.

---

(١) تقدم تخريجه.

(فلما خلق الله) جسم **(آدم عليه الصلاة والسلام ألقى ذلك النور فى صلبه)** والصلب والصالب عمود الظهر، ويقال: بضم الصاد وفتحها أى أودعه فيه كما سيأتى تحقيقه ثم فصله.

بقوله: **(فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: فأهبطنى الله إلى الأرض فى صلب آدم)** أى أنزل نورى الذى فى صلبه إلى الأرض. **(وجعلنى فى صلب نوح)** أى نقل نورى من صلب آدم عليه الصلاة والسلام إلى صلب نوح صلى الله تعالى عليه وسلم. وقال: **(وقذف بى فى صلب إبراهيم)** عليه الصلاة والسلام، ولم يقل جعلنى لما بين نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام من البعد، لأن القذف الرمى من بعيد وأصله الرمى بالحجارة، يقال: هم ما بين حاذف وقاذف والحذف رمى العصا.

(ثم لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الكريمة) يعنى أصلاب أجداده عليه الصلاة والسلام. **(والأرحام الطاهرة)** من خبث الزنا وغيره، ووصف الأصلاب بالكريمة والأرحام بالطاهرة فى غاية الحسن؛ لأنها مقر الطمث والدم والنطف، والأرحام جمع رحم وهو وعاء الولد ويطلق على القرابة. **(حتى أخرجنى من بين أبوى)** أى بين أبى وأمى على التغليب المشهور، وإخراجه من بينهما تولده منهما وخلقه من نطفتهما.

(لم يلتقيا على سفاح قط) جملة حالية، والسفاح: الزنا، من سفح الماء ونحوه من المائعات إذا أراقه، أى لم يجتمعا على زنا، ولم تلق نطفة أحد من أبويه وآبائه فى غير الأرحام الطاهرة من الزنا ونكاح الجاهلية كما مر، وقد مر أنها لتعميم الأزمنة الماضية، يقال: ما رأيته قط بفتح القاف وضمها وتشديد الطاء، وبفتح القاف وتخفيف الطاء المضمومة، وإذا كانت بمعنى حسب ففتح وسكون.

(ويشهد لصحة هذا الخبر شعر العباس) رضى الله تعالى عنه عم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فإنه اشتمل على معناه **(فى مدح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** وهو الشعر المشهور الذى أوله:

من قبلها طبت فى الظلال وفى مستودع حيث يخصف الورق

الأبيات، وستأتى بتمامها مع الكلام عليها، وقد قيل: إنها لحسان رضى الله تعالى عنه، والصحيح الأول، وإن ذهب ابن عساكر فى تاريخه إلى الثانى فى حديث أخرجه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما إلا أنه ضعيف جدا، قيل: وهذا موضع بحث؛ لأنه إن أراد بكونه شاهدا لصحته متنا وسندا فهو غير لازم، وإن أراد به صحة معنهه فهو غير مفتقر له، لأن كثيرا من الأحاديث دلت عليه وانتقاله عليه الصلاة والسلام من صلب آدم عقلى أيضا وفيه نظر.

(فصل)

(وأما ما تدعو ضرورة الحياة إليه مما فصلناه) فيما تقدم أول الباب، وتدعو بمعنى تقتضيه ويلزم حتى كأنه تطلبه منه فهو استعارة فى الأصل، وضرورة الحياة ما لابد منه فيها مما يضطر الحى إليه. **(فعلى ثلاثة ضروب)** جمع ضرب، وهو القسم والنوع من الشىء، وفى بعض النسخ فعلى ثلاثة ضرب، وفى بعضها أضرب بجمع القلة وهو أنسب بالثلاثة والأولى، لأن الجمعين يقام كل منهما مقام الآخر كثيرا، كقوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨] وفيه تفصيل ليس هذا محله **(ضرب الفضل فى قلته، وضرب الفضل فى كثرته، وضرب تختلف الأحوال فيه)** وأفرد لكل منها فصلا كما سيأتى.

(فأما التمدح) أى حسنه بحيث يستحق المدح به وليس المراد به التكلف كتحلم. **(والكمال بقلته اتفاقا)** شرعا وعادة كما بينه بقوله: **(وعلى كل حال عادة وشريعة)** والمراد بالعادة ما اعتاده الناس مما يؤدى إليه العقل إذا خلى نفسه وطبعه، والشريعة ما أمر به الشارع ونهى عنه، مما تضمنه الوضع الإلهى السائق لذوى العقول باختيارهم إلى الأمر المحمود. **(كالغذاء والنوم)** الغذاء بكسر الغين وفتح الذال المعجمتين، وبالمد كل مأكول ومشروب به قوام البدن مطلقا، وأما بفتح المعجمة ودال مهملة فما يؤكل فى أول النهار كما مر، والنوم معروف.

(ولم تزل العرب والحكماء) أراد بالحكماء حكماء اليونان والهند والفرس ونحوهم، ولذا قابلهم بالعرب وهم يمدحون قلة النوم والسهر بما لا مزيد عليه، قال فى هياكل النور: النفوس الناطقة من جواهر الملكوت، وإنما يشغلها عن عالمها القوى البدنية ومشاغلها، وضعف سلطان القوى البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر، فيتخلص أحيانا إلى عالم القدس ويتلقى منه المغيبات.

(تتمادح بقلتهما وتذم بكثرتهما) تتمادح كتتفاخر لفظا والمقصود الكثرة لا التفاعل، وخص العرب لأنهم أكثر الناس مدحا لهذين بخلاف غيرهم، كالروم والعجم فإنهم يفتخرون بكثرة الأطعمة ونفاستها ولهم حرص عليها، وذكر الحكماء منهم ومن غيرهم، ومر ذلك لاعتنائهم بالرياضة وقلة التنعم فى كل مأكل ومشرب، مع سداد عقولهم وصفاء أذهانهم واعتنائهم بمهمات أمورهم وعبادتهم وهو ظاهر، وورد فى الحديث: «أبغضكم إلى الله تعالى كل نؤوم» وقال عيسى عليه الصلاة والسلام للحواريين: «أجيعوا بطونكم لعلكم ترون ربكم بقلوبكم» وقالوا: البطنة تذهب الفطنة. والأحاديث فى هذا أكثر من أن تحصى، وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ [محمد: ١٢].

(لأن كثرة الأكل والشرب دليل على النهم) بفتح النون والهاء وهو الإفراط فى شهوة الطعام، ومنه الحديث: «منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال»(١). والشرب مثلث الشين. **(والحرص والشره)** أى الحرص على الأكل والشرب، والشره بفتح الشين المعجمة والراء المهملة والهاء زيادة الحرص، ففيه ترقى.

(غلبة الشهوة) المراد غلبة شهوته للطعام على تحمله وصبره وعقله فيما فيه صلاحه فليس فى كلامه تكرار، وهذه كلها صفات مذمومة كما ورد فى الحديث: «الحرص والشره داء عضال» والحريص أسير شهوته وعبد بطنته، والحرص توأم الحسد وهو هادم الجسد، والحرص قد يكون محمودا إذا كان فى محمود، وقال الله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]. وإنما يمدح قلة الغذاء والنوم إذا لم يفرط حتى تؤدى لضرر بلا ضرورة كما قال:

واخش الدسائس من جوع ومن شبع فرب مخمصة شر من التخم

ثم إن ترك من ابتلى بذلك إذا عسر عليه ينبغى قطعه بالتدريج كما فى منظومة ابن سينا:

وكل عادة تضر أهلها فاقطع بتدرج الزمان أصلها

وقوله **(مسبب لمضار الدنيا والآخرة)** خبر بعد خبر لأن، وهو بكسر الباء المشددة اسم فاعل، ولم يقل سبب مع أنه أخف وأظهر؛ لأنه أمر مباح لا ضرر فيه دنيوى ولا أخروى، بل ربما يترتب عليه نفعهما كرامة البدن والقيام بعده للعبادة، كمن لو لم ينم أول الليل لم يدرك صلاة الصبح، فحيث أنه ترتب عليه نفع تارة وضرر أخرى، علم أنه ليس سببا بل قد ينشأ عنه سبب ضررهما فهو مسبب لا سبب، فإن النوم قد يكون منه ترك الصلاة وهو سبب لضرر الآخرة، والأكل يكون منه الامتلاء وهو سبب للسدة والسل، والشرب بعد النوم يورث الأمراض، وقيل: إنه بمعنى السبب هنا المفضى إلى المسبب بالفتح والفضل للمتقدم، فمعنى مسبب موجد للأسباب، وهذه الشهوة والحرص عليها يؤدى إلى جلب المال، وكذا حب الدعة والراحة قد يترتب عليه مفاسد كما قال الشاعر:

وإنك إن أعطيت بطنك همه وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

ويقع فى بعض النسخ «وغلبة الشهوة» مسبب برفعها على أنه مبتدأ وخبر ليس

---

(١) أخرجه الحاكم (٩٢/١)، والطبرانى فى الكبير (٢٢٣/١٠)، وابن عدى فى الكامل (١٤٥٧/٤)، والشجرى فى أماليه (١٦٦/٢).

بشيء، لأن غلبة الشهوة ليس سببا للمضار وإنما سببه الأكل والشرب كما قاله الأنطاكى، ثم أشار المصنف رحمه الله تعالى إلى ذلك على طريق اللف والنشر، فقال: **(جالب لأدواء)** جمع داء **(الجسد)** أى أمراضه وأسقامه كما هو مشاهد، وقال:

فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

فهذا راجع لكثرة الأكل والشرب إذ بهما تمتلئ المعدة والعروق بالدم، وتزيد الأخلاط فيتولد منها الأمراض. واجتمع أربعة أطباء هندى ورومى وعراقى وسوادى عند الرشيد، فقال: ليصف كل واحد منكم الدواء الذى لا داء معه، فقال الهندى: هو الإهليلج الأسود. وقال الرومى: حب الرشاد الأبيض. وقال العراقى: الماء الحار. فقال السوادى: وكان أعلمهم الإهليلج يعفص المعدة، وهذا داء وحب الرشاد يرققها وهذا داء، والماء الحار يرخيها، وهذا داء، قالوا: فما هو؟ قال: أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه وترفع يدك وأنت تشتهيه. وفى الطب النبوى فى معناه أحاديث كثيرة نحو: «صوموا تصحوا»(١).

(وخثارة النفس) بفتح الخاء المعجمة والمثلثة والراء المهملة عند ابن رسلان وبضم الخاء عند برهان الحلبى، والأول هو الظاهر لموافقته القياس كالكفالة والضلالة، قال ابن الأثير: هو ثقل النفس وعدم نشاطها، والظاهر أنه راجع لكثرة النوم فإنه يورث لاسيما بالنهار ضعفا للبدن، ووقع فى بعض النسخ خسارة بالسين وهو تصحيف وتحريف من الكاتب، وهو مجرور معطوف على الأدواء، وكذا قوله: **(وامتلاء الدماغ)** بأبخرة رطبة تتصاعد عند النوم ترخى أعصاب الدماغ وتضعفه، وتذهب صفاء الذهن، وتورث البلادة، وقلة الحفظ، ويصح رجوع هذا وما قبله للجميع، لكن يأباه ما بعده من قوله: **(وقلته دليل على القناعة)** بالنصب عطفا على كثرة الأكل، ويجوز رفعه على الابتداء لأن من اعتاد قلة الأكل يقنع باليسير فاستراح واستغنى عن الناس فعز وتخلى للعبادة، وكان من رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

(وملك النفس) معطوف على القناعة أى ملك نفسه الأمارة فلا تعصيه، لأنه إذا شبع عصته نفسه وتحركت شهوته، كما قال ذو النون رحمه الله تعالى: ما شبعت إلا هممت بمعصية والجوع يقمع الشهوات.

(وقمع الشهوة) معطوف على القناعة، والقمع القهر أى قهر شهوته وغلبها وأضعفها حتى لا تخالفه، وما بعده خبر مبتدأ مقدر، والظاهر أنه مبتدأ خبره **(مسبب)**

---

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٣٢٤/٥).

بكسر الباء كما تقدم.

(للصحة وصفاء الخاطر وحدة الذهن) الخاطر يطلق على ما يخطر على القلب من الأفكار، ويطلق على القلب نفسه وصفاؤه من الكدورة بحسب فهمه، والذهن قوة الفهم وحدته سرعته، وهذا يكون عند الجوع أقوى وأصفى وبه يصل للمعارف الربانية، ويلتذ بالمناجاة والأذكار والعبادة، وقال الجنيد: يجعل أحدكم بينه وبين قلبه مخلاة من الطعام، ويريد أن يجد حلاوة المناجاة، وهذا كله راجع للأكل وما بعده لما بعده، والحدة بكسر الحاء القوة كبعثة. **(كما أن كثرة النوم دليل على الفسولة)** بضم الفاء والسين المهملة واللام، وهى الرذالة وعدم الهمة فى أمور الدنيا والآخرة.

فيا نائم الليل هنيته فقبل الممات سكنت القبورا

لأنه يميت القلب ويورث الكسل، ولا يصح إعجامه وإن كان بمعنى الجبن لعدم مجىء مصدره على فعولة. **(والضعف)** أى ضعف القوى والإدراك.

(وعدم الذكاء والفطنة مسبب) هما متقاربان أو الفطنة والفهم والذكاء سرعته، فقد نفى الأخص على نفى الأعم ليفيد المبالغة على قاعدتهم فى الترقى فيه، وعدم الذكاء مرفوع مبتدأ وخبره مسبب كما فى الأصول، والأظهر جره عطفا على ما قبله، فمسبب خبر بعد خبر كما مر.

(للكسل وعادة العجز وتضييع العمر فى غير نفع) أما كون كثرة النوم سبب للتوانى عن فعل المهم، فلتغفل الحواس فيه وارتخاؤها بعده، فإذا ألف ذلك عجز وضاع عمره بلا فائدة، كما قال:

أليس من الخسران أن لياليا تمر بلا نفع وتحسب من عمرى

فمثله لا يعد عمرا لأنه ما عمر الإنسان أحد داريه.

إذا كان رأس المال عمرك فاحترس عليه من الإنفاق فى غير واجب

(وقساوة القلب وغفلته وموته) لعدم قبوله الموعظة بسبب غفلته به عما يهمه، وموته بعدم إدراكه؛ لأنه صفة تبطل الحس والإرادة كالموت، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:٤٢] الآية، فالنوم أخو الموت **(والشاهد على هذا)** أى الدليل عليه وأنهما يورثان ما ذكر. **(ما يعلم ضرورة)** أى يعلمه كل أحد علما بديهيا ضروريا. **(ويوجد مشاهدة)** منه ومن أمثاله **(وينقل متواترا)** أى نقلا متواترا بحسب المعنى. **(من كلام الأمم المتقدمة والحكماء السالفين)** المتقدمين على ملة الإسلام من حكماء الهند والعجم واليونان والعرب وغيرهم، كقول الحارث بن كلدة حكيم

العرب: أفضل الدواء الإزام، أى قلة الأكل. وقال داود: إياك وكثرة النوم فإنه يفقرك إذا احتاج الناس لأعمالهم. **(وأشعار العرب وأخبارهم)** كقوله:

قارب فديتك إن أكلـ ـت وإن شربت وإن عشيتا
وأنا الكفيل لك الحيا ة وأن تعافا ما حييتا

وقال قيصر لقس بن ساعدة: ما أفضل الأكل؟ قال: ترك الإكثار.

(وصحيح الحديث) النبوى مثل: «أبغضكم إلى الله كل نؤوم أكول شروب» وغيره **(وآثار من سلف وخلف)** الأثر ما أثرته أى نقلته عن غيرك فيشمل الحديث، ويطلق ويراد به ما يقابل الحديث، والمراد بمن سلف من تقدم عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وبمن خلف ما عداهم كالصحابة رضى الله تعالى عنهم والتابعين **(مما لا يحتاج إلى الاستشهاد عليه)** أى طلب شاهد ودليل عليه وبين وجه ترك الاستشهاد بقوله: **(اختصارا واقتصارا على اشتهار العلم به)** المغنى عن التطويل بذكره، والاختصار عند أهل العربية الحذف لدليل، والاقتصار حذف بلا دليل، وعند المحدثين أن يكون للحديث طرق فيكتفى بأحديها، والمراد هنا عدم التطويل اكتفاء بشهرة العلم بما ذكر.

(فكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أخذ من هذين الفنين) أى النوعين وهما الأكل والنوم **(بالأقل)** عداه بالباء وإن كان متعديا بنفسه لتضمنه معنى التمسك أو الاتصاف، أى لازم صلى الله تعالى عليه وسلم أقل قليل منهما لما فيه من الكمال والملكة المرضية، وأتى باسم الإشارة للقريب تحقيرا لهما نحو: ما هذه الحياة الدنيا. وتبعيدا لهما عن ساحة الاعتبار لعدم المبالاة بهما. وما قيل من أنه كان ينبغى للمصنف رحمه الله تعالى أن يقتصر على كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن معه لا يحتاج لغيره من شعر وحكمة ليس بشىء، فإن مراده أن صفاته صلى الله تعالى عليه وسلم مما اتفق العقلاء وجميع الأمم على حسنها وكونها مرضية محمودة، وأن كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم زبدة حكم الأمم وإن لم يرهم ولم يقرأ كتبهم، وكفاك قصص القرآن نظير الصنيعة.

(هذا) أى ما ذكر من قلة أكله صلى الله تعالى عليه وسلم ونومه **(ما لا يدفع)** أى لا ينكر ولا ينازع فيه. **(من سيرته)** أى من طريقته وصفته، وهو بيان لما حال من ضمير يدفع، أى لشهرته وتواتره لا ينازع فيه أحد. **(وهو الذى أمر به)** أمته دون ضده وضمير به لهذا أو للأقل. **(وحض عليه)** بحاء مهملة وضاد معجمة، أى حث الناس ورغبهم فى التخلق به لما علم من شرفه وكماله.

(لاسيما بارتباط أحدهما بالآخر) لاسيما بمعنى لا مثلما، والكلام عليه مفصل فى

العربية، ويذكر بعده ما هو أولى بالحكم نحو: أكرم الناس، لاسيما العلماء إلا أن فى كونها هنا كذلك خفاء لم يتعرضوا له، غير أن بعضهم قال: المعنى لاسيما الأمر بالأخذ بالأقل والحض عليه مع ارتباط أحدهما بالآخر، لأنه إذا شبع شبعا كثيرا نام كثيرا ففاته خير كثير يعقبه ندم كثير وهو لا يجدى نفعا، والبيان الشافى أن كل واحد منهما مذموم مع انفراده ينبغى الحث على تركه، فكيف إذا اجتمعا وهما كذلك غالبا للزوم أحدهما للآخر، فإن النوم يلزم الأكل والباء بمعنى مع، فما قيل أن لاسيما هنا ليست على وفق استعمالها ليس بشىء، وهو توطئة للحديث الآتى المتضمن لتلازمهما، ومن لم يفهم هذا قال: إن المصنف رحمه الله تعالى استعمل لاسيما على خلاف ما جاء فى قوله. ولاسيما يوم بدارة جلجل. وقد قال ثعلب: من استعملها على خلافه فهو مخطئ، وحذف الواو والمستثنى بها وتقديره ولاسيما حض بارتباط أحدهما بالآخر الخ.

(حدثنا أبو على الصدفى) هو الحافظ ابن سكرة تقدم بيانه **(بقراءتى عليه)** بين طريق روايته بأنه قرأ وشيخه يسمع، إلا أن قراءة الشيخ والسماع منه أعلى رتبة فى الرواية، لكن صار المعروف اليوم القراءة على الشيخ، ولذا قيل: إنها أرفع، وقيل: إنهما سواء.

(قال: حدثنا أبو الفضل الأصفهانى) بفتح الهمزة وكسرها وبالباء والفاء، وهى بلدة عظيمة، قال صاحب المطالع: قيدناها بالفتح عن جميع شيوخنا، قال: وقيدها بالكسر أبو عبيد البكرى، قال: وأهل المشرق يقولون: أصفهان بالفاء، وأهل المغرب بالباء، وهو أحمد بن خيرون. وقد تقدم، ومعنى أصبهان مقر الفرسان، لأن أصب بمعنى فرس، قيل: وهى لا تخلو غالبا من ثلاثين رجلا يستجاب دعاؤهم، وكان نمرود حمل منهم ثلاثين رجلا لحرب الخليل، فلما رأوه آمنوا به فدعا لهم بذلك، أى بأن تجاب دعوتهم كما أجابوا دعوته.

(قال: حدثنا أبو نعيم) بالتصغير وهو حافظ عصره ومحدثه أحمد بن عبد الله بن أحمد ابن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهانى الصوفى سبط الزاهد محمد بن يوسف البناء، ولد سنة ست وثلاثين وثلثمائة، وتوفى فى المحرم سنة ثلاثين وأربعمائة وعمره أربع وتسعون سنة، وسمع من كثير وسمع منه الحفاظ، وله ترجمة فى الميزان وتصانيفه مشهورة.

(قال: حدثنا سليمان بن أحمد) بن أيوب بن مطر الشيبانى مسند الدنيا الإمام الجليل، ولد بعكا فى صفر سنة ستين ومائتين، واعتنى به أبوه فرحل به فى حداثته، وسمع فى سنة ثلاث وسبعين وبعدها بمدائن الشام، والحرمين، ومصر، والكوفة، والبصرة، وأصبهان، والجزيرة وغيرها. وحدث عن أكثر من ألف شيخ، وصنف «المعجم الكبير»

ولم يذكر مسند أبى هريرة فإنه أفرده بمصنف، و «المعجم الأوسط» وهو كتاب جليل تعب فيه، وكان يقول: هو روحى، و«المعجم الصغير» ومصنفات أخر جليلة، وتوفى لليلتين من ذى القعدة من سنة ستين وثلثمائة وله مائة سنة وعشرة أشهر يقينا، وترجمته فى الميزان وتصانيفه مشهورة.

(قال: حدثنا أبو بكر بن سهل) أبو محمد مولى بنى هاشم بن عبد الله بن يوسف الدمياطى، روى عنه الطحاوى وغيرهما، توفى سنة تسع وثمانين ومائتين عن نيف وتسعين سنة، وهو متقارب الحال، وقيل: ضعيف كما فى الميزان.

(قال: حدثنا عبد الله بن صالح) هو أبو صالح الجهنى مولاهم كاتب الليث، روى عن معاوية بن أبى صالح الآتى، وموسى بن على وغيرهما، وروى له البخارى وأصحاب السنن، وهو زاهد حسن الحديث، توفى فى سنة مائتين وثلاث وعشرين وعمره ست وثمانون سنة، وله ترجمة مطولة فى الميزان.

(قال: حدثنا معاوية بن أبى صالح) الحضرمى قاضى الأندلس وهو إمام صدوق توفى سنة ثمان وخمسين ومائة، وله ترجمة فى الميزان.

(أن يحيى بن جابر حدثه عن المقدام بن معدى كرب) هو يحيى بن خالد الطائى قاضى حمص، مات سنة مائة وستة وعشرين، وأخرج له أصحاب السنن، والمقدام بن معدى كرب بن عمرو الكندى صحابى نزل حمص وترجمته مشهورة، توفى سنة سبع وثمانين، وأخرج له أصحاب السنن وأحمد. قال السهيلى: معنى معدى كرب وجه الفلاح، وفيه لغات إسكان ياء معدى، ولو فى النصب مع فتح باء كرب بلا تنوين لبنائه وإعرابها بالإضافة مع الصرف وعدمه.

(أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه) وهذا الحديث رواه الترمذى والنسائى وابن حبان، وأخرجه المصنف رحمه الله تعالى عن الطبرانى ولم يروه عن الترمذى، لأن سنده لمعجم الطبرانى أعلى من غيره، لأن بينه وبين المقدام ثمانية فى رواية الطبرانى، وبينه وبينه فى رواية الترمذى من إحدى طريقيه أحد عشر، ومن الأخرى عشرة، والحديث صحيح. وفى الروايات اختلاف يسير، ففى الترمذى بدل ابن آدم آدمى، وبلفظ بطن بلا إضافة، وبحسب الآتى بالباء الجارة، والوعاء ظرف الطعام، والمراد أنه لا وعاء أشر منه ولا يساويه فى الشر، فجعل بطنه كأوعية البيت تحقيرا له، ثم جعله شر الأوعية زيادة فى تحقيره؛ لأن امتلاءه يورثه البلادة ويحرك شهوته فيرتكب المعاصى، يحصل له من الأمراض ما يضره كما مر، ويؤدى إلى

هلاكه، ولا شر أعظم من هذا فحسبه منه ما يقيم صلبه ويعينه على عبادة ربه ونظام أمور دنياه، فلذا قال: **(حسب ابن آدم)** وفى رواية لمسلم بدون ابن آدم.

(أكلات يقمن صلبه) حسب بسكون السين بمعنى كفى، كما يقال: أعطيت الرجل ما حسبته أى أعطيته عطاء يكفيه، وهو مبتدأ خبره أكلات بضم الهمزة والكاف معا، والرواية به ويجوز فتح الكاف وتسكينها جمع أكلة بضم الهمزة وسكون الكاف اسم لما يؤكل، ويقمن: بمعنى يقوين من أقام بمعنى دام وثبت. وصلبه: بضم الصاد وفتحها عظام سلسلة ظهره؛ لأنه عموده وفيه النخاع الذى يمد العصب بالممسك، فإذا أفرط جوعه ضعف وانحنى صلبه. وفى القاموس ما يخالف ما قاله الشراح، لأنه جوز فى أكلة الفتح والضم واقتصر فى جمعه على فتح ثانيه كصرد، وقال البرهان: أكلات بضم الهمزة جمع أكلة بفتحها وهى اللقمة.

(فإن كان لا محالة) بفتح الميم والحاء المهملة واللام بمعنى لابد ولا حيلة كما فى قوله:

وكل نعيم لا محالة زائل

أى إن لم يكن صبر على الاقتصار على لقيمات. **(فثلث)** من بطنه **(لطعامه وثلث)** منه **(لشرابه وثلث)** منه **(لنفسه)** بفتحتين وهو الهواء الخارج من الجوف، وروى الدلجى «طعامك وشرابك ونفسك» بكاف الخطاب على الالتفات من الغيبة للخطاب اعتناء بشأن من أرشده فيما أرشده إليه، وأنه لا ينبغى تجاوزه، وفى الأول حث على الأقلية وفيما بعده تجويز لما فوقه من غير إفراط والشراب هنا بمعنى الماء.

(ولأن كثرة النوم من كثرة الأكل والشرب) هذا من كلام المصنف رحمه الله تعالى لا من الحديث، إلا أن الشراح لم يبينوا وجه ارتباطه بما قبله ولا على ما عطف، والظاهر أنه عطف على قوله السابق بارتباط أحدهما بالآخر، لأن السبب والعلة فى معنى واحد، فالمراد بارتباطهما أن أحدهما يستدعى الآخر، فإن الأكل يقتضى الشرب، ثم بين أنهما وكثرتهما يقتضيان كثرة النوم، لما يصعد منهما من الأبخرة الكثيفة إلى الدماغ المرخية له المقتضية لكثرة النوم المستدعى للكسل وذهاب الفطنة وفوات العبادة، وفى ذلك ما لا يخفى من الضرر.

(قال سفيان الثورى:) بكسر السين وضمها وفتحها، وهو سفيان بن سعيد بن مسروق أبو عبد الله، والثورى نسبة لثور بن مناة، وقيل: من ثور همدان وهما قبيلتان، الكوفى عالم عصره الزاهد المحدث، توفى سنة إحدى وستين ومائة وعمره أربع وستون، وهو ثقة ولا عبرة ممن تكلم فيه، وهم من أقران مالك رحمه الله تعالى.

(يملك سهر الليل بقلة الأكل) يملك بضم الياء وفتح اللام مبنى للمفعول، وسهر مرفوع نائب الفاعل، أى يقوى ويقدر عليه من غير مشقة، فشبه قدرته بملكه له فهو استعارة، لأن النفس تقهر بقلة الطعام بعد أن كانت قاهرة.

(وقال بعض السلف: لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا) زاد الغزالى فى الإحياء: فتخسروا كثيرا. وزاد غيره: فتندموا عند الموت لقلة الزاد، لأنه أكل زاده فضيعه فى غير وقته.

(وقد روى عنه) أى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم **(أنه كان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف أى كثرة الأيدى)** لما فيه من السخاء بالطعام وقلة الأكل وكثرة البركة، وهذا الحديث قال السيوطى رحمه الله تعالى: إنه رواه أبو يعلى عن أنس وجابر رضى الله تعالى عنهما بسند جيد، ولفظه كما قال الشيخ قاسم فى تخريجه: أنه لم يجمع له غداء وعشاء وخبز ولحم إلا على ضفف وسنده جيد. وأخرج أبو عبيد فى الغريب أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يشبع من خبز ولحم إلا على ضفف.

وأخرج الترمذى فى الشمائل عن مالك بن دينار قال: «ما شبع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الخبز قط، ولا من لحم إلا على ضفف» قال مالك: سألت رجلا من أهل البادية ما الضفف؟ قال: هو التناول مع الناس.

وأخرج الطبرانى رحمه الله تعالى عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «أحب الطعام إلى الله تعالى ما كثرت عليه الأيدى». انتهى.

والضفف: بفتح الضاد المعجمة والفائين أولاهما مفتوحة فسرها المصنف رحمه الله تعالى بما ذكره أهل اللغة، وهو تفسير مأثور كما سمعته آنفا، وهو من قولهم بئر ضفوف إذا كثر الناس عليها، وقال يحيى بن أحمد: الضفف أن يكون الأكلة أكثر من الطعام، والجفف بالجيم أن يكون بمقداره، وقيل: الضفف الضيق والشدة أى لم يكن صلى الله تعالى عليه وسلم محبا للترفه فى مأكله ولا متنطعا فيه. وفى رواية: «لم يشبع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من طعام إلا على ضفف». وروى: «على شظف» أى ضيق وشدة كما علم، فالضفف والشظف رويا بمعنى الضيق، والحاصل أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يحب الأكل مع الجماعة وإن قل طعامه، وضاقت معيشته. والأحاديث فى معناه كثيرة: كـ«طعام الواحد يكفى الاثنين، وطعام الاثنين يكفى الأربعة، وطعام الأربعة يكفى الثمانية»(١). وهو حديث صحيح. وقيل: الضفف كثرة العيال. وقيل: قلة

(١) أخرجه مسلم (٢٠٥٩/١٧٩)، والترمذى (١٨٢٠)، وابن ماجه (٣٢٥٤)، وأحمد (٤٠٧/٢)، =

الطعام وكثرة الآكلين. ويقال: ضف بالإدغام، وقال ابن السكيت. الضف الأكل باليد ففيه لغتان وله معان.

(**وعن عائشة رضى الله تعالى عنها: لم يمتلئ جوف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم شبعا قط**) وروى عنها أيضا: «ما شبع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبز حتى مضى لسبيله». وهذا يقتضى بمفهومه أنه شبع فى بعض الأيام دون الثلاثة، وهو معارض للأول وكلاهما صحيح، ويجمع بينهما بأن دلالة المفهوم لا تعارض المنطوق عند من قال بها، كأبى حنيفة رحمه الله تعالى فلا تعارض بينهما بالطريق الأولى، أو يقال: الامتلاء شبعا صفة زائدة على الشبع، فالشبع الأعم كان يقع منه صلى الله تعالى عليه وسلم أحيانا، وأما الامتلاء من الشبع فلم يقع أصلا، والشبع مباح عليه محرم على غيره إلا للتقوى على صوم الغداة، ولمؤانسة الضيف حتى لا يستحى من الأكل كما قاله الحنفية، وعند الشافعية هو محرم من مال الغير إن لم يعلم رضاه ومن مال نفسه مكروه، مع أن ما ذكر من تعارض الحديثين غير مسلم لأن ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى هنا ذكره فى الإحياء أيضا عن عائشة رضى الله تعالى عنها، وتمامه: «وربما بكيت رحمة له صلى الله تعالى عليه وسلم لما أرى به من الجوع، وأمسح بطنه الشريف بيدى وأقول نفسى لك الفداء لو تسلفت من الدنيا بقدر ما يقوتك منها ويمنعك من الجوع، فيقول: «يا عائشة إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم، فقدموا على ربهم عز وجل، فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم، وأجدنى أخشى إن ترفهت فى معيشتى أن يقصر بى دونهم فأصبر أياما يسيرة أحب إلى من أن ينقص حظى غدا فى الآخرة، وما من شيء أحب إلى من أن ألحق إخوانى» قالت: فوالله ما استكمل بعد جمعة حتى قبضه الله». وقد ذكر المصنف رحمه الله صدره فقط، وقال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء: لم أجد هذا الحديث، فلا يعارضه، وشبعا تمييز أو مفعول مطلق، وشينه مفتوحة وتكسر وتفتح الباء وتسكن، وصوب ابن مكى كسر الشين وسكون الباء كما قاله التلمسانى، ثم إنه ورد فى الأحاديث الصحيحة: «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يشبع ويجوع» وفى البخارى: «ما شبع آل محمد قط» وهذا محمول على غالب أحواله صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن الغالب ينزل منزلة الكل كثيرا، وهذا لم يكن عن احتياج حقيقى لما رواه الترمذى عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه أنه قال: قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «عرض على ربى أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا فقلت: لا يا رب أشبع يوما وأجوع يوما، فإذا جعت تضرعت إليك وإذا شبعت

= ٣/١٠٣، ٣١٥)، والدارمى (٢/١٠٠)، وعبد الرزاق (١٩٥٥٧).

شكرتك»[1]. كما قال البوصيرى:

وراودته الجبال الشم من ذهب   عن نفسه فأراها أيما شمم

فجوعه صلى الله تعالى عليه وسلم كان قصدا، ولكن يظهر أنه عن احتياج تطييبا لقلوب الفقراء، وتنزيها من الرياء، وتبريا من رياضة أهل الكتاب والحكماء، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا رهبانية فى الدين»[2] وهذا مما ينبغى التنبيه له ويجب اعتقاده والتأسى به فيه فافهم.

(وأنه) معطوف على ما قبله من قوله: «أنه كان أحب» إلى آخره وقوله: **(كان فى أهله)** أى أهل بيته وعائلته وهو حال من فاعل يسأل أو خبر وجملة. **(لا يسألهم طعاما)** حال منه وعدم سؤاله صلى الله تعالى عليه وسلم لذلك لعدم اهتمامه به والتفاته لما هو أهم منه.

(ولا يتشهاه) مضارع تشهى تفعل من الشهوة وهو الميل إلى ما يستلذ. وقيل: هى إدراك الملائم من حيث هو ملائم، وقيل: الشهوة لا تحد والفرق بينها وبين الإرادة أن الإنسان قد يريد مالا يشتهيه ويشتهى ما لا يريده، كالمريض المحتمى عما يشتهيه. والإرادة قد تتعلق بنفسها بخلاف الشهوة، فإنها لا تتعلق بنفسها بل تتعلق بالذات المغايرة لها، فإذا ذكرت متعلقة بنفسها كانت مجازا عن الإرادة، كما قيل لمريض: ما تشتهى؟ فقال: أشتهى أن أشتهى. وفرق بينها وبين المحبة أيضا، فإنك تقول: أحب الله ورسوله، ولا تقول أشتهيهما. فالمحبة أعم والشهوة فى الأصل تكون وجدانية غير اختيارية بخلاف المحبة، ولذا فرق النحاة بين قوله: أحب إلى وأشهى إلى فجعلوا إلى فى الأول للتبيين وفى الثانى بمعنى عند، وفيه كلام لنا فى نكت المغنى من باب الهمزة فإن أردته فراجعه، ثم بين ما ذكر.

بقوله: **(إن أطعموه أكل وما أطعموه قبل وما سقوه شرب)** يعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يأكل ما قدمه له أهله ونحوهم من الطعام ويقبله من غير أن يعيبه، وكذا كل ما قدم له من الماء يشرب، وهذا كان غالب حاله صلى الله تعالى عليه وسلم فلا ينافى ما وقع له نادرا على خلاف مقتضى طبعه، كما فى مسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت: قال لى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذات يوم: «يا عائشة

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٥٤)، والترمذى (٢٣٤٧)، والطبرانى (٨/٢٤٥)، وأبو نعيم فى الحلية (٨/١٣٣).

(٢) أورده العجلونى فى كشف الخفا (٢/٥٢٨).

هل عندكم شيء؟ فقلت: يا رسول الله ما عندنا شيء. قال: «فإنى صائم»[1] الحديث وسقوه بمعنى أعطوه ما شرب، وزاد الدلجى قط بعد قولهم السابق: لا يسألهم.

(ولا يعترض) ببناء المجهول **(على هذا بحديث بريرة رضى الله عنها)** أى على هذا المذكور من عدم سؤاله لما ذكر، وبريرة بفتح الموحدة ورائين مهملتين أولاهما مكسورة بينهما مثناة تحتية من البر بمعنى مبرورة أو بارة، وهى بنت صفوان، وهى قبطية أو حبشية عند الذهبى، مولاة عائشة رضى الله عنها اشترتها من عتبة بن أبى لهب، وقيل: من بنى كاهل. وقيل: كانت لناس من الأنصار، وحديثها أخرجه مالك فى الموطأ عن القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها، ورواه الشيخان وهو: قالت عائشة: «كان فى بريرة ثلاث سنن وكانت إحدى السنتين أنها أعتقت فخيرت فى زوجها، وقال فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «الولاء لمن أعتق»[2] ودخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أهل بيته والبرمة تفور باللحم، فقربوا له خبزا وإداما من إدام البيت، فقال: «ألم أر البرمة فيها لحم؟ فقالوا: بلى يا رسول الله، ولكن هو لحم تصدق به على بريرة وأنت لا تأكل الصدقة، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «هو لها صدقة ولنا هدية»[3] فأخبرهم صلى الله تعالى عليه وسلم أن هذا اللحم بإهدائها إياه انتقل من حكم الصدقة إلى حكم الهبة، وإنما الذى حرم عليه ما تصدق به على نفسه وجعل محلا لقبوله، ولو كان ما تصدق به مرة يثبت له حكم الصدقة، لما جاز للفقير إذا تصدق عليه بشيء أن يبيعه من غنى، فقد سألهم صلى الله تعالى عليه وسلم الطعام وأجاب عنه المصنف رحمه الله تعالى بقوله الآتى، فأراد بيان سنته وبأن سؤاله لمقتض والمنفى السؤال بغير مقتضى.

(وقوله ألم أر البرمة) بضم الموحدة وسكون الراء وبالميم، وهى عند العرب قدر ينحت من الحجارة، وقيل: أعم من ذلك فيشمل النحاس والحديد وغيرهما. **(فيها لحم)** الضمير للبرمة لأنها مؤنث كالقدر إلا أن تأنيث الثانية سماعى، واللحم بسكون الحاء المهملة وتفتح وقد قيل: إنه لغة مطردة فى كل ما ثانيه حرف حلق كالبحر والنهر والبغل والبخل والكحل، وأنكره البصريون.

---

(١) أخرجه مسلم (١١٥٤/١٦٩)، وأحمد (٤٢٦/٥)، والبيهقى (٢٠٣/٤).

(٢) أخرجه البخارى (٢٠٠/٣، ٢٥٠، ١١/٧، ٦١)، وأحمد (٢٨١/١، ٢٨/٢، ١٥٣، ١٥٦، ٤٢/٦، ١٠٣)، وابن ماجه (٢٠٧٦)، وعبد الرزاق (١٥٧٧٢)، والدارقطنى (٢٣/٣)، والبيهقى (٣٣٨/١٠).

(٣) أخرجه البخارى (٦١/٧)، وأحمد (١٧٨/٦)، والنسائى (١٦٢/٦)، والبيهقى (٣٢٨/١٠).

(إذ لعل سبب سؤاله ظنه صلى الله تعالى عليه وسلم اعتقادهم) أى اعتقاد عائشة المخاطبة وغيرها من الناس فذكره تغليبا **(أنه)** أى اللحم بسبب أنه صدقة فى الأصل. **(لا يحل له)** صلى الله تعالى عليه وسلم كالصدقة عليه بالذات. **(فأراد بيان سنته)** أى طريقته المشروعة له وهى جواز أكل الهدية، وإن كانت صدقة على مهديها **(إذ رآهم لم يقدموه)** أى اللحم. **(إليه مع علمه أنهم لا يستأثرون عليه به)** أى لا يخصون أنفسهم ويقدمونها على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى شىء من الطعام وغيره. **(فصدق)** بتخفيف داله ويجوز تشديدها **(عليهم ظنه)** بالنصب أى صدق فى ظنه جعلهم بذلك فهو متعد بنفسه أو على الحذف والإيصال كما فى صدق وعده، أو بالرفع على أنه فاعل أى يحقق ظنه أو وجد صادقا فى جهلهم ذلك.

(وبين لهم ما جهلوه من أمره بقوله: هو لها صدقة ولنا هدية) وهذا جواب استحسنوه، فإن الرجل إذا رأى طعاما أهدى له فسأل عنه وطلب أن يؤتى به لا يذم، وإنما لا يسأله عما عهده من طعامه ويبحث عنه، وأتى بلعل التى للترجى لأنه لم يجزم به وتقدم جواب آخر، وهذا الحديث يدل على أن الصدقة حرام عليه صلى الله تعالى عليه وسلم لشرف قدره وعلو منصبه وغناه حقيقة، وسواء فيه صدقة التطوع والفرض كالزكاة وفى حل التطوع، قول للشافعى: وكذا أهل بيته، وقيل: ما يحرم عليه الصدقة العامة كماء السبيل والآبار المسبلة، وهل ذلك حرام على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أم خاص به صلى الله تعالى عليه وسلم؟ فيه خلاف، والأصح اختصاصه به صلى الله تعالى عليه وسلم. وفى الأحاديث ما يدل عليه، ونقل عن أبى حنيفة رحمه الله تعالى جواز الصدقة على أهل البيت مطلقا. وقيل: إذا حرموا سهمهم من بيت المال كما نقله الطحاوى، وهو وجه عن الشافعى ومالك، وهم بنو هاشم وكذا بنو المطلب بخلاف غيرهم من قريش وأزواجه رضى الله تعالى عنهن.

(وفى حكمة لقمان) بن عنقاء بن سيرون واسم أبيه تاران، وقيل غير ذلك، وقيل: إنه ابن أخت داود عليه الصلاة والسلام وعنه أخذ الحكمة. وقيل: كان قاضيا فى بنى إسرائيل، والأصح أنه حكيم وقد جمعت حكمه فى كتاب مستقل مسند، والمراد بالحكمة الموعظة الحسنة لفظا ومعنى، ولقمان هذا هو المذكور فى القرآن. وكانت الحكم تجرى على لسانه لما أتاه الله من العلم والنفس القدسية، وهو ولى عند الأكثرين ونبى عند بعضهم، وكان عبدا حبشيا نجارا بالراء، وقيل: نجادا بالدال أو خياطا أو راعيا. وقيل: نوبى. وقيل: إنه تلمذ لألف نبى وهو غريب من أهل أيلة. وقيل: أنعم. وقيل: أشكم. وقيل: ماتان. وقيل: إنه ابن أخت أيوب أو ابن خالته. وقيل: إنه كان فى

زمن داود. وقيل: إنه بعد إبراهيم، والأصح الأول. وقيل: بعد عيسى عليه الصلاة والسلام، والقول بأنه عاش ألف سنة غلط من لقمان بن عاد.

(يا بنى) بالتصغير والإضافة واسمه مشكم بكسر الميم وسكون المعجمة وميم على الأصح، وقيل غيره كما مر. **(إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة)** المعدة: بفتح الميم وكسر العين وبكسر الميم مع سكون العين مقر الطعام، وهى للإنسان كالكرش للبهائم، والحوصلة للطير، والفكرة والفكر قوة مدركة فى الدماغ عند من أثبت الحواس الباطنة فى بطون الدماغ كما فصل فى كتب الحكمة، ومن لم يثبتها يقول: هى قوة للنفس تدرك بها الأمور الدقيقة، فعلى الأول نومها استعارة تبعية لبطلان عملها أو شبهت الفكرة بشخص وأثبت له النوم على طريقة المكنية والتخييلية، وكذا على الثانى، أو المراد نام صاحبها والنوم مبطل للحس والإدراك، والمراد على كل غلبة للغفلة والذهول على كل من يشغله بطنه عن مهماته، ومثله ما ورد فى الحديث: «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب» فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء فيدبر عما يهمه من العلم النافع والعبادة. والجهل يستعار له الموت كما قيل:

لا يعجبن الجهول بزنة فذاك ميت وثوبه كفن

(وخرست الحكمة) هو كالذى قبله فى الاستعارة ونحوها، أى خرس اللسان التى تجرى عليه، والحكمة النطق بما فيه كمال النفس واقتباس النظرية والملكات التامة والأفعال الفاضلة، أى تركت ذكرها واكتسابها. **(وقعدت الأعضاء عن العبادة)** أى كسل صاحبها فلم يستعملها فى عبادة الله بأن يعطل بدنه من القيام لها، واللسان من ذكرها، والقلب عن فكرها، وهكذا فشبه تركه بالعقود أو استعمله فى لازمه ونحوه مما مر، فقسه على ما قبله.

(وقال سحنون) الفقيه المالكى وهذا لقبه، واسمه عبد السلام بن سعيد التنوخى قاضى إفريقية، وكنيته أبو سعيد وهو بضم السين، وصوب القاضى فتحها وقال: إن الضم زعمه بعض الفقهاء وعليه ابن الحاجب فى الشافعية حيث قال: سحنون إن صح الفتح ففعلون كحمدون، وهو مختص بالعلم لندور فعلول وهو صعفوق وخرنوب ضعيف. وقال غيره: إنه صحيح على أنه فعلون بالنون، وهو أولى لكثرته فى الإعلام كعبدون ورزقون وزيدون خصوصا بالمغرب، وهو اسم طائر كثير الحركة فى الأصل. وقيل: هو البليل. وأدرك مالكا ولم يقرأ عليه، وقرأ على ابن القاسم وأشهب، وهو واضع كتاب المدونة، وانتهت إليه رياسة العلم بالمغرب، وحصل له ما لم ينله غيره، وولد فى أول رمضان سنة ستين ومائتين، ومات لتسع خلون من رجب سنة أربعين ومائتين. وقيل:

الظاهر أن سحنون فعلول من السحنة وهى الهيئة الحسنة، وهو ممنوع من الصرف للعلمية وشبه العجمة، أو مصروف إن كان فعلولا. وقال التلمسانى: وقع فى نسخة القرافى هنا ذو النون بدل سحنون وهو العابد الزاهد المشهور واسمه ثوبان، وقيل: أبو الفيض بن إبراهيم المصرى، فيمكن أن يكون أحدهما روى عن الآخر لأنهما فى عصر واحد. **(لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشبع)** المضارع يفيد الاستمرار التجددى، أى من يكون دأبه كثرة الشبع يكثر نومه ويصير بليدا بطالا، فلا يحصل العلم ولا يليق به طلبه، فإن البطنة تذهب الفطنة كما تقدم، ولأنه يشتغل بإصلاح مأكله وكسب مال يحصله فيفوته العلم وكل خير.

(وفى صحيح الحديث) الذى رواه البخارى وغيره، ويجوز أن يريد المصنف بصحيح الحديث كتاب البخارى؛ لأن الصحيح غلب عليه.

(وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم أما أنا فلا آكل متكئا) هذا الحديث فى الصحيحين مروى بروايات مختلفة، منها ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى، ومنها: «إنى لا آكل متكأ»[1] ومنها: «لا آكل وأنا متكئ» قال الكرمانى: هذا أبلغ فى الإثبات والأول أبلغ فى النفى، فقيل عليه المراد أنه أكثر مبالغة لا بلاغة، ووجهه أن متكئ اسم فاعل فيه ضمير مستتر، فأسند الاتكاء إليه مع إسناده معه إلى أنا فهو أبلغ فى إثبات الاتكاء لتكرار إسناده، وإن لم يكن متكئ مع فاعله جملة بخلاف «لا آكل متكئا» فإنه لم يتكرر فيه الإسناد فهو فى النفى أبلغ، وعندى أن الثانى أبلغ لنفى القيد والمقيد انتهى.

أقول: هذا كلام لا محصل له مع عدم استقامته، والظاهر أن مراد الكرمانى بالنفى والإثبات نفى الأكل فى حال الاتكاء، وإثبات الأكل فى حال عدم الاتكاء الذى يقتضيه مفهومه، بناء على الفرق بين الحال المفردة والجملة، فإن النفى فى الأولى ينصرف إلى القيد والمقيد فيقتضى نفيهما، والثانية لا تقتضى ذلك نحو: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] فإنه يقتضى أنهم يعذبون بعده كما مر، ويقتضى هذا أنه يأكل إذا زال الاتكاء وفيه بحث ليس هذا محله، وسبب هذا الحديث ما أخرجه ابن ماجه بسند حسن، وهو أن أعرابيا أهدى للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم شاة فجثى على ركبتيه يأكل، فقال له الأعرابى: ما هذه الجلسة؟ فقال: «إن الله جعلنى عبدا كريما ولم يجعلنى جبارا عنيدا».

(والاتكاء هو التمكن للأكل والتقعدد فى الجلوس له) أى لأجل الأكل، والتقعدد

(١) أخرجه الترمذى فى الشمائل (٦٤)، وأبو نعيم فى الحلية (٧/٢٥٦).

تفعلل من القعود ومعناه التثبت والتمكن من القعود، إلا أنه قيل: إنه لم يوجد من هذه المادة تفعلل، والمصنف رحمه الله تعالى ثقة ما يقوله بمنزلة ما يرويه. وللجلوس أنواع بينها الثعالبى فى فقة اللغة.

(كالتربع وشبهه من تمكن الجلسات التى يعتمد فيها الجالس على ما تحته) من أرض وفراش ونحوه، والتربع يكون بمعنى النزول والربيع وجعل الشىء رباعيا، ونوع من الجلوس مأخوذ من الأخير لبسط أربعة من أعضائه: الساقين، والوركين، مع انضمامهما على هيئة معلومة. وقوله: «من تمكن» الخ بيان للتربع وشبهه، والتمكن تفعل من المكان، أى تثبته فى المكان والاعتماد بمعنى الاتكاء كما فى الصحاح، وهذا إشارة إلى ما ارتضاه فى تفسير الاتكاء، فإن أهل اللغة اختلفوا فيه، فذهب بعضهم إلى أنه الميل إلى أحد جانبيه مع اعتماده على شىء كالمخدة والوسادة وهو المشهور. وذهب الخطابى وتبعه المصنف رحمه الله تعالى إلى أنه الاعتماد على ما تحته من غير ميل كما بينه هنا وسيأتى تحقيقه، ثم أشار إلى وجه كون الاتكاء بهذا المعنى فى حال الأكل لم كان غير محمود فقال:

(والجالس على هذه الهيئة يستدعى الأكل) أى يطلب الأكل ويرغب فيه ويقتضى تناوله. **(ويستكثر منه)** أى يكثر منه كثرة مفرطة متجاوزة حد الاعتدال حتى كأنه يطلبه من نفسه لإقباله عليه وقوة شهوته لغلبة حيوانيته. **(والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** لإعراضه عن مثله وتناوله منه مقدارا ضروريا بسرعة **(إنما كان جلوسه للأكل جلوس المستوفز مقعيا)** المستوفز الذى لا يكون مطمئنا، بل مستعجلا للقيام، ومنه نحن على أوفاز أى على سفر، كما قلت فى الفصول القصار:

من كان فى الدنيا على أوفاز استراح لتهنيه بعيشه أو فاز

والإقعاء: بقاف وعين مهملة وألف ممدودة له تفاسير، والمعروف منها اثنان، أحدهما أن يلصق إليتيه بالأرض وينصب ساقيه وفخديه ويلصقهما بصدره، وربما يكون مع وضع يديه على الأرض مع اقعنساس يشبه جلوس البدوى المصطلى، والثانى: أن ينصب قدميه واضعا على عقبيه إليتيه ضاما ساقيه وفخذيه واضعا ركبتيه على الأرض، وهذا استحبه الشافعى فى الصلاة إذا رفع رأسه من السجود الأول، وبه ورد الحديث. وقال الشافعية: إن عليه العبادلة، وكرهه الحنفية. وأما الأول فمكروه بلا خلاف فى الصلاة، وأما إقعاءه صلى الله تعالى عليه وسلم للأكل ففسر بإلصاق مقعده بالأرض ناصبا ساقيه وهو الاحتفاز والاستيفاز. وقال التجانى: إن قول المصنف رحمه الله تعالى: إن جلوس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأكله مستوفزا مقعيا ظاهره أنه كان عادة له فى كل

أحواله، والذى ورد فى الحديث أنه أكل مرة هكذا، كما قال أنس رضى الله عنه: «رأيته صلى الله تعالى عليه وسلم أكل مرة مقعيا». لا وجه له لأن ما قال المصنف رحمه الله تعالى هو المصرح به فى عامة الكتب، ورواية أنس رضى الله تعالى عنه مرة لا تصلح سندا للنفى فى غير تلك المرة، وإنما امتنع صلى الله تعالى عليه وسلم من الاتكاء فى أكله لأنه من الكبر والترفه الذى ينزه طبعه عن الميل له، ولأنه يضر إذا مال ويستدعى لكثرة الأكل إذا تربع، وهل كان الأكل متكئا مكروها فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم كسائر الأمة أو حراما عليه، وأن ذلك من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم. ذهب إلى الثانى بعض الشافعية، والأصح الأول، واختياره صلى الله تعالى عليه وسلم غيره دائما لا يدل على حرمته.

(ويقول: إنما أنا عبد) لله لا أملك لاختياره العبودية التى هى أشرف الصفات، وهذا من حديث رواه البخارى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»(١). والإطراء: المبالغة فى المدح، وإلى هذا أشار البوصيرى رحمه الله تعالى بقوله:

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم ... واحكم بما شئت فضلا فيه واحتكم

وهذا من تأكيد المدح بنفيه **(آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد)** فى حال الأكل وغيره تواضعا لله فلا يمد رجليه عند جلسائه تكريما وتعظيما لعباد الله وإرشادا لغيره، ولا يعبأ بترفع ذوى الوجاهة والتكبر من الملوك وغيرهم، وبه اقتدى خلفاؤه رضى الله تعالى عنهم، لأن الله رقيب عليهم وهو معهم فأدبهم وإنما هو معه. وسيأتى الكلام أيضا على هذا الحديث عند ذكر المصنف له فى قوله: فصل وأما تواضعه. وقد ضيف بعض المشايخ بعض الأمراء وهيأ له محلا ينام، فلما دخل وجد فيه مصحفا فلم يزل قائما على قدميه إلى الصباح، فلما أتاه رب المنزل رآه قائما فقال له: لم لا تجلس؟ فقال له: كيف أجلس أو أنام فى محل فيه كلام الله، فقال له: من عظم الله عظمه، فلم يمض زمن حتى صار سلطانا ومالك الملك يؤتيه من يشاء.

(وليس معنى الحديث فى الاتكاء) المذكور سابقا **(الميل على شق عند المحققين)** من أهل اللغة والحديث، بل هو ما مر وهو أحد قولين لهم. واعلم أن الصاغانى قال فى المجمع: رجل تكأة مثل تؤدة كثير الاتكاء، وأصله وكأة والتكأة أيضا لما يتكأ عليه وهو

---

(١) أخرجه البخارى (٤/٢٠٤، ٨/٢١٠)، والحميدى (٢٧)، والترمذى فى الشمائل (١٧٢)، وعبد الرزاق (١٩٧٥٨).

المتكأ، قال الله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾ [يوسف:٣١] قال الأخفش: هو فى معنى مجلس. وطعنه حتى اتكأه أى ألقاه على هيئة المتكئ، وأوكأت فلانا نصبت له متكأ. وفى نوادر أبى عبيد: أوكأت عليه أى توكأت. انتهى. وكذا قاله غيره فهو واوى من الوكاء، وأصل معناه الشد، والمعتمد على شىء يتقوى ويشتد به، فالمعتمد حالة الجلوس على الأرض أو غيرها متكئ، والمائل على أحد شقيه المستند إلى الأرض أو الوسادة متكئ أيضا، فكلا التفسيرين صحيح، والمراد به فى الحديث صالح لكل منهما، ومن فسره بالميل جنح إلى أنه عادة المتكبرين المترفهين، أو المشهور فى الاستعمال فحيث طابق الوضع كان أظهر. فرد المصنف رحمه الله تعالى لم يصادف محزه وأكثرهم على خلافه إلا الخطابى، والحق أحق بالاتباع، فالحاصل أن حقيقته إنما هى الاعتماد الحسى فالمتربع معتمد والمائل معتمد على أحد شقيه، فلا خطأ فى كلا التفسيرين لمن له معرفة باللغة، فالتحقيق خلاف ما ادعاه الممصنف رحمه الله تعالى من التحقيق، وإنما جعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هذه حالة العبد؛ لأنه لاشتغاله بالخدمة والمهنة لا يستقر ويطمئن فيكون مستوفزا مستعجلا، والمعنى أنى لست مخلوقا للدنيا وترفهها، فنظرى إنما هو لعبادة الله وتبليغ أوامره فلا ألتفت إليها، وإنما أتناول منها بسرعة مقدارا يسيرا لدفع الجوع كالعبد الموكل بخدمة سيده. وثمة نكت أخرى تدرك بالذوق، أى أنه مهتم بذلك لا بالأكل والشرب كالبهائم.

(وكذلك) أى كقلة أكله وشربه وعدم ترفهه فيهما. **(نومه صلى الله تعالى عليه وسلم كان قليلا)** بيان لوجه الشبه. **(شهدت بذلك)** أى قلة نومه صلى الله تعالى عليه وسلم. ودلت عليه **(الآثار الصحيحة)** أى الأحاديث الصحيحة المسندة فى كتب الحديث التى أغنت شهرتها عن ذكرها كما مر، هذا كان أكثر حالاته صلى الله تعالى عليه وسلم، وربما خالف هذا أحيانا إذ قد ورد ما يؤذن بأن نومه زاد على يقظته أو ساواها، كحديث النسائى عن أنس رضى الله تعالى عنه قال: «ما كنا نشاء أن نرى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالليل مصليا إلا رأيناه، ولا نشاء أن نراه نائما إلا رأيناه».

(ومع ذلك) أى مع قلة نومه غالبا **(فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم: إن عينى تنامان ولا ينام قلبى)** فنومه صلى الله تعالى عليه وسلم ليس كنومنا بل هو يقظة، فكأنه لا نوم له أصلا بحسب الحقيقة، فقلبه صلى الله تعالى عليه وسلم مستيقظ دائما يدرك ما لا يدركه غيره فى يقظته، ولذا كانت رؤياه صلى الله تعالى عليه وسلم قسما من الوحى لاتصاله بعالم الملكوت فى نومه، وكذلك سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم. فهذه خصوصية إضافية بالنسبة لأمته، وهذا أيضا باعتبار غالب

حاله، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم نام هو وأصحابه مرة حتى فاتتهم صلاة الصبح وأدركهم حر الشمس، وقد أجيب عنه أيضا بأن القلب وإن كان يقظان لا يدرك ما تدركه العين النائمة، وإنما يدرك ما يتعلق به من الحدث والألم، ولذا ذهب بعض الفقهاء إلى أن نومه صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينقض وضوءه، وبأنه شغل الله تعالى قلبه الشريف بمشاهدة ملكوته مع نوم عينه فلم تدرك خروج الوقت للتشريع لأمته، وقد مر الكلام على ذلك كله.

(وكان نومه) صلى الله تعالى عليه وسلم **(على جانبه الأيمن استظهارا على قلة النوم)** أى استعانة فإن الاستظهار استفعال من الظهر بمعنى التقوية والاستعانة، لأن قوة البدن واستمساكه بظهره، فكان صلى الله تعالى عليه وسلم من عادته أنه إذا نام نام على شقه الأيمن، وحكمته ما يأتى أن القلب مائل إلى جانب اليسار، فإذا نام المرء على يساره يستقر القلب فيزيد نومه لراحة قلبه، فإذا نام على يمينه تعلق القلب ولم يسترح فيخف نومه ويكثر سرعة يقظته من نومه، وإنما كان مقتضى الحكمة كون القلب فى جانب اليسار ليعادل الكبد الذى فى جهة اليمين غالبا، ولموافقته لما كان يحبه صلى الله تعالى عليه وسلم من التيامن فى أموره لما فيه من اليمن لفظا ومعنى، وما قيل من أنه حال امتهان لاتكائه على الجانب الذى ينام عليه لا وجه له، فإن فى النوم راحة تعين على العبادة فالاتكاء عليه كالاتكاء على أعضاء السجود، وكذا ما قيل أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مع قوة روحه ويقظة قلبه غالبة لنومه غير محتاج للاستظهار عليه، وإنما هو للتيمن والتشريع، فإن القوى إذا تقوى كان شديد القوة، والنوم أمر طبيعى فى جميع الخلق غالب وقد عرفت أن يقظة قلبه كانت هى الحالة الغالبة، فالتقوى احتراز مما يعرض نادرا. **(لأنه)** أى النوم **(على الجانب الأيسر أهنأ)** أفعل تفضيل مهموز الآخر من الهنئ أى أسهل وألذ، والهنئ ما أتاك من غير مشقة فالنوم على الأيسر أيسر، وفعله هنوء بالضم ويكسر هناه قيل: وإنما جعل الطائف البيت عن يساره لتوجه قلبه إليه بدعوة: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فجعل جانب القلب وأعلاه محاذيا له. وقيل: لأن اليسار محل الوسوسة وكاتب السيئات، واليمين محل الرحمة وكاتب الحسنات، كما أن البيت محل الرحمة فجعل اليسار بين رحمتين لتقلب ضده. وقال ابن عبد السلام: الحكمة فيه أن القادم يستقبل البيت من ثنية كداء من ناحية باب بنى شيبة فيبقى ركن البيت على يسارك وهو يمين البيت، لأنك إذا قابلت شخصا فيمينه يسارك ويسارك يمينه، والذى يلاقيك من البيت وجهه وهو الباب لأن باب كل بيت وجهه، والأدب أن يؤتى الكبير من قبل وجهه ولهذا ابتدئ بثنية كداء، والأصل فى القربة

التيمن، فلو ابتدأ بالحجر وجعل البيت على يساره، فكان قد ابتدأ بالوجه واليمين معا فيجمع بين فاضلين، ولو ابتدأ بالحجر وجعل البيت على يمينه ترك الأدب، ويمين البيت الحائط الذى من مركز الحجر إلى الطرف الآخر وغيره ما يقابله، وهو معنى حسن كما قاله ابن مرزوق.

وقوله: **(لهدو القلب)** تعليل لكونه أهنأ أى: لراحته واستراحته لسكونه، والهدو: بزنة العلو السكون، وهو مهموز الآخر وتبدل همزته واوا وتدغم وتسهل أيضا، وهو قريب من الهنوء ولامهما همزة فى الأصل. **(وما يتعلق به)** أى والهدو معلاقه الذى تعلق به ويناط وكلاهما **(من الأعضاء الباطنة)** أى الموجودة فى داخل الإنسان.

(حينئذ) أى حين نومه على جانبه الأيسر **(لميلها إلى الجانب الأيسر فيستدعى ذلك)** أى يقتضى ذلك الهدو ويستلزم بحسب الطبع. **(الاستثقال فيه)** أى: ثقل بدنه فى نومه وغلبة النوم حتى يستغرق فيه، وهو جواب إذا أو مسبب عما قبله. **(والطول)** أى طول نومه وطول زمان بطالته. **(وإذا نام النائم على)** جانبه **(الأيمن تعلق القلب وقلق)** أى: لم يستقر ويطمئن **(فأسرع الإفاقة)** أى التيقظ من نومه **(ولم يغمره)** بفتح الياء وسكون الغين المعجمة وضم الميم وجزم الراء المهملة. **(الاستغراق)** فى النوم وهو انقطاع إحساسه انقطاعا تاما طويلا، وغمره له بتغطيته وشدة استيلائه عليه، من غمره الماء إذا أعلاه فهو استعارة كما استعيرت الغمرة للشدة، فبينه وبين الاستغراق مناسبة لطيفة لأنه من الغرق، وذلك لأن القلب مائل طرفه الأسفل إلى اللسان لتتوفر الحرارة منه عليه فيعتدل الجسم، فإن الحرارة كلها فى الأيمن لكون الكبد فيه.

* * *

(فصل)

(والضرب الثانى) مما تدعو ضرورة الحياة إليه وهو الفصل التاسع، وعقبه بما قبله لأنه ضده، إذ فيما قبله يتمدح بقلته وبضدها تتميز الأشياء وهو: **(ما يتفق التمدح بكثرته)** يتفق إما من قولهم اتفق كذا ووقع اتفاقا أى وقع من غير قصد لصاحبه، أو من الاتفاق وهو اجتماع الكلمة، فالأصل ما يتفق الناس على التمدح بكثرته أى كثرة المدح وقوته، والمراد الأول لأن صاحبه لم يقصده ولم يقصد مدح الناس له لسببه وإن كان قد يقصد ذلك. **(والفخر بوفوره)** أى الافتخار بكثرته دون قلته ووجوده، فإنه موجود فى كثير مما لا يعتد به، وقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ منه بالحظ الأوفى الأوفر. **(كالنكاح)** أى الجماع، فإنه يطلق عليه وعلى العقد كما مر، والمراد الأول. **(والجاه)** وهو علو القدر عند الناس والمهابة، ونفوذ الكلمة والاشتهار بذلك، وهو من

الوجاهة والمواجهة، وأصله وجه فقلب وأعل كما مر.

(**أما النكاح فمتفق فيه**) أى فى مدحه وشأنه اتفق العلماء وأصحاب البصيرة والتمييز. (**شرعا**) كما سيأتى بيانه (**وعادة**) فيما اعتاده الناس وتعارفوه كما لا يخفى. ونصب شرعا وما بعده على التمييز أو المصدرية، ثم بين ذلك على اللف والنشر المشوش فقال: (**فإنه**) أى النكاح (**دليل الكمال**) فى الخلقة والجسم بقوته واعتداله. (**وصحة الذكورية**) الظاهر أنها مصدرية كالصعوبة والأنوثة، والمشهور أنها جمع ذكر خلاف الأنثى، ويصح إرادته أيضا إلا أن الأول أولى، وصحة الذكورية بمعنى قوتها وسلامتها من الضعف والآفة. (**ولم يزل التفاخر بكثرته عادة**) للناس (**معروفة**) بينهم لا تنكر (**والتمادح به سيرة**) أى طريقة (**ماضية**) أى قديمة أو نافذة مقررة من مضى الأمر إذا قضى وقرر.

(**وأما فى الشرع فسنة مأثورة**) أى هو فى الشرع أمر مسنون منقول فى آثار السلف والأحاديث الصحيحة، أى المراد أنه طريقة مشهورة. قال الراغب: سنة النبى طريقته التى كان يتحراها. (**وقد قال ابن عباس**) رضى الله تعالى عنهما، وهو حديث صحيح رواه البخارى. (**أفضل هذه الأمة**) أى أفضل أمة الإجابة لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، ولذا عبر باسم الإشارة (**أكثرها نساء مشيرا إليه صلى الله تعالى عليه وسلم**) يعنى أن المراد بالأفضل فى كلامه هو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه أبيح له جمع ما فوق الأربعة وهو من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم دون أمته، فدلت الأكثرية على تعينه بهذه الأفضلية ولذا عبر عنه بالإشارة فإنها تطلق على مقابل الصريح، وهو وإن كان أفضل من أمته أجل وأعلى من أن يقال إنه أفضل منهم، مع أنه لا فائدة فيه ببادى الرأى، إلا أنه رضى الله تعالى عنه قصد الحض على النكاح والإكثار منه ولذا كان مفيدا، وهذا الكلام قاله لسعيد بن جبير رضى الله تعالى عنه لما سئله ألك زوجة؟ فقال: لا. فقال له: «تزوج فإن خير هذه الأمة من كان أكثرها نساء»(١) كما فى صحيح البخارى. ولا بد من جعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم داخلا فى الأمة على ما يأتى، لأن أفعل التفضيل فى الأصل إنما يضاف لما هو بعضه، وإن جاز يوسف أحسن إخوته على ما ارتضاه بعض النحاة على تفصيل فيه شهرته تغنى عن ذكره، وهذه الكثرة باعتبار ما أبيح له صلى الله تعالى عليه وسلم بعد التزويج بمن شاء أن يجمع فى وقت واحد عنده عدة لا تجوز لا بمجرد الدخول والعقد، فإنه ثابت لغيره أيضا. وكان اللاتى تزوج صلى الله تعالى عليه وسلم بهن بإجماع أهل السير إحدى عشر امرأة، ستة من

(١) انظر فتح البارى (٩/٣٤٥).

قريش وأربع من سائر العرب وواحدة من بنى إسرائيل من نسل هارون عليه الصلاة والسلام، وهى صفية بنت حيى وسيأتى لذلك مزيد بيان. وأما التى اختلف فيهن ممن فارقها أو عقد عليها و لم يدخل بها أو خطبها و لم يقع عليها العقد، فاختلف فيهن وفى سبب فراقهن، والذى ذكره بعضهم أنهن سوى من تقدم سبع، فالجميع ثمان عشرة امرأة غير السرارى، ويمكن أن يكون المراد بالأمة ما يشمله صلى الله تعالى عليه وسلم وأمته ولا بعد كما قيل، والتمدح بالنكاح لما فيه من الفوائد كالولد، وكسر الشهوة، وتدبير المنزل، وترك ما يشغل عن القيام بأوامر الله تعالى مع امتثال أمر الله، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]، وفى ذلك تسبب للألفة والمودة وإيصال القرابة؛ ولأن فيه تبليغ الأحكام التى لا يطلع عليها إلا النساء، ولما فيه من إظهار معجزته لقوة قدرته على الجماع مع قلة أكله وتنعمه، والمعتاد خلافه، ومع ذلك لم يشغله ذلك عن تقيده بأمر الجهاد والتبليغ إلى ذلك مما لا يحصى، وقد عد من النسك والعبادة، بل قيل: إنه أفضل منها أحيانا، وهو من أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتركه للقادر عليه مكروه، إلا أن يخرجه لكسب ما لا يقدر عليه وارتكاب محظور، كما فى آخر الزمان، ولذا ورد: «خيركم الخفيف الحاذ الذى لا زوجة له ولا ولد»(١). وإنما قيد بهذه الأمة ليخرج سليمان وداود عليهما الصلاة والسلام فإنهما كانا أكثر منه صلى الله تعالى عليه وسلم نساء وفيه تأمل.

(وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم: تناكحوا تناسلوا فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة) ووقع فى بعض النسخ: «تناكحوا فإنى مباه بكم» الخ بدون تناسلوا. والتناكح تفاعل من النكاح بمعنى التزوج كما ورد بهذا اللفظ، والمفاعلة على ظاهرها بأن يراد لينكح أحدكم بنت غيره وينكح الغير بنته، وهو عبارة عن مصاهرة المسلمين بعضهم من بعض. والتناسل: كثرة النسل وهم الأولاد والذرارى، أو المراد بالتفاعل لازم معناه وهو كثرة النكاح وهذا أنسب بالمقام وبما بعده، وتناسلوا أصله تتناسلوا بتائين فى أول المضارع، وحذفت على القياس فى كل تائين فى أوله، أو هو أمر بدل مما قبله أو بتقدير العاطف والأول أولى، لأن التناسل ليس باختيارهم وإنما هو فعل الله فيحتاج إلى تأويله باطلبوا التناسل واحرصوا عليه بأن تنكحوا غير العقيمة، والآيسة من الولد، بأن يعلم ذلك منها إن كانت ثيبا، أو يكون الظاهر ذلك منها لشبابها ففيه نهى عن نكاح العجائز من غير داع، وإشارة إلى أنه ينبغى أن يكون المقصود من النكاح مع قمع الشهوة، وجود ذرية تعبد الله وتحصل بها كثرة الأمة.

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٢٤٣/١٢).

والمباهاة: المفاخرة وهى على ظاهرها بأن تقع منه المفاخرة حقيقة، أو تجعل مسرته بهم ورؤية غيرهم لهم كالمفاخرة، ويؤيده ما روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «أتى يوم القيامة بمثل السيل فيحطم الناس، فتقول الملائكة عليهم الصلاة والسلام لما جاء مع محمد أكثر مما جاء مع الأمم والأنبياء» وهو صلى الله تعالى عليه وسلم أكثر الناس أمة لعموم بعثته وبقائها، وكثرة أتباعه وجنده المؤيدين لدين الله، ففيه فخر عظيم. وهذا الحديث أخرجه ابن مردويه فى تفسيره بسند ضعيف، إلا أنه حسن لكثرة متابعته لفظا ومعنى، فإنه رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث سهل بن حنيف رضى الله تعالى عنه: «تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم». وعن معقل بن يسار رضى الله عنه: «تزوجوا الولود الودود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»(١).

(ونهى) صلى الله تعالى عليه وسلم **(عن التبتل)** كما رواه الشيخان عن سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه، ولحديث سميح قال فيه: رد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن لنا لاختصينا. فهذا هو المنهى الذى كان استأذنه فى التبتل فرده ونهاه عنه.

وروى أن جماعة من الصحابة فيهم على كرم الله وجهه لما رأوا عبادة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قالوا: نلزم الصوم والعبادة ونترك نساءنا ونطلقهن وننقطع للعبادة، فنهاهم صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك. والاختصاء: الشق على الانثيين وانتزاعهما وهو التبتل من البتل وهو القطع. والمراد: الانقطاع عن النكاح بالكلية، ويقال: رجل بتول وامرأة بتول إذا انقطعت عن الرجال. ولذا قيل لمريم: البتول. وأما فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها فسميت بتولا لانقطاعها عن الدنيا وزهدها، لانقطاعها لعبادة الله تعالى، أو لانقطاعها عن نساء زمانها فضلا ودينا وحسبا. وأما قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل:٨] فليس منافيا للحديث، لأنه بمعنى آخر أى انقطع فى الليل لعبادة الله تعالى والتهجد وأخلص له وأقرأ القرآن. وورد النهى عن موافقتهم للنصارى وما كانوا عليه من الرهبانية.

وأما قوله: «لو أذن لنا لاختصينا» فلا يدل على جواز الاختصاء إن كان على حقيقته، فإنه قد يستعمل بمعنى آخر كما سمى الصوم وجاء، وهو جائز فى البهائم فى صغرها لغرض كتسمين المأكول وهو فى الآدميين حرام لأنه مثله، ويكره استخدام

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائى (٣٢٢٧)، وابن ماجه (١٨٤٦)، وابن حبان (١٢٢٨)، والحاكم (١٦٢/٢).

الخصى ويمنع من دخوله على النساء، ثم إن النهى عن ترك النكاح للقادر عليه يفيد كراهته لأنه مستحب . وعند المالكية واجب، فالنهى على ظاهره. قال التجانى: المتأخرون من المالكية يجعلونه فى حق بعض الناس واجبا، وفى حق بعضهم مندوبا إليه، وفى حق بعضهم مباحا التفاتا للمصلحة، وهذا نوع من القياس يسمى القياس المرسل، وهو الذى ليس له أصل يستند إليه، وإنما هو لاقتضاء المصلحة وقد أنكره كثير من العلماء، والظاهر من مذهب أصحاب مالك القول به. انتهى.

(مع ما فيه) أى فى النكاح أو فى التبتل، وقيل: الأول متعين بقرينة ما سيأتى. **(من قمع الشهوة)** أى قهرها والغلبة، وأصله ضرب الرأس ومنه: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١] والمراد بالشهوة شهوة النكاح والنساء. **(وغض البصر)** أى خفض البصر وتغميضه عن النظر عما يحرم، وجعل غض البصر كأنه فيه مبالغة لأنه حامل عليه. وقيل: إنه مجاز لأن من لم يتشوق لأمر يغض عنه عينه فكأنه لا يبصره، ويجوز جعله حقيقة أو كناية. **(اللذين نبه عليهما)** صفة لقمع الشهوة وغض البصر.

(بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم) فى الحديث الذى رواه ابن ماجة عن عائشة رضى الله تعالى عنها، إلا أن فى سنده مقالا. وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج»(١). وأخرجه الطبرانى بلفظ المصنف رحمه الله تعالى بدون فإنه إلى آخره. **(من كان ذا طول)** بفتح الطاء المهملة وسكون الواو واللام، وهو سعة الرزق والمال بحيث يكون له قدرة على نفقة زوجته وأهله، بحيث لا ينظر إلى مال امرأته وغيرها فإنه ورد فى الحديث أيضا: «لا تنكح المرأة لمالها فلعل مالها أن يطغيها، ولا لجمالها فلعل جمالها أن يرديها، وعليكم بذات الدين فإنهن فى النساء مثل الغراب الأعصم»(٢). قال ابن رشد: وهذا نهى إرشاد لا تحريم. وورد فى الحديث: «استوصوا بالنساء خيرا فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعلاه أعوج فإن أردت أن تقيمه كسرته». وقد نظمه القائل حيث قال:

---

(١) أخرجه البخارى (٣/٧)، ومسلم (١٤٠٠/١)، والنسائى (١٦٩/٤)، وابن ماجه (١٨٤٥)، وأحمد (٣٨٧/١، ٤٢٤، ٤٣٢)، والدارمى (١٣٢/٢)، والحميدى (١١٥)، وعبد الرزاق (١٠٣٨٠).

(٢) تقدم تخريجه.

هى الضلع العوجاء لست تقيمها إلا أن تقويم الضلوع انكسارها[1]
أتجمع ضعفا واقتدارا على الفتى أليس عجيبا ضعفها واقتدارها

ومنه أخذ المنصور قوله:

إذا نقمت عرس وأنت تحبها فدع بحرها رهوا ولا تثر الموجا
ولا تطمعن الدهر فى أن تقيمها فقد خلقت فى الأصل من ضلع عوجا

(فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج) أى فإن التزوج أكثر حملا على غض البصر وكفه عن النظر لما يحرك الشهوة، وأكثر تحصينا أى حفظا للفرج عن الزنا، والمفضل عليه التبتل وتحصين الفرج بقمع الشهوة، ففيه تنبيه على الأمرين المذكورين، ثم لما كان فى التبتل زهد ظاهر ربما يتوهم أنه أفضل من التزوج دفعه بقوله: **(حتى لم يره)** أى التزوج والنكاح **(العلماء)** بالدين والشرع **(مما يقدح فى الزهد)** القدح والطعن فى الشيء ذكر عيوبه، أى ليس مما ينقص الزهد حتى يعيبه الناس فأسند القدح إليه مبالغة. وقول في الزهد أى ترك الدنيا ولذاتها؛ لأن ما ذكر من جملة التلذذ لأن القصد به التعفف والنسل وهذا مروى عن عمر رضى الله عنه، فإنه قال: ليس فى النساء سرف ولا فى تركهن عبادة وزهد. كما فى تحفة العروس للتجانى.

(قال سهل بن عبد الله) التسترى وقد تقدمت ترجمته **(قد حبن)** بالبناء للمجهول والتشديد **(إلى سيد المرسلين)** أى خلق الله تعالى فيه محبتهن وسيأتى بيانه والضمير للنساء **(فكيف يزهد فيهن)** أى إذا كان الله تعالى جعل حبهن مركوزا فى جبلة من هو أزهد الخلق صلى الله تعالى عليه وسلم، فكيف يدعى أحد أن تركهن زهد. وفى سراج المريدين فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤] أن هذه الآية تدل على فضل التزوج على العزوبية لبقاء الذرية، ودعائها الذى هو عمل لا ينقطع بموته. **قلت**: ويدل على أنه أفضل فى حق من يقتدى به الناس **(ونحوه)** أى مثل المروى عن التسترى مروى **(عن ابن عيينة)** علم منقول من تصغير العين، وهو سفيان بن عيينة بن عمران الكوفى، أحد الأئمة الأعلام الإمام الحافظ، روى عن كثير كالزهرى، وابن دينار، وأحمد، والزعفرانى. وروى عنه خلق كثير، وخرج له أصحاب الكتب الستة، وكان يسكن مكة، وتوفى فى رجب سنة ثمان وتسعين ومائة، ومولده سنة سبع ومائة، وكان أعور. وترجمته مشهورة وهو من التابعين أدرك منهم ستة وثمانين نفسا.

---

(١) البيت من الطويل، وهو للحاجب بن ذبيان فى لسان العرب (٢٢٦/٨)، تاج العروس (٤١٨/٢١).

(وقد كان زهاد الصحابة رضى الله تعالى عنهم كثيرى الزوجات والسرارى كثيرى النكاح) كثيرى بيائين أصله كثيرين بصيغة الجمع فحذفت نونه للإضافة، يعنى كانوا يكثرون من النساء حرائر وإماء، أو أنهم كانوا يطلقون كثيرا فتكثر زوجاتهم بهذا الاعتبار كما قاله التجانى. وكان عند على كرم الله وجهه أربع نسوة وتسع عشرة وليدة، إلا أنه لم يتزوج غير فاطمة رضى الله عنها حتى ماتت، وولد له منها الحسن والحسين ومحسن، وتوفى صغيرا فى حياة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو الذى سماه محسنا كما ذكره الدارقطنى. والحسن رضى الله تعالى عنه كان من أشد الناس حبا للنساء وكان مطلاقا، كما قيل: إنه أرخى ستره على مائتى حرة.

والسرارى: بتشديد الياء وتخفيفها جمع سرية بالتشديد، والسرية هى الأمة المنكوحة ولو مرة فلا تسمى سرية قبل الوطئ، حتى أن من جعل بيد زوجته عتق كل سرية له لم يكن لها عتق التى لم يطأها زوجها، وهى منسوبة إلى السر الذى هو الجماع، أو الإخفاء لأنه كثيرا ما يخفيها عن زوجته، فضم سينها من تغييرات النسب كما قيل فى النسبة للدهر دهرى بالضم، وقيل: إنها مشتقة من السرور لأنه يسر بها فأبدل إحدى رائيها ياء، قالوا: تظنيت وتظننت وضم سينها لازم، ولذا قيل: عليك بضم الصدر السرية، والتسرى سنة وقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: «عليكم بالسرارى فإنهن مباركات الأرحام»(١) وقد تسرى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصحابة رضى الله تعالى عنهم.

(وحكى) بالبناء للمجهول **(فى ذلك)** المذكور من التزوج والتسرى وكثرته **(عن على)** كرم الله وجهه **(والحسن)** ابنه كما مر، لأنه المنقول عنه ذلك ولذا قدمه لا الحسن البصرى فإنه لم ينقل عنه مثله. **(وابن عمر وغيرهم من الصحابة غير شىء)** هذا هو نائب فاعل أى حكى عنهم أشياء كثيرة فى ذلك لاشيئا واحدا وأبهمه لكثرته، كما فى قوله.

(وقد كره غير واحد) من السلف الصالحين **(أن يلق الله)** أى يموت، لأن لقاء الله يكنى به عن الموت، كما جاء فى الحديث: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»(٢). وقال الراغب: لقاء الله عبارة عن القيامة وعن المصير إليه، قال الله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ**﴾ [البقرة:٤٦] واللقاء الملاقاة وأصل معناه مقابلة الشىء ومصادفته معا،

---

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٤/٢٥٩)، وابن الجوزى فى الموضوعات (٢/٢٥٩).

(٢) أخرجه البخارى (٨/١٣٣)، ومسلم (١٤/٢٦٨٣)، والترمذى (١٠٦٦، ١٠٦٧)، والنسائى (٤/٩)، وابن ماجه (٤٢٦٤)، وأحمد (٢/٣١٣، ٣٤٦، ٤٢٠)، والدارمى (١/٣٤٥)، وعبد الرزاق (٦٧٤٨).

وقد يعبر به عن كل واحد منهما.

(عزبا) بفتح العين المهملة والزاى المعجمة والباء الموحدة هو الـذى لا امـرأة لـه، مـن عزب بمعنى تباعد، يقال: رجل عزب وامرأة عزبة، وعزب عنه علمه إذا غـاب عنـه و لم يعلمه. وهذا مروى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه، فقد حكى عنه أنه كان يقـول: لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج لئلا ألقى الله عزبا. وماتت امرأتان لمعاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه فى الطاعون وكان هو مطعونا أيضا، فقال: زوجونـى فإنى أكره أن ألقى الله عزبا. أى بعيدا عن النساء. وقال فى الدرة: العزب يقـال للذكـر والأنثى، وقد يقال للمرأة عزبة ولا يقال للرجل أعزب بالهمزة، أو هى لغـة قليلـة، وفـى التقريب قال أبو حاتم: لا يقال أعزب. قال الأزهرى: وأجازه غيره. وورد فـى الحديـث فى مسلم: «ما فى الجنة أعزب»(١). قال النووى: هو فى جميع نسخ بلادنا بالألف وهـو لغة مشهورة، وما وقع فى بعض النسخ من تقييد عزب بسكون الزاى بـالقلم كمـا قالـه البرهان لا وجه له، فإنه خلاف المنقول فى كتب اللغة.

(فإن قلت: كيف يكون النكاح وكثرته من الفضائل وهذا يحيـى بـن زكريـا) جعلـهما لشهرتهما وشهرة اتصافهما بما ذكر بمنزلة المحسوس المشاهد حتـى أشـار إليـهما، ويحيى وزكريا بلغاته أعجميان. وقيل: إنه عربى مشق من الحياة لا كالمفازة، بـل لأن الله تعـالى أحيا قلبه بأنوار النبوة الذاتية والمقتبسة من زكريا، لأنه أول مـن آمـن بـه وأوتـى النبـوة، والفضـائل المكتسـبة منـه، فقـال: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٧] قال قتادة والكلبى: لم يسم أحد من قبل يحيى بذلك، فـأحيى الله بـه دين عيسى عليه الصلاة والسلام، فاشتق له من اسمه الحى اسمـا كمـا اشتق اسـم سيدنا ونبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من اسمه المحمود، كمـا قيـل، وكـان هـو وعيسـى ابنى خالة وكانت أمه تقول لمريم: إنى أجد الذى فى بطنى يسجد للذى فى بطنك كما سيأتى، ويحيى أكبر من عيسـى، وفـى مقـدار عمـره اختـلاف فقيـل: كـان عمـره مائـة وعشرين سنة. وقيل: ثمانيـة وتسـعين. وقيـل: اثنـين وسـبعين. وأمـا زكريـا فمـن ذريـة سليمان عليه الصلاة والسلام، وكان آخر من بعث من بنـى إسـرائيل قبـل عيسـى عليـه الصلاة والسلام، ولما أراد بنو إسرائيل قتله فر منهم فانفلقت له شـجرة فدخلـها، فـأخذ الشيطان بهدب ثوبه فلما رأوه نشروا الشجرة حتى قطعوه فى جوفها. وأما يحيـى عليـه الصلاة والسلام فقتل بسبب امرأة أراد ملكهم تزوجها، فقال له يحيى: إنـها لا تحـل لـك لأنها بنت امرأتك فتوصلت لقتله قبل أن يرفع عيسى عليه الصلاة والسـلام، فكـان دمـه

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٤/١٤).

يفور حتى قتل منهم بخت نصر سبعين ألفا، وهذا قصاص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما أن قصاص الملوك خمسة وثلاثون ألفا كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما. وقد قيل: بل صح فى الحديث أن الموت بعد استقرار أهل النار فى النار وأهل الجنة فى الجنة، يؤتى به بصورة كبش أملح فيذبحه يحيى. وقيل: الذى يذبحه جبريل عليه السلام. والثانى مروى فى بعض التفاسير، وأما الأول فلا مستند له، وإن ذكره بعض الصوفية.

(وقد أثنى الله تعالى عليه أنه كان حصورا) فى قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩] والسيد: الرئيس الشريف وفيه تفاسير سيأتى، وأما الحصور: فمن الحصر وهو المنبع ولذا اشتهر تفسيره بمن انحصر عن النساء بحيث لا يأتيهن، وأخرج ابن جرير عن ابن عمر، وعمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «ما من عبد يلقى الله تعالى إلا ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا، فإن الله تعالى عز وجل يقول: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران:٣٩]، قال: وإنما كان ذكره مثل هدبة الثوب» وأشار بأنملته، وبه فسر ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وأورد شاهدا له من كلام العرب، وعلى هذا بنى المصنف رحمه الله تعالى السؤال كذا فى الشرح الجديد.

أقول: هذا الحديث لم يثبت، وسئل النووى رحمه الله تعالى فى فتاويه عن حديث: «ما منا إلا من عصى أو هم بمعصية إلا يحيى بن زكريا»(١) فأجاب بأنه حديث ضعيف لا يحتج به، رواه أبو يعلى الموصلى فى مسنده عن زهير عن عفان عن حماد بن سلمة عن على بن زيد بن جدعان بضم الميم وإسكان الدال المهملة عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «ما أحد من ولد آدم إلا قد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيى ابن زكريا»(٢) وإسناده ضعيف، لأن ابن جدعان ضعيف ويوسف بن مهران مختلف فى جرحه. **(فكيف يثنى الله عليه)** فى القرآن **(بالعجز عما يعده فضيلة)** وهو النكاح وكثرته. **(وهذا عيسى ابن مريم)** عليه الصلاة والسلام **(تبتل عن النساء)** أى انقطع عنهن بالكلية ولم يتزوج. **(ولو كان كما قررته)** أن النكاح بل كثرته فضيلة ممدوحة **(لنكح)** أى لتزوج ليحوز هذه الفضيلة، فأجاب بقوله **(فاعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى)** عليه الصلاة والسلام **(بأن كان حصورا ليس)** معناه **(كما قال بعضهم)** كما مر **(أنه كان هيوبا)** أصل معنى الهيوب الجبان من الهيبة وهى المخافة والتقية، ويأتى بمعنى من يخافه الناس وليس المراد هنا، بل المراد أنه كان جبانا عن النكاح.

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/٢٢).

(٢) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٢/٢١٦).

(أو لا ذكر له) الذكر بفتحتين معروف لم يرد ظاهره وإنما أراد أنه صغير جدا، أو لا حركة له أصلا لما ورد فى بعض الأحاديث الضعيفة: أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ نواة أو قذاة وقال: «كان ذكره مثل هذه» وفى أخرى: «مثل هدبة الثوب». وقال ابن المنذر: كان عنينا، وقد يطلق الحصور على المجبوب الذكر والأنثيين، كما فى حديث القبطى الذى أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عليا كرم الله وجهه بقتله، قال: فرفعت الريح ثوبه فإذا هو حصور.

(بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ونقاد العلماء) حذاق: جمع حاذق بمعنى ماهر فى علم التفسير، والنقاد: جمع ناقد وهو الذى يميز جيد النقدين من رديهما وأصل معناه الوزن وخلاف النسيئة، ولم يذكر الأول فى القاموس وهو المراد هنا.

(وقالوا: هذه نقيصة وعيب لا يليق بالأنبياء) عليهم الصلاة والسلام، أى لا تصلح لهم ولا تناسبهم من لاق الدواة يليقها إذا أصلحها. **(وإنما معناه أنه كان معصوما من الذنوب)** كسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والعصمة عندنا أن لا يخلق الله تعالى فيهم ذنب، وعند الفلاسفة ملكة تمنع الفجور. وسيأتى الكلام على تفصيل عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(أى لا يأتيها كأنه حصر عنها) أى منع عنها فحصور بمعنى محصور. قال التجانى: هذا الجواب ضعيف لما ورد فى حديث بسر بن عطية قال: لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من تحصر فى الإسلام: وقال: «لا حصور إلا يحيى بن زكريا» كما أخرجه الماوردى وغيره وفيه نظر سيأتى.

(وقيل: مانعا نفسه من الشهوات. وقيل: ليست له شهوة فى النساء) يعنى أن له قدرة على الجماع ولكنه يمنع نفسه عنها باشتغاله بغيرها من العبادة، أو له قدرة ولكن لا تتوق نفسه له ولا يريده، فإنهم عرفوا الشهوة بأنها توقان النفس إلى الأمور المستلذة، وفرقوا بينها وبين الإرادة بأن الإرادة أعم، فإن الإرادة قد تتعلق بما لا تشتهى كإرادة شرب الدواء، والاشتهاء ميل طبيعى غير مقدور، ولذلك يعاقب بإرادة المعاصى عند بعض ولا يعاقب باشتهائها، فالمعنى أن الله تعالى عصمه بأن لم يخلق فيه ميلا للمشتهيات ولو لم يفسر بما ذكر لما صح تعقيبه.

بقوله: **(فقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص وإنما الفضل فى كونها موجودة ثم قمعها)** وهذا معنى ما قاله البسيلى فى تفسيره: أن الظاهر أن كونه حصورا كان عن اختيار منه، لأن خلافه نقص فى الخلقة وعيب ينزه عنه الأنبياء عليهم الصلاة

والسلام، وما ذكره ابن حزم فى «الملل والنحل» من ذمه إنما يتمشى فيما إذا كان لمجرد الشهوة البهيمية، أما إذا كان لتكثير النسل فى الإسلام فلا ذم فيه، وقال ابن العربى: قول من قال الحصور هو الذى يكف عن النساء عن قدرة هو الصحيح لوجهين؛

أحدهما: أنه أثنى به عليه ومثله إنما يكون على المكتسب لا الجبلى.

الثاني: أن حصورا فعولا من صيغ المبالغة، وهو إنما يكون فى الأفعال الاختيارية فهو كف عن قدرة، وهو فى شرعه مطلوب بخلاف شرع نبينا لنهيه صلى الله تعالى عليه وسلم عن التبتل. انتهى.

فاندفع ما قيل إن قوله لا شهوة له فى النساء لا وجه له لذكره هنا، لأنه فى مقام الجواب عما أوردوه، وهذا مقر للإيراد لا جواب عنه، وما ذكر فى هذا المقام هو وجه تفضيل البشر على الملك.

فإن قلت: فما تقول فيما ورد فى الحديث على فرض صحته من أنه عنين أو ماله كقذاة أو نواة أو هدب ثوب؟.

قلت: أجيب عنه بأنه لغلبة خوف الله تعالى عليه وشدة الرياضة التى كانت مشروعة له، ذبلت أعضاؤه واضمحلت حتى صار كأنه مثل ما ذكر، لا أنه لنقص فى خلقته فهو على طريق التشبيه والتمثيل.

(إما بمجاهدة) متعلق بقمع، والمراد بذلك أن الله خلق الأنبياء عليهم السلام على أحسن تقويم، فلهم قوة على الجماع زائدة على غيرهم، إلا أن منهم من قهر شهوته وغلبها حتى أضعفها، وذلك إما بمجاهدة كإفراط الرياضة بجوع وسهر وخلوة عنهن للعبادة، وهو المراد بالمجاهدة لأنه يجاهد نفسه بمنعها عما تريده من الشهوات وهو الجهاد الأكبر.

(كعيسى عليه الصلاة والسلام) أو يقهرها بعدم مطاوعتها على ما تريده؛ لأن الله تعالى خلقه وجعل فيه ملكة على ترك الشهوات من غير مجاهدة، وهو المراد بقوله: **(أو بكفالة من الله كيحيى عليه الصلاة والسلام)** فإن الله تعالى صرفه عن شهوة الجماع، قيل: والأليق أن يكون له قدرة قمعها بالمجاهدة كعيسى عليه الصلاة والسلام، ولذا فسر البيضاوى حصورا بمبالغ فى حبس نفسه عن الشهوات والملاهى، والتبتل فى حق المعصوم أمر مطلوب وفى غيره منهى عنه، وكان مشروعا فى دينهم كما مر. فترك التزوج عبادة عندهم لمن قدر على صون نفسه عن الشهوات، وكان يحيى عليه الصلاة والسلام شديد الخوف من الله تعالى، حتى قيل: إنه وضع وجهه على الأرض وبكى حتى ذهب لحم خديه وبدت أضراسه للناظرين.

(فضيلة زائدة) مرفوع خبر للمبتدأ وهو قمعها فى قوله: «ثم قمعها» أى ترك الشهوة والجماع بعد القدرة والقوة عليه فضيلة محمودة وصفة حميدة زائدة فى الخلقة على أصلها. **(لكونها شاغلة فى كثير من الأوقات)** أى لكون الشهوات تشغل الإنسان كثيرا عن العبادة والمهمات، وفى نسخة مشعلة. قال التلمسانى: مفعلة من الشغل. وروى مشغلة اسم فاعل من أشغل وهو قليل. وروى شاغلة انتهى.

قلت: الأخير هو الصحيح رواية ودراية، لأن الأشغال لغة ردية ولذا لما وقع الصاحب على رقعة فيها الأشغال قال: من قال أشغالى لا يصلح لأشغالى كما مر، وهو لم يقع فى النسخ المتداولة.

(حاطة إلى الدنيا) اسم فاعل من الحط وهو الإنزال من علو إلى أسفل، وهو منصوب خبر بعد خبر للكون، أى تنزل الإنسان إلى شهوات الدنيا الدنية لمن لم يعصمه الله عن التجلى بها وتمنعه عن اشتغال قلبه بها.

(ثم هى) أى الشهوة فى الجماع لا الفضيلة الزائدة عليها كما توهم. **(فى حق من أقدر عليها)** بالبناء للمجهول أى من أقدره الله على شهوته فلم تغلب.

(وملكها) أى تصرف فيها كما يريد منعا وفعلا وهو بفتح اللام والميم مبنى للفاعل، أو بضم الميم وكسر اللام المشددة، والبناء للمجهول. قال التلمسانى: وهو أولى ليكون على نسق أقدر. والحق هنا بمعنى الشأن والحال كما يقال: الغنى فى حق الكريم حسن.

(وقام بالواجب فيها) معطوف على ملكها أى من ملك شهوته و لم يمنعه من القيام بما يجب عليه من مهمات دينه ودنياه، لأن ما يمنع عن ذلك ينبغى تركه وفيها متعلق بقام، أى قام بما يجب عليه وهو متلبس بها.

(ولم تشغله عن ربه شغل) يشغل كسأل يسأل وقوله: **(درجة علياء)** مرفوع خبر، وهى أى مرتبة رفيعة عند الله تعالى، وعلياء بفتح العين والمد وهى فى الأصل كل مكان مشرف أى مرتفع، وأريد به علو المنزلة.

(وهى درجة نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم) أى هذه الدرجة العلياء عند الله التى وصل إليها فى الدنيا، مع أنها غير شاغلة له عن التقرب إلى الله بفعل ما يجب عليه من العبادة ودعوة الخلق.

(الذى لم يشغله) صفة لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم مبينة لما قلناه. **(كثرتهن)** أى النساء. **(عن عبادة ربه بل زاده ذلك عبادة)** على عبادته المعروفة من الصلاة والصوم وقيام الليل. **(لتحصينهن)** أى جعلهن محصنات متعففات بنكاحه صلى الله تعالى عليه

وسلم لهن. **(وقيامه بحقوقهن)** من النفقة والكسوة وغير ذلك فإن فيه أجرا أيضا. **(واكتسابه لهن)** فإن الكسب الحلال للعيال عبادة وإرشاد للخلق، وإن كان لو سأل الله تبارك وتعالى ذلك أوصله له من غير كسب، لكنه صلى الله تعالى عليه وسلم ملتزم لمقام العبودية.

(وهدايته إياهن) بتعليمه الدين بعد خلوص الإيمان بالله ورسوله، ثم ترقى لمرتبة أعلى من هذه بين فيها أن حظوظه الدنيوية ليست ناشئة عن ميل قلب وتوجه فكر حتى يشغله عن ربه، فأضرب عما يوهم ذلك.

فقال: **(بل صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو)** جمع حظ كأحاظ وأحظ وهو نصيب المقدر مما يسر به، ويقال حنظ بالنون وهى لغة يمانية **(وإن كانت من حظوظ دنيا غيره)** من الناس فإنهم يسرون بها ويعدونها لذة عظيمة، وإضافة الدنيا ومحبتها لغيره إشارة إلى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم برئ منها ومن محبتها، فإن قلبا امتلأ بمحبة الله تعالى عز وجل لا يدخله محبة غيره، كما قيل:

تملك بعض حبك كل قلبى ... فإن ترد الزيادة هات قلبا

ثم فسر تصريحه بأنها ليست من حظوظه بالحديث **(فقال: حبب إلى)** بالبناء للمجهول **(من دنياكم)** «ثلاث النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة»[1] قال السيوطى رحمه الله تعالى: هذا الحديث رواه الحاكم والنسائى عن أنس رضى الله تعالى عنه بدون لفظ ثلاث، إلا أن أحمد رواه عن عائشة رضى الله تعالى عنها ولفظه: «كان يعجب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الدنيا ثلاثة أشياء؛ النساء، والطيب، والطعام، فأصاب اثنين ولم يصب واحدة، أصاب النساء والطيب ولم يصب الطعام». وإسناده صحيح إلا أن فيه رجلا لم يسم. وقد روى هذا الحديث من طرق أخرى يقوى بعضها بعضا، فهو صحيح إلا أن أكثر الحفاظ على أنه ليس فيه لفظ «ثلاث» كابن القيم، والعراقى، وابن حجر، وأنها مدرجة فى الحديث. ومن رواها فقد وهم، وخالفهم فى ذلك ابن فورك وقال: إنها مروية فى الحديث وألف فى ذلك جزءا مستقلا صحح فيه روايتها ولم أقف عليه. وتبعه فى إثباتها الزمخشرى فى سورة آل عمران، والراغب وابن عربى فى الفصوص، وغيرهم من وهمهم قال: الصلاة ليست من أمور الدنيا فلا يصح عدها منها فجعلوه وهما لفظا ومعنى، ومن أثبتها افترقوا فرقتين:

فرقة قالت: إن المراد بأمور الدنيا ما وقع فى الدار الدنيا لذة كان أو عبادة، فالصلاة

---

(١) تقدم تخريجه.

من أمورها على هذا، وفى لفظ ثلاث تغليب للمؤنث على المذكر عكس القاعدة المشهورة لنكتة وغيرا الأسلوب فى الثالث، فعبر عنه بالفعل إشارة لمغايرته لما قبله وفيه عطف الفعل على الاسم الجامد، والمعروف عطفه على المشتق كما قال ابن مالك رحمه الله:

واعطف على اسم شبه فعل فعلا وعكسا استعمل تجده سهلا

فليست زيادة مخلة كما توهم.

وفرقة ذهبت إلى أنه نوع من البديع يسمونه الطى، وهو أن يذكر جمعا يريد تفصيله فيذكر بعضا منه ويترك بعضا، فالثالث يطوى ذكر فى الحديث لنكتة كإبهامه على السامع لعدم إرادته وقوف السامع عليه لنكتة، فإن هناك الطعام كما ورد التصريح به فى رواية أحمد كما مر، فطية لخسته عنده واستشهدوا له بقوله[١]:

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت مالى وكنت لها قديما مولعا
الخمر والماء القراح وأطلى بالزعفران فلن أزال مولعا

وقوله:

كانت حنيفة أثلاثا فثلثهم من العبيد وثلث من مواليها

وفيه مع النكتة المذكورة تقليل اللفظ مع تكثير المعنى، وقد يقال: لا شاهد فيما ذكر، أما الأول فالثالث وهو قوله: وأطلى الخ على نهج ما تقدم فى الحديث. وأما الثانى فلأنه ذكر قبيلة بنى حنيفة وجعلها أثلاثا عبيدا، وموالى، وحلفاء، فبقى نفس القبيلة وصميمها وهى مذكورة أولا. وقال: حبب بالبناء للمجهول ودنياكم بالإضافة إليهم، ولم يقل أحببت من دنياى إشارة إلى أن محبته صلى الله تعالى عليه وسلم لذلك ليست باختياره لشهوات نفسه بل بفعل الله، فحبه إنما هو لله وذاته لما أراده ورضيه له، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم بشرى الظاهر ملكوتى لا يتجلى بأحوال البشر إلا إذا أمره الله تعالى بها، لتتأسى به أمته وتتشرف بما رضيه له، فعده صلى الله تعالى عليه وسلم من البشر كعد الياقوت من الأحجار، وكان إذا دخل فى الصلاة اشتغل ظاهره وباطنه عن الخلق لوقوفه بين يدى خالقه، فيزداد قربا ومشاهدة فيتصل نور بصره بنور بصيرته، فلذا جعلها قرة عينه. ولذا شرع السلام لعوده من عنده من معراجه. ولذا كان بعض الناس يصافح من عنده فافهم. وروى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جلس

---

(١) البيتان من الكامل، وهما للأعشى فى لسان العرب (٢٠٩/٤)، تاج العروس (٧٤/١١)، وبلا نسبة فى تهذيب اللغة (٩٥/٥)، المخصص (٢٢٤/٨٣).

مع أصحابه الأربعة رضى الله تعالى عنهم فقال: (**«حبب إلى من دنياكم ثلاث، الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة»**) فقال أبو بكر رضى الله عنه: وأنا يا رسول الله حبب إلى من الدنيا ثلاث: الجلوس بين يديك، والنظر إليك، وإنفاق جميع مالى عليك، وقال عمر رضى الله تعالى عنه: وأنا يا رسول الله حبب إلى من الدنيا ثلاث: الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وحفظ الحدود، وقال عثمان رضى الله تعالى عنه: وأنا يا رسول الله حبب إلى من الدنيا ثلاث: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام، وقال على رضى الله عنه: وأنا يا رسول الله حبب إلى من الدنيا ثلاث: إقراء الضيف، والصوم بالصيف، والضرب بين يديك بالسيف. فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام وقال: وأنا يا رسول الله حبب إلى من دنياكم ثلاث: حب المساكين، وتبليغ الرسالة للمسلمين، وأداء الأمانة. وإذا النداء من قبل الله تعالى وهو يقول: إن الله يحب من دنياكم ثلاث: بدن صابر، ولسان ذاكر، وقلب شاكر. فالخطاب على هذا للخلفاء الأربعة رضى الله تعالى عنهم، ويجوز أن يكون لجميع الناس أو الأمة.

(**فدل**) ذلك على (**أن حبه**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**لما ذكر من النساء والطيب اللذين هما من دنيا غيره**) أى دل ما ذكر من بناء حبب للمجهول وإضافة الدنيا لغيره صلى الله تعالى عليه وسلم (**واستعماله لذلك**) بالنصب عطفا على اسم إن، والمراد باستعماله لذلك مباشرته للجماع وتطيبه وتضمخه بالطيب. (**ليس لدنياه**) والتلذذ (**التى ذكرناها فى التزويج**) من تحصينهن وقيامه بحقوقهن واكتسابه وهدايته لهن. (**وللقاء الملائكة فى الطيب**) أى استعماله لأجل محبة الملائكة له وهو صلى الله تعالى عليه وسلم يلاقيهم كثيرا، ولذا ترى أصحاب العزائم والهياكل يلازمون البخور بمحبة الروحانية له. (**ولأنه**) أى الطيب (**أيضا مما يحض على الجماع ويعين عليه**) أى مما يحرك داعية الجماع ويقويها لانتعاش الروح به. (**ويحرك أسبابه**) أى يهيج مقدماته كالشهوة والقبلة، أو المراد آلته، فكنى به عنها تأدبا واحتشاما وهو تعبير حسن.

(**وكان حبه صلى الله تعالى عليه وسلم لهاتين الخصلتين**) الجماع والطيب. (**لأجل غيره**) أى الزوجات والملائكة عليهم الصلاة والسلام. (**وقمع شهوته**) لا لمجرد التلذذ والنعم كغيره، وإن كان قادرا على ذلك، ولذلك كان صلى الله تعالى عليه وسلم لا يرد الطيب إذا أهدى إليه. وفى الحديث: «من عرض عليه طيب فلا يرده فإنه طيب الريح خفيف الحمل، وإذا أعطى أحدكم ريحانا فلا يرده»[1]. والمراد الريحان المعروف أو كل ذى رائحة طيبة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤١٧٢)، والنسائى (١٨٩/٨)، وأحمد (٣٢٠/٢)، وابن حبان (١٤٧٣)، والبيهقى (٢٤٥/٣).

(تنبيه) قال ابن عربى: ما ورد قط عن نبى من الأنبياء أنه حبب إليه النساء إلا سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وإن كان رزقوا منهن كثيرا كسليمان وغيره، ولكن كلامنا فى كونه حبب إليه وذلك أنه كان منقطعا إلى ربه عز وجل لا ينظر معه إلى كونه يشغله عنه. فإنه مشغول بالتلقى عن الله تعالى ورعاية الأدب، فلا يتفرغ إلى شىء دونه فحبب إليه النساء عناية منه عز وجل لهن، فكان يحبهن لكون الله حببهن إليه والله جميل يحب الجمال.

(وكان حبه الحقيقى المختص بذاته) لا لأمر آخر عرضى يرجع بالآخرة إلى الدين والثواب **(فى مشاهدة جبروت مولاه ومناجاته)** الجبروت فعلوت كالرهبوت والملكوت، والمراد عظمة الله تعالى سيده ومولاه، والمناجاة: المسارة بتلقى وحيه ودعائه وقراءة القرآن. وقال الدوانى فى شرح «هياكل النور»: الجبروت يراد به عالم العقول، أى الملائكة. ويسمى أيضا بالملكوت الأعلى والأعظم، قيل: إنما سمى بالجبروت لأنها مجبورة على كمالاتها الفطرية، أو لأنه جبر نقصها الإمكانى بحصول ما يمكن لها بالفعل. انتهى.

(ولذلك ميز) فرق وفصل **(بين الحبين)** أى حب ما هو من أمور الدنيا ظاهر أو بين حب ما هو حقيقة لله. **(وفصل بين الحالين)** أى حال المحبتين بتغيير العبارة والأسلوب كما مر.

(فقال: وجعلت قرة عينى فى الصلاة) فأوردها جملة فعلية معطوفة على اسم قبلها كما مر، تعظيما لشأنها وتفخيما لأمرها لكونها مجبولة لذاتها، فليست معطوفة على حبب عطف الفعلية على الفعلية كما ذهب إليه من جعل الثالث مطويا كما عرفته. وقرة العين: ما يسر من ينصره من قر يقر بالفتح إذا برد، لأنه كما قيل: دمعة السرور باردة. أو من القرار والسكون لسكونها إذا نظرت من تحب، أو بنومها لأن الحزين يسهر. وقد قيل: عينى تقربكم عند تقربكم. ولو لم يغير الأسلوب. قال: والصلاة التى بها قرة عينى أو وقرة عينى فى الصلاة فلا يحصل التمييز بين ما حبه عرضى وبين ما حبه ذاتى وحقيقى، وبهذا العدول علم أنها ليست من دنياهم، وهذا إنما يتوهم إذا كان الحديث لفظه هكذا، والمصنف رحمه الله تعالى ممن لا يقول بصحته كما سيأتى فى فضل وقاره، والمراد بالصلاة الصلاة المعروفة ذات الركوع والسجود لما يشاهد فيها كما مر، وقيل: المراد صلاة الله وملائكته عليهم الصلاة والسلام عليه، قال ابن قرقول: والأول أظهر.

(فقد ساوى) صلى الله تعالى عليه وسلم **(يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام فى كفاية فتنتهن)** يعنى: أن يحيى وعيسى صلى الله تعالى عليه وسلم تبتلا وتركا التزوج مع

القوة والقدرة خوفا من فتنة النساء، وهى تمكن حبهن فى القلب والاشتغال بهن عن العبادة فى مشاهدة عالم الملكوت، وهن لم يشغلنه صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يمنعه عنها فى حال من الأحوال، فساواهما فى عدم الاشتغال حتى كان الوحى ينزل عليه صلى الله تعالى عليه وسلم وهو فى فراش زوجاته، وأعانته خديجة رضى الله عنها فى أول أمره، فلا يقال: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم فى حال مضاجعتهن مشغول عن عبادته إلا أن يعد جماعه عبادة. **(وزاد فضيلة عليهما)** أى يحيى وعيسى **(وبالقيام بهن)** أى له صلى الله تعالى عليه وسلم فضيلة زائدة على ما ذكر بقيامه على زوجاته، وكسبه لهن، وهدايته لهن مع عدم غفلته صلى الله تعالى عليه وسلم طرفة عين عن الله تعالى.

(وكان صلى الله تعالى عليه وسلم ممن أقدر) بالبناء للمجهول أى قدره الله تعالى. **(على القوة فى هذا)** أى أمر النكاح مع القيام بحقه وحق الله، وليس فى هذا دلالة على أن غيره صلى الله تعالى عليه وسلم أقدر منه كما توهم. **(وأعطى الكثير منه ولهذا أبيح له)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(من عدد الحرائر)** جمع حرة على خلاف القياس لكونه بمعنى عقيلة فجمع جمع فعيلة. كما قال النابغة(١):

حذار على ألا تنال مقادتى ولا نسوتى حتى يمتن حرائرا

(ما لم يبح لغيره) من جمع ما فوق الأربعة وهو من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم بالنسبة لأمته، فأبيح له أن ينكح من النساء ما شاء فى أول أمره، ثم حرم عليه بعد ذلك أن يزيد على ما فى عصمته من أزواجه، فقال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾ [الأحزاب:٥٢] قال التجانى: وقال مغلطاى: له صلى الله تعالى عليه وسلم خصائص جمة منها: إباحة تسعة نسوة، والصحيح أن له صلى الله تعالى عليه وسلم الزيادة. قال بعض الشراح: من قال لا يزيد على التسعة استدل بقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ [النساء:٣] وهو خطأ بالإجماع، لأنه ليس معنى الآية وليست الآية فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنما هى فى حق الأمة، والزيادة على الأربعة لهم ممنوعة بالإجماع الدال عليه معنى حديث غيلان، ولم يخالفه مستدلا عليه بهذه الآية إلا بعض الروافض والزنادقة كما فصله ابن حزم فى كتاب «المحلى».

(وقد روينا عن أنس) رضى الله تعالى عنه، قال السيوطى: هذا الحديث عزاه المصنف رحمه الله تعالى للنسائى، وهو عند البخارى، وروينا بفتح الراء والواو المخففة. وما قاله

(١) البيت من الطويل، وهو فى ديوان النابغة (ص٧٠)، تخليص الشواهد (ص٤٣٧)، شرح المفصل (٥٤/٢)، الكتاب (٣٦٨/١)، شرح أبيات سيبويه (٣٠/١).

الشمنى نقلا عن المزى من أنه بضم الراء وكسر الواو المشددة لا وجه له. **(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يدور على نسائه)** أى يجامعهن من دار على كذا وطاف به إذا مشى حوله فجعله كناية عما ذكر.

(فى الساعة من الليل والنهار) أى مقدار ساعة منهما فقدرته صلى الله تعالى عليه وسلم على ذلك مع ما كان عليه من قلة الأكل والشرب معجزة فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم. قيل: والتبتل فى حق يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام تشبيها بالملائكة كان أفضل فى زمانهما، ودوره صلى الله تعالى عليه وسلم عليهن كان برضاهن، فلا ينافى وجوبه فى القسم.

(وهن إحدى عشرة) أى نساؤه صلى الله تعالى عليه وسلم اللاتى دار عليهن كذلك عدتهن. قال البرهان: كذا فى صحيح البخارى من حديث أنس رضى الله تعالى عنه. وقال ابن خزيمة: لم يقل أحد من أصحاب قتادة بأنهن إحدى عشرة إلا معاذ بن هشام عن أبيه. وعن أنس رواية أخرى فى البخارى: أنهن تسع. وجمع بينهما بأن أزواجه صلى الله تعالى عليه وسلم كن تسعا فى ذلك الوقت كما فى رواية سعيد، وسريتاه مارية وريحانة عند من قال إن ريحانة كانت أمة. وبعضهم قال: إنها زوجة. وروى أبو عبيدة أنه كان مع ريحانة فاطمة بنت شريح. وقال ابن حبان: كان هذا أول ما قدم صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة فكانت زوجاته تسعا؛ لأن جمع نسائه لم يقع مرة واحدة، ولا يستقيم هذا إلا فى آخر أمره حيث اجتمع عنده تسع نسوة وجاريتان، ولا يعلم اجتماع إحدى عشرة زوجة عنده، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم تزوج إحدى عشرة امرأة أولاهن خديجة، ولم يتزوج عليها حتى ماتت. انتهى ما ذكره البرهان. وكلام ابن خزيمة يدل على أن رواية الإحدى عشرة مرجوحة والتسع راجحة، وجمع بينهما بأن من التسع فاطمة بنت شريح وريحانة على القول بأنها زوجة فصدر الجمع منه صلى الله تعالى عليه وسلم مرة تسعا ومرة إحدى عشرة، وأيضا قيل: التسع محمول على الحقيقة والأخرى على تغليب الزوجات على السريتين وهما ريحانة ومارية، فإن قيل: الرواية بلفظ النساء وهن حقيقة فى غير الرجال فلا حاجة إلى التغليب، قيل: لا يقال إنه حقيقة فى ذلك إلا إذا لم يضف للأزواج الإماء، كما فى الحديث وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [المجادلة:٣] فإن أضيف لهم لم يتناول الإماء حقيقة، ولذا احتج علماؤنا بهذه الآية على عدم صحة ظهار الإماء خلافا لمالك، وقد تبعه التجانى إذ جمع بين روايتى أنس بأنهن تسع حرائر وإحدى عشر منكوحة وسريتان لدخول السرائر فى النساء كالآية، والنساء والنسوة والنسوان جمع المرأة من غير لفظها كالقوم فى جمع

المرء، وقد علم أن طوافه صلى الله تعالى عليه وسلم على نسائه فى ساعة واحدة لا ينافى القسم إن قلنا بوجوبه عليه، و لم تقل إن من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لا يجب عليه القسم، وقد ذهب إلى هذا الزيلعى من أئمتنا وبعض المحدثين فقسمه صلى الله تعالى عليه وسلم إنما كان تطييبا لخاطرهن تفضلا منه وتعليما لأمته، ولذا كان يقرع بينهن إذا أراد السفر مع أن القسم إنما يجب عليه فى الحضر، أو نقول هذا برضاهن مع أن هذا لا يفوت القسم لمساواتهن فيه، والاختيار فى القسم للزوج ويدل على عدم الوجوب، أنه روى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقسم لثمان ويترك واحدة منهن، قيل: إنها صفية بنت حيى رضى الله تعالى عنها كما فى مسلم، وعليه قوله تعالى: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [الأحزاب:٥١] وقال المنذرى: كان ممن يؤوى عائشة، وأم سلمة، وزينب، وحفصة رضى الله تعالى عنهن انتهى.

ومن أرجاه سودة، وجويرية، وأم حبيبة، وصفية، وميمونة رضى الله عنهن أجمعين انتهى. واستدل القائل بالوجوب عليه بحديث الترمذى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول: «اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك»(١) وقد يقال: هذا كان قبل إعلامه بعدم الوجوب عليه أو لعدوله عن الأفضل فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم والكلام على ترجمة زوجاته رضى الله تعالى عنهن مفصل فى السير. وللعلامة ابن حجر العسقلانى رحمه الله تعالى:

توفى رسول الله عن تسع نسوة ... إليهن تعزى المكرمات وتنسب
فعائشة ميمونة وصفية ... وحفصة يتلوهن هند وزينب
جويرية مع رملة ثم سودة ... ثلاث وست نظمهن مهذب

والواو فى قوله من الليل والنهار بمعنى أو.

(قال أنس رضى الله تعالى عنه: وكنا نتحدث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أعطى قوة ثلاثين رجلا) فى الجماع، وهذا تتمة الحديث الذى قبله **(خرجه)** أى رواه مسندا **(النسائى)** وقد تقدم أن البخارى رواه أيضا **(وروى)** بالبناء للفاعل والمفعول **(نحوه عن أبى رافع)** أى هذا الحديث مروى عن أبى رافع أيضا فى سنن أبى داود والبيهقى والنسائى، ولفظه: «طاف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على نسائه فى يوم أو ليلة واحدة وكان يغتسل عند هذه وهذه». ولذا قال: نحوه لاختلاف لفظه وزيادته، وأبو رافع هذا هو مولى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو قبطى، واسمه إبراهيم،

(١) أخرجه أبو داود (٢١٣٤)، وابن سعد (١٢١/٨).

وقيل: أسلم. وقيل: ثابت، وقيل: هرمز. وقيل: صالح، وقوله قوة ثلاثين قال البرهان الحلبى فى الصحيح من رواية الإسماعيلى عن معاذ: «أعطى قوة أربعين رجلا». وفى حلية أبى نعيم عن مجاهد: «قوة أربعين رجلا من رجال الجنة». وفى الترمذى: «أن قوة كل رجل من رجال الجنة قوة سبعين رجلا». يعنى من أهل الدنيا وصححه، وفيه: «قوة مائة رجل» وقال: إنه صحيح غريب. وقال ابن حبان: «قوة كل رجل فى الجنة قوة مائة رجل». والنسائى هو الإمام الحافظ الحجة أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على صاحب السنن، سمع من قتيبة وطبقته وأصحاب مالك وحماد بن زيد، وانتهى إليه علم الحديث، وروى عنه كثيرون، وتوفى سنة ثلاث وثلثمائة، ويشبه أنه ولد سنة خمسة عشر ومائتين، ولم يبق من أصحاب الكتب الستة بعد الثلاثمائة غيره، فعلى هذا قوته صلى الله تعالى عليه وسلم قوة ألوف، ووقع فى بعض النسخ هنا برواية اللخمى عن المصنف.

(**وعن طاووس: أعطى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قوة أربعين رجلا**) وقد تقدم من رواه وما فيه، وطاووس هو الإمام عبد الرحمن بن كيسان اليمانى وهو من أبناء الفرس. وقيل: من النمر بن قاسط. وقيل: اسمه ذكوان ولقب بطاووس لأنه كان طاووس القراء. وروى عن عائشة، وأبى هريرة، وابن عباس وغيرهم رضى الله تعالى عنهم. وروى عنه الزهرى، والتيمى وابنه وغيرهم. وتوفى بمكة سنة ست ومائة وأخرج له أصحاب السنن وغيرهم.

(**ومثله عن صفوان بن سليم**) بالتصغير وهو إمام عابد، قيل: إنه لم يضع جنبيه على الأرض أربعين سنة حتى نقبت جبهته من السجود، توفى سنة اثنين وثلاثين ومائة، وهو تابعى روى عنه أصحاب السنن. (**وقالت سلمى مولاته**) بفتح السين بلا خلاف وغلط من ضمها كما قاله النووى رحمه الله تعالى، والضمير للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأنها خادمته. وقيل: إنها مولاة صفية عمته صلى الله تعالى عليه وسلم وهى زوج أبى رافع داية فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها، وروى عنها ابن ابنها عبيد الله، وهذا الحديث صحيح رواه أبو داود كما قاله السيوطى. (**طاف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على نسائه التسع وتطهر من كل واحدة**) أى من جماع كل واحدة منهن (**قبل أن يأتى الأخرى وقال: هذا**) أى الغسل من كل جماع (**أطهر وأطيب**) وروى: «أزكى وأطيب وأطهر» أما كونه أطهر فظاهر، وأما أنه أطيب فلأنه يقوى البدن بإنعاشه. وقيل أطيب للباطن وأطهر للظاهر. وهذا الحديث متصل لأن سلمى روته عن زوجها أبى رافع، وفيه دليل على أن الغسل على الفور وأنه لا يجب لكل جماع، وقيل: إن لم يغتسل

يستحب له الوضوء كوضوء الصلاة، وروى عن عمر أنه لازم وما ورد فى الصحيح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يطوف على نسائه بغسل واحد، فلبيان الجواز، وحمل بعضهم الوضوء فى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إذا أتى أحدكم أهله فليتوضأ»(١) على الوضوء اللغوى أى يغسل فرجه وهذا بناء على أن الوضوء لا يستحب كما قاله أبو يوسف، وذهب بعضهم إلى أنه يستحب لأنه أنشط كما ورد فى الحديث.

(وقد قال سليمان عليه الصلاة والسلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين وأنه فعل ذلك) أى الطواف عليهن وجماعهن كما قال. وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «قال سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كلهن يأتى بغلام يقاتل فى سبيل الله، فقال صاحبه أو الملك: قل إن شاء الله تعالى فلم يقل ونسى، فلم تأت واحدة منهن بولد إلا واحدة جاءت بشق غلام» فقال رسول الله: «لو قال إن شاء الله تعالى لم يحنث وكان له دركا لحاجته»(٢) وفى رواية: «على ستين امرأة» وفى رواية: «على تسعين امرأة» وفى أخرى: «على سبعين» وفى رواية: «على تسعة وتسعين امرأة». وستأتى الزيادة وما فيها. قالوا: ولا تعارض بين الروايات؛ لأن إثبات القليل لا ينفى الكثير والعدد لا مفهوم له، ثم هذه النساء إن كانت إماء أو بعضها حرائر وبعضها إماء فلا إشكال، وإن كانت حرائر فلأن الحصر فى الأربع لم يكن شرعا لمن قبلنا، وإنما صار شرعا لنا لضعف الأبدان وقلة الأعمار، ويقال: طاف بالشئ وأطاف به إذا دار حوله، وقد قدمنا أنه كناية عن الجماع وعلى اختلاف اللغتين جاءت روايتان: «لأطوفن ولأطيقن» وفى الحديث جواز القسم والتعليق بالمشيئة، وأما كون سليمان عليه الصلاة والسلام لم يقله، وأنه نسيه فسيذكره المصنف رحمه الله تعالى فى أول القسم الثالث. وقوله فى الحديث: «لم يحنث» بمعنى لم يأثم ويخطئ لأنه فعله، وليس المقسم عليه الولد؛ لأنه ليس فى قدرته ومثله لا يخفى عليه، والدرك: بفتح الراء بمعنى الإدراك والتحصيل. وفى البخارى بدله «كان أرجا لحاجته» وسليمان نبى الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمره ونسبه مفصل فى القصص والتواريخ.

(قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: كان فى ظهر سليمان عليه الصلاة والسلام ماء

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٨/٢٧)، وأبو داود (٢٢٠)، والترمذى (١٤١)، وابن ماجه (٥١٧)، والحاكم (١٥٢/١)، والبيهقى (٢٠٣/١).

(٢) أخرجه البخارى (٢٧/٤، ١٩٧، ٥٠/٧)، ومسلم (١٦٥٤/٢٣)، والترمذى (٩٤٢)، والنسائى (٢٥/٧)، وأحمد (٢٢٩/٢).

مائة رجل) المراد بالماء المنى ومنبعه من الرجال صلب الرجال كما ذكروه فى قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق:٧] والمراد: أن له قوة مائة رجل فى الجماع **(وكانت له ثلاثمائة امرأة وثلثمائة سرية وحكى النقاش)** رحمه الله تعالى تقدمت ترجمته **(وغيره)** أنه كان له **(سبع مائة امرأة وثلاثمائة سرية)**. وروى أن له ألف امرأة وتسع مائة سرية. وهذا يخدش فيما تقدم من العدد، وقد تقدم ما أجابوا به عنه إلا أن بعضهم ضعفه، وجمع بين الروايات بأن بعضها محمول على الحرائر وبعضها على الحرائر والسرارى، ولا يخفى ما فيه، ولو قيل إن الاختلاف لاختلاف أحواله صلى الله تعالى عليه وسلم باعتبار الزمان فكانت تزيد وتنقص بهذا الاعتبار لكان أظهر.

وفى تفسير النسفى عكس ما حكى المصنف رحمه الله تعالى عن النقاش، فقال: كان لسليمان عليه الصلاة والسلام ثلاث مائة حرة وسبع مائة سرية. وكذا فى الكشاف والله أعلم بالصواب.

(وقد كان لداود عليه السلام على زهده وأكله من عمل يده) لأن الله تعالى ألان له الحديد فكان يصنع منها الدروع ويبيعها ويأكل هو وأهله من ثمنها مع ما آتاه الله من الملك، وأفضل ما أنفق المرء ما كان من كسب حلال كالصنعة والتجارة والزراعة، واختلفوا فى الأفضل منها، وفصلوه فى كتب الفقه والحديث بما لا مزيد عليه ولا حاجة هنا لنا به **(تسع وتسعون امرأة)** كما ذكره القشيرى فى تفسيره.

(وتمت بزوج أورياء مائة) بالرفع والنصب، فالرفع ظاهر على الفاعلية، والنصب على أن يكون الفاعل العدة وهو مضمر، ويجوز النصب على الحال منها، أى وتمت العدة فى حال كونها مائة يقال لكل قرنين من ذكر وأنثى زوج وزوجة لغة ردية، وأورياء علم لرجل من بنى إسرائيل عبرانى، واختلفوا فى ضبطه بعد الاتفاق على أنه بهمزة وواو وراء مهملة ومثناة تحتية، فقيل: ممدودة، وقيل: مقصورة وهمزته مضمومة وواوه ساكنة وراؤه مكسورة وياءه مفتوحة بعدها ألف، وقيل: همزته مفتوحة وهو أورياء بن حنان. وقال أبو الفرج الأصبهانى فى كتاب «النساء»: هو أوريا السعدى وزوجته هى أم سليمان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقصته هى المذكورة فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ [ص:٢٣] وقصته ستأتى وما فيها فى القسم الثالث من هذا الكتاب، ولكنا نوردها هنا تبعا لما فى بعض الشروح، وذلك أن داود عليه الصلاة والسلام كان فى ملأ من بنى إسرائيل فأعجب بعلمه وأنه لا يخاف الفتنة، ويقال: إنه قال للملكين الحافظين له إنى لا أقع فى مكروه غبتما أو حضرتما، وانفرد فى محرابه يوما فوقع بين يديه طائر حسن الهيئة يقال إنه إبليس، فمد يده ليأخذه فزال من

موضعه غير بعيد فتبعه فخرج من مدخله، فاطلع داود منه فرأى امرأة جميلة تغتسل فأعجبته، فلما شعرت به أرسلت شعر ذوائبها لتسترها فزاده ذلك عجبا وميلا لها، فانصرف وسأل عنها فقالوا: إنها امرأة رجل من جندك يسمى أورياء، وكان مع جيش له بعثوا للقتال، فأرسل لأميره أن يجعله مع التابوت فى المقدمة وهو معترك الحرب وأشده، فقدمه فاستشهد، فلما جاء خبر الشهداء كان كلما أخبر برجل منهم توجع فلما أخبر به قال: الموت مكتوب على كل نفس، وخطب امرأته وتزوجها فولدت له سليمان عليه الصلاة والسلام، فبعث الله له خصمين ليعلمه بحكمه أن ما فعله ظلم وهو أشد عليه، فتسورا حائطه ودخلا عليه ففزع منهما لخوف أنهما من أهل مملكته بغاة؛ لأن التسور فى العادة كذلك، لأنه كان ليلا بلا استئذان ففهما منه الخوف وقالا: لا تخف وقصا أمرهما، وقالا له: احكم ولا تجر كما قصه الله تعالى، وقررا كلامهما على لسان أورياء وقوله تعالى: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ [ص: ٢٣] أى اجعلها فى كفالتى، أو اكفل بمعنى زوجنى، والنعجة: كناية عن المرأة، وقوله عزنى أى غلبنى لغلبته على وقهره، فقال داود لخصمه: ما تقول؟ فأقر فزجره وأمره بالرجوع للحق، وقال: لقد ظلمك فتبسما وذهبا، وقيل: ارتفعا للسماء فشعر بما أرادا، وقيل بينا له ما فعل وعرفاه أن ما قالاه تمثيل له، فخر ساجدا فغفر الله تعالى له فقال: يارب ما أصنع إذا طالبنى بدمه؟ فقال: استرضيه فسر بذلك. قالوا: وهذه القصة مما افتراه القصاص وأهل الكتاب، حتى روى عن على كرم الله وجهه: من حدث بقصة داود عليه الصلاة والسلام جلدته مائة وستين. وهو حد قذف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عنده، والمعتمد أن داود عليه الصلاة والسلام رأى امرأته فأعجبته فسأله تطليقها فطلقها بطيب خاطر فتزوجها، ومثله فى شرعهم جائز، وقد كان مثله فى صدر الإسلام مع المهاجرين والأنصار، وسيأتى بقية الكلام على هذا (**وقد نبه الله**) عز وجل (**على ذلك فى الكتاب العزيز بقوله:** ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ [**ص: ٢٣**] **الآية**) حكاية عن الخصمين اللذين نزلا نفسهما منزلة أورياء ونزل أحدهما الآخر منزلة الأخ، لأن الصحبة كالإخوة كما قال:

صحبة يوم نسب قريب وذمة يعرفها اللبيب

تشديدا لظلمه. والعرب تكنى عن المرأة بالنعجة، وهى فى الأصل أنثى الضأن تاؤها لتأكيد التأنيث، لأن مذكرها لفظ مخصوص هو حروف وتطلق على البقرة الوحشية أيضا، فاستعيرت للمرأة كما استعيرت لها الشاة فى قوله(١):

---

(١) البيت من الكامل، وهو لعنترة فى ديوانه (ص٢١٣)، الأزهية (ص٧٩، ١٠٣)، الأشباه والنظائر (٣٠٠/٤)، خزانة الأدب (١٣٠/٦)، شرح المفصل (١٢/٤).

يا شاة ما قنص لمن حلت له حرمت على وليتها لم تحرم

وفى مصحف ابن مسعود نعجة أنثى لمزيد تأكيد التأنيث، أو لبيان المراد كحديث: «فلأولى رجل ذكر». وقيل: أنثى بمعنى امرأة مؤنثة يستأنس بها زوجها وضدها امرأة مذكرة، وهى التى لا تلين لزوجها ولا يأنس بها، ووصفها بواحدة تشنيع على ظلم صاحبه فإنه مع كثرة نعاجه حسده مع قلة ما عنده.

(وفى حديث أنس عنه عليه الصلاة والسلام) كما رواه الطبرانى فى الأوسط بسند جيد كما قاله السيوطى رحمه الله تعالى أنه قال: **(فضلت)** بالتشديد والبناء للمجهول **(على الناس بأربع السخاء والشجاعة وكثرة الجماع وقوة البطش)** البطش هو قوة السطوة والأخذ بعنف، وعطفه على كثرة الجماع لما فيه من إذهاب القوة؛ لأنه ماء الحياة يصب فى الأرحام، ونور العين ومخ العظم إشارة إلى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم تضعف قوته وأنه من آياته، وسيأتى معنى السخاء والشجاعة.

(وأما الجاه) وهو كونه وجيها عند الناس بتسخير القلوب وطاعتها ومحبتها وانقيادها له، بحيث يقدر على استعمال أربابها فى مقاصده، وهى لا تنقاد إلا باعتقاد الكمال التام عندها حتى يستعبدهم كما يستعبد الأرقاء.

(فمحمود عند العقلاء عادة) منصوب على الظرفية أو الحالية، أى جرت عادة العقلاء بحمده، ويجوز جعله تمييزا وعند متعلق بمحمود ظرف لغو. وقيل: إنه حال وكونه محمودا عقلا يقتضى أنه محمود شرعا بحسب ذاته وأصله، وإن كان قد يذم شرعا بحسب ما يعرض له عند بعض الناس وهو أعظم نفعا من المال، لأن المال يكسب به ولا يخشى عليه ما يخشى على المال.

(وبقدر جاهه) أى الإنسان ذى الجاه يعظم فى القلوب بمقدار عظمة جاهه، وقيل: المراد جاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى الدنيا بالنبوة وفى الآخرة بلواء الحمد يكون. **(عظمه)** بكسر والعين بفتح الظاء المشالة وفى آخره هاء الضمير كما قاله البرهان الحلبى.

(فى القلوب) لأن الجاه كما تقدم متفرع على اعتقاد الكمال والقدرة، وكلما ازداد اعتقاده زادت عظمة شأنه فى قلوب الناس، وقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم مهيبا معظما حتى عند أعدائه ثم أيد كونه محمودا بقوله:

(وقد قال الله تعالى فى صفة عيسى عليه الصلاة والسلام وجيها فى الدنيا والآخرة) أى عظيما ذا جاه عند الله فى الدارين، وفيه دليل على أن الجاه من الوجاهة فقلب.

وكان أصله وجه فوزنه فعل، ووجيها منصوب على أنه حال مقدرة من كلمة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران:٤٥] ووجاهته صلى الله تعالى عليه وسلم فى الدنيا بالنبوة وفى الآخرة بعلو رتبته كما مر، ثم استدرك على كونه محمودا بدفع ما يتوهم من أنه مذموم لما فيه من العلو فقال:

(لكن آفاته كثيرة) جمع آفة وهى العاهة والمفسدة، أى يعرض له ما يفسده ويجعله مذموما كثيرا. **(فهو مضر لبعض الناس)** باعتبار ما يعرض له **(لعقبى الآخرة)** باعتبار ما يعقبه ويترتب عليه فى الآخرة، فاللام لتقييد التأقيت والتخصيص بالوقت كما قيل، ويجوز أن تكون تعليلية. **(فلذلك)** أى لضرره فى العاقبة.

(ذمه من ذمه ومدح ضده) وهو الخمول وعدم الشهرة بين الناس، أى إنما ذمه من ذمه لهذا إلا لأنه فى نفسه أمر مذموم، كما ورد فى الحديث الصحيح: «ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حب المال والجاه لدين المؤمن» وقد فصله فى الإحياء فقال: طلب رفعة المنزلة فى القلوب باعتقاد صفة ليست فيه كالعلم والزهد حرام؛ لأنه كذب وتلبيس، وطلبها بما فيه ليجعلها وسيلة لنفع الناس ونفعه فى الآخرة جائز ممدوح، كقول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥] وقد تضمن هذا قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «حسب امرء من الشر إلا من عصمه الله أن يشير الناس إليه بالأصابع فى دينه أو دنياه» رواه البيهقى.

(وورد فى الشرع مدح الخمول وذم العلو والأرض) معطوف على قوله ذمه وهذا كما فى الحديث: «إن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يعرفوا»(١). وقال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣] وإن كان العلو فى الآية مقيدا بصفة زائدة عليه من ظلم أو غيره. والخمول: بضم الخاء المعجمة وفتحها خطأ ضد الظهور، وكون الخمول فضيلة ممدوحة لا يضر مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين لم يرضوه، والخلفاء الراشدين والأئمة العلماء، فإن المذموم هو طلب الشهرة، فأما وجودها من الله من غير تكلف من العبد فليس بمذموم، بل أفضل من الخمول فى حق من قدر على نفع الناس مع خلوص نيته وسلامة طويته وسلامه، ولذا قال الله: ﴿يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص:٨٣] دون يعلون، ومن لم يقدر ويصبر على ذلك فالخمول فى حقه أحسن، كما أشار إليه فى الإحياء، وإليه الإشارة فى حديث: «المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٨٩)، والحاكم (٤/١، ٣٢٨/٤)، والطبرانى فى الصغير (٤٥/٢).

البقل» ولذا قال الشاعر:

مـــن أراد العـــز والـــرا حـــة فـــى الدهـــر الطويـــل
فليكـــن فـــردًا مـــن النـــا س ويرضـــى بـــالخمول
ويـــرى أن قـلـيـــلا كـافيـــا غـيـــر قـلـيـــل

(**وكان صلى الله تعالى عليه وسلم قد رزق من الحشمة**) أراد بالحشمة المهابة والعظمة فى أعين الناس، ولذا عطفه عليه (**والمكانة**) وهى المنزلة الرفيعة رفعة معنوية كالعطف التفسيرى، وتبع فى هذا الاستعمال المشهور؛ لأنها وردت فى كلام الناس بمعنى الاستحياء، فأريد به لازم معناه وهى المهابة. وتحقيقه كما فى شرح «أدب الكاتب» لابن السيد: أن الحشمة تضعها الناس موضع الاستحياء. وعليه قول المتنبى:

ضيـف ألـم برأسي غير محتشم

وليس كذلك إنما الغضب، يقال: هذا مما يحتشمه أى يغضبه، وهذا قول الأصمعى وهو المشهور، وذكر غيره أنها تكون بمعنى الاستحياء. وروى عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما أنه قال: طاعم حشمة. وقال الطرماخ(١):

ورأيت الشريف فـى أعيـن النـا س وضيعا وقـل منـه احتشامـى

انتهى.

(**فى القلوب والعظمة**) معطوف على الحشمة (**قبل النبوة عند الجاهلية**) أى عند أهل الجاهلية، والمراد ما بين المولد والمبعث، وتطلق على ما كان قبل البعثه. ومنه: ﴿**وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى**﴾ [الأحزاب:٣٣] وبه جزم النووى فى شرح مسلم. فإن أضيف للشخص أريد به ما قبل إسلامه، وقد يراد بها ما قبل فتح مكة. (**وما بعدها**) أى بعد النبوة (**وهم يكذبونه ويؤذون أصحابه ويقصدون أذاه فى نفسه خفية**) بضم الخاء وكسرها كما قاله البرهان الحلبى، لأنه لمهابته صلى الله تعالى عليه وسلم عندهم وعظمته فى قلوبهم لا يواجهونه بما يؤذونه، وهو منصوب مفعول مطلق لمذكور أو مقدر أو حال.

(**حتى إذا واجههم أعظموا أمره وقضوا حاجته، وأخباره فى ذلك معروفة سيأتى بعضها**) وهذا بالنسبة لما فى نفس الأمر وأكثر الأحوال، كما روى عن أبى جهل، لعنه اللّه، أنه ساوم رجلا من بنى زبيد ثلاثة أبعره هى خير إبله بثلث ثمنها، فامتنع الناس من

(١) البيت من الخفيف، وهو فى شرح هاشميات الكميت (ص٣٥)، لسان العرب (١٣٦/١٢)، تاج العروس (حشم).

الزيادة لأجله، فأخبره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك فزاده حتى رضى، فاشتراها منه ثم باع منها بعيرين بالثمن، ثم باع الثالث وأعطى ثمنه أرامل بنى عبد المطلب، وأبو جهل مخزى ينظره ولا يتكلم. ثم قال صلى الله تعالى عليه وسلم له: «إياك أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الأعرابى فترى منى ما تكره». فقال: لا أعود يا محمد. فقال له أمية بن خلف: ذلك فى يد محمد، فقال: إن الذى رأيتم منى لما رأيت معه لقد رأيت رجالا عن يمينه ويساره يشرعون رماحهم إلى لو خالفته لكانت إياها» أى لأهلكونى فى وقائع أخرى مثلها، وهذا لا ينافى أنهم فى بعض الأحيان قد آذوه صلى الله تعالى عليه وسلم جهرة، كوضعهم الجزور على ظهره الشريف وهو ساجد، وتكذيبهم له فى قصة الإسراء، وقول أبى جهل لأبى طالب عند موته: لا تطعه أترغب عن ملة عبد المطلب، وتحمل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحيانا لذلك لحكمة تظهر بها غيرة الله وأمره بمقاتلتهم.

(وقد كان يبهت) ثلاثى مبنى للفاعل أو المفعول بمعنى يتحير ويدهش، كما فى قوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. **(ويفرق لرؤيته)** بالبناء للفاعل من باب علم أى يخاف. **(من لم يره)** فاعله. **(كما روى عن قيلة)** بفتح القاف وسكون المثناة التحتية ولام وهاء، وفى الصحابيات من يقال له: قيلة ثلاث، قيلة أم بنى أنمار، ويقال: أخت بنى أنمار، وقيل: الخزاعية أم سباعة، وقيلة بنت مخرمة العنبرية، وقيل: العنزية نسبة لعنزة بنون وزاء معجمه مفتوحتين، وقيلة الغنوية بفتح الغين المعجمة والنون كما قاله البرهان. والمراد قيلة بنت مخرمة وحديثها مذكور فى شمائل الترمذى، وفى سنن أبى داود، وأخرجه ابن سعد بتمامه كما قاله السيوطى، وهو: «أنها رأته صلى الله تعالى عليه وسلم فى المسجد وهو قاعد القرفصاء، قالت: فلما رأيته متخشعا فى الجلسة أرعدت من الفرق» وهذا هو المراد، وإن اختلف بعض لفظه. وقال التجانى: هى ابنة مخرمة الغنوية أو العنزية، ويقال: بل التميمية ولا تنافى بين الأخير وغيره، لأن العنبرية نسبة لبنى العنبر والعنبر أبو حى من تميم، كما أن العنزة حى من ربيعة بن نزاز، وفى مثل هذه القصة وقعت لعمر رضى الله عنه وكان مهيبا.

وقوله: **(أنها لما رأته)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(أرعدت)** بضم الهمزة وسكون الراء وكسر العين وفتح الدال المهملات مبنى للمجهول، أى لحقتها عدة من الخوف. وقوله **(من الفرق)** بفتحتين وهو شدة الخوف وفى نسخة: «ارتعدت».

(فقال) صلى الله تعالى عليه وسلم لها: **(يا مسكينة عليك السكينة)** وصفها بالمسكنة ترحما لها، والسكينة هنا بمعنى الطمأنينة، أى الزمى الاطمئنان وعدم الخوف. والسكينة

ثبت فى النسخ المعتمدة بالرفع على أنها مبتدأ وخبر، والجملة خبرية مرادا بها الأمر أى اسكنى، وبالنصب أى الزمى السكينة للإغراء، أو عليك اسم فعل بمعنى الزمى، و لم يثبت هنا ما قيل: «إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد» وبين سكينة ومسكينة تجنيس، ومسكين بكسر الميم على الأفصح وتفتح، وحق مسكينة أن لا تلحقها الهاء؛ لأن باب مفعيل ومفعال للمبالغة لا تلحقه التاء، لكنه حمل على فقيرة وسكينة بالفتح والتخفيف وقد تكسر وتشدد وتفتح وهو قليل جدا.

(وفى حديث أبى مسعود) رضى الله تعالى عنه، هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة الخزرجى الصحابى رضى الله تعالى عنه البدرى كما فى البخارى. وقال ابن عبد البر رحمه الله تعالى: إنه لم يصح أنه شهد بدرا وإنما شهد العقبة الثانية وعليه الأكثر، وإنما سكنها فهو بدرى دارا لا حضورا، وبهذا يحصل الجمع بين القولين. وروى عنه أيضا أحمد وأصحاب السنن، ومات سنه أربعين أو إحدى أو اثنتين وأربعين. وهذا الحديث رواه البيهقى من طريق قيس عنه موصولا، وعن قيس مرسلا، وقال: هو المحفوظ. وأخرج الحاكم مثله وصححه: **(أن رجلا قام بين يديه)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(فأرعد)** بضم الهمزة وكسر العين المهملة، أى أخذته رعدة من خوفه. وفى رواية: «أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم برجل فكلمه فجعلت ترعد فرائصه». بالفاء والصاد المهملة كالفرائض بالمعجمة وهى لحمة بين الجنب والكتف ترعد من الخائف. **(فقال له: هون عليك فإنى لست بملك. الحديث)** وتمامه «وإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد» وهون بتشديد الواو المكسورة أمر من الهون وهو الأمر الهين السهل، والعرب تقول: هون عليك بمعنى لا تخف. قال(١):

هون عليك فإن الأمور بكف الإله مقاديرها

ولا وجه لتفسيره «باقتصد فى المحبة ولا تبالغ فى التعظيم» وملك بفتح الميم وكسر اللام يجوز تسكينها بمعنى السلطان، يعنى لست من الملوك الجبابرة حتى تخاف منى؛ لأن جبريل عليه السلام جاءه من الله وخيره بين أن يكون ملكا نبيا وعبدا نبيا فاختار أن يكون عبدا نبيا و لم يرض بوصفه بالملك، وكذا الخلفاء الأربعة، وأول من ملك فى الإسلام معاوية رضى الله تعالى عنه، فلا وجه لقول بعضهم هنا أن هذا لا ينافى أنه ظهر ملكه وإن كان ملكه نبوة، فإنه لم يرد إلا نفى أنه ملك كسائر الملوك عند المخاطب. انتهى. وهذا الرجل لم يسمه أحد من شراح الحديث.

(١) البيت من المتقارب، وهو للأعور الشنى فى الدرر (١٣٩/٤)، شرح أبيات سيبويه (٣٣٨/١)، شرح شواهد المغنى (٤٢٧/١)، الكتاب (٦٤/١).

(فأما عظيم قدره بالنبوة) أى وصفه قدر نبوته بالعظم؛ لأن النبوة مقربة له من الله وفيه من العظم ما لا يخفى. **(وشريف منزلته بالرسالة)** جعل منزلة رسالتة شريفة لأنها واسطة بين الله تعالى وخلقه، وفى تأهيله لذلك دون غيره شرف له على من عداه وجعلها منزله لنزوله إليهم بتبليغه عن اتصاله بالملأ الأعلى. **(وإنافة رتبته بالاصطفاء)** الإنافة بالنون والفاء بمعنى الإعلاء والإشراف على ماتحته، والمراد بالاصطفاء ولايته وهى أقرب مقاماته من الله تعالى عز وجل لتمحيصها للطرف الأعلى، ولذا جعلها مرتبة لأنها من الرتوب وهو العلو، والمرتبة كالمرقبة أعلى الجبل كما فى الصحاح فتفطن لتعبيره أولا بالقدر، وثانيا بالمنزلة بالرتبة بمصادفة ذلك لمحزه، وفى نسخة بدل إنابة بالنون والموحدة. **(والكرامة فى الدنيا)** خصها لأنها محل ظهور أمره صلى الله تعالى عليه وسلم وإلا فذلك فى الآخرة مما لا شبهة فيه كما سيذكره. **(فأمر هو مبلغ النهاية)** أى ليس فوقه مرتبة أخرى يكون نهاية أى نهاية النهاية.

(ثم هو فى الآخرة سيد ولد آدم) عطفه بثم لتراخيه زمانا، ومعنى ورتبة وهذا بعض من حديث البخارى وهو: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»(١). وتقدم أن قوله: «ولا فخر» سقط من بعض نسخ الشفاء وثبت فى بعضها، قيل:وهو الأكثر الأولى لأنه هنا من كلام المصنف رحمه الله لا من كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن أثبته فهو حكاية كما قاله التلمسانى وفيه نظر، والمراد أنا أشرف هذا النوع آدم وولده لما ورد: «آدم ومن دونه تحت لوائى» ومر فى معنى قوله: «ولا فخر» أنه لم يذكره للافتخار ومدح نفسه، بل لبيان الواقع تحدثا بنعمة الله تعالى، أو المراد أنى لا أفتخر بهذا فإن لى ما هو أعظم منه من المنزلة عند ربى، ولا حاجة للاستدلال عليه بـ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠] لأنه يلزم من تفضيل أمته على الأمم تفضيل نبيهم صلى الله تعالى عليه وسلم لأن أجر أعمالهم له.

(وعلى معنى هذا الفصل) المشتمل على أوصاف يمتدح بكثرتها ويتميز باستئثاره بها. **(ونظمنا هذا القسم)** الأول من الكتاب، أى جعلناه موضوعا لبيانه وهو المقصود منه بالذات، فجعل ما فيه كالعقد المحتوى على اللآلى والفرائد كناية، وأثبت له النظم تخييلا، كما قيل: ولك أن تقول المراد بالفصل المشار إليه ما تضمنه قوله: فأما عظيم قدره إلى آخره.

(بأسره) أى جميعه، وأصل الأسر شد الأسير بما يربط به ويطلق على ما يربط به، فإذا قيل: خذ الأسير برباطه فالمراد خذه بجميع ماله، ثم تجوز به عن معنى الجميع.

---

(١) تقدم تخريجه.

فصل

(**وأما الضرب الثالث فهو مختلف الحالات**) جمع حالة والحالة تذكر وتؤنث، والغالب عليها التأنيث. (**فى التمدح به**) هو تفعل للكثرة أو بمعنى المجرد لا للتكلف. (**والتفاخر بسببه**) بين الناس (**والتفضيل**) من الناس لصاحبه (**لأجله**) غاير بين العبارة تفننا وهربا من التكرار فى مقام إسهاب الخطابة. (**ككثرة المال**) ثم بين اختلاف الناس فيه فقال: (**فصاحبه على الجملة**) هذا كما يقال فى الجملة والمال أنه أحيانا لا فى كل حال. (**معظم عند العامة**) أى عوام الناس أو أكثر الناظرين للدنيا ووجه تعظيمه. (**لاعتقادها توصله به إلى حاجته وتمكن أغراضه**) مجرور معطوف على حاجته. (**بسببه**) أى المال (**وإلا**) أى وإن لم يكن ذلك أو إن لم يعتقد فيه ذلك، وجواب الشرط محذوف تقديره فلا يعظمه أحد وأقيم بسببه مقامه، وهو قوله: (**فليس له فضيلة فى نفسه**) ثم فسر ما أجمله فقال (**فمتى كان المال بهذه الصورة**) أى مصروفا فى هذه المصارف. (**وصاحبه منفقا له فى مهماته ومهمات من اعتراه**) بمهملتين بينهما مثناة فوقية، أى من ورد عليه وقصده من الضيوف والإخوان وأرباب الحاجات، من عراه إذا غشيه ودخل عليه، كما قيل:

يا لهف نفسى على مال أجود به ... على المقلين أرباب المروءات

(**وأمله**) أى رجاه ورجا إحسانه وإكرامه، ولو قرئ أم له بمعنى قصده صح، ولكن لا يساعده الرسم، كما قيل: من أم له يقال: ما أمله. (**وتصريفه فى مواضعه**) تصريفه مرفوع معطوف على المال، أى كان تصريفه فى مواضعه أى تصرفه واقع موقعه، ويصح عطفه على قوله صاحبه وهما سواء معنى، ويجوز جره عطفا على مهماته، وكذا ضبط بالقلم فى بعض النسخ، أى أن صاحبه منفقا له فى مهماته، وكذا ضبط بالقلم فى بعض النسخ، أى أن صاحبه منفقا له فى مهماته ومنفقا له فى تصريفه فى موضعه، لكن الأظهر على هذا أن يقول صرفه بدون تصريفه وتصريفه مضاف للفاعل، أى ضمير صاحبه وللمفعول أى ضمير ماله والأول أولى لقوله: (**مشتريا به المعالى والثناء**) الذكر الجميل (**الحسن**) فإنه حال منه أى حال كونه مشتريا بماله وتصريفه معالى الأمور وثناء الناس عليه، والمراد بالمعالى جمع معلاه وهى الجاه والرتب العالية. والثناء: الذكر الجميل كما علم، وذلك إنما يكون بصرفه وإعطائه لطالبه، فجعل تحصيل ذلك يخرجه بمنزلة اشتراء أمر نفيس، كما فى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] ومثل هذه الاستعارة شائع فى الكلام القديم وغيره، وقوله الحسن صفة مؤكدة.

(والمنزلة من القلوب) أى كونه له مهابة وعظمة فى قلوب الناس؛ لأنها جبلت على حب من أحسن إليها، وهو منصوب معطوف على المعالى مفعول الحال. **(كان فضيلة فى صاحبه عند أهل الدنيا)** جواب متى المسبب عنه وقيده بقوله: عند أهل الدنيا، لأن نظرهم لهذا، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون، لا لأنه ليس فضيلة عند الله كما توهم؛ لأنه إن اقترن بنية صالحة كان فضيلة عند الله أيضا.

(وإذا صرفه فى وجوه البر) أى إذا صرف المال فى أنواع الإحسان كالصدقة والهبة والهدية فالوجوه بمعنى الجهات، أو هو مستعار لما ذكر استعارة تصريحية أو مكنية. **(وأنفقه فى سبيل الخير)** أى فى طريقه كالحج والجهاد وصلة الرحم.

(وقصد بذلك) المذكور من الصرف والإنفاق أو المصروف والمنفق. **(الله والدار الآخرة)** أى قصد أن يكون ذلك لله وثواب الآخرة. **(كان فضيلة)** أى أمرا فاضلا محمودا. **(عند الكل)** أى كل الناس من أهل الدنيا أو غيرهم العامة والخاصة، ومر أن إدخال ال على كل وبعض منعه بعض النحاة و لم يسمع من العرب، إلا أن القياس لا يأباه **(بكل حال)** أى سواء اكتسب به المعالى والثناء أم لا.

(ومتى كان صاحبه ممسكا له) أى لا يصرفه فى مصارفه بل يخزيه لشحه به ومحبته له **(غير موجهه وجوهه)** أى غير صارف له فى مصارف من مهماته ووجوه الخير. **(حريصا على جمعه عاد)** أى رجع أو صار. **(كثرة كالعدم)** الكثر كالكثير معنى، وهو بضم الكاف وكسرها، وظاهر كلام أهل اللغة جواز فتحها فهو مثلث ومثلثة ساكنة وهو المال الكثير، يقال: ماله قل ولا كثر، ومقابلته بالعدم أبلغ من مقابلته بالقليل، ولذا عدل عنه وإن كانت القلة تكون بمعنى العدم أيضا، وإنما كان كالعدم لعدم انتفاعه به فإنه خازن لغيره حارس لنعمته يستعجل الفقر الذى هرب منه، ويفوته الغنى الذى طلبه فيعيش عيش الفقراء ويحاسب عليه حساب الأغنياء، كما قيل وقد مر:

يغنى البخيل بجمع المال مدته ... وللحوادث والوارث ما يدع
كدودة القز ما تبنيه يهلكها ... وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

(وكان منقصة فى صاحبه) لذم الناس له ووصفه بالبخل والرذالة قبحه عقلا وشرعا **(ولم يقف على جدد السلامة)** أى لم يحصل ما يسلم به من النقص والوبال والذم. والجدد: بفتح الجيم ودالين مهملتين أولاهما مفتوحة وهى الأرض الصلبة، وفى المثل: «من ملك الجدد أمن العشار». فالمراد به الطريق المسلوكة. وهكذا هو مضبوط فى النسخ وارتضاه البرهان رحمه الله تعالى، فمن قال إنه وهم فقد وهم. وأما ضبط بعضهم

له بضم الجيم والدال على أنه جمع جديد فلا وجه لـه. وفـى بعـض الحواشـى أنـه بضـم الجيم وفتح الدال على أنه جمع جدة كمدة ومدد، أى طرق. ومنـه قولـه تعـالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ﴾ [فاطر:٢٧] أى طرق وهو صحيح أيضا. ومنـه ركـب فـلان جـده فى الأمر أى رأى فيه رأيا ظاهرا ولم يقف فى أمر يوصله للسلامة وهو عـدم الجمـع، أو صرف ما جمعه فى مصارفه فعدل عن طريق السلامة فهلك، كما أشار إليه بقولـه: (**بـل أوقعه**) ماله الذى جمعه وبخل به (**فى هوة**) بضم الهاء وتشديد الواو وهى الأهوية الحفـرة العميقة وهو مضاف لقوله:

(**رذيلة البخل**) أى أوقعه فى وهدة دنائته وخسته التى حفرها لنفسـه، وفيـه استعارة مكنية وتخييلية كالذى قبله، فشبه السماحة بطريق يسلم سالكها ويأمن مـن كـل عثرة، وشبه ضده بحفرة يقع فيها من أتاها.

(**ومذمة النذالة**) هى بالنون والذال المعجمة الدناءة والخسة وهو معطوف على رذيلة، ففيها الاستعارة السالفة، أو على هوة وهذه من آفات المال المقابلة لمحاسنه السالفة الدالـة على أنه فى نفسه ليس ممدوحا، وإنما بما يكتسب به كما بينه بقوله:

(**فإذن التمدح بالمال وفضيلته عند مفضله**) أى عند مدحـه ومـدح صاحبـه. ومفضلـه بكسر الضاد المشددة وفتحها (**ليست ثقـة**) مـن حيـث هـى (**وإنمـا هـو**) أى التمـدح بـه (**بالتوصل به إلى غيره**) من الثناء الجميل والأجر الجزيل، وهو إنما يكون ببذلـه (**وتصريفه فى متصرفاته**) وفى الحديـث: «يقـول ابـن آدم مـالى مـالى وهـل لـك مـن مـالك إلا مـا تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت». فمن لم يتوصل بماله لمـا ذكـر ولم ينتفع به كمن لا مال له. قال أبو العتاهية:

إذا المرء لم يعتـق مـن المـال نفسـه ... تملكـه المـال الـذى هـو مالكـه
ألا إنـمـا مالـى الـذى هـو منفق ... وليس لـى المال الذى أنـا تاركـه

(**فجامعه إذا لم يضعه مواضعه**) بصرفـه فـى مهماتـه ومـهمات مـن أملـه (**ولا وجهه وجوهه**) من أنواع البر وسبل الخير، ويحتمل التعميم فى كل منهما. (**غـير ملـئ**) أى غـير غنى، يقال: ملأ ملاءة وملاء بالمد إذا استغنى. (**بالحقيقة**) أى فى نفس الأمر؛ لأن الغنـاء هو المغنى لصاحبه عما سواه وهو محتاج لماله ولغيره فـى اكتسـابه. وقـد قـال الحكمـاء: الغنى هو الذى لا يحتاج فى ذاته وكماله إلى شىء (**ولا غنى بالمعنى**) المقصـود منـه وهـو كفاية المهمات، واكتساب المحمدات، فكأنه فقير، (**ولا متمدح بـه**) بفتـح الـدال (**عنـد أحد من العقلاء**) بالجر معطوف على ملئ أى من كمل عقله لا يمدح بمثله (**بل هـو فقـير**

أبدًا غير وأصل إلى غرض من أغراضه)

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله ... مخافة فقر فالذى فعل الفقر

وكونه لم يصل لغرضه لعدم إنفاقه وكسبه به ما يريد، كما أشار إليه بقوله: **(إذ ما بيده)** أى فى ملكه وتصرفه. **(ومن المال الموصل لها)** بكسر الصاد مخففة ومشددة أى أغراضه. **(لم يسلط عليه)** بالتشديد والبناء للمجهول أى لم يرزقه الله تعالى ويقدر له الإنفاق منه فى أغراضه. **(فأشبه خازن مال غيره)** فى حراسة المال وعدم قدرته على الإنفاق منه. **(ولا مال له)** جملة حالية من خازن **(فكأنه)** أى صاحب المال **(ليس فى يده شىء منه)** كما قيل:

إذا كنت جماعا لمالك ممسكًا ... فأنت عليه خازن وأمين

تؤديه مذموما إلى غير حامد ... فليأكله عفوًا وأنت دفين

ولمحمود الوراق:

تمتع بمالك قبل الممات ... وإلا فلا مال إن أنت متا

شقيت به ثم خلفته ... لغيرك بعدًا وسحقًا ومقتا

فجادوا عليك بزور البكاء ... وجدت عليهم بما قد جمعتا

وأرهنتم كل ما فى يديك ... وخلوك رهنًا بما قد كسبتا

(والمنفق ملئ غنى بتحصيله فوائد المال وإن لم يبق فى يده من المال شىء) فالممسك كما أنه فقير بالقوة فكذا المنفق غنى بالقوة، لأن له خلفا من اللّه بمنزلة الحاصل عنده، كما قيل:

وإنى لأرجو اللّه حتى كأننى ... أرى بجميل الظن ما اللّه صانع

وهذا كله توطئة لبيان أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالنسبة للمال عدمًا ووجودًا، كما قال: **(فانظر سيرة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى طريقته وهديه. **(وخلقه)** بضمتين أو ضم فسكون. **(فى المال)** أى فى شأن المال وماله بالنسبة إليه **(تجده قد أوتى خزائن الأرض ومفاتيح البلاد)** أى آتاه اللّه تعالى ذلك، كما ورد فى الحديث الصحيح: «بينما أنا نائم أوتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت فى يدى»[1] وفى كتاب الوفاء عن جابر رضى الله تعالى عنه مسندًا قال: سمعت رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: «أتيت بمقاليد الدنيا على فرس أبلق عليه قطيفة من سندس»[2] وإليه أشار

---

(١) أخرجه البخارى (٥٢٣/٧)، وأحمد (٤٥٥/٢)، والبيهقى (١٧٥/٨).

(٢) أورده الذهبى فى الميزان (٢٠٦)، والمنذرى فى الترغيب (١٩٧/٤).

الصرصرى رحمه الله تعالى بقوله:

بعثت مقاليد الكنوز جميمها تهدى إليه على سراة حصان
جعلت عليه قطيفة من سندس فله استقام الزهد عن إمكان

ومثله ثابت من طرق عديدة، وهذا يدل على أن الله تعالى أعطاه ذلك حقيقة. وخزائن الأرض: دفائنها ومعادنها بأن يطلعه الله عليها ويجعل الملائكة الموكلين بها طوع يده، فإن السلطان خزينته بيد خازنها حاضر مطيع لديه، فهذا معنى كونها فى يده عرفا. وأما المفاتيح فإن كانت بمعنى الخزائن فكذلك، وإن كانت جمع مفتح أو مفتاح بمعنى آلة الفتح فإعطاؤها إرسالها كما هو ظاهر الحديث السابق، وقيل: إنه كناية عن فتح البلاد على أمته وجباية أموالها لهم. والمفاتح روى فى الصحيح بدون ياء جمع مفتح، وروى بياء فى كلام المصنف جمع مفتاح، والأول أفصح.

كما قيل: **(وأحلت له الغنائم ولم تحل لنبى قبله)** الغنيمة: ما يؤخذ من الكفار وكذا الفىء، وفرق الفقهاء بينهما بأن الفىء ما يحصل بلا قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كسرقة وهبة. والغنيمة ما حصل بقتال ولو قبله أو بعده، وقد يستعمل كل منهما لما يعم الآخر كما نحن فيه، وكان قبل ذلك كل ما يحصل من أهل الحرب كالمقرب من الذبائح تنزل نار من السماء فتحرقه إن قبل.

فإن قلت: كيف هذا وقد كان لسليمان وداود عليهما الصلاة والسلام سرارى، ولا شك أنها تحصل من أهل الحرب غنيمة حتى تملك؟

قلت: قالوا: إن الذى كانت تأكله النار سهام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دون سهام الأمة وقرابينهم، فكانت تحل لهم فإذا اشترى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كداود عليه الصلاة والسلام من أمته شيئا منها كان له. ذكره ابن الجوزى رحمه الله فى الوفاء.

(وفتح عليه فى حياته بلاد الحجاز) الحجاز بمعنى الحاجز وسميت بها لأنها تحجز بين نجد وتهامة، أو بين اليمن والشام، وهى مكة والمدينة والطائف واليمامة وقراها وخيبر وطرقها الممتدة بينها. وقيل: غير ذلك، وقيل: المدينة نصفها حجازى ونصفها تهامى. **(واليمن)** وهو معروف وسمى به؛ لأنه عن يمين الكعبة؛ أو لأنه عن يمين الشمس **(وجميع جزيرة العرب)** الجزيرة: فعيلة من جزر الماء وهو انكشافه ورجوعه ضد المد، وجزيرة العرب ما بين أقصى عدن إلى ريف العراق طولا، ومن جدة وما والاها إلى أطراف الشام عرضا عند الأصمعى. ومن حفر أبى موسى إلى أقصى اليمن طولا، ومن رمل

قبرس إلى منقطع السماوة عند أبى عبيد. وقال مالك: هى الحجاز، واليمن، واليمامة وما لم يبلغه، ملك فارس والروم. أقوال أخر: وسميت جزيرة لأن بحر فارس وبحر الحبشة ودجلة والفرات أحاطت بها. **(وما دانى ذلك)** أى قرب منه أو من جزيرة العرب فتذكيره باعتبار المكان ونحوه

(من الشام والعراق) أما الشام فبهمزة وتبدل ألفا، وقد تمد همزته فيقال: شام. وبعضهم أبى هذا ويذكر ويؤنث كغيره من أسماء البلدان، وينسب إليه شامى بهمزة وألف، وشآمى بالتخفيف والتشديد كيمان، فيقال: امرأة شامة وشامية مخففا، ووجه تسميتها بذلك أنها من شمال الكعبة، أو لأنه يشأم بها قوم، أو باسم صاحبها وهو سام ابن نوح عليه الصلاة والسلام، فعربت بإبدالها شينا معجمة وأنكر بعضهم هذا، وقال: إنه لم ينزلها سام قط، وإنما سميت بها لأن فى أرضها شامات حمر وسود وبيض. وحده من العريش إلى الفرات، أو إلى نابلس طولا. وعرضه من جبل أجاد سلمى إلى بحر الروم وما يسامته، وقد دخله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلا أنه لم يدخل دمشق. وقيل: دخل الشام عشرة آلاف عين رأت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. وأما العراق: فهو إقليم معروف، وهو عراق العرب وفيه مدن عظيمة وقرى، وطوله من تكريت إلى عبادان وهى قرية، ولذا قيل فى المثل: ما وراء عبادان قرية. وعرضه من القادسية إلى حلوان ودجلة. حده جانبها الأيمن العراق واليسار لفارس. وأما عراق العجم وهو إقليم خراسان. ولفظ العراق عربى، وقيل: إنه معرب إيران وفيه كلام ليس هذا محله. واليمن فتحها على رضى الله تعالى عنه فى سنة عشر من الهجرة. والشام فتح منها دومة الجندل فتحها عبد الرحمن، والعراق فتح منها البحرين وقدم أهلها على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على ما فصل فى السير والتواريخ، ومن لم يقف على هذا قال إنها إنما فتحت فى زمن أبى بكر رضى الله تعالى عنه، لكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أوتى مفاتيحها ووعد بفتحها.

(وجلبت إليه) بالبناء للمفعول نائب فاعله ما لا يجبى الآتى وأنثه باعتبار المعنى وهو الأموال. **(من أخماسها)** أى غنائمها لأن الغنائم تجعل خمسة أجزاء؛ خمس للإمام وأربعة أخماس للجند. أو المراد نفس الخمس لأنه الذى يختص به. **(وجزيتها)** بكسر فسكون وهو ما يؤخذ من الكفار من الخراج على الرؤوس، سمى بها إما لأنها تجزى أو من المجازاة أو من الأجزاء بمعنى الكفاية. وقيل: إنها معرب كزيت وأحكامها تفصيلا فى كتب الفقه. **(وصدقاتها)** المراد ما كان يؤخذ من الزكاة كبيت المال، لأنه يسمى صدقة. **(مالا يجبى)** أى يجمع يقال: جباه إذا جمعه **(للملوك إلا بعضه وهادته)** أى أهدت إليه

صلى الله تعالى عليه وسلم وليس المراد المفاعلة.

(ملوك الإقليم) المتقدمون قسموا الأرض سبعة أقسام، سموا كل قسم منها إقليما كما يعلم من علم مساحة الأرض المسمى جغرافيا، وحد كل أقليم وما فيه من البلدان مفصل فى كتب الهيئة والمساحة. قيل: المصنف أراد بالأقاليم النواحى والبلدان وإن كانت من إقليم واحد أو إقليمين من السبعة بطريق المجاز، وهو بهذا المعنى مستعمل أيضا كما يقال: أقاليم مصر فسموا كل ناحية منها إقليما.

والهدية: ما يبعث بلا عوض إلى المهدى إليه إكراما. وقال السبكى: الإكرام ليس شرطا فيها وإنما الشرط كونها من المنقولات، فلا يقال العقار هدية فهى أخص من الهبة. والظاهر أن قيد الإكرام بناء على الظاهر فرقا بينها وبين الصدقة، وممن هاداه صلى الله تعالى عليه وسلم المقوقس ملك القبط، أهدى له جاريتين وكسوة وبغلة بيضاء وهى الدلدل. وهداه فروة بن عمرو الجذامى عامل قيصر بعد ما تبرع بالإسلام وأهدى له بغلة بيضاء تسمى فضة وفرسا وأثوابا وقباء من سندس، ولما بلغ ذلك قيصر حبسه مدة طويلة ثم أرسل يقول له: ارجع لدينك أطلقك وأعيد لك ملكك فأبى، وقال: لا أفارق دينه وإنك لتعلم أنه حق ولكن ضننت بملكك فقال: صدق والإنجيل. ومنهم أكيدر دومة الجندل كما فى البخارى والتجانى.

وأما هدايا غير الملوك التى كانت تصل مع الوفود فكثيرة لا تحصى كما يعلم من السير، وأهدى له الرهبان أيضا كراهب نجران، ولا منافاة بين قبوله هدية من لم يسلم منهم كالمقوقس والنجرانى ورده بعض هدايا المشركين، وقوله: «إنا لا نقبل زبد المشركين» أى عطيتهم، لأنه كان يقبل الهدية ممن يرجو إسلامه استيلافا له، لما فيه من المصلحة للمسلمين ويرد هدية غيره، أو ذاك خاص بالمشركين ومن قبل منه أهل الكتاب فيقبل، كما تؤكل أطعمتهم وذبائحهم. وقيل: إن عدم القبول منسوخ بأحاديث القبول لا العكس على الأرجح، ثم إن قبول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الهدية مع أنه لا يجوز لغيره من الحكام من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم لانتفاء التهمة فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم رد ما أهدى له خاصة دون ما أهدى للصحابة.

(فما استأثر بشىء منه) أى ما اختص به صلى الله تعالى عليه وسلم دون أصحابه لرؤيته أنه أحق كما يفعله الملوك فيما يليق بها وهو استفعال من الأثر، وهى المكرمة والخصوصية كما قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

(ولا أمسك منه درهما) أى لم يبق لنفسه منه شيئا و لم يجعله عنده أو فى يده. **(بل صرفه)** فى **(مصارفه)** بإعطائه لمن يستحقه وفى وجوه الخيرات. **(وأغنى به غيره)** من الجند والمؤلفة قلوبهم فكان صلى الله تعالى عليه وسلم يعطى عطاء من لا يخاف الفقر.

(وقوى به المسلمين) بصرفه فى مهماتهم وفيما ينصرهم على أعدائهم. **(وقال)** أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث صحيح رواه الشيخان مسندا عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه: **(ما يسرنى)** أى يجعلنى فى سرور وفرح **(أن لى أحدا ذهبا)** أى مثل أحد أو نفس أحد يكون ملكا لى وهو ذهب حقيقة، وقوله: ذهبا تمييز أى من ذهب واحد بضمتين وقد تسكن حاؤه اسم جبل معروف قريب من المدينة، سمى به لتوحده وانقطاعه عما هناك من الجبال. وقال صلى الله تعالى عليه وسلم فيه: «أحد جبل يحبنا ونحبه».

(يبيت عندى منه دينار إلا دينارا أرصده لدينى) وقد روى هذا الحديث بروايات مختلفة اللفظ متقاربة المعنى، ففى الصحيح: «تأتى على ثالثة وعندى منه دينار أو أمسى ثالثة وعندى منه دينار» وروى: «تحول ذهبا ويصير ذهبا». وإلا دينارا روى بالرفع والنصب وأرصده بفتح الهمزة وضم الصاد، ويجوز ضم الهمزة وكسر الصاد المهملة لأنه يقال: رصدته وأرصدته بمعنى أعددته للخير أو الشر. وقيل: رصدته بمعنى راقبته. وأرصدته بمعنى أعددته وهو المشهور، وقوله: «لدينى» بفتح الدال المهملة وسكون المثناة التحتية والنون. وإرصاده للدين إما لأن صاحبه غائب أو لأنه لم يحل أجله، وفيه دليل على جواز الاستقراض، وأنه لا ينبغى أن يكون المرء مستغرقا فى الدين حتى لا يجد له وفاء. وبقية الحديث فى الصحيحين وشروحهما، فإن أردته فانظره. وفى بعض النسخ هنا زيادة من إلحاق المصنف وهى:

(وأتته صلى الله تعالى عليه وسلم دنانير مرة فقسمها وبقيت منها ستة فدفعها لبعض نسائه فلم يأخذه نوم حتى قام وقسمها وقال: الآن استرحت) انتهى. وقوله: «دفعها» روى رفعها بالراء. قال السيوطى رحمه الله تعالى: هذا الحديث روته ابنة سعد عن عائشة رضى الله تعالى عنها بهذا اللفظ، وفى الشرح الجديد لم أقف عليه إلا أن له نظائر أوردها. وكانت هذه الدنانير جاءت من الصدقة، وإنما لم يأخذه صلى الله تعالى عليه وسلم النوم لخوفه أن يفجأه الأجل قبل تفريقها، فانظر هذا مع أنه غفر له صلى الله تعالى عليه وسلم ما تقدم من ذنبه وما تأخر بعدما عصمه الله تعالى، مع أشقياء هذا الزمان وصرفهم بيت المال فى هوى أنفسهم قاتلهم الله أنى يؤفكون. ومات صلى الله تعالى عليه وسلم ودرعه مرهونة فى نفقة عياله، جمع عيل وهو من تلزمه مؤنته، والدرع

مؤنثة وهى الزردية، وكان له صلى الله تعالى عليه وسلم عدة أدراع ذات الفضول، سميت بها لطولها أهداها له سعد بن عبادة رضى الله تعالى عنه لما خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لبدر، وذات الحواشى ودرعان أصابهما من بنى قينقاع السغدية وفضة، ويقال: إن السغدية كانت درع داود عليه الصلاة والسلام التى لبسها لقتال جالوت، والبتر، والحريق، فهذه سبع. وقال ابن الأثير رحمه الله تعالى فى مادة س ب ع: درع البتر ذات السبوع لتمامها وسعتها، فيحتمل واحدة مما ذكر أو غيرها فتكون ثمانية. وقال ابن الجوزى: إن التى رهنها صلى الله تعالى عليه وسلم هى ذات الفضول، ورهنها عند يهودى يسمى أبا الشحم كما وقع فى كتب فقه الشافعية، ووقع فى كلام بعض تسميته بأبى شحمة والمعروف الأول. والسغدية لم يتعرضوا لحركة سينها المهملة ويجوز فتحها وضمها والمشهور الثانى، وهى بعين معجمة منسوبة للسغد وهو جبل معروف. وقال مغلطاى: إنها بعين مهملة. وفى معرب الجواليقى أنه بالسين والصاد؛ لأنه قياس فى كل سين معها حرف استعلاء، قال شقيق الأسدى:

وخافت من جبال السغد نفسى

وذكر مغلطاى أيضا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان له مغفر يسمى السبوع، والحديث المذكور فى صحيح مسلم مسندًا عن عائشة رضى الله تعالى عنها: «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم اشترى من يهودى طعامًا نسئة فأعطاه درعًا رهنًا» وفى رواية: «فرهنه صلى الله تعالى عليه وسلم درعًا له من حديد» ورواه البخارى أيضًا بزيادة ثلاثين صاعا من شعير. ومنه علم جواز معاملة الكفار مع أن كسبهم لا يخلو من خبث، وجواز الرهن على الثمن المؤجل وإدخال القوت خلافًا لزفر. وقال المصنف رحمه الله تعالى فى شرح مسلم: إنه مكروه عند مالك وأحمد، وأجمعوا على أنه يجوز معاملة أهل الذمة وغيرهم إلا فى آلات الحرب وما يستعان به عليه. وقال الحنفية: يكره بيع السلاح والكراع من أهل الحرب وتجهيزه إليهم قبل الموادعة وبعدها. وأما رهنه فإنه خشى التقوى به علينا فهو كالبيع، فما فعله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إما لأن اليهودى لم يكن من أهل الحرب، أو لأنه كان بين أظهر المسلمين فلا يخشى تقويه به، وفى رواية: أن تلك الدرع رهنت فى عشرين صاعًا، وفى أخرى: أربعين. وفى رواية: «وسق شعير» والأجل: سنة فحل الأجل قبل الأجل، ومن ثم قيل: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم افتكه قبل موته لخبر: «نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه»[1] وهو

---

(١) أخرجه الترمذى (١٠٧٨، ١٠٧٩)، وابن ماجه (٢٤١٣)، والحاكم (٢/٢٦)، وأحمد (٢/٤٤٠، ٤٧٥)، والدارمى (٢/٢٦٢)، والبيهقى (٤/٦١).

صلى الله تعالى عليه وسلم منزه عن ذلك، والأصح خلافه كما اقتضاه كلام المصنف، ولقول ابن عباس: «توفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى». والخبر محمول على غير الأنبياء، وجمع بين الروايات السابقة بتعدد الواقعة وكان موسرا، وقد تعسر لإنفاقه جميع ما عنده ولا يعلم أحد بذلك، إذ لو علم الصحابة ذلك واسوه صلى الله تعالى عليه وسلم بجميع أموالهم كما كانوا يواسونه بأرواحهم، ولكنه يكتمه ويصبر تلذذا بالرضى بما قسم. وفى قوله: «فى نفقة عياله» للتعليل.

(واقتصر من نفقته و ملبسه ومسكنه على ما تدعو ضرورته إليه وزهد) بصيغة الماضى معطوف على اقتصر. **(فيما سواه)** أى ما سوى مقدار الضرورة. ووقع فى بعض النسخ: «زهده» بصيغة المصدر المضاف للضمير وهو مرفوع عطفا على ضرورته، أو مجرور بالعطف على مجرور إلى من غير إعادة الجار، والنسخة الأولى أوضح.

(وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يلبس ما وجده) حاضرا عنده من غير تكلف. **(فلبس فى الغالب الشملة)** وهى كساء يشتمل به، وقيل: يختص بماله هدب. وقال ابن دريد: هو كساء يؤتزر به وهى البردة، وأما تسمية العوام ما يلف على الرأس شملة فلا أصل له.

(والكساء الخشن) أى الكسوة الملبوسة والكساء قريب من البرد وخشن بزنة حذر ضد اللين والرقيق. **(والبرد الغليظ)** البرد بضم أوله ثوب فيه خطوط ومطلق الثوب، ثم أشار إلى أن هذا ليس من عجزه صلى الله تعالى عليه وسلم عن فاخر الألبسة، بل لعدم ميله لها فقال: **(ويقسم)** مما عنده من الغنائم والهدايا. **(على من حضر عنده أقبية الديباج المخوصة بالذهب)** الأقبية: جمع قبا وهو المخيط من اللباس، والديباج نوع من أقبية الحرير، معرب ديبا بالدال المهملة فيهما بكسر داله وقد تفتح، والمخوصة بضم الميم وفتح الخاء المعجمة وتشديد الواو يليها صاد مهملة وهاء أى منسوخة بأعلام من ذهب كالخوص، وفعل يأتى للتشبيه كثيرا فلا وجه لإنكارهم، مسرج بمعنى كالسراج فى كتب المعانى، و قيل: ههو المكفوف بالذهب أو المطوق أو المزرور به، أما نفقته صلى الله تعالى عليه وسلم فى مأكله فكان التمر والماء وحده، فكان يمضى عليه الشهر لا توقد فى بيته نار، وهو يقول: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا أو كفافا». وملبسه فى الأكثر أكسية الصوف الغليظة الخلقة مع أنه لبس ثياب الكتان والقطن أيضا حسبما اتفق له، وكان له صلى الله تعالى عليه وسلم حلة حمراء وبرد أحمر يلبسه فى العيدين، وعند قدوم الوفود عليه، وكانت له صلى الله تعالى عليه وسلم جبة ضيقة الكمين، وكان أحب اللباس إليه القميص القصير الكمين فوق الكعبين مساو كمه لأطراف

أصابعه، وكانت عمامته قصيرة صغيرة كما بيناه فى «الثمامة فى صفة العمامة»، وكان له صلى الله تعالى عليه وسلم قلنسوة وقسمته صلى الله تعالى عليه وسلم ما ذكر مروية فى البخارى، وهذا إما أن يكون قبل تحريم الحرير والذهب، أو كان يقسمه ليباع، أو يعطى ذلك للنساء.

(ويرفع لمن لم يحضر): يرفعها من مجلسه حتى يعطيها لمن لم يحضر القسمة، وهو إشارة لقصة مخرمة التى رواها الشيخان عن مسرور بن مخرمة قال: قال لى أبى: يا مسور بلغنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم جاءته أقبية فاذهب بنا إليه، فذهبنا فوجدناه فى منزله، فقال: ادعه لى فأعظمت ذلك، فقال: يا بنى إنه ليس بجبار، فدعوته صلى الله تعالى عليه وسلم فخرج ومعه قباء من ديباج مزرور بالذهب، فقال: «يا مخرمة خبأت لك هذا»[1] فجعل صلى الله تعالى عليه وسلم يريه محاسنه، ثم أعطاه له فنظر إليه وقد رضى. وكان فيه شدة واستئثار.

(إذ المباهاة) أى إظهار الفخر باللباس والعجب به والتزين، وأصل معنى المباهاة المفاخرة فنزل ذلك بمنزلتها **(فى الملابس)** جمع ملبس وهو واللباس بمعنى. **(والتزين بها)** أى إظهار الزينة بالملابس. **(ليست من خصال الشرف والجلالة)** أى المغالات فى ذلك وإظهاره ليس مما يعد شرفا ولا مما يقصده الأشراف. وقال الفقهاء رضى الله تعالى عنهم: ليس الثوب الجميل للتزين مباح فى الجمع والأعياد ومجامع الناس، وما يستر العورة ويدفع الحر والبرد واجب، وما فيه جمال لصاحبه مسنون بشرط أن لا ينوى به العظمة والزينة، بل إظهار نعمة الله وتعظيم من يجتمع لملاقاته. وقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم يفعله، وقلت فى ذلك:

نصيحة لطيفه قالت بها الأكياس
كل ما اشتهيت والبس ما تشتهيه الناس

(و) إنما **(هى من صفات النساء)** أى والمباهات والتزين إنما يقصده النساء ومن فى حكمهم كالأطفال، وأكثر ما رأينا ذلك فى محدث النعمة ومن لا قدر له. **(والمحمود منها)** أى ما يحمد منها عند الله وعند الناس ومن صفات الملابس. **(نقاوة الثوب)** بفتح النون وضمها أى كونه نقيا من الوسخ والنجاسة، وهو مصدر ويهمز فيقال نقاءة بمعنى نقاء، و فى البستان: يستحب للرجل الذى له مروءة وعلم أن تكون ثيابه نقية من غير كبر. ورأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رجلا وسخت ثيابه فقال: «أما وجد هذا

---

(١) أخرجه البخارى (٧/ ٢٠٠).

شيئا ينقى ثيابه»[١]. وقال أيضا: «ما على الرجل خرج أن يتخذ ثوبين سوى ثوبى مهنته»[٢]. وفى المثل: «المروءة الظاهرة فى الثياب الطاهرة». وقال البرهان: النقاوة بضم النون الخيار والظاهر هنا فتحها وهى النظافة كالنقاء بزنة السخاء.

(والتوسط فى جنسه) أى المحمود فى اللباس استعمال الوسط منه، فلا يكون نفيسا جدا ولا خسيسا. **(وكونه لبس مثله)** بضم اللام بمعنى اللازم أى كونه مما يلبسه أمثاله من جنسه فينبغى أن يوافق أقرانه فى لباسه، فلا يخالفهم فيوقع الناس فى الفتنة. ونهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن الشهرتين فى اللباس المرتفعة جدا والمنخفضة جدا. وقال مبارك الموصلى: أكثر الناس فى مدح الملابس وذمها، واللازم أن يلبس كل أحد على قدر حاله، فلا يلبس الغنى ما هو دون حاله، ولا الفقير ما هو فوق حاله، ولا يتزيى العالم بزى الجاهل، ولا الجاهل بزى العالم. وعنه صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا يشبه الزى بالزى حتى يشبه القلب بالقلب»[٣] وإلى ماذكرناه أشار بقوله: **(غير مسقط لمروءة جنسه)** أى مما يعد مسقطا لمروءة أمثاله.

(مما لا يؤدى إلى الشهرة فى الطرفين) أى غاية التعظيم وغاية الخسة فيكون بين بين، وخير الأمور أوسطها. والشهرة: اسم من الاشتهار وهو الظهور بين الناس لامتداد النظر لما لم يعهد. قال النووى: كانوا يكرهون الشهرتين الثياب الجياد والثياب الرذلة إذ الأبصار تمتد إليهما جميعا، وبهذا ورد الحديث، فلبس المرقعات أمر مكروه شرعا، وربما يكون حراما إذا قصد إظهار الزهد للطلب كما تراه اليوم. وما نهى الشرع عنه كالحرير خارج مما نحن فيه، وأما توسيع الأكمام كما يفعله الفقهاء فمخالف للسنة كتكبير العمائم. وقد قال ابن الحاج: إنه مكروه وبدعة قبيحة وسرف وتضيع للمال. إلا أن ابن عبد السلام والسبكى قالا: إذا كان ذلك شعارا للعلماء يندب ليعرفوا فيسألوا ويطاعوا، فإذا كان كذلك فى نفس الأمر لا يسقط المروءة. وقال السبكى: إنه استنبطه من الآية فى نساء النبى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب:٥٩] ومثله لباس الخضرة للأشراف، فاختار علماء الشافعية أنه سنة وليس من الشهرة المنهى عنها لأهله. ولبس ثياب الفقراء مع القدرة على غيرها ليروج حاله عند الظلمة ويجعله مكتسبا له منهى عنه، وفى الحديث: «من لبس ثوب شهرة فى الدنيا

(١) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١٥٦/٣).

(٢) أخرجه أبو داود (١٠٧٨)، وابن ماجه (١٠٩٦)، وابن حبان (٥٦٨)، وابن خزيمة (١٧٦٥)، والبيهقى (٢٤٢/٣).

(٣) انظر: تذكرة الموضوعات (١٩٣)، وتنزيه الشريعة (٣١٢/٢).

ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة»[١]. **(وقد ذم الشرع ذلك)** كما عرفته، وذلك إشارة إلى المباهاة فى الملابس والتزين بها.

(وغاية الفخر فيه عند الناس إنما يعود إلى الفخر بكثرة الموجودة ووفور الحال) يعنى أن كثرة المال والملابس عند العقلاء غير محمودة؛ لأنها مذمومة شرعا غير مقصودة لذاتها. وأما العوام فيفتخرون بكثرتها وتعددها، حتى رأينا بعض الحمقاء يلبس فى المجلس الواحد ألوانا من الثياب. والغاية: النهاية وأصلها غيية بيائين أعلت أولاهما لتحصن الثانية بتاء التأنيث. وكثرة الموجود المراد به ما عنده من المال ونحوه. ووفور الحال المراد به قوة حاله وقدرته على ما لا يقدر عليه غيره، فالوفور على ظاهره أو بمعنى القوة.

(وكذلك التباهى) أى مثل التفاخر بما ذكر التفاخر **(بجودة المسكن)** أى حسنه بحسن بنائه وزخرفته وعلوه. والجودة: بفتح الجيم وجوز ضمها ابن رسلان وهو كذلك فى القاموس. **(وسعة المنزل)** لأنه مما يمتدح أهل الدنيا به، وقد قالوا: خير المنازل ما يسافر فيه النظر. وقد قالوا: الدار الضيقة العمى الأصغر. ثم اتبع ذلك بما يتبعه فقال: **(وتكثير آلاته)** آلات جمع آلة، والآلة ما يصنع به الأعمال كالقدوم للنجار، والإبرة للخياط. والمراد به هنا لوازمه كالفراش وأوانيه.

(وخدمه) جمع خادم، وفعل بفتحتين جمع سمع منه ألفاظ معدودة. **(ومركوباته)** كالخيول والبغال وغيرها، وإضافتها للمنزل لأدنى ملابسة، أو لأنها فيه، فمثل هذه الأمور لا يفتخر بكثرتها إلا ذوو العقول السخيفة ومن له حرص على حطام الدنيا.

(تنبيه) لا يكره البناء للحاجة وإن طال، والأخبار الدالة على منع ما زاد على سبعة أذرع، وأن فيه الوعيد الشديد محمولة على من فعل ذلك للخيلاء والتفاخر على الناس، ويكره الزيادة عليها لغير حاجة، أى من حيث القدر. وفى معناه على ما هو الظاهر ما لا تدعو الحاجة إليه من حيث الوصف، كأن يتخذ بيتا من نحو العنبر والعود والدر.

فإن قلت: يشكل ذلك بأن الظاهر أنه لا كراهة فى تناول نفس الأطعمة والملابس على ما تقدم؟.

قلت: يفرق بأن النفيس منهما قد ينفع البدن أو يحتاج إليه لمصلحة بخلاف المسكن، لأن كل ما زاد منه على ما يدفع نحو الحر والبرد لا مصلحة فيه للبدن، وهل تختص كراهة ما زاد على الحاجة بالبناء حتى لا يكره شراء ما زاد منه على الحاجة؟ فيه نظر.

---

(١) أخرجه أحمد (٩٢/٢)، وأبو داود (٤٠٢٩)، والترمذى (٣٥٦٠)، وابن ماجه (٣٦٠٧)، والحاكم (٥٠٧/١).

ولا يبعد عدم الفرق نظرا للمعنى، نبه عليه شيخنا ابن قاسم رحمه الله، ثم بين المصنف أن النبى حائز للفضيلة المالية أيضا، وواصل منها ما لم يصل إليه غيره، ولذا قالوا: لا يجوز أن يقال فى حق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه فقير على ما سيأتى فى آخر الكتاب.

(ومن ملك الأرض) بتمليك الله إياها له، فلو أراد ملكها من المشرق للمغرب يسره الله له فى طرفة عين، وقد خيره الله تعالى بين الملك والعبودية فاختار العبودية كما مر. **(وجبى إليه ما فيها)** أى جمع له ما فيها من الغنائم وجزيتها وصدقاتها مما فتح فى زمانه. **(فترك ذلك)** أى المال المجبى **(زهدا وتنزها)** أى لأجل الزهد والتنزه عن قبوله، والزهد هو الترك لأجل الله، فالزهد أخص من الترك وكلاهما مفعول لأجله، ويجوز جعلهما تمييزا والزهد الرغبة عن الدنيا مع القدرة عليها رغبة فى الآخرة، ولا يتصور ممن لا مال ولا جاه، وقيل لابن المبارك: يا زاهد. فقال: الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها، أما أنا ففيم زهدت حجة على. وهو من أعلى المقامات. وفى الحديث: «ازهد فى الدنيا يحبك الله» ويقال: زهد فيه وعنه.

وقوله: **(فهو حائز)** جواب من أو خبرها. وحائز: بالحاء المهملة والزاء المعجمة أى جامع ومحصل. **(لفضيلة المال)** أى من كان كذلك حاز فضيلة المال التى يفتخر بها أهل الدنيا وقادر على التنعم والتلذذ بها إلا أنه لا يريد ذلك.

(وملك للفخر بهذه الخصلة) المالية إلا أنه لا يفعله كأهل الدنيا. وقيل: المراد خصلة الزهد والتنزه وهذا هو الذى يلتئم مع قوله: **(أن كانت فضيلة زائدا عليها فى الفخر)** أن بفتح الهمزة مفسرة بمعنى أى، كما قال التلمسانى رحمه الله تعالى، وهو تحقيق وإثبات للفضيلة التى حازها من الزهد والتنزه عن الدنيا الفانية. وكان تامة أو ناقصة والتقدير كانت تلك فضيلة زائدة على فضيلة المال، ولكن الظاهر أن يقول: زائدة وزائدا على هذا منصوب صفة. وقيل: إن صح نصبه فهو حال من فاعل حائز. وقال بعض الشراح: فيه دليل على عدم الجزم بكونها فضيلة، وفيه نظر إذ لا يتحقق الكرم بدونها قطعا، وهذا مبنى على أن إن شرطية مكسورة الهمزة، وهو مبنى على أن المراد بالخصلة المالية لا الزهد. وفى الشرح الجديد: ما ذكر من نصب زائدا على الحالية إن صحت روايته، فإنه فى بعض النسخ مرفوع ومعرق الآتى مرفوع فى جميع النسخ، وعندى أن نصب زائدا على أنه حال من فاعل ملك لا حائز، أى هو مالك للفخر بهذه الخصله حال كونه زائدا عليها فى الفخر لعدم التفاته لها واكتراثه بها، فهو فى ملكها غير مساو لغيره ممن ملكها، وفخره بهذه الفضيلة على تقدير كونها فضيلة، ليس مساويا لفخر من افتخر

بها فقد ملكها حالة كونه زائدا على سائر ملاكها بإعراضه عنها، فزائدا وصف له صلى الله تعالى عليه وسلم والأولى أنه صفة مصدر هو مفعول مطلق لمالك، أى مالك ملكا زائدا على هذه الفضيلة بإعراضه عنها. انتهى. وهذا محصل ما فى جميع الشروح وقوله: «فى الفخر» متعلق بقوله زائدا.

وأقول: لا يخفى أن هذا كله كلام مظلم لا ينور به كلامه، وتحقيقه أن يقال: هو مبتدأ حائز خبره، ومالك معطوف عليه وإن مكسورة شرطية، وكانت ناقصة اسمها ضمير للفضيلة أو للمالية. وفضيلة: منصوب خبرها وقوله زائدا خبر ثالث، والخبر إذا تعدد يجوز عطف الجميع وترك عطفها وعطف بعضها دون بعض، كالصفات، وترك العطف فيه؛ لأنه ليس من جنس ما قبله؛ لأن الفضيلة الدنيوية ليست من جنس ما زاد عليها فى الفخر والفضيلة، لأن الأول أمر دنيوى لا فخر فيه باعتبار ذاته، بل باعتبار ما يترتب عليه إذا صرف فى وجوه الخيرات من الثواب ونصرة الدين، ولذلك أتى فيه بأن الشرطية؛ لأنه لكونه ذا وجهين إذ لا فضيلة له بحسب ذاته فيترائى أنه لا فضيلة له أصلا، فإن نظر المال يترتب عليه فله فضيلة لكنها لكونها غير ذاتية، كأنها غير محققة أى هو زائد على تلك الفضيلة المالية فى فخره بالأمور الدنيوية لو أراد ما الزيادة ما يأتيه لو بقى على ما عند غيره، أو لكونه مكسبه طيبا ومصرفه فى محله، وفيه من الفوائد ما لا يتيسر لغيره. فحاصل المعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم حاز من الغنى وفضل المال والفخر به، وإن لم يعبأ به ما لم يحز بعضه غيره، ولذا قال بعض العرب كما سيأتى: إن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم يعطى عطاء من لا يخاف الفقر. وزاد غناه على غنى غيره فوائد لا تتيسر لغيره، ويجوز نصب زائدا على أنه حال من ضميره صلى الله تعالى عليه وسلم، وما مر من أنه لا يتحقق الكرم بدونه فكيف لا يكون فضيلة ليس بشىء، فإن المراد أنه ليس فيه فضيلة ذاتية وما ذكره لا ينافيه كما لا يخفى.

(ومعرق فى المدح) بضم الميم وسكون العين المهملة وكسر الراء المخففة وفتحها مع التخفيف والتشديد والأول هو القياس، من أعرق الرجل والشجر إذا اشتدت وامتدت عروقه، والمعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أصل فى الكرم والحسب. قال(١):

أمحمد يا خير ضنى كريمة ... فى قومها والفحل فحل مثرق

وقد يقال فى اللوم تهكما وعرق الثرى أدم. قال امرئ القيس:

---

(١) البيت من الكامل، وهو لقتيلة بنت النضر فى لسان العرب (١١٢/١)، تاج العروس (٣١٧/١)، وبلا نسبة فى جمهرة اللغة (ص١٠٧٨).

إلى عرق الثرى وشجت عروقــى

وهو مرفوع معطوف على قوله زائد، فإن نصب نصب، يعنى أن الناس تتمدح بالمال بكثرة جمعه، وكذلك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جمع له ما جمع لأهل الدنيا وهو زائد عليهم فى ذلك، وأصيل فى المدح بذلك لأنها لا قيمة لها عنده، كما أشار إليه بقوله: **(بإضرابه عنها)** أى بسبب إعراضه عن الجهة المالية **(وزهد فى فائقها)** بالفاء ومثناة تحتية ثم فوقية أى يزهد فيما هو فائت منها، أى ذاهب، كما قال تعالى: ﴿**تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ**﴾ [الحديد: ٢٣] وفى بعض النسخ فانيها بنون بعد الألف. **(وبذلها)** بموحدة وذال معجمة أى إعطائها.

(فى مضانها) من الضنة بالضاد المعجمة والنون، أى يجود صلى الله تعالى عليه وسلم فى محال تبخل فيها الناس. كذا ضبطه وفسره التلمسانى وهو فى غاية الحسن والظهور. وضبطه البرهان الحلبى بالظاء المشالة وعليه الرواية فى أكثر النسخ جمع مظنة بالكسر وهى الموضع الذى يظن كونها فيه، فالمعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم يبذلها فى محلها الذى يرجى فيه كمحال البر والصدقة.

* * *

(فصل وأما الخصال المكتسبة)

أى الصفات الحميدة التى ليست ضرورية ولا طبيعية **(من الأخلاق الحميدة)** من هنا تبعيضية أو بيانية **(والآداب الشريفة)** جمع أدب وهو الأفعال المستحسنة فى معاملة الناس ومخالطتهم. **(التى اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها)** أى من قامت به. **(وتعظيم المتصف)** واتصف بها. **(بالخلق الواحد منها)** أى يمدح بكل واحد منها منفردًا **(فضلا عما فوقه)** أى عما زاد على الواحد منها، وفضلا يفيد أن ما بعده أولى بالحكم مما قبله، كقولهم: فلان لا يملك درهمًا فضلاً عن دينار. ولابن هشام فيه رسالة مستقلة فى بيان إعرابه ومعناه، وهى مشهورة إلا أنهم قالوا: إنها تلزم الوقوع بعد نفى صريح أو مأول، كقوله:

قلما يبقى على هذا القلق صخرة صماء فضلا عن رمق

لأن قل ورد بمعنى النفى لأن القلة أخت العدم، ولا يختص هذا بكونها مكفوفة كما قاله ابن هشام، والمصنف استعملها هنا فى الإثبات؛ لأن معنى الواحد الذى لا يتعدد فلا إشكال فى كلامه. **(وأثنى الشرع على جميعها وأمر بها)** فيدل الثناء عليها على حسنها والأمر على أنها مكتسبة، وإلا لم يكن للأمر بها فائدة. وفيه دليل على جواز تغير

الطباع وتبدلها. وقوله والطبع فى الإنسان لا يتغير مأول أو أكثرى. (**ووعد للسعادة الدائمة**) منصوب بنزع الخافض أى وعد بالسعادة أو هو مضمن معنى أعطى. (**للمتخلق بها**) أى الذى اتخذها خلقا واتصف بها إذا قصد بذلك وجه الله، وليس المراد المتكلف المتصنع بإظهار ما ليس فيه فإنه مذموم كما قيل(١):

يا أيها المتحلى غير شيمته إن التخلق يأبى دونه الخلق

(**ووصف بعضها بأنه من أجزاء النبوة**) كما ورد فى الحديث: «السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربع وعشرين جزأ من النبوة». وورد فى حديث آخر: «إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمس وعشرين جزأ من النبوة». وهذا هو الذى أشار إليه المصنف، أى هذه الخصال من شمائل الأنبياء وفضائلهم عليهم الصلاة والسلام، وليس معناه أن النبوة تتجزئ أو تكتسب بجمع هذه الخصال، لأنها كرامة يخص الله بها من يشاء من عباده.

(**وهى المسماة بحسن الخلق**) قيل: أطلق عليها خلقا لكونها ناشئة عنه، وإلا فحسن الخلق هيئة للنفس باعثة على الأفعال الحسنة والشيم الشريفة، وهنا أربعة أمور صدور الفعل الحسن، والقدرة عليه، ومعرفته، والهيئة الحاملة للنفس على صدور ذلك عنها. وليس حسن الخلق عبارة عن الأول لأن ذلك قد يصدر عنه تكلفا أو رياء ونحوه، ولا عن الثانى لأن تعلق القدرة بالسئ والحسن على السوية، ولا عن الثالث لذلك فتعين الرابع انتهى. وقيل: إن المصنف جعل الخصال الحميدة حسن خلق وجعلها مكتسبة، فإنها كسبية فى أول أمرها ثم يصير سجية وطبيعة وهو مبنى على الأصح من أن الأخلاق مكتسبة قابلة للتغير كما عليه المحققون. والخلق هيئة راسخة فى النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة، ثم أطال بما لا طائل تحته، والثمرة تدل على الشجرة فكن على بصيرة.

(**وهو**) أى حسن الخلق (**الاعتدال فى قوى النفس وأوصافها**) قوى جمع قوة وليست الشدة وضد الضعف كما توهم، بل الأمور المذكور فى الخلق كما يسمى المتخيلة قوة ونحوها من سائر القوى النفسية، واعتدال القوى أن لا تخرج إلى حد الإفراط والتفريط، فاعتدال قوة العقل يعبر عنه بالفطنة والكياسة، فإن مالت إلى الإفراط تسمى مكرا وخداعا، وإن مالت إلى التفريط تسمى بلها وحمقا. وكذا إذا اعتدل قوة الغضب تسمى شجاعة، فإن أفرطت فهى تهور، وإن مالت إلى التفريط تسمى جبنا، فطرفا كل قوة

---

(١) البيت من البسيط، وهو لسالم بن وابصة فى لسان العرب (٨٧/١٠)، تاج العروس (٢٦١/٢٥)، شرح ديوان الحماسة (ص٧١٠).

مذموم، والاعتدال هو الوسط المحمود، وهو المعبر عنه بحسن الخلق، كما أشار إليه بقوله:

(والتوسط فيها دون الميل إلى منحرف أطرافها) منحرف بكسر الراء من إضافة الصفة إلى موصوفها، أى أطرافها المنحرفة، والمنحرف بمعنى المائل والمراد بالأطراف ما بيناه، ويجوز فتح رائه على أنه مصدر ميمى بمعنى الانحراف والأول أولى.

(فجميعها) أى جميع الخصال الحميدة. **(قد كانت خلق نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم)** أنث ضمير جميع لاكتسابه التأنيث من المضاف إليه. **(على الانتهاء فى كمالها)** حال من ضمير كانت أى مستقرة تلك الأخلاق الحسنة على انتهاء الكمال بتشبيه تمكنها واستقرارها بتمكن الراكب على مركوبه، كما تقرر فى قوله تعالى: ﴿**عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ**﴾ [البقرة: ٥].

(والاعتدال إلى غايتها) معطوف على كمالها، أى وصلت إلى غاية الاعتدال والسداد. **(حتى)** غاية للغاية **(أثنى الله عليها بذلك فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾** [القلم:٤]**)** أى مستقر ثابت على خلق يستعظمه كل واقف عليه لحسن مداراته، وتحمل أذى قومه وملاطفته لهم، كما تضمنه قوله تعالى: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ [الأعراف:١٩٩].

(قالت عائشة رضى الله عنها: كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه) أى كان صلى الله تعالى عليه وسلم متمسكا بأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب لا يتعداها، فيرضى بكل ما يرضى الله ويسخط بكل ما لا يرضاه كل ذلك لله لا لحظ نفسه. وقال السهروردى قدس الله روحه فى «عوارف المعارف»: فى كلام الصديقة بنت الصديق رضى الله تعالى عنهما سر غامض، وذلك أن النفوس البشرية مجبولة على طبائع وصفات شيطانية وبهيمية وسبعية، وإلى الأولى أشار بقوله تعالى: ﴿**خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ**﴾ [الرحمن: ١٤] لدخول النار فى الفخار. ﴿**وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ**﴾ [الرحمن: ١٥] والله بعظيم عنايته نزع حظ الشيطان منه، كما ورد فى حديث شق صدره فبقيت نفسه الزكية على حد النفوس البشرية مبقاة فيها أمهات تلك الصفات، إلا أنها فى غيره ممتزجة بظلمة الطبائع لتفاوت حاله عن حالهم، فتنزل الآيات لقمعها تأديبا من الله لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم رحمة خاصة به وعامة للأمة موزعة على الأوقات عند ظهور الصفات، كما قال تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا**﴾ [الفرقان: ٣٢] فثبت فؤاده بها عند ظهور بعض الصفات لارتباطه بنفسه، فعند كل اضطراب تنزل آية لمصالح سنية

كما وقع فى أحد إذ شج صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم»(١) فأنزل عليه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] فلبس قلبه لباس الاصطبار وفاء بعد الاضطراب إلى القرار، فلما توزعت الآيات على تلك الصفات بحسب الأوقات صفت الأخلاق النبوية بالقرآن، وفى إبقاء أمهات تلك الصفات تهذيب للأمة وتأديب لنفوسهم، ولا يبعد أن يقال فى كلامها رضى الله تعالى عنها رمز وإيماء خفى إلى الأخلاق الربانية، فاحتشمت أن تقول كان متخلقا بأخلاق الله، وعبرت بقولها: كان خلقه القرآن استحياء من سبحات الجلال وسترا للحال بلطيف المقال، ولوفور علمها وكمال أدبها رضى الله عنها. انتهى. ولا يخفى أن خلقه فى كلامها اسم كان والقرآن خبرها، وما قيل من أنه على العكس يضبط النسخ الصحيحة ويجوز بحسب العربية عكسه؛ لأنهما معرفتان لا وجه له، فإن خلقه صلى الله تعالى عليه وسلم معلوم والذى قصد إثباته إنما هو بيان حاله، وما تخلق به، وهذا مما اتفق عليه النحاة وأهل المعانى، فالوجه هو الأول. وهذا الحديث رواه البيهقى فى دلائل النبوة بتمامه، والسخط ضد الرضى وقد يقابل الرضى بالإكراه فله معنيان، وعليه مبنى الخلاف فى رضى الله تعالى بالكفر وعدمه كما فصلناه فى حواشى البيضاوى.

وقوله: **(قال عليه الصلاة والسلام: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)** حديث صحيح رواه أحمد عن معاذ، والبزار عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه بهذا اللفظ. ورواه مالك فى الموطأ وغيره بغير هذا اللفظ. ومكارم الأخلاق كانت موجودة قبله لاسيما فى العرب فتممها صلى الله تعالى عليه وسلم بشريعته السمحة، وزاد فيها ما لم يسبق إليه وجمع ما تفرق منها فيه وفى أمته، فهذا على حقيقته وليس من قبيلى قولهم ضيق فم الركية كما لا يخفى.

(قال أنس رضى الله تعالى عنه: «كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحسن الناس خلقا») وهو حديث صحيح رواه الشيخان. وقال الحليمى: وصف خلق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، بأنه عظيم فى الآية والغالب وصفه بالحسن كما فى هذا الحديث، لأن حسن الخلق وكرامة يراد به اللين والسماحة، ولم يكن خلقه مقصورا على ذلك، بل كان رحيما رؤفا بالمؤمنين عائدا على الكفار مهيبا فى صدورهم، فكان وصفه خلقه بالعظم أولى ليشمل الإنعام والانتقام، ولذا أردفه المصنف رحمه الله تعالى بحديث أنس خادم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم. وفى مسلم عنه: «خدمت النبى صلى الله

(١) أخرجه البخارى (١٢٧/٥)، ومسلم (١٧٩١/١٠٤)، وأحمد (٢٠٦/٣)، وابن ماجه (٤٠٢٧).

تعالى عليه وسلم عشر سنين والله ما قال لى أف قط».

(وعن على بن أبى طالب مثله) أى روى عن على كرم الله وجهه مثل ما قاله أنس رضى الله تعالى عنه كما ذكره أبو عبيد فى الغريب. **(وكان)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(فيما ذكره المحققون مجبولا)** أى مخلوقا مطبوعا **(عليها)** أى على مكارم الأخلاق. **(فى أصل خلقته وأول فطرته)** التى فطره الله تعالى عليها، أى من غير تكلف ولا تعلم.

(ولم تحصل باكتساب ولا رياضة إلا بجود إلهى وخصوصية) بفتح الخاء وضمها **(ربانية)** منسوبة للرب على خلاف القياس. **(وهكذا)** أى مثل هذا من جمع مكارم الأخلاق فطرة ثبت **(لسائر الأنبياء)** عليهم الصلاة والسلام، أى لباقيهم أو لجميعهم أنهم مجبلون على مكارم الأخلاق وحسنها، وأما غيرهم فبعضها فيهم فطرة وجبلة وبعضها مكتسب، وأما الخلاف فى الأخلاق هل هى جبلية أو كسبية فليس هذا محله كما ذكره بعضهم، والحق أن بعضها جبلى وبعضها مكتسب، والجبلى: لا يقبل التغير والزوال كما سبق تفصيله، وفى قوله فيما ذكره المحققون إشعار بأن خلافهم ذهب إلى أنها كسبية فى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فيعلم حال غيرهم بالطريق الأولى، ولذا اعترض عليه بأنا لا نعلم خلافا فى ذلك، وخلط بعض الشراح هنا فأدخل نفس النبوة فى كلامه وجعل هذا إشارة إلى مذهب الحكماء فى أن النبوة تحصل بالرياضة والتصفية ولا حاجة لمثله من التكلف، فإن مراده الإشارة إلى الخلاف فى مطلق الأخلاق والفضائل النفسية كما ذكرا فى كتب الأخلاق، وهو أشار من أن يذكر.

(ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك) أى كونها خلقية جبلية، وإنما قيد بقوله: «إلى مبعثهم» لأن بعد البعثة ونزول الوحى لا يظهر كونه جبليا لتعليم الله تعالى له ذلك بأخبار ملائكته عليهم الصلاة والسلام، فلا تقوم الحجة على من يقول إنه جبلى حينئذ، أما قبله فأمره ظاهر لا يشتبه.

(كما عرف من حال عيسى وموسى ويحيى وسليمان وغيرهم عليهم الصلاة والسلام) قيل: إنما خص هؤلاء بالتمثيل لما اشتمل عليه موسى وسليمان من الشهامة، ويحيى وعيسى من الانقطاع عن الخلق والسياحة، ولذا قدم عيسى على موسى وهو قبله، ويحيى على سليمان أو لذكره أخبار هؤلاء فى الطفولية، وهذا الثانى هو الحق فإن هؤلاء وقع منهم أمور فى طفولتهم وأمور الطفولية جبلية من غير شبهة، كما أشار إليه بقوله:

(بل غرزت فيهم هذه الأخلاق فى الجبلة وأودعوا العلم والحكمة فى الفطرة) غرزت بالبناء للمجهول، وأصل معنى الغرز إدخال شىء فى شىء، فكأن الطبيعة أدخلت فيهم،

ومنه الغريزة وهى الطبيعة. وقال البرهان: معنى غرزت خلقت والفطرة الخلقة، وفاطر السموات بمعنى خالقها، وأودعوا مجهول أيضا من الوديعة ففيه استعارة مكنية وتخييلية، وما ذكره من الترتيب فى النسخ عندنا ما يخالفه وسيأتى من المصنف رحمه الله تعالى ما يعين ما قلناه.

(قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢]) الحكم والحكمة من الحكم وهو المنع، ومنه الحكمة بفتحتين سمى به لمنعه من الفساد وكل ما لا ينبغى، واختلف فى تفسيرها هنا. **(فقال المفسرون: أعطى يحيى العلم بكتاب الله تعالى)** يعنى التوراة **(فى حال صباه)** إشارة إلى قوله ﴿صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] فى الآية حال، وهذا أحد التفاسير فيها. وقيل: هو الفهم والعلم. وقيل: هو النبوة. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: «كل من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فقد أوتى الحكم صبيا» وعلى تفسيره بالنبوة فالمراد أنه لظهور آثارها كأنه أوتيها، فهو مجاز بناء على أن الله تعالى لم ينبئ صبيا قط، وكذا وأن قول عيسى عليه الصلاة والسلام وهو طفل: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم:٣٠] وقيل: الحكم العمل مع العلم.

(وقال معمر) بن راشد **(كان)** أى يحيى عليه الصلاة والسلام **(ابن سنتين أو ثلاث)** وفى بعض النسخ ابن معمر والصواب معمر بدون ابن، وتقدم أن معمر بميمين مفتوحتين: بينهما عين مهملة ساكنة وراء مهملة وهو معمر بن راشد أبو عروة الأزدى المهلبى مولاهم، عالم اليمن، روى عن الزهرى وغيره، وروى عنه كثير، وأخرج له الأئمة الستة، وهو ثقة إلا أن له أوهاما تحتمل فى جنب سعة علمه، توفى سنة ثلاث وخمسين ومائة باليمن وله ترجمة فى الميزان، وقوله: «ابن سنتين أو ثلاث»، قيل: هذا غريب فى الرواية، والأصح أنه كان ابن ثمان. وقيل: لا غرابة فيه فإنه منقول عن قتادة ومقاتل من طرق، والغريب ما انفرد به رواية فكيف يكون غريبا.

(فقال له الصبيان: لم لا تلعب؟ فقال: ما للعب خلقت) قال السيوطى: رواه الديلمى عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه ولم يسنده، والحاكم فى التاريخ عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما مرفوعا وسنده واه، وأخرجه أحمد فى الزهد وابن أبى حاتم فى تفسيره عن معمر قال: بلغنى فذكره، والاستفهام إنكارى فى معنى النفى ولذا روى: «لم أخلق للعب» والمشهور أنه لم يبعث الله تبارك وتعالى نبيا طفلا، بل روى أنه لم يبعث نبيا قبل الأربعين، فقيل: هو المطرد وهذا نادرا لا يرد نقصا. ومن الغريب ما قيل: إن الله عز وجل خلق عيسى عليه الصلاة والسلام بالغا عاقلا وإن كان فى صورة طفل كما خلق آدم عليه الصلاة والسلام، حتى قيل: إنه ألهم التوراة فى بطن أمه. وروى عن

الحسن فلا حاجة لتأويل ما ورد فيه بالتأويل المشهور.

(وقيل فى قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٣٩]) صدق يحيى بعيسى عليهما الصلاة والسلام لأنه أوجد بدون أب فشابه ما أبدع من عالم الأمر، كما قاله البيضاوى، أو لكونه أوجد بكلمة كن، أو لاهتداء الناس به كما يهتدون بكلام الله، كما سمى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذكرا رسولا كما قاله الراغب. وقال الصدر القنوى فى نفحاته: لصورة كل شيء فى عرضة العلم الإلهى الأزلى مرتبتة الحرفية، فإذا صبغه الحق بنوره الوجودى الذاتى، وذلك بحركة معقولة معنوية يقتضيها بشأن من الشئون الإلهية المعبر عنها بالكناية تسمى صورة، ومعلومية الشيء المراد بكونيته، وبهذا الاعتبار سمى الله الموجودات كلمات، سمى عيسى كلمة، وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠] أى الأرواح الطاهرة. انتهى. وهذا يحتاج لذوق شهودى فافهم، ولا حاجة لجعل من زائدة على هذا كما قيل.

(وهو) أى يحيى عليه الصلاة والسلام **(ابن ثلاث سنين يشهد له أنه كلمة الله وروحه)** قد بينا معنى كونه كلمة الله، وكان يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ابنا خالة كما مر، ويحيى أكبر سنا منه، وإطلاق روح الله تعالى عليه، إما لأن جبريل عليه الصلاة والسلام المعنى بالروح نفخ فى درع أمه، فتكون من نفخته فإضافته إلى الله إضافة ملك وتشريف، أو لأنه خلقه من غير واسطة بشر ولذا وقع النصارى فيما وقعوا فيه. وعن كعب: أن الله خلق أرواح بنى آدم قبل أجسادهم لما أخذ عليهم الميثاق، فأمسك روح عيسى عليه الصلاة والسلام، فلما أراد خلقه أرسلها لمريم فلذا كان روحانيا. وقيل: الإضافة للتشريف كبيت الله كما علم، وقيل: معنى روح الله نعمة الله؛ لأن الروح تطلق على النعمة. وفى صحيح البخارى مسندا عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة»(١).

(وقيل: صدقه) يحيى عليه الصلاة والسلام **(وهو فى بطن أمه فكانت أم يحيى تقول لمريم:إنى أجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك تحية له)** منصوب مفعول له أى سجوده له سجود تحية وتعظيم لا عبادة، وكان السجود مما يعظم به المخلوق قبل الإسلام. وهذا الحديث رواه أحمد وابن جرير عن مجاهد من طرق متعددة فهو حديث صحيح، إلا أنهم لم يرفعوه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ومثله لا يقال من قبل الرأى فهو فى حكم

(١) تقدم تخريجه.

المرفوع، قالوا: وهذا هو المراد بقوله مصدقا بكلمة من الله، وهذا يقتضى أن حمل مريم بعيسى عليه الصلاة والسلام طالت مدته، وفى تلك المدة اختلاف، وقيل: إنها ولدت فى ساعة نفخ الروح.

(وقد نص الله على كلام عيسى عليه الصلاة والسلام لأمه عند ولادتها إياه بقوله لها: لا تحزنى) وهذا أحد من تكلم فى المهد وفى عدتهم خلاف، وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه: «لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، وصاحب جريج، وغلام كان يرضع فى حجر أمه ومر عليه الصلاة والسلام، وصاحب جريج، وغلام كان يرضع فى حجر أمه ومر عليه راكب فقالت أمه: اللهم اجعل ابنى مثله فقال: اللهم لا تجعلنى مثله»(١). وظاهره الحصر إذ لم يذكر معهم الصبى المذكور فى حديث الساحر الذى قال لأمه: اصبرى فإنك على الحق، وهو فى صحيح مسلم. وأجيب بأنه لم يكن فى المهد وإن كان صغيرا لم يبلغ حد التكلم، ورد بأن ابن قتيبة حكى أنه ابن سبعة أشهر، فلعله صلى الله تعالى عليه وسلم إنما اطلع أولا على ثلاثة، ثم أطلعه الله بعد ذلك على غيرهم لثبوته فى صحيح مسلم كما علم. وقالوا: تكلم فى المهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام كما ذكره البغوى والقاضى فى التفسير، وروى أن نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم تكلم فى المهد وهو عند حليمة السعدية، وأول كلمة تكلم بها: الله أكبر. وحكى عن الواقدى وشاهد يوسف كما حكاه القرطبى، وقيل: إنه كان رجلا، وابن ماشطة ابنت فرعون كما فى مسند أحمد، وفيه زيادة لقوله ابن ماشطة ابنة فرعون، وروى الضحاك تكلم يحيى عليه الصلاة والسلام فى المهد أيضا، ومبارك اليمامة الذى كلمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كما فى الدلائل، فهم أحد عشر كما فصله البرهان الحلبى رحمه الله، ونظم غالبهم القائل فى قوله:

إذا رمت سرد الناطقين بمهدهم	فمنهم رسول الله أحمد ذو المجد
خليل ويحيى ثم عيسى وطفل من	دعت لابنها فورا كذى شارة فرد
فقال ألا لا تجعلنى مثله	ورد عليها قولها أفصح الرد
كذاك الذى قد قال إن جريجنا	برئ فلا ترموه بعد بما يردى
ومنهم نجيب كان يدعى مباركا	وقال رسول الله قد جاء بالرشد
وماشطة كانت لفرعون تنتمى	وكان لها طفل تكلم فى المهد

---

(١) أخرجه البخارى (٢٠١/٤)، ومسلم (٢٥٥٠/٧)، وأحمد (٣٠١/٢، ٣٠٧)، والحاكم (٥٩٥/٢).

كذا شاهد فى شأن يوسف منهم　　فدونك جمعا زائد الحسن فى العد

وقوله: بقوله إلى آخره، يعنى أنها لما حملت بلا زوج وكانت فرت وهى حامل لمكان بعيد خوفا من أهلها، فلما وضعته قال لها: لا تحزنى.

(على قراءة من قرأ من تحتها) بفتح الميم على أن من موصولة وتحتها بنصب التاء ظرف صلته، وقد أورد على المصنف هنا أمران:

الأول: أن تخصيص دلالة الآية على أن المتكلم عيسى عليه الصلاة والسلام فى المهد بهذه القراءة لا وجه له، فإن القرائتين على حد سواء فى احتمال أن يكون المنادى عيسى أو جبريل أو بعض الملائكة، وكيف لا ومعنى النظم على القرائتين واحد، فإن المعنى ناداها من تحتها قائلا لا تحزنى، فإن قيل: لو كان المنادى جبريل عليه الصلاة والسلام كان فوقها لا تحتها لإتيانه من الأفق. قيل: إن جبريل كان منها مكان القابلة، وقيل: إنها كانت على أكمة هو تحتها، وإذا كان المنادى عيسى عليه الصلاة والسلام قال الجعبرى: معنى كونه تحتها أنه كان تحت ثيابها.

الثانى: أنه قيل: إن كلام المصنف رحمه الله تعالى فى حسن الأخلاق وأنها جبلية، وكلام من فى المهد ليس من هذا القبيل، بل من قبيل خوارق العادة، كنطق الجوارح يوم القيامة، وتسبيح الحصا، ونطق الشجر، وهو لم يدم فإنه ينقطع ويعود فى زمنه، ولم يقولوا باستمراره، ولو استمر كان مناسبا لما ذكر.

والجواب أن ما ذكره بحسب الظاهر، لأنه كان جبريل وقد ذكر هنا بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ﴾ [مريم: ١٩] كان الظاهر أن يقول فناداها كما فى القراءة بمن الجارة، فلما عرفه بالاسم الظاهر وعدل إليه فى محل الإضمار علم أنه غيره وليس ثمة أحد، فعلم أنه عيسى، ومعنى كونه من تحتها أن المرأة فى حال الوضع ترتفع عن الأرض على عال فيقع الولد تحتها فلا حاجة لما قاله الجعبرى. وأما السؤال الثانى فساقط لأنه وإن كان خارقا للعادة يدل على أن ما يأتى بهذه من جنسه أمر جبلى، وقراءة الكسر بمن الجارة والفتح بمن الموصولة كلاهما متواترة من السبعة.

(وعلى قول من قال إن المنادى) بكسر الدال **(عيسى)** عليه الصلاة والسلام لا الملك. **(ونص على كلامه فى مهده)** المهد كالمهاد بمعنى الفراش الممهد للنوم كما مر، ثم خص بما يربط فيه الطفل لنومه وقراره فيه.

(فقال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]) فلما تكلم عليه الصلاة والسلام بذلك علموا براءة مريم، ثم سكت حتى بلغ مدة التكلم لأمثاله وجعل

أول تكلمه الإقرار بالعبودية إبطالا لقول النصارى أنه ابن الله، لأن الولد لا يكون عبدا ولو ملكه عتق عليه، والكتاب الإنجيل، ويجوز أن يريد التوراة لعلمه صلى الله تعالى عليه وسلم بها، أو الأعم وتعبيره بالماضى باعتبار ما قدره الله تعالى له، أو جعله بمنزلة الواقع لتحققه. وقيل: إنه نبئ فى صغره حقيقة كما روى عن الحسن.

(**وقال الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ [الأنبياء: ٧٩]**) أى القصة الآتية ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] عليه الصلاة والسلام ﴿وَكُلًّا﴾ [الأنبياء: ٧٩] أى سليمان وأباه داود ﴿ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] إشارة إلى قصة سليمان عليه الصلاة والسلام إذا أوتى الحكم صبيا وعمره إذ ذاك أحد عشر سنة فى الغنم التى نفشت فى الحرث، أى رعته ليلا وأفسدته. والنفش: الرعى بالليل بلا راع. فإن كان بالنهار فهو همل، وكان يجلس على الباب الذى يخرج منه الخصوم الداخلين عليه من باب آخر، فتخاصم رجلان لأحدهما حرث وهو زرع، وقيل: كرم. والحرث يطلق عليهما. وللآخر غنم دخلت حرثه فأفسدته، فحكم داود بدفع الغنم لصاحب الحرث على أن يبقى الحرث بيده، وقيل: يدفع الغنم لصاحب الحرث ويدفع الحرث لصاحب الغنم، فداود عليه الصلاة والسلام رأى على القول الأول أن الغنم تقاوم الغلة الفاسدة، وعلى الثانى رأى أنها تقاوم الحرث والغلة، معا فلما خرجا على سليمان عليه الصلاة والسلام سألهما عما حكم لهما به فرجع لأبيه وقال: إنى رأيت ماهو أوفق بالجميع، وهو أن يأخذ صاحب الغنم الحرث فيقوم عليه حتى يعود لما كان عليه، ويأخذ صاحب الحرث الغنم فينتفع بنسلها وريعها، فإذا عاد الحرث لحاله صرف ملك صاحبه له، فقال: أصبت وحكم بما قاله.

قال العلامة ابن القيم فى كتابه «معالم التقويم»: حكم داود عليه الصلاة والسلام له بقيمة المتلف فاعتبر الغنم فوجدها بقدر القيمة فدفعها لصاحب الحرث، إما لأنه لم يكن له دراهم تعذر بيعها ورضوا بدفعها وأخذها بدلا عن القيمة. وسليمان عليه الصلاة والسلام قضى بالضمان على أصحاب الغنم، وأن يضمنوا ذلك بالمثل بأن يعمروا البستان حتى يعود كما كان، فلم يضيع عليهم شيئا من حين الإتلاف إلى حين العود، فأعطى أصحاب البستان الماشية ليأخذوا من نمائها بقدر نماء البستان فيستوفوا من نماء الغنم بقدر ما فاتهم من نماء حرثهم، وقد اعتبر النمائين فوجدهما سواء فهذا علم خصه الله به وأثنى عليه بإدراكه، وقد تنازع العلماء فى ضمان النفش وفى المثل وهو الحق، وهو أحد القولين فى مذهب أحمد والشافعى ومالك، والمشهور خلافه.

والقول الثانى: موافقته فى ضمان النفش دون التضمين بالمثل وهو المشهور عن أحمد،

ومالك، والشافعى.

والثالث: موافقته فى التضمين بالمثل دون النفش كما إذا رعاها صاحبه باختياره دون ما إذا انفلتت ماشيته ولم يشعر بها، وهو قول داود ومن وافقه.

والقول الرابع: أن النفش لا يوجب الضمان بحال وما وجب من ضمان الرعى بغير النفش فإنه يضمن بالقيمة لا بالمثل، وهو مذهب أبى حنيفة.

وما حكم به سليمان عليه الصلاة والسلام أقرب إلى العدل والقياس، وقد حكم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار وما أفسدت المواشى ضمانه على أهلها يصح بحكم النفش، وصح بالنصوص السابقة. والقياس الصحيح وجوب الضمان بالمثل، وصح بنص الكتاب الثناء على سليمان عليه الصلاة والسلام بتفهيم هذا الحكم فصح أنه الصواب. انتهى.

وقال التجانى: اختلف فى حكمهما فى هذه القضية هل كان بوحى؟ فالثانى ناسخ للأول، أو باجتهاد بناء على أن كل مجتهد مصيب، وكونه فتيا يرده أن فتيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حكم، مع أنه يأباه قوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨] قيل: ويؤيد أنه اجتهاد قول سليمان عليه الصلاة والسلام: إنى رأيت ما هو أوفق للجميع، وهو مبنى على جواز خطأ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى اجتهادهم وأنهم لم يقروا عليه. وفى التلويح هنا كلام يلوح عليه أثر الضعف، وعلى أن شريعة من قبلنا ليست شريعة لنا مطلقا. وقد ورد فى الحديث ما يخالفه كما سمعته آنفا، وقول أبى السعود أن رأى سليمان استحسان ورأى داود قياس، قيل: إنه غير سديد لأن الاستحسان إما دليل ينقدح فى نفس المجتهد وإلهام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يكون إلا صوابا، أو هو العدول عن قياس إلى قياس أقوى منه وحينئذ كل منهما قياس واجتهاده، أو هو العدول عن الدليل إلى العادة لمصلحة، ومثله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حائز ولا يخفى ما فيه. وفى الكشاف أن حكم دواد عليه الصلاة والسلام لأن الضرر وقع بسبب الغنم فسلمته بجنايتها إلى المجنى، كما قال أبو حنيفة فى العبد إذا جنى على نفس: فسيده يدفعه أو يفديه. وعند الشافعى يبيعه بذلك أو يفديه. ولعل قيمة الغنم كانت قدر النقصان فى الحرث، وسليمان عليه الصلاة والسلام جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل فى الحرث ما يزيل ضرره، كما لو غصب عبدا فأبق فى يده فإن قيمته تدفع لسيده ينتفع بها، فإذا ظهر ترد له. وفى هذا المقام كلام طويل لا حاجة لنا به، فإن أردته فارجع إليه.

(وقد ذكر من حكم سليمان عليه الصلاة والسلام وهو صبى يلعب فى قضية المرجومة، وفى قصة الصبى ما اقتدى به أبوه) كما اقتدى به فى قصة الحرث، وذلك كان فى صباه وأول أمره، فهذا وأشباهه مما يدل على أنها أمور جبلية غير كسبية. وقصة المرجومة كما حكاه التلمسانى: أن امرأة كانت بارعة الجمال وهى من أهل الدين ولها حق، فرفعت أمرها لأحد قضاة بنى إسرائيل، فلما رأها افتتن بها وراودها عن نفسها فامتنعت، ثم ذهبت لثان وثالث ورابع، فكل راودها عن نفسها فأتت لنبى الله داود عليه الصلاة والسلام فحجبت عنه، فأجمع الأربعة أن يقولوا لداود عليه السلام أن لها كلبا تمكنه من نفسها ويزنى بها ففعلوا، فأمر برجمها فرجمت، فبينما داود عليه الصلاة والسلام يوما فى علية له مشرفا على صبيان يلعبون مع سليمان وفيهم صبى جميل، فجعلوا سليمان قاضيا والصبى كمرأة ذات حق، وأربعة منهم قضاة، وفعلوا مثل تلك القصة بعينها من المراودة والتهمة، وذلك بمرئى من داود عليه الصلاة والسلام كما فى قصة المرجومة فعرفهم سليمان، وقال لأحدهم: ما لونه؟ فذكر لونا ودعى كلا بانفراده، فذكر كل لونا مخالفا للآخر، فأمر الصبيان فضربوهم. فقال داود: لعل القضية هكذا، فبعث للقضاة وسألهم عن لون الكلب على الانفراد فاختلفوا كالصبيان فأمر بهم فقتلوا. وهكذا نقله غيره من الشراح عن ابن عساكر مسندا، وكذا نقله السيوطى رحمه الله تعالى فى تخريج أحاديث هذا الكتاب و لم يتعقبه. فقول ابن رسلان: المراد بالمرجومة التى أريد رجمها لأن داود هم برجمها، ثم لما رأى صنيع سليمان درء عنه الحد. فسماها المصنف رحمه الله تعالى مرجومة باعتبار ما يؤول، أو لأنه أريد رجمها يتبع فيه غيره، فلا يخفى أنه مخالف للظاهر فلا وجه لكلامه ولا لمن تبعه فيه، ثم إنه قيل: إن هذا يقتضى أنه كان فى شريعتهم أن المرأة الممكنة من نفسها حيوانا ترجم، وأن شاهد الزور يقتل. وفى الشريعة المحمدية أن حكمهما التعزير.

وقصة الصبى هى ما رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: «بينما امرأتان معهما أبناء لهما فأخذ ذئب أحدهما، فتحاكمتا إلى داود عليه الصلاة والسلام فقضى به للكبرى، فدعاهما سليمان عليه الصلاة والسلام فقال: هاتوا سكينا أشقه بينهما. فقالت الصغرى: رحمك الله هو ابنها لا تشقه فقضى به لها لشفقتها عليه ورضيت الأخرى بشقه لتتشاركا فى المصيبة»(١).

قال التجانى: وهذا مما لا شبهة فى صحته. وأما الحديث الأول فالله أعلم بصحته، وقد ورد فى الإسرائيليات على غير رواية ابن عساكر، وأن داود عليه السلام لم يرجمها

(١) أخرجه مسلم (١٧٢٠/٢)، وأحمد (٣٢٢/٢).

وإنما أمرهم برجمها، فمروا بها على سليمان فأوقفها وأحضر الشهود وفرق بينهم كما مر، ورجع داود عن حكمه، وعلى هذا يبنى ما مر من أن المرجومة هنا مجاز عن من أريد رجمها وفيه فؤائد.

منها: أنه إذا تجوز بالفعل عن إرادته لا يلزم وقوعه.

ومنها: أن أبا هريرة رضى الله تعالى عنه قال: والله إن سمعت بالسكين إلا ذلك اليوم.

ومنها: أن داود عليه الصلاة والسلام يحتمل أنه قضى به للكبرى لشبه بينهما، وأنه كان فى شريعته يجوز الإلحاق بالشبه، أو لكونه فى يدها والترجيح باليد شريعة له صلى الله تعالى عليه وسلم. وأما سليمان عليه الصلاة والسلام فتوصل بلطفه لمعرفة باطن القضية، فأوهمهما إرادة شقه ليسوى بينهما، ومثله يفعله حذاق الحكام فيقضون بأمور لو تجردت لم يقض بها شرعا، ولعل الكبرى أقرت بأنه ليس ولدها فرده بإقرارها لا بمجرد الشفقة فلذا نقض داود عليه الصلاة والسلام حكمه، أو أن فى شرعهم أنه يجوز للمجتهد نقض حكم المجتهد كما فى مزيل الخفاء.

ومنها: أنه وقع فى مسلم أن الصغرى قالت لسليمان عليه الصلاة والسلام: لا يرحمك الله، فيرحمك الله جملة مستأنفة دعائية لكنها موهمة للدعاء عليه، وفى الإكمال أن السلف كرهوا مثله لما فيه من الإيهام، يريد ما روى عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه قال لمن قال له مثله: لا تقل هذا، وقل يرحمك الله لا. وروى بعضهم ويرحمك الله. **أقول:** يعنى أن الواو تزاد لدفع الإيهام، كما تحذف له فى نحو قوله:

وتظن سلمى أننى أبغى بها   بدلا أراها فى الضلال تهيم

فإنه لو قال: وأراها ربما ظن أنه معطوف على أبغى وليس مراده ذلك. وسأل الرشيد رجلا عن شيء فقال له: لا وأيد الله الخليفة فاستحسنه منه، فلما سمعه قال: هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ فى خدود الملاح، وهذه الواو إما زائدة أو اعتراضية أو لعطف الإنشاء على الخبر.

(وحكى الطبرى أن عمره كان حين أوتى الملك اثنى عشر عاما، وكذلك قصة موسى) عليه الصلاة والسلام **(مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل)** فرعون: لقب لكل من ملك القبط كما مر، وهذا هو مصعب بن الوليد بن ريان كان من القبط العمالقة عمر أكثر من أربعمائة سنة، وسن موسى عليه الصلاة والسلام حين أخذ بلحيته ابن عامين، وكان فرعون، لعنه الله، استبعد بنى إسرائيل واستخدمهم وضرب عليهم الجزية، فرأى فى

منامه أو أخبره الكهنة أن زوال ملكه على يد غلام من بنى إسرائيل، فأمر بقتل كل مولود يولد منهم، فرأى أهل مملكته أن فى ذلك ضررا عليهم، لأنهم خدمهم ويكفونهم المؤنة، فعزموا على قتلهم عاما بعد عام. قيل: وهو بعيد لاحتمال أن يولد عام استحيائهم. واتفاق العقلاء على مثله غير ظاهر، فلعلهم رأوا عام ولادته زوجا أو فردا أو عينوه، وولد هارون فى عام الاستحياء وولد موسى فى العام الرابع من ولادته وكان عام قتل، فخافت أمه عليه فأوحى الله تعالى إليها ما يأتى على لسان ملك أو رأت ذلك فى منامها، والقول الأول إما لأن من لا يكون نبيا قد يرى الملك وقد جوزه جماعة من السلف، ولعله كان فى الزمن السالف، أو أن أمه كانت نبيئة والمشهور أن النبى لا يكون إلا ذكرا.

قال التجانى: وقد ذهب علماء قرطبة إلى صحة نبوة المرأة، وصححه ابن السيد، ونسبه ابن الهمام إلى بعض أهل الظاهر، فأوحى الله تعالى إلى أمه أن تتخذ تابوتا تضعه فيه وتقذفه فى النيل ففعلت، وكان النيل يدخل منزل فرعون، فبينما هو جالس إذا دخل التابوت به عنده، فأخذه آل فرعون ففتحته آسية امرأة فرعون صلى الله تعالى عليه وسلم، فلما رأته فيه موسى رحمته وسألت من فرعون أن يتخذه ابنا فأجابها لذلك، فكانت تدخل به عليه فأحبه وجعله يوما فى حجره، فمد يده للحيته وجذبها جذبا شديدا، فغضب فرعون وقال: هذا عدو لى وأمر بذبحه، فناشدته الله تعالى وقالت: إنه لا يعقل. فقال: بل يعقل. فقالت: جربه فجربه فجعل بين يديه تمرة وجمرة، وقيل: درة وجمرة، وقال: إن أخذ التمرة أو الدرة فهو يعقل وإلا عذر، فلما مد يده للتمرة ضربه جبريل عليه الصلاة والسلام فأخذ الجمرة فأحرقت لسانه، ومنها كان فى لسانه عليه الصلاة والسلام عقدة تمنعه من إبانة بعض الحروف، وهى التى أزالها الله تعالى بدعائه، فعذره فلم يزل فى حجره إلى أن كان ما كان وموسى وقصصه ونسبه مذكور فى محله، والطفل يكون للواحد وغيره، وقد يختص بالواحد فيجمع على أطفال.

(فائدة): قيل: كل مولود ذكرا وأنثى يزيد كل سنة أربع أصابع بأصابع نفسه، وكل أحد طوله أربعة أذرع مقبوضة الأصابع بذراع نفسه، والقوة تزيد إلى أربعين وتقف إلى ستين وتنقص بعد ذلك، وفرعون هذا غير فرعون يوسف، وقيل: إنه هو وأنه أسلم ثم ارتد، وقيل: إن موسى عليه الصلاة والسلام قال: يا رب أمهلت فرعون مع كفره، فقال: إنه كان سهل الحجاب فكافأته على ذلك فى الدنيا.

(وقال الله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١]) أى هديناه صغيرا قاله مجاهد وغيره هذا أحد التفاسير فى العلم السابق، وقيل: المراد قبل موسى

وهارون، والرشد: الاهتداء لوجوه الصلاح، ويقال: رشد ورشد وبهما قرئ. قال فى الكشاف: معنى إضافة الرشد له عليه الصلاة والسلام أنه رشد ثابت له، ورد بأن هذا المعنى حاصل بدون الإضافة لو قيل آتيناه رشدا له أفاد ذلك مع التعظيم، و لم يفهم مراده إذ مراده أنا آتيناه رشدا معلوما من حاله لائقا به وبأمثاله من الرسل عليهم الصلاة والسلام، لا كرشد غيره.

(**وقال ابن عطاء: اصطفاه قبل ابتداء خلقه**) أى اختاره رسولا خليلا فى علمه فإنه لا يختص به، بل المراد أنه حين أراد خلقه فى بطن أمه أمر الملائكة أن تكتب اصطفاءه وخلته، تنويها به وتعظيما لقدره بخلاف غيره، فإنه إنما يكتب حاله بعد خلقه، والظاهر أن المراد أنه اصطفى روحه فى عالم الذر قبل خلق جسده، كما فى حديث: «كنت نبيا وآدم» إلى آخره. وفى نسخة قيل: ابتداء خلقه قبل لما كان من قبل على هذا بمعنى قبل خلقه، ولا معنى لهدايته قبل خلقه أوله باصطفاءه اللازم له لصحة اصطفاء المعدوم.

(**وقال بعضهم: لما ولد**) نبى الله (**إبراهيم**) عليه الصلاة والسلام (**بعث الله إليه ملكا يأمره عن الله تعالى أن يعرفه بقلبه ويذكره بلسانه، فقال: قد فعلت ولم يقل أفعل فذلك رشده**) يعنى عبر بالماضى الدال على وقوعه قبل أمره، فيكون المعنى آتيناه رشده قبل أمره، فيدل ذلك على الإيمان واشتغاله بذكر ربه أمر جبلى مجبول عليه، أو أمر عرفه به فى عالم الذر والأرواح، فيكون بمعنى ما قاله ابن عطاء، أو المراد أنه عبر بالماضى لسرعة امتثاله حتى كأنه وقع منه، فمعنى من قبل على هذا من قبل أمره لا من قبل بلوغه كما قيل.

(**وقيل: إن إلقاء إبراهيم فى النار ومحنته**) التى وقعت له مع نمرود، فإنه كما رواه أبو صالح عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ولد فى زمنه وكان له كهنة، فقالوا له: يولد فى هذه السنة مولود يفسد آلهة الأرض ويدعوهم إلى غير دينهم وهلاك أهل بيتك على يديه، فعزل النساء عن الرجال ودخل آزر إلى بيته فوقع على زوجته فحملت، فقال له الكهان: إن الغلام قد حمل به الليلة فقال: اقتلوا كل غلام ولد، فلما أخذ أم إبراهيم عليه الصلاة والسلام المخاض خرجت هاربة، فوضعته فى نهر يابس ولفته فى خرقة ووضعته فى حلفاء وأخبرت به أباه، فأتاه فحفر له سردابا وسد عليه بصخرة فكانت أمه تختلف إليه فترضعه حتى شب وتكلم، فقال لأمه من ربى؟ فقالت: أنا. فقال: من ربك؟ قالت: أبوك، قال: فمن رب أبى؟ فقالت له: اسكت، فسكت فرجعت إلى زوجها، فقالت له: الغلام الذى يتحدث به أنه يغير دين أهل الأرض ابنك، فأتاه فقال له مثل ذلك.

وقوله: (**كانت وهو ابن ستة عشر سنة**) كذا فى الكشاف، قال التجانى: المعروف أنه

كان ابن ست وعشرين سنة، والذى أشار بإحراقه رجل من أعراب العجم وهو الكرد، ولما هموا بإحراقه حبسوه وبنوا حظيرة وجمعوا الحطب الصلاب شهرا، حتى كان من مرض ينذر جمع الحطب له، ثم أشعلوا نارا عظيمة إذا مرت بها الطير احترقت لشدتها، ثم وضعوه فى منجنيق مقيدا مغلولا ورموه فيها، فناداها جبرايل عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] فلم يحترق غير وثاقه، فقال له حين ألقى: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، حسبى من سؤالى علمه بحالى. وقيل: نجا منها بقوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وأشرف نمرود عليه من صرحه فإذا هو فى روضة معه جليس من الملائكة، فقال: إنى مقرب إلى إلهك فقرب أربعة آلاف بقرة وكف عنه. وقصته مذكورة فى القرآن مجملة مفصلة فى التفسير.

واعلم أن نمرود كما قاله السهيلى بضم النون وذال معجمة وقد تهمل انتهى. قيل: لما أرادوا رميه فى النار لم يقدروا على القرب منه، فعلمهم إبليس، لعنه الله، صنعة المنجنيق، فلما أرادوا رميه لم يرتم لمنع الملائكة عليهم الصلاة والسلام له، فأمرهم إبليس أن يحضروا نساء مكشوفة الفروج فصعدت الملائكة للسماء.

(وأن ابتلاء إسحاق بالذبح وهو ابن سبع سنين) وقيل: ثلاث عشر سنة، وهذا بناء على أن الذبيح إسحاق عليه الصلاة والسلام كما عليه أهل الكتاب وكثير من المفسرين والمحدثين، حتى صنف الجلال السيوطى فى تصحيحه رسالة مستقلة. والمشهور وهو مذهب الجمهور أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وهو قول أكثر الصحابة كابن عباس، وابن عمر، ومعاوية رضى الله عنهم، وهو الظاهر فإن سارة زوجة إبراهيم عليه الصلاة والسلام كانت لا ولد لها، وهاجر جاريته ولدت إسماعيل، فغارت منها وكرهت مقامها معها، فنقلها إلى مكة ومعها إسماعيل عليه الصلاة والسلام وكان ينتابهما، فلما كبرت سارة وشاخ إبراهيم عليه الصلاة والسلام بشرتهما الملائكة بإسحاق فقال: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢] الآية، فلو كان الذبيح إسحاق عليه الصلاة والسلام ناقض ذلك إخبار الله بأنه سيولد له يعقوب، ولا يصح أنه أمر بذبحه بعدما ولد له يعقوب، للإجماع على أنه فى صغره كما مر، ولقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ [الصافات:١٠٢] ولأنه فى الصافات ذكر تبشيره بإسحاق بعد قصة الذبح، وبهذا احتج مالك وغيره. وورد فى الحديث: «أنا ابن الذبيحين»(١) يريد عبد الله وإسماعيل. وفى

---

(٢) أخرجه العقيلى فى الضعفاء (٣/٩٤، ٩٥)، والطبرى فى تفسيره (٢٣/٥٤)، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٢/١٥٠).

تفسير الطبرى عن ابن عباس رضى الله عنهما: «تزعم اليهود أن إسحاق هو الذبيح وكذبوا»(١) وقال بعض من أسلم من أحبارهم: إنهم يحسدونكم معشر العرب أن تكون هذا الفضيلة فيكم، وقال الأصمعى: سألت أبا عمرو عن الذبح، فقال: «أعزب عنك عقلك، ألم تر إلى الموضع الذى أضجع فيه الذبيح بمكة ومنى، ومتى دخل إسحاق مكة» وقال ابن الجوزى: وهو الصواب، والقول بأنه إسحاق باطل بأكثر من عشرين وجها، وأطال فيها ابن القيم فى الهدى. وقال المحب الطبرى: الأكثر أنه إسحاق ورجحه هو وغيره. والصحيح ما مر ويدل له حديث: «أنا ابن الذبيحين» وقصة ذبح أبيه عبد الله مشهورة، لأن عبد المطلب نذر إن بلغ بنوه عشرة أن يذبح واحدا منهم تقربا إلى الله تعالى، فلما كملوا أتى بهم البيت وضرب عليهم القداح فخرج قدح عبد الله ففداه كما هو مشهور. والقول بأن المراد بالذبيحين عبد الله وهابيل بناء على أن الذبيح إسحاق كما نقله مغلطاى مع غرابته لا يعلم له وجه، لأنه لم يتعين أنه من ولد هابيل إلا أن يجعل العم بمنزلة الأب، ولا يخفى ما فيه من التعسف.

(وأن استدلال إبراهيم بالكواكب والقمر والشمس وهو ابن خمسة عشر شهرا) ووجه الاستدلال أن الأجرام السماوية آفلة، وكل آفل فهو متغير، وكل متغير حادث، ولا شىء من الحادث بصانع فلا شىء من هذه الأجرام بصانع، وتلك الأصنام كهذه الأجرام فى التغير فلا شىء منها بصانع، بل هى دونها فيثبت لها ذلك بالطريق الأولى، فالصانع المغاير لها موجود إذ لابد للعالم من صانع، فثبت المطلوب بدليل مؤلف من قضايا تستلزم لذاته قولا آخر هو النتيجة، أو الدليل ما يدل بالقوة وإن كان مفردا، وهو المعرف بما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى العلم بمطلوب خبرى، كالعلم المستدل به على وجود الصانع والأجرام المذكورة، وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أخفته أمه فى غار خوفا عليه كما مر، مكث فى الغار عشرة أعوام أو أربعة أعوام كما فى عيون المعانى، أو خمسة عشر شهرا كما حكاه المصنف، فلما عقل سأل أمه من ربى كما مر، وفى رواية فقالت: أبوك فقال: من رب أبى؟ فقالت: الملك. فعرف جهلها ونظر ما يستدل به عليها فرأى النجم، فقال: هذا ربى إلى آخر ما قصه الله. والأقوال بناء على أن هذا قبل بلوغه فى الغار، وقيل: إنه بعد بلوغه فى الغار أو بعد بلوغه وخروجه منه، وقد بعثه الله نبيا وعمره أكثر مما ذكر، وهو الذى يقتضيه ظاهر القرآن؛ لأنه حكى فيه أنه قال لأبيه: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام:٧٤] إلى آخره، ثم عقبه بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام: ٧٥] الخ ثم ربط به قوله تعالى:

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٥٤/٢٣).

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ [الأنعام:٧٦] الخ، فدلت الفاء على كونه بعد هذا كله، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ [الأنعام:٨٣] الخ يدل على مناظرته مع قومه ليرشدهم إلى الإيمان بالصانع لا لنفسه، وبينه قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]، ولو كان فى الغار نظر لنفسه قال: إنى برىء من الإشراك فإذا ثبت هذا وأنه موحد جازم بعدم ربوبية الكواكب، فقوله: «هذا ربى» على تقدير الاستفهام والاستفهام إنكارى، أو هو على تقدير أى يقولون هذا ربى، والتقدير فى الكلام قالوا هو البحر حدث عنه ولا حرج، وهو فى القرآن كثير، أو أنه عرف طباعهم عن قبول الحق لو صرح به ابتداء، فأتى بما يستدرجهم إلى استماع حجتهم بأن أسمعهم ما يوهم موافقته لهم فإذا أصاخوا له أورد الدليل المبطل لما يعتقدونه بما هو أتم وأنفع، وهذا قريب من الأول، وإن فرق بينهما بما فى هذا من الإيهام وعدم إظهار الإنكار، وسيأتى فى القسم الثالث ما يتعلق بهذا.

وقول المصنف رحمه الله تعالى: استدلاله وهو ابن خمسة عشر شهرا إن كان قصد به دفع ما قيل: إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام موحدون لا يصدر منهم شك فى الله ووحدانيته، فكيف صدر هذا من الخليل عليه الصلاة والسلام؟ بأنه صدر منه قبل سن التمييز وهو غير مكلف فليس بكفر ولا جهل بالله فغير مناسب، فإنه يجب أن يعتقد أنهم أعرف الناس، وأنهم مجبولون على فطرة سليمة موحدون، فالأولى ما قدمناه من التأويل، وقد تقدم أن الأصح أنه صدر منه صلى الله تعالى عليه وسلم بعد بلوغه بل وبعثته، وأن سياق الآية ناطق به كما قررناه أولا، وهو ظاهر ارتضاه القرطبى فى تفسيره، وقيل: إنه قاله فى طفوليته من غير اعتقاد ولا قصد كذب، والقول بأنه بعد البعثة فاسد، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام :٧٥] قصة أخرى؛ لأنه قصد النظر لنفسه والفاء ليست لتعقيب كلامه هذا على ما قاله لأبيه، وإنما هو من قبيل المعاريض تعريضا بجهل عبدة الأصنام وتضليل قومه، والقول بأنه على تقدير مضاف أى مخلوق ربى لا يخفى بعده.

(وقيل: أوحى الله إلى يوسف عليه الصلاة والسلام وهو صبى) هذا الوحى يحتمل أن يكون برسول من الملائكة، أرسله الله تعالى إليه وهو طفل إن لم يقل إنه لم يبعث نبى إلا بعد الأربعين، وهو وإن اشتهر فقد روى المحدثون والمفسرون ما يخالفه، ويحتمل أنه بإلهام أو رؤيا منام، وقد ذهب إلى كل من هذه الأقوال طائفة. وفى الكشاف: إن يوسف عليه الصلاة والسلام كان إذ ذاك مدركا وعمره تسع عشرة سنة، وهو مخالف لما قاله المصنف رحمه الله تعالى من أنه كان صبيا.

(عندما هم إخوته) بكسر الهمزة وضمها جمع أخ **(بإلقائه فى الجب)** بضم الجيم وتشديد الباء وهو البئر غير مطوية البحجارة، وسميت بالجب من الجب وهو القطع، والجب ببيت المقدس، وقيل: بالأردن على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه الصلاة والسلام، وقصة إلقائه بالجب مشهورة غنية عن البيان، وسيأتى ذكر إخوته وقصتهم **(بقوله تعالى)** فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب: ﴿**وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم**﴾ [يوسف:١٥] أى لتخبرن يا يوسف إخوتك **(بأمرهم هذا)** وهم لا يشعرون، وهذه جملة حالية إما متعلقة بقوله أوحينا أو بقوله أتنبئنهم، وذلك لأنه كان صغيرا كما قاله المصنف رحمه الله تعالى، وقيل: بل كان ابن اثنتى عشر سنة أو ثمانية، فعلى الأول هو ممن نبئ وأوحى إليه فى صباه كيحيى وعيسى، فالوحى فى الآية على ظاهر كما ذهب إليه المصنف رحمه الله تعالى، وقوله: هم كأنه جعل رأيه جميعا بعد ما تفرق، وهو يقتضى أن الوحى وقع له حين هموا بإلقائه، وفى الآية ما يقتضى أنه وقع بعد إلقائه.

وقال القاضى: إنهم أتوا بيوسف عليه الصلاة والسلام إلى البئر ودلوه فتعلق بصفيرها فربطما أيديه ونزعوا قميصا يلطخوه بالدم حيلة منهم، فقال: ردوا قميصى اتوار به، فقالوا: ادع الأحد عشر كوكبا يلبسوك ويؤنسوك، فلما بلغ نصفها ألقوه وفيها ماء، فآوى إلى صخرة بها وقام عليها يبكى، فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام بالوحى كما قال الله تعالى. انتهى. وهذا يقتضى أن الوحى بعد الإلقاء تطبيبا لقلبه، وهم يظنون أنه معذب مذلل وهم لا يشعرون أن الله تعالى أراحه بما تبشره به من نصره، فالحال من ضمير أوحينا، والأولى جعله حالا من قوله: «لتنبئهم» أى لتحدثنهم بما فعلوا وهم لا يشعرون، إنك يوسف لبعد العهد وتغير حالك، فهو إشارة لما وقع لهم لما أتوا ممتازين ليعلم أن المحنة تنقلب محنة.

(الآية) أى اذكر الآية التى ذكر فيها هنا مالها.

(ألف غير ذلك من أخبارهم) أى أخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الدالة على أنهم مجبولون على الكمال من ابتداء أمرهم فى صغرهم. **(وقد حكى أهل السير)** مما يدل على ذلك **(أن آمنة بنت وهب)** أم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كما مر. **(أخبرت أن نبينا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ولد)** أى خرج من بطنها حين أراد الله تعالى إخراجه منها فلا لغوية فيه، وقيل: حين ظرف متعلق بباسطا الآتى وهو حال من الضمير المستكين فى ولد الأول والظرف مؤكد لدفع أن الحال مقدرة.

(باسطا يديه إلى الأرض رافعا رأسه إلى السماء) رواه ابن الجوزى فى الوفاء عن أبى

الحسين بن أسيد مرسلا، قال: قالت آمنة: ولدته صلى الله تعالى عليه وسلم جاثيا على ركبتيه ينظر إلى السماء. ثم قبض قبضة من الأرض وأهوى ساجدا، وولد وقد قطعت سرته، وكنت وضعت عليه إناء فوجدته قد انغلق الإناء عنه وهو يمص إبهامه يشخب لنا انتهى. وروى الطبرانى: «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما وقع إلى الأرض وقع مقبوضة أصابع يده مشيرا بالسبابة كالمسبح بها. وله نظائر ذكرها ابن حجر فى كتاب المولد. قيل: ولا منافاة بين قبض أصابعه فى هذا الحديث وبين ما فى سيرة إبن إسحاق من أنه ولد واضعا يديه فى الأرض رافعا بصره، وأنه كان مسبحا.

أقول: أما التسبيح فلا دلالة عليه فى الحديث، وأما عدم منافاته لما فى سيرة ابن إسحاق فمسلم، لكنه مناف لما ذكره المصنف رحمه الله تعالى إلا بتأويل بعيد، ويؤيده قول البوصيرى فى قوله:

رافعا طرفه إلى السماء وفى ذلك الرفع إلى سؤدد إيماء

(وقال فى حديثه صلى الله تعالى عليه وسلم : لما نشأت) أى صرت شابا، وهذا الحديث رواه أبو نعيم فى الدلائل عن شداد بن أوس. **(بغضت لى الأوثان)** بالبناء للمجهول أى بغضها الله لى، وهى جمع وثن وهو حجارة كانت تعبد من أوثنته إذا أجزلت عطيته، وأوثنت كذا أكثرت منه قاله الراغب. وقيل: الوثن ماله جثة مما يعبد والصنم الصورة بلا جثة. ومنهم من سوى بينهما، وقد يطلق على الصليب وكل ما يشغل عن الله.

(وبغض إلى الشعر) أى استماعه والتلفظ به. **(ولم أهم بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمنى الله منها، ثم لم أعد)** وكونه صلى الله تعالى عليه وسلم بغض إليه الشعر لا ينافى قوله: «إن من الشعر لحكمة». لأن فيه ما يحمد كالحكم والمواعظ، ومدح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهجاء الكفار، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشعراء:٢٢٦،٢٢٧] وقد استمعه صلى الله تعالى عليه وسلم وأجاز قائله، وقال مرة لقائله: «لا يفضض الله فاك» لأن الأمر المذموم قد يحمد لعارض، أو يقال تعريف الشعر للعهد. وقوله: أهم بفتح الهمزة وضم الهاء كما قاله البرهان الحلبى، وفسر بمعنى لم أرد وأقصد، وهذا إشارة إلى حديث صحيح رواه البزار مسندا عن على كرم الله وجهه، ولفظه: «ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله بينى وبين ما

أريد، ثم ما هممت بعدها بشىء حتى أكرمنى الله تعالى بم سألته»[(١)]. ورواه فى المستدرك بلفظ آخر: «قلت ليلة لفتى من قريش كان بأعلى مكة يرعى غنما: أبصر لى غنمى حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الصبيان، فجئت أدنى دار من دور مكة فسمعت غناء وصوت دفوف ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقيل: فلان يتزوج فلانة، فلهوت بذلك الغناء وذلك الصوت حتى غلبتنى عينى، فما أيقظنى إلا حر الشمس، ثم رجعت إلى صاحبى فقال لى: ما فعلت؟ فأخبرته، ثم فعلت الليلة الأخرى كذلك، والله ما هممت بغيرهما مما تفعله الجاهلية». وروى أن الله ألقى عليه النوم فى المرتين صيانة وليس فى ارتكابه لمحرم، لأنه كان قبل تحريم السماع، ولأن ضرب الدف فى العرس غير ممنوع. وأما النهى عن سمر الليل فليس نهى تحريم مطلقا، وكان مباحا إذ ذاك مع أنه شرعا قد يكون أفضل من النوم كمذاكرة العلم، وإنما يحرم أو يكره لعارض كما ذكره الفقهاء، وقوله: «فعصمنى الله» أى حفظنى من ذلك لما غلب عليه من النوم حتى لم يسمع. وما وقع فى بعض الشروح أن كلامه إشارة إلى أنه كان لقريش صنم يسمى بوانه يجتمع عنده فى كل عام، فقالوا له: إنك لا تجتمع مع قومك ولا تكثر لهم جمعا، فذهب ثم عاد مرعوبا بالرؤية رجل طويل حال بينه وبينها، فغير مناسب هنا مع أن فى روايته كلاما للسهيلى ليس هذا محله، والمراد بالجاهلية ما كان قبل البعثة فى زمن الفترة كما تقدم.

(ثم يتمكن الأمر لهم وتترادف نفحات الله عليهم) الضمير للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والظاهر أنه معطوف على غرزت من قوله سابقا: «بل غرزت فيهم الأخلاق» إلى آخره، وعطفه بثم لبعد رتبته أو زمانه اعتبار الابتداء أو الانتهاء، ويتمكن بمعنى يقر ويثبت لا بمعنى يزداد، لأنه تفعل من المكان، والمراد بالأمر ما أودع فيهم من الكمال والعلوم، وتترادف: تتفاعل من الردف وهو الركوب خلف غيره، والمراد أنها تتوالى فيأتى بعضها عقب بعض، ونفحات: بفتحتين جمع نفحة بالسكون وهى فى الأصل رائحة تأتى مع هبة من النسيم طيبة، وهى هنا بمعنى الهبة والعطية. قال:

لما أتيتك أرجو فضل نائلكم نفحتنى نفحة طابت لها العرب

والمراد هنا إمداد الله لهم بوحى وغيره، إطلاق النفحة على ما يصيب من الشر مجازا تهكم كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٌ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [الأنبياء:٤٦] وفى الحديث: «إن لربكم نفحات ألا فتعرضوا لها».

---

(١) أخرجه البزار كما فى مجمع الزوائد (٢٢٦/٨)، والطبرى فى تاريخه (٢٧٩/٢).

(وتشرق أنوار المعارف فى قلوبهم) تشرق: بمعنى تضيء، يقال: أشرقت الشمس إذا أضاءت، وشرقت إذا طلعت، والمعارف: العلوم الربانية **(حتى يصلوا الغاية)** أى غاية الكمال فى التخلق بأخلاق الله تعالى. **(ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم)** أى بجعلهم من صفوة خلقه الذين اختارهم. **(بالنبوة)** متعلق بيبلغوا أو باصطفاء. **(فى تحصيل هذه الخصال الشريفة النهاية)** التى لا يصل إليها غيرهم. والغاية والنهاية واحد لكنه تفنن فى العبارة. **(دون ممارسة)** أى من غير تكرار عمل ومزاولته. **(ولا رياضة)** أى تمرين على العملى باعتباره من رضت الدابة أرضها إذا عودتها السير والجرى.

(قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [يوسف:٢٢]) أى موسى صلى الله تعالى عليه وسلم بلغ نهاية قوته وتمام عقله وهو من ثلاثين إلى أربعين، أو ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين، وهو مفرد أو جمع لا واحد له، أو واحده شد بالفتح أو الكسر، وقيل: خمسا وعشرين لما روى عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه قال: «ينتهى لب الرجل إذا بلغ خمسا وعشرين». قيل: هذا لا ينافى ما مر لما ذكره الفقهاء من أن رشد البالغ ببلوغ هذه السن؛ لأنه حال كمال لبه عن عمر رضى الله عنه.

(واستوى) ذكر الاستواء فى قصة موسى عليه الصلاة والسلام ولم يذكره فى قصة يوسف عليه الصلاة والسلام. قال التلمسانى: لأن الاستواء كمال العقل، ووقت الرسالة، وموسى أرسل فى ذلك الوقت، ويوسف لم يرسل حينئذ، ونقل ابن مرزوق عن ابن عرفة أنه قال: قال ابن جماعة: من استولى خمسين سنة فقد بلغ انتهاء الكهولة وهو مجتمع الأشد، ومن بلغ أربعين فقد بلغ حد الاستواء ومنتهى الكمال. انتهى.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ [يوسف:٢٢] أى نبوة **(وعلما)** بالدين وسياسة الأمة. **﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾** [يوسف:٢٢] علق وقوع الجزاء بالإحسان للتنبيه على أنه إنما جازاهم لكونهم محسنين أى مخلصين مراقبين لله أفعالهم. **﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾** [يوسف:٢٢] واستشهد المصنف رحمه الله تعالى بهذه الآية؛ لأنه تعالى أخبر فيها بكمالهم وترادف نفحات الله عليهم، حتى ارتفعوا إلى أقصى الدرجات من غير سبق ممارسة رياضة.

(وقد نجد غيرهم) أى غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. **(يطبع)** أى يخلق مجبولا. **(على بعض هذه الأخلاق الشريفة دون جميعها)** وفى نسخة: دون بعضها **(ويولد عليها)** موجودة فيه وجودا متأصلا وهذا كالتفسير لما قبله. **(فيسهل عليه اكتسابه تمامها عناية من الله عز وجل)** منصوب بنزع الخافض، أى بعناية الله ولطفه إذ جبله على أصولها **(كما يشاهد من خلقه)** بكسر الخاء المعجمة وسكون اللام وقاف وهاء تأنيث أو بفتحها

مضافا لضمير الله، والأول أولى وعليه اقتصر ابن رسلان. (**بعض الصبيان على حسن السمت**) السمت: الطريق وهيئة أهل الخير، يقال: ما أحسن سمته أى هديه وسيرته. وقد ورد فى الحديث بهذا المعنى.

(**أو الشهامة**) أى أو خلقه على الشهامة بفتح الشين المعجمة والهاء والميم، أى حدة الفؤاد والذكاة والجلادة والنقاد فى الأمور، يقال: رجل شهم إذا كان سيدا نجيبا نشيطا فى اكتساب المعالى وعدم الالتفات للملاحاة والخصومة. وفى الحديث: «من لاحى الرجال سقطت مروءته وذهبت كرامته، ومازال جبريل ينهانى عن ملاحاة الرجال كما ينهانى عن عبادة الأوثان». (**أو صدق اللسان أو السماحة**) كان الظاهر عطفها بالواو لكنه لما آتى بيانا لبعضها رأى أن أو الفاصلة أنسب.

(**وكان نجد بعضهم على ضدها**) أى ضد المذكورة كالكذب والبخل، وعبر بعلى لأنه متمكن منها تمكن الراكب من مركوبه، كما فى قوله تعالى: ﴿**عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ**﴾ [البقرة: ٥] (**فبالا كتساب يكمل ناقصها**) **فإن قلت**: لم عبر هنا بالكمال وقبله بالتمام؟ وهل هو تفنن فى التعبير أو بينهما فرق؟ **قلت**: قال العينى: بينهما فرق إلا أنه لم يفصح عنه. وقال ابن أبى الأصبغ فى كتاب «التوكيد»: الفرق بينهما أن التمام الإتيان بما نقص من الناقص والكمال الزيادة على التمام، فإذا قلت رجل تام الخلق لم يفهم منه السامع عربيا كان أو غيره، إلا أنه تام الخلق ليس فى أعضائه نقص، فإذا قلت: إنه كامل فهم وصفه بمعنى زائد على التمام كالحسن والفضيلة الذاتية، أو العرضية، وهذا هو المتداول بينهم، فالكمال تمام وزيادة، فهو أخص منه وقد يطلق كل منهما على الآخر تجوزا، وعليه قوله تعالى: ﴿**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى**﴾ [المائدة:٣] انتهى. وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى يتمشى على الأخير حيث جعل ما فى حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تماما فى حق غيرهم كمالا ولو عكس كان أحسن.

(**وبالرياضة والمجاهدة يستجلب معدومها**) بالجيم والبناء للمجهول، أى تكتسب وتحصل لمن لم يطبع على شىء منها وطبع على ضدها، وإن لم يكن الطبع كالتطبع، وهذا قسم آخر غير ما تقدم، فإن الأول وهو مرتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يطبع على جميعها. والثانى أن يطبع على بعضها ويكتسب البعض، وهذا أن يطبع على عدمها ولكونه ناقصا لم يتعرض له أولا، فسقط ما قيل إن الرياضة والمجاهدة طريق الاكتساب، وقد قرر أنه يطبع على بعض هذه وبالاكتساب يكون كمالها إلى كمال البعض الخلقى، إلا أنه بعينه استجلاب المعدوم بالنسبة لذلك البعض.

(**ويعتدل منحرفها**) المراد بمنحرفها المائل عن الاعتدال المحمود، لأنه هو الطريق فمن

فرط أو أفرط فقد مال عنه، وهذا بناء على القول الأصح أن الطباع يمكن تغييرها وإلا لضاعت المواعظ والنصائح، وكان الإنسان دون البهائم التى برياضتها قد تتعلم ما ليس فى طباعها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣] وقال الشاعر[١]:

تكرم لتعتاد الجميل فلن ترى   أخا كرم إلا بأن يتكرما

كما فصل فى علم الأخلاق **(وباختلاف هذين الحالين)** الجبلى والكسبى **(يتفاوت الناس فيها)** أى فى الصفات الحميدة قلة وكثرة وقوة وضعفا.

(كل ميسر لما خلق له) هذا من الأمثال النبوية وجوامع الكلم، وهو بعض من حديث صحيح وأوله: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فمن خلق سعيدا يعمل عمل أهل السعادة، ومن خلق شقيا يعمل عمل أهل الشقاء». ولذا كان التوفيق خليق قدرة الطاعة والخذلان خليق قدرة المعصية. وقال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

(ولهذا) التفاوت فيها **(ما قد اختلف السلف فيها)** ما فى أكثر النسخ وهى موصول اسمى أو حرفى أو زائدة، ولذا سقطت من بعض النسخ وهو الأظهر، والمراد بالسلف من تقدم من العلماء. **(هل هذا الخلق)** الحسن الذى يحمد به الناس **(جبلة أو مكتسبة)** الجبلة والغريزة والطبيعة والسليقة بمعنى، وهى بكسر الجيم والباء وتشديد اللام وتخفيفها. **(فحكى)** الإمام المفسر محمد بن جرير **(الطبرى عن بعض السلف أن الخلق الحسن)** الذى يجمع أكثر الطبائع المحمودة **(جبلة وغريزة)** خلقها الله **(فى العبد)** وتعبيره بالعبد إيماء إلى أن المطلوب منه تخلقه بأخلاق الله وسيده.

(وحكاية عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه والحسن) البصرى **(وبه قال هو)** أى ابن جرير صرح به لأنه لا يلزم من حكايته اعتقاده له. **(والصواب ما أصلناه)** أى قدمناه وجعلناه أصلا وقاعدة فيما مر من أن منها ما هو جبلة غير مكتسبة، ومنها ما هو مكتسب بالتعلم والرياضة، وقد تقدم الكلام عليه.

(وقد روى سعد) أى ابن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه **(عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال: كل الخلال)** بكسر الخاء المعجمة بوزن رجال جمع خلة بفتح الخاء

(١) البيت من الطويل، وهو للمتلمس فى ديوانه (ص١٤)، لسان العرب (٥١٢/١٢)، تاج العروس (كرم).

المعجمة وتشديد اللام وهى الخصلة والصفة. **(يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب)** وهو حديث صحيح رواه أحمد فى مسنده، والبيهقى فى شعب الإيمان، وابن أبى شيبة فى المصنف، عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه. ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت عن سعد مرفوعا وموقوفا. وقال الدارقطنى فى العلل: الموقوف أشبه. وعنه صلى الله تعالى عليه وسلم كما رواه الذهبى: «يطبع المؤمن على كل شىء إلا الخيانة والكذب»(١). والخيانة ضد الأمانة وهى تشمل أمورا كالسرقة، وإنكار الوديعة، وخيانة غيره بالنظر لزوجته ونحو ذلك. والكذب معروف يعنى أن هذين لا يكون طبيعة مخلوقة فى المؤمن مطلقا، لأن المؤمن جبلته وفطرته سليمة، وهاتين الخصلتين فى غاية القبح فلا يختار اتصافه بهما، وإن كانت هذه الخصلة تقتضى كفره، أو المراد المؤمن الكامل.

(وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه) قال السيوطى: رواه عنه سعيد بن منصور فى سننه. وابن جرير، وابن أبى حاتم. **(فى حديثه والجراة)** بوزن الجرعة وقد تنقل حركة الهمزة للراء وتحذف وهى الشجاعة أو أعم منها، ومقابلة ما أشار إليه بقوله: **(والجبن)** بضم الجيم والباء وتخفيف النون وتسكن باؤه كثيرا، وهو عدم الإقدام للخوف وضده الشجاعة، وأما الجبن المأكول فبتثقيل الباء والنون وقد تخفف فيكون كهذا، ولذا تملح القائل:

يقولون لى هل اجترأت لدى الوغى وكنت شديد البأس فى الضرب والطعن
فقلت دعونى قانعا بسلامتى فإنى ممن يأكل الخبز بالجبن

(غرائز يضعها الله تعالى حيث يشاء) وفى هذا وما قبله دليل لما صوبه، فإنه فيما قبله جعل الخيانة غير مطبوعة، وفى حديث عمر رضى الله عنه جعل الخيانة والجرأة غريزتين مطبوعتين، فدلا على ما ادعاه من أن منها ما هو طبيعى، ومنها ما هو غير طبيعى. **(وهذه الأخلاق المحمودة والخصال الشريفة كثيرة)** لا يمكن استيفاء أقسامها تفصيلا **(ولكنا نذكر أصولها)** التى تتضمن باقيها إجمالا. **(ولا نشير إلى جميعها)** إشارة لا تصريحا **(وتحقق وصفه صلى الله تعالى عليه وسلم بها إن شاء الله تعالى)** فإنه المقصود من ذكرها.

* * *

[فصل فى أصول الأخلاق]

(فصل: أما أصل فروعها)، هذا الفصل معقود لبيان أصول الأخلاق تصريحا، والإشارة إلى جميعها تلويحا، لتحقق وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بها، وضمير

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٥٥٢)، والبيهقى (١٠/١٩٧)، وابن عدى (١/٤٤).

فروعها للأخلاق المذكورة قبله، **(وعنصر)**، هو بضم الصاد وفتحها، والأول أشهر، والثانى أفصح، ومعناه: الأصل والمادة، والعناصر إذا أطلقت يراد بها التراب والماء والهواء والنار؛ لتركب جميع الأجساد منها، والينابيع فى قوله: **(ينابيعها)**، جمع ينبوع، وهو ما ينبع الماء منه، كالعين، وكل ما يتفجر منه الماء.

(ونقطة دائرتها)، والنقطة جزء من الخط، والسطح مركب من خطوط مسطحة، فإذا كان السطح مستديرا، يكون فى حلق وسطه نقطة جميع الخطوط الخارجة منها إلى الخط المستدير الذى يحيط بالسطح متساوية، فتلك النقطة تسمى مركزا، وذلك السطح يسمى دائرة، وكذا الخط المحيط به، ويصح إرادة كل منهما هنا، فشبه العقل الذى مبنى الأخلاق عليه بشجرة أصلها العقل، وفروعها الأخلاق، ونورها وثمراتها ما يظهر منها وينتفع به غيره، ثم شبهه بعين تلك الأخلاق، كمائها الفائض منها، ثم شبهه بنقطة فى الوسط المعتدل يتساوى جميع جوانبها، والأخلاق كسطح أو خط محيط بها، فقال: **(فالعقل)**، وهو مشتق، أى مأخوذ من عقله إذا شده، فمنعه من الحركة؛ لأنه يمنع صاحبه مما لا يليق، أو من المعقل، وهو الملجأ لالتجاء صاحبه إليه، وهو كما قال الراغب: يقال للقوى المتهيئة لقبول العلم، ويطلق على العلم المستفاد منه، ولذا قال على، كرم الله وجهه: «العقل عقلان، مطبوع ومسموع، ولا ينفع مطبوع إذا لم يكن مسموع، كما لا ينفع ضوء الشمس وضوء العين».

وفى الحديث: «ما كسب أحد شيئا أفضل من عقل يهديه إلى هدى، أو يرده عن ردى».

وقال بعض الحكماء: هو جوهر، وقال آخرون: جسم شفاف محله الدماغ أو القلب، والأصح أنه قوة نفسية هى منشأ الإدراك، وليس المراد به هنا العقل العاشر المسمى بالعقل الفعال كما قيل؛ لأن أهل الشرع لا يقولون بمثله.

وقوله: (الذى ينبعث منه)، أى ينشأ ويخرج، وهذا ناظر لكونه ينبوعا، وقوله: **(العلم والمعرفة)**، العلم يكون بمعنى مطلق الإدراك، وبمعنى إدراك الكليات، والمعرفة إدراك الجزئيات، وقيل: إنها ما سبق بالجهل، وقال البيضاوى: إنها تكون بمعنى العلم، كما أن العلم يكون بمعنى المعرفة، كما فى قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [الأنفال: ٦٠]، أى الله يعرفهم، والعلم بمعنى المعرفة.

قال الفاضل المحشى معترضا عليه: صرحوا بأن العلم بمعنى المعرفة لا يطلق على الله؛ لاقتضائه سبق الجهل، وتبع فيه السيد فى شرح المواقف فى قوله: علم الله لا يسمى

معرفة لا اصطلاحا ولا لغة إجماعا، وخطأه فيه الحافظ العراقى، رحمه الله تعالى، فى نكته على المنهاج، فقال: إن إمام الحرمين فسر العلم به.

وإطلاق المعرفة على الله ورد فى الحديث، وكلام الصحابة، وأهل اللغة، والمتكلمين. انتهى. فأى إجماع مخالف لهذا، ومثله عجيب من الشريف.

(ويتفرع) أى ينبنى ويظهر، ناظر لكونه أصلا، **(عن هذا)**، عداه بعن؛ لتضمين يتفرع معنى ينشأ، والمعروف تعديته بعلى، وهذا إشارة للأصل الذى هو العقل، **(ثقوب الرأى)**، أى نفاذ رأيه فيما يفكر فيه ويدرك به عواقب الأمور، ومنه كوكب ثاقب، أى مضىء، فقوله: **(وجودة الفطنة)**، وهى الحذق وسرعة الانتقال، **(والإصابة)**، أى موافقة الصواب فيه تفسير لثقوب الرأى، **(وصدق الظن)**، أى موافقته الواقع كاليقين، كما قال:

الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رآى وقد سمعا

(والنظر للعواقب)، أى كأنه ينظر عواقب الأمور ويشاهدها، كما قال:

وإنى لأرجو الله حتى كأنما أرى بجميل الظن ما الله صانع

(ومصالح النفس)، مجرور معطوف على العواقب، أو مرفوع معطوف على ثقوب الرأى، أى ما فيه صلاح وخير لها، **(ومجاهدة الشهوة)**، أى مدافعتها وممانعتها عما تريده، فإنه جهاد أكبر، وأعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك، **(وحسن السياسة)** بغيره بأمره، من ساسه إذا حكم عليه، وهو لفظ عربى لقوله:

وكنا نسوس الناس والأمر أمرنا

وليس معربا كما توهمه ابن كمال فى رسالة التعريب كما مر بيانه، **(والتدبير)**، النظر فى إدبار الأمور وعواقبها، وهو عطف تفسير لما قبله أيضا **(واقتناء الفضائل)**، أى اكتسابها والتحلى بها، **(وتجنب الرذائل)**، أى ترك كل ما يلزم وينقص به الإنسان، كالكذب والخيانة.

(وقد أشرنا)، أى ذكرنا فيما تقدم فيما أوردناه فى صفاته والإشارة، وإن كانت تطلق على ما يقابل العبارة، قد يراد بها العبارة أيضا لنكتة، **(إلى مكانه منه، عليه الصلاة والسلام)**، الضمير الأول له، صلى الله تعالى عليه وسلم، والثانى للعقل، والمكان الرتبة المعنوية فى الفضائل، يقولون: فلان بمكان من الفضل، يريدون علو رتبته فيه، وقيل: المراد مكانه من العقل، بمعنى أنه حائز، وله مالك لأمره على طريقة التجريد، مبالغة فى تمكنه منه، **ولا** يخفى ما فيه من التكلف من غير داع له، **(وبلوغه منه ومن العلم الغاية**

التي لم يبلغها بشر سواه)، كما سنبينه، **(وإذ جلالة محله من ذلك)**، قيل: الظرف متعلق بقوله: حارت العقول الآتي في آخر الفصل، أي حارت العقول وقت حلوله إلى آخره، و«إذ» تعليلية، أي حارت العقول لأجل... إلخ.

وقيل: أنه علة للإشارة إلى مكانه منه وبلوغه غايته، أي من أجل أن جلالة محله... إلخ، و«إذ» تعليلية كما في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ [الزخرف: ٣٩]، وقيل: المعنى من أجل أن جلالة محله متحقق يجب اعتقاد ذلك، ويجوز أن يكون ذلك لمجرد التحقق، ولا يخفى ما في هذا كله من التكلف، والذي ظهر لي أنه معطوف على ما قبله؛ لأنه يعلم من إشارته إلى مكان منه لم يبلغه غيره علو ظاهر فيه، فكأنه قال: إذ علو قدره فيه محسوس مشاهدته، وإذ جلالة محله أمر متحقق بالدليل القاطع، فاستدل عليه بالحس والعقل، ومثله يسمى العطف على المعنى، وهو في القرآن وكلام العرب متداول، قال ناظر الجيش في شرح التسهيل في قوله(١):

أجدك لن ترى بثعيلبات ... ولا بيدان ناجية ذمولا
ولا متدارك والليل طفل ... ببعض نواشغ الوادي حمولا

متدارك بالجر؛ لأن المعنى لست براء ولا متدارك، وجعله أبو حيان من العطف على التوهم، كقوله(٢):

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ... ولا ناعبا إلا ببين غرابها

والأولى أنه من العطف على المعنى، وفرق بينه وبين العطف على التوهم، وفيه كلام، وقد بيناه في نكت المغني.

وقوله: «من ذلك» إشارة للأصل، ولو سلمنا صحة تعلقه بقوله: حارت، كان معطوفا على ما قبله، ولا وجه له، **(وما يتفرع منه)**، من الأخلاق الشريفة وثمراتها، **(متحقق)** لا ريب فيه؛ لتواتره بحسب المعنى **(عند من تتبع)**، أي علم، فعبر بالسبب عن مسببه، كما قالوه في تتبع خواص التراكيب، **(مجاري أحواله)**، جمع مجرى أو مجرى بالضم، وأصله مسيل الماء، والمراد ما جرت به عادته في أحواله، ولا يخفى لطفه مع ملاحظة قوله أولا: ينابيعها، فإنه جار على مجراها ومنحدر إليها، **(واطراد سيره)**، الاطراد افتعال من الطرد، وهو الجري خلف شيء من صيد أو غيره، ومنه مطاردة

---

(١) البيتان من الوافر، وهما للمرار بن سعيد في ديوانه (ص٤٧٥).

(٢) البيت من الطويل، وهو للأحوص الرياحي في الإنصاف (ص١٩٣)، الحيوان (٣/٤٣١)، خزانة الأدب (٤/١٥٨)، شرح المفصل (٢/٥٢)، شرح أبيات سيبويه (١/٧٤).

الفرسان فى الميدان، ومناسبته للسير، وإن كان المراد بها مطلق الصفات؛ لأنها تختص بالغزوات، وقيل: المراد محال اطرادها؛ ليوافق قوله: مجارى أحواله، أى محال جريانها، والاطراد مصدر أطرد الشىء، تبع بعضه بعضا فجرى، والأنهار تطرد، أى تجرى، ومنه الاطراد البديعى لسرد أسماء الممدوح وإبانة مرتبته، والمعنى جرى سيره فى جداول الكتب منسجمة، فهو استعارة وجه الشبه فيها الكثرة، ولا يخفى ما فيه من البعد، **(وطالع جوامع كلامه)**، أما جمع جامع، والمراد الكتب الجامعة للحديث الشريف، أو كلماته الجامعة للحكم التى تتحير فيها عقول البلغاء والحكماء، **(وحسن شمائله)**، بالجر معطوف على كلامه، وهى جمع شمال، بمعنى الخلق والصفة، قال:

فما لمؤمن أحد من شماليا

أى من خلقى وعادتى.

(وبدائع سيره)، أى سيره البديعة، وينبغى أن يراد بها كتب، حتى لا يكون مكررا مع ما مر، **(وحكم حديثه)**، بكسر الحاء، وفتح الكاف، وهى القول المصيب غرض الحق، والحديث معروف، **(وعلمه بما فى التورة والإنجيل والكتب المنزلة)**، بالتشديد والتخفيف على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، كالزبر والصحف، أى على علمه بذلك، والتوراة أجل الكتب المنزلة قبل القرآن، وأصلها «وورية»، أبدلت الواو تاء، ووزنها تفعلة، بفتح العين أو كسرها، وقيل: وزنها فوعلة، والإنجيل بالكسر، وقد تفتح، من النجل، وهذا أمر تقديرى ليجرى عليه أحكام الألفاظ العربية، إذا الاشتقاق لا يجرى فى غير كلام العرب، **(وحكم الحكماء)**، جمع حكمة، أى ما لهم من الحكم فى كلامهم، فإنهم كان لهم اعتناء بذلك، وقد مر أنه جمعها ابن مشكويه فى كتاب كبير سماه جادان خردن، وقد طالعته فرأيت أكثره ورد فى الأحاديث الشريفة، ولكن أين الثريا من الثرى؟ فإن رونق الألفاظ النبوية لا يمكن مضاهاته، **(وسير الأمم الخالية)**، أى ما وقع فى زمنهم من الأحوال كما كان ﷺ يحدث عن بنى إسرائيل، وما كان من عجائبهم **(وأيامها)**، أى وقائعها فى حروبها ومجادلاتها، فإن الأيام شاعت بهذا المعنى، كما يقال: يوم حليمة، ويوم بعاث، وهو إطلاق شائع صار حقيقة فيه، ومما قلته مشيرا لهذا المعنى:

تمنيت من دهرى زمان نشأتى زمان به طيف السرور كأحلامى
فجاء بأيام على أثر ما مضى ولكن حروب قد تسمت بأيام

(وضرب الأمثال)، الأمثال جمع مثل، وهو كلام شبه مضربه بمورده الذى وقع فيه

أولا، مستعار من ضرب الخاتم أو اللبن، كما حققه أهل المعانى والتفسير، وهو مما يعتنى به البلغاء لكشف المعنى الممثل له وإبرازه فى صورة المشاهد إلى غير ذلك، والأمثال النبوية أفردت بالتأليف، **(وسياسات الأنام)**، السياسة ضبط أمور العامة باللسان والسنان وتدبير أحوالهم، وليس المراد حسن المداراة، كما قاله التلمسانى، والأنام الخلق، وقيل: الأنام عبارة عما يعتريه النوم، أو الإنس، أو الجن، أو ما على الأرض من الخلق، فيختلف بحسب ما يضاف إليه، **(وتقرير الشرائع)**، أى بيان ما يتعلق بأحكام الشرع فى المعاملات وغيرها، **(وتأصيل الآداب النفيسة)**، أى بيان أصول الآداب التى تتأدب بها الناس فى مجالسهم ومحاوراتهم، كقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أكرموا عزيز كل قوم»، ونهيه عن الملاحاة والمجادلة كما مر، وقوله: **(تهادوا تحابوا)**، وسماها نفيسة؛ لأنها مما يتنافس فيها المتنافسون، **(والشيم الحميدة)**، جمع شيمة، وهى العادة، قالوا: الإنصاف من شيم الأشراف، أى عاداتهم، والحميدة بمعنى المحمودة، مضموما ما ذكر، **(إلى فنون العلم)** التى كانت فى الأمم السالفة، كالطب وغيره؛ لما لم ينه الشرع عنه، **(التى اتخذ أهلها كلامه، عليه الصلاة السلام، فيها قدوة)**، اقتدوا به فيها، واستدلوا به عليها، **(وإشاراته)** فى أثناء كلامه بها **(حجة)**، دليلا عليها **(كالعبارة)**، بفتح العين بضبط القلم، والمحفوظ فيه كسرها، كما قاله البرهان الحلبى، وذكره الأزهرى الجوهرى، إلا أنه لم يضبطه، والذى فى النسخ كسر العين، بمعنى تفسير الرؤيا، وهو على قسمين فى الرؤيا الصحيحة؛ لأنها على ثلاثة أقسام، رؤيا ظلمة من الشيطان، ومن عوارض بدن الإنسان، كمن غلبت عليه الحرارة فرأى نارا توقد عنده، أو البرودة فرأى ماء وبحرا، أو أكل مأكل غليظة سوداوية كالباذنجان فرأى سوادا، ويسمى أضغاث أحلام، ولا تأويل لها، وكذا من غلب فكره فى شىء فرآه، كما قال المعرى:

إلى الله أشكو أننى كل ليلة ... إذا نمت لم أعدم خواطر أوهامى
فإن كان شرا فهو لابد واقع ... وإن كان خيرا فهو أضغاث أحلام

ورؤيا من الله يريها له ملك الرؤيا عند أهل الشرع، أو تدركها الروح إذا انقطعت عنها علائق البدن واتصلت بالملأ الأعلى، فتلقيها إلى القوة المتخيلة، فترتسم فى الحافظة، وتبقى مشاهدة فيها حتى يستيقظ، فإن كانت النفس قدسية والقوى قوية، وقع ما رأته بعينه، ولم يحتج للتأويل، وهو الأكثر فى رؤيا الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ومن كان على سننهم، ولذا أراد الخليل، عليه الصلاة والسلام، ذبح ابنه، ولم يأول رؤياه بالفداء، حتى أمره الله تعالى به، وإلا فتأول بما يناسبه معنى أو لفظا أو محاكية صورة.

وفعلها «عبر» بالتخفيف، يعبر بالضم، عبارة بالفتح، كعلاقة وظلامة، أو عبارة

كرسالة، وقد تشدد فيقال: عبر تعبيرا، قال فى الكشاف فى سورة يوسف: رأيتهم ينكرون عبرت بالتشديد والتعبير والمعبر، وقد عثرت على بيت أنشده المبرد فى الكامل يدل عليه، وهو(١):

رأيت رؤيا ثم عبرتها وكنت للأحلام عبارا

انتهى.

هذا ما ذكره من يوثق به فى اللغة كالجوهرى، وصاحب القاموس وغيره، وقال فى عمدة الحفاظ: العبارة بكسر العين تختص بالكلام؛ لعبور الهواء من لسان المتكلم لسمع السامع، ولا يستعمل فى تفسير الرؤيا، يعنى أنها فيه مفتوحة لا غير، فتوهم بعض الشراح أنها بكسر العين لا غير، وأنه أنكر هذا اللفظ مطلقا وأساء سمعا، فساء ما جاء به، ثم جاء من بعده، فضاربه مضاربة العميان، فقال: إنه كلام ضعيف مردود، فلم يقف على المراد، ولم يأت بما يدفع الإيراد، فأخطأ فى المعنى والعبارة، وأما تحقيق معنى الرؤيا، فليس هذا محله، ولعل النوبة تفضى إليه فى بحث النبوة، وقد أفردنا له تعليقة، **(والطب)**، وهو مثلث الطاء، إلا أنه لم يستعمل فيما نحن فيه إلا بالكسر، والمراد به علم يتعلق ببدن الإنسان من حيث الصحة والمرض، وهو من علوم الأوائل، وللعرب به اعتناء، وقد أفرد الطب النبوى بالتأليف.

(والحساب)، بكسر الحاء، مصدر حسب، بمعنى عد، ثم صار علما لعلم يعرف به أحوال المقادير، وهو من العلوم الرياضية القديمة، **(والفرائض)**، ذكره بعد الحساب؛ لتوقفه عليه، وهو علم يعرف به أحوال المواريث، وهو جمع فريضة بمعنى مفروضة؛ لأن الله فرضه، وهو من العلوم الإسلامية، وإطلاق هذا اللفظ عليه بعد نزول القرآن، ومعناه ظاهر، **(والنسب)**، أى معرفة أنساب الناس من آدم، عليه الصلاة والسلام، إلى كل عصر، وهو من علم التاريخ، وكانت العرب تعتنى به، وهو أعلم الناس به، وأعلم الناس به بعد النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، الصديق، رضى الله تعالى عنه، وهو من نسبت الرجل، إذا عزوته لأبيه، ومناسبته للفرائض ظاهرة، وهذه العلوم كلها شرعية وفرض كفاية، لاسيما الفرائض والأنساب، فإن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أمر بالمحافظة عليها، ولعن من انتسب لغير نسبه، فقال: «من خرج من نسبه وانتمى لغير قبيلته، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»، كما نقله التلمسانى، **(وغير ذلك مما سنبينه فى معجزاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى أبوابه إن شاء الله تعالى)**، وقد حصل له، عليه

(١) البيت من السريع، وهو لأعرابى فى الكامل (ص٥٦٣)، وبلا نسبة فى تاج العروس (٥١٢/١٢).

السلام، ذلك **(دون تعليم)** من أحد من البشر، والظرف متعلق بقوله: علمه السابق، **(ولا مدارسة)**، من درس الكتاب إذا قرأه وحفظه، أى لم يعرف بأخذه من الأفواه، وحفظه لشىء من العلوم عن غيره، **(ولا مطالعة كتب)**، يقال: طالعت الشىء إذا اطلعت عليه، أى لم يطلع على شىء من الكتب بقراءتها أو سماعها؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان أميا بين قوم أميين، لم يره أحد قرأ ولا تعلم ممن قرأ، واستعمال المطالعة بمعنى القراءة، وهو مجاز مشهور قريب من معناه اللغوى، **(من تقدم)**، ككتب الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، والحكماء، **(ولا الجلوس إلى علمائهم)**، أى لم يعرف أحد أنه جلس عند أحد ممن يعلم كتب من تقدم ليأخذها عنه، والضمير لمن باعتبار المعنى، فكل ذلك الذى حصل له، صلى الله تعالى عليه وسلم، إنما هو علم لدنى غير مكتسب من أحد من البشر.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، ففيه الرد على قولهم المذكور بأنه كذب محض، يشهد العيان ببطلانه، وقد تولى الله تكذيبهم فى ذلك، كما هو مبسوط فى التفسير، **(بل)** هو، صلى الله تعالى عليه وسلم، نبى أمى لم يعرف بشىء من ذلك التعلم والمدارسة والمطالعة والمجالسة، أى منبئ عن الله، أو منبئا لا عن مخلوق، والأمى منسوب إلى الأم؛ لأنه كيوم ولدته أمه، أو إلى أم القرى، أو أمة العرب؛ لأن القراءة والكتابة كانت عزيزة فيهم، والأمى الذى لا يكتب ولا يقرأ الكتب، وقيل: هو الذى لا يكتب، وبما شرحناه علمت مناسبة ذكر النبى هو، وفى الحديث: «إنا أمة أمية، لا نحسب، ولا نكتب»(١)، أى على جبلتنا، لم نتعلم حسابا ولا كتابة، فلا ينافى ما مر من علمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالحساب، **(حتى شرح الله صدره)**، أى وسعه ونوره بالعلم والحكمة، وهداه لكل خفى من العلوم، **(وأبان أمره)**، أى أظهر أمره فى العلم للناس بآياته الظاهرة، ومعجزاته الباهرة، وإقامته الحجج المتواترة، **(علمه)** من لدنه العلوم المعهودة وغيرها، **(وقرأه)**، أى أقدره على القراءة بما ألقاه، أو بما أوحاه إليه بواسطة الملك، والإسناد مجازى، أو التجوز فى الظرف، كقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]، **(يعلم)** بالبناء للمجهول، **(ذلك)**، أى ما بلغه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من العقل والعلم من غير تعلم، **(بالمطالعة)**، أى بالاطلاع على سيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشمائله من كتب الحديث، **(والبحث عن حاله)**، وفى نسخة: من حاله، والظاهر الأول؛ لتعديه بعن، وهو بمعنى التفتيش عنه بالسؤال وغيره، **(ضرورة)**، منصوب بنزع خافض متعلق بيعلم، أى من وقف على أحواله، صلى الله

(١) أخرجه مسلم (١٥/١٠٨٠)، وأبو داود (٢٣١٩)، والنسائى (١٣٩/٥)، وأحمد (٤٣/٢، ٥٢).

تعالى عليه وسلم، علم ذلك بمجرد التفات الذهن إليه من غير احتياج إلى دليل.

(وبالبرهان القاطع على نبوته ﷺ نظرا)، أى ويعلم ذلك أيضا بالبراهين القاطعة الدالة على نبوته لمن نظر فيها، فقوله: بالبرهان، معطوف على قوله: ضرورة، وعلى نبوته حال من البرهان، ونظرا تمييز، والنظر أصله تقليب البصر للإدراك، ثم استعمل فى التأمل والفحص والمعرفة الحاصلة منه والاستدلال، وهو المراد هنا، أى من نظر فى دلائل نبوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، علم قوة عقله، وأنه أحاط بعلوم لا نهاية لها.

(فلا نطول بسرد الأقاصيص)، السرد تعداد أمور من القصص ونحوها متتابعة متوالية، مستعار من سرد حلق الدرع وخيوط النسخ، والأقاصيص جمع أقصوصة، كأعجوبة، بمعنى قصة، أو جمع قصص، على خلاف القياس كما قاله التلمسانى، يقال: قص واقتص، بمعنى أخبر، والقصص اسم مصدر، وقيل: إنه يحتمل أن يكون جمع أقصاص، جمع قصص، كأنعام وأناعيم فى جمع نعم، إلا أنهم تركوا استعمال أقصاص، فإنه لم يسمع، وفيه تكلف لا يخفى، **(وآحاد القضايا)**، أحاد بمد الهمزة، جمع أحد، بمعنى مفرداتها.

وفى العباب: سئل أبو العباس عن الآحاد، هل هو جمع الأحد؟ فقال: معاذ الله، ليس للأحد جمع، ولكن إن جعلتها جمع الواحد فهو محتمل، كشاهد وأشهاد، وليس للواحد تثنية ولا للاثنين، وأحد من جنسه. انتهى. والقضايا جمع قضية، وهى الجملة من الكلام الدالة على معنى من الأحكام، وهى قريبة من قول أهل الميزان: القول المحتمل للصدق والكذب كالخبر، فهى أخص من الكلام والجملة، ووزنها فعالى عند الكوفيين، وفعائل عند البصريين، **(إذ مجموعها)**، أى جميع قصصه وقضاياه، **(ما لا يأخذه حصر)**، أى ضبط، وأصل معنى الأخذ حوز الشىء وتحصيله، ثم استعمل بمعنى الغلبة والقهر، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]،كما مر، وهذا هو المراد هنا، وجعل مجازا أو كناية عن أنه لا يمكن حصره، وكذا قوله: **(ولا يحيط به حفظ جامع)**، أى لا يحفظ، والإحاطة الأخذ بجوانب الشىء، وأريد به ما ذكر، **(وبحسب عقله)**. قال البرهان: هو فى الأصل بسكون السين، وينبغى أن يفتح، أى بقدر عقله وإدراكه، وقد جوز فيه السكون، لكنه ضرورة، والذى فى القاموس: هذا بحسب ذا، أى بعدده، وقد تسكن، و لم يخصه بالضرورة، **(كانت معارفه، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، جمع معرفة، أى علومه، **(إلى سائر ما علمه الله وأطلعه عليه من علم ما يكون وما كان)**، أى مضمومة إلى جميع ما أو باقى ما أطلعه الله عليه مما تقدم فى الكون من أحوال الأمم الخالية وكتبهم وشرائعهم، وما أطلعه الله عليه من المغيبات التى ستأتى، ولما كانت جلالة قدره

بواسطة علمه بما يكون أقوى منها بواسطة علمه بما كان، قدم ما يكون فى المستقبل على ما كان فى الماضى، مع سبقه اهتماما بشأنه، ومقتضى الترتيب العكس، (**وعجائب قدرته، وعظيم ملكوته**)، مجرور معطوف على علم، والمراد ما أطلعه الله عليه فى الإسراء من خلق الملائكة والسموات، وإقداره على ذلك فى برهة من الزمن، وقد مر أن الملكوت مبالغة فى الملك، كالرحموت والجبروت، ويطلق ويراد به عالم الأمر، ويقابله الملك، (**قال الله تعالى**): ﴿**وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١١٣]، أى علمك ما لم يكن من شأنك وفى قدرتك علمه، كالمغيبات، والإطلاع على أحوال الملكوت، ولذا امتن عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأنه فضل عظيم، فضله به على مخلوقاته تعالى؛ لأنه كقولهم: ما يكون لك أن تفعل كذا، أى لا ينبغى ولا يليق أو لا يصح ولا يمكن، ولذا ختم الآية بهذه المنة، دون قوله فى الآية الأخرى: ﴿**عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق: ٥]، إلا أنه يبقى السؤال حينئذ على الآية الثانية بأنه: أى فائدة فى ذكر هذا المفعول، والتعليم معلوم أنه لا يكون إلا لغير المعلوم، وقال فى عروس الأفراح بعدما ذكر أن لم النافية يجوز فيها اتصال النفى وانفصاله، وأنهما اجتمعا فى قوله: ﴿**وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ**﴾ [الأنعام: ٩١]، وفائدة ذكر المفعول فى قوله تعالى: ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ**﴾ [النساء: ١١٣]، فإن كان الإنسان لا يعلم إلا ما لا يعلم التصريح بذكر حالة الجهل التى انتقلوا عنها، فإنه أوضح فى الامتنان. انتهى.

وفى حاشية السيرامى على المطول، أن الشارح قال فى بعض دروسه الأولى: أن يقول ما لم يكن يعلم، كما فى قوله تعالى: ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ**﴾ [النساء: ١١٣]، إذ لا فائدة فى ذكر المفعول، إذ التعليم إنما يكون لما لم يعلم، ولم يكن فيه إشعار بأنه لو لم يعلمه لم يحصل العلم؛ لخفائه على غير علام الغيوب، وهو بعيد، إذ ربما يتوهم حصوله من تعليمه تعالى، ورد بأنه كقوله تعالى: ﴿**عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق: ٥] الآية.

فالأولى أن يحمل ذكره على إفادة العموم؛ لأنه لئلا يتوهم اختصاصه ببعض الأفراد، كقوله: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ**﴾ [الأنعام: ٣٨]، للتأكيد فتذكر، لكن قوله: من البيان، يأباه ويحتمل أنه ذكر للسجع. انتهى.

أقول: هذا كله كلام سطحى، والذى ظهر لى فى الآية أن جملة علم الإنسان مفسرة للصلة، وما الموصولة عبارة عن الكتابة والقراءة، فإنه لما قال له، صلى الله تعالى عليه وسلم: اقرأ، فقال: «ما أنا بقارئ»، سواء أريد النفى أو الاستفهام، قال له: كيف لا

تقرأ ولك رب أكرم تفضل على عباده بنعم من أجلها أن كل إنسان كان أميا مثلك فى ابتداء أمره فعلمه الكتابة وقراءتها بالهامة، فكيف لا يعلمك وأنت أعزهم عليه وأقواهم بصيرة، فأى فائدة أتم من هذه، وكل فعل معتد يدل على فاعل ومفعول ثان التزاما، ولذا لم يفد ضرب ضارب، وضرب المضروب، فإن أريد عموم أو خصوص أفاد، وهنا علم أنه لو قال: ما لم تكن تعلم، أو عقبه بما عقب به تلك الآية، لم يصادف محزه، وما قيل من أنه لم يذكر الكون فى هذه الآية الكريمة وذكره ثمة؛ لأنه ورد فى مقام خال عن اعتبار القوة والاجتهاد، فلا يناسبه ذكر الكون المؤذن بهما بخلاف تلك، ويؤيده قول الكرمانى فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ**﴾ [البقرة: ١٤٣]: إن كان، ذكرت للتأكيد؛ لأن معناه كما فى الكشاف: ما صح، ويعنى به نفى إمكان الإضاعة، وهو أبلغ من نفى الإضاعة نفسها، ومنه يعلم السر فى أنه أردف قوله: ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ**﴾ [النساء: ١١٣] بقوله: ﴿**وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١١٣]، ولم يردف هذه به؛ لما فى الأول من المبالغة والتأكيد. انتهى.

وقد علمت ما فيه مما تقدم، وقوله: (**حارت العقول فى تقدير فضله عليه**)، المذكور فى هذه الآية؛ لأنه لا يمكن الوقوف عليه، ولذا وصفه بأنه عظيم ونكره، وما يكون عنده تعالى عظيما، كيف يعلمه سواه، (**وخرست الألسن دون وصف يحيط بذلك**) الفضل، وما لا يدرك كيف يوصف، وفى قوله: «خرست» دون سكتت وصمتت مبالغة؛ لأنه يقتضى سلب القوة الناطقة، ثم ترقى، فقال: (**أو ينتهى إليه**)، أى كيف يحيط بما لم يصل إليه.

* * *

(فصل وأما الحلم)

أى حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب وعدم إظهاره، (**والاحتمال**)، هو افتعال من الحمل، وهو يكون على الظهر وفى البطن، ففرق بينهما لفظا، ثم استعمل فى التكليف، كقوله تعالى: ﴿**وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ**﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وللصبر على المكاره وعدم التأثر منها، كما فى: «الماء لا يحمل الخبث»، وهو المراد هنا، (**والعفو**) عدم المؤاخذة بالذنب ونحوه، وهو قريب من المغفرة، وبينهما فرق تقدم، (**مع القدرة**)، وفى نسخة: المقدرة، بفتح الدال وضمها، وميم مفتوحة مصدر ميمى بمعنى القدرة، ومن كلامهم: القدرة تذهب الحفيظة، أى الغضب والحمية، (**والصبر على ما يكره**)، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، من هذا بمرتبة لا تدرك، (**وبين هذه الألقاب**)، أى بين مسميات هذه الألقاب، (**فرق**) يتميز بها عن غيره،

واحتاجت إلى الفرق لتقارب معانيها، والمراد باللقب اللفظ الجامد الدال على صفة لا ما اصطلح عليه النحاة، وهو كما قال الراغب: اسم يسمى به الإنسان غير اسمه الأول، ويراعى فيه المعنى بخلاف الإعلام، **(فإن الحلم حالة توقر)**، بفتح المثناة الفوقية، وضم القاف المشددة، أى إظهار الوقار، وهو السكون، يقال: هو وقور ووقار متوقر، أى ساكن غير مضطرب، **(وثبات عند الأسباب المحركات)** كالغضب، قيل: ولابد من اعتبار كون هذا لسهولة حتى يخرج التحكم، وإن كان بعد الاعتياد يصير كذلك، **(والاحتمال حبس النفس عند)** ورود ما يعتريها من **(الآلام)**، بمد الهمزة، جمع ألم، وهو ما يؤلم فى أى عضو كان، **(والمؤذيات)**، بالهمزة، والواو، الذال المعجمة، جمع مؤذية، ولأذى كل ما يتأذى به، والمراد بحبس النفس ضبطها حتى تخضع لسلطان العقل وتطمئن لما يأمرها به، وفى نسخة العرفى رواية كما التلمسانى، المرديات بالراء، والدال المهملتين، من الردى، بمعنى الهلاك، **(ومثلها)** قيل: المراد مثل المذكورات، وقيل: المراد مثل الاحتمال، وأنث ضميره باعتبار أنه حال، ولو قال: ومثله كان أحسن، وأسلم من التكلف، **(الصبر)**، فإن معناه لغة الحبس، ومنه قتله صبرا، إذا مسكه ليقتله فى غير قتال، وهذا يؤيد إرجاع الضمير للاحتمال، **(ومعانيها متقاربة)**. قال الراغب: الصبر الإمساك فى ضيق وحبس عما يقتضيه العقل أو الشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه، فالصبر لفظ عام، وربما خولف بين أسماءه بسبب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النفس لمصيبة سمى صبرا لا غير، ويضاده الجزع، وإن كان فى محاربة سمى شجاعة، ويضاده الجبن، وإن فى نائبة تضجره، سمى رحب الصدر، ويضاده الضجر، وإن كان فى الكلام سمى كتمانا، ويضاده الذله. انتهى.

ومنه تعلم أن له معنيان خاص وعام، فلو حمله المصنف على الخاص، غاير أخويه، وهو الأول.

(وأما العفو، فهو ترك المؤاخذة)، بالهمزة وبالواو، غير فصيحة، وهى الجزاء على ما فعل غيره، قيل: وفى تفسيره بالترك إشعار بأنه لا يكون إلا عن قدرة؛ لأن من لا يقدر عادم لا تارك، فتقييده به أولا للأكيد كنظر بعينه، كقوله:

وإن فى الحلم ذلا أنت عارفه ... والحلم عن قدرة فضل من الكرم

لأنه إن لم يكن عن مقدرة فهو عجز، وما أحسن قول ابن زيدون:

أرى الدهر أن يبطش فمنك يمينه ... وإن تبسم الدنيا فأنت لها ثغر
عطاء ولا من وحكم ولا هوى ... وحلم ولا عجز وعز ولا كبر

(وهذا كله مما أدب الله به نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم)، أى آداب ومحاسن علمها الله لنبيه ﷺ، وأرشده بعدما خلق فيه استعدادا تاما لها، كما قال: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»(١)، وهو أحد الحكم فى كونه ﷺ تربى يتيما، حتى يعلم أن ربه مربيه من غير حاجة لأمه وأبيه، فقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩] الآية، وتمامها ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وهذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق، أى تعاط العفو عن الناس، وترك مؤاخذتهم، وفى عدوله عن أعف الأظهر الأخصر نكتة يعرفها من له إلمام بالأدب، كما أن فى قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ دون عمل، إشارة إلى أنه متصف به مركوز فى جبلته، ومن تأمل مثله استخرج منها فوائد لا تحصى، ومنهم من فسر العفو بالمساهلة وترك المؤاخذة، والبحث عن مذام الأخلاق، فأمره بأخذ ما سهل من أخلاق الناس وأفعالهم من غير كلفة وطلب، لما يشق، واعترض عليه بأنه غير مناسب لقوله، **(وروى أن النبى ﷺ لما نزلت عليه هذه الآية)**، وهذا الحديث، كما قاله السيوطى: رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم، وأبو الشيخ فى تفاسيرهم، وابن أبى الدنيا فى مكارم الأخلاق، ووصله ابن مردويه من حديث جابر، رضى الله تعالى عنه، وعزاه الشيخ قاسم للبخارى، عن عبد الله بن الزبير فى قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ إلى آخره، أنه قال: ما أنزل الله هذه الآية إلا فى أخلاق الناس، وله فى رواية أخرى تعليقا عن عبد الله، قال: أمر الله تعالى نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يأخذ العفو من أقوال الناس، أو من أخلاق الناس.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، أى عن معايبهم ولا تمارهم، فإن كان شاملا لمداراة الكفار، فهو منسوخ بآية السيف، وإن كان أمرا بمكارم الأخلاق وعدم مقابلة من سفه، فليست منسوخة، قيل: ويعين هذا ما رواه البخارى من أن عيينة بن حصين استأذن له الحر بن قيس من عمر، رضى الله تعالى عنه، فى الدخول فدخل عليه، وقال له: يا ابن الخطاب، أما تعطينا الجزل، وتحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر، رضى الله تعالى عنه، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله عز وجل قال لنبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ الآية، وإن هذا من الجاهلين، فما جاوزها عمر رضى الله تعالى عنه، وكان وقافا عند كتاب الله، فهذا يدل على أنها غير منسوخة، وليس كما قال، فإنه يجوز أن يكون استشهد بها؛ لشمولها غير الكفار، لا أن هذا هو معناها فقط، **(سأل)** النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(جبريل)**، عليه الصلاة والسلام، **(عن تأويلها)**، أى تفسيرها وبيان المراد منها، فإنه أحد معنيى التأويل، فقال له: **(حتى**

---

(١) انظر: الفوائد المجموعة (٣٢٧)، تذكرة الموضوعات (٨٧)، كشف الخفا (٧٢/١).

أسأل العالم)، يعنى الله عز وجل، والعالم كالعليم من أسماء الله تعالى، ويوصف بهما غيره تعالى، أما الأول فظاهر، وأما الثانى فى حق الله فظاهر، وأما فى غيره، فكقوله[1]:

فإن تسألونى بالنساء فإننى عليم بأدواء النساء طبيب

والثانى فى حق الله تعالى أشهر، وقيل: المراد العالم الكامل فى العلم، كما فى قوله: (**ذلك الكتاب**)، فيختص به، فإنه مساو بهذا المعنى للعليم، وأما العليم، فإطلاقه على غير الله لم يسمع، والشعر المذكور لابن الوردى، وهو من المتأخرين، لا يستدل به، وهذا الحديث يكفى شاهدا لإطلاق العالم على الله، فهو كاف فى ثبوته.

أقول: هذا عجيب من مثله، وفيه من الخلط ما لا يخفى، أما قوله: إن الشعر المذكور لابن الوردى، فافتراء عليه؛ لأنه شعر فصيح لبعض العرب، وهو مذكور فى الشواهد، وأما استدلاله على العالم بالحديث، وهو مذكور فى القرآن، كقوله: ﴿**عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ**﴾ [الأنعام: ٧٣]، فمما يقضى منه العجب، وأما قول جبريل، عليه الصلاة والسلام: حتى أسأل العالم، دون أسأل الله، فكأنه تأدب منه؛ لإيهام أنه لا يسأل الله بالذات، فكان بينه وبينه واسطة، أى من هو عالم بالتفسير، وفيه إرشاد لمن سئل عن شىء لاسيما القرآن، فينبغى أن يثبت فيه.

وفى جبريل تسع لغات: جبريل، بكسر الجيم، وجبريل، بالفتح، وجبرئل، بالفتح مهموزا مشدد اللام، وجبرائل بهمزة بعد الألف، وجبرئل مفتوحا بهمزة بلا ألف وياء، وجبرئيل، وجبرين بنون وفتح الجيم وكسرها، وفيه لغات أخرى. وقال الجوهرى والأزهرى وكثير من المفسرين فى جبرئيل وميكائيل: إن جبر وميك معناهما عبد وئيل وإل اسم الله. وقال أبو على الفارسى: هذا خطأ؛ لأن ال لم يذكر أحد أنه من أسماء الله تعالى، ولأنه لو كان كذلك كان عبد الله يلزم آخره حالة واحدة، ولا يعرب بحسب العوامل. قال النووى: وهو الصواب، ولا يخفى ما فيه، فإن الْ إذا كان اسما لله، فهو سريانى، فلا يأباه عدم معرفة العرب له، وأما إعرابه، فلأنه لما عرب غير عما كان عليه، وجعل اسما واحدا، ولذا أرجعوه لأوزانهم، والعرف هو الخصال المحمودة، لا العرف الشرعى كما توهم، (**فأتاه**)، الفاء فصيحة، أى انفصل عنه وفارقه، ثم أتاه، (**فقال: يا محمد، إن الله يأمرك أن تصل من قطعك**)، الظاهر أن المراد به صلة الرحم، والرحم بمعنى القرابة، وصلتهم بالإحسان إليهم وفعل الجميل وقوله، كالهدية، والزيارة، وإرسال

---

(١) البيت من الطويل، وهو لعلقمة الفحل فى ديوانه (ص٣٥)، أدب الكاتب (ص٥٠٨)، الأزهية (ص٢٨٤)، الجنى الدانى (ص٤١)، الدرر (١٠٥/٤)، المقاصد النحوية (١٦/٣)، **همع الهوامع** (٢٢/٢).

السلام، ونحو ذلك، وضده قطع الرحم، ويحتمل التعميم لتعليم الخلق، وترك التهاجر المنهى عنه، كما فى قوله: **(وتعطى من حرمك)**، يقال: حرمه وأحرمه بمعنى، أى أحسن إلى من لم يحسن إليك، وهذا إرشاد له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولأمته، وإن كان لا يرجو غير الله وإحسانه، **(وتعفو عمن ظلمك)**، هذا معنى قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾، وما قبله، يعنى ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾.

ولم يتعرض لقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، إما لظهوره، أو للإشارة إلى أنه فى معرض النسخ، أو لأن المراد بالجاهلين من قطع وظلم، وهذا إشارة إلى أصول الأخلاق وأعظمها وأحبها إلى الله تعالى، فتدبر.

وقال له: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧] الآية، وهذه الآية من وصية لقمان لابنه، إذ قال له: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [لقمان: ١٧]، كما قصه الله تعالى فى كتابه الكريم، وكل ما قصه الله تعالى من قصص الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فهو إرشاد لنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولأمته، فكأنه بما أمر به ابتداء، فلا يتوهم أنها ليست فى حقه، أى إذا أمرت بمعروف ونهيت عن منكر وأصابك بسبب ذلك مكروه، فاصبر له، وقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، قال العز بن عبد السلام: أولو العزم، أولو الجهد والصبر، وهم المأمورون بالجهاد، أو الرسل من العرب، وقيل: من لم تصبه فتنة، وقيل: من أصابه بلاء بغير ذنب، وهم نوح، وإبراهيم، ومحمد، صلى الله تعالى عليهم، وقيل: نوح، وإبراهيم، وموسى، وداود، وسليمان، وعيسى، ومحمد، وقيل: هم المذكورون فى الأنعام، فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، إلا يونس؛ لقصة الحوت. انتهى.

ولا ينبغى عد محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، هنا؛ لقوله: ﴿كَمَا صَبَرَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وهم كلهم من الرسل، وقد علمت أنه اختلف فيهم، فقال مجاهد: هم خمسة، وهم أصحاب الشرائع، وقيل: ثلاثة، وقيل: ستة، وقيل: جميع الرسل أولو عزم، وقيل: كل الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أولو عزم، إلا يونس؛ لتخليه، والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فصيحة؛ لأن قبلها، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأحقاف: ٣٤]، أى إذا كان عاقبة الكفرة ما ذكر فاصبر، وقد صبر ﷺ مثل صبرهم، وزاد عليهم، و﴿مِنَ﴾ فى ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] بيانية أو تبعيضية، والخلاف دائر على تفسير ﴿ٱلْعَزْمِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] بالصبر، كما هو ظاهر الآية، والجد الاجتهاد أو الجهاد، وقال: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ [النور: ٢٢] الآية، ﴿أَلَا

تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ [النور: ٢٢]، العفو عدم المؤاخذة بالذنب، والصفح الإعراض عنه وعن ذكره؛ لأن من أعرض عن شيء ولاه صفحة عنقه، وهذه الآية وإن نزلت فى الإفك وفى حق أبى بكر، رضى الله عنه، إذ كان ينفق على مسطح لقرابته منه، فلما خاض فى الإفك آلى أن لا ينفق عليه، فقال الله تعالى: **﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين﴾** [النور: ٢٢]، إلى آخره، فقال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى، وعاد إلى إنفاقه عليه، فالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، داخل فى عمومها، كما فى سائر الخطابات، فلا يرد على المصنف أن هذه الآية ليست فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وقال: ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾)** [الشورى: ٤٣]، أى من أهم الأمور التى ينبغى التصميم والعزم عليها، واللام موطئة للقسم إن قلنا: أن من شرطية، أو لام ابتداء، إن قلنا: أنها موصولة كما فصله المعربون، وهذه الآية مع ما قبلها كما علمت، نزلت فى أبى بكر، رضى الله عنه، وقد شتمه بعض الأنصار، واستشهد بها المصنف على أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان آخذا بذلك متعمدا عليه.

(ولاخفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله)، الباء بمعنى فى، ويؤثر بمعنى ينقل، ويروى من حلمه وتحمله للأذى، فإنه شائع غير خفى على أحد، **(وإن كل حليم)**، أى ولا خفاء أن كل حليم غيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قد عرفت منه زلة)**، بفتح الراء المعجمة، وهى الخطيئة والسقطة، قال الشاعر:

قفى لا تزلى زلة ليس بعدها   حفو وزلات النساء كثير

(وحفظت عنه هفوة)، بفتح الهاء، وسكون الفاء، وهى قريبة من الزلة معنى، وقال التلمسانى: هى بالفاء، وهو أكثر، وبالقاف، وهى السقطة، وقريب منه، وهى من هفا، بمعنى زل وسقط، أو تحرك وأسرع.

(وهو، صلى الله عليه تعالى وسلم، لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبرا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلما)، جملة حالية، أى مع أنه لابد من الزلة والهفوة فى الغضب والمكاره، فهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يزداد مع ذلك إلا صبرا وحلما، والمراد بالجاهل ليس ضد العالم، وإن كان أشهر معنييه، بل هو السيئ الخلق، المجازف فى أموره، قال الشاعر(١):

---

(١) البيت من الوافر، وهو لعمرو بن كلثوم فى ديوانه (ص٧٨)، لسان العرب (٣/١٧٧)، أمالى المرتضى (١/٥٧)، البصائر والذخائر (٢/٨٢٩)، خزانة الأدب (٦/٤٣٧)،

ألا لا يجهلـــن أحـــد علينـــا فنجهـل فـوق جهـل الجاهلينـا

فالجهل بهذا المعنى خلاف الحلم، ويتعدى بعلى، وقد تترك تعديته، كقول الحماسى:

وبعـض الحلـــم عنـــد الجهـ ـل للـــذلـــة إذعــــــان[1]

وقال بعض الحكمـاء: لا يحملنـك سـب الجـهول لـك، وجـرأة السـفيه عليـك علـى الإجابة له وفرية عليه، فحلم يغنى صبرك خير من سفه يشفى صدرك، وهو مما يدل على مغايرة الحلم للصبر، وإن كان مقاربا له كما مر، وهـذا هـو المعروف عنـد العـرب فـى الجهل، والإسراف بمعنى الزيادة ومجاوزة الحد.

(**حدثنا القاضى أبو عبد الله محمد بن على التغلبى وغيره**)، هو محمد بن على بن محمـد ابن عبد العزيز بن حمدين، بزنة غسـلين، التغلبـى، بفتـح المثنـاة الفوقيـة، وسـكون الغـين المعجمة، منسوب لتغلب، اسم قبيلة سميت باسم أبيهم كتميم، ولامه مكسورة تفتح فى النسب استيحاشا من توالى كسرتين وباء، ولد سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، ومات يـوم الخميس لثلاث بقين من المحرم سنة ثمان وخمسمائة، ودفن يوم الجمعة بعد صلاة العصـر، وكان فقيها، ثقة، تولى القضاء فى أيام المرابطين، ولاه يوسف بن تاشفين، فسار بأحسن سيرة، وبقى فيها مدة عمره، وسمع من شيوخ الأندلس، وأخذ عنـه المصنـف فـى رحلتـه لقرطبة.

(**قالوا: حدثنا محمد بن عتاب**)، بفتح العين المهملـة، وتشـديد المثنـاة الفوقيـة، وألـف، وباء موحدة، وهو ابن محسن الجذامى، المحدث، الفاضل، توفى ليلة الثلاثــاء لعشـر بقـين من صفر سنة اثنين وأربعمائة، قال: (**حدثنا أبو بكر بن وافد، وغيره**)، هو يحيى بـن عبـد الرحمن بن وافد، بالفاء والدال المهملة، علم منقول من الوافـد، بمعنـى القـادم، قـال ابـن سهل فى أحكامه: كان ابن وافد مقدما فى أصحاب ابـن ذرب، ثـم سـقط بعـد موتـه، وألزم داره، ثم أعاده المنصور بن سليمان إلى مرتبتـه، وجعـل إمامـا بجامع الزهـراء، ثـم وقعت له أمور اقتضت موته فى الحبس، ودفـن بمقـبرة الربـض سـنة خمسـين وأربعمائـة، وانتصر الله من قاتله بعد أيام.

وفى بعض الحواشى أنه وقع هنا فى أصل السماع: وافـد بالفـاء، وفيمـا سـيأتى فـى كيفية الصلاة على النبى، صلى الله تعـالى عليـه وسـلم، واقـد بالقـاف، وهـو الصـواب،

---

(١) البيت من الهزج، وهو للفنـد الزمـانى فـى أمـالى القـالى (١/٢٦٠)، حماسـة البحـترى (ص٥٦)، خزانة الأدب (٣/٤٣١)، الدرر (٥/٢٥٠)، شرح ديـوان الحماسـة للمرزوقـى (ص٣٨)، شـرح شواهد المغنى (٢/٩٤٤)، المقاصد النحوية (٣/١٢٢).

والأول هو الذى صححه البرهان الحلبى والتلمسانى، قال: **(حدثنا أبو عيسى)** هو اللثيي، واسمه يحيى بن عبيد الله بن أبى عيسى، يروى عن أبيه عبيد بن يحيى، توفى لعشرين مضين من رمضان سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، قال: **(حدثنا عبيد الله)**، قال البرهان الحلبى: هو أبو مروان عبيد الله بن يحيى بن يحيى بن كثير، قال: **(حدثنا يحيى بن يحيى)** قال البرهان الحلبى: هو يحيى بن كثير اللثيي مولاهم البربرى المصمودى القرطبى، الفقيه أبو محمد، عالم الأندلس، لم يخرج له فى الكتب الستة شيء، والموطأ مشهور به، وموطأه أصح نسخ الموطأ، وقد سمعته بحلب، وأقرأته بالإسكندرية، أما الذى له ذكر فى البخارى، ومسلم، والترمذى، والنسائى، فهو يحيى بن يحيى بن أبى بكر بن عبد الرحمن بن يحيى بن حماد التميمى أبو زكريا النيسابورى، أحد الأعلام. انتهى.

قال: **(حدثنا مالك)** بن أنس بن مالك بن أبى عامر الأصبحى، إمام دار الهجرة، ومن إليه الرحلة بها صاحب المذهب الجليل، واختلف فيه، هل هو تابعى أو من تبع التابعين؟ ولد سنة ثلاث وتسعين، وتوفى فى ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة، ومات وهو ابن ست وثمانين، واختلف فى جده أبى عامر، هل له صحبة أم لا؟.

(عن ابن شهاب)، هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهرى، توفى سنة أربع وعشرين ومائة، وقيل غير ذلك.

(عن عروة) بن الزبير بن العوام، أخو عبد الله بن الزبير، أحد فقهاء المدينة السبعة، روى عن أبويه الزبير وأسماء بنت أبى بكر، وخالته عائشة، رضى الله تعالى عنهم، وغيرهم، وتوفى سنة أربع، أو خمس، وتسعين بعد الهجرة، وولد سنة اثنين وعشرين، وهذا حديث صحيح فى الصحيحين والموطأ، واختار المصنف، رحمه الله، طريق الموطأ، فقال: **(عن عائشة)** أم المؤمنين، فريدة الصدق، ويتيمة الدهر، رضى الله تعالى عنها، **(قالت: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين قط، إلا اختار أيسرهما)**. قال البرهان: هذا ما أخرجه المصنف من موطأ مالك، عن يحيى بن يحيى، وقد أخرجه البخارى، ومسلم، وأصحاب السنن، ولم يره الصنف من غير هذه الطريق؛ لأنه إمام مذهبه، ولأهل المغرب اعتناء به وترجيحه على غيره من الكتب الستة؛ ولأن سنده فيه من هذه الطريق أعلى من سنده فى غيره؛ لأن بينه وبين مالك فى هذه الطريق ستة بالسماع، وبينه وبينه فى رواية الصحيحين سبعة، وفى أبى داود ستة، إلا أنه بالإجازة، فلذا اختار هذه الطريق على غيرها لما لها من الشأن عنده، وفى الحديث: «الأخذ بالأسهل والأرفق، ما لم يكن حراما أو مكروها». ونقل النووى، عن المصنف أنه يحتمل أن يكون تخييره هنا من الله، فيخيره فيما فيه عقوبتان، أو فيما بينه وبين الكفار من القتال عقوبتان، وأخذ الجزية، أو فى حق

أمته فى المجاهدة فى العبادة، والاقتصاد فيها، فيختار الأيسر.

وأما قوله: **(ما لم يكن إثما)**، فيتصور إذا خيره الكفار أو المنافقون، أما إذا كان التخيير من الله تعالى أو المسلمين، فيكون الاستثناء منقطعا. انتهى.

قال بعض الشراح: إنه فهم من قوله: «ما لم يكن إثما» إلى آخره، أى موجب إثم من حرام أو مكروه ما يفهم من الاستثناء، فسماه استثناء وجعله منقطعا؛ لاستحالة أن يخيره الله، أو خلص المؤمنين بين أمرين، أحدهما إثم، وهو مبنى على أن ما فى معنى الاستثناء له حكم الاستثناء، ألا ترى إلى قول النحاة: إن قولك لألزمنك أو تقضينى حقى بمعنى، إلا أن تقضينى حقى، فكأنه قال هنا: إلا أن يكون إثما.

فإن قلت: هذا مناف لما ورد: «إنما أفضل العبادة أحمزها»، أى أشقها على البدن، فكيف يختار غير الأفضل؟.

قلت: إنما كان ﷺ يؤثر الأيسر لأمته تخفيفا عليهم، لا فى حق نفسه؛ لأنه أرسل بالحنيفية السمحة، ولذا كان ﷺ يقوم حتى تورمت قدماه، ويؤيده مع ما فى نفس الأمر قوله فى عجز الحديث، أنه ﷺ ما انتقم لنفسه، يعنى أن التخيير بين الإثم وغيره من العباد يتصور، وأما من الله فلا، فإذا أول بما يوجب الإثم، أو يفضى إليه فى حق غيره صح، أو المراد بالإثم ما لا يليق به ﷺ؛ لعصمته، كما إذا خير بين ملك كنوز الأرض وعيش الكفاف، ويدل على أنه فى حقه قوله: **(فإن كان إثما، كان أبعد الناس منه)**، أقول: قال العز بن عبد السلام، وتبعه الزركشى فى قواعده: إن قولهم: الأجر على قدر المشقة، وما ورد فى حديث عائشة، رضى الله عنها: «أجرك على قدر نصبك»(١)، كما فى مسلم، ليس على إطلاقه، إنما هو إذا اتحد العملان فى الشرف والشرائط والسنن، وكان أحدهما شاقا، فيثاب على تحمل المشقة، وذلك كالغسل فى الصيف والشتاء، أما إذا لم يتساويا فلا، فإن الإيمان أفضل من الأعمال مع خفته، والمختار أن أفضل الأعمال آمنا هو بالمصالح الناشئة عنها، فتصدق البخيل أفضل من قيامه الليل، وإنقاذ الحاكم مظلوما بكلمة أفضل من قيامه الليل، وصيام النافلة. انتهى.

وهذا هو الحق الذى لا محيد عنه، فلا حاجة لما أطالوا به من غير طائل، **(وما انتقم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لنفسه)**، أى لا يعاقب أحدا بتقصير وقع منه فى حقه، بحيث يكون فاعله لم يخالف أمر الله فيما فعله؛ لأنه برئ من الحظوظ النفسانية والاعتبارات الدنيوية، **(إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله بها)**، أى بسبب حرمة الله

(١) تقدم تخريجه.

وانتهاكها، وحرمة الله ما حرمه وجعله محرما ممنوعا، وانتهاكه التعدى والتجاوز فيه من نهكت الثوب إذا لبسته حتى اختلقته، ويقال: نهكته الحمى، إذا أضعفته وأضنته، فانتهاكها تناولها بما لا يحل، وانتهك فلان محارم الله، أى فعل ما حرم الله فعله لما فيه من ضعف الدين وابتذال حكمه، وليس الانتهاك المبالغة فى إتيان ما حرمه الله تعالى كما توهم، حتى يرد أنه لا يغضب بمجرد فعل محرم أو صغيرة مرة واحدة، ويحتاج إلى الجواب بأن من فعل ذلك، فقد بالغ فى الجرأة على الرب العظيم، أو يقال: إنه كان يغضب عند فعل الصغائر، ويغضب إذا فعلت الكبائر، فإن هذا مما لا ينبغى، فإنه كيف يخطر بالبال أنه، عليه السلام، يغضب من الصغائر من غير عذر لفاعلها، ولا حاجة أيضا إلى حمل هذا على ما يتعلق بالمال، فإنه، عليه السلام، اقتص ممن نال من عرضه، كما أمر بقتل ابن أبى معيط، والأخطل، وأى حرمة لله أعظم من حرمة نبيه، عليه السلام، وإن آذاه فقد آذى الله، وإنما المراد ما كان يقع من بعض جفاة الأعراب، كالأعرابى الذى أمسك بردائه، وجذبه حتى أثر فى جيده الشريف، وقول بعضهم له كما يأتى: أعدل فى القسمة، فإنك لن تعطى من مال أبيك، ونحو ذلك مما صدر منهم، لغلظة طباعهم مما لا يفضى إلى ارتكاب محرم، فمن ارتكب شيئا من محارم الله بحضرته، عليه السلام، التى من جملتها احترامه انتصر وعاقبه لله لا لحق نفسه، وإن تعلق بها انتقاما لدين الله ورسوله، عليه السلام.

(**وروى أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما كسرت رباعيته**)، رباعية بوزن ثمانية، سن بين الثنية والناب من اليمين، والأخرى من اليسار، ويقابلها مثلها فوق، فالرباعيات أربع.

(**وشج وجهه يوم أحد**)، الشجة جراحة فى الوجه أو الرأس، (**شق ذلك**)، الكسر والشج، (**على أصحابه شديدا**)، أى حصل من ذلك فى نفوسهم مشقة وأمرا شديدا عظيما.

(**وقالوا**) له، صلى الله تعالى عليه وسلم: (**لو دعوت عليهم**)، أى على الكفار بأن يهلكهم الله ويستأصلهم بأشد العذاب، (**فقال: إنى لم أبعث**)، بالبناء للمجهول، أى لم يبعثنى الله (**لعانا**)، أى داعيا على الناس بالطرد والبعد من رحمة الله، (**ولكننى بعثت داعيا**) للناس إلى الله (**ورحمة**) للناس أجمعين، بإخراجهم من الكفر للإيمان، وبتأخير العذاب عمن كفر، لا لطردهم عن رحمة الله وإبعادهم عنه، ثم قال داعيا لهم: (**اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون**)، دعا لهم أن يهديهم الله تعالى للإسلام، فإنهم لا يعلمون طريق الحق ولا معرفة قدر نبيه ﷺ، وما يريد بهم من الخير، ولو علموا ذلك لم يصدر

عنهم ما صدر، وفى سيرة ابن هشام وغيره: أن عتبة بن أبى وقاص رماه صلى الله تعالى عليه وسلم، فكسر رباعيته اليمنى السفلى، وجرح شفته السفلى، وإن عبد الله بن شهاب الزهرى شجه فى وجهه الشريف، وإن ابن قمیئة جرح وجنته وضربه بالسيف على شقه الأيمن، وجرح وجنته، فدخلت حلقتان من المغفر فى وجنته الشريفة، وفى الروض الباسم أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أصيب وشج جبينه، وكسرت رباعيته برمية عبد الله بن قمیئة، وضربه بالسيف على شقه الأيمن، فجرح وجنته، ودخلت فيه حلقتان من المغفر، وشقت شفته السفلى، وصرخ: أن محمدا قد قتل، وقد اختلف فى إسلام عتبة بن أبى وقاص أخى سعد بن أبى وقاص، والصحيح أنه لم يسلم، وابن شهاب أسلم، وأما ابن قمیئة، فنطحه كبش فتردى من شاهق فهلك، ولكل شىء آفة من جنسة، ويقال: إن حاطبا تبع عتبة فقتله، ولم يولد أحد من نسل عتبة إلا أبخز أهتم، فسرى خزيه لعقبة، فبخور أولاده لا يفى بفساد جدهم، وقد قالوا: إن رباعيته ﷺ لم تنكسر من أصلها، وإنما شطئت وذهبت منها فلقة، وكانت فاطمة، رضى الله عنها، تغسل دمه، وعلى، كرم الله وجهه، يصب عليها الماء بالمجن، فلما رأت فاطمه أن الماء يزيد الدم كثرة، أخذت قطعة من حصير وأحرقتها وذرتها عليه، فأمسك الدم، وكسرت البيضة التى على رأسه الشريف.

وقال الإمام الخيضرى فى خصائصه: إن هذا كان قبل نزول قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، أو المراد عصمته ﷺ من القتل، لا من مطلق الأذية كما مر بيان ذلك، وما أحسن قول ابن الفارض، رحمه الله تعالى، فى الإشارة لذلك:

عينى جرحت وجنته بالنظر ... من رقتها فالنظر لحسن الأثر
لم أجن وقد جنيت ورد الخفر ... إلا لترى كيف انشقاق القمر

(وذيل بعضهم فقال:)

وما شق وجنته عابثا ... ولكنه آية ساطعة للبشر
جلاها لنا الله كيما نرى ... بها كيف كان انشقاق القمر

وبقية قصة أحد وما فيها مفصل فى السير مشهور، فلا يكثر السواد به كما فى الشرح الجديد.

(تنبيه) قال الإمام السمرقندى فى تفسير قوله عز وجل: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ [آل عمران: ٢١]: طعن الملحدة، لعنهم الله، وقالوا: إن الله أخبر أن الكفار

قتلوا الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢]، وما فى معناه من الآيات، ومن كان الله ناصره فهو منصور أبدا، فما لهم قتلوا فهو تناقض، وأجيب بوجهين:

الأول: أنه لم يثبت فى الكتاب، ولا فى خبر متواتر قتل رسول من الرسل الذى أخبره الله بنصرهم، وإنما ثبت قتل الأنبياء لأن الرسل هم الذين أوتوا المعجزات لإظهار الدين الحق ودعوة الخلق، فكان عصمتهم عن القتل من آياتهم الحسنة الدالة على صدق دعواهم الرسالة، وولاية القتل مما يوهن دعوتهم بخلاف الأنبياء إذ ليس لهم دعوة وشريعة.

والثانى: أن المراد النصرة بالحجج لا بالعصمة. انتهى.

(وعن عمر)، رضى الله عنه، قال السيوطى، رحمه الله: إن هذا لا يعرف عن عمر فى شىء من كتب الحديث، وبيض له الشيخ قاسم فى تخريجه لأحاديث هذا الكتاب، فكأنه لم يقف له على أصل أيضا، وتقدم ما فيه، **(أنه قال فى بعض كلامهم:)**، أى كلام قاله له لما رأى ما أصابه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من كسر رباعيته وشجه فى غزوة أحد: **(بأبى أنت وأمى يا رسول الله)**، هذا الجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: أفديك، وتسمى هذه الباء باء التفدية، ومعناه إنى أجعل أبوى فداء دونك، وأبذلهما فى حمايتك، يقول الرجل لمن هو أعز عليه من نفسه وأهله وماله؛ لأنهم كانوا يبذلون الأنفس فى صيانة أهلهم، وقد تكلم بهذا النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذه الكلمة جارية مجرى المثل فى ذلك، وقد يظهرون متعلق الجار والمجرور، والفداء بكسر الفاء والمد وفتحها مع القصر فكاك الأسير، يقال: فداه يفديه فداء وفدى وفاداه، إذا بذل فداه، وفداه بالتشديد إذا قال: جعلته فداك، وهى كلمة تقال فى التعظيم، وتدخل الباء على المبذول المفدى به، وقد يعكس كما فى قوله:

فديت بنفسه نفسى ومالى   وما آلوك إلا ما أطيق

وجعله فى المغنى من المقلوب، كعرضت الناقة على الحوت، وقد جرى عمر، رضى الله تعالى عنه، فى هذا على ما تداوله العرب، وإلا فهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، حقيق بأن يفدى بالنفوس، فضلا عن الآباء والأمهات، ولقد قال الآخر(١):

نفسى فداء لقبر أنت ساكنه   فيه العفاف وفيه الجود والكرم

(١) البيت من الوافر، وهو لعروة بن الورد فى الأشباه والنظائر (٢٩٨/٢)، شرح شواهد المغنى (٩٧٢/٢)، لسان العرب (٣١٦/٥).

فانظر قصة على، كرم الله وجهه، إذ فداه بنفسه ونام مكانه لما هموا بقتله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو أول من اشترى نفسه من الله كما مر، ومقاومه دون عمر، رضى الله تعالى عنه، كما هو معلوم.

(**لقد دعا نوح**)، عليه الصلاة والسلام، على قومه، فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وإنما قال عمر، رضى الله تعالى عنه، هذا؛ لأن مشربه كان مشرب نوح، عليه السلام، كما أن مشرب الصديق، رضى الله تعالى عنه، كان مشرب إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، وتذر كتدع بمعنى تترك، وديار بمعنى أحد، وهو يختص بالنفى، يقال: ما فى الدار ديار ودورى، أى أحد، وأصله ديوار، فاعل إعلال سيد وميت وأدغم، والفاء عاطفة للمفصل على المجمل.

(**ولو دعوت علينا**)، أى على الناس كلهم، (**مثلها**)، أى مثل دعوة نوح، عليه الصلاة والسلام، (**لهلكنا من عند آخرنا**)، هذا التركيب وقع فى كلام العرب، والمراد به أو لنا إلى آخرنا، أى جميعنا، ولشراح الكشاف فيه كلام، فقيل: تقديره: من أولنا إلى آخرنا، كما ذكر، وعند مقحمة، وقيل: من بمعنى إلى، وقيل: إنه كناية عن هلاك الجميع؛ لأنه لا يكون الهلاك عند آخرهم إلا إذا شملهم جميعا، فإن أردت تحقيقه فانظر شروح الكشاف فى أول سورة البقرة، (**فلقد وطىء ظهرك**)، الوطىء الدوس بالقدم، وفى الشرح الجديد أنه لم ينقل أن أحدا من المشركين وطىء ظهر رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم بقدمه، ولعله عبارة عما روى فى السير من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يصلى عند البيت، وثمة كرش ذبيحة فيها قاذورات، فقال أبو جهل، لعنه الله لجماعة جالسين ثمة: ألا رجل يقوم إلى هذا القذر، فيلقيه على محمد وهو ساجد، فانبعث أشقاها، وهو عقبة بن أبى معيط، فألقاه عليه، فقال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف»(١)، وكانوا أبا جهل، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عقبة، وعقبة بن أبى معيط، وأمية بن خلف، وعمار بن الوليد، هم المستهزؤن، فأهلكم الله جميعا، فإما أن يكون سمى هذا وطأ؛ لما فيه من الإهانة الشديدة، كما سمى الغزو وطأ، أو وقع هذا فى قصة لم نقف عليها.

(**وأدمى وجهك**)، أى جرح فى وقعة أحد، يقال: أدميته، إذا جرحته فأسلت دمه، والذى فعل به، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك عتبة بن أبى وقاص أخو سعد كما مر،

---

(١) أخرجه البخارى (٢٠٣/١، ١٨٢/٢، ٤٨/٦)، ومسلم (٢٩٤، ٦٧٥)، وأحمد (٢٣٩/٢، ٢٥٥)، وأبو داود (١٤٤٨)، وابن ماجه (١٢٤٤).

وفيه يقول حسان، رضى الله عنه(١):

إذا الله جـازى معشـرا بفعـالهم ونصرهـم الرحمـن رب المشـارق
وأخزاك ربى يا عتيـب بـن مـالك ولقاك قبل الموت إحدى الصواعق
بسـطت يمينـا للنبـى تعمـدا وأدميـت فـاه قطعـت بـالبوارق
وهلا ذكرت الله والمنـزل الـذى تصير إليه عند إحـدى البوائـق

(وشج وجهك)، وقع فى نسخة التلمسانى زيادة هذا هنا، وقد شجت وجنته وجبهته بأحد، فدخل فى وجنته، صلى الله تعالى عليه وسلم، حلقتا الـدرع، فنزعـهما بفيـه أبـو عبيدة بن الجراح، رضى الله تعالى عنه، حتى سقطت ثنيته، والـذى جرحـه عبـد الله بـن قميئة، فقيل: نطحه تيس، وتردى من شاهق فمات كما مر، وقيل: إنما هو عتبة بن أبـى وقاص، فأدركه حاطب فقتله كما مر، وجاء بفرسه.

(وكسرت رباعيتك) تقدم بيانه ومـا فيـه وعليـه، **(فـأبيت أن تقـول إلا خـيرا)**، أى لم تدع عليهم كما دعا نوح، عليه الصلاة والسـلام، علـى قومـه، ثـم فسـر الخـير بقولـه: **(فقلت: اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون)** الحق، ولا يهتدون إلى الصواب، وفى النسخ المروية هنا: «اللهم اهد قومى»(٢)، وهى مفسرة للروايـة الأولى، علـى أن المـراد بـالمغفرة سببها، وهو الهداية، أو التقدير: اللهم اهدهم واغفر لهم، فلا يرد عليه ما قيل: أن الدعاء المذكور صدر منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأحد، وكانت على أحد وثلاثـين شـهرا من الهجرة، فكيف يسأل لهم المغفرة وهم كفار، وقد نـزل : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] الآية، ولو قلنا: إن مغفرة الشـرك جـائزة عقـلا عنـد بعـض المتكلمين، فإنه ممنوع شرعا، فما وجه وقوعه فى كلام الشـارع، صلـى الله تعـالى عليـه وسلم، ولا حاجة إلى الجواب بأن هذه الآية من سورة النساء، وهى مدنيـة بجملتـها، أو هذه الآية بخصوصها، فيجوز أن دعاءه، صلى الله تعالى عليه وسـلم، كـان قبـل نزولهـا، وقيل: علمه بمنع الدعاء لهم بالمغفرة لجوازه، سواء قلنا: المدنى مـا نـزل بالمدينـة، أو بعـد الهجرة، أو المراد مغفرة ما وقع منهم من كسر الرباعية ونحوه، لا مغفرة الشـرك، وقيـل: هذا إنما صدر من النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، على سبيل الحكايـة عـن نبـى كـان قبله، كما رواه مسلم فى صحيحه، قال عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما: كأنى أنظر إلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحكى عن نبى من الأنبيـاء ضربـه قومـه وشـجوه، فكان يمسح الدم عن وجهه، ويقول: رب اغفر لقومـى، فإنـهم لا يعلمـون، ومثلـه فـى

(١) الأبيات من الطويل، وهى فى ديوان حسان بن ثابت (ص١٧٤).
(٢) أخرجه البخارى (٤/٢١٤)، وأحمد (١/٤٤١).

البخارى، والمراد بهذا النبى نوح، عليه الصلاة والسلام، فإنه كان يضرب، ثم يلف فى لبد، ويلقى فى بيته، يرون أنه قد مات، ثم يخرج ويدعوهم إلى الله تعالى، فلما آيس منهم دعا عليهم، فالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما وقع به ما وقع، حكى ذلك عنه تسلية له وللمؤمنين، وقوله: لقومى، ذكر نسبتهم له تحننا عليهم، وبيانا لسبب ذلك؛ رجاء لرحمة الله تعالى بهدايتهم، وإضافتهم إليه موافقة لما فى نفس الأمر، وإن قيل: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ [هود: ٤٦]، كما لا يخفى، وقوله: فإنهم لا يعلمون، اعتذار لهم بالجهل الحقيقى، أو بما هو فى حكمه؛ لعدم جريهم على مقتضى علمهم، كما تقول لتارك الصلاة: الصلاة واجبة، والجهل وإن لم يكن مع مشاهدة هذه الآيات الباهرة عذرا شرعا، فليس بمنج من العذاب، وقد اختلف فيما قبل البعثة أيضا، كما هو معلوم فى كتب الأصول، لكنه جرى فيه على حكم الظاهر، تضرعا إلى الله أن لا يعجل عذابهم، ويمهلهم حتى يكون منهم مؤمنين، أو من ذريتهم، وقد حقق الله تعالى رجاءه، لا أنه جعل ذلك عذرا حقيقيا لهم، فلا يرد هنا شيء كما توهمه بعضهم.

(قال القاضى أبو الفضل)، أى المصنف عياض، رحمه الله: **(انظر ما فى هذا القول)** المذكور فى كلام عمر، رضى الله تعالى عنه، فى الحديث الذى قبله، **(من جماع الفضل)** الجامع بكسر الجيم، ما يجمع كل أمر، كالخمر جماع الإثم ومظنته، **(ودرجات الإحسان)**، بالجر معطوف على الفضل، أى ما يجمع مراتب الإحسان، وكذا قوله: **(وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم)**، ففيه ما يدل على نهاية هذه الصفات، **(إذ لم يقتصر على السكوت عنهم)**، مع ما فعلوه معه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مما لا يتحمل بعضه أحد، فضلا عن أعز الناس نفسا، وأشرفهم وأعلاهم حسبا ونسبا.

وجرح ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

(حتى عفا عنهم)، مع عظيم جرمهم فى حقه، إذ قال: «إنى لم أبعث لعانا»، **(ثم أشفق عليهم)**، أى أبدى شفقته ورحمته لهم، **(ورحمهم ودعا وشفع لهم، فقال: اغفر واهد)**، كما مر بيانه مفصلا، **(ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله: لقومى)**، فإن الطبع البشرى يقتضى العطف والحنو على الأهل والأقارب بأى حال كانوا، **(ثم اعتذر عنهم بجهلهم، فقال: فإنهم لا يعلمون)**، وقد تقدم بيانه، ونسبتهم إليه ليبلغهم ذلك، فتنشرح صدورهم لأجلها، فيختاروا الإيمان على الكفر، ولذا لم يعبر بالجهل، بل بعدم العلم؛ تحسينا للعبارة ليجذبهم بزمام لطفه إلى الإيمان، ويدخلوا حرم الأمان، وإن كان جهلهم لا يعتد به اتضاح برهان التوحيد، وقيام الحجة الباهرة بالمشاهدة والتواتر، إلا أنه اعتذار

ظاهرى اعتبره سعيا فى تسخير قلوبهم، وإلا فهم عالمون جاحدون مكابرون، وليس لهم عذر يقبل شرعا كما مر تفسيره.

(**ولما قال له الرجل:**) هو ذو الخويصرة التميمى، ويقال له: حرقوص بن زهير، رأس الخوارج، قال البرهان: قتل يوم النهروان، كما فى تجريد الذهبى، وفى صحيح البخارى: هو عبد الله بن ذى الخويصرة التميمى، قال فى المقتفى: ولعلهما قالاه، والصواب أن والده هو القائل، والنهروان بفتح النون والهاء، اسم موضع فارسى معرب، قال الطرماح(١):

قل فى شط نهروان اغتماضى ودعانى هوى العيون المراضى

وحكى الجواليقى أنه سمع من العرب ضمها، وكان حرقوص مع على، كرم الله وجهه، فى حروبه، ثم اتبع الخوارج، وزعم بعضهم أنه ذو الثدية، وليس كذلك، ومقول القول، (**اعدل، فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله**)، أى كن عادلا فيما قسمته، فإن هذه القسمة ليست عادلة موافقة لأمر الله ولرضاه، والمقسوم كان من غنائم خيبر أو تبرا أرسله على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنه، من اليمن، وهذا الحديث رواه مسلم، عن جابر، رضى الله تعالى عنه، ونحوه فى صحيح البخارى، وأخرجه البيهقى، وهو حديث صحيح، وفى ألفاظه اختلاف، والمآل واحد، (**لم يزده**) النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**فى جوابه، أن بين له ما جهله**)، أى لم يزده على أن بين له ما جهله من عدالته فى قسمته، حيث قال: «من يعدل إن لم أعدل؟».

(**ووعظ نفسه وذكرها**)، التذكير والوعظ بمعنى، فعدل عن وعظ القائل إلى وعظ نفسه، وهو نهاية الحلم منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**بما قال له، فقال: ويحك**)، ويح كلمة ترحم وتوجع لمن وقع فيما لا يرضى، وقيل: إنها كلمة مدح وتعجب، وهى منصوبة على المصدرية مضافة، وقد ترفع وتترك إضافتها، فترحم له لما خالف رضاء الله تعالى عليه، أو تعجب من صدور مثله من مسلم، ووقع فى رواية: «ويلك»، (**فمن يعدل إن لم أعدل؟**)، وفى مسلم: «أو لست أحق أهل الأرض أن أطيع الله عز وجل؟»، وغضب، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى احمرت وجنتاه.

(**خبت وخسرتى إن لم أعدل**)، روى بفتح التاء فيهما على الخطاب، وضمها على التكلم، واقتصر بعضهم على الفتح، أى خبت وخسرت أيها القائل إن لم أعدل أنا

(١) البيت من الخفيف، وهو للطرماح فى ديوانه (ص ٢٦٢)، لسان العرب (٩/ ٣٦٠)، الكامل (ص ١١٣٣)، جمهرة أشعار العرب (ص ٩٨٧).

لاتباعك واقتدائك بغير عادل، وعلى الضم اقتصر الشمنى، رحمه الله؛ لأنه معلق بعدم العدل الذى عصمه الله تعالى عنه، وهو المناسب لقوله: وعظ نفسه وذكرها، ونقل النووى فى شرح مسلم الوجهين، وفسره بما تقدم، وقال: الفتح أشهر، وقيل، المعنى على الفتح إن لم أعدل خبت؛ لأننى أقتلك لنفاقك ونطقك بما ينافى الإسلام، لكنى عدلت نظرا لمظاهر إسلامك، وإن ما وقع من سوء أدبك جهلا منك غير مخل بمقامى.

(ونهى من أراد من أصحابه قتله)، وهو عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، كما فى البخارى، فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لى أضرب عنقه، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى»[1]، وفى مسلم: أن القائل خالد بن الوليد، رضى الله عنه، وجمع بينهما بأن كلا منهما أراد ذلك، وقد صرح به فى مسلم، وأن عمر، رضى الله تعالى عنه، لما قال ذلك، فقال: «دعه وأدبر»، فقام إليه خالد بن الوليد، فهذا نص على أن كلا منهما قال ذلك، وقال المصنف فى شرح مسلم: من سب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كفر وقتل، وسيأتى ذلك فى آخر الكتاب، وهذا الرجل لم يقتل.

قال الماوردى: يحتمل أنه لم يفهم منه الطعن فى النبوة، وإنما نسبه لترك العدل بناء على تجويز صدور المعاصى من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، عند هذا القائل، وإن لم يصب، أو أنه لم يسمعه منه، وإنما نقل له ولم يثبت عنده؛ لأن المخبر له واحد، ومثله لا تراق به الدماء، وهذا تأويل باطل، فإن المروى: يا محمد، اتق الله، بخطاب المواجهة بحضرة الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، حتى استأذنوه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى قتله، وإنما الوجه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، سلك به مسلك غيره من المنافقين استبقاء لانقيادهم، وتأليفا لقلوب غيرهم؛ لئلا يتحدث الناس بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقتل أصحابه، فينفروا ويرتدوا، فاختير أهون الأمرين لحكمه، والحديث مصرح بهذا.

(ولما تصدى له، صلى الله تعالى عليه وسلم، غورث بن الحارث)، تصدى بالتاء المفتوحة، والصاد المهملة كذا، والدال المشددة، وألف، أى أتاه وتعرض له، وغورث بغين معجمة مفتوحة، وتضم أيضا، وواو ساكنة، وراء مهملة مفتوحة، وثاء مثلثة، وقال بعضهم: يجوز إهمال عينه، كما نقله البرهان الحلبى، قال: وعند بعضهم مصغر، يعنى غورث، كفورك وزيرك، فإنه تصغير بالفارسية، ولم يرد أنه كتصغير العرب

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٢/١٠٦٣)، وأحمد (٣/٣٥٣، ٣٥٤)، والطبرانى فى الكبير (٢/٢٠١)، وابن أبى عاصم فى السنة (٢/٤٦٠).

غويرث، وقال التلمسانى: إنه غويرث أيضا، وفى بعض الروايات تسميته دعثور، وأنه أسلم، لكن قيل: إنهما روايتان، (**ليفتك به**)، الفتك مثلث الفاء، ساكن التاء، هو أن يأتى رجل آخر وهو غافل، فيهجم عليه فيقتله، وقد فتك به بالفتح، يفتك بالكسر والضم، وهذه القصة كانت فى غزوة ذات الرقاع فى السنة الرابعة من الهجرة.

(**ورسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، منتبذ**)، بضم الميم، وسكون النون، وفتح المثناة الفوقية، وكسر الموحدة، وذال معجمة، أى جالس فى ناحية مختل وحيد بقرب من الناس، (**تحت شجرة وحده**)؛ ليستريح بظلها، وتلك الشجرة شجرة عضاة، وهى التى تسمى أم غيلان، وهى شجرة عظيمة ذات شوك، وكان ذلك دأبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى سفره، (**قائلا**) حال، أى مستريحا فى وقت القيلولة، وهى وسط النهار إذا اشتد الحر، وإن لم ينم.

(**والناس قائلون**)، أى كل منهم فى قيلولته منفردا عن أصحابه، (**فى غزاة**) هى غزوة ذات الرقاع كما علم، والاختلاف فى زمنها ووجه تسميتها مفصل فى السير، والغزاة اسم مصدر بمعنى الغزو، (**فلم ينتبه**) أى لم ينتبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لمجيئه، أو لم يتنبه من نومه، (**إلا وهو**)، استثناء من أعم الأحوال، وضمير هو لغورث، (**قائم والسيف صلتا**)، بفتح الصاد المهملة أو ضمها، ولام ساكنة، ومثناة فوقية، أى مسلولا مجردا من غمده، ويجوز فى السيف رفعه، على أنه مبتدأ، ونصبه على أنه مفعول معه، وصلتا حال على كل حال، (**فى يده، فقال:**) غورث له، صلى الله تعالى عليه وسلم: (**من يمنعك منى**)؛ لأنه وجده خاليا ليس معه أحد ولا سلاح، وهو جالس، وغورث قائم عليه بسيفه المجرد، وفى رواية: أنه كرر مراجعته ثلاث مرات، (**فقال: الله**)، أى يمنعنى منك الله الذى عصمنى من الناس كافة، (**فسقط السيف من يده**)، أى لما أرعبه قوله: الله، وفى رواية أن جبريل، عليه الصلاة والسلام، ظهر له، فسقط سيفه، وفى رواية: فشام سيفه، أى أغمده، فهو من الأضداد، وكان غورث من أشجع الناس، يتوعد أن يقتل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقيل له: أمكنك الله من محمد، فاختار سيفا من سيوفه، وأقبل حتى قام على رأسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**فأخذه**)، أى السيف الذى سقط منه، (**رسول الله ﷺ، وقال: من يمنعك منى**)، أى من أن أقتلك والسيف بيدى، (**فقال: كن خير آخذ**)، بالمد اسم فاعل، أى خير رجل آخذ خصمه، وتمكن منه فتكرم عليه، (**فتركه وعفا عنه**)، مع القدرة عليه، وقيل: الآخذ الآسر، والأخيذ الأسير كما فى النهاية، وهو غير بعيد أيضا، وفى البخارى مسندا: أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قفل لغزوة ذات الرقاع، ونحن معه، فأدركتنا القائلة فى واد كثير

العضاة، فتفرق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، تحت شجرة علق بها سيفه، فنمنا ثمة، فإذا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يدعونا فجئناه، فإذا عنده أعرابى جالس، فقال: «إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم، فاستيقظت وهو فى يده صلتا، فقال: من يمنعك منى؟ قلت: الله، فها هو ذا جالس»(١)، ثم لم يعاقبه، قالوا: ولما رأى كرمه وحلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أسلم، وهو من غطفان، فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [المائدة: ١١] الآية.

(وجاء) غورث **(قومه)**، وفى نسخة: فجاء قومه، **(وقال: جئتكم من عند خير الناس)** حلما وكرما.

(ومن عظيم خبره)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى العفو، عفوه عن)**، المرأة **(اليهودية)**، وهى زينب بنت الحارث بن سلام، وقيل: امرأة سلام بن مشكم، أخت مرحب اليهودى، كما ورد فى الحديث الصحيح الذى أخرجه الشيخان عن أنس، رضى الله تعالى عنه، **(التى سمته)**، أى جعلت له ﷺ السم **(فى الشاة)**، المشوية من الغنم، **(بعد اعترافها)** بوضع السم له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الشاة، **(على الصحيح من الرواية)**، متعلق بقوله: عفوه، لا باعترافها؛ لعدم اختلاف الرواة فيه، ولذا قيل: كان الأحسن أن يقدم هذا على قوله: بعد اعترافها؛ لأنها أهدت له، صلى الله تعالى عليه وسلم، شاة مصلية، أى مشوية لم تنخز، فقال: «ما هذه؟»، فقالت: هدية لك، ولم تقل صدقة؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يأكل منها، فأكل هو وأصحابه من تلك الشاة، ثم قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أمسكوا»، وقال لها: «هل سممت هذه الشاة؟»، قالت: من أخبرك بهذا؟ قال: «هذا العظم»، أشار لساق بيده، قالت: نعم، قال: «لم؟»، قالت: أردت إن كنت كاذبا أن نستريح منك والناس، وإن كنت نبيا لم يضرك، فاحتجم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثلاثا على كاهله، لقربه من القلب(٢)، وقد اختلف فيها، فقيل: عفا عنها، وقيل: لا، وروى أبو داود أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قتلها وصلبها، ونقل البرهان عن كتاب شرف المصطفى ذلك، وجمع بين الروايتين بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، صفح عنها لحق نفسه؛ لأنه كان لا ينتقم لنفسه كما مر، فلما مات بشر بن البراء من أكله منها، قتلها

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٣١١)، والبيهقى (٦/٣١٩).

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٩/٧٠)، وعبدالرزاق (١٠٠١٩)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٤/٢٦١).

قصاصا به؛ لأنه لم يزل معتلا إلى الحول حتى مات، وقيل: إنه مات فى الحال.

وروى معمر فى جامعه، عن الزهرى، أنها أسلمت فتركها، وغيره يقول: إنه قتلها ولم تسلم، وفى جامع معمر أيضا: أن أم بشر بن البراء قالت له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى مرض موته: إنى لا أتهم لبشر، تعنى ابنها، إلا أكلة خيبر، فقال: «وأنا لا أتهم لنفسى إلا ذلك»[١]، وهو ظاهر فى أن المرض الذى مات منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان من تلك الأكلة على سبيل الظن لا القطع، لكن ذكر صاحب المواهب فى الطب النبوى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، احتجم من السم، فخرجت المادة السمية مع الدم لا خروجا كليا، بل بقى أثرها مع ضعفه، فأثر فيه لما يريد الله له، صلى الله تعالى عليه وسلم، من تكميل مراتب الفضل بالشهادة زاده الله فضلا وشرفا.

وفى الرواية اختلاف، ففيما مر أن الذى أكله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ساق الشاة، وفى أخرى: أنه كتف أو ذراع؛ لأنها سألت عن أحب اللحم إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقالوا: الذراع، فأكثرت فيه السم، وأنه لاك منها مضغة، ولم يسغها وأساغ بشر لقمته، وهذا يؤيد عدم القطع بتأثيره فيه، لكن يؤيد ما فى المواهب ما ورد فى الحديث أيضا أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال فى مرض موته: «مازالت أكلة خيبر تعاودنى حتى قطعت أبهرى»[٢]، فانظر فى التوفيق بين الروايتين فى الأكل وعدمه.

واعلم أن فى هذه المسألة اختلافا للفقهاء فيمن وضع طعاما مسموما لغيره، فأكل منه ومات، هل عليه قصاص أم لا؟ وهو مبنى على أنه إذا اجتمع السبب والمباشرة أيهما يقدم، فالأكثر على تقديم المباشرة، وقولهم: إنها أسلمت فتركها، على بعض الروايات، فيه أن الإسلام لا يسقط حقوق العباد، إلا أن يكون هذا من خصائصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيه نظر.

(وأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يؤاخذ لبيد بن الأعصم)، أعصم بزنة أحمر بمهملات، ويقال له: أعصم بدون ألف ولام، وهو رجل من بنى زريق، وهم بطن من الأنصار، وكان بينهم وبين اليهود حلف قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام برءوا منهم، واختلف فى لبيد هذا، ففى الصحيحين أنه يهودى، وهو المشهور، وقيل: إنه منافق كان مخالفا لليهود، وسيأتى عن المصنف، رحمه الله تعالى، أنه حكم بإسلامه، وقال البرهان: لا أعلم أحدا عده من المنافقين، فلعل المراد بالنفاق معناه العرفى، كما ورد فى الحديث:

(١) أخرجه أبو داود (٤٥١٣).

(٢) أخرجه البيهقى (١٠/١١)، وابن عدى (٣/١٢٣٩).

«آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»، وقد يطلق النفاق على الكفر أيضا، **(إذ سحره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد أعلم به وأوحى إليه بشرح أمره)**، أى بيانه مفصل فى سحره وما فعله، **(ولا عتب عليه، فضلا عن معاقبته)**، تقدم الكلام على ذلك مفصلا، وذلك كما رواه النسائى، والبيهقى فى الدلائل، عن زيد بن أرقم، رضى الله عنه، قال: سحر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، رجل من اليهود، فاشتكى لذلك أياما، فجاء جبريل، عليه الصلاة والسلام، فقال: إن رجلا من اليهود سحرك، عقد لك عقدا فى بئر كذا، فبعث فاستخرجها، فجاءه بها فحلها، فقام، صلى الله تعالى عليه وسلم، كأنما نشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودى حتى مات، وكانت له امرأة يهودية تسمى زينب تفعل ذلك، قال التلمسانى: وهو من أفعال النساء فى الأكثر، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ [الفلق: ٤]، دون النفاثين تغليبا، وقال الواقدى: لما رجع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الحديبية فى ذى الحجة سنة ست، جاء اليهود إلى لبيد بن الأعصم، وقالوا له: أنت أسحرنا وقد سحرنا محمد، فاصنع له سحرا ونجعل لك جعلا، فصنع ما سيأتى، فأقام رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم أربعين يوما، وقيل: ستة أشهر، يخيل إليه أنه فعل الشىء وما فعله، فبينما هو ذات يوم، إذ قال لعائشة، رضى الله تعالى عنها: «إن الله أفتانى فيما استفتيته، أتانى رجلان، فقعد أحدهما عند رأسى، والآخر عند رجلى، فقال أحدهما: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب»، أى مسحور، «قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: فى أى شىء؟ قال: فى مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر فى بئر ذروان»، أو ذى أروان، فأتاها رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، مع بعض أصحابه، وماؤها كنقاعة الحناء، ونخلها كأنه رءوس الشياطين، وقيل: إنه ﷺ أرسل عليا، والزبير، وعمارا، رضى الله تعالى عنهم أجمعين، فنزحوا ماءها، واستخرجوا السحر من تحت صخرة بها، وتحتها مشاطة من رأسه وأسنان مشطه، ووتر عقد فيه إحدى عشر عقدة، قيل: وتمثال من شمع مغروز فيه إبر، فنزل عليه المعوذتان، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة وأخرجت إبرة، حتى زال ألمه[1]، والرجلان اللذان رآهما فى منامه ﷺ جبريل، وميكائيل، عليهما الصلاة السلام، وما كان يخيل له ﷺ من أنه فعل و لم يفعل من أمور الدنيا وجماع زوجاته، لا مما يتعلق بالنبوة والوحى، فإنه معصوم فيه.

واعلم أنهم اختلفوا فى السحر، كما يأتى، هل هو أمر حقيقى أم محض تخيل لا أصل له؟ والصحيح أنه حقيقى بفعل الله بواسطة، إن كان بمجرد توجه النفس، فهو سحر،

---

(١) أخرجه أحمد (٦/٦٣).

وإن كان باستعانة بخواص سفلية، فعلم الخواص، وإن كان ببعض الكواكب ودعوتها، فدعوة الكواكب، وإن كان باستمزاج القوى السفلية والعلوية، فالطلسمات، فإن اعتقد تأثيرها بالذات فكفر، وإلا فحرام، وفاعله لإضرار الناس يقتل شرعا على تفصيل فيه ذكره الفقهاء ليس هذا محله.

(وكذلك لم يؤاخذ ﷺ عبد الله بن أبى)، هو عبد الله بن أبى بن سلول بن مالك بن الحارث بن عبد الله بن مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن الخزرج، كان قبل هجرة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، للمدينة رأس الأنصار مرتجيا لأن يكون حاكما عليهم، فلما هاجر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أسلم ظاهرا، فكان كآحدهم، وفيه عنجهية الجاهلية، وغلبة حب الرياسة، فكان بسبب ذلك رأس المنافقين، يصدر عنه أمور يكرهها الله ورسوله، وكان يبلغ النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك فيغضى عنه؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يدارى المؤلفة قلوبهم بأمر من الله؛ لئلا يتحدث الناس بأنه يقتل أصحابه، وكان ابنه عبد الله من كبار الصحابة، وخلص المؤمنين، فكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يكرمه لأجله، وسلول علم لأم أبى ممنوع من الصرف، فأبى منون وابن بعده يرسم بألف؛ لأنه لم يقع بين علم ابن وعلم أب على الأصح، وهو رأس المنافقين هلك فى السنة التاسعة بعد مقدمه، عليه الصلاة والسلام، من تبوك، مرض فى شوال عشرين ليلة، وهلك فى ذى القعدة، فصلى عليه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكفنه فى قميصه قبل نزول النهى عن الصلاة على المنافقين كرامة لابنه، رضى الله تعالى عنه.

(وأشباهه)، جمع شبه بمعنى شبيه، أى لم يؤاخذه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يؤاخذ من يشبهه، **(من المنافقين بعظيم ما نقل عنهم)**، بالبناء للمجهول، **(فى جهته)**، أى فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى حق أم المؤمنين عائشة، رضى الله تعالى عنها، **(قولا وفعلا)**، كقوله تعالى: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، يعنى بالأعز نفسه، وبالأذل نبى الله، صلى الله تعالى عليه وسلم.

قال ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: كان المنافقون من الرجال ثلاثمائة، ومن النساء مائة وسبعين، كما فصله البرهان الحلبى فى شرح سيرة ابن سيد الناس، وشرحه للبخارى فى تفسير سورة المنافقين.

(بل قد قال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لمن أشار بقتل بعضهم)** وهو عمر، رضى الله تعالى عنه، لما هزم بنو المصطلق، فبلغه قول ابن أبى، وقد لطم حليفا له يقال له: جعال، رجل من فقراء المهاجرين مساعدة لأخيه لعمر، رضى الله تعالى عنه: ما صحبنا

محمد إلا لنلطم، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قيل: سمن كلبك يأكلك، أما والله، ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ﴾ [المنافقون: ٨] الآية، ثم قال لقومه: والله لئن أمسكتم عن جعال وذويه فضل طعامكم، لم يركبوا رقابكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد، فقال له زيد بن أرقم، رضى الله تعالى عنه: أنت والله الذليل القليل المبغض فى قومك، ومحمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى عز من الرحمن وقوة من المسلمين، ثم أخبره الله بذلك، فقال عمر، رضى الله تعالى عنه: يا رسول الله، دعنى أضرب عنقه، فقال له رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(لا)** آذن لك فى ذلك، **(لئلا يتحدث الناس)**، من قبائل العرب، **(أن محمدا يقتل أصحابه)**، فهو علة لتركه رعاية للظاهر من إسلامه وصحبته، وفى نسخة: «يتحدث»، بدون ذكر الناس، مبنى للمفعول، و«لا» هنا ليست لنفى التحدث، إذ هو مستأنف معلل لما قبله، كما علم مما قررناه، وهذا الحديث رواه الشيخان عن جابر، رضى الله تعالى عنه، وروى الطبرانى أن ابنه، رضى الله تعالى عنه، لما بلغه مقالة أبيه، قال لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: دعنى أقتله وآتيك برأسه، فقال: «لا تقتل أباك»(١).

وفى الكشاف: فإن قلت كيف جاز له، صلى الله تعالى عليه وسلم، تكرمة المنافق وتكفينه فى قميصه؟ قلت: كان ذلك مكافأة له على صنيع له؛ لأن عمه العباس لما أسر ببدر، لم يجدوا له قميصا يستروه به، وكان رجلا طويلا، فكساه ابن سلول قميصه، وكان جاريا على عادة العرب فى المكافأة، وروى أن ابنه قال لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما مات أبوه: أسألك تكفينه ببعض قمصانك، وأنت تقوم على قبره، ولا تشمت به الأعداء، ففعل ذلك، فقيل له عليه السلام: لم فعلت ذلك وهو كافر؟ فقال: «إن قميصى لن يغنى عنه من الله شيئا، وأنى لأرجو أن يدخل فى الإسلام كثير بهذا السبب»(٢)، فقيل: إنه أسلم ألف من الخزرج بسبب ذلك.

(وعن أنس، رضى الله تعالى عنه: كنت مع النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم) قال السيوطى رحمه الله تعالى: هذا الحديث رواه الشيخان إلى قوله الآتى « من مال الله الذى عندك قال: فضحك وأمر له بعطاء»، وأخرجه بلفظ المصنف البيهقى فى الأدب من حديث أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، ولفظ مسلم: «كنت أمشى مع النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية، فأدركه أعرابى فجبذه جبذة شديدة» إلخ.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/٥٨٨)، وعبد الرزاق (٦٦٢٧).

(٢) أورده ابن كثير فى تفسيره (٨/٢٢١).

(وعليه برد غليظ الحاشية) البرد والبردة كساء كانت العرب تلتحف به، والحاشية جانب الثوب، وفى رواية الأوزاعى غليظ الصنفة بفتح الصاد المهملة وكسر النون وبالفاء، وهى طرف الثوب أيضًا.

(فجبذه أعرابى) جبذ لغة فى جذب أو مقلوب منه، وهما بمعنى **(بردائه جبذة شديدة)** وهذا يقتضى أنه كان عليه برد ورداء فوقه، وأن الجذب وقع بهما **(حتى أثرت)** بتشديد المثلثة مبنى للفاعل أى أظهرت أثر أو علامة **(حاشية البرد فى صفحة عاتقه)** الصفحة الجانب أو العرض، والعاتق ما بين العنق والكتف، أو موضع الرداء من المنكب، وهو يؤنث ويذكر، وفى رواية أن البرد انشق.

(ثم قال) الأعرابى: **(يا محمد)** قيل: مشافهته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بهذا تقتضى أنه لم يكن مسلما، والسياق يقتضى خلافه، وليس فيه ما ينافيه غير ندائه باسمه، فلعله كان قبل تحريمه والنهى عنه بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ إلخ، أو أن الأعرابى كان قريب عهد بالإسلام، فى طبعه غلظة وجفاء، فهو معذور، وطلب عطاء الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأخذه من الزكاة يدل على أنه من المسلمين المؤلفة قلوبهم، وفى كتاب الإمتاع من خواصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه لا يجوز لأحد أن يناديه باسمه، فيقول: يا محمد، يا أحمد، ولكن يقول: يا نبى الله يا رسول الله، قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾ [النور: ٦٣] إلخ، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢]، أى لا تدعوه باسمه.

فإن قيل: ثبت عن أنس، رضى الله تعالى عنه، أن رجلا من أهل البادية جاء، فقال: يا محمد إلخ.

أجيب: بأنه يحتمل أن ذلك صدر منه قبل إسلامه أو فى حال إسلامه قبل النهى أو قبل بلوغه، فلو ناداه بالكنية هل يحرم أم لا؟ فيه نظر انتهى.

أقول: الظاهر أن هذا فى حياته مواجهة، أما فى غير ذلك فلا يحرم إلا ذكره بما لا يشعر تعظيمه فلا يرد أنه وقع كثيرا فى المدائح النبوية وغيرها، كقول حسان، رضى الله تعالى عنه[1]:

هجوت محمدا فأجبت عنه … وعند الله فى ذاك الجزاء
فإن أبى ووالده وعرضى … لعرض محمد منكم وقاء

فلا حاجة إلى أن يقال: إنه مخصوص بغير الشعر، لأنه قد يقتضيه الوزن، ومما قيل هنا

(١) البيتان من الوافر، وهما فى ديوان حسان بن ثابت (ص ٢٠،٢١).

أيضًا: إن الرسول ويا رسول بدون إضافة لله كاسمه حتى اعترض على قول ابن مالك فى ألفيته:

مصليا على الرسول المصطفى

ولا وجه له لما مر. (**احمل لى**) قال التلمسانى: همزته همزة قطع رباعى أى أعنى على الحمل، ويجوز أن يكون ومعنى أحمل لى أى أعطنى ما أحمل والأول أولى؛ لوجود المحمول. انتهى.

وتبعه بعض المحشين، فيجوز فيه الوصل أيضًا إلا أن فيما رجح به الأول نظرًا (**على بعيرى**) بالتثنية مضافًا إلى ياء المتكلم (**هذين من مال الله الذى عندك، فإنك لا تحمل لى**) بضم التاء وفتحها على ما مر، وروى لا تحملنى أى لا تعطينى (**من مالك، ولا من مال أبيك**)، وقيل: إنه أسند الحمل إليه: لأنه سبب آمر به، فهو مجاز عقلى، فعلى هذا همزته همزة وصل أيضًا ثم رد على من قال: إن همزته مقطوعة بأنه ظن أنه من أحمل إحمالاً أى جعل البعير حاملاً، فلم يستبعد إسناده له، وهو مجاز مشهور، وليس بشىء لأن ما ذكره معنى آخر حقيقى صرح به الجوهرى، وكان الرواية عليه.

(**فسكت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم قال: المال مال الله وأنا عبده**) أتصرف فى ماله بإذنه أعطى من يأمرنى بإعطائه، فرد، صلى الله تعالى عليه وسلم، عليه بألطف رد، (**ثم قال: ويقاد منك**) بالبناء للمجهول، وتقدير همزة الاستفهام أى أو يقاد منك من القود، وهو القصاص، وهو هنا مجاز عن مطلق المجازاة أى أتجازى على ترك أدبك، ولم يقل: أقيد نفسى منك كراهة أن يذكر ما يشعر بانتصاره، صلى الله تعالى عليه وسلم، لنفسه، ولو مستفهمًا، وقيل: إنما بناه للمجهول للتعميم فيمن يستوفى القود، أهو الله أم من عنده من المسلمين؟.

وقوله: (**يا أعرابى**) إشارة إلى أنه معذور، لما فيه من غلظ الأعراب، وهم أهل البادية (**ما فعلت بى**) من جذب بردى بأن يفعل به مثله، أو يعزر بما يليق به، وسيأتى تحقيقه فى القصاص باللطمة، (**قال: لا قال: لم؟**) لا يقاد منك، (**قال: لأنك لا تكافىء**) بهمزة من المكأفاة وهى المجازاة أو بالياء أصلية أو مبدلة منها (**بالسيئة السيئة**) فيه مشاكلة، لأن الجزاء ليس بسيئة أو استعارة، لأنها مثلها بحسب الصورة، (**فضحك النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**) سرورًا بما رآه من حسن ظنه به، وأنه لم يفعل ذلك بقصد التنقيص منه وتطمينًا لقلبه إذ أبدى المسرة بمقالته.

(**ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير، وعلى آخر تمر**)، وفيه من حلمه، صلى الله تعالى

عليه وسلم، وتحمله الأذى، وعدم التضجر ما لا يخفى، وهو إرشاد لأمته، لاسيما من يتولى منهم أمور المسلمين، ثم أتى بما يدل على ما فى هذا الحديث من خلقه العظيم، فقال: **(قالت عائشة، رضى الله عنها)** فى حديث أخرجه الشيخان وأحمد والترمذى فى الشمائل مع مخالفة يسيرة فى لفظه: **(ما رأيت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** رؤية بصرية أو علمية **(منتصرا)** أى منتقما، وناصرا لنفسه على غيره **(من مظلمة)** أى من ظلم، وهى بفتح الميم وكسر اللام وفتحها، واقتصر فى التقريب على الأول **(ظلمها)** مبنى للمفعول، وهو مؤكد أو دفع لتوهم كون الظلم لغيره **(قط)**، لاستغراق ما مضى كما مر **(ما لم تكن حرمة من محارم الله)** أى ما لم تكن المظلمة بارتكاب أمر حرمه الله، وليس بصرف حق له، ولا يرد عليه أنه قتل ابن خطل والقينتان اللتان كانتا تغنيان بهجو رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه حق لله فإن ابن خطل ارتد، وهجو رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وسبه كفر كأذيته بخلاف الأعرابى، فإنه مسلم حمله على ما فعله غلظة طبعه، وظهر من جوابه أنه لم يقصد بذلك الإهانة مع ما فيه من حكم خفية كاستعطاف قلوب أهل البادية، ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وما ضرب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بيده شيئا قط)** من دابة، وإنسان وغيره **(إلا أن يجاهد فى سبيل الله)** كما فى ضربه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أبى بن خلف بأحد بحربة تناولها من بعض أصحابه، أما الحارث بن الصمة كما يأتى أو الزبير بن العوام، فخدشه بها فى عنقه خدشا غير كبير، فاحتبس الدم أى لم يخرج بسبب ذلك الخدش، فقال: قتلنى والله محمد، فوقع من تلك الضربة مرارا من على فرسه التى كان أعدها ليقتل عليها النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما يأتى، وجعل يخور كما يخور الثور إذا ذبح، وفى رواية أنه ضربه تحت إبطه، فكسر ضلعا من أضلاعه، ثم مات عدو الله وهم قافلون به إلى مكة بسرف بفتح السين وكسر الراء المهملتين، وهو مناسب لموضعه لأنه مسرف، وقيل: ببطن رابغ، ولم يقتل، صلى الله تعالى عليه وسلم بيده الشريفة قط أحدا إلا أبى بن خلف هذا، لا قبل ولا بعد، وجاء « أشد الناس عذابا من قتله نبى»[1]، وفى لفظ: «اشتد غضب الله على رجل قتله رسول الله»[2]، ﴿**فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ**﴾، وفى لفظ «اشتد غضب الله عز وجل على رجل قتله رسول الله فى

---

(١) أخرجه أحمد (١/٤٠٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٤٩٢)، والحاكم (٤/٢٧٥)، وسعيد بن منصور (٢٨٧٦)، وأبو نعيم فى تاريخ أصفهان (١/٣١٦).

سبيل الله» أى لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مأمورون باللطف والشفقة على عباد الله، فما يحمل الواحد منهم على قتل شخص إلا أمر عظيم، ورسول الله ﷺ أكملهم لطفًا ورفقًا وشفقة بعباد الله، قالوا: واحترز بسبيل الله عمن قتله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حدًا أو قصاصا، لأن من يقتله فى سبيل الله كان قاصدًا قتله، وقد اتفق ذلك لأبى بن خلف لعنه الله كما يأتى بيانه.

(وما ضرب خادمًا) له **(ولا امرأة)** من نسائه، وفيه دليل على جواز تأديب الرجل امرأته وضربها، ولولا ذلك لم يمدح به، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وجىء إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، برجل) هذا الحديث أخرجه أحمد والطبرانى بسند صحيح، ولم يسميا الرجل، **(فقيل له: هذا أراد أن يقتلك، فقال له، صلى الله تعالى عليه وسلم: لن تراع لن تراع)** أى لا تخف منى، وكرره ليطمئن قلبه، والروع الخوف والفزع، ولن هنا بمعنى لا: أى لا خوف عليك منى ولا من غيرى، **(ولو أردت هذا لم تسلط على)** لأن الله عصمنى، فلن ينالنى ما أردته أنت ولا غيرك.

فإن قلت: قوله: لو أردت يقتضى أنه لم يرده مع أنه أراد ذلك، لقولهم أراد قتلك.

قلت: المراد بالإرادة سببها، وهى مباشرة ما هم به أى لو مددت يدك إلىّ لم تصل إلىّ.

(وجاءه، صلى الله تعالى عليه وسلم، زيد بن سعنة) بفتح السين وسكون العين المهملتين وفتح النون، وقيل: إنها مضمومة وهو غريب وهو حبر من أحبار اليهود كما فى الإكمال، وفى التهذيب هو صحابى من أحبار اليهود الذين أسلموا، وهو من أكثرهم مالا وعلما، حسن إسلامه وشهد المشاهد، وتوفى مرجعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من تبوك، ويقال: إنه سعية بالياء التحتية حكاه ابن عبد البر وقال: النون أشهر وعليه اقتصر الجمهور، وقال الذهبى: إنه أصح، وأما أسيد بن سعية فالتحتية فيه أصح، وأسيد بفتح الهمزة أو هو مصغر، وهو حديث طويل رواه البيهقى مفصلا عن ابن سلام، ووصله ابن حبان والطبرانى وأبو نعيم عن عبد الله بن سلام أيضًا، وسنده صحيح كما قاله السيوطى **(قبل إسلامه يتقاضاه دينًا عليه)** أى يطلب منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، دينا كان له عليه، والتقاضى بمعنى المطالبة من كلام العرب، قال الحماسى[1]:

لحى الله دهرًا شره قبل خيره ... تقاضى فلم يحسن إلينا التقاضيا

---

(١) البيت من الطويل، وهو لأعرابى فى شرح ديوان الحماسة (ص١٠٧٦)، وشرح ديوان الحماسة للتبريزى (٥٨/٣).

قال الشراح: أى طالبا ومثله كثير فى كلامهم وكلام أهل اللغة، فقول شيخنا المقدسى فى الرمز: التقاضى معناه لغة القبض، لأنه تفاعل من قضى، يقال: تقاضيت دينى واقتضيته بمعنى أخذته، وفى العرف الطلبة انتهى لا وجه له، والذى غره قصور كلام القاموس، فظنه غير لغوى بل معنى عرفى وهو غريب منه، وفى روايته عن زيد المذكور: كنت أريد أن أعلم حال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليطابق ما فى التوراة من حلمه، فخرج يوما ومعه على، فجاءه رجل كالبدوى فقال: يا رسول الله إن قرية بنى فلا ن أسلموا، وأملهم أنهم إن أسلموا أتتهم أرزاقهم رغدا، وقد أصابتهم سنة وشدة، وإنى مشفق عليهم أن يخرجوا من الإسلام، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشىء يغنيهم، فقال زيد بن سعنة: يا رسول الله أنا أبتاع منك بكذا وكذا وسقا، فأعطيته ثمانين دينارا فدفعها للرجل، وقال له: اعجل عليهم بها وأغثهم، فلما كان قبل الأجل بيوم أو يومين أو ثلاث خرج رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى جنازة فى نفر من أصحابه، فلقيه وتقاضاه، **(فجبذ ثوبه عن منكبه، وأخذ بمجامع ثيابه)** ضمنه معنى أزاله فعداه بعن، ومنكب بكسر الكاف مجمع الكتف والعضد، والمجامع جمع لجمع وهو أطرافه وحواشيه، وقيل: هو التلبيب أى أخذه بطوقه وما تحت لبته ونحره، وهذا هو الصحيح المعروف لا ما قيل أنه بين الكتفين، فإن الثياب كلها كالرداء والقميص تجتمع هناك.

(وأغلظ له) أى قال له كلاما غليظا خشنا مع تعبس وتجهم وجه، **(ثم قال: إنكم يا بنى عبد المطلب)** مفتعل من الطلب، واسمه شيبة على الأصح، لأنه ولد وفى رأسه شيبة ظاهرة فى ذؤابتية **(مطل)** بضم الميم والطاء جمع ماطل، والمطل التطويل فى تأخير الحق، أو خلف الوعد فيه مرارا من مطل الحداد الحديد إذا مده، وفى القاموس المطل التسويف بالعدة والدين.

(فانتهر عمر)، رضى الله تعالى عنه، بالراء المهملة افتعال من النهر، وهو الزجر، ونهره وانتهره بمعنى، وقال ابن فورك الانتهار الإغلاظ فى القول مع صياح، وقيل: النهر عن الشىء بفظاظة، **(وشدد له فى القول)** فقال له عمر، رضى الله تعالى عنه: أى عدو الله

تقول هذا لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتصنع به ما أرى، وتقول له ما أسمع فو الذى بعثه بالحق لو لا ما أخاف فوته لسبقنى رأسك.

(والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يتبسم) من مقالهما لشدة حلمه ولعلمه كشفا بمراد ابن سعنة، وأن عمر، رضى الله تعالى عنه، لو كشف له الغطاء لم يصعب عليه ذلك.

(فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنا وهو) أى ابن سعنة صاحب الحق **(كنا إلى غير هذا)** المقال الذى قلته **(منك أحوج يا عمر)** أى أكثر حاجة، وهو أفعل تفضيل من حاج بمعنى احتاج، وليس من احتاج على حذف الزوائد شذوذا كما توهم، فإن ثلاثيه مسموع، والمفضل عليه محذوف، وهو خبر أنا وما عطف عليه، ثم بين الغير الذى هما أحوج إليه من هذا التشديد بقوله: **(تأمرنى بحسن القضاء)** أى وفاء ما له على، **(وتأمره بحسن التقاضى)** والطلب بلطف **(ثم قال)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، دفعا لما عسى يتوهم أنه وقع مطل أو تأخير منه: **(لقد بقى من أجله)** أى من تأجيل دينه **(ثلاث)** أى ثلاثة أيام، فلذا لم يحسن تقاضيه بخلاف قضاء النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه وقع على أحسن وجه، فإنه فعل ما وعده وزيادة كما أشار إليه بقول: **(وأمر عمر يقضيه ماله ويزيده)** على حقه **(عشرين صاعا)** من تمر **(لما روعه)** ما مصدرية أى لأجل ترويع عمر له إذ هم بقتله، وقال له مامر.

(فكان) فعل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(سبب إسلامه)**، لأنه كان عالما بالتوراة، ورأى فيها ذكره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلاماته، فحقق تلك العلامات كلها غير علامتين لشدة حلمه، فلما رآهما تيقن أمره وزالت شبهته، فحسن إسلامه وأراد الله سعادته، **(وذلك أنه كان يقول)** لمن عنده من اليهود **(ما بقى من علامات النبوة)** أى علامات نبوة محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، المذكورة فى التوراة التى قرأها وعرفها **(شىء إلا وقد عرفته)** أى شاهدته فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى نسخة إلا وقد عرفتها، باعتبار أن الشىء بمعنى العلامة **(إلا)** علامتين **(اثنتين لم أخبرهما)** أى لم أعرفهما، وهو بضم الباء يقال خبرته أخبره خبرا إذا أخبرته فصدق الخبر بالخبر، ثم فسر الثنتين اللتين لم يعرفهما بقوله: **(يسبق حلمه جهله)** تقدم أن الجهل فى كلام العرب قديما بمعنى المبادرة للغضب، ومقتضاه عدم المبادرة بالإيقاع بمن يغضبه، وهو مقابل للحلم لا للعلم كقوله(١):

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

كما مر لأن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يغضب أحيانا لله وينتقم، فلا يتوهم من لا يعرف كلام العرب هنا ما لا يليق بصفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فالمراد أن حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يغلب حدته، كما فى قوله: سبقت رحمتى على غضبى، أو السبق على ظاهره، فمن قال: المعنى حلمه على جهله لو كان له جهل كقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وليس المراد أن له، صلى

(١) تقدم الاستشهاد به وتخريجه.

الله تعالى عليه وسلم، جهلا يسبقه حلمه، لأنه لقبحه لا يصلح أن يعد من علامات النبوة، وحينئذ فليس من قبيل: سبقت رحمتى، والجهل هنا وفيما بعده مصدر جهل عليه، لا به انتهى، لم يصب مع ما فى كلامه من التناقض.

(**ولا تزيده شدة الجهل إلا حلما**) هذه هى العلامة الثانية أى جهل غيره بمعنى سفاهته وأذيته، كلما ازدادت واشتدت عليه زاد حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وصبره ما لم تتجاوز حدود الله، وتؤتى حرماته، فإنه حينئذ يغضب لله لا لنفسه، وهذا من صفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، الخارقة للعادة كما عرفته فى هذه القصة مع زيد بن سعنه، ولذا قال زيد لعمر، رضى الله عنه، لما قضاه وزاده: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وما حملنى على ما رأيتنى صنعت يا عمر إلا أنى كنت رأيت صفاته التى فى التوراة كلها إلا الحلم، فاختبرت حلمه اليوم فوجدته على ما وصف فى التوراة، وإنى أشهدك أن هذا التمر وشطر مالى فى فقراء المسلمين، وأسلم أهل بيته كلهم إلا شيخا غلبت عليه الشقوة، إلى هذا أشار المصنف بقوله: (**فاختبره بهذا فوجده كما وصف، والحديث**) أى الأخبار المستفيضة بين الناس، وليس المراد المصطلح عليه، ولذا عداه بعن فقال: (**عن علمه وصبره وعفوه عند القدرة**) قيده به؛ لأنه هو المحمود كما مر (**أكثر من أن نأتى عليه**) يقال: أتى على الكتاب قرأه، أو المال اتفاقا إذا استوعبه كله، وهذا التركيب كقولهم: أكثر من أن يحصى، والكلام عليه مشهور، أنه لا يمكن استيعابه واستقصاؤه.

(**وحسبك ما ذكرناه مما فى الصحيح والمصنفات الثابتة**)، أى يكفيك ما تقدم مما ثبت بنقل الثقاة، فإن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فيكفى هذا منضمًا، (**إلى ما بلغ**)، لك وعندك (**متواترًا**)، تواترًا معنويًا عن مجموعهما، (**مبلغ اليقين**)، أى وصل بالتواتر مرتبة اليقين الذى، لا يشك فيه أحد ولو قال: مبلغ الضرورى كان أولى، والقول بأنه أراده لا يخفى ما فيه، ثم بين ذلك بقوله: (**من صبره**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**على مقاساة قريش**) المقاساة معالجة أمور صعبة شاقة بحيث لا يحتمل مثلها، وهذا فى أول بعثته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما يعرفه من طالع السير، (**وأذى الجاهلية**) أى تحمله ﷺ أذى الجاهلية، أى أهل الجاهلية، وهم الكفار، (**ومصابرته الشدائد الصعبة معهم**) فى الحروب الواقعة بينه وبينهم، وهى وإن كانت سجالا إلا أنه صب عليهم العذاب، فالمصابرة مفاعلة من الصبر عن شدائد الحروب، وهم صناديد كان لهم صبر على اصطلاء نارها، لكنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، غلبهم وصابرهم، وزاد عليهم حتى ظفر وانتصر (**إلى أن أظهره الله تعالى عليهم، وحكمه فيهم**) أى جعله الله تعالى قاهرا

غالبا لهم، وهم فى قبضة تصرفه يحكم فيهم بما يريد من قتل وأسر وعفو إن شاء، **(وهم لا يشكون فى استئصال شأفتهم)** الاستئصال قطع الشىء من أصله وإزالته بالكلية، والشأفة بشين معجمة مفتوحة وهمزة ساكنة وفاء تليها هاء تأنيث وتبدل الهمزة ألفا، وهى قرحة تخرج فى أصل القدم، فتكوى فتذهب، وإن قطعت مات صاحبها، فضرب مثلا، وقد يدعى به، والمراد أزاله الله تعالى من أصله بحيث لا يبقى له عين ولا أثر، ولا أصل ولا فرع، وفيه إشارة إلى خبثهم وأنهم كقرح فى البدن خبثه مهلك لصاحبه، فشبه هلاكهم أجمعين بقطع تلك القرحة، وفيه بلاغة لا تخفى.

(وإبادة خضرائهم) الإبادة بالدال المهملة بمعنى الإهلاك، وهذا مثل كالذى قبله، والخضرة كالسواد تطلق على الناس والقوم، فمعنى إزالة سوادهم وخضرائهم هلاكهم.

قال فى النهاية: أبيدت خضراء قريش أى دماؤهم وسوادهم، والمراد الجماعة وذهب بعض أهل اللغة إلى أن صوابه غضراؤهم بغين معجمة وهى عصارتهم وخيرهم وخصبهم، أو طينتهم التى خلقوا منها، والمراد على كل حال استئصالهم، والصواب ما تقدم رواية ودراية، والمعنى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ظفر بهم فى حال تيقنوا هلاكهم بأسرهم بحيث لا يبقى منهم باقية، **(فما زاد)** ﷺ **(على أن عفا وصفح)** أى مع شدة أذاهم ونصره عليهم بحيث صاروا فى قبضة تصرفه، وقد أحاط بهم الهلاك من كل جانب ما زاد على ما كان عليه من حاله إلا العفو والصفح، لا شفاء النفس بالانتقام وفعل ما يستحقون بحيث لو فعل لم يلم، والعفو والصفح متقاربان عدم المؤاخذة بالذنب.

(وقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، تلويحا للطفه بهم مستنذرا منهم كما فى ضمائرهم مفوضا ذلك إليهم تكرما منه، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(ما تقولون؟)** ما استفهامية، والقول بعدها بمعنى الظن كما صرح به النحاة فقوله: **(أنى فاعل بكم)** بفتح همزة أن، وهى وما معها سادة مسد مفعوليه، وهذا متعين، وجعل القول على أصله بناء على أنه سألهم عما قالوا فى أنفسهم، أو فيما بينهم، تكلف مخالف للاستعمال الفصيح.

(قالوا: خيرا) منصوب بمقدر يدل عليه فاعل قبله أى تفعل خيرا، أو أنت فاعل خيرا، **(أخ كريم)** أى أنت إلى آخره كريم، وهى جمله مستأنفة لبيان أنه يفعل الخير، **(وابن أخ كريم)** هذا على عادة العرب فى تسمية القريب أخا قال تعالى : **(وإلى عاد أخاهم هودا)**، والكريم الجامع للخير والفضائل كما فى الحديث: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف...» إلخ.

(فقال: أقول كما قال أخى يوسف) فيه بلاغة وطى بديع أبلغ من قوله:

نهيت من الأعمار ما لو حويته   لهينت الدنيا بأنك خالد

لما فيه من الإيماء إلى شقهم عصا القرابة بينهم، وحسدهم له، وكذبهم عليه، وقطع رحمه مع ما له، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الشرف الباذخ، فإنه الكريم ابن الكريم، وأن حسدهم وبغيهم كان سببا لعلو مقامه، وتملكه لنواصيهم، وذلتهم له معترفين بقصورهم: ﴿**لا تثريب عليكم**﴾ الآية ﴿**ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ**﴾ التثريب: التعيير والتوبيخ أى لا أوبخكم وأعيركم بما يخجلكم، ويحتمل أن المراد لا عتب عليكم لعدم مبالاتى لكم، من الثرب وهو الشحم الذى يغشى الكرش، ومعناه إزالة الثرب كما أن التجليد إزالة الجلد، لأنه إذا ذهب كان غاية الهزال، فضرب مثلا للتقريع الذى يمزق العرض ويذهب بماء الوجه، وفيه جواز الاقتباس من القرآن ولو مع تغيير ما فى المعنى، وقد جوز الوقف على قوله عليكم، والظرف متعلق بيغفر، وفيه المسارعة بالمغفرة فى وقت يرجى فيه خلافه، واليوم بمعنى مطلق الوقت، ويجوز أن يوقف على اليوم أى لا تغيير لكم اليوم؛ لأن المقدرة تذهب الحفيظة إذا بدل الله من العسر يسرا، ومن الحزن سرورا، ومن الفرقة ألفة، ومن الغربة ملكا وبسطة، فلا تثريب فى زمان فيه مثل هذا الخير، وبهذا الوقف قرأ القراء، ويغفر جملة دعائية أو خبرية مبشرة لهم بذلك.

(اذهبوا فأنتم الطلقاء) بالمد جمع طليق، وهو الأسير يطلق ويخلى سبيله، قيل: وهو مخصوص بمن كان من قريش، ومن ثقيف يقال لهم العتقاء تميزا بينهم، وهذا بعض حديث طويل، وهو أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما نزل بمكة واطمأن الناس، جاء البيت وطاف به سبعا على راحلته، يستلم الحجر بمحجنه، فلما قضى طوافه دعا عثمان ابن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها، ثم وقف على بابها، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ثم قال: يا معشر قريش ما تظنون أنى فاعل إلى آخره، فخرجوا كأنما نشروا من القبور.

(وقال أنس، رضى الله تعالى عنه: هبط ثمانون رجلا من التنعيم صلاة الصبح) منصوب على الظرفية أى وقت صلاة الصبح، **(ليقتلوا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** الهبوط النزول من علو لسفل، وهو يتعدى، قال العباس، رضى الله تعالى عنه وسلم:

ثم هبطت البلاد لا بشر

وباؤه مفتوحة فى الماضى مكسورة فى المضارع وضمها لغة شاذة، وقال ابن عطية:

إن الضم كثير فى غير المتعدى، وقيل عليه أنه لا يوجد الفرق بين المتعدى وغيره يعنى بحركة عين المضارع وحدها، والتنعيم بفتح التاء اسم موضع عن يمينه جبل يقال له: نعيم، وعن يساره جبل يقال له: ناعم، والوادى هو نعمان، فقيل فيه التنعيم لذلك، وقالت امرأة تذكره[1]:

أيا جبلى نعمان بالله خليا   نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها

وهو على أربعة أميال من مكة، وهو طرف الحرم من جهة المدينة.

(**فأخذوا فأعتقهم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأنزل الله**) فى هذه القصة: ﴿**وهو الذى كف أيديهم عنكم**﴾ [الفتح: ٢٤] الآية، ﴿**وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ**﴾ [الفتح: ٢٤]، أى أظهركم ونصركم عليهم، فهزمهم حتى أدخلهم بطنها، وحديث أنس، رضى الله تعالى عنه، المذكور رواه مسلم والترمذى وأبو داود، والمراد ببطن مكة الحديبية، وضمير الخطاب للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن معه، وكان ذلك وهو فى أصل الشجرة، فبينما هو كذلك إذ خرج ثلاثون رجلا، وقال ابن هشام رحمه الله تعالى: سبعون أو ثمانون، وأخذوا أسراء، والسفراء يمشون فى الصلح فأطلقهم وهم العتقاء، وقيل: إن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أخبر أن عكرمة بن أبى جهل خرج إليه فى خمسمائة فارس، فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لخالد: «هذا ابن عمك خرج فى خمسمائة فارس»[2]، فقال: أنا سيف الله، وبذلك سمى يومئذ، فقام إليه فى خيل فهزمه إلى حوائط مكة، وقيل: إنه كان يوم فتح مكة، وبهذا استدل بعض الحنفية على أنها فتحت عنوة، ورد بأن الآية نزلت قبل الفتح، وأن الكف يناسب الصلح، وهو بصيغة الماضى، والآية نزلت بالحديبية، قيل: ومن العجيب قول أبى السعود أن الآية نزلت لما خرج عكرمة بن أبى جهل فى خمسمائة فارس إلى الحديبية، فبعث رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، خالد بن الوليد بجند، فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة يوم الفتح انتهى.

وهو كلام متناقض لأن الحديبية كانت سنة ست فى ذى القعدة، وفتح مكة كان فى رمضان سنة ثمان، وقصة خالد كانت يوم الفتح.

أقول: من قال المراد فتح مكة فهو ضعيف، فإن السورة مدنية نزلت قبل الفتح،

---

(١) البيت من الطويل، وهو للمجنون فى ديوانه (ص ١٩٦)، شرح شواهد المغنى (١/٦٠)، وبلا نسبة فى الحماسة الشجرية (٢/٥٨٠)، شرح التصريح (١/١٥٢)، مغنى اللبيب (١/٢٠).

(٢) أورده القرطبى فى تفسيره (١٦/٢٨٢)، وابن كثير فى تفسيره (٧/٣٢٤).

والحمل على أن الماضى أعنى كف للتحقق بمعنى المضارع وعُدِّى بعيد جدا، وأيضا ما ذكر أن عكرمة بن أبى جهل خرج فى عسكر، فبعث رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم خالد بن الوليد إلى الحديبية، فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة غلط، فإن خالد ابن الوليد لم يكن أسلم يومئذ، بل كان طليعة للمشركين كما فى البخارى، ولا حاجة لتأويل كلامه بأنه أراد بالفتح قصة الحديبية لأنها سميت فى القرآن فتحا مع أنه تابع فى هذا الغلط لغيره، وعهدته على من قال أولا، وليس ما نقله أيضًا مطابقا لما قاله فى تفسيره، وفى فتح مكة خلاف فى كتب الفقه، وفى الكشاف كف أيديهم قضى بينكم وبينهم بالمكافة والمحاجزة، وهى نزعة اعتزالية، ولذا تركه القاضى رحمه الله تعالى.

(وقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لأبى سفيان)** صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، **(وقد سيق إليه)** جملة حالية أى قال له القول الآتى، وسيق مبنى للمجهول ساقه أتى به وقاده، والسائق له هو العباس عم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم لما سار النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لفتح مكة، ونزل مر الظهران عشاء، وأوقد عشرة آلاف نار، وجعل على الحرس عمر، رضى الله تعالى عنه، وأراد دخولها قهرا لقتل الكفار، فرقت نفس العباس، رضى الله تعالى عنه، لأهل مكة، فخرج على بغلة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى أتى الأراك، فقال: لعلى أجد ذا حاجة يأتى مكة، فيخبرهم برسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى يخرجوا ويستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة، فسمعت صوت أبى سفيان يقول لبديل: ما رأيت كالليلة سرايا ولا عسكرا، فقلت: أنا حنظلة فقال أبو الفضل: قلت: نعم. قال مالك: فداك أبى وأمى قلت: هذا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم فى الناس، وإصباح قريش. قال: ما الحيلة؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأستأمنه لك، فركب خلفى، فكنت كلما مررت بأحد قال: بغلة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عليها عمه، حتى مررت بعمر، رضى الله تعالى عنه، قال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذى أمكن منك بلا عقدة ولا عهد، وخرج يشتد نحو رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فركضت البغلة، ودخلت عليه وعمر، رضى الله عنه، فقال: هذا أبو سفيان دعنى أضرب عنقه، فقلت: إنى قد أجرته، وجلست فلما أكثر عمر، رضى الله تعالى عنه، فى شأنه، قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: مهلا يا عمر اذهب يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبح فأتنى به، فغدوت به صباحا، فلما رآه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، علم أنه جاء ليسلم منقادا **(بعد أن جلبَ إليه الأحزاب)** جلب بالجيم والموحدة بمعنى ساق وجمع،

وأصله من الجلبة وهى أصوات المحاربين، والأحزاب جمع حزب وهى الناس المجتمعة من قبائل شتى للحرب، ويقال: تحزبوا تجمعوا، وهذه غزوة الخندق التى كانت فى سنة خمس، وإسناد جلب الأحزاب إليه، لأنه كان قائد جيشهم وصاحب رأيهم، وإلا فسبب التخريب إنما كان جماعة من اليهود دعوا القبائل، وحركوا قريشا لذلك كما فصل فى السير.

(**وقتل عمه حمزة**) سيد الشهداء رضى الله تعالى عنه، (**وأصحابه**) أى أصحاب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعود الضمير لعمه وإن صح بعيد، (**ومثل بهم**) بالتشديد أى شوهت خلقتهم بقطع الأطراف، وشق البطن، وإخراج القلب ونحوه، وهو من المثلة بضم الميم، وهى العقوبة الشديدة، ومنه: (**قد خلت من قبلهم المثلات**) ويقال مثل بالتخفيف أيضًا، ونسب قتل حمزة، رضى الله تعالى عنه، وقتل أصحاب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأبى سفيان مع أن قاتل حمزة وحشى بن حرب، وأسلم بعد ذلك، ولم يباشره أبو سيفيان إلا أنه هو الباعث والسبب لذلك القتال والمهيج له، ولكون قتل حمزة، رضى الله تعالى عنه مشهور أنه بأحد، لا يقال إن عبارة المصنف، رحمه الله، توهم أنه بالأحزاب، والمراد بالأصحاب من قتل بأحد، وكانوا أكثر من سبعين، ولذلك نسب التمثيل له مع أن الممثل زوجته هند، لأن فعل أهل الرجل كفعله لاسيما النساء، وقد مثل بجماعة غيره أيضًا كما أشار إليه المصنف رحمه الله بقوله: بهم، فممن مثل به أنس بن النضر، وعبد الله بن جحش كما فصل فى السير، (**فعفا عنه**) ما سبق منه فى كفره، لأن الإسلام يجب ما قبله، (**ولاطفه فى القول**) إذ خاطبه بقوله: (**ويحك يا أبا سفيان**) أى أتعجب لك ما عقلك ودهاؤك وظهور حقيقة الإسلام، وعبر بفاعل ليلطف كل منهما فى مقاله، واللطف الرفق والبر، ويكون بمعنى الرقة والصغر، (**ألم يأن لك**) أى ألم يدن وقت علمك، يقال: أنى يأنى إذا حان وقته وجاء زمانه (**أن تعلم أن لا إله إلا الله**) أى توحد الله وتصدق به، فتسلم إسلاما صحيحا (**فقال**) أبو سفيان: (**بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك**) لرحمك إذ خاطبتنى بلطف، وهديتنى إلى الحق مع ما قاسيته منى، ثم أجابه مصدقا فقال: لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئا بعد، فقال له رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله»[١]؟ فقال: بأبى أنت وأمى أما هذه، ففى النفس منها شىء، فقال له العباس: ويحك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن يضرب

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٧٢٦٤)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٥/٣٤)، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٦/٤٠١).

عنقك، فشهد شهادة الحق وأسلم، والحديث مذكور بتمامه فى السير، وأمر أبى سفيان، رضى الله عنه، مشهور، وفى بعض النسخ بدل ما أحلمك: ما أجملك من الجمال أنه ويحتمل أنه من التجمل وهى صيغ تعجب، وكل هذا جائز.

وفى تاريخ قزوين للإمام القزوينى روى عن على بن أحمد بن صالح قال: حدثنا أبو العباس العبدى القزوينى: حدثنا الحسن بن الفضل: حدثنا محمد بن غزاوان البغدادى: حدثنا الأصمعى: حدثنا مالك بن مغول، عن الشعبى، عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، قال: لطم أبو جهل، لعنه الله، فاطمة بنت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ورضى عنها، فشكت إلى أبيها فقال لها: ائتى أبا سفيان، فأتته فأخبرته، فأخذ بيدها حتى وقف بها على أبى جهل لعنه الله وقال لها: الطميه كما لطمك، ففعلت فجاءت إلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأخبرته، فرفع يديه وقال: اللهم لا تنسها لأبى سفيان. قال ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: ما شككت إن كان إسلامه إلا لدعوة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم. انتهى. نقله السيوطى فى كتاب تحفة الأريب، ومن خطه نقلت: (**وكان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضى**) أى غضبه بعيد لا يكون منه إلا بعد أمور كثيرة بخلاف رضاه، فإنه يرضى بأقل شىء سريعا لكرمه وحلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويأتى فيه الكلام مبسوطا، وهذا لأنه متخلق بأخلاق الله، وهو رحمة من الله، ورحمته قد سبقت غضبه، وفى الحديث: «المؤمن بطئ الغضب سريع الرضى»، وهذا فى غير حقوق الله، وفى غضبه ما يؤدى إلى الحمية والمروة، فلا ينافى هذا قول الشافعى: من استغضب فلم يغضب فهو حمار، ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان.

* * *

(فصل وأما الجود والكرم والسخاء والسماحة)

جواب أما قوله الآتى: فكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يوازى إلى آخره، وما بينهما جمل معترضه، (**ومعانيها متقاربة**) بعضها قريب من بعض حتى توهم بعضهم لذلك أنها مترادفة، (**وقد فرق بعضهم بينها بفروق**)، وأهل اللغة يعرفون الفرق فى أمثاله بمقابلها وأضدادها كما قيل:

وبضدها تتميز الأشياء

ولأبى هلال كتاب فى الفروق مفيد جدًا، وتقدم أن فرق بتخفيف الراء وتشديدها بمعنى إلا أن بعضهم قال: الأكثر فى التفريق استعماله فى الأجسام، والفرق فى المعانى، **وهذا لا** ينكر استعمال أحدهما مكان الآخر، **فهو** كلام قليل الجدوى، وجمع فروق

باعتبار وقوعه بين كل واحد وغيره، وإلا فهو فى الحقيقة فرق، وبدأ المصنف بالجود أولا، وفى التفريق أخره، لأنه عنده بمعنى السخاء، ولذا قيل: كان الأولى تركها، وعطفه على السخاء وتأخيره، (**فجعلوا الكرم الإنفاق بطيب النفس فيما يعظم**) عظم يعظم بضم العين فيهما جل مقداره، و(**خطره**) بفتحتين وقد تسكن الطاء قدره ووقعه، (**ونفعه**) لمن يعطى له، وذلك إنما يكون بكثرته، وهذا يختلف باختلاف المعطى والآخذ كان هذا معنى الكرم فى عرف اللغة، وإلا فالكرم بمعنى الشرف والمجد، وهو لا يختص بالإعطاء، ولذا قال: (**وسموه أيضًا حرية**) بضم الحاء وكسر الراء المهملتين المشددة تليها ياء تسمى ياء المصدرية، وهى إذا لحقت الأسماء الجامدة والصفات تصيرها مصدرًا، و لابد فى آخرها من هاء تأنيث، و لم تفصل النحاة حال هذه الأسماء إلا أنها شائعة فى الاستعمال، وما وقع فى بعض النسخ هنا من أنه جرأة بجيم مضمومة وراء ساكنة تليها همزة وهاء كما فى حواشى ابن رسلان، فهو من تحريف الكتاب، فإنه لا مناسبة له هنا، وإن كانت الجرأة والكرم أخوان لا يفترقان، لاسيما فى زمان فيه غاض الكرام وفاض اللئام، وأما تسمية الكرم حرية فلأن الحر خلاف العبد، فالحرية الخلاص من منن الناس، فإذا طوقهم مننه حصلت له الحرية، لأن الإنسان عبد الإحسان، وهذا من كلام الصوفية، فإنهم قالوا: الحرية صفة يتولد عنها الإيثار ونهاية السخاء لأنه بذل ما له إليه حاجة، وهو نهاية السخاء وأعلى منه قول بعضهم: الحرية أن لا يكون العبد بقلبه تحت رق شيء من المخلوقات، ولا من أعراض الدنيا والآخرة، ويكون فردا لم تسترقه دنياه ولا هواه، ولاحظ ما يتمناه.

وقال القرطبى فى كتاب المنتقى من كلام أهل التقى فى التصوف: الحرية المحضة هى الخروج من ملك سلطان الشهوة والغضب والقهر بالصبر، والعبودية المحضة هى طاعة الإرادة فيما لا يضطر النفوس إليه بسوء العادة وإيثار اللذة، وكل من خدم فى زمن الحداثة الشهوة والغضب، شق عليه فى زمن الشيخوخة ما يلحقه من ضعف بدنه عن خدمة لذته، ومن خدم فى الرأى والأدب شق عليه ذلك فى الحداثة، وكان فى زمن الشيخوخة مستريحا. انتهى.

(**وهذا ضد النذالة**) بفتح النون والذال المعجمة واللام هى الخسة والحقارة، وهى من لوازم البخل المقابل للكرم كما قيل، وفيه إشارة إلى أنه ليس مقابلا له حقيقة.

(**والسماحة**) والسماح (**التجافى**) تفاعل من الجفاء، وهو غلظة الطبع، وحقيقته التباعد والترفع يقال: جفا السرج عن ظهر الدابة إذا تباعد عنه، كما قال عز وجل، ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أى لا يكثرون النوم: أى العفو عما يستحقه المرء عند

غيره بطيب نفس، **(وهو ضد الشكاسة)** بشين معجمة وكاف وسين مهملة بينهما ألف، وهو كما قال التلمسانى: سوء الخلق، وفى القاموس، أنها البخل، والأول أنسب هنا، والثانى أنسب بتفسير السماحة بالجود كما قاله ابن القوطية.

(والسخاء: سهولة الإنفاق وتجنب اكتساب ما لا يحمد) من الصنائع المذمومة كالحجامة وأخذ ما لا يحل له، **(وهو الجود)**، وفرق بعضهم بينهما.

قال ابن عصفور فى الممتع: السخاء مأخوذ من الأرض السخاوية، وهى الرخوة، ولذا وصف الله تعالى بجواد دون سخى، لأنه أوسع فى معنى العطاء وأدخل فى صفة العلاء انتهى، وقد تقدم ذلك فعلى هذا هو أخص منه.

وقال ابن مالك فى الكفاية: السخى هو الجواد، فهو موافق لما قاله المصنف.

وقال سقراط: الجواد هو الذى يعطى بلا مسألة صيانة للآخذ من ذل السؤال. وقال الشاعر(١):

وما الجواد من يعطى إذا ما سألته ... ولكن من يعطى بغير سؤال

(وهو ضد التقتير) المعروف فى اللغة أن الجود ضد البخل، والتقتير التضييق فى الإنفاق، وهو ضد الإسراف والتبذير، وهما بمعنى وفرق بينهما صاحب الكشف فى سورة الإسراء، يقال: قترت الشىء وأقترته أى ضيقت الإنفاق فيه، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، والبخل والتقتير متلازمان لا مترادفان حتى يكون كل منهما ضدا للسخاء.

واعلم أن كلام المصنف هنا غير موافق للغة ولا للعرب، ولا أدرى من أين أخذه، ولكن الأمر فى مثله سهل، وهو محتاج للتهذيب وسنكر عليه مرة أخرى.

(فكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يؤازى) بالهمزة مبنى للمفعول أى لا يساوى ولا يقابل، يقال: فلان يأزى فلانا أى يحاذيه ويساويه، وقال الكرمانى موافقا للجوهرى: يقال آزيته أى حاذيته، ولا يقال: وازيته، والذى عندنا فى النسخ يوازيه بالواو المبدلة من الهمزة، وقد أجازه بعضهم بقلب الهمزة واوا إذا انفتحت وانضم ما قبلها نحو جؤن، وقد جزم البرهان الحلبى بأنه فى كلام المصنف بالواو، ويحتمل أنه فى كلامه بالهمزة، ورسمت واوا على قاعدة الرسم فى مثله، أى هو، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يساويه أحد **(فى هذه الأخلاق الكريمة)**، والأوصاف الحسنة من الجود والسخاء والكرم والسماحة.

---

(١) البيت من الطويل، وهو بلا نسبة فى تاج العروس (٥٢٧/٧).

فاق النبيين فى خلـق وفى خلـق ولم يدانوه فـى علـم ولا كـرم

(**ولا يبارى**) بالبناء للمجهول وهو بالموحدة والراء المهملة، ومعناه يعارض والمعارضة أن تفعل مثل ما يفعل، وهما متقاربان.

(**بهذا وصفه كل من عرفه**) بالمشاهدة أو بما، اشتهر عنه شهرة لا يبقى معها ريب ولا شبهة.

(**حدثنا القاضى الشهيد أبو على الصدفى**)، هـو الحـافظ أبـو علـى بـن سـكرة، وقـد تقدمت ترجمته وهو منسوب لصدف بفتح الدال، وهى قرية بقرب القيروان قال: (**حدثنا القاضى أبو الوليد الباجى**) تقدمت ترجمته قال: (**حدثنا أبو ذر الهروى**) تقدم أيضًـا قـال: (**حدثنا أبو الهيثم الكشميهنى**) قال البرهـان الحلبـى: هـو بضـم الكـاف وسـكون الشـين المعجمة وكسر الميم وسكون المثناة التحتية وفتح الهاء بعدها نون كما فى لباب الأنساب لابن الأثير، وضبطه بالقلم الحافظ عبد الهادى فى طبقاته بفتح الكاف، وكذا صحح فى نسخ الشفاء، والصواب ما ذكرته، والنسبة لقرية من قرى مرو قديمة خرج منها جماعـة، وقد خرجت انتهى، وفى آخره ياء نسبة لم يصر ح بها، لأنه معلوم من السياق، فما فى بعض الشروح من أنه لا ياء فى آخره، وأن النسبة فيه على خلاف القياس مما يقضى منه العجب، (**وأبو محمد السرخسى**) نسبة لسـرخس بلـدة عظيمـة بخراسـان، وقـد تقدمـت ترجمته، (**وأبو إسحاق البلخى**) إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم بن أحمـد بـن داود المستملى الإمام المشهور كما تقدم، منسوب لبلخ بلدة عظيمة فى ما وراء النهر. (**قالوا: حدثنا أبو عبد الله الفربرى**) تقدمت ترجمته وفربر بزنة سبحل بلدة ببخارى.

(**قال: حدثنا البخارى**) تقدم وشهرته تغنى عن ذكـره قـال: (**حدثنـا محمـد بـن كثير**) بلفظ كثير ضد القليل العبدى البصرى والحافظ، روى عنه أصحاب السنن، وتوفى سـنة اثنين وعشرين ومائتين، وله ترجمة فى الميزان فيها كلام لابن معـين، وقـال الذهبـى: إنمـا هو فى ابن كثير الفهرى، وفيه تعقب لكلام المزى، لأنه قال العبدى قال: (**حدثنا سفيان**) هو ابن سعيد الثورى كما تقدم، وهذا الحديـث رواه أيضًـا سـفيان بـن عيينـة عـن ابـن المنكدر عن جابر كما هنا، وأخرجـه مسـلم والبخـارى والـترمذى فـى الشـمائل، وهـو حديث صحيح (**عن ابن المنكدر**) وهو محمد بن المنكدر بن عبد الله التيمى المدنى الحافظ عن أبيه، وعن عائشة، وأبى هريرة، رضى الله تعالى عنهما، وأخرج له أصحاب الكتـب الستة، (**قال: سمعت جابر بن عبد الله، رضى الله تعالى عنهما، يقول: ما سـئل رسـول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، شيئًا فقال: لا**)، وقد علمت أن هذا الحديث أخرجه الترمذى فى الشمائل وغيره، معناه قول حسان:

ما قال لا قط إلا فى تشهده لولا التشهد لم تسمع له لا لا

ومعنى الحديث أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا أتاه مستحق يطلب عطاءه، لا يخيبه ويقول له: لا قط، بدليل أوله »حتى إذا لم يجد شيئا اقترض»، أو قال ائتنى غدًا، ونحوه، وهذا هو الذى عناه حسان، وهو باعتبار الغالب، فإن النادر كالعدم، فهو مبالغة معروفة مألوفة، و لم يرد أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يتلفظ بلا أصلا حتى يرد عليه أن الأحاديث المصدرة بلا نحو: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»[1] كما مر لا تحصى كثرة كما قيل، ويجاب عنه بما لا حاجة له، ثم قال: وأما قوله فى البردة:

نبينا الآمر الناهى فلا أحد أبر فى قول لا منه ولا نعم

فهو إنما يقتضى صدور لا عنه مطلقا، وذا لا ينافى أنها لم تكن لتصدر عنه إذا سئل عن شىء من متاع الدنيا، لجواز صدورها منه فى غير تلك الحال.

أقول: قد عرفت ما فيه أولا، بقى هنا فى البيت إشكال كان يجول فى الصدر قديما، وهو أن الأمر والنهى إنشاء لا يجاب بلا ونعم، فالتفريع بلا لا يصادف محله هنا، و لم يحم حول هذا أحد من الشراح مع ظهوره، وقد ظهر لى ولله الحمد وجهه، فمعنى نبينا الآمر، إلى آخره أنه لا حاكم سواه، فهو حاكم غير محكوم، فإذا قال فى أمر: لا أو نعم، وهو لا يقول إلا صوابا موافقا لرضى الله، فحينئذ لا يخالفه إلا بقسر قاسر، وليس غيره حاكم يمنعه عما حكم به ويرد أحكامه، فهو أصدق القائلين فيما يقوله.

(وعن أنس) بن مالك، رضى الله تعالى عنه، **(وسهل بن سعد مثله)** أى مثل الحديث السابق المروى فى الصحيحين، وحديث أنس، رضى الله تعالى عنه، هذا فى مسلم، وذكره فى الوفاء أيضًا، ولفظه: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حييا لا يسأل شيئا إلا أعطاه، والأحاديث فى معناه كثيرة، وسهل هو الساعدى الأنصارى الصحابى.

(وقال ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: كان النبى ﷺ أجود الناس بالخير) أى بما فيه نفع الناس، **(وأجود ما كان فى شهر رمضان)** رمضان اسم للشهر، ويقال: رمضان وشهر رمضان، وكون العلم المضاف دون المضاف إليه، أو هما كلام لا حاجة لذكره، ولا يكره أن يقال: رمضان، وما روى من حديث، « لا تقولوا رمضان فإن رمضان من

(١) أخرجه أحمد (٢/١١٥)، وأبو داود (٤٨٦٢)، وابن ماجه (٣٩٨٢)، والبخارى فى الأدب المفرد (١٢٧٨)، والطبرانى (١٢/٢٧٨).

أسماء الله عز وجل، ولكن قولوا شهر رمضان»(١) ضعيف لا يعمل به، لصحة ما يخالفه كما فصله شراح البخارى، وهذا الحديث رواه الشيخان، وروى فيه أجود ما يكون، ووقع فى بعض النسخ هنا أيضًا، وأجود الثانى يجوز رفعه مبتدأ ونصبه عطفا على خبر كان، وعلى الأول خبره محذوف وجوبا كما قرره النحاة فى نحو: أخطب ما يكون قائما، والكلام عليه طويل الذيل ليس هذا محله، وما مصدرية وكان تامة، ولنقتصر من القلادة على ما أحاط بالعنق، وإنما زاد ﷺ فى رمضان لحاجة الصائمين، ولأنه موسم الخيرات الذى تفضل الله فيه على خلقه بما لم يتفضل فى غيره، فاتبع سنة الله فى عباده وتخلق بأخلاقه.

(وكان) ﷺ **(إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة)**، لأنه عليه الصلاة والسلام يسر بملاقاته وإمداده له بالبشرى والكرامة، فيحسن كما أحسن الله إليه، فكان بكثرة مجيئه له فى رمضان ليدارسه القرآن، ويعارض به بقراءة كل منهما على صاحبه بالتجويد ووجوه القراءات أجود بالخير من الريح المرسلة.

قال الكرمانى: الجود إعطاء ما ينبغى لمن ينبغى، والخير شامل لجميع أنواعه مما يقرب العبد إلى الله، وإرسال الرياح إطلاقها بإذن الله، فترسل بالرحمة والمطر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾ [المرسلات: ١]، أى الرياح المرسلة بالمعروف على أحد التفاسير، وهو من التشبيه البليغ على سبيل الترقى، فجعله أجود الناس، ثم ذكر أن جوده فى رمضان، وعند ملاقاة جبريل أزيد منه فى غيره، والمراد بالمرسلة خلاف العقيمة، قيل: وفى قوله: أجود من الريح جمع بين الحقيقة والمجاز، وفيه بحث يعلم من كلام أهل المعانى فى تحقيق وجه الشبه فى قولهم: كلامه أحلى من العسل، وتقديم قوله: بالخير اهتماما به، وللدلالة على تقدير مثله فيما بعده أو اشتراكهما فيه، لا لدفع توهم تعلقه بالريح المرسلة، وليس من الاكتفاء، وفى تشبيهه بالريح إشارة إلى سرعته ومبادرته له وقد علم، أو المراد بالريح المرسلة التى لم ترسل بالغيث لا مطلقها، لأنها فى القرآن مخصوصة بها. فإن قلت: ذكر الريح، وقد قيل: إنها إذا كانت مفردة تكون فى العذاب والشر، وإذا جمعت فهى للنفع والخير.

قلت: هذا قيل: إنه مخصوص بما وقع فى القرآن بالاستقراء لا مطلقا، فلا ينافيه ما وقع فى هذا الحديث وغيره، ويؤيده ما أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى بن كعب أنه قال:

(١) أخرجه البيهقى (٤/٢٠١)، وابن أبى حاتم فى العلل (٨٣٤)، وابن الجوزى فى الموضوعات (٢/١٨٧)، وابن عدى فى الكامل (٧/٢٥١٧).

كل شيء فى القرآن من الرياح فهو رحمة، وكل شيء فيه من الريح فهو عذاب، وما ورد فى الحديث كما رواه البيهقى عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، أنه ما هبت الريح إلا جثا النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، على ركبتيه، وقال: «اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا، اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحا»[1]، لا يدل على عدم اختصاصه بما وقع اتفاقيا فى القرآن، لأنه قيل: إنه ﷺ أراد اللهم اجعلها من جملة رياح القرآن، ولا تجعلها من ريحه أى مما ذكر بهذه العبارة، فلا دليل فيما ذكر كما قيل، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، و ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [فصلت: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، و ﴿يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦]، وقد قرئ فى بعض آيات الرحمة بالإفراد والجمع، وورد مفرده فى ذلك، فكأنه أغلبى، وأما تأويل ما فى الحديث بما جاز فيه الجمع فتعسف، وقيل: يحتمل أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، إنما قال ذلك، لأنه ما هب إن كان ريحا واحدة لم تلقح السحاب وينزل المطر غالبا، وإن كان رياحا فهو بخلافه، ويحتمل أن يكون معناه: لا تهلكنا بريح واحدة لا تهب بعدها ريح أخرى، وطول أعمارنا حتى تهب علينا رياح كثيرة.

(وعن أنس، رضى الله تعالى عنه) كما رواه مسندًا مسلم فى صحيحه **(أن رجلا)** هو صفوان بن أمية الآتى بيانه كما فى سيرة ابن سيد الناس وغيرها **(سأله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فأعطاه غنما)** كثيرة كانت **(بين جبلين)** أى مالئة واديا بين جبلين كما يفهم منه ذلك بحسب العرف، وإن كان يقال للغنم السارحة بينهما قليلة أو كثيرة ذلك، فإن كان أسلم قبل سؤاله فهو ظاهر، وقوله: **(فرجع إلى قومه)**، وهم قريش لأنه من أهل مكة، وفى نسخة إلى بلدة، **(وقال: أسلموا)** لا ينافيه، وإن قيل كان قبل إسلامه، فأما أنه كان فى صدر الإسلام يجوز إعطاء المؤلفة قلوبهم من الكفار من الزكاة أو من بيت المال، ثم نسخ، وقول الصرصرى:

وأتاه أعرابى التمس الندا   أعطاه شاء ضمها جبلان

لعله قصة أخرى، فإن الرجل المذكور هنا من أكابر قريش، ويؤنسه قوله: **(فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى فاقة)** فإن قريشًا كانوا كرم خيمه، وجزيل عطائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه لا يخشى فاقة، وما بارى أحدًا فى الجود إلا فاقه، والفاقة الفقر أو أشده، وهكذا أولياء أمته، ففى الحديث: «دعائم أمتى عصائب اليمن، وأربعون رجلا

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١١/٢١٤)، والبغوى فى تفسيره (٤/٦٢).

بالشام كلما مات رجل منهم أبدل الله مكانه آخر»[١]، أما إنهم لم يبلغوا ذلك بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بسخاء النفس وسلامة الصدر والنصيحة للمسلمين.

(**وأعطى غير واحد مائة من الإبل**) الإبل اسم جنس جمعى لا واحد له من لفظه كخيل وغنم، والذين أعطاهم، صلى الله تعالى عليه وسلم، مائة ناس كثيرة منهم أبو سفيان وابنه معاوية، والحارث بن هشام، وقد عدهم البرهان الحلبى، وقال: إنهم يبلغون ستين من المؤلفة قلوبهم، وكذلك ذكر الشيخ قاسم فى تخريج أحاديث هذا الكتاب.

(**وأعطى صفوان بن أمية مائة ثم مائة ثم مائة**) وصفوان بن أمية هو ابن خلف بن وهب بن خزاعة بن جمح قرشى، له صحبة، وكنيته أبو وهب أسلم يوم الفتح وشهد حنينا والطائف وهو مشرك، فلما أعطاه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الفىء ما ذكر قال: أشهد بالله ما طابت بهذا إلا نفس نبى، فأسلم، وروى له أصحاب الكتب الستة، وتوفى فى خلافة معاوية سنة اثنتين وأربعين بمكة، وعلى هذا فأعطاه مرارًا غنما وإبلا، فلا منافاة بينه وبين ما سبق، وعطاؤه له السابق كان من غنائم حنين، وهذا الحديث رواه مسلم.

(**وهذه**) أى الخصلة والسجية فى الكرم والعطاء (**كانت حاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قبل أن يبعث**) أى نبيا أو يرسل، (**وقد قال له ورقة بن نوفل**) ورقة بواو وراء مهملة مفتوحتين وقاف، وهو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى كان من أعقل أهل زمانه وأعلمهم، شاعر بليغ متأله، وكان يقرأ ويكتب الكتب القديمة بالعربية والعبرانية، ويتأله ويتعبد، ولذا سمى القس، وتهود فى أول أمره، ثم تنصر وهو ابن عم خديجة أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، وله أشعار كثيرة فى التوحيد، ولترهبه لم يكن له عقب، وورد فى الحديث: «لا تسبوا ورقة فإنى رأيت له جنة أو جنتين»[٢]، يعنى بذلك ما ورد من طريق آخر أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، رآه فى منامه فى الجنة، وعليه حلة خضراء أو بيضاء أو نحوه كثياب من حرير، وحلة من سندس، وكان حيا فى ابتداء الوحى إلى أن تنبأ رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، واجتمع بالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وآمن به كما فى أول البخارى، وقال: لئن أدركت زمانك لأنصرنك نصرًا مؤزرًا، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذ ذاك نبيا، ولم يؤمر بالدعوة، ومات ورقة بعد نبوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: رسالته، ولذا قالوا: إنه أول من آمن بالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الرجال، وهو ثان بالنسبة لخديجة، رضى الله

---

(١) أخرجه ابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٦١/١).

(٢) أخرجه البزار كما فى مجمع الزوائد (٤١٦/٩)، والحاكم (٦٠٩/٢).

تعالى عنها، ولذا عرفوا الصحابى بأنه من اجتمع بالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، مؤمنا به، ولم يقولوا بالرسول، وهذا مما ينبغى التنبه له، وفى نظم السيرة للعراقى فى ذكر ورقة:

فهو الذى آمن بعد ثانيا وكان برا صادقا مواتيا
والصادق المصدوق قال: إنه رأى له تخضخضا فى الجنة

وهذا المذكور هو الصحيح من أنه صحابى، وقيل: إنه ليس بصحابى لأنه لم ير النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يؤمن به بعد بعثته، وعليه جماعه محققون، وقول المصنف رحمه الله تعالى، وقد قال إلخ إن كانت الجملة معطوفة على ما قبلها، فهو صادق على القولين، وإن كانت حالا من الضمير فى قوله: قبل أن يبعث يكون على القول الثانى، وهو مؤمن على كل حال، ولذا رآه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الجنة، والأكثر من علمائنا على أنه صحابى.

(إنك تحمل الكل) هذا بعض من حديث صحيح رواه الشيخان، لكن قال السيوطى رحمه الله فى تخريجه القائل له، صلى الله تعالى عليه وسلم، هذا: إنما هو خديجة، رضى الله تعالى عنها، فى قصة مكالمتها لورقة فى شأن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما رأى جبريل، عليه الصلاة والسلام، فى أول أمره، وخاف على نفسه منه، وكذا اعترض عليه الشيخ قاسم فى تخريجه أيضًا، فقال: لا أعلم هذا من قول ورقة، رضى الله تعالى عنه، والذى فى صحيح البخارى وغيره أنه من قول خديجة، رضى الله تعالى عنها، وما قيل من أن القاضى جليل القدر لا يخفى عليه مثله، ولا يبعد صدوره من ورقة لا يجدى نفعا مع نقل الصحيحين خلافه، وليس مثله محل بحث، ولكل صارم نبوة، ولكل جواد كبوة.

والكل بفتح الكاف وتشديد اللام مصدر بمعنى الكلال، وهو الإعياء، وفسر بالثقل، فقيل: إنه لازم معناه، وهو المناسب للحمل لأنه لا يقال حمل الإعياء، والذى فى البخارى قيل: هذا من قولها أيضًا حين قال لها، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما رأى جبريل عليه الصلاة والسلام: لقد خشيت على نفسى، وهى التى قالت: كلا والله لا يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل.

(وتكسب المعدوم)، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، وتصدق الحديث وتؤدى الأمانة.

والحديث فى أول البخارى، والكلام عليه مفصل فى شروحه، وحمل الكل هو

كقول العرب فى المدح: هو حمال أثقال أى يحمل ثقل غيره من الضعفاء والعيال، وإعانة الخلق بالإنفاق عليهم وإطعامهم وإعطائهم كل ما يحتاجون إليه، وكفالة الأيتام وغيره من وجوه البر، وهو استعارة شاع فى هذا المعنى.

وتكسب قال ابن قرقول، بفتح التاء وكسر السين المهملة هى أكثر الروايات وأصحها أى تكسب لنفسك بتحصيله ما يهم، وقيل: تكسب غيرك أى تعطيه لأن كسب جاء لازما ومتعديا، وأنكر الفراء وغيره أكسبه فى المتعدى، وصوبه ابن الأعرابى وأنشد:

فأكسبنى مالا وأكسبته حمدا

فيتعدى بالهمزة لمفعولين، وكسب يتعدى لمفعول، وقيل: يتعدى لمفعولين كأكسب والمعدوم الشىء الذى لا وجود له، وأما الفقر فيقال له: معدم كمكرم قال الشاعر:

قالت بنات العم يا سلمى وإنن كان فقيرا معدما قالت وإنن

قيل: ويطلق عليه معدوم أيضًا، لأنه كالمفقود لفقره، فأحد المفعولين محذوف إن بنى للمعلوم، ومذكور إن بنى للمجهول، والمراد على الوجهين أنك تعطى الناس الفقراء ما لا يجدونه عند غيرك، لما فيك من مكارم الأخلاق، وقول الخطابى رحمه الله تعالى صوابه المعدم بلا واو يريد أنك تعطى العادم الفقير الذى لا يجد شيئا، خطأ لأن هذه الرواية صحيحه مشهورة عند رواة الحديث، وفيما خشيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، على نفسه وجوه، وأصحها أنه خشى الهلاك من شدة الرعب، أو تعييرهم إياه، فأرادت خديجة، رضى الله تعالى عنها، دفع ذلك الذى خشيه بقولها المذكور، أى لا تخف فإنك لا يصيبك مكروه، لما فيك من جميل الصفات.

ثم ذكر قصة هوازن، وهى صحيحة رواه البخارى وغيره، فقال: (**ورد على هوازن سباياها وكانوا ستة آلاف**) نفس من النساء والذرية غير الأموال التى من غنائمهم لما غزاهم، وكانت أربعة وعشرين ألفا من الإبل وأكثر من أربعين ألف شاة من الغنم، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، والأوقية أربعون درهما.

وعن ابن فارس أنه قوم ما وهبه لهوازن، فكان خمسمائة ألف ألف، وقيل: ستمائة ألف ألف، وهوازن اسم قبيلة منسوبة لهوازن بن أسلم، وكان يسكن حنينا، وهو كما يأتى موضع سمى بحنين بن نابة بن مهلاييل، وغزوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، تسمى غزوة حنين، وغزوة هوازن، وكانت فى شوال أو فى رمضان، وأمرها معروف مفصل فى السير، ولما غزاهم وحاز غنائمهم قدم وفدهم على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهم أربعة عشر رجلا رئيسهم زهير بن صرفة، وفيهم أبو برقان عم رسول الله،

صلى الله تعالى عليه وسلم، من الرضاعة، فسألوه أن يمن عليهم بما أخذ منهم لما بينهم وبينه من مناسبة الرضاعة، فقال لهم: أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئا، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وما للناس يسئل منهم، فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وقال جماعة من المؤلفة أما ما لنا فلا، فأخذه، صلى الله تعالى عليه وسلم، منهم قرضا على أن يعوضهم عنه من أول مال يجىء، فسلموهم جميعا، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، كساهم، وإنما فعل ذلك لأنه كان بعد القسم، وليس للإمام أن يمن بعده لتعلق حق الغير به، والسبايا جمع سبية يعنى مسبية، قال التلمسانى: ولا يكون السبى إلا فى النساء.

(وأعطى) أيضًا **(العباس)** بن عبد المطلب عم الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما رواه البخارى عن أنس تعليقا **(من الذهب ما لم يطق حمله)**، وقد أتى بمال من البحرين، وكان أكثر مال أتى، فنثر فى المسجد، فأتاه العباس، رضى الله تعالى عنه، وقال: أعطنى فإنى فاديت نفسى وعقيلا، فقال له، صلى الله تعالى عليه وسلم: خذ فحشا فى ثوبه، ثم ذهب ليقله، فلم يستطع، فقال: من يرفعه؟ فقال: لا، فقال: فارفعه أنت على، فقال: لا، فنثر منه، ثم ذهب يقله فلم يقدر، فقال له كالأول، فنثر منه، ثم احتمله على كاهله، وانطلق، فأتبعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بصره تعجبا منه، ولم يقم عليه السلام حتى فرقه، فلم يبق منه درهم، وإنما أعطاه لأنه خرج لبدر مكرها، وكان يخفى إسلامه، ثم فدى نفسه وعقيلاً كما فصلوه.

(وحمل إليه ﷺ تسعون) بتقديم المثناة الفوقية **(ألف درهم، فوضعت على حصير ثم قام إليها فقسمها، فما رد سائلا حتى فرغ منها)** رواه الحسن بن الضحاك فى شمائله مرسلا إلا أنه قال: ثمانون ألفا، وأخرجه ابن الجوزى فى الوفاء، وقال: سبعون ألفا كما قال الشيخ قاسم فى تخريج أحاديث الشفاء، والسيوطى فى تخرجه بلفظ: سبعين بتقديم السين على الموحدة، ويوافقه قول الصرصرى فى مديحه:

سبعون ألفا فضها فى مجلس   لم يبق منها عنده فلسان

وقوله حتى إلى آخره غاية لقوله قسمها، وقيل: لقوله فما رد سائلا، وليس المراد أنه يرد بعد الفراغ، فهو على حد قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن الله لا يمل حتى تملوا»(١).

---

(١) أخرجه البخارى (٢/٦٨، ٣/٥١، ٧/٢٠٠)، ومسلم (٧٨٢/٢١٥)، وأحمد (٦/٤٠، ٦١، ٨٤، ١٢٢، ١٩٩، ٢٦٨)، وابن ماجه (٤٢٤١)، والبيهقى (٣/١٠٩)، وابن حبان (٦١٥).

(وجاءه رجل فسأله) عطاء شيء يحسن به له، **(فقال: ما عندى شيء)** و لم يقصد منعه بذلك حتى لا ينافى ما مر من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما قال لسائل: لا قط، لأن المراد أنه لم يمنعه ما سأل من متاع الدنيا، وإنما مراده إخباره بعذره فى عدم التعجيل بدليل قوله: **(ولكن ابتع على)** بموحدة ساكنة بعد همزة الوصل ومثناة فوقية مفتوحة وعين مهملة افتعال من البيع بمعنى الشراء، فإنه يطلق عليهما، وفى القاموس: ابتاعه اشتراه، أى اشتر بثمن يكون ذلك الثمن على وفى ذمتى، كذا ثبت فى الحديث، وفى شرح الدلجى أنه بتقديم المثناة الفوقية على الموحدة أى اشتر واستلف ما تختار انتهى، وليس هذا ضمان، بل وعد منه إلا أن وعده، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان ملتزم الوفاء، لأن وعد الكريم دين، ولذا صح أنه لما توفى نادى أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: من كان له عند رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عدة أو دين فليأتنا، فجاءه جابر، رضى الله تعالى عنه، وقال: إن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعدنى كذا فأعطاه له.

(فإذا جاءنا شيء) مما من الله به من الغنائم أو غيرها، وفى قوله: جاءنا يعنى معاشر المسلمين. إشارة إلى أنه مال الله لعباده لا لى وحدى **(قضيناه)** أى أديناه، ويحتمل أن الضمير هنا وفيما قبله للتعظيم أى قضيته قضاء أنال به التعظيم منه تعالى، واختاره بعضهم، ولذا لم يقل جاءنى وقضيته مع قوله على فتأمل، والقضاء يشعر بأنه لزم ذمته كالدين. **(فقال عمر، رضى الله عنه: ما كلفك الله ما لا تقدر عليه، فكره، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك)** أى بدا فى وجهه الشريف أثر عدم رضاه به، لأن فيه كسر خاطر السائل، ولأن مثله لا يعد تكليفا لما قدره له لما عوده الله من فيض نعمه عليه.

(فقال رجل من الأنصار) كان حاضرًا لما رأى من كراهية رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك **(يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالا)** قال البرهان: هذا الرجل لا أعرفه، وفى حفظى أن القائل بلال، رضى الله تعالى عنه، لكنه مهاجرى لا أنصارى، فيكون قد قال ذلك بلال والأنصارى، فإن الذى فيه ذكر بلال قصة أخرى المأمور فيها بالإنفاق بلال، وهو ما رواه الطبرانى والبزار مسندًا عن ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، قال: دخل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، على بلال، وعنده صبرة من تمر، وروى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال له يوما: أطعمنا يا بلال؟ فقال: ما عندى إلا صبرة خبأتها لك ولضيفك، فقال: «أما تخشى أن تقذف بها فى نار جهنم، أنفق يا بلال، ولا تخش من ذى العرش إقلالا»(١)، ومن العجب إيراد هذا هنا،

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١/٣٤٤)، والشجرى فى أماليه (٢/٢٠٧)، وأبو نعيم فى الحلية (٢/٢٨٠، ٦/٢٧٤).

ولا مناسبة له بما نحن فيه.

ووقع فى بعض كتب الحديث أنفق بلال ووجه بتوجيهات، منها أن أصله بلالى بالإضافة لياء المتكلم وحذف حرف النداء وإبدال الياء ألفا كيا غلاما، وقيل بلال هنا ليس علما بل فعال من البلل أى إنفاقا رطبا تبل به قلوب آكليه، ولو قيل: إنه رد لأصله من النصب وأطلق لمشاكلة إقلالا لم يبعد، وقد أخرجه العسكرى فى الأمثال مرفوعا، وفى الطبرانى، أنفق يا بلال، ومعنى إقلالا أن يقل الله الرزق ويجعله قليلا؛ لأن لكل منفق خلفا، وقوله: لا تخش نصف بيت وقع اتفاقا، وقيل: بلالا كلمتان أى بغير لا، ويأباه رواية يا بلال بحرف النداء، والذى رواها المصنف رحمه الله، ولا تخف دون لا تخش كما مر، وقول بعض الشراح: الصواب: لا تخش، ليصير موزونا غير صواب من وجهين.

(فتبسم، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعرف البشر فى وجهه) بانبساطه وتهلل أساريره، **(وقال: بهذا أمرت)** أى بالإنفاق من غير مخافة فقر، والتبسم انفتاح الفم من غير قهقهة، وهو مبادى الضحك.

وقد استشكل هذا بأن الله أمره بقوله: **﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾** [الإسراء: ٢٩].

قال فى الكشاف: لأن الإسراف غير محمود، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، ينفق جميع ما عنده ويجوع حتى يربط الحجر على بطنه، وأجاب القاضى أبو يعلى بأن المراد بهذا الخطاب غيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وغير خلص المؤمنين الذين كانوا ينفقون جميع ما عندهم عن طيب قلب، لتوكلهم وثقتهم بما عند الله، أما من كان ليس كذلك يتحسس على ما ذهب منه، فالمحمود منهم التوسط، وهم الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا و لم يقتروا؛ لأنهم لا صبر لهم على الفاقة، ولذا صعب عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كلام عمر، رضى الله تعالى عنه، لما راعى ظاهر الحال وأمره بصيانه المال، شفقة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعلمه بكثرة السائلين له وتهافتهم عليه، ولكل مقام مقال، والأنصارى راعى حاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلهذا سره كلامه، فقوله: بهذا أمرت إشارة إلى أنه أمر خاص به وبمن يمشى على قدمه.

وقوله: **(ذكره الترمذى)** إشارة إلى من روى فى الحديث، **(وذكر عن معوذ بن عفراء)** ذكر بالبناء للمجهول قال السيوطى: ذكر هذا الحديث الترمذى فى الشمائل والطبرانى عن الربيع بنت معوذ، وسنده حسن يعنى أن المذكور إنما هو الربيع بنت معوذ بضم الراء المهملة والتصغير فهو مشدد الياء التحتية اسم امراة منقول من مصغر الربيع،

وكذا قال البرهان، وقال: لعله سقط من النسخ لفظ الربيع، أو وقف عليه القاضى رواية عن معوذ إلا أن معوذا لا أعلم له رواية، ووقع فى نسخة على الصواب، ومعوذ بضم الميم وفتح العين المهملة وكسر الواو المشددة، وحكى ابن قرقول فتحها وغيره لا يجيزه، وكذا ضبطناه عن الصدفى، ثم ذال معجمة، وقال التلمسانى: قيل: إن الدال مهملة مع الفتح والكسر، والأول أولى، وعفراء بعين مهملة وفاء ساكنة وراء مهملة وهمزة ساكنة ممدودة اسم أمه، وهى عفراء بنت عبيد بن ثعلبة، وشهر بذلك، واسم أبيه الحارث بن رفاعة بن الحارث بن سواد، ومعوذ استشهد ببدر قتله أبو مسافع، وقيل: إنه هو الذى قتل أبا جهل، وفيه كلام فى السير.

(قال: أتيت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بقناع) بقاف مكسورة أو مضمومة فنون وألف فعين مهملة، ويقال: له قنع بكسر القاف، وقيل: قناع جمع قنع، وظاهر قوله:**(من رطب يريد طبقا)** أنه مفرد، وكذا قوله فى حديث آخر «يهدى لنا القناع» فيه كعب حيث أفرده **(وأجر زغب)** بفتح الهمزة وسكون الجيم وكسر الراء، وأصله أجرى فسقطت ياؤه كأدل فى جمع دلو، وهو جمع جرو بكسر الجيم بوزن علم، وهو صغير القثاء، وزعم ابن قرقول أن جروا جمعه أجرا على أفعال، وهو جمع جرو، وزغب بضم الزاى وسكون الغين المعجمتين جمع أزغب، وهو ما عليه زغب، والزغب صغار الريش والشعر، فشبه به ما يكون على الفاكهة ونحوها من الصغير.

وقوله: **(يريد قثاء)** بكسر القاف وضمها وتشديد المثلثة والمد وهى معروفة، وهى ضرب من الخيار، وألفه للتأنيث أو للإلحاق، وهو اسم جنس يطلق على الواحد وغيره، ولذا فسر به الجمع، ولا حاجة لتقدير من جنس هذه، وعلى كل حال فلا يقال: إن زغب هنا كالدينار الصفر كما توهم، وهو تفسير لقوله أجر، وروى الهروى أجن بالنون بدل أجر، وهو جمع جنه وهو الغصن الرطب، والمشهور الأول، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحب القثاء.

(فأعطانى ملأ كفه حليا وذهبا) بالواو العاطفة، وفى الترمذى: أو قال: ذهبا مما كان عنده مما جاءه من البحرين، وهذا مما يدل على الوهم فى رواية معوذ، فإنه قتل ببدر ومال البحرين إنما أتاه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد ظهور الإسلام، والحلى بفتح الحاء المهملة وسكون اللام بزنة ضرب، وجمعه حلى بضم الحاء وكسرها ووزنه فعول، وهو كل مصاغ من الذهب والفضة، وضبطه التلمسانى بالمفرد هنا، فإن كانت الرواية به فواضح، وإلا فتجوز قراءته بالوجهين.

(وعن أنس، رضى الله عنه كان النبى، صلى الله عليه وسلم، لا يدخر شيئا لغد)

أخرجه الترمذى، وشيئا أعم من المال والقوت، وهذا بالنسبة لأغلب أحواله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد وقع خلافه تعليما وتطييبا لقلوب أهله، وهو لا ينافى التوكل كما لا يخفى، والخبر بجوده أى فى بيان جوده، **(وكرمه كثير)** لا يحصى، فعن البحر حدث ولا حرج.

(وعن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، أتى رجل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم) هذا الرجل لم يبين، والحديث لم يخرجه السيوطى ولا غيره **(يسأله فاستلف له رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى اقترض، والسلف والقرض بمعنى **(نصف وسق)** بفتح الواو وكسرها وهو ستون صاعا، وعند أهل الحجاز ثلاثمائة وعشرون رطلا، وأربعمائة وثمانون رطلا عند أهل العراق على اختلافهم فى مقدار الصاع والمد كما قاله البرهان الحلبى، رحمه الله تعالى، والوسق أيضًا مصدر بمعنى ضم الشىء، **(فجاءه الرجل)** الذى اقترض منه **(يتقاضاه)** أى يطلب منه كما مر، **(فأعطاه وسقا)** ضعف ما أخذ منه.

(وقال) رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، له: **(نصفه قضاء)** لما أخذ منك، **(ونصفه نائل)** أى عطاء وهبه لك، ووقع فى بعض النسخ هنا زيادة سقطت من أكثر النسخ، وهى: **(وقد قال أبو على الدقاق من شيوخ المتصوفة المشاهير وعلمائهم النحارير، وتكلم فى الفتوة وهى غاية الكرم والإيثار على رأيهم واصطلاحهم فى ألفاظهم أن هذا الخلق لا يكون بكماله إلا لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن كل أحد فى القيامة يقول، نفسى، ويقول هو، صلى الله تعالى عليه وسلم: أمتى أمتى)** انتهى ما زيد هنا، وأثبتها محمد بن مرزوق فى شرحه، وتبعه التلمسانى وشرحها، فلنتمم الفائدة ببعض فوائدها وبيان ما فيها، فاعلم أن الدقاق هو أبو على الحسن بن على شيخ القشيرى، تفقه فى أول أمره على القفال وغيره، ثم انقطع حتى صار سيد وقته، والمتصوفة والصوفية واحدة صوفى، ويقال تصوف إذا انقطع إلى الله تعالى كما يقال تقيس إذا انتسب لقيس، وهذا لفظ مولد واصطلاح حدث بعد القرن الأول، فقال بعضهم: الصوفى هو المنقطع بهمته إلى ربه، وهم مقتدون بأهل الصفة، رضى الله تعالى عنهم، وهى سقيفة اتخذها ضعفاء الصحابة فى مسجد النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان قبل الإسلام حى يقال لهم صوفة يخدمون الكعبة، فقيل: الصوفى نسبة لهم، وقيل: لأنهم تجمعوا كما يتجمع الصوف، وقيل: إنهم لخشوعهم كصوفة مطروحة على الأرض، أو هم منسوبون للصوف للينهم وسهولة أخلاقهم أو للبسهم الصوف لاختيارهم الفقر، وهذا أظهر الأقوال لفظا ومعنى، وقيل: منسوب للصفة والأصل صفى فأبدل أحد حرفى التضعيف لينا، وقيل: إنه من الصفاء ففيه قلب، وصحح هذا بعضهم لقول

البستى:

تخالف الناس فى الصوفى واختلفوا جهلا فظنوه مشتقا من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صافى فصوفى حتى سمى الصوفى

ولا شاهد فيه لأنه على مذهب الشعراء، وقد بين المصنف رحمه الله تعالى معنى الفتوة.

* * *

(فصل وأما الشجاعة والنجدة)

فالشجاعة فضيلة قوة الغضب وانقيادها للعقل) هذا معنى ما قاله الحكماء فى علم الأخلاق،: أن الله تعالى ركب فى الإنسان قوة هى مبدأ الإقدام على الأهوال والمهالك، لتصوره أن من خاطر بالنفس ربما يهلك النفس، وأنه لا يغنى حذر من قدر، وهى للقوة الغضبية الشنيعة. والشجاعة انقياد هذه القوة لسلطان العقل والنفس الناطقة؛ ليكون إقدامها على حسب الروية من غير اضطراب، حتى يكون فعلها جميلا محمودا، وإفراطها للتهور وهو الإقدام حيث لا ينبغى، وتفريطها الجبن، وبهذا عرفت معنى الشجاعة، والجراءة أعم منها، وهذه تختص بالإنسان وفسرها ابن القوطية بالإقدام، وهو تفسير لفظى بالأعم.

(والنجدة) بفتح النون وسكون الجيم ودال مهملة كما فى النهاية، وهى شدة البأس، ويقال: هم أنجاد أمجاد أى أشداء شجعان، والواحد نجد ككتف وأكتاف وقيل: إنه جمع الجمع جمع نجد على نجاد ونجاد على أنجاد، وفسرها أهل اللغة بالشجاعة على عادتهم فى التسامح، فلا ينافى تغايرهما كما توهم، ويؤيده ما فى الحديث الآتى عن ابن عمر ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، واشتهرت النجدة فى معنى المساعدة **(ثقة النفس)** فى بعض الشروح: وثق الشىء بالضم وثاقة صلب واشتد، ومنه الوثاق وثقت به بالكسر أثق اعتمدت عليه وأتمنته كما فى القريب، والمصنف، رحمه الله تعالى، استعمل الثقة موضع الوثاقة، ولم أظفر به، قلت: هذا عجيب منه، فإنه يعنى اعتماد النفس على ربها أو اعتماده على نفسه **(عند استرسالها)** أى انطلاقها وأخذها فيما يؤدى **(إلى الموت)** إى استئناسها وطمأنينتها بلا خوف، كما ورد فى الحديث: «أيما مسلم استرسل إلى مسلم فغبنه» إلخ، وحديث «غبن المسترسل ربا» **(حيث يحمد فعلها دون خوف)** قيل: ومنشأه قوة النفس وشدتها، وليست غير الشجاعة، ففسر الشدة بما ينشأ عنها انتهى، وكلامه ماش على تغايرهما، والشراح لم يفرقوا بينهما، والفرق مثل الصبح ظاهر، فإن الشجاعة جراءة

وإقدام يخوض به المهالك كما ينبغي، والنجدة ثباته على ذلك مطمئنا من غير خوف من أن يقع على الموت، أو يقع الموت عليه حتى يقضى الله له بإحدى الحسنيين الظفر أو الشهادة، فيحيى سعيدا أو يموت شهيدا، فتلك مقدمة وهذه نتيجتها، ولذا أخرها المصنف فى الذكر.

(وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، منهما) أى من الشجاعة والنجدة **(بالمكان الذى لا يجهل)** أى كان متصفا بهما على أعظم وجهه، ومشتهرا بذلك اشتهارا لا يخفى على أحد، وعدم جهل المكان لعلوه وشرف بنائه كالجبل والقصر، فكنى بذلك عن علو قدره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشهرته على حد قوله:

إن الشجاعة والسماحة والندى ... فى قبة ضربت على ابن الحشرج

(قد حضر المواقف الصعبة) أى مواضع القتال الشديدة ومصافها، فجعلها نفسها صعبة لصعوبة ما فيها.

(وفر الكماة والأبطال عنه غير مرة) الفرار الرجوع بسرعة، والكماة بزنة قضاة جمع كمى على خلاف القياس؛ لأنه مخصوص بفاعل لمعتل، أو هو جمع كام بمعنى كمى وإن لم يسمع، وهو من تكمى إذا تستر، فأصله الشجاع اللابس للدرع والبيضة، ثم استعمل فى مطلق الشجاع كالمشفر، فإن قيل: إنه سمى به لأنه يستر شجاعته ووقائعه كان الثانى حقيقة أيضًا، لكن المعروف هو الأول، والأبطال جمع بطل كحسن وهو الشجاع المعروف بالشجاعة، سمى به لأنه يبطل عنده دماء الأقران، وغير مرة بمعنى مرات، والعرب تجعل غير مرة بمعنى مرات مع صدقه على مرتين للإبهام ونحوه من الفوائد.

(وهو)ﷺ **(ثابت لا يبرح)** أى لا يفارق مكانه كقوله: **(فلن أبرح الأرض)** أى لا أفارقها.

(ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح) أى لا يزول عن مقره، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وهاتان الحالتان تدل على ثباته، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى تارة يقبل على الحرب، وتارة يثبت كالجبل الراسى فلا يتحرك فإن أريد بإقباله مجرد توجهه بوجهه، وبعدم إدباره التفاته لغيرها، فهما حال واحدة، وأصل معنى التزحزح التباعد والتنحى عن المكان، قال الزبيدى: زحه إذا دفعه، كذلك زحزحه، وقيل: هو من زاحه يزيحه أو الزوح وهو السوق الشديد، ويقال: زحزحته فتزحزح، وانزاح إذا تباعد، ومنه المزاح، والصحيح الأول، وعطفه على الأدبار من عطف الخاص على العام، وكان من خصائصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه يجب عليه مصابرة

العدو وإن كثر وزاد على ضعف عسكره، ويأتى ما فيه، وأما الآن فإن زاد العدو على ضعف المسلمين جاز انصرافهم عن القتال، وإلا فلا يجوز إلا بالتحيز أو التحرف إلى فئة، فإن الفرار من الزحف كبيرة كما فصله الفقهاء والمفسرون.

(وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة) أحصيت بالبناء للمجهول من الإحصاء وهو العد والحفظ، والفرة المرة من الفرار وهو الهزيمة، والفار الهارب، **(وحفظت عنه جولة سواه، صلى الله تعالى عليه وسلم)** الجولة بفتح الجيم وسكون الواو واللام المرة من الجولان فى المكان، وقيل: هى الانكشاف والزوال عن الموقف من غير تقييد بالمرة، وفى النهاية جال واجتال إذا ذهب وجاء، ومنه الجولان فى الحرب، والجائل الزائل عن مكانه، وقول الصديق، رضى الله تعالى عنه: للباطل نزوة وللحق جولة، يريد به غلبة من جال على قرنه يجول انتهى، والجولة هنا صفة ذم بمعنى فرة لا غلبة، وفى الحديث «للباطل جولة ويضمحل»، والحاصل أن الجولة تكون بمعنى الفرار، وبمعنى الذهاب ليعود، والتردد فى المكان، ويصح إرادة كل منها هنا، ويكون صفة ذم ومدح.

ثم ذكر ما يدل على ما ذكره فقال: **(حدثنا القاضى أبو على الجيانى فيما كتب لى)** هو الإمام الحافظ أبو على الغسانى الجيانى بفتح الجيم وتشديد المثناة التحتية ثم ألف ونون وياء، نسبة لبلدة منها ابن مالك وأبو حيان وغيرهما من الأئمة، وقوله: كتب لى دون إلى يشعر بأنه وقع له ذلك مع ملاقاته بدليل قوله: حدثنا، فإن الكتابة تكون للغائب والحاضر وتتضمن الإجازة، وابن الصلاح رحمه الله تعالى لم يفرق بين كتب له وإليه إذ قال: كثيرا ما يوجد فى مسانيدهم ومصنفاتهم كتب إلى فلان، وهو معمول به عندهم معدود فى المسند الموصول، وفيه إشعار قوى بمعنى الإجازة وإن لم تقترن بها، وعن السمعانى وإمام الحرمين أنه أقوى من الإجازة المجردة قال: **(حدثنا القاضى سراج)** بكسر السين كالسراج المنير، وهو سراج بن عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن محمد بن سراج الأموى، توفى لست بقين من جمادى الأول سنة ثمان وخمسمائة، والذى روى عنه الجيانى وهو جد سراج بن عبد الملك كما قاله التلمسانى قال: **(حدثنا أبو محمد الأصيلى)** وهو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر الأصيلى، ويقال: الازيلى بالزاى والسين أيضًا نسبة لأصيلة بلدة بالمغرب معروفة كما قاله ابن قرقول، وقال الصاغانى فى الذيل: والأصيل بلدة من أعمال الأندلس قال: **(حدثنا أبو زيد الفقيه)** هو أبو زيد المروزى، وقد تقدمت ترجمته قال: **(حدثنا محمد بن يوسف)** هو الفربرى قال: **(حدثنا محمد بن إسماعيل)** هو الإمام البخارى، وقد تقدمت ترجمته قال: **(حدثنا ابن بشار)** الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن بشار بفتح الموحدة التحتية وتشديد

الشين المعجمة وألف وراء مهملة المعروف ببندار، روى عنه أصحاب الكتب الستة، عاش ثمانين سنة، ومات سنة اثنين وخمسين ومائتين، وقيل: إحدى وخمسين، وترجمته مفصلة فى الميزان قال: (**حدثنا غندر**) بضم الغين المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة وتضم وراء مهملة، وهو محمد بن جعفر الهذلى مولاهم البصرى الحافظ، روى له أصحاب الكتب الستة، توفى سنة ثلاث وتسعين ومائة، وترجمته فى الميزان أيضًا (**عن أبى إسحاق**) عمرو بن عبد الله السبعى الهمدانى الكوفى، أحد أعلام الحديث أخذه عن عدة من الصحابة وعدة من التابعين، وروى عنه خلق كثير، وله نحو ثلاثمائة شيخ وهو شبيه الزهرى فى الكثرة، وكان صواما قواما غازيا، مات سنة سبع وعشرين ومائة وله خمس وتسعون سنة، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، وله ترجمة فى الميزان سمع البراء بن عازب الصحابى المشهور، (**و**) قد (**سأله رجل**) وهذا الحديث أخرجه القاضى كما ترى عن البخارى فى الجهاد فى موضوعين باختلاف فى بعض ألفاظه، ورواه مسلم فى المغازى والنسائى فى السير (**أفررتم**) معاشر الصحابة (**يوم حنين عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم؟ قال: نعم**)، وحنين بن نابة بن مهلائيل، وبه سمى الموضع المعروف، وسميت غزوة حنين وأوطاس باسم الموضع الذى كانت فيه الوقعة سنة ثمان من الهجرة فى شوال، ووقع فى البخارى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، خرج إلى حنين فى رمضان، والمعروف أنه فى شوال، وما ذكره المصنف ورد فى بعض طرق الحديث، وفى بعضها أفررتم، ولم يذكر عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهى رواية مسلم، وعلى هذه الرواية قال النووى: جواب البراء، رضى الله تعالى عنه، من بديع الأدب، لأن تقديره أفررتم كلكم؟ فيقتضى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وافقهم على ذلك، فقال البراء: لا والله ما فر رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولكن جماعة من أصحابه جرى لهم كذا وكذا انتهى.

وهذا الجواب لا يتأتى إلا على الرواية الثانية، وكان ينبغى للشيخ أن يجيب بجواب غير هذا، لأن هذا الفهم احترز عنه السائل بقوله عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يجىء أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، انهزم قط، ولم ينقله أحد، وقد نقل الإجماع على أنه لا يجوز أن يعتقد أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، انهزم، ولا يجوز ذلك عليه، بل كان العباس وأبو سفيان، رضى الله تعالى عنهما، آخذين بلجام بغلته يكفانها عن إسراع التقدم إلى العدو، وكما يأتى، وقد صرح به البراء فى حديثه كذا قال البرهان، وقيل عليه إنه يأتى الجواب على ما رواه المصنف أيضًا، لأن قول السائل عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإن دفع وهم أنه ما فر معهم لا يدفع أنه فر بعد

فرارهم، فكان ثابتا فى ما طواه البراء فى الجواب الذى تقديره: فر من فر عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم الذى دفعه بقوله: **(لكن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم لم يفر)**، لأنه استدراك لدفع ما توهم من الكلام السابق، وإن لم يصرح به، وما قيل من أنه يمكن أن يقال: قصد البراء أن يبين أن فرارهم لم يكن بالكلية، وإنما معناه تحولنا عن وجه العدو، فجلنا جولة ثم عدنا، وكيف ندع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو أعز من أنفسنا أو هو من الأسلوب الحكيم، فكأنه لما سأله عن فرارهم قال له: هذا لا يهمك شأنه، وإنما الذى ينبغى أن تعتقده أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم لم يفر، تكلف ليس فى الكلام ما يدل عليه.

(ثم قال: لقد رأيته على بغلته البيضاء) الشهباء يقال لها فضة أهداها له فروة بن نفاثة كما فى مسلم، وفروة بفتح الفاء وإسكان الراء، ونفاثة بضم النون وبالفاء المخففة وبالمثلثة الجذامى بضم الجيم وبالذال المعجمة، وفى رواية ابن اسحاق: ابن نعامة بالعين والميم والمعروف الأول، وقال بعضهم: ركب، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حنين بغلة تسمى دلدل، وكذا قال النووى فى شرح مسلم والمعروف الأول، ودلدل أهداها له المقوقس، وكبرت وبقيت إلى زمن معاوية، رضى الله تعالى عنه، ويقال: أنه وهبها، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأبى بكر، رضى الله تعالى عنه، وكان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ست بغلات أو خمس كما ذكره الحفاظ، وذكروا من أهداها له.

(وأبو سفيان) بن الحارث بن عبد المطلب هو ابن عم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، واسمه المغيرة أو اسمه كنيتة، وكان أخاه من الرضاع، وآلف الناس به قبل النبوة، وكان يشبهه، صلى الله تعالى عليه وسلم أيضًا، وكان شاعرا مطبوعا، فلما ظهر الإسلام أظهر العداوة، وهجا البنى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأجابه حسان، رضى الله تعالى عنه، بما هو مذكور فى السير، ثم أسلم وحسن إسلامه وأبلى بلاء حسنا يوم حنين، وتوفى سنة عشرين، وصلى عليه عمر، رضى الله تعالى عنه، وهو أحد من ثبت يوم حنين، وهم عشرة أو أكثر كما فصله أصحاب السير.

(آخذ بلجامها) أى ممسك عنان بغلته، صلى الله تعالى عليه وسلم، والعباس، رضى الله تعالى عنه، من الجانب الآخر، فالتفت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأبى سفيان، وقال له: من أنت؟ قال: أخوك أبو سفيان بن الحارث فداك أبى وأمى فقال: نعم أخى ناولنى حصا من الأرض، فناولته ورمى به فأصاب أعينهم كلهم وانهزموا، وإنما أمسكا باللجام لئلا يسرع للاتصال بالعدو، ولما رأياه من إقدامه، صلى الله تعالى عليه وسلم ومسارعته، فأشفقا عليه بمقتضى المحبة الإسلامية والرحمة، وإن علما عصمته،

صلى الله تعالى عليه وسلم، وحماية الله تعالى له.

(والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: أنا النبى لا كذب وزاد غيره: أنا ابن عبد المطلب) هذه الرواية المشهورة بسكون الباء للوقف، ويروى بتحريك الباء فيهما، وروى بلا كذب، وعلى هاتين الروايتين لا إشكال، وعلى الرواية المشهورة إشكال مشهور، وهو أنه يكون موزونا من مجز وبحر الرجز، والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم لا يصدر عنه الشعر، لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩] فكيف يصدر عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم هذا ونحوه؟ كقوله:

هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

ووقع مثله فى كتاب الله تعالى وأجيب عنه بأن الرجز ليس من الشعر كما ذهب إليه بعضهم استدلالا بهذا، وبأن العرب تسمى قائله راجزًا لا شاعرًا، وبأن المراد بالشعر المنزه عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكون بنظم أنواعه، فيكون سجية، وما وقع نادرًا لا يعد قائله شاعرًا، ونظيره ما قاله الباقلانى فى كتاب الإعجاز: إن القرآن يقع فيه ذلك حتى يكون جامعًا لأنواع الكلام، وبمثله لا يكون القرآن شعرا كالبيت أو المصراع إذا وقع فى أثناء رسالة أو خطبة، والجواب المشهور أن الشعر هو الكلام الموزون المقفى بالقصد، وما وقع فى الحديث كهذا وفى القرآن كقوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ﴾ [الشعراء: ٣٥] لم يقصد وزنه، فلا يسمى شعرا، وهذا فى الحديث الصحيح، وأما فى القرآن فلا، لأن إذا سلمنا وقوعه فيه لابد أن يكون بالقصد والإرادة؛ لأنه لا يمكن أن يقع شىء فى الخارج بغير إرادته، وقد ذكرت هذا لبعض مشايخى فاستحسنه، ثم رأيته فى بعض شروح المفتاح، وقد أجبنا عنه فى كتابنا طراز المجالس، وكان ابن قدامة فى كتاب التكملة لحظ هذا، فذهب إلى أنه ليس فى القرآن موزون، لأنا لا نجوز أن يقرأه على هذه الطريقة، بل نصل الكلام ولا نقف على ما يشبه العروض والضرب، وحينئذ لا يكون موزونا، وهو كلام حسن، وقوله لا كذب إذا حرك يلزمه الوقف على متحرك، وهو لحن لا يصدر عمن هو أفصح الناس وفيه نظر، ونفيه الكذب عنه لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم مصون عنه مطلقا، أو معناه لا كذب فى الظفر والنصر وما وعدنى الله تعالى، أو لا أكذب فى دعوى النبوة، لظهور آياته ووضوح برهان معجزاته، والمقصود تثبيتهم حتى لا يفر أحد منهم، وقوله: زاد غيره إن كان الضمير راجعا للبخارى اقتضى صيغة أن هذه الزيادة لم تزد فى البخارى مع أنها فيه فى محلين من كتاب الجهاد، فكان ينبغى له إسقاط قوله: وزاد غيره إن رجع لغيره ممن سمع البراء، فالأمر واضح، وقوله: أنا ابن عبد المطلب كما يقول المحارب: أنا فلان

إشارة إلى شجاعته وصولته، وإنما انتسب، صلى الله تعالى عليه وسلم لجده دون أبيه لاشتهاره بذلك، لأن أباه مات شابا فى حياة جده وهو طفل، فكفله فكانوا يقولون له: ابن عبد المطلب، لعلو مقامه وكونه سيد أهل مكة، أو خصه بالذكر وقد انهزموا عنه تثبيتا لنبوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإزالة للشك فيها؛ لما عرف من رؤياه المبشرة لذلك كما أنبأ بذلك الأحبار والكهان، فكأنه يقول: أنا ذلك الموعود به، فلابد مما وعدت به، لئلا يفروا ويظنوا أنه مقتول أو مغلوب، وكان عبد المطلب رأى فى منامه أن سلسلة من فضة خرجت من ظهره، لها طرف فى السماء وطرف فى الأرض، وطرف بالمشرق وطرف بالمغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، فإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها، فقصها فعبرت بمولود له من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء والأرض، فلذلك سماه محمدًا كما قاله حين قيل له: لم سميته بهذا، وليس لأحد من آبائك ولا قومك مثله، فقال: رجوت أن يحمده أهل الأرض، وقيل: إن أمه لما حملت به قيل لها: إنك حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وضعته فسميه محمدا، وقوله: أنا النبى، إلى آخره ليس من الافتخار المنهى عنه، لأنه جائز فى الجهاد لإرهاب العدو وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم ينصر بالرعب كما مر، وهذا جار على عادتهم كقوله:

أقول له والرمح باقر بطنه   تأمل خفافا أننى أنا ذلكا

(قيل: فما رؤى يومئذ أحد كان أشد منه)، صلى الله تعالى عليه وسلم أى لم ير فى حرب هوازن أقوى وأشجع من النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد ركب بغلته، وقد ظاهر عليه درعا ومغفرا، وطاف على الصفوف يحضهم على القتال ويبشرهم بالفتح إن صدقوا وصبروا، وكانوا برزوا للقتال فى كتائب لم ير المسلمون مثلها عِدة وعُدة، وحملوا حملة واحدة، وكانوا أرمى الناس بالسهام وأعرفهم بالقتال، فانهزم الناس، والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم ثابت يلتفت يمنة ويسرة لمن فر منهم، وهو يقول: «يا أنصار الله، وأنصار رسول الله ﷺ، أنا عبد الله ورسوله»[١]، ثم تقدم بحربته أمام الناس، فلم يمض قليل حتى هزمهم الله، وإنما قال المصنف رحمه الله: قيل لأن هذه اللفظة بعينها لم تثبت عنده بطريق صحيح.

وأما كونه، صلى الله تعالى عليه وسلم أشد من حضر تلك الموقعة وأشجعهم، فهو مما لا شبهة فيه، ولا يمكن أحد إنكاره.

---

(١) أخرجه ابن سعد (٢/١/١٠٩)، وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/٢٢٤).

(وقال غيره) أى البخارى الذى الحديث السابق من روايته، لكنه لم يذكر فيه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم **(نزل عن بغلته)** فإنه فى رواية مسلم رواه سلمة بن الأكوع، رضى الله تعالى عنه، قال: لما غشوا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب الأرض، ثم استقبل بها وجوههم، وقال: شاهت الوجوه، فلم يبق أحد منهم حتى امتلأت عيناه من تلك القبضة ترابا، وهزمهم الله ولا شك أن النزول فى وقت المحاربة فيه من الشجاعة ما لا يخفى، وتسميه العرب نزالا، **(فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين)** هذه حال مؤكدة، وهى قد تكون موافقة لعاملها معنى كهذه الآية ولى مدبرا، وقد تكون موافقة له لفظا كقوله:

أصخ مصيخا لمن أبدى نصيحته.

والأول أقوى لما فيه من ترك التكرار بحسب الظاهر، وفى قوله: ولى المسلمون إن أريد جميعهم مجاز بجعل الأكثر بمنزلة الجميع، وإلا فلا يجوز خلافا لمن ظنه، وقد ثبت جماعة من المسلمين اختلف فى عددهم كما مر، وفصل فى السير وكتب الحديث.

(وذكر مسلم) فى صحيحه رواية **(عن العباس)**، رضى الله تعالى عنه، عم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قال: فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى جعل وشرع فى فعل ذلك **(يركض بغلته نحو الكفار)** أى يسوقها ويسرع بها، والركض الضرب بالرجل، فمتى نسب إلى الراكب فهو إعداء مركوبه نحو ركضت الفرس، ومتى نسب إلى الماشى فوطأ الأرض نحو قوله: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾ [ص: ٤٢]، ونحو منصوب على الظرفية أى فى جهتهم، **(وأنا آخذ بلجامها)**.

أى ممسكه **(أكفها)** أى أمنعها من السرعة **(إرادة أن لا تسرع)** أى لأجل إرادة أن لا تسرع نحو العدو تقتحم به، **(وأبو سفيان)** بن الحارث ابن عمه **(أخذ بركابه)** هذه رواية، وفى أخرى أن أبا سفيان كان يقود بغلته، صلى الله تعالى عليه وسلم آخذ بلجامها من أحد جانبيها، فلعله تارة كان يفعل كذا، وتارة كان يفعل كذا، فلا تعارض بين الروايات.

(ثم نادى) أى العباس، رضى الله تعالى عنه، وكان جهورى الصوت **(يا للمسلمين)** بفتح اللام الأولى لدخولها على المستغاث به، فإن دخلت على المستغاث له كسرت نحو يالله للمسلمين، وكان نداؤه، رضى الله تعالى عنه، بأمر رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم إذ قال له: يا عباس ناد أصحاب السمرة، فناداهم فعطفوا وقاتلوا حتى هزم الله

أعداء الدين، وقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه سلم: الآن حمى الوطيس.

وهذا الحديث نقله المصنف رحمه الله تعالى عن مسلم بالمعنى إذ ليس فيه نداء العباس، وخص العباس، رضى الله تعالى عنه، بذلك؛ لأنه كان صيتا يسمع صوته من ثمانية أميال، وأصحاب السمرة هم أصحاب الشجرة، وإنما خصهم بالنداء لأنهم لما بايعوه تحتها بايعوه على الموت، وأن لا يفروا، فذكرهم بذلك.

وفى خصائص الخيضرى كان يجب عليه صلى الله تعالى عليه وسلم مصابرة العدو، وإن كثروا، والأمة إنما يلزمهم الثبات إذا لم يزد عدد الكفار على الضعف، كذا قالوه من غير دليل، لكن ذكر الماوردى أن من خصائصه، صلى الله تعالى عليه وسلم أنه إذا بارز رجلا لم ينكف عنه، وأنه لا يفر من الزحف، وخوفه من القتل غير جائز، لأن الله عصمه انتهى.

(وقيل: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم إذا غضب ولا يغضب إلا لله لم يقم لغضبه شىء) أى لمهابة كل أحد له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وخوفه منه لا يتحرك عنده، وقال: شىء، دون أحد مبالغة، فإن العاقل وغيره سواء فى ذلك، ففى هذا إشارة إلى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعتريه الغضب والحدة أحيانا، ولكن ذلك غيرة على حدود الله لا لنفسه، ومناسبة هذا لما نحن بصدده من ذكر الشجاعة أن الغضب مقتض للبطش والإقدام، وهو من نمطها، وهذا بعض من حديث صحيح فى شمائل الترمذى.

(وقال ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما:) من حديث صحيح رواه الدارمى مسندا **(ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود)** تقدم الفرق بين الشجاعة والنجدة، فليس عطفه عليه عطف تفسيرى كما توهم، ونفى الأفضل هنا يفيد نفى المساوى بطريق الكناية، كما تقول: ما فى البلد أعلم من زيد كما تقدم تحقيقه، **(ولا أرضى من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى أكثر رضى منه؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم كان يرضى بكل شىء من ملبوس ومأكول وغيره، ويحتمل أن المراد بالرضى عدم الغضب أى كان أكثر حاله عدم الغضب، لأن الرضى يكون مقابلا للسخط، ويكون بمعنى الإرادة وعدم الكره، وبكل منهما فسر الرضى إذا كان صفة لله، وعلى ذلك مبنى اختلاف الأشاعرة والماتريدية فى رضى الله للكفر فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، والظاهر أن هذا مراد المصنف؛ لأنه المناسب لما قبله، وهذا الحديث رواه أحمد والنسائى والطبرانى والبيهقى، قيل: عطفه أجود على أنجد لما بينهما من المناسبة، فإن الجواد لا يخاف الفقر، والشجاع لا يخاف الموت كقوله:

إن الذى جمع السماحة والنجـــ دة والـــبر والتقـــى جمعـــا

ولأن الأول بذل النفس، والثانى بذل المال، والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

(وقال على، رضى الله تعالى عنه: إنا كنا إذا حمى البأس) بالموحدة وبهمزة أو ألف وهو الشدة، والمراد به الخوف أو الحرب، وحمى بزنة علم أو قد، ففيه استعارة مصرحة أو مكنية أى اشتد القتال، وهذا معنى ما وقع فى الرواية الأخرى: حمى الوطيس، فإن الوطيس التنور كما مر، وذلك أبلغ مع نكتة؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم قاله فى غزوة أوطاس على ما تقدم مع الكلام عليه بما لا مزيد عليه.

(ويروى إذا اشتد البأس)، وهذه الرواية مفسرة للأولى، **(واحمرت الحدق)** جمع حدقة، وهى ما تحت الأجفان، واحمرارها يكون عند الغضب، لأن الدم يهيج فيه، وفى الحديث «الغضب جمرة تتوقد فى قلب ابن آدم» أما ترى انتفاخ أوداجه واحمرار عينيه، وفسر بشدة الغضب وهو غير مناسب هنا، وإن كان كل عدو غضبان على عدوه، ولذا فسره بكثرة الموت، والظاهر أنه كناية عن زيادة هيجانها، لأنه يقال: اشتعلت وأوقدت، ومن قرب من النار ولازمها تحمر عينه، فالمعنى اشتد القتال ودام مدة.

(اتقينا برسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم) أى جعلناه وقاية لنا من العدو بأنه يتقدم علينا، فيدفع العدو ونحن خلفه كما يشير إليه قوله: **(فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه)**، ولذا أمسكوا بغلته، صلى الله تعالى عليه وسلم يوم حنين كما مر، ولم ينكر عليهم، وقد صارت هذه سنة فى الملوك وقت القتال حتى أن آل عثمان يقيدون فرسه.

(ولقد رأيتني) بضم التاء، وهذا من خصائص أفعال القلوب وما ألحق بها من رأى البصرية والعلمية أن يكون فاعلها ومفعولها ضميرين متصلين لشىء واحد، ورأى هذه بصرية كما فى قوله:

ولقد أرانى للرمـــاح دريئـــة من عن يمينـــى تـــارة وأمامى(١)

وقد اختلف فى تعليل هذا كما فصل فى كتب النحو، وكان الظاهر لقوله بعده: **(يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** أن يقول: رأيتنا فكأنه عدل عنه إشارة إلى أن كل أحد مشغول بنفسه لا يرى غيره، ومعنى نلوذ نسير ونلتجىء إليه، قال عز وجل: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور: ٦٣].

(وهو أقربنا إلى العدو) منا لشدة شجاعته، صلى الله تعالى عليه وسلم، والمراد بالعدو

---

(١) البيت من الكامل، وهو لقطرى بن الفجاءة فى ديوانه (ص ١٧١)، خزانة الأدب (١٠/٥٨)، الدرر (٢/٢٦٩)، شرح التصريح (٢/١٠)، المقاصد النحوية (٣/١٥٠).

الكفار، **(وكان من أشد الناس يومئذ بأسا)** أي نكاية في العدو كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤]، كما قاله الراغب، وهذا الحديث أخرجه أحمد والنسائي والطبراني والبيهقي في الدلائل من طرق عنه، وأخرج مسلم بعضه من حديث البراء بن عازب، رضي الله عنه، كما قاله السيوطي في مناهل الصفا، **(وقيل: كان الشجاع هو الذي يقرب منه، صلى الله تعالى عليه وسلم إذا دنا العدو)** أي قرب من المسلمين وقت المقاتلة، **(لقربه)** أي النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم **(منه)** أي العدو، وهذا من كلام البراء بن عازب، رضي الله تعالى عنه، الذي رواه مسلم في صحيحه، ولذا قيل: إن قول المصنف رحمه الله قيل: ليس في محله لإيهامه ضعفه.

(وعن أنس، رضي الله عنه) هذا حديث صحيح اتفق عليه الشيخان **(كان النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، أحسن الناس)** كلهم خَلقا وخُلقا، **(وأجود الناس)** أي أكثرهم عطاء وإحسانا، **(وأشجع الناس)** أفعل تفضيل، ولا وجه لما قيل: إنه للتعجب ثم ذكر ما يدل على شدة شجاعته، صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: **(لقد فزع أهل المدينة)** اللام في جواب قسم مقدر، والمدينة مدينة الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم علم لها بالغلبة، والفزع انقباض ونفار يعترى المرء مما يخاف، وهو قريب من الجزع، ولذا يقال: خفت الله، ولا يقال: فزعت من الله تعالى، كما قاله الراغب قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، أي من دخول النار، ويكون الفزع بمعنى الاستغاثة قال:

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع(١)

(ليلة) منصوب على الظرفية أي في ليلة، **(فانطلق ناس)** أي خرجوا من المدينة **(قبل)** بكسر القاف وفتح الباء بمعنى الجانب والجهة ظرف أي نحوه، يقال: ذهب قبل السوق، قال الله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ [المعارج: ٣٦]، ويكون بمعنى عند يقال: لي قبله حق، ويستعار للوسع والطاقة نحو: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ [النمل: ٣٧].

(الصوت) أي الذي سمعوه وخرجوا ليعرفوا خبره؛ لظنهم أنه عدو غار على من هناك، وكان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم خرج قبلهم وحده لذلك، فعرف

---

(١) صدر بيت، وعجزه: «كان الصراخ له قرع الظنابيب» وهو من البسيط، وهو لسلامة بن جندل في ديوانه (ص ١٢٣)، لسان العرب (٥٧٢/١)، مجمل اللغة (٣٦٥/٣)، تاج العروس (٢٩٨/٣)، كتاب العين (١٦٥/٨)، تهذيب اللغة (٣٩٠/١٤)، الكامل (ص٣)، مجمع الأمثال (٩٣/٢).

جانب سمع الصوت منه **(قد سبقهم إلى الصوت)** أى المكان الذى سمع الصوت من جهته، **(وقد استبرأ الخبر)** بمهملة ومثناة فوقية وموحدة وهمزة، وقد تبدل ألفا أى وقف صلى الله عليه وسلم على حقيقته، وفى الأساس استبرأت الشىء طلبت آخره، لأقطع الشبهة عنى، واستبرأ الأرض قطعها انتهى حال كونه راكبا **(على فرس لأبى طلحة)** زيد بن سهل بن الأسود بن حرام الأنصارى الصحابى، وكان ذلك الفرس يسمى المندوب أى المطلوب، أو لأنه كان فيه ندب أى أثر جرح **(عرى)** بضم العين وسكون الراء المهملتين مجرور صفة فرس، ويقال فى الآدمى: عريانا إذا لم يكن له لباس ولغيره عرى، وقيل: إنه عرى بضم العين وكسر الراء وتشديد المثناة التحتية بمعنى عرى، وليس فى اللغة ما يساعده أى ليس على ظهره شىء من سرج أو غيره، قال فى المغرب: فرس عرى لا سرج عليه ولا لبد، وجمعها عرى لا يقال فرس عريانا كما لا يقال رجل عرى، واعرورى الدابة ركبها عريانا، ومنه كان عليه الصلاة والسلام يركب الحمار معروريا، وهو حال من ضمير الفاعل المستكن، ولو كان من المفعول لقيل معرورى.

(والسيف فى عنقه) أى حمائله معلقة فى عنقه الشريف متقلدا به، صلى الله تعالى عليه وسلم.

وأعلم أن هذا هو السنة فى حمل السيف كما قاله ابن الجوزى، لا شده فى وسطه كما هو المعروف الآن.

(وهو يقول) لمن لقيه من أهل الفزع: **(لن تراعوا)** لن هنا بمعنى لم، ونفى الروع بفتح الراء بمعنى الخوف، والمراد نفى سببه أى ليس هناك شىء تخافونه، واستدل بهذا الحديث على طهارة عرق الخيل، وهذا حديث صحيح فى الصحيحين.

(وقال عمران ابن حصين) بكسر العين المهملة وسكون الميم وراء مهملة، وحصين بمهملتين كتصغير حصن، وهو صحابى خزاعى كان من فقهاء الصحابة وفضلائهم، رضى الله تعالى عنه، **(ما لقى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم كتيبة)** بفتح الكاف وكسر التاء المثناة فوقية وبالمثناة التحتية وباء موحدة هى الجيش المجتمع، وقيل: جماعة الخيل المغيرة من تكتبوا بمعنى تجمعوا، ومنه الكتاب لجمعه الحروف.

(إلا كان أول من يضرب) بسيفه ويقاتل، وهو من قصر الصفة على الموصوف، وهذا الحديث رواه أبو الشيخ فى الأخلاق، وفيه راو مجهول.

(ولما رآه)، صلى الله تعالى عليه وسلم **(أبى ابن خلف يوم أحد)** هو أبى بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، الكافر المشهور الذى طعنه رسول الله، صلى الله تعالى عليه

وسلم بحربته فى وقعة أحد، فوقع عن فرسه و لم يخرج منه دم وكسر ضلعه كما يأتى، فهلك عدو الله.

وقول المزى فى تهذيبه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم أخبرنا بأنه يقتل أبى بن خلف، فخدشه يوم بدر أو أحد فمات، ذكره بالترديد بين بدر وأحد لا وجه له، ويوم أحد ظرف لرؤيته.

(وهو يقول) حال من أبى: **(أين محمد؟)** سؤال عن المكان.

فإن قلت: كيف يسأل عن مكانه وهو قال أنه رآه؟ قلت: إن السؤال ليس على حقيقته، بل مجاز عن تمكنه منه وظفره به، أو التقدير أين يذهب محمد، أو الظرف ممتد وقع جميع ذلك فيه، فهو فى وقت واحد، وإن تقدم وتأخر **(لا نجوت إن نجا)** دعا على نفسه بالهلاك إن نجىَّ الله تعالى حبيبه ورسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد أجاب الله دعاءه فأهلكه، ونجا رسوله، صلى الله تعالى عليه سلم، والفأل موكل بالمنطق.

(وقد كان) أبى **(يقول للنبى صلى الله عليه وسلم حين افتدى يوم بدر)** قيل: يوم بدل من حين، وافتدى مبنى للفاعل ومفعوله محذوف أى افتدى أسيرا له، وهو ابنه عبد الله، والافتداء إعطاء الفدية لافتكاك الأسير، فالمراد بحين الافتداء يوم بدر بتمامه، لا الزمان الضيق الذى وقع الافتداء يوم بدر فيه، لأن الظاهر أنه لم يقل وعيده له، صلى الله تعالى عليه وسلم، الآتى إلا قبل أن يفتدى لا حين الافتداء، وقيل يوم بدر ظرف لمحذوف يدل عليه افتدى أى افتدى أسيره يوم بدر، فهو متعلق بأسيره أى من أسر يوم بدر، وهو ابنه، ولا يستقيم كونه بدلا من حين لأن الافتداء وقع بعد وقعة بدر بالمدينة، وأبى قال ما قال حين افتدى لا بعده، وكأن من قال إن ذلك وقع قبل أن يفتدى ظن أن الكفار لم يكونوا يدخلون المدينة بالأمان، فالأسر وقع ببدر والافتداء بالمدينة فلا تتأتى البدلية فتأمل.

(عندى فرس أعلفها) الفرس يقع على الذكر والأنثى، وأنثها هنا لأنها كانت أنثى، وقد ورد فى الحديث تذكيرها وتأنيثها بحسب المراد والقرائن، وقال التلمسانى: أعلفها هو الصواب، وفى السير أعلفه بضمير المذكر، وأصل الفرس الأنثى، وقد يقال للأنثى فرسة، وهو كلام مشوش، والذى فى الصحاح أنه يقع على الذكر والأنثى ويصغر على فريس، وإن أردت الأنثى خاصة لم تقل إلا فريسة بالهاء عن أبى بكر بن السراج انتهى، **فلا** وجه لقوله: الصواب، واسم فرسه العود بوزن الضرب، وعينه وداله مهملتان والعلف مأكول الحيوان.

(كل يوم فرقا) بفتح الفاء والراء المهملة ويجوز تسكينها، وقيل: لا يجوز، وهو مكيال يسع ستة عشر رطلا وتحريكه وتسكينه بمعنى، وقيل: المسكن مائة وعشرون رطلا، والمحرك ستة عشر رطلا.

(من ذرة) بيان للفرق بضم الذال المعجمة وفتح الراء المهملة المخففة وهاء نوع من الحبوب معروف، وقيل: إن غزوة أحد كانت فى شوال سنة ثلاث، وقيل: الظاهر أن المراد هنا الفرق بالتحريك، لأن الفرس لا يعلف ذلك المقدار كما لا يخفى.

(أقتلك عليها) صفة بعد صفة، أو هى جملة مستأنفة فى جواب سؤال مقدر، وقيل: إنها حال وهو بعيد وإن صح أن يكون حالاً منتظرة.

(فقال له النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم أنا أقتلك إن شاء الله) فحقق ما أوعده، وكان إنما علف فرسه لتشوقه لهلاكه سريعا كالحافر بظلفه على حتفه، ولكل باغ مصرع، **(فلما رآه)** أى رأى أبى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم **(يوم أحد)** اليوم على ظاهره، أو بمعنى مطلق الزمان، أو المراد به الواقعة على حد قولهم أيام العرب **(شد أبى)** ابن خلف الشقى أى عدا وأسرع، قال الراغب: يقال: شد فلان واشتد إذا أسرع، ويجوز أن يكون من قولهم: اشتدت الريح، وأصل معنى الشد القوة **(على فرسه على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** الجاران متعلقان بشد، وإن كان لا يجوز تعلق حرفى جر بمعنى بمتعلق واحد، إما لأنه قيد الشد والعدو بأنه على فرسه، لا على رجليه، ثم قيده به بعد تقييده بالأول، فيتغاير المتعلق معنى، لأن الأول يقيد به وهو مطلق، والثانى تعلق بالمقيد كما حققه صاحب الكشاف فى قوله تعالى : ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٥] أو الأول مستقر حال أى راكبا على فرسه، والثانى لغو.

وشد جواب لما الثانية دالا على جواب الأولى.

(فاعترضه رجال من المسلمين) أى حالوا بينه وبين رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم ليدفعوه ويصدوه عنه، أو قصدوا نحوه وجهته.

(فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم هكذا) أى تنحوا ولا تحولوا وتعترضوا بينى وبينه، فهكذا هنا اسم فعل أمر بمعنى اتركوا سبيله، قال السهيلى رحمه الله تعالى: فلا يعمل فيه ما قبله كما إذا قلت: جلس هكذا أى على هذه الحالة، أو يقدر له عامل تقديره: ارجعوا هكذا، ثم استغنى عنه وقام هكذا مقامه، وأصله مركب من هاء التنبيه وكاف التشبيه، وذا اسم إشارة، وإلى كونه انسلخ عن معناه أشار بقوله: **(أى خلوا طريقه)** أى اجعلوها خالية من حائل بينى وبينه، **(وتناول)** أى أخذ، صلى الله تعالى عليه

طريقه) أى اجعلوها خالية من حائل بينى وبينه، **(وتناول)** أى أخذ، صلى الله تعالى عليه وسلم بيده **(الحربة)** بوزن الضربة، وهى واحدة الحراب بوزن رجال، وهى قناة صغيرة سميت بها، لأنها من آلات الحرب، وقيل: إن هذه الحربة كانت للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأنه كان لا يرى مشاركة فى جهاده وسفره فى سبيل الله، ولهذا اشترى من أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، راحلته التى هاجر بها، والأظهر أنها كانت للحارث، وربما استعان بغيره من أصحابه كما أشار إليه بقوله: **(من الحارث بن الصمة)** بكسر الصاد المهملة وفتح الميم المشددة وهاء تأنيث، ومعناه الشجاع المصمم فى أموره، ثم نقل علمًا، وهو أعنى الحارث بن الصمة بن عمرو بن عتيك الأنصارى الصحابى شهد مع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم بدرا وغيرها من المشاهد، وقتل ببئر معونة.

وذكر ابن الأثير أن الذى ناول رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم الحربة كعب ابن مالك، وبين الروايتين مخالفة، وجمع بينهما بأنه تناولها من أحدهما فسقطت منه، فناولها له الآخر، أو أن أحدهما وهو الذى معه الحربة كان بعيدا منه، فناولها آخر قريبا منه، فسلمها بيده، ولابد من التوفيق فإن الروايتان صحيحتان والقصة واحدة.

(فانتفض بها انتفاضة) أصل معنى النفض بالنون والفاء والضاد المعجمة إزالة الغبار ونحوه عن ثوب أو شجر، قال أبو ذؤيب:

تنفض لهدة وتذود عنه ... وما تغنى التمائم والعكوف

ويقال نفض وانتفض إذا اهتز، ونفض الصبغ إذا أثر لونه فى غيره، وذكر نصيب عن بناته فقال:

نفضت عليهن لونى

وقلت فى أول قصيدة:

نفضت على صاغها أيام ... نفض البياض بها قليل قيام

وهو هنا استعارة أى قام بها قومة سريعة، وضمير بها للحربة، وما قيل إنه مستعار من انتفاض الطائر قال:

كما انتفض العصفور بلله القطر

غير مناسب هنا إلا أن يقال: باؤه للتعدية، والمعنى أنه هزها، وقيل معناه تحرك وحركها، والأبلغ الأحسن أن يقال، إنه استعارة تمثيلية يلزمها تشبيههم بأنهم كالذباب المؤذى الواقع المتهافت، فيفيد هجومهم عليه، وتشبيه نهوضه لهم بفحل اهتز ليزيل ذبابا وقع عليه لقوله: **(تطايروا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض)**، وتطايروا بمعنى

مهملة بعدها همزة ممدودة ذبابة لها إبرة، وفى نسخة البرهان بفتح العين إلا أنه لم يثبت، وقال القتيبى: الشعر جمع شعراء وهى ذباب صغار حمر تؤذى الدواب، وقيل زرق، وقيل كثيرة الشعر، وفى رواية تطاير الشعارير، وهى جمع بمعنى الشعر، وقياس واحده شعروى، وقيل: هى ذباب يجتمع على دبر البعير، وفى الروض الأنف: الشعراء ذباب صغير له لدغ، وفى المثل قيل للذئب: ما تقول فى غنيمة تحرسها جويرية؟ قال: شحم فى ظفر. قيل: فما تقول فى غنيمة يحرسها غليم؟ قال: شعراء فى إبطى أخشى خطواته، وهى سهام تتعلم الغلمان بها الرمى، وروى فزجله بالحربة أى رمى بها انتهى.

قيل: رواية الشعراء أنسب؛ لأن الواحد لا يتطاير، أقول: هذه زبدة القيل والقال، وما أنكر من فتح العين لا وجه له، فإن تحريك حرف الحلق لغة. قال بعض النحاة: إنها تطرد فيقولون فى بحر وشعر بحر وشعر، والشعراء ليس مفردا بل اسم جمع كالطرفاء، فلا وجه لما قيل: إن الأنسب الشعر، وقول بعضهم: الشعراء جمع شعر كأنه تحريف، واعلم أن ضمير تطايروا للكفار الذين كانوا هجموا مع أبى، وقيل: إنه للصحابة، رضى الله تعالى عنهم، وتطايرهم عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم بإذنه ليكشفوا له عن أبى، ولا يخفى أنه لا يناسب هذا بوجه تشبيههم بالشعراء، ولا تطايرهم كما لا يخفى.

(ثم استقبله) أى قام النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم ومشى إليه بالحربة، **(فطعنه فى عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مرارا)** تدأدأ بمثناة فوقية ودالين مهملتين وهمزتين أى تدحرج وسقط، وقيل: مال، وضمير منها للطعنة ومثله تدهده، وقيل: الهاء بدل من الهمزة، وفى رواية تردى أى وقع.

(وقيل:) لم يطعنه، صلى الله تعالى عليه وسلم فى عنقه **(بل كسر ضلعا من أضلاعه)** بكسر الضاد المعجمة وفتح اللام ويجوز تسكينها مع كسر الضاد وفتحها عظم معروف، وقال الأخفش: فى الجنب الأيمن تسع أضلاع، وفى الأيسر ثمان، وما نقص منه تام فى النساء، وهو الذى خلقت منه حواء، ولذا روى عن أبى حنيفة فى الخنثى المشكل أنه يحكم فيه بأنه أنثى بتمام أضلاعه وعكسه، وقال التلمسانى: رواية طعنه أقوى، لأن المعروف الطعن بالرمح، وفيه نظر، وقيل إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم طعنه، فوقع عن فرسه فكسر ضلعه، وفيه جمع بين الروايتين وهو حسن.

(فرجع) أبى **(إلى قريش)** وهو **(يقول: قتلنى محمد)** جملة يقول حالية أى قائلا، وعبر بالماضى لتحققه الموت، **(وهم يقولون: لا بأس بك)** البأس بهمزة ساكنة وتبدل ألفا كما مر، وهو اسم لا مبنى على الفتح، والبأس الشدة والموت والألم، وهذا هو المناسب، **ويقال:** لا بأس عليك ولا بأس بك للتسلية أو الدعاء له بأن لا يصيبه شىء من البأس،

وفى نسخة عليك بدل بك، وهما بمعنى.

(فقال: لو كان ما بى) من الألم والشدة التى أجدها فى نفسى موزعا وحالا **(بجميع الناس لقتلهم)** فكيف أتحمل أنا وحدى هذا وأسلم منه؟ **(أليس قد قال)**، صلى الله تعالى عليه وسلم حين توعده **(أنا أقتلك)**؟ قيل: أصله أقتلك أنا، فقدم المسند إليه للحصر أى أنا لا غيرى أقتلك وحدى لا يشاركنى أحد، ولا يساعدنى فى قتلك إلا الله حتى قيل: إن قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] نزلت، فالقصر قصر إفراد، والظاهر أنه قصر قلب، فهو المناسب للرد عليه أى أنا أقتلك لا أنت تقتلنى، فتدبر.

(والله لو بصق على لقتلنى) البصق رمى ماء الفم، ويقال بالصاد والسين والزاى، وإنما قال ذلك لتحقق صدقه، صلى الله تعالى عليه وسلم فيما قاله، **(فمات)** الملعون من تلك الطعنة **(بسرف)** بسين مهملة مفتوحة وراء مهملة مكسورة وفاء اسم موضع، وقيل اسم جبل قريب من مكة على ستة أميال أو سبعة أو تسعة أو اثنى عشر على اختلاف فيه، واسم مكان موته مناسب له لأنه كان مسرفا على نفسه كما قيل:

اختبر الأرض بأسمائها   واختبر الصاحب بالصاحب

(فى قفولهم) أى الكفار **(إلى مكة)** أى مات، وقد رجعوا من أحد إلى مكة، والقفول معناه الرجوع، وتسميتهم القافلة قافلة تفاؤلا برجوعها كما سمى الملدوغ سليما، فإنكار الحريرى وتخطئته فيه لا وجه له، وهذا الحديث صحيح رواه البيهقى فى الدلائل، عن عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب مرسلا، وعبد الرزاق فى مصنفه، والواقدى فى مغازيه، وابن سعد فى طبقاته، وقيل: إنه قال هذه المقالة بمكة لما خلص ابنه من الأسر ورجع به، وكان ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، يقول: إنه مات ببطن رابغ، وأن أسيرًا من المسلمين مر وهو أسير برابغ، فرأى بعد هدوء من الليل نارًا فهابها، فلما دنا منها خرج رجل فى سلسلة يصيح العطش، ومعه رجل يقول: لا تسقه فإنه أبىّ ابن خلف قتيل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقلت: سحقا له.

* * *

(فصل وأما الحياء والإغضاء)

الحياء ممدود، وهو فى اللغة ضد الوقاحة، وفعله استحيى يستحيى بيائين، وتحذف إحداهما تخفيفا، والإغضاء أصل معناه إرخاء الجفون قريبا من الانطباق، وهما متغايران

لغة وعرفا، ويدل عليه قول الفرزدق(١):

يغضى حياء ويغضى من مهابته فما يكلم إلا حين يبتسم

(فالحياء رقة) الرقة ضد الغلظ ورقة القلب أن لا يكون فيه قسوة وجفاء، قال الراغب: الرقة كالدقة لكن الدقة تقال باعتبار جوانب الشىء، والرقة باعتبار عمقه، وهى فى الجسم ضد الصفاقة، وفى النفس تضاد الجفوة والقسوة **(تعترى)** أى تعرض وتحدث **(وجه الإنسان)**، فيكون فيه ما يدل عليه كحمرته عند الخجل **(عند فعل ما يتوقع كراهته)** لم يقل ما يكره، لأن من يراه قد لا يكرهه، فالمراد ما من شأنه أن يكره، **(أو ما يكون تركه خيرًا من فعله)**، وإن لم يكره، وقال الراغب: الحياء انقباض النفس عن القبائح وتركها.

وفى الحديث: **(أن الله يستحى من ذى الشيبة المسلم أن يعذبه)**، وليس المراد به انقباض النفس لتنزه الله سبحانه وتعالى عنه، وإنما المراد به ترك تعذيبه، وقال النووى: هو خلق يمنع من القبيح ومن التقصير فى الحقوق، وقال الزمخشرى: هو تغير وإنكار يلحق من فعل أو ترك ما يذم به، تفصيل فى تفسير البيضاوى كما بيناه فى حواشيه فانظره.

(والإغضاء) فى عرف اللغة **(التغافل)** أى إظهار الغفلة ممن ليست فيه، والمراد التجاوز **(عما يكرهه الإنسان بطبيعته)** وإن لم يكره شرعًا، **(وكان النبى صلى الله تعالى عليه سلم أشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات)** جمع عورة، وهى كل ما يقبح إظهاره، ولذا كنى عن سوأة الإنسان، وعن المرأة بالعورة، وهى مأخوذة من العار **(إغضاء)** أى سكوتًا وتجاوزًا، والإغضاء يتعدى بعن وعلى، وعبر فى جانب الحياء بالأشدية، وفى الإغضاء بالأكثرية، لأن الحياء كيفية نفسانية تنشأ عنها كيفية حسية تقبل الشدة والضعف، والإغضاء فعل من الأفعال يكثر ولا تزيد كيفيته من حيث هو، وقيل: لأن الإغضاء نوع احتمال وحلم وعفو عمن وقع فى مكروه، وهو مسبب عن الحياء، والسبب أقوى باعتبار أنه منشأ للمسبب عنه، وفيه نظر، ثم استدل على أن هذه الصفة الحميدة موجودة فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: **(قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾** [الأحزاب: ٥٣] أى مكثهم فى بيت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، مستأنسين لحديث بعضهم لبعض ﴿كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣] الآية، ﴿كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]،

---

(١) البيت من البسيط، وهو للفرزدق فى ديوانه (١٧٩/٢)، أمالى المرتضى (٦٨/١)، شرح ديوان الحماسة للمرزوقى (ص ١٦٢٢)، شرح شواهد المغنى (٧٣٢/٢)، مغنى اللبيب (٣٢٠/١)، المقاصد النحوية (٥١٣/٢).

وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، بنى بزينب بنت حجش، و أولم بشاة وتمر وسويق، وأمر أنسا بدعوة الصحابة لذلك، فدعاهم فجعلوا يجيئون ويـأكلون ويخرجون، ويجىء آخرون إلى أن بقى ثلاثة نفر، فأطالوا المكث يتحدثون، فتأذى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بذلك، وكان شديد الحياء، فنزلت الآية فى حقهم أى أن ذلكم اللبث كان يؤذى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لضيق منزله، فيستحى منكم أن يأمركم بالخروج منه، وهذا من الآداب الشرعية، فيستحب لمن زار أحدًا ولو بدعوة أن يظهر القيام للذهاب، ثم يذهب ما لم يقل له: امكث عندى، وقد قال السلف، رحمهم الله تعالى: من زار وخفف، وقيل لبعضهم: هل نزل فى الثقلاء قرآن؟ فقال: نعم ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾، وللسيوطى تأليف لطيف فى هذا.

(حدثنا أبو محمد بن عتاب بقراءتى عليه) تقدمت ترجمته، وقيد روايته بقرائته عليه وهو يسمع وهو العرض، والصحيح صحة ذلك إلا أنه اختلف فى كونها دون قراءة الشيخ، أو مثلها، أو فوقها على ثلاث أقوال، وتفصيله فى ابن الصلاح، قال: **(حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد)** بن عبد الرحمن بن حاتم المعروف بابن الطرابلسى، وتكنيته بأبى القاسم غير مكروهة لاختصاصه بحياته، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ أو لأنه إنما يكره الجمع بين الاسم والكنية، والخلاف فيه مشهور كما سيأتى قال: **(حدثنا أبو الحسن القابسى)** بن محمد بن خلف الإمام الحافظ منسوب لقابس بلدة بالمغرب، وقد تقدمت ترجمته قال: **(حدثنا أبو زيد المروزى)** بفتح الميم وسكون الراء المهملة وفتح الواو والزاى، تقدم الكلام فيه وفى نسبته قال: **(حدثنا محمد بن يوسف)** هو الفربرى وقد تقدم قال: **(حدثنا محمد بن إسماعيل)** هو البخارى، وقد روى هذا الحديث مسندًا فى صفته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكذا أخرجه مسلم فى فضائله قال: **(حدثنا عبدان)** بفتح العين المهملة وسكون الموحدة والدال المهملة وألف ونون، وهو عبد الله بن عثمان بن جبلة بن أبى رواد العتكى المروزى أبو عبد الرحمن الحافظ، توفى سنة إحدى وعشرين ومائتين، وخرج له أصحاب الكتب الستة قال: **(أنبأنا عبد الله)** بن المبارك بن واضح الحنظلى التميمى الزاهد، شيخ خراسان ومسندها، له مناقب مشهورة، وروى عنه أصحاب الكتب الستة وغيرهم، وتوفى سنة إحدى وثمانين ومائة، وولد سنة ثمانية عشر ومائة، وقبره بهيت يزار قال: **(أخبرنا شعبة)** تقدمت ترجمته **(عن قتادة)** تقدم أيضا **(قال: سمعت عبد الله مولى أنس)** هو ابن أبى عتبة مولى أنس، رضى الله تعالى عنه، وقيل: اسمه عبيد الله مصغرًا، وذكره ابن حبان فى الثقات مكبرا، وهو يروى عن أنس وعائشة، رضى الله تعالى عنهما، وروى عنه كثيرٌ، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، وهو بصرى صدوق ثقة.

(عن أبى سعيد الخدرى) بن مالك بن سنان الخدرى، وقد تقدم الكلام عليه، وأن الخدرى بدال مهملة.

(كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أشد حياء من العذراء فى خدرها)، وهذا الحديث صحيح أخرجه الشيخان والترمذى وابن ماجه، والمصنف أخرجه من طريق البخارى، وحياء ممدود تقدم معناه، وبالقصر المطر، وهو منصوب على التمييز المحول عن الفاعل، والعذراء، بعين مهملة وذال معجمة وراء مهملة ومد: البكر الباقية بعذرتها، وهى جلدة يلتحم بها الفرج، فإذا جومعت زالت، فيقال: افتضها وأزال عذرتها، ومنه يقال لمن فعل ما لم يسبق إليه أبو عذرة وأبو عذرته، والخدر بكسر الخاء المعجمة وسكون الدال وبالراء المهملتين هو البيت، أو ستر فى جانب البيت، أو قبة تضرب لها.

فإن قلت: البكر فى خبائها بين أهلها وأبويها، وهى لا تحتجب عنهم، ولا تستحى منهم كاستحيائها من الأجانب، فكان الظاهر أن يقال: العذراء فى غير خدرها لما فيه من المبالغة.

قلت: المراد بكونها فى خدرها أنها لم تخرج بسبى وتزوج ونحوه؛ لأنها إذا خرجت بذلك قل حياؤها وزال حجابها، وقيل: المراد التعميم وأن العذراء فى خدرها أشد حياء؛ لكونه مظنة الاجتماع بها، والظاهر أن المراد تقييده بما إذا دخل عليها فى خدرها لا حيث تكون منفردة قاله ابن حجر، ولا يخفى ما فيه؛ فإنه لا دلالة فى اللفظ على ما قاله، فالحق ما سمعته أولا.

(وكان)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(إذا كره شيئًا عرفناه فى وجهه)** أى عرفنا أنه كرهه بعلامات تلوح فى وجهه الشريف كتغيره وغض بصره ونحوه، والمراد أنه إذا لم يكن فى حدود الله تعالى وحقوقه، فلا يؤخذ أحد بما يكره كما قال الصرصرى:

فاق العذارى فى الخدور حياؤه   لا جيد فيه لصاحب أو شانى

(وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، لطيف البشرة) تقدم معنى اللطف والبشرة بفتح الباء الموحدة والشين المعجمة والراء المهملة هى ظاهر جلد الوجه والجسد كله، ومنه البشارة لظهور آثار الفرح بها فى الوجه، وهذا كالعلة لمعرفة ذلك فى وجهه الشريف، لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، للطف بشرته يظهر فيها ذلك، وكذا قوله: **(رقيق الظاهر)** أى ما يظهر من بدنه رقيق يظهر فيه بسرعة آثار الانفعالات النفسية، ولا وجه لتفسيرها بأنه يستحيي كما قاله التلمساني.

(لا يشافه أحدا) أى لا يكلم، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أحدًا)**، ولا يواجهه **(بما يكرهه حياء وكرم نفس)** منصوب مفعول له أى يترك ذلك تكرما منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا خوفا ومداراة.

(وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها)، حديث رواه أبو داود فى سننه مسندًا **(كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل: ما بال فلان يقول كذا؟)** البال هو الحال والشان، وما استفهامية مبتدأ أو خبر عن بال، وجملة يقول حال أو مفسرة للبال.

(ولكن يقول: ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا؟) إشارة وكناية عما يكره، فلا يعين الصانع أو القائل، وفلان وفلانة كناية عن أسماء الآدميين، والفلان والفلانة كناية عن أسماء غيرهم.

(ينهى عنه ولا يسمى فاعله) بصريح اسمه، بل يكنى عنه، ونهيه عما أنكره مأخوذ من الاستفهام الإنكارى، وسياق الكلام فى قوله: ما بال، فلا يقال: إنه ليس فى الكلام نهى.

(وروى أنس، رضى الله تعالى عنه)، هذا الحديث رواه أبو داود والترمذى والنسائى قالوا: **(أنه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(دخل عليه رجل به أثر صفرة)** الصفرة اللون المعروف، والمراد بها لون الورس والزعفران يعنى أنه كان خضب بذلك فبقى عليه بقية منها، ولم يسم هذا الرجل، **(فلم يقل له شيئًا)** من نهيه عن ذلك ونحوه مما يكرهه كما أشار إليه بقوله: **(وكان)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لا يواجه أحدا بما يكره)** أى لا يخاطبه شفاها، ويقول له فى وجهه شيئا يكرهه، وإن قال له أحيانا فى غيبته، **(فلما خرج)** ذلك الرجل من مجلسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قال: لو قلتم له يغسل هذا)** أى أثر الصفرة والخضاب، **(أو ينزعها)** بفتح الزاء المعجمة يقال نزعه ينزعه كسأله يسأله إذا أزاله، والضمير للصفرة، والشك من الراوى وهما بمعنى، ولو شرطية جوابها محذوف لتذهب النفس كل مذهب، وتقديره أصبتم ونحوه، وقيل: إنها مصدرية أى وددت قولكم هذا، وخضاب هذا الرجل إن كان فى لحيته دل على منع خضاب اللحية بالحناء ونحوها، ولا يعضده ما فى البخارى عن قتادة، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: سألت أنسًا هل خضب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم؟ فقال: لا إنما كان شىء فى صدغيه أى شىء قليل من الشيب لا يحتاج للخضاب؛ لأنه لا يدل على تركه لأنه منهى عنه شرعًا، بل لعدم الحاجة إليه، وكذا ما روى عنه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يخضب قط، أى لعدم الحاجة إليه، إلا أنه روى عن أنس، رضى الله تعالى عنه، رأى شعر

رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، مخضوبا يعنى بعد موته كما نقله ابن الجوزى، أما قبله فاختلفت فيه الروايات، وروى جماعة أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، «كان يخضب بالصفرة والورس والزعفران»(١)، وكان عمر، رضى الله تعالى عنه، يفعله، وجمع الكرمانى بين الروايات بأنه صبغ فى وقت، وتركه فى معظم الأوقات، فأخبر كل بما رأى، وقد أمر، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالخضاب بالصفرة، وحث عليه، وفعله وتبعه على ذلك أكابر الصحابة، فهو سنة من تركها فقد ترك سنة، وإنما ترك بعضهم لما فيه من التكلف، وهو أحب للنساء، وأرهب للعدو، وكذا الخضاب بالسواد، وقيل: إن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، «نهى عن الخضاب بالسواد»(٢)، وحمل على ما إذا كان فيه تدليس على النساء، فما فى هذا الحديث محمول على غير خضاب اللحية بأن يحنى يديه ورجليه، أو يجعل الصفرة فى ثوبه، فإنه منهى عنه، وفى فتاوى شيخ شيوخنا ابن حجر الهيتمى أنه إن كان من غير حاجة كحرب ونحوه حرام؛ لما فيه من التشبه بالنساء، وصنف فيه رسالة مستقلة، وقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، المتقدم: يغسله أو ينزعها فيه دليل على أنه كان فى ثوبه، ولو لم نحمله على هذا أشكل الحديث، والشراح لم يتعرضوا له.

(وقالت عائشة فى الصحيح) أى فى الحديث الصحيح المروى عنها كما أخرجه الترمذى وصححه: **(لم يكن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فاحشًا ولا متفحشًا)** الفحش كل أمر قبيح، أو شديد القبح قولاً أو فعلاً، والفاحش من يصدر عنه ذلك، والمتفحش من يتعمده ويبالغ فيه، والظاهر أن المراد به بذاءة اللسان هنا، ويؤيده قوله: **(ولا صخابًا بالأسواق)** صخاب بفتح فتشديد صيغة مبالغة من الصخب، وهو رفع الصوت بمبالغة فيه، وهو بالصاد والسين، وهكذا كلما كان معه حرف حلق يجوز إبداله قياسا مطردا، وخص الأسواق لأنه فيها أقبح، ولأنها محله، وأما فى المنزل ونحوه فلا حاجة إليه.

(ولا يجزى بالسيئة السيئة) لأنه أحق بالأجر من الله على ذلك؛ لأنه المنزل عليه، فمن عفى وأصلح، فأجره على الله، ولما كان العفو غير لازم من عدم المجازاة بالفعل أتى بالاستدراك فى قوله: **(ولكن يعفو ويصفح)** يعنى أنه ﷺ كثير العفو فيما لا يكون من الحدود وحقوق الله، والعفو ترك المؤاخذة بالذنب، والصفح الإعراض عن المسئ بحيث لا يخجله، وقد تقدم شرحه، وهذا الحديث مروى فى الصحيحين بطريق آخر عن عبد

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٣٢١/١٢، ٣٥١).

(٢) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (١٤٢/٢/١).

الله بن عمرو بن العاص، رضى الله تعالى عنهما، عن عطاء بن يسار أنه قال له: أخبرنى عن صفة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى التوراة، فساقه له فى حديث طويل، وإليه أشار بقوله: **(وقد حكى)** بالبناء للمجهول **(مثل هذا الكلام)** الذى قالته عائشة، رضى الله تعالى عنها، **(عن التوراة من رواية عبد الله بن سلام)** بفتحتين مخفف اللام، وهو الصحابى المشهور، رضى الله عنه، **(وعبد الله بن عمرو بن العاص، رضى الله تعالى عنهما)**، وهو وإن كان قرشيًا لكنه قرأ الكتابين، وكان عالمًا بما فيهما، ولذا سألوه عن صفة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيها، وقد اختلف فى تحريف أهل الكتاب كتبهم هل كان بتغيير عبارتها بنقص وزيادة، أو أنه إنما كان بمجرد التأويل وصرف ما فيها عن ظاهره؟ والصحيح أن كلا منهما واقع، وإذا كان كذلك علم وجه المنع من قراءتها، وأنه حرام، ولا يرد عليه أن بعض الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، كان يقرؤها؛ لأنهم يعلمونها قبل إسلامهم، وهم لا يخفى عليهم ما غير منها، والظاهر أنه لا يمنع منه من عرف ذلك، وقصد الرد عليهم.

(وروى عنه) أى عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا ذكره الإمام الغزالى فى الإحياء، وقال الحافظ: إنه لم يجده فى كتب الحديث، وكذا قال السيوطى، رحمه الله تعالى، **(أنه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(كان من حيائه لا يثبت بصره فى وجه أحد)**، ثبات البصر بمعنى إطالة النظر من غير تخلل إغماض بجفن ونحوه حتى كأن بصره صار قارًا فى المرئى كما قال المتنبى:

وخصر تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدق نطاقا

فتخيل حقيقة الثبات فيه، ثم بنى عليه جعله كالناطق، وإن كان فيه للأدباء كلام.

(وأنه)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(كان يكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره)** أى يورد المعنى القبيح عادة بطريق الكناية، لشدة حيائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كقوله: «حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك»؛ لأن الجماع وذكره للمرأة يستحيى منه، ومثله فى الحديث كثير.

(وعن عائشة) الصديقة بنت الصديق **(رضى الله تعالى عنها، ما رأيت فرج رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قط)** مع أنه يجوز رؤية كل أحد من الزوجين فرج الآخر، وإن كان مكروهًا، وفى حديث رواه ابن حبان «النظر إلى الفرج يورث الطمس»[1] أى العمى، فقيل: عمى الناظر، وقيل: عمى أولاده، وقيل: المراد عمى القلب، والمعنى أنه،

---

(١) أورده ابن حجر فى تلخيص الحبير (٣/١٤٩).

صلى الله تعالى عليه وسلم، لشدة حيائه لم يكشف عورته عند أحد قط كما ورد: «من كرامتى على الله أنه لم يطلع لى على عورة أحد قط»، فما ذكر منطبق على ما سيق له الكلام؛ فإن عائشة، رضى الله تعالى عنها، زوجته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأقرب الناس وأحبهم إليه، وكان يضاجعها وينام عندها، فإذا لم تر ذلك منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لزم عدم كشفه عندها، فإذا لم يكشف عندها، فبالطريق الأولى عند غيرها، وإنما كَنَّتْ عن ذلك و لم تصفه تأدبًا منها، فلله درها، فهذا كقولهم: لا أرينك هنا، فلا ترفع الثياب إلا وقد لاصقها، فيكون سترة له حينئذ، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فلا يتوهم أن عدم رؤيتها لذلك لغض بصرها حياء منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا أنه لا ينكشف عندها فافهم.

* * *

(فصل وأما حسن عشرته)

بكسر العين المهملة وسكون الشين المعجمة، أى: اختلاط المرء مع أهله وأصحابه ومعاملتهم، **(وأدبه)** بالرفع معطوف على حسن، ويجوز جره ورجحه بعض الشارحين، فلما ورد عليه أن الأدب لا يكون إلا حسنًا دفعه بأن منه ما لا يحسن، كأدب أهل الدنيا مع كبارهم، وهو أنسب بقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»[1]، والأدب استعمال ما يحمد قولاً وفعلاً، والأخذ بمكارم الأخلاق، من المأدبة وهى الطعام الذى يدعى له الناس **(وبسط خلقه)** تقدم معنى الخلق وأنه بضمتين أو ضم فسكون، والبسط نشر الشىء وتوسيعه ومنه البساط، وورد البسط بمعنى المسرة وعليه استعمالهم، وورد فى الحديث: «فاطمة منى يبسطنى ما يبسطها»[2]، فليس من كلام المولدين كما توهم، ومن أمثال العامة البسط صدف، والمعنى هنا سعة خلقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويجوز رفعه وجره أيضًا، والأول أولى وليس بمتعين كما توهم، وإنما كان معنى بسط الخلق هنا سعته؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، نال من الأخلاق الحميدة أقصاها وغايتها، وقوله: **(مع أصناف الخلق)** تنازع فيه الألفاظ الثلاثة، فهو قيد لجميع ما قبله، **(فبحيث انتشرت)** أى كثرت واشتهرت، وهو جواب أما هو خبر مبتدأ مقدر أى، فهو بحيث أى بمحل معلوم لكل أحد **(به الأخبار الصحيحة قال على، رضى الله تعالى عنه، فى وصفه، عليه الصلاة والسلام)**، فى الحديث الصحيح الذى رواه الترمذى فى شمائله (: **كان أوسع الناس صدرًا)** المراد بسعة صدره تحمله، صلى الله تعالى

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

عليه وسلم، مشاق الناس وكثرة تكاليفهم، قال تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ [الأعراف: ٢]، أى ضيق، **(وأصدق الناس لهجة)** فى الصحاح اللهجة اللسان، وقد تحرك فأطلق وأريد به الكلام مجازا مرسلا من إطلاق المحل على الحال، ووضع فيه الظاهر مقام الضمير؛ لأن كلا منهما صفة مستقلة، ولا ينافيه حديث: «ما من ذى لهجة أصدق من أبى ذر»؛ لأن المراد تفضيله، رضى الله تعالى عنه، على أمثاله، والصدق ضد الكذب، وهو معروف ثم إن فى التفضيل فى الصدق سؤالا، وهو أن الصدق هو المطابقة للواقع، فما طابق فهو صادق ومالم يطابق كذب، فكيف يتصور التفاوت فيه حتى يكون هذا صادقًا وذاك أصدق، وهذا إنما يرد لو كان التفضيل فى كلام واحد أو أنواع منه محصورة، أما لو أريد كل كلام صدر عن متكلم، فلا يريد ما ذكر.

(وألينهم عريكة) أى أسهل الناس طبعًا فهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، دائمًا سلس مطاوع منقاد قليل المخالفة لا تهور فيه، وأصل العريكة السنام، فهو فى الأصل مجاز حتى صار حقيقة فيما مر.

(وأكرمهم عشرة) أى يعامل الناس فى معاشرته ومخالطته بكريم الأخلاق، فيعظم من يستحق التعظيم، ويتلطف مع من دونهم.

(حدثنا أبو الحسن على بن مشرق) بضم الميم وفتح الشين المعجمة وفتح الراء المشددة وقاف اسمه على، وله ترجمة فى الميزان وسمع منه السلفى وفيه كلام **(الأنماطى)** جمع نمط، وهو ثوب من صوف يطرح على الهودج، والنسبة إلى الجمع على رأى، أو لأنه ملحق بالعلم كالأنصارى؛ لأن المراد به صيغة مخصوصة، وقيل: إنه على خلاف القياس **(فيما أجازنيه وقرأته على غيره)** فيه بيان لطريق التحمل، وأنه رواه عن غيره فانجبر الطعن فيه، وهذا الحديث رواه أبو داود والنسائى **(قال: حدثنا أبو إسحاق الحبال)** بفتح الحاء المهملة وتشديد الباء الموحدة وألف ولام، وهو الإمام الحافظ المتقن محدث مصر أبو إسحاق إبراهيم بن سعد بن عبد الله بن النعمان التجيبى الفراء الوراق المصرى، ولد سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة، وسمع من أحمد بن عبد العزيز صاحب المحاملى وغيره، ومات فى سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة وله إحدى وتسعون سنة، وترجمته مشهورة قال: **(حدثنا أبو محمد بن النحَّاس)** بحاء مهملة مشددة وهو الإمام أبو محمد عبد الرحمن ابن عمر بن محمد بن سعيد بن إسحاق المصرى البزار، سمع أبا سعيد بن الأعرابى وسليمان بن داود العسكرى وجماعة كثيرين، وكان ثقة كما قاله ابن ماكولا **(حدثنا ابن الأعرابى)** هو الإمام أبو سعيد الذى يروى سنن أبى داود عنه قال: **(حدثنا أبو داود)** سليمان بن الأشعث صاحب السنن المشهورة قال: **(حدثنا هشام أبو مروان ومحمد بن المثنى)** هشام

ابن خالد بن يزيد بن مروان الأزرق الدمشقى الثقة الثبت، توفى سنة تسع وأربعين ومائتين، وترجمته فى الميزان، ومحمد بن المثنى أبو موسى العنزى الحافظ، توفى سنة اثنين وخمسين ومائتين قالا: **(حدثنا الوليد بن مسلم)** الحافظ أحد الأعلام أخرج له الجماعة، إلا أنه رمى بالتدليس قال: **(حدثنا الأوزاعى)** هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد نسب للأوزاع، وهى قبيلة من حمير أو اسم قرية، وهو عالم فقيه زاهد روى عن عطاء ومكحول، وروى عنه كثيرون، وأخرج له أصحاب الكتب، وهو ثقة وله ترجمة مشهورة **(قال: سمعت يحيى بن أبى كثير)** بزنة كثير ضد القليل، وهو من العباد وأئمة الحديث توفى سنة تسع وعشرين ومائة، وأخرج له الستة وترجمته فى الميزان قال: **(حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة)** بضم الزاء المعجمة، وهو محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد والى المدينة، وهو ثقة أخرج له الستة، وتوفى سنة أربع وعشرين ومائة **(عن قيس بن سعد)** بن عبادة بن دليم الخزرجى سيد الخزرج، وصاحب شرط رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أخرج له الستة وأحمد، وكان من الدهاة وذوى الرأى طويل القامة جميلاً جوادًا، توفى بالمدينة فى آخر خلافة معاوية، رضى الله تعالى عنه، **(قال: زارنا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم،)** على عادته فى تفقد أصحابه، وكان سعد بن عبادة دعاه رجل ليلا، فخرج له فضربه بسيفه فأشواه، فجاءه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يعوده.

(وذكر قصة) هى ما وقع له مع عبد الله بن أبىّ بن سلول إذ مر به وهو جالس مع أخلاط المسلمين وغيرهم، فغشى المجلس غبار دابته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فخمر ابن سلول أنفه بردائه، وقال لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم،: لا تغبروا علينا ارجع إلى رحلك، فمن جاءك منا فاقصص عليه، فاستب المسلمون مع المشركين حتى هموا أن يتواثبوا فمنعهم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد، رضى الله تعالى عنه، وذكر له فقال له: يا رسول الله اعف عنه واصفح، فلقد اتفق أهل هذه البحيرة على أن يعصبوه، فلما رد الله ذلك بالحق الذى جئت به شرق بذلك، فعفا عنه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى آخرها)** أى آخر القصة: **(فلما أراد الانصراف قرب له سعد)**، رضى الله تعالى عنه، **(حمارًا)** ليركبه **(وطأ عليه بقطيفة)** هى كساء له وبر وخمل وضعه على ظهر الحمار وطاءة له ليركب عليه، ووطاء بتشديد الطاء المهملة وهمزة، **(فركب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم قال سعد)** لابنه (**: يا قيس أصحب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم،)** أى كن معه فى خدمته، وفى هذا الحديث أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما جاء كان على حمار مردفًا خلفه أسامة بن زيد.

فسعد، رضى الله تعالى عنه، إنما أعطاه حمارًا ليركبه وحده، ويبقى أسامة على الحمار الذى جاء به، ووهب سعد له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك الحمار.

(**قال قيس: فقال لى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، اركب**) معى على الحمار (**فأبيت**) الركوب معه تأدبًا وفوزًا بالمشى فى خدمته، (**فقال: إما أن تركب وإما أن تنصرف**) أى ترجع ولا تمشى معى، (**فانصرفت**) امتثالاً لأمره ﷺ.

(**وفى رواية أخرى**) أنه، عليه الصلاة والسلام، قال له: (**اركب أمامى فصاحب الدابة أحق بصدرها**)، وهذا وقع هنا فى بعض النسخ، والمراد بصدرها مقدمها، وفيه دليل على جواز الإرداف، ولو صاروا ثلاثة إذا لم تكن الدابة ضعيفة لا تطيق ذلك، وقيل: ما فوق الاثنين مكروه، وقوله: صاحب الدابة باعتبار ما كان أو هو، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يعلم بأنه وهبها له.

(**وكان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يؤلفهم**) أى يؤلف المسلمين بإيناسهم ومداراتهم، ليزداد إيمان من كان قريب عهد بالإسلام، وليحسن من كان مخلصًا بجبره خاطره والتودد إليه، (**ولا ينفرهم**) أى لا يتلقاهم بما يصير سببًا لنفورهم، وذهاب من كان قريب عهد من المؤلفة قلوبهم.

(**ويكرم كريم كل قوم**) برعايته مما يليق به، كما فعل مع عدى بن حاتم وغيره مما فصل فى السير ، (**ويوليه عليهم**) أى يجعل شريف القوم واليًا عليهم إذا رجعوا من عنده صلى الله تعالى عليه وسلم، لديارهم، كما ولى على وفد همدان مالك بن نمط.

(**ويحذر الناس ويحترس منهم**)؛ لأنه من الحزم أن لا يركن لكل أحد حتى يجربه (**من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره**) أى كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، مع احتراسه منهم يلقاهم ببشره وبشاشته، ولا يغير حاله معهم، فشبه بشره وإيناسه ببساط ممتد لهم، فلا يطوى عنهم ما داموا عنده كما قال الشاعر:

إنما مجلس الندا من بساط فإذا ما مضى طوينا بساطه

(**ولا خلقه**) المعهود منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**يتفقد أصحابه**) أى من فقده من أصحابه، رضى الله تعالى عنهم، يسأل عنه، أو يزوره، أو يرسل إليه من يتعهده، قال الراغب: الفقد أخص من العدم؛ لأنه العدم بعد الوجود، والتفقد التعهد لكن حقيقة التفقد تعرف فقدان الشىء، والتعهد تعرف العهد المتقدم.

(و) كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**يعطى كل جلسائه نصيبه**) أى يعطى كلا منهم ما يليق به وما يسره، (**لا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه**) أى لما يراه من

لطفه به يظن أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحبه أكثر من غيره.

(من جالسه) أى جلس عنده فى ناديه، **(أو قارنه لحاجة)** أى كان معه حال مشيه أو مسيره، **(صابره)** أى صبر على سؤاله وذكره حوائجه **(حتى يكون هو المنصرف عنه)** أى الراجع عن مقارنته أو مجالسته.

(ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها) أى بإعطائه حاجته التى سألها منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أو بميسور من القول)** كوعده أو تسليته وأو لمنع الخلو قال تعالى: ﴿**فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا**﴾ [الإسراء: ٢٨].

(قد وسع الناس بسطه وخلقه) بسطه مصدر بزنة ضرب مضاف لضمير عائد له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو مرفوع فاعل وسع بزنة علم، وكذا خلقه المعطوف عليه، وقد تقدم معنى الخلق والجبلة، فجعل بسطه بمعنى توسعته على الناس، أو بمعنى بشره كالمكان الرحب، وكذا خلقه الحسن جعله لبذله لهم كالمكان الذى تمكنوا فيه، **(فصار لهم أبا)** أى صار صلى الله تعالى عليه وسلم، لجميع أمته بمنزلة الأب فى اللطف بهم والشفقة عليهم، وهو لاينافى قوله تعالى: ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ**﴾ [الأحزاب: ٤٠]، لأن المنفى ثمة الأبوة الحقيقية، إلا أن بعض علماء الشافعية ذهب إلى أنه لا يجوز أن يقال له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أب المؤمنين كما يقال لنسائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أمهات المؤمنين عملاً بظاهر هذه الآية، وإنما يقال: إنه كالأب، ونص الشافعى، رضى الله تعالى عنه، على جوازه وهو الحق، وكذا كل نبى من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أب لأمته ذكورًا وإناثًا، وكونه صلى الله تعالى عليه وسلم، ليس أبا حقيقيًا معلوم بالبداهة، وإنما نفاه فى الآية ردًا على من أنكر تزوجه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بامرأة زيد الذى تبناه.

(وصاروا عنده فى الحق سواء)؛ لأن الله عصمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ففى الأغراض النفيسة الحاملة على الميل مع الهوى، وكذا وصفه به، صلى الله تعالى عليه وسلم، ابن أبى هالة ربيبة فى الحديث الصحيح المروى عنه كما أشار إليه المصنف، رحمه الله تعالى، بقوله: **(بهذا وصفه ابن أبى هالة)** ابن خديجة أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، بنت خويلد، واسمه هند وأبوه أبو هالة حليف عبد الدار، اختلف فى اسمه فقيل: بناش بن زرارة، وقيل: مالك بن إلياس بن زرارة، وكان تزوج خديجة، رضى الله تعالى عنها، قبل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فولدت له هندًا، ولهند ولد يسمى هندًا أيضا عده ابن منده وأبو نعيم فى الصحابة، وأبوه هند من كبار الصحابة قتل مع على كرم الله وجهه، فى وقعة الجمل، وتقدمت ترجمته بالبسط من قبل هذا.

(قال) ابن أبى هالة، رضى الله تعالى عنه، فى وصفه ، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى هذا الحديث (: **وكان دائم البشر)** بكسر الباء وسكون المعجمة أى طلاقة الوجه وبشاشته، لا يعبس فى وجه أحد، **(سهل الخلق)** لاصعبًا ولا حزنًا، **(لين الجانب)** استعارة مصرحة، شبه وصول كل أحد له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولما يريده منه بشيء لين يأخذ من بجانبه لا يطلبه، وقيل: شبهه بجانب لين من الأرض ليس بحزن.

(ليس بفظ ولا غليظ) الفظ الكريه الخلق مستعار من الفظ أى ماء الكرش، وهو مكروه لا يتناول إلا فى شدة الضرورة كما قاله الراغب، والغلظ ضد الرقة، وأصله فى الأجسام فاستعير للمعانى كما تقدم.

(ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب) أى لا ينطق بالفحشاء كالشتم، ولا يعيب أحدًا أى يذكر عيوبه، **(ولا مداح)** لأحد بما يؤدى إلى إطرائه، ولا لنفسه الشريفة، وهذه كلها صيغ مبالغة، والمقصود بها النسبة كتمار ولبان، والمبالغة راجعة للنفى كما قالوه فى قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقيل: المقصود به أصل الفعل، وقول أنس لعمر، رضى الله تعالى عنهما: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقتضى ثبوت ذلك له، فقيل: المقصود وجود أصل الغلظة فيه، ونفيها عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا حقيقة التفضيل، أو المراد إثبات ذلك على المشركين كما فى قوله تعالى: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾ [التوبة: ١٢٣]، كما أن المدح قد يستحسن فى مقام دون مقام إذا كان فى محله بخلاف ما إذا كان كذبًا، ولذا قال، صلى الله تعالى عليه وسلم،: «احثوا التراب فى وجوه المداحين»[١] على أحد الوجوه فيه.

(يتغافل عما لا يشتهى) أى إذا رأى، صلى الله تعالى عليه وسلم، شيئا لا يرضاه، تغافل عنه حتى يظن أنه ما رآه إذا كان ذلك مما لا يترتب عليه إثم.

(ولا يؤيس منه) مبنى للمفعول، وضمير منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى والحال أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بتغافله لا ييأس أحد منه، وروى مبنيًا للفاعل بضم المثناة التحتية وكسر الهمزة التى كانت مفتوحة، ومفعوله محذوف لقصد التعميم أى لا يؤيس أحدًا منه، أى لا يجعله ذا يأس بحيث لا يرجو، فالضمير لما تغافل عنه، وعلى هذا اقتصر أرباب الحواشى.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/٥)، والدولابى فى الكنى (٢/١٣٠)، وابن حبان (٢٠٠٨)، وأبو نعيم فى الحلية (٦/٩٩)، والعقيلى فى الضعفاء (٣/٤٥١).

(وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]) ما زائدة للتأكيد، وقيل: نكرة موصوفة، ورحمة بدل منه، وقيل: استفهامية تعجبية أى بأى رحمة عظيمة لنت لهم، ورده فى المغنى بثبوت ألف ما وقال: إن ما قبله أيضًا لا يتجه كما فصله شراحه، وليس هذا محل تفصيله، والمعنى: أنك لو كنت فظًا غليظ القلب انفضوا عنك أى تفرقوا، ولم يجتمعوا عليك، ولكنك بلين جانبك لهم وشفقتك عليهم تؤلف قلوبهم وتزيد محبتهم، وهذا امتنان عليه بما جبله الله عليه من الأخلاق الحسنة، وقد تقدم الكلام عليه.

(وقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]) الآية التى هى أحسن الصفح والتجاوز، والإحسان فى مقابلة السيئة، ولا حاجة لتقييدها بما لم يكن فيه وهن فى الدين، لأنه لا يكون دفعًا بالأحسن، فإن المراد به الأحسن عند الله تعالى، وقيل: التى هى أحسن كلمة التوحيد والسيئة الشرك، وقيل: الأمر بالمعروف والسيئة المنكر، وقدم الجار والمجرور على المفعول الصريح للاهتمام وقصد الحصر أى ادفع بهذا لا بغيره.

(وكان)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يجيب من دعاه)** لطعامه أو لمنزله جبرًا لخاطره، وتعليمًا وتشريعًا لأمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، سواء كان المدعو إليه وليمة عرس أو غيرها، وفى الحديث: «إذا دعا أحدكم أخاه فليجب»[(١)]، وما قيل من أن إجابة دعوة العرس واجبة عينًا أو كفاية، ولورود أمر بها فى الأحاديث الصحيحة، فلا يكون ذلك من التفضل ومكارم الأخلاق غير وارد؛ لأنه قيل: بعدم الوجوب فيها عند الشافعية أيضًا كما صرح السبكى، ولو سلم فهذا محمول على الأعم من الولائم وغيرها، وليس فى العبارة ما يقتضى التخصيص، ولا تجب إجابة لغير وليمة عرس، ومنه وليمة التسرى كما هو ظاهر، وقيل: تجب واختاره السبكى لأخبار فيه.

(وكان)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يقبل الهدية)** لا الصدقة، **(ولو كانت كراعا)** لأنه مقتض للتحاب، وكراع بضم الكاف وفتح الراء المهملة المخففة والعين المهملة، وهى ما تحت الركبة إلى الخف والحافر والظلف، ولو وصلية هنا تفيد التقليل كاتقوا النار ولو بشق تمرة، وقيل: الكراع ما دون الكعب من الدواب، وقيل: كراع كل شىء طرفه، وفى الترمذى عن أنس بن مالك قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «لو أهدى إلىّ كراع لقبلت ولو دعيت إلى كراع لأجبت»[(٢)]، وكراع الثانى اسم مكان،

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٠/١٤٢٩)، وأبو داود (٣٧٣٨)، وأحمد (١٤٦/٢)، وعبد الرزاق (١٩٦٦٦)، والبيهقى (٢٦٢/٧).

(٢) أخرجه البخارى (٢٠١/٣، ٣٢/٧)، والترمذى (١٣٣٨)، وأحمد (٤٧٩/٢، ٤٨١، ٥١٢)، =

وهو كراع الغميم موضع بين مكة والمدينة، والصحيح أنه بالمعنى السابق، والمقصود المبالغة فى ذلك أى أقبل الهدية ولو كانت حقيرة، وأجيب الدعوة ولو كانت إلى مكان بعيد، ويطلق الكراع على الشاة نفسها، وفى الحديث «إذا دعى أحدكم فليجب، فإن كان مفطرًا أكل، وإن كان صائمًا دعا بالبركة»(١)، وقوله: **(ويكافئ عليها)** بالهمزة أى يجازى على الهدية بشىء مثلها أو أكثر؛ لأن المكافأة أصل معناها المساواة والمماثلة، ومنه قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «المسلمون تتكافأ دماؤهم» أى تتساوى فى القصاص، وفى البخارى كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقبل الهدية ويثيب عليها، واستدل به بعض المالكية على وجوب عوض الهدية إذا أطلق الواهب، وكان ممن يرجو الثواب كالفقير الذى يهدى للغنى، ولم يوافق عليه.

(وقال أنس، رضى الله تعالى عنه،) وهو خادم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(خدمت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عشر سنين)**، وفى رواية لمسلم تسع سنين، ولا منافاة بينهما لأنه خدمه تسع سنين وأشهر، فتارة نظر للكسور وجعلها سنة، وتارة ألقاها، وكان عند عمه أبى طلحة، فانطلق به إلى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال له: إن أنسًا غلام كيس فليخدمك، **(فما قال لى: أف قط)** هى كلمة تقال لما يكره ويتضجر منه، وهى اسم فعل فيه لغات نحو الأربعين أشهرها ضم الهمزة وكسر الفاء المشددة، وللسيوطى فى نظم لغاتها أبيات مشهورة حيث قال:

أف ربع أخيره ثم خفف ... مبتداه مشدد ومخفف
وبتنوينه وبالترك أف ... لا ممالا وبالإمالة مضعف
وبكسر ابتدا وأفى مثلث ... وزد الهاء فى أف أطلق لا أف
ثم مدا بكسر أف وأف ... ثم أفوا فاحفظ ودع ما يزيف

قال الراغب: أصل الأف كل مستقذر من وسخ وقلامة ظفر وما يجرى مجراهما، ويقال لكل مستقذر يستخف به، وأففت لكذا إذا قلت له: أف، والحاصل مما تقدم أن همزته مثلثة وكذا فاؤه مع التنوين وعدمه، وقد فصل لغاتها فى البحر، ومن لطائف السراج الوراق، رحمه الله تعالى، فى مدحه ابنه، رحمه الله:

بنى اقتدى بالكتاب العزيز ... فزدت سرورا وزاد ابتهاجًا
وما قال لى أف فى عمره ... لكونى أبا ولكونى سراجًا

=وعبد الرزاق (١٩٦٦٨)، وابن حبان (١٠٦٥)، والبيهقى (٦/١٦٩).

(١) تقدم تخريجه.

أى لم يتضجر من أمر غير مرضى وقع منى، وفيه دليل على زيادة حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**وما قال لشىء لصنعته لم صنعته؟، ولا لشىء تركته لم تركته؟**) وهذا الحديث رواه الشيخان.

(**وعن عائشة، رضى الله عنها، ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم،**)، ثم بينت بعض ذلك بأنه (**ما دعاه أحد**) أى ناداه، فقال: يا رسول الله (**من أصحابه ولا أهل بيته**) خصهم لأن العادة جارية بالمسامحة معهم (**إلا قال: لبيك**).

قال السيوطى: رواه أبو نعيم فى دلائل النبوة بسند واه، ولبيك كلمة يجاب بها المنادى، فالتلبية إجابة المنادى من دعاه، من لب وألب إذا أقام بمكان و لم يفارقه، فكأنه يقول: أنا ثابت على إجابتك، ولا تستعمل إلا بلفظ التثنية كأنه قال: إجابة بعد إجابة، والمراد التكثير كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤]، وهو منصوب على المصدرية بعامل لا يظهر، وتغلب إضافته لضمير المخاطب، وقد يضاف لغيره كما فصله النحاة، ولا يجاب به إلا من يعتنى بإجابته وتعظيمه، ولذا يقوله الحاج، ففى إجابة الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، اتباعه بذلك رعاية مقامهم وتعظيمهم، وهو من خلقه العظيم، كما كان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يخاطب القادم بمرحبا كقوله مرحبا بأم هانئ.

(**قال جرير بن عبد الله**) بن جابر بن مالك البجلى سيد قومه، قدم على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، سنة عشر من الهجرة على الصحيح، لا قبل موته بأربعين يومًا كما قيل، ولما قدم قال، صلى الله تعالى عليه وسلم،: «ويطلع عليكم خير ذى يمن»(١) وكان، رضى الله تعالى عنه، جميلا حتى قال عمر، رضى الله تعالى عنه، فيه: إنه يوسف هذه الأمة وأرسله النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لذى الخلصة، وهى الكعبة اليمنية، وكان فيها صنم فخربه وقتل من عنده: (**ما حجبنى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، منذ أسلمت قط**) أى ما منعنى من الدخول عليه فى بيته وقد استأذنته، لا مطلقا حتى يقال: كيف يدخل على غير محرم، وحتى يجاب بأن المراد فى مجلس مختص بالرجال، أو المراد ما منعنى شيئا سألته، وإسلامه، رضى الله تعالى عنه، كان فى رمضان سنة عشر كما مر ، (**ولا رآنى إلا تبسم**) وفى رواية: «إلا تبسم فى وجهى»، وهذا الحديث رواه الشيخان، والتبسم مبادئ الضحك بحيث يبدو مقدم أسنان، فإن زاد بلا صوت فضحك، فإن كان بصوت فهو قهقهة، وضحكه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى أغلب أحواله التبسم، وربما زاد على ذلك كما ورد أنه: «ضحك حتى بدت

(١) أخرجه الحميدى فى مسنده (٨٠٠).

نواجذه»، وقيل: إنه أريد مجرد مبالغة لا الحقيقة بناء على أنه لم يقع منه ذلك، والأصح الأول، وكثرة الضحك تذهب الوقار، وهو مكروه لحديث: «كثرة الضحك تميت القلب»، فإن لزمه استهزاء بأحد وسخرية فحرام.

(وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يمازح أصحابه) الممازحة تكون بالكلام والفعل ملاطفة، ولكنها إنما تحمد من الكبار أحيانا بحيث لا تؤدى إلى أذية صاحبها، والمداعبة قريبة منها، ولكن بينهما فرق سيأتى، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يمزح أحيانا ولا يقول إلا حقًا، ولكنه يورى فى كلامه كما قال لبعض العجائز: «إنه لا يدخل الجنة عجوز»[1]؛ لأنهم يعودون فى سن الشباب، ولله در القائل:

أفد طبعك المكدود بالهم راحة ... بأنس وعلله بشىء من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن ... بمقدار ما يعطى الطعام من الملح

والمزاح بضم الميم اسم، وبكسرها مصدر كالمزح، وكثرته مذمومة كما قال:

فإياك إياك المزاح فإنه ... يجرى عليك الطفل والرجل النذلا
ويذهب ماء الوجه من كل سيد ... ويورثه من بعد عزته ذلا

والصحيح أنه جائز، وقيل: إنه مكروه، والأصح الأول بشروطه، وكان كبار السلف يمزحون، وقد قيل: الناس فى سجن ما لم يتمازحوا، وورد فى الحديث أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان أفكه الناس، وكان مزاحًا ولا يقول إلا حقًا.

(ويخالطهم ويحادثهم) تأنيسا لهم وجبرًا لقلوبهم، **(ويداعب صبيانهم)** يداعب بالدال المهملة، والمداعبة الممازحة مع لعب، ولذا خصه بالصبيان كما قال محمود بن الربيع الخزرجى، رضى الله تعالى عنه،: عقلت منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مجة مجها فى وجهى وأنا ابن خمس سنين.

(ويجلسهم فى حجره) كما فعل، صلى الله تعالى عليه وسلم، مع أم قيس إذ أتته بابن لها صغير لم يأكل الطعام، فأجلسه فى حجره، فبال على ثوبه، فدعا بماء فنضحه ولم يغسله، وحجر بكسر الحاء المهملة وفتحها معروف، وهو ما كان من ثديه على فخذيه وهو جالس.

(ويجيب دعوة) بفتح الدال المهملة **(العبد والحر والأمة والمسكين)**.

قال السيوطى: إجابته، صلى الله تعالى عليه وسلم، دعوة العبد رواها البزار عن جابر، رضى الله تعالى عنه، والترمذى وابن ماجه عن أنس، رضى الله تعالى عنه، فلا

(١) أورده الزبيدى فى الإتحاف (٧/٤٩٩).

وجه لما قيل: إنى لم أقف عليه إلا فى صحيح البخارى من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أتى غلامًا خياطًا، فأتاه بقصعة فيها دباء، فجعل يتتبعه، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يعلم طيب أنفسهم بما يملكونه لهم، فلا يقال: كيف أكل مما فى يد العبد وهو وما يملكه لسيده، أو يقال: كان مكاتبا، أو المراد بالعبد من مسه الرق، ولو قبل دعوته، وقدم العبد اهتماما لبيان أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يجيب دعوته مع حقارته بالنسبة للحر.

(و) أخرج الترمذى بسنده عن أنس، ، رضى الله تعالى عنه، قال: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يعود المرضى)**، ويشهد الجنازة ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد، وروى البيهقى: «دعوة المملوك» **(فى أقصى المدينة)** أى فى أبعد مكان منها، وعيادة المريض سنة مؤكدة لاسيما من يتبرك بعيادته؛ لما فيه من التسلية وتأليف القلوب، وقيل: إنها فرض كفاية ولا تختص بمرض، وقيل: ثلاثة لا عيادة فيها رمد العين ووجعها ووجع الضرس، وقيل: إنه لا يعاد المريض إلا بعد ثلاثة أيام، وورد فى ذلك حديث ضعيف، والصحيح أنه لا فرق، والحديث قال شيخنا الرملى: إنه موضوع، واختلف فى عيادة الذمى، فقيل: تجوز إذا كان يرجى إسلامه، أو تضمن مصلحة.

(ويقبل عذر المعتذر) المعتذر كل من أبدى عذرًا سواء كان له حقيقة أم لا، وسواء كان من شأنه أن يقبل أم لا، ولذا لم يقل المعذور؛ لأنه من له عذر، وعدم قبوله منه مذموم، وقبول اعتذاره عقوبة جنايته وعدم مؤاخذته بها؛ لأنه من تمام المروءة، وهذا كما قبل، صلى الله تعالى عليه وسلم، عذر من تخلف عن تبوك، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى، وكقبوله عذر حاطب بن أبى بلتعة، رضى الله تعالى عنه، لما كتب لأهل مكة يخبرهم بمسيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، لفتح مكة، وقبل، صلى الله تعالى عليه وسلم، اعتذار المنافقين حتى كذبهم الله تعالى.

(وقال أنس) رضى الله تعالى عنه. قال السيوطى: هذا إلى قوله: بين يدى جليس له، رواه أبو داود والترمذى والبيهقى فى الدلائل، وأخرجه البزار عن أبى هريرة وابن عمر، رضى الله تعالى عنهم، **(ما التقم أحد أذن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى ما جعل أحد أذنه محاذية لفمه فتحاذيه، وقال الشمنى: أى ما حدثه أحد عند أذنه فجعله استعارة، و لم يحمله على حقيقته، وأنه فعله للتبرك كما وقع لجابر، رضى الله عنه، فى التقامه لخاتم النبوة؛ لأن لفظه مشعر بكثرة ذلك، ووقوع مثله كثيرًا مستبعد بخلاف قصة جابر، رضى الله تعالى عنه، لما أردفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، خلفه، وأمكنه ذلك بسهولة، وأيضًا فى مثله سوء أدب ومنافاة لغرضه، فإنه إذا أدخل أذنه فى فيه لم يمكنه

إدارة لسانه ومناجاته، وفى النهاية فى الحديث أن رجلا ألقم عينه حصاص الباب أى جعل الشق الذى فى الباب محاذى عينه، فجعله للعين كاللقمة فى الفم انتهى، فجعله استعارة كما هنا، وهذا لاينافى ما فى الصحيح عن ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: والله لآتين النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأتيته وهو فى ملأ، فساررته فغضب حتى احمر وجهه، وقال: «رحم الله موسى، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر»[1]؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يغضب من المسارة، بل مما كلمه به، وأذن بضم الهمزة والذال المعجمة وقد تسكن.

(فينحى رأسه عنه) أى يبعدها ويجعلها فى ناحية منه.

(حتى يكون الرجل هو الذى ينحى رأسه) أى حتى يفارقه أو ينفصل منه قليلا.

(وما أخذ أحد بيده) أى أمسكها، **(فيرسل يده)** أى يطلقها ويفكها من يده، وهو مجاز من أرسل الرسالة إذا بعثها، وظاهر كلام ابن القوطية أنه معنى حقيقى إن كانت اليد الثانية يد الآخذ، فليس من وضع الظاهر موضع الضمير، وإلا فهو منه، وقوله: **(حتى يرسلها الآخذ)** غاية لترك إرسالها، أى إلى أن يرسلها الآخذ، وهو بالمد اسم فاعل من الأخذ، وفى نسخة الآخر بالراء المهملة، وفى البخارى: «إن كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فتنطلق به حيث شاءت»، وعن أحمد: «فما ينزع يده من يدها»، وهو عبارة عن الانقياد لشدة تواضعه وتنزهه عن التكبر، صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقوله: **(ولم ير، صلى الله تعالى عليه وسلم، مقدمًا ركبتيه بين يدى جليس له)** من جملة حديث أنس، رضى الله تعالى عنه، ففى المصابيح أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان إذا صافح الرجل لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذى ينزع يده، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون هو الذى يصرف وجهه. أو هو رواية أخرى، وهو الظاهر لما بينهما من المخالفة.

ومعنى لم ير مقدمًا إلى آخره أنه يخفض ركبتيه تعظيمًا لجلسائه، وقيل: المراد بالركبتين الرجلين أى كان لا يمد رجليه فى مجلسه؛ لما روى فى حديث آخر أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم ير قط مادًا رجليه بين أصحابه كما سيأتى يعنى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يساوى جليسه، ولا يتقدم عليه بركبتيه حتى كان الغريب يجىء، فلا يعرفه ويسأل عنه.

---

(١) أخرجه البخارى (١١٥/٤، ٢٠٢، ٢٢/٨).

(وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يبدأ) أى يبتدئ **(من لقيه بالسلام)** من تفيد العموم، أى كل أحد لقيه صغيرًا أو كبيرًا من المسلمين إلا فى مواضع لا يستحب السلام فيها، وأما الكفرة فلا يسلم عليهم، وجوز بعضهم ابتداءهم بالسلام أيضًا.

(ويبدأ أصحابه بالمصافحة) مفاعلة من الصفح أى يجعل صفحة يده الشريفة على صفحة يده، وفى الحديث: «تمام تحيتكم بينكم المصافحة»(١)، وهى سنة عند التلاقى، وكانت الصحابة، ، رضى الله تعالى عنهم، تفعله، وإذا قدموا من سفر تعانقوا، وكانت الصحابة، ، رضى الله تعالى عنهم، تقبل يده أيضا، وهى مستحبة للكبير وكرهها مالك، أما إذا كان على وجه التكبير فيكره، وقال النووى: إنه مستحب أيضا لأهل الشرف والصلاح، وأما لأهل الدنيا فمكروه، وقال فقهاؤنا: لا بأس بالمصافحة؛ لأنها سنة متوارثة؛ لما ورد فى الحديث أيضًا: «تصافحوا»(٢) وقيل: إنه من الصفح وهو العفو أى ليصفح أحدكم عن غيره، ولا يناقشه، والمشهور الأول، وأما بعد صلاة الجمعة والعيد، فقالوا: إنه بدعة، وهو من فعل المشايخ كانوا فى الصلاة غائبين عمن حضرهم، ومن كان هذا حاله لا يكره منه.

(ولم ير، صلى الله تعالى عليه وسلم، قط مادًّا رجليه بين أصحابه حتى يضيق بهما على أحد) هذا إشارة إلى أنه كان ذلك فى مجلس يكثر فيه الناس، أما إذا كان وحده، أو فى قليل من خواصه، فكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، قد يتكئ، وقد يضع إحدى رجليه على الأخرى كما ورد فى بعض الأحاديث.

(يكرم من يدخل عليه) بالقيام له ويلاطفه كقيامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لسعد ابن معاذ، ، رضى الله تعالى عنه، وقال، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما قدم سعد: «قوموا لسيدكم» وكره بعضهم القيام مطلقًا؛ لحديث: «من أحب أن يتمثل له الناس قياما وجبت له النار» ، وحمل هذا على عادة الأعاجم فى وقوف الناس بين أيديهم، أما القيام للعلماء والصلحاء فمستحب كما يأتى، وكان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا جاء قام له الصحابة، وممن ذهب لكراهته ابن حجر، رحمه الله، وقال فى قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «قوموا لسيدكم»: إنما كان لأنه قدم على حمار، وكان مريضًا، وفى رواية: «قوموا لسيدكم فأنزلوه» ورد بأنه لو كان كذلك لم يأمر جميع الناس الحاضرين بالقيام له، ولذا استدل النووى به وفيه نظر.

(وربما بسط له) أى لمن يدخل عليه **(ثوبه)** تعظيمًا له كما جعل ذلك لعدى بن حاتم،

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٦٠)، والترمذى (٢٧٣١)، وابن أبى شيبة (٨/٤٣٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٧٠٢)، وابن عدى (٦/٢٢١١).

ولأخته، عليه السلام، من الرضاعة لما أتياه كما يأتى، **(ويؤثره بالوسادة)** الإيثار تقديم غيره على نفسه فى بعض الأمور، والوسادة ما يتوسد أى يوضع تحت الرأس، وهى التى تسمى مخدة، ويقال إسادة بالهمزة ووساد بدون هاء، وقضية قوله **(التى تحته)** كما فى البخارى أنها فراش يجلس عليه، وكانت محشوة بالليف، وقال عدى بن حاتم: دخلت على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: من الرجل؟ فقلت: عدى بن حاتم، فقام وانطلق بى إلى بيته، فوالله إنه لعامد بى إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، واستوقفته فوقف لها طويلا تكلمه فى حاجتها، فقلت فى نفسى: والله ما هذا بملك، ثم مضى حتى دخل بيته، فتناول وسادة كبيرة من أدم محشوة ليفا، فقذفها وقال لى: اجلس على هذه، فقلت: بلى أنت فاجلس عليها، فجلس على الأرض وصارت الوسادة بينى وبينه، فانظر لمكارم هذه الأخلاق، فقلت: والله ما هذا بملك، وهذا يدل على أن الوسادة فراش لا مخدة، ولا عبرة بتفسير الجوهرى لها بالمخدة فقط، **(ويعزم عليه فى الجلوس)** أى يقسم عليه أن يجلس على وسادته بأن يقول له: بالله اجلس أنت. قال فى التهذيب: يقال: عزمت عليك لتفعلن كذا أى أقسمت انتهى، وهو مأخوذ من العزم وهو التصميم فى الأمر، وقوله: **(عليها)** أى على الوسادة **(إن أبى)** أى امتنع من الجلوس؛ حياء من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ويكنى أصحابه)** أى يضع لهم كنية كأبى فلان، أو يدعوهم بالكنية تكريمًا، **(ويدعوهم)** أى يناديهم **(بأحب أسمائهم تكرمة لهم)** أى يفعل ذلك، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأجل إكرامهم وتعظيمهم؛ تلطفًا بهم وتأدبًا معهم؛ فإن نداء المرء بكنيته تعظيم، وكذا كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يكنى من لا كنية له كما قال للطفيل الذى كان معه طائر يسمى نغير: «يا أبا عمير ما فعل النغير» (١)، وفيه دليل على جواز تكنية من لا ولد له على عادة العرب؛ تفاؤلا بأن يعمر ويرزق أولادًا خلافًا لمن منع ذلك، وقال: إنه خلاف الواقع فهو كذب، وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود، ، رضى الله تعالى عنه، قال: كنانى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أبا عبد الرحمن قبل أن يولد لى، وسنده صحيح، وعن بعض السلف «بادروا أولادكم بالكنى قبل أن يغلب عليهم الألقاب» (٢)، وكره بعضهم تكنية المرء نفسه إلا لقصد التعريف، وقال النووى: يجوز تكنية الكافر بشرطين.

---

(١) أخرجه البخارى (٨/٣٧)، والترمذى (١٩٨٩)، وابن ماجه (٣٧٢٠، ٣٧٢٣)، وأحمد (١١٥/٣، ١٧٦، ١٩٠، ٢٧٨)، وابن أبى شيبة (١/٤٠٠، ٩/١٤).

(٢) أخرجه ابن عدى فى الكامل (٤٤٨/٣)، وانظر: اللآلىء (١/٥٨)، وتنزيه الشريعة (١/١٩٩)، والفوائد المجموعة (١٣٨).

الأول: أن لا يعرف إلا بكنيته. الثاني: أن يخاف من ذكر اسمه فتنة.

فالأول: كأبى طالب، والثانى كأبى حباب لابن سلول وفيه نظر، وقد تكون لأمر آخر كأبى لهب فإنه إشارة إلى أنه جهنمى، وقيل: كنى بذلك لحسن وجهه.

(ولا يقطع على أحد حديثه) أى من يحدث عنده يصغى إليه، ولا يقطع حديثه بتكلمه بكلام آخر، أو قيامه أو نهيه عن الكلام، فإن مثله يؤذى المتكلم **(حتى يتجوز)** بياء وتاء مفتوحتين وجيم مفتوحة وواو مشددة وزاء معجمة غاية لتركه قطع حديثه أى حتى يكثر، فيتجاوز الحد أو يخرج إلى ما لا يليق من الكلام، فهو من التجاوز أو الجواز كما يأتى، **(فيقطعه بنهى)** عن الكلام، **(أو قيام)** من مجلسه إعراضًا عنه، وهو مفيد لنهيه عنه، **(ويروى بانتهاء أو قيام)**، فالنهى بمعنى الانتهاء إذ الروايات تفسر بعضها بعضا، وهذا وقع فى بعض النسخ، فالمعنى حتى يجوز ذلك فى حديثه، فيقطع حديث نفسه إما بسبب أنه انتهى، و لم يبق منه شىء، أو لقيامه عن المجلس، والتجوز على هذا بمعنى التخفيف له والتقليل منه، وقيل: معناه ينطق بما هو غير حقيقى كأن يتكلم بما لا يليق من الكلام.

(وروى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان لا يجلس إليه أحد) أى لا يجلس متوجهًا إليه، والمراد لا يجلس عنده، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وهو يصلى إلا خفف صلاته)** أى أسرع فيها فقطعها، والتخفيف ضد التطويل وسيأتى بيانه، **(وسأله عن حاجته، وإذا فرغ)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، من كلامه وبيان حاجته **(عاد)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(إلى صلاته)** التى كان فيها، وقال البرهان الحلبى: هذا الحديث منكر، وقد ذكره فى الإحياء فى آداب المعيشة، وقال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء: لم أجد له أصلا انتهى، ولذا قيل: لو أورد حديث الصحيحين الآتى: «إنى لأقوم إلى الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبى، فأتجوز فى صلاتى كراهة أن أشق عليه»(١) كان أظهر؛ فإنه متفق عليه، وهو فى معنى حديث الإحياء.

(وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، أكثر الناس تبسما)، وقد تقدم معنى التبسم وما يتعلق به، **(وأطيبهم نفسا)** أى لم يكن مقطبًا وعبوسًا فى مجلسه لطيب نفسه، وهذا وما بعده حديث رواه أحمد والترمذى بسند حسن **(مالم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب)**.

قال الشيخ قاسم بن قطلوبغا فى تخريج أحاديث هذا الكتاب عن عبد الله بن الحارث ابن جزء الزبيدى قال: ما رأيت أكثر تبسمًا من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، رواه الترمذى وقال: غريب، وقد تقدم.

---

(١) أخرجه البخارى (٢١٩/١)، وأبو داود (٧٨٩)، والنسائى (٥٩/٢)، وأحمد (٣٠٥/٥).

وعن على كرم الله وجهه، أو الزبير، رضى الله تعالى عنه: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا كان حديث عهد بجبريل، عليه الصلاة والسلام، لم يتبسم ضاحكا حتى يرتفع عنه. أخرجه أحمد وأبو يعلى من حديث الزبير، ، رضى الله تعالى عنه، من غير شك.

وعن جابر، رضى الله تعالى عنه: كان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا نزل عليه الوحى قلت: نذير قوم، فإذا سرى عنه فأكثر الناس ضحكا. أخرجه الطبرانى فى مكارم الأخلاق، وفيه ابن أبى ليلى سىء الحفظ.

وعن على والزبير كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يخطب فيذكرنا بأيام الله حتى يعرف ذلك فى وجهه، وكأنه نذير قوم يصبحهم الأمر غدوة. أخرجه أحمد وأبو يعلى من حديث الزبير، رضى الله تعالى عنه، من غير شك.

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، «إذا خطب احمرت وجنتاه واشتد غضبه»(١). رواه مسلم، والحاكم من حديثه: «كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه»(٢) انتهى، وكونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يتبسم فى هذه الحالات لتوجهه عند نزول الوحى فيه تأدبًا معه، وفيما بعده لأنه مقام إنذار وخوف وتخويف.

(قال عبد الله بن الحارث) بن جزء بن عبد الله بن معدى كرب بن غنم الزبيدى الصحابى، سكن مصر ومات، رضى الله تعالى عنه، بها سنة خمس أو سبع وثمانين، وهو آخر من مات بها ببلدة تسمى سفط قريبة من سمنود بالغربية، وقيل: مات باليمامة حكاه ابن منده عن ابن يونس، وقال: إنه شهد بدرًا، ولابن حجر فيه كلام.

(ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم،)؛ لأن طلاقة الوجه من مكارم الأخلاق، وفى الحديث: «تبسمك فى وجه أخيك صدقة».

(وعن أنس، رضى الله تعالى عنه، كان خدم المدينة) خدم بفتحتين بزنة حسن جمع خادم، وفعل فى جمع فاعل جاء فى ألفاظ محصورة نظمها ابن مالك رحمه الله تعالى، وقيل: إنه اسم جمع وهو بالتاء كثير نحو كملة جمع كامل، والمراد بالخدم العبيد والجوارى، وهذا الحديث رواه مسلم وهو حديث صحيح **(يأتون رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا صلى الغداة)** أى الصبح **(بآنيتهم فيها الماء)**، والآنية جمع إناء

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧/٤٣)، وابن ماجه (٤٥)، والبيهقى (٢٠٦/٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣٣٨/٣)، والحاكم (٥٢٣/٤).

ككساء وأكسية، وهو ما يوضع فيه الشيء، والأوانى جمع الجمع، وكثير من الناس يظن أن الآنية مفردة، وظاهر قوله: **(فما يؤتى بآنية إلا غمس يده فيها)** يوهم ذلك، **(وربما كان ذلك)** أى إتيانهم بالأوانى وغمس يده فيها **(فى الغداة الباردة)**، والغدوة والغداة أول النهار، وقوبل فى القرآن الغدو بالآصال والغداة بالعشى، ووصفها بالباردة إشارة لما فيه من زيادة تحمل المشاق لأجل التلطف مع الناس، وإنما فعلوا ذلك تبركا بآثاره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وما مسته يده الشريفة، وقوله: **(يريدون به التبرك)** يحتمل أنه من كلام المصنف، فإن البغوى، رحمه الله تعالى، رواه فى مصابيحه بدون هذه الزيادة، وفيه إرشاد للتبرك بآثار العلماء والصلحاء.

* * *

(فصل وأما الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق)

والفرق بين هذه الثلاثة أن الشفقة رحمة ورقة قلب وخوف من نزول مكروه بمن يشفق عليه كما فى الأساس، والرأفة التلطف بمن يريد إكرامه بالبشر والإيناس كما قال قيس الرقيات:

ملكه ملك رأفة ليس فيه   جبروت يرى ولا كبرياء

فمقابلتها بالجبروت صريحة فيه، وليست أشد الرحمة كما توهمه بعضهم، وإن استعملت بهذا المعنى كما مر تحقيقه، فما قيل: إنها أرق من الرحمة ولا تكاد تقع فى الكراهة كالرحمة غير موجه، وقوله: لجميع الخلق يعنى أنها لا تختص بأحد كرحمة غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، **(فقد قال الله تعالى فيه)** أى فى حقه وصفته، عليه الصلاة والسلام: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨]، عزيز من عز بمعنى اشتد وصعب، والعنت المشقة أى يصعب عليه مشقتكم وما يؤلمكم؛ لرأفته ورحمته، وقد تقدم الكلام على هذه الآية، وقوله «بالمؤمنين» لا يناسب قوله: لجميع الخلق، فالأنسب أن يقتصر على قوله: **(وقال الله تعالى:** ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ **[الأنبياء: ١٠٧])**، وقد أشار المصنف، رحمه الله تعالى، لدفع هذا فى الفصل الأول من أن صدر الآية عام، والرحمة المخصوصة بالمؤمنين لا تنافى العموم، فكأنه يشق عليه لعموم رحمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كل ما يقع بهم؛ لحرصه على هدايتهم وإرشادهم، فهى مطابقة لهذه الآية كما يعلم من كلامه هناك، وقد تقدم ما ذكر لأنه اسم، وذكره هنا لغرض آخر كالآيات المكررة فى القرآن فلا وجه لما قيل: إنه تكرار لا فائدة فيه لزيادته على المقصود، ولو نبه على ما قلنا كان أولى به؛ لكنه حريص على العنت كما لا يخفى لمن سيره.

(قال بعضهم: من فضله، عليه الصلاة والسلام، أن الله تعالى أعطاه اسمين من أسمائه فقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] تقدم الكلام على هذا، وأعاده هنا لمعنى آخر فلا تكرار، بل فيه فائدة قال السيوطى، رحمه الله تعالى: ظاهر كلام المفسرين أن الرحيم يوصف به غير الله بخلاف الرحمن، لكن أخرج ابن أبى حاتم «الرحيم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه»، ويظهر لى أن مراده المعرف باللام دون المنكر والمضاف. انتهى.

(وحكى نحوه الإمام أبو بكر بن فورك) تقدم الكلام عليه. وعلى اسمه واسم أبيه، وهو إمام جليل بلغت تصانيفه أكثر من مائة مصنف جليل، توفى سنة ست وأربعمائة، قال: **(حدثنا الفقيه أبو محمد عبد الله بن محمد الخشنى بقراءتى عليه)**، وهو عبد الله بن أبى بكر بن أبى جعفر بن محمد الخشنى بضم الخاء وفتح الشين المعجمتين ونون نسبة لخشينة مصغرًا اسم قبيلة، ولد سنة تسع وأربعين وأربعمائة، ومات بمرسية من بلاد المغرب سنة ست وعشرين وخمسمائة، وتقدم الكلام على قوله بقراءتى عليه، قال: **(حدثنا إمام الحرمين أبو على الطبرى)** هو الإمام أبو عبد الله ويقال أبو الحسين بن على شيخ الحسين، ومحتده بمكة، والطبرى منسوب لطبرستان أو لطبرية، والأول أصح قال: **(حدثنا عبد الغافر الفارسى)** الإمام الزاهد العدل أبو محمد عبد الغافر بن محمد الفارسى أحد رواة مسلم المشهور بالرواية عن الجلودى، ولد سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، وتوفى سنة سبع وعشرين وخمسمائة وعمره ثمان وسبعون سنة.

قال: **(حدثنا أبو أحمد الجلودى)** تقدم الكلام عليه وعلى نسبته، وأنه يجوز فيه فتح الجيم وضمها، وقد قيل هنا إن عبد الغافر لم ير الجلودى ولا روى عنه صحيح مسلم، وإنما الراوى جده أبو أمه واسمه عبد الغافر أيضًا كحفيده، لكنهما اختلفا كنية وأبا، فإن كنية الأول أبو الحسن وهذا أبو الحسين مصغرًا، واسم أبى الأول محمد وهذا إسماعيل، وتاريخ موتهما مختلف فيه، وهذا لم يدرك الجلودى وقال السبكى، رحمه الله تعالى، فى طبقاته: بين هذا وبين الجلودى اثنان، وهذا مما لم ينبه عليه البرهان مع اطلاعه، وهو مما ينبغى التنبيه له قال: **(حدثنا إبراهيم بن سفيان)** تقدم أيضًا وأن سين سفيان مثلثة.

قال: **(حدثنا مسلم بن الحجاج)** الإمام المشهور صاحب الصحيح، وقد تقدمت ترجمته قال: **(حدثنا أبو الطاهر)** أحمد بن عمرو بن عبد الله بن عمرو بن سرح بمهملات بزنة ضرب الأموى مولاهم المصرى، روى عنه أصحاب السنن وغيرهم ووثقه النسائى، وقال أبو حاتم: لا بأس به، وكان فقيهًا صالحًا ثبتًا، توفى فى ذى القعدة سنة خمسين ومائتين قال: **(أخبرنا ابن وهب)** أبو محمد عبد الله الفهرى أحد الأعلام، روى عنه

الستة، وتوفى سنة سبع وتسعين ومائة، (**أخبرنا يونس**) بن يزيد الأيلى بفتح الهمزة وسكون المثناة التحتية واللام وياء النسبة أحد الأثبات، روى له أصحاب الكتب الستة، وهو ثقة ثبت، توفى سنة تسع وخمسين ومائة، وله ترجمة فى الميزان، وفى يونس ست لغات بتثليث النون مع الواو والهمزة، (**عن ابن شهاب**) الإمام أبو بكر بن مسلم الزهرى، وقد تقدم.

(**قال: غزا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، غزوة وذكر حنينا**) تقدم الكلام على حنين. قال البرهان الحلبى الراوى: إذا قدم الحديث على السنة كأن يقول قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كذا أخبرنى به فلان ويذكر سنده، أو قدم بعض الإسناد مع المتن كما نحن فيه، قال بعد هذا: قال ابن شهاب: حدثنا سعيد بن المسيب أن صفوان بن أمية إلى آخره، فهو إسناد متصل، ولا يمنع ذلك الحكم باتصاله كما لو ذكر الإسناد بتمامه أولا، وقال ابن الصلاح ينبغى أن يكون فيه خلاف كتقديم بعض المتن على بعض، وحكى الخطيب المنع من ذلك على القول بأن الرواية بالمعنى لا تجوز، والجواز على القول بأنها تجوز، ولا فرق بينهما فى ذلك انتهى، وفى جعله كالرواية بالمعنى خفاء.

(**قال: فأعطى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، صفوان بن أمية**) بن وهب بن حذافة ابن جمح القرشى الجمحى الصحابى، وكنيته أبو وهب أسلم بعد الفتح، وشهد مع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حنينا والطائف وهو مشرك، ثم أسلم وحسن إسلامه بعد ما كان من المؤلفة قلوبهم، وكان رئيس بنى جمح، وكان يعادى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويؤذيه أذية بالغة مع ما بينهما من الرحم، فجازاه على إساءته بالإحسان الزائد إليه (**مائة من النعم ثم مائة ثم مائة**)، والنعم اسم جمع للإبل لا واحد له من لفظه، وجمعه أنعام، وقال العزيزى: هو الإبل والبقر والغنم.

(**قال ابن شهاب: حدثنا سعيد بن المسيب أن صفوان قال: والله لقد أعطانى ما أعطانى وإنه لأبغض الخلق إلىّ، فمازال يعطينى حتى إنه لأحب الخلق إلىّ**) بعد ما كان أشد الناس عداوة له لقتل أبيه يوم بدر، ولما شهد وهو كافر حنينا، ثم رجع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى الجعرانة فبينما هو يسير فى الغنائم ينظر إليها، ومعه صفوان جعل صفوان ينظر إلى شعب ملئ نعما وشاء، وأدام النظر إليها ورسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يرمقه، فقال له: أبا وهب يعجبك هذا الشعب؟ قال: نعم. قال: هو لك وما فيه. فقال صفوان: ما طابت بهذا إلا نفس نبى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وكانت زوجته أسلمت قبله فأقر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم،

نكاحه عليها، واختلفوا فيما كان يعطيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، للمؤلفة، هل هو من خمس الخمس الذى هو حقه، أو من الخمس، أو من الغنائم؟ وأما إعطاء مؤلفة الكفار فكان جائزًا فى صدر الإسلام، وهل هو من الزكاة أو من بيت المال؟ ثم منعوا منه فى خلافة الصديق أو فى خلافة عمر، رضى الله تعالى عنهما.

فإن قلت: ما مناسبة الحديث لما نحن فيه؟ **قلت:** لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أعطى صفوان؛ لما بينه وبينه من الرحم خوفًا عليه أن يستمر على عداوته وكفره فيهلك، فأحسن إليه حتى يحسن إسلامه شفقة عليه من أن تحل به النقمة والعذاب، وقد تقدم إعطاؤه أكثر من ذلك.

(وروى أن أعرابيًا جاء يطلب من النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، شيئًا فأعطاه) هذا الحديث رواه البزار عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، بسند ضعيف، وكذا ابن حبان وغيره، ولم يسموا الأعرابى.

(ثم قال: أحسنت إليك؟ قال الأعرابى: لا ولا أجملت) الذى فى النسخ أحسنت بهمزة واحدة، فهمزة الاستفهام مقدرة كقوله:

ثم قالوا تحبها قلت بهرا عدد الرمل والحصا والتراب

ومثله كثير نفيس، والاستفهام استفهام تقريرى، وقوله: لا رد لقوله: أحسنت، وأجملت بمعنى فعلت فعلاً جميلاً محمودًا، وقال بعضهم: معناه ما اعتدلت فى الأخذ والعطاء، أو ما أكثرت، وهذا أولى انتهى، واللغة لا تساعده وإنما حمله عليه الهرب من التكرار ولا تكرار فيه؛ لأنه من ذكر العام بعد الخاص، ومثله لا يعد تكرارًا لما فيه من المبالغة، وفى ذلك غلظة وسوء أدب.

(فغضب المسلمون) من كلامه وجراءته عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وقاموا إليه)** ليضربوه ويجازوه بما يستحقه، **(فأشار إليهم أن كفوا)** أى أشار بيده إليهم إشارة يفهم منها الأمر بكفهم أى تركهم ما أرادوه، وأن تفسيرية أو مصدرية على الخلاف المشهور عند أهل العربية، وهذا من حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشفقته تألفًا له ليحسن إسلامه.

(ثم قام) من مجلسه، **(ودخل منزله وأرسل إليه)** عطية **(وزاده)** أى زاده على ما أعطاه أولا، **(ثم قال: أحسنت إليك؟)** فيه مقدر، وهو خرج وقال له ذلك، **(قال: نعم)** أحسنت إلىّ **(فجزاك الله)** على إحسانك ولطفك بى **(من أهل وعشيرة خيرًا)** مفعول جزاك وما بينهما اعتراض، والفاء تفريعية وسببية لما تضمنه، وقيل: إنها فصيحة فى

جواب شرط مقدر، أو عاطفة على أى أحسنت وأجملت فجزاك إلى آخره، ومن فى من أهل قيل: إنها بدلية مثلها فى قوله: ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أى بدلكم فالمعنى بدلا من أهلى وعشيرتى الذين لم يحسنوا إلىّ، وقيل: ليس هذا مراده، بل مراده أنه صار أهلا له، وعشيرة أى قبيلة إما لفعله فعل العشيرة، وهذا كما يقولون للقادم: أهلا وسهلا، أو تقدم من أن له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى كل قبيلة قرابة وعرقا، فمن إما تعليلية كقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، أى لأجل ذكر الله، وأما كونها للفصل والتمييز كما فى قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥]، أى ممتازين من بين العالمين بهذا الفعل القبيح، فبعيد جدًا، ثم أشار المصنف، رحمه الله تعالى، إلى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، زاد لطفًا فأرشده بقوله: **(فقال له النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إنك قلت ما قلت)** فى جوابك وردك علىّ، **(وفى أنفس أصحابى من ذلك شىء)** تنكيره إما للتحقير أى شىء حقير لا يعتد به عندى، أو للتعظيم أى أثر عظيم عندهم؛ لأذيته النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ووضع اسم الإشارة موضع الضمير؛ لجعله كالمشاهد المحسوس لاستحضاره، فتذكيره بما وقع منه من الأمر العجيب، **(فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى)** علق قوله على محبته وإرادته لطفًا منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأى لطف مع أنه ذنب عظيم ينبغى التنصل منه، وفيه من الشفقة بالأمة ما لا يخفى، وبين الأيدى كناية عن حضوره وتمثله لهم، وليس المراد البينية الحقيقية، بل المقابلة مع القرب، وقد يعبر به عن المستقبل نحو ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

(حتى يذهب ما فى صدروهم عليك) أى الغضب والألم الذى فى قلوبهم بسبب ما قلته أولا.

(قال: نعم) أى أقول لهم ما قلت لك، **(فلما كان الغد أو العشى)** المراد بالغد صبيحة اليوم الذى بعد اليوم الذى كلمه فيه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، والغداة من طلوع الفجر إلى الزوال، والعشى ما بعد الزوال إلى الغروب، والشك هنا من الراوى **(جاء)** أى الأعرابى إلى مجلس النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، لأصحابه الحاضرين عنده (: **إن هذا الأعرابى قال ما قال)** لى أولا إذ أساء أدبه لغلظة طبعه، ولذا وصفه بالأعرابى لما عرف من حال الأعراب، **(فزدناه)** على عطائه الأول، **(فزعم أنه رضى)** بجملة ما أعطيناه له، والزعم هنا بمعنى القول الحق، وهو يستعمل بهذا المعنى كقول الشاعر:

هلكنا ولكن إن هلكت فإنما   على الله أرزاق العباد كما زعم

ويكون بمعنى القول الباطل كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، ولذا قالوا: زعم مطية الكذب، وفى التعبير إيماء إلى ما فى نفسه من الحرص والطمع، ثم التفت، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى الأعرابى وقال له: (**أكذلك؟**)، فالاستفهام متوجه منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، للأعرابى أى الأمر كذلك من أنك رضيت، وإن كان ما قبله كلامًا منه متوجهًا لأصحابه، رضى الله تعالى عنه، فالجار والمجرور خبر مقدر أى الأمر كذلك.

(**قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا**) تقدم ما فيه.

(**فقال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم،: مثلى ومثل هذا**) الأعرابى، المثل يكون بمعنى القصة وبمعنى الكلام المشبه مورده بمضربه، ويكون استعارة تمثيلية أو تشبيهًا تمثيليًا مركبًا، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] الآية، ويكون ذلك لزيادة التوضيح والتقرير، فإنه أوقع فى النفس؛ لأنه يريك المخيل محققا، والمعقول محسوسا لما فيه من الشأن الغريب، وهو فى الكلام الإلهى والأحاديث النبوية كثير (**مثل رجل له ناقة شردت عليه**) أى نفرت منه وذهبت فى الأرض، يقال: شردت الدابة والإنسان إذا نفر وجرى جريًا شديدًا لايلحق شرودًا وشرادًا، وأصل الشراد الفراق خوفًا. قال الله تعالى: ﴿فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾ [الأنفال: ٥٧]، قال ابن عرفة أى افعل بهم فعلاً يخيف من وراءهم فيشردهم، (**فاتبعها الناس**) افتعال من الاتباع أى مضوا وجروا خلفها ليمسكوها، (**فلم يزيدوها إلا نفورا**) أى لم يحصل باتباع الناس لها إلا زيادة هربها ونفورها؛ لخوفها منهم، (**فناداهم صاحبها**) أى الناقة (**خلوا بينى وبين ناقتى**) أى وقال لهم: خلوا إلى آخره، فهو مفعول نادى لتضمينه معنى القول أو مقول قول مقدر كما عرف فى أمثاله أى لا تتبعوها، واتركوها واتركونى أحتال فى إمساكها؛ (**فإنى**) وفى نسخة فأنا (**أرفق منكم وأعلم**) أى أنا أشفق عليها وأعلم بحالها منكم، (**فتوجه لها بين يديها**) أى جاءها من أمامها، (**فأخذ لها من قمام الأرض**) القمام جمع قمامة ككناسة لفظًا ومعنى، والمراد بها النبات الذى ترعاه الدواب شبهه به لخسته، ولأنه مما يطرح كالقمامة، فاستعير لذلك، (**فردها حتى جاءت**) فيه مقدر أى فدنت منه لتأكل ما بيده من الحشيش، فأمسكها وردها حتى أتى بها محله، (**واستناخت**) أى بركت ومكثت عنده من ناخ الجمل ونوخه إذا بركه، (**وشد عليها رحلها**) الرحل للإبل كالسرج للفرس، وهو معروف، (**واستوى عليها**) أى على ظهرها أى ركبها. يقال: استوى على الدابة إذا علا على ظهرها وركبها، (**وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال**) أى لو لم أكفكم وأمنعكم عنه حين قال لى الرجل مقالته السيئة، (**فقتلتموه دخل**

النار) عقوبة له بإساءته على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشبه المال لخسة الدنيا عنده بالقمامة، وشبه نفسه بالرجل، وشبه الأعرابى بدابة شاردة عن ربها، وشبه الصحابة لما غضبوا وقاموا له بالناس التابعين لها الذين نفروها عن ربها، وشبه قوله: كفوا عنه بقوله: خلوا بينى وبينها، وفى قوله: فإنى أرفق بها منكم بيان لأنه أعظمهم رفقا، وأقواهم شفقة على خلق الله تعالى، وهو تشبيه فى أعلى طبقات البلاغة لتضمنه هذه المعانى اللطيفة.

قيل: ويحتمل أن الرجل إنما قال أولا ما قال؛ ليطلع على حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه سمع صفاته من أهل الكتاب، والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، علم بذلك، وقيل: إن جزمه بدخوله النار لكفره بما قاله للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، والنبى تلطف به حتى آمن ونجا من النار، فتأمل.

وهذا الحديث رواه البزار وأبو الشيخ بسند ضعيف عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، وابن حبان فى صحيحه، وابن الجوزى فى الوفا.

(وروى عنه) بالبناء للمجهول، وضمير عنه للبنى، صلى الله تعالى عليه وسلم، والراوى له أبو داود والترمذى عن ابن مسعود، وفى نسخة: وروى عنه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: **(لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئًا)** هذا نهى عام عن الغيبة والنميمة، ونقل ما يكره نقله من قول أو فعل أو ترك.

(فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر) سلامة الصدر كناية عن كونه ليس فى قلبه بغض لأحد، ولا غضبان على أحد، ومثله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقال له: سليم القلب قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، أى برئ من الكفر والنفاق، وهذا معنى آخر.

وقد صح عن أنس، رضى الله تعالى عنه، فيما رواه ابن مسعود قال: قسم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قسمة، فقال رجل من الأنصار: والله ما أراد محمد بهذا وجه الله، فأتيت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأخبرته، فتمعر وجهه وقال: «رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر»(١) رواه البخارى، والمراد سلامة صدره للمنقول عنه أو الناقل كما قيل: سبك من بلغك، والأولى إبقاؤه على إطلاقه ليشملهما وغيرهما، وكل من النميمة والغيبة حرام إلا فى أماكن استثناها الفقهاء، وقد نظمها الجوجرى من فقهاء الشافعية فى قوله:

---

(١) تقدم تخريجه.

بســت غيــة جــازت فخذهــا منظمــة كأمثــال الجواهـــر
تظلم واستعن واستفت حـذر وعرف واذكـرن فسـق المجاهر

ويأتى لذلك مزيد بيان أيضًا.

(ومن شفقته ﷺ على أمته تخفيفه) عنهم التكاليف الشاقة التى كانت فى الأمم السابقة، ورجاؤه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من ربه أن يجعل الصلاة خمسًا بعد ما كانت خمسين، **(وتسهيله)** فى أمورهم كقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «لبدنك عليك حق ولزوجك عليك حق» لمن أراد قيام الليل كله، **(وكراهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم)** الكراهة والكراهية من المكروه ضد المحبوب، والكره ضد الطوع، والمخافة بمعنى الخوف منصوب على أنه مفعول له، ثم بين ذلك بقوله: **(كقوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(لولا أن أشق على أمتى)** أى لولا مخافة المشقة عليهم؛ **(لأمرتهم بالسواك)** أى أمر إيجاب، وإلا فأمر الاستحباب ورد فى الحديث كقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم،: «عليكم بالسواك واستاكوا»[1] حتى تمسك بهذا الحديث بعضهم، فجعله واجبًا، ورد بهذا الحديث فهو سنة، واختلف فى محل سنيته فى الوضوء، فقيل: حال المضمضة وقيل: قبل الوضوء وقيل: مطلقًا من غير تعيين وقت له، وهو من سنن الدين لا من سنن الوضوء كما اختاره الزيلعى، رحمه الله تعالى.

والسواك مصدر بمعنى الاستياك، واسم العود نفسه، والمراد هنا الأول أو الثانى بتقدير مضاف أى استعماله، وهو مذكر وجوز بعض أهل اللغة تأنيثه **(مع كل وضوء)**، وفى مسلم عند كل صلاة، وهذا الحديث رواه أصحاب الكتب الستة، والوضوء بضم الواو مصدر، وبفتحها ما يتوضأ به كالطهور، وأجاز بعضهم فى المصدر الفتح وقد جاء فى المصادر الفتح أيضا، وقال أبو شامة، رحمه الله تعالى، فى كتاب السواك: السواك مأخوذ من قولهم تساوكت الإبل إذا اضطربت من الهزل فيما قلقت من الضعف؛ لما فيه من الحركة، وقوله: مع كل وضوء روى مع كل صلاة، وعند كل صلاة كما علم، وهل هو عام لكل صلاة فرضا أو نفلا أو الصلوات الخمس؟ ذهب إلى كل جماعة.

وقال الشافعى: أحب السواك للصلاة، وعند كل حال تغير فيها الفم كالاستيقاظ من النوم، وهو يشمل الصائم، وفيه كلام للفقهاء، فيكره له بعد الزوال، فلا يحصل له تغير بنحو نوم بعده، ورواية الموطأ مع الوضوء قال أبو شامة: يحتمل معنين أى لأمرتهم بالسواك مصاحبا للوضوء، أو لأمرتهم به كما أمرتهم بالوضوء، وله فيه كلام طويل.

(١) أخرجه أحمد (٢/١٠٨)، وابن حبان (١٤٤)، وابن أبى شيبة (٢/٩٦)، وأبو نعيم فى تاريخ أصفهان (٢/٦٢)، وابن عدى فى الكامل (٣/٩٢٩).

وقوله: **(وخبر صلاة الليل)** هو ما قال الشيخ قاسم بن قطلوبغا فى تخريجه لأحاديث الشفاء، ومن خطه نقلت: عن زيد بن ثابت، رضى الله تعالى عنه، قال: احتجر رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حجيرة بخصفة أو حصير فى المسجد فى رمضان، فخرج فصلى فيها. قال: فسمع رجال **(جاؤوا يصلون بصلاته)** قال: ثم جاؤوا فحضروا فأبطأ رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلم يخرج إليهم فرفعوا أصواتهم وحصبوا الباب، فخرج إليهم مغضبًا فقال لهم: «مازال بكم صنيعكم حتى ظننت أنه سيكتب عليكم، فعليكم بالصلاة فى بيوتكم، فإن خير صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة»(١) رواه الشيخان.

وفى رواية: «خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها» انتهى، وهذا هو المناسب للمقام ولما قبله، وإليه أشار السيوطى أيضا فى مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفا، لاما قيل: إنه أراد به حديث: «صلاة الليل مثنى مثنى»(٢)، وبه استدل على أن الأفضل فى النفل ليلا أن يكون ركعتين ركعتين، وعند أبى حنيفة، رحمه الله تعالى، الأفضل ليلا ونهارًا الأربع لدليل لاح له، وقد علمت أن الأول هو المناسب هنا، ويناسبه ما روى «خذوا من العمل ما تطيقون. إذا نعس أحدكم وهو يصلى، فليرقد حتى يذهب عنه النوم»(٣)، وهذا هو الذى قاله التلمسانى فى حواشيه أيضًا.

فإن قلت: كيف يخشى، صلى الله تعالى عليه وسلم، افتراضه بعد فرض الصلاة فى الإسراء، وقول الله تعالى ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٩]؟.

قلت: قيل: يحتمل أن الله أوحى إليه أنك إن واظبت على هذه الصلاة بجماعة افترضتها عليهم، أو أنه وقع فى نفسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك، أو المعنى إنى خشيت أن تظنوها فرضا إذا داومت عليها ولا يخفى بعده، وإن قيل: إن ما فى الإسراء هى وظيفة كل يوم وهذه مخصوصة برمضان، أو أنه لما كان قيام الليل فرضا عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، خشى أن يستوى به غيره من الأمة.

وقيل: إن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان إذا واظب على شىء من أعمال

---

(١) أخرجه البخارى (٨/٣٤)، وأحمد (٥/١٨٢)، والنسائى (٣/١٩٨)، والبيهقى فى الكبرى (٣/١٠٩).

(٢) أخرجه البخارى (٢/٣٠)، ومسلم فى الصلاة (١٤٥)، وأبو داود (١٣٢٦)، والترمذى (٤٣٧)، والنسائى (٣/٢٣٣)، وأحمد (٢/١٠٢).

(٣) أخرجه البخارى (٣/٥٠، ٧/٢٠٠)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٢٢٠)، وأحمد (٦/٨٤، ١٢٨، ١٩٩، ٢٤٧)، وعبد الرزاق (٢٠٥٦٦)، والبيهقى (٣/١٧).

البر واقتدى أناس به يفترض، وفيه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، واظب على أشياء كثيرة، ولم يفترض كرواتب الفرائض والسنن المؤكدة.

وقيل: إن المراد بالفرض فرض الكفاية، وقول الكرمانى إن قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٩] معناه نفى النقص؛ لأن الزيادة بعيد جدًا، وهذا لا يقبل النسخ؛ لأنه خبر، واحتمال أنهم لرغبتهم فى العبادة يفرضون ذلك على أنفسهم كالنذر، فيشق على من بعدهم بعيد أيضًا، وعلى كل حال فالمقام لا يخلو من الإشكال.

(ونهيهم) مصدر مضاف للمفعول أى نهى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، **(عن الوصال، وكراهته)** لهم، والوصال فى الصوم وهو أن يصوم يومين فأكثر من غير أكل وشرب بينهما، ونهيه عن الوصال ثابت فى الصحيحين، فإنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما واصل واصل الناس، وشق ذلك عليهم، فلما بلغه ذلك نهاهم عنه، فقالوا له: إنك تواصل، فقال: إنكم لستم مثلى إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى، فمن خواصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه يجوز له الوصال، ويمنع منه غيره، واختلف فيه هل كراهته تحريمية أو تنزيهية؟ أو يفرق بين من يطيق ومن لا يطيق، وعلم من الحديث وجه اختصاصه، ومعنى كون الله يطعمه ويسقيه أنه يعطيه قوة روحانية ويغذيه بأنوار ربانية بحيث لا يضعف بدنه بترك الطعام والشراب، بل يزداد قوة، وذلك باتصال روحانيته بعالم الغيب حتى يحصل له بدل ما يتخلل بحيث لا يشعر، وليس هذا حاصلا له فى كل الأوقات ألا ترى أن المريض مدة طويلة لا يأكل ولا يشرب، ولو فعل ذلك فى حال صحته لم يطقه لاشتغال روحه عنه، وقد اتفق على هذا علماء الشرع والحكماء كما فصله ابن سينا فى مقامات العارفين، فلا يرد عليه أنه ﷺ كان فى بعض الأحيان يجوع جوعًا شديدًا حتى يشد الحجر على بطنه، والترمذى الحكيم لما لم يقف على هذا أنكره لتوهم أن بين الحديثين تنافيا، حتى ادعى أنه تصحيف وتحريف ممن رواه، وإنما هو الحجز بضم الحاء المهملة وفتح الجيم والزاى المعجمة جمع حجزة، وهى مرتشقة فى الحزام، وقال: ما يغنى شد الحجر. ولم يدر أنه بثقله وبرده يجمع الأمعاء ويبردها ويقيم الصلب الضعيف، وإنكاره للحديث الصحيح، وحمله على غير ظاهره كما قيل بأن يغذيه حقيقة من طعام الجنة يأباه المقام؛ لأنه لو كان كذلك لم يكن وصالا.

(وكراهته دخول الكعبة) أى من شفقته، صلى الله تعالى عليه وسلم، على أمته كراهته دخول الكعبة فى الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، وصححاه، وكذا رواه ابن خزيمة والحاكم عنها أيضًا مصححًا مسندًا، وهو

أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، خرج من عندها، وهو قرير العين، ثم رجع وهو كئيب أى محزون، فسألته عن ذلك، فقال: خشيت أن أكون شققت على أمتى أى بدخولى البيت، وكان ذلك فى حجة الوداع، وكانت عائشة، رضى الله تعالى عنها، معه، وبهذا جزم الطبرى والبيهقى، واختلفوا هل صلى فيه أم لا؟، وفى بعض شروح البخارى يحتمل أن يكون دخوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، الكعبة وقع مرتين، صلى فى إحديهما و لم يصل فى الأخرى، وكونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، دخل الكعبة متفق عليه.

قال ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، دخل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، البيت هو وأسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة، رضى الله تعالى عنهم، وأغلقوا عليهم الباب، فلما فتحوه كنت أول من ولج، فسألت بلالاً هل صلى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيها؟ قال: نعم بين العمودين اليمانيين، فكان ابن عمر إذا دخل مشى قبل الوجه، ويجعل الباب قبل ظهره حتى يكون بينه وبين الجدار قريب من ثلاثة أذرع، فيصلى يتوخى المكان الذى صلى فيه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا بأس على أحد أن يصلى فى أى جهة شاء، وهذه الرواية مرجحة على رواية أسامة بن زيد أنه دعا فيه و لم يصل؛ لأن المثبت مقدم على النافى لزيادة علمه، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، قدم مكة بعد الهجرة ثلاث مرات:

الأولى: فى عمرة القضاء، و لم يدخل فيها الكعبة لما فيها من الأصنام والكفر باق بها.

والثانية: فى فتح مكة، وفيها دخل الكعبة، وأمر بإغلاق بابها فلبث فيها مليا، ثم فتح الباب. قال عبد الله بن عمر: فلقيت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، خارجًا، وبلال على إثره، فقلت له: هل صلى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم؟ فقال: نعم. قلت: أين؟ قال: بين العمودين تلقاء وجهه، ونسيت أن أساله كم صلى؟.

والثالثة: فى حجة الوادع، واختلف فى أنه دخل الكعبة فيها أم لا، وإنما كره دخولها فى حجه لئلا يجعله الناس من المناسك اقتداء به، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد لا يتيسر لهم ذلك، وقد اختلفوا فى كونه من المناسك، والصحيح أنه ليس منها تمسكًا بهذا الحديث.

وقوله: **(لئلا تتعنت أمته)** بتائين مفتوحتين وعين مهملة مفتوحة ونون مشددة ومثناة فوقية تفعل من العنت، وهو المشقة والإثم، ووقع فى بعض النسخ تتعب من التعب كما قاله التلمسانى وأمته فاعل عليهما، وروى يعنت بضم التحتية وسكون العين وكسر

النون من أعنته بمعنى عنته، وأمته منصوب مفعول، وبالتحتية والتشديد أيضًا، ونصب أمته ففيه وجوه مروية.

(ورغبته) أى طلبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أن يجعل سبه ولعنه لهم)** أى لأمته أى لأحد منهم **(رحمة بهم)**، والسب والشتم بمعنى، وأصله من السبه وهى مخرج البعر من الدبر، فنقل لما ذكر، وسيأتى بيان هذا **(وأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يسمع بكاء الصبى)**، وهو فى صلاته، **(فيتجوز فى صلاته)** التجوز تفعل من الجواز، والمراد به هنا أنه يخففها ويسرع فيها، مستعار من تجوز عن ذنبه إذا لم يؤاخذه به كتجاوز، أو هو من الجواز فى السير، والصبى المراد به الطفل الرضيع، وهذا رواه ابن السنى فى حديث صحيح عن أنس، رضى الله تعالى عنه، كما قاله السيوطى، وروى الشيخان عن أنس أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «إنى لأدخل فى الصلاة وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبى، فأتجوز فى صلاتى مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه»(١)، وفيه دليل على جواز دخول الصبى والنساء فى المسجد؛ لاحتمال أن يكون ذلك من بيوت مجاورة له، ولا دليل فيه أيضا على جواز تطويل الصلاة لأجل من يلحق الجماعة كما قيل، والمراد بالتخفيف ما لا يؤدى إلى عدم تعديل الأركان والإخلال بالواجبات كما لا يخفى.

(ومن شفقته، صلى الله تعالى عليه وسلم،) على أمته ورحمته لهم **(أن دعا ربه وعاهده)** هذا مفسر لما مر، ولو اقتصر على هذا كان أخصر وأظهر، والمراد بالمعاهدة إلزام ما لا يلزمه شرعا كالنذور كما قاله الراغب أى دعا بذلك، ونذر قصده ما ذكر **(فقال: أيما رجل سببته أو لعنته)** تفسير لما دعا به وعاهد الله عليه، واللعن أصل معناه الطرد والإبعاد ثم خص بالبعد من رحمة الله، **(فاجعل ذلك)** السب واللعن **(زكاة)** أى تطهيرًا له مما ارتكبه مما اقتضاه، **(وصلاة ورحمة وطهورا)** أى مطهرًا له من ذنوبه، **(وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة)** كما رواه الشيخان عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه.

وروى هذا الحديث من طرق أخر فيها: «أيما رجل من المسلمين» أو من المؤمنين، وروى أو جلدته، ومعلوم أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، «كان لا يغضب لنفسه، وإنما يغضب لله»(٢)، فإذا رأى أحدًا من المؤمنين وقع منه ما يخالف أمر الله ربما حصلت له غيرة لأمر الله، فبادر بزجره وشتمه أو ضربه، ثم إنه رجا من الله أن يكون ذلك مكفرًا لما صدر منه، ورحمة عظيمة مقربة له من الله؛ لأن المؤمن إذا رأى غضب النبى، صلى الله

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أورده الزبيدى فى الإتحاف (١١٢/٧).

تعالى عليه وسلم، حصل له خوف شديد يفتت قلبه، فتكون شدة خوفه جزاء عمله، وزجر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، زيادة فى حسناته تقربه من ربه، وهذا لا ينافى ما ورد فى حديث آخر: (**إنى لم أبعث لعانًا، ولكنى بعثت داعيًا ورحمة**) إما لأن المنفى هناك المبالغة والكثرة إن لم تقل المبالغة فى النفى، فإن قلنا بها فالمعنى أنه ليس هذا مقصودًا من بعثته، فلا ينافيه وقوع ما يخالفه للتأديب نادرًا، وأما حمل ما صدر منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، على ما قبل البعثة ينافيه قوله: «من المؤمنين أو المسلمين»، وسياق الحديث فى قوله: جلدته يأباه، أو أنه لما رجا من الله أن يكون ذلك رحمة لم يكن لعنًا حقيقيًا، بل رحمة فلا لعن منه لأحد من أمته أصلا، وبالجملة فهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، رحمة، وأذيته نعمة لا نقمة بخلاف غيره من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فإن دعاءهم نقمة عاجلة على أممهم، وفى المصابيح: «إن الله أجاركم أن لا يدعو عليكم نبيكم فتهلكوا»، وسيأتى تتمة هذا فى القسم الثالث، فصار دعاؤه عليهم دعاء لهم على حد قولهم: قاتلهم الله، وتربت يداه، وفى هذا نهاية الشفقة.

وأول الحديث: (**اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر، وإنى اتخذت عندك عهدًا لن تخلفه فأيما رجل إلى آخره**)، وهذا كما مر لا ينافى دعاءه، صلى الله تعالى عليه وسلم، على بعض الكفرة والمنافقين.

(**و**) من عظيم شفقته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما أشار إليه بقوله: و (**لما كذبه قومه أتاه جبريل، عليهما الصلاة والسلام، فقال له: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه ملك الجبال وسلم عليه، وقال: مرنى بما شئت إن شئت أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بل أرجو أن يخرج الله تعالى من أصلابهم من يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئا**).

هذا الحديث رواه الشيخان وأصحاب الكتب الستة، وكان ذلك لما مات أبو طالب، ونالت قريش منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مالم تنله فى حياته، فخرج لثقيف، ومعه زيد بن حارثة يلتمس النصرة منهم والمنعة، فعمد إلى نفر من رؤسائهم، فجلس إليهم كلمهم ودعاهم إلى الإسلام، فكذبوه وسلطوا عليه سفهاءهم وعبيدهم فجعلوا يسبونه ويصيحون به ويرضخونه بالحجارة حتى أدموا رجليه، وهم يضحكون، وزيد، رضى الله تعالى عنه، يقيه بنفسه حتى انتهى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى حائط استظل بكرمه، وهو مكروب موجع، فإذا بقرب الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة، فلما رآهما كره ذلك لما يعلم من عداوتهما له، فرحماه ودعوا غلامًا لهما يقال له: عداس، وقالا له: **خذ قطفًا من هذا العنب**، وضعه فى طبق، واذهب به له ليأكله، فلما وضعه قال، صلى الله

تعالى عليه وسلم،: بسم الله، ثم أكل، فقال الغلام: إن هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم، من أى البلاد أنت؟ وما دينك؟ قال: نصرانى من أهل نينوى. فقال من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال: ما يدريك يونس؟ قال: ذاك أخى من أنبياء الله. فأكب يقبل رأسه ورجليه، فلما رجع قالا له: ما لك قبلت رجليه؟ قال: ما فى الأرض خير من هذا، لقد أعلمنى بأمر لا يعلمه إلا نبى، فقالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، وقد قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: إن هذا من أشد ما لقيه، والقصة مفصلة فى السير، وقوله: وما ردوا عليك أى ما أجابوك به وما ردوا قولك وخالفوه إذ كذبوك، وقوله: فناداه ملك الجبال أى قال له: يا رسول الله: السلام عليك، وقوله: أطبق بضم الهمزة وسكون الطاء المهملة وكسر الموحدة مخففة ومشددة وقاف أى أضمها وأجمعها حتى يهلكوا تحتها، وملك الجبال هو الموكل بها بأمر الله، والأخشبين تثنية أخشب بخاء وشين معجمتين وموحدة بزنة أفعل جبلان يضافان تارة لمكة، وتارة لمنى، فيقال: أخشبا مكة وأخشبا منى، وهما أبو قبيس، وقعيقعان بالتصغير ويسميان الجبجبان، وهما تحت العقبة التى بمنى فوق المسجد كما قاله البرهان الحلبى، وقعيقعان هو الجبل المشرف الأحمر، ولهم قعيقعان آخر بالبصرة، وسميا أخشبان لغلظ حجارتهما وخشونتهما، وأصلاب جمع صلب الظهر، والمراد بالإخراج منهما أن يخلق لهم نسل وذرية، وقد حقق الله رجاءه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وعن ابن المنكدر)، وفى نسخة وروى ابن المنكدر هو محمد بن المنكدر بن عبد الله ابن الهدير بن عبد العزيز المدنى، توفى سنة ثلاثين أو إحدى وثلاثين ومائة، وهم ثلاثة إخوة، وكان يدخل على عائشة، رضى الله تعالى عنها، وهو تابعى وقد تقدم قوله: **(إن جبريل، عليه الصلاة والسلام، قال للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** بإسقاط الصحابى، فهو مرسل قال البرهان: وإنما يكون مرسلاً إذا قلنا: إن الصحابى إذا قال قولاً لا مجال للاجتهاد فيه يكون مرفوعًا، كما ذكره الإمام الشافعى، رضى الله تعالى عنه، فيكون ما قاله التابعى مرسلاً، وفى بعض الشروح: نعم هو مرسل إلا أن إرساله لا يمنع من قبوله إذ مرسل أصحاب القرون الثلاثة مقبول عندنا، وعند مالك، بل هو فوق المسند لبرهان قام عليه عنده، وعند الشافعى مرسل الصحابى مقبول لكنه دون المسند، وفى التنقيح الأصولى حكاية قبول مرسل الصحابى بالإجماع، وفيه نظر لمخالفة أبى إسحاق الإسفرائينى كما نقله العراقى، وقيل: إنه خلاف طرأ بعد انعقاد الإجماع فى العصر الأول، ومثله لا يضر وفيه نظر، ولنا فى إطلاق هذه المسألة بحث ذكرناه فى حواشى النخبة.

(إن الله أمر السماء والأرض والجبال أن تطيعك) المراد بإطاعة السماء له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه إن أراد أن تخر صواعقها على من عصاه، فتهلكهم كان ذلك، والأرض إن أراد خسفها بهم وانطباقها عليهم كان ذلك من غير مهملة، ووحد ضمير تطيعك مع عوده على شيئين معطوفين بالواو؛ لجعلها كشىء واحد لتأويلها بالعالم أو الدنيا، وكان الظاهر تطيعاك، وفى بعض النسخ والجبال، وعلى هذا لا حاجة إلى التأويل؛ لأن الجمع يجوز عود ضمير المؤنث المفرد عليه، وفيه مراعاة النظير وحسن الترتيب أى بأن تطيعك فى كل ما تريد.

(فقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(أؤخر عن أمتى لعل الله أن يتوب عليهم)** رجاء أنهم يتوبون عن مخالفتى ويوفقهم للإيمان، فيتوبون ويقبل الله منهم ذلك، أو يكون منهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئًا، وأصل معنى التوبة الرجوع فهى من العباد الرجوع عن المعاصى، ومن الله قبول ذلك، أو من الرجوع عن الغضب عليهم والعقوبة لهم، ولا منافاة بين هذا وبين قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، ولا بين ما وقع منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى غزواته من القتل والسبى كما توهم؛ لأنه عذاب مخصوص، ولأن التأخير لا ينافى ما وقع بعده كما لا يخفى، والأحسن أن جوابه معلوم من قوله الآتى: ما لم يكن إثمًا فتدبر.

(قالت عائشة، رضى الله تعالى عنها: ما خير رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بين أمرين إلا اختار أيسرهما) تقدم هذا الحديث، وإنما أعاده هنا تأييدًا لما قبله، وأيسرهما أى أسهلهما، وأهونهما على الأمة شفقة ورحمة منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عليهم، وبقية الحديث: «ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه» كما سيأتى، وكذا رواه الشيخان وتقدم الكلام عليه.

(وقال ابن مسعود، رضى الله عنه)، فى حديث رواه الشيخان (: **كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يتخولنا بالموعظة)** بفتح المثناة التحتية وفتح التاء الفوقية والخاء المعجمة والواو المشددة المفتوحة واللام، والضمير للصحابة أى يتعهدنا يقال: فلان خائل مال، وهو الذى يصلحه ويقوم عليه، ومنه الخولى لراعى الغنم والمواشى، وقيل: الصواب يتحولنا بالحاء المهملة أى يطلب الحال التى ننشط فيها لاستماع الموعظة، فيعظ فيها ولا يكثر منها.

(مخافة السآمة علينا) أى لئلا نكل ونسأم، وقيل: إنه يتخوننا بنونين أى يتعهدنا كما يتعهد الضيوف بالخوان والمائدة، والرواية الصحيحة بالإعجام مع اللام والنون كما مر، وكان فعل ماض إذا أخبر عنه بالمضارع الدال على الاستمرار التجددى دل على التكرار

عرفًا، والموعظة مصدر ميمى بمعنى الوعظ وهو التذكير والتخويف من سوء العاقبة، ومخافة منصوب مفعول له، وهو مصدر بمعنى الخوف كما مر، والسآمة بالمد، وعلينا متعلق بمخافة وتعلقه بالسآمة بتضمين المشقة تكلف، وإن جاز، وقيل: إنه حال من السآمة وهو الأرجح، أو صفة لأنه فى معنى النكرة كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وفى إفادة كان التكرار كلام مفصل فى كتب الأصول.

(وعن عائشة، رضى الله عنها، أنها ركبت بعيرًا وفيه صعوبة) أى شدة بحيث لا ينقاد لراكبه إذا أوقفه وإذا سيره، **(فجعلت تردده)** أى تمشى به وترجع، وأصل التردد عدم البقاء على حالة، ومنه تردد الإنسان فى الأماكن لحاجة تعرض له، ومنه التردد فى الخواطر، وإنما فعلت ذلك لتروضه حتى ينقاد لها.

(فقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعائشة: «عليك بالرفق». أى استمسكى بالرفق فى أمورك، ولا تتعبى الدابة التى ركبت، ففيه دلالة على شفقته، صلى الله تعالى عليه وسلم، على خلق الله حتى الحيوانات، وعليك بكسر الكاف اسم فعل يتعدى بنفسه وبالباء كما ذكره النحاة، والبعير بفتح أوله ويكسر وكذا كل فعل ثانيه حرف حلق، ويطلق على الجمل والناقة، وقيل: هو الجمل البازل وهو الموافق للاستعمال، وهذا الحديث أخرجه البيهقى فى سننه عن المقدام، عن أبيه، عن عائشة، رضى الله عنها، أنها كانت على جمل، فجعلت تضربه، فقال لها رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «يا عائشة عليك بالرفق فإنه لم يكن فى شىء إلا زانه، ولا نزع من شىء إلا شانه»(١) وختم بهذا الحديث لما فيه من العموم، فهو كالفذلكة لهذا الفصل.

* * *

(فصل وأما خلقه ﷺ فى الوفاء)

هو ضد الغدر ونقض الذمة، **(وحسن العهد)** أى ما عاهد عليه والتزمه، وهو عطف تفسير لما قبله، **(وصلة الرحم)** هو الإحسان إلى الأقارب والأصهار، والرفق بهم، وعفو زلاتهم، ونصحهم والتودد إليهم، وضده قطع الرحم، وهذا إذا لم يكونوا كفارًا أعداء الله كأبى لهب وأبى جهل، والرحم أصله مقر الولد، ثم استعمل بمعنى القرابة بعيدة أو قريبة بواسطة وبدونها.

(حدثنا القاضى أبو عامر محمد بن أحمد بن إسماعيل) بن إبراهيم الإمام المحدث الطليطلى، ولد سنة ست وخمسين وأربعمائة، ومات بقرطبة فى ربيع الأول سنة ثلاث

(١) أخرجه أحمد (٥٨/٦، ٢٢٢)، والبيهقى (١٩٣/١٠).

وعشرين وخمسمائة (**بقراءتى عليه قال: حدثنا أبو بكر محمد بن محمد**) تقدم قال: (**حدثنا أبو إسحاق الحبال**) بفتح الحاء المهملة وتشديد الموحدة، وهو إبراهيم بن سعيد بن عبد الله المهدى الثقة المشهور، وقد تقدم قال: (**حدثنا أبو محمد بن النحاس**) تقدم ترجمته قال: (**حدثنا ابن الأعرابى**) تقدم أيضًا قال: (**حدثنا أبو داود**) صاحب السنن المشهورة، وقد تقدم قال: (**حدثنا محمد بن يحيى**) بن عبد الله بن خالد بن فارس النيسابورى الإمام الحافظ الجليل القدر، توفى سنة ثمان وخمسين ومائتين، أخرج له أصحاب السنن وغيرهم قال: (**حدثنا محمد بن سنان**) بكسر السين ونونين بينهما ألف العوقى بفتح العين المهملة والواو وتسكن وبالقاف نسبة للعوق بطن من عبد القيس غير مشهور قال: (**حدثنا إبراهيم بن طهمان**) بفتح الطاء المهملة وسكون الهاء، وهو الإمام أبو سعيد الخراسانى المشهور، روى عنه أصحاب الكتب الستة، توفى فى بضع وستين ومائة، وترجمته مبسوطة فى الميزان.

(**عن بديل**) بضم الباء الموحدة وفتح الدال المهملة وسكون الياء المثناة التحتية ولام ابن ميسرة الفضل.

(**عن عبد الكريم بن عبد الله بن شقيق**) العقيلى الإمام الثقة.

(**عن أبيه**) عبد الله بن شقيق الإمام المعروف، توفى فى زمن الحجاج.

(**عن عبد الله بن أبى الحمساء**) بحاء مهملة مفتوحة وميم ساكنة وسين مهملة ومدة العامرى الصحابى، وفى المقتفى أنه غير أبى الجدعاء، وسيأتى حديثه فى انتظاره، عليه الصلاة والسلام، إلى يوم ثالث، وشقيق ولد عبد الله أخرج له أبو داود فقط قاله المزى بعد أن بين طرقه عند أبى داود، وليس هو عند غيره، وذكر كلام أبى داود الذى نقله عن محمد بن يحيى شيخه، وذكر زيادة على ما فى نسخة عندى من السنن، والظاهر أنه من بعض النساخ، وليس هو من كلام أبى داود ما لفظه كذا، وهو من زوائده، ورواه عثمان بن جرزاد عن محمد بن سنان هكذا، وقال: قال عبد الرحمن بن مهدى: ما أظن إبراهيم بن طهمان إلا أخطأ فى عبد الكريم، وإنما هو عبد الكريم بن عبد الله بن شقيق، عن أبيه، عن أبى الحمساء، ورواه أبو عون الزيادى عن إبراهيم بن طهمان، فلم يذكر عبد الكريم فى إسناده، وقال: عن بشر بن السرى، رواه عن عبد الكريم بن عبد الله بن شقيق، وقال البزار: أظن فيه غلطًا من الناقل؛ لأن شقيقًا والد عبد الله جاهلى لا أعلم له إسلامًا، إنما عبد الكريم بن عبد الله بن شقيق عن أبيه قال: إذ لا نعلم أنه روى عبد الله بن أبى الحمساء إلا هذا الحديث، ووقع فى الشفاء نسختان إحداهما الخنساء بمعجمة ونون، والأخرى وعن أبى الحمساء بإسقاط عبد الله، والأولى تصحيف، والثانية خطأ؛

لأن أبا الحمساء لا إسلام له، ولا رواية، وإنما الرواية لولده عبد الله بن الحمساء، انتهى.

(قال: بايعت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ببيع) أى باع مبيعًا للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قبل أن يبعث، وبقيت له)** أى لذلك المبيع **(بقية)** لم تسلم له، **(فوعدته أن آتية بها فى مكانه)** أى فى مكان وقع فيه البيع، **(فنسيت)** الوعد الذى جرى بيننا، **(ثم ذكرت بعد ثلاث)** أى ثلاثة أيام، و لم يقل ثلاثة لأن المعدود إذا حذف يجوز تذكيره مع المذكور، وتأنيثه مع المؤنث كما قالوه فى قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأتبعه ستًا من شوال، وإنما تلزم قاعدة العدد إذا ذكر المعدود.

(فجئت فإذا هو فى مكانه) أى مستقر، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى مكانه لم يفارقه، **(فقال: يا فتى لقد شققت على أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك)**، وفى هذا الحديث دليل على وفائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعهده ووعده، وهذا الحديث رواه أبو داود، وهو من أفراده، وأخرجه أيضا ابن منده فى المعرفة والخرائطى فى مكارم الأخلاق.

(وعن أنس رضى الله تعالى عنه كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذا أتى بهدية) مبنى للمجهول أى أتاه أحد بهدية **(قال: اذهبوا بها إلى بيت فلانة)** لم يسمها الرواة، لعدم تعلق غرض بتعيينها، **(فإنها كانت صديقة لخديجة رضى الله تعالى عنها)**، وفى رواية **(أنها كانت تحب خديجة)**، وهذا الحديث رواه البخارى فى الأدب المفرد.

(وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت: ما غرت على أحد)، وفى نسخة: امرأة من نسائه صلى الله تعالى عليه وسلم **(ما غرت على خديجة)**، يقال: غار الرجل والمرأة إذا غضب من فعل يقتضى أمرًا لا يرضاه، وغيرتها كانت من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لشدة محبتها له وإرادتها لصرف محبته لها دون غيرها، وهذا أمر طبيعى لا لوم فيه، وأما كون الغيرة من خديجة فلا وجه له بعد موتها.

(لما كنت أسمعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يذكرها) تعليل للغيرة، وما مصدرية أى لسماعى ذكرها، ولو شددت لما وجعلت حينية جاز ولكن النسخ متفقة على الأول، وعلى على أصلها، وقيل: إنها بمعنى الباء كما فى قوله: اركب على اسم الله، وقال فى الإكمال: مغاضبة عائشة رضى الله عنها لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الغيرة التى عفى عنها للنساء، حتى ذهب مالك إلى إسقاط الحد عن المرأة إذا قذفت زوجها غيرة منها، ولولا هذا لكان على عائشة، رضى الله تعالى عنها، فى مغاضبتها النبى، صلى الله تعالى عيه وسلم، أعظم الحرج، لأنه كبيرة عظيمة، وقد صرحوا بأنها معفوة عند الله وفى الشرع.

(وإن) بكسر الهمزة وسكون النون وهى مخففة من الثقيلة **(كان ليذبح الشاة)** ليس المراد أنه كان يذبحها بنفسه، **(فيهديها)** بضم الياء الأولى، والمراد أنه يهدى منها أو يهديها بتمامها، والظاهر الأول، لأنه فى الحديث: فيهدى ما يشبعها أو يشبعهن **(إلى خلائلها)** بالخاء المعجمة جمع خليلة بمعنى الصاحبة والصديقة.

(واستأذنت عليه) أى طلبت الإذن فى الدخول له **(أختها)** أى أخت خديجة، وهى هالة بنت خويلد بن أسد، وهى أم ابن العاصى بن الربيع الصحابية المشهورة، رضى الله تعالى عنها، **(فارتاح إليها)** أى حصلت له، صلى الله تعالى عليه وسلم، راحة إذ دخلت عليه، وأظهر البشر والمسرة برؤياها، وهذا الحديث فى البخارى، وفى رواية: ارتاع بالعين بدل ارتاح بمعنى مال إليها وأعجبه مجيئها مجازًا.

(ودخلت عليه امرأة فهش لها) أى تبسم قليلا، وأظهر المسرة بدخولها كما يفعل الناس بأصدقائهم ومن يحبونهم، يقال: يهش ويبش به إذا فعل ذلك استئناسًا، ويقال: هو هش بش إذا كان طلق المحيا غير عبوس شامخ الأنف كما يفعله المتكبرون.

(وأحسن السؤال عنها) فيه مضاف مقدر بقرينة المقام، وأل فى السؤال للعهد أو بدل من المضاف أى أحسن إليها بسؤاله عن حالها، وما هى عليه كما تقول لمن يزورك: ما حالك؟ وما أنت عليه؟ تلطفا به واعتناء بشأنه كما هو عادة الناس لمن يحبونه، ووقع فى الحديث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال لها: كيف حالكم؟ كيف أنتم؟ فقالت: بخير، وهو مفسر لما هنا، **(فلما خرجت)** من عنده صلى الله تعالى عليه وسلم، وذهبت من مجاسه.

(قال) بيانًا لسبب معاملته معها وهى أمراة أجنبية **(إنها كانت تأتينا أيام خديجة)** أى أنها كانت فى حياة زوجته خديجة تدخل منزله صلى الله تعالى عليه وسلم، لأنها من معارفها وأصدقائها، **(وإن حسن العهد)** أى رعاية العهود القديمة ورعاية من يحبك أو يحب من يحبك **(من الإيمان)** أى من شعب الإيمان ومقتضياته؛ لأن من كمال الإيمان مودة عباد الله ومحبتهم، كما أنه من تعظيم السيد إكرام عبيده، ومناسبة هذا لما عقد له الفصل ظاهرة.

(ووصفه بعضهم) أى وصف بعض الصحابة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فقال: كان يصل ذوى رحمه)** أى من صفته التى كانت منه دائمة، وكان تدل على التكرار والدوام كثيرة، وإن لم تكن موضوعة لذلك نحو كان حاتم يقرى الضيف، وكان الله غفورًا رحيما، كما فصل فى الأصول، أى يحسن إليهم ويوادهم، ولما كان هذا

يوهم الاختصاص بهم احترس عنه فقال: **(من غير أن يؤثرهم)** أى يخصهم ويقدمهم **(على من هو أفضل منهم)** من سائر الناس، وهذا أيضا من حسن العهد.

(وقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: إن آل بنى فلان ليسوا لى بأولياء) الآل بمعنى الأهل والأتباع، وفلان كناية عن الأعلام التى للعقلاء، والمراد هنا كما مر أبو العاصى ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، والكناية من الراوى لا من كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم، وأبو العاص هو أبو الحكم بن أبى العاص وكان منافقًا فى أول أمره، ثم حسن إسلامه وهو عم عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه، وما ذكر كذا هو فى نسخة البرهان الحلبى.

قال ابن قرقول: وفى الحديث المشهور: «إن آل أبى ليسوا بأوليائى»(١) بفتح همزة أبى، قال: وبعد قوله أبى بياض فى الأصول كأنهم تركوا من الاسم بقية، وعند ابن السكن إن آل أبى فلان بالكناية عمن ذكر، وفى بعض الروايات إسقاط آل.

والأولياء جمع ولى، وهو القريب ومن يتولى أمره، أى لا أتولاهم ولا أحسبهم من أوليائى لما علمت منهم، والمراد به القدح كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] أى لا ولى لهم ولا ناصر .

(غير أن لهم رحمًا) أى قرابة **(سأبلها ببلالها)** لأن أبا العاص أحد بنى أمية وهم قريبون منافقون، وولد أمية العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص وهم الأعياص، وحرب وأبو حرب، وسفيان وأبو سفيان واسمه عنبسة، وعمرو، وأبو عمرو، وأبو سفيان هذا هو صخر بن حرب بن أمية، وهو غير أبى معاوية رضى الله تعالى عنهما، وقوله: سأبلها أى سأصل رحمها بصلتها اللائقة بها، والبلال بكسر الباء الموحدة مصدر كالقتال، أو جمع بلل كجمل وجمال وهو الأفصح والأصح رواية، وروى بفتح الباء أيضًا، والمعنى واحد وهو الرطوبة والنداوة، وكل ما يبل الحلق من المائعات كالماء واللبن، فاستعير للصلة والإحسان كما استعير اليبس للقطيعة والشح.

وفى الحديث: «بلوا أرحامكم ولو بالسلام»؛ لأن الرطوبة والنداوة تجمع الأشياء، واليبوسة تفرقها، وأيضًا إن بل الأرض يجعلها منبتة، فاستعيرت لما ذكر لتأليفها للقلوب وتنمية المودة كما قال(٢):

---

(١) أخرجه البخارى (٧/٨)، وأحمد (٤/٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) البيت من الخفيف، وهو بلا نسبة فى الأشباه والنظائر (٨/١٣٤)، الخصائص (١/٢٩٠، ٢/٢٨٠)، الدرر (٦/١٥٥)، ديوان المعانى (٢/٢٢٥)، رصف المبانى (ص٤١٤).

كيف أصبحت كيف أمسيت مما ينبت الود فى قلوب الرجال

ففيه استعارة مصرحة أو مكنية وتخييلية.

(وقد صلى صلى الله تعالى عليه وسلم) أى دخل فى الصلاة **(بأمامة)** بضم الهمزة وميمين علم **(ابنة ابنته زينب)** أكبر بناته صلى الله تعالى عليه وسلم، وتوفيت سنة ثمان من الهجرة، وتزوجها أبو العاص بن الربيع لا ابن ربيعة كما فى البخارى، فإنه غلط مشهور، وولد له منها أمامة، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يحبها، وتزوجها على كرم الله وجهه بعد فاطمة، رضى الله تعالى عنها، ثم تزوجها بعده المغيرة بن نوفل، فماتت عنده.

قال البرهان الحلبى: ليس لزينب بنت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا لرقية ولا لأم كلثوم عقب، وإنما العقب لفاطمة، رضى الله تعالى عنها، ولذا سادت جميع بناته وأمها خديجة، وهى سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم.

وقال السهيلى: فضلت على أخواتها؛ لأنها بضعة منه وزوجة خليفته وأم ريحانتيه، ولأنها أصيبت برزء لا يساويه رزء، وهو أبيها صلى الله تعالى عليه وسلم فى حياتها، فصبرت واحتسبت، ومن ذريتها المهدى، وهذا الحديث رواه البخارى فى صحيحه كغيره، وفيه كما يأتى أنه كان إذا سجد وضعها، وإذا قام رفعها المعبر به الحمل الآتى، وقد أشكل هذا على الفقهاء، لأن هذه أعمال كثيرة مبطلة للصلاة، فقيل: إنه من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل، إنه منسوخ، وقيل: إنه لا عمل له لأنها لمحبتها له كانت تتعلق به وتعلو عليه من غير عمل منه، وقوله: رفعها ووضعها يأباه، وقيل: إنه كان فى النافلة ضرورة، لأنه لم يكن ثمه من يكفيه أمرها، وقال بعضهم: إنه كله باطل لأنه وقع بعد الهجرة وتحريم الأعمال، وكان فى صلاة الصبح وهو يؤم الناس كما ورد التصريح به، فالصواب: أنه عمل قليل لا يبطل الصلاة وكانت مطهرة ليس معها ما يبطل الصلاة قيل: وإنما فعل ذلك صلى الله تعالى عليه وسلم إرغاما للعرب فى عدم محبتهم البنات.

(يحملها على عاتقه) أى كتفه، وعلى متعلق بيحمل، لا حال من أمامة، أو من ضميره كما يقال.

(فإذا سجد وضعها) على الأرض، **(وإذا قام حملها)** بيانا للجواز.

وقال الخطابى: إسناد وضعها وحملها مجاز، فإنها كانت تألفه فإذا سجد جلست على عاتقه، فلا يدفعها فتبقى محمولة حتى يركع، فيرسلها فإذا سجد فعلت كذلك، وتقدم ما فيه.

(وعن أبى قتادة) الصحابى الأنصارى فارس رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، واختلف فى اسمه فقيل: الحارث بن ربعى بكسر الراء ابن عمرو، وقيل: النعمان، توفى بالمدينة سنة أربع وخمسين، وقيل: ثمان وثلاثين، وهو ابن سبعين سنة، وروى له أحمد وأصحاب السنن.

(وقد وفد للنجاشى) وفد بمعنى قدم، ويخص بقدوم الرسول، ووفد بسكون الفاء اسم جمع بمعنى الوافدين، والنجاشى بفتح النون وكسرها وتشديد الياء وتخفيفها، واسمه أصحمة، وقيل: صحمة بفتح الصاد وسكون الحاء المهملتين، وقيل: صمحة بتقديم الميم، وقيل: خاؤه معجمة، وقيل: اسمه مكحول بن صصه، وقيل: سليم، وقيل : حازم وهو اسم لكل من ملك الحبشة، وكان رضى الله تعالى عنه ممن أعان المسلمين لما هاجروا إليه، وكاتب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأهدى له الهدايا، وزوجه بأم حبيبة رضى الله تعالى عنها، وكتب له النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام، فأسلم على يد جعفر بن أبى طالب سنة ست، وكان بينه وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم محبة عظيمة، فلما توفى فى رجب سنة تسع نعاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وصلى على جنازته، وبه استدل الشافعى رضى الله تعالى عنه على الصلاة على الغائب على ما تقدم، وقصته مشهورة، ولما توفى خلفه نجاشى آخر دعاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للإسلام، فأبى ومات كافرا.

(فقام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يخدمهم بنفسه) تواضعًا منه وإرشادًا لغيره، **(فقال له)** أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم **(أصحابه: نكفيك)** أى نحن نخدمهم ونكفيك من تعاطى خدمتهم، فأبى صلى الله تعالى عليه وسلم و **(قال: إنهم كانوا لأصحابنا)** الذين هاجروا لأرضهم **(مكرمين، وإنى أحب أن أكافئهم)** أى أجازيهم على إكرامهم لأصحابنا بإكرامهم، ولا إكرام أعظم من تعاطيه صلى الله تعالى عليه وسلم أمورهم بنفسه، وهذا الحديث رواه البيهقى فى دلائله مسندًا.

(ولما جىء) مبنى للمفعول أى جاء الصحابة، رضى الله تعالى عنهم **(بأخته من الرضاعة)** بفتح الراء وكسرها بمعنى الرضاع **(الشيماء)** بفتح المعجمة وسكون المثناة التحتية والميم وهمزة ممدودة، ويقال لها: الشمَّاء بتشديد الميم من غير ياء كما قاله المحب الطبرى، ويحتمل أن تكون الشيماء أصلها شماء فأبدلت إحدى الميمين ياء، كما قيل فى أما أيما، فتكون صفة بمعنى ذات شمم، ثم نقل وجعل علما لها، وهى بنت حليمة السعدية التى أرضعت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: أختها وزوج حليمة: هو الحارث بن عبد العزى، وحليمة أسلمت وعدت من الصحابة على ما يأتى، واسمها

جدامة بجيم مضمومة ودال مهملة، وقيل: حذافة بحاء مهملة ودال معجمة وفاء، وقيل: خذافة بمعجمتين، واختلف فى زوجها أبو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من الرضاعة، فلم يذكر أحد من أهل السير إسلامه، ولكن ذكره يونس بن بكير فى روايته، فقال: حدثنا ابن إسحاق عن أبيه عن بعض بنى سعد بن بكر أن الحارث بن عبد العزى أبو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الرضاع قدم عليه بمكة بعد بعثته، فقالت له قريش: يا حارث ما يقول ابنك هذا؟ فقال: ما يقول؟ قالوا: يزعم أن الله يبعث الخلق بعد الموت، وأن لله دارين يعذب فيهما من عصاه ويكرم من أطاعه، وقد شتت أمرنا وفرق جماعتنا، فأتاه فقال: يا بنى مالك ولقومك، يشكونك ويزعمون أنك تقول لهم: إن الناس يبعثون بعد الموت، ثم يصيرون إلى جنة أو نار، فقال: نعم، ولو كان ذلك اليوم يا أبت أخذت بيدك حتى أعرفك حديثك اليوم، فأسلم وحسن إسلامه، وكان يقول حين أسلم: لو قد أخذ ابنى بيدى فعرفنى ما قال، لم يرسلنى إن شاء الله حتى يدخلنى الجنة، انتهى.

(فى سبايا هوازن) السبايا جمع سبية بمعنى مسبية أي مأسورة، وهوازن اسم قبيلة من بنى سعد بن بكر سميت باسم الأب الأعلى كتميم، وهو هوازن بن نصر بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن غيلان بن نصر، والمراد بكونها فيهم أنها كانت مسبية معهم أيضًا.

(وتعرفت له) يقال: تعرف له إذا أعلمه باسمه وشأنه، فهى أعلمته صلى الله تعالى عليه وسلم أنها أخته رضاعا، فقال لها صلى الله تعالى عليه وسلم: ما علامة ذلك؟ فقالت: عضة كنت عضضتنيها فى ظهرى، فعرف ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه سلم وصدقها، جواب لما **(بسط لها رداءه)** أى فرشه لها لتجلس عليه إكرامًا لها.

(وقال لها) بعد ما جلست عنده **(إن أحببت أقمت عندى)** مفعول أحببت مقدر تقديره أحببت الإقامة عندى، وهذا يدل على أنها أسلمت كما تقدم **(مكرمة محبة)** بالنصب على الحالية فيهما، ومكرمة بضم أوله وسكون ثانيه وتخفيف رائه اسم مفعول من أكرمه إذا فعل به ما يحبه من إحسان قولاً وفعلاً، وكذا محبة فإنه مفعول من أحبه، ويقال: حبه وأحبه بمعنى، والأكثر الأفصح فى اسم المفعول أن يكون من الثلاثى، فيكثر فيه محبوب، ويقل محب لكنه هنا أحسن لاقترانه بمكرم، وعليه الاستعمال كقوله عنترة:

وإذا نزلت فلا تظنى غيره منى بمنزلة المحب المكرم

وقولها جارية خدية مكرمة محبة، وجبروا ذلك فصاغوا اسم الفاعل من المزيد فقالوا: محب، ولم يقولوا: حاب.

(أو متعتك ورجعت إلى قومك، فاختارت قومها فمتعها) ورجعت لقومها وتفصيله ما قاله أصحاب السير أنه لما قدمت أخته الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى، وعرفته صلى الله تعالى عليه وسلم بنفسها، فعرفها وبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، وخيرها فاختارت الرجوع لقومها وأرضها، وأن يمتعها بالإحسان إليها فأعطاها عبدًا وجارية، وقال ابن عبد البر، رحمه الله: إنها أسلمت فأعطاها ثلاثة أعبد وجارية ونعمًا وشاء، وهذا منه صلى الله تعالى عليه وسلم صلة لرحمه؛ لأن الرضاع له حكم النسب والقرابة، واللبن للأبوين.

(وقال أبو الطفيل) بضم الطاء المهملة وفتح الفاء منقول من مصغر الطفل جعل علمًا لعامر بن وائل بالثاء المثلثة الكنانى الصحابى، وهو آخر من مات من الصحابة، ووقع فى بعض النسخ ابن أبى الطفيل، وليس بصحيح كما قاله البرهان الحلبى.

(رأيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأنا غلام) الغلام كما فى الكفاية المتحفظ عن بعض أهل اللغة الصبى إذا فطم إلى سبع سنين، ثم يصير يافعًا إلى عشر حجج، وقد يطلق الغلام على الشاب التام الرجولية، والمراد هنا الأول.

(إذ أقبلت امرأة حتى دنت منه) أى قربت من مكانه الجالس فيه، وفى بعض النسخ تأخير قوله: وأنا غلام عن قوله: إذ أقبلت إلى آخره، وهذا الحديث رواه أبو داود فى سننه بسند حسن، فقال: حدثنا ابن المثنى قال: حدثنا أبو عاصم قال: حدثنى جعفر بن عمارة قال: أخبرنا عمارة بن ثوبان أن أبا الطفيل أخبره قال: رأيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقسم لحمًا بالجعرانة، وأنا يومئذ غلام أحمل لحم الجزور إذ أقبلت امرأة وساقه، وقوله، إذ يحتمل أن تكون ظرفًا لرأيت أى رأيته وقت إقبال المرأة، ويحتمل أن تكون للمفاجأة بتقدير بينا أى رأيته يقسم لحمًا، وبينا هو كذلك إذ أقبلت امرأة إلى آخره، أو هى بمعنى قد، والوجه هو الأول، وفى هذا دليل على قبول رواية الصغير، وفيه كلام مفصل فى مصطلح الحديث. قالوا: وهذه المرأة هى حليمة أمه صلى الله تعالى عليه وسلم من الرضاع بمجيئها له صلى الله تعالى عليه وسلم كما فى الاستيعاب كان يوم حنين، وقال الحافظ الدمياطى، رحمه الله: وزوجها لا نعرف له صحبة ولا إسلامًا، وما قاله ابن عبد البر من أنها أتته صلى الله تعالى عليه وسلم يوم حنين وبسط لها رداءه، وروت عنه، وروى عنها عبد الله بن جعفر لم يصح، وابن جعفر لم يدركها، وإنما التى جاءته هى بنتها الشيماء، وأما حليمة فإنها جاءته صلى الله تعالى عليه سلم بمكة قبل النبوة فى زمن خديجة رضى الله تعالى عنها، فأعطاها أربعين شاة وجملا، ثم انصرفت لأهلها، وما هنا يقتضى مجيئها له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد النبوة

بالجعرانة بعد انقضاء حرب هوازن، ومجىء وفدهم، وليس كذلك، إنما هى ابنتها.

وجوز الذهبى، رحمه الله تعالى، أن تكون المرأة التى جاءته ثويبة مولاة أبى لهب الآتى ذكرها، ويرده أنها ماتت سنة سبع قبل هوازن، ولما فتح مكة سأل عنها ابنها مسروجا، فأخبره بموتها، وصحح بعضهم خلافه ذكره ابن الجوزى فى الوفاء.

وصنف الحافظ مغلطاى جزءًا فى إسلامها سماه النعمة الجسيمة فى إثبات إسلام حليمة، وأيده وارتضاه علماء عصره وممن أنكره أبو حيان.

(وعن عمرو بن السائب) عمرو بفتح العين وبالواو، وهو ابن واش المصرى، وقيل: إنه عمر بالضم وحذفها، قال الحلبى: والفتح غلط، وصوابه الضم كما ذكر ابن حبان، وقال: إنه من الثقات، وروى عن أسامة بن زيد، وروى عنه جماعة، وأخرج له أبو داود فقط كذا قاله التلمسانى فى حواشيه، وهو من أجلة التابعين، وهذا الحديث رواه أبو داود بلاغًا كما قاله السيوطى فى تخريجه.

(أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه سلم، كان جالسًا يومًا) قيل ظاهره: أن عمرًا شاهد هذه القضية وهو تابعى، والحديث من مرسل زيد كما فى سنن أبى داود قال: عن أحمد بن سعيد الهمدانى قال: حدثنا ابن وهب قال: حدثنى عمرو بن الحارث أن عمرو بن السائب حدثه أنه بلغه أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان جالسًا إلى آخره، فلو ذكره المصنف كما قاله أبو داود كان أولى.

(فأقبل أبوه من الرضاعة) وهو الحارث بن عبد العزى، وقد تقدم الكلام فيه وفى إسلامه وكون الزوج للمرضعة يسمى أبا، ويثبت بإرضاع زوجته معنى له حكم النسب كما أن المرضعة أمه، لأن الفحل محرم، وإن لم يكن له حكم النسب من كل وجه، وإليه ذهب الفقهاء كافة غير الظاهرية، والكلام عليه مفصل فى كتب الفروع.

(فوضع له) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بعض ثوبه)** وفرشه له فى الأرض ليجلس عليه، **(فقعد عليه ثم أقبلت أمه)** وهى حليمة كما مر، **(فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر، فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة، فقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فأجلسه بين يديه)** يعنى أنه أجلس أباه عن يمينه، وفرش له جانبًا من ثوبه، وأجلس أمه حليمة عن يساره، وفرش تحتها جانبًا من ثوبه إكرامًا لهما، فلما قدم أخوه، وهو عبد الله بن الحارث بن عبد العزى لم يبق جانب من ثوبه يفرشه، فقام له صلى الله تعالى عليه وسلم لئلا يقصر فى توقيره عن أبويه، وفيه دليل على أنه يجوز القيام تعظيمًا لمن يستحق التعظيم خلافًا لمن قال: إنه مكروه مطلقًا، وللنبى ﷺ عدة مرضعات منها

حليمة هذه، وثوبية مولاة أبى لهب الآتية، وخولة بنت المنذر بن زيد بن لبيد، وأم أيمن، وثلاث نسوة من سليم تسمى كل وحدة منهن عاتكة، وهو أحد القولين فى قوله صلى الله تعالى عليه سلم أنا ابن العواتك، وقيل: إنهن جدات له ومعنى عاتكة متضمخة بالطيب.

(**وكان**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**يبعث إلى ثويبة**) علم منقول من تصغير الثوب، وهى (**مولاة أبى لهب مرضعته**) أى جارية معتقة له، وأبو لهب كنيته واسمه عبد العزى، وكنى بذلك لتوقد لونه، وذكر بهذه الكنية فى القرآن للإشارة إلى أنه جهنمى، كما مر.

(**بصلة**) أى عطية يحسن بها لها، (**وكسوة**) بضم الكاف وكسرها أى ثياب تلبسها، (**فلما ماتت**) بمكة بعد هجرته، عليه الصلاة والسلام، (**سأل من بقى من قرابتها**) أى عمن بقى، فهو منصوب بنزع الخافض، أو تقديره: وقال من بقى، فهى إما موصولة أو استفهامية، والقرابة مصدر بمعنى قرب النسب، وسمع اسم جمع بمعنى الأقرباء كما ذكره ابن مالك وغيره خلافًا للحريرى إذ أنكره، وقال: لا يقال للأقرباء قرابة، وإنما يقال: ذو قرابة كما قال الشاعر(١):

يبكى عليه غريب ليس يعرفه وذو قرابته فى الحى مسرور

(**فقيل: لا أحد**) أى لا أحد من قرابتها باق، وأحد مرفوع بفعل مقدر أى لم يبق، أو مرفوع اسم لا العاملة عمل ليس، أو مفتوح اسمها والخبر مقدر عليهما، وقوله: وكان إلى هنا سقط من بعض النسخ، وما ذكر من حسن الوفاء وصلة الرحم، وفيه من مكارم أخلاقه وحسن عهده صلى الله تعالى عليه وسلم ما لا يخفى، وهذا الحديث رواه الواقدى وغيره، وأما إرضاع ثويبة له صلى الله تعالى عليه وسلم، فثابت فى الصحيحين، وهى أول من أرضعته مع ابنها مسروح المتقدم ذكره أيامًا قبل حليمة، وأرضعت قبله عمه حمزة وأبا سلمة، واختلف فى إسلامها، فأثبته بعضهم وعدها فى الصحابة، وأنكره أبو نعيم، وكان أبو لهب أعتقها لما بشرته بولادة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ورئى فى المنام وهو يقول: خفف عنى العذاب بإعتاقى ثويبة لما بشرتنى به، وفى السير أنه أعتقها قبل ولادته بدهر طويل، وهو المروى فى غير السير، وفى المواهب ما يخالفه، والذى رآه فى المنام بشر حيبة بفتح الحاء المهملة أو بكسرها وياء مثناة تحتية وباء موحدة، وقيل: إنه بخاء معجمة، وقيل: بجيم وهو تصحيف أى بسوء حال، فهو الحوبة

(١) البيت من البسيط، وهو لعثير بن لبيد، أو لحريث بن جبلة كما فى لسان العرب (٢٩٣/٤)، تاج العروس (٣٤٩/١١).

وهى المسكنة والحاجة، قالوا: وانقلبت ياء لانكسار ما قبلها، أو على خلاف القياس، وتخفيف عذابه بسبب ما ذكر لا يعارض قوله تعالى فى أعمال الكفرة: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]؛ لأنه بعد الحشر، أو لأنه لما لم ينجهم من النار فكأنه لم يفدهم أصلا، وتفصيله فى حواشينا على القاضى.

(**وفى حديث خديجة، رضى الله تعالى عنها**)، الذى رواه الشيخان عن عائشة رضى الله تعالى عنها بسند صحيح (**أنها قالت له:**) صلى الله تعالى عليه وسلم فى ابتداء أمره لما رأى جبريل، عليه الصلاة والسلام، فحصل له به رعب شديد (**أبشر**) أمر بفتح الهمزة، وهى همزة قطع يقال: أبشر وبشر بمعنى، ويجوز وصلها وفتح الشين من بشر يبشر كعلم يعلم، وهو أمر المقصود منه تعجيل المسرة بالبشرى التى بعده، وهو إنشاء أريد به الخبر أى أنى مبشرة لك، والبشرى الخبر السار الذى يظهر أثره فى البشرة.

(**فوالله لا يخزيك الله**)، وهذا الحديث تقدم شرحه فى فصل الجود والكرم، ومر أن فى يخزيك روايتين ضم الياء وإعجام الخاء من الخزى، وهو النكال والفضيحة، وبه روى لفظ المصنف هنا كما ذكره البرهان الحلبى، وإهمال الحاء من حزن وأحزن وهى دون الأولى، فلذا تركها المصنف رحمه الله تعالى، وروى لا يخزيك الله أبدا عن الزهرى بزيادة أبدا.

(**إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق**)، وقد مر ذلك مبينا.

* * *

(فصل وأما تواضعه ﷺ)

التواضع بضم الضاد المعجمة إظهار أنه وضيع، وهو أشرف الناس، فالصيغة للتكلف فى الأصل (**على علو منصبه**) قد قدمنا لك أن المنصب فى كلام العرب بمعنى الأصل والحسب كما فى قول أبى تمام:

ومنصب نماه ووالد سماه

وأن استعماله فى تولى الأعمال السلطانية كقول ابن الوردى(١):

نصب المنصب أوهى جلدى وعنائى من مداراة السفل

مولد لم يسمع من العرب، ولذا عطف عليه قوله: (**ورفعة رتبته**) فهو كالتفسير له، والرتبة كالمنزلة رفعة القدر، (**فكان صلى الله تعالى عليه وسلم أشد الناس تواضعا**)

---

(١) البيت من الرمل، وهو فى ديوان ابن الوردى (ص٤٣٨)، تاج العروس (٤/٢٨١).

منصوب على التمييز، (**وأقلهم كبرا**)، وفى نسخة وأعدمهم كبرا وفى نسخة بالجمع بينهما، وهو أفعل تفضيل من العدم، وهذا أنسب بمقامه صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن اللائق به عدم الكبر لا قلته، ووجه هذه البرهان الحلبى بأن القلة بمعنى النفى، وقال أبو حيان فى قوله تعالى: ﴿**فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ**﴾ [البقرة: ٨٨]: إن التقليل يرد بمعنى النفى المحض كما فى قولهم: أقل رجل يقول ذلك، وقل رجل يقول ذلك، وقلما يقوم زيد، وقليل من الرجال يقول ذلك.

وقال الحافظ السخاوى فى كتابه جواهر الدرر فى مناقب شيخه ابن حجر: إن ابن حجر رحمه الله تعالى سئل عن هذه العبارة، وأن بعضهم شنع على المصنف فيها ومحاها من النسخ، فأجاب بأن الاعتراض باطل، لأنهم تكلموا على الحديث الذى رواه النسائى عن عبد الله بن أبى أوفى، قال: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يكثر الذكر ويقل اللغو، فقالوا، يقل اللغو بمعنى لا يلغو أصلاً.

قال ابن الأثير فى النهاية: لأن قل يستعمل فى النفى كما فى الآية السابقة، فمعنى هذه النسخة أنه لا يقع منه صلى الله تعالى عليه وسلم كبر أصلاً كما فى الحديث الصحيح، وليس أفعل فيه للتفضيل، فإنه قد يخرج عنه كما فى قوله تعالى: ﴿**أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا**﴾ [الفرقان: ٢٤]، ومثله أفظ وأغلظ، فإنه بمعنى فظ غليظ أى كما مر، وقال المصنف فى شرح مسلم: يصح حمله على المفاضلة، والقدر الذى فيه منه إغلاظه على الكفرة والمنافقين، كقوله تعالى: ﴿**جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ**﴾ [التوبة: ٧٣]؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يغلظ عليهم، ويغضب عند انتهاك حرمات الله انتهى.

فقوله: أقلهم كبرا بمعنى انتفاء الكبر عنه البتة، أو يحمل على شدته على الكفار والمنافقين كما فى الذى قبله، لأن تواضعه صلى الله تعالى عليه وسلم ورأفته كانت بالمؤمنين، لقوله تعالى: ﴿**بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقوله فى التوراة: ليس بفظ ولا غليظ أى بالمؤمنين، ونظيره: ﴿**أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ**﴾ [الفتح: ٢٩] بمعنى أذلة على المؤمنين عاطفين عليهم، أعزة على الكافرين متكبرين عليهم يعادونهم، فلا معنى لمحو النسخ وإتلافها انتهى.

واستدرك عليه عز الدين الحنبلى بأن تأويله الشدة والغلظ بكونها على الكفار والمنافقين فيه أن شدته وغلظه على نحو هؤلاء كانت أشد من عمر رضى الله تعالى عنه بلا شك، انتهى.

أقول: الجواب الحق هو الثانى، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان متخلقًا بأخلاق الله تعالى عز وجل، ومنها المتكبر، فاتصافه صلى الله تعالى عليه وسلم بهذه الصفة مدح فى محلها ولذا قيل: التكبر على المتكبر صدقة، فالتكبر على الكفرة والمنافقين أحيانًا فى محله ممدوح، وهو فى صفاته تعالى ذاتى لا ينازعه أحد رداءه إلا قصمه الله، والجواب الأول تعسف، وليس من قبيل قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

وأما تأويل التفضيل بالنفى، وخلع المفاضلة منه، فمجاز على مجاز، وضغث على إباله، وما اعتراض ابن الحنبلى فلا وجه له، ولبعض الشراح والمحشين هنا كلام ركيك تركه خير منه.

(وحسبك) أى يكفيك فى إثبات ما ذكر **(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، خير بين أن يكون نبيًا ملكًا)** بكسر اللام أى سلطانًا، وخير مبنى للمجهول أى خيره الله على لسان ملائكته فى الحديث المشهور، **(أو نبيًا عبدًا، فاختار أن يكون نبيًا عبدًا)**، فخيره الله بعد تفضيله بالرسالة أن يكون شأنه كالملوك فى اتخاذ الجنود والحجاب والخيول والخدم والقصور، فاختار مع الرسالة العامة مقام العبودية، والخدمة بنفسه فى مهنة أهله تواضعا منه صلى الله تعالى عليه وسلم وزهدًا فى الدنيا، ولذا وصفه الله تعالى بالعبودية فى عظيم مقاماته كقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وهذا من حديث صحيح رواه أحمد عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، والبيهقى، عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما.

(فقال له إسرافيل عند ذلك) أى حين اختار العبودية على الملك: **(فإن الله قد أعطاك)** هذه الفاء فصيحة عاطفة على مقدر أي أصبت وجزاك الله خيرًا ممن تركته **(بما تواضعت له)** الباء سببية، وما مصدرية أي بسبب تواضعك له **(أنك سيد ولد آدم)** بفتح همزة أنك، وهى وما بعدها مفعول أعطى، والسيد من يفوق غيره فى الشرف، وهو يطلق على الله تعالى وعلى غيره فى أصح الأقوال المشهورة، وخصه بقوله: **(يوم القيامة)** لأنه لا أعلى من هذه السيادة حيث يسود صلى الله تعالى عليه وسلم، فيه على الرسل وسائر البشر، وفيه نكتة لتبين اضمحلال كل ملك لفنائه حيث يقول الله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، لسائر مخلوقاته فتدبر.

(وأول من تنشق عنه الأرض) معطوف على سيد خبر أن، وانشقاق الأرض لتخرج الموتى من قبورهم للبعث، فلا يتقدمه صلى الله تعالى عليه وسلم أحد حينئذ، وأما حديث فإن الناس يصعقون أى يغشاهم غشية كالموت يوم القيامة، فأصعق معهم، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدرى أكان ممن صعق، أو

كان ممن استثنى الله تعالى بقوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٨٧]، فلا ينافيه لأن هذه الصعقة كما قاله التوربشتى صعقة فزع بعد البعث، ويؤيده قوله: يوم القيامة.

(**أول شافع**) يوم القيامة أو فى الجنة لرفع درجات الناس؛ لأن مقام الشفاعة متعدد، وفى قوله أول إشارة إلى أن غيره من الملائكة وغيرهم يشفعون بعد ذلك.

واعلم أن سفير الوحى بين الله ونبينا صلى الله تعالى عليه وسلم جبريل، عليه الصلاة والسلام، وعن الشعبى أن إسرافيل، عليه الصلاة والسلام، كان يأتيه صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحى فى أول بعثته، ويترائى له ثلاث سنين، ويأتيه بالكلمة والشىء، ثم وكل به جبريل، عليه الصلاة والسلام.

قال ابن عبد البر فى الاستيعاب: أنزلت عليه صلى الله تعالى عليه وسلم النبوة، وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرافيل، عليه الصلاة والسلام، ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشىء و لم ينزل عليه القرآن على لسانه، فلما مضت ثلاث سنين قرن به جبريل، عليه الصلاة والسلام، فنزل القرآن عليه عشر سنين، وفى شرح البخارى لابن التين: ميكائيل بدل إسرافيل، ونقل البرهان عن ابن الملقن أن المشهور أن الذى ابتدأه بالوحى جبريل، عليه الصلاة والسلام، وأنكر الواقدى كون غير جبريل وكل به، وقال السيوطى، رحمه الله تعالى، فى كتاب الحبائك: لم أقف على أن جبريل أفضل أو إسرافيل، ثم نقل أحاديث متعارضة فى ذلك، وفيه أيضًا أن إسرافيل نزل عليه ﷺ بآية ذكرها.

(**حدثنا الفقيه أبو الوليد بن العواد الفقيه**) بفتح العين المهملة وتشديد الواو وألف ودال مهملة، وهو هشام بن أحمد القرطبى وقد تقدمت ترجمته (**بقراءتى عليه فى منزله بقرطبة سنة سبع وخمسمائة**)، وفى هذه السنة توفى رحمه الله تعالى (**قال: حدثنا أبو على الحافظ**) الغسانى، وقد تقدم، والحافظ إذا أطلق يراد به حافظ الحديث بالرواية قال: (**حدثنا أبو عمر**) يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى القرطبى الإمام الجليل صاحب التآليف المشهورة كما تقدم قال: (**حدثنا ابن عبد المؤمن**) أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن كما تقدم قال: (**حدثنا ابن داسة**) أبو بكر بن محمد بن بكر، وقد تقدم، وأن داسة بدال وسين مهملتين مفتوحتين بينهما ألف قال: (**حدثنا أبو داود**) صاحب السنن المتقدم قال: (**حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة**) عبد الله بن محمد بن أبى شيبة العبسى أحفظ أهل عصره، له ترجمة فى الميزان مفصلة، وأخرج له الأئمة الستة.

قال النووى: أبو بكر بن أبى شيبة منسوب إلى جده عبد الله بن محمد بن إبراهيم

ابن عثمان بن خواستى بخاء معجمة مضمومة، ثم واو مخففة، ثم ألف ثم سين مهملة ساكنة، ثم تاء مثناة من فوق مكسورة، وأبو شيبة هو إبراهيم وغلب على أولاد ابنه النسب إليه، وهم ثلاثة عبد الله هذا وهو مشهور بكنيته، وعثمان، وقاسم، فأما عبد الله وعثمان فإمامان حافظان من أحفظ أهل عصرهم، وهما شيخا البخارى ومسلم، وأما القاسم فليس كهما، بل ترك التحديث عنه أبو زرعة وأبو حاتم الراويان الحافظان، وأبوهم محمد ثقة، وجدهم إبراهيم ضعيف قال: **(حدثنا عبد الله بن نمير)** بالنون تصغير النمر الهمدانى أبو هشام بن هشام بن عروة الأعمش الحافظ، أخرج له أصحاب الكتب الستة، وتوفى سنة تسع وتسعين ومائة.

(عن مسعر) بكسر الميم وسكون السين وفتح العين المهملتين وراء مهملة، ومعناه موقد النار، ويقال: هو مسعر حرب للشجاع، وهو مسعر بن كدام أبو سلمة الهلالى الكوفى المسمى بالمصحف، لإتقانه وحفظه، وممن أخرج له الستة، وتوفى سنه خمس وخمسين ومائة، وله ألف حديث.

(عن أبى العنبس) بفتح العين المهملة وسكون النون وفتح الباء الموحدة وسين مهملة، وهو الحارث بن عبيد بن كعب العدوى الكوفى لم يخرج له غير أبى داود، وذكره فى الميزان، و لم يذكر فيه شيئًا.

(وعن أبى العدبس) بفتح العين والدال المهملة وتشديد الباء الموحدة المفتوحة وسين مهملة، وهو تبيع بن سليمان الأسدى، ويقال: الأشعرى الكوفى، وتبيع بضم المثناة الفوقية ثم باء موحدة وعين مهملة بزنة المصغر كما فى الميزان، وتهذيب الذهبى والإكمال إلا أن أبا الخليل الحافظ كتب فى حواشيه أن هذا وهم منه، وإنما هو منيع بالميم بدل المثناة كما قاله البرهان الحلبى.

(عن أبى مرزوق) التجيبى، واسمه كنيته، وله ترجمة فى الميزان قال فيها: إن ابن حبان قال: إنه لا يحتج بما انفرد به.

(وعن أبى غالب) الراسبى، واسمه خرور، وقيل: سعيد بن خرور، وقيل: نافع، وروى عنه أصحاب السنن، واختلفوا فى ضعف روايته، ومنهم من وثقه.

(عن أبى أمامة، رضى الله تعالى عنه)، الباهلى أو السهمى، وهو صدى بن عجلان ابن وهب، توفى سنة إحدى أو ست وثمانين، وأخرج له الستة، وهو من بقايا الصحابة بحمص، وهذا الحديث رواه أبو داود، وابن ماجه مسندًا.

(قال: خرج علينا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، متوكئًا) بكاف مشددة

مكسورة وهمزة أى معتمدًا متحاملاً، وهو منصوب على الحال **(على عصا)**، وقال ابن عباس: التوكؤ على العصى من سنن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وكان له صلى الله تعالى عليه وسلم عصى منها قضيب ومخصرة قصيرة ومحجن، وكانت فى يده إذا خطب، وكانت عند الخلفاء، وقال فيها الصرصرى رحمه الله تعالى كما مر:

وعصاه لما مسها بيمينه فضلت عصا صارت إلى ثعبان

(فقمنا له) تعظيمًا وإجلالاً.

(فقال: لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا) هذه الجملة بدل مما قبلها أو مستأنفة استئنافًا بيانيًا، والأعاجم جمع أعجم أو أعجمى أو عجم على خلاف القياس أو جمع أعجام جمع جمع، وهم من عدا العرب، وقد يختص بفارس، وقد اختلف العلماء فى القيام للتعظيم المعتاد، هل هو مكروه أم لا؟ فقيل: مكروه استدلالا بهذا الحديث، وبحديث « من أحب أن يتمثل له الناس قيامًا وجبت له النار» ونحوه حتى ذهب بعضهم إلى حرمته، والأحسن ما قاله القاضى زكريا فى شرح الروض أنه مستحب لأهل العلم والصلاح وللحكام والعدول، بل قد يجب إذا خشى من تركه ضررًا كجبابرة الملوك، ويستحب لمن قدم من سفر، ولذوى الأرحام تكريمًا وبرًا لهم، ويدل على ذلك قوله صلى الله تعالى عليه وسلم، للأنصار لما قدم عليهم سعد، رضى الله تعالى عنه: «قوموا لسيدكم» والنهى عنه إنما هو ما كان على سبيل الرياء والتكبر، وحمل حديث سعد على أنه كان مريضًا، وقدم مكة راكبًا، فأمرهم صلى الله تعالى عليه وسلم بالقيام ليعينوه فى النزول عن خلاف الظاهر كما مر، وقد فعله صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان يقوم لفاطمة، رضى الله تعالى عنها، إذا جاءته، وإنما نهاهم لئلا يظنوه سنة ويتخذوه عادة.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم: **(إنما أنا عبد)** الحصر فيه إضافى أى لست بسلطان، ثم إنه أريد بالعبد معناه العرفى وهو الرقيق المملوك للناس، فهو استعارة فشبه نفسه تواضعا لله بالرقيق، لتعاطيه خدمة نفسه فى بيته، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم كما يأتى كان يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويكنس بيته، ويلبس الغليظ.

فقوله: **(آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد)** بيان لوجه الشبه، وإن أراد عبد الله، وكل الناس عبيد الله المملوك وغيرهم سواء فى ذلك، فالمراد أنه متمحض لهذه العبودية لا يشوبها بشىء من أمور الدنيا، ولا تخلق بشىء من أخلاق أهلها فى لباسهم ومأكلهم ومشربهم وفراشهم، فإنه صلى الله عليه وسلم، كان يجلس على الأرض، ولا يأكل على خوان، ولا يغلق عليه بابا، ولا يتخذ حجابًا.

(وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يركب الحمار)، وكثير من الأغنياء يأنف من ركوبه، وكان له حمار يسمى عفير، وأخرى يسمى يعفور، وهو مأخوذ من العفرة، وهى التراب لشبه لونه له، وليسا اسمين لحمار واحد كما توهم، فإن عفيرًا أهداه له المقوقس ويعفور أهداه له فروة بن عمرو، وقيل: بالعكس، ومات يعفور منصرفه من حجة الوداع، وقيل: ألقى نفسه فى بئر ابن التيهان يوم موته صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: إنه كان من جنس من الحمير لم يركبه إلا نبى، وإنه كان صلى الله تعالى عليه وسلم يرسله للرجل، فيأتى بابه ويقرعه برأسه، فيعلم أنه يطلبه.

(ويردف خلفه) غيره، ويردف بضم المثناة التحتية بمعنى يجعله رديفًا له أى راكبًا خلفه على دابته التى ركبها، ويقال، ردف وأردف، أصله الركوب على الردف، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يجعل غيره قدامه أيضًا، ولم يذكر المصنف من أردفه إشارة لعمومه، فيشمل الذكر والأنثى والصغار والكبار، وقد ذكروا أن من أردفه صلى الله تعالى عليه وسلم، بلغ أربعين فى سفره وحضره، وهذا من تواضعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهم أسامة بن زيد، رضى الله عنه، مرجعه من عرفة، والصديق، رضى الله عنه، فى الهجرة، وعثمان رضى الله عنه، راجعًا من بدر، وعلى كرم الله وجه فى حجة الوداع، وعبد الله بن جعفر رضى الله عنهما، بين يديه، وسبطه مع غلامين من بنى هاشم، وأولاد عباس الثلاثة رضى الله عنهم، فى نزوله من المزدلفة، والحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما، ومعاوية رضى الله تعالى عنه، ومعاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه، على عفير، وأبو ذر رضى الله تعالى عنه، على حمار، وزيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه، وثابت بن الضحاك رضى الله تعالى عنه، والشريد بن سويد رضى الله تعالى عنه، وسلمة بن الأكوع رضى الله تعالى عنه، وزيد بن سهل رضى الله تعالى عنه، وأبو طلحة الأنصارى رضى الله تعالى عنه، وسهيل بن بيضاء رضى الله تعالى عنه، وعلى ابن ابنته زينب رضى الله تعالى عنهما وعبد الله بن الزبير، رضى الله تعالى عنهما، وغلام مطلبى، وأسامة بن عمير رضى الله تعالى عنه، وصفية بنت حيى، رضى الله تعالى عنها، مقدمه من خيبر، وأبو الدرداء رضى الله تعالى عنه، وآمنة بنت أبى الصلت، وأبو إياس، وأبو هريرة، وقيس بن سعد، وخوات بن جبير، رضى الله تعالى عنهم، وجبريل عليه الصلاة والسلام، على البراق فى الإسراء ، وأم حبيبة الجهينية، رضى الله عنها، وزيد بن أرقم رضى الله تعالى عنه، وجابر بن عبد الله رضى الله عنهما، وزاد ابن منده، رحمه الله، غير هؤلاء، ونظمهم أبو ذر بن موفق الدين فقال:

وأردافه جم غفير فمنهم   على وعثمان شريد وجبريل

وأولاد عباس ذوو الرشد والتقى أسامة والدوسى وهو نبيل
معاوية قيس بن سعد صفية وسبطاه ماذا عنهم سأقول
معاذ أبو الدردا سويد وعقبة وآمنة إن قام ثم دليل
كذلك خوات ظريف وسبطه على ووجه النقل فيه جميل
أسامة والصديق ثم ابن جعفر وزيد وعبد الله ثم سهيل
كذا بنت قيس خولة وابن أكوع وقدرهم فى العالمين جليل
كذلك زيد جابر ثم ثابت فعن حبهم والله لست أحول
ثلاثة غلمان وزد معهم أبا إياس وحسبى الله هو وكيل

(و) كان **(يعود المساكين، ويجالس الفقراء)** الفرق بين المسكين والفقير مشهور فى مبحث الزكاة إلا أن كلا منهما يطلق على الآخر من غير فرق فى العرف، والعيادة سنة للغنى والفقير، وإنما خصها هنا لأنه يعلم منه غيره بالطرق الأولى، والمسكين بكسر الميم وفتحها مأخوذ من السكون، ويكون بمعنى المتذلل الخاضع، ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(اللهم أحينى مسكينًا وأمتنى مسكينًا)** وتقدم أنه لا يجوز أن يطلق على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه فقير أو مسكين، وإن أطلقه على نفسه الشريفة.

(ويجيب دعوة العبد) إذا علم أنه يجوز له إطعام غيره لكونه مأذونًا ونحوه.

(ويجلس مع أصحابه مختلطًا بهم) فلا يختار مكانًا رفيعًا، ولا يتقدم عليهم. قال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه: حتى كان الغريب إذا أتى ناديه لا يعرفه حتى يسأل عنه، ثم إن الصحابة رضى الله تعالى عنهم سألوه صلى الله تعالى عليه وسلم أن يجعل له مكانًا مخصوصًا حتى إذا أتاه الغريب عرفه وسأله، ففعله من طين تارة يجلس عليه، وتارة يجلس بجنبه **(حيثما انتهى به المجلس جلس)** حيثما تفيد العموم أى أى مكان وجده خاليا وقت مجيئه يجلس فيه صدرا أو غير صدر، وكل هذا لتواضعه صلى الله تعالى عليه وسلم وإرشاد أمته.

(وفى حديث عمر عنه) صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا الحديث رواه البخارى **(لا تطرونى)** مضارع أطراه إذا بالغ فى مدحه وتجاوز الحد فيه قال:

لا يلحق الواصف المطرى مدائحه وإن يكن محسنًا فى كل ما وصفا

أى لا تمدحونى. قال الجوهرى والزبيدى: أطريت الرجل مدحته، وقال ابن فارس فى المجمل: أطريته مدحته بأحسن ما فيه، وقال الهروى: الإطراء مجاوزة الحد فى المدح والكذب فيه، وبه فسر الحديث، وقد علمت أن الذى قاله الهروى هو معنى الحديث،

وهو مأخوذ من الطراوة، يقال: طراوة طراءة، ومدحه صلى الله تعالى عليه وسلم مطلوب من كل أحد، والمنهى إنما هو عما لا يليق به، ولذا قال: **(كما أطرت النصارى)** جمع نصرانى منسوب لناصرى أو نصرة أو نصورية على خلاف القياس، وتلك القرية كان فيها فى أول أمره **(ابن مريم)**، فإنهم قالوا فيه: إنه ابن الله وغيره مما هو مشهور، وهذا كقول البوصيرى رحمه الله تعالى:

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم

وما أحسن قوله العارف بالله عمر بن الفارض تقعنا الله تعالى به:

وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

(إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله) ولا تقولوا ما قاله أهل الكتاب ونحوه، فالحصر إضافى.

(وعن أنس) رضى الله تعالى عنه رواه مسلم **(أن امرأة)** من الصحابه تسمى أم زفر، وهى ماشطة خديجة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها، وتردد البرهان الحلبى رحمه الله تعالى فيها، هل هى هذه أو غيرها؟ وجزم به غيره.

(وكان فى عقلها شىء) من الجنون، ولم يصرح به إشارة لخفته، وأنها لم تستغرق فيه فإن لفظ شىء يشعر بالقلة.

(جاءته صلى الله تعالى عليه وسلم فقالت: إن لى إليك حاجة) أى لى حاجة أريد أن أنهيها إليك، وأعلمك بها.

(قال) لها **(اجلسى يا أم فلان)** الإبهام من الراوى، لأنه لم يحضره اسمها **(فى أى طرق المدينة شئت أجلس إليك)** مجزوم فى جواب الأمر، وإلى بمعنى عند عبر به للمشاكلة **(حتى أقضى حاجتك قال)** أى أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه **(فجلست فجلس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إليها حتى فرغت من حاجتها)** التى أعلمته بها تواضعًا منه صلى الله تعالى عليه وسلم وملاطفة، وفيه استحباب الملاطفة بمثلها لا من كان فيه جنون مطبق، وكانت جارية سوداء تصرع أحيانًا، فشكت ذلك للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وقالت: إنى أصرع وأنكشف فادع الله لى فقال: «إن شئت فاصبرى ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك»[1]، فقالت: أصبر ولكن ادع الله أن لا أنكشف، فدعا لها.

---

(١) أخرجه البخارى (٨/١٥٠)، ومسلم فى البر والصلة برقم (٥٤)، وأحمد (٣٤٧/١)، والطبرانى (١٥٧/١١)، وابن حبان (٧٠٨).

وكان ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يقول: ألا أريكم امرأة من أهل الجنة، فيشير إليها، وقيل: إن التى كانت تصرع سعيرة الأسدية.

(وقال أنس) رضى الله تعالى عنه فى حديث رواه بتمامه أبو داود والبيهقى **(كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يركب الحمار، ويجيب دعوة العبد)** كما تقدم بيانه.

(وكان) صلى الله تعالى عليه وسلم **(يوم بنى قريظة)** يوم واحد الأيام، واليوم هنا بمعنى الوقعة والغزوة شائع بحيث إذا أطلق إنما يفهم منه هذا، وبنو قريظة بصيغة التصغير والقاف والراء المهملة والظاء المشالة ثم هاء قوم من اليهود بقرب المدينة غزاهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد غزوة الخندق كما فصل فى السير راكبًا **(على حمار)** وهو صاحب الرياسة والرسالة العظمى تواضعًا منه صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن هو من أقل عبيده يركب الخيل فى مثله، ويجتنب الجنائب إظهارًا لشوكته وعظمته بذاته، لا لغرض الدنيا الذى لا يستقر، وما فى بعض الشروح هنا نقلاً عن بعض الحواشى فى ضبط يوم من أنه بفتح الياء التحتية والهمزة المضمومة المرسومة واوًا والميم المشددة بمعنى يقصد تحريف لا وجه له.

(مخطوم بحبل من ليف) اسم مفعول من الخطام بخاء معجمة وطاء مهملة، وهو ما يقاد به الدابة كالرسن، والليف بكسر اللام والفاء شىء يتخذ من النخل ويفتل حبالا.

(وعليه) أى على الحمار **(إكاف)** بكسر الهمزة وكاف وألف وفاء بزنة كتاب ويضم كغراب، ويقال: وكاف بالواو وهو رحل يوضع على ظهر الحمار للركوب عليه، أو بعض أدواته وهو البردعة، وهذا من حديث رواه أبو داود والبيهقى كما مر.

(قال) أى أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه **(وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة)** إهالة بكسر الهمزة وتخفيف الهاء ولام، وهو كل مايؤتدم به من الدهن أو ما يذاب من الإلية أو الدسم الجامد، وسنخة بفتح السين المهملة وكسر النون وفتح الخاء المعجمة وهاء بمعنى متغيرة الرائحة، يقال: سنخ الدهن وزنخ إذا تغير.

(فيجيب) دعوة من دعاه، وهذا الحديث رواه الترمذى فى شمائله وابن ماجه فى سننه.

(قال) أنس أيضًا رضى الله تعالى عنه **(وحج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** بعد الهجرة فى حجة الوداع كما فى البخارى، ويدل عليه قوله الآتى: وقد فتحت عليه الأرض.

(على رحل رث) الرحل للجمل كالسرج للفرس، فيختص به ورث بفتح الراء المهملة وتشديد المثلثة بمعنى بال خلق، **(وعليه قطيفة)** أى كساء من صوف له خمل **(ما تساوى أربعة دراهم)** أى لو قومت لم يكن قيمتها أربعة دراهم، ويقال: هذا يساوى ويسوى كذا لقيمته، والحج من أعظم شعائره التواضع، وإظهار الافتقار إلى الله تعالى، ومنع النفس من التلذذ والملابس، ولذا شرع الإحرام فيه، والتجرد فى الموقف ليذكر الموقف الحقيقى، والعرض على الله، وهذا من محاسن التشريع والإرشاد للإخلاص، ولذا قال ثمة: **(فقال: اللهم اجعله)** أى اجعل حجى هذا **(حجا مبرورًا لا رياء فيه ولا سمعة)** بل خالصًا لوجهك الكريم، والرياء مشتق من الرؤية، وهو ما يفعل من عبادة ونحوها لأجل أن يراه الناس، فيمدحوا صاحبه به.

والسمعة بضم فسكون ما يفعل ليشيع ويسمع الناس به، وهما بمعنى بحسب لما صدق، وإن اختلف مفهوماهما، ومنهم من فرق بينهما، فإن عبد السلطان إذا عمل عملاً ليراه سيده وحده رياء لا سمعة، ومن أشاع أمرًا لم ير سمعة لا رياء فيه، وقال القرافى فى قواعده: الرياء موجب للإثم والبطلان عند كثير لظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾ [البينة: ٥]، وهو أن يعمل لله مع قصد نفع من العباد، وهذا رياء الشرك، وأن يعمل للناس فقط ويسمى رياء الإخلاص، وهو لأغراض شتى، والتشريك كمن جاهد طاعة لله مع قصد الغنيمة، وهذا يضرب بنقص الثواب ولا يحرم بالإجماع، بخلاف من فعل ليقال: إنه شجاع، أو ليحظى عند الإمام، أو يكثر عطاؤه، وهو محرم ليس كقصد الغنيمة من العدو، ومن حج وشرك مع الحج المتجر لا يأثم، ولا يقدح ذلك فى صحة حجه، ولو كان جل قصده أو كله التجارة كمن صام ليصح بدنه ويحتمى، فهذا لا يقدح فى فعله، لأن الشارع أمر به فى حديث: **(يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)** أى قاطع للشهوة، فأمر بالصوم لغرض آخر غير العبادة، ولو كان قادحًا لم يأمر به كمن توضأ للتبريد والتنظيف، فإنه فيه أغراضًا ليس فيها تعظيم غير الله بفعله، فإنه هو المضر انتهى.

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم معصوم من الرياء والسمعة، وإنما دعا بذلك تعليمًا لأمته، وتواضعًا كقول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ [يوسف: ٥٣] لأن التقشف قد يدخله الرياء بإظهار الزهد.

(هذا) أى فعله صلى الله تعالى عليه وسلم هذا، واختياره رث الثياب والمركب ليس عن عجز.

(وقد فتحت الأرض عليه) صلى الله تعالى عليه وسلم، وفتح يتعدى بعلى لما جاء

كثيرًا بسهولة من الله، كأنه أفاضه عليه، وفتح الأرض إن أريد به بعضها كالحجاز فظاهر، وإن أريد جميعها، فعد تمكنه صلى الله تعالى عليه وسلم منها بمنزلة وقوعه مر، وفى الحديث عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «أتيت بمقاليد الدنيا على فرس أبلق عليه قطيفة سندس»[1]، وفى رواية «بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت بين يدى»[2]، وهو محمول على ظاهر ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، أو هو كناية عن أن الله مكنه من ذلك، ولو أن الله تعالى أراه صرفه بالفعل فيها وقاد جميع أهلها له.

(**وأهدى فى حجه ذلك مائة بدنة**) أهدى بمعنى بعث الهدى بوزن الرمى مخفف الياء، وقد تشدد فتكسر داله وهو ما يرسل للبيت الحرام لينحر فيه، ويتصدق به من الإبل والبقر، وكذا البدنة تطلق على الجمل والناقة والبقرة، وأكثر ما تطلق على الإبل، وقد يسمى الإبل مطلقًا هديًا، وسميت بدنة لكبر بدنها.

وفى البخارى: لما حج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حجة الوداع أهدى مائة بدنة نحرها، وقسم لحمها وجلودها وجلالها، ونحر بيده منها جملة، ثم أمر عليا، كرم الله وجهه، بنحر باقيها، واختلف فيما نحره صلى الله تعالى عليه وسلم بيده الشريفة أهو ثلاثون أم ستون؟

(**ولما فتحت عليه مكة، ودخلها بجيوش من المسلمين**) وذلك فى شهر رمضان ثالث عشرة أو سادس عشرة أو ثامن عشرة، وصحح النووى، رحمه الله، أنه تاسع عشرة، واختلف فى الجيوش أيضا، فقيل: اثنا عشر، وقيل: عشرة آلاف، وقيل: ثمانية.

(**طأطأ على رحله رأسه حتى كاد يمس قادمته**) الرحل له مقدم ومؤخر مرتفع عن محل الراكب، وفيها لغات قادم وقادمة ومقدم ومقدمة بكسر الدال مخففة وفتحها مشددة، وكذا آخرة الرحل.

(**تواضعًا لله تعالى**)، ومن تواضعه صلى الله تعالى عليه وسلم أن ركب الجمل دون الفرس، وعلى رأسه مغفر فوقه عمامة سوداء، وأردف خلفه أسامة رضى الله تعالى عنه كما مر.

(**ومن تواضعه صلى الله تعالى عليه وسلم قوله: لا تفضلونى على يونس بن متى**) قال شيخ مشايخنا الجلال السيوطى: لم أقف عليه بهذا اللفظ، والذى فى البخارى عن ابن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

مسعود رضى الله تعالى عنه: «لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن متى»[(١)]، وفى سنن أبى داود: ما ينبغى لنبى أن يقول: «أنا أفضل من يونس بن متى»[(٢)]، وفى الصحيحين «لعبد» بدل لنبى، وفى رواية: «لا أقول: إن أحدا أفضل» إلى آخره. إنه سبح الله فى الظلمات، وفى البخارى ونسبه لأبيه، ففيه إشارة إلى أن متى بفتح الميم وتشديد التاء مقصورًا اسم أبيه، وقيل: معناه أنه ذكر اسم أبيه بدل متى اسم أمه، وهذا هو المشهور، وأنه لم ينسب لأمه إلا يونس وعيسى، عليهما الصلاة السلام، واختلف فى المراد منه، فقيل، إنه صلى الله تعالى عليه وسلم قاله تواضعًا منه، وإن كان هو أفضل من جميع الرسل بالإتفاق، وكلام المصنف رحمه الله تعالى يميل لهذا، فإن الأفضل قد لا يطلب تفضيل أحد له، وقيل: إنه كان قبل أن يعلم بتفضيله والإذن فيه لقوله تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وخص صلى الله تعالى عليه وسلم بيونس، عليه الصلاة والسلام، لئلا يتوهم أحد تنقيصه إذا سمع قصته، وقوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] وقصته مفسرة فى التفسير.

(و) قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(لا تفضلوا بين الأنبياء)** لا ينافى هذه الآية، لأن المنهى عنه تفضيل يؤدى إلى التنقيص أو الخصومة والنزاع، أو التفضيل من سائر الوجوه، لأنه قد يكون فى المفضول ما ليس فى الفاضل، أو التفضيل فى نفس النبوة لا فى الخصائص وعموم الرسالة، وإلا فيجب علينا اعتقاد أفضليته صلى الله تعالى عليه وسلم لقوله: « أنا سيد ولد آدم».

وقوله: «إن الله تعالى اختارنى على جميع العالمين من الأنبياء والمرسلين».

(ولا تخيرونى على موسى)، صلى الله عليه وسلم، أى لا تقولوا أنى خير منه وأفضل، وخصه لئلا يظن أحد نقصه لقوله تعالى: **(فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان)**، وسيأتى بيان ذلك.

أقول: الظاهر أن المعنى لا تفضلونى تفضيلا يؤدى للنزاع والمخاصمة، فإن هذا من بعض حديث فى الصحيحين أن رجلا من المسلمين استب مع يهودى، فقال اليهودى: والذى فضل موسى على العالمين فلطمه، فاشتكى للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال ذلك، وسيأتى الكلام على هذا.

(ونحن أحق بالشك من إبراهيم) إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

٢٦٠]، وحمله بعضهم على ظاهره، وأنه كان قبل البعثة فى سن الطفولية، ومن قال بعصمة الأنبياء مطلقًا قال: إنه نفى للشك لا إثبات له، وإنما قاله صلى الله تعالى عليه وسلم على سبيل التواضع، أى نحن أحق بالشك منه لو شك، ولكنه لم يشك فكأنه قال: أنا لا أشك فكيف بإبراهيم، وقيل: إنما قاله جوابا لمن قال: شك إبراهيم، و لم يشك نبينا. ولا تنافى بين القولين، وسيشير إليه المصنف رحمه الله تعالى فى القسم الثالث.

وقيل: لا يصح، أن يكون المراد أنه أحق بالشك منه لقوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] إلى آخره، وتسميته شكا بالنظر للظاهر، لاقتضائه عدم الاطمئنان، وهو ينافى عدم التردد والشك، ولذا احتج لتأويله بأن الخليل، عليه الصلاة والسلام، قطع بالقدرة على إحياء الموتى بدليل قطعى، لكنه اشتاق لمشاهدة كيفية هذا الأمر العجيب الذى جزم بثبوته، فنفسه لا تطمئن حتى يشاهده، قال ابن أبى شريف رحمه الله تعالى: وهذا التأويل يشير إلى أن المطلوب بقوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ سكون قلبه عن المنازعة إلى رؤية الكيفية المطلوبة التى تمناها، ليحصل له العلم البديهى بعد العلم النظرى، ولما كان هذا الشك ظاهريًا جائزًا على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قال، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما قاله كناية عن أمه جائز منه، إلا أنه أورده بهذه الصورة تأدبًا مع الله تعالى، وإن لم يكن أحق بذلك الشك منه، وكيف يتصور جوازه عليه، وعلى كرم الله وجهه يقول: لو كشف الغطا ما ازددت يقينًا، إلا أن فى هذا إشكالاً أورده ابن العماد، لاقتضائه تساوى علمه البديهى والنظرى، فيتجاوز المقام الخليلى.

وقد أجاب عنه فى كتابه كشف الأسرار فقال: قال العز بن عبد السلام: المراد ما ازددت يقينًا بالإيمان، وإن كان إذا رآها أبصر من التفاصيل والهيئات ما لم يحط به قبل ذلك علما، وكذلك إبراهيم لما رأى كيفية الإحياء لم يزدد يقينًا بالإيمان بقدرته تعالى على الإحياء، وإن وقف بمشاهدة كيفية الإحياء على ما لم يقف عليه من الإيمان، كمن رأى بناء عجيبًا وعرف صانعه علم قدرته وصنعه وتحققه، وإن لم يعرف كيفية بنائه وصنعة عمله، فإذا طلب مشاهدة عمله ورآه لم يزده علمه بقدرته وصنعته وهيئته بذلك، ولكن اطمأن قلبه لحصول ما طلبه من كيفية صنعه، وقال السبكى رحمه الله تعالى: سئل الغزالى رحمه الله تعالى عن هذا فقال: اليقين يتصور عليه الجحود، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، والطمأنينة لا يتصور عليها الجحود، وهو جواب حسن فى الفرق بين اليقين والجحود، انتهى، وفيه نظر.

وقول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: هذه الآية أرجى آية فى القرآن معناه أن

سؤاله الإحياء فى الدنيا يدل على أنا نحيى وننعم فى الآخرة، أو أن الإيمان بالغيب إجمالاً كاف لنا.

(ولو لبثت ما لبث يوسف فى السجن لأجبت الداعى) (لبث فى السجن بضع سنين) أى لبث خمسًا ثم سبعًا بعد رؤيا الفتيين اللذين دخلا معه السجن، وقيل غير ذلك، وورد فى الحديث: «رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اذكرنى عند ربك ما لبث فى السجن سبعًا بعد خمس» أى لو لم يستغن بغير الله تعالى ما طالت المدة، والمراد بإجابة الداعى إجابة رسول الملك الذى دعاه للخروج منه.

قال الكرمانى: وصفه بالصبر حيث لم يبادر إلى الخروج، وقال ذلك تواضعًا لا أنه كان فيه مبادرة وعجلة لو كان مكان يوسف، والتواضع لا يصغر كبيرًا، بل يزيد قدره إجلالاً، وذلك منه صلى الله تعالى عليه وسلم إشارة إلى مقام التفويض، وتلقى كل ما يأتى من الله بالقبول، ورفض الوسائط، والمعنى لو كنت مكانه تلقيت دعوة الداعى مستعينًا بالله تعالى مفوضًا أمرى له، وقد كان يوسف، عليه الصلاة والسلام، عبر رؤيا الفتيين، ثم رؤيا الملك، فطلبه فلما جاءه الرسول ليخرجه من السجن لم يبادر للخروج، وطلب الكشف عن أمره حتى يعلم أنه مظلوم، وقال القرطبى: الوجه عندى فى ذلك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ لنفسه وجهًا آخر من الرأى، وهو أن يفعل أمرًا ليقتدى به فيه، وهو أن يخرج سريعًا، ثم يبرئ ساحته بالتبرئة من غير إلحاح وهو الحزم، ويوسف، عليه الصلاة والسلام، سلك مسلكًا آخر وهو الصبر، وقيل إنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يلتفت لما التفت له من براءة الساحة اكتفاء بعلم الله واعتقاده، لأنه يبرئ ساحته من غير طلب منه لهذا المقام، ولكنه قال ما قال تواضعًا، وفى يوسف ست لغات بتثليث السين مع الهمزة وعدمه.

(وقال، للذى قال له: يا خير البرية، ذاك إبراهيم)، وهذا من تواضعه أيضا صلى الله تعالى عليه وسلم، وإلا فهو خير البرية من غير شك، وليس فيه إخبار بغير الواقع إذ المعنى لا أقول ذلك إطراء لنفسى، والبرية الخلق من برأ بمعنى خلق لكن همزته متروكة كما فى الذرية، والنبى والخابية، وهذا الحديث رواه مسلم فى صحيحه وغيره، وخص إبراهيم لأن الله أمره باتباع ملته فى قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النحل: ١١٣]، وسيأتى الكلام على هذه الأحاديث بعد هذا إن شاء الله تعالى من غير تطويل واعتساف.

(وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها، والحسن وأبى سعيد وغيرهم فى صفته صلى الله تعالى عليه وسلم، وبعضهم يزيد على بعض) قدم عائشة، رضى الله تعالى عنها؛ لأنها

أدرى بحاله صلى الله تعالى عليه وسلم في بيته، ولذا عقبها بالحسن بن علي، رضى الله تعالى عنهما؛ لأنه من أهل البيت أيضًا، وأبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه كان يخدمه صلى الله تعالى عليه وسلم، فلذا خص هؤلاء ورتبهم الأقرب فالأقرب.

(كان فى بيته فى مهنة أهله) خبر بعد خبر أو بدل مما قبله بدل اشتمال، والمهنة بكسر الميم وفتحها الخدمة مأخوذة من الامتهان، واختلف في أيهما الأفصح والأكثر على أنه الفتح، والأشهر أنه الكسر لتوافق الخدمة لفظا ومعنى، وأنكر بعضهم الكسر، والأصح أنه لغة وأنه ثابت بالوجهين.

(يفلى ثوبه) بيان هو وما بعده لما قبله، لأن هذا مما ينبغي أن يفعله أهله، ويفلى بفتح المثناة التحتية وسكون الفاء يقال: فلاه يفليه كرماه يرميه إذا فتش ما فيه من قمل وغيره هذا أصله، وهو يقتضى أن يكون فى ثوبه صلى الله تعالى عليه وسلم قمل، وقد قالوا: إنه لا يكون تكريمًا له صلى الله تعالى عليه وسلم، ولأنه يتولد من العفونة والعرق وجسده وعرقه طيب لا يكون فيه عفونة، والقول بأن فيه قملاً تنقيص لا ينبغى أن يقال، إلا أن بعضهم نقل أنه لم يكن الذباب يعلق عليه، وأن القمل لا يؤذى بدنه تعظيمًا له صلى الله تعالى عليه وسلم، وتكريمًا كما سيأتى بيانه قبيل فصل قد آتيناك أكرمك الله، فقيل: المراد بنفى أذيته نفيه لأنه من لوازمه، وقيل: إنه كان فيه، ولكن لا يؤذيه، والأول مناف لحديث المتن ولما روى أن أم حرام كانت تفلى رأسه، واللفظ شاهد لخلافه، نعم نفى أذاه مستلزم لنفيه، لأن أذيته بتغذيه من البدن، فإذا امتنع غذاؤه لم يعش، وحينئذ لم يكن فى وجوده إلا قذارته، والاحتياج لفليه، ولذا قيل: المراد بفليه تفتيشه لخرق فيه، أو تعلق شيء به شوك ونحوه، وكل ذلك للتشريع وإظهار التواضع، واحتمال أن يكون القمل جاءه من غيره، لكثرة مجالسته الفقراء كما سيأتى لا يأباه فلى أم حرام لرأسه كما قيل على أنه يحتمل أنها كانت تفحص عن هذا، وإن لم تجده.

(ويحلب شاته ويرقع ثوبه) بفتح الياء وسكون الراء المهملة وفتح القاف المخففة ويجوز الضم والتشديد إلا أن الضبط بالأول مناسبة ما معه، ورقع الثوب أن يضع فيما انخرق منه رقعة من غيره، فيسده بها.

(ويخصف نعله) يخرزها به، وفى العمدة أنه تطبيق بعض جلود النعل على بعض، وهو فى قوله تعالى: ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] استعارة من هذا، وأصل معنى الخصف الضم والجمع.

(ويقم البيت) أى يكنسه ويزيل قمامته من قم يقم بضم القاف إذا كنس، **(ويعقل**

البعير) أى يربطه من رجله بالعقال، ويعقل بوزن يضرب.

(ويعلف ناضحه) بنون وضاد معجمة وحاء مهملة، وهو البعير الذى يستقى عليه من النضح.

(ويخدم نفسه) أى يفعل ذلك كثيرًا لا دائمًا مع كثرة عبيده وخدمه، وتشوق الناس لخدمته صلى الله تعالى عليه وسلم، لكنه يحب فعل ذلك بنفسه تواضعًا وتشريعًا.

(ويأكل مع الخادم) الخادم متعاطى الخدمة ذكرًا كان أو أنثى حرًا أو عبدًا، وأكل الإنسان مع خادمه سنة. قال القاضى زكريا فى شرح الروض: إن السنة أن يجلس خادمه للأكل معه، ويلبسه من لباسه، فإن أبى فليناوله مما يأكله، ومن الغريب ما نقل عن الشافعى أنه واجب للأمر به فى الحديث، وفيه نظر.

(ويعجن معها) الضمير للخادم؛ لأنه يطلق على الأنثى كما مر، والعجين من عمل النساء **(ويحمل بضاعته)** بكسر الموحدة، وهى ما يشتريه **(من السوق)** وفيه دلالة على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يدخل السوق قالوا: وهو عادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٣٠]، وكذا كان دأب الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، ولا ينافيه: «أحب البقاع إلى الله تعالى المساجد، وأبغضها إليه الأسواق»(١)، لأن المراد بغض ما فيها أو النهى عن الجلوس فيها من غير حاجة.

(وعن أنس) بن مالك، رضى الله تعالى عنه، خادم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا الحديث رواه البخارى تعليقًا، ووصله ابن ماجه: **(إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة)** بكسر همزة إن المخففة من الثقيلة كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهى مهملة أو اسمها ضمير شأن مقدر **(لتأخذ بيد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فتنطلق به حيث شاءت)** أى تمسك يده الشريفة، وتذهب به إلى أى محل تريده لأجل حاجتها **(حتى يقضى حاجتها)**، وليس فيه إفراط فى التواضع المذموم، لأن قضاء حاجة المسلمين أمر محمود .

(ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة) بكسر فسكون لخوفه من مهابته إذ كان لم يره قبلها، وأعاد هذا الحديث لما فيه من الزيادة، والرعدة أن يرجف ويضطرب، **(فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: هون عليك)** أمر من التهوين أى عد ما رأيته أمرًا هينا غير صعب تخشى منه أى لاتخف ولا تفزع، **(فإنى لست بملك)** من الملوك

---

(١) أخرجه مسلم (٦٧١/٢٨٨).

الجبابرة الذين يخشى بوادرهم (**إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد**)، وهو اللحم الذى يقطع ويجعل فى الشمس حتى ييبس، وكان عادة العرب أكله، وهكذا عادة فقرائهم، فكنى به عن عدم تكبره وتجبره وترفعه صلى الله تعالى عليه وسلم .

(**وعن أبى هريرة**) رضى الله تعالى عنه قال السيوطى: هذا الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف (**قال: دخلت السوق مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فاشترى سراويل**) فى حواشى الشمنى ذكر المصنف، رحمه الله تعالى، اشتراءه، صلى الله تعالى عليه وسلم، للسراويل إلا أنهم قالوا: إنه لم يثبت أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لبسها، ولكنه اشتراها و لم يلبسها.

وقال ابن القيم فى الهدى: إنه لبسها، فقالوا: إنه سبق قلم، وقال السيوطى فى فتواه: قد رأيت الذى ذكره المصنف رحمه الله تعالى فى معجم الطبرانى الأوسط، ومسند أبى يعلى، وفيه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم لبسها، ولفظه عن أبى هريرة أنه قال: دخلت يومًا السوق مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فجلس إلى البزازين، فاشترى سراويل بأربعة دراهم، وكان لأهل السوق وزان فقال له: زن وأرجح[1]، وأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم السراويل، فذهبت لأحمل عنه، فقال: صاحب الشىء أحق أن يحمله إلا أن يكون ضعيفًا، فيعجز عنه فيعينه أخوه المسلم. فقلت: يا رسول الله إنك لتلبس السراويل، قال: أجل فى السفر والحضر وبالليل والنهار، فإنى أمرت بالستر فلم أجد شيئًا أستر منه[2]. أخرجه من طريق ابن زياد الواسطى، وأخرجه أحمد وفى سنده ابن زياد، وهو وشيخه ضعيفان انتهى.

وأقول: انجبر ضعفه بمتابعته، ومنه يعلم أن تخطئة ابن القيم لا وجه لها، وكون الثمن أربعة دراهم هو المروى لا ما فى الإحياء من أنه بثلاثة، وكونه صلى الله تعالى عليه وسلم اشتراها و لم يلبسها بعيد جدًا، وقد لبسها عثمان رضى الله تعالى عنه، وهو محاصر أيضًا، والسراويل تذكر وتؤنث، ولم يعرف فيه الأصمعى إلا التأنيث، وجمعه سراويلات، وهى مصروفة فى النكرة عند سيبويه، فإن سمى بها رجل لم تصرف، وكذا إن صغرت بعد التسمية لأنها مؤنثة على أكثر من ثلاثة أحرف كعناق، فإن صغرت من غير علمية صرفت، وقال الجوهرى: من النحويين من لا يصرفه فى النكرة أيضًا؛ لأنه عده جمع سروالة وأنشد:

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٣٦، ٣٣٣٧)، والترمذى (١٣٠٥)، وابن ماجه (٢٢٢٠)، وأحمد (٣٥٢/٤)، والدارمى (٢٦٠/٢)، وابن حبان (١٤٤٠)، والحاكم (٣٠/٢، ١٩٢/٤).

(٢) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (١٢٢/٥).

عليـــــه مـــن اللـــؤم سروالـــة

وبقول ابن مقبل:

فتـى فارسـى فـى سراويـل رامح

والعمل على الأول والثانى قوى انتهى، ومن ثم رد قول من قال: إنه ممنوع من الصرف بالاتفاق، وقول المحدثين: إنه لم يصح أنه جمع فى الأصل كحضاجر للضبع، فيعتبر فيه الجمعية الأصلية قال: ولذا اضطربوا فيه، فقيل: إنه أعجمى معرب سروال حمل على موازنه فى العربية كمصابيح، وقيل: عربى جمع سروالة تقديرًا، وهى لغة فى سراويل، ويقوى عجميته أنه لا نظير له فى العربية، وعلى هذا اقتصر الجواليقى فى معرباته، إلا أنه قيل: إنه معرب شلوان بالمعجمة، والأشبه أنه معرب سراوين أى مدلى الرأس، لأن سر معناه الرأس، واوين معناه مدلى.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم **(للوزان)** أى الذى يزن الدراهم، وينقدها، وهو الصيرفى: **(زن وأرجح)** أى زن لصاحب السراويل ثمنها، وزد عليه حتى يترجح الميزان بزيادة الكفة التى فيها الدراهم، وبهذا استدل الإمام مالك على جواز هبة المجهول وفيه نظر، لأنه منه حسن القضاء، وكلام أبى حنيفة رحمه الله تعالى فى الهبة المحضة، والرجحان نزول كفة الميزان لزيادة ما فيها، **(وذكر القصة)** كما سمعتها آنفا.

(قال) أى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه راوى هذا الحديث: فقال الوزان: هذه كلمة ما سمعتها من أحد؛ فقال له أبو هريرة: كفى بك من الوهن والجفا فى دينك أنك لا تعرف نبيك وطرح الميزان **(ووثب)** أى قام بسرعة **(إلى يد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقبلها)** أى قام ليقبل يده الشريفة لما رأى منه، ولمعرفته أنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فجذب)** أى نزع صلى الله تعالى عليه وسلم **(يده)** من يده، **(وقال: هذا)** أى تقبيل اليد أمر **(تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك إنما أنا رجل منكم)** معاشر العرب، أو الناس، وهذا من تواضعه صلى الله تعالى عليه وسلم أو لأنه علم أنه إنما قبل يده لأمر دنيوى، وإلا فتقبيل يد الرجل لعلمه أو صلاحه أو شرفه سنة مستحبة، وقد كان الصحابة رضى الله تعالى عنهم يقبلون يده الشريفة، ويد الخلفاء رضى الله تعالى عنهم، وقيل لبعض المشايخ: أتقبل يد المشايخ؟ فقال: إنهم رياحين الله فشموها بالتقبيل.

(ثم أخذ) رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بيده الشريفة **(السراويل)** ليحملها بنفسه، **(فذهبت لأحمله)** أى شرعت فى حملها عنه يقال: ذهب يفعل كذا، وقام يفعله إذا شرع فى الفعل، ولذلك عدت من أفعال المقاربة، فليس المراد بالذهاب معناه

المشهور، وضمير لأحمله للسروايل لأنه يجوز تذكيره وتأنيثه كما علم.

(فقال) أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأبى هريرة: **(صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله)** بدل من شيئة أى أحق بحمله من غيره، وهذا من تواضعه صلى الله تعالى عليه وسلم، واقتدى به الصحابة رضى الله تعالى عنهم، فكان الخلفاء منهم يحملون أمتعتهم فى السوق كما فصله الغزالى فى الإحياء .

* * *

(فصل وأما عدله ﷺ)

العدل مصدر معناه العدول عن الظلم والجور، ويكون بمعنى العادل فيستوى فيه الواحد المذكور وغيره، ويجمع على عدول، **(وأمانته)** فى كل شيء يحفظه قولاً كان أو فعلاً أو غير ذلك مما يجعل عنده، وكونه موثوقًا به فى أموال الناس وأحوالهم، **(وعفته)** فى نفسه بترك كل قبيح، وترك السؤال، والنزاهة عن كل شيء، **(وصدق لهجته)** اللهجة اللسان والكلام يقال لهج بكذا إذا ولع به ولايخفى تقارب معانى ما ذكر، ولذا جمعها فى فصل، فإن فى العدل عفة عن الظلم، وفى الصدق أمانة على ما سمع، وعفة عن الكذب، وهذا ظاهر لمن له بصيرة.

(فكان صلى الله تعالى عليه وسلم آمن الناس) آمن بمد الهمزة بمعنى أكثرهم وأشدهم أمانة.

(وأعدل الناس وأعف الناس، وأصدقهم لهجة منذ كان) أى من ابتداء خلقته إلى نهايتها، وكان تامة بمعنى وجد **(اعترف له بذلك محادوه)** جمع محاد بتشديد الدال المهملة بمعنى المعادى، والمخالف له الذى فى حد وجانب عنه، ويكون بمعنى المحارب قال تعالى ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [التوبة: ٦٣].

(وعداه) بكسر العين جمع عدو أو اسم جمع، وهو فى الصفات وقد تضم عينه، **(وكان يسمى قبل نبوته الأمين قال ابن إسحاق)** محمد بن إسحاق بن يسار صاحب السير كما تقدم، وهذا حديث صحيح رواه أحمد فى مسنده والحاكم والطبرانى عن على، كرم الله وجهه.

(كان صلى الله تعالى عليه وسلم) فى ابتداء أمره قبل نبوته **(يسمى الأمين)** لأمانته وصدق قوله فى جميع أحواله **(بما جمع الله له من الأخلاق الصالحة)** أى بسبب ما جمعه الله له من الأخلاق الصالحة الذى ائتمنه الله إياها، أو الباء بمعنى مع أى مع ما جمعه الله له من الصالحات التى عرف بها عندهم.

(وقال تعالى: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١] **أكثر المفسرين على أنه)** أى المطاع الأمين فى هذه الآية **(محمد صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وكثير منهم على أنه جبريل، عليه الصلاة والسلام، كما يشهد به سياق النظم، ولذا ارتضاه المحققون لكونه عليه الأكثر وفيه نظر.

(ولما اختلفت قريش وتحازبت) بالحاء المهملة والزاى المعجمة والباء الموحدة أى صارت أحزابًا وفرقًا لاختلاف آرائهم، ولو قيل: تحاربت بالراء المهملة لما فى السير أنهم تخالفوا حتى اعتدوا للقتال، ثم بدا لهم فتشاوروا صح، إلا أنه بعيد، والنسخ مضبوطة خطًا بخلافه. **(عند بناء الكعبة)** قال السهيلى: كان بناؤها خمس مرات:

الأولى: حين بناها شيث بن آدم.

والثانية: حين بناها إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، على القواعد الأولى.

والثالثة: حين بنتها قريش قبل الإسلام بخمسة أعوام.

والرابعة: حين احترقت فى عهد ابن الزبير بنار طارت من أبى قبيس أو بشرر طار من مجمر امرأة أرادت أن تجمرها، فتعلق بأستارها وأحرقها، فتشاور من حضرها فى هدمها، فهابوه وقالوا: نصلح ما انهدم منها، فقال رضى الله تعالى عنه: لو احترق بيت أحدكم لم يرض له إلا بأكمل صلاح، ولا يكمل صلاحها إلا بهدمها، فهدمها حتى أفضى إلى قواعد إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، فأمرهم أن يزيدوا فى الحفر، فحركوا حجرًا منها فرأوا تحته نارًا أفزعتهم فأمرهم أن يقروا القواعد، وأن يبنوها من حيث انتهى الحفر، واستمرت على ذلك إلى أن قام عبد الملك بن مروان، فهدمها وبناها، فهذه المرة الخامسة، ولا منافاة بينه وبين ما فى التواريخ من أن الخامسة بناء الحجاج، لأنه كان بأمر عبد الملك، لأنه أميره، وكان أرسله لمحاربة ابن الزبير رضى الله تعالى عنهما، وقيل غير ذلك، والكلام فيه مفصل فى تاريخ مكة.

(فيمن يضع الحجر) الأسود فى موضعه ويرفعه بيده؛ لما فى مباشرة ذلك من الشرف، والجار والمجرور متعلق باختلف.

(حكموا) بفتح الحاء وتشديد الكاف جواب لما أى ارتضوا بأن يكون الحاكم فى ذلك **(أول داخل عليهم؛ فإذا بالنبى ﷺ داخل)** إذا فجائية أى فاجأهم دخوله عليهم بغتة من غير طلب وميعاد منهم.

(وذلك قبل نبوته) صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو ابن خمس وثلاثين، وقيل: ابن خمس وعشرين أو حين بلغ الحلم، ولا شك فى أن هذا كان قبل النبوة، والأول أصح.

(فقالوا : هذا محمد هذا الأمين قد رضينا به) حكمًا فى هذه القضية، فلما انتهى إليهم ذكروا له ذلك، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم لهم: ائتـوا بثـوب وضعـوا فيـه الحجـر، وارفعوه جملتكم من كل بيت رجل، فلما فعلوا وضعه صلى الله تعالى عليـه وسـلم بيـده الشريفة، ثم بنى عليه، فكان شرف الوضع له، وكان مـع العبـاس رضـى الله تعـالى عنـه ينقلان الحجارة، فقال له العباس: اجعل إزارك على رقبتك ليقيك ألم الحجارة، فلما فعل بـدا منـه مـا لابـد مـن سـتره، فخـر مغشـيًا عليـه وطمحـت عينـاه إلى السـماء، فقـال: «إزارى»[1] فشد عليه إزاره، لأنه نودى: يا محمد غط عورتك، فلم تر له عـورة، بعـده ولا قبله، وروى أنه وقع له مثله وهو يلعب صغيرًا.

(وعن الربيع بن خثيم) رضى الله تعالى عنه بضم الخاء المعجمة وفتـح المثلثـة وسـكون الياء المثناة التحتية والميم، وهو الربيع بن خثيم بن عابد بن عبد الله بن موهـب أبـو يزيـد الثورى ينسب إلى ثور بن عبد مناة بن أد بن طابخة بـن إليـاس بـن مضـر، وينسـب إليـه سفيان وغيره، والربيع يروى عن ابن مسعود وأبى أيوب، وروى عنه خلق كثير، وكـان ثقة عابدًا، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، وتوفى سنة سبع وستين.

(كان يتحاكم إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الجاهليـة)، وفسـر الجاهليـة بقوله: **(قبل الإسلام)**؛ لأنها تطلق بهذا المعنى فى الأكثر، وهـذا شـاهد لعدلـه صلـى الله تعالى عليه وسلم، والمراد قبل بعثته، وتطلق الجاهلية كما فى النهاية علـى صفاتـهم، وإن كانت فى الإسلام كقوله فى الحديث: «إن فيك جاهلية»، وحقيقتها الأول، وهذا معنى مجازى اللهم إلا أن يراد بها المعنى اللغوى، وهو النسبة إلى الجهل مطلقًا فتكون حقيقـة، وإلى هذا نظر ابن حجر فى شرح البخارى، ويتحاكم بضـم المثنـاة مجـهول أى يتحـاكم إليه قريش أو العرب، وقول الربيع هذا رواه ابن مسعود، ولـه حكـم الرفـع، وتحاكمـهم إليه صلى الله تعالى عليه وسلم يدل على عدله وإنصافه.

(وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: إنى لأمين فى السماء وأمين فـى الأرض) يعنـى أنـه مشهور بذلك بين الملأ الأعلى وبين أهل الأرض، لأنــه لم يتـهم قـط بكـذب وجـد فـى أحكامه، وهذا الحديث رواه ابن أبى شيبة فى مسنده عـن أبـى رافـع، وفيـه دليـل علـى جواز مدح الإنسان نفسه مؤكدًا بالقسم، وأعاد أمينًا لاختلاف الأمانتين.

(حدثنا) ابن سكرة **(أبو على الصدفى الحـافظ بقراءتـى عليـه)**، وقـد تقدمـت ترجمتـه وحكمه قال: **(حدثنا أبو الفضل بن خيرون)** تقــدم أنـه أحمـد بـن الحسـن بـن أحمـد بـن

(١) أخرجه البخـارى (٥/٥١)، وأحمـد (٣/٢٩٥، ٣٨٠)، وعبـد الـرزاق (١١٠٣)، والبيـهقى فـى دلائل النبوة (١/٣١٤)، وفى السنن الكبرى (٢/٢٢٧).

خيرون الحافظ، وخيرون ممنوع من الصرف قال: **(حدثنا أبو يعلى بن زوج الحرة)** تقدمت ترجمته قال: **(حدثنا أبو على السنجى)**تقدم ضبطه وترجمته قال: **(حدثنا أبو محمد المروزى)** محمد بن أحمد بن محبوب راوى جامع الترمذى كما تقدم قال: **(حدثنا أبو عيسى الحافظ)** هو الإمام الترمذى كما تقدم قال: **(حدثنا أبو كريب)** بضم الكاف وفتح الراء المهملة وياء تصغير وباء موحدة، وهو الإمام الحافظ محمد بن العلاء الهمدانى، أخرج له الستة، ووثقه النسائى وغيره، توفى سنة ثمان وأربعين ومائتين قال: **(حدثنا معاوية بن هشام)** القصار الكوفى الثقة، وقال ابن معين: صالح، وليس بذلك، توفى سنة خمس وعشرين ومائة.

(عن سفيان) الثورى فيما يظهر إلا أن المزى والذهبى لم يقيداه **(عن أبى إسحاق)** عمرو بن عبد الله الهمدانى السبيعى أحد الأعلام.

(عن ناجية) بنون وجيم **(بن كعب)** العنزى أو الأسدى الثقة، وتوقف ابن حبان فى توثيقه، وله ترجمة فى الميزان، وقال الذهبى فى المغنى: ما أدرى لماذا توقف ابن حبان انتهى.

(عن على) بن أبى طالب، كرم الله وجهه ورضى الله تعالى عنه، وهذا الحديث رواه الترمذى كما ذكره المصنف، وانفرد بإخراجه من طريقين: أحدهما ما ذكره المصنف، والثانية عن إسحاق بن منصور عن ابن مهدى عن سفيان عن أبى إسحاق عن ناجية قال: وهذا أصح، وكذا رواه عبد العزيز بن أبى عثمان.

(إن أبا جهل) بن هشام لعنه الله فرعون هذه الأمة **(قال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به فأنزل الله)** فيما قاله، وهو سبب نزول هذه الآية ﴿**فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ**﴾ [الأنعام: ٣٣]، الآية ﴿**وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٣٣]، وروى أبو ميسرة أنه ﷺ مر بأبى جهل وأصحابه، فقالوا: والله يا محمد ما نكذبك وإنك عندنا لصادق، ولكنا نكذب بما جئت به، فنزلت هذه الآية، وقرئ يكذبونك، مخففا ومشددا، فقيل: معناهما واحد لأنه يقال: كذبته وأكذبته كجزيته وأجزيته، واختار أبو عبيدة قراءة التخفيف، وهى مروية عن على كرم الله تعالى وجهه، وقيل: معنى يكذبونك بالتشديد ينسبونك إلى الكذب، ويردون ما قلته، ومعناه بالتخفيف يجدونك كاذبا كأبخلته إذا وجدته بخيلاً، والمعنى على التشديد لا يكذبونك بحجه وبرهان، وقيل: فى كلام المصنف إشارة إلى دفع التناقض فى الآية، فإنه قال أولا: إنهم لايكذبونه ثم أخبر أنهم يجحدون ما جاء به من الآيات، وجاحد كلامه مكذب له، ويجحدون مضمن معنى يكذبون، ولذا عداه بالباء، وهو متعد بنفسه ويدل على

أنهم كذبـوه قوله بعده ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ٣٤]، فليس المراد بقوله: (**لا يكذبونك**) نفى تكذيبه مطلقًا، فإما أن يقال فى دفع توهم التناقض أن معنى لا يكذبونك بالتشديد لا يحكمون عليك بأن سجيتك الكذب؛ لأنك موصوف بالصدق عندهم فى جميع شئونك ما عدا قولك الذى جئت به من عند الله، وهو الآيات، فإنهم يجحدونه، وهذا مراد المصنف فى استشهاده بهذه الآية أو يقال: المراد أنهم لا يكذبونك فى الحقيقة ونفس الأمر، وفى نفوسهم إذا خلوا، ولكنهم يظهروا التكذيب حسدًا وبغيًا، أو أنهم لا يكذبونك إذا أمعنوا النظر وتدبروا، ولكنهم عموا عن نور الهداية انتهى، وفى الآية كلام فصلناه فى حواشى القاضى البيضاوى.

(**وروى غيره**) أى روى غير الترمذى، أو الصدفى فى الحديث زيادة الثقة مقبولة: (**لا نكذبك وما أنت فينا بمكذب**) أى معروف بالكذب فى غير هذا، (**وقيل: إن الأخنس بن شريق**) بن ثعلبة الثقفى الصحابى، واسمه أبى، وهو بهمزة وخاء معجمة ونون وسين بزنة أفعل التفضيل، وشريق بفتح الشين المعجمة وكسر الراء المهملة وقاف على وزن فعيل، وهو قديم الوفاة كذا قاله البرهان الحلبى، وقال التلمسانى: إنه حليف قريش قتل يوم بدر كافرًا يعنى به شريقًا لا الأخنس، وهذا الحديث رواه أبو إسحاق والبيهقى عن الزهرى، وأخرجه ابن جرير عن السدى (**لقى أبا جهل يوم بدر**)، وكان يوم الجمعة سنة اثنتين من الهجرة فى تاسع عشر رمضان.

(**فقال له: يا أبا الحكم**) بفتحتين، وهذه كنيته القديمة، ثم غلب عليه كنيته بأبى جهل (**ليس هنا غيرى وغيرك يسمع كلامنا تخبرنى عن محمد**) جملة خبرية، والمراد أخبرنى عنه (**صادق أم كاذب؟**) يعنى أصادق، فحذفت الهمزة تخفيفًا، والاستفهام تحقيقى أو تقديرى.

(**فقال أبو جهل : والله إن محمدًا لصادق، وما كذب محمد قط**) هذا يدل على أنهم لا يعتقدون كذبه.

(**وسأل هرقل عنه**) هرقل بكسر الهاء وفتح الراء وسكون القاف، ويقال: بإسكان الراء بين كسرتين كما سيأتى، وهو علم غير منصرف. قال البرهان: هلك على كفره، وفى الاستيعاب أنه صحابى، قيل: وهو مأول (**أبا سفيان**) صخر بن حرب بن أمية القرشى الأموى، أسلم يوم الفتح، فكان من المؤلفة قلوبهم، ثم حسن إسلامه، وكان رئيس قريش وأكثرهم مالا، وتوفى سنة أربع وثلاثين وسنه ثمان وثمانون فى المدينة، وقصة أبى سفيان مع هرقل مشهورة مروية فى الصحيحين مفصلة فى أول باب فى البخارى، وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كاتبه فى سنة ست، فلقيه رسول الله

صلى الله تعالى عليه وسلم بحمص، فلما قرأ الكتاب أمر مناديًا ألا إن قيصر قد أسلم، واتبع محمدًا وترك النصرانية فهاج جنده وتسلحوا فأمر مناديًا ثانيًا ألا إن قيصر راض بدينه، وهو راض عنكم، ثم قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إنى مغلوب على مملكتى، وكتب إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إنى مسلم وبعث له دنانير، فقال: كذب عدو الله؛ لأنه علم أنه ليس قوله عن صميم قلبه، ولو سلم فنداؤه بأنه راض بدينه ردة، فلذا قالوا: إن القول بإسلامه بناء على ظاهر قوله واه. كيف وقد قاتل المسلمين يوم مؤتة، وواعدهم أن يأتيهم فى العام المقبل؟، ونزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأجله إلى تبوك، فلم يجئ وأخذت منه البلاد، وهلك سنة عشرين بالقسطنطينية على نصرانيته.

وقوله **(فقال)** أى هرقل لأبى سفيان **(هل كنتم تتهمونه بالكذب؟)** أى هل وقع فى قلوبكم أنه صدر منه كذب فى أقواله؟ قال فى الأساس: وهمت الشىء أهمه وهما وتوهمته وقع فى خلدى، وشىء موهوم ومتوهم انتهى، وإنما سألهم عن توهم الكذب، ولم يقل: هل علمتم وتحققتم؛ لأنه يعلم من انتفاء التوهم انتفاء غيره بالطريق الأول **(قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا)** فقال هرقل: قد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله وإنما لم يقل: إنه يكذب لئلا يأثر الناس عليه الكذب، وهو عار عند العرب، أو يقول ما لا يقبل منه، ثم قال أبو سفيان: ألا أخبرك عنه خبرا كذب فيه؟ قال: ما هو؟ قال: إنه زعم أنه خرج فى ليلة من الحرام إلى مسجد إيلياء، ثم رجع فيها قبل الصباح، وكان عنده بطريق إيلياء فقال: صدق وإنى كنت لا أنام حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كانت تلك الليلة أغلقت أبوابه غير باب منها غلبنى، فاستعنت بمن حضرنى، فلم يمكنهم تحريكه، وقالوا إنه سقط عليه البناء، فلما أصبحت غدوت عليه، فإذا الحجر الذى فى زاويته منقوب فيه أثر ربط دابة، فقلت: ما جبس هذا الباب الليلة إلا على نبى قد صلى فى مسجدنا. فقال قيصر: يا معشر الروم ألم تعلموا أن بعد عيسى عليه الصلاة والسلام نبيًا بشركم به، وكنا نرجو أن يكون فينا، فجعله الله تعالى فى غيرنا، وهو رحمة الله يضعها حيث شاء، ولم يعتدوا بتصديقه هذا حتى يكون يومنا لتلبسه بما يخالفه قولاً وفعلاً.

قلت: وبهذا علم أن مربط البراق بالمسجد الأقصى صحيح، وسأل أبا سفيان عنه ﷺ أسئلة أخرى مذكورة فى أول البخارى.

(وقال النضر) بنون مفتوحة وضاد معجمة ساكنة وراء مهملة **(بن الحارث لقريش)**، فى حديث رواه ابن إسحاق والبيهقى عن ابن عباس، والنضر بن الحارث بن علقمة بن

كلدة بفتح الكاف ابن عبد مناف القرشى، وكان شديد الأذية للمسلمين، فظفر به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ببدر، فقتله كافرًا صبرًا كما يأتى، فرثته أخته قتيلة بأبيات مشهورة أولها[1]:

يا راكبا إن الأثيل مطية من صبح خامسة وأنت موفق

إلخ، وقيل: إنها مصنوعة، وقتيلة بالمثناة الفوقية مصغرة اختلف فى إسلامها وكونها صحابية.

(قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا) بفتحتين قال الجوهرى: حدث شاب فإن ذكرت السن قلت: حديث السن من الحدوث، لقرب عهده بالوجود، والغلام الذى لم يلتح.

(أرضاكم فيكم) أى أكثركم رضا وصبرًا وأفعالاً مرضية، **(وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة)** منصوب هو وما قبله على التمييز، وهذه شهادة العدو، فما بالك بغيره؟ **(حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب)** الصدغ ما بين لحظ العين والأذن، والشعر الذى فيه من أعلى العذار، وجانب الرأس كثيرًا ما يبدو الشيب فيه قبل غيره، فكنى بذلك من أنه تمت رجوليته، وكمل عقله صلى الله تعالى عليه وسلم بمجاوزته سن الشباب، وهذا أشد فى الإنكار عليهم.

(وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر) أى قلتم: إنه ساحر بدليل قوله: **(لا والله ما هو بساحر)**، وهذا منه غاية فى الإنصاف، ولكن غلب عليه الشقاء، فقتل صبرًا بالصفراء كافرًا فى منصرفه صلى الله تعالى عليه وسلم من بدر كما ذكره الشيخان عن عائشة رضى الله تعالى عنها.

وهذا الحديث رواه ابن إسحاق والبيهقى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، والذى قال: إنه ساحر الوليد بن المغيرة، وسبب قول النضر المذكور أن أبا جهل لما أراد أن يرضخ رأس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بحجر، فتمثل له جبريل عليه الصلاة والسلام فى صورة فحل، ففر هاربًا، وييست يده على الحجر كما سيأتى، فلما سمع ذلك النضر قال: يا معشر قريش، والله قد نزل فيكم أمر ما أتيتم فيه بحيلة بعد، قد كان فيكم محمد إلى قوله ما هو بساحر، وقد رأينا السحرة نفثهم وعقدهم، وقلتم: إنه كاهن والله ما هو بكاهن، وقد رأينا الكهنة وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر والله ما هو بشاعر، وقد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون فما هو بخنقة ولا تخليط ولا وسوسة، فانظروا فى شأنكم، فإنه والله قد نزل

---

(١) البيت من الكامل، وهو لقتيلة بنت النضر فى تاج العروس (أثل).

بكم أمر عظيم، والنضر بن الحارث كان من شياطين قريش؟، وهو الذى جاء بقصة رستم وإسفنديار، وكان يجلس يحدث بها، ويقول: ما جاء به محمد ليس بأحسن مما جئت به إن هو إلا أساطير الأولين فنزل فيه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥] فى آيات أخر.

(وفى الحديث عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما لمست يده يد امرأة قط لا يملك رقها)، وهذا من عفته صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا الحديث رواه الشيخان عن عائشة رضى الله تعالى عنها، وسكت عن زوجاته، لأن جواز مسهن معلوم، وإنما يحرم مس الأجنبية التى ليست بمحرم، فيعلم ذلك من الرقيق بالطريق الأولى، وقيل: إنه داخل فى ملك الرق لتملكه البضع، وقد سمى بذلك فى قول أسماء رضى الله تعالى عنها التزويج رق المرأة، فلينظر أين يضع رقها؟، ولا ينافى هذا ما مر من أن الأمة من إماء المدينة كنت تأخذ بيده صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا تدع يده من يدها حتى يقضى حاجتها؛ لأنه كان بحائل من كمه أو كمها، وكلام عائشة رضى الله تعالى عنها هذا ورد فى مبايعته صلى الله تعالى عليه وسلم للنساء، فإن بعضهم توهم أنها كمبايعة الرجال باليد من غير حائل، فقالت رضى الله تعالى عنها: إنما كان يقول لمن هاجر من المؤمنات ما أمره الله تعالى به فى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ [الممتحنة: ١٢] إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فبايعهن على ذلك، فمن أقر به قال: قد بايعتك كلامًا من غير مس لأيديهن، وما ورد فى المبايعة من إمساك أيديهن، فإن كان مدًا من غير مصافحة فبها، وإلا فهو بحائل؛ لأنه ورد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، أتى بثوب وضعه على يده، وقال: لا أصافح النساء(١)، وروى أنهن كن يأخذن بيده من فوق ثوب، وفى المغازى عن أبان بن صالح أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان فى المبايعة يغمس يده فى ماء فى إناء، وتغمس من بايعته يدها فيه، وقيل: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم بايع النساء بواسطة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، وكلام عائشة، رضى الله تعالى عنها، يقتضى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يبايعهن إلا كلاما، فلعله تعدد.

(وفى حديث على رضى الله تعالى عنه فى وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم: أصدق الناس لهجة) رواه الترمذى فى شمائله، وتقدم بيانه لعصمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن الكذب، ولو سهوًا لمنافاته للإبلاغ ووجوب تصديقه فى كل ما يقول كما سيأتى.

(وقال فى الصحيح) أى فى الحديث الصحيح، أو فى صحيح البخارى، لأنه حيث

(١) أخرجه عبد الرزاق فى المصنف (٩٨٣١).

أطلق الصحيح انصرف إليه، وهذا أولى **(ويحك فمن يعدل إن لم أعدل خبت وخسرت إن لم أعدل)** وتقدم ضبطه على الخطاب والتكلم، والكلام عليه إلا أن الذى فى البخارى فى باب الأدب ويلك بدل ويحك، وقد فرق بينهما يقال: ويل كلمة زجر وتوبيخ، وويح كلمة ترحم، وويس ترحم دون ترحمها، وهو معنى قول الأصمعى: إنها تصغيرها، وقيل: أصل ويل وى زيدت فيها اللام، وقد تقدم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قاله لمن قال له: ليست قسمتك بعدل، وأنه اختلف فى اسمه، وأنه عبد الله بن ذى الخويصرة التميمى، أو حرقوص بن زهير الخارجى، أو ذو الثدية، وقد مر الكلام فيه مفصلاً فتذكره.

(قالت عائشة رضى الله تعالى عنها: ما خير رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه) أعاد المصنف هذا الحديث، وقد تقدم بعينه، لما فيه من عدالته صلى الله تعالى عليه وسلم وعفته، فلا وجه للاعتراض عليه، والأمران من أمور الدنيا، والمخير إن كان الناس فلا إشكال فيه، وإن كان الله تعالى وهو الظاهر، فالمراد بالإثم ما يؤدى إلى وقوع أمته فيه، لأن الله تعالى لا يخيره صلى الله تعالى عليه وسلم بين إثم وغيره كاختياره الرزق الكفاف على فتح الكنوز له ولأمته، فإن الدنيا تشغلهم عن العبادة، وتوقعهم فى المهالك، وقد تقدم تفصيله.

(قال أبو العباس المبرد)، وهو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر إمام العربية، وترجمته مشهورة فى التواريخ، وما نقله المصنف هنا عنه إنما ذكره ليعلم بذلك جلالة قدره، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومباينة حاله لحال أهل الدنيا، وما هم عليه من اللهو، فلا يرد عليه ما قيل: إنه لا فائدة فيه: **(قسم كسرى أيامه)** بكسر الكاف وقد تفتح، وهو كما تقدم اسم لكل من ملك الفرس معرب خسرو، إلا أنه لقب كسرى أنو شروان الذى ولد فى زمنه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، لأنه أشهرهم وأعظمهم.

(فقال: يصلح يوم الريح للنوم)، والتغطى حتى يسلم من مس الريح الشديد المصدع، **(ويوم الغيم للصيد)** الذى كان يتقيد به الملوك لعدم أذية الشمس وحرها، ويقال له يوم فاختى وسبيل، **(ويوم المطر للشرب واللهو)**؛ لقلة المصالح فيه، والسلامة من البلل، والنظافة من الوحول، والمراد باللهو سماع الغناء ومنادمة الندماء، **(ويوم الشمس للحوائج)**، وروى يوم الصحو أى خلو الجو من والمطر والغيم، والمراد بالحوائج مصالح الناس، وهو جمع حاجة على خلاف القياس، أو جمع حائجة وأنكره بعض أهل اللغة، وقد رده الجواليقى بأنه ورد فى كلام الفصحاء كثيرًا، وفى الحديث: **(اطلبوا الحوائج**

عند حسان الوجوه) فلا وجه لإنكاره كما فصلناه فى شرح الدرة، وإنما اختير ذلك اليوم للحوائج، لعدم المانع فيه، وما اشتهر من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «ولدت فى زمن العادل كسرى»(١) قد قال الحافظ السخاوى والسمعانى: إنه لا أصل له، فهو موضوع، ولو صح لم يكن فى وصفه بالعادل بأس كما توهم، فإنه كان لا يجور على أحد من رعيته ولا يظلمهم فى حقوق الدنيا، فعدله بالنسبة لذلك لا ينافى كفره وظلمه لنفسه لجهله ومحبته للدنيا، وقيل: إنه وصف بذلك لشهرته به ادعاء منهم، لا أنه شهد له بالعدالة حقيقة، وذكر قصته توطئة لقوله: **(قال ابن خالويه)** بفتح اللام والواو وسكون المثناة التحتية، والمحدثون يضمون اللام مع سكون الواو وفتح الياء، وهو الحسين بن محمد بن خالويه النحوى الأديب الهمدانى، دخل بغداد ثم انتقل للشام، وصحب سيف الدولة لتأديب أولاده، وأخذ العربية عن أبى بكر بن الأنبارى والسيرافى، وتصدر للإفادة، وله تآليف جليلة وشعر حسن، ومات بحلب سنة سبعين وثلاثمائة.

(ما كان أعرفهم) أى الفرس الدال عليهم ذكر كسرى **(بسياسة دنياهم)** أى تدبير أمورها، لأن هذا معنى السياسة لغة قال(٢):

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيهم سوقة نتنصف

وقول ابن كمال فى رسالة التعريف إنه معرب خطأ كما تقدم **(يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)** يعنى أنهم عرفوا أمر شربهم وأكلهم وحركتهم، وتقيدوا بذلك، وغفلوا عن المعاد وما يليق به، وهذه مراده فيما اقتبسه كما قال الشاعر:

ومن البلية أن ترى لك صاحبا ... فى صورة الرجل السميع المبصر
فطن لكل مصيبة فى ماله ... وإذا يصاب بدينه لم يشعر

ويقرب ما قاله المفسرون نقلا عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنهم يعلمون أمر معايشهم ودنياهم، متى يزرعون، ومتى يحصدون، وكيف يعرشون ويبنون.

(ولكن نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، جزأ نهاره ثلاثة أجزاء) يعنى أنهم قسموا

---

(١) انظر: الدرر المنتثرة (١٧٠)، وتذكرة الموضوعات (٨٨).

(٢) البيت من الطويل، وهو لحرقة بنت النعمان فى الجنى الدانى (٣٧٦)، خزانة الأدب (٧/٥٩، ٦٠، ٦٨، ٧٠)، الدرر (٣١/١١٩)، شرح ديوان الحماسة (ص١٢٠٣)، شرح شواهد المغنى (ص٧٢٣)، لسان العرب (٩/٣٣٣).

أيامهم لما ذكر، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم قسم أوقاته، وهو أكثر حزما لعدم ضياع جزء ووقت من عمره فيما لا يعنيه، وشتان بين القسمين والمقسمين، وفى نسخة لكن بدون واو.

(وجزءًا لله) أى لعبادة الله وتلقى وحيه.

(وجزءًا لأهله) أى لمصالح أهله وبيته.

(وجزءًا لنفسه) مخصوصًا بأكله وشربه ونحو ذلك من أموره الدنيوية.

وجزءًا فى المواضع الثلاثة يجوز نصبه ورفعه، وكذا روى **(ثم جزءًا جزءه بينه وبين الناس)** أى جعله قسمين قسمًا لخاصة نفسه، وقسم الخاص به قسم له فى نفسه، وقسم ينظر فيه أمور الناس وحوائجهم.

(فكان) صلى الله تعالى عليه وسلم **(يستعين بالخاصة)** من أصحابه، وهم خلفاؤه ووزراؤه رضى الله تعالى عنهم، ومن يقرب منهم **(على العامة)** من المسلمين، **(ويقول)** للخاصة **(أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغى)** أى أخبرونى، وقولوا لى ما يطلبه العوام ممن لا يقدر أن يبلغنى حاجته، إما لعدم الجراءة على كلامه لمهابته صلى الله تعالى عليه وسلم، أو لعجزه عن الوصول إلىّ، ثم رغب فى ذلك بقوله: **(فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها آمنه الله يوم الفزع الأكبر)** وهو يوم البعث والحشر، وحيث يكون الناس كلهم فى فزع أى خوف من العذاب، وقيل: هو يوم النفخة أو يوم الانصراف إلى النار، وهذا من حديث هند بن أبى هالة، وآمنه بالمد بمعنى جعله فى أمن من أهوال القيامة.

(وعن الحسن) بن على، رضى الله تعالى عنهما، كما رواه أبو داود فى مراسيله **(كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يأخذ أحدًا بقرف أحد)** الأخذ مجاز عن العقوبة من أخذ السلطان إذا حبسه، وجازاه على ما صدر منه، والقرف بفتح القاف وسكون الراء المهملة والفاء التهمة، وإسناد الذنب لغيره، وقال البرهان الحلبى: يقال : قرفت الرجل أي عبته واتهمته فهو مقروف، وفى نسخة بقذف بذال معجمة بدل الراء وكتب عليها صح.

(لا يصدق أحدًا على أحد) أى لا يحكم بصدق مقالة صدرت من أحد فى حق أحد غيره بإسناده إليه أمرًا يقتضى عقوبة، أو حقًا من الحقوق بمجرد قوله من غير إثبات لمقاله، وهذا من عدله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولكن هذا ليس على عمومه، فإنه ربما كان المخبر ممن يعلم صدقه، ويعتمد على خبره، وينكشف بنور النبوة جلية الحال له.

(وذكر أبو جعفر الطبرى) هو الإمام محمد بن جرير الطبرى المشهور، وقد تقدمت

ترجمته، وهذا الحديث رواه البزار إلى قوله برسالته الآتى **(عن على)** كرم الله وجهه **(عنه صلى الله تعالى عليه وسلم: ما هممت بشىء)**، وقد تقدم هذا الحديث، والكلام فيه، وإنما أعاده المصنف لغرض آخر، وهو بيان عفته صلى الله تعالى عليه وسلم عن اللهو، وأن الله عصمه عن ذلك من أول أمره، وقيل: إنما أعاده لزيادة فيه لم تذكر أولا، وهى قوله غير مرتين إلى آخره **(مما كان أهل الجاهلية يعملون به)** كما تقدم بيانه **(غير مرتين، كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك)** استعار الحائل الحاجز بين شىء وشىء للمانع كما فى قوله تعالى : ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قال أبو عبيد: أى يملك عليه قلبه، فيصرفه كيف يشاء، وذلك الثانى إشارة لما كان عليه أهل الجاهلية، والمعنى أنه عصمه صلى الله تعالى عليه وسلم عنه، **(ثم ما هممت بسوء)** أى صرف الله قلبى عن أن يهم بسوء أى بقبيح شرعًا كاللهو **(حتى أكرمنى الله برسالته)** أى حتى مَنَّ الله علىَّ بالبعثة، وجعلنى نبيًا رسولاً، ثم بين ما هم به فى المرتين، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(قلت لغلام كان يرعى معى)** يعنى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يرعى غنمًا لبعض قريش فى صغره، وهذا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يرعون لغيرهم أيضًا، والغلام كان أجيرًا أيضًا يرعى معه، ويرافقة فى البادية، وفى هذا تحصيل كسب حلال، وتدريب لرعاية الخلق كما ورد: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»(١) مع ما فيه من الأنس بالوحدة والخلوة، وفى الحديث: «ما من نبى إلا رعى الغنم»(٢). قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط بمكة»(٣)، وقيل: حكمته أن الغنم جاهلة صعبة السياسة، فكان ذلك ليأنس بسياسة الخلق، والقراريط جمع قيراط، وهو سدس درهم، وقيل: إنه اسم جبل بمكة، وأنكروه لأنه لم يسمع به ثمة، وفى الحديث: «ستفتح عليكم مصر فاستوصوا بأهلها خيرًا» الحديث، والقيراط فيه: قيل: إنه بهذا المعنى، وقيل: إنه نصاب بينهم، وقيل غير ذلك، وعندى أنه بمعنى مقدار الأرض المعروف بينهم فى الساحة، لأنه مخصوص بها، وأما غيره فلا اختصاص له بها، وفى هذا معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم لإخباره بالغيب، وقوله: **(لو أبصرت لى غنمى)**، أى لو حرستها وحفظتها؛ لأن البصر والنظر يستعار لذلك، **(حتى أدخل مكة، فأسمر بها)** سمر يسمر كقتل يقتل، والسمر التحدث بالليل،

---

(١) أخرجه البخارى (٢/٦، ٣/١٩٦، ٤/٦، ٧)، وأحمد (٣/٥، ٥٤، ١١١، ١٢١)، والترمذى (١٧٠٥)، والبيهقى (٦/٢٨٧، ٧/ ٢٩١، ٨/١٦٠).

(٢) أخرجه مالك فى الموطأ (١/٩١)، وابن سعد (١/١/٧٩).

(٣) أخرجه البخارى (٣/١١٦).

وأصل معناه: ضوء القمر من السمرة، وهى السواد القليل، فسمى به حديثهم ليلا لجلوسهم له فيه قال:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

(كما يسمر الشباب)، والشباب بفتح الشين مصدر شب، بمعنى صار شابا، واسم جمع له كالعقود، والشاب حديث السن كالفتى.

(فخرجت) من البادية التى فيها الغنم، **(لذلك حتى جئت أول دار من مكة)** غاية لمجيئه من المرعى، **(سمعت فيها عزفًا)** بعين مهملة وزاى معجمة وفاء بزنة ضرب، وهو ما يلهى به الإنسان، وفى مختصر العين: العزف اللعب بالمعازف، وهى الملاهى وواحدها عزف على خلاف القياس أو معزف، والمعزف الطنبور أو الدف، وقيل: كل لعب عزف.

(بالدفوف) جمع دف بضم أوله وفتحه وتشديد الفاء، وهو الذى يضرب به النساء، وهو معروف، ويسمى عند العامة دراجًا وطارا، وفيه شبه الجلاجل قال:

كأن فى الدف الذى يفصله زمار دف يتغنى جلجله

واختلف فيه فجوزه بعض الشافعية، وكرهه مالك.

(والزمامير لعرس بعضهم، فجلست أنظر) ما يلعبون به والذين يلعبون، **(فضرب على أذنى فنمت)** بكسر النون وأذن بضمتين وضم فسكون تخفيفًا، وضرب الله على أذنه أن يغشاه النوم، وأصله منع السمع؛ لأن من نام لا يسمع، وهو مستعار من ضرب الخيمة العظيمة المغطية لمن تحتها، فكأن آذانهم تحت غطاء محجوبة عن السمع قال الراغب: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ [آل عمران: ١١٢] التحفتهم التحاف الخيمة لمن ضربت عليه، ومنه استعير ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١١]، وفيه لطف هنا؛ لأنه ذهب ليسمع ضرب الدف، فضرب على أذنه صيانة من الله له ﷺ، **(فما أيقظنى إلا مس الشمس)**، أى مس حرها، فكأنها مسته حتى حرقته وحبسته حتى نبهته، ففيه استعارة ولطف كما فى قول ابن المعتز:

والريح تجذب أطراف الغصون كما أفضى الشفيق إلى تنبيه وسنان

وكما قيل:

نمت تحت أذيال النسيم حتى ألقت علىَّ الشمس رداءها

(فرجعت) من المكان الذى ضرب فيه الدفوف، **(ولم أقض شيئًا)** من قضى وطره إذا كان ما يريده يعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، جلس قبل تعاطيهم اللهو، فغلبه النوم حتى لم يسمع شيئًا من ذلك؛ لعصمة الله له صلى الله تعالى عليه وسلم، ومجرد همه

بذلك، وإرادته لا حرج فيه، والفاء شاهدة بعدم سماعه على أنه لم يكن حرم عليه شىء من ذلك، وكونه محرمًا فى شرع من قبلنا، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم، متشرع به غير مسلم.

واعلم أن المعازف حرام فى ملتنا للنهى عنها فى الأحاديث المشهورة كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «ليكونن فى أمتى أقوام يستحلون الخمر والمعازف»، واختلف فى بعضها، فمنهم من جوز الدف فى العرس، ومنهم من جوز ضرب العود لتسلية الأحزان كالماوردى، وكان الأستاذ الشيخ محمد البكرى، رحمه الله تعالى ونفعنا به، يقول: عطروا مجلسنا بالعود الماوردى، لكنه قول ضعيف، وفى منظومة الدميرى، رحمه الله تعالى:

ونغمات العود فى الأحيان قالوا تزيل أثر الأحزان
فاجزم على التحريم أى جزم والحزم أن لا تتبع ابن حزم
فقد أبيحت عنده الأوتار والعود والطنبور والمزمار

(ثم عرانى)، أى طرأ علىّ وعرض لى وغشينى **(مرة أخرى)** فى وقت آخر **(مثل ذلك)** من الهم بالسماع والذهاب له، **(ثم لم أهم)** قال الشمنى: هو بضم الهاء وعليه اقتصر الجوهرى، رحمه الله تعالى **(بعد ذلك بسوء)** أى بما فيه إثم، فسماه سوءًا؛ لأنه يكرهه ويؤلمه.

* * *

(فصل وأما وقاره ﷺ)

أى سكوته وطمأنينته ورزانته يقال: وقر يقر وقرًا ووقارًا، وفسروه هنا بالحلم، وهو غير مناسب هنا كما لا يخفى، ويجىء الوقار بمعنى العظمة كما فى قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، وأصله من الوقر وهو من الثقل، **(وصمته)** أى سكوته، وهو من الوقار، **(وتؤدته)** بضم التاء الفوقية وفتح الهمزة والدال المهملة وهى التأنى يقال: اتأد فى فعله إذا تأنى ولم يعجل، وتاؤه منقلبة عن واو **(وحسن هديه)** بوزن ضربه بمعنى سيرته وطريقته وسمته وسلوكه.

(فحدثنا أبو على الجيانى) بالجيم وتقدم ضبطه وترجمته **(الحافظ إجازة)** قال ابن فارس فى مجمله: وهى من جواز الماء الذى تسقاه الماشية. يقال منه: استجزت فلانًا فأجازنى إذا سقاك الماء لأرضك وماشيتك، قال القطامى: وقالوا: فلان قيم الماء فاستجز عبادة أن المستجيز على قتر أى على ناحية، وجزت الموضع سرت فيه، وأجزته حلقته وقطعته،

وأجزته بعدته، قال امرئ القيس:

ولما أجزنا ساحة الحى وانتحى بنا بطن خبت ذى قفار عقنقل

وقوله: حتى يقال: أجيزوا آل صو، فإنما يمدحهم بأنهم مجيزون الحاج، انتهى.

قال ابن الصلاح: قلت: فللمجيز على هذا أن يقول: أجزت فلانًا مسموعاتى أو مروياتى، فيعديه بغير حرف جر من غير حاجة إلى ذكر الرواية، أو نحو ذلك، ويحتاج إلى ذلك من يجعل الإجازة بمعنى التسويغ والإذن والإباحة، وذلك هو المعروف، فيقول: أجزت لفلان رواية مسموعاتى مثلاً، ومن يقول منهم: أجزت له مسموعاتى، فعلى سبيل الحذف الذى لا يخفى نظيره، انتهى.

أقول: اعلم أن أصل الإجازة فى كلام العرب قديمًا كما ذكره أهل اللغة الإذن فى الانصراف، ولما كان من يأخذ عن شيخه ينصرف عنه أخذت منه كما يقتضيه الاستعمال، وكلام أهل اللغة قاطبة؛ لأنها من جاز المكان إذا تجاوزه ومر عليه، ثم عدى بالهمزة للمفعول الثانى، وقد يقتصر على أحد مفعوليه؛ لأنه من باب كسا، ومعنى أجازه أذن له الجواز والمرور، ثم استعمل فى مطلق الإذن، وشاع حتى صار حقيقة فيه، فمعنى إجازة الشيخ إذنه فى الرواية عنه، وهذه لفظة قديمة كما سمعته، وكذا الجائزة بمعنى العطية ليست محدثة كما قاله الحافظ ابن حجر، رحمه الله، إلا أنه يحتمل أنها من هذا؛ لأن المعطى كأنه يأذن لمن أعطاه فى الانصراف عنه، ولا تختص بالماء كما يوهمه كلام المجمل المتقدم، وهو الذى غزا ابن الصلاح، فقوله: مأخوذة من جواز الماء لا وجه له، بل من أجازه إذا جعله جائزًا، ثم نقل لمعنى أذن له، وكذا قوله: وقد تبين أنه يتجوز به عن معنى لفظ آخر، وبينهما مخالفة فى التعدية، فنجوز حمله على حقيقته وعلى مجازه، فلك حينئذ أن تعديه لمفعولين، ولك أن تعديه لواحد بحرف، وبدونه، فيعمل عمل أذن وأجاز من غير تكلف.

(وعارضت بكتابه)، أى قابلت نسختى بنسخته حال القراءة؛ لأنه يقال: عارضه إذا قابله، والكلام على هذا مبين فى مصطلح الحديث، فالمعنى أنه حدثه به قراءة منه، وهو مقابل له وفى يده كتابه.

(قال: حدثنا أبو العباس الدلائى) بكسر الدال المهملة مشددة وتخفيف اللام المفتوحة، ثم ألف ممدودة وياء مشددة إلى دلاء جمع دلو، وقال البرهان الحلبى: إن لامه مشددة، ووجد فى بعض النسخ مضموم الهمزة، والظاهر أنها مكسورة بعدها ياء نسبة، انتهى، والظاهر أنه مفتوح الدال وهو صانع الدلو، وهو أبو العباس أحمد بن أنس العذرى

المعروف بابن الدلاء من مدينة بالنسبة قال: **(أخبرنا أبو ذر الهروى)** تقدمت ترجمته، وهو عبد الله بن أحمد بن محمد الهروى قال: **(أخبرنا أبو عبد الله الوراق)** أبو الحسن عبد الله محمد بن على الأنطاكى المعروف بابن الغيور الوراق قال: **(حدثنا اللؤلؤى)** أبو على محمد بن أحمد بن عمرو والمشهور برواية السنن عن أبى داود قال: **(حدثنا أبو داود)** سليمان بن أشعث صاحب السنن الإمام الحافظ المشهور قال: **(حدثنا عبد الرحمن ابن سلام)** بفتح السين المهملة وتشديد اللام، وهو جد عبد الرحمن نسب إليه، وأبوه محمد بن سلام البغدادى الثقة، روى عنه أبو داود والنسائى وقال: لا بأس به قال: **(حدثنا حجاج بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى الزناد)** هو الأعور المصيصى الحافظ الثقة، أخرج له أصحاب السنن الأربعة، قال ابن حزم: توفى سنة أربع وستين ومائة.

(عن عمر بن عبد العزيز بن وهيب)، ويقال: أهيب بالهمزة وهو بدل قياسى، وهو أنصارى مولى لزيد بن ثابت، وهو يروى عن خارجة، وأخرج له أبو داود فى المراسيل هذا الحديث، وقال الذهبى: لا يعرف من هذا كما فى الميزان **(سمعت خارجة بن زيد)** هو خارجة بن زيد بن ثابت الأنصارى المدنى التابعى، أحد فقهاء المدينة السبعة، وهم سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار، وفى السابع أقوال: فقيل: هو سالم ابن عبد الله بن عمر، رضى الله تعالى عنهم، وقيل: أبو سلمة بن عبد الرحمن، وقيل: أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ثم إن الفقهاء بالمدينة، وإن كانوا كثيرًا، فإنما خص هؤلاء لإجماع الناس على رأيهم وانتهائهم لفتواهم؛ لمعرفتهم بالفضل والصلاح حتى كان لا يقضى فى أمر حتى يرفع إليهم، وكان الناس يتبركون بهم حتى قيل: إن أسماءهم إذا علقت على محموم برئ، وإذا وضعت فى البر لم يدخله سوس ولم يفسد، وقد نظمهم القائل فى قوله:

ألا كل من لا يقتدى بأئمة   فقسمته ضيزى عن الحق خارجه
فخذهم عبيد الله عروة قاسم   سعيد أبو بكر سليمان خارجه

وهذا الحديث من مراسيل أبى داود.

(يقول: كان النبى ﷺ أوقر الناس فى مجلسه)، أى أعظمهم وقارا إذا برز للناس وجلس معهم، بخلاف ما إذا خلا مع أهله أو مع خاصته، فإنه ينبسط معهم ويلاطفهم يعنى أن هذا كان عادته ودأبه ﷺ، بحيث لا يصدر عنه خلافه، وكان وإن كانت بحسب الأصل فعلا ماضيًا لكنها قد تستعمل للاستمرار نحو ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، وللتكرار نحو: **(كان حاتم يقرى الضيف)** لقرينة، وهو استعمال شائع،

ولكثرته عده بعض الأصوليين معنى لها، ولم يحققه أحد كابن جنى فى كتاب الخصائص، فإن أردته فانظره.

(لا يكاد يخرج شىء من أطرافه)، أى أطراف بدنه كرجليه، ولا يكاد يخرج فيه مبالغة، أى لا يخرج ولا يقرب من الخروج، ولذا عدل عن لا يخرج وهو أخصر، ويخرج بفتح أوله مضارع خرج يخرج كقتل يقتل، وشىء فاعله، أو بضمه مضارع أخرج وشيئًا مفعول إلا أن جل النسخ على الأول.

(وروى أبو سعيد الخدرى)، هو سعيد بن مالك بن سنان الخدرى، رضى الله تعالى عنه، وقد تقدم: **(كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذا جلس فى المجلس احتبى بيديه، وكذلك كان أكثر جلوسه صلى الله تعالى عليه وسلم محتبيًا)**، وفى رواية بثوبه بدل بيديه، والاحتباء بالحاء المهملة أن يجمع ظهره وساقيه بيديه أو عمامته ونحوه، والحبوة بضم الحاء وكسرها، ويقال: حبية وحبية أيضًا، ويقال: الاحتباء حيطان العرب؛ لأنهم أهل برارى لا حيطان لهم يستندون إليها، فالاحتباء قائم مقامها، وليس هذا معارضًا لما ورد فى الحديث من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم «نهى عن الاحتباء فى ثوب واحد»[1]، إذ النهى فيه لم يرد عن الاحتباء، وإنما ورد عن كونه فى ثوب واحد؛ لأنه ربما تحرك فيزول الثوب وتنكشف عورته، وأما قوله:

وإذا احتبى قربوسه بعنانه ... علك الشكيم إلى انصراف الزائر

فاستعاره ونهى عن الاحتباء يوم الجمعة والخطيب يخطب؛ لأنه يؤدى إلى النوم، وهذا الحديث رواه أبو داود، والترمذى فى شمائله.

(وعن جابر بن سمرة، رضى الله عنه) رواه مسلم، وأبو داود **(أنه)** ﷺ **(تربع)**، أى جلس متربعًا، وهو أن يقعد الرجل على وركيه، ويمد ركبته اليمنى إلى جانب يمينه وقدمه اليمنى إلى جانب يساره، وركبته اليسرى إلى جانب يساره وقدمه اليسرى إلى جانب يمينه، وهذا فى خارج الصلاة كما فى الحديث: «كان صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا صلى الفجر جلس متربعًا حتى تطلع الشمس»[2]، وهو فى الصلاة كما صرح به الفقهاء، وأما خارجها فلا يكره، وقيل: إنه سنة، وقول بعض فقهائنا: إنها جلسة الجبابرة مع فعله صلى الله تعالى عليه وسلم، لها فيه نظر.

(وربما جلس القرفصاء) بضم القاف والفاء ويجوز كسرهما ويمد ويقصر، وهو

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١١٣٤).

(٢) أخرجه البخارى (٢/٧٠)، وأحمد (٦/٢٥٤)، وأبو داود (١٢٦٣)، والبيهقى (٣/٤٥).

جلوس على إليتيه كجلوس المحتبى بيديه من غير احتباء كما يدل عليه ما بعده، وقال الفراء: إذا ضممت مددت وإذا كسرت قصرت.

(وهو) أى جلوسه صلى الله تعالى عليه وسلم، القرفصاء ورد **(فى حديث قيلة)** بفتح القاف وسكون المثناة التحتية ولام، وهى بنت مخرمة العنبرية كما فى المقتفى، وقال الشمنى: العدوية، وقيل: العنزية، وهو الصحيح، وفى حديثها أنها رأت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فى المسجد، وهو قاعد القرفصاء.

وفى رواية: فلما رأت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، المتخشع فى الجلسة أرعدت من الفرق، وليس هذا فى رواية الترمذى، ومسلم التى ذكرها المصنف، وفى كلامه إشارة إلى أنه زيادة عليها.

والمتخشع إن كان صفة فالرؤية بصرية، وإن كان مفعولاً ثانيًا فهى علمية، ورعدتها من مهابته، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا من تخشعه.

(وكان صلى الله تعالى عليه وسلم، كثير السكوت لا يتكلم فى غير حاجة) تدعوه للكلام، و لم يكن يسرد الحديث بعجلة ليفهم عنه، وهذا مروى عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، **(يعرض عمن تكلم بغير جميل)** لا يرضاه فيعلم بإعراضه عنه أنه غير مرضى له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا من وقاره أيضًا، وليس المراد به: أن يكون حرامًا كما قيل؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يقر على مثله.

(وكان ضحكه تبسما) بدون قهقهة لشدة وقاره صلى الله تعالى عليه وسلم، والضحك انبساط الوجه حتى يظهر منه السرور ويبدو الثنايا فقط، وأما ما ورد من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، ضحك حتى بدت نواجذه فمحمول على المبالغة لزيادته فيه على ما عهد منه، أو هو نادر لا يعتد به.

(وكلامه فصلا) بفاء وصاد مهملة أى فاصل بين الحق والباطل، أو مفصل لتمهله فيه قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق:١٣،١٤].

(لا فضول) مصدر أى لا زيادة فيه، وقيل: إنه فى الأصل جمع فضل بمعنى الزيادة، فخص بما ذكر، ولذا قيل فى النسبة له: فضولى وينسب للجمع.

(ولا تقصير) فيه حتى يخل بفهم السامع.

(وكان ضحك أصحابه عنده) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(التبسم توقيرًا له واقتداء به)**؛ لتخلقهم بأخلاقه وتأدبهم بآدابه.

(مجلسه مجلس حلم) بكسر الحاء وسكون اللام، وفى نسخة حكم بضمها مع

الكاف، **(وحياء)** منه ومن أصحابه، **(وخير)** لإحسانه ولطفه وتعليمه، **(وأمانة)** يأمن المتكلمون فيه على أسرارهم، فلا ينقل منه مالا يحبون إفشاءه، كما ورد فى الحديث: «المجالس بالأمانة».

(لا ترفع فيه)، أى فى مجلسه **(الأصوات)** لأدبهم وتوقيرهم له، وكان ذلك محرمًا عليهم لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، وأما كونه وقع مثله بحضرته فى قصة الإفك فنادر لا يعتد به.

(ولا تؤبن فيه الحرم) بضم المثناة الفوقية وهمزة ساكنة وتبدل واو وتؤبن من أبنه يأبنه إذا عابه ورماه بقبيح، أصله الأبنة وجمعها أبن، وهى العقدة فى القسى تفسدها وتعاب بها، ووقع فى بعض الحواشى: تؤبر براء بدل النون، وفسره بما ذكر على أنه مأخوذ من المآبر التى واحدتها ميبرة، أو من أبرته العقرب إذا لدغته بإبرتها، وهى آخر عقد ذنبها، وهو تصحيف كأنه وجده فى بعض النسخ فاتبعه، والمذكور فى كتب اللغة كالنهاية والجوهرى وغيرهما هو الأول، وصرح ابن فارس فى المجمل بأن الحديث مروى هكذا، والحرم جمع حرمة، وهى كل ما يحرم هتكه، وأما استعماله بمعنى المرأة فعامية وإن كان لها وجه، وقيل: إنها صحيحة مراد به هنا النساء؛ لأنه ورد فى الحديث نهيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن شعر تؤبن فيه النساء، وفى حديث الإفك: **(أشيروا على فى أناس آبنوا أهلى)**، انتهى. يعنى أنه محفوظ من الرفث ولغو القول، فهو من وقاره أيضًا؛ لقوله: **(إذا تكلم أطرق جلساؤه)** أى طأطئوا رءوسهم توقيرًا له، صلى الله تعالى عليه وسلم، منصتين لكلامه **(كأنما على رءوسهم الطير)**، وصفهم بالسكون وعدم الخفة والطيش؛ لأن الطير لا تكاد تقع إلا على شىء ساكن، ولك أن تقول: إنه شبههم بغصون مغروسة فى رياض مجلسه كما قال فى البردة:

كأنهم فى ظهور الخيل نبت ربا من شدد الحزم لا من شدة الحزم

(وقلت فى المقصورة:)

كأنما الطير على رءوسهم من كل غصن فى ربا المجد نما

والطير جمع أو اسم جمع لطائر وهو معروف.

(وفى صفته ﷺ) فى مشيه، وهو خبر مقدم، وقوله: **(يخطو تكفأ)** مبتدأ؛ لأنه أريد به لفظه، فهو كقوله: «لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة»[1]، أى قيل فى

---

(١) أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء برقم (٤٤، ٤٥)، وأحمد (١٥٦/٥)، والطبرانى (٤٢١/١٩)، والعقيلى فى الضعفاء (٢٠٠/٢)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٣٤٩/٢)، وابن عدى (١٧١/١).

وصفه هذا، ويخطو مضارع خطا المعتل إذا مد رجله ومشى، والخطوة بالضم ما بين القدمين وبالفتح المرة، وتكفأ بفتح المثناة والكاف وفاء مضمومة مشددة بعدها همزة مصدر كتقدم تقدما، بمعنى مال إلى قدام، والأصل فيه الهمزة وبه روى، فإن اعتل كسرت الفاء وكان بالياء كتسمى تسميًا، وقال شمر: معناه مال يمينًا وشمالاً كمشى المختال، والصواب تفسيره بمال إلى جهة ممشاه كما يدل عليه قوله: كأنما ينحط من صبب أى من علو لا تمايل، فإنه غير مناسب.

وقد ورد فى حديث ابن أبى هالة أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، ذريع المشية إذا مشى مشى تقلعا، أى يرتفع عن الأرض بجملته، وروى قلعا بفتح القاف وكسر اللام وهو أدل على التثبت والشجاعة، وهكذا كان أولوا العزم عليهم الصلاة والسلام.

(ويمشى هونا) بفتح الهاء وسكون الواو أى برفق ولين من غير تمايل مع الترفق والتثبت، قال الله تعالى: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، قال مجاهد: بالسكينة والوقار، **(كأنما ينحط من صبب)** بفتحتين أى ينزل من صبب، وهو الموضع المنحدر، وفى رواية: كأنما هو من صبوب بالضم والفتح، وهو ما يصب من ماء ونحوه، أى لم يكن صلى الله تعالى عليه وسلم، يستعجل، وأما قول أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه: ما رأيت أحدًا أسرع من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، كنا نجهد أنفسنا وهو غير مكترث، فإنما هو لسعة خطوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى لا يلحق مع تثبته وتمهله.

(وفى الحديث الآخر: إذا مشى مشى مجتمعا)، أى ينقل أعضاءه كلها دفعة واحدة من غير تحريك لرأسه الشريف وبدنه، فهو ﷺ فى مشيه قوى غير مسترخ **(يعرف فى مشيته)** بكسر الميم وفتحها، **(أنه غير غرض)** بفتح الغين المعجمة وكسر الراء المهملة والضاد المعجمة، أى غير قلق ولا ضجر ولا ملل، **(ولا وكل)** بفتحتين وهو البليد والجبان والعاجز الذى يكل أمره لغيره، وحكى شمر فيه كسر الكاف، كما قاله التلمسانى والدلجى، وهو أنسب هنا لموازنته لما قبله، وفسره بكسلان.

وقوله: **(أى غير ضجر ولا كسلان)** يعينه، فإن ظاهره أنه تفسير لما قبله على اللف والنشر المرتب، وضجر كحذر من الضجر وهو القلق، والكسلان من الكسل وهو الفتور وعدم النشاط من الغم، ويكون بمعنى سوء الخلق، ويكون غرض بمعنى سباق كقوله:

إنى ضجرت إلى تناصف وجهها   غرض المحب إلى الحبيب الغائب

وليس بمراد هنا.

(وقال عبد الله بن مسعود)، رضى الله تعالى عنه، رواه البخارى وأصحاب السنن: **(إن أحسن الهدى هدى محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، والهدى بدال مهملة بوزن الرمى السمت والسيرة والطريقة، والحالة التى يكون عليها.

وهذا الحديث وإن كان موقوفًا على ابن مسعود، فله حكم المرفوع، وكذا سائر الأحاديث المتعلقة بالشمائل، فإن مثلها لا يقال من قبل الراوى، وقد روى مرفوعًا أيضًا، وكان ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، أشبه الناس هديا بهدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وكذا عمر وابنه، رضى الله تعالى عنهما، فلذا كان الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، يتشبهون به فى هديهم.

وبقية الحديث: «وشر الأمور محدثاتها»، وهو حديث طويل، قال ابن قرقول: وروى بضم الهاء وفتح الدال ضد الضلال.

(وعن جابر بن عبد الله، رضى الله تعالى عنهما)، أخرجه أبو داود والإمام أحمد فى الزهد: **(كان فى كلام رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ترتيل أو ترسيل)** كذا فى النسخ بأو إشارة إلى أنه روى بكل منهما على حدة، وفى المصابيح بالواو لتقارب معناه، فالعطف تفسيرى، فلا منافاة بينهما كما قيل، أى يبين الكلام من غير عجلة وغموض حتى يسبق فهم السامع إليه، وقيل: الترتيل التبيين، والترسيل التؤدة، وللترتيل من قولهم: ثغر مرتل وهو المفلج كالأقحوان.

(قال ابن أبى هالة) المتقدم ترجمته: **(كان سكوته)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(على أربع)**، أى يقع على أربع خصال فيه **(على الحلم)**، أى يسكت تارة لحلمه على من تكلم عنده بما يقتضى المؤاخذة، **(والحذر)**، أى الاحتراس من كلام ربما أدى لأمر يخشى منه، **(والتقدير)**، أى يقدر صلى الله تعالى عليه وسلم، فى نفسه وسكوته ما يليق به وبغيره، **(والتفكر)** فى مصنوعات الله ونحو ذلك.

(قالت عائشة: رضى الله تعالى عنها،) كما رواه الشيخان عنها: **(كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحدث حديثًا لو عده العاد أحصاه)**، أى لو أراد عده عده بسهولة، أو لو عده حصره بحيث لا يفوته منه شىء لقلته وتثبته وعدم سرعته فيه.

(وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحب الطيب والرائحة الحسنة)، الطيب كل ما يتطيب به من بخور ومسك وزعفران ونحوه، والرائحة الحسنة تشمل رائحة غيره كالريحان وسائر الزهور العطرة، ولذا كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يرد هديتها،

(ويستعملهما كثيرًا) فى أكثر أوقاته لملاقاته الملك، فإنها تقوى الحواس، والملائكة، عليهم الصلاة والسلام، تحبها وتكره الرائحة الخبيثة بعكس الشياطين.

(ويحض عليهما) بضمير التثنية للطيب والرائحة، وفى نسخة عليها، فالضمير لها لأنها المقصود من الطيب لا لأنها أعم كما قيل؛ لتغايرهما أى كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحث الناس ويحرضهم على استعمال ذلك لما لهم فيه من الفوائد، ولحضور الملائكة الحفظة والكتبة عندهم، ولملاقاتهم له بما يحبه، ومن مروءة الإنسان نظافته وطيب رائحته.

(ويقول: حبب إلىّ من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عينى فى الصلاة)، وقد تقدم هذا الحديث، وأن لفظ ثلاث الموجودة فى التفاسير كالإحياء والكشاف غير ثابتة عن أكثر المحدثين، وما فى عطف جعلت، فإن محبة النساء من هدى الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، كداود وسليمان، وكان فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من قوة الجماع ما ليس فى غيره، وقال: «فضلت على الناس بأربع: بالسماحة، والشجاعة، وقوة الجماع وشدة البطش»[1]، وكان فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قوة أربعين رجلاً من رجال الجنة، وكل رجل منهم فيه قوة مائة رجل من أهل الدنيا، وهذا مع قلة أكله وشربه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا الحديث أخرجه أصحاب الكتب الستة، وكان أكثر طيبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الذريرة، وهو طيب يجىء من الهند معروف مركب، وتقدم أنه إنما قال: «حُبِّبَ» بالبناء للمجهول؛ لأن تلك المحبة جعلها الله فيه طبيعة لا شهوانية، وعلى تسليم رواية ثلاث إما أن يكون اكتفى باثنين منها، وحذف الثالث لتذهب نفس السامع كل مذهب، والعرب تفعله كقوله:

كانت حنيفة أثلاثًا فثلثهم ... من العبيد وثلث من مواليها

أو الثالث: الصلاة، وقرة عينه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيها، وجعلها من الدنيا لوقوعها فيها، ويكون تغييره للعبارة إشارة لمغايرتها لما قبلها، وأنها ليست من جنسها، ووقع فى بعض النسخ هنا زيادة لفظ ثلاث بعد قوله: من دنياكم، ومر الكلام فيها، وأنها ليست ثابته وإن أثبتها الزمخشرى والغزالى فى الإحياء، وكذا المصنف، رحمه الله تعالى، تبعا لهم، وقد أفردنا هذا الحديث بتعليقة مستقلة، والحديث رواه أيضًا النسائى فى سننه فى رواية له بلفظ: «حبب إلىّ من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة»، ومن هذا الوجه أخرجه أحمد، وأبو يعلى فى مسنديهما، وأبو عوانة فى

---

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٨/٢٦٩)، والخطيب فى تاريخه (٨/٧٠)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/١٦٩).

مستخرجه على الصحيح، والطبرانى، والبيهقى، وآخرون، كالحاكم فى مستدركه بسند جيد بدون لفظ: «وجعلت»، وقال: صحيح على شرط مسلم، وأخرجه ابن عدى فى كامله، وقال العقيلى: إنه ضعيف.

(ومن مروءته، صلى الله تعالى عليه وسلم، نهيه عن النفخ فى الطعام والشراب) المروءة من المرء وهو الإنسان، فهى بمعنى الإنسانية، ومعناها التلبس بما يليق بالرجال وترك ما يخل به، فارتكاب ما يكرهه الصاحب مخل بالمروءة، والنفخ فيما ذكر إما للتبريد أو إزاحة قذر على وجهه، وقد يخرج معه ريق المرء فيكره تناوله أو يكون النفس متغيرًا فيؤثر فيه ولو توهما، والغرض منه يحصل بالصبر وإماطة ما عليه بإراقة وخلال ونحوه، ولذا نهى عن التنفس فى الإناء حال الشرب، وأما ما ورد من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، «كان يتنفس إذ شرب مرتين»(١) ونحوه، فليس معناه ذلك بل أنه يقطع الشرب وينحى الإناء ويتنفس خارجه، فإنه يستحب عدم العب والقطع فى الشرب، وقد ورد أن النفخ فى الطعام يذهب البركة منه، كما ورد: «أبردوا الطعام، فإن الحار لا بركة فيه» (٢)، وفى لفظ: «غير ذى بركة»، وليس المراد بإبراده نفخه حتى يبرد، بل أكله باردًا بأن يصبر عليه حتى يبرد، فلا منافاة بينهما كما توهم، وقلة بركته لأنه يلتذ بمضغه وبلعه، أو أنه لشدة حرارته ينهضم سريعًا، فلا يشبع شبع غيره.

(و) من مروءته ﷺ **(الأمر بالأكل مما يلى)** كل أحد من الطعام لحديث عمر بن أبى سلمة ربيب رسول الله ﷺ أنه قال: «كنت غلامًا فى حجر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن أمه أم سلمة، رضى الله تعالى عنها، زوجته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكانت يدى تطيش فى الصحفة، فقال لى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك»(٣)، أى لا من الوسط، ولا مما يلى غيرك، فهذا أمر منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بذلك، وورد مثله فى أحاديث أخر، وقال أيضًا: تنزل البركة فى وسط الطعام، فكلوا من حافته أو من حاشيته، وهذا أمر ندب وذهب بعض الشافعية: إلى أنه للوجوب.

وقال الشيخ تاج الدين السبكى: من الفوائد الفقهية فى هذه المسألة التى لا تكاد تعرف؛ لأن الشافعى، رضى الله تعالى عنه، نص فى الأم فى الجزء السادس عشر فى

(١) أخرجه أحمد (١/٢٨٤)، والترمذى (١/٢٨٤)، والبيهقى (٧/٢٨٤).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/١١٨).

(٣) أخرجه البخارى (٧/٨٨)، ومسلم فى الأشربة برقم (١٠٧)، وأحمد (٤/٢٦، ٢٧)، والدارمى (٢/٩٤)، وابن ماجه (٣٢٢٧، ٣٢٦٥)، والطبرانى (٩/١٣).

باب صفة النهى على أن أكل الإنسان مما يليه واجب، ولو لم يفعله أثم إن كان عالمًا بالنهى، انتهى.

ولعله إذا علم عدم رضاء صاحبه وجليسه بذلك، قيل: وهذا إذا لم يكن الأكل من ذلك بقصد التبرك بمس يده، وعليه حمل ما فى حديث الدباء أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، جعل يتتبعها، وهو أيضًا فى غير الفاكهة؛ فإن له الأكل والأخذ منها من أى جانب، قال بعض المدققين: وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠]، وفيه لطف خفى.

(والأمر بالسواك) أمر ندب، وشذ بعض الشافعية فأوجبه للصلاة، والسواك اسم للعود الذى يستاك به، وللفعل وهو الاستياك، والمراد الثانى، أو الأول بتقدير مضاف أى استعمال السواك، وعده من المروءة لما فيه من النظافة وطيب رائحة الفم.

(وإنقاء) بكسر الهمزة وسكون النون وقاف بعدها مدة من أنقاه إذا نظفه كنقاه، **(البراجم)** بباء موحده وراء مهملة وألف وجيم وميم جمع: برجم أو برجمة، بضم الباء والجيم، وهى مفاصل الأصابع التى بينها، والسلاميات من ظهر الكف التى ترتفع إذا قبض الإنسان كفه، فهى المفاصل الظاهرة، والبراجم الباطنة، وقيل: هى مفاصل الكف كلها، والأشاجع: جمع أشجع، وهى أصول الأصابع المتصلة بالكف، **(والرواجب)** براء مهملة وواو وألف وجيم وباء موحدة: جمع راجبة على القياس، وقيل: جمع رجبة، بضم فسكون على خلافه، وهى المفاصل التى تلى الأنامل وقيل: هى مفاصل أصول الأصابع، وقيل: قصب الأصابع، وقيل: السلاميات، وقيل: ما بين البراجم والسلاميات، وقيل: ظهور السلاميات، وقيل: مفاصل الأصابع، وواحد السلاميات سلامى بضم السين وفتح الميم المقصورة، وتفصيله فى كتاب خلق الإنسان، وجزم البرهان الحلبى بأن البراجم العقد المتشنجة فى ظهور الأصابع، وهى مفاصلها.

ونقل عن أبى عبيد: أن البراجم والرواجب جميعًا مفاصل الأصابع كلها، وهى اللائق بكلام المصنف، فينزل عليه لا على ما فى الصحاح من أن البراجم مفاصل الأصابع التى بين الأشاجع، والرواجب وهى رءوس السلاميات من ظهر الكف إذا قبض القابض كفه نشرت وارتفعت، والراجبة فى الأصابع واحدة الرواجب، وهى المفاصل التى تلى الأنامل، ثم البراجم، ثم الأشاجع التى تلى الكف، انتهى؛ لئلا تكون الفاصل التى تكون الكف خارجة إذ هى على مافيه غيرهما، وعند أبى عبيد داخلة فيهما مع أن الظاهر أنها تنقى كما تنقى التى بين الأنامل والتى بينهما كما قيل.

(واستعمال خصال الفطرة) الخمس فيما رواه الشيخان: «الختان، والاستحداد، أى حلق العانة بالحديد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط».

وزاد مسلم، رحمه الله تعالى: «المضمضة، وإعفاء اللحية، والاستنجاء»، وأبو داود: «الانتضاح»، وزاد غيره عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: «فرق الرأس» كما تقدم تفصيله المغنى عن إعادته.

والفطرة بكسر الفاء معناها: الخلقة، كما قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، والمراد: السنة التى أمر بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، كما مر.

* * *

(فصل وأما زهده ﷺ فى الدنيا)

الزهد معناه: ترك الدنيا ولذتها رغبة فيما عند الله، وهو ثلاثة أقسام ترك الحرام وهو زهد العوام، وترك فضول الحلال وهو زهد الخواص، وترك كل ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين، وأما من لم يرض وصف أولياء الله به فضلاً عن أنبيائه، عليهم الصلاة والسلام؛ لأن الدنيا لا تساوى عند المتخلقين بأخلاق الله جناح بعوضة، وما ينال أعظم ملوكها بعض منها، بل أقل قليل من باقيها، فعنده معنى الزهد ترك ما يرغب نفسه فيه، فمن لا رغبة له فى شىء منها لا يسمى زاهدًا، وغيره يعرفه بترك الدنيا مطلقًا أو بترك ما من شأنه أن يرغب فيه، وإلى هذا أشار الغزالى فى الإحياء، فمن وصفه بأعلى طبقات الزهد نظر إلى الأول، وجنح إلى أنه من مقامات الكاملين، فله منه الحظ الأوفر، ومن نفاه عنه ولا يرضى وصفه به نظر إلى الثانى.

وأما طلبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، للدنيا الضرورية فى المعاش، فليس لرغبته فيها بل لدفع ضعف بدنه المانع عن أداء حق العبودية، فلا ينافى فى الزهد أيضًا، وإليه يشير صاحب البردة بقوله:

وأكدت زهده فيها ضرورته   أن الضرورة لا تعدو على العصم

ومن شرط الزهد أيضًا القدرة، وقال ابن المبارك لما قيل له: يا زاهد: الزاهد عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها.

(فائدة) قال أبو يزيد البسطامى، قدس سره، بفتح الباء: قد مر علينا شاب من بلخ حاجًا فقال لى: ما علامة الزهد عندكم؟ فقلت له: إذا فقدنا صبرنا، وإذا وجدنا شكرنا، فقال: هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ، قلت: فما الزهد عندكم؟ قال: إذا فقدنا

شكرنا وإذا وجدنا آثرنا.

(فقد تقدم من الأخبار) التى فى صفاته فى أول الباب **(فى أثناء)** أى فى خلاله وما بينه جمع ثنا مقصور كما قاله ابن هشام اللخمى فى شرح المقصورة، ومعناه ما أثنى ودخل بعضه فى بعض **(هذه السيرة)**، أى هذا الكتاب المتضمن لسيرته وطريقته ﷺ أو المراد سيرة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ما يكفى)** طالب سيرته، ويغنى عن إعادته هنا، **(وحسبك من تقلله)** أى يكفيك فى معرفة تقلله، أى قنعه بالقليل **(منها)** أى من الدنيا لزهده، صلى الله تعالى عليه وسلم فيها، واكتفائه فى ضرورياته بالأمر الزهيد القليل، وهذا لا ينافى زهده، **(وإعراضه عن زهرتها)** أصل معنى الزهرة النضارة والزينة مستعار من الزهر بفتحتين، وهو نور النبات، ويسكن الثانى أى تركه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما يرغب فيه الناس من زخرف الحياة الدنيا، ومما قلته فى الرباعيات:

من حرصك بالغناء كم تشتغل والعمر مضى فما يفيد الأمل
ما زهرة هذه الحياة الدنيا للفرك بأنمل المنا تحتمل

(وقد سيقت إليه)، أى ساق الله تعالى إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الدنيا مستعار من سوق البهيمة للتسخير والتمكن منها **(بحذافيرها)**، أى بجملتها وكليتها من جميع نواحيها، يقال: ملك كذا بحذافيره، أى جميعه بحيث لم يبق منه شىء جمع حذفور أو حذفار، وهو الناحية، وفى النهاية الحذافير الجوانب، وقيل: الأعالى فكنى به عما ذكر، وهو إشارة لما تقدم من أن زهده، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيها ليس لعجزه كما تقدم.

(وترادفت عليه فتوحها) أى تتابعت وتوالت، فأتته الدنيا راغمة بما يسر الله له من الغنائم والأموال والأرزاق الواسعة الطيبة، بحيث لو أراد توسع فيها وأنفق واقتطف زهرتها، فلم يرضها واكتفى بأقل قليل منها، والجملتان حاليتان أو معترضتان بين المبتدأ وخبره أفادتا كمال زهده، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن من كان هذا حاله وزهده، فزهده أبلغ زهد وأتم عفاف، أى كافيك مما ذكر حال حصول ما ذكر **(إلى أن توفى)** بالبناء للمجهول، أى حضرت وفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ودرعه مرهونة عند يهودى)**، أى والحال هذه، والدرع معروفة تذكر وتؤنث، والأكثر تأنيثها، واليهودى كان يسمى أبا الشحم من ظفر من موالى الأنصار، وهذا الحديث صحيح رواه الشيخان عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، وإنما عامله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يطلب من الصحابة، رضى الله تعالى عنهم؛ لأنه لم يحضره إذ ذاك منهم من يقترض منه؛ ولأنه لو طلب، صلى الله تعالى عليه وسلم، منهم وأعلمهم بضرورته وهبوه ذلك، ولم يرضوا

باقتراضه منهم، فأخفى حاله مع ما فيه من بيان جواز معاملة الكفرة وأهل الذمة **(فى نفقة عياله)** فى للتعليل كقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن امرأة دخلت النار فى هرة عذبتها»(١)، والعيال أهل البيت ومن تلزمه نفقته، والذى اقترضه ﷺ ثلاثون صاعًا، وروى عشرون صاعًا من الشعير.

(و) كان فى حال اقتراضه **(هو يدعو، ويقول)** كما رواه الشيخان: **(اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا)** القوت كل ما يتقوت به الإنسان من الطعام، أى اجعله بمقدار ما يسد الرمق من غير زيادة.

وقد استشكل هذا بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مات، وله حصون وأراضى، وعنده مما أفاء الله عليه أرض خيبر وفدك وغيرهما، فكيف مع ذلك يكون به، صلى الله تعالى عليه وسلم، فاقة تحوجه إلى رهن درعه على أصوع شعير؟.

وأجاب عنه ابن الصلاح فى فتاواه بأنها كانت معدة لنوائبه موقوفة، ولذا لم تورث عنه، وقال: «إنا لا نورث ما تركناه صدقة»(٢)، فلا يقدح فيه ما كان فى ملكه، وقد أعده لمصالح المسلمين وإخراجه ما يحصل منها فى ذلك، والفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، فاختار، صلى الله تعالى عليه وسلم، الفقر، ولم يتصرف فيما عنده لنفسه وعياله، ولذا لا يجوز أن يقال فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه فقير كما مر.

وأقول: هنا دقيقة وهى أن رياضة النفس بالجوع تصفى الذهن، وتقوى الروح، وتجعل النفس قدسية ملكية، وقد كان أهل المال يتعبدون بذلك، ولما لم تكن فى الدين المحمدى لما فيها من الحرج فعل ذلك، صلى الله تعالى عليه وسلم، واختاره لنفسه خاصة، وأبرزه بصورة الفقر؛ لئلا تقتدى به أمته فيه، ولمحبته لذلك طلبه من الله تعالى له ولأهله، فافهمه فإنه دقيق جدًا.

(حدثنا سفيان بن العاصى) هذا الحديث رواه مسلم، والبخارى، وسفيان هذا هو ابن سكرة؛ لأن المصنف سمع منه صحيح مسلم، وليس هو الغسانى؛ لأنه لم يسمع منه، وإنما روى عنه بالإجازة، **(والحسين بن محمد الحافظ)** بن عيسى قاضى سبتة شيخ المصنف أحد الأعلام، وقد أكثر المصنف، رحمه الله تعالى، الرواية عنه، توفى فى جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة، **(والقاضى أبو عبد الله التميمى قالوا: حدثنا أحمد بن عمر)** قد تقدمت ترجمتها.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (١/٢٥، ٤٨، ١٦٢)، وابن سعد (٢/٢/٨٥)، والترمذى فى الشمائل (٢١٤).

(قال: حدثنا أبو العباس الرازى قال: حدثنا أبو أحمد الجلودى) بفتح الجيم نسبة لقرية بأفريقية، وقيل: بالشام، وقيل: إنه بضم الجيم وقد تقدم قال: **(حدثنا ابن سفيان، حدثنا أبو الحسين بن الحجاج)** مسلم صاحب الصحيح، وقد تقدم هو ومن قبله قال: **(حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة)** تقدم ترجمته قال: **(حدثنا أبو معاوية)** محمد بن خازم بمعجمتين الضرير الحافظ أحد الأئمة الأعلام إلا أنه كان مرجئيًا، روى له الستة، وتوفى سنة خمس أو أربع وتسعين ومائة، وترجمته مفصلة فى الميزان.

(عن الأعمش) أبو محمد سليمان بن مهران الكاهلى أحد الأعلام، روى عن أنس وابن أبى أوفى وغيرهما، وروى عنه شعبة ووكيع وكثيرون نحو ألف وثلاثمائة حديث، وعاش ثمانيا وثمانين سنة، ومات فى ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائة، وأخرج له الستة وترجمته فى الميزان.

(عن إبراهيم) بن يزيد بن قيس بن الأسود بن عمرو بن ربيعة النخعى الكوفى الفقيه الزاهد رأس عصره، رأى عائشة، رضى الله عنها، وأخرج له الستة، وتوفى سنة ست وتسعين.

(عن الأسود) بن يزيد النخعى العابد حج ثمانين مرة وصام حتى اخضر جلده، وكان يختم القرآن فى كل ليلتين، وتوفى سنة أربع أو خمس وسبعين، وهو ثقة أخرج له الستة.

(عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: ما شبع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثلاثة أيام تباعا) أى متتابعة متوالية **(من خبز)** برًا كان أو شعيرًا، وفى نسخة من خبز بر **(حتى مضى لسبيله)** أى حتى توفى؛ لأن الموت طريق يسلكه كل أحد، وأول منزل منه القبر.

(وفى رواية أخرى) رواها البخارى **(من خبز شعير يومين متواليين، ولو شاء)** الدنيا وترفهها ونعيمها **(لأعطاه الله، عز وجل، مالا يخطر ببال)** البال القلب والعقل والفكر، وخطر يخطر بضم الطاء وكسرها خطورًا إذا ذكر وتصور أى يعطيه منها كل أمر نفيس لم يتصوره أحد من الناس، لجلالته وعظمته وكونه لم يعهد مثله حتى يعرف، **(وفى رواية أخرى)** رواها مسلم **(ما ترك)** أى ما خلف تركة **(رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، دينارًا ولا شاة ولا بعيرًا)**، وفى رواية: «ولا شيئًا»، ولذا قال عبد الله ابن أبى أوفى: ما أوصى رسول الله ﷺ عند موته؛ لأنه لا مال عنده يوصى به، وإنما أوصى بكتاب الله.

وادعاء الشيعة أنه أوصى، وأن عليًا، كرم الله وجهه، وصى لا أصل له، ولم يثبت.

(وفى رواية) فى الصحيحين **(ما شبع آل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من خبز بر حتى لقى الله عز وجل)**، وفى البخارى: «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث ليال حتى قبض»(١)، وهو المراد بلقاء الله، وفيه روايات كثيرة متقاربة المعنى، وأنه ما جمع بين غداء وعشاء، وفى رواية من خبز وزيت، وفى رواية ما أكل أكلتين فى يوم.

قيل: وهذا مشكل بما ثبت أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يدخر لأهله قوت سنة، وأنه ساق مائة بدنة، ووهب قطيعًا من غنم وألف بعير ونحوه كما مر، وأن أصحابه كأبى بكر وعثمان وطلحة كان لهم أموال كثيرة، رضى الله عنهم، وهم يبذلون له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أموالهم وأنفسهم.

وأجيب: بأن ذلك كان فى حالة دون حالة، وأن ذلك للإرشاد وكراهة الشبع، لا لضيق اليد.

وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها: من حدثكم أنا كنا نشبع من التمر، فقد كذبكم، فلما فتحت قريظة أصبنا شيئًا من التمر والودك.

وروى: «لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر»، والحق أن كثيرًا منهم كانوا فى ضيق قبل الهجرة وبعدها، وآساهم الأنصار بالمنائح، فلما فتحت بنو النضير وما بعدها ردوا ذلك عليهم.

أقول: هذا ينافيه ما مر من أنه ﷺ مات ودرعه مرهونة، فكيف تكون العسرة زالت بعد الهجرة، فالحق الأحق بالاتباع ما قاله ابن الصلاح، رحمه الله تعالى، كما مر قريبًا، وما قاله هذا الشارح لا يسمن ولا يغنى من جوع.

(وفى حديث عمرو بن الحارث) الذى رواه البخارى: **(ما ترك)** أى ما خلف، ﷺ، تركة لأهله **(إلا سلاحه وبغلته وأرضا جعلها صدقة)** هذا بعض حديث أوله: ما ترك رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عند موته دينارًا ولا درهمًا، ولا عبدًا ولا أمة، ولا شيئًا إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضا جعلها صدقة، وتفصيله فى السير، فإنهم قالوا: كان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، تسعة أسياف لكل منها اسم، ودروعه سبع، وقسيه ست، وثلاثة أتراس، وخمسة رماح، وقال مغلطاى: أربعة، ومغفران، وراية سوداء يقال لها: العقاب مربعة، وراية بيضاء أو صفراء، وكان مكتوبًا على راياته، صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٣٤٤).

وفى الميزان أنها لم تكن إلا بيضاء، ولم يبين ما وجد منها عند موته، وأما بغلته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فهى الدلدل التى أهداها له المقوقس، وعاشت بعده، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى ذهبت أسنانها، فكان يحش لها الشعير، ثم ماتت بالينبع، وقيل: إنها بقيت لخلافة معاوية، رضى الله تعالى عنه، وأن عليا، كرم الله وجهه، قاتل عليها.

وأما بغلته فضة فوهبها لأبى بكر الصديق، رضى الله تعالى عنه، والأرض المذكورة فدك والنضير، وأرض مخيريق، وهى مفصلة، ومعنى كونها صدقة أنه وقفها لمصالح المسلمين، والوقف يسمى صدقة، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يأخذ منها نفقته ونفقة عياله بقدر الحاجة، ويتصدق بباقيها، فكل ما عنده، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان مرصدًا لا ملكًا، فلذا لم يورث عنه كسائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وأما قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦]، فالمراد منه أنه يرث علمه وحكمته وشرفه كما صرحوا به، وضمير جعلها للأرض والجملة صفه أو مستأنفة استئنافًا بيانيا، أو الضمير للمذكورة.

(قالت عائشة، رضى الله تعالى عنها)، فى حديث رواه الشيخان، **(ولقد مات رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وما فى بيتى شىء يأكله ذو كبد)**، هو كناية عن كل حيوان إنسانًا أو غيره، والكبد معروف وهو أحد الأعضاء الرئيسية، وخصه لأن منه يصل الغذاء إلى الجسد كله، وهذا مناف لقولها: «ما ترك درهمًا ولا دينارًا ولا شيئًا»(١)، ووفق بينهما بأن المنفى هنا ما كان مختصًا بها من بقية نفقتها، أو المراد بالشىء وإن كان عامًا ما كان من جنس المال والمتاع، أو هو لعدم الاعتداد بما ذكر لقلته، **(إلا شطر شعير)** الشطر النصف كالشطير، أو البعض مطلقًا، وفى النهاية أراد به نصف مكوك، أو نصف وسق، والمكوك المد، وقيل: الصاع.

(فى رف لى) بفتح الراء المهملة وتشديد الفاء شبه الطاق فى الحائط، ويطلق على خشبة عريضة ترفع عن الأرض تعد لوضع ما يراد حفظه، وهو الرفع أيضًا، والأول أقرب لأن الخشبة لا تحتمل وضع هذا المقدار عليها، وتتمة الحديث: «فأكلت منه طويلاً ثم كلته ففنى»، وفيه إشارة إلى أن الكيل كالعد يذهب البركة، وقد وردت، وله نظائر كما فى مسلم، عن جابر، رضى الله تعالى عنه، أن رجلاً أتى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يستطعمه، فأطعمه شطر وسق شعير، فما زال هو وامرأته ووصيفه يأكل منه

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٦٣)، والنسائى (٦/٢٢٩)، وابن ماجه (٢٦٩٥)، وابن أبى شيبة (١١/٢٠٧)، والدارقطنى (٤/١٨٥).

حتى كاله، فأتى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأخبره، فقال: لو لم تكله لم ينفد. قيل: لما فيه من الحرص وعدم التوكل والتمسك بالأسباب المعتادة.

وأما ما ورد فى حديث المقدام: «كيلوا طعامكم يبارك لكم فيه»(١)، فأجيب عنه بأنه عند التبايع لحق المشترى فتأمل.

(وقال) أى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(لى)** أى لعائشة، وفى شرح ابن أقبرس: وقال إلىَّ بدل اللام أى ادن واقربى إلىَّ، صلى الله تعالى عليه وسلم، دنوها منه ليسارها، وقال حكاية لحال ماضية: **(إنى عرض علىَّ)** بالبناء للمجهول، وفى رواية عرض علىَّ ربى، يقال: عرض له وعليه إذا أظهره له وأراه إياه، والمراد أعلمه بالوحى **(أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا)** البطحاء واد تجرى فيه السيول، أو بطن واد فيه رمل وحصى، أو مكان لا ينبت؛ لأنه مسيل وهو ما غلب عليه الإسمية، والمراد بجعله ذهبا أن يملأه به أو أن يقلب حصاه ورماله ذهبًا، وقلب الأعيان كإنشائها من العدم غير مستحيل لوقوعه، والله قادر على كل شىء.

(فقلت: لا يا رب) أى لا أريد جعل البطحاء ذهبا **(أجوع يومًا، وأشبع يومًا)** استئناف كأنه قيل له: فما تريد؟ قال: أريد الفاقة وأن أكون تارة جائعًا وتارة شبعان؛ لزومًا لمقام العبودية والافتقار إلى الله، ثم بين ما يكون عليه فقال: **(فأما اليوم الذى أجوع فيه فأتضرع إليك)** فيه، والتضرع الدعاء بتذلل وانكسار من الضراعة، وهى الذلة والالتجاء، **(وأدعوك)** أى أطلب منك وفى الدعاء مناجاة والتجاء ومعاملة مع الله، وإن كان عالمًا بذلك.

(وأما اليوم الذى أشبع فيه، فأحمدك وأثنى عليك) لما أنعمت به علىَّ، ولا وجه لما قيل هنا من أنه تعليم لفقراء أمته، وإلا فلو جعلت له الدنيا ذهبًا لم يشغله ذلك عن الله طرفة عين إلى غير ذلك مما أطال فيه بغير طائل على عادته، وهذا الحديث رواه الترمذى، عن أبى أمامة، رضى الله تعالى عنه، بلفظ: فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، فإذا شبعت شكرتك وحمدتك.

(وفى حديث آخر) قال السيوطى: لم أجده هكذا، ولكن البيهقى، رحمه الله تعالى، أخرجه فى الزهد من طريق عطاء عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، أن النبى صلى

---

(١) أخرجه البخارى (٣/٨٨)، وأحمد (٤/١٣١، ٥/٤١٤)، وابن ماجه (٢٢٣١)، والطبرانى (٤/١٢٣)، وأبو نعيم فى الحلية (٥/٢١٧).

الله تعالى عليه وسلم، قال يومًا: «ما أمسى لآل محمد كف سويق ولا سفة دقيق»[1]، فأتاه إسرافيل، عليه الصلاة والسلام، فقال: إن الله سمع ما ذكرت، فبعثنى إليك بمفاتيح الأرض وأمرنى أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردًا وياقوتًا وذهبًا وفضة، فقلت . . . إلى آخره.

وأخرج ابن سعد، وابن عساكر فى تاريخه من حديث عائشة، رضى الله تعالى عنها، أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «لو شئت لسارت معى جبال الذهب»[2].

ولأحمد فى الزهد عنها: «والله لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة»[3].

وللطبرانى نحو منه من حديث أم سليم، رضى الله عنها، عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه قال: «لو سألت الله أن يجعل تهامة كلها ذهبًا لفعل».

وأخرج أحمد حديث: («**الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، قد يجمعها من لا عقل له**») مختصرًا عن عائشة، رضى الله تعالى عنها.

قلت: فما ذكره المصنف، رحمه الله، رواية بالمعنى من عدة أحاديث (**أن جبريل نزل عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال له: إن ربك يقرئك السلام**) أى يسلم عليك ويحييك تحية إكرام، قال فى الإكمال: أقرأته السلام، وهو يقرئك السلام بضم الياء من المزيد، فإذا قيل: يقرأ عليك السلام بعلى، فيفتح الياء لا غير، وقيل: هما لغتان، وهو مهموز لا معتل، ويجوز إبدال همزته واوًا وياء، ومعنى أقرأه حمله على أن يقرأ عليه سلامه، أى يبلغه إياه، فهو مجاز مرسل لمطلق التبليغ مأخوذ من القراءة، ومعنى قرأه عليه ذكره له.

(**ويقول لك: أتحب أن أجعل لك هذه الجبال ذهبًا، وتكون معك حيث ما كنت**)، أى تسير معك وتتوجه أنى توجهت، (**فأطرق ساعة**) أى طأطأ رأسه يفكر فيما يجيبه به، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**ثم قال: يا جبريل إن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له**) الدنيا تقابل الآخرة؛ لأنها فعلى من الدنو وهو القرب، وتطلق على هذا العالم المشاهد، وكل ما فيه من المال وغيره، وعلى الأرض التى هى مقر العالمين، وبهذا الاعتبار تسمى دارًا، وقوله: دار من لا دار له، أى لأنها فانية لا يقيم فيها أحد، ولذا شبهت بالخان الذى ينزله المسافرون، وبالقنطرة بل بالسفينة كما قال:

---

(١) أخرجه الشجرى فى أماليه (٢/١٧٠).

(٢) أخرجه الخطيب فى تاريخه (١١/١٠٢)، وابن سعد فى الطبقات (١/٢/١٥٧).

(٣) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٦/٣٢٨).

وإنا لفى الدنيا كركب سفينة نظن وقوفًا والزمان بنا يسرى

وقوله: مال إلى آخره، أى إنما يملكه المرء فيها سيسلب منه، فهو عارية أو وديعة، فصاحبه لا ملك له حقيقة فكل غنى فيها فقير، وليس هذا من قبيل فرط من لا فرط له، وذخر من لا ذخر له.

(قد يجمعها من لا عقل له) قد للتحقيق؛ لأن من جمع الدنيا كثيرًا، وهى لتقليل جمعه وحيازته لها فإنه يجمعها بعد بلوغه ورشده لموته، ثم يفقدها إلى ما لا نهاية له، أو لمتعلق الفعل، فإن متاع الدنيا بالنسبة لغيره قليل، وعلى هذا حمل قوله: **(قد يعلم ما أنتم عليه)**، وإنما هم عليه بالنسبة لبقية معلوماته أقل قليل، أو هى مستعارة تهكما للتكثير كقوله:

اترك القرن مصفرًا أنامله

وإن كان فى البيت نزاع ليس هذا محله، وجعله لا عقل له؛ لتنزيل وجود عقله منزلة العدم؛ إذ لم يصرفه فيما يتعلق بالآخرة ويهديه إلى الاكتفاء من الدنيا بزاد المسافر الذى يبلغه منزله، فإن العاقل من كان كذلك، ولذا قال الفقهاء: لو أوصى لأعقل الناس صرف للزهاد، وقال الشاعر:

إن لله عبادًا فطنًا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحى وطنا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

(فقال له جبريل عليه والصلاة والسلام: ثبتك الله يا محمد بالقول الثابت) المراد بالقول الثابت الحق؛ لأنه دائم لا يزول، أو المراد به حق مخصوص بمقالته، وهو إما دعاء له أو إخبار بأن الله امتن عليه، فإنه بمحض فضل الله ولطفه، فإنه الذى ثبته على هذا.

(وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها) فى حديث صحيح رواه الشيخان أنها **(قالت: إن كنا آل محمد)** المراد بآله أهل بيته، عليه الصلاة والسلام، وله معان أخر مشهورة، وإن مخففة من الثقيلة **(لنمكث شهرًا ما نستوقد نارًا)**، أى ما نوقد نارًا، فالسين للتأكيد، أو المراد ما نطلب من أحد نارًا نوقدها، وهذا كناية عن أنه ليس لهم ما يطبخ **(إن هو إلا التمر والماء)**، وإن نافية، وهو ضمير الطعام، والمأكول أى ما عندنا ما يؤكل ويتغذى به إلا التمر والماء، وروى: وإنما هو الأسودان التمر والماء. قيل: هذا كان فى بعض الأحوال.

(وعن عبدالرحمن بن عوف) الصحابى المشهور، رضى الله تعالى عنه، وهذا الحديث رواه عنه الترمذى، والبزار وغيرهما بسند جيد: **(هلك رسول الله، صلى الله تعالى عليه**

وسلم)، أى توفى، والهلاك بمعنى الموت مطلقًا مستعمل فى حق النبى ﷺ، وغيره، قال الله تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾ [القصص: ٨٨]، وأما اختصاصه بميتة السوء كالقتل فعرف طار، ولذا كثر استعماله فى الأعداء، فيقال: هلك عدو الله، وقد ورد فى الحديث، والإهانة إنما تفهم من ذكر العدو ونحوه.

قلت: فلا يجوز لنا الآن إطلاقه على من كرمه الله والصحابة، ونقتصر فيه على ما ورد منه من غير نكير، كما ورد فى حق يوسف، عليه الصلاة والسلام، ﴿**حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ**﴾ [غافر: ٣٤] إلخ، وكذا ورد فى حق غيره من الأنبياء، عليه الصلاة والسلام، فلا يختص بمن استحق العذاب إلا بقرينة.

(ولم يشبع هو ولا أهل بيته من خبز الشعير)، وأول الحديث عن نوفل بن إياس الهذلى قال: كان عبد الرحمن بن عوف، رضى الله تعالى عنه، جليسًا لى، وكان نعم الجليس، وإنه انقلب بنا ذات يوم حتى إذا دخلنا بيته دخل فاغتسل، ثم خرج وأتانا بصحفة فيها خبز ولحم، فلما وضعت يدى بكى عبد الرحمن بن عوف، فقلت: يا أبا محمد ما يبكيك؟ قال: هلك رسول الله ﷺ، ولم يشبع هو ولا أهل بيته من خبز الشعير، فلا أرانا أخرنا لما هو خير لنا، وقد تقدم أنه ورد فى معناه أحاديث كثيرة متقاربة المعنى، وتقدم ما فيه من الإشكال وجوابه، وإلى تقوية هذا أشار بقوله: **(وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها، وأبى أمامة وابن عباس، رضى الله تعالى عنهم، نحوه)** أما حديث عائشة، رضى الله تعالى عنها، فما فى الصحيحين عنها أنها قالت: «ما شبع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من خبز شعير يومين حتى قبض»(١).

وحديث أبى أمامة، رضى الله تعالى عنه، فى الترمذى بهذا اللفظ أيضًا.

وحديث ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، عنه هو المذكور عقب هذا بقوله: كان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى آخره كما قاله السيوطى، رحمه الله تعالى، وسياق كلامه يأباه، ولو كان مراده هذا اكتفى بذكره والأحسن أنه ما فى الصحيحين أيضًا، عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، أن عمر، رضى الله تعالى عنه، حدثه أنه دخل عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد اعتزل نساءه، فإذا هو مضطجع على حصير قد أثر بجنبه، فقلبت عينى فى خزانته، فإذا هى ليس فيها شىء غير قبضتين من شعير، وقبضة من تمر، فابتدرت عيناى، فقال: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ فقال: مالى لا أبكى وأنت صفوة الله من خلقه، وهذه الأعاجم فى النمارق والأنهار وأنت هكذا؟ قال: يا

---

(١) أخرجه الترمذى (٢٣٥٧).

ابن الخطاب أما ترضى أن تكون لنا الآخرة، ولهم الدنيا؟ فقلت: بلى، يا رسول الله، قال: فاحمد الله عز وجل.

(قال ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: كان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يبيت هو وأهله الليالى المتتابعة طاويا) حال من ضميره، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يقل: طاوين لأن المقصود حاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وحال أهله يعلم من حاله لأنهم يتبعونه فى كل حال، وطاويا بمعنى جائعًا؛ لأن الطوى الجوع كما ذكره الجوهرى، والليالى منصوب على الظرفية، وقوله: **(لا يجدون عشاء)** بفتح العين والمد الطعام الذى يقابل الغداء، وخصه لقوله يبيت، والمراد به مطلق الطعام، وهذا الحديث أخرجه الترمذى، وابن ماجه.

(وعن أنس، رضى الله تعالى عنه)، فى حديث رواه البخارى **(قال: ما أكل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، على خوان)** بكسر الخاء المعجمة وضمها فارسى معرب، ويقال: إخوان بزنة إكرام أيضًا، وهو والمائدة والميدة بمعنى، وإن فرق بينهما فى الأصل بأن الخوان ما يوضع عليه قبل وضعه، وبعده يسمى مائدة، والأكل عليه عادة المتكبرين حتى لا يحتاجوا للانحناء إذا أكلوا، وقيل: إنه عربى من التخون وهو النقص، ويجمع على أخونة وخون، وأما السفرة بالضم فالطعام المعد للسفر، وتكون بمعنى ما يوضع عليه الطعام من الأديم أيضًا.

(ولا فى سُكُرَّجة) قال الجواليقى: هى بضم السين المهملة وضم الكاف وفتح الراء المهملة المشددة وجيم وهاء وهى أعجمية معربة، وقيل: الصواب أسكرجة بهمزة مضمومة، وقد جاء فى الحديث الصحيح بدون همزة، ومعناه مقرب الخل، ولذا قيل معناها: قصعة صغيرة يوضع فيها الكوامخ والجوارشات فى جوانب المائدة، فيها ما يعين على الهضم، وقيل: قصعة مدهونة، وقيل: إنها مائدة صغيرة، وعلى كل فهى مما يصنعه العجم والمقلدون لهم من المتكبرين، والجيم والهاء علامة التصغير عندهم، وقيل فيها أيضًا: سكبرجة.

(ولا خبز له مرقق) بالبناء للمجهول، ومرقق بوزن معظم رقيق الخبز كالرقاق، وقيل: هو المنبسط الرقيق، وقيل: هو الحوارى والسميد بدال مهملة، وفى رواية مرققًا بالنصب تمييز أو مفعول ثان لخبز؛ لتضمنه معنى الجعل، والمراد أن خبزه ﷺ لم يجعل من بياض الدقيق؛ لأنهم لم يكن لهم مناخل.

(ولا رأى شاة سميطًا قط) سميط فعيل، بمعنى المفعول، أى لم يطبخ له، صلى الله تعالى

عليه وسلم، شاة بتمامها بعد سمطها، أى غليها فى الماء الحار حتى يذهب شعرها، ثم تشوى، وظاهر كلامهم أنها لم تسلخ، وأن ما ذكر فى الحملان الصغيرة.

(وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها)، فى حديث رواه الشيخان: **(إنما كان فراشه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الذى ينام عليه أدما)** بفتح الهمزة والدال المهملة والميم اسم جمع لأديم، وهو الجلد المدبوغ اللين، وقيل: إنه مخصوص بالأسود **(حشوه ليف)**، والليف ما يكون من النخل وهو معروف.

(وعن حفصة، رضى الله تعالى عنها)، بنت عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، أم المؤمنين، وحديث حفصة رواه الترمذى فى الشمائل منقطعًا، وحديثها لا ينافى حديث عائشة المتقدم؛ لجواز كون أن كلا منهما ذكرت فراشه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الذى كان عندها.

(قالت: كان فراش رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى بيته مِسْحا) بكسر الميم وسكون السين المهملة وبعدها حاء مهملة، وهو ثوب مستعد للفراش شبه الكساء، ويقال له: حنبل، وقيل: هو ثوب أسود من شعر يلبسه الزهاد، وقيل: هو ثوب من الشعر والوبر والصوف يلبس ويجلس عليه، وجمعه مسوح وعلى كل حال فهو شىء غليظ يتنزه عن مثله أصحاب الترفه.

(نثنيه ثنيتين فينام عليه) الثنى بكسر فسكون، والمثنى ما ثنى بعضه على بعض، وعطف أى يجمع بعضه على بعض مرتين حتى يكون أثخن وأوطأ للنوم عليه، وتثنيته ثنتان، وجمعه أثناء، وروى ثنتين بمثناة فوقية مكان الياء المثناة التحتية، والمعنى واحد، والنسخة الأولى أصح وأشهر.

(فثنيناه له ليلة بأربع) طاقات ليكون ألين مهادًا من الثنيتين، **(فلما أصبح، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: ما فرشتم لى الليلة، فذكرنا ذلك له)**، وهو أنهم جعلوا فراشه أربع طاقات، **(فقال: ردوه بحاله)** الأولى وهو الثنيتان، **(فإن وطاءته)** بفتح الواو والطاء المهملة والمدة وتاء تأنيث مضاف لضمير الفراش، فوزنه فعالة، أو فعلة بفتح فسكون وهمزة غير ممدودة على وزن فعلة، أى لينه تحت جنبى لكثرة طاقاته وتضعيفها **(منعتنى الليلة صلاتى)** أى أن لينه لذ له، عليه السلام، النوم، فنام أكثر من معتاده؛ لأن فراشه ممهد لم يؤذه حتى ينبهه، فانقطع عن بعض القيام لتهجده ليلا لزيادة نومه.

(وكان ﷺ ينام أحيانًا على سرير مرمول)، ونومه الأول على فراش على الأرض، ومرمول براء مهعلة وميمين بمعنى منسوج.

(بشريط) أو غيره، والشريط بشين معجمة وراء وطاء مهملتين بينهما ياء مثناة تحتية حبل مفتول من خوص النخل، أو سعفه مع حبال، وواحده شريطة **(حتى يؤثر)** حبال شريطه، **(فى جنبه)**؛ لكونه بغير فراش يحول بينه وبينه.

وهذا من حديث طويل رواه الشيخان والترمذى، وفيه: وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وفى معناه أحاديث آخر.

(وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها، قالت: لم يمتلئ جوف النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، شبعًا قط).

قال التلمسانى: فيه أربع لغات فتح الشين المعجمة وكسرها مع سكون الموحدة وفتحها.

وقال البرهان: هو بفتح الموحدة نقيض الجوع، وبسكونها ما يشبع، والظاهر هو الأول، وقيل عليه: إن كان ظهوره بحسب الرواية، فمسلم، وأما بحسب الدراية فالظاهر الثانى؛ لأنه اسم عين، وعلى الأول اسم معنى، والامتلاء منه مجازى كامتلأ غضبًا، وقيل عليه: إن المجاز أبلغ من الحقيقة فهو أولى رواية ودراية، فالبرهان مع البرهان، وفيه نظر، وهذا يقتضى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يشبع، ولكنه لا يمتلئ جوفه بتمامه منه، فإن المطلوب تقليل الطعام والاقتصار على ما يقوم به الأود، ثم ملأ ثلث بطنه فإن ثلثا للزاد، وثلثا للماء، وثلثا للنفس، فإن زاد فنصفها، وما زاد على ذلك حرص وبطنة غير ممدوحة، وقد يحرم إن وصله للضرر والتخمة قصدًا كما أن أول مراتبه واجب.

(ولم يبث شكوى إلى أحد) بفتح الياء التحتية وضم الباء الموحدة وتشديد المثلثة بمعنى يذكر ويظهر، ويقال: بث الخير وأبثه إذا نشره، ويقال أيضًا: نثه بالنون وبهما روى قول قيس(١):

إذا جاوز الاثنين سر فإنه ... بنث وتكثير الحديث قمين

والشكوى مذمومة، فالذى يليق بمقام العارفين الصبر، وكتم ما بهم لا سيما والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يسر بكل ما يأتيه من الله ولا يعده مؤلمًا، بل يتلذذ به، فكيف يتصور شكواه؟ وإلى هذا أشار بقوله: **(وكانت الفاقة)** وهى الحاجة والفقر **(أحب إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الغناء)** قيل: هذا يقتضى أن الفقر أفضل من الغناء، وقد اختلف فيه على قولين، ولكل منهما أدلة كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾

(١) البيت من الطويل، وهو لقيس بن الخطيم فى ديوانه (ص١٦٢)، وحماسة البحترى (ص١٤٧)، الدرر (٦/٣١٢)، سمط اللآلى (ص٧٩٦)، لسان العرب (٢/١٩٤).

[الضحى:٨]، حيث امتن عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالغنى، ولا دليل فيه لأنه امتن عليه بقضاء حاجته، والمفضول قد يكون فى المقام له منة تزيد على الفاضل، ولا فى قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: ٦]، فإنه لم يذم الغناء، بل ما قد يترتب عليه، وكذا كون حساب الفقير أخف، والمختلف فيه هل الغنى الشاكر خير أم الفقير الصابر؟، فذهب إلى كل منهما قوم من العلماء؛ لحديث ذهب أهل الدثور بالأجور، وحديث: «إن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم من أيام القيامة»(١)، وهو خمسمائة عام إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة فى الجانبين، وقال الغزالى، رحمه الله تعالى: قد انكشف أن الفقر هو الأفضل لكافة الخلق إلا فى موضعين غنى يستوى فيه الوجود والعدم، ويستفاد به دعاء المساكين، وقضاء حوائجهم كغنى بعض الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، وفقر يكون من الضرورة حتى يكاد يكون كفرًا، فالأول خير محض، وهذا لا خير فيه بوجه من الوجوه، والممدوح غنى النفس لا غنى المال من حيث هو، والفضل كله فى الكفاف والاقتصار على مقدار الحاجة، ولذا طلبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، له ولآله.

(وإن كان ليظل جائعًا) إن مخففة من إن المكسورة الهمزة المثقلة النون، والجملة حالية، ويظل بفتح المثناة التحتية والظاء المشالة من أخوات كان، وأصل معنى ظل فعله نهارًا؛ لأنه زمان يبدو فيه الظل، ثم استعمل لدوام الفعل ليلاً ونهارًا، وهو المراد.

(يلتوى طول ليلته من الجوع) بتقديم اللام على التاء الفوقية وواو مخففة مكسورة، وفى نسخة يَتَلَّوى بياء مثناة مفتوحة وفوقية مفتوحة ولام كذلك وواو مشددة مفتوحة يليها ألف، ومعناه ينقلب على فراشه من ألم الجوع من لواه ليا إذا صرفه عن جانب لآخر قال تعالى: ﴿لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾ [المنافقون: ٥]، وهذا لزهده، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الدنيا وصبره على مشاقها؛ ليقمع شهوته ونفسه ويقهرها ويرشد أمته لذلك كما بينه بعد، وقوله: **(فلا يمنعه)** ذلك أو جوعه **(صيام يومه)** بالنصب بيمنع، أو بنزع الخافض، أى عن صيام يومه، يقال: منعت الرجل عن الشىء فامتنع.

وقوله: **(ولو شاء)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، الغنى أو الشبع، وشاء كثيرًا ما يحذف مفعولها بعد لو؛ لدلالة جوابها عليه **(سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها)** ما بعد الكنوز يجوز جره عطفًا عليه، ونصبه عطفًا عن جميع، والكنوز جمع كنز وهو معروف، والثمار جمع ثمرة، وهى ما يحصل من الأشجار ونحوها، وقد يراد بكل ما يستفاد من غيره كما يقال: ثمرة العلم العمل، ويجوز إرادة هذا هنا، ورغد بفتحتين وقد

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٢٣، ٤١٢٤)، وأبو نعيم فى الحلية (٧/٩٩).

يسكن ثانيه يقال فيه: رغيد وأرغد، والعيش بمعنى المعيشة، والمراد ما يتعيش بـه، وأصـل معنى الرغد الواسع، يقال: أرغد فلان إذا أصاب رغدًا، أى سعة وخصبًا وغيره.

(لقد كنت أبكى له رحمة مما أرى به)، وفى نسخة: «لما أرى به»، أى مما أشـاهده بـه، أو مما أعلمه به، **(وأمسح بيدى على بطنه)** كأنه بمسحه تستريح بذلـك كمـا كـان يضع الحجر عليه؛ ليبرده ويشد صلبه وهذا للشفقة **(مما به من الجوع)**، أى من ألمه، ثم تبين أن ذلك شفقة بقولها: **(وأقول: نفسى لك الفداء)** تقدم أن الفداء بالكسر والفتح والقصر والمد، وهو ما يفدى به الأسير ونحوه، فيجعل عوضًا عنه، ويقال: أفديـه بنفسـى وبـأمى وبأبى ومالى، وقد يقال: بنفسى من غير ذكر للفداء، وتسـمى البـاء بـاء التفديـة، وهـذا جائز بل مستحب؛ لصدوره منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيقال لمن شرف كالحكـام والعلماء والصلحاء وأعزة الإخوان: قصدًا لتوقيره واستعطافه، ولو كان محظورًا كما قيل ما قاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ونهى عنه من قاله له، وقد قال أبو بكـر، رضـى الله تعالى عنه: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، وقال، صلى الله تعالى عليه وسـلم، لسعد: ارم فـداك أبى وأمى، ومنعه قوم لحديث مالك بن فضالـة أن الزبـير، رضـى الله تعـالى عنـه، دخـل عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو شـاك، فقـال: كيـف تجـدك؟ جعلنـى الله فـداك، فقال له، صلى الله تعالى عليه وسلم: ما زلت على أعرابيتك بعد.

قيل: ولا حجة فيه لما ادعـوه؛ لأن الحديـث الواحـد لا يقـاوم الأحـاديث الصحيحـة الكثيرة الواردة بخلافه، ولاحتمال أنه إنما نهاه عنه لوروده فى غير محله؛ لأنه لا ينبغـى أن يقال ذلك للمريض، بل يتوجع له ويقـال: لا بـأس عليـك وعافـاك الله وشـفاك ونحـوه، ولكل مقام مقال لا لأن القائل له كان أبواه مشـركين، ولا لأنـه مـن خصوصياتـه؛ لأن من قائليه من ليس كذلك، والأصل عدم الخصوصية.

(لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك) التبلغ مفعل من البلاغ، وهـو مقـدار الكفايـة يقـال: تزود من دنياك بالبلاغ مأخوذ من الزاد الذى يبلغ به المسافر منزلـه، وضمنـه هنـا معنـى اكتفيت أى لو اكتفيت منها بالكفاف من القوت من غير ضرورة ومخمصة، ولو للتمنى.

(فيقول)، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعائشة، رضى الله تعالى عنـها: **(مـالى وللدنيـا)** قيل: ما نافية أى ليس لى ألفة ومحبة مع الدنيا حتى أرغب فيها، أو استفهامية أى أىّ ألفة ومحبة ورغبة لى فى الدنيا.

وهذا من إيثاره، صلى الله تعالى عليه وسلم، الزهد، وإظهاره لغنى القلب ومحبة تركه لها، ثم بين أنـه مقـام عظيـم سبقه بـه الرسـل، عليـهم الصـلاة والسـلام، فجـرى علـى

طريقتهم، فقال: **(إخوانى من أولى العزم من الرسل)** تقدم أنـهم نـوح وإبراهيـم وموسـى وعيسى، عليهم الصلاة والسلام، على خلاف فيهم، وفى وجه تسميتهم بذلك.

(صبروا على ما هو أشد من هذا) كالحبس والعرض على القتل، أو غير ذلك مما علم من التفاسير، **(فمضوا على حالهم)** أى استمروا عليه راضين بقضاء الله لهم إلى أن ماتوا.

(فقدموا على ربهم)، أى لاقـوه وشـهدوا مـا انكشـف لهـم مـن أحـوال الآخـرة فـى البرزخ، **(فأكرم مآبهم)** أى أكرمهم الله فى مرجعهم إليه يقال: آب يؤب إذا رجع، فهو اسم مكان أو مصدر ميمى، **(وأجزل ثوابهم)** أى كثر لهم العطاء والجزاء فى دار المقام.

(فـأجدنى أسـتحيى) مـن الله عنـد لقائـه **(إن ترفـهت فـى معيشـتى)** أى إن تنعمـت وتوسعت فى العيش، والترفه تفعل من الرفاهة والرفاهية، وهى كالرغد السعة، وقد كان الله خيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، قبيل موته بين الخلد فى الدنيا ولقائه، فاختار لقـاءه كما قاله ابن العربى، وإن شرطية، ويجـوز فتحـها علـى المصدريـة بتقديـر لام قبلـها أى لترفهى، ووقع فى نسخة فى معيشتهم أى فى جنس معيشتهم، والأصح الأولى.

(أن يقصر بى غدًا) يقصر مبنى للمجهول مع التشديد، أى أن يقع التقصير، أو القصر بالكسـر حالـه وعملـه **(دونـهم)**، أى فيكـون مقـامى دون مقامـهم لتـنزل مرتبتـى عــن مرتبتهم، والمعيشة مفعلة وجمعه معايش بلا همزة، وقد تهمز قليلاً كما بينه النحاة، وهى ما يتعيش به، وغدا بالمعجمة اليوم الذى بعد يومك، والمراد به الآخرة جعل الدنيـا بمنزلـة اليوم الحاضر، والآخرة بكونها بعدها بمنزلة غدا استعارة.

(وما من شىء هو أحب إلى من اللحوق بإخوانى وأخلائى) بالمد مضـاف ليـاء المتكلـم جمع خليل، وهو قياس فى المضاعف، والمراد بالإخوان والأخلاء الأنبياء، عليـهم الصـلاة والسلام، السابق ذكرهم، **(والرفيق الأعلى)**.

وعن عائشة، رضى الله عنها، عنه صلى الله تعالى عليه وسلم، أنـه قـال: « لم يقبـض نبى حتى يرى مقعده من الجنة ويخير بذلك»، فلما حضرته، صلى الله تعالى عليه وسـلم، الوفاة شخص بصره، وهو يقول: «اللهم اغفر لى وارحمنى وألحقنى بالرفيق الأعلـى»(١)، كما فى البخارى، وفى النهاية: الرفيق الأعلى جماعة النبيين الذى يسكنون أعلى عليـين، والمراد به الله عز وجل، والرفيق بمعنى الرءوف، وهو من أسماء الله كـالأعلى، واللحـوق بهم بمعنى كونهم معهم.

(قالت) عائشة، رضى الله تعالى عنها: **(فمـا أقـام بعـد)** بالبنـاء علـى الضـم، أى بعـد

(١) أخرجه البخارى (٩٤/٨).

مقالته هذه (**إلا شهرًا حتى توفى، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، أى انتقل للآخرة واستوفى أيام عمره.

* * *

(فصل وأما خوفه ربه)

عز وجل، ولما كان الزهد ترك الدنيا باختياره وحبسه نفسه عن الشهوات، وذلك إنما يكون بعد تحقيق الخوف والرجاء عقب الزهد بالخوف من الله، وربه منصوب مفعول المصدر، واعلم أنهم اختلفوا فى خوف النبى، صلى الله تعالى عنه وسلم، من عقاب الله، فقال الإمام أبو الحسن الأشعرى فى كتاب الإيجاز: كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يخاف الله بلا خلاف، إلا أن خوفه كان لماذا؟ فقال أهل الحق: كان خوفه قبل أن آمنه الله من عقابه، وبعده كان من عتابه ولومه فى الدنيا كما قيل له، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما أعرض عن ابن أم مكتوم: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس:١]، الآية، فأما بعد أن آمنه الله تعالى من عقابه، فلا يجوز أن يخاف عقابه مع علمه بأنه آمنه منه، فأخبره بأنه لا يخاف عقابه خلافًا للرافضة والقدرية، حيث زعموا أنه هو وسائر المكلفين ما داموا المكلفين فى الدنيا لابد أن يخافوا عقابه سواء آمنهم أم لا.

دليلنا: أن الخوف من شيء لا يجوز إلا مع تجويز نزوله به، وأما مع القطع بأنه لا يحصل أبدًا فمحال حصول الخوف منه عند عاقل، فلو قلنا: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يخاف عقاب الله مع تأمين الله له من ذلك لأدى إلى كونه شاكًا فى غيره، وأنه صدق أو كذب فى أخباره بأنه لا يتعلق به عقاب، ولما بطل هذا بالاتفاق علم أن الخوف لا يصح مع القطع بأنه لا يعاقب أصلاً، انتهى.

وسئل شيخ مشايخنا ابن حجر الهيتمى عن الأنبياء، والملائكة، عليهم الصلاة والسلام، والعشرة المبشرة بالجنة، هل كانوا يخافون عقاب الله تعالى بعد إخبار الله لهم بأنهم لا يعذبون؟ فأجاب بأن نفى الخوف وإثبات الأمن لمن ذكر مطلقًا باطل، بل مصادم للنصوص من وجوه:

أحدها: أن حقيقة الخوف كما فى الإحياء ألم القلب لتوقع مكروه فى المستقبل، وهو أقسام منها خوف ضعف القوة عن الوفاء بحقوق الله على ما ينبغى، والخوف بهذا المعنى محقق فى جميع الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ويلزمه عدم الأمن من مكر الله، ولا يأمنه أحد إلا إن كان المأمون منه الانسلاخ عن النبوة، والملكية، والإيمان فى العشرة على أنه قيل بوقوعه لبعضهم.

والرجاء والخوف متلازمان، واشتراط الرجاء والخوف بما هو مشكوك فيه لا تأييد فيه؛ لأنهم لا يخافون لأنهم على بينة ويقين من ربهم كما قيل، بل هو حجة عليه لما مر من معنى الخوف، فالكل على يقين من أصل الكمال، وقد تعتريهم استشعار قدرة الله واستغنائه عن خلقه، وأنه لا يسئل عما يفعل، ولا يجب عليه شىء وقد يشترط ما أخبرهم به بما انطوى عن علمهم، فيوجب الخوف حتى من سلب أصل الكمال.

الثانى: أن الشافعى، رضى الله تعالى عنه، صرح بأن الملائكة داخلون فى قوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، لما أخرج ابن أبى حاتم من أن الله تعالى قال لهم: ما هذا الخوف الذى بلغ منكم وقد أنزلتكم منزلة لم ينزلها غيركم؟، فقالوا ربنا لا يأمن مكرك إلا القوم الخاسرون.

الثالث: ما فى الإحياء أن الأنبياء عليهم، الصلاة والسلام، يخافون المكر؛ لما روى أن النبى وجبريل، عليهما الصلاة والسلام، بكيا خوفا من أن يكون تأمينهم امتحانا ومكرا، وهذا هو الذى قطع قلوب العارفين، فلا شبهة فى ذلك، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩].

فإن قلت: يرده ما روى عن الحسن أنه لما نزلت هذه الآية خاف، صلى الله تعالى عليه وسلم، زمانا، فلما نزل ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفتح: ١]، إلخ جد، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى العبادة، وقال: «أفلا أكون عبدا شكورا»[١]، وروى أنه قال فى الآية: إن ذلك فى الدنيا أما فى الآخرة فمعاذ الله، لأنه أخبر بأنه فى الجنة، فالمعنى: ما أدرى ما يفعل بى فى الدنيا، فأخبره بنصره وإظهار دينه.

قلت: المراد خوفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من أمور الدنيا واستئصال أمته، فآمنه الله منه، وأما الخوف من الله فلا يأمنه أحد.

الرابع: أنه ورد فى أدعيته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كثيرًا ما يدل عليه نحو: «اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»[٢]، وقوله: «اللهم إنى أعوذ من عذاب النار، وفتنة المحيا والممات»[٣]، وليس هذا تشريعًا

(١) أخرجه البخارى (٢/٦٣، ٦/١٦٩، ٨/١٢٤)، ومسلم فى صفات المنافقين برقم (٧٩، ٨٠، ٨١)، والترمذى (٤١٢)، والنسائى (٣/٢١٩)، وابن ماجه (١٤١٩، ١٤٢٠)، وأحمد (٤/٢٥١، ٢٥٥، ٦/١١٥).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٣٣)، والترمذى (٣٥٦٦)، والنسائى (٣/٢٤٩)، وابن ماجه (١١٧٩، ٣٨٤١)، وأحمد (١/٩٦، ٦/٢٠١)، وابن حبان (٥٤١)، وابن خزيمة (٦٥٥).

(٣) أخرجه البخارى (٨/١٠٠)، وأبو داود (١٥٤٨)، والترمذى (٣٤٩٥)، والنسائى (٨/٢٦٢)، وابن ماجه (٣٨٣٨)، وأحمد (٦/٥٧)، وعبد الرزاق (١٩٦٣١)، والحاكم (١/٥٤١).

لأمته أن يقولوه؛ لأنه لم يقل: قولوا، ولا قرينة على تقديره، انتهى.

وقد اختلف الفقهاء فى الأمن من مكر الله، واليأس من رحمته، فقالت الشافعية: إنهما من الكبائر، وقالت الحنفية: إنهما كفر لقوله تعالى: ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وتمسك الشافعية لعدهما من الكبائر بما ورد فى حديث ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، وقال ابن أبى شريف: إن أريد باليأس إنكار سعة الرحمة الذنوب، وبالأمن أنه لا مكر، فهو كفر وفاقًا؛ لأنه رد للقرآن، وإن أريد استعظام الذنوب واستبعاد العفو استبعادًا يدخل فى حد اليأس، وغلبة الرجاء المدخل له فى حد الأمن، فهو كبيرة لا كفر، فإن ورد إطلاقه عليه فللتغليظ، أو إرادة كفران النعمة، انتهى.

وبهذا وفق بينهما ابن نجيم فى رسائله، وعلى ما مر عن الأشعرى يخص الأمن بغير من مر، وعلى غيره هو باق على عمومه.

هذا جملة ما قاله الفقهاء والأصوليون فى هذه المسألة، وهاهنا بحث فيما قالوه، وهو أن الأشعرى إمام أهل السنة، وقد جزم بأنهم عمومًا ذهبوا إلى أمنهم من العقاب كان دون العتاب، وقوله: أفلا أكون عبدًا شكورًا يؤيده، وما ذكر من الخوف والأدعية، فالظاهر الذى يقتضيه النظر الدقيق أن مكر الله ليس بمعنى عقابه، بل بمعنى يقدر عليهم أمرًا يقتضيه إذا صدر منهم؛ لأنه تعالى وإن كان له أن يعذب كل أحد، لكن عدله وحكمته يقتضى أن لا يقع ذلك منه، بل يجوز جوازًا عقليًا، ومن علم هذا، ونظر لعظمته واستغنائه عن جميع مخلوقاته خاف منه وخشى منه، وهذا مقام الكاملين، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وهذا الخوف لابد منه لكل أحد، وأما خوفه العقاب بدون هذا ما دام على حال العصمة والتقوى، فلا يجوز عليهم، فإنه يلزمه عدم الوثوق بخبره تعالى، وعلى هذا يحمل كلام الأشعرى، وهو مناف لما قاله ابن حجر، رحمه الله تعالى.

إذا عرفت هذا فقوله فى شرح جمع الجوامع: الأمن من مكر الله تعالى معناه الاسترسال فى المعاصى اتكالاً على العفو ليس بسديد، وليس محلاً للخلاف.

ثم أقول: الحق ما قاله الأشعرى، والذى ندين الله به أنا نعتقد أن العقاب لا يقع، وأن الأنبياء خصوصًا نبينا، عليهم الصلاة والسلام، بعد عصمته ومغفرة ما تقدم وما تأخر له لا يخشى أحد عليه العقاب، ولا يجوز تجويزه عليه، أما هو فلعظمة الله ومهابته

عنده، وعلمه بأنه غنى عن خلقه له أن يفعل بهم ما أراد، فيخافه خوفًا شديدًا، ويستعيذ من عقابه، وإن لم نجوزه نحن.

وفى قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢]، إيماء لذلك دقيق، وما قاله ابن حجر لا دليل له فيه، وكلام الغزالى لا حجة له فيه، والآية التى ذكرها مخصوصة بالدنيا، أو منسوخة كما فى الكشاف.

ولك أن تقول: إنه لشدة خوفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الله قد يذهل عن تأمين الله له لا سيما مع ما مر، ونظيره ما قاله السيوطى، رحمه الله تعالى، فى أجوبة الأسئلة التكرورية فى قول يوسف، عليه الصلاة والسلام: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١]، وهو يعلم أن كل نبى لا يموت إلا مسلمًا: إنه دعى بذلك فى حال غلبة الخوف عليه حتى أذهلته عن علمه ساعة الدعاء، أو ذلك إظهارًا للعبودية والافتقار وشده الرغبة فى طلب سعادة الخاتمة، وتعليمها للأمة، انتهى، ثم رأيت ما قلناه صرح به ابن عربى فى سراج المريدين، فالحمد لله على الوفاق، وإنما أطلنا الكلام فى هذا المقام؛ لأنه من مزال الأقدام، فعليك بإعادة النظر.

فإن مورده لم يصف من الكدر، ولنا عودة إلى الكلام فيه آخر الكتاب، إن شاء الله تعالى.

(وطاعته له وشدة عبادته) قرنهما مع الخوف لتلازمهما معه، **(فعلى قدر علمه بربه)** قال القشيرى، رحمه الله تعالى: العلم والمعرفه عند العلماء بمعنى، وعند القوم معرفة الحق بأسمائه وصفاته، ومن عرفه صدق فى معاملاته، وتنقى من ردى أخلاقه وآفاته، ومن أمارات المعرفة حصول الهيبة وهى الخوف مع الإجلال، وإلى ذلك أشار المصنف، فإن من قدر الله حق قدره اشتد خوفه منه، وأطاعه وعبده على قدر طاقته، وإنما يعصى الله من جهل ربه ونفسه، فإن الإيمان محبة الله، ومن أحبه أطاعه، وتحت الرغوة اللبن الصريح.

(ولذلك قال فيما حدثناه)، وفى نسخة حدثنى **(أبو محمد بن عتاب قراءة منى عليه)** تقدم ترجمته قال: **(حدثنا أبو القاسم الطرابلسى)** حاتم بن محمد بن عبد الرحمن التميمى المعروف بابن الطرابلسى كما تقدم عن البرهان، فالنسبة إليه طرابلسى وأطرابلسى بزيادة همزة فى أوله، وهى مدينة بالشام وبالمغرب، والمشهور فيها ترابلس بالتاء الفوقية، وهو صحيح أيضًا؛ لأنه أعجمى عرب بإبدال التاء طاء، فلك حكاية أصله والنطق بمعربه قال: **(حدثنا أبو الحسن القابسى)** على بن محمد بن خالد المغافرى الإمام الفقيه الحافظ،

وقد تقدم قال: (**حدثنا أبو زيد المروزى**) تقدم أيضًا قال: (**حدثنا أبو عبد الله الفربرى**) تقدم ضبطه وترجمته قال: (**حدثنا محمد بن إسماعيل**) الإمام البخارى صاحب الصحيح، وقد تقدم قال: (**حدثنا يحيى بن بكير**) المخزومى الحافظ أبو زكريا المصرى، روى عنه البخارى وغيره، وهو ثقة وإن ضعفه بعضهم، توفى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة.

(**عن الليث**) بن سعد بن عبد الرحمن بن حمزة عالم مصر وأصله من أصفهان، وكان نظيرًا للإمام مالك، وكان أسخى الناس فقيل: إنه كان دخله فى كل يوم ألف دينار، ولم تجب عليه زكاة، توفى يوم الجمعة منتصف رمضان سنة خمس وسبعين ومائة، وقيل غير ذلك، وأدرك ناسًا من التابعين.

(**عن عقيل**) مصغر وهو عقيل بن خالد الحافظ، أخرج له الأئمة الستة وله ترجمة فى الميزان، توفى سنة إحدى وأربعين ومائة.

(**عن ابن شهاب**) تقدم أبو بكر بن محمد الإمام المشهور بالزهرى (**عن سعيد بن المسيب**) تقدم ضبطه والكلام عليه (**أن أبا هريرة، رضى الله تعالى عنه**)، تقدم أيضًا (**كان يقول: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: لو تعلمون ما أعلم**) من عظمة الله وجلاله وكبريائه هذا هو المناسب للترجمة أو ما أعلم من أحوال الآخرة وأهوالها وما سيلقاه الإنسان، (**لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا**) يأتى بيانه، وفى الحديث طباقان أو ثلاثة بين قليل والبكاء والعلم، وبين الكثرة والضحك وعدم العلم، فتدبر.

وهذا الحديث رواه المصنف، رحمه الله، عن صحيح البخارى، وله فيه رواية أخرى عن الترمذى أشار إليها بقوله: (**زاد فى روايتنا عن أبى عيسى الترمذى رفعه**) بصيغة الماضى، أى زاد هذا الكلام، أو مصدر فهو مفعول زاد (**إلى أبى ذر، رضى الله تعالى عنه**)، يعنى أن رواية البخارى السابقة رواية أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، وهذه رواية أبى ذر، رضى الله عنه، عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد خالف المصنف فى عبارته ما اصطلح عليه المحدثون، فإن المرفوع عندهم ما اتصل بالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأن يذكر صحابى قال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كذا، فيقال: رفعه إلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا إلى الصحابى، وقيل: الجار والمجرور متعلق بحال مقدرة تقديره عازيا إلى أبى ذر، فلا مخالفة فيه لاصطلاحهم، وسيأتى تتمته.

(**إنى أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون**) المراد بما الموصولة فيهما مغيبات، وأمور فى الملأ الأعلى أطلعه الله عليها، وغيره لا يراها كرؤية الملائكة والجنة والنار وعذاب القبر، والاطلاع على الموتى وأحوال البرزخ، وسماعه لأصوات المعذبين فى القبور،

ولأطيط السماء المشار إليه بقوله: **(أطت السماء)** أصل معنى الأطيط صوت الإبل إذا حنت، والقتب إذا ضغطه ثقل ما عليه، ونحو ذلك أى أن السماء لكثرة ما عليها من الملائكة إذا تحركوا يسمع لها صوت سمعه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وحق لها)** بالبناء للمجهول، أو هو مصدر مرفوع خبر مقدم لقوله: **(أن تئط)**، أى تصوت يسمع لها صرير لثقل ما عليها، وعلى الأول هو نائب الفاعل، وقد قيل: إن صريرها يسمع منه ألحان متناسبة مطربة منها أخذ ألحان الموسيقى، ولذا تطرب الأرواح لسماعه لتذكرها معاهد حماها، وقيل: إنه أنين من خشية الله، وقال التلمسانى: هذا إيذان بكثرة ما فى السماء من الملائكة وإن لم يكن ثمة أطيط، والمراد تقرير عظمة الله، ثم استأنف، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما يبين سبب أطيطها، فقال: **(ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله)**، أى ليس فيها مكان خال منهم، ومن هنا علم أن الملائكة أكثر المخلوقات.

(والله لو تعلمون ما أعلم) من أحوال الدنيا والآخرة الدال على عظمة الله تعالى وقدرته، **(لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا)**، أى لضحكتم ضحكًا قليلاً إذا سررتم برجاء عفو الله، ونظرتم ما أنعم الله به عليكم، وبكيتم للخوف منه حتى يشغلكم ذلك عن التنعم والتفكه بلذائذ الدنيا.

(وما تلذذتم بالنساء على الفرش) بضمتين جمع فراش، وكنى بذلك عن مضاجعة النساء ومجامعتهن، **(ولخرجتم إلى الصعدات)** بضم الصاد والعين وفتح الدال المهملات جمع مؤنث سالم لصعد بضمتين جمع صعيد كطريق وطرق لفظًا ومعنى، أى لخرجتم من دوركم للطريق وممر الناس، وقيل: جمع صعدة كظلمة وهى فناء الدار **(تجأرون إلى الله)** أى تضجون وتصيحون من الجؤار بضم الجيم وفتح الهمزة وألف وراء مهملة، وهو الصياح ورفع الصوت أى تستغيثون الله وتتركون أهلكم ومساكنكم.

(لوددت أنى شجرة تعضد) أى تقطع من أصلها يقال: عضدت الخشب والنبات إذا قطعته، واللام فى جواب قسم مقدر، وودت بزنة علمت بمعنى تمنيت، والعرب تقول: وددت وبودى إذا تمنيت، قال البحترى:

وبودى لو استطعت لحقت   بصبر عن سيدى حين ملا

وهو مستعار من المودة المعروفة، قال الراغب: الود محبة الشيء وتمنى كونه موجودًا، ويستعمل فى كل واحد من المعنيين على أن التمنى يتضمن معنى الود؛ لأن التمنى يشتهى حصول ما يوده، انتهى، والمراد تمنيه أن يكون غير ذى روح، فلا يبعث

ولايسأل، وعضد الشجر موته وآخر العهد به.

(**روى هذا الكلام**) يعنى قوله: (**وددت أنى شجرة تعضد**)، فهو بدل من الكلام مبين له (**من قول أبى ذر نفسه**) لا من الحديث، وكلام النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (وهو) أى كونه منه قول أبى ذر (**أصح**)، وفى نسخة واضح بالضاد المعجمة، والصحيح أصح أى من كونه من الحديث مرفوعًا له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو أليق بحاله وأنسب بكلامه بخلاف ما قبله، فإنه من الحديث بلا خلاف، وإلى هذا أشار المصنف، رحمه الله تعالى، بقوله سابقًا: زاد فى روايتنا عن أبى عيسى الترمذى رفعه إلى أبى ذر، وإذا كان من كلام أبى ذر، فهو مدرج فى الحديث إذ لم يميز لفظه، فاعتراض البرهان الحلبى عليه بأنه كان ينبغى له أن يقول: إنه مدرج لا وجه له، نعم فى عبارته السابقة كدر لا يخفى.

قيل: وكونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، تمنى ما ذكر مشكل؛ لأنه مقطوع له بالزلفى آمن من كل سوء موقن بالدرجات العلى، وخوفه إنما هو خوف إجلال وهيبة كخوفنا من غضب الله وسوء الخاتمة، وقول بعض الصحابة المبشرين بالجنة: ليتنى طائر، وليتنى لم أخلق بشرًا، أو ليتنى كبشًا يذبح ويؤكل لحمه، ليس لعدم الوثوق بالوعد، بل لم يكن إلا خوفًا من مخالفة أمره، فإنهم يجلونه ويخافون من مخالفته، وإن لم يعاقبهم، وهذا كلام من لم يحقق المقام، وقد تقدم فى أول الفصل ما فيه كفاية.

(**وفى حديث المغيرة، رضى الله عنه**)، المتفق عليه فى رواية الشيخين، والمغيرة بضم أوله ويكسر إتباعًا أى ابن شعبة من الصحابة، وهو أحد دهاة العرب: (**صلى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، أى صلاة التطوع والتهجد؛ لأن الزيادة المذكورة فى بعض الروايات إنما تأتى فيها (**حتى انتفخت قدماه**) أى ورمت من طول القيام.

(**وفى رواية أنه كان يصلى حتى ترم**) بفتح المثناة الفوقية وكسر الراء المخففة المهملة وميم مخففة مضارع ورم إذا انتفخ؛ لانصباب المادة لقدميه من طول وقوفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ووقع فى بعض النسخ ترم بتشديد الميم، أى تصير رميمًا، وهى غير صحيحة رواية ودراية (**قدماه**) وفى رواية ساقاه، وروى تورمت وتزلعت بزاى معجمة وعين مهملة أى تشققت.

(**فقيل له: أتكلف هذا؟**) بهمزة استفهام وفتح التاء الفوقية، وأصله أتتكلف فحذفت إحدى التائين تخفيفًا أى تتحمل مشقته وكلفته، (**وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر**) جملة حالية معترضة بين الاستفهام وجوابه، وسيأتى ما فى إضافة الذنب له، صلى

الله تعالى عليه وسلم، مع أنه معصوم عن الصغائر والكبائر على الأصح بأن المراد لو صدر منك، أو ما يعد من الذنوب بالنسبة لغيرك لتنزهك وعلو مقامك، وستسمع تفصيله في محله.

(قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا) لما أنعم الله على من جلائل النعم التي لا تحصى، ومن أجلها عصمته لى ومغفرته لذنبي قبل وقوعه، والاستفهام إنكارى والفاء سببية، أى أترك الصلاة لمغفرته، وهى سبب موجب للعبادة لا لتركها، وقوله: شكورًا؛ لأنها نعم جليلة تستوجب مزيد شكره، وقوله: عبدًا تلويح لغاية إكرامه له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بتقريبه ونسبته لسيده، وكله يقتضى أجل الشكر وهو العبادة.

(ونحوه عن أبى سلمة)، رحمه الله تعالى، واسمه عبد الله أو إسماعيل، أو اسمه كنيته ابن عبد الرحمن بن عوف الزهرى التابعى، أحد الفقهاء السبعة المشهور بروايته عن أبى هريرة وغيره، وفى الصحابة أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومى، مات فى حياة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا يعرف له إلا حديث واحد وآخران غير مشهورين ولا الرواية عنهم مشهورة.

(وأبى هريرة، رضى الله تعالى عنه)، قال البرهان: هكذا فى النسخ، قال المحشى: وأنا أخشى أن يكون هذا غلطًا، والصواب فيه أن يكون عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، فإنه وقع هكذا فى الشمائل فى باب عبادة رسول الله ﷺ بعد أن ذكر حديث المغيرة الذى ذكره المصنف هنا، فقال بعده: حدثنا الفضل بن موسى عن محمد ابن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه: كان يصلى إلخ، إلا أن يكون المصنف وقف على حديث آخر لأبى سلمة الصحابى، ولم نره.

قلت: ويحتمل أن يكون مراده عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، ولكنه عطف أحدهما على الآخر وهو بعيد أيضًا.

(وقالت عائشة، رضى الله عنها)، كما رواه الشيخان: **(كان عمل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ديمة)** بكسر الدال وسكون الياء المنقلبة عن الواو؛ لأنه من الدوام، ومعناه الدائم، وأصل معناه المطر الدائم فى سكون وهدوء، وفى الحديث: «أحب الأعمال إلى الله تعالى ما دُوم عليه، وإن قل»[1]؛ لأن ترك الشىء بعد فعله كالإعراض عنه بعد الإقبال، ولذا وقع الوعيد لمن حفظ القرآن ثم نسيه.

(وأيكم يطيق ما كان يطيق): أى أيكم يقتدر أن يعبد الله كما عبده، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما وكيفا.

---

(١) تقدم تخريجه.

(وقالت) عائشة، رضى الله تعالى عنها: **(كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم)** روى نقول بالنون والتاء الفوقية، وبرفع يقول ونصبه كما قرئ به فى قوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢١٤]، يعنى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان فى بعض الأزمنة يوالى الصوم حتى يتوهم أنه صائم الدهر، وتارة يكثر الفطر حتى يظن أنه لا يصوم نافلة، وقيل: المراد أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يصوم من أول الشهر ووسطه وآخره حتى يتوهم من صادف أيام صومه أنه دائم الصوم، ومن صادف إفطاره كذلك، وهو بعيد، وهذا لا ينافى كون عمله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ديمة؛ لأنه بالنسبة لما كان راتبًا كصوم ثلاثة أيام من كل شهر، وهذا بالنسبة لغيره، ولك أن تقول: الأول فى صلاته وقيامه، وهذا فى صيامه، ويؤيده لفظ العمل لكن يأباه قوله: **(ونحوه عن ابن عباس وأم سلمة وأنس، رضى الله عنهم)**، واسم أم سلمة هند على الصحيح، وقيل: رملة، والأحاديث التى رواها هؤلاء بمعنى ما تقدم مع اختلاف فى بعض ألفاظها، وكلها صحيحة مروية فى الصحيحين وابن حبان، وقد ذكرها بعض الشراح هنا ولكن لا حاجة بنا لإيرادها هنا كما فى الشرح الجديد.

(قالت) عائشة، رضى الله عنها: **(كنت لا تشاء أن تراه)** ﷺ **(من الليل مصليا إلا رأيته مصليا، ولا نائمًا إلا رأيته نائمًا، وقال عوف بن مالك)**: هو عبد الرحمن الأشجعى الصحابى الجليل القدر، رضى الله عنه، سكن الشام، وتوفى فى أيام عبد الملك سنة ثلاث وسبعين، وهذا الحديث رواه أبو داود، والنسائى:

(كنت مع رسول الله ﷺ ليلة، فاستاك ثم توضأ ثم قام فصلى، فقمت معه)، أى أتهجد وأقتدى به، وفيه دليل على صحة الاقتداء فى صلاة النافلة من غير نزاع، وإليه ذهب الشافعى، رحمه الله، وبعض الحنفية.

(وبدأ الصلاة)، وفى نسخة فابتدأ بالفاء، أى شرع فى الصلاة، **(فاستفتح البقرة)**، أى شرع فى قراءتها، وفيه دليل على أنه يقال: البقرة، وسورة البقرة من غير كراهة كما ورد فى أحاديث لا تحصى، وأسماء السور توقيفية على الأصح خلافًا لمن قال: إنه يكره، وإنما يقال: السورة التى يذكر فيها البقرة، والسورة التى يذكر فيها التين وهكذا؛ لما روى الطبرانى والبيهقى عن أنس مرفوعًا: «لا تقولوا سورة البقرة، ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، ولكن قولوا: السورة التى يذكر فيها البقرة»(١) وهكذا، وهو

---

(١) أخرجه العقيلى فى الضعفاء (٤١٨/٣)، وانظر: اللآلئ المصنوعة (١٢٤/١)، وتنزيه الشريعة (٢٩١/١)، والدر المنثور (١٨/١).

ضعيف، بل قال ابن الجوزى: إنه موضوع، والأحاديث المعارضة له صحيحة، فهى أرجح وعليه العمل، أو نقول: إن هذا كان فى أول الإسلام، ثم نسخ لأن المشركين كانوا يستهزءون بهم إذا قالوا: سورة العنكبوت ونحوها، فلما كفاه الله المستهزئين، وكف السيف أيديهم وألسنتهم قيل ذلك من غير حرج.

(فلا يمر)، صلى الله تعالى عليه وسلم **(بآية رحمة إلا وقف فسأل)** الله الرحمة، **(ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ)** بالله من العذاب، وهذا الحديث أخرجه أبو داود والنسائى، ويؤخذ منه أنه ينبغى لمن قرأ القرآن أن يتدبره ويتفكر فى معانيه، وأن الدعاء بما يناسبه مستحب ومستجاب، فيدعو بما يناسبه، وإذا ذكر الإيمان بالله يستحب أن يقول: آمنت بالله ونحوه، ونحو هذا ما ورد أن من قرأ سورة تبارك فبلغ: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠]، فليقل: الله رب العالمين، وإذا قرأ سورة التين، فبلغ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، وإذا قرأ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١]، وبلغ قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠]، فليقل: بلى، وإذا قرأ والمرسلات، وبلغ: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، فليقل: آمنا بالله، وإذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلى: ١]، فليقل: سبحان ربى الأعلى، وإذا قرأ سورة الرحمن، فليقل عند كل ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣]، ولا شىء من نعمك ربنا نكذب، وكل ذلك ورد فى الأحاديث الصحيحة، وهذا نظير سجود التلاوة، إلا أن من الناس من فعل أمورًا زائدة على ما ورد كالدعاء بين الجلالتين فى سورة الأنعام، وقد قال البقاعى: إنه بدعة لم يرد فى أثر ولا حديث.

(ثم ركع فمكث) بضم الكاف، وهى لغة القرآن وتفتح فى لغة عنه، ومعناه انتظر وتوقف **(بقدر قيامه يقول: سبحان الله ذى الجبروت والملكوت والعظمة)** هذه الصيغة مر أنها صيغة مبالغة كالرهبوت والرحموت والرغبوت، وهى مصادر فى الأكثر، ووردت فى الأسماء أيضًا كجالوت، الجبروت مبالغة فى الجبر وهو القهر، والملكوت الملك العظيم، وعقبها بالعظمة؛ لأنهما كالدليل عليها، ولأنها أعم، ويكون، صلى الله تعالى عليه وسلم، كرر ذلك مرارًا كثيرة حتى يكون بمقدار قيامه كما لا يخفى.

(ثم سجد فقال مثل ذلك، ثم قرأ آل عمران) أى السورة التى ذكر فيها قصة آل عمران، وقد تقدم جوازه وما فيه.

(ثم سورة سورة) أى ثم قرأ فى صلاته فى كل ركعة سورة بعد سورة، وهما منصوبان على الحالية كما قرره النحاة فى قولهم: قرأت النحو بابًا بابًا، وجعله التلمسانى منصوبًا مفعولاً لقرأ المقدرة فيه، وفيه نظر، والسورة مهموزة من السؤر وهو

بعض الماء الباقى فى الإناء وتبدل همزته واوًا لسكونها وانضمام ما قبلها، وقيل: إن واوه أصلية على أنه من السور لإحاطتها بالآيات، أو من السوار أو من التسور لرفعتها، والسورة مقدار من القرآن مشتمل على آيات أقلها ثلاثة مسماة باسم، ولا يرد عليه آية الكرسى لذكر الآية (**يفعل مثل ذلك**) المذكور من القراءة والتسبيح.

(**وعن حذيفة**) بن اليمان الصحابى المشهور، رضى الله تعالى عنه، وهذا الحديث رواه مسلم عنه (**مثله**) أى مثل الحديث السابق.

(**وقال**) حذيفة، رضى الله تعالى عنه: (**سجد نحوًا من قيامه، وجلس بين السجدتين نحوًا منه**) أصل معنى النحو القصد، ومنه علم النحو، ويقال: هذا نحو هذا أى مثله أو قريب منه.

فإن قلت: ذكر الفقهاء أن الجلوس بين السجدتين ركن قصير غير مقصود لذاته، بل للفصل بين السجدتين حتى قال بعض الشافعية: إن تطويله قصدًا مبطل للصلاة ومخل بالموالاة، وحديث حذيفة صحيح رواه مسلم كما مر وهو مناف لما ذكر.

قلت: قالوا: إنه إنما يضر إذا طول بسكون أو بذكر غير مشروع، فلو طول بغير ذلك كما فى صلاة التسبيح، فلا يضر، وقد يستحب كما ذهب إليه النووى تبعًا لإمام الحرمين استدلالاً بحديث حذيفة هذا، ولا يشترط أن يكون بمقدار أكمل التشهد.

(**وقال**) حذيفة، رضى الله تعالى عنه: (**حتى قرأ البقرة وآل عمران والنساء والمائدة**) أى قرأ فى ركعة بسورة من هذه السور.

(**وعن عائشة، رضى الله عنها**)، فى حديث صحيح أخرجه أحمد، والنسائى، عن أبى ذر، والآية التى ذكرت فى قولها: (**قام رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بآية من القرآن**)، أى رددها طول ليله ويكررها فى كل ركعة، وهى كما صرح به ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ**﴾ [المائدة: ١١٨]، الآية فى سورة المائدة، وإنما أكثر تردادها للتدبر والتفكر فيها، فإن القرآن له بطون سبعة، ففى كل قراءة يظهر له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما لم يظهر قبل، والله تعالى تجلى لخلص عباده فى كلامه، ولكن لا تبصرون كما روى عن جعفر الصادق، رضى الله تعالى عنه، ففى كل قراءة يتجلى له الله فى مرآة كلامه، ومثل هذا لا تفى به العبارة، اللهم نور مشكاة قلوبنا حتى تطبع فيها صور الحقائق.

(**وعن عبد الله بن الشخير**) بكسر الشين والخاء المعجمتين المشددتين ومثناة تحتية ساكنة وراء مهملة، وهو ابن عوف بن كعب العامرى الصحابى البصرى المخضرم الذى أدرك الجاهلية والإسلام، وروى له أصحاب الكتب الستة، وهذا الحديث رواه أبو داود،

والترمذى، والنسائى:

(**أتيت رسول ﷺ، وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل**) جوف كل شىء باطنه، والمراد به ما تحت صدره وأضلاعه، والأزيز بهمزة مفتوحة وزائين معجمتين بينهما ياء مثناة تحتية ساكنة، وهو صوت الغليان إذا اشتد وهو المشيش، والمراد أنه ﷺ، لشدة خوفه وخشيته من الله يسمع حركة قلبه إذا رق صدره، وقيل: صوت الحنين مع البكاء، والمرجل بكسر الميم وسكون الراء المهملة وفتح الجيم واللام القدر مطلقًا، وقيل: من نحاس.

(**قال ابن أبى هالة**) الصحابى المتقدم، رضى الله تعالى عنه: (**كان ﷺ متواصل الأحزان**)، أى حزينًا حزنا يتصل بعضه ببعض بحيث لا يفصل بينها فرح ومسرة، وهذا يقتضى الدوام، ولذا فسره بقوله: (**دائم الفكرة**)، أى تفكره دائمًا فى أمره وأمر أمته، ومن كان هكذا (**ليست له راحة**)؛ لاستغراق أوقاته فى الذى كلفه من أعباء الرسالة، وتبليغ الأحكام، وتدبير الحروب والوقائع، ومن نيط به أمور جميع الخلائق كيف يقضى من الهم، فإن الأمور بقدر الهمم، والظاهر أن هذا حاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا لم يكن متكلمًا مع الناس فى مصاحبته لهم، وحكمه بينهم، وملاقاة من يقدم عليه من الوفود، وعرض الناس عليه أمورهم، وفى عشرة أهله، وإنما ذلك حال سكونه وهو بين الناس وفى خلوته بنفسه ومشيه وتعبده، أما فى غير ذلك فكان طلق المحيا متبسمًا متلقيا بالبشر ودوام كل شىء بحسب زمانه.

فاقسم لكل زمان ما يليق به   فإن للزند حليا ليس للعنق

فسقط ما قيل: إنه وصف فى غير هذا الحديث بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، دائم البشر، وهذا مناقض له، وقد أورد عليه أيضًا أن الحزن فضلاً عن دوامه غير محمود، وقد نهى الله تعالى عنه فقال: ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا**﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال: ﴿**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ [التوبة: ٤٠]، وقال: ﴿**إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [المجادلة: ١٠].

واستعاذ، صلى الله تعالى عليه وسلم، منه فقال: «اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن» (١)، وتقدم الفرق بينهما بأن الهم لما يقع فى المستقبل والحزن لما مضى، وكلاهما مفتر للعزم مضعف للقلب غير معدود من مقامات العارفين؛ ولذا قال أهل

(١) أخرجه البخارى (٢٣/٤، ٩٩/٧، ٩٧/٨)، وأبو داود (١٥٤١)، والترمذى (٣٤٨٤، ٣٥٠٣)، والنسائى (٢٥٧/٨، ٢٥٨)، وأحمد (١٥٩/٣، ٢٢٠، ٢٢٦، ٢٤٠)، والحاكم (٥٣٣/١).

الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «ما يصيب المؤمن من هم ولا نصب ولا حزن إلا كفر الله به من خطاياه»، يدل على أنه مصيبة يؤجر المرء عليها، وسيأتى الكلام عليه، والحديث الذى ذكره المصنف رواه الطبرانى والقضاعى، وقال ابن القيم كما سيأتى: إنه لم يثبت، وفى سنده من لا يُعرف، ولا أعلم صحته، وفى التوراة: إذا أحب الله عبدًا جعل فى قلبه نائحة، وإذا أبغضه جعل فى قلبه مزمارًا.

فقال ابن القيم: أجمع أهل السلوك على أن الحزن ليس من مقامات السائرين إلى الله إلا أبو عثمان الخيرى، فإنه قال: الحزن فضيلة وزيادة كمال للمؤمن ما لم يكن على معصية؛ لأنه إن لم يوجب تخصيصًا أوجب تمحيصًا، فهو بلاء ومحنة كالمرض لا مقام كما قاله الجيلى، وحزنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما أودعه الله فيه من الرحمة ورقة القلب، فكان يحب هداية الأمة، فإذا رأى ما هم عليه من عنادهم وتخلفهم حزن لذلك، وخاف من أن ينسب إليه قصور فى دعوتهم، وبما قررناه ظهر أنه ليس فيما ذكر إشكال بوجه من الوجوه، ولا حاجة لتفسير دوام الفكرة بأنها فى ذات الله وصفاته حتى يرد عليه أنه منهى عنه، فيجاب بأن المنهى غير الكمل كما قيل.

(وقال، عليه الصلاة والسلام: إنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة، وروى سبعين مرة) هذا حديث صحيح، وسيأتى الكلام عليه، وقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: أستغفر الله، بمعنى أطلب منه المغفرة، أو أذكر هذا اللفظ بعينه، والسبعون عدد معلوم، وقد يراد به مجرد التكثير، وعلى هذا تكون الروايتان بمعنى، وطلب المغفرة وإن اقتضى الذنب، وهو ﷺ معصوم من الكبائر والصغائر مطلقًا على الأصح، المراد به أنه مع كماله ﷺ يشهد فى نفسه قصورًا نزل منزلة الذنب، فاستغفر له أوعد اشتغاله بما أبيح له كالأكل، واشتغاله بأمور الناس ذنبًا لعوقه عن المشهود، أو هو تشريع لأمته، أو كان استغفاره ﷺ لذنوبهم، أو أنه لم يزل مترقيا فى المقامات، فكلما ترقى لمرتبة رأى ما دونها نقصًا فاستغفر منه، وستأتى تتمته.

(وعن على، كرم الله وجهه: سألت رسول الله ﷺ عن سنته) أى طريقته التى هو عليها، وهذا الحديث ذكره فى الإحياء، وقال الحافظ العراقى: إنه لا أصل له، وقال السيوطى، رحمه الله تعالى: إنه موضوع وآثار الوضع لائحة عليه، وهو يشبه كلام الصوفية.

(فقال: المعرفة رأس مالى) رأس المال هو المال المعد للتجارة وما يكسب به هو الفائدة، والمراد بالمعرفة معرفة الله وصفاته الوقوف على غوامض الأمور مما لم يكن

يعلمه، وهى تختص بالعلم المسبوق بالعدم أو بالجزئيات، فلذا قيل: إن علم الله لايسمى معرفة، ولا يقال: الله عارف إلا أنها جاءت بمعنى العلم أيضا، والمراد هنا الأول لمقابلتها بالعلم، وهذا تشبيه بليغ كما قيل:

إذا كان رأس المال عمرك فاحترس … عليه من الإنفاق فى غير واجب

وقد تقدم.

(والعقل أصل دينى) مر أن العقل قوة غريزية فى الإنسان يستعد بها لإدراك المعلوم أى دينه وشرعه، أى ما تعبد به وتدين قبل البعثة، أو قبلها وبعدها، مبنى على ما أودعه تعالى فيه من كمال عقله الذى هداه إلى النظر فى مصنوعات الله الدالة على وحدانيته وعظمته، وأنه هو الحقيقى.

وفى الحديث أن عائشة، رضى الله تعالى عنها، قالت: يا رسول الله بم يتفاضل الناس؟ قال: بالعقل فى الدنيا والآخرة. فقالت: أليس يجزون بأعمالهم؟ فقال: يا عائشة هل يعمل إلا من له عقل؟ فبقدر عقولهم يعملون، وبقدر عملهم يجزون.

وقد اتفقوا على أن ما أعطى الناس من بدء الدنيا إلى آخرها من العقل بالنسبة لعقله، ﷺ، كنسبة ذرة من الرمل إلى رمال الدنيا كلها.

(والحب أساسى) أى محبة الله بعد معرفته؛ لأن من لم يعرف لا يحب أى أساس يبنى عليه أموره فى اتباع أوامر الله ونواهيه، كما أنه موجب لاتباع الناس لى كما قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١]، ولا يكمل إيمان أحد حتى يكون الله أحب إليه من نفسه وأهله وماله كما سيأتى بيانه، وجمع هذه الأمور فى نسق واحد؛ لأن رأس المال والأساس والأصل من واد واحد وتغاير العبارة إنما هو لتلوين الخطاب.

(والشوق مركبى) أى شوقى إلى المطالب العالية وإلى لقاء الله تعالى هو الذى حركنى حتى وصلت لمرادى كما قيل:

وقالوا إذ أتيت لهم سريعا … مجدا فى سبيلى للتلاق

ركبت على البراق؟ فقلت: كلا … ولكنى ركبت على اشتياق

والشوق أعلى من المحبة؛ لأنه ينشأ عنها، فإنه انجذاب النفس لشدة ميلها إلى لقاء من يشتاقه.

(وذكر الله أنيسى)، وفى نسخة أنسى يعنى أنه يأنس فى خلوته وجلوته بذكر الله؛ لأنه إذا أكثر من ذكره صار نصب عينه حتى كأنه معه، ومن كان الله معه آنس به

واستوحش مما عداه، ومن كان له ورد فى الصباح والمساء كان من الذاكرين الله، وانظر لقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال سحنون: حقيقة الذكر أن ينسى ما سواه، ويستغرق الأوقات فيه:

لا لأنى أنساك أكثر ذكر ك ولكن بذاك يجرى لسانى

(والثقة) بكسر المثلثة مصدر كالسعة بمعنى الوثوق بما عند الله وما يطلب منه **(كنزى)** الكنز المال المكنوز أى المدفون، وفيه بلاغة ونكتة بديعة، لأن من له مال مدفون لا يراه، ولكنه أنفع مما يراه، فكذا ما ترجوه من الله قبل حصوله أنفع من الحاصل عند الثقة كما قيل:

وإنى لأرجو الله حتى كأننى أرى بجميل الظن ما الله صانع

وعلامة الثقة بالله بذل الموجود وترك طلب المفقود.

(والحزن رفيقى) أى لا يفارقنى، وذكره مع الأنيس؛ لأن الرفيق أنيس، وهذا بمعنى ما تقدم من قوله: متواصل الأحزان وقد علمت ما فيه.

(والعلم سلاحى) أى علمى بالله وبما علمنى من لدنه وأوحاه إلىّ أدفع به من يجادلنى ويخاصمنى، وأدفع الشيطان ووسواسه كما يدفع العدو بالسلاح وآلات الحرب.

(والصبر) فى المكاره وتحمل المشاق، وعدم العجلة فى الأمور **(ردائى)** الرداء ما يكون فوق اللباس، وبه يتجمل ظاهر المرء، ولما كان الصبر فيه سكون وتجمل وعلم ووقار يشاهده الناس شبهه بالرداء؛ لتجمله به ودفعه ضرر البرد، فما قيل من أنه لو شبهه بالدرع واللحاف صح كما قيل:

تدرعت صبرى والتحفت صروفه وقلت لنفسى: الصبر أولى فاهلكى

ليس بشىء.

(والرضاء) بالقصر مصدر، وبالمد اسم كما فى الصحاح، والذى فى النسخ بالمد **(غنيمتى)** جعله غنيمة؛ لأنه يقهر به عدو نفسه اللوامة، ويأسرها، إذ الراضى بما قسم الله لا يتمنى ما لم يكن، فيحصل له غنى القلب والراحة كما قيل:

هل هى إلا مدة وتنقضى وما يغلب الأيام إلا من رضى

ولا شك أن الرضاء بما قدره الله واجب، وقوله فى الشرح الجديد: اختلف العلماء فى الرضاء هل هو واجب أو مستحب؟ فقيل هو مستحب؛ لأنه لم يرد الأمر به، وإنما ورد الثناء على المتصف به، وإلى هذا ذهب محققو العلماء مما لا ينبغى ذكره.

(والفقر فخرى)، وفىنسخة البرهان وغيره: والعجز بدل الفقر أى إظهار أنه عاجز ضعيف، وأن القدرة والقوة لله، وهو مقتضى مقام العبودية كما قال تعالى: ﴿**وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا**﴾ [النساء: ٢٨]، والعجز المذموم الذى استعاذ منه الرسول ﷺ فى قوله: «اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل» بمعنى آخر، وهوالتثاقل عن العبادة والتوانى كما قيل:

إذا ما التوانى أنكح العجز بنته فساق إليها حين أصدقها مهرا
فراشا وطاء ثم قال لها: اتكى أقصارهما لا شك أن تلد الفقرا

قال ابن تيمية: «الفقر فخرى» ليس بحديث، ومن قال: ?إنه حديث فقد كذب، وقيل: الظاهر أن المراد بالعجز بفتح فسكون هو العجز عن طلب الدنيا، والتمكن فى الثروة والشوكة، أريد به لازمه وهو الفقر، ولا وجه له، فإنه ﷺ ليس بعاجز عما ذكر، وإنما تركه وأعرض عنه باختياره كما مر، والأوجه أن المراد به ما مر كما فىحديث «لا يدخل علىَّ إلا عجزة الناس» أى ضعفاؤهم، وفى آخر «أهل الجنة كل ضعيف متضعف»(١)، وفى حديث هرقل «ضعفاء الناس أتباع الرسل»، وفى حديث الإسراء «أمتك أضعف الأمم، وهم أكثر أهل الجنة».

قيل: فقوله: الفقر فخرى قد يقال إنه رواية بالمعنى، فليس بكذب وفيه نظر، ولذا قال الحافظ ابن حجر: إنه باطل موضوع، فإنه ورد مدح الفقر فى الحديث كحديث «تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر»(٢)، وقد روى بسند لا بأس به، وإثبات الفخر له وقد نفاه فى قوله «لا فخر»؛ ليس من شأنه لأن المراد به الخصلة الحسنة التى من شأنها الافتخار بها، أو المراد فخرى لو كنت ذا فخر، كما قيل فى قراءة: **(إنما يخشى الله من عباده العلماء)** برفع الجلالة أى إنما يخشاهم لو كان يخشى غيرهم، وإن كان المشهور أن المراد بالخشية لازمها، وهو التوقير والتعظيم، والفقر مع الصبر وصف محمود، فإن الغنى هو الله كما قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ**﴾ [فاطر: ١٥].

(والزهد حرفتى) الحرفة بكسر الحاء وسكون الراء المهملتين والفاء هى الصناعة التى يرتزق منها الإنسان، والزهد ترك ما يرغب فيه من الدنيا، وقال الجنيد: الزهد خلو الأيدى من الأملاك والقلوب من التبع، وليس الزهد عدم الملك، فإن سليمان، عليه السلام، كان زاهدا مع أن الدنيا كلها فى قبضته، والتعبير بالحرفة ليس فى محله، فإنه

(١) أخرجه أحمد (٤/٣٠٦).
(٢) انظر: تذكرة الموضوعات (١٧٨)، وتنزيه الشريعة (٢/١٣١)، والإتحاف (٩/٢٧٦).

يوهم أنه جعلها مكسبا، وفيه شاهد للوضع، ومما قلته فى مشايخ زماننا:

قد قام فى سوق الرياء تاجرا ... وباع للسوقة إرشاده
حرفته الزهد ودكانه ... يبيع فيه الكذب سجاده

(واليقين قوتى) اليقين الاعتقاد الجازم، وهو قوت القلب من قام به لاطمئنانه وعدم خوفه من غير الله، وهذا شامل لحق اليقين وعين اليقين، والفرق بينهما مشهور فى التفسير وكتب الكلام.

(والصدق شفيعى) الصدق بمعنى مطابقة الخبر، والمراد به ما اصطلح عليه المشايخ من أنه استواء السر والعلانية والوفاء لله عز وجل بكل ما عهده إليه، ويصح إرادة المعنى الأول، والمراد بكونه شفيعه أنه سبب مصالحه عند الله، أو المراد تعليم أمته.

(والطاعة حَسَبِى) بفتحتين هو ما يعده المرء من مفاخر آبائه، أى طاعة الله فى السر والعلانية هى التى أفتخر به وأعده مأثرة لا ما يفتخر الناس به، أو هو بسكون السين أى الطاعة تكفينى.

(والجهاد) فى سبيل الله، أو مجاهدة النفس بمخالفتها **(خلقى)** أى طبعت على محبته، **(وقرة)** بضم القاف وتشديد الراء المهملة **(عينى)** الباصرة أى مسرتها وفرحها فى الصلاة لما أشاهد فيها من التجليات الإلهية، فإنها المعراج الأصغر، والقرة مأخوذة من القر وهو البرد؛ لأن دمعة السرور باردة، أو من القرار؛ لأن بلوغ الأمنية برؤية ما يسر تسكن به العين، فلا تستشرف لغيره، وقد تقدم ما فيه.

(وفى حديث آخر) لم يذكره المخرجون لأحاديث هذا الكتاب، **(وثمرة فؤادى فى ذكره)** الفؤاد القلب أو داخله، وهو محل العقل على الأشهر، فجعله كشجرة مثمرة وجعل ذكر الله المقصود منه.

(وغمِّى لأجل أمتى) لرأفتى عليهم فى الدنيا والآخرة.

(وشوقى إلى) لقاء **(ربى)** ومناجاته والتوجه إليه.

* * *

فصل

(اعلم وفقنا الله وإياك) تقدم الكلام عليه **(أن صفات الأنبياء والرسل، عليهم الصلاة السلام)** هو من عطف الخاص على العام اعتناء لشأنهم وبيانا لشرفهم، وسيأتى تفصيله **(من كمال الخلق وحسن الصورة)** الخلق بفتح فسكون، والمراد خلق مادة جسمه وأعضائه، والصورة هيئة بدنه وتناسب أعضائه ومقاديرها ولون بشرته.

(**وشرف النسب**) أى شرف آبائه وأمهاته وأجداده وجداته إلى أن تنتهى إلى آدم، عليه الصلاة والسلام، فليس فيهم خسيس ولا وضيع.

(**وحسن الخلق**) بضمتين أو ضم فسكون، وقد تقدم بيانه.

(**وجميع المحاسن فى هذه الصفة**) كذا فى بعض النسخ، وفى غيرها وعليه الشراح: هى بالضمير بدل فى الجارة، قال القسطلانى: هذه الصفة خبر أن، ووقع بين اسم أن وخبرها ضمير الفصل لقصر الصفة على الموصوف كأن زيدًا هو المطلق أى لا غيره، وأتى بها على لفظ الإفراد لتغاير بين المبتدأ والخبر، فإن الاتحاد غير جائز، وعرفها بالألف واللام ليشعر بأن المراد استغراق ما ذكره من كل الصفات المذكورة انتهى.

وتبعه بعض الشراح، ولم يبينه غيرهم، وجميع المحاسن على هذا معطوف على اسم أن، فهو منصوب فالمعنى أن كمال الخلق، وحسن الصورة، وشرف النسب، وحسن الخلق صفات جامعة لجميع المحاسن، وهى صفة الرسل، عليهم السلام، وهى على الوجه الأتم الأكمل لا تجتمع فى غيرهم، ومن بيانية مبينة لصفات جميع الأنبياء والرسل، والصفة بمعنى الصفات المذكورة، ولا يخفى ما فيه من القلاقة والخفاء، وأن قوله هذه الصفة ركيك جدًا، ولو قيل: إن قوله من كمال الخلق إلخ خبر أن، ومن ابتدائية وجميع مرفوع مبتدأ، وفى هذه الصفة خبره، والمعنى جميع صفات الأنبياء، عليهم السلام، ناشئة من كمال الخلق إلى آخره، وجميع المحاسن مجموعة فيها كان أظهر وأحسن؛ (**لأنها صفات الكمال**) أى صفات بها يكمل البشر.

(**والكمال والتمام البشرى**) تقدم الفرق بين الكمال والتمام، (**والفضل الجميع**) مبتدأ وكان الأحسن أن يقول: والفضل جميعه (**لهم**) خبره أى ثابت للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام (**إذ رتبتهم أشرف الرتب، ودرجاتهم أرفع الدرجات**) فيه إشارة إلى تفضيلهم على الملائكة كما سيأتى.

(**ولكن فضل الله بعضهم على بعض**) استدراك لدفع ما عسى يتوهم من تساويهم رتبة، ثم أشار على طريق اللف والنشر المشوش إلى الدليل على عدم تساويهم بقوله: قال الله تعالى: ﴿**تلك الرسل**﴾ [البقرة: ٢٥٣]، المذكورون فى سورة البقرة، فالتعريف عهدى، أو جميع الرسل الذى يعلمهم، فهو استغراقى ﴿**فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ [البقرة: ٢٥٣]، بمواهب سنية ومراتب علية غير أصل النبوة والرسالة، ﴿**مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ**﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وهو محمد أو إبراهيم، عليهما الصلاة والسلام، وأشار إلى فضلهم على من عداهم بقوله: (**وقال تعالى:** ﴿**وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ**

﴿عِلْمٍ﴾ [الدخان: ٣٢]، منا بأحوالهم ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، وهذا من المصنف، رحمه الله تعالى، مبنى على أن الضمير للأنبياء مطلقا، والمراد بالعالمين جميع العالم لا على ما اختاروه من أنه لبنى إسرائيل، والعالمين عالمى زمانهم لكثرة الأنبياء فيهم.

(**وقال عليه الصلاة والسلام**) فى حديث رواه الشيخان عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، (**إن أول زمرة**) أى طائفة وجماعة (**يدخلون الجنة على صورة القمر**) أى وجوههم مشرقة مضيئة، وليس المراد أنها مثله فى الاستدارة وغير ذلك، ولذا قال: (**ليلة البدر**)، وهى ليلة أربعة عشر، وهو أضوأ ما يكون فيها، وسمى بدرًا لامتلائه بالنور أو لمبادرته مغيب الشمس بالطلوع، وهو يسمى هلالاً فى أول الشهر، ثم يسمى بدرًا إذا تم:

إن الهلال إذا رأيت نموه ينبيك أن سيعود بدرًا كاملا

والقمر يطلق عليه دائما كما بينه أهل اللغة، وتمام الحديث «ثم الذين يلونهم كأشد كوكب درى فى السماء إضاءة»، (**ثم قال آخر الحديث**) «قلوبهم على قلب رجل واحد، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، لكل امرىء منهم زوجتان من الحور العين يرى مخ سوقهن من وراء العظم واللحم، يسبحون الله بكرة وعشيا، لايسقمون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون، آنيتهم الذهب والفضة، وأمشاطهم الذهب، ووقود مجامرهم الألوة، ورشحهم المسك»، وفى أثر أن له من الحور العين اثنين وسبعين حورية سوى أزواجه من الدنيا، وأن الواحدة منهن لتأخذ مقعدها قدر ميل من الأرض.

(**على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم، عليه السلام، طوله ستون ذراعا فى السماء**)، والمراد بهذه الزمرة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وبالذين يلونهم الأولياء والعلماء والراسخون، وقيل: المراد بهم الأنبياء والأولياء، وبالذين يلونهم بقية المؤمنين الأتقياء، وقوله: آنيتهم الذهب والفضة إما على اللف والنشر، فآنية الفرقة الأولى من الذهب والثانية من الفضة، أوهما لهما بقرينة جعل أمشاطهم كلهم من الذهب، ويحتمل أن يكون اكتفاء أى من الذهب والفضة، ورجح بعضهم أن يكون هؤلاء كلهم من أمة محمد، ﷺ، لحديث الصحيحين: «يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بيض الوجوه تضىء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر»(١)، ويعلم منه حال الأنبياء بالطريق الأولى، أو هم مسكوت عنهم وعلمهم عند الله، وجعلهم على صورة آدم، عليه الصلاة والسلام؛ لأنه

(١) أخرجه البخارى (٧/١٨٩، ٨/١٤٠)، ومسلم فى الإيمان (٣٧١، ٣٧٢)، وأحمد (٢/٤٠٠)، وأبو عوانة (١/١٤٠).

كان أجمل الناس وأتمهم خلقا، والستون ذراعا إما بذراعه نفسه أو بذراع معهود عند المخاطبين، والأول أظهر، لكن روى ابن أبى الدنيا عن أنس يرفعه: «يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم ستون ذراعًا بذراع الملك، وعلى حُسْنِ يوسف، وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة، وعلى لسان محمد، ﷺ، جرد مرد مكحلين»(١).

وورد أن عرضه سبعة أذرع، والحديث يدل على تبدل ألوانهم، فمن كان أسود أو أشقر صار أبيض بياضًا معتدلاً.

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة يرفعه: «يدخل أهل الجنة الجنة جردًا بيضًا جعادًا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين، وهم على خلق آدم ستون ذراعًا فى عرض سبعة أذرع»(٢)، وقوله: فى السماء يحتمل إرادة الحقيقة منه، أى كابتداء خلقه وصورته إذا كان فى السماء، أو المراد جهة العلو أى طوله ذلك إذا كان منتصبًا قائمًا.

(فائدة) استنبط بعضهم من أثر: أن مقعد الحوراء فى الجنة ميل، أن كل آدمى يدخل الجنة يكون طوله اثنا عشر ألف ذراع بذراع الشرع الذى هو شبران؛ لأن مقعد الحوراء ميل، فيكون طولها ثلاثة أميال، ومقعد الواحد منا ثلث قامته تقريبًا، والغالب أن الذكر كالأنثى فى الخلقة، فيكون طول الرجل اثنا عشر ألف ذراع كما تقدم يقسم على الستين الواردة فى الحديث، فيكون كل ذراع من الستين ما يأتى ذراع شرعى تقريبًا.

(وفى حديث أبى هريرة) رضى الله عنه الذى رواه الشيخان أيضًا **(رأيت موسى)** عليه الصلاة والسلام، ليلة الإسراء عيانًا لامنامًا لأن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أحياء لاتبلى أجسادهم، **(فإذا رجل ضرب)** إذا فجائية أى فإذا هو رجل ضرب بفتح الضاد المعجمة وسكون الراء المهملة والموحدة، ورجل هنا بفتح فضم بمعناه المشهور وهو الذكر من بنى آدم، ومعنى ضرب بالفتح والسكون أن جسمه بين الهزال والسمن، وقال الخليل، رحمه الله تعالى: إنه القليل اللحم، ووقع فى رواية الأصيلى بسكون الراء وكسرها، والأصح الأول، وروى مضطرب، وهو الطويل غير الشديد الطول.

وفى مسلم عن ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، أنه جسيم سبط، وحمل هذا على ما يوافق رواية مضطرب، لا على كثير اللحم كما وقع فى صفة الدجال، فهو من الأضداد **(رجل)** بفتح المهملة وكسر الجيم، وجاء فتحها فى لغة قليلة أى شعره متكسر قليلا، ليس بسبط لا تكسر فيه، ولا جعد متكسر كثيرًا.

---

(١) أخرجه الترمذى (٢٥٤٥)، وأحمد (٢/٢٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥/٢٤٣).

(أقنى) بقاف ونون من القنى بالفتح والقصر، وهو طول الأنف ودقة أرنبته يقال: رجل أقنى وامرأة قنواء، وقيل: القناء احديداب فى الأنف، فمعناه محدودب وليس بعيب فى الناس، وفى النهاية القناء فى الأنف طوله ودقة أرنبته مع حدب فى وسطه، وأما قول كعب، رضى الله تعالى عنه[1]:

قنواء فى حُرَّتَيْها للبصير بها عتق مبين وفى خديه تسهيل

فمعنى آخر لا حاجة لنا به هنا.

(كأنه من رجال شنوءة) بفتح الشين المعجمة وضم النون وواو ساكنة وهمزة وقد تبدل الهمزة واوًا تدغم وهاء على وزن فعولة، وهى اسم قبيلة ويقا لها أزد شنوءة وأسد شنوءة، وهى باليمن مشهورة، وهى من الشناء وهو التباعد مما يدنس، يقال: رجل شنوء إذا كان طاهر النسب ذا مروءة، سميت بذلك لعلو نسبهم وحسن سيرتهم وأفعالهم، وهذا الحديث متفق عليه، وفى رواية البخارى كأنه من رجال الزط، وهم نوع من السودان أو الهنود طوال الأجسام مع نحافة، وهذا هو وجه الشبه أنه طويل غير جسيم.

(ورأيت عيسى) عليه الصلاة والسلام، يقظة فى الإسراء كما سيأتى **(فإذا هو رجل ربعة)** بفتح الراء المهملة وسكون الباء الموحدة وفتحها أى بين الطول والقصر معتدل القامة، **(كثير خيلان الوجه)** بكسر الخاء المعجمة وسكون المثناة التحتية جميع خال، وهو الشامة السوداء المعروفة، وما قيل من أن كثرة الخيلان مذمومة غير مسلم، واختلفت الرواية فى لونه فروى أنه آدم أى أسمر وروى **(أحمر كأنما خرج من ديماس)** بكسر الدال المهملة والمثناة التحتية وميم وألف وسين مهملة وهو الحمام والكن، وأصله السرب فى الأرض، والمراد صفاء لونه مع حمرة فيه، فرواية آدم بمعنى شديد الحمرة لا تنافى هذه.

(وفى حديث آخر) لم تعرف روايته **(مبطن)** بالتشديد والطاء المهملة أى ضامر البطن كما يفسره قوله: **(مثل السيف)** أى فى استوائه ودقته، وقد تعددت الرواية برؤيته ﷺ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يقظة فى السماء والأرض؛ لأنهم أحياء، وصنف البيهقى فى هذا جزءًا مستقلاً.

(قال) ﷺ: «**وأنا أشبه ولد إبراهيم به**»، فحليته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولونه كلونه، فهو أكثر شبهًا به من سائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، والناس كلهم.

---

(١) البيت من البسيط، وهو لكعب بن زهير فى ديوانه (ص١٣)، لسان العرب (٤٤٣/١٣)، تاج العروس (٥٨٢/١٠)، وبلا نسبة فى المخصص (٨٢/١).

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى حديث آخر فى صفة موسى)** عليه الصلاة والسلام، كما رواه البخارى فى صحيحه **(كأحسن ما أنت راء من أدم الرجال)** ما موصولة والعائد محذوف أى الذى أنت رائيه، وآدم من الأدمة وهى سمرة اللون، قيل: وهى فى الإبل بمعنى البياض، وفى الظباء سمرة الظهر وبياض البطن، ومؤنثه أدماء، وأدم هنا بضم الهمزة وسكون الدال المهملة وبالميم جميع آدم كأسمر وسمر، وهى السمرة مطلقًا ?أو الشديدة، وقيل: إنها البياض والأول أصح، واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢]، أى عيب كالبرص، وإنما يكون هذا إذا كان أسمر وخالف لونها لونه، ويحتمل أنها تخالفه لشدة بياضها، كما قيل: إنها كانت ذات شعاع كشعاع الشمس.

(وفى حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، عنه صلى الله تعالى عليه وسلم) رواه أبو يعلى وابن جرير من طرق، وأخرجه سعيد بن منصور فى سننه عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، موقوفا: **(ما بعث الله تعالى من بعد لوط عليه الصلاة والسلام نبيا)**، وهو لوط بن هاران، وهو ابن أخى إبراهيم، وخص ما ذكر بما بعده لأنه من الشام، فبعثه الله تعالى إلى أهل قرية يقال لها: سدوم ليست من بلاده، وليست موطنًا لقومه، ومن بعده من الأنبياء لم ينبأ **(إلا فى ذروة من قومه، ويروى فى ثروة أى كثرة)**، والذروة بكسر الذال المعجمة وضمها وسكون الراء المهملة أعلى شىء، أى بين قوم له ذوى جدة وسعة وشرف، لاغرباء ولامن قوم ليسوا كذلك، وأشار بهذا الحديث إلى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كلهم شاركوا نبينا، ﷺ، فى علو النسب، وشرف القوم، والثروة بمعنى الكثرة مطلقًا، وقد يختص بالمال، وقيل: الذروة المكان المرتفع وهى مثلثة الذال.

(ومنعة) بفتح الحروف أى ميم ونون وعين مفتوحات جمع مانع كخدمة جمع خادم، ويجوز تسكين نونه، أو هو اسم مصدر فى الأصل كصدقة أى قوم يمنعونه ويحمونه، وقصة لوط عليه الصلاة والسلام، مفصلة فى كتب التفسير، وفى قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] إشارة إلى ما ذكر من أنه لم يبعث فى قومه الذين ينصرونه ويحمونه.

فإن قلت: كيف يكونون فى منعة وثروة، وقد قال تعالى فى بعضهم: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، وقد عاداهم قومهم وقتل بعضهم؟ وما مناسبة ما ذكر لما عقد له الفصل من محاسن الخلق؟ والخلق من الصفات الذاتية.

قلت: قد توهم بعضهم ورود ما ذكر، وليس كذلك لأن ما ذكر من شرف القوم

والأصالة يدل على المحاسن الذاتية؛ لاستلزامه لها، وكونهم كثيرون لا ينافى عداوتهم، وأما المنعة فباعتبار من اتبعه منهم، ولذا ورد: «رحم الله أخى لوطًا لقد أوى إلى ركن شديد»[(١)]، وهو لا ينافى الآية لأن المراد الملائكة وما أمده الله تعالى به.

(وحكى الترمذى عن قتادة ورواه الدارقطنى من حديث قتادة عن أنس، رضى الله تعالى عنه) تقدم ترجمة الترمذى وقتادة، وأن الدارقطنى منسوب لدارقطن وهى محلة ببغداد كان يسكنها، وهو الحافظ الإمام الجليل المشهور إمام عصره فى الحديث والفقه والقراءات، وغيرها من العلوم الشرعية، والحديث المذكور فى الشمائل وغيرها مرسلاً.

(ما بعث الله نبيًا إلا)، وقد خلقه **(حسن الوجه حسن الصوت وكان نبيكم)** من ابتداء وجوده وخلقته **(أحسنهم)** أى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، **(وجهًا وأحسنهم صوتًا)**؛ لأن حسن الصورة يدل على كمال الخَلق والخُلق إذ الظاهر عنوان الباطن كما قيل:

يدل على معروفه حسن وجهه ... وما زال حسن الوجه أهدى الدلائل

وقال الآخر:

يدل على قبح الطوية ما ترى ... بصاحبها من قبح بعض ملامحه

وحسن الصوت بكونه جهوريًا يسمع من بعيد مع لطفه فيه يدرك بالذوق، ولا يلزمه كونه على رسم الموسيقى، وهذا يدل على أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان أجمل من يوسف، وأحسن صوتًا من داود عليهما الصلاة والسلام، وكانت قراءته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى بيته ليلا تسمع عند الكعبة، وفيما بَعُد من منازل المدينة.

وما ورد فى حديث الطبرى فى يوسف: «فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله قد فضل الناس بالحسن» المراد منه تفضيله، صلى الله تعالى عليه وسلم، على من عداه، لاسيما إن قلنا: إن المتكلم لا يدخل فى عموم كلامه كما ذهب إليه بعض الأصوليين، ويدل عليه ما ورد أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أعطى الحسن كله، وأعطى يوسف، عليه الصلاة والسلام، شطره أى نصفه. أى أن الحسن كله، جمع له، صلى الله تعالى عليه وسلم، من تناسب أعضاء وصفاء لون وغيره مما يدرك ولا يوصف، ويوسف أعطى من جنس الحسن الكامل فيه نصفا، وجميع الخلق وزع بينهم، وما يعدل نصفه الآخر، فدل ذلك على أنه أحسن الناس كلهم كما صرح به فى الحديث الذى نحن فيه، وما قاله السخاوى فى كتاب الامتنان من أن جلال الدين المحلى، رحمه الله، سئل عن حديث «أعطى نبينا جميع الحسن، ويوسف شطره» فقيل: كيف يكون الشىء الواحد جميعه فى

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/٣٤٣).

شيء ونصفه في آخر؟ فقال: لم يظهر لى جوابه، وكذا قال ابن حجر، وقد تأملت قوله فى البردة البوصيرية:

منـزه عـن شريـك فـى محاسنه   فجوهـر الحسن فيـه غير منقسم

فبان لىمنه جوابه، وهو أن حسن النبى ﷺ غير منقسم بينه وبين غيره بخلاف حسن سائر الناس، فإنه منقسم بينهم وبين يوسف، عليه الصلاة والسلام، انتهى وفيه نظر، وهذه مغالطة وزهرة لا تحتمل الفرك، ومنشؤه عدم الفرق بين تقسيم شيء بعينه، وتقسيم أفراد نوع من الأنواع فتدبر.

(وفى حديث هرقل) مر ضبطه والإضافة لأدنى ملابسة لذكره فى الحديث كما يقال: حديث الشفاعة، والأصل إضافته لرواية الصحابى أو التابعى، أو من خرجه كالبخارى ومسلم، وهذا الحديث رواه الشيخان عن ابن عباس، رضى الله عنهما، وابن عباس نقله عن أبى سفيان حين أرسل إليه هرقل، وهو بالشام للتجارة فى ركب من قريش فى مدة محادة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لكفار قريش، فأتوه بإيليا فدعاهم وحوله عظماء الروم، فسألهم عن أحواله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فكان أول ما سأله عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ فقال: هو فينا ذو نسب إلى آخره، فقال له كما أشار إليه بقوله: **(وسألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب)** أى نسب عظيم، فالتنكير للتعظيم لشرف أصوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنه ليس فى أمهاته سفاح ولا شيء من نكاح الجاهلية كما مر، وتقلبه فى الأصلاب الطاهرة من الأنبياء وقبيلته أشرف القبائل، وبيته أشرف بيوتهم، **(وكذلك الرسل)** عليهم الصلاة والسلام، **(تبعث فى أنساب قومها)** أى كل نبى له نسب عال فى قومه؛ لأن من اختاره الله لنبوته يختار له عنصرا مناسبًا، **(ولم يتخذ وليا من الذل)**، فشبه اتصاله باتصال الظرف بمظروفه.

(وقال تعالى فى أيوب) صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان ببلاد حوران وقبره مشهور عندهم بقرية قرب نوى، وعليه مسجد وقرية موقوفة على مصالحه، وعنده عين جارية فيها أثر قدم فى حجر يقال: إنه أثر قدمه، عليه الصلاة والسلام، والناس يشربون من عينه ويغتسلون منها بالتبرك، ويقولون: إنها المذكورة فى القرآن ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، كثير الرجوع لربه بمراجعة دعائه، وامتثال أوامره ونواهيه، واستشهد بهذه الآية على حسن خلق الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فإن الصبر أمر عظيم وخلق كل كريم حليم، ولذا أثنى الله عليه بقوله: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ إلى آخره، ووصفه بالعبودية المناسبة للصبر، وقد صبر على ما ابتلاه الله به كما صبر يعقوب وغيره من الرسل، ونبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، صبر على قومه وما قاساه منهم، وقصة

أيوب عليه الصلاة والسلام، ونسبة مذكور فى التفسير، واختلف فى زمن نبوته، فقيل: كان قبل موسى، عليه الصلاة السلام، وأنه من بنى إسرائيل، ومدة بلائه ثلاث عشرة سنة أو ثلاث سنين وامرأته اسمها ليا، وقيل: رحمة بنت يوسف.

وقال تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٢- ١٥]، وقال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ إلى ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، واستشهد المصنف، رحمه الله تعالى، بما ذكر على محاسن الأنبياء وأخلاقهم إذ تلقى يحيى، عليه الصلاة والسلام، الكتاب التوراة، أو غيرها بقوة فهم وعزيمة على العمل بما فيها، وقد آتاه الله الحكم صبيا، وهو يدل على سلامة فطرته وخلقته، وكان حنانًا فى طبعه الرحمة، وأنه كان تقيًا برًا بوالديه مطهرًا من النقائص، وأنه سلمه الله من يوم ولد إلى مماته.

(وقال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] **الآيتين)** استشهد بهاتين الآيتين على ما حواه الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، من الصفات الجليلة، ومكارم الأخلاق، وأنه تعالى جعلهم صفوة خلقه، فآل إبراهيم إسحاق وإسماعيل وأولادهما، وآل عمران عيسى ومريم بنت عمران ذرية بعضها من بعض على سنن واحد.

(وقال فى نوح) عليه الصلاة والسلام: **﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾** [الإسراء: ٣]؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان لا يفعل شيئًا إلا قال: بسم الله والحمد لله.

(وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾ [آل عمران: ٥٤] **الآية)** استشهد بهذه الآية على ما لعيسى، صلى الله تعالى عليه وسلم، من النعوت السنية، والمحاسن الجلية التى وصفه الله تعالى بها من أنه وجيه أى شريف قدره فى الدارين، وأنه تكلم فى مهده، وقد تقدم ذكر من تكلم فى المهد غيره، والكهل الشاب، وقيل: من وخطه الشيب أو من جاوز الثلاثين إلى خمس وخمسين، وكونه رفع ابن ثلاث وثلاثين وإن جزم به القاضى فى تفسيره غير متفق عليه، فقد ذكر ابن حجر فى الإصابة أقوالا أخر منها أنه بلغ المائة أوزاد عليها، وتقدم معنى كونه كلمة الله.

(وقال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾) إلى **﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾** [مريم: ٣٠، ٣١]، وقيل: إنه نبىء وهو صبى وألهم حفظ التوراة والإنجيل، ووصف نفسه بالعبودية ردًا لما اعتقده فيه النصارى، وكان نطقه بما ذكر تبرئة لأمه.

(وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ

عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩])، وذلك لأنهم عابوه، عليه الصلاة والسلام، لشدة تستره حياء من الله بأن فى بدنه برصًا، أو به أدرة فبرأه الله من ذلك، وبين أنه كامل الخَلق والخُلق، ولذلك ساق المصنف الآية، وقال: **(قال النبى، صلى الله تعالى وسلم، كان موسى رجلاً حييا)** بحاء مهملة ويائين ثانيتهما مشددة بزنة صبى أى كثير الحياء **(ستيرًا)** بكسر السين المهملة وكسر التاء المثناة المشددة بزنة سكين أى شديد الستر لبدنه، وقد أشار لتفسيره بقوله: **(ما يرى من جسده شيء استحياء)**، وهذا يدل على عفته وحيائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو خُلق حميد.

وقال البرهان: إن ستيرًا بفتح السين وكسر التاء الفوقية المخففة فعيل بمعنى فاعل، والذى أحفظه أنه بكسر وبتشديد التاء الفوقية كسكيت وسكين، وكذا ضبط فى نسخ البخارى انتهى، ومن كان يستحى من كشف عورته وبدنه، فهو أشد حياء من كشف غيره.

(الحديث) بالنصب أى اقرأ الحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة أو بذكره وتتمته أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما كان يكثر الستر ويغتسل وحده قالوا: إنه إنما يفعل هذا لبرص أو أدرة به، فذهب مرة ليغتسل ووضع ثوبه على حجر، فلما أراد أن يلبسه فر الحجر، وجرى خلفه ويقول: ثوبى حجر ثوبى حجر ثوبى حجر حتى مر على بنى إسرائيل، فرأوه أكمل الناس وأصحهم بدنا، فبرئ مما سمعوه وآذوه به.

(وقال تعالى عنه) ضمنه معنى حكى، فعداه بعن أى عن موسى عليه السلام: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ [الشعراء: ٢١] **(الآية)** أى علمًا ونبوة، وفراره ﷺ لما قتل القبطى وذهب، فكلمه الله كما هو مشهور.

(وقال فى وصف جماعة منهم) أى من الأنبياء عليهم السلام: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧]، وقع هذا من نوح وصالح ولوط وشعيب، عليهم السلام، كما حكاه عنهم على وجه الرضا والتصديق، فلا يتوهم أنه مدح لأنفسهم، فليس مما نحن فيه.

(وقال) موسى لشعيب، عليهما الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وقصته معه أنه لما فر من القبط إذ خافهم؛ لقتل رجل منهم، ومر بابنتى شعيب، عليه السلام، جالستان ينتظران فراغ الناس ليسقى غنما لهما، قال لهما: لم تأخرتما فقالتا: ﴿نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ [القصص: ٢٣]، فقال: أما عندكم بئر غير هذه؟ فقالتا: عندنا بئر مطبق عليها حجر لا نطيق رفعه، وكان لا يرفعه إلا عشرة من أشد الرجال، فقال: اذهبا فأريانيها فأرتاها، فرفعه وحده وسقى لهما، فقالتا

له: اذهب معنا ليجزيك أبانا على ما فعلت، فقال، أرشدانى للطريق وامشيا خلفى لأنى رجل من ذرية إبراهيم، عليه السلام، لا أحب أن أرى منكما ما لا يحل لى، فأخبرتا أباهما بقصته وقوته فى رفعه ذلك الحجر، وأمانته لامتناعه من النظر لهما، فاستأجره على ما قصه الله لرعى غنمه.

قال البيضاوى: الجملة معللة لما قبلهما وللمبالغة جعل خبر واسم إن معرفتين يعنى لم يقل: إن من استأجرته قوى أمين، بل أتى بجملة معرفة الطرفين لحصر الخبرية فيه فتدبر.

(وقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥])، فوصفهم بالصبر، وهو من أحسن الأخلاق، والعزم على التصميم على نفاذ الأمر، والحزم فى الشدائد، وقد اختلف فى أولى العزم كما مر.

(وقال: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ﴾) إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام:٨٤، ٩٠]، وقد وقع فى هذه الآية بحث ذكره الطوفى فى تفسيره، وهو أنه استدل بهذه الآية على أن محمدًا، صلى الله تعالى عليه وسلم، أفضل من جميع الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لأن الله تعالى أمره بالاقتداء بهداهم جميعًا، ولاشك فى امتثاله واقتدائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإذا أتى بما أتوا به جميعًا مع ماخص به كان أفضل من كل فرد فرد بلا شبهة، ومن المجموع، ونقل عن العز بن عبد السلام أنه قال: إنه أفضل من كل واحد منهم، لامن المجموع، ولا دلالة فى الآية عليه، قال: ولما نقل عنه هذا قام عليه الناس ونسبوه فى هذه المقالة إلى ما وصل إلى تكفيره.

وأنا أقول: أنا برىء من نسبة مثله للعز، والقائل بهذا توهم أنه مثل ما لو قسم عشرة دنانير على خمسة رجال، وأعطى أربعة منهم دينارًا دينارًا، وأعطى ستة للخامس، فهو يزيد على كل واحد منهم لا على المجموع، فلا يلزم من زيادته على كل واحد من الجماعة زيادته على الجميع، فالآية لا دليل فيها لما ادعوه، وهذا إنما يتم لو لم يثبت له، صلى الله تعالى عليه وسلم، غير ما لجميعهم، وهو مقرر ظاهر، وقد بسطنا الكلام على هذا فى غير هذا المحل، والهاء فى اقتده هاء سكت تثبت وقفًا على القياس ووصلاً إجراء له مجرى الوقف، وحذفها حمزة وصلاً وكسرها هشام اختلاسًا وصلا، ووصلها ابن ذكوان بها تشبيهًا لها بهاء الضمير، وقيل: هذا لا يصح وإنما هى ضمير المصدر كقوله: هذا سراقة للقرآن يدرسه.

(فوصفهم بأوصاف جمة) أى كثيرة **(من الصلاح)** ليس المراد بالصلاح المعنى المشهور

في قولهم: رجل صالح حتى يقال: إنه ليس بمدح للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ومن توهمه قال: المراد مدح الصفة لا الموصوف كما حقق في شروح الكشاف، بل الصلاح صفة جامعة لكل خير، فهي أبلغ من غيرها كما فصله السبكي في فتاويه.

(والهدى والاجتباء) وهو الاصطفاء والاختيار للرسالة، **(والحكم والنبوة)** أي الحكمة أو فصل الأمر على مقتضى الحق.

(وقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ﴾) عليم و﴿حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١])، وهو إسحاق، فوصفه بالعلم والحلم، وهما أمران عظيمان قال الأنطاكي: كذا في النسخ، والذي في القرآن ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ و﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾، ولو قدم حليم وعطف عليه بان الأمر.

(وقال: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾) إلى قوله: ﴿أَمِينٌ﴾ [الدخان: ١٧، ١٨]، والمراد بالفتنة الاختبار والامتحان يقال: فتنت الفضة إذا أدخلتها النار، فشبه أمرهم باتباعه بمعاملة المختبر، أو المراد أنه ابتلاهم كما ابتلى العرب بنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، فوصفهم الله في هذه الآية بصفات حميدة من الكرم والأمانة وغيرهما.

(وقال) حكاية عن الذبيح: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] على الذبح مسلمًا لله، ولذا سلمه الله وفداه.

(وقال في إسماعيل) عليه الصلاة والسلام: (﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤] **الآيتين)** صرح بإسماعيل مع أن المذكور قبله في حقه إشارة للاختلاف فيه، فإنه قيل إنه إسحاق، وقيل: إنه إسماعيل بن حزقيل، وهو نبي بعثه الله لقومه فسلخوا رأسه، فخيره الله بين تعذيبهم وغيره، فاختار العفو والرضا بثوابه، والجمهور على أنه إسماعيل الذبيح ابن إبراهيم، وهو رسول نبي، وصدق وعده لأنه وعد أباه بالصبر على الذبح فوفى بوعده، وقدم الرسالة هنا على النبوة لأنها أشرف على قول.

(وقال في موسى، عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ **[مريم: ٥١])** في طاعته لايقصد بها إلا وجه الله والتقرب إليه.

(و) قال **(في)** شأن **(سليمان:** ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]) أي مسبح أو رجاع إليه بالتوبة، وقيل: الأواب المطيع، وقيل: الرحيم أو كثير الصلاة.

(وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥])، وهو إسرائيل أبو أنبياء بني إسرائيل ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ إلى ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨] الأيدي جمع يد بمعنى

القوة، والأبصار جمع بصر بمعنى بصيرة، فإنه يطلق على الحاسة الظاهرة وقوتها، وعلى القوة الباطنة المدركة، ولايقال للجارحة: بصيرة كما فى عمدة الحفاظ، ومعنى ﴿أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص: ٤٦] جعلناهم خالصين بسبب أنهم لا يذكرون إلا الدار الآخرة، وأطلق الدار إشارة إلى أن الدنيا ليست بدار مقر، بل ممر ومعبر، وعند هنا للقرب، والأخيار جميع خير أو خير المشدد بعد التخفيف.

(و) قال (فى داود: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]) تقدم تفسيره، (ثم قال) فى حقه: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، أى قويناه لأن بنى إسرائيل لم تجتمع على ملك غيره، وكان يحرس محرابه ثلاثون ألف متسلح، أو قويناه بالعدل والتوفيق له، وفصل الخطاب أى الكلام الفاصل بين الحق والباطل، وقيل: هو أما بعد وهو أول من قالها، وقيل: هو البينة على المدعى واليمين على المدعى عليه، وقيل غير ذلك.

(وقال عن يوسف) عليه الصلاة والسلام: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] قيل: الأرض هنا أرض مصر، وفى الآية دليل على جواز طلب الحكم لمن وثق بنفسه وتوليه من الكافر، وقيل: إن فرعون يوسف أسلم، وقصة يوسف، عليه الصلاة والسلام، أشهر من أن تذكر.

(و) قال (فى موسى ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩])، وهذه قصته مع الخضر عليهما الصلاة والسلام المشهورة.

(وقال عن شعيب) عليه الصلاة والسلام، ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧] **وقال)** عنه أيضا: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ﴾ [هود: ٨٨] شعيب من نسل إبراهيم، عليهما الصلاة والسلام، أرسل إلى مدين والأيكة، وهما أمتان، وقيل: أمة واحدة، فوصفه الله بالصلاح والإصلاح، وأنه لا يأمر إلا بما فعله، وهو خطيب الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

وقال: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤] فلوط ابن أخى إبراهيم كما تقدم، والحكمة والحكم بمعنى هنا.

(وقال) فى حقهم، عليهم السلام، عمومًا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠] **الآية)** أى شأنهم المبادرة إلى فعل أنواع الخير، وسؤال الله تعالى فى الرغبة والرهبة.

(وقال سفيان) الثورى أو ابن عيينة فى تفسير هذه الآية: **(هو الحزن الدائم)**، قيل: ضمير هو راجع إلى الخشوع فى قوله: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾، وفى الشرح الجديد يريد أن ما ذكر فى الآية من الخيرات هو الحزن الدائم الذى ينشأ عن خيرات من سلك طريقها، فقد وصل إلى مقامه، ولا يخفى بعده، والظاهر هو الأول.

(فى آى) جمع آية **(كثيرة ذكر فيها من خصالهم ومحاسن أخلاقهم الدالة على كمالهم)**، وهذا ابتداء كلام لا تعلق له بكلام سفيان، رحمه الله تعالى، أى ما ذكر من الآيات مندرج فى آيات كثيرة دالة على كمالهم، وليس ما ذكر محيطًا بما فيه، بل هو بعض منه **(وجاء من ذلك)** أى من وصف كمالهم، عليهم الصلاة والسلام، فى غير القرآن **(فى الأحاديث)** الصحيحة **(كثير كقوله ﷺ: إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم نبى ابن نبى ابن نبى ابن نبى)** هذا الحديث فى البخارى بدون إنما وقوله نبى ابن نبى إلى آخره، والكرم ليس بمعنى السخاء، فإنه استعمال طارئ، وإنما هو معنى جامع للخبر والشرف ومكارم الأخلاق، قيل: وإنما خص يوسف، عليه الصلاة والسلام، بما ذكر؛ لما جمع الله له مع علو النسب جعله رابع أربعة من الأنبياء من الحسن المفرط والعفة والملك أو العلم والحكمة إلى غير ذلك مما لم يجتمع لغيره من الأنبياء، وفيه التكرار المعدود من المحسنات البديعية كقول إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ﴾ [مريم: ٤٢] الآية. كرر يا أبت مبالغة فى استعطاف أبيه، والاطراد كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨]، والسجع وهو من المحسنات أحيانا، وأما إنكاره لمن خاطبه، وقوله: أسجع كسجع الكهان؟ لأنه ليس فى محله، وهو مقام الحكمة، وقيل عليه: إن ما ذكر ليس من قبيل التكرير؛ لأن كريمًا ليس معناه واحد فى الحديث، وأن ما ذكر ليس من قبيل السجع، وليس بشىء؛ لأن الكريم مفهومه متحد، وإن اختلف ما صدق عليه، والسجع ما اتحدت قافيته.

(وفى حديث أنس) رضى الله تعالى عنه، الذى رواه البخارى **(وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم)**، فهو من خصائص الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ومر أن الخصائص تنقسم إلى أقسام.

فمنها: ما اختص به، صلى الله تعالى عليه وسلم، دون سائر الناس الأنبياء وغيرهم.

ومنها: ما اختص به، صلى الله تعالى عليه وسلم، دون أمته كالجمع بين زوجات فوق الأربع، وإن جاز لغيره فى الشرائع السابقة.

ومنها: ما اختص به، صلى الله تعالى عليه وسلم، دون الأمم كلها وإن كان لغيره من

الأنبياء كما نحن فيه؛ ولذا كان وضوءه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا ينقض بالنوم كما صرح به الشافعية.

ومنها: ما اختص به، صلى الله تعالى عليه وسلم، دون الأمم السابقة وأنبيائهم كالتيمم.

فإن قلت: كيف هذا، وقد نام رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن صلاة الصبح حتى طلعت عليه الشمس، ولا يصح أن يكون هذا تشريعا لأمته، لأنه لا يفعل ما يمتنع شرعًا للتشريع، وإن لزمه ذلك من غير قصد له.

قلت: أجيب عنه بأجوبة.

أحدها: وهو الأصح أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان له حالان حال لا ينام فيها قلبه، وهى الغالب عليه، وحال نادرة فيها ينام قلبه.

الثانى: أنه يغيب عنه فى نومه ما يحس بالبصر لا ما يدرك بالقلب كالحدث والألم ونحوهما، ورجح بعضهم هذا.

الثالث: أن قلبه لا يستغرق حتى يتعطل إحساسه، وقد يستغرق لاشتغاله بوحى كما كان يشاهد منه إذا نزل عليه الوحى فى اليقظة.

وقيل: إن المراد أنه لا يستغرق قلبه حتى لا يدرك الحدث. قال ابن دقيق العبد: وهو بعيد.

قال ابن حجر: ومن الأجوبة الضعيفة أن قلبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يقظان، وعلم بخروج الوقت، ولكن فعله تشريعا لما مر، وفى هذا إشارة إلى يقظة قلبه، وأنه لا يفعل، وهذا من جملة الكمال فناسب الترجمة مناسبة تامة.

(وروى) رواه الطبرانى عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، **(أن سليمان عليه الصلاة والسلام، كان مع ما أعطى من الملك لايرفع بصره إلى السماء تخشعًا وتواضعا لله)**، وذلك لتعظيم ملكوت الله وملائكته استصغارًا لنفسه، لا لأن فى جهة وحيز كما توهم، وكذا كان أبوه داود، عليه الصلاة والسلام، كما ذكره الغزالى فى الإحياء حياء من الله تعالى أى حياء من ملائكة الله تعالى، لقصور عمله من أعمالهم أى لا يفترون عنها طرفة عين، ولا ينافى هذا قوله تعالى: ﴿**أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ**﴾ [الغاشية: ١٧،١٨]؛ لأنه مقام آخر، **(وكان يطعم الناس لذائد الأطعمة ويأكل خبز شعير)** جمع لذيذة، وهو ما يشتهى ويميل له الطبع من المأكولات، **(وأوحى الله إليه: يا رأس العابدين)** أى أعلاهم ورئيسهم، **(وابن محجة الزاهدين)** أصل المحجة الطريق

المسلوك، فاستعير لمجمعهم ومقصدهم أو مقتداهم الذين يأنسون بسنته ومسلكه، وفى نسخة حجة، وزهده، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا ينافى ملكه وقدرته، بل حقيقة الزهد إنما تتم بذلك.

(**وكانت العجوز**) خصها لحقارتها (**تعترضه**) أى تجىء له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتقف مقابلته، (**وهو**) راكب (**على الريح فى جنوده**) وعزة سلطانه، (**فيأمر الريح فتقف فينظر فى حاجتها ويمضى**) لمقصده.

(**وقيل ليوسف، عليه الصلاة والسلام: مالك تجوع وأنت على خزائن الأرض؟ فقال: إنى أخاف أن أشبع فأنسى الجائع**) المراد بخزائن الأرض المخزون من الأموال والأرزاق.

(**وروى أبو هريرة، رضى الله عنه، عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم**) كما رواه البخارى عنه: (**خفف على داود القرآن**) هو مصدر بمعنى القراءة كالنفران، والمراد قراءة كتابه وهو الزبور، أو المقروء، وقيل: إن إطلاقه هنا مع أنه علم لما أنزل على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويطلق على المعنى القائم بذاته تعالى اشتراكا ومجازًا على طريق الاستعارة والمجاز المرسل، والمراد بتخفيفه سرعة قراءته فى زمن يسير.

(**فكان يأمر بدوابه فتسرج**)، وروى بدابته، والمراد الجنس المختص به، (**فيقرأ القرآن قبل أن تسرج**) قالوا: هذا من بسط الزمان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو من البركة فى الزمن اليسير حتى يقع فيه العمل الكثير.

قال النووى: وبلغنا أن من الناس من قرأ أربع ختمات بالليل، وأربع ختمات بالنهار.

(**ولا يأكل إلا من عمل يده**) مع أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ملك خزائن الأرض بيده، وكان آدم، عليه الصلاة والسلام، حراثًا، ونوح، صلى الله تعالى عليه وسلم، نجارًا، وإدريس عليه الصلاة والسلام، خياطًا، وموسى، صلى الله تعالى عليه وسلم، راعيا، وفيه دليل على فضل الكسب الحلال، وأنه لا ينافى توكل الخواص، ثم بين عمله بقوله: (**قال الله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾** [سبأ: ١٠])، فكان إذا مسه بيده لان كالشمع والعجين من غير نار وضرب ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ: ١١]، أى دروعًا طويلة تامة من السبغ، وهو السعة، (**وقدر فى السرد**) سرده نسجه أى عمله، وأصل معناه التتابع، ومنه سرد الكلام، ومعنى تقديره: جعل ثقوب طرفى الحلق على قدر المسامير، وكون المسامير غير رقيقة فتغلق ولا غليظة فتكسر الحلق، وقيل: إن دروعه، عليه الصلاة والسلام، كانت بلا مسامير لالتئامها للينها، وأن فى قوله: أن اعمل تفسيرية أو مصدرية بتقدير الجار، قيل: كان سبب تكسبه أنه اختفى، ودار يسأل الناس

عن سيرته فيهم، فلقى ملكًا فى صورة رجل، فسأله عن نفسه، فقال له: نعم الرجل لو كان لا يأكل من بيت المال، وأصول المكاسب الزراعة والتجارة والصناعة، وأفضلها التجارة، وقيل: الزراعة لأنها أقرب إلى التوكل، وقيل: صنعة اليد، وفوق ذلك الجهاد، ومن فضيلة الجهاد والكسب الاشتغال عن البطالة.

(وكان) داود، عليه الصلاة والسلام، **(سأل ربه أن يرزقه عملاً بيده يغنيه عن بيت مال الله)**، وسببه ما مر،ومن هنا يعلم أن السلطان ينبغى أن يكون له ما يكتسبه؛ لئلا يأكل من بيت المال، فإن لم يكن له صنعة لا يأكل من بيت المال إلا بقدر الحاجة، والإسراف منه حرام عليه، فالويل كل الويل لسلاطين زماننا الذين يظنون أن بيت المال ليس لأحد فيه حق غيرهم.

(وقال، عليه الصلاة والسلام) فى حديث صحيح رواه الشيخان إلى قوله: **(يفطر يوما)** الآتى من نقله **(أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود)**، وبين ذلك بقوله: **(كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه)**، وقيامه فى وقت يتجلى الله فيه، ويقول: هل من سائل فأعطيه، وليس المراد بقوله: ينام سدسه، أنه ينام إلى طلوع الشمس، بل إلى قبيل الفجر، فيستقبل الصبحة بنشاط لاستراحته، وهكذا ينبغى للمجتهد، ولم يتعرض أحد لصلاة الأمم السالفة، ولا لصلاته ﷺ قبل الإسراء، وبيان كيفيتها إلا أن السيوطى، رحمه الله تعالى، نقل فى الخصائص الكبرى أنها كانت بغير ركوع، ولذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧].

(و) كان **(يصوم يومًا ويفطر يومًا)**، وفى هذا إشارة إلى أن صوم الدهر دون هذا، وقد ورد النهى عنه مع أن هذا أشق منه؛ لأن من اعتاد هذا صار طبيعة له لا تضره، وهذا آخر الحديث.

وقوله: **(وكان)** أى داود، عليه الصلاة والسلام، **(يلبس الصوف ويفترش الشعر)** أى ما أنسج منه؛ لأنه خشن يمنعه لذة النوم والاستغراق فيه المانع له عن ورده، وهذا شعار الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، والصلحاء.

(ويأكل خبز الشعير بالملح والرماد) الملح إدام بخلاف الرماد، فكأنه كان يأتدم به على خلاف المعتاد، أو يضعه فى إدامه لئلا يلتذ به.

(ويمزج شرابه بالدموع)؛ لكثرة بكائه وعدم خلوه منه، **(ولم ير ضاحكًا بعد الخطيئة)**، وهى تزوجه بامرأة أوريا بعد ما سأله أن ينزل له عنها، ففعل وتزوجها، **فجاءه ملكان**

فى صورة رجلين يدعيان نعاجا على ما قصه الله تعالى، وليست هذه خطيئة، ولكن علو مقامه وزهده يقتضى خلاف ذلك؛ فلذا عوتب عليه، وكان يبكى، وقد ذكر الله مدحه وعصمته مما لا مزيد عليه.

(ولا شاخصًا) رافعًا وفاتحًا **(بصره نحو السماء)** أى جهة العلو **(حياء من ربه)** سبحانه وتعالى، كعادة من أذنب، فإنه يطأطىء بصره، **(ولم يزل باكيًا حياته)** منصوب على الظرفية أى مدة حياته، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(كلها)** تأكيد لما قبله، **(وقيل: بكى حتى نبت العشب من دموعه)** لكثرتها، وهذا رواه ابن أبى حاتم عن أنس، رضى الله تعالى عنه، مرفوعًا، وعن مجاهد وغيره موقوفًا.

(وحتى اتخذت الدموع لخده أخدودًا) هو فى الأصل الشق المستطيل فى الأرض استعير لتأثير الدموع فى مجراها أثرًا يعلم، وبين الخد والأخدود تجنيس اشتقاقى.

(وقيل: كان يخرج) من منزله **(متنكرًا)** أى مستخفيًا من معرفة الناس، **(ليتعرف سيرته)** جملة مستأنفة لبيان سبب تنكره، **(فيسمع الثناء عليه فيزداد تواضعًا لله)**؛ لما منحه من السيرة الحسنة والذكر الحسن، لا كمن يزداد بمدح الناس له غرورًا.

(وقيل لعيسى، عليه الصلاة والسلام) كما خرجه أحمد بن حنبل وابن أبى شيبة عن ثابت: **(لو اتخذت حمارًا)** لتركبه؛ لتستريح من المشى **(قال: أنا أكرم على الله من أن يشغلنى بحمار)** هذا من زهده وستر حاله أيضًا إذ لم يقل: أنا أتواضع بالمشى، وشغله يشغله كسأله يسأله وأشغله لغة ردية.

(وكان يلبس الشعر) أى ما نسج منه زيادة فى تقشفه، وإنما كره مالك لبس الصوف لمن يتخذه شعارًا له إظهارًا لزهده، فإن إخفاءه أفضل لما فيه من الرياء، **(ويأكل الشجر)** أى أوراقه، أو المراد به مطلق النبات تجوزًا، **(ولم يكن له بيت)** يملكه أو يختص به **(أينما أدركه النوم)** أى وقته **(نام)** أى ينام فى أى مكان يجن عليه الليل فيه.

(وكان أحب الأسماء إليه)، وفى نسخة الأسامى أى الألفاظ التى ينادى بها **(أن يقال له: يا مسكين)** رغبة فى التواضع لعظمة الله عز وجل، وقيل عليه: نحن مأمورون بتعظيم الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ومحبتهم وتعظيمهم تعظيم لله.

فلو قال أحد لنبى من الأنبياء: يا مسكين كان تحقيرًا له، وتحقيرهم كفر ومعصية، فلا ينبغى لنبى من الأنبياء أن يرضى به، وقد أمرنا بتعظيم نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأن لاننأديه باسمه، بل لا نجهر له بالقول، ولا نرفع أصواتنا عنده توقيرًا له، وحرمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ميتًا كحرمته حيًا كما سيأتى بيانه، وهذا مما اشترك فيه سائر

الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فكان يجب على أمة عيسى، عليه الصلاة والسلام، أن يوقروه، ويجب على عيسى أن لا يرضى بعدم توقيره.

فإن قيل: إنه فرار من العجب. وقيل: مثله لا يطرق عليه عجب ولا يخشاه.

وأجيب: بحمل هذا على أنه صدر ممن لم يؤمن به، فكانوا يقصدون بذلك تنفير الناس عن الإيمان به واتباعه، كما وقع من المشركين فى حق نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، فكان عيسى، عليه الصلاة والسلام، إذا بلغه ذلك عنهم أحبه، وأما المؤمنون به فيجب عليهم تعظيمه، أو ذلك ممن آمن به إذا سألهم سائل عنه أهو ذو مال أم فقير؟ فيقولون: هو مسكين كما كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقول فى دعائه: **(اللهم أحينى مسكينًا وأمتنى مسكينًا واحشرنى فى زمرة المساكين)**، وكما قال أبو العتاهية:

إذا أردت شريف القوم كلهم فانظر إلى ملك فى زى مسكين

والكلام على الفقير والمسكين أشهر من أن يذكر.

أقول: لاوجه للسؤال ولا للجواب، أما الأول فلأن عيسى، صلى الله تعالى عليه وسلم، غلب على أمته الرهبانية وإظهار المسكنة، فيكون فى شرعهم يجوز مناداته وخطابه بمثله من مؤمنيهم وخواص حواريهم، وإن لم يجز مثله فى شرعنا، ولا ما يقرب منه.

وأما الثانى فلأن جعله من كفارهم أو مؤمنيهم فى غيبته لا يصح، لأن إظهار محبته واجب، وقوله: يقال: وحرف النداء مناد على خلافه، وصريح فى عكسه لمن له أدنى فهم، وقد روى: «مامن كلمة كانت تقال لعيسى، عليه الصلاة والسلام، أحب إليه» إلى آخره.

(وقيل: إن موسى، عليه الصلاة والسلام، لما ورد ماء مدين) هذا الحديث رواه أحمد فى الزهد وابن أبى حاتم عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، موقوفًا، وتقدم أن وروده، صلى الله تعالى عليه وسلم، لماء مدين كان لما فر من قبط مصر، فلقى ابنتى شعيب على ذلك الماء، وبينه وبين مصر ثمانى مراحل أو أكثر فى قصته السالفة المذكورة فى القرآن، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم، حافيًا من غير زاد، وبه جوع شديد حتى كانت ترى أمعاؤه، و**(كانت ترى خضرة البقل)** الذى كان يأكله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذ لم يجد غيره، والبقل ما ليس بشجر من النبات التى لا تبقى أرومته وأصوله بعد أخذه، وهو معروف.

(فى بطنه من الهزال) بضم الهاء وزاى معجمة، وهو ضعف مذهب اللحم.

(**وقال صلى الله تعالى عليه وسلم**) كما رواه الحاكم عن أبى سعيد الخدرى، وصححه (**ولقد كان الأنبياء قبلى يبتلى**) بالبناء للمفعول ونائبه (**أحدهم بالفقر والقمل، وكان ذلك**) الابتلاء (**أحب إليهم من العطاء إليكم**)، لتيقنهم بما أعد الله لهم فى مقابلته، وهو أن نعيم الدنيا عندهم، ولفظ الحديث ليس كما ذكره المصنف، رحمه الله، وهو ما قال أبو سعيد الخدرى، رضى الله تعالى عنه، قلت: يا رسول الله من أشد الناس بلاء؟ قال: الأنبياء. قلت: ثم من؟ قال: العلماء قلت: ثم من؟ قال: الصالحون كان أحدهم يبتلى بالقمل حتى يقتله، ويبتلى بالفقر حتى لا يجد إلا العباء يلبسها، ولأحدهم أشد فرحًا بالبلاء من أحدنا بالعطاء[1]، وهو صحيح على شرط مسلم، والمراد ما يعطى من السعة فى الدنيا.

قيل: وهو يدل على أن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، يتسلط عليهم القمل ويعرض لهم؛ لأنه من الأعراض البشرية، إلا أن ابن الملقن، رحمه الله تعالى، نقل عن ابن سبع أن القمل لم يكن يؤذيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، تكريمًا له.

ونقل ابن عبد البر، رحمه الله تعالى فى التمهيد أن نعيم بن حماد ذكر عن ابن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن رضى الله تعالى عنه، أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يقتل القمل فى الصلاة، والظاهر أن جسده الشريف لايتولد منه القمل، لاعتدال مزاجه الشريف، وإنما كان يوجد فى ثيابه من الفقراء المجالسين له، وكذا سائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ولو قيل: إن ضمير يبتلى فى حديث الحاكم للصالحين كان أقرب انتهى، وهذا ينافيه ما نقله عن التمهيد وقد تقدم، وفيما قاله دليل على صبر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وعلو همتهم فى النظر للآخرة.

(**وقال عيسى، عليه السلام، لخنزير لقيه**) المراد به الحيوان المعروف، وتجويز أن يراد به الكافر أو العدو أو الجاهل، وإن كان صحيحًا غير مناسب هنا (**اذهب بسلام**) أى اذهب مصحوبًا بالسلامة.

(**فقيل له فى**) شأن (**ذلك**) القول الذى قاله، فإنه لاينبغى (**فقال: أكره أن أعود لسانى النطق بسوء**) عملاً بقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وترغيبًا فى العمل به.

(**وقال مجاهد**) كما رواه أحمد وابن أبى حاتم (**كان طعام يحيى، عليه الصلاة والسلام، العشب**)، وهو النبت الذى يخرج بغير زرع وعينه مضمومة، (**وكان يبكى من خشية الله**

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤)، والبيهقى (٣/٣٧٢).

عز وجل)، والخشية خوف مع تعظيم **(حتى اتخذ الدمع مجرى فى خده)** أى صار محل جريانه منخفضًا متميزًا عن غيره؛ لتأثيره بدوام جريانه فيه، **(وكان يأكل مع الوحش)** أى كان يحيى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يأكل العشب فى القفار الخالية التى يسكنها الوحش، أو يألفهم فيها ويكون معهم؛ **(لئلا يخالط الناس)** أى يعاشرهم ويختلط بهم، فيشغلونه عن العبادة وذكر الله، وما ذكر رواه أحمد فى الزهد عن الخولانى.

(وحكى الطبرى عن وهب أن موسى، عليه الصلاة والسلام، كان يستظل بعريش) هو كل ما يستظل به خيمة كان أو خشبًا أو نباتًا مثلا.

(ويأكل فى نقرة من حجر) بوزن حفرة، فلا يأكل فى آنية ويضع طعامه فى الأرض، **(ويكرع فيها)** أى يضع ما يشربه فى نقرة يكب عليها ويشرب منها بفيه **(إذا أراد أن يشرب)**، وأصل معنى الكرع شرب الدابة بفمها من ماء فى الأرض، وضمير فيها راجع للنقرة المذكورة أو لغيرها من جنسها، كما تقول: أعطيته درهمًا ونصفه، وبه فسر قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ [فاطر: ١١].

(كما تكرع الدابة) أى تشرب بفمها بلا آنية، معنى كرع دخل النهر وصوب رأسه ليشرب؛ **(تواضعًا لله بما أكرمه من كلامه)** إذ كلمه بلا واسطة كما قال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] **(وأخبارهم)** أى الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(فى هذا كله)** من النعوت التى تقدمت فى هذا الفصل المعقود لها **(مسطورة)** فى كتب الحديث والتفسير المعول عليها.

(وصفاتهم فى الكمال وحسن الأخلاق) كما تقدم من الصبر والقناعة والتواضع، **(وحسن الصورة والشمائل)** جمع شمأل وهى الخلق والسجية، وينبغى أن يراد بالأخلاق القوى الطبيعية، وبالشمائل ما ينشأ عنها من الآثار **(معروفة مشهورة)**، وعبر فى الأولى بأنها مسطورة، وفى هذه بأنها مشهورة تفننًا فى العبارة، ولأن الأولى أخبار يحتاج لنقلها من الكتب المعتبرة، وهذه كمالات لائقة بهم تدرك بالعقل، ولكونها مدونة مشهورة غير محتاجة للإعادة، ولكن ذكر منها ما ذكر ليعلم قدرهم وفضلهم.

(فلا نطول بها) مع أنها معلومة، ثم لما كان فى بعض الكتب أمورًا متعلقة بالأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، غير لائقة بهم حذر منها، فقال: **(لا تلتفت)** أى لا تعتبر ولا تعتقد، وأصل الالتفات لى العنق أو انعطاف بالجانب، لتنظر ما تريد معرفته فتجوز به عما ذكر، ومنه الالتفات البديعى **(إلى ما تجده)** وتقف عليه **(فى كتب بعض جهلة المؤرخين)** جمع مؤرخ بالهمزة، وقد تبدل واوًا، وهو المصنف فى التاريخ وهو فن

معروف، وهو لفظ عربى أصله من الأرخ مستعار للحادث من ولد البقرة، أو هو معرب ماه روز وهو بعيد جدًا، وأول ما حدث فى زمن عمر، رضى الله تعالى عنه.

(و) فى كتب بعض (**المفسرين مما يخالف ذلك**) أمثال (**هذا**) المذكور.

* * *

(فصل) [حديث جامع لوصفه ﷺ]

(**قد آتيناك أكرمك الله**) جملة اعتراضية، والخطاب لمن سأله تصنيف هذا الكتاب كما مر، أو لكل من يقف على كتابه، وليس فيه تجريد لمخاطب من نفسه كما قيل، ومفعول آتينا مقدر أى مما عرفته وسمعته، أو مما فيه مقنع بقرينة ما سيأتى (**من ذكر الأخلاق الحميدة**) أى المحمودة الممدوحة، وهو بيان لمقدر أو لما الآتية بناء على جواز تقدمه، (**والفضائل المجيدة**) أى الكريمة الشريفة، (**وخصال الكمال العديدة**) أى الكثيرة المعدودة، وقد تقدم أنه قد يفيد الكثرة؛ لأن القليل لا يحتاج للعد، وقد يراد به القلة والمراد الأول.

(**وأريناك**) أى أعلمناك وأوضحنا لك (**صحتها له ﷺ**) أى كونها صحيحة فى حقه لائقة به.

(**وجلينا**) بجيم ولام مفتوحتين ومثناة تحتية ساكنة أى أوضحنا وبينا، وفى نسخة جلبنا بباء موحدة أى روينا ونقلنا، وفى بعض النسخ حكينا بالكاف بدل اللام والمعنى واحد (**من الآثار**) جمع أثر وهو ما يبقى من علامات الشىء الدال عليه، ويطلق على الحديث، وقد يختص بالموقوف وكلام الصحابة، رضى الله عنهم، ويراد به مطلق الخبر الشامل للحديث المرفوع أو الموقوف وكلام الأكابر وهو المراد هنا (**ما فيه مقنع**) بفتح الميم والنون وبينهما قاف ساكنة مصدر ميمى بمعنى القناعة، أو هو صفة مشبهة بمعنى ما به القناعة والرضى، وفى القاموس يقال: شاهد مقنع وقنعان أى مرضى ويكتفى بشهادته، وقد قال ابن الحاجب: إن مفعلا يكون صفة نحو مركب بمعنى مركوب، إلا أنه نادر، وعلى هذا فما ذكره هو المقنع نفسه، فعدل عنه للمبالغة، وهو تجريد كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ [فصلت: ٢٨]، والتجريد يكون بمن وفى والباء، وما قيل من أن المراد به الدليل، وهذه الآيات والأخبار تتضمن الدليل تضمن اللفظ للمعنى، تكلف مذهب لرونق الكلام.

(**والأمر أوسع**) جملة حالية أى شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، ومقامه أعظم مما ذكرناه وأكثر، فإن محاسنه لا تطيق العبارات حصرها:

وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

(فمجال هذا الباب) بفتح الميم والجيم من جال يجول إذا طاف ودار أى محل تجول فيه الأفكار حول نعوته وصفاته، وهذا الباب عبارة عن خصاله ومحاسنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى ما يقال فى أمره وشأنه الذى يحق له **(ممتد)** أى واسع، فكنى عن كثرتها وعظمتها بسعة محلها كما يقال المجلس والمقام العالى عبارة عمن هو فيه، ثم بين سعته بقوله: **(ينقطع دون نفاده الأدلاء)** جمع دليل، وهو من يتقدم الركب ليهديهم إلى الطريق، وانقطاع سالك الطريق أن يعجز ويقف دون بلوغ غايتها، ففيه استعارة تمثيلية، شبه صفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بطريق ممتد طويل، وشبه العلماء الذين يريدون معرفتها بركب سلكوا طريقًا، وشبه من يستفيدون منه بها بهديهم فى الطريق، وعجزه عن الوقوف على كنهها ممن انقطع ووقف فيها لا يهتدى لسبيله، والأدلاء جمع دليل كما علمت لا بمعنى الحجة، بل بمعنى هادى السابلة كأنبياء جمع نبى، وأصله أدللاء، وقيل: إنه جمع أدلة بمعنى دليل، فهو جمع الجمع، وليس المعنى أن محاسنه وكمالاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، لو أريد غايتها بالأدلة كالآيات والأحاديث وأقوال الصحابة لم يكن إلا أن يراد بين المقصود منه، ونفاد بالفاء والدال المهملة بمعنى الذهاب والفناء قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤]، ولاوجه لتفسيره بفراغه.

(وبحر علم خصائصه) من إضافة المشبه به بالمشبه كلجين الماء، وقد تعكس لكنه قليل **(لا تكدره الدلاء)** جمع دلو، وهو ما يؤخذ به الماء من الأديم، وعدم تكديره عبارة عن عدم بلوغ آخره؛ لأنه إذا بلغه حرك طينه فيتكدر ماؤه، وهو ترشيح للتشبيه، فإن الترشيح لا يختص بالاستعارة من الكدرة خلاف الصفو، وفيه إشارة لصحته وكثرته.

(لكنا أتينا فيه بالمعروف) المشهور الذى يعرفه الناس **(مما أكثره فى الصحيح)** أى الكتب الصحيحة كالكتب الستة، وأشار بقوله: أكثره إلى أن فيه أحاديث غير صحيحة اعتمد على شهرتها، وذكر أن بعض المصنفين لها أوردها لما فيها من الفضائل كما أشار إليه بقوله: **(والمشهور من المصنفات)** التى لم يلتزم فيها الصحيح.

(واقتصرنا فى ذلك) الذى أتينا به وأريناه أى اكتفينا **(بقل من كل)**، وفى نسخة من أكثر، والأصح ما ذكرناه، والقل بضم القاف وتشديد اللام بمعنى القليل، أو بمعنى القلة كالذل بمعنى الذلة أى ذكرنا أمرًا قليلاً منه لا كثيرًا، أو دون الجميع لأنه لا يمكن الإحاطة به.

(وغيض من فيض) الغيض بفتح الغين المعجمة وسكون المثناة التحتية والضاد المعجمة من غاض الماء إذا نقص، والمراد أنه قليل، والفيض بفاء ومثناة تحتية وضاد معجمة من

فاض الماء إذا تدفق وانسكب، والمراد أنه كثير وفيه طباق وافتنان.

(ورأينا) هو من الرأى لا من الرواية أى خطر له خاطر **(أن نختم هذه الفصول)** أى نجعل خاتمة هذه الفصول التى سبق ذكرها فى هذا الباب **(بذكر حديث الحسن)** رضى الله تعالى عنه ابن على بن أبى طالب، كرم الله وجهه، الذى رواه الترمذى فى شمائله، وأخرجه ابن سعد والبيهقى والطبرانى، ورواه المصنف، رحمه الله تعالى، عن مشايخه.

(عن أبى هالة) وهو هند بن أبى هالة الصحابى، رضى الله تعالى عنه، ربيب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأنه ابن خديجة بنت خويلد أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، وقد تقدم الكلام عليه وترجمته **(لجمعه)** الضمير للحديث، وهو علة لذكره وجعله مسك الختام **(من شمائله وأوصافه)** عطف تفسير **(كثيرًا)** مفعول جمعه المصدر المضاف لفاعله، **(وإدماجه)** أى اشتماله من أدمج الشىء إذا لفه وستره، وقيل: المراد لإحكامه وإتقانه وأنه أولى **(جملة كافية من سيره وفضائله)** مفعول الإدماج لما فيه من معنى الإدخال. قال الجوهرى: دمج دموجًا إذا دخل واستحكم، **(ونصله بتنبيه لطيف على غريبه ومشكله)** أى نبين فى التنبيه ما فى الحديث من غريب اللغة، وما يشكل من تركيبه.

(حدثنا القاضى أبو على الحسين بن محمد الحافظ بقراءتى عليه سنة ثمان وخمسمائة)، هو الإمام الحافظ أبو على بن سكرة الذى تقدمت ترجمته.

(قال: حدثنا الإمام أبو القاسم) التكنية بهذه الكنية جائز، وما ورد فى حديث «تسموا باسمى ولاتكنوا بكنيتى»(١) محمول على حياته صلى الله تعالى عليه وسلم، أو على الجمع بينهما على ما يأتى، لما فى ذلك من الخلاف **(عبد الله بن طاهر)** بطاء مهملة تقدمت ترجمته **(التميمى)** منسوب لبنى تميم قبيلة مشهورة **(قرأت عليه: أخبركم الفقيه الأديب أبو بكر محمد بن عبد الله بن الحسن النيسابورى)** الأديب هو العارف بعلوم الأدب الاثنى عشر المشهورة، **(والشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحسن المحمدى)** منسوب للمحمدية قرية من قرى تونس، وتسمى بهذا الاسم قرى أخر بنواحى مصر وبغداد واليمامة، **(والقاضى أبو على الحسن بن على بن جعفر الوخشى)** بواو مفتوحة وخاء وشين معجمتين نسبة لوخش قرية من أعمال بلخ، وقيل: بحاء مهملة والصحيح الأول، وعليه اقتصر البرهان، وهو الحافظ الرحلة الحسن بن على بن محمد بن

(١) أخرجه البخارى (٣٨/١، ٨٦/٣، ١٠٣/٤)، ومسلم فى الآداب (٥/١، ٧)، وأبو داود (٤٩٦٥)، وابن ماجه (٣٧٣٥)، وأحمد (٣٩٥/٢)، والدارمى (٢٩٤/٢)، والبيهقى (٣٠٨/٩)، وعبد الرزاق (١٩٨٦٦).

جعفر البلخى يروى عن جماعة، وحدث عنه الخطيب وهو من أقرانه، وسمع منه الحسن ابن على البلخى سنن أبى داود، وهو ثقة، ترجمته معروفة إلا أنه اتهم بالقدر، توفى خامس ربيع الأول سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ببلخ، وعمره ست وثمانون سنة.

(**قال: حدثنا أبو القاسم على بن أحمد بن محمد بن الحسن الخزاعى**) بضم الخاء المعجمة نسبة لخزاعة قبيلة معروفة قال: (**أنبأنا أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشى**) نسبة لشاش بلدة معروفة بما وراء النهر، وهو الحافظ الثقة أبو سعيد الهيثم بن كليب بن شريح بن معقل صاحب المسند محدث ما وراء النهر سمع من الترمذى وغيره، توفى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة قال: (**أنبأنا أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الحافظ**) الإمام الترمذى صاحب السنن، وسورة بفتح السين المهملة وسكون الواو وراء مهملة كما تقدم.

(**قال: حدثنا سفيان بن وكيع**) بن الجراح أبو محمد، روى عنه أصحاب السنن وله ترجمة فى الميزان، توفى سنة سبع وأربعين ومائتين.

(**قال: حدثنا جميع**) بزنة مصغر جمع ضد المفرد (**ابن عمر بن عبد الرحمن العجلى**) الكوفى، وعجل اسم قبيلة بكسر العين المهملة وسكون الجيم (**إملاء من كتابه**) الذى بيده أو بيد غيره، وهو أحد طرق الرواية المقبولة من الثقة المصحح لكتابه، وما روى من منع الرواية من كتابه الصحيح خلافه كما فصلاه.

(**قال: حدثنا رجل من بنى تميم من ولد أبى هالة زوج خديجة أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، يكنى أبا عبد الله**) هذا الرجل هو عبد الله بن أبى هالة الذى كان تزوج خديجة قبل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما مر، وهذا الرجل أخرج عنه الترمذى فى شمائله (**عن ابن لأبى هالة**) قال الذهبى وتبعه البرهان: إن هذا الرجل لا يعرف اسمه، فهذا الحديث منقطع؛ لأن فيه راويًا مجهولاً، وهالة علم منقول من هالة القمر وهى دارته.

(**عن الحسن بن على بن أبى طالب قال: سألت خالى هند بن أبى هالة**)؛ لأنه أخو فاطمة الزهراء، رضى الله تعالى عنها، لأمها (**قال القاضى أبو على**) بن سكرة المتقدم، فروى هذا الحديث من طريقين، (**وقرأت على الشيخ أبى طاهر أحمد بن خداداذا الكرجى الباقلانى**) وخداداذا بضم الخاء المعجمة وفتح الذال المعجمة وألف ودال مهملة وألف ثم ذال معجمة وألف مقصورة كذا ضبطه البرهان، وهو معرب حداداد بدالات مهملة، ومعناه بالفارسية عطية الله، والكرجى بفتح الكاف والراء المهملة، ثم جيم منسوب للكرج اسم بلدة لأبى دلف العجلى، واسم بلدة بالدينور وبضم فسكون اسم

مملكة معروفة، والباقلانى بتشديد اللام قال الجوهرى: الباقلاء إذا شددت لامها قصرت وإن خفت مددت.

(قال) أبو على: **(وأجاز لنا الشيخ الأجلُّ أبو الفضل أحمد بن الحسن بن خيرون)** هو الحافظ المتقدم ترجمته **(قالا: أخبرنا أبو على الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن ابن محمد بن شاذان)** بشين معجمة وألف ونون معرب، ومعناه بالفارسية السرور **(ابن حرب)** كضد السلم **(ابن مهران)** بكسر الميم **(الفارسى)** منسوب لفارس ديار العجم **(قراءة عليه فأقر به)** هو شرط لقبول الرواية عمن قرىء عليه، فيقال له: أخبركم بهذا فلان عن فلان، فيقول: نعم أخبرنى به، فلذا قيده المصنف، رحمه الله تعالى، بهذا.

(قال: أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله ابن الحسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب المعروف بابن أخى طاهر العلوى) هذا الرجل ترجمه الذهبى فى الميزان ونسبه كما هنا، وروى حديث: «على وذريته مجتمعون الأوصياء إلى يوم القيامة»، وهذا الحديث يدل على كذبه ورفضه، وهو متهم بالكذب، ولولا هذا لازدحم الناس عليه؛ لأنه معمر توفى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة.

(قال: حدثنا إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب قال: حدثنى على بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين) على هذا هو جعفر بن محمد الصادق، روى عن أبيه وأخيه موسى، وروى عنه الترمذى دون أصحاب السنن إلا أنهم لم يوثقوه، وانفرد بالرواية عنه الترمذى.

(عن أخيه موسى بن جعفر) هو موسى بن جعفر بن محمد الكاظم، وهو إمام ثقة **(عن جعفر بن محمد)** هو الصادق وقد تقدم **(عن أبيه محمد)** هو محمد **(بن على)** أبو جعفر الباقر **(عن على بن الحسين)** هو زين العابدين الإمام المشهور **(قال: قال الحسن بن على)**، رضى الله تعالى عنهما، **(واللفظ لهذا السند)** يعنى اللفظ المذكور مخصوص بالطريق الثانى، والسند بالنون بمعنى الإسناد، وليس السيد بمثناة تحتية، لأنه لم يذكر أنه رواه عن على بن الحسين زين العابدين، وكذا لم يذكر أنه رواه أحد مع الحسن هو ابن على كما فى المقتفى، وهذا إسناد شريف لأن رواته كلهم من أهل البيت، ومثله حديث صفة الصلاة حتى نقل التلمسانى، رحمه الله تعالى، أنه إذا قرىء على مصاب أفاق، ورجال سنده كلهم معرفون.

(سألت خالى هند بن أبى هالة عن حلية رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم) الحلية بمعنى ما يتحلى به الإنسان أى مما يرى من وجهه الشريف وبدنه، وهى بكسر الحاء

المهملة وسكون اللام، **(وكان وصافًا)** أى كان فصيحًا له خبرة بوصف الناس لحذقه، أوكان معروفًا بذكر صفات النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وأنا أرجو)** جملة حالية أى راجيًا **(أن يصف لى منها)** أى من حلية النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(شيئًا)** أى مقدارًا منها؛ لأن جميعها لا تحصى، أو بعضها لا تفى العبارة به **(أتعلق به)** أى أحفظه وأتمسك به تبركًا.

(قال: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فخمًا مفخمًا) بفتح الفاء وسكون الخاء المعجمة، والمفخم بوزن المكرم، والفخم بمعنى العظيم، وأصل الفخامة العظمة فى الأجسام، ثم شاعت فى المقدار والشرف، فإن كان المراد الأول وهو الظاهر، فالمعنى أن أعضاءه، صلى الله تعالى عليه وسلم، تامة الخلقة واسعة سعة غير مفرطة كما تقدم فى الباب الثانى أنه كان واسع الصدر، وعينه نجلاء أى واسعة الشق، ووجهه الشريف ممتلىء باللحم، وأن قامته الشريفة غير قصيرة، والمراد بكونه مفخمًا أنه كذلك فى العيون الناظرة إليه، ويحتمل أن يراد بكونه فخمًا هذا المعنى، وأن يراد بكونه مفخمًا أن له، صلى الله تعالى عليه وسلم، مهابة فى العيون والصدور مع الجلال.

(يتلألأ وجهه) أى يضىء ويشرق، وهو مأخوذ من اللؤلؤ لصفائه ولمعانة **(تلألؤ القمر ليلة البدر)** أى فيه نور كنور القمر فى ليلة البدر، وقد تقدم الكلام فيه وتفسيره **(أطول من المربوع)**، وهو الذى بين الطول والقصر كالربعة، وقال التلمسانى: المراد به هنا القصير الذى تحت الربعة؛ لئلا يناقض ما ورد من وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأنه ربعة، وأصل المربوع الحبل المفتول على أربع طاقات، فاستعير لما ذكر انتهى.

أقول: لا حاجة لما ذكر لصرفه عن ظاهره؛ لأن المراد أنه يزيد على الربعة زيادة يسيرة لا تخرجه عن كونه ربعة، فهذا أمر تحقيقى، وربعة أمر تقريبى، فلا منافاة بينهما؛ ولذا قال: **(وأقصر من المشذب)** بضم الميم وفتح الشين والذال المعجمتين المشددة والباء الموحدة، وهو المفرط فى الطول كالبائن، وهو مستعار من النخلة المشذبة، وهى التى قطع بعض جريدها، والتشذيب قطع كالتقليم.

(عظيم الهامة) بالهاء وتخفيف الميم، وهى الرأس، وليس المراد أنها مفرطة فى الكبر، بل كبيرة كبرًا نسبيًا لأن صغرها وإفراط كبرها غير ممدوح لدلالته على قلة العقل، وقيل: الهامة وسط الرأس، وقيل: مخه، ولها معان أخر غير مناسبة هنا.

(رجل الشعر) بكسر الجيم على وزن حذر، والشعر معروف ويجوز فتح عينه وسكونها كما مر، والمراد أن فيه تجعدًا قليلاً، وهو من صفاته الممدوحة فيه، ويقال

لضده قطط وهو الشديد الجعودة، والسبط المسترسل.

(إن انفرقت عقيقته فرق) انفرق أى صار شعر رأسه فرقتين، والعقيقة الشعر الذى على رأس المولود الذى يخرج عليه حين يولد من عق إذا قطع؛ لأنه يحلق فى اليوم السابع، فسمى به شعر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، على طريق المجاز المرسل لاستعمال المقيد فى المطلق، وليس استعارة تحقيقية كما قيل، ومعنى فرق أبقاه منفرقًا على حاله إذا انفرق بنفسه، يقال: فرقه فانفرق والفرق والمفرق البياض الواقع بين شعر الرأس، وفى رواية عقيصته بالصاد المهملة بدل عقيقته.

(وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنه)، وفى رواية أذنيه بالتثنية وهما بمعنى كما يقال: نظرت بعينى إذا نظر بعينيه، وهكذا فى كل عضو كان كذلك كما هو مقرر فى العربية، وشحم الأذن ما لان منهما حيث يعلق القرط، وتقدم فى هذا الحديث: «ما رأيت من ذى لمة فى حلة حمراء أحسن من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم»، وأن اللمة الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن، فإذا وفر شعره صار لمة أى ما يلم بالمنكبين، واللمة دون الجمة، والوفرة دون اللمة والجمة أكثر من الوفرة وهى ما سقطت على المنكبين، فالوفرة أبلغ منها اللمة، والجمة أبلغ منهما، وفيه كلام تقدم، والفرق سنة بخلاف السدل من قدام أو خلف، ومعنى قوله: وإلا: وإن لم يفرق، فعلم منه إذا فرق جاوز الشحمة ووصل المنكب، وأحواله مختلفة فى الطول، ولذا قيل له لمة وجمة.

(إذا هو وفره)، وفى بعض النسخ وفر بدون ضمير، والمعروف رواية الأول كما قال المزى، وفاؤه مخففة ومشددة أى كثرة، وقد نقل بعد الحلق وغيره كما عرفته، وهذا أولى من حمل اختلاف الروايات على التقريب.

(أزهر اللون) سيأتى معنى الأزهر، وأن معناه أبيض مشرب بحمرة، وقد ورد أنه ليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم، وبهذا علم ما روى أنه كان أسمر، ولعله رآه عقيب سفر ونحوه، أو لم يحققه لأنه لمهابته، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يحدق النظر فى وجهه، وفى رواية أنه كان أبيض شديد الوضح، والمراد بالوضح البياض وقد يطلق على البرص، ولذا سمى جزيمة الأبرص الوضاح، ويؤيده أنه ورد أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان عنقه كوز فضة ويأتى كأن ساقه جمارة، وكشف ظهره فكأنه سبيكة فضة، وقيل: إن سمرته حمرته، ولذا قيل فى الجمع بين الروايات: إنه كان يميل إلى السمرة أو البياض لونه، وهذا عرض له بعد ذلك لكثرة أسفاره.

(واسع الجبين) فى القاموس الجبينان حرفا الجبهة وجانباها عند الصدغين وبعد

الحاجبين، والجبهة وسطه أو هو جميع ما بين الصدغين، فتدخل فيه الجبهة إلى قصاص الشعر.

(أزج الحواجب) أزج أفعل كأحمر، والزجج تقوس فى الحواجب مع طول فى طرفه وامتداد بدقة فى طرفيه، وأراد بالحواجب الحاجبين، وجمع لأن أقل الجمع اثنان أو لإطلاقه على أجزائه، وهما العظمان فوق العينين بلحمهما وشعرهما، ويطلق على الشعر، وسمى به لأنه يحجب الشمس وغيرها عن العين **(سوابغ)** بالسين والصاد جمع سابغ؛ لأنه لما لا يعقل، وقيل: جمع سابغة وفيه أى طوال كاملة **(من غير قرن)** بفتحتين أى من غير اقتران واتصال؛ لأنه غير ممدوح عند العرب، وما وقع فى حديث أم معبد من وصف حاجبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالقرن، فيحتمل أنه كان بينهما شعر دقيق جدًا إذا سافر، وعلاه غبار السفر ظن قرنا، وما قيل: إنه بطريق الرأى أو أنه لاختلاف الرؤية قربا وبعدًا، أو أنه حدث له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد ذلك بعيد جدًا، بل لا وجه له **(بينهما)** أى بين الحاجبين، وهذا يدل على أن الجمع فى الحواجب بمعنى المثنى هنا.

(عرق يدره الغضب) بضم الياء مضارع الإدرار، من أدر الضرع والسحاب إذا كثر دره، وهو لبنه وماؤه فحلب، والمراد أنه يظهر لغليان الدم بالغضب بعد ما كان خفيا، لا أنه يحدث بعد أن لم يكن، وهذا لا ينافى ما ورد من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، حليم لا يغضب؛ لأنه باعتبار أكثر أحواله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنه لا يغضب لنفسه، ولا لأجل أمر دنيوى، ولكنه قد يشتد غضبه لله إذا انتهكت حرمه، وفى ضربه للأعداء كما قال الصرصرى، رحمه الله:

بجبينه عرق يدر إذا سطا غضبًا على الأقران يوم طعان

والغضب تهييج الحرارة الغريزية، فيغلى الدم منها، ولذا يحمر الوجه وتنفتح العروق.

(أقنى العرنين) القناء فى الأنف طوله ودقة أرنبته أى ظرفه مع ارتفاع يسير فى وسطه، والعرنين بكسر العين الأنف أو ما صلب منه أو ما تحت مجمع الحاجبين، وهو أول حيث يكون الشمم، والجمع عرانين ويكنى به الأشراف لشموخ أنفهم وارتفاعه على أقرانه قال[1]:

إن العرانين تلقاها محسدة ولا ترى للئام الناس حسادا

(له نور يعلوه) الضمير له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وجوزوا أن يعود للعرنين؛ لأنه

---

(١) البيت من البسيط، وهو بلا نسبة فى أساس البلاغة (ص٨٣).

وإن كان وجهه كله له نور لكنه أول ما يتعلق به، ولذا سمى أنفًا أيضًا.

(يحسبه من لم يتأمله أشم) الشمم فى الأنف ارتفاع وسط قصبته مع استواء أعلاه وإشراف أرنبته قليلا، يعنى أن وسطه فيه استواء مع أعلاه وأسفله، ولكنه لتلألئه قد يظن أن فيه ارتفاعًا، أو أن فيه قليلاً جدًا لايعد شممًا، والشمم قد يعبر به عن عزة النفس وعدم التنزل للأمور، وهو ما يمدح به كما قال كعب، رضى الله عنه[1]:

شم العرانين أبطال لبؤسهم من نسج داود فى الهيجا سرابيل

والتأمل إعادة النظر وتكراره ليثبت فيه ويقف على كنهه، وهو فى الأصل تفعل من الأمل والرجاء؛ لأن الإنسان لا يعيد النظر غالبًا إلا لما فيه أمل، فأطلق على لازمه وشاع حتى صار حقيقة فيه، وقيل: الشمم طول الأنف مع سيلانه ودقته، والأول أصح وأشهر.

(كث اللحية) بفتح الكاف وتشديد المثلثة، والكث كون اللحية كثيرة الشعر من غير طول ولا دقة شعر، وما اشتهر من قوله: «من سعادة المرء خفة لحيته»[2]، لم يثبت أنه حديث مع أنه قيل: إنما خفة لحييه مثنى لحى، وأن معناه كثرة تحريكهما بذكر الله، أو المراد عدم طولها.

(أدعج) أى سواد عينيه شديد مع بياضها، ويقال: رجل أدعج أى أسود، وليس بمراد، وسيأتى فيه كلام.

(سهل الخدين) أى غيرمرتفع الوجنة، وكثير اللحم فيهما، فإنه غير محمود، وقيل: المراد أنه طلق منبسط.

(ضليع الفم) بضاد مفتوحة معجمة أى طويل انشقاق الفم واسعه، وهو مما يتمدح به ويعاب ضده؛ لدلالته على الفصاحة، وليس المراد به عظم الأسنان وتراصها كما قاله التلمسانى، وشعراء المولدين يمدحون صغر الفم، وهو خطأ منهم أو لمعنى آخر لا يلتفت إليه كما مر.

(أشنب) بنون بين شين معجمة وباء موحدة أى ذو شنب، وهو كما فى النهاية بياض وبريق وصفاء وتحديد فى الأسنان، وقيل هو رونقها وماؤها، وقيل: برد وعذوبة

---

(١) البيت من البسيط، وهو لكعب بن زهير فى ديوانه (ص٢٣)، لسان العرب (٢/٣٩٥)، تاج العروس (سربل).

(٢) تقدم تخريجه.

فيها، وقيل: نقط بيض وتحزيز فيها، وسئل رؤبة عن قول ذى الرمة[١]:

لمياء فى شفتيها حوة لعس ... وفى اللثاث وفى أنيابها شنب

فأخذ حبة رمان وقال: هذا هو الشنب أى أنه صفاؤه وماء فيها كهذا، ومن أمثال المولدين «فاتك الشنب» لمن أرد التشبه بمن لا يشبهه. قال ابن الوكيل، رحمه الله تعالى:

يابارقا بأعالى الرقمتين بدا ... لقد حكيت ولكن فاتك الشنب

(مفلج الأسنان) تقدم أن الفلج عدم تلاصق الأسنان، وهو أنقى للفم وأطيب، وفى حديث على، كرم الله تعالى وجهه، أفلج الثنايا، وهو المراد بالأسنان، أو المراد الثنايا والرباعيات؛ لأن تباعد الأسنان كلها معيب، وقد تقدم كلام فيه، ومفلج مضموم الميم مشدد اللام، ويشبه به تقارب الدار مع عدم التلاقى كقوله:

مالى به مع قرب دارى ملتقى ... فهل رأيت ثغره المفلجا

(دقيق المسربة) بميم مفتوحة وسين مهملة ساكنة وراء مهملة مضمومة وباء موحدة مفتوحة تليها هاء، وهو شعر كالخيط سائل من الصدر إلى السرة، ووصفه بالدقة لأنه غير عريض ولا متكاثف طويل.

(كأن عنقه جيد دمية) الجيد العنق إلا أن السهيلى قال: إن العنق يستعمل فى غير المدح، والجيد يستعمل فى مقام بخلافه، وإن قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد:٥]، تهكم لجعل الحبل عقدًا لها، وما هنا على أصل اللغة لا على نهج الاستعمال، فلا اعتراض عليه، والدمية بضم الدال المهملة وسكون الميم وتخفيف المثناة التحتية، وهى الصورة من رخام أو عاج، والمراد شدة بياضه وطوله، ويؤيده ما روى من أن عنقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كإبريق فضة، ويشير إليه هنا قوله: **(فى صفاء الفضة)** أى بياضها الخالص، وهذا يؤيد مامر من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليس بأسمر وإنما شبه بالدمية لأن صانعها يبالغ فى تحسينها، ولهذا ضرب بها المثل.

(معتدل الخلق) بفتح فسكون أى متوسط الخلقة بين الطول والقصر، والسمن والهزال، والضخامة والصغر، فهو متناسب الأعضاء مستقيم فى أحسن تقويم.

(بادنا) أى ضخم البدن غير دقيق الأعضاء صغيرها، وأردفه بقوله: **(متماسكا)** أى كأن أعضاءه تمسك بعضها بعضا لشدة ارتباطه به ومناسبته له، وهو منصوب صفة بادنا، وروى بالرفع خبر مبتدأ مقدر.

---

(١) البيت من البسيط، وهو لذى الرمة فى ديوانه (ص٣٢)، الخصائص (٣/٢٩١)، الدرر (٦/٥٦)، لسان العرب (١/٥٠٧)، المقاصد النحوية (٤/٢٠٣)، همع الهوامع (٢/١٢٦).

(سواء البطن والصدر) أى متساويهما لم يرتفع أحدهما على الآخر.

(مشيح الصدر) بضم الميم وكسر الشين المعجمة ومثناة تحتية ساكنة وحاء مهملة بمعنى عريض متسع مع مساواته لبطنه من غير تقاعس وانخفاض فيه، وروى بفتح الميم وكسر السين المهملة وهو بمعناه.

(بعيد ما بين المنكبين) تثنية منكب بفتح الميم وكسر الكاف ونون بينهما وآخره باء موحدة، وهو ما بين الكتف والعنق، والمراد ببعدهما سعتهما، وهو أقوى للبدن والبطش، وعبر عنه تارة بالبعد وتارة بالعظم، والكل واحد، وما موصولة.

(ضخم الكراديس) جمع كردوس، وهو رأس العظم أو ملتقى كل عظمين كالمرفقين، وضخم بمعنى كبير، وكل عظم كثير اللحم كردوس.

(أنور المتجرد) اسم مفعول يعنى ما خفى من البدن من التجرد وهو الكشف ورفع الثياب، وأنور بمعنى نير مشرق أو أفعل تفضيل؛ لأن ما تحت الثياب من البدن لعدم ملاقاته الهواء والشمس أبيض من الأطراف المكشوفة، وورد فى وصفه ﷺ أنه أجرد، وهو ضد الأشعر، فإن الشعر كان على أماكن مخصوصة من بدنه كالمسربة والساعدين والساقين.

وقال الشريف الغرناطى، فى شرح البردة: قال بعض الصحابة: رأيت ساق النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى غرز الركاب كأنه جمارة يعنى فى بياض اللون والطراوة.

فإن قلت: الوارد فى صفته، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه أزهر اللون أى مشرب بحمرة وبياض الجمار خالص.

قلت: يمكن الجمع بأن ما تحت الثياب مما لم يباشره الشمس خالص البياض بخلاف غيره انتهى.

(موصول ما بين اللبة) بفتح اللام وتشديد الباء الموحدة وهى النحر، وقيل: الصدر، وقيل: موضع القلادة وما موصولة لا زائدة **(والسرة)**، وهى موضع ما يقطع من المولود والمقطوع سر **(بشعر)** متعلق بموصول **(يجرى كالخط)**، وهو المسربة السالفة، وجريانه امتداده كماء جار، والخط الطريقة المستطيلة المستقيمة، وفى الاصطلاح: ما وصل بين نقطتين متقابلتين، فكأنه جعل اللبة وهى النقرة التى فوق الصدر نقطة، والسرة نقطة أخرى، والشعر الرقيق بينهما خطا.

(عارى الثديين) تثنية ثدى بفتح المثلثة وكسرها تذكر وتؤنث، وروى الثندوتين بثاء مثلثة ونون وهما بمعنى، قال الجوهرى: الثدى يكون للرجل والمرأة ووافقه الصاغانى،

وفى درة الغواص الثدى خاص بالمرأة والذى للرجل ثندوة، وهى غير مهموزة كترقوة على فعلوة، وهو مغرز الثدى أو رأسه، فإن ضممت همزته وهو فعلوة ففيه تفصيل بيناه فى شرح الدرة، وعلى ما قاله الحريرى تبعا لبعض أهل العصر صوب بعضهم رواية الثندوتين، وزعم أن غيره خطأ لعدم ثبوته فى اللغة، وما قيل من أنه صحيح على الاستعارة غير صحيح، ومعنى عاريهما أنه لا شعر عليهما، وقيل: لا لحم عليهما، لما سيأتى من أنه أشعر إلى آخره، وفيه نظر لأنه لم يذكر فيه أنه على ثدييه شعر كما ستسمعه قريبا **(ما سوى ذلك)** أى ماسوى الشعر الذى بين السرة واللبة، وهو بدل من الثديين، وفيه نظر وروى ما سوى ذين وهو أظهر.

(أشعر) أى كثير الشعر فى **(الذراعين)** بكسر الذال المعجمة ما بين المرفق وطرف الأصابع **(والمنكبين)** تقدم بيانهما **(وأعالى الصدر طويل الزندين)** تثنية زند، وهو طرف الذراع المتصل بالكف، وطرفاه الكوع وهو رأس الذراع مما يلى الإبهام، والكرسوع وهو رأسه مما يلى الخنصر، وهما العظمان اللذان فى ظاهر الساعد، والمراد عظم الذراع فسماه باسم بعضه، ولذا وصفه بالطول.

(رحب الراحة) أى واسع الكف، والكف والراحة بمعنى، والراحة من الروح وهو الاتساع.

(شثن) بفتح الشين المعجمة وسكون الثاء المثلثة والنون، وهو الضخم الممتلىء لحما، ويؤيده أنه ورد فى رواية أنه ضخم **(الكفين والقدمين)**، وما فى النهاية فى تفسيره من أنهما يميلان إلى الغلظ والقصر غير مناسب؛ لقوله رحب الراحة، وقيل: هو الذى فى أنامله غلظ بلا قصر، وذلك محمود فى الرجال دون النساء لأنه أشد للقبض والبطش، وقال ابن بطال: كانت كفه ﷺ ممتلئة لحما وهى مع ضخامتها لينة، وفى حديث أنس، رضى الله عنه: مامسست حريرا ألين من كفه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقول الأصمعى: الشثن غلظ مع خشونة لم يوافق عليه، ولا حاجة لتأويله بأنه لأمر عارض فى أسفاره وجهاده واستعمال يديه فى مهنة بيته؛ فإنه مناف لعده من الحلية وهى الصفات الخلقية، فإن الذى ارتضاه أهل اللغة أنه الضخم، ولا ينافيه قوله: **(سائل الأطراف)**، وبسط الكفين أو سبط الكفين كما قيل؛ لأن المراد بالأطراف الأصابع والكف والقدم مغرسهما، فليست داخلة فى معناهما، ومعنى سائل باللام طويل، فكأنه شبهها بعين سالت من بركة لطولها وصفائها وبياضها ولينها؛ لأن راحته، صلى الله تعالى عليه وسلم، تنبع منها الخيرات والمياه، كما قلت فى قصيدتى الهمزية:

نبع الماء من أصابع كفه بأياد ما غاض فيها الماء
لا تقسها على أصابع نيل كم لكسر من جبرهن وفاء

(أو قال: سائن الأطراف) شك من الراوى فى قول ابن أبى هالة أنه قال ما تقدم، أو قال: سائن بنون مبدلة من اللام كما يأتى قالوا: جبريل وجبرين، وإسماعيل وإسماعين.

(وسائر الأطراف) بالراء المهملة مكان اللام، ومعناه باقى أو جميع، وليس الثانى خطأ كما قاله الحريرى وتبعه فى الشرح الجديد كما فصلناه فى شرح الدرة، وعلى هذا الأخير هو مجرور معطوف على القدمين أى ضخم أطرافه كلها، وليس شكه لتقارب الحروف الثلاثة فى الخط والمخرج كما قيل، وقد ضبب فى النسخ على قوله: سائن بالنون، والصواب إثبات الألفاظ الثلاثة لما سيأتى فى تفسيرها كما قاله فى المقتفى، وجاء هذا فى بعض الروايات من غير شك.

(سبط العصب) سبط بسكون الباء الموحدة وكسرها بمعنى ممتد ليس به تعقد وثيق كما فى النهاية، والعصب وقع فى أصل البرهان بعين وصاد مهملتين كما ضبطه ابن الأنبارى، والذى اتفق عليه ابن الأثير والهروى أنه القصب بالقاف لا بالعين، والمراد بالقصب ساعداه وساقاه، وفى الغرسين كل عظم عريض لوح، وكل أجوف فيه قصبة، وجمعها قصب ويشهد له أن العرب تتمدح به كما قال(١):

فجاءت به سبط العظام كأنما عمامته بين الرجال لواء

لأنه يدل على قوة البدن والشجاعة، والعصب بالعين ما يمتد فى البدن لربط الأعضاء وتحريكها كما بين فى علم التشريح، وهو إطناب المفاصل، وقيل: المراد به ههنا عظام الساقين والساعدين مجازًا؛ لما بينهما من المجاورة، فتتحد الروايتان وهو بعيد جدًا.

(خمصان الأخمصين) خمصان بضم الخاء المعجمة وفتحها وسكون الميم لا بفتحها كما توهمه عبارة القاموس، وتبعه بعضهم هنا، وبهما ضبط لفظ الشفاء ومعناه الضامر البطن، وهو هنا بمعنى المتجافى عن الأرض أى المرتفع، والأخمصين مثنى أخمص بوزن أحمر، وهو ما دخل من باطن القدم ولم يصب الأرض؛ لعدم مساواته العقب ومقدم القدم، وسمى به لضموره ودخوله، ولما كان أخمص القدم قد يطلق على ما يلى الأرض منها مطلقا أتى بقوله خمصان مضافا إليه، ليبين أنه على ظاهره، وهو المحل المرتفع، وليس

---

(١) البيت من الطويل، وهو لبعض بنى العنبر فى خزانة الأدب (٩/٤٨٨)، ولرجل من بنى الجناب فى المقاصد النحوية (٣/٢٢١)، وبلا نسبة فى أمالى المرتضى (١/٥٧١)، شرح الأشمونى (١/٢٤٣).

المراد به المبالغة فى ارتفاعه كما فسره بعضهم هنا بالشديد التجافى لهـذا، فجعلـه كليـل أليل، وقد قال ابن الأعرابى: إذا كـان خميـص الأخمـص بقـدر لم يرتفـع جـدا ولم يستو أسفله فهو أحسن، فإن استوى أو ارتفع جدًا فهو مذموم، فمعنى خمصان الأخمصين أنـه مرتفع باعتدال، وقال البرهان: وسيأتى ما ينافى هـذا يعنى قولـه مسيح القدمين، قـال البارزى فى كتاب توثيق عرى الإيمان: خمصان الأخمصين متجـافى أخمـص القـدم، وهـو الموضع الذى لا تناله الأرض من وسط القدم.

وقوله: **(مسيح القدمين ينبـو عنـهما المـاء)** قـال المصنـف، رحمـه الله، فيمـا يـأتى: أى أملسهما، ولذا قال: ينبو عنهما الماء، وفى حديث أبـى هريـرة خلافـه، ففيـه إذا وطـىء بقدميه وطىء بكليهما ليس له أخمص، وهـذا يوافـق معنـى قولـه مسيح القدمـين، وقـد قالوا: سمى عيسى ابن مريم ﷺ مسيحا لأنـه لم يكـن لـه أخمـص، وقيـل: معنـى مسيح القدمين لا لحم عليهما، وهو مخالف لقوله: شثن القدمين انتهى، وأقره صاحب المقتفـى، وفى الشرح الجديد فى النهاية: معنى مسيح القدمين أنـهما ملسـاوان لينـان ليـس فيـهما التواء وانشقاق، فإذا أصابهما الماء سال ومر سريعا من جانب الكعب القبلى، وقال ابـن الحنجلى فى شرح قصيدة الصرصرى النونية: ليس المسيح باطن القدمين الـذى هـو محـل الخمصان، بل ظاهرهما للملامسة، فلا تعارض بين العبارتين.

أقول: هذا كله خلط منهما، وليت شعرى ما يقول فى حديث أبى هريرة الذى نقله البارزى، فالإشكال الذى ذكره البرهان غير مندفع، اللهم إلا أن يقـال: إن الخمصـة فيـه قليلة جدًا، ومعنى ينبو: يرتفع، والمـراد بـه مفارقـة المـاء وانصبابـه مجـازًا، وأنشـدوا هنـا لبعضهـم:

يـارب بـالقدم التـى أوطأتـها ... مـن قـاب قوسـين المحـل الأعظمـا
وبحرمـة القـدم التـى جعلـت لهـا ... كتـف المؤيـد بالرسـالة سـلما
ثبـت علـى متـن الصـراط تكرمـا ... قدمـى وكـن لى منقـذًا ومسـلما
واجعلهمـا ذخـرى فمـن كانـا لـه ... ذخـرا فليـس يخـاف قط جهنما

والقدم الأولى قدمه، ﷺ، والثانية قدم على، رضى الله عنـه، لمـا قـال لـه، ﷺ، يـوم الفتح: اصعد لكسر أصنام الكعبة، فصعد علـى كتفـه، ﷺ، فـى حديـث رواه صـاحب الصفوة، ومسيح بفتح الميم وكسر السين المهملة ثم ياء مثناة تحتية ساكنة وحاء مهملـة، وفى بعض النسخ مشيح بضـم الميـم وشـين معجمـة، ولم يفسـرها وكأنـها تحريـف مـن النساخ، أو معناها خفيف المشى.

(إذا زال زال تقلعا)، وروى إذا مشى تقلع أى رفع رجليه رفعًا قويًا ليتثبت فى مشيه، فكأنه يقلع رجليه من الأرض، فيقارب خطاه من غير اختيال وإسراع كما ورد من قوله الآتى: كأنما ينحط من صبب، وروى: إذا زال قلعا بفتح القاف وسكون اللام وكسرها وروى بالضم أيضًا.

(يخطو تكفأ) أى إذا مد خطاه يميل إلى قدامه كمن يتكفى، وتكفؤا إن همز ضمت فاؤه كالمصادر الصحيحة مثل تقدما؛ لأن الهمزة حرف صحيح، فإن أبدلت ياء كسر ما قبلها فقيل تكفيا كتسمى تسميا ونحوه من المصادر المعتلة الآخر.

(ويمشى هونًا) بفتح الهاء أى إذا مشى مشى برفق ولين ووقار كما يأتى، لأنه ممدوح قال تعالى: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

(ذريع المشية) بفتح الذال المعجمة وكسر الميم، والذريع الواسع الخطو أى ما بين قدميه واسع، فمع عدم سرعته يساوى مشيه المشى السريع أو يفوقه، **(كأنما ينحط من صبب)** أى ينحدر من مكان عال، والمنحدر من عال يكون له سرعة مع سهولة، وإنما قال: كأنما لأنه ليس منحدرًا على الحقيقة، وإنما هو كالمنحدر فى السرعة والسهولة.

(وإذا التفت التفت جميعا) أى إذا أراد أن يدور لما خلفه، أو فى جانبه لا يلوى عنقه، بل يصرف جميع بدنه فيقبل جميعا ويدبر جميعا من غير مسارقة نظر؛ فإنه خفة وطيش.

(خافض الطرف) مصدر بمعنى تحريك الجفن، ثم صار بمعنى الخفض ضد الرفع، والطرف العين، وفسر هذا بقوله: **(نظره فى الأرض أطول من نظره فى السماء)** يعنى أن نظره لجانب السفل أكثر من نظره فى جانب العلو؛ لخشوعه وحيائه ووقاره، وليس هذا مخصوصا بالصلاة والدعاء، فإنه مكروه فيهما، ولا ينافى هذا قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤]؛ لأن هذا باعتبار الأغلب كما يشعر به لفظ قد.

(جل نظره الملاحظة) جل بضم الجيم بمعنى المعظم والأكثر، والملاحظة النظر باللحظ، وهو طرف العين مما يلى الصدغ، ومما يلى الأنف موق وماق أى ينظر بطرف عينه تأدبًا وحياء.

(يسوق أصحابه) أى يمشى خلفهم وفى ساقتهم، ولايدع أحدًا يمشى خلفه كما هو عادة المتكبرين، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقول: خلو ظهرى للملائكة، وفى قوه: يسوق إشارة إلى أنه هو المحرك لهم، فما قيل من أنه لا يتقدم الصغار الكبار إلا إذا ساروا ليلا، أو خاضوا سيلا، ليس على وفق السنة.

(ويبدأ من لقيه بالسلام)؛ لأنه من السنة أن يسلم الأكبر على الأصغر، والسلام دعاء

وتحية، وهو تحية أهل الجنة كما ورد فى السنة، فهو دعاء بالسلامة، واسم من أسمائه تعالى، وجوز إرادته هنا بمعنى أن الله معك ومطلع عليك، وابتداؤه سنة لا واجب بالإجماع، وفيه قول به ضعيف لا يعتد به، ورده فرض كفاية لا على كل أحد بعينه؛ لأن السلام معناه الأمان، فإذا سلم أحد و لم يجب توهم الشر، فيجب دفعه كما قاله الحليمى، وهذا منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، تواضع ولطف مناسب لما نحن فيه من حسن الخلق.

قال الحسن، رضى الله عنه، الراوى لهذا الحديث: **(قلت)** لخالى هند بن أبى هالة، رضى الله تعالى عنه، **(صف لى منطقه)** مصدر ميمى أى نطقه وكلامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، والنطق هو اللفظ الدال على معنى، وأما قول سليمان، عليه الصلاة والسلام: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦]، وقول الشاعر:

لقد نطق اليوم الحمـــام لنطربـــا

فلتنزيله منزلته لفهم سليمان، عليه الصلاة والسلام، منه معنى، ولادعاء الشعراء شوقه وطربه كما قاله الهروى.

(قال: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، متواصل الأحزان) هذا مشتمل على الجواب وزيادة، فالجواب قوله الآتى، ولا يتكلم فى غير حاجة، فكأنه قال: كأن كلامه موجز قليل، وقيل: معناه أن كلامه لم يكن بفرح وبطر، بل بحزن وأسف.

وقال ابن قيم الجوزية: قول ابن أبى هالة متواصل إلى آخره لم يثبت عنه، وفى سنده مجهول، كيف وقد صانه الله عن الحزن وأسبابه؟ ونهاه عنه بقوله: **(لاتحزن)**، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلا خوف عليه ولا حزن فى الدنيا والآخرة، فمن أين يأتيه الحزن، وقد ورد وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأنه «كان دائم البشر ضحوك السن»[1]، وقد استعاذ من الهم والحزن، ومر أن الهم لما سيأتى والحزن على ما مضى.

وقال ابن تيمية فى حديث ابن أبى هالة: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان كثير الصمت دائم الفكر متواصل الأحزان ليس المراد بالحزن الألم على فوت مطلوب، أو حضور مكروه، فإنه لم يكن من حاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنما المراد به التيقظ لما يستقبل من الأمور، وهو مشترك بين العين والقلب انتهى.

قيل: وهو لم ينه عن ذلك لأنه ليس باختياره، وإنما نهى عن تعاطى أسبابه كما قيل:

---

(١) أخرجه الترمذى فى الشمائل (١٨٧)، وابن سعد (١/٢/١٣٠)، والبغوى فى شرح السنة (١٣/٢٧٤).

ومن سره أن لايرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا

انتهى. وقال ابن قيم الجوزية فى شرح منازل السائلين: ليس الحزن من منازل السالكين، وقد ورد النهى عنه، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقد استعاذ منه، ﷺ، وحزن المؤمن يسر الشيطان؛ لأنه يفتر العزم، ولذا قال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤] الآية، وهو من المصائب، وأما خبر: «إن الله يحب كل قلب حزين»، فلم يثبت.

أقول: هذا تطويل بغير طائل، وإنكار ورود الحديث مردود؛ لأنه ثابت كما قاله الحافظ ابن تيمية وغيره، وأما كونه ليس من المقامات فمع كونه غير مسلم كما مر، فلا يضر، والمراد أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان على هيئة الحزين حال سكوته؛ لكثرة أفكاره فى أمور أمته وأحوالهم كما يدل على قوله: **(دائم الفكرة ليس له راحة)**، وكيف لا وقد قاسى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى التبليغ ما لا يوصف. وأما وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالبشر والتبسم، فهو فى حال آخر، وهو مخاطبته للناس والنظر فى أمورهم.

(ولا يتكلم فى غير حاجة) له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو لأمته كما قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

(طويل السكوت) عما لا يجدى نفعًا؛ لكثرة أفكاره، صلى الله تعالى عليه وسلم، ودوام أذكاره.

(يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه) جمع شدق بفتح أوله وكسره وسكون داله المهملة، وهو جوانب الفم، وذلك لسعة فمه الدالة على فصاحته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما مر، وهو مما تتمدح به العرب كما يأتى، وأما قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أبغضكم إلى الله المتشدقون»، فمعناه من يتكلف كثرة الكلام بلا احتياط فيه، فسقط ما قيل: إنه من صفة الفم ولا مدخل له فى الجوانب.

(ويتكلم بجوامع الكلم)، وهى الكلمات الموجزة المشتملة على الحكم النافعة السائرة مسير الأمثال جمع جامعة، وتطلق على القرآن. **(فصلا)** بفتح الفاء وسكون الصاد المهملة أى كلامًا فاصلاً للخصومة، وفارقًا بين الحق والباطل، **(لا فضول فيه)** أى لا زيادة فيه على أداء المراد، وهو اسم مفرد، وقيل: إنه جمع فضل خص بما ذكر، ونقل لمعنى آخر، ولذا نسب إليه فقيل: فضولى كما فى المغرب. **(ولا تقصير)** فيما يريده بتقليل مخل بالفهم.

(دمثا) بفتح الدال المهملة وكسر الميم وبالثاء المثلثة من الدماثة، وهى سهولة الخلق مستعار من الأرض الدمثة، وهى ذات الزمل المتلبد أى لين الخلق لطيف المعاملة، **(ليس بالجافى)** أى ليس غليظ الطبع، وهو أصل معنى الجفاء، أو لم يكن يجفو أصحابه، **(ولا المهين)** روى بضم الميم وفتحها، فالأول من الإهانة والميم زائدة أى لم يكن، صلى الله تعالى عليه وسلم، يهين أحدًا من الناس، والثانى من المهانة وهى الحقارة والميم أصلية أى لم يكن، صلى الله تعالى عليه وسلم، حقيرًا متذللاً لأحد من الناس؛ لشرف نفسه وعزتها، وهذا وصف لذاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويحتمل أن يكون وصفًا لمنطقه.

(يعظم النعمة وإن دقت)، أى يعد كل ما أنعم الله به عليه عظيمًا، وإن لم يكن كذلك، ومعنى دقت: صغرت وقلت.

(لا يذم شيئًا) أى شيئًا يستحق الذم **(لم يكن يذم ذواقًا)** بفتح الذال المعجمة وفتح الواو المخففة وألف وقاف فعال مصدر صار بمعنى ما يذاق من مأكول ومشروب، فما قدم له، صلى الله تعالى عليه وسلم، من طعامه ونحوه إن أعجبه أكل منه، وإلا كف يده، ولا يقول فيه شيئًا فلا يذمه، **(ولا يمدحه، ولا يقام لغضبه)** من قام إذا ثبت أى لا يثبت له أحد، أو من قام بمعنى دام أى لا يدوم أحد على تحمل غضبه، ويقام بضم المثناة التحتية مبنى للمجهول، وفيه دلالة على أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يغضب لله أحيانًا، وقد ورد ما يدل على ذلك **(إذا تُعُرِّضَ للحق بشىء)** بضم التاء الفوقية والعين وكسر الراء المهملة المشددة والضاد المعجمة أى إذا اعترض أحد للحق بما يبطله، أو يقتضى خلافه، وبشىء بالباء الجارة واللام، وعامله إما يقام أو تعرض **(حتى ينتصر له)** أى للحق، فيؤيده ويبطل خلافه.

(ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها) أى إذا آذاه أحد من الأعراب وغيرهم بما يتعلق بنفسه كالأعرابى الذى أمسكه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بردائه ولببه، والذى قال: إن هذه قسمة غير عادلة، ونحو ذلك ككلام بعض المنافقين كأبى ابن سلول رأس المنافقين، وما كان يصدر منه.

(إذا أشار أشار بكفه كلها) أى إذا أشار لشىء خارج الصلاة أشار برفع يده، وأما فى الصلاة إذا أشار للتوحيد أشار بإصبعه السبابة والمسبحة ليفرق بين الإشارتين، وله صلى الله تعالى عليه وسلم، إشارات أخر نبه عليها بقوله: **(وإذا تعجب قلبها)** أى قلب كفه، وجعل باطنها نحو السماء وظاهرها للأرض، وتأنيث الكف لأنها مؤنث سماعى، وهو إشارة لانقلاب الحال عما يعتاد من غير إظهار للتعجب، واستغراب لأمر، وهذا مما يدل على سكونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعدم خفته، وهو أمر ممدوح.

(وإذا تحدث أفصل بها) فى شرح الدلجى بهمزة وفاء وصاد مهملة ولام، والضمير للكف أى وجه كفه من فصل علينا إذا خرج من طريق، أو ظهر من حجاب قاصدًا بها أى بكفه ولم يبينه غيره، ووقع فى بعض النسخ اتصل بها أى بمثناة فوقية بدل الفاء، وفى حاشية التلمسانى: وللحديث يتصل بها أى لا زال يحركها، وذلك أثبت لأنه قول وفعل، انتهى، وهذا يدل على أن اتصل بها رواية، ففى العبارة ثلاثة وجوه: أفصل، واتصل، ويتصل، والمعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، فصل حديثه بإشارته بيده لجهة من يخاطبه كعادة من يهتم بكلامه فى أمر مهم.

أقول: هذا كلام مع غموضه غير محرر مع ما فيه، أما ما ذكره الدلجى من أنه أفصل بهمزة وفاء فتحريف؛ لأنه لم يسمع فى هذه المادة مزيد بزنة أكرم، فالصواب فصل أو اتصل، ومعناه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، فصل كلامه بإشارته أو وصل إحدى يديه بالأخرى، ثم رأيته فى كتاب النعمة فى الصلاة والسلام على شفيع الأمة، ذكر هذا الحديث، وأنه اتصل افتعال من الوصول وهو الصحيح، وذكر أنه ﷺ كانت له إشارات مختلفة، فيشير بالمسبحة للتوحيد، ويجمع كفه لغيره فرقًا بينهما، وأنه كان إذا حدث وصل حديثه بالإشارة بيده توكيدًا له، والظاهر أن الفاء الآتية فى قوله: **(فضرب)** تفصيلية كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾ [هود: ٤٥]، إلى آخره، ولم يبينوا معناه، والظاهر أن المعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يشير بجميع كفه إذا كان مع أصحابه على وجه متعارف كالإشارة للذهاب والجلوس ونحوه، فإذا تحدث وضع إبهامه على راحته وقت حديثه؛ لتثبيت حديثه، أو انتهائه فاعرفه.

وقوله: **(بإبهامه اليمنى راحته اليسرى)** كذا فى أكثر الروايات، وفى بعضها: فضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى، والإبهام معرف يذكر ويؤنث، وجمعه أباهيم وأباهم، قالوا: وهذا عادتهم إذا تحدثوا.

(وإذا غضب أعرض) عمن غضب عليه من غير لوم له؛ لشدة حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وأشاح)** بشين معجمة وحاء مهملة بينهما ألف قيل: معناه صرف وجهه، فهو تأكيد لما قبله، معناه قبض وجهه وزواه من غير لوم وعقاب، وهذا من حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا يقال: كيف أدرج هذا فى صفات المدح؟ فأجاب بأن الغرض بيان صفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، للسائل؛ لأن المقام يأباه وسيأتى من المصنف تفسيره بما يقارب هذا، وقيل: إن فى النهاية أن المشيح الحذر، أو الجاد فى الأمر، أو المقبل عليك المانع لما وراء ظهره، وفى حديث سطيح: أقبل على جمل مشيح أى جاد مسرع، **فيجوز** أن يريد أحد هذه المعانى أى حذر من موجب غضبه، أو حذر فى الأمر

ليشعر بإعراضه عن موجب غضبه، أو أقبل عليه ليمنع من وراءه من ضرر المغضوب عليه، ولا يخفى أنه تكلف مخالف لما اختاره المصنف مما هو أظهر هنا.

(وإذا فرح) لرؤية ما يسره أو سماعه **(غض طرفه)** أى أرخاه وأطرق تباعدًا من الأشر والمرح.

(جل ضحكه التبسم) أى أكثره، وقد تقدم بيانه، وقد يضحك صلى الله تعالى عليه وسلم، أحيانًا حتى تبدو نواجذه، والتبسم مبادى الضحك.

(ويفتر) بفتح التاء وسكون الفاء وفتح التاء الفوقية وتشديد الراء المهملة من قولهم: أفتر ضاحكًا إذا أبدى أسنانه قال:

يفتر عن لؤلؤ رطب وعن برد وعن إقاح وعن طلع وعن حبب

وهو من فررت الدابة إذا كشفت فمها لتعرف سنها من سنها، وذلك هو الفرار بالضم **(عن مثل حب الغمام)** متعلق بيفتر، والغمام السحاب واحده غمامة كسحابة، وحبه هو البرد المعروف لا قطر المطر كما توهم، فإنه مع عدم مناسبته لا يسمى حبا؛ لأن الحب الجامد دون السائل، وتشبيه أسنانه صلى الله تعالى عليه وسلم، به لصفائه ولمعانه ورطوبته دون جريه حتى يقال: إنه لنوع منه، وهو مشهور فى كلامهم كما مر.

(قال الحسن) بن على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنهما: **(فكتمتها)** أى أخفيت صفاته صلى الله تعالى عليه وسلم، التى سمعتها من ابن أبى هالة **(الحسين)** مفعول ثان لكتم، وفى نسخة عن الحسين بن على **(زمانًا)** مدة من الزمان، **(ثم حدثته)** بما سمعته من صفته صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فوجدته قد سبقنى إليه)** أى إلى الحديث المعلوم من قوله: حدثته أى حفظه قبلى إلا أنه رواه عن أبيه على، رضى الله تعالى عنهما، **(فسأل أباه عن مدخل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومخرجه ومجلسه)**، وفى نسخة: وملبسه بدل مجلسه، فإن كانت الثلاثة مصادر ميمية فظاهر، وإلا بأن كان اسم الزمان أو مكان، فالمراد سألته عن حاله فى مخرجه ومدخله، والمراد خروجه صلى الله تعالى عليه وسلم، للناس ودخول بيته وجلوسه عندهم كما سيأتى، وقيل: المراد بمجلسه بكسر اللام هيئة جلوسه، وأن ما ذكر استقراء لجميع أحواله.

يعنى الحسن أنه سمع هذه الصفات من ابن أبى هالة خاله، ولم يخبره أخاه بما سمعه منه، والحسين لم يسمعها من خاله، فلما حدثه بها وجد عنده علمًا منها من طريق، وهى روايته لها عن أمير المؤمنين أبيه مع زيادة، وإنما كتم ذلك عنه مع النهى عن كتمان العلم عن أهله؛ لأنه لم يسأله ولم ينحصر علمه فيها، ولو كان كذلك دخل فى حديث:

«من كتم علما ألجمه الله بلجام من نار»[(١)]، أو أنه كتم عنه كلام أبى هالة الوصاف البليغ دون معناه لعلم أهل البيت بذلك، فإن الثبت والحديث لهم، **(وشكله)** بفتح أوله أى هيئته فى ذلك الحال وبكسره بمعنى الهدى والسمت قاله التلمسانى، **(فلم يدع من ذلك شيئًا)** أى لم يترك شيئًا من أحواله إلا بينه له.

(قال الحسين: سألت أبى، رضى الله تعالى عنه، عن دخول رسول الله صلى الله تعالىعليه وسلم، فقال: كان دخوله لنفسه)، أى دخوله منزله ليجتمع بأهله لمصالحه، وقضاء مآربه، وقيلولته **(مأذونًا له فى ذلك)**، من الله إذنًا عامًا بحيث يدخل أى بيت من بيوته فى أى وقت من غير استئذان من زوجاته، رضى الله تعالى عنهن؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، كان لا يجب عليه القسم، وقيل: المراد دخوله بيوت أصحابه، رضى الله تعالى عنهم، وهو بعيد لقوله: **(فكان إذا أوى)** الأصح قصره ويجوز مده **(إلى منزله جزأ دخوله)** أى قسم زمن دخوله لبيته **(ثلاثة أجزاء جزءًا لله)** أى لعبادته والتفكر فى ملكوته، **(وجزءًا لأهله)** يدبر فيه أمورهم ويصلحها ويتلطف بهم، **(وجزءًا لنفسه)** من مأكل ومشرب وراحة وغيره مما يليق به لقوله: **(ثم جزأ جزءه بينه وبين الناس)**، أى قسم الزمن الذى جعله لنفسه، فجعل قسمًا منه مخصوصًا بذاته وأحواله فى نفسه، وجزءًا آخر للناس، وسائر الأمة، وهو فى منزله ولا يلاقيه فيه إلا أهله، أو خواص أصحابه الذى يؤذن لهم فى الدخول عليه، وغيرهم لا يصل إليه ثمة، فلذا قال: **(فيرد ذلك على العامة بالخاصة)** يرد بمعنى يوصل ويعطى كأنه لما كان لهم حق فى الجملة أخذ منهم، ثم رد إليهم، وقيل: معناه يستعين؛ لأنه ورد أنه ﷺ كان يستعين بالخاصة على العامة، وهو بيان لمحصل المعنى، وذلك إشارة لما فهم من السياق، وهو جزء الناس والعامة من عدا الخاصة التى عرفتها، فكانت الخاصة تخبر العامة بما سمعته منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا لم يكن مما ينبغى كتمه عنهم، والباء فى بالخاصة للسببية، وكونها للبدل كقوله:

فكيف لى بهم قومًا إذا ركبوا

بعيد لأنه ليس المراد أنه يجعل وقت العامة بعد الخاصة وبدلا منه، وعلى على ظاهرها، وقيل: بمعنى إلى، وروى بدل يرد يبذل بالمعجمة والمهملة مع ضم الياء المثناة التحتية وفتحها فيهما.

(ولا يدخر عنهم شيئًا) أى عن المذكورين من العامة والخاصة، وقيل: عن الداخلين

---

(١) أخرجه ابن حبان (٩٥، ٩٦)، والحاكم (١٠٢/١)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٩١/١)، وابن عدى فى الكامل (١٤١٠/٤).

عليه ﷺ، والمال واحد، ويدخر بدال مهملة مشددة وأصلـه يذتخر بـذال معجمـة وتـاء افتعال من الذخر قلبت تاؤه وذاله دالاً وفعل به ما علم من كتب الصرف، وكـذا أمثالـه من ادكر، ويجوز يذخر بذال معجمة مشددة وخاء.

(**فكان من سيرته فى جزء الأمة**)، وهو الجـزء الـذى جعلـه للنـاس، وأفـرزه ممـا كـان لنفسه أى كان دأبه ﷺ، وعادته فى هذا الجزء (**إيثار أهل الفضل بإذنه**) الإيثار تقديم ما يؤثره على غيره، والمراد بإذنه أن يأذن لهم فى الدخول فى خلوته فى بيته كما مـر، ومـا قيل من أن المراد بأهل الفضل أغنياء الصحابة، رضـى الله تعـالى عنـهم، والفضـل زيـادة مـالهم علـى حاجتـهم، والمعنى أنـه صلـى الله تعالى عليـه وسـلم، يـأذن لهـم أن يؤثـروا بصدقاتهم أقرباءهم، كما وقع لأبى طلحة، رضى الله تعـالى عنـه، فـى بـير حـاء تكلـف أوقعه فيه قوله: (**وقسمته على قـدر فضلـهم فـى الديـن**)، فتوهـم أن المـراد تقسـيم المال والعطاء، وليس كذلك، وإنما معناه قسمة جزئه فـى حديثـه معـهم واشتغاله بـأحوالهم، وقوله: فى الدين لأن أكرمهم عند الله أتقاهم، فتفاوتهم عنده بذلك لا بالنسـب والمـال، وفى بعض النسخ: وقسمه بدون تاء، ثم بين سبب تفاوتـهم بقولـه: (**منـهم ذو الحاجـة**) الواحدة، (**ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج**) الثلاثة فأكثر.

(**فيتشـاغل بـهم**) أى بقضـاء حوائجـهم وإرشـادهم لمـا يصلـح معاشـهم ومعـادهم، (**ويشغلهم**) بفتح الياء المثناة التحتية مضارع شغل، وأما أشـغل فلغـة رديـة كمـا مـر أى يجعلهم ﷺ مشغولين بما أمرهم به (**فيما أصلحهم**)، وفـى نسـخة يصلحـهم أى مـا فيـه صلاحهم، (**والأمة**) بالنصب أى وأصلح الأمة لتبليغه لهم ما يليق بهم بعد معرفتـه، عليـه السلام، بحالهم (**من مسألته عنهم**)، وهو بيان لما أى سؤاله عن أحوالهم، وروى مسألتهم أى الخاصة ذوى الفضل، (**وإخبارهم**) أى إخبار ذوى الفضل (**بالذى ينبغى لهم**) أى يليق ويناسب حال المسئول عنهم من الأمة، وهو مطاوع بغى بمعنى طلب.

قال الراغب: إذا قيل ينبغى أن يكون كذا فهو على وجهين:

أحدهما: ما يكون مسخرًا للفعل نحو: النار ينبغى أن تحرق.

الثانى: الاستـهال نحـو: فـلان ينبغـى أن يعطـى لكرمـه قـال الله تعـالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩].

(**ويقول**) صلى الله تعالى عليه وسـلم، لمـن حضـر عنـده: (**ليبلـغ الشـاهد**) أمـر وهـو للوجوب فى الأمور الشرعية، وهو بتخفيـف الـلام بقرينـة ذكـر الاتبـاع بعـده، ويجـوز تشديدها والأول أصح هنا، والشاهد الحاضر عنده لمقابلته بقوله: (**الغائب**)، وهو مـن لم

يكن حاضرًا أو موجودًا، فهو من كبار الصحابة، والغائب من صغارهم، أو هم الصحابة والتابعون، قيل: ويحتمل أن يراد العالم والجاهل، وأهل الحضر والبادية، والسامع ومن لم يسمع، والمسلم والكافر، وهذه احتمالات عقلية، أو هى تأويلات وتعميم لمفهومه فتأمل.

(وأبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغى) أى حاجته، وروى إبلاغ حاجته، وهو تعميم بعد تخصيص للترغيب والحث، وبيان لسبب الأمر، **(فإنه)** أى الأمر والشأن **(من أبلغ سلطانًا حاجة من لا يستطيع إبلاغها)** قيل: يريد أن من أبلغ سلطانًا حاجة جوزى بهذا الجزاء العظيم، فكيف بمن بلغ رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم؟ وإلا فهو أجل من أن يكون ملكًا أو سلطانًا، وقد قال كما تقدم: لست بملك.

قلت: فيه نظر، وقد يقال: المراد بالسلطان هنا الإمام الأعظم خليفة الله، وقد أطلق الفقهاء ذلك عليه كما بيناه فى حكمه بالسلطنة والفتيا والقضاء المذكور فى القواعد للسبكى كما سيأتى، وهذا الحديث مستقل رواه الأصبهانى، وفى بعض ألفاظه اختلاف.

(ثبت الله قدميه يوم القيامة) على الصراط يوم تزل الأقدام كما ورد مصرحًا به فى رواية لابن أبى الدنيا؛ وذلك لأنه مشى بقدميه، وسعى لحاجة أخيه، فهو جزاء من جنس العمل، وهو كناية عن نجاته من أهوال الموقف.

(ولا يذكر عنده) أى لا يذكر فى مجلسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(إلا ذلك)** الإشارة لجميع ما تقدم من ذكره مصالحهم، وسؤاله عن الأمة، والأمر بالتبليغ والحث عليه والترغيب فيه.

(ولا يقبل من أحد) بالبناء للفاعل والمفعول **(غيره)** أى لا يرضى كلامًا غير ما يكون من هذا القبيل.

(وقال) أى على، رضى الله تعالى عنه، فى رواية **(فى حديث سفيان بن وكيع)** بن الجراح أبو محمد الكوفى، وهو إمام حافظ روى عنه الترمذى والدارقطنى وغيرهما، توفى سنة سبع وأربعين ومائتين ووالده إمام جليل حافظ، رحمه الله تعالى، **(يدخلون)** أى أصحابه، رضى الله تعالى عنهم، **(رُوَّادا)** بضم الراء المهملة وتشديد الواو وألف ودال مهملة جمع رائد، وأصله من يتقدم القوم المسافرين ليختار لهم منزلاً فيه الماء والكلأ، فاستعير هنا للطالبين المحتاجين لحاجتهم وما يرشدهم، وقيل: يتحينون وقت الوصول إليه، وقال التلمسانى: إن روادا بكسر الراء تخفيف الواو مصدر رود يرود، ويروى لواذًا

بلام، وذال معجمة أى ملتجئين لائذين به، **(ولا يتعرقون)** من مجلسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(إلا عن ذواق)** بفتح الذال المعجمة والواو المخففة وألف وقاف فعال من الذوق بمعنى المذوق، وهو المأكول فاستعير للعلم الذى يتعلمونه، ويحتمل أن يريد حقيقته؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، كان عادته أن يطعم شيئًا لمن يدخل بيته، وعلى هذا جرت عادة السلف الصالحين، وحقيقة الذوق كما قاله الراغب: وجود الطعم بالفم، وأصله فيما يقل تناوله، وفيه تفصيل ذكرناه فى كتابنا طراز المجالس، أى لا يتفرقون إلا عن علم وأدب هو غذاء لأرواحهم وسبب لبقائهم.

(ويخرجون) من عنده، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أدلة يعنى فقهاء)** عالمين بأمور الدين، أى هداة مرشدين للناس، ويهتدى بهم غيرهم، فأدلة جمع دليل بمعنى هادى، أو بمعناه المشهور كما يقال: فلان حجة الإسلام، والصحابة، رضى الله تعالى عنهم، كلهم مجتهدون خلافًا لبعض الحنفية كما فى تحرير ابن الهمام.

(قلت) قائله الحسين لأبيه، رضى الله تعالى عنهما: **(فأخبرنى عن مخرجه)** أى عن حاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد خروجه من منزله: **(كيف كان يصنع فيه؟)** بعد خروجه من منزله.

(قال: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)، من وضع الظاهر موضع الضمير؛ للاهتمام والتلذذ والتبرك بذكره **(يخزن لسانه)** بالخاء وضم الزاى المعجمتين والنون أى يصونه، ومنه الخزانة؛ لأنه لا يحب كثرة الكلام قال(١):

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شىء سواه بخزان

ولما فيه من المنع عداه بمن فقال: **(إلا مما يعنيهم)**، وفى نسخة إلا فيما، ويعنى بفتح المثناة التحتية أى يهمهم وينفعهم من جواهر كلمه وزواجر حكمه، **(ويؤلفهم ولا يفرقهم)** أى يجعلهم مؤتلفين به غير متفرقين عنه؛ لمداراتهم ولطفه بهم كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، أو يجعل الله بينهم ألفة لحثهم على التحاب والمؤاخاة بينهم.

(يكرم كريم كل قوم) كما قال: أكرموا عزيز كل قوم؛ لمعرفته ﷺ بمقادير الناس، **(ويوليه عليهم)**، أى يجعله حاكمًا عليهم، فلا يولى أحدًا من أصحابه غيرهم، ولا غيرهم عليهم، ولا يولى صغارهم عليهم رعاية لأهلية ذوى الولايات، وتجنبًا لإعلاء الأسافل

---

(١) البيت من الطويل، وهو لامرئ القيس فى ديوانه (ص٩٠)، جمهرة اللغة (ص٥٩٦)، أساس البلاغة (خزن).

ترغيبًا فى الإسلام.

(ويحذر الناس ويحترس منهم) لأن من الحزم سوء الظن، وعدم الوثوق بكل أحد، وقال عمر، رضى الله تعالى عنه: احتجزوا بسوء الظن، وهو من بديع حكمه، وليس المراد بالناس جميعهم، بل عوامهم بخلاف خواصهم، والاحتراز والاحتراس والحذر متقاربة، وقيل: الاحتراس التحفظ، والاحتراز التعوذ، والحذر الخوف **(من غير أن يطوى)** أى يخفى ويمنع استعارة من طى الثياب **(عن أحد بشره)** أى طلاقة وجهه وانبساطه معه تأنيسًا له، وتأليفًا لقلبه، وإذهابًا لخوف مهابته، **(وخلقه)** أى حسن خلقه، ولم يذكر الحسن إشارة إلى أنه مجبول على الحسن فيه، **(ويتفقد أصحابه)** أى يسأل عمن لم يحضر عنده وفقد من مجلسه، وقد يذهب، صلى الله تعالى عليه وسلم، لمنزله إذا طالت غيبته وتطلبه.

(ويسأل الناس عما فى الناس) من أحوالهم وأمورهم ليعلم أمرهم، فيتدارك ما ينبغى تداركه، وينصح من يلزم نصحه، وليس هذا من التجسس أو الغيبة المنهى عنه، بل من سؤال الطبيب ليشفى المريض، فإذا أخبروه بحال حسن حمد الله على ذلك.

(يحسن الحسن ويصوبه)، أى يبين حسنه وكونه صوابًا، ويمدح فاعله ترغيبًا له فيه، **(ويقبح القبيح ويوهنه)** بضم أولهما وتشديد ثانيهما والنون أو بالياء التحتية من الوهى بمعنى الوهن، وهو الضعف أى يقول: هو فعل قبيح وضعيف ساقط تنفيرًا وتحذيرًا ونصحًا نافعًا، والمراد الحسن والقبيح عادة أو شرعًا، وفيه صنعة الطباق.

(معتدل الأمر) أى أموره، صلى الله تعالى عليه وسلم، كلها معتدلة، فلا يبالغ فى تحسين وتقبيح غيره.

(غير مختلف) أى على سنن واحد فى جميع أوقاته.

(لا يغفل) عن شىء من أحوال الناس **(مخافة أن يغفلوا)** عما يصلحهم، وهو بضم الفاء فيهما، **(أو يملوا)** أى يحصل لهم فتور وكسل عن صالح أمرهم إذا لم ينبههم عليه، ولو أرجع هذا لقوله معتدل الأمر لم يبعد، ويجمع هذا قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

(لكل حال) من أحوال الناس **(عنده عتاد)** بعين مهملة مفتوحة ومثناة فوقية ودال مهملة، وهو كالعتيد العدة والحاضر المعد لإصلاحه وتداركه إذا وقع، فهو متخلق بقوله: ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقيل: أصل العتاد عداد لأنه من العدة، فأبدلت داله تاء هربًا من التكرار.

(ولا يقصر عن الحق ولا يجاوزه إلى غيره) فإذا رآه عمله، وإذا رأى منكرًا أزاله من غير تأخير.

(الذين يلونه من الناس) أى يقربون منه فى مجلسه ونحوه **(خيارهم)** أى أفضلهم وأشرفهم، **(وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة)** أعم هنا بمعنى أكثر نصيحة، أو أكثر منصوحًا بأن ينصح فى كل أمر كل أحد بإرشاده لما هو خير له، ولذا قال عليه السلام: «الدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين»(١)، فنصيحة الله إخلاصه فى اعتقاده له بما يليق به من توحيده وعبادته مخلصًا لوجهه، ولكتابه فهم معانيه والعمل بما فيه، والنصيحة لرسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، الإيمان به واجتناب نواهيه وامتثال أوامره، ولأئمة المسلمين طاعتهم وعدم الخروج عليهم، ونصيحته العامة إرشادهم لمصالحهم، والنصح إرادة الخير لمن ينصحه بإخلاص، وهى كلمة جامعة يقال: نصحته ونصحت له.

(وأعظمهم عنده منزلة) أى رتبة وشرفًا **(أحسنهم مواساة)** لكل أحد؛ لأن حذف المتعلق يفيد العموم، والمواساة إعطاء من يريد ما يريد وبذله له، يقال: آساه وواساه بواو مبدلة من الهمزة إذا جعله أسوة له، **(وموازرة)** أى إعانة لمن التجأ إليه يقال: آزره ووازره إذا أعانه وقواه وساعده من الأزر، وهو الظهر لأن قوة البدن به، أو من الوزر هو الملجأ، ومنه الوزير، وفى الحديث: «ما أحد عندى أعظم يدًا من أبى بكر واسانى بنفسه وماله»، وهذا يدل على أنه أفضل الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

قال الحسين، رضى الله تعالى عنه: **(فسألته)** يعنى عليا والده، رضى الله عنهما، **(عن مجلسه)** أى عن حاله فى مجلسه خارج بيته مع الناس ومعاملته لهم فيه، ولذا أردفه بقوله: **(ما كان يصنع فيه؟ فقال: كان لا يقوم)** من مجلسه **(إلا على ذكر)** لله يجعله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فكان إذا قام منه قال: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت، فيجعل ذلك علامة لانصرافه عن العامة، والذكر بالذال المعجمة إذا أطلق أريد به ذكر الله تعالى، وإن كان عامًا.

وقال التلمسانى، رحمه الله تعالى: وقد تهمل ذاله قليلاً، فقيل: إنها لثغة، وقيل: لغة ولا دليل لقائله فى نحو: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥]، فإنه مغالطة.

(ولا يوطن) بضم المثناة التحتية وسكون الواو وكسر الطاء مشددة ومخففة وفتحها مشددة كما فى بعض الشروح، وفى بعضها أنه بالكسر من أوطنه ووطنه إذا اتخذه وطنًا

---

(١) تقدم تخريجه.

(الأماكن) جمع أمكن أو أمكنة جمع مكان، فهو جمع الجمع، ففى ميمه خلاف هل هى أصلية أو زائدة.

(وينهى عن إيطانها) أى اتخاذها وطنًا، والمراد ملازمة محل بخصوصه فى غير بيته مما ليس بملك كالمسجد وغيره من الأماكن المباحة؛ لأن لكل أحد حقًا فيه، والنهى الوارد عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، إنما هو فى حق المسجد بأن يتخذ مصلى معينًا منه، ولذا نص الفقهاء على كراهة إرسال السجادة للجامع وفرشها فيه، وفى الحديث: «نهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يوطن الرجل المكان بالمسجد»[(1)]، قيل: وهو عام مخصوص بما لم يتضمن مصلحة كمن ألف مكانًا للإفتاء والتدريس، فله إيطانه وإقامة غيره منه إذا كان من لا يعرفه يأتى لاستفتائه، فيعرفه فى مكانه، وقوله: إيطانها يؤيد أن يوطن مخفف ولا يعينه كما قيل؛ لأنه يجوز أن يذكر فعل من باب، ويذكر له مصدر أو اسم فاعل واسم مكان وغيره من باب آخر نحو تبتل إليه تبتيلا وقوله[(2)]:

وداع دعا يا من يجيب إلى النَّدَى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

ويجوز فى نحو أجراه مجراه ضم الميم وفتحها، وقد تكون المغايرة أبلغ وأكثر معنى وهذا مما ينبغى التنبيه له.

(وإذا انتهى) مشيه قاصدًا **(إلى القوم)** الذين يريد الجلوس معهم **(جلس حيث ينتهى به المجلس)**، أى فى أى مكان خال منه من غير تصدر على أصحابه صلى الله تعالى عليه وسلم، وينتهى من النهاية لأنه نهاية محل الجالسين فيه، **(ويأمر)** أصحابه **(بذلك)** تشريعًا وتأديبًا، فعلم أن تحرى الصدر مكروه شرعًا؛ لما فيه من الكبر والترفع على أصحابه لاسيما إذا لم تطب أنفسهم بذلك فيتأذون به، فإنه قد يحرم كما يفعله علماء السوء فى زماننا.

(ويعطى كل) أحد من **(جلسائه نصيبه)** أى ما يستحقه من ملاطفته ومجاوبة سؤاله، وبشره صلى الله تعالى عليه وسلم، له **(حتى لا يحسب)** أى يظن **(جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه)** أى يظن أنه أكرم الناس وأجلهم عنده؛ لما يرى من لطفه به، فهو كقولهم: ليس فى البلد أعلم منه كما مر تحقيقه، فهو غاية لذلك الإعطاء.

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة (٢/٩١).

(٢) البيت من الطويل، وهو لكعب بن سعد الغنوى فى الأصمعيات (ص٩٦)، لسان العرب (١/٢٨٣)، التنبيه والإيضاح (١/٥٥)، جمهرة أشعار العرب (ص٧٠٥)، تاج العروس (٢/٢٠٦).

(من جالسه أو قاومه فى حاجة) أى من حادثة أو قام مع قيامه لعرض حاجته، أو لغير ذلك، فهى مفاعلة من الجلوس والقيام **(صابره)** أى صبر عليه أو صبر مقدار صبره، فلا ينصرف عنه حتى ينصرف هو، كل ذلك لاشتمالهم وتطييب قلوبهم، فلا يمل حتى يملوا **(حتى يكون هو المنصرف عنه)**، والحصر بتعريف الطرفين فى محزه هنا.

(من سأله حاجة لم يرده إلا بها) أى رده رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، مقضى الحاجة غير خائب، **(أو بميسور من القول)** أى أو رده بقول لين سهل لا غلظة فيه كوعده، وقد تقدم بيانه.

(قد وسع الناس) بالنصب مفعول وسع **(بسطه وخلقه)** بإضافته لضميره، ورفعه على الفاعلية أى عمهم بسطه أى بسط يده، صلى الله تعالى عليه وسلم، وسماحته أى بشره وطلاقة وجهه، وإبداء سروره وحسن خلقه، فشبهه بمكان متسع رحب، وأثبت له السعة والبسط بهذا المعنى مسموع، وليس لغة مولدة كما يتوهم كما ذكره المصنف، رحمه الله، فى المشارق، وتقدم فى الحديث عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم: «فاطمة منى يبسطنى ما يبسطها»[1]، **(فصار لهم أبا)** أى بمنزلة الأب فى البر والصلة وقصد الخير، وفيه دليل على أنه يجوز أن يقال: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم، أبو المؤمنين، كما يقال لزوجاته، رضى الله عنهن: أمهات المؤمنين، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]؛ لأن نفى الحقيقة لا ينافى المجاز كما سيأتى.

(وصاروا عنده فى الحق متقاربين)، أى يقرب بعضهم من بعض إذا كانوا على الحق، أو فى أداء حقوقهم أى فى أصل الحق، فلا ينافيه قوله: **(متفاضلين فيه بالتقوى)** أى بحسب مراتبهم فى تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: **(أنزلوا الناس منازلهم)**، وسيأتى فى الرواية الأخرى، وصاروا فى الحق سواء، فلا ينافيه هذه الرواية، ولا أن بينهم تفاوتًا تامًا، وفى الحديث: لا يزال الناس بخير ما تفاضلوا، فإن تساووا هلكوا، وصاروا كأسنان المشط ليس فيهم فضلاء، أو تنافسوا فى الفضائل فأنكروا فضل بعضهم على بعض.

وما عبر الإنسان عن فضل نفسه كمثل اعتراف الفضل فى كل فاضل

(وفى الرواية الأخرى صاروا عنده فى الحق سواء) كما بيناه.

(مجلسه مجلس حلم وحياء)، أى يظهر فيه حلمه عليهم، وحلمهم على غيرهم بحيث

---

(١) تقدم تخريجه.

لا يستفزهم الغضب، وهم مظهرون للحياء لا يرفعون رءوسهم وأصواتهم، ولا يرتكبون ما لا ينبغى قولاً وفعلاً.

قيل: ولو قدم هذا وأدرجه فى جواب السؤال عن مجلسه كان أحسن.

قلت: ما بالعهد من قدم.

(وصبر وأمانة لا ترفع فيه الأصوات) احترامًا له صلى الله تعالى عليه وسلم، ولوقارهم وأدبهم، **(ولا تؤبن فيه الحرم)** كالكبر جمع حرمة، وهى مالا يحل، والمراد النساء لحرمة النظر لهن ونحوه، أى لاتذكرن بسوء من ابنته، فابنته إذا ذكرته بما يكره مأخوذ من الابنة والابن، وهى عقد فى القسى تعاب بها أى لا تذكر فيه النساء؛ لأنه رفث من القول، أو لا يذكر فيه ما يحرم كالغيبة وسيأتى تفسيره.

(ولا تنثى فلتاته) بتاء مثناة فوقية مضمومة ونون ومثلثة مقصورة من النثاء، وهو ذكر القبيح ضد الثناء بتقديم المثلثة، وهذا هو الموافق لما سيأتى، وروى ولا يثنى بتقديم المثلثة على النون أى لا تعاد، والفلتات بفتحات جمع فلتة بفتح فسكون ويجوز تسكين لام فلتات، ويجوز ضم فاء فلتة كما قاله التلمسانى، وهى الزلة أى القبيح الذى يقع بغتة، والمراد أنه لا فلتة فيه حتى يذكر فى مجلس آخر فيعاد ذكرها، فنفى الشىء بذكر لازمه؛ لأنها لو وقعت ذكرت كقوله:

ولا ترى الضب بها ينجحر

(وهذه الكلمة) أى قوله: لا تنثى فلتاته **(من غير الروايتين)** رواية الحسن عن خاله، ورواية الحسين عن أبيه، ويجوز أن يراد ظاهره أى: الفلتة إذا وقعت لا تذكر بل تستر.

(يتعاطفون بالتقوى) أى يعطف بعضهم على بعض، ويشفق عليه ويرحمه بسبب تقوى الله، لا رياء ولا سمعة ولا خوفًا واتقاء شر، فالباء سببية كقوله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

(متواضعين)، أى يتواضع بعضهم لبعض لا يتكبر أحد على أحد، فيخدمه ويخفض جناحه له.

(يوقرون فيه) أى فى المجلس **(الكبير)** سنًا، **(ويرحمون الصغير)** شفقة عليه ورأفة، وهو مفتوح الصاد ويكسر فى لغة ردية، **(ويرفدون)** بفتح المثناة التحتية وضمها أى يعينون ويواسون، يقال: رفده يرفده بالكسر وأرفده بمعنى **(ذا الحاجة)** أى كل من كانت له حاجة ومسألة لهم، أوله صلى الله تعالى عليه وسلم، أعانوه بقضائها، أو إبلاغها أو الشفاعة، ويجوز أن يراد به الفقير المحتاج، **(ويرحمون الغريب)**، أى يشفقون عليه

ويعطفون تأنيسًا له، وإزالة لوحشة غربته.

قال الحسين: (**فسألته عن سيرته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى جلسائه فقال: كان صلى الله تعالى عليه وسلم، دائم البشر**) أى طلاقة الوجه وبشاشته، وإظهار السرور فى مجالسه العامة، وهذا لا ينافى ما مر من قوله: دائم الأحزان كما مر فتذكره.

(**سهل الخلق**) أى خلقه وسجيته السهولة وعدم الشدة فى أقواله وأفعاله، وقد جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، بالملة السمحة السهلة.

(**لين الجانب**) بتشديد الياء وسكونها أى لا غلظة فيه، ولا جفاء، متذللاً متواضعًا.

(**ليس بفظ**) أى سيء الخلق، (**ولا غليظ**) أى شديد متوعد لأحد ممسك عنه لطفه ورفده، (**ولا صخاب**) بالصاد والسين، أى لا يرفع صوته جدًا فى خصومة ونحوها، (**ولا فحاش**) أى لا يتكلم بقبيح كالشتم، (**ولا عياب**) أى ذاكرًا لعيوب الناس ونقائصهم، (**ولا مداح**) أى لا يكثر المدح لغيره ويطريه بمبالغة قوة ما فيه، وإن كان يذكر الحسن والقبيح بما فيه كما مر، وذكر هذه بصيغة المبالغة إشارة إلى أنه قد يصدر قليلها أحيانًا منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لمقتضى الحال، ومثله لا يعاب، والمدح إنما يذم إذا كان زيادة عن حده؛ لأنه كذب ومداهنة، وأما مدح من يستحق المدح بما فيه إذا لم يلزمه محذور، فأمر حسن.

ألا ترى إلى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: («**لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان العالم لرجح**»)، وقوله لعمر، رضى الله عنه: («**لو لم أبعث لبعثت أنت يا عمر**»)، فأى مدح يزيد على هذا، لكنه صدق ناشئ عن بصيرة، ولا يورثهم ذلك إعجابًا ولا فتورًا، وما من شيء إلا وهو ممدوح من وجه مذموم من آخر.

(**يتغافل عما لا يشتهى**) أى يتغافل عن ما ليس بمنكر شرعًا، لكنه غير مستحسن عادة أو طبعًا إذ لو كان منكرًا شرعًا نهى عنه ولم يقر عليه، وهذا من مكارم الأخلاق كما قال أبو نواس:

ليس الغبى بسيد فى قومه لكن سيد قومه المتغابى

(**ولا يؤيس منه**) قال فى المقتفى: يؤيس، بضم أوله وسكون الواو وهمزة مكسورة وهى ترسم ياء، ويجوز فتحها على أنه مبنى للفاعل أو المفعول، وهو من اليأس ضد الرجاء، يعنى إذا سئل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عما لا يليق تغافل عنه، ولم يرد السائل حتى ييأس، أو يبين له أنه سأل ما لا يليق فيخجل سائله.

(**وقد ترك نفسه من ثلاث**) أى نزهها عنه ومنعها، وقيل: فيه قلب أى ترك ثلاثا من

نفسه: **(الرياء، والإكثار، وما لايعينه)** بفتح المثناة التحتية أى يهمه، وهى بدل من ثلاث مبينة لها، والرياء إظهار ما فيه من الصفات الحميدة، والأفعال الجميلة للناس حتى يحمد بها ويشيع، وهو الشرك الأصغر، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم، منزه عنه بلا شبهة.

فإن قلت: كونه غير ثابت له أمر ظاهر الانتفاء عنه، فما الحاجة لذكره؟.

قلت: كأنه ذكر هذه الجملة الحالية لبيان وجه تغافله عما لا يحبه من غير أن يقنط راجيه يعنى أنه لم يقل: أنا لا أحب هذا، فلذا لم أجبك عنه حتى يتوهم أنه سيفعله؛ لما فيه من الرياء، ولذا قال: **(وترك الناس من ثلاث)** أى أبعدهم عنها أو ترك ذكر الناس ونحوه من أجل ثلاث تضمنها قوله: **(كان لا يذم أحدًا)** من الناس يستحق الذم كالمنافقين لعنهم الله، **(ولا يعيره)** بعين مهملة يقال: عيره كذا أو بكذا أى ذكر ما فيه بما هو عار عليه وعيب فيه قد سلف منه، فالفرق بينه وبين ما قبله أنه أخص منه، وليس عينه حتى لا تكون أمور الناس المتروكة أربعة كما ذكره التلمسانى، رحمه الله تعالى، **(ولا يطلب عورته)** أى لا يتجسس عن معايب الناس ويبحث عنها، كما كان صلى الله تعالى عليه وسلم، يفعل مع المؤلفة قلوبهم، وأصل العورة الخلل وما يجب ستره كما فى حديث أبى داود: «يا معشر من أسلم بلسانه، ولم يفض الإيمان إلى قلبه! لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإن مع تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته»، وهذا كما قيل فى المثل: «كل من عير ابتلى»، وهذا إذا لم يلزم إظهاره شرعًا كالمتجاهر بفسقه ونفاقه.

وقوله: **(ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه)** صفة أخرى مرتبطة بما قبلها، وليست من الثلاث، وهذا كنصيحة الأمة وإرشادهم وتعليم الخير والتبليغ.

(إذا تكلم أطرق جلساؤه) أى خفضوا رءوسهم تأدبًا وإنصاتًا **(كأنما على رءوسهم الطير)** أى بسكون ووقار من غير طيش وخفة؛ لأن الطير لا تقع إلا على ساكن، وهذا مثل مشهور.

(وإذا سكت تكلموا)، فلا يقطعون حديثه بحديثهم تأدبًا معه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتوجهًا لفهم مقاله لحرصهم على حفظه مراعاة لعظيم قدره.

(لا يتنازعون عنده الحديث) أى إذا كانوا فى مجلسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يديرون الحديث بينهم، فيحدث بعضهم بعضًا كما هو جار بين الناس إذا اجتمعوا فى ناد، وهذا بيان لقوله: تكلموا، أو أن المراد يتكلمون ومع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، بسؤالهم له ونحوه من مهماتهم، لا أنهم يديرون الحديث بينهم وهذا هو معنى

تنازع الحديث فى كلامهم، ومن فسره بالتخاصم لاغتراره بظاهر التنازع لم يصب، لعدم مناسبته لمقام، ولا يخفى أنه لا معنى لقولك: تخاصموا الحديث إلا بتأويل، أى تخاصموا فى الحديث، وهو ركيك. قال امرؤ القيس:

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت   هصرت بغصن ذى شماريخ ميال

قال ابن السيد فى شرح أدب الكاتب: تنازعنا الحديث أى تداولناه، فحدثتنى مرة وحدثتها أخرى، وهاهنا بحث، وهو أن سيبويه قال فى كتابه: لا تقول تفاعلت إلا وأنت تريد فعل اثنين فصاعدًا، ولا يجوز أن يتعدى لمفعول بنصبه، وفى تفاعلنا تلفظ بالعين الذى فى فاعلته كتضاربنا وتقاتلنا، وقد يجىء تفاعلت على غير هذا كتقاضيته، انتهى، فلم يجز تفاعل لمفعول إلا إذا كان لواحد؛ لأن تفاعل قد تضمن الفاعل والمفعول الذى كان فى فاعل، ألا تراك تقول: ضاربنى زيد فتأتى بفاعل ومفعول؛ فإذا قلت: تضاربنا لا يتعدى لاشتماله على فاعل ومفعول ليس لنا غيره، وليس تنازعنا كذلك؛ لأن نازع يتعدى لمفعولين تقول: نازعته الحديث، فإذا قلت: تنازعنا لم يكن بد من ذكر المفعول الثانى؛ لأن تنازع لم يتضمنه، كذا قاله ابن السيد فى المقتضب شرح أدب الكاتب.

أقول: فى كلام سيبويه حينئذ قصور؛ لأنه كان عليه أن يقول: إن باب تفاعل بمعناه الأصلى ينقص عن فاعل مفعولاً، فإن كان متعديًا لواحد كان لازمًا، وإن كان متعديًا لاثنين تعدى كما ذكره بعض النحاة، فإطلاقه لا ينبغى، وقد نقل ابن السيد هذا فى محل آخر عن الكوفيين، فقال: قال ثعلب: يقال: فلان متعهد ضيعته، ولا يقال: متعاهدها.

قال ابن درستويه: فإنما أنكرها؛ لأنها على وزن يتفاعل، وهو عند أصحابه لا يكون إلا من اثنين، ولا يكون عندهم متعديًا لمفعول مثل تقاتلا وتعاملا، وهو غلط؛ لأن تفاعل قد يكون لواحد، ويكون متعديًا كقول امرئ القيس(١):

تجاوزت حراسًا وأهوال معشر   على حراص لو يسرون مقتلى

وجاء تفاعل متعديًا لاثنين كقوله: فلما تنازعنا الحديث إلخ، قال الخليل: التعاهد والتعهد الاحتفاظ بالشىء وإحداث العهد به، وقوله سيبويه السابق يشبه قول الكوفيين، انتهى، والتنازع هنا كالتجاذب بديع كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم، لمن قرأ خلفه: مالى أنازع القرآن؟.

---

(١) البيت من الطويل، وهو لامرئ القيس فى ديوانه (ص١٢)، جمهرة اللغة (ص٧٣٦)، خزانة الأدب (١١/٢٣٨)، شرح شواهد المغنى (٢/٦٥١)، لسان العرب (٤/٤٠٢).

(من تكلم عنده) أى فى مجلسه صلى الله تعالى عليه وسلم، من الصحابة أو غيرهم **(أنصتوا له حتى يفرغ)** من حديثه، وفى بعض النسخ **(من كلامه)**، وأنصت يكون لازمًا بمعنى سكت، ومتعديًا يقال: أنصته إذا أسكته.

(حديثهم حديث أولهم) مبتدأ وخبر أو حديثهم فاعل يتفرغ فجمع الضمير، وهو من رعايته للمعنى، وحديث أولهم بدل منه أى لا يقطع كلام من تقدم بكلام آخر، ولا يخاصم، فهذا فى معنى لا يتنازعون، وهو مرتبط بما قبله، فإن كان مبتدأ بدليل رواية من كلامه، فهو تشبيه أى حديث كل واحد منهم إنما هو حديث من قبله، يعنى أنه لا حديث له معه يقطعه كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «زكاة الجنين زكاة أمه»، وقد خفى هذا على بعض الشراح فعلقوه بأنصتوا.

(يضحك) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(مما يضحكون منه)** أى الصحابة، رضى الله عنهم، **(ويعجب مما يعجبون)**، وفى نسخة، يتعجب مما يتعجبون؛ لأنه من حسن الصحبة أن يسرك ما يسره، ويرضيك ما يرضيه، وهم على نهج واحد، وطبائعهم سليمة، فلا يضحكون ويعجبون من غير مقتض، فلا يقال: إنه يلزم من ضحك أحد وتعجبه فعل غيره مثله؛ لأنه أمر طبيعى، وهذا فى أحيان قليلة، فلا ينافى قوله السابق: «كأنما على رءوسهم الطير».

(ويصبر للغريب على الجفوة) أى الغلظة وتكلمه بما يؤلم **(فى المنطق)** أى فى تكلمه مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، كتحليف الأعرابى له ﷺ، وقوله: آلله أرسلك بهذا، وإنما قيد بالغريب؛ لأنه معذور لأنه لا يعرف أحواله، وهذا من مكارمه ومعاملة كل أحد بما يليق به حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم.

(ويقول) ﷺ، لأصحابه: **(«إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فارفدوه»)**، بوصل الهمزة وقطعها من رفده وأرفده إذا أعانه أو أعطاه؛ لأن الرفد العطية والإرفاد الإعانة، وكل منهما قابل هنا.

(ولا يطلب الثناء) بمعنى يقبله كما ورد فى رواية، فهو مجاز مرسل أو استعارة، والثناء الذكر الحسن الجميل والمدح **(إلا من مكافئ)** بالهمزة اختلف فى تفسيره أى ممن أثنى جزاء على نعمه وإحسانه تقدم له منه، وقد صرح به فى بعض الروايات بقوله: عن يد، ولا يرد عليه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، رحمة عامة، ما من أحد إلا وله عنده يد، فالصواب تفسيره بمسلم أى غير متجاوز فى المدح مطر؛ لأن القرينة قائمة على أن المراد نعمة حادثة خاصة.

(ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوزه) أى يخففه يقال: تجوز فى الصلاة إذا أسرع وخفف، **(فيقطعه بانتهاء)** أى إتمام لحديثه وبه ينقطع الكلام، **(أو قيام)** من المجلس؛ لأنه انقطع كلامه فمضى لشأنه **(هنا انتهى حديث سفيان بن وكيع)** السابق ذكره.

(وزاد الآخر) أى صاحب الرواية الأخرى **(قلت)** القائل أحد السبطين، رضى الله تعالى عنهما، كما مر: **(كيف كان سكوته، صلى الله تعالى عليه وسلم؟ قال: كان سكوته على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكر)** لما كان الحلم والحذر من جميع الناس معلومًا، وقد تقدم لم يفسره، وقال: **(فأما تقديره)** أى بم ينظر مقداره إذا صدر منه، أو من غيره ممن يقتدى به، **(ففى تسوية النظر)** فى الأمور وما يترتب عليها من المنافع الدنيوية والأخروية، **(والاستمتاع)** أى استمتاع الناس به، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو بأمورهم فيما بينهم، ومعنى الاستمتاع الانتفاع، وقوله: **(بين الناس)** متعلق بالتسوية، وهى جعلهم متساوين، وليس المراد تساويهم حقيقة، بل أن يكون لكل أحد مقدار يليق به، **(وأما تفكره ففيما يبقى ويفنى)** أى فى أمور الدنيا الفانية والآخرة الباقية المخلدة.

فإن قلت: كيف يعلم هذا وهو أمر مضمر فى نفسه صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يطلع عليه إلا الله؟.

قلت: هذا بطريق الاستدلال العقلى، والفراسة الصادقة الشاهد لها ما يظهر من آثاره ويتعلق به إذا تكلم، فإن الظاهر عنوان الباطن.

(وجمع) بالبناء للمفعول أى جمع الله **(له)**، وكذا ما سيأتى بعده **(الحلم)** باللام أى جمع له سائر جزئيات الحلم المختص كل حليم ببعض منه، وفى بعض النسخ الحكم بالكاف، وله وجه **(فى الصبر)** أى مع الصبر على أمور الناس والأمة، فكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، مع حلمه صابرًا لا يضجر ولا يقلق كما أشار إليه بقوله: **(فكان لا يغضبه شىء)** مما يتعلق به فى نفسه، وإن كان قد يغضب لله، **(ويستفزه)** بكسر الفاء وتشديد الزاى المعجمة أى يستخفه بحيث يبدو منه خفة وقلق لأمور الدنيا والأعداء.

(وجمع له فى الحذر) أى فى حال حذره واحتراسه من الناس، أو مع ذلك **(أربع)** نائب الفاعل **(أخذه بالحسن)**، وفى بعض النسخ ترك قوله أربع، وهو مرفوع نائب الفاعل أو منصوب مفعول لأجله أى تمسكه بكل أمر مستحسن مشروع؛ **(ليقتدى به)** ويتبعه الناس، **(وتركه القبيح)** شرعًا وخلاف الأولى؛ **(لينتهى عنه)** علة للترك أى لينتهى الناس عنه، **(واجتهاد الرأى)** أى اجتهاده، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما يراه رأيا **(بما**

أصلح أمته) أى فيما يصلحهم أو بسببه، **(والقيام لهم)** أى الأمة بما جمع لهم أمر الدنيا والآخرة، فى المعاش والمعاد، ومعنى القيام التعهد والالتزام والاجتهاد، وبذل ما فى وسعه وطاقته من إصلاحهم، أو هو بمعناه المصلح بناء على جواز اجتهاده، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيه اختلاف مذكور فى كتب الأصول.

قال الآبى فى شرح مسلم نقلاً عن المصنف: لا خلاف أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يجتهد فى أمور الدنيا، ويرجع إلى رأى غيره فى ذلك كما فعل تلقيح النخل، واختلف فى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، هل له أن يجتهد فى الشرعيات؟ وهل هو معصوم فى اجتهاده أم لا؟ والصواب: أنه له ذلك، وأنه معصوم، وتفصيله فى أصول الفقه، فلا حاجة للتطويل به.

* * *

(فصل فى تفسير غريب هذا الحديث ومشكله)

المراد بالغريب ما لم يكن استعماله مشهورًا بين العرب بحيث يخفى على غير العرب العرباء إلا أن لا يكون جاريًا على قوانين اللغة كما قيل، والمشكل ما لم يكن واضح الدلالة بحيث يحتاج للتأويل.

(المشذب) بضم الميم وفتح الشين وتشديد الذال المعجمتين المفتوحة والباء الموحدة **(أى البائن)** أى الظاهر احترازًا عما فوق الرابعة بقليل **(الطول فى نحافة)** هى قلة اللحم، وضدها الضخامة، وقيل: الطويل مطلقًا.

(وهو مثل قوله فى الحديث الآخر: «ليس بالطول الممغط») بضم الميم الأولى وفتح الثانية وتشديدها وكسر الغين المعجمة وطاء مهملة، وأصله منمغط فأبدلت النون ميمًا وأدغمت بمعنى الطويل من امغط النهار إذا امتد، ويقال بالعين المهملة بمعناه كما فى النهاية، وقال التلمسانى: بالمعجمة والمهملة الميم الثانية مشددة أو مخففة، وهو الطول فى نحافة أو الطول الذى ليس بفائق، فليس يذم.

(والشعر الرجل) بفتح الراء المهملة وكسر الجيم من الترجيل، وهو تسريح الشعر وتمشيطه، والمرجل الذى سرح بمشط، والرجل الذى بحاله خلقة كما فى الإكمال وإليه أشار بقوله: **(الذى كأنه مشط)** بالتخفيف والتشديد، **(فتكسر قليلاً)** التكسر التثنى كأنه كسر.

(ليس بسبط) بفتح الباء وكسرها، وهو المرسل الذى فيه تثن كما قاله ابن عبد البر.

(ولا جعد) بفتح فسكون أى كثير الشعر كشعر الزنج، وقال المازرى: شعر رجَلَ

ورجِل ورجْل بفتح وكسر وسكون وبكسر الراء ثلاث لغات بين السبوطة والجعودة، وقيل: الذى كأنه مشط.

(والعقيقة)، وهى كما تقدم فى الأصل الشعر الذى يولد به الطفل؛ لأنه يعق أى يقطع سريعًا، ومنه العقيقة للطعام الذى يصنع عنده، والشاة التى تذبح له **(شعر الرأس)** وأصله كما علمت شعر المولود، ثم أطلق على غيره.

(أراد) أى ابن أبى هالة فى وصفه لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، بقوله: **(إن انفرقت)** أنها انفرقت **(من ذات نفسها)**، وذات مقحمة تأكيدًا لنفسها إن وقع تفرقها من غير صنع **(فرقها)** بالتخفيف أى تركها متفرقة غير ملتفة، **(وإلا تركها معقوصة)** أى إن لم تتفرق بنفسها والتفت واجتمعت تركها على حالها، والعقص ضفر الشعر على الرأس وليه، وقيل: هو لى الخصلة من الشعر، ثم عقصها، ثم إرسالها، وعقص شعره عقده فى قفاه.

(ويروى عقيصته) بدل عقيقته، وهى الشعر المعقوص أى المضفور من العقص، وهى اللى وإدخال أطراف الشعر فى أصوله كما فى المقتفى، والمشهور عقيقته؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يكن يعقص شعره، وقيل: إن هذا كان فى صدر الإسلام؛ لأنه كان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر به بشىء، وكانوا يسدلون شعورهم والمشركون يفرقون، فسدل ﷺ ناصيته، ثم فرق بعد، وقال النووى: المختار جوازهما، والفرق أفضل.

(وأزهر اللون نيره، وقيل: أزهر: حسن. ومنه زهرة الحياة الدنيا، أى زينتها) من أزهر السراج إذا نوره، ومما قلته كما تقدم:

من حرصك بالغناء كم تشتغل والعمر مضى فما يفيد الأمل
ما زهرة هذه الحياة الدنيا للفرك بأنمل المنا تحتمل

(وهذا كما قال فى الحديث الآخر: «ليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم»، والأمهق هو الناصع) أى الخالص **(البياض)**، والمهق شدة البياض من غير مخالطة حمرة، وقيل: ما يقرب بياضه من الزرقة، ويقال: أهمق بتقديم الهاء أيضًا وهو من القلب.

(والآدم الأسمر اللون، ومثله فى الحديث الآخر: أبيض مشرب) بالتشديد على زنة اسم المفعول المزيد، ويقال: مشرب بالتخفيف والتشديد للتكثير والمبالغة، والإشراب خلط لون بلون، فكأنه شرب، وأكثر ما يقال فى الحمرة **(أى فيه حمرة، والحاجب الأزج: المقوس الطويل الوافر الشعر، والأقنى: السائل الأنف المرتفع وسطه، والأشم:**

الطويل قصبة الأنف، والقَرَن)، بفتحتين: (**اتصال شعر الحاجبين، وضده البلج**) كما تقدم ما فيه، ولا حاجة لقول التلمسانى: البلج صباحة الوجه، فلا ينافى ما فى حديث أم معبد من وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالقرن الذى أشار إليه بقوله: (**ووقع فى حديث أم معبد وصفه بالقرن**)، ورواية مثله عن أبى عبيدة، فإن المشهور خلافه، ويؤيده أن العرب تكرهه، (**والأدعج: الشديد سواد الحدقة**) فى الصحاح الدعج شدة سواد العين مع سعتها، وكذا فى غيره.

(و) هو لا ينافى قوله: (**وفى الحديث الآخر أشكل العين، وأسجر العين**) بسين مهملة وجيم، (**وهو الذى فى بياضها حمرة**) أى اللون الذى فى بياض العين، وحمرة بدل منه بناء على جواز إبدال النكرة من المعرفة، أو الذى صفة لمقدر، وحمرة خبر آخر، وهو ممدوح لأنه فى البياض لا فى الحدقة، وقيل: الأشكل طويل شق العين كما فى المصابيح إلا أنه غلط فيه كما مر فى الفصل الثانى، ومنهم من قال: الدعج لغة زرقة فى بياض مستدلاً بقول:

يا رب إن العيون السود قد فتكت فينا وصالت بأسياف من الدعج

إذ السيوف زرق أى مخلوقة من الدعج، كقولهم: أنت مما تفعل و ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، على قول، وقيل: لا حجة فيه لاحتمال أنه من الدعج بضمتين على أنه تجريد، وهو جمع أدعج وتشبيهها بالسيوف فى فتكها، لا فى لونها؛ فإنها يقال لها: البيض كما يقال للرماح، والزرق إنما هى السهام، قال امرؤ القيس:

أتقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

(**والضليع: الواسع، والشنب: رونق الأسنان وماؤها، وقيل: رقتها وتحزيز فيها، كما يوجد فى أسنان الشباب، والفلج: فرق بين الثنايا**) إلى آخره كما تقدم ما فيه، وماؤها صفاؤها كما يقال: ماء الجمال، والماء يستعار لمعان فصلها الثعالبى فى المضاف والمنسوب، وقيل: المراد بالماء ريق الفم، والمراد بتحزيزها بزائين معجمتين كون أطرافها دقيقة كالشرافات لها.

(**ودقيق المسربة: خيط الشعر الذى بين الصدر والسرة، بادن: ذو لحم متماسك**) أى لا سمين فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يكن كذلك، وهو ممدوح، فهو (**معتدل الخلق**) فى المقتفى هو إشارة لدفع احتمال السمين، وكذا قوله: (**يمسك بعضه بعضًا، مثل قوله فى الحديث الآخر: لم يكن بالمطهم**) أى فاحش السمن منتفخ الوجه، (**ولا بالمكلثم أى ليس بمسترخى اللحم، والمكلثم القصير الذقن، وسواء البطن والصدر أى مستويهما،**

(ومشيح الصدر) بضم الميم والشين المعجمة كما مر **(إن صحت هذه اللفظة)** فى صفته صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فيكون من الإقبال)** فى صدره، **(وهو أحد معانى أشاح، أى أنه كان بادى الصدر و)** المراد به أنه **(لم يكن فى صدره قعس)** بفتحتين وعين وسين مهملتين بعد قاف، **(وهو تطامن فيه)** أى فى الصدر قيل: إن هذا مخالف لقول الجوهرى: القعس خروج الصدر ودخول الظهر ضد الحدب؛ لأن التطامن الانخفاض كقول ابن مالك، رحمه الله تعالى، فى نظم الكفاية:

والميل من أرنبة الأنف خنس ... وعرض أنف مع تطامن فطس

وفى الروض الأنف: الحدب انحناء فى الظهر، وقد يكون مستعملاً فى معنى المخالفة إذا قرن بالقعس كقوله:

فإن حدبوا فاقعس وإن هم تقاعسوا ... لينتزعوا ما خلف ظهرك فاحدب

قلت: وكذا فسره الشراح، والظاهر أن مراده عدم الارتفاع بقرينة أنه ورد أنه مستوى البطن والصدر، وقد صرح به المصنف فى قوله: **(وبه يتضح قوله قبل: سواء البطن والصدر، أى ليس بمتقاعس الصدر ولا مفاض البطن)**، والعجب منه بعد هذا كيف يعترض عليه؟ وكيف يصح تفسيره بغير ما ذكر؟ ومفاض بضم الميم وفتح الفاء وآخره ضاد معجمة ضخم البطن، وقيل: مسترخى اللحم، وقيل: عظيم البطن أو عظيمها مسترخى اللحم.

(ولعل هذه اللفظة مسيح بالسين وفتح الميم بمعنى عريض، كما وقع فى الرواية الأخرى، وحكاه ابن دريد، والكراديس رءوس العظام، وهو مثل قوله فى الحديث الآخر: جليل المشاش والكتد) جليل بفتح الجيم بمعنى عظيم.

(والمشاش) بضم الميم وشينين معجمتين واحده مشاشة، وهى رءوس العظام كالمرفقين والكتفين والركبتين، وفى الصحاح **(رءوس المناكب)**: أى العظام اللينة التى يمكن مضغها، ويقال: تمشمشها.

(والكتد) بفتح الكاف وكسر المثناة الفوقية ويجوز فتحها فسره المصنف بأنه **(مجتمع الكتفين، وشثن الكفين والقدمين: لحيمهما، والزندان: عظما الذراعين، وسائل الأطراف: أى طويل الأصابع)**، وسائل مر الكلام عليه مفصلاً.

(وذكر ابن الأنبارى) محمد بن قاسم بشار اللغوى نسبة للأنبار بفتح الهمزة: قرية قريبة من الفرات، ولهم أنبارى آخر منها راو للحديث، وهو محمد بن سليمان، والأنبار معربة معناها مخزن القمح **(أنه روى: سائل الأطراف، أو قال: سائن بالنون، وهما بمعنى**

واحد تبدل اللام من النون إن صحت الرواية بها، وأما على الرواية الأخرى: وسائر الأطراف، فإشارة إلى فخامة جوارحه)، عليه الصلاة والسلام، (كما وقعت مفصلة فى الحديث، ورحب الراحة أى واسعها، وقيل: كناية عن سعة العطاء والجود و) قوله: (خمصان الأخمصين) تقدم ضبطه وما فيه، وفسره هنا بقوله: (أى متجافى أخمص القدم، وهو الموضع الذى لا تناله الأرض من وسط القدم) هو بفتح السين والكثير سكونها، وضابطه أنه إن استعمل فى متفرق الأجزاء كالناس والدواب، فبالسكون وقد تفتح، أو فى متصلها كالدار والرأس فبالفتح وقد تسكن، وقال الجوهرى وغيره: والأول ظرف، والثانى اسم، ومن هنا يعلم أنهم لا يريدون بالاسم فى أمثال هذا الكلام اسم المصدر بخصوصه إذ الوسط بالمعنى الثانى ليس اسم مصدر قطعًا ثم قضيته أنه ليس ظرفًا إذ لا يقال: جلسنا وسط الدار، بل فى وسطها أى ما توسط منها.

(ومسيح القدمين أى أملسهما، ولذلك قال: ينبو عنهما الماء، وفى حديث أبى هريرة)، رضى الله تعالى عنه، (خلاف هذا، قال فيه: إذا وطئ بقدمه وطئ بكلها ليس له أخمص، وهذا يوافق معنى قوله: مسيح القدمين، وبه قالوا: سمى المسيح عيسى ابن مريم أى لم يكن له أخمص، وقيل: مسيح لا لحم عليهما، وهذا أيضًا يخالف قوله: شثن القدمين) إذا فسر بلحيمهما، وأما إذا فسر بميلهما إلى غلظ وقصر، أو بغلظ الأصابع فلا، وزعم أبو عبيدة أن شثنهما بمعنى غلظهما مع قصرهما، قال فى المطالع: وقد جاء ضد هذا، وهو سائل الأطراف يشير إلى رد زعمه، قال: وليس الشثن بعيب فى الرجال بخلاف النساء ردًا لمن زعم أنه معيب.

(والتقلع: رفع الرجل بقوة، والتكفؤ: الميل إلى سنن المشى وقصده، والهون: الرفق والوقار، والذريع: الواسع الخطو، أى أن مشيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يرفع فيه رجليه بسرعة، ويمد خطوه، خلاف مشية المختال، ويقصد سمته، وكل ذلك برفق وتثبت دون عجلة، كما قال: فكأنما ينحط من صبب، وقوله)، فى صفته عليه الصلاة والسلام: (يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، أى لسعة فمه، والعرب تتمادح بهذا، وتذم بصغر الفم، وأشاح: مال وانقبض، وحب الغمام: البرد، وقوله: فيرد ذلك بالخاصة على العامة أى جعل من جزء نفسه ما يوصل الخاصة إليه، فيوصل عنه للعامة، وقيل: يجعل منه للخاصة، ثم يبدلها فى جزء آخر بالعامة و) قوله: (يدخلون روادًا أى محتاجين إليه، وطالبين لما عنده، و) قوله: (ينصرفون إلا عن ذواق) مر ضبطه (قيل: عن علم يتعلمونه) منه، عليه الصلاة والسلام، (ويشبه أن يكون على ظاهره، أى فى الغالب والأكثر، والعتاد: العدة والشىء الحاضر المعد، والموازرة: المعاونة، وقوله: لا يوطن الأماكن أى لا يتخذ للصلاة

موضعًا معلومًا، وقد ورد نهيه) ﷺ (عن هذا مفسرًا في غير هذا الحديث، وصابره: أي حبس نفسه) الشريفة **(على ما يريد صاحبه، و)** قوله: **(لا تؤبن فيه الحرم)** مر ضبطه وفسره هنا بقوله: **(أي لا يذكرن فيه بسوء، و)** قوله: **(لا تنثى فلتاته)** تقدم ضبطه وفسره هنا بقوله: **(أي لا يتحدث بها، أي لم يكن فيه فلتة وإن كانت من أحد سترت، و)** قوله: **(يرفدون)** ذا الحاجة **(يعينون، والسخاب: الكثير الصياح، وقوله: ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ، قيل: مقتصد في ثنائه ومدحه، وقيل: إلا من مسلم، وقيل: إلا من مكافئ على يد سبقت من النبي ﷺ له)** أي نعم، واليد تطلق على الجارحة، وعلى النعم؛ لأنهم بمنزلة العلة الفاعلية لها لصدورها عنها إلا أنه خولف بينهما في الجمع، فقيل في الجارحة: أيد وفي النعمة أيادي، ويدى بضم المثناة التحتية وكسر الدال المهملة وتشديد الياء كقوله:

فإن له عندي يديا وأنعما

والأصح أنها في الجمع سواء كما أثبته أهل اللغة بشواهده، فلا حاجة للإطالة بذكره.

(ويستفزه: يستخفه، وفي حديث آخر في وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم: منهوس) بسين مهملة ومعجمة **(العقب، أي قليل لحمها)** أي قليل لحم العقب، وقيل: بالمعجمة معناه ناتئ العقبين معروقهما، قاله ابن قرقول برمته، وأول هذين التفسيرين يوافق كلام المصنف، والمراد: جنس العقب لا عقب واحد كما تقدم مثله، وثانيهما يخالفه؛ لأنه اعتبر فيه النتوء مع قلة اللحم؛ لأنه معنى المعروق قليل اللحم كما في الصحاح.

(وأهدب) بدال مهملة **(الأشفار)** بشين معجمة وفاء وراء مهملة، وهي حروف الأجفان التي ينبت عليها الشعر المسمى بالهدب، واحدها شفر بضم فسكون كهدب، ويكون مطلق الطرف: **(أي طويل شعرها)** انتهى التفسير، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

* * *

تم بحمد الله الجزء الثاني من كتاب نسيم الرياض لشهاب الدين الخفاجي رحمه الله في شرح الشفاء للقاضي عياض

ويليه الجزء الثالث، وأوله:

«الباب الثالث: فيما ورد من صحيح الأخبار»

* * *

المحتويات

نسيم الرياض

في شرح شفاء القاضي عياض

تأليف

شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر

الخفاجي المصري

المتوفى سنة ١٠٦٩هـ

ضبطه وقدم له وعلق عليه

محمد عبد القادر عطا

الجزء الثالث

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان
رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ ـ ١١ بيروت ـ لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3209-1



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

(الباب الثالث فيما ورد من صحيح الأخبار)

المراد ما رواه الثقات بسند متصل، وسلم من العلة القادحة، وقد يطلق على ما يشمل الحسن كما فصل فى مصطلح الحديث، والخبر تقدم أنه يراد به الحديث، وقد يراد به معناه الأعم الشامل له ولغيره، وعلى هذا فالصحيح بمعناه اللغوى وما ثبت صدقه، فقوله: **(ومشهورها)** ليس من عطف الخاص على العام، ومن قاله كأنه أراد به قسمًا منه، وهو ما اشتهر بين المحدثين، أو أرجع الضمير لصحيح الأخبار، وأنثه رعاية لمعناه، أو لاكتسابه التأنيث من المضاف إليه، فلا وجه لتخطئته فيه **(بعظيم قدره عند ربه)** متعلق بورد والباء للتعدية أو الإلصاق، **(ومنزلته)** عطف تفسير، والقدر والمنزلة والمرتبة بمعنى الشرف، **(وما خصه به فى الدارين)** الدنيا والآخرة غلب إطلاقه عليهما **(من كرامته صلى الله تعالى عليه وسلم)**، بيان لما، وكرامته: جلالته وعزته، وضمير خصه له، أو لما، وكذا به، والباء داخلة على المقصور، أو المقصور عليه، وكل منهما جائز بلا خلاف إنما اختلافهم فى أصله وحقيقته.

(لا خلاف): أى لأحد من المسلمين، بل العقلاء لانعقاد الإجماع عليه، ولا يعتد بما زعمه بعض أهل الكتاب **(أنه أكرم البشر)**، والنوع الإنسانى، وتقديره فى أنه، وحذف الجار فى مثله مقيس مطرد، **(وسيد ولد آدم)** السيد من ساد غيره أى فاقه فى الشرف والكمال، وفى إطلاق السيد عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى الله، وعلى غيره أقوال.

قال البيهقى فى كتاب الأسماء والصفات: السيد اسم لله تعالى لم يرد فى القرآن،

وورد فى الحديث، فعن مطرف: انطلقت فى وفد بنى عامر إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقلت: أنت سيدنا، فقال: السيد هو الله، قلنا: وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً، فقال: «قولوا بقولكم أو ببعض قولكم ولا يستجرنكم الشيطان» (١).

قال الحليمى: ومعناه المحتاج إليه بالإطلاق الله، فإن سيد الناس إنما هو رأسهم الذى يرجعون إليه، وبأمره يعملون، وعن رأيه يصدرون ومن قوته يستمدون إلى آخره، فهذا دليل على إطلاقه على الله، ودليل إطلاقه على غيره سواء كان نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما فى هذا الحديث، أو غيره كقوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]، فهذا يدل على إطلاقه على الله، وعلى غيره مطلقًا، وهو القول الأصح.

وحكى عن مالك امتناع إطلاقه على الله تعالى، ويطلق على غيره، وهو القول الثانى.

والثالث: أنه لا يطلق إلا على الله؛ لحديث «السيد الله»، بالحصر.

والرابع: أنه إذا عرف بالألف واللام اختص بالله كما ذكره الدمامينى فى أول شرح التسهيل، وهو أنه إذا أطلق على الله، فمعناه المحتاج إليه فى جميع الأمور، وإذا أطلق على غيره فمعناه الرئيس الذى يتبعه قومه كما فصلناه فى شرح أسماء الله الحسنى، وقد ورد فى الحديث النهى عن تسميته سيدا، وهو إما تواضع منه صلى الله تعالى عليه وسلم، أو المراد نهيه عن سيادة دنيوية، فلا منافاة بينه وبين هذا، وأما فى الصلاة فاختلف فى الأفضل فيها: هل هو: صلى الله على سيدنا محمد أو على محمد؟ ولابن حجر كلام فيه فى الفتاوى سيأتى فى محله، والولد يطلق على الواحد الذكر وغيره، والمراد سيد آدم وولده، ولذا عقبه بقوله: **(وأفضل الناس منزلة عند الله)**، وإذا كان صلى الله تعالى عليه وسلم، أفضل الناس علم أنه أفضل الثقلين، ولا حاجة إلى أن يقال: إن الناس يطلق على ما يشمل الجن، وإن ذهب إليه بعض اللغويين فى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]، وقالوا قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٦]، بيان له، والعرب تقول: ناس من الجن، وذهب السبكى فى فتاويه إلى أنه يطلق على ما يقابل الجن وعلى ما يشملهما، وأنه على الأول أصله أناس من الإنس، وعلى الثانى من نوس، فالناس الأول غير الثانى، وهو كلام حسن.

(وأعلاهم درجة) الدرجة واحدة الدرج، وهى مواطئ السلم لما يعلو، وذكره بعد

---

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٢٢/٧)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٣١٨/٥)، وأحمد فى المسند (٢٤٩/٣).

المنزلة فيه لطف؛ لأن علو المراقى يقتضى زيادة علو المنازل.

(وأقربهم زلفى) أى قربى، وهو كجد جده، وقيل: هو اسم أقيم مقام المصدر المؤكد، فهو فى معنى أقربهم تقريبًا، وليس تمييزًا كمنزلة ودرجة.

(واعلم أن الأحاديث) جمع حديث على خلاف القياس، قيل: ولا يناسب أن يكون جمع أحدوثة؛ لأنها تختص بالمضحكات والشر، ورد بأنها تستعمل فى الخير أيضًا كقوله(1):

من الخفرات البيض ودَّ جليسها إذا ما انقضت أحدوثة أو تعيدها

وقول القاضى فى سورة المؤمنين فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [المؤمنون: ٤٤]: إن أحاديث اسم جمع للحديث، وقد شرطوا فيه أن لا يكون على وزن مختص بالجمع، أو يغلب فيه، وصيغة منتهى الجموع لا توجد فى المفردات يدفع بما فى الكشف من أن اسم الجمع يطلق بمعنى آخر، وهو ما كان على خلاف القياس، كما يقال فى ليال: إنه اسم جمع، وقد علمت أن الحديث ما يضاف للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، من أقواله وأفعاله وتقريراته وصفاته وسائر أحواله، فى منامه ويقظته **(الواردة فى ذلك)** أى فى عظيم قدره صلى الله تعالى عليه وسلم، **(كثيرة جدًا)** بكسر الجيم وتشديد الدال المهملة، وهو مفعول مطلق محذوف عامله وجوبا لجريه مجرى الأمثال، وهو مؤكد لما قبله أى متناه فى الكثرة، وأصله من الجد بمعنى الاجتهاد؛ لأن المراد أنه اجتهد فى كثرته وبولغ فيها.

(وقد اقتصرنا منها) أى من تلك الأحاديث الكثيرة **(على صحيحها)** الصالح للاعتماد عليه، والاحتجاج به، **(ومنتشرها)** أى مشهورها، **(وحصرنا)** من حصر الكل فى أجزائه لا الكلى فى جزئياته **(معانى ما ورد منها فى اثنى عشر فصلا)**، فيه مسامحة لأن الفصول اسم للألفاظ، وهى مغايرة للمعانى، فتحتاج لتقدير مضاف فى الأول أو الثانى.

* * *

(الفصل الأول فيما ورد من ذكر مكانته عند ربه)

[والاصطفاء والتفضيل وسيادة ولد آدم]

المكانة كالمنزلة علو قدره، ويجوز أن يكون من التمكن وهو الثبوت، كما يقال له:

---

(١) البيت من الطويل، وهو لكثير عزة فى ديوانه (ص٢٠٠)، وله أو لذى الرمة فى تزيين الأسواق (١/١٢٥)، ولذى الرمة فى ملحق ديوانه (ص١٨٦٥)، تزيين الأسواق (١/٢١٠)، وبلا نسبة فى تاج العروس (٥/٢١١) (حدث).

مكنه وتمكن من السلطان أى قرب، **(والاصطفاء)** أى اختياره، صلى الله تعالى عليه وسلم، على غيره وتقديمه، **(والتفضيل، وسيادة ولد آدم)** كما مر، **(وما خصه به فى الدنيا من مزايا الرتب)** جمع مزية بزنة عطية، وهى الفضيلة التى تقدمه على غيره، وفى شرح المفتاح أنه لا فعل له، ويخالفه ما فى الأساس من أنه يقال: تميزت عليه كما مر، وفسرها الشريشى بالتمام والكمال، **(وبركة اسمه الطيب)** أى كونه يتبرك باسمه المشهور، وهو أحمد ومحمد، والطيب صفة لا بدل؛ لأن الطيب ليس من أسمائه المشهورة، وهذا إشارة لما ورد فى الحديث: **(كل أمر لا يبدأ فيه بحمد الله والصلاة علىّ فهو أبتر)**(١)، أى ممحوق البركة ذكره السخاوى فى شرح ألفية الحديث، وقال: هو وإن كان ضعيفًا لكنه يذكر فى الفضائل.

(أخبرنا الشيخ أبو محمد عبد الله بن أحمد العدل) لقب به، وهو إمام حافظ تميمى، توفى سنة إحدى وخمسمائة **(إذنًا بلفظه)** أراد بالإذن الإجازة بروايته عنه، وقال: بلفظه؛ لأنه لم يكن من كتابه وهو يقرؤ كما مر، وهذا جائز قال: **(حدثنا أبو الحسين الفرغانى)** بالفاء والراء المهملة والغين المعجمة نسبة لفرغانة بلدة بما وراء النهر، وهو الإمام على بن عبد الله المقرئ، ووقع فى بعض النسخ الحسن، والأصح الأول، قال: **(حدثتنا أم القاسم بنت أبى بكر بن يعقوب عن أبيها)** قال: **(حدثنا حاتم، وهو ابن عقيل)** بفتح العين وكسر القاف، وهو ابن المهتدى ابن المرارى اللؤلؤى المشهور، **(عن يحيى هو ابن إسماعيل عن يحيى الحمانى)** بكسر الحاء المهملة وتشديد الميم وألف ونون وياء نسبة، وهو يحيى بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن ميمون أبو زكريا الكوفى، وهو ثقة، وضعفه بعضهم، وقال: إنه كذاب، وله ترجمة فى الميزان قال: **(حدثنا قيس)** بن الربيع أبو محمد الكوفى اختلفوا فيه أيضا، فقيل: ثقة، وقيل: ضعيف، وأخرج له أصحاب السنن، توفى سنة خمس أو سبع أو ثمان وستين ومائة، وترجمته فى الميزان، **(عن الأعمش)** سليمان بن مهران تقدمت ترجمته **(عن عباية بن الربعى)** بفتح العين وآخره ياء، ويقال: عباءة بالهمزة علم منقول من اسم الكساء، والربعى بكسر الراء المهملة وسكون الموحدة وعين مهملة وياء نسبة، هو من غلاة الشيعة وله ترجمة فى الميزان، **(عن ابن عباس)**، رضى الله تعالى عنهما، وهذا الحديث رواه الطبرانى والبيهقى فى الدلائل **(قال: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: إن الله قسم الخلق قسمين)** قيل: هذه قسمة تقديرية فى علم الله تعالى. وقيل: حقيقية كما بينه فى قوله: **(فجعلنى من خيرهم قسما)**(٢) منصوب على التمييز أى

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٩٤)، والطبرانى فى الكبير (١٩/٧٢)، والدارقطنى فى سننه (٢/٢٢٩).
(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٣/٥١)، والبيهقى فى دلائل النبوة (١/١٣٣).

من القسم الذى هو خير يعنى أصحاب اليمين المشار إليهم فى قوله: **(فذلك)** التقسيم ما تضمنه **(قوله: أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال)** لا العرب كما توهم؛ لقوله: **(فأنا من أصحاب اليمين)** من تبعيضية أو ابتدائية، **(وأنا خير أصحاب اليمين)** أى أكرمهم وأفضلهم، **(ثم جعل القسمين أثلاثا)** أى جعل مجموع القسمين ثلاثة أقسام، لا كل قسم منهما كما يتبادر إلى الذهن، **(فجعلنى فى خيرها ثلثا)**، وقيل: أصحاب اليمين هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، وأصحاب الشمال هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، أو هم الذين كانوا عن يمين آدم، والذين كانوا عن شماله فى عالم الذر، أو الذين أخذوا من شقه الأيمن والأيسر، أو من أعطى كتابه بيمينه وشماله، أو الذين رآهم فى الإسراء عن يمين آدم، عليه الصلاة والسلام، وشماله.

(وذلك) أى التقسيم الثلاثى ما بينه **(قوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾** [الواقعة: ٨]) أى اليمين، أو اليمين على أنه مصدر ميمى، وهم بعض السعداء غير السابقين؛ لئلا يتداخل الأقسام، (﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ [الواقعة: ٨]) هى كالميسرة بمعنى الشمال؛ لأن العرب تقول للعبد الشمال: شومى، ومنه الشام؛ لأنها عن شمال الكعبة فى قول، أو الشامة، **(والسابقون)**، وفى بعض النسخ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة: ٤] بالتكرير كما فى الآية، ولابد من تغايرهما ليفيد الحمل، فهو إما كقوله:

أنا أبو النجم وشعرى شعرى

أى الذين عرفوا بكمال السبق، أو الأول بمعنى السابقين للإيمان والطاعة، والثانى بمعنى السابقين إلى الجنة ونعيمها، وهو أحد التفاسير، وقيل: هم الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سئلوه بذلوه، ويحكمون لغيرهم بما يحكمون به لأنفسهم، وقيل: السابقون للصلوات أو التوبة، وقيل: هم الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

(فأنا من السابقين، وأنا خير السابقين)، فهو من أعلى الأقسام لا قسم مستقل حتى تكون القسمة رباعية كما توهم، ومن هذا القسم الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فهو أفضل من كل واحد منهم، ومن مجموعهم كما تقدم.

(ثم جعل الأثلاث قبائل) أى جعل كل ثلث أو مجموعها، وهذا أظهر، والقبائل جمع قبيلة، وهم بنو أب واحد، والقبيل بدون هاء الجماعة مطلقا ثلاثة فصاعدا.

(فجعلنى من خيرها قبيلة، وذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ [الحجرات: ١٣] **الآية)**، والشعوب جمع شعب بالكسر، وقيل: إنما هو بالفتح، والذى بالكسر طريق بين جبلين، واختلف فى تقسيم الناس، فقيل: الشعب أكثر من القبيلة،

وبعدها الفصيل، ثم العشيرة، ثم الذرية، ثم العترة، ثم الأسرة، وهذا مخصوص بالعرب، وقيل: هم ست طبقات: شعب وقبيلة وعمارة وبطن وفخذ وفصيلة، فالشعب الطبقة الأولى، وبعدها القبيلة، ثم العمارة بكسر العين المهملة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة بالصاد المهملة، فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الأفخاذ، والفخذ يجمع الفصائل، فمضر شعب وكنانة قبيلة، وقريش وهو النضر بن كنانة عمارة، وقصى بطن، وهاشم فخذ، وعبد المطلب والعباس فصيلة، وقد تطلق القبيلة على ما دونها تجوزا، ولما لم يكن فى الآية ما يؤذن بشرف الفصيلة فى نفسها، فإن الشرف إنما هو بالفضيلة لا بالفصيلة، ولكن شرف الأصل يستلزمه غالبا.

قال: **(فأنا أنقى ولد آدم، وأكرمهم على الله، ولا فخر)** جملة حالية أى لا أقول هذا تفاخرا ومباهاة وتعظما، وإنما هو تحدث بنعم الله، وبيانا للأمة ما يجب عليهم اعتقاده توقيرا واحتراما له، وإنما نلته بتكريم ربى وفضله، وكل مؤمن تقى كريم على الله، وكل فاجر شقى هين على الله، وقال عيسى، عليه الصلاة والسلام: «من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله»[(١)]، ويقال: هو أكرم عند الله، وعلى الله لكونه بمعنى أعز المتعدى بعلى حملا له على نظيره، **(ثم جعل القبائل بيوتا، فجعلنى من خيرها بيتا)** بيوت بضم الباء الموحدة وكسرها جمع بيت، وهو المنزل والمسكن، والظاهر أن المراد بالبيوت هنا الفخذ، أو الفصيلة لا البطن كما قيل، والبيت يطلق مجازا على المجد والشرف كما فى قوله[(٢)]:

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

وعلى الأصول والأقارب كما يقال: هو بيت علم أى من قوم علم، وفى إضافته للمكان إثبات لمن فيه بطريق الكناية التى هى أبلغ من التصريح كما قرر فى كتب المعانى.

(وذلك) أى كونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من خير بيت وأشرفه ما دل عليه **(قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾** [الأحزاب: ٣٣])، وهذا يدل على ما فسرنا به البيت، والرجس النجس المستقذر استعير للمعاصى، والتطهير ترشيح للمعاصى، وما استعير لها لأنها تلوث الأعراض، وأهل البيت والآل الأقرباء، وقول الشيعة: إنهم على وفاطمة والسبطان، وهم أهل الكساء، رضى الله تعالى عنهم، وادعاؤهم عصمتهم، وأن إجماعهم حجة استدلالا بهذه الآية ينافيه

(١) أخرجه ابن عدى فى الكامل (٢٥٦٥/٧)، وانظر كشف الخفا (٣٧٣/١).
(٢) تقدم الاستشهاد به.

السياق، وفى الآية مبالغة فى شرفهم بليغة لذكر تطهير أعراضهم من دنس المعاصى، وهو أجل النعم، وتعريف الرجس بلام الاستغراق الدال عليه إطلاقه فى مقام المدح، والتعبير بالإذهاب والإزالة بالكلية، وحذف مفعول يريد للتعميم لتذهب النفس كل مذهب، ونصب أهل البيت على المدح، والنداء وتعريف البيت العهدى والتعبير بالتطهير الدال على التكثير، وتأكيده بالمصدر، وسيأتى تتمة لهذا.

(وعن أبى سلمة) هو ابن عبد الرحمن بن عوف أحد الفقهاء السبعة كما تقدم، **(عن أبى هريرة)**، رضى الله تعالى عنه، عبد الرحمن بن صخر على الأصح من نحو ثلاثين قولا كما تقدم، وهذا الحديث رواه الترمذى وصححه، وقال: إنه حسن غريب.

(قال: قالوا) أى بعض الصحابة، رضى الله عنهم: **(يا رسول الله! متى وجبت لك النبوة؟)** أى فى أى زمان ثبتت لك إذ لا يجب على الله شىء. **(قال: وآدم بين الروح والجسد)** الجسد والبدن والجسم بمعنى، وهذه الجملة حالية من الجواب المقدر لمتى الزمانية أى ثبتت لى فى هذه الحال، وفى هذا الحديث روايات متعددة صحيحة منها: «إنى عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل فى طينته»[(١)]، ومنها: متى استنبأت؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد».

وفى رواية: «بين الماء والطين»، وقال ابن تيمية، والزركشى وغيرهما: حديث «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين»، و«كنت نبيا ولا آدم ولا ماء ولا طين»، لا أصل لهما يعنى بهذا اللفظ.

قلت: ليس معناه أنه موضوع كما توهم، فإنه رواية بالمعنى، وهى جائزة؛ لأنه بمعنى الحديث السابق، ومعنى منجدل، ساقط على الجدالة وهى الأرض، وليس المعنى أنه كان نبيا فى علم الله كما قيل؛ لأنه لا يختص به، بل إن الله خلق روحه قبل سائر الأرواح، وخلع عليها خلعة التشريف بالنبوة إعلاما للملأ الأعلى به، وإذا كانت النبوة صفة لروحه علم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد موته نبىء رسول، ولا يضر انقطاع الأحكام والوحى، وقد أكمل دينه وإنكار ذلك جهل فاحفظه، فإنه نفيس جدا، وهذا هو المراد بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: إن الله تعالى خلق نوره قبل أن يخلق آدم، عليه الصلاة والسلام، بأربعة عشر ألف عام، كما رواه ابن القطان.

وفى رواية: «يسبح ذلك النور وتسبح الملائكة بتسبيحه»، وهذا يؤيد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، مرسل للملائكة كغيرهم، فهذا صريح أن نبوته، صلى الله تعالى عليه

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/٩)، والطبرى فى تفسيره (١/٤٣٥).

وسلم، ظهرت فى الوجود العينى قبل نبوة آدم وغيره، وأن الملائكة لم تعرف نبيًا قبله، وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، النبى المطلق، وسائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، خلفاؤه، والشرائع شريعته ظهرت على لسان كل نبى بقدر استعداد أهل زمانه، فهو صلى الله تعالى عليه وسلم، أول الأنبياء وآخرهم، ولا يمكن أن يجرى على شريعته قلم نسخ، ولا يكتب على نسخه رسالة حواشى زيادة كما قيل: ابدأ حديثى ليس بالمنسوخ إلا فى الدفاتر.

وقيل: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم، سابق على سائر الأنبياء روحًا لما مر، وجسدًا لأن مادة جسده صلى الله تعالى عليه وسلم، خلقت قبل سائر المواد؛ لما روى ابن الجوزى فى الوفاء عن كعب الأحبار أنه تعالى لما أراد أن يخلق محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم، أمر جبريل، عليه الصلاة والسلام، أن يأتيه بالطينة البيضاء، فهبط فى ملائكة الفردوس، وقبض قبضة من موضع قبره بيضاء نيرة، فعجنت بماء التسليم فى معين الجنة حتى صارت كالدرة البيضاء، لها شعاع عظيم، ثم طافت بها الملائكة حول العرش والكرسى والسموات والأرض، حتى عرفته الملائكة قبل أن تعرف آدم، عليه الصلاة والسلام، أى عرفت روحه وعنصره، والبينية فى هذا الحديث الظاهر أن المراد بها عدم الطرفين الروح والجسد، أى لا روح ولا جسد، كما صرح به فى الرواية السابقة: «لا آدم ولا ماء ولا طين»؛ لأنك إذا قلت: مسكنى بين البصرة والكوفة علم أنه ليس بهما، فأريد به لازم معناه بطريق الكناية، وليس المراد أنه قريب منهما كما يقال: لون بين البياض والحمرة، ومزاج بين الصحة والمرض كما قيل، وليس معنى بين الماء والطين أنه لم يكن ماء صرفًا ولا طينًا صرفًا؛ لنبو المقام عنه وعدم ملاقاته لما قررناه، وقد حققنا هذا المقام بما لم نسبق إليه ولله الحمد.

(وعن واثلة بن الأسقع) بمثلثة ولام والأسقع بسين مهملة وقاف وعين مهملة الصحابى الجليل القدر من أهل الصفة، وأسلم رضى الله تعالى عنه، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، متوجه لتبوك، فخدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وشهد مشاهد الشام، وتوفى بدمشق سنة خمس أو ست وثمانين، وله ثمانون سنة، ويكنى أبا محمد، وفضائله لا تحصى نفعنا الله ببركاته ورزقنا زيارته، وهذا الحديث رواه مسلم، وقد تقدم.

(قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل) أى اصطفى إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، واختاره من الأنبياء لشرفه، واصطفى من ولده أى من أولاده إسماعيل، عليه الصلاة والسلام، فهو أفضل من

إسحاق، **(واصطفى)** أى اختار **(من ولد إسماعيل بنى كنانة)**، وهم أربعة النضر وعبد مناف ومالك وملكان، وكنانة علم منقول من كنانة السهام وجعبتها، قال الشاعر:

صاح فى العاشقين بالكنانة رشا فى الجفون منه كنانة

(واصطفى من بنى كنانة قريشًا)، وهو النضر بن كنانة، وقيل: قريش بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وتقدم سبب تسميته قريشًا.

(واصطفى من قريش بنى هاشم) بن عبد مناف بن قصى بن كلاب، فبنوه مصطفون من قريش.

(واصطفانى من بنى هاشم) بن عبد المطلب.

(ومن حديث أنس، رضى الله تعالى عنه)، ابن مالك بن النضر خادم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ودعا له، وأحاديثه والرواية عنه كثيرة مشهورة جدًا، وتوفى سنة ثلاث وتسعين، وقد جاوز عمره المائة، وهذا الحديث والذى بعده أخرجهما الترمذى **(أنا أكرم ولد آدم)** أى أعزهم وأشرفهم، وتقدم أن لفظ ولد يطلق على الواحد المذكور وغيره **(على ربى، ولا فخر)**(١) تقدم معناه.

(وفى حديث ابن عباس، رضى الله عنهما: أنا أكرم الأولين والآخرين، ولا فخر)(٢) قيل: قال فيما مر: فى حديث أنس، ومن حديث أنس، وهنا: وفى حديث ابن عباس إشارة إلى أن الأول بعض حديث طويل، وهذا حديث مستقل، وفيه نظر.

(وعن عائشة، رضى الله عنها)، كما رواه الطبرانى وأبو نعيم والبيهقى فى الدلائل مسندًا **(عنه عليه الصلاة والسلام)** أنه قال: **(أتانى جبريل)** لم يذكر ما أتاه لأجله؛ لأن قوله: **(فقال: قلبت)** بتشديد اللام بمعنى فتشت، وليس المراد به قلبها ظهرًا لبطن، لم يذكر فيه أنه أوحى إليه بهذا **(مشارق الأرض ومغاربها)** جمع مشرق، وهو الجهة التى تطلع منها الشمس، وجمع مغرب وهو مقابله، وجمعهما لأن للشمس فى كل زمان مشرق، أو تشرق بعده من درجة غيره، وكذلك المغرب، وإذا أفردا فباعتبار الجهة وإذا ثنيا فباعتبار المشرق الجنوبى والشمالى، ولذا ورد فى القرآن بالوجوه الثلاثة؛ كما بيناه فى حواشى البيضاوى، واختار الجمع هنا؛ لأنه أنسب للعموم، والمراد أنه فحص عن جميع أهل الأرض مشرقا ومغربا،ونظر أحوالهم كمالا ونقصا، **(فلم أر رجلا أفضل من**

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/١٣)، والبغوى فى تفسيره (٤/١٧٨)، وانظر: مناهل الصفا للسيوطى (٢٩)، والدر المنثور (٦/١١٩).

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/٥٣٠)، والزبيدى فى الإتحاف (١٠/٤٩٧).

محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم)، الظاهر أن رأى علمية، ونفى الأفضلية يدل على نفى المساواة أيضا، كما بيناه سابقا.

(**ولم أر بنى أب أفضل من بنى هاشم**) الذين هم عشيرته وبيته، فهو خيار من خيار.

(**وعن أنس، رضى الله تعالى عنه**)، فى حديث الحسن الذى رواه الترمذى، وقد تقدم (**أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أتى بالبراق**) مبنى للمجهول، أى أتاه جبريل، عليه الصلاة والسلام، به ليركبه للإسراء، وقد مر أن البراق بالضم على شكل دابة فوق الحمار دون البغل، سمى به للمعانه وبريقه، أو لسرعته كالبرق الخاطف (**ليلة أسرى به**) ظرف أتى، وهى ليلة سبع عشر رمضان، أو سبع عشر رجب قبل الهجرة وبعد مبعثه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بخمس سنين، أو بخمسة عشر شهرا كما سيأتى فيه، (**فاستصعب عليه**) أى لم ينقد له، وامتنع منه لبعد عهده بركوب الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لطول زمن الفترة، أو لسبب آخر لقول جبريل له، صلى الله تعالى عليه وسلم: لعلك مسست الصفراء أى الذهب أو صنم أصفر، فقال: إنما مررت عليه، فقلت: تبا لمن يعبدك من دون الله.

(**فقال له**) أى للبراق (**جبريل عليه الصلاة والسلام: أبمحمد تفعل هذا؟**) الاستصعاب وقدم متعلق الفعل أى أتفعله به دون غيره؟ والاستفهام إنكارى بينه بقوله: (**فما ركبك أحد أكرم على الله منه، فارفض عرقا**) أى سال عرقه كما مر بيانه.

(**وعن ابن عباس، رضى الله عنهما**)، رواه ابن الجوزى فى الوفاء، وأبو نعيم فى الدلائل، وقال السيوطى: رواه ابن عمر، والعدنى فى مسنده، (**عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم: لما خلق الله آدم أهبطنى فى صلبه إلى الأرض**) يعنى أن الله خلق نوره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعنصره الذى عجن بالتسنيم وهو ألطف شىء، فأودعه فى صلب آدم، وأهبطه فيه كما مر، ثم نقله منه بوسائط.

(**وجعلنى فى صلب نوح فى السفينة**)، فكان ذلك ببركته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١].

(**وقذف بى فى النار فى صلب إبراهيم**)، فكانت بردا وسلاما ببركته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى المكررة هنا إما لأن الأول بدل منه، أو لأنه مطلق ومقيد كما قرر فى قوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٥]، فينزل ذلك منزلة التغاير، فلا يرد عليه أنه لا يتعدى عامل بحرفى جر بمعنى.

(**ولم يزل ينقلنى فى الأصلاب الكريمة**) الشريفة (**إلى الأرحام الطاهرة**) من دنس الزنا

ونكاح الجاهلية، وفيه كلام تقدم **(حتى أخرجنى)** إلى الدنيا إذ خلقنى **(بين أبوى)** يعنى أباه عبد الله الذبيح، وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف، واختلف فى زمن موتهما، فقيل: مات أبوه وأمه حاملة به، وقيل: فى المهد، وقيل: وهو ابن شهرين، وقيل: ابن سنتين، ومات عند أخواله بنى النجار، وماتت أمه وقد بلغ سنه خمسا، أو ستا، أو سبعا أو اثنى عشر على اختلاف فيه، **(لم يلتقيا على سفاح قط)** جملة حالية، والمراد بالسفاح نكاح بغير عقد، أو عقد جاهلى، وهذا علمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالوحى، أو لعلمه بأخبار الجاهلية لا بالإلهام كما توهم.

(وإلى هذا) المذكور فى الحديث بجملته **(أشار)** عمه **(العباس، رضى الله عنه، ابن عبد المطلب بقوله)** فيه يمدحه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا الشعر رواه الطبرانى، وصاحب الغيلانيات، وفى الزاهر لابن قتيبة أن العباس أتى إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال: أريد أن أمدحك: فأنشده هذه الأبيات، فقال له، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يفضض الله فاك، أو لا يفضى الله فاك، وكان ذلك لما رجع، صلى الله تعالى عليه وسلم: من غزوة تبوك.

(من قبلها طبت فى الظلال وفى مستودع حيث يخصف الورق)

أى من قبل هذه النشأة، أو الدنيا، وقيل: قبل النبوة، أو قبل الولادة، أو قبل كل ذلك، فأعاد الضمير على غير مذكور؛ لعلمه من السياق، والجار متعلق بطبت، وقدم لإفادة أن طيبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثابت له قبل ظهوره لا بعده فقط، وطبت أى تطهرت من الأدناس البشرية، لطيب عنصره، صلى الله تعالى عليه وسلم، والظلال جمع ظل بمعنى فى ظلال الجنة فى صلب آدم، عليه الصلاة والسلام، قبل أن هبط، وليس المراد به المتعارف الذى تنسخه الشمس إذ لا شمس فى الجنة، ولا قمر، وقد ورد فى الحديث «ظل الجنة سجسج» أى لا حر فيه، ولا برد، بل المراد: الكن والمقر، أو هو كما فى قولهم: أنا فى ظل فلان أى فى حمايته، ومستودع بضم الميم وفتح الدال المهملة يعنى به مكان آدم وحواء من الجنة، كما قال ابن قتيبة هو المحل الذى كان فيه آدم، عليه الصلاة والسلام، من الجنة كأنه وداعة فيه، وفيه إيماء إلى إخراجه منه للأرض، أو أراد به الرحم، وكان أبو عبيدة يقول فى قوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨]: المستقر الصلب، والمستودع الرحم، وخصف الورق إلصاق بعضه ببعض، ومنه الخصاف، ويروى حيث يستر الورق يعنى به الجنة، والورق ورق الجنة الذى كان يستتر به آدم، عليه الصلاة والسلام، قبل أن يعلم الحياكة، فلما أهبط إلى الهند تفتت الورق الذى عليه، قيل: ومنه حصل العود والعنبر وغيره من الطيبات، فأوحى الله إليه صنعة

النسج، واتخذ الثياب للسترة.

(ثم هبطت البلاد لا بشر أنت ولا مضغة ولا علق)

أى هبطت فى صلب آدم، عليه الصلاة والسلام، من الجنة إلى الدنيا، وهى المراد بالبلاد، والهبوط كما قال الراغب: الانحدار قهرًا وهو متعد، وقال تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١]، ولا يحتاج لتأويله بالدخول كما قيل، والبلاد وإن اختصت بالبنيان فهو باعتبار الأول هنا، ولما كان المراد من هبوطه، صلى الله تعالى عليه وسلم، هبوط نوره قال: لا بشر، وهى جملة حالية، أى فى حال كونك غير جسد كأجساد البشر، والمضغة قطعة لحم بمقدار لقمة تمضغ غير مخلقة، والعلق بفتحتين جمع علقة وهى دم متجمد من المنى.

(بل نطفة تركب السفين وقد ألجم نسرًا وأهله الغرق)

النطفة الماء الصافى والمنى فى الأصلاب، والسفين جمع سفينة وهى المركب، أى فى صلب نوح، عليه الصلاة والسلام، لما أغرق الله قومه بالطوفان، وألجم وصل إلى الفم وعلا محلا يوضع فيه لجام الفرس، والنسر طائر معروف سمى به صنم كان يعبده قوم نوح، عليه الصلاة والسلام، وهو المراد هنا، وأهله قوم نوح، والمراد بالغرق الماء المغرق، أو هو على ظاهره، وألجم بمعنى أدرك لأن الإنسان إذا عم الماء فمه منع من الكلام، والسفين المراد به سفينة نوح، عليه الصلاة والسلام، فإن كان مفردا فهو ظاهر، وإلا فهو جمع أريد به واحد تجوزًا، فلا إشكال فيه كما هو ظاهر.

(تنقل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبق)

الصالب والصلب والصلب بفتحتين وبضمتين وضم فسكون، ففيه لغات أقلها استعمالاً صالب كما قاله ابن قتيبة، وهو فقار الظهر، والرحم مقر الولد من المرأة، والعالم المراد به هنا قرن من القرون، وبدا بمعنى ظهر ووجد، وطبق بمعنى قرن أيضًا؛ لأنه يطبق وجه الأرض أى لا تزال تظهر فى عالم بعد عالم. يريد إذا مضى قرن بدا قرن آخر. ويروى هنا بيت هو:

وردت نار الخليل مكتنفا تجول فيها ولست تحترق

ومعنى مكتنفًا محفوظًا فى كنف، أو تحيط بك نارها ولست تحترق، وروى مكتمنًا أى مستترًا.

(حتى احتوى بيتك المهيمن من خندف علياء تحتها النطق)

احتوى بالحاء المهملة افتعال من حوى بمعنى حاز، والبيت بمعنى الشرف والنسب

كما مر، والمهيمن بمعنى الشاهد على فضلك، أو الأمين، وخندف بكسر الخاء المعجمة وكسر الدال المهملة ونون وفاء اسم امرأة إلياس بن مضر، وهو من الخندفة، وهى المشى السريع. والعلياء العز والشرف. وتحتها روى دونها، والمعنى واحد. والنطق بضمتين جمع نطاق، وهو ما يشد فى الوسط كالمنطقة. استعارته العرب لجبال واسعة فوق بعض، وبيتك فاعل احتوى، وهو تمثيل لشرفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى أن شرفك، وعلو نسبك، وأصلك من خندف اشتمل على عليا دونها الجبال الشامخة.

وقال ابن قتيبة: فى هذا البيت أقوال: أحدها أنه أعلى قومه، وهم دونه كالنطاق له، والآخر أنه يريد العفاف من نطاق المرأة الذى يحسنها، أى تحتها العفاف والحسب، والثالث: أن النطق المتكلمون جمع ناطق، أى كل خطيب من العرب، فهو دون بلسان قومك، من قوله: بل هم قوم خصمون انتهى، وروى فى هذا الشعر زيادة ذكرها الغسانى، وهى:

(وأنت لما ولدت أشرقت الأر ض وضاءت بنورك الأفق
فنحن فى ذلك الضياء وفى النـ ور سبل الرشاد نخترق
يا برد نار الخليل يا سببا لعصمة النار وهى تحترق)

ومعنى نخترق بالخاء المعجمة نقطعها ونجاوزها، وضاء يكون لازمًا ومتعديًا، والأفق الناحية، وأنثه هنا لتأويله بها، قال العارف بالله ابن عربى: ذهب بعضهم إلى أن عالم الأجسام من وقت خلقه لم يزل فى سفر إلى ما لا نهاية له، فإذا لاحٍ له منزل يقول هذا هو الغاية القصوى، فإذا وصلت إليه لم يلبث أن يخرج منه راحلا، فكم سافرت فى أطوارك إلى أن تكونت بين أبيك وأمك إذا اجتمعا من أجلك، ثم انتقلت إلى نطفة وعلقة إلى مضغة إلى عظم كسى لحمًا، ثم أنشئت نشأة أخرى، وأخرجت إلى الدنيا، فتنقلت فى أطوارك من الطفولية والصبا والشباب إلى الكهولة والشيخوخة إلى الهرم، ومنه إلى البرزخ، ثم إلى الحشر، ثم إلى دار القرار. انتهى من كتاب الأسفار له.

(وروى عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم)، وهذا الحديث مشهور رواه أبو ذر وغيره، وأخرجه أحمد والبزار والبيهقى عن ابن عمر، وأخرجه الطبرانى وأبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس، وأحمد والبزار وابن أبى شيبة والبيهقى عن أبى هريرة، وأخرجه الشيخان عن جابر بن عبد الله، فأخرجوه عن جماعة من الصحابة بين رواياتهم مغايرة فى بعض الألفاظ، وقد ساقها كلها، وذكر رواية كل واحد منه على حدة الشيخ قاسم بن قطلوبغا فى تخريجه لأحاديث هذا الكتاب، كما رأيته بخطه، ولولا خوف الإطالة أوردت كلا منها على حدة.

وإلى هذا أشار المصنف بقوله: (**أبو ذر وابن عمر وابن عباس وأبو هريرة وجابر بن عبد الله**) بن عمرو بن حزام الأنصارى، روى كل واحد من هؤلاء عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**أنه قال: أعطيت خمسًا، وفى بعضها**): أى فى بعض طرق هذا الحديث المعلومة من تعدد رواياتها (**ستا**) أى ست خصال وخصائص، ولذا حذف التاء مع أنه غير لازم إذا لم يذكر المعدود، (**لم يعطهن نبى قبلى**)، ولا رسول؛ لأن نفى الأعم يستلزم نفى الأخص، ولا تنافى بين الراويتين إن قلنا: إن مفهوم العدد غير معتبر، وإن قلنا به فنقول: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم، اطلع أولاً على بعض خصائصه، فأخبر به، ثم اطلع على باقيه فأخبر به ثانيًا، وروى «أحد قبلى»، أى لم يعط واحدة منهن أحد.

(**نصرت بالرعب مسيرة شهر**): أى نصرنى الله تعالى على أعداء الدين الكفرة بالرعب بضم الراء المهملة المشددة، وهو شدة الخوف الذى ألقاه الله فى قلوبهم، فإذا سمع بى من بينى وبينه مسيرة شهر ارتعد، وخاف من غزوى له، وإنما خص مسافة شهر وإن خافه من هو أبعد منه؛ قيل: لأنه لم يكن بينه صلى الله تعالى عليه وسلم، وبين من أظهر العداوة له أكثر من ذلك، وقد قال ذلك فى غزوة تبوك آخر غزواته وأبعدها، فما ذكر بيان لما وقع له صلى الله تعالى عليه وسلم حال تكلمه، فلا ينافى الزيادة، وهذا من خصائصه حتى لو سار وحده بغير عسكر أرعب أعداءه، وقد وقع هذا لبعض خلفائه، ومن اتقى الله من أمراء الإسلام فهذه الخاصة بالنسبة لمن قبله من الأمم، وعليه يحمل رواية: «لم يعطهن أحد»، أو نقول: إن ذلك لا يتيسر لغيره، أو فعل أتباعه كفعله.

(**وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورا فأيما**)، وفى رواية: وأيما بالواو بدل الفاء (**رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل**) قال العلامة الزركشى فى أحكام المساجد: قال القاضى عياض: هذا من خصائص هذه الأمة؛ لأن قبلنا كانوا لا يصلون إلا فى موضع تيقنوا طهارته، ونحن خصصنا بجواز الصلاة فى جميع الأرض إلا ما تيقنا نجاسته، وقال القرطبى: هذا مما خص الله به نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم، وكانت الأنبياء قبله إنما أبيحت لهم الصلاة فى مواضع مخصوصة كالبيع والكنائس، وقاله المهلب فى شرح البخارى المخصوص به جعل الأرض طهورا، وأما كونها مسجدًا فلم يأت فى أثر أنها منعت من غيره، وقد كان عيسى، عليه الصلاة والسلام، يسيح فى الأرض، ويصلى حيث أدركته الصلاة، فكأنه قال: جعلت لى الأرض مسجدًا وطهورا، وجعلت لغيرى مسجدًا ولم تجعل طهورا، انتهى.

أقول: حاصله أنه لو كان كل منهما مخصوصًا به وبأمته لزمه إشكال، وهو أن الأنبياء السالفة وأممهم كانت لهم صلاة مفروضة، وكانوا يسافرون، فلو لم تجز لهم

الصلاة إلا فى مساجدهم، لزمهم إما ترك الصلاة، أو عدم صحتها، وهو مخالف للظاهر، فأجابوا عنه بالوجوه المذكورة، وهو أن الخاص بهذه الأمة مجموع الأمرين، لا كل واحد منهما، أو جعل جميع الأرض مسجدًا حتى تيقن نجاستها، وهم لم تحل لهم الصلاة إلا فيما تيقن طهارته، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧]، كما فى بعض التفاسير، فقوله: فأيما رجل إلى آخره معناه على ظاهره، أو ما لم تيقن نجاسته، ولك أن تقول: إنه مخصوص بغير حال السفر والضرورة؛ لأن الضرورات تبيح المحظورات كقصر الصلاة، ويؤيده جعله قرين التيمم المخصوص بالضرورة، وهذا أقرب، ثم إن طهارة التيمم حكمية لا حقيقية كما بينه الفقهاء.

وفى قوله: الأرض دون التراب نصرة لمن جوز التيمم بجميع أجزاء الأرض، ولم يخصه بالتراب، وهو المناسب للمقام، وإن خصه الشافعى، رحمه الله تعالى، بالتراب لرواية: وتربتها طهورًا، والمطلق يحمل على المقيد، وتخصيص الرجل غير وراد لدخول النساء فى هذا الحكم أيضًا، وإنما خصوا بالذكر؛ لأنهم الأصل، ويعلم النساء بالطريق الأولى، ومعنى أدركته الصلاة أدركه وقتها إذا دخل، ولا ينافيه أيضًا النهى عن الصلاة فى بعض الأماكن؛ لثبوت المنع فيه بدليل آخر، والمراد بالأرض جميعها لا مكة وما حولها، ولا ما رأى به مسجدًا أو محلاً للصلاة، وقوله: فأيما إلى آخره؛ لدفع توهم أنه مخصوص به، صلى الله تعالى عليه وسلم، وحده.

(وأحلت لى الغنائم، ولم تحل لنبى قبلى) تحل بفتح التاء المثناة الفوقية وكسر الحاء المهملة، ورى بضم التاء وفتح الحاء، وكان من قبله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الأنبياء، منهم من لم يؤذن له فى الجهاد، فلم تكن له مغانم، ومنهم من أذن له فيه، ولم يؤذن له فى الأكل منها، فكانت الغنائم تجمع فى محل، فتأتى النار من السماء، فتحرق ما تقبل منه على ما مر بيانه، وكانت فى صدر الإسلام تحل له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقط، ثم أمر بعد ذلك بتخميسها كما بينه الفقهاء، والغنائم جمع غنيمة ما يؤخذ من الكفار بقتال ونحوه، والفيء ما حصل منهم بدون ذلك.

(وبعثت) بالبناء للمجهول بمعنى أرسلت، وطوى ذكر الفاعل للعلم به أى أرسلنى الله **(إلى الناس كافة)** المراد بالناس جميعهم، أو ما يشمل الإنس والجن كما مر. وروى إلى الخلق كافة، وكافة حال بمعنى جميعًا، وفى إرساله صلى الله تعالى عليه وسلم، للملائكة كلام سيأتى، وعموم البعثة مخصوص به، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالأحاديث الصحيحة، ومر أنه لا يرد عليه أن نوحًا، عليه الصلاة والسلام، كان مبعوثًا **لأهل الأرض بعد الطوفان؛** لأنه لم يبق إلا من كان مؤمنا معه، وقد كان مرسلاً إليهم؛

لأن هذا العموم لم يكن فى أصل بعثته، وإنما اتفق لحادث اقتضى انحصار الخلق الموجودين على أن إرساله، عليه الصلاة والسلام، إنما كان لقومه، ولم يأت ما يدل على عموم رسالته، وأما دعاؤه على جميع أهل الأرض وإهلاكهم، فلا يدل على ذلك؛ لجواز أن يرسل غيره فى مدته، ولم يؤمنوا به، فلذا دعا عليهم.

قال ابن حجر: هذا جواب حسن إلا أنه لم ينقل أنه نبئ فى زمنه غيره، ويحتمل أن خصوصيته ببقاء شريعته إلى يوم القيامة بحيث لا ينسخها غيرها، ويحتمل أنه دعا الناس للتوحيد فأشركوا واستحقوا العقاب، والدعوة للتوحيد يجوز أن تعم، وإن كانت فروع شريعته غير عامة كما قاله ابن دقيق العيد.

وأشار إليه ابن عطية فى سورة هود، أو أنه لم يكن فى عهده غير قومه وأولاده كآدم، عليه الصلاة والسلام، فلا يرد نقضا على هذه الخصوصية ما ذكر.

(وأعطيت الشفاعة) اللام إما للعهد، فالمراد الشفاعة العظمى فى فصل القضاء لأهل الموقف أجمعين بعد مراجعة سائر الأنبياء، وإظهارهم العجز، فيأتونه صلى الله تعالى عليه وسلم، فيشفع وتقبل شفاعته، وهو المقام الأعلى، أو هى للاستغراق كأنت الرجل أى الشفاعة الكاملة، وله صلى الله تعالى عليه وسلم، شفاعات كثيرة شاركه فى بعضها بعض الأنبياء، كشفاعته فى قوم يدخلون الجنة بغير حساب، وهذه مخصوصة به، وشفاعته فى قوم استحقوا دخول النار، فلا يدخلونها، وفى بعض أهل النار فيخرجون منها، وفى تخفيف عذاب بعض أهل النار كأبى طالب، وشفاعته لمن مات بالمدينة ومن صبر على لأوائها، وشفاعته لمن صلى عليه بعد الأذان وغير ذلك مما ورد فى الأحاديث الصحيحة.

(وفى رواية بدل هذه الكلمة) أراد بالكلمة قوله: وأعطيت الشفاعة، وسماها كلمة وهى تطلق على الجمل، وفى نسخة الكلمات **(وقيل لى: سل تعطه)** أى قال الله، أو حذف الفاعل للعلم به، وقيل له ذلك لما انحصرت الشفاعة فيه، ولم يلتزمها أحد من الرسل، فقال: أنا لها وخر تحت العرش ساجدًا، فقال له الله: ارفع رأسك يا محمد، وقل تسمع، وسل تعط، واشفع تشفع، وفيه كمال الأدب إذ لم يسأل حتى أذن له فى السؤال وأمر به، وهذا فى القيامة، ويحتمل أنه إشارة إلى ما فى الإسراء، كما سيأتى فى حديث ابن وهب وأصل سل اسئل، فخفف بنقل حركة الهمزة وإسقاطها وإسقاط همزة الوصل، وفى حذف المفعول عموم كرم أى سل كل ما تريد تعط أكثر مما تسأل، وتعط مجزوم فى جواب أمر، والهاء للسكت أو ضمير عائد على مقدر.

(وفى رواية أخرى: وعرض على أمتي، فلم يخف على التابع من المتبوع) أى الشريف والوضيع، ويحتمل أن الله عرض عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، بالوحى تفصيل أحوالهم وذواتهم وصفاتهم، وسائر تصرفاتهم فى زمنهم، أو أنه أبرزهم له حقيقة فوجًا فوجا متلبسين بأعمالهم على وجه لا نقف على حقيقته، وذكر العراقى فى شرح المهذب، أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، عرضت عليه الخلائق من لدن آدم إلى قيام الساعة، فعرفهم كلهم كما علم آدم الأسماء كلها.

وروى الطبرانى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: إن الله تعالى قد رفع لى الدنيا، فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة، كأنما أنظر إلى كفى هذه، وحديث حذيفة الطويل المذكور فيه الفتن، وما يكون فيها مطول، ذكره العراقى قال فيه: ما ترك فيه شيئًا إلا سماه باسمه واسم أبيه وقبيلته إلى يوم القيامة، ومنه أخذ الجفر والجامعة الذى رواه جعفر الصادق عن على، رضى الله تعالى عنه، وإن توقف بعضهم فى صحته كما ذكره ابن خلدون فى أول تاريخه.

(وفى رواية: بعثت إلى الأحمر والأسود) أى إلى جميع الناس، أو جميع الجن كما يكنى عن مثله بالعرب والعجم، أى إلى كل فرد فرد، والمقصود عموم رسالته صلى الله تعالى عليه وسلم، للجن والإنس، وفيه رد على من زعم من أهل الكتاب أن بعثته، صلى الله تعالى عليه وسلم، مخصوصة بالعرب كالعيسوية؛ لأنه يعود بالنقض عليهم إذ يقال لهم: إذا اعترفتم بنبوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وجب تصديقه فيما قاله، وقد صح عنه أنه قال بعموم رسالته.

وأشار المصنف، رحمه الله تعالى، إلى معناه بقوله: **(قيل: السود)** جمع أسود، وفى نسخة الأسود: **(العرب)** وهذا مذكور فى الحديث معنى، لأن تعريف الأسود ليس للعهد، بل للاستغراق، فهو بمعنى السود، بين علته فقال: **(لأن الغالب على ألوانهم)** أى العرب **(الأدمة)** بضم الهمزة وسكون الدال المهملة، وهى فى الآدميين السمرة، وفى الطعام بياض يشوبه سمرة، **(فهم من السود)** أى فهم المقصودون من قوله: الأسود الذى بمعنى السود كما عرفته، **(والحمر)** جمع أحمر وعبر عن الأحمر بالحمر لما مر.

(العجم) أى المراد بهم فى الحديث العجم، والمراد بهم من عدا العرب، وقد يخص بأهل فارس، ولم يعلله لغلبته أى لغلبة الحمرة عليهم، فاعتبر الغالب لأن النادر لا حكم له، لأن القلة أخت العدم، ولذا لم يعبر بها عنها.

(وقيل البيض) جمع أبيض يعنى قيل: المراد بالحمر البيض أى بالأحمر الأبيض، لأن

العرب تقول امرأة حمراء بمعنى بيضاء، وقال ثعلب: العرب لا تقول أبيض من بياض اللون، فإذا أرادوه قالوا: أحمر، والأبيض عندهم النفى من العيوب، قال ابن الأثير: وفيه نظر فإنهم قد استعملوا الأبيض فى ألوان الناس وغيرهم، وهو اعتراض وارد، وما قيل من أن مراده أنه لا يستعمل فى محل اللبس كما هنا، فإنه لو قال: بعثت إلى الأبيض، لتوهم أنه أريد به السالم من العيوب لا يجدى نفعا، وكيف يراد المجاز من غير قرينة؟

(وقيل: البيض والسود من الأمم، وقيل: الحمر الأنس، والسود الجن)، وهذا مبنى على ما فى مخيلتهم من أنهم سود.

(وفى الحديث الآخر عن أبى هريرة) الذى رواه البخارى ومسلم وأورده لما فيه من الزيادة على قوله: **(نصرت بالرعب)** قوله: **(وأتيت جوامع الكلم)** جمع جامعة لجمعها الحكم والمنافع فى لفظ قليل، والكلم اسم جنس جمعى للكلمة لا جمع ولا اسم جمع على الأصح، وهو من إضافة الصفة للموصوف، وفسرت بالقرآن **لما فى** جمعه من المعانى فى ألفاظه الموجزة، وقيل: المراد كلماته الموجزة المتضمنة للحكم والمنافع، وفى نسخة: **(وخواتمه)**، فقيل: هى بمعنى الجوامع، وقيل: التى ختم بها الكلام، فلا يأتى بعدها ما يقرب منها لعدم الحاجة له.

(وبينا أنا نائم) أصله بين فأشبعت فتحتها حتى صارت ألفًا، وهو ظرف زمان كبينما المتصلة بما المزيدة، ويجىء بعدها إذ كقوله: **(إذ جىء)** بالبناء للمجهول أى جاءنى ملك أرسله الله، وإذ للمفاجأة، وهو جواب لها ويغلب بعدها، كقوله[1]:

استقدر الله خيرا وارضين به فبينما العسر إذ دارت مياسير

وقد تخلو عنها كقولك: بينا أنا جالس دخل على عمر، وهى مضافة لجملة. أنا نائم، وقيل: مضاف لمحذوف تقديره بين أوقات النوم موجود كما فصله أهل العربية.

(بمفاتيح خزائن الأرض، فوضعت فى يدى) بتشديد الياء مثنى مضاف، أو بالتخفيف مفرد، ومفاتيح جمع مفتاح وهو آله يفتح بها الأقفال معروفة، والخزائن جمع خزينة أو خزانة، وهى ما يدخر فيه المال والأمور النفيسة لتحفظها، والمراد ما فى الأرض من الكنوز والأموال، فإما أن يكون رأى فى رؤيا نومه ملك الرؤيا وضع فى يده مفاتيح

(١) البيت من البسيط، وهو لحريث بن جبلة أو لعثير بن لبيد فى الدرر (٣/١٠٠، ١١٨)، شرح شواهد المغنى (١/٢٤٤)، لسان العرب (٤/٢٩٣)، وبلا نسبة فى جواهر الأدب (ص٢٩٤)، خزانة الأدب (٧/٦٠)، درة الغواص (ص٧٣)، رصف المبانى (ص٢٣٨)، شرح شذور الذهب (ص١٦٤)، الكتاب (٣/٥٢٨)، لسان العرب (٥/٧٦)، اللمع (ص٢٧٤)، مجالس ثعلب (١/٢٦٥).

حقيقة، وقال له: هذه مفاتيح خزائن الأرض أرسلها الله إليك، ورؤيا الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وَحْيٌ تقع بعينها تارة، وتعبر بما يحكيها أخرى، وظاهر تعبيره أن أمته تملك الأرض ويجبى لهم أموالها، وفى المواهب اللدنية أنها خزائن من أجناس العالم بقدر ما يطلبون، فإن الاسم الإلهى لا يعطيه إلا محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم الذى بيده مفاتيح الغيب التى لا يعلمها إلا هو، فالمراد أن الله خصه بتمكين أمته من الأرض، ويحتمل أن الملك أخبره وقال له ذلك، فيكون استعارة لما مر، والقول بأن المراد العناصر وما يتولد منها، وأنه لم يقبل ذلك تعسف، وكونه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يقبله يأباه عده خاصية له، بل قبله فإن عطاء الكريم لا يليق رده، ولكنه ادخره لأمته.

(وفى رواية) لمسلم **(عنه)** أى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه: **(وختم بى النبيون)** أى جعلنى خاتمهم وآخرهم، وحتى لا يبعث نبيا بعده غيره فلا يرد عيسى عليه الصلاة والسلام ومجيئه آخر الزمان؛ لأنه يجىء على أنه من أمته أيضا، وأما الخضر فعلى تقدير نبوته معناه: فلم ينبأ بعده، وفى هذا الختم تكريم له حيث لا ينسخ شريعته، ولا يطول مكث أمته فى الثرى، وإشارة إلى أن دينه كامل جامع لجميع الكمالات لا يحتاج إلى ملة أخرى

(تتمه) وما روى من قوله «لا نبوة بعدى إلا ما شاء الله» الاستثناء لا يقتضى وقوع مشيئته على فرض صحته، والمنفى النبوة لا النبى، فيحتمل أن الذى تحت المشيئة الرؤيا الصالحة لأنها جزء من أجزاء النبوة.

(وعن عقبة بن عامر رضى الله تعالى عنه) وهو أبو أسد أو أبو حماد أو أبو عمر الجهنى الصحابى الفصيح السيد الجليل، توفى بمصر سنة ثمان وخمسين، وهذا الحديث رواه الشيخان وأبو داود والنسائى **(أنه قال)** عقبة: **(قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: أنا فرطكم على الحوض)** الفرط بفتحتين، والفارط الذى يتقدم القوم ليهىء لهم فى منازل أسفارهم الماء والكلأ ونحوه مما يحتاجون له، ويقال: رجل فرط وقوم فرط أيضا، وفى الدعاء للطفل الميت: اللهم اجعله فرطا أى أجرا يتقدمنا حتى نرد عليه والحوض هو حوضه صلى الله تعالى عليه وسلم الذى يسقى منه عطاش أمته يوم القيامة، وعلى متعلقة بفرط أو حال من الضمير فيه؛ لأنه صفة مشبهة.

وهل الحوض الكوثر أم غيره؟ اختلف فيه، وعليه أوانٍ كالنجوم، وفى الحديث بلاغة بديعة إذ المراد أن موته صلى الله تعالى عليه وسلم قبلهم فيه مصيبة عظيمة، هى سبب دخولهم الجنة وأجر عظيم، فشبههم بقوم مسافرين، وشبه نفسه بمن تقدمهم لنفعهم. والفرط من سبق للماء كما مر. فذكر الحوض فيه مناسبة عظيمة، وأن متاع الدنيا قليل

فهم على أثره صلى الله تعالى عليه وسلم واردون جمعنا الله به وسقانا من يده شربة لا نظمأ بعدها.

(**وأنا شهيد عليكم**) شهيد بمعنى شاهد قال الله تعالى: (**ويكون الرسول عليكم شهيدا**) أى يوم القيامة، فإن الله تعالى يسأل الرسل: هل بلغتم؟ فيقولون: نعم فيقول لأممهم: هل بلغوكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول للرسل: من يشهد لكم؟ فيقولون: أمة محمد، فيشهدون بتبليغهم، وهذا هو قوله: ﴿**لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ**﴾ [البقرة: ١٤٣]، ويشهد لهم صلى الله تعالى عليه وسلم بصدقهم ويزكيهم على ما مر بيانه، وهذه شهادة لهم ولكنه عداها بعلى حثًا على الطاعة؛ لأنه رقيب عليهم ومهيمن.

(**وإنى والله لأنظر إلى حوضى الآن**) أى أشاهده الآن لأن الجنة والنار موجودتان الآن، وتأكيده بإن والقسم يقتضى أنها رؤية بصرية حقيقية؛ لانكشاف الغطاء عن بصره الحائل عن رؤيته، وليس بطريقه الكشف ونحوه، وفى هذا بيان لما مر؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لما قال: أنه فرط على الحوض حقق ذلك بأنه مشاهد له لا شبهة فيه، والآن مبنى على الفتح، ولا يستعمل إلا بالألف واللام.

(**وإنى قد أعطيت مفاتح خزائن الأرض**) تقدم قريبًا بيانه.

(**وإنى والله ما أخاف عليكم**) الصحابة أو معاشر الأمة (**أن تشركوا بعدى**) أى من أن تكفروا بعد موتى، فمن مقدرة لأنها تحذف هنا قياسا مطردا؛ لأن من ذاق حلاوة الإيمان لا يرجع عنها، (**ولكنى أخاف عليكم أن تنافسوا فيها**) أى فى الدنيا، أى أخاف عليكم من رغبتكم فى نفائس الدنيا، وانهماككم فى تحصيلها، حتى يؤديكم ذلك إلى الهلاك، وارتكاب ما يلهيكم عن الله تعالى. وهذا تنبيه لهم على أنهم لا تلهيهم الخزائن عن المعاد.

(**وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما**) كما رواه عنه الإمام أحمد بسند حسن (**أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: أنا محمد النبى الأمى**) هو الذى لا يقرأ ولا يكتب نسب لأمه؛ لأنه كان على حاله يوم ولدته أمه، أو إلى أم القرى؛ لأن الكتابة كانت عزيزة فى أهلها، أو إلى أمة العرب، وهذه الصفة فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم من أجل النعم عليه وأعظمها إذ أعطاه علم الأولين والآخرين، وحفظه الكتاب الذى لم يعادله كتاب، وهو لا يقرأ ولا يكتب ولم يدارس ولم يلاق أحدًا له شغل بذلك.

(**تنبيه**) كون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أميًا من معجزاته الشريفة الباهرة كما

تقدم مبسوطا غير مرة، وأشار إليه البوصيرى رحمه الله تعالى فى قوله[1]:

كفاك بالعلم فى الأمـى معجــزة

وهذا كان فى أول أمره إلا أن بعضهم ذهب إلى أنه بعد ذلك قـرأ وكتـب مـن غـير تعلم، وهو معجزة أخرى. إلا أن الجمهور على خلافه كما ذكره الحافظ ابن حجـر فـى تخريج أحاديث الرافعى، وقال ابن عربى فى سـراج المريديـن: رحـل أبـو الوليـد البـاجى وأبعد رحلته، فلما عاد قرأ البخارى وقال فى درسه: إنه صلى الله تعالى عليه وسـلم فـى الحديبية محى الكتاب وكتب بيده ألا ترى أنه قال: فأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم الكتاب، وليس يحسن الكتابـة، فكتـب هـذا مـا قـاضى إلى آخـره، فـابتدر رجـل مغربى وصاح فى المجلس: إنه زنديق إلا أن الأمـير كـان متفننـا، فدعـا الفقـهاء وسـألهم فشنعوا عليه وقالوا: إنه كفر، فاستظهر الباجى بالحجة عليـهم، وقـال: إن هـؤلاء جهلـة فاكتب إلى علماء الآفاق، فكتب إلى علماء أفريقية وصقلية، فجـاءت الأجوبـة بتصديـق الباجى إلى آخر ما فصله، ورأيت فى بعض الكتب أنه مما يدل على ذلــك أنـه صلـى الله تعالى عليه وسلم قال لكاتبه: طول السنان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبـوت: ٤٨] قوله: ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ يدل على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ذلك كان يكتـب نادرًا فاعرفه.

وقوله: **(لا نبى بعدى)** تقدم بيانه.

(أوتيت جوامع الكلم وخواتمه) تقدم معناه ولفظه، وإنما كرره هنا ليبين أنه مع كونـه أميا أوتى ما لم يؤته أحد ممن أفنى عمره فى القراءة والكتابة.

(وعلمت) بضم العين المهملة وسكون اللام المشددة أو بفتحها وتخفيف اللام **(خزنة النار)** جمع خازن ككتبة وكاتب، وهم الملائكة الموكلون بها، **(وحملة العرش)** جمع حامل وهم الملائكة يعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم علم ما لم يعلمه غيره بمشاهدته لهم. ألا ترى ما ورد فى الأحاديث من وصفه صلى الله تعالى عليه وسلم لهم، وبيان هيئاتـهم ممـا كان له رأى عين، وحملة العرش اليوم أربعة، ويـوم القيامـة ثمانيـة كمـا نطـق بـه القـرآن العزيز.

(وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما) كما رواه أحمد بسند حسن: **(بعثت بـين يـدى الساعة)** أى القيامة سميت ساعة؛ لأنها عند الله قليلة تشبيها لها بالسـاعة التـى هـى جـزء

(١) يأتى تخريجه البيت كاملاً إن شاء الله.

من أجزاء الزمان، وقال الراغب: لسرعة الحساب فيها، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]، أو لما نبه عليه بقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقيل: الساعات التى هى القيامة ثلاث ساعات، الكبرى وهى بعث الناس للحساب، والوسطى وهى موت أهل القرن الواحد، والصغرى موت كل إنسان، وقد وردت الساعة بهذه المعانى فى الحديث، والمراد هنا الأولى، والمراد بكونه صلى الله تعالى عليه وسلم بين يديها أنه قريب منها، ففيه استعارة مكنية. وفى الحديث «أنا والساعة كهاتين» ، يشير بالوسطى والسبابة. وفيه إشارة إلى بقاء دينه صلى الله تعالى عليه وسلم، وعدم نسخه، ولأجل هذا ذكره المصنف رحمه الله تعالى.

(ومن رواية ابن وهب) من تبعيضية أتى بها إشارة إلى أنه بعض من حديث الإسراء الطويل الذى رواه البيهقى فى الدلائل وغيره عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، وابن وهب هو عبد الله أبو محمد بن وهب بن مسلم الفهرى المصرى أحد الأعلام فى الحديث وغيره روى عن مالك والليث وخلق كثير، وروى عنه خلق كثير، وكان أفقه من ابن القاسم، وطلب للقضاء فتجنن وانقطع إلى أن مات سنة سبع وتسعين ومائة، والجار والجرور خبر مقدم لقوله: **(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : قال الله تعالى)** له صلى الله تعالى عليه وسلم حين كلمه بغير واسطة فى الإسراء، كما يدل عليه سياق الحديث **(سل يا محمد)** حذف أحد مفعوليه للتعميم، أى كل ما تريد، والآخر للعلم به فإنه لا مسئول سواه، ولدلالة قوله: **(فقلت: ما أسأل يا رب)** عليه، ورب بكسر الباء وضمها، ولم يقل أسألك تأدبا يعنى أن جميع الكلمات استودعتها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله، فلم يبق ما يختص به حتى يسأله، ثم فصل بعض ما أجمله فقال: **(اتخذت إبراهيم خليلا)** أى اصطفيته وخصصته بالخلة وكرامتها، وسيأتي تحقيقها، **(واتخذت موسى كليما)** أى اصطفيته وفضلته بأن كلمته بنفسك بكلامك القديم قبلى، فلا يرد أنه كلمه أيضا، **(واصطفيت نوحا)** أى فضلته على غيره بأن جعلته أول رسول أهلك من عصاه، كما قال الله تعالى: ﴿۞إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾ [آل عمران: ٣٣]، فهو أبو البشر وأول الرسل، **(وأعطيت سليمان ملكا لا ينبغى لأحد من بعده)** أى لا يتيسر لأحد غيره من الرسل الملوك؛ لتسخير الجن والإنس والريح، وملك الدنيا كلها بعظمة ألبسته إياها من عظمتك.

(فقال الله تعالى له) صلى الله تعالى عليه وسلم **(ما أعطيتك خير من ذلك)** كله، وهو مبتدأ وخبر بينه بقوله: **(أعطيتك الكوثر)** فوعل من الكثرة، وذكر البيضاوى فيه سبعة

أقوال: أشهرها أنه نهر فى الجنة أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل فى وسط الجنة، حصباؤه الدر والياقوت، وقيل: هو القرآن، وقيل: هو النبوة، وقيل غير ذلك مما تقدم.

(وجعلت اسمك مع اسمى) أى مقرونا باسمى فى التشهد والأذان وكلمه الشهادة وغير ذلك، ولذا قال: **(ينادى به فى جوف السماء)** أى تنادى الملائكة عليهم الصلاة والسلام باسمى وتصلى عليه لأمر الله لهم بذلك، أو لما رأوا من منزلته صلى الله تعالى عليه وسلم وقربه من ربه، وكتابة اسمه على ساق العرش، وتفسير السماء هنا بالأمكنة العالية كمنارة الأذان كما قيل لا وجه له.

(وجعلت الأرض طورا لك ولأمتك)؛ لأن الله تعالى شرفها بك، فكانت طاهرة مطهرة، وهذا من خواص هذه الأمة تسهيلاً لها، وما أحسن قول ابن رشيق القيروانى:

سألت الأرض لم كانت مصلى ... ولم كانت لنا طهرا وطيبا
فقالت غير ناطقة لأنى ... حويت لكل إنسان حبيبا

وقد تقدم هذا الحديث وشرحه.

(وغفرت لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر) أى لو صدر كان مغفورا، فلا ينافى هذا عصمته صلى الله تعالى عليه وسلم، أو المراد بالذنب التقصير وإن لم يكن صغيرة ولا كبيرة، وإعلامه بمغفرة كل مقدم ومؤخر تشريفا وتطمينًا لقلبه صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقد قال العز بن عبد السلام: إن هذا من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يلقه الله لغيره من الأنبياء، ولذا قالوا فى الموقف: نفسى نفسى، وإلى هذا أشار بقوله: **(فأنت تمشى فى الناس مغفورا لك، ولم أصنع ذلك لأحد قبلك)** فليس المراد بأحد غير الأنبياء كما قيل.

(وجعلت قلوب أمتك مصاحفها) أى مننت عليك بأن جعلت فى أمتك حفظا لم يكن فى غيرها من الأمم السالفة، حتى أن من كان يحفظ التوارة وغيرها من الكتب الإلهية أفراد معددون فى كل عصر، وحفظة القرآن والحديث من هذه الأمة لا يحصون فى كل عصر، والمصحف ما كان جامعا للصحف المكتوبة، وجمعه مصاحف، ثم خص بالصحف المكتوب فيها القرآن، وقد قيل: إنه لفظ حدث فى الإسلام، وكونه معربا من اللغة الحبشية لا أصل له، وهذا تشبيه بليغ، أى جعل قلوبهم كالمصاحف التى تحفظ القرآن. وقيل: إنه استعارة تصريحية، وله وجه وفى رواية: صدور، بدل قلوب، وهذا بناء على أن محل الحفظ والإدراك القلوب، وإضافته للصدور لأنها محله، والحكماء

يقولون: إن محل الحفظ الخيال الذى هو خزانة الحس المشترك فى الدماغ، وأهل الشرع والمتكلمون من أهل الإسلام لم يثبتوا الحواس الباطنة مع أن كلام الحكماء مضطرب فيها، وفى محالها كما ذكره الجلال الدوانى فى شرح هياكل النور، وليس هذا محل تفصيلها.

(وخبأت) بخاء معجمة مفتوحة وموحدة وهمزة أى أخفيتها وأخرتها إلى يوم القيامة **(شفاعتك)** المراد بها الشفاعة العظمى فى فصل القضاء، ونحوها من الشفاعات الخاصة به، كما تقدم، **(ولم أخبأها لنبى غيرك)**، وفى نسخة: قبلك، وإن كان لهم شفاعات غير هذه.

(وفى حديث آخر رواه حذيفة) بن اليمان العبسى الصحابى رضى الله تعالى عنه صاحب سر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم توفى سنة ست وثلاثين، وهذا الحديث رواه ابن عساكر فى تاريخه عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(بشرنى يعنى ربه)**، ولم يذكر الفاعل فى أصل رواية هذا الحديث للعلم به، كما فى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢].

(أول من يدخل الجنة) مبتدأ ومن موصولة وجملة يدخل صلته، **(ومعى)** ظرف متعلق به، و**(من أمتى)** حال من عائد من المستتر تحت يدخل **(سبعون ألفا)** خبره **(مع كل ألف سبعون ألفا ليس عليهم حساب)** صفة سبعون أو حال منه أى لا يحاسبون ولا يناقشون، بل يؤمر بإدخالهم الجنة تكريما لهم، وقوله: مع كل ألف سبعون ألفا جعلهم معهم؛ لأنهم أتباعهم وذراريهم. قوله: وليس إلى آخره صفة للألف الثانية، فيعلم منه عدم محاسبة الأولى بالطريق الأولى. وفى البخارى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما قال ذلك دخل بيته، فخاض الصحابة فى هؤلاء، فقيل: لعلهم الذين صحبوه، وقيل: لعلهم الذين ولدوا فى الإسلام، ولم يشركوا، إلى غير ذلك، فخرج عليه السلام وسألهم عما خاضوا فيه، فأخبروه فقال: «هم الذين لا يرقون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون»(١)، فقام عكاشة رضى الله عنه فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم. فقال: أنت منهم، ثم قام آخر فقال مثل ذلك، فقال عليه السلام: سبقك بها عكاشة.

وفى الحديث أيضا: «وعدنى ربى أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفا مع كل ألف سبعون ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حثيات من حثيات ربى»(٢). رواه ابن

(١) أخرجه البخارى (٧/١٦٣، ١٧٤)، ومسلم فى الإيمان (٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣)، والترمذى (٢٤٤٦)، وأبو عوانة (١/٨٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤/١٦)، والترمذى (٢٤٣٧)، وابن ماجه (٤٢٨٦).

أبى شيبة والطبرانى، وقد حسب ما فى الحديث، فبلغ أربعمائة ألف ألف وسبعمائة ألف، وفى هذا الحديث كلام ذكره ابن القيم فى حادى الأرواح.

(وأعطانى أن لا تجوع أمتى) أى أن لا تبتلى بالجدب والقحط حتى يهلكوا عن آخرهم ويستأصلوا جميعهم، فلا ينافيه ما وقع فى بعض الأزمنة فى بعض الأقطار بخصوصها إذ لم يعم ولم يستمر، **(ولا تغلب)** بضم المثناة الفوقية أى الأمة جميعها أو تستمر مغلوبيتها، أو هذا مشروط بإطاعته، فإذا بدلوا وغيروا خرجوا عن إضافة التشريف بقوله، وقد شاهدناه فى بعض السنين وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ**﴾ [محمد: ٧].

(وأعطانى النصر) أى على من يعادينى، ولو مع قلة العدد وفى بدء الأمر، **(والعز)** أى الغلبة والقوة عليهم، **(والرعب يسعى بين يدى أمتى شهرا)** قيل: شهرا مفعول مطلق لا ظرف، أى العدو الذى بينه وبينهم مسافة شهر يخافهم خوفا شديدا، وهذا من خواصه صلى الله تعالى عليه وسلم وخواص أمته، وخص هذه المسافة لأنها أبعد مسافة أعدائه الموجودة فى زمانه كما مر، وبهذا علم أن قوله فى المواهب فى حديث نصرت بالرعب: وكون هذا له صلى الله تعالى عليه وسلم ولأمته فيه إحتمال، غفلة عن هذا الحديث، وفى قوله: يسعى تشبيه للرعب بمقابله بتقدمه، وفيه مبالغة بليغة كما قلت فى قصيدة:

ولم يهزم عداه جيوش جنده وجيش الرعب قد هزم القلوبا
ولو ثبتوا لفر الهام منهم وأرواح وما عرفوا الهروبا

(وطيب) بالتشديد والبناء للمجهول أى أحل لقوله: حلالا طيبا **(لى ولأمتى الغنائم)** هى شاملة للفىء هنا، وقد مر منتزعه.

(وأحل لنا كثيرا مما شدد) فيه **(على من قبلنا)** من الأمم السالفة، كقطع الأعضاء، والتوبة بقتل النفس، وقرض محل النجاسة، ووجوب القصاص فى العمد والخطأ إلى غير ذلك مما ذكروه، وتفنن فى العبارة ولم يراع التقابل، ولو راعاه قال: سهل علينا ما شدد مع أنه لو عبر به توهم أنه رخصة، وليس كذلك على أنه قد يقال: أحل فيه طباق أو إيهامه للحل الذى هو ضد الشد.

(ولم يجعل علينا فى الدين من حرج) أى شدة وضيق، وقال: علينا لأنه له صلى الله تعالى عليه وسلم ولأمته، فوسع عليهم بالرخص. كترك القتال لمن له عذر، وأكل الميتة للمضطر، وقصر الصلاة والتيمم.

(**وعن أبي هريرة رضي الله عنه**) في حديث صحيح رواه الشيخان (**عنه صلى الله تعالى عليه وسلم: ما من نبي من الأنبياء**) زاد من، وبينه بقوله من الأنبياء للتعميم (**إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر**) أي كل نبي جعل الله له معجزة أظهرها على يديه أطاعه بها الناس، كعصا موسى عليه الصلاة والسلام، وإحياء الموتى لعيسى إلى غير ذلك مما هو مشهور مأثور مناسب لزمانه، إلا أن تلك الآيات انقطعت بانقطاع عصره، ومضت بمضيه بخلاف أعظم معجزات نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنها باقية غير منقطعة غضة طرية في كل عصر تتلى، وتشاهد بركاتها، وتستخرج من جواهر معانيها ما لا يفنى، وهي القرآن كما أشار إليه بقوله: (**وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحى الله إلي**)، وما نافية ومن صلة لتأكيد النفي، وهو مبتدأ وسوغ الابتداء به وقوعه بعد النفي، ومن الثانية تبعيضية أو بيانية، والجار والمجرور صفة نبي، وقوله: إلا وقد أعطي خبر، والواو مزيد فيه لتأكيد الاتصال واللصوق، والضمير المستتر في أعطي مفعوله الأول، وما الموصولة أو الموصوفة مفعول ثان، ومثله مبتدأ أيضا، والجملة بعده خبر له، وآمن مضمن معنى غلب، ولذا عداه بعلى، أو هي بمعنى الباء، والضمير المجرور بأعلى عائد على ما، فالجار والمجرور متعلق بآمن أو حال منه، أي مغلوبا عليه، والمراد بالآيات المعجزات، ومفعول أوتيت محذوف أي أوتيته، والحصر في إنما ادعائي، أو باعتبار الأعظم أو المعظم، ووحيا بمعنى كلام موحى به، أو قصر إفرادي أي أوتيته أنا لا غيري من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فليس حصرا حقيقيا بمعنى أنه لم يعط غيره إذ المعنى أنه ما من معجزة أعطيت لنبي إلا أعطيها، وزاد عليها بما هو مخلد في صحائف الدهر يعرف في كل زمان، ولذا رتب عليه قوله:

(**فأرجو أن أكون أكثرهم**) أي الأنبياء عليهم السلام (**تابعا يوم القيامة**)؛ وذلك لأن هذه المعجزات لما كانت باقية إلى يوم القيامة، وهي باهرة ظاهرة يؤمن بها كل من وقف عليها من الناس، لزم أكثرية من آمن به عليه السلام واتبعه على من آمن بغيره من الرسل وصدق بمعجزته المخصوصة بعصره، فإذا مات انقطع التحدي بمعجزته، وغابت عن الإدراك، وصارت خبرا كغيره من الأخبار إذ لم يأت أحد منهم بمعجزة يدرك بعده إعجازها، فأما التوراة وسائر الكتب السماوية، فليس بمعجز نظمها، ولذا وقع فيها التحريف والتبديل، وترجمت بلغات مختلفة، وسيأتي الكلام على الإعجاز مفصلا، وقد حقق الله رجاءه وإلى هذا أشار بقوله: (**ومعنى هذا الحديث عند المحققين بقاء معجزته**) المذكورة (**ما بقيت الدنيا**) أي مدة بقائها.

وكون القرآن يرفع في آخر الزمان كما ورد في حديث حذيفة بن اليمان الذي رواه

ابن ماجه: «إن الإسلام يندرس، ويرفع كتاب الله فى ليلة حتى لا يبقى منه فى الأرض آية، ويبقى ناس يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة كلمة لا إله إلا الله، فقال له صلة: ما ينفعهم هذه، وهم لا يدرون صلاة ولا صياما ونسكا؟، فقال: تنجيهم من النار»، لا ينافيه؛ إما لأنه باعتبار الأكثر والظاهر، فإنه محقق بقاؤه فى نفس الأمر لم ينسخ، و لم يبدل، وقيل: إنه زمن يسير بقاؤه كالعدم.

(وسائر معجزات الأنبياء) أى جميعها **(ذهبت للحين)** المراد بالحين عقب وقوعها، أو انقراض عصره، أو المراد ذهبت بذهابه، و لم تبق بعده، وبينه بقوله: **(ولم يشاهدها إلا الحاضر لها)** بخلاف من أتى بعدهم.

(ومعجزة القرآن) أى القرآن المعجز، أو المعجزة التى هى القرآن، فالإضافة بيانية **(يقف عليها)** أى يعلم بها ويحيط بها مجاز؛ لأن من وقف على شىء اطلع عليه كما فى الأساس **(قرن)** فاعل يقف **(بعد قرن)**، أى يطلع عليها جميع القرون، والناس الذين حدثوا بعد عصر النبوة بخلاف غيرها **(عيانا)** بكسر العين كما مر أي مشاهدة، **(لا خبرا)** أى لا بإخبار غيرهم لهم **(إلى يوم القيامة)** أى إلى آخر الزمان، وقيام الناس إلى المحشر، وهو كناية عن التأبيد والبقاء فى الدنيا.

(وفيه) أى فى الحديث ومعناه للعلماء **(كلام يطول هذا نخبته)** بضم النون وسكون الخاء المعجمة والباء الموحدة أى مختاره وزبدته. قال فى الأساس: نخب الشىء وانتخبه إذا نزعه، ومنه الانتخاب الاختيار، كأنك تنزعه من بين الأشياء، وهؤلاء نخبة قومهم لخيارهم انتهى.

(وقد بسطنا) أى فصلنا من بسط يده إذا مدها **(القول فيه هذا وفيما ذكر فيه سوى هذا آخر باب المعجزات، وعن على رضى الله تعالى عنه)** فى حديث رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه وهو موقوف عن على كرم الله وجهه له حكم الرفع؛ لأن مثله لا يقال بالرأى، وستأتى رواية أبى نعيم له مرفوعا **(: كل نبى)** من الأنبياء **(أعطى سبعة نجباء)** جمع نجيب، وهو الكريم الحسيب، ويكون بمعنى الرفيق المعين فى المهمات والشدائد، وهو المراد هنا، **(ونبيكم صلى الله تعالى عليه وسلم أعطى أربعة عشر نجيبا)** أى رفيقا كاملا شريفا، وجعلهم ضعف ما لكل نبى مرتين تكريمًا له صلى الله تعالى عليه وسلم، وإشارة لكثرة أمته حتى يحتاج زيادة فى وزرائه، والمراد بهؤلاء كما رواه أبو نعيم عن على أيضًا رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إنه لم يكن نبى إلا وقد أعطى سبعة رفقاء نجباء وزراء، وإنى قد أعطيت أربعة عشر، وهم حمزة وجعفر وعلى وحسن وحسين وأبو بكر وعمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وأبو

ذر والمقداد وحذيفة وعمار وسلمان[١]، وفى رواية بلال انتهى. وقد وقع فى تعيينهم اختلاف.

أقول: وبعد عصره صلى الله تعالى عليه وسلم خليفته القطب، ووزراؤه النجباء والنقباء والبدلاء، ومن فسر الأربعة عشر هنا بهؤلاء لم يصب رواية ودراية، وقد ورد التصريح بهؤلاء فى أحاديث جمعها السيوطى فى رسالة مستقلة، ومن العجيب أن هذا مع أنه متفق عليه بين أهل الشرع والحكماء، كما قال صاحب حكمة الإشراق فى كتابه: لابد لله من خليفة فى أرضه، وإنه قد يكون متصرفا ظاهرًا فقط كالسلاطين، وباطنا كالأقطاب، وقد يجمع بين الخلافتين كالخلفاء الراشدين، كأبى بكر، وعمر بن عبد العزيز قد أنكره بعض الجهلة فى زماننا، قال ذو النون: النقباء ثلاثمائة، والنجباء سبعون، والبدلاء أربعون، والأخيار سبعة والعمدة أربعة، والغوث واحد.

وحكى أبو بكر المطوعى عمن لقى الخضر عليه الصلاة والسلام أنه قال له: لما قبض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شكت الأرض إلى ربها، وقالت: إلهى وسيدى بقيت لا يمشى على نبى إلى يوم القيامة فقال الله تعالى لها أجعل على ظهرك من هذه الأمة من قلوبهم على قلوب الأنبياء لا أخليك منهم. فقالت له: كم هم؟ قال: ثلاثمائة وهم الأولياء، وسبعون وهم النجباء، وأربعون وهم الأوتاد، وعشرة وهم النقباء، وسبعة وهم العرفاء، وثلاثة وهم المختارون، وواحد وهو الغوث، فإذا مات جعل واحد من الثلاثة مكانه، ونقل من السبعة إلى الثلاثة، ومن العشرة إلى السبعة، ومن الأربعين إلى العشرة، ومن السبعين إلى الأربعين، ومن الثلاثمائة إلى السبعين، ومن سائر الخلق إلى الثلاثمائة، وهكذا إلى أن ينفخ فى الصور.

(منهم أبو بكر وعمر وابن مسعود وعمار)، وقد بينا ذلك.

(وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: إن الله قد حبس عن مكة الفيل) وهو حديث مشهور رواه الشيخان عن أبى شريح قاله يوم فتح مكة يوم الجمعة تاسع عشر رمضان سنة تسع من الهجرة، ومعنى حبس منع، وفى رواية القتل بقاف وتاء فوقية، وقصة الفيل مشهورة غنية عن البيان.

(وسلط عليها رسوله) محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يقل سلطنى إشارة إلى انه مأمور من الله لا حظ له فى ذلك من نفسه؛ لنزاهته عن الحظوظ والأغراض النفسانية، **(والمؤمنين)** من أمته وجنده، **(وأنها)** أى مكة **(لا تحل لأحد بعدى)**، وفى

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٦/٢٦٥)، والطحاوى فى مشكل الآثار (٤/١٨).

نسخة **(من أمتى)** وفى نسخة لم بدل لا، وفى أخرى لن وفيه إشارة إلى أن تحريمها سابق فى علم الله، وفى زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام فإنه حرمها وجلعها حرما آمنا، وكان ذلك إظهارا لما سبق فى علمه وحكمه.

(وإنما أحلت لى ساعة من نهار) أى إنما أعلمنى الله بحلها لى، وكان حل القتال لى فيها فى ساعة من نهار يوم الفتح، وكان ذلك من الصبح، وجعله ساعة تقليلا لزمانه؛ لأنه ساعة حقيقة كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩١] إلى آخره، والحرم مثل المسجد فى ذلك، وهذه الآية محكمة عند ابن عباس ومجاهد تمسكا بهذا الحديث، وقوله فيه: ثم عادت حراما إلى يوم القيامة، وروى بمعناه من طرق أخر، وقتاله صلى الله تعالى عليه وسلم أمر بقتل من لجأ إلى الحرم كابن خطل من خصائصه، كما روى عن السلف.

وقيل عليه: إن قوله: أحلت يدل على تقدم حرمته فيكون نسخا، ولو كان نسخا استمر، فيكون رخصة لأنها استباحة مع المانع، وبه قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى، وقال قتادة والضحاك: إنها منسوخة بقوله: **(اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم)** وبآيات أخر فى معناها، وتمسكوا بفعله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا دليل فيه لتصريحه بالتخصيص، وبه قال الشافعى رحمه الله تعالى.

(وعن العرباض بن سارية رضى الله تعالى عنه) فى حديث رواه أحمد والبيهقى والحاكم، وقال: إنه صحيح الإسناد، والعرباض بكسر العين وسكون الراء المهملتين وموحدة وآخره ضاد معجمة معناه القوى نقل للعلمية، وهو من كبار الصحابة أهل الصفة رضى الله تعالى عنهم سكن بحمص من أرض الشام، ومات بها سنة خمس وسبعين.

(سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول:) جملة حالية أو مفعول ثان على الخلاف فى سمع إذا تعلق بالذوات الغير المسموعة كما يعرفه من تبحر فى العربية، وقد مر بيانه: **(إنى عبد الله)**، وفى رواية: إنى عبد الله مكتوب.

(خاتم النبيين) قدم على هذه الكلمات وصفه صلى الله تعالى عليه وسلم بالعبودية إشارة إلى أنها أشرف عنده مما سواه، وأنه إنما نالها بمحض كرم الله وفضله، واحتراسا ممن يطريه أن يتجاوز فيه الحد كما وقع للنصارى فى عيسى عليه الصلاة والسلام؛ ولذا قال: **(إنى عبد الله آتانى الكتاب)** الآية، وخاتم بكسر التاء وفتحها آخرهم، ومن به كماالهم.

(وإن آدم لمنجدل فى طينته) أى مختلط فى تربته، أو ساقط فيها كما تقدم، وفى طينته خبر ثان لا ظرفا لمنجدل، ثم أخبر صلى الله تعالى عليه وسلم بأول أمره بأنه.

(وعدة إبراهيم) بكسر العين وتخفيف الدال المهملتين مصدر بمعنى الوعد كالزنة، وفى نسخة دعوة أبى إبراهيم، وهى أشهر وأظهر؛ لأنه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، ولثقته بالله أنه لا يخيبه جعل ذلك وعدا منه لذريته، وجعله نفس الدعوة مبالغة بإقامة السبب مقام المسبب؛ لأنه دعا أن يجعل من ذريته وذرية إسماعيل رسولا، ولم يكن من ذريتهما معا غيره مرسلا، فإن الأنبياء من ذريته كداود وسليمان ليسوا من ذرية إسماعيل، فتعين كونه محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وبشارة عيسى ابن مريم) فيما حكاه الله تعالى عنه بقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾، وجعله نفس البشارة مبالغة، وهى بكسر الباء مصدر كالبشرى، وبضمها ما يعطى البشير، واسم مصدر بمعنى المبشور، ويكون فى الخير والشر إذا أطلقت، ثم خصت بالخير وصارت حقيقة، ونحو ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٣١، وغيرها]، تهكم على هذا، وعلى الأول هى حقيقة مطلقا، أو إذا قيدت، وسميت بشارة لتباشيرها فى بشرة الوجه ما يسمى ورد السرور، وفى شرح الجامع الصغير الفرعى أن البشارة تختص بالصدق وجهل المخاطب بالخبر؛ لأن ذلك يغير بشرة الوجه الفرح، وهى فى اللغة خبر يغير بشرة الوجه مطلقًا، إلا أنه صار فيما ذكر حقيقة عرفية، والأصل فيه ما فى الحديث من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما قال: من أراد أن يقرأ القرآن غضا طريا كما أنزل، فليقرأ بقراءة ابن أم عبد، فابتدر أبو بكر وعمر ليخبراه بذلك، فسبق أبو بكر رضى الله تعالى عنه، فكان يقول: بشرنى أبو بكر وأخبرنى عمر(١).

قال العلامة ابن كمال: فإن قلت الخبر الكاذب يغير البشرة أيضا، وليس من شرط الحنث بقاء المعلق عليه، كما لو قال: إن دخلت الدار فأنت طالق، فدخلت، ثم خرجت حنث.

قلت: فى الكاذب لم تتم البشارة، فوزانه وزان ما لو حلف على لبس خفيه، فلبس أحدهما ولم يذكر الصدق فى الهداية، وفيه قصور، ومن ثمة قالوا: لو قال لعبيده: أيكم بشرنى بقدوم زيد فهو حر. عتق الأول لأنه الذى ظهر السرور بخبره، دون الثانى

---

(١) أخرجه أحمد (٤٤٥/١)، وابن ماجه (١٣٨)، والحاكم (٢٢٧/٢)، وابن أبى شيبة (٥٢١/١٠).

وبشرهم بعذاب أليم تهكم، ومن هنا علم أن البشارة مشروطة بجهل المخْبَرِ إذ البشرة لا تتغير بما علمه.

قال: وفى هذا الحديث دلالة على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبل عيسى لم يخبروا بإتيان نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بخصوصه، فقوله فى الكشاف فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [التوبة ١٣٠]: إن ابن سلام رضى الله تعالى عنه دعا ابنى أخيه سلمة ومهاجر إلى الإسلام، وقال: قد علمت أنه تعالى قال فى التوراة: إنى باعث من ولد إسماعيل نبيا اسمه أحمد، فمن آمن به اهتدى ورشد، ومن لم يؤمن به فهو ملعون، فيه أنه صريح فى بشارة موسى بمحمد عليهما الصلاة والسلام باسمه الخاص، وهو مخالف لنص القرآن والحديث الصحيح. لا يقال اليهود حرفوا التوراة، فزال تلك البشارة، وصح أن عيسى هو المبشر؛ لأنا نقول: إنما كان هذا بعد عيسى؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ [آل عمران: ٣] فنسبة البشارة لعيسى ظاهرة فى عدم البشارة قبله، وإلا لقال: بشارة أخى موسى، وكذا قولهم فى الخطب المنبرية فى التوراة والزبور والإنجيل انتهى.

أقول: هذا غير وارد، بل غير صحيح من وجهين: الأول أن كونه مبشرا به قبل الإنجيل فى الكتب السماوية كلها، أو جلها مما لا شبهة فيه، وقد صنف فى ذلك كتابا مستقلا سماه: خير البشر بخير البشر الحافظ ابن ظفر، ولولا خوف الإطالة أوردت ما فيه هنا.

الثانى أن قوله: إنه مخالف للقرآن والحديث كلام ناش من عدم تدبر معنى البشارة، والفرق بينها وبين الخبر الصادق، فإن كل بشارة على ما ورد خبر بلا عكس، والبشارة خبر سار بما فيه ينفع المخبر فى زمن ما بعيدا أو قريبا، كالبشارة بالجنة، ولما كان من قبل عيسى بينهم وبين نبينا رسل وأمم لم يكن ذلك بشارة؛ لعلمهم بأن المخبر لا يدركه بخلاف عيسى، فإن أمته ومؤمنوهم أدركوا نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ، كسلمان ونحوه، فكان إخباره به بشارة لمن اتبعه منهم، وحثًا لهم على اتباعه كما أشار إليه قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِى﴾ [الصف: ٦]، فلم يخالف النص إلا ابن أخت خالته فاعرفه.

(وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما) فى حديث رواه البيهقى والدرامى وابن أبى حاتم **(قال: إن الله فضل محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم على أهل السماء)** يعنى ملائكة السماء، وهم أفضل من ملائكة الأرض، فيعلم منه تفضيله صلى الله تعالى عليه وسلم على جميع الملائكة حتى الخواص منهم ورسلهم، خلافا للمعتزلة والحليمى من الشافعية القائلين بتفضيل خواص الملائكة على الأنبياء، و لم يختلفوا فى تفضيلهم على ملائكة

الأرض كما سيأتى، **(وعلى الأنبياء كلهم)** فردًا فردًا، وعلى العموم فلا وجه لتخصيصه بالأول كما تقدم فتذكره.

(قالوا) أى الحاضرون عند ابن عباس السامعون لكلامه: **(فما فضله على أهل السماء؟)** أى ما سببه ودليله؟ **(قال: إن الله قال:** ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢٩]**)** أى من أهل السماء ﴿إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ﴾ أى من يثبت منكم إلهية غيره ﴿فَذَٰلِكَ﴾ القائل ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]؛ تهديدا لمن أشرك منهم، وتقطيعا لأمر الشرك، وتعظيما لتوحيده تعالى.

(وقال لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفتح: ١] **الآية)**، فجعله مغفورًا له غير مؤاخذ مما صدر وما يصدر، وأورد عليه أنه لا دلالة فيما ذكر على المدعى؛ لأنه على سبيل الفرض مع القطع بعصمتهم، وقد خاطبه بمثله في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ولك أن تقول: وجه الدلالة أنه هددهم على سبيل الفرض بعذاب جهنم ودخولها، ولم يهدده بمثله، وهذا يدل على انحطاط رتبتهم عنده عن رتبته فتأمل.

قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال: إن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، أى أن هذه الآية تدل على عموم رسالته صلى الله تعالى عليه وسلم، وتخصيص رسالة كل رسول بقومه، وكافة صفة مفعول مطلق مقدر أى رسالة كافة أى عامة، وللناس متعلق به، والحاصل أن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فهم من هذه الآية العموم والخصوص، فاستدل بها، فلا يقال: إنه لا يلزم من أنه لا ينطق إلا بلسان قومه أنه لم يرسل إلا لهم؛ لأنه على مقتضى الظاهر، فلا يدعى غيره إلا بدليل، والدليل قائم على خلافه كما مر.

(وعن خالد بن معدان رحمه الله تعالى) هذا الحديث روى من طرق كما أشار إليه المصنف، ورواه ابن إسحاق مرسلاً، والدارمى وأحمد موصولا عن خالد عن عبد الرحمن السلمى عن عتبة بن عبد السلمى بطوله، ومعدان حمصى تابعى من كبار التابعين وزهادهم، أدرك سبعين من الصحابة، وتوفى سنة أربع ومائة **(أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك)** أى عن حالك وشأنك من ابتداء أمرك.

(وقد روى نحوه) أى نحو ما رواه خالد **(عن أبى ذر)** الغفارى الصحابى رضى الله عنه

أخرجه الدارمى، **(وشداد بن أوس)** بن ثابت بن منذر بن حرام، وهو ابن أخى حسان ابن ثابت بن حرام بالمهملتين المفتوحتين صحابى نزل بيت المقدس، وتوفى بالشام سنة ثمان وخمسين رضى الله عنه، والرواية عنه أخرجها أبو نعيم فى الدلائل، **(وأنس بن مالك)** أخرجه أبو نعيم أيضا، **(فقال)** صلى الله تعالى عليه وسلم لمن سأله عن نفسه: **(نعم)** جواب لسؤالهم أى أخبركم بذلك.

(أنا دعوة أبى إبراهيم) بدل من أبى، أو عطف بيان أى أثر دعوته أو عينها مبالغة، ونعته بأنه أب لإطلاقه على الجد، ولبيان أنه من ذريته الذين دعا لهم يعنى قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، فهو المراد بالرسول فى دعوته المجابة.

(وبشرى عيسى) عليه الصلاة السلام تقدم بيانه **(ورأت أمى)** أراد رؤيا أمه، فغير الأسلوب لأنه نوع لما قبله، فهو على نهج قوله: وجعلت قرة عينى فى الصلاة كما تقدم **(حين حملت بى)**، وفى رواية وضعتنى فالرؤيا وقعت مرتين، وهذا يحتمل أنه رؤيا منام ورؤية يقظة، والمرئى محذوف دل عليه قوله: **(أنها خرج منها نور أضاء له قصور بصرى)** بضم الباء والقصر بلدة من أعمال دمشق هنا، وهى أيضا اسم بلدة أخرى من قرى بغداد بقرب عكبرا كما فى معجم ياقوت، وهى مدينة حوران، قيل: إنها قيسارية أو خوارزم، وهو غير صحيح.

لأن قوله: **(من أرض الشام)** يأباه فهو غفلة من قائله، والصحيح أنها مدينة بين المدينة ودمشق، وهى أول بلاد الشام فتوحا فتحت سنة ثلاث عشرة، والشأم الإقليم المعروف بهمزة، ويجوز إبدالها ألفا كراس، وفيه لغة أخرى شئام بالمد قال ابن قرقول: أباها أكثرهم، وحده طولا من العريش إلى الفرات، وقيل: إلى بابلس وعرضا من جبل أجا وسلمى وبحر الروم وما سامته، ودخله من الصحابة كثيرون، ودخله صلى الله تعالى عليه وسلم أربع مرات: مرة مع عمه أبى طالب لما رآه بحيرا، ومرة فى تجارته لخديجة مع غلامها ميسرة ومرة حين أسرى به، ومرة فى غزوة تبوك.

قال ابن عساكر: رؤية آمنة النور حقيقة حين وضعته، وأما رؤيتها له حين حملت فكانت فى المنام كما قاله الواقدى، ثم حقق الله لها ذلك إذا وضعته؛ لأنها كما ورد فى الحديث أتيت وقيل لها: إنك حملت بسيد هذه الأمة، وآية ذلك أن يخرج معه نور يملأ قصور بصرى فحقق الله لها ما رأته أولا، وهو كلام حسن، وتخصيصه لأنه أول فتح فى الأراضى المقدسة.

(واسترضعت) بالبناء للمجهول أى طلبت أمى أن أكون رضيعا **(فى بنى سعد بن**

بكر) أرضعته منهم حليمة السعدية بنت أبى ذؤيب زوجة الحارث بن رفاعة بعد ما أرضعته ثويبة مولاة أبى لهب، وله أخوة من الرضاعة مذكورون مع قصة إرضاعه فى كتب السير، **(فبينا أنا مع أخ لى)** من الرضاع لا من النسب، إذ ليس له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أخ ولا أخت من النسب وبينا ظرف وألفه للإشباع أو كافة كبينما، والكلام عليها مفصل فى كتب العربية **(خلف بيوتنا)** أضاف البيوت له باعتبار السكنى أوالتغليب؛ لأن المراد بيوت بنى سعد **(نرعى بهما)** الرعى أكل الحيونات النبات، والذهاب بها لترعى، وهو المراد هنا، والمراد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان مع الرعاة لا راعيا لصغر سنه، والبهم بفتح الباء الموحدة وسكون الهاء والميم، وهى جمع بهمة اسم لأولاد الضأن وأولاد المعز سخنال، ويطلق على ما يعمهما قال:

صغيرين نرعى البهم بالبيت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

(لنا) أضافها له معهم لاختلاطه بأصحابها لأدنى ملابسة **(إذ جاءنى رجلان)** أى ملكان فى صورة رجلين، فهو مجاز، **(عليهما ثياب بيض)**.

وفى حديث آخر ثلاث رجال، وهم جبريل وإسرافيل وميكائيل عليهم الصلاة والسلام كما أشار إليه بقوله: **(وفى رواية أخرى: ثلاث رجال)**، وجمع بينهما بأنه جاءه اثنان أولا لشق صدره، والثالث أتى بعد مباشرته **(بطست من ذهب مملوءة ثلجا)**، وفى رواية ملكان، وفى رواية كوكبان كأنهما انقضا عليه كوكبان، ثم تمثلا بصورة رجلين، والطست بفتح الطاء وسكون السين المهملة ومثناة فوقية، وفيه لغة أخرى طس بتشديد السين وطسه بهاء، وفى طائه الفتح والكسر، ففيه خمس لغات، وهو إناء معروف، واستعمال الذهب لم يكن حراما إذ ذاك لاسيما وهو من الجنة لا من جنس ذهبنا، فلا حاجة للجواب بأنه يجوز للصغار، وأنه يجوز تحلية آلات الطاعة به كالمصحف والسيف مع ما فيه، وفى رواية أنه من زمرد أخضر، وأنه صب عليه من أبريق فضة، وأما كون الطشت بشين معجمة فقيل: إنه غلط، وقيل: إنه لغة فيه، ومملوءة بالتأنيث لأن الطست يذكر ويؤنث أو هو لتأويله بآنية، وهى مجرورة صفة ،أو منصوبة حال، والمراد أنه نقى بالثلج أو بمائه، ولا حاجة للبحث فيه هل هو مطهر أم لا ، لأن هذه أمور لا يطلع عليها، وروى أنه غسل بماء الجنة وبماء زمزم، وهذا كان فى حال الطفولية، ووقع فى رواية أنه كان بعد هذه البعثة لما أسرى به، فمنهم من قال: الروايتان متعارضتان ورد هذه، وقال السهيلى: لا تعارض بينهما، وأنه وقع مرتين، الأولى لتنقيته من الحظوظ النفسانية، والأخرى ليقدس فيقوى على العروج لمشاهدة الأنوار العلوية، وكونه مخلوقا من النور لا ينافيه كما توهم، وروى بأن الطست مملوء حكمة وإيمانا، وأن الثلج لبرد

اليقين، فهو إما بتأويله أو بتجسم الأعراض، وليس ذلك على الله بعزيز، والثلج بسكون اللام، وقال التلمسانى بفتحها بمعنى اليقين، فيجوز قراءته بالفتح، فتكون هذه الرواية كرواية مملوءة حكمة وإيمانا.

(فأخذانى) أى أمسكاه صلى الله تعالى عليه وسلم وأضجعاه.

(فشقا بطنى. قال فى غير هذا الحديث: من نحرى إلى مراق بطنى) النحر أعلى الصدر، ومراق بفتح الميم وتشديد القاف، وهو ما رقَّ ولان من البطن، ولا واحد له من لفظه، والميم زائدة.

(ثم استخرجا منه) عائد على الجوف المعلوم من السياق، أو للبطن لتأويله به **(قلبى)** مفعول استخرجا، **(فشقاه)** أى القلب، وهذا من المعجزات لأن الأطباء أجمعوا على أن القلب لا يحتمل جراحة أصلا، فكيف يعيش صاحبه إذا شق؟ **(واستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها)** أى رمياها لأنها حظ الشيطان ومغمزه، وفيها الحسد والحقد ووسوسة الشيطان والحرص والشهوة المذمومة، والعلقة دم متجمد كالعلقة المعروفة فى دود الماء. قال السبكى رحمه الله تعالى فى طبقاته: سئل الوالد رحمه الله عن هذه العلقة التى أخرجت من قلبه صلى الله تعالى عليه وسلم حين شق فؤاده، وقول الملك: هذا حظ الشيطان منك.

فأجاب: بأن تلك العلقة خلقت فى قلوب البشر قابلة لما يلقى الشيطان فيه، ولم يكن للشيطان فيه حظ، وإنما الذى نقاه الملك منه أمر فى الجبلة البشرية فأزيل القابل الذى يلزم من حصوله حصول الإلقاء فى القلب، وإنما خلقت على هذا؛ لأنها من أجزاء البدن المكملة لخلقه، فلابد منه، ثم نزعت بأمر ربانى طرأ بعده.

وقريب منه قول الأستاذ محمد البكرى فى رسالته النافعة: نزع العلقة من باطنه المقدس المطهر، وقول الملك: إنها حظ الشيطان أى لو تعلق الشيطان بمحل منه كان هذا، فخلق ابتداء تكملة لأصل الخلقة وتسوية للنشأة الإنسانية مع زيادة إظهار يأس الشيطان بإخراجها منه، وهذا من تقديس السر وتنزيهه أعلاه وأشرفه، وقد لا يدانيه أحد فيه.

أقول: حاصله أن الله خلقه صلى الله تعالى عليه وسلم كامل البنية مكملا، فاقتضت الحكمة الربانية أن يكون جسمه أحسن الأجسام، وقلبه أقوى القلوب، كما أن روحه صلى الله تعالى عليه وسلم أعظم الأرواح وأنورها، ولما كان القلب رئيس الأعضاء، بقوته تقوى صفاته من الشجاعة والفطنة وغيرها، وهذه العلقة جزء سوداوى به يكون

القلب قوى البنية زاهى الثمرة وعليه ينبنى، لكونه كحب العنب والفواكه فبعد نضج ثمرته ينزع عجمه ويرمى، ولكنه سوداويا ردىء الأخلاط كان محلا لإفداء الأوهام والخيال الذى هو لريحان الفكر كالحشيش النابت بينه بقلعه يقوى، فاندفع أنه لم لم يخلقه الله بدونها حتى يتطهر من دنس الوسوسة وما يقبلها، فلا يألم بشق وقلع، وظهر أن معنى كونها حظ الشيطان أنها محل حظه لو كان، لكنه لم يكن، وإنما ظللت هنا لأنه سر من أسرار الله تعالى، ولله در ابن قرناص الحموى فى قوله:

أما والله لو شقت قلوب ليعلم ما بها من فرط حب
لأرضاك الذى لك فى فؤادى وأرضانى رضاك بشق قلبى

(ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى أنقياه)، ولما كان أرضه صلى الله تعالى عليه وسلم لا ثلج بها غسل بذلك؛ ليعلم أنه من عالم الغيب والجنة، ويقال: نقاه بالتشديد وأنقاه إذا جعله نقيا نظيفا، والمشهور الأول، وفى هذا دليل عصمته صلى الله تعالى عليه وسلم قبل النبوة من جميع الآثام والنقائص، وكيف يتصور بعد هذا أن يصدر منه زلة أو أمر لا يرضى إلا سهوا؟ ومثله لا يؤاخذ به.

(قال) أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم **(فى حديث آخر: ثم تناول أحدهما)** أى أخذ من ملك غيره، أو أخرجه من يده، وأصل المناولة الأخذ من غيره **(شيئا فإذا بخاتم فى يده من نور)** أى يتلألأ ويضىء إضاءة زائدة حتى كأنه مجسم من النور، ففيه مبالغة فى إشراقه كقوله تعالى ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

وفى رواية أنه خيط بمخيط، وكان يرى فى صدره الشريف أثر الخياطة **(يحار الناظر دونه)** أى فيما دونه أو أقل منه **(بهاء)** أى نورًا ونفاسة، والنظر إما بمعنى الشخص الذى ينظره، ويحتمل أن يريد به العين وإنسانها؛ لأنه يطلق عليها، فعلى الأول المعنى أنه يتحير من نوره وحسنه فى معرفته، وعلى الثانى النسبة إليه مجازية والمراد صاحبه، أو معناها يبهت ولا يطرق أجفانه، وفيه وفى قوله: دونه لأنه إذا تحير فيما دونه فكيف به؟.

(فختم به قلبى) كما يختم الكيس والخزانة التى فيها الجواهر وكل نفيس، وختمه لئلا يصل إليه ما لا يليق به من الوسوسة، ولئلا يضيع ما فيه، وفيه إشارة إلى أنه خاتم الأنبياء، وليس هذا ولا أثره خاتم النبوة المذكور فى الحديث حتى يقال: أنه اختلف فيه هل ولد به أو كان حدوثه حين نبئ؟ ولا فى هذا الحديث بيان لأنه كان حين شق صدره كما توهم، والختم حفظا له عن أن يخرج مما أحرز شىء بغير علمه، فلا يرد ما قاله السهيلى: إنه ينافى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم يعلم الناس الحكمة، وتفجرت من

قلبه ينابيع الحكم، وفاضت أنواره على العالم.

(فامتلأ إيمانا وحكمة) فى تفسيرها أقوال، والذى صفا منها أنها العلم المشتمل على معرفة الله مع البصيرة وتحقيق الحق والعمل به، وفى التفريع هنا خفاء لأن مقتضى الظاهر أن يقدمه على الختم ولا يرتبه عليه، فيقول: ملأه فامتلأ ثم ختمه لأنه بعد الختم لا يدخله شىء إلا أن يؤول بأنه تبين فى أنه امتلأ، اللهم إلا أن يقال: إنه دخل فيه نور من الخاتم، ثم ملأه بما ذكره، ومر أن العلم والحكمة معنى لا يملأ حيزه، فإما أن يقال إنه تجسم أو جعل بمنزلته.

(ثم أعاده مكانه) أى أعاد الخاتم فى مكانه الذى كان من يده أو يد غيره، وليس الضمير للختم كما توهم حتى يقال: إنه يشعر بأنه كان من أصل خلقته **(وأمر)** بتشديد الراء المهملة آخره أى مسح وألصق يده مارة **(الآخر)** أى الملك الآخر **(يده على مفرق صدرى)** بفتح الميم والراء وكسرها بينهما فاء ساكنة أى محل الشق والافتراق الذى كان منه، فهو بمعناه اللغوى، وإن اختص عرفا بوسط الرأس أو هو مصدر ميمى، **(فالتأم)** بهمزة بعد المثناة الفوقية أى انضم واجتمع حتى لم يبق فرجة من الشق.

(وفى رواية أخرى أن جبريل عليه الصلاة والسلام قال) بعد ما أمر **(قلب وكيع أى شديد)**، وفى كتب اللغة تفسيره بصلب وغليظ، والمراد هنا ما ذكره المصنف، ومنه نقل العلم.

(فيه) أى فى قلبه صلى الله تعالى عليه وسلم **(عينان تبصران، وأذنان سميعتان)** لا يخفى أن حمله على ظاهره كما قيل بعيد، فالمراد أنه شديد الإدراك لما يبصر ويسمع، وكون القلب لا يدرك المحسوسات لأنه إنما يدرك المعقولات لا وجه له، فإنه يدركها بواسطة الحواس، وفى التعبير عن الأول بالمضارع، وعن الثانى بالاسم الدال على الثبوت تفنن، وإيماء إلى أن الأول لا يكون إلا بفعل يحدث منه كالمقابلة وفتح الجفن بخلاف الثانى، وإسنادهما ليس بمجازى، وهذا كالتعليل لما قبله.

(ثم قال أحدهما) أى الملكين **(لصاحبه: زنه بعشرة من أمته فوزننى بهم فرجحتهم، ثم قال: زنه بمائة فوزننى بهم فرجحتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته فوزننى بهم فوزنتهم)** الوزن معروف ورجحانه زيادة ما فى الكفتين وثقله، فينزل الراجح ويعلو مقابله، والمراد بأمته من اتبعه صلى الله تعالى عليه وسلم وآمن به وهم أمة الإجابة، أو من وجد فى عهده وهم أمة الدعوة، فمن فسره بالأول يعلم الثانى منه بالطريق الأولى وعدم الاعتداد بغيرهم، و يجوز إرادة الثانى، وهذا الوزن الظاهر أن المراد منه مجرد المقابلة بين كماله

صلى الله تعالى عليه وسلم وكمالاتهم بحسب النظر العلمي، ومنهم من ذهب إلى أنه على ظاهره وحقيقته، وإن لم يعرف كيفيته إلا أنه يحتاج لتأويله؛ لأن الأمة لم يكونوا موجودين، فقيل: المراد منهم أرواحهم وأن الله أطلعهم على ذلك، وإنما ذكروه ليطلع على ذلك وتعلم به أمته.

ثم إنه وقع فى هذا الحديث اختلاف فى رواية أبى ذر رضى الله تعالى عنه أن الوزن قبل الشق، وأنه ابتدأ فى الوزن بالواحد، ثم العشرة، واختار المصنف هذه الرواية؛ لأن الرجحان بما أودعه الله تعالى فيه بعد إماطة ما لا وزن له عند الله، وفيه أيضًا أنه وضع فيه خاتم النبوة بين كتفيه، وقال شيخ والدى الشهاب بن حجر الهيتمى أنه وقع فى بعض الروايات أنه ولد بخاتم النبوة، فإن الحاكم روى بسند حسن عن عائشة رضى الله تعالى عنها عن بعض الأحبار أنه قال: ولد فى هذه الليلة يعنى ليلة مولده صلى الله تعالى عليه وسلم نبى هذه الأمة بين كتفيه علامة فيها شعرات، وفيه دليل على أنه ولد بخاتم النبوة، لكن جاء بسند أصح من هذا أن الملكين لما شقا صدره الشريف ختماه بخاتم النبوة، ويمكن الجمع بأنهما ختما ذلك المحل الثانى عند الوضع بعد ختمه أولا إشارة إلى زيادة الاعتناء والتشريف، ثم رأيت من جمع بينهما بأنه كان فى موضعين على الكتف وبين كتفيه، وروى بسند ضعيف أنه رفع بعد موته، صلى الله تعالى عليه وسلم.

واعلم أن بعض الشراح قال: إن الشق والغسل فى ذلك ليس مخصوصًا به صلى الله تعالى عليه وسلم، بل كان لسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لما روى أنه كان فى تابوت السكينة الطست الذى غسلت فيه قلوب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(ثم قال: دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنها): أى لغلبهم فى الوزن ولأعاد لهم، وباب المغالبة معلوم من كتب الصرف، وفى هذا الحديث دليل على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل من جميع الناس وأقواهم شجاعة وقدرة على الجماع وعلما وفطنة كما مر؛ لما أودع فى قلبه صلى الله تعالى عليه وسلم مما لم ينله غيره.

(قال فى الحديث الآخر: ثم ضمونى إلى صدورهم) أى عانقونى إظهارا لمحبتهم وتكريمهم لى. **(وقبلوا رأسى وما بين عينى)** بتشديد الياء للتثنية، وفيه استحباب تقبيل الرأس وما بين العينين لمن ينبغى محبته وإكرامه إظهارا لذلك، **(ثم قالوا: يا حبيب)** بالبناء على الضم وأصله يا حبيب الله **(لم ترع)** بضم المثناة الفوقية وفتح الراء المهملة وعين مهملة، أى لم تخف وتفزع، وهو مبنى للمجهول أى حصل لك من قوة القلب ما لا يعتريك بعده خوف من شيء، والمراد تطمين قلبه صلى الله تعالى عليه وسلم بعدما وقع من الشق له.

ثم استأنف بجملة مؤيدة لما قبلها فقال: (**إنك لو تدرى ما يراد بك من الخير**) أى ما يريده الله لك من الكمال والخير الدنيوى والأخروى؛ (**لقرت عيناك**) أى لسررت سرورا عظيما، وقد مر أن قرة العين الفرح، وهو ضد سخنت فهو من القر بمعنى البرد؛ لأن دمع السرور بارد ودمع الحزن حار، أو من قر بمعنى ثبت وسكن طرفه؛ لأنه لم يبق له شىء يطمح له عينه وينظره.

(**وفى بقية هذا الحديث من قولهم**) أى من قول هؤلاء الملائكة، وهذا موافق لكونهم ثلاثه كما مر: (**ما أكرمك على الله**) تعجب من رفعته صلى الله تعالى عليه وسلم وكرامته عند ربه. (**إن الله معك وملائكته**) بعنايته وفضله، وليس فى قوله من قولهم ما يقتضى أنه مشتمل على مقولهم ومقول غيرهم كما قيل.

(**قال فى حديث أبى ذر**) المشهور المذكور أولا، وهذا الحديث رواه الدارمى: (**فما هو**) أى فعلهما بعد ذلك، وما نافية وقيل الضمير للشأن، وهو على حد قولك: لم يلبث فلان أن فعل كذا، والمراد السرعة (**إلا أن وليا**) أى رجعا وانصرفا عنى بعد فعلهما ومقالتهما السابقة، (**فكأنما أرى الأمر معاينة**) المراد بالأمر هنا ما أكرمه الله به، وما سيكرمه به من مقدمات النبوة وإرهاصاتها وما زاد فى فطنته وعلمه، ولتحققه لذلك جعل كالمحسوس المرئى ببصره، وليس المراد به القصة المذكورة من مشاهدة الملكين وما فعلاه كما توهم، وقد أتى بخبط وخلط فى تفسيره لا طائل تحته.

(**وحكى أبو محمد مكى وأبو الليث السمرقندى وغيرهما**) تقدم ترجمتهما والكلام عليهما (**أن آدم عليه الصلاة والسلام عند معصيته**) أى أكله من الشجرة، وسيأتي الكلام عليه فى عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذا الظرف متعلق بقوله: (**قال**) ومقوله: (**اللهم بحق محمد**) أى بما يستحقه عندك من الزلفى والكرامة، وهذا الحديث رواه البيهقى والطبرانى عن عمر رضى الله عنه بسند فيه ضعف، وفيه دليل على أنه يجوز أن يقال فى الدعاء: بحق الأنبياء ونحوه خلافا لمن أفتى من علماء العصر أنه لا يجوز أن يقال مثله؛ لأنه ليس لأحد على الله حق، وقد وقع مثله فى أحاديث كثيرة ومعناه ما مر.

(**اغفرلى خطيئتى. ويروى: وتقبل توبتى. فقال له الله: من أين عرفت محمدا؟ فقال: رأيت فى كل موضع من الجنة**) رأى هنا بصرية (**مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله**) نائب فاعل اسم المفعول.

(**ويروى: محمد عبدى ورسولى**) بدل رسول الله، (**فعلمت**) بما رأيته من كتابته واقتران اسمه باسمك (**أنه أكرم خلقك**) أى مخلوقاتك (**عليك ، فتاب الله عليه وغفر له**) ذنبه

لتوسله إلى الله بحبيبه وصفيه، وبما علمه من ذلك، **(وهذا)** أى الحديث المذكور **(عند قائله)** أى عند من رواه واعتمده، وهو مكى رحمه الله تعالى ومن سبق ذكره، وليست الإشارة لقول آدم عليه السلام اللهم إلى آخره كما قيل.

(تأويل قوله تعالى) أى تفسيره؛ لأن التأويل يرد بمعنى مطلق التفسير، وبمعنى التفسير بمقتضى العربية من غير نقل مأثور، ويكون أيضا بمعنى ما يئول إليه ويتحقق به فى الواقع، وهو أصل معناه ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، وهذا فيه خفاء لأن معنى تلقيها من الله أخذها منه بغير واسطة، والمذكور أنه رآها مكتوبة فى الجنة، فكأنه جعل إلهام الله له الدعاء بمنزلة تلقيها عنه، وقيل: إنه على قراءة ابن كثير بنصب آدم ورفع كلمات، ومعنى تلقيها استغناؤها بأخذها والعمل بها حين علمها، وأشار بقوله عند قائله إلى أن فيه أقوالاً أخر، فقيل: الكلمات المتلقاة هى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقيل: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك إنى ظلمت نفسى، فاغفر لى فإنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك إنى ظلمت نفسى، فتب على إنك أنت التواب الرحيم.

فسقط ما قيل: إنه ليس فيه على هذه الرواية أنه تلقى من الله، والكتابة لا تسمى كلمات إلا مجازا، ولا قرينة تدل عليه. قيل: وفيه دلالة على أن آدم عليه الصلاة والسلام كان يعلم الكتابة، وسؤال الله له بقوله: من أين إلى آخره ليس استفهامه على حقيقته لعلمه به، وإنما هو تشريف له بخطابه، وليبين له فضيلة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم عقبه.

(وفى رواية أخرى فقال آدم عليه الصلاة والسلام: لما خلقتنى رفعت رأسى إلى عرشك، فإذا فيه مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله) فيه خبر مقدم ومكتوب مبتدأ مؤخر صفة شىء مقدر، ولا إله الا الله إلى آخره بدل منه، أو هو مبتدأ مكتوب خبره، وفى بعض النسخ وفى رواية الآجرى بالمد وضم الجيم وتشديد الراء المهملة وياء نسبة للآجر المعروف، وهو الإمام القدوة أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله البغدادى مصنف كتاب الشريعة شيخ أبى نعيم، سكن مكة، وتوفى بها فى الحرم سنة ستين وثلاثمائة.

(فعمت أنه ليس أحد أعظم قدرًا عندك ممن جعلت اسمه مع اسمك) ملازما لمقارنته قيل: هذا فى الرواية الأولى ظاهر إذ فيها فى كل موضع، وأما هنا فهو فى موضع

واحد. وأجيب بأنه يحتمل أن الرواية الأولى زيادة على هذه، وتركها لئلا يتكرر. ولا يخفى بعده. ولا حاجة إلى ما فهمه من لزوم المقارنة بل المقارنة فى هذا المحل العظيم تكفى فيما قاله. قلت: ومن هذا الحديث يؤخذ أن كتابة أسماء الله ونحوها فى سقوف المساجد وغيرها غير مكروهة كما توهم.

(فأوحى الله إليه: وعزتى وجلالى إنه لآخر النبيين من ذريتك، ولولاه ما خلقتك)، فروحه صلى الله تعالى عليه وسلم مخلوقة قبل الأرواح، والأنبياء كلهم خلقوا لأجله ووجوده سبب لوجودهم، فهو أب معنوى لهم، وكلهم أتباعه فى الوجود. قيل: قوله: فأوحى الله إليه يقتضى أن هذا الخطاب وحى لا مشافهة، وقوله: لما خلقتنى قبله يدل على خلافه، وقد يقال: إنه خاطبه أولا وأوحى إليه بعد ذلك مع أن الداعى مخاطب ربه، وإن لم يخاطبه فلا يدل كلامه الأول على أن كلام الله معه بدون وحى.

(قال: وكان آدم عليه الصلاة والسلام يكنى بأبى محمد، وقيل: بأبى البشر) كما رواه البيهقى عن على، كرم الله وجهه، مرفوعًا، والثانى أشهر.

(تنبيه) قوله: ولولاه ما خلقتك خلاف اللغة، فإنها فى الأكثر يليها ضمير رفع منفصل يحذف خبره وجوبا إذا كان عاما، وقد يكون مخصوصا فيذكر على قول ويليها ضمير مجرور صورة كما هنا قليلا، فيقال: لولاى ولولاك، ومنعه المبرد رحمه الله تعالى وأجازه غيره، فقيل أنها حرف جر، وقيل، إنه نائب عن المرفوع واتصل بغير عامله، ومنعه سيبويه، بمنع النيابة فى غير الضمائر المنفصلة، وغيره يجيزه مع الحروف والأفعال كما تقرر فى محله، وعليه الزمخشرى.

(وروى عن سريج بن يونس) بضم السين وفتح الراء المهملتين وياء مثناة تحتية وجيم، وصحفه بعضهم بشين معجمة وحاء مهملة وهو غلط، وهو أبو الحارث البغدادى إمام الحديث توفى سنة خمس وثلاثين ومائتين، وروى له مسلم والبخارى **(أنه قال)** إن كان الضمير للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه المعلوم من السياق فهو ظاهر، وإن كان لسريج فهو فى حكم المرفوع؛ لأن مثله لا يقال بالرأى **(إن لله تعالى ملائكة سياحين)** من السياحة من ساح الماء إذا جرى، ثم شاعت فى السير الطويل، والمشى فى الأرض، والسفر من غير مقصد معين للنظر فى المصنوعات ونحو ذلك.

(عبادتها) أى الملائكة وأنثه نظرا لظاهر لفظه، أو لتأويله بطائفة، وعبادتها بباء موحدة ففيه مضاف مقدر أى حفظ **(كل دار فيها)** من اسمه **(اسمه أحمد أو محمد)** أو دخول كل دار ونحوه، وضبط أيضا مثناة من تحت، والمراد بالعبادة الزيارة، وقدم أحمد

لأنه مسمى به قبل محمد، ولأنه صلى الله تعالى عليه وسلم معروف بـه عند الملائكة أو للترقى.

(إكراما منهم لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم) أى زيارتهم لأجل الإكرام، وقال: منهم لئلا يتوهم أنهم أتوا بإكرام من غيرهم، وأنهم رسل فى ذلك، وإلا فهو حشو، ويأتى أن أهل مكة ونقل أيضا عن أهل المدينة يقولون: كل دار فيها من اسمه محمد يوسع الله رزقهم، وهو عن تجربة منهم، وقيل: هذا لا يختص بهذين الاسمين، بل كل من تسمى باسم من أسمائه صلى الله تعالى عليه وسلم كذلك، وفيه نظر.

(وروى ابن قانع القاضى) بقاف ونون بعد ألف وعين مهملة، وهو عبد الباقى بن قانع بن مرزوق الأموى البغدادى، صاحب معجم الصحابة وكتاب القوم، وترجمته فى الميزان، وهو ثقة فى الرواية إلا أنه قيل: إنه تغير فى آخر عمره، وتوفى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة. قال البرهان: كان على المصنف أن يذكر تقدم السند من ابن قانع إلى قوله: **(عن أبى الحمراء)** حتى يعرفه، ويعرف أبا الحمراء، واعتذر بأنه لم يلتزم الإسناد فى كتابه، وإنما اشترط ما صح عنده واشتهر، والظاهر أنه استغنى عنه بروايته عن ابن قانع؛ لأنه ذكره مسندا فيه، وقد أسنده الطبرى أيضا، وفى بعض النسخ ابن نافع بالفاء وهو الفقيه صاحب الإمام مالك، وهو وهم وتحريف.

وأبو الحمراء بحاء مهملة وميم وراء مهملة ممدود قال البرهان: ولا يعرف من المراد به، فإن أبا الحمراء الصحابى مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اسمه هلال بن الحارث، أو ابن ظفر، اخرج له ابن ماجه حديثا غير هذا، وكان بحمص، وقال: يقال: له صحبة ولا يصح حديثه، ومن الصحابة أبو الحمراء مولى آل عفراء البدرى، ولا يعرف له رواية، ولا يعرف فى التابعين من اسمه أبو الحمراء، ولا فيمن بعدهم.

(قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: لما أسرى بى إلى السماء إذا) هى فجائية أى صادفت فجأة **(على العرش مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله)** العرش فى اللغة سرير الملك، وعرش الرحمن غير السموات، وهو سقف الجنة، وهل هو الكرسى أو غيره؟ فيه خلاف ليس هذا محله، وكون اسمه صلى الله تعالى عليه وسلم مكتوبا مع اسم الله على العرش، وفى الجنة ورد فى أحاديث كثيرة، والظاهر أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عرف تلك الكتابة بإلهام من الله، أو بذكر جبريل عليه الصلاة والسلام لها، أو غيره من الملائكة. قالوا له: هذا اسمك مكتوب هنا، فلا يقال: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم أمى لا يقرأ ولا يكتب، وقد تقدم ما فى ذلك.

(أيدته بعلى) كرم الله وجهه فى حياته لما له من الصحبة القديمة، والآثار العظيمة فى غزواته معه، والتأييد التقوية والنصر، ولا يلزم من هذا تفضيله على غيره من الخلفاء كأبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما، ولا أن تأييده له أعظم، ولعل لتخصيصه هنا وجه لا يقف عليه إلا الأنفس القدسية.

(وفى التفسير) أى فى كتبه، ولم يعين المنقول عنه لوجوده فى كثير منها.

(عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما) رواه الخطيب عن مالك، وورد مرفوعا عن أبى ذر، رضى الله تعالى عنه، وأخرجه البزار موقوفًا عن على وعمر رضى الله تعالى عنهما، والبيهقى فى الشعب فى تفسير **(فى)** **(قوله تعالى:** ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ﴾ [الكهف: ٨٢]) أى الجدار الذى أقامه الخضر، عليه الصلاة والسلام، ﴿كَنزٌ لَّهُمَا﴾ لليتيمين. **(قال)** أى ابن عباس رضى الله عنهما: المراد بالكنز وهو المال المدفون **(لوح من الخشب فيه مكتوب عجبا)** منصوب بفعل محذوف وجوبا أى أعجب عجبا، واللوح بفتح اللام وقد تضم صحيفة مبسوطة.

(لمن أيقن بالقدر)، أى تيقن قضاء الله وقدره، وأنه لا يكون إلا ما قدر، وما قدر لابد أن يكون، فلتضمينه معنى آمن عداه بالباء، واليقين الاعتقاد الجازم **(كيف ينصب؟)** بفتح أوله وثالثه من النصب بصاد مهملة وهو التعب، والاستفهام للتعجب الإنكارى، أى كيف يتعب نفسه فى تحصيل رزقه؟ وما قدر له لا يتخلف عنه مقدار ذرة ولحظة، وللقاضى ناصح الدين الأرجانى:

يا قلب تخل من هموم وشجون ... بادر فرص الزمان من قبل يخون
لا تأس فإن حملك الهم جنون ... ما قدر أن يكون لابد يكون

(عجبا لمن أيقن بالنار كيف يضحك؟) أى من تيقن وجود النار، وعلم أنه لا يخلو من زلة يعاقب عليها، فكيف لا يخاف منها ويكون ضاحكا مسرورا، وهو لا يعلم أشقى هو أم سعيد؟ والموت أقرب له من حبل الوريد.

(عجبا لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها) أى تغير أحوالها فى كل حين قال الراغب: التقلب التصرف قال الله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ [النحل: ٤٦]، فالباء بمعنى فى أو مع أى تصرفها فى أهلها أو تغيرها وتغير أهلها.

(كيف يطمئن) قلبه ويركن **(إليها؟)** بعد ما رأى منها وشاهد.

(أنا الله لا إله إلا أنا)، فله الحكم والأمر، وبيده كل شىء فى قبضة تصرفه.

(محمد عبدى ورسولى) أرسلته للناس كافة، وهذا التفسير يشعر بأنه حديث قدسى

أوحاه الله لبعض أنبيائه، وقد ذكره القرطبى فى تفسيره بهذا اللفظ عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه كان لوحا من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. عجب من يؤمن بالقدر كيف يحزن؟ عجب لمن يؤمن بالرزق كيف ينصب؟ عجب لمن آمن بالموت كيف يفرح؟ عجب لمن آمن بالحساب كيف يغفل؟ عجب لمن عرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله إلا الله محمد رسول الله انتهى.

وعجب فى هذه الرواية مرفوع بالابتداء كسلام عليكم، وهذه رواية عطاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، وقيل: الكنز مال، وقيل غير ذلك .

(وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: على باب الجنة مكتوب إنى أنا الله لا إله إلا أنا محمد رسول الله، من قالها) أى من نطق بكلمة الشهادة مؤمنا مخلصا **(لا أعذبه)**، وإن ارتكب الذنوب، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وقد ورد مثله كثيرا فى الأحاديث الصحيحة .

(وذكر أنه وجد) بالبناء للمجهول فيهما، و لم يذكر فاعلهما لعدم وقوفه عليهما، ولا ينافى هذا أنه ذكر هنا ما صح كما اشتهر؛ لأنه باعتبار الأغلب، وكونهما مبنيين للفاعل، والضمير المستتر لابن عباس أو قيل يحتاج لنقل.

(على الحجارة القديمة) أى الموجودة قبل عصر النبوة؛ لأن الكتابة لو كانت جديدة بخط هذه الأمة لم تكن دالة على ما نحن فيه.

(مكتوب : محمد تقى) أى ممتثل لأوامر الله، مجتنب لنواهيه صلى الله تعالى عليه وسلم، **(مصلح)** لجميع الناس بهدايتهم لكل خير وسعادة وللدنيا بعدله، **(وسيد أمين)** على الوحى وغيره كما تقدم.

(وذكر السمنطارى) بسين مهملة وميم مكسورتين ونون ساكنة وطاء مهملة بعدها ألف وراء مهملة وياء نسبة مشددة. قال صاحب القاموس فى تاريخ المدينة: إنه نسبة لسمنطار قرية من جزائر الغرب، وقيل: هو الذهبى بلسان أهل المغرب، وهو أبو بكر بن عتيق بن على أحد عباد الجزيرة وزهادها، وله كتاب الرقائق فى اثنى عشر مجلدا كبيرا لم يسبق لمثله، ومنه نقل المصنف هذا الحديث انتهى، وقال التلمسانى: إنه من الأجلة وله تأليف فى فنون العلم، فمن قال: لم أر له ترجمة ونحن فى غنية عما نقل عنه من الغريب، فقد شهد على نفسه بقلة الاطلاع.

(أنه شاهد فى بعض بلاد خراسان) هو إقليم معروف قيل: وقد تسكن راؤه وتحذف ألفه، وفى الزاهر لابن الأنبارى معناه مطلع الشمس؛ لأن خور بالفارسية معناه الشمس.

(مولودا ولد) أى حين ولادته وخروجه من بطن أمه، فلا يتوهم أن وصف المولود بأنه ولد من اللغو، **(وعلى أحد جنبيه)** أى شق بدنه وصفحته **(مكتوب لا إله إلا الله، وعلى الآخر محمد رسول الله، وذكر الأخباريون)** المراد بهم المؤرخون الذين لهم اعتناء بأخبار الأمم السالفة، ولما كان الأخبار جمع خبر، وهو عام مخصوص بهذه الطائفة نسب للجمع لمشابهته العلم كأنصار وأنصارى، ولولا هذا رد فى النسبة لمفرده كسائر الجموع المنسوب إليها.

(أن ببلاد الهند وردا أحمر مكتوب عليه بالأبيض: لا إله إلا الله محمد رسول الله) أى مكتوب فيه بلون أبيض عكس المشهور من كتابة الألوان فى البياض؛ للدلالة على أنه ليس من صنع البشر، وهذا كقول البوصيرى فى مطلع قصيدة له[1]:

كتب المشيب بأبيض فى أسود بغضا لعين الحاسد الخرد

وقد ذكر ابن العديم فى تاريخه حكايات كثيرة، منها أنه وجد ببلاد الهند مثله فى الثمار والأوراق، وأن الصيادين رأوا مثله فى السمك، واعلم أن ما اشتهر من أن الورد الأحمر خلق من عرق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، أو من عرق جبريل عليه الصلاة والسلام موضوع كما نقله ابن حجر عن النووى والذهبى وابن عساكر.

وكذا ما فى الفردوس من أن الورد الأبيض خلق من عرقى ليلة المعراج، والورد الأحمر خلق من عرق جبريل، والورد الأصفر خلق من عرق البراق.

وعن أنس رضى الله تعالى عنه يرفعه قال: لما عرج بى إلى السماء بكت الأرض من بعدى، فنبت اللصف وهو الكبر من مائها، فلما أن رجعت قطر من عرقى على الأرض، فنبت ورد أحمر ألا من أراد أن يشم رائحتى، فليشم الورد الأحمر[2]، والورد كما قاله أبو حنيفة الدينورى نور كل شجرة، وزهر كل نبت، ثم خص بهذا الورد المعروف، فقيل لأحمره: الخوجم، ولأبيضه: الوتير.

وفى شرح سقط الزند: الورد ما يضرب إلى الحمرة، يقال: أسد ورد وعنبر ورد ودم ورد أى أحمر، والورد المشموم ليس بعربى فى الأصل إلا أن العرب تسمى الزهر وردا. انتهى.

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: إذا كان يوم القيامة ينادى مناد فى الموقف: ألا ليقم من كان اسمه محمدا، فليدخل الجنة لكرامتى،

---

(١) البيت من الكامل، وهو فى ديوان البوصيرى (ص٦٦).

(٢) أخرجه ابن الجوزى فى الموضوعات (٣/٦٢)، وأورده السيوطى فى اللآلى (٢/١٤٨).

ويأتى شرحه فيما بعده. وفى رواية يقول الله له: عبدى لم تستح منى إذ عصيتنى واسمك محمد، وأنا أستحيى أن أعذبك واسمك اسم حبيبى. اذهبوا به إلى الجنة، وإلى هذا أشار فى البردة بقوله:

فإن لى ذمة منه بتسميتى محمدا وهو أوفى الخلق بالذمم

(**وروى عن جعفربن محمد**) هو جعفر الصادق، وقد تقدمت ترجمته، ومحمد هو محمد الباقر، وقد تقدم أيضا.

(**عن أبيه**) أبو محمد بن على بن حسين بن على بن أبى طالب.

(**إذا كان**) هى تامة بمعنى وجد (**يوم القيامة نادى مناد**) من الملائكة أمره الله بالنداء بقوله: (**ألا ليقم من اسمه محمد**) ألا حرف استفتاح وتنبيه، والمراد بالقيام الانفصال عمن معه؛ ليمتاز عن غيره ممن لم يسم بهذا الاسم كما أن من قام عند قوم جالسين يتميز عنهم، فهو استعارة أو مجاز مرسل أريد به لازمه أو كناية، وليس هذا أمر تسخير للأموات قبل إحيائهم أى ليقوموا من قبورهم، أو لمن قعدوا فى أرض المحشر لما عرض له من الأهوال وطول القيام، فإنه بعيد عن السياق ويأباه قوله: (**فليدخل الجنة**)؛ لأنه مؤمن شرفه الله بهذا الاسم إذ لم يعهد لتسمية أحد من الكفار به بعد بعثة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم.

(**لكرامة اسمه عليه الصلاة والسلام**)، وهذا من تتمة الحديث، فهو من كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كما علم من الرواية المتقدمة، ولم يقل: باسمى التفاتًا أو تجريدا، أو هو ما يدرج فيه من كلام جعفر رضى الله تعالى عنه، وعلى الأول هو من كلام المنادى، وليس هذا مما يقال بالرأى، فهو حديث له حكم الرفع، وما قيل من أنه يؤدى إلى الاتكال وعدم العمل مما لا يلتفت إليه، وقد تقدم تتمته قريبًا.

(**وروى ابن القاسم**) فقيه مصر عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن حمادة صاحب مالك، وراوى الموطأ عنه، وهو من الثقات، توفى سنة إحدى وتسعين ومائة (**فى سماعه**) أعنى كتابا له فى مسموعاته عن شيوخه، (**وابن وهب**) أبو محمد عبد الله بن وهب، تفقه بمالك وروى عنه وعن غيره كابن دينار والليث بن سعد، وصنف الموطأ الكبير والموطأ الصغير، وكان أسن من ابن القاسم بثلاث سنين، وعاش بعده خمس سنين (**فى جامعه**) وهو اسم كتاب له ألفه على الأبواب بخلاف ما ألفه على الصحابة، فإنه من المسانيد.

(**عن مالك**) محيى السنة وإمام دار الهجرة الإمام المشهور رحمه الله تعالى (**قال: سمعت**

أهل مكة يقولون: ما من بيت فيه اسم محمد) أى مسمى باسمه، أو المراد ظاهره لأنه لا يكون الاسم بدون مسماه **(إلا نمى)** أى زاد ذلك البيت بكثرة الأولاد والأهل فيه، وزادت البركة فيه، **(ورزقوا)** أى زاد الله رزقهم ببركة ذلك الاسم، وفى نسخة إلا وقد وقوا من الوقاية أى حفظهم الله من كل سوء، واسم محمد يحتمل أن يكون إضافته بيانية أى اسم هو محمد، فيختص بهذا الاسم، أو لامية أى اسم من أسماء هذه الذات، فيشمل جميع أسمائه.

وفى نسخة: **(ورزق جيرانهم)** جمع جار، وهو لغة الملاصق، وشرعا إلى أربعين دارا، ويحتمل إرادة هذا أيضا؛ لأن بركته تعم جميع الدنيا.

(وعنه صلى الله تعالى عليه وسلم) فى حديث مرفوع مسند كما قاله السيوطى، وذكر سنده: **(ما ضر أحدكم)** ما نافية، وأحدكم مفعول ضر، و**(أن يكون فى بيته محمد ومحمدان وثلاثة)** فاعله فى محل رفع، ولا يصح كونها موصولة، ونفى الضرر المراد به وجود النفع، ولكن هذا يستعمل للحث يعنى لو لم يكن فيه ضرر كفى سببا، فكيف وفيه نفع عظيم؟ وأى نفع؟ ويجوز أن يكون استفهامية، وأن يكون مجرورًا بحرف مقدر، أىْ أىُّ شىء حصل له من الضرر لكونه فى بيته؟.

وتوهم بعضهم أنه لا يصح؛ لأن أن يكون فاعله، فتبقى الجملة التى هى خبر عنها بلا عائد فيها، وعندى أنه أحسن لقول الناس: ما ضرك لو صليت؟ لمن ترك الصلاة، وهذا فيه حث عظيم حتى لا يتركه إلا لمانع وضرر، والاستعمال عليه، وكون الضرر باعتبار الالتباس فى تعدد المسمى باسم واشتقاق مما لا يلتفت إليه، وفى بعض النسخ: **(وعن على رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: ما اجتمع قوم فى مشورة)** بفتح الميم وضم الشين المعجمة ويجوز سكونها أى فى أمر يتشاورون فيه **(معهم رجل اسمه محمد لم يدخلوه فى مشورتهم إلا لم يبارك لهم. رواه جماعة منهم ابن عتاب)**؛ لأن من تسمى به يبارك الله فيه، ويلقن الرأى السديد ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن أعرض عنه كان بضد ذلك.

(وعن عبد الله بن مسعود) رضى الله تعالى عنه فى حديث رواه أحمد والبزار والطبرانى بسند رجاله ثقات، وهو وإن كان موقوفا له حكم الرفع؛ لأن مثله لا يقال من قبل الرأى كما اتفق عليه فى مصطلح الحديث أكثر المحدثين.

(إن الله نظر إلى قلوب العباد)، وما فيها من العقل، وقيل: المراد أرواحهم لأن القلوب تطلق عليها، **(فاختار منها قلب محمد)** أى اصطفاه وارتضاه، **(فاصطفاه لنفسه)** أى جعله

صفيا له مقربا عنده مختصا به، لا تعلق له بغير الله فى ظاهره وباطنه؛ ولذا جعله محلا لسره ومبلغا لأوامره ونواهيه، وهذا كله على طريق التمثيل، فهو استعارة أى عامله معاملة عظماء الملوك الذين ينتخبون من الناس من يكون وزيرا مخزنا لأسرارهم، والمراد أن روحه وقلبه أشرف مما عداه، فلذا كان مقربا عنده وخليفة له، وفى إطلاق النفس على الله من غير مشاكلة كقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وادعاء أنه مشاكلة تقديرية تكلف، فقول أهل المعاني: إنه لا يطلق عليه إلا مشاكلة كقوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] غير صحيح، وجمع بين القولين بعض المحققين فقال: النفس لها معنيان الذات، وهذا يصح إطلاقه من غير مشاكلة، والجسم وما يلزمه من النفس اللوامة والأمارة، وهذا لا يطلق عليه إلا مشاكلة.

(وحكى النقاش) أبو بكر محمد بن الحسين المفسر المشهور، وقد تقدمت ترجمته **(أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما نزلت)** آية ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ أى لا ينبغى لكم، ولا يحل ولا يجوز ﴿أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ بأى أذية كانت، ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ أى بعد موته ﴿أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٥٣] الآية؛ لأن حرمتهم مؤبدة، وهى أمهات المؤمنين حتى قال الشافعى رضى الله تعالى عنه: من استحل ذلك كان كافرا؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم حى لم تزل عصمته عنهن، وهن معه فى الجنة، وكسوتهن ونفقتهن من بيت المال وسبب نزول هذه الآية أن بعض المنافقين قال: إن مات محمد تزوجت عائشة، وما قيل: إن قائل ذلك طلحة أحد العشرة المبشرة، وأنه ندم فحج ماشيا، وأعتق رقبة، وحمل على عشرة أفراس فى سبيل الله كفارة لمقالته، لا يصح؛ لأن مثله لا يصدر عنه مثل ذلك، بل لا يصدر ممن دونه بطبقات.

(قام خطيبا) على عادته صلى الله تعالى عليه وسلم فيما إذا بلغه ما لا يجوز، وأراد إعلام الناس به.

(فقال) فى خطبته **(يا معشر أهل الإيمان)** المعشر الجماعة **(إن الله فضلنى عليكم تفضيلا)** عظيما تفضل به على الأمة، **(وفضل نسائى على نسائكم تفضيلا. الحديث)**؛ لأنهن أفضل من جميع نساء عصره، وفى فضل بعضهن على بعض كلام ليس هذا محله، وأشار به إلى عدم كفاءة أحد لهن، وإن كان الله خصه بأنه لا يجوز لأحد نكاح زوجاته لما مر.

* * *

(فصل فى تفضيله ﷺ بما تضمنه كرامة الإسراء)

[من المناجاة والرؤية وإمامة الأنبياء والعروج به إلى سدرة المنتهى وما رأى من آيات ربه الكبرى]

أى ما اشتملت عليه قصة الإسراء، ووقع فى ضمنها مما فضله الله به على سائر الرسل عليهم الصلاة والسلام، والمراد ما أكرمه الله به من خارق العادة، وليس المراد به ما يقابل المعجزة، فإنه من أعظم معجزاته، وقد أعلم به وبما فيه من فضله، ولك أن تقول: المراد به ظاهره لأنه أمر لا يطلع عليه غيره، وما هو كذلك لا يتحدى به، ولذلك عبر المصنف عنه بالكرامة، والباء للتعدية أو السببية، والإسراء مصدر أسرى، ويقال: سرى وأسرى إذا سار ليلاً، واختلف فيهما فقيل: هما بمعنى، وقيل: بينهما فرق فقيل: أسرى سار من أول الليل، وسرى سار من آخره، وقيل: العرب تقول: سرى ليلا إذا سار بعضه، وأسرى ليلة إذا سار جميعها، ولا يقال: أسرى ليلا إلا إذا وقع سيره فى أثنائه، فإذا وقع فى أوله قيل: أدلج، فمعنى ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] أنه فى وسطه، وأسرى متعد ومفعوله محذوف هنا أى أسرى البراق، وقيل: إنه لازم لسرى، وإنهما متغايران معنى كما مر ولفظا؛ لأن سرى من السرى، وأسرى من السراة وهى الظهر، فمعنى أسرى به ذهب به فى سراة الأرض وهى ظهرها، كذا فى المفردات، ويدل على تغايرهما اتفاقهما على التعبير بالإسراء هنا دون السرى، واتفاقهم على القراءة به، فصار معناه سيره إلى بيت المقدس، فالإسراء غير المعراج كما سيأتى، ثم بين ما تضمنه بقوله: **(من المناجاة)**، وهى الكلام سرا؛ لأن السر يقال له: نجوى، وتختص المناجاة فى العرف بكلام العبد مع ربه كمناجاة موسى صلى الله تعالى عليه وسلم

(والرؤية) أى رؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم لربه بعين بصره، أو رؤية ما فى الملأ الأعلى من العجائب، ورأى إذا كانت بصرية مصدرها رؤية، وإذا كانت علمية مصدرها رؤيا، وإذا كنت اعتقادية مصدرها رأى.

وقال السهيلى: الرؤيا تكون بمعنى الرؤية أيضا، وله شواهد فى كلام العرب، وعليه قول المتنبى:

ورؤياك أحلى فى العيون من الغمض

فلا يرد عليه شىء كما توهم، وما يقوله صلى الله تعالى عليه وسلم بمنزلة ما يرويه.

(وإمامة الأنبياء) أى صلاته صلى الله تعالى عليه وسلم بالأنبياء إماما لهم، فإنه يدل على تفضيله عليه الصلاة والسلام، ولذا استدل على تقديم أبى بكر رضى الله تعالى عنه

فى الفضل بتقديم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم له فى الصلاة فى مرض موته، وقالوا: ألا نرضى لدنيانا ما رضيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لديننا.

(والعروج به إلى سدرة المنتهى) العروج بمعنى الصعود فى جهة العلو، وفعله عرج يعرج كقتل يقتل، ويأتى فى الحديث عرج بى بفتحتين، وقال المصنف رحمه الله تعالى: إنه بضم العين وكسر الراء، ومنه المعراج، والمعراج بكسر الميم وهو السلم ذو الدرج وجمعه معارج ومعاريج، وللسماء معراج تصعد فيه أرواح الموتى، وهو الذى يشخص إليه بصر المحتضر لما يرى من نوره وحسنه، فإذا رآه لم يتمالك روحه أن تخرج وبه تصعد الملائكة بالأعمال، وبه فسر قوله: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ٣]، فالإسراء سيره صلى الله تعالى عليه وسلم لبيت المقدس، والمعراج صعوده للسماء، وهو مصدر ميمى أو اسم السلم أطلق عليه، أو فيه مقدر.

وقد يطلق الإسراء على جميع الإسراء والمعراج، ويطلق المعراج على كل ذلك مجازا. فقيل: إنه تغليب وفيه نظر.

والسدرة شجرة معروفة، وهى شجرة النبق، وقيل: للتى فى الجنة ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم ١٤]، وهذه الشجرة فى السماء السابعة، وقيل: فى السادسة، واقتصر عليه المصنف رحمه الله تعالى فيما يأتى، وجمع بينهما بأن أصلها فى السادسة وأعلاها فى السابعة، ويأتى أن نبقها كقلال هجر، وأن أوراقها كآذان الفيلة، وأنه يغشاها نور من الله، وفراش من ذهب، وأنه يسير الراكب فى ظلها مائة عام، ويخرج من أصلها أنهار أربعة: منها النيل والفرات، وأنه إنما سميت سدرة المنتهى؛ لأنه ينتهى إليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها، وقيل: إنه ينتهى إليها علم الخلائق، فلا يعلم وراؤه، أو منتهى الملائكة فلا يتجاوزونها، وقيل: لأن من وصل اليها انتهى لأقصى الكرامة... إلى غير ذلك من الأقوال.

(وما رأى من آيات ربه الكبرى) ما موصولة عائدها مقدر أى رآه، أو مصدرية، والكبرى مفعول رأى، ومن آياته بيان مقدم عليه أو هو صفة لآياته، ومن تبعيضية أو زائدة، وآيات الله كل ما رآه مما يدل على عظمته، أو جبريل على صورته الأصلية، أو ما يغشى السدرة من الأنوار التى لا يمكن النظر إليها ولا وصفها، وقيل: هو رفرف أخضر سد السماء، والرفرف ما يسمى بالفارسية سايبان، وقيل: إنه بساط.

(ومن خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم) أى ما خصه الله به من دون الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع ما له من المعجزات التى تساوى معجزات سائر الأنبياء كما فصل فى محله.

(قصة الإسراء وما انطوت عليه) أى احتوت عليه وتضمنته **(من درجات الرفعة)** أى العلو فى الرتبة والدرجة المرقاة الحسية، فشبه ما أعطيه من المراتب المعنوية بالمراقى الحسية، واستعار لها اسمها استعارة مصرحة **(مما نبه عليه فى كتابه العزيز)** فى سورة الإسراء وسورة النجم.

(وشرحته) أى كشفته وبينته **(صحاح الأخبار)**، وفى بعض النسخ: صحائح الأخبار، وكلاهما جمع صحيح. قال فى القاموس: يقال صح يصح فهو صحيح، وقوم صحاح بكسر الصاد وصحائح انتهى، وصحاح بفتح الصاد بمعنى صحيح، أو مصدر بمعنى الصحة، وهو من إضافة الصفة للموصوف أى الأخبار الصحاح، وهى ما رواه الثقات بسند متصل وسلم من الشذوذ والعلة القادحة، كما فصل فى مصطلح الحديث.

(قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء: ١] **الآية)**، وقد مر الكلام على لفظ الإسراء، وسبحان منصوب على المصدرية، وهو علم جنس لمعنى كفجار وغدوة، فإذا أضيف قصد تنكيره، فإن علم الجنس منكر كعلم الشخص، وأنكره بعضهم بناء على أنه غير معين، فلا يتصور تنكيره، وعلى العلمية هو ممنوع من الصرف، فإذا نكر صرف، وأنكر بعض النحاة علميته، وخطأ من قال به كما ذكره أبو على فى تذكرته، والكلام فيه طويل الذيل، فسبحان مصدر بمعنى التسبيح والتنزيه، أو اسم مصدر، وابتداء السورة والقصة به؛ لأنه لما ذكر الإسراء والرؤية ربما توهم أن الله تعالى فى جهة، فنزهه عن ذلك، وهى من التنزيه تدل على التعجب، ولما كذبوه فى الإسراء نزهه الله عن الكذب، وعجب عباده فى نسبته لمثله، ومما أنعم عليه من النعم التى خصه بها. قيل: ويحتمل أن يكون بمعنى الأمر أى سبحوه تسبيحًا.

وقال: ﴿لَيۡلٗا﴾ أى فى مدة قليلة، ولذا ذكره ونكره مع أن السرى يختص به كما مر.

وقال: ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾ لأن صفة العبودية أشرف الصفات، وأضافه له تشريفا وإيماء إلى أنه مجرد لدخول سرادق العز، والمسجد الجرام يخص المسجد نفسه ويكون لمطلق الحرم، وكل منهما صحيح هنا.

وإسراؤه به صلى الله تعالى عليه وسلم كان من الحجر وهو نائم به، وروى أنه كان فى بيت أم هانىء، وجمع بينهما بأن جبريل أتاه فى بيت أم هانىء، فأيقظه جبريل عليه الصلاة والسلام وذهب به إلى الحرم، ثم تباطأ لمجيئه فنام فى الحجر

والمسجد الأقصى بيت المقدس سمى به لبعده عن المسجد الحرام، وضمير إنه هو لله أى هو السميع لما قيل فى حقه، والبصير المطلع على أحواله، وقيل: إنه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، أى هو السميع لكلام ربه المشاهد لآياته.

(وقال عز وجل: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١ - ١٨]) الواو للقسم، والنجم عام لكل نجم، أو المراد به الثريا لغلبته عليه، أو المراد به نجوم القرآن المنزلة عليه، وهو بمعنى غرب أو انقض أو طلع أو نزل عليه وحيه، وأقسم به لوقوع ذلك ليلا، وله تعالى أن يقسم بما شاء، أو التقدير ورب النجم، والكلام عليه مبسوط فى التفاسير.

إذا علمت ما ذكر من النص، **(فلا خلاف بين المسلمين فى صحة الإسراء به عليه الصلاة والسلام)** بحسب النقل الشاهد له العقل، والمسلمون يجمعون عليه، وإنما اختلفوا فى كونه يقظة أو مناما كما سيأتى **(إذ هو نص القرآن)** تعليل لعدم وقوع الخلاف فيه بعد نص القرآن الذى لا يجحده مسلم، **(وجاءت بتفصيله)** بعدما أجمله النص، **(وشرح عجائبه)** الواقعة فيه، **(وخواص نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فيه)** أى ما خصه الله به فى الإسراء **(أحاديث كثيرة منتشرة)**، وفى نسخة: أخبار كثيرة، ومعنى منتشرة أنها متفرقة فى كتب الأحاديث بأسانيد مختلفة.

(رأينا) من الرأى، وهو النظر والتدبير فى الأمور المهمة بعد ما رأينا جمعها يطول ويعسر **(أن نقدم أكملها)** أى الحديث الذى هو أكملها، أى أجمعها لهذه القصة وأصحها، والمراد بتقديمه اختياره كما فى قوله:

فقلت له: هاتيك نعمى أتمها ... ولا تبتئس إن المهم المقدم

وهذا رواه مسلم، فلذا جعله أصح من غيره بناء على رأى المغاربة من أنه أصح من البخارى

(ونشير إلى زيادة من غيره) أى من غير هذا الحديث وقعت روايتها لغير مسلم، وهى مهمة **(يجب ذكرها. حدثنا القاضى الشهيد أبو على)** هو الحافظ ابن سكرة، وقد تقدمت ترجمته، **(والفقيه أبو بحر)** بالباء الموحدة المفتوحة والحاء المهملة الساكنة ابن القاضى الإمام المشهور **(بسماعى عليهما)** أى بسماعى ممن يقرؤ عليهما، فإن حدثنا يختص بالسماع عند الجمهور، وبعضهم يجعلها تشمل السماع وغيره، فذكر المصنف هذا لدفع توهم غيره، **(والقاضى أبو عبد الله التميمى)**، وهو محمد أبو عبد الله بن عيسى التميمى أستاذ المصنف الذى تفقه عليه، وإليه أشار بقوله: **(وغير واحد من شيوخنا)**، والشيخ فى

الأصل معناه الكبير سنا، ثم صار فى العرف اسما لمن يقرأ عليه الناس ويستفيدون منه؛ لأنه فى الأكثر لا يصل لهذه المرتبة إلا من كبر سنه، وكان فى العصر الأول يقال لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما: شيخا الإسلام كما ذكره السخاوى.

(قالوا: حدثنا أبو العباس العذرى) بضم العين المهملة وسكون الدال المعجمة والراء المهملة نسبة لبنى عذرة قوم من العرب مشهورون، وفى بعض النسخ بواو بدل الراء وهو تحريف من الناس قال: **(حدثنا أبو العباس الرازى)** تقدمت ترجمته قال: **(حدثنا أبو أحمد الجلودى)** تقدمت ترجمته، وأنه يجوز فيه ضم الجيم وفتحها قال: **(حدثنا ابن سفيان)** تقدمت ترجمته قال: **(حدثنا مسلم بن الحجاج)** صاحب الصحيح الإمام المشهور.

قال: **(حدثنا شيبان)** بالشين المعجمة المفتوحة والمثناة التحتية الساكنة والباء الموحدة **(ابن فروخ)** بفتح الفاء وتشديد الراء المهملة المضمومة وواو ساكنة وخاء معجمة، وقال ابن حجر فى التبصرة: إنه بدون واو، والذى نعرفه فى لغة العجم أنه بالواو فإن صح ما قاله فلعله تغيير بعد التعريب، ومعناه السعيد طالعه، وهو علم غير منصرف للعلمية والعجمة، وقول البرهان: إنه ضبط فى بعض النسخ بالتنوين خطأ لا ينبغى ذكره، وكذا قول التلمسانى: إنه يصرف ولا يصرف وصرفه أكثر، وقال صاحب العين: إنه اسم لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وهو أبو العجم كما فى المطالع، ونقله النووى فى شرح مسلم، وتبعه صاحب القاموس، وهو أبو محمد الحبطى الأيلى روى له أصحاب السنن، فهو إمام ثقة توفى سنة خمس وثلاثين ومائتين، وترجمته فى الميزان.

قال: **(حدثنا حماد بن سلمة)** بن دينار أحد أعلام المحدثين وهو ثقة صدوق، ولكنه قد يغلط، توفى سنة سبع وستين ومائة وترجمته فى الميزان.

قال: **(حدثنا ثابت البنانى)** بضم الباء الموحدة نسبة لحى من العرب يقال لهم: بنانة ونونه مخففة، وهو ابن أسلم رأس العلماء العابدين فى عصره، توفى سنة سبع وعشرين ومائة وعمره ستة وثمانون، وهو ثقة ثابت كاسمه. أخرج له أصحاب الكتب الستة، وله ترجمة فى الميزان.

(عن أنس بن مالك) صاحب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم **(أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: أتيت بالبراق)** بزنه غلام، وهو من دواب الجنة، سمى به لشدة بريقه ولمعانه، أو لسرعته كالبرق الخاطف كما مر.

(وهو دابة) أى على صورتها، وهى فى عرف اللغة ذوات الأربع، وأصل معناها وضعا كل ما يدب أى يتحرك ويمشى من ذوات الأرواح، وهو يذكر ويؤنث **(أبيض**

طويل فوق الحمار ودون البغل) أى فى الجثة، وأبيض خبر بعد خبر لا صفة دابة، وطوله باعتبار ما بين عنقه وذنبه لأنه أعون فى مد خطوه، وليس المراد طول قوائمه، وقيل: إنه بادى البشرة خده كخد الإنسان، وعرفه كالفرس، وقوائمه كالإبل، وأظلافه وصدره كالبقر، وصدره ياقوت لا يشبه الدواب.

قال ابن المنير فى المقتفى: إنما أتى له صلى الله تعالى عليه وسلم بالبراق تأنيسا له بجريه على العادة، والله تعالى قادر على أن يرفعه بغير شىء، وإظهارًا لكرامته، فإن عادة الملوك إذا دعوا من يحبونه بعثوا له بمركوب فى وفادته، و لم يكن على شكل الفرس تنبيها على أنه حال سلم لا حرب، وإظهارًا للآية فى إسراعه العجيب، وليس شكله مما يوصف بالسرعة عادة، ولذا ركب صلى الله تعالى عليه وسلم البغلة فى حنين إظهارا لثباته، وشجاعته، وتساوى الحرب والسلم عنده، وبغلته بيضاء أيضا كالبراق.

قال ابن المنير: أى شهباء، والأشهب المائل إلى البياض، والشاة البرقاء هى البيضاء، ومنه البراق ويجوز الجمع فى التسمية بين البياض واللمعان والسرعة.

(يضع حافره عند منتهى طرفه) الحافر مجاز كالمشفر، فإن الحافر لا يطلق لغير الخيل ونحوها، وهذا له ظلف كما للبقر لكنه لقربه من البغل سماه حافرا، ومنتهى مصدر بمعنى الانتهاء كما مر، والطرف العين والمراد به النظر، ولا يلزمه أن يصل إلى السماء بخطوه كما توهم.

(قال) صلى الله تعالى عليه وسلم: **(فركبته حتى أتيت بيت المقدس)** بفتح الميم وكسر الدال المخففة، وتقدم أنه يجوز ضمها وفتح الدال المشددة وأنه من التقديس وهو التطهير.

واختلف هل ركب جبريل عليه الصلاة والسلام معه أم لا؟ فقيل: ركب معه؛ لأنه ورد فى بعض طرق هذا الحديث: فمازلت على ظهره أنا وجبريل، وسيأتى التصريح به عن حذيفة، وحينئذ فيحتمل أنه كان خلفه ويؤكده ما تقدم فى عدة ممن أردفهم، ويحتمل أنه كان قدامه قال ابن المنير: والأظهر اختصاصه بالركوب، وقد صرح فى الحديث بأن صعوده صلى الله تعالى عليه وسلم كان على البراق و لم يذكر أن هبوطه كان عليه، فقال الدميرى: إن الله أنزله بدونه إظهارًا لقدرته، وقيل: إنه هبط به أيضًا، ولكنه لم يتعرض له اكتفاء بذكر العروج.

(فربطته) أى البراق **(بالحلقة)** بفتح الحاء المهملة وسكون اللام، وهى معروفة، واختلف فى فتح لامها، فجوزه بعض أهل اللغة، وجعله بعضهم خطأ، وقال الليثى:

بالتحريك جمع حالق ككاتب وكتبة.

(التى تربط بها الأنبياء)، وروى به فى مسلم، وفى الشفاء لتأويل الحلقة بشىء ونحوه، وقالوا: أمر التذكير والتأنيث سهل، وعبر بالمضارع حكاية للحال الماضية، ولم يبين أين كانت الحلقة؟ فقيل: كانت بباب المسجد الأقصى، والذى فى حديث الترمذى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم حين انتهى إلى بيت المقدس أشار جبريل عليه الصلاة والسلام إلى الصخرة، فخرقها وربط البراق فيها، وهذا هو المعروف، ولا أعرف ما قبله عمن نقل، ولم يذكر المربوط، وظاهر السياق أنه البراق بناء على أن الأنبياء كانت تركبه، وهو الصحيح، فإن ركبه جميعهم فهو ظاهر، وإلا فيراد بالأنبياء الجنس، وأثبت للجميع فعل البعض وهو جائز، واحتمال أن المعنى تربط دوابهم بعيد، وكون البراق قوى يمكنه قلع الحلقة بجذبه، فلا فائدة فى الربط لا يضر؛ لأنه مسخر لا يخالف فعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيه إشارة إلى مباشرة الأسباب، وأنها لا تمنع التوكل، وكفاك شاهدًا: «اعقلوا وتوكلوا»(١).

(ثم دخلت المسجد) الأقصى، وعطف بثم للتراخى الرتبى، وجعل بعد مرتبة المسجد عن الأرض التى ليست بمسجد بمنزلة البعد الحقيقى.

(فصليت فيه ركعتين) تحية المسجد، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يصلى قبل فرض الصلاة بالإسراء، وفرض عليه صلاة اختلف فيها، فقيل: صلاة الليل: وقيل: صلاة بالغداة وصلاة بالعشى، ونقله ابن الملقن، وقال: ثم فرضت الصلوات الخمس فى الإسراء من غير تعيين أوقاتها، فكانوا يصلونها متى أرادوا مجموعة ومفرقة، ثم عينت أوقاتها بوحى من الله.

(ثم خرجت) من المسجد، **(فجاءنى جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن)**، وخيرنى فى شرب أيهما أردت، **(فاخترت اللبن)** بأخذه وشربه.

(فقال جبريل: اخترت الفطرة)، وروى أخذت الفطرة، وقد تقدم أن الفطرة الجبلة، والطبيعة التى فطر الناس عليها، وتكون بمعنى الإسلام والاستقامة، أى ما اخترته هو الموافق للخلقة الإنسانية التى خلق الله الناس عليها وللطبائع المستقيمة، فإن اللبن شراب لذيذ وطعام نافع موافق للإنسان سريع النماء؛ ولذا كان غذاء للأطفال دون غيره، وفى حديث آخر: «هديت وهديت أمتك، ولو اخترت الخمر لغويت وغوت أمتك»، وفى

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢٠٤٩)، وأبو نعيم فى الحلية (٣٩٠/٨)، وابن أبى الدنيا فى التوكل (٧) بلفظ: «اعقلها وتوكل».

طريق آخر: «هدى الله بك، أو أصاب بك»، وروى أن الآنية كانت ثلاثا، وإناء فيه ماء، وفى رواية أربع وإناء فيه عسل، والأصح ما رواه المصنف.

وقال ابن المنير: التخيير إنما يكون بين واجبين كخصال الكفارة، أو مباحين كجالس الحسن أو ابن سيرين، وأما بين واجب وممنوع، أو مباح وممنوع، فلا فالتخيير بين الخمر واللبن سواء أريد إباحتهما والإذن فيهما جميعا، أو أريد الإذن فى أحدهما لا بعينه مشكل فما معنى تخييره حتى اختار أحدهما؟ وقول جبريل له أصبت الفطرة باختيار اللبن أى تنبت الخلقة عليه، وبه نبت اللحم ونشز العظم، أو اخترته لأنه الحلال الدائم فى دين الإسلام، وأما الخمر فحرام فيما سيستقر عليه الأمر.

والذى يرفع الإشكال أن يكون المراد تفويض الأمر فى التحريم والتحليل إلى اجتهاده الذى وافق فيه الصواب؛ بناء على جواز الاجتهاد له فيما لم يوح إليه شىء، وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم معصوم فى اجتهاده بخلاف غيره انتهى.

وأجاب غيره بأن الخمر لم تحرم إذ ذاك، أو أنه كان فى السماء وليست دار تكليف، أو هى من جملة خمور الجنة وليست محرمة، ويجوز أن يترتب عليها غى أمته كما تترتب القبائح على بعض المباحات.

قال ابن المنير: واللبن فى الرؤيا يعبر بالعلم، ففيه إشارة إلى أنه لما ملىء قلبه إيمانا وحكمة أردف ذلك بالعلم، وجعل شرب ذلك اللبن سببا لترادف العلوم عليه، وشحن قلبه وقالبه بالأنوار والإسراء وإن كان يقظة إلا أنه ربما وقع فى اليقظة إشارات على حكم الفأل تعبر كما يعبر المنام، ولذا كان صلى الله تعالى عليه وسلم يحب الفأل الحسن، وجاء فى الحديث أنه قدم له الإناءان قبل العروج، وجاء فى حديث آخر أنه بعده، ويجمع بينهما بأن تقديمهما له صلى الله تعالى عليه وسلم وقع مرتين، وكرر جبريل تصويب فعله تأكيدا للتحذير مما سواه.

(ثم عرج بنا إلى السماء) بفتح العين والراء أى عرج جبريل وصعد، وضمير بنا له صلى الله تعالى عليه وسلم والبراق أو هو له وجبريل، وفى نسخة بى، وفاعل عرج البراق، والباء للتعدية أو المصاحبة، وتقدم أنه يجوز ضم العين وكسر الراء، والسماء هى السماء الدنيا هنا، ولم يبينه لظهوره.

(فاستفتح جبريل)، وهو إما بقرع لها أو بصوت. قيل: والظاهر الأول لأنهم يعرفون صوته، أى طلب فتحها من الملائكة الموكلين بها.

(فقال) الموكل بها: **(من أنت)** أيها المستفتح؟ **(فقال:)** المستفتح أنا **(جبريل)**، فهو خبر

لمبتدأ مقدر هو أنا أو المستفتح، وفيه إشارة إلى أن من دق الباب ينبغى له أن يسمى نفسه، ولا يقتصر على قوله أنا، وأن السماء لها أبواب تفتح خلافا للحكماء المانعين للخرق والالتئام عليها.

(قيل: ومن معك؟ قال: محمد) عطف على مقدر أى جبريل ومن معك؟ قيل: إنما استفتح لأن معه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ولو كان وحده لم يحتج لاستفتاح، وقيل: إنما استفتح تكريما وتأنيسا له، وقال ابن المنير: استفتاحه لأن أبوبها مغلقة، و لم تفتح إلا لأجله صلى الله تعالى عليه وسلم تنويها بقدره، ولو صادفها مفتوحة لم يعلم ذلك.

(قيل: وقد بعث إليه؟) أراد الاستفهام، فحذف الهمزة للعلم بها، وأصله أوقد بعث إليه؟ والنحويون يمنعون حذفها، ويحمل كلامهم على أنه إذا لم يكن قرينة على الحذف، وإلا فالحديث حجة عليهم كما قاله ابن المنير فى المقتفى، و لم يرد بالبعث بعث النبوة والرسالة، فإنه كان معلوما لهم، وإنما المراد أنه بعث إليه للمعراج، وقول ابن حجر: إنه يجوز أن يكون استفهامًا عن أصل بعثته بالنبوة، والبواب لم يطلع عليها لاشتغاله بشأنه لا وجه له؛ لأن المراد بسؤاله بيان سبب موجب لفتح السماء له، ومجرد نبوته ليست تصلح للسببية إلا أنه يحتمل كونه تعجبا مما أنعم الله به، واستبشارا بعروجه، وهذا مع ما فيه أحسن مما قاله ابن حجر.

وفيما ذكر دلالة على أن من أذن له فى شيء يقتضى رفع الموانع عما أذن له فيه، فمن أذن له بالبيع أذن له فى قبض الثمن، والوكيل إذا أذن له فى شيء أذن له فى لوازمه، فلذا لم يطلب البواب الإذن له فى الفتح، ولذا قال جبريل: **(قد بعث إليه ففتح لنا)** بالبناء للفاعل والمفعول، وفى بعض الطرق أن الخازن قال له: مرحبا به ولنعم المجيء جاء.

قال ابن المنير: وفيه دليل على أن حاشية الملك إذا فهموا منه إكرام وافد أن يبشروه، وإن لم يؤذن لهم فيه، وليس هذا من إفشاء السر لأنه تفرس الرضاء به؛ لأن استدعاءه إنما هو لإكرامه فعجل له بالبشرى، ثم أفاد فائدة هنا جليلة منقسمة إلى متعبد به لا يقوم غيره مقامه، وإن أدى معناه كالإحرام بلفظ التكبير والتلبية والتشهد إلى مالا حجر فى لفظه، فيقوم مقامه كل ما أدى مؤداه كدعاء الجنازة، والقنوت، وتسبيح الركوع، والسجود ونحوه، وهذا إنما يعلم من جملة الشريعة. إذا علمت هذا فالتحية بالسلام هل هو تعبدى من القبيل الأول، أو من الثانى فيقوم مقامه ما يؤدى معناه كأهلا وسهلا ومرحبا؟ ولذا كان بعض المتورعين لا يرد سلام من لم يلفظ به، ويقول: ليس هذا

بسلام يستحق الرد. وأكثر السلف والخلف على التسمح فيه، وهذا الحديث دليل لهم، فان الملك حياه بمرحبًا ونعم المجىء، وكذا من لقيه من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم: **(فإذا أنا بآدم)**، عليه الصلاة والسلام، **(فرحب بى ودعا لى بخير)**، أى قال لى مرحبا بك أى جعل الله تعالى مكانك رحبا واسعا، وهو كناية عن إكرام نزله وبره، وإذا هى الفجائية، وبدأ بآدم، عليه الصلاة والسلام، لأنه أسبقهم وجودًا.

قال ابن المنير فى المقتفى: اختلف طرق المتكلمين على حديث الإسراء فى ذكر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وترتيبهم فى السموات، فمنهم من لم ير التكلم فى سره أصلا، ومنهم من تكلم فيه من مشايخ الصوفية، وفيه كلام طويل أفردناه برسالة لا يسع المقام تفصيله، ثم اختلف هؤلاء، فمنهم من قال: إنما اختص من اختص من الأنبياء بلقائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، على عرف الناس إذا لقوا الغائب مبتدرين للقائه، فالغالب أن يسبق بعضهم بعضا، ومنهم من يصادفه ومنهم من لا يصادفه، وهذه طريقة ابن بطال فى شرح البخارى.

وذهب بعض شيوخ الأندلس إلى أن ذلك تنبيه على الحالات الخاصة بهؤلاء الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وتمثيل لما سيتفق له، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما اتفق لهم مما قصد الله تعالى فى كتابه. قالوا: وهذا يرجع إلى فن التعبير، فمن رأى فى منامه نبيا كان ذلك دليلا على حاله، فآدم، عليه الصلاة والسلام، تنبيه على الهجرة لخروجه من الجنة بعدواة إبليس وحيلته، كخروجه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من مكة بأذية قومه له وللمسلمين، وعيسى ويحيى، عليهما الصلاة والسلام، دليل على ماسيلقاه الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، من أذى اليهود؛ لأنهم قتلوا يحيى وراموا قتل عيسى، فرفعه الله إليه، وكذلك فعلت اليهود برسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذ داروا حول قتله، وسموه فى ذراع شاة كانت سببا للشهادة فى قصته المشهورة، ويوسف دليل على ما فعل به قومه مما كان سببا لرفعته وظفره عليهم، ثم إحسانه إليهم وعفوه عنهم كما فعل مع عمه العباس وابن عمه عقيل إذ فداهما، وقال يوم فتح مكة إذ عفا عن قريش وأطلق الطلقاء: أقول كما قال أخى يوسف: لا تثريب عليكم اليوم إلى آخره، ففعل كما فعل يوسف عليه السلام، وهارون دليل على عداوة قومه، وأن تنقلب بغضتهم مودة كما كان هارون عليه السلام محببا عند بنى إسرائيل حتى آثروه على موسى ، عليه السلام، وإدريس دليل على كتبه صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الآفاق؛ لأنه أول من خط بالقلم مع رفعته وعروجه، وموسى دليل لفتحه عليه السلام مكة وقهر المستهزئين

به كما فعل موسى بالجبابرة، وإبراهيم، عليه السلام، فى إسناد ظهره للبيت المعمور كحاله فى حجه فى آخر عمره، ولذا لقيه فى آخر السموات انتهى، وفيه إشارة إلى حكمة الترتيب فى منازلهم ولقياهم، وهذا مما ينبغى تأمله فإنه مما تفرد به، وللمشايخ فى ذلك كلام كما مر. وأشار إليه الشيخ فى فتوحاته.

وقد تقدم أن اليقظة فيها أحوال كالمنام من الفأل ونحوه تعبر كما يعبر الرؤيا، ولعمر رضى الله تعالى عنه، فى ذلك أمور كثيرة، كقوله إذ سأل رجلا عن اسمه فقال: شهاب. قال ابن من؟ قال: ابن جمرة قال: ممن؟ قال: من الحرقة. اسم قبيلة. فقال: أين مسكنك؟ قال: بالحرة. فقال: أين أنت منها؟ قال: من ذات لظى. فقال: أدرك قومك فقد احترقوا. فذهب فإذا النار مشتعلة فى بيوتهم.

وفى هذا الحديث أنه رأى رجلا فى سماء الدنيا عن يمينه أسودة، وعن شماله أسودة، إذا نظر ليمينه ضحك، وإذا نظر ليساره بكى يعنى آدم وذريته، وقد استشكل بأنه يعارض قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، والحديث الصحيح: إن أرواح الكفرة فى سجين وأسفل سافلين.

وأجيب: بأن المراد بذلك أرواح العصاة، وما فى الآية والحديث المراد به أرواح الكفار الجاحدين، وهؤلاء يرحمهم.

وقد نهى إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، عن استغفاره لأبيه، وللموعدة التى وعده جعل فى صورة ضبع يذبح حين إلقائه فى النار حين يحزن عليه.

وأجيب أيضًا: بأنه يجوز أن تمثل أرواح الأشقياء والسعداء، ويراهم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذ مثلوا له، وإن لم تكونوا هناك كما كان صلى الله تعالى عليه وسلم يرى من خلف ظهره، وهذا هو الجواب عن الإشكال الآخر، وهو كيف يرى أرواح السعداء والأشقياء، وكثير منهم لم يموتوا؟.

وأما كون المراد بالأسودة العصاة فغير مستقيم؛ لأن المسلمين كلهم من أصحاب اليمين، وعلم مما مر أن آدم، عليه الصلاة والسلام، إنما كان فى أول السموات؛ لأنه أول الأنبياء وجودا، وليكون أقرب لأولاده فينظر لأسودتهم.

(ثم عرج بنا إلى السماء الثانية) فيه ما مر أولا، **(فاستفتح جبريل)**، عليه الصلاة والسلام، **(فقيل من أنت؟ قال جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد)** عليه السلام **(قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابنى الخالة عيسى ابن مريم، ويحيى ابن زكريا، عليهم الصلاة والسلام، فرحبا بى ودعوا لى بخير)** بألف التثنية، وفى بعض

الروايات أوقد أرسل إليه؟ وهما بمعنى، وقوله ابنى الخالة لأن مريم ابنت عمران أختها إيشاع أم يحيى على ما قاله السهيلى، وهو الموافق للحديث وارتضى غيره أن مريم بنت حنة بنت فاقوذا، وأم يحيى أم أبيه زكريا فاقوذا أيضًا، فاتحدا فى الجدة، فيكونان ابنا خالة لأن الخالة أخت أم والجدة يقال لها أم، واستدل لهذا بقول زكريا لما أراد كفالة مريم: عندى خالتها. وارتضى هذا السعد فى شرح الكشاف، فعلى هذا فى كونهما ابنا خالة تجوز سهل وقال الأزهرى: يقال هما ابنا عم، ولا يقال: ابنا خال، ويقال: ابنا خالة، ولا يقال: ابنا عمة؛ لأن من كان ابن عم إنسان كان الآخر ابن عمه أيضا، ومن كان ابن خالة إنسان كان الآخر ابن خالته أيضًا بخلاف ابن الخال وابن العمة، وإنما كانا فى السماء الثانية لأنه رفع إلى السماء وسينزل منها، فجعل فى مكان قريب إلى الدنيا مع يحيى؛ لأنه لدته وبينهما من القرابة والمحبة ما لا يوصف؛ ولذا جعلا فى سماء واحدة، ولم يكن فى سماء اثنان من الأنبياء غيرهما، وقال ابن المنير: لما كان عيسى، عليه الصلاة والسلام، سينزل كان معينا ليحيى وحده.

(ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فذكر مثل الأول ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف)، عليه الصلاة والسلام، **(وإذا هو قد أعطى شطر الحسن)** تقدم معناه وأن الشطر النصف، **(فرحب بى ودعا لى بخير)** لم يذكر الدعاء، والقول بأنه قوله مرحبا لا وجه له فإنه لا يسمى دعاء، ولما كان لقاؤه له، ، صلى الله تعالى عليه وسلم، دليلا على مفارقة أهله ووطنه على وجه يئول لعزة ونصرة، وهو بعد البعثة والدعوة، فهو الثالث من أطواره رآه فى الثالثة، وقد تقدم بسطه.

(ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، وذكر مثله فإذا أنا بإدريس)،عليه الصلاة والسلام، **(فرحب بى ودعا لى بخير قال الله تعالى:** ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]**)**، ولما ترادف الوحى عليه، عليه الصلاة والسلام، بعد الهجرة، وأظهر المؤمنون شعائر الإسلام، وهو طور رابع رأى إدريس فى الرابعة لشهرة علمه وكتابته، وفيه عز الإسلام وكمال رفعته، وفى تلاوة الآية إيماء لهذا، وإدريس اسمه أخنوخ بالعبرية، وهو سبط شيث وجد أبى نوح، وهو المثلث بالحكمة لأنه أول من نظر فى النجوم وخط ودرس، وقال له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الرواية المشهورة: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح، وفى أخرى شاذة بالابن الصالح وهو الظاهر، وقد استشكل كونه أخا مع أنه جد أعلى حتى قال بعضهم إن إدريس الذى لقيه غير إدريس هذا، وهو إلياس، وروى هذا عن ابن مسعود، رضى الله عنه، وعلى هذا لا إشكال.

وقيل: المراد أخوة النبوة والإسلام، واختلف فى رفع إدريس إلى السماء هل هو بعد

موته كما رفع سائر الأنبياء أو فى حياته كعيسى؟، ففى قصص الأنبياء أن الملائكة، عليهم الصلاة والسلام، أحبته لكثرة عبادته، فسأل ربه أن يذيقه الموت ملك الموت حتى يهون عليه، فأذاقه ثم حيى، ثم سأله أن يورده النار ليزداد رهبة، فأورده ثم خرج منها، فسأله أن يدخله الجنة ليزداد رغبة فيها فأدخلها، فلما قيل له: اخرج قال يا رب إنى ذقت الموت ووردت النار ودخلت الجنة، وقد وعدت من دخلها أن لا يخرج منها أبدا، فأوحى الله لخازنها دعه فبإذنى فعل ما فعل، فبقى فى الجنة فى السماء الرابعة نقله ابن المنير، ونبه على وجه كونه فى الرابعة على الأصح، وقيل: إنه فى الثانية، وقيل: فى السادسة.

(ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فذكر مثله، فإذا أنا بهارون)، عليه الصلاة والسلام، **(فرحب بى ودعا لى بخير)** جعل فى الخامسة؛ لأنه كالوزير لموسى، عليه الصلاة والسلام، لا يفارقه، فلذا كان فى جواره.

(ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فذكر مثله، فإذا أنا بموسى)، عليه الصلاة والسلام، **(فرحب بى ودعا لى بخير)**. لما كان أجل الأنبياء بعد إبراهيم، عليه الصلاة والسلام،وكتابه أعظم الكتب قبل القرآن، وجاهد فى سبيل الله وظفر بما لم يظفر به غيره رفعت مرتبته على غيره، وتوفى فى حظائر القدس تحت منزلة الخليل، فكان فى السادسة.

(ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فذكر مثله فإذا أنا بابراهيم)، عليه الصلاة والسلام.

لما كان إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، أفضل الأنبياء قبل نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو خليل الرحمن كان أرفعهم منزلة، وما ذكرناه فى وجه التخصيص والترتيب هو بالنظر للظاهر؛ نظرًا لمناسبة الحال بنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، وما استدل به عليه، ولعل هناك مناسبة أخرى بين أهل كل سماء ومن فيها من الرسل، وهذا مما لا نعرفه.

(مسندا ظهره إلى البيت المعمور)، وهو بيت تطوف به الملائكة، وتحج له للعبادة وهو محاذ للكعبة ويسمى الضراح بضم الضاد المعجمة وراء وحاء مهملتين، وسمى معمورا لكثرة الملائكة فيه.

قال التلمسانى: قيل: فيه دلالة على أن الأفضل فى غير الصلاة إسناد الظهر للقبلة، وقيل: الأفضل استقبالها، فعلى هذا لعله أسند ظهره ليتوجه للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويخاطبه بما مر، وإنما أسند ظهره للبيت لأنه أول من بنى الكعبة من الناس أولا.

(وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودن إليه)؛ لأن حجه مرة كفرض الحج علينا، أو لاشتغال غيرهم. وكونه فى السابعة حذاء العرش هو الأصح، وقيل: إنه فى الرابعة.

(فذهب بى إلى سدرة المنتهى) لم يقل عرج لأنها فى السماء السابعة، وتقدم معنى سدرة المنتهى.

(وإذا ورقها كآذان الفيلة) بكسر الفاء وفتح المثناة التحتية جمع فيل، وإنما شبهه بها إن لم يكن بأرض الحجاز، لأنها كثيرة فى بلاد الحبش، وهم كثيرًا ما يأتونها للتجارة، وإليها كانت الهجرة الأولى، فهم يعرفونها، وإلا فالتشبيه بما لا يعرف عادة غير مقبولة.

(وثمرها كالقلال) جمع قلة، وهى الجرة، وشبهها بها لمد ظلها ولطف ورقها وطيب ثمرها وحسن رائحته، وإن كان شجر الجنة إنما يحكى أمور الدنيا صورة والفرق بعيد.

(فلما غشيها) أى طرأ عليها وغطاها **(من أمر الله)** الظاهر أن المراد بأمر الله وحيه، أو تجليه لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنها بذلك أشرق عليها نور إلهى، فزهت به وحسنت حسنا لا ينعت، ونور لا يمكن أن تقابله الأبصار لقوله بعده **(ما غشى)** أى أمر عظيم غشى؛ فإن الإبهام بمثله يفيده كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ وأمثاله.

(تغيرت) أى عن حالها التى كانت عليه، **(فما أحد من خلق الله يستطيع)**، ويقدر **(أن ينعتها من)** أجل **(حسنها)** الذى طرأ عليها؛ لكونها من أشجار الجنة المعتادة لإشراق تلك الأنوار عليها، ولو كانت من أشجار الأرض احترقت كما صار الجبل دكا، ويدل على ما قلناه قوله: **(فأوحى الله إلى ما أوحى)**، وفى هذا الإبهام تعظيم وتكثير لطريق الكناية الإبهامية حتى كأنه مما لا يمكن أن يدرك فينعت، وفى هذا الموصول وتعريفه إشكال أجبنا عنه فى حواشى التسهيل؛ لأن ماموصولة تتعرف بالعهد الذى فى الصلة، فإذا كانت كذلك كيف تكون الجملة معهودة معروفة، وقيل: المراد بها الملائكة التى تغشاها، فإنه شاهد على كل ورقة منها ملكا، وقيل: فراش من ذهب وجواهر نزل عليها أو جراد من ذلك، وقال مجاهد: رفرف أخضر، وقيل: طيور خضر، وإنما نهى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن قطع السدر لذلك وفسر ما أوحى بقوله: **(ففرض علىَّ)** وعلى أمتى **(خمسين صلاة)** تكون **(فى كل يوم وليلة)** وقيل: ما أوحاه إليه مبهم لا يعلمه أحد، وقيل: سورة ألم نشرح، وقيل: إن الجنة حرام على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حتى يدخلها هو، صلى الله عليه وسلم، وعلى الأمم حتى تدخلها أمته.

وقال السيوطى فى الخصائص: فرضت الصلاة خمسين، والغسل من الجنابة، وغسل نجاسة الثوب سبعا سبعا، والوضوء لكل صلاة.

(فنزلت إلى موسى، عليه الصلاة والسلام) إنما قال: نزلت لأنه كان فى السادسة والوحى فى السابعة، وتخطى إبراهيم ونزل ليشاوره؛ لأنه يعلم ما فى شريعته من الأحكام والصلوات، ومارس من ذلك أكثر من إبراهيم؛ لأنه لم يفرض على أمته ما فرض على أمة موسى، عليه الصلاة والسلام.

(فقال: ما فرض ربك على أمتك؟) قال أولا: فرض على وقال هنا: على أمتك؛ لأن ما فرض على النبى فرض على أمته، ففيه احتباك وهو من أنواع البديع، وهو أن يذكر شيئين يحذف من كل منهما ما ذكر فى الآخر، فحذف من الأول وعلى أمتى، ومن الثانى على، ووقع فرض الصلاة فى السماء؛ لأنها أعظم العبادات، ففرضت فى أجل المواضع، وبين الله فرضها بنفسه من غير واسطة ملك اعتناء بشأنها، ولذا قيل: يكفر تاركها، وذهب الشافعى إلى أنه يقتل كما سيأتى.

(وقلت): فرض **(خمسين صلاة)** منصوب لأنه تمييز **(فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف)** منها برفع بعضها، وإنما أشار عليه بذلك لمحبته له وجعله له ما يليق بنفسه، وقيل ذلك لأنه سأل الله تعالى أن يكون من أمته لما رأى فى التوراة مما لأمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الكمال، فقال: يارب من هؤلاء؟ قال: أمة أحمد. فقال: يارب اجعلنى منهم، فخشى أن يفرض عليهم تكاليف شاقة، وهو منهم فيقصر فيها.

وقال السراج البلقينى: إنما قصد موسى تكرار رؤية محمد عقب رؤيته الله بعينه كما قيل:

لعلى أراهم أو أرى من يراهم

وموسى، عليه الصلاة والسلام، وإن كان يرى الله فى الآخرة لكن رؤيته روحانية، وهى ليست جسدية عينية، ولا تتيسر فى كل حين.

قال ابن حجر، رحمه الله: يحتاج ما قاله البلقينى إلى ثبوت تجدد رؤيته فى كل مرة، يعنى رؤية محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، لربه، وقال مصلح الدين اللارى: ما قاله البلقينى لا يتوقف على تجدد الرؤية، ويكفى حصول أصلها.

(فإن أمتك لا يطيقون ذلك) خص الأمة إشارة إلى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يطيق ذلك لما رزقه الله تعالى من قوته على عبادته، ولذا كان يواصل الصوم، وقد نهى عنه، ومعنى لا يطقيونه أنه يشق عليهم، فيقصرون فيه لا أنه محال حتى يقال: إنه مبنى

على تكليف المحال وهو جائز، وفائدته الأخذ فى مقدماته حتى يعلم امتثاله، ويطيقون بضم أوله مضارع أطاقه.

(فإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم) عطف تفسير لأن الابتلاء بمعنى الاختبار والامتحان، يقال: خبره يخبره كقتله يقتله، وفيه مقدر أى خبرتهم مع قوة أجسادهم وطول أعمارهم، فلم أجد لهم صبرًا على ذلك، فكيف حال أمتك، وفى نسخة: قبلك.

(قال: فرجعت إلى ربى فقلت: يا رب خفف عن أمتى) مفعوله محذوف للعلم به أى ما فرضته عليهم من الصلاة، و لم يقل: وعنى لما مر، أو حياء منه بسؤاله لنفسه، **(فحط عنى خمسًا)** منها، وأصل الحط معناه تنزيل الحمل، فشبهه بالحمل تشبيهًا مكنيًا، كما قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ**﴾ [البقرة: ٢٨٦].

(فرجعت إلى موسى فقلت) له (: **حط عنى خمسا**) منها **(فقال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف)**، وفى نسخة: فاسأله.

(قال: فلم أزل أرجع بين ربى تعالى وبين موسى) أى بين موضع مناجاتى له تعالى وملاقاتى لموسى عليه الصلاة والسلام، **(حتى قال:)** الله تعالى لما انتهى التخفيف إلى خمس **(يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة)** استدل به الشافعية على عدم وجوب الوتر، وجوابه مسطور فى كتب الفروع الحنفية.

(لكل صلاة عشر فتلك خمسون) فى الثواب والاعتبار؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها كما سيأتى تحقيقه.

(ومن هم بحسنة فلم يعلمها كتبت له حسنة) واحدة لنيته عملها، **(فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئًا، فإن عملها كتبت له سيئة واحدة)**. الهم: القصد من غير تصميم، فإن صمم فهو عزم، ومذهب الباقلانى أنه يأثم بالعزم المصمم، وهذا الحديث محمول على الأول وإنكار بعضهم المؤاخذة بالعزم مردود بالنصوص الصريحة، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور: ١٩]، والكاتب الملائكة، فتكتب حتى ما فى القلب كما قاله الطحاوى، وفى حديث مسلم القدسى كتبها الله تعالى عنده عشر حسنات إلى سبع مائة إلى أضعاف كثيرة، وهو صريح فى أن المضاعفة تزيد على العشر، ولا تقف على سبعمائة، وقول القرطبى: إنها لا تجاوزها مردود بهذا الحديث المجمع على صحته، وتحقيقه كما فى الإحياء أن **أول**: ما يرد على القلب الخاطر، كما لو خطر له صورة امرأة وراء ظهره بحيث لو التفت لرآها.

والثانى: هيجان الرغبة إلى النظر، وحركة الشهوة، وميل الطبع المتولد من الأول المسمى حديث النفس.

والثالث: حكم القلب بأن هذا ينبغى أن يفعل بأن ينظر إليها، وهو يتبع الخواطر والميل.

والرابع: تصميم القلب على الالتفات وجزم النية، ويسمى هذا بالفعل.

وهذه قد يكون لها مبدأ ضعيف، فإذا أصغى إلى الخاطر حتى طالت محاولته للنفس حتى تنخرم النية، فإذا انخرمت فقد يندم ويترك وقد يغفل فلا يعمل، وربما يعوقه عائق عنه فهى أربعة أحوال، وهو حديث النفس ثم الميل ثم الاعتقاد ثم الهم.

فالخاطر: لا يؤاخذ به لأنه غير اختيارى، وكذا هيجان الشهوة.

والميل: المراد بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «عفى عن أمتى ما حدثت به نفوسها»، فحديث النفس خاطر يهجس فى النفس لا يتبعه عزم.

والثالث: وهو الاعتقاد وحكم القلب، وهو إما اضطرارى لا يؤاخذ به، أو اختيارى يؤاخذ به.

والرابع: وهو الهم بالفعل، فإن لم يعمل به وتركه خوفا من الله تعالى وندما على همه كتبت له حسنة؛ لأن همه سيئة، وامتناعه منه حسنة لمجاهدة نفسه، وإن عاقه عنه عائق غير خوف الله تعالى كتبت سيئة؛ لأن همه فعل اختيارى له.

(قال) رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(فنزلت حتى انتهيت إلى موسى)** أى انتهى سيرى فوصلت له، ولم يقل: انتهيت قبل هذا، وقاله هنا إشارة إلى أنه تمام المراجعة ولا مراجعة بعده.

(فأخبرته) بما قال الله تعالى له **(فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف)** من الخمس.

(فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم) فيما قصه من حديث الإسراء **(:فقلت)** لموسى عليه الصلاة والسلام (: **قد رجعت إلى ربى)** مرارًا وراجعته فى سؤال التخفيف **(حتى استحييت منه)** أن أراجعه فى السؤال بعد ذلك.

واعلم أنهم اختلفوا فى جواز النسخ قبل التمكن من الفعل والبلاغ، وقبل دخول الوقت، فذهب أهل السنة إلى جوازه، وهو مبنى على جواز التكليف بما لا يطاق، واستدلوا بأنه وقع كما فيما نحن فيه، وبقصة الذبيح إذ أمره بذبح ولده ثم نسخه قبل تحققه بالفداء، ومنعه المعتزلة، فمنهم من قال: لم يأمره لأنه منام، ورد بأن رؤياهم وحى يجب العمل به، ولذا باشره، ومنهم من قال: إنما أمر بمقدماته من الشد والتل ونحوه،

ورد بأن قوله: ﴿أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢] يرده والفداء يأباه، وقيل: إنه فعل ولكن انقلبت السكين أو قلب عنقه حديدًا، وقيل: ذبح والتحم وهو مكابرة، وقالوا: إن النسخ قبل البلاغ مناقض، والجواب بأنه المأمور وقد بلغه ضعيف؛ لأنه عام له صلى الله تعالى عليه وسلم ولأمته؛ لأن الفرض عليه فرض عليهم، ولذا قال له موسى عليه الصلاة والسلام: إن أمتك لا تطيقه، وفيه أيضًا النسخ قبل البيان؛ لأنه لم يبين وقته وعدد ركعاته وهو جائز، واعلم أنهم يريدون بالمنسوخ خبر التكليف، لا نفس الأمر؛ لأنه قديم.

ووقع فى بعض طرق هذا الحديث أن موسى عليه الصلاة والسلام قال له: اسأله، التخفيف، فإنى أعلم بالناس منك، فكيف يقول هذا، وقد قاسى مع الخضر، عليه الصلاة والسلام، ما قاسى لما قال: أنا أعلم الناس منك؟ وكيف يقوله للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، والجواب أن مراده علم التجربة والرؤية لما رآه ومثله لا يضر، وما قيل من أنه خبر لا يدخله النسخ مردود بقوله، وقيل: إن قوله خمسون أولا بيان لما فى اللوح المحفوظ، والمراد أنها بحسب الثواب كذلك، فلا نسخ فيه، والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فهمه على ظاهره، فراجع ربه فى غاية البعد.

(قال القاضى) هو شيخه القاضى الشهيد المذكور فى أول السند السابق، ولذا لم يسمه استغناء بإعادة المعرفة معرفة وتعريفه عهدى **(: جود)** بفتح الجيم وتشديد الواو، أى حسن من الجودة ضد الرداءة، والحسن ضد القبيح **(ثابت)** البنانى الراوى.

(هذا الحديث عن أنس، رضى الله تعالى عنه ماشاء) أى أحسن فى روايته وأتقنها إتقانا محكمًا لأن ما نكرة موصوفة أى تجويدًا شاءه، أى بذل جهده وفعل كل ما دخل تحت إرادته، والمراد أن روايته جيدة خالية عن الاعتراض ولذا اختارها على غيرها من الروايات، وقيل ما شاء كناية عن كثرة تجويده أى أتى بها بجودة تجويدا كثيرا.

(وقد خلط فيه غيره) خلط بتشديد اللام وضمير فيه للحديث، والخلط إدخال شيء، والمراد أنهم أدخلوا فى حديث الإسراء ما ليس منه كشق الصدر كما سنبينه.

(لاسيما) أى لا مثل روايته، وفسرها الرضى رحمه الله تعالى، بخصوصا، وقال الدمامينى، رحمه الله تعالى: إنه لا سند له فيه، وسى منصوب وما بعده يجوز رفعه ونصبه وجره، وقد عدها النحاة من كلمات الاستثناء، وفيه كلام طويل بيناه فى غير هذا الكتاب، ونحن فى غنية عنه.

(من رواية شريك بن أبى نمر) بفتح النون وميم مكسورة تليها راء مهملة التابعى

الصدوق الثقة القاضى المدنى، وقد ضعفه ابن حزم، رحمه الله تعالى، لما وقع له فى حديث الإسراء من الأوهام الأربعة التى أشار إليها المصنف، رحمه الله، وقيل: إنها ثمانية، وتوفى سنة أربعين ومائة وله ترجمة فى الميزان.

(فقد ذكر فى أوله) أى ذكر شريك، رحمه الله تعالى، فى أول حديث أنس، رضى الله تعالى عنه **(مجيء الملك له)** اللام للتقوية؛ لأن جاء متعد بنفسه.

(وشق صدره) عليه الصلاة والسلام، **(وغسله بماء زمزم)** وقد تقدم أنه بالثلج، وفى رواية بماء الكوثر، وقد أنكروا عليه روايته هذه، وقالوا فيه: إنه وهم من وجوه تزيد على العشر منها ما فى سنده، فإن قتادة، رحمه الله تعالى، رواه عن أنس، رضى الله تعالى عنه، عن مالك بن صعصعة، والزهرى، رحمه الله تعالى، عن أنس، رضى الله تعالى عنه، عن أبى ذر، رضى الله تعالى عنه، وشريك جعله عن أنس، رضى الله تعالى عنه، من غير واسطة، وخالف سياقه سياقهم بالزيادة المنكرة، والتقديم والتأخير، وقد نبه على ذلك مسلم، رحمه الله، فى صحيحه، وما ذكره المصنف، رحمه الله، موافق لقدح ابن حزم فيه إلا أن الحافظ أبا الفضل بن طاهر، رحمه الله، انتصر له فى جزء مستقل ألفه فيه، قال: تعليل حديثه بتفرده به، ودعوى ابن حزم أن الآفة من شريك إذ لم يسبق إليه لا تقبل، فإن أئمة الجرح والتعديل وثقوه ورووا عنه، وقالوا: لا بأس به، وحدث عنه مالك، رحمه الله، وغيره من الثقات، وحديثه إذا رواه عنه ثقة لا ضعيف لا بأس به، وقد روى عنه سليمان بن هلال، رحمه الله، وهو ثقة، وتفرده بقوله الآتى وذلك قبل أن يوحى إليه لا يقتضى طرح حديثه، فوهم الثقة فى موضع لا يقتضى رد جميع ما روى، ولو قيل بهذا ألزم رد كثير من السلف، ولعله أراد أن يقول بعد أن أوحى إليه، فقال: قبله انتهى.

وقد سبق ابن حزم إلى هذا الخطابى، رحمه الله تعالى، وقال النسائى، رحمه الله: إنه قول ليس بالقوى، وكان بعضهم لا يحدث عنه، وقال محمد بن سعد، رحمه الله، وأبو داود، رحمه الله تعالى: إنه ثقة.

والحاصل: أنه اختلف فيه فيعد ما انفرد به شاذا منكرًا، وقد خالف غيره فى مواضع من هذا الحديث، منها أمكنة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وكون المعراج قبل البعثة، وكونه منامًا، وكون سدره المنتهى فوق السابعة، والمشهور أنها فيها أو فى السادسة، وفى نهرى النيل والفرات وكون أصلهما فى سماء الدنيا، والمشهور أنهما من تحت السدرة، وكون شق الصدر عن الإسراء، وكون الكوثر فى السماء الدنيا وهو فى الجنة، ونسبة الدنو والتدلى إلى الله تعالى، وهو لجبريل، عليه الصلاة والسلام، وكون مراجعته، صلى الله تعالى عليه وسلم، راجع بعد الخمس، فهذه مواضع مخالفته فى السند والمتن

الذى قال المصنف، رحمه الله تعالى: إنه خلط فيها، وقد أجيب عن بعضها.

(وهذا) أى المذكور من الشق والغسل **(إنماكان وهو)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(صبى)** عند مرضعته حليمة، رضى الله تعالى عنها، **(وقبل الوحى)**، وأتى بإنما ردًّا لقول شريك، رحمه الله تعالى: إنه كان ليلة الإسراء.

وأجيب عنه: بأن الشق وقع مرارا. مرة وهو صلى الله تعالى عليه وسلم طفل صغير يلعب مع الصبيان لإزالة حظ الشيطان معه كما مر، ومرة وهو صلى الله تعالى عليه وسلم ابن عشر سنين لإزالة الطفولية عنه، ومرة عند البعثة لتثبيت قلبه بالوحى، وليلة الإسراء ليقوى عليه، وزيد خامسة ضعفها ابن حجر، رحمه الله، فى شرح البخارى، وصحح هو والبرهان الحلبى، رحمه الله، الأربعة الأول.

(وقد قال شريك فى حديثه: وذلك قبل أن يوحى إليه) أى شق صدره صلى الله تعالى عليه وسلم قبل البعثة.

(وذكر قصة الإسراء) فقال: سمعت أنس بن مالك، رضى الله عنه، يقول: ليلة الإسراء جاءه ثلاثة قبل أن يوحى إليه وهو نائم فى المسجد، ثم لم يرهم صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أتوه ليلة أخرى إلخ، وقد أجيب عنه بأن قبل متعلق بجاءه، فيحتمل أن مجيئهم بعد ذلك بسنين لا بليالى، فلا خطأ فيه.

(ولا خلاف أنها) أى ليلة الإسراء **(كانت بعد الوحى، وقد قال غير واحد: إنها كانت قبل الهجرة بسنة، وقيل: قبل هذا)** هذا إشارة إلى الخلاف فى سنة الإسراء وزمنها، فقيل: كانت ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة، وقيل: قبل البعثة بخمس سنين، وقيل: بعد البعثة بخمسة عشر شهرا، وقول شريك، رحمه الله تعالى: إنه قبل أن يوحى إليه غلط منه إلا أن يقال: هذا الإسراء كان مناما غير هذا، كالذى روى عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، أنه كان بالمدينة، فإنه منام أيضًا.

قال ابن المنير، رحمه الله تعالى، فى المقتفى: رجح القاضى عياض، رحمه الله تعالى، أنه كان قبل الهجرة بخمس سنين، ولا يرد عليه أن خديجة، رضى الله عنها، كانت تصلى معه، وقد اختلف فى مدة وفاتها قبل الهجرة على أقوال أقلها أنها ثلاث سنين، والصلاة لم تفرض إلا فى الإسراء، لأن هذا الصلاة غير المفروضة كالتى صلاها فى بيت المقدس، وصحح ابن المنير، رحمه الله تعالى، الأول؛ لأن قول غيره تقدير وقوله تحديد، وهو قول الحربى، رحمه الله تعالى، لأنه عين ليلة معينة من شهر معين من سنة، وإذا تعارض خبران أحدهما أحاط بتفصيل القصة كان أولى، لأنه يدل على أن راويه أحفظ وأوعى قلبا

كقول الفقهاء، إن الشهادة المؤرخة تقدم، وكانت تلك الليلة ليلة الاثنين كما قاله ابن المنير، رحمه الله تعالى.

وكان مقدمه صلى الله تعالى عليه وسلم، للمدينة الشريفة يوم الاثنين من ربيع الأول ثانى عشرة قبل الضحى، وقيل: عند استواء الشمس، وإذا كان الثانى عشر الاثنين كان أوله الخميس، وأول شهر الإسراء السبت، أو الأحد، أو الاثنين؛ لأن بين كل يومين متقابلين من سنتين متواليتين إما ثلاثه أيام أو أربعة أو خمسة، ولذا تكون الوقفة من كل سنة خامس يوم الوقفة التى قبلها، أو أربعة، أو سادسة، وأعدل الاحتمالات الخامس، فالجمعة يعقبها الثلاثا، والاثنين يعقبها الجمعة، وقد يكون الرابع، وقد يكون السادس، وذلك بحسب تمام الشهور ونقصها، فبناء على أقل الاحتمالات أول ربيع الأول من سنة الإسراء الاثنين، وأول الآخر منه الأربعا بفرض ربيع الأول تامًا فالسابع والعشرون منه يوم الاثنين ليوافق مولده صلى الله تعالى عليه وسلم، ومبعثه ووفاته.

فإن يوم الاثنين فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كيوم الجمعة لآدم، عليه الصلاة السلام؛ فإنه فيه خلق ونزل إلى الأرض فيه وتاب الله عليه فيه ومات فيه، وقيل: إنه كان ليلة الجمعة لفضلها، ثم إن كونها ليلة سبع وعشرين موافق لليلة القدر؛ فإنها ليلة سبع وعشرين من رمضان على الأصح، والحاصل أنه قيل: إن الإسراء قبل الهجرة بسنة، وقيل بسنة ونصف، وقيل: بسنة وكسر، وقيل: بعد البعثة بخمس سنين، وقيل: قبل الهجرة بخمس سنين.

واختلف فى شهره، فقيل: إنه شهر ربيع الأول، وقيل: الآخر، وقيل: رجب، وقيل: رمضان، وقيل: شوال، وقيل: قبل نقض الصحيفة، وقيل: بعد ليلة سبع وعشرين أو سبع عشر، أو اثنى عشر ليلة الاثنين أو الجمعة.

وفى الهدى النبوى أن ابن تيمية، رحمه الله سئل: هل ليلة الإسراء أفضل أم ليلة القدر؟ فأجاب بأن القائل: إن ليلة الإسراء أفضل إن أراد أنها ونظائرها من كل عام أفضل، فلا وجه له، وإن أراد أنها بخصوصها أفضل لأنه حصل له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيها ما لم يحصل له فى غيرها، وما لم يحصل لغيره، فهو صحيح إن سلم أن ما أنعم الله به عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، أفضل من إنزال القرآن، وهو يحتاج إلى علم بحقائق تلك الأمور انتهى.

(وقد روى ثابت، عن أنس، رضى الله تعالى عنه، من رواية حماد بن سلمة أيضًا) أى كما روى عنه قصة الإسراء **(مجئ جبريل)** بالنصب مفعول روى **(إلى النبى صلى الله تعالى**

عليه وسلم، وهو يلعب مع الغلمان عند ظئره) بكسر الظاء المشالة وسكون الهمزة والراء المهملة والهاء، وهى المرضعة التى ليست بأم، وهى حليمة السعدية.

(وشقه) مصدر منصوب معطوف على مجئ **(قلبه)** مفعول الشق.

(تلك القصة) بدل من مجئ بدل اشتمال، وفى نسخة بتلك أى معها **(منفردة من حديث الإسراء)**، وفى نسخة مفردة، وهو منصوب على الحال **(كما رواه الناس)** غير شريك، وهم أكثر الحفاظ المحدثين.

(فجود) مر ضبطه أى هذا الرواى المميز بين القصتين كما أشار إليه بقوله: **(فى القصتين)** أى قصة الإسراء، وقصة شق القلب، وهو طفل رضيع، فلم يخلط إحديهما بالأخرى.

(وفى أن الإسراء إلى بيت المقدس، وإلى سدرة المنتهى كان قصة واحدة)، لا قصتان كما فى رواية شريك وغيره ممن جعل صعوده، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى السماء معراجًا آخر.

(وإنه وصل إلى بيت المقدس، ثم عرج من هناك) أى صعد به إلى السماء من البيت المقدس؛ لأنه أرفع مكان فى الأرض، **(فأزاح)** بزاى معجمة وألف وحاء مهملة أى أزال وأذهب **(كل إشكال)** أى مشكل **(أوهمه)** أى أوقعه فى ذهن الناس ووهمهم **(غيره)**: أى غير ثابت، كشريك الذى وقع فى روايته الوهم والتخليط السابق بيانه.

(وقد روى يونس) بن يزيد الأيلى القرشى، وفى يونس كيوسف لغات تقدمت مع ترجمته، وهو يروى عن الزهرى ونافع، وتوفى بمصر سنة تسع وخمسين ومائة.

(عن ابن شهاب) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زيد بن مرة الزهرى التابعى، رحمه الله تعالى، لقى عشرة من الصحابة، توفى ليلة الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربع وعشرين ومائة، ودفن بالشام بقرية تعرف بالشعب، وأوصى بدفنه على قارعة الطريق لتدعو له المارة، وكان أحفظ أهل زمانه وأحسنهم سياقا لمتون الأحاديث فقيها فاضلا كاملا.

(عن أنس) بن مالك خادم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد قدمنا ترجمته **(قال: كان أبو ذر)** الصحابى الغفارى **(يحدث أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: فرج سقف بيتى)** بضم الفاء و كسر الراء أى شق أو رفع جانب منه حتى صار مكشوفا ينزل منه الملك المرسل إليه، ولم يأته من الباب، وقد قال تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، قال ابن المنير: تنبيها على المبالغة فى المفاجأة

وأن استدعاءه للكرامة كان بدأ من غير ميعاد، وقيل: إنه ليتيقن كونهم ملائكة، أو هو تمهيد لشق صدره، صلى الله تعالى عليه وسلم، والتئامه من غير تألم لسبق الشق كما تقدم، قيل: وكان خلفاء بنى العباس إذا نصبوا خليفة نقبوا جداره، وأخرجوه منه تنويها بأمره وأنه لم يكن يطلب منه، والبيت لأم هانئ، وأضافه إليه لأدنى ملابسة، وروى أنه كان بالحطيم، وروى ببطحاء مكة، فإن كان مرارا فظاهر وإلا يحتاج للجمع.

(فنزل جبريل)، عليه الصلاة والسلام، **(ففرج صدرى)** بفتح الفاء والراء، وقد تقدم أن شق الصدر وقع مرات منها هذه، فلا إشكال فيه.

(ثم غسله) أى صدره **(من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب)** تقدم بيانه وما فيه **(ممتلىء حكمة وإيمانا)** تقدم تفسيره، وأنه بناء على التجوز أى ملىء نورًا ينشأ عنه ما ذكر، أو أنه تعالى قادر على تجسيم المعانى والأعراض كما قيل فى وزن الأعمال، وذكر الطست وإن كانت مؤنثة لتأويلها بالإناء، فإن كان قوله: **(فأفرغها)** ضميره للطست رعاية للفظه، فتقديره أفرغ ما فيها يقال: أفرغت الإناء وفرغته تفريغا إذا صببت ما فيه، ويجوز كون الضمير للحكمة لدخول الإيمان فيها، أو لأنه عطف تفسير.

(ثم أطبقه) أى الصدر أى أعاده محله إشارة إلى أن شقه والتئامه بغير آلة، وقيل: شق بمقدار الملك وخيط بمخيط لما ورد: كنت أرى أثر المخيط فى صدره.

(فائدة) قال ابن الجوزى فى كتاب الوفاء بعد ما ذكر حديث «ولدت مختونا و لم ير أحد سوأتى» فان قيل: فلم لم يولد مطهر القلب من حظ الشيطان حتى شق صدره وأخرج قلبه؟.

قلت: قال ابن عقيل: لأن الله سبحانه أخفى أدون التطهيرين التى جرت العادة أن تفعله القابلة والطبيب، وأظهر أشرفهما وهو القلب، وأظهر آثار التجلى والعناية بالعصمة فى طرقات الوحى.

(ثم أخذ بيدى فعرج) بنا **(إلى السماء فذكر القصة)** بتمامها، وأخذه بيده يحتمل أنه على حقيقته، وأن يكون كناية عن جعله شارعا فى العروج.

(وروى قتادة) ابن دعامة أبو الخطاب السدوسى الضرير، أعلم الناس بالفقه والقرآن والحديث، توفى سنة سبع عشرة ومائة وعمره ست وخمسون بواسط، ونسب للتدليس وليس كذلك **(الحديث)** مفعول روى **(بمثله)** أى بمثل الرواية المذكورة.

(عن أنس عن مالك بن صعصعة) الخزرجى المازنى، روى له البخارى وأصحاب السنن حديث الإسراء قال: وروى خمسة أحاديث، **(وفيها)** أى فى رواية قتادة المفهومة

من قوله. روى (**تقديم وتأخير وزيادة ونقص**) عن غيرها من الروايات، (**وخلاف في ترتيب الأنبياء في السموات، وحديث ثابت، عن أنس أتقن وأجود**) أي أكثر إتقانًا وجودة منها في الروايات، ولذا اختاره المصنف، رحمه الله تعالى، خلافا للنووي إذ رجح رواية قتادة كما عرفت.

(**وقد وقعت في حديث الإسراء زيادات**) من الرواة في بعض طرقه (**نذكر منها نكتا مفيدة في غرضنا**) من تأليف هذا الكتاب، وإيراد حديث الإسراء.

النكت بضم النون وفتح الكاف والتاء المثناة جمع نكتة، وهي ما ينكت من الأرض وما يكون في الكون مما يخالفه كالنقطة، فاستعير لكل معنى دقيق يحصل بالفكر إما لمخالفته لغيره، أو لكون الفكر يخط في الأرض، وشاع حتى صار حقيقة عرفية في ذلك، وقد يجمع على نكات أيضًا.

(**ومنها**) أي من النكت المفيدة (**في حديث ابن شهاب**) الزهري الذي تقدم آنفا، ومنها خبر مقدم، وفي حديث إلى آخره صفة مبتدأ مقدر، وجاز حذف الموصوف بوصف غير مفرد، لأنه بعض اسم مجرور بمن قبله؛ لأن المعنى من النكت نكت إلى آخره ومثله جائز قياسًا مطردًا.

(**وفيه**) أي في حديث ابن شهاب، ولو حذف قوله: وفيه كما وقع في بعض النسخ كان أحسن، والضمير في فيه راجع لحديث الإسراء.

(**قول كل نبي له: مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح إلا آدم وإبراهيم، فقالا له: والابن الصالح**)، فإنه ليس كل نبي من أجداده وفي عمود نسبه، لكنه جرى منهم على سبيل الشفقة والمحبة كما جرت العادة أن الأقدم والأسن يقول لغيره: يا ولدي، وفي غير هذه الرواية منهم من قال له: الابن الصالح، ومنهم من قال: الأخ الصالح، وقد تقدم أنه يشكل قول إدريس له: الأخ مع أنه جد له، صلى الله تعالى عليه وسلم.

وفي وصفه بالصلاح دون غيره وتكراره، وكان الظاهر أن يقال: الابن الكريم والنبي العظيم مثلا، إلا أنه وصف بالصلاح؛ لأنه أمدح الصفات؛ لأنه بمعنى الجدير لكل خير كما قاله السبكي، فوصف الابن به بمعنى أنه حقيق بمحبة الله ومحبة رسله، ووصف النبي به بمعنى أنه المستحق بالذات؛ لأن يكون نبيا وإن كان في العرف لا يمدح به الكبار؛ لأنه الصلاحية بشيء لا يقتضي الاتصاف به بالفعل، ولذا قال ابن المنير، رحمه الله: إن الله أطلق على كثير من الأنبياء أنه كان نبيًّا صالحًا، ولا يصح أن يقال لأحد منهم: إنه رجل صالح؛ لأنه يوهم التسوية بينهم وبين آحاد الأمم، كما أنه لا يجوز أن

يقال لنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم: إنه ملك وسلطان لإيهامه التعظم والتجبر، وإن كان كذلك فى نفس الأمر انتهى.

ولما لم يفهم هذا بعض المفسرين قال: إن المراد به مدح الصفة لا الموصوف كما فى شروح الكشاف، ومنه يعلم أن الصفة قد تكون مدحا فى مقام ومن قائل، وذما فى غيره كصالح ومبارك.

(وفيه من طريق) البخارى المسندة **(عن ابن عباس)**، رضى الله تعالى عنهما: **(ثم عرج بى حتى ظهرت)** أى علوت وصعدت، كما فى قوله: والشمس فى حجرتها لم تظهر أى لم تعل أو بعدت كقوله:

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

وفى نسخة: ثم انطلق بى حتى ظهرت **(بمستوى)** بضم الميم وفتح الواو والباء بمعنى فى أو على، وهو اسم مكان عال أو وسط أو واسع منبسط.

(أسمع فيه) أى المستوى **(صريف الأقلام)** الصريف بصاد وراء مهملتين وفاء كالصرير، وهو صوت حركة الأجرام، والمراد صوت القلم على الورق أى انتهى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى محل سمع فيه صرير أقلام الملائكة الكتبة، وهى تكتب ماتنقله من اللوح أو ما يؤمر بكتابته من الوحى وغيره، فالأقلام على ظاهرها قيل: ويحتمل أن الجمع للتعظيم، وهو صريح فى أن اللوح والقلم والكتابة على ظاهرها خلافا لمن تأوله، ونحن نؤمن بأنه على ظاهره وحقيقته، ويجب علينا اعتقاده، وهذا عبارة عن غاية القرب منه؛ لأن مثله لا يسمع من بعيد، وروى لمنتهى بدل بمستوى.

قال التوربشتى: بمعنى أنه بلغ من الرفعة لمقام اطلع فيه على التكوين، وما يراد ويؤمر به من تدبير الله عز وجل، وهذا منتهى لا يرام ولا تصل إليه الأفهام، ولا ينطق فيه غير صرير الأقلام.

وعن أنس) فيما رواه عنه الشيخان: **(ثم انطلق بى)** بالبناء للفاعل، والضمير فيه لجبريل، عليه الصلاة والسلام، أو بالبناء للمجهول **(حتى أتيت سدرة المنتهى)** تقدم معناه، **(فغشيها ألوان لا أدرى ما هى)**؛ لكونها ليست مما تشبه ألوان غيرها فى الحس، أو لأن شدة نورها يمنع تحقيقها.

(قال)، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(ثم أدخلت الجنة)**، وهذا يدل على أنها موجودة الآن، وأنها فى السماء، وهو الذى نعتقده بلا شبهة.

(وفى حديث مالك بن صعصعة: فلما جاوزته) أى فارقته، وقد تم لى ثم وفسر ضمير

المفعول بقوله: **(يعنى موسى، عليه الصلاة والسلام، بكى)** لحزنه إذ لم ينل هو وأمته ما ناله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا منافسة وحسدا لتنزههم عن مثله.

(فنودى) أى ناداه الله أو الملك وقال له: **(ما يبكيك؟ قال: رب)** هذا يدل على الأول بحسب الظاهر **(هذا غلام)** إطلاقه هذا عليه، وهو إذ ذاك كهل أو شيخ لأنه فى نحوه الخمسين إما لأنه أسن منه ولأنه فى الزمن الأول يعد مثله غلاما، وقال ابن قرقول: معناه القوى وهو غير قوى **(بعثته بعدى يدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمتى)**، لما علم عموم دعوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتأبيد رسالته علم كثرة أمته، وقد ورد أنه يراهم فى عرض المحشر أضعاف الأمم، وقد جوز كون بكائه غبطة وهى غير مذمومة كالحسد، بل هى ممدوحة لأنها من علو الهمة، وقيل: إنه علم من أكثرية أمته فى الجنة فضيلته على غيره لأنه لازم بين وأما كونه على قلة أمته فليس بشىء.

(وفى حديث أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه،) فى الإسراء الذى رواه البيهقى وغيره (: **وفى الجنة رأيتنى)** بضم التاء ضمير المتكلم، والرؤية هنا بصرية بناء على الصحيح من أن الإسراء يقظة إلا أنهم قالوا: لا يتعدى عامل لضمير والفاعل ضمير مثله إلا فى أفعال القلوب وما حمل عليها كما مر، وأجيب بأنها لمشابهتها لرأى العلمية لفظا ومعنى؛ لأنها جهة إدراك أجازوا فيها ذلك، وقد سمع كقول عائشة، رضى الله تعالى عنها: لقد رأيتنا مع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وما لنا طعام إلا الأسودان الماء والتمر. وقول الحماسى(١):

ولقد أرانى للرماح دَرِيئَةً ... من عن شمالى تارة وأمامى

(فى جماعة من الأنبياء) أى بينهم أو معهم، **(فحانت الصلاة)** بالحاء المهملة أى دخل وقتها، وجاء حينها لا بمعنى دنت وقربت كما قيل؛ لأنه مجاز قامت القرينة على خلافه، وهذه الصلاة قيل: إنها العشاء لأن الإسراء يكون فى أول الليل كما هو الظاهر؛ لأنها كانت مفروضة على بعض الأنبياء كما رواه المحدثون، واختاره النووى.

قالوا: وهذا كان بأرواحهم ممثلة أو بأجسادهم لأنهم أحياء، ثم إن هذا إن كان بعد الإسراء فهى الصلاة المفروضة؛ لأن المعراج تعدد كما سيأتى تفصيله، وإلا فهى تنفل،

---

(١) البيت من الكامل، وهو لقطرى بن الفجاءة فى ديوانه (ص١٧١)، خزانة الأدب (١٥٨/١٠)، الدرر (٢٦٩/٢)، شرح التصريح (١٠/٢)، شرح ديوان الحماسة للمرزوقى (ص١٣٦)، شرح شواهد المغنى (٤٣٨/١)، المقاصد النحوية (١٥٠/٣)، وبلا نسبة فى الأشباه والنظائر (١٣/٣)، أوضح المسالك (٥٧/٣)، جواهر الأدب (ص٣٢٢)، شرح الأشمونى (٢٩٦/٢)، شرح المفصل (٤٠/٨)، مغنى اللبيب (١٤٩/١)، همع الهوامع (١٥٦/١).

وليس المراد بالصلاة الدعاء كما قيل؛ لأن قوله: **(فأممتهم)** أى صليت معهم جماعة وأنا إمام لهم يأباه ظاهره.

(فقال قائل) قيل: هو جبريل، عليه الصلاة والسلام، (: **هذا مالك خازن النار)** أى الموكل بها وبأهلها، **(فسلم)** مالك **(عليه)** أى على القائل، أو سلم جبريل على مالك، وهو الظاهر، ويحتمل أن جبريل أمره، عليه الصلاة والسلام، بالسلام على مالك، **(فالتفت)** أى مالك **(فبدأنى بالسلام)** على، والالتفات الانصراف عما كان ينظر إليه لغيره ولو بعنقه وإنما بدأه بالسلام لأنه قادم وليعظمه ويعلمه بأمته منه لتأمين الله له؛ لأن السلام أمان وسلامة ومالك رئيس خزنة النار وملائكة العذاب ولهم صور مهولة جدًا.

وفى الروض الأنف أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يلقه أحد من الملائكة إلا ضاحكا مستبشرا غير مالك، فإنه لم يضحك لأحد قط، وهذا ينافيه ما ورد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم تبسم فى صلاة فسئل عن ذلك فقال: رأيت مالكا راجعا من طلب القوم، وعلى جناحه الغبار، فضحك إلى فتبسمت.

وأجيب: بأن المعنى أنه لم يضحك منذ خلقت النار إلا فى هذه المرة، وهذه القصة وقعت بعد الخبر الأول، وهذه الرؤية يحتمل أن تكون بصورته الأصلية وبغيرها، وفى فتاوى النووى: هذه الصلاة يحتمل أن تكون بعد صعوده صلى الله تعالى عليه وسلم للسماء، ويحتمل أن تكون بعدها والظاهر الأول.

(وفى حديث أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه: ثم سار) أى جبريل، عليه الصلاة والسلام، **(حتى أتى إلى بيت المقدس، فربط فرسه إلى صخرة)** المراد بالفرس هنا البراق؛ لقرب صورته منها لا لأن الفارس يطلق على مقابل الماشى سواء كان راكبا فرسا أو حمارا أو بغلا، وقد ورد تسمية البراق فرسا فى حديث المعراج فى رواية أخرى أنه أتى بفرس فحمل عليه، واحتمال أن يكون جبريل ركب فرسا معه كما جاء فى قصة مقاتلة الملائكة معه بعيد، والمراد بالصخرة صخرة بيت المقدس التى كانت قبلة.

قال البرقى فى غريب الموطأ: إنها من غرائب الدنيا فإن جميع المياه تخرج من تحتها، وهى صخرة صماء فى وسط المسجد الأقصى كجبل بين السماء والأرض معلقة لا يمسكها إلا الله، وفى أعلاها موضع قدم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حين ركب البراق ليلة الإسراء، فمالت من تلك الجهة من هيبته، وفى الجهة الأخرى أثر أصابع الملائكة التى أمسكتها إذ مالت، ولذا كان بعضها أبعد من الأرض من بعض، وتحتها غار عليه باب يفتح لمن يدخله للصلاة والدعاء، وعدى ربط بإلى لتضمينه معنى

ضم، أو إلى بمعنى الباء أو عند كقوله:

أشهى إلى من الرحيق السلسل(١)

(فصلى) أى جبريل، عليه الصلاة والسلام، وقيل: النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، **(مع الملائكة)** لما وجدهم يصلون ثمة، **(فلما قضيت الصلاة)** أى تمت وفرغوا منها، وقضى مبنى للمجهول نائب فاعل الصلاة وتاؤه ساكنة للتأنيث، وضبط فى الشرح الجديد بالبناء للفاعل وضم تائه على أنه التفات، وهو خلاف الظاهر، فإن استند لرواية فبها ونعمت. **(قالوا: يا جبريل من هذا معك؟)** خبر بعد خبر أو حال.

(قال: هذا محمد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، خاتم النبيين)، والرسل لأن نفى الأعم يستلزم نفى الأخص، وخاتم بكسر التاء وفتحها بمعنى آخرهم كما مر، وقوله فى الحديث: لا نبوة بعدى إلا ما شاء الله، المستثنى هو المبشرات إن صحت هذه الرواية كما مر، ولا يرد عيسى، عليه الصلاة والسلام؛ لأنه ينزل على شريعته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم ينبأ بعده كما مر.

(قالوا: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم) تقدم شرحه. **(قالوا: حياه الله من أخ وخليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة)**، وهى تحية ودعاء بالبقاء والسلامة، فإن حيى وأحيى بمعنى، ومن زائدة أو مبينة للضمير، وجعله الملائكة أخا لهم، والمراد أخوة الإيمان، وخليفة لأنه خليفة الله فى أرضه استخلفه فيها لعمارة الأرض وسياستها، وتكميل النفوس البشرية، وتنفيذ الأوامر الإلهية، لا لاحتياجه تعالى، بل لقصور الخلق عن التلقى بغير واسطة، وتاؤه للمبالغة قال التلمسانى: لا يقال للسطان خليفة الله لأن الله حى لا يغيب، وإنما الخليفة لمن يغيب أو يعجز، وإنما يقال له: خليفة فقط إن اتبع الشرع والسنة وإلا يقال له: أمير.

(ثم لقوا أرواح الأنبياء) ببيت المقدس بعد انقضاء الصلاة، أو بعد العروج فى مراتبهم فى السماء، أى لقى الملائكة أرواح الأنبياء، وفى هذا دلالة على تشكل الأرواح وتمثلها فى الملأ الأعلى على ما كانوا عليه فى الدنيا من الرتبة، وما تقدم أيضا يحتمل

(١) عجز بيت، وصدره:

أم لا سبيل إلى الشباب وذكره

والبيت فى الكامل، وهو لأبى كبير الهذلى فى أدب الكاتب (ص٥١٢)، والجنى الدانى (ص٣٨٩)، والدرر (١٠٢/٤)، وشرح أشعار الهذليين (١٠٦٩/٣)، وشرح شواهد المغنى (٢٢٦/١)، ولسان العرب (٣٤٣/١١)، والمقاصد النحوية (٥٤/٣)، وتاج العروس (سلسل)، وبلا نسبة فى الأشباه والنظائر (٢٣٧/٥)، والاشتقاق (ص٤٧٩)، وهمع الهوامع (٢٠/٢).

هذا.

(فأثنوا على ربهم) أى أثنى الملائكة على ربهم إذ لاقوا أرواح الأنبياء، كما تقول إذا رأيت أحدا من الصالحين: الحمد لله الذى من علينا بلقائك، إلا أن آخر الحديث يدل عل أنهم الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، بدليل قوله الآتى: كلكم أثنى على ربه وأنا أثنى على ربى.

وقوله: **(وذكر كلام كل واحد منهم)** أى من الأنبياء، **(وهم إبراهيم، وموسى وعيسى، وداود، وسليمان، عليهم الصلاة والسلام، ثم ذكر كلام النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: وإن محمدا، صلى الله تعالى عليه وسلم، أثنى على ربه، فقال: كلكم أثنى على ربه وأنا أثنى على ربى، فأقول: الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين)** فيه مخالفة لما ذكر فى أول الحديث من الأنبياء، وهو من باب الإبدال لا الزيادة إلا أن يكون اقتصر هنا على الزيادة، وقوله: الحمد لله دليل على أنه تحديث بنعم الله لا مدح، والعالمين شامل للمسلمين، ورحمتهم ظاهرة لسعادتهم فى الدارين فى معاشهم ومعادهم، وللكافرين بأمنهم من الخسف والمسخ والاستئصال.

(وكافة للناس) بيان لعموم رسالته، فهو كما مر إما صفة مصدر أى إرساله كافة أى عامة كفتهم عن الخروج منها، فهو مفعول مطلق لأرسلنى، أو اسم فاعل حال من الياء أى حال كونى كافا للناس، فالتاء للمبالغة وكونه حالا من الناس مقدما على صاحبها المجرور قول ضعيف.

(بشيرًا ونذيرا) أى مبشر بالخير لمن آمن واتقى محذر من كفر وعصى، وهو حال مترادفة أو متداخلة. حمد أولا على ما أنعم به عليه ثم ثنى بماله من المنافع والفوائد.

(وأنزل على الفرقان فيه تبيان كل شىء) سمى الفرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، وهو بحسب اللغة عام خصه العرف بالغلبة، وهو مصدر صار بمعنى الفارق أو المفرق آياته أو إنزاله، والتبيان بكسر التاء كتلقاء شاذ قياسه الفتح، وهو جائز فى غير القرآن، وكونه مبينا لكل شىء كما قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، يحتاج إليه من الأمور المهمة الشرعية تفصيلا فى بعض، وإجمالا فى بعض، وإحالة على الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذ أمر باتباعه، وعلى الإجماع بقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥]، واتباع أئمة الدين، وهو شامل للقياس والاجتهاد كما فى الكشاف وغيره من التفاسير.

(وجعل أمتى خير أمة) كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل

عمران: ١١٠]، وفسره بقوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران: ١١٠] الآية.

(وجعل أمتى أمة وسطا) أى عدولاً أخيارًا جامعين العلم والعمل وسائر الصفات التى بين التفريط والإفراط، استعير من المكان المستوى الجوانب لما ذكر.

(وجعل أمتى هم الأولون وهم الآخرون) هم ضمير مبتدأ ويفيد الحصر، وليس ضمير فصل لأنه لو كان كذلك قال: الأولين، ومعنى أوليتهم سبقهم الناس فى القيام من القبور، وفى دخول الجنة، وفصل القضاء، وتأخرهم باعتبار الوجود الخارجى، وقد فسره بهذا فى حديث البخارى، وهو قوله: «نحن الأولون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب قبلنا»، وليس تفسيره بسبق السعادة فى الأزل كما قيل بواضح.

(وشرح لى صدرى) أى وسعه بالعلم والإيمان والحكمة واليقين بحيث لا أحزن على أمر من أمور الدنيا أو شقه وملأه بأنواره كما مر.

(ووضع عنى وزرى) أى طهر قلبى من حظ الشيطان، وعصمنى فلا أرتكب ما لا يرضى الله، ولذا قال الله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، فسوى بين ما تقدم وما تأخر لعدم وقوعهما، أو خفف أعباء النبوة والتبليغ بإفاضة أياديه على، فالجملتان فى غاية التناسب.

(ورفع ذكرى) أى جعلنى مذكورا فى الملأ الأعلى، وجعل اسمى طراز الجنان، ومقرونا مع اسمه على كل لسان، وعلى المنار فى كل إقامة وأذان كما قال حسان، رضى الله عنه(١):

وضم الإله اسم النبى إلى اسمه ... إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد

(وجعلنى فاتحا وخاتما) للنبوة إذ خلق روحى قبل الأرواح ونبأها قبل كل نبى.

(فقال إبراهيم، عليه الصلاة والسلام: بهذا) أى بمجموع ما ذكر، وبكل واحدة منها، لا بالأول فقط كما قيل **(فضلكم محمد)** أى زاد فضله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عليكم، وقدم المعمول للحصر، وقال هذا إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، خطابا للأنبياء لما سمع مقالته، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(ثم ذكر أنه) أى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو جبريل، فقوله: **(عرج به)** مبنى للفاعل أو المفعول **(من السماء الدنيا ومن سماء إلى سماء نحو ما تقدم، وفى حديث ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه)** الذى رواه ابن عرفة فى جزأيه وأبو نعيم فى الدلائل **(وانتهى بى)** أى جبريل، عليه الصلاة والسلام، أى وصل نهاية عروجه بى أو هو مبنى

---

(١) البيت من الطويل، وهو فى ديوان حسان بن ثابت (ص٥٤).

للمفعول **(إلى سدرة المنتهى، وهى فى السماء السادسة)** وتقدم أن الأكثر على أنها فى السابعة، والجمع بينهما بأن أصلها فى السادسة وفروعها فى السابعة إلا أنه قيل: إن خروج النيل والفرات من أصلها يقتضى أنها فى الأرض، وورد فى حديث آخر أن الأنهار أربعة: هذان وسيحان وجيحان، وورد أنها فى الجنة.

قال ابن المنير، رحمه الله تعالى: فان قلت: انصبابها للأرض.

قلت: يمكن أن يكون كالمطر فيفترق ثم يجتمع، ويساق كل لمستقره ومجراه، ويحتمل أن انصبابها فى نواح من الأرض غائبة عنا شآبيب غزيرة متصلة بمبادئ هذه الأنهار، فإن منها ما لم نقف على مباديه إلى الآن.

قلت: يشهد له قصة النيل، وبهذا يجمع بين كونها فى السماء والجنة والأرض.

وقوله: **(إليها ينتهى ما يعرج به من الأرض)** بالبناء للمفعول أى ما تعرج به الملائكة، عليهم الصلاة والسلام، من أمور الأرض للعرض على الله من أمور عبيده، **(فيقبض منها)** بالبناء للمجهول والقاف والضاد المعجمة قبلها باء موحدة مفتوحة كذا صححوه، أى تقبضه الكتبة وتكتبه، ومن للابتداء، والضمير للسدرة، والمراد أنه عندها يرفع إليهم.

(وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها) من العرش بواسطة الملائكة المقربين، **(فيقبض منها)** أى يوحى إليهم علمه، ولو قيل: ضمير منها للملائكة للعلم بهم من السياق كان أظهر.

(قال تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: ١٦]**)**، أى أمر عظيم لا يعلم كنهه، وظاهر السياق أن المراد بهذا أمر الله ووحيه، فكان عليه أن يبينه.

(قال) أى ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، **(فراش من ذهب)** أى ذهب على صورة فراش، وفراش مرفوع عامله مقدر أى غشيها فراش، والفراش معلوم.

(وفى رواية أبى هريرة من طريق الربيع بن أنس) البكرى البصرى نزيل خراسان التابعى الثقة يروى عن أنس، رضى الله عنه، والرواية عنه مشهورة، توفى سنة تسع وثلاثين ومائة.

(فقيل لى: هذه سدرة المنتهى) التى سمعت بها، والظاهر أن القائل جبريل، عليه الصلاة والسلام، ووقع فى بعض النسخ السدرة المنتهى بتعريفهما دون إضافة كالآتى، أى السدرة التى هى المنتهى، فالمنتهى مبدل منها.

(ينتهى) ويصل **(إليها كل أحد من أمتك خلا)** بفتح المعجمة واللام المخففة أى مضى، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤]، وفى نسخة بضم الخاء

وتشديد اللام المكسورة[1] **(على سبيلك)** أى على طريقتك وسنتك أى من مات من أمتك مؤمنا بك عرج بروحه مع الملائكة إليها، فيقال: هذا عبدك فلان ابن فلان، فيؤتى له بصك الأمان، وبهذا فسر قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] الآية.

(وهى السدرة المنتهى يخرج من أصلها) أى عروقها الداخلة فى الأرض **(أنهار من ماء غير آسن)** أى لا يتغير طعمه ولونه ورائحته أصلا، وإن طال مكثه وعدم جريانه، وليس المراد نفى التغير فى الحال؛ لأن كثيرا من أنهار الدنيا كذلك، وهذا مع عذوبته فإن المياه العذبة هى القابلة للتغير، ولذا كان البحر المحيط بالدنيا مالحا على ما قرره أرباب الطبائع فى علم الحكمة.

(وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) أى لم يحمض كغيره إذا مكث.

(وأنهار من خمر لذة للشاربين) أى لذة سائغة، ليس كخمر الدنيا المرة المستكره شربها حتى على من ابتلى بشربها حتى قالوا: أثقل من القدح الأول.

(وأنهار من عسل مصفى) من القذا والشمع وإن لم تمسه نار؛ لأنه ليس رجيع النحل وقيء الذباب.

(وهى شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما، وإن ورقة منها مظلة الخلق) بضم الميم وكسر الظاء المشالة وتشديد اللام المكسورة اسم فاعل من أظل مضاف للخلق، والمراد الجميع الكثير لا سائر الخلق إذ لا يصح هنا، وهذا عبارة عن سعة ظلها.

فإن قلت: قد تقدم أنها كآذان الفيلة.

قلت: أجيب بأنه فى الشكل، ومن قال: التشبيه فى الكبر. فيه ما فيه.

(فغشيها نور) من الأنوار الإلهية، **(وغشيتها الملائكة)**، وهم نور مصور قابل للصور.

(قال: فهو قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: ١٦]) أى فى تفسير هذه الآية على قول كما مر.

(فقال الله تبارك وتعالى)، ولا يخفى مناسبة هذا التمجيد هنا؛ لأن تبارك تفاعل من البركة وكثرة الخير الفائض منه، ولذا لا تسند هذه الصيغة لغيره، والتعالى العظمة والرفعة فى عظمة الربوبية، لا لمحسوس فإنه منزه عنه **(له)** أى لمحمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(:سل)** أصله اسئل فخفف، وحذف المفعول للعموم أى سل كل ما تريد.

---

(١) أى مُخَلِّى.

(فقال: إنك اتخذت إبراهيم خليلا) أى اصطفيته وخصصته بالخلة، وسيأتى تحقيقها والفرق بينها وبين المحبة، **(وأعطيته ملكا عظيما)** قال ابن المنير: الملك العظيم الذى أوتيه إبراهيم يحتمل أنه ما أوتيه ذريته كيوسف وسليمان وداود وغيره من ملوك بنى إسرائيل من ذريته، كما قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]، وكونه ملك النفس والزهد غير مناسب هنا، أو المراد قهره، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعظماء الملوك فى عصره كنمروذ إذ القاهر أعظم من المقهور، وجاء فى التفسير أن الملك النبوة.

فإن قلت: كيف هذا؟ وقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، للإعرابى: «خفف عليك فلست بملك». وقال أبو سفيان للعباس، رضى الله تعالى عنهما، إذ أوقفه على كتائب الفتح، فلم يرضها حتى مرت الكتيبة الخضراء التى فيها رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكانوا يسمونها الخضراء لكثرة الحديد فيها، وهو عند العرب أخضر، ولذا قال ابن هانئ:

وجنيتم ثمر الوقائع يانعا بالنصر من ورق الحديد الأخضر

وربما سموا السيف بذلك بلغة، فقال: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما، فقال: لا تقل ملكا إنما هو النبوة فلم يرض تسميته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ملكا.

قلت: المنفى الملك العرفى المذكور فى قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: الخلافة بعدى ثلاثون عاما، ثم تعود ملكا، وأما الملك الحقيقى الدينى، فليس بمنفى ومع هذا لا يجوز أن يطلق على نبينا وإبراهيم، عليهما الصلاة والسلام، أنهما ملكان؛ لأن مقام النبوة أشرف، وعدمه فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى آبائه من دلائل النبوة، ولذا سأل هرقل هل كان فى آبائه ملك؟ وخرجت الخلافة عن أهل بيته؛ لئلا يتوهم أنه ملك متوارث انتهى. وبهذا يندفع ما يرد على الفقهاء فى تقسيم أحكامه إلى فتيا وقضاء وسلطنة.

(وكلمت موسى تكليما) أى خصصته بكلامك له من غير واسطة حقيقة كما يشير إليه التأكيد، خلافا لمن أنكره من المعتزلة كما بين فى الأصول.

(وأعطيت داود ملكا عظيما) أى ملكا شرعيا لا عرفيا، وهو الخلافة العظمى حتى سخرت له الطير والجبال، **(وألنت له الحديد)** بحيث كان فى يده كالعجين يتخذ منه الدروع، **(وسخرت له الجبال)**، فكانت تسبح معه إذا سبح.

(وأعطيت سليمان ملكا عظيما) إذ ملكته الدنيا بأسرها، **(وسخرت له الجن**

والإنس)، فكانت الجن تخدمه، عليه الصلاة والسلام، فى بنائه وغيره، فبنت له بيت المقدس بالرخام المزخرف بناء عاليا حتى كان يضئ فى الليلة المظلمة، ولم يزل كذلك حتى خربه بخت نصر، ونقل ما فيه لمملكته بالعراق، وكان جميع جنده ورعاياه لا يعصونه فى شىء.

(والشياطين) وهم مردة الجن، فهو من عطف الخاص على العام، فكانوا يغوصون البحار ويستخرجون الدر له والجواهر، ويعلمون له ما يريد **(والرياح)** فكانت تجرى بأمره كما يشاء، وتحمل كرسيه وبساطه مسيرة شهر غدوا، ومسيرة شهر رواحا، **(وأعطيته ملكا لا ينبغى لأحد من بعده)** كان سأله من الله، وهو ملك الإنس والجن والرياح، فملك ما فوق الأرض وما تحتها، وقد عرض هذا على نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلم يقبله، واختار كونه عبد الله.

(وعلمت عيسى) وهو صغير **(التوراة والإنجيل)** الذى أنزل عليه، وحفظ التوارة وعمل بها لأن الإنجيل ليس فيه أحكام، وإنما هو حكم وحقائق التوحيد، وقيل: فيه أحكام قليلة بالنسبة للتوراة، وفى نسخة: وعلمت موسى التوارة وعيسى الإنجيل، **(وجعلته يبرئ الأكمه)** الذى ولد أعمى بدعائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، باسمك، وقال التلمسانى: هو الذى لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار.

قال البخارى عن قتادة: ولا يعلم هذا فى لغة، والمعروف ما تقدم الذاهب البصر بعد الإبصار أعمى، والأكمه الذى سلب عقله بتنزيل البصيرة منزلة البصر، أو الذى اعترته ظلمة فغيبت بصره انتهى، وكلامه تناقض فإن المعنى الأخير هو عين ما أنكره، فإن كان منقولا عن اللغة صح ما قاله قتادة، وهو ثقة ليس متهما بالمجازفة فى تفسير القرآن، لاسيما وقد تابعه البخارى ومتابعته تعتمد فى حديث الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، فكيف اللغة؟، **(والأبرص)** وهو علة مزمنة لا يتيسر علاجها للحكماء بها يبيض لون البدن ويصير قبيحا، وهو أقبح الأمراض بعد الجذام، ولذا جوز الشافعى، رضى الله تعالى عنه، فسخ النكاح به.

(وأعذته) أى حفظته وأجرته، **(وأمه)** مريم **(من الشيطان الرجيم)** الرجم كناية عن اللعن والطرد من رحمة الله، ولذا قال: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، وسيأتى فى حديث مسلم: «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان، فيستهل صارخا من نخسه إلا ابن مريم وأمه» وكذا نبينا، عليه أفضل الصلاة والسلام، لأن المتكلم لا يدخل فى عموم كلامه، ولأنه علم بالحديث أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولد مشيرًا إلى السماء ناظرا لربه، ولم يسلط عليه شيطان كما جعل بينه وبين مريم وابنها حجابا،

وهذا غير القرين الذى مع كل أحد حتى الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وفى هذا كلام فى الكشاف وشروحه سيأتى بيانه مع الكلام على الحديث، **(فلم يكن له عليهما سبيل)** إذ حماهما وعصمهما منه.

(فقال له ربه:) أى لمحمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما سمع مقالته، وأن المقامات العلية سبق لها السابقون من الرسل، عليهم الصلاة والسلام، (**قد اتخذتك حبيبا)** هذا فى مقابلة الخلة، والمحبة أعظم من الخلة كما سيأتى، ولم يذكر ما يقابل ما بعده لأنه معلوم إذ هو لم يرض الملك، وقد خبأ دعوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما هو أعظم من هذا، وهو الشفاعة العظمى، والقرآن أعظم من التوارة والإنجيل وإبراء الأكمه ونحوه، وقد وقع منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مثله كرد عين قتادة وبرء كثير من الأمراض بمس يده الشريفة كما سيأتى، وتقدم الكلام على إعاذته من الشيطان.

(فهو مكتوب فى التوراة محمد حبيب الرحمن)، وهذا من كلام الراوى كالشاهد لصحة الزيادة المذكورة، وفى السبعيات للهمدانى قال: ثبت فى الحديث أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: هممت ليلة المعراج أن أخلع نعلى، فسمعت النداء من قبل الله تعالى: يا محمد لا تخلع نعليك لتشرف السماء بهما، فقلت: يارب إنك قلت لموسى: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢]، فقال: يا أبا القاسم ادن منى لست عندى كموسى، فإن موسى كليمى وأنت حبيبى انتهى.

وقد سئل الإمام القزوينى عن وطإ النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، العرش بنعاله، وقول الرب جل جلاله: لقد شرف العرش بنعلك يا محمد، هل ثبت ذلك أم لا؟ فأجاب بأن ذلك ليس بصحيح ولا ثابت، بل وصوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى ذروة العرش لم يثبت فى خبر صحيح ولا حسن ولا ثابت أصلا، وإنما الذى صح فى الأخبار انتهاؤه إلى سدرة المنتهى فحسب، وأما إلى ما ورائها فلم يصح، وإنما ورد ذلك فى أخبار ضعيفة أو منكرة لا يعرج عليها انتهى، وتابعوه على ذلك.

وقوله: **(وأرسلتك إلى الناس كافة)**، قد تقدم شرحه، وكذا قوله: **(وجعلت أمتك هم الأولون وهم الآخرون)**؛ لسبقهم فى دخول الجنة وتأخرهم وجودًا والمنة بهذا عليه؛ لما تضمنه من كثرتهم وقلة مكثهم فى القبور وعدم نسخ شريعتهم.

(وجعلت أمتك لا يجوز لهم خطبة) هى كلام يقال على رؤوس الأشهاد للإعلام بأمر مهم، وكان عادة العرب إذا اجتمعوا فى ناد قام منهم واحد فخطب إذا تفاخروا أو تصالحوا أو أرادوا وعظا، والقس فى سوق عكاظ خطيب مشهور، فجاء الشرع على

نهجهم فكان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا وقع أمر قام بينهم خطيبًا، فالخطبه مشتقة من الخطب وهو الأمر العظيم، وبقى ذلك مشروعا فى الجمعة والعيدين والنكاح والاستسقاء لوعظ الناس ونحوه.

(حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى) أى لا يعتد بخطبهم إلا إذا أتوا فيها بكلمتى الشهادة لما ورد فى الحديث: **(كل خطبة ليس فيها تشهد فهى كاليد الجذماء)** أى هى ناقصة لا بركة فيها، وهذا يقتضى أن التشهد فيها ركن أو شرط. قيل: وهذا لم يقل به أحد من الفقهاء وأئمتهم.

فإن قيل: المراد أنه لا يصح خطبة من لم يصدر منه الشهادة، أى لا تصح إلا خطبة المسلم المصدق بك، والأمة أمة الدعوة، فهو بعيد. وأجيب بأن الشافعى وغيره اشترط فى الخطبة الصلاة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهى تتضمن الشهادة بذلك ولا يخفى أن هذا غير موافق لظاهر الحديث، فالظاهر أنه كان واجبا فنسخ وجوب الاقتصار على مقدار تهليلة وتسبيحة.

وقال أبو يوسف ومحمد، رحمهما الله تعالى: لابد من ذكر طويل يسمى خطبة، وأقله قدر التشهد إلى قوله عبده ورسوله، يثنى بها على الله، ويصلى على نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويدعو للمسلمين لأن الخطبة واجبة، وما دون ذلك لا يسمى خطبة عرفا كما قاله الزيلعى، والحديث شاهد له.

(وجعلتك أول النبيين خلقا)؛ لأنه خلق روحه قبل الأرواح، ثم خلق الأرواح ونبأه، فهو أولهم خلقا ونبوة، **(وآخرهم بعثا)** وإرسالا كما تقدم بيانه، **(وأعطيتك سبعا من المثانى)** أى الفاتحة لأنها سبع آيات، وهى تثنى وتكرر فى كل ركعة أو السبع الطوال البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والتوبة وحدها أو مع الأنفال بناء على أنهما سورة واحدة؛ لعدم البسملة بينهما لتكرير المواعظ والعبر فيها.

(ولم أعطها نبيا قبلك) كما تقدم بيانه، **(وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عرشى)** الكنز المال المدفون، فشبه به ما فى اللوح المحفوظ مما لم يطلع عليه خلقه كجعل خواتيم سورة البقرة وما فيها من الثواب المعد لمن قرأها بمال عظيم أخرج من ذلك الكنز الذى هو اللوح.

وفى الحديث: **(من قرأها كفتاه)** أى عن قيام الليل أو من الشيطان، ويؤيده ما روى عن ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: **(أنزل الله على آيتين من كنوز الجنة بهما سورة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفى عام:**

من قرأهما بعد العشاء مرتين كفتاه من شر الشيطان، ولا يكون له عليه سلطانا).

قال التوربشتى: المعنى أنه استجيب له مضمون قوله: غفرانك إلى آخره ونصره، ولما قرأهن، صلى الله تعالى عليه وسلم، قيل له: قد فعلت، وأوثر الإعطاء لمناسبة الكنز (**لم أعطها نبيا قبلك**) أى لم يعط مثل ثوابها بها أحد قبله صلى الله تعالى عليه وسلم.

(**وجعلتك فاتحا وخاتما**) أى فاتحا لكل خير وشريعة، فهو أعم من قوله: جعلتك أول النبيين خلقا وآخرهم بعثا، فمن فسره به فقد قصر.

(**وفى الرواية الأخرى**) التى رواها مسلم (**قال: فأعطى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاثا**) من الفضائل المخصوصة به صلى الله تعالى عليه وسلم (**أعطى الصلوات الخمس**) أى لم تجتمع لغيره ولغير أمته ولا لنبى قبله، فإن الأنبياء قبله كانت لهم صلاة موافقة لبعض هذه دون مجموعها، وكان، عليه السلام، يصلى قبل الإسراء ولكن لم يشتهر بيان كيفيتها، ونقل السيوطى، رحمه الله، آخر الخصائص أنه لم يكن فيها ركوع؛ ولذا نزل قوله تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟**﴾ [الحج: ٧٧]، وقد مر ذلك.

(**وأعطى خواتيم سورة البقرة**) كما تقدم، (**وغفر لمن لم يشرك بالله شيئا من أمته المقحمات**) بضم الميم وقاف وحاء مهملة مكسورة بزنة اسم الفاعل من الإقحام، وهو الإلقاء والمراد الكبائر التى تلقى صاحبها فى النار أو المهلكات، وهذا كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ**﴾ [النساء: ٤٨]، أى بتوبة وبدونها خلافا للمعتزلة، والكلام فيه مشهور.

(**وقال**) أى ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، فى الحديث الذى رواه: (﴿**مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ**﴾ [النجم: ١١] **الآيتين**) هذا لفظ القرآن، والمنقول عن رواية من الزيادة إنما هو تفسير بقوله: (**رأى جبريل فى صورته**) الأصلية التى خلق عليها (**له ستمائة جناح**) لا فى صورة تمثل بها، فإن الله أعطى الملائكة قوة الشكل بأى صورة أرادوا، ونقل الشمنى عن السهيلى فى قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إن الله أبدل جعفرا، رضى الله تعالى عنه، بيديه جناحين يطير بهما فى الجنة حيث شاء. ليس هذا كما يسبق إلى الوهم جناح بريش كالطير؛ لأن الصورة الآدمية أشرف، وإنما هى عبارة عن قوة روحانية ملكية أعطيها جعفر، رضى الله تعالى عنه، كما أعطى الملائكة، فإن أجنحتهم صفات ملكية لا تدرك إلا بالمعاينة؛ لأن قوله تعالى فيهم: ﴿**أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ**﴾ [فاطر: ١]، **يدل على ذلك إذا لم ير طائر بأكثر من جناحين، فكيف بستمائة كما فى صفة جبريل،**

عليه الصلاة والسلام،؟ فدل على أنها صفات لا تضبط كيفيتها بالفكر. انتهى.

واعترض عليه بأن هذا أشبه بكلام الفلاسفة والحشوية، فأى مانع من إبقائه على ظاهره، وكون طيور الجنة ليس لها غير جناحين غير ضار؟ والأحاديث صريحة فى أنها أجنحة حقيقة كثيرة من زبرجد وياقوت ملونة كأجنحة الطواويس، ولا ينكر هذا إلا من ينكر الملائكة، وكون جناحى جعفر، رضى الله تعالى عنه، حقيقيين يؤيده كون أرواح الشهداء فى جيوف طيور خضر فى الجنة، فأى حاجة للتأويل؟ ومثله لا يليق بمثل الإمام السهيلى.

(وفى حديث شريك) المتقدم مع ما فيه **(أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، رأى موسى فى السابعة)**، وهو مخالف لما مر من أنه فى السادسة، فإن كان الإسراء متعددا فظاهر أنه لا منافاة، وإلا فيجمع بينهما بأنه رآه أولا فى السادسة، ثم صعد إلى السابعة فرآه بعد رجوعه فيها.

(قال) أى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو الراوى على أنه من كلام شريك، فهو مدرج فيه **(بتفضيل كلام الله)** أى علو رتبته، عليه الصلاة والسلام، وصعوده للسابعة؛ لفضله على غيره بكونه كليم الله، فالباء سببية وهو مضاف للفاعل.

(قال) شريك فى الحديث: **(ثم علا به)** أى برسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من السابعة **(فوق ذلك)** الإشارة للسماء السابعة **(بما لا يعلمه إلا الله)** أى بمقدار لا يعلم محله وحقيقته، وقيل: نهايته وهو بدل من فوق، والباء للاستعلاء كما فى قوله تعالى: ﴿تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ [آل عمران: ٧٥]، أو بمعنى إلى كما فى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيَ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فكان مقامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أرفع من مقام موسى، عليه الصلاة والسلام؛ ولذا عقبه بقوله: **(فقال موسى)** إذ رأى رفعته، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(لم أظن أن يرفع على أحد)**، ومنشأ ظنه تفرده بتكليم الله، وقد شاركه فى ذلك وزاد عليه بما اقتضى رفعته على سائر الأنبياء.

واعترض على هذا بأنه كيف يقول موسى، عليه الصلاة والسلام، هذا وقد علم بتفضيله؟ وهو مذكور فى التوراة، واللائق بالأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، التواضع، وهذا مما يطعن به فى رواية شريك.

(وقد روى عن أنس) بن مالك، رضى الله تعالى عنه، **(أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، صلى بالأنبياء ببيت المقدس)** إمامًا، ولا حاجة إلى حمله على أنه بعد الإسراء الذى فرضت فيه الصلاة، وإن كان محتملا أيضا كما مر.

(وعن أنس)، رضى الله تعالى عنه، كما رواه البزار والبيهقى **(قال: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: بينا أنا قاعد ذات يوم إذ دخل جبريل، عليه الصلاة والسلام،)** أصله بين فأشبعت فتحته ألفا، وهو ظرف مضاف للجملة مضمن معنى الشرط، والعامل فى إذ معنى المفاجأة أى وقعودى يوما فاجأنى فيه دخول جبريل، أو وقت دخوله، وذات يوم توكيد دفعا لتوهم التجوز عن مطلق الزمان، وذو تزاد كثيرا كقوله: رجل من ذى يمن.

(فوكز) أى ضرب ضربا خفيفا كما يقول من يوقظ غيره بحيث لا يطلع على إيقاظة، وقيل: الوكز الضرب بجمع الكف **(بين كتفى)**، وفى رواية بينا أنا نائم، وجمع بينهما بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يجوز أن ينام وهو قاعد، ولذا وكزه ليستيقظ، وهذا من جملة الزيادة، وفى بعض الشروح أنه كان ببيت المقدس.

(فقمت) معه من محل قعودى **(إلى شجرة فيها مثل وكرى الطائر)** مثنى وكر، وهو للطير كالبيت للإنسان، والجحر للحشرات، والكناس للظبى كما بينه أهل اللغة أى بيتين شبيهين بالعش وضعا وهيئة، لا مقدارا لأنه لا يسع الآدمى، ولو كان كفوا فى الطير كالنسر والعقاب.

(فقعد) أى جبريل، عليه الصلاة والسلام، **(فى واحدة وقعدت فى الأخرى)** قيل: أنثه لأنه كالعش يذكر ويؤنث، والغالب على ألسنة أهل مكة تأنيثه، أو هو لتأويله بالزاوية والطاقة ونحوهما، وما قيل: لأنه مأوى إناث الطيور غالبا لا وجه له.

(فنمت) بالنون، والضمير للشجرة أى زادت وارتفعت، وروى سمت بالسين من السمو كالعلو لفظا ومعنى **(حتى سدت الخافقين)** هما المشرق والمغرب؛ لخفوق الشمس والنجم فيهما أى غيابهما أو حركتهما، وأصل معنى الخفوق الاضطراب والحركة، ولذا حسن قوله:

أما والله لولا خوف شخصك لهان على ما ألقى برهطك
ملكت الخافقين فزدت عجبا وليس هما سوى قلبى وقرطك

(ولو شئت) لعلوها وقربى منها **(لمسست السماء)** بكسر السين وفتحها، ويروى لمست بسين واحدة من اللمس، أو هو مخففة ونقل حركته، **(وأنا أقلب طرفى)** تقليب طرفه بمعنى نظره فى جوانبها؛ لثباته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعدم دهشته، وتأمله فى آيات الله فى الآفاق.

(ونظرت جبريل) إذ قلبت طرفى فوقع عليه بحذائى **(كأنه حلس)** بكسر الحاء المهملة

وسكون اللام وسين مهملة، وهو كساء رقيق يوضع تحت القتب والبردعة ويبسط فى البيت (**لاطئ**) أى لاصق بالأرض، والمراد أنه لما قرب من السماء غشيته مهابة حتى خضع والتصق بالأرض من الغشى الذى هو فيه، والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، متثبت، ولم يمسه روعة كما غشى جبريل، عليه الصلاة والسلام، ويقال: فلان حلس بيته لمن لا يخرج منه.

قال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: كن حلس بيتك حتى تأتيك يد خاطئة، أو منية قاضية.

ولاطئ: بلام وطاء مهملة مهموز بمعنى لاصق كما فى الصحاح، وفى بعض النسخ حلس لاطئا بفتحتين ونصب لاطئ وصحح رواية، ولم يفسر، وجملة كأنه حال جبريل.

(**فعرفت فضل علمه بالله على**) أى عرفت بما اعترى جبريل، عليه الصلاة والسلام، من الخشية أنه أعرف بالله منى؛ لأنه بقدر العلم يكون الخوف والخشية. قيل: هذا تواضع منه عليه الصلاة والسلام، لأنه أفضل منه، ورد بأنه قد يكون فى المفضول ماليس فى الفاضل، والملائكة المقربون قد يعرفون من أحوال الملكوت ما لا يعرفه غيرهم، وإن كان أفضل.

والقول بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قاله قبل العلم بتفضيله عليه لا يناسب هنا.

(**وفتح لى باب السماء ورأيت النور الأعظم**) قيل: هو نور العرش أو الله تعالى؛ لأنه يسمى نورًا كما قال: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، والحكماء والمتكلمون جوزوه من غير تأويل. قال الأشعرى: نور لا كالأنوار. وقال الغزالى: النور هو الظاهر بنفسه المظهر لغيره، فإن فهمت فهو نور على نور، وبعد هذا كلام لا يصرح به.

(**ولط دونى الحجاب**)،وفى نسخة: وإذا دونى الحجاب، ولط بضم اللام وتشديد الطاء المهملة مبنى للمجهول، يقال: لططت الباب إذا أغلقته، وكذا سترته يعنى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعدما شهد النور أرخى بينه وبينه حجاب ستره عنه، وسيأتى الحجاب وتأويله عن قريب.

(**فُرَجُهُ**) بضم الفاء وفتح الراء المهملة والجيم مضافا لضمير الحجاب جمع فرجة بوزن غرفة، وهى ما بين الشيئين من خلاء، أو بين أجزاء شىء مفتوحة، أى فرج الحجاب المرخى وطاقاته الذى يخرج منها نوره (**الدر والياقوت**)، وهما نوعان من الجوهر معلومان.

(ثم أوحى الله إلى ما شاء أن يوحى) بالبنـاء للفـاعل أو المفعـول، وحديـث أنـس هـذا سقط من بعض النسخ.

(وذكر البزار) بفتح الموحدة وتشديد الزاى المعجمة وألـف وراء مهملـة نسـبة لعمـل البزر، وهو بزر الكتان الذى يسـتخرج منـه السـليط، وبـالذال المعجمـة كـل بـذر يبـذر للزراعة، وهذا هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصرى صاحب المسند الكبـير المعلـل، توفى بالرملة سنة اثنين وتسعين ومائتين، ووترجمته مشهورة وهو ثقة حـافظ، واعلـم أن البزار كذا هو فى أكثر النسخ: قال البرهان الحلبى: وفى نسخة بخـط الحـافظ مغلطـاى: البزاز بزاى معجمة آخره، وفى صحتها نظر، والمعروف أنه براء مهملة آخره.

(عن على بن أبى طالب، كرم الله وجهه، لما أراد الله تعـالى أن يعلـم رسـول الله، صلـى الله تعالى عليه وسلم) أى يعرفه **(الأذان)** الذى شرعه له للإعلام بدخول وقت الصلاة.

(جاءه جبريل بدابة يقال لها البراق) مر الكلام عليه، وظاهر سياقه أن هذا معراج آخر غير الذى كان بمكة قبل الهجرة كما مر، وهذا بعده فـإن الأذان كـان بالمدينـة، وسـياقه يقتضى أن هذا المعراج كان المقصود منه تعليم الأذان، وسيأتى ما فيه.

(فذهب يركبها) أى شرع فى الركوب، وذهب وردت بهذا المعنى كثيرا، وليس مـن الذهاب بمعنى المضى. تقول: ذهب يقول كذا أى شرع فى مقاله.

وقوله: **(فاستصعبت)** تلك الدابة **(عليه. فقال لها جبريل: اسكنى فوالله ما ركبـك عبـد أكرم على الله من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، فركبها حتى أتى بها إلى الحجاب الذى يلى الرحمن تعالى، فبينا هو كذلك إذ خرج ملك من الحجاب، فقال** النبى، **صلى الله تعـالى عليه وسلم: يا جبريل من هذا)** الملك؟ **(قال: والذى بعثك بالحق إنى لأقرب الخلق مكانـا، وإن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتى هذه)** تقـدم شـرحه فـلا نكـرره، وتـأنيث البراق لغة أو مأول بدابة، وهذا الحديث رواه بسند متصل بعلى، رضـى الله تعـالى عنـه، وفى سنده زياد بن المنذر، وقد قيل فيه: إنه كذاب، والحديث ضعيـف، ومـال السـهيلى لصحته وذكر الحجاب وسيأتى بيانه.

(فقال الملـك) الـذى خـرج مـن خلـف الحجـاب، و لم يعرفـه جـبريل، عليـه الصـلاة والسلام: **(الله أكبر الله أكبر)** إلى آخر الأذان، وإجابة المؤذن بمـا يليـق بـرب العـزة، فلـذا شرع لنا ذلك بما يناسب حالنا على ما عرف فى كتب الفقه والسنة، **(فقيل له مـن وراء الحجاب: صدق عبدى أنا أكبر أنا أكبر، ثم قال الملك: أشهد أن لا إلـه إلا الله. فقيـل لـه من وراء الحجاب: صدق عبدى أنا الله لا إله إلا أنـا، وذكـر)** الـراوى **(مثـل هـذا)** الـذى

ذكر قولا وجوابا للمؤذن (**فى بقية الأذان إلا أنه لم يذكر جوابا عن قوله: حى على الصلاة حى على الفلاح**)؛ لأنه لا يتصور فى حقه معناه، أو لأن جوابه لا حول ولا قوة إلا بالله، أى لا يقدرنا على الصلاة والسعى لها وأداء حقوقها إلا من هى له، وهذا لا يليق إلا بالمخلوق بخلاف ما قبله.

(**وقال**) أى الراوى (: **ثم أخذ الملك بيد محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقدمه**) على من كان بحضرته من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، (**فأم**) أى صار إماما يؤم (**أهل السماء**) حال كونهم (**فيهم آدم ونوح، عليهما الصلاة والسلام،**) خصهما بالذكر؛ لأنهما أبوا الأنبياء الجسمانيين، كما أنه أبوهم الروحانى المتقدم عليهم تقدما حقيقيا، ومعنى حى أقبل وهلم، وهو اسم فعل قال القاضى منذر بن سعيد: والعرب تريد بها جىء سريعا حثيثا، لا كما يقول الفقهاء مطبعا، وفى حى لغات مذكورة فى كتب العربية واللغة، وأصلها حى هلا ثم قد تفرد حى وقد تفرد هلا، والمعنى واحد والفلاح معناه الفوز بالسعادة يقال: أفلح الرجل إذا أصاب خيرا وفاز، وقيل: معناه البقاء، والمعنى أقبلوا على البقاء فى الجنة.

(**قال أبو جعفر محمد بن على بن الحسين**) بن على بن أبى طالب، وهو أبو جعفر الإمام المشهور فى آل الرسول وأهل بيته (**راويه**) أى راوى هذا الحديث الذى رواه عن أبيه، عن جده (: **أكمل الله لمحمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، الشرف**) والعلو (**على أهل السموات وأهل الأرض**)، أما على أهل الأرض، فلأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أشرف الرسل، وأمته أشرف الأمم، وأما على أهل السماء، فلأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أشرف من سائر الملائكة بدليل أنه أمهم وتقدم عليهم، كما تدل عليه الأحاديث المذكورة.

بقى هاهنا أن ما ذكر يدل على أن الأذان شرع ليلة الإسراء قبل الهجرة مع أنهم جزموا بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يصلى بغير أذان منذ فرضت الصلاة إلى أن هاجر إلى المدينة.

وفى حديث ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، الصحيح المذكور فى الصحيحين قال: كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون يتحينون الصلاة ليس ينادى لها، فتكلموا فى ذلك يوما، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: بوقا مثل بوق اليهود. فقال عمر، رضى الله تعالى عنه: أولا تعينون رجلا ينادى بالصلاة؟ فقال

رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: يا بلال قم فناد بالصلاة[١].

وفى حديث أبى إسحاق بزيادة على ما ذكر: فبينما هم على ذلك إذ سمع عبد الله ابن زيد بن ثعلبة الخزرجى النداء، فأتى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: يا رسول الله: إنى قد طاف بى الليلة طائف. مر بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا فى يده. فقلت: يا عبد الله! أتبيع هذا الناقوس؟ فقال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أولا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر إلى آخره، فلما أخبر به رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: إنها رؤيا حق، فقم لبلال فألقها عليه، فليؤذن بها فإنه أندى صوتا منك. فلما أذن بلال، رضى الله تعالى عنه، سمعه عمر، رضى الله تعالى عنه، وهو فى بيته، فخرج يجر رداءه، وهو يقول: يا نبى الله والذى بعثك بالحق نبيا لقد رأيت مثل الذى رأى. فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، الحمد لله.

وفى وسيط الغزالى: أنه رأى هذه الرؤيا بضعة عشر رجلا، وأنكره النووى وابن الصلاح، وقالا: لم يثبت إلا رؤيا زيد وعمر، رضى الله تعالى عنهما، فهذا يدل على أن الأذان إنما رؤى بالمدينة، وما ذكر هنا يدل على أنه بمكة فى الإسراء، وهما متعارضان إلا أن الثانى صحيح والأول ضعيف.

وقال ابن حجر، رحمه الله تعالى: قول القرطبى: إنه لا يلزم من رؤيته فى الإسراء مشروعيته فى حقه. فيه أنه يأباه قوله فى الحديث لما أراد أن يعلم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، الأذان.

وقول الطبرى: يحمل الأذان فى الإسراء على معناه اللغوى يأباه ذكره بألفاظه بعينها، وما قيل من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، رآه فى الإسراء، ولم يؤمر به بمكة للعجز عن إظهاره بين المشركين، وأخره الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم لما رأوا ذلك أظهره؛ ليكون مدحه على لسان غيره فى غاية الضعف. ولو كان كذلك لم يؤخره حين قدم المدينة.

أقول: هذا كله كلام مضطرب، والذى ظهر لى فى التوفيق بين الحديثين على وجه لا كدر فيه أن المذكور فى رواية البزار إسراء غير المعروف، وأنه بروحه أو فى رؤياه لأن الإسراء تعدد، فيكون رأى فى منامه ذلك، ورؤيا الأنبياء وحى، وعقب ذلك قص عليه الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، رؤياهم، فأظهر موافقتهم والعمل بها لتكون

(١) أخرجه الدارقطنى (٢٣٧/١)، وعبد الرزاق (١٧٧٦)، وأبو عوانة (٣٢٦/١).

الشهادة والمدح من غيره، وليسروا بموافقتهم رأيهم، وكون ذلك مأثورا عنهم، وإلا فهو فرض كفاية مشروع ومباح لا يثبت برؤيا غيره، فيحتاج إلى أنه اجتهاد بما يوافق الرؤيا، وهو خلاف. وهذا إن شاء الله من بركاته ولمعات مشكاته، ثم إن المصنف، رحمه الله تعالى، استشعر اعتراضا فيما مر من الحديث الذى ذكر فيه الحجاب، وهو فى حقه تعالى محال لاستلزامه الجهة والتحيز، فأراد دفعه بقوله: (**قال القاضى**) أبو الفضل عياض مؤلف هذا الكتاب، رضى الله عنه، (: **ما فى هذا الحديث من ذكر الحجاب، فهو فى حق المخلوق**) الرائى (**لا فى الخالق**) زاد الفاء فى خبر الموصول لتضمنه معنى الشرط، وهو جائز، وكذا ما ورد فى الحديث «حجابه النور» إذ الحجاب بمعنى المنع، والحاجب المانع، ومنه حاجب العين، وحاجب الأمير، والحاجب يحيط بالمحجوب فيقتضى تناهيه وتحيزه. تعالى الله عن ذلك.

ولذا قال ابن عطاء الله، رحمه الله: كيف يتصور أن يحجبه شىء، وهو الذى أظهر كل شىء؟ كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو أظهر من كل شىء؟ كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الواحد الذى ليس معه شىء؟

(**فهم**) أى الخلق (**المحجوبون، والبارى جل اسمه منزه عما يحجبه**) لما سيأتى، ولذا علا على، كرم الله وجهه، بالدرة من قال: لا والذى احتجب بسبعة أطباق، وقال: ويحك يا لكع إن الله لا يحتجب.

ثم علل استحالة ذلك فى حقه فقال: (**إذ الحجب**) بضمتين جمع حجاب أو فتح فسكون مصدر (**إنما تحيط بمقدر محسوس**) أى بذى مقدار له طول وعرض وعمق فى جهة تحس بتوجه الناظر، فيقتضى الجهة، وهو منزه عن ذلك.

(**ولكن حجبه عن أبصار خلقه وبصائرهم**) جمع بصيرة، وهى القوة المدركة لغير المحسوس من العقل ونحوه، فلا تحيط به أبصارهم أى لا تدرك إدراك إحاطة بذاته؛ لاقتضائه للتحديد والتناهى ونحوه مما هو منزه عنه كما فسره به قوله: ﴿**لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ**﴾ [الأنعام: ١٠٣] كما ذكره البيضاوى ردا على من أنكر الرؤية، واستدل بهذه الآية ويأتى الكلام عليها، ولا تدركه بصائرهم، والمراد بالإدراك العلم، أى لا تعلم كنهه وحقيقته عقولهم إدراكا تاما يقينا.

(و) حجبه عن (**إدراكاتهم**) أى أنواع العلم والإدراك مغطاة عن إدراك ذاته، فلا رؤية ولا تصور ولا اكتناه فى غير أناة (**بما شاء وكيف شاء ومتى شاء**) متعلق بحجب، أى منعهم عن رؤيته وإدراك ذاته ومعرفة حقيقته، ليس بحجاب كحجاب البشر، بل

بسبب إرادة وكيفية لا يدركها فى أى زمان أراده، وفيه إيماء إلى أن رؤية الله فى الدنيا ممكنة، وفى الآخرة واقعة، وأن معرفة حقيقته ممكنة لنا، وهو الأصح، بل واقعة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن أمسك ذيل حقيقتهم.

كقوله: أى كقول الله فى الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ﴾ أى أن الكفار ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أى يوم القيامة وفى الآخرة إذ تنعم المؤمنون برؤيته ورضوانه ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وقال: كقوله بالكاف لأن المدعى عام، وهذا خاص بالكفار، ولكن فيه إثبات لمدعاه إذ جعلهم هم المحجوبون لا الله.

فإن قلت: الحجب أمر نسبى لابد من تعلقه بالطرفين، فيلزمك ما فررت منه.

قلت: نعم هو نسبى ولكن بين حاجب ومحجوب، والحاجب سبحات الأنوار وستائر العظمة، والمحجوب مخلوقاته لا هو؛ لأنه محجوب عنه لا محجوب، فيجوز أن يوصف بأنه محجوب عنه وحاجب ومحتجب، خلافا لمن أنكره، ومثاله حفرة عميقة فيها نمل على رأسها إنسان حديد البصر، فالنمل محجوب عن رؤيته بالحفرة لا يرى من فوقه، وهو يشاهد ويشاهد حركاته، والحجاب للمشهود لا للشاهد، فعلى هذا يطلق الحجاب ونحوه عليه، لوروده بهذا المعنى مطلقا أو مقيدا إذ إبهام ما سمع من الشارع لا يلتفت إليه كاليد والبصر وغيره، فاعرفه فإنه أمر مهم كثير فى القرآن والحديث.

(**فقوله فى هذا الحديث: الحجاب**) بالجر على حكاية الحجاب أو الرفع.

(و) قوله: (**إذ خرج ملك من الحجاب**) أراد ملك الأذان الذى سأل عنه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، جبريل (**يجب أن يقال**) فى تفسير معناه: (**إنه حجاب حجب به**) الله تعالى (**من وراءه من ملائكته عن الاطلاع**) بكسر الطاء المشددة، أى رؤيتهم متعلق بحجب (**على ما دونه**) أى ما خلفه ووراءه من جانب الغيب وباطنه، فهو الباطن والظاهر.

(**من سلطانه**) الظاهر أنه أراد به ما يقبضه قدرته عند تصرفه مما لا يطلع عليه رسل الملائكة وغيرهم إلا بإذنه نادرًا.

(**وعظمته وعجائب ملكوته**) وما لا يدرك من ذلك، والمراد بالملكوت عالم غيب الغيب أى ما غيب عن الملائكة.

(**وجبروته**)، وهو يطلق على القهر، وعلى عظائم الملكوت وغرائبه مما احتجب عن غيره، وهو المراد، وجبروته بغير همزة. قال الحلبى: وهو مهموز فى بعض النسخ وهو لحن، (**ويدل عليه**) أى يدل على أن الحجاب لغيره لا لذاته (**من الحديث قول جبريل**) له،

صلى الله تعالى عليه وسلم، **(عن الملك الذى خرج من ورائه: إن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتى هذه)**، فإنه صريح فى أن الحجاب إنما حجب الخلق، فإن جبريل قد حجبه الله تعالى عما فى سرادق جلاله، وخلف حيطة عظمته، **(فدل على أن هذا الحجاب)** المذكور فى الحديث **(لم يختص بالذات)** أى لم يختص محجوبيته بذاته تعالى إذ حجب بعض الملائكة أيضا كملك الأذان.

وبما فسرناه به علمت أنه لا يتوهم أن المصنف، رحمه الله، حقه أن يقول: يختص بغير الذات؛ لأن نفى الاختصاص يقتضى المشاركة كما لا يخفى.

(ويدل عليه) أى على عدم اختصاص الحجاب بالذات كما مر **(قول كعب)** الأحبار **(فى تفسير سدرة المنتهى)** أى فى بيان سبب تسميتها به **(قال: إليها ينتهى علم الملائكة، وعندها يجدون أمر الله لا يجاوزها علمهم)**، فهذا وجه تسميتها به، ومنه يعلم أن الحجاب إنما هو بالنسبة لغيره، لا له، وأن المحجوب عنهم ذاته، وأمره وملائكته المقربون، وقوله: يجدون معناه يقفون ويعلمونه.

(وأما قوله) فى الحديث **(الذى يلى الرحمن)** لما كان ظاهره أنه حائل بينه وبين غيره أشار إلى تأويله بقوله: **(فيحمل)** أى يفسر بأنه **(على حذف المضاف أى الذى يلى عرش الرحمن)**، فالمضاف المقدر لفظ عرش أو لفظ أمر **(أو أمرًا ما)** زيادة للعموم أو للتعظيم، أى يلى أمر الرحمن **(من عظيم آياته)** من بيانية لإيضاح ما أبهم أولا، وهو أوقع فى النفوس لحصوله بعد التشوق إليه، **(أو من مبادى حقائق معارفه)** أى أمرا يكون مبدأ لما يتحقق به معرفة الله **(مما هو)** أى الله تعالى **(أعلم به)** من رسله وملائكته، عليهم الصلاة والسلام، **(كما قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] أى أهلها)** إشارة إلى أن تقدير المضاف لقرينة عقلية كثير بليغ؛ لأن القرية لا تُسأل وإنما يُسأل أهلها.

(وقوله) تعالى فى حديث الأذان إجابة للملك لما قال: الله أكبر من كل كبير **(فقيل: من وراء الحجاب صدق عبدى)** أى الملك القائل **(أنا أكبر، فظاهره أنه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(سمع فى هذا الموطن)** أى المكان الذى كان قارا به كما يقر الإنسان فى وطنه **(كلام الله)** من غير واسطة كما سمعه موسى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ولكن من ورآء حجاب)** حجبه عن رؤية الله تعالى، وهو يراه من غير حجاب بالنسبة له، وإن كان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، محجوبا عن رؤيته معاينة ثمة، فهو لا يراه ثم استدل على ذلك بقوله: **(كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾** [الشورى: ٥١]، **أى هو)** أى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لا**

يراه) أى لا يرى الله معاينة إذ **(حجب بصره)** أى بصر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(عن رؤيته)** أى رؤية النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ربه فى هذه الدنيا، ولما كان هذا يوهم امتناع الرؤية مطلقا قال: **(فإن صح)** الحديث و**(القول بأن محمدًا، صلى الله تعالى عليه وسلم، رأى ربه)** عيانا حين أسرى به، **(فيحتمل أنه فى غير هذا الموطن)** الذى سمع فيه الأذان **(بعد هذا)** الموطن والمقام، **(أو قبله رفع الحجاب عن بصره حتى رآه)** عيانا فى مقام آخر، **(والله أعلم)**.

* * *

(فصل)

فى تحقيق الإسراء

اعلم أنهم اختلفوا فى المعراج والإسراء، هل كانا فى ليلة واحدة أو ليلتين؟ وهل كانا جميعًا يقظة أو منامًا؟ أو بعضه يقظة وبعضه منامًا؟.

فقيل: إن الإسراء كان مرتين، مرة بروحه منامًا، ومرة بروحه وبدنه يقظة، ومنهم من قال بتعدد الإسراء فى اليقظة أيضًا، بل قيل: إنه أربع مرات، وبعضها كان بالمدينة.

ووفق أبو شامة، رحمه الله تعالى، بين الروايات بالتعدد، وأنه وقع من مكة لبيت المقدس فقط على البراق، ومرة من مكة إلى السموات، إلى آخر ما فصله، وقال: إنه لبيت المقدس ثابت بنص القرآن والحديث، وقد تقدم الفرق بين الإسراء والمعراج، وأن الأول سيره لبيت المقدس، والثانى صعوده منه للملأ الأعلى، وأن كلا منهما يطلق على الجميع.

وأما حمل البدن على أنه بطريق الانسلاخ الذى ذهب إليه الصوفية، فإخراج للحديث عن ظاهره لمعنى لا ينبغى التعويل عليه، وإنما ذكرناه لننبهك عليه؛ لئلا تغتر بكلام بعض جهلة المتصوفة والحكماء.

(ثم اختلف السلف والعلماء)، من عطف العام على الخاص، والمراد بالسلف الصحابة ومن عاصرهم، وبالعلماء من بعدهم، **(هل كان إسراء بروحه أو جسده؟)**، إسراء بالنصب خبر كان، أى هل كان الإسراء إلى آخره، **(على ثلاث مقالات)، أى** اختلاف واقع على ثلاثة أقوال للسلف والخلف، ثم فسره وفصله بقوله: **(فذهب طائفة)، أى** جماعة ممن سيصرح به **(إلى أنه)، أى** الإسراء، **(إسراء بالروح، وأنه رؤيا منام)**، عطف تفسير لا بدل كما توهمه الدلجى.

وفى تفسير القاضى اختلف فى أنه كان فى المنام أو فى اليقظة بروحه أو بجسده،

وقوله: بروحه أو بجسده لف ونشر، أى بروحه فى المنام أو بجسده مع روحه فى اليقظة، وليس متعلقًا بقوله: فى اليقظة فقط كما توهم، والصحيح الثانى كما سيأتى.

قال البرهان: وبقى قولان، أحدهما: أنه تعدد، فمرة بجسده ومرة أو مرات بروحه، والثانى: أنا نقول بالإسراء، ولا نعين كونه يقظة أو منامًا كما فى الهدى النبوى، وهو غريب.

(مع اتفاقهم) سلفًا وخلفًا على **(أن رؤيا الأنبياء حق ووحى)**؛ لأنهم، عليهم الصلاة والسلام، تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، ولأن الشيطان لم يسلط عليهم، فيتمثل لهم، والوحى على أنواع، منها المنام، إلا أنه على قسمين: منه ما يقع بعينه، وهو الأكثر، ولذا ذهب الخليل إلى ذبح إسماعيل، عليهما الصلاة والسلام، ومنها ما يعبر ويأول.

(وإلى هذا ذهب معاوية) بن أبى سفيان بن حرب بن أمية، كما رواه عنه ابن جرير وابن إسحاق، وهو، رضى الله تعالى عنه، صحابى ابن صحابى، توفى بالشام حاكمًا بها سنة ستين، وعمره ثمان وسبعون أو ست وثمانون، وكان عنده إزار رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ورداؤه وشىء من شعره وظفره، فكفن بردائه وإزاره، وحشى شعره وظفره بفيه ومنخره بوصية منه، رضى الله تعالى عنه.

(وحكى عن الحسن) البصرى، رحمه الله تعالى، وحكى مبنى للمجهول، **(والمشهور عنه)**، أى عن الحسن **(خلافه)**، أى له قولان، أشهرهما أنه كان يقظة، **(وإليه)**، أى إلى ما ذكر عن الحسن أولاً، **(أشار محمد بن إسحاق)** بن يسار صاحب المغازى، وهو ثقة وإن طعن فيه بعضهم.

(وحجتهم)، أى دليل القائلين بأنه رؤيا منام، **(قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠])**؛ لإنكار كثير منهم له، وارتداد بعض ممن أسلم حين بلغهم ذلك؛ لضعف عقولهم وإيمانهم، ولا حجة فى ذلك؛ لأن لها تفاسير أخر، وفى بعض النسخ هنا: **(وقيل: رآها عام الحديبية)**، اسم بئر مشهورة، وياؤها مخففة ورويت مشددة أيضًا كما سيأتى بيانه؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، رأى أنه هو وأصحابه دخلوا مكة، كما قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧]، إلى آخره، فلما صدوا عن الدخول، فتن بعضهم، فقيل: لم يقل فى هذا العام، وقيل: الآية فى قصة بدر؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: ٤٣]، وقيل: المراد بها رؤيا بنى أمية تنزو على منبره، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(و) مما احتجوا به، **(ما حكى عن عائشة، رضى الله تعالى عنها: ما فقدت جسد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وفى نسخة: ما فقد، بالبناء للمفعول، وفى رواية: لم تفقد، مجهول أيضًا. قال التلمسانى: وهى الأشبه بالصواب، فهو إخبار منها عن غيرها؛ لأنها لم تكن حينئذ زوجته، بل لم توجد. انتهى.

وستأتى الإشارة إليه فى كلام المصنف، مع أن له، صلى الله تعالى عليه وسلم، زوجات أخر، فلا يلزم من عدم فقدها لذلك فقد غيرها له، وقيل: ولا حجة فيه أيضًا؛ لاحتمال أنه تعالى أراد أن يحجب عنها حقيقة ذلك، مع أن النفى مقدم على الإثبات، ولا يخفى ما فيه من التكلف.

(وقوله)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى رواية: **(بينا أنا نائم)**، قال ابن المنير فى المقتفى: جنح هؤلاء إلى قضايا ظنوها تخيل الإسراء يقظة من حيث العقل، وذلك غلط بين، وإنما هو استبعاد عادى ظنوه محالاً عقليًا، فاحتجوا مما ورد فى بعض الروايات من التصريح بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان نائمًا فأيقظه الملك، وقوله: «بين النائم واليقظان»، ليس بصريح بأن النوم استمر، بل كان مجىء الملك إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو وسن، وبأقل من ذلك يستيقظ النائم المستغرق لاسيما الوسن، واحتجوا على أنه استمر بأن المنام مصرح به، وإنما ورد فى بعض الطرق، أى الآتية: «فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام»، ورد عليهم بأن المراد الإفاقة البشرية من الغمرة الملكية، أى كما سيأتى بيانه.

وبالجملة فإن صح النقل فى الطرق وتعارضت وتعذر التأويل، حمل على التعدد وتنزيله على إسراءات بعضها يقظة وبعضهما منامًا، لا يقال: لو كان كذلك لما تكرر فرض الصلاة، فإنها إنما فرضت دفعة. قلنا: فرضت فى اليقظة، وجاء المنام بعد ذلك كالذكرى وتجديد العهد، أو تقدم المنام كالتقدمة والتعريض بالفرض وبما سيكون، ثم فرضت يقظة، وكثيرًا ما يرى النائم أنه فعل فعلاً كان فعله قبله، ويقع له أنه الفعل المتقدم بعينه، فيكون ذلك لمعنى ما. انتهى.

(وقول أنس، رضى الله تعالى عنه: وهو نائم فى المسجد الحرام، وذكر القصة) الواردة فى حديث الإسراء الذى رواه البخارى، وهو يدل على أنه كان منامًا، **(ثم قال فى آخرها: فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام)**، أى انتبهت من منامى، فوجدتنى به بهذه الحالة، فانتفى كونه حجة لذلك، وقد علمت ما فيه.

(وذهب معظم السلف والمسلمين)، عطف للعام على الخاص، وفيه إشارة إلى أن

خلافه لا ينبغى لمسلم اعتقاده، **(إلى أنه إسراء بالجسد)** مع الروح، **(وفى اليقظة)** المقابلة للنوم، وهى بفتح الياء والقاف وتسكينها لحن إلا لضرورة شعرية، كقول التهامى[1]:

فالعيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال سارى

وبالتسكين علم كاليقظان.

(وهذا هو الحق) الذى يقتضيه الإسلام، إذ لا حاجة لصرف النصوص عن ظاهرها بغير داع، ولو كان كذلك لم ينكره أحد من العقلاء، **(وهو قول ابن عباس، وجابر، وأنس، وحذيفة، وعمر، وأبى هريرة)**، رضى الله تعالى عنهم، وهو عبد الرحمن بن صخر على الأصح من الأقوال فى اسمه مشهور كما تقدم، **(ومالك بن صعصعة)** الصحابى المدنى كما تقدم.

(وأبى حبة البدرى)، بفتح الحاء المهملة بلا خلاف، ثم باء موحدة مشددة على الأصح، وقيل: إنه بنون مشددة، وقيل: بمثناة تحتية مشددة ثم هاء، واسمه عامر، وقيل: مالك، وقيل: عمرو، وقيل: ثابت بن النعمان، كما فى الاستيعاب، واختلف فى أبى حبة الأنصارى وأبى حبة البدرى، هل هما واحد أو اثنان على اختلافهم فى ضبطهم المتقدم؟ وقوله: البدرى، أى شهد بدرًا، إشارة إلى أنه من كبار الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، وقيل: اسمه كنيته.

(وابن مسعود، والضحاك)، وهو مزاحم البلخى المفسر المكنى بأبى القاسم، أو أبى محمد، يروى عن ابن عباس، وأبى هريرة، وهو ثقة وإن ضعفه بعضهم، توفى سنة خمس ومائة، وقيل: سنة ست، وأخرج له أصحاب السنن الأربعة دون الشيخين، **(وسعيد بن جبير)** المشهور، وهو الوالبى أبو محمد، أخرج له أصحاب الكتب الستة، **(وقتادة)** المتقدم ترجمته، **(وسعيد بن المسيب)**، بفتح الياء وكسرها كما تقدم فى ترجمته.

(وابن شهاب) أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهرى كما تقدم، **(وابن زيد)** عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وترجمته فى الميزان، **(والحسن)** بن أبى الحسن البصرى كما تقدم، **(وإبراهيم)** النخعى المتقدم ذكره، **(ومسروق)** بن أجدع أبو عائشة الهمدانى، أحد الأعلام الذى لم يخرج من همدان مثله، صاحب المناقب الجمة، وكان أعلم بالفتيا من شريح، توفى سنة ثلاث أو اثنتين وستين، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، ولقب بمسروق؛ لأنه سرق وهو صغير ثم وجد.

(ومجاهد) بن جبر المتقدم ترجمته، **(وعكرمة)** بن عبد الله، الإمام المفسر، مولى ابن

---

(١) البيت من الكامل، وهو للتهامى فى تاج العروس (٢٠/٢٩٤) (يقظ).

عباس، رضى الله تعالى عنهما، أحد أوعية العلم الثقة، وهو إباضى، وسيأتى بيان الإباضية آخر الكتاب، روى له الشيخان، وتوفى سنة خمس، أو ست، أو سبع ومائة، وترجمته مفصلة فى الميزان، **(وابن جريج)** عبد الملك بن عبد العزيز، وقد تقدمت ترجمته.

(وهو دليل قول عائشة، رضى الله تعالى عنها)، قيل: كيف يكون الإسراء يقظة دليل قول عائشة: ما فقدت جسده الشريف، الدال على أنه منامًا لا يقظة؟ وهذا عجيب، إذ ذكره فى المذهبين، وجعل ما يبطله دليلاً عليه كما سيأتى، فهذا سهو منه بلا ريبة.

أقول: لا شك أنه وارد، وأن كلامه لا يخلو من إشكال، إلا أن يقال: سقط منه شىء، وأصله دليل على عدم صحة قول عائشة؛ لأنه لم يثبت نقله عنها، وقد يقال: مراده أنه دليل على قول عائشة قولاً موافقًا لما عليه أكثر الصحابة، وأنها قائلة بأنه يقظة كالجمهور كما سيأتى فى كلامه، فالمراد إبطال ما نقلوه عنها، وهذا وإن كان مخالفًا للظاهر، لكنه أسهل من تغليط المصنف، وهو الأنسب بقوله: **(وهو قول)** محمد بن جرير **(الطبرى)** المتقدم ترجمته، **(وأحمد بن حنبل، وجماعة عظيمة)**، أى كثيرة، والعظمة تطلق بمعنى الكثرة كثيرًا، وإن كان المعروف خلافه، أو المراد أنهم أئمة مقدارهم جليل، **(من المسلمين، وهذا قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين)**، فعلى كثرة نقلته وشهرة الأخبار الصحيحة به لا يناسب مخالفة أم المؤ منين، رضى الله تعالى عنها، فيه.

(وقالت طائفة:) هذا هو القول الثالث، **(كان الإسراء بالجسد يقظة من المسجد الحرام إلى بيت المقدس)** فقط، **(و)** منه **(إلى السماء بالروح)**، يعنى منامًا، ولا يخفى بعده، إذ لم ينقل أنه ﷺ نام ثمة، وهذه الحالة لا تناسب النوم ثمة، **(واحتجوا بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إلى بيت المقدس)**، وفى نسخة: **﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾** [الإسراء: ١]، وهى الموافقة للنظم الشريف، وهى أصح عندى.

واعلم أنهم فسروا العروج الروحانى بالمنام، وليس بمتعين؛ لأنها قد تفارق البدن بدونه، وهذا مما اتفق عليه الحكماء وأهل التصوف، وليس هذا محل تحقيقه، وقوله: **(فجعل إلى المسجد الأقصى غاية الإسراء)**، تفسير وتفصيل للاحتجاج؛ لأنه لما جعله غاية، اقتضى أنه لم يتجاوز إلى السماء ببدنه الشريف، ولا حجة فيه؛ لأن كونه غاية لمسيره فى الأرض، لا ينافى صعوده لما يحاذيه فى جهة العلو، وما قيل من أنه إنما يتم إذا كان الإسراء مرة واحدة، وعلى تقديره يكون غاية لركوبه البراق، ثم عرج منه إلى السماء، والحكمة فى عدم ذكره لها بيانه للسنة دون الكتاب، وهو أبلغ فى المدح انتهى. ليس بشىء، ولو قيل: إنه هو الذى أنكروه، وأنه اكتفى بأقل ما تثبت به معجزته،

واقتصر على ما تفهمه عقولهم القاصرة، كان أظهر، ونحوه قول ابن المنير فى المقتفى، ورد الاحتجاج بأن الحكمة فى تخصيص المسجد الأقصى أن يسأل قريش على سبيل الامتحان عن الأعلام التى عرفوها، والصفات التى شاهدوها فى بيت المقدس، وقد علموا أن الرسول ﷺ لم يسافر إليها قط، فيجيبهم بما عاين ويوافق ما يعلمونه، فتقوم الحجه عليهم، وكذلك وقع؛ ولذا لم يسألوه ﷺ عما رأى فى السماء، إذ لا علم لهم بذلك. انتهى. وأقصى بمعنى أبعد؛ لأنه أبعد مسجد فى الأرض، وآخر محل عبد الله فيه بحق.

وقوله: (**الذى وقع التعجب فيه**)، ضمير فيه للإسراء، أى وقع التعجب فى شأنه؛ لقطع مسافة طويلة فى بعض ليلة، والتعجب يفيده قوله: ﴿سُبْحَٰنَ﴾ [الإسراء: ١]؛ لأنه مصدر منصوب على المصدرية، ومعناه تنزيه الله عما لا يليق بعظمته، ثم شاع استعماله فى التعجب، ووجهه مذكور فى الكشاف وشروحه، والتعجب من المعجزات لكونها خارقة للعادة، وهو من الله تعجيب لما تعجب منه، وقد ورد استعماله فى حق الله، وورد فى الحديث كقوله ﷺ: «عجب ربنا من كذا»، وهو من البشر؛ لاستحالة ما تعجبوا منه، أو استبعاده، وأشار إلى المراد من تعجب الله، فقال: (**تعظيم القدرة**)، منصوب؛ لأنه مفعول له، أى لتعظيم قدرة الله الباهرة المؤثرة على وفق الإرادة، وفى نسخة: بعظيم، بالباء الجارة.

(**والتمدح بتشريف النبى محمد ﷺ به**)، أى بالإسراء، والجار متعلق بتشريف، ويجوز رفعهما بوقع، أى وقع فيه تعظيم القدرة والتمدح، وكذا قوله: (**وإظهار الكرامة له**) ﷺ (**بالإسراء إليه**)، أى إلى المسجد الأقصى، وهو من وضع الظاهر موضع الضمير اعتناء به؛ لأنه أجل كراماته وأعظم معجزاته.

(**قال هؤلاء:**) الذاهبون إلى أن الإسراء بجسده ﷺ إلى المسجد الأقصى، وهم أرباب المذهب الثالث، (**ولو كان الإسراء بجسده إلى**) مكان أرفع (**زائد على المسجد الأقصى لذكره**) الله تعالى فى القرآن حين قص قصة الإسراء، (**فيكون**) ذكره فيه (**أبلغ فى المدح**) من عدم ذكره.

(**ثم اختلفت هذه الفرقتان**)، الثانية والثالثة، فى أنه ﷺ (**هل صلى ببيت المقدس**) حين أسرى به (**أم لا؟**)، فقيل: صلى به، وأم معادلة لهل، وهو من نوادر العربية، سمع ذلك فى قوله ﷺ لجابر، رضى الله عنه: «هل تزوجت بكرًا أم ثيبًا»، وإن أنكره بعض النحاة.

(**ففى حديث أنس وغيره ما تقدم من صلاته**) ﷺ بالأنبياء (**فيه**)، أى فى بيت المقدس،

وستأتى رواية أخرى أنه ﷺ صلى بهم فى السماء، وفى رواية: أنه لم يصل بهم فيه، كما أشار إليها بقوله: **(وأنكر ذلك)**، أى صلاته بالأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فيه **(حذيفة بن اليمان، وقال)**، كما رواه أحمد بن حنبل، رحمه الله تعالى: **(والله ما زالا)**، أى جبريل والنبى ﷺ، وزال هنا تامة، أى لم ينفصلا وينزلا عن ظهر البراق، حتى رجعا إلى الأرض، فكان جبريل، عليه الصلاة والسلام، راكبًا معه ﷺ، ويروى أنه كان ماشيًا.

(قال القاضى) أبو الفضل عياض المؤلف، رضى الله تعالى عنه: **(والحق من هذا والصحيح)** رواية **(إن شاء الله)**، قيده بالمشيئة من أنه أمر واقع وانقطع؛ تبركًا وتأدبًا، وللإشارة إلى احتمال التعدد، فكل رواية لا تنافى الأخرى، فلا ينافى قوله: إن شاء الله، كونه حقًا صحيحًا كما قد يتوهم، وهذا كقوله ﷺ : «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون».

(أنه إسراء بالجسد والروح)، لا بالروح فقط منامًا أو يقظة، **(فى القصة كلها)**، أى فى قصة الإسراء إلى المسجد الأقصى والسموات، **(وعليه تدل)**، أى مما يدل عليه نقلاً نص القرآن، وهو **(الآية)** الدالة على شطرها صريحًا، **(وصحيح الأخبار)** المشهورة المستفيضة الدالة على عروجه ﷺ إلى السماء، والأحاديث الآحاد الدالة على دخوله الجنة، ووصوله إلى العرش، أو طرف العالم كما سيأتى، وكل ذلك بجسده يقظة، **(والاعتبار)**، بالرفع معطوف على ما قبله كما صححه البرهان، والمراد به التتبع لأقوال السلف، أو دقيق الفكر والتأمل فى الأحاديث المروية والقصة، يعنى أنه يدل على ذلك العقل والنقل.

(ولا يعدل)، بالبناء للمجهول، من العدول، أى لا يخالف أحد ويرجع ويميل **(عن الظاهر)** الذى يقتضيه العقل والنقل، **(والحقيقة)** المتبادرة من لفظ الحديث الصحيح، وليس عطفًا تفسيريًا كما قيل، **(إلى التأويل)**، متعلق بيعدل، أى لا يصرف عن ظاهره، ويأول النصوص الواردة فيه، **(إلا عند الاستحالة)**، أى إلا إذا كان ظاهره مستحيلاً عقلاً وشرعًا، حتى يتعذر حمله على حقيقته، وليس ما نحن فيه كذلك.

(وليس فى الإسراء بجسده حال يقظته استحالة)، تقتضى العدول عن الظاهر والتأويل، وما قيل من أن ما ذكره غير مسلم؛ لأنه يكفى فى المصير إلى التأويل قيام المعارض للظاهر من الروايات التى أوردها المخالف الذاهب إلى أنه منامٌ لا يقظة، مردود بأن هذه الرواية عنده أصح وأقوى؛ لتعدد من رواها وذهب إليها من كبار الصحابة وكثرتهم جدًا كما قيل به، فإن قيل بالتعدد كما لم تكن معارضة أيضًا، فتدبر.

(تنبيه) الاستحالة المذكورة، أى عد الإسراء محالاً، صدر من كفار قريش، ومن بعض

ضعفاء المسلمين، إذ توهموا أن قطع مثل هذه المسافة ذهابًا وإيابًا فى بعض ليلة محالاً؛ لأنها بعيدة، بحيث تقطع فى أيام كثيرة، ومن بعض أرباب علم الهيئة الذين قالوا: إن الأفلاك لا فرجة فيها، ولا تقبل الخرق والالتئام، وكلاهما خطأ عقلاً ونقلاً، ألا ترى نقل عرش بلقيس فى مسافة أبعد من هذه فى طرفة العين، وغير ذلك مما هو مأثور مشهور، وقد نطقت النصوص بأن السماء لها أبواب تفتح وتغلق، فلا عبرة بأوهام الفلاسفة.

وقال البيضاوى تبعا للإمام الرازى: الاستحالة مدفوعة بما ثبت فى الهندسة أن ما بين طرفى قرص الشمس ضعف ما بين طرفى كرة الأرض مائة ونيفًا وستين مرة، ثم إن طرفها الأسفل يصل لموضع طرفها الأعلى فى أقل من ثانية، والأجسام كلها متساوية فى قبول الأعراض، والله قادر على كل الممكنات، فيقدر على أن يخلق مثل هذه الحركة السريعة فى بدن النبى ﷺ، أو فيما حمله، والتعجب من لوازم المعجزات. انتهى.

وقد أورد عليه اعتراضات بسطناها مع جوابها فى حواشيها عليه، واعلم أن كلامه مبنى على أن الحقيقة تقدم مطلقًا، وعند الشافعى يقدم المجاز الغالب عليها، ثم إن التعجب والعجب إذا أسند إلى الله فهو مأول، وكذا صيغة التعجب، وفى حديث: «عجب ربكم من شاب ليس له صبوة».

قال ابن فورك فى كتاب الكشف: قد ورد مثله فى أحاديث كثيرة، والعجب والتعجب أصله أن يفاجأ أمر لم يعلمه من فاجأه، فيستعظمه، وهذا لا يليق بالله عز وجل، فالمراد لازمه، يعنى أنه خلقه عظيمًا، بحيث يتعجب من خلقه، أو المراد الرضاء والقبول؛ لأن من أعجبه شىء رضيه وقبله، فلا يتعجب مما يكره غالبًا، فإذا أراد تعظيم شىء أخبر عنه بما يقتضى تعظيمه، إلى آخر ما فصله، وسبحان كثر استعماله فى ذلك.

وقوله: (**إذ لو كان منامًا لقال: بروح عبده، ولم يقل بعبده**)، تعليل لصحة كونه يقظة، ولعدم الاستحالة، (**وقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾** [النجم: ١٧]، **ولو كان منامًا لما كانت فيه آية ولا معجزة، ولما استبعده الكفار ولا كذبوه فيه، ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به**)، ووقعوا فى فتنة، أى بلية عظيمة توقعهم فى العذاب؛ لردتهم وتكذيبهم له، وإنكارهم لما أخبر به ﷺ بما هو خارق للعادة، وهو قد أخبر به؛ لأنه معجزة تحداهم بها، (**إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر**)، تعليل لعدم الاستبعاد والتكذيب.

فإن قلت: هذا يقتضى أن رؤية الله فى المنام جائزة بلا خلاف، وقد قالوا: إنه اختلف فيها.

قلت: قال الإمام الغزالى: إن الخلاف فيها غير معتد به، ولأن المرئى مثال، وفرق بين المثال والمثل، وقد أفرده برسالة، فإن أردت تحقيقه فراجعها.

(**بل لم يكن منهم ذلك**) المذكور من الاستبعاد والتكذيب والارتداد والافتتان، (**إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن**) إسرائه (**بجسمه وحال يقظته**)، أخذًا مما قاله لهم، وأما كون رؤيا الأنبياء وحى وحق، فهذا إنما يعرفه من صدقه وصدق بخبره، فما قيل من أنه ممنوع؛ لأن رؤياهم حق؛ ولذا قال الله تعالى لإبراهيم، عليه السلام: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَآ﴾ [الصافات: ١٠٥]، وإذا كانت رؤياها كذلك استقام كونها معجزة له، ويتعلق الإنكار بأن رؤياهم حق، كلام فى غاية السقوط.

(**إلى ما ذكر فى الحديث**) المتقدم، وذكر مبنى للمجهول، ويصح بناؤه للفاعل أيضًا، وإلى بمعنى مع، كقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢]، وللغاية بتقدير من البيت المقدس إلى المذكور فى الحديث بقرينة المقام، وقوله: (**من ذكر صلاته ببيت المقدس**) بيان لما، وبيت المقدس هو مسجد إيلياء، ومعنى إيلياء بالسريانية وهى لغة آدم، عليه الصلاة والسلام، بيت الله.

(**فى رواية أنس، أو فى السماء على ما روى غيره**)، كما تقدم بيانه، (**وذكر مجىء جبريل**) ﷺ (**بالبراق وخبر المعراج**)، بكسر الميم، اسم آلة للعروج، وهو الصعود فى جهة العلو كالسلم، وقد تقدم بيانه، (**واستفتاح السماء**)، أى طلب فتحها له ﷺ من جبريل.

(**فيقال:**) من أنت؟، أى تقول ملائكة السماء لجبريل: من أنت؟ فيقول: جبريل، فيقال له: (**ومن معك؟ فيقول: محمد، ولقائه**)، الضمير لمحمد ﷺ (**الأنبياء فيها**)، أى السماء، (**وخبرهم معه**) فيما وقع له معهم من المكالمة، (**وترحيبهم به**)، أى قولهم له ﷺ: مرحبًا بالأخ الصالح، أو الابن الصالح، كما مر، وهو تفعيل من الرحب، بضم الراء المهملة وفتحها، ومعناه السعة، أى صادفت مكانًا رحبًا ذا سعة، وهو كناية عن وجوده فيه ما يسره ويكرمه.

(**وشأنه فى فرض الصلاة**) خمسين عليه وعلى أمته، ثم تخفيفها، وهو مجرور ومعطوف على مجىء، والشأن الأمر العظيم الذى جرى له فى ذلك، (**ومراجعته موسى**)، أى رجوعه فى المشاورة (**فى ذلك**) كما مر.

(**وفى بعض هذه الأخبار**) والحديث الذى رواه الشيخان، عن أنس، رضى الله تعالى عنه: (**فأخذ، يعنى جبريل، بيدى**)، أى أمسك يده؛ ليصعد معه، (**فعرج بى إلى السماء**)،

أى صعد وأنا معه، (**إلى قوله: ثم عرج بى**)، بالبناء للفاعل أو المفعول، وعرج كقعد عرجًا ومعرجًا ارتقى. قال فى القاموس: إذا كان خلقة فعرج كفرح، أو يثلث فى غير الخلقة، وهو أعرج بين العرج. انتهى. ولبعض الأدباء فى أعرج من رسالة:

قامت العصاة بيده مقام رجله ... وقلت أعواد الأغصان من أجله

فعرج إلى الأرض لا إلى السما ... وغرس العود بكفه ولكن ما أورق ولا نما

وحمل العصا هو العذاب الأليم ... ولا أفلح من لازمها بعد موسى الكليم

انتهى.

(**حتى ظهرتُ**)، أى صعدت وعلوت، وهو كناية؛ لأنه يلزم من العلو على مكان عال أن يظهر، ويصاعد من هويه، (**بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام**)، المستوى بضم الميم أوله مقصور، اسم مكان، وقد تقدم الكلام عليه، وأن الصريف والصرير بمعنى، وهو الصوت الذى يسمع من الأجرام الجامدة إذا حركت، وأن المراد بالأقلام أقلام الملائكة، عليهم الصلاة والسلام، التى تكتب ما قدره الله، وهنا وقع فرض الصلاة، أو هو قلم واحد لله جمع تعظيمًا ولكثرة مكتوبه، وهو العلم المقارن للوح المحفوظ كما قيل.

(**وأنه وصل إلى سدرة المنتهى**)، ورأى ما غشيها من الألوان وغيرها كما تقدم، (**وأنه دخل الجنة، ورأى فيها ما ذكره**) من جنابذ اللؤلؤ، وترابها المسك، إلى آخر ما ذكره.

(**قال ابن عباس**)، رضى الله تعالى عنهما، فيما صح عنه من رواية البخارى: (**هى رؤيا عين رآها النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا رؤيا منام**)، ولا يعارضه ما روى عن عائشة وغيرها كما قيل؛ لصحة هذا وكثرة طرقه وشهادة ظاهر النصوص له كما مر، ولا وجه لما قيل أيضًا أن صوابه رؤيا نائم كما لا يخفى.

(**و**) روى ابن إسحاق وابن جرير مرسلاً، (**عن الحسن**) البصرى (**فيه: بينا أنا نائم**)، وفى نسخ: جالس، (**فى الحجر**)، بكسر الحاء المهملة، وسكون الجيم، ونقل التلمسانى عن بعضهم أنه يقال: بفتح الحاء المهملة، وفى القاموس: إن الأول معناه وما حواه الحطيم المدار بالكعبة من جانب الشمال، وديار ثمود، والأنثى من الخيل، وبالهاء لحن أقول ما قاله، وإن سبقه إليه غيره ليس بصواب، فإنه ورد فى الحديث، وصححه بعض أهل اللغة كالقزوينى فى مثلثاته، وإليه ذهب شيخنا المقدسى فى حواشيه، والحجر معروف بجنب البيت الشريف كنصف دائرة عليه جدار، وهو من البيت، وقيل: الذى منه مقدار ستة أذرع أو سبعة كما أفاده البرهان.

(جاءنى جبريل فهمزنى بعقبه)، همزه كضربه، وما وقع فى بعض النسخ: نهرنى، من تحريف النساخ، أى مسنى بشدة لينبهنى، والهمز والضغط بمعنى، وفى العين همزته غمزته، والهمزة فى الحروف؛ لأنها تهمز فتنهمز عن مخرجها. انتهى. وهو يدل على أنها صحيحة لغة، فلا وجه لما فى بعض شروح الكشاف من أنها لم تسمع، وإنما اسمها ألف. وعقبه بفتح العين المهملة، وكسر القاف، ثم الموحدة مؤخر رجل، وهذا يدل على أنه تمثل له ﷺ بصورة رجل حين همزه، والضمير لجبريل، عليه الصلاة والسلام، وليس فيه سوء أدب ممن لم يقصد التنقيص كما قيل.

(فقمت)، أى انتبهت من منامى، بدليل قوله: **(فجلست)**، والقيام بهذا المعنى كثير، **(فلم أر شيئًا، فعدلت لمضجعى)**، أى رجعت لما كنت عليه من هيئة النائم، فالمضجع مصدر ميمى، أو اسم مكان، **(ذكر ذلك ثلاثًا)**، وإنما ذكره ثلاثًا؛ لأنه وقع الهمز ثلاث مرات، **(فقال فى)** المرة **(الثالثة: فأخذ بعضدى)**، بالإضافة إلى ياء المتكلم المخففة، والعضد ما فوق المرفق، **(فجرنى إلى باب المسجد)**، أى أخرجه إليه تأدبًا منه، إذ لم يدخل ما هو على صورة دابة لفناء بيت الله، وقيل: الله أعلم بصحة هذا؛ لنزاهة جبريل عن أن يفعل به ﷺ ذلك الجر، وفيه نظر، **(فإذا بدابة، وذكر خبر البراق)** المتقدم فى شكله وهيئته وسرعته، وهذا رواه ابن إسحاق، وابن جرير، والطبرانى.

(وعن أم هانئ)، بهمزة فى آخره وتبدل ياء، واختلف فى اسمها، فقيل: فاختة، وقيل: عاتكة، وقيل: حمامة، وقيل: فاطمة، وقيل: رملة، وهى بنت أبى طالب، صحابية عظيمة المقدار، أخرج لها أصحاب الكتب الستة، وكانت أسلمت يوم الفتح، وهرب زوجها هبيرة المخزومى، فمات بنجران كافرًا، وخطبها النبى ﷺ فاعتذرت بأنها مصبية، أى ذات أولاد.

(ما أسرى برسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلا وهو فى بيتى)، وهو مخالف لما مر أنه كان بالحجر أو غيره، فإن قيل بتعدد الإسراء، فلا إشكال، **(تلك الليلة)** التى أسرى به فيها من بيتها، **(صلى العشاء الأخيرة)**، والعشاء الأولى المغرب، **(ونام بيننا)**، أى بين أهل بيتها وأولادها، وفى رواية: ونام شيئًا، بشين معجمة، أى نام قليلاً من الليل.

(فلما كان قبيل الفجر)، بتصغير قبل تصغير تقريب وتقليل، **(أهبنا)**، بالهمزة أوله وتشديد الموحدة، أى أيقظنا، يقال: هب، إذا استيقظ، وأهبه أيقظه من منامه ونبهه منه، **(فلما صلى الصبح)**، أى صلاة الصبح، **(وصلينا)** معه، **(قال: يا أم هانىء، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت)**، بكسر التاء، أى كما شاهدت صلاتى لها، **(بهذا**

الوادى)، أى بمكة، وهى واد؛ لإحاطة الجبال بها وانخفاضها بينها، قالوا: وهذا مشكل من وجوه؛ لأنها إنما أسلمت عام الفتح كما مر، فكيف يكون صلت معه العشاء؟ وأيضًا أن الصلاة إنما فرضت فى الإسراء، وأول صلاة صلاها بعد الفريضة الظهر، فما معنى صلاة العشاء والصبح، ولذا أشار المصنف لتضعيف هذا فى الفصل الذى يليه، وأيضًا المغرب لا تسمى عشاء لغة وشرعًا، وقولهم: العشاءان للمغرب والعشاء تغليب.

وما قيل من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يصلى قبل الإسراء قبل طلوع الشمس وغروبها، وأن المراد بقولها: صلينا، هيأنا له ما يحتاج إليه فى صلاته، كلام لا يجدى؛ لأنه فى غاية الخفاء، أو هو مدرج من كلام غيرها، نعم كون المغرب لا تسمى عشاء أولى غير متجه؛ لأنه ورد فى الحديث تسميتها عشاء أولى، والمراد بالعشاء أول الليل، وكون ما ورد تغليبًا غير مسلم، فإن الأصل هو الحقيقة.

أقول: الذى يظهر لى فى التوفيق بين الروايات، والجواب عما ذكر إن لم نقل بتكرار الإسراء مرارًا، إذ عليه الأمر ظاهر أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان ببيت أم هانىء، ثم خرج إلى الحرم للصلاة، فغشيه نوم، ثم استيقظ وعرج به، وأما قول أم هانىء، رضى الله تعالى عنها: وصلينا، فيدفع إشكاله المذكور بأنها بنت أبى طالب، وأبو طالب وآله كانوا محبين له، صلى الله تعالى عليه وسلم، معتقدين صدقه، ولم يظهروا ذلك لغيرة جاهلية وحكمة خفية، ولذا أسلم على، كرم الله وجهه، فى صباه، وكان، رضى الله تعالى عنه، معه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وذكر ذلك أبو طالب فى شعره المشهور فى السير، فلما خرج، صلى الله تعالى عليه وسلم، من بيتها تلك الليلة، وصلى بالحرم ومعه على، فلا شك أنه كان يصلى قبل الإسراء بالغداة، والعشى صلاة غير الخمس المفروضة، فقولها: صلينا، كقولهم: بنو فلان قتلوا قتيلاً، والقاتل واحد منهم؛ لأن الفعل المرضى لجماعة إذا وقع من أحدهم ينسب للجميع، وهو مجاز بليغ مشهور، أى صلى معه بعض آلنا، وهو على، رضى الله تعالى عنه، أو يقال: إنها كانت مسلمة سرًا، كما نقل مثله عن العباس، رضى الله تعالى عنه، فاندفاع الإيراد الذى ظنوه غير مندفع ظاهرًا، فلا حاجة لما قيل: الصلاة هنا لغوية بمعنى الدعاء.

(ثم جئت بيت المقدس، فصليت فيه، ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترون) وتشاهدون، والغداة والغدو بمعنى، وهو أول النهار، وهو بتقدير مضاف، أى صلاة الغداة هى صلاة الصبح، **(وهذا)** المذكور برهان ودليل **(بين)**، بتشديد الياء المكسورة، أى ظاهر واضح، **(فى أنه)**، أى الإسراء **(بجسمه)** وروحه، لا بروحه فقط كما قيل، وقيل: إنما البين فيه قوله: ثم نام، وفيه نظر.

(وعن شداد بن أوس) بن ثابت بن المنذر بن الحرام أبـو يعلى الأنصارى الصحابى، نزيل بيت المقدس، وليس بدريًا كما توهم، وقد أخرج له الأئمة الستة وأحمد فى مسنده، وهذا الحديث ليس فيها، وإنما رواه البيهقى وابن مردويه، توفى سنة ثمان وخمسين، ودفن بفلسطين، وهو ابن أخى حسان بن ثابت، كما مر فى ترجمته، **(عن أبى بكر)**، رضى الله تعالى عنه، أفضل الصحابة، وفى أكثر النسخ: عن أبى بكر، من رواية شداد بن أوس عنه.

(أنه قال للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليلة أسرى به)، فى هذا ما لا يخفى، إذ لا يصح مع قوله: **(طلبتك البارحة)**، وهى الليلة الماضية قبل ليلتك، ومنه المثل: ما أشبه الليلة بالبارحة، فهو بتقدير بعد ليلة أسرى به، ومعنى طلبتك، أنى تفقدت جسدك فى مضجعك، **(فلم أجدك)** فيه، أو فيه تقديم والتفات، أى طلبتك البارحة ليلة أسرى بك، وهذا كله خلاف الظاهر، و لم ينبهوا عليه، فأجابه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بقوله: **(إن جبريل حملنى)**، وفى نسخة: حمله، **(إلى المسجد الأقصى)**، وإن بكسر الهمزة أو مفتوحة، والتقدير بأن إلى آخره، قيل: هذا يحتمل أنه كان ببيت عائشة، رضى الله تعالى عنها، بدليل السياق، لكنه معارض بقول عائشة المتقدم، وقوله: حملنى جبريل مخالف لكونه على البراق، إلا أن يقال: لكونه سببًا له أسند إليه مجازًا وفيه نظر، وهذا دليل على أنه كان يقظة بجسده أيضًا.

(وعن عمر، رضى الله تعالى عنه)، كما رواه ابن مردويه من طرق، **(قال: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: صليت ليلة أسرى بى فى مقدم المسجد)** الأقصى، **(ثم دخلت الصخرة)**، أى دخلت المسجد الذى تحت الصخرة المعروف الآن بمسجد داود، عليه الصلاة والسلام، ففيه مضاف مقدر، أى تحت، **(فإذا بملك قائم)**، لم يسموه.

(معه آنية ثلاث، وذكر الحديث)، أى ساقه إلى آخره، وإذا هنا فجائية، أى فاجأنى بغتة لقاؤه، والآنية بالمد جمع إناء، كوعاء وزنًا ومعنى، وأوانى جمع الجمع، وليس مفردًا كما توهم العامة كما مر؛ ولذا وصفه بأنه ثلاث، فهو صفة أو بدل منه، وقيل: خبر هى مقدرة، وكان الظاهر أن يقال: ثلاثة؛ لأن مفرده مذكر، فكان أوله بكأس ونحوه، يعنى إناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من ماء، وأنه خير فيه، فاختار اللبن، وقيل له: اخترت الفطرة، ولو اخترت الخمر غوت أمتك، وهذا تمام الحديث، وقد تقدم، واعترض عليه بأنه محتمل لكونه منامًا، ولا مانع فى هذه الرواية أصلاً.

فقوله: **(وهذه التصريحات ظاهرة)**، فى أنه كان يقظة، **(غير مستحيلة)** شرعًا وعقلاً، حتى تقتضى استحالتها التأويل، **(فتحمل على ظاهرها)**، ولا يعدل إلى التأويل مع عدم

الحاجة إليه يؤيد ذلك.

(وعن أبى ذر) الصحابى الغفارى، رضى الله تعالى عنه، فى حديث رواه الشيخان، **(عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أنه قال: **(فرج)**، مبنى للمجهول مخفف الراء ونائب فاعله، **(سقف بيتى)**، وفى نسخة: عن سقف بيتى، والمعنى كشف من السقف جانب، حتى انفتحت منه فرجة، ولم يبق حائل بينه وبين السماء، **(وأنا)** مقيم **(بمكة)** قبل الهجرة، وهذا مع قوله سابقًا: «بينا أنا بالحجر، أو الحطيم»، وقول أم هانىء السابق: ما أسرى به، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلا وهو ببيتى، بينهما من المعارضة ما لا يخفى.

فإن قيل: بالتعدد، فلا منافاة بين الروايات، ولا يكفى هنا كون إضافة البيت له؛ لأنه ساكن فيه، ولأم هانى لكونه ملكها، وقد تقدم قول ابن المنير: إن فرج السقف وعدم إتيان بيته من بابه، إنه مبالغة فى الفجأة، وتنبيه على أن دعوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكرامته كانت على غير ميعاد، وكان هذا عادة الخلفاء العباسيين.

قلت: وليدل على أن هذا أمر إلهى، وكرامة تسر ولا تضر، ولو أتى من الباب لتوهم أنه أحد من أعدائه الذى هو بين أظهرهم.

(فنزل جبريل، عليه الصلاة والسلام، فشرح صدرى)، وفى رواية: ففرج صدرى، أى شقه، وهى أنسب بفرج البيت، **(ثم غسله بماء زمزم، إلى آخر القصة)**؛ لأنه أفضل المياه حتى الكوثر فى قول، ولأنه ﷺ ألفه صغرًا وكبرًا، وشرح الصدر لا ينافى شق القلب؛ لأنه مقدم عليه، ولا حاجة إلى القول بأنه تجوز على القلب بالصدر لعلاقة المجاورة، وقد تقدم أنه شق قلبه وصدره ﷺ وهو صغير عند ظئره حليمة، رضى الله تعالى عنها، فهذه مرة ثانية، فالأولى ليطهره من الكدورات البشرية ويرشحه للرسالة والنبوة، وهذه ليقوى على العروج ومشاهدة عجائب الملكوت، فهو وقع مكررًا، فى مرة غسل بماء زمزم، وفى أخرى بماء ثلج؛ ليثلج صدره ويصبره، فلا تعارض بين الروايات.

قال ابن المنير: ولما لم يقع هذا للكليم، عليه الصلاة والسلام، لم يطق فى الدنيا الرؤيا، ولم يذكر هنا أنه كان معه ملكان بطست وماء كما مر، وأنه وضع عليه خاتم النبوة، وسيذكره، **(ثم أخذ بيدى، فعرج بى)**، بالبناء للفاعل أو المفعول كما مر، وشرح صدره كان بعد نزول جبريل، عليه الصلاة والسلام، إليه، والتعقيب بالفاء عرفى نسبى، فلا ينافى قوله.

(وعن أنس: أتيت)، بالبناء للمجهول لا للفاعل كما توهم، **(فانطلق بى)**، مجهول

أيضًا، وفى نسخة: فانطلقوا بى، بصيغة الجمع؛ لأن مع جبريل ملكان آخران معهما طست الذهب كما مر، ولا منافاة بين الروايات كم يتوهمه من لا بصيرة له، **(إلى زمزم، فشرح عن صدرى)**، أى شق صدره وقلبه، ووضع فيه نور النور؛ ليقوى على العروج ومشاهدة الملكوت وعجائبه.

(و) روى مسلم، **(عن أبى هريرة)**، رضى الله تعالى عنه، عبد الرحمن بن صخر، **(عنه)** ﷺ أنه قال: **(لقد رأيتنى)**، جواب قسم مقدر للتأكيد بالمثناة الفوقية المضمومة، ورأى علمية أو بصرية، **(فى الحجر)**، تقدم ضبطه وما يتعلق به، **(وقريش تسألنى عن مسراى)**، جملة حالية، والمسرى مصدر ميمى، أو اسم مكان، أى سأله كفار قريش عن علاماته بعدما كذبوه، تحقيقًا لما زعموا، **(فسألتنى)** قريش، وتأنيثه باعتبار القبيلة، **(عن أشياء)** من بيت المقدس وأماراته، **(لم أثبتها)**، أى لم أكن أثبت صورتها فى ذهنى وفكرى؛ لانشغاله بما هوأهم منها من معاينة ما وقع له ثمة من صلاته مع الأنبياء، وتهيئته للعروج، فسقط ما قيل من أن هذا يدل على أنه كان منامًا؛ لأن النائم أقل ضبطًا لما يراه فى منامه من المستيقظ، ورؤياه ﷺ حق، وإن نامت عيناه لا ينام قلبه.

(فكربت كربًا ما كربت مثله قط)، بضم الكافين من الماضى المجهول، والكرب الغم والحزن الشديد مع القلق والاضطراب. قال الراغب: أصله من كرب الأرض، وهو قلبها بالحفر والحرث، والغم مثير النفس كإثارة ذلك، وفى المثل: الكراب على البقر، وليس ذلك من قولهم: الكلاب على البقر فى شيء، **(فرفعه الله لى أنظر إليه)**، أى رفع الله له ﷺ بيت المقدس حتى ينظر إليه، ويثبت ما فيه، ويخبرهم به على حقيقته، فجملة: أنظر إليه، حالية أو مستأنفة.

(ونحوه عن جابر، رضى الله عنه، وقد روى عن عمر) بن الخطاب، رضى الله عنه، **(فى حديث الإسراء عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: ثم رجعت)** من مسراى **(إلى خديجة)** أم المؤمنين، رضى الله عنها، **(وما تحولت)**، أى والحال أن خديجة، رضى الله عنها، ما تحولت وتحركت، **(عن جانبها)** التى كانت عليه حين فارقها النبى ﷺ، وهذا يقتضى أنه كان ببيت خديجة، وقد تقدم أنه كان فى بيت أم هانيء رضى الله تعالى عنها، وفى رواية: أنه كان فى الحجر، وفى أخرى: فى الحطيم، وهو الحجر الذى يلى الميزان الذى هو قبلة أهل المغرب، وقيل: الحطيم ما بين المقام إلى الباب، وروى عن مالك وابن جريج: هو ما بين الركن والمقام عند زمزم، قيل: والصحيح أنه ما بين الركن الأسود إلى الباب.

* * *

(فصل فى إبطال حجج من قال: إنها نوم)

لا يقظة، وأن الإسراء لم يتكرر مرارًا أربعة، كما ارتضاه أبو شامة، رحمه الله، وتأنيث ضمير إنها؛ لأن الرؤيا مؤنث سماعى، لا باعتبار أنها رؤيا منام كما قيل.

احتجوا بقوله تعالى: (﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، **فسماها رؤيا**)، وهذا مبنى على أن رأى مشترك، فيكون بمعنى أبصر يقظة ومصدرها رؤية، ومنامًا ومصدرها رؤيا، ورأى بمعنى علم وحكم ومصدر الأخير الرأى، وهذا هو المشهور، وقد رده السهيلى فى الروض الأنف، وقال: الرؤيا مشتركة أيضًا بين البصرية والحلمية، وأورد له شواهد من كلام العرب، وقد مر جميع ذلك، وقيل: الرؤيا إذا كانت بصرية تختص بما يرى ليلاً.

(**قلنا:**) جوابًا عما احتجوا به (**قوله تعالى:** ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] **يرده؛ لأنه لا يقال فى النوم: أسرى**)، إذ الإسراء كما مر هو السير ليلاً، وهذا إنما يكون يقظة، لاسيما وقد ذكر فى الحديث ما يستلزمه لزومًا بينًا من صلاته ﷺ بالأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، واستصعاب البراق عليه، أو غير ذلك مما تقدم، واحتمال أن يكون معناه أنه رأى فى منامه أنه أسرى به بعيد جدًا، ولذا جعله إبطالاً لما قالوه؛ لأنه فى قوة الخطاء، فما قيل: إن الأولى أن يقول: يخدشه ما ذكر ليس بشىء يعول عليه.

(**وقوله:** ﴿فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾)، أى بلية ومحنة جرأتهم على تكذيبه ﷺ، ورده بعضهم، (**يؤيد أنها رؤيا عين**) باصرة يقظة، (**وإسراء بشخص**)، أى سير بجسده حقيقة يقظة لا تخيلاً نومًا كما قيل، (**إذ ليس فى الحلم**،) بضمتين أو ضم فسكون، وهو ما يراه النائم، وأصل معناه العقل، يقال: حلم فى نومه يحلم حلمًا وحلمًا، وقيل: حلم، بضم، ثم فتح ورفع، قاله الراغب، (**فتنة، ولا يكذب به أحد لأن كل أحد يرى مثل ذلك فى منامه من الكون فى ساعة واحدة فى أقطار متباينة**)، أقطار جمع قطر، وهو الجانب، والمتباين البعيد، ومن بيان لذلك أو لمثل، أى يرى فى مدة قليلة أنه وصل لأماكن بعيدة، ولا ينكره عليه أحد من العقلاء، ثم أشار إلى رد دليلهم بوجه آخر، فقال: (**على أن المفسرين قد اختلفوا فى هذه الآية**) التى استدلوا بها، وعلى بمعنى مع هنا، والعلاوة ضم أمر لآخر كقوله(١):

---

(١) عجز بيت، وصدره:

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا

على أن قرب الدار خير من البعـد

والمراد بالآية: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا﴾ [الإسراء: ٦٠] الآية.

(فذهب بعضهم إلى أنها نزلت فى قضية الحديبية)، القضيـة بالضـاد المعجمـة، واحـدة القضايا على الأصح؛ لما سيأتى، وروى قصة بالصاد المهملة، والحديبية مصغرة بحاء ودال مهملتين، وياء تحتية ساكنة، وباء موحدة مكسورة، وياء مخففة، وهـاء تـأنيث، وتشـدد ياؤه أيضًا، وعليه أكثر المحدثين وبعض أهل اللغة، فهى صحيحة رواية ودراية، فلا وجـه لمنعه، وسميت بها لشجرة حدباء وقع تحتها بيعة الرضوان، ثم صار اسمًـا لبئر بـها وقريـة على مرحلة من مكة عند مسجد الشجرة، وهل هى من الحل أو مـن الحـرم؟ أو بعضـها من الحل وبعضها من الحرم؟ أقوال ذهب إلى كل منها بعض العلماء.

وكان رسول ﷺ أقام بالمدينة منصرفه عن غزوة بنى المصطلق فى شوال، وخرج فـى ذى القعدة معتمرًا ومعه من الأنصار والمهاجرين نحو ألف وخمسمائة، وساق الهدى معـه وهو محرم؛ ليعلم أنه لم يخرج لحرب، فلما بلغ قريشًا ذلك، خرج منهم جمـع صـادين لـه ﷺ عن دخول مكة، وأنه إن قاتلهم قاتلوه، وخرج مع الكفار خالد بـن الوليـد، رضـى الله عنه، إلى كراع الغميم، فلما وصل رسول الله ﷺ إلى الحديبية بركـت ناقتـه، فقـال: حبسها حابس الفيل، والله لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة فيها صلة رحم إلا أعطيتـهم إياها، ولم يكن ثمة ماء، فغرز سهمًا له فى بئر، فغار ماؤها حتى كفى الجيش، ثم جاءت السفراء بين رسول الله ﷺ والكفار وتنازعوا، حتى جـاءه سـهيل بـن عمـرو العـامرى، وقاضاه على أن ينصرف ويأتى فى العام القابل، وأن يكـون بينـهم صلـح عشـرة أعـوام يأمن بعضهم بعضًا، على أن من أتاه مسلمًا منهم رده إليهم، ومن أتاهم لم يردوه، فعظم ذلك على المسلمين، ووقع ما وقع، ولذا سمى عام القضية.

قال ابن عبد السلام فى قواعده: فإن قيل: لم التزم ﷺ الصلح وشـروطه مـع مـا فيـه من إدخال الضيم على المسلمين والدنية فى الدين؟.

قلنا: وقع ذلك دفعًا لمفاسد عظيمة، وهى قتل المؤمنين والمؤمنات الذين كانوا خاملين بمكة لا يعرفهم أهل الحديبية، وفى قتلهم معرة عظيمة على المؤمنين، فـاقتضت المصلحـة إيقاع مصلح على ما أرادوه، وهو أهون من قتل أولئك، مع أنه علم أن فى تأخير القتال

والبيـت مـن الطويـل، وهـو لـيزيد بـن الطثريـة فـى ديوانـه (ص٨٢)، ذيـل الأمـالى (ص١٠٤)، للمجنون فى ديوانه (ص٨٩)، ولعبد الله بن الدمينة فـى ديوانـه (ص٨٢)، شـرح شـواهد المغنى (٤٢٥/١)، وبلا نسبة فـى أمـالى ابـن الحـاجب (٤٥٤/١)، شـرح الأشمونـى (٢٥٤/٢)، مغنـى اللبيب (١٤٥/١).

مصلحة عظيمة، وهى إسلام جماعة من الكفار، ولذا قال تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ، أى فى ملة الإسلام، وقال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ [الفتح: ٢٥] الآية، وإلى هذا أشار بقوله: **(وما وقع فى نفوس الناس من ذلك)**، أى من صلح الحديبية، حتى راجعه، عليه السلام، فى ذلك عمر، رضى الله عنه، مرارًا، وقال ما قال، واشمأزت خواطرهم، وقال ابن المنير: لم يكن ذلك شكًا وريبة، ولكن من فرط الغيرة، وقوة الحمية على الحق، والغضب لله ورسوله وكان عند رسول الله ﷺ من علمه بالعاقبة الحميدة ما ليس عندهم، فلما تبين لهم ذلك عادوا للرضاء والوفاق.

(وقيل) فى تفسير الآية وسبب نزولها **(غير هذا)** الذى تقدم من أن هذه الرؤية لم تكن عام الحديبية، وإنما كانت قبيل بدر، وهى التى فى قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: ٤٣] الآية، **(وأما قولهم: إنه قد سماها فى الحديث منامًا، وقوله فى حديث آخر: بين النائم واليقظان)**، كالنعسان جالسًا، **(وقوله أيضًا: وهو نائم، وقوله: ثم استيقظت)**، وأنا بالمسجد الحرام، **(فلا حجة فيه)** للقول بأنها رؤيا منام كما مر، **(إذ قد يحتمل أن أول وصول الملك إليه وهو نائم)**، بدليل قوله فى الحديث: «فهمزنى بعقبه»، السابق مع ما يضاهيه، **(أو أول حمله)** على البراق، **(والإسراء به وهو نائم)**، ولا يخفى بعده مع كونه ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه، وقيل أيضًا: إنه مخالف للظاهر، فهو مشترك الإلزام، **(وليس فى الحديث أنه كان نائمًا فى القصة كلها، إلا ما يدل عليه قوله: ثم استيقظت وأنا فى المسجد الحرام)**، فإنه يقتضى أنه ﷺ لم يستيقظ قبل وصوله إليه وعوده، وكون استيقظت بمعنى أصبحت، أو استيقظت من نوم آخر، تكلف لا حاجة فيه، وتأييده بأنه لم يستغرق الليل بإسرائه، فيكون لسرعة مسيره ومشقته نام بعده للاستراحة أبعد منه، فلذا عبر عنه بقوله: **(فلعل قوله: استيقظت، بمعنى أصبحت)**، أى دخلت فى وقت الصباح؛ لأن صيغة الترجى تقتضى ضعفه على عادة المصنفين فى التعبير بها.

(أو استيقظت من نوم آخر) غير ما كان قبله فى الحجر، أو فى بيت أم هانىء أو غيره، **(بعد وصوله بيته)**، أى البيت الذى كان فيه، فالإضافة لأدنى ملابسة، فلا ينافى ما قلناه، **(ويدل عليه أن مسراه لم يكن طول ليله، وإنما كان فى بعضه)**، بدليل قوله تعالى: ﴿لَيْلًا﴾ [الإسراء: ٢] فى الآية، كما ذكره المفسرون.

(وقد يكون قوله: استيقظت وأنا فى المسجد الحرام)، وعبر بقد؛ إشارة لضعفه أيضًا **(لما)**، بكسر اللام وتخفيف الميم احترازًا من ما المصدرية، **(كان غمره)**، أى لأجل الذى عرض له مما يدهشه، ويستغرق لبه وفكره **(من عجائب ما طالع)**، أى شاهد ورأى **(من**

ملكوت السموات والأرض)، الذى لم يطلع عليه غيره من البشر، فاستعار لتلك المشاهدة الغمرة، وهو ما يغمر من الماء ويقطر منه، ففيه استعارة تصريحية تبعية أو مكنية وتخييلية، أو هو تشبيه بليغ، كقوله تعالى: ﴿ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، على أن من تجريدية بيانية، ولما كانت المطالعة المشاهدة بالحواس الظاهرة قدمها وأتبعها بقوله:

(**وخامر باطنه**) بالخاء المعجمة وألف وميم وراء مهملة بمعنى مازجه وخالطه، لا بمعنى ستره، ومنه الخمر لسريانها فى بدن شاربها، وإن قيل: إنما سميت بها لسترها العقل، والمراد بباطنه قلبه وحواسه الباطنية، (**من مشاهدة الملأ الأعلى**)، وتعبيره بالمشاهدة يقتضى ما فسرنا به المخامرة، وإن اشتهرت بمعنى الستر كما فى قول سلمان الفارسى لأبى الدرداء، رضى الله عنهما، حين دعاه إلى الأرض المقدسة: يا أخى، إن بعدت الدار من الدار، فإن الروح من الروح قريب، وطير السماء على أرفه خمر الأرض يقع على أى خصب يستر وجه الأرض، يعنى أن وطنه أرفه وأرفق به، فلا يفارقه، والمراد بالملأ الأعلى السموات وما فيها أو الملائكة؛ لأن الملأ الجماعة الأشراف.

(**وما رأى من آيات ربه الكبرى**) العظيمة التى تدهش عظمتها من رآها، وما قيل من أنه خلاف الظاهر؛ لأنه ﷺ أثبت الرسل قلبًا، فلا تعروه لذلك دهشة ليس بشىء؛ لأنه لم ير د بها دهشة بمرتبة الذهول، وإن كان قوله: (**فلم يستفق**)، يقال: أفاق واستفاق، بمعنى تنبه واستيقظ من نومه، (**ويرجع إلى حال البشرية، إلا وهو بالمسجد الحرام**) يوهمه، إذ المراد به حالة اعترته، وأنسته عالم الدنيا، وكسته حلة ملكية، على أنه لو سلم كان مؤيدًا للمصنف غير وارد عليه، وليس المراد أنه عرض ﷺ النوم فى رجوعه كما توهم، فإنه ينافى قوله.

(**ووجه ثالث**)، وهو (**أن يكون نومه واستيقاظه حقيقة على مقتضى**) ظاهر (**لفظه**)، وضاد مقتضى يجوز فيها الفتح والكسر، والمراد بلفظه قوله: ثم استيقظت وأنا بالمسجد الحرام، (**ولكنه أسرى بجسده**) وعيناه نائمتان، (**وقلبه حاضر**) وإن غض بصره كالنائم منا فهو مساو لليقظان.

(**ورؤيا الأنبياء**)، عليهم الصلاة والسلام، (**حق، تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم**)، وقد قيل عليه: إن كون عينه ﷺ نائمة مع الإسراء بجسده مع أنه خلاف المعتاد، لا فائدة فيه، وما ذكره المصنف من الحكمة الآتية من أنه لئلا تشغله المحسوسات عن الله، لا يدفع ما ذكر؛ لأن الحكم حينئذ للروح، فلا معنى لر فع الجسد وهو حاصل بدونه، وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١] يأباه، وقد استدرك عليه المصنف بقوله الآتى، ولا

يصح أن يكون هذا فى وقت صلاته إلى آخره، والجواب بأنه ليشاهده الملائكة ويفيض عليهم بركاته، لا يجدى نفعًا.

(وقد مال بعض أصحاب الإشارت)، يعنى بهم مشايخ الصوفية، والمراد بالإشارة ما يأخذونه من الحقائق من النصوص القرآنية وغيرها، وهم لا يقصدون بتفسيرهم أنه صريح النص كما ذكره العز بن عبد السلام، ومن لا يعرف ذلك يعترض عليهم بما لا وجه له، **(إلى نحو من هذا)**، أى إلى قريب مما قاله صاحب هذا الوجه، حيث **(قال: تغميض عينيه؛ لئلا يشغله شيء من المحسوسات عن الله)**.

قال الزمخشرى فى شرح الفصيح: قولهم: جسم حساس، لحن كما لحنوا فى قولهم: محسوسات؛ لأن فعال لا يبنى من أفعل، والحق ثبوته، وثبوت حسن بمعنى أحسن كما قاله الدمامينى فى شرح التسهيل، والنووى فى شرح مسلم، فعلى هذا لا لحن فى هذه العبارة.

(ولا يصح أن يكون هذا) المذكور من أن الإسراء بجسده ﷺ وهو نائم؛ ليوفق بين الروايتين إن لم نقل بالتعدد **(فى وقت صلاته بالأنبياء)**، عليهما الصلاة والسلام؛ لأن النائم لا يصلى ولا تصح صلاته، وظاهره أنه فيما عده من أمور الإسراء صحيح بلا تردد، وإنما يأباه لفظ الحديث، ولا يخفى أن مناجاة ربه ومراجعة موسى، عليه الصلاة والسلام، لذلك، فكان ينبغى أن يقول: والأمور الواقعة فى حديث الإسراء لا يصح فى بعضها أن يكون منامًا.

فإن قيل: يجوز أن يكون رأى ذلك فى المنام. قلنا: وكذا يجوز أن يكون رأى فى منامه أنه ﷺ صلى بهم أيضًا، إلا أن يفرق بينهما.

(ولعله كان له) ﷺ **(فى هذا الإسراء حالات)**، فكان فى بعضها نائمًا غاضًا لبصره تأدبًا، أو لئلا يرى سوى ربه، وفى بعضها مستيقظًا، وفى بعضها بين النائم واليقظان، وبهذا يجمع بين الروايات، وقيل: إن الحديث الذى وقع فيه هذا ملفق من أحاديث، وهذا الوجه قيل: إنه حدس وتخمين، ولو تركه المصنف كان أحسن لما مر.

(ووجه رابع) لتأويل كونه يقظة وتأويل ما يخالفه، **(وهو أن يعبر بالنوم هاهنا)** فى هذا الرواية، **(عن هيئة النائم من الاضطجاع)** بيان للهيئة، والاضطجاع إلصاق بدنه ممتدًا بالأرض غير جالس ولا قائم، فهو استعارة أو مجاز مرسل للزومه غالبًا النوم، فكان على هذه الهيئة عند وصول الملك اليه، وفى بعض النسخ: إذ كثيرًا ما يعبر بالنوم عن الاضطجاع ونحوه؛ لما بينهما من الملابسة، وفى بعض الشروح هنا تكرار لا حاجة إليه،

ولذا قال: إنه يتعين كونه مرسلاً، وليس بلازم.

(ويقوى)، أى يقوى هذا التأويل، **(قوله فى رواية عبد بن حميد)** الإمام الحافظ المقدم ترجمته، وعبد غير مضاف هنا، وهو أبو نصر عبد الرحمن بن الكشى، ويقال: الكجى، بشين أو جيم، **(عن همام)**، بفتح الهاء وتشديد الميم الأولى، ابن يحيى العوذى، بفتح العين المهملة، وسكون الواو، وذال معجمة، وياء نسبة، منسوب للعوذ، بطن من الأزد، إمام، ثقة، أخرج له الستة، وتوفى سنة ثلاث وستين ومائة: **(بينا أنا نائم، وربما قال)**، أى النبى ﷺ: **(مضطجع)**، فتعبيره بهذا تارة، وبهذا أخرى يشهد؛ لأنهما بمعنى.

(وفى رواية هدبة)، بضم الهاء، وسكون الدال المهملة والموحدة، وتاء تأنيث، ابن خالد القيسى البصرى، الحافظ، الثقة، روى له الشيخان وغيرهما، وتوفى سنة خمس وثلاثين ومائتين، وفى بعض النسخ بدل هدبة: معاوية، **(عنه)**، أى عن همام: **(بينا أنا نائم فى الحطيم، وربما قال: فى الحجر مضطجع)**، تقدم الكلام فيه والتوفيق، **(وقوله فى الرواية الأخرى: بين النائم واليقظان)**، يؤيد كون المراد بالنائم المضطجع، **(فيكون سمى هيئته)**، أى هيئة النبى ﷺ أو هيئة النوم **(بالنوم لما كانت)** تلك الهيئة **(هيئة النوم)** حقيقة **(غالبًا)**، أى فى الغالب، وبما ذكرنا سابقًا من أن هذا فى أول وصول الملك له سقط ما قيل من أن هذا ينبو عنه السمع؛ لأن ركوبه ﷺ البراق، وربطه بالحلقة، وصلاته بالأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، يأباه، وأما قوله: «فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام»، فمأول أيضًا بما مر، فلا ينافى هذا، فتأمله.

(وذهب بعضهم إلى أن هذه الزيادات من النوم، وذكر شق البطن، ودنو الرب)، أى قربه من النبى ﷺ **(الواقعة فى)** رواية، **(هذا الحديث)**، أى حديث الإسراء، **(إنما هى من رواية شريك، عن أنس، رضى الله تعالى عنه، فهى منكرة من روايته)**، لا مطلقًا، والإنكار المراد به معناه اللغوى أو مصطلح المحدثين، وهو روايته المتغير بسوء حفظه والمخالف للثقات، وشريك طعن فيه ابن حبان وغيره، وقالوا: ليس بثبت، **(إذ شق البطن)**، أى بطنه وصدره ﷺ **(فى الأحاديث الصحيحة، إنما كان فى صغره، عليه الصلاة والسلام)**، وهو عند مرضعته حليمة كما مر، **(وقبل النبوة)**، أى قبل ظهورها للناس، هذا بيان لوجه إنكار هذه الرواية.

وقد تقدم عن الإمام السهيلى وغيره أن الشق وقع مرتين، مرة لتثبيته للنبوة، ومرة أخرى بعد مبعثه؛ ليقوى على المعراج ومشاهدة عجائب الملكوت، فلا يرد ما ذكر على هذه الرواية تقتضى أنها منكرة، وقيل: إنه وقع أربع مرات، عند حليمة، وبحراء، وليلة الإسراء، و مرة أخرى فى النوم، إلا أن ابن حجر قال: إن هذه لم تثبت كما تقدم،

(ولأنه)، أى شريك، **(قال فى)** هذا **(الحديث)** الذى رواه عن أنس، رضى الله عنه: **(قبل أن يبعث، والإسراء بالإجماع)** من المحدثين **(كان بعد المبعث)**، مصدر ميمى بمعنى البعث، وقد تقدم الكلام فيه.

(فهذا كله يوهن) بتشديد الهاء، أى يضعف، أو تخفيفها؛ لأنه يقال: وهنه وأوهنه فوهن، أى ضعف، **(ما فى رواية أنس)**، هذه التى رواها شريك عنه، **(مع أن أنسًا قد بين من غير طريق)**، أى من طرق متعددة، لا من طريق واحدة، **(أنه إنما رواه عن غيره)** من الصحابة، كمالك بن صعصعة، وأبى ذر، عن النبى ﷺ، فهو مرسل الصحابى، وفيه أن مرسل الصحابى إذا روى من طريق مقبول، فهذا لا يضعفه، **(وأنه لم يسمعه من النبى ﷺ)** بيان لأنه سمعه من غيره.

(فقال مرة: عن مالك بن صعصعة، وفى كتاب مسلم: لعله عن مالك بن صعصعة، على الشك) من مسلم، فلعل مستعارة من الترجى بجامع عدم الوقوع فيهما، وقال الحاكم: مدار حديث المعراج على أنس، رضى الله عنه، وقد سمع بعضه من مالك بن صعصعة، وبعضه من أبى ذر، وبعضه من أبى هريرة، **(وقال)** أنس **(مرة: كان أبو ذر يحدث)**، أى ينقل حديث الإسراء السابق عنه ﷺ.

(وأما قول عائشة)، رضى الله تعالى عنها: **(ما فقد جسده)** ﷺ، وهذا الحديث رواه عنها ابنا إسحاق وجرير، وتقدم أن فيه رواية: ما فقدت، بالإسناد لضميرها، والإسناد للفاعل، وهو فى هذه الرواية مبنى للمجهول، **(فعائشة لم تحدث به عن مشاهدة)** له ﷺ؛ لأنه كان بمكة قبل تزوجها، أو قبل ولادتها، كما أشار إليه بقوله: **(لأنها لم تكن حينئذ)**، أى فى وقت الإسراء وزمانه **(زوجة)** له ﷺ.

(ولا فى سن من يضبط)، بالتحتية والفوقية، أى لم يكن سنها وعمرها حينئذ سن ضبط وإتقان؛ لعدم تمييزها لصغرها، فهو مستعار من الضبط، وهو الإمساك والحفظ للعلم والتمييز، فالرواية عنها ليست مسلمة، أو هى حدثت به عن غيرها، فعلى رواية: ما فقد، الأمر ظاهر، وعلى رواية: ما فقدت، فيه تقدير، أى قال فلان أو فلانة: ما فقدت، إلى آخره، وهو فى غاية البعد كما قيل.

(ولعلها لم تكن ولدت)، بالبناء للمجهول **(بعد)**، مبنى على الضم، أى بعد هذه القصة ووقوعها، وهى ضد قبل، ويستعملان فى التقدم والتأخر المتصل والمنفصل، والمراد زمان وقوعه للمجاورة والتضاد، وهو استعمال شائع، وحينئذ لا ينبغى أن ينسب لها هذا القول، إذ لم يثبت كما سيأتى، وكونها حدثت به عن غيرها يأباه سياقه، **(على**

الخلاف فى) زمن **(الإسراء متى كان، فإن الإسراء كان فى أول الإسلام)** بمكة قبل الهجرة، **(عن قول)** محمد بن مسلم بن شهاب **(الزهرى، ومن وافقه بعد المبعث بعام ونصف، وكانت عائشة فى)** وقت **(الهجرة بنت ثمانية أعوام)**، فعلى هذا لم تكن ولدت فى زمن الإسراء، **(وقد قيل: كان الإسراء لخمس قبل الهجرة)**، هذه اللام توقيتية، أى وقت هو سنة خمس كما فصله النحاة فى باب العدد وفصل التاريخ.

(وقيل: قبل الهجرة بعام، والأشبه)، أى القول الأصح الأولى والأحسن، **(أنه لخمس)**؛ لأن مثله يكون كثير الشبه بخلاف النادر الغريب الذى لا نظير له، **(والحجة لذلك تطول، وليست من غرضنا)**، أى ليس مقصودنا فى هذا الكتاب بسط الأدلة والحجج، بل الاكتفاء بما صح من أوصافه ﷺ، أو المراد أن مقصوده الاختصار وعدم التطويل، وتفصيله كما فى المقتفى لابن المنير، قال: الأقوال فيه كثيرة، أصحها عندى قول إبراهيم الحربى أنه كان ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة، وقيل: بعد المبعث بخمس سنين، وقيل: بعده بخمسة عشر شهرًا.

وقال ابن إسحاق: أسرى به ﷺ وقد فشا الإسلام، وفى مسلم، عن شريك: إنه قبل أن يوحى إليه، ولا يصح هذا بوجه، إلا على القول بأنه منام، كما وقع لعائشة أنه كان بالمدينة، ورجح القاضى عياض القول بأنه قبل الهجرة بخمس سنين، وقول ابن إسحاق: إنه قبل الهجرة بسنة، وضعف هذا بأن خديجة، رضى الله تعالى عنها، صلت معه ﷺ، وهى ماتت قبل الهجرة بمدة أقل ما قيل فيها: ثلاث سنين، والصلاة لم تفرض إلا فى الإسراء، وهو غير وارد؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يصلى قبل الإسراء صلاة غير الخمس على خلاف فيها، والحجة لنا فى ترجيحه أن كل قول سواه خرج مخرج التقدير لا التحديد؛ لأنه لم يعين فيه الشهر فضلاً عن اليوم.

وقول الحربى: عين فيه ليلته بعينها من شهر بليلة وسنة بعينها فقال: ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة، وإذا تعارض خبران أحدهما أحاط راويه بتفصيل فى القصة زائد، فالمفصل أحضر ذهنًا وأوعى قلبًا ممن أجمل، وعليه الفقهاء فى كتاب الشهادة إذا أرخت إحدى البينتين، واليوم الذى أسفرت عنه ليلة الإسراء يوم الاثنين كان أوله الخميس قطعًا، فأول ربيع إما السبت أو الأحد أو الاثنين؛ لأن بين كل يومين متقابلين من سنتين متواليتين، إما ثلاثة أيام أو أربعة أو خمسة؛ ولذا تكون الوقفة من كل سنة خامس يوم من الوقفة التى قبلها، أو رابعة أو سادسة، وأعدل الاحتمالات الخامس، والجمعة يعقبها الثلاثا، والاثنين تعقبها الجمعة، وقد يكون الرابع، وقد يكون السادس، وذلك بحسب التمام، والنقص إلى آخر ما ذكره، وقد قدمناه.

(فإذا لم تشاهد ذلك) المذكور من زمن الإسراء **(عائشة)**، رضى الله تعالى عنها، **(دل)** عدم مشاهدتها **(على أنها حدثت بذلك عن غيرها)** من الصحابة، فحديثها من مرسلات الصحابة، فهو صحيح أيضًا، كما عليه المحدثون، إلا أنه لم يوفق بينه وبين غيره، **(فلم يرجح خبرها على خبر غيرها)**، الظاهر أن يقول: فيرجح خبر غيرها على خبرها؛ لروايتها عن مجهول، بل لعدم ثبوته عنها، كما سيأتى.

(وغيرها يقول خلافه مما وقع نصًا)، أى صريحًا؛ فإن النص له معان منها هذا، **(فى حديث أم هانىء)**، وفى نسخة: من حديث أم هانىء، بيان لما، **(وغيره)**، كحديث أبى ذر، ومالك بن صعصعة، وأبى هريرة، وقد قيل عليه: إن حديث أم هانئ المذكور فى الفصل الذى قبل هذا غير صريح فيما ذكر، ويدفع بأنه ظاهر فيه، والعدول عن الظاهر لا وجه له.

(وأيضًا) منصوب على المصدرية مصدر آض، بمعنى رجع، **(فليس حديث عائشة)**، أى قولها: ما فقدت جسده، **(بالثابت)** عنها عند المحدثين؛ لما فى متنه من العلة القادحة، وفى سنده محمد بن إسحاق، وقد ضعفه مالك وغيره، **(والأحاديث الأُخر)** الواردة فى الإسراء عن غيرها **(أثبت)**، أكثر ثبوتًا وأصح من حديثها، **(لسنا نعنى)**، أى لا أريد أنا وغيرى من المحدثين بقولنا: إنها أثبت، **(حديث أم هانىء)**، وقولها: ما أسرى به ﷺ إلا وهو فى بيتى، **(وما)**، أى وحديث عن غيرها، كحديث عمر، رضى الله تعالى عنه، الذى **(ذكرت فيه خديجة)**، رضى الله تعالى عنها؛ لأنهما لم يردا فى الصحيح، بل أحاديث أخر تعارضها غير هذين.

(وأيضًا فقد روى فى حديث عائشة: ما فقدت)، بإسناد الفعل المعلوم لضميرها، كما روى: ما فقد، بالبناء للمجهول المسند لغيرها كما مر، **(ولم يدخل بها النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلا بالمدينة)**، والإسراء كان بمكة، وهى صغيرة ليست عنده أو لم تولد، والجملة حالية، وهذا يدل على عدم صحته وتأويله بما علمت من هذا، أو بكونه حكاية لكلام غيرها فى غاية البعد.

(وكل هذا)، أى ذلك المذكور سابقًا ولاحقًا مما سبق وما تأخر، **(يوهنه)**، بالتشديد والتخفيف، أى يضعفه، **(بل الذى يدل عليه)**، أى الذى يدل على ما ذكر من عدم صحته عنها، **(صحيح قولها)**، أى ما صح عنها، رضى الله تعالى عنها، من رواية أخرى **(أنه)**، أى الإسراء **(بجسده الشريف؛ لإنكارها رؤياه لربه)** ليلة الإسراء **(رؤيا عين)**، فإن هذا يدل على أنه أسرى بجسده ﷺ، إلا أنه لم ير ربه عيانًا، **(ولو كانت)** الرؤيا فى الإسراء **(عندها منامًا، لم تنكره)**؛ لأن رؤيا المنام جائزة، وإنما الكلام فى رؤيا العيان

والخلاف فيها، فنزاعها فى ذلك الآتى يدل على ما ذكر، وهذا يدل على أن لها قولاً آخر مرويًا عنها مخالف لما اشتهر، وهذا معنى قوله فيما سبق: دليل قولها فتذكره، وليس وصف قولها بأنه صحيح مناقضًا لما مر من الطعن فى حديثها؛ لأن هذا رواية أخرى لها، وما قيل من أنه مؤيد لكونه منامًا عندها ناشئ من عدم التدبر.

(فإن قيل) فى رد كونه يقظه: **(قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾** [النجم: ١١]، **فجعل ما رآه للقلب)**، أى أثبت الرؤية للقلب دون البصر، وعلقها به، وفيه إشارة إلى أن الفؤاد بمعنى القلب، وله معنى آخر، وما مصدرية، والجار والمجرور متعلق بجعل أو بمقدر، أى مسندًا للقلب، **(وهذا)** الجعل أو المذكور **(يدل على أنه رؤيا نوم ووحى)**، بالجر عطفًا على نوم، **(لا مشاهدة عين وحس)** بصرى، والعطف تفسيرى.

(قلنا) فى الجواب عنه: **(يقابله)**، أى يعارضه فيسقطه عن مرتبة الاحتجاج، وستأتى الإشارة إلى أنه لا يعارضه أيضًا، **﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾** [النجم: ١٧]، زاغ بمعنى مال، وطغى تجاوز عن الرؤية المتحققة، بل أثبتها وتيقنها، **(فأضاف الأمر)**، أى أمر الرؤية **(للبصر، و)** يقابله أيضًا ما **(قد قال أهل التفسير)** فى تأويله، أى معناه حتى لا يعارضه وينافيه **(فى)** تفسير **(قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾، معناه لم يوهم القلب العين)**، فهو مقول القول، والقلب مرفوع فاعل يوهم، والعين منصوب مفعوله، وقوله: **(غير الحقيقة)**، مفعول ثان له؛ لأنه ينصب مفعولين، وغير بغين معجمة ومثناة تحتية وراء مهملة، ونقل عن بعض الشروح أنه يجوز فى كل من العين والقلب الرفع والنصب، والمرفوع فاعل تقدم أو تأخر، وتوقف فى فهمه التلمسانى، وليس بمحل توقف؛ لأن المراد أن البصر والبصيرة متفقان لم يخالف أحدهما الآخر لوقوفهما على الحقيقة؛ لأن العين قد ترى أمرًا ثم يتبين خلافه، وأنه غير متحقق، وقد يتصور القلب شيئًا فيشاهد خلافه، والحاصل أن ما رآه ليس تخيلاً كاذبًا، بل أمرًا محققًا تواطأ عليه العين والقلب، وما قيل من أن الأمور القدسية يدركها القلب أولاً، ثم يوردها على البصر، ليس بمسلم.

(بل صدق رؤيتها، وقيل:) فى التوفيق بينهما ودفع التنافى **(ما أنكر قلبه)** ﷺ **(ما رأته عينه)**، وهذا قريب مما قبله، ولتعارضهما ظاهرًا لم يدرجه حجج فى إبطال كونه منامًا ويعطفه عليه، وأورده سؤالاً وجوابًا، ولما كان محصل الجواب أنه يدل على ثبوت الرؤيتين سقط ما قيل: إنه مشترك الإلزام، والاعتراض بأنه لا فرق بين الجوابين؛ لأن المراد أنه لم يطرأ عليه وسوسة نعس ونزغة شيطان تشككه فيما رآه وتوهمه خلاف ما شاهدت عيناه.

* * *

(فصل وأما رؤيته ﷺ لربه عز وجل)

بعينه يقظة فى إسرائه بجسده، والرؤية تختص بالبصرية، فلذا عبر بها هنا، وإن أطلقت على غيرها تكون خلاف المشهور عكس الرؤيا كما تقدم، **(فاختلف السلف فيها، فأنكرته عائشة رضى الله عنها)** ذكر ضمير الرؤية؛ لأن تأنيث المصدر غير معتبر، أو باعتبار الوقوع كما قيل، وفى بعض النسخ: فأنكرتها، وهى ظاهرة، وإنكارها لها وقع فى مسلم وغيره، كما أشار إليه المصنف بقوله:

(حدثنا أبو الحسين سراج)، بكسر السين، وفتح الراء المهملة المخففة، وآخره جيم، **(ابن عبد الملك)**، المراد بالملك الله فى الأعلام؛ لكراهة التسمية بعبد فلان، حتى بعبد النبى، وهو إمام حافظ شيخ المصنف، رحمه الله تعالى، وجده وزير لغوى جليل القدر، **(الحافظ بقراءتى عليه)** تقدم الكلام فيه، **(قال: حدثنى أبى وأبو عبد الله بن عتاب الفقيه)**، تقدمت ترجمته، **(قالا: حدثنا القاضى يونس بن مغيث)**، بضم الميم، وكسر الغين، والمثناة التحتية الساكنة، وبالمثلثة يونس مثلث النون كما مر، وهو يونس بن عبد الله بن مغيث ابن عبد الله الأنصارى المعروف بابن الصفار، ولد فى رجب سنة سبع وأربعين وأربعمائة، وتوفى بقرطبة سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة، لثمان من جمادى الأول.

(قال: حدثنا أبو الفضل الصقلى)، بفتح الصاد المهملة، والقاف، وتشديد اللام المكسورة، نسبة لصقلية بلد بالأندلس، **(قال: حدثنا ثابت بن قاسم بن ثابت، عن أبيه وجده)** ثابت بن حزم العوفى السرقسطى، وأبوه أبو محمد قاسم بن ثابت مؤلف كتاب الدلائل فى غريب الحديث، يروى عن أبيه وجده، وَعَمَّرَ جده حتى قرأ عليه، وكان ثابت وقاسم يشتركان فى التأليف والشيوخ والرحلة، وولد أبوه سنة خمس وخمسين ومائتين، ومات بسرقسطة سنة اثنين وثلاثمائة، **(قالا: حدثنا عبد الله بن على، قال: حدثنا محمود بن آدم)**، هو المروزى، توفى سنة ثمان وخمسين ومائتين.

(قال: حدثنا وكيع) بن الجراح بن مليح بن عدى، الحافظ، الثقة، ولد سنة تسع وعشرين ومائة، وتوفى سنة ست أو سبع وسبعين ومائة، **(عن ابن أبى خالد)**، هو إسماعيل بن سعيد البجلى الكوفى، توفى سنة خمس أو ست وأربعين ومائة، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، **(عن عامر، عن مسروق، أنه قال لعائشة)**، رضى الله تعالى عنها: **(يا أم المؤمنين، هل رأى محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، ربه؟)** عز وجل ليلة الإسراء بقرينة السؤال؛ لأنها لا تنكر رؤية الآخرة ولا رؤية المنام.

(فقالت) مجيبة له: **(لقد قف شعرى)**، القفيف فى الشعر معناه قيامه وانتصابه، وإنما يكون هذا غالبًا عند الفزع والخوف القوى، **(مما قلت)**، أى خافت من كلامه أن يهلك الله من قاله واستمعه؛ لأنه أمر منكر لا يرضاه الله، ولم يثبت عندها، وقال التلمسانى: قف بمعنى اقشعر، وأصله أن الجلد ينقبض عند البرد والجزع، فيقوم الشعر لذلك، والمراد إنكار ما قاله واستعظامه، وما فى قولها: مما قلت، مصدرية أو موصولة.

(ثلاث من حدثك بهن فقد كذب: من حدثك أن محمدًا، صلى الله تعالى عليه وسلم، رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت) مستدلة لما قالته: (﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] **الآية)**، بناء على أن الإدراك شامل للرؤية، وأنه حكم كلى، فإن قلنا: الإدراك بمعنى الإحاطة، أى لا تحيط به الأبصار، ولا تعرف كنهه، ورفع الإيجاب الكلى سلب جزئى لم يكن فى الآية دليل على ما ذكر، ويأتى بيانه عن قريب، وقد استدل بهذه الآية المعتزلة على نفى الرؤية مطلقًا، ورده أهل السنة كما فصل فى كتب الأصول، وروى فى بعض النسخ: «من حدث» بلا كاف عن العزفى.

والثلاث؛ الأولى هى هذه، والثانية قولها: من زعم أنه ﷺ كتم شيئًا من الوحى، ثم قرأت: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] إلى آخره، والثالثة: من زعم أنه ﷺ يخبر بما يكون فى غد، فقد أعظم الفرية، ثم قرأت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] الآية.

واعلم أن هذا الحديث فى البخارى، ومسلم، والترمذى، والنسائى، وهو فى البخارى عن يحيى، عن وكيع بسند المصنف، رحمه الله تعالى، فهو بدل أو موافقة كما فصله البرهان، **(وذكر)** مسروق **(الحديث)** بتمامه كما سمعته آنفًا من ذكر الثلاث، قال مسروق: وكنت متكئًا فجلست، وقلت: يا أم المؤمنين، أنظرينى ولا تعجلى، ألم يقل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]؟، فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله، عليه الصلاة والسلام، فقال: «إنما هو جبريل لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين»، كما رواه مسلم.

(وقال جماعة) من المحدثين والعلماء لا المتكلمين؛ لأن خلافهم ليس فى رؤية الإسراء **(بقول عائشة)**، رضى الله تعالى عنها، **(وهو المشهور عن ابن مسعود وغيره، ومثله)**، أى مثل قول ابن مسعود وعائشة، **(روى عن أبى هريرة)**، رضى الله تعالى عنه، فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [النجم: ١٣]، **(أنه)**، بفتح الهمزة، **(قال)**، أى أبو هريرة: **(إنما رأى جبريل)** لا ربه عز وجل كما قيل، فأتى بصيغة إنما للرد على من فسر

الآية بما ذكر.

(واختلف) بالبناء للمفعول فى النقل **(عنه)**، أى عن أبى هريرة، فروى عنه أنه قال: رآه بعينه كغيره، وفى رواية أخرى أنكره.

(وقال بإنكار هذا) القول المجوز لرؤيته ووقوعه، **(وامتناع رؤيته تعالى فى الدنيا)** وجوازه فى الآخرة **(جماعة من المحدثين)** أنكروا صحة نقله عنه ﷺ، **(والفقهاء)** ذكروه فى مباحث الردة والكفر، وأن أحدًا لو قال: رأيت الله بعينى فى الدنيا هل يكفر أم لا؟، **(والمتكلمين)** من علماء أصول الدين، والخلاف بين أهل السنة والمعتزلة فى هذه المسألة وأدلتها مشهور فى كتبهم حتى أنه أفرد بالتأليف.

(وعن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، أنه رآه بعينه، وروى عطاء عنه)، أى عن ابن عباس **(أنه رآه بقلبه)**، وعطاء هو ابن أبى رباح الفقيه المكى، **(وعن أبى العالية)** وهو رفيع بن مهران الرياحى، وقيل: هو زياد بن فيروز، وقيل: اسمه فيروز **(عنه)**، أى عن ابن عباس أنه **(رآه بفؤاده مرتين، وذكر ابن إسحاق)** صاحب المغازى عن عبد الله ابن أبى سلمة **(أن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أرسل إلى ابن عباس يسأله: هل رأى محمد ربه؟ فقال: نعم)** مراده هل رآه يقظة بعينه؟ فقوله: **(والأشهر عنه)**، أى عن ابن عباس **(أنه رأى ربه بعينه)**، وفى نسخة: بعينيه، مثنى، وهما بمعنى تفسير للرواية التى قبله، وإن كانت ظاهرة أنه غيره لتخالفها فى العبارة.

(وروى ذلك عنه من طرق)، أى بأسانيد مختلفة لفظا لا معنى لا يقوى بعضها بعضا، وهو لا ينافى ما روى عنه أنه رآه بفؤاده، فهو كقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١]، ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] كما مر، **(وقال)**، أى ابن عباس فيما روى عنه الحاكم والنسائى والطبرانى، وهو فى معنى ما قبله فى أن الرؤية فيهما بصرية **(إن الله اختص موسى بالكلام)** بغير واسطة، لقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، **(وإبراهيم بالخلة)** بضم الخاء المعجمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، **(ومحمدًا، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالرؤية)** البصرية لا القلبية؛ لعدم اختصاصها به ﷺ.

قيل عليه: إن الخلة والكلام ثبتا لنبينا ﷺ أيضًا، فتفريق هذه الخصائص غير ظاهر، وأجيب عنه بأن مراده أن موسى الكليم اشتهر بذلك، وإن كان نبينا ﷺ كلمه الله فى الإسراء فى مقام أعلى، والخلة ثبتت له مع زيادة المحبة، فمحمد ﷺ خليل وحبيب، كما اعترف به الخليل عليه الصلاة والسلام فى حديث الشفاعة حيث قال: إنما كنت خليلا

من وراء وراء، وهذا الجواب لا يجدى نفعا، فالأولى أن المراد بالكلام مناجاته تعالى بغير واسطة فى الأرض، وبالخلة معاملة مخصوصة له مع الله تعالى فى هذه الدار أيضًا، وسيأتى بيانه.

(وحجته)، أى دليله على الرؤية **(قوله)** تعالى: ﴿**مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ**﴾ [النجم: ١١]، أى ما اعتقد قلبه خلاف ما رآه بصره فى مشاهدة ربه، فسماه كذبا تجوزا لاشتراكهما فى أن كلا منها خلاف الواقع، أى ما رآه ﷺ ببصره ليلة الإسراء، لثبوت ذلك بالأحاديث الصحيحة، وأما إنكار عائشة رضى الله تعالى عنها لذلك، فقد تقدم ما فيه، واستدلالها بقوله تعالى: ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ**﴾ [الأنعام: ١٠٣]، أجابوا عنه بوجوه، منها أن الإدراك بالبصر ليس رؤية مطلقة، بل رؤية على وجه الإحاطة بجوانب المرئى؛ لأن حقيقة الإدراك اللحوق والوصول فى المكان، كقول أصحاب موسى **(إنا لمدركون)**، أو الزمان كما يقال: أدرك فلان النبى ﷺ، أو الصفة كما يقال: أدرك الغلام إذا بلغ، وأدركت الثمرة إذا نضجت، ثم نقل لإبصار الشىء المتناهى المحدود بالجهات؛ لتوهم معنى اللحوق فيه، كما أن البصر قطع المسافة التى بينه وبينه حتى بلغه، ووصل إليه.

فإبصار ما ليس فى جهة لا يتحقق فيه معنى البلوغ، فلا يسمى إدراكًا، فلا يلزم من نفيه وهو رؤية مخصوصة نفى المطلقة، وهذا تحقيق ما فى التفسير وكتب الكلام، ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ**﴾ [النجم: ١٢]، أى أتجادلونه فى رؤيته لما رآه من مريت الضرع إذا مسحته للحلب، فاستعير للمجادلة كأن كلا من المتجادلين يمترى ما عند صاحبه لطلبه له، ﴿**وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ**﴾ [النجم: ١٣]، أى مرة أخرى. قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: كانت له فى تلك الليلة مرات من العروج، ولكل مرة نزلة لسماء أخرى لما راجع فى حط الصلوات، وهذا مراده هنا.

(قال الماوردى) الإمام الجليل أبو الحسن على بن محمد الشافعى صاحب التآليف الجليلة، كالتفسير الكبير والحاوى وغيرهما، وتقدمت ترجمتها، وهذا نقله عنه ابن سيد الناس فى سيرته **(قيل: إن الله قسم)**، أى جعل **(كلامه ورؤيته)** مقسومين **(بين موسى ومحمد، صلى الله تعالى عليهما وسلم، فرآه محمد)** ﷺ **(مرتين)** حيث كان قاب قوسين أو أدنى، وعند سدرة المنتهى، **(وكلمه موسى)** عليه الصلاة والسلام **(مرتين)** مرة وقت إرساله لفرعون، ومرة بعد هلاكه ورجوعه للطور، والحق أنه كلمه فى الدنيا مرارا عديدة فى مناجاته، ولذا خص عليه الصلاة والسلام بالكليم؛ لأنه لم يكلمه فى الدنيا بغير واسطة غيره، ولا يلزم من هذا شرفه عن نبينا ﷺ لتكليمه إياه مع قربه منه فى

حظائر قدسه، لكن لكون تكليم موسى مما يعرفه الناس خص بكونه كليما فاندفع ما مر.

(وحكى أبو الفتح الرازى) ليس هو الفخر الرازى كما توهم، **(وأبو الليث السمرقندى)** الحنفى، وقد قدمنا ترجمته، والمحكى ما مر عن الماوردى كما أشار إليه بقوله: **(الحكاية)** الذى ذكرها الماوردى **(عن كعب)**، وليست ضعيفة وصيغة وقيل فى كلامهم ليست للتمريض، فإنها يقصد بها مجرد النقل.

فإن قلت: كيف قال: قسم الكلام والرؤية، والقسمة إنما تكون فى أمر واحد يوزع بين اثنين فأكثر؛ ولذا قيل: إن هذه العبارة مما لا ينبغى.

قلت: هذا وهم من قائله، فإن المراد قسم تقريبهما وتعظيمهما قسمين، وجعل قسما لهذا وقسما لهذا كقوله:

قسم الإله الأمر بين عباده فالصب ينشد والخلى يسبح

(وروى عبد الله بن الحارث) كما ذكره الترمذى، وهوعبد الله بن نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب البصرى سكنا، الوالى بها، مات بعمان بعد انقضاء فتنة ابن الأشعث لما خرج إليها هاربًا من الحجاج، وولد فى زمنه ﷺ ومات سنة أربع وثمانين، ومن الرواة أيضًا عبد الله بن الحارث أبو الوليد البصرى حدث عن ابن عباس رضى الله عنهما؛ وهو زوج أخت محمد بن سيرين، وجزم الشمنى، رحمه الله، بأنه هو المذكور هنا، وهو الراجح؛ لأن عبد الله الأول وإن وافقه فى الاسم والنسبة لكن الحارث جده، وهذا راوى ابن عباس كما مر.

(قال: اجتمع ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وكعب) الأحبار **(فقال ابن عباس: أما نحن بنو هاشم فنقول: إن محمدًا رأى ربه مرتين)** خص بنى هاشم؛ لأنهم أقرب إليه وأعرف بحاله لاسيما قبل الهجرة، وكان اجتماعهما بعرفة كما ذكره الترمذى، وبنو هاشم مرفوع بدل من نحن كما فى النسخ، ولو نصب على الاختصاص جاز، وليس المراد ببنى هاشم ما سوى العباس، وظاهره أنه رأى واجتهاد منهم، وهذا لا ينافى ما مر عن ابن عباس رضى الله عنهما؛ لأن عنه روايتين، فلا وجه للاعتراض على المصنف.

(فكبر كعب) الأحبار لسروره بمقالته الموافقة لما عنده **(حتى جاوبته الجبال)**، أى رفع صوته بالتكبير حتى سمع صداه من الجبال، وجعله جوابا تجوز، ويجوز أن يكون تكبيره تعجبا مما قاله واستعظامًا له كقوله: **(وقال)**، أى كعب الأحبار: **(إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى، فكلمه ورآه محمد بقلبه)** فيكون منكرًا لرؤيته بعين رأسه، أو

نقول: هو موافق؛ لأن الرؤية القلبية لا تنافى البصرية، وعليه الشراح، وانفرد موسى عليه الصلاة والسلام بكونه كليما لما مر من أن المراد كلامه مرارا فى الأرض، فلا ينافى كون نبينا ﷺ كلمه أيضًا بغير واسطة كما مر.

(**وروى شريك**) تقدم الكلام عليه وعلى روايته، (**عن أبى ذر فى تفسير الآية**)، المذكورة، ﴿**وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ**﴾ [النجم: ١١] الآية، وفيه نظر، (**قال: رأى محمد**)، وفى نسخة بدله: النبى (**صلى الله عليه وسلم، ربه**) هذا كلام مجمل متفق عليه، وقيل: المراد أنه رآه بقلبه بشهادة أول الآية، وفيه نظر.

(**وحكى السمرقندى**) الحنفى المتقدم (**عن محمد بن كعب القرظى**) بضم القاف وفتح الراء المهملة وكسر الظاء المعجمة نسبة لبنى قريظة، وهو تابعى واسمه محمد كما تقدم، (**وربيع بن أنس**) التابعى الذى تقدمت ترجمته، فالحديث مرسل كما رواه ابن جرير عن محمد بن كعب عن بعض الصحابة (**أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، سُئل: هل رأيت ربك راء؟ فقال: رأيته بفؤادى ولم أره بعينى**) هذا يحتمل أن يكون فى المرة الأولى، فإنه روى عن ابن عباس وغيره أنه رآه مرتين، فلا ينافى ما مر.

وما قيل من أن المراد نفى مجرد الرؤية، أو نفى رؤيته كسائر الأشياء المرئية تعسف لاينبغى ذكره هنا.

(**وروى مالك بن يخامر**) بضم المثناة التحتية وخاء معجمة يليها ألف وميم مكسورة ثم راء مهملة علم منقول ممنوع من الصرف، وهو سكسكى حمصى يقال: إن له صحبة، والأصح أنه تابعى روى عن معاذ بن جبل كما ذكره المصنف، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهما، ومات سنة سبعين أو اثنين وسبعين، وروى عنه جماعة.

(**عن معاذ، عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: رأيت ربى**) فى حديث رواه أحمد بن حنبل(١) وغيره، وهو حديث صحيح أوله قال معاذ رضى الله تعالى عنه: صلى رسول الله ﷺ الغداة، ثم أقبل علينا فقال: إنى سأحدثكم أنى قمت من الليل فصليت ما قدر لى ونعست، وفى رواية فوضعت جنبى فإذا أنا بربى فى أحسن صورة، فقال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: أنت أعلم ربى. فوضع كفه، وفى رواية يده بين كتفى، فوجدت بردها بين ثديى، فعلمت ما فى السموات والأرض، ثم تلا ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ [الأنعام: ٧٥] إلى آخره، ثم قال: فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟ قلت: فى الكفارات قال: وما هن؟ قلت: المشى على الأقدام إلى

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/٢٤٣).

الجماعات، والجلوس فى المساجد خلف الصلوات، وإبلاغ الوضوء أماكنه فى المكاره من يفعل ذلك يعش بخير، ويمت بخير، ويكون من خطيئته كيوم ولدته أمه، وروى يخرج من خطيئته، ومن الدرجات إطعام الطعام وبذل السلام، وأن يقوم بالليل والناس نيام.

قال: قل اللهم إنى أسألك الطيبات وترك المنكرات وحب المساكين، وأن تغفر لى وترحمنى وتتوب على، وإذا أردت فتنة فى قوم فتوفنى غير مفتون. وهذا الحديث أخرجه أيضًا الترمذى والبغوى فى المصابيح، وهو تمثيل لتجلى الله له بلطفه وحسن معاملته، وما أفاضه عليه من المعارف الكاشفة لغيبه مع ثلج صدره ببرد اليقين، وتحقيقه فى شرح المصابيح وشرح الأربعين للصدر والقونوى، وإدراج بعض الشراح له هنا فى المتن كعادته غير متجه.

(وذكر كلمه) إشارة لما مر، وهو اسم جمع لكلمة مضافا لضمير الله أو الحديث لأدنى ملابسة.

(فقال) الله **(فيم يختصم الملأ الأعلى؟)**، أى: فيم يسأل الملائكة بعضهم بعضا عن المراتب المقربة إلى الله المكفرة بالخطايا؟.

ولذا أمره ﷺ بالدعاء بنيل كمال هذه المراتب **(الحديث)** بالنصب، أى اقرأ أو اذكر.

(وحكى عبد الرزاق) همام بن رافع الصنعانى صاحب التصانيف الجليلة، أخرج له الأئمة الستة، وتوفى سنة إحدى عشرة ومائتين وترجمته مشهورة **(أن الحسن)** البصرى السابق ذكره وترجمته **(كان يحلف بالله لقد رأى محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، ربه)** بعين بصره.

(وحكاه أبو عمر الطلمنكى) عمر بزنة زفر، وهو بالطاء المهملة واللام والميم المفتوحات وسكون النون وكاف مكسورة يليها ياء نسبة ضبطه الحفاظ، وهو الإمام الحافظ المقرئ أحمد بن عبد الله بن لب بن يحيى المغافرى الأندلسى عالم قرطبة، ولد سنة أربعين وثلاثمائة، وتوفى فى ذى الحجة سنة تسع وعشرين وأربعمائة، روى عنه ابن حزم وابن عبد البر وغيرهما من الأعلام، **(عن عكرمة)** مولى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما.

(وحكى بعض المتكلمين هذا المذهب)، وهو رؤية الله نبيه **(عن ابن مسعود)** رضى الله تعالى عنه، **(وحكى ابن إسحاق)** محمد بن إسحاق بن يسار الإمام الحافظ صاحب المغازى، وقد تقدمت ترجمته **(أن مروان)** بن الحكم بن أبى العاصى بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموى، ولد سنة اثنين، ولم يصح له سماع ولارواية، وإنما

له رواية عن عثمان رضى الله تعالى عنه وميسرة وغيرهما، وكانت دولته تسعة أشهر وأياما، وتوفى سنة خمس وستين فى رمضان ثم تولى ابنه عبد الملك، وترجمته مفصلة فى التواريخ.

(سأل أبا هريرة رضى الله عنه هل رأى محمد ﷺ ربه) بعينه؟ **(فقال: نعم، وحكى النقاش)** محمد بن الحسن بن زياد، وقد تقدم ترجمته **(عن أحمد بن حنبل أنه قال: أنا أقول بحديث ابن عباس: بعينه رأى ربه)** بدل من حديث، ولم يكرر ما قاله رافعا بصره، **(رآه رآه رآه حتى انقطع نفسه)** بفتحتين، أى عجز عن التكلم، وأعيى فترك التكلم **(نفس أحمد)** بن حنبل، وإنما فسره بذلك لئلا يتوهم عوده لابن عباس.

(وقال أبو عمر) السابق ذكره: **(قال أحمد بن حنبل: رآه بقلبه، وجبن عن القول)** بفتح الجيم وضم الباء وحكى الجوهرى فتحها، وهو ضعف فى القلب يقتضى عدم الإقدام يريد أنه لم يتجرأ تأدبًا عن أن يقول، أى عن القول **(برؤيته فى الدنيا بالأبصار)** بكسر الهمزة وفتحها جمع بصر، وتعبيره بالجبن يدل على أنها جائزة عقلا عنده، وهو الحق. **(وقال سعيد بن جبير)** الصحابى المشهور رضى الله تعالى عنه: **(لا أقول رآه ولا لم يره)**، أى توقف فى ذلك، ولم يمل لأحد القولين.

(وقد اختلف فى تأويل الآية) يعنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣، ١٤] فى النقل **(عن ابن عباس وعكرمة والحسن وابن مسعود، فحكى عن ابن عباس وعكرمة: رآه بقلبه)** رواه مسلم عنه فى صحيحه فى تفسير هذه الآية، فالضمير فى رآه لله والرؤية قلبية **(وعن الحسن وابن مسعود رأى جبريل)** فالضمير فيها لجبريل عليه الصلاة والسلام كما فى مسلم عن ابن مسعود وأبى هريرة، فرآه بالأفق الأعلى، وله ستمائة جناح ينتثر منها الدر والياقوت كما قاله المهدوى.

(وحكى عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه)، وهو كأبيه إمام فى السنة والفقة أخذ عن الأعلام، وتوفى سنة تسعين ومائتين فى سن أبيه **(أنه قال: رآه)**، أى بعينه لأنه المتبادر، وقد روى عنه التصريح به، ولا ينافى ذلك ما مر من أنه جبن عن القول بذلك؛ لأنه قد يخفيه فى بعض المجالس المقتضى لذلك.

(وعن ابن عطاء فى) تفسير (قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] **قال: شرح صدره للرؤية، وشرح صدر موسى للكلام)**، أى قوى قلبه وأذهب رعبه، حتى سر مع مشاهد جلاله وعظمته وسماع كلامه.

(وقال أبوالحسن على بن إسماعيل الأشعرى) ابن أبى بشير بن إسحاق بن أبى سالم

ابن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبى بن موسى الأشعرى صاحب رسول الله ﷺ، المعروف أن أبا الحسن هذا شافعى المذهب، وقال التلمسانى: إنه مالكى المذهب، ونسبته إلى أشعر، وهو ثابت بن أدد، ويشحب بن يعرف بن زيد بن كهلان ابن سينا، وكان حبرًا عظيمًا، وهو إمام أهل السنة صاحب التصانيف المشهورة، ولد سنة سبعين ومائتين، ومات سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، وقيل: أربع وثلاثين فى ذى الحجة.

(**وجماعة من أصحابه أنه ﷺ رأى الله ببصره وعينى رأسه**) تأييد لكون الرؤيا بصرية، وإضافة العينين للرأس احتراز عن عين قلبه وظهره، فإنها وردت فى الحديث، فإن لم تكن عينا حقيقة. (**وقال**) الأشعرى رحمه الله تعالى: (**كل آية**) ومعجزة (**أوتيها نبى**)، أى أعطاها الله لنبى (**من الأنبياء، فقد أوتى مثلها نبينا ﷺ**)، وقد فصله ابن المنير فى المقتفى، والكلام فيه طويل لا يسعه كتابنا هذا، ولا ينافى فى هذا تخصيص موسى عليه الصلاة والسلام بالكلام كما مر.

قيل: الحقيقة المحمدية صورة الاسم الأعظم الجامع للأسماء، فله التصرف فى العوالم، ومنه تستفيد وتستمد ما فيها من جهة حقيقته، لا من جهة بشريته، فهو الخليفة حقيقة، وأى معجزة كانت لنبى فهو له أولاً وبالذات، ثم جاءت منه لغيره، وإلى هذا أشار فى البردة بقوله:

وكل آى أتى الرسل الكرام بها ... فإنما اتصلت من نوره بهم

أقول: الحق أن نقول: إن الله خلق روحه ﷺ قبل الأرواح، وخلع عليها خلعة النبوة، ثم خلق أرواح البشر وأمر أرواح الأنبياء بأن يؤمنوا به، وأخذ عليها الميثاق باتباعه إن أدركوه كما نطق به الكتاب العزيز، فلما أجابوه أشرق عليهم نوره الروحانى الربانى، وصارت فى أرواحهم قوى مستعدة لإظهار المعجزات، كما لأولياء أمته إذا أظهروا الكرامات لما أشرق عليهم نوره، وهذا هو الذى قصده البوصيرى رحمه الله تعالى فاعرفه.

(**وخص من بينهم**)، أى اختص ﷺ عن سائر الأنبياء (**بتفضيل الرؤية**)، أى بتفضيله برؤية ربه عيانا فى الدنيا، فلم يره غيره فيها، (**ووقف بعض مشايخنا فى هذا**)، أى توقف فيه، فلم يعتقد ثبوته ولا نفيه، والمشايخ جمع مشيخة أو شيخ على خلاف القياس، وفيه كلام فى شرح أدب الكاتب، (**وقال: ليس عليه**)، أى على ثبوته (**دليل واضح**)، أى صحيح ظاهر، (**ولكنه جائز**) بحسب العقل (**أن يكون**)، أى أن يصح ويوجد فى الدنيا.

(قال القاضى أبو الفضل) عياض المصنف رضى الله تعالى عنه: **(والحق الذى لا امتراء فيه)**، أى القول الحق الذى لاشك فيه، ولا شبهة؛ لأن المرية هى الشبهة **(أن رؤيته تعالى فى الدنيا جائزة عقلا)**؛ لأنه موجود حقيقة فى كل موجود، وكل موجود تجوز رؤيته عيانًا، **(وليس فى العقل ما يحيلها)**، أى ما يقتضى أنها مستحيلة، ثم ذكر دليلاً نقليًا يؤيد العقل.

فقال: **(والدليل على جوازها فى الدنيا سؤال موسى عليه الصلاة والسلام لها)** بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وموسى من أولى العزم لا يسأل من الله تعالى ما لا يجوز، فلو لم يعتقد صحة ذلك ما سأله، وإلا كان جهلاً منه بأحوال الربوبية، وهو مبرأ منه وكلامه فى تحقيق الرؤية لا فى وقوعها فقط، فما قيل من أنه ليس الكلام فى جوازها بل فى وقوعها، والفرق بينهما ظاهر، والقائلون بامتناعها لهم أدلة على مقالهم، وإن كانت مردودة، والقائلون بالجواز العقلى ذاهبون للمنع الشرعى، ولذا قال النسفى: رؤية الله فى الدنيا جائزة عقلا ممتنعة شرعا، والمصنف بصدد إثبات الوقوع له ﷺ، وهو أمر نقلى لا مجال للعقل فيه، فكلامه خارج عن المطلوب إلا أن يقال: إنه استطرادى انتهى ليس بشىء؛ لأنه إن لم يثبت الجواز لايثبت الوقوع، والوقوع أمر نقلى قد بينه أولا، ثم حقق ما يتوقف عليه من الجواز عقلا، وما نقله عن النسفى مخالف لما ارتضاه المصنف، وإذا كان هذا نقليا وثبت نقله كيف لا يكون عقليًا؟، فما ذكره كلام مموه تركه خير منه، وما ذكره المصنف هو دليل أهل السنة على جواز رؤيته تعالى، والمعتزلة يقولون: لم يسأله لجوازه عنده، بل لتبكيت القائلين له ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [النساء: ١٥٣].

(ومحال أن يجهل نبى ما يجوز على الله تعالى، وما لا يجوز عليه) بتنوين نبى للتنكير والتعميم، أىْ، أىُّ نبى كان، فكيف بالكليم عليه الصلاة والسلام؟ وقيل: إنه للتعظيم، أى نبى عظيم من أولى العزم كبار الرسل، والاستحالة عادة مقررة وعقلا؛ لأنه بعث لتعليم أمته الشريعة والعقائد الحقة، وهى معرفة ما يجوز على الله ويمتنع، فلو جهل ذلك كان الله آمرًا له بما لا يعلمه، وهو محال لأنه إما جهل أو عبث، والمعتزلة يقولون: إنما يلزم هذا لو كان سؤالاً حقيقيًا أما لو كان لإلزام غيره أو تبكيته لمن سألها من قومه فلا، وهذا مردود لأن السياق يأباه، وتفصيله فى علم الكلام.

(بل لم يسأل) موسى من الله تعالى **(إلا جائزا غير مستحيل)**؛ لأن سؤال المحال من مثله محال، وكونه سألها مع علمه باستحالتها ليتأكد الدليل العقلى بالسمع، وليطمئن قلبه كما قال إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ ثم قال: ﴿لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾

[البقرة: ٢٦٠]، فإن العلم يتفاوت قوة وضعفا مردود بأن تفاوته غير مسلم، والخليل لم يسأله لذلك، وإنما كان علم أن الله متخذ خليلا يحيى الموتى بدعائه، فسأل ذلك ليعلم أهو هو أم لا؟ ولو سلم فلا يلزم طلب ما لا يجوز، وينافى الأدب عنده بهذه الطريقة إذ له أن يقول: رب بين لى علم ذلك جوازا أو استحالة.

(ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب)، أى جوازه مقرر ثابت ووقوعه له دون غيره بمشاهدة ربه أمر مغيب عن كل أحد كسائر المغيبات الجائزة كالخمس وغيرها، فالغيب بمعنى المغيب عن البشر. **(الذى لا يعلمه إلا من علمه الله)** بإخباره به واطلاعه على حاله وقوعا، وعدمه مطلقًا أو فى بعض الأحوال، فلذا أعلمه الله به، **(فقال الله له: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾** [الأعراف: ١٤٣])، أى الرؤيا جائزة، ولكنك لا تصل إليها فى الدنيا **(أى لن تطيق)**، **أى** تقدر، **(ولا تحتمل رؤيتى)**، أى لا تقوى عليها فى هذه الحالة، وهذا كله مما يدل على الجواز.

(ثم ضرب له مثالا)، أى أتى له بمثال من المخلوقات فإنه لا يطيق تجلى الله عيانا لينكشف له أمرها، ويعلم حاله من حال غيره **(مما هو)** وفى بعض النسخ: بما، متعلقا بضرب **(أقوى من بنية موسى، وأثبت)**، أى أشد قوة وأكثر ثباتا، وبنية بكسر الباء الموحدة وسكون النون الخلقة والتركيب، **(وهو الجبل)** فى قوله: **﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾** [الأعراف: ١٤٣]، فلما لم يثبت الأقوى علم عدم ثباته بالطريق الأولى، ولما كان استقرار الجبل ممكنا كان ما علق به ممكنًا أيضًا، فعلم منه جواز الرؤية، وإلى ذلك أشار بقوله: **(وكل هذا ليس فيه ما يحيل رؤيته فى الدنيا)**، أى يقتضى استحالته فيها، **(بل فيه)** ما يقتضى **(جوازها على الجملة)** كما سمعته آنفا من أن سؤاله وتعليقه بالممكن يقتضى إمكانه، وقوله على الجملة بمعنى أنه بطريق الإجمال لاالتفصيل؛ فإنه من قبيل إشارة النص، والمعروف فى كلامهم فى الجملة، والمعنى واحد لأن المراد جواز اقتضاه على طريق الإجمال.

(وليس فى الشرع دليل قاطع على استحالتها ولا) دليل قاطع على **(امتناعها)**، وإن لم تكن مستحيلة فلا دليل على امتناع وقوعها مطلقًا، أو فى الدنيا **(إذ كل موجود)** فى الخارج جوهرًا كان أو عرضا لا فى العلم والذهن، كما قيل لتصور الممتنعات، وهو تعليل الجواز لأن إذ تأتى للتعليل كما حققه النحاة، وأهل المعانى والتعليق بالمشتق يقتضى عليه مبدأه، فالعلة الوجود لا الحدوث، وهو مشترك بين البارى تعالى وسائر الموجودات، فكما تجوز رؤيتها تجوز رؤيته إلا أنه قيل: إنه يقتضى صحة رؤيته نحو الأصوات والروائح والطعوم وكيفية الملموس، فإنها موجودة مع أنها غير محسوسة

بالبصر، إلا أن هذا الدليل منقول عن الأشعرى، وهو التزم جواز رؤيتها، والكلام فى الجواز لا الوقوع.

(فرؤيته جائزة غير مستحيلة) تفسير للجواز، فإنه قد يقابل الحرمة والوجوب، **(ولا حجة)** مسلمة عند الخصم **(لمن استدل على منعها)**، أى الرؤية **(بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾** [الأنعام: ١٠٣]؛ **لاختلاف التأويلات فى)** هذه **(الآية)** كما حققناه لك، فلا إفادة فى الإعادة، **(وإذ ليس)** معطوف على قوله: إذ كل موجود، أو على قوله لاختلاف؛ لأن معناه ليس **(يقتضى قول من قال)** بمنعها **(فى الدنيا الاستحالة)** مطلقا، بل تخصيص الدنيا يقتضى وقوعه فى الآخرة، فيدل على الجواز فى الدنيا، وهذا رد على المعتزلة فإن هذه الآية أعظم أدلتهم على نفى الرؤية فى الدنيا والآخرة، ثم بالغ فى الرد عليهم بأن ما استدلوا به عليهم لا لهم.

(وقد استدل بعضهم بهذه الآية)، أى قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ الآية **(نفسها على جواز الرؤية، وعدم استحالتها على الجملة)** كما يعلم من ذكره اختلاف التأويل، وإنما استدل بها لأن نفى الشىء عند البلغاء يقتضى جوازه، وإلا كان عبثا، فلا يقال للحائط: إنه لا علم له، والله تعالى قد ساق نفى إدراك الأبصار فى سياق المدح، وإنما يتمدح بأمر ثبوتى كمالى، لا بالعدم الصرف، فكل نفى مدح به تضمن أمرا وجوديا كنفى السنة أو النوم المتضمن لكمال القيومية ونفى الموت المتضمن للحياة السرمدية، فلو كان نفى الإبصار معناه أنه لا يرى أصلا كسائر المعدومات لم يكن فيه مدح، بل المراد لا يحيط بعظمته وجلاله الأبصار، وهذا ما فهمه الصحابة رضى الله عنهم، ولذا فسره ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بلا تحيط به الأبصار كما ذكره المصنف، وكذا ذكره غيره، فنفى الإحاطة تفسير للرؤية بدونها أو المراد العموم، أى لا تراه جميع الأبصار فإن منها ما حجبه فهى سالبة فى قوة موجبة جزئية كما مر.

وإليه أشار بقوله: **(وقد قيل: لا تدركه أبصار الكفار، وقيل)** معنى **(لا تدركه الأبصار لا تحيط به، وهو قول ابن عباس)**؛ لأنه كما قيل يحتمل أن يكون رفعا للإيجاب الكلى بأن لا يلاحظ الإيجاب الكلى أولاً، ثم يرد عليه النفى، وحينئذ لا احتجاج لهم علينا، فإنا قائلون بأن الكفار لا يرونه، أو المنفى إدراك بتقليب الحدقة نحو المرئى، فإنه المتبادر من إطلاق إدراك البصر وهو المعتاد، وإنما يحتاج لهذا إذا كان تعريف الأبصار استغراقيًا، وإلا تكون القضية سالبة مهملة، فهى فى قوة السالبة الجزئية كما تقرر بمعنى لا تدركه بعض الأبصار، وتخصيص النفى بالبعض يدل بالمفهوم على الإثبات للبعض، فالآية حجة لنا وعلى تسليم عمومها للأشخاص لا نسلم عمومها للأوقات؛ لأنها سالبة مطلقة،

وهى أعم من السالبة الدائمة، وما ذكر من أن تدركه الأبصار موجبة مطلقة، فنقيضها سالبه دائمة ممنوع لجواز كون الأمر بالعكسى، بل الظاهر عكسه.

أقول: كونه دالاً بالمفهوم على الإثبات للبعض. قال بعضهم: فيه نظر لأن القضية المهملة، والدالة على رفع الإيجاب الكلى ليس صريح مفهوما السلب الجزئى، والتعرض للنفى عن البعض، بل السلب الجزئى لازم معناها الصريح المحتمل للسلب الكلى، والجزئى مع الإيجاب للبعض، فبمجرد كون مفهومها مستلزمًا للسلب الجزئى لا يدل مفهومه على مفهوم السلب الجزئى، فلا حجة لنا فيه، وإنما يكون حجة أن لو كان صريح مفهوم القضية.

(وقد قيل) فى بعض التأويلات: **(لا تدركه الأبصار)** نفسها، **(وإنما يدركه المبصرون)** يعنى أن الإدراك نوع من العلم، وهو صفة الناظر حقيقة لانفس النظر، فإنه واسطة دالة ولا يخفى ركاكة هذا التأويل، وإن كانت عهدته على قائله، **(وكل هذه التأويلات)** السالفة **(لا تقتضى منع الرؤية، ولا استحالتها)**، بل جوازها كما مر فلا حجة فيها.

(وكذلك لا حجة لهم بقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] **الآية)** التى استدل بها بعض المعتزلة، وقال: لن للنفى المؤبد والمؤكد، فإذا نفى عن موسى عليه الصلاة السلام فغيره يعلم بالطريق الأولى، وقد رد بأنها للنفى فى المستقبل فقط، وكلام الله تعالى وغيره دال عليه كما أثبته النحاة مما هو مشهور فى كتبهم، ونفى الرؤية عنه لا يدل على نفيها عن غيره؛ لأنه نفى مخصوص فلا دليل لهم فيه.

(وقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]**)** من سؤال الرؤية المقتضى؛ لأنه محال وطلب ما لا يليق فهو ذنب، وسيأتى جوابه **(لما قدمناه)** من أدلة الجواز الصريحة المقتضية لتأويل هذه الآية، **(ولأنها)**، أى هذه الآية **(ليست على العموم)** بل مخصوصة بموسى عليه الصلاة والسلام فى المستقبل والنفى الخاص لا يدل على عموم ولا استحالة.

(ولأن من قال: معناها لن ترانى فى الدنيا إنما هو تأويل)، فلا دليل فيه على مدعاهم العم ولا على الاستحالة، فإن القائل بين معنى الآية، ولم يذكر أنه تفسير مأثور، ولا أنه برهان على المنع العقلى والعموم، فلا حجة فيه، **(وأيضا ليس فيه نص الامتناع)**، أى صريح عموم امتناع الرؤية لكل أحد، **(وإنما جاءت فى حق موسى عليه الصلاة والسلام)**، أى أن آية لن ترانى مخصوصة بموسى عليه الصلاة والسلام، فكيف استدل بها على امتناع الرؤية مطلقا فى الدنيا وغيرها يقظة ومنامًا؟ كما ذهب إليه المعتزلة، ولا يلزم من نفى الجواز الذى نحن بصدد إثباته.

(وحيث تتطرق التأويلات)، أى إذا أمكن تأويل ما استدلوا به، **(وتتسلط الاحتمالات)**، أى توجد احتمالات فى الدليل، **(فليس للقطع به سبيل)**، فلا يصح القطع والجزم بما استدل كما قالوا: إذا ظهر الاحتمال سقط الاستدلال، وفيما استدلوا به على امتناع الرؤية أمور كثيرة ذكرها المفسرون والمتكلمون كما قدمه المصنف، وأصل معنى التطرق وجود الطريق وسلوكه، فشبه التأويلات بصاحب مطلب وجد الطريق إليه على سبيل الاستعارة التبعية أو المكنية والتخييلية، وكذا فى التسلط لأنه من السلاطة وهى القهر والغلبة قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٠]، ومنه السلطان كما قاله الراغب وغيره من أهل اللغة، وقيل: يتطرق من الطرق، وهو الخلط، أو من التطارق وهو التتابع والازدحام، وهو عبارة عن كثرتها وهو قريب من التسلط.

(وقوله تعالى: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]) الذى استدلوا به على أنه دال على امتناعه عقلا؛ لعدهم سؤال الرؤية ذنبا لاستحالتها لا دلالة على مدعاهم لأن له تفسيرا آخر، **(أى من سؤالى ما لم تقدره لى)** فى الدنيا فى ذلك الوقت لحكمة خفية لما غشيه من أنوار عظمته، حتى صعق، كما يقول من فعل أمرا جائزا اعتراه منه مشقة عظيمة: تبت عن مثل هذا، كما قال ابن نباتة السعدى:

أأمل مأمولا لغير صدودها   فوا خجلتى إنى إلى المجد تائب

وتقدر بضم المثناة وتشديد الدال وتخفيفها.

(وقد قال أبو بكر الهذلى) الإمام العلامة تلميذ ابن القوطية صاحب الأفعال، كان من الأدباء الظرفاء، وله شعر بديع **(فى)** تفسير **(قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، أى ليس لبشر أن يطيق)**، أى يقدر **(أن ينظر لى فى الدنيا، وأنه من نظر إلى)** فيها **(مات)**.

وقيل: هذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فإنه يدل على أن القوى البشرية لا تطيق النظر فى الدنيا لسبحات جلاله إلا من أقدره الله تعالى، وإذا لم يطق ذلك مثل موسى عليه الصلاة والسلام، فغيره يموت فجأة لخوفه، أو لإحراق سبحات النور له، وفى هذا دليل على جواز وقوعه فى الدنيا لكنه من وقع له فيها لا يعيش، كما قيل: إن من رأى الملك فى الدنيا يعمى، كما نقل عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، وإن قيل: إنه لم يصح، والمراد غير الأنبياء هنا.

(وقد رأيت لبعض السلف) من المتقدمين، **(و)** لبعض **(المتأخرين ما معناه أن رؤيته تعالى فى الدنيا ممتنعة)** لمانع منها، لا لذاتها من حيث هى هى؛ لما مر من جوازها عقلا، فامتناعها لعارض **(لضعف تراكيب أهل الدنيا)**، أى لضعف أبدانهم المركبة، كما قال

الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

(وقواهم) جمع قوة، وهى أمر أودعه الله تعالى فى البدن بها الإدراك، أو المراد به المعنى اللغوى، **(وكونها)**، أى التراكيب والقوى، أو هو راجع للقوى فقط **(متغيرة)** بالازدياد فى أول أمرها، ثم التنزل والنقص بعده، وذلك يدل على ضعفها **(غرضا للآفات)** هو حال أو خبر بعد خبر للكون، ولم يعطف لكونه سببا لما قبله، وقيل: لكمال الاتصال بينهما، وفيه أن ذلك مخصوص بالجمل كما حقق فى مباحث الفصل والوصل، والغرض بالغين والضاد المعجمتين أصله الهدف الذى ينصب لرمى السهام، فشبه الجسد بهدف وآفات الدهر ومصائبه كسهام لا تزال يرمى بها حتى يفنى، كما قال أبو العتاهية:

إن الفتـــى لغـــرض الآلام
يرميـــه نبـــل الدهـــر والأيـــام
يصيبـــه رام ويخطـــى رام

ويجوز أن يكون بالعين المهملة، أى معرضًا لها، ولكن الأول أصح رواية ودراية، وقال التلمسانى: روى معترضة بدل قوله متغيرة، أى ذات أعراض، وهى الآفات والأمراض، أو من العرضة، أى متعرضة للآفات، وقيد بعضهم عرضا بفتح العين المهملة، أى منصوبا للآفات مقابلا لها كالهدف، والآفة والعاهة كل ما يعرض بشىء فيفسده.

(والفناء) بفتح الفاء والمد وهو الزوال والعدم، **(فلم يكن لهم قوة على الرؤية)** لضعف أبدانهم وقواهم فى الدنيا، **(فإذا كان فى الآخرة)**، أى إذا أحياهم الله تعالى وأدخلهم دار البقاء، **(وركبوا تركيبا آخر)** غير تركيبهم الأول، **(ورزقوا قوى ثانية)** بمثلثة ونون ومثناة تحتية، أى قوى غير القوى الأولى الدنيوية، وفى بعض النسخ ثابتة بموحدة ومثناة فوقية فقوله: **(باقية)** تفسير له، أى مخلدة لا تفنى؛ لقوة تركيبها وتمام قواها.

(وأتم أنوار أبصارهم وقلوبهم)، أى جعلها تامة كاملة مستعدة للبقاء السرمدى **(قووا بها على الرؤية)** جواب إذا، والضمير راجع للمذكورات من التركيب، والقوى والأنوار التى منحها الله تعالى لهم فى الآخرة.

فهذا يدل على وقوع الرؤية فى الآخرة، وجوازها فى الدنيا؛ لأنه لو رزقهم ذلك فى الدنيا صح ذلك منهم أيضًا، ولذا شق صدر النبى ﷺ وأودع فيه ما قوى به على ذلك كما تقدم، وهذا مما أوحى لأيوب عليه الصلاة والسلام. قال عطاء: أوحى الله لأيوب

إنك لتنظر إلى غدا. فقال: يا رب أفبهاتين العينين؟ فقال: أجعل لك عينين باقيتين، فينظر إلى البقاء بالبقاء.

(وروى) وفى نسخ وقد رأيت **(نحو هذا لمالك بن أنس)** رحمه الله تعالى **(قال: لم يـر)** بضم التحتية، ونائب الفاعل عائد على الله؛ **(لأنه باق، ولا يرى الباقى بالفانى، فإذا كان)** النظر أو الناظر **(فى الآخرة ورزقوا أبصارا باقية رؤى الباقى بالباقى)** ظاهره أن البقاء الأبدى علة لصحة الرؤية، والفناء مانع ولا مدخل للبقاء فى الرؤية، كما أن الفناء والحدوث لا مدخل له فى المنع، لأن الرؤية بخلق الله وليست مشروطة بشىء عند أهل السنة، فكأنه أراد أن البقاء يلزمه قوة التركيب، والقوى المعدة لصحة النظر، فيكون بمعنى ما قبله، ولذا قيل: إن مراده أن الرائى والمرئى لابد أن يكون بينهما مناسبة، وأبصار هذه الدار فانية فإذا عادت وكساها الله صفة دوام البقاء تحملت رؤية الحى القيوم؛ للمناسبة فى الجملة، وإن كان بقاؤه قديما ذاتيا، وبقاؤها طار عرضى، وهو كلام إقناعى.

(وهذا كلام حسن مليح) عنده على ما فيه **(وليس فيه دليل على الاستحالة)** والامتناع عقلا، بل هو دال على الجواز إذ لا مانع منه **(إلا من حيث ضعف القدرة)** البشرية فى الدنيا، **(فإذا قوى الله من شاء من عباده)** بأن رزقه قوة تطيق ذلك، **(وأقدره على حمل أعباء الرؤية)**، أى جعل له قدرة وطاقة على رؤيته ومشاهدته، والأعباء جمع عبء بكسر العين المهملة وسكون الموحدة وهمزة، وهو الحمل الثقيل وهو فى المحسوسات حقيقة، فاستعيرت للمعانى **(لم تمتنع)** الرؤية **(فى حقه)**؛ لتمكنه منها بما منحه من القوة.

(وقد تقدم ما ذكر فى قوة بصر موسى، ومحمد عليهما الصلاة والسلام ونفوذ إدراكهما) بذال معجمة، أى خروجه وبلوغه **(بقوة إلهية منحاها)** بضم أوله مبنى للمجهول، أى أعطياها؛ **(لإدراك ما أدركاه ورؤية ما رأياه والله أعلم)** بحقيقة ذلك.

(وقد ذكر القاضى أبو بكر محمد بن الطيب إمام أهل السنة الباقلانى) بالنون نسبة إلى الباقلاء على خلاف القياس كالصنعانى، توفى سنة ثلاث وأربعمائة، وقيل: ثلاث وتسعين وثلاثمائة قالوا: وليس هو الإمام أبو بكر بن محمد بن العربى شيخ المصنف **(فى أثناء أجوبته عن الآيتين)**، أى فى خلال كلامه فى الجواب عما استدل به المانعون من الآيتين ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] و﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] **(ما معناه)** ما موصولة أو موصوفة مفعول ذكر إشارة إلى أنه رواية عنه بالمعنى دون اللفظ والعبارة.

(أن موسى، عليه الصلاة والسلام، رأى الله، فلذلك خر صعقًا) مغشيًا عليه مع صحته؛ لأن وقوع مثل هذا بمجرد رؤية الجبل دكا بعيد، وإن جاز أن يكون لتجليه وظهور أنواره، لكن هذا مناف لظاهر قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ وقوله: ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولما نقله المصنف أولا من أن الله قسم الكلام والرؤية بين موسى ومحمد ﷺ، **(وأن الجبل)** أيضًا **(رأى ربه)**، أى خلق فيه إدراكًا وحياة، **(فصار دكا)**، أى انهد حتى صار ترابا من هيبة الله، وذلك **(بإدراكٍ خَلَقَهُ الله له)** كما نقله الماتريدى عن الأشعرى رحمهما الله تعالى، وهذا مما يدل على جواز الرؤية؛ لأن الذى قدر الجماد على ذلك كيف لا يقدر كمل البشر.

(واستنبط)، أى استخرج **(ذلك)** وأصل الاستنباط استخراج الماء من البئر، فأطلق على مطلق الاستخراج، أو استعارة له، وذلك إشارة لرؤية موسى عليه الصلاة والسلام ورؤية الجبل، **(والله أعلم)** فيه إشارة إلى أنه لم يصرح به **(من قوله:** ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ثم قال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، أى مدكوكًا، والدك والدق متقاربان، وفسر دكه بأنه صار رملا أو ترابا، وقيل: غار، وقيل: استوى بالأرض، وقيل: افترق فرقًا.

قال الواحدى: هذا الجبل يسمى زبير، وليس هو الطور، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، أى سقط صائحا مغشيا عليه من هول ما رآه من هذا الجبل.

(وتجليه للجبل هو ظهوره له حتى رآه)، أى شاهد المتجلى ونوره، فذاب كما يذوب الحديد من النار، فلو لم يخلق له حياة وإدراكا ورؤية لم يخف خوفا هده وفتته **(على هذا القول)**، أى قول أبى بكر الباقلانى السابق بأن موسى والجبل رأياه معا، وهذا بناء على مذهب أهل السنة فى أنه يجوز خلق العلم والنظر فى أى جرم أراد، وليس من شرطه البنية والمزاج كما قاله المعتزلة، فإنه وهم باطل كما قاله ابن عرفة. قيل: هذا غير ظاهر لأن التجلى لموسى لا للجبل، وكون موسى خر صعقا إنما هو لدكه الجبَل وشدة وقوعه لا من تجلى الله له ورؤيته. ويناسبه قوله.

(وقال جعفر) الصادق **(بن محمد)** المتقدم ترجمته **(شغله)** الله تعالى **(بالجبل)** وأصوات دكه حين أمر بالنظر إليه **(حتى تجلى)**، أى ظهر ظهورا تاما لموسى عليه الصلاة والسلام فرآه، **(ولولا ذلك)**، أى اشتغاله بالجبل بأن ظهر له نور التجلى ابتداء **(لمات صعقا)** بسكون العين وكسرها، وعلى الأول هو تمييز، وعلى الثانى حال **(بلا إفاقة)** من صعقته وغشيه.

(وقوله هذا)، أى قول جعفر **(يدل على أن موسى عليه الصلاة والسلام رآه)** كالجبل؛ لأنه معنى التجلى لأنه لا يقال: تجلى له إلا إذا شاهده، فما قيل من أنه فى غاية البعد لأن التجلى الواقع فى الآية إنما هو للجبل لا لموسى عليه الصلاة والسلام غير متجه؛ لأن المصنف رحمه الله تعالى إنما بنى كلامه على ما قاله هؤلاء وفهموه، والناقل لاعهدة عليه، فإن حاصله أن موسى لما سأل الرؤية فى مناجاته لربه أمره بالنظر للجبل ليلهين به حتى إذا تجلى له ابتداء لم يهلك وتحرقه الأنوار ويموت، وهذا بناء على أنه حين صعق لم يمت، وذهب كثير من المفسرين إلى أنه مات ثم أحياه الله، وما قاله هؤلاء مخالف لكلام المفسرين، فإنهم ذهبوا إلى أنه إنما أمر موسى عليه الصلاة والسلام بالنظر للجبل ودكه؛ ليعلم أنه لاطاقة له على رؤيته تعالى فإن ما لا تطيقه الجبال كيف تطيقه بنية الإنسان.

(وقد وقع لبعض المفسرين) أنه قال **(فى الجبل أنه رآه)** بحياة وإدراك خلقه الله تعالى فيه فرآه وشاهده، وقد نقله الماتريدى عن الأشعرى، وهو الظاهر من التجلى، وإن حملوه على معنى آخر. قال فى الكشاف فى تفسيره فلما ظهر اقتداره وتصدى له أمره وإرادته جعله دكا، أى مدكوكا، والظاهر أنه عنده استعارة تمثيلية، وقيل: إنه على حذف مضاف، وفيه مجاز آخر حيث أسند التجلى للاقتدار وليس بشىء.

(وبرؤية الجبل له)، أى لله عز وجل **(استدل من قال برؤية نبينا ﷺ له)** قيل: الجبل ليس له إدراك ونظر إلا أنه يجوز أن يخلق الله فيه ذلك، وليس جعله دكا متوقفًا على الرؤية ومستلزمًا لها، ولوكان كذلك قال: فإن رأى واستقر، فإنما دكه ليعلم موسى عدم طاقته لمشاهدة نور الأنوار، وفى الحقيقة جعله دليلاً فيه ما فيه إلا أن يقال: معنى قوله: **(إذ جعله دليلا على الجواز)** أنه جعل تعليق الرؤية بأمر ممكن فى نفسه دليلا علىجوازها، فإذا كانت أمرا جائزا لاحاجة لتأويل الأحاديث الواردة بأنه ﷺ رأى ربه.

(ولا مرية) بكسر الميم وضمها معناها الشك والتردد **(فى الجواز)**، أى جواز الرؤية **(إذ ليس فى الآيات)** التى استدل بها على عدمها كآية ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ**﴾ [الأنعام: ١٠٣]، و﴿**لَن تَرَىٰنِى**﴾ [الأعراف: ١٤٣] ونحوها **(نص فى المنع)** للرؤية صريح فيه إذ هى مأولة، بل مشيرة للجواز كما مر.

(وأما وجوبه لنبينا ﷺ)، أى وجوب وقوع رؤيته لربه فى الإسراء بعين رأسه، واعترض عليه بأنه لم يقل أحد بالوجوب، وإنما قيل بالجواز والوقوع، والجواب بأنه من خصائصه التى يجب اعتقادها تعسف، وليس المراد وجوبه على الله حتى يقال: إنه لا يجب عليه شىء، وكل ذلك محض تفضل منه، وقيل: المراد وجوب الجواز لأن الجائز عقلا إذا وقع فى الخارج انقلب واجبا بالغير، وإن كان فى حد ذاته ممكنا، والمراد وقوع

الرؤية انتهى، ولا يخفى ما فيه من التعسف والتمحل الذى لا يساعده العبارة، وكون الجائز إذا وقع انقلب واجبا لغيره لا معنى له، فالظاهر أن يقول: إن الوجوب هنا بمعناه الاصطلاحى؛ لأنه لو ورد مصرحا به فى نص قطعى من القرآن أو الحديث المتواتر أوالمشهور وجب علينا اعتقاده، ولا يسع أحدًا من أهل الملة أن يخالف فيه، وإليه أشار في آخر الفصل بقوله: وجب المصير إليه ألا ترى أنه لما صح أنه ﷺ أخبر بالإسراء، وورد فى القرآن أنه أسرى به من الحرم للبيت المقدس لا يجوز إنكاره سواء كان مناما أويقظة، أو هو بمعناه اللغوى، وهو الوقوع فإنه أصل معناه وإطلاق الواجب على اللازم عقلا أوشرعا معنى عرفى منقول منه، والمراد بالعرف فيه عرف اللغة، وهذا مما صرح به أئمة اللغة والمصنف منهم.

قال الإمام الراغب: يقال وجبت الشمس إذا وقعت، ومنه قوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ [الحج: ٣٦]، وقول الفقهاء: الواجب إذا لم يفعل استحق عليه العقاب وصف له بما هو عارض له، فيجرى مجرى قولك: الإنسان إذا مشى مشى برجلين انتهى، ولهذا أشار فقهاؤنا فى الفرق بين الفرض والواجب، فقوله: (**والقول بأنه رآه بعينه**) يشير إليه من طرف خفى، فلا إشكال فى كلامه، وهذا يقع فى مقابلة الجائز بمعنى الممكن بلا وقوع كما صرح به الراغب أيضًا، فلا يرد على ما قلنا أن وقوعه فى مقابلة الجائز فى كلامه يأباه، فإن هذا كله إنما جاء من توهم أنه أريد بهما ما قاله الفقهاء، وقوله بعينه متعلق برآه، أو توكيد للضمير ففيه صنعة من البديع، وهى حسنة إذا جاءت أحيانا من غير تكلف لا كما يقصده بعض شعراء مصر، فإنه قبيح وهذا كقوله:

رأيت من هواه لما أن رمى فقلت هذا قاتلى بعينه

(**فليس فيه قاطع**)، أى دليل قطعى (**أيضًا**)، أى كما أن المنع لم يقم لمدعيه دليل قطعى، (**ولا نص**)، أى دليل صريح فيه من الكتاب والسنة (**إذ المعول فيه**)، أى المعتمد فى استدلالهم على وقوعه لنبينا ﷺ (**على آيتى**)، أى على آيتين فى سورة (**النجم**) ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١]، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣] الآية، (**والتنازع فيهما مأثور**)، **أى** النزاع فى المراد منهما منقول عن سلف المفسرين والمتكلمين كما مر؛ للقول بأن الضمير لجبريل والرؤية له بصورته الأصلية، (**والاحتمال لهما ممكن**) لعدم صراحتها وقطعيتها فى المدعى، (**ولا أثر**)، أى حديث (**قاطع متواتر عن النبى ﷺ بذلك**)، أى بكونه ﷺ رآه بعين رأسه.

(**وحديث ابن عباس**) رضى الله تعالىعنهما الموقوف عليه المتقدم الذى ذكر فيه أنه رآه بعينه (**خبر عن اعتقاده**)، أى أخبر به عما كان يعتقده بحسب ما أدى إليه علمه الجازم.

(ولم يسنده إلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)، أى لم ينقله عنه، ويقول إنه صرح له بذلك حتى يعتبر، **(فيجب العمل)**، أى القول به والجزم **(باعتقاد مضمنه)** بضم الميم الأولى وفتح الضاد المعجمة والميم المفتوحة المشددة، أى ما تضمنه ودل عليه لفظ من رؤيته ﷺ لربه بعينه، فسماه عملاً؛ لأنه من الأعمال القلبية، وإن اشتهر أن العمل فيما يكون بالجوارح الظاهرة، يعنى أن الرؤية العينية ليس فيها نص قرآنى ولا حديث قطعى حتى يجب اعتقاده، ويكفر منكره؛ لمخالفة كثير من الصحابة والعلماء فى وقوعها، وإن كان الراجح عندهم ثبوتها، وبه صرح الغزالى والنووى، وإليه ذهب المصنف رحمه الله تعالى وإن قيل: إنه مال لخلافه فى شرح مسلم.

(ومثله)، أى مثل قول ابن عباس فى إثبات الرؤية **(حديث أبى ذر)** الغفارى رضى الله عنه الذى رواه مسلم قال: سألته ﷺ هل رأيت ربك؟ فقال: رأيت نورا إلى آخره **(فى تفسير الآية)** يعنى آية سورة النجم.

(وحديث معاذ) بن جبل **(محتمل للتأويل)** بما مر، **(وهو مضطرب الإسناد)**، أى الطريق فى روايته، **(والمتن)** هو نفس الحديث، وكلام الرسول الذى رواه؛ لأنه المراد منه، والمتن أصله الظهر الذى به قوام البدن، فشبه به ما يقصد من الكلام كلفظ الحديث واللفظ المنقول ليشرح، واضطرابه اختلاله واختلافه افتعال من الضرب قيل: اضطراب سنده لأنه رواه تاره عن ابن عباس الحضرمى مرسلاً؛ لأنه ليس بصحابى، وتارة عن معاذ بن جبل، واضطراب متنه لأنه قال فيه: رأيت ربى فى أحسن صورة[1]. فقال: يختصم الملأ الأعلى الحديث الذى تقدم، وفيه: لما صلى الغداة قال: صليت الليلة ما قضى لى، ثم وضعت جنبى فأتانى ربى، وفى أخرى عنه: قمت من الليل فصليت ما قدر لى، فنعست فى صلاتى حتى استيقظت فإذا أنا بربى، واختلافه والسند واحد يوجب الاضطراب.

وقيل: إن الحديث بطوله رواه ابن حنبل والترمذى، وقال: إنه حسن غريب، وقال: إنه صحيح الإسناد وهو أحسن ما يتمسك به فى الرؤية، وكذا قال المنذرى فى الترغيب، فما ذكره المصنف رحمه الله تعالى من اضطرابه إن أراد معناه اللغوى لاختلاف ألفاظه، فهو غير قادح؛ لأن الحديث الواحد قد تختلف ألفاظه ولا يختلف معناه وإن أراد معناه الاصطلاحى، وهو ما اختلف فيه راويان فأكثر فرووه بوجوه مختلفة لم تترجح أحدهما، فليس فيه شىء منه، ولو كان كذلك أوجب، وأئمة الحديث صححوه كما سمعته آنفا وفيه نظر.

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (١/٢٠٤).

(وحديث أبى ذر الآخر مختلف) ألفاظة المروية، ومثله قد يوجب الضعف لدلالته على عدم ضبط الرواى **(محتمل)** للرؤية العينية وغيرها **(مشكل)** من حيث المعنى لجعله ذاته تعالى نورا، **(فروى)** بالبناء للمجهول **(نور)** منون مرفوع، ويروى منصوبا أيضًا **(أنى)** بفتح الهمزة وتشديد النون وألف بعدها مقصور بمعنى كيف **(أراه)**، أى منعنى وحجبنى أو ظهر لى نور، أو رأيت نورًا غشينى، فكيف أرى ذات الله وقد حال بينى وبينه سبحات النور المانعة من الرؤية فى جارى العادة، وروى نورانى بالنسبة للنور على خلاف القياس كصنعانى، وقيل: إنه تصحيف، والصواب الأول وفى المقتفى للبرهان يحتمل هذه الرواية ما سبق بأن يكون معناه الخالق للنور المانع للرؤية، فهو من صفات الأفعال.

وقال المصنف، رحمه الله تعالى: لم أر هذه الرواية، ومن المستحيل أن يكون ذاته نورا لأنه جسم، وهو تعالى منزه عنه بإجماع المسلمين، ومعنى نور السموات منورها، أو هادى أهلها، أو منور قلوبهم، أو ذو بهجة وجمال. وقال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء: ما رأيت لهذا الحديث منكرا. وقال ابن خزيمة: فى القلب من صحة إسناده شىء. وزاد أحمد فى حديث أبى ذر: رجال إسناده رجال الصحيح. انتهى.

وقيل: هذا الحديث لا يشعر برؤية ولا بعدمها، والمتفق على روايته هو الأول. وكيف الإنكار أو التعجب، أى كيف يتمكن من رؤيته، ويحتمل أنه قاله لأن عنده من حديث إسلامه ممن لا يفهم مراده؛ لأنه روى: رأيت نورًا، وما ذكره البرهان تكلف، فإن النور من أسمائه تعالى.

أقول: كل هذا كلام مديح، والذى ارتضاه الغزالى كما يأتى أن النور يطلق عن الله تعالى حقيقة، فإن معناه الظاهر بنفسه المظهر لغيره، وهو وإن كان منزعًا حكميًا صوفيًا فقد وقع فى كلام الأشعرى ما يوافقه، فإنه قال: الله نور ليس كالأنوار كما سيأتى، وعلى هذا فالروايتان بمعنى، فإنه نور النور الخفى بفرط الظهور، فإن فهمت فهو نور على نور، وقوله: إنه جسم غير مسلم.

(وحكى)، أى نقل **(بعض مشايخنا أنه)**، أى هذا الحديث أو هذا اللفظ **(نورانى أراه)** قد عرفت معناه وسمعت ما قاله المصنف، أى فى شرح مسلم من أن هذه الرواية لم تثبت. **(وفى حديثه)**، أى حديث أبى ذر **(الآخر)**، أى المروى من طريق آخر: **(سألته)**، أى النبى ﷺ فقلت له: هل رأيت ربك؟ **(فقال: رأيت نورًا، وليس يمكن الاحتجاج بواحد منها على صحة الرؤية، فإن كان الصحيح رأيت نورًا)** هذا محتمل؛ لأن يكون أطلق عليه النور حقيقة كما مر، أو باعتبار لازمه كسائر أسمائه التى لا تليق حقيقتها به،

أو أن المراد أنه لم يره؛ لأن حجابه النور، وإلى هذا أشار المصنف بقوله: **(فهو)**، أى النبى ﷺ **(قد أخبر أنه لم ير الله تعالى، وإنما رأى نورا منعه وحجبه عن رؤية الله تعالى)** بناء على ما فهمه، ولم يرتضه بعض الشراح، **(وإلى هذا)** المعنى وأنه لم يره **(يرجع قوله: نور، أنى أراه)** فإنه تعجب أو إنكار لرؤيته **(أى كيف أراه)** هذا كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]؟، **فكيف للإنكار أو التعجب، أى كيف يتمكن من رؤيته (مع حجاب النور المغشى للبصر)**، أى الساتر أو المانع له عن الرؤية كالغشاوة.

وهذا مثل ما فى الحديث الآخر: **(حجابه النور)** وهذا الحديث رواه مسلم والطيالسى والبخارى عن أبى موسى الأشعرى، وهو أن الله لا ينام، ولا ينبغى له أن ينام، ولكنه يخفض القسط ويرفعه، ويرفع عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور لو كشفه أحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، وهو حديث صحيح.

(وفى الحديث الآخر: لم أره بعينى ولكن رأيته بقلبى مرتين، وتلا) قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨]، أى نزل ليقرب من عنده، وهذا بناء على أن الضمير فيهما لله تعالى، لا لجبريل عليه الصلاة والسلام، وتدليه من المتشابه كقوله: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا»(١)، والكلام فيه مشهور، ثم بين معنى الرؤية القلبية فقال: **(والله قادر على خلق الإدراك الذى فى البصر فى القلب)** بأن يدرك بقلبه ما يدرك ببصره حتى يكون مشاهدًا محسوسا له واقفا على ذاته؛ لأن فى القلب نورًا هو مبدأ الإبصار، فيقربه الله حتى يرى بلا واسطة للعين، **(أو كيف شاء)**، أى بكيفية أخرى غير خلق الإدراك فى قلبه أرادها لمن أراد أن يتجلى له بأن يجعل له علما ضروريا يدركه به على وجه لا يعلمه إلا هو. **(لا إله غيره، فإن ورد حديث نص)** صريح **(بين فى الباب)** فى ثبوت الرؤية له بحيث لا يحتمل التأويل **(اعتقد)** بالبناء للمجهول، أى اعتقده كل من وقف عليه وثبت عنده، **(ووجب المصير إليه)**، أى وجب علينا أن نذهب لاعتقاده ولا نعدل عنه. **(إذ لا استحالة فيه)**، أى فيما ذكره من صحه الرؤية ووقوعها، وهذا معنى الوجوب الذى قاله أولا كما وعدناك به.

(ولا مانع قطعى يرده) فيمنع من اعتقاده، ويوجب تأويله أو التوقف فيه كسائر المتشابهات، **(والله الموفق للصواب)**، أى الخالق للتوفيق المنعم به على عباده، وفى الختم بهذا لطف لما فيه من الإشارة إلى تعارض أحاديث الرؤية محتاج للتوفيق لمن رزق

(١) أخرجه البخارى (٢/٦٦)، ومسلم فى صلاة المسافرين (١٦٨)، وأبو داود (١٣١٥)، وابن ماجه (١٣٦٦)، والبيهقى (٣/٢).

التوفيق، ولا شبهة فيما قاله، وهو لا ينافى أن الأصح الراجح أنه ﷺ رأى ربه بعين رأسه حين أسرى به كما ذهب إليه أكثر الصحابه إلا أنه لما ورد ونقل خلافه أيضًا ذهب إلى أنه أمر غير قطعى، فالاعتراض عليه بأنه إن أراد بالقطعى كلام الله أو حديثا متوترا فمسلم، لكنه ليس بلازم فكم من أمر علمناه وجزمنا به وهو ليس فى القرآن ولا فى الحديث المتواتر، وإن أراد أنه ليس فى حديث صحيح صريح يعمل به، فهو غير مسلم ساقط واه تركه خير منه، والله أعلم.

* * *

(فصل وأما ما ورد فى هذه القصة) [من مناجاته لله تعالى]

أى قصة الإسراء **(من مناجاته لله تعالى)**، أى مخاطبته له ومحادثته لما ارتفع إلى المقام الأعلى، والمناجاة تكون بمعنى المحادثة وبمعنى المسارة مما يرضاه، وأصل معناه أن يخلو بمن خاطبه على نجوة، أى مكان مرتفع من الأرض، وقيل: هو من النجاة لأن من سره نجا من أن يطلع عليه غيره، ثم شاع فى مطلق المخاطبة، فلذا عطف عليه قوله: **(وكلامه معه)** ليبين المراد به، والضمير الأول للرسول كضمير مناجاته، أو لله كضمير معه، أى كلامه معه الثابت **(بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾)** المقرب إليه، وإلى سرادقات عظمته وهو الرسول المكرم ﷺ أو جبريل، وقد مر أن مقام العبودية أشرف المقامات، فلذا قال: ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [النجم: ١٠]، ولم يقل رسوله ولا نبيه.

﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾، أى ما يوحى أمرًا عظيمًا لا يحيط به العبارة، ففى الإبهام إشارة إلى تفخيمه وتعظيمه، وأنه محرم الأسرار وبحر المعارف لا يطلع على ما أطلعه الله عليه غيره، ففى الإبهام ولفظ العبد هنا موقع لا يليق بغيره **(إلى ما تضمنته الأحاديث)** الآتية، وإلى بمعنى مع أو غاية الابتداء مقدر أى ينتهى من الكلام إلى ما تضمنته الأحاديث.

(فأكثر المفسرين) جواب ما. قيل: الأكثر يقابله الكثير، فلا يناسب مقابلته بالشاذ والنادر منهم، فحق العبارة جمهور المفسرين، والأمر فيه سهل **(على أن الموحى)** اسم فاعل أوحى، أى الفاعل للإيحاء فى قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ فى هذه الآية **(الله إلى جبريل، عليه الصلاة والسلام، وجبريل إلى محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلا شذوذا منهم)**، أى إلا جماعة من المفسرين قليلة شاذة خالفوهم فيه، فشذوذا إما جمع شاذ كقعود جمع قاعد، أو مصدر أطلق على الفاعل مبالغة فى اتصافهم به حتى كأنهم عينه.

(فذكر) مبنى للمفعول **(عن جعفر بن محمد الصادق)** صفة جعفر، وقد تقدمت ترجمته أنه **(قال: أوحى إليه بلا واسطة)**، أى كلم الله محمدا ﷺ بلا واسطة ملك أو غيره، والمراد بالوحى هنا الكلام، وإن كان أعم منه، فعلى هذا ضمير أوحى لله، والمراد

بالعبد محمد ﷺ، وهذا بيان للمذهب الشاذ.

(ونحوه)، أى مثل ما قاله جعفر نقل **(عن الواسطى)**، وقد تقدمت ترجمته، **(وإلى هذا)** القول المنقول عن جعفر والواسطى **(ذهب بعض المتكلمين أن محمدا ﷺ كلم ربه فى الإسراء)** بفتح همزة أن، وهو وما بعده بدل من هذا. **(وحكى)** ببناء المجهول **(عن الأشعرى، وحكوه عن ابن مسعود وابن عباس)** رضى الله تعالى عنهم، **(وأنكره)**، أى أنكر تكليم الله له ﷺ بلا واسطة قوم **(آخرون)**، وليس المنكر النقل فقط كما توهم؛ لأن السياق يأباه.

(وذكره النقاش) السابق ذكره فى تفسيره المشهور نقلا **(عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، فى قصة الإسراء عنه، عليه الصلاة والسلام، فى)** تفسير **(قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾** [النجم: ٨] **قال)** ﷺ: **(فارقنى جبريل)**، أى تخلف عنه فى المعراج؛ لأن له مقاما لا يتعداه، **(فانقطعت الأصوات عنى)** بعد ما فارقته وبعدت عنه، **(فسمعت كلام ربى، وهو يقول لى)** جملة حالية، أى قائلا لى: **(ليهدأ روعك يا محمد)** بلام الأمر، ويهدأ بفتح الياء المثناة التحتية وسكون الهاء ودال مهملة خفيفة مفتوحة وهمزة ساكنة؛ لأنه مضارع مجزوم بلام الأمر، فإذا أبدل الفاء جاز حذفها كالمعتل الآخر، والروع بفتح الراء الخوف، والهدأ معناه السكون، والمعنى ليسكن فزعك، أى ليذهب فزعك وخوفك، ويجوز ضم الراء المهملة والروع بالضم القلب، والمراد ليقر قلبك ولا يضطرب من الخوف، ويجوز أن يراد بالمفتوح أيضًا القلب؛ لأنه محله فالروايتان بمعنى.

(ادن ادن) أمر من الدنو، وهو القرب، أى تقدم وادخل إلى حظائر القدس، وإنما قال له تشريفا له ﷺ وإعلاء لمنزلته وتأنيسا لاستيحاشه لما انقطعت عنه الأصوات، ولذا أمره باطمئنان قلبه أولاً، وكرر أمره تأكيدا أو بيانا لزيادة قربه من الله تعالى، وإن كان أقرب إليه فى كل حال لتنزهه عن المكان، وإنما هذا بالنسبة له فإخباره عنه بقوله دنا إشارة إلى امتثاله الأمر.

(وفى حديث أنس رضى الله تعالى عنه فى الإسراء) السابق ذكره **(نحو منه)**، أى ما يفيد مثله، فالحاصل فى قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ الآية أن الضمير الأول فى أوحى لجبريل، وفى عبده لله، والمراد به محمد ﷺ، وفيه إضمار قبل الذكر؛ لأنه معلوم، وضمير أوحى الثانى يجوز أن يكون لجبريل، وفيه تفخيم وتعظيم للوحى، أو لله، أى أوحى جبريل لعبد الله محمد ما أوحى الله إليه، ويجوز أن يكون الضمير فى أوحى الأول لله وعبده محمد ﷺ، أى أوحى الله إلى محمد ﷺ، ويجوز أن يكون المراد بعبده جبريل، أى أوحى الله تعالى إلى جبريل، والضمير فى أوحى الثانى لله، أى أوحى الله إلى عبده محمد ﷺ ما أوحاه

الله إليه، ففيه تفخيم للوحى أيضًا.

ويجوز أن يكون لجبريل، أى أوحى الله إلى عبده محمد ﷺ ما أوحى جبريل إليه، فإيحاؤه إليه بواسطة، وعلى أن المراد بعبده جبريل، وضمير أوحى الثانى لله، والمعنى أوحى الله لعبده جبريل ما أوحى الله إليه ففيه تفخيم، وعلى أن المراد بعبده جبريل وضمير أوحى الثانى له، أى أوحى الله لعبده جبريل ما أوحى جبريل لمحمد ﷺ، أو لكل رسول؛ لأنه أمين وحيه وما مصدرية أو موصولة، والذى أوحاه أحكامه، أو أمر الصلاة أو أوحى إليه: لا يدخل نبى ولا أمة الجنة قبلك وقبل أمتك، أو هو سر فى سر كما قيل:

بين المحبين سر ليس يعرفه   قول ولا قلم للخلق يحكيه

وسيأتى تفسير بقية الآية وتحقيقه.

(**وقد احتجوا فى هذا**)، أى استدلوا على أنه تعالى كلمه بلا واسطة (**بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾** [الشورى: ٥١])، ووجه الاحتجاج بينه بقوله: (**فقالوا: هى**) أقسام الكلام المثبتة فى هذه الآية على وجه يفيد نفى ما عداها؛ لأن معنى ما كان: لا يصح ولا يقع.

(**ثلاثة أقسام**) منحصرة فيها، الأول منها الكلام (**من وراء حجاب**) يحجب من خاطبه وكلمه عن رؤية ذاته لا يحجب الله فإنه يراه ولا يحجبه شىء كما مر تفصيله، فهو يسمع كلامه من غير واسطة، وهو لا يراه، والحجاب سبحات النور وما لا يعلمه إلا الله (**كتكليم موسى**)، أى كتكليمه تعالى لموسى، عليه الصلاة والسلام، فى الدنيا وموسى لا يراه، فالتشبيه فيما ذكر فإنه سمع من الشجرة كلام الله تعالى بغير واسطة ملك، وهو لا يرى ذاته تعالى.

(**و**) القسم الثانى من الوحى يكون (**إرسال الملائكة**) إلى رسل البشر ليبلغوهم كلامه تعالى ووحيه الذى أوحاه إليهم، وهذه الحالة فى الوحى (**كحال جميع الأنبياء**) عليهم الصلاة والسلام، (**وأكثر حال نبينا ﷺ**)، وموسى أيضًا فى غير ما ندر من كلامهما بغير واسطة فى الدنيا. قيل: سواء رأوا الملك أو لم يروه، فإن الوحى على أقسام كما كان يسمع كصلصلة الجرس من غير أن يراه، وفيه نظر، فإن هذا داخل فى قوله: وحيًا، وفى قوله بإرسال الملائكة إشارة إلى أنه غير مختص بجبريل لما روى أن إسرافيل، عليه الصلاة والسلام، وكل به ﷺ ثلاث سنين فى أول الأمر، وقد قسموا الوحى إلى نحو أربعين

قسما، ولكنها لا تخرج عن هذه الأقسام.

(الثالث) من أقسام الوحى وكلام الله لرسله عليهم الصلاة والسلام **(قوله: وحيا)**، أى إلقاء فى قلبه بإلهام ونحوه. قال الراغب فى مفرداته: أصل الوحى الإشارة السريعة، ولتضمنه السرعة قيل: أمر وحى، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة بعض الجوارح وبالكناية، ويقال لما يلقى لأنبيائه وحى، وهو على أضرب حسبما دل عليه قوله: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ [الشورى: ٥١] إلى آخره، فذلك إما برسول مشاهد يرى ذاته ويسمع كلامه كتبليغ جبريل للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى صورة معينة، وإما بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى كلام الله، وإما بإلقاء فى الروع كما ذكر أن روح القدس نفث فى روعى، وإما بإلهام أو منام انتهى، فالأخير هو المراد بالوحى هنا وسيشير إليه المصنف.

(ولم يبق من تقسيم صور الكلام إلا المشافهة)، أى الكلام من غير واسطة، وهو فى الأصل مأخوذ من الشفة، فتجوز به عن هذه المخاطبة والمكالمة **(مع المشاهدة)**، أى معاينة المخاطب لمن كلمه من غير واسطة، ولا حجاب ولا مانع من الرؤية، فيخص الله بها من شاء من خلص عباده المقربين كنبينا ﷺ، وقد استدل بهذه الآية على نفى الرؤية لحصر تكليم البشر فى الثلاثة، فإذا لم يره من يكلمه وقت الكلام لم يره غيره إجماعا، وإذا لم يره هو أصلا لم يره غيره أيضًا إذ لا قائل بالفصل.

والجواب: أنه يحتمل أن يكون المراد حصر التكليم فى الدنيا فى هذه الثلاثة أو نقول: يجوز أن تقع الرؤية حال التكليم وحيا إذ الوحى كلام بسرعة كما تقرر، وهو لا ينافى الرؤية، فلا دليل على ما ذكر أصلاً كما حققه ابن الخطيب فى رسالته المشهورة يعنى أن إعلام أحد أحدًا بأمر إما بغير مشافهة وكلام معروف، أو بمشافهته بواسطة أو بدونها، والثانى إما مع مشاهدة أو بدونها، فانحصر فى هذه الصور الأربعة، والآية استوفت الأقسام إلا ما كان مع مشاهدة الذى خص الله من أراد، وقد علمت أن ما ذكره غير متعين، ولذا قال بعضهم: إن قوله لم يبق إلا المشافهة مع المشاهدة ممنوع إلا أن سند منعه غير صحيح، ولم يعرج أحد منهم على تحرير كلامه هنا.

(وقد قيل) القائل هو الراغب وغيره كما سمعته آنفًا **(الوحى هنا)** فى هذه الآية **(هو ما يلقيه فى قلب النبى)**، أى فى قلب أى نبى كان من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلهامًا ونحوه **(دون واسطة)**، أى بغير واسطة ملك يبلغه ما أوحاه إليه، والإلهام كما قال الزركشى: ما حرك القلب بعلم يلقيه الله فيه يدعوه إلى العمل به من غير نظر واستدلال بحجة، والذى عليه الجمهور أنه خيال لا يجوز العمل به إلا عند فقد الحجة، وذهب

بعضهم إلى أنه حجة بمنزلة الوحى بقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨] ونحوه، وقال السمعانى: إنكار أصله لا يجوز انتهى.

ولا يخفى أن الخلاف فى غير إلهام الأنبياء ومن كان فى حكمهم، فإنه وحى، وعلى هذا ينبغى تقييد ما فى شرح جمع الجوامع، وقال الواحدى فى تفسيره نقلا عن الواقدى فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ [الحج: ٥٢] الآية: إن الرسول الذى أرسل إلى الخلق بإخبار جبريل عيانا وشفاها، والنبى تكون نبوته إلهامًا أو مناما، فكل رسول نبى وليس كل نبى رسولا، وقال النووى فى تهذيبه ما ظاهره: إن النبوة المجردة لا تكون برسالة ملك بذلك وليس كذلك، وكلام الغزالى الذى يستشهد به يرد عليه انتهى.

(**وقد ذكر أبو بكر البزار**) بموحدة وزاى معجمة وألف وراء نسبة لعمل بزر الكتان واستخراج زيته، وهى لغة بغدادية، وهو الإمام الحافظ الذى تقدمت ترجمته، (**عن على كرم الله وجهه فى حديث الإسراء**) الذى رواه المصنف رحمه الله تعالى بتمامه فى أول الباب (**ما هو أوضح فى سماع النبى ﷺ لكلام الله من الآية**) يعنى قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]؛ لأن الآية فيها احتمالات، وحديث على رضى الله تعالى عنه فيه التصريح بسماعه ﷺ كلام الله من وراء الحجاب، وقوله: صدق عبدى فلا يأباه كون ضمير عبده لجبريل فى قول، وأن خلافه شاذ، وكذا كون الوحى فى الآية مبهمًا وثمة معين، ولا ينافيه اختصاص نبينا ﷺ بالمشافهة مع الرؤية اختصاص موسى عليه الصلاة والسلام بالتكليم كما توهم.

(**فذكر**)، أى البزار أو على رضى الله تعالى عنه (**فيه فقال الملك: الله أكبر، الله أكبر، فقيل لى من وراء الحجاب**)، أى قال الله تعالى لملك الأذان: (**صدق عبدى أنا أكبر أنا أكبر وقال فى سائر كلمات الأذان مثل ذلك**) إلا قوله حى على الصلاة حى على الفلاح كما مر، ولكونه معلوما لم ينبه عليه، ووجهه أن المشروع لسامع الأذان أن يقول ما يقول المؤذنون كلمة بكلمة تصديقًا له بإقراره إلا قوله: حى على الصلاة إلى آخره، فإنه يقول فيه: لا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا لا يليق به تعالى، فلذا لم يجبه.

(**تنبيه**) هنا أمران: **الأول**: اختلف العلماء فى صفة الأذان على أربع صفات مشهورة:

أحدها: تثنية التكبير وتربيع الشهادتين، وباقيه مثنى، وهو مذهب أهل المدينة ومالك وغيره، واختار جماعة من أصحاب مالك الترجيع، وهو أن يثنى الشهادتين أولا خفيا ثم يثنيهما مرة ثانية برفع الصوت.

والصفة الثانية: أذان المكيين، وبه قال الشافعى، رحمه الله تعالى، وهو تربيع التكبير الأول والشهادتين، وتثنية باقى الأذان.

والصفة الثالثة: أذان الكوفيين، وهو تربيع التكبير الأول وتثنية باقى الأذان، وبه قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى.

والصفة الرابعة: أذان البصريين، وهو تربيع التكبير الأول، وتثليث الشهادتين وحى على الصلاة وحى على الفلاح يبدأ بأشهد أن لا إله إلا الله حتى يصل حى على الفلاح، ثم يعيده كذلك مرة ثانية أعنى الأربع كلمات نسقا ثم يعيد ثالثة، وبه قال الحسن البصرى وابن سيرين. كذا قال ابن رشد فى كفاية المقتصد.

الثانى: أن حديث على رضى الله تعالى عنه يقتضى أن الأذان شرع ليلة المعراج، وحديث الصحيحين المشهور أنه شرع بعد الهجرتين لما رآه بعض الصحابة فى منامه كما مر ولا يخفى ما بين الحديثين من التعارض، ولم يتعرض أحد للتوفيق بينهما، وإن اعترض ذلك بأنه كيف يثبت التشريع بمنام لغير النبى ﷺ.

وأجيب: بأنه ثبت بوحى لكنه صادف ذلك المنام، فأظهر العمل به تطمينًا لقلوبهم وجبرًا لخواطرهم، والظاهر أن يقال: إنه ثبت بحديث الإسراء إلا أنه لم يبين له زمانه، ولم يمكن إعلامه به قبل الهجرة، فأخر ذلك حتى يستقر ظهور الدين، وبهذا يتم التوفيق بينهما، **(ويجى الكلام فى)** بيان **(مشكل هذين الحديثين فى الفصل بعد هذا مع ما يشبهه، وفى أول فصل من الباب منه)**، وسنذكر ما فيه ثمة.

(وكلام الله) عز وجل **(لمحمد ﷺ ومن اختصه من أنبيائه)** اختص ورد لازمًا ومتعديًا كما هنا بمعنى خصه **(جائز غير ممتنع عقلا)**، أى ثبت جوازه وعدم امتناعه عقلاً وسمعًا كما مر، فلا يضر نزاع المعتزلة فيه كما توهم.

(ولا ورد فى الشرع قاطع يمنعه)، أى دليل قطعى يمنعه، كما لم يرد دليل قطعى بثبوته أيضًا، **(فإن صح فى ذلك)**، أى فى الكلام بلا واسطة لغير موسى، عليه الصلاة والسلام، **(خبر اعتمد عليه)** فى الجزم بوقوعه، وروى احتمل وكلاهما مبنى للمجهول كما قاله البرهان.

(وكلامه تعالى لموسى) وروى: ومكالمته لموسى عليه الصلاة والسلام **(كائن حق مقطوع به نص ذلك)** بالبناء للمجهول على الحذف والإيصال كمشترك، أى نص عليه **(فى الكتاب)** العزيز والقرآن، **(وأكده)** الله تعالى **(بالمصدر دلالة على الحقيقة)**، أى دلالة على أن الكلام فيه بمعناه الحقيقى، وإن اختلف أهل السنة فى معناه الحقيقى القديم، هل

هو الكلام اللفظى أو النفسى كما ذهب إليه الأشعرى، وتحقيقه فى كتب الأصول، وهو مبحث طويل الذيل لا يسعه هذا المقام.

وهذا رد على المعتزلة القائلين بأن الله لم يكلمه، وإنما خلق الكلام فى جسم آخر كالشجرة، فسمعه عليه الصلاة والسلام منها؛ لأنهم نفوا الكلام النفسى، وقالوا: اللفظى حادث لا يقوم بذاته، ودعوى قدمه لا تعقل عندهم، فمعنى متكلم عندهم خالق الكلام وموجده قائما بغيره، فإن قالوا: إنه حقيقة لأنه الخالق له والفاعل فباطل؛ لأن الفاعل الحقيقى فى اللغة من قام به الفعل لا من أوجده، فهذا ناشئ من عدم الفرق بين الفاعل الحقيقى اللغوى، والحقيقى فى الحقيقة ونفس الأمر، كما حققه الأبهرى فى حواشى العضد، فيلزمهم إثبات المشتق بدون ثبوت مأخذه له، فإن قالوا: هو مجاز، فالتأكيد بالمصدر فى قوله ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] يرده؛ لأن التأكيد اللفظى والمعنوى يمنع التجوز كما ذكره أهل المعانى، وهذا من قبيل الأول كما أشار إليه المصنف هكذا قرره الأصوليون، ورده ابن عبد السلام بأن التأكيد بالمصدر لمنع التجوز فى الظرف، ودفع الشك فى الحديث لا المحدث عنه والإسناد إذ التأكيد إنما هو للفعل، فالكلام وقع حقيقة ولكن ممن صدر، والتأكيد لتحقيق وقوعه فقط، وأجاب ابن عرفة بأن تأكيد المصدر وإن كان لإزالة الشك فى الحديث، فلابد من ملاحظة من صدر عنه، فهو لإزالة الشك عن حديث فلان، ولذا قال البيانيون فى قول هند زوجة روح بن زنباع تهجوه:

بكى الخز من روح وأنكر جلده وعجت عجيجًا من حذام المطارق

إنه ترشيح للمجاز.

أقول: هذا الكلام ساقط جدًا؛ فإنهم ادعوا أن تأكيد المصدر يرفع التجوز عن الإسناد، فيقتضى أن التكليم مسند لفاعله الحقيقى، والمعترض يمنعه ويقول: إنما يمنع التجوز فى الظرف وهو الكلام لا مؤكد لفعله كما صرح به، وأهل المعانى لم يتعرضوا لهذا، والبيت وارد عليهم؛ لأن العجيج مجاز وقد أكد فلا يمنع مجازًا أصلاً، وكونه ترشيحًا عليه لا له وبهذا عرفت ما يرد على المصنف.

(ورفع مكانه)، أى مكان موسى الكليم **(على ما ورد فى الحديث)** الصحيح الذى فيه مقامات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين لقيهم النبى ﷺ فى السموات حين أسرى به أنه **(فى السماء السابعة)** هذا بناء على بعض الروايات، والذى صححه الحاكم وغيره أنه ﷺ فى السماء السادسة، وجزم به ابن المنير وغيره، وما ذكره المصنف رحمه الله

موافق لما ذكره البخارى فى التوحيد، وعدل عن المشهور لأنه أنسب بمراده، فالقول بأنه غلط وأن الذى فى السماء السابعة إبراهيم، عليه الصلاة والسلام وهم من قائله. وقوله: (**بسبب كلامه**)، متعلق برفع، أى سبب رفعته، عليه الصلاة والسلام، على غيره كونه شرفه بكلامه فى الدنيا.

(**ورفع محمدًا** ﷺ) حين أسرى به (**فوق هذا كله**)، أى فوق هذه المقامات كلها فى حياته ﷺ بهيكله البشرى (**حتى بلغ مستوى وسمع صريف الأقلام**) تقدم شرحه، (**فكيف يستحيل**) ويمتنع عقلا (**فى حق هذا، أو يبعد**) بعد جوازه وثبوت ما يدل عليه (**سماع الكلام**) من كلام الله تعالى بغير واسطة؟.

(**فسبحان**) تنزيه لله وتعظيم له حمدا له على ما أنعم به لا تعجب، فإنه غير مناسب هنا (**من اختص من شاء**) من رسله وخلص عباده (**بما شاء**) من جزيل نعمه وكرمه، (**وجعل بعضهم**) راجع لمن باعتبار معناه (**فوق بعض درجات**) كنبينا ﷺ إذ فضله على جميع الأنبياء، وخصه بنعم لم يصل إليها سواه، وهذا اقتباس من قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ**﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فالمراد ببعضهم هنا محمد ﷺ، وأبهمه تفخيمًا لشأنه وإشارة إلى تعينه كما قيل:

وأقول: بعض الناس عنك كناية   خوف الوشاة وأنت كل الناس

وإن اختلف المفسرون فى المراد به فى الآية، ولا يخفى ما فى ختم الفصل بهذه الآية من حسن المناسبة وبراعة المقطع؛ لما فيها من ذكر الكلام ورفع الدرجات المناسب لهذا المقام.

* * *

(فصل وأما ما ورد فى حديث الإسراء وظاهر الآية من الدنو والقرب)

عطف تفسيرى، وهو بيان لما، وظاهر بالرفع والجر (**من قوله**: ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ**﴾ [النجم: ٨]) الدنو القرب، ولذا عطف عليه عطفا تفسيريا وهو حسى ومعنوى، والتدلى الامتداد من علو إلى أسفل كما يلقى الدلو فى البئر هذا أصله ثم استعمل فى القرب من علو حسا أو معنى، فهو أخص مما قبله فلا تقديم ولا تأخير فيه أصلا، والأصل فتدلى فدنا، وليس بمعنى؛ لأن العطف بالفاء يأباه، والتأسيس خير من التأكيد، وقيل: دنا بمعنى قصد القرب منه ﷺ فتحرك من مكانه نحوه، وقيل: تدلى من الدلال كتمطى أصله تمطط، والضمير فيها لجبريل عند الجمهور، أى دنا جبريل من النبى ﷺ بعد استوائه

بالأفق الأعلى من الأرض، فتدلى عليه لأنه لما رآه بصورته هاله، فرده الله تعالى لصورته التى كان يراه عليها وقرب منه، وقيل: الضمير لله، أى دنا من نبيه ﷺ وهو مجاز عن إجابة دعائه وإعطائه ما تمناه بإشراق نور المعرفة ومشاهدة أسرار الغيب؛ لأنه منزه عن المكان كما سيأتى بيانه.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] القاب ما بين مقبض القوس وموضع ربط الوتر من طرفيه، ولكل قوس قابان، وقيل: القاب حيث الوتر من القوس، وقيل: معناه قدر، والقوس معروف، وقيل: هى هنا الذراع لأنه يقاس به، فالمعنى قدر ذراعين وروى عن ابن عباس، وعلى الأول قيل: فيه قلب، أى قابى قوس، أى بينهما مسافة مقدار قاب قوسين، أى بين النبى وجبريل؛ لأن جبريل هو الموصوف بما قبله، وهذا رواية عائشة عن النبى ﷺ، ورجح هذه الوجوه على رواية شريك أنه الله، ولهم فيها كلام كثير.

وقال الرازى: هذا على عادتهم إذا تعاقد كبيران أو تصالحا جعل كل واحد منهما قوسه بطرف قوس صاحبه، ومن دونهما يضع كفه بكفه، وأو لتحقق قدر المسافة لا للشك، كقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، وقيل: للشك بالنسبة للرواى، وقيل: بمعنى بل أو الواو، وأدنى أفعل تفضيل، أى أقرب من قاب.

(فأكثر المفسرين) جواب أما **(أن الدنو والتدلى منقسم بين محمد وجبريل عليهما الصلاة والسلام)**، أى كل منهما ثبت لكل منهما لا لله، أى دنا محمد من جبريل ودنا جبريل من محمد، وتدلى كل منهما للآخر، أو المراد أن الدنو لمحمد والتدلى لجبريل، فالانقسام بمعنى توزيع الوصفين بينهما، وهذا لما رآه بصورته الأصلية، **(أو مختص بأحدهما من الآخر)**، أى مختص بمحمد ﷺ أو بجبريل، والمعنى دنى وتدلى محمد من جبريل، أو دنا وتدلى جبريل من محمد، **(أو من السدرة المنتهى)**، أى يختص الدنو والتدلى من السدرة لا من الآخر.

(قال الرازى) فخر الدين المشهور **(قال ابن عباس)** كما رواه ابن أبى حاتم عنه **(وهو)**، أى الذى دنا وتدلى فى الآية **(محمد دنا فتدلى من ربه)**، ودنوه منه كناية عن قرب منزلته، ومشاهدته من قدسه ما لم يتيسر لغيره.

(وقيل: معنى دنا قرب، وتدلى زاد فى القرب)، فهو ترق فى تقربه من ربه قربا معنويا لا حسيا.

(وقيل: هما)، أى دنا وتدلى **(بمعنى واحد، أى قرب)** قربا معنويا بنيله إنعامه، ولا يخفى أن العطف بالفاء غير وارد فى مثله، ولذا ضعفه وأخره، والقول بأنه للتأكيد وإفادة أنه قرب بليغ لا تساعده العبارة.

(وحكى مكى والماوردى عن ابن عباس)، رضى الله تعالى عنهما، فى رواية ابن جرير عنه: **(وهو)**، أى من أسند إليه الدنو **(الرب دنا من محمد ﷺ)** ليس المراد الدنو المكانى؛ لتنزه الله عنه، ولا العلم لأنه لا يختص به حتى يذكر فى مقام مدحه وتعظيمه، بل قرب المنزلة بإعلاء مقامه واطلاعه على عجائب ملكوته، **(فتدلى إليه)**، أى نزل الرب لمحمد ﷺ، فهو على حد قوله: **(ينزل ربنا إلى السماء الدنيا فى الثلث الآخر)**، أى تجلى له ونظر إليه بلطفه وكرمه وتشريفه بخطابه، كما سيأتى بيانه.

فقوله: **(أى أمره وحكمه)** لم يرد به أنه فاعل تدلى كما قيل، وإنما هو ضمير الله أيضًا، وهو استعارة أو كناية عما ذكر، وإليه أشار القاضى رحمه الله تعالى بقوله المقصود من الآية تمثيل تحقيق إسماعه لما يوحى إليه بنفى البعد عنه.

(وحكى النقاش) فى تفسيره **(عن الحسن)** البصرى أنه **(قال: دنا)** الله **(من عبده محمد ﷺ)** دنو مرتبة وقرب معنوى، **(فتدلى)**، أى **(فقرب منه)** بعنايته واختصاصه، والأولى فزاد قربه إليه كما مر، **(فأراه ما شاء أن يريه من)** آثار **(عظمته وقدرته)** فأرى بصرية تعدت لمفعولين، أو علمية مفعولها الثالث مقدر، أى أراه عظمته وقدرته مشاهدة معاينة، والأول أظهر وأقرب.

(قال)، أى النقاش أو الحسن: **(وقال ابن عباس: هو مقدم ومؤخر)**، فأصله فتدلى فدنا، أى: **(فتدلى الرفرف لمحمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليلة المعراج)**، وهوالبساط مطلقا أو البساط الأخضر، وقيل: ما كان من الديباج، وفى الصحاح الرفرف ثياب خضر تتخذ منه المجالس وكسر الخباء وجوانب الدرع وما تدلى منه، واحد رفرفة فهو من البسط والفرش، وفسر بالزرابى والمرافق، وقيل: الثوب العريض أو حواشيه من رف يرف تحرك، ومنه الطائر بجناحيه ويطلق على الستارة وطرف الخيمة، وفى الحديث: زرنا النبى ﷺ فرفع لنا الرفرف، فرأينا وجهه، ومنه رفرف الأولياء فى الجنة، وهو بساط إذا استقروا عليه طار بهم لأى جهة أرادوها بقدرة الله تعالى، وورد فى المعراج أنه ﷺ لما بلغ سدرة المنتهى جاءه بالرفرف جبريل، عليه الصلاة والسلام، فتناوله فطار به إلى العرش يرفعه ويخفقه، وجبريل رافع صوته بالتمجيد فهو مركب له ﷺ كالبراق، وقد فسر قوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ [الرحمن: ٧٦] ببعض هذه الوجوه، وبأنه رياض الجنة، وإلى هذا أشار بقوله: **(فجلس عليه ثم رفع)**، أى رفعه الله بقدرته وهو مبنى

للمجهول، **(ودنا)** الرفرف، أو النبى ﷺ **(من ربه بالمعنى السابق)**.

(قال) ﷺ بيانا لما هو عليه بعد أن علا الرفرف: **(فارقنى جبريل وانقطعت عنى الأصوات)**، أى أصوات الملائكة عليهم الصلاة والسلام، **(فسمعت كلام ربى)** عز وجل من غير واسطة، وليس كلاما خلقه الله تعالى فى بعض الأجرام كما زعمه المعتزلة كما مر، وفيه إثبات الكلام اللفظى لله تعالى كما ذهب إليه السلف، وتبعهم الشهرستانى فى مقالته المشهورة، ومن ينكره يقول: الكلام النفسى يسمعه الله تعالى بقدرته، والمبحث بطوله مقرر فى علم الكلام.

(وعن أنس فى الصحيح)، أى مروى فى صحيح البخارى **(عرج بى جبريل)** صاعدا **(إلى سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة)** عطف بيان أو بدل، والجبار هنا بمعنى العلى الأعلى من قولهم: نخلة جبارة، أى طويلة مرتفعة. هذا هو المناسب للمقام؛ لأنه أنسب من تفسيره بالقاهر لعباده على ما أراده من أمر ونهى، وإن فسر به أيضًا، والعزة من عز يعز بالفتح اشتد، وبالكسر صار عزيزا، وهذا من حديث شريك السابق، وقد استغربه الذهبى وفيه نظر.

(فتدلى) تقدم تفسيره **(حتى كان)** رب العزة **(منه)** ﷺ **(قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إليه بما شاء، وأوحى إليه خمسين صلاة)** كما مر، **(وذكر حديث الإسراء)** بتمامه كما تقدم.

(وعن محمد بن كعب) القرظى السابق بيانه: **(هو)**، أى الموصوف بأنه دنى كما سيأتى بيانه **(محمد)** ﷺ، أى **(دنا)** محمد ﷺ **(من ربه، فكان قاب قوسين)**، أى مقدار قاب قوسين فى القرب منه، **(أو أدنى قال)**، أى محمد بن كعب: **(وقال جعفر بن محمد)**، وهو الآتى بعده أيضًا **(أدناه ربه منه حتى كان منه كقاب قوسين، وقال جعفر بن محمد)** المذكور: **(والدنو من الله لا حد له)**، أى الدنو من جانب الله ليس دنوا مكانيا محدودا بحيز كالأجسام، بل دنو معنوى، **(ومن العباد بالحدود)** المكانية الحاضرة لهم لا الحد المنطقى المميز للماهية.

(وقال) جعفر **(أيضًا)** كمقاله السابق: **(انقطعت الكيفية عن الدنو)** من جانب الله، أى دنو من عباده ليس له كيفية مخصوصة وحالة معروفة؛ لأنه أمر معنوى غير محسوس، والكيفيات أحوال محسوسة، وسميت كيفية؛ لأنها يسئل عنها بكيف، وهذه لفظة مولدة لم تسمع من العرب ومخالفة للقياس؛ لأن كيف لا ينسب إليها ثم وضح ذلك بقوله: **(ألا ترى)** الخطاب عام لكل من وقف عليه، كقوله تعالى: **(ولو ترى إذ وقفوا على**

النار)، والرؤية نظرية أو ادعائية أو علمية، وألا بفتح الهمزة وتخفيف اللام، وما في بعض النسخ إلا بصورة الاستثناء، وأنه سمع منه بعيد.

(كيف حجب) بالبناء للفاعل، أي منع **(جبريل)** بالنصب مفعوله، ويجوز بناؤه للمجهول ورفعه **(عن دنوه)** إلى ربه، **(ودنا محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى ما)** موصولة أو موصوفة، وفي نسخة: ودنوه، مصدر منصوب على كيف، أي ألا ترى كيف إلخ وترك دنوه **(أودع قلبه)** صلة ما أوصفة له، وأودع مبني للمجهول وقلبه نائب فاعله، وفي بعض النسخ بالبناء للفاعل ونصب قلبه مفعوله كما قاله البرهان **(من المعرفة)** الإلهية، والمواهب الربانية، **(والإيمان)** مما لا طريق له إلا السمع بعد البعثة، وعليه حمل قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]، أي الإيمان بما يقتضيه العقل كوجود الباري ووحدانيته، ومعنى قوله: ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨]، أي نزل عما كان عليه قبل هذا.

(بسكون قلبه إلى ما أدناه) إلى ربه لما اطمأن قلبه، **(وزال عن قلبه الشك والارتياب)** في أنه هل يصل إلى حضرة القرب، وينال إنافته بالإكرام والإنعام، ويترقى إلى أعلى مقام فأنجح الله تعالى أمنيته، وليس المراد الشك فيما يتعلق بالله ومعرفته؛ فإنه ﷺ أقوى الناس معرفة وإيمانا، وأثبتهم جأشا وإيمانا، وأشدهم طمأنينة وسكونا، وبهذا سقط ما قيل: إنه لم يكن عنده شك لامتلاء قلبه بالمعرفة والإيمان، وتطهيره من دنس الشك ووسوسة الشيطان.

وقيل: إنه لما فارق جبريل حين اختطفه الرفرف خشي أن يكون ذلك الأخذ مؤديا إلى الهلاك، وخاف من مكر الله به، وشك فيما يئول إليه أمره، فلما خاطبه الله وقال له: ليهدأ روعك علم أن الله إنما أراد تقريبه والإنعام التام عليه، فزال شكه وانشرح صدره وثلج قلبه ببرد اليقين وحصول مراتب التمكين، وإلا فظاهره لا يليق بمقامه.

(قال القاضي أبو الفضل) عياض المؤلف، رضي الله عنه: **(اعلم أن ما وقع)** بفتح الهمزة، وتقدم معنى اعلم **(من إضافة الدنو والقرب هنا)**، أي من إسناده **(إلى الله أو من الله تعالى)**، ووصفه به فالإضافة بالمعنى اللغوي لا الاصطلاحي، وقوله: هنا، أي في هذه الآية، **(فليس بدنو مكان)** هو خبر أن المفتوحة، وزيد فيه الفاء لأن اسمها موصول، أي ليس فيه قربا محسوسا، بل معنوي، **(ولا قرب مدى)** بزنة فتى فسر بالغاية والنهاية، والظاهر أن معناه المكان الممتد، كما يقال: مدى البصر ومده، ولا عبرة بما قيل: إن الثاني خطأ فإنه ورد في الحديث كما ذكره النووي في شرح مسلم.

(بل كما ذكرناه عن جعفر بن محمد الصادق ليس بدنو حد، وإنما دنو النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، من ربه وقربه منه إبانة عظيم منزلته) الإبانة بكسر الهمزة بمعنى الإظهار، وهو مرفوع خبر دنو المبتدأ، وتقدم معنى المنزلة والرتبة وأنها العلو المعنوى. **(وتشريف رتبته)** بالجر ويجوز رفعه، **(وإشراق أنوار معرفته)**، أى إظهار آثار معرفة الله عليه، ففيه استعارة مكنية أو تشبيه إن كان من قبيل لجين الماء، **(ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته)**، أى وقوفه على ما فى عالم الملكوت لما هو مغيب عن خلقه إلا من خصه الله تعالى باطلاعه عليه.

(ومن الله تعالى له)، أى إنما دنو الله لنبيه ﷺ ونحوه بعد العلم بتنزيهه عن الحيز والقرب الحسى معناه: **(مبرة)** مفعلة بالفتح بمعنى البر، وله معان، منها القبول والإحسان، **(وتأنيس)**، أى لطف به يذهب استيحاشه لما انقطعت عنه الأصوات، وغاب أليفه وهو جبريل عليه الصلاة والسلام، **(وبسط)** أصل معناه التوسعة قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٧]، ومنه البساط ويطلق على المسرة أيضًا، وليس بمعنى مولد لأنه ورد فى الحديث «فاطمة بضعة منى يبسطنى ما يبسطها»(١) كما مر. وذكره ابن قرقول فى مطالعه، وهو المراد، أى تأنيسه بما يسره من مخاطبته بما يسره، **(وإكرام)** بتجليه وتعظيمه.

(ويتأول فيه)، أى يأول الدنو الوارد فى الحديث **(ما يتأول فى قوله: ينزل ربنا إلى السماء الدنيا)** يعنى أن الدنو الواقع فى الآية كما ورد مثله فى بعض الأحاديث أن أولياء الله تعالى قريبون من الله ليس على ظاهره قربا حسيا، بل معنويا باللطف والإكرام، وقد يأول بعلم الله ببواطنهم وظواهرهم، وقدرته على التصرف فيهم، وعليه قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]، كما أول النزول المسند إلى الله تعالى فى حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه المتفق على صحته أنه ﷺ قال: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الأخير يقول: من يدعونى فأستجيب له؟ من يسألنى فأعطيه؟ من يستغفرنى فأغفرله؟» بالإقبال عليهم بإنعامه وإجابة دعائهم ومغفرة ذنوبهم، وإفاضة مواهبه عليهم، وتأويله بنزول ملائكته بعيد هنا، وإن ذهب إليه بعضهم ويتأول فيهما مبنى للمجهول.

(على أحد الوجوه) فى تأويله من أن نزوله تعالى إنما هو: **(نزول إفضال)** بتفضيله وإنعامه، **(وإجمال)**، أى فعل جميل بهم على عادته، **(وقبول)** لتوبتهم واستغفارهم، **(وإحسان)** بالجود والكرم عليهم، وليس المراد أنه بتقدير مضاف من مجاز النقص، أى

---

(١) أخرجه البخارى (٢٦/٥، ٣٦)، والحاكم (١٥٨/٣)، والبيهقى (٦٤/٧).

ينزل إحسانه كما قيل، فهو تمثيل لسرعة إجابته وإنجاح طلبته ولزيادة لطفه واعتنائه به بمن قربه كبير له مقام عال حتى أنه قد ينزل إليه إذا سمع نداءه، فهو استعارة تمثيلية أو تبعية تصريحية.

(**وقال الواسطى**) المتقدم ترجمته: (**من توهم أنه**) تعالى وله المثل الأعلى (**بنفسه دنا**) دنوا حقيقيًا محسوسًا بذاته لا دنو لطف وإكرام معنوى مجازى، فقد (**جعل ثم**) بفتح المثلثة وتشديد الميم، ويقال: ثمة بتاء أيضًا، كما يكون بها مرسومة خطًا ثابتة لفظًا فى الوقف، ومعناه هناك، وأصل وضعها للإشارة إلى المكان بعيدًا أو قريبًا على اختلاف فيها، وقد يتجوز بها عن المعنى ونحوه، بتشبيهه بالمكان على أنه استعارة فيه كما هنا، فإنه إشارة للآية، والحديث المذكور فيه الدنو والنزول.

وقوله: (**مسافة**) باعتبار مدلوله، فإن جعلت الإشارة إليه على تقدير أنه على حقيقته فلا، والمسافة المفازة من السوف، وهو شم التراب والبول، ومنه قيل للمفازة مسافة؛ لأن الدليل يشم ترابها كما حققه الراغب، ولا مسافة لاستحالتها عليه تعالى، (**بل كلما دنا**) أحد من المخلوقات بزعمه (**بنفسه من الحق**)، أى الله تعالى (**تدلى**) نزل من علو إلى أسفل (**بعدا**)، أى لبعده عما قصده، فهو مفعول له أو تمييز من نسبة تدلى، (**يعنى**) الواسطى بقوله هنا تدلى: بعد، أى كلما حاول القرب نزل لساحة البعد.

(**عن درك حقيقته**) متعلق بمقدر يعنى بعد أو بعدا عن إدراك حقيقته وذاته قال البرهان الحلبى فى حاشيته: درك بفتح الدال والراء المهملتين، وضبطه بعضهم بإسكان الراء والأشهر هنا الفتح، ومعناه الإدراك، وأما الدرك ضد الدرج فبالفتح لاغير، وحكى فيه الوجهان وفيه نظر، (**إذ لا دنو للحق ولا بعد**) بالمعنى المكانى؛ لاستحالتهما عليه تعالى، وما ورد مما يوهمه مأول كما عرفته، وأما علم حقيقته بكنهها ففيه خلاف ليس هذا محله ولا وجه للتعرض له هنا.

(**وقوله: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾** [النجم: ٩]) بالمعنى الذى مر بيانه، وهذا جواب عن سؤال ودفع لما يتوهم من أنه يقتضى قربا حقيقيا ومسافة كما أشار إليه بقوله: (**فمن جعل الضمير**) المقدر فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨] (**عائدا إلى الله تعالى لا إلى جبريل، عليه السلام، على هذا**) التأويل السابق آنفا (**كان**) الدنو المذكور (**عبارة عن نهاية القرب**)، أى معبرًا به عن غاية القرب المعنوى من عباده، (**ولطف المحل**) اللطف عبارة عن الأمور الخفية وما لايدرك بالبصر، كما فى قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، أى هو عبارة عن دنو معنوى، ومنزلة معنوية لا تحس بالأبصار.

(واتضاح المعرفة) الإلهية التى وهبها من العلم اللدنى فى حظائر قدسه لمن خصه برفعة المنزلة من خلص عباده الذين جعلهم محرم أسراره، واتضاح بالمثناة الفوقية افتعال من الوضوح، وفى بعض النسخ بالمثناة التحتية مصدر أوضحه إيضاحا.

(والإشراف على الحقيقة)، أى الاطلاع عليها، وأصله من أشرف إذا وقف على شرف، وهو المكان العالى ثم أريد به لازمه من الوقوف والاطلاع كناية أو مجازا **(من محمد ﷺ)**، أى كان الدنو بالمعنى المذكور من نبينا ﷺ **(و)** كان الدنو المعنوى **(عبارة عن إجابة الرغبة)**، أى إجابته لمأموله الذى هو غاية مطلوبه ومرغوبه، **(وقضاء المطالب)**، أى إعطاءه مطلبه الذى طلبه منه ووعده به، وفى القضاء إشارة إلى أنه كالدين لأن عدة الكريم دين، **(وإظهار التحفى)** بحاء مهملة وفاء ومثناة تحتية وهو المبالغة فى البر، **(وإنافة المنزلة)** بالنون والفاء بمعنى إعلائها ورفعها، **(والمرتبه)** عطف تفسير **(من الله له)** متعلق بما قبله إشارة إلى أنه كله فضل وموهبة منه تعالى.

(ويتأول فيه)، بالبناء للمجهول، أى يتأول القرب والدنو بتأويل مثل **(ما يتأول فى قوله)** ﷺ فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى على طريق التمثيل والاستعارة فى قوله تعالى: **(من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا، ومن أتانى يمشى)**، أى من أطاعنى وسعى فى امتثال أوامرى، والمراد أنه يمشى مشيا غير بطىء بالهوينا؛ لمقابلته بقوله: **(أتيته هرولة)**، وهى المشى والجرى بسرعة، والمراد أنى أعجل له جزائى وأوصل إليه إحسانى سريعا، وتفسيره بجزائى غير صحيح هنا.

(أى) والتأويل الذى أول به من تقرب إلى آخر وما بعده هو **(قرب بالإجابة)** لدعائه، وهو مرفوع خبر لمبتدأ مقدر، **(والقبول)** لتوبته **(وإتيان بالإحسان وتعجيل بالمأمول)** إشارة لمعنى الهرولة، وهذا بعض حديث قدسى صحيح، رواه أبو هريرة رضى الله تعالى عنه، أوله: **(قال الله تعالى: الكبرياء ردائى والعظمة إزارى من نازعنى واحدا منها قذفته فى النار، ومن اقترب منى شبرا اقتربت منه ذراعا، ومن اقترب منى ذراعا اقتربت منه باعا، ومن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه وأطيب، ومن جاءنى يمشى أتيته هرولة، ومن جاءنى يهرول جئته سعيا)** قالوا: معناه سرعة الإجابة والثواب لمن دعاه وأطاعه، فالتقرب تمثيل للتحبب إلى الله بالطاعة والعبادة وتفويض أموره، وأنه يضاعف ثوابه ويزيده بما هو خارج عن القياس، وليس فى قوله: **(فى ملأ خير منه)** دليل على أفضلية الملائكة، كما سيأتى إن شاء الله تعالى، وهذا تأييد لما سبق وتوضيح له، فلا يعترض عليه بأنه تكرار من غير فائدة.

* * *

(فصل فى ذكر) [تفضيله فى القيامة بخصوص الكرامة]

ما يدل على (**تفضيله**) ﷺ (**فى القيامة بخصوص الكرامة**)، أى بما خصه الله يوم القيامة وفضله به على سائر الأنبياء والرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام، وذكر ما يدل على ما عقد له بحديث أسنده المصنف من طريق الترمذى فقال: (**حدثنا القاضى أبو على**) الشهيد المعروف بابن سكرة، وقد تقدمت ترجمته قال: (**حدثنا أبو الفضل**) ابن خيرون السابق ترجمته أيضًا، (**وأبو الحسين**) بالتصغير وهو المبارك بن عبد الجبار، هكذا هو فى أكثر النسخ الصحيحة، وفى بعضها أبو الحسن مكبرا، والصواب الأول كما ذكره البرهان الحافظ، فالحسن ليس بالحسن هنا، وهذا الحديث تقدم فى أول الكتاب مسندا إلى الترمذى بهذا السند.

(**قالا: حدثنا أبو يعلى**)، بفتح أوله، وهو أحمد بن عبد الواحد بن محمد بن جعفر، المعروف بابن زوج الحرة، كما تقدم فى ترجمته، قال: (**حدثنا السنجى**) أبو على الحسن ابن محمد بن أحمد بن شعبة السابق ذكره وضبطه. قال: (**حدثنا ابن محبوب**) أبو العباس المحبوبى راوى جامع الترمذى عنه قال: (**حدثنا الترمذى قال: حدثنا الحسين بن يزيد الكوفى**) المعروف بابن الطحان، أخرج له أبو داود والترمذى، وقال أبو حاتم: إنه لين توفى سنة أربع وأربعين ومائتين، وترجمته فى الميزان قال: (**حدثنا عبد السلام بن حرب**) النهدى، روى عنه أصحاب الكتب الستة، وترجمته فى الميزان، (**عن ليث**) بن أبى سليم بالتصغير القرشى الكوفى العابد الزاهد، وفيه ضعف يسير لسوء حفظه، توفى سنة ثمان وثلاثين ومائة.

(**عن الربيع بن أنس، عن أنس، رضى الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا**)، أى خرجوا من قبورهم إلى المحشر؛ لأنه ﷺ رأسهم وقائدهم، فيبعث قبل موسى وسائر الرسل كما سيأتى، وهذا الحديث انفرد به الترمذى وقال: إنه حسن غريب.

(**وأنا خطيبهم إذا وفدوا**)، أى قدموا على الله وقاموا بين يديه للحساب، وأصل الوفد الجماعة تقدم إلى من لهم فيه رجاء، وعنده قضاء أمورهم وعطاياهم، ولما كان ﷺ وهو الشفيع المشفع فى المحشر المأذون له فى التكلم وفصل القضاء كان ثمة كالخطيب فى المجمع على عادتهم إذ كان لكل وفد خطيب غالبا، وهذا أنسب هنا من قوله: إمامهم لا لأنه لا تكليف ثمة كما يوهم، وفيه دليل على أفضليته ﷺ، وأنه لم يدهش لهول المحشر.

(**وأنا مبشرهم**) بالخلاص من المحشر وطول موقفه (**إذا أيسوا**) من النجاة من شدة

ذلك اليوم وهوله إذا أزفت الآزفة وبلغت القلوب الحناجر، والإياس بتقديم الهمزة القنوط من رحمة الله، وروى يئسوا بتقديم الياء على الهمزة، وهما لغتان وروايتان، **(لواء الحمد بيدى)** يوم القيامة ليعرفه ﷺ ويتبعه كل من فى الموقف واللواء معروف، وهو لواء حقيقى سمى لواء الحمد؛ لأنه حمد الله بمحامد لم يحمده بها غيره، أو لحمد الناس كلهم له، ويجوز أن يكون كناية عن شهرته وتقدمه، كقوله(١):

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

فهو إشارة لتقدمه ﷺ وعظمته وكثرة حمده وأمته الحمادون، وهو أحمد ومحمد وتقدم الكلام عليه، واللواء والعلم والراية والبند متقاربة معنى، لكن اللواء أكبرها، وروى الطبرى أن لواء الحمد يحمله على، كرم الله وجهه، بين يديه ﷺ، ولعل الاختلاف باعتبار مواطن الحمد، فلا مخافة بينهما.

(أنا اكرم ولد آدم على ربى)، أى أشرفهم ذاتا وصفة وأقربهم منزلة، والكرم صفة تجمع كل خير وإن اختص عرفا بالسخاء، وهذا تحدث بنعم الله تعالى وإظهار لما يجب اعتقاده، وفى نسخة: على ربه، والضمير لأكرم وآدم، والرواية الصحيحة الأولى، والولد صفة مشبهة بمعنى المولود يطلق على الواحد وغيره كما مر، **(ولا فخر)** جملة حالية مؤكدة، أى أنا لا أذكره للفخر، بل للتحدث بنعم الله، أو لا أفخر بهذا إذ لى عند الله ما هو أعظم وأشرف من هذا مع أنى لم أنله بسعى واجتهاد منى، وخبر لا محذوف، أى فيه أو عندى ونحوه، والفخر الافتخار والتبجح بالأمر بأن يذكره ليظهر علوه على غيره.

(وفى رواية ابن زحر عن الربيع بن أنس فى لفظ هذا الحديث)، وزحر بفتح الزاى المعجمة وسكون الحاء ثم راء مهملتين، وهو عبد الله بن زحر الأفريقى العابد، وأصل معنى الزحر الصوت والأنين، ومنه الزحير للمرض المعروف فى الأمعاء، والعامة تغلط فيه وتقول: زحيل باللام، وروى عنه أصحاب السنن، وله ترجمة فى الميزان، وأخرج له البخارى فى الأدب، وفى روايته زيادة ومغايرة فى اللفظ على الرواية السابقة، وهى ظاهرة، وفى الأصل بخطه وفى رواية ابن زحر والربيع بن أنس، وفى رواية العزفى عنه عن الربيع عن أنس، وعلى كلا الوجهين المروى عنه أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه كما قاله التلمسانى.

---

(١) البيت من الوافر، وهو للشماخ فى ديوانه (ص٣٣٦)، لسان العرب (٥٩٣/١) (عرب)، (٤٦١/١٣) (يمن)، تهذيب اللغة (٢٢١/٨ - ٥٢٣/١٥)، جمهرة اللغة (ص٣١٩/ ٩٩٤)، تاج العروس (٣٥٢/٣)، مقاييس اللغة (١٥٨/٦).

(أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا) كما تقدم، **(وأنا قائدهم إذا وفدوا)** القائد فى الأصل الذى يقود الدابة بزمام ونحوه، ثم صار حقيقة فى الرئيس الذى يتبعه الناس ويرتضونه وفى أمر الجيوش، وجمعه قادة، وتقدم معنى الوفد وأن المراد به القادمون للمحشر، فالمراد أنه ﷺ مقدم ثمة حسا ومعنى.

(وأنا خطيبهم إذا أنصتوا)، أى أنا المتكلم بين يدى ربى فى أمرهم والشفاعة لهم، وقد سكتوا و لم يطيقوا نطقا لحيرتهم، والإنصات والسكوت بمعنى.

(وأنا شفيعهم إذا حبسوا) فى الموقف واضطربوا وفزعوا للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فقال كل منهم: نفسى نفسى، فيشفع لهم ﷺ الشفاعة العظمى فى فصل القضاء.

(وأنا مبشرهم) بالخلاص من هول الموقف والحبس فيه **(إذا أبلسوا)** انقطعت حجتهم وتحيرو أو سكتوا ليأسهم من النجاة، وقيل: الإبلاس الحيرة والندم ومنه إبليس، **(لواء الكرم بيدى)** قريب مما مر لفظا ومعنى.

(وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر، ويطوف على ألف خادم) فى الجنة من الحور العين **(كأنهم لؤلؤ مكنون)** رواه الترمذى وصححه، ومكنون بمعنى محفوظ مستور لم تمسسه الأيدى، فهو كناية عن كونها بكرا ذات بهاء بحيث لم يرمثلها.

(وعن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه) فى حديث رواه الترمذى وصححه: **(وأكسى حلة من حلل الجنة)** أصل معنى الحلة ثوبان من برود اليمن واحدا فوق واحد، ثم أطلق على كل لباس فاخر يعطى رعاية للابسه، ففيه دلالة على قربه ﷺ وكرامته إذ كسى وجميع الناس عراة وحفاة.

(ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيرى) ذلك فى محل نصب على الظرفية، وفى مقامه ﷺ فى جانب اليمين فى مقام لم يقم فيه نبى مرسل ولا ملك مقرب من التكريم الدال على غاية القرب، وسماع كلامه، وقبول رجائه بما يليق بمقامه الشريف، والخلائق جمع خليقة، وهو اسم جمع بمعنى جماعات من المخلوقين.

(وعن أبى سعيد) الخدرى فى حديث رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه **(أنا سيد ولد آدم يوم القيامة)** ظرف متعلق بسيد، وتقييده به ليس للتخصيص كما سيأتى، بل لأنها سيادة مسلمة له ﷺ، وهى أشرف من سيادة الدنيا، ومر أن الصحيح أن السيد يجوز إطلاقه على الله وعلى غيره، والخلاف فيه مشهور على ثلاثة أقوال مشهورة، **(وبيدى لوء الحمد ولا فخر)** تقدم معناه، **(وما نبى يومئذ آدم فمن سواه)** بدل من نبى، أى جميع

الأنبياء **(إلا تحت لوائى)**، أى تابع لى فى القيامة، وليس المراد أنه تحته حقيقة، وعطف فمن بالفاء لأنهم بعده من غير فاصلة، والمراد الترتيب الرتبى أو الحقيقى، **(وأنا أول من تنشق عنه الأرض)** يوم تبعثر القبور، وتنشق بقدرة الله تعالى، وفيه إكرام له ﷺ **(ولا فخر)** تقدم معناه.

(وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه) فى حديث صحيح رواه مسلم **(عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم: أنا سيد ولد آدم يوم القيامة)**، أى أنا أشرفهم وأقربهم عند الله فى يوم لا يسود فيه غيرى كما مر، **(وأول من ينشق عنه القبر)**، أى قبره الشريف، **(وأول شافع)** يشفع للناس فى الموقف، **(وأول مشفع)** بفتح الفاء المشددة، أى أول من يؤذن له فى الشفاعة وتقبل شفاعته، وتفصيله ما فى حديث البخارى «يحبس المؤمنون يوم القيامة، فيقولون له، صلى الله تعالىعليه وسلم: استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا، فأستأذن على ربى فيؤذن لى، فإذا رأيته وقعت ساجدًا فيدعنى ما شاء أن يدعنى، فيقول: ارفع رأسك محمد وقل تسمع واشفع تشفع».

(وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما) فى حديث رواه الترمذى والدارمى: **(أنا حامل لوء الحمد يوم القيامة ولا فخر)** كما مر، **(وأنا أول شافع)** فى إزالة هول الموقف، **(وأول مشفع)** تسمع شفاعته وتقبل، **(ولا فخر)** لى فخر تكبر وتبجح فيما خصنى الله به.

(وأنا أول من يحرك حلق) باب **(الجنة)** ليفتح لى ولمن يدخلها بعدى، وحلق بفتح الحاء المهملة واللام، ويجوز كسر الحاء فيكون بزنة ندر جمع حلقة بسكون اللام وقد تفتح وتكسر، وفى القاموس ليس فى الكلام حلقة محركة إلا جمع حالق أو هى لغة ضعيفة، والمراد بباب الجنة باب مخصوص به ﷺ يسمى باب محمد وباب الرحمة، ولها أبواب غيره، وقيل: المراد جميع أبوابها وأنه الظاهر، والظاهر خلافه، **(فيفتح لى)** بابها، **(فأدخلها)**، وفى رواية وأدخلها بالواو.

(و) يدخلها **(معى فقراء المؤمنين، ولا فخر)** ويفتح بالتحتية والبناء للمجهول، والفاتح خزنتها، أو الفوقية والضمير للجنة والفاء للتعقيب من غير مهلة فى الفتح والدخول، والمراد بالفقراء الصابرين وهو شامل للمساكين، والفرق بينهما مشهور، والخلاف معروف، وفى هذا دليل على أن الفقير الصابر أفضل من الغنى الشاكر، وقيل: الغنى الشاكر أفضل والأول أصح، ولذا اختار الفقر كثير من الأنبياء والأولياء، وأنفق أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، ماله فى سبيل الله ليدخل فى سلكهم، والمحمود منه ما كان مع غنى القلب والنفس، فإن الغنى ليس بكثرة العرض وإنما هو غنى النفس، وهو كما

قيل:

غنى النفس ما يكفيك عن سد حاجة   فإن زاد شيئًا عاد ذاك الغنى فقرا

وفقر النفس ولو مع المال مذموم، ولذا استعاذ النبى ﷺ منه، وكونه ﷺ أول من يدخل الجنة لا ينافى ما ورد فى حديث الترمذى من أنه ﷺ دعا بلالا رضى الله تعالى عنه وقال له: يا بلال بم سبقتنى إلى الجنة؟ فما دخلتها قط إلا سمعت خشخشتك. وفى رواية: «سمعت دق نعليك بين يدى فى الجنة»[1]، فإنه كان فى رؤياه لا فى هذا الدخول، أو هو كما قال ابن القيم: كان دخوله دخول الخادم والحاجب الذى يتقدم سيده، والمطرق فى طريق سيده، وهو بيان لفضيلة الأذان، وإنما سأله ﷺ وإن كان أعلم به تطييبًا لنفسه، والمراد بقوله: معى ليس المساواة بل التبعية، فلا يقال: لا حاجة لقوله: معى، فى الجملة وهى حالة تقتضى المقارنة.

(وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر) المراد أنه ﷺ أشرف من جميع الخلق، **(وأنا أكثر الناس)**، أى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكذا روى أيضًا **(تبعا)** جمع تابع كخدم جمع خادم. يعنى أن أمته ﷺ أكثر من سائر الأمم، ويقتضى هذا أكثرية أجره عليهم، ويأتى التصريح به وأفضليته على كل واحد منهم وعلى جميعهم أيضًا كما قررناه فى محله.

(وعن أنس رضى الله تعالى عنه) كما رواه الشيخان: **(أنا سيد الناس)** وأجلهم وأعظمهم **(يوم القيامة)** خصه مع أنه ﷺ سيدهم فى الدنيا والآخرة لظهوره ثمة، واختصاصه به ظاهرا من غير منازع ومنكر كما وقع فى الدنيا من المشركين، وسيأتى تفصيله فى كلام المصنف رحمه الله تعالى، **(وتدرون لم ذلك؟)** فيه استفهام مقدر، أى أتدرون ما سبب هذه السيادة، وحذف الاستفهام لقرينة جائز كما صرحوا به، **(يجمع الله الأولين والآخرين)** فى المحشر، **(وذكر حديث الشفاعة)**، أى ذكر أنس، رضى الله عنه، هذا الحديث المذكور فيه الشفاعة بتمامه، ولم يذكره هنا لأنه سيأتى فى الشفاعة، وأنه إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم فى بعض، فيأتون آدم عليه الصلاة والسلام ليشفع لهم، فيقول: لست لها إلى أن قال: فأقول أنا لها إلخ.

(وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: أطمع)، أى أرجو من الله تعالى طمعا ورجاء حققه له كقوله: ﴿**وَالَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ**

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٣٥٤، ٣٦٠)، والترمذى (٣٦٨٩)، وابن خزيمة (١٢٠٩)، والحاكم (٣١٣/١).

﴿ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وتعبيره ﷺ بالطمع هضما لنفسه **(أن أكون أعظم الأنبياء أجرا يوم القيامة)**؛ لأن أمته ﷺ أكثر الأمم، وأجر أعمالهم له مثله، لأن من سن سنة حسنة له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، وأعمالهم مضاعفة، وله ﷺ مثلها ومثل أضعافها، وهو أعظمهم مشقة لعموم دعوته، وكثرة من عتا وعاند من الكفرة مع تحمله وصبره، حتى قيل له ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ﴾ [الشعراء: ٣].

(وفى حديث آخر: أما ترضون) معاشر المسلمين **(أن يكون إبراهيم)** الخليل عليه الصلاة والسلام **(وعيسى)** عليه الصلاة والسلام **(كلمة الله فيكم)**، أى محسوبان من جملتكم ومحشوران معكم **(يوم القيامة)**، فيعدان من أمتى، وخصهما بالذكر لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أشرف الأنبياء بعد محمد ﷺ، وهو أبو الأنبياء، وأبو إسماعيل عليهما الصلاة والسلام الذى كانت العرب تزعم أنهم على ملته، ولأن عيسى يبعث آخر الزمان على دين محمد ﷺ، ويغير أحكام النصرانية، وأما أداة استفتاح كألا، أو مركبة من همزة الاستفهام، وما النافية، والمعنى واحد.

(ثم قال) ﷺ: **(إنهما فى أمتى يوم القيامة)**، أى يعدان منهم **(أما إبراهيم فيقول)** له ﷺ: **(أنت دعوتى وذريتى)** أما دعوته فقوله: (﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾ [البقرة: ١٢٩] إلخ)، فجعل عين الدعوة مبالغة، أى أنت ممن جعله الله منهم بإجابة دعوتى، والذرية النسل، والولد يطلق على الواحد وغيره، ولا شبهة فى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من نسل ولده إسماعيل، عليه الصلاة والسلام، ولم يبعث فيهم نبى سواه، فهو المجاب دعوته، **(وأما عيسى)**، أى كونه تابعا له ﷺ، وفى جملة أمته يوم القيامة.

(فالأنبياء كلهم إخوة)، أى كالإخوة فى اتحاد أمورهم مع الله تعالى ومع الخلق، والإخوة إما لأب وأم ويقال لهم بنو الأعيان، أو لأب فقط وهم بنو العلات، أو لأم وهم بنو الأخياف، فلذا قال: **(بنو علات)** المراد بالعلات الزوجات الضرائر، وهو من العلل وهو الشرب مرة بعد مرة، والشرب الأول يسمى نهلا فكأن الزوجات مورد للزوج، أو كأن الأولاد مشاربهم مختلفه فى الرضاع، وهذا أقرب، وإلى هذا أشار بقوله:

(أمهاتهم شتى)، وأمهات جمع أم وأصلها أمهة؛ ولذا جمع على أمهات وصغر على أميهة، وقيل: إنه فى الأصل مضاعف لقولهم: أمات وأميمة، وقيل: أكثر ما يقال أمات فى البهائم ونحوها، وأمهات فى الإنسان، وهو يطلق على الأم القريبة والبعيدة، وشتى من الشتات وهو التفرق جمع شتيت كمرضى ومريض، أى مختلفة فى الذوات والنسب،

فشبه الدين والعقيدة الحقة التى هى سبب لبقائهم بالأب الواحد؛ لاتحاد اعتقادهم ومعرفة ربهم على طريقة الاستعارة، وأثبت لهم الأخوة تخييلاً، وكونه بنو علات ترشيح وليست الاستعارة تحقيقية كما توهم، وشبه فروع الشرائع والأحكام بالأمهات فى حفظهم وتعيشهم، فهو استعارة مستقلة تحقيقية أو ترشيح بناء على جواز التجوز فيه، والحاصل أنهم، صلى الله تعالى عليهم وسلم، بعثوا متفقين فى أصول التوحيد مختلفين فى فروع الشرائع. وقيل: أراد أنهم فى أزمان متباينة، والأول أولى.

(وإن عيسى أخى) بكسر همزة إن وأقيم الظاهر فيه مقام الضمير، والأخوة بمعنى المشابهة فى الرسالة والصفات الحميدة، **(ليس بينى وبينه نبى)**؛ لأنه لم يبعث فى الفترة التى كانت بينهما أحد من الأنبياء.

(و) لما بينهما من المناسبة والقرب زمانا ومعنى كان **(أولى الناس به)**، وهو أفعل تفضيل من الولاء والتوالى، وهو عدم الفاصل بين الشيئين، ثم صار عبارة عن القرب، فيقال: أولى بمعنى أحق وأقرب من حيث المكان أو الزمان أو النسب أو الدين كما ذكره الراغب، وهو المراد هنا، وهذا من حديث رواه البخارى ومسلم، وهو «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الأولى والآخرة الأنبياء بنوعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وليس بيننا نبى»[(١)]، وهو حديث صحيح روى من طرق، فعلم أن ما ذكره الراغب والزمخشرى وابن عربى فى فصوصه من أنه كان بينهما نبى اسمه خالد بن سنان كان هو وقومه بعدن، فخرجت نار عظيمة من مغارة أهلكت الزرع والضرع، فالتجأ قومه إليه فأخذ خالد يضرب تلك النار بعصاه حتى رجعت هاربة إلى المغارة التى خرجت منها، فقال لقومه: أنا أدخل خلفها المغارة حتى أطفئها، وأمرهم أن لا يدعوه ثلاثه أيام تامة، فإنهم إن نادوه قبلها يخرج ويموت، وإن صبروا خرج إليهم سالما فلم يصبروا ونادوه فى اليوم الثانى، فخرج وقال لهم: أضعتمونى وأضعتم أمرى وأمرهم أن يدفنوه أربعين يوما يصبرون فيها، فإذا تمت أتاهم قطيع غنم يقدمه حمار مقطوع الذنب، فإذا حاذى قبره نبشوه فيقوم ويخبرهم بأحوال البرزخ وما عاينه يقينا، فلما تم الميعاد كما قال هم مؤمنو قومه أن ينبشوا قبره، فأبى أولاده خوف العار وأن يقال لهم: أولاد المنبوش، فمنعتهم الحمية الجاهلية على أن ضيعوه، فلما بعث رسول الله ﷺ جاءته ابنته فقال لها: مرحبا بابنة نبى أضاعه قومه غير صحيح.

وما قيل من أن مراد نفى نبى مشرع مبلغ للأحكام يأباه لفظ الحديث؛ فإن النبى

---

(١) أخرجه البخارى (٤/٢٠٣)، ومسلم فى الفضائل (١٤٣، ١٤٤)، وأبو داود (٤٦٧٥)، وأحمد (٢/٣١٩، ٤٣٧)، والحاكم (٢/٥٩٢).

أعم، ولو كان كما ذكر لقال: إنه رسول وأحسن منه أن يقال: إنه كان مستعدًا للنبوة ولم يرزق ذلك، وكذا ما نقل أنه كان بينه وبينه غيره كلقمان وسفيان، فإن مثله لا يعارض حديث الصحيحين كما ذكره الحافظ ابن حجر والبرهان وغيرهما.

واعلم أنه ﷺ إنما خص هذين بالذكر؛ لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أبو الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإسماعيل كان على شريعته، والعرب يزعمون أنهم على ملته، وعيسى عليه الصلاة والسلام قريب العهد، وسيصير من أمته حقيقة، وهذا لا ينافى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣] كما توهم؛ لأن المأمور به اتباعه فى التوحيد والعقائد دون غيرها من الأحكام، وليس المراد تقليده بل مراده أنه موافق له فتأمل.

(وقوله) ﷺ فى الأحاديث السابقة: **(أنا سيد الناس يوم القيامة)** جواب عن سؤال مقدر، وهو لم خص سيادته ﷺ بذلك اليوم، وهى غير مخصوصة به، **(وهو سيدهم فى الدنيا ويوم القيامة)**، بل سيد جميع المخلوقات، والجملة حالية **(ولكن أشار)** عليه الصلاةوالسلام بقوله هذا كما تقدم؛ **(لانفراده)** عن غيره **(فيه بالسؤدد والشفاعة)** العظمى الدال على عظمة قدره عند الله **(دون غيره)** من الرسل والملائكة المقربين، والسؤدد بضم السين المهملة وفتح الدال الأولى وقد تضم وتهمز الواو لضم ما قبلها وهى لغة طىء بمعنى السيادة، وسيد وزنه فيعل أو فعيل ودلالة الثانية للإلحاق **(إذ لجأ الناس إليه)**، أى التجئوا واستندوا للتوسل به ﷺ **(فى ذلك)** الوقت، أو ذلك الأمر، وهو تعليل لما قبله، **(فلم يجدوا سواه)** ﷺ يشفع لهم، ويخلصهم مما هم فيه من الكرب الذى لا يطيق غيره دفعه.

(والسيد) معناه لغة **(هو الذى يلجأ الناس إليه فى حوائجهم)**، أى يعتمدون عليه إذا قصدوه لقضاء مصالحهم، فلذا وقع هنا موقعه إذ المعنى أنا من يقضى حوائج جمع الناس فى الموقف، ومن هذا ظهر للتخصيص وجه آخر إلا أن هذا تفسير له بلازم معناه؛ لأن معناه من يتبعه جماعة قومه وسواده، والحوائج جمع حاجة على خلاف القياس، أو مفرده حائجة مقدر أو نادر، وقد ورد فى الأحاديث وكلام العرب كثيرًا فصيحًا فلا وجه لمن أنكره كالحريرى، وقد شنع عليه ابن برى وأنشد له شواهد كثيرة وقد كان ﷺ يحب قضاء الحاجة، وهو دأبه فى الدنيا والآخرة ولله در الصرصرى فى قوله:

ألا يا رسول الإله الذى ... هدانا به الله فى كل تيه
سمعت حديثا من المسندات ... يسر فؤاد النبيل النبيه
وأنك قد قلت فيه: اطلبوا ... الحوائج عند حسان الوجوه

ولم أر أحسن من وجهك الكريم فجد لى بما أرتجيه

(فكان) ﷺ **(حينئذ)**، أى وقت التجائهم إليه **(سيدا منفردا من)** سائر **(البشر)**، أى منفردا عن جميع الناس حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه السيادة **(لم يزاحمه أحد فى ذلك)**، أى لم يشاركه أحد فى كونه ملجأ للناس، وأصل معنى المزاحمة المدافعة، **(ولا ادعاه)** لانكشاف الأمر يوم القيامة حتى لا يمكن أحد أن يدعى ما ليس فيه، **(كما قال تعالى:** ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]**)** يعنى أنه تعالى يقول يوم القيامة: لمن الملك فى هذا اليوم؟ أو ينادى به مناد على رءوس الأشهاد، فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه بقوله: **(لله الواحد القهار)**، أى الملك مخصوص به، أو يقول أهل الموقف يعنى أن قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم اليوم»، كقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾، ووجه الشبه أنه خص الملك بذلك اليوم كما خص رسوله ﷺ سيادته به.

(والملك له تعالى فى الدنيا والآخرة، لكن) إنما خصصه بملك هذا؛ الآية **(فى الآخرة انقطعت دعوى المدعين لذلك فى الدنيا)** متعلق بالمدعين أن ملوك الدنيا لما تصرفوا فيها تصرف الملاك بتقديره تعالى ذلك لهم وتفضله عليهم، ظنوا أن لهم ملكا حقيقة، فلما قهرهم بالموت وكشف الغطاء ظهر أنهم عبيد عاجزون ليس لهم من الأمر شىء، فانقطعت الدعاوى.

(وكذلك)، أى مثل كونه تعالى منفردا بالملك وظهوره حين انقطعت الدعاوى، وتفرده ﷺ حتى **(لجأ إلى محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، جميع الناس فى الشفاعة)** العظمى المعهودة، **(فكان سيدهم فى الأخرى)**، أى الآخرة؛ لأنه يقال لها: أخرى وآخرة، وفى نسخة: فى الآخرة **(دون دعوى)** من أحد من أهل الموقف أنه سيد لعدم المنازع والمدافع.

(وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم) فى حديث صحيح رواه مسلم: **(آتى)** بمد الهمزة **(باب الجنة يوم القيامة فأستفتح)**، أى أطلب الفتح بتحريك الحلقة، **(فيقول الخازن)**، أى بواب الجنة الموكل بها، والمراد به رضوان رئيس خزنتها؛ لأنه ورد التصريح بأن لها خزنة: **(من أنت؟ فأقول:)** أنا **(محمد فيقول: بك أمرت)**، أى بسببك أمرت بالفتح إذا قرع الباب، وتقديم الجار والمجرور للحصر بالنسبة لأول الفتح، كما أشار إليه بقوله: **(أن لا أفتح لأحد قبلك)**، والجملة مستأنفة لبيان ما أمر به، وقيل: إنه بدل مما قبله، أى أمرت بأن لا أفتح لأحد قبلك، وإنما فتح له قبل كل أحد لسبق روحه ﷺ للنبوة، وسبق ذرته فى الإجابة على سائر الذرات، وفيه إشارة إلى أنه ﷺ أكثر الناس عملا واعتقادا، وأفضلهم لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ

أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

(وعن عبد الله بن عمرو) بن العاص حديث رواه الشيخان قال:(**قال رسول الله ﷺ: حوضى مسيرة شهر)**، أى مسافة كل جانب منه مقدار شهر، والحوض مجمع الماء وهو معروف، وهذا الحوض العظيم مخصوص به ﷺ كما صرح به القرطبى فى شرح مسلم، وورد فى حديث مرفوع رواه الترمذى «إن لكل نبى حوضا ترده أمته»[(١)]، وروى أنه ﷺ له حوضان أحدهما فى أرض الموقف، والآخر بعد الصراط له ميزابان من الكوثر.

وقوله: **(وزواياه سواء)** يدل على أنه مربع، **(وماؤه أبيض من الورق)** وبفتح الواو وفتح الراء المهملة وكسرها وسكونها الفضة مطلقا، أو ما ضرب منها، وفى نسخة: من اللبن، وأبيض أفعل تفضيل من البياض ضد السواد، وقد سمع من العرب وورد فى الحديث إلا أن صاحب القاموس قال: إنه شاذ، وعلى الأول فلا وجه لإطلاق بعض النحاة أنه لا يبنى أفعل من الألوان ومن العيوب، وإنما يقال أشد بياضا وأبلغ ونحوه.

(وريحه أطيب من المسك) الريح كالرائحة ما يشم ويطلق على الهواء وهو الأشهر، ويجوز إرادته أيضًا؛ لأن الهواء إذا تكيف بكيفية طيبة كان طيبا أيضًا، **(وكيزانه كنجوم السماء)** كثرة وإشراقا، وكونها أكثر من النجوم حقيقة لا مانع منه؛ لقوله ﷺ فى الحديث: «والذى نفسى بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء»[(٢)]؛ لتأكيده بالقسم وقيل: المراد المبالغة، والكيزان جمع كوز وهو إناء صغير يتناول به الماء للشرب، والأصل أنه إناء ضيق الفم له عروة، فإن لم يكن له عروة فهو كوب وجمعه أكواب كما تقدم، فإن كان فيه شراب فهو كأس.

(من شرب منه شربة لم يظمأ أبدًا)، أى لم يعطش بعده أبدا، وروى لن يظمأ ولا يظمأ ولا كلام فيه، وأما هذه الرواية فاستشكلت بأن لم لنفى الماضى، والمراد هنا نفى الظمأ فى المستقبل بدليل قوله: أبدا المفيدة لاستغراق المستقبل وأجيب بأن المراد نفى الماضى كأنه لم يذق ظمأ فى الماضى لشدة اللذة التى أنسته ما قبلها، وأما أبدا فإنها تكون لما مضى أيضًا كما فى التسهيل.

أقول: هذا تعسف فالحق أنها لنفى المستقبل بقرينة قوله أبدًا، وهى ترد كذلك إذا قرنت بالشرط نحو إن لم تحسن لى غدا كان كذا، وهو كثير فى كلامهم، ومن هنا

---

(١) أخرجه الترمذى (٢٤٤٣)، وابن عاصم فى السنة (٣٤٢/٢)، والطبرانى فى الكبير (٢٥٧/٧).

(٢) أخرجه مسلم فى الفضائل (٣٦)، والترمذى (٢٤٤٥)، وأحمد (١٤٩/٥)، وابن أبى شيبة (٤٤٢/١١).

شرطية أو فى معناها فهذا سهو من قائله، ويظمأ مهموز ساكن الهمزة ويجوز إبدالها ألفا. وقيل: إن لذة المشروب إنما تكون بالاشتهاء، وهو إنما يكون لمن عطش، وأهل الجنة منعمون فى المأكل والمشرب. وأجيب بأن المراد أنه لا يشتد عطشه وليس بشىء؛ لأنه قد يشرب بدون عطش للتلذذ كما يشاهد فى خمور الدنيا. وروى: من يشرب، بالرفع على أن من موصولة ومجزوما على أنها شرطية كما تقرر.

(وعن أبى ذر رضى الله تعالى عنه) جندب بن جنادة **(نحوه)**، أى روى عنه ما هو بمعناه، أو قريب منه، وإن لم يكن مثله، **(وقال)** زيادة على ما مر فى روايته، **(طوله ما بين عمان إلى أيلة)**، أى طول الحوض كطول ما بين هاتين البلدين ، وعمان بضم العين وفتح الميم المخففة وبفتح العين وتشديد الميم، وهو المروى فى حديث الحوض قرية بالشام، وحكى فيه التخفيف أيضًا، وهو المراد، والتى باليمن بالضم والتخفيف لا غير، وقيل: إنها المرادة هنا لرواية ما بين بصرى وصنعاء، والمراد زيادة الطول فلا تتعارض الروايات، وأيلة بفتح الهمزة وسكون المثناة التحتية ولام وهاء بلدة بالشام بساحل البحر بين طيبة ودمشق، وقيل غير ذلك، وهى سميت بعمان بن لوط لأنه سكنها وقيل: بعمان بن سنان من ولد إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

(يشخب فيه ميزابان من الجنة) بفتح الياء المثناة التحتية وسكون الشين وضم الخاء المعجمتين وفتحها وموحدة، ومعناه أنه ينصب مع صوت، وروى: يغت بغين معجمة مضمومة ومثناة فوقية ومعناه يتوالى صبه، وروى ابن ماهان: يثعب بمثلثة وعين مهملة وموحدة ومعناه يتفجر ماؤه، وأصل الشخب ما يخرج من الضرع عند الحلب،والميزاب بكسر الميم وهمزة ساكنة وتبدل ياء مسيل الماء.

(وعن ثوبان مثله)، أى مثل حديث أبى ذر، **(وقال)**، أى ثوبان عن رسول الله ﷺ: **(أحدهما)**، أى أحد الميزابين **(من ذهب، والآخر من ورق)**، أى فضة.

(وفى رواية حارثة بن وهب) الخزاعى الصحابىالمعروف رضى الله عنه، وأخرج له أصحاب الكتب الستة **(كما بين المدينة وصنعاء، وقال أنس: أيلة وصنعاء)** هى بصاد وعين مهملتين مدينة باليمن، والنسبة إليها صنعانى علىخلاف القياس، وبينها وبين المدينة مسيرة شهر، والمراد عظمه، فالروايات كلها بمعنى، وبقرب دمشق قرية تسمى صنعاء أيضًا.

(وقال ابن عمر رضى الله تعالى عنهما) فى حديث رواه الشيخان: **(كما بين الكوفة)** مدينة العراق المشهورة **(والحجر الأسود)**، والروايات متحدة كما عرفته فإنها تقريبية لا

تحديدية، فخاطب ﷺ كلا بما يعرفه، ولا حاجة إلى أن يقال: إنه وقع الخطاب به عند الحجر الأسود كما قيل، وأصل معنى الكوفة رمل مستدير أو حجارة بيض، فسمى بها، ثم شرع المصنف رحمه الله فى بيان هذا الحديث روى من طرق كثيرة دالة على صحته، وأنه على ظاهره.

ولذا ذهب المصنف، رحمه الله تعالى، إلى أنه متواتر فقال: **(وروى حديث الحوض أيضًا)** كالروايات المتقدمة **(أنس)** بن مالك الأنصارى الصحابى خادم النبى ﷺ رواه عنه مسلم من غير الطريق المتقدمة، فلا يقال: إنه تقدمت روايته، وأيضا يقتضى مغايرة ما تقدم.

(وجابر بن سمرة) بفتح فضم ابن جنادة الصحابى السوائى، وما فى بعض النسخ هنا وفى أول الشفاء جابر وسمرة قال البرهان: صوابه جابر بن سمرة، وكذا هو على الصواب فى النسخ مكتوب عليه صح، فإن صحت الرواية الأخرى فالحديث رواه جابر ابن عبد الله وسمرة إلا أن رواية جابر بن عبد الله فى مسند أحمد، وأما رواية سمرة فلم أقف عليها، فالثابت رواية ابن سمرة كما فى مسلم وغيره، **(وابن عمر وعقبة)** هو عبد الله بن عمر بن الخطاب الصحابى أحد العبادلة، وعقبة وهو ابن عامر الصحابى المشهور الجهنى، **(وحارثة بن وهب الخزاعى)** الصحابى المنسوب لخزاعة قبيلة معروفة.

(والمستورد) بصيغة اسم الفاعل ابن شداد الفهرى نزيل مكة، ثم مصر الصحابى، **(وأبو برزة الأسلمى)** نضلة بن عبيد الله الصحابى الإمام الجليل، وبرزة بفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وزاى معجمة تليها هاء، توفى سنة ستين أو أربع وستين وحديثه فى الصحيح والترمذى، وأسلم قبيلة معروفة، **(وحذيفة بن اليمان)** العبسى الأشهلى الصحابى صاحب سر رسول الله ﷺ، وحديثه رواه مسلم وابن ماجه، **(وأبو أمامة)** بن صدى بن عجلان الباهلى الصحابى، وحديثه أخرجه الطبرانى وأمامة بضم الهمزة.

(وزيد بن أرقم) الخزرجى الصحابى المشهور، وحديثه أخرجه ابن حنبل، والحاكم وصححه، **(وابن مسعود)** الصحابى المشهور، وحديثه أخرجه الشيخان، **(وعبد الله بن زيد)** الصحابى الذى أرى الأذان فى نامه كما مر، وحديثه أخرجه الشيخان أيضًا، **(وسهل بن سعد)** الصحابى **(الساعدى)** منسوب لساعدة، وبنو ساعدة قوم من الخزرج، وإليه تنسب السقيفة التى كانت فيها بيعة أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، **(وسويد بن جبلة)** بفتحات، وهو سويد بن جبلة الفزارى قيل: لم تصح صحبته فحديثه مرسل، وقيل: إنه صحابى و لم يرو عنه إلا حديث واحد وقيل: لعله سويد بن عقلة ولهم سويد

بن عامر وهذا الحديث عنه فى سنن البيهقى، والأولى تأخيره للاختلاف فى صحبته، **(وأبو سعيد الخدرى)** الصحابى المشهور، وقد تقدم.

(وعبد الله الصنابحى) بضم الصاد المهملة وفتح النون وألف يليها باء موحدة مكسورة وحاء مهملة وياء نسبة صحابى، وقيل: نسب لجده صنابح واسمه عبد الله وقيل: أبو عبد الله، وقيل: أبو عمرو، وقيل: إنه منسوب لصنابح اسم بطن من العرب، وفى الشرح الجديد: لم أقف على من نسب لهذا البطن من الصحابة سوى عسال الصنابحى، وآخر اسمه صنابح بن الأعز فلعله نسب لجده، وفى التابعين عبد الرحمن بن عبلة الصنابحى فلعله التبس على القاضى، وقيل: صوابه الصنابح.

(وأبو هريرة) وحديثه فى الصحيحين، **(والبراء)** بن عازب وحديثه فى الصحيحين أيضًا، **(وجندب)** عبد الله بن سنان البجلى الصحابى، وهو بضم الجيم وسكون النون وفتح الدال المهملة وضمها، وفى الصحابة من يسمى جندب غيره، ولكنه متى أطلق فالمراد هذا، **(وعائشة)** أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، **(وأسماء بنتا أبى بكر)** الصديق، رضى الله تعالى عنهم، والحديث فى الصحيحين وفى بعض النسخ.

(وأبو بكر، وعمر بن الخطاب، وابن بريدة) مصغر بردة، ولبريدة ابنان سليمان وعبد الله قاضى مرو وعالمها، وهما تابعيان فلا ينبغى ذكرهما هنا مع الصحابة، وفى مسند أحمد رواية حديث الحوض عبد الله بن بريدة، وقال: حدثنى به أخى. قال البرهان: لعل القاضى أراد بابن بريدة هذا، أو وقال بريدة فزيد عليه ابن، ولم أر لبريدة بن الحصيب حديثا فى الحوض فى الكتب الستة ومسند أحمد، وله ذكر فى مسند البزار.

(وأبو بكرة) وهو منيع بن الحارث كناه النبى ﷺ به لأنه تدلى ببكرة من حصن الطائف لما منع من الخروج، **(وخولة بنت قيس)** بن فهد بن قيس الأنصارية النجارية الصحابية زوجة سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، وحديثها فى مسند أحمد والطبرانى، **(وغيرهم)** من الصحابة وترك المصنف ذكرهم اختصار، فلذا تركناهم واقتداء به، وقد تقدم أن المصنف لكثرة طرق هذا الحديث قال: إنه متواتر، وقيل: تواتره معنوى؛ لقول ابن الصلاح: إنه لا تكاد توجد شروطه.

* * *

(فصل فى تفضيله) [بالمحبة والخُلة]

ﷺ على غيره من الأنبياء **(بـ)** صفتى **(المحبة والخُلة)** كما سيأتى تحقيقه، أى بكونه حبيب الله وخليله.

(جاءت بذلك الآثار الصحيحة) معنى ورواية، وقد تقدم الكلام على الأثر والحديث، وأن الأثر يطلق على الحديث مرفوعا كان أو موقوفا أو غيرهما، وأما تخصيص الفقهاء الأثر بالموقوف فاصطلاح لهم، وما رواه الخطيب فى جامعه مرفوعًا: «ما جاء عن الله فهو فريضة، وما جاء عنى فهو حديث، وما جاء عن أصحابى فهو سنة، وما جاء عن أتباعهم فهو أثر، وما جاء عمن دونهم فهو بدعة»، فهو موضوع كما نص عليه ابن حجر والسخاوى.

والمحبة من العبد لله ومن الله لعبده، كما قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وهذا مما لا خلاف فيه إلا أن المحبة ميل القلب لما تلتذ به حواسه الباطنة والظاهرة، ولا يتوقف هذا على الصورة الحسنة كمحبة الصلحاء والعلماء، أو غيرهم من أرباب الكمال، فهى فى حقه تعالى ليست بميل قلب ونحوه، بل هى ارتضاؤه له؛ لاتصافه بالكمال وانقياده لطاعة مولاه وحبه له من طريق الفضل، لا من طريق الأنس والراحة، وهوالذى كمله وحببه، ولذا قيل: إنه عبر عن اللطف بالمحبة، ومحبة العبد تعظيمه له بمشاهدة صفات كماله ومعاملته لإنعامه وإحسانه، فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، والخلة صفة الخليل وهو مما يستوى فيه المذكر والمؤنث. يقال: خل وخليل بين الخلة والخلولة، وخليل الله معناه اصطفاه وخصه بكرامته لتخلقه بأخلاق الله؛ لأن الخليل من يخالك، أى يوافقك فى خلالك ويسايرك فى طريقتك من الخل، وهو الطريق فى الرمل، أو يسد خلتك، ومعنى كون الله خليل عبده أنه محب له قائم بأموره بحيث لا يحوجه لغيره أصلا.

(واختص، صلى الله تعالى عليه وسلم، على ألسنة المسلمين بحبيب الله)، أى جرى على الألسنة تخصيصه ﷺ بذلك دون خليل الله؛ لإطلاقه على إبراهيم عليه الصلاة والسلام وإن كان غيره من الأنبياء محبوبا لله أيضًا، ثم استدل على اتصافه ﷺ بالخلة بحديث رواه مسندا عن البخارى فقال: **(أخبرنا أبوالقاسم بن إبراهيم الخطيب وغيره)** هو الإمام المقرى خلف بن إبراهيم المعروف بابن النخاس بالخاء العجمة المشددة، ولد سنة سبع وعشرين وأربعمائة، ومات بقرطبة سنة إحدى وعشرين وخمسمائة يوم الثلاثاء سادس عشر صفر. والتكنية بأبى القاسم جائزة بعده ﷺ على الصحيح كما سيأتى.

(عن كريمة بنت أحمد بن محمد)، وفى نسخة: بنت محمد وأصحها رواية بعض الشراح، وفى الإكمال أنها كريمة بنت أحمد بن محمد بن حاتم المروزية، سمعت صحيح البخارى من الكشميهنى، وروت الحديث وحدثت به كثيرًا، وجاورت بمكة إلى أن

ماتت قالت: (**حدثنا أبو هيثم**) الكشميهنى، وقد تقدم ضبطه وترجمته، (**حدثنا حسين بن محمد**) بن سكرة (**الحافظ**) السابق ذكره (**سماعا عليه**)، فهو أحد شيوخه، وهذا سند وطريق آخر للمصنف فى رواية هذا الحديث، وفى نسخة: وحدثنا وح تكتب عند الانتقال من سند لآخر إشارة إلى التحول كما فصلوه فى مصطلح الحديث قال: (**حدثنا القاضى أبو الوليد**) الباجى الذى بيناه سابقا قال: (**حدثنا عبد بن أحمد**) عبد بغير إضافة أبو ذر الهروى السابق ذكره قال: (**حدثنا أبو الهيثم**) الكشميهنى السابق فى الطريق الأول قال: (**حدثنا أبو عبد الله محمد بن يوسف**) الفربرى الإمام الحافظ راوى البخارى المشهور كما تقدم قال: (**حدثنا محمد بن إسماعيل**) هو الإمام البخارى صاحب الصحيح المشهور قال: (**حدثنا محمد بن عبد الله**) المعروف بالمسندى، والبخارى يروى عن أربعة كل منهم اسمه محمد بن عبد الله، والمراد هنا هذا كما ذكره الكلاباذى، وهو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن السمان. توفى يوم الخميس لست بقين من ذى القعدة سنة تسع وعشرين ومائتين قال: (**حدثنا أبو عامر**) عبد الملك بن عمرو بن قيس العقدى بفتح العين والقاف ودال مهملتين، وهو محدث بصرى مشهور أخرج له الأئمة الستة، توفى سنة خمس ومائتين.

قال: (**حدثنا فليح**) بضم الفاء وفتح اللام ومثناة تحتية وحاء مهملة ابن سليمان العدوى المدنى. أخرج له أصحاب الكتب الستة وهو ثقة، وقيل: ليس بالقوى توفى سنة ثمان وستين ومائة وترجمته فى الميزان قال: (**حدثنا أبو النضر**) بالضاد المعجمة الساكنة سالم بن أبى أمية المدنى الثقة راوى أنس، توفى سنة تسع وعشرين ومائة، (**عن بسر بن سعيد**) بضم الباء الموحدة وسكون السين وراء مهملتين المدنى الزاهد الثقة توفى سنة مائة، (**عن أبى سعيد**) سعيد بن مالك بن سنان الخدرى السابق ترجمته، رضى الله تعالى عنه، (**عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه قال: «لو كنت متخذا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر»**) حديث صحيح رواه البخارى وغيره من طرق متعددة، ومفعوله الثانى محذوف تقديره خليلا، ولو حرف شرط لامتناع ما يليه وهو الشرط، فإن لم يكن للجزاء سبب غيره لزم من امتناعه امتناعه، وإلا فلا يلزم فامتنع اتخاذه خليلا غير ربه؛ فيلزم امتناع اتخاذ أبى بكر خليلا، فالمعنى لا أصل فى محبة أحد من الخلق إلى مرتبة الخلة، فإنها مختصة بربى، فلو فرض جعلها لأحد كان أبو بكر أليق بها من جميع الخلق؛ لبذل نفسه وماله ووطنه وأهله فى طاعته، وهذا صريح فى تفضيله على غيره وتقدمه عنده، فإن كان من الخلة بالضم وهى الصداقة والمحبة التى تتخلل باطن القلب، فالمعنى أن محبته مقصورة على ربه، وإن كان من الخلة بالفتح والكسر وهى الحاجة، فالمعنى أنى

أبرؤ من الاعتماد والافتقار إلى غير ربى، وفى هذا الحديث دلالة على ما عقد له الفصل، وهو تفضيله ﷺ بالمحبة والخلة، وقد تقدم ما اتفق عليه المسلمون من المحبة، وما هنا دال على الخلة، وما قيل من أنه كان ينبغى للمصنف أن يذكر حديثًا صريحًا فى اتخاذ الله خليلاً، وتقدم ما ذكره فى آخر الفصل غنى عن الرد.

(**وفى حديث آخر: «وإن صاحبكم خليل الله»**) يعنى نفسه ﷺ على طريق التجريد، والأحاديث تفيد أن المخاللة من الجانبين إذا كانت بمعنى المحبة لا من الخلة بمعنى الحاجة، فإن الله غنى عن العالمين.

(**ومن طريق عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه**) التى رواها البخارى وغيره: (**وقد اتخذ الله صاحبكم خليلا**) كما اتخذ إبراهيم عليه الصلاة والسلام ولا يصح أن يراد بصاحبكم أبو بكر كما توهم، وفى هذا دلالة على أنه من جانب الله، فتم دلالته على أنه من الجانبين بخلاف ما قبله، ولا ينافيه كون إبراهيم عليه الصلاة والسلام خليلا كما سيأتى تحقيقه.

(**وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما**) فى رواية الدارمى والترمذى (**قال: جلس ناس من أصحاب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ينتظرونه**)، أى ينتظرون خروجه من بيته لمجلس أصحابه، والجملة حال من ناس لوصفه بالجار والمجرور.

(**قال**) ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: (**فخرج**) النبى ﷺ (**حتى إذا دنا**) قرب (**منهم سمعهم يتذاكرون**)، أى يذكر بعضهم لبعض، فيتحادثون أو يذكر بالتشديد كل منهم من عنده ما نسيه، (**فسمع**) النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**حديثهم**)، وفسر هذا الحديث بقوله: (**فقال بعضهم: عجبا إن الله اتخذ إبراهيم من خلقه خليلاً**)، أى من دون خلقه، أو اختاره للخلة من بينهم أى تعجب عجبا من هذا، والعجب يكون من أمر فيه غرابة، ولا أغرب عند من عرف عظمة الله وغناءه عن مخلوقاته، وأن كل شىء من فضله وإحسانه استغرب اتخاذه خليلا من عبيده وهو إبراهيم ﷺ غير أن نبينا كان خليلا أنه كان مختصا بذلك، فلا وجه لما قيل: إنه يرد اختصاص إبراهيم بكونه خليلا على ما مر.

(**وقال آخر: ما ذا**)، أى ليس اتخاذ الله إبراهيم، عليه السلام، خليلا (**بأعجب من كلام موسى**) حين ناجاه فى الدنيا، و(**كلمه الله تعالى تكليما**) مع أنه تعالى فى الدنيا لم يكلم أنبياءه إلا بواسطة ملك الوحى.

(**وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه**) هذه الفاء فصيحة فى جواب شرط مقدر،

أى إذا ذكرتم خليل الله وكليمه وتعجبتم من ذلك، فاذكروا عيسى، عليه السلام، وكونه كلمة الله وروحه، وسمى عيسى كلمة الله لأن الله خلقه من دون أب بمجرد قوله: كن، أو لاهتداء الناس كما اهتدوا بكلامه، وقال الصدر القونوى فى نفحاته: لكل شىء فى عرضة العلم الإلهى الأزلى مرتبة الحرفية، فإذا صبغه الحق بنوره الذاتى، وذلك بحركة معقولة معنوية يفيضها شأن من الشئون الإلهية المعبر عنها بالكتابة تسمى تلك الصورة كلمة، فالموجودات كلماته تعالى كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، أى الأرواح الطاهرة انتهى ومعنى روحه أنه روح منه بدون واسطة تولد، فالإضافة للتشريف.

(وقال آخر) ممن كان ثمة: **(وآدم اصطفاه الله)**، أى اختاره وجعله صفيه، وهذا كله مما يتعجب منه من لاحظ عظمة الربوبية، وأنه غنى عن العالمين.

(فخرج النبى) ﷺ **(عليهم، فسلم)** لما ذكر قوله: فخرج أولا ثم أعاده هنا وهو مكرر ولا يصح كونه تأكيدا، فقيل: كرره لينيط به غير ما نيط به أولاً، ويحتمل أن يكون الخروج الأول من مكان والثانى من آخر قلت: هذا لتوهم أن العطف ينافى التأكيد وليس كذلك، فمن النحاة ذكروا كما فى التسهيل أن التأكيد قد يقترن بالعطف، فالأكثر أنه كقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣، ٤]، وقد يكون بالفاء وصرح المفسرون بأنه قد يعاد اللفظ إذا طال الكلام تذكيرا به، وههنا بحث نفيس وهو أن ما قاله النحاة ينافى ما اتفق عليه أهل المعانى من أن التأكيد لا يصح عطفه؛ لما بينهما من شدة الاتصال، ولأن العطف يقتضى المغايرة والتأكيد عين المؤكد، والعجب منهم أنهم لم يتعرضوا بما قاله النحاة، والمسألة من مسائل الكتاب، فإن لم يقفوا عليه فهو عجيب، وإن وقفوا عليه واعتقدوا خلافه فهو أعجب كما قيل:

فإن كنت لا تدرى فتلك مصيبة ... وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم

(وقال) ﷺ: **(قد سمعت كلامكم وعجبكم)**، أى تعجبكم وقولكم: عجبا كما مر فى أول الحديث. وقد قيل: إن سمعت مضمن معنى أدركت، أو فيه مقدر عامل فى الثانى، أى وعرفت عجبكم على حد قوله: قلدته سيفا ورمحا، أى أعطيته، ولا حاجة لما ذكر لما قدمناه لك، وقوله: **(أن الله اتخذ إبراهيم خليلا)**، وقد صحح فى النسخ المقرءة بفتح همزة أن فهو بدل، وفى الشرح الجديد يجوز أن يكون جملة مستأنفة كأن سائلا سأل: ما كلامهم؟ وما تعجبوا منه؟ فأجابهم بقوله: إن الله إلخ، وأن يكون مقول قول محذوف، وهو يقتضى أن إن مكسورة الهمزة، **(وهو كذلك)**، أى اتخذه خليلاً.

(وموسى نجى الله)، أى كليمه والمناجاة المكالمة، وأصل معناها أن يخلو بنجوة من الأرض ليسار غيره ثم شاع فيما ذكر، وقيل: أصلها من النجاة فمعناه أن يكلمه مما فيه خلاصه، **(وهو كذلك)**، أى هو نجى الله وكليمه، فما ذكره واقع.

(وعيسى روح الله وهو كذلك)، أى هو روح الله كما قلتم وتقدم بيانه، وأن الإضافة للتشريف، وهو بمعنى رحمة الله، **(وآدم اصطفاه الله وهو كذلك)** كما قلتم، فإن الله اصطفاه واختاره للنبوة والخصائص الروحانية وكونه أبا البشر.

(ألا وأنا حبيب الله) ألا بفتح الهمزة وتخفيف اللام حرف استفتاح يؤكد به الكلام المستأنف، فيحقق ما بعده نحو: (﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [يونس: ٦٢]) وتدخل على الجملتين ودخولها هنا على العاطف لتحقيق اختصاصه بكونه حبيب الله، وإشارة إلى أن هذه الصفة أعلى درجة مما قبله، أى من عجب مما وصف به الأنبياء قبلى، فأنا موصوف بما هو أعجب وأعلى، وهو كونى حبيب الله، أى محبوب له، فإنه فعيل بمعنى مفعول وما قيل من أنه من القول بالموجب البديعى كقوله تعالى: ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: ٨]، فإنه سلم إخراج الأذل بمعنى غير الذى أرادوه، فإنهم أرادوا بالأعز غير المؤمنين وبالأذل المؤمنين، فعسكه عليهم، وهو على ضربين كما تقرر فى علم المعانى غير صحيح لأنهم لم يقصدوا تفضيلهم على نبينا ﷺ، ولم يقصد الرد عليهم حتى يقال: إنه من هذا القبيل باعتبار نفى لازمه؛ ولذا قال التلمسانى: إنه قريب من القول بالموجب؛ لأنه قرر أولا ما ذكره من فضائلهم بقوله: هو كذلك ثم نبه على أنه أفضل منهم كلهم وقوله: **(ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لى)** تقدم شرحه فى حديث آخر.

(ويدخلنيها) بضم المثناة التحتية والضمير الثانى للجنة، ويجوز فيه الفصل والوصل خلافا لسيبويه للزوم الفصل عنده كقوله إن الله ملككم إياهم، **(ومعى فقراء المؤمنين)** إكراما لهم، وفيه إشارة إلى أن الفقير الصابر أفضل من الغنى الشاكر كما مر والجملة حالية **(ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر، وفى حديث أبى هريرة)** الذى رواه البيهقى وصححه **(من قول الله تعالى)** وفى نسخة: فى قول الله، والأصح روايته بلفظ من **(لنبيه ﷺ: إنى اتخذتك خليلا)** كما تقدم، **(فهو مكتوب فى التوراة أسب حبيب الرحمن)**.

قال الشمنى: إنه وقع هكذا فى النسخ المعتمدة من الشفاء بهمزة مفتوحة وسين مهملة ساكنة وباء موحدة، وهى هكذا، وفى نسخة المصنف المبيضة المروية عنه،

وصحفها بعضهم فكتب أنت، وهى لفظه عبرانية بمعنى أنت.

وقال الدلجى: أن بعد السين تاء مثناة فوقية وفسره بأنت، وعبر الشمنى بقوله: بعد السين جرة، أى مدة خطية فلم يعينها لشكه فيها. قيل: حاصله أنه ثبت لنبينا ﷺ وصف المحبة من غير مشاركة فيها، والخلة التى شاركه فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقد أثبتها ﷺ لنفسه فى آخر خطبة خطبها قبل وفاته بخمسة أيام. فقال بعد حمد الله تعالى والثناء عليه عز اسمه: «إنه قد كان لى فيكم إخوة وأصدقاء، وإنى أبرؤ إلى الله أن أتخذ أحدًا منكم خليلاً، ولو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، إن الله قد اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»، «أوتيت البارحة مفاتيح خزائن الأرض والسماء»، وهو تعريف منه ﷺ بأعلى مقامه وأكمل حالاته، وبين خلته وخلة إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، فرق؛ لأن خلته حقيقية أصلية، وخلة إبراهيم مستعارة من خلته الذاتية؛ ولذا قال إبراهيم فى حديث الشفاعة: إنما كنت خليلاً من وراء وراء، فالخليل غيره وهو محمد ﷺ انتهى. فهو ﷺ مختص بالمحبة وبالخلة الحقيقيتين، وإلا فقد قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، ولكل صفة مراتب فهو ﷺ مختص بأعلاهما، وسيأتى تحقيقه قريبا.

(قال القاضى أبو الفضل، وفقه الله تعالى) هو عياض المصنف: **(اختلف)**، بالبناء للمجهول، أى اختلف العلماء **(فى تفسير الخلة)** وبيان معناها، **(وأصل اشتقاقها)** بيان لمحل الخلاف ومنشأه، وفى قواعد الطوفى: الاشتقاق اقتطاع لفظ من لفظ يوافقه فى حروفه الأصول كضارب من الضرب، والاشتقاق الأكبر رد تراكيب المادة الواحدة المختلفة إلى معنى واحد مشترك بينهما، وقد يكون ظاهرًا فى بعضها خفيًا فى البعض، فيحتاج فى رده إلى ذلك المعنى إلى تلطف فى معرفة المناسبات انتهى. وتفسير أقسام الاشتقاق وتحقيقه مذكور فى كتب ابن جنى كالخصائص وغيرها.

(فقيل: الخليل) المذكور هنا **(المنقطع إلى الله)**: الذى قطع رجاءه واعتماده عما عدا الله **(الذى ليس فى انقطاعه إليه ومحبته له اختلال)**، أى خلل ونقص يحتاج لجبر وتكميل؛ لخلوصه فيه ويقينه الذى لا يختل أصلا، وتحقيقه ما قاله الإمام الراغب أنه يقال: خل الثوب بالخلال والرمية بالسهم أدخل فيه، والخلة بالضم الطريق فى الرمل، وبالفتح الاختلال العارض للنفس لشهوتها أو لحاجتها إليه، ولذا فسرت الخلة بالحاجة والخصلة والمودة؛ لأنها تتخلل النفس، أى تتوسطها أو تؤثر فيها تأثير السهم فى الرمية، أو لفرط الحاجة وإبراهيم عليه الصلاة والسلام خليل؛ لافتقاره إلى الله، وقيل: من الخلة، واستعمالها كاستعمال المحبة، وقال أبو القاسم البلخى: هو من الخلة بالفتح لا من الخلة

بالضم، ومن قاسه بالحبيب فقد أخطأ؛ لأنه تعالى لا يجوز أن يحب عبده، فإن محبته الثناء منه، ولا يجوز أن يخاله وهذا منه تشبه، فإن الخلة من تخلل الود نفسه ومخالطته؛ ولذا يقال: تمازج روحاهما، والمحبة بلوغ الود حبة القلب يقال: حببته إذا أصبت حبة قلبه فإذا استعملت فى الله أريد مجرد الإحسان، وكذا الخلة فيتجوز فى أحدهما كما يتجوز فى الآخر، فأما أن يراد بالمحبة بلوغ حبة القلب، وبالخلة جبر الخلل فحاشا الله عنه انتهى.

وفى كلام المصنف رحمه الله تعالى دلالة على أن الخلة تستلزم المحبة، ومن تفسيره للخليل يعلم معنى الخلة التى هى مأخذه، فلا يرد أن أول كلامه فى الخلة وما ذكره تفسير للخليل، فسقط ما قيل من أنه إنما يستقيم على أن الخلة بمعنى الخليل يستوى فيه المؤنث والمذكر؛ لأنه مصدر فى الأصل وأن الكلام فى معناه اللغوى الوضعى الثبوتى، فتفسيره بالسلبى غير مناسب؛ لأنه بيان لحاصل معناه.

(**وقيل: الخليل**) معناه (**المختص**) بمن خالله مطلقا، فهو الصديق الذى صار من خلص أحبابه وأصدقائه. وتفسيره بأنه اختص بخدمة الله واختيار ما كلفه من فعل وترك اقتصار فيه قصور، (**واختار هذا القول غير واحد**) من الأئمة المحققين ورجحه الشراح.

وقال بعضهم: أصل الخلة بالضم (**الاستصفاء**)، أى كون محبته ومودته صافية، أى خالصة من الكدورات وقيل: هو من الصفوة بمعنى الاختيار، وهو من لوازم الصداقة، ثم فرع من الأقوال قوله: (**وسمى إبرهيم خليل الله: لأنه يوالى فيه ويعادى فيه**) الموالاة المحبة، وفى بمعنى اللام كقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا**﴾ [العنكبوت: ٦٩]، أى لأجلنا، أى لا يحب إلا من أحبه الله من المؤمنين أهل الطاعة، ولا يبغض إلا أهل المعصية والضلال كقوله تعالى: ﴿**لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾ [المجادلة: ٢٢]؛ ولذا قالوا:

إذا صافى صديقك من تعادى   فقد عاداك وانفصل الكلام

(**وخلة الله له**)، أى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام (**نصره**) على عدوه كنمرود، وهذا جواب سؤال مقدر، أى قد علم معنى كون إبرهيم خليل الله، فما معنى كون الله خليلا له؟، (**وجعله إمامًا لمن بعده**) لقوله تعالى: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾ [البقرة: ١٢٤]، أى مقتدى متبعا لجميع من بعده؛ لأن الأنبياء بعده كلهم من ذريته، وهذا من تمام نصرته لأنه لو لم ينتصر خالفه من بعده؛ ولذا ذكره معه تأييدا وتأكيدًا.

(**وقيل: الخلة أصله**)، أى أصل معناه الذى وضع له لغة (**الفقير المحتاج**) صفة كاشفة

مفسرة له (**المنقطع**)، أى المنفرد عن الناس لعدم أعوانه وإخوانه (**مأخوذ من الخلة**) بفتح الخاء، (**وهى الحاجة**) لاحتياج صاحبها لغيره؛ لعجزه عما يقوم بأموره، (**فسمى بها**)، أى لقب بما اشتق منها، وهو الخليل (**إبراهيم**)، فالضمير للحاجة أو للفظة الخلة، والأظهر أنه بتقدير مضاف، أى بمشتقها ونحوه؛ (**لأنه قصر**) بفتح القاف والصاد المخففة، والقصر كالحصر بمعنى التخصيص (**حاجته على ربه**)، أى لم يكن له حاجة إلا إلى ربه، فلا يؤمل نفعا من غيره ولا يقبله، (**وانقطع إليه بهمه**) الهم هنا ما يهتم به المرء ويعتنى به ويعزم عليه، يعنى كما أنه قصر حاجته على الله قصر أمله وعزمه على الله وعلى ما يرضيه، (**ولم يجعله قبل غيره**) قبل بكسر القاف وفتح الموحدة واللام بمعنى المقابل الذى يدرك ويرى، فالمراد أنه عنده وفى جانبه وأنه لم يجعل أمره ورجاءه فى غير الله، أى لم يطلب شيئًا من غيره و لم يؤمله.

(**إذ جاءه**)، أى جاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام (**جبريل**) عليه الصلاة والسلام، (**وهو فى المنجنيق ليرمى به**)، أى وقد وضع فيه ليرمى به (**فى النار**) التى أوقدت لإحراقه، وكان لهبها اشتد حتى لم يمكن أحد أن يدنو منها حتى يرمى شيئًا فيها، فصنعوا المنجنيق لإلقائه من بعيد، وهو بفتح الميم وكسرها آلة لرمى العدو بحجارة كبيرة بأن يشد سوارى مرتفعة جدا من الخشب يوضع عليها ما يراد رميه، ثم تضرب بسارية توصله لمكان بعيد جدا، وكانت هذه الآلة قديمة قبل وضع النصارى للبارود والمدافع، وهو فارسى معرب، وفى وزنه ومعناه قبل التعريب كلام طويل لهم، وأصله من جى‌نيك، أى ما أجودنى، وهو مؤنث كما قال:

لقد تركتنى منجنيق ابن جندل   أحيد عن العصفور حين أحيد

وميمه زائدة ووزنه منفعيل، وقال سيبويه: فعليل، والاستدلال عليه مشهور، (**فقال له**) جبريل عليه الصلاة والسلام: (**ألك حاجة؟**) عندى من سؤال ما ينجيك نحوه، (**قال: أما إليك فلا**) حاجة لى لقصر حاجته على ربه كما مر، وهذا رواه أبو نعيم، (**وقال أبو بكر بن فورك**) بضم الفاء وفتح الراء المهملة وكاف ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، وقال البرهان: إنه صحح فى النسخ بالتنوين والصرف لظن أنه علم مرتجل، وقيل: إنه عربى معناه الفار ولا يعرف فى اللغة، وإنما المذكور فيها أنه بمعنى نوع من الظباء، ومن قال: معناه الفار لعله أراد أنه من عجمة أندلس وتحريف عامتهم قلت: رأيت فى كتب التواريخ أن ملك الهند أرسل للإسكندر رسولا اسمه فورك، وسألت عنه، فقيل: معناه غلام حقير، وهو يقتضى أنه أعجمى غير مصروف، وعندى أنه يجوز فيه الوجهان، وقد مر فيه كلام لنا، وما قلناه هنا زبدته، (**الخلة صفاء المودة**)، وهى المحبة مع التودد وهى

المؤانسة والمساعدة، وصفاؤها خلوصها بأن يوافق الظاهر الباطن كما قال المعرى:

والخل كالماء يبدى لى ضمائره مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

(التى توجب الاختصاص)، أى يلزمها اختصاص الواد بمن يوده بأن يلازم صحبته وإسعافه **(بتخلل الأسرار)** جمع سر وهو ما يخفيه المرء عن غيره، وتخللها دخولها فى باطنه لاطلاعه عليها وعلمه بها، فلا يخفى عليه شىء من أحواله، والباء سببية، وقيل: الأسرار بتجاويف حبات القلوب وهو مجاز، أو معناه رسوخ المودة فى القلب، واعلم أنه تقدم أن الفرق بين المحبة والمودة والخلة أن المحبة ميل القلب لما هو حسن عنده، سواء كان حسن صورة أو كمال، كمحبة العلماء والصلحاء أو انتفاع وإنعام؛ لأن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، والمودة مواصلة من تحبه والتودد إليه، فإذا زادت المودة وخلصت كانت خلة.

فإن قلت: فحينئذ الخلة أخص من المحبة، فتكون أفضل.فلم قيل: إن المحبة أفضل؟.

قلت: المحبة أعم فقد تكون من غير مخالطة وقرب، فلا خلة فيها، إلا أن المحبة قد تصل إلى مرتبة بحيث يكون الحبيب لا يغيب عن ذكره طرفة عين حتى يصل إلى الهيام وذهاب العقل، وتبذل لها الأرواح فضلاً عما سواها، وهذه تسمى عشقا، والعشق لا يجوز فى الشرع إضافته لله، فلا يقال: عشقت الله كما ذكره ابن تيمية وغيره، وإن وقع من بعض الحكماء والصوفية، وإن كان مع هذه المرتبة خلة وتقريب، فليس كهذا المحب محب ولا كحبيبه حبيب، وهذه المحبة هى التى اختص بها نبينا ﷺ بعد الإسراء لما رأى الله، وشاهد من جماله وجلاله، ووصل من قربه لمرتبة لم يصل لها رسول ولا ملك مقرب، وتمت له خلة مقربة لم ينلها غيره، فلم يحتج لغيره ولا سأل سواه، وعرض عليه مفاتيح خزائن السموات والأرض، وأعانه الله ونصره نصرة عزيزة، وغفرله ما تقدم وما تأخر مع أنه لم يصدر عنه زلة وأطلعه على أسراره حظائر قدسه، وأى خلة كهذه؟ فلذا كان ﷺ مخصوصًا بأنه خليل الله أيضًا.

وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: أنا خليل من وراء وراء.كما مر وكرر وراء إشارة إلى زيادة قرب نبينا فى الأرض والسماء، فلا منافاة بين اختصاصه ووصف إبراهيم، وإن اشتهر بذلك؛ لأنه أجل صفاته، واشتهر محمد بالحبيب لأنه بهذا المعنى أجل من الخليل، وهذا من جانب العبد وأما من الله، فمحبته له بمعنى تقريبه وإنعامه، وتعليمه ما لم يعلمه غيره، وتفضيله على ما سواه، وخلته له، وإسعافه له بجليل هذه النعم، وتوفيقه لجعله نصب بصره وبصيرته حتى كأنه معه فى كل حين فاعرفه.

(**وقال بعضهم: أصل الخلة المحبة**) يحتمل أن أصل معناها الوضعى المحبة؛ لأنها من تخلله فى قلبه وروحه، ويحتمل أن المراد أن المحبة أساس الخلة ومنشؤها؛ لأنها تكون بعد تحققها.

(**ومعناها**)، أى معنى الخلة الوضعى بناء على الثانى وهو الأرجح، وقيل: ضميرها راجع للمحبة المرادفة للخلة (**الإسعاف**)، أى الإعانة والنصرة والإمداد لكل ما أراد (**والألطاف**) بفتح الهمزة، أى الإنعام والإحسان.

قال الزمخشرى فى شرح مقاماته: الألطاف الهدايا واحدها لطف بفتحتين، قال: كمن له عندنا التكريم واللطف. انتهى. ويحتمل أنه جمع لطف كقفل، وهو التوفيق لفعل كل خير وتسهيله وكونه بكسر الهمزة تحريف.

(**والترفيع**) بإعلاء رتبته بالكمالات الظاهرة والباطنة، (**والتشفيع**) بإذنه له فى الشفاعة وقبولها، وله ﷺ شفاعات كما مر، فيشفع فى فصل القضاء ولرفع درجات قوم فى الجنة ولمن مات بالمدينة كما رواه الترمذى وسيأتى، ولبعض المؤمنين فى التجاوز عن سيئاتهم، ولبعض من كان من أهل النار بعدم دخولها وإخراجه منها، ولتخفيف عذاب بعض الكفرة كأبى طالب لجعله فى ضحضاح من نار يغلى منه دماغه كما رواه البخارى، وهو لا ينافى قوله تعالى: ﴿**لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ**﴾ [البقرة: ١٦٢] كما قيل، وقد بيناه فى حواشى القاضى، ولقبول شفاعة بعض الأنبياء والصلحاء، وقيل: التشفيع بمعنى التأييد والتقوية من الشفع.

(**وقد بين ذلك تعالى**)، أى كون المحبة والخلة تقتضى الإسعاف وما بعده بطريق المفهوم واللزوم (**فى كتابه بقوله**: ﴿**وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم**﴾ [المائدة: ١٨] **الآية**) يعذبكم مضارع بمعنى الماضى، أى عذبكم فى الدنيا بالمسخ والقتل وغير ذلك، وهذا برهان، أى لو كنتم أبناؤه وأحباؤه ما عذبكم لكنه عذبكم فلستم كذلك، أو هو على أصله، أى لم يعذبكم فى الآخرة فعلم منه أن من كان محبوبا لله لا يعذبه ولا يسوءه؛ لاقتضاء المحبة لذلك، والعجب أن هذا مع ظهوره قيل عليه: إنه لا دليل فى الآية على مدعاه، وليس فيها على تقدير التسليم إلا عدم مؤاخذة المحبوب بذنبه على أنه ممنوع فى أحباء الله؛ لأن من أحبه الله عصمه من الذنوب ويمتحنه بالمناقشة والابتلاء، ولا دليل فيها على أن أصل الخلة المحبة، وهو مما يقتضى منه العجب وقولهم: أبناء الله، أى منا أبناؤه وهو المسيح وعزير، أو نحن أتباع نبيه، وقيل: إنهم ادعوا ذلك لأنهم رأوا فى التوراة يا أبناء أحبائى فبدلوها بيا أبناء أبكارى.

(فأوجب للمحبوب)، أى بطريق إشارة النص فيهم أن كل محبوب وخليل يجب **(أن لا يؤاخذ بذنوبه)**، أى لا يعاقب بها ويجازى عليها، **(قال)** ذلك البعض: **(هذا)** اسم الإشارة يتخلص به من كلام لآخر، فيكون خبر مبتدأ مقدر، أى الأمر هذا أو مبتدأ خبره مقدر، وقد يذكر كما فى قوله ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، أو مفعول فعل مقدر، أى خذ هذا، وقد يقال: ها اسم فعل بمعنى خذ، وذا مفعوله لكن الرسم يخالفه.

(والخلة أقوى من البنوة) بموحدة ونون مصدر بمعنى كونه ابنا متولدًا منه، ثم بين ذلك بقوله: **(لأن البنوة قد يكون فيها العداوة)**، أى معها أو فيمن اتصف بها، وهو من ظرفية الصفة للموصوف، **(كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾** [التغابن: ١٤]**)**، أى منهم من يظهر العداوة والعقوق كما هو مشاهد، فاحذروهم وخافوا شرهم.

(ولا يصح أن يكون عداوة مع خلة)؛ لأن المحبة معناها أو داخلة فيه أو لازمة له، وهى ضد العداوة، فلا يجتمعان بخلاف البنوة فإنها وإن كانت الفطرة تقتضى المحبة لكن قد يتخلف لعارض، ويكفى هذا فلا وجه للاعتراض بأن الأصل فيها المحبة، والعارض لا يعتد به كما توهم، ومن العجب أنه أيده بقولهم: زيد أبوك عطوفا، وكم له مثلها تجاوز الله عنه.

(فإذن) تفريع على ما قبله **(تسمية إبراهيم ومحمد، عليهما الصلاة والسلام بالخلة)**، أى بما أخذ من الخلة وهو الخليل، أو المراد بالتسمية الوصف تجوزًا، وقدم إبراهيم عليه الصلاة والسلام لتقدمه رتبة وشهرته، وهو بإضافة تسمية، وفى نسخة أضافه بالضمير **(إما بانقطاعهما إلى الله تعالى)** هذا ناظر؛ لأن الخلة الحاجة، أى لاعتمادهما عليه وإما لمنع الخلو فقط، **(ووقف حوائجهما عليه)**، أى جعلها موقوفة على إنعامه لاكتفائهم بفضله، **(والانقطاع عمن دونه)**، أى الانقطاع إليه تعالى وترك غيره، **(والإضراب عن الوسائط والأسباب)** الإضراب بمعنى الإعراض والترك يقال: أضرب عن كذا إذا أمسك عنه وتركه.

(أو لزيادة الاختصاص منه تعالى لهما) معطوف على ما بعد إما بأن الله اختصهما زيادة اختصاص به، فأغناهما عما سواه كما يغنى الخليل خليله، وهذا ناظر إلى أنه من الخلة بالضم، **(وخفى ألطافه عندهما)** خفى بالخاء المعجمة؛ لأن لطفه يكون من حيث لا يدرى، أو بالحاء المهملة، أى زيادة مبالغة فى إكرامه لهما يقال: أحفى به وحفى إذا بالغ فى إكرامه، وهو مجرور معطوف على زيادة أو ما أضيف إليه، وألطاف بالفتح تقدم تفسيره، وقيل: إنه بكسر الهمزة مصدر وفيه ما مر.

(أو ما خالل)، أى تخلل ودخل **(بواطنهما من أسرار إلهيته)** إشارة إلى أنه من التخلل كما تقدم، وفى نسخة: من أسرار إلهية، بمثناة تحتية فموحدة، **(ومكنون غيوبه)** جمع غيب وهو ما لا يدرك بالحواس الظاهرة، أو ما سيكون قبل وقوعه وهو من جملة المعجزات، ولا يطلع على غيبه إلا من ارتضى من رسول، والمكنون بمعنى المستور، **(ومعرفته)**، أى معرفة أفاضها عليهما من علمه اللدنى، أو معرفة ذاته وصفاته مما لا يطلع عليه كل أحد، **(أو لاستصفائه لهما)**، أى لاختياره لهما من دون خلقه وجعلهما صفوة له حتى يستحقا وصف الخلة لأنهما خيرة الله من خلقه، والمصدر مضاف لفاعله، وقوله: **(واستصفاء قلوبهما)** مضاف لمفعوله، واسم العضو المضاف للعين يجوز إفراده وجمعه وتثنيته، أى جعل مراتبهما صافية خالصة له صالحة لأسراره ومعرفته **(عمن سواه)** بحيث لا يكون فيها غير معرفته وحبه **(حتى لمن يخاللهما)**، أى يدخل فى خلالهما **(حب لغيره)** هو نتيجة الاستصفاء وما له، فارتضاهما وصفى قلبيهما من كدر حب السوى الناشئ عن الطبع البشرى.

(ولهذا)، أى لكون معنى الخلة الانقطاع عما سواه، والإعراض عن العوارض البشرية **(قال بعضهم: الخليل من لا يتسع قلبه لسواه)**؛ لامتلائه بمحبته ومشاهدة جلاله بحيث لا يبقى فى قلبه سواه وسوى مراقبته كما قيل:

تملك بعض حبك كل قلبى ... فإن ترد الزيادة هات قلبا

(وهو)، أى ما ذكره من معنى الخليل ونعته **(عندهم معنى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى حديث البخارى: «إن من أمن الناس على فى صحبته وماله أبا بكر»، **(ولو كنت متخذ خليلا)** من الناس غير ربى أرجع إليه فى أمورى، وأعتمد عليه فيما يهمنى، **(لاتخذت أبا بكر خليلا)**؛ لأنه أعز أصحابى وأقدم أصدقائى، فلو تعلق قلبى بأحد لم يكن يتعلق بغيره؛ لما أعرفه من إيثاره لى على نفسه وأهله، **(لكن أخوة الإسلام)**، وقديم الصحبة الذى هو بمنزلة القرابة القريبة النسيبة كما قيل:

صحبة يوم نسب قريب ... وذمة يعرفها اللبيب

وهو استدراك على مضمون الجملة الشرطية، فنفى الخلة وأثبت الأخوة المؤذنة بالمساواة تفضلا منه، فالخلة أعظم من البنوة والأخوة، وأخوة بهمزة مضمومة، وروى فى الإكمال أنه خوة بدون ألف وهى لغة قليلة.

(واختلف العلماء وأرباب القلوب)، أى أصحاب القلوب الكاملة الصافية، فجعل غيرهم كأنه لا قلب له، والمراد بهم الأولياء وذوو النفوس القدسية وقيل: المراد بهم

الباحثين عن أحوال القلوب وقيل: المراد بهم أكابر الصوفية، وسموا بذلك لنظرهم فى العلوم الباطنة دون ظواهر الألفاظ **(أيهما)**، أى المحبة والخلة **(أرفع؟)**، أى أيهما أفضل فى نفس الأمر وعند الله **(درجة الخلة أو درجة المحبة؟)** وكنى برفع الدرجة عن رفع ما فيها وأفضليته، والتقدير أهو درجة إلخ.

(فجعلهما بعضهم سواء)، أى الدرجتين أو المحبة والخلة متساويتين فى الفضيلة لا تفاوت بينهما، **(فلا يكن الحبيب إلا خليلا، ولا الخليل إلا حبيبا)** لا يخفى أن هذا إنما يقتضى تلازمهما لا مساواتهما رتبة ودرجة ثم أشار إلى جواب سؤال مقدر، وهو أنهما إذا استويا وتلازما فلم خص كل منهما بموصوف فقال: **(لكنه)**، أى الله أو الأمر والشأن **(خص)** مبنى للفاعل أو المفعول **(إبراهيم بالخلة ومحمدا)** بالنصب أو الرفع **(بالمحبة)** بأن سمى الأول خليلاً، والثانى حبيبًا، وهو أمر اتفاقى لمجرد التمييز بينهما، ولا يخفى ضعفه.

(وبعضهم قال: درجة الخلة أرفع) منزلة وأفضل وأعلى درجة، ويشهد له أن المحبة مأخوذة من معنى الخلة وأخص منها، لكنه قيل: إنه يرد عليه ما تقدم من قوله فى مناجاته حيث قال له الله: سل تعطه فقال: يا رب اتخذت إبراهيم خليلا، وكلمت موسى تكليما، فقال تعالى له: ألم أعطك خيرًا من هذا واتخذتك حبيبا، أو ما فى معناه مما يقتضى أن درجة المحبة أرفع إلا أن قوله: لو كنت متخذا الحديث يخالفه، فالمقام لا يخلو من الإشكال، والجواب أن القائل إنما فضله بمجموع ما ذكر فى الحديث.

(واحتج) هذا القائل لمدعاه **(بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى حديث رواه البخارى: **(لو كنت متخذا خليلا غير ربى، فلم يتخذه)**، أى غير الله **(خليلا، وقد أطلق المحبة)**، أى وصفه بمحبته غير ربه، والجملة حالية **(لفاطمة)** الزهراء ابنته ﷺ، وهو متعلق بأطلق **(وابنيها)** الحسن والحسين، **(وأسامة)** بن زيد بن حارثة، فإنه ذكر أنه كان يحبه ويسمى حب رسول الله ﷺ، **(وغيرهم)** كأبى بكر وعمر وعائشة رضى الله تعالى عنهم، وقد ورد هذا كله مصرحا به فى أحاديث صحيحة، وقد قدمنا لك أن محبة الله تعالى لعبده بمعنى غير محبة العبد لله ولغيره، وأن محبة النبى ﷺ لله بمعنى كونه ليس فى قلبه وذكره غيره، وأنها مأخوذة من حبة القلب كما قلت:

قد تملكت حبة القلب منى ولذا سمى الحبيب حبيبا

فلا ينافى كونه يحب فلانا لأنها لمطلق الميل، وبهذا سقط الاحتجاج بما ذكر، وسيأتى ما يؤيده.

(وأكثرهم)، أى أكثر العلماء وأرباب القلوب **(جعل المحبة أرفع)** درجة وأفضل **(من الخلة؛ لأن درجة الحبيب نبينا)** ﷺ بدل من الحبيب، أو عطف بيان **(أرفع من درجة الخليل إبراهيم)**، فيقتضى أن صفته وهى المحبة أفضل من صفته وهى الخلة، وفيه أنه لا يقتضى ذلك؛ لأن تفضيل الذات على الذات قد يكون لمعنى آخر غير تلك الصفة، لاسيما إذا قلنا: إن الخلة هى المحبة أو غايتها.

(وأصل المحبة) الوضعى الحقيقى **(الميل إلى ما يوافق المحب)** بضم وفتح الحاء بمعنى المحبوب يقال: حبه وأحبه بمعنى إلا أنهم أخذوا اسم الفاعل فى أكثر استعمالهم من المزيد فقالوا: محب، واسم المفعول من الثلاثى فقالوا: محبوب وحبيب، وقالوا فى غير الأكثر: حاب ومحب بالفتح، كقول عنترة فى معلقته[1]:

منى بمنزل المحب المكرم

فراعوا كلا منها، والمراد بما يوافقه ما يرتضيه ويميل إليه، فيحب كل ما يحبه ويبتغيه ويترك لأجله مراداته، والمراد بالميل ميل قلبه؛ ولذا قال: **(ولكن هذا)** المعنى يكون **(فى حق من يصح الميل)** القلبى **(منه)**، أى المحب لا المحبوب، والعكس جائز، وجزم به بعضهم.

(والانتفاع بالوفق) بفتح الواو وسكون الفاء قبل القاف، أى الموافق، فسمى الفاعل بالمصدر أو هو على أصله بمعنى الموافقة بين الشيئين، وهذا الأخير خير، **(وهى درجة المخلوق)**، وهو راجع إلى المحبة بمعنى الميل القلبى ممن يصح منه، أو أنث باعتبار الخير فيرجع للمثل، والدرجة مجاز عن الصفة.

(وأما الخالق جل جلاله فمنزه عن الأغراض) بغين معجمة وراء مهملة وضاد معجمة على ما تقدم، فالميل بمعنى ترجيح شىء وتقديمه على غيره لفائدة غرض وعلة للفعل لا يجوز على الله؛ ولذا ذهب أكثر الأصوليين إلى أن أفعاله تعالى لا تعلل بالأغراض؛ لأنه يقتضى استكماله تعالى بغيره، وهو منزه عنه، أما بمعنى الثمرات والفوائد المترتبة على

---

(١) عجز بيت وصدره:

ولقد نزلت فلا تظنى غيره

والبيت من الكامل، وهو فى ديوان عنترة (ص١٩١)، أدب الكاتب (ص٦١٣)، الاشتقاق (ص٣٨)، الأغانى (٢١٢/٩)، جمهرة اللغة (ص٥٩١)، الخصائص (٢١٦/٢)، الدرر (٢٥٤/٢)، المقاصد النحوية (٤١٤/٢)، الأشباه والنظائر (٤٠٥/٢)، خزانة الأدب (٢٢٧/٣ - ١٣٦/٩)، لسان العرب (٢٨٩/١)، شرح شذور الذهب (ص٤٨٦)، شرح شواهد المغنى (٤٨٠/١)، شرح الأشمونى (ص٢٢٥)، شرح ابن عقيل (ص٢٢٥).

الفعل فلا يضر وخالفهم بعض المحققين وقال: النصوص تدل على خلافه، والاستكمال عنده غير مسلم.

وقد بسطنا الكلام عليه في غير هذا الكتاب، وفي نسخة: الأعراض، بعين مهملة، وليس جمع عرض بمعنى مرض وبزنته كما قيل، بل بمعنى الكيفيات النفسانية الحادثة والميل منها، وفي نسخة: الاعتراض، ولا مناسبة لها هنا إلا بتكلف، وإذا كانت المحبة بهذا المعنى لا تليق برب العزة.

(فمحبته)، أي الله **(لعبده تمكينه من سعادته)**، أي إقداره على ما يفيد سعادة الدارين بتوفيقه لطاعته وعبادته، **(وعصمته)** من ارتكاب الذنوب ويجوز رفعه وجره عطفا على تمكين، وسعادة العصمة هنا معناها الحفظ، **(وتوفيقه)** في أموره بجعلها على وفق رضاه ويجوز رفعه وجره أيضًا.

(وتهيئة أسباب القرب) تهيئة بزنة تكرمة بياء مثناه تحتية بعد الهاء وهمزة وهاء تأنيث مصدر هيأته إذا جعلته حاضرا سهل التناول، أي يسر له الله كل سبب يقربه إلى ربه من صلاة وجهاد ومعرفة ونحوها، **(وإفاضة رحمته عليه)**، أي إيصال الخيرات الدنيوية والأخروية اتصالاً كثيرًا متواليًا فشبه الرحمة بالماء وأثبت الإفاضة بمعنى الصب بكثرة على طريقة المكنية والتخييلية.

(وقصواها) بضم القاف وسكون الصاد المهملة فعلى من أقصاه إذا أبعده، والمراد غايتها، والضمير للمحبة المفسرة بتمكينه وما بعده، وذكر الغاية لأن صفاته تعالى التي لا تليق به تؤخذ باعتبار غايتها، وغاية المحبة **(كشف الحجب)** بضمتين جمع حجاب، أي إزالة الموانع **(عن قلبه)** كالشواغل الدنيوية **(حتى يراه بقلبه)**، أي يعلمه علمًا يقينيًا كالمشاهدة المحسوسة، **(وينظر إليه ببصيرته)**، وهي قوة للقلب كالبصر يدرك بها ما يتوجه إليه، **(فيكون كما قال)**، أي الله تعالى أو الرسول ﷺ الناقل له.

(في الحديث) الذي رواه البخاري: **(فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به)**، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وهو حديث قدسي طويل، ومعناه إذا صفى قلبه وشغل نفسه بالله أحبه الله، ومحبة الله تقدم أنها عنايته ولطفه به وإفاضة نعمه على ظاهره وباطنه، فتكون حواسه وإدراكها وأعضاؤه وحركاتها كلها متوجهة لله ولما فيه رضاه من غير تصنع ومشقة، فيقويه على ذلك حتى يكون كأن أفعالها صادرة عن الله.

وإلى هذا أشار المصنف بقوله: **(ولا ينبغي أن يفهم)** بالبناء للمجهول، أي لا يفهم

أحد **(من هذا)** الحديث والكلام **(سوى التجرد إلى الله)**، أى تجريد أفعاله وإحساسه عما يشغله عن الله، **(والانقطاع إلى الله)** بترك غيره وإخراجه عن فكره ونظره، **(والإعراض عن غير الله)** حتى يصير مراقبا له فى جميع أحواله، **(وصفاء القلب لله)** بحيث لا يكون فى فكره غيره، فيصفو من كدر الأوهام ودنس الخلق، **(وإخلاص الحركات لله)** بأن لا يحرك عضوا من أعضائه إلا لعبادته أو لما يعين عليها.

(كما قالت عائشة، رضى الله عنها) كما تقدم: **(كان خلقه القرآن)**، أى أخلاقه ﷺ كلها على وفق ما أمر به فى القرآن فجعلت القرآن عين خلقه مبالغة، وإلى هذا يشير قولها: **(برضاه يرضى)**، أى يرضى ويحب ما ذكر فى القرآن، أنه فعل مرضى لله من واجب ومندوب ومباح يقصد به ما يصيره قربة.

(وبسخطه) بفتحتين وضم فسكون **(يسخط)**، أى يكره ما ذكر فيه أن الله يكرهه من كل حرام ومكروه وخلاف الأولى، وقدم الجار والمجرور للحصر فلا يرضى إلا ما يرضاه، ولا يكره إلا ما أباه، والحاصل علم مما ذكر أن أخلاقه ﷺ الطبيعية اضمحلت وذهبت لما شق قلبه الشريف، فلم يبق له إرادة لغير ما يريده الله، ولا رضا لغير ما يرضاه، ولا يخفى ارتباط هذا بما قبله من قوله: كنت سمعه وبصره فاعرفه.

(ومن هذا) إشارة إلى ما سبق فى أول كلامه من معنى الخلة قبل ذكر الخلاف فيها ومأخذ اشتقاقها. **(عبر بعضهم عن الخلة بقوله:**

قد تخللت مسلك الروح منى ... وبذا سمى الخليل خليلا
فإذا ما نطقت كنت حديثى ... وإذا ما سكت كنت الغليلا)

وفى رواية كنت الدخيلا يعنى أن الشاعر عبر عن معنى الخلة بناء على أنها من التخلل كأنها تخللت باطنه، وجرت مجرى الروح المجسمة السارية فى البدن سريعا مسرى ماء الورد فى الورد؛ بناء على أن أحد الأقوال فيها لا على أنها مجردة خارجة عنه ومتصلة، أو بناء على أنها لطيفة نورانية فى أحد طاقتى القلب لها الحياة والإحساس، ومسلك منصوب على الظرفية بتخللت المتضمن معنى دخلت، أسند التخلل إليه مبالغة، والمراد تخلل محبته ومودته فى مسالك روحه، أو فى قلبه الذى هو مقرها بحيث لا يكون فيه سواه كما مر، ثم فرع على أنه ليس فى روحه وقلبه غيره أنه إذا تحدث لم يذكر غير محبوبه وخليله، وإذا سكت لم يكن فى فكره وقلبه غيره، فالمراد بالغليل بالغين المعجمة ما كان داخل القلب من قولهم: تغلغل الماء وتغلل بين النبات إذا جرى تحته مستترا، وكذا المراد بالدخيل ما هو داخل القلب والبدن لا الأجنبى كما فى قول السكاكى:

الدخيل كالناشئ هذا ما قصده الشاعر، وأشار إليه المصنف وإن كان ظاهر الشعر على تفضيل الخلة على المحبة، فالمراد بالخليل فيه كل متصف بالخلة لا إبراهيم كما قيل؛ فإنه لا يصح هنا، وليس المراد بالغليل حرارة العطش، أى كنت لعدم ذكرى لك مضرمًا جوانح قلبى عطشا لعدم ذكرك، فإن إزاحة الغم وإراحة النفس بذكر الأحبة، وما زائدة فى الشعر، والدخيل بدال مهملة وخاء معجمة ومن العجيب قوله فى الشرح الجديد: إن المعنى: إذا سكت كتمت حبك فى قلبى كما يكتم الحقد والضغائن، فالمراد بالغليل الحقد والضغائن، ولا يستقيم إلا على الاستعارة فإنه تعسف لا ينبغى ذكره.

(فإذن) تفريع لجواب سؤال متفرع على ما سبق **(مزية الخلة)**، أى فضيلة الخلة، وفى شرح العلامة أنه لم يبن له فعل، وتقدم أنه يرده قوله فى الأساس تميزت عليه إذا زدت فى الفضل عليه.

(وخصوصية المحبة) بفتح الخاء وضمها بمعنى اختصاصها، وعبر فى الأول بالمزية إشارة إلى أن الخلة وإن تشارك فيها النبى ﷺ، والخليل عليه الصلاة والسلام فهى مختصة بنبينا باعتبار معنى زائد فيها؛ لاشتمالها على المحبة المختصة معنى ولفظا، وإن لم يطلق على الخليل حبيب الله كما مر.

وإن كانت محبته شاملة لهما، بل لغيرهما كما قال تعالى: (﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]) أن هذه غير المحبة المختصة كما مر تحقيقه وكما أن المحبة من الجانبين فكذلك الخلة، فإنه يقال: حبيب الله والله حبيبه كما يقال خليله خلافا لمن توهم أن الخليل لا يطلق على الله للحديث المتقدم: **(ولو كنت متخذا خليلا غير ربى)**، وبهذا تبين نكتة تعبيره بالمزية والخصوصية، **(حاصلة لنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وفى نسخة: خالصة، أى مختصة، وكان الظاهر أن يقول: حاصلتان لكنه أفرد لجعلهما كالشىء الواحد.

(بما دلت عليه الآثار الصحيحة) الباء للتعدية متعلقة بحاصلة، ويجوز أن تكون سببية والمراد بالآثار الأحاديث التى تقدمت كقوله: **(لو كنت متخذًا خليلاً غير ربى)** إلى آخره، وقوله: ألا وأنا حبيب الله، وقوله: **(المنتشرة)**، أى الشائعة المشهورة **(المتلقاة بالقبول من الأمة)** ذكر شهرتها والقبول لها مؤيدا لاختصاصه ﷺ وزيادته على غيره من الرسل، ثم استشهد لذلك بنص القرآن فقال: **(وكفى بقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾** [آل عمران: ٣١] **الآية)** الباء زائدة فى فاعل كفى أو للتعدية، وكفى بمعنى اكتفى كما هو مشهور، ووجه الدلالة فى هذه الآية أنه لما جعل من اتبعه محبوبا لله علم أنه محبوب عند الله محبة ليس فوقها محبة، ومقرب تقربا لا يدانيه أحد فيه،

فعلم منه خلته وحبه؛ ولذا قال المصنف: وكفى إلى آخره، ومن لم يفهم مراده قال: هذا لا يدل على مدعاه لأنه علق محبته على اتباعه فيما جاء به من الشرائع وتصديقه، وذلك محبوب لله، وإنما يدل لو علق محبته على محبتهم للرسول ﷺ فقال: إن كنتم تحبون الله فأحبوا الرسول.

(حكى أهل التفسير أن هذه الآية لما نزلت قال الكفار: إنما يريد محمد) بقوله لنا اتبعونى يحببكم الله **(أن نتخذه حنانا)** بفتحتين مخفف النون معناه الرحمة والإشفاق مأخوذ من الحنين، وهو يكون مع صوت، والمراد أن نعطف عليه ونجعله موضع الحنان والرحمة، أى نتبرك ونتضرع به، وقد تقدم الكلام فيه، **(كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم)** عليه الصلاة والسلام حنانًا ومعبودًا يتقربون بعبادته إلى الله تعالى.

(فأنزل الله تعالى غيظًا لهم) مفعول له، أى أنزل الله لغيظهم ويعلمهم بغضبه عليهم، فإن الغيظ الغضب على الفاجر، **(ورغما على مقالتهم)** بتثليث الراء المهملة وسكون الغين المعجمة والميم، وهو الذل والخزى والإساءة بما يكره، ولعله كل مؤذ يصيب الأنف، ولذا يقال: رغم أنفه، وعلى رغم أنفه وضمنه معنى التبكيت والتقريع فعداه بعلى، والمآل إلى أنه أذلهم بتوبيخهم ورد مقالتهم هذه.

وقوله: **(هذه الآية)** مفعول أنزل ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، ثم بعد ما تبين سبب النزول من إنكارهم جعل اتباعه سبب محبة الله لهم وتقربهم إلى الله تعالى، ذكر الآية وأنها أبلغ من الأولى وأشد؛ لأن الأولى لا تقتضى لزوم اتباعه، فإنه تعالى يتقرب إليه بالنوافل، ويحب فاعلها، والأمر بطاعته يقتضى الوجوب، واقترانها بطاعته يدل على تأكيده مع تعظيمه وتشريفه، كما دل عليه قوله: **(فزاده شرفا بأمرهم بطاعته)** وإيجابها عليهم، **(وقرنها بطاعته)**، أى الرسول ﷺ زيادة فى تشريفه، والاتباع وإن كان عين الطاعة أو لازمها فليس هو أمر وإيجاب ومن عقل عنه قال: هما سواء إلا أن هذا فيه التصريح بالطاعة.

(ثم توعدهم على التولى عنه) بالإعراض عن طاعته وهو عدمها **(بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾** [آل عمران: ٣٢]) كان الظاهر أن يقال: فإن الله لا يحبهم، فوضع الظاهر موضع المضمر، وعلقه بالمشتق الذى هو علة للحكم، فكأنه قال: لا يحبهم لأنهم كفروا بالله سواء كان تعريفه للاستغراق أو للعهد، فهذه الآية أصرح وأدل على وجوب طاعته وعلو مرتبته صلى الله تعالى عليه وسلم على غيره من الأنبياء كعيسى عليه السلام.

(**وقد نقل الإمام أبو بكر بن فورك عن بعض المتكلمين كلاما فى الفرق بين المحبة والخلة يطول**) هذه الجملة صفة قوله كلاما، فأشار إلى أنه لم ينقله لطوله ثم استأنف فقال: (**جملة إشاراته ترجع إلى تفضيل مقام المحبة على الخلة، ونحن نذكر منه**)، أى من كلام ابن فورك (**طرفا**) بفتحتين، أى بعضا قليلا (**يهدى**)، أى يدل (**على ما بعده**)، أى باقيه، فالبعدية غير مرادة لأنه مجاز.

(**فمن ذلك قولهم**)، أى قول المتكلمين الذى نقله ابن فورك عنهم: (**الخليل يصل**) إلى من خالله (**بالواسطة**)، أى يتوسط آخر بينه وبين خليله كما بينه قوله: يصل به الآتى، ثم بين أن هذا المعنى مأخوذ (**من قوله**) عز وجل: ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ**﴾ [الأنعام: ٧٥]، فوصل لمعرفة الله بواسطة ما رآه من آيات ملكوته التى أوصلته لمعرفته.

(**والحبيب يصل لحبيبه به**)، أى هو دله على نفسه بنفسه من غير واسطة لغيره، وهذا مأخوذ (**من قوله**: ﴿**فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ**﴾ [النجم: ٩])، فأراه عين اليقين كما تقدم، وهذا وإن كان المصنف رحمه الله تعالى ناقلا له والعهدة فيما نقله على قائله إلا أن هذا غير ظاهر؛ لأنه إن أراد بالوصول الوصول إلى الله برؤيته وسماع كلامه من غير واسطة، فالآية لا مناسبة لها بما ذكر، وإن أراد الوصول إلى معرفة الله تعالى ومشاهدته فكذلك، ثم إنه لا يتم الفرق لأنه إن أراد بين مفهوم المحبة والخلة فما ذكر لا يدل عليه، بل ليس بصحيح، وإن أراد بين ذاتى من قاما به فلا يفيد شيئًا مما نحن فيه، ثم إنه مبنى على القول بأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يعرفه. قيل: هذا الاستدلال بناء على جواز مثله على الأنبياء مطلقا، أو قبل البلوغ مع أن المحققين على أنه ورد على طريق الجدل مع قومه الذين كانوا يعبدون الكواكب، وبالجملة فهذا كلام غير منقح.

(**وقيل: الخليل الذى تكون مغفرته**)، أى مغفرة الله له ما قد يصدر عنه محتاجا لعفوه عنه (**فى حد الطمع**)، أى واقعة فى حال يطمع صاحبها فى التجاوز عنها؛ لأن الخليل لا يؤاخذ خليله بزلاته. وأصل معنى الحد الحاجز بين الشيئين والمحيط به كحدود الدار، فاستعير للحال المميزة له والمقتضية لتحققه (**من قوله**: ﴿**وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ**﴾ [الشعراء: ٨٢])، أى قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام فى قصته مع قومه هضما لنفسه وتعليمًا لأمته، وإلا فهو معصوم.

(**والحبيب الذى مغفرته فى حد اليقين**)، أى متيقنة، وهذا مأخوذ (**من قوله**)، أى قول الله لمحمد حبيب الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ﴿**لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾ [الفتح: ٣]، أى كل ما صدر عنك وما لم يصدر مما هو بالنسبة لمقامك قد

يقتضى نقصا، وفى الآية إشارة إلى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يصدرمنه إذ سوى المتقدم بالمتأخر فى عدم الوقوع؛ ولذا سر صلى الله تعالى عليه وسلم بها لما نزلت مرجعه من الحديبية، وقال: نزلت على آية أحب إلى مما على وجه الأرض. والكلام على الآية مبسوط فى التفسير، وقد تقدم طرف منه أيضًا.

ثم ذكر فرقا آخر قريبا من هذا فقال: (**والخليل قال:** ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧])، أى لا تفضحنى ولا تعذبنى فى يوم القيامة، وقد قيل: إنه ورد فى الحديث أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام إذا رأى أباه فى المحشر يقول: يا رب وعدتنى أن لا تخزنى فيمسخ الله آزر ذيخا بذال معجمة ومثناة تحتية وخاء معجمة، وهو ضبع مبين فيقال له: انظر لما تحت قدميك، فيراه فينكره ويلقى فى النار، فحول الله صورته حتى لا يعرفه الناس حين يلقى فى النار، فيفتضح بين أمته قيل: ومنه يعلم أن أبوى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليسا فى النار، وفيه ما سيأتى.

(**والحبيب**)، أى نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم (**قيل له:** ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ [التحريم: ٨] **فابتدىء بالبشارة**)، بنفى الخزى عنه برؤية ما يكره (**قبل السؤال**) لذلك كما سأله غيره منهم، والخزى ليس هو العذاب كما فى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، وإنما هو الفضاحة بكل مؤلم له أو لأمته كالعتاب، فلا يقال: إن الله أمنه من غضبه وعذابه، فما فائدة البشارة بعد هذا.

ثم ذكر فرقا آخر فقال: (**والخليل قال فى المحنة**) هى والامتحان بمعنى الابتلاء، والمراد بذلك قصته مع نمرود حين ألقاه فى النار، فكانت عليه بردا وسلاما، قال: (**حسبى الله**)، أى هو كاف لى فى جميع أمورى.

(**والحبيب**) وهو نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم (**قيل له: يا أيها النبى حسبك الله**) يعنى أن النبى(١)، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال ذلك طالبًا كفاية الله له، وهذا قاله الله له فتكون كفايته له محققة مقررة بخلاف الأول كما ستسمعه قريبا.

(**والخليل قال:** ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ﴾) [الشعراء: ٨٤]، أى ذكرا جميلا صدقا، فعبر باسم الآلة عما يصدر منها مجازا (**فى الآخرين**)، أى فى الأمم الآتين من بعدى إلى يوم القيامة، فهو طلب ودعاء وأجابه الله، فما من أمة إلا وهى تثنى عليه وتحبه.

(**والحبيب قيل له:** ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾) [الشرح: ٤]، أى جعلناه عاليًا شريفا؛ لما تضمنه من الثناء مقرونا باسم الله فى الصلاة والخطبة والأذان وغيرها. (**أعطى**) الحبيب

---

(١) أى سيدنا إبراهيم، عليه السلام.

(بلا سؤال) منه، وهذا بيان لمزية الحبيب كما نبهناك عليه أولاً.

(والخليل قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾) [إبراهيم: ٣٥]، اجنبنى كجنبنى بمعنى بعدنى بعدًا حسيًا ومعنويًا بأن لا يصدر منهم ذلك. وقد أجاب الله تعالى دعاءه؛ لأن المراد بنو صلبه، وفيهم أنبياء عصمهم الله تعالى وأتقياء حفظهم.

(والحبيب قيل له)، أى قال الله تعالى له: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، هو كل مستقذر حسًّا أو طبعًا أو عقلاً أو شرعًا، أى الله كرمكم بأن حفظكم من الذنوب وما يدنس الأعراض، وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، ولم يقل: أذهب مع أنه أخصر، إشارة إلى أنه قضى لهم بذلك فى الأزل وفى عالم الأرواح والذر.

﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ منصوب على المدح أو النداء، أو المراد أهل بيت النبوة، فيشمل أولاده صلى الله تعالى عليه وسلم وزوجاته وأتباعه وأقاربه، ولا يختص ذلك بعلى وفاطمة والحسنين كما زعمته الشيعة، وهذا أبلغ مما فى حق إبراهيم بوجوه؛ لاختصاصه بنفى عبادة الأصنام، وهذا عام فى كل ذنب ونقص، وذاك خاص ببنيه، وهذا شامل لكل من شمله بيته كما سمعته آنفا، ومبالغته فى تطهيره بقوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، ولا يخفى أن كل ما نقله ابن فورك إنما يدل على شرف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وزيادة علو مرتبته على غيره، ولا علاقة له بنفس المحبة والخلة، لاسيما الآيات لم يذكر فيها بعنوان لفظ الحبيب، **(وفيما ذكرناه)** من تفسير المحبة والخلة واشتقاقهما، والخلاف فى أيهما أرفع درجة **(تنبيه على مقصد أصحاب هذا المقال)** المقصد مصدر ميمى بعنى القصد، أو هو بمعنى المقصود لأن مفعل يأتى بمعنى مفعول كمركب وإن كان نادرًا، أو هو مجاز عن المصدر، أو من اسم المكان باستعارته منه استعارة مصرحة أصلية.

(من تفصيل المقامات والأحوال) بيان للمقصد، والمقامات بفتح الميم جمع مقام، وهو محل القيام، وبضمها محل الإقامة، وجمعه جمع المؤنث؛ لاطراده فيما لا يعقل كحمامات وسبحلات، والمراد بالمقام هنا أمر يكون عليه العارف بالله تعالى من الأنبياء والأولياء يرتفع به من حضيض البشرية فى درجات العبودية حتى يرقى إلى المقام الأعلى، وما يطرق عليه هو المراد بالأحوال، وليس بمعنى واحد هنا كما قيل، وقيل: المقامات الصفات الثابتة، والأحوال الصفات الزائلة، وهو قريب مما قلنا والظاهر أن المراد بقوله السابق ما ذكرناه ما لخصه من كلام ابن فورك، وهو جواب عما تقدم من أن هذا لا يدل على بيان الخلة والمحبة الذى هو بصدده، فأشار إلى أنه وإن تعلق بذات الحبيب

والخليل، فالمقصود بيان تفاوت وصفهما، فيرجع ما قاله إلى بيانهما، فإن منهم من يسلك التصريح ومنهم من يقصد الإيماء والتلويح.

(وكل يعمل على شاكلته)، أى لكل أحد طريقة يختارها، والمشاكلة فى الآية التى اقتبس منها المصنف، وهى ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]، بمعنى سجيته وجبلته، وهى كما قال الراغب مأخوذة من الشكال وهو قيد يقيد به الدابة؛ لأنها قيدته وذلك لأن سلطان السجية قاهر لصاحبه ومنه شكل الكتاب يقال: شكلت الخط كما يقال قيدته، وأشار بقوله: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤]، أى الله يعلم من طريقته أقوم وأكثر إيصالا إلى الحق وإرشادا للهداية يشير إلى أن الخلاف السابق فى تفضيل الخلة والمحبة مبنى على أمور نظر إليها كل من الفريقين، فكأنه لم يجزم بأحدهما؛ لأن الخلاف كاللفظى وقد قيل: إن غاية ما ذكره ابن فورك تفضيل نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم على إبراهيم عليه والصلاة والسلام فى حد ذاته من غير نظر لما جعلوه علة من تفضيل الصفة على الصفة، والحق تفضيل الخلة كما ذكره ابن قيم الجوزية، وقد علمت ما فيه، وقد قدمنا لك ما يغنى عنه.

* * *

(فصل فى تفضيله) [بالشفاعة والمقام المحمود]

صلى الله تعالى عليه وسلم، برفعة مقامه على غيره **(بالشفاعة)** إن كان تعريفه للعهد، والمراد الشفاعة العظمى فى المحشر التى يخلص الله بها أهله من هوله وكربه، فقوله: **(والمقام المحمود)** عطف تفسير، وإلا فهو من عطف الخاص على العام، والمقام المحمود كل مقام يتضمن كرامة محمد، ولكنه خص هنا بفرد معين من أفراده اختلف فيه كما قاله البرهان نقلا عن القرطبى على ستة أقوال:

فقيل: هى الشفاعة العامة السالفة. **وقيل**: إعطاؤه لواء الحمد، وهو لا ينافى ما قبله. **وقيل**: هو أن يجلس ﷺ مع الله على الكرسى، وهذا مما نقل فيه حديث طعنوا فيه ويأتى ما فيه، ومنهم من أوله. **وقيل**: هو شفاعته صلى الله تعالى عليه وسلم لإخراج بعض أهل النار منها. **وقيل**: هو شفاعته رابع أربعة إذ يقوم له روح القدس جبريل عليه الصلاة والسلام، ثم يقوم إبراهيم، ثم يقوم موسى أو عيسى عليهم الصلاة والسلام، ثم يقوم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، فيشفع ولا يشفع أحد بعده فى أكثر مما يشفع، وبه فسرت الآية. **وقيل**: هو مقام يكون أقرب فيه من جبريل.

والشفاعة ثابتة له صلى الله تعالى عليه وسلم بالإجماع إلا أنها عند أهل السنة لأصحاب الكبائر لحديث «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى»، وعند المعتزلة لزيادة الثواب

لا لدرء العقاب، والكلام عليه مفصل فى كتب الأصول، وكونه محمودا على ظاهره، أو إسناده مجازى، أى صاحبه محمود.

(قال الله تبارك وتعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾) [الإسراء: ٧٩]، استشهد بالآية على ما قاله، وقد علمت ما فسر به المقام المحمود، ومقاما منصوب على الظرفية بمحذوف، أى يقيمك مقاما، أو بتضمين يبعث معناه، أو هو حال بتقدير، أى ذا مقام.

وأما الوجه الثالث وهو جلوسه صلى الله تعالى عليه وسلم مع الله على العرش والكرسى: فقال الواحدى رحمه الله تعالى: إنه قول فاسد مبنى على التجسيم وبين فساده بوجوه منها: أن البعث هوالإثارة والإقامة والجلوس ضده، فكيف يفسر به؟ وأيضا هو يقتضى التحديد والتناهى المستلزم للحدوث، وأيضًا أنه قال: مقاما، ولو كان كذلك لقال مقعدا، ومثله لا يدل على البعث، ورد هذا بأنه رواه أحمد من طرق شتى، ومثله من المتشابه كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقد صححه الدارقطنى، وقال ردًا على منكره وأجاد فى ذلك رحمه الله تعالى رحمة واسعة:

حديث الشفاعة عن أحمد ... إلى أحمد المصطفى نسنده
وقد جاء الحديث بإقعاده ... على العرش أيضًا ولا نجحده
أمروا الحديث على وجهه ... ولا تدخلوا فيه ما يفسده
ولا تنكروا أنه قاعد ... ولا تنكروا أنه يقعده

فجلوسه ﷺ لا مانع منه، وأما نسبة ذلك لله وقوله: إنه معه فليس المراد ظاهره، بل هو وأمثاله مأولة، وهى كثيرة، وعسى للترجى ومعناها وعملها مشهور فى كتب النحو، فمعناها الترجى فى المحبوب والإشفاق فى المكروه، والترجى منه ﷺ ظاهر ومن الله قالوا: إنه إيجاب، أى جزم بوقوعه إذ الله تعالى لا يجب عليه شىء كما تقرر فى الكلام.

(حدثنا) وفى نسخة: أخبرنا، (الشيخ أبو على الغسانى الجيانى) شيخ المصنف وغسان اسم ما فى الأصل سمى به قبيلة من اليمن نزلت عليه، وجيان بالجيم المفتوحة وتشديد الياء المثناة التحتية بوزن شداد بلدة بالأندلس منها ابن مالك وأبو حيان رحمهما الله تعالى (فيما كتب إلى بخطه) إشاره إلى أن هذه الأخبار ليس بالمشافهة، أى إخبارا كائنا فى ضمن أمور أخر وأحاديث كتبها له، والكتابة نوع من التحمل والإجازة لها حكم الاتصال عند كثير من المحدثين وأهل الأصول كالسمعانى وصاحب المحصول، ووقع ذلك فى الصحيحين سواء كاتبه حاضرا أو غائبا بشرط أن يعرف خطه.

قال: **(حدثنا سراج بن عبد الله القاضى)** السابق ذكره وترجمته قال: **(حدثنا أبو محمد الأصيلى)** الذى تقدم الكلام عليه وعلى نسبته قال: **(حدثنا أبو زيد)** المروزى وقد تقدمت ترجمته، **(وأبو أحمد)** محمد بن محمد بن يوسف بن مكى الجرجانى **(قالا: حدثنا محمد بن يوسف)** الفربرى السابق ترجمته قال: **(حدثنا محمد بن إسماعيل)** هو إمام السنة صاحب الصحيح البخارى، وقد تقدم قال: **(حدثنا إسماعيل بن أبان)** أبو إسحاق الوراق الأزدى الكوفى، وأبان بفتح الهمزة وتخفيف الباء علم منقول تردد فى صرفه وعدم صرفه بعضهم، وأجاز بعضهم فيه الصرف وعدمه، وسبب الخلاف فيه أن منهم من قال وزنه فعال فيتعين صرفه، وقيل: إنه منقول من ماضى أبان يبين، وجزم به ابن مالك وصاحب التوضيح، وقال القرافى: المحدثون النحاة على منع صرفه، ونقله ابن يعيش عن الجمهور بناء على أن وزنه أفعل بمعنى أوضح فاعل على خلاف القياس، وأبقى على أصله فاندفع قول الدمامينى: لو كان كذلك وجب تصحيحه لأن أفعل الأجوف الوصفى لا يعل، وفى شرح مسلم أنه جوز فيه الصرف وعدمه، والصحيح صرفه كما فى جامع اللغة وبه جزم ابن السيد.

أقول: عدم صرفه تعسف، وقد تتبعت كلام العرب فوجدته مصروفا فيه كقول أبى عطاء الحماسى:

أتعرف مسجدا لبنى تميم فويق التل دون بنى أبان

(وقول مهلهل:)

لهف نفسى على عدى ولم أعرف عديا إذ مكنتنى اليدان
ظل من ظل الحروب ولم أعرف قتيلا آباؤه من أبان

إلى غير ذلك مما لا يحصى، فلا وجه للتردد فيه، ولذا قال بعض أئمة اللغة: من لم يصرف أبان فهو أتان، وهو إمام ثقة توفى سنة ست عشرة ومائتين، وترجمته فى الميزان، قال: **(حدثنا أبو الأحوص)** بحاء وصاد مهملتين واسمه سلام بتشديد اللام، ابن سليم بالتصغير الإمام الثقة الرواية، وتوفى سنة مائة وتسعة وتسعين، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، وقيل: اسمه عوف بن مالك بن فضالة، والصحيح الأول.

(عن آدم بن على) العجلى الثقة التابعى يروى عن ابن عمر وغيره، **(قال: سمعت ابن عمر)** الصحابى المشهور رضى الله تعالى عنهما **(يقول:)** حال أو مفعول كما بينه النحاة، وقد تقدم بيانه **(إن الناس يصيرون يوم القيامة جثى)** هذا الحديث رواه البخارى فى التفسير موقوفا على ابن عمر، ومثله مما لا مجال للرأى فيه له حكم المرفوع،

واحتمال أنه سمعه من أهل الكتاب بعيد لا يعول عليه، وكونه سمعه من صحابى آخر لا يضر؛ لأن مرسل الصحابى مقبول.

أقول: هذا مما قاله أهل الأصول وقبله الأئمة فى مصطلح الحديث، وفيه بحث؛ لأنه يجوز أن يكون الصحابى ممن قرأ الكتب القديمة، أو يكون استنبطه من كتاب أو سنة، فينبغى تقييده بما ذكره، وجثى بضم الجيم مقصور نون، وجوز كسر جيمه أيضًا جمع جثوة مثلث الأول، وأصله الكوم المجتمع من تراب ونحوه، فاستعير لمعنى الجماعة، أى يجتمعون جماعات كل أمة جماعة تابعة لنبيها كما ذكره. وروى البرهان عن الحافظ العراقى جثاء بضم الجيم والمد، وأنه كذا صحح فى نسخ البخارى، وصححه الهروى وابن الأثير، وروى جثى بضم الجيم وكسر المثلثة وتشديد الياء جمع جاث، وهو البارك على ركبتيه، وقيده بعضهم بأن يجلس كذلك للخصومة وأنشدوا قوله:

أخاصمهم مدة قائما   وأجثوا إذا ما جثوا للركب

ولا شاهد فيه، وهذا على خلاف القياس إذا صحت الرواية فلا يرد عليه أن فاعل لا يجمع على فعل كما قيل.

(**كل أمة تتبع نبيها يقولون**) حال من فاعل يقول، أى تكون معه تابعة له بانضمامها إليه: (**يا فلان اشفع لنا يا فلان اشفع لنا**)، أى تنادى كل أمة نبيها باسمه يسألونه أن يشفع لهم عند ربهم فى الخلاص من هول الموقف كما مر، فيجيبهم بأنه لا يقدر على الشفاعة كما تقدم، فيذهبون لغيره من الرسل، فيجيبهم مثله.

(**حتى تنتهى الشفاعة إلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، أى حتى تنتهى الأمم وسؤالهم لواحد بعد واحد يكون غايته أن يلتجئوا له صلى الله تعالى عليه وسلم، فيجيبهم ويشفع لهم، فتقبل شفاعته ففى الحديث طى لجمل علمت من السياق، ومن أحاديث أخر صرح فيها بذلك، ومعنى تنتهى تبلغ وتصل كما يقال: بلغ الأمير قصتى، وهذه هى الشفاعة العظمى، وقد تقدم أن له صلى الله تعالى عليه وسلم شفاعات أخر.

(**فذلك**)، أى ما ذكر من الشفاعة وما معها (**يوم يبعثه الله المقام المحمود**)، أى كائن فى ذلك اليوم بنصب يوم على الظرفية، فإن رفع يجعل القصة المختصة به كأنها عينه مبالغة وتجوزا جاز.

(**وعن أبى هريرة، رضى الله عنه: سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم**)، أى عن الآية المذكورة كما أشار إليه بقوله: (**يعنى قوله:** ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾) [الإسراء: ٧٩]، وضمير يعنى راجع لأبى هريرة، وهذا الحديث رواه أحمد والبيهقى،

(فقال)، أى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جوابًا عن السؤال: **(هى الشفاعة)** العظمى الواقعة لفصل القضاء، وقيل: لإخراج المذنبين من النار، والمشهور هو الأول، وضمير هى راجع للشفاعة كقولك هى الحياة، أو للمقام وأنث رعاية للخبر أو للآية بالتجوز على أن المراد المعنى المقصود منها، وقيل: المراد أنها هى الشفاعة فى اليوم المسمى بالمقام المحمود، وهو تكلف جدًا.

(وروى كعب بن مالك) الأنصارى الصحابى أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى غزوة تبوك وتاب الله عليهم بنص القرآن، وهذا الحديث رواه أحمد بن حنبل مسندا **(عنه عليه الصلاة والسلام)** أنه قال: **(يحشر الناس يوم القيامة)** بعد الخروج من القبور، أى يجتمعون للحساب، **(فأكون أنا وأمتى على تل)** بمثناة فوقية مفتوحة ولام مشددة هورابية من تراب أو رمل ونحوه عالية مرتفعة، وجمعه تلال، وأتلال نادر، وفى القاموس: التل من التراب، والكوم من الرمل، وتفسيره بمكان عال كالجبل بيان للمقصود أو تسامح، وفيه إشارة إلى إعلاء مقامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومقام أمته، واللطف بهم فى تخليصهم من زحام الموقف ومشقته.

(ويكسونى ربى حلة خضراء)، وفيه استئناس لما يلبسه الأشرف الآن من العمامة الخضراء، وإن كان ذلك مما حدث فى زمن السلطان الأشرف تمييزا لهم عن غيرهم، وإن لم يكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فعل ذلك كما فصلناه فى محله. والحلة بضم فتشديد من برود اليمن، ولا تسمى حلة إلا إذا كان ثوبين أحدهما فوق الآخر، أو ثوب واحد له بطانة، وسمى بذلك؛ لأن كلا منهما يحل على الآخر، ولكونهما جديدين كما حل طيهما، ثم شاع فى مطلق الكسوة النفيسة، وكسوته صلى الله تعالى عليه وسلم بعد كسوة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فى الزمن كما سيأتى التصريح به فى الحديث، وليس فيه تفضيل له عليه؛ لأن حلة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم أعلى وأحسن، وإنما قدم جزاء لما فعله به نمرود حين عراه ليلقيه فى النار، ورعاية له بما يسر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه جده، وزمنه أسبق وسنه أزيد.

(ثم يؤذن لى)، بالبناء للمجهول، من الإذن، أى يأذن الله لى فى التكلم بين يديه، والشفاعة لأهل المحشر أجمعين، فيقال له: قل تسمع، واشفع تشفع، كما مر، **(فأقول ما شاء الله أن أقول)** من حمد الله بمحامد لائقة والشفاعة العظمى، **(فذلك المقام المحمود)**، وهذا لا ينافى تفسيره بالشفاعة العظمى، كما قال المحب الطبرى، وذلك إشارة إلى جميع ما تقدم من أول الحديث إلى آخره.

(وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما) فى حديث ساقه، **(وذكر حديث الشفاعة)**

معطوف على مقدر، وقوله: **(قال فيمشى)** يعنى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بدل من قوله: ذكر **(حتى يأخذ بحلقة)** باب **(الجنة)**، وفى رواية قال: فأمشى حتى آخذ، والحلقة معروفة بسكون اللام وجوز فتحها، وأنكره بعض أهل اللغة كما تقدم، والحديث تقدم بتمامه.

(فيومئذ)، أى يوم مشى صلى الله تعالى عليه وسلم وأخذ بالحلقة، واليوم على ظاهره، أو بمعنى مطلق الوقت **(يبعثه الله المقام المحمود الذى وعده)** به فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، وهو مقام يشفع فيه لسائر الخلائق الشفاعة العظمى، ويحمده فيه الأولون والآخرون؛ فلذا سمى بذلك ووعده مبنى للمجهول، ومفعوله الأول عائد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مستتر، والبارز عائد على المقام، ويجوز بناؤه للفاعل أيضًا، وقيل: المقام المحمود هنا وقوفه ثمة وأخذه بحلقة باب الجنة وهو مغلق ليفتحه، فيدخلها من هو معه والحامدون له على هذا المسلمون وأهل الجنة؛ لأن من عداهم ألقى فى النار فهذا تفسير آخر فتأمله.

(وعن ابن مسعود) رضى الله تعالى عنه **(عنه عليه الصلاة والسلام أنه)**، أى المقام المحمود الموعود به **(قيامه يمين العرش مقاما لا يقومه غيره)** ظاهره أن المقام هو القيام نفسه على أنه مصدر وقوله: مقاما منصوب على الظرفية وليس كذلك، فإن المراد أن المقام هو المحل الذى قربه الله فيه قربا لم يتيسر لغيره، وقيل: المراد إقامته ومكثه فى ذلك المقام، فلا ينافى ما مر من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم يجلس على منبر عن يمين العرش.

(يغبطه فيه الأولون والآخرون)، أى جميع الأمم والناس، والغبطة بالغين المعجمة والموحدة والطاء المهملة هى تمنى المرء أن ينال مثل ما رآه عند غيره من النعم وكل أمر محمود من غير أن يحب زوالها، فإن أحب زوالها فهو الحسد المذموم، وقيل: الحسد تمنى الأمر المحمود مطلقا، فهو أعم من الغبطة، ومنه ما يذم ويحمد، والمشهور الأول، ويغبط بزنة يضرب، وفى نسخة: به، والباء ظرفية أو سببية، والغبطة لا ضرر فيها وقد تكون حميدة، وفى الحديث هل يضر الغبط؟ قال: لا إلا كما يضر العضاه الخبط انتهى.

وفى النهاية الأثيرية: أن الغبط لا يضر ضرر الحسد، وإنما يلحق الغابط منه ضرر يسير وإثم ينقص ثوابه كما يلحق العضاه بخط ورقها، والذى يظهر لى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم إنما أراد أنه لا ضرر فيه على الغابط فى أمر محمود تمناه من غير تمنى زواله، بل ربما يناله منه نفع لجده فى تحصيل مثله، أو لنيله شيئًا من صاحبه، فهو على حد قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب[(١)]

(ونحوه)، أى مثله معنى مروى **(عن كعب)** هو كعب الأحبار، **(والحسن)** البصرى.

(وفى رواية: هو)، أى المقام المحمود **(الذى أشفع لأمتى فيه)**، فتكون هذه الشفاعة غير الشفاعة العظمى لسائر الناس، وهو أحد الأقوال فى تفسيره كما مر وما فى الشرح الجديد عن عود الضمير لقيامه عن يمين العرش، وأن المراد بالشفاعة الشفاعة العظمى فى فصل القضاء، وهى وإن لم تكن خاصة بأمتى فهم المقصودون بالذات منها تعسف لا حاجة إليه.

(وعن ابن مسعود) رضى الله تعالى عنه فى حديث رواه أحمد فى مسنده **(إنى لقائم المقام المحمود)** بكسر همزة إن لوقوعها فى ابتداء كلام مستأنف، وقيل: إنه جواب قسم مقدر، أى والله إنى لقائم، وفيه بيان أنه يجوز القسم فى الأمر العظيم، ولذا أكد بإن والاسمية وفيه نظر، والمقام منصوب على الظرفية أو المصدرية.

(قيل: وما هو؟ قال: ذلك يوم ينزل الله تبارك وتعالى عن كرسيه)، وفى نسخة: على كرسيه، **(الحديث)**، أى اذكره، أو انظر تمامه، وهو كما رواه أحمد رحمه الله قيل له: «ما المقام المحمود؟ قال: ذاك يوم ينزل الله على كرسيه فيئط كما يئط المرجل الحديد من تضايقه، وهو بسعة ما بين السماء والأرض، ويجاء بكم حفاة عراة غرلا، فيكون أول من يكسى إبراهيم عليه الصلاة والسلام فيقول الله عز وجل: اكسوا خليلى فيؤتى بريطتين بيضاوين من رباط الجنة، ثم أكسى على أثره، ثم أقوم عن يمين الله مقاما يغبطنى فيه الأولون والآخرون»[(٢)]، وقد علمت أن هذا الحديث من المتشابه؛ لأنه تعالى منزه عن صفات الأجسام كالنزول والجهة قيل: ولذا تركه المصنف رحمه الله تعالى وهو تمثيل لتجليه تعالى لعباده بعظمته وجلاله، وإقباله عليهم لفصل القضاء وإجراء حكم عدله فيهم، كما يتجلى الملك لجنده ورعاياه لينظر فى أمورهم ويقرب من شاء منهم، والكرسى غير العرش كما مر والحديث فى المصابيح، والكلام عليه مفصل فى شروحه.

(وعن أبى موسى) عبد الله بن قيس الأشعرى الصحابى المشهور، وهذا الحديث رواه ابن ماجه فى سننه رواية **(عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم: خيرت)**، أى خيرنى الله بين

---

(١) البيت من الطويل، وهو للنابغة الذبيانى فى ديوانه (ص٤٤)، الأزهية (ص١٨٠)، إصلاح المنطق (ص٢٤)، خزانة الأدب (٣/٣٢٧، ٣٣١، ٣٣٤)، الدرر (٣/١٧٣)، شرح شواهد المغنى (ص٣٤٩)، الكتاب (٢/٣٢٦)، معاهد التنصيص (٣/١٠٧)، همع الهوامع (١/٢٣٢)، لسان العرب (٨/٢٦٥).

(٢) أخرجه الدارمى فى سننه (٢/٣٢٥).

أحد أمرين (**بين أن يدخل**) بالبناء للفاعل أو المفعول (**نصف أمتى الجنة**)، أى أمة الإجابة لا الدعوة، (**وبين الشفاعة**) لبعض المذنبين منهم الذين استوجبوا دخول النار، وليس المراد بها الشفاعة العظمى فى فصل القضاء، (**فاخترت الشفاعة**) على دخول نصف أمتى الجنة.

ثم بين وجه اختياره بقوله: (**لأنها**)، أى الشفاعة (**أعم**)، أى أشمل وأكثر من النصف، وهذه الشفاعة غير الشفاعة فيمن دخل النار، وقيل: إنها شاملة لها، وهذه الشفاعة ثابتة بأحاديث كثيرة بلغ بمجموع طرقها التواتر، ولا يعتد بمن أنكرها من الخوارج والمعتزلة تمسكا بقوله تعالى: ﴿**مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾ [غافر: ١٨]؛ لأن المراد بالظالمين الكفرة، فإن الشرك ظلم عظيم.

(**أترونها**) بهمزة الاستفهام وضم المثناة الفوقية فتح الراء المهملة والضمير للشفاعة، أى أتظنون الشفاعة خاصة (**للمتقين**) جمع متقى بكسر القاف اسم فاعل من التقوى، وفى نسخة: للمؤمنين.

قال البرهان: والأول هوالمحفوظ من مشايخى، وردوا على من رواه المنقين، بنون مفتوحة ثم قاف مفتوحة مشددة ثم ياء مثناة تحتية ساكنة جمع منقى اسم مفعول وهو النظيف، كذا فى أصلنا لسنن ابن ماجه وهو أصل صحيح، وكتب على هامشه ن ق وعليها تصحيح مرتين انتهى. ففيه ثلاث روايات، والمنقين من النقى قال المزى: وحسن هذه الرواية أنه روى: (**ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين**) فمقالته للمتلوثين تحسنه، وهو اسم مفعول من التلوث بمثناة فى أوله ومثلثة فى آخره، والتلوث التلطخ بالأقذار؛ لأن الذنوب كالنجاسة والخطائين جمع خطاء وهو كثير الخطأ.

وروى الترمذى: (**شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى**)، وقيل المنقى بالنون عام لأنه يجوز أن يكون مذنبا نقى بالتوبة والمنقى أخص، وفيه نظر.

(**وعن أبى هريرة**) رضى الله تعالى عنه فى حديث صحيح رواه الحاكم والبيهقى، (**قلت: يا رسول الله، ماذا رد عليك فى الشفاعة؟**) بضم الراء المهملة وتشديد الدال المفتوحة مبنى لما لم يسم فاعله، كذا رواه البرهان واقتصر عليه، وروى ورد من الورود مبنى للفاعل كما ذكره التلمسانى وتبعه غيره من الشراح، وما اسم استفهام، وذا اسم موصوف بمعنى الذى، ويجوز أن يكون اسم إشارة والرد الجواب، وورد بمعنى جاء، أى ما أجابك به الله أو الملك لما سألته الشفاعة فى أمتك.

(**فقال: شفاعتى**) هو فاعل مرفوع تقديرًا، أى جاءنى أو ورد على أن أشفع (**لمن شهد**

أن لا إله إلا الله)، أى لمن أقر بوحدانية الله تعالى، و لم يقل: وأنى رسول الله اكتفاء بأحد جزئى كلمة الشهادة؛ للعلم بأنه لابد من الإتيان بهما فى صحة الإسلام (**مخلصًا**) حال من الموصول، أى غير مشوبة شهادته بشك أو شرك (**يصدق لسانه**) بالنصب على المفعولية وقوله (**قلبه**) مرفوع فاعله، ويجوز عكسه، أى يطابق اعتقاده لما نطق به.

(**وعن أم حبيبة رضى الله تعالى عنها**) فى حديث رواه الحاكم والبيهقى، وهى أم المؤمنين بنت أبى سفيان بنت حرب أخت معاوية رضى الله تعالى عنهم، واسمها رملة على الصحيح، وقيل هند، وهى من السابقات إلى الإسلام، وترجمتها معروفة توفيت سنة أربع وأربعين.

(**قالت: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: أريت**) بضم الهمزة والبناء للمجهول، أى أعلمنى الله وأخبرنى بواسطة الملك (**ما تلقى أمتى من بعدى**)، أى أريت ما اطلعت به على ما ينوبها، فرأى علمية، وقيل: إنه من باب الكشف عما سيكون بتوقيف من الله له ﷺ كرامة، وليس من الرؤية البصرية، (**وسفك بعضهم دماء بعض**) منصوب معطوف على ما تلقى، وسفك الدم إراقته وصبه، وهو مصدر مضارع لفاعله قيل: أراه ذلك وحيا أو مشافهة أو إلهامًا لما يقع بينهم من الحروب والفتن التى يقع فيها القتل وإراقة الدماء.

(**وسبق لهم من الله ما سبق للأمم قبلهم**) ماض معطوف على تلقى صلة الموصول، أى أريت وأعلمت بما سبق لأمتى مما قدره الله تعالى عليهم وأراده لهم، فوقع على وفق إرادته فى الأزل وعلمه القديم، (**فسألت الله تعالى أن يؤتينى فيهم شفاعة يوم القيامة ففعل**)، أى أعطاه الله تعالى ما سأله فى المذنبين منهم.

(**وقال حذيفة**) بالتصغير وهو ابن اليمان الصحابى رضى الله تعالى عنه صاحب سر رسول الله ﷺ فى حديث موقوف عليه رواه البيهقى والنسائى: (**يجمع الله الناس فى صعيد واحد**)، أى فى مكان يجتمعون فيه غير متفرقين، وأصل معنى الصعيد التراب، فأريد به هنا أرض المحشر، أو قيل: هو تربة ليس فيها رمل ولا شجر يوم تبدل الأرض غير الأرض، والمراد بالناس الثقلان من الجن والإنس، أو المراد الإنس واقتصر على الأشرف، فلا يرد أن الجن والبهائم تحشر معهم أيضًا.

(**حيث يسمعهم الداعى**) صوته ونداءه كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، ويسمع بضم التحتية مضارع أسمع، وحيث ظرف مكان مبنى على الضم، (**وينفذهم البصر**) بفتح الياء المثنية التحتية وروى بضمها

وكسر الفاء وعلى الأول هى مضمومة، والمراد ببصر الرائى، أى يراهم دفعة واحدة، وليس المراد ببصر الله كما قاله أبو عبيد، وقيل: المراد يبلغهم ويتجاوزهم لأنهم فى أرض مستوية لا عوج ولا شجر فيها، وهو بالدال المهملة، والمحدثون يروونه بالذال المعجمة وهو صحيح أيضًا؛ لأنه لإحاطته بهم وتجاوزه كأنه يخرقهم، فلا وجه للرد مع صحة الرواية.

(حفاة عراة) منصوبان على الحالية، وحفاة جمع حاف وهو الذى لا نعل له ولا خف، وقيل: جمع حفى وهو الذى رق جلد قدميه، وعراة جمع عار وقيل جمع عريان وهو قليل فى الاستعمال، وهو الذى لا ثوب له ولا لباس يستره، ويعارضه ما روى فى الحديث الصحيح أن أبا سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه لما احتضر دعا بثياب جدد فلبسها، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الميت يبعث فى ثيابه التى يموت فيها»[(١)]، وعن معاذ بن جبل أيضًا رضى الله تعالى عنه: «أحسنوا أكفان موتاكم فإنهم يحشرون فيها»[(٢)]، وجمع بينهما بأن هذا محمول على الشهداء وثيابهم التى قتلوا فيها، والحديث وارد فيهم وأبو سعيد حمله على العموم، وقيل: إن بعضهم يحشر عاريا وبعضهم بثيابه، وقيل: إنهم يحشرون بأكفانهم ثم تتناثر من عليهم فى المحشر، وقيل: المراد بثيابهم أعمالهم كقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، ولا يخفى ما فى هذا من الضعف فليحرر.

(كما خلقوا) حال، أى كائنين على حال خلقهم الأولى من غير نقص شىء من أجزائهم كما ورد غرلا، فشبه حال إعادتهم بحال إخراجهم من العدم كما قال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، أو ما كافة أو مصدرية.

(سكوتا) جمع ساكت حال من الناس أو من ضمير خلقوا ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ أصله تتكلم فخفف ﴿نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥]، فلا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن، وهذا فى موقف، وقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥] فى موقف آخر، والثانى مخصوص بذوى الأعذار الباطلة فلا تعارض بينهما، وبهذا يجاب أيضًا عن قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ [القلم: ٣٠]، وقوله: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١].

(فينادى) بالبناء للمجهول **(محمد)** بالتنوين نائب الفاعل، أو هو غير منون مبنى على الضم، والنداء بمعناه الظاهر، أى يقال له: محمد فحذف حرف النداء، وعلى الأولى

(١) أخرجه أبو داود (٣١١٤)، والحاكم (١/٣٤٠)، والبيهقى (٣/٣٨٤).

(٢) أورده ابن عراق فى تنزيه الشريعة (٢/٣٧٣).

ينادى بمعنى يدعى ويطلب، وكلا الوجهين حسن، وفى نسخة: فينادى: يا محمد.

(فيقول: لبيك وسعديك) منصوبان على المصدرية بفعل لا يظهر فى الاستعمال من التلبية، وهى إجابة المنادى من ألب بالمكان إذا أقام ولا يستعملان إلا بصيغة التثنية، والمراد بها مجرد التكرار ولو مرارا عديدة، أى أجبتك إجابة بعد إجابة، وأساعدك بطاعتى لك وأنا مقيم على ذلك لا أنصرف عنه.

(والخير فى يديك والشر ليس إليك)، أى مقضيك بالفرض وصادر عنك بالتبع؛ لأن بعض ما يتضمن الخير الكثير يستلزم شرًا قليلاً، فكان ترك الخيرات الكثيرة لأجل ذلك الشر القليل شر لا يصدر عنه، وهو المنزه عن الفحشاء، ولا يجرى فى ملكه إلا ما شاء وإلى هذا أشار القاضى فى تفسيره، والمعتزلة قدروا فى مثله: والشر ليس منسوبا إليك، واستدلوا به على مذهبهم وغيرهم قدره: والشر ليس متقربا به إليك كما يتقرب إلى بعض ظلمة الملوك ببعض القبائح، قاله القرافى فى قواعده، أو المعنى لا يضاف إليك تأدبا، وقيل: المعنى لا يصعد إليك فإنه إنما يصعد إليه الكلم الطيب، واليد اسم للجارحة المعروفة، وأصله يدى بالسكون لقولهم فى جمعه أيد، وقيل: يدى بالفتح لقولهم تثنيته يديان، واستعير للنعمة وللملك والتصرف والقدرة والقوة والنضرة، وإذا أضيف إلى الله تعالى يراد به المعنى المجازى؛ لتنزهه عن الجارحة، وثنى هنا وفى قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٥٧] إشارة إلى زيادة تصرفه فيه واختصاصه به، وجعل الخير مستقرا فيهما ترشيحًا للاستعارة، والأحسن أن يقال: إنه إشارة لما مر أن وجهى تصرفه فى الموجودات بالخير والشر خير كله فتدبر.

(والمهتدى من هديت)، أى الموفق للهداية من خلقته مهتديا ووفقته لطاعتك، وتعريف الطرفين يفيد الحصر، أى لا يهتدى إلا من هديته، **(وعبدك بين يديك)** أراد به نفسه، أى أنه ﷺ حاضر لديه واقف فى مقام المذلة والفقر، وقيل: إنه تشبيه لقربه من ربه ومزيد اختصاصه من بين الجهتين المسامتتين ليدى الإنسان واستعير لذلك، **(ولك وإليك)**، أى أمره كله لك، فإنه عبدك وأمره موكول إليك، **(لا ملجأ)** بالهمزة والقصر للازدواج، أى لا يلتجىء ولا يستند لأحد سواك، **(ولا منجا)** بلا همز أو به للازدواج، أى لا ينجيه ولا يخلصه أحد **(منك)**، أى هو عبدك ومصيره إليك **(إلا إليك)** وليس بإتباع ولا لف ونشر كما قيل.

(تباركت وتعاليت)، أى كثر خيرك وزاد عن كل شىء، وعلا قدرك فى ذاتك وصفاتك؛ وتنزهت عما لا يليق بك والكلام عليه مفصل فى التفسير **(سبحانك)**، أى تنزهت **(رب البيت)** بالرفع خبر مبتدأ مقدر، والنصب على النداء، أى يارب البيت،

والمراد به الكعبة أو البيت المعمور فى السماء، ولما كان البيت قد يشعر بالحلول قدم التنزيه عليه احترازا عن توهمه، وقال: رب البيت دون رب العالمين، إظهارًا لشرفه وشرف الحج إليه المشابه جمع الخلائق فيه بالمحشر وهم عراة حفاة.

(قال)، أى النبى عليه السلام؛ لأنه معلوم من السياق، أو حذيفة راويه وهو فى حكم المرفوع: **(فذلك)**، أى المقام الذى جمع فيه،ووقع فيه هذه المناجاة **(هوالمقام المحمود الذى ذكره الله)** فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿**عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا**﴾ [الإسراء: ٧٩].

(وقال ابن عباس، رضى الله عنهما، إذا دخل أهل النار النار) قدمه ترهيبا وترغيبا فى تجنب سبب دخولها، ولأن ذكر النعمة بعد النقمة أوقع فى النفس، **(وأهل الجنة الجنة)** بجر الأول ونصب الثانى، أى ودخل أهل الجنة الجنة، والمراد غالب أهل النار وغالب أهل الجنة بدليل قوله: **(فتبقى آخر زمرة من الجنة)**، أى من أهل الجنة، **(وآخر زمرة من النار)**، أى من أهل النار، والزمرة الجماعة القليلة، ومنه شاة زمرة، أى قليلة الشعر، ورجل زمر، قليل المروءة، أو من الزمر وهو الصوت؛ لأنها لا تخلو عنه.

(فتقول زمرة النار)، أى الزمرة الباقية من أهل النار **(لزمرة الجنة)**، أى للزمرة الباقية من أهل الجنة الذين لم يؤذن لهم فى دخولها: **(ما نفعكم إيمانكم)** ما استفهامية إنكارية أو نافية خبرية، أى لم ينفعكم إيمانكم، ولم يغن عنكم شيئًا؛ لأنهم بجهلهم بأحوالهم ظنوا أنهم لا يدخلون الجنة، وأنهم منعوا من دخولها، **(فيدعون ربهم)** الضمير للزمر المتخلفة من أهل الجنة، **(ويضجون)**، أى يصيحون ويرفعون أصواتهم فزعًا مما لحقهم من تعيير أهل النار لهم، وأصل الضجيج بضاد معجمة وجيم الصياح من الفزع للحوق المكروه، والضجة ارتفاع الأصوات المختلفة مطلقا، **(فيسمعهم أهل الجنة)**، أى يسمعون صياحهم واستغاثتهم بربهم ليأذن لهم فى دخول الجنة، **(فيسألون آدم)** أن يشفع لهم فى دخول الجنة، **(وغيره بعده)**، أى يسألون بعد آدم عليه الصلاة والسلام غيره من الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام **(فى الشفاعة لهم، فكل يعتذر)** لهم بأنه لا يقدر على الشفاعة، ولم يؤذن له كما مر تفصيله.

(حتى يأتوا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم) بعد ما يئسوا من شفاعة غيره من الرسل، **(فيشفع لهم، فذلك المقام المحمود)** الذى يحمده فيه الناس، ويظهر فضله على جميع الرسل، وهذا الحديث موقوف على ابن عباس، وهو فى حكم المرفوع.

(ونحوه)، أى فى معناه حديث مروى **(عن ابن مسعود أيضًا ومجاهد، وذكره على بن**

الحسين) بن على بن أبى طالب، وهو زين العابدين كما تقدم، **(عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى مرفوعًا، وما قبله موقوف.

(وقال جابر بن عبد الله) رضى الله تعالى عنهما الصحابى، وقد تقدمت ترجمته **(ليزيد الفقير)** هو ابن صهيب، ولقب بالفقير لأنه أصيب فى فقار ظهره فكان يشكوها، وفقار الظهر خرزات العظم التى من عجب الذنب إلى نقرة القفاء، وهى اثنان وثلاثون فقرة فهو فعيل بمعنى مفعول، وقول عائشة رضى الله تعالى عنها فى حق عثمان رضى الله تعالى عنه: ارتكبوا منه الفقراء الأربع استعارة، أى انتكهوا له حرمات أربع الصحبة والصهر والخلافة والبلد، وهذا الحديث رواه مسلم، ويزيد هذا إمام ثقة روى عنه أبو حنيفة وأصحاب الكتب الستة.

(سمعت) بفتح تاء الخطاب وأصله أسمعت فحذف همزة الاستفهام، أو هل، أى أسمعت أو هل سمعت **(بمقام محمد ﷺ؟)**، أى هل رويت فيه شيئًا يفسره، **(يعنى الذى يبعثه الله فيه)**، أى فجابر أراد السؤال عن حقيقة المقام المذكور فى قوله تعالى: ﴿**عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا**﴾ **[الإسراء: ٧٩]**، وفى قوله: «فيه» إشارة إلى أنه منصوب على الظرفية، وأنه محل القيام حقيقة.

(قال) يزيد: **(نعم)**، أى سمعت ما ورد فيه إجمالا، **(قال)**، أى جابر بن عبد الله البجلى الصحابى المشهور، وكان الظاهر أن يقول: فقال: **(فإنه مقام محمد المحمود الذى يخرج الله به من يخرج يعنى من النار)** ضمير للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، أو للمقام، أى يخرج الله بسبب الشفاعة الواقعة فيه، فالمراد به مقام آخر فيه شفاعة غير الشفاعة العظيمة لأهل المحشر، وإليه أشار بقوله.

(وذكر)، أى جابر رضى الله تعالى عنه **(حديث الشفاعة فى إخراج الجهنميين)** المنسوبين لجهنم؛ لأنهم المؤمنون الذين دخلوا النار بمعاصيهم، وهذا بعض حديث رواه مسلم اقتصر منه المصنف على محل الشاهد لما هو بصدده، ولفظه قال يزيد الفقير رحمه الله تعالى: كان قد شغفنى رأى من رأى الخوارج، فخرجت فى عصابة ذوى عدد نريد أن نحج، فمررنا على المدينة فإذا جابر بن عبد الله رضى الله عنهما جالس إلى سارية يحدث الناس عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: فإذا هو قد ذكر الجهنميين، فقلت له: يا صاحب رسول الله ﷺ ما هذا الذى يقولون؟ والله يقول: ﴿**إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ**﴾ [آل عمران: ١٩٢]، و﴿**كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا**﴾ [السجدة: ٢٠]، فما هذا الذى تقول؟ فقال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم فقال: هل سمعت بمقام محمد؟ يعنى الذى يبعثه الله فيه قلت: نعم قال: فإنه مقام محمد المحمود الذى يخرج

به من يخرج قال: ثم نعت وضع الصراط ومر الناس عليه قال: وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك، وقال غير واحد: إن قوما يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها كأنهم عيدان السماسم، فيدخلون نهرًا من أنهار الجنة، فيغتسلون فيه، فيخرجون كأنهم القراطيس إلى آخر الحديث الذى رواه مسلم، والكلام عليه مبسوط فى شروحه، فالمعنى أن يزيد مال إلى رأى الخوراج فى خلود عصاة المسلمين فى النار، فلما سمع من جابر ما رواه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم له علم بطلان رأيهم ورجع عنه.

(**وعن أنس**) فى حديث رواه أحمد فى مسنده (**نحوه**)، أى ما هو فى معنى هذا الحديث.

(**قال**) أنس بعد ما ذكر ما تقدم: (**فهذا المقام المحمود الذى وعده**) بالبناء للمجهول ونائب الفاعل ضمير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والضمير البارز للمقام.

(**وفى رواية أنس وأبى هريرة وغيرهما**) فى حديث رواه الشيخان، (**ودخل حديث بعضهم فى حديث بعض**)، أى وافق رواية كل منهم رواية غيره لفظا ومعنى (**قال عليه الصلاة والسلام: يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة**) فى أرض المحشر للحساب وفصل القضاء، (**فيهتمون**) افتعال من الهم بمعنى الحزن أو العزم والتصميم يقال: اهتم إذا اغتم وحزن واهتم بكذا إذا جعله من همه، وليس من الهمهمة وهى الصوت الخفى، (**أو قال: فيلهمون**) بالبناء للمجهول من الإلهام، وهذا شك من الراوى فى لفظ الحديث، أى يلهمهم الله.

(**فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا**)، أى لو طلبنا من يشفع لنا عند الله فى أن يخلصنا من هول هذا الموقف وشدته، ولو للتمنى هنا، وقد ذكره النحاة مفصلا فى بابه، فنزلوا الشفاعة لخوفهم منزلة الممتنع الذى لا يمكن.

(**ومن طريق آخر عنه**) عليه الصلاة والسلام، أى فى رواية أخرى: (**ماج الناس بعضهم فى بعض**)، أى دخل بعضهم فى بعض واختلطوا لاضطرابهم.

(**وعن أبى هريرة**) رضى الله تعالى عنه فى حديث الشفاعة الذى رواه الشيخان: (**وتدنوالشمس**)، أى تقرب من رءوس أهل الموقف، (**فيبلغ الناس من الغم**)، أى من الكرب وشدة الحر (**ما لا يطيقون**)، أى ما لا يقدرون على تحملهم له، (**ولا يحتملون**) عطف تفسير، أى لا يقدرون ولا يستطيعون، (**فيقولون: ألا تنظرون من يشفع لكم؟**)، أى يقول بعضهم لبعض هذا الكلام، (**فيأتون آدم**) عليه الصلاة والسلام بدءوا به؛ لأنه أول الأنبياء وأبوهم المشفق عليهم كما قال: (**زاد بعضهم: فيقولون: أنت آدم**

البشر)، فينبغى لك أن تشفع لهم وتريحهم.

(**خلقك الله بيده)**، أى أوجدك من العدم بقدرته من غير واسطة أم وأب، (**ونفخ فيك من روحه)** إضافة الروح له تعالى للتعظيم والاختصاص، ونفخ الروح إيجاده متصلة بجسده كما يقال: بيت الله، (**وأسكنك جنته)** بعد نفخ الروح فيه وإيجاده، والمراد الجنة المعروفة على الأصح، وقيل: المراد بها بستان فى الأرض، والخلاف فيه مشهور فى كتب التفاسير، والأدلة من الطرفين مفصلة فى محلها، (**وأسجد لك ملائكته)**، أى أمرهم بالسجود لك سجود تحية وتعظيم له وأداء لحقه، لا سجود عبادة هو كالقبلة له وكان ذلك جائزا شرعا ثم نسخ، (**وعلمك أسماء كل شىء)** كما ذكره الله تعالى فى القرآن، وهذا كله مما يدل على شرفه ﷺ وعلو رتبته عند ربه، ومزيد قربه المقتضى لقبول شفاعته صلى الله تعالى عليه وسلم كما بينه بقوله: (**اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا)** هذا وهو المحشر، ويريحنا بمعنى يحصل لنا راحة (**ألا ترى ما نحن فيه؟)** من الكرب والهول الذى لا يطاق.

(**فيقول)** لهم آدم: (**إن ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله)**، أى أظهر شدة غضبه وسخطه على من عصاه مريدًا إيقاع العذاب الذى فى الآخرة بإدخالهم النار، وهذا لم يكن قبل يوم القيامة ولا بعده؛ فلذا خاف آدم عليه الصلاة والسلام وقال: (**ونهانى عن الشجرة)**، أى عن الأكل منها، والمراد بها العنب الذى فى الكرم أو الحنطة، وسماها شجرة مجازًا؛ لأن الشجر ما له ساق، (**فعصيت)**، أى خالفت أمره تعالى بالأكل منها، وفى كون هذا معصية كلام سيأتى فى عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (**نفسى نفسى)** اعتذارًا عن تركه الشفاعة لهم، لخوفه على نفسه، وكررها تأكيدا وبيانا لأنه لا يقدر على مصلحة غيره لاشتغاله بنفسه.

وذكر الأنبياء تدريجًا الأول فالأول والأقدم فالأقدم على وجه يظهر به فضل نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، (**اذهبوا إلى غيرى)** من الرسل يشفع لكم، ثم بين من يذهبون له فقال: (**اذهبوا إلى نوح)** فإنه الأب الثانى لكم بعدى، ولم يقل: اذهبوا إلى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ليعلم فضله بأنه صاحب الشفاعة، وأنها منحصرة فيه.

(**فيأتون نوحا فيقولون: أنت أول الرسل إلى أهل الأرض)** كافة لانحصارهم وانحصار التبليغ فيه، وهذا لا ينافى اختصاص عموم الرسالة بنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم لأن عمومها لايختص بعصره، وقال ابن حجر رحمه الله تعالى: لأنه لم يكن بعد الطوفان إلا من كان مؤمنا معه، وقد كان مرسلا إليهم، والعموم لم يكن فى أصل بعثته، وإنما اتفق بعده، فالحادث الذى وقع وهو انحصار الخلق الموجودين بعد هلاك سائر الناس، وأما

نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فعموم رسالته من أصل البعثة، فثبت اختصاصه صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك، وأما كونه أول رسول كما صح فى حديث الشفاعة، فالمراد به أنه أول رسول أرسل إلى جميع أهل الأرض فى حياته، فليس المراد عموم بعثته مطلقا بل إثبات أولية إرساله، ولو سلم فهو مخصوص بعدة آيات على أن بعثة نوح عليه الصلاة والسلام كانت إلى قومه، ولم يذكر أنه أرسل إلى غيرهم، واستدل على عموم رسالته بدعائه على جميع من فى الأرض فأهلكوا غير أهل السفينة، ولولاه ما أهلكوا لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقد ثبت أنه أول الرسل، وأجيب بجواز أن يرسل غيره فى زمنه وعلمه بأنهم لم يؤمنوا، فدعا عليهم وهو حسن لو نقل مجىء رسول فى زمنه غيره، أو خصوصية نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ببقاء شريعته إلى يوم القيامة، أو دعوته لقومه بتوحيد بلغ الناس عنه فتمادوا واستحقوا العذاب، وإليه ذهب ابن عطية فى سورة هود، ويبعد عدم بلوغ نبوته القريب والبعيد مع طول مدته.

وقال ابن دقيق العيد: يجوز أن تكون الدعوة للتوحيد عامة فى بعض الأنبياء وإن لم تعم فروع شريعته؛ لأن منهم من قاتل غير قومه على الشرك، ويحتمل أنه لم يكن فى عهده غير قومه، فبعثته خاصة وإن عمت صورة.

أقول: هذا ما قاله ابن حجر فى شرح البخارى، ولم يبين كون نوح أول الرسل مع من تقدمه من الأنبياء، وتحقيقه أن آدم صلى الله تعالى عليه وسلم كان نبيا رسولا، ولكنه أرسل لبنيه ولم يظهر للكفر فى حياته قوة وآثار، فكان كالعظيم الضابط لأهله وخدمه؛ فلذا لم يكن كغيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام، وإدريس تنبأ فى زمنه، وشيث كان وصيه إلى أن بعث الله تعالى نوحا، فأظهر الناس الكفر ومخالفة دعوته حتى احتاج إلى إهلاكهم، فهو أول رسول بعث لدعوة الناس ومجادلتهم ومعاقبتهم، ومن قبله لم يكن كذلك كما لا يخفى.

(وسماك الله عبدًا شكورًا) فى الكتب القديمة؛ لأنه كان كلما أكل أو شرب شكر ربه فاشتهر بذلك فى الأمم السالفة والصحف الموحى بها كما نقل فى تفسير قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، على الأصح من أن الضمير راجع له لا موسى كما قيل، فإنه قول غير مرضى.

(ألا ترى ما نحن فيه؟) من شدة الموقف وهوله **(ألا ترى ما بلغنا؟)** بسكون الغين المعجمة وفتحها، أى ما وقعنا فيه من الكرب، أو ما وصل إلينا منه. وقال النووى: الأصح المعروف فتح الغين بدليل أنه روى: ألا ترون ما بلغكم، ولو كان بالإسكان

قال: ما بلغتم، والوجه ما تقدم.

(ألا تشفع لنا إلى ربك) فى الخلاص مما نحن فيه، **(فيقول مثله)**، أى ما تقدم بعينه وفى نسخة التصريح به، **(فيقول: إن ربى غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله نفسى نفسى)**، وقد تقدم شرحه.

(قال فى رواية أنس: ويذكر خطيئته التى أصاب) صفة خطيئة والعائد محذوف، أى التى أصابها، أى التى عملها، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون كلهم، ولكنهم لشدة تعظيمهم لله تعالى وخوفهم منه يعدون ما صدر منهم نسيًا وسهوًا وغفلة ذنبًا عظيمًا، والمراد بخطيئته ما فسره بقوله: **(سؤاله ربه بغير علم)**، فهو منصوب بدل أو عطف بيان من قوله: خطيئته مفعول يذكر، وقوله: بغير علم صفة مصدر محذوف أو حال، أى سؤالا كائنا بغير علم منه بأن ما سأله لا يليق أن يسأله، وهو قوله: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِى مِنۡ أَهۡلِى﴾ [هود: ٤٥]، وقد وعدتنى ووعدك الحق أن تنجى أهلى من الغرق، وهو منهم فنجه، فقيل له: إنه ليس من أهلك الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإنه عمل غير صالح فلا تسألنى ما ليس لك به علم، وابنه هذا هو كنعان، وليس ربيبه وابن زوجته كما زعمه أهل الكتاب قيل: إنما عاقه هذا عن الشفاعة وزجر به وجعل جهلا، لأنه ممن سبق عليه القول من أهله ودلت الحال عن ما يمنعه من السؤال، ولكن حب الولد شغله حتى اشتبه عليه أمره، وهذا قول قريب من قول: إنه ظنه مؤمنا بدليل قوله تعالى: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]، فلا وجه لتخطيه قائله.

(وفى رواية أبى هريرة) فى حق نوح عليه الصلاة والسلام: **(وكانت لى دعوة دعوت بها على قومى)** إشارة إلى ما ورد فى الحديث أن لكل نبى دعوة، والمراد أن الله تعالى وعد كل نبى بأن يجيب له دعوة يدعو بها على جميع أمته فيستجاب، أو يدعو بها لهم، فلا ينافى كون دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مستجابا، وهذا اعتذار منه عليه الصلاة والسلام فى ترك الشفاعة، ولذا عقبه بقوله: **(اذهبوا إلى إبراهيم فإنه خليل الله)**، وأبو الأنبياء ومقتداهم، فإنه أحق بالشفاعة وأقدر عليها منى، **(فيأتون إبراهيم فيقولون)** له: **(أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض)**، أى انفردت من بينهم بالخلة كما تقدم، وفيه إشارة إلى أنه أهل للشفاعة **(اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربى قد غضب اليوم غضبا فذكر مثله)**، أى مثل ما تقدم.

(ويذكر ثلاث كلمات كذبهن) هى قوله: إنى سقيم لما دعى إلى أصنام، وقوله لزوجته لما طلبها الملك منه: إنها أختى، وقوله فى حق الأصنام: فعله كبيرهم هذا، وهذا كله مخالف للواقع ولاعتقاده إلا أن إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام لم

يقصد به حقيقة، وإنما قاله لضرب من التأويل قصده، فليس بكذب فإن فى المعاريض مندوحة منه، وإنما سماه كذبا نظرا منه للمخاطب، وخاف أن يؤخذ به لعلو مرتبته وعظمة الربوبية عنده، وإن مقامه يقتضى أن لا يدارى مخلوقا أو يخافه، وإلا فهو صلى الله تعالى عليه وسلم كسائر الأنبياء معصوم من الكذب وغيره.

وعد منها فى مسلم قوله فى الكوكب: هذا ربى، والمشهور خلافه؛ لأنه ذكره على طريق الإلزام والجدل ويلزمه زيادة على الثلاثة، وقد صرح بالحصر فيها فى بعض الروايات، وقيل فى قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]: إنه كانت به حمى حقيقة لا تعد سقما، وفيه نظر، وسيأتى تفصيله فى محله إن شاء الله تعالى. وهذا اعتذار منه عليه الصلاة والسلام فى عدم الشفاعة.

(نفسى نفسى)، أى أنا مشغول بنفسى وتخليصها **(لست لها)**، أى لست أهلا للشفاعة لغيرى، **(ولكن عليكم بموسى)** استدرك لدفع ما لزم من كلامه الأول من خيبة أملهم ويأسهم من الشفاعة، وعليكم اسم فعل، والباء زائدة، أى الزموه فإنه أقدر منى وأقرب إلى الله، وهذا تواضع منه صلى الله تعالى عليه وسلم ثم بين مزيته عليه بقوله: **(فإنه كليم الله)**، أى أنه كلم الله فى الأرض شفاها من غير واسطة، فهو أقوى على الشفاعة منى.

(وفى رواية أخرى: فإنه عبد آتاه الله التوراة) التى هى أعظم الكتب الإلهية قبل القرآن، **(وكلمه)** بيان لكونه كليما أو المراد أوحى الله إليه كلامه، **(وقربه نجيا)**، أى جعله قريبا منه حال كونه نجيا، أى مناجيا ومخاطبا له، والقرب ليس مكانيا بل رتبيا.

(قال: فيأتون موسى) عليه الصلاة والسلام **(فيقول: لست لها)**، أى لست أهلا للشفاعة لكم، **(ويذكر)** موسى **(خطيئته التى أصاب)**، أى التى وقعت منه، وعاتبه الله عليها بقوله: ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٣]، كما هو مبين فى التفسير، **(وقتله النفس)** وهو القبطى الذى استغاثه الإسرائيلى عليه، فوكزه موسى فمات، ولم يكن عامدا لقتله وإنما هو لدفع الصائل، ومثله جائز لكنه، عليه الصلاة والسلام، خشى المؤاخذة به؛ ولذا استغفر منه، وعده من فعل الشيطان، فلا ينافى هذا عصمته عليه الصلاة والسلام ثم قال كما قال غيره: **(نفسى نفسى، ولكن عليكم بعيسى)** عليه الصلاة السلام **(فإنه روح الله وكلمته)** تقدم بيانه مفصلا.

(فيأتون عيسى) عليه الصلاة والسلام **(فيقول: لست لها ولكن عليكم بمحمد عبد)** بدل مجرور لاصفة كما قيل لأنه نكرة، ويجوز رفعه ونصبه، وفى نسخة: فإنه عبد، **(غفر**

الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)، أى غفر الله له كل ما صدر منه مما يعاتب عليـه، وإن لم يكن معصية لعصمته من الذنوب، ومن كان كذلك فهو جدير بقبول الشفاعة منه.

(فأوتى) بالبناء للمفعول، أى فيأتينى أهل الموقف لسؤال الشفاعة لهم، **(فأقول لهم: أنا لها)** الفاء فصيحة، أى فيسئلونى أن أشفع لهم فأقول لهم: أنا أهلٌ للشفاعة مدخر لها، **(فأستأذن على ربى)**، أى أطلب منه أن يأذن لى فى القرب منه والشفاعة للناس، **(فيؤذن لى)** بالبناء للمجهول، أى يأذن الله لى فى الدخول إلى مكان لا يقف فيه داع إلا أجيب، وهو موقف ليس بينه وبين الله فيه حجاب، وإنما لم نقل من موقف العرض والحساب إلى موقف آخر؛ لأن الموقف الأول محل سياسة وخوف، والثانى موقف كرامة ولطف ورحمة، فهو أدل على قبول الشفاعة واطمئنان قلب الشفيع.

(فإذا رأيته وقعت ساجدا)، أى إذا رأى صلى الله تعالى عليه وسلم ربه عيانا سجد تعظيما لله وشكرا له على تقريبه له، وفيه دليل على وقوع رؤية الله فى الآخرة.

(وفى رواية فآتى تحت العرش)، أى آتى أنا مكانا تحت العرش قريبا منه، **(فأخر ساجدا)**، أى أقع وأسقط فى ذلك المكان ساجدا لله سجدتين، وقال الراغب: خر بمعنى سقط سقوطا يسمع معه صوت كصوت خرير الماء والريح وغير ذلك ما يسقط من علو، وقوله: **(خروا سجدا)** تنبيه على اجتماع أمرين السقوط وحصول الصوت منهم بالتسبيح، وقوله تعالى: ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٥]، تنبيه على أن ذلك الخرير كان تسبيحًا بحمد الله لا بشىء آخر انتهى.

وقال التلمسانى: هذا المكان الذى يأتى له صلى الله تعالى عليه وسلم يسمى فحصة العرش، وهى دار عظيمة وجنة هى أوسع الجنان وأكثرها بساتين، يجتمع فيها أهل الجنة لرؤية ربهم فى كل جمعة، ولم تعد إلا لرؤيته تعالى وإكرام من أكرمه الله برضوانه ومشاهدة عظمة ملكوته مع تنزهه عن الحلول والمكان، وفى المشارق بدل قوله فأوتى فيأتونى، وفى شرحه للكازرونى أنه سمع بتشديد النون وبه ضبط.

قال البرهان: ومقدار كل سجدة جمعة من جمع الدنيا كما فى مسند أحمد، وقيل: مقدارها سبع سنين فانظره.

(وفى رواية فأقوم بين يديه)أى بين يدى الله تعالى، وهوتمثيل لشدة القرب منه وتصوير له، وقيل: الضمير للعرش وهو بعيد ركيك **(فأحمده بمحامد لا أقدر عليها الآن)**، أى لا أحسنها ولا أعرف كيفيتها فى الدنيا **(إلا أن يلهمنيها الله)**، أى إلا أن يوقعها الله فى قلبى بإلهام منه، وإلهام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام نوع من الوحى فى غيرهم ليس

بحجة؛ لأنه لا ينبنى على دليل.

(**وفى رواية فيفتح الله على من محامده**) هو قريب معنى من قوله يلهمنى؛ لأن الفتح إزالة الإغلاق الحسى كفتح الباب، ثم شاع فى حصول الشىء ابتداء من غير عسر (**وحسن الثناء عليه**) هو عطف تفسير لما قبله (**شيئًا لم يفتحه على أحد قبلى**) مطلقًا، أو المراد أنه لم يتيسر لغيره من الرسل قبله ولا بعده، ففيه اكتفاء.

(**قال فى رواية أبى هريرة: فيقال لى**) وأنا ساجد: (**يا محمد! ارفع رأسك**) من السجود، (**وسل**) ما شئت من الشفاعة وغيرها (**تعطه، واشفع تشفع**) الفعلان مجزومان فى جواب الأمر.

(**فأرفع رأسى فأقول: يا رب أمتى يا رب أمتى**)، أى ارحم أو أنج أمتى، وفى رواية تأتى: أمتى أمتى بدون قوله يا رب، وهو معنى الرواية الأولى على الصحيح، وقيل: إنه يحتمل النداء، أى أمتى وناداهم ليأتوه ويكونوا معه لينجوا مما هم فيه، وإنما خصهم على أن هذه الشفاعة هى الشفاعة العظمى الشاملة لسائر الأمم اعتناء بهم، وإشارة إلى أنهم المقصودون بالذات من بينهم، وحذف الفاعل لضيق المقام وشدة الاهتمام بتعجيل خلاصهم ولذا كرر.

(**فيقول**) الله له بعد رفع رأسه (**أدخل من أمتك**)، أى ائذن له فى دخول الجنة (**من لا حساب عليه**)، أى خواص أمتك المتقين الذين لا ذنب لهم يحاسبون بسببه (**من الباب الأيمن من أبواب الجنة**) الذى هو أشرف أبوابها، وهو الباب الثامن، وهو مخصوص بأتقياء هذه الأمة، (**وهم**)، أى الذين لا حساب عليهم (**شركاء الناس فيما سوى ذلك**)، وفى نسخة: فيما سواه، (**من الأبواب**)، وهى باب الصدقة، وباب الصوم ويقال له الريان، وباب الجهاد، وباب التوبة، وباب الكاظمين الغيظ والعافين، وباب الراضين، وباب الصلاة كما بينه المصنف رحمه الله تعالى فى شرح مسلم.

(**ولم يذكر فى رواية أنس هذا الفصل**) الذى فى رواية أبى هريرة من قوله: فيقال: يا محمد ارفع رأسك إلى هنا.

(**ثم مكانه**) وفى نسخة: وقال: مكانه، أى أتى به بدلا منه (**فأخر**) وفى نسخة: ثم أخر، (**ساجدا فيقال لى: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك واشفع تشفع وسل تعطه**) الضمير لما سأل، أو هو هاء سكت للوقف.

(**فأقول: يا رب أمتى أمتى فيقال: انطلق**) أمر، أى اذهب من مقام الشفاعة المقرب به، (**فمن كان فى قلبه مثقال حبة من بر أو شعير**) المثقال بكسر الميم وسكون المثلثة معناه

موازن ومواز؛ لأنه يقابله ليعرف مقدار ثقله فعبر به عن مطلق المقدار، ومن بر إلى آخره بيان للحبة وهى واحدة البر المعروف.

وقوله: **(من إيمان)** بيان لمثقال، أى من كان فى قلبه أقل قليل من الإيمان، والموزون صحف الأعمال، أو هى نفسها بناء على جواز تجسيم الأعراض، وأمور الآخرة لا تقاس بأمور الدنيا، **(فأخرجه)** بقطع الهمزة أمر من الإخراج معطوف على الأمر قبله، **(فأنطلق فأفعل)** ما أمرنى به الله من إخراج من فى قلبه أقل قليل من الإيمان، وهذه الشفاعة إن كانت هى الشفاعة العظمى، فالمراد بإخراجهم تخليصهم من هول الموقف وكربه، وإن كان المراد ما بعدها فالمراد إخراجهم من النار وانطلاقه صلى الله تعالى عليه وسلم كان من مقام القرب الذى وقع فيه الشفاعة كما تقدم؛ ولذا قال: **(ثم أرجع إلى ربى فأحمده بتلك المحامد)** التى ألهمنيها كما تقدم، **(وذكر مثل الأول)**، أى مثل الكلام الأول فى قوله: فأخر ساجدا إ لخ **(وقال فيه)**، أى فى الحديث الذى رواه مسلم: **(مثقال حبة من خردل)**، وهو حب معروف فى غاية الصغر، والمعنى واحد فى كونه كناية عن غاية قلة الإيمان.

(قال: فأفعل ثم أرجع إلى ربى وذكر مثل ما تقدم، وقال فيه) كما رواه مسلم: **(من كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى)**، وهو أفعل تفضيل من الدنو، وأصل معناه القرب فى المكان أو الزمان كقوله تعالى: ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ [الأنعام: ٩٩]، ثم عبر به عن الأقل ويقابل بالأكثر، وعن الأصغر ويقابل بالأكبر، وعن الأرذل ويقابل بالخير كما قال تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، وأفعل هنا مضافة لما بعدها للمبالغة، أى أقل من الأقل، وفى صحيح مسلم من رواية أنس تكرير لفظ أدنى ثلاثا، وهو كذلك فى بعض نسخ الشفاء، وفى بعضها كرر مرتين، ووقع كذلك فى صحيح البخارى من رواية الكشميهنى.

وقوله: **(من مثقال حبة من خردل)** بيان لأدنى الأدنى، وقوله: **(فأفعل)**، أى أخرج من فى قلبه أقل قليل من الإ يمان، **(وذكر فى المرة الرابعة)** من رجوعه إلى ربه ومراجعته له فى الشفاعة، فإنه وقع مرارا فى رواية البخارى، وفيما ذكر دلالة على أن الإيمان يزيد وينقص، فإن قلنا بدخول أعمال الطاعة مطلقا أو الفرض فهو ظاهر، وإن قلنا: إنه لمجرد التصديق القلبى، فاختلف فيه فقيل: لا يقبله فإنه لا يقبله إلا باحتمال النقيض وهو كفر، وذهب العضد وغيره من المحققين إلى أنه يقبله أيضًا فإن اعتقادنا وتصديقنا ليس كتصديق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتفاوته باعتبار قبوله التشكيك وعدمه وتحقيقه فى الكتب الكلامية.

(فيقال لى: ارفع رأسك، وقل تسمع) أى تجب ويقبل رجاؤك، **(واشفع تشفع، وسل تعطه. فأقول يا رب ائذن لى فى)** الشفاعة، وإخراج **(من قال: لا إله إلا الله)** أى من نطق بكلمة التوحيد، والظاهر أنه مع اعتقاده لذلك اعتقادا ما من غير مناقشة له وتفتيش عن حاله، فما قيل من أنه إن اعتبر تصديق القلب اللسان فهو كمال الإيمان، فما وجه الترقى من الأدنى المؤكد وإن لم يعتبر دخل فيه المنافق، وهو مشكل غير متجه فتدبر.

(قال) أى الله تعالى: **(ليس ذلك إليك)** أى ليس ذلك مفوضا إليك، بل إلى، **(ولكن وعزتى وكبريائى وعظمتى)** قسم دال على تحقق المقسم عليه، والعزة الغلبة والقهر، والكبرياء بمعنى الترفع عن الانقياد، والعظمة ظهور ذلك وزيادته وهى متقاربة، **(وجبريائى)** بالمد مضاف لياء المتكلم وجيمه مكسورة وجوز فتحها وباؤه ساكنة، وقيل: إنه مقصور ومد لمشاكلة الكبرياء ورد بأنه سمع كذلك من غير ازدواج، وهو والجبروت بفتح الباء وسكونها بمعنى وتاؤه للمبالغة كالملكوت.

(لأخرجن من النار من قال: لا إله إلا الله) من غير شفاعة أحد، واستدل بهذا الكرامية على أن مجرد النطق بكلمة الشهادة كاف فى صحة الإيمان ولا حجة لهم فيه، وفيه رد على من قال بخلود أصحاب الكبائر من المعتزلة، وما خص النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بإخراجه من أثمر إيمانه مزيد يقين أو عمل ما ، وما أخرجه رب العزة من تجرد إيمانه عن كل شىء عداه، ويدل له قوله فى حديث الشيخين الذى فيه لم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار يخرج فيها قوما لم يعملوا خيرا قط، يعنى غير قولهم: لا إله إلا الله خالصا من قلبه كما ورد فى رواية أخرى، وقوله: من قلبه للتأكيد كنظرت بعينى وسمعت بأذنى.

(ومن رواية قتادة عنه) أى عن أنس رضى الله تعالى عنه **(قال)** أى أنس لا النبى ﷺ كما توهم؛ لأن الشك فى قوله: **(فلا أدرى فى الثالثة أو الرابعة)** إنما هو من الراوى، والمراد بالثالثة والرابعة مرات مراجعته ربه وانطلاقه لإخراج المشفوع لهم. قيل: فى هذا الحديث إشكال؛ لأن أوله يدل على أن هؤلاء أهل الموقف والمحشر، وآخره يدل على أنهم دخلوا النار فأخرجوا منها بشفاعته، وأجيب بأنهم صاروا فرقتين فر قة فى المحشر شفع لهم فلم يعذبوا، وفرقة دخلوها ثم أخرجوا منها بشفاعة، ففى الكلام اختصار وطى.

(فأقول: يارب ما بقى فى النار إلا من حبسه القرآن أى وجب عليه الخلود) أى لم يبقى بعد هؤلاء الخارجين إلا من حكم الله فى القرآن بخلوده فى العذاب، ولم يؤذن فى الشفاعة لهم وهم المنافقون والكفار لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ

﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، أى شفيعا، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، ونحوه من الآيات كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

(وعن أبى بكر) الصديق **(وعقبة بن عامر وأبى سعيد)** الخدرى الصحابى المشهور **(وحذيفة)** بن اليمان **(مثله)** أى مثل الحديث السابق **(قال)**، أى قال كل واحد منهم، أو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلا أن قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(فيأتون محمدا)** يأباه ظاهرا إذ الظاهر أن يقول: يأتونى أى يأتونه صلى الله تعالى عليه وسلم بعد مراجعة الأنبياء، وذكرهم العذر فى عدم الشفاعة لهم، والآتون هم أشراف أهل المحشر من أتباع الرسل، وقال الغزالى فى الكشف: إنهم العلماء العاملون يلهمهم الله تعالى طلب ذلك من الأنبياء.

قال: وبين إتيانهم لكل نبى وآخر بعده ألف عام، لكن قال الحافظ ابن حجر: هذا التعيين للزمن لم أ قف له على أصل، وقد أكثر فى كتبه من مثله فلا تغتر به انتهى.

(فيؤذن له) أى يأذن الله تعالى لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فى الشفاعة، **(وتأتى الأمانة والرحم، فتقومان عن جنبى الصراط)** أى ناحيته يمنة ويسرة واحده جنبة بفتح النون وسكونها، والأمانة ضد الخيانة، والرحم القرابة وأصلها مقر الحمل يعنى أنهما يمثلان أو يجسمان بقدرة الله تعالى؛ ليشهدا على الخائن وقاطع الر حم وخلافهما، وقيل: المراد بالأمانة العظمى التى فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وهى التوحيد والإقرار به فى عالم الذر التى فطر الناس عليها، والرحم هى المذكورة فى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ﴾[النساء: ١]، وهذا التعظيم أمر الله وشفقته على خلقه، وفى هذا ونحوه مما بلغ حدالتواتر المعنوى رد على المعتزلة المنكرين للصراط، كما بين فى الكتب الكلامية، ورأى يحيى بن اليمان رجلا نائما وهو أسود الرأس واللحية شاب، فاستيقظ وهو أبيض شعر الرأس واللحية، فأخبره أنه رأى فى منامه كأن الناس قد حشروا وإذا بنهر من نار وجسر يمر عليه الناس، فدعى فدخل الجسر فإذا هو كحد السيف يمور به يمينا وشمالا، فشاب من ذلك.

(وذكر فى رواية أبى مالك عن حذيفة فيأتون محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فيشفع لهم) فى الخلاص من الموقف وهوله. نسأل الله السلامة. **(فيضرب الصراط)** أى يوضع كما ورد فى رواية أخرى، وعبر به فيما يأتى من ضرب الخيمة إذا نصبها، وعبر بالضرب لدق أوتاده وأطرافه، وتوهم بعضهم أن الضرب بمعنى الجلد، فقال: إن ضربه

يشعر بمرور الصراط نفسه مع من عليه، فإن كان المراد مرور من عليه فضربه لاستعجالهم وتخويفهم، وهذا مما يقتضى منه العجب، وهو جسر ممدود أى منصوب عليها لعبور المسلمين عليه إلى الجنة.

وعن الفضيل بن عياض قال: بلغنا أن الصر اط مسيرة خمس عشرة ألف سنة: خمسة الآلاف صعود، وخمسة الآلاف مستوى لا يجوز عليه إلا ضامر مهزول من خشيته عز وجل، وهذا معضل لا يثبت. فتأمل نفسك إذا جزت علىالصراط، ووقع بصرك على جهنم من تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار وزفيرها وسوادها وسعيرها، وكيف بك إذا وضعت إحدى رجليك عليه فأجلست بحده، ثم اضطررت إلى أن ترفع القدم بعد القدم، والخلائق بين يديك يزلون، والزبانية تلتقطهم بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إلى ذلك فيا له من منظر ما أقطعه، ومد بصر ما أصعبه، ومجاز ما أضيقه نسأل الله السلامة والإعانة والعافية انتهى وهو على متن جهنم أدق من الشعرة وأحد من السيف أو الموسى.

وعند ابن المبارك وابن أبى الدنيا عن سعيد بن هلال بلغنا أن السراط أدق من الشعرة على بعض الناس، ولبعض الناس مثل الوادى الواسع، وهو مرسل أو معضل انتهى كما ورد فى الحديث. وما قيل أنه شعرة من عين مالك لا أصل له، وإنما هو من أكاذيب الوعاظ وأصحاب القصص، والصراط بالصاد والسين والزاء كما بين فىاللغة وكتب التفسير وعلم القراءات.

(فيمرون) أى يمر الناس عليه، فمنهم من يقع فى النار، ومنهم من ينجو، وهم فرق: **(أولهم كالبرق)** فىالسر عة من غير مهلة ومشقة، **(ثم كالريح والطير)** فى السرعة مع الزمان الممتد أكثر من الأول، **(وشد الرجال)** بالجيم جمع رجل ضد المرأة كما صحح فى النسخ والشروح، وصحح العزفى تلميذ المص رواية عنه كما نقله التلمسانى أنه الرحال بالحاء المهملة جمع راحلة وهى رواية ابن ماهان، والمراد به هنا البعير فقد ذكر بعضهم أن الرحل ما يوضع على البعير، ويعبر به تاره عن البعير انتهى، فما قيل أن روايته بالحاء المهملة خطأ خطأ، وإن كان لا يخلو من التكلف وفى بعض الشروح هنا ما يتعجب منه ولا حاجة لنا بإيراده، والشد سرعة الجرى، وقال الراغب: إنه مستعار من قولهم أشد الريح.

وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(ونبيكم صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى هذا الحديث يعنى به نفسه على طريق **التجريد المعروف فى علم البديع.**

(على الصراط) يحتمل أنه على ظاهره، ويحتمل أن المراد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم وقف عنده، لكنه لقربه منه كالواقف عليه.

(يقول: اللهم سلم سلم) جملة حالية تدل على اعتنائه صلى الله تعالى عليه وسلم بهم والدعاء لهم بالسلامة من الوقوع فى جهنم، **(حتى يجتاز الناس)** يجتاز افتعال من الجواز وهو المرور، وهو غاية لقوله، أى لا يزال يقوله حتى يمروا، أو علة له أى قوله حتى يسلموا فيمروا، والناس أعم من أمته.

(وذكر آخرهم جوازًا الحديث) أى اذكره، أى سمى آخر من يمر على الصراط قيل: هو هناد، وقيل: جهينة، وقيل: هما واحد وأحدهما اسم والآخر لقب، والذى رأيناه أن جهينة آخر من يخرج من النار، وعند جهينة الخبر اليقين كما ذكر فى كتب الحديث، وفى شرح التلمسانى قيل: آخر من يخرج من النار هناد ولم يقع اسمه فى الصحيح، وروى أن الحسن قال: يا ليتنى كنت هنادا، فقيل: إنما تمنى هذا لأنه علم أنه قطع له بخاتمة الإيمان فى الحديث، وقيل: لأن بدخوله الجنة كملت النعمة على أهلها لأنهم كالجسد الواحد انتهى.

(وفى رواية أبى هريرة: فأكون أول من يجيز يومئذ) هذا مما رواه الشيخان، فهو أول من يجيز أمته من الرسل، وهو يقتضى أن المراد بالناس السابق أمته، وأنهم أول الأمم جوازًا على الصراط، فله صلى الله تعالى عليه وسلم قصب السبق فى كل أمر، فهو أول من نبىء فى عالم الأرواح والذر، وأول من يشفع، وأول من يفتح باب الجنة، وأول من يدخلها، وأول من يجيز أمته على الصراط. ويجيز مضارع وليس بمعنى جاز كما قيل.

(وعن ابن عباس) رضى الله تعالى عنهما **(عنه صلى الله تعالى عليه وسلم)** أنه قال: **(توضع للأنبياء)** عليهم الصلاة والسلام فى أرض المحشر **(منابر من نور)** جمع منبر أى كرسى مرتفع **(يجلسون عليها)**، والناس وقوف على أقدامهم إكراما لهم وتمييزًا لهم عمن عداهم برفعة مقامهم؛ ليسر المؤمن بهم ويخزى من كفر، **(ويبقى منبرى)** خاليا عنى **(لا أجلس عليه)** حال من المضاف، وقوله: **(قائمًا)** حال من فاعل أجلس فهى متداخلة لا حال بعد حال **(بين يدى ربى منتصبًا)** أى قريبًا منه تعالى قربًا معنويًا؛ لتنزهه عن الزمان والمكان والجارحة، فهو تمثيل.

وقيامه صلى الله تعالى عليه وسلم مع جلوس غيره من الأنبياء فيه زيادة تكريم له؛ لما فيه من الإشارة إلى أنه من المقربين فى حظائر القدس الناظرين فى أمر غيرهم عند ربهم؛ ولذا فرع عليه قوله: **(فيقول الله: ما تريد أن أصنع بأمتك؟)** لما فيه من الدلالة على زيادة

محبته وإكرام أتباعه بما هو فى صورة الاستشارة له، **(فأقول: يا رب عجل حسابهم)** أى قدم النظر فى أمورهم على غيرهم حتى يخلصوا من هول الموقف، ويدخل الجنة من هو داخلها منهم، ويعلم من عذب منهم عدم خلوده فى النار، فلا منافاة بين هذا وحديث «من نوقش الحساب عذب»؛ ولذا قالت عائشة رضى الله تعالى عنها: «لا يحاسب أحد يوم القيامة إلا دخل الجنة».

(فيدعى بهم) أى بأمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وهو مبنى للمجهول كقوله: **(فيحاسبون، فمنهم من يدخل الجنة برحمته)** تعالى من غير شفاعة، لغلبة حسناته على سيئاته ولطف الله تعالى به، **(ومنهم من يدخل الجنة بشفاعتى)** له، وذلك رحمة أيضًا.

(ولا أزال أشفع) فى العصاة **(حتى أعطى صكاكا)** غاية أو علة لاستمرار شفاعته وامتدادها، وصكاك بالصاد المهملة وكاف مكررة جمع صك كصكوك وأصك، وهو الورقه التى تكتب للمصالح والعرف خصها بحجة القاضى، وهو معرب جك بالجيم المعجمة.

(برجال قد أمر بهم إلى النار)، فهى متعلقه بهم فكأنها ترسل خلفهم بعد ذهاب ملائكة العذاب بهم، وأمر مبنى للمجهول أى أمرهم الله بأخذهم ليدخلوها، أو بإخراجهم بعد ما دخلوها **(حتى أن خازن النار)** الملك المؤكل بها وهو مالك، أو المراد خزنتها فيشمل مالك وأتباعه **(ليقول)** لما رآه من كثرة إنقاذه لمن أمر به: **(يا محمدُ! ما تركت لغضب ربك فى أمتك من نقمة)** الغضب إرادة الإنتقام، والنقمة بكسر أوله العذاب أى لم تدع أحدًا ممن استحق العذاب يعذب، وحتى هنا ابتدائية **(ومن طريق زياد)** بن عبد الله البصرى النميرى بالتصغير نسبة إلى نمير قبيله سميت باسم أبيها، وقد اختلف فيه فقيل: إنه ثقة، وقيل: ضعيف لا يحتج به، وهذا الحديث رواه البيهقى وأبو نعيم فى الحلية.

(عن أنس أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: أنا أول من تنفلق الأرض) أى تنشق، والفلق شق الشىء وإبانة بعضه من بعض قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، **(عن جمجمته)** بضم الجيم الأولى والثانية وهى الرأس، أو قحف الرأس وعظمه الذى فيه الدماغ، وخصها لأنها أول ما يظهر منه.

(ولا فخر) أى لا أقول هذا إظهارًا للافتخار والتبجح، بل بيانا لما أنعم الله به على وتحدثا بنعمته، ولا ينافيه ما ورد فى الحديث «لا تفضلونى على موسى فإن الناس

يصعقون فأكون أول من يفيق؛ فإذا موسى آخذ بساق العرش»[1]؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم قاله قبل علمه بأنه سابق عليه فى البعث، وأنه لا يلزم منه أفضلية موسى عليه فتأمل.

(وأنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر) المراد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم سيدهم وأشرفهم فى الدنيا والآخرة، وخص الثانى بالذكر؛ لعدم اعتداده بغيره، أو لأنه يعلم منه بالطريق الأولى، أو لأنه مسلم لا ينكر كما مر.

(ومعى لواء الحمد يوم القيامة) أى معى لواء موضوع عندى، أو هو بيده صلى الله تعالى عليه وسلم على عادة العرب فى أخذ الرئيس اللواء، والمراد لواء الرياسة العظمى الذى يحمده ويغبط به سائر الخلق؛ لتفرده صلى الله تعالى عليه وسلم به، وهو على حقيقته أو كناية عن تقدمه على غيره.

(وأنا أول من تفتح له الجنة ولا فخر) أى يفتح له بابها، وفى نسخة أبواب الجنة، **(فآتى فآخذ بحلقة)** باب **(الجنة)** بسكون اللام كما مر، أى أمسكها وأحركها حتى يسمع خزنتها، **(فيقال: من هذا؟)** الذى دق الباب **(فأقول:)** أنا **(محمد فيفتح لى)**؛ لعلمهم بأنه أذن له صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك، **(فيستقبلنى الجبار تعالى)** أى فأرى الله عيانًا بعد الفتح، وعبر بالجبار دون غيره لأنه يوم جزاء وانتقام كما مر أن الله غضب فى ذلك اليوم غضبا لم يغضب قبله ولا بعده، **(فأخر له ساجدا)**؛ لما شاهده صلى الله تعالى عليه وسلم من عظمة الله تعالى وإنعامه عليه وتجليه له برؤيته ورضوانه.

قال السنوسى: فى هذا تمثيل بجعله كمن قدم على ملك عظيم فى سلطانه وكرسى مملكته ودار كرامته، فاستقبله لما قدم عليه تشريفا له وإظهارًا لعظمة مقامه عنده وتطمينا له ولأتباعه؛ ليزداد سروره مع علوه وجبروته واستغنائه عن خلقه، فلا يتوهم أن المقام يناسب أن يقال: استقبلنى الرحمن لا الجبار.

(وذكر نحو ما تقدم) من حمده بمحامد لم يكن حمده بها قبل.

(ومن رواية أنيس: سمعت رسول الله عليه السلام يقول:) بالتصغير، وفى بعض النسخ أنس مكبر، والصحيح الأول وهو صحابى أنصارى أشهلى ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب، وروى عن شهر بن حوشب، ولم ينسبه وذكر حديثه هذا الطبرانى فى الأوسط، وقالوا: إسناده ليس بقوى، وقول بعضهم يؤيد ضعفه تعلق الشفاعة بما لا يعقل من الشجر والحجر سهو؛ لأن معنى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(لأشفعن يوم**

---

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (١/٣١٢).

القيامة لأكثر مما فى الأرض من حجر وشجر) أنه يشفع لناس أكثر عددا من عدد الشجر والحجر لا ما توهمه، والعجب ممن اعتذر له بأنه لا يعد أن يستغيث به صلى الله تعالى عليه وسلم الجمادات فرقا من نار جهنم وزمهريرها.

(فقد اجتمع من اختلاف ألفاظ هذه الآثار) أى إذا سمعت ما تقدم من الأحاديث مرفوعة وغير مرفوعة، واختلاف ألفاظها فى شفاعته صلى الله عليه وسلم، وتفسير المقام المحمود الذى وعده الله تعالى به تبين لك من مجموعها **(أن شفاعته صلى الله تعالى عليه وسلم ومقامه المحمود)** بالنصب عطف على اسم إن وخبرها قوله الآتى من حين إلى آخره، فلا يتوهم أنه لا خبر لها مذكور وأنه مقدر.

وقوله: **(من أول الشفاعات إلى آخرها)** بيان لمقامه المحمود، وفيه إشارة إلى تعدد شفاعته صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد قال القرطبى: إنها أربعة، وفى الحديث زيادة عليها، وهى شفاعته العظمى فى الخلاص من كرب الموقف لجميع الناس، وشفاعته لدخول أهل الجنة الجنة، وللمذنبين فى العفو عن ذنوبهم، ولمن أمر به إلى النار، ولمن قال: لا إله إلا الله، ولإخراج من دخل النار منها، ولرفع درجات أهل الجنة، كما مر جميع ذلك.

(من حين يجتمع الناس للحشر) هذا خبر أن ومن ابتدائية، **(وتضيق بهم الحناجر)** هذا كناية عن شدة الهول والكرب، والحشر جمع الناس فى المحشر، والنشر الخروج من القبور بعد الإحياء، والحناجر جمع حنجرة وهى الحلقوم أو طبقتان منه مما يلى الغلصمة أو رأسه، أو المراد أنها تضيق عن إخراج النفس لكثرته وشدته؛ لتراكم الغم والهم حتى يبلغها؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨].

(ويبلغ منهم العرق) بفتحتين وهو معروف **(والشمس والوقوف مبلغه)** أى نهايته التى يمكن بلوغها والوصول إليها، وفى الحديث «يكون عرق الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يكون عرقه لكعبه، ومنهم من يكون لركبته، ومنهم من يزيد حتى يلجمه»، قالوا: وهذا أمر خارق للعادة، فإن الناس إذا كانوا فى الماء فى مكان مستو يكون تغطية الماء لهم على السواء، ومبلغ الشمس قدر ميل، وهذا أيضا خارق للعادة؛ فإن الشمس ليست فى سماء الدنيا كما أنهم عراة، ولا يرى أحدهم عورة غيره.

(وذلك قبل الحساب) الإشارة إلى اجتماعهم للحشر.

(فيشفع حينئذ لإراحة الناس من الموقف) أى حين إذ تضيق الحناجر، ويبلغ ذلك مبلغه، **(ثم يوضع الصراط)** السابق ذكره، ومر أنه ليس شعرة من جفن مالك كما قيل،

(ويحاسب الناس كما جاء فى الحديث) الذى تقدم ذكره **(عن أبى هريرة وحذيفة، وهذا الحديث أتقن)** أى أكثر إتقانا من غيره، **(فيشفع فى تعجيل من لا حساب عليه من)** أتقياء **(أمته)**، ويشفع معلوم أو مجهول لكونه معلوما **(إلى الجنة)** متعلق بتعجيل **(كما تقدم)** من دخولهم من الباب الأيمن، **(ثم يشفع)** شفاعة ثانية **(فيمن وجب عليه العذاب)** أى تحقق، فالوجوب ليس على ظاهره، **(ودخل النار منهم)** كما تقدم **(حسب)** بسكون ثانيه وفتحه ونصبه على المصدرية أو الظرفية، أى على وفق ومثل **(ما تقتضيه الأحاديث الصحيحة)** السالفة، **(ثم)** يشفع **(فيمن قال: لا إله إلا الله)** خالصا مخلصا من قلبه كما تقدم.

فإن قلت: هذا ينافى ما تقدم من قوله: فأقول: يا رب ائذن لى فيمن قال لا إله إلا الله، فيقول: ذلك ليس إليك.

قلت: أجيب عنه بأنه ليس فيه إلا أن إخراجهم من النار مفوض إلى الله، لا إليه صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو لا ينافى إخراجهم بشفاعته، وفيه خفاء. وقد يقال: المذكور شفاعته فقط، وقيل: المراد من أثمر توحيده زيادة طمأنينة له، والسابق المفوض لله تعالى من تجرد توحيده عما عداه.

(وليس هذا) أى الشفاعة فيمن قال: لا إله إلا الله **(لسواه)** من الشفعاء.

(وفى الحديث المنتشر) أى الشائع ولا يلزم منه صحته، فلذا قال: **(الصحيح)** الذى رواه الشيخان **(لكل نبى دعوة يدعو بها)**، تقدم أن المراد بها دعوته لجميع أمته، لا مخصوصة به أو ببعض أمته، وإلا فللأنبياء عليهم الصلاة والسلام دعوات كثيرة مستجابة، بل لبعض أممهم بدليل قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(واختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة)**.

وأشار المصنف رحمه الله إلى جواب آخر بقوله: **(قال أهل العلم: معناه)** أى معنى هذا الحديث المقصود منه **(دعوة أعلم)** بضم الهمزة وكسر اللام مبنى للمجهول أى أعلمه الله، وروى أعلموا بالبناء للمجهول أى الأنبياء، وعلى الأول النائب للفاعل ضمير مستتر، وقوله: **(أنها تستجاب لهم)** مفعول ثان له أى يتيقنون إجابتها، **(ويبلغ فيها مرغوبهم)** بالبناء للمجهول، ومرغوبهم أى مطلوبهم الذى رغبوا فى حصوله وأحبوه نائب الفاعل، **(وإلا)** أى وإن لم نقل أن معناه ما ذكر بأن يبقى على ظاهره، وأنه يستجاب له دعوة فقط كان مخالفًا للواقع، **(فكم لكل نبى من دعوة مستجابة)** أى أجاب الله تعالى دعاءه بها فى الدنيا.

(ولنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم) خصوصا **(منها ما لا يعد)** من الدعوات المشاهد استجابتها، **(ولكن حالهم عند الدعاء بها)** قبل تحقق إجابتها **(بين الرجاء)** لإجابتها **(والخوف)** من عدم قبولها، **(وضمنت لهم إجابة دعوة فيما شاءوه يدعون بها على يقين من الإجابة)** أى ضمن الله لهم قبولها يقينا، وهذه هى الدعوة المذكورة فى هذا الحديث، والجار والمجرور حال أى متيقنا إجابتها، ثم أشار إلى جواب آخر بقوله:

(وقد قال محمد بن زياد) الجمحى البصرى الثقة الذى أخرج له أصحاب الكتب الستة، **(وأبو صالح)** ذكوان السمان الثقة **(عن أبى هريرة فى)** تأويل **(هذا الحديث)** وتفسيره: **(لكل نبى دعوة دعا بها فى)** حق **(أمته)** وشأنهم، سواء كانت لهم أم عليهم، **(فاستجيب له، وأنا أريد أن أؤخر دعوتى شفاعة)** بالنصب أى لأجل الشفاعة، **(لأمتى يوم القيامة، وفى رواية أبى صالح)** السابق ذكره، وهذا مما رواه الشيخان عنه: **(لكل نبى دعوة مستجابة، فتعجل كل نبى دعوته)** فيه إقامة الظاهر مقام المضمر؛ لأن المقام بشارة يطلب فيه البسط.

(ونحوه فى رواية أبى زرعة) بن عمر بن جرير بن عبد الله البجلى الإمام الثقة أخرج له أصحاب الكتب الستة، وقد اختلف فى اسمه فقيل: جرير وقيل: عبد الله وقيل: عبد الرحمن وقيل: هرم وقيل:هذا وهم وإنما هو هارم وقيل: عمرو**(عن أبى هريرة)** رضى الله تعالى عنه.

(وعن أنس مثل رواية ابن زياد عن أبى هريرة) أى موافقة لها معنى، وأشار بكثرة طرقه إلى صحته وقوة روايته، ثم بين المراد بهذا الجواب، وأنه غير الجواب السابق بقوله: **(فتكون هذه الدعوة مخصوصة بالأمة مضمونة الإجابة، وإلا)** أى وإن لم يفسر الحديث بما ذكر لزم الخلف، **(فقد أخبر صلى الله تعالى عليه وسلم أنه سأل لأمته أشياء من أمور الدين والدنيا منع بعضها وأعطى بعضها)** فتبين أنها ليست الدعوة الموعود بها، وهذا إشارة لما فى الصحيح من أنه صلى الله تعالىعليه وسلم قال: «سألت الله عز وجل ثلاث خصال فأعطانى ثنتين ومنعنى واحدة منها، سألته أن لا يهلكنا بما أهلك به الأمم فأعطانيها، وسألته أن لا يظهر علينا عدوًا من غيرنا فأعطانيها، وسألته أن لا يلبسنا شيعا»(١)، وفى رواية يذيق بعضنا بأس بعض فمنعها. وهو المذكور فى سورة الأنعام فى آية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ﴾ [الأنعام: ٦٥]، إلخ، ومن فسر الدعوة التى ادخرها بهذا، فقد أخطأ وغفل عن قوله:

(١) أخرجه مسلم فى الفتن (٢٠)، وأحمد (١/١٨٢)، والطبرانى فى الكبير (١/٦٥)، وابن أبى شيبة (١٠/٣٢١).

(وادخر لهم هذه الدعوة) بالدال المهملة المشددة أى جعلها ذخيرة مؤخرة **(ليوم الفاقة)**، وهى الفقر وشدة الحاجة، والمراد يوم القيامة لاحتياج الناس فيه إلى رحمة الله تعالى، وشفاعة نبيه حيث لا ينفع غيره، **(وخاتمة المحن)** جمع محنة بكسر الميم، وهى البلية المحيرة يعنى هول الموقف إذ لا بلية بعده إلا النار، **(وعظيم السؤال والرغبة)** بالجر معطوف على يوم الفاقة أو على الفاقة، أو جعل اليوم نفس محنة، والرغبة عطف تفسيرى لما قبله أو هو أخص منه.

ولما ذكر ما تفضل به النبى صلىالله تعالى عليه وسلم على أمته الداخل فيهم دخولا أوليا ختم الفصل بدعائه له بقوله: **(جزاه الله)** تبارك وتعالى **(ما جزى نبيًّا عن أمته)** أى بما جزاه، أو بمثله، وفى نسخة أحسن، **(وصلى الله تعالى عليه وسلم تسليما كثيرا)** دائما أبدا إلى يوم الدين، ولبعض الشراح هنا كلام طويل لا طائل تحته تركناه خوف السآمة مما لا فائدة فيه، والله تعالى أعلم.

* * *

(فصل فى تفضيله صلى الله تعالى عليه وسلم)

على غيره (فىالجنة بالوسيلة) [والدرجة الرفيعة والكوثر والفضيلة]

أصل الوسيلة أمريكون موصلا لأمر تبتغيه، كالهدية والتودد ونحوه.

قال الراغب: الوسيلة التوسل إلى الشىء برغبة، وهى أخص من الفضيلة، ولتضمنها معنى الرغبة عديت بإلى قال تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة، وتحرى مكارم الشريعة وهى كالقربة انتهى. والمراد بها منزلة عالية فىالجنة كما سيأتى، فهو مجاز من باب إطلاق السبب على المسبب، ومن فسرها بالقرب من الله تعالى فقد تسامح فى العبارة. قال الزبيدى: يقال: وسل إذا تقرب لأنها المقرب.

(والدرجة الرفيعة) أى المرتفعة العالية، والدرجة هنا المنزلة وأصلها ما يصعد فيه كدرجات السلم، وهذا تفسير لما قبله، وقال السخاوى فى المقاصد الحسنة: لم ترد هذه اللفظة فى الدعاء الذى يدعى به عقب الأذان كما يفعله من لا خبرة له بالسنة، فذكره فىالدعاء لا أصل له.

(والكوثر) تقدم تفسيره، وأنه فوعل من الكثرة، والمراد به نهر فىالجنة، **(والفضيلة)** فعيلة من الفضل ضد النقص، ثم ذكر المصنف شواهد لتفضيله فىالجنة على غيره منها حديث رواه مسلم وأبو داود والترمذى، واقتصر فى الرواية على ما فى أبى داود دون

الترمذى ومسلم؛ لقرب سنده إلى الأول دونهما، فقال: (**حدثنا القاضى أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمى**) نسبة لتميم قبيلة، وقد تقدمت ترجمته، (**والفقيه أبو الوليد هشام بن أحمد**) تقدم أيضا (**بقراءتى عليهما**) لا بسماعى من لفظهما، وفى نسخة عليه بالإفراد، وهذه أعلى من السماع من شيخه كما علمت.

(قالا: حدثنا أبو على الغسانى) الجيانى السابق ذكره قال: (حدثنا النمرى) بفتح النون والميم، وهو الإمام ابن عبد البر المتقدم قال: (**حدثنا ابن عبد المؤمن**) قال: (**حدثنا أبو بكر التمار**) بفتح المثناة الفوقية نسبة إلى التمر المعروف، وتقدم أن الأول عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن القرطبى، وأبو بكر التمار تقدمت ترجمته أيضا قال: (**حدثنا أبو داود**) الحافظ صاحب السنن، وقد تقدم أيضا قال: (**حدثنا محمد بن سلمة**) بفتح السين واللام، وما فى بعض النسخ من أنه مسلمة بميم فى أوله سهو من الناسخ، وهو أبو الحارث محمد بن سلمة المرادى المصرى، أخرج له أصحاب الكتب الستة، وتوفى سنة مائتين وثمان وأربعين قال: (**حدثنا ابن وهب**) هو عبد الله بن وهب تقدمت ترجمته (**عن ابن أبى لهيعة**) بفتح أوله وكسر ثانيه، وهو عبد الله الحضرمى ثم المصرى الإمام الحافظ، وهو ثقة خلافا للذهبى إذ ضعفه روى عنه مالك وأصحاب السنن، وتوفى سنة مائة وأربع وسبعين، (**وحيوة**) بفتح الحاء المهملة وسكون المثناة التحتية واو وهاء، وقياسه حية بالإدغام إلا أنه لم يغيره فرقا بين العلم وغيره، وهو ابن شريح الحمصى ثم المصرى، توفى سنة مائتين وأربعة وعشرين، وروى عنه أصحاب السنن، (**وسعيد بن أبى أيوب**) أبو يحيى بن مقلاص الخزاعى المصرى الثقة، أخرج له أصحاب السنن، وتوفى سنة إحدى وستين ومائة.

(**عن كعب بن علقمة**) بن عمرو بن زيد بن جشم الأنصارى الخزرجى الصحابى البدرى، توفى سنة أربع وثلاثين وله ستة وسبعون سنة، وفى بعض النسخ عن كعب عن علقمة والصواب الأول.

(**عن عبد الرحمن بن جبير**) القرشى مولى نافع الثقة توفى سنة سبع وتسعين، وأخرج له أصحاب الكتب الستة.

(**عن عبد الله بن عمرو بن العاص**) السابق ذكره (**أنه سمع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول**) حال، وعبر بالمضارع للحكاية حتى كأنه مشاهد حاضر: (**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول**) من كلمات الأذان غير الحيعلتين، فإنه يقال عند سماعهما: لا حول ولا قوة إلا بالله. وهذا على سبيل الندب على الصحيح، وفى قول عند الشافعية أنه واجب، وإذا تكرر سماعه تكفى إجابة الأول، وفى فتاوى ابن عبد السلام أنه يندب

إجابة الكل، والأول أصح، وكذا فى الإقامة عند الشافعى، ويقول عند قوله: قد قامت الصلاة: أقامها الله وأدامها، وعند قوله: الصلاة خير من النوم: صدقت وبررت قيل: ولا يلزم سماع جميعه ولا فهمه.

(ثم صلوا على) أى قولوا عقب الإجابة: اللهم صلى وسلم عليه، وهذا مندوب أيضا، **(فإنه من صلى على)** أى أتى بصيغة من صيغ الصلاة مرة واحدة بقرينة قوله: **(صلى الله عليه بها)** أى بصلاته، وضمير إنه للشأن **(عشرا)** لتضاعف الحسنات.

(ثم سلوا الله لى الوسيلة) أى ادعو الله لى بأن يؤتينيها، فقولوا: اللهم آت محمدا الوسيلة، ثم فسرها بقوله: **(فإنها منزلة فى الجنة)** أى مقام عال فيها أعلى مما عداه **(لا ينبغى)** أى لا يليق إعطاؤها **(إلا لعبد)** عظيم جليل عند الله، فالتنوين والتنكير للتعظيم **(من عباد الله)** الأشراف الأقربين، فالإضافة لاختصاصهم بالشرف والقرب من سيدهم قال ابن كثير: هى أقرب منازل الجنة إلى العرش وأعلاها وأشرفها، وتقدم أن الوسيلة من التوسل وهو التقرب.

فإن قلت: ما وجه تخصيص الدعاء بها بعد الأذان؟.

قلت: لما كان المؤذن يدعو الناس للصلاة وهى مقربة إلى الله ومعراج المؤمنين، وهذا مما من الله به علينا بإرشاده وهدايته، ناسب أن يجازى ذلك بالدعاء بالقرب من الله ورفعة المنزلة، فإن الجزاء من جنس العمل.

(وأرجو أن أكون أنا هو) ضمير الغيبة للعبد، وأنا مبتدأ أوهو خبر، والجملة خبر أكون، وكون أنا تأكيد للضمير المستتر وهو خبر استعير ضمير الرفع للمنصوب أو وضع موضع الظاهر والأصل أكون أنا إياه، وذلك خلاف الظاهر، وتعبيره ﷺ بالرجاء مع تحقق اختصاصه بأرفع المنازل عند ربه تأدبا وتشريفا لأمته بالدعاء له، وفيه دليل على جواز دعاء المفضول للفاضل؛ ليفوز بالثواب كما أشار إليه بقوله: **(فمن سأل الله تعالى لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة)** بالحاء المهملة وتشديد اللام بمعنى وجبت من حل يحل كضرب يضرب، أو غشيته ونزلت عليه من حل يحل كقعد يقعد، وروى وجبت، وروى له بدل عليه، ولا حاجة لجعل اللام بمعنى على؛ لأن وجب يتعدى، وليس المراد بالوجوب معناه المشهور، بل التحقق والتيقن، ولا يستشكل بأن الشفاعة للمذنبين وقائلها ليس بمذنب، بل عابد لله تعالى؛ لأن الشفاعة أنواع كما مر كالشفاعة فى دخول الجنة من غير حساب، وفى رفع الدرجات وزيادة العطيات، ولا يختص هذا بمن قاله مخلصًا مستحضرًا لأخلاقه صلى الله تعالى عليه وسلم بل يكفى فيه مجرد قصد

الثواب، إلا أنه ينبغى أن لا يكون غافلا لاهيا، واستحباب هذا لغير المصلى فرضا أو نفلا، فإن قاله فيها لا تبطل صلاته؛ لأنه ذكر إلا فى قوله: صدقت فإنه من كلام الناس فتأمل.

(وفى حديث آخر) رواه الترمذى أيضا **(عن أبى هريرة الوسيلة أعلى درجة فى الجنة)** مخصوصة به صلى الله عليه وسلم، وهى أقرب إلى العرش من سائر المنازل، وليس هذا معلوما من الحديث السابق إلا أنه المراد منه .

(وعن أنس) فى حديث رواه البخارى **(قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: بينا أنا أسير فى الجنة)** تقدم الكلام على بينا بالألف، والظاهر أن هذا كان مناما، ويحتمل أنه يقظة فى الإسراء **(إذ عرض لى نهر)** أى فاجأنى عروضه أى ظهوره بمرورى عليه.

(حافتاه) أى جانباه وشطاه، وهو بتخفيف الفاء المفتوحة وهو مبتدأ خبره **(فيهما لؤلؤ مثل القباب)**، وفى نسخة حافتاه قباب اللؤلؤ جمع قبة المعروفة، أو هى بيت صغير تضربه العرب لتنزل فيه، والجملة صفة نهر بسكون الهاء وفتحها، والمراد أنها لؤلؤ حقيقى أو مثله فى الحسن والنضارة.

(قلت لجبريل: ما هذا؟) النهر لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يعرفه **(قال: هذا الكوثر الذى أعطاكه الله)** أى وهبه لك فى قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر:١]، وهو فوعل صفة مشبهة من الكثرة؛ لكثرة مائه وأوانيه، ولذا فسره ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بالخير الكثير كما يأتى بما فيه، وهو أصل معناه ثم نقل وجعل علما لهذا النهر، ودخلت عليه اللام للمح الأصل، ووصل الضميرين المنصوبين على اللغة الفصحى، ولو فصل وقال: أعطاك إياه جاز، وورد فى صفته أنه أبيض من اللبن وأحلى من العسل كما سيأتى.

(قال) رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(ثم ضرب)** جبريل عليه الصلاة والسلام **(بيده إلى طينه)** بالتنوين والإضافة إلى ضمير النهر، وسماه طينا لأنه بمنزلته وعلى صورته، وضرب يده مجاز عن إدخالها فيه، **(فاستخرج مسكا)** أى أخرج من قعره وعرضه ليعرفه بفضله، وأن طينه مسك فليس كأنهار الدنيا.

(و) روى **(عن عائشة وعبد الله بن عمرو)** بن العاص **(مثله)** أى مثل حديث أنس المذكور.

(قال) أى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذا الحديث: **(ومجراه)** بفتح الميم مصدر ميمى أى جرى هذا النهر، أى مجرى مائه **(على الدر والياقوت)** الذى فوق طينه

الذى هو مسك، كما أن الأنهار تجرى على طين وحصى، فهذا طينه مسك وحصاه جواهر، فلا منافاة بين كون مجراه على الجوهر، وكون طينه مسكا كما مر.

(وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج) بفتح المثلثة وسكون اللام قبل الجيم وفتحها مصدر ثلج صدرى بكذا أى برد لتيقنه، وأبيض أفعل تفضيل من البياض، وقد سمع من العرب على خلاف القياس فلا ينافى قول النحاة أن أفعل التفضيل لا يصاغ من الألوان كما مر، ويجوز أن يكون صفة كأحمر وأسود إلا أنه خلاف الظاهر، وفى الحديث : «إن الله أعطانى نهرا يقال له الكوثر لا يكاد أحد من أمتى يسمع خريرة إلا سمعه»، فقيل: يا رسول الله! كيف ذلك؟ قال: «أدخل إصبعيك فى أذنيك وسدهما فالذى تسمعه خريره»[1]، نقله السهيلى، وفى رواية أبيض من اللبن، وكونه أحلى من العسل لا ينافى أن من أنهار الجنة نهرا من عسل.

وفى رواية عنه **(فإذا هو)** أى الكوثر **(تجرى)** جريا معتدلا، **(ولا يشق شقا)** جملة حالية من ضمير يجرى أى لا يشق الأرض بشدة جريه، وكذا سائر أنهار الجنة تجرى من غير أن تتخذ أخدودا كما قاله التلمسانى، ويشق مبنيا للفاعل، وقيل: إنه روى مبنيا للمجهول، وقيل: المراد أنه يجرى معترضا لا مستطيلا من قولهم: شق البرق إذا لمع مستطيلا، وهو بعيد؛ لما ورد فى الحديث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: لا تظنون أن أنهار الجنة أخدودا، لا والله إنها السائحة على وجه الأرض، وقد يرجع ما ذكر إليه فيكون المعنى واحدًا.

(عليه) أى على الكوثر **(حوض)**، والظاهر أنه بجانب قريب منه كما يقال: مررت على زيد أى على مكان قريب منه، والحوض معروف، وقد قيل: المراد بكونه عليه أنه يمتد منه؛ لأن عليه ميزانين يشخبان فيه من الكوثر إلا أنه بجانبه إذ هو فى الجنة، والحوض خارجها للحديث الآتى: «ليردن على أقوام أعرفهم ولا يعرفونى ثم يحال بينى وبينهم»، فأقول: إنهم أمتى، فيقال: لا تعلم ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقا سحقا لمن غير بعدى[2]، فتأمل.

(ترد عليه أمتى) أى يأتونه للشرب منه، ولعله بعد الحساب والنجاة من النار **(وذكر حديث الحوض)** الآتى، وهذا يدل على أنه غير الكوثر، وقد جاء فى بعض الأحاديث أن الكوثر هو الحوض، والحق أنه غيره على قول من أقوال عدة، ولو قيل بتعدد الحوض لم يبعد.

---

(١) انظر: كشف الخفا (١/١١٠)، وتذكرة الموضوعات (١٦٦).

(٢) أخرجه البخارى (٩/٥٩)، ومسلم فى الفضائل (٢٦).

(**ونحوه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما**) أى روى عن ابن عباس ما يوافقه.

(**وعن ابن عباس أيضًا**) أى فى رواية أخرى ذكرها البخارى (**قال**) فى تفسيره: (**الكوثر الخير الكثير الذى أعطاه الله إياه**) تشريفًا له صلى الله تعالى عليه وسلم وتكريمًا، وهذا بناء على أنه فوعل من الكثرة مطلقا، ثم خص بالكثير من الخير، وبالنهر الذى فى الجنة، فإن أراد ابن عباس بهذا بيان ما وضع له لغة أو بيان معنى عام خص فى الحديث والآية فلا كلام فيه، وإن أراد تفسير ما فى الآية فالأحاديث الصحيحة وردت بخلافه.

وفى الآية ستة عشر قولاً **فقيل**: إنه النهر السابق ذكره. **وقيل**: النبوة والكتاب. **وقيل**: القرآن. **وقيل**: الإسلام. **وقيل**: تحقيقات الشريعة. **وقيل**: كثرة الأمة. **وقيل**: رفعة الذكر. **وقيل**: نور النبوة المحمدية. **وقيل**: كثرة المعجزات. **وقيل**: الدعوات المجابة له صلى الله تعالى عليه وسلم. **وقيل**: كلمة التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله. **وقيل**: الفقه فى الدين. **وقيل**: الخمس صلوات التى خصت بها أمته صلى الله تعالى عليه وسلم. **وقيل**: الحوض، والأصح أنه نهر فى الجنة مخصوص.

(**وقال سعيد بن جبير: والنهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه**) يعنى أنه على عمومه، وهذا داخل فيه أو هو المراد منه، (**و**) يؤيده ما روى (**عن حذيفة**) بن اليمان (**فيما ذكره عليه الصلاة والسلام عن ربه**) حيث بينه له فى حديث قال فيه: (**وأعطانى الكوثر، وهو نهر فى الجنة يسيل فى حوضى**) الذى فى الموقف، أو بعد الصراط يسقى منه أمته، وفيه إشارة إلى تفسيره بالحوض؛ لأن ماءه منه.

(**وعن ابن عباس**) فى حديث صحيح رواه ابن جرير بسنده وابن حبان (**فى**) تفسير (**قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾**) [الضحى: ٥]، أى يعطيك إلى أن ترضى بما أعطاه لك وتقر عينك.

(**قال**) من جملة ما أعطاه (**ألف قصر من لؤلؤ ترابهن المسك**) أى هى من لؤلؤ، وترابها من المسك، فالضمير للقصور الذى دل عليها قوله ألف قصر، (**وفيه**) أى فى كل قصر، فأعاد الضمير عليه مفردا رعاية للفظه؛ لأن كل مفرد مذكر (**ما يصلحهن**) الضمير عائد عليه أيضا رعاية لمعناه، وقيل: ضمير فيه عائد عليه نظرا للفظ قصر، أو لتأويله بما ذكر، فما قيل أن صوابه فيهن لا وجه له، والمراد ما يقوم بمصالح تلك القصور من الخدم والزوجات والآلات كالأوانى كما أشار إليه بقوله:

(**وفى رواية أخرى: وفيه ما ينبغى له**) أى فى كل قصر ما يناسبه ويليق به (**من**

الأزواج والخدم) بفتحتين جمع خادم، وفعل جمع لفاعل ورد فى ألفاظ ذكرها النحاة، وقيل: إنه اسم جمع والأزواج جمع زوجٍ أو زوجة، وذكر هذا هنا لمناسبته للمنزل والمقام، وهذا الحديث رواه المصنف موقوفًا على ابن عباس أنه كان فاعل، قال ابن عباس لا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو الظاهر.

ورواه الأوزاعى مرفوعًا إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: حدثنا إسماعيل ابن عبد الله عن على بن عبد الله بن عباس عن أبيه عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه رأى ما هو مفتوح على أمته فسر بذلك، فأنزل الله عز وجل عليه: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٢]، إلى قوله ﴿فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥]، فأعطاه الله عز وجل ألف قصر إلخ.

وقيل فى الآية: إنه إعطاء ما هو شامل لكل خير أعطاه ولما ادخره له مما لا يعرف كنهه إلا الله، وتقدم أنها لما نزلت قال صلى الله تعالى عليه وسلم: إذن والله لا أرضى وأحد من أمتى فى النار، وقد تقدم الكلام عليه.

* * *

(فصل)

فى بيانه شبهة ترد على ما تقدم

من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل الرسل وأعظمهم عنده وجرد من نفسه سائلا خاطبه بقوله: **(فإن قلت)** وأتى بالفاء الاستئنافية إشارة إلى نشأته مما قبله وترتبه عليه: **(قد تقرر من دليل القرآن)**، وفى نسخة فإذا تقرر أى تحقق وثبت، وإضافة دليل للقرآن بيانية أو تخصيصية لامية، **(وصحيح الأثر)** أى الحديث، وهو معطوف على القرآن أو على دليل، **(وإجماع الأمة)** المحمدية **(كونه)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(أكرم البشر)** أى أشرف بنى آدم، **(وأفضل الأنبياء)** والرسل خاصة منهم، ولم يقل: أكرم الخلق لأن قوله: إجماع الأمة يأباه؛ لما فيه من خلاف المعتزلة فى خواص الملائكة وإن كان الصحيح خلافه، فلا وجه للاعتراض بذلك.

(فما معنى الأحاديث الواردة بنهيه صلى الله عليه وسلم عن التفضيل؟) بين الأنبياء أو الناهية بتفضيله عليهم، **(كقوله)** صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه الشيخان ورواه المصنف رحمه الله تعالى من طريق مسلم **(فيما حدثناه)** متعلق بكقوله، أو حال منه **(الأسدى)** نسبة إلى أسد قبيلته قال: **(حدثنا السمرقندى)** تقدمت ترجمته قال: **(حدثنا الفارسى)** عبد الغافر السابق ترجمته قال: **(حدثنا الجلودى)** تقدم بيانه وبيان نسبته قال:

(حدثنا ابن سفيان) إبراهيم بن محمد ابن سفيان السابق ترجمته قال: **(حدثنا مسلم)** الإمام صاحب الصحيح المتقدم قال: **(حدثنا ابن المثنى)** محمد أبو موسى البصرى، توفى سنة اثنين وخمسين ومائتين كما تقدم قال: **(حدثنا محمد بن جعفر)** أبو عبد الله الهذلى البصرى والملقب بغندر بضم الغين المعجمة وسكون النون وضم الدال وفتحها وراء مهملة، وقد تقدم أنه توفى فى ذى القعدة سنة ثلاث أو أربع وتسعين ومائة قال: **(حدثنا شعبة)** بن الحجاج بن بسطام كما تقدم **(عن قتادة)** تقدم بيانه قال: **(سمعت أبا العالية)** التابعى السابق ترجمته **(يقول حدثنى ابن عم نبيك صلى الله تعالى عليه وسلم يعنى ابن عباس)** رضى الله تعالى عنهما ابن عبد المطلب المشهور، وهو أحد العبادلة وغالب روايته عن الصحابة رضى الله تعالى عنهم لصغر سنه فى زمانه صلى الله تعالى عليه وسلم، واختلف فيما رواه عنه بلا واسطة فقيل: أربعة أحاديث، وقيل: تسعة، وقيل: عشرة، وقيل: عشرون حديثًا.

(عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: ما ينبغى) أى ما يصح ولا يجوز **(لعبد)** من عباد الله نبيًا كان أو غيره **(أن يقول: أنا خير من يونس بن متى)** بفتح الميم وتشديد التاء المثناة الفوقية وألف مقصورة، وهو اسم أمه، وقيل: اسم أبيه، وصحح كلا من القولين طائفة، والأول أشهر كما مر، وهو من ولد بنيامين بن يعقوب عليه الصلاة والسلام، وكان بعد سليمان عليه الصلاة السلام، وقيل: كان بينهما أيوب عليه الصلاة والسلام، وكان قبل النبوة من عباد بنى إسرائيل، فهرب ونزل بشاطىء دجلة فبعثه الله إلى أهل نينوى من أرض الموصل وهو ابن أربعين سنة، فضاق ذرعًا بالرسالة فشكى ذلك للملك وأعلمه أنهم إن لم يستجيبوا له حل بهم العذاب، وأجل لهم أربعين يومًا وأعلمهم بالأجل، فقالوا: إن رأينا أمارات ذلك آمنا بك وانصرفوا، فلما مضى من الميقات خمسة وثلاثون يوما غامت السماء بغيم أسود له دخان، فأيقنوا بالعذاب، فخرجوا من القرية بأهلهم، وفرقوا بين النساء وأولادهن، وضجوا إلى ربهم، فرحمهم فقبل توبتهم، وساح يونس عليه الصلاة والسلام فى الأرض، ومر براع سقاه لبنا فقال له اقرأ على قومى السلام فقال له: يا نبى الله لا أستطيع فإن من كذب منا قتل فقال له: إن كذبوك فشاتك وعصاك يشهدان لك، فأخبرهم فأنكروا مقاله، فشهد له الشاة وعصاه فصدقوه وملكوه عليهم أربعين سنة، وقيل كان ميقاته ثلاثة أيام فانتظر يونس فخاف؛ لأنه من كذب ولم يقم بينة قتل فى شرعهم، فذهب مغاضبا وركب سفينة فركدت وغيرها من السفن يسير، فسألوه عن سبب ذلك فقال: إن عبدًا أبق من ربه وإنها لا تسير حتى يلقوه فى البحر، فقالوا: أما أنت يا نبى الله فلا نلقيك، فقال: اقترعوا فاقترعوا ثلاث

مرات وسهم القرعة يقع عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، فألقوه فابتلعه حوت وغاص به إلى قرار الأرض، فسمع يونس تسبيح الحصى، ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، ﴿۞فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ﴾ [الصافات: ١٤٥]، كطير ممعوط لا ريش له، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين استظل بها وأصاب منها فيبست، فبكى فأوحى الله إليه أتبكى على شجرة يبست ولا تبكى على مائة ألف أو زيادة هلكوا فنادى ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، واختلف فى مكثه فى بطن الحوت، فقيل: بعض يوم، وقيل: عشرون، وقيل: سبعة أيام، وقيل: أربعون يوما وقيل:ثلاثة وإنما خص يونس بالذكر لما يعلم مما يأتى، وهو خشية ممن سمع قصته أن يقع فى نفسه شىء لقلة صبره وعدم ثباته فى الشدائد، ويأتى أن المنهى عنه تفضيل يؤدى إلى تنقيص أحد منهم؛ ولذا قيل: إن من قال: أنا خير من بعض الأنبياء يخشى عليه الكفر إن لم يكن نبيا، فإن كان فلا ينبغى له ذلك، وهذا مخصوص بما إذا لم يكن كذلك وقاله افتخارا؛ ولذا وقع من نبينا صلى الله عليه وسلم تحدثا بنعمة الله.

(وفى غير هذا الطريق) المذكور آنفا **(عن أبى هريرة قال يعنى رسول الله)** صلى الله تعالى عليه وسلم: **(ما ينبغى لعبد الحديث)** أى اذكره إلخ كما مر.

(وفى حديث أبى هريرة) رضى الله تعالى عنه الذى رواه الشيخان فى رجل من الأنصار تنازع مع يهودى بالمدينة، وبينه المصنف رحمه الله تعالى بقوله: **(فى اليهودى)** أى فى رجل من اليهود، و لم يذكروا اسمه **(الذى قال: والذى اصطفى موسى على البشر)** أى اختاره وفضله على سائر بنى آدم من الأنبياء وغيرهم، **(فلطمه رجل من الأنصار)** لم يذكروا من هو، وفى سيرة ابن إسحاق أن اسم اليهودى فنحاص، **(وقال)** أى الرجل الأنصارى: **(تقول ذلك)** أى تفضيل موسى على البشر، **(ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين أظهرنا)** جملة حالية أى مع وجود النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الذى هو أفضل من موسى وغيره، ولفظ أظهر جمع ظهر مقحمة أى بيننا، **(فبلغ ذلك)** الذى قاله اليهودى والرد عليه **(النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: لا تفضلوا بين الأنبياء)** بالضاد المعجمة، أى لا تقدموا على الحكم بأفضلية بعضهم على بعض، وليس هذا على ظاهره كما سيأتى، وجوز بعضهم أن يكون بالصاد المهملة أى لا تفرقوا وتميزوا بعضهم من بعض.

(وفى رواية: لا تخيرونى على موسى)، وهذه الرواية فى الصحيحين وسنن أبى داود

والنسائى، والنهى عن تفضيل يقع من غيره مؤد إلى نقص، أو على سبيل المعصية والتفاخر، فلا ينافى قوله: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»(١)، وسيأتى تفصيله.

(فذكر الحديث وفيه: ولا أقول إن أحدا أفضل من يونس بن متى)، وفى هذا الحديث زيادة ذكر موسى وهو من عظماء الرسل أولى العزم، فالتفضيل عليه أقوى فيما نحن بصدده، فلا وجه لما قيل من أنه كان ينبغى تقديم هذا الحديث على الذى قبله، والحديث المذكور أوله: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال المسلم مقسما: والذى اصطفى محمدا على العالمين، فقال اليهودى: والذى اصطفى موسى على العالمين، فلطمه المسلم فذهب اليهودى إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره بما جرى بينهما، فقال: «لا تخيرونى على موسى؛ فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدرى أحوسب بصعقة الطور أو بعث قبلى، ولا أقول إن أحدا أفضل من يونس بن متى»(٢)، وكانت القصة فى عرض سلعة وقال البرهان: لا أعرف اسم اليهودى والمسلم اللاطم له وقال غيره: اليهودى اسمه فنحاص أى كما تقدم، واللاطم أبوبكر رضى الله تعالى عنه إلا أن قوله فى الحديث رجل من الأنصار يأباه، إلا أن يقال: الأنصار هنا بمعناه اللغوى، وهو خلاف الظاهر، وهذه الصعقة هى المذكورة فى قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، وهذا هو الاستثناء المذكور فى الحديث، فالصعق الإحياء والإخراج من القبور مجازا؛ لأن حقيقتها الصراخ مع غشى يخر منه، وقيل: المراد بها حقيقتها وأنها فى عرصات القيامة بعد الحشر يوم الفزع الأكبر.

وقال ابن قيم الجوزية فى كتاب الروح نقلا عن تذكرة القرطبى: إن هذه الرواية دخل فيها حديث فى حديث؛ ولذا أشكل عليهم، والذى يزيح الإشكال أن الموت ليس بعدم محض بل ترحال وانتقال من حال إلى حال، والأنبياء والشهداء أحياء لكنهم غيبوا عنا فى مراقدهم، فإذا نفخ فى الصور فمن مات حيى ومن كان حيا من الأنبياء ونحوهم كالمغشى عليه صعق ثم أفاق؛ ولذا ورد فى حديث مسلم: فأكون أول من يفيق؛ فلذا تردد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى أنه أول من تنشق عنه الأرض وأفاق أم موسى عليه الصلاة والسلام سبقه؟؛ لأنه حوسب بصعقة الطور، فلم يغش عليه ويصعق، وهذه فضيله لموسى عظيمة؛ فلذا ذكرها ونهى عن تفضيله عليه، وإن لم يلزم كونه أفضل منه من سائر الوجوه؛ فلذا خصه بالذكر وخص يونس لما مر.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وسئل إمام الحرمين عن نفى الجهة ودليلها فقال: دليلها قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: لا تفضلونى على يونس بن متى؛ لأنه خاطب الله فى قعر البحر والظلمات الثلاث بقوله: سبحانك كما خاطبه نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فى مقام قربه قاب قوسين على الرفرف، فلم يكن ثمة أقرب من يونس.

(وعن أبى هريرة) فى حديث رواه البخارى **(ومن قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب)** ذكروا فيه احتمالين: أن يكون أنا عبارة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أى من فضلنى على يونس عليه الصلاة السلام فقد كذب.

وأن يكون أنا عبارة عن القائل غيره، أى أى أحد من الناس قال: أنا خير من يونس؛ لتوهمه أنه فضله بعلمه وعبادته وغير ذلك من الفضائل؛ لأن أحدًا لا يبلغ درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد قالوا: إنه كفر، وهذا يؤيد أن المراد الأول، ويأتى بيان الثانى فى كلام المصنف رحمه الله.

(وعن ابن مسعود: لا يقولن أحدكم: أنا خير من يونس بن متى، وفى حديثه الآخر) أى حديث ابن مسعود الذى رواه مسلم وأبو داود والترمذى **(فجاءه صلى الله تعالى عليه وسلم رجل فقال: يا خير البرية)** أى يا أفضل الخلق كلهم، والبرية بتشديد الياء من برأ يبرأ مهموزًا بمعنى خلق من البرأ بمعنى التراب، إلا أنه التزم فيه إبدال الهمزة ياء كما فى النهاية.

(فقال: ذاك) وفى نسخة ذلك، والإشارة لخير البرية **(إبراهيم)** الخليل عليه الصلاة والسلام، وهو فى الحقيقة أفضل البرية والرسل بعد نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال السيوطى: إنه متفق عليه.

(فاعلم) جواب الشرط فى قوله: فإن قلت، وهو شروع فى تحقيق المسألة والجمع بين الأحاديث المتعارضة فى التفضيل وعدمه **(أن للعلماء فى هذه الأحاديث)** الناهية عن التفضيل وما يخالفها **(تأويلات)** تقدم بعض منها، وسيأتى تحقيقها.

(أحدها أن نهيه) صلى الله تعالى عليه وسلم **(عن التفضيل كان قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم)** بالبناء للفاعل أو المفعول، أى يعلمه الله، وهذا دليل على أن قوله: أنا السابق عبارة عنه عليه الصلاة والسلام، **(فنهى عن التفضيل إذ يحتاج إلى توقيف)** أى إعلام به من الله وإذن فيه، فلا يقدم عليه بالعقل، وكون التفضيل فى الحديث خاصا بموسى ويونس عليهما الصلاة والسلام فيه دلالة عليه فى الجملة، فلا يرد ما قيل: إنه لا يقتضى المنع مطلقا فتأمله **(وأن من فضل بلا علم فقد كذب)**؛ لأنه لا يطابق ما فى نفس الأمر

عنده إذ لم يعلم، وهذا تشديد فى النهى وإلا فإخباره على غلبة ظنه أنه واقع لايعد كذبا.

(**وكذلك قوله: لا أقول إن أحدًا أفضل منه لا يقتضى تفضيله هو**)؛ لأنه نفى لقوله، وهو لا يدل على انتفائه فى نفس الأمر، وما كل ما يعلم يقال، وضمير تفضيله هو للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أى تفضيله على يونس، أو ليونس صلى الله تعالى عليه وعلى نبينا وسلم، (**وإنما هو فى الظاهر كيف**) أى امتناع أو منع لغيره (**عن التفضيل**) بينهم، وقد يكون لأمر آخر.

(**الوجه الثانى أنه قال صلى الله تعالى عليه وسلم على طريق التواضع ونفى التكبر والعجب**) بضم فسكون أى عجبه وخيلاؤه بنفسه ومدحه لها، فإنه كذلك فى الغالب، والتكبر إظهار عظمته، والعجب استحسانه لنفسه وسياسته، والتواضع لين الجانب وخفض جناحه لغيره، (**وهذا**) الجواب (**لا يسلم من الاعتراض الوارد عليه**)؛ لأنه يعد الإخبار بخلاف الواقع الذى هو كذب مذموم تواضعا قيل: ولأن نفى التكبر والعجب يقتضى ثبوتهما له، وأنه مع ما علم من حاله كيف يتوهم فيه مالا يتوهم فى غيره من صلحاء أمته، ولا يخفى أنه اعتراض ساقط، فإن التواضع صفة محمودة وهو من شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كما تقدم.

(**الوجه الثالث**) أن مقصوده صلى الله تعالى عليه وسلم بنهيه (**أن لا يفضل بينهم تفضيلا يؤدى**) بضم التحتية وفتح الهمزة وتشديد الدال المهملة أى ينجز ويوصل (**إلى تنقيص بعضهم**) تفعيل من النقص، أى يقتضى وصفهم بما فيه نقص لهم وذم، (**أو الغض منه**) بفتح الغين والضاد المعجمتين المشددة المكسورة كالغضاضة، وهى النقص والعيب، وأصله من غض الطرف والصوت وهو خفضه فاستعير لما ذكر، وضمير منه للبعض، وفى نسخة منهم ويفهم من هذا جوازه إن لم يؤد لما ذكر (**لاسيما**) أى خصوصًا (**فى جهة يونس عليه الصلاة والسلام**) أى فى حقه ووصفه؛ لأن الجهة تطلق على الصفة، ومنه موجهات القضايا، ولاسيما عده النحاة من أدوات الاستثناء، وليس هذا محل الكلام عليه (**إذ أخبر الله عنه بما أخبر**) فى قوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، إلخ، (**لئلا يقع فى نفس من لا يعلم منه**)، أى لا يعلم من يونس وما قص من قصته (**بذلك**)، أى بسبب ذلك المذكور، وهو متعلق بقوله: (**غضاضة**) أى نقص وحقارة يتوهمهما من لا علم عنده، وعطف عليه عطف تفسير قوله: (**وانحطاط من رتبته الرفيعة**) استعارة بتنزيل شرفه منزلة أمر عال حسا نزل من علو سفل.

(**إذ قال الله تعالى**) حاكيا (**عنه** ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾) [الصافات: ١٤٠]،

أى خرج إلى سفينة مملوءة بما فيها من الناس والمتاع، والإباق هروب العبد من سيده حسن إطلاقه عليه إذ خرج بغير إذن ربه، وقال تعالى: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧]، لقومه لما لم يجيبوا دعوته كما تقدم، ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، أى لن نضيق عليه بالعقوبة، ويؤيده أنه قرىء مثقلا، أو تمثيلاً لحاله بحال من ظن أنا لا نقدر عليه فى مراغمة قومه لعدم انتظاره لأمرنا. روى أن معاوية قال لابن عباس: أيظن نبى أن لا يقدر الله عليه فقال: هو من القدر لا القدرة قال ابن برى: أى من الإرادة فظن أن لن نريد عقوبته.

(فربما يخيل) بالبناء للمجهول ونائب فاعله قوله: حطيطته، وقوله: **(لمن لا علم عنده)** بمعانى القرآن، وما قيل فى تأويل هذه الآية متعلق به **(حطيطته)** أى نقصه **(بذلك)**، ونزول مقامه عن مقام غيره من الرسل لنظره لظاهر الآية، وقد نقل المفسرون فيه أقوالا: فقيل معنى ذهب مغاضبا أنه غضب من قومه لا من ربه، وهذا خلاف الأولى إذ كان حقه الصبر كما وقع لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فى أحد وغيرها، فلا يذهب بغير أمر، ولذا قال الله تعالى له: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، وأما قوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فقد تقدم تأويله، وقيل: أحسن ما قيل فيه أن معناه لن نضيق عليه، وقول البيضاوى: إنها خطرة شيطانية سبقت إلى وهمه سميت ظنا للمبالغة مما لا يليق أن يقال لعصمة الأنبياء عليهم الصلاة السلام عن مثله.

(الوجه الرابع: منع التفضيل) بين الأنبياء والرسل الذى أفاده النهى الوارد فى الحديث إنما هو **(فى حق النبوة والرسالة)** نفسهما لا الأنبياء والرسل.

قال السنوسى فى شرح عقائده بعدما ذكر ما قاله المصنف: ومما دل على عدم التفاضل بين الأنبياء فى نفس النبوة وحقيقتها منع أن يقال: ثبت لفلان النبى النصيب الأقل من النبوة، ولفلان النصيب الأوفر منها، ونحوه من العبارات التى تقتضى أن النبوة مقولة بالتشكيك، ولا شك أن الامتناع من هذه العبارة معلوم من الدين بالضرورة بين السلف والخلف، فدل ذلك على أن حقيقة النبوة من المتواطىء المستوى أفراده، ولا يلتفت لمن خالف مقتضاه لوضوح فساده انتهى.

وفى ذكره ذلك فى النبوة دون الرسالة إيماء لفرق بينهما فى ذلك فتأمله، وقريب منه قوله: **(فإن الأنبياء فيها)** أى فى النبوة من حيث هى هى **(على حد واحد)**، فرتبتها وقدرها متحد فيهم **(إذ هى شىء واحد)** أى متحد فى جميعهم، **(لا تفاضل)** أى لا تزيد بعضها على بعض، **(وإنما التفاضل)** والتفاوت **(فى زيادة الأحوال)** أى العوارض الطارئة عليها، **(والخصوص)** أى ما خص به بعضهم دون بعض، **(والكرامات)** التى أكرم الله بها

بعضهم، **(والرتب)** الدنيوية والأخروية، **(والألطاف)** أى العطايا التى أعطاها الله بعضهم جمع لطف بفتحتين وهو الهدية كما مر، فهو استعارة هنا.

(وأما النبوة فى نفسها فلا تتفاضل، وإنما التفاضل بأمور أخر زائدة عليها) طارئة ليست من نفس حقيقتها كما بيناه؛ **(ولذلك)** أى لما ذكر من أن التفاضل لأمر زائد **(كان منهم رسل)** غير أولى العزم، **(ومنهم أولوا العزم من الرسل)**، والعزم القوة والشدة والتصميم على تنفيذ ما يراه أولى به وبغيره، والرسل جمع رسول وهو صاحب الرسالة من الله بشريعته المأمور بالتبليغ، فهو أخص من النبى على المشهور من الرسل بالكسر وهو تتابع الدر، ومنه على رسلك أى تمهل وتثبت، وقد اختلف فى أولى العزم والحزم منهم.

فقيل: هم خمسة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله على نبينا وعليهم وهم أصحاب الشرائع.

وقيل: أربعة نوح وهود وإبراهيم ومحمد صلوات الله على نبينا وعليهم.

وقيل ستة: إبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى ومحمد صلوات الله على نبينا وعليهم.

وقيل: هود ونوح وصالح وشعيب ولوط وموسى، وهم المذكورون فى نسق فى الأعراف والشعراء.

وقيل: هم نوح لصبره على أذى قومه، وإبراهيم لصبره على النار، وإسحاق لصبره على الذبح فى قول، ويعقوب لصبره على فقد ولده ونور بصره، ويوسف لصبره على السجن، وأيوب لصبره على الضر.

وقيل: هم المأمورون بالجهاد.

وقيل: نجباء الرسل المذكورون فى الأنعام، واختاره الحسن لقوله: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ**﴾ [الأنعام: ٩٠]، إلخ، وهذا مبنى على تفسير العزم.

ثم بين بعض ما وقع فيه التفاضل فقال: **(ومنهم من رفع)** أى رفعه الله **(مكانا عليا)**، وهو إدريس سبط شيث وجد نوح، واسمه قديما أخنوخ، رفع إلى السماء أو الجنة كما قاله المفسرون، وكذا عيسى.

(ومنهم من أوتى الحكم صبيًا)، وهو يحيى إذ أحكم الله عقله وتنبأه وآتاه الحكمة وفهم التوارة، وأكثر الأنبياء نبىء بعد الأربعين، وقد ذكر مثل هذا فى عيسى أيضًا.

(وأوتى بعضهم الزبور)، وهو داود وفى نسخة الزبر جمع زبور بمعنى المزبور المكتوب،

فيشمل موسى وعيسى وإدريس وشيث وداود، وقيل: إنه يكون مصدرا كما فى الحجة لأبى على.

(وأوتى بعضهم البينات) أى المعجزات الظاهرة الباهرة التى لم يؤتها أحد قبله من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، مما فضله الله تعالى به، وهو عيسى عليه الصلاة والسلام.

(ومنهم من كلم الله)، من غير واسطة وهو موسى إذ كلمه بالطور لما رأى نورا.

(ورفع بعضهم درجات) عالية فضله بها على غيره، وهذا إجمال لفضائل لم تذكر، أو المراد به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم إذ فضله على من سواه بوجوه متعددة ومراتب متباعدة، كدعوته العامة للعرب والعجم والجن والإنس والملائكة، ومعجزاته الباقية إلى يوم القيامة، ومن أجلها القرآن وغيره مما يفوت الحصر.

(قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]، **الآية، وقال)** تعالى: (﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، **الآية)** هذا بيان لما قبله، أو ناظر لجميعه كما أشرنا إليه، وقوله: تلك أنثه باعتبار الجماعة.

(قال بعض أهل العلم) بالكتاب والسنة: **(والتفضيل المراد لهم هنا)** عطف على مقدر، أو على ما تقدم، وهنا إشارة لما ذكر قبله **(فى الدنيا)** متعلق بالتفضيل، **(وذلك بثلاثة أحوال)** وفى نسخة أوجه **(أن تكون آياته ومعجزاته أبهر)** أى أقوى وأغلب، من بهر ضوء القمر الكواكب إذا غلبها أو أظهر، **(وأشهر)** عطف تفسير له كانشقاق القمر والقرآن وانفلاق البحر وانقلاب العصا حية، **(أو تكون)** بالنصب **(أمته أزكى وأكثر)** أى أنقى وأكثر من غيرهم كنبينا ﷺ ؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقد أرسل للناس كافة، **(أو يكون)** بالنصب **(فى ذاته أفضل)** بزيادة علمه وخصاله المحمودة، **(وأظهر)** بالمعجمة أى أشهر وبالمهملة أتقى وأنقى، **(وفضله فى ذاته)** ونفسه **(راجع إلى ما خصه الله به)** أى ما له ومعناه **(من كرامته)** أى إكرام الله له بمآثر ومناقب عظيمة وهبها له، **(واختصاصه)** بالجر معطوف على مدخول إلى أو من فى قوله **(من كلام)** بيان لاختصاصه بمعنى ما خصه به بغير واسطة كموسى ونبينا صلى الله تعالى عليهما وسلم، **(أو خلة)** تقدمت وأنها لإبراهيم أو له ولنبينا صلى الله تعالى عليهما وسلم، **(أو رؤية)** عيانا قبل دخول الجنة كما فى المعراج، **(أو ما شاء الله)** وأراده لهم غير ما ذكر **(من ألطاف)** بفتح الهمزة أى عطايا كما تقدم، وفى نسخة ألطافه بالإضافة، **(وتحف ولايته)** أى تحف أولاها لهم، **(واختصاصه)** مما أحبهم به من قرة أعين لا يعلمها إلا هو.

(وقد روى) بالبناء للمجهول، وهذا رواه ابن أبى حاتم والحاكم فى مستدركه عن وهب بن منبه، وهو رجوع إلى تنزيه يونس صلى الله تعالى عليه وسلم عما ذكر من الأوهام **(أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال: إن النبوة أثقالا)** أى أحمالا ثقيلة قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ [النحل: ٧]، جمع ثقل، والثقل كعنب ويسكن مقابل الخفة قال الراغب: وأصله فى الأجسام، ثم يقال فى المعانى كأثقله العزم والوزر، وهو فى الإنسان ذم فى أكثر المتعارف، وقد يكون مدحا كقوله:

تخف الأرض إذا بنت عنها وتبقى ما بقيت بها ثقيلا
حللت بمستقر الأرض منها فتمنع جانبيها أن تميلا

المراد هنا المشاق التى تكون فى تبليغ الرسالة.

(وإن يونس تفسخ منها) الضمير للأثقال والأحمال، وتفسخ بالفاء والسين المهملة المشددة والخاء المعجمة تفعل من الفسخ أى تقطعت أعضاؤه وتفككت؛ لعدم طاقته صلى الله تعالى عليه وسلم بحملها يقال: تفسخ البعير تحت الحمل الثقيل وفسخ ثيابه إذا أزالها، ومنه فسخ العقود عند الفقهاء **(تفسخ الربع)** تفعل مصدر من الفسخ، والربع بضم الراء المهملة وفتح الباء الموحدة والعين المهملة، وهو الفصيل أى ولد الناقة الصغير الذى يولد فى الربيع، وبعده الهبع الذى يولد فى الصيف، وتفسخ منصوب بالمصدرية لتفسخ أى تفسخ كتفسخه، أى لم يطق مشاقها، ولم يصبر عليها، وفى تشبيهه بالربع إشارة إلى أنه كان فى مبدأ أمره، وفى قوله: أثقالاً استعارة تصريحية وفى تفسخ استعارة تصريحية تبعية، ولا ينافى التشبيه، ويجوز أن تكون استعارة تمثيلية وهو أحسن، ثم بين مراده فقال:

(فحفظ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم) بنهيه عن التفضيل **(موضع الفتنة)** أى ما يقع الناس بسببه فى فتنة وأمر محذور من تنقص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فجعله كأنه موضع لها تقر فيه **(من أوهام)** التى يتوهمها من لا علم له، وهو متعلق بحفظ أى صانه مما يتوهم أو هو بيان لموضع **(من يسبق إليه بسببها)** أى المواضع أو الأوهام، وقيل: المراد: بسبب أثقالها من سأم وضجر، وقيل: بسبب الفتنة، وقيل: بسبب قصة يونس عليه السلام.

(جرح فى نبوته) بفتح الجيم أى ذكر ما لا يليق بمقام النبوة مما يقتضى عدم العصمة، **(أو قدح فى اصطفائه)** أى ذم وتنقيص لكونه صفوة مختارًا عند ربه مفضلا على غيره، والقدح ذكر المعائب والنقائص، **(وحط من رتبته)** أى تنزيل له من علو مقامه، **(ووهن**

فى عصمته) أى عد عصمته فيها ضعف لما توهمه من ظاهر قصته السالفة، فلذا نهاهم صلى الله تعالى عليه وسلم عن تفضيله عليه فضلا عن تنقيصه لتساويهم فى حقيقة النبوة، وإن تفاوتت أحوالهم وصفاتهم كما سمعته مفصلا؛ (**شفقة منه صلى الله تعالى عليه وسلم)** بالنصب مفعول له أو علة لحفظ **(على أمته)** أن يقع منهم ما لا يليق بمقام النبوة، فيكون لهم وزر يستحقون به سوء العاقبة بسخط الله تعالى وعقابه.

(وقد يتوجه) أى يحصل توجيه آخر فى الجواب عما مر أو يتأتى وينبنى **(على هذا الترتيب)** أى على ما رتبناه على النبوة من الاختصاص بأمور أكرمها الله تعالى بها.

(وجه خامس، وهو أن يكون لفظ أنا) فى الأحاديث السابقة **(راجعا إلى القائل نفسه)** المذكور فى قوله: «لا ينبغى لأحد أن يقول»، فليس المراد بضمير المتكلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كما فى الوجوه المتقدمة، **(أى لا يظن أحد)** من الناس غير الأنبياء **(وإن بلغ من الزكاء)** أى أنه بلغ من الزكاء بالزاء المعجمة أى الصلاح وزيادة الخير قال التلمسانى: إنه بخط المصنف رحمه الله تعالى هكذا، ورواه العزفى تلميذ المصنف بالذال العجمة وهو الفطنة، **(والعصمة)** أى الحفظ من الذنوب، وليس المراد بها ما خص به الأنبياء وهى المذكورة فى قوله أسالك العصمة فى الخطرات والسكنات؛ ولذا جوز بعضهم الدعاء بها، ومنعه بعضهم كما فصله ابن حجر فى فتاويه، **(والطهارة)** أى البراءة من الأوزار **(ما بلغ)** أى مبلغا عظيما فما مصدرية أو موصولة **(أنه خير من يونس)** ابن متى، وهذا معمول يظن المنفى؛ **(لأجل ما حكى الله عنه)** تعليل لظنه أى ما قصه فى قصته من لومه على تضجره وعدم صبره على قومه؛ لتماديهم فى غيهم وعدم إجابتهم دعوته صلى الله تعالى عليه وسلم للإيمان، وسوق كلامه مؤذن بأن القائل من غير الأنبياء كما يشهد قوله: **(فإن درجة النبوة)** ورتبتها العالية **(أفضل وأعلى)** عند الله من درجة غيرهم من الأتقياء، وهذا أمر فرضى أو مبنى على عدم العلم بالنهى عن مثله، فلا يرد عليه أنه كيف يكون تقيا وقد صدر منه تنقيص الأنبياء الذى قيل: إنه كفر، وأيضا كيف وصفه بالعصمة وهو غير نبى؟.

(فإن تلك الأقدار) جمع قدر بفتح القاف والدال المهملة أى ما قدره الله عليهم حكمة باهرة، وليس بمعجمة وإن جاز تأويله بأنه بالنسبة لمقاهم ذنب مستقذر؛ فإنه غير مناسب لفظا ومعنى **(لم تحطه عنها)** أى لم تنزل يونس عليه الصلاة والسلام عن درجته **(مقدار حبة خردلة)** التى هى أصغر الحب، والأحسن حبة خردل بدون هاء، **(ولا أدنى)** أى أقل وأصغر من خردلة أى لم ينقصه أصلاً.

(وسنزيد فى القسم الثالث فى هذا بيانا) بإيضاحه وتفصيله **(إن شاء الله تعالى)** ذلك،

(فقد بان لك الغرض) المقصود الذى قصدناه فى هذا الكتاب، **(وسقط بما حررناه)** أى بما قررناه أو لخصناه أو كتبناه، والتحرير التلخيص وإظهار الزبدة؛ لأن أصله جعل الشيء حرا أى خالصا، ومنه حر الوجه لأكرم موضع منه، والحر المقابل للعبد، والتحرير بمعنى الكتابة من الخاص الذى صار عاما، وأصله كتابة ملخصة أو كتابة العتاقة كما فى الكشف (**شبهة المعترض)** الذى اعترض على ما تقدم، ولو قال: من اعترض كان سجعا لكن المصنف رحمه الله تعالى لم يقصده، ولما كان ما تقدم فى ذكر فضائله وأسمائه ﷺ دالة على ذلك عقبه بذلك كما أشار إليه بقوله:

(فصل فى أسمائه)، صلى الله تعالى عليه وسلم (وما تضمنته من فضيلته)

أى ما هو بعض مدلوله أو لازم لمقتضاه حتى كأنه ضمنه، والأسماء جمع اسم، والكلام على كونه من السمة أو السمو أغنانا شهرته عن ذكره، وأما البحث عن كونه عين المسمى أو غيره فبحث لا طائل تحته، فلا وجه لذكره هنا، وقد أفردناه بالتأليف والاسم له معان فيطلق على مقابل الفعل والحرف، وعلى مقابل اللقب والكنية، وعلى مقابل الصفة المشتقة ويكون بمعنى العلم، والظاهر أن المراد به هنا ما شاع إطلاقه عليه ﷺ سواء كان علما أو صفة أو غيرهما، وسواء اختص به وضعا أم لا فهو العلم وما يشبهه، وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ولو ادعاء، فلا يرد كثرة أسماء الخمر أو هو أكثرى وهو الظاهر، وفى شرح الترمذى أن للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ألف اسم كما أن لله تعالى ألف اسم، ونقل مغلطاى أنها تبلغ ثلاثمائة، وقيل: إنها تسعة وتسعون كأسماء الله، ومنها ما هو بلفظ الفعل والمصدر، وأكثرها صفات مادحة كما أشار إليه المصنف بقوله: تضمنته من فضيلته، ولابن دحية تأليف مستقل فى أسمائه صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم إن المصنف رحمه الله تعالى ذكر هنا حديثًا رواه الشيخان عن محمد بن جبير عن أبيه بسند متصل إلا أن المصنف رواه عنه مرسلا؛ لعلو سنده فيه بدرجتين فقال: **(حدثنا أبو عمر أن موسى بن أبى تليد الفقيه)** تليد بفتح المثناة الفوقية وآخره دال مهملة بمعنى قديم العهد لولادته معه، فتاؤه مبدلة من واو وهو ضد الطارف وقد تقدمت ترجمته.

(قال: حدثنا أبو عمر الحافظ) ابن عبد البر، وقد تقدم أيضا قال: **(حدثنا سعيد بن نصر)** تقدمت ترجمته أيضا قال: **(حدثنا قاسم بن أصبغ)** بهمزة مفتوحة وصاد مهملة وموحدة تحتية وغين معجمة، وهو قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن واضح بن عطاء الإمام الحافظ محدث الأندلس أبو محمد الأموى مولاهم القرطبى كان صدرا عالى

الإسناد ثقة، ولذا قطع الرواية فى آخر عمره خوفا من الغلط، ولد سنة سبع وأربعين ومائتين وتوفى بقرطبة فى جمادى الأولى سنة أربعين وثلاثمائة.

(قال: حدثنا محمد بن وضاح) بن بزيغ متولى ملك الأندلس أبو عبد الرحمن بن معاوية الأموى الحافظ محدث الأندلس أبو عبد الله القرطبى، مولده سنة تسع وسبعين ومائة أو سنة مائتين بقرطبة، وتوفى فى المحرم سنة سبع وثمانين ومائتين قال الذهبى: إنه صدوق، وروى عنه كثير من أهل الأندلس قال: **(حدثنا يحيى بن يحيى)** الليثى عالم الأندلس وراوى الموطأ، وليس له رواية فىالكتب الستة إلا نادرة، وقد تقدم الكلام عليه.

(عن مالك عن ابن شهاب عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه) ومحمد هو أبو على وقد روى عنه الزهرى، وهو روى عن أبيه جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل، وهو صحابى أسلم بعد الحديبية وروى عنه أبناء محمد ورافع، وروى عنه ابن المسيب، وكان سيدا وقورا توفى سنة تسع وخمسين، وأخرج له الأئمة الستة وأحمد فىمسنده، وهذا الحديث أخرجه مالك فىالموطأ والترمذى فى الشمائل والبخارى، وهو حديث صحيح مسندا.

(قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: لى خمسة أسماء) قدم الجار والمجرور للتقرير والتأكيد، أو للتخصيص باعتبار أنه لم يسم بها أحد قبله، أو لاشتهارها فى الأمم الماضية، فالتخصيص المستفاد من التقديم إضافى لا حقيقى لزيادتها على ذلك.

وقال السيوطى فى كتاب الرياض الأنيقة فى أسماء خير الخليقة: إنه قبل أن يطلعه الله تعالى على بقية أسمائه وقال المصنف، رحمه الله تعالى فيما يأتى: قيل: إنها موجودة فى الكتب القديمة وعند الأمم السالفة، ورد بأن فيها أكثر. فالحق أن مفهوم العدد غير معتبر فلا يفيد الحصر.

وقال ابن عساكر فى كتاب المبهمات: يحتمل أن لفظ العدد ليس من كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أو التخصيص؛ لأن المراد خمسة أسماء فاضلة أو معظمة مشهورة انتهى ولا يخفى ما فيه وأنه مخالف للظاهر.

وقال ابن فارس: إن أسماءه صلى الله تعالىعليه وسلم ألفان وعشرون وقيل: المراد خمسة سمانى بها ربى وباقيها أوصاف.

وأسماؤه صلى الله تعالى عليه وسلم توقيفية، فلا يجوز أن يسمى بما لم يسمه به الله أو يسمى هو به نفسه أو أبوه وجده.

(أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر) أى يزيله حقيقة من جزيرة العرب، وحكمًا من جميع الأرض، وقيل: كما يأتى فى الحديث: يمحو به سيئات من تبعه، كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: بى، كان الظاهر أن يقول: به، لكنه راعى فيه المعنى كقوله:

أنا الذى سمتنى أمى حيدرة

والكلام عليه مفصل فى كتب العربية.

(وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى) بتشديد الياء مفتوحة وتخفيفها ساكنة، أى يحشرون على أثرى وبعد نبوتى إذ ليس بعده صلى الله تعالى عليه وسلم نبى كما يأتى تفسيره، وقد روى أن الحاشر الذى يحشر الناس خلفه وعلى ملته دون ملة غيره.

(وأنا العاقب) الآتى عقب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلا نبى بعده، وعيسى عليه الصلاة والسلام تقدم أنه يأتى على شريعته.

وقال ابن الأعرابى: العاقب من يعقب غيره فى الخير، ومنه العقب بمعنى الولد، وسيأتى تفصيل معنى الحديث.

(وقد سماه الله فى كتابه) وهو القرآن **(محمدًا وأحمد)** فى قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقوله: ﴿يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، وكونه محكيا عن عيسى عليه الصلاة والسلام لا ينافى كون المسمى له الله؛ ولذا قيل: إن عيسى عليه الصلاة والسلاة إنما أطلقه عليه بإعلام الله وأذن له فالمسمى حقيقة هو الله.

(فمن خصائصه تعالى له) أى الكائنة له إن قلنا بجواز حذف الموصول مع بعض الصلة فهو صفة له، أو هو متعلق به لما فيه من معنى التكريم، وقيل: إنه مفعول له واللام مزيدة للتقوية، والظاهر أنه اسم غير موصوف بالتعدى وضده **(أن ضمن أسماءه)** فاعل ضمن ضمير الله، والضمير المضاف إليه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم **(ثناءه)** مفعول ضمن، وهو مصدر مضاف للفاعل أو للمفعول باعتبار أن الضمير لله أو للرسول أى ثناء الله عليه، **(وطوى أثناء ذكره)** بفتح الهمزة وسكون المثلثة والمد جمع ثنى كقفل وهو ما انعطف من الوادى، ويقال هو فى أثنائه ومثانيه أى داخله، ونصبه على الظرفية، وطوى من قولهم: طوى الثوب إذا عطف بعضه على بعض وهو كناية عن الكتم والإخفاء، فالمعنى أخفى داخل ذكر النبى أى فى أسمائه التى سماه بها **(عظيم شكره)** أى شكره

العظيم، والضمائر لله أو للنبى، فإن كان ضمير شكره للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فإضافته له من إضافة الفاعل أو المفعول أى كونه شاكرا أو مشكورا عظيما؛ لأن أكثرها أوصاف غلبت عليه، أو اختصت به اختصاص الرحمن بالله مع بقاء الوصفية أو أعلام منقولة ملموح أصلها فيفيد المدح، والأعلام وضعت لتعيين الذات لكن المنقولة من الصفات تشعر بمعانيها الأصلية؛ ولذا جاز دخول أل عليها، ومعظم أعلامه كذلك.

(**فأما اسمه أحمد فـ**) وزنه (**أفعل مبالغة فى صفة الحمد**) مبالغة مرفوع خبر بعد خبر، أو منصوب مفعول له والجار والمجرور صفة، والمبالغة لأنه أفعل تفضيل حذف المفضل عليه قصدا للتعميم نحو الله أكبر أى من كل شىء، ثم نقل ولحظ أصله، فلا يرد عليه أنه علم فكيف يفيد ما ذكر؟ وما قيل من أنه للتفضيل لا للمبالغة والمبالغة لها صيغ مخصوصة، فقد وهم وأطال من غير طائل على عادته.

وقال السخاوى فى سفر السعادة: أحمد اسم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليس بمنقول من المضارع ولا من أفعل التفضيل، فهو كأحمر وأصفر، وهو أبلغ من محمد، وهو كل من تكاملت مناقبه وبلغ النهاية فى الحمد قال الأعشى(١):

إليك أبيت اللَّعْنَ كان كلالها   إلى الماجد القَرْمِ الجواد المحمد

انتهى وفيه نظر لا يخفى، وقدمه المصنف رحمه الله تعالى لأنه اسمه صلى الله تعالى عليه وسلم فى الكتب القديمة، وقد سماه به موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام كما نطق به القرآن، وسماه الله به لأنه حمده فى مقام لم يحمده فيه سواه بمثل محامده كما تقدم، وستأتى تتمته.

(**ومحمد مفعل مبالغة من كثرة الحمد**)، فهو فى الأصل اسم مفعول من التفعيل فينبىء عن الكثرة ففيه مبالغة أيضا، ولهذه الصيغة معان أخر مذكوره فى كتب التصريف، وفى شرح الهادى أنه مرتجل قال ابن معطى: وهو غلط، وتوجيهه بأنه لم يستعمل فى غير العلمية يرده بيت الأعشى المذكور، وروى عن ابن عباس بسند متصل كما رواه البيهقى فى دلائل النبوة أنه لما ولد صلى الله تعالى عليه وسلم عق عنه عبد المطلب بكبش، وسماه محمدا فقيل له: يا أبا الحارث ما حملك على أن سميته محمدا؟ و لم تسمه باسم آبائه فقال: أردت أن يحمده أهل السماء ويحمده الناس فى الأرض.

وأخرج عنه ابن إسحاق مسندا أن أمه آمنة بنت وهب حدثت أنها أتيت حين حملت

---

(١) البيت من الطويل، وهو للأعشى فى ديوانه (ص٢٣٩)، لسان العرب (١٥٧/٣)، التنبيه والإيضاح (٢٠/٢)، مقاييس اللغة (١٠٠/٢)، تاج العروس (٤١/٨).

به صلى الله تعالى عليه وسلم فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولى: أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد، وكل بر عاهد، وكل عبد زائد، يرود غير رائد، وروى، فإنه عند المجيد الماجد، حتى أراه قد أتى المشاهد، فإذا وضع فسميه محمدًا فإنه اسمه فى التوراة أحمد يحمده أهل السماء والأرض، واسمه فى الفرقان محمد، فسمته بذلك.

وقال أبوالربيع بن سالم فى سيرته: روى أن عبد المطلب إنما سماه محمدا لرؤيا رآها كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره، لها طرف فى السماء وطرف فى الأرض وطرف فى المشرق وطرف فى المغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وأهل المشرق والمغرب يتعلقون بها، فقصها فعبرت بمولود من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ويتبعه أهل السماء والأرض؛ فلذا سماه محمدا مع ما حدثته به آمنة انتهى.

(فهو صلى الله تعالى عليه وسلم أجل من حمد) بفتح الحاء وكسر الميم والبناء للفاعل أى أجل الحامدين، **(وأفضل من حمد)** بالبناء للمجهول قيل: إنه لف ونشر مرتب، فالأول راجع إلى اسم أحمد، والثانى لمحمد، والتفضيل استفيد من محمد لما فيه من التكثير وكون الله لم يسم به غيره، فكان أفضل من حمد، والحمد مصدر محتمل للحامدية والمحمودية وإن تعين فى محمد الثانى، وجوز ابن القيم فى أحمد أن يكون بمعنى المفعول أى أكثر محمودية، والفرق بينه وبين محمد أنه لزيادة الكيفية، ومحمد لزيادة الكمية، وهذا أبلغ فى مدحه صلى الله تعالى عليه وسلم، ولو أريد الفاعل لقيل حماد بدل أحمد، واعترض عليه بأنه تخصيص من غير مخصص، وبناء اسم التفضيل من المفعول شاذ كأشغل من ذات النحيين، وكون حماد أبلغ من أحمد كما اقتضاه كلامه لا وجه له.

أقول: هو لم يعين ما قاله، وإنما ادعى جوازه وأنه أولى لسلامته من التكرار والترادف الذى هو خلاف الأصل، وترجيح حماد على أحمد ليس لأبلغيته، بل لأنه أكثر وأقيس، وأما كون التفضيل من المفعول شاذا فمسلم، ولكنه سمع من العرب فى قولهم: العود أحمد، وأثبته العلامة الزمخشرى، وأول من قال: العود أحمد، خداش بن حابس التميمى.

وقول المصنف: **(وأكثر الناس حمدا)** أى محمودية بدليل قوله: **(فهو المحمد المحمودين)** والاعتراض عليه بما ورد على ابن القيم ساقط لما سمعته آنفًا. **(وأحمد الحامدين)** هو وما بعده بيان لوجه التسمية بهما، ويصح إرجاعه لكل منهما من غير لف ونشر. قال: اسمه أحمد قيل: محمد فى النشأتين، فإنه تعالى لما خلق نوره قبل كل مخلوق حمده بمحامد ألهمه إياها لم يحمده بها غيره، فكان أحمد من دخل تحت كلمة كن فى عالم الخلق والأمر، ولما ظهر للثقلين حمده على ألسنتهم استحق أن يسمى محمدا، فإذا كان يوم القيامة كان

أحمد الخلق فسمى أحمد، فلما عمت شفاعته العظمى حمده الخلق فسمى محمدا، وفيه من التكلف ما لا يخفى ويأتى فيه كلام للسهيلى.

(ومعه لواء الحمد يوم القيامة) تقدم أن اللواء علم الجيش، وهو أكبر من الراية أى أنه تحت أمره أو فى قبضته، وهذا يحتمل أنه على حقيقته ليعلم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم نال هذه المرتبة بتفوقه على كل مخلوق فى كونه حامدًا ومحمودًا، ومعنى لواء الحمد أنه لواء يتبعه كل حامد ومحمود، ويعلم ذلك بإلهام الله أو بنداء الملائكة معه، أو بإعلان الحمد خلفه ونحوه، وأصحاب الحمد حينئذ من لهم الشفاعة وكملة الأنبياء، ويحتمل أنه تمثيل لشهرته صلى الله عليه وسلم فى أهل الموقف وعدم التأويل اسم.

(ليتم له كمال الحمد) مبنى للمفعول أو الفاعل واختار البرهان الأول، وإتمام حمده له باشتهاره وتسليم كل أحد له من غير تردد كما كان فى الدنيا لبعض أهلها، كما أشار إليه بقوله: **(ويشتهر)**، وفى نسخة ويتشهر **(فى تلك العرصات)** بسكون الراء ويجوز فتحها، وعرصة الدار ساحتها وهى البقعة الواسعة التى ليس فيها نبات وجمعها عراص وعرصات، وفى التهذيب: سميت ساحة الدار عرصة؛ لأن الصبيان يعرصون فيها أى يلعبون ويمرحون، والمراد هنا أرض الموقف والمحشر **(بصفة الحمد)** وهو الثناء على الجميل الاختيارى على جهة التعظيم، وقيل: حقيقته إظهار الصفات الكمالية باللسان أو بغيره، وفيه كلام فى شرح الزوراء للجلال الدوانى.

(ويبعثه ربه هناك) أى فى العرصات **(مقاما محمودا كما وعده)** بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، ونصب مقاما على المفعولية بتضمين يبعث معنى يعطى، أو على الظرفية لمشابهته للمبهم، أو هو حال على ما فصل فى الكشاف وشروحه، ثم بين محموديته بقوله: **(يحمده فيه الأولون والآخرون)** أى جميع الخلق؛ لأنهم تحت لوائه صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو مقام الشفاعة العظمى حين اعترف جميع الرسل بالعجز، وقيل له: اشفع تشفع **(بشفاعته صلى الله تعالى عليه وسلم لهم)** فى فصل القضاء كما تقدم.

(ويفتح عليه فيه) أى فى ذلك المقام **(من المحامد)** جمع محمدة بمعنى حمد، أى يلهمه الله محامد عظيمة يحمده بها ثمة، وأصل الفتح ضد الغلق فاستعير للإعطاء والإلهام وتيسير الأمور، كما استعير المغلق للصعب، ومن بيان لمقدر أى أمرًا ونحوه، أو لما بعده إن قلنا بجوازه كما مر، وقوله: **(كما قال عليه الصلاة والسلام)** إشارة إلى وروده فى الحديث كما تقدم **(ما لم يعط غيره)** من الأنبياء، ويعطى مبنى للمجهول، وغيره بالرفع نائب الفاعل.

(وسمى) الله تعالى لعلمه من السياق، أو هو مجهول وهو الأولى **(أمته في كتب أنبيائه)** التوراة والإنجيل كما ورد في الأحاديث **(بالحمادين)** أي المبالغين في الحمد وروى الدارمي عن كعب أنه قال: نجد مكتوبًا في التوراة: محمد رسول الله مولده بمكة، وهجرته بطيبة، وملكه بالشام، وأمته الحمادون إلى آخره.

(فحقيق أن يسمى محمدًا وأحمد) أي بأن يسمى؛ لأنه يتعدى بالباء وقد يتعدى بعلى كما في: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٥]؛ لما فيه من معنى الوجوب كما في الحجة لأبي علي، وتفريعه على ما قبله لأنه إذا حمد بما لم يحمده غيره، وحمده الأولون والآخرون، وكثر حمد أمته كان جديرًا بذلك.

(ثم في هذين الاسمين) محمد وأحمد أي في تسمية الله له بهما قبل وجوده **(من عجائب خصائصه)**، أي من العجائب التي خصه الله بهما، ولم يسبق أحد لمثلها، **(وبدائع آياته)** أي غرائب علامته التي اخترعت، وتفسير البديع بالحسن فيه مسامحة **(فن آخر)** أي نوع آخر غير ما تقدم، **(وهو أن الله جل اسمه)** أي عظم في ذاته، وفيه مناسبة وإيماء لعظمة اسم نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم إذ قرنه باسمه، وخصه به كما اختص بأسمائه الحسنى **(حمى)** أي منع وصان عن **(أن يسمى بها أحد قبل زمانه)** مع ذكرهما في الكتب القديمة والأمم السالفة كما مر، وبشر بنبي اسمه أحمد، وإنما صان اسمه ليعلم إذا سمي بهما أنه النبي الموعود به، وعد من الخصائص لأنه بعد الأعلام باسمه منع من التسمية به مع أنهما أعلام منقولة، فلا يرد أن كثيرا من الأعلام المرتجلة للأنبياء غيرهم لم تسبق تسمية غيرهم بها كآدم وشيث ونوح ويحيى قال تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧].

(أما) اسمه **(أحمد الذي أتى في الكتب)** الإلهية السالفة **(وبشرت به الأنبياء)** كعيسى وموسى كما قال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، وقال تبع الأول كما نقل في السير:

ويملك بعدهم رجل عظيم نبي لا يرخص في الحرام
يسمى أحمد يا ليت أني أعمر بعد مخرجه بعام

(فمنع الله بحكمته) أي بسبب حكمته، أو منعا ملتبسا بعلمه وحكمته التي استأثر بها أو أظهرها لبعض خلص عباده **(أن يسمى به أحد غيره، ولا يدعى)** مبني للمجهول بوزن يرمى أي يسمى **(به مدعو قبله)** يسمى قبله.

قال أكثر العلماء: إن هذا هو الصواب، وما نقل من أن الخضر عليه الصلاة والسلام

اسمه أحمد قول مردود واه كما قاله ابن دحية، وأما أحمد بن غجيان بضم الغين المعجمة وسكون الجيم ومثناة تحتية بزنة سفيان، وبفتح الجيم وتشديد الياء فلا أصل له، وقيل: تسمى فى الجاهلية قبل الإسلام بزمان طويل أحمد بن ثمامة الطائى، وأحمد بن دومان البكيلى، وأحمد بن زيد بن خراش السكسكى، ومن القبائل بنو أحمد فى همدان، وبنو أحمد فى بكيلى، وبنو أحمد فى طى، ولم يكن قريبًا من عهده من تسمى به صيانة له وأما بعده فأول من تسمى به أحمد بن تميم الفرهودى أو الفراهيدى أبو الخليل النحوى الزاهد، وببركة هذا الاسم كان له من العلم والتقوى ما لم يكن لغيره، ثم بين حكم صيانته بقوله:

(حتى لا يدخل على ضعيف القلب لبس) أى التباس واشتباه؛ لعدم تميزه، وضعيف القلب من لا عقل له تام ورأى صائب ونظر مفرق بين الحق الباطل، فيتردد فى صدق مدعى النبوة بمجرد شىء سبق له، فيجوز كونه أحمد الموعود به فى الكتب، فضعف القلب كناية عن قلة العقل الذى هو محله، وقوته كناية عن ضده، وإن اشتهر فى الجرأة وعدمها، **(أو شك)** معطوف على لبس، ويجوز أن يراد به هنا ما يقابل الوهم والظن ومطلق التردد وعدم الجزم، ومن ظن تعيينه هنا وتأييده بما لا يجدى ليس بشىء.

(وكذلك محمد) أى مثل أحمد فى عدم التسمية به قبل بعثته صلى الله تعالى عليه وسلم وجعله مشبها به؛ لأنه لم يسّم به أصلا على الأصح **(أيضا)** مصدر آض بمعنى عاد ورجع، ويراد به فى العرف التشبيه فهو تأكيد لقوله: كذلك.

(لم يسم به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع واشتهر قبيل وجوده صلى الله تعالى عليه وسلم) قبيل فى النسخ مصغر كبعيد لتقليل زمانه وتقريبه، **(وميلاده)** عطف تفسير على وجوده أى ولادته أو زمانها، وقيل: الميلاد وقت الولادة والمولد مكانها، وحملت به صلى الله تعالى عليه وسلم أمه آمنة نهارا، وولد ليلا فى شعب أبى طالب عند الجمرة الوسطى، ووافق مولده يوم عشرين من نيسان سنة اثنين وثمانين وثمانمائة من التاريخ الأسكندرى، وقيل: كان فى الساعة العاشرة لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، فكان كما قيل: ربيع فى ربيع فى ربيع.

وقيل: ولد فى شعب بنى هاشم بعد الفيل بشهر أو أربعين أو خمسين أو تسعة وخمسين يوما، وقيل غير ذلك، وسيأتى تفصيله إن شاء الله تعالى **(أن نبيا يبعث)** أى يرسل من بعث بمعنى أثار، وقد فصل زمان بعثه وسنه إذ بعث فى السير **(اسمه محمد فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك)** الاسم **(رجاء أن يكون)** أى لأجل رجاء أن يكون الولد المسمى به **(أحدهم)** أى أحد أبناءهم المسمى بمحمد **(هو)** أى النبى الموعود

ببعثته، فهو اسم يكون، وأحدهم منصوب خبر مقدم، أو مرفوع اسمها وهو خبرها استعير فيه ضمير الرفع لضمير النصب، والأصل إياه والأول أولى.

و ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، اقتباس لبيان أنه لم يفدهم ذلك إذ ليس كل محمد رسول، ولا كل فاطمة بتول، والآية رادة لهم كما تبطل قول من زعم من الحكماء أن النبوة والرسالة تكتسب بالمجاهدة وتصفية الباطن؛ فإنها موهبة إلهية، وإن اختصت بمن جد فى العبادة والتصفية حتى صار أحسن الناس خلقا وخلقا إلى غير ذلك مما يستعد به لتلقى وحيه، ومشاهدة ملائكته.

وحيث ظرف متصرف هو هنا مفعول به لفعل مقدر أى يعلم؛ لأن أفعل لا ينصب المفعول وإن صح تعلق الجار والظرف به، وليس هو هنا ظرفا لأن علمه تعالى لا يوصف بأنه فى مكان أو زمان لقدمه، وتفصيله فى كتب العربية، ويجوز إفراد رسالته كما قرئ به هنا، وإنما سموا أبناءهم به لما بلغهم من الأحبار والكهان، وروى فى المبشرات وبشروا بقريب زمانه، فكانوا ينتظرونه انتظار المحب لحبيب له سيقدم.

(وهم) أى المسمون باسمه قبل ظهوره صلى الله تعالى عليه وسلم رجاء لكونه المبشر به **(محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى)** وقال البلاذرى: إنه محمد بن عقبة بن أحيحة، وتردد فيه ابن حجر فى الإصابة، وأحيحة بضم الهمزة وحاء مهملة مفتوحة يليها مثناة تحتية ساكنة، ثم حاء مهملة مفتوحة وهاء، والجلاح بضم الجيم وفتح اللام المخففة ثم ألف وحاء مهملة، والأوسى نسبة للأوس قبيلة الأنصار.

(ومحمد بن مسلمة الأنصارى) بن خالد بن عدى بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس الأنصارى، ووصف هذا بالأنصارى دون محمد ابن أحيحة وهو من قبيلة الأنصار؛ لأنه لم يسلم، وإنما يقال الأنصارى لمن أسلم منهم؛ ولذا قال الذهبى: من عد محمد بن أحيحة من الصحابة فقد وهم؛ لأنه لم يدرك الإسلام، وإنما هذا أبو عبد الرحمن المدنى حليف بنى عبد الأشهل المولود قبل البعثة باثنين وعشرين سنة، وهو ممن سمى محمدًا فى الجاهلية كما فى الإصابة عن الواقدى من غير تردد فيه، وهو صحابى شهد بدرًا، وكان عمر رضى الله تعالى عنه يعده لكشف المعضلات فى خلافته، ومات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين، وقيل غير ذلك، وهو من قدماء الصحابة، وقول بعض الشراح: إن ذكر المصنف لمحمد بن مسلمة ليس فى محله؛ لأنه بصدد ذكر من سمى محمدا قبل مولده، وهو ولد بعد مولده بنحو عشرين سنة لا وجه له؛ لما سمعته من خلافه مما هو مصحح فى السير نقلا عن الواقدى، وما قاله قول مرجوح، وإن قاله مغلطاى فى سيرته.

(ومحمد بن براء البكرى) نسب لبكر قبيلة مشهورة، وبراء بموحدة تحتية مفتوحة وراء مهملة تليها مدة، وهو ابن ظريف بن عتوارة بن عازب بن لهب بن بكر بن عبد مناف ابن كنانة، واسم أبيه براء رأيته مصححا كذا فى حواشى الحلبى، وفى غيره بداء بفتح الموحدة وتشديد الدال المهملة. قيل: وقد تخفف، وقال البرهان الحلبى: إن محمد بن أحيحة ومحمد بن مسلمة ومحمد بن براء لم يدركوا الإسلام، بل هلكوا فى الجاهلية، فعدهم فيمن أسلم أمر عجيب، فلا يليق بالمصنف وإن كانوا ممن سمى بمحمد قبل البعثة.

(و) كذا **(محمد بن سفيان بن مجاشع)** التميمى فإنه لم يدرك الإسلام، وقد خطىء أبو نعيم فى عده من الصحابة.

(ومحمد بن حمران الجعفى) بضم الجيم نسبة للجعفة قرية معروفة، وحمران بضم الحاء المهملة وسكون الميم وراء مهملة ثم ألف ونون، فى بعض نسخ السير عمران بدله، وهذا أيضا لم يدرك الإسلام كما قاله البرهان.

(ومحمد بن خزاعى السلمى) بضم السين المهملة وفتح اللام وميم وياء نسبة لقبيلة، وخزاعى الخاء وزاء معجمتين وألف وعين مهملة نسبة لخزاعة، وهو من بنى ذكوان، واسم أبيه علقمة، وهو لم يدرك الإسلام أيضا كما قاله البرهان إلا أن هذا لا نعترض به على المصنف؛ لأنه إنما عد من تسمى محمدا قبل الإسلام أسلم أم لا وهم ستة **(لا سابع لهم)**، وهذا على ما اختاره المص، ومنهم من نقص عددهم كالسهيلى فإنه لم يزدهم على ثلاثة، ومنهم من زاد حتى بلغ العشرين كما قاله ابن حجر مع تكرار فى بعضهم، وتردد فى بعض وسيأتى لهم سابع، وقد علمت ما طعن به فى محمد بن مسلمة.

(ويقال: إن أول من تسمى به) أى باسم محمد قبله صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى نسخة بمحمد **(محمد بن سفيان)** بن مجاشع التميمى السابق ذكره.

(واليمن) أى أهله فهو من إطلاق اسم المحل على الحال فيه **(تقول)** وفى نسخة يقولون: لم يسم به أولا هذا **(بل)** الذى سمى أولاً **(محمد بن اليحمد من الأزد)**، وفى نسخة الأزدى نسبة إلى الأزد من اليمين أبوهم أزد ذى الغوت، ويقال أسد، وفى نسخة بعد ما ذكر، ومحمد بن سراه بالسين أيضًا، ومن نسله الأنصار كلهم، وزاد شنوءة عمان والسراة واليحمد.

قال البرهان: إنه فى النسخ بفتح الياء وسكون الحاء وضم الميم، وقال ابن ماكولا: إنه بضم الياء وسكون الحاء المهملة وكسر الميم، وأصحاب الحديث يضمون الميم وفى شرح مسلم للنووى أنه بضم الياء وسكون الحاء وكسر الميم، وكذا فى تقييد المهمل

للغسانى، وهو علم منقول من المضارع، وأل مقارنة لنقله لا داخلة بعد العلمية؛ فإنه شاذ قبلها كقوله(١):

ما أنت بالحكم الترضى حكومته

فكيف به بعدها؟.

وقال: إن هذا ليس من الستة فيكون سابعًا، وهو ينافى قوله هنا لا سابع لهم، وفى سيرة مغلطاى زيادة محمد بن ربيعة المنقرى، ومحمد بن عثمان السعد. قال: وأظنهما واحدًا، ومحمد الأسيدى، ومحمد بن عتوارة الليثى، ومحمد بن حومان العمرى، ومحمد بن خولة الثمالى، ومحمد بن يزيد بن ربيعة، ومحمد بن أبراويه بن مالك، فزاد تسعة أو ثمانية، وتوقف المصنف رحمه الله تعالى فى واحد منهم، وقد قيل فى بعض هؤلاء: إنه أدرك الإسلام، وكلام المصنف لا ينافى هذا إلا فى قول الأنصارى كما تقدم، والأمر فيه سهل إذ لا مانع من إطلاقه على من لم يسلم لقرابته منهم تسمحًا.

(ثم حمى الله) أى صان ومنع بصرفه الهمة **(كل من تسمى به)** أى بمحمد قبله صلى الله تعالى عليه وسلم **(أن يدعى النبوة)** تقديره من ادعى ادعائها بنفسه بأن يقول: أنا نبى، **(أو يدعيها أحد له)** بأن يقول هو نبى، **(أو يظهر عليه)** بفتح الياء التحتية وضمها مبنى للفاعل، ويجوز بناؤه للمجهول، والأول أظهر، وضمير عليه لمن **(سبب يشكك أحدًا فى أمره)** أى شيء فى ذاته يكون سببا موقعا للناس فى شك فى أنه هو النبى الموعود كنجابته وصفاته الباهرة، كما وقع له صلى الله تعالى عليه وسلم من الإرهاصات والأخلاق الباهرة، أو يجرى على يديه ما يشككهم من سحر ومخرقة، والعطف بأو بعد حمى الذى هو فى معنى النفى والنهى يفيد العموم كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، ولو عطف بالواو أوهم أن المحمى عنه المجموع وإن قطع بعض منها.

(حتى تحققت) أى أظهرت وتبينت فى الخارج **(السمتان)** أى الصفتان اللتان هما

---

(١) صدر بيت وعجزه:

ولا أصيل ولا ذى الرأى والجدل

والبيت من البسيط، وهو للفرزدق فى الإنصاف (٥٢١/٢)، جواهر الأدب (ص٣١٩)، خزانة الأدب (٣٢/١)، الدرر (٢٧٤/١)، شرح التصريح (٣٨/١، ١٤٢)، شرح شذور الذهب (ص٢١)، لسان العرب (٩/٦)، المقاصد النحوية (١١١/١)، وليس فى ديوانه، وبلا نسبة فى أوضح المسالك (٢٠/١)، الجنى الدانى (ص٢٠٢)، رصف المبانى (ص٧٥، ١٤٨)، المقرب (٦٠/١)، همع الهوامع (٨٥/١).

المحمدية والأحمدية اللتان هما علتان لموافقة اسمه لمسماه، وفى بعض النسخ السيمتان بياء بعد السين، وهو خطأ كما قال التلمسانى وطغيان من القلم (**له صلى الله عليه وسلم**) متعلق بالفعل أو بالسمتان، وهو تسميته بما هو دال على أنه المبشر به فى الكتب السالفة والأمم الماضية، فادعى الرسالة وشهدت له الكائنات بصدق دعواه، (**ولم ينازع فيهما**) بفتح الزاء المعجمة والبناء للمجهول، أى لم ينازعه أحد فى السمتين.

(**وأما قوله**) صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذا الحديث: (**وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر**) بيان لمعناه المراد منه؛ ولذا أتى بقوله بعده (**ففسر فى الحديث**) بالفاء التفسيرية وفسر مبنى للمجهول أى فسره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقرينة قوله فى الحديث، وهو صفة له، وقيل: علم منقول منها، وأل للمح الوصفية، ولما تراءى هنا سؤالان أحدهما أنه تقدم فلا حاجة لإعادته كما قيل، وأن المحو معناه الإزالة بالكلية، والكفر موجود فى كثير من الناس والبلدان، أشار إلى دفعهما بقوله: (**ويكون محو الكفر إما من مكة**) بعد الفتح إذ أظهره الله تعالى عليهم، ولم يبق بها منه عين ولا أثر، (**وبلاد العرب**) الظاهر أنه وجه آخر، والمراد بها جزيرة العرب وساحة الإسلام، فإنه لم يبق منه إلا ما تلاشى واضمحل حتى صار كالعدم، وقد كانت مملوءة بالشرك فاستأصله الله على يد خيرته من خلقه.

(**و**) كذلك قوله و(**ما زوى له من الأرض**) إشارة لما ورد فى الحديث من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «زويت لى الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها»، وأصل الزوى بالزاء المعجمة الجمع، ومنه انزوى الجلد بالنار أى أنه تعالى جمع له جميع الأرض بيد قدرته، وطواها فى قبضة قدرته حتى نظرها كلها، وبشره بأن أمته تملكها كلها حقيقة بعد نزول عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، أو قبله إن قلنا أن ما ملكوه منها أعظمها وأشرفها، وهو الذى ارتضاه المصنف لقربه.

(**ووعد**) أى الله، النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما ورد فى الحديث (**أنه يبلغه**) أى يصل إليه ويجوزه (**ملك أمته**) بضم الميم ويجوز كسرها أى تملكها وسلطانها على الوجه السالف، وقد ورد أنه زوى له جانبا من الأرض، وأخبره بأنه يبلغه ملك أمته، ويمحو ما فيه من الكفر لاضمحلاله حتى يصير ما بقى منه كالعدم، ولما كان محو الكفر بأمره وشرعه وبركته نسب المحو له صلى الله تعالى عليه وسلم، فكأنه الماحى حقيقة، وقد قيل: إنه كله جواب واحد.

وقوله: (**أو يكون المحو عاما**) شاملا لجميع الأرض، وليس المراد بها أرضا مخصوصة (**بمعنى الظهور والغلبة كما قال الله تعالى:** ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٩])، جواب

ثان، فيبقى على عمومه ولا يخص بما مر، فالمراد بالمحو علو الدين وغلبته لغيره من الأديان بنسخها، وبيان ما غير وبدل منها، وعلو أهله على جميع من عداهم بتسلطهم عليهم وقهرهم، وإيقاع الرعب فى قلوبهم كما هو مشاهد قال الله تعالى عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٩]، ويوضحه أن المحو لغة إذهاب الأثر، وهو قد يكون مع بقاء العين، وأن ما لا أ ثر له كالعدم؛ ولذا عبر بالماحى دون المزيل، وما قيل من أن هذا جعله المصنف وجها واحدا، وحمل المحو على إزالة يدهم عن تلك الأراضى، وجعل بعض أهل الأرض كالعبيد بضرب الجزية عليهم، وجعلهم بإزالة تصرفهم كالموتى، وجعل محو آثار غيرهم كمحو ذواتهم، ونسخ أديانهم وكتبهم التى هى بمنزلة أرواحهم، وإبطال شوكتهم وقهرهم كإزالة ذواتهم ونحوها من صحائف الوجود، ففيه مجاز باعتبار وجوه مختلفة.

(وقد ورد تفسيره) أى الماحى بغير ما مر، **(فى الحديث)**، والتفسير المذكور **(أنه الذى محيت سيئات من اتبعه)** بما أنعم الله تعالى به على أمته من المكفرات، وبما قبله من شفاعته لهم فى الدنيا والآخرة، والعفو كالمغفرة موافق للمحو لغة ومعنى، وهذا مروى عن المصنف وقد سقط من بعض النسخ، فإسناده إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مجاز إذ هو سببه، والعافى والغافر حقيقة هو الله تعالى، وهذا من خصائص أمته، وقد فسر قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، بيغفر لأمتك، وقد روى هذا التفسير الذى ذكره المصنف للماحى الحاكم فى مستدركه وأبو نعيم والبيهقى، وقال ابن دحية: إنه حديث مرسل صحيح الإسناد، وقال السيوطى: إنه متصل ولفظه، وأما ماحى فإن الله محى به سيئات من تبعه».

وقال ابن حجر فى شرح الشمائل: معناه أن من آمن به صلى الله تعالى عليه وسلم يمحى ذنب كفره، وما عمله فيه، قال الله تعالى: **﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾** [الأنفال: ٣٨]، وفى الحديث **(الإسلام يجب ما قبله أو يهدم ما قبله)**.

وخص بهذا نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه لم يمح أحد الكفر كما محاه إذ جاء على فترة وقد عم الكفر وعبد الحجر، فبلغ مسير النيرين، والمراد بكونه من خصائصه أن الله تعالى لطف بأمته بكثرة المكفرات كثرة لم تكن قبله، فهو مطلق مخصوص لوقوع خلافه فى الآيات والآثار كقول نوح عليه الصلاة والسلام لأمته: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].

(وقوله) فى هذا الحديث: **(وأنا الحاشر)** فسره صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله بعد:

(الذى يحشر الناس) جميعهم مؤمنهم وكافرهم لدخولهم كلهم فى شفاعته العظمى لتخليصهم من هول الموقف والمحشر، وتعجيل الحساب؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، رحمة للعالمين، **(على قدمى)**، بالتخفيف والتشديد، كما مر، وفى رواية: على عقبى.

ولما كان ظاهره أنه يسوق الناس للمحشر، وليس بمراد، فسره بقوله: **(أى على زمانى وعهدى)**، وهما بمعنى؛ لأنه يقال: هذا كان على عهد الخلفاء فى عصرهم، ثم قال: **(أى ليس بعدى نبى، كما قال: وخاتم النبيين)**، فهو إما بتقدير مضاف، أى على أثر قدمى من غير فاصل، أو القدم سواء كان مفردًا أو مثنى ما يتبعه الناس فيه وهو الشريعة. وقال الكرمانى: معناه على أثرى، كما جاء على عقبى، أو على زمانى ووقت قيامى على القدم بظهور علامات الحشر فيه، إذ لا نبى بعده، ويحتمل أن يريد أول محشور؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أول من تنشق عنه الأرض كما تقدم.

والقدم معروفة، وهى مؤنثة لتصغيرها على قديمة، ويتجوز بها عن معان أُخر كما فى الأساس، فيقال: جعله تحت قدمه، إذا عفا عنه، وله قدم فى كذا، أى تقدم، فنسب له ذلك لتقدمه فيه، وكونه السبب فيه، ثم إنهم يحبسون فى المحشر حتى يشفع لهم، فهو حاشر فى هذا الحشر الثانى إلى مقرهم من جنة أو نار، فيتبعه ﷺ جميع الخلائق، فهو على هذا حاشر حقيقة، وهذا هو المراد فى رواية من روى: قدمىَّ، بالتشديد مثنى، وقول الكرمانى: ويحتمل... إلخ، سبقه إليه الخطابى، وإن كان ظاهره أنه من بنات أفكاره، وارتضاه ابن دحية، وما ذكره المصنف، وإن سبق إليه فيه خفاء، إلا أن يريد أن القدم مجاز عن الأثر كناية أو مجازًا، إلا أنه يتكرر مع قوله العاقب.

وقال السيوطى: إن الله وصف نفسه بالحشر فى قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٢]، فيكون هذا من أسمائه التى سماه بها، فإن سلم ما قاله، كان ما قبله كذلك، وحشر الناس فى وقت نبوته لبقاء ملته؛ لأنها لا تنسخ، وليس بعدها شرع آخر، فلا يرد عليه أن الساعة تقوم وليس على وجه الأرض من يقول: الله، وتقدم أن كونه خاتم النبيين، أى آخرهم، أو من ختموا به على قراءة الفتح، لا ينافيه نزول عيسى، عليه السلام، بعده؛ لأنه ينزل تابعًا له ﷺ عاملاً بشرعه، ولذا يدفن عنده؛ لأنه آخر خلفائه، وقيل: المراد أنه ﷺ آخر من نبىء، وعيسى نبىء قبله، وإن مات بعده، كالخضر وإلياس على قول، وقيل: سمى حاشرًا؛ لأنه حشر بنى النضير من حصونهم، وخرب أرضهم، وهو ضعيف رواية ودراية.

(وسمى عاقبًا؛ لأنه عقب غيره من الأنبياء)، عليهم الصلاة والسلام، أى خلفهم فى

الخير، ومنه عقب الرجل لولده، وفسر بمن لا نبى بعده؛ فإن العاقب الآخر، وقد فسر فى حديث مروى، عن ابن جبير، فهو أصح وأحسن.

(**وفى الصحيح: وأنا العاقب الذى ليس بعده نبى**)، وقيل: العاقب عند العرب من يكون خلف سيد القوم، فمعناه خليفة الله؛ لأنه أحق بخلافته من جميع الرسل، ومن الغريب ما قيل: إنه اسمه عند أهل النار من أمته؛ لأن الله تعالى ينسيهم اسمه محمدًا، فإذا ذكروه ارتفع عنهم العذاب، وهو ضعيف.

(**وقيل: معنى على قدمى، أنه يحشر الناس بمشاهدتى**)، أى بقربى ومعى بمرأى منى؛ لسبقى للناس فى القيام من القبر، كما قال الله تعالى: ﴿**لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهذا بناء على أنه من الشهادة بمعنى المشاهدة والمعاينة، والجمهور على أنه الشهادة الحقيقية، كما ورد فى الصحيحين من أن أمته تشهد للرسل بالتبليغ، وهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، يشهد لأمته بالصدق، وهو معنى جعلهم أمة وسطًا، أى عدولاً وخيارًا كما مر بيانه، وأخر المصنف، رحمه الله تعالى، هذا وهو متعلق بما قبله من معنى الحاشر؛ إشارة إلى أنهما بمعنى.

(**ومعنى قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: لى خمسة أسماء**)، جواب عن سؤال مقدر تقديره أن له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أسماء كثيرة، فجعلها خمسة أو عشرة إن قلنا بمفهوم العدد مخالف للواقع، وإلا فهو زيادة بغير فائدة.

(**قيل: إنها موجودة فى الكتب المتقدمة**) المنزلة على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، كالتوراة والإنجيل، (**وعند أولى العلم من الأمم السالفة**)، أى السابقة، فتخصيصها بالذكر لهذه الفائدة، ومرضه لما سيأتى من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، له أسماء أخر فى الكتب القديمة أيضًا، وكون العدد لا مفهوم له لا يدفع السؤال كما توهم، وكونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يقف على هذه الزيادة حتى ذكره بعيد، (**والله أعلم**) بوجه التخصيص فيما ذكر.

(**وقد روى عنه، عليه الصلاة والسلام**) فى حديث رواه أبو نعيم فى الدلائل، وابن مردويه فى تفسيره، من طريق يحيى التيمى، وهو وضاع، عن سيف بن وهيب، وهو ضعيف، عن أبى الطفيل: (**لى عشرة أسماء**)، وقد تقدم أنه لا معارضة بينه وبين غيره من الأحاديث، (**وذكر منها: طه ويس، كما حكاه مكى**)، تقدمت ترجمته، وقد تقدم هذا، وإنما أعاده ليتبعه تفسيره الذى ذكره، وقال أبو بكر بن العربى فى أحكام القرآن: اختلف الناس فى معناه على أربعة أقوال:

الأول: أنه اسم من أسماء الله تعالى، قاله الإمام مالك، وروى عنه أشهب، قال: سألته: هل ينبغي لأحد أن يسمى بياسين؟ قال: ما أراه ينبغى؛ لقوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس: ١، ٢]، أى هذا اسمى ياسين.

الثانى: قال ابن عباس، رضى الله عنهما: يس يا إنسان بالحبشة، ويا طه، ويا رجل، وروى عنه أنه اسم الله تعالى كما قال مالك.

الثالث: أنه كنى به النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قيل له: يس، أى يا سيد، كما يأتى.

الرابع: أنه من فواتح السور.

وروى عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(سمانى الله تعالى فى القرآن بسبعة أسماء: محمد، وأحمد، وطه، ويس، والمزمل، والمدثر، وعبد الله)**، وهذا حديث لم يصح.

وروى أشهب، عن مالك: لا يتسمى أحد بياسين؛ لأنه اسم الله، وهو كلام بديع، وذلك أن العبد يجوز له أن يسمى باسم الرب إذا كان فيه معنى منه، كعالم وقادر، وإنما منع مالك من التسمية بهذا الاسم؛ لأنه من الأسماء التى لا يدرى ما معناها، فربما كان ذلك معنى ينفرد به الرب، فلا ينبغى أن يقدم عليه من لا يعرف؛ لما فيه من الخطر، فاقتضى النظر المنع منه.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠]، **قلنا:** ذلك مكتوب بهجائه، فتجوز التسمية به، وهذا ليس بمنهجى، وهو الذى تكلم مالك عليه لما فيه من الإشكال. انتهى.

وهو كلام نفيس، إلا أن فيه بحثا؛ لأن تجويزه للتسمية بيس من وجه، ومنعه من آخر، وأنه عند التلفظ لا يعرف منه الهجاء وعدمه، اللهم إلا أن يقال: مراده المنع فى غير ما ورد فى القرآن، فتدبر.

(وقد قيل فى بعض تفاسير طه: إنه يا طاهر، يا هادى)، على أنه اسم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما رواه السيوطى، عن أبى الطفيل، وتقدم أنه قيل: إنه من أسماء الله، وما ذكره السيوطى، رحمه الله، مروى عن الواسطى، وأراد به أن كل حرف منه مروى بعض من اسم، فالطاء من طاهر من كل عيب وذنب، والهاء من هاد إلى كل خير، فهو اسم مركب من اسمى حرفين كما فى ألم، وفى البخارى، عن سعيد بن جبير: معناه يا رجل، بلغة عك، وقيل: معناه اطمئن، وقيل: معناه طأ الأرض، والهاء ضمير

الأرض، وقيل: يا رجل بالسريانية، فعرب، وقيل: هو بالنبطية، وهى لغة أهل سواد العراق، وقيل: معناه بلغة عك يا حبيبى، وقيل: طوبى لمن هدى.

(و) قيل **(فى)** بعض تفاسير **(يس أنه يا سيد حكاه السلمى)** بضم السين وفتح اللام وهو أبو عبد الرحمن كما تقدم فى ترجمته، **(عن الواسطى)** نسبة إلى واسط بلدة معروفة وقد تقدمت ترجمته، **(وجعفر بن محمد)** هو جعفر الصادق الإمام المشهور كما تقدم، وهذا مروى فى أسمائه، عن أبى الطفيل، ورواه البيهقى فى دلائلة مسندا، وقال السهيلى: لو كان من أسمائه لقيل: يا ياسين بالضم، وقال ابن دحية: هذا غير لازم مع أنه روى عن الكلبى أنه قرأه بالضم أيضًا، وقيل: معناه يا إنسان بلغة طى وأصله يا أنيسين، فاقتصر على بعض منه، وقد بسطنا الكلام عليه فى حواشى البيضاوى، وكذا فيما مر أوائل الكتاب، وقيل: معناه يا رجل، وقيل: يا سيد البشر.

(وذكر غيره) أى غير الواسطى أنه روى **(أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: لى عشرة أسماء، فذكر الخمسة التى فى الحديث الأول)** الذى سمعته آنفا، (و) زاد عليها و**(قال: وأنا رسول الرحمة)** لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، لإنقاذهم من العذاب فى الدنيا والآخرة، فمن اتبعه نجا فى الدنيا من القتل أو من ذلة الكفر والجزية، وفى الآخرة من العذاب المخلد والخزى المؤبد، وأراحهم من التعب فيها؛ فلذا سمى بذلك كما قال: **(ورسول الراحة)**؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، راحة للمؤمنين فى الدنيا؛ لما رفع عنهم مما كان فى الأمم السالفة من الإصر والمشاق بما فى شريعته من الرخص والتخفيفات، وفى الآخرة راحتهم العظمى لأمنهم وإزالة تعبهم ورفع التكليف عنهم، وراحة للكافرين بترك قتلهم وسبى ذراريهم إذا قبلوا الجزية، فنزلوا فى حرم الإيمان آمنين، وأمنت أمته من عموم الخسف والمسخ، وسترت عليهم معاصيهم، وكان من قبلهم إذا عصى أصبح وقد كتب على باب داره فلان فعل الليلة كذا وكذا، وتسميته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بنبى الرحمة رواه ابن ماجه والحاكم مسندا عن أبى هريرة وصححوه، وورد فى بعض طرقه نبى الراحة، وما سبق أنسب بالآية.

(ورسول الملاحم) جمع ملحمة، وهى الحرب والقتال، سميت بذلك لالتحام الأبطال فيها أى ازدحامهم فيها؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أرسل بالسيف وأمر بالجهاد، ولم يقع لنبى ولا أمته من الجهاد والقتال ما وقع له، صلى الله تعالى عليه وسلم ولأمته، ولا يزالون كذلك حتى يقاتلوا الدجال، وينزل عيسى ابن مريم، عليه الصلاة والسلام، وهذا لا ينافى كونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، رحمة؛ لأنه رحمة حقيقة إذ فى قتاله

غنيمة للمسلمين، وهداية بعض الكافرين إلى الإسلام، وأمن دار الإسلام، وغير ذلك مما لا يحصى، والجواب بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، رحمة لأوليائه حرب لأعدائه مع ما فيه لا يناسب العالمين.

(وأنا المقفى قفيت النبيين) كلاهما بتشديد الفاء، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾ [الحديد: ٢٧]، وهو إما بمعنى التابع الذى جاء على أثرهم، لأن معنى قفا تبع ومنه القافية، وفيه من الفضل أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقف على أحوالهم وشرائعهم، فاختار له الله من كل شىء أحسنه، وكان فى قصصهم له ولأمته عبر وفوائد، أو المراد أنه خاتمهم وآخرهم، ووقع فى بعض النسخ المقتفى بزيادة التاء الفوقية، واقتصر عليه بعض الشراح، ونقله عن الطيبى، ثم قال: إن المقفى ذكره غير الطيبى، ولم يرد به نص صريح، وفيه نظر.

(وأنا قيم) بالقاف ومثناة تحتية بزنة سيد، **(و)** فسره المصنف بقوله: و**(القيم الجامع الكامل)** أى الجامع لمكارم الأخلاق النفيسة الكامل فيها، أو الجامع لشمل الناس بتأليفه بينهم وجمع شتاتهم؛ لأن القيم يكون بمعنى السيد؛ لقيامه بأمر الناس وأمر الدين كما قاله ابن الأشرم لما ولد النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما رواه الآمدى.

بدلت دينا بعد دين قد ندم ... وكنت فى الدين كأنى فى ظلم

يا قيم الدين أقمنا نستقم

كما ورد فى الحديث أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: أتانى ملك فقال:

أنت قيم وخلقك قيم

أى مستقيم حسن، وفى النهاية القيم القائم بأمور الخلق ومدبر العالم فى جميع أموره، وهو مرادف للقيوم الذى هو من أسمائه تعالى، ولا بعد أن يسمى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بشىء من أسماء الله تعالى بمعنى يليق كالقيم إذا كان بمعنى القيوم، كما يسمى بغير ذلك من أسمائه.

والقيم أيضًا من أسماء الله تعالى كما ورد فى الحديث فى قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن)**.

وقال ابن دحية: وهو بمعنى القائم كما نقله السيوطى فى الرياض الأنيقة.

(كذا وجدته) أى تسميته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالقيم فى كتب الحديث، **(ولم أروه)** بطريق من الطرق المعتبرة عند المحدثين إلا أنى وجدته فيما رواه غيره، وهذا عند المحدثين يسمى الوجادة، وله شروط عندهم، وهو مما يستأنس به، وهذا رواه الديلمى

فى مسند الفردوس، وفى النهاية الأثيرية أيضًا كما مر.

(وأرى أن صوابه) بحسب الرواية **(قثم)** بالثاء المثلثة المفتوحة المخففة وضم القاف فرأى أنه تصحف عليهم، وهو معدول عن قاثم ممنوع الصرف كما ذكره ابن فارس وغيره، ورواه ابن إسحاق فى حديث غريب هو قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(أتانى ملك فقال: أنت قثم وخلقك قثم ونفسك مطمئنة)**. قال ابن دحية: فى اشتقاقه معنيان:

أحدهما: من القثم، وهو الإعطاء، يقال: قثم له من العطاء، إذا أعطاه، فسمى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بذلك لجوده وعطائه.

والثانى: من القثم، وهو الجمع، يقال للرجل الجامع للخير: قثوم وقثم، وقد كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، جامعا للفضائل، وجميع الخير والمناقب، وقد علمت ما فيه.

(كما ذكرناه بعد) بالبناء على الضم أى فيما سيأتى **(عن الحربى)** قال البرهان لهم أبو إسحاق الحربى، وإسحاق بن الحسين الحربى، والثانى ثقة حجة سمع من هودة، وحسين بن محمد وغيرهما، ووثقه الدارقطنى وصحح عليه فى الميزان، وذكر الذهبى أنه مبهم، **(وهو أشبه بالتفسير)** يعنى أنه أقرب شبها بتفسيره المأثور بالجامع، وفيه نظر لأن قثم بالمثلثة بمعنى مجتمع أيضًا كما تقدم آنفا، وقد كان عبد الله أبو النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يكنى بأبى محمد وأبى قثم، وقالوا: إنه الجامع للخير، أولشمل أمته، ويأتى أن هذا الاسم معروف فى جماعة من أهل البيت، منهم قثم شقيق الحارث عم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وابن عبد الملك، وبه سميت محلة بسمرقند دفن فيها وبها مدرسة قثم أيضًا، وقثم بن عبد الله بن العباس.

ثم عاد المصنف إلى ذكر القيم بالتحتية، وأشار إلى ما يصححه فقال: **(ووقع أيضا فى كتب الأنبياء)** المنزلة من السماء كصحف إبراهيم وداود **(قال داود، عليه الصلاة والسلام: اللهم)** أى يا الله وألحقوا الميم فى آخر هذا الاسم إيذانا بجمع أسمائه وصفاته، فالسائل إذا قال: اللهم فكأنه قال: أدعو بأسمائه وصفاته، فأتى بالميم المؤذنة بالجمع فى آخره إيذانا بسؤاله بأسمائه كلها؛ ولذا قال العطاردى: اللهم فيها تسعة وتسعون اسما من أسمائه. وقال النضر: من قال: اللهم فقد دعا الله بجميع أسمائه، ووجه هذا بأن اللهم بمنزلة واو الجمع، فإنها من مخرجها فكأن الداعى بها يقول: يا الله الذى اجتمعت له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وشددت لتكون عوضا عن الواو والنون فى نحو مسلمون.

(ابعث لنا محمدا يقيم السنة) أى الطريقة الشرعية والدين **(بعد الفترة)** أى انقطاع الوحى والرسل، وضمير لنا للناس.

(فقد يكون القيم بمعناه) أى بمعنى المقيم للسنة المأخوذ مما ذكر؛ لدلالته بمادته عليه، فيكون إذا سلم أنه اسم للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بهذا المعنى، وقد قالوا: إنه اسمه فى الزبور كما يشير إليه كلام المصنف، وفى التوراة كما نقله السيوطى، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فالسنة سنة الرسل، وهى الشريعة والتوحيد، والفترة ما بين كل رسولين من الزمان، وهو المراد، وقد يخص بما بين عيسى ونبينا، صلى الله تعالى عليهما وسلم، وأصل معناها الضعف وتسمية ترك العبادة فترة منه، فليس معنى أصليا كما توهم، فإن كان ضمير لنا له ولقوله فجملة ابعث الدعائية لتمنى أن يبعث فى زمنه، وقيل: ضمير بمعناه لقثم بالمثلثة، وفى كتاب فضل الصلاة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لابن القيم أن اللهم لا تستعمل إلا فى الطلب نحو اللهم اغفر لى. قلت: وهذا ينافى قوله بعد هذا: إنه يسوغ استعماله فى موضع لا يكون بعده دعاء نحو اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى فتأمله.

(وروى النقاش) تقدمت ترجمته **(عنه، عليه الصلاة والسلام)** أنه قال: **(لى فى القرآن سبعة أسماء)** تقدم المراد بالأسماء، وأنها تشمل الصفات غير الأعلام، ثم ذكرها فقال: **(محمد، وأحمد، ويس، وطه، والمدثر، والمزمل، وعبد الله)** تقدم الكلام على بعضها، وستأتى تتمته ومحالها من القرآن معلومة فى أوئل السور وغيرها، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، واقتصر على هذه لشهرتها، وإلا فقد ورد فيه غيرها كالرسول، والنبى، والخاتم، والرءوف، والرحيم، والصاحب، ومفهوم العدد غير معتبر، وقيل: إنه كان قبل وصف الله له بهذه، أو المراد ما يختص به كما يشعر به تقديم الخبر، والجواب بأن رءوف ورحيم صفتان لا اسمان لتعلق الجار بهما كما فى قوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ثم استفيد كونهما اسمين بعد القرآن غير مسلم لما مر، وقوله: فى القرآن يشير إلى أن له أسماء أخر ليست فيه.

وفى الصحيحين فى فترة الوحى **(بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصرى، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض، فرعبت منه ورجفت فقلت: زملونى زملونى)**، وفى رواية دثرونى، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢]، والمدثر والمزمل اسمان من الحالة التى كان عليها حين النزول، والمدثر المتلفف فى الدثار وهو الثياب، والمزمل بمعناه وأصله المتدثر، والمتزمل فقلب وأدغم كما هو معلوم من علم التصريف، وقال ابن الورد: إنما نزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا

﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١] عقيب قوله زملونى؛ لأن هذا التزمل أريد به الدثار من برد يعترى المروع كالمحموم، كما كان يعتريه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عند نزول الوحى عليه، فخاطبه بما طلب من تزمله أى يا أيها المتزمل المتدثر دع الدثار، وجد فى الإنذار تأنيسا له من الروع وتنشيطا له على فعل ما أمر به كما تقول لمن أرسلته لأمر فتخوف وتثبط عنه: يا أيها المتخوف امض لأمرك.

وقال السهيلى: فيه ملاطفة لأنه ورد أنا النذير العريان، فوصفه بالإنذار مع الدثار تمليح بالطباق، وهو منزع بديع، وكان تدثره، صلى الله تعالى عليه وسلم، بقطيفة فى بيت خديجة، وذكر عائشة بدل خديجة خطأ؛ لأنه كان بمكة، وعائشة إنما كانت معه بالمدينة.

وقيل: معناه المدثر بالقرآن، **وقيل:** معنى المزمل الحامل لأعباء الرسالة من المزاملة فهو استعارة تصريحية.

وقال السهيلى: ليس المزمل من أسمائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنما هو مشتق من حالته المتلبس بها حال الخطاب، والعرب تفعله ملاطفة ومعاتبة، كقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعلى، كرم الله وجهه، وقد نام على الأرض: قم يا أبا تراب ملاطفة لما كان بينه وبين فاطمة، رضى الله تعالى عنهما، من المغاضبة.

وما روى عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، أنه كان بمنزلها مزملا مرطا طوله أربعة عشر ذراعا نصفه عليها وهى نائمة لا أصل له؛ فإن نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١] كان بمكة، ودخوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، على عائشة إنما كان بالمدينة، وقد علمت أن عبد الله سماه الله تعالى به فى آيات، والعبودية أشرف صفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأصل معناها الخضوع والتذلل، وأن العبد هو الإنسان رقيقا أم لا، وقال المشايخ: العبودية القيام بحق الطاعات بشرط التوفيق والنظر لما صدر منه بعين التقصير، وفى بعض النسخ: **(وفى حديث عن جبير بن مطعم هى)** أى أسماؤه ﷺ **(ست محمد، وأحمد، وخاتم، وحاشر، وعاقب، وماحى)**، وقد علمت معانيها.

(وفى حديث أبى موسى الأشعرى، رضى الله تعالى عنه، أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يسمى لنا نفسه أسماء فيقول: أنا محمد، وأحمد، والمقفى)، وفى رواية كما تقدم المقتفى، **(والحاشر ونبى التوبة)** هذا الحديث أسنده السيوطى فى الرياض الأنيقة، وقد مر تفسير هذه الأسماء غير الأخير، ومعناه أن توبة أمته مقبولة من غير حرج عليهم حتى تطلع الشمس من مغربها، أو يغرغر، وكانت الأمم السالفة منهم من لا تقبل توبته

أصلا، ومنهم من تقبل توبته بشرط أمور شاقة كما لم تقبل توبة بنى إسرائيل من عبادة العجل إلا بقتل أنفسهم، وهذه الأمة تقبل منهم مطلقا وإن تكررت مع تكرر الذنوب، وبه فسر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، بشرط الندم والعزم على عدم العود ورد حقوق العباد أو استحلالهم ونحوه، كما فصلوه فى محله فهو لا ينافى قبول توبة غير هذه الأمة فى الجملة.

(ونبى الملحمة) تقدم تفسيره، **(ونبى المرحمة والرحمة وكل صحيح إن شاء الله)** رواية ودراية كما تقدم أيضًا.

(ومعنى المقفى هو معنى العاقب) كما مر مفصلا، والأولى تفسير كل منهما بمعنى هربا من التكرار، فمعنى المقفى التابع لهدى النبيين وسننهم، والعاقب الخاتم لباب النبوة والرسالة، وإليه أشار بقوله: **(وقيل:)** معنى المقفى **(المتبع لهدى النبيين، وأما نبى الرحمة والتوبة)** يأتى جواب أما، وقيل: معنى نبى التوبة أنه كثير التوبة والاستغفار لنفسه؛ لقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة)**.

(والمرحمة والراحة) لأن من رحمه الله تعالى فقد أراحه من العقاب، وإذا أعلمه بذلك أراحه من القلق والضجر، **(فقد قال تعالى:** ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]**)** دليل وتفسير لما قبله، وقد تقدم أنه لا ينافى أنه نبى الملحمة، والسيف أى القتال به لما تقدم، وفى شرح السنة أن الأمم السالفة كان من كفر منهم بعد ظهور المعجزات يعذب بالاستئصال فأمر الله تعالى نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالجهاد بسيفه ليرتدعوا عن الكفر، فالسيف فيه بقية لهم، ويؤيده نزول ملك الجبال عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليطبقها عليهم، وإباؤه ذلك رجاء أن يكون من ذريتهم من يعبد الله، ورفع عنهم الإصر وأثابهم الكثير على العمل القليل مع قصر أعمارهم، وقد أثاب الله تعالى الأمم السالفة مع كثرة أعمارهم وأعمالهم بأقل من ذلك، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وفى جعله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عين الرحمة وتعميم العالمين بها مبالغة ظاهرة.

(وكما وصفه) أى مثل وصفه الذى وصفه به فى هذه الآية وصفه له فى غيرها **(بأنه يزكيهم)** أى يطهرهم من الأخلاق الذميمة، والآثام المدنسة لهم بمقاله وحاله، وضمير يزكيهم للعالمين، وقيل: لأمته.

(ويعلمهم الكتاب) أى القرآن، **(والحكمة)** أى العلوم النافعة والعقائد الحقة، ومعانى القرآن، وفسرت أيضًا بإصابة الحق قولا وفعلا، ووردت بمعنى القرآن أيضًا، والحكمة

من الله معرفة حقائق الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الناس معرفة الموجودات وفعل الخيرات، وهو الذى وصف به لقمان ويصح إرادته هنا أيضًا.

(**ويهديهم إلى صراط مستقيم**) أى يدلهم على طريق لا عوج فيه بالوحى والشريعة يوصلهم إلى سعادة الدارين، (**وبالمؤمنين رؤوف رحيم**) قدم متعلقه للتخصيص، أو للاهتمام والتشريف مع رعاية الفاصلة وموافقة نظم القرآن قصد الاقتباس عن مشكاته، وتقديم الرؤوف كما مر؛ لأنه الشفقة والتلطف بالمنعم عليه، وهو مقدم كما مر، وما قيل من أنه قدم للفاصلة وحقه التأخير بناء على أنه أشد الرحمة تقدم رده.

(**وقد قال**) النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو الله فى غير القرآن إذ لم يقع فيه بهذا اللفظ (**فى صفة أمته أنها أمة مرحومة**) فى الدنيا والآخرة فى الحياة والممات، والأمة أمة الدعوة والإجابة، (**وقد قال تعالى فيهم**) أى فى حقهم وشأنهم: ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ**﴾ [البلد: ١٧]، معطوف على جملة الصلة فى قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [البلد: ١٧]، (**أى يرحم بعضهم بعضا**) أى أوصى بعضهم بعضا بالصبر على طاعة الله، وعن معاصيه، وبالرحمة على خلق الله، (**فبعثه الله**)، وفى نسخة فبعثه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ربه (**رحمة لأمته**) متفرع على ما قبله باعتبار العلم والظهور، وهو فى الحقيقة سبيله ورحمته المختصة بهم ظاهرة، ورحمة مفعول له أو حال من الله، أو من ضمير النبى بمعنى راحمًا لهم (**ورحمة للعالمين ورحيما بهم**) أى جعله عين الرحمة لإرشاده لهم ولطفه بهم، وحمله على ذلك، فلا تكرار فيه مع ما قبله، (**ومترحمًا ومستغفرًا لهم**) أى داعيًا لهم بالرحمة والمغفرة؛ لشفقته، صلى الله تعالى عليه وسلم، عليهم، ففيه حسن ترتيب وإيهام للتأكيد.

(**وجعل أمته أمة مرحومة، ووصفها بالرحمة**) لإجابة دعائه وتحقيق رجائه لهم، ويجوز أن يكون بيانا لما مر لاعتنائه به وتفضيله، (**وأمرها**) أى الأمة (**عليه الصلاة والسلام، بالتراحم، وأثنى عليهم**) أى أمر أمته بأن يرحم بعضهم بعضا، ثم فسره بقوله: (**وقال**)، عليه الصلاة والسلام: (**إن الله يحب من عباده الرحماء، وقال**)، صلى الله تعالى عليه وسلم: (**الراحمون يرحمهم الرحمن**)، وهذا خبر لفظا مآل معناه الأمر، فلذا أردفه بصريحه بقوله: (**ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء**) بالرفع والجزم، وحديث ارحموا إلخ، صحيح مشهور مسلسل بالأولية.

قيل: ويؤخذ من كونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، رحمة أنه لا ينبغى أن يدعى له بالرحمة، فيقال: اللهم ارحم محمدا، ورده العراقى بأن كونه رحمة للعالمين من جملة الرحمة، فهو دليل لهم لا عليهم، وما ورد فى الحديث يتبع، وقيل: إنه مخصوص بالتشهد

لعدم وروده فى غيره، وسيأتى تفصيله فى بحث الصلاة عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وأما رواية نبى الملحمة، فإشارة إلى ما بعث به من القتال والسيف وهى صحيحة) متنا وسندا كما ذكره المحدثون، وظاهرة معنى؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، فرض عليه القتال، وأحلت له الغنائم، ونصر بالرعب، ووقع له من الحرب والجهاد والنصرة ما لم يتفق لغيره من الرسل، وبقى ذلك فى أمته إلى يوم القيامة، وما أحسن ما قيل:

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب فى المحراب

فلاختصاصه بذلك أضيف له.

(وروى حذيفة)، وفى نسخة عن حذيفة، وهذا رواه أحمد، والترمذى فى الشمائل **(مثل حديث أبى موسى)** الأشعرى السابق أى بمعناه ولفظه، **(وفيه: ونبى الرحمة ونبى التوبة ونبى الملاحم)** بالجمع للكثرة إشارة إلى أنه اختص بكثرتها.

(وروى الحربى) تقدم ذكره وأنه متعدد ولم يعينه المصنف، رحمه الله تعالى، ورواه أبو نعيم فى الدلائل عن يونس بن ميسرة.

(وفى حديثه، عليه الصلاة والسلام، أنه) بيان لأنه مرفوع **(قال: أتانى ملك، فقال: أنت قثم)** بالثاء المثلثة كما مر **(أى مجتمع)** أى مجموع فيك كل كمال وخير، فكنى عن ذلك بكونه مجتمع فى ذاته؛ ولذا عقبة بقوله: **(قال: والقثوم الجامع للخير)** كله فى ذاته ولغيره، **(وهذا اسم)** له ﷺ **(هو فى أهل بيته معلوم)**، فسمى به غيره كما تقدم هو وتفسيره.

(وقد جاءت من ألقابه) وهى أسماؤه المنقولة، واللقب ما أشعر بمدح، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات: ١١]، فمخصوص بما فيه ذم مؤذ كما ذكره المفسرون، **(وسماته)** بمعنى صفاته، أو هو عطف تفسيرى، والسمة فى الأصل الوسم والكى، ثم عم لكل علامة واشتهر بمعنى الصفة، أو المراد الصفات الواردة **(فى القرآن)**؛ لأن أكثر ما فيه صفات منزلة منزلة الأعلام **(عدة كثيرة سوى ما ذكرناه)** مما تقدم ذكره، ومنها ما هو حقيقة، ومنها ما هو استعارة **(كالنور والسراج المنير)** كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]، وفسر بالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه نور لا ينطفى، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢]، وهذا بناء على ما اختاره، ومنهم من فسره بالقرآن، ولكل وجهة والذى حققه المشايخ نور الله تعالى مراقدهم كما فى مشكاة الأنوار لحجة

الإسلام أن حقيقة النور هو الظاهر بنفسه المظهر لغيره، والعالم مشحون بالأنوار الظاهرة المحسوسة والباطنة المعقولة التى يفيض بعضها على بعض.

قال: والنور الحقيقى هو الله تعالى، فهو نور السموات والأرض، ونور الأنوار.

وقال الأشعرى: إنه نور ليس كالأنوار، والروح النبوية القدسية لمعة من نوره، والملائكة شرر تلك الأنوار، وبهذا صرح فى هياكل النور؛ فلذا سمى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، نورًا، ولاقتباسه من الأنوار الإلهية سمى سراجًا لما فاض عليه من الأنوار العلوية، فليس الوصف به لغوا ولا مؤكدا، فإن فهمت فنور على نور، فهو فى الأصل استعارة، ثم إن كان سمى به صار حقيقة عرفية.

(والمنذر والنذير) وهما متقاربان معنى، وأصل الإنذار الإعلام بما فيه تخويف. قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩]، وفى البخارى: «إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قوما فقال: يا قوم إنى رأيت الجيش بعينى وأنا النذير العريان، فالنجاة النجاة، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبته طائفة فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق».

والنذير للمبالغة فى صدقه وجده فى إنذاره، ووصفه بالعريان لأنه أبلغ فى إنذاره، وقيل: كان النذير يتجرد من ثيابه ويلوح بها مع الصباح تأكيدًا لإنذاره.

(والمبشر والبشير) قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، ونحوه من الآيات، وهما من البشارة بكسر الباء وضمها وهو الإخبار بخير سار، وقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، تهكم، وسميت بها لتغييرها بشرة الوجه أى ظاهره، وقيده بعضهم بالخبر الصادق، وبنوا عليه ما لو علق عليه طلاقا أو عتاقا كما بين فى كتب الفقه والأصول، وقيل: إنه يعم الخير والشر حقيقة، وقد مر ذلك كله، وقال السيوطى: إنه من أسماء الله أيضا لقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ﴾ [التوبة: ٢١]، وفيه نظر.

(والشاهد والشهيد) قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ونحوه، والشهادة كما فى الصحاح الخبر القاطع، وأصل معنى الشهادة المعاينة، وسمى به لشهادته على الأمم لتبليغ أنبيائهم لهم، ويشهد على أمته بالإيمان كما ورد فى الحديث، ويأتى أن الشهيد من أسماء الله

تعالى، ومعناه العالم أو الشاهد على عباده يوم القيامة، ثم سمى به النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(والحق المبين) قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩]، وقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ١٠٨]، ونحوه، وفسرا به، صلى الله تعالى عليه وسلم، والحق والصدق متقاربان، وفرق بينهما الإمام بأن الصدق نسبة الشىء إلى الواقع، والحق نسبة ما فى الواقع إلى الشىء من حق إذا ثبت، وسمى به، صلى الله تعالى عليه وسلم، لحقية نبوته ورسالته وما جاء به، وجعل عين الحق مبالغة، والمبين من أبان ويكون متعديا ولازما بمعنى تبين، فمعناه الظاهر فى نفسه والمظهر لغيره. قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وإن المبين من أسمائه تعالى لتبين ألوهيته وعظمته ولتبيينه لعباده أمر معادهم ومعاشهم وشرائعهم.

(وخاتم النبيين) بكسر التاء اسم فاعل، وبفتحها اسم آلة كطابع، كأنه ختمهم بنفسه، فهو استعارة فى الأصل شاع وصار حقيقة قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، من ختمت الأمر إذا تممته وبلغت آخره، وفى الصحيحين «مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا وأحسنه وأكمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون ويقولون: هلا وضعت تلك اللبنة، فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين».

وحكمة كونه خاتما ليكون الختم رحمة، ولئلا يطول مكث أمته تحت الأرض، ولئلا تطلع الأمم على أحوال أمته، ولئلا تنسخ شريعته، ولذلك نزل عيسى، عليه السلام، على شريعته كما تقدم.

(والرؤوف الرحيم) تقدم معناهما مفصلا.

(والأمين) فعيل بمعنى مفعول مبالغة، ويكون بمعنى فاعل كقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣]، وتسميته به مشهورة قبل البعثة، ووقع فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [١٩: ٢١]، فى قول بعض المفسرين أن المراد به النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما مر، وإن كان المشهور خلافه، وأنه جبريل، عليه السلام، وقال المصنف: إنه قول أكثر المفسرين كما نقله السيوطى عنه، وقيل: إنا لم نعلمه فى القرآن فى غير هذه، والراجح خلافه إلا أنه وقع فيه بطريق الالتزام؛ لأنه وصف به فيه من هو دونه كقوله تعالى **(فى موسى:** ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧]، وفيه تكلف، وقد سمى به وبالمأمون

فى الجاهلية قال كعب بن زهير:

سقاك بها المأمون كأسا روية فأنهلك المأمون منها وعلكا

ومر أنه لما تشاحنت قريش فيمن يضع الحجر الأسود قالوا: أول من يدخل من هذا الباب يضعه، فدخل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلما رأوه قالوا: قد جاء الأمين، وإنه كان مشهورا به قبل البعثة، فكانت توضع عنده الودائع والأمانات.

(وقدم الصدق) كما عده كثير من أسمائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى البخارى عن زيد بن أسلم فى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]، قال: هو محمد، صلى الله عليه وسلم، ومر الكلام عليه مفصلا فى أول الكتاب.

وعن على كرم الله وجهه كما أخرجه ابن مردويه أنه قال فى تفسيره: هو محمد شفيع، وفيه إشارة إلى وجه التسمية من أنه تبشير بأن يشفع لهم؛ لأن من عادة الشافع تقدمه على من يشفع له، فعلى هذا أنه سماه الله تعالى به، وكذا روى عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله تعالى عنه، أن معناه شفيع مصدق، ومر عنه فى كلام المصنف، رحمه الله تعالى، شفيع صدق عند ربهم، ومر فيه عن سهل أن معناه سابقة رحمة أودعها الله تعالى، أى عهد له بها أزلا أنه سيجعله رحمة لهم؛ ولذا عقبه المصنف، رحمه الله، بقوله: **(ورحمة للعالمين)**، فهو كالتفسير له، والقدم واحد الأقدام، ويطلق على التقدم لأنه يكون بها، ويقال: لفلان قدم أى تقدم كما قال ذو الرمة(١):

لكم قدم لا ينكر الناس أنها مع الحسب العادى طمَّتْ على الفخر

وكونه رحمة لجميع العالمين كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقد مر الكلام عليه.

(ونعمة الله)، فهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، نعمة لهم، وعن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى: ﴿بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨]، قال: هم كفار قريش، ونعمة الله محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، فسمى نعمة كما سمى رحمة، وذلك حقيقة لمن اتبعه؛ ولذا قال: **(والعروة الوثقى)** قال ابن دحية، وأبو عبد الرحمن السلمى فى قوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، هو محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، والعروة ما يتمسك به من الحبل، والوثقى الوثيقة المتينة فيه استعارة تمثيلية تصريحية؛ لأن من اتبعه لا يقع فى هوة الضلال كما أن من مسك حبلا متينا صعد من

(١) البيت من الطويل، وهو لذى الرمة فى ديوانه (ص٩٧٢)، أساس البلاغة (قدم).

حضيض المهالك.

(و) من أسمائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(الصراط المستقيم)** ذكره ابن دحية، وقال أبو العالية فى قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، هو رسول الله، ﷺ، وأخرجه ابن أبى حاتم، وسمى به لأنه طريق إلى الله تعالى موصل إليه، وتقدم أن الصراط بالصاد، والسين، والزاء المشمة الطريق المستوى أو الواضح، والمستقيم الذى لا عوج فيه، فاستعير له، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأن التابع له واصل لسعادة الدارين ناج، والمنحرف عنه ضال غير مهتد؛ فلذا عقبه بقوله: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣]، إشارة لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، وروى عن السلف فى قوله تعالى: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣]، أنه محمد ﷺ، وقيل: قلبه وهو بعيد، وقد مر هذا وما قبله فى كلام المصنف، رحمه الله، عن جعفر الصادق فى تفسير ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]، وأن الثاقب بمعنى المضىء المتوهج قال(١):

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

وهو تشبيه بليغ أو استعارة من مطلق النجم، أو من نجم مخصوص وهو زحل، لأنه يهتدى به، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما يهتدى بالنجم، أو لأنه استنارت به ظلمة الجهل، فإن خص بزحل فوجه الشبه الإضاءة مع الرفعة كما قيل.

(والكريم) المتفضل أو العفو أو الكثير الخير أو الملى كما يأتى وكله صحيح فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو سمى به فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]، بناء على أنه المراد به، وقيل: المراد جبريل، عليه السلام، كما مر ويأتى والخلاف فى تفسيره مشهور، ولا حاجة لإثباته بهذه الآية لاتصافه، صلى الله تعالى عليه وسلم، به وبمعناه فى الأحاديث الصحيحة.

(والنبى الأمى) قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وهو من لا يقرأ ولا يكتب، وقيل: هو الذى يقرأ ولا يكتب ورجحه السبكى والسيوطى، وفيه أقوال أحدها وثانيها هذان، وقيل: كان يقرأ ويكتب، وقيل: كان لا يقرأ ولا يكتب فى أول أمره، ثم لما زالت الشبهة علمه الله ذلك، وذهب إلى هذا بعض

---

(١) البيت من الطويل، وهو لأبى الطمحان القينى فى الأغانى (٩/١٣)، أمالى المرتضى (٢٥٧/١)، تخليص الشواهد (ص٢٠٢)، خزانة الأدب (٩٥/٨، ٩٦)، ديوان المعانى (٢٢/١)، شرح ديوان الحماسة للمروزقى (ص١٥٩٨)، كتاب الصناعتين (ص٣٦٠)، لسان العرب (١٤٣/٧)، المقاصد النحوية (٥٦٧/١)، وهو للقيط بن زرارة فى الحيوان (٩٣/٣)، الشعر والشعراء (ص٧١٥).

المحدثين من علماء المغرب ومن تبعهم، وسيأتى تفصيله مع أنه تقدم مرارا، والأمى منسوب إلى الأم كأنه على الحالة التى ولدته أمه عليها، أو إلى أم القرى وهى مكة، أو إلى أمة العرب، وكنى به عما ذكر؛ لأن القراءة والكتابة لم تكن معروفة فيهم، وقيل: منسوبة إلى الأمة لأنه أمة بنفسه، وأمته معجزة له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإن عدت منقصة لغيره؛ لأنه مع ما ظهر منه من العلوم والمعارف اللدنية، ومعرفته بأخبار الأمم السالفة وشرائعهم، وهو لا يقرأ ولا يكتب ولم يدارس ولم يتلقن ممن قرأ وكتب أمر غريب عجيب. والمقصود من القراءة والكتابة ذلك، لأنهما آلة وواسطة له غير مقصودة فى نفسهما، فإذا حصلت له الثمرة المطلوبة منهما استغنى عنهما بخلاف غيره مع ما فى ذلك من الرتبة والاستغناء بكتابته عن ملاقاته، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وروى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: لا أريد الخط لئلا يقع ظل القلم على اسم الله تعالى رواه الترمذى ولم يسنده، فجازاه الله تعالى على ذلك أن يرفع ظله عن الأرض، فلا يوطأ وأن لا ترفع الأصوات على صوته، وسيأتى أن من وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالأمية على وجه يشعر بالتنقيص له حكم الساب.

(وداعى الله) أى داعى الناس إلى توحيد الله وطاعته، كما قال الله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤٦]،.و ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١]، ونحوه، وفى الحديث الصحيح **(إن ربكم فتح دارا وصنع مأدبة فمن أجاب الداعى، رضى عنه السيد ودخل الدار وأكل من المأدبة، فالسيد هو الله، والداعى محمد، والدار الإسلام)**، وقال البخارى: الجنة، وكذا المأدبة.

قال السيوطى: وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه داع فى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥]، فهو من جملة أسماء الله تعالى التى سماه بها، وقال على لسان الجن: **(أجيبوا داعى الله)**، ففيه دليل على أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مبعوث إليهم، وقال مقاتل: لم يبعث إلى الجن نبى قبله، وفسر قوله: **(بعثت إلى الأسود والأحمر)** بالإنس والجن كما تقدم، وهو مشكل بسليمان، عليه السلام، وقد يوفق بينهما بأن الله سخر له الجن مع أمره لهم بتوحيد الله تعالى؛ لأنه لايرضى الكفر إلا أنه لم يكلفهم بفروع شريعته، والنبى ﷺ مأمور بدعوتهم وتكليفهم بالعمل بشرعه، ولم يؤمر باستخدامهم وتسخيرهم له كسليمان.

(فى أوصاف كثيرة وسمات جليلة) عظيمة مبجلة أى ورد ما ذكر فى القرآن والآثار

مع صفات أخر كثيرة أطلقت عليه كإطلاق الاسم على مسماه، فجعل الكثير باشتماله على غيره كالظرف المحتوى على مظروف، وسمات جمع سمة وهى العلامة لكن تجوز بها عن مطلق العلامة كالمرسن للأنف، وشاع حتى صار كالحقيقة أو بمنزلتها، ثم تجوز بها عن الصفة وهو المراد هنا، وعبر به للتفنن فى العبارة.

(وجرى منها فى كتب الله المتقدمة أى) وقع منها فى كتب الله المتقدمة على القرآن كالتوراة والإنجيل وغيرهما، و«جرى» حقيقته أسرع من المشى، وفى المائعات بمعنى سال كجرى النهر، ثم شاع عرفًا بمعنى وقع وحدث، فيقال: جرى الماء على كذا، ولذا تلطف الشاعر فى قوله:

وتحدث الماء الزلال مع الصفا فجرى النسيم عليه يسمع ما جرى

(وكتب أنبيائه) قيل: المراد بها كلمات منقولة، فإن لهم، عليهم الصلاة والسلام، أحاديث دونها أحبارهم زمانهم قبل نسخ أحكامهم، ونقلها المسلمون عنهم ودونوها كالإسرائيليات، وهذا يعلم من مقابلته لما قبله.

(وأحاديث رسوله)، صلى الله تعالى عليه وسلم، الواقع فيها وصفه، أو تسميته لنفسه، أو قالها أصحابه بنقل عنه وبدونه، وهذه كلها تسمى أحاديث أيضًا، **(وإطلاق الأمة)** غير الصحابة، أو المراد الأعم أى تسميتهم له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ووصفهم، فإن إطلاق اللفظ بمعنى استعماله سواء كان حقيقة أم لا مشهور ومتعارف، وهو فى الأصل من الإطلاق بمعنى فك الوثاق، ثم نقل عرفا لما ذكر، وأسماؤه، صلى الله عليه وسلم، وإن كانت توقيفية عند بعضهم كأسماء الله تعالى، فما اشتهر فيها وتلقى بالقبول فى حكم المنقول، فإن الأمة لا تجتمع على الضلالة، وقد وقع هذا فى كثير من أسمائه وصفاته.

(جملة شافية) فاعل جرى من شفاء المريض، أى شافية من داء الجهل، أو من شفاء الغليل وهو حر العطش؛ لأنه يروى الظمأ ويثلج الصدر **(كتسميته بالمصطفى والمجتبى)**. وهذا مما أطلقه عليه الأمة، ولم يرد فى كتاب ولا سنة، وهما بمعنى، وفى الصحاح اجتباه بمعنى اصطفاه واختاره، وأصله كما قاله الراغب من جبيت الماء فى الحوض إذا جمعته؛ لجمعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، المكارم والصفات الحميدة بفيض إلهى من غير سعى كما قال الله تعالى: ﴿يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]. قال السيوطى: المصطفى من أشهر أسمائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومثله المختار، وفى مسند الدارمى أن فى التوراة محمد رسول الله عبدى المختار إلى آخره.

(وأبى القاسم) وهذا أشهر كنية له، صلى الله عليه وسلم، ومنها أبو إبراهيم كما يأتى، وأبو المؤمنين، وأبو الأرامل كما ذكره السيوطى، وهذا ورد فى الحديث الصحيح، ففى مسلم عن جابر، رضى الله عنه، أنه، صلى الله عليه وسلم، قال: **(تسموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى، فإنى أبو القاسم أقسم بينكم)**، ويأتى الكلام فى أوائل القسم الرابع، ومثله ما فى كتاب الذخائر والإغلاق فى أدب النفوس ومكارم الأخلاق أنه كنى به؛ لأنه يقسم الجنة بين أهلها يوم القيامة، والذى جزم به أهل السير أنه كنى بابنه القاسم، وهو أول أولاده، صلى الله تعالى عليه وسلم، من خديجة ولادة ووفاة.

وظاهر النهى فيه تحريم التكنى بكنيته مطلقا، وهو الأصح من مذهب الشافعى، وقيل: إنه جائز بعد موته، صلى الله تعالى عليه وسلم، والنهى مخصوص بحياته، ورجحه النووى، ووجهه أن النهى عن ذلك لئلا يتأذى بإجابة دعوة غيره فيجد المنافقون فرجة لأذاه، وهو يزول بوفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ ولذا لم ينه عن اسمه مع منع الله تعالى من ندائه به، وفى قول: يحرم لمن اسمه محمد دون غيره لما روى عن جابر مرفوعا **(من تسمى باسمى فلا يتكن بكنيتى)**، ويأتى بسط ذلك فى القسم المذكور. قال السبكى: وحيث حرمناه فالمحرم التكنية وهو وضع الكنيه لأحد، والتكنى وهو قبول المسمى لذلك، وأما الإطلاق فأمر ثالث إلا أن يكون ذلك الشخص لا يعرف إلا به فيكون عذرًا، واختلفوا فى عمر ابنه القاسم، فقيل: سنتان، وقيل غير ذلك.

(والحبيب)، وحبيب الله تعالى، وهذا ثبت بالحديث الصحيح الذى رواه البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، **(اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وموسى نجيًا، واتخذنى حبيبًا وقال: وعزتى وجلالى لأوثرن حبيبى على خليلى ونجيى)**، وقد مر الكلام على المحبة والخلة والفرق بينهما، والكلام على أيهما أفضل، وهذا الحديث صريح فى تفضيل المحبة؛ لأن لها معنيين أحدهما مطلق، وهو فى الخلق مطلق الميل وفى الله إيثاره وتفضيله على غيره، وخاص وهو فى الناس إيثاره على نفسه وغيره، وجعله نصب عينه بحيث لا يفتر عن ذكره وتملكه لقلبه بحيث لا يكون فيه محل لسواه، والخلة المودة والمعاونة مع ميل ما، ولا شك أنها بهذا المعنى أفضل وأعلى، فقول ابن القيم فى كتاب الداء والدواء: ما يظنه بعض الغالطين من أن المحبة أكمل من الخلة فمن جهله، فإن المحبة عامة والخلة خاصة، فإنها نهاية المحبة، فإنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أخبرنا بأنه لم يتخذ خليلاً غير ربه مع إخباره، صلى الله عليه وسلم، بمحبته عائشة وغيرها لم يصادف محزه **(ورسول رب العالمين)** لم ينظم هذا فى سلك ما وقع فى القرآن؛ لأنه وإن ورد فيه كثيرًا إلا أنه لم يقع فيه مضافًا لرب العالمين. قال الأزهرى: الرسول المبلغ لأخبار من بعثه

من قولهم: جاءت الإبل رسلا أى متتابعة، والفرق بينه وبين النبى مشهور.

(والشفيع المشفع) أى المقبول شفاعته، وسمى شافعا أيضًا، وقد تقدم أن له، صلى الله تعالى عليه وسلم، شفاعات سبعة كما تقدم تفصيله.

(والمتقى) والتقى والأتقى لحديث مسلم: **(أنا أتقاكم لله)**، والتقوى لها مراتب مفسرة فى تفسير البيضاوى.

(والمصلح) للخلق بإرشاده وهدايته قال المصنف، رحمه الله: وجد على بعض الحجارة القديمة: محمد تقى مصلح أمين؛ لأنه ألف بين قلوب الناس وأزال ما بينهم من الضغائن كما كان بين العرب والعجم وقبائل العرب، كما قال الله تعالى: **﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾** [آل عمران: ١٠٣].

(والطاهر) بالمهملة لطهارته، صلى الله عليه وسلم، من النقائص والأدناس الحسية والمعنوية، حتى ذهب الشافعية إلى طهارة فضلاته كغائطه وبوله ودمه، ورجحه السبكى والبلقينى وأفتوا به كما مر، وقد شربت بوله أم أيمن وشرب جماعة من دمه، ولم ينكره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وطهارته من الذنوب والأخلاق الردية كما تقدم.

(والمهيمن) ويأتى أن هذا أسماه به عمه العباس، رضى الله تعالى عنه، فى شعره المشهور الذى مدحه، صلى الله تعالى عليه وسلم، به وقد تقدم روايته له، وفيه:

حتى احْتَوىَ بيتك المهيمن من   خندف عَليَاءَ تحتها النُّطُقُ(١)

وميمه الأولى مضمومة والثانية مكسورة وروى فتحها أيضا، وهو كما أنه اسم له، صلى الله عليه وسلم، صح أنه من أسماء الله تعالى، ومن أسماء القرآن. قال الله تعالى: **﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾** [المائدة: ٤٨]، وفسر فى الآية بمحمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، على أنه حال من كاف إليك، والراجح تفسيره بالقرآن على أنه حال بعد حال من الكتاب، ولذا لم يذكره المصنف فى أسمائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الواردة فى القرآن، ، وقال ابن قتيبة: إنه من أسماء الله تعالى معناه الشاهد، وقيل: الحفيظ، وقيل: الرقيب، وقيل: القائم على خلقه، وقيل: الأمين، وتبعه المصنف فى بعض ذلك كما يأتى بيانه، وأصله مؤيمن قلبت همزته هاء، وقيل: المهيمن وهو فى أسماء النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالمعنى

---

(١) البيت من المنسرح، وهو للعباس بن عبد المطلب فى لسان العرب (٣٥٦/١٠)، (نطق)، (٤٣٦/١٣)، (همن)، (٩٠/١٥)، (علا)، تاج العروس (٤٥٨/٤)، وبلا نسبة فى المخصص (١٥/٢)، مقاييس اللغة (٧/٦).

الأول أو الرابع أو الخامس انتهى.

وهو عنده - أى المصنف - مصغر مؤمن على ما سيأتى، وتصغيره للتعظيم، وقد رد هذا وشنع عليه فيه بأن أسماء الله وأسماء النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، والقرآن، بل كل معظم لا يجوز فيها التصغير كما يأتى، ولم يرد مثله، ولذا ارتضى أبو على فى الحجة أنه اسم مكبر ورد بهذه الزنة كالمبيقر والمسيطر، وفتح ميمه يدل على ما قاله، وإذا وصف به القرآن فمعناه رئيس الكتب العالى عليها؛ لحفظه من التغيير والتبديل، وإعجازه ببلاغته ومزاياه، وقيل: معناه المصدق، ويبعده تعديته بعلى إلا أن يقال: إنه لما فيه من معنى العلو وعلى أنه من الأمن ظاهر؛ لأنه أمنهم من الخوف.

(والصادق والمصدوق)، وسمى بالصدق أيضًا، والمصدق اسم فاعل بالتشديد كما ذكره أبو بكر بن عربى، وفى صحيح البخارى: حدثنا رسول الله، وهو الصادق المصدوق قاله ابن مسعود، وقد ورد هذا فى عدة أحاديث رواه السيوطى؛ لأنه صدق الأنبياء والكتب التى قبله، والمصدوق اسم مفعول من صدق المتعدى كما ورد صدق وعده، والصادق من أسماء الله أيضا ورد فى حديث الأسماء كما قاله السيوطى، رحمه الله تعالى.

(والهادى) عده جماعة من أسمائه أخذا من قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الشورى: ٥٢]، وهو من أسماء الله تعالى أيضًا، ويأتى أن الهداية تطلق على خلق الاهتداء ويوصف بها الله تعالى خاصة، وهو المنفى فى قوله: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ**﴾ [القصص: ٥٦]، على قول، وعلى البيان والدلالة بلطف، وهذه يوصف بها الله تعالى والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويطلق على الداعى، ومنه ﴿**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾ [الرعد: ٧]، ولا تستعمل إلا فى الخير.

وقوله: **(واهدوهم إلى صراط الجحيم)** تهكم، وهدايته، صلى الله عليه وسلم، لما فيه من صلاح المعاش والمعاد ظاهرة، وقد أشبعنا الكلام عليه فى حواشى القاضى.

(وسيد ولد آدم)، وقد ورد إطلاقه عليه فى أحاديث كثيرة صحيحة كما فى حديث الشفاعة: **(انطلقوا إلى سيد ولد آدم)**، وفى الصحيحين: **(أنا سيد الناس يوم القيامة)**، وهو من أسماء الله تعالى أيضًا كما أثبته البيهقى فى كتاب الصفات، فيجوز إطلاقه على الله تعالى وعلى غيره مطلقا، وهو أحد أقوال أربعة، فقيل: يختص بالله مطلقا، وقيل: يختص به معرفا، وقيل: يختص بغيره ولا يجوز إطلاقه عليه، واستدل للأول بأنه لما قال له، صلى الله عليه وسلم، وفد بنى عامر: أنت سيدنا قال: **(السيد هو الله)**، وهو حديث

صحيح كما مر، وتحقيقه أنه على الإطلاق معناه العظيم المحتاج إليه غيره، وهذا مما يوصف به الله وغيره، وأما تخصيصه بغير الله كما روى عن مالك فلأنه لم يثبت عنده إطلاقه على الله تعالى؛ ولأن معناه رئيس القوم الذى يفخر ويعز بأتباعه، وسيد القوم منهم، وهذا لا يليق بالله تعالى؛ ولذا فسر إذا أطلق على الله بما مر، وأما اختصاصه بالله فلأن معناه الملك المتصرف فى أمور غيره، وهذا فى الحقيقة إنما هو لله، وأما التفصيل فلأنه معرفا المعهود بالعظمة وكونه ملجئًا لكل أحد، وهذا مختص به تعالى، وهذا أضعفها.

فإن قلت: إذا صح الأول فما تصنع بالحصر فى حديث «السيد هو الله؟».

قلت: إذا ثبت وصف لشىء وحده أو مع غيره وأريد رده، فللعرب فيه طرق أظهرها أن يؤتى بصريح الحصر كقولك «لا معبود إلا الله» قلبا وإفرادا، أو يعرف الطرفان كالمعبود الله، وهو كالذى قبله معنى إلا أنه قد يختار إيماء لفطنة مخاطبه، فهو أبلغ فى مقامه، أو يجعل من أثبته الزاعم له الصفة عين من هى له فى نفس الأمر، كما يقال للدهرى: الدهر هو الله أى لا دهر ولا تصرف لسوى الله، فأثبت له التصرف ونفاه عما عداه بطريق برهانى، كقوله تعالى: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الزخرف: ٨١]، إلى آخره، وهذا نوع أدق من غيره سماه الشيخ التنويع، وذكره سيبويه فى باب الاستثناء، فقوله: السيد هو الله يحتمل إجراؤه على ظاهره، وأن يكون من هذا القبيل، فلا دليل فيه على أنه من أسماء الله تعالى فضلا عن اختصاصه، فاعرفه فإنه من نفائس الذخائر المكنوزة فى دفائن الخواطر. وقد قدمنا ذلك أول الكتاب فى الباب الأول، وإنما أعدناه لطول العهد به، والمراد بولد آدم النوع الإنسانى، وكذا كل جماعة سموا باسم أبيهم جاز إطلاق الأولاد عليه وإطلاقه عليهم كما يقال: تميم له ولأولاده، وكذا يقال بنو تميم لما يشمل تميم وهو القبيلة، وهذا مجاز شاع حتى صار حقيقة عرفية كما فصله القرافى فى كتاب العقد المنظوم، وعده من ألفاظ العموم فمن قال: الولد للواحد والجمع، فإن كان مفردًا ينبغى أن تكون الإضافة للاستغراق بقرينة المقام، أى أنا سيد كل ولد آدم، وإن كان للجميع فالأمر ظاهر، ويلزم من كونه سيد ولد آدم سيادته على آدم إذ فيهم من هو أفضل من آدم كإبراهيم وموسى، عليهما الصلاة والسلام، فقد تكلف بما لا حاجة إليه لعدم وقوفه على ما ذكر ومر فى الحديث: (**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة**)، وأنه خص يوم القيامة؛ لأنه يظهر فيه سيادته على سائر المرسلين من غير منازع فيه، وإن كان سيدا فى الدارين كما مر.

(**وسيد المرسلين**) كما ورد فى أحاديث صحيحة، وإذا كان، صلى الله تعالى عليه

وسلم، أفضل من سائر المرسلين فهو أفضل من سائر النبيين؛ لأن الرسول أفضل من النبى، وإن اختلف فى تفضيل الرسالة والنبوة.

(وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين) جمعهما المصنف، رحمه الله تعالى، لورودهما كذلك فى حديث رواه البزار أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «ليلة أسرى بى انتهيت إلى قصر من لؤلؤة يتلألأ نورا وأعطيت ثلاثا قيل لى: إنك سيد المرسلين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين»، وقد ورد تسميته، صلى الله عليه وسلم، بإمام النبيين وإمام الناس وإمام الخير كما فى الرياض الأنيقة، والأول ذكره ابن سيد الناس فى سيرته، وعن قتادة فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]، أن الإمام المراد به النبى، صلى الله عليه وسلم، والإمام فى اللغة المقتدى به، ويطلق على الواحد كقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وعلى الجمع كقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، قاله ابن الأنبارى.

وسمى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إمام النبيين لأنه أسبقهم فى النبوة الروحانية، ولأنه أمهم فى الإسراء كما مر، وأخرج أحمد والترمذى «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم»، وفى رواية لأحمد «كنت إمام الناس»، ومنها أخذ تسميته، صلى الله تعالى عليه وسلم، به، وإمام المتقين إن أريد به أمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فظاهر، وإن أريد الأعم موافقة لرواية إمام الناس فلاقتداء الأنبياء به، وفى بعض الشروح أن كل متق سواء كان من أمته أو من الأمم السالفة مقتد به؛ لأنهم فى السير الباطنى أشرفوا على المقام المحمدى وآمنوا به واهتدوا بهديه.

وإمام الخير ورد فى حديث رواه ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، قال: إذا صليتم على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأحسنوا الصلاة عليه، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه قالوا له: فعلمنا قال: «قولوا اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك إمام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة، اللهم ابعثه المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون[١]».

وقائد اسم فاعل من القود، وهو تقدمه على من يتبعه باختياره، وهو يقودهم إلى الجنة برضاهم، وفى القاموس القود نقيض السوق، والغر جمع أغر، وأصل الغرة بياض فى جبهة الفرس، فالمراد به مطلق بياض الوجه هنا، والتحجيل بياض فى القوائم، وفى

(١) أخرجه أحمد (٣٥٣/٥)، وابن أبى شيبة (٥٠٨/٢).

الصحيحين: «إن أمتى يدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء»، وورد بمعناه من طرق كثيرة، وفيه زين لهم، وقد جعل ذلك علامة لهم يعرفون بها بين الأمم يوم القيامة، والتعبير به وبالقود مما هو معروف من صفات الخيل فيه إشارة إلى أنهم جياد سابقون على غيرهم، ففيه استعارة مكنية وتورية كقوله:

الناس للموت كخيل الطراد والسابق السابق منها الجواد

وبها استدل على أن الوضوء من خصائص هذه الأمة، وقيل: إنه غير مختص بهم، وإنما المختص بهم الغرة والتحجيل لحديث: «هذا وضوئى ووضوء الأنبياء من قبلى»، وأجيب بضعفه واحتمال أن يكون الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، اختصوا به دون أممهم على تقدير صحته بعيد، وكون بياض الغرة أثر الوضوء لا ينافى كونه من أثر السجود، وادعاء أنه غيره فيه نظر. **(وحبيب الله)** تقدم بيانه مفصلا. **(وخليل الرحمن)** تقدم تحقيقه.

(وصاحب الحوض المورود) رواه ابن حبان والحاكم، وقال السيوطى: حديث الحوض مروى عن أكثر من خمسين صحابيا، وتقدم سرد بعضهم فى كلام المصنف، ومنهم أبو برزة الأسلمى وحديثه قال: سمعت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقول: «إن لى حوضا ما بين أيلة إلى صنعاء عرضه كطوله فيه ميزابان من الجنة أحدهما من ورق»[(١)]، أى فضة «والآخر من ذهب ماؤه أحلى من العسل وأبرد من الثلج وأبيض من اللبن، من شرب منه لم يظمأ حتى يدخل الجنة، فيه أباريق عدد نجوم السماء».

وقال القرطبى: ذهب جماعة إلى أن حوضه، صلى الله عليه وسلم، بعد الصراط، والصحيح أن له حوضين أحدهما فى الموقف قبل الصراط، والثانى فى الجنة، وكلاهما يسمى كوثرًا، واختلف هل هو قبل الميزان أوبعده؟، والصحيح أنه قبله، والمعنى يقتضيه، فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشا، ويزداد عطشهم فى السعى إلى المحشر فيردونه قبل الميزان والصراط، وورد أيضًا تسميته، صلى الله عليه وسلم، بصاحب الكوثر، وسمى به لاختصاصه به، وفى بعض الكتب «لكل نبى حوض»[(٢)]، وتسميته به، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعظم حوضه وزيادته، ومثله يحتاج لنقل، والمورود اسم مفعول من الورد بالكسر وهو الذهاب للماء، ويلزمه الشرب عادة؛ فلذا عبر به عنه، وهو وإن كان اسم مفعول لا يدل على المبالغة، فالمراد به كثرة الواردين عليه، ولولاه كان الوصف به لغوًا وقد ورد التصريح به.

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٤/٤٢٤).
(٢) تقدم تخريجه.

(والشفاعة) أى من أسمائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، صاحب الشفاعة، وقد تقدم بيانه.

(و) صاحب **(المقام المحمود)**، وهو مقام الشفاعة العظمى كما مر.

(و) صاحب **(الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة)** الوسيلة السبب الموصل لأمر عظيم، سمى به لأنه سبب لكل خير، وفسر فى الحديث بمنزلة مخصوصة كما ورد فى حديث مسلم السابق: «سلوا الله لى الوسيلة، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون هو»، وأصل الوسيلة كما قال السيوطى القرب من الله والمنزلة عنده، وكونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، صاحب فضيلة ودرجة عالية رفيعة حسا ومعنى فى الدنيا والآخرة غنى عن البيان.

(وصاحب التاج) قيل: المراد بالتاج هنا العمامة، ونقل عن المصنف، رحمه الله تعالى، والعمائم تيجان العرب لكونها معروفة عندهم دون غيرهم، فكنى به عن أنه من صميم العرب وأشرفهم حسبا ونسبا، وروى عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه لم يلبس العمامة غيره من الأنبياء، وفى مقدار عمامته وكيفيتها تفصيل فى السير، ولنا فيه رسالة مستقلة، وكان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، عمامة تسمى السحاب تحتها قلنسوة، ودخل مكة فى الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء، وهو لا ينافى رواية أنس، رضى الله تعالى عنه، أنه كان على رأسه مغفر، ولبس، صلى الله تعالى عليه وسلم، عمامة حمراء أيضًا، ولم يلبس خضراء أصلاً.

(و) صاحب **(المعراج)**، وهو السلم فهو اسم آلة، وقال السيوطى: هو عروجه وصعوده، صلى الله تعالى عليه وسلم، للسماء، والإسراء سيره من مكة إلى بيت المقدس، فهو مصدر ميمى، فبينهما فرق وإن أطلق كل منهما على الآخر كما مر، وهو الذى تصعد عليه الأرواح والملائكة، ولم يصعد عليه فى الدنيا بجسده أحد غيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلذا خص بالتسمية به.

(و) سمى أيضًا صاحب **(اللواء)** قال السيوطى: المراد به لواء الحمد الذى تقدم، وقد يحمل على اللواء الذى كان يعقده، صلى الله تعالى عليه وسلم، للحرب، فهو كناية عن القتال. وقال: وهو مما يحمل فى الحرب ليعلم به صاحب الجيش يحمله هو بنفسه، وقد يحمله غيره، وقريب منه الراية، وفرق بينهما.

وفى الترمذى عن ابن عباس، رضى الله عنهما، كانت رايته، صلى الله تعالى عليه وسلم، سوداء ولواؤه أبيض، وقيل: كان مكتوبا عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله،

وأول ما حدثت الرايات فى الإسلام يوم خيبر، وما كانوا يعرفون قبل ذلك إلا الألوية.

(والقضيب) أى من أسمائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، صاحب القضيب، وهو السيف كما قاله المصنف، رحمه الله تعالى، وتبعه السيوطى، ويأتى أنه وقع مفسرا به فى الإنجيل حيث قال: معه قضيب من حديد يقاتل به، وأنه يحتمل أن يراد به القضيب الممشوق الذى يمسكه الخلفاء، وفى كتاب البيان للجاحظ أنه كانت له، صلى الله تعالى عليه وسلم، مخصرة وقضيب وعنزة تحمل بين يديه، وهكذا كانت عادة عظماء العرب وخطبائهم، فإذا أريد الأول فهو كناية عن جهاده وكثرة قتاله، وإن كان الثانى فعبارة عن كونه من صميم العرب وخطبائهم، وما قيل من أن المراد به القضيب الذى أعطاه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لبعض الصحابة، فانقلب سيفا كما هو معروف فى معجزاته تكلف ناش من ضيق العطن.

(وراكب البراق والناقة والنجيب) البراق بزنة غراب من المخلوقات العلوية، وروى أن وجهه كوجه الإنسان وجسده كالفرس وقوائمه كالثور وذنبه كالغزال، وليس بذكر ولا أنثى، وسمى به لسرعته أو لبياضه وصفائه، أو لما فيه من قليل سواد من قولهم: شاة برقاء، وركبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما أسرى به، واختلف فيه هل ركبه غيره من الأنبياء أم لا؟ وهل ركب معه جبريل أم لا؟ كما تقدم ذلك كله، فإن قلنا: لم يركبه غيره فوجه التسمية به ظاهر، وإن قلنا: ركبه غيره فوجهه أن ركوبه بهذه السرعة وصعوده به إلى السماء مخصوص به على أن وجه التسمية لا يلزم اطراده.

والنجيب الجمل، وقد سمى براكب الجمل أيضا فى الكتب القديمة، كما سمى عيسى، عليه الصلاة والسلام، براكب الحمار؛ ولذا قال النجاشى لما جاءه كتابه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وآمن به: أشهد أن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل، وسمى به مع ركوبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الفرس والبغل والحمار؛ لأنه كناية عن تواضعه، أو لهجرته عليه، أو كونه من صميم العرب، وكان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، جمال ونوق مذكورة فى السير. وقيل: المراد بالنجيب الناقة. وقيل: النجيب اسم فرس له، صلى الله تعالى عليه وسلم، اشتراه من أعرابى، وهو الذى شهد له به خزيمة وهو غريب.

(وصاحب الحجة) وهى الدليل الذى يحج به الخصم، وهو المراد، أو المراد المعجزة وهى بلغت ألفًا وأعظمها القرآن، **(والسلطان)** بضم السين وسكون اللام وقد تضم وهو يذكر ويؤنث، وله معان منها البرهان والملك والنبوة والغلبة، ويصح إرادة كل منها هنا، وسمى صلى الله تعالى عليه وسلم، بهذا فى كتاب شعيا وبعض الكتب القديمة.

(والخاتم) أى صاحب الخاتم بالكسر والفتح، وهو خاتم النبوة الذى كان بين كتفيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كزر الحجلة وبيضة الحمامة، وقيل: إنه كان فيه كتابة الله وحده لا شريك له، أو محمد رسول الله، أو توجه حيث شئت فإنك منصور، وذكره مع السلطان لأنه ورد مقرونًا به فى كتاب شعيا، وقيل: المراد به الخاتم المعروف؛ لأنه لم يعرف فى العرب ولا فى الأنبياء من ختم الكتب سواه، وفيه نظر.

(والعلامة) أى علامة النبوة وهى الخاتم أيضًا، وقد ورد نعته به فى الكتب القديمة، وهو من شواهد نبوته، صلى الله عليه وسلم، الدال على أن الأنبياء ختموا به كما ورد فى حديث، ويجوز أن يراد به مطلق العلامات التى كان أهل الكتاب يعرفونه بها كما يعرفونَ أبناءهم.

(وصاحب الهراوة) بكسر الهاء ثم راء مهملة وألف وواو وتاء تأنيث، وهى العصا. قال فى النهاية: لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يمسك بيده القضيب، ويمشى بالعصا بين يديه، وتغرز له ليصلى إليها، وقال الجوهرى: هى العصا الضخمة، وجمعها هراوى كمطايا. وقال المصنف، رحمه الله، كما يأتى أنها العصا الواردة فى حديث الحوض أنه يذود بها الناس عنه.

وقال النووى: إنه ضعيف أو باطل؛ لأن المراد وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بما يعرفه الناس ويعلم أهل الكتاب أنه المبشر به فى كتبهم، فلا وجه لتفسيره بأمر يكون فى الآخرة، فالصواب ما تقدم، ومن سنن الأنبياء حمل العصا تواضعًا.

(والنعلين) أى صاحب النعلين، وقد ورد تسميته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بهذا فى الإنجيل، وفى كيفية نعليه كلام مفصل أفرده بعض أهل العصر بالتأليف، وكان له صلى الله تعالى عليه وسلم، نعلان سبتية. بكسر السين أى لا شعر عليها، أو مدبوغة. وما قيل من أنه سمى به لما فيه من مخالفته لأهل الجاهلية من تنعلهم فى رجل واحدة، وقد ورد النهى عنه فى الحديث والأولى تركه.

(ومن أسمائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الكتب) الإلهية المنزلة على من قبله من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(المتوكل)** هو اسمه فى التوراة، ونصها أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل، وهو الذى يكل أمره إلى الله ويعتصم به، والتعلق بالله على كل حال، وقيل: التوكل ترك تدبير النفس، والانخلاع من الحول والقوة، وهو فرع التوحيد، وكان صلى الله عليه وسلم، أرسخ الأنبياء قدمًا فيه، وتوكل العوام مباشرة الأسباب مع الاعتماد على مسببها، وإليه الإشارة بقوله، صلى الله عليه وسلم: «لو توكلتم على الله

حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو بطانا وتروح خماصا»، وتوكل الخواص وهو ترك الأسباب بالكلية.

(والمختار) اسم مفعول من الاختيار، وهو الاصطفاء لأنه خيار من خيار، وفى التوراة عبدى المختار لافظ ولا غليظ.

(ومقيم السنة) سمى به فى التوراة والزبور فى قوله: اللهم ابعث لنا محمدا يقيم السنة بعد الفترة، لن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء. والمراد سنة من قبله من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وطريقتهم بإظهار التوحيد ودعوة الخلق، من قامت السوق نفقت، ففيه استعارة مكنية بجعل ذلك كالأمتعة المرغوب فيها أو معدلها ومسويها.

(والمقدس) بالتشديد اسم مفعول، وفى الرياض الأنيقة معناه المفضل على غيره، وقال ابن دحية: معناه المطهر المنقى من دنس الذنوب والنقائص، من التقديس وهو التطهير، ومن أسماء الله تعالى القدوس أى المنزه عن سمات النقص والحدوث، وقيل تقديسه الصلاة عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وروح القدس) بضمتين وضم وسكون، وهذا سقط من بعض نسخ الشفاء أى الروح المقدسة من النقائص، وروح القدس فى القرآن فسر بجبريل، عليه الصلاة والسلام، والقدس الطهارة أو الله، وإضافة الروح له تشريفية كروح الله عيسى.

(وروح الحق) الحق هو الله، وقال الشيخ ابن عربى فى الفصوص: إنه اسم الله الأعظم، وهو ﷺ مظهره **(وهو)** أى روح القدس وروح الحق **(معنى البارقليط فى الإنجيل)**، فإنه فيه سمى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، الفارقليط، وفسر بما ذكر، ورأيته مفسرًا به فى شرح الإنجيل للمسيحى الطيب إلا أنه حرفه، وقال: المراد بروح الحق أحد الأقانيم الثلاثة عندهم قاتلهم الله.

(وقال ثعلب) وهو أحمد بن يحيى الشيبانى البغدادى إمام أهل اللغة والعربية المشهور ومولده فى حدود المائتين، ووفاته فى جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين ومائتين فى تفسير له: **(البارقليط الذى يفرق بين الحق والباطل)**. قال ابن دحية وهو اسمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الكتب المنزلة القديمة، وروى عن ابن عباس أيضًا، وروى بالفاء الفصيحة وبالباء غير صافية، وفى المقتفى للحلبى: الذى أحفظه أنه بموحدة فى أوله وألف وراء مكسورة وقاف ساكنة ثم لام تليها ياء مثناة تحتية ساكنة وطاء مهملة وهو الصحيح، وفى بعض الحواشى أنه روى بفتح الراء وقد تسكن وقاف تفتح مع السكون وتسكن مع الفتح، ومعناه محمد، وفى الرياض الأنيقة معناه الحامد أو الحماد، والذى

عليه أصحاب الإنجيل أن معناه المخلص، وعبارة الإنجيل إنى ذاهب إلى أبى وأبيكم ليبعث إليكم الفارقليط.

وفى شرح هياكل النور للدوانى: أنه بالفاء ثم ألف وراء مكسورة وقاف ساكنة ولام مكسورة ثم طاء مهملة وألف مقصورة، وهو لفظ عبرانى معناه الفارق بين الحق والباطل، والمراد مظهر الولاية التى هى باطن النبوة، والمراد بأبى وأبيكم ربى وربكم، والأوائل يسمون المبادى بالآباء انتهى.

فالحاصل: أنه بباء مشوبة بفاء وآخره ألف، ثم عرب بباء وفاء وحذفت الألف من آخره، ففيه ثلاثة أوجه، وقالوا: حقيقته المخلص كما علمت، وتفسيره بالفارق إلى آخره بيان لحاصل المعنى، ومن كذب جهلة النصارى أن الفارقليط نار تنزل على التلاميذ من السماء بها يفعلون العجائب، وفى ترجمة الإنجيل: إذا أوحشتمونى فاحفظوا وصيتى، وأنا أطلب ليعطيكم فارقليط آخر يكون معكم الدهر كله.

قال بعض أهل العلم بالكتب السالفة: هذا صريح فى أن الله يبعث إليهم من يقوم مقامه فى تبليغ رسالته، وتكون شريعته مؤيدة وليس إلا هو محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهم يختلفون فى معنى الفارقليط، والذى صح عنهم أنه الحكيم الذى يعرف السر، وفى الإنجيل ما يدل على أنه الرسول، فإنه قال: هذا الكلام الذى تسمعونه ليس هو لى بل للأب الذى أرسلنى أكلمكم بهذا وأنا معكم، وأما البارقليط فروح القدس الذى يرسل إلى باسمى، فهو يعلمكم كل شىء ويذكر جميع ما أقول لكم، وهم يزعمون أن روح القدس تفسير للبارقليط كما رأيته فى شرح الإنجيل، وأما الأب فكلمة تعظيم للعلم، وهم يسمون العلماء آباء روحانية، وقوله: يرسل باسمى أى يشهد بصدق رسالتى، وبهذا اتضح لك لفظه ومعناه، وهذا مما انتخبته من كتب عديدة فاحفظه.

(ومن أسمائه، صلى الله عليه وسلم، فى الكتب السالفة: ماذ ماذ، ومعناه طيب طيب) وروى موذ موذ وميذ ميذ، والأول هو الذى صح روايته عند المصنف، والثانى ذكره العزقى وقال: إنه اسمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى صحف إبراهيم، وذكر الثالث وقال: إنه اسمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى التوراة، وهو بميم مفتوحة وألف غير مهموزة وذال معجمة ساكنة كما فى المقتفى، وقال: إنه ينبغى ضم ذاله لأنه اسم غير منصرف للعلمية والعجمة، وتقديره أنت ماذ ماذ أو ياماذ، ونقل الشهاب الحجازى الأديب شيخ السيوطى نقلا عن السهيلى أن ميمه مضمومة وألفه مهموزة بين الواو والألف، وقال: إنه سمعه من بعض أحبارهم، والظاهر أنه تكرار للتأكيد، أو المراد أنه طيب فى نفسه أو فى دنياه، وطيب فى صفاته وآخرته، وكونه اسمًا واحدًا مثل مرمر،

أو مركب خلاف الأصل، وقيل: إن داله مهملة.

وفى شرح رسالة الكندى المنسوب للغزالى أنه سمع ممن أسلم من أحبار اليهود أنه فى التوراة إشارة لمحمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى قوله لإبراهيم: إنى قد استجبت لك فى إسماعيل وأنا أباركه وأعظمه بماذماذ، وهو محمد من طريق العدد؛ لأن فيه ميمين فى مقابلة وباء موحدة وألفين ودالين باثنى عشر، وهو عدد الحاء والدال من محمد، وهذا يقتضى أن داله مهملة وهذا لم يذكره أحد من أرباب الحواشى والشروح، وما قاله التلمسانى من أنه يحتمل أن يكون مأخوذا من الماذى وهو العسل الأبيض لحلاوته فى ذاته وصفاته، أو الماذى بمعنى الدرع اللينة السهلة؛ لأنه حصن حصين للعالمين ليس بشىء؛ لأنه يقتضى أنه عربى و لم يقل به أحد قط.

(وحمطايا) هذا وما قبله رواه أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، وضبطه الشمنى فى حاشيته بفتح الحاء المهملة وفتح الميم المشددة وطاء مهملة مخففة وألفين بينهما مثناة تحتية، وفى الغريبين أنه بكسر الحاء وميم ساكنة تليها ياء مثناة تحتية وألف ثم طاء وألف هكذا حمياطا، وفى المواهب أنه بفتح الحاء وسكون الميم ومثناة تحتية وألف وطاء مهملة وألف بعدها، وقال: إنه بكسر وياء أو نون، وأما معناه فقال أبو عمرو عن بعض الأحبار: إن معناه يمنع من الحرام ويحمى الحرم، أى يمنع ما كان فى الجاهلية من الأنكحة وغيرها من المحرمات، فالحرم بفتحتين أو بضم ثم فتح، وفى الرياض الأنيقة معناه حامى الحرم أو نبى الحرم.

(والخاتم والحاتم حكاه كعب الأحبار) تقدمت ترجمته واختلف الشراح فى ضبطه وروايته، فقيل: هما بالخاء المعجمة إلا أن الأول بفتح التاء والثانى بكسرها، أو بالعكس وهو بعيد لأنه تقدم، فلا وجه لإعادته، وقيل: الأول معجمة والثانى مهملة، وفسر بأنه أحسن الأنبياء خلقا وخلقا كما ذكره، والظاهر أنه من الحتم وهو الإحكام لأحكام القضاء والأحكام ويجمع على حتوم كما قال أمية بن أبى الصلت(١):

عبادك يُخْطِئونَ وأنت رب ... بِكَفَّيْك المنايا والحتوم

والحاتم: القاضى كما فى الصحاح، ووجه الأول أنه جمال الأنبياء كالخاتم الذى يتزين به، فهذا إن كان تفسيرًا للخاتم بالمعجمة، فهو فى قوله: **(وقال ثعلب: فالخاتم الذى ختم الله به الأنبياء، والخاتم أحسن الأنبياء خلقا وخلقا)** يكون إشارة إلى تفسيره

---

(١) البيت من الوافر، وهو لأمية بن أبى الصلت فى ديوانه (ص٥٤)، لسان العرب (١٢/١١٣)، تاج العروس (حتم)، وبلا نسبة فى المخصص (١٢/٢١٥).

على وجه يسقط به التكرار، وسكت عن الثانى لظهوره، وإن كان الأول هنا بالمعجمة والثانى بالمهملة كما ضبط فى بعض الشروح والحواشى، وهو مروى عن المصنف، ففيه مع التكرار أن تفسير الحاتم بالمهملة بما ذكر ليس معروفا فى اللغة، وإنما معناه ما تقدم حتما إلا أن يتكلف أنه من الحتم بمعنى الخالص، وقد قالوا فيه: إنه مقلوب من المحت ولك أن تقول: إنه من الختامة وهى بقية الطعام كأنه آخر ما بقى من نعم الله تعالى، وقرن بالخاتم وإن تكرر لهذه النكتة والعجب من الشراح إذ لم يتعرضوا لهذا مع ظهوره.

(ويسمى بالسريانية)، وهى لغة آدم عليه الصلاة والسلام، وأول اللغات، ومنها تشعبت سائر اللغات ثم صار أصول اللغات ثلاثا السريانية والعبرانية والعربية، وفى بيان معنى نسبتها كلام لا حاجة إليه هنا، وهى بضم السين وراء ساكنة أو مكسورة، وما قيل: إنه من السر لأن الله تعالى علمها لآدم سرًا بعيد، وقال السيوطى، رحمه الله تعالى: إن سؤال القبر بالسريانية.

(مُشَفّح) بضم الميم وفتح الشين المعجمة وفاء مفتوحة أو مكسورة مشددة فيهما وروى بالقاف وحاؤه مهملة، وسمى به، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى كتاب شعيا، وقال البرهان: لا أعلم صحته ولا معناه، ونقل بعض أهل العصر عن ابن فورك أن معناه محمد؛ لأنهم يقولون: شفح لاها أى يحمد الله وتبع فيه التلمسانى.

(والمنحمنا) قال البرهان: هو بضم الميم ونون ساكنة ثم حاء مهملة مفتوحة وميم مكسورة ونون مفتوحة مشددة وألف مقصورة، وقال التلمسانى: الميم الثانية مثلثة ومعناه روح القدس، وهو بالسريانية محمد، وبالرومية البرقليطس، ونحو منه فى تذكرة الصفدى، وضبطه بعضهم بفتح الميمين، ونقله السيوطى عن ابن دحية، وقال ابن سيد الناس فى السيرة: معناه محمد، وهو محتمل لأنه اسم له ولكونه بمعناه.

(واسمه فى التوراة أحيد) قال الشمنى هو بضم الهمزة وسكون الحاء المهملة وفتح المثناه التحتية وكسرها ودال مهملة، وقيل: إنه بفتح الحاء المهملة وسكون الياء التحتية، والمحفوظ فتح الهمزة وسكون المهملة وفتح التحتية، وهو غير عربى، وفى الكامل رواية عن ابن عباس، رضى الله عنهما، أنه، صلى الله عليه وسلم، قال: «اسمى فى القرآن محمد، وفى الإنجيل أحمد، وفى التوراة أحيد، وإنما سميت أحيد لأنى أحيد أمتى عن نار جهنم»[(١)]، وكذا أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق، ويؤيده أنه ضبطه بكسر الحاء مع فتح الهمزة وضمها، وهو عربى من حاد يحيد إذا عدل ومال إن لم يكن من توافق

(١) أورده الذهبى فى الميزان (٧٣٩)، وابن حجر فى لسان الميزان (١٠٩٦/١)، وفى تنزيه الشريعة (٣٣٨/١)، والفوائد المجموعة (٣٥٩).

اللغات، وذكره الماوردى فى تفسيره وضبطه بمد الألف وكسر الحاء كما فى الرياض الأنيقة، وفى الشرح الجديد أن الذى فى النسخ بضم الهمزة وحاء مكسورة مهملة ومثناة تحتية ساكنة، والمشهور فتح الهمزة وسكون الحاء وفتح الياء، وفى نسخة بفتحها وكسر الحاء وسكون الياء، وما قيل أنه من الواحد لانفراده فى ذاته وصفاته فيه ما لا يخفى.

(وروى ذلك ابن سيرين) الإمام الحجة الثقة الزاهد الورع الشائع صيته فى الآفاق أبو بكر محمد بن سيرين الأنصارى، وروى عنه الأئمة الستة، وتوفى بعد مائة وعشر، وهو من أعلم التابعين، رضوان الله عليهم أجمعين، ثم إنه رجع إلى تفسير بعض الأسماء السابقة فقال: **(ومعنى صاحب القضيب أى السيف)** كما تقدم، ومعنى مبتدأ خبره **(وقع ذلك مفسرًا فى الإنجيل قال)** أى الله فى الإنجيل، وكون فاعله ضمير الإنجيل تجوزا تكلف، وفى القاموس القضيب: السيف القاطع كالقاضب سمى به من القضب؛ لأنه اقتطع من الحديد **(معه قضيب من حديد يقاتل به وأمته كذلك)** أى يقاتل بالسيف الأعداء.

ثم أشار إلى معنى آخر فقال: **(وقد يحمل على أنه القضيب الممشوق)** أى قد يفسر به، وهو مجاز من الحمل على الظهر، فيجعل التأويل به كجعله استعارة صارت حقيقة شائعة فيه، وقد للتحقيق، وقد تجعل للتقليل لقلة تفسيره بالنسبة لما قبله، وقضيب فعيل بمعنى فاعل من قضبه بمعنى قطعه، فهو فى السيف بمعنى أنه بالغ فى القطع إلى حد لم يصل إليه سواه، فهو عبارة عن شجاعته وكثرة جهاده وكثرة غزواته وفتوحاته وغنائمه، فإن كان بمعنى العصا فهو بمعنى مفعول؛ لأنه مقطوع من الشجر، وقد مر أنه كان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، عصا على عادة العرب فى اتخاذ عظمائهم وخطبائهم عصيا يشيرون بها كما قال الشاعر(١):

فى كَفِّه خَيْزرانٌ ريحهُ عَبِقٌ فى كَفِّ أرْوَعَ فى عِرْنينهِ شَمَمٌ

كما فى كتاب العصا للجاحظ وفى القاموس قضيب ممشوق طويل دقيق من المشق، وهو جذب الشىء ليطول، وكان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، قضيب يسمى الممشوق، ومحجن يستلم به الركن، وقال ابن الجوزى: كان له صلى الله تعالى عليه وسلم، قضيب، وهو **(الذى كان يمسكه، عليه الصلاة والسلام، وهو الآن عند الخلفاء)**

(١) البيت من البسيط، وهو للفرزدق فى ديوانه (١٧٩/٢)، لسان العرب (٢٣٨/٤)، تاج العروس (١٥٩/١١)، وله أو للحزين الكنانى فى لسان العرب (٤٨٦/١٣)، تاج العروس (جنه)، وبلا نسبة فى تهذيب اللغة (١٤٠/٢)، مقاييس اللغة (٤٨٢/١).

يمسكونه تبركًا به، فكان لهم واحدًا بعد واحد.

(وأما الهراوة التى وصف بها) وصفا لغويا فى تسميته صاحب الهراوة، وتقدم تفسيرها فكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحملها ويتوكأ عليها، وهو من سنن الأنبياء، **(فهى فى اللغة العصا وأراها والله أعلم)** بضم الهمزة أو فتحها بمعنى أظنها أو أعتقدها، أو أن المراد بها هنا فى التسمية **(العصا المذكورة فى حديث الحوض)** الذى قال فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (: **أذود الناس عنه بعصاى لأهل اليمن)** أذود بمعنى أطرد وأمنع، وهذا بذال معجمة فى أوله ومهملة فى آخره، وهذا الحديث رواه مسلم فى المناقب هكذا لأهل اليمن أى لأجلهم؛ فإنهم على بعد شقتهم أجابوا دعوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، من غير تردد وقتال، فيوردهم الحوض قبل غيرهم ليريحهم كما أراحوه، فالجزاء من جنس العمل، وفيه روايات فروى لأهل اليمن كما ذكر، ومع صحته معنى قالوا: إنه من طغيان القلم، وعن النووى أن هذا التوجيه ضعيف أو باطل؛ لأن المراد تعريفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بصفة يعرفها الناس ويستدل بها عليه، وأنه المبشر به في الكتب السالفة التى ميز فيها العنوان، فلا وجه لتفسيره بما فى الآخرة مما لم يتيقنوه، ولكن يكفى فى ذلك ذكره ما وقع فى الكتب الإلهية التى لم يقرأها، أو يقول من فسره بهذا إنما أراد تفسيره بأمر مختص به ويصير علما له، وتقدم أنه قيل: الأحسن حمله على العصا التى أعطاها، صلى الله تعالى عليه وسلم، لبعض الصحابة فانقلبت سيفا، فإنه معجزة له، كما قال الصرصرى يمدحه، صلى الله تعالى عليه وسلم:

وعصاه لما مسها بيمينه   فضلت عصا صارت إلى ثعبان

يعنى أنها صارت معجزة أقوى من معجزة موسى، عليه الصلاة والسلام، بعصاه.

(وأما التاج فالمراد به العمامة) كما تقدم، **(ولم تكن حينئذ)** أى فى عهد مبعثه وحياته، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(إلا للعرب، والعمائم تيجان العرب)** أى قائمة مقام تيجان العجم المعهودة بينهم، والتاج ما يوضع على الرأس من الذهب المرصع بالجواهر، والعمائم جمع عمامة، وسيأتى الكلام على عمامته ﷺ، ولما لم يقنع فى وصف الحبيب المعمم بما مر.

قال: **(وأوصافه)** أى الأوصاف التى أطلقت عليه، **(وألقابه وسماته)** جمع سمة، وهى العلامة كما تقدم **(فى الكتب كثيرة)**. أراد بها كتب الحديث والسير، أو الكتب الإلهية، **(وفيما ذكرناه منها مقنع إن شاء الله)**. أى فى المقدار الذى ذكره ما يحصل به القناعة عن غيره مما فى الكتب، وفى المصباح مقنع كجعفر ما يقنع به. يعنى أنه اسم مكان

تجوز به عما يقنع به، وقيل: إنه مصدر ميمى من قنع بمعنى رضى، والأول أولى، وفى بعض النسخ هنا زيادة من إلحاق المصنف، وهى: **(وكانت كنيته المشهورة)**، والكنية ما صدر بأب أو أم ونحوه **(أبا القاسم)** اشتهر بها، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه أول أولاده، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما تقدم.

(وروى عن أنس، رضى الله تعالى عنه) رواه أحمد فى مسنده، والبيهقى **(أنه لما ولد له)** أى للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولده **(إبراهيم)** من مارية القبطية جاريته المشهورة **(جاءه جبريل، عليه الصلاة والسلام، فقال له: السلام عليك يا أبا إبراهيم)**، فكناه به كما كناه بالقاسم، ومما كنى به، صلى الله تعالى عليه وسلم، أبو الأرامل، وأبو المؤمنين، وقرئ فى الشواذ، «وأزواجه أماتهم، وهو أب لهم»، وقيل: إن هذا وأمثاله مما لم يضف للأبناء الحقيقية لقب لا كنية كأبى تراب.

* * *

(فصل فى تشريف الله تعالى له، صلى الله تعالى عليه وسلم)

أى تعظيمه وتفضيله **(بما سماه به من أسمائه)** عز وجل، والباء سببية أو للتعدية، و**(الحسنى)** أى الحسنة الجليلة لدلالتها على معان محمودة، وقال الراغب: الفرق بين الحسن، والحسنة، والحسنى، أن الحسن يقال فى الأعيان، والأحداث، وكذلك الحسنة إذا كانت وصفا لا اسما، فإذا كانت اسما فهى متعارفة فى الأحداث، والحسنى تكون فى الأحداث دون الاعيان انتهى.

(ووصف به من صفات العلى) بالضم جمع عليا ككبر وكبرى، وفى بعض النسخ العليا، وفى المصباح العليا كل مكان مشرف ولا وجه لتخصيصه بالمكان، وقال الراغب: العلى جمع لتأنيث أعلى بمعنى أفضل، وأشرف والصفتان كاشفتان.

(قال القاضى أبو الفضل) هو عياض المصنف، **(رضى الله عنه)**، وهو مما عبر به عن نفسه من غير قصد التمدح لاشتهاره، أو زاده تلاميذه كقوله فى بعض النسخ، وفقه الله، والتوفيق تهيئة الأسباب الموافقة، وهى جملة دعائية معترضة **(: ما أحرى)** بفتح الهمزة وحاء ساكنة مهملة وراء مقصور بمعنى أحق وأولى، وهى صيغة تعجب من زيادة لياقته **(هذا الفصل)** قال البرهان: الفصل ضبط فى الأصل بالرفع، والظاهر نصبه لأن ما تعجبية كما تقول: ما أكرم زيدا كما هو معروف فى النحو **(بفصول الباب الأول)** المعقود لثناء الله عليه، وإظهار عظيم قدره، وهذه التسمية دالة على ذلك كما أشار إليه بقوله:

(لانخراطه فى سلك مضمونه) أى لدخوله فيما تضمنه، ودل عليه من المناقب التى خرست عندها ألسنة الأقلام، وفى السلك استعارة تخييلية ومكنية غير أنهم فسروا الانخراط بالانتظام، وقد تتبعت اللغة وكلام العرب فلم أجد الانخراط بهذا المعنى، بل هو مناف له فإن اخترط السيف إخراجه من غمده، واخترط ورق الشجر إزالته عنه بجمع الكف، ومنه خرط القتاد إلا أنهم استعملوها كثيرًا فى كلام المصنفين الموثوق بهم كالزمخشرى والسكاكى، ولم يزل هذا يختلج فى صدرى، ولم أجد ما يثلجه حتى وجدت ابن عباد قال فى جامع اللغة: خرطت الجواهر جمعتها فى الخريطة، وهى الكيس، فعلمت أن هذا منه غير أنهم تسمحوا فى استعماله، فذكروا السلك مكانه لأنه مثله فى جمع الجواهر، فحمدت الله على ذلك.

(وامتزاجه) أى اختلاطه بحيث لا يتميز أحدهما عن الآخر ومنه المزاج **(بعذب معينها)**، وهو بفتح الميم وكسر العين المهملة بمعنى الجارى مطلقا، أو على وجه الأرض، وأصله معيون فاعل كمبيع فهو من عين الماء وميمه زائدة، وقيل: إن وزنه فعيل ومعناه البعيد مجراه من أمعن فى سيره، والعذب الحلو الذى يتغذى به، وفى تفسيره بالغزير مسامحة، ووجه الاستعارة فيه ظاهر، ثم استدرك الاعتذار عن عدم ذكره فى الباب الأول فقال: **(لكن الله لم يشرح الصدر للهداية إلى استنباطه)** أى لم يفتح الله عليه به أولا بإخراجه فى محله، وأصل الاستنباط إخراج الماء ففيه مع ما قبله مناسبة لطيفة، وفى ذكر الحوض الآتى بعده لطف.

يزيدك وجهه حسنًا إذا ما زدته نظرًا

وقوله: **(ولا أثار)** أى دل دلالة واضحة **(الفكر)** بكسر الفاء وسكون الكاف أو فتحها جمع فكرة **(لاستخراج جوهره والتقاطه)** أى استخراجه من بحاره، وأخذ لقطته، وهذا ناظر لانخراطه فى سلكه، ففيه استعارة ولف ونشر غير مرتب، ففيه درة ودرة **(إلا عند الخوض فى الفصل الذى قبله)** أى لم يهده الله للوقوف عليه إلا عند الشروع فيما قبله، وأصل الخوض الشروع فى المرور فى الماء، فاستعير لمطلق الشروع إلا أنه كما قال الراغب أكثر ما ورد فى القرآن فيما يذم الشروع فيه، **(فرأينا أن نضيفه إليه)** أى إلى الفصل الذى قبله بأن نذكره عقبه لمناسبته له، ومراده أن يجعله كالضيف الذى أنزل عنده؛ فلذا قال: **(ونجمع به شمله)** أى نضمه إليه، والشمل بمعنى المتفرق أى نجمع ما تشتت منه، ويكون بمعنى الجمع فهو من الأضداد.

(فاعلم) خطاب لكل من يصح توجيه الخطاب له كما مر **(أن الله تعالى خص كثيرًا من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، بكرامة)** أى بأمر أكرمه وشرفه به **(خلعها عليهم من**

أسمائه) أى أعطاها لهم وألبسها إياهم، والأصل فى الخلعة أنها ثوب يلقيه الملك على من يكرمه أو يوليه ولاية، وشاع فى عرف الكتاب تسمية الخلعة تشريفًا، وإليه أشار المصنف، رحمه الله تعالى، بقوله فى أول هذا الفصل فى تشريف الله له بما سماه من أسمائه، ففيه لطف لم يتنبهوا له، وفى نسخة عليه بالإفراد، وفى نسخة جعلها بدل خلعها، والصحيح الأول لما عرفته، وفيه استعارة لطيفة بجعل السم خلعة لما فيه من الشهرة وإظهار التكريم.

(كتسمية إسحاق وإسماعيل بعليم وحليم) فى قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، يعنى إسحاق، وقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]، يعنى إسماعيل، وهذا بناء على أن المبشر به إسحاق، وقيل: هو إسماعيل. قيل: ولهذا جمع المصنف، رحمه الله تعالى، هنا بين إسحاق، وإسماعيل.

(وإبراهيم بحليم) فى قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

(ونوح بشكور) أى كثير الشكر فى قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، فى الإسراء بناء على إن الضمير له لا لموسى، عليهما الصلاة والسلام، كما تقدم.

(ويحيى، وعيسى ببر) فى قوله: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [مريم: ١٤]، ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾ [مريم: ٣٢]، وهو صفة مشبهة من البر، والبر خلاف البحر لما فيه من السعة، توسعوا فيه فاشتقوا منه أى التوسع فى فعل الخير، وينسب ذلك تارة إلى الله نحو ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨]، وإلى العبد فيقال: بر العبد ربه أى توسع فى طاعته، فمن الله الثواب ومن العبد الطاعة، وذلك ضربان: ضرب فى الاعتقاد وضرب فى الأعمال، وقد استعمل منه قوله تعالى: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية؛ ولذا لما سئل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن البر تلا هذه الآية، وبر الوالدين التوسع فى الإحسان إليهما، ويستعمل البر فى الصدق لكونه بعض الخير المتوسع فيه، قاله الراغب.

(وموسى بكريم وقوى) فى قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان: ١٧]، وقوله: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وفى بعض النسخ بدل كريم كليم، والصحيح الأول لأنه لم يسم به الله، وإن كان الكلام من صفاته.

(ويوسف بحفيظ عليم) أى حافظ كثير العلم، وهذا فى قوله تعالى: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

(وأيوب بصابر) فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ [ص: ٤٤].

(وإسماعيل بصادق الوعد) فى قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ [مريم: ٥٤]؛ لشهرته بوفاء ما وعد به من صبره على الذبح ووفائه به، ولا يرد عليه أن فيما ذكر ما هو من كلام الملائكة والأنبياء؛ لأنه تعالى حكاه وأقره، فكان فى الحقيقة وصفا من الله بما ذكر، وإسماعيل هو ابن إبراهيم، عليهما الصلاة والسلام، لا ابن حزقيل عليه السلام فإنه قول غير مشهور.

وما قيل من أن هذه الصفات يوصف بها كل من قامت به، فكل من قام به علم أو حلم يقال له: عليم وحليم مثلا، فلا اختصاص لهذه الأسماء بمن ذكر، والجواب بالفرق بين ثناء الله تعالى وثناء غيره، فالاختصاص من حيث أن الله تعالى وصفهم بها، وفيه غاية الاختصاص، وثناء الله على كثير من المؤمنين بالصبر والصدق أيضًا لا ينافيه؛ لأن الثناء بهذه الصفات على هؤلاء من حيث أن الله تعالى جبلهم عليها، وكذا ما قيل من أن عيسى، عليه الصلاة والسلام، هو الذى وصف نفسه بما ذكر إلا أنه لما كان فى الحال الطفولية والله هو الذى أنطقه على خرق العادة، فالواصف هو الله فى الحقيقة. كلها تكلفات نحن فى غنية عنها؛ فإن المصنف لم يذكر الاختصاص، وإنما قال: إن من أسماء الله تعالى ما سمى به رسله تشريفا لهم وبيانا لتخلقهم بأخلاقه، ولا شك أن الصفات إذا أجريت على الله تعالى فلها معان لا تليق بغيره، ولما كان سمى ببعض منها بعض رسله دل على أنها بمعنى لا يليق بغيرهم أيضا.

وقد قال ابن القيم فى كتاب الفوائد: إن الأسماء التى تطلق على الله تعالى وعلى غيره اختلف فيها، فقيل: إنها حقيقة فى الله مجاز فى غيره، وقيل على العكس، وقيل: إنها مشتركة بينهما وإن كان هذا محتاجا للبسط والبيان.

(كما نطق بذلك الكتاب العزيز) أى كما دل عليه القرآن نصا وتصريحا، فالنطق مجاز عما ذكر كما فى قولهم: نطقت الحال، والعزيز بمعنى الغالب لغيره من الكتب بإعجازه واستيعابه لما ليس فى غيره من الكتب **(من مواضع ذكرهم)** أى مستفادا من مواضع ذكرهم فيه، وإن حكاه عن غيره ففيه إشارة لما تقدم.

(وفضل نبينا محمدًا، صلى الله تعالى عليه وسلم) فى القرآن على غيره ممن ذكر **(بأن حلاه منها فى كتابه العزيز)** الباء سببية متعلقة بفضل، وحلاه بفتح الحاء المهملة وتشديد اللام من الحلية وهى الصفة الظاهرة، أو الحلى التى يتزين بها أى بأن وصفه أو زينه وكرمه بما وصفه وسماه به فى القرآن، **(وعلى ألسنة أنبيائه)** فى الكتب المنزلة عليهم، أو فيما نقل لنا عنهم **(بعدة كثيرة)** بكسر العين وتشديد الدال، أى بعدة أسماء وصفات كثيرة، فميزه بكثرتها؛ لأن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى.

(اجتمع لنا منها جملة) أى أنه جمع منها أسماء متعددة **(بعد إعمال الفكر)** مصدر أعمله أى جعله عاملا فاعلا لما يريده، فكأنه استخدم أفكاره فى النظر فيما يؤخذ منه ويدل عليها، **(وإحضار الذكر)** أى استحضارها وتذكرها، وذاله معجمة مكسورة وجوز ضمها، وتفسير الذكر بالقرآن هنا لا وجه له، والحاصل أنه اجتهد فى جمعها وبذل فيها جهده وطاقته.

(إذ لم نجد من جمع منها فوق اسمين). قيل: هما رؤوف رحيم فى سورة براءة، **(ولا من تفرغ فيها لتأليف فصلين)** الفراغ خلاف الشغل الحسى والمعنوى. يقال: تفرغ لعمله إذا اشتغل به وترك غيره، وإذ تعليل لما قبله.

(وحررنا منها فى هذا الفصل نحو ثلاثين اسما)، ونحو هنا بمعنى قريب أى يقرب من هذا العدد، فلا يضر زيادة أو نقص قليل منها، كما أن فوق فيما سبق بمعنى أزيد، والتحرير بمعنى الكتابة أو التهذيب والتحقيق كما مر.

(ولعل الله تعالى) أى أرجو من الله تعالى عز وجل الذى ألهمنا أن يتم ما ألهمنا والمراد الدعاء **(كما ألهم إلى ما علّم منها)** ضمن ألهم معنى أرشد وهدى، فعداه بإلى فإنه يتعدى بها وباللام، وعلم بتشديد اللام أى علمنى من هذه الأسماء، **(وحققه)** أى بين حقيقته، أو جعله محققا متيقنا وأطلعه عليه **(يتم)** هذه **(النعمة)**، وهى التعليم والتحقيق **(بإبانة)** أى إظهار **(ما لم يظهره لنا)** حتى نقف عليه، والكاف للتشبيه، وقدم المشبه على المشبه به اهتمامًا به، أو هى للمبادرة كما فى قولهم كما يدخل صلى **(الآن)** مبنى على الفتح والألف واللام لازمة زائدة، أى لم يظهره إلى حين تحرير هذا الفصل، **(ويفتح غلقه)** بفتح الغين المعجمة وفتح اللام والقاف، وهو ما يغلق أى يقفل به كما فى المقتفى وفى بعض الشروح أنه بضمتين، وهو الباب المغلق، ففيه استعارة تصريحية مرشحة، ويجوز أن يكون بفتحة ثم بكسرة بزنة كتف، من قولهم كلام غلق فالاستعارة تبعية فى قوله يفتح.

(فمن أسمائه تعالى الحميد بمعنى المحمود)، فهو فعيل بمعنى مفعول لاستحقاقه الحمد؛ **(لأنه حمد نفسه وحمده عباده)** ببناء الفعل للفاعل فيهما، وذكر الأول توطئة للثانى وبيانا لأنه المحمود الحقيقى، وحمد غيره له إنما هو بإقداره عليه وخلقه لقوة النطق فيه، فكأنه فى الحالين حمد نفسه، وبهذا فسر قوله الحمد لوليه أى لموليه ومعطيه، فليس أحد مستحق الحمد سواه.

(ويكون أيضًا) أى الحميد فى أسمائه كما يكون بمعنى المفعول يكون بمعنى الفاعل، كما قال: **(بمعنى الحامد لنفسه ولأعمال الطاعات)**، والأعمال الصالحة الصادرة من

عباده، وقال الغزالى فى شرح الأسماء الحسنى: إنه يجوز أن يطلق على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، الحميد؛ لأنه من حمدت جميع أخلاقه وعقائده وأعماله إلا أنه لما لم ينقل لم يذكره المصنف، فأشار إلى أنه ورد إطلاق ما هو بمعناه عليه، فقال: **(وسمى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، محمدا وأحمد)**، وهما بمعنى حميد على الوجهين، **(فمحمد بمعنى محمود)**؛ لأن كلا منهما اسم مفعول دال على مبالغة فى كونه محمودا، **(وكذا وقع اسمه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى تسميته بمحمود **(فى زبور داود)**، وفى نسخة زبر بكسر الزاء وضمها وضم الباء وسكونها، وهو مصدر أو جمع بجعل كل جزء منه زبورًا بمعنى مزبور، فلا يرد عليه أن هذا لا دليل فيه على تسميته باسم الله تعالى، فلا يناسب ما هو بصدده، ثم أشار إلى المعنى الثانى بقوله: **(وأحمد بمعنى أكبر من حمد)** بالموحده وحمد مبنى للفاعل، **(وأجل من حمد)** بالبناء للمفعول، ففيه لف ونشر.

(وإلى نحو هذا) أى كون اسمه بمعنى ما ذكر **(أشار حسان)** بن ثابت الأنصارى المشهور **(بقوله)** فى شعر له من قصيدة مدح [بها] النبى، صلى الله عليه وسلم:

(وشق له من اسمه ليجله   فذو العرش محمود وهذا محمد)

والشعر هكذا بتمامه(١):

ألم تر أن الله أرسل أحمدا   ببرهانه والله أعلى وأمجد
وشق له من اسمه ليجله   فذو العرش محمود وهذا محمد
نبى أتانا بعد يأس وفترة   من الدين والأوثان فى الأرض تعبد
فأرسله ضوءًا منيرا وهاديا   يلوح كما لاح الصقيل المهند(٢)

وشق مبنى للفاعل من شق الشىء إذا جعله قطعتين، أى اشتق له، صلى الله تعالى عليه وسلم، من اسمه اسما أجله وعظمه، وهمزة اسمه مقطوعة للضرورة، وإنما قال المصنف، رحمه الله تعالى، نحو، ولم يقل إلى؛ هذا لأن ما فى الشعر أنه مأخوذ من محمود، والمصنف، رحمه الله تعالى، بصدد أخذه من حميد، وزيد فى هذا:

أغر عليه للنبوة خاتم   من الله من نور يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبى إلى اسمه   إذا قال فى الذكر المؤذن أشهد

وشق إلخ، والبيت المذكور رواه البخارى فى تاريخه وعزاه لأبى طالب، وهو منقول

---

(١) الأبيات من الطويل، وهى فى ديوان حسان بن ثابت (ص٥٤).

(٢) جاء صدر البيت فى الديوان هكذا:

فأمسى سراجًا مستنيرًا وهاديًا

عن أبى زيد، فحسان، رضى الله تعالى عنه، توارد معه أو ضمنه واستعان به.

(ومن أسمائه تعالى: الرؤوف الرحيم، وهما بمعنى متقارب)؛ لأن الرأفة نوع من الرحمة وقد تقدم تحقيقه، **(و)** قد **(سماه)** الله **(فى كتابه)** أى القرآن **(بذلك)** أى الرؤوف الرحيم، **(فقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** [التوبة: ١٢٨]، **ومن أسمائه تعالى الحق المبين، ومعنى الحق الموجود والمتحقق أمره)**، أى المتصف بالوجود الأزلى الأبدى من ذاته لذاته؛ لأنه واجب الوجود، والمتحقق بمعنى المتيقن وجوده لثبوته بالبراهين القاطعة، وأمره بمعنى شأنه وما يجب ثبوته من صفاته وأفعاله، والمتحقق بفتح القاف ويجوز كسرها، وللحق معان أخر.

(وكذلك المبين) اسم فاعل من أبان اللازم؛ لأنه ورد لازمًا ومتعديًا **(أى البين)** الظاهر **(أمره وإلهيته بان وأبان بمعنى واحد)**، فيكون متعديًا ولازمًا، وأبان يكون بمعنى قطع وفصل أيضًا، وبينه على اللزوم وعلى التعدى، **(ويكون بمعنى المبين لعباده أمر دينهم)** فى الدنيا، **(ومعادهم)** فى الآخرة.

(وسمى النبى)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بذلك)** أى الحق المبين **(فى كتابه فقال)** تعالى: **﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾** [الزخرف: ٢٩]، بناء على أن المراد بالحق محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومبين بمعنى ظاهر لعظم آياته ومعجزاته، فلا وجه لما قيل: إن هذا ليس على وجه التسمية وإنما هو وصف للرسالة، **(وقال)** تعالى: **﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾** [الحجر: ٨٩]، أى المحذر لكم من الله، والمبين لكم أمور دينكم، **(وقال)** تعالى: **﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾** [يونس: ١٠٨]، على أن المراد به محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: المراد به القرآن، **(وقال)** تعالى: **﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾** [الأنعام: ٥]، من الله **(قيل:)** هو **(محمد)** أى المراد به فى هذه الآية، وتكذيبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بتكذيب رسالته وما جاء به.

(وقيل:) المراد به **(القرآن)** بدليل التكذيب، **(ومعناه)** أى الحق **(هنا ضد الباطل)** من حق بمعنى ثبت، **(والمتحقق صدقه وأمره)** هو تفسير لما قبله أو بمعنى آخر، وفى تفسير البيضاوى الحق الثابت الذى لا يسوغ إنكاره، فعم الأعيان والأفعال الصائبة والأقوال الصادقة، من قولهم حق الأمر إذا ثبت، ومنه ثوب محقق محكم النسج، **(وهو بالمعنى الأول)** ضمير هو راجع إلى قوله المتحقق صدقه وأمره، والمراد بالمعنى الأول كون الحق اسما لمحمد، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(والمبين) على هذا التفسير **(البين)** الظاهر الذى لا يخفى **(أمره رسالته)**، وهذا على

كونه من بان اللازم، **(أو)** هو **(المبين)** بتشديد المثناة التحتية المكسورة **(عن الله ما بعثه به)** للخلق كافة، وعداه لتضمنه معنى المبلغ، أو هو حال بتقدير ناقلا، **(كما قال)** تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، من شرائعه وأحكامه، وهذا على أنه من أبان المتعدى.

(ومن أسمائه تعالى: النور)، وقد قدمنا ما قاله الغزالى أنه حقيقة فى ذات الله تعالى؛ لأن معناه الظاهر بنفسه المظهر لغيره، وإليه ذهب الحكماء، ويشير إليه قول الأشعرى، رحمه الله تعالى: إنه نور ليس كالأنوار، وما قاله السهيلى فى الفرق بينه وبين الضياء بأنه ذات المنير، والضوء والضياء أشعته المنتشرة عنه؛ ولذا قال: ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]؛ لكثرة أشعتها فلا وجه لما يتوهم من أن الظاهر العكس، ولا حاجة لتأويله إذا أطلق على الله فإن أردت فطالع مشكاة الغزالى، والمشهور فيه التأويل كما أشار إليه المصنف بقوله: **(ومعناه ذو النور وخالقه)** عطف تفسير، وهذا تأويل له بتقدير مضاف فيه لما مر، **(أو منور السموات والأرض)**، فعلى الأول هو حقيقة، وعلى هذا هو مجاز كعدل بمعنى عادل؛ لأنه المنعم على أهلهما **(بالأنوار)** الفائضة عليها بواسطة الكواكب ودونها، والنور على هذا بمعناه الحقيقى، **(ومنور قلوب المؤمنين بالهداية)**؛ ولذا ورد تفسيره بالهادى، وهذا على استعارة النور للهداية لما فيها من الدلالة، ثم استعماله بمعنى المنور الهادى، ففيه مجاز على مجاز لاشتهار الأول حتى صار كالحقيقة.

(وسماه) أى سمى الله نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(نورا، فقال:** ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ **[المائدة: ١٥]، قيل:)** المراد بالنور فى هذه الآية **(محمد)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، لظهور آياته، **(وقيل: القرآن)** لإزالته ظلمة الكفر والجهل، ولا يشكل على الأول إفراد الضمير بعده فى قوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ [المائدة: ١٦]، مع تغايرهما وعطفهما بالواو دون أو كما قيل؛ لأن الضمير راجع إليهما معا باعتبار المذكور، أو لأنهما كالشىء الواحد، وهداية أحدهما عين هداية الآخر، وقد صرح الفراء فى تفسيره بجواز مثله جوازًا مطردًا، وبه ورد القرآن فى آيات كثيرة كما بيناه فى السوانح، وأنشد عليه شاهدًا[1]:

رمانى بأمر كنت منه ووالدى   بريئًا ومن جول الطّوىّ رمانى

(وقال فيه) أى فى وصف النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشأنه: ﴿وَسِرَاجًا

(١) البيت من الطويل، وهو لعمرو بن أحمر فى ديوانه (ص١٨٧)، الدرر (٦٢/٢)، شرح أبيات سيبويه (٢٤٩/١)، الكتاب (٧٥/١)، وله أو للأزرق بن طرفة بن العمرد فى لسان العرب (١٣٢/١١).

﴿مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]، فسماه سراجا كما سماه نورًا على نهج الاستعارة أو التشبيه البليغ، ثم بينه بقوله: **(سماه بذلك)** أى بالنور والسراج، وفى نسخة سمى بذلك **(لوضوح أمره)** كالنور الذى لا يخفى، **(وبيان نبوته)** أى كونها بينة ظاهرة، **(وتنوير قلوب المؤمنين والعارفين به)** وبما جاء به، وهذا ناظر لقوله ومنور قلوب المؤمنين بالهداية، وفيه تبيين لإطلاقه على القرآن ضمنا.

(ومن أسمائه تعالى) التى شرف بها نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(الشهيد)** من الشهادة وهى المعاينة والإخبار بما عاينه، أو من الشهود وهو الحضور، **(ومعناه العالم)**؛ لأن من شاهد شيئا علمه علمًا تاما، قال تعالى: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠]، أى تعلمون، وفى شرح المواقف: الشهيد القائم بالغائب والحاضر، ويوافقه إطلاق المصنف فلا يرد عليه أنه فسر الأخص بالأعم، وقول الغزالى: إذا اعتبر العلم مطلقًا فهو العليم، وإن أضيف إلى الغيب والأمور الباطنة فهو الشهيد فتدبره.

(وقيل: الشاهد على عباده يوم القيامة) إذ يبين لهم ما صدر منهم فى حياتهم الدنيا إذ لا يخفى عليه خافية، **(وسماه)** أى سمى الله تعالى نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(شهيدًا وشاهدًا فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ [الأحزاب: ٤٥])** مقبولا شهادتك على أمتك ولهم، وهو حال مقدرة، **(وقال)** تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، إشارة إلى ما رواه مسلم من أن الله يسأل الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام: هل بلغتم؟ فيقولون: نعم فتنكر أممهم فيقول: من يشهد لكم؟ فيقولون: محمد وأمته، فتشهد أمة محمد، ويشهد، عليه الصلاة والسلام، لأمته بصدقهم، وهذا معنى الآية، وهذه الشهادة لهم لا عليهم لكن ضمن شهيدًا معنى رقيب، وقدم الجار لاختصاصه بهذه الشهادة، وفيه فضيلة له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن الأنبياء يحاسبون يوم القيامة وهو لا يحاسب، وفضيلة لأمته إذ لم ينكروا تبليغه وقد تقدم الكلام على هذه الآية. **(وهو)** أى الشهيد الذى أطلق عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بمعنى الأول)** أى الشاهد، أو بمعنى الشهيد الأول الذى أطلق على الله تعالى، والأولية على الوجهين لمطلق التقدم، وقيل: وصف اسمه الشاهد بالأولية مع كونه ثانيا لذكر أمته قبل آية اسمه الشهيد.

(ومن أسمائه تعالى) أى من أسماء الله التى سمى بها نبيه **(الكريم، ومعناه الكثير الخير)**، وهو أصل معناه لغة وإن اختص فى عرف اللغة والعرف العام بالسخى الكثير العطاء، وإليه أشار المصنف، رحمه الله تعالى، بقوله:

(وقيل: المفضل) بوزن محسن ومعناه؛ ولذا فسر بمعنى يعطى عفوا بغير وسيلة وسؤال.

(وقيل: العفو) فعول من العفو وهو التجاوز عن سيئات من أساء قيل: وهو أبلغ من الغفور من حيث أن الغفر ستر السيئة، والعفو محوها، وهو فى الأصل القصد لتناول الشىء، فاستعير لقصد إزالة المحو.

(وقيل: العلى) وهو البالغ إلى رتبة فوق كل رتبة، فهو العلى فى ذاته وصفاته، وفسره الغزالى بأنه الذى إذا قدر عفا، وإذا وعد وفا، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء، ولا يبالى كم أعطى، ولا لمن أعطى، وإن رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جفى عاتب وما استقصى، ولا يضيع من لاذ به والتجأ فيغنيه عن الوسائل والشفعاء، فمن اجتمع له جميع ذلك لا بالتكلف فهو الكريم المطلق، وذلك هو الله وحده لا يناله غيره إلا باكتساب وتمحل، ومع ذلك لا يستوفى جميع أنواعه؛ ولذا جاز إطلاقه على غيره تعالى كالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وفى الحديث المروى) الذى رواه ابن ماجه فى سننه **(فى أسمائه تعالى)** أى فى أسماء الله، وهو متعلق بالمروى، أو بمقدر أى عد فى أسمائه **(الأكرم)** أى الزائد على غيره فى صفة الكرم، وهذا يقتضى مشاركته لغيره فى هذه الصفة إن فسرت بمعنى يوجد فيه وفى غيره، فإن فسرت بما تقدم عن الغزالى وهو مختص بالله، فالتفضيل ليس على بابه بل بمعنى الكريم، أو على أصله على طريق التسامح كما فى قوله: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

قال ابن عبد السلام فى أماليه: هذا ونحو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين مشكل؛ لأن أفعل يضاف إلى جنسه، وهذا ليس كذلك لأن خلق الله إيجاده، وهو من غيره بمعنى الكسب وهما متباينان، والرحمة من الله إن حملت على الإرادة صح؛ لأن المعنى أعظم إرادة من سائر المريدين، وإن جعل من مجاز التشبيه وهو أن معاملته تشبه معاملة الراحم صح أيضا؛ لأنه مشترك بينه وبين عباده، فإن أريد إيجاد الرحمة فهو مشكل إذ لا موجد غير الله، وأجاب الآمدى بأن معناه أعظم من يسمى بهذا الاسم، واستشكل بأن التفاضل فى غير ما وضع له اللفظ، ويصح على مذهب المعتزلة؛ لأن الفاعلين عندهم كثير، ثم إنه قيل على المصنف أن إثباته تسمية الله بالأكرم بالحديث غفلة عن تسميته بذلك فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٣]، ولك أن تقول أن الذى فى الآية على سبيل التوصيف، والذى ذكره أنه عد فى الحديث فى سلك الأسماء الحسنى، وهو أدل على مراده.

(وسماه الله تعالى كريما) أى سمى الله به نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]) قيل)** أى قال بعض المفسرين هو فى هذه الآية **(محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: جبريل، عليه الصلاة والسلام)**، وهو قول أكثر المفسرين كما مر؛ لأنه الظاهر من السياق.

(وقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: أنا أكرم ولد آدم) أى أشرف من سائر الخلق الأنبياء وغيرهم، وقد تقدم مرارا روايته ومعناه، ثم أشار بقوله: **(ومعانى الاسم)** أى الكريم والأكرم **(صحيحة فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم)** لاتصافه بغاية الكرم إلى أنه لاتصافه بمعناه، والمراد بالاسم ما يطلق عليه سواء كان اسما أو صفة، فسقط ما قيل أن تسميته كريما على سبيل التوصيف لا على طريق الأسماء الأعلام، وقوله: أكرم ولد آدم المراد به تفضيله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عليهم لا التسمية بهذا الاسم، بل ينبغى أن يقال باختصاص الأكرم بالله، وهو غفلة عما قررناه، بل هو ناش عن عدم فهم كلام المصنف، رحمه الله تعالى، وفى ذلك إشارة إلى تشريفه بكونه كريما وأكرم.

(ومن أسمائه تعالى العظيم)، وهو الذى عظم جسما أو قدرا ورتبة، والمراد الثانى؛ لأنه عز وجل هو العظيم على الإطلاق لبلوغه مرتبة من العظمة لا تحيط بتصورها الأفهام، ولا تتخيلها الأوهام؛ لتنزهه عن أن تحيط العقول بكنه ذاته وصفاته؛ فلذا قال: **(ومعناه الجليل الشان)** بهمزة أو ألف مبدلة منها **(الذى كل شىء دونه)** أى قاصر عن بلوغ رتبته إذ لا كمال يدنو من كماله فى ذاته وصفاته، والعظيم، والجليل، والكبير معانيها متقاربة إلا أنه قيل: إن الكبير هو الكامل فى ذاته، والجليل هو الكامل فى صفاته، والعظيم هو الكامل فيهما. **(قال)** تعالى **(فى)** حق **(النبى، عليه السلام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤])** فقد جمع الله له من محاسن الأخلاق ما لايتصور فى أحد سواه، وإذا وصف خلقه بالعظيم فقد وصفه به فكان من أسمائه، فلا يرد عليه أنه وصف لخلقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا له فيلبس، ولا أن العظمة مختصة بالله، أونقول: إنه توطئة لقوله: **(ووقع فى أول سفر من التوراة)** بكسر السين، وسكون الفاء، وراء مهملة، وهو الكتاب **(عن إسماعيل)** نبى الله ابن خليل الله، عليهما الصلاة والسلام، وكان الظاهر أن يقول فى حق إسماعيل فكأنه صفة سفر أى سفر فيه ما يصدر عن إسماعيل، عليه الصلاة والسلام، **(وستلد عظيما لأمة عظيمة)**، وفيه مبالغة فى وصفه للعظمة إذ جعل أتباعه عظماء فما بالك به.

وإذا سخر الإلـــه سعيدا لأنـــاس فإنهـــم سعـــداء

(ومن أسمائه تعالى الجبار)، وهو صيغة مبالغة على خلاف القياس إذ لم يجئ جبر بل

تجبر، فهو متجبر وجبار متعد ولازم. يقال: جبرت العظم، وجبر جبورا وجبر الفقير، ويتصف به من الناس الشديد العدوان، وله معان فى كلام العرب، والقهار، والمسلط. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾ [ق: ٤٥]، كما يأتى، والقوى العظيم الجسم، والمتكبر، والقتال، والنخلة الطويلة، وتجبر النبت طال، وجبره على كذا أكرهه، والجبر خلاف القدر، والجبرية بفتح الباء وسكونها. وقال أبو عبيد: إنه مولد، والمجبر الذى يجبر العظام المكسورة أى يصلحها يقال أجبرت وجبرت وهو أكثر قال:

(قد جبر الديــن الإلــهُ فجبـــر)

ويقال: جبرتها أيضًا، ولما ذكرناه من معناه الحقيقى لغة اختلفوا فى تفسيره حيث وقع صفة كما قال المصنف، رحمه الله، **(ومعناه المصلح)** للعالم ولأمور عباده تفضلا به، من جبرت العظم والفقير فهو من صفات الأفعال.

(وقيل: القاهر) فيرجع إلى صفة القدرة الذاتية، فما من مخلوق إلا وهو مقهور فى قبضة تصرفه يفعل ما يريد.

(وقيل: العلى العظيم الشان) من قولهم نخلة جبارة ونبت جبار، أى طويل، فاستعير من العلو الحسى للمعنوى؛ ولذا فسروه بالعالى فوق خلقه، فهو صفة ذاتية.

(وقيل: المتكبر) المتعظم الذى يرى الكل حقيرًا بالإضافة إلى ذاته من قولهم: فيه جبرية وجبروت أى تكبر وعظمة؛ ولذا كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقول فى سجوده وركوعه: سبحان ذى الملك والملكوت سبحان ذى العزة والجبروت.

(وسمى النبى ﷺ) بالبناء للمجهول أى سماه الله تعالى **(فى كتاب داود)** أى الصحف الإلهية المنزلة عليه ﷺ **(بجبار، فقال)** الله تعالى مخاطبا له، صلى الله تعالى عليه وسلم، لتنزيله منزلة الموجود لتحققه فى علمه الحضورى عنده (: **تقلد أيها الجبار سيفك)** يقال: تقلد السيف إذا جعل حمائله على عاتقه وحمله كالقلادة، وفيه إشارة إلى أنه سيؤمر بالقتال؛ **(فإن ناموسك)** أى الوحى النازل عليك أو عظمتك فى قلوب الناس، وهذا المعنى شائع بين الناس، وأصل معناه كما فى القاموس صاحب السر المطلع على باطن أمرك، أو صاحب سر الخير، وصاحب سر الشر جاسوس، وقترة الصائد وهى شىء يختفى فيه الصائد ليأخذ الصيد، وفى البيان للجاحظ: قال الزبيدى: الناموس دويبة تلسع الإنسان مشتق من نمس الكلام أخفاه، وسمى جبريل، عليه الصلاة والسلام، بالناموس الأكبر؛ لأنه يخفى الكلام حتى يلقيه إلى الرسل، عليهم الصلاة والسلام، انتهى.

(وشرائعك) يحتمل أنه عطف تفسير؛ ولذا وحد الخبر فى قوله **(مقرونة بهيبة يمينك)**

أى بالخوف من سيفك، فكنى بما ذكر عنه أو تجوز باليمين عما فيه، **(ومعناه فى حق النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى معنى الجبار الذى هو من أسماء الله إذا أطلق فى وصف النبى ﷺ يقال: كذا ورد فى حق كذا أى أمره وشأنه المتحقق فيه، ولو فسر الجبار فى كتاب داود بالمجاهد القتال الذى هو أحد معانيه بقرينة ما بعده كان أولى من قوله.

(إما لإصلاحه لأمته بالهداية والتعليم) أى إرشادهم لما فيه صلاح معاشهم ومعادهم وتعليم أمور دينهم، فعلى هذا سمى، صلى الله تعالى عليه وسلم، باسمه الجبار بمعنى المصلح، **(أو لقهر أعدائه)**، وفى نسخة لقهره أعداءه، وهذا إشارة إلى أنه سمى بالمعنى الثانى الذى مر بيانه، **(أو لعلو منزلته على البشر)**، فهو مسمى به باعتبار المعنى الثالث وهو العلى، ولو قال على الخلق كان أحسن، وقيل: إنه يفهم من تفضيله على البشر تفضيله على الجن والملك بالطريق الأولى وفيه نظر، **(وعظيم خطره)** هذا إشارة إلى أنه إما مستعار من العلو الحسى فينزل الرتبى منزلته، ويتخيل فيه أنه ارتفع فى مكان عال، أو علو القدر وهو العظمة، وهذا على هذا الوجه وعلى الأول هو كقول أبى تمام، وقد ذكر علو ممدوحه:

ويصعد حتى يظن الجهول ... بأن له حاجة فى السماء

وأصل الخطر ما يعطى فى الرهان للمسابقة، ثم استعير للشرف فيقال: له خطر ورجل خطير، وهو من إضافة الصفة لموصوفها، ولله در الغزالى، رحمه الله تعالى، فى قوله: الجبار من العباد من ارتفع عن الاتباع، ونال درجة الاستتباع، وتفرد بعلو رتبته بحيث يجبر الخلق بهيئته وصولته على الاقتداء به، وعلى متابعته فى سمته وسيرته، فيفيد الخلق ولا يستفيد، ويؤثر ولا يتأثر، ويستتبع ولا يتبع، لا يشاهده أحد إلا ويغنى عن ملاحظة نفسه، ويصير مستوفى الهم به غير ملتفت إلى ذاته ولا يطمع أحد فى استدراجه واستتباعه، وإنما حظى بهذا الوصف سيد البشر، صلوات الله وسلامه عليه، حيث قال: **(لو كان موسى حيا ماوسعه إلا اتباعى وأنا سيد ولد آدم ولا فخر)**، وفى كلامه لف ونشر وإيجاز إذ أصل معناه فى حقه، عليه الصلاة والسلام، كمعناه فى حق الله، وإن لم يكن يساويه أو يقاربه ويدانيه، ولما كان المعنى الأخير وهو المتكبر لا يصح فى حق النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بوجه من الوجوه قال: **(ونفى عنه فى القرآن جبرية التكبر)** بفتح الباء كجبروة، وجبروت، وجبورة، كفروجة الكبر كما قاله القرطبى فى شرح الأسماء الحسنى، وأضافها إلى التكبر احترازا عن الجبرية بمعنى الجبر وهو خلاف القدر وقال القرطبى: الجبرية بفتح الباء خلاف القدرية عن الجوهرى، وحكى عن

الزجاج الجبرية بالإسكان وهو أصوب، وعن أبى عبيد أنه مولد **(التى لا تليق به)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما تقدم من تواضعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولأن الكبرياء والتكبر من صفات الله التى لا تليق بغيره، ومعنى تليق تناسب وتصح **(فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾)** تفسير لقوله ونفى عنه، وتقدم أنه فسر بمسلط، والتكبر هو التعاظم على الغير واستحقاره وهو محرم على كل مخلوق، وبما ذكرناه علم ما فى قول القرطبى فى شرح الأسماء الحسنى أنه يجب على كل مسلم مكلف أن لا يتصف باسم الجبار ولا يتعاطاه، وإنما حظه الاتصاف بنقيضه فإن إطلاقه يأباه إطلاقه عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فينبغى تقييده ببعض معانيه، وقيل: تفسيره بالمسلط أولى لأنه نزل فى حق أهل مكة وإنكارهم لبعثته، فأمره بأن ينذرهم ولا يجبرهم على الإيمان ويتسلط عليهم حتى يسلموا، والآية منسوخة بآية السيف لأنها من سورة قاف وهى مكية، وإنما أمر، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالقتال بالمدينة، وعلى ما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، يكون غير منسوخة.

(ومن أسمائه تعالى: الخبير) وقد ورد فى القرآن معرفًا ومنكرًا، وقال: **﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾** [الملك: ١٤]، من الخبر بالضم وحقيقته استكشاف باطن المخبور حتى يستوى عنده ظاهره وباطنه؛ ولذا قيل للحارث: خابر، ويكون بمعنى المخبر والمختبر، والله تعالى مختبر لعباده قال تعالى: **﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾** [الأنبياء: ٣٥]، فهو من صفات الأفعال، ويكون بمعنى العليم من صفات الذات، وإذا كان بمعنى المخبر رجع إلى صفة الكلام، فقوله: **(ومعناه)** إذا أطلق على الله **(المطلع بكنه الشىء)** أى الواقف على حقائق الأشياء وكنه الشىء بضم فسكون له معان منها الحقيقة كما فى التهذيب. يقال: اكتنهه إذا بلغ كنهه، فقوله فى شرح المفتاح: إنه مولد لا وجه له وتعديه بعلى لأنه بمعنى **(العالم بحقيقته)**، وهى ذاته لا غايته كما قيل.

(وقيل: معناه المختبر) وأصله المجرب والمراد به فى حقه تعالى استدراج عباده حتى يعلم الصابر من غيره، فليزمه الحجة أو يعلم سلوكه المحجة وهو أعلم بهم، وفى بعض النسخ المخبر أى المخبر أنبياءه ورسله بكلامه المنزل عليهم، أو المخبر عباده يوم القيامة بأعمالهم، فإنه لا يعزب عن علمه شىء.

ثم شرع فى بيان تسمية الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، به فقال: **(قال الله تعالى:)** **﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾** [الأعراف: ٥٤]، **﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾** [الفرقان: ٥٩]، أى عنه،، أو الباء تجريدية والضمير لخلق السموات والأرض والاستواء على العرش المذكور قبله، والخبير

بمعنى العالم، ثم قال المؤلف، رحمه الله تعالى: **(قال القاضى بكر بن العلا)** بفتح الموحدة والعين المهملة، وهو بكر بن محمد بن العلا بن زياد القشيرى من ولد عمران بن الحصين، رضى الله تعالى عنه، توفى فى ليلة السبت لسبع بقين من ربيع الأول سنة أربع وأربعين وثلاثمائة (: **المأمور بالسؤال)** فى الآية **(غير النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** من كل من يتأتى منه السؤال، لا النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأنه المخاطب، **(والمسئول الخبير هو النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**؛ لأنه العالم بحقيقة ما ذكر دون غيره، ففيه دليل على تسميته خبيرًا.

(وقال غيره) أى غير القاضى بكر (: **بل السائل النبى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه المخاطب به، **(والمسئول الله تعالى، فالنبى خبير بالوجهين المذكورين)** أى على التفسيرين، فالباء بمعنى على أو ظرفية. أما الأول فظاهر لإطلاقه عليه؛ ولأنه لو لم يكن خبيرًا لم يؤمر بسؤاله، وأما على الثانى فلأن إذنه له فى السؤال دال على إعلامه به، وقيل: المراد بالوجهين تفسير الخبير بالعالم بالحقيقة وتفسيره بالمختبر.

(قيل: لأنه عالم على غاية من العلم بما أعلمه الله من مكنون علمه وعظيم معرفته)، أى سمى خبيرًا لما أعلمه الله به من الخفيات والمغيبات التى أطلعه عليها بوحيه، وما جبله عليه من المعرفة العظيمة **(مخبر لأمته بما أذن له فى إعلامهم به)** دون ما لم يؤذن فيه من الأسرار الإلهية، وما بعد قيل ناظر لكونه بمعنى العالم وهذا لكونه بمعنى المخبر، والفرق بين هذا وما قبله لأنه سمى خبيرًا باعتبار ما أجابه به بعد سؤاله وقيل: باعتبار أنه عالم قبل السؤال فتدبر.

(ومن أسمائه تعالى الفتاح) قال الراغب: أصل معنى الفتح إزالة الإغلاق والإشكال، وهو ضربان: أحدهما ما يدرك بالبصر كفتح الباب والقفل والمتاع، والثانى: ما يدرك بالبصيرة كفتح الهم والمشكل، ومنه فتح القضية إذا فصل الحكم فيها، ومنه الفاتح والفتاح للقاضى، وفتح الممالك الظفر بها عنوة، وفتح الله برزقه إذا جاءه من حيث لا يحتسب، **(ومعناه)** فى حق الله **(الحاكم بين عباده)** فى فصل القضاء، أو بإنصاف المظلوم فهو من صفات الأفعال.

(أو فاتح أبواب الرزق والرحمة) لهم بتيسير أرزاقهم وتهيئة أسبابها وفتح أقفال موانعها، والرحمة الإنعام أى المنعم عليهم الرازق لهم. قال تعالى: **﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾** [فاطر: ٢]، وهو استعارة فى الأصل صار حقيقة عرفية.

(والمنغلق من أمورهم عليهم) بالجر عطف على أبواب أى فاتح المنغلق بمعنى ميسر

كل صعب ومسهله، وعليهم متعلق بفاتح أو بالمتعلق.

(أو يفتح قلوبهم وبصائرهم لمعرفة الحق) الذى هو الله، أو خلاف الباطل أى يزيل أقفال قلوبهم المانعة لهم، أو غشاوة أبصارهم وبصائرهم حتى يعرفوه ويهتدوا بهدايته، ويفتح مضارع معطوف على فاتح، فإن الفعل يعطف على الاسم الصفة لأنهما بمعنى، وفى بعض النسخ بفتح بالباء الجارة، والظاهر الأول، وهذا معطوف على مقدر أى المتعلق بتيسيره أو بفتح إلى آخره.

(ويكون) الفتاح **(أيضا)** كما كان بمعنى الحاكم **(بمعنى الناصر)** المعين؛ لأن من شأن الحاكم نصرة المظلوم، ولخفائه استشهد له بقوله: **(كقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩])** أى لأنه فسر هكذا: **(إن تستنصروا فقد جاءكم النصر)** من عند الله بخذلان أعداء دينه ونصرته للحق.

(وقيل: معناه مبتدئ الفتح والنصر)؛ لأن الفتح جاء بمعنى البدء، ومنه فاتحة الكتاب لأوله ومبدئه، ومعنى مبتدئ النصر أنه موجده وميسره، **﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾** [الأنفال: ١٠]، وقوله: **﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾** [الأنفال: ١٩]، خطاب من الله لأهل مكة أبى جهل وأضرابه ممن قتل ببدر تعلقوا بأستار الكعبة عند خروجهم من مكة، وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفريقين وأكرم الحزبين، فأجابهم الله تعالى متهكما بهم أن قد نصرتم.

(وسمى الله تعالى نبيه محمدا، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالفاتح فى حديث الإسراء الطويل) الذى تقدم ذكره **(من رواية الربيع بن أنس عن أبى العالية وغيره عن أبى هريرة)**، والفاتح بمعنى الفتاح، والمبالغة التى فيه لا تنافى مشاركته له فى أصل معناه كما توهم، وكذا ما قيل من أنه ليس بخاص به ولا على وجه التسمية ونحوه مما لا ينبغى ذكره.

(وفيه) أى فى حديث الإسراء **(من قول الله تعالى)** لنبيه محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما خاطبه به إذ عرج به **(وجعلتك فاتحًا وخاتمًا)** أى أول الأنبياء وآخرهم؛ لما مر من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، نبئ قبل خلقهم، وقد تقدم بيانه، أو المراد به ما قاله فى شرح قوله: **(وفيه)** أى فى حديث الإسراء **(من قول النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى ثنائه على ربه)** إذ حمده بمحامد لم يلهمها قبل، **(وتعديد مراتبه)** أى مقاماته بين يدى ربه **(: ورفع لى ذكرى)** بجعله قرينًا لذكره كما تقدم، **(وجعلنى فاتحا وخاتما، فيكون الفاتح هنا الحاكم)**، وإنما خصه بذلك؛ لأنه لم يكن لأحد قبل شريعته كشريعته،

(أو الفاتح لأبواب الرحمة على أمته) إذ هداهم إلى ما أرشدهم إلى سعادة الدارين، **(أو الفاتح لبصائرهم لمعرفة الحق والإيمان بالله)** لدعوتهم إلى معرفته تعالى وتوحيده، **(أو الناصر للحق)** والدين القويم بجهاده فى سبيله تعالى، **(أو المبتدئ بهداية الأمة)** لتقديمه ذلك على كل مهم له، **(أو المبدأ المقدم فى الأنبياء)** كما بيناه أولا، والمبدأ بضم الميم وتشديد الدال المهملة وهمزة كما قاله البرهان، فالمقدم تفسير له فإن كانت به رواية فبها، وإلا فيجوز فتح الميم وسكون الباء الموحدة المفتوحة أولا وتخفيف الدال بمعنى الأول.

(والخاتم لهم كما قال: كنت أول الأنبياء فى الخلق)؛ لخلق نور روحه قبلهم، وأخذ عليهم الميثاق فى اتباع من أدركه منهم، **(وآخرهم فى البعث)** باعتبار الزمان، وبما قررناه علمت الجواب عما قيل من أنه لا اختصاص لما ذكر غير الأخيرية إلا أن يقال: إنه وقع على أتم وجه بحيث لا يشاركه فيه غيره، ثم إن المصنف، رحمه الله تعالى، لم يقل: إنه لابد فى أسمائه من اختصاص معانيها به فتدبر.

(ومن أسمائه) أى من أسماء الله التى سمى بها نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى الحديث)** الصحيح الذى رواه الترمذى وغيره عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، فى تعداد الأسماء الحسنى **(الشكور)**، وفى القرآن ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]، وللشكر معنيان لغوى وعرفى مشهوران، وأما فى حقه تعالى فـ**(معناه المثيب)** أى المعطى الثواب الجزيل **(على العمل القليل)**، فهو من صفات الأفعال، وهو مجاز؛ لأن حقيقته الثناء المقابل للإحسان، فأطلق على الإنعام المقابل للشكر؛ لأن العمل شكر إذ هو لا يختص باللسان، فهو استعارة أو من إطلاق السبب على المسبب، كقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وهذا قريب مما قيل إنه الذى يجازى على قليل من عمل الطاعة فى أيام قليلة ما لا نهاية له من النعيم المخلد، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، أى فى الحياة الدنيا؛ لأن المغايرة بينهما سهلة خلافا لمن توهم ذلك.

(وقيل: المثنى على المطيعين)، وهذا أنسب بمعنى الشكر الحقيقى وأقرب، وقد أثنى الله على عباده الصالحين كثيرا فى القرآن وكتبه المنزلة، وهو الذى خلق فيهم القدرة على الطاعة ووفقهم لها، كما قال ابن عطاء الله فى حكمه: من نعمه عليك أن خلق فيك ونسب إليك، ومع ذلك يثنى بإحسانه عليك.

فهو إنما أثنى فى الحقيقة على نفسه ثم ذكر ما يدل على أن أسماء الله التى سمى بها رسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يلزم اختصاصه بها، فقد تشرف بها غيره كما مر

فقال: (**ووصف**) أى الله عز وجل (**نبيه نوحا، عليه الصلاة والسلام، بذلك، فقال:** ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [**الإسراء: ٣**]). قيل: ويعلم من وصفه به وصف من هو أفضل منه، وهو محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا ينافى ما هو بصدده من ذكر تسمية نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأسمائه، ولا حاجة إليه مع قوله: (**وقد وصف النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، نفسه بذلك فقال:**) فى حديث مشهور تقدم ذكره (**أفلا أكون عبدا شكورًا**)، فان الاستفهام الإنكارى يدل على أنه وصف مقرر له، وما ذكره فى حق نوح، عليه الصلاة والسلام، مبنى على أن الضمير راجع له لقربه، لا لموسى، عليه الصلاة والسلام، كما ذهب إليه بعض المفسرين، (**أى معترفًا بنعم ربى**) مقرًا بها (**عارفًا بقدر ذلك**) مؤديًا لحقه (**مثنيًا عليه**) بلسانى وأركانى (**مجهدًا**) بزنة منعم، أى باذلاً جهدى وطاقتى ومتعبًا (**نفسى فى الزيادة من ذلك**)، أى من الاعتراف والثناء عملاً بقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٧]، من النعم التى شكرتموها وعدًا ممن لا يخلف الميعاد إذ قال لبنى إسرائيل: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٧].

(**ومن أسمائه تعالى العليم، والعلام، وعالم الغيب والشهادة**) أى أحاط علمه بكل شىء مما غاب وخفى، وما حضر وظهر، ودق وجل، وعلمه تعالى لا يشبه علم غيره، وتحقيقه فى علم الكلام.

(**ووصف نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالعلم وخصه بمزية منه**) بمزية كمعية بمعنى فضيلة، وقال العلامة فى شرح المفتاح: لا يبنى منه فعل وتبعه بعضهم هنا، وفى الأساس: تمزيته عليه ومر التنبيه على ذلك، وفسر المزية بقوله: (**فقال:** ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [**النساء: ١١٣**]) بما خصك به من العلم والمعارف الإلهية والأمور الدينية، وفيه إشارة إلى أن له، صلى الله تعالى عليه وسلم، مزية فى ذلك لم ينلها غيره، ولا ينافيه قوله: (**وقال**) ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]، مما لا طريق له سوى الوحى غير المتلو، ولذا أعاد الفعل لتغايرهما، ولما كان هو المعلم لهم وما أعلمهم بعض مما علمه الله لم يشاركوه فى هذه المزية، وإنما ذكر هذه الآية وإن كان ظاهرها ليس مما هو بصدده؛ لأنها تدل على زيادة علمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنه معلم لغيره غير متعلم من غير ربه.

(**ومن أسمائه تعالى الأول والآخر**)، وقد سمى به فى القرآن والأحاديث الصحيحة، ومعناه بحسب اللغة وبحسب الاشتقاق وكون فائه واوا أو همزة معلوم فى العربية،

ووزنه أفعل ويكون أول اسم تفضيل وظرفا، وليس هذا محل الكلام فيه، وإنما الكلام فى معناه فى أسماء الله تعالى، فقال ابن العربى: للعلماء فيه عبارات فقيل: الأول الموجود قبل الخلق، فكان ولا شىء قبله ولا معه، قاله ابن عباس، رضى الله عنهما.

وقيل: إنه الذى لا ابتداء له، وقيل: إنه الذى له كل شىء، وبه كل شىء، ومنه كل شىء كما يقال فلان أول هذا الأمر وآخره، وقيل: الأول بصفاته وقيل بمحبته لأوليائه، ومقابله الآخر، فقيل هو الموجود بعد الخلق فلا شىء بعده، وقيل: هو الذى لا انتهاء له، وقيل: الذى يرجع إليه كل شىء.

وقال الضحاك: هو الذى أخر الأواخر أى الذى جعل لكل شىء آخر. وقيل: الآخر بقضائه وقدره.

وقال الغزالى، رحمه الله تعالى: الأول والآخر متناقضان، فالشىء الواحد لا يكون أولاً وآخرا من وجه واحد، فأنت إذا نظرت إلى ترتيب سلسلة الموجودات، فالله تعالى بالإضافة إليها أول؛ لأنها استفادت منه الوجود، وأما هو فموجود بمعنى أنه غير مستفيد لوجوده من غيره، فإذا نظرت إلى ترتيب السلوك ومنازل السائرين فيه إليه، فهو آخر ما يرتقى إليه درجة العارفين.

ولما كان الأول والآخر مع كونهما كالمتضادين يوهم الانتهاء من الطرفين فسروه بما فيه دقة، وإلى هذا أشار المصنف بقول: **(ومعناهما السابق للأشياء)** أى جميع الموجودات **(قبل وجودها)**؛ لأنه الذى أوجدها وأبدعها، **(والباقى بعد فنائها)** ثم صرح بالمقصود من دفع الإبهام فقال: **(وتحقيقه أنه ليس له أول ولا آخر)** ولا ابتداء ولا انتهاء، فلا سابق عليه ولا باقى بعده، فهو واجب الوجود، وجوده عين ذاته لا يتصور انفكاكه عنه، فهو من صفات التنزيه.

وقال القرطبى: إنه الأول بوجوده فى الأزل وقبل الابتداء، والآخر بوجوده فى الأبد وبعد الانتهاء، وعلى هذا يكون من أسماء الذات ويجوز أن يكون من أسماء الأفعال على معنى أول الأول وآخر الآخر فى الوجود، ثم أشار إلى إطلاقه عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بقوله:

(وقال، عليه الصلاة والسلام: كنت أول الأنبياء فى الخلق) يعنى أنه فى عالم الذر والأرواح خلقت روحه ونبئ قبلهم؛ ولذا عبر بالأنبياء دون الرسل كما تقدم بيانه، ولا وجه لتفسيره بأنه كان نورا فى وجه آدم إذ لا يطابق قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وآخرهم فى البعث)** فهو خاتمهم ونبوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ورسالته لا تنقطع بموته.

(وفسر بهذا) أى بتقدم خلقه وتأخر بعثته **(قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧])** الميثاق هو أن يؤمنوا بالله ويوحدوه، **(فقدم محمدا، صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى الذكر لتقدمه فى الخلق بل والبعث، وهذا التفسير رواه قتادة عن الحسن، عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، قال: سئل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾ [البقرة: ٦٣]، الآية، فقال: كنت أولهم فى الخلق وآخرهم فى البعث؛ وأما ما روى عن مجاهد من أن هذا فى ظهر آدم، عليه الصلاة والسلام، فتفسير آخر لا وجه لذكره هنا.

(وقد أشار إلى نحو من هذا عمر بن الخطاب، رضى الله عنه) فى قوله كما تقدم لما بكى على النبى ﷺ إذ توفى: بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك أولهم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٧] الآية، وإنما قال: أشار ونحو؛ لأنه ليس فيه تصريح بتقديم خلقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذ التقدم الذكرى ليس صريحا فيه لجواز كونه لشرف رتبته عنده.

(ومنه) أى من قبيل ذكر كونه أولا وآخرا **(قوله: نحن الآخرون)** أى هو ﷺ آخر الأنبياء بعثة وأمته آخر الأمم **(السابقون)**، أى أول من يقضى بينهم ويقضى لهم يوم القيامة قبل الخلائق كما صرح به فى حديث مسلم.

(وقوله)، ﷺ كما تقدم (: **أنا أول من تنشق عنه الأرض)** فى الخروج من القبر للحشر، **(وأول من يدخل الجنة)** هو وأمته كما مر، **(وأول شافع وأول مشفع)** أى مأذون له فى الشفاعة المقبولة، وهذا بيان لإطلاق الأول عليه.

وقوله: **(وهو خاتم النبيين وآخر الرسل، ﷺ)** لبيان إطلاق الآخر عليه أيضًا فعلم منه أنه يقال له ﷺ الأول والآخر كما يقال على الله، وإن كان إطلاقهما على الله بمعنى مختص به كما مر، وإطلاقهما عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بمعنى آخر مقيد بقيود أخر تدل على تغايرهما، فكفاه شرفا تسميته باسم الله ومشاركته فى لفظه، فسقط ما قيل: ليس هذا المعنى بالمعنى الأول قطعا ولا نسبة بينهما، فهو غفلة منه وزلة قدم إذ مثله لا يخفى عليه مثله.

واعلم أنه وقع هنا فى بعض الحواشى أنه سماه بالأول والآخر والظاهر والباطن، وفسر الأول والآخر بما مر، والظاهر بأنه الذى لا يخفى على عاقل وجوده أو القادر، والباطن بالمحجوب عن عباده فى الدنيا أو الذى لا يحاط به أو الذى لا كيفية له، وقيل: الظاهر القريب، والباطن العليم الحكيم، وروى فيه حديثًا، وهو أن جبريل، عليه الصلاة

والسلام، نزل عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال: السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا ظاهر، السلام عليك يا باطن، فقال: يا جبريل كيف تكون هذه الصفة لمخلوق مثلى وهى صفة للخالق لا تليق إلا به، فقال: إن الله تعالى أمرنى أن أسلم عليك بها، وقد خصك بها دون الأنبياء والمرسلين، وشق لك أسماء من اسمه وصفة من صفته، وسماك بالأول لأنك أول الأنبياء خلقا، وسماك آخرًا لأنك خاتم النبيين، وسماك بالباطن لأنه عز وجل كتب اسمك مع اسمه بالنور الأحمر على ساق العرش قبل أن يخلق أباك آدم بألف عام إلى مالا غاية له ولا نهاية، وأمرنى بالصلاة والسلام عليك، فصليت عليك ألف عام حتى بعثك إليه بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وسماك بالظاهر؛ لأنه أظهر فى عصرك، وأظهر دينك على الدين كله، وفضلك على أهل السموات والأرض، فما منهم أحد إلا وقد صلى عليك، صلى الله تعالى عليك وسلم، فربك محمود وأنت محمد، وربك الأول والآخر والظاهر والباطن، وأنت الأول والآخر والظاهر والباطن، فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: الحمد لله الذى فضلنى على جميع النبيين فى اسمى وصفتى انتهى، وهذا مما لم نره لغيره.

(ومن أسمائه تعالى القوى وذو القوة المتين) بالتشديد المحكم قوته، فالمتين أخص من القوى؛ ولذا وصف بها، والقوى وذو القوة ورد إطلاقهما عليه فى القرآن، وأصله قويو فاعل بالقلب، والقوة خلاف الضعف وهى ما يجد به القادر نفسه مستطيعا لتقدير المراد وإن لم يفعله، فهى والقدرة متقاربان، وقديراد بالقوة كثرة الأسباب المعينة كالجند والمال ونحوه، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال الخطابى: القوى يكون بمعنى القادر، ومن قوى على شىء قدر عليه، ويكون معناها التام القوة الذى لا يستولى عليه العجز بحال من الأحوال فيما لا يتناهى، وهى مخصوصة بالله؛ ولذا قال تعالى: ﴿**أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**﴾ [البقرة: ١٦٥]، فلا قوة لعبده إلا إذا قواه الله تعالى؛ ولذا تعبدنا بقول: لا حول ولا قوة إلا بالله. كما قيل:

بك أسطو إذا سطوت ولولا … ك لما استمسكت قوى أوصالى

(ومعناه القادر) وإن كان بين القوة، والقدرة فرقًا كما أشرنا إليه، ولكنهما متلازمان؛ ولذا فسره به الخطابى، وأباه القرطبى فى شرح الأسماء الحسنى إلا أنه لا خلاف بينهما.

(وقد وصفه الله تعالى) أى وصف الله تعالى نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بذلك فقال)**: ﴿**إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ**﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠] أى ذى مكانة ورتبة علية عند الله.

(قيل:) المراد بذى قوة **(محمد، وقيل: جبريل)**، عليهما الصلاة والسلام، وعليه أكثر المفسرين كما مر، وبه استدل المعتزلة على تفضيل جبريل، ولا دليل فيه كما سيأتى، **ومن أسمائه تعالى)** التى سمى بها رسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(الصادق المصدوق)** كما رواه ابن ماجه، والمصدوق بمعنى المصدق فيما جاء به، وقد وردا فى أسماء الله الحسنى **(فى الحديث المأثور)** المروى بسند صحيح، **(وورد فى الحديث أيضًا تسميته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالصادق المصدوق)**، وتقدم لفظه والكلام عليه فى الفصل السابق.

(ومن أسمائه تعالى الولى) كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، أى الذين يتولى أمرهم ويقوم بنصرتهم، ومن أسمائه أيضًا الوالى وهو بمعناه، **(والمولى)** كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، **(ومعناهما)** أى المولى والولى **(الناصر)** أى الذى ينصرهم على أعدائهم. **(وقال تعالى:** ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ **[المائدة: ٥٥])**، أى ناصركم ولم يقل أولياؤكم لأن نصرتهم واحدة، أو لأن الناصر إنما هو الله وغيره بتبعيته وإعانته كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

(وقد قال عليه الصلاة والسلام: أنا ولى كل مؤمن) كما رواه البخارى عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، ورواه أحمد، وأبو داود: **(أنا أولى بكل مؤمن من نفسه)**، وفى البخارى أيضًا «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن مات وعليه دين ولم يترك وفاء، فعلى قضاؤه، ومن ترك مالا فلورثته»(١)، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى أول الإسلام يؤتى بالرجل المتوفى، فيسأل هل عليه دين وهل له وفاء، فإن قالوا له: عليه دين ليس له وفاء. قال: صلوا على صاحبكم، وإلا صلى عليه، فلما فتح الله بالفتوح والغنائم، قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «من مات وعليه دين فعلى قضاؤه»، فقيل: إنه كان واجبا عليه، وارتضى إمام الحرمين، والماوردى أنه لم يكن واجبًا عليه، وإنما كان يفعله تكرما، وهل كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقضيه من الغنائم أو من خالص ماله؟ احتمالان.

(وقد قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ **[الأحزاب: ٦])** أى أحق بهم من أنفسهم؛ فإنه يتولى صلاحهم وينصرهم ويقضى ديونهم كما مر، ويخلصهم مما يكرهون فى الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه البخارى (١٨٧/٨)، والحاكم (٢٧/٢).

(وقال عليه الصلاة والسلام) فى حديث رواه الترمذى وحسنه (: **من كنت مولاه فعلى مولاه)**، والمراد ولاء الإسلام ونصرته كما قال الشافعى، وهذا الحديث ورد فى قصة غدير حم، وقيل: سببه أن أسامه بن زيد، رضى الله تعالى عنهما، قال لعلى، كرم الله وجهه، لست مولاى إنما مولاى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلما سمعه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: من كنت ...، إلى آخره، ولا دليل للشيعة فيه على أنه، رضى الله عنه وكرم وجهه، أحق بالخلافة لاسيما والمولى من الولاء وله معان كالنصرة والعتق وغيره، فلا حجة لهم فيه.

(ومن أسمائه تعالى العفو) مبالغة فى العفو عن السيئات وهو محوها وإزالتها؛ ولذا قيل: إنه أبلغ من الغفور لأنه من الغفر وهو الستر، وأما الصفح فمعناه الإعراض وهو دونهما لكنه يطلق على ذلك أيضًا؛ فلذا قال: **(معناه الصفوح)** فلا يرد عليه أنه لا ينبغى تفسيره به.

(وقد وصف الله تعالى بهذا نبيه)، عليه الصلاة والسلام، **(فى القرآن)** إذ أمره به فيه إذ قال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فأمره، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالتخلق بذلك، فكان ممتثلا له متخلقا به، فيقتضى الاتصاف به على أبلغ وجه وأتمه إذ كان جبلة له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا يرد عليه أنه لم يطلق عليه فى القرآن، وإنما أمر به ولو سلم اتصافه به لأنه لا يعصى له أمرًا لا يقتضى كونه على وجه المبالغة التى دل عليها صيغة فعول، والأمر لا يقتضى التكرار على الأصح، **(والتوراة)**، وفى نسخة: والإنجيل.

(وأمره بالعفو فقال) بيان لما فى القرآن (: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ **[الأعراف: ١٩٩]**، **وقال:** ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ **[المائدة: ١٣]**) هذا مبنى على أن العفو فى هذه الآية الصفح، ويدل عليه ماروى أنها لما نزلت قال، صلى الله تعالى عليه وسلم، لجبريل: ما هذا؟ فقال: لا أدرى حتى أسأل ربى، فسأله ثم رجع فقال: إن ربك أمرك أن تصل من قطعك، وتعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وتحسن إلى من أساء إليك، وهذا رواه البغوى، والقرطبى، ونقل بصيغة التمريض، وعليه اعتمد المصنف بقوله: **(وقال له جبريل وقد سأله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(عن قوله:** ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ **[الأعراف: ١٩٩]**، **قال: أن تعفو عمن ظلمك)** فاختصره، والذى عليه الأكثر أن العفو المال الفاضل عن نفقة العيال كما فى قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثم نسخت بآية الزكاة فلا شاهد فيها على ما نحن بصدده.

(وقال) هذا بيان لما فى التوراة، وفى بعض النسخ التصريح بقوله **(فى التوراة)**

والإنجيل **(فى الحديث المشهور)** الذى تقدم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ليس بفظ ولا غليظ ولكن يعفو ويصفح)**، وقد تقدم شرحه، وأن قول النساء لعمر، رضى الله تعالى عنه، فى قصة الحجاب: لأنت أفظ من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليس التفضيل فيه على أصله، أو أنه فظ على من يستحق الفظاظة كالكفرة.

(ومن أسمائه تعالى الهادى وهو) الضمير للهداية التى فى ضمن الهادى وذكره لأن تأنيث المصدر غير معتبر، أو لأنه بمعنى أن يهدى كما فى الكشاف **(بمعنى توفيق الله لمن أراد من عباده)** اللام زائدة للتقوية لتعدى التوفيق بنفسه، وأصل معنى الهداية كما قاله الراغب: الدلالة بلطف لما يوصل أو الموصلة على الخلاف المشهور، وهى على أنواع:

الأول: ما يعلم كل مكلف من العقل والعلوم الضرورية.

والثانى: دعاوه إياهم على ألسنة رسله.

الثالث: التوفيق الذى يختص به من اهتدى.

والرابع: الهداية فى الآخرة التى فى قوله: ﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا**﴾ [الأعراف: ٤٣]، والإنسان لا يقدر أن يهدى أحدا إلا بالدعاء؛ لذا نفيت تارة وأثبتت أخرى انتهى.

وإلى أحد أنواعها أشار بما ذكره، وأشار إلى الآخر بقوله: **(وبمعنى الدلالة والدعاء)** أى الدعوة، **(قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥])** أى الجنة، ﴿**وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [يونس: ٢٥]، أى يرشدهم إلى طريق مستقيم يوصلهم إلى الجنة بما خلقه فيهم من العقل، وأرسل من الرسل، ووفقهم لاتباعهم، وتقدم أن التوفيق خلق قدرة الطاعة فى العبد وضده الخذلان، ومن فسر المعنى بالهداية والتوفيق فقد ضل عن الطريق، وكذا ما بناه عليه من أن تفسير الهداية بما ذكر مبنى على مذهب المعتزلة فى خلق العباد لأفعالهم، وأن ما ذكره المصنف لا تساعده الأصول على غير ذلك من الخلط الناشيء عن عدم معرفته بقدر المصنف، رحمه الله.

(وأصل الجميع) من معانى الهداية، وفيه إشارة إلى أنها معان مختلفة أصلها لغة **(من الميل)**، فمعنى هداه إلى كذا صرفه إليه وأماله عن غيره؛ لأنه من التهادى وهو التمايل، وفى الحديث خرج، صلى الله تعالى عليه وسلم، يتهادى بين اثنين أى يتمايل.

(وقيل:) إنها مأخوذه لغة **(من التقديم)**، ومنه هوادى الوحش للمتقدم منها، والهادية العنق، وهو الذى ارتضاه الراغب، ثم شرع فى بيان إطلاقه على النبى، صلى الله تعالى

عليه وسلم، فقال: **(وقيل فى تفسير طه إنه يا طاهر يا هادى)** على طريق الرمز والاكتفاء بحرفين من الاسمين يدلان على الباقى لما فى قوله:

قلت لها قفى فقالت قاف

أى وقفت، **(ويعنى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى يريد الله تعالى بهذين الاسمين نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لطهارته من كل دنس وهدايته لخلقه.

(وقال له الله تعالى) خطابا لرسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الشورى: ٥٢]، أى تدل وتدعو إلى الإسلام والطريق الموصلة إلى سعادة الدارين، وهذا على قراءته مبنيا للفاعل وهى المشهورة، وعلى المجهولة هو لله.

(وقال فيه) أى فى حقه وشأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(وداعيا إلى الله بإذنه)** أى بتيسيره وإرادته، والإذن يستعمل مجازا مشهورا فى ذلك، وأصل الإذن معروف الإجازة، وعبر فى الأولى بقوله له لكونه بصيغة الخطاب، يقال: قال له كذا إذا خاطبه، ولما لم يكن فى الثانية خطابا قال: فيه؛ لأنه فى حقه ووصفه فلا وجه لما قيل: إنه لا وجه لتغاير المتعلقين.

ثم أشار إلى أن معانى الهداية منها ما يختص بالله، ومنها ما يطلق عليه وعلى غيره، فقال: **(والهداية بالمعنى الأول)** وهو التوفيق بخلق الاهتداء **(مختص بالله)**، فإنه لا يقدر عليه سواه؛ ولذا نفى عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بهذا المعنى **(قال تعالى:** ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ [**القصص: ٥٦**]**)**، يريد توفيقه، **(وبمعنى الدلالة)** بكسر الدال المهملة وفتحها وهى إراءة الطريق **(تطلق على غيره تعالى)**، كالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، والمؤمنين العلماء لوقوع الدلالة منهم، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**﴾ نزلت فى أبى طالب عمه لا فى العباس عمه، رضى الله تعالى عنه، كما قيل، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، حريصا على إسلامه حتى دخل عليه فى مرض موته، وقال له: يا عماه قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله، وعنده أبو جهل وصناديد قريش، فقالوا له: أترغب عن ملة عبد المطلب، فكان آخر ما قال أنه على ملة عبد المطلب، فنزلت هذه الآية[1]، والشيعة يقولون إنه قالها خفية وشهد بذلك فمات مسلما، وقد رده الحفاظ وقالوا: إنه لم يثبت.

(ومن أسمائه تعالى) التى سماه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بها: **(المؤمن المهيمن. قيل: هما)** فى أسماء الله تعالى **(بمعنى واحد)**، ولفظهما من مادة واحدة؛ لأن الهاء عند هذا

(١) أخرجه البخارى (١١٩/٢)، ومسلم فى الإيمان (٣٩)، وأبو عوانة (١٤/١).

القائل مبدلة من همزته.

(فمعنى المؤمن) على هذا القول **(فى حقه تعالى المصدق وعده)** أى ما وعد به **(عباده)**، فى الدنيا من الثواب ونعيم الآخرة والنصر العزيز فى الدنيا إلى غير ذلك من وعد من لايخلف الميعاد.

(والمصدق قوله الحق) أى الذى صدق ما قاله من الحق كما قال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣]، **(والمصدق لعباده المؤمنين ورسله)** أى يصدق ما قالوه، أو جاعلهم صادقين فى قولهم ملتزمين للصدق فى أقوالهم وعهودهم، كما قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فعلى الأول اللام غير زائدة، وعلى الثانى مزيدة للتقوى، وتحقيقه أن هذا الاسم سمى الله به نفسه فى القرآن والأحاديث الصحيحة، وأجمعت عليه الأمة وهو من آمن يؤمن إيمانًا فهو مؤمن أى مصدق، فإنه كذلك فى لغة العرب واستعمالهم، وعلى هذا فقيل: معناه مصدق مؤمن عباده، أو الذى لا يخاف ظلما، وقيل: معناه الذى يأمن أولياءه عذابه. قال الشاعر(١):

والمؤمِنِ العائِذَاتِ الطير تمسحُها رُكْبَانُ مكة بين الغَيْلِ والسَّند

وقال الحاكم: معناه أنه إذا وعد صدق وعده، وقال الخطابى بعد ما فسره بالمصدق: إنه يحتمل وجوها أحدها أنه يصدق عباده وعده،ويفى بما ضمنه لهم من رزق الدنيا وثواب الآخرة، والآخر: أنه يصدق ظنون عباده المؤمنين ولا يخيب آمالهم كقوله: أنا عند ظن عبدى بى، **(وقيل: الموحد نفسه)** بقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤]، فصدق ما نطقت به الكائنات وحكته البراهين من توحيده فى ألوهيته، وهذا كله على أنه من الإيمان بمعنى التصديق، وقوله: **(وقيل: المؤمن عباده)** كلهم مؤمنهم وكافرهم **(فى الدنيا من ظلمه)** لتنزهه عنه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، **(والمؤمنين فى الآخرة من عذابه)** معطوف على قوله عباده مفعول مؤمن بوزن منصف بمعنى معطى الأمان، فعلى هذا هو من الأمن ضد الخوف فهو من صفات الأفعال، وعلى الأول صفة ذاتية لأنه راجع للكلام، ثم بعد ما بين معنى المؤمن شرع فى بيان معنى المهيمن على أنه بمعناه فقال: **(وقيل: المهيمن بمعنى الأمين)** فوزنه مفيعل وهمزته مبدلة فيه هاء، وأصله مؤيمن وميمه الأولى مضمومة زائدة، ومعناه الأمين كما ذكر، وفى بعض النسخ بمعنى الأمن وهو من طغيان القلم إلا أن يراد معنى مادته المأخوذ منها، وهو من أسمائه الواردة فى

(١) البيت من البسيط، وهو للنابغة الذبيانى فى ديوانه (ص٢٥)، خزانة الأدب (٥/٧١، ٧٣)، وبلا نسبة فى شرح المفصل (٣/١١)، خزانة الأدب (٩/٣٨٦).

القرآن والحديث، وأجمعت عليه الأمة، وورد إطلاقه على غيره تعالى كما سيأتى فى بيت العباس، وأطلق على أبى بكر أيضًا، رضى الله عنه، فى قول الشاعر(١):

ألا إن خير الناس بعد نبيه مُهَيْمِنُه التالى على العُرف والنُّكْرِ

ولم ينكره، وقال ابن الحصار: لا نعلم أحدًا سمى به إلا أنه ليس فى الشرع ما يمنعه.

وقوله: **(مصغر منه)** أى مصغر من الأمين، وهو قول ابن قتيبة إلا أنه رد بأنه قول مرغوب عنه؛ لأن أسماء الله تعالى لا يجوز تصغيرها؛ لإيهامه التحقير وإن جاء للتعظيم فى قوله(٢):

دُوَيْهِيَّةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الأَنامِلُ

لأنه جاء فيما يجوز تصغيره، فصغروه تلطفا منهم كما قال وتقدم:

ما قلت حبيبى من التحقير بل يعذب اسم الشخص بالتصغير

وأما أسماؤه تعالى وأسماء أنبيائه، عليهم الصلاة والسلام، فلا يجوز ذلك فيها قطعا، وإنما هو اسم فاعل من هيمن فهو مهيمن، والياء فيه كياء ضيغم وحيدر، وليست للتصغير، وقد جاء فى كلامهم ألفاظ على وزنه كمسيطر ومصيطر ومبيطر وهو البيطار، ويقال له بيطر أيضًا، والمديبر بالموحدة من الإدبار، ومجيمر اسم جبل، وهذا البناء من النوادر غير متصرف، ولم يرد له فعل، فلا يقال هيمن هيمنة، وحكى الخطابى عن بعض أهل اللغة الهيمنة بمعنى القيام على الشىء والرعاية له.

وذكره ابن الأنبارى فى الزاهر، ولغرابته اختلفوا فى معناه على أقوال عشر:

الأول: أنه بمعنى الأمين كما ذكره المصنف، رحمه الله، **(فقلبت الهمزة هاء)** لأنها أخف منها كما قالوا فى أراق هراق، وفى إنك هنك، وقول المصنف أنه مصغر منه أى من مادته ونوعه، وإلا فهو من الأمن مصغر مؤمن، ويجوز أن يعود ضمير منه إلى مؤمن، فليس مراده أنه تصغير أمين كما توهمه عبارته إلا أنه لظهوره لم يوضح عبارته، فلا يرد

(١) البيت من الطويل، وهو بلا نسبة فى لسان العرب (٤٣٧/١٣)، تهذيب اللغة (٣٣٤/٦).

(٢) عجز بيت صدره:

وكل أناس سوف تدخل بينهم

والبيت من الطويل، وهو للبيد بن ربيعة فى ديوانه (ص٢٥٦)، جمهرة اللغة (ص٢٣٢)، خزانة الأدب (١٥٩/٦)، الدرر (٢٨٣/٦)، سمط اللآلى (ص١٩٩)، المعانى الكبير (ص٨٥٩، ١٢٠٦)، مغنى اللبيب (١٣٦/١)، المقاصد النحوية (٨/١)، شرح شواهد المغنى (١٥٠/١)، لسان العرب (١٤/٣)، شرح شواهد الشافية (ص٨٥).

عليه ما قيل أنه سهو منه؛ لأن تصغير أمين أُمَيِّن بضم أوله وتشديد يائه، وجعله شاذا لا داعى إليه، وأسماء الله لا تصغر فياؤه زائدة للتكثير ثم ذكر اسما آخر من هذه المادة، فقال: **(وقد قيل: إن قولهم فى الدعاء آمين)** بالمد وقد يقصر اسم فعل كصه ومه. قال الحسن: معناه استجب أو افعل أو لا تخيب وأَمَّن إذا قال: آمين وقائله مجاهد **(إنه اسم من أسماء الله تعالى)** بدل من قوله إن قولهم قيل أصله على هذا أمين بالقصر مبنى على الفتح وأدخلت عليه همزة النداء وأبدلت الثانية ألفا، ورده ابن قرقول بأنه ليس فى أسماء الله اسم مبنى.

وقال الراغب: عن أبى على أن القائل بذلك أراد أنه فيه ضمير الله؛ لأن معناه استجب، وقيل: إنه عبرانى وقيل سريانى وقيل لا يعلم أصله، **(ومعناه معنى المؤمن)** إذا كان اسما لله؛ ولذا قيل: ينبغى تقديمه على هذا والكلام عليه مفصل فى التفاسير.

والقول الثانى: فى المهيمن ما أشار إليه بقوله **(وقيل: المهيمن بمعنى الشاهد)** أى الحاكم أو الذى يشهد على كل نفس بما كسبت.

وقريب منه **الثالث**، وهو الشهيد.

(و) الرابع (الحافظ) للموجودات عن العدم حتى يريد غيره، أو المحصى لأقوالهم وأفعالهم.

والخامس: أنه بمعنى العلى والمتعالى.

والسادس: الشريف وهو قريب مما قبله.

والسابع: المصدق.

والثامن: الوالى قاله عكرمة.

والتاسع: القاضى قاله ابن الزبير.

والعاشر: الرقيب وفيه كلام فى شرح الأسماء الحسنى للقرطبى، ثم شرع فى ذكر تسمية النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بذلك فقال: **(والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أمين ومهيمن ومؤمن)** أى يسمى بهذه الأسماء الثلاثة التى سمى الله بها، وإن لم تتحد معانيها من كل الوجوه بشهادة حديث: إنى لأمين فى الأرض وأمين فى السماء، وكانت قريش تسميه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قبل البعثة محمد الأمين كما مر وأشار إليه بعد، وسيأتى ذكر المهيمن.

(وقد سماه الله تعالى أمينا فقال: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١]) إن لم نقل المراد به جبريل، عليه الصلاة والسلام، كما تقدم أى مطاع أمره وأمين على وحيه وأسراره.

(وكان يعرف بالأمين وشهرته قبل النبوة وبعدها) بين أهل مكة وطوائف العرب.

والفضل ما شهدت به الأعداء

وهذا مؤيد لما قبله؛ لأن شهرته بذلك بتقدير الله تعالى وإظهاره، فلا يرد عليه أنه بصدد تسمية الله تعالى له، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا الناس حتى يقال: إنه لما أقره ورضى به دل على أنه بإذن الله تعالى، وسمى بالمأمون أيضًا كما مر فى قول كعب حين كتب لأخيه بجير فى حال جهالته:

سقاك بها المأمون كأسا روية   فأنهلك المأمون منها وعلكا

فلما سمعها، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: مأمون. إن شاء الله إن لم نقل: المراد به أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، ثم بين تسميته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالمهيمن بقوله: **(وسماه العباس)** بن عبد المطلب عمه، عليه السلام، **(فى شعره مهيمنا فى قوله)** فى الشعر الذى قدمناه مع شرحه.

(ثم اغتدى بيتك المهيمن من   خندف علياء تحتها النطق)

وتقدم شرحه فانظره.

(وقيل: المراد يا أيها المهيمن)، ولولا هذا لم يكن اسما، ومَرَّضَهُ المصنف، رحمه الله تعالى، وتبرأ منه بعزوه لقائله بقوله: **(قاله القتيبى)** عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى البغدادى الإمام المشهور نسبة لقتيبة جده، توفى سنة ست وسبعين ومائتين وتآليفه كثيرة، **(والإمام أبو القاسم القشيرى)** عبد الكريم بن هوازن منسوب لقشير قبيلته، وإنما مرضه؛ لأنه تكلف ضعيف؛ لأن المعرف بأل لا ينادى وتقدير أيها مع تقدير حرف النداء لا يرتضيه نحوى، وأثقل من هذا ما قيل: إن البيت هنا بمعنى العز والشرف كما فى قوله:

إن الذى سمك السماء بنى لنا   بيتا دعائمه أعز وأطول[1]

وإذا أعزه وشرفه بالمهيمن كان صفة له على أبلغ وجه؛ لأنه صفة الصفة صفة، ومثل هذه الدقة لا يتحملها الكلام، فإنه زهرة لا تحتمل الفرك.

(وقال تعالى) فى وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأنه مؤمن أى مصدق (**﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، أى يصدق**)؛ لعلمه بخلوصهم، واللام لتضمينه معنى يذعن ويسلم أو مزيدة، والآية نزلت فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما قالوا فى حقه أمرا منكرا، وقالوا: إذا بلغه ذلك نحلف ونعتذر؛ فإنه أذن أى يصدق بكل ما

(١) تقدم الاستشهاد به.

يسمعه، فقال تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ﴾ [التوبة: ٦١]، إلخ.

(وقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: أنا أمنة لأصحابى) هذا طرف من حديث «النجوم أمنة فى السماء فإذا ذهبت أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابى فإذا ذهبت أتى أصحابى ما يوعدون، وأصحابى أمنة لأمتى فإذا ذهب أصحابى أتى أمتى ما يوعدون». يعنى أن النجوم إذا رفعت قرب وقت فنائها وانشقاقها؛ ولذا كثر سقوطها عند بعثته، صلى الله تعالى عليه وسلم، إشارة إلى قرب الساعة، فهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، أمان لأصحابه، رضى الله تعالى عنهم، من وقوع بأسهم بينهم ووقوع الفتن، فإذا توفاه الله ابتدأ وقوع ذلك كقصة عثمان، وعلى، والحسين، وأصحابه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أمان للناس من ظهور الفساد فى البر والبحر؛ فإذا ذهبوا بدأ ظهور ذلك، وأمنة بفتح الهمزة وضمها مصدر بمعنى الأمان، أو بزنة المبالغة كرجل عدل فيقع على الواحد وغيره.

قال الراغب: يقال رجل أمنة وآمنة يثق بكل أحد، وأمين ويؤمن به انتهى.

ونحوه فى الأساس، وكونه جمع أمين وهوالحافظ خلاف الظاهر للإخبار به عن الواحد، وإنما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، تأييدا لما قبله لأنه خارج عما هو بصدده من ذكر تسميته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأسماء الله إذ ليس من هذا القبيل.

(ومن أسمائه تعالى) التى أطلقت عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، **(القدوس)** مبالغة من القدس وهو الطهارة والنزاهة باتفاق أهل اللغة، وهو بضم القاف فى الأشهر، وإن كان الأقيس فتحها وهو لغة فيه، وقرئ بها وكل اسم على فعول مفتوح الأول كتنور وسمور إلا السبوح والقدوس، ومنه القدس بفتحتين للسطل، والعامة تقول له قادوس، وظاهر كلام القرطبى فى شرح الأسماء الحسنى أنه سمع والمشهور خلافه.

(ومعناه المنزه عن النقائص المطهر عن سمات الحدوث) أى علاماته وآثاره، فلا يتصف بشىء منها، **(وسمى بيت المقدس به)** أى من هذه المادة بالمعنى المذكور بيت المقدس مخفف بزنة مرجع اسم مكان، أو مصدر ميمى من القدس وهو الطهر، وجاء فيه ضم الميم وفتح القاف والدال المشددة من التقديس وهو التطهير، وجاء بكسر الدال المشددة اسم فاعل، ويقال له: البيت المقدس بالتوصيف، والأشهر الإضافة قاله الكرمانى وقد تقدم.

(لأنه يتطهر فيه من الذنوب) بزيارته والعبادة فيه، وروى النسائى بإسناد صحيح عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، «أن سليمان بن داود، عليهما الصلاة والسلام، لما بنى

بيت المقدس سأل الله تعالى خلالاً ثلاثا: حكما يصادف حكمة، وملكا لا ينبغى لأحد من بعده، وأن لا يأتى بيت المقدس أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه، فأعطى جميع ذلك»(١) انتهى؛ ولـذا تشد إليه المطى كما تشد إلى الكعبة ومسجد النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(**ومنه الوادى المقدس**) المسمى طوى، وهو واد بالشام كلم الله فيه موسى، عليه الصلاة والسلام، سمى به؛ لأن الله تعالى قدسه وشرفه بظهور كلامه فيه، وهو من الأرض المقدسة أيضًا، فهو مطهر مبارك وقد فسر المقدس بالمبارك أيضًا.

(و) منه (**روح القدس**) بضمتين وضم فسكون كما مر، وهو جبريل، عليه الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢]، لنزوله بما يطهر النفوس من القرآن والحكمة والفيض الإلهى، وهذا هو الأصح، وفيه وجوه أخر.

(**ووقع فى**) بعض (**كتب الأنبياء**) المنزلة من عند الله تعالى عليهم (**فى أسمائه، عليه الصلاة والسلام، المقدس**) هذا هو الصحيح، وما فى بعض النسخ من أنه القدوس من غلط الناسخ، فإنه لا يجوز أن يقال فى حق مخلوق القدوس مطلقا (**أى المطهر من الذنوب**)؛ لعصمة الله تعالى له، صلى الله تعالى عليه وسلم، من التدنس بها ومغفرتها لو فرض وقوع شىء منها يسمى ذنبا بالنسبة له، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**كما قال الله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]**)، وقيل: المراد ما تقدم من ذنوب أمتك وما تأخر منها كما سيأتى بيانه، وخوطب لأنه سبب المغفرة.

(**أو الذى يتطهر به من الذنوب ويتنزه**) ببناء المجهول فيهما، والتنزه البعد؛ ولذا أخره لإشعار التطهير بالوقوع، وقوله: (**باتباعه عنها**) متعلق بيتنزه، والباء سببية؛ لأن من اتبعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، واتبع شرعه المطهر لا يرتكب الذنوب، وإن ارتكبها غفرت ببركته، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**كما قال**) الله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ**﴾ [الجمعة: ٢]، يطهرهم من الشرك وخبائث الجاهلية، ويعلمهم ما يكفهم عن الآثام.

(**وقال: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [المائدة: ١٦]**) أى من الكفر والمعاصى إلى الإيمان وتقوى الله وطاعته بإرشادهم وتوفيق الله لهم ببركته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ففيه استعارة تصريحية، (**أو يكون مقدسا**) الموصوف به النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**بمعنى مطهرا من الأخلاق الذميمة**) بالمعجمة أى المذمومة،

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (١٧٦/٢)، والنسائى فى المساجد باب (٦).

(والأصاوف الدنية) الحقيرة التى لا تليق بجنابه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى الشرح الجديد هنا ما تركه خير منه.

(ومن أسمائه تعالى العزيز، ومعناه الممتنع) الذى لا ينال ولا يدرك، والعرب تقول: حصن عزيز إذا كان لا يوصل إليه قال الهذلى فى العقاب(1):

حتى انتهيت إلى فِراش عزيزة سوداء رَوْثة أنفها كالمخصف

كذا قال القرطبى نقلاً فى شرح الأسماء الحسنى، وهذه صفة ذاتية، وقوله: **(الغالب)** القاهر من صفات الأفعال، فكان ينبغى له أن يقول: أو الغالب لأنه معنى آخر صرحوا به فى شرح أسماء الله، والجمع بينهما على أنه مركب من نعت حقيقى ونعت تنزيهى كما قيل خلط وخبط يعرفه من نظر شرح القرطبى لأسماء الله الحسنى، ثم إن إطلاق الغالب على الله لم يأت فى عداد الأسماء، وورد فى قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]، أى الفعال فى مخلوقاته ما يريده أحبوا أو كرهوا، وفى التنزيل: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال الحاكم: الغالب والطالب جرت عادتهم باستعمالهما فى اليمين أى الممتنع أى الممهل؛ فإنه يمهل ولا يهمل، وهو على الإمهال بالغ أمره ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

(أو الذى لا نظير له) هذا معنى آخر. قال الخطابى: العزة تكون بمعنى نفاسة القدر. يقال منه: عز يعز بكسر العين، فيتناول معنى العزيز على هذا أنه لا يعادله شىء، وأنه لا مثل له انتهى.

وبما سمعته من تفسير العزيز ظهر أن ما قيل إنما انحصر فى فرد كالشمس والقمر داخل فيه، فيحتاج لزيادة قيود أخر ليس بشىء، **(أو المعز لغيره)**، فهو فعيل بمعنى مفعل، وهو عزيز فى العربية؛ ولذا أخره المصنف يعنى به إنه لا عزيز إلا من أعزه، فالعزة له وبيده لا بيد غيره؛ ولذا صح الاستشهاد له بقوله: **(وقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: ٨])**، صلى الله تعالى عليه وسلم، والآية نزلت فى حق المنافق ابن أبى بن سلول حيث قال: ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ [المنافقون: ٨]، يعنى بالأعز نفسه، وبالأذل المسلمين، فرده الله عليه على طريق القول بالموجب، ثم نفاها عنه بتقديم الخبر هنا، فلا يتوهم أن انحصار العزة فى الله لا يقتضى أنه معز بل معزز بالفتح، وقد

(١) البيت من الكامل، وهو لأبى كبير الهذلى فى شرح أشعار الهذليين (ص١٠٨٩)، لسان العرب (١٥٧/٢) (روث)، (٣٧٥/٥) (عزز)، (٣٢٧/٦) (فرش)، تهذيب اللغة (١٤٧/٧)، تاج العروس (٢٦٩/٥)، مقاييس اللغة (١٨٦/٢)، المخصص (٢٩/١)، أساس البلاغة (خصف).

جوز فى الاسم الشريف أن يكون المعزز المعظم، وقد يقال: يكفى فى كونه معزا إثبات العزة للرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، والمؤمنين، وأنه محل الاستشهاد **(أى الامتناع وجلالة القدر)** معطوف على ما قبله؛ لأنه بمعنى العزة عدم النظير وتقديره، وبزيادة المصنف لما ذكر اندفع ما تقدم أيضا.

وقال الغزالى: العزيز من العباد من يحتاج إليه فى المهم، وهو الحياة الأخروية، وهو مما يعز وجوده، وهو مرتبة الأنبياء والخلفاء وورثتهم من العلماء المرشدين وذوى العدالة من الحكام؛ ثم ذكر اسما للرسول ووصفه بها الله لا على طريق الاسمية فقال: **(وقد وصف الله تعالى نفسه بالبشارة والنذارة)** الأول بكسر أوله والثانى بفتحه، والبشارة الخبر السار سمى به؛ لأنه يؤثر فى بشرة الوجه، ولذا لو قال لعبيده: من بشرنى بقدوم زيد فهو حر فبشروه على ترتيب عتق الأول، ولو قال: من أخبرنى عتق الجميع كما مر، والنذارة الإعلام بما فيه وعظ وتخويف، وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، تهكم كما مر **(فقال:** ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: **٢١**]، **وقال:** ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ **[آل عمران: ٣٩]**)، و﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥]، ومن يكتفى بوجود المادة يجوز أن يسمى الله مبشرا ومنذرا، ومثله يكفى فى كونه توقيفيا، والأشعرى، رحمه الله تعالى، يقول: لابد من وروده بعينه.

(وسماه الله تعالى: مبشرًا ونذير أو بشيرًا أى مبشرًا لأهل طاعته) بما يسرهم فى الدنيا والآخرة، **(ونذيرًا لأهل معصيته)** بما يسوءهم من العقاب ونحوه.

(ومن أسمائه تعالى فيما ذكره بعض المفسرين طه ويس وقد ذكر بعضهم أنهما من أسماء محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم)، وشرف وكرم وتقدم الكلام عليه مفصلا فلا حاجة لإعادته.

(تنبيه) فى فتاوى السبكى، رحمه الله تعالى، فى قوله تعالى فى سورة الإسراء: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، أن الضمير فى قوله: إنه يعود على الله تعالى، وقد ورد فى أربعة مواضع من القرآن، وقال بعضهم: إن الضمير هنا يعود على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيكون هذان الاسمان من أسمائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومعنى وصفه بهما أنه الكامل فى السمع والبصر اللذين يدرك بهما الآيات التى يريه إياها، وهو نذير والإنذار بالعقل وأعظم الحواس الموصلة إلى العقل السمع والبصر، فعلى هذا وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بذلك لأنه لا أحد أكمل منه فى الإنذار والاستدلال انتهى.

أقول: يعنى أن وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بهما هنا على هذا وقع بطريق الحصر المستفاد من تعريف الطرفين، وسيق للمدح وهو أمر عام، ففسره بما يخصصه به ويصيره مدحا له، ولا حاجة لهذا مع بعده؛ فإنه قد تبين توجيه أظهر منه وهو السميع لكلام الله تعالى من غير واسطة، والناظر إلى نور جماله وجلاله بعين بصره، وهذا مما اختص به، صلى الله تعالى عليه وسلم.

* * *

(فصل قال القاضى أبو الفضل)

عياض المؤلف (**رضى الله عنه: وهاهنا نكتة**)، وفى نسخة وها أنا أذكر نكتة، وها حرف تنبيه والأكثر وقوع اسم الإشارة خبرا عن المبتدأ الواقع بعدها نحو ها أنا ذا أقول، وقد لايؤتى به كما صرحوا به، فمن ظنه لازما واعترض على المصنف، رحمه الله تعالى، لم يصب والنكتة بضم أولها وفتح المثناة الفوقية هى الأمر الدقيق المحتاج إلى فكر وتأمل؛ سميت بها لأن صاحبها كثيرا ما يبحث فى الأرض بقضيب ونحوه وهو بمعنى النكت لغة.

(**أذيل بها هذا الفصل**) أى أختمه بها وأطوله، فيكون كذيل الثوب الذى يطول به، وفى حديث مصعب بن عمير، رضى الله تعالى عنه، أنه كان فى الجاهلية مترفا يدهن بالعنبر، ويذيل يمنة اليمن أى يطيل ذيلها، واليمنة برد من برود اليمن، ففيه استعارة تصريحية تبعية، وإليه أشار بقوله: (**وأختم به هذا القسم**) الذى فيه ذكر الأسماء، (**وأزيح الإشكال بها فيما تقدم**) أى أزيل ما يشكل على سامعه (**عن كل ضعيف الوهم**)، قيل: المراد بالوهم الذهن والإدراك لا القوة الواهمة المعارضة للعقل؛ فإن ضعفها بقوة العقل المزيل للأوهام والإشكال، فقوله (**سقيم الفهم**) كالتفسير له، وسقمه بمعنى قلته، فهو استعارة وتعبيره فى الأول بالضعف، وفى هذا بالسقم تفنن حسن، والوهم بسكون الهاء وفتحها.

(**تخلصه من مهاوى التشبيه**) بكسر الواو جمع مهواة، وهى كالهاوية الحفرة العميقة التى من يقع فيها يصعب طلوعه، ومن إضافة المشبه للمشبه به كلجين الماء وهى تخييلية ومكنية، والمراد بالتشبيه تشبيه الله وصفاته بغيرها؛ لأن إطلاق بعض الأسماء على الله وعلى غيره يقتضى ذلك.

(**وتزحزحه**) أى تزيله وتبعده قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، (**عن شبه التمويه**) أى الشبه بزنة غرر جمع شبهة، وهو ما يلتبس، وأصله مالا يتميز عن غيره لما بينهما من التشابه والتمويه من الماء، والمراد به زخرفة الكلام الذى لا

حقيقة له وتحسينه حتى يروج على من لا علم عنده، وهو استعارة قال فى الأساس: سرج مموه مطلى بالذهب أو الفضة، وحديث مموه مزخرف، وما أحسن موهة وجهه بهاؤه ورونقه انتهى.

وإنما سمى تمويها لأنه يذاب حتى يصير كالماء، ويقال: موه عليه الخبر أخبره بخلاف ما سأله عنه.

(وهو) عائد على ما يفهم مما تقدم، وهو ما يزيل الإشكال ويزيح الأوهام، والعجب ممن أعاده على ضعيف الوهم وسقيم الفهم **(أن يعتقد أن الله جل اسمه)** أى عظم وتنزه عن الإلحاد فى أسمائه بالتأويلات الباطلة، ولقد أصاب قوله هنا جل اسمه محزه وطبق مفصله **(فى عظمته وكبريائه)** الكبرياء الترفع عن الانقياد، والعظمة جلالة ذاته فى نفسها، ولظهور الأولى ورد فى الحديث: «الكبرياء ردائى والعظمة إزارى من نازعنى فى شىء منهما قصمته»[1]، والفرق بينهما فيه تفصيل ليس هذا محله، والجار والمجرور متعلق بما سيأتى من قوله: لا يشبه إلى آخره، وقيل: إنه حال لازمة من ضمير اسمه أى متصفا بهما وبما بعدهما، وكنى بالظرفية عن تمكنه فيهما من غير تصور ظرفية واستقرار، ففيه استعارة تبعية أو هو ظرف مستقر كأنه لتمكنه وانفراده بأعلى مراتبهما فيهما انتهى. وفيه تكلف.

(وملكوته) أى عظم وعز سلطانه، وهى كما مر صيغة مبالغة من الملك كالجبروت، وقد يقابل بالملك فيراد به عالم الغيب، وبالملك عالم الشهادة، وكلا المعنيين صحيح هنا.

(وحُسنى أسمائه) أى أسماؤه الحسنى، ووصفت بالحسنى لدلالتها على أحسن المعانى وأمدحها، فهى صفة كاشفة لا مخصصة، ومنها ما يختص به كالخالق، وما يطلق عليه وعلى غيره، ولها تقاسيم أخر.

(وعلى صفاته) بضم العين وفتح اللام مقصور جمع عليا، وهى الشريفة الرفيعة، وروى عَلِيّ بفتح العين، وكسر اللام، وتشديد الياء وهما بمعنى **(لا تشبه شيئا من مخلوقاته)** بالتاء الفوقية أى المذكورات من لفظ العظمة وما بعده، وهو خبر أن وما بعده متعلق به أو حال مما قبله وليس معترضا كما قيل.

(ولا تشبه به) مبنى للمجهول بضم الفوقية مشدد الباء الموحدة ويجوز ضبطهما بالتحتية أى معانى أسمائه وصفاته لا تشابه غيرها بوجه من الوجوه، لقدمها وكونها على أعظم رتبة لا يصل إليها غيرها، وهو جواب عن سؤال وشبهة نشأت مما تقدم.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٤١٤)، وابن حبان (٤٩)، والحميدى (١١٤٩).

تقديره أن بعض أسمائه تعالى أطلق على نبيه ﷺ وغيره، فيلزم مشاركة عبيده له فيها كما قال، **(وأن ما جاء)** من أسمائه تعالى **(مما أطلقه الشرع)** فى القرآن والأحاديث والكتب الإلهية **(على الخالق وعلى المخلوق)** كشكور وحفيظ وغيره مما تقدم، وأعاد الجار إشارة إلى تغايرهما وإن اتحد لفظهما، **(فلا تشابه بينهما فى المعنى الحقيقى)** الذى هو مأخذ الاشتقاق من الشكر والحفظ.

قال العلامة ابن القيم فى كتابه بدائع الفوائد: أسماؤه تعالى التى تطلق عليه وعلى غيره كسميع، هل هى حقيقة فيه مجاز فى غيره؟ أو مجاز فيه حقيقة فى غيره؟ أو حقيقة فيهما؟ ثلاثة أقوال، والأسماء الحسنى منها ما هو علم وصفة، والوصف فيها لاينافى العلمية بخلاف العباد، فإنها مشتركة انتهى.

وهو كلام مشكل فإن منها ما هو حقيقة قطعًا كالإله والخالق، ومنها ما هو مجاز كالرحيم فإن الرحمة رقة القلب، وقد صرحوا بأنه أطلق عليه باعتبار غايته إلا أن يقال إنه حقيقة شرعية، فإن تغايرها باعتبار الصفات كالقدم والحدوث لا يستلزم اشتراكها بل كونها مقولة بالتشكيك، فقوله: **(إذ صفات القديم بخلاف صفات المخلوق)** لا يتم دليلا على مدعاه، **(فكما أن ذاته لا تشبه الذوات)** أى حقيقته ونفسه ومن ذهب إلى أن الذات لم ترد بهذا المعنى ينكر دخول أل عليه إلا أن الظاهر صحته، ويشهد له قولهم الذوين لملوك اليمن، وقوله تعالى ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٨]، **(فكذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين)**، وكون ذاته لا تشبه شيئا من الذوات هو الحق الذى ذهب إليه الأشعرى وغيره من المتكلمين، خلافا لمن ذهب إلى أنها تشبه غيرها فى الحقيقة، وإن امتازت بالوجوب والألوهية وغيرهما وتفصيله فى الكتب الكلامية.

واعلم أن فى إطلاق لفظ الذات على الله تعالى شرعا ولغة خلاف، فقيل: إنه غير صحيح لأنه مؤنث ذو ودخول أل عليه غير صحيح لغة، وقال السهيلى: ذهب كثير إلى إطلاقها عليه وجواز تعريفها؛ لأنها بمعنى النفس والتأنيث غير مراد، فيقولون: ذات البارى بمعنى حقيقته ويحتجون بما ورد فى الحديث الصحيح: ثلاث كذبات فى ذات الله تعالى، وقول خبيب، رضى الله تعالى عنه[1]:

وذلك فى ذات الإله وإن يشأ   يُبَارِكْ على أوصال شِلْوٍ مُمَزَّعِ

وقد أثبت ذلك البخارى وأحمد فى مسنده.

---

(١) البيت من الطويل، وهو لخبيب فى لسان العرب (٣٣٦/٨) (مزع)، تهذيب اللغة (١٦١/٢)، تاج العروس (١٩٩/٢٢) (مزع)، وبلا نسبة فى المخصص (١٦٧/٦).

وقال ابن القيم، وابن قدامة: ليست هذه اللفظة كما زعموا فى اللغة والشرع بالاستقراء، ولم يرد إلا مجرورًا بفى والظرفيه غير صحيحة، فهى صفة لمؤنث مقدر، ومعناها طاعة الله وشريعته كما قال النابغة(١):

مَجَلَّتُهُم ذات الإله ودينهم

ومن فسره بغير ذلك فقد وهم فتدبر.

(إذ صفاتهم لا تنفك عن الأعراض والأغراض) الأول بعين مهملة، والثانى بغين معجمة أو العكس، ثم راء مهملة وضاد معجمة فيهما، فالأول جمع عرض بفتحتين وهو ما يقابل الجوهر أى لا يقوم بذاته، أو بمعنى كالمرض ويكون بمعناه أيضا، لأن ما يعرض للبدن إن استمر فهو مرض عند الأطباء وإلا فعرض، ويطلق كل منها على الآخر، والثانى هو الأمر الباعث على وجود الفعل وإيجاده، وهذا تعليل لكون ذات الله تعالى وما تعلق بها لا يشبه شيئًا من المخلوقات؛ فإن الخلق وصفاتهم لا تنفك أى لا تفارق الأعراض، والله تعالى منزه عن الأعراض المحسوسة والكيفيات النفسانية؛ لأنها تابعة للمزاج المستلزم للتركيب المستلزم للحدوث المنافى لوجوب الوجود الذاتى خلافا للحكماء والكرامية، وأفعاله تعالى لا تعلل بأغراض، وإن كان لها ثمرات وحكم كثيرة جليلة، وهى تسمى غرضا أيضا ولكنه ليس محل خلاف، وذهب النسفى وبعض المحققين إلى جوازه، والخلاف فيه لفظى فإن العرض إن كان ما يستكمل به الفاعل ويحتاج إليه فهو منفى عنه، وإلا فيجوز إثباته له خلافا للحكماء، وليس هذا محل بسط الكلام فيه وفى كلامه تجنيس.

(وهو تعالى منزه عن ذلك)، فلا يحل به عرض، ولا يفعل لغرض، **(بل لم يزل)** موجودا أزلا وأبدا **(بصفاته وأسمائه)** الدالة على ذاته وصفاته، فهى قديمة. أما صفاته الذاتية فلا كلام فى قدمها، ومنها ما هو عينه، ومنها ما هو غيره، أو لا عينه ولا غيره عند الأشعرى. وأما صفات الأفعال كالإحياء والإماتة والخلق، فاختلف فيها فقيل: إنها قديمة والحادث تعلقها عند الماتريدية، والمصنف، رحمه الله تعالى، تبعهم هنا، وقيل: إنها حادثة إذ هى إضافات تعرض له ولا محذور فيه كما حققه المتكلمون، وصفاته السلبية قديمة أيضا، وأسماؤه على ما ذكره قديمة أيضا؛ لأنه تعالى سمى نفسه بها فى كلامه وهذا بناء على قدم الكلام اللفظى، وهو مذهب السلف وبعض الخلف كالشهرستانى.

(١) البيت من الطويل، وهو للنابغة الذبيانى فى ديوانه (ص٤٧)، لسان العرب (١٢٠/١١)، كتاب العين (١٤١/٦)، تهذيب اللغة (٤٨٨/١٠)، جمهرة اللغة (ص٩١، ٤٩٢)، المعانى الكبير (ص٥٤٩)، تاج العروس (حلّ) (حلّ)، وبلا نسبة فى الاشتقاق (ص٣١٤).

(وكفى بهذا) أى يكفى فى إثبات ذاته وصفاته وأسمائه لا يشبه شىء فيها **(قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١])**، فإنه صريح فيه سواء قلنا إن مثله كناية عن ذاته كقولهم مثلك لا يبخل والكاف غير زائده، أو قلنا إنها زائدة، وقيل: الفرق بين مثله وكمثله أن الأول يدل على المشابهة من سائر الوجوه، وكمثله يدل على المشابهة بوجه ما.

(ولله در من قال من العلماء العارفين المحققين) الدر بفتح الدال وتشديد الراء المهملتين أصل معناه اللبن الحليب، ويتجوز به عن الخير والعمل الصالح، واللام فى لله للتعجب، وكذا يستعملوه فيقال: لله دره للثناء عليه والتعجب من محاسنه، ولم يقولوا لله هو لأنه أبلغ بمراتب لتعجبهم من لبن ارتضعه كما يقال لله أبوه وبلده، وأضافوه لله إشارة إلى أنه لا يقدر عليه سواه، وأراد بالعارفين مشايخ الصوفية لما سيحكيه عنهم، فإن العارف مختص فى العرف بأولياء الله تعالى.

(التوحيد إثبات ذات)، وهى ذات الله تعالى **(غير مشبهة للذوات)** جميعها بوجه من الوجوه، **(ولا معطلة من الصفات)** أصل معنى العطل فقد الزينة والشغل، والمراد به النفى هنا أى غير منفى عنها الصفات كما يقوله المعتزلة، هربا من تعدد القدماء، والمحذور تعدد ذوات قدماء لا ذات وصفات، وفيه تشبيه للصفات بالزينة.

(وزاد هذه النكتة)، وهى معنى التوحيد الذى قاله المشايخ **(الواسطى)** تقدمت ترجمته **(بيانا وهى)** أى الزيادة التى زادها فهو عائد على ما فهم مما قبله **(مقصودنا)**، لدلالتها على ما عقد له هذا الفصل، **(فقال: ليس كذاته ذات)** أى ليس كحقيقته حقيقة، فلا يشاركه بوجه من الوجوه إذ لو شاركته لزم أمر آخر يميز ذاته عن ذات غيره، وإلا لاتحدا وهذا يستلزم التركيب والحدوث.

(ولا كاسمه اسم) أى لا يشبه مدلول اسمه مدلول آخر كما مر.

(ولا كفعله فعل)؛ لأنه فى غاية الكمال والإتقان، وليس لغرض ولا عرضا كما مر.

(ولا كصفته صفة)؛ لأنها عظيمة قديمة وغيرها ليس كذلك **(إلا من جهة موافقة اللفظ اللفظ)** فى بعضها كسميع وبصير وحى، فمثل ذلك فى حقه ليس مثله فى غيره، وإن كان اللفظ متحدًا لمناسبة ما ثم وضحه، فقال: **(وجلت الذات القديمة)** أى عظمت وتعالت وتنزهت عن **(أن تكون لها صفة حديثة)** أى محدثة موجودة بعد العدم؛ لأنها إن كانت صفة كمال لزم خلو الذات عنها قبل وجودها، وهو نقص لا يليق بكماله، وإلا استحال اتصافه بها، وهذا مبنى على قدم صفات الأفعال كما تقدم، **(كما استحال أن**

تكون للذات المحدثة صفة قديمة) لامتناع وجود صفة قبل موصوفها، **(وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة)** الماتريدية، فالجماعة إذا أطلق، فالمراد به هؤلاء دون غيرهم من الفرق الضالة المضلة.

(وقد فسر الإمام أبو القاسم القشيرى) تقدمت ترجمته **(قوله هذا)** أى قول الواسطى السابق؛ **(ليزيده بيانا)** وإيضاحا على إيضاح، **(فقال: هذه الحكاية)** أى المحكى المنقول عن الواسطى **(تشتمل)**، وفى نسخة: اشتملت **(على جوامع)** أى أمور جامعة مستوفية **(مسائل التوحيد)**، وهو اعتقاد أن الله تعالى واحد فى ذاته وصفاته لا مثل له ولا ضد ولا ند، ولا شريك له فى ألوهيته واستحقاقه للعباده، **(وكيف تشبه ذاته ذات المحدثات؟)** بفتح الدال المهملة أى الأمور الحادثة **(وهى بوجودها مستغنية)** مستقلة غير محتاجة ومستندة لغيرها؛ لوجوب وجودها وكونه عين ذاتها، وإلا كانت ممكنة، **(وكيف يشبه فعله فعل الخلق)**؟ فى حقيقته ولوازمه وكماله، **(وهو)** أى فعله **(لغير جلب)** بفتح الجيم وسكون اللام وفتحها وباء موحدة، وهو التحصيل وأصل معناه السوق **(أنس)** أى استئناس ودفع وحشة؛ لاستغنائه عن الأنيس والجليس **(أو دفع نقص حصل)** أى ليس شىء من أفعاله لنفع له، بل كله لنفع عباده فإنه الغنى المطلق، **(ولا بخواطر وأغراض)**، والباء سببية وفى نسخة لخواطر باللام التعليلية، وأغراض بغين معجمة أى ليس شىء من أفعاله تعالى لخواطر يطرأ عليها وباعث يدعوه لفعله كما تقدم، وفى نسخة ولا بجواهر وأعراض بالمهملة، والصحيح رواية ومعنى الأول، وهذا تحريف من النساخ، وإن احتمل رجوع الجواهر لذاته والأعراض لأفعاله على ما فيه.

وقوله: **(وجد)** ماض للمجهول كما قاله البرهان، ووقع فى مقابلة قوله حصل أى ليس لدفع نقص حاصل ولا لخاطر وغرض موجود، وفى بعض الشروح بكسر الجيم وتشديد الدال، أى ليس فعله باجتهاد وجد منه، والذى غره قوله **(ولا بمباشرة ومعالجة)** إلا أن قوله **(ظهر)** يأباه، فإن الأفعال الثلاثة فيها ضمير عائد على الفعل؛ فإن معناه ليس فعله لدفع نقص حصل له أو لخاطر وغرض وجد فى نفسه، ولا نكد ظهر وقت فعله، وقد وقع كل من الأفعال الثلاثة فى محله، فوصف النقص يحصل لأنه طار عليه، ووصف الخاطر بأنه وجد بغتة فى نفسه كما هو شأنه، كما أن شأن المباشرة كونها محسوسة، فهذا ناش من عدم تأمل كلامه.

والمباشرة: فعل الشىء بنفسه ومزاولته بجوارحه، والفعل ضربان بمباشرة وتولد، كأنه يمس بشرته وظاهر بدنه، والمعالجة المباشرة بجد وقوة، يقال: اعتلجوا إذا اقتتلوا أى ليس فعله كفعل غيره بعلاج وإعمال، وإنما هو إرادته من غير شىء من ذلك. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ

﴿إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

(وفعل الخلق لا يخرج عن هذه الوجوه) المذكورة من جلب نفع ودفع ضر وأعراض ومباشرة ومعالجة.

(و) قال آخر **(من مشايخنا)** جمع شيخ، والشيخ من كبر سنه وفى العرف من تصدر للإفادة، لأنه إنما يحصل باتفاق العمر، وله جموع منها مشايخ على الأصح، وقال بعض أهل اللغة إنه لا أصل له، ولم يسمع فى كلام العرب، ورد بأنه سمع كما فى شرح الفصيح.

(ما توهمتموه بأوهامكم) أى كل شىء واقع فى أوهام الناس أنه حقيقة البارى ليس كما توهمتموه، **(أو أدركتموه بعقولكم)** أى تصورتموه وعلمته عقولكم، **(فهو محدث مثلكم)**؛ لأن الأوهام والعقول مألوفة بإدراك ما تشاهده، فتظن أن الله تعالى جل وعلا مثله، وتقيس الغائب على الشاهد، والله تعالى أجل من أن يحيط به إدراك المدرك للأمور المحدودة المتناهية، وهو تعالى منزه عما يليق به مما ألفته النفس من المدركات، وليس المراد أنه لا تدرك ذاته وصفاته بوجه ما، فإنه معلوم بالنظر الصحيح والبراهين القاطعة، فالمراد أنه لا يدرك كنه ذاته وصفاته ومسمى أسمائه بكنهه، ولم نكلف بهذا، وإنما كلفنا بمعرفة ذاته وصفاته ووحدانيته، وأنه لارب ولا معبود سواه.

(وقال الإمام أبو المعالى الجوينى) إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجوينى النيسابورى أبو المعالى إمام الأئمة عربا وعجما فريد دهره نخبة الفلك ونكتة عطارد صاحب الفضائل والتآليف الجليلة، ولد ثانى عشر المحرم سنة تسع وعشرة وأربعمائة فى خامس وعشرين من ربيع الثانى، وجوين بضم الجيم من نواحى نيسابور، وهو شيخ الغزالى ومفخره **(من اطمأن)** بطاء مهملة ساكنة، وميم وهمزة مفتوحة، ونون مشددة بمعنى سكن بعد انزعاج، أى تقرر وتيقن عنده بعد الشك والشبه **(إلى موجود انتهى إليه فكره)** أى تيقن أمرا موجودًا على وجه معين ارتسم فى ذهنه أنه، **(فهو مشبه)** أى معتقد لتشبيه الله تعالى بغيره مما فى خزانة فكره، وهو خطأ لأنه ليس كمثله شىء، وفكره إنما هو مدركاته المشاهدة فيأتيه التشبيه منها، واحترز بقوله: اطمأن عن الوسوسة فإنها ليست بتشبيه لعدم ركون النفس لها.

(ومن اطمأن إلى النفى المحض) الخالص بأن نفى ذات البارى حقيقة أو حكما كالفلاسفة القائلين: لا يصدر عن الواحد بالذات إلا واحد، **(فهو معطل)** ناف للصانع، وهم الدهرية القائلون بالطبائع إلى غير ذلك مما لا يصدر عن عاقل، **(وإن قطع)** أى جزم

(بموجود) إله واجب الوجود **(اعترف بالعجز عن درك حقيقته)** بسكون الراء وقد تفتح أصل معناه اللحوق، ثم صار بمعنى العلم كالإدراك لوصول العقل إليه، أى عجز عن علم بكنهه، **(فهو موحد)**؛ لأنه عرف الله ووحده واعترف بأنه لا يقدر على معرفته بكنهه، وهو التوحيد الصرف. قال الراغب: وروى عن أبى بكر، رضى الله عنه: أنه قال: يا من غاية معرفته العجز عن معرفته إذ كان غاية معرفته أن يعرف الأشياء، فيعلم أنه ليس شىء منه ولا بمثله، بل هو موجد كل ما أدركته انتهى.

(وما أحسن قول ذى النون المصرى) الزاهد العارف بالله تعالى أبو الفيض، ويقال أبو الفياض، واسمه ثوبان بن إبراهيم الأخميمى، كان أبوه نوبيا توفى، رحمه الله تعالى، سنة خمس وأربعين ومائتين، وكان عالما بالعلوم والخطوط القديمة، وحدث أنه قرأ من خط قديم:

تدبر بالنجوم ولست تدرى   ورب النجم يفعل ما يشاء

وله ترجمة فى الميزان.

(حقيقة التوحيد أن تعلم أن قدرة الله فى الأشياء) أى فى إيجادها وإبداعها **(بلا علاج)** أى بلا معالجة ومكابدة واستعمال آلة.

(و) تعلم أن **(صنعه لها بلا مزاج)** المزاج لغة كالمزج الخلط، وما ركب عليه البدن من الطبائع، وعند الأطباء كيفية له من العناصر المتماسة بحيث يكسر سورة كل منهما سورة الآخرة، وهو بالمركبات العنصرية، والمراد أن إيجاده لها لا يحتاج إلى مادة ومعاونة تركبه منها، بل قدرته تعالى العلية أوجدته ابتداء من العدم بعد أن لم تكن بمجرد قوله: كن فيكون، فلا يحتاج إلى شىء من العلل الأربع كما أشار إليه بقوله: **(وعلة كل شىء صنعه)** بمجرده ومجرد قدرته، **(ولا علة لصنعه)** تعينه فى إيجاده إذ أفعاله تعالى لا تعلل بالأغراض، **(وما تصوره وهمك فالله بخلافه)**، فإن ذاته لا تشبه الذوات، وأفعاله لا تشبه أفعال غيره، فهو منزه عن أن تتصوره الأوهام، **(وهذا كلام عجيب نفيس محقق)** من النفاسة وهى الشرف وعلو القدر.

(والفصل الأخير) من كلام ذى النون، وهى الفقرة الثالثة أعنى قوله: وما تصوره وهمك فالله بخلافه **(تفسير لقوله)**، عز وجل، أى بمعنى قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فإن ما لا مثل له لا يرتسم فى الوهم.

(والثانى) أى الفصل الثانى، وهو قوله: وعلة كل شىء صنعه ولا علة لصنعه **(تفسير)** وبيان **(لـ)** معنى **(قوله:** ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]،

فإنه لا علة لفعله حتى يقال له: لم فعلت كذا بخلاف غيره من عبيده المكلفين.

(والثالث) فى العدد، وهو الأول أعنى قوله: حقيقة التوحيد أن تعلم أن قدرة الله فى الأشياء بلا علاج، وصنعه لها بلا مزاج (**تفسير لقوله:** ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**﴾) [النحل: ٤٠]، وفى كلامه لف ونشر غير مرتب، وهذا تمثيل لسرعة الإيجاد والتسخير.

(ثبتنا الله وإياك على التوحيد) أى على العقيدة الحقة فى اعتقاد وحدانية الله تعالى فى ذاته وانفراده بجميع شئونه **(والإثبات)** أى إثبات ما يليق بذاته لذاته وبصفاته لصفاته، وليس المراد إثبات واجب الوجود المنافى للتعطيل، فإنه معلوم من التوحيد إلا أن يريد مجرد التوكيد، **(والتنزيه)** لذاته وصفاته عما لا يليق بها.

(وجنبنا) أى بعدنا **(طرفى الضلالة والغواية من)** طرفى **(التعطيل والتشبيه)** من بيانية، وأراد بالضلالة التعطيل، وبالغواية ادعاء التشبيه والتجسيم، وجعل للاعتقاد الحق طرفين إفراط وتفريط، والوسط هو الصراط المستقيم والدين القويم، وهذا كله استدلال على أن ما أطلق على الله وعلى غيره ليس لاشتراكهما فى حقيقة المدلول والمسمى، كما مر بيانه مبسوطًا، ولما كانت هذه التسمية تشريفًا وتمييزًا لهم عما عداهم أردفه بما يتم به التمييز، وهو المعجزات فقال:

* * *

(الباب الرابع) [فيما أظهره الله تعالى على يديه من المعجزات وشرفه به من الخصائص والكرامات]

من القسم الأول (**فيما أظهره الله على يديه**) ﷺ، ما على اليد هو ما وضع فوقها، فكنى به عما كان مشاهدًا (**من المعجزات**)، وهى الأمور الخارقة للعادة التى يظهرها الله تعالى على يد أنبيائه، عليهم الصلاة والسلام، لإلزام من كذبهم إذ عجزوا عن الإتيان بالمثل، وهذا هو الفرق بينها وبين الكرامة، وليس الفرق أن المعجزة للنبى والكرامة للرسول كما قيل، فإن الكرامة تكون للنبى أيضًا كما أشار إليه المصنف، رحمه الله تعالى، بقوله:

(**وشرفه به من الخصائص والكرامات**) أى ما خصه الله تعالى به وأكرمه مما لم يكن لغيره، والفرق بينها وبين السحر ليس ادعاء النبوة، فإن الساحر قد يدعيها كاذبًا بل إنها أمر إلهى ليس بمزاولة العزائم، ونحوها من تسخير الكواكب كما يدل عليه قوله: أظهره الله، وهى دالة على صدقه فى دعوى النبوة، وما كان قبل البعثة، فهو إرهاص أى تأسيس للنبوة، وأدخلها بعضهم فى المعجزة.

قال الزركشى فى البحر: اختلف فى دلالتها فذهب القشيرى إلى أنها وضعية، وما دل وضعًا يجوز أن يتبدل، واختار الإمام فى الإرشاد، وأبو إسحاق أنها عقلية.

وقال الآمدى فى أبكار الأفكار: الذى ذهب إليه المحققون أن دلالة المعجزة على صدق الرسول ليست دلالة عقلية ولا سمعية، أما الأول فلأن ما يدل عقلا يدل بنفسه ويرتبط بمدلوله لذاته، وقد تقع الخوارق عند تصرم الدنيا مع عدم دلالته على تصديق مدعى النبوة، فإنه لا إرسال ولا رسول إذ ذاك، وأما الثانى فلأن الدلالة السمعية تتوقف على صدقه، فلو توقف صدق الرسول عليها كان دورًا، بل دلالتها على صدقه غير خارج عن الدلالات الوضعية النازلة منزلة قوله الله تعالى: «**صدق عبدى**»، انتهى. وفيه بحث.

(**قال القاضى أبو الفضل**) عياض المؤلف (**رضى الله تعالى عنه: حسب المتأمل**) بسكون السين، أى يكفيه أو كفايته، والمتأمل هو المفكر الناظر نظرًا صحيحًا (**أن كتابنا هذا لم نجمعه**) أى لم نؤلفه (**لمنكر نبوة نبينا**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، ممن كفر به، (**ولا لطاعن فى معجزاته**) أى معترض ومعارض معاند فى ثبوت بعضها، وإن كان مظهرًا للإسلام كبعض الزنادقة، وأصل الطعن الرشق بالسنان ونحوه، فاستعير لتعييب الناس

وذمهم. يقال: طعنه يطعنه بالضم والفتح، وقال ابن برى: الأكثر فى طعن السلاح بضم عين المضارع وفى القول فتحها، ونقله بعضهم عن غيره من الأئمة فتأمله، **(فيحتاج)** بالرفع على الاستئناف أو النصب فى جواب النفى بناء على رأى من جوزه مستدلا بقوله:

لم ألق بعدهم حيا فأخبرهم ... إلا يزيدهم حبا إلى هم

وقد منعه بعض النحاة، وهم نحاة المغرب.

(إلى نصب البراهين عليها) أى على إثباتها بالأدلة القاطعة الملزمة لمن أنكرها أو طعن فيها، ونصبها إقامتها وإيضاحها من قولهم: نصب رأيا إذا أشار إليه بأن لا يعدل عنه كما فى الأساس، **(وتحصين حوزتها)** بفتح الحاء المهملة وسكون الواو وفتح الزاء المعجمة، وهى الناحية والجانب، وتحصينها جعلها حصينة محفوظة كأن عليها حصنًا يحميها، وفيه استعارة تمثيلية تخييلية بجعل المنكر كالعدو القاصد لخراب المملكة، ويقال: حمى حوزة وبيضة بلده إذا حفظ جواره وما يلزمه حفظه، **(حتى لا يتوصل المطاعن إليها)** جمع مطعن، وهو الطعن والرد بالأباطيل الفاسدة التى تصدر عن أهل الإلحاد، وضمير إليها للحوزة أو للمعجزة، والأول أولى وأبلغ؛ لأن عدم الوصول إلى الحوزة يستلزم عدم الوصول إليها.

(ونذكر شروط المعجزة والتحدى) بفتح المثناة الفوقية المشددة والحاء المهملة وكسر الدال المهملة المشددة وياء تحتية، وهو طلب المعارضة، وأصله تقابل الحاديين فى حداء الإبل **(وحده)** معطوف على يحتاج الداخل فى حيز النفى وحده بمعنى تعريفه منصوب كقوله: **(وفساد قول من أبطل نسخ الشرائع ورده)**، أى لا نذكر فساده، ورده معطوف على فساد أو ماض معطوف على أبطل، أى لم نجمعه لأجل شىء من ذلك حتى يحتاج إلى ذكر ما يدفعه ويقيم الحجة على بطلانه، كما هو دأب المتكلمين أن يقدموا قبل مباحث إثبات النبوة أو ذكر المعجزات مبحث إبطال قول المنكرين للنسخ، لعدم فرقهم بينه وبين البداء، وهم اليهود الذين تمسكوا بذلك فى إبطال نبوة نبينا محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، ونبوة عيسى، عليه الصلاة والسلام؛ لنقلهم عن التوارة ما يدل على تأبيد شريعة موسى، عليه الصلاة والسلام، مع وقوع النسخ فيها كما فصل فى كتب الأصلين.

(بل ألفناه لأهل ملته) أى إنما ألفناه لأهل ملة نبينا محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، من المؤمنين به **(الملبين لدعوته)** بالباء الموحدة المشددة، أى القائلين له إذ دعاهم ﷺ

للتوحيد والدين الحق: لبيك، وهو عبارة عن إطاعته وتصديقه؛ ولذا قال: **(المصدقين لنبوته)** لإقرارهم واعترافهم بكل ما جاء به، ولا يقال: إن جميع التآليف الإسلامية كذلك، فإنه ليس بشىء، ثم بين الداعى لتأليفه، فقال: **(ليكون تأكيدًا فى محبتهم له)**، ﷺ دفعًا لما عسى إن يقال: إن المؤمنين غير محتاجين له مع اعترافهم وإقرارهم بذلك، فأجاب بأنه مؤكد لمحبتهم له ﷺ **(منماة لأعمالهم)** بالنون من النمو بمعنى الزيادة مصدر، أو اسم محل أى يزيدهم رغبة فى أعمالهم الصالحة، أو يبلغهم الأعمال، أو يبلغ أعمالهم إلى الله تعالى من نميت الحديث إذا بلغته؛ **(وليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم)** بذلك فإنه يزيده أو يثبته فى قلوبهم، وفى تقديمه زيادة الأعمال على زيادة الإيمان إشارة إلى أن زيادته مبنية على دخول الأعمال والقول فى قبول الإيمان الزيادة مقرر فى محله.

(ونيتنا) بالنون والمثناة التحتية المشددة والمثناة الفوقية والنون قبل الألف، أى قصدنا وما عزمنا عليه فى هذا الباب **(أن نثبت فى هذا الباب)** أى نقرر ونكتب وهو بكسر الموحدة مخففة ومشددة رواية من الإفعال أو التفعيل **(أمهات معجزاته)** أى كبارها وعظامها جمع أم، **(ومشاهير آياته)** غاير بينهما تفننا؛ فإن الآيات بمعنى المعجزات أيضًا، أو المراد ما اشتهر من كراماته، صلى الله تعالى عليه وسلم، من غير تحدى غيره، **(ليدل)** ما أثبتناه على عظيم قدره **(عند ربه)** لما أجراه على يديه من عظيم الآيات.

(وأتينا منها) أى ذكرنا من تلك المعجزات **(بالمحقق)** أى بما اشتهر وشاع حتى لم يبق فيه شبهة، **(والصحيح الإسناد)** أى ما صح سنده، وتقدم أن الإسناد هو الإتيان بالسند، وهو عبارة عن الذين نقلوا الحديث منقول من سند الجبل، وهو ما ارتفع من حفل الجبل، وقد يكون الإسناد بمعنى السند وصحته باستيفاء شروطه المذكورة فى كتاب ابن الصلاح وغيره **(وأكثره)** أى أكثر ما أتينا به **(مما بلغ القطع)** أى وصل إلى رتبة القطع بحيث لا يقبل التشكيك كالقرآن **(أو كاد)** أى قارب بلوغ القطع لشهرته وصحته، فهو وإن كان ظنيًا لكنه قوى حتى صار متيقنًا بما حفه من القرائن، وحذف معمولى كاد شائع فى كلام العرب لاسيما فى السجع كما هو فيما نحن فيه.

(وأضفنا إليها) أى ضممنا إلى المعجزات المحققة والمقاربة لها **(بعض ما وقع فى مشاهير كتب الأئمة)** يعنى أئمة الحديث الذين تلقى الأئمة كتبهم بالقبول كدلائل النبوة للبيهقى والسنن وبقية الكتب.

(وإذا تأمل المتأمل المنصف ما قدمناه) أى من نظر بعين الرضاء والإنصاف فى صفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، التى قدمها المصنف، رحمه الله تعالى، قبل هذا الباب، وهذا تأكيد لما قبله من أن ذكر المعجزات ليس لإثبات نبوته، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن

من تأمل صفاته علم أنه غير محتاج فى إثبات نبوته إلى برهان بذكر معجزاته، وإنما ذكرت لمحبتها وتأكيد ذلك كما قال المتنبى:

صفاته لم تزده معرفة لكننا لذة ذكرناها

(من جميل أثره)، صلى الله تعالى عليه وسلم، بفتحتين وهو بقية الشىء، وما يبقى بعده من آثار فعله كالصدقة الجارية والولد الصالح والعلم النافع مما يرسم فى صحائف الأيام، وقيل: جمع أثرة من آثره يؤثره إيثارًا إذا أعطاه، ومآثر العرب مكارمها ومفاخرها التى تروى وتذكر.

(وحميد سيره) جمع سيرة كسدرة وسدر، وهى الطريقة والسنة المحمودة.

(وبراعة علمه) أى علمه الفائق به على غيره. يقال: برع براعة وبروعا إذا فاق فى علم أو غيره.

(ورجاحة عقله) أى عقله الزائد بحيث لو وزن بغيره رجح عليه، **(وحلمه)** الراجح أيضًا، **(وجملة كماله)** أى جميع كمالاته التى لم تجمع لغيره، **(وجميع خصاله)** جمع خصلة، وهى الصفة الحسنة، وهى مجاز من الخصل، وهى ما يعطى فى الرهان فاستعير لما ذكر كما ذكره فى الأساس، **(وشاهد حاله)** وحكى عما كان يشاهد من حاله، وفى تعبيره بالشاهد لطف؛ لأن فيه إيهام أنه يشهد لمحاسنه وهو بمعنى الحاضر، **(وصواب مقاله)** أى يحكى من كلامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الذى هو صواب كله، وحكم وحكم، والكل بالجر عطف على جملة.

وقوله: **(لم يمتر)** جواب إذا أى لم يشك ويشتبه عليه ويقع له تردد **(فى صحة نبوته)** التى ادعاها وأظهرها، **(وصدق دعوته)** أى صدقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى مدعاه، أو فيما دعا الخلق إليه من دينه وتوحيد ربه، **(وقد كفى هذا غير واحد)** هذا فاعل كفى، وهو إشارة لما ذكر من الجهل وما بعده وغير مفعوله **(فى إسلامه والإيمان به)** أى كفاه ما رآه من أحواله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن طلب برهان وآية على نبوته وصدق رسالته والانقياد لأمره، فأسلم وآمن به وتبعه من غير تلعثم، كأبى بكر، رضى الله تعالى عنه، فإنه كان كلما رآه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «ما خلق الله هذا إلا لأمر عظيم، فلما دعاه للإسلام، قال: هذا الذى كنت أرجو منك».

(فروينا عن الترمذى) الإمام المشهور صاحب السنن، وقدمنا ترجمته، **(وابن قانع)** بقاف ونون مكسورة وعين مهملة بعد ألف، وصحفه بعضهم بنافع بنون وفاء وهو غلط، وهو عبد الباقى بن قانع الإمام الحافظ كما تقدم، **(وغيرهما بأسانيدهم)** جمع

إسناد وجمع وإن كان مصدرًا لنقله إلى الاسمية **(أن عبد الله بن سلام)** الصحابى المشهور، وهو بتخفيف اللام وغيره مشدد اللام، واختلف فى بعضها أيضًا.

(قال: لما قدم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، المدينة) فى هجرته هو وأبو بكر، رضى الله تعالى عنه، **(جئته لأنظر إليه)** جواب لما يعنى أنه سمع بقدومه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من مكة، وقولهم: إنه رسول الله فأتاه ليعرف أمره، وهو من علماء أهل الكتاب صاحب فراسة وذكاء، **(فلما استبنت وجهه)** استفعال من البيان، وهو الوضوح والظهور والسين للمبالغة.

(عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب) أى لاح له من سيماه نو النبوة فى محياه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن مثله لا يكذب فيما ادعاه، فخلق الله تعالى فيه علما ضروريًا، فصدقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مع ما كان علمه من صفته فى التوارة والكتب السالفة، وقال، رضى الله تعالى عنه، لليهود: يا معشر يهود اتقوا الله تعالى واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله الذى تجدونه عندكم مكتوبًا فى التوراة باسمه وصفته، وإنى أومن به وأصدقه، ثم شرع فى ذكر سنده لما رواه عن الترمذى، ولم يقدمه لئلا يفصل بينه وبين ما استشهد له به، فقال:

(حدثنا به) أى بحديث ابن سلام **(القاضى الشهيد أبو على، رحمه الله تعالى)**، الحافظ المعروف بابن سكرة كما تقدم **(قال: حدثنا أبو الحسين الصيرفى)** بالتصغير، ومن قال: أبو الحسن مكبرًا فهو مخطئ، **(وأبو الفضل بن خيرون)** تقدمت ترجمته **(عن أبى يعلى البغدادى)** بفتح التحتية، وهو المعروف بابن زوح الحرة كما تقدم **(عن أبى على السنجى)** تقدم ضبطه وبيان نسبته.

(عن ابن محبوب) المعروف بالمحبوبى راوى السنن **(عن الترمذى)** كما تقدم قال: **(حدثنا محمد بن بشار)** بفتح الموحدة وتشديد المعجمة كما تقدم قال: **(حدثنا عبد الوهاب الثقفى)** بن عبد المجيد بن الصلت بن عبد الله بن الحكم بن أبى العاص الثقفى الحافظ، وثقه ابن معين، وقيل: إنه اختلط فى آخر عمره، توفى سنة أربع وتسعين ومائة، وأخرج له أصحاب الكتب الستة ترجمته فى الميزان، **(ومحمد بن جعفر)** هو غندر كما تقدم، **(وابن أبى عدى)** محمد بن إبراهيم بن أبى عدى البصرى الثقة، توفى سنة أربع وتسعين ومائة، وروى له أصحاب الكتب الستة.

(ويحيى بن سعيد) بن فروخ أبو سعيد القطان البصرى التميمى الحافظ أحد الأئمة الأعلام، توفى سنة ثمان وتسعين ومائة، وترجمته فى الميزان، **(عن عوف بن أبى جميلة)**

بفتح الجيم وكسر الميم **(الأعرابى)** سمى به لسكناه بدرب الأعراب. قاله ابن دقيق العيد، وهو ثقة ثبت، توفى سنة سبع وأربعين ومائة، وأخرج له أصحاب الكتب الستة كما فى الميزان.

(عن زرارة بن أبى أوفى)، وفى نسخة ابن أوفى وهو من خلط الناسخ، وزرارة بضم الزاء المعجمة ورائين مهملتين، وهو مكنى بأبى صاحب قاضى البصرة، ثقة عالم تقى أم فى داره فقرأ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨] فشهق شهقة ومات سنة ثلاث وتسعين، وروى له أصحاب الكتب الستة، **(عن عبد الله بن سلام الحديث)** كما تقدم.

(وعن أبى رمثة التيمى) بكسر الراء المهملة وسكون الميم وثاء مثلثة قبل هاء علم منقول من رمثة نوع من النبات، واختلف فى اسمه، فقيل: رفاعة، وقيل: عمارة، وقيل غير ذلك، التيمى، وقيل: التميمى. اختلف فى نسبته لتيم أو تميم، وهما قبيلتان مشهورتان، وقيل: إنه بلدى أيضًا **(أتيت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومعى ابن لى)** حكاية لحاله التى جاءه بها، وإلا فلا دخل له فى القضية، **(فأريته)** أى أرانيه وعرفنى به غيرى بإشارة ونحوها، وهو بضم الهمزة مجهول أراه يريه؛ لأنه لم يكن رآه قبل ذلك، **(فلما رأيته قلت: هذا نبى الله)** أى بمجرد تعلق نظره به اعترف بنبوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما شاهده من عظمته ونور نبوته، فأوقع الله فى قلبه علما ضروريا بصدقه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وروى مسلم وغيره أن ضمادًا) بكسر الضاد المعجمة وميم مفتوحة مخففة وألف ودال مهملة، وهو ضماد بن ثعلبة الأزدى نسبة لأزد شنوءة قبيلة مشهورة، وكان صديقًا للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قبل البعثة، فلما قدم مكة وسمعهم يقولون فيه ما قالوه تابعه وأسلم فى أول الإسلام، وكان عاقلاً يتطبب ويرقى. ذكره ابن عبد البر فى الصحابة وفى الصحابة شخص آخر يسمى ضمادًا وله وفادة، ولا ثالث لهما.

(لما وفد عليه) أى لما قدم على النبى ﷺ وهو بمكة فى ابتداء الإسلام، وقد تقدم أن الوفود القدوم على العظماء من مكان بعيد قصدًا، وكان راقيًا يرقى الناس فى الجاهلية، فلما سمعهم يقولون: إن محمدًا مجنون وفد عليه، وقال: يا محمد إنى راق فهل بك من شىء فأرقيك، فأجابه، صلى الله تعالى عليه وسلم، دفعًا لما قاله مما نسبوه إليه كما بينه بقوله:

(فقال له النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: إن الحمد لله) جوزوا فى إن كسر الهمزة وتشديد النون وفتح الهمزة مع التخفيف، وهو ظاهر، والحمد وكون جملته إنشائية أو

خبرية مشهور، وحسن تأكيده سؤاله له وطلبه أن يرقيه لتوهمه صدقهم فيما قالوه، فأجابه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وصدر كلامه بحمد الله إشارة إلى أن الله أنعم عليه بنبوته، ففيه رد لما زعموه على أبلغ وجه.

ثم قال: **(نحمده ونستعينه)** فأردف الجملة الاسمية بفعلية مضارعية؛ لأنه قصد بالأولى أن الحمد ثابت ومستحق له بالاستحقاقين بقطع النظر عن الحامدين، والجملة محتملة للخبرية والإنشائية، ثم أردفها بجملة أخرى لإنشاء حمده بنفسه لما أنعم الله به عليه من جلائل النعم التى أجلها نعم النبوة المؤيدة بالمعجزات الباهرات، ولذا قطعها عما قبلها وأتى بها مضارعية لتدل على الاستمرار التجددى، وأسنده لضمير المتكلم مع الغير إشارة إلى أنه لا يقدر وحده على وفاء حق حمده؛ فإن كان الضمير له وحده فليس لتعظيم نفسه، بل لتعظيم الحمد والمحمود، ونستعينه بمعنى نطلب المعونة والمساعدة منه على أداء حق حمده أو على جميع أمورنا التى من جملتها الحمد، وفيه اقتداء بما أرشدنا إليه من أن الطالب للشىء يقدم عليه حمد الله وتعظيمه كما فى سورة الفاتحة؛ ولذا أردفه بقوله: **(من يهده الله)** إشارة إلى أنه طلب منه الهداية إلى الطريق المستقيم كما فى قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، ومن شرطية جوابها قوله: **(فلا مضل له)**، أى لا يقدر أحد على إضلاله، **(ومن يضلل فلا هادى له)**، وفيه تعريض بمن تعرض له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بإسناده له ما لا يليق به، وأن الله بيده الهداية والضلال.

(وأشهد) أعلم وأذعن وأعتقد **(أن لا إله إلا الله)** أى لا معبود بحق سوى واجب الوجود المستحق لجميع المحامد **(وحده لا شريك له)** فى ألوهيته وجميع شئونه، وهو مؤكد لما قبله لتضمنه للحصر المقدم عليه، **(وأن محمدًا عبده ورسوله)** أرسله لهداية خلقه وإرشادهم لتوحيده، وفيه دعوة أى اعتراف بأنه عبده، وجواب لما قوله: **(قال له:)** ضماد المذكور لما سمع ما قاله، صلى الله تعالى عليه وسلم **(أعد على كلماتك هؤلاء)** المذكورة من قوله الحمد لله إلى آخره، وإنما طلب إعادتها ليتأملها ويفهم ما أراده، وهؤلاء وأولئك إشارة إلى جمع المذكر والمؤنث من العقلاء وغيرهم كما قال الشاعر:

ذم المنازل بعد منزلة اللّوَى والعيش بعد أولئك الأيام(١)

---

(١) البيت من الكامل، وهو لجرير فى ديوانه (ص٩٩٠)، تخليص الشواهد (ص١٢٣)، خزانة الأدب (٤٣٠/٥)، شرح التصريح (١٢٨/١)، شرح شواهد الشافية (ص١٦٧)، شرح المفصل (١٢٩/٩)، لسان العرب (٤٣٧/١٥)، المقاصد النحوية (٤٠٨/١)، وبلا نسبة فى أوضح المسالك (١٣٤/١)، شرح الأشمونى (٦٣/١)، شرح ابن عقيل (ص٧٢)، المقتضب (١٨٥/١).

فالمشار إليه هنا الكلمات.

(فقد بلغت قاموس البحر) أى اشتهرت مقالتك هذه فى جميع أقطار الأرض شرقًا وغربًا، وقاموس البحر وسطه أو لجته أو قعره كما فى كتب اللغة من قمسه إذا غمسه، ووزنه فاعول، وهذه أشهر الروايات وأصحها، وفيه روايات أخر فروى تاعوس بمثناة فوقية وعين وسين مهملتين بينهما واو ساكنة، وروى قاعوس، وروى فاعوس بفاء بدل القاف، ورواه أبو داود قاموس، أو قابوس، على الشك فى الميم والباء الموحدة، وروى ناعوس بالنون أيضًا، وقيل: إن الكل تصحيف ما عدا قاموس وفاعوس كما قاله ابن قرقول. يقال: قال فلان قولا بلغ قاموس البحر أى سمعه كل ذى روح حتى دواب البحر، وهو مبالغة فى شيوعه، وروى قاعوس من القعس، وهو خروج الصدر وبروزه، وقيل: إنه تعجب ممن لم يسمعها و لم يصدق بها من العقلاء مع بلوغها هذا المبلغ.

(هات) بكسر التاء اسم فعل معناه أعط **(يدك أبايعك)** بالجزم فى جواب الأمر، ووجه استشهاد المصنف به أنه بمجرد رؤيته وسماع كلامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، آمن به من غير تردد، وليس فى كلامه ما يدل على صدق مدعاه، ولكنه لما رأى نور وجهه الشريف وحسن بهجته آمن به.

(وقال جامع بن شداد) فى حديث رواه عنه البيهقى، وهو أبو ضمرة الأسدى الكوفى، والحديث روى عن صفوان وغيره، وأخرج له أبو داود والنسائى، وتوفى سنة ثمان، أو سبع عشرة، أو عشرين ومائة (: **كان رجل منا يقال له: طارق)** بن عبد الله المحاربى، وهو صحابى، كما أشار إليه بقوله: **(فأخبر أنه رأى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالمدينة)** كما قال ابن شداد وغيره، وله رواية عنه، وقال ابن حبان: إنما رآه بمكة بذى المجاز، وهو سوق بينه وبين عرفة فرسخ، وهو مخالف لما قاله المصنف.

(فقال) له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولمن لقيه معه (: **هل معكم شىء تبيعونه؟)** إنما سألهم لأنهم أعراب، وإنما يقدم مثلهم للبيع والشراء. **(قلنا: هذا البعير، قال: بكم؟)** تبيعونه **(قلنا: بكذا وكذا وسقا من تمر)** بكسر الواو وفتحها، وهو ستون صاعًا مما يكال، **(فأخذ بخطامه)** بخاء معجمة وطاء مهملة وميم، وهو كالزمام وزنا ومعنى أى رسنه الذى يقاد به، والباء مزيدة أى أخذه ليجره ويذهب به، **(وسار)** أى ذهب من عندنا بالبعير، **(فقلنا)** أى قال بعضنا لبعض: **(بعنا)** بغيرنا **(من رجل لا ندرى من هو)** حتى نطالبه بالثمن، والوسق المبهم فى الحديث كان ستون صاعا كما ورد التصريح به فى رواية أخرى، وقوله: من هو؟ مفعول ندرى، والمعنى لا ندرى جواب هذا السؤال، وعدى البيع بمن وهو متعد بنفسه إما بناء على مذهب الأخفش من جواز زيادة من فى

الإثبات، وقال النووى: إنه لغة فيه فيتعدى بنفسه وبمن كأنكح وزوج، فإنه يقال: أنكحه وزوجه وأنكح وزوج منه، وقد وقع هذا فى كثير من الأحاديث فلا عبرة بقول من عده من لحن الفقهاء، وفى مسلم: لو بعت من أخيك، وفى البخارى: نبيعه من الصواغين، إلى غير ذلك مما لا يحصى.

(تنبيه) قوله: وسقا منصوب لأنه تمييز، وكذا مركبة من كافة التشبيه واسم الإشارة ثم كنى به عن العدد وغيره، وتكون مفردة ومكررة بعطف ودونه، وذهب البصريون إلى أن تمييزها لا يكون إلا مفردا منصوبا، وذهب الكوفيون إلى أنها بحسب ما يكنى بها عنه كناية عن ثلاثة إلى عشرة، وكذا كذا عبد كناية عن مائة فصاعدا، وكذا كذا عبدًا كناية عن أحد عشر وأخواته، وكذا كذا عبد كناية عن واحد وعشرين إلى تسعة وتسعين، وكذا عبدا كناية عن عشرين وأخواته وتفصيله فى شروح التسهيل، وقد أفرده بالتصنيف ابن هشام وغيره.

(ومعنا ظعينة) جملة حالية، والمراد بالظعينة المرأة من الظعن وهو الارتحال؛ ولذا قيل: إن حقيقته امرأة فى هودج على جمل، ثم تجوز به عما ذكر، وللهودج بلا امرأة، وللجمل نفسه وهو بظاء معجمة وعين مهملة، وسميت المرأة ظعينة لظعنها مع زوجها.

(فقالت) أى المرأة لما سمعت كلامهم (: **أنا ضامنة لثمن البعير**) أى أعطيه لكم من عندى إن لم يجئ لكم منه، وإنما أرادت أنها واثقة بأنه لابد أن يجيء به لما وقع فى قلبها من أن مثله ﷺ لا يغدر ولا يخلف بفراسة منها حين شاهدته؛ ولذا قالت: **(رأيت وجه رجل مثل القمر ليلة البدر)**. هذا استئناف بيان لوجه ضمانهما لمن لم تعرفه بأنها رأت فى وجهه ﷺ نورًا، وحسن سيماه تدل على أنه ليس ممن يصدر منه شر، وشبهت وجهه الشريف بالقمر عند كماله وزيادة نوره على عادتهم فى تشبيه الوجه الحسن به، وإلا فمن أين للبدر مثل نوره وحسنه، ولقد أجاد بعض الظرفاء فى قوله:

بلا غيبة للبدر وجهك أجمل ... وما أنا فيما قلته متجمل
لكنما الشيء بالشيء يذكر

كما قيل:

ظبى إذا ما بدا محياه ... أقول ربى وربك الله

وقد هجا ابن الرومى البدر، فقال[1]:

لو أراد الأديب أن يهجو البد ... ر رماه بالخطة الشنعاء

(١) الأبيات من الخفيف، وهى فى ديوان ابن الرومى (ص١٣٥)، نهاية الأرب (٥٦/١).

قال يا بدر أنت تغرر بالسا ري وتغرى بزورة الحسناء
كلف فى شحوب وجهك يحكى نمشا فوق وجنة برصاء
يعتريك المحاق فى كل شهر فترى كالقلامة الجحناء
ويليك النقصان فى آخر الشهر فيمحوك من أديم السماء

(لا يخيس بكم) أى حسن صورته، صلى الله تعالى عليه وسلم، يدل على حسن سيرته، فمثله لا يصدر عنه ما ظننتموه. يقال: خاس يخيس ويخوس إذا غدر وكذب، فنكث عهده وأخلف وعده، وهو بخاء معجمة وسين مهملة.

(فأصبحنا) أى مضى بعد أخذه، صلى الله تعالى عليه وسلم، البعير يوم وليلة، ثم دخلنا فى صبيحة يوم بعده، **(فجاء رجل)** من أتباعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا الرجل لا يعرف اسمه **(بتمر، فقال: أنا رسول رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إليكم)** ثم استأنف جواب سؤال مقدر أو مطوى، كأنهم قالوا: ما فعل أو ما يقول؟ فقال: **(يأمركم أن تأكلوا من هذا التمر)** الذى جاء به، **(وتكتالوا)** أى تكيلوا منه ثمن البعير **(حتى تستوفوا)** أى تأخذوا الثمن من التمر الذى جاء به وافيا كاملا غير ما أكلتموه، فإنه هبة منه لكم، وفيه من المكارم وحسن المعاملة ما لايخفى، وفى الحديث «خياركم أحسنكم قضاء».

(و) ورد **(فى)** حديث رواه ابن إسحاق فى **(خبر الجلندى)** وقصته، **(وهو)** أى الجلندى **(ملك عمان)** وسلطانها فى عهد النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى القاموس جلندا بضم أوله وفتح ثانيه، وهو اللام المخففة ممدودا، وبضم ثانيه فيقصر، ووهم الجوهرى فقصره مع فتح ثانيه. قال الأعشى[(١)]:

وجلندا فى عمان مقيما ثم قيسا فى حضرموت المنيف

ولا حجة له فيما ذكره لاحتمال أنه ضرورة كما قاله تلميذه البرهان الحلبى، وفى شرح المفصل لابن الحاجب: الأولى أن لا تدخل عليه الألف واللام، ومعناه القوى المتحمل من الجلادة كما قاله المعرى فى رسالة الغفران، وعمان بفتح العين المهملة، وتشديد الميم مدينة قديمة بالشام، وبالضم والتخفيف صقع عند البحرين.

وفى الشروح نقلا عن الذهبى: أن له شعرًا يدل على إسلامه، وهذا يدل على عدم جزمه به، والذى نقله النويرى فى تاريخه الجزم به، وأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم،

---

(١) البيت من الخفيف، وهو للأعشى فى ديوانه (ص٣٦٥)، جمهرة اللغة (ص٣٥٤)، تاج العروس (٥١٣/٧) (جلد)، وصدره بلا نسبة فى لسان العرب (١٢٨/٣) جلد.

بعث عمرو بن العاص فى سنة ثمان من الهجرة إلى جيفر، وعبد ابنى الجلندى، وهما من الأزد، والملك منهما جيفر وكتب إليهما كتابا، فلما قدم عمان عمد إلى عبد وكان أعلمهما وأحسنهما خلقا، وقال: إنى رسول رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إليك وإلى أخيك، فقال: أخى مقدم على فى السن وهو الملك وأنا أوصلك إليه، فمكث ببابه أياما ثم دعانى، فدخلت عليه ودفعت إليه الكتاب ففض ختمه وقرأه، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه، فقال: دعنى يومى هذا وارجع إلى غدا، فلما رجعت إليه قال: إنى فكرت فيما دعوتنى إليه فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا ما فى يدى، فقلت: إنى خارج فلما أيقن بمخرجى أرسل إلى وأجاب إلى الإسلام هو وأخوه، وصدقا بالنبى ﷺ وخليا بينى وبين الصدقة والحكم بينهم، فلم أزل مقيما بينهم حتى بلغنى وفاة رسول الله ﷺ انتهى.

وهذا يدل على أن ملك عمان ابن الجلندى لا هو إلا أن يقال: كل من ملك عمان يسمى جلندى، وأما ما فى بعض الشروح من أن فى بعض النسخ ملك غشان بتشديد الشين كشداد اسم قبيلة، ولعل تلك القبيلة سكنت تلك البلدة، وكان الجلندى ملكها فمما لا يعول عليه؛ لمخالفته الرواية والنسخ الصحيحة، وهو الذى صححه السهيلى والشراح كلهم. **(لما بلغه أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يدعوه إلى الإسلام)** كما سمعته مفصلا.

(قال الجلندى: والله لقد دلنى على هذا النبى الأمى) الذى لا يقرأ ولا يكتب، ووصفه به لشهرته، صلى الله تعالى عليه وسلم، به فى الكتب القديمة، ولأنه مدح له كما تقدم **(أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به)** أى أول عامل بما أمر به، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ولا ينهى عن شىء إلا كان أول تارك له)** كما قال ﷺ: **(إنى لأتقاكم لله وأخشاكم له)** وهو كما قيل[1]:

---

(١) البيت من الكامل، وهو لأبى الأسود الدؤلى فى ديوانه (ص٤٠٤)، الأزهية (ص٢٣٤)، شرح التصريح (٢/٢٣٨)، شرح شذور الذهب (ص٣١٠)، همع الهوامع (٢/١٣)، وللمتوكل الليثى فى الأغانى (١٢/١٥٦)، حماسة البحترى (ص١١٧)، العقد الفريد (٢/٣١١)، المؤتلف والمختلف (ص١٧٩)، وللأخطل فى الرد على النحاة (ص١٢٧)، شرح المفصل (٧/٢٤)، الكتاب (٣/٤٢)، ولحسان بن ثابت فى شرح أبيات سيبويه (٢/١٨٨)، وبلا نسبة فى الأشباه والنظائر (٦/٢٩٤)، أمالى ابن الحاجب (٢/٨٦٤)، أوضح المسالك (٤/١٨١)، جواهر الأدب (ص١٦٨)، الجنى الدانى (ص١٥٧)، رصف المبانى (ص٤٢٤)، لسان العرب (١٥/٤٨٩)، مغنى اللبيب (٢/٣٦١)، المقتضب (٢/٢٦)، شرح ابن عقيل (ص٥٧٣).

لاتنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت ذميم

وقوله أنه إلى آخره اسم تأويلا، وهو فاعل دل.

(**وأنه يغلب**) أعداءه وينتصر عليهم وهو مبنى للفاعل، (**فلا يبطر**) أى لا يطغى ويغتر ويظهر الفرح، وهو خفة مذمومة، وبطر من باب علم، (**ويُغلب**) بالبناء للمفعول أى يغلب أحيانا؛ فإن الحرب سجال كما جرت به عادة الله فى أيامه، (**فلا يضجر**) أى يقلق ويجزع، بل يصبر ويتحمل ما أصابه فى سبيل الله احتسابا لأجره، ورضاء بما قدره الله تعالى كما هو عادة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، (**ويفى بالعهد**) فإذا عاهد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أحدا لا ينكث عهده، كما قال الله تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ**﴾ [الإسراء: ٣٤].

(**وينجز الموعد**) أى يعجل ما وعد به لكرمه، فالموعود اسم مفعول، ويجوز أن يكون مصدرًا، فإنه جاء على مفعول إلا أنه نادر، (**وأشهد أنه نبى**) لما تحققه من أخلاقه وكمال صفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا شاهد لما عقد له الفصل من أن من تأمل صفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، صدق بنبوته، وإن لم يشاهد معجزته.

(**وقال نفطويه**) إبراهيم بن محمد الإمام الجليل بن عرفة بن سليمان الأزدى، الواسطى، النحوى، المفسر، الأديب، وقد تقدمت ترجمته، وضبط اسمه بفتح أوله وواوه وسكون يائه، وأن المحدثين يضمون ما قبل الواو ويسكنونها كما مر، (**فى قوله تعالى:** ﴿**مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ**﴾ [النور: ٣٥]: **هذا مثل ضربه الله لنبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، هذا بناء على الوقف على قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [النور: ٣٥]، وأن معنى قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ نُورِهِ**﴾، وأن الضمير فى قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ نُورِهِ**﴾ لمحمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأن المشكاة هو أو صدره، والمصباح علمه، والزجاجة قلبه، والزيتونة نبوته، والمعنى أن نبوته تظهر وإن لم يبد معجزة وبرهانا عليها، وقد تقدم ذكر المصنف لهذه الآية، وأن هذا أحد تفاسيرها وأنه بعيد، وإنما أعاد هنا لما فيها على هذا من دلالتها على المقصود من أن المتأمل يشهد ويصدق نبوته، وإن لم يقم برهانا عليها، فلا تكرار فى كلامه كما توهم وهو على هذا تشبيه تمثيلى وهو ظاهر.

(**يقول**) الله تعالى: (**يكاد منظره**) أى ما يتعلق به النظر من ذاته ﷺ وصفاته (**يدل على نبوته، وإن لم يتل قرآنا**) أى وإن لم يظهر ﷺ معجزة، وخص القرآن لأنه أعظم

معجزاته وتلاوة القرآن معلومة، وروى: وإن لم يقل قرآنا، ثم استشهد له بما يدل على معناه فقال: **(كما قال ابن رواحة)**، رضى الله عنه، وهو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصارى الصحابى أحد شعراء رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد شهد معه المشاهد إلا الفتح، فإنه مات شهيدًا بمؤتة سنة ثمان من الهجرة، وهو أحد الأمراء الثلاثة بها وهم زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب، ومما روى من مدحه ﷺ قوله:

(لو لم يكن فيه آيات مبينة ... لكان منظره ينبيك بالخبر)

ومبينة بكسر الياء المشددة اسم فاعل وبفتحها اسم مفعول، ومنظره مرآه وظاهره، وفى رواية كانت بداهته، وهذا على نهج قوله: «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه»، أى مما يترتب الجواب فيه على وجود الشرط وعدمه، وهو على فقد الشرط أولى، ويجوز أن يبقى على حاله؛ لأنه عند ظهور الآيات لا يحتاج إلى الاستدلال بظاهر الحال، فلا إشكال فيه أصلا، وأصل ينبيك ينبؤك بالهمزة، فأبدلت ياء وأسكنت على حد قراءة باريكم، وفى جعل المنظر مخبرًا من البلاغة ما لايخفى.

(وقد آن أن نأخذ) أى نشرع **(فى ذكر النبوة والوحى والرسالة)** يقال: أخذ فى القراءة أى شرع فيها، وأصل الأخذ التناول باليد، ثم تجوز به عن معان منها هذا، وآن بمعنى قرب أوانه، **(وبعده)** أى بعد ذكرها نشرع **(فى معجزة القرآن، وما فيه من برهان ودلالة)** أى دليل قاطع على نبوته، وهى بفتح الدال وكسرها مصدر ويستعمل بمعنى الدليل.

* * *

(فصل)

(اعلم) أمر بالعلم اهتماما بما بعده، والخطاب عام لكل من وقف على كتابه أو لمن سأله تأليفه كما تقدم **(أن الله جل اسمه)** أى عظم وعظمت أسماؤه، وجلالة اسمه تدل على جلالته بالطريق الأولى **(قادر على خلق المعرفة)**، وهى العلم بالجزئيات، ويكون بمعنى مطلق العلم أيضا، **(والعلم بذاته)** علما يقينيا وإن لم يكن بالكنه والحقيقة، **(وأسمائه وصفاته)** الذاتية وغيرها، **(وجميع تكليفاته)** التى ألزمهم بها من الأمور الشرعية والعبادات **(ابتداء)** فسره بقوله: **(دون واسطة)** يتوسط بينه وبينهم فى إعلامهم وتعليمهم ما ذكر **(لو شاء كما حكى عن سنته)** أى عادته تعالى وطريقته.

(فى بعض الأنبياء)، عليهم الصلاة والسلام، إذ عرفهم بعض الأمور السابقة بدون واسطة بأن أوقع ذلك فى قلوبهم، وكشفه لهم، أو ألهمهم، أو أراهم ذلك فى مناماتهم

الصادقة، وهذا مما شاع وذاع وملأ الأسماع. وكون كل علم منقسم إلى نظرى وضرورى المراد به غير علوم الأنبياء كما صرحوا به، وفى الكشاف جرت العادة بأن كل علم نظرى كسبى، ثم فى قدرة الله تعالى إحداث علم وإحداث القدرة عليه من غير تقدم نظر.

قال بعضهم: كعلوم الأنبياء التى ليست ضرورية ولا نظرية، فيخلق فيهم العلم بلا تقدم نظر؛ لئلا يكونوا زمان النظر شاكين، وذلك لا يصح عليهم فى التوحيد، ولو كان ضروريا لم يكن عليه أجر، فجمع بين كونه مقدورا لينالوا الأجر، وعدم تقدم النظر ليتنفى الريب، وهذا هو الذى ارتضاه المحققون. فما نقل عن بعض مشايخ الصوفية أن علوم الأنبياء جميعها ضرورية غير مسلم.

(وذكره بعض أهل التفسير فى قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١]، بناء على على أن الوحى يشمل الإلهام ونحوه، وليس المراد به ما كان بواسطة الملك فقط.

(وجائز أن يوصل) الله معطوف على قوله أولا قادر **(إليهم جميع ذلك)** المذكور من العلوم السالفة **(بواسطة يبلغهم)** صفة واسطة بالفوقية أو التحتية، أى يوصله بكلام يدل عليه، **(وتكون تلك الواسطة إما من غير البشر كالملائكة مع الأنبياء)**، عليهم الصلاة والسلام، سواء رأوهم متمثلين بصورة غير صورتهم، أو على صورتهم الأصلية كما وقع لنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو لم يروهم كما كان يأتيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الوحى أحيانا كصلصلة الجرس، وليس رؤية الملك مخصوصًا بالأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، بل قد يراه غيرهم من خلص عباده كمريم، **(أو من جنسهم كالأنبياء مع الأمم)** الذين يبلغونهم عن الله ما أمرهم بتبليغه.

(ولا مانع لهذا) المذكور بقسميه **(من دليل العقل)** أى من دليل هو العقل، فالإضافة بيانية أو هى حقيقية يعنى أنه غير مستحيل خلافا للبراهمة الذين جعلوه مستحيلا لا لذاته، فمنعوا إرسال الرسل كفرًا وضلالاً عما نطقت به الكتب الإلهية، ودلت عليه الأدلة العقلية، كما بين فى الكتب الكلامية كما أشار إليه بقوله: **(وإذا جاز هذا ولم يستحل)** أى لم يعد محالاً عقلاً، **(وجاءت الرسل بما دل على صدقهم من معجزاتهم)** الظاهرة المحققة، **(وجب تصديقهم فى جميع ما أتوا به)** عن الله وبلغوه لأممهم؛ **(لأن المعجزة مع التحدى من النبى)** أى إظهار النبى معجزة له وطلبه ممن أنكر نبوته الإتيان بما يماثلها؛ لأن معنى التحدى هو الطلب المذكور؛ لأنه مأخوذ من حدى الإبل إذا تغنى لها لينشطها، ومن دأبهم فيه أن يتقابل شخصان يتناوبان ذلك، فهو من النبى **(قائم مقام**

قول الله) الذى أقدره على ذلك وأمره به (: **صدق عبدى)** ورسولى فيما ادعاه لما معه من البرهان الذى لا يقدر عليه أحد من جنسه، **(فأطيعوه واتبعوه)** فى كل ما يأمركم به؛ لأنه من عند الله.

(وشاهد على صدقه) فى كل ما قاله وهو معطوف على قوله قائم خبران، وقد تقدم الكلام على دلالة المعجزة وأنها سمعية أو وضعية، والفرق بينها وبين الكرامة والسحر، **(وهذا)** الكلام **(كاف)** فيما قصدناه، **(والتطويل فيه خارج عن الغرض)** الذى صنف الكتاب لأجله، **(فمن أراد تتبعه)** أى الوقوف عليه **(وجده مستوفى)** خبر من أو جوابها أى يقف عليه بتمامه وتفصيله **(فى مصنفات أئمتنا، رحمهم الله تعالى)** وعلمائنا، وفى نسخة فى «كتب أئمتنا».

(والنبوة فى لغة من همزه) إشارة إلى أن فيه لغتين الهمز وتركه إلا أن الهمز هو الأصل كما ذهب إليه كثير من اللغويين والنحاة، وإن كان ترك الهمز هو الأكثر؛ ولذا قيل: إنه لغة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنه أنكر على من قال له: يا نبىء الله بالهمز، ويأتى الكلام عليه **(مأخوذ من النبأ وهو الخبر)**؛ لإنبائه وإخباره عن الله تعالى.

وقال الراغب: النبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن فلا يقال له نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة، ويكون صادقًا فالخبر أعم منه.

(وقد لا تهمز) بالتاء الفوقية والبناء للمجهول أى النبوة، ويجوز قراءته بالمثناة التحتية باعتبار اللفظ **(على هذا التاويل)** أى تفسيره بالنبأ **(تسهيلا)** أى تبدل همزته واوا تخفيفا؛ لكثرة الاستعمال فتبدل من جنس الحركة التى قبلها وهى الضمة، والتسهيل عند القراء بمعنى جعل الهمزة بينها وبين الحرف الذى منه حركتها وليس بمراد هنا.

(والمعنى) أى معنى النبى المفهوم من الكلام على هذا القول **(أن الله أطلعه على غيبه)** أى أعلمه وأخبره بمغيباته، **(وأعلمه أنه نبيه)** الموحى إليه، **(فيكون نبيا منبئا)** بصيغة المفعول مشدد الباء الموحدة، ويجوز تخفيفها أى يكون من أطلعه وأعلمه نبيا بمعنى منبئا، **(فهو فعيل بمعنى مفعول، أو يكون)** معناه **(مخبرا)** بكسر الباء اسم فاعل **(عما بعثه الله به، ومنبئا)** اسم فاعل بتشديد الباء وتخفيفها **(عما أطلعه الله عليه)** من علمه ومغيباته، فهو **(فعيل بمعنى فاعل)** على هذا.

(ويكون عند من لم يهمزه) أى يقول بأن أصله الهمز من النبأ مأخوذ **(من النبوة)** مصدر بزنة سلوة فى الأصل نقل وشاع بمعنى المرتفع، **(وهو)** ذكره باعتبار اللفظ أى نظرًا للخبر أى **(ما ارتفع من الأرض)** **فهو** كالربوة لفظا ومعنى، ثم بين المراد منه بقوله:

(معناه أن له) عند الله وفى الواقع **(رتبة شريفة ومكانة نبيهة)** أى عالية مشهورة، والنبيه ضد الخامل لتنبه سعده من نومة الخمول والمكانة كالرتبة تختص بالمنازل المعنوية، فجعل علوه معنى بظهوره كعلوه حسا **(عند مولاه)** وربه الذى تولى أموره **(منيفة)** عالية لا يصعد لها سواه، وهو على هذا أيضًا فعيل بمعنى مفعول؛ لأنه أى النبى مرفوع على غيره، أو بمعنى فاعل؛ لأنه مرتفع لما له من رفيع الدرجات.

(فالوصفان) أى وصفه بالنبى بمعنى المخبر أو بمعنى المرتفع **(مؤتلفان)** أى متوافقان بحسب المعنى؛ لأن من بعثه الله وأطلعه على ما لم يطلع عليه غيره له منزلة عالية، ومن له مقام عال يطلع على ذلك، أو المراد بالوصفين فعيل بمعنى فاعل أو مفعول، والذى ارتضاه سيبويه أنه مهموز كالذرء والبرية التزم تخفيفه فى الأكثر وكلاهما لغة، وبهما قرئ فى السبع كما يأتى، وقرأ نافع بالهمز فى جميع القرآن إلا فى موضعين: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، والخلاف إنما هو فى أيهما أصل؛ ولذا قدم المصنف، رحمه الله تعالى، المهموز.

(وأما الرسول فهو المرسل) اسم مفعول من أرسله إذا بعثه لأمر وتبليغ رسالة، **(ولم يأت فعول)** بفتح أوله اسم مفعول من الأفعال **(بمعنى مفعل)** بضم الميم وفتح العين المهملة **(فى اللغة)** أى لغة العرب وكلماتهم، ويجوز أن يراد به علم اللغة وكتبها **(إلا نادرا)** أى إلا فى ألفاظ قليلة. قال السمين فى الدر المصون فعول بمعنى مفعول قليل جاء منه ركوب وحلوب بمعنى المركوب والمحلوب، والرسول بمعنى المرسل انتهى.

وكلام المصنف، رحمه الله تعالى، يقتضى أن النادر فعول بمعنى مفعل من المزيد، وكلام العرب أنه قليل بمعنى المفعول مطلقا؛ فإن الغالب فيه معنى الفاعل كصبور وشكور إلا أنه إن قيل أن الرسول فى الأصل مصدر بمعنى الرسالة لم يكن مما نحن فيه، بل مجاز للمبالغة كالدرهم ضرب الأمير، أى مضروبه، وقد ورد فى قول كثير بهذا المعنى وهو قوله(١):

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم ... بِسِرٍّ ولا أرسلتهم برسول

أى برسالة فما قيل: إن فيه شيئا ليس بشىء.

(وإرساله أمر الله له بالإبلاغ إلى من أرسل إليه)، أى تبليغهم شريعته ودينه بنفسه أو بواسطة، **(واشتقاقه من)** الإرسال بمعنى **(التتابع)** أى التوالى والتكرار؛ لتبليغه فالمناسبة

---

(١) البيت من الطويل، وهو لكثير فى ديوانه (ص١١٠)، لسان العرب (٢٨٣/١١) (رسل)، وبلا نسبة فى تهذيب اللغة (٣٩١/١٢)، ديوان الأدب (٣٩٥/١)، تاج العروس (رسل).

بينهما ظاهرة، **(ومنه قولهم: جاء الناس أرسالا)** بفتح الهمزة جمع رسل بفتحتين أى فرقة بعد فرقة متتابعين يتبع بعضهم بعضا كما بينه بقوله: **(إذا تبع بعضهم بعضا)** كما ورد فى الحديث أنهم صلوا عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أرسالا يتبع بعضهم بعضا، ثم بين وجه اشتقاقه بقوله: **(فكأنه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ألزم تكرير التبليغ)** مرة بعد أخرى إلى أمته.

(وألزمت الأمة اتباعه) فرقة بعد فرقة وأمة بعد أمة لعموم رسالته، فالتكرار والتتابع إما فى نفس تبليغه أو باعتبار اتباعه وأمته، ولو عطفه بأو كما فى نسخة كان أحسن فما قيل من أن فى كلامه بحثًا؛ لأنه مأخوذ من جهة المعنى والاشتقاق من الألفاظ، وأن قولهم: جاء الناس أرسالاً ليس مصدر أرسلته لاختلاف المعنى كلام ناش من عدم فهم كلام المصنف، رحمه الله تعالى، وفيه خلط وخبط لا يخفى على من له بصيرة.

(واختلف العلماء) فى جواب قولهم: **(هل النبى والرسول بمعنى؟)** واحد فهما مترادفان، **(أو بمعنيين)** فهما متغايران غير مترادفين، وفى نسخة أم بمعنيين؛ ولذا قيل: إن أو أحسن هنا وفيه كلام فى المغنى وشروحه ليس هذا محله، **(فقيل: هما سواء)** أى متساويان أو مترادفان؛ لأن الأول التساوى فى الماصدق دون المفهوم كالإنسان والناطق، والثانى التساوى فيهما، فعبارته شاملة لهما إلا أن ما بعده أقرب إلى الأول، فمعناهما كل من أوحى إليه بشرع.

(وأصله من الإنباء وهو الإعلام) والإرسال فيه إعلام أيضًا؛ لأنه إنما أرسل لذلك، فهما متساويان واختلف مفهومهما وترك بيانه للعلم به مما قبله، ولا يرد عليه أن الإعلام أعم لأنه قد يعلمهم بما لم يرسل به من نبوته، وكذا قوله: إن الآية لا تدل على ما ذكر فإنه من تلقى الركبان.

(واستدلوا) على تساويهما **(بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢])**؛ لأنه علق فعل الإرسال بهما فإذا أرسل النبى لزم أن يكون الرسول نبيا والنبى رسولا، وإليه أشار بقوله: **(فقد أثبت لهما معا الإرسال قال)** المستدل: **(ولا يكون النبى إلا رسولا ولا الرسول إلا نبيا)**، وقيل عليه: إن الآية إنما تدل على أن النبى أعم من الرسول فإنها ترق من ذكر الأخص إلى ذكر الأعم، والحديث الآتى الناطق بزيادة عدد الأنبياء على عدد الرسل يأباه، وإعادة النفى تقتضى المغايرة فما ذكر ممنوع.

(وقيل: هما مفترقان من وجه)، فبينهما عموم وخصوص وجهى، فكل رسول نبى

وليس كل نبى رسولا، فمآله إلى موجبة كلية وسالبة جزئية كما سيأتى بيانه، والمشهور أنه على هذا من أوحى إليه بأمر إلهى أمر بتبليغه أم لا، والرسول من أوحى إليه بذلك وأمر بالتبليغ، وقيل: إنه من كانت له شريعة ناسخة لغيرها، وقيل: من أنزل عليه كتاب وإلى هذا أشار المصنف، رحمه الله تعالى، بقوله: **(إذ قد اجتمعا)** أى النبوة والرسالة **(فى النبوة التى هى الاطلاع)** بتشديد الطاء وتخفيفها أى سكونها **(على الغيب)**. أراد به ما لم يعلمه من أوامر الله تعالى وتشريعه له ما يختص به أو به وبغيره.

(والإعلام) من الله تعالى **(بخواص النبوة)**، أى ما يختص بالنبوة الشاملة للرسالة كالعصمة والوحى بواسطة الملك، أو بدونها كما وقع لموسى، عليه الصلاة والسلام، إذ كلمه الله تعالى قبل إرساله، **(أو الرفعة بمعرفة ذلك)** المذكور من الاطلاع والإعلام، وفى نسخة لمعرفة باللام بدل الباء السببية، **(وحوز درجتها)** أى درجة النبوة العلية، والحوز بحاء مهملة مفتوحة وواو ساكنة وزاء معجمة، وهى حيازتها وتحصليها، وقوله الاطّلاع والإعلام إشارة إلى أنها من النبئ المهموز، وما بعده إلى أنه من النبوة الواوى وهى الرفعة كما تقدم، ولا تكلف فى شىء من كلامه كما توهم.

(وافترقا) أى النبوة والرسالة **(فى زيادة الرسالة)** أى الأمر بالتبليغ المعتبر **(فى الرسول)** دون النبى، **(وهو)** أى الرسالة وذكره مراعاة للخبر، وهو **(الأمر بالإنذار والإعلام)** بما أمر بتبليغه، وهذا القيد المخصوص هو الذى حصل به الافتراق فى ما صدق عليه النبى، ولا مخالفة بينه وبين ما قاله المنطقيون كما قيل؛ لأنهم اعتبروا ذلك فى ما صدقا عليه لا فى المفهوم، وهذا كلام ناش من قلة التدبر، **(كما قلنا)** إشارة إلى ما قرره أولاً.

(وحجتهم) أى دليل القائلين بأن بينهما العموم والخصوص من وجه، وليسا مترادفين مأخوذة **(من الآية نفسها)** التى استدل بها من ذهب إلى القول، فهى عليهم لا لهم **(التفريق بين الاسمين)** يعنى النبى والرسول، فإن العطف وإعادة النفى يدل على تغايرهما، **(ولو كانا شيئًا واحدًا لما حسن تكرارهما فى الكلام البليغ)**، وليس المقام مقام إطناب ولا تأكيد إذ لو كان كذلك حسن التكرار كقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣، ٤] ونحوه.

(قالوا: والمعنى) أن معنى الآية على هذا **(وما أرسلنا قبلك)** أى أوحينا وأعلمنا **(من رسول إلى أمة)** أمر بتبلغيهم ما أرسل به، وفى بعض النسخ من نبى، والأولى أوفق بالنظم وأظهر، **(أو نبى ليس بمرسل إلى أحد)**، فافترقا على هذا التفسير افتراقًا ظاهرًا، وفى كلامه نوع خفاء أراد بعضهم أن يصلحه فأفسده، وفى الآية ترق لأنه ترقى فى النفى بذكر العام بعد الخاص، وفى الإثبات ترقى به على العكس كما تقول: ما فى

الدار إنسان ولا حيوان، ولو عكسته كان ذكر الإنسان بعده لغوًا، فإن قلت: الذى استدل به أولاً تعلق أرسلنا بهما، فإنه يقتضى أن النبى مرسل أيضًا، وما ذكره المصنف لا يدفعه. قلت: وجه دفعه بما ذكر أنه لما اقتضى هذا العطف التغاير لزم تأويل أرسلنا بمعنى يشملهما، أى ما أرسلنا ملائكتنا بوحينا لأحد من نبى أو رسول؛ لأن أرسل متعد بنفسه أو هو من قبيل(١):

وزججن الحواجب والعيونا

ومن زائدة بعد النفى أى ما أرسلنا ولا نبأنا نبيًا فتأمل.

(**وقد ذهب بعضهم**) مجاز من الذهاب، وهو الخروج من مكان إلى آخر. قال فى الأساس: ذهب فلان إلى قول أبى حنيفة إذا أخذ به واتخذه مذهبا. (**إلى أن الرسول من جاء بشرع مبتدأ**)، ولم يكن مقرر الشرع غيره، فشرعه لم يسبق إليه ومبتدأ بفتح التاء صفة شرع ويجوز كسرها على أنه حال من ضمير جاء والأول أولى، (**ومن لم يأت به**) أى بشرع مبتدأ لم يسبق إليه (**نبى غير رسول، وَإِنْ أمِر بالإبلاغ والإنذار**) فبينهما عموم من وجه آخر.

(**والصحيح والذى عليه الجماء الغفير**) بمد الجماء وفى نسخة الجم والمعنى واحد أى الجماعة الكثيرة، والجم بفتح الجيم وتشديد الميم، والغفير بغين معجمة وفاء، وفى الصحاح الجماء الغفير: جماعة الناس يقال: جاؤا جماء غفيرا يمد ويقصر، والجماء الغفير بالمد، وجم الغفير، والجم الغفير، أى جميعا، وأل زائدة، والغفير صفة لازمة للجماء لا يفرد بدونها من الغفر وهو الستر، كأنهم لكثرتهم ستروا وجه الأرض، ومعناه جاءوا جميعا بجملتهم شريفهم ووضيعهم، وهو اسم ينصب كالمصدر، كجاءوا جميعًا وقاطبة، والجم الكثير. ونصبه لأنه اسم وضع موضع المصدر، وقيل: إنه مصدر ولا يلزم نصبه عند الكسائى، وعليه يتمشى كلام المصنف، رحمه الله تعالى، لا على من ألزمه النصب، وليس المراد الجميع بل الأكثر حتى يستشكلها، ويجاب بأنه لم يعتد بغيرهم وصيرهم كالعدم.

(**أن كل رسول نبى وليس كل نبى رسولا**)، وهو صادق القولين الأخيرين فبينهما عموم وخصوص وجهى؛ لأنه يشترط فى الرسول دون النبى أن يؤمر بالتبليغ، أو يكون له شرع جديد، أو أنزل عليه كتاب، والأول هو المشهور؛ ولذا قال المحدثون إذا ورد فى الحديث ذكر أحدهما، أو قال: قال رسوله أو نبيه لا يجوز له أن يبدله من يرويه، وقيل

---

(١) تقدم الاستشهاد به.

إنه لا يلزم ولكنه أولى، وهذا فى غير الأذكار فإنها توقيفية؛ ولذا ورد فى حديث أن بعضهم قال فى بعض الأدعية: آمنت بكتابك الذى أنزلت ورسولك الذى أرسلت، فقال له، صلى الله تعالى عليه وسلم: قل: ونبيك الذى أرسلت. كما فى شرح مسلم، وفيه بحث.

وقيل: الرسول أعم يشمل رسل الملائكة كجبريل، عليه الصلاة والسلام، لكن الكلام إنما هو فى رسل البشر.

وقال صاحب القاموس فى كتاب الصلاة: إن النبى من أوحى إليه بأمر يختص به فى نفسه حتى لا يجوز لغيره أن يتبعه، فإن أمر بتبليغ ما أمر به لأمة مخصوصة أو لجميع الناس فهو رسول، فإن لم يكن له حكم مختص به فهو رسول لا نبى، وإن كان مع التبليغ له ما يختص به كنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، فهو نبى ورسول، فعلى هذا بينهما عموم وخصوص مطلق، وليس كل رسول نبيا. وقال: إنه الحق الذى لا شك فيه، وهو مخالف لكلام المصنف، رحمه الله تعالى.

واعلم أن النبى إن كان من النبأ فهو مهموز، وإن كان من النبوة فغير مهموز كما تقدم، وكلاهما جائز، وبهما قرئ فى السبعة، وأما قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأعرابى قال له: يا نبىء الله أى بالهمزة: لست بنبىء الله ولكنى نبى الله؛ لأن نبأ فى لغة بمعنى خرج من أرضه وطرد، فلإيهامه ذلك منعه.

وورد أيضًا لا تنبئوا باسمى فإنما أنا نبى الله، ومعنى لا تنبئوا لا تهمزوا، وليس فى هذا ما يقتضى منعه على الإطلاق كما قاله ابن سيده.

(وأول الرسل آدم وآخرهم محمد، صلى الله تعالى عليهما وسلم)، ولا ينافى هذا ما فى البخارى فى حديث الشفاعة من أنهم يقولون لنوح، عليه الصلاة والسلام: أنت أول الرسل إلى أهل الأرض؛ لأنهم لم يقولوا: إنه أول الرسل مطلقا، بل أول الرسل إلى أهل الأرض فى عصره؛ ولذا قال فى الدعاء عليهم: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وآدم، عليه الصلاة والسلام، إنما أرسل إلى بنيه، وهم مؤمنون به، وإدريس وشيث، عليهما الصلاة والسلام، لم تعم رسالتهما، وهذا لا ينافى اختصاص نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعموم الرسالة إلى آخر الزمان، فلم تختص بعصر ولا بقوم، وعمت رسالته الإنس، والجن، والملك، كما تقدم.

(وفى حديث أبى ذر) الذى رواه أحمد فى مسنده، وابن حبان، والحاكم فى مستدركه، وسيأتى بطوله **(عنه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أن الأنبياء مائة ألف**

وأربعة وعشرون ألف نبى)، وقد قال الحاكم فى مستدركه: إنه طعن فى بعض رواته، وقيل: إنه منكر، وقال القرطبى: إنه أصح حديث ورد فى عدد الأنبياء والرسل، عليهم الصلاة والسلام، وقيل: إن أصحابه، عليهم الصلاة والسلام، كانوا بهذه العدة أيضًا عند وفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعن كعب الأحبار: إنهم ألفى ألف ومائتى ألف، وعن مقاتل: إنهم ألف ألف وأربعمائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، وقد عرفت أن الأول أصح ما فى الباب.

(وذكر أن الرسل منهم) أى من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(ثلاثمائة وثلاثة عشر أولهم آدم، عليه الصلاة والسلام)**، وقيل: أربعة عشر كعدد أصحاب طالوت، ويوافقه أن أحرف اسم نبينا بالجمل الكبير ثلاثمائة وأربعة عشر، إذ فيه ثلاث ميمات لأن الحرف المشدد بحرفين، ولفظ ميم ثلاثة أحرف فجملتها مائتان وسبعون، ولفظ دال بخمسة وثلاثين، ولفظ حا بتسعة، ففى اسمه الكريم إشارة إلى أن جميع الكمالات الموجودة فى المرسل موجودة فيه ﷺ وزيادة واحد على القول الأول. والحديث الأول طويل أورده الحاكم فى مستدركه كما مر. ونقل البرهان ما فى بعض رواته من الكلام وطويناه لأنه لا ثمرة له هنا.

(فقد بان لك معنى النبوة والرسالة) على الأقوال الثلاثة من الترادف والعموم والخصوص من وجه، أو مطلقا كما فصلناه، **(وليستا)** أى النبوة والرسالة **(ذاتا للنبى عند المحققين)**، أى ليستا أمرا ذاتيا فى الرسول جبلة طبعه الله عليها كالعقل وغيره من الغرائز، وليست النبوة مكتسبة برياضة وتصفية باطن كما ذهب إليه الحكماء، وإنما هى أمر طارئ عليه بإرادة الله تعالى وفضله، والله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته.

(ولا صفة ذات) أى ليست صفة قائمة بذاته موجودة فيه ﷺ قبل الوحى إليه **(خلافا للكرامية)**، فهؤلاء قالوا: إنهما أمران غير الوحى وأمر الله له بتبليغ شريعته، فصاحبهما متصف بهما وإن لم يوح إليه.

أقول: إن أراد هؤلاء أن الله تعالى خلق له نفسا قدسية، وأودع فيها قوى يستعد بها لتلقى الوحى والعلم بربه، وإن سمى النبوة هذا وإن أطلقوها على ما يترتب عليها، وأنه ركب فيه نورا كان يشاهد فى آبائه وينقل فى أصلابهم، وذلك من نعم الله أيضًا كإيجادنا ابتداء، فالأمر فيه سهل، وإلا فهو لغو من القول، والكرامية بتشديد الراء وتخفيفها على القولين وفتح الكاف وكسرها على التخفيف.

قال فى المغرب: أخبرنى صديقى الثقة ابن خولة أن عبد العزيز العرجى ذكر فى

تاريخه هذا الرجل، وهو محمد بن كرام الذى نسب إليه الكرامية، فقال: كرام بوزن حذام وقطام، وقيل: إنه كرام على لفظ جمع كريم، وهو الجارى على ألسنة أهل سجستان وهى بلدته كما قال فيه البستى، رحمه الله:

إن الذين لجهلهم لم يقتدوا بمحمد بن كرام غير كرام
الفقه فقه أبى حنيفة وحده والدين دين محمد بن كرام

فهم منسوبون لمحمد بن كرام بفتح الكاف وتشديد الراء كما قال السمعانى، وقال لأن والده كان يحفظ كرما أو يعمل فيه، وكذا صححه فى الميزان.

وقال ابن الصلاح: إنه لا معدل عنه، وكذا صححه ابن ماكولا والذهبى، وأنكره ابن الهيصم وهو من أهل مذهبه ادعى أنه أدرى كما مر عن البستى، وإنما هو مخفف الراء مع فتح الكاف بمعنى كرم أو كرامة، وبكسرها على لفظ الجمع، وكان صاحب مذهب العقائد وغيرها، وله رواية فى الحديث، وكان يجوز الكذب على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الترغيب والترهيب؛ لأنه له لا عليه، فعليه ما عليه، ومات فى القدس فى صفر سنة خمس وخمسين ومائتين.

(**فى تطويل لهم**) فى بيان مقالتهم وتأييدها، (**وتهويل**) أى تخويف وتقريع لمن عدل عن مذهبهم فى هذا (**ليس عليه تعويل**) أى هو مع ذلك ساقط ضعيف لا يعتمد عليه ولا يلتفت إليه، ويجوز أن يريد بالتهويل تزيين الباطل وزخرفته، ففى القاموس التهويل الألوان المختلفة وزينة النصارى، وهذا أقرب لتسمية المصنف.

(**وأما الوحى فأصله**) أى معناه الحقيقى الذى وضع له أولا (**الإسراع**)، وفى الحديث «إذا أردت أمرًا فتدبر عاقبته، فإن كان شرًّا فَانْتَهِ، وإن كان خيرا فتوحه»(١)، أى أسرع فيه، والهاء للسكت. وقال الأعشى(٢):

مثل ريح المسك ذاك ريحها صبها الساقى إذا قيل تَوَحْ

ويقال أوحى بمعنى أومأ أو تكلم بكلام خفى.

(**فلما كان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يتلقى ما يأتيه من ربه بعجل سمى**) أى ما يأتيه من ربه (**وحيا**) أى متلقى بسرعة، فأطلق عليه المصدر مبالغة، ثم صار حقيقة فى كل ما يوحى إليه (**وسميت الأنواع الإلهاميات وحيا**) كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، (**تشبيها بالوحى إلى النبى**) فى سرعة وقوعها فى القلب، فهو

---

(١) أورده الزبيدى فى الإتحاف (١٦٦/٨)، وعزاه لابن المبارك.

(٢) البيت من الرمل، وهو للأعشى فى ديوانه (٢٩١)، أساس البلاغة (ص٤٩٤) (وحى).

استعارة تحقيقية والإلهام إلقاء أمر فى الروع باعث على الفعل أو الترك.

(وسمى الخط وحيا) على الاستعارة التحقيقية أيضًا أو المجاز المرسل؛ **(لسرعة حركة يد كاتبه)** هو وجه الشبه بينهما **(ووحى الحاجب والملحظ)** هو فى أصل مؤخر العين، ثم أطلق على النظر فيقال: لحظه بعينه وهو هنا مستعار **(لسرعة إشارتهما)** أى حركتهما بسرعة للإشارة بهما.

(ومنه) أى من إطلاق الوحى على الإشارة **(قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾** [مريم: ١١]**، أى أومأ)** بهمزة فى آخره، وقد استعمل منقوصا أيضًا بالألف كأوحى لفظا ومعنى، **(ورمز)** بتخفيف الميم أى أشار بالعين أو بالشفة.

(وقيل) معناه هنا **(كتب)**؛ لأن الوحى يكون بمعنى الكتابة كما تقدم، **(ومنه قولهم)** أى قول العرب (: **الوحاء الوحاء)** بفتح الواو والمد والقصر، ويقال: الوحاك بكاف الخطاب أيضًا كما فى الأساس، وهو منصوب بفعل مقدر للإغراء **(أى السرعة)** والعجلة.

(وقيل: أصل الوحى) لغة **(السر والإخفاء ومنه)** أى من كونه بمعنى الإخفاء **(سمى الإلهام وحيا)**؛ لخفائه، وهو أظهر مما تقدم من أن معناه السرعة.

(ومنه) أى من هذا القبيل **(قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾** [الأنعام: ١٢١]**)**، أى من يوالوهم ويصادقونهم من المشركين **(أى يوسوسون فى صدروهم)** أى يلقون فى قلوبهم، والمراد بالشياطين مردة الجن، والمراد بأوليائهم كفرة قريش، أو مردة الإنس من مجوس هجر وفارس، والوسوسة كالإلهام الإلقاء فى القلب إلا أن الأول يختص بالخير، وهذا بغيره؛ ولذا أتبعه بقوله: **(ومنه)** قوله تعالى: **﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾** [القصص: ٧]، **(أى ألقى)** ببناء المجهول **(فى قلبها)** مناما وإلهاما. وقيل: إنه وحى حقيقى كالوحى للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

(وقد قيل ذلك) التفسير السابق **(فى قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾** [الشورى: ٥١] **أى ما يلقيه فى قلبه دون واسطة)**، والذى رجحوه فى هذه الآية، أن المراد بالوحى فيها المشافهه بكلام الله تعالى لنبينا ﷺ ليلة المعراج، وكلامه لموسى، عليه الصلاة والسلام، وحديث أبى ذر المشار إليه هو هذا.

قال: دخلت المسجد فإذا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، جالس، فجلست إليه، فقلت: بأبى أنت وأمى أمرتنى بالصلاة، فأى الصلاة؟ وقال: «الصلاة خير موضوع استكثر منه أو أقل»، قال: فقلت: فأى الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله، وجهاد فى

سبيل الله»، فقلت: أى المؤمنين أكمل إيمانًا؟ قال: «أحسنهم خلقًا»، فقلت: أى المسلمين أسلم؟ قال: «من سلم المؤمنين من يده ولسانه»، فقلت: أى الهجرة أفضل؟ فقال: «هجر السيئات»، فقلت: أى الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت»، قلت: أى الليل أفضل؟ قال: «جوف الليل الغابر»، قلت: أى الصلاة أفضل؟ قال: «فرض مجزى عند الله، وعند الله أضعاف كثيرة»، قلت: أى الصدقة أفضل؟ قال: «جهد من مقل يصير إلى فقير»، قلت: فأى الرقاب أفضل؟ قال: «أغلاها ثمنا وأنفسها عند أهلها»، قلت: فأى الجهاد أفضل؟ قال: «من هرق دمه وعقر جواده»، قلت: فأى شيء أعظم مما أنزل الله عليك؟ قال: «آية الكرسى، يا أبا ذر، ما السموات السبع والأرضون السبع فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة فى فلاة من الأرض، وفضل العرش على الكرسى كفضل تلك الفلاة على الحلقة»، قلت: بأبى أنت وأمى فكم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا»، قلت: فكم الرسل من ذلك؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير»، قلت: فمن أولهم؟ قال: «آدم»، قلت: نبى مرسل؟ قال: «نعم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، ثم سواه»، قال: «يا أبا ذر أربعة سريانيون، آدم، وشيث، وأخنوخ، وهو إدريس، وهو أول من خط بالقلم، ونوح، وأربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيكم، يعنى نفسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإبراهيم، وسائرهم من بنى إسرائيل، فأول الأنبياء آدم وآخرهم أنا، وأول أنبياء بنى إسرائيل موسى وآخرهم عيسى»، قلت: فكم كتاب أنزله الله تعالى؟ قال: «مائة كتاب وأربعة كتب: أنزل على شيث ابن آدم خمسين صحيفة، وأنزل على أخنوخ ثلاثين صحيفة، وأنزل على إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن»، قلت: فما كان فى صحف إبراهيم؟ قال: «كانت أمثالا كلها، منها: أيها المغرور المسلط، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض، ولكن لترَدَّ عنى دعوة المظلوم، فإنى لا أردها، وفيها: على العاقل ما لم يكن مغلوبًا على عقله أن لا يكون ظاعنًا إلا فى ثلاث: تزود لمعاد، وحرفة لمعاش، ولذة فى غير محرم»(١).

* * *

(فصل)

(اعلم أن معنى تسميتنا ما جاءت به الأنبياء) عليهم الصلاة والسلام **(معجزة هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها)** العجز عند العرب أن لا يقدر على ما يريده. يقال: عجز بفتح الجيم، يعجز بكسرها، ويقال أيضًا بكسر الجيم فى الماضى، وفتحها فى المضارع

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٢٤٣).

كما حكاه الأصمعى وغيره، ويقال: عجزه كذا إذا فاته، وقيل: المعجز فى الحقيقة هو الله خالق العجز فيمن تحدى فلم يقدر على المثل، فإن من خرجت عن مقدورهم لا يتصور فيهم العجز لعدم قدرتهم، وما لهم عليه قدرة لا يتصور عجزهم عنه أيضا، فإن العجز يقارن المعجوز عنه فلو عجزوا وجدت المعارضة منهم و لم توجد، فالمعنى مجازًا امتناع المعارضة وانتفاء القدرة، وحقيقته أن الإعجاز إثبات عجز المرسل إليهم، فاستعير لإظهار العجز وأسند لسببه الذى هو إظهار الخوارق، وجعل اسمًا له، فالتاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية أو للمبالغة كتاء علامة، وفيه بحث لا يخفى.

(وهى) المعجزة **(على ضربين)** أى هى اسم شامل لنوعين مقدور وغير مقدور.

(ضرب هو من نوع قدرة البشر) أى مقدورهم الذى يمكنهم الإتيان بما يماثله من نوعه، **(فعجزوا عنه)** الفاء فصيحة أى فطلب منهم فعجزوا عنه، **(فتعجيزهم عنه)** أى جعلهم عاجزين، والمصدر مضاف لمفعوله أى تعجيز الله إياهم **(فعل الله دل على صدق نبيه)**، أى خلق العجز فيهم ومنعهم عما من شأنهم القدرة عليه، فهو فى قوة قول الله تعالى: صدق عبدى فيما ادعاه، والعادة جارية بأن يقع بعده علم ضرورى بصدقه، **(كصرفهم عن تمنى الموت)** أى منع الله اليهود عن تمنى الموت لما قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، فكذبهم الله تعالى وألزمهم بقوله: **﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾** [البقرة: ٩٤]، أى قل لهم يا محمد إن كنتم أحباب الله تعالى، والجنة مختصة بكم فاطلبوا الموت، فإن من أحب الله أحب لقاءه، ومن كانت داره الجنة يبادر لدخولها، فلم يتمنه أحد منهم ولو بلسانه لصرف الله لهم عن ذلك؛ ولذا ورد ولو تمنوه لم يبق على وجه الأرض يهودى، وسيأتى بيان هذا مطولا فى محله، وهذا أعظم حجة على صدقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما قاله المفسرون، وهذا وإن كان تركا وعدما متضمن لمعنى وجودى وهو السكوت، والخوف ونحوه، فسقط ما قيل: إن المعجزة فعل خارق، وليس هذا من قبيل الأفعال.

(وتعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن على رأى بعضهم) القائل بأن إعجازه بالصرفة أى بصرف من العرب الفصحاء عن معارضته مع تحديه لهم، وتقريعهم بذلك على رؤوس الأشهاد حتى عدلوا عن مجادلة الحروف إلى مجالدة السروف كما هو مشهور معروف، وهذا مذهب النظام وبعض المعتزلة والشيعة، فقيل: صرفهم بأن لم يكن دواعى وبواعث لذلك، وقيل: سلبهم المعارف المركوزة فى طبائعهم من معرفة فنون البلاغة وأساليبها على القولين المشهورين فى الصرفة، والذى عليه الجمهور المحققون أن إعجازه إنما هو بما

تضمنه من الفصاحة والبلاغة، وغرابة الأساليب، وبلاغة التراكيب وجزالتها، وأنواع البديع، ومطابقة المقامات، وبدائع الفواتح والمقاطع، وروائع الاستعارات إلى غير ذلك مما خرج عن طوق البشر، وبلغ إلى ذروة لاتصل إليها خطى الأفكار مع حلاوة وطلاوة تعين السامع إلى غير ذلك مما قرروه.

وقيل: إعجازه بما فيه من المغيبات، وقيل: بجميع ذلك، والأقوال معروفة مقررة فى الأصول والمعانى وغيرها من كتب السلف، **(ونحوه)** مما نوعه مقدور لهم.

(وضرب) من المعجزة **(هو خارج عن قدرتهم)** إذ تحداهم به، **(فلم يقدروا على الإتيان بمثله كإحياء الموتى)** الذى وقع لإبراهيم ولعيسى، عليهما السلام، فما قيل أن ما كان بدعاء عيسى، عليه السلام، معجزة له إنما كان من الله لأمته بشهادة ﴿وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]، لا جه له، وهذا أيضًا مما وقع لنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما وقع لأبويه على الصحيح.

(وقلب العصا حية) معجزة لموسى، صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى نبينا وسلم، وسيأتى أنه ما من معجزة لنبى من الأنبياء إلا ولنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، مثلها وزيادة.

(وإخراج ناقة من صخرة) بلا واسطة وأسباب معتادة معجزة لصالح، عليه الصلاة والسلام، لما اقترح عليه جندع بن عمرو سيد قومه أن يخرج لهم من صخرة اسمها كاتبة ناقة عشراء، فصلى ودعا ربه فتمخضت تمخض النتوج بولدها، فانصدعت عن ناقة عشراء وهم ينظرون، ثم نتجت مثلها فى العظم، فآمن جندع فى جمع من قومه، وتمادى غيرهم فى الكفر حتى عقروا الناقة فأخذتهم الرجفة.

(وكلام الشجرة)، وفى نسخة الشجر، وهذا مما وقع لنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومثله حنين الجذع المشهور.

(ونبع الماء من الأصابع) أى من بين أصابعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا مما وقع له ﷺ أيضًا كما سيأتى، ولله در البوصيرى فى قصيدة عارض بها بانت سعاد حيث قال[1]:

ومنبع الماء عذب من أصابعه   وذاك صنع به فينا جرى النيل

(وانشقاق القمر) معجزة له، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى صار فلقتين يشاهده الناس، وقد ثبت هذا فى الأحاديث الصحيحة، وروى من طرق متعددة خرجها

---

(١) البيت من البسيط، وهو فى ديوان البوصيرى (ص١٥٥).

السيوطى، وبه فسر قوله تعالى: ﴿أَقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، ولعل النوبة تقضى لفصيله، وهذا النوع كله وأمثاله **(مما لا يمكن أن يفعله أحد إلا الله)** عز وجل، **(فيكون)** إجراء **(ذلك)** الذى لا يفعله إلا الله **(على يد النبى)** أى وقوعه من نبى من أنبيائه بحسب الظاهر فعله، وهو فى الحقيقة **(من فعل الله تعالى)** الذى أظهره على يده بقدرته، **(وتحدّيه)** بتشديد الدال مصدر مضاف للفاعل، وهو ضمير النبى، ويجوز عوده على الله لأمره به، وهو طلب المعارضة والإتيان بمثله كما تقدم، وهو مبتدأ.

وقوله: **(من يكذبه)** مفعوله قوله: **(أن يأتى بمثله)** بتقدير الجار، أى لأن يأتى بمثله، أو بدل من تحديه أو خبر، وقوله: **(تعجيز له)** خبر بعد خبر أى يظهر عجزه عن ذلك.

(واعلم أن المعجزات) جمع معجزة، وقيل: جمع معجز لأنه لما لم يعقل **(التى ظهرت على يد نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وصدرت منه، **(ودلائل نبوته وبراهين صدقه)** عطف تفسير له كانشقاق القمر ونحوه مما تقدم مما لا يحصى **(من هذين النوعين معًا)** خبر أن أى بعضها مقدور وبعضها غير مقدور كالقرآن ونحوه.

(وهو) أى نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أكثر الأنبياء معجزة)** منصوب على التمييز، أى معجزاته أكثر من معجزات سائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(وأبهرهم آية)** تمييز، والآية المعجزة لأنها علامة للنبوة، وأبهر أفعل تفضيل من بهر بمعنى ظهر أو غلب. يقال: بهر القمر فهو باهر إذا ملأ الأرض، ومن ذلك قول عمر بن أبى ربيعة:

ثم قالوا تحبها قلت بهرًا ... عدد الرمل والحصى والتراب(١)

وفيه وجوه ذكرها الأدباء، فالمعنى أن معجزاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، أكثر وأظهر وأقوى، **(وأظهرهم برهان)** هذا أعم مما تقدم؛ لأن البرهان وهو الدليل القاطع أعم من المعجزة، ويجوز أن يريد المعجزة أيضًا، **(كما سنبينه)** فى آخر هذا الباب، وفى قوله: أكثر وأظهر ما يدل على أن سائر الأنبياء أتت بدلائل ومعجزات وبراهين، ومعجزات نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، وبراهينه أقوى وأظهر، وأنها تسمى بذلك كما تسمى به آيات نبينا، وقد أطلق عليها آية وبرهان إلا أنه لم يطلق عليها فى القرآن معجزة. قيل: ولا فى السنة.

---

(١) البيت من الخفيف، وهو فى ديوان عمر بن أبى ربيعة (ص٤٣١)، الأغانى (٨٧/١)، لسان العرب (٨٢/٤) (بهر)، مغنى اللبيب (ص١٥)، جمهرة اللغة (ص٣٣١)، أمالى المرتضى (٢٨٩/٢)، شرح أبيات سيبويه (٢٦٧/١)، الدرر (٦٣/٣)، شرح المفصل (١٢١/١)، شرح شواهد المغنى (ص٣٩).

والمعجزة مخصوصة بالأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وخوارق الأولياء تسمى كرامة، وقد يطلق عليها، وأطلق عليها المعجزة أيضًا الإمام أحمد بن حنبل وأباه غيره.

(وهى) أى معجزاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى كثرتها لا يحيط بها ضبط)** أى لا يحيط بها حصر وعدد أو حفظ؛ لأن الناس يطلقونه على هذا تجوزا من الضبط بمعنى الأخذ باليد، والحفظ بمعنى الصيانة، وأما إطلاقهم الضابط على القاعدة الكلية فمولد من كلام المصنفين، ووجه التجوز فيه إحاطته بأفراده؛ ففى كلامه استعارة مكنية وتخييلية، ولم يتعرض له فى الأساس.

ثم بين ذلك بقوله: **(فإن واحدًا منها)** أى معجزة واحدة من جملة معجزاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وهو القرآن)**، فإنه بجملته معجزة وكذا آياته وسوره قال الإمام مجد الدين فى نهاية العقول: التحدى وقع مرة بالقرآن كقوله تعالى: ﴿**قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ**﴾ [الإسراء: ٨٨]، ومرة بعشر سور كقوله تعالى: ﴿**بِعَشْرِ سُوَرٍ**﴾ [هود: ١٣]، ومرة بسورة كقوله تعالى: ﴿**فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ**﴾ [البقرة: ٢٣]، ومرة بآية كقوله: ﴿**فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ**﴾ [الطور: ٣٤]، وذلك نهاية التحدى، وهو كقول الرجل لمن يفاخره: هات قوما كقومى، هات كنصفهم، هات كربعهم، هات كواحد منهم انتهى.

وإلى هذا أشار المصنف، رحمه الله تعالى، بقوله: **(لا يحصى)** أى لا يعد ويضبط، وكانوا يعدون ما كثر بالحصى، ثم استعمل فى مطلق العدد، ولذا قال الأعشى(١):

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العدة للكاثر

(عدد معجزاته) أى معجزات القرآن **(بألف ولا ألفين)** لما فى كل آية من الإعجاز، **(ولا أكثر)** من ذلك لما فى ألفاظه من البلاغة وفنونها، كالتوكيد والتلميح والتشبيه والاستعارة والإيجاز وحسن الفواتح والخواتم والفواصل إلى غير ذلك مما لا يحصى؛ **(لأن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قد تحدى بسورة منه)** أى طلب مثلها من بلغاء قريش، **(فعجز عنها)** فاعل عجز من تحداه المعلوم مما قبله، أو هو مبنى للمجهول وهو أولى.

---

(١) البيت من السريع، وهو للأعشى فى ديوانه (ص١٩٣)، الاشتقاق (ص٦٥)، أوضح المسالك (٢٩٥/٣)، خزانة الأدب (١٨٥/١)، الخصائص (١٨٥/١ - ٢٣٦/٣)، شرح التصريح (١٠٤/٢)، شرح شواهد الإيضاح (ص٣٥١)، شرح شواهد المغنى (٩٠٢/٢)، شرح المفصل (١٠٠/٦، ١٠٣)، لسان العرب (١٣٢/٥)، مغنى اللبيب (٥٧٢/٢)، المقاصد النحوية (٣٨/٤)، نوادر أبى زيد (ص٢٥)، وبلا نسبة فى جمهرة اللغة (ص٤٢٢)، خزانة الأدب (١١/٢)، شرح الأشمونى (٣٨٦/٢)، شرح ابن عقيل (ص٤٦٥).

(قال أهل العلم) بالقرآن وبلاغته: **(وأقصر سورة)** من القرآن، وهو منون أو هو جمع مضاف لضميره ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] سميت بجزئها هذا كما تسمى سورة الكوثر لذكره فيها؛ لأنها ثلاث آيات، وسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] كذلك، وسورة النصر إلا أن حروف هذه أقل منهما **(فكل آية)** طويلة من القرآن بعدد حروفها ومقدارها، **(أو آيات منه)** أى القرآن **(بعددها)** أى بعدد الكوثر آيات وحروفا وكلمات، **(وقدرها معجزة)** للبلغاء عن معارضتها لما فيها من البلاغة، وهذا بيان أقل مراتب الإعجاز فيه، ومنه يعلم كثرته، **(ثم فيها نفسها)** أى فى سورة الكوثر **(معجزات)** كثيرة **(على ما سنفصله)** نبينه تفصيلا **(فيم انطوى)** أى اشتمل القرآن **(عليه من المعجزات)** التى لا تحصى ولا تحصر.

(ثم معجزاته ﷺ على قسمين) أى علم، واستقر انقسامها انقسام الكلى إلى جزئياته، فشبه استقرارها باعتلاء الراكب على مركوبه؛ لأنها إما أن تعلم علما يقينيا قطعيا أو لا، فالأول **(قسم منها علم قطعًا ونقل إلينا تواترًا كالقرآن، فلا مرية)** بكسر الميم وضمها، وسكون الراء المهملة ومثناة تحتية، وهى الشك والتردد كما تقدم بيانه، **(ولا خلاف بمجىء النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، به)** الباء الأولى بمعنى فى، والثانية صلة المجىء، **(و)** لا خلاف ولا مرية فى **(ظهوره من قبله)** بكسر القاف وفتح الباء الموحدة، ومعناه جهته وجانبه كما سيأتى فى قوله: من قبل الله على ما فيه، **(واستدلاله)** أى استدلال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، على صدقه ونبوته **(بحجته)** الإضافة بيانية أى بحجة هى القرآن، **(وإن أنكر هذا)** المذكور الذى لامرية فيه **(معاند جاحد)** أى منكر له عنادا مع علمه به، **(فهو كإنكاره وجود محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الدنيا)**، وهو سفسطة وإنكار للمحسوسات التى لا تسمع، ولا يصدر من عاقل، **(وإنما جاء اعتراض الجاحدين)** إشارة إلى أن إنكارهم لما علموا خلافه **(فى الحجة به)** أى الاحتجاج به، وأنه كلام الله كقول المشركين: هذا سحر مبين، وأساطير الأولين، وما أنزل الله على بشر من شىء إلى غير ذلك.

(فهو) أى القرآن **(فى نفسه)** أى فى كلامه المفرد، **(وجميع ما تضمنه)** واشتمل عليه **(من معجز)** أى من كل أمر معجز كالبلاغة والإخبار عن المغيبات **(معلوم ضرورة)** علما ضروريا لمن كان من أهل البلاغة؛ ولذا قال الوليد بن المغيرة لما سمعه: إن له حلاوة، وعليه طلاوة، وأسفله مغدق، وأعلاه مثمر، وما هو من كلام البشر كما يأتى بيانه.

والفضل ما شهدت به الأعداء

(فوجه إعجازه معلوم ضرورة) عند أهل اللسان لا عند كل أحد؛ لما فيه من فنون

البلاغة **(ونظرًا)** أى استدلالا عند غيرهم، أو لافتقار بعض وجوهه إليه، **(كما سنشرحه)** ونبينه قريبا.

(قال بعض أئمتنا) أى علماء الحديث والتفسير لا المالكية إذا لا اختصاص لما ذكر بمذهب (: **ويجرى هذا المجرى)** بفتح الميم اسم مكان أو مصدر ميمى، أى يقارب ما تقدم ويشبهه؛ لأن ما جرى فى مجرى شىء ساواه **(على الجملة)** أى إجمالا من غير تفصيل لوجه المشابهة، وفاعل يجرى **(أنه قد جرى على يديه)** أى صدر منه **(صلى الله تعالى عليه وسلم، آيات وخوارق عادات)** عطف تفسيرى، أو من عطف الخاص على العام، والأول أولى **(إن لم يبلغ)** أى يصل **(واحد منها معينا)** اسم مفعول حال من النكرة لوصفها، ولو رفع كان أولى **(القطع)** والجزم مفعول يبلغ، **(فيبلغه جميعها)** أى مجموعها، وهذا يسمى التواتر المعنوى كشجاعة على وزهد الحسن البصرى، فإن كل حال من أحوال هؤلاء لم يبلغ مبلغ التواتر، ومجموعها إجمالا بلغ ذلك بحيث لم يبق شبهة فيه كتذليله الجبائرة مما شاهدوه من خوارق عاداته وانقياد الملوك له وغير ذلك، **(فلا مرية فى جريان معانيها على يديه)** مشهورة ناطقة بتصديقه شاهدة برسالته، **(ولا يختلف مؤمن ولا كافر)** من الأمم السالفة **(أنه)** أى نبيهم قد **(جرت على يديه عجائب)** أى أمور خارقة للعادة حيرت أبصارهم وألبابهم حتى يتعجب المتعجب منها، **(وإنما)** وقع **(خلاف المعاند فى كونها)** أى تلك العجائب صادرة **(من قبل الله)** بكسر القاف، وفتح الباء، أى من المبدأ الفياض المبدع البدائع، **(وقد قدمنا)** أولا **(كونها)** بيان كون العجائب **(من قبل الله، وأن ذلك بمثابة قوله)** أى الله عز وجل لرسوله: **(صدقت)** فى نبوتك وما ادعيته، ومعنى مثابته منزلته وفى حكمه مفعلة من أثابه كذا إذا عوضه، ومنه الثواب بالثاء المثلثة لجزاء الطاعة، والجاحد العنيد يزعم تارة أنه سحر وكهانة وأن ما سمع من كلام الشجر والجماد كلام جن سخرها إلى غير ذلك من الخرافات التى صاروا إليها، فأصبحوا بها سخرة. إذا عرفت هذا.

(فقد علم وقوع مثل هذا) الذى وقع للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، والأمم السالفة مما علمه كل مؤمن وكافر وبر وفاجر **(أيضًا)**، كما وقع لأولئك **(من نبينا محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، ضرورة)** أى علم علما ضروريًا متواترًا تواترًا معنويًا؛ **(لاتفاق معانيها)** أى لتوافقها كلها فى معنى واحد، **(كما يعلم ضرورة جود حاتم)** الطائى وشهرته تغنى عن ذكره، فأخباره فى الجود مشهورة أيضًا، وكان فى الجاهلية قريبًا من مبعثه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأدرك ابنه عدى الإسلام، وكان من كبار الصحابة، رضى الله تعالى عنهم.

(وشجاعة عنترة) بالهاء، ويقال له عنتر أيضًا، وهو عنترة بن معاوية بن شداد القيسى، وهو علم منقول من عنتر وهو نوع من الذباب أزرق، ونونه اختلف فى زيادتها، وهو من فرسان العرب وفصحائهم المشهورين.

(وحلم أحنف) بن قيس التميمى أدرك الإسلام وأسلم، لكنه لم ير النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو من كبار التابعين، وأحنف بفتح الهمزة وسكون الحاء المهملة معناه مائل الرجل، وله كلمات من الحكم مشهورة فى كتب، وعنه فى الحلم حكايات عجيبة، وكان من المعمرين.

ثم وضح ذلك على طريق اللف والنشر المرتب فقال: **(لاتفاق الأخبار الواردة)** أى المروية **(عن كل واحد منهم)**، ثم أبدل من قوله عن كل واحد قوله: **(على كرم هذا)** يعنى حاتما، **(وشجاعة هذا)** يعنى عنترة، **(وحلم هذا)** يعنى أحنف وأشار بهذا لقرب ذكرهم وحضورهم فى الذهن، **(وإن كان كل خبر)** من أخبار هؤلاء الثلاثة **(بنفسه)** أى وحده **(لا يوجب العلم)** القطعى.

(ولا يقطع بصحته)؛ لعدم تواتره بانفراده، وإنما المتواتر ما يحصل من مجموعها كالكرم والشجاعة والعلم، والحاصل أن ما جرى على يديه، صلى الله تعالى عليه وسلم، تواتر تواترًا معنويًا لا لفظيًا حقيقيًا، والمعنوى هو حصول العلم القطعى من مجموع أمور جزئية، وأخبار واردة مستفيضة، كما إذا أخبر واحد بأن حاتما أعطاه دينارًا، وآخر بأنه أعطاه بعيرًا، وآخر بأنه وهبه غنمًا، وآخر بأنه كساه، وآخر بأنه ذبح له فرسه، فقد اتفقوا كلهم على مطلق الإعطاء، والتواتر الحقيقى أن يخبر جماعة عن جماعة إلى آخره يؤمن تواطؤهم على الكذب فى خبر واحد متفق اللفظ والمعنى، وكلاهما يفيد علمًا ضروريًا عند سماعه من غير حاجة إلى نظر واستدلال بشروط مقررة فى الأصول خلافًا لإمام الحرمين والرازى؛ فإنه عندهما يفيد علمًا نظريًا لتوقفه على مقدمات أخر، ولا يشترط فيه عدد مخصوص والإسلام.

(والقسم الثانى) من المعجزات **(ما لم يبلغ مبلغ الضرورة والقطع)** عطف تفسيرى، أى لم يصل إلى مرتبته، **(وهو على نوعين نوع مشتهر منتشر)** أى له شهرة وشيوع بين الناس، ويسميه المحدثون مشهورًا ومستفيضا **(رواه العدد)** الكثير، **(وشاع الخبر به عند المحدثين)** الحفاظ الذين رووه، وهو لا يبلغ رتبة المتواتر المفيد للعلم الضرورى ولا النظرى، وذهب بعض الأصوليين إلى أنه يفيد العلم القطعى. وقيل: إنه يفيد العلم النظرى، والمشهور أنه يفيد الظن، ولابد أن تكون شهرته عن أصل ورواية، فإن اشتهر لا عن أصل، وهو المسمى بالمشهور على الألسنة لم يعتد به المحدثون ما لم يعلم أصله،

فإن علم ذلك تقوى بشهرته فى الجملة، **(والرواة ونقلة السير)** جمع ناقل بفتحتين ككاتب وكتبة، والسير جمع سيرة كما مر وهى أخبار المغازى، **(والأخبار)** عطف تفسيرى، **(كنبع الماء من بين الأصابع)** أى أصابعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وتكثير الطعام)** الذى رواه أنس وغيره كحنين الجذع، وكلام الضب والذراع الذى رواه الشيخان وغيرهما.

(ونوع منه) لم يشتهر و لم ينتشر بل **(اختص به)** رواية **(الواحد والاثنان، ورواه العدد اليسير)** أى القليل، **(ولم يشتهر اشتهار غيره)** كالقسم الأول، والنوع الأول من القسم الثانى، ويسمى عزيزا وهو لا يفيد العلم إلا بقرينة كما فى جمع الجوامع، وقيل: لا يفيده مطلقا، وقال أحمد: إنه يفيد العلم مع عدالة راويه لوجوب العمل به، ولو لم يفده لم يجب العمل به، وله أدلة مذكورة مع الجواب عنها فى الأصول، **(لكنه إذا جمع إلى مثله)** من أحاديث المعجزات **(اتفقا فى المعنى)** من أصل الإعجاز وثبوته، كما أشار إليه بقوله: **(على الإتيان)** أى إتيان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بالمعجز كما قدمنا)** من جريانها على يد، وانضمام بعضها إلى بعض المقوى له.

(قال القاضى أبو الفضل) عياض المصنف **(رضى الله تعالى عنه: وأنا أقول صدعا بالحق)** تقديم المسند لإفادة التقوية، ويجوز إرادة الحصر لانفراده بعبارته المخصوصة، ومجموع ما قاله، وقوله صدعا أى صادعا صدعا فهو حال، أو مفعول لأجله، أو مطلق لمقدر أو لأقول؛ لأنه بمعناه كقوله: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، مستعار من صدع الزجاج ونحوه من الأجرام الصلبة؛ لإظهار الحق والجهر به كأنه يصدع قلبه، أو يصدع شبهته ويبطلها، أو من انصداع الفجر لظهوره، ويقال للفجر: صديع لهذا (: **إن كثيرًا من هذه الآيات)** والمعجزات **(المأثورة عنه)** أى المروية عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(معلومة بالقطع)**؛ لتواترها حقيقة أو معنى.

(أما انشقاق القمر) أى معجزاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بانشقاق القمر له بمكة حين سأله كفار قريش آية غير ما جاء به أولاً فأراهم ذلك، فهى ظاهرة باهرة، **(فالقرآن نص بوقوعه)** أى صرح به فى قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وقرئ وقد انشق أى اقترب، وقد حصل من آيات اقترابها انشقاقه، ولتضمنه معنى صرح عداه بالباء، وإلا فهو متعد بعلى، فقد تواتر ذلك لفظًا على القراءة المشهورة، ومجيئه بقد يأتى تأويله بأن معناه أنه سينشق إذا قامت القيامة، والتعبير عنه بالماضى لتحقيق وقوعه، فهو استعارة تبعية وقرينتها اقترانها بلفظ الساعة، فلا يرد عليه أنه ليس معه قرينة تصححه كما توهم إلا أنه لا يدفع كونه خلاف الظاهر، **(وأخبر بوجوده)** فى

هذه الآية، وقراءة انشق تؤيد التأويل فقد تعارضا، ويرجح الأول أنه الأصل والمتبادر منه، (**ولا يعدل عن ظاهر**) بالتنوين، أى عن ظاهر القرآن (**إلا بدليل**) قوى يقتضى العدول عنه وتأويله بما تقدم، وقولهم: إنه لو وقع شاهده الناس كلهم يرده أنه آية ليلية قد تخفى على بعض الناس، (**وجاء برفع احتماله صحيح الأخبار**) أى احتمال خلاف الظاهر ورد فى الأخبار الصحيحة ما يرفعه ويدفعه كما سيأتى (**من طرق كثيرة**) تؤيد حمل الآية على ظاهرها، لاسيما وقد روى فى الصحيحين.

وقد قال خاتمة الحفاظ ابن حجر: إن ما روى فى الصحيحين يفيد علمًا نظريًا وإن لم يتواتر، وقد صرح بهذا قبله أبو إسحاق الإسفرائنى والحميدى وأبو الفضل بن طاهر، فإن احتف به قرائن وورد من طرق أخر زاد قوة، وبلغ العلم المستفاد مرتبة تقرب من القطعى، ثم أشار إلى أنه لا يتلفت لخلاف من خالف فى مثل هذه المطالب، فقال: (**فلا يوهن**) بالتخفيف والتشديد أى يضعف (**عزمنا**) أى ما عزمنا عليه، وقصدناه جزمًا من إثبات هذه المعجزات، وحمل النصوص الواردة بها على ظاهرها من غير تأويل (**خلاف أخرق**) بالإضافة أى مخالفة أحمق، وأصله الذى لا يحسن العمل بيده كأنه يخرق ما يريد زيفه.

وقال الثعالبى فى فقه اللغة فى أنواع الحمق: أولها أحمق، ثم أبله، فإن كان معه عدم الرفق فهو أخرق، فالحاصل أن المخالف فى مثله جاهل لا دراية له ولا معرفة بالأحاديث، ثم وصف ذلك المخالف بقوله: (**منحل عرى الدين**)، فهو بالجر صفة أخرق، أى هو مع جهله قليل الدين ضعيفه؛ لعدوله عن ظاهر النصوص وتشبثه بأذيال الشبه، وعرى بضم العين وفتح الراء المهملتين وألف مقصورة جمع عروة، وهى ما يعقد فى الحبل ليتمسك به. وقال الراغب: العرا مقصور الناحية، ومنه العروة هو ما يتمسك به قال الله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وهو على طريق التمثيل، انتهى.

فإن شبه الدين بالعروة، فهو من إضافة المشبه للمشبه به كلجين الماء، وإن شبه بالحبل للتوصل به لما يعلو كما فى الحديث: «كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض»، فإن الحبل مستعار فى كلام العرب، كقوله: إنى بحبلك واصل حبلى، فهو استعارة مكنية وتخييلية، والمراد أنه غير متمسك بالدين.

(**ولا يلتفت إلى سخافة مبتدع**) الالتفات الانحراف للنظر إلى شىء، ثم صار كالنظر كناية عن الرعاية بلطف وإحسان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧]، والسخافة أصلها عدم إحكام النسج، ثم تجوز به عن قلة العقل،

فيقال: هو سخيف العقل لمن عقله وفكره غير قوى، والمبتدع مرتكب البدع وهو المحدث على خلاف الشرع.

وقوله: (**يلقى الشك على قلوب ضعفاء المؤمنين**) إشارة إلى ما هو من شأن أهل االبدع من إلقائهم الشبه والمشككات على ضعفاء العقول من المؤمنين، وخصهم بذلك لأن غيرهم لا يقبل مثل هذه الآراء الواهية، وأما ضعيف العقل فقد يأخذ بأقوالهم فيتبعهم ويفتتن، (**بل يرغم بهذا أنفه**) أى يرد ما قاله ويظهر جهده وسخافة عقله حتى يفتضح ويذل ويخزى؛ لأن أصله أن يلصق أنفه بالرغام وهو التراب، فتجوز به عن الإذلال والتسخير وكنى به هنا عما فسرناه به، وهذا إشارة إلى ما ذكر من النقول الصحيحة التى لا تصرف عن ظاهرها بغير دليل.

(**وينبذ بالعراء سخفه**) النبذ بنون وموحدة وذال معجمة يقال نبذه ينبذه كضربه يضربه إذا طرحه وألقاه، والعراء بالمد المكان الخالى الذى لا سترة فيه، وبالقصر الناحية ويقال عراه إذا قصده، وسخفه قلة عقله ودينه، ونبذ سخفه بالعراء أى ألقاه فى مكان خال عن الناس، وهو عبارة عن إبطاله بالكلية، وهذا أبلغ من عدم الالتفات الذى هو معنى الإعراض وعدم الاعتداد بالشىء، فهذا ترق؛ لأن الأول يكون مع استماعه وحضوره عنده، وهذا إبعاد له لرميه بالفلاة، ولا تكرار فى كلامه، وتفسيره بإهماله مهمل لا يلتفت إليه، وحاصله أن انشقاق القمر فى الآية على ظاهره؛ لوروده فى الأحاديث الصحيحة من طرق متعددة، فمن حمله على أن المراد أنه سينشق إذا قامت القيامة يوم تشقق السماء لم يأت بشىء، وإن ارتضاه جمع؛ لأنه لو وقع شاع وزاع وملأ الأسماع؛ لأنه آية عظيمة، وقيل: معناه ظهر الأمر؛ لأن العرب تضرب المثل بالقمر لما وضح كما قال التسترى فى لامية العرب:

فقد حمت الحاجات والليل مقمر وشدت لطيات مطايا وأرحل

وقيل: معناه انشقاق الظلم عنه بطلوعه كما يقال: انفلق الصبح وانشق كما قال النابغة:

فلما أدبروا ولهم دوى دعانا عند شق الصبح داعى

والداعى لهم على هذا عدم الوقوف على ما ورد فى السنة، وإلفهم لأقوال الحكماء الذاهبين إلى امتناع الخرق والالتئام فى الأجرام الفلكية، ونحوه من الخرافات الفلسفية.

(**وكذلك قصة نبع الماء**) من بين أصابعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**وتكثير الطعام**) القليل ببركة وضع يده الشريفة فيه. (**رواها**) أى القصة (**الثقات**) من حفاظ المحدثين،

(والعدد الكثير عن الجم الغفير) تقدم معناه مفصلا ويأتى أيضًا مع زيادة **(عن عدد الكثير من الصحابة)**، كالشيخين عن أنس، رضى الله عنه، والبخارى، عن ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، قيل: استعمل الجم الغفير مجرورا بالحرف، والذى فى كتب العربية أنه لازم النصب، وجوز بعضهم رفعه كما تقدم ولا وجه له؛ لأن من لم يقل بلزوم نصبه يجوز جره أيضًا إذ لا مانع منه.

(ومنها) أى رواية قصة تكثير الماء والطعام **(ما رواه الكافة عن الكافة)** أى ما رواه جماعة عن جماعة، ومثل هذه العبارة من تعريف كافة وجره وقع فى كلام كثير من العلماء والفصحاء، وقد خطأهم فيه الحريرى فى درة الغواص، وتبعه صاحب القاموس وغيره بناء على أنه يلزم تنكيرها ونصبها، وقد صرح به كثير من النحاة.

قال فى القاموس: لا يقال: جاءت الكافة؛ لأنه لا يدخلها أل ولا تضاف، ووهم الجوهرى، وقد بسطنا الكلام عليه فى شرح الدرة، وبينا أنه مردود رواية ودراية، فإنه سمع فى كلام العرب، فإن أردت معرفة ذلك فانظره، **(متصلاً عن من حدث بها)**، أى بتلك القصة، **(من جملة الصحابة وأخبارهم)**، بفتح الهمزة وكسرها مرفوع معطوف على قوله ما رواه، **(أن ذلك)**، بفتح الهمزة، أى بأن إلى آخره، ويجوز كسرها، **(كان فى موطن)**، بمعنى محل، فأصله محل التوطن.

(اجتماع الكثير منهم فى يوم الخندق) بالمدينة، وهو بفتح الخاء المعجمة، وسكون النون، وفتح الدال المهملة، وقاف، وهو فارسى معرب كنده بمعنى الحفر، والمراد غزوة الخندق، وتسمى غزوة الأحزاب؛ لاجتماع أحزاب المشركين واليهود بها حول المدينة، فأمر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بحفر خندق حول المدينة، أشار عليه سلمان الفارسى، رضى الله تعالى عنه، ولم يكن ذلك معروفًا عند العرب، وإنما هو من مكائد الفرس، وكان ذلك فى شوال، وقيل: فى ذى القعدة سنة أربع أو خمس من الهجرة النبوية، وقد فصلوها فى السير.

(وفى غزوة بواط)، بضم الباء وفتحها، وهو اسم جبل من جبال جهينة، بينه وبين المدينة أربعة برد بقرب رضوى، وهو جبل أيضًا، وهى التى ظفر فيها النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعير قريش سنة اثنين، ولم يكن بها حرب أيضًا، وبواط قيل: فيه الصرف وعدمه، والظاهر الأول، وأشار بالأول إلى قصة جابر، رضى الله تعالى عنه، لما دعا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعناق ذبحها مع صاع من شعير خبزه، فأتاه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومعه ناس كثير، وكان دعاه وحده، فأكلوا وشبعوا، وفضل ذلك الطعام، وكانوا نحو ألف، وبالثانى إلى قصة بواط، وهى أنه وضع عنده،

صلى الله تعالى عليه وسلم، ماء قليل للوضوء، فقال لجابر: «ادع الناس»، فلما أتوا وضع يده الشريفة فى الماء، فنبع الماء من بين أصابعه حتى توضئوا كلهم، كما سيأتى.

(وعمرة الحديبية)، بالجر عطف على المجرور بفى قبله، والحديبية مصغر كدويهية اسم مكان، أو بئر فيه قريبة من مكة، سميت بشجرة حدباء فيها، وهى التى وقع تحتها بيعة الرضوان، وهى بتخفيف الياء الثانية على الصحيح وشددها بعضهم، وإليه ذهب كثير من المحدثين، وكانت فى سنة ست، والآية التى كانت فيها أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، خرج من المدينة معتمرًا، فلما وصل إليها صده المشركون عن البيت، وكان بين يديه ركوة، فتوضأ منها وماء البئر قليل جدًّا نزعه الناس، وشكوا العطش إلى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فنزع سهمًا من كنانته وأعطاه لناجية بن عميرة، فغرزه فى البئر، فجاش ماؤها، وجاءت جارية من الأنصار معها دلو، فأقبلت به على ناجية وهو فى القليب، وقالت منشدة:

يا أيها الماتح دلوى دونكا إنى رأيت الناس يحمدونكا
يثنون خيرًا ويمجدونكا أرجوك للخير كما يرجونكا

إلى آخر ما فصل فى السير، وسيأتى بتمامه.

(وغزوة تبوك)، فى السنة التاسعة من هجرته، عليه الصلاة والسلام، أو السابعة، وهو اسم موضع بين الشام والمدينة غير مصروف، سميت بعين ماء بها، أمرهم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن لا يمسوا ماءها، فسبق رجلان بسهمين جعلاهما فيها ليكثر ماؤها، فزجرهما رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال لهما: «مازلتما تبوكانها»، أى تحفرانها، ليخرج ماؤها، وأشار المصنف إلى آية فيها، رواها أبو هريرة، رضى الله تعالى عنه، وهى أن الناس أصابتهم مجاعة، فقال عمر، رضى الله تعالى عنه: يا رسول الله، ادع بفضل الأزواد، فدعا بنطع وبسطه، ودعا بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يجىء بكف من ذرة، والآخر بكف من تمر، والآخر بكف من شعير، فجمع ذلك وبرك عليه، ثم قال: «خذوا»، فأخذوا فى أوعيتهم حتى ما بقى فى العسكر وعاء إلا ملئوه وأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة، وعقد المصنف، رحمه الله تعالى، لكل آية فصلاً كما سيأتى.

(وأمثالها من محافل المسلمين)، مجرور معطوف على موطن، والضمير للغزوات المذكورة، والمحافل جمع محفل، من حقل القوم، إذا اجتمعوا وكثروا، وقيل: المحفل مجمع الرجال، والمأتم مجمع النساء، والنادى مجمع الناس فى الشتاء ودار الندوة، والمصطبة مجمع

الغرباء، وقيل: محل اجتماعهم لأمورهم، والمجلس مقر الناس فى بيوتهم، والخان محل المسافرين، والحانوت محل البيع والشراء، وقد يخص بمحل بيع الخمر.

(**ومجتمع العساكر**)، أى محمل اجتماعهم، وهو المعركة، والعساكر جمع عسكر، وهو الجيش، والجمع الكثير مطلقًا من الرجال والخيل، وقيل: إنه معرب.

(**ولم يؤثر**)، بالبناء للمجهول، أى لم ينقل من أثره إذا نقله، ومنه الأثر بمعنى الخبر، وقد يخص بغير الحديث، (**عن أحد من الصحابة مخالفة للراوى**)، نائب الفاعل، (**فيما حكاه**)، الراوى من الأمور والآيات المذكورة، (**ولا**) نقل عن أحد (**إنكار لما ذكر عنهم**)، وذكر مبنى للمجهول نائب فاعله، (**أنهم رأوه كما رآه**)، أى لم ينقل إنكار أنهم رأوا من النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما رآه منهم الآخر، بل سكتوا حين سمعوا من بعض الرواة أنه شاهد بعض آياته، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**فسكوت الساكت منهم كنطق الناطق**)؛ لأنه فى محله إقرار، (**إذ هم المنزهون عن السكوت على باطل**)، يسمعه من غيره، ولا يصرح له بإنكاره، وكون السكوت كالنطق ليس على إطلاقه كما ذكره الفقهاء وأهل الأصول، ولذا قالوا: السكوت فى محل الحاجة بيان.

(و) المنزهون عن (**المداهنة فى كذب**)، فإن الصحابة كلهم عدول لا يخشون فى الله لومة لائم، والمداهنة الملاءمة والمطاوعة، إلا أن الفرق بينها وبين المداراة، أن المداراة فى الحق والمداهنة فى غيره، ولذا جعلت من الغش، قال الله تعالى: (﴿**أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ**﴾) [الواقعة: ٨١]، وهى استعارة من الدهن؛ للين كلام صاحبها وجانبه، وهى مذمومة؛ لأنها نفاق، (**وليس هناك رغبة ولا رهبة تمنعهم**)، أى الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، ليسوا ممن يطمع ويرغب فى دنيا غيره، ولا يخافون أحدًا عدل عن الحق؛ لصلابة دينهم، فلا يدهنون؛ لأن الحامل على المداهنة هذان الأمران، فليس عندهم ما يمنعهم من الإنكار على من كذب.

(**ولو كان**)، الأحسن أن يقول: فلو بالفاء لترتبه على ما قبله، (**ما سمعوه منكرًا عندهم**)، أى فى اعتقادهم، (**وغير معروف لديهم**)، إذ لم يبلغهم عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، مثله (**لأنكروه**) على قائله تنزهًا عن الإقرار على الباطل وما يخالف الظاهر، وأما احتمال أن غيرهم سمع ما لم يسمعه وحمل قائله على الصلاح فغير مناف هنا؛ لأن الصحابة، رضى الله عنهم، فى العصر الأول كان عندهم حرص على معرفة أحواله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأقواله؛لتوفر دواعيهم على نقلها والعمل بها، والمعجزات المتحدى بها لغرابتها وعظمها ليس مما يخفى مثله، نعم بعد عصرهم يجوز هذا؛ لأن خبر الآحاد مقبول، فتدبر. (**كما أنكر بعضهم**)، أى بعض الصحابة، (**على**

بعض) منهم **(أشياء رواها من السنن)**، أى سنن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، جمع سنة بمعنى طريقه، والمراد الأحاديث النبوية، **(والسير)** جمع سيرة، وهى أحوال الغزاة.

(وحروف القرآن)، أى قراءته المتعددة، فإن كل وجه من القراءة يطلق عليه حرف، وبه فسر حديث: «أنزل القرآن على سبعة أحرف»[1]، أى لغات ووجوه منقولة على المعنى المشهور من معانيه، وفى السنن الستة أن عمر، رضى الله تعالى عنه، أنكر على هشام بن حكيم قراءة قرأ بها فى سورة الفرقان لم يسمعها، فجاء به إلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال: سمعت هذا يقرأ بغير ما أقرأتنيها، فقال: «اقرأ يا هشام»، فقرأ، فقال: «هكذا أنزلت»، ثم قال: «اقرأ يا عمر»، فقرأ، فقال له: «هكذا أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرءوا ما تيسر منه»، وفيه بيان لحكمته، وكما وقع بين عمر وابن عباس، رضى الله عنهم، فى إنكاره عليه ما قاله فى نكاح المتعة، وأمثاله كثيرة فى كتب الحديث.

(وخطأ بعضهم بعضًا ووهمه فى ذلك)، يعنى أن بعض الصحابة نسب بعضهم إلى الخطأ والوهم، إذا ذكر أمرًا لم يكن معروفًا عندهم مما يتعلق بسنن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وسيره، أو بالقراءات، وغير ذلك مما يتوقف على النقل، ولا يقال بالرأى، فإنهم لا مداهنة عندهم ولا مداراة فى الحق، ألا ترى أن عمر، رضى الله تعالى عنه، مع جلالته لما قبل الحجر الأسود، وقال: إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولكن رأيت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقبلك فقبلتك، فسمعه على، كرم الله وجهه، فقال له: لا تقل كذا، فإن الله تعالى لما أخذ العهد على ذرات بنى آدم أودع كتاب العهد فيه، وقال: من قبله فقد وفى بالعهد، فيشهد له الحجر بذلك يوم القيامة، فدعا له عمر، وقال: لاعدمناك يا أبا الحسن، والوهم والخطأ هنا بمعنى، وروى: وهنه بالنون من الوهن، وهو الضعف فى الرأى، **(مما هو معلوم)**، بيان لذلك.

(فهذا النوع كله)، من المعجزات المروية بطريق الآحاد، ولم يشتهر اشتهارًا يقرب من التواتر، **(يلحق)**، بفتح أوله وضمه، **(بالقطعى)**، أى يعد من قبيل المقطوع به، **(من معجزاته كما بيناه)**، من نقل بعض الصحابة له نقلاً صحيحًا، وسكوت غيرهم عليه ممن بلغه، فهو كالإجماع السكوتى.

(وأيضًا) لنا وجه يؤيد كونها كالقطعى، **(فإن أمثال)** هذه **(الأخبار)**، المتعلقة بالمعجزات الثابتة فى عصر الصحابة لو لم تكن صحيحة، وكانت من الأخبار، **(التى لا**

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٣٢)، وابن حبان (١٧٧٩، ١٧٨٠)، والطبرانى فى الكبير (٣/١٨٥، ١٠/١٢٥).

أصل لها) رواية **(وبنيت على باطل)**، بأن كانت كذبًا محضًا تبطل وتضمحل، إذ **(لابد مع مرور الأزمان)**، عليها نقلها فى عصر بعد عصر، **(وتداول الناس)**، أى تلقى الناس لها فيما بينهم عصرًا بعد عصر. قال الراغب: يقال: تداول القوم كذا، إذا تناولوه وأخذه بعضهم من بعض. قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

(وأهل البحث)، أى التفتيش عنها، والمراد علماء الحديث الذين يبحثون عن رواة الحديث صحة وسقمًا، **(من انكشاف ضعفها)**، أى ظهوره، **(وخمول ذكرها)**، بأن تنسى ولا يشتهر لها ذكر؛ لكونها لا أصل لها، **(كما يشاهد)**، بالمثناة التحتية أو الفوقية، ويجوز قراءته بالنون أن يعرف ويتحقق، **(فى كثير من الأخبار الكاذبة)**، التى ظهرت فى بعض الأزمنة، ثم تبين كذبها وصارت كأن لم تكن شيئًا مذكورًا، كأخبار مسيلمة الكذاب وأضرابه، **(والأراجيف الطارئة)**، أى الأكاذيب التى حدثت فى بعض السنين الخالية.

والأراجيف جمع إرجاف بكسر الهمزة وفتحها، وقيل: إنه جمع رجفة من الرجف، وهو الاضطراب والتحرك بحركات متوالية، ولذا سمى البحر رجافًا لاضطراب أمواجه، وقال بعض الشعراء فيمن أصابته رعشة فى يده:

ما كان من رجاف كفك منكر فالبحر من أسمائه الرجاف

وهى هنا بمعنى الأخبار السيئة التى تشيع بين الناس، ثم تنسى لظهور كذبها. والطارئة بالهمزة والياء التحتية من طرأ إذا حدث وتجدد.

(وأعلام نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم)، بفتح الهمزة جمع علم بمعنى علامة أو راية كبيرة، والمراد معجزاته المعلومة المشهورة، **(هذه الواردة)**، أى المروية **(من طريق الآحاد)** بالمد، أى التى رويت آحادًا ولم تتواتر، **(لا تزداد مع مرور الأزمان إلا ظهورًا)**، ولو كانت غير صحيحة ازدادت خفاء وضعفًا، **(ومع تداول الفرق)**، أى تكلم الناس بها فرقة بعد فرقة، وهو بكسر الفاء وفتح الراء، جمع فرقة، **(وكثرة طعن العدو)**، من أعداء الدين الكفرة، والطعن القدح والدخل بالمعارضة، **(وحرصه على توهينها)**، أى تضعيفها، وفى نسخة بدل حرصه: حضه، بضاد معجمة، أى حثه وتحريضه، **(وتضعيف أصلها)**، بالإنكار والعناد وادعاء أنها سحر وافتراء، **(واجتهاد الملحد)**، أى بذل طاقته وقوته، والملحد العادل عن الحق من الزنادقة، والإلحاد الميل عن الاستقامة، وألحد ولحد فى دين الله: حاد عنه وعدل، وعن ابن عباس فى قوله تعالى: (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا﴾) [فصلت: ٤٠]: هو تبديل الكلام ووضعه فى غير موضعه، وفى نسخة: بإجهاد،

بدون تاء، من أجهد، أى إتعابه نفسه وكدها.

(على إطفاء نورها)، أى إبطالها، فشبه المعجزات بسراج منير ونار على علم فى الظهور، والتحقق على طريق الاستعارة المكنية، وأضاف الإطفاء إليها على طريق التخييل، وعدى الاجتهاد بعلى مشاكلة لما قبله، أو ضمنه بمعنى الملازمة والانكباب، فهم كما قال الله تعالى: (﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾) [التوبة: ٣٢]، ومن حكم أهل الهند أن الرجل ذو المروءة والعقل ليكون خامل المنزلة غامض الأمر، فما تبرح به مروءته وعقله حتى يستبين ويعرف كالشعلة من النار التى يصونها صاحبها، وتأبى إلا ارتفاعًا، ومنه أخذ ابن الرومى قوله[(١)]:

كالذى طأطأ الشهاب ليخفى وهو أدنى له إلى التضريم

ومنه أخذ الإرجائى قوله:

ما لشأنك يلتظى من غرور وله آخر ترقب قمعه
كلما رام منه للرأس رفعا زاد خفضًا كأنه نار شمعه

وأحسن من هذا كله قوله فى بعض الحساد:

رام بالذل أن ينكس قدرى حاسد زادنى سنا وسناء
قلت إن الشهاب شعلة نار كلما نكسوه زاد ضياء

وقوله: **(إلا قوة وقبولا)**، معطوف على قوله: إلا ظهورًا، كما أن قوله: ومع تداول الفرق معطوف على قوله: مع مرور الأزمان، وفى نسخة: الزمان، وقوته بظهور حقيقته وتيقنه، وهو مقابل لما فى ضده من التضعيف والقبول بإذعان العقول السليمة له، وهو مقابل لطعن الطاعنين وإنكارهم **(ولا للطاعن)**، أى المنقص الذى يعيبها ويسعى فى إبطالها، والجار والمجرور حال من المستثنى بعده بعدما كان صفة، وعداه بعلى فى قوله: **(عليها)**؛ لأنه ضمنه معنى المتعدى عليها؛ لأنه يتعدى بفى، وقوله: **(إلا حسرة)**، وهو التأسف والتندم على مهم فاته وأيس منه، **(وغليلا)**، بالغين المعجمة، وأصله حرارة وتلهف فى الجوف من شدة العطش، والمراد به هنا مجازًا الحقد المضمر، والحسد معطوف عليه، وإن لم يشاركه فى متعلقه إلا بتأويل، فتدبر.

(وكذلك)، أى كأعلامه، بفتح الهمزة فيما ذكر من الازدياد، **(إخباره)**، بكسر الهمزة مصدر أخبر، **(عن الغيوب)**، جمع غيب، وهو ما خفى علمه عن الناس، كالدجال، والمهدى، ودابة الأرض، وغير ذلك مما أخبر به بعض الصحابة، رضى الله تعالى عنهم،

(١) البيت من المنسرح، وهو فى ديوان ابن الرومى (ص٢٣٦٣).

(وإنباؤه)، بوزن إخباره ومعناه، **(بما يكون)**، فى المستقبل من أشراط الساعة، ومما يقع بين أمته، عليه الصلاة والسلام، من الفتن وغيرها، **(و)** ما **(كان)** فى الماضى، كأحوال الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، والأمم السالفة، ونحوه مما لا يعلم إلا بوحى، أو حفظ الكتب الإلهية التى لم يقرأها ولم ير من عرفها، **(معلوم)** أنه **(من آياته)** ومعجزاته الخارقة للعادة، أما الأول فظاهر، وأما الثانى؛ فلأنه عليه الصلاة والسلام، أمى ولا يخالط من علم ذلك[1].

كفاك بالعلم فى الأمى معجزة   فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

(على الجملة بالضرورة)، أى معلوم بعلم ضرورى بمجموعه وإجماله، وإن لم يكن كل فرد كذلك، **(وهذا حق)**، أى أمر محقق متيقن، **(لا غطاء عليه)** ظاهر منكشف من غير لبس وشبهة فيه.

(وقد قال به)، أى اعتقده وصرح به، يقال: قال كذا، إذا نطق به، وقال به، إذا ذهب إليه واختاره، **(من أئمتنا)** المقتدى بهم من الأشعرية أو المالكية، **(القاضى)** أبو بكر الباقلانى الأصولى المالكى؛ لأنه المراد به إذا أطلق، وبه صرح صاحب المقتفى هنا، قال: والمراد بقوله: **(والأستاذ أبو بكر)** بن فورك كما تقدم من كلام المصنف، وقيل: المراد بالأول أبو بكر بن العربى شارح الترمذى، وبالثانى أبو بكر الباقلانى أو العكس، والأول مالكى، والثانى عده المصنف من المالكية، وعده السبكى فى طبقاته من الشافعية. وقال التلمسانى: إن المراد بالثانى أبو بكر محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى، والأستاذ بضم الهمزة وآخره ذال معجمة، معناه الماهر، وهو معرب فارسية بالدال المهملة، والمولدون يريدون به الطواشى، وقد بسطنا الكلام عليه فى كتابنا شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل، **(وغيرهما)** من الأئمة، أى ذهب هؤلاء كلهم إلى أنها معلومة بعلم ضرورى قطعى، فهى متواترة بحسب المعنى، وإن لم تتواتر مفرداتها.

(وما عندى أوجب قول القائل)، وفى نسخة: تأخير ما عن عندى، وهى نافية، ومعنى عندى فى اعتقادى وحكمى وهو متعلق بأوجب، **(أن هذه القصص المشهورة من باب خبر الواحد)**، أى من قبيل خبر الآحاد التى لا توجب العمل، وأوجب بمعنى اقتضى واستلزم وألجأ، أى لم يلجئه لذلك، **(إلا قلة مطالعته للأخبار)**، النبوية ومطالعتها الاطلاع عليها، **(وروايتها وشغله)**، بضم أوله، أى اشتغاله، **(بغير ذلك من المعارف)**، غير الأحاديث من العربية، والأمور والعلوم العقلية، وفيه تأدب مع العلماء، وعدم المجاهرة بالقدح فيهم.

---

(١) تقدم الاستشهاد به.

(وإلا)، أى لو لم نقل بقلة اطلاعهم لاشتغالهم بما ذكر، **(فمن اعتنى)**، أى كانت له عناية واشتغال، **(بطرق النقل)**، أى الأمور النقلية السماعية، **(وطالع الأحاديث والسير)** النبوية بأن درسها وقرأها، **(لم يرتب)**، أى لم يحصل عنده ريبة وشك، **(فى صحة هذه القصص المشهورة)** عند المحدثين والحفاظ، **(على الوجه الذى ذكرناه)**، من جمع طرقها، وضم بعضها لبعض حتى تقوى وتصير متواترة بحسب المعنى. قيل: وقوله: لم يرتب، قاض برد اعتراضه على من قال: إنها آحاد، إذ لم يرد به مجموعها، بل جميع أفرادها وفيه نظر.

ثم أشار إلى دفع شبهة هى أنه لو كانت الآحاد تصل رتبة التواتر بالاعتناء بالنقول ومطالعة الأحاديث كانت متواترة معنى عند غيره، فقال: **(ولا يبعد أن يحصل العلم بالتواتر)** الحقيقى **(عند واحد، ولا يحصل عند آخر)**، فبالطريق الأولى التواتر المعنوى، وقد قيل بمثل هذا فى البسملة، وجمع به بين الخلاف وبين الأئمة، فإن إثباتها فى أوائل السور وإسقاطها قراءتان متواترتان من السبعة، كما قاله ابن حجر ومن تبعه، وإن خفى على كثير، **(فإن أكثر الناس يعلمون بالخبر)** المتواتر **(كون بغداد موجودة)**، وهى المدينة المشهورة بدار السلام، إما لسلامة أهلها من فساد وتغير المزاج، أو لأن نهرها يسمى السلام، وهى فارسية معربة، ومعناها محل البساتين؛ لأن باغ معناه بستان، وقيل: بغ اسم صنم، وداد معناه العطية، أى عطية الصنم، ولذا كره بعضهم تسميتها بذلك، وفيها ست لغات: إهمال الدالين، وإعجامهما، وإهمال الأول وإعجام الثانى، وعكسه، وبغدان بالنون مع الإهمال، وزاد يعقوب إبدال الباء ميمًا مع الدال والنون والإهمال، والإعجام والإهمال أصح وقالوا: بغدين أيضًا.

(وأنها مدينة عظيمة ودار الإمامة والخلافة)، بكسر أولهما وهما بمعنى، والخلافة هى الولاية العامة؛ لأنه خليفة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فهى السلطنة بحق، وسميت إمامة؛ لأن الإمامة والخطبة فى عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين لازمة له لا يقوم بها غيره إلا بطريق النيابة عنه، كالقضاء والحكومة، ولذا احتاجت لتقليد السلطان ونحوه، ومعنى دارها مقرها ومحلها، وأول من بنى بغداد هذه أبو جعفر المنصور المعروف بالدوانيقى ثانى خلفاء بنى العباس، **(وآحاد)** بالمد، جمع واحد، **(لا يعلمون اسمها)**؛ لعدم سماعه، **(فضلاً عن وصفها)**، من كونها دار الخلافة منتزهة عظيمة البناء، وفضلاً منصوب بالمصدرية يفيد أولوية ما بعدها، والكلام فيها مبسوط فى العربية مشهور.

ثم ذكر مثالاً آخر فى الشرعيات، فقال: **(وهكذا)**، أى مثل أمر بغداد، **(يعلم الفقهاء من أصحاب مالك)**، المقلدين لمذهبه، فتجوز بالصحبة عما ذكر تجوزًا مشهورًا،

(بالضرورة)، أى بالعلم الضرورى البديهى، لا الاضطرارى لتواتره عندهم، فقوله: **(وتواتر النقل عنه)**، كالمفسر له، **(أن مذهبه إيجاب أم القرآن)**، أى الفاتحة وجه التسمية مشهور، **(فى الصلاة للمنفرد والإمام)**، دون المأموم، فإن قراءة إمامه قراءة له، وإن لم يسمعها، ولا فرق بين الصلاة الجهرية وغيرها، وكذا مذهب أبى حنيفة، رضى الله تعالى عنه، كما فصل فى كتب الفقه، **(وإجزاء النية)**، أى نية صوم رمضان كله، **(فى أول ليلة من رمضان عما سواه)**، الضمير راجع لأول، فلا يحتاج فى بقية الشهر إلى نية أخرى اكتفاء بتلك النية، والإجزاء بمعنى الكفاية والإغناء، وقيل: معناه سقوط القضاء، ورده الأصفهانى فى شرح المحصول، والفرق بينه وبين الصحة مفصل فى كتب أصول الفقه.

(وأن الشافعى، رضى الله عنه، يرى)، من الرأى بمعنى المذهب، **(تجديد النية كل ليلة)**، قبيل الفجر، فمذهبه أن النية واجبة فى كل ليلة لا مندوبة، وهذا معلوم بالضرورة عند الفقهاء؛ لتواتره عند الصحابة وغيرهم؛ لأن صوم كل يوم عبادة مستقلة، فيفتقر إلى نية جديدة؛ لحديث: **(إنما الأعمال بالنيات)**، والمراد الأعمال الشرعية، أى إنما صحتها، وغيره يقدر إنما كمالها كما بين فى محله، **(والاقتصار على مسح بعض الرأس)**، أى ويعلم ضرورة أن الاقتصار على مسح بعض الرأس يجزئ عند الشافعى؛ لتواتر نقل ذلك عنه خلافًا لمالك، فإنه يجب عنده مسح الرأس كله احتياطًا.

(وأن مذهبهما)، أى مالك والشافعى، **(القصاص)**، أى وجوبه **(فى القتل بالمحدد)**، اسم مفعول مشدد الدال، وهو حديد له حد جارح كالسيف ونحوه، **(وغيره)**، مما لا حد له كالعصا والحجر والشجر، **(وإيجاب النية فى الوضوء)**، فهى واجبة عندهما؛ لأنه عبادة، فلابد من النية فيه؛ ليكون قربة ولتتميز العبادة عن العادة بإخلاص العمل بالنية، **(واشتراط الولى)**، وهو من تكون له ولاية شرعية على المنكوحة كالأب والسيد، **(فى النكاح)**، أى فى صحته وانعقاده، كما فصل فى كتب الفقه.

(وأن أبا حنيفة) النعمان بن ثابت الإمام المشهور شهرته تغنى عن ذكر ترجمته، **(يخالفهما فى هذه المسائل)**، فلا يوجب القصاص فى غير المحدد، بل الدية، ولا يوجب النية فى الوضوء، وخالف فيه بعض الحنفية كما فى الأسرار للدبوسى، ولا يشترط فى النكاح الولى كما فصلوه، يعنى أن مذهبه يخالف مذهبهما فى هذه المسائل، فإنه لم يرهما حتى يخالفهما، والفقهاء يستعملون مثل هذه العبارة كثيرًا فى كتبهم، فيقولون: خالف فلان فى كذا فلانًا، وإن تقدم عصره عليه.

(وغيرهم)، أى غير الفقهاء وأصحاب المذاهب، **(ممن لم يشتغل بمذاهبهم)**، أى مذهب الفقهاء ومن ذكر من الأئمة، **(ولا روى أقوالهم)**، ممن قلدهم واشتغل بكتبهم، **(لا يعرف**

هذا)، إلا الأمر الذى وقع فيه الخلاف منهم، **(من مذاهبهم)** وأقوالهم، **(فضلاً عما سواه)**، أى سوى هذا من دقائق المذاهب ومسائلها الغريبة.

(وعند ذكرنا آحاد هذه المعجزات نزيد الكلام فيها بيانًا)، بتفصيلها وذكر ما يتعلق بها من الفوائد، **(إن شاء الله تعالى)** ذلك.

* * *

(فصل فى إعجاز القرآن)

أى فى بيان إعجازه، والقرآن بالهمزة، وقد تسهل وتبدل ووزنه فعلان على الصحيح، وتقدم بيان الإعجاز، وهو جعل غيره عاجزًا عن معارضته والإتيان بمثله.

(اعلم وفقنا الله وإياك)، أى رزقنا التوفيق، والجملة دعائية، وتصديره باعلم تنبيهًا له على ما بعده أمر مهم يلزم علمه، **(أن كتاب الله العزيز)**، بفتح الهمزة، وهو وما بعده ساد مسد مفعولى اعلم، وتقدم أن العزيز بمعنى القوى الغالب، وبمعنى الذى لا نظير له، ويجوز فيه الجر والنصب على أنه صفة الله، أو الكتاب، ولك أن ترفعه قطعًا، والكتاب المراد به القرآن لغلبته فيه، وله معنيان الكلام النفسى وما بين الدفتين، وكلاهما قديم عند بعض المحققين كالشهرستانى، والكلام فيه مشهور، والمراد الثانى؛ لأنه هو المتصف بالإعجاز، **(منطو)**، أى مشتمل ومحتو، افتعال من الطى، وهو معروف، **(على وجوه من الإعجاز كثيرة)**، أى أنواع يعرف بها إعجازه وكونه لا يقدر عليه البشر.

(وتحصيلها)، أى محصلها إجمالاً، فالمراد بالمصدر اسم المفعول مبالغة كالدرهم ضرب الأمير، أى مضروبه، والضمير للوجوه، **(من جهة ضبط أنواعها)**، أى حصرها وجعلها مضبوطة محفوظة، **(فى أربعة أوجه)**، خبر تحصيل، أو متعلق بقوله: ضبط.

(أولها: حسن تأليفه)، أى نظم كلماته مؤتلفة متوافقة، **(والتئام كلمه)**، عطف تفسير، أى كونها متناسبة بحسب الدلالة بحسب مقتضى مقاماتها، والكلم اسم جنس جمعى لكلمة كتمر وتمرة، لا جمع ولا اسم جمع على الأصح، **(وفصاحته)**، قدمها على البلاغة لتوقفها عليها بمعناها المشهور فى كتب المعنى، **(ووجوه إعجازه)**، أى قلة لفظه وكثرة معانيه، ووجوهه معروفة فى المعانى، **(وبلاغته الخارقة عادة العرب)**، عادة بالنصب مفعول خارقة، بمعنى خارجة عن عادتهم، كما يقال: خرق الإجماع، إذا خالفه وخرج عنه.

ثم بين ذلك، فقال: **(وذلك)**، أى ما ذكر من عادتهم؛ **(لأنهم)**، أى العرب **(كانوا أرباب هذا الشأن)**، هو الأمر العظيم، والمراد به البلاغة، وجعلهم أربابها، أى أصحابها

المالكون لها الذين بيدهم أزمتها، وهو مبالغة فى اتصافهم بالفصاحة والبلاغة، **(وفرسان الكلام)**، جمع فارس، أو جمع فرس الذى هو جمعه، والفرس يكون أيضًا جمع فارسى بمعنى عجمى، كما فى شرح شواهد الإيضاح، ومنه قولهم: لغة الفرس، فشبه الكلام الذين تمكنوا من التصرف فيه بجواد علوه، وتسابقوا به فى ميادين البلاغة والرهان، وفازوا بقصب السبق فيه، **(قد خصوا من البلاغة والحكم)**، أى خصهم الله تعالى من دون الناس ببلاغة كلامهم المخصوصة بلغاتهم، وربما تضمنه من الحكم، أى المعانى المحكمة المتقنة وما يحث على مكارم الأخلاق، ومحاسن الصفات، وفيه كلام تقدم.

(بما لم يخص به غيرهم)، قيل: كان الظاهر أن يقول: بما لم يوجد فى غيرهم، لكنه عبر به ليشاكل ما قبله، ولأن نفى الوجود يفهم من اختصاصهم به دون غيرهم، فلا يقال: إنه لا يلزم من نفى الاختصاص نفى الوجود وهو المقصود، وفيه بحث، **(من الأمم)**، أى جمع الأمم السالفة واللاحقة، **(وأوتوا)**، بالبناء للمجهول، أى أعطاهم الله **(من ذرابة اللسان)**، المراد الجارحة المعروفة والكلام نفسه، والذرابة بذال معجمة وراء مهملة وموحدة، أصل معناها حدة السيف والسنان ونحوه، وقيل: هى أن تسقى السم، والذراب السم، فاستعير لطلاقة اللسان مع الخلو عن اللكنة، قال[1]:

أرحنى واسترح منِّى فإنى ... ثقيل محملى ذَربٌ لسانى

وهذا أمر محمود، وقد يكون بمعنى كونه سليطًا صخابًا، فيكون ذمًا كالحدة، قال الله تعالى: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]، **(ما لم يؤت إنسان)**، أى لم يؤته غيرهم من الأمم، لكنه أتى بما ذكر لقصد السجع والخطابة، كقوله: **(ومن فصل الخطاب)**، أى الخطاب البين الفاصل عند المحاجة الذى لا لبس فيه ولا خفاء كما تقدم، **(ما يقيد الألباب)**، جمع لب، وهو العقل، ويقيدها بمعنى يحيرها إذا سمعته حتى كأنها قيدت ومنعت عن الحركة لدهشتها من حسنه وبراعته.

(جعل الله لهم ذلك)، المذكور الذى خصوا به، **(طبعًا وخلقة)**، مركوز فى طبائعهم لا بتكلف وتعلم وتقليد لغيرهم، **(وفيهم غريزة)**، أى جبلة وسجية مركوزة فيهم، **(وقوة)**، المراد بالقوة مقابل الفعل، وليس بمعنى الشدة، وهذا استعمال مولد، وهو قريب من الطبيعة أيضًا، وتكرار الألفاظ المتقاربة لا بأس به هنا؛ لأنه مقام خطابة، أو المراد بالقوة القدرة، أى هذا أمر طبعهم الله عليه، وجعل لهم زيادة قدرة فيه، فلذا عقبه بقوله: **(يأتون منه على البديهة بالعجب)**، أصل معنى البديهة الفجاءة، ولذا قيل لكل كلام من غير

(١) البيت من الوافر، وهو بلا نسبة فى لسان العرب (٣٨٦/١) (ذرب)، تاج العروس (٤٣١/٢)، مجمل اللغة (٣٤٠/٢)، مقاييس اللغة (٣٥٣/٢)، أساس البلاغة (ص٢٩٥).

إتعاب فكر ونظر: بديهة، فيقال: أجاب على البديهة وله بدائع بداهة، وهذا معلوم فى بداهة العقول، ولحقه فى بداهة جريه، والعجب بمعنى الأمر الذى يعد عجيبًا لحسنه وجزالة معناه، فكأنه لم يعهد، فما قيل: إنه غير صحيح هنا لا وجه له.

(**ويدلون به**)، بضم المثناة التحتية وسكون الدال المهملة وباللام من أدلى دلوه فى البئر، إذا أنزله لأخذ الماء، ثم عبر به عن مطلق التوصل كما قال عمر، رضى الله تعالى عنه، لما استسقى بالعباس، رضى الله تعالى عنه: وقد دلونا إليك مستشفعين، أى توسلنا.

(**إلى كل سبب**)، أى طريق ووسيلة إلى حصول مهمات أمورهم، كإلزام الخصوم، وجلب محبة القلوب، واستعطاف الملوك والرؤساء، فإذا ذكروا هذه الوسائل عبروا عنها بعبارات بليغة رائقة تسحر السامعين، وتقود بعنان البيان سواد القلوب والخواطر، وفى قوله: سبب هنا تورية؛ لأنه فى الأصل بمعنى الحبل، فذكره بعد الإدلاء فيه لطف، وقيل: المراد أقبلنا وسقنا من الدلو، وهو السوق والرفق، وقيل: المراد بالسبب الطلب العالى الشبيه بأسباب السموات، أى نواحيها، كأنه شبه ذلك الطلب فى عزة نيله بنواحى السماء، والعرب كانوا يصلون إلى هاتيك المطالب بما نالوه من القرائح الزكية، ولعل المراد بالأسباب مقتضيات الأحوال، وقد بين ذلك بقوله: (**فيخطبون**)، إلى آخره. انتهى.

ولا يخفى أنه لا يلائم ما نحن فيه، (**بديهًا**)، أى ينشئون الخطب بمقتضى طبائعهم بديهة من غير تكلف، (**فى المقامات**)، أى محافل الناس ومجامعهم على رؤوس الأشهاد بديهة من غير تصنع جمع مقام أو مقامة، يقال: قام بين يدى الأمير بمقامة حسنة، إذا تكلم بعظة ونحوها، وكانوا يخطبون قيامًا، فلذا سميت مقامة، ثم أطلقت على نفس الكلام المقول فيها كمقامات البديع والحريرى وغيرهما.

(**وشديد الخطب**) أى الأمر العظيم الشأن الذى من شأنه أن يقع فيه المخاطبات والمنازعات، فكان لكل قوم خطيب يقوم بينهم يحثهم على مهماتهم، وقيل: إن الخطب الشأن عظم أو صغر وسبب الأمر، ولا يناسب المقام والتكلم بكلام بليغ ارتجالا يدل على سجية وغريزة قوية.

(**ويرتجزون به**) أى ينشدون رجزا فى تلك المقامات بديعة يعدونه كالخطب؛ ولذا ذهب بعضهم إلى أنه ليس بشعر (**بين الطعن والضرب**) كما ينشدون فى أنديتهم، وهذا كقول على، رضى الله عنه، لما بارز مرحبا بخيبر:

أنا الذى سمتنى أمى حيدرة ... كليث غابات كريه المنظرة

أكيلكم بالسيف كيل السندرة

وأمثاله مما لا يحصى.

(ويمدحون) من يستحق المدح فى مقاماتهم بديهة بأبلغ الأشعار، **(ويقدحون)** أى يذمون ويهجون يقال: قدح فى عرضه إذا عابه، ومن فسره بقوله: أى يقدحون أفكارهم، فيستخرجون معجز الكلام فى أحسن نظام لم يصب محز الكلام، **(ويتوسلون)** بما ذكر من بليغ الكلام نظمًا ونثرًا.

(ويتوصلون) عطف تفسير أى بالمذكور إلى مطالبهم العالية.

(ويرفعون) من مدحوه بمدائحهم حتى يرتقى لمرتبة لم يكن له بشهرة مدحه، فيصير نابه الذكر بعد أن كان خاملا كما وقع للمحلق لما نزل عنده الأعشى ضيفا، فنحر له وسقاه وعنده بنات لم يرغب أحد فى تزوجهن، فمدحه بقصيدة قافية مشهورة، فلم يمض زمن حتى خطبوا بناته ورغبوا فيهن.

(ويضعون) مقدار من ذموه بقدحهم حتى يصير سبة بينهم، ففيه لف ونشر.

(فيأتون من ذلك) المذكور كله **(بالسحر الحلال)** السحر فى الأصل الفطنة وكل ما دق، ثم إنه يشبه به الكلام البليغ الذى تلذ به النفوس وتنجذب له القلوب، ومنه «إن من البيان لسحرًا»(١)، فهو تشبيه بليغ، والسحر معناه الحقيقى معروف وهو قبيح محرم، فوصفه بالحلال بيان للمعنى المراد منه وتجريد للتشبيه، والسحر حق واقع، وهو بأمور يعرفها أهلها سيأتى الكلام عليها عند قوله: وقولهم ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤].

(ويطوقون) بالتشديد من الطوق، وهو ما يجعل فى العنق من ذهب ونحوه **(من أوصافهم)** البديعة البليغة، وفيه استعارة مكنية وتخييلية أى من وصفهم لغيرهم بمدحهم **(أجمل من سمط اللآل)** أجمل بمعنى أزين وأحسن. وسمط بكسر فسكون المراد به جنسه لعمومه بالإضافة، فمن قال: صوابه سموطة لم يصب، وهو السلك ما دام فيه الخرز، وإلا فهو خيط. وقال البرهان: السمط الخيط مادام فيه الخرز، وإلا فهو سلك، وتبعه الأنطاكى ونسبه للجوهرى، وقال: إن غيره قال: إن السمط للجوهر، والسلك للخرز، والنظام للإبر، وفيه نظر، وفصله عقد المدائح على اللآلى؛ لأنه لا يفنى ولا يقاومه ثمن لعزته، وأصل اللآل اللآلئ بهمزة فى آخره فأبدلها ياء لسكونها وقفا، ثم عامله معاملة المعتل فى الوقف فأسقطها كالعاص.

---

(١) أخرجه أحمد (١/٢٦٩، ٣٠٣، ٣٠٩، ٢/١٦، ٥٩، ٦٢، ٣/٤٧٠)، وأبو داود (٥٠١١)، وعبد الرزاق (٢٠٢٠٩)، وابن حبان (٢٠٠٩)، والحاكم (٣/٦١٣).

(فيخدعون الألباب) الخداع هو المكر وإظهار أمر على خلافه لمن تريد به أمرًا مكروها، والألباب جمع لب وهو العقل كما مر، والمراد أنهم يستميلون العقول حتى تنقاد لهم، ففيه استعارة مكنية وتخييلية، وتقدير ذوى العقول يذهب برونق الكلام.

(ويذللون الصعاب) أى يسهلون بفصاحتهم الأمور الصعبة، فإن كان من الذل بالكسر، والذال معجمة من الأرض الذلول، وهى التى يسهل المشى فيها ففيه استعارة تبعية، وكذا إن كان من الذل بضمها، والمراد على كليهما أنهم يجعلونها مطيعة لهم، ويجوز أن تكون مكنية وتخييلية على أن الصعاب جمع صعبة، وهى الناقة التى لا تنقاد.

(ويذهبون الإحن) بكسر الهمزة وفتح الحاء المهملة جمع إحنة بكسر فسكون وهى الحقد.

(ويهيجون الدِّمن) بضم أوله، وفتح ثانيه، وكسر المثناة التحتية المشددة، ويجوز كسر الهاء مع سكون الياء أى يحركونها ويظهرونها. والدمن بكسر الدال المهملة، وفتح الميم والنون جمع دمنة، وهى فى الأصل ما فى مبارك الإبل من بعرها المتلبد بما عليه من أبوالها، استعير للحقد المضمر المجتمع فى الباطن، وهى استعارة بليغة شائعة فى كلامهم. قال الشاعر(١):

أرعى الأمانة لا أخون ولا أرى أبدًا أدمن عرصة الإخوان

وكون المراد به آثار السكان فى الديار، والمعنى أنهم يندبون الأطلال وسكانها فيهيجون الأشواق بذكرها وإن سلم من التكرار بعيد هنا فلا يغتر بما قيل.

(ويجرئون الجبان) بالتشديد والهمز من الجرأة وهى الإقدام والشجاعة، والجبان ضد الشجاع أى يجعلونه شجاعا بعد جبنه.

(ويبسطون يد الجعد البنان) بإضافة الجعد إلى البنان، والبنان الأصابع وعقدها وبسطها مدها وإذهاب جعودتها وهى انقباضها، والجعد إذا أضيف إلى اليد أو البنان كان للذم بمعنى البخيل اللئيم، فإن أطلق كان بمعنى الجواد الكريم، والجعودة ضد السبوطة وهى الانبساط، والمعنى أنهم بفصاحتهم يصيرون البخيل كريما. قال أبو عبيد: الجعد فى صفة الرجال يكون مدحا ويكون ذما ففى المدح معناه شديد الخلق مدبر للأمور، أو أن شعره جعد غير سبط؛ لأن السبوطة أكثر فى العجم، وفى الذم معناه القصير أو البخيل.

---

(١) البيت من الكامل، وهو لكعب بن زهير فى ديوانه (ص٢١٥)، لسان العرب (١٣/١٥٩) (دمن)، تهذيب اللغة (١٤/١٤٦)، تاج العروس (دمن)، أساس البلاغة (ص٢٨٤).

(ويصيرون الناقص كاملا) بحثه على اكتساب الكمال حتى يصير التطبع طبعًا، وأن كانت الطباع يعسر تغيرها وتبدلها.

(ويتركون النبيه) الشريف المشهور **(خاملاً)** أى خامل الذكر متروكا بعد شهرته بسبب ذمهم له وتنقيصه بالهجاء ونحوه.

ثم قسمهم فقال: **(منهم)** أى من العرب **(البدوى)** وهم سكان البادية النازلون فى الأخبية والدارات وهو بالياء الموحدة والدال المهملة المفتوحتين الذين لا يسكنون القرى والأمصار، ويسمى ساكنها حضرا وحاضرة لحضور بعضهم لبعض فيها، والنسبة للبادية أو للبدو بالسكون على خلاف القياس، ويقال: بداوى بفتح أوله وكسره أو هو نسبة للبدا كالفتى بمعنى البادية أيضًا **(ذو اللفظ الجزل)** أى صاحب اللفظ المحكم القاطع الفاصل، ويكون الجزل بمعنى الكثير أيضًا ومنه الثواب الجزيل، **(والقول الفصل)** بالصاد المهملة أى الفاصل بين الحق والباطل. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٣، ١٤]، وأصل معنى الفصل الحجز، ومنه فصول الكتب، **(والكلام الفخم)** أى المفخم المعظم لشهامتهم وعدم مداراتهم أو الممتلىء المعانى الرائقة. يقال: وجه فخم إذا كان له جمال ومهابة، أوهو من التفخيم ضد الترقيق؛ لاعتيادهم بإخراج الحروف من حاق مخارجها والجهر بها لقوله: **(والطبع الجهورى)**، أى طبعوا على جهر الصوت وعلوه، ومنه الحروف المجهورة. قال فى القاموس جهر ككرم، وفخم الصوت ارتفع، وكلام جهر ومجهر وجهورى عال.

وفى الحديث: **(نادى بصوت جهورى)**، وفى نسخة: «جوهرى» نسبة للجوهر، وهو الخالص النقى أو القدم الجرى، فإن كان من الجوهر المعروف كالياقوت والزمرد ونحوه فهو استعارة للنفيس. وفى القاموس: الجوهر كل حجر يستخرج منه شىء ينتفع به، ومن الشىء ما وضعت عليه جبلته والجرى المقدم انتهى، والواو زائدة، وقيل: إنه بمعناه المعروف معرب، والعرب تمدح بالجهر بالكلام، وتعبر به عن البهاء والحسن كما قال الأعرابى[(١)]:

جهير الرواء جهير الكلام ... جهير العطاس جهير النعم

وهذا أشبه بطريقة المصنف، رحمه الله تعالى، فى فصاحته.

(والمنزع القوى) مفعل من النزع، وهو الجذب والأخذ. ونزع الماء من البئر أخرجه، ونزع القوس جذبه، وهو مصدر ميمى أو اسم مكان، والأول أظهر أى يأتون بنوع من

---

(١) البيت من المتقارب، وهو بلا نسبة فى أساس البلاغة (ص١٤٤) (جهر).

الكلام يستخرجونه من بين أنواع الكلام بطبائعهم السليمة بحيث إذا سمعه السامع شفى غليله.

(ومنهم الحضرى) نسبة إلى الحضر بفتحتين مقابل البدو، وهو الحاضرة أيضًا، والحضارة سكنى الحضر وهى الأمصار والقرى **(ذو البلاغة البارعة)** أى الفائقة من برع أقرانه إذا فاقهم برقة طبعه وتهذيب كلامه.

(والألفاظ الناصعة) أى الخالصة من الألفاظ الوحشية الغربية السالمة من الركاكة.

(والكلمات الجامعة) للمعانى الكثيرة فى الألفاظ القليلةالموجزة.

(والطبع السهل) اللين المنقاد بسهولة؛ لسلامة ذوقه وانسجام كلامه الذى هو أرق من النسيم يكاد من عذوبة الألفاظ تشربه مسامع الحفاظ، فيدخل الأذن بلا إذن.

(والتصرف فى القول القليل الكلفة)، فيخرج من نوع لنوع من غير تكلف لكونه سجية له، والقليل صفة للتصرف أو للقول، فلا يورد فى كلامه ما يعسر فهمه على السامع لغرابته أو تعقيده، **(الكثير الرونق)** أى الحسن والإضافة من رونق السيف وهو ماؤه وحسنه كما قال البحترى:

وبديع كأنه الزهر الضاحـ ـك فى رونق الربيع الجديد
مشرق فى جوانب السمع ما يخـ ـلقه عوده على المستعيد

(الرقيق الحاشية) أصل الحاشية طرف البرد والثوب، ورقة حاشيته عبارة عن رقته وحسن نسجه، والكلام يشبه بالحلل والبرود والتكلم بالنسج. وفى الأساس من المجاز عيش رقيق الحواشى، وكلام رقيق الحواشى، وهو عبارة عن سهولته وسلاسته بأن يكون لفظه رشيقًا عذبًا وفخمًا سهلاً، ومعناه ظاهرًا مكشوفًا وقريبًا معروفًا.

(وكلا البابين) أى كلا القسمين من كلام البدوى والحضرى فى مقامه ومحله وعند أهله، **(فلهما فى البلاغة الحجة البالغة)**. قيل: إن فى الكلام تقديرا، وأصله وأما كلا البابين إلى آخره، فالفاء واقعة فى جواب أما المقدرة، ولا يخفى أنه ركيك ولو حذفها كان أولى، ولو قيل: كلا مبتدأ خبره مقدر تقديره وكلاهما مما اختصوا به أو مما له شأن عظيم، وما بعده مبنى عليه كان أحسن؛ لأن أما حذفها من غير عديل ليس سهلا، والحجة البرهان والدليل من حجه إذا خصمه ولزمه، والبالغة بمعنى الواصلة والأفصح إفراد ضمير كلا رعاية للفظه ومعناه، وإن جاز تثنيته، وقد جمع بينهما القائل فى قوله:

كلاهما حين جدَّ الجرىُ بينهما قد أقلعا وكلا أنفيهما رابى[1]

---

(١) البيت من البسيط، وهو للفرزدق فى أسرار العربية (ص٢٨٧)، الدرر (١٢٢/١)، تخليص=

(والقوة الدامغة) أى الغالبة لغيرها من سائر اللغات، وأصل الدمغ الضرب على الدماغ فأريد به ما ذكر من الغلبة والقهر. يقال: دمغ الحق الباطل أى أبطله، ودمغت فلانا قهرته.

(والقدح الفالج) بكسر القاف، وسكون الدال، والحاء المهملتين واحد قداح الميسر، وهو سهم بغير ريش، وقداح الميسر التى كانوا يقامرون بها فى الجاهلية، ولها أسماء مشهورة، ومنها ما له نصيب زائد، ومنها ما لا نصيب له، والفالج بالفاء واللام والجيم بمعنى الفائز، يقال: فلج أمره أى فاز وسعد، أى لهذه اللغة شرف وفوز عند سامعها. وقيل: المراد ما تنتجه الأفكار وإصابة الآراء وجودة الأنظار، وهو أمر لا تعلق له بنفس الكلام والكلام فيه.

(والمهيع الناهج) بفتح الميم، وسكون الهاء، وفتح المثناة التحتية، وهى الطريق الواسع، والناهج بمعنى البين الواضح المسلوك، وأصله السالك فتجوز به عن السلوك كماء دافق بمعنى مدفوق، وعيشة راضية، وأراد به سعة لغتهم وظهور دلالتها.

(لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم) قيل: كان الأحسن الظاهر أن يقول: لا يشك ببناء المجهول ليكون أبلغ، وهذا من عدم معرفته بمقاصده، فإن هذا هو المناسب لما هو بصدده، فإن البليغ الفائق إذا كان هذا حاله كان له إقدام على المعارضة عند التحدى، فلله دره ما أدق نظره، والمراد أنهم يعلمون ما جبلوا عليه من البلاغة والقدرة على إيراد كل كلام بليغ فى مقامه على ما يقتضيه حاله وسبكه فى قوالبه ونظره لأساليبه المطاوعة له ومعرفته بذلك.

(والبلاغة ملك قيادهم) بكسر القاف، وهو حبل تقاد به الدابة أى والبلاغة مملوكة لهم منقادة، وأصله ملكهم وفى قيادهم، فعدل عنه لما ذكره؛ لأنه أبلغ ففيه استعارة فى الملك والقياد، وهى إضافية على حد قوله ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ﴾ [سبأ: ٣٣]، يعنى أنهم متصرفون فى أفانينها من غير تكلف.

(قد حووا فنونها) أى جمعوا وحازوا أنواع البلاغة وأقسامها، والفنون جمع فن.

(واستنبطوا عيونها) أى استخرجوا خيارها ومحاسنها، وأصل معنى الاستنباط

=الشواهد (ص٦٦)، الخصائص (٣/٣١٤)، نوادر أبى زيد (ص١٦٢)، شرح التصريح (٢/٤٣)، ولم أقف عليه فى ديوانه، وهو للفرزدق أو لجرير فى لسان العرب (٩/١٥٦)، وبلا نسبة فى الإنصاف (ص٤٤٧)، خزانة الأدب (١/١٣١)، الخصائص (٢/٤٢١)، شرح الأشمونى (١/٣٣)، شرح المفصل (١/٥٤)، مغنى اللبيب (ص٢٠٤)، همع الهوامع (١/٤١)، شرح شواهد الإيضاح (ص١٧١).

استخراج الماء من الآبار والعيون النابعة، فعيون هنا فى موقعها وفيها تورية لإيهامه لعيون الماء، والمراد خيارها لأن عين كل شىء خياره، وليس من إطلاق اسم الجزء على الكل كما توهم.

(ودخلوا من كل باب من أبوابها) أى سهل عليهم الوصول إلى مقاصدهم بأى عبارة أرادوها كالحقيقة والمجاز والكناية، وبسط الكلام فى مقام، وإيجازه فى مقام، والتصريح والإخفاء، وفيه استعارة مكنية وتخييلية بجعل مقاماتها قصورًا واسعة لها أبواب متعددة؛ ولذا عقبه بقوله: **(وعلوا صرحا)**، وهو البيت العالى المزخرف بناؤه والبيت المنفرد، وعلوا بتخفيف اللام بمعنى صعدوا ويجوز تشديدها.

(لبلوغ أسبابها) جمع سبب، وهو كل ما يتوصل به لشىء آخر كالحبل والسلم، وهو علة للعلو أى علوًا قصر البلاغة ليصلوا إلى ما فيه من الأسباب الموصلة لمهماتهم ومطالبهم النفيسة، كمن يدخل قصرًا ليقابل الملك فينال عند لقائه إنعامه وإحسانه، وفيه إيماء لقوله تعالى: ﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ﴾ [غافر: ٣٦]، الآية، فما قيل إن الأحسن أن يقول: صرح أسبابها. تركه أحسن منه لأن معناه أنهم علوا ذروة البلاغة، فوصلوا بها لكل ما أرادوه، فعبروا بعباراتهم لمقاصدهم، واللام لام العاقبة هنا، وفيه استعارة مكنية تخييلية لتشبيه مرتبة الإعجاز التى عجزوا عنها بسماء لم يصلوا إليها.

(فقالوا) أى تكلموا بكلامهم البليغ **(فى الخطير)** أى فى الأمر العظيم الذى له خطر أى شرف ومزية على غيره، **(والمهين)** بفتح الميم أى الحقير من المهانة وهى الحقارة.

(وتفننوا) أى أتوا بكل فن من فنون الكلام متصرفين **(فى الغث)** بفتح الغين المعجمة، وتشديد المثلثة، وأصله اللحم المهزول الذى يكره تناوله، فاستعير للأمر القبيح والفاسد، **(و)** ضده **(السمين)**، وفى حديث أم زرع «زوجى لحم جمل غث»(١)، وفى المثل «غثك خير من سمين غيرك»، وقد علمت أن فقالوا فى أكثر النسخ بالقاف من القول، وفى بعضها فغالوا بالغين المعجمة، وفتح اللام أى زادوا، والأول رواية الأنطاكى، وفسره التلمسانى بإنشاد المدائح والهجاء والمدح والذم أو الجد والهزل وله وجه.

(وتقاولوا) تفاعل من القول أى أداروا الكلام بينهم **(فى القل والكثر)** بضم أولهما، وأجاز البرهان كسرهما أى القليل والكثير مدحًا وذمًا وجدًا وهزلاً. قيل: وفيه ثقل، ولو قال: فى الكثير والنزر كان أحسن وأخف وأنسب بقوله: **(وتساجلوا فى النظم والنثر)**، والتساجل تفاعل من السجل بالفتح وهو الدلو الكبير، وسجلت الماء صببته، ثم

---

(١) أخرجه البخارى (٧/٣٥)، ومسلم فى فضائل الصحابة (٩٢).

لما كانوا يتناوبون فى سقى الماء استعاروا المساجلة للعطاء وللمفاخرة كما قال(١):

مـن يسـاجلنى يساجل ماجدا يـملأ الـدلو إلى عقـد الكـرب

وقيل: الحرب سجال أى تارة يغلب وتارة يغلب كما قيل:

فيومًا علينا ويومًا لنا ويومًا نساء ويومًا نسر

فالمراد أنهم تناوبوا وتفاخروا وتعارضوا فى عد المآثر كما هو متعارف عندهم، وليس المراد به المبارزة بأن يدعو أحدهما الآخر للقتال، فيبرز من الصف كما قيل، فإنه لا وجه له هنا، وهى جائزة لفعل الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، لها ومنعها بعضهم شرعا؛ لما فيها من المخاطرة. والنظم والنثر غنى عن البيان.

(فما راعهم) أى بينما هم كذلك فجاءهم أمر بغتة لم يكن لهم علم به، ولم يطرق مسامعهم مثله. وفى الأساس: ماراعنى إلا مجيئك أى ما شعرت إلا به، وهو من الروع بمعنى الخوف والفزع **(إلا رسول كريم)** بعث بين أظهرهم، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بكتاب عزيز)** لا نظير له شريف ومنيع بحماية الله، وهو استثناء مفرغ من عام مقدر، أى لم يفجأهم ويفزعهم شىء سوى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، جاءهم من الله أتاهم بخلاف هواهم وعكس مناهم؛ إذ كانوا يتوهمون أن رتبتهم فى البلاغة لا يفوقها كلام، فأتاهم بكتاب أخرس شقاشقهم، وأصم أسماعهم، والباء للمصاحبة أى مؤيد بكلام معجز.

(لا يأتيه الباطل) أى لا يأتيه باطل وأمر فاسد بحسب العقل والشرع، أو ما يبطله كالنسخ والطعن المقبول **(من بين يديه)**، أى قدامه وفى مقابلته، **(ولا من خلفه)** أى وراء ظهره، والمراد من جهة من الجهات، فلا يجد سبيلا يوصله إليه، وما وقع فيه من المطاعن اضمحل وانمحق حتى صار كالعدم؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١].

﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، محكم لمصنوعاته وتدبيره لجميع مخلوقاته ﴿حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، محمود يحمده جميع الكائنات بلسان القال والحال.

(أحكمت آياته) أى نظمت نظما محكما لا يعتريه فساد ولا خلل، ومنعها الله تعالى وحفظها من التبديل والتحريف الذى وقع فى غيره من الكتب، فهو من أحكمت الدابة

---

(١) البيت من الرمل، وهو للفضل بن عباس بن عتبة فى لسان العرب (١١/٣٢٦، ٣٢٧)، (سجل)، تهذيب اللغة (١٠/٥٨٦)، تاج العروس (٤/١٣٤) (كرب)، (١١/١٩٣) (سجل)، جمهرة اللغة (١٠/٥٨٦)، وبلا نسبة فى كتاب العين (٥/٣٦٠)، ديوان الأدب (٢/٣٩٠).

إذا وضعت فى فمها حكمة تمنعها الجماح، أو جعلت حكيمة لاشتمالها على أمهات الحكم النظرية والعملية من حكم بالضم إذا صار حكيما، وآيات القرآن جمع آية، وهى جملة كلمات من القرآن لها ابتداء ومقطع.

(وفصلت كلماته) أى فصل وبين ما فيها من الفوائد الجليلة كالعقائد الحقة والأحكام الشريفة والمواعظ والأخبار الصادقة، أو جعلت سورا، أو نزلت نجمًا نجمًا، أو فرقت بين الحق والباطل وجمعت الوعد والوعيد.

(وبهرت) أى غلبت وأدهشت **(بلاغته العقول)** جميعها؛ لغرابة أسلوبها وحسن بديعها الذى أعجز البلغاء.

(وظهرت فصاحته) أى اتضحت كالشمس وسط النهار، أو علت وارتفعت مرتبة إعجازها **(على كل مقول)** أى كل كلام نظمًا ونثرًا.

(وتظافر) بالظاء المشالة كما فى أكثر النسخ تفاعل من الظفر، وهو الفوز ونيل الأمانى **(إيجازه)** أى قلة ألفاظه الوافية بأداء المعانى من غير خلل، **(وإعجازه)** أى كونه فى أعلى مراتب البلاغة المعجزة للبشر، فالمعنى أن الإيجاز أخذ من الإعجاز ما يليق به، والإعجاز استوفى من الإيجاز ما يحق له، ففيه مع المبالغة استعارة مكنية وتخييلية، فمن قال: إنه لم يجد فى كتب اللغة ما يفسره به فقد قصر، وفى بعض النسخ بالضاد المعجمة أخت الصاد المهملة بمعنى تعاونا وتقويا على منع معارضته والإتيان بمثله، من ضفر الحبل والشعر إذا جمع بعضه على بعض ليتقوى، وهو مجاز مستعمل يقال: تضافر القوم إذا تجمعوا وتعاونوا، وقيل: إنه بالطاء المهملة من الطفرة بمعنى الوثوب، أى وثب كل منهما، والمراد أنهما بلغا الغاية فى بابهما، والأوجه الثلاثة معانيها متقاربة، فلا وجه لتصويب بعضها دون بعض.

(وتظاهرت حقيقته ومجازه) أى عضد كل منهما الآخر وقواه لما صار له ظهيرا ومستندا؛ لما بينهما من العلاقة، أو تشابها فى الظهور لوضوح معانيه وظهور قرائنه، لا كما يكون فى بعض المجازات من الخفاء والتعقيد.

(وتبارت فى الحسن مطالعه ومقاطعه) أى تشابهت وتساوت أوائله وأواخره من قولهم: فلان يبارى فلانا إذا فعل مثله، والتبارى يكون بمعنى التسابق فى الجرى، فالمعنى أن مطلعه وهو مبدؤه ومقطعه وهو منتهاه وغايته، كفواتح السور والآيات وخواتمها يجارى كل منهما الآخر ويسابقه؛ ليحوز قصب السبق من الفصاحة وصحة المعانى، وهو عبارة عن تشابههما.

(وحوت كل البيان) أى ما ينبغى بيانه وإظهاره **(جوامعه)** أى جوامع كلمه التى جمعت المعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة **(وبدائعه)** أى ما ابتدع فيه مما لم يسبق مثله فى كتاب، وكلام الله تعالى مما لا يقبل تحريفًا ولا يخشى تصحيفًا، وكفى بالدهر ممليا وبالذوق مستمليًا.

(واعتدل) أى استقام من غير إفراط ولا تفريط **(مع إيجازه)** وعدم تطويل لفظه **(حسنُ نظمه)** أى تناسب كلماته لفظًا ومعنى، وقلما يكون إيجاز كذلك، وهذا من أدلة إعجازه، وليس هذا مكررا مع قوله حوت كل البيان جوامعه وبدائعه كما توهم.

(وانطبق) أى وافق **(على كثرة فوائده)** أى معانيها التى تفيدها **(مختارُ لفظه)** أى لفظه المهذب الذى كأنه انتخب ونقى، وهذا من جوه الإعجاز أيضًا؛ لأن اللفظ الذى يفيد معانى كثيرة من الفصحاء يحتاج غالبا إلى ترك ألفاظ غير منقحة.

(وهم) أى فصحاء العرب من كل باد وحاضر **(أفسح ما كانوا فى هذا الباب مجالا)** أى أوسع. يقال: فسحت مجلسه فتفسح فيه، ومنه فسحت له أن يفعل كذا، أى وسعت له فهو فى فسحة مرة، وما كانوا بمعنى أكوانهم فما مصدرية، وإضافة أفعل للمصدر على التجوز كأخطب ما يكون الأمير قائما، والمجال محل الجولان وهو الحركة، والجملة حالية من ضمير راعهم، ومجالا تمييز عن النسبة محول عن الفاعل، والمراد بالباب جنس البلاغة وجعله بابا لوصولهم به إلى مقاصدهم، أى جاءهم، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالكتاب المجيد، ومجالهم فى غاية الاتساع، وتفسير المجال بالاتساع وإن كان ينبىء عنه فيه تكلف.

(وأشهر) أى أعظم شهرة، وفى نسخة وأشهرهم بالإضافة لضمير الناس **(فى الخطابة)** بفتح الخاء أى إنشاء الكلام فى المحافل، وقوله: **(رجالاً)** تمييز كالذى قبله، وأشهر معطوف على خبرهم أى ورجالهم أشهر من غيرهم فى هذا، وليس المراد بالرجال مطلق الذكور، بل الأشراف كما يقال: رجالات قريش لأشرافهم، ليس هذا منافيا لقوله: خصوا بالبلاغة والحكم بما لم يخص به أحد من الأمم؛ لأن اسم التفضيل يقتضى مشاركة غيرهم لهم فيما كان مختصا بهم؛ لأن اختصاصهم بما ذكر على ظاهره، والتفضيل مجازى بأن يكون على طريق الفرض كما فى حديث: «ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل منكن»[1]، إذ الخطاب لجنس النساء، أو نقول: إنه على حد قوله: الخل أحلى من العسل، أى أنه فى حموضته أقوى من العسل فى حلاوته،

(١) أخرجه البخارى (١/٨٣، ٢/١٤٩)، ومسلم فى الإيمان (٣٢)، وابن ماجه (٤٠٠٣)، وابن أبى عاصم (٢/٤٦٣).

ولاسم التفضيل استعلامات أخر ذكروها فى المطولات.

(وأكثر فى السجع)، وهو الكلام المنثور الذى له فواصل مقفاة كالشعر، وهو منقول من سجع الحمام لكونه على وتيرة واحدة؛ ولذا لا يجوز إطلاقه على القرآن، **(والشعر)** وهو الكلام الموزون المقفى بالقصد **(ارتجالا)** أى تكلما به من غير فكر وروية، وهو فى الأصل الانتصاب والقيام على الأرجل، فأطلق على التكلم قائما؛ لأنه كان عادة لهم، ثم نقل لما ذكر وشاع حتى صار حقيقة فيه وفى كتاب بدائع البداية أنه فى الأصل الانتصاب بسهولة، ومنه شعر رجل، وقيل: هو من ارتجال البئر وهو أن ينزلها برجليه من غير حبل، كالبديهة وهو من بدهه بمعنى بداه كما قالوا: مدحه ومدهه إلا أن الارتجال أسرع من البديهة، وبعده التروية انتهى.

وفى نسخة وأكثر فى الشعر والسجع سجالا، والمراد بالسجال هنا المحاورة، وأصل معناه الدلو كما تقدم، وقيل: المراد به المفاخرة.

(وأوسع فى الغريب) المراد به ما يستغرب من الكنايات، والمجازات البديعة لتصرفهم فى الكلام، وقيل: المراد به ما يحتاج إلى تنقير وتفتيش من كتب اللغة، وهو بالنسبة إلينا.

فإن قلت: هذا مما يخل بالفصاحة وسياق الكلام لمدحهم.

قلتُ: قال ابن هلال فى كتاب الصناعتين: إنه ليس مخلا بها لمن كانت لغته من الأعراب، والقح من العرب العرباء، فإطلاق أهل المعانى غير صحيح، ولم أر من نبه عليه.

(واللغة مقالاً) اللغة معناه الكلام. لكل قوم لغة تكون اسما لعلم مدون يبين فيه معناها، والمراد هنا الأول، والمقال مصدر ميمى بمعنى القول يعنى أن لغة العرب أكثر من سائر اللغات ألفاظًا، فقلما يكون معنى إلا وله أسماء مترادفة حتى أنه يوجد فى كلامهم ما له مائة اسم فأكثر، وقد أفردوه بالتأليف، وهذا كناية عن كونهم أقدر على الكلام من غيرهم؛ فإذا أعجزهم القرآن فغيرهم يعلم عجزه بالطريق الأولى، وعطف اللغة على الغريب من عطف العام على الخاص.

(بلغتهم التى بها يتحاورون) الجار والمجرور صفة كتاب أو حال منه، والتحاور إدارة الكلام والمراجعة فيه سؤالاً وجوابًا من الحور وهو التردد، والضمير للعرب، وقيل لقريش؛ لأن القرآن نزل بلغتهم ، فإن كان ما قبله كذلك فلا إشكال فى كلامه.

(ومنازعهم) بفتح الميم والنون وزاء معجمة وعين مهملة جمع منزع بالفتح مجرور بالعطف على لغتهم من النزع، وهو كما مر الجذب والأخذ، والمنزع مصدر بمعنى

النزع، واسم مكان، ويكون اسما للسهم الذى يرمى به. يقال: رماه بمنزع، أى: سهم بعيد المرمى قال(١):

فهو كالمنزع المريش من الشو حط مالت به يمين المغالى

قاله فى الأساس. قيل: وهو المراد هنا لمناسبته لقوله: **(التى عنها يتناضلون)** بالضاد المعجمة أى: يترامون بالسهام. يقال: ناضلته وخرجوا يتناضلون وينتضلون، ونضلت من الكنانة سهما اخترته، ومن المجاز ناضل عن قومه إذا دافع وحاج، والمناضلة المفاخرة، فشبه الكلام الدائر بينهم فى المخاصمة والمفاخرة بالسهام، وأثبت له المناضلة تخييلاً، وقيل: المنزع هنا اسم مكان، والمعنى أنهم يتغالبون فى كلامهم نظمًا ونثرًا فى حال المنازعة وهى المجاذبة فى الأعيان والمعانى، وهو بعيد، وأبعد منه ما قيل: إن المنزع ما يرجع إليه الرجل من رأيه وطريقته، أى: أتاهم الكتاب بما هو ديدنهم الذى لا يتركونه فأكبوا على مدافعته.

(صارخًا بهم فى كل حين) حال من الكتاب أو الرسول من الصراخ وهو الصياح والنداء بصوت شديد يسمع من بعيد، أى مصرخا بدعوته فى كل وقت يتلو القرآن عليهم ويبكتهم ويدعوهم لمعارضته.

(ومقرعا) بضم الميم وفتح القاف وتشديد الراء المهملة وبعين مهملة أى معيرًا وموبخًا لهم، من القرع وهو الضرب ومنه القرعة **(لهم بضعًا وعشرين عاما)** سنة، وهو بكسر الباء الموحدة وضاد معجمة ساكنة وعين مهملة، وهو من الثلاث إلى التسع من كسور العدد، ويقال: بضعة أيضا فى لغة قليلة، وفيه أقوال أخر فى القاموس هذا أصحها، ويستعمل مع العشرة وما فوقها إلى تسعين، ولايختص ببعض العقود منها، وهذه المدة مدة دعوته ﷺ من بعثته إلى وفاته، وقد اختلف فيها مع أنه بعث على رأس الأربعين، وحياته بعده قيل: عشرون، وقيل: ثلاث وعشرون وهو الأصح، وقيل: خمس وعشرون؛ ولذا قال: بضعا من غير تعيين العام والسنة بمعنى، وقد تختص الثانية بالشمسية والأولى بالقمرية؛ ولذا اختاره لأن بها حسابهم؛ ولأنها قد يعبر بها عن الشدة والقحط.

واعلم أن البضع ليس كصريح العدد فى أنه يذكر مع المؤنث ويؤنث مع المذكر، وما

(١) البيت من الخفيف، وهو لعبيد بن الأبرص فى ديوانه (ص١٠٩)، وللأعشى فى لسان العرب (٣٥١/٨) (نزع)، تاج العروس (٢٤٣/٢٢)، وليس فى ديوانه، وبلا نسبة فى أساس البلاغة (نزع)، كتاب العين (٣٥٨/١).

نقله فى القاموس عن مبرمان يرده ما فى الحديث «الإيمان بضعة وسبعون شعبة»، فلا يرد على المصنف أن الصواب أن يقول: بضعة وعشرون كما قيل، ولا حاجة للتأويل.

(على رؤوس الملأ أجمعين) الرؤوس جمع رأس، وهو العضو المعروف الشريف السيد، والملأ الجماعة، وقد يخص بالأشراف، ويقال: كلمه على رؤوس الناس، وعلى رؤوس الأشهاد إذا صرح بما يريده وأشاعه؛ لأن من يريد ذلك يقوم فى المحافل مستعليا على رؤوسهم، أى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يزل مظهرًا لدعوته مدة بعثته، منذرًا لهم قائمًا عليهم بين أظهرهم والجار متعلق بقوله: مقرعا أو تنازعه مقرعا وصارخا.

﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ**﴾ هذا حال أيضًا أى قائلاً وتاليًا لهم: أم يقولون إلخ، ولم يعطفه رعاية لنظم القرآن، فيكون اقتباسًا من مشكاة أنواره، والافتراء كالاختلاف الكذب، والاستفهام إنكارى توبيخى.

﴿**قُلْ**﴾ إن كان الأمر كما زعمتم ﴿**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ**﴾ [يونس: ٣٨]، فى النظم والبلاغة، فإنه نزل بلغتكم وأنتم فصحاء، ﴿**وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم**﴾ [يونس ٣٨]، أى كل من قدرتم على دعوته ليعينكم على افتراء كلام يضاهيه ﴿**مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ٢٣]، أى غير الله تعالى، فإنه القادر على كل شىء ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [البقرة: ٢٣]، فى قولكم إنه افتراء، وهذا توبيخ وتقريع بتعجيزهم عن أقل مراتبه، وليس مقابلا للسجعة الأولى كما قيل، ثم إنه أتى بآية أخرى فى معناها فقال: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ**﴾ [البقرة: ٢٣]، فى شك وشبهة ﴿**مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا**﴾ [البقرة: ٢٣]، أى نزل منجما بحسب الوقائع، ﴿**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ**﴾ [البقرة: ٢٣]، إلى قوله: ﴿**وَلَن تَفْعَلُوا**﴾ [البقرة: ٢٤]، وقوله: من مثله صفة سورة أى سورة كائنة من مثله، والضمير لما نزلنا، ومن للتبعيض أو للتبيين وزائدة عند الأخفش، أى سورة مماثلة للقرآن فى البلاغة وحسن النظم، أو لعبدنا، ومن للابتداء أى بسورة كائنة ممن هو على حاله من كونه بشرًا أميًا لم يقرأ الكتب ولم يتعلم العلوم، أو صلة فأتوا والضمير للعبد، وهذه الآية أبلغ مما قبلها للدلالة على عجزهم فى المستقبل بقوله: ﴿**وَلَن تَفْعَلُوا**﴾ [البقرة: ٢٤]، والكلام على الآيات مما كفانا المفسرون مؤنته.

(و ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ**﴾ [الإسراء: ٨٨])، نظمًا وبلاغة (﴿**لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ**﴾ **الآية**)، وهو جواب قسم مقدر؛ ولذا لم يجزم ولم يذكر الملائكة؛ لأن إتيانهم بمثله لا ينافى إعجازه فتأمل.

(و ﴿**قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ**﴾ [هود: ١٣]) أى محض كذب واختلاق

منكم، وخص الكذب بالذكر لقوله: **(وذلك)** أى طلب الإتيان بالمفترى تهكما وتقريعا **(أن المفترى)** اسم مفعول **(أسهل)** تلفيقًا، **(ووضع الباطل أقرب)** تناولا، وأروج تنميقا ومع ذلك لم يقدروا عليه، **(واللفظ إذا تبع المعنى الصحيح كان أصعب)**؛ لأنه يلاحظ فيه ما فى الواقع ونفس الأمر، ثم يؤتى باللفظ على طبقه وترتيبه بحيث لا يخرج عنه، **(والمختلَق)** بفتح اللام اسم مفعول بمعنى الكذب المفترى، كما قال تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، وهو من الخلق بمعنى التقدير؛ لأنه أمر مقدر فى النفس من غير نظر للواقع، وقيل: إنه من الخلق وهو الثوب البالى؛ لأن الحق يزيد كل يوم جدة، والكذب يزداد بلى.

(على الاختيار أقرب) المراد بالاختيار ضد الإلجاء والاضطرار، فإن الصادق مضطر إلى اتباع الحق، وقد يضيق عليه نطاق البيان بخلاف الكاذب؛ فإنه يجد برا واسعا كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٥]، وقيل: هاهنا بحث وهو أن التحدى بقوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ [البقرة: ٢٣]، إلى آخره إن كان الإتيان بما هو واقع على وجه الحق فهو غير ممكن قطعا، وإن كان بالإتيان بمثله وعلى صورته لفظا، فلا يخرج عن كونه مفترى، وحينئذ يستوى الأمران، والذى دار فى خلدى أن ذكر مفتريات لمشاكلة قوله: افتراه تهكما وتقريعا، لا لما قاله المصنف، رحمه الله تعالى، وليس بشىء لأنا نختار الثانى، وبقولهم أنهم لعجزهم لا يستويان، وهو فى غاية الظهور فتدبر، وضمن أقرب معنى أهون؛ ولذا عداه بعلى كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ولولا ذلك عداه بإلى أو اللام.

(ولذا) أى لكون المختلق أسهل وأقرب من الحق الصحيح عبارة **(قيل)** أى قال الأدباء، ومن لهم دربة فى صناعة الصياغة للكلام: **(فلان)** أى المنشىء لرسائل الملوك ونحوه ممن يقول الحكم والمواعظ من الفصحاء **(يكتب كما يقال له)**، أى كتب فى شأن أمر واقع لرسالته، ففتق أكمام الكلام عن زُهر المعانى الزاهية الزاهرة حتى يفوح عبيرها فى نادى البراهة، **(وفلان)** ممن ينشىء المقامات **(يكتب كما يريد)** من كل ما يطرأ على خاطره من غير نظر لصدقه وكذبه، فإذا صعب عليه التعبير عن معنى عدل عنه لغيره، فهو يكتب كما يريد لا كما يراد، وهذا إشارة كما حكى عن بديع الزمان أنه رتب له راتب بين كتبة الديوان، فلم يقدر على كتابة الرسائل، فلما أُخبر الصاحب بذلك قال: دعوه فإنه يكتب كما يريد لا كما يراد، وحكى مثله عن الحريرى أيضًا.

(وللأول) الذى يكتب كما يقال له **(على الثانى)**، وهو الذى يكتب كما يريد، والمراد بالكتابة هنا مطلق الكلام وإن لم يكتب **(فضل)** أى زيادة شرف ورتبة، **(وبينهما**

شأو) أى مسافة ومدى (**بعيد**)، والشأو بفتح الشين المعجمة، وسكون الهمزة وقد تبدل ألفا، وبالواو بمعنى السبق والغاية والأمد، فتجوز به عن المسافة، ثم كنى به عن التفاوت الزائد.

(**فلم يزل، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقرعهم**) أى يعيرهم ويعيبهم ويشنع عليهم لما تحداهم بالقرآن (**أشد التقريع**)؛ لإنذارهم بالهلاك والعذاب الأليم.

(**ويوبخهم غاية التوبيخ**) هو بمعنى ما قبله لكن المقام مقام إطناب وخطاب يحسن فيه مثله.

(**ويسفه أحلامهم**) أى يصفهم بالسفه، وهو قلة العقل وخفته، والسفه الخفة، والأحلام جمع حلم بضمتين وضم فسكون وهو العقل.

(**ويحط أعلامهم**) بحاء مهملة مضمومة، وأعلام جمع علم بفتحتين، وهى الراية الكبيرة والجبل، والسيد، والاسم المختص، والكل محتمل هنا أى ينكس راياتهم، ويهد جبالهم، ويذل ساداتهم، ويزرى بألبائهم، والمعنى على كل حال أنه يحقرهم ويقهرهم بطعنة فيهم وإظهار ضلالهم وسوء حالهم.

(**ويشتت نظامهم**) أى يفرق جمعهم ويبطل آراءهم بجداله وجلاده، والنظام ما ينتظما به الدرر ونحوها، والتشتيت التفريق كما مر فاستعير لما ذكر.

(**ويذم آلهتهم**) أى أصنامهم التى عبدوها فى الجاهلية (**وآباءهم**) الذين اقتدوا بهم فى الكفر، وقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، والآباء بالمد جمع أب.

(**ويستبيح أرضهم وديارهم**) أى يجعلها مباحة للمسلمين باستيلائهم عليها وإجلائهم عنها، (**وأموالهم**) ما ملكوه من الأثاث والمواشى وغيرها، (**وهم فى كل هذا**) المذكور من التوبيخ والتسفيه وما بعده إلى استباحة الأموال والديار (**ناكصون**). يقال: نكص على عقبيه إذا أحجم وتأخر، فاستعير للإعراض عن معارضته فيما فعله وما أتى به للقرآن (**عن معارضته**) والإتيان بمثله، والجملة حالية من الضمير قبلها (**محجمون عن مماثلته**) أى عن الإتيان بشىء مماثل أقصر سورة منه لما تحداهم، وأحجم كنكص بمعنى تأخر، وهو كناية عن عدم القدرة. يقال: حجمته فأحجم، وهو من النوادر كمثل كببته فأكب.

(**يخادعون أنفسهم**) أى يمنون أنفسهم أمانى كاذبة، ويؤملون آمالاً فارغة، ويمكرون مكرا يعود عليهم بالوبال، فكأنهم بذلك خادعوا أنفسهم فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا

﴿يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩]، وتحقيقه فى الكشاف وشروحه **(بالتشغيب)**، وهو تهييج الشر والفتن. من الشغب بفتح الغين المعجمة وسكونها، **(والتكذيب)** أى بادعائهم كذب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما جاء به من الحق الذى لا مرية فيه، وقيل: هو من قولهم كذبته نفسه إذا خيلت له آمالا تحثه على اتباع الباطل، وهو تعسف لا وجه له، والذى غره قوله: **(الإغراء بالافتراء)** هكذا فى النسخ الصحيحة بغين معجمة، وراء مهملة ومدة، وفى بعضها الاغتراء افتعال منه، وقال التلمسانى: صوابه الإغراء بغير تاء، وهو المولع بالحث والتحريض قال تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ﴾ [المائدة: ١٤]، أى ألزمناها. أقول: قال بعضهم: أصله من الغراء الذى يلصق به، وعلى هذا فالاعتراض ساقط لما فى القاموس من أنه يقال: اغتراه إذا ألصقه، والمصنف أجل من أن يوهم فى اللغة، فإنه قدوة فيها ولا حاجة إلى أنه لمشاكلة الافتراء، والافتراء الكذب كما تقدم، وصيغة الافتعال تفيد مبالغة ليست فى المجرد كما قرره فى قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

(وقولهم) بالجر معطوف على التكذيب: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤]، أى ينقل ويروى عن السحرة كأهل بابل وغيرهم، وسبب نزول هذه الآية أن الوليد لما سمع منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، حم السجدة قال: سمعت من محمد كلامًا ليس بكلام إنس ولا جن، وإنه ليعلو ولا يعلى. فقيل: قد صبأ الوليد. فقال ابن أخيه أبو جهل لعنه الله: أنا أكفيكموه، فجلس عنده حزينا وكلمه بكلام أحماه، فقال لهم: تزعمون أن محمدا مجنون هل رأيتموه يخنق، وزعمتم أنه كاهن هل رأيتموه يكهن، وأنه شاعر هل رأيتموه قال شعرا؟ قالوا: لا. فقال: ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين المرء وأهله وولده؟ فاهتز النادى فرحا ويأتى ذلك كله مبسوطا.

واعلم أن السحر كما نقله الأكفانى فى إرشاده قد صنف فيه كتب كثيرة أكبرها غاية الحكيم للمجريطى، وهو حقيقى وغير حقيقى، يقال له: الأخذ بالعيون، وإلى القسمين الإشارة بقوله: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقوله: ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، ولما خفيت أسبابه اختلفت طرقه، فطريقة الهند تصفية النفس وتجريدها؛ لأنهم رأوه أفعالا تصدر عن النفس، وطريق النبط عمل أشياء مناسبة للغرض المطلوب مضافة لرقية وعزيمة ودخنة فى وقت مناسب، وتلك الأشياء تماثيل وتصاوير وعقد ينفثون فيها، وكتابة تدفن أو تعلق فى الهواء، وتحرق، والعزائم تضرع للكواكب المؤثرة عندهم، وطريق اليونان تسخير روحانية الأفلاك والكواكب دون أجرامها فى وقت خاص، وطريق القبط والعبرانيين والعرب

الاعتماد على أسماء وعزائم مجهولة، كأنهم يخاطبون بها حاضرًا؛ لاعتقاد أنها تصدر عن الجن بتسخير الملائكة لها.

وأنواعه ثلاثة: الاستخدام والاستنزال والاستحضار، وتكون يقظة بتوسط تلبس الروح ببدن منفعل ينطق بلسانه كصبى وامرأة حال غيبته عن الحس، ويختص باسم الاستحضار فإن كان منامًا اختص باسم الجليان. انتهى ملخصًا.

(وسحر مستمر) أى دائم باق لما رواه من تتابع الوحى غضا طريًا، أو محكم متقن، وأصله من مر الحبل وهو فتل مرائره وهى طاقاته، أو ذاهب غير قار من المرور، أو مستبشع مر المذاق.

(وإفك افتراه) أى كذب اخترعه واختلقه، والإفك أسوأ الكذب، **(وأساطير الأولين)** أى شىء أخذه مما سطره الأولون وزخرفوه، وهو جمع سطر، أى صنف من الكتابة على خلاف القياس. وقال المبرد: إنه جمع أسطورة كأرجوحة وأراجيح على القياس، أوله مفرد مقدر كأسطارة وأسطيرة، وقائل هذا هو النضر بن الحارث بن كلدة، وفيه نزلت الآية وقتل يوم بدر.

(والمباهتة) بالجر عطفا على التكذيب، وهى بمعنى البهتان، وهى الكذب الذى يبهت ويدهش سامعه، وكذا قوله: **(والرضاء بالدنية)** بالهمزة وتبدل فتدغم، ومعناه الخصلة الحقيرة الخسيسة المنحطة التى لا يرضى بها من له عقل ومروءة، وفسرها بقوله: **(كقولهم ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨])**، لأن ظاهره الوصف بالحماقة وعدم الفهم، وهو أمر مذموم لا يرتضيه العقل، وهو جمع أغلف، أى فى غلاف. يقال: سيف أغلف فهى بمعنى فى أكنة جمع كنان بزنة كتاب غطاء، ومعناها مغطاة، وغلام أغلف بمعنى أقلف، والغلفة القلفة، وقيل: إنه جمع غلاف وأصله غلف بضم اللام ككتب، وبه قرئ، ثم خفف بالسكون أى هى أوعية للعلم مملوءة به، فلا تحتاج للتعلم منك، وعلى الأول معناه لا نفهم ما تقول ولا يصل إلينا، وهذا هو الملائم لكلام المصنف، ولقوله:

(و ﴿فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥])، وهو القرآن والإيمان، ﴿ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥]، أى صمم، وأصل معناه الثقل والحمل، ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، أى مانع عن وصول ما تقوله لنا، وفى من إشارة إلى أنه مبتدأ، وأنه استوعب المسافة المتوسطة بينهما بحيث لم يبق فراغ، وهو تمثيلى لنبو قلوبهم عن إدراكها ما دعاهم له، ومج أسماعهم له، وامتناع مواصلتهم وموافقتهم له.

(و) قال الذين كفروا: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [فصلت: ٢٦]، أى لا تصغوا

وتنصتوا له، ﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، بفتح الغين المعجمة وضمها من لغى يلغى ويلغو، والأول أصح وهو المقروء به، والمراد هنا رفع الأصوات بأى كلام كان حتى يشوش على قارئه، فيقطع قراءته أو يمنع من استماعه، ولغو الكلام ما لا يعتد به، وهو من اللغا وهى أصوات الطيور. يقال: لغى لغوا ولغا كل، وقد يسمى كلام قبيح لغوا قال تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا﴾ [مريم: ٦٢]، أى قبيحًا كما قاله الراغب، وإنما فعلوا هذا لعجزهم عن معارضته.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، قارئه بقطع قراءته، فغلبتهم إنما هى بالجهل والسفه كما هو شأن العاجز المعاند، ومثله دنية لا ترضى.

(والادعاء) مجرور كالذى قبله **(مع العجز بقولهم:** ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ﴾ [**الأنفال: ٣١**])، وهذه وقاحة لفرط عنادهم ومكابرة، ولو استطاعوه ما منعهم أن يشاءوا، وقد تحداهم وقرعهم بالعجز عشرين سنة، ثم قارعهم بالسيوف، فلم يقدروا مع استنكافهم من أن يغلبوا خصوصا فى الفصاحة. وقائل هذا هو النضر بن الحارث أيضًا، لكنه أسنده إلى الجميع كإسناد فعل الرئيس إلى المرءوسين، أو على حد قولهم: بنوا فلان قتلوا قتيلاً، والقاتل واحد منهم.

(وقد قال لهم الله تعالى) مكذبا لهم: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤]، فنفى قدرتهم فى المستقبل، فلو قدروا لحميتهم فعلوا، ولم يقل: فلن تأتوا بسورة من مثله لما فيه من الكناية والإيجاز، **(فما فعلوا ولا قدروا)** نفى الفعل ظاهر، والقدرة فى الإنسان قوة غير محسوسة، فنفيها يعلم من أنهم وبخوا وعيروا، فلم ينطقوا ببنت شفة مع شدة غيرتهم واشتعال نار حميتهم، **(ومن تعاطى ذلك)** أى فعله وتكلم بما توهمه معارضه، وأصل معناه المناولة **(من سخفائهم)** ممن له طيش وقلة عقل.

(كمسيلمة) تصغير مسلمة فلامه مكسورة وميمه مضمومة، والعامة تفتح لامه وهو خطأ منهم، والضمير للعرب، وهو كذاب يضرب به المثل فيقال: أكذب من مسيلمة، وهو ابن حبيب اليمنى من بنى حنيفة قبيلة، وهذا لقبه، واسمه هارون، ويقال له: أبو ثمامة، وكان وفد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يسلم حتى قتله خالد بن الوليد فى خلافة أبى بكر، رضى الله عنه، وقيل: قتله وحشى قاتل حمزة، رضى الله تعالى عنه، وكان له حيل ونيرنجات يوهم أنها معجزات، وأرسل للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، مكتوبًا صورته:

من مسيلمة رسول الله، سلام عليك أما بعد: فإنى قد أشركت معك بأن لنا نصف

الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشًا يعتدون علينا. فأجابه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكتب إليه: من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب: سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. انتهى.

ومن هذيانه الذى زعم أنه وحى نزل عليه: والزارعات زرعًا، والحاصدات حصدًا، والطاحنات طحنًا والخابزات خبزًا، والثاردات ثردًا. ضفدع بنت ضفدعين، إلى كم تنعين لا الماء تكدرين، ولا الشراب تمنعين. إلى غير ذلك مما تمجه الأسماع وتستقبحه الطباع.

(فكشف عواره) فى نسخة بدون فاء، وإثباتها أحسن، أى أظهر بما قاله من الكلام السخيف الركيك عيبه وحماقته، وهو بضم العين المهملة بزنة غراب على الأفصح، وآخره راء مهملة، وبفتح العين أيضًا، وقيل: إنها الأفصح **(لجميعهم)** أى العرب ممن سمعه، وقد نقل صاحب الدلائل منه كلامًا كثيرًا وشرحه، ولا حاجة لتسويد وجه الصحف به، والعوار مأخوذ من عور العين، وفيه إشارة إلى ما نقل من أنه مسح عين من استشفى بمسحه فابيضت عينه.

(وسلبهم الله) أى أخذ منهم، والضمير لمن وجع نظرا لمعناه **(ما ألفوه)** أى اعتادوه بطباعهم **(من فصيح كلامهم)** بيان لما، أى لما أرادوا المعارضة لم يقدروا على كلام مثل كلامهم قبله، وليس هذا قولا بالصرفة كما توهم؛ لأن من فعل هذا ليس له صرفة، وهذه الجملة معطوفة على جملة ما فعلوا، وليست الواو للمعية ولا حالية كما قيل **(وإلا)** أى وإن لم يسلبهم الله فصاحتهم المألوفة.

(فلم يخف على أهل الميز) بفتح الميم وسكون التحتية والزاء المعجمة، أى التمييز والعقل، وزاد الفاء فى الجواب لأنه ماض لفظًا ومعنى، أو بتقدير المبتدأ، أى فهم لم يخف إلى آخره، ووجهه دفع توهم كون الاستثنائية، فاندفع ما قيل: إن الصواب إسقاطها لصحة مباشرته للشرط. يقال: مازه يميزه إذا ميزه، أى لو نظر تلك الجمل ومازها ظهر أنه كلام ما راق وما زهى **(أنه ليس من نمط فصاحتهم)** بفتحتين ونون وميم وطاء مهملة، أى من نوع الفصاحة وعلى طريقتها التى اعتادها، فإنه معجز خارج عن طوق البشر، وضمير إنه للقرآن يقال: عندى متاع من هذا النمط، وهذا أبلغ من ليس فصيحًا؛ لأنه نفى عنه كونه من جنسه، **(ولا جنس بلاغتهم)** لركاكته وقباحته، **(بل ولوا عنه مدبرين)** إضراب عن مثله ومدبرين، أى معرضين حال مؤكدة لولوا بمعنى رجعوا وأعرضوا، **(وأتوا مذعنين)** بذال معجمة وعين مهملة، أى منقادين مسلمين، والإذعان الانقياد، وأما إطلاقه على العلم فى قولهم: إذعان النسبة تصديق فمولد ليس

من كلامهم **(من بين مهتد)** أى مصدق بحقيقته وإعجازه، لهداية الله تعالى له، **(وبين مفتون)** متحير فى أمره منكر لإعجازه، وفيه لف ونشر مشوش.

(ولهذا) أى لكونه ليس من نمط كلامهم **(لما سمع الوليد بن المغيرة من النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] الآية)** لما سأله أن يقرأ عليه شيئًا من القرآن لينظر فى أمره، وقرأ هذه الآية عليه دون غيرها لمناسبتها له؛ لأنه من أقاربه وفيها عظة له وتنبيه، وهو من رؤساء عقلائهم، فرجا بذلك أن يهديه الله للإسلام.

قال السيوطى: وهذا الحديث رواه البيهقى عن عكرمة مرسلاً، وفى المقتفى فى الإحياء فى آداب تلاوة القرآن حديث: إن خالد بن عقبة جاء إلى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال: اقرأ على، فقرأ عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠] الآية، فقال: أعد فأعاد، فقال: إن له لحلاوة إلى آخر ما ذكره المصنف هنا، وكذا ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب بغير إسناد.

ورواه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بسند جيد إلا أنه قال: إن الوليد بن المغيرة بدل خالد بن عقبة كما قاله المصنف، رحمه الله تعالى، وكذا ذكر ابن إسحاق فى سيرته، فإن صح فهما قضيتان والوليد والد خالد بن الوليد، والمغيرة بضم الميم وكسر الغين المعجمة هو ابن عبد الله المخزومى، وباقى نسبه معروف مات كافرًا وترجمته معروفة.

(قال) لما سمع ما تلاه عليه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(والله إن له)** أى لما تلا **(حلاوة)** أى عذوبة فصاحة عند من له ذوق، فهو استعارة لما يستلذه السمع، **(وإن عليه لطلاوة)** بضم الطاء، ويجوز فتحها لغة ومشاكلة وتكسر أيضًا، فهو مثلث ومعناها الحسن والقبول والرونق، وجاء بمعنى السحر أيضًا، وهو استعارة كالذى قبله، وأكد بالقسم وإن والاسمية، وقدم الخبر للحصر إشارة إلى أنه لا يشبه غيره من الكلام.

(وإن أسفله لمغدق) بلام التوكيد وضم الميم وسكون الغين المعجمة وكسر الدال المهملة، كما فى النسخ كلها من الغدق بفتحتين وهو كثرة الماء، ورواه ابن إسحاق وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، والعذق فيه بفتح العين المهملة وسكون الذال المعجمة هو النخلة التى أصلها ثابت، ورواه ابن هشام لغدق بفتح المعجمة وكسر المهملة من الغدق بفتحتين. قال السهيلى: ورواية ابن إسحاق أفصح لأنها استعارة تامة فيها آخر الكلام يشبه أوله، والجناة بفتح الجيم والنون الثمرة.

(وأعلاه لمثمر) أى له ثمر طيب كثير، والجملة الثانية بتمامها استعارة تمثيلية، والمراد أنه كلام أصله قوى ليس من جنس كلام البشر، ومعانيه مفيدة مرشدة لسعادة الدارين وحسن العاقبة، وهو كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، أو استعارتان تمثيليتان، وأراد بأسفله ما تضمنه من المعانى كما يقال: تحت هذا الكلام معان غزيرة، وإن أراد بأعلاه ما ينتجه من الفوائد والعوائد التى تظهر من فهم معانيه وتيقنها، فشبه الكلام لفصاحته وبلاغته بشجرة شربت عروقها ماء غزيرًا فاهتزت وربت وأينعت ثمرتها وكثرت وعذبت، ويجوز أن تكون مكنية وتخييلية.

قلت: اختلاف الروايات يدل على تعدد القضية، ثم بنى على هذا قوله: **(ما هذا بقول بشر)**؛ لأنه لا يشبه كلامهم بوجه من الوجوه، وفى نسخة: ما يقول هذا بشر بصيغة المضارع أى ليس من كلام البشر لحلاوة نظمه وبديع أسلوبه وبلاغة معانيه وجزالة مبانيه، يعنى أنه ليس مفترى مختلقا، وخص البشر لأنهم المعروفون بالبلاغة، وإلا فهو معجز للجن أيضًا مع أن فى هذا الخبر التصريح بذلك حيث قال: وليس بشعر فما فيكم رجل أعلم بالشعر منى، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده منى، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى يقول شيئًا من هذا، وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته كما رواه البيهقى فى الدلائل، ثم إنه روى الفربرى أن القارئ على الوليد عثمان بن مظعون لا النبى ﷺ كما رواه المصنف، رحمه الله تعالى، فإن عثمان، رضى الله تعالى عنه، قال: ما أسلمت ابتداء إلا حياء من النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى نزلت: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠] الآية، وأنا عنده فاستقر الإيمان فى قلبى، فقرأتها على الوليد ابن المغيرة، فقال: يا ابن أخى أعد إلى آخر الحديث، وهذا يؤيد ما سبق من تعدد القضية.

(وحكى أبو عبيد) القاسم بن سلاّم بتشديد اللام الإمام فى الفقه والحديث واللغة البغدادى الحبر الهمام الجليل، أخذ عن الشافعى وغيره، وكان عبدًا روميًا لرجل من هراة، وأحواله وترجمته معروفة، توفى سنة أربع أوثلاث وعشرين ومائتين **(أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤])**، أى اجهر بما أمرت بتبليغه، ولا تبال بما يقولونه، وما موصولة أو مصدرية، وأصل معنى الصدع التفريق والتمييز، فاستعير لما ذكر لتفريقه بين الحق والباطل، وما قيل من أنه لا يجوز أن تكون مصدرية؛ لأنه بمعنى أمرك وهو مصدر مبنى للمفعول، والصحيح عدم جوازه، ولا موصولة؛ لأنه يحتاج لتقدير العائد أى تؤمر به، ولا يجوز إلا إذا جر بما جر به

الموصول، واتحدا متعلقا والأول متعلق باصدع والثانى بتؤمر سهو من قائله، وإن سبقه إليه بعض المعربين؛ لأن الخلاف فى المصدر الصريح لا فى أن والفعل كما فى هذه الآية، ولأنه إنما حذف العائد بعد حذف الجار ونصبه.

(فسجد) الأعرابى لما أدهشه من بلاغته، **(وقال: سجدت لفصاحته)** إذ ليست آية سجدة، وإنما هزه العجب لفصاحته حتى ذل ومرغ وجهه فى التراب، وكان هذا معروفا فى مثله حتى قال بعضهم: للشعر سجدت، وليس المعنى سجدت لله لأجل فصاحته كما توهم، وضمير فصاحته للكلام المقروء لا لقارئه كما توهم؛ لأنه لا يناسب المقام.

(وسمع) أعرابى **(آخر رجلاً يقرأ)** قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]، أى لما يئسوا من يوسف، عليه الصلاة والسلام، وزيدت السين والتاء للمبالغة فى اليأس، وخلصوا بمعنى اعتزلوا وانفردوا، ونجيا بمعنى متناجين فى تدبير أمره، وهو يطلق على الواحد المذكر وغيره، **(فقال: أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام)**؛ لإعجاز بلاغته وخروجها عن طوق البشر، فإنك إذا وزنت قولك لما لم يطعهم يوسف، عليه الصلاة والسلام، ولم يجبهم ذهبوا وتشاوروا فيما يقولون بعد هذا، وكيف يرجعون لأبيهم بهذا النظم عرفت بالذوق أنه لا مناسبة بينهما، ولولا خوف السآمة فصلنا وجوه البلاغة فيها.

(وحكى أن عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، كان يوما نائما بالمسجد) أى مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، والظاهر أن مراده بقوله نائما مضطجعا لينام، فإنه يستعمل كثيرًا بهذا المعنى لقوله: **(وعلى رأسه قائم)** أى فى جانب رأسه رجل منتصب القامة، وليس المراد أنه واطئ لرأسه، وهو حقيقة عرفية فى مثله، والجملة حالية، والضمير لعمر، رضى الله تعالى عنه، وفى نسخ فإذا هو بقائم على رأسه، فإذا فجائية والباء للملابسة **(يتشهد شهادة الحق)** أى يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، **(فاستخبره)** أى طلب عمر، رضى الله تعالى عنه، منه الإخبار عن سبب تشهده وعن حاله.

(فأعلمه) ذلك الرجل المتشهد **(أنه من بطارقة الروم)** بطارقة جمع بطريق بكسر الراء معرب بترك، ومعناه الرئيس وقائد الجيش، وقد تكلمت به العرب قديمًا قال الجواليقى فى كتاب المعرب: البطريق بلغة الروم وهو القائد للجيش، وجمعه بطارقة وقد تكلموا به، ولما سمعت العرب بأن البطارقة أهل رياسة وصفوا الرئيس به يريدون المدح، قال أبو

ذؤيب[1]:

هـم رجعوا بالعـرج والقوم شهـد   هوازن تحدوهـــا حمـــاة بطـارق

وهذا يقتضى أن بطريق هو المعرب وهو المعروف، وقال ابن خالويه فى كتابـه: ليـس البطرك معرب بطريق عربته العرب قديمًا قال[2]:

يعلـو الظـواهـر فـرد لا أليــف له   كبطـرك قد مشى فى غيـط كتان

وهذا مما يتعجب منه فحرره، والروم جيل من الناس معروفون سموا باسم جدهم روم ابن عيصو بن إسحاق وكان أصفر، فلذا قيل لهم بنو الأصفـر، والواحـد رومـى، وقـول الجوهرى رامى غلط منه.

(ممن يحسن كلام العرب وغيرها) مـن العبرانيـة والسـريانية والروميـة، وإنمـا قـال هـذا توطئة لأنه يفهم القرآن والإنجيل، ويقدر على النظر فى معانيهما؛ ولذا قـال: **(وأنـه سمـع رجلا من أسارى المسلمين)** بضم الهمزة وفتحها جمع أسير، وأصله من الأسر وهـو الشـد بالقيد، ثم عم لكل من أسر وصار فى يد عدوه **(يقرأ آيـة مـن كتـابكم)** أيـها المسـلمون يعنى القرآن، **(فتأملتها)** أى نظرت بفكرى فى معناها.

(فإذا قد جمع فيها ما أنزل الله علـى عيسـى ابـن مريـم)، عليـه الصـلاة والسـلام، فـى الإنجيل **(من أحوال الدنيا والآخرة)** بيان لما أى من الأحوال التى تلزم العبد فى الدنيا التى هى سبب للفوز والنجاح فى الآخرة، **(وهى)** أى الآيـة التـى سمعـها **(قولـه)** عـز وجـل: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [النـور: ٥٢] فـى أمـره ممـا فـرض وسـن ونهيـه عـن غـــيره، (﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾) [النـور: ٥٢] أى يخافــه ويتجنــب مــا يســتوجب عقوبتـــه، (﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾) [النور: ٥٢] بسعادة الدارين، وقولـه جمـع بالبنـاء للمفعـول، ويجوز بناؤه للفاعل ويقرأ بالإفراد فاعله ضمير رجل، وقيـل: إنـه روى يقـرءون بضمـير الجمع للأسارى وهو محتاج للتكلف.

(وحكى الأصمعى) بصاد مهملة ساكنة وميم مفتوحة وعين مهملة، وهو عبـد الملـك ابن قريب بالتصغير ابن أصمع وهو لقب جده، ومعنـاه صغـير الأذن، وهـو إمـام اللغـة والنحو والأدب والنوادر، ولد بالبصرة سنة ثلاث وعشرين ومائة، وتوفى بها سنة عشـر

---

(١) البيـت مـن الطويـل، وهـو لأبـى ذؤيـب فـى شـرح أشـعار الهذليين (ص١٥٨)، لسـان العـرب (٢٢/١٠) (بطرق)، تاج العروس (٨٥/٢٥) (بطرق).

(٢) البيت من البسـيط، وهـو للراعـى النمـيرى فـى ديوانـه (ص٢٦٢)، لسـان العـرب (٤٠١/١٠)، تهذيب اللغة (٤٣٠/١٠)، تهذيب اللغة (بطرك).

ومائتين (**أنه سمع جارية**) أى امرأة شابة من العرب تتكلم بكلام فصيح، (**فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك**) تعجب من فصاحة لسانها وبالغ فى تعجبه، فإنها تقال لمن أتى بأمر بديع غريب، وهى فى الأصل جملة دعائية يراد بها شدة الاستحسان كأنه ممن يستحق أن يحسد ويدعى عليه.

(**فقالت: أو يعد**) بفتح الهمزة الاستفهامية والواو العاطفة والهمزة مقدمة من تأخير أو داخلة على مقدر معطوف عليه، ويعد بالياء التحتيه مجهول، أو الفوقية معلوم (**هذا**) الكلام (**فصاحة**) أى فصيحا (**بعد قول الله؟**)، أى مع فصاحة القرآن لا يقال لكلام غيره: إنه فصيح لمن سمعه؛ فإنه أزرى بكل فصاحة فصيرها كالعدم، كالمتاع النفيس إذا نشر بجنب ما هو أعظم نفاسة منه، فإنه يعد غير نفيس كما قيل:

ولا قبح فيها غير أن جمالها   يصير كل الغانيات قباحا

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧]، أى ألهمناها أو أريناها مناما ﴿**أَنْ أَرْضِعِيهِ**﴾ [**القصص: ٧] الآية**)، أى ﴿**فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ**﴾ [القصص: ٧]، (**فجمع فى آية واحدة بين أمرين**) أرضعيه وألقيه، (**ونهيين**) لا تخافى ولا تحزنى، (**وخبرين**) أوحينا وخفت عليه، (**وبشارتين**) رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين، والمراد بالفصاحة هنا البلاغة فإنها تطلق عليها كما ذكره الشيخ عبد القاهر.

(**فهذا**) أى الجمع بين ما ذكر فى آية واحدة (**نوع من إعجازه**) أى القرآن، (**منفرد بذاته**) أى مستقل بنفسه غير محتاج لغيره، (**غير مضاف لغيره**) أى غير تابع لنوع غيره من البلاغة (**على التحقيق**) لما فى الواقع عند من عرفه، (**والصحيح من القولين**) بالجر معطوف على التحقيق، والظاهر أن مراده بالقولين هنا كما قاله بعضهم: القول بأن إعجاز القرآن هل هو بمجموع بلاغته وأسلوب نظمه؟ أو هو متحقق بكل واحد منهما على حدته وانفراده بدون إضافة أحدهما إلى الآخر؟ فإن كلا منهما خارق للعادة خارج عن طوق البشر، وهذا هو المتبادر من سياقه.

وقيل: المراد بالقولين: القول بأن إعجازه ببلاغته التى لا يرتقى أحد إلى مرتبتها، والقول بأنه معجز بغير ذلك كالصرفة والإخبار بالمغيبات، ولا شك فى أن من يقول بإعجازه لبلاغته وأسلوبه يقول أيضا أنه بالنظر لمعناه أيضًا، إذ لا يمكن قطع النظر عنه كما قاله العلامة الزركشى فى برهانه؛ إذ قال: أكثر المحققين على أن الإعجاز من جهة البلاغة لكن تعذر الإحاطة بتفصيلها فإن أجناس الكلم مختلفة، ومراتب البيان متفاوتة،

فمنها البليغ الرصين الجذل، والفصيح القريب السهل، والجائز الطلق الرسل، فهذه أقسامها المحمودة، والأول أعلاها والثانى أوسطها والثالث أدناها، وقد حازت بلاغة القرآن من كل شعبة، فانتظم له نمط جمع الفخامة والعذوبة، وهما كالمتضادين؛ لأن العذوبة نتاج السهولة، والمتانة والجزالة يعالجان الزعورة، فكان اجتماعهما فضيلة خص بها القرآن ليكون آية بينة، وإنما تعذرت على البشر؛ لأن علمهم لا يحيط بجميع اللغة العربية وظروف معانيها، وأفهامهم لا تدرك جميع معانيها ووجوه نظمها، فيتخيروا أحسنها حتى يأتوا بمثله، وإنما يقوم الكلام بلفظ حامل معنى عليه قائم ورباط له ناظم، فإذا تأملت القرآن وجدته استوفى ذلك كله ورقى لأعلى درجاته، وهذا لايتيسر لغير العليم القدير، فإنما صار معجزًا؛ لأنه جاء بأحسن الألفاظ، وأبدع النظم والتأليف، وأصح المعانى من الدعاء للتوحيد وطاعة الرب المجيد والتحليل والتحريم والعظة والتقويم، والإرشاد إلى محاسن الأخلاق والزجر عن مساويها، واضعا كل شىء فى موضعه بحيث لا ترى محلا أولى من محل، مودعا فيه مثلات أخبار القرون الماضية، منبئًا بالحوادث المستقبلة أزمانها جامعًا للحجج والمحتج له المؤكدة للزوم ما دعا له، ولا شك أن استيفاء هذه الأمور متسقًا أحسن نسق لا يمكن لغيره عز وجل.

(**وكون القرآن من قبل النبى ﷺ**) بكسر القاف وفتح الباء الموحدة واللام أى من عنده قال تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ [المعارج: ٣٦]، ويستعار للقوة والقدرة على المقابلة أى المجازاة، فيقال: لا قبل لى بكذا، ومنه قوله: ﴿بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ [النمل: ٣٧]، والمراد كونه بلغته فقوله: (**وأنه أتى به**) عطف تفسير، فليس المراد أنه كلامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**معلوم ضرورة**)؛ لتواتر وتوفر الداعى على نقله.

(و) كذا (**عجز العرب عن الإتيان به**) أى بمثله (**معلوم ضرورة**) لمشاهدتهم له.

(و) كذا (**كونه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**متحديًا به**) أى طالبًا منهم الإتيان بمثله (**معلوم ضرورة**) لسماعهم له.

(و) كذا (**كونه فى فصاحته**) فى سببية مستعارة استعارة تبعية بتشبيه السبب بالظرف المتمكن فيه (**خارقًا للعادة**)، أى مخالفًا لعادة فصحاء العرب فى كلامهم الفصيح، من قولهم: خرق الصف إذا تجاوزه وتعداه (**معلوم ضرورة للعالمين بالفصاحة ووجوه البلاغة**) أى أنواعها ومقاماتها المقتضية لها؛ لعجزهم عن معارضته، وقد طلب منهم ذلك مرارًا لا تحصى، وهم أحرص الناس على ذلك.

(**وسبيل من ليس من أهلها**) أى طريق من ليس من أهل الفصاحة الجبلية الموصلة

لمعرفة إعجازه كالمولدين والعجم (**علم ذلك**) أى الإعجاز، واسم الاشارة قائم مقام الضمير (**بعجز المنكرين من أهلها**) لإعجازه، وأنه ليس من كلام البشر إذا تحدوا (**عن معارضته**) والإتيان بمثله، وعن متعلق بعجز، (**واعتراف**) هو فى الأصل افتعال من المعرفة صار بمعنى الإقرار بما عرفوه، فقوله:

(**المقرين**) بأنه كلام الله المعجز من إقامة الظاهر مقام الضمير (**بإعجاز بلاغته**) لهم ولغيرهم عن أن يزفوا ببنت شفة إلا من غلب عليه السفه، وتعلق هذا بما نحن بصدده أظهر من الشمس، وإنكاره مكابرة، وقوله: سبيل مبتدأ، وعلم بزنة مسك خبره مصدر علم يعلم، والمبتدأ معرفة بإضافته لمن الموصولة، والخبر بإضافته لاسم الإشارة، ولأرباب الحواشي هنا خبط يتعجب منه، فمنهم من قال: علم مجرور بدل من من الموصولة وذلك مفعوله، وبعجز إلى آخره خبره أى سبيل علم من ليس أهلا لذلك، أى كونه خارقًا للعادة وهو بعجز إلى آخره.

وأعجب منه قولهم: إن علم بفتح العين وسكون اللام بمعنى علامة، من علمت شفته إذا انشقت فهو أعلم، وبعجز متعلق بمقدر، وقيل: علم فعل ماض مبنى للمجهول أو للمعلوم، وهو تخليط لا داعى له، ثم ذكر آيات استوضح بها ما قدمه فقال: (**وأنت إذا تأملت**) أى أمعنت النظر ودققته، كمن ينظر لما له فيه أمل، وأنت فاعل فعل مقدر يفسره ما بعده على حد قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الإنشقاق: ١] إن منعنا دخولها على الجمل الاسمية.

(**قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩]**) وما أودع فيه من البدائع والروائع مع لطائف الإيجاز وأنوار الإعجاز الساطعة من مشكاته، ورسوخ عروقه فى الفصاحة، وحلاوة ثمرات بلاغته في الذوق، وما اشتمل عليه من بديع البديع كالإعراب بجعل القتل الذى هو ضد الحياة ظرفًا لها؛ لأن من علم أنه إذا قتل اقتص منه كف عنه، فكان سببًا لحياة من يهم بقتله، وهو أوجز مما عدوه من أفصح كلامهم، وهو قولهم: القتل أنفى للقتل مع ما فيه من التكرار، والقتل مطلقا لا ينفيه، ففى القصاص تصريح بالمعنى المراد إذ القتل قد يكون ظلما، وفيه كلام وفوائد كثيرة فى شروح الكشاف والمفتاح، والثمرة تدل على الشجرة، ولا أقول البعرة تدل على البعير؛ لما فيه من نجاسة سوء الأدب.

(**وقوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ﴾**) [سبأ: ٥١]، من حلول الأجل، أو من بعثهم من القبور، أو فى يوم بدر ﴿فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ [سبأ: ٥١]، أى من ظهر الأرض إلى بطنها، أو من الموقف إلى النار، أو من صحراء بدر إلى قليبها، ففى هذه الآية

من الإيجاز والبلاغة وعذوبة الألفاظ ما يعرفه من له بصيرة.

(وقوله) تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، أى ادفع سيئة من أساء إليك بالحسنة التى هى أحسن من كل شىء حسن، أو بأحسن ما يمكن دفعه، ولا حاجة إلى القول بأن أحسن بمعنى حسن، وعدل عنه للمبالغة، فانظر ما فى هذه الآية من الإيجاز بحذف مفعول ادفع، وهو السيئة لأنه لا يدفع الحسن، ولطف المعنى وما تضمنه من المبالغة ومكارم الأخلاق، وهذا كقولهم: أحسن إلى من أساء كفى المسىء فعله، وفى طى ذكر السيئة نكتة سنية، وأما دعوى المناسبة للمقام بما فيها من دفع السائل وتكلف المناسبة بينها وبين قوله:

(وقوله) تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ [هود: ٤٤]، فبعيدة بمراحل وتكلف من غير طائل، وفى هذه الآية من البلاغة المعجزة مع الإيجاز أنه ناداهما كما ينادى العقلاء، وأمرهما بما يؤمرون به تمثيل لباهر قدرته وعظمته؛ لانقيادهما لما أراد كالمأمور المطيع المبادر للامتثال حذرا من سطوة آمره، والبلع استعارة للجفاف، والإقلاع الإمساك، وفيها لطائف أخر مفصلة فى شرح المفتاح **(الآية)**، وتمامها **﴿وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدًا للقوم الظالمين﴾** [هود: ٤٤].

(وقوله) تعالى: ﴿فَكُلًّا﴾ [العنكبوت: ٤٠]، ممن ذكر قبله من المكذبين ﴿أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، أى عاقبناه به، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ [العنكبوت: ٤٠]، أى ريحا عاصفة فيها حصباء وهى الحجارة الصغيرة، أو ملكا رماهم بها وهم قوم لوط، عليه الصلاة والسلام، **(الآية)**، وتمامها: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]، والأول قوم ثمود ومدين، والثانى قارون، والثالث قوم نوح وفرعون، وفى الآية من وجوه البلاغة الإجمال والتفصيل وحسن السبك والنظم، والإعلام بأحوال من مضى للاعتبار، والإيجاز والانسجام الرائق.

(وأشباهها) أى ما يضاهى ما ذكر فى البلاغة ووجوه الإعجاز **(من الآى)** اسم جنس جمعى ككلم وكلمة، أو اسم جمع وهو منصوب معطوف على مفعول تأملت، ثم أضرب بيانًا لأنه لا ينحصر فى آيات مخصوصة مشيرًا إلى وجوه من الإعجاز فيها، فقال:

(بل أكثر القرآن)، وجواب إذا قوله: **(حققت ما بينته)** لك آنفا **(من إيجاز ألفاظها**

وكثرة معانيها) مع لطائف ودقائق، (و) لطائف **(ديباجة عبارتها)** قيل: معنى الديباج نوع من الحرير له وبر، يقال: فلان يلبس الديباج ويركب الهملاج، وقيل: إنه معرب فأصله ديبا زيد فيه الجيم، كما يقال فى قولون: وهو من الأمراض قولنج، ثم استعير فقالوا: دبج المطر الأرض إذا زينها بالنبات والرياض، وفلان يصون ديباجتاه أى خداه، وفى ضده يبتذلهما، ومنه أخذ ديباجة الكتاب والقصيدة لأوله، والحواميم ديباج القرآن أى رياضه التى يرتع فيها القارئ، فالمراد حسن عبارته، ففيه استعارة مكنية وتخييلية شبهت العبارة بحمى، وأثبت له الديباج بمعنى الرياض والنبات ثم كنى به عما مر.

(وحسن تأليف حروفها) حيث كانت سالمة من التنافر والثقل، (و) حسن **(تلاؤم كلماتها)** بالهمزة وقد تبدل ياء، فيقال: تلايم وملايمة أى مناسبة وموافقة، وأما إبدالها واوًا فهو خطأ من رسم الهمزة بالواو؛ لأن الملاومة مفاعلة من اللوم فقراءة بعض المحدثين له بالواو لحن، يعنى ليس فيه تعقيد ولا ضعف تأليف وتنافر كلمات.

(وأن تحت كل لفظة منها جملا كثيرة) أى فيها معان كثيرة وفوائد غزيرة، وجعل ما يدل عليه تحته تجوزًا، **(وفصولا جمة)** أى أنواعًا كثيرة من محاسن الكلام، كما يقال: جعل الكلام فصلا فصلا، والجم الكثير، وغاير بينهما تفننا كقوله: **(وعلومًا زواخر)** بزاء وخاء معجمتين ثم راء مهملة، أى علومًا كثيرة كالبحار الزواخر، من زخر البحر إذا كثر ماؤه وارتفعت أمواجه، ففيه مكنية وتخييلية، ويجوز أن يكون تشبيهًا بليغًا واستعارة مصرحة، وزواخر ممنوع من الصرف، وما فى بعض النسخ من تنوينه للتناسب لا وجه له **(ملئت الدواوين)** أى امتلأت كتبُ التفسير وغيره من الفنون **(من بعض ما استفيد منها)** بالبناء للمجهول، أى أخذه كل باحث عنه بحسب فهمه، وإذا ملأها بعضه فكله لا يمكن حصره ولا يحويه كتاب، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩]، ودواوين جمع ديوان وهو الكتاب، وقد تقدم الكلام عليه.

(وكثرت المقالات) أى كلام الأئمة والمصنفين **(فى المستنبطات عنها)** أى فى المعانى والأحكام المستخرجة بطريق الإشارة والدلالات الالتزامية، وهو من قولهم: استنبط الماء من البئر إذا استخرجه، فما استفيد هو ما دل عليه صريحًا وما استنبط غيره، **(ثم هو)** أى القرآن، وعطفه بثم لتراخى رتبته عما قبله **(فى سرد القصص الطوال)** أى ذكرها فى أثنائه مستعار من سرد الدرع لنسجه، **(وأخبار القرون السوالف)** معطوف على القصص جمع قصة، والمراد بالقرون السوالف الأمم المتقدمة على عصر النبوة من سلف بمعنى تقدم، والقرن مدة من الزمان مختلف فيها والمراد أهله.

(التى يضعف فى عادة الفصحاء عندها الكلام) صفة للقصص والأخبار، أى أنها لطولها إذا أريد ذكرها بتمامها يصعب على الفصيح حكايتها، ويضعف نطقها عن أدائها وإجمالها لمن لا يعلمها لا تفيده فائدة يعتد بها، وليس المراد أنه واقع فى الخارج يعجز الفصيح عن مطابقة حكايته له، **(ويذهب ماء البيان)** أى رونقه وحسنه؛ لأنه لطوله قد لا تتناسب كلماته ويشق نظامه، ولا يحكم ارتباطه، والبيان إيضاح المعانى، وهو معطوف على يضعف الصلة، ففيه عائد مقدر كالذى قبله **(آية لمتأمله)** أى علامة بينة لمن تأمل نظمه وسرده القصص والأخبار، وآية خبر المبتدأ الذى هو هو، أو مبتدأ مؤخر والجار والمجرور خبر مقدم، والجملة خبر هو، والرابط الألف واللام القائمة مقام الضمير الذى هو فى سرد قصصه آية لمن تأمله حق التأمل.

وقوله: **(من ربط الكلام)** صفة لآية ومن بيانية، أو متعلق بمقدر أى يظهر كونه آية دالة على إعجازه من ارتباط الكلام **(بعضه ببعض)** بالجر بدل من الكلام، أى من كون أجزائه إلى غاية التناسب حتى كأن كل كلمة مرتبطة بأختها، **(والتئام سرده)** بالهمزة والياء أى مناسبة كلماته المسرودة، أى المتتابعة كحلق الدرع الداخل بعضها فى بعض مع فصاحتها وحسن تأليفها، **(وتناصف وجوهه)** المراد بالوجوه أنواع بلاغته من الاستعارة والكناية، وتناصف تفاعل من النصفة والإنصاف، يقال: أعضاؤه متناصفة حسنا أى لا ينقص حسن بعضها عن بعض، وهو من بليغ الكلام الذى لا يعرفه إلا من ذاق حلاوة العربية، كما أشار إليه المبرد، رحمه الله تعالى، فى الكامل، قال الشاعر:

لما عرضت إلى تناصف وجهها   غرض المحب إلى الحبيب الأول

وأصل معنى الإنصاف المواساة ونحوها، كأنك تعطيه نصفا وتأخذ نصفا، ومن ظن عدم تغاير هذه المعانى فقد وهم.

(كقصة يوسف، عليه الصلاة والسلام، على طولها) قصها الله تعالى على أعجب ترتيب وأبدع تهذيب بحيث لم ينصب ماء بيانها، ولم ينحل عقد نظامها، مرتبطة الهوادى بالأعجاز على أصح وجه وأوضح نهج، **(ثم إذا ترددت)** أى إذا كررت **(قصته)** المذكورة فى القرآن، من قولهم: فلان يتردد على فلان إذا كان يكثر الإتيان إليه كقول بعضهم:

إن كنت لم أكثر زيادة حبكم   فمحبتى لكم بغير تردد

أى ما كرر من قصص القرآن ليس تكرارًا مخلا إذ قد **(اختلفت العبارات عنها)**، **فذكرت** فى كل مكان لمعنى ضربت له مثلا غير المكان الآخر، وحكيت بعبارات مختلفة

النظم والألفاظ، وإن كان المعنى واحدًا (**على كثرة ترددها**) وتكرارها، والجار والمجرور حال من ضمير عنها، وهذا من عظيم قدرة قائلها، ويحكى عن ابن عباد، رحمه الله تعالى، أنه مات له ولد فاشتد حزنه على فقده، فلما صلوا على جنازته فى محفل عظيم قام الناس لتعزيته، فلم يُعِدْ عبارة للمعزين له مع كثرتهم وكونه فى حالة حزن وألم حتى تعجب الحاضرون ممن بلاغته.

(**حتى تكاد كل واحدة**) من القصص المكررة (**تنسى فى البيان صاحبتها**) يعنى أن سامعها كأنه إنما سمعها الآن، ولم يسبق لها ذكر قبل ذلك؛ لأن العبارة غير الأولى والسياق، ومناسبة المقام تفيد فوائد أخر، وتجدد لمن سمعها حظًا عظيمًا للعبارة المغايرة لما تقدمها، وعبر بكاد لأنها لم تنس حقيقة، (**وتناصف فى الحسن وجه مقابلتها**)؛ لتفاوتهما باعتبار المقامات المحكية فيها، كقصة آدم وحواء وموسى، عليهم الصلاة والسلام، مع بنى إسرائيل، (**ولا نفور للنفوس من ترديدها**) وتكريرها، وهذا إشارة إلى الجواب عما قاله بعض الطاعنين فى القرآن بأن فيه مكررات كثيرة، وهو مما ينفر الطبع السليم، (**ولا معاداة لمعادها**) أى لا تعادى الطباع المكررة المعاد فى القرآن من قصصه كما قال الشاعر:

طبع النفوس معاداة المعادات

وفيه تمليح لما ذكر وتجنيس لطيف.

* * *

(فصل)

(**الوجه الثانى**) من وجوه إعجاز القرآن (**من إعجازه صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب**) أشار بالأسلوب والصورة إلى رشاقة عبارته وفخامة معانية، وهذا باعتبار نظمه وطريقه الوارد فيها، فإنه مع الرغبة لا يشبه الشعر ولا الخطب ولا غيرهما مما كان عادتهم ومحاوراتهم قرى الأسماع بموائد عوائده، وبهذا اضمحل ما قيل: إنه بحسب المعنى راجع للأول؛ لأن حسن تأليفه والتئام كلمه راجع لصورة نظمه، فإن قيل: إن قوله: (**المخالف لأساليب كلام العرب**) منزه عنه، قلت: لا لأن قوله: الخارق للعادة بمعناه انتهى.

والأساليب جمع أسلوب وهو الفن والنوع، وفى كلامه إشارة إلى أن الإعجاز ليس مداره على الألفاظ، ولذا عبر بالنظم دون اللفظ، قال عبد القاهر: النظم توخى المعانى على حسب الأغراض التى صيغ لها الكلام، لا تواليها فى النطق وضم بعضها لبعض

كيفما اتفق، **(ومناهج نظمها ونثرها)** مجرور معطوف على أساليب أى مخالف لمناهجها جمع منهج، وهو الطريق، أى لا يشبه كلامهم المنظوم وهو الشعر ولا المنثور من الخطب وغيرها **(الذى جاء عليه)** صفة نظم، أى النظم الذى جاء عليه من عند الله تعالى واردًا على أسلوبه العجيب الذى لا يشبه كلام البشر.

(ووقفت مقاطع آيه) جمع آية مضاف لضمير القرآن، وفى نسخة آياته، والمقاطع جمع مقطع، وهو آخر الكلام الذى يقف عليه القارئ وقفًا تامًا أو كافيًا، وإسناد الوقف إليها مجازى، والواقف إنما هو القارئ، وهو بمعنى انتهت ووصلت؛ ولذا عداه بإلى وهو معطوف على الصلة، **(وانتهت فواصل كلماته إليه)**، وفى بعض النسخ: ووقفت مطالع آيه عليه، والفواصل جمع فاصلة وهى الكلمة الأخيرة من الفقرة ونحوها، والضمير للموصول بتقدير مضاف إلى آخره قالوا: لا يقال فى القرآن إنه سجع، وإنما يقال فواصل لقوله: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ﴾ [فصلت: ٣].

(ولم يوجد) أى لم يسمع كلام بليغ **(قبله ولا بعده نظير له)** يماثله فى بلاغته وعلو مرتبته وغرابة أسلوبه.

(ولا استطاع) وقدر **(أحد مماثلة شىء منه)** بأن يأتى بكلام ما يشبهه فى الجزالة والبلاغة، **(بل حارت فيه عقولهم)**، فوقعوا فى الحيرة، فالعناد يمنعهم من الاعتراف، وظهور إعجازه يكذبهم فى قولهم: إنه مفترى أو سحر أو نحوه مما لا يقبله الطبع.

(وتدلهت به دونه أحلامهم) بفتح الدال المهملة واللام المشددة أى دهشت وتحيرت فى شأنه، فهو مما قبله، وفى نسخة تولهت بواو بدل الدال من الوله وهو الحيرة أيضًا، والأحسن أن يقصر التدله بذهاب العقل من الهوى، فيكون ترقى من حيرته إلى ذهابه، ودونه بمعنى ما لم يبلغ منزلته، كما فى قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٨]، والأحلام جمع حلم وهو بمعنى العقل، وله معان أخر يعنى أن عقولهم لم تصل إليه إذ تحيرت فيما هو أقل منه، فكيف به.

(ولم يهتدوا إلى مثله) أى لم يسمعوا به فى فصحائهم، ولم يقدروا على الإتيان بشىء يماثله أو يقرب منه **(فى جنس كلامهم)** الذى يقدرون عليه، وتفى به قواهم البشرية، **(من نثر)** كالخطب والرسائل، **(أو نظم)** من القصائد والفقر، **(أو سجع)** وهو الكلام المقفى غير المنظوم، وهو يطلق على مجموع هذا، وعلى الكلمات الأخيرة من النثر، ويطلق على الإتيان به ونفس التوافق الواقع فيه.

(أو رجز) وهو نوع من الشعر معروف، وأفرده بالذكر مع دخوله فى النظم؛ لأنه

خلافه فى عدم التزامهم رويًا واحدًا، فعد نوعًا مستقلا من الكلام أفرد باسم يخصه، ولم يعده بعضهم من الشعر حتى سمى قائله: راجزًا لا شاعرًا، **(أو شعر)** لو لم يذكره كان أحسن؛ لأنه مكرر مع النظم.

(ولما سمع كلامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الوليد بن المغيرة) تقدم ضبطه وأنه أبو خالد، وكان من صناديد قريش وعقلائهم وفصحائهم إلا أن الله لم يهده إلى الإسلام كما مر، واسم ولده خالد، رضى الله تعالى عنه، سيف الله، **(وقرأ عليه القرآن)** أى أسمع الوليدَ رسولُ الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعضَ القرآن رجاء إسلامه **(رق)** قلبه ومال طبعه إلى الاعتراف به والإسلام، وأصل الرقة ضد الغلظة فتجوز به عن الملائمة والميل، كما قال ابن سعيد المغربى:

قد طال شوقى إلى ثغور ملأى من الشهد والرحيق
عنها أخذت الذى تراه يعذب من شعرى الرقيق

(فجاءه أبو جهل)، لعنه الله تعالى، لما بلغه ميله إلى كلام رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليصده عنه، وكان ابن أخيه واسمه عمرو بن هشام **(منكرا عليه)** بميله له واستحسانه لما قرأه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عليه، وهو حال من فاعل جاء، **(فقال)** الوليد ردًا لأنكار أبى جهل عليه: **(والله ما منكم)** يا معشر قريش **(أحد أعلم بالأشعار منى)** إنكارًا لقولهم: إنه شاعر، **(والله ما يشبه الذى يقوله)** محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، من القرآن **(شيئًا من هذا)** الشعر الذى ينشد، وأشار إليه بالقرب لشهرته وحضوره فى الذهن كالمشاهد المحسوس.

(وفى خبره الآخر) أى فى خبر آخر عن الوليد رواه البيهقى عن ابن عباس، رضى الله عنهما، **(وحين جمع)** الوليد **(قريشًا)** يعنى أشرافهم ورؤساءهم **(عند حضور الموسم)** مفعل من الوسم، وهو العلامة، والمراد موسم الحجاج وهو زمان اجتماعهم؛ لأنها معالم كانوا يجتمعون فيها بمكة، وحضوره مجىء زمانه أو مجىء أهله، ولما كان يجتمع به جميع قبائل العرب من كل فج خشى أن يسمعوا بأثر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيتبعوه، فجمعهم وحدهم ليتشاوروا ويروا رأيا فيما يصد الناس عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما أشار إلى بيان ذلك بقوله:

(وقال: إن وفود العرب) جمع وفد وهم كما مر الجماعة الذين يقدمون من بلادهم إلى مكة من غير أهلها، وأصل معنى الوفد الأشراف **(ترد)** أى يقدمون من غير البلاد، وأصل الورود الذهاب للماء، **(فأجمعوا فيه)** أى فى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم،

وأمره، أى دبروا وتداركوا **(رأيا)** أى أمرًا يعتقدون له فائدة ونتيجة، وأجمعوا بقطع الهمزة من الإجماع يقال: أجمعت كذا وكذا وأجمعت عليه، وأكثر ما يقال فيما يكون جمعًا يتوصل إليه بالكفر نحو: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١]، ويقال: أجمع المسلمون على كذا إذا اجتمعت آراؤهم عليه، ويجوز أن تكون همزته همزة وصل أيضًا؛ لأنه يقال: جمع له رأيا أيضًا، وبه فسر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] أى جمعوا آراءهم وتدبيرهم كما قال الراغب: ولا عبرة بإنكار الحريرى فى الدرة لصحته كما بيناه فى شرحها.

(لا يكذب بعضكم بعضًا) أى اتفقوا على أمر قبل قدومهم حتى لا يحصل افتراق كلمة واختلاف فى شأنهم، **(فقالوا: نقول:)** هو **(كاهن)**، وهو الذى يخبر عن المغيبات، ويدعى معرفة الأسرار، وكانوا فى العرب كثيرًا كشق وسطيح، وكان لهم كلام مسجع مصنع، فمنهم من له جنى يخبره ويلقى إليه الأخبار، ومنهم من يدعى معرفة ذلك بأسباب وأمور يأخذها من كلام السائل وفعله وحاله، ويقال له عراف، وأكثرها أمور ظنية تخطىء، وتصيب أحيانًا.

(فقال) الوليد لهم: **(والله ما هو بكاهن)** أى حاله لا تشبه حال الكهان، وكلامه لا يشبه كلامهم المسجع الذى كانوا يلفقونه وينمقونه، وفيه أكاذيب باطلة، فليس هذا رأيا مقبولا يروج عند العقلاء، **(ما هو بزمزمته ولا سجعه)** الضمير للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، والباء للملابسة، أى ليس معروفًا بزمزمته، أو لكلامه المفهوم من السياق أى وما كلامه مشبها بزمزمته، والزمزمة صوت خفى لا يكاد يفهم، وكان للكهان زمزمة مرقى يحضرون بها الجن، وزمزمة المجوس قراءتهم، وكلام الكهان كان مسجعًا، ولذا كره النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قول القائل فى الجنين: كيف ندى من لا أكل، ولا شرب ولا استهل، ومثل ذلك بطل.

وقال: هذا من إخوان الكهان، وهذا لا يدل على كراهة السجع مطلقًا، فينافى كلامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، به أحيانًا.

فلما لم يرض الوليد هذا الرأى فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قالوا:)** نقول هو **(مجنون)** أى رجل اختلط عقله فاختل كلامه وفعله، وذلك بإصابة الجن له وهو المعروف عند الأطباء، وأصله من جنه وأجنه إذا ستره لاستتار عقله، ومنه الجان والجنين.

(قال) الوليد ردًا لرأيهم هذا: **(ما هو مجنون ولا بخنقه ولا وسوسته)**، أى لا يشبه حاله حال المجانين، والخنق بفتح الخاء المعجمة وسكون النون مصدر، وهو الإختناق،

والجنون يقال له: خنق بكسر النون وفتحها، والوسوسة بفتح الواو مصدر، وهو شيء يلقى فى القلب أو فى السمع بصوت خفى، وقد يحدث المرء به نفسه؛ ولذا سمى حديث النفس.

(قالوا: فنقول: شاعر، قال:) أى الوليد: **(ما هو بشاعر)** أى ليس كلامه بشعر لا وزنا ولا معنى إذ الشعر مدح وهجو وتشبيب، وليس فيما سمعوا منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، شيء من ذلك، **(قد عرفت الشعر كله)** بأنواعه وأوزانه ومعانية، ثم فصل بعضًا منه بقول: **(رجزه)** هو نوع من الشعر معروف يسمى بالرجز، ويقال للقصيدة منه أرجوزة وجمعها أراجيز، وسمى رجزا لاضطرابه فى وزنه واختلاف أوزانه واختلاف قوافيه، **(وهزجه)** بفتحتين ومعجمتين، وهو اسم لبحر من بحور الشعر معروف، وبه فسر هنا، ولكن الذى قالوا: إن أسماء البحور منقولات اصطلاحية نقلها الخليل بن أحمد، فهى منقولة من الهزج لنوع مضطرب من الأغانى، ولو قيل: إنه اسم لضرب من الشعر كانت العرب تتغنى به كان أقرب وأنسب بقوله:

(وقريضه) لأنه ليس اسم بحر من بحور العروض؛ لأنه فى اللغة بمعنى الشعر مطلقا من قرضه بمعنى قطعه فعيل بمعنى مفعول؛ لأن الشاعر يقتطع نوعا مخصوصًا من الكلام لغرض له، فالظاهر أن المراد به ما يقابل القصائد وهى المقطوعات، وقرض الشعر ملكة يقتدر بها على نظمه، وفى العرف معرفة محاسن الشعر وقبيحه.

(ومبسوطه) أى مطولات قصائده مطلقا المقابلة لما قبله، فيتناول جميع أنواعه من الطويل والبسيط وغيره، فمن فسره ببحر البسيط، وقال: زيادة الميم فيه لمشاكلة قوله: **(ومقبوضه)** فقد تكلف ما لا دليل عليه، وكأن المراد بمقبوضه مختصر أوزانه المسمى فى العروض بالمجزوء والمنهوك، وليس المراد مصطلح العروضيين وهو المحذوف ثانى السبب الخفيف الذى هو خامس كمفاعيلن الذى حذفت ياؤه فصار مفاعلن؛ لأن هذا اصطلاح أحدثه المولدون لا تعرفه العرب قديمًا، وقوله: رجزه وما عطف عليه منصوب بدلا من الشعر لا من كله؛ لأنه توكيد لا يصح البدل منه، لا لأنه لا يقع مفعولا كما توهم.

(قالوا: فنقول:) هو **(ساحر؟ قال)**، أى الوليد: **(ما هو بساحر)** أنكره لما يعلمه من أن الساحر هو الذى يستعين على ما يأتى من خارق العادة بأمر علوى، أو بعزائم يسخر بها الجن، أو بطلمسات يستخرج بها السفلى بالعلوى، والناس جميعهم يعلمون أنه، ﷺ، ليس كذلك؛ ولذا قال: **(ولا نفثه ولا عقده)** بفتح العين المهملة وسكون القاف أو بضم ففتح جمع عقدة، والنفث النفخ مع ريق، والعقد عقد حبال أو شعر مضفور ونحوه

كما يعرفه السحرة مما يؤثر أمورًا خارقة للعادة فى الخارج عنه، وكنى به عن أنه ليس عمل مما يعمله السحرة، فقد تربى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بين أظهرهم، ولم ير أحد منه ذلك؛ فلذا خطأهم الوليد فى وصفهم له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وبين لهم أن تدبيرهم الباطل لا يروج على عاقل كما قيل:

يا سطوة الله حلى عقد ما ربطوا وشتتى شمل أقوام بنا اختلطوا
الله أكبر سيف الله قاطعهم وكلما قد علوا فى ذمهم هبطوا

(قالوا: فما نقول؟) بالنون أو بالمثناة الفوقية أى نحن أو أنت يا وليد، وما رأيك؟ **(قال: ما أنتم بقائلين من هذا)** أى مثل هذه الآراء **(شيئًا)** فى حقه **(إلا وأنا أعرف أنه باطل)** ليس بمقبول عندى، ولا عند العقلاء الذين يعرفونه، وتقديم الضمير لتقوية الحكم؛ لأنه يقدم لتقوية الكلام أو للحصر لتعسفه اعتقاد بعض جهلتهم فيه، والجملة حالية مستثناة يجوز اقترانها بالواو وعدمه، **(وأن أقرب القول)** فى حقه وإن كان الكل مفترى **(أنه ساحر)** بفتح الهمزة وكسرها كما فى كل ما وقع بعد أفعل تفضيل مضاف للقول على أن المصدر خبر أن، والجملة المحكية لا تحتاج لرابط لأنها عين المبتدأ هنا، وهذا رجل عاقل ختم الله تعالى على قلبه وسمعه، ونسجت عناكب الضلالة على بصره، ثم بين وجه أقربيته بحسب النظرة الحمقى بقوله:

(فإنه سحر) أى كالسحر ووجه المشابهة أنه **(يفرق بين المرء وابنه)** بالباء الموحدة والنون أو الياء المثناة التحتية، ومعناهما ظاهر، **(والمرء وأخيه)**، وفى نسخة بين المرء وأبيه وأخيه، **(والمرء وزوجه)** أى امرأته، وفيه لغتان هذه وزوجته بتاء التأنيث، **(والمرء وعشيرته)** أى أقاربه الأدنون المعاشرين له، وقد كان ذلك فإن من ذاق حلاوة الإسلام ترك ما عداه لأجله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما كان مشاهدًا فى الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، ومنهم من ترك ملكه كنيرز بن النجاشى كما فى سيرة ابن هشام، والتوفيق بين هذا وبين ما حكاه الزمخشرى عن الوليد هذا من أنه قال لهم: ما هو إلا سحر أما رأيتموه يفرق بين المرء إلى آخره، وما حكاه عنه من قوله:

(إن هذا إلا سحر يؤثر) كما تقدم أنه أراد ما هنا من أنه كالساحر فيما ذكر، لكنه ساقه فى معرض الجزم وليروج عندهم، أو أنه قال مرة ثم راجع عقله فرجع عنه، وهو الأوفق بما فى الآية ومناسبة ما ذكر لما هو بصدده فى غاية الظهور، فالقول بأن الأنسب أن يذكر ما حكى عنه من أنه قال لبنى مخزوم: والله قد سمعت محمدًا يقول كلامًا ما هو بقول [بشر] إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى كما تقدم ولا وجه له.

(فتفرقوا) من المجلس الذى جمعهم للمشاورة فيه، **(وجلسوا على السبل)** بضمتين جمع سبيل، وهو الطريق ليخبروا الوافدين بما قالوه حتى لا يتبعوه، صلى الله تعالى عليه وسلم، و**(يحذرون الناس)** منه حتى لا يصدقوه، فيقولون لكل من رأوه: محمد شأنه كذا وكذا فاحذروه لايفتنكم عن دينكم، والجملة الأولى معطوفة أو حالية بتقدير قد، وكذا الثانية من ضمير تفرقوا، وهما حالان متداخلتان، فقالوا ذلك لكل من قدم للحج، ففشا أمره، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى قبائل العرب، وخشى أبو طالب من ذلك، ومن تعييب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لآلهتهم وسبها أن يقع منهم ما يحرضهم على ضرره، فقال فى قصيدته اللامية الطويلة المشهورة يمدحه ﷺ، ويذكر حسن حاله، وما هو عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيها فمنها قوله:

لعمرى لقد كلفت وجدًا بأحمد وإخوته دأب المحب المواصل

إلى آخرها، ولولا خوف الإطالة أوردتها لما فيه من مدحه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وبيان حقيقته وتقيده بحميته.

(فأنزل الله تعالى فى الوليد) وقصته المذكورة التى هى سبب النزول، وهذا من إقامة الظاهر مقام الضمير للتسجيل عليه بذم الله تعالى له: (**﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾** [**المدثر: ١١**]، **الآيات**)، أى دعنى معه، فأنا أكفيه من كيد أعدائه، وإن كان وحيدًا منفردًا عن أهله وعترته لتركهم له، أو لا نظير له وتمام النظم: **﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾** [المدثر: ١٢ - ٢٣]، والكلام على هذه الآيات مفصل فى التفسير، والمقام لا يسعه.

(وقال عتبة بن ربيعة) بن عبد شمس بن عبد مناف والد هند أم معاوية، رضى الله تعالى عنهما، وهذا قتله عبيدة بن الحارث فى غزوة بدر كافرا **(حين سمع القرآن: يا قوم لقد علمتم أنى لم أترك شيئًا إلا وقد علمته وقرأته وقلته)** هذا عبارة عن أنه عنده علم بالكتب المنزلة لقراءته بعضها، وأنه قرأ القصص السالفة، وقال الشعر، وله سعة علم بالبلاغة وليس ظاهره بمراد إذ لا يمكن لمثله ما ادعاه.

(والله لقد سمعت قولا) يعنى به القرآن العظيم الذى سمع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يتلوه، **(والله ما سمعت مثله قط)** هو للاستغراق فى الماضى، **(ما هو بالشعر)**

الباء زائدة أى ليس بشعر ولا يشبهه كما مر، **(ولا بالسحر ولا بالكهانة)** أى ليس يشبه كلام السحرة والكهنة المسجع المتكلف، ولم يكن فى قائله شىء من أعمال السحرة المعهودة، والكهانة مصدر كهن يكهن بكسر الكاف وفتحها، كالكتابة والقسامة كما قاله الشريشى فى شرح المقامات.

(وقال النضر) بفتح النون المشددة وسكون الضاد المعجمة علم منقول من النضارة بمعنى الحسن **(ابن الحارث)** بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار الذى قتله النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالصفراء صبرًا، وقصته مذكورة فى السير **(نحوه)**، أى مثل ما قاله عتبة والوليد فى اعترافه بالقرآن، وأنه لا يشبه كلام البشر.

(وفى حديث إسلام أبى ذر) الغفارى الصحابى، رضى الله تعالى عنه، وهو جندب ابن جنادة كما مر، وغفارة قبيلة من العرب مشهورة، وغفار قبيلة من كنانة، وهو غفار ابن مليك بن ضمرة بن بكر بن عبد مناف بن كنانة بن خزيمة، وحديثه رواه مسلم وغيره، ووصفه البيهقى فى دلائل النبوة، وأسنده إلى عبد الله بن الصامت وهو حديث طويل، وكان إسلامه بمكة رابع أربعة؛ فلذا كان يقول: كنت رابع الإسلام، وقوله: **(وصف أخاه أنيسا)** بالصغير ووصف ماض والجملة حالية بتقدير قد.

(فقال) تفسير لوصفه المذكور: **(والله ما سمعت بأشعر من أخى أنيس لقد ناقض)** بقاف وضاد معجمة من المناقضة مفاعلة من النقض، وهو هدم البناء وحل طاقات الحبل، ثم صارت بمعنى كون الكلام له معنى لا يمكن اجتماعه من نقيضه، كزيد قائم وزيد ليس بقائم، وهذا اصطلاح المنطقيين، وعند العرب نقائض الشعر فى الجاهلية أنه إذا قال أحدهم شعرًا ذكر فيه افتخارًا بآبائه وشرفهم على قوم غيره، أو ذكر فيه هجاء غيره ومثالبه ونقيض حسبه وآله، فيعارضه غيره بشعر يذكر فيه ضد ما قاله، فيسمى ذلك مناقضة، ويقال للقصائد: نقائض، ومنه نقائض جرير والفرزدق لقصائد من الطرفين جمعت وشرحت، وفى الأساس يقال: فى كلامه تناقض، وهذا مناقضه ونقيضه، وتناقض القولان والشاعران، وناقض أحدهما الآخر: يقول قصيدة فينقض صاحبه عليه، وهذه القصيدة نقيضة قصيدة فلان، وهما نقائض، ومنه نقائض جرير والفرزدق، انتهى.

وفسره فى الشرح الجديد بما فى النهاية من أن المناقضة مفاعلة من نقض البناء وهو هدمه، أى ينقض قولهم وينقضون قوله، وأراد به المراجعة والمراودة انتهى، وهو تفسير لا يفى بالمقصود لما عرفته.

(اثنا عشر شاعرًا فى الجاهلية) أى عارضهم فى قصائدهم، فأتى بمثلها، وهذا يدل على فصاحته ومعرفته بالشعر وقدرته على إنشائه، وزمان الجاهلية كان فيه الشعراء الفحول كثيرًا، وذكر هذا تمهيدًا لما سيأتى من إنكاره عليهم فى قولهم: إن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، شاعر **(أنا أحدهم)** ذكره اعترافا بقوة شاعريته، **(وأنه)** أى أخاه أنيسا **(انطلق إلى مكة)** أى ذهب إليها بعد ما كان فى غنم لهما ترعى، فقال لأخيه: إن لى صاحبًا بمكة فاكفنى أمر الغنم حتى آتيك، فانطلق حتى أتى مكة فأبطأ على أبى ذر، ثم أتاه فقال: ما حبسك؟ قال: رأيت رجلا يزعم أنه على دينك إلى آخر القصة التى ذكرها البيهقى، وأشار إلى بعض منها المصنف بقوله: **(وجاء بخبر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى)** أخيه **(أبى ذر)**، وكان أسلم بمكة قبل أخيه، وأسلم أخوه بعده فهما صحابيان.

(قلت) له بعدما أخبرنى **(فما يقول الناس)** فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قال:)** يقولون: **(شاعر كاهن ساحر)**، أى بعضهم يقول هذا، وبعضهم يقول هذا، ثم أشار إلى بطلان ما قالوا بقوله: **(لقد سمعت قول الكهنة)** جمع كاهن مثل كاتب وكتبة، **(فما هو)** أى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو كلامه متلبس **(بقولهم، ولقد وضعته)** بالضاد المعجمة المفتوحة والعين المهملة الساكنة أى وضعت قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(على أقراء الشعر)** يعنى أنه قابله وقاسه بالشعر ونزله عليه؛ لينظر هل فيه ما يشبهه، وهو مجاز من قولهم وضع النعل على النعل أى طابقه به لينظر هل هو مساو له، والأقراء بفتح الهمزة والمد جمع قلة أريد به الكثرة هنا، قال فى القاموس: من أقرأ الشعر أنواعه وأنحاؤه أى أمثاله، فهو جمع قرء بالضم، وقيل: إنه جمع قرء بالفتح وهو طرفه وأنواعه وبحوره، وقال الزمخشرى: إنه قوافيه التى يختم بها كأقراء الطهر التى ينقطع عندها الدم واحدها قرء فتحًا وكسرًا وضمًا، فهو مقاطع آياته وحدودها.

(فلم يلتئم) بالهمز من الملائمة أى لم أره مناسبا ولا موافقًا لفظا ولا معنى، وأين الثريا من الثرى؛ ولذا قال الفقهاء، رحمهم الله تعالى: لا تكتب فيه البسملة، وأجازها بعضهم مع الكراهة، قال: وهذا فى مدح النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ونحوه من التوحيد ومنظومات العلوم، أما الهجاء فينبغى أن لا يختلف فى عدم كتابتها فيه كما قاله التلمسانى، **(وما يلتئم)** أى يتيسر ويتفق **(على لسان أحد بعدى أنه شعر)** بفتح همزة أنه أى لا يتم لأحد غيرى أن يقول: إنه شعر؛ لأنه ليس أحد بأعلم بالشعر وأقدر عليه منى، فلو أمكن لأحد أن ينزله على الشعر ويعارضه به كنت فعلت، فحيث لم يتيسر لى لا يتيسر لغيرى، والمراد إبطال كونه سحرًا وكهانة؛ فلذا عقبه بقوله: **(وإنه)** أى النبى،

صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لصادق)** فى قوله: إنه كلام معجز من عند الله، **(وإنهم)** أى الكفرة.

(لكاذبون) فى جميع ما قالوه ونسبوه له من الأباطيل، وتتمة الخبر أنه قال لأنيس: هل أنت كاف حتى أنطلق فأنظر؟ قال: نعم، وكن على حذر من أهل مكة، فانطلقت حتى أتيت مكة، فقلت لرجل: أين هذا الذى تدعونه الصابئ، فأشار إليه فمال على أهل الوادى يرجمونى حتى خرجت مغشيًا على، ثم أتيت زمزم فشربت منها وغسلت الدم، ودخلت تحت أستار الكعبة، ولبثت نحوه ثلاثين ليلة، وما لى طعام إلا ماء زمزم، فشبعت وما وجدت جوعًا، فبينما أنا فى ليلة وامرأتان تطوفان وتدعوان إسافا ونائلة، فلما رأيانى ولتا وانطلقتا، فاستقبلهما أبو بكر ورسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، هابطين من الجبل، فقالا: ما لكما؟ قالتا: صابئ بين الكعبة وأستارها، فجاء رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأبو بكر فاستلما الحجر وطافا، ثم صليا فأتيته وحييته بتحية الإسلام، وكنت أول من حياه بها فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فمن أنت؟ قلت: من غفار، فرفع رأسه ثم قال: متى كنت ههنا؟ قلت: منذ ثلاثين ليلة ويومًا، قال: ما كان طعامك؟ قلت: ما كان لى طعام إلا ماء زمزم، فسمنت حتى تكسرت عكن بطنى، فقال: إنها مباركة إنها طعام طعم وشفاء سقم، فقال أبو بكر: يا رسول الله ائذن لى فى طعامك الليلة، فانطلقت معهما حتى فتح أبو بكر بابه، وجعل يفيض لى من زبيب الطائف، فكان ذلك أول طعام أكلت بمكة، ثم أتيت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: إنى وجهت لأرض ذات نخل ما أحسبها إلا يثرب، فهل أنت تبلغ عنى قومك لعل الله ينفعهم بك ويؤاجرك، فانطلقت حتى أتيت أخى أنيسًا فقال لى: ما صنعت؟ قلت: أسلمت، فقال: ما بى رغبة عن دينك فإنى أسلمت وصدقت، ثم أتيت أمى فقالت مثله، ثم احتملت وأتيت قومى فأسلم نصفهم قبل أن يقدم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، المدينة، وكان يؤمنا حناف هو سيد قومنا فلما قدم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، المدينة أسلم بقية قومى، وجاءت أسلم فقالوا: يا رسول الله، نسلم على الذى أسلم عليه إخواننا، فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله»، وهذا خبر إسلامه باختصار.

(والأخبار فى هذا) الذى ذكر من اعتراف البلغاء بإعجازه وانقياد من هداه الله تعالى منهم للإيمان به **(صحيحة كثيرة)** مع اختلاف أنواعها ورواياتها.

(والإعجاز) لجميع الخلق بتعجيزهم عن الإتيان بمثله **(بكل واحد من النوعين)** الذين ذكرهما، والنوع الأول منهما **(الإيجاز والبلاغة بذاتها)** إشارة إلى قوله فى أول هذا

الفصل أولها حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته، ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب، وحاصله أن إعجازه من نفس جوهر كلامه بكونه فى أعلى طبقات البلاغة والفصاحة بحيث يسلم عن ضعف التأليف وتنافر الحروف والكلمات، وإيجازه، ورعاية معان ووجوه يقتضيها المقام، وتضمن نكات يعجز عنها طاقة البشر منها.

والنوع الثانى ما أشار إليه بقوله: (**أو الأسلوب الغريب بذاته**) يعنى كونه على نمط لا يشبه كلامهم المنظوم ولا المنثور؛ فإنه ليس بشعر ولا سجع ولا خطب، وإن وقع فيه من غير تكلف سجع أحيانا ونظم حتى ذهب الخطيب فى تكملة العمدة أن النظم الواقع فيه مقصود كالأبيات وأشعارها التى تقع فى أثناء الإنشاء نادرًا، ولا يسمى بها الكلام شعرًا لأنه لم يقصد بالذات، وهو قول غريب، وقوله بالذات بمعنى فقط، وتغاير النوعين ظاهر وإن لم يفرق بينهما بعض الشراح، وقال: إن فى النوعين تداخلا إذ لا يتصور كونه أسلوبًا غريبًا دون البلاغة إلى آخر ما ذكره مما لا طائل تحته.

(**إذ كل واحد منها**) بضمير الواحدة المؤنثة الراجع للبلاغة، وفى نسخة: منهما مثنى والضمير للنوعين، وقيل: الأولى أولى، وكل مبتدأ خبره (**نوع أعجاز على التحقيق**) غير محتاج إلى الآخر، ثم بين إعجازه بقوله: (**لم يقدر العرب على الإتيان بواحد منها**)، وفى نسخة منهما كما تقدم (**خارج عن قدرتها**)؛ لأنه (**مباين**) أى مخالف (**لفصاحتها وكلامها**)؛ لما فيه من وجوه البلاغة التى لاتحيط بها قدرهم ولم تألف طباعهم مع انسجامه وعذوبة ألفاظه.

(**وإلى هذا**) القول الدال على أن كل واحد منهما نوع مستقل من الإعجاز كاف فى إثباته (**ذهب غير واحد**) أى جماعة كثيرة (**من أئمة المحققين**) العارفين بالبلاغة ووجوه الإعجاز يعنى أن منهم من قال: بلاغته بأسلوبه الغريب ونظمه العجيب الذى لا يشبه كلام البشر، ولا يطيقه القوى والقدر مع أنه بلغهم وكلماته التى يعرفونها، كما قيل فى معنى الحروف فى أوائل السور نحو «ألم»، و«ألمر»، يعنى أنه كلام مركب من هذه الحروف التى تركب منها كلامهم، فلم يأتوا بمثله.

(**وذهب بعض المقتدى بهم**) اسم مفعول بوزن المصطفى (**إلى أن الإعجاز فى مجموع البلاغة والأسلوب**) لا بكل واحد منهما وحده، (**وأتى على ذلك**) القول الذى اختاره، وضمن أتى معنى استدل، فعداه بعلى (**بقول تمجه**) بضم الميم، وجوز بعضهم فتحها أى ترميه ولا تعتد به (**الأسماع**) بفتح الهمزة جمع سمع بمعنى الاستماع، وبمعنى جارحة السمع، يقال: مج الماء من فيه إذا طرحه، ففيه استعارة مكنية وتخييلية لتشبيه الأذن بالفم، والكلام بالماء فى الرقة والعذوبة وتبريد الحرارة، كما قال بعض أهل العصر:

يكـــاد مـن عـــذوبة الألفـــاظ تشـــربه مســـامع الحفـــاظ

وقال الغزى:

وتغيـــر المعتـــاد يحسن بعضـــه للـــورد خـــد بالأنـــوف يقبـــل

(وتنفر عنه القلوب) من النفار وهو الذهاب بسرعة، فكأن القلوب تهرب منـه لعـدم قبولها له، وهو عبارة عن كونه قولا ضعيفًا مردودًا، ولذا قال فى الأول: إنه قول الأئمـة المحققين، وأشار بالمقتدى بهم إلى أن هذا القول له وجه أيضًا ليس كالقول بالصرفة.

(والصحيح ما قدمناه) من أن كل واحد منهما وجه فى الإعجاز كاف فيه، **(والعلـم بهذا كله)** أى العلم بإيجـازه وبلاغتـه وأسـاليبه العجيبـة علـى القولـين **(ضـرورة وقطعًا)** بنصبهما أى من سمعه قطع بما عنده من العلم الضرورى فى أنه فى أعلى طبقات الكلام، أو هو مما يدرك بالذوق ولا يدرك بالوصف كالملاحـة، والطريـق لـه تتبـع كـلام البلغـاء وخدمة علم البلاغة الذى يورثه علمًا ضروريًا؛ ولذا قال: **(ومن تفنن فى علـوم البلاغـة)** أى عرف فنونها ومارسها حتى حصل له ملكة يعـرف بـها خـواص الـتراكيب ووجـوه إيرادها فى طرقها المختلفة فى الوضوح وأنواع محاسنها البديعة، وهو من علمـى المعـانى والبيان وتوابعهما.

(وأرهف) أى سن وحدد ودقق من قولهم: أرهف السيف فهو مرهـف إذا سنه ودق حده **(خاطره ولسانه)** أى فكره ونطقه بحيث يسهل عليه تصوره والتعبير عنـه، وأصـل الخاطر المعنى الذى يخطر على القلب الذى هو محل العقل والفهم، ويراد به نفـس الفـهم والعقل، فإرهافه بممارسته حتى يتمكن من علمه، واللسان الجارحة ويراد به نفس الكلام، فشبه ذلك بالسيف المسنون فى سرعة نفوذه ودقته، وأرهف فعل ماض فاعله **(أدب هذه الصناعة)** أى صناعة البلاغـة، وعلـم المعـانى والبيـان، وأدب بـوزن طلـب يكـون بمعنـى الظرف والحسن والعلم، يقال: أدبه فأحسن تأديبه أى علمـه، وأصلـه مـن المأدبـة وهـى الطعام الذى يدعى له كما قيل: الأدب مأدبة ما لأحـد فيـها مأدبـة، ويصـح إرادة كـل واحد هنا وأقربها الأخير، وأما إطلاق الأدب على علمى النظم والنثر فمولـد وإن قـرب من معناه الأصلى، وأصل الصناعة معرفة ما يزاول بالجوارح كالخياطة ثم شاع فى معنى العلم **(لم يخف عليه ما قلنا)** أى جميع ما تقدم، وأن كلا منهما نوع مستقل.

(وقد اختلف أئمة أهل السنة فى وجه عجزهم عنه)، أى فى سببه ومنشأه الذى يوجه عجز الفصحاء عن معارضته، **(فأكثرهم يقول)** أى قال وعـبر بـه لحكايـة الحـال الماضيـة حتى كأنها حاضرة: **(إنه)** وجه إعجازه ناش **(مما جمع فى قـوة جزالتـه)** الجزالـة الغلظـة

والصلابة والقوة يقال: حطب جزل، ثم يطلق على الكثرة فيقال: عطاؤه جزيل، فاستعير هنا لإحكام نظمه وعدم ركاكته، وأضاف إليه القوة إشارة إلى أنه فى أعلى مراتب الإحكام حتى لايتطرق إليه خلل أصلا، ولايختلف نظمه.

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ولاحاجة لتفسيره بالقوة، ويقال: للقوة قوة، ويصح إضافتها إليها.

(ونصاعة ألفاظه) بفتح النون والصاد والعين المهملتين أى وضوحها وخلوصها، ومنه أبيض ناصع، وقيل: الجزالة القطع، ومنه القضاء الجزل أى القاطع للشك، ونصاعته بياضه، وهو تكلف لاداعى إليه، وكونه إشارة إلى المحسنات البديعة لاوجه له.

(وحسن نظمه وإيجازه) لسلاسته وانسجامه، **(وبديع تأليفه)** وتراكيب كلماته المؤتلفة المتواخية، **(وأسلوبه)** طريق بلاغته أى لايسلكها كلام غيره، وقوله: مما جمع مقدم من تأخير متعلق بقوله: **(لايصح أن يكون فى مقدور البشر)** مقدور اسم مفعول، أو مصدر على وزن مفعول بمعنى القدرة، أى لايمكنهم القدرة على مثله لما جمعه مما لا تطيقه قدرتهم، **(وأنه من باب الخوارق)** أى من جنسها ونوعها. يقال: هذا من باب هذا وبابته أى من جنسه **(الممتنعة عن أقدار الخلق عليها)** أى التى لايقدرون عليها، كأنها امتنعت منهم وأبت مطاوعتهم، وهو من بليغ الكلام.

(كإحياء الموتى) بفتح الميم جمع ميت، وهذا مما وقع لعيسى، عليه الصلاة و السلام، وإبراهيم الخليل، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وقلب العصا)** حية كما وقع لموسى، عليه الصلاة والسلام، وسيفًا حديدًا كما وقع لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، وأطلقه المصنف، رحمه الله تعالى ليشملهما، فيكون فيه ذكر لمعجزة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو المناسب لقوله :**(وتسبيح الحصا)** فى كفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما ثبت فى معجزاته.

ثم ذكر مذهبا آخر فقال: **(وذهب الشيخ أبوالحسن)** الأشعرى إمام أهل السنة، وقد تقدم بعض من ترجمته **(إلى أنه)** أى القرآن المعجز **(مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر)**، أنه فرد من أفراد الكلام البليغ داخل فيه مندرج فى جنسه، ومثله قولهم: الحيوان جنس تحته الإنسان والفرس، وهو تجوز معروف، **(ويقدرهم الله عليه)** عطف تفسير لما قبله على مذهبه من خلق الأفعال، **(ولكنه لم يكن هذا)** فيما مضى، **(ولا يكون)** فى الحال والمستقبل، **(فمنعهم الله عن هذا)** أى عن معارضته والإتيان بمثله، وهذا هو القول بالصرفة، وفيه اختلاف أيضًا، فقيل: معناه أن فيهم قدرة على التكلم بمثله، وعندهم علم

بوجوه البلاغة وأساليبها حالة التحدى، لكن الله صرف دواعيهم عن ذلك مع توفر أسبابها من التقريع والتبكيت وتكرير الطلب، وهو قول النظام والأستاذ من أهل السنة، وقيل: بل سلبهم الله عند التحدى القدرة والعلم بعلوم البلاغة، فإذا أرادوا ذلك لم يقدروا عليه، وتسمية التحدى صرفة بحسب ظاهر حالهم وما علم من اقتدارهم، وهذا مذهب المرتضى علم الهدى من الشيعة، ونقل عن الأشعرى إلا أنه لم يشتهر عنه، وكلام المصنف محتمل للوجهين، فإن قلنا: هذا إشارة إلى الإتيان بمثله فهو المذهب الأول، وإن قلنا: الاقتدار فهو الثانى، وحمله بعضهم على الثانى، وقال: يحتمل أن يكون المراد بأبى الحسن رجل آخر غير الأشعرى، ولا حاجة لمثله من التكلف.

(وعلى الطريقتين) بل الطرق من إعجازه ببلاغته وأسلوبه والصرفة، **(فعجز العرب عنه ثابت)** محقق مع كمال بلاغتهم، وفرط تهالكهم، ونفخ عنادهم لإطفاء نوره، وما زاده إلا اشتعالا وإضاءة.

(وإقامة الحجة عليهم) بتكليفهم بأقل قليل منه **(بما يصح)** أى يمكن وينبغى، فإنه ورد بهذا المعنى فى اللغة **(أن يكون فى مقدورهم)** على مذهب الأشعرى، **(وتحديهم)** مصدر مضاف لمفعوله، أى طلب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، من العرب الفصحاء **(أن يأتوا بمثله)** أى مثل القرآن فى البلاغة، وعجز العرب مبتدأ خبره ثابت وإقامة مبتدأ خبره **(قاطع)** بعجزهم عما لاريب فيه.

(وهو) أى ما ذكر أو التحدى بما هو مقدورهم **(أبلغ فى التعجيز)** بغيره مما لا يقدرون كإحياء الموتى، **(و أحرى)** أفعل تفضيل بحاء وراء مهملتين بمعنى أحق وأولى **(بالتقريع)** وهو التوبيخ والتعيير، من القرع بالحصا وهو الضرب، **(والاحتجاج بمجىء بشر مثلهم)** من جنسهم وأهل لغتهم **(بشىء ليس من قدرة البشر لازم)** على القول الأول من إعجازه بمادته وصورته.

(وهو) أى المذكور من عدم قدرتهم **(أبهر آية)** أى أظهرها وأغلبها لسائر الآيات الباهرة؛ لارتفاع شأنه وعلوه فى مرتبة لا يدنو منها كلام بليغ كما مر تفصيله، **(وأقمع دلالة)** بالنصب على التمييز والجر على الإضافة، والدلالة بكسر الدال مصدر أو بمعنى الدليل، وأقمع من قمعه إذا قهره وردعه وأذله بعجزهم عن معارضته.

(وعلى كل حال) من الأحوال السابقة أى سواء قلنا بأنه معجز ببلاغته، أو بالصرف عن معارضته، فقد عجزوا، **(فما أتوا فى ذلك بمقال)** أى لم يسمع منهم كلام عارضوه به، ولو صدر منهم ذلك شاع وذاع، **(بل صبروا على الجلاء)** بفتح الجيم والمد، وهو

ترك الوطن والمال، **(والقتل)** لفرط عنادهم وعدم انقيادهم، **(وتجرعوا)** أى شربوا جرعة بعد جرعة **(كأسات)** جمع كأس، وهو ما يشرب به الخمر ونفس الخمر **(الصغار والذل)** بفتح الصاد المهملة وهو المذلة، فالعطف تفسيرى، وفيه استعارة تصريحية أو مكنية أى صبروا على التحقير والإهانة وتجرعوا غصصها.

(وكانوا من شموخ الآنف) بفتح الهمزة والمد وضم النون جمع أنف كذا ضبطوه، ويجوز فتح الهمزة وسكون النون بالإفراد، والشموخ بضم الشين المعجمة مصدر شمخ إذا ارتفع، وهو كناية عن غاية التكبر، والجملة حالية بتقدير قد **(وإباءه الضيم)** بكسر الهمزة والموحدة والمد مصدر أبى إذا امتنع مما يكرهه، والضيم الذل والتحقير **(بحيث لا يؤثرون)** بالمثلثة أى لا يرضون **(ذلك)** أى الذل والضيم **(اختيارًا)** أى باختيارهم وعدم جبرهم وقهرهم، **(ولا يرضونه إلا اضطرارًا)** أى قسرًا وإلجاء، وهو عطف تفسير لما قبله، ونصبهما على التمييز أو المفعول المطلق.

(وإلا) مركب من إن الشرطية ولا النافية، أى وإن لم يكن الأمر كما ذكر، **(فالمعارضة)** للقرآن بالإتيان بما يماثله **(لو كانت من قدرهم)** بضم القاف وفتح الدال المهملة جمع قدرة، أى لو كانت المعارضة مقدورة لهم، **(والشغل بها أهون عليهم)** جملة حالية أى اشتغالهم بمعارضته أسهل عليهم من الصبر على ما ذكر، **(و أسرع بالنجح)** بضم النون وسكون الجيم وحاء مهملة، وهو الظفر والفوز بمطلوبهم، وهو إبطال الحجة عليهم.

(وقطع العذر) أى قطع ما اعتذروا به عن عدم المعارضة من الأعذار الفاسدة، **(وإفحام الخصم)** أى إسكاته عما قرعهم به **(لديهم)** أى عندهم، وهو متعلق بجميع ما قبله من أهون وأسرع وقطع وإفحام.

(وهم من هم قدرة) تمييز، والجملة حالية، وليس قدرة حال بمعنى مقتدرين كما قيل لتكلفه، وهم مبتدأ أول، ومن استفهامية وهم الثانى خبره أو بالعكس على المذهبين، والجملة خبرهم، أى وهم أى شىء هم، أى أمر عظيم لا يقدر قدره ولا يعلم كنهه، وهو أبلغ المدح كقولهم: زيد وما زيد كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ - ٢]، وهو مشهور كما فى كلام العرب والعجم، وقد يقال: هم هم بدون من، أى هم القوم المعروفون بالبلاغة وشهامة النفس وإباءة الضيم الذين لا يعادلهم فيه أحد، فناهيك بما أوقعهم فى حضيض الذل ومزقهم الصبا والدبور أيدى سبا **(على الكلام)** متعلق بقدرة.

(وقدوة) أى مقتدى بهم، وهو منصوب رواية ودراية معطوف على قدرة **(فى المعرفة به)**، أى بمعرفة الكلام وصياغته؛ لسلامة فطرتهم وصفاء قريحتهم؛ **(لجميع الأنام)** متعلق بقدوة، وأتى به للقافية، أى هم فى كل ذلك أئمة مقتدى بهم لا تبعا لغيرهم، فكيف عجوزا ورضوا بما رضوا، ثم إنه لما ذكر شمم أنفهم وتكبرهم ربما توهم متوهم أن تركهم للمعارضة؛ لعدم تنزلهم وعدم مبالاتهم فدفعه بقول: **(وما منعهم)** أحد **(إلا من جهد)** ماض بزنة ضرب، فالاستثناء مفرغ من عام مقدر.

(جهده) بفتح الجيم وضمها الطاقة والمشقة، وقيل: الجهد بالفتح المشقة وبالضم الوسع، وقيل: الجهد بالضم ما يجهد الإنسان فيه أى يجتهد فيه ويتعب نفسه، كقوله تعالى: ﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]، فالمعنى أنهم بذلوا ما عندهم فى الطلب، فلم يقدروا على شىء منه، **(واستنفد ما عنده)** بالدال المهملة، أى استفرغ ما فى طاقته وقوته **(فى إخفاء ظهوره)** أى القرآن أو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وإطفاء نوره) ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون، **(فما جلوا)**، أى أظهروا من جلاء العروس على المنصة بزينتها؛ لذكر البنات بعده **(فى ذلك)**، أى ما اجتهدوا فيه وحاولوه **(خبيئة)** بفتح الخاء المعجمة وكسر الباء الموحدة وسكون المثناة التحتية والهمزة والهاء فعيلة بمعنى مفعولة، أى مخبأة فى ضمائرهم ومستورة خلف أستار سرائرهم **(من بنات شفاههم)**، أى كلمة يتلفظون بها شبهت بالبنت، والشفة بالأم لظهورها منها، وهى استعارة مشهورة مكنية أو مصرحة.

(ولا أتوا بنطفة) بضم النون وسكون الطاء المهملة والفاء، وهى الماء الصافى من نطف بمعنى صب، والناطف السائل، والمراد القطرة القليلة، وفى بعض النسخ نقطة بالقاف مقدمة على الطاء، وتسمى اللؤلؤة نطفة أيضًا كما قاله الراغب.

والنطفة تطلق على قليل الماء وعلى كثيره كما جاء فى الحديث: **(فجاء رجل بنطفة فى إداوة)**، وهو المراد هنا **(من معين مياههم)**، المعين الماء الجارى ظاهرًا، والميم زائدة من العين، وقيل: إنها أصلية من معن بمعنى سار فى الأرض، ومياه جمع ماء، أصله موه، أى لم يقدروا على شىء مما طلب منهم، وهو استعارة مصرحة مرشحة أو مكنية، أى مع ماهم من موارد فصاحتهم وجارى كلامهم، لم يجدوا قطرة من عذب قطرته **(مع طول الأمد)**، أى اتساع زمن التحدى.

(وكثرة العدد) من فصحائهم، **(وتظاهر)**، أى تعاون ومساعدة **(الوالد وما ولد)**، أى الكبير والصغير، وهذا دفع للشبه وإزالة الأعذار إذ لو ضاق الزمان وقل الإخوان كان

لهم معذرة ما، **(بل أبلسوا)** بالبناء للفاعل وفتح الهمزة، يقال: أبلس إذا أيس، قيل: ومنه إبليس ليأسه من رحمة الله تعالى، ولو كان اسمه عزازيل، ويكون بمعنى الانكسار والحزن والمراد الأول، **(فما نبسوا)** بنون وباء موحدة مفتوحة مخففة وورد تشديدها كما فى قوله:

إن كنت غير صائد فنبس

ومعناه نطقوا، قيل: هو مختص بالنفى وأورد البيت المذكور، وقد يقال: المخصوص بالنفى المخفف فتدبر، **(ومنعوا)** بالبناء للمجهول **(فانقطعوا)** عن المعارضة؛ لعجزهم، وقد يقال: هذا إشارة إلى القولين، فأبلسوا فما نبسوا يشير لعجز طاقتهم عن بلاغته، ومنعوا أى منعهم الله إيماء للصرفة.

وفى الإرشاد لإمام الحرمين، فإن قيل: إن العرب لم تترك المعارضة للعجز، بل لعدم الاكترات به.

قيل: هذا ركيك من القول لا يخطر ببال عاقل، وقد كانوا إذا قال شاعر شعرًا فى حقهم هاموا المعارضة، فكيف وقد وبخوا أشد توبيخ، وحقرت أصنامهم، وسفهت أحلامهم، وقوتلوا حتى نكست أعلامهم، وقد مر ما نبهناك عليه من إشارة المصنف، رحمه الله تعالى، لهذا وجوابه، والإضراب لتوكيد نفى المعارضة، كما يقال: ما تكلم زيد بل سكت عجزًا.

(فهذا نوعان من إعجازه) الإشارة إلى إعجازه بنفس كلامه وخواص تراكيبه وبصورة نظمه وأسلوبه، ولم يلتفت للصرفة لضعف القول بها عنده كما تقدم، فإنهم أفسدوه بأن قوله: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ﴾ [الإسراء: ٨٨]، إلخ دليل ظاهر على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم؛ لأنه حينئذ بمنزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز للقرآن، والقول بالصرفة يلزمه إضافته إلى الله تعالى لا إلى القرآن، وحينئذ يلزمه زوال الإعجاز بزوال زمان التحدى، وفيه خرق لإجماع الأمة إذ معجزة الرسول العظمى باقية، ولا معجزة له باقية أظهر من القرآن، ويلزم الصرفة أيضًا أنه لا فضيلة للقرآن على غيره.

فإن قلت: القول بعجزهم مع بقاء قدرتهم فيه الجمع بين النقيضين، وهو محال.

قلت: معنى قدرتهم أن هممهم توجهت إلى المحاكات لظنها القدرة عليها، فعجزت، وعلى القول بالصرفة لم يتوجهوا لمعارضته أصلا؛ لقطعهم من نفوسهم بعجزها، وأنه لا

قدرة لها عليه ألبتة.

فإن قلت: توجه الهمم إليها مع العجز عنها فى نفس الأمر لا يسمى قدرة.

قلت: ممنوع بل تسمى قدرة باعتبار العرف، وقطع النظر عن الغايات، ولا شك فى أن أهل البلاغة لا يقطعون سبب القدرة عن المحاكات ابتداء، بل بعد الاختبار فتأمله؛ لتعلم سقوط ما قيل: كيف يخاطبون بالتحدى مع القطع بعجزهم عنه؟ ونظير ذلك خطاب الله من علم منه عدم الإيمان، والإيمان كأبى جهل وأبى لهب نظرًا لقدرتهما عليه باعتبار الظاهر وإعراضًا عن النظر للغايات.

* * *

(فصل)

(الوجه الثالث من وجوه الإعجاز) أى إعجاز القرآن الكريم بوجه آخر غير الوجهين السالفين، أو غير الوجوه الثلاثة **(ما انطوى عليه)** أى اشتمل عليه ووقع فى ضمنه **(من الإخبار)** بكسر الهمزة مصدر **(بالمغيبات)** بفتح الياء المثناة التحتية المشددة جمع غيب أو مغيبة اسم مفعول، وهو شامل لما سبق مما لم يدركه هو ولا أهل عصره، وما سيقع بعد ذلك مما لا يعلمه إلا الله، والمراد هنا الثانى؛ لأن الأول يمكن الوقوف عليه؛ فلذا عطف عليه قوله: **(وما لم يكن ولم يقع)**، فمن فسره بما كان ووقع من القرون الماضية بناء على أن الأصل فى العطف التغاير، فقد خالف كلامه الآتى من جميع ما مثل به، وإن كان صحيحًا فى نفسه لاندراجه فيها.

(فوجد) بعد ذلك مطابقًا لخبره ومصدقًا له، وعبر عنه بالماضى وإن كان مستقبلاً بالنسبة لما قبله **(على الوجه الذى أخبر)** به فى هذه الآية، **(كقوله تعالى)** فى سورة الفتح: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٧]، اللام داخلة على جواب قسم مقدر للتأكيد والتحقيق ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧]، علقه بالمشيئة مع تحققه تعليمًا للعباد، أو تلويحًا بعدم دخول بعضهم لموته أو غيبته، أو حكاية لما قاله ملك الرؤيا أو النبى ﷺ، ﴿ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، حال من فاعل لتدخلن، والشرط اعتراض؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، رأى وهو بالمدينة قبل عام الحديبية أنه دخله مع أصحابه وأخبرهم بذلك، فظنوه أنه فى ذلك العام، فلما صدهم المشركون عن الدخول شق عليهم ذلك، فأخبرهم الله بأنه سيقع بعد ذلك وكان كما أخبر.

(وقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾) [الروم: ٣]، فأخبر الله تعالى أن الروم تغلب فارس بعد مدة أقل من عشرين سنة، وكان كما أخبر الله به فى كتابه،

وذلك أن الروم كانوا أهل كتاب، وفارس لا كتاب لهم كالمشركين، فكان المشركون كلما تحارب فارس والروم يرجون غلبة فارس ويفرحون بذلك تفاؤلاً بغلبتهم للمسلمين، فبعث كسرى جيشًا إلى الروم فالتقيا بأذرعات وبصرى، فغلبت فارس الروم ففرح المشركون، وشق ذلك على المسلمين، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخبر أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، المشركين بذلك، وقال: ستظهر الروم على فارس فلا تفرحوا، وقد أخبر الله تعالى نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، بذلك، فقال له أمية بن خلف: كذبت، فقال: بل أنت كذبت يا عدو الله، فقال: اجعل بينى وبينك أجلاً على عشر قلائص يأخذها الصادق منا فراهنه على ذلك لثلاث سنين، وأخبر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال له: مد الأجل وزد فى الرهان، فإن الله قال فى بضع سنين: وهى من الثلاث إلى التسع، فجعل القلائص مائة إلى تسع سنين ففعل، فوقع ذلك بعد سبع سنين، فأخذ القلائص أبو بكر، رضى الله عنه، فقال له ﷺ: «تصدق بها، وكان هذا قبل تحريم القمار، وإنما أمره بالتصدق بها؛ لأنه قد علم خبثها؛ لأنه ستحرم، أو شكرًا لله على تصديق مقالته وتكذيب مقالتهم.

(**وقوله تعالى:** ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾) [الفتح: ٢٨]، هذا وعد من الله تعالى بأن دين رسول الله سيظهر ويغلب سائر الأديان، وتقهر أمته صلى الله تعالى عليه وسلم، جميع الأمم، فإن العزة لله ولرسوله، وكان كما قال من غير شبهة، وكم شاهدنا من تأييد الله لجنده ونصرهم مع ما للكفرة من الكثرة فى المال والجند.

(**وقوله:** ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ [النور: ٥٥] **الآية**)، أى ليجعلنهم خلفاء فى أرضه مالكين لها منصورين على أعدائهم، وهذه الآية وإن كانت عامة المراد بها: غلبة المسلمين لأهل الردة فى خلافة أبى بكر الصديق، رضى الله تعالى عنه.

(**وقوله:** ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [النصر: ١]، **إلى آخرها**)، أى إلى آخر السورة، وهذه الآية، وإن كانت شاملة لكل فتح لكنها نزلت مبشرة بفتح مكة ناعية لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولما نزلت وتلاها رسول الله ﷺ عليهم بكى العباس، رضى الله عنه، فقال: ما يبكيك يا عم؟ فقال: نعيت إليك نفسك، فقال: إنه كما تقول، وعبر بالمجىء إيماء إلى أن المقدرات متوجهة من الأزل إلى أوقاتها المعينة لها مترقبة القدوم، وفيه من البلاغة ما لا يخفى، ثم أشار إلى تفسير ما ذكر بقوله: (**فكان جميع هذا كما قال**) الله عز وجل مطابقًا لما أخبر به، والإشارة إلى ما تقدم من المغيبات المخبر بها، وكان بمعنى تحقق ووقع بعد الإخبار به، ثم فصله على اللف والنشر، بقوله: (**فغلبت الروم**) وهم

جيل من الناس معلومون (**فارس**)، وهم الفرس، أي قوم العجم، ويطلق على بلادهم أيضًا، وهو لفظ معرب، فإن أريد الثاني قدر أهل، وقد تقدم بيانه وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث (**في بضع سنين**) أي سبع سنين كما مر، أي في رأس سبع سنين وآخرها، والرأس يطلق على ذلك مع الزمان، ويكون بمعنى الأول أيضًا، (**ودخل الناس في الإسلام أفواجًا**)، أي جماعات كثيرة بعد جماعات كثيرة، وفوجًا بعد فوج لما أعز الله الدين ونشر أعلامه في الخافقين، وهذا إشارة لما في سورة النصر السالفة.

(**فما مات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام، واستخلف الله المؤمنين في الأرض**) أي جعلهم خلفاء لرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم بعده، وأخر هذه الآية عن ذكر سورة النصر؛ لأن الاستخلاف وقع بعد ذلك الدخول، وإن تقدمت فيما ذكر قبله، وهذا مبني على عموم الذين آمنوا في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النور: ٥٥]، الآية لجميع الأمة، وعدم اختصاصها بأبي بكر الصديق، رضي الله تعالى عنه، كما تقدم.

(**ومكن فيها**) أي في الأرض (**دينهم**)، وهو دين الإسلام، أي جعله متمكنًا قارًا لا يزول إلى يوم القيامة، يقال: مكنته ومكنت له فتمكن، وهو في الأصل التمكن من المكان.

(**وملكهم إياها**) أي الأرض لأن أشرف المعمور منها في أيديهم، وباقيها في انقياد لهم، فهم بالقوة كالمالكين لها، أو أنه باعتبار ما سيكون بعد نزول عيسى ابن مريم، عليه الصلاة والسلام، إلى الأرض على دينه معدودًا من أمته صلى الله تعالى عليه وسلم، ولذا قال: (**من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب**)، أي أبعد مكان من جانب المشرق إلى أبعده من جانب المغرب، وقدم المشارق اقتداء بالكتاب والسنة أو لشرفه؛ لأنه محل الرسل، وفيه الأراضي المقدسة، وقد وقع للأدباء مفاخرة بينهما، فقال محيي الدين بن سحنون:

من أين للغرب فضل ... إلا لمن يتغالى
والشمس تفقد فيه ... والبدر يلغى هلالا
دلائل النقص فيه ... فكيف يحوي الكمالا

وقال:

فلا تبخس الشرق حقا وخذ ... من الوصف فيه على ما اتفق
مهب الصبا ومفيد الضياء ... ووجه الزمان وثغر الفلق

وعارضه الوداعي، رحمه الله تعالى، فقال:

الغـرب خـير وعنـد سـاكنه أمانـة أوجبـت تقدمـه
والشـرق مـن نيريـه عندهـم يـودع ديناره ودرهمـه

ثم أنصف من قال:

حوى كل من الأفقين فضلا يقربـه الغبـى مـع النبيـه
فهـذا مطلـع الأنـوار منـه وهـذا منبـع الإيـواء فيـه

وهذه لمحة أدبية ونفحة مسكية أحمضنا بها.

(**كما قال، عليه الصلاة والسلام**)، فى حديث صحيح رواه مسلم عن ثوبـان، رضى الله تعالى عنه: (**زويت لى الأرض**) بزاء معجمة وواو ويـاء مبنى للمجهول، أى جمعت وطويت، (**فأريت**) مبنى للمجهول مـن المزيـد، أى أرانـى الله (**مشارقها ومغاربها**)، أى جميع أماكنها وبلدانها، (**وسيبلغ ملك**) بضم الميم (**أمتى ما زوى لى منها**)، وجمع بمرأى عينى، وما زوى منها هو المشارق والمغارب السالفة، وتوهم بعضهم أنه غـيره، وأن أول الحديث مخالف لآخره، ثم جمع بينهما بأن المراد بما زوى المعمور منها، وما من شـأنه أن يملك، فكأنه قال: جميعها، وفيه ما لا يخفى، وقـدم المصنـف، رحمـه الله تعـالى، خـبر الله على الحديث رعاية للأدب بتقديم الأصل الأشرف.

(**وقوله**: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾) [الحجر: ٩]، فأخبر بأنه تعالى تولى حفظ القرآن من التبديل والتغيير فى سائر الزمان بدلالة الاسمية المؤكدة، (**فكـان كذلـك**) فى المستقبل كما أخبر، فلا مبدل لكلماته بخلاف سائر الكتب، فإنه تعالى وكل حفظهـا للأمم المنزلة عليهم، فقال: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المـائدة: ٤٤]، أى طلـب حفظه منهم، فوقع فيها التبديل والتحريف حتى صارت لا يوثـق بمـا نقـل منـها، والمراد بالذكر القرآن (**لا يكاد يعد**) بالبناء للمجهول، أى لا يعد لكثرته.

(**من سعى**)، أى اجتهد (**فى تغييره وتبديل محكمه**)، ويكاد بمعنى يقرب، ونفى القرب من العدد أبلغ من نفى العدد، وقال: تبديل محكمه دون تبديله إرشادًا للمانع من تبديلـه، وقوله: (**من الملحدة**) بيان لمن أى من الطائفة الملحدة من الإلحاد وهو الميل كما مر؛ سموا بذلك لعدولهـم عـن ظواهـر الشـريعة وتأويلـها بـأمور سـخيفة، ويسـمون باطنيـة وهـم الإسماعيلية، وزعم بعضهم أن مصحف عثمان، رضى الله تعـالى عنـه، نقـص منـه بعـض القرآن كما ذكره القرطبى فى أول تفسيره.

(**والمعطلة**) الذين نفوا الصانع وتستروا بزى الإسلام خوفًا من القتل، وسعوا فى نقض الدين وتزيين ما يروج على بعض العقول القاصرة.

(لاسيما القرامطة) هم طائفة من الملحدين أيضًا، قال السمعانى فى الأنساب: القرمطى بكسر القاف وسكون الراء وكسر الميم والطاء المهملة نسبة لطائفة خبيثة، وهم من أهل هجر والحسا، وأصلهم رجل من سواد الكوفة يقال له: قرمط، وقيل: حمدان ابن قرمط، وسبب ظهورهم أن جماعة من أولاد بهرام جور ذكروا آباءهم وجدودهم وما كانوا فيه من العز والملك، وزوال ذلك بدولة الإسلام فى أيام أبى مسلم الخراسانى، ونقله الخلافة المروانية، وهو من الموالى، وهم من أولاد الملوك، فاتفقوا على رفع الإسلام وقالوا: ينبغى أن نفرقهم ونفسد الرعايا عليهم، فقسموا الدنيا أربعة أقسام لكل ربع رجل منهم، واحد ذهب إلى الكوفة فأول من أجابه حماد بن قرمط، فأعانه على الدعوة، وقيل: إنما سموا قرامطة؛ لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، رأى عامرًا يمشى، وهو من أهل المدينة، فقال: إنه ليقرمط فى مشيه، انتهى.

أى يقارب خطاه، ومنه الخط المقرمط، وعلى هذا فهو عربى، وقيل: إنه معرب وأن جدهم كان يسمى كرمد فغيروه وعربوه، وكان رجلاً أحمر العينين من سواد الكوفة، فالكاف عجمية فى الأصل من الكرمية، وهى الحرارة.

وكان ظهوره فى سنة ثمان وسبعين ومائتين، فلم يزل يظهر الصلاح حتى اجتمع عليه الخلق، فزعم أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، بشر به، وأنه الإمام المنتظر، فابتدع مقالات وزعم أنه انتقل إليه كلمة المسيح، وجعل الصلاة ركعتين بعد الصبح، وركعتين بعد المغرب، والصوم يومين بالنيروز والمهرجان، فكانت له وقائع وحروب ودعاة وخلفاء مذكورة فى التواريخ حتى ظهر منهم سليمان بن الحسن الجبائى، فعاث فى البلاد وأفسد، وقصد مكة فدخلها يوم التروية سنة سبع عشرة وثلاثمائة فى خلافة المقتدر، فقتل الحجاج ورماهم بزمزم، وقلع باب الكعبة وأخذ كسوتها وأخذ الحجر الأسود، فبقى عندهم سنين، ثم ردوه مكسورًا فنصب فى محله، وقد كان بذلهم فيه خمسون ألف دينار فأبوا، ولم يزالوا كذلك حتى أخذوا الشام وغيرها حتى قاتلهم جوهر القائد فهزمهم، وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وكانت مدة خروجهم ستًا وثمانين سنة، وكانوا يحرفون القرآن ويتأولونه بتأويلات فاسدة لم تقبلها العقول، وما بعد سيما تجوز فيه وجوه الإعراب الثلاثة كما تقدم بيانه.

(فأجمعوا كيدهم) بقطع الهمزة، والمراد بالكيد الحيلة والمكر فى تحريف القرآن، **(وحولهم وقوتهم)**، أى أعملوا حيلهم وبذلوا قوتهم وقدرتهم فى أن يحرفوا القرآن **(اليوم)** منصوب على الظرفية، قيل: بتقدير أعد اليوم، أو بنزع الخافض أى إلى هذا اليوم، والمراد مطلق الزمان والوقت الحاضر فى زمن المصنف **(نيفا)** بكسر الياء المشددة

وسكونها بعد نون مفتوحة، ومعناه الزيادة أى مدة تزيد **(على خمسمائة عام)**، وهى مدة سعى هؤلاء فيما ذكر.

(فما قدروا) فى هذه المدة الطويلة **(على إطفاء شىء من نوره)** تمثيل لحالهم فى سعيهم فى تحريف القرآن بمن أراد إطفاء نور عظيم منتشر فى الآفاق، **(ولا على تغيير كلمة من كلامه)** تفسير لما قبله بجعل كلام الله نورًا، **(ولا تشكيك المسلمين فى حرف من حروفه)** فضلاً عن كلمة من كلامه فهو ترق، **(والحمد لله)** على هذه المنة العظيمة، وهى حفظ الله تعالى لكلامه وبقاء رونق نظامه، وخيبة سعى من سعى فى إطفائه وافتضاح جهلة أعدائه.

(ومنه)، أى مما أخبر به من المغيبات المعجزة **(قوله)**، عز وجل: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، نزلت بمكة، فلم يدر الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، ما المراد بها حتى كان يوم بدر بعد سبع سنين من نزولها، فلبس صلى الله تعالى عليه وسلم، درعه وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، قال ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما: فعلمت المراد منها، أى سيهزم كفار قريش ويولون المسلمين أدبارهم، أى يجعلون المسلمين متولين على أدبارهم بالطعن والضرب، فعبر عن شدة انهزامهم بأبلغ عبارة، ففيها إعجاز لفظًا ومعنى.

(وقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] الآية)، أى ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]، وفيها من الإخبار عن الغيب أن ناسًا من اليمن وبنى خزاعة أسلموا وبقوا بمكة بعد الهجرة، فلقوا من المشركين أذى شديدًا، فشكوا ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: «اصبروا وأبشروا بفرج قريب»، فنزلت هذه الآية، فكان بعدها ما أوقع الله تعالى بهم من القتل ونصرة المؤمنين التى شفيت بها صدورهم وخرابهم بالسبى والجلاء وسلب نعمهم.

(وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾ الآية) [التوبة: ٣٣]، فيها إخبار بالغيب من ظهور دينه على سائر الأديان على رغم أنفهم، وقد تقدم الكلام على هذه الآية.

(وقوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾) [آل عمران: ١١١]، أى لا يقدرون عليكم إلا بأذية يسيرة كالطعن فيهن وتهديدهم، ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ﴾ [آل عمران: ١١١] الآية، أى ﴿يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١]، فأخبر أنهم كلما قاتلونا

غلبوا، وكانت عاقبة النصر لنا عليهم، والأمور بخواتيمها، والحرب سجال، **(فكان كل ذلك)**، أى وقع كل ما أخبر الله تعالى به قبل على طبق خبره من هزيمة جموعهم، وتعذيبهم بما يشفى صدور المؤمنين، وإظهار دينه، وتولية الدبر كل من قاتل منهم.

(و) مما فى القرآن من المغيبات **(ما فيه)** أى القرآن **(من كشف أسرار المنافقين)**، أى إظهار ما أخفاه المنافقون فى قلوبهم مما لا يعلمه إلا الله تعالى مما أنزله فى حقهم فى سورة المنافقين، **(و)** كشف أسرار **(اليهود ومقالهم)**، أى إظهار ما قالوه فيما بينهم، وهم يظنون أنه لايشعر به غيرهم.

(وكذبهم فى حلفهم) أى كذب المنافقين وقسمهم عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، على مقالتهم أنها صادقة، والله يعلم إنهم لكاذبون كما ذكر فى سورة المنافقين، ومثله كثير فى القرآن.

(وتقريعهم بذلك)، أى توبيخ الله تعالى لهم بسبب ما قالوه وحلفهم بأيمان فاجرة، ثم مثل لما ذكر فقال: **(كقوله)** عز وجل: ﴿**وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ**﴾ [المجادلة: ٨]، أى قول اليهود فيما بينهم وفى خلوة تناجيهم ﴿**لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ**﴾ [المجادلة: ٨]، أى هلا يعذبنا الله بقولنا فى حق محمد لو كان نبيًا دعا علينا حتى نعذب، أو بما كانوا يقولون هم والمنافقون فيما بينهم فى حق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، والمسلمين، فأخبر الله تعالى بذلك وفضح سرائرهم، وزاد بقوله: ﴿**حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ**﴾ [المجادلة: ٨].

(وقوله تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ الآية) [آل عمران: ١٥٤]، يعنى: أنهم يسرون فى ضمائرهم غير ما يظهرونه لك إذا أتوك، وهذا بيان لحال المنافقين ومكرهم، والذى أخفوه قولهم يوم أحد، وقد غشيهم النعاس، ولم يكن لهم هَمٌّ غير تخليص أنفسهم من القتل، وقال بعضهم لبعض فى خلوة من المؤمنين: ﴿**لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا**﴾ [آل عمران: ١٥٤] الآية، فأعلم الله رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، بذلك، فأخبرهم بما قالوه وهو من جملة المغيبات.

(وقوله) عز وجل: (﴿**وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ**﴾ **الآية**) [المائدة: ٤١]، أى ﴿**سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ**﴾ [المائدة: ٤١].

(وقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾) [النساء: ٤٦]، دعا عليهم بالصمم أو

بالموت، أو لا نسمع ما دعينا إليه، فأخبره الله تعالى بتحريفهم كتابهم ومقالتهم وعدم إطاعتهم، وهو من الإخبار بالغيب الدال على إعجاز القرآن، وهذا فى حق اليهود، وفى الآية كلام مفصل فى التفاسير واحتمالات أخر ووجوه من الإعراب ليس هذا محل تفصيلها.

وقوله فى هذه الآية: ﴿وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾، أى بالتكذيب والاستهزاء والسخرية، فهذا إخبار بالغيب عما كان اليهود يقصدونه من التحقير ويبرزون سبه فى صورة التوقير، فيقولون: راعنا وصفًا له صلى الله تعالى عليه وسلم، بالرعونة موهمين التماس نظره ورعايته لهم مكرًا منهم وليا بألسنتهم وكلامهم.

(وقد قال) الله تعالى حال كونه **(مبينا)** بالياء أى مظهرًا **(ما قدره الله)** وقضى به **(واعتقده المؤمنون)** من الظفر بإحدى الطائفتين العير أو النفير **(يوم بدر)**، أى فى وقعتها؛ لأن اليوم يطلق على ذلك فى قولهم: أيام العرب كما تقدم، وهو من المغيبات التى أخبرهم بها بقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، بدل مما قبله، ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، الشوكة مستعارة من الشوك المعروف للقوة والحدة بكثرة السلاح والرجال، ومنه شاكى وشاك السلاح للرجل المستعد للحرب بآلاته، وهذا إخبار للمؤمنين بأمر وقع فى أنفسهم ودوه وأحبوه، وهو مغيب على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، أعلمه به جبريل، عليه الصلاة والسلام، فلما تلاه عليهم زاد إيمانهم بإعجاز القرآن، وذلك أن المسلمين لما علموا بقدوم عير المشركين بما لهم من التجارة، وأحبوا الخروج إليها علم الكفار بذلك، فخرج أبو جهل بمقاتلة مكة وهم النفير، ولما علم أبو سفيان بخروج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، لذلك أخذ بالعير إلى جانب ساحل البحر، فقيل لأبى جهل: ارجع بالناس فأبى، وسار بمن معه إلى بدر، فوعد الله تعالى نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأحد الأمرين الظفر بالعير أو قتل النفير، وكانت الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، يودون فى أنفسهم أخذ العير؛ لما فيها من المال وقلة ما عندهم من السلاح والرجال، فقدر الله تعالى أنهم يلقون العدو ليقطع دابر الكافرين، فقتل صناديدهم وأيد الله المؤمنين وأعز الدين.

(ومنه)، أى من إخباره بالغيب فى كلامه المعجز **(قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾)** [الحجر: ٩٥]، وهم خمسة من الكفار أو سبعة كانوا يؤذونه صلى الله تعالى عليه وسلم، أشد الأذى ويسخرون به، فأخبره الله تعالى بهلاكهم سريعًا وكفايته أمرهم قبل وقوعه، فكان كما قال، وهذا من جملة المغيبات التى أخبر بها رسول الله

صلى الله تعالى عليه وسلم، كالذى قبله؛ ولذا جعلهما فى قرن كما أشار إليه بقوله فى سبب نزول هذه الآية كما رواه الطبرانى فى الأوسط.

(ولما نزلت) هذه الآية عليه ﷺ **(بشر بذلك أصحابه)**، أى بهلاكهم لما كان عندهم من الألم من شدتهم، فأخبرهم **(بأن الله كفاه إياهم)** بإهلاكهم، **(وكان المستهزؤون نفرًا بمكة)** من أهلها **(ينفرون الناس عنه)** ﷺ بطعنهم واستهزائهم.

(ويؤذونه فهلكوا)، وهم الأسود بن عبد يغوث، والأسود بن عبد المطلب، والوليد ابن المغيرة، والعاص بن وائل السهمى، وعدى بن قيس، وقيل: منهم الحارث بن عيطلة، وفكيهة بن عامر الفهرى، والحارث بن الطلاطلة ذكرهما الماوردى فى أعلام النبوة.

وروى أن جبريل أخبره صلى الله تعالى عليه وسلم، بهلاكهم وكيفيته، وقد مروا به رجلاً رجلاً، وكيفية هلاكهم مفصل فى السير.

وعن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، أنهم هلكوا فى ليلة واحدة، والذى ذكره غيره أنهم هلكوا فى أيام متقاربة بعد ما دعا عليهم بفناء البيت، فأجاب الله تعالى دعوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنزل عليه الآية كما قال فى الهمزية:

وكفاه المستهزئين وكم سا ... ء نبيًا من قومه استهزاء
فرماهم بدعوة من فنا البيـ ... ـت وفيها للظالمين فناء
خمسة كلهم أصيبوا بداء ... والردا من جنوده الأدواء

(و) من الإخبار بالغيب **(قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾)** [المائدة: ٦٧]، أى يحفظك من جميع الناس الذين يريدون بك سوءًا، وكان الصحابة يحرسون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فى أسفاره، فلما نزلت منعهم من الحراسة، ومر أن هذا لا ينافى ما أصابه صلى الله تعالى عليه وسلم، بأحد؛ لأن الآية نزلت بعدها، أو المراد حفظه من القتل كما فصله الخيضرى فى خصائصه، **(فكان كذلك)** أى محفوظًا معصومًا كما أخبر الله تعالى، وكان هنا تامة، وكذلك أى وقع ووجد كما أخبر به، أو ناقصة وكذلك خبرها.

وقوله: **(على كثرة من رام)** أى قصد **(ضره)** مفعوله، وفسره بقوله: **(وقصد قتله)** إشارة إلى صحة ما تقدم عن الخيضرى من أن العصمة إنما هى عن القتل، لا عن غيره من أنواع الأذى كما مر.

(والأخبار بذلك معروفة صحيحة) كما فى صحيح مسلم، عن جابر بن عبد الله قال: غزونا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، قبل نجد، فأدركنا رسول الله صلى الله

تعالى عليه وسلم، فى واد كثير العضاه، فنزل تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها، وتفرق الناس فى الوادى يستظلون بالشجر، فأتاه رجل وهو ﷺ نائم فأخذ السيف، فاستيقظ وهو قائم على رأسه، والسيف مصلت فى يده، فقال له: من يمنعك منى؟ قال: الله، ثم قال ذلك ثانيًا، فقال: الله، فشام السيف، قال: وها هو جالس ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ، وكان ملك قومه، فانصرف حين عفا عنه، وقال: والله لا أكون فى قوم هم حرب لك[1]. ومثله كثير.

* * *

(فصل)

(الوجه الرابع) من وجوه الإعجاز القرآنية **(ما أنبأ به)** أى ما أخبر الله به **(من أخبار القرون السالفة)** هو جمع قرن، وهم أهل كل عصر وزمان من الاقتران لاقتران زمانهم وأحوالهم، فقيل: هو أربعون سنة، وقيل: ثمانون، وقيل: مائة، وقيل: هو مطلق الزمان، أى أخبار الأمم والملل المتقدمة والبلاد البعيدة مما لا يطلع عليه إلا من تتبع التواريخ، أو ساح فى أقطار الأرض وقد عمر عمرًا طويلاً، وكلا الأمرين منتف فى حقه ﷺ، **(والأمم البائدة)** أى الهالكة الذين أفناهم الموت وطحنتهم رحى الدهر حتى اندرست آثارهم، **(والشرائع الداثرة)** بدال مهملة وثاء مثلثة من دثر إذا اندرس ولم يبق له أثر، والدثور ورد بمعنى النسيان، فالمراد معرفته بالشرائع القديمة التى نسيت ونسخت أحكامها من تدثر بثيابه إذا تلفف بها، وفى تعبيره نوع من البلاغة تسمى التفنن؛ لأن السالفة والبائدة والداثرة متغايرة اللفظ متقاربة المعانى.

(مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة) بيان لما كقوله من أخبار على حد قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾ [البقرة: ٢٥]، على ما حقق فى شروح الكشاف **(إلا الفذ)** الفذ هو الفرد والشاذ، وهما بمعنى وكلاهما بذال معجمة، وفى الحديث لا تدع شاذة ولا فاذة.

(من أحبار أهل الكتاب) أحبار جمع حبر بكسر الحاء المهملة وفتحها وسكون الموحدة وراء مهملة، ومعناه العالم الحافظ الواسع علمه، والعرف يخصه بعلماء أهل الكتاب، ومنه كعب الأحبار للتابعى المشهور، ويقال له: كعب الحبر ووجه إطلاقه أنه من الحبر، وهو المداد الذى يكتب به، وإليه نسب كعب المذكور، أو لأنه يحبر الكلام ويزينه، وفى المصباح الحبر بالكسر المداد الذى يكتب به، وإليه نسب كعب فقيل: كعب الحبر لكثرة كتابته بالحبر حكاه الأزهرى، وعن الفراء: الحبر العالم، والجمع أحبار

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٦٥، ٣٩٠)، والبيهقى (٩/٦٧)، وسعيد بن منصور (٢٥٠٤).

مثل حمل وأحمال، ويقال: [حبر] الأحبار أيضًا، أى عالم العلماء، وكذا فى تهذيب الأسماء للنووى، وحينئذ فلا عبرة بقوله فى القاموس: كعب الحبر بالفتح ويكسر، ولا تقل كعب الأحبار.

(**الذى قطع عمره فى تعلم ذلك**) أى تعلم أخبار من سلف وشرائعهم، فإذا كان لا يعلمه إلا من قرأه ودرسه طول عمره، وأما من كان أميًا فى أمة لم يقارن من له علم بذلك، فعلمه به وإخباره مفصلاً أمر خارق للعادة فى حقه محال لا لذاته بل لذاته.

(**فيورده**) متفرع على قوله: أنبأ أى إذا أخبر به النبى ﷺ، فى الوحى المتلو المنزل عليه يورده أى يذكره (**النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، على وجهه**) حال من الفاعل أو صفة مصدر مقدر، أى إيرادًا كائنًا على وجهه، أى على أتم حال يليق به، وينبغى له، كما يقال: دبر الأمر على وجهه كما فى الأساس (**ويأتى به على نصه**)، أى فى غاية مرتبة من كماله ورفعته يقال: بلغ الشىء نصه، أى نهايته كما فى الأساس؛ لأن معنى نص رفع، ومنه المنصة، وفيه توريه لأن عبارة القرآن تسمى نصًا، (**فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه**)، أى من يعلم تلك الأخبار والشرائع إذا سمعها ممن لم يسمع بها علم صحة كلامه وصدقه فيما قاله.

(**وأن مثله**)، أى مثل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، أو مثل هذا الكلام (**لم ينله**)، أى لم يصل إليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، (**بتعليم**)، أى من البشر، بل بوحى من الله تعالى، (**وقد علموا**) أى علم الناس المسلمين والمشركين (**أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، أمي**)، أى لا يعرف القراءة ولا الكتابة، فقوله: (**لا يقرأ ولا يكتب**) صفة له مفسرة وموضحة، وقول النحاة: الجملة المفسرة لا محل لها من الإعراب ليس على إطلاقه، ولما كان هذا لا يكفى لاحتمال أن يسمعه ممن قرأ وكتب قال: (**ولا يشتغل بمدارسة**)، أى بحفظ وتلق من الأفواه.

(**ولا مثافنة**) بضم الميم وتليها مثلثة ثم ألف وفاء ونون، أى مداومة طلب ومجالسة تحتك فيها الركب بالركب حتى يؤثر فيها الاحتكاك، وهو عبارة عن كثرة الجلوس مع أهل العلم بالأخبار والشرائع للتعلم منهم، وهو مجاز من ثفن البعير إذا برك، والثفناء ركبه التى يبرك عليها حتى يغلظ من حك الأرض، كثفنته على كذا إذا أعنته، وكان يقال لابن عباس: ذو الثفنات لطول جلوسه فى طلب العلم، أو لكثرة سجوده حتى يصير فى جبهته أثر السجود، وهذا أبلغ مما قبله، وهو الصحيح الموافق لدأب المصنف فى بلاغته.

وما قيل: من أنه بمثلثة وقاف وموحدة من ثقب رأيه إذا نفذ، وذهن ثاقب، وأن الأول بمعنى التعب من ثفنت يد الرجل بكسر الفاء إذا غلظت من كثرة العمل، فهو من تحريف الكتبة الذى لا يلتفت إليه من له علم بكلام العرب، وإن نقله عن بعض الشراح، وقد تقدم أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان أميًّا لا يقرأ الخط ولا يكتبه، وأنه من معجزاته، ورد ما قيل: إنه مخصوص بأول أمره، وأنه كتب بيده الشريفة عام الحديبية، فكان ذلك معجزة له أخرى، وقد شنع على قائله علماء الأندلس، ونسبوه للزندقة كما مر مبسوطًا غير مرة.

(ولم يغب عنهم) أى لم يغب، ﷺ عن قومه غيبة يحتمل أنه تعلم فيها ما أخبرهم به، **(ولا جهل حَالَهُ أحَدٌ منهم)** من ولادته، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى وفاته حتى يتوهم تعلمه ذلك من أهل الكتاب.

(وقد كان أهل الكتاب) أى أحبار اليهود والنصارى **(كثيرًا ما يسألونه)** أى فى كثير من الأحيان، فهو منصوب على الظرفية وما مزيدة لتأكيد معنى الكثرة، أو هو صفة مصدر مقدر أى يسألونه **(صلى الله تعالى عليه وسلم)**، سؤالاً كثيرًا **(عن هذا)** أى عن خبر من تقدم من الأمم السالفة، **(فينزل عليه)** عقب سؤالهم جوابًا لهم **(من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكرًا)** المراد بالذكر القرآن المذكر لهم، **(كقصص)** مصدر بالفتح أو جمع قصة بالكسر أى سير **(الأنبياء مع قومهم)**، فيذكره، صلى الله تعالى عليه وسلم، لهم مفصلاً بأبلغ عبارة وألطف إشارة، **(وخبر موسى والخضر)** بفتح الخاء وكسر الضاد المعجمتين، ويجوز سكون ثانيه مع فتح أوله وكسره، وهو ما قصه الله تعالى فى سورة الكهف، وموسى هو ابن عمران الكليم على الأصح، لا نبى آخر كما يزعمه أهل الكتاب.

والخضر هو بليا بن ملكان على أقوال فى الاختلاف فى اسمه، وقد اختلف أيضًا فى نبوته ورسالته، وأنه هل هو حى إلى الآن أو مات قبل تمام المائة الأولى أو قبل زمانه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأكثر علماء الصوفية على أنه حى إلى الآن إلا أن الله تعالى أخفاه عنا، وقد أطبق أكثر الصالحين على ذلك وأنهم يلاقونه ويتحدثون معه، وأنه يحج فى كل سنة وليس فى ذلك دليل قاطع، ولكن حسن الظن يصدق ما قالوه، والأكثر أنه ولى ولا نبى، ومن الغريب ما قيل: إنه ملك، وقيل: إنه لا يموت إلا فى آخر الزمان حين يرتفع القرآن. وفى صحيح مسلم فى حديث الدجال أنه يقتل رجلا يحييه. قال إبراهيم ابن سفيان راوى كتاب مسلم: يقال: إنه الخضر، وكذلك قال معمر فى مسنده وسمى خضرًا؛ لأنه إذا جلس على أرض اخضرت له، أو لأنه إذا صلى اخضر ما حوله.

وفى جامع الأصول عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، قال: قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنما سمى بذلك؛ لأنه جلس على فروة بيضاء فاخضرت تحته». وفى صحيح البخارى من حديث همام بن منبه، عن أبى هريرة مرفوعًا: «إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة، فإذا هى تهتز من خلفه خضراء»(١). والفروة الأرض اليابسة أو الحشيش اليابس. قال ابن فارس: الفروة كل نبات مجتمع إذا يبس، وقال الخطابى: الفروة وجه الأرض أنبتت واخضرت بعد أن كانت جردًا.

(**ويوسف وإخوته**) وهو وأسماء إخوته والخلاف فى كونهم أنبياء أم لا سيأتى مفصلاً، وقد كان اليهود سألوه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عنها فأنزل الله عليه السورة (**وأصحاب الكهف**) ومعناه المغارة لأنهم وجدوا بها، واختلف فى مكانها، ولهم أسماء يونانية اختلف فى ضبطها، وكانوا فروا من ملك يسمى دقيانوس، وقصتهم مفصلة فى التفاسير.

وسبب نزولها أن قريشًا بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود ليسألوهم عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأمره؛ لأنهم عندهم على [علم] من الكتاب الأول فقدموا المدينة قبل الهجرة، وسألوهم عن ذلك، فقال لهم الأحبار: سلوه عن ثلاث فإن أخبركم عنها فهو نبى مرسل، وإلا فهو متقول، سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم العجيب؟ وعن رجل طاف مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هى؟ فإن هم يبينها فهو نبى مرسل على ما يأتى، فسألوه عن ذلك، فقال: «أخبركم غدًا، ولم يقل إن شاء الله، فانقطع الوحى أيامًا اختلف فى عددها، فأرجف بذلك كفار مكة، وحزن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم أنزل الله عليه ما قصه فى سورة الكهف.

(**وذى القرنين**) اختلف فيه وفى اسمه، وسبب تسميته، فقيل: يونانى اسمه هرديس، وقيل: حميرى اسمه الصعب بن ذى مرائد، وفى خطبة لقس بن ساعدة:

ابن الصعب ذو القرنين، ملك الخافقين، وأذل الثقلين، وعمر ألفين، ثم كان كلحظة عين.

وهو الإسكندر، وسمى ذا القرنين، فقيل: لأنه عمر مدة قرنين ، وقيل: لأنه ضرب على قرنى رأسه، وقيل: لذؤابتين له، والقرن الشعر، وقيل غير ذلك.

---

(١) أخرجه البخارى (٤/١٩٠)، والترمذى (٣١٥١)، وابن حبان (٢٠٩٢)، والطبرانى فى الكبير (١٢/٢٠٩).

(ولقمان وابنه) وهو لقمان بن عنقاء بن مروان كان وليًا صالحًا، وقيل: إنه نبى، والأصح خلافه. وقيل: إنه نوبى من أهل إيليا، واسم ابنه فاران عند ابن قتيبة.

(وأشباه ذلك من الأنبياء والقصص) والأخبار المذكورة فى القرآن عمن مضى من الأمم السالفة.

(وبدء الخلق)، أى ابتداء خلق الله للدنيا وما جرى فى ذلك مما لا يطلع عليه إلا من قرأ الكتب ودرسها، وخلقه للسموات والأرض.

(وما فى التوراة والإنجيل) من أحكام الشرائع والتوحيد، **(والزبور وصحف إبراهيم وموسى)** من المواعظ والأذكار، وذكره لبدء الخلق لما تضمنه من الأخبار عما سلف أيضًا من أخبار الأمم، فلا يرد عليه ما قيل من أن بدء الخلق إخبار عن فعل الله تعالى، وهو جدير بإلحاقه بالإخبار بالغيب **(مما صدقه فيه العلماء بها)** أى الأحبار من أهل الكتاب حين ذكر لهم، **(ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها)** لكونها مطابقة للواقع، ولما عندهم مما لم يمكن إنكاره، **(بل أذعنوا لذلك)** فأقروا به، واعترفوا منقادين له.

(فمن موفق) اسم مفعول من التوفيق، أى الذين سمعوا ما قصه، صلى الله عليه وسلم عليهم، وعرفوا حقيقته منهم من وفقه الله تعالى، فهداه و**(آمن)** بالمد فعل ماض مفتوح الآخر **(بما سبق له من خير)**، أى بسبب ما سبق له فى علم الله الأزلى، وحكم بأنه سعيد، فسبق فعل ماض بسين مهملة وباء موحدة وقاف، والخير هو إحسان الله وإنعامه عليه بهدايته، ويجوز كسر سينه قبل ياء مثناة تحتية ماض مجهول ساقه، أى بما ساقه الله تعالى له، وأوصله إليه من الخير.

(ومن شقى معاند حاسد) أى أشقاه الله تعالى، حتى حمله العناد والحسد على عدم الانقياد لما علم حقيقته، كما حمل الحسد إبليس لعنه الله تعالى، على ضلاله لما كتب له من الشقاوة الأزلية، فلم يصدق ولم يؤمن.

(ومع هذا) العناد والحسد الذى أظهروه، **(فلم يحك)** بالبناء للمجهول ونائب فاعله أنه أنكر الواقع بعد سطور، وهو بالفاء التفريعية تفصيل وتبيين لقوله: لم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها، والمقام مقام إطناب وخطابة، فلا وجه للاعتراض عليه بأنه لا موقع له بعد ما تقدم، أى لم يذكر **(عن واحد من النصارى واليهود على شدة عداوتهم له)** ﷺ، أى هم مع أنهم أشد الناس عداوة له، وعلى بمعنى مع، كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]، أى على حب الخير لشديد.

(وحصرهم على تكذيبه)، أى على شىء من كلامه يقدرون على نسبته إلى الكذب

فيه، **(وطول احتجاجه)**، عليه الصلاة والسلام، **(عليهم)** أى إقامة الحجة عليهم **(بما فى كتبهم)** المنزلة على أنبيائهم ، عليهم الصلاة والسلام.

(وتقريعهم) أى توبيخهم وتفضيحهم **(بما انطوت عليه مصاحفهم)** جمع مصحف بتثليث الميم، كما نقل عن ثعلب، والفتح غريب من أصحف إذا جمع على الصحف، فهى بمعنى الصحف هنا.

(وكثرة سؤالهم له، عليه الصلاة والسلام)، عما لا يعلمه إلا من له تبحر فى العلم منهم، **(وتعنيتهم إياه)** تفعيل من العنت، وهو المشقة والتعب، أى تكليفهم بما هو شاق **(عن أخبار أنبيائهم)** متعلق بسؤالهم.

(وأسرار علومهم) أى الأمور الخفية الدقيقة من علومهم، **(ومستودعات سيرهم)**، أى سؤالهم عما أودع فى مصاحفهم من سير أنبيائهم.

(وإعلامه لهم مكتوم شرائعهم)، وفى نسخة: بمكتوم بدل مكتوم، أى إخباره، صلى الله تعالى عليه وسلم، لمن سأله منهم على أمور مكتومة مخفية عندهم ستروها عن غيرهم، **(ومضمنات كتبهم)**، أى ما تضمنتها كتبهم من الأحكام وغيرها، **(مثل سؤالهم عن الروح)** فى الحديث الصحيح الذى رواه الشيخان كما تقدم بيانه.

(وذى القرنين وأصحاب الكهف وعيسى) لما قال علماء اليهود للمشركين: سلوه عنها، فإن سكت أو أجاب عن الجميع فليس بنبى، وإن أجاب عن الأولين وسكت عن الروح، ووكل علمها إلى الله، فإنه كذلك فى التوراة فهو نبى مرسل.

(وحكم الرجم)، أى سؤالهم له صلى الله تعالى عليه وسلم، عن حكم الرجم للزانى المحصن الذى أنكروه، فبينه لهم صلى الله تعالى عليه وسلم، كما فى التوراة.

(وما حرم إسرائيل على نفسه) إسرائيل هو يعقوب، عليه الصلاة والسلام، ومعناه صفوة الله، وكان اليهود سألوه امتحانًا له عما حرم على نفسه، فقال: لحوم الإبل، وألبانها، والعرق وما فيه عرق، فصدقوه؛ لأنه كان سكن البدو خوفًا من أخيه العيص، ثم نذر أنه إن دخل بيت المقدس سليمًا من الأمراض والآفات، أن يذبح آخر أولاده وأعزهم عليه، فلما سار وقرب منه بعث الله ملكًا وكز فخذه، فمرض بعرق النساء حتى كان من وجعه ما كان، وذلك لئلا يلزمه ذبح ولده، فحرم على نفسه ما مر؛ لأنه يضر عرق النساء، وكان ذلك باجتهاد منه، والأنبياء يجوز لهم الاجتهاد على الصحيح، ويعقوب مات بمصر، فحمله يوسف، عليهما الصلاة والسلام، فدفنه عند أبيه بوصية منه.

(و) سألوه أيضًا عن **(ما حرم عليهم)**، أى على بنى إسرائيل **(من الأنعام من الطيبات)** من المآكل **(كانت أحلت لهم)**، أى جعلها الله حلالاً لهم، **(فحرمت عليهم ببغيهم)**، أى حرمت عليهم عقوبة بسبب ظلمهم يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، الآية، فحرم الله تعالى عليهم ما لم يكن مشقوق الأصابع من البهائم، والطيور، كالإبل والنعام، والأوز والبط، وقيل: كل ذى مخلب من الطيور وكل ذى حافر من الدواب، وحرم عليهم شحم البقر والغنم والكليتين إلا ما التصق بالظهر والجنب كما بينه المفسرون، وفصلوه فى سورة الأنعام، وقوله: **(ببغيهم)** أى بقتل أنبيائهم، وأخذهم أموال الناس بالباطل، فقالوا: إن الله لم يحرم علينا شيئًا، فنزلت هذه الآيات بتكذيبهم حتى افتضحوا وأذعنوا.

(و) مثل **(قوله)** تعالى: (﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ **[الفتح: ٢٩]، الآية)** الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ ، إلى آخر ما ذكر فى سورة الفتح، فأخبرهم الله تعالى على لسان رسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بما فى كتبهم.

(وغير ذلك من أمورهم التى نزل بها القرآن) مما لا يعلم مثله إلا بوحى، **(فأجابهم)** عما سألوه **(وعرفهم)** بما كتموه **(بما أوحى إليه من ذلك)** السابق ذكره كله.

(أنه أنكر ذلك أو كذبه) بفتح همزة أن، والمصدر المسبوك منها، ومما دخلت عليه نائب فاعل لم يحك، وهو ظاهر، ثم أضرب عن ذلك إضرابًا انتقاليا على سبيل الترقى، فقال: **(بل أكثرهم صرح)** أى تكلم بكلام صريح ناطق **(بصحة نبوته)**، أى قال: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم، صادق فى دعوى النبوة، وأن له نبوة صحيحة.

(وصدق مقالته)، أى صدق كل ما قاله ﷺ مما ادعاه، ومما نقله عن كتبهم، وصدق مصدر مضاف للفاعل ومقالته مجرور، أو فعل ماض مشدد الدال ومقالته منصوب مفعوله.

(واعترف بعناده وحسده إياه) فأقر بأن جحده لما قاله صلى الله تعالى عليه وسلم، محض عناد وحسد، وإفراد ضمير حسده رعاية لإفراد لفظ أكثر، وروى بضمير الجمع رعاية لمعناه، وليس حسده فعلاً ماضيًا لقوله: إياه فإنه يأباه.

(كأهل نجران) بفتح النون وسكون الجيم، وراء مهملة قبل ألف ونون، وهم قوم من نصارى العرب منزلهم بين مكة واليمن على سبع مراحل من مكة، سموا نجران بنجران ابن زيد بن سبأ وسيأتى الكلام عليهم.

(وابن صوريا) بضم الصاد وراء مهملتين وواو ساكنة قبل الراء ومثناة تحتية مقصور، وجوز البرهان مده، وهو عبد الله بن صوريا، وهو حبر من أحبار اليهود الذين كانوا بالمدينة، وهو الذى وضع يده على آية الرجم، وهو لفظ عبرانى، واختلف فى إسلامه، فقيل: إنه أسلم، وقيل: مات على كفره.

(وابنى أخطب) تثنية ابن، وأخطب بزنة أفعل التفضيل بخاء معجمة ساكنة وطاء مهملة مفتوحة، وموحدة علم لأبيهما، وهما حيى بضم الحاء المهملة وفتح الياء المثناة التحتية يليها ياء مشددة، وأبو ياسر، وهما يهوديان من يهود المدينة معروفان ماتا على كفرهما، وحيى هذا هو أبو صفية أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، قالت: كان عمى أبو ياسر أحسن رأيًا من أبى، كان يقول: السمت تجده فى كتبنا، فيقول: نعم هو هو، فيقول له: فما فى نفسك منه؟ فيقول: معاداته، **(وغيرهم)** من أحبار اليهود والنصارى.

(ومن باهت فى ذلك بعض المباهتة)، أى لم يقر بحقية ما جاء به، صلى الله تعالى عليه وسلم، وادعى أنه كذب مكابرة منه، يقال: بهته وباهته إذا كذبه ونسبه للبهتان:

ومنكر طيب المسك كذبه الشذاء

وقوله: بعض المباهتة أى فى بعض أموره التى يمكن المكابرة فيها، وفيه إشارة إلى أن من أخباره صلى الله تعالى عليه وسلم، ما لا يمكن إنكاره من أحد من العقلاء، وقد علمت أنه يقال: بهته بكذا وباهته كما فى الأساس، ومن أنكره فقد أتى ببهتان من عنده.

(وادعى أن فيما عندهم) من كتبهم **(من ذلك لما حكاه)** متعلق بقوله: **(مخالفة)** بالنصب اسم أن، ومن الموصولة فى قوله: من باهت مبتدأ خبره، **(دُعِيَ)** بالبناء للمجهول، أى دعاه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، بإذن ربه **(إلى إقامة حجته)** أى إلى دليل بالإتيان بنص من كتبهم يخالف ما أخبرهم به، **(وكشف دعوته)** أى بيان ما ادعاه.

(فقيل له): أى قال الله له صلى الله تعالى عليه وسلم: قل هم: ﴿**فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ**﴾ [آل عمران: ٩٣]، إلى قوله: ﴿**ٱلظَّٰلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٩٤]، يعنى قوله تعالى: ﴿**فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ**﴾.

وسبب نزولها أن اليهود قالوا له صلى الله تعالى عليه وسلم: تزعم أنك على ملة إبراهيم وأنت تأكل لحم الإبل ولبنها، وذلك يحرم فى شرعه، وقيل: إن المسلمين، قالوا

لهم: إنما حرمت عليكم الطيبات ببغيكم، فقالوا: إنها كانت محرمة قبل ذلك، فأمروا بإبراز التوراة حتى يتلى ما فيها من تحريم ذلك، فلم يجدوا ذلك فيها وافتضحوا، وقيل: إنهم أتوا برجل وامرأة زنيا، فقال لهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: كيف تفعلون؟ فقالوا: نجمعهما ونضربهما، فقال لهم: إن الذى فى التوراة رجمهما، فأنكروه، فقال لهم: كذبتم ائتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فأتوا بها وقرءوا حكم الزانى فيها، فوضع القارئ يده على آية الرجم، وقرأ ما قبلها وما بعدها، فانتزعت من يده ووجد فيها الرجم فرجما، **(فقرع ووبخ)** أى قرعهم الله وعيرهم بتكذيبهم وافترائهم على الله صريحًا وتلويحًا وجعلهم ظالمين(١).

(ودعا إلى إحضار ممكن غير ممتنع) وهو أمرهم بالإتيان بالتوراة، وهى حاضرة بين أيديهم، فصاروا قسمين، **(فمن معترف بما جحده)**، وأنكره من أحكام التوراة.

(ومتواقح) بضم الميم ومثناة فوقية مفتوحة وقاف مكسورة وحاء مهملة، أى متكلف للوقاحة، وهى قلة الحياء وصلابة الوجه حتى لا يبالى بافتضاحه، والمراد به ابن صوريا الذى وضع يده على آية الرجم.

فقال له ابن سلام: ارفع يدك يا أعور كما أشار إليه بقوله: **(يلقى على فضيحته)** أى ما يفضحه ويجعله سخرة بين الناس **(من كتابه)**، أى من الكتاب الذى معه **(يده)**، أى يضعها عليه، وعلى الآية التى فيها ما يخالف دعواه ويكذبه.

(ولم يؤثر) بالبناء للمجهول بمعنى ينقل معطوف على قوله: فلم يحك المتقدم ونائب فاعله **(أن واحدًا منهم)**، أى من أهل الكتابين.

(أظهر خلاف قوله) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(من كتبه)**، أى من الكتب التى عندهم مما أنزل على أنبيائهم، **(ولا أبدى)** أى أظهر نقلاً، **(صحيحًا ولا سقيمًا)**، أى محرفًا لفظه: أو مأولاً معناه **(من صحفه)** جمع صحيفة، وهى الكتاب.

(قال الله تعالى) بيانًا لما كانوا عليه فى هذا الأمر: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ [المائدة: ١٥]، كصفته صلى الله تعالى عليه وسلم، وقصة الرجم، وبشارة الكتب ببعثه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشأنه، ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ﴾ [المائدة: ١٥]، حلمه وستره عليهم رجاء هدايتهم بتوفيق الله **(الآيتين)**، وهما: ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ

(١) أخرجه البخارى (٦/٤٧)، والطبرانى فى الكبير (١٢/٣٨٠).

جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

* * *

(فصل)

(هذه الوجوه الأربعة من إعجازه بينة) فى غاية الظهور **(لانزاع فيها)**، أى لا ينازع أحد من العقلاء فى كونها ثابتة معجزة، **(ولا مرية)** بكسر الميم وضمها كما مر، بمعنى شبهة وشك فى ذلك، وهى عامة فى جميع الآيات، وفى جميع الأخبار الواقعة فيها، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢، ٣].

(ومن الوجوه البينة فى إعجازه من غير هذه الوجوه) الأربعة **(آى)** جمع آية، أو اسم جنس جمعى كتمر وتمرة، وليس كل مايفرق وبينه وبين واحده بالتاء اسم جنس جمعى، كما فصله البدر بن مالك فى باب الجمع من شرح الألفية، والآية جملة من القرآن لها مبدأ ومقطع كما مر.

(وردت بتعجيز قوم)، أى جاء فيها إظهار عجز طائفة مخصوصة من الناس **(فى قضايا)** جمع قضية، وهى الحادثة والواقعة فى حكم قضاه الله تعالى وقدره، **(وإعلامهم أنهم لا يفعلونها)** الإعلام بكسر الهمزة مصدر أعلم، مجرور معطوف على تعجيز، والضمير للقضايا، **(فما فعلوا ولا قدروا على ذلك)** المذكور من تلك القضايا، ونفى القدرة أبلغ من نفى العلم، **(كقوله)** عز وجل **(لليهود)** لما ادعوا دعاوى باطلة كقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، فكذبهم وألزمهم الحجة، فقال خطابًا له ﷺ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ [البقرة: ٩٤]، وهى الجنة: ﴿عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً﴾، أى خاصة بكم، وهو حال من الدار الآخرة، والخطاب لأهل الكتاب ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ أى باقيهم من المؤمنين وغيرهم، ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، فى قولكم أنكم من أهل الجنة، وأنها مخصوصة بكم؛ لأن من تيقن دخول الجنة اشتاق لها وأحب التخلص من هذه الدار، وأكدارها، ومن أحب لقاء الله أحب لقاءه.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٥]، فنفى عنهم تمنى الموت فى جميع الأزمنة المستقبلة بقوله: لن وأبدًا، وما قدمته أيديهم الكفر بالله وتحريفهم التوراة، فما فى هذه الآية من المعجزات؛ لأنه إخبار بالغيب، وهو كما أخبر إذ لو تمناه أحد

منهم مع توفر الدواعى على نقله اشتهر، والتمنى وإن كان من أعمال القلب الخفية، كما يأتى، فالنطق به وقولهم: تمنينا مما لا يخفى، ولو تمنوه ماتوا، فهم لحرصهم على الحياة وخوفهم لن يتمنوه، وقد صرفهم الله تعالى على ذلك معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقد استشكل ما قاله المصنف هنا بأن ما ذكره هنا داخل فى الوجوه السابقة، فإن قوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]، مثل قوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، إلى قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٤]، لإعلامهم بأنهم لا يفعلون لعجزهم وعدم قدرتهم، فهو داخل فى النوع المتقدم؛ لأنه إخبار عما استأثر الله بعلمه فى المستقبل، فجعله أدنى منه غير مسلم، وقد سوى بينهما فى الكشاف.

والجواب عنه: أن ما تقدم أمر معجز فى نفسه فى سائر الأزمنة بخلاف ما نحن فيه، فإن قول أحدهم: ليتنى أموت ونحوه أمر ممكن لهم ولغيرهم، وإعجازه إنما هو بمجرد الإخبار عن عدم وقوعه، فهو مغاير لما قبله وأدنى منه بمراتب.

(قال أبو إسحاق الزجاج) فى تفسيره المسمى بمعانى القرآن: وهو تفسير جليل يعتمد عليه الزمخشرى فى كشافه، وهو مأخذه كما مر، وهو العلامة فى فنون العربية التى تلقاها عن المبرد، واسمه إبراهيم بن السرى بن سهل بن الزجاج نسبة لصنعته، توفى سنة إحدى عشر وثلاثمائة، يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة، كما تقدم.

(فى هذه الآية أعظم حجة وأظهر دلالة على صحة الرسالة) أى رسالة نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم؛ **(لأنه قال لهم: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾** [البقرة: ٩٥]، **وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبدًا، فلم يتمنه واحد منهم)**، وفى نسخة: أحد منهم.

وفى الكشاف: **فإن قلت:** التمنى من أعمال القلوب، وهو سر لا يطلع عليه أحد، فمن أين علمت أنهم لن يتمنوه؟.

قلت: ليس التمنى من أعمال القلوب، وإنما هو قول الإنسان بلسانه: ليت لى كذا، وليت كلمة تمن، ومحال أن يقع التحدى بما فى الضمائر والقلوب، ولو كان بالقلوب لقالوا: قد تمنينا بقلوبنا، و لم ينقل أنهم قالوه.

وفى حواشيه للقطب: أنه استدلال على أن التمنى ليس من أفعال القلوب؛ لأن التحدى إنما يكون بأمر ظاهر، وفيه أن التحدى إنما يكون بإظهار المعجزة لإلزام من لم يقبل الدعوى، والتمنى ليس بمعجز فهو كقول الخصم: احلف لى إن كنت صادقًا، ويمكن أن يقال: التحدى هنا بطلب دفع المعجزة، فإن إخباره بأنهم لن يتمنوه أبدًا

معجزة طلب دفعها بتمنيهم، والدفع لا يكون إلا بأمر ظاهر، وهو كلام حسن منعه قول من لم يصل إلى العنقود.

(**وعن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم**)، فى حديث رواه البيهقى من طريق الكلبى عن أبى صالح، عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، بهذا اللفظ الآتى، وأحمد فى مسنده عن ابن عباس مرفوعًا بسند جيد بلفظ: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا».

(**والذى نفسى بيده**) أقسم بالله قسمًا مناسبا للمقسم عليه، فإن معناه أن روحه بيد الله إن شاء أرسلها فتحيى، وإن شاء أمسكها فتموت، وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، كثيرًا ما يقسم به، (**لا يقولها**)، أى كلمة التمنى المفهومة من السياق (**رجل منهم**)، أى واحد من بنى إسرائيل، والرجل على ظاهره، والمراد ما يعم المرأة (**إلا غص بريقه**) غص بضم الغين المعجمة وفتح الصاد المشددة أو بفتحهما، وفاعله ضمير الرجل، وعليه اقتصر بعضهم، ولا ينافى الأول كونه لازمًا كما توهم، والغصة ما تقف فى الحلق فتمنع النفس حتى تهلكه، يقال: غص بالطعام وشرق بالشراب وسجى بالعظم وحرض بالريق، وقد يستعمل كل منهما مكان الآخر، والريق رطوبة الفم، وغصص الدهر مصائبه، وهو كناية عن سرعة وقوع الموت بهم كما فى النهاية، وإليه أشار إليه بقوله: (**يعنى يموت مكانه**) أى فى مكانه الذى غص فيه، فلا يمهل لانتقاله لفراشه، (**فصرفهم الله عن تمنيه**) مصدر مضاف لمفعوله، وهو ضمير الموت، (**وجزعهم**) بفتح الجيم وتشديد الزاء المعجمة وفتحها وفتح العين المهملة.

وفى نسخة: فى جزعهم وكونه جرعهم براء مهملة غلط (**ليظهر صدق رسوله**) صلى الله تعالى عليه وسلم، (**وصحة ما أوحى إليه**) ثم بينه بقوله: (**إذ لم يتمنه أحد منهم**)؛ لخوف الموت لتيقن صدق خبره، (**وكانوا على تكذيبه أحرص لو قدروا**) على تكذيبه بأن يتمنوا ولا يموتوا، والجملة حالية بتقدير قد، (**ولكن الله**) بالتخفيف والتشديد (**يفعل ما يريد**) من تمنيهم وعدمه، (**فظهرت بذلك**)، أى بصرفهم عما هم أحرص عليه (**معجزته وبانت حجته**) بصدق خبره عن الغيب.

(**قال أبو محمد الأصيلى**) تقدم الكلام عليه وعلى نسبته: (**من أعجب أمرهم**)، أى اليهود (**أنه**) الضمير للشأن (**لا يوجد منهم جماعة ولا واحد من يوم**) أى من حين (**أمر الله بذلك نبيه ﷺ**) بقوله: «قل لهم: فتمنوا الموت»، (**يقدم عليه**)، أى على تمنى الموت، (**ولا يجيب إليه**) أى إلى قوله: «تمنوا الموت»، أو إلى قول أحد تمنى الموت لشدة خوفهم، ولما جبلهم الله عليه من حرصهم على حب الحياة، كما قال: ﴿**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ**﴾ [البقرة:٩٦].

(وهذا) المذكور من امتناعهم عن التمنى **(موجود مشاهد لمن أراد أن يمتحنه منهم)**، أى كل من أراد أن يعرفه إذا ذكره لهم ظهر به ما فى طباعهم، والامتحان هو التجربة، وإنما ذكره دفعًا لما يقال: التمنى أمر خفى فقد يقال: إنه موجود و لم يطلع عليه.

(وكذلك آية المباهلة) أى مثل قصة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فى بنى إسرائيل قصة المباهلة فى نصارى نجران؛ لأن فيها تكليفًا بالتكلم بأمر لو قالوه هلكوا، وقد أخبره الله تعالى به قبل وقوعه، فكان كما أخبر و لم يجبه أحد منهم إلى ما دعاهم إليه، كما لم تتمن اليهود الموت، فهو **(من هذا المعنى)** يعنى أنهما متقاربان كما قررناه آنفًا، وأصل معنى المباهلة كما حققه الراغب من البهل، وهو الإهمال كإرسال البعير وَكَحَلٍّ صرار الناقة، يقال: أبلهت فلانًا إذا خليته وإرادته، ومنه الابتهال، وهو تضرع الدعاء، قال: ومن فسره باللعن فلما فيه من الاسترسال فيه، قال الشاعر:

نظر الدهر إليهم فابتهل

أى استرسل إليهم فأفناهم، انتهى.

وفيه رد على بعض أهل اللغة إذ ظن أن حقيقته الملاعنة، ويؤيده ظاهر قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾ [آل عمران:٦١].

(حيث وفد عليه) الوفد هو: القادم من غير أهل الديار كما مر، وحيث هنا للزمان، أى لما قدموا عليه من ديارهم، **(أساقفة نجران)** جمع أسقف بضم الهمزة والقاف وبينهما سين مهملة وآخره فاء مشددة، وهو رئيس النصارى فى دينهم وقاضيهم وإمامهم، قيل: سمى به لانحنائه وخضوعه، ونجران بفتح النون وإسكان الجيم بلدة كانوا فيها، وهى بين مكة واليمن على سبع مراحلٍ من مكة، قدموا منها على رسول الله ﷺ وهم ستون راكبًا، منهم أربعة عشر رجلاً رؤساؤهم، ومنهم ثلاثة نفر بيدهم كل أمرهم، وأميرهم اسمه العاقب كما يأتى، وذو رأيهم كالوزير اسمه المسيح، وثمالهم السيد، وصاحب رحلهم الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل أسقفهم وإمامهم، وقصتهم مشهورة فى الإسلام.

(وأبوا الإسلام)، أى امتنعوا أن يسلموا؛ لادعائهم حقية دينهم وعدم نسخه، **(فأنزل الله عليه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حقهم **(آية المباهلة بقوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ الآية)** [آل عمران:٦١]، وتمامها ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾ [آل عمران:٦١]، ومعنى ﴿**وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ**﴾، أى ليدع بعضنا

بعضا، فإن الإنسان لا يدع نفسه، وكيفيتها كما قصه الله تعالى أن يجمع كل من المتخاصمين أهله، ثم يتوجه كل منهما إلى الله تعالى، ويقول: اللهم إن هذا يقول كذا وكذا، وأنا أقول: كذا وكذا، اللهم فاجعل لعنتك على الكاذب منا، فإن عذاب الله يحل بمن كذب من غير بطء، وهذا لم ينسخ، فإن سلطان العلماء العز بن عبد السلام، أسند إليه بعض أهله شيئًا لم يقله، فقال: أباهله إلى الله، ففعل فلم يمض سنة حتى هلك من باهله، وإنما جمع الأهل تخويفًا لهم بحلول العذاب من الله بهم أجمعين، ومن قال هنا: معنى البهلة بالضم والفتح اللعنة لم يصب كما مر عن الراغب، وهذا مما نحن فيه من وجه، ومن قال: الأسقف مشتق من السقف كما قاله ابن السكيت والهاء للعجمة، ففى كلامه تناقض.

(**فامتنعوا منها**) أى من المباهلة خافوا لما شاهدوه من الهلاك على أنفسهم بدعائه ﷺ، (**ورضوا بأداء الجزية**)، وهو الخراج الموظف على الناس، ويطلق على ما يعين على الأراضى فاختاروها مع ما فيها من المذلة، وكانوا قالوا له صلى الله تعالى عليه وسلم: مالك تشتم نبينا فتقول: عبد الله، فقال: هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنسانًا من غير أب، فأنزل الله عز وجل: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ**﴾ [آل عمران: ٥٩].... إلخ، ثم دعاهم للمباهلة.

(**وذلك أن العاقب عظيمهم قال لهم: قد علمتم أنه نبى وأنه ما لاعن قوما نبى قط فبقى كبيرهم ولا صغيرهم**)، أى هلكوا جميعًا لإجابة دعائه عليهم، ثم قال لهم: إن أبيتم إلا الإقامة على دينكم فصالحوه وانصرفوا إلى دياركم.

وروى أن القائل لهذا منهم، هو السيد الذى كان يسمى شرحبيل، فقال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: أسلموا يكن لكم وعليكم ما للمسلمين وعليهم، فأبوا فقال: نقاتلكم، فقالوا: ما لنا طاقة بحربك، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدى إليك كل عام ألفى حلة ألفا فى صفر وألفًا فى رجب، فصالحهم صلى الله تعالى عليه وسلم، على ذلك، وقال: لو تلاعنوا مسخوا قردة وخنازير، واضطرم عليهم الوادى نارًا، وفيه دليل على مشروعية الملاعنة.

قال فى المواهب: وقد جربته وأنه لا يمضى على الكاذب سنة كما سمعته، وقد علمت أن هؤلاء امتنعوا من الملاعنة كما امتنع اليهود من تمنى الموت؛ ولذا أورده المصنف، رحمه الله تعالى، هنا.

(**ومثله قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾**) [البقرة:٢٣]، إلى قوله:

﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ [البقرة:٢٤]، أى مثل قوله: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ [آل عمران:٦١]، **(فأخبرهم)** الله تعالى فى هذه الآية، **(أنهم لا يفعلون)** فى المستقبل أبدًا، وهو ما دل عليه الجملة المعترضة بين الشرط وجزائه، وهى قوله: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾، **(كما كان)** فى الماضى الدال عليه، ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾؛ فإن عجزهم عن معارضة القرآن أمر محقق وواقع، وإنما أتى بإن الشرطية وكان مقتضى المقام إذا باعتبار ما عندهم من الشك فى قدرتهم تهكمًا بهم.

(وهذه الآية) أى قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا﴾ [البقرة:٢٣]، إلى آخره، **(أدخل فى باب الإخبار بالغيب)** أى اندراجها فيه أظهر وأوضح؛ لتحقق النفى فى المستقبل بالنفى فى الماضى الذى علم من التحدى بخلاف آية تمنى الموت، وآية المباهلة؛ لعدم تقدم شىء من نوعها، وقيل: لأن فيها تصريحًا بنفى فعلهم فى المستقبل بخلاف آية المباهلة، فإن فيها إشعارًا بالعجز عن المباهلة فى الحال، والإشعار بالنفى فى المستقبل الذى هو من الإخبار بالغيب من لوازمها لا من صريحها، وفيه بحث.

(ولكن فيها من التعجيز ما فى التى قبلها) أى فى آية سورة البقرة التى فيها تعجيزهم عن الإتيان بمثل سورة ما من مثله عن تعجيزهم كتعجيزهم عن المباهلة، وفيه نظر لأنهم لم يعجزوا عن المباهلة، وإنما خافوا من عاقبتها فأحجموا عنها، ولو أرادوها لم يكن عندهم مانع منها فتدبره.

* * *

(فصل)

(ومنها) أى من وجوه أعجاز القرآن وجه غير الوجوه الأربعة التى تقدمت **(الروعة)** بفتح الراء والعين المهملتين المرة من الروع، وهو الفزع والخوف الذى يطرأ عند سماعه لجلالته وهيبته، كما وقع لسيدنا عمر، رضى الله تعالى عنه، ومنه لما سمع أول سورة طه، فأسلم من غير تردد لما وقع فى قلبه عند سماعه **(التى تلحق قلوب سامعيه)** أصله تلحق قلوب السامعين له، فحذفت نونه لإضافتة لضمير القرآن، **(وأسماعهم)** بالنصب معطوف على قلوب مفعول تلحق، وهو جمع سمع بمعنى الحاسة، وفيه تسمع لأن الفزع لا يلحق السمع، وإنما يلحق القلب بواسطته، وهو كقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾ [البقرة:٢٨٢]، أى لتذكر إحداهما الأخرى إذا ضلت كما حقق فى الكشاف وشروحه، وإنما عطف عليه لفيد أن هذه الروعة تلحق من يفهمه ومن لا يفهمه مؤمنًا كان أو كافرًا، فما قيل: إن فى عد هذا وجهًا مستقلاً من وجوه الإعجاز؛ نظرًا لأنه معنى زائد عن النظر مشروط بتدبره، وهو فى المؤمن واضح، وأما فى الكافر

فليقر به ليس بسديد لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وقوله: **(عند سماعه)** يأباه والضمير للقرآن، **(والهيبة)** بالرفع معطوف على الروعة، ومعناه الخوف يقال: هابه إذا خافه كما فى القاموس، وهو قريب من الروعة.

والتحقيق أنهما ليسا بمعنى واحد كما فى عروس الأفراح قال: ربما يتوهم أن الروع والمهابة واحد، وليس كذلك، بل الروع الفزع والمهابة الإجلال، قال[1]:

أهابك إجلالاً وما بك قدرة ... على ولكن ملء عين حبيبها

وقال الشريف فى قول السكاكى: إدخال الروعة وتربية المهابة: والمهابة يراد بها عرفا الحالة التى تكون فى قلوب الناظرين إلى الملوك، وتربيتها تقويتها، والروعة الخوف الذى يتجدد بمخاطبتهم، انتهى.

(التى تعتريهم)، أى تطرأ عليهم وتغشاهم **(عند تلاوته)** وقراءته، والأول ناظر للسامع، والثانى: للقارئ نفسه، أو هما بمعنى؛ **(لقوة حاله)** أى لما فيه من الحالة القوية باعتبار ما فيه من المواعظ والإنذار، وهذا ناظر للروعة عند من فهمه، **(وأنافة خطره)**، أى علو مرتبته على غيره من الكلام الذى يهابه سامعه، فهو ناظر للهيبة ويمكن كل منهما لكل منهما.

(وهى)، أى الروعة والهيبة، وإفراد الضمير؛ لأنها شىء واحد أو كالواحد **(على المكذبين به أعظم)** منها على المؤمنين؛ لشدة خوفهم منه كما قيل: الخائن خائف والمؤمن وإن هابه، فهو متلذذ به مطمئن قلبه ببشائره، **(حتى كانوا)** أى المكذبون **(يستثقلون سماعه)**؛ لصعوبة ما فيه عليهم، **(ويزيدهم)** سماعه **(نفورًا)** عن الحق والإصغاء إليه.

(كما قال تعالى): ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء:٤٦]، أى ولّوا معرضين عنه لعدم ذكر آلهتهم فيه.

(ويودون) أى يحبون **(انقطاعه)**، أى قطع تلاوته عندهم؛ **(لكراهتهم له)** لخبث طبائعهم كما تضر رياح الورد بالجعل؛ **(ولهذا)** المذكور من محبة انقطاعه وكراهتهم له **(قال صلى الله تعالى عليه وسلم)**، فى الحديث الذى رواه الديلمى وغيره عن الحكم بن عمير، وسيأتى بتمامه: **(إن القرآن صعب)** فى نفسه بمعنى أنه لا يقدر أحد على محاكاته

(١) البيت من الطويل، وهو للمجنون فى ديوانه (ص٥٨)، ولنصيب بن رباح فى ديوانه (ص٦٨)، تخليص الشواهد (ص٢٠١)، شرح التصريح (١/١٧٦)، سمط اللآلى (ص٤٠١)، المقاصد النحوية (١/٥٣٧)، وبلا نسبة فى أوضح المسالك (١/٢١٥)، شرح الأشمونى (١/١٠١)، شرح ابن عقيل (ص١٢٣)، شرح عمدة الحافظ (ص١٧٣).

وضبط ألفاظه وحفظها بسهولة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، **(مستصعب)** بفتح العين وكسرها أى يعسر فهمه وتفسيره بالرأى، ولا يمكن تغييره وتحريفه؛ لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه ليس من جنس كلام البشر **(على من كرهه)** من الكفار والمنافقين.

(وهو)، أى القرآن **(الحكم)** بفتحتين أى الحاكم الفاصل بين الحق والباطل بما تضمنه من الأحكام، والبر والفاجر بما نصب فيه من الأدلة الدالة على حقيته؛ ولذا قيل له: فرقان، وهذا فى حق غير المؤمن.

(وأما المؤمن) معادلة لأما مقدرة معلومة مما قبله، أى أما غير المؤمن فلا يزال صعبًا عليه لكراهته له، وأما المؤمن **(فلا تزال روعته به)** بفتح الراء، أى فزعه وخوفه من زواجره ومواعظه وهيبة منزله الحاصلة بسببه، **(وهيبته إياه)** الضمير الأول للمؤمن، والثانى للقرآن أو بالعكس **(مع تلاوته)**، أى قراءته، من تلاه إذا تبعه، أو هو بمعناه اللغوى أى اتباعه لأوامره ونواهيه، والتلاوة فى العرف تختص بالقرآن، وقيل: لا تختص به **(توليه)** أى تعطيه من أولاه معروفا إذا أعطاه، فهو بضم المثناة الفوقية وسكون الواو وكسر اللام المخففة **(انجذابًا)** بنون وجيم وذال معجمة وموحدة من جذبه إذا أماله لجهته بشدة، أى يستميل قلبه وسمعه لمحبته له، وشبه الشىء منجذب إليه.

(وتكسبه) بضم التاء الفوقية وسكون الكاف **(هشاشةً)** بفتح الهاء والشين المعجمة، أى مسرة وخفة ولينًا؛ لما فيه من البشائر السارة والمعانى اللذيذة التى تجعله فى نشاط؛ **(لميل قلبه إليه وتصديقه به)**، فهو دائمًا يرتع فكره منه فى روضات أنيقة، فإذا عرف من يناجى وأنه جليس الرحمن سر ونشط، ثم استشهد لهذا بقوله: **(قال الله تعالى:** ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾) [الزمر:٢٣]، أى يعرض لجلود أبدانهم قشعريرة، أى قيام من الخوف من هيبته، فإذا تأمله وتدبره لان قلبه وجلده؛ لأنسه وسروره به؛ ولذا ترى بعض الصالحين إذا تلى القرآن تواجدوا وصاحوا، وقد يتعدى ذلك إلى الغشى وشق الثياب ونحوه، ومثله لا ينكر، ومن لم يذق لا يعرف، ولا يأبى هذا أنه لم يقع من الصحابة، رضى الله تعالى عنهم؛ لأن مقامهم مقام تمكين، وقد بسط هذا فى الإحياء، فإن أردته فارجع إليه، وعدى تلين بإلى لما فيه من معنى الميل، وذكر الجلود فى الأول وضم إليها القلوب فى الثانى إشارة إلى أن الأول قبل التدبر التام، فإذا تدبر ذلك وقر فى قلبه وزالت تلك الحالة الظاهرة عنه.

(وقال) تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ [الحشر:٢١]، الآية يعنى: ﴿لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وهذا

تمثيل لما فيه من الروعة التى تهد الجبال، فما بالك بالرجال، والآية مبينة فى التفاسير فلا حاجة للتطويل بذكر ما فيها.

(ويدل على أن هذا) أى ما يحدث للقلوب والأسماع من الروعة والمهابة **(شىء خص به)** القرآن دون غيره من الكلام **(أنه)** أمر **(يعترى)** أى يطرأ ويحدث **(من لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره)** ممن لا يمارس كتبه ويقرؤها حتى يقف على دقائقه ولطائفه، فعلم من هذا أن تأثر السامع به لسر فيه وأمر ربانى، ولذا كان يثاب قارئه وسامعه وإن لم يفهمه بخلاف غيره.

(كما روى عن نصرانى) ليس من شأنه فهم القرآن ولا الوقوف على تفسيره، ففيه إيضاح لما قبله **(أنه مر بقارئ)** يتلو القرآن جهرًا، **(فوقف)** ليسمع قراءته وهو **(يبكى، فقيل: مم بكيت؟)**، وإنما سئل عن سبب بكائه؛ لأنه لا يصدق به ولا يفهمه، **(فقال: للشجا والنظم)** الشجا بفتح الشين المعجمة والجيم مقصور يقال: شجى يشجى شجا، وهو شجى إذا حزن أو طرب أو غضب، والثانى أنسب هنا كما قاله البرهان، والمراد بالنظم رونق انتظامه وحسن انسجامه، فأثر ذلك فى نفسه وهو لا يفهمه حتى أبكاه.

وسمع بعض العرب بخراسان مغنية حسنة الصوت تغنى بالفارسية، فشوقه ذلك وأشجاه وقال:

ومسمعة يحار السمع فيها ... ولا يفهمه لا يصمم صداها
ولم أفهم معانيها ولكن ... ورت كبدى فلم أفهم شجاها
فكنت كأننى أعمى معنى ... يحب الغانيات ولا يراها

ولم يذكر المصنف، رحمه الله تعالى، أن ذلك القارئ قرأ بصوت حسن حتى يكون تأثره وطربه لنغماته، وهو أبلغ وأدل على ما قصده.

(وهذه الروعة) الحاصلة عند سماع القرآن لمن لم يتدبره **(قد اعترت جماعة)** وحصلت لهم **(قبل الإسلام)**، أى قبل إسلامهم **(وبعده)**.

ثم فصل حال من اعترته الروعة قبل إسلامه لكنه تسمح فى العبارة؛ لأن القبلية تقتضى عروض الإسلام، فلا ينافى قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وكذلك قوله بعده فعبارته لا تخلو من المسامحة، وكان الظاهر أن يقول اعترت جماعة منهم من أسلم ومنهم من بقى على كفره بقوله: **(فمنهم من أسلم لها)**، أى لهذه الروعة **(لأول وهلة)** بفتح الواو وسكون الهاء، وهى المرة من الوهل وهو الفزع، يقال: وهل منه وإليه إذا فزع، ثم قيل: أول وهلة لأول ما يقرع السمع ويقع فى الوهم والفكر، وهو المراد

كما أشار إليه فى الأساس، وأسلم بمعنى أقر واعترف، **(وآمن به)** أى صدق بقلبه.

(ومنهم من كفر) أى دام على كفره؛ لإصراره على عناده لحماقته وجاهليته.

(فحكى فى) الحديث **(الصحيح)** الذى رواه الشيخان مسندًا **(عن جبير بن مطعم)** بن عدى بن نوفل بن عبد مناف الصحابى، رضى الله تعالى عنه، وقد تقدمت ترجمته وأنه أسلم فى فتح خيبر أو فتح مكة أنه **(قال: سمعت رسول الله)**، وفى نسخة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يقرأ فى)** صلاة **(المغرب)**، وذلك قبل إسلامه **(بالطور)**، أى بسورة الطور، **(فلما بلغ هذه الآية** ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾) [الطور:٣٥]، أى من غير خالق لهم، كما تقول الدهرية: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ، لأنفسهم بشهادة قوله بعده: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الطور:٣٦].

وقرأ: **(إلى قوله:** ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾) [الطور:٣٧]، أى المدبرون للأشياء كما يريدون وبينهما: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ [الطور:٣٦، ٣٧]، يقال: مصيطر، ومسيطر للسيد المالك، **(كاد قلبى أن يطير للإسلام)**، أى حدث عندى فزع وخوف شديد ظننت أن قلبى ذاب وفنى حتى لم يبق معى، وطيران القلب يراد به نار شدة الخوف، وهو المراد هنا؛ لأن القلب متحرك دائمًا لحرارته، فإذا زالت الحرارة الغريزية لخوف أو شدة شوق وحب زاد خفقانه، فيشبه حينئذ بطائر يخفق جناحه كما قال القائل:

كأن قطاة علقت بين أضلعى ... لأن فؤادى دائم الخفقان

وقلت:

عجبًا لقلبى طائر فزعا ... وعليه ناحل أضلعى قفص

وعليه قول العرب: أفزع روعه كما حقق فى كتب اللغة.

(وفى رواية) أخرى غير رواية الشيخين: **(وذلك أول ما وقر الإيمان فى قلبى)** وقر بالقاف بزنه ضرب بمعنى سكن وثبت، وذلك أنه كان مشركًا فى أسارى بدر أو فى فداء أساراها، فلما سمع الآية وفهمها علم ما فيها من برهان الإيمان القاطع لعرق الكفر؛ لدلالتها على أنه لا خالق يستحق العبادة إلا الله، فسكن قلبه بعد اضطرابه حتى كاد يطير، وهذه رواية البخارى أيضًا فى المغازى، وفى رواية فصدع قلبى، وفيه دليل على صحة رواية مسلم ما تحمل حال كفره، وفيه بيان لروعة القرآن لمن سمعه وأن تلك الروعة سبب لإسلامه.

(وعن عتبة بن ربيعة) هو أبو الوليد بن عبد شمس بن عبد مناف المشهور، وهو ممن

قتل كافرًا ببدر، فلا يتوهم إسلامه بقول المصنف، رحمه الله تعالى، عن عتبة هنا، وهذا الحديث رواه ابن إسحاق فى سيره والبغوى فى تفسيره **(أنه كلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما جاء به من خلاف قومه)** يشير لما فى السير من أن أبا جهل، لعنه الله تعالى، قال لقريش: قد التبس علينا أمر محمد، فلو أتاه منا من كلمه، فذهب إليه عتبة وكان ذا رأى وحزم، وقال له: يا محمد أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟، فلم تشتم آلهتنا وتسفه أحلامنا وتضللنا؟ وأنت منا بسطة قومنا، فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء وكنت رئيسنا، وإن كان بك الباءة زوجناك من تختار من بنات قريش، وإن كنت تريد المال جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا مالاً، وإن كان لك رئى لا تستطيع رده طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا، أو كما قال، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، يسمع كلامه حتى فرغ، فقال له: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: اسمع منى ما أقول[1].

(فتلا عليهم) أى على الوليد ومن معه، أو من علم أنه سيبلغه ما تلاه عليه، وفى نسخة عليه بالإفراد من سورة ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت:١، ٣]، إلى قوله: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣]، أى الصاعقة التى أهلكت قوم هود وقوم صالح، **(فأمسك عتبة على فيه)** أى وضع يده على فم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى يقطع كلامه وما تلاه عليه من هذه السورة؛ لخوفه من وقوع ما أنذرهم به، وفى نسخة فأمسك عتبة بيده على فى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وناشده الرحم أن يكف)** أى سأله مقسما عليه بالرحم، وهى القرابة القريبة المقتضية للرحمة والتعطف عليهم من حلول ما ذكره من العقاب بهم، يقال: ناشدته ونشدته إذا أقسمت عليه قسم استعطاف.

(وفى رواية) أخرى لابن إسحاق فى سيرته عن كعب القرظى: **(فجعل النبى ﷺ يقرأ)** قال الراغب: جعل لفظ عام فى الأفعال كلها أعم من فعل وصنع وأخواتهما، وتأتى على أوجه، فتجرى مجرى صار وطفق، فلا تتعدى، تقول: جعل زيد يقول كذا إلخ، فالمعنى انطلق فى قراءة السورة، وقوله: لا تتعدى أى هى من أفعال الشروع، والفعل خبرها لا مفعولها، والشروع لا ينافى الاستمرار كما توهم، **(وعتبة مصغ)** اسم فاعل معتل بوزن منذر، أى مستمع لقراءته منصت لها **(ملق بيديه خلف ظهره)**؛

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/٧٦)، وأورده ابن حجر فى المطالب العالية (٤٢٨٥)، والسيوطى فى الدر المنثور (٥/٣٥٨).

لاعتماده عليهما، فقوله: **(معتمد عليها)** كالتفسير له **(حتى انتهى)** أى وصل **(إلى)** آية **(السجدة، فسجد)** صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وقام عتبة)** من عنده **(لا يدرى بم يراجعه)**، أى يكلمه بعد تلاوته لروعته التى أدهشته بما سمعه منه صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ورجع إلى أهله)**، أى دخل عتبة منزله، ولم يقابل أحدًا ممن كان ينتظر خبره، **(ولم يخرج)** من بيته **(إلى قومه)**، واستمر فى بيته **(حتى أتوه)** ليسألوه عن انقطاعه عنهم ما سببه، **(فاعتذر لهم)** عن عدم خروجه لهم، وإخباره بما جرى له معه صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وقال)** فيما اعتذر لهم به: **(والله لقد كلمنى)** النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بكلام)**، والله **(ما سمعت أذناى بمثله قط)** أى مماثل له فى حسنه وجزالته وتأثيره فى القلوب، **(فما دريت ما أقول له)**، ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وفيه دليل لما نحن فيه من الروعة والهيبة لمن بقى على كفره ممن أضله الله على علم، وفى رواية لما رأوه قالوا: والله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائى أنى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعونى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعته نبأ عظيم، فإن تصبه العرب كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به، فقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد، قال: هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم.

(وقد حكى) بالبناء للمجهول **(عن غير واحد)**، أى عن كثير، وغير الواحد شامل للقليل وللكثير، ولكنه خص عرفًا بهذا كما مر، **(ممن رام معارضته)**، أى قصد أن يأتى بكلام يماثله فى البلاغة **(أنه اعترته)**، أى حدثت له وأصابته **(روعة وهيبة)** حين تلاه وسمعه **(كف بها)**، أى بتلك الروعة والفزع **(عن ذلك)** أى المذكور من روم المعارضة.

ثم ذكر بعض من سخف عقله ممن هم بذلك فقال: **(فحكى أن ابن المقفع طلب ذلك ورامه)**، أى قصد معارضة القرآن والكلام بما يماثله، وفى المقتفى للبرهان الحلبى المقفع بضم الميم وفتح القاف والفاء المشددة قبل العين المهملة، ولم يتعرض ابن ماكولا لبيان حركة الفاء، وهى مضبوطة فى النسخ بالكسر، والذى أحفظه الفتح، وذكر ابن ماكولا شخصًا يقال له: مروان بن المقفع، فليحرر هل هو هذا أم لا؟ انتهى، وهو غريب من مثل هذا الحافظ فإنه بالفتح من غير شبهة، قال فى القاموس: مقفع اليدين كمعظم متشنجهما، ومروان بن المقفع تابعى، وأبو عبد الله بن المقفع فصيح بليغ، وكان اسمه روزبة أو دازبة بن داود حسس قبل إسلامه، وكنيته أبو عمرو، ولقب أبوه بالمقفع

فتقفعت يداه، أى تشنجتا، وهذا مما يعرفه الخاصة والعامة إلا أن التلمسانى، قال فى حواشيه: المقفع اليابس اليدين والرجلين من برد.

وقال ابن مكى فى تثقيف اللسان: إن الصواب فيه المقفع بكسر الفاء؛ لأنه كان يعمل القفاع جمع قفعة، وهى شىء يشبه الزنبيل بلا عروة من خوص وليس بالكبير، وقيل: إنه كاتب المنصور، وهو أول من هذب المنطق، وقتله سفيان المهلبى لما ولى البصرة وحضره أهلها وفيهم ابن المقفع، فذكر عنده الوطيس فلم يعرفه، وسأل عنه من حضر فضحك ابن المقفع، ثم انصرفوا فأمر ابن المقفع بالجلوس حتى خلا المجلس، فأمر بتنور عظيم وأمر بأن يسجر، وأمر بطرحه فيه فاحترق كما فى مشكاة أنوار الخلفاء، وكان ابن المقفع من جملة قوم زنادقة كانوا يجتمعون لذكر مطاعن القرآن وصياغة هذيان يعارضونه بها كما أشار إليه المصنف، رحمه الله تعالى، بقوله: **(وشرع فيه)** أى فى المعارضة، وذكره لأن تأنيث المصادر غير معتبر لتأويله بأن والفعل، **(فمر بصبى يقرأ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾** [هود: ٤٤] **فرجع)**، وقد تقدم بيان بلاغتها وما فيها من الإعجاز على ما فى المفتاح وشروحه.

(فمحى) جميع **(ما عمل)** يعنى غسله وأبطل ما فى صحفه لما رآها لا مناسبة بينها وبين شىء من الكتاب العزيز، **(وقال: أشهد)**، أى أقر وأعترف، أو أعلم كل أحد **(إن هذا لا يعارض)**، أى لا يقدر أحد على الإتيان بمثله.

(وما هو من كلام البشر) لظهور إعجازه، **(وكان أفصح أهل وقته)**، فليس ممن قال ذلك بغير علم لمعرفته بصناعة الصياغة، والمراد بوقته زمانه وعصره الموجود فيه.

(فائدة): قال أبو الفرج ابن الجوزى: نقلت من خط أبى الوفاء على بن عقيل الحنبلى صاحب الفنون قال: وجدت فى تعاليق محقق من أهل العلم أن سبعة مات كل منهم، وله ست وثلاثون سنة، فعجبت من قصر أعمارهم مع بلوغ كل واحد منهم الغاية فيما كان فيه، وانتهى إليهم، فمنهم الإسكندر ذو القرنين، وأبو مسلم صاحب الدولة العباسية، وابن المقفع صاحب الخطابة والفصاحة، وسيبويه صاحب التصانيف والتقدم فى علم العربية، وأبو تمام الطائى وما بلغ فى الشعر وعلومه، وإبراهيم النظام المتعمق فى علم الكلام، وابن الراوندى، وما انتهى إليه من التوغل فى المخازى، فهؤلاء السبعة لم يجاوز أحد منها ستا وثلاثين سنة، بل اتفقوا على هذا القدر من العمر، انتهى.

قلت: فلينظر الزركشى، فإنه لم يجاوز الأربعين، فإنه مات فى ست وثلاثين، فيضم إليهم، وكذا شيخ الإسلام تقى الدين السبكى، فانظر إلى مؤلفاته التى زادت على أكثر

من ثلاثين ما بين مبسوط، ومختصر مات عن خمسة وعشرين سنة، فيضم إليهم.

(وكان يحيى بن الحكم) بفتح الحاء المهملة وكاف مفتوحة بعدها، وقيل: إنما هو الحكيم بوزن الطبيب كما ذكره الذهبى، وقال: إنه من شعراء المائة الثانية توفى بعد مائة وخمسين، ولست على ثقة منه.

وذكره ابن خلكان فى تاريخه، وقال: إنه من شعراء الأندلس، وذكره فى الذخيرة أيضًا، **(الغزال)** بمعجمتين وزاؤه مشددة، وقيل: إنها مخففة عند الذهبى أيضًا فى كتاب المشتبه، فعلى الأول هو وصف منسوب لصنعة الغزل، وعلى الثانى: هو علم منقول من اسم الحيوان، وهو بكرى قرطبى الدار، كان فى زمن هشام بن الحكم، أقول: الذى ذكره ابن حبان فى المقتبس تاريخ الأندلس أنه يحيى بن الحكم البكرى الجيانى، لقب بالغزال فى صغره لحسنه.

وكان فى المائة الثالثة: حكيم الأندلس وشاعرها وله شعر فى غاية الحسن، وارتحل لمصر، ثم عاد للأندلس وعمر، أى بلغ من العمر مائة وثلاثين سنة، وأرسل رسولاً لبلاد الفرنج، فأعجب ملكها فنادمه وسألته امرأته عن سنه، فقال: عشرين سنة فقالت له: فما هذا الشيب؟ فقال: أما رأيت مهرًا ولد أشهب فضحكت، وإلى هذا يشير بقوله فى قصيدة:

قالت أرى فوديه قد نورا ... دعابة توجب أن أدعبا
قلت لها ما باله إنه ... قد ينتج المهر كذا أشهبا

قال: وحكى أنه أراد أن يعارض سورة الإخلاص، فعرضت له حالة أوجبت توبته، وهو ما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، الآتى **(بليغ الأندلس فى زمنه)** أى معروف بالبلاغة وفصاحة النظم والنثر فى عصره، والأندلس بفتح الهمزة وضم الدال وفتحها وضم اللام ليس إلا، وهى معربة لم تتكلم بها العرب قديمًا، وإنما عرفتها فى الإسلام، قال ياقوت فى معجمه: اشتهر على الألسنة أنها تلزمها أل، وقد وردت بدونها فى قول بعض العرب:

سألت القوم عن أنس فقالوا ... بأندلس وأندلس بعيد

وهى بلغاتها لا نظير لها سواء قلنا: فعلل أو فنعلل، والظاهر أن الهمزة زائدة لأن بعدها أربعة أحرف، ولو كانت عربية جاز أن يقال: وزنها انفعل.

فإن قلت: قال سيبويه: انقحل الشيخ المسن، ولا يعرف ما فى أوله زيادتان مما ليس جاريًا على الفعل.

قلت: هو العربى البحت، وهى تجاه تونس أرض تحتوى على بلاد، وليست جزيرة إلا أن البحر يحيط بها من ثلاث جهات هى أكثرها، فلذا سماها بعضهم جزيرة.

(فحكى) بالبناء للمجهول **(أنه رام شيئًا من هذا)** أى معارضة القرآن، ونسج كلامًا على منواله فى الفصاحة، **(فنظر فى سورة الإخلاص)** التى هى أقصر سورة أى تدبر فى نظمها ليأتى من عنده بمثلها، وسميت سورة الإخلاص لاشتمالها على ما يجب إخلاص اعتقاده من التوحيد لذات الله وصفاته؛ **(ليحذو على مثالها)** من حذوته بحاء مهملة وذال معجمة إذا قمت بحذائه أى مقابلته، وحذا النعل بالنعل إذا قطعها بمقدارها وقالبها، فالمعنى ليقول مثلها.

وفى الحديث: («**لتركبن سنن من قبلكم حذو النعل بالنعل**»)، أى تعملون مثل أعمالهم من غير زيادة ونقص، فهو استعارة تمثيلية، **(وينسج بزعمه)** بزاء معجمة مثلثة، وهو الظن وأكثر ما يستعمل فى الكذب، فإن الزعم مطية الكذب **(على منوالها)** هو بمعنى ما قبله، والمنوال بكسر الميم خشبة ينسج عليها الثياب، فهو استعارة تخييلية ومكنية بتشبيه التكلم والكلام ببرود تنسج، وأثبت لها ماله من النسج والمنوال، أو هى تمثيلية أو تبعية وهو أمر سهل.

(قال)، أى ابن الحكم: **(فاعترتنى)** أى عرض لى فى حال النظر **(خشية)** أى خوف وتعظيم له، **(ورقة)** أى رقة قلب وخشوع أو ضعف ولين **(حملته)** التفات إذ الظاهر حملتنى، والحمل الإلجاء والقسر **(على التوبة)** مما كنت هممت به، والندامة على ما عزم عليه، **(والإنابة)**، أى الرجوع عنه، وفى نسخة والأوبة، وتركه لذلك لعلمه بأنه أمر لا يقدر عليه البشر.

* * *

(فصل)

(ومن وجوه إعجازه المعدودة) أى الذى عده العلماء منها إشارة إلى أنه مسبوق بذكره، **(كونه آية)** ومعجزة **(باقية)** فسره بقوله: **(لا تعدم ما بقيت الدنيا)** أى مدة بقائها إلى قيام الساعة وما ورد فى حديث حذيفة من أنه تأتى ليلة يرفع فيها القرآن لا يبقى فى الأرض منه آية هو بعد نزول عيسى ابن مريم، عليه الصلاة والسلام، وظهور يأجوج ومأجوج، وهو فى حكم الساعة، ووجود الدنيا حينئذ، والعدم سواء، وبقاؤه ببقاء تلاوته محفوظًا من النسخ والتبديل والتغيير، وهذا فصل يتميز به عن سائر الكتب الإلهية فضلاً عن غيرها، وما قيل من أن عد هذا من وجوه الإعجاز لا وجه له، فإنه لا تعلق له بالنظم المعجز ساقط، فإن بقاءه كما ذكر من لوازم إعجازه بعدم مشابهته لكلام البشر

حتى يؤتى بأمثاله أو يدخل فيه ما ليس منه، أو نقول إنه من جملة ما أخبر الله به عنه، فهو من عينه وهذا أنسب بقوله: **(مع تكفل الله تعالى بحفظه فقال:** ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾) [الحجر:٩]، والمراد بالذكر القرآن، وضمير له له لا له صلى الله تعالى عليه وسلم، فلما تولى حفظه بعظمته وجلال ذاته ولم يكله لغيره كغيره المقول فيه بما استحفظوا من كتاب الله كما تقدم، تأبد وتأيد حفظه لبقاء حافظه ورفعة نعمة حفظه.

(قال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:٤٢] **الآية)**، فلا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات ما يبطله، ولا يكون قبله ولا بعده ما يكذبه أو ينسخه.

(وسائر معجزات الأنبياء) والرسل عليهم الصلاة والسلام، أى بقيتها غيره **(انقضت)**، أى مضت وذهبت **(بانقضاء أوقاتها)**، أى بعد عصرهم وزمن وجودهم انعدمت، **(فلم يبق إلا خبرها)** أى الأخبار المأثورة عنها دون ذواتها ونفسها كعصا موسى، وناقة صالح، وانفلاق البحر، وغيرها، مما هو مذكور فى السير كما قيل[1].

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثًا حسنًا لمن وعى

(والقرآن العزيز)، أى المنيع المحمى بحماية من قاله **(الباهرة آياته)**، أى الغالبة لغيرها والظاهرة، وآياته بمعنى أنواع معجزاته السالفة أو كل آية متلوة منه، فقوله: **(الظاهرة معجزاته)** على الأول توضيح وتوكيد وعلى الثانى بيان وتأسيس باقية **(على ما كان عليه اليوم)**، أى إلى يومنا هذا، فتعريف اليوم للتعريف الحضورى، كهذا الآن والجار والمجرور خبر المبتدأ، وهو القرآن، والمراد باليوم عصر المؤلف كما أشار إليه بقوله: **(مدة خمسمائة عام وخمسين وثلاثين سنة)** وروى سبع بدل خمس، والصواب الأول؛ لأنه روى أن تأليفه للشفاء كان فى أيام قضائه فى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة.

قال التلمسانى: هكذا نقله الثقات عن أبى عبد الله بن مرزوق ولم أسمعه منه، انتهى.

(لأول نزوله إلى وقتنا هذا) أى من ابتداء الوحى ونزول القرآن على نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى وقت تأليف المصنف، رحمه الله، لهذا الكتاب، فاللام بمعنى من نحو سمعت له صريخًا أى منه، كما ذكره النحاة ويدل عليه مقابلته بإلى **(حجته قاهرة)** المراد بالحجة نفس القرآن، أى هو حجة غالبة لمن كفر به، أو المراد ما فيه من الحجج والأدلة.

(ومعارضته ممتنعة) أى الإتيان بمثله لا يمكن ولم يقع **(والأعصار كلها طافحة)** الأعصار جمع عصر بفتح فسكون لا ضم وسكون؛ لأن جمع الجمع غير قياسى، وطافحة بطاء وحاء مهملتين بينهما ألف وفاء من طفح إذا فاض وتدفق **(بأهل البيان)** متعلق بطافحة،

---

(١) تقدم الاستشهاد به.

فإن كان مجازًا مرسلاً بمعنى ممتلئة فظاهر، وإن كان استعارة تخييلية، فعلى أن البيان مشبه بالماء على طريق الكناية، والمعنى ببيان أهل الكتاب، والمراد العارفون بإيراد التراكيب البليغة على حسب مقاماتها.

(وحملة علم اللسان) حملة جمع حامل ككاتب وكتبة، وهو الحافظ للسان بمعنى اللغة العربية، **(وأئمة البلاغة)**، أى العلماء بعلم البلاغة من المعانى والبيان، وقرض الشعر وغيره من العلوم الأدبية، **(أو فرسان الكلام)** الذين لهم فطرة مجبولة على القدرة على التكلم بكلام بليغ نظمًا ونثرًا وفيه استعارة مكنية وتخييلية إذ شبه الكلام بجواد فاره، والمتكلم برجل عارف برياضته والسبق به وأثبته له.

(وجهابذة البراعة) أى أساتذة الفصاحة الفائقة فى بابها جمع جهبذ بكسر الجيم والباء، وبينهما هاء ساكنة وآخره ذال معجمة يقال: رجل جهبذ، أى عالم نحرير، وهو لفظ معرب وأصل معنى الجهبذ النقاد البصير والسمسار الخبير فاستعير لما ذكر كذا قالوا، والذى عندى فى هذه التراكيب الخمسة أن المراد بها أهل اللسان العارفون به بجبلة نقادة وطبيعة وقادة والعلماء بعلوم العربية واللغة، فالمراد بأهل البيان الفصحاء وبالجملة علماء اللغة، وبالأئمة البلغاء الخطباء من العرب العرباء وبالفرسان الشعراء، وأهل الإنشاء المحدثين وبالجهابذة العلماء بقرض الشعر وإنشاء النثر، فلا تكرار فى كلامه، وإن كان فى مقام خطابة يحمد فيه البسط والإسهاب، ولذا كان هؤلاء فرقتان مهتد لا يكد طبعه فى العناد وضد.

(والملحد فيهم كثير) الملحد اسم فاعل من ألحد عن الحق إذا مال، ومنه لحد القبر، والإلحاد كما قال الراغب: ضربان: إلحاد إلى الشرك بالله، وإلحاد إلى الشرك بالأسباب والأول ينافى الإيمان، ويبطله، والثانى: يوهن عراه ويحل عقدته.

(والمعادى للشرع عتيد) أى مهيأ حاضر باذل جهده فى عداوته، واعتد وأعد متقاربان لفظًا ومعنى، أى مع كثرة من يريد المعارضة، **(فما منهم من أتى بشىء)** من الكلام **(يؤثر)**، أى يحفظ وينقل **(فى معارضته)** والإتيان بما يماثله **(ولا ألف كلمتين فى مناقضته)** المناقضة التكلم بما يخالفه ويبطله ومنه نقائض جرير كما تقدم وهى المراجعة والمحاورة.

(ولا قدر فيه على مطعن صحيح) أى لم يعبه و لم يعترض عليه باعتراض يسمع منه، وقد فعل ذلك بعض الزنادقة، فافتضح وصار سخرة كما بين فى مطاعن القرآن التى ذكرها السلف، **(ولا قدح)** القدح ذكر المعايب يقال: قدح فى نسبه وعرضه إذا ذمه

وقدح الزناد ضربه لأجل النار، والمراد الأول، لكن فيه تورية بالثانى، لقوله: (**المتكلف من ذهنه فى ذلك إلا بزند شحيح**) والمتكلف، وهو الذى يفعل ما يحسنه بكلفة منه، والذهن قوة الفكر، وذلك إشارة إلى القدح والطعن، والشحيح البخيل، استعارة للزند الذى لا يخرج منه شرر منيرة، أى لم يفده قدحه شيئًا غير الخيبة، يقال: زند شحيح إذا كان لا يورى ولله در المصنف، رحمه الله تعالى، ما ألطف صنعه، ومن لم يذق حلاوة كلامه، قال: لو قال، ولا ضرب المتكلف بسيف ذهنه إلا ارتد وهو جريح، وحسن استعارته كون الذهن يوصف بالتوقد والاشتعال كما قيل:

ويكاد يحرقه توقد ذهنه   لولا مياه الجود فيه والندا

لكن لا تعدم الحسناء ذامًّا فما أبلغ السكوت فى محله (**بل المأثور**) والمنقول (**عن كل من رام ذلك**)، أى قصد الطعن فيه بذكر ما يؤدى ذكاة حمقه (**إلقاؤه فى العجز بيديه**) الإلقاء بالقاف بمعنى الرمى ومفعوله محذوف، أى إلقاؤه نفسه ورميها فى مهالك العجز، ومهاويه، فشبه العجز ببئر ونحوه مما يهلك الواقع فيه وبيديه متعلق به، أى هو الرامى والطارح لنفسه، وقيل: معناه ألقى نفسه بهما فى العجز وللزومه له جعله ظرفًا له، وهو معنى ركيك.

وقول التلمسانى: إنه إلغاؤه بالغين المعجمة من لغو الكلام الذى يحسن السكوت عنه لا عليه، (**والنكوص على عقبيه**) المأثور الرجوع عما قاله باعتراف بعجزه، يقال: نكص على عقبيه، وهما مؤخر الرجل إذا رجع القهقرى.

وقال الراغب: النكوص الإحجام عن الشىء، وفى القاموس، نكص على عقبيه رجع عما كان عليه من خير، فهو خاص بالرجوع عن الخير، ووهم الجوهرى فى إطلاقه، وقيل عليه: إن قلت: معارضة القرآن شر، فكيف يكون الرجوع عنها نكوصًا على العقبين، قلت: هو مبنى على زعمه، أو هو تهكم به، كما أطلق على رجوع الشيطان يوم بدر عن إعانة قريش على النبى ﷺ، فى قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ**﴾ [الأنفال:٤٨]، وعلى أن الأصح جواز إطلاقه على خلافه أقول، هذا استعارة من رجوع القهقرى؛ لأنه بمعنى الرجوع على العقبين حقيقة، فيتجوز به عن العود إلى حاله الأول مطلقًا شرًا كان أو خيرًا، فالحق ما قاله الجوهرى.

* * *

(فصل)

(**وقد عد جماعة من الأئمة ومقلدى الأمة**) ضبطه بفتح لام مقلد؛ ليناسب ما قبله،

وقيل: إنه بكسرها، والمراد بالأول المجتهدين ولك أن تقول: إنه إشارة إلى ضعف أقوالهم، **(فى إعجازه وجوهًا كثيرة منها أن قارئه لا يمله)** أى لا يسأم طبعه من كثرة قراءته، ولو أعاده مرارًا كثيرة مع أن الطباع جبلت على معاداة المعادات، **(وسامعه لا يمجه)**، أى لا يكره تكراره على مسامعه يقال: مج الشراب، ونحوه إذا رماه من فيه، فالمج حقيقته طرح المائع من الفم، فإن كان غير مائع، يقال لفظه: فأقيم الأُذن مقام الفم، واللفظ مقام الماء لرقته ولطفه، وهى استعارة لطيفة، كما قال الغزى، فيما تقدم:

وتغير المعتاد يحسن بعضه للورد خد بالأنوف يقبل

فاستعير لتركه استعارة تبعية أو مكنية وتخييلية، فكأنه كالنفس الذى يكرره لا يمل منه؛ لأنه مادة الحياة، كما قال المعرى:

ردى حديثك ما أمللت مستمعًا ومن يمل من الأنفاس ترديدًا

ومجه يمجه، بضم ميم المضارع كقتله يقتله، فهو من باب قتل **(بل الإكباب على تلاوته)**، أى ملازمة قراءته وتكراره، فهو مجاز من الإكباب، وهو الوقوع على الوجه كما قال: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ [الملك:٢٢]، وفى اختياره على الوقوع إشارة إلى توجهه إليه قال لبيد:

ينوح الهالكى على يديه مكبًا يجتلى نقب الفصال

(يزيد حلاوة)، أى ترداد قراءته تزيده حلاوة، ففيه ترق من عدم الملل إلى زيادة حلاوته وأصاب به المحز؛ لأن ما يمج يكون مرًا، أو مالحًا يكرهه الطبع، وهو كقول الشاطبى، رحمه الله تعالى:

وخير جليس لا يمل حديثه وترداده يزداد فيه تجملاً

(وترديده)، أى إعادته وتكريره، **(يوجب له محبة)** لزيادة حلاوته وحسنه **(لا يزال)** كلما كرر **(غضا)**، أى جديدًا، وهو مجاز من غض الصوت والطرف، قال: جارية شبت شبابًا غضا، **(طريا)**، أى رطبًا ناعمًا، فلا تتغير بهجته ونضارته.

قال الشاطبى، رحمه الله تعالى:

وأخلق به إذا ليس يخلق جده جديدًا مواليه على الجد مقبلاً

فكأنه فى كل مرة قريب عهد بالنزول **(وغيره من الكلام ولو بلغ من الحسن والبلاغة مبلغه)**، أى لو فرض أن بعض كلام البشر وصل إلى رتبته فى البلاغة، **(يمل)** بالبناء للمجهول، أى يمل قارئه وسامعه **(مع الترديد)**، أى مع التكرير مرارًا **(ويعادى إذا أعيد)** أى يكره ويثقل وتنفر منه النفس، كما تنفر ممن يعاديها، وهذا على فرض المحال وإلا

فقد تقدم أنه لا يوجد مثله ولا ما يقرب منه:

وأيـن الثريـا عـــن يــد المتنـــاول

(وكتابنا) معاشر الأمة المحمدية النازل إلينا بواسطة نبينا ﷺ، وهو القرآن **(مستلذ به فى الخلوات)**، أى يجد قارئه لذة، إذا اختلى بقراءته، وخص الخلوة؛ لأنها محل اجتماع الحواس واطمئنان القلوب بذكر الله تعالى، فهو فيها أعظم لذة، وإن كان له لذة أيضًا بقراءته بين الناس أيضًا.

(ويؤنس) بالبناء للمجهول، أى يجد به أنسًا يدفع وحشته **(فى الأزمات)** جمع أزمة، وهى الشدة كما فى حديث: «اشتدى أزمة تنفرجى»(١).

ولام خلوات، وزاء أزمات ساكنتان فى المفرد والجمع؛ لأنه إذا جمع على فعلات يسكن فى الأسماء، ويحرك فى الصفات كما بين فى التصريف، والضمير فى كتابنا لجماعة المؤمنين لا للتعظيم؛ لأنه لا يناسب المقام، قيل: ولو قال: كتابنا يستأنس به فى الخلوات، ويستعان به على الأزمات كان أحسن، وما قصده المصنف أعلى مما قاله؛ لأن الخلوة أنسب باللذة وقرينتها؛ لأن المرء يستلذ الخلوة بمن يحبه، ولذة الأحمق مكشوفة، يسعى بها كل عدو رقيب، والشدائد لا تجد فيها رفيقًا يعين عليها، ويدفع كربها والمعالى قليلة الرفقاء، ولكل وجهة.

(وسواه من الكتب) سوى إذا ضم أوله أو كسر، وإذا فتح مد، والرواية على القصر، وهو بمعنى غير لكنه تفنن، فعبر فى الأول بغير، وفى هذا بسوى والظاهر أن المراد بالكتب الكتب المنزلة قبله كالزبور.

(لا يوجد فيها ذلك) أى اللذة والإنس المذكورين، **(حتى أحدث أصحابها)** أى اخترعوا، وألفوا والمراد بأصحابها من يقرؤها **(لها لحونًا)** أى للكتب التى يدرسونها واللحون جمع لحن واحد الألحان الأغانى والنغمات التى تزين بها الأصوات وتوزن بضروب الموسيقى على مقاماتها وشعبها مما هو معروف عندهم يقال: لحن فى قراءته إذا طرب.

وللحن معان منها هذا والإيماء والرمز، وإن اشتهر فى خطأ الإعراب، والمراد به هنا ترجيع الأصوات للتطريب والغناء تحسينًا للقراءة، والشعر، وفى الحديث: («**اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتابين**») يعنى: اليهود

---

(١) أورده الذهبى فى الميزان (٢٠١٣)، وابن حجر فى لسان الميزان (١٢١٤/٢)، والعجلونى فى كشف الخفا (١٤٦/١).

والنصارى يقرءون كتبهم بنحو من ذلك، وهكذا يفعل أهل مصر بقراءتهم فى مجامع الناس المعروفة بالجوق، وهى مما حرمه الفقهاء، وشددوا النكير على فاعله، وهو لا ينافى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: (**«ليس منا من لم يتغن بالقرآن على أحد المعنيين»**)، فإن المراد به ألحان العرب المذكورة من غير تمطيط وتغيير كما فصل فى أدب القارئ.

(**وطرقًا**) جمع طريق، وهى ما يجرى على قانون الموسيقى وضروبها الموزونة (**يستجلبون**)، أى يطلبون وجودها، أو يجلبونها لهم ولمن يسمعهم (**بتلك اللحون**) والنغمات (**تنشيطهم**)، أى وجود نشاطهم وطربهم (**على قراءتها**)، أى على تطويل قراءتها وزيادتها أو على أن يقرأها غيرهم، كقراءتهم، إن أريد باللحون تغنى القارئ نفسه، ويحتمل أن يريد بما أحدثوه ما يكون مع القارئ من آلات الطرب كالمزامير، وما يسمى أرغنون من أوتار كثيرة تضرب مع القراءة ويأتلف بعضها ببعض حتى كان القارئ على نغماته على قرين الآية:

يملى على عود له أنغامه   وتراه يفرك أذنه إن قصرا

(**ولهذا**)، أى لما اختص به القرآن من عدم ملل قارئه وما بعده (**وصف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، القرآن**) فى حديث رواه الترمذى عن على كرم الله وجهه، بدون قوله الآتى، هو الذى لم تنته الجن، إلخ، (**بأنه لا يخلق**) بفتح الياء وضم اللام، أى لا يبلى ولا يتغير حاله بمرور الزمان ويجوز فتحها وضم أوله وكسر ثالثة من أخلق بمعنى خلق؛ لأنه ورد متعديا ولازمًا فلامه مثلثة بمعنى واحد (**على كثرة الرد**) بمعنى مع، والرد كالترديد بمعنى كثرة التكرار فى قراءته ورده ورذده، بمعنى كرره وكثرة التكرار فى العادة تؤثر وتفنى ما كرر كالثوب إذا تكرر لبسه كما قيل:

أما ترى الحبل بتكراره   فى الصخرة الصماء قد أثرا

وفيه استعارة مكنية وتخييلية لتشبيهه ببرد رقيق يلبس ليتجمل به، والمراد به إما الملل منه، فهو بمعنى ما تقدم من أن قارئه لا يمله وكل مكرر يمل ولا يتغير بتحريف ونسخ، ولا ينسى، وقد ورد أن بعضهم كرر آية واحدة طول ليله.

(**ولا تنقضى عبره**) بكسر العين المهملة، وفتح الباء الموحدة جمع عبرة بسكونها، والمراد بها عجائبه، أو مواعظه التى يعمل بها، ويعتبر، وهو عبارة عن كثرتها وبقائها، والثانى أولى؛ لئلا يتكرر مع قوله، (**ولا تفنى عجائبه**)، أى لكثرتها لا تنفد، وتنتهى جمع عجيبة، وهى ما يتعجب منه، فكلما أعدت النظر فيها ظهر لك ما هو أغرب وأعجب مما عرفته أولاً.

(هو الفصل) أى الحد الفاصل بين الحق والباطل، يقال: كلام فصل أى حق مبين محكم أو المفصول المتميز عن غيره، فهو فعل بمعنى فاعل أو مفعول، **(ليس بالهزل)** كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ [الطارق:١٤]، أى ليس فيه لعب، ولا كلام سخيف، وهو فى الأصل من الهزال ضد السمن، فهو كله سمين لاغث فيه لما فيه من الأوامر والنواهى التى يهابها سامعها، **(لا تشبع منه العلماء)** أى لا تستغنى عنه، ولا تزال تستنبط منه معانى وفوائد فى كل حين، وفى الحديث: «**منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا**» فشبهه بمأكول به قوام حياته إلا أن كل مأكول يشبع آكله، إذا امتلأ منه جوفه، وهذا مخالف لذلك، ففيه استعارة تبعية أو مكنية وتخييلية، فموائد فوائده ممدودة وألوان لذائذه غير مقطوعة ولا ممنوعة.

(ولا تزيغ به الأهواء) بفتح المثناة الفوقية، وزاء وغين معجمتين بينهما تحتية ساكنة من زاغ إذا مال وعدل عن منهجه والأهواء بالمد، جمع هوى وهو ما تهواه وتشتهيه الأنفس من الضلال، أى لا يضل من اتبعه ويميل إلى هوى نفسه الأمارة، **(ولا تلتبس به الألسنة)** جمع لسان، وهو الجارحة المعروفة شاع فى الكلام واللغات، فالمعنى أنه لا يشبه غيره من الكلام، فلا يمكن اختلاطه به، وإدخاله فيه؛ لأن أسلوبه ونظمه لا يشبه غيره، فالمراد أنه لا يمكن أن يدس فيه دسيسة، وقيل: المعنى أنه لا يعسر قراءته على المؤمنين، وهو بعيد؛ لأنه افتعال من اللبس، وهو الاشتباه.

وقوله: **(هو الذى لم تنته الجن حين سمعته أن قالوا)**: أصل معنى انتهى بلغ النهاية، وهى آخر الشىء وغايته ويكون بمعنى كف وترك وهذا هو المراد هنا، أى لم تكف الجن عن هذه المقالة، ومن لم يترك شيئًا بادر إليه، وأقبل عليه، ولذا قيل معناه: لم يلبثوا، وأن مصدرية بفتح الهمزة ومحله نصب أو جر بتقدير عن، وما قيل: إنه فى معنى العلة، أى لم ينتهوا عن القول من أجل قولهم لقومهم، إذا رجعوا إليهم فى خلط وخبط: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن:١]، أى عجيبًا فى بلاغته وعلو رتبته وبركته وعزته ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾ أى يدل على الصواب من الإيمان والتوحيد، وهو تبكيت لقريش إذ مكثوا سنين مع معرفتهم بالفصاحة لم يفهموه وهؤلاء الجن بمجرد سماعهم من غير توقف آمنوا به.

وقال البرهان: كانوا سبعة، شاطر، وماصر، ومنشئ، وماشى، والأحقب وهؤلاء الخمسة ذكرهم ابن دريد فى مناقب عمر بن عبد العزيز، قال: بينما هو يمشى بفلاة إذا هو بحية ميتة فكفنها بفضل ردائه، ودفنها، فإذا قائل يقول: يا سرق أشهد بالله، لقد سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، يقول: «ستموت بأرض فلاة، ويدفنك

رجل صالح»، فقال عمر، رضى الله عنه: «من أنت رحمك الله؟، قال: رجل من الجن الذين سمعوا القرآن من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يبق منهم إلا أنا وسرق، وهذا سرق قد مات».

وعن ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، أنه كان فى نفر من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، يمشون فرفع لهم إعصار عظيم، ثم انقشع، فإذا حية قتيل فعمد رجل منا إلى ردائه فشقه وكفن الحية ببعضه ودفنها، فلما جن الليل، إذا امرأتان تسألان: أيكم دفن عمرو بن جابر؟، فقلنا: ما ندرى من عمرو، فقالتا: إن كنتم ابتغيتم الأجر، فقد وجدتموه إن فسقة الجن اقتتلوا مع مؤمنيهم، فقتل عمرو، وهو الحية التى رأيتموها، وهو ممن استمع القرآن من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.

قال الذهبى: الذى دفنه بالعرج صفوان بن المعطل، وهو من الصحابة وسماه عمرو ابن طارق، ومن لقى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، مؤمنًا منهم عد من الصحابة والاعتراض بأنه ينبغى أن يعد منهم الملائكة أيضًا كجبريل وميكائيل، رده الذهبى بأنه أرسل إليهم، ولم يرسل للملائكة وبيانه يحتاج لتفصيل ليس هذا محله ومشى شيخنا الرملى على مقتضى كلام الذهبى تبعًا لوالده، والمعتمد خلافه، وإرساله صلى الله تعالى عليه وسلم، عام لكل الخلق حتى الملائكة وهؤلاء من جن نصيبين بلدة بالجزيرة لا باليمن كما قيل: والكلام على الجن مبسوط فى كتاب لقط المرجان فى أحكام الجان، وسيأتى بيانه فى الكلام على نطق الشجر.

(ومنها)، أى من وجوه إعجازه التى ذكرها بعضهم **(جمعه لعلوم ومعارف)** أى علوم كلية كانت فى الأمم السالفة كعلم النجوم ودقائقه وعلم الطب كما فى قوله: ﴿**لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ**﴾ [يس: ٤٠]، وقوله: ﴿**وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟**﴾ [الأعراف: ٣١]، والمعارف الجزئية كالإخبار عن قصة يوسف، عليه الصلاة والسلام، وتفصيلها مما لا يعرفه إلا من شاهدها، ومن ذلك ما قيل أن قوله تعالى: ﴿**إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ**﴾ [المرسلات: ٣٠]، أنه إشارة إلى شكل المثلث وبعض أحكامه المذكورة فى الهندسة، وفيه إشارة إلى أنه لا يفهم تفسيره إلا من تضلع من جميع العلوم **(لم تعهد العرب)** بالبناء للمفعول، أى لم تعرف فى عهدها وزمانها **(عامة)**، أى جميع العرب وعامة منصوب على الحال لإفادة العموم مثل كافة وطرا.

(ولا محمد ﷺ قبل نبوته) ونزول الوحى بها عليه، **(خاصة)** أى لم يعرف له صلى الله تعالى عليه وسلم، بخصوصه علم بها قل البعثة، أما بعدها فقد أطلعه الله تعالى على علوم الأولين والآخرين، **(بمعرفتها)** متعلق بتعهد والضمير للعلوم والمعارف، **(ولا القيام بها)**

ومداومته عليها، **(ولا يحيط بها أحد من علماء الأمم)**، أى لم يحط علم أحد من علماء السلف كالحكماء والأحبار من أهل الكتاب بشيء منها.

(ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم) أى لم يدون قبله حتى يقال: إنه أخذ علمه منها، وفسر ما ذكره بقوله، **(فجمع فيه من بيان علم الشرائع)** جمع مبنى للمجهول، أى جمع الله تعالى فى كلامه ما ذكر، والشرائع جمع شريعة، وهى والملة والدين بمعنى متحد الماصدق متغاير المفهوم، وهى وضع إلهى سائق إلى ما فيه الخير فى الدارين منقولة من الشريعة، وهى موردة الماء إذ الطريق الواسع كالشارع.

(والتنبيه على طرق الحجج العقليات) أى تنبيه الناس وإرشادهم إلى نصب الأدلة العقلية وكيفية إلزام الخصم بها كما فى قصة إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، ونظره للكواكب لإقامة الحجة على وجود الصانع، وكما فى قوله: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء:٢٢]، وغيره مما لا يحصى كما يأتى بيانه.

(والراد على فرق الأمم) الضالة ممن عبد الكواكب وغيرهم، **(ببراهين قوية)** محكمة الإلزام جارية على قانون المناظرة والجدل وآداب البحث، **(وأدلة بينة)** ظاهرة **(سهلة الألفاظ)** يفهمها كل من سمعها:

تكاد من عذوبة الألفاظ   تشربها مسامع الحفاظ

كما مر.

(موجزة المقاصد) قليلة ألفاظها الدالة على معانيها المهمة الكثيرة، فليس فيها اختصار مخل ولا عبارة مغلقة، **(رام المتحذلقون بعد)** بالبناء على الضم، أى بعد الوقوف عليها، والمتحذلقون بزنة اسم الفاعل بحاء مهملة وذال معجمة، ولام وقاف وهو مدعى الحذق، وهو سرعة الفهم أى قصد مدعى الذكاء فى العلم وإقامة البراهين يقال: حذلق إذا أظهر الحذق وادعى أكثر مما عنده كتحذلق، فهو مأخوذ من الحذق ولامه زائدة.

(أن ينصبوا أدلة مثلها) نصب الدليل وإقامته ذكره فى مقام المخاصمة **(فلم يقدروا عليها)**، أى لم يكن لهم قدرة على الإتيان بمثل أدلته وبراهينه **(كقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾)** [يس:٨١]، رد على منكرى الحشر والمعاد الجسمانى، أى من قدر على اختراع مثل هذه الأجرام العظيمة من العدم ﴿**بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ**﴾ [يس:٨١]، أى مثل هذه الأجسام الحقيرة الصغيرة، ويعيدها وهو أهون عليه كما قال تعالى: ﴿**لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ**﴾ [غافر:٥٧]، فهذه حجة ظاهرة.

(و) قولـه: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ﴾ [يس:٧٩]، أى مـن أوجدهـا مـن عدم محض قادر على إعادتها وأحيائها بطريق الأولى، وفى هذا أيضًا حجة باهرة.

(و) منها قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾، أى فى السماء والأرض ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء:٢٢]، فلو تعددت الآلهة فسد نظام العـالم، وبطـل وفيـها برهـان قـوى قطعـى، وليس إقناعيًا كما فى شرح العقائد، ويسمى برهان التمـانع، وفـى بيانـه وإعرابـه كـلام مفصل لا يسعه هذا المقام، وقد أفـرده بالتـأليف خاتمـة المحققـين مصلـح الديـن الـلازى، فحسبك من القلادة ما أحاط بعنق التقليـد، فـإن لكـل مقـام مقـالا **(إلى مـا حـواه)** أى: مضموما ما ذكر من البراهين إلى ما اشتمل القرآن عليه **(مـن علـوم السـير)** جمـع سيرة، وهى الطريقة والأخلاق الحميدة، ويخص فى العرف بالغزوات، وأخبـار الجـهاد، ولكـل وجهة هنا **(وأنباء الأمم)** أى: أخبـار مـن مضـى منـهم، **(والمواعـظ والحكـم)** أى: أمـور الترغيب والترهيب وجوامع الكلم المحكمة المرشدة لتكميـل النفـوس بالملكـات الفاضلـة، **(وأخبار الدار الآخرة)** من الجنة والنـار والحشـر وأهـوال الموقـف وغـير ذلـك **(ومحاسـن الآداب)** جمـع أدب وهـو الأوصـاف المحمـودة التـى يشـرف صاحبـها **(والشـيم)** بشـين معجمة ومثنـاة تحتيـة ويـهمز أيضـا بزنـة عنـب جمـع شـيمة وهـى الطبيعـة وأهـل مصـر تستعملها بمعنى دارات الماء كقول القيراطى، رحمه الله تعالى:

لـك يـا نيـل مصرنـا كـرم أخجـل الديـم
أنـت فينـا حقيقـة ظاهـر الوصـف والشيـم

وهى لغـة عاميـة لا أصـل لهـا **(قـال الله جـل اسمـه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍۚ﴾ [الأنعام: ٣٨])** [الأنعام:٣٦]، أى لم نترك شيئًا يحتاج إليه إلا بيناه فى القرآن بنـاء علـى أن المراد بالكتاب القرآن لا اللوح المحفوظ كما قيل والتفريط الترك المخل ضد الإفـراط، وهو يتعدى بفى من غير تضمين معنى أغفلنا كما توهم والمعنى أنه مشتمل على جميع ما يحتاج إليه إجمالا تصريحا وتلويحا كما بينه المفسرون ومن زائدة بعـد النفـى فـى المفعـول الذى تعدى إليه بتضمين ترك ونحوه.

ثم أردفه بآية تؤيد أن المراد بالكتاب القرآن فقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ [النحل: ٨٩]، يا محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أى: مبينا لكل شىء يحتاج إليه وهـو بكسـر التـاء مصدر على خلاف القياس بمعنى مبين ولا ثانى له غير تلقاء على كلام فيه ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾ [الروم:٥٨]، ضرب المثل معلوم أى آتينا لكـل أمـر مهم بمثال يوضحه لما فى ضرب الأمثال من الفوائد المهمة **(وقـال: صلـى الله تعـالى عليـه وسلم)** فى حديث رواه الترمذى عن على، رضى الله تعالى عنه، تقدم بعض منـه، وأورد

بقيته هنا مع زيادة فيه **(إن الله أنزل القرآن)** من اللوح المحفوظ منجما بحسب المصالح. وأنزل ونزل يستعمل كل منهما بمعنى الآخر، فإذا جمع بينهما أو قامت قرينة أريد بالإنزال الدفعى وبالتنزيل التدريجى كما فصلوه **(آمرا)** بالمد حال من الفاعل أو المفعول على الإسناد المجازى.

(وزاجرًا) أى: مانعًا وكافيًا وناهيًا والزجر الطرد بصوت يستعمل تارة فى الطرد وأخرى فى الصوت كما قاله الراغب **(وسنة خالية)** أى: طريقة متبعة مستقيمة لمن كان قبلكم من الأمم من خلا بمعنى ذهب ومضى ويكون بمعنى تفرغ **(ومثلا مضروبا)** جعله عين المثل مبالغة لكثرة اشتماله على الأمثال كغيره من الكتب الإلهية وهى مقرره لما مثل له لتنزيل المعقول منزلة المحسوس.

قال البيضاوى: ولأمر ما أكثر الله والأنبياء والحكماء فى كلامهم من الأمثال، وقوله: **(فيه نبؤكم)**، بالرفع كالمعطوف عليه إن كان نائب فاعل مضروبًا، فهو بتقدير مضاف أى: مثل نبئكم، وإن كان مبتدأ ففيه خبر مقدم والجملة حالية وتغيير الأسلوب يحتاج لنكتة فكأنها الإشارة إلى أنها حال أخرى غير مختصة بالقرآن كالتى قبلها، والنبأ الخبر عن أمر عظيم والخطاب للأمة، وقيل للصحابة، رضوان الله تعالى عليهم، **(وخبر ما كان قبلكم)**، عبر بالخبر تفننا وإشارة لشرف هذه الأمة، وما شامل لمن يعقل تغليبا للأكثر أو لصفات من يعقل كقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٣٦].

(ونبأ ما بعدكم)، أى: ما بعد النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وصحابه، رضى الله تعالى عنهم، أو لما يقع بعدهم من الفتن وأشراط الساعة وغير ذلك إلى يوم القيامة **(وحكم ما بينكم)** أى: بيان للأحكام فيما يقع ويحدث بينكم معاشر هذه الأمة المحمدية، وهو بضم الحاء المهملة وسكون الكاف.

(لا يخلقه طول الرد) تقدم معناه وأنه بضم أوله وفتحه من الثلاثى والمزيد، أى: لا يبليه ويفنيه تكرار تلاوته، **(ولاتنقضى عجائبه، هو الحق ليس بالهزل)** تقدم تفسيره، **(من قال به صدق)** أى: من اختار ما فيه وحكم به فقد أتى بأمر صادق لاريب فيه، وفى القاموس قال به غلب، ومنه سبحان من تعطف بالعز وقال به، وهذا لايناسب قوله صدق، **(ومن حكم به عدل)** أى: قضى بما فيه من الأحكام فهو عادل فإنه حكم الله ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، **(ومن خاصم به)** أى: خاصم بحجة وأدلة مأخوذة منه.

(فلج) أى: غلب وفاز بالنصر على من خاصمه، وهو بفتح الفاء واللام وبجيم يقال:

فلج إذا فاز وظفر بالغلبة، **(ومن قسم به قسط)** قسم بفتح القاف والسين المخففة أى: من تولى قسمة أمر فقسمها بما فى كتاب الله كقسمة المواريث والغنائم وغيرها عدل. يقال: قسط إذا جار وأقسط بالهمزة إذا عدل، فهو مقسط فالهمزة للسلب كأشكيته إذا أزلت شكايته، وهو مأخوذ من القسط وهو الميزان كالقسطاس وفى الحديث **(إن الله يخفض القسط ويرفعه)**، وهو تمثيل ويقال قسط إذا عدل أيضا فهو من الأضداد.

(ومن عمل به أجر) بالبناء للمفعول أى: حاز الأجر والثواب الجزيل **(ومن تمسك به هدى إلى صراط مستقيم)**، هو كقوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦]، ففيه استعارة مكنية وتخييلية هنا بتنزيل المعقول منزلة المحسوس؛ لإيصاله لمن اقتدى به إلى الطريق الحق، وهو الصراط المستقيم الذى لا عوج فيه ولا ضلالة، **(ومن طلب الهدى من غيره)** كعقله وأقوال غيره **(أضله الله)** أى: جعله شقيًا ضالاً؛ لعدوله عن الطريق الحق، **(ومن حكم بـ)** حكم **(غيره قصمه الله)** أى: قتله وأهلكه هلاكًا شديدًا، وأصل معنى القصم القطع بإبانة وانفصال، فاستعير لما ذكر ويجوز فى هذه الجملة أن تكون خبرية ودعائية إنشائية.

(هو الذكر الحكيم) الذى بمعنى القرآن، والحكيم ذو الحكمة لاشتماله عليها أو سمى باسم قائله أى: الحكيم قائله، ففعيل بمعنى فاعل أى الذى يحكم الأشياء ويتقنها أو الحاكم لهم وعليهم، أو المحكم الذى لا خلل فيه، **(والنور المبين)** الواضح البين الذى تهتدى بأنواره العقول إلى الخروج من ظلمة الجهل والضلالة، **(والصراط المستقيم)** أى: الموصل إلى السعادة الأبدية، فيصل الناس به ومنه إلى المقصد الأسنى كما تصل من الطريق إلى ما تريد من الدار ومنازلها.

(وحبل الله المتين) أى: عهده وأمانه الذى يؤمن العذاب وكل ما يكره ويشق على النفس ويتوصل به إلى ما ينجيه ويوصله لمطالبه، والمتين بمعنى القوى المحكم، يقال: متن إذا صلب.

(والشفاء النافع) إما أن يراد بالشفاء ظاهره؛ لأنه يسترقى به فيشفى من بعض الأمراض، أو يراد به مطلق النفع على طريق المجاز كالمستفز، أو على طريقة الاستعارة بأن يشبه الجهل بالداء، ويجعل ما يزيله كالدواء والعلاج النافع الذى لاسقم بعده؛ لنفعه فى الدنيا والآخرة.

(عصمة لمن تمسك به) بكسر العين وسكون الصاد المهملتين فعلة من العصم وهو الإمساك، والاعتصام التمسك ويجوز ضم عينه أيضا، والأكثر الأفصح الكسر، وتجىء

العصمة بمعنى السوار ومنه المعصم؛ لأنه محلها، والمراد أنه حام ومانع لمن اتبعه وعمل به عن ارتكاب الفاحشة والزلل.

(ونجاة لمن اتبعه) أى: منج له ومخلص مما يخشاه **(لايعوج)** بفتح أوله وتشديد جيمه ورفعه، أى: ليس فيه خلل لفظا ولامعنى كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف:١]، والعوج بفتحتين الميل والانعطاف المدرك بالبصر، وبكسر أوله ما يدرك بالبصيرة **(فيقوم)** بالنصب فى جواب النفى أى: لايحتاج إلى تقويم يزيل عوجه، فليس كسائر الكلام المحتاج للإصلاح، **(ولا يزيغ)** بمعجمتين بوزن نصير أى: لايميل عن الحق والصواب، **(فيستعتب)** بالنصب أى: لايستحق العتاب واللوم؛ لعدم خروجه عن الاستقامة، والعتب مخاطبة إدلال وموجدة ففيه استعارة مكنية وتخييلية، وفى رواية الترمذى ولاتزيغ به الأهواء أى: تميله، **(ولاتنقضى عجائبه ولايخلق على كثرة الرد)** تقدم بيانه، **(ونحوه)** أى: نحوه هذا الحديث المروى عن على، كرم الله وجهه، ما رواه الحاكم **(عن ابن مسعود وقال)** أى: ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، **(فيه: ولا يختلف)** أى: لايقع فيه ما يخالف بعضه بعضا مع طوله وبعد عهده، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

(ولا يتشان) بفتح الياء التحتية والتاء الفوقية والشين المعجمة وألف بعدها نون مشددة تفاعل من الشن، وهى القربة البالية فهو مستعار للبلاء والفناء بمعنى قوله فى الرواية الأخرى: «لا يخلق على كثرة الرد»، وفى رواية لايتفه ولايتشان، والتفه الحقارة وشيء تفه حقير كذا هو فى أكثر الروايات وصححوه، وفى نسخة ولايتشانأ بياء تحتية مفتوحة أو مضمومة وتاء فوقية مفتوحة وشين معجمة وألف بعدها نون وهمزة من الشنىء، وهو البغض والعداوة، فاستعير لتنافر الكلمات وعدم تناسبها حتى كان بينها عداوة، ولتخالف معانيه فهو كقوله: ولايختلف معنى، وهو معنى ظاهر مكشوف، فما قيل: الصواب هو الأول إن أرادوا بحسب الرواية فمسلم، وإن أرادوا بحسب الدراية فلا وجه له. **(فيه نبأ الأولين والآخرين)** تقدم بيانه بما يغنى عن إعادته.

(وفى الحديث) الذى رواه ابن الضريس فى فضائل القرآن عن كعب الأحبار أنه قال فى التوراة: وأنزلت على محمد، فذكره، وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن مغيث بن سمى مرسلاً: أنزلت على توراة إلخ **(قال الله عز وجل، لمحمد، صلى الله تعالى عليه وسلم: إنى منزل عليك توراة)** أى كتابا سماويا شبيها بالتوراة؛ لكثرة ما اشتمل عليه من الأحكام والمواعظ والوعد والوعيد والأمثال والحكم والعقائد اليقينية، فإطلاق التوراة عليه استعارة تصريحية، أو مجازًا مرسلاً، أو حقيقة إن قلنا: إنه عبرانى معناه كتاب، وإنما

عبر به لشهرته وعظم شأنه فإنه أجل كتاب نزل قبل القرآن، ولشهرته بين اليهود من أهل الكتاب الذين هم أقرب إليه وهو حديث قدسى، نزل عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قبل الوحى أو فى ابتداء أمره.

(حديثة) أى: قريبة عهد بالنزول، وهو كقوله ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [الشعراء: ٥]، فلا دليل فيه لمن يقول بحدوث القرآن، ولما كان كلام الله تعالى يسمى نورًا وشفاء قال **(تفتح بها أعينا عميا)** أى: ترشد بها من كان فى ضلالة كالأعمى؛ لعدم اهتدائه للحق، **(وآذانا صما)** أى: وتسمع بها آذانا لاتسمع الحق فتقبله، **(وقلوبا غلفا)** لايصل إليها ما يهديها إلى السعادة كأنها فى غلاف وغشاء مانع عن وصول الحق إليها وعن الفهم، وقد تقدم بيانه فسمى إزالة المانع مطلقا فتحا، أو هو من قبيل قوله(١):

متقلـــدًا سيفًـــا ورمحًـــا

(فيها) أى فى التوراة يعنى القرآن **(ينابيع العلم)** جمع ينبوع، وهى العين التى ينبع منها الماء الجارى، فشبه العلم النابع بالماء الذى تحيى به النفوس على طريق الاستعارة المكنية، وأثبت له الينبوع على طريق التخييل.

(وفهم الحكمة) أى: ما يفهم الحكم، وهى المواعظ وكل كلام محكم نافع جعل الفهم كأنه فيها مبالغة، لكونها ينبوعه ومعدنه، **(وربيع القلوب)** الربيع يكون بمعنى الخصب والمطر، أى فيها ما تحيى به القلوب وتنمو وتخصب وتمرح وتسرح وتتنزه وتفرح، ففيه استعارة لطيفه.

(وعن كعب) ابن ماتع المعروف بكعب الأحبار كما تقدم **(عليكم بالقرآن)** اسم فعل بمعنى الزموا وتمسكوا، يقال: عليك كذا وبكذا، فالمراد ملازمة تلاوته وتدبر معانيه.

(فإنه فهم العقول) أى: مفهم للعقول ما يخفى عليها، فهو مصدر بمعنى اسم فاعل مبالغة، لا بمعنى مفعول كنسيج بمعنى منسوج، فإنه ركيك كما يرشد إليه قوله بعده: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

(ونور الحكمة) أى: منورها أو هو كلجين الماء، أى: فيه حكم يشرق نورها ويتلألأ

---

(١) عجز بيت وصدره:

يـــا ليـــت زوجـــك قـــد غـــدا

والبيت من مجزوء الكامل، وهو بلا نسبة فى الإنصاف (٢/٦١٢)، الأشباه والنظائر (٢/١٠٨ - ٦/٢٣٨)، أمالى المرتضى (١/٥٤)، الخصائص (٢/٤٣١)، لسان العرب (١/٤٢٢)، المقتضب (٢/٥١)، شرح شواهد الإيضاح (ص١٨٢)، شرح المفصل (٢/٥٠).

وضوحا ويهتدى بها.

(وقـــال الله تعـــالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦]**)** يعنى أنه بين فيه لأهل الكتاب مااشتبه عليهم واختلفوا فيه مما لم يعرفوه من كتابهم، ففيه إشارة إلى أن القرآن أجمع للأحكام من غيره من الكتب المنزلة قبله وأوضح.

(وقال) تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى﴾ [آل عمران:١٣٨] الآية، أى: لجميع الناس **(من أهل الكتاب)** وغيرهم وموعظة للمتقين، والآيتان مما يؤيد ما قاله كعب، ثم وضح ما قاله وفسره بقوله: **(فجمع فيه)** أى: فى القرآن **(مع وجازة ألفاظه)** أى: اختصارها وقلة ألفاظه مع كثرة معانيه، **(وجوامع كلمه)** معنى جوامع الكلم أنهاالكلام الجامع للمعانى الجمة فى ألفاظ قليلة واضحة، وتطلق على القرآن كما فى حديث «أوتيت جوامع الكلم» **(أضعاف ما فى الكتب قبله)** مفعول جمع، أى، جمع ما يزيد على سائر الكتب مثله أو مثليه **(التى ألفاظها على الضعف منه مرات)**، أى: مع زيادة ألفاظها عليه بأمثاله جمع من المعانى ما يزيد على أمثاله معانيه، وضعف الشيء يكون بمعنى مثليه وأمثاله، والتضعيف الزيادة مطلقًا، وفيه كلام لأهل اللغة ليس هذا محله.

(ومنها) أى: من وجوه الإعجاز التى ذكروها **(جمعه فيه)** أى: جمع الله فى القرآن **(بين الدليل والمدلول)** الدليل هو الدال المرشد، أى: ما يمكن التوصل بالنظر فيه إلى مطلوب خبرى، والمدلول هو المطلوب بالدليل هنا، وإن كان بمعنى المعنى مطلقا، ثم بين معنى الجمع المذكور بقوله: **(وذلك)** أى: الجمع بينهما **(أنه احتج)** بالبناء للمجهول فهو بضم أوله وثالثه، أى أن الله أقام فيه الحجة على ما أراد إثباته والإلزام به لمن أقيمت عليه الحجة.

(بنظم القرآن) أى: بنظامه البديع المعجز **(وحسن رصفه)** براء وصاد مهملتين وفاء لا بواو كما فى بعض النسخ وهو من رصف البناء وهو ضم بعضه إلى بعض، فالمراد حسن نظمه وتأليفه كما يؤلف البناء شيئا بعد شيء، حتى يتم ويكمل فى غاية الإحكام، وضمير أنه لله أو للقرآن، **(وإيجازه وبلاغته)**، وفى نسخة إعجازه، أى كونه فى أعلى طبقات البلاغة المعجزة لكل بليغ **(وأثناء هذه البلاغة)** بالنصب على الظرفية خبر مقدم **أى:** فى خلالها، وأثناء بالمد على وزن أفعال جمع ثنا بالضم والقصر، وهو ما أثنى ودخل بعضه فى بعض كما أشار إليه ابن هشام اللخمى فى شرح الدريدية كما مر.

وهذا هو الدليل السابق ذكره، ثم ذكر المدلول فقال: **(أمره ونهيه ووعده ووعيده)**

وغير ذلك من المقاصد العظيمة التى أرادها الله تعالى، **(فالتالى له)** أى القارىء بفهم وتدبر لمعانية **(يفهم موضع الحجة والتكليف)** بالجر والنصب **(من كلام واحد وسورة منفردة)** عن غيرها مما هو حجة، أو محتج عليه يعنى أن كل مقدار معجز منه دال على مقصد من مقاصده يكون دالا على مطلوب ومدعى، وعبارته الدالة عليه برهان مصدق له لإعجازها.

وقيل: المعنى أنه وقع فيه الجمع المذكور كما فى قوله فى سورة الواقعة لما حكى كلام منكرى المعاد وهو ﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾ [الواقعة:٤٧] إلخ، عقبه بما قطع عرق شبهتهم بقوله ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة:٥٨] إلى آخره، وقيل أنه كقوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، أنه حجة لتحريم التأفيف، ومكلف باجتنابه، وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، حجة لوجوب الصلاة والأضحية، وأنه مكلف بهما وهذا كلام لامحصل له ومحل يحتاج للتحرير.

(ومنها) أى: من وجوه إعجازه **(أن جعله فى حيز)** يقال: تحيز وتحوز تفعيل، وهذه المادة معناها فى كلام العرب يتضمن العدول من جهة أخرى من الحيز، وهو فناء الدار ومرافقها، ثم قيل لكل ناحية، فالمستقر فى موضعه كالجبل لايقال له متحيز، ويراد بالمتحيز عند غير العرب ما يحيط به حيز موجود، وهو أعم من هذا، والمتكلمون يريدون به أعم من هذا، وهو كل ما أشير إليه سواء كان له حيز أو لا، فالعالم كله متحيز كما قاله ابن تيمية.

(المنظوم الذى لم يعهد) أى: المؤلف الواقع على طريقة لاتشابه شيئا من كلامهم المنظوم، لاشعرا ولا خطبة ولا رسالة مع كونه واضح الدلالة بلسانهم.

وهذا إنما يعرفه من له معرفة بكلام العرب نظمه ونثره وسجعه، كما بينه فى كتاب الإبانة، ثم قال: فإن قلت وما هذه المباينة العظيمة التى بين القرآن وبين سائر كلام العرب، وجميع المنظوم والأوزان حتى صار لأجلها معجزا باهرا؟، قلت: هى ما فى القرآن من البلاغة التى لايقدر أشد أهل البلاغة واللسن تقدما فى البيان أن يأتى بمثلها، أو ما يقاربها، **(ولم يكن فى حيز المنثور)** أى: لم يشبه أقسام منثورهم من السجع الملتزم فيه حروف كحروف روى الشعر، ولا خطابة لمقاطع فصول الخطب ومواضع استراحاتها، لا لاشتماله على الفواصل كما توهم.

(لأن المنظوم أسهل على النفوس) أى: الكلام المتسق نظمه وتأليفه على نهج واحد، والمفضل عليه المنثور بالمعنى السابق، **(وأوعى للقلوب)** جمع قلب أى: أدخل فى وعائه

وهو القوة الحافظة له، وفى الحديث بعد ذكر الأنبياء الذين رآهم فى السماء أوعيت منهم، أى: أدخلته فى وعاء قلبى فهو اسم تفضيل من المبنى للفاعل على القياس، واللام داخلة على الفاعل كما يقال هو أوعى لى، ولاقلب فيه، والصواب: والقلوب أوعى له كما توهم.

(وأسمح فى الآذان) بسين وحاء مهملتين أى: أسهل مستعار من السماحة، وليس من أسمح المزيد كما قيل، وليس أيضا بخاء معجمة من السماخ وهو الصماخ، أى: منفذ الأذن كما توهم، **(وأحلى على الأفهام)** أى: يستعذبه الذوق السليم فيجد له لذة وحلاوة، **(فالناس إليه أميل)** أى: أكثر ميلا ومحبة كما قال التسترى:

فإنى إلى قوم سواكم لا أميل

(والأهواء إليه أسرع) جمع هوى وهو ميل النفس وانجذابها، أى ميل القلوب نحوه، أشد من ميلها لغيره.

(ومنها) أى: من وجوه إعجازه **(تيسيره تعالى حفظه لمتعلميه)** أى: من يريد تعلمه **(وتقريبه على متحفظيه)**، أى: تسهيل حفظه لمن يريده **(قال تعالى:** ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾) [القمر:١٧]، فى الكشاف معنى الآية سهلناه للإذكار والاتعاظ بأن شحناه بالمواعظ الشافية، وصرفنا فيه من الوعد والوعيد، وقيل: معناها سهلناه للحفظ وأعنا من أراد حفظه، ويجوز أن يكون معنى يسرناه هيئناه، من يسر ناقته للسفر إذا رحلها، وفرسه للغزو إذا أسرجه وألجمه كما قال:

وقمت إليها باللجام ميسرا هنالك يجزينى الذى كنت أصنع

وعلى الوجه الثانى بنى المصنف استشهاده بالآية.

(وسائر الأمم) التى قبل هذه الأمة من أهل الكتابين وغيرهم **(لايحفظ كتبها الواحد منهم)**، أى:لايوجد فيها واحد يحفظ كتابهم المنزل على أنبيائهم، إلا نادرًا، وروى عن ابن جبير أن بنى إسرائيل لم يكن فيهم من يحفظ التوراة، فكانوا لايقرءونها إلا نظروا فى صحفها غير موسى وهارون ويوشع بن نون وعزير، فقيل: إنها رفعها الله تعالى، وقيل: إنها حرقت فجاء عزير وتلاها عليهم كما أنزلت من حفظه، فافتتنوا به وقالوا: إنه ابن الله، وقد من الله تعالى على هذه الأمة بأن يسر عليهم حفظ كتابه وجعل فيهم حفظة لاتحصى إلى الآن.

(فكيف الجماء) منهم أى فإذا لم يتيسر ذلك لواحد منهم إلا نادرًا كيف يتيسر للكثير، والجماء بفتح الميم المشددة والمد بعد جيم مفتوحة من الجموم وهو الاجتماع

والكثرة التى لاتعد، وفى بعض النسخ: فكيف الجم بدون مد، وكلاهما صحيح رواية ودراية، وفى الأساس عدد جم وحبك حباجما، وجاؤوا جمًا غفيرًا والجماء الغفير اشتق من جمة الشعر، وقيل: من أن الصواب الجم؛ لأنه لايتلفظ بالجماء إلا موصوفا نحو جاؤوا الجماء الغفير لا أصل له.

وذلك إنما هو إذا كان منصوبًا كما ذكره أهل العربية (**على مرور السنين عليهم**)، أى: مع طول أعمارهم وامتداد أزمنتهم لم يتيسر لهم حفظ كتبهم.

(**والقرآن ميسر حفظه للغلمان**)، أى: لغلمان هذه الأمة وأطفالهم فى مكتبهم (**فى أقرب مدة**)، أى: فى زمن قليل كسنة ونحوها، كما شاهدناه، وغلمان بكسر الغين المعجمة، وهو من حين يولد إلى أن يشب.

(**ومنها**) أى: من وجوه الإعجاز عند بعضهم (**مشاكلة بعض أجزائه بعضًا**) أى: مشابهة بعضه لبعض، قال الراغب: المشاكلة فى الهيئة والصورة، والند فى الجنسية، والشبة فى الكيف والشكل الدال، وهو فى الحقيقة الأنس الذى بين المتماثلين فى الطريقة.

ومن هذا قيل: الناس أشكال وآلاف، وأصل المشاكلة من الشكل أى: تقييد الدابة بالشكال ومنه شكل الكتاب (**وحسن ائتلاف أنواعها**) أى: مناسبة أنواع تلك الأجزاء، فتكون كلماته متناسبة، وجمله المركبة أيضا بينها ألفة وحسن مناسبة تامة (**والتئام أقسامها**) بهمزة ويجوز إبدالها ياء أيضًا، أى: توافقها وانضمام كل قسم إلى مشاكله، (**وحسن التخلص من قصة إلى أخرى**)، وهو أن يوافق مطلع السابقة مبدؤ اللاحقة، حتى يصير كالقصة الواحدة (**والخروج من باب إلى غيره**)، أى: الانتقال من نوع من الكلام إلى نوع آخر، وفى ذكر الخروج مع الباب لطف ظاهر (**على اختلاف معانيه**) الضمير للقرآن، وعلى بمعنى مع أى: تراه مع اختلاف مقاصده لايخرج عن المناسبة التامة جمله وتفاصيله، وهذا يعلم من كتاب المناسبات، وقد صنف فيه كتب أجلها مناسبات البقاعى، وحسن التخلص مما اعتنى به البلغاء والشعراء كقوله:

يقول فى فرس صحبى وقد أخذت ... منى السرى وخطى المهرية القود
أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا ... فقلت كلا ولكن مطلع الجود

والانتقال من غير مناسبة يسمى اقتضابا.

(**وانقسام السورة الواحدة على أمر ونهى وخبر واستخبار**) أى استفهام وهو أحد أقسام الإنشاء المقابل للخبر، وعدى الانقسام بعلى والمعروف تعديته بإلى إلى أقسامه،

وإنما يتعدى بعلى لمن يعطى تلك الأقسام، فتقول: النقد ينقسم إلى دراهم ودنانير، وتقول قسمته على الفقراء والمساكين، فإذا استعمل أحدهما فى مكان الآخر وأراد الكلام كان تجوزًا لنكتة، وهى هنا جعل المقسم الكلى كأنه أمر خارج قسم على أفراده أو أنواعه، فنال كلا حصة منه؛ لوجوده فى ضمنه، فلا يحسن ذلك فى كل محل، ولا من كل قائل.

(**ووعد ووعيد وإثبات نبوة وتوحيد**)، كقوله ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٤٥]، ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١]، (**وتقرير**) لبعض ما شرع أولا، (**وترغيب وترهيب**) بوعد من اتقى بالنعيم المخلد وأن من كفر فى سواء الجحيم منضمًا ما ذكر (**إلى غير ذلك من فوائده**) كضرب الأمثال. وذكر القصص للعبرة بها (**دون خلل**) أى: أمر يخل به وينقصه (**يتخلل فصوله**) أى: يكون فى أثناء فصوله، والفصل عبارة عن جمل من الكلام مستقلة، وقيل: إنه بمعنى الفاصلة وهى الكلمة مما يضاهى السجع، (**والكلام الفصيح**) من كلام البشر (**إذا اعتوره**)، أى ورد عليه وطرأ وتداوله (**مثل هذا**) أى: تضمن أنواعا من المقاصد كوعد ووعيد وعبرة، وتخلل فصوله التى ينشئها المتكلم الفصيح (**ضعفت قوته**)؛ لأنه يكل خاطر قائله بتعدد أنواع المقاصد، فينزل عن مرتبتها التى ساقها فى أوله (**ولانت جزالته**) أى: صلابته وشدته تنقلب لضدها، (**وقل رونقه**) أى: صفاؤه ونضارته.

(**وتقلقلت ألفاظه**) أى: اضطربت، والقلقلة فى الأصل الحركة بعنف، ويقال: تقلقل فى البلاد إذا طال سفره، فاستعير لتنافر الكلام الطويل، (**فتأمل**) أى: تدبر وأطل النظر والفكر (**أول**) سورة ﴿صٓ﴾ ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١] إلى آخره.

(**وما جمع فيها**) بالبناء للفاعل أو المفعول، وأنث ضمير أول لأنه بمعنى الفاتحة، أو لاكتسابه التأنيث مما أضيف إليه من اسم السورة (**من أخبار الكفار**) أى: كفار قريش من تعجبهم بأن جاءهم نذير منهم وقولهم إنه ساحر كذاب وغيره.

(**وشقاقهم**) أى: عداوتهم لله ورسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بقوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ٢].

(**وتقريعهم**) وتوبيخهم (**بإهلاك للقرون من قبلهم**) بقوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ [ص: ٣].

(**وما ذكر**) فيها (**من تكذيبهم بمحمد، صلى الله تعالى عليه وسلم**) فى قولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص: ٧]، (**وتعجبهم مما أوتى به**)، فى

قوله: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص:٨] إلى آخره.

(والخبر عن اجتماع ملئهم على الكفر) الخبر هنا بمعنى الإخبار، والملأ جماعة الأشراف والرؤساء وذلك أنه لما أسلم عمر، رضى الله تعالى عنه، شق عليهم إسلامه، فاجتمعوا عند أبى طالب، وقالوا له: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد رأيت ما فعل هؤلاء السفهاء فاقض بيننا وبين ابن أخيك، فجاء بهم له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال له: يا محمد هؤلاء قومك يسألونك القصد، فلا تمل عليهم كل الميل؛ فقال لهم: ما تسألونى؟ قالوا: دعنا وآلهتنا وندعك وإلهك؛ فقال: أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتموه أتعطونى أنتم كلمة واحدة تدين لكم بها العرب والعجم قالوا: نعم، وعشرا، قال: قولوا لا إله إلا الله، فقالوا ﴿ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦].

(وما ظهر من الحسد فى كلامهم) أى: ماظهر فى كلامهم مما يدل على حسدهم له، صلى الله تعالى عليه وسلم، على ما آتاه الله فى قولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص:٨]، مما دل على اعترافهم وتيقنهم بصدقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلا أن الحسد أخرس ألسنتهم وأعمى قلوبهم.

(وتعجيزهم) حيث قال: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ [ص: ٩، ١٠]، فإنهم لما أنكروا اختصاصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من بينهم بالنبوة بين لهم أنها رحمة منه يصيب بها من يشاء ممن ارتضاه من عباده، فلا مانع لما أراد فإنهم لايملكون خزائنه والتصرف فيها حتى يضعوا النبوة فى صناديدهم، فإن أنكروا ذلك فليصعدوا إلى السماء، وينزلوا الوحى لمن أرادوه، وفى هذا غاية التهكم بهم، وإظهار عجزهم وقصورهم.

(وتوهينهم) أى: إظهار ضعفهم ووهن كيدهم وتحقيرهم بقوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١١]، أى هؤلاء الذين كذبوك وتحزبوا عليك جند ذوو حقارة لاقدرة لهم على التصرف فى الأمور الربانية، فلا تكثرت بهم.

(ووعيدهم بخزى الدنيا) بهزيمتهم **(والآخرة)** بذوقهم العذاب فيها، **(وتكذيبهم الأمم قبلهم)**، أى: وعيدهم بذكر من كذب من الأمم قبلهم، **(وإهلاك الله لهم)** بقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ﴾ [ص:١٢]، إلى قوله ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص:١٤].

(ووعيد هؤلاء) يعنى كفار قريش الذين كذبوه كما كذب الأمم رسلهم، فيحل بهم ما حل بهم **(مثل مصابهم)** منصوب بقوله وعيدهم، **(وتصبير النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، على إيذائهم)** أى: أمره بالصبر بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل:١٠]، إلى

آخره.

(وتسليته بكل ما تقدم ذكره) من بيان ما آل إليه أمرهم وأن له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيمن تقدمه من الرسل أسوة **(ثم أخذ)** أى: شرع بعد تصبيره وتسليته **(فى ذكر داود عليه الصلاة والسلام)** بقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص:١٧] إلى آخره، قيل: لما فى قصته من تقطيع المعصية بذكر ما صدر منه من خلاف الأولى الذى صدر منه، فعوتب عليه، ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗا وَأَنَابَ۩﴾ [ص: ٢٤]. فما بالك بغيره فهذا وجه ذكره هنا، فتدبر.

(وقصص الأنبياء) بفتح القاف وكسرها كسليمان وأيوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ﴾ [ص: ٣٤] إلى آخره، فذكرهم الله تعالى، مثنيا عليهم **(كل هذا)** المذكور فى أول سورة ﴿صٓ﴾ مذكور **(فى أوجز كلام وأحسن نظام)** على أتم ارتباط من غير خلل يزيل رونقه ويقل ماء فصاحته.

(ومنه) أى: من إعجاز القرآن وفى بعض النسخ ومنها، ويحتمل أن يريد مما ذكر فى أول سورة ﴿صٓ﴾ **(الجمل الكثيرة)** من المعانى؛ لقوله: **(التى انطوت عليها)** واشتملت **(الكلمات القليلة)** بالنسبة لمعانيها، وفى القلة والكثرة طباق البديع، وقيل عليه أن محصل هذا أنه إيجاز، وقد تقدم ذكره غير مرة فلا حاجة لإعادته وعده وجهًا مستقلا ولذا استدركه بقوله: **(وهذا كله)** أى ما ذكر هنا.

(وكثير مما ذكرنا) فى هذا الفصل من أوله إلى هنا **(أنه ذكر فى إعجاز القرآن)** مضافا **(إلى وجوه كثيرة ذكرها الأئمة لم نذكرها إذ أكثرها داخل فى باب بلاغته)**، أشار بقوله أكثرها إلى أن منها مالا يدخل فى البلاغة كتسهيل حفظه، وإن كان يرجع إليه بوجه بعيد، وإلا لم يعده الأئمة من وجوه الإعجاز، **(فلا يجب أن يعد فنا منفردًا فى إعجازه)** بل يجعل من توابعه أو ثمراته **(إلا فى باب تفصيل فنون البلاغة)** فيعد فنا منها كمشاكلة أجزائه وحسن التخلص، فإنه فن منفرد من البلاغة لامن الإعجاز، فإنه لايتوقف عليه إذ من المعجز ما لا يكون فيه ذلك، كسورة الإخلاص مثلاً.

(وكذلك) أى: من مثل المذكور **(كثير مما قدمناه ذكرها عنهم)** أى: عن الأئمة **(بعد فى خواصه وفضائله لا إعجازه)** لأنه لامدخل له فيه **(وحقيقة الإعجاز)** عند من لم يقل بالصرفة إنما هى **(الوجوه الأربعة)** التى قدمها المصنف، رحمه الله تعالى، أولا كما قال: **(التى ذكرنا فليعتمد عليها)** فى تحقيق الإعجاز ويستند إليها من أراد تحقيقه **(وما بعدها)** مما ذكر فى هذا الكتاب، فإنما هو **(من خواص القرآن)** التى لاتوجد فى كلام غيره،

(وعجائبه التى لاتنقضى) أى: لاتعد ولا تتناهى **(وبالله التوفيق)** أى: ما التوفيق والهداية للوقوف على عجائبه التى لاتتناهى إلا من الله وعنايته. وفى بعض النسخ «والله الموفق».

وفى حديث قدسى: «من شغله القرآن عن دعائى ومسألتى أعطيته أفضل ثواب الشاكرين» اللهم فاجعله ربيع قلبى، وشفاء همى وغمى، ثم عقب معجزة القرآن التى هى أعظم معجزاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بمعجزة أخرى عظيمة مناسبة له فى أنها سماوية ومعجزة علية، فقال:

(فصل فى انشقاق القمر وحبس الشمس)

أى فى ذكر معجزته صلى الله تعالى عليه وسلم بشق القمر له وجعله فلقتين، وفى منع الشمس عن مسيرها للغروب كما سيأتى بيانه، وهذا كان عقب قصة الإسراء، وفى معناه رد الشمس الآتى فى قصة على.

واقتصر فى الترجمة على هذا؛ لأنهما فى المعنى سواء ولما سيأتى.

قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١]: قدم اقتراب الساعة عليها، تخويفًا لمنكرى ذلك، وإثباتًا له، وتقريرًا فى نفوس المؤمنين بها، إذ تشقق السموات فيها، فالقادر على ذلك الفعال لما يريد. كيف لا يقدر على شق القمر؟.

واقتربت بمعنى صارت قريبة من بعثته صلى الله تعالى عليه وسلم، كما ورد فى الحديث: «بعثت أنا والساعة كهاتين»(١)، وأشار بأصبعه الوسطى والسبابة؛ لأن التفاوت بينهما مقدار سُبْع(٢)، وبعثته صلى الله تعالى عليه وسلم فى الألف السابعة على ما اشتهر عند المحدثين وغيرهم، وإنما كانت الساعة قريبة؛ لأن عمر الدنيا على المشهور سبعة آلاف وكسور(٣)، وقيل: أكثر من ذلك، وقد بعث نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فى آخرها ألفًا، وحيث لم تبق إلا صبابة، وقوله: انشق القمر: أى وقع شقه، وجعله فلقتين فى الزمن الماضى بمكة معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم، إذ قال المشركون له: أرنا آية وهذا ما عليه جمهور المفسرين.

---

(١) أخرجه البخارى (١٣١/٨، ١٣٢)، ومسلم فى الفتن (١٣٥)، والنسائى (١٨٩/٣)، والترمذى (٢٢١٤)، وابن ماجه (٤٥، ٤٠٤٠)، وأحمد (١٢٤/٣، ١٣٠، ١٣١، ٢٣٧)، والبيهقى فى الكبرى (٢٠٦/٣، ٢١٣)، والطبرانى فى الكبير (٢٢٧/٢).

(٢) أى أن النبى ، فرج بين إصبعيه إشارة إلى العدد (سبع ٧) ولعل هذا فيه نظر إذ هل كانوا يعرفون تلك الأعداد بتلك الرموز؟.

(٣) كل ما قيل فى هذا لا يصح ويخالف صريح القرآن: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾. ولم يرد فى القرآن ولا فى صحيح السنة ما يدل على عمر الدنيا.

وقيل: إن المعنى أنه سينشق فى المستقبل إذا قامت القيامة، وعبر بالماضى؛ لتحققه، ورده جماعة وقالوا: إنه مبنى على قول الفلاسفة أن الأجرام العلوية لا تقبل الخرق والالتئام، ويكذبه القرآن.

وقوله: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن:٣٧]، وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:٢] أى دائم أو محكم من أمر الحبل إذا أحكم فتله، وقد ثبت انشقاق القمر له صلى الله تعالى عليه وسلم فى الصحيحين، وأخبر به جماعة من الصحابة وإلى بيان ذلك أشار بقوله: (أخبر الله تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضى وإعراض الكفرة عن آياته) ومعجزاته التى لا يمكن البشر الإتيان بمثلها.

(وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه): فى الماضى، وقال السبكى، رحمه الله تعالى: إنه متواتر لا يجوز إنكاره، وردّوا قول الماوردى: إن الجمهور على خلافه، وتأويل **(ينشق)** بمعنى سينشق؛ فإنه لو وقع لم يبق أحد إلا رآه، ولم يعتد المصنف رحمه الله تعالى، بهذه المقالة، وهى لاتخرق إجماع السلف من أهل السنة، ومثله ليس من أهل التفسير، بل من أهل التأويل عنده إلا أن بعضهم نظر فى حكايته الإجماع بأن السجاوندى والنسفى قالا فى تفسيريهما: إنه منقول عن الحسن البصرى، وكذا قال أبو الليث فى تفسيره: إن معناه سينشق وعزاه بعضهم للجمهور ومن الغريب ما حكى عن بعض شراح المدونة أن فلقة منه نزلت لجنبه، وخرجت من كمه صلى الله تعالى عليه وسلم، ولما أرسل أبو بكر بن الطيب رسولا لملك الروم بقسطنطينية، وقيل له: إنه أجل علماء الإسلام أحضر بعض بطارقته لمناظرته، فقال له: تزعمون أن القمر انشق لنبيكم، فهل للقمر قرابة منكم حتى ترونه دون غيركم؟ فقال له: وهل بينكم وبين المائدة أخوة ونسب إذ رأيتموها ولم ترها اليهود ويونان والمجوس الذين أنكروها وهم فى جواركم؟ فأفحم ولم يفه بشىء[1].

(أخبرنا الحسين بن محمد): هو أبو على الغسانى الجيانى تقدم مفصلا ترجمته.

(الحافظ من كتابه): لا بقراءته عليه قال: **(حدثنا سراج بن عبد الله الأصيلى)** السابق ترجمته، وفى نسخه أخبرنا فى جميع ما يأتى قال: **(حدثنا المروزى)** تقدم مع بيان نسبته قال: **(حدثنا الفربرى)** تقدم بيانه وضبط نسبته، قال **(حدثنا البخارى)** الإمام المشهور، قال: **(حدثنا مسدد)**: عبد الملك بن عبد العزيز الأسدى، ومسدَّد بوزن اسم المفعول: لقب له كمسرهد وهو مُسدَّد بن مسرهد بن مسربل بن مغربل بن مرعبل بن أرندل بن

---

(١) لم يَفُهْ بشىء: أى لم يتكلم بشىء.

سرندل بن عرندل بن ماثيل بن المستورد محدث البصرة، وقال أبو نعيم: لو كان فى أول هذه النسبة بسم الله الرحمن الرحيم كانت رقية للعقرب، وهو إمام حافظ روى عنه أصحاب الكتب الستة، وتو فى سنة ثمان وعشرين ومائتين.

قال: (**حدثنا يحيى**) بن سعيد بن أبان الأموى الحافظ، أخرج له أصحاب الكتب الستة، وتوفى سنة أربع وتسعين ومائة، وسنه ثمانون وترجمته فى الميزان.

(**عن شعبة**) بن الحجاج العتكى الحافظ أمير المؤمنين فى الحديث كما تقدم.

(**وسفيان**) بن عيينة أبو محمد الهلالى الكوفى أحد الأعلام الذى أخرج له الستة، وتوفى سنة ثمان وتسعين ومائة كما تقدم.

(**عن الأعمش**): سليمان بن مهران السابق ترجمته.

(**عن إبراهيم**) النخعى السابق ترجمته (**عن أبى معمر**) الأزدى الكوفى وهو بفتح الميمين وسكون العين.

(**عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه، قال: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم**): أى فى زمانه وحياته: والعهد يأتى بهذا المعنى كما فى القاموس وغيره، وذكره للرد على من يقول: إنه سيكون بعده يوم القيامة (**فِرْقتين**) بكسر الفار وسكون الراء المهملة: بمعنى قطعتين، والمراد نصفين، وانتصابه على المصدرية من معنى انشق، كقعد جلوسا أو بتقدير افترق.

(**فرقةً فوق الجبل وفرقةً دونه**) بالنصب بدل من فرقتين، والجبل حراء أو أبوقبيس، وفوق يجوز رفعه ونصبه، ودونه بمعنى فى مقابلته منفصلا عنه لا تحته، كما قيل؛ لما سيأتى.

(**فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: اشهدوا**) إنما قال ذلك؛ لأن المشركين اجتمعوا إليه صلى الله تعالى عليه وسلم، فقالوا: إن كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين، فقال لهم: إن فعلت تؤمنوا؟ قالوا: نعم، فسأل ربه أن يعطيه ما قالوا، فانشق القمر فرقتين، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينادى: يا فلان يا فلان اشهدوا، وذلك بمكة قبل الهجرة، رواه ابن الجوزى فى الوفاء عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما.

وقاله لأنه وقع ليلا فى وقت الغفلة: أى اشهدوا على معجزتى ونبوتى ووقوع ما طلبوه؛ لأنهم أهل بهتان وجحد، وفى صحيح مسلم أنه انشق مرتين، قال ابن القيم فى كتاب إغاثة اللهفان: المرات يراد بها الأفعال تارة والأعيان أخرى، وأكثر ما تستعمل فى الأفعال، وأما فى الأعيان فكقوله فى الحديث: (**انشق القمر مرتين**): أى فلقتين، ولما

خفى هذا على بعضهم، زعم أن الانشقاق وقع مرتين، ويأتى ما فيه عن قريب.

(وفى رواية مجاهد) التى رويت عن ابن مسعود فى الصحيحين **(ونحن مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** جملة حالية تفيد أنه شاهد ذلك ولم يسمعه من غيره.

(وفى بعض طرق الأعمش) كما رواه أحمد فى مسنده بزيادة قوله: **(بمنىً)**: منون وغير منون اسم بقعة معلومة سميت بها؛ لكثرة ما يمنى بها من الدم: أى يراق، ويقال لها المنازل أيضًا، ويقال: نزلوا إذا أتوا منى قال: أنازلة أسماء أم غير نازلة؟ قاله ابن هشام اللخمى فى شرح المقصورة.

واختلفت الروايات فى محل الانشقاق. فقيل: بمكة. وقيل: بمنى. وفى أخرى: رئى حراء بينهما. وقيل: شقة منه على أبى قبيس وأخرى على السويداء.

والذين طلبوا ذلك منه صلى الله تعالى عليه وسلم: الوليد بن المغيرة، وأبو جهل، والعاص بن وائل، والعاص بن هشام، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن عبد المطلب، ونظراؤهم.

وهذه الروايات فى محله لا تنافى بينها؛ لأن كل راءٍ يرى القمر بإزاء مكان رؤيته.

(ورواه أيضًا عن ابن مسعود الأسود) بين يزيد بن قيس بن عبد الله بن علقمة بن سلامان، ولم يعينه المصنف، رحمه الله، لشهرته وهو من كبار التابعين معروف بالرواية عن ابن مسعود، وهو من المعروفين بالزهد وكثرة العبادة، توفى سنة خمس وسبعين.

(وقال): أى ابن مسعود: **(حتى رأيت الجبل)**: يعنى جبل حراء على ما تقدم.

(بين فرجتى القمر): أى فلقتيه وقطعتيه؛ لبعد ما بينهما وهى[1] بضم الفاء وفتحها، والضم أولى، لأن فعلة بالفتح للمرة وبالكسر للهيئة وبالضم للمقدار الحاصل، كالغرفة للمغروف، والفرجة الفضاء ما بين الشيئين، فتجوَّز به عن المنفرج نفسه، إذ الظاهر بين القطعتين المنفرجتين، وقصة أبى عمرو مع الحجاج فى قراءته غرفة وسماعه من العرب:

ربما ضاقت النفوس من الأمـ ـر له فرجة كحل العقال

مشهورة.

(ورواه) أى ما ذكر **(عنه)**: أى عن ابن مسعود، كما ذكره البيهقى فى الدلائل **(مسروق)** بن الأجدع الهمدانى الكوفى من كبار التابعين، تقدمت ترجمته وأنه توفى سنة ثلاث وستين، **(أنه)** أى الشق أو ابن مسعود **(كان بمكة، وزاد فقال كفار قريش:**

(١) أى كلمة (فرجة).

سحركم ابن أبى كبشة): يعنون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، قال ابن حجر: هو أحد أجداد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم.

فقيل: هو جد وهب جد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأمه.

وقيل عليه: إن أم وهب اسمها عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال، و لم يقل أحد من النسابين أن الأوقص يكنى بأبى كبشة.

وقيل: هو جد عبد المطلب لأمه، وتعقب أيضًا بأن أم عبد المطلب: سلمى بنت عمرو بن زيد الخزرجى، ولم يقل أحد أن عمرًا يكنى بأبى كبشة أيضًا.

وقيل: إنه أبوه من الرضاعة وهو الحرث بن عبد العزى، وله بنت تسمى كبشة كنى بها، وذكر ابن حبيب أن له صلى الله تعالى عليه وسلم أجدادا من قبل أبيه وأمه تكنوا بذلك، وإنما قالوه؛ لأن من عادتهم إذا بغضوا أحدًا نسبوه لجد غامض له.

وفى النهاية أنه رجل من خزاعة خالف قريشًا فى عبادة الأوثان وعبد الشعرى العبور، فلما خالفهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يرض آلهتهم شبهوه به فى ذلك.

وفى القاموس أنها كنية وهب بن عبد مناف، أو كنية عمرو والد حليمة السعدية مرضعته صلى الله تعالى عليه وسلم.

وعلى كل حال أرادوا به تنقيصه فزاده ذلك شرفًا. **(فقال رجل منهم)** أى من كفار قريش، قيل: إنه أبو جهل: **(إن محمدًا إن كان سحر القمر)** حين شقه أو خيل لكم شقه **(فإنه لا يبلغ)**: أى لا يصل شيء **(من سحره أن يسحر الأرض كلها)**: أى أهلها كلهم، **(فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر)**: غير مكة **(هل رأوْه)**: أى القمر أو شقه أو الأمر الذى وقع، وفى نسخة هل رأوا هذا؟.

(فأتوا) أى أتوا من قدم على أهل مكة من غيرها.

(فسألوا) أى سألوهم هل رأوا ذلك **(فأخبروهم)** لما سألوهم **(أنهم رأوا مثل ذلك)**: أى مثل رؤيتهم، فالتشبيه بين الرؤيتين والمرئى واحد وهو القمر المنشق.

(وحكى السمرقندى) تقدم ترجمته، **(عن الضحاك نحوه)**: أى مثل الحديث الذى ذكره أولاً.

(وقال): أى الضحاك فيما رأوه **(فقال أبو جهل)** لقريش لما شاهدوا انشقاق القمر بعد ما سألوه **(فابعثوا إلى أهل الآفاق)**: بالمد جمع أفق بضمتين أو بضم فسكون، وهو هنا بمعنى الناحية وما ظهر من الفلك، ومطلع الشمس كما بينه علماء الهيئة وهو الأفق

المرئى، والأفق الغير المرئى له أحكام أخر، والمعنى أرسلوا ناسًا لمن جاروكم من البلاد ليسألوا من بها؛ **(حتى تنظروا)**: أى تعرفوا **(أرأوا ذلك أم لا؟)** الهمزة استفهامية وفى نسخة: هل رأوا وشاهدوا مثل مارآه أهل مكة أم لم يروه لأنهم خيل لهم أمر لم يقع؟ وفى نسخة: حتى ننظر: بنونين **(فأخبر أهل الآفاق أنهم رأوه)** أى القمر حالة كونه **(منشقًا)**، والفاء فصيحة أى فسألوهم فأخبروا **(فقالوا، يعنى الكفار: هذا سحر مستمر)**، أى دائم باق غير ذاهب على حاله إلى غير النهاية من المرور، أو محكم قوى من إمرار الحبل، وهو شدة فتله.

وقال أبو عبيدة: معناه باطل، وهو بعيد بحسب اللغة، وإنما قالوا: إنه مستمر؛ لأن هذا إشارة إلى ما صدر قبله من الآيات المتتابعة يقفو بعضها أثر بعض كما أشار إليه القاضى، ولولا هذا لم يتأت ما قالوه، فإن انشقاقه لم يستمر بعد الليلة التى وقع فيها، وهذا يكون إشارة للشخص وللنوع كما حققه النحاة.

(ورواه أيضًا عن ابن مسعود علقمة) بن قيس بن مالك النخعى الفقية الكبير التابعى الجليل، ولد فى حياة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وتوفى سنة اثنين وستين، والرواية عنه مشهورة فى الكتب الستة **(فهؤلاء الأربعة)**: يعنى مجاهدا والأسود ومسروقًا وعلقمة كلهم رووا هذا الحديث، **(عن عبد الله)** بن مسعود، رضى الله عنه.

ثم ذكر له طريقا آخر فقال: **(وقد رواه غير ابن مسعود كما رواه ابن مسعود)** وقدم حديث ابن مسعود وجعل رواية غيره كالمتابعة له؛ لأنه لم يرو حديث الانشقاق رواية إسنادها فى غاية الصحة واعتمدها الأئمة غيره، وهى مما اتفق عليه الشيخان وأحمد بن حنبل، وابن الصلاح وغيره رجحوا ما اتفق عليه الشيخان على غيره، وقال: إنه مقطوع بصحته.

(منهم): أى ممن رواه غير ابن مسعود وأعاد ضمير الجمع نظرًا لمعناه: **(أنس وابن عباس وابن عمر وحذيفة وعلى وجبير بن مطعم، رضى الله عنهم)**، وهذه الروايات كلها فى الكتب الستة وغيرها مخرجة، فرواية أنس وابن عباس فى الصحيحين، ورواية ابن عمر فى صحيح مسلم والترمذى، ورواية حذيفة بن اليمان فى الدلائل وغيرها، ورواية ابن مطعم بكسر العين فى مسند أحمد والبيهقى؛ ولذا قال: **(فقال على)** كرم الله وجهه **(من رواية أبى حذيفة الأرحبى)**، واسمه سلمة بن صهيف على الأصح نسب لأرحب: حىّ من همدان بهمزة مفتوحة وراء مهملة ساكنة وحاء مهملة مفتوحة وباء موحدة قبل ياء النسبة، وهو من الثقات المشهورين.

(انشق القمر ونحن مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)، والجملة حالية وضمير نحن لعلى ومن كان معه، لا لمن تقدم.

(وعن أنس): خادمه صلى الله تعالى عليه وسلم، وحديثه من مرسل الصحابة؛ لأن الحادثة وقعت وهو لم يسلم إذ ذاك، وهذا من مرجحات حديث ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، **(سأل أهل مكة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم آية)** معجزة غير ما رأوه، وفى الرواية المتقدمة أنهم سألوه أن يشق لهم القمر **(فاراهم انشقاق القمر فِرقتين)** بكسر الفاء وسكون الراء، وفى رواية فلقتين باللام بدلها، وهما بمعنى قطعتين ونصفين كما مر.

(حتى رأوا حراء ما بينهما) أى بين القطعتين، وما زائدة للتأكيد وفى نسخة حذفها وحراء بكسر الحاء وفتح الراء المهملتين وهمزة ممدودة، وتفتح حاؤه مع القصر، وهو جبل بمكة معروف كان صلى الله تعالى عليه وسلم يتعبد فيه، كذا قاله التلمسانى وقال: إنه يذكر ويؤنث ويحرك ولا يحرك (١)، وهذا مما ذكره غيره من أهل اللغة.

إذا عرفت هذا فما قاله الخطابى من أنهم يغلطون فى حراء ثلاث غلطات: يفتحون حاؤه وهى مكسورة ويقصرونه وهو ممدود ويميلونه وهو لا يمال، شىء لا أصل له، إلا قلة النظر فى كتب اللغة.

(رواه عن أنس قتادة وفى رواية معمر وغيره عن قتادة عنه): أى عن أنس **(أراهم القمر مرتين انشقاقه)** بالنصب بدل من القمر بدل اشتمال، وفى تقديم مرتين فى هذه الرواية دليل على ما قلناه سابقا من أن التعدد فى الإراءة، لا فى الانشقاق، وأنه مرتين كما ذهب إليه من نظر لظاهر هذه الرواية، وأن ما قيل من أن أصل المرات فى الأزمان والأفعال، وأنها قد تكون فى الأعيان والأول أكثر، وهذا من قبيل الثانى فمعناه ومعنى فرقتين وفلقتين واحد، وأن هذا خفى على من قال: إن الانشقاق وقع مرتين، وهو لم يقع إلا مرة بلا اختلاف فيه، ودعوى الحافظ العراقى فى منظومته الإجماع على تعدده سهو منه وغفلة عما ذكر، كدعواه تواتره فيها.

وما قيل من أنه كان مرة بمكة ومرة بحراء وهو على ثلاثة أميال من مكة فى طريق الذاهب لمنى وأنه يدل على تعدد الأزمان، وإلا لزم التناقض فى هذه الروايات وهى كلها صحيحة، ولا يمكن عادة أن يكون الناس الذين رأوه فى ذلك الوقت فى هذه الأمكنة الثلاثة، وقد قالوا: ونحن مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فهذا مما يقطع

---

(١) أى ينصرف ولا ينصرف.

بتعدد الأزمنة والأمكنة ليس بشىء، فإنهم إذا رأوه بمكة شاهدوا وقوع فلقة منه خلف حراء، وأخرى أمامه من تعدد النظر لسعته من الأفق وإن لم يكونوا ثمة كما مر، ولا يخفى بعد كون من ذكر من كبار الكفرة معه ليلا بحراء وغيره من جبال مكة وبراريها، فالذى تحرر فى الجمع بين هذه الروايات أنه تباعد ما بين الفلقتين جدا؛ ليكون أظهر فى دفع الإنكار، فإنه لو تقارب لقال هؤلاء الحول العقول: إنه من غلط الحس فلما أشهدهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على ذلك أشار مرة إلى فلقة منه وقال: اشهد يا فلان ويا فلان ثم أراهم مرة أخرى فلقة أخرى، وقال: اشهدوا، وكل هذا كان بمكة ليلاً والقمر فى وسط السماء بحذاء حراء وبحذاء غيرها من الجبال والأماكن البعيدة، فلا تعدد فى الشق ولا تدافع بين الروايات، ولا يطعن فى شىء منها، وهذا إن شاء الله مما لا ينبغى العدول عنه، فإن القول بأن المرات فى الأعيان لا صحة له فى اللغة، واستعمال الناس.

فلو قطع إنسان بطيخة قطعتين دفعة واحدة وقال: قطعتها مرتين كذبه من سمعه واستهزأ به فعليك بالنظر الحديد وأن تطرح من جبذ فكره على التقليد.

(فنزلت: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾)[القمر:١] مؤيدًا لمعجزته صلى الله تعالى عليه وسلم، وبهذا تقوى الحديث وصار كالمتواتر.

وتأويله بأنه سينشق إذا قامت القيامة يأباه قوله بعده: (﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ﴾) [القمر:٢] كما لا يخفى على من له نظر سديد.

(ورواه عن جبير بن مطعم ابنه محمد وابن ابنه جبير بن محمد) فرواه عن أبيه عن جده، وجبير الثانى روى عنه أبو داود حديثًا واحدًا، قال البرهان: ولا أعلم له تخريجًا ولا توثيقا، ورد بأن ابن حبان ذكره فى كتاب الثقات.

(ورواه عن ابن عباس عبيد الله بن عبد الله بن عتبة) الإمام الجليل القدر أحد الفقهاء السبعة وهو ثقة مأمون، خرج له أصحاب الكتب الستة وتوفى سنة ثمان وتسعين ومائة.

(ورواه عن ابن عمر مجاهد) بن جبير وقدمنا ترجمته.

(ورواه عن حذيفة أبو عبد الرحمن السلمى) بضم السين وفتح اللام وهو أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن حبيب الإمام المشهور مقرئ الكوفة وحافظ السنة، توفى سنة ثلاث وسبعين تقريبًا وخرج له الأئمة الستة، رحمهم الله تعالى.

(ومسلم بن أبى عمران الأزدى) البصرى هو أبو عبد الله المعروف بالبطين نسب للأزد بسكون الزاء المعجمة ويقال لها أسد بالسين أيضًا: اسم قبيلة عظيمة، والأزد اسم

جدهم الأعلى، وهم حى باليمن وإليهم ينتهى نسب الأنصار.

(وأكثر طرق هذه الأحاديث صحيحة): الطرق: هى الأسانيد والرواة، تسمى طرقًا لوصول الحديث إلينا منها، وعبر بالأكثر إشارة إلى أن فى بعضها ضعفا، وقيل: مراده بالصحيح هنا: ما يقابل الحسن، فكلها صحيحة مع التفاوت فيها، **(والآية مصرحة)** بما فى الأحاديث من الانشقاق وفيه إشارة لما قلناه من أن فيها ما يمنع التأويل الذى جوزه بعضهم.

(ولا يلتفت إلى اعتراض مخذول): أصل معنى الخذل ترك النصرة والإعانة، ثم قيل لكل من لم يكن على الحق وطريق الهداية، والمراد به من أنكر هذا بقصد الطعن فى المعجزة، لا من أوّل الآية بخلافه، فإنه ذهب إليه بعض المفسرين كما مر، إلا أنه أيضًا لا ينبغى القول به أيضًا، **(بأنه لو كان هذا)** الانشقاق **(لم يخف على أهل الأرض)** كلهم؛ **(إذ هو شىء ظاهر لجميعهم)**: تعليل لقوله: لم يخف.

(إذ لم ينقل إلينا عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة): أى ترقبوه ونظروا إلى مطلعه، والرصد الترقب ومنه أخذ الرصد المعروف عند المنجمين، فهو منقول منه وليس بمعنى لغوى.

(فلم يروه انشق) رأى هنا بصرية، وانشق حال: أى وقد انشق، ولا يلزم أن يعرفوا أنه سينشق فى تلك الليلة، فيرصدوه كما قيل بل يكفى فيه سماعهم له من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيرصدوا ما وعدهم به؛ ليعرفوا حال خبره وهو ظاهر، وإذ الثانية تعليل لعدم الالتفات.

ثم أجاب بجواب آخر على ما فرض تسليم ما ذكر فقال: **(ولو نُقل)** بالبناء للمجهول **(إلينا)** أنهم رصدوه، فلم يروه انشق **(عمن لا يجوز تمالؤهم على الكذب)**: أى طائفة من أهل الأرض لا يجوز اجتماعهم على الكذب فى خبرهم؛ **(لكثرتهم)**، من الملأ: وهم الجماعة المجتمعون المتفقون على أمر واحد لأنهم يملئون مكان اجتماعهم.

(لما) اللام جواب لو، و«ما» نافية فميمها مخففة **(كانت علينا به حجة)**: أى لم يكن ما أجمعوا عليه حجة ودليلا يقوم على عدم وقوعه، فعلينا مقدم من تأخير متعلق بحجة لتوسعهم فى الظرف.

(إذ ليس القمر فى حد واحد) الحد: الوصف المميز للشىء مأخوذ من الحد بمعنى الحاجز، ومنه حدود الدار أى ليس القمر على حال واحد، **(لجميع أهل الأرض)**: أى عند جميعهم؛ لاختلاف أحواله باختلاف مطالعه بالنسبة لبعض دون بعض، فقد يطلع

فى ليلة فى بعض البلاد دون بعض كما بينه علماء الهيئة، فقد يكون ليلة انشقاقه طالعا بمكة دون غيرها، فلو قال غيرهم: لم نره انشق فى تلك الليلة لم يكذبوا؛ ولذا قال المصنف: (**فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على آخرين**)؛ ولهذا لو شهد أهل بلد برؤية هلال رمضان لم يلزم غيرهم صومه كما قرره الفقهاء.

(**وقد يكون مر**): أى القمر (**من قوم بضد ما هو من مقابلتهم من أقطار الأرض**) جمع قُطر بضم فسكون وهو الناحية كالطلوع فى بعضها والخفاء فى بعض.

(**أو يحُول**) بالحاء المهملة أى يكون حائلا مانعا من رؤيته (**بين قوم وبينه سحاب أو جبال**) شاهقة، فلا يرونه مع رؤية غيرهم له؛ (**ولهذا**) أى لكونه ليس على حال واحد فى جميع أقطار الأرض (**نجد الكسوفات فى بعض**) من البلاد (**دون بعض**) منها، والكسوف معروف وهو كون جرم القمر غير مضىء مسود لحيلولة الأرض بيننا وبينه كما بين فى محله.

(**وفى بعضها جزئية وفى بعضها كلية**) والكسوف الجزئى: كسوف جزء منه، والكلى: كسوف جميع جرمه، نسبة للجزء وللكل.

(**وفى بعضها لا يعرفها إلا المدعون لعلمها**): أى فى بعض البلاد يعرف الكسوفات بعض الناس الذين يعرفون علم الهيئة دون غيرهم ممن لا يعرفونه، كالكسوف تحت الأرض فإنه يقع كثيرًا عندهم، ويترتب عليه أحكامه، وغيرهم لا يعرفها بل لا يقدر على تصورها، وعبر بالادعاء إشارة إلى أن مثله ليس بثابت عند علماء الشريعة، وليس المراد به اختلاف المطالع كما قيل، وما ذكره المصنف بناء على أن الكسوف يكون فى القمر، فلا يرد عليه ما قيل من أن الصواب أن يقال: الخسوف، قال الراغب: الخسوف للقمر، والكسوف للشمس. وقال بعضهم: الكسوف فيهما إذا زال بعض ضوئهما والخسوف إذا ذهب كله، يقال: خسفه الله وخسف هو انتهى، وقد يستعمل كل منهما بمعنى الآخر مطلقا وعليه الاستعمال فى عرف التخاطب، وعليه مشى المصنف، رحمه الله تعالى، فلا اعتراض عليه وله تفصيل ليس هذا محله.

(**ذلك تقدير العزيز العليم**) أى سير القمر وأحواله من الكسوف وغيره كله بقدرة الله العلى العظيم الغالب بقدرته على كل مقدور، المحيط علمه بكل معلوم، لا كما يقول الفلاسفة: إنه بقوة فلكية لأحكام نجومية لا يمكن تخلفها، وقيل: إنه وقع فى أصل الحكيم بدل العليم وأن صوابه العليم لأنه الموافق للتلاوة، واعتذر له بأنه لم يرد الاقتباس من القرآن، ولذا لم يقل: قال الله تعالى، والذى رأيناه فى جميع النسخ العليم.

(وآية القمر كانت ليلا): أى الآية والمعجزة بانشقاق القمر وقعت فى الليل.

قال الخطابى: الحكمة فى ذلك أن من طلبها من قريش طلبها ليلاً فأراد الله تعالى وقوعها ليلاً، ولو أراد وقوعها نهارا لتكون محسوسة لكل أحد فعل ذلك، ولكن الله جرت عادته بإهلاك كل أمة أتاها نبيها بآية عامة يدركها الحس إن لم يؤمنوا بها، فخص الله تعالى هذه الأمة برحمته فجعل آية نبيها صلى الله تعالى عليه وسلم على حال لا يقتضى إهلاكها.

(والعادة من الناس بالليل): أى فيه **(الهدوء والسكون)** عطف تفسير أى النوم وعدم الحركة كما قال: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، والهدوء بهمزة بعد الواو ويجوز إبدالها واوًا وإدغامها، **(وإيجاف الأبواب)** أى إغلاقها، بكسر الهمزة وسكون المثناة التحتية وجيم وفاء، وأصل معناه الإسراع فى السير، واستعمل فى الإغلاق؛ لأنه مما يسارع إليه عند الحاجة لا سيما ليلا، وهو تجوز سائغ شائع، فما قيل: إنه لم يوجد فى كتب اللغة فلعله هنا وجف: بمعنى اضطرب، والهمزة فيه للسلب لأن بغلق الأبواب يزول الاضطراب تكلف لا داعى له، ومن يغلق بابه ولا يخرج من بيته لا يرى القمر فكنى به عن ذلك، **(وقطع التصرف)** والنظر لشيء فضلا عن رصد النجوم، وكل هذا مبالغة فى أن هذا أمر لا يستبعد.

(ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئًا إلا من رصد ذلك): أى إلا من تقيد بالنظر إليه وترقبه ليلا، **(واهتبل به)**: أى بذل جهده واعتنى به غاية الاعتناء، من قول العرب: اهتبل الصيد: إذا طلبه من مظانه، وهو متعد بنفسه، وعداه المصنف، رحمه الله تعالى؛ بالباء لأنه ضمنه معنى الاعتناء.

(ولذلك) أى لكونه أمرًا ليليًا فى زمان غفلة ونوم **(ما يكون الكسوف القمرى كثيرًا فى البلاد)** ما زائدة لتحقيق الكلام، وقيد بالقمرى بناء على شمول الكسوف للشمس والقمر، واحترز عن الشمس لظهوره، **(وأكثرهم لا يعلم به حتى يخبر)** بالبناء للمجهول أى يخبره الناس العارفون بوقوعه، **(وكثيرًا ما)** منصوب على الظرفيه أو المصدرية وما زائدة للتأكيد، **(يحدث الثقات بعجائب يشاهدونها من أنوار)**: بيان لعجائب وجمع النور، وهو على ظاهره، لأنه قد يحدث فى الجو نور زائد على ما عهد، أو المراد به شعل نارية كذوات الأذناب التى تمتد فى الأفق بعض الليالى، وينسب لها أمور تذكر فى كتب الملاحم.

(ونجوم طوالع عظام تظهر فى الأحيان بالليل فى السماء ولا علم عند أحد منها) لأنها

تسير تحت الأرض حتى تقطع درجات فى دائرتها، وتصل إلى ما فوق الأرض فتظهر بعد الخفاء وهو مشاهد كثيرًا مفصل فى فنه.

(وخرج الطحاوى) بالخاء المعجمة المفتوحة وتشديد الراء المهملة المفتوحة قبل الجيم، والتخريج: نقل حديث بسنده من الكتب المعتمدة ومسانيد الأئمة المحدثين وبيان صحته وغيرها.

والطحاوى بفتح الطاء والحاء المهملتين وألف وواو بعدها ياء نسبة، منسوب لطحا قرية من قرى مصر، وهو الإمام الجليل القدر، المحدث أبو جعفر أحمد بن محمد بن مسلمة بن عبد الملك بن سلمة بن سليم الأزدى ثم المصرى الحنفى، لا المالكى كما قيل، ولد سنة تسع وثلاثين ومائتين، وتوفى ليلة الخميس مستهل ذى القعدة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وكان أولاً شافعيا من تلامذة المزنى، ثم تحنف وانتهت إليه رياسة الحنفية بمصر وله تآليف جليلة.

(فى مشكل الحديث) هو كتاب جليل له فى الحديث اشتهر بالآثار، **(عن أسماء بنت عميس)**: مصغر وهى زوجة أبى بكر الصديق، رضى الله تعالى عنهما، وترجمتها مشهورة، وكانت أولاً زوجة جعفر بن أبى طالب **(من طريقين)** وسندين مختلفين فى روايته هذا الحديث عنها، ورواه الطبرانى بأسانيد مختلفة، رجال أكثرها ثقات، وهذا الحديث فى رد الشمس أو حبسها لعلى، رضى الله تعالى عنه، كما سيأتى، قال ابن الجوزى: إنه موضوع بلا شك ورواياته مضطربة، وفى رواته رجال متهمون بالكذب والوضع كأحمد بن داود، فإن الدارقطنى وابن حبان قالا: إنه كذاب متروك الحديث وضاع، وعمار بن مطر متروك أيضًا ذكره الذهبى فى الميزان، وذكر كلام الناس فيه، وأنه روى حديث رد الشمس، وتعقبه بما روى عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «لم ترد الشمس إلا على يوشع بن نون»[(١)]، وفى طريقه الثانى: فضيل بن مرزوق، وقد ضعفه يحيى، وقال ابن حبان: إنه يروى الموضوعات وهذا الحديث باطل.

قال ابن الجوزى: ولا أتهم فيه إلا ابن عقبة فإنه رافضى يحدث بمثالب الصحابة، وقد رواه ابن مردويه من حديث داود بن فراهيج، عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، قال: نام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى حجر على، ولم يكن أى على صلى العصر حتى غربت الشمس فذكر نحوه، وداود ضعيف ضعفه شعبة.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٢٥)، والخطيب فى تاريخه (٧/٣٥).

قال ابن الجوزى: ومن غفلة واضعه أنه نظر إلى فضيلة ولم يتلمح إلى عدم الفائدة فيها، فإن صلاة العصر بعد غيبوبة الشمس صارت قضاء، ورجوع الشمس لا يعيدها أداء، وقد ذكر ابن تيمية الحديث فى كتاب رد الروافض بطرقه، وما فيه وأطال فيه، قلت: طالعته ورأيت ما ذكره فيه: من أن ذلك كان مرتين، وأنشد فيه شعرًا للحميرى **(أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يوحى إليه)** مرة بالصهباء **(ورأسه)** الشريف **(فى حجر على)**: جملة حالية، والحجر مثلث الحاء المهملة قبل جيم ساكنة وراء مهملة بمعنى الحضن، وهو معروف، والأظهر أن المراد أنها كانت موضوعة على ركبته وهو نائم، **(فلم يصل)** على، رضى الله تعالى عنه، **(العصر حتى غربت الشمس)**، وغابت فانتبه، **(فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعلى: (أصليت يا على؟))** بهمزة الاستفهام، وفى نسخة هل صليت؟ **(فقال: لا)**، أى لم أصلها، **(فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: اللهم إنه كان فى طاعتك وطاعة رسولك)**؛ لأنه لم يزعج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من منامه، وانتظر يقظته، **(فاردد عليه الشمس)** أى أعدها لمكانها الذى غربت منه ليصلى الصلاة فى وقتها، يقال: اردد بالفك ورد بالإدغام، وهو دعاء، وقد سمعت ما قاله ابن الجوزى أنه لا فائدة فيه بعد ما صارت قضاء ويأتى ما فيه.

(مشرقها): أى فى محل شروقها، وفى رواية شرقها وهذا فى بعض النسخ، وهو بفتح الراء وسكونها، وهو بدل من الشمس، أو منصوب على الظرفية، ومعناه ضوؤها أو ارتفاعها على الحيطان، أو انبساطها على الأرض، وقيل: إنها إنما حبست ومنعت من الحركة حتى يؤدى الصلاة فى وقتها، وينافيه قوله: **(فقالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعد ما غربت ووقفت على الأرض والجبال، وذلك بالصهباء)**: فى القاموس قلعة بقرب خيبر، وكذا قاله غيره ففى قوله: **(فى خيبر)** مسامحة، أو فيه مضاف مقدر أى فى قربها، وخيبر بوزن ضيغم أرض بقرب المدينة فيها قلاع وقرى، كان بها مساكن اليهود، ثم خربت وإليه الإشارة بقوله فى الهمزية:

ردت الشمس والشروق عليه   لعلى حتى يتم الأداء
ثم ولت لها صرير وهذا   لفراق له الوصال دواء

(قال) أى الطحاوى: **(وهذان الحديثان ثابتان)** رواية، **(ورواتهما)** أى أكثرهما **(ثقات)**، جعلهما حديثين، والمذكور حديث واحد تسمحًا؛ لأنه روى من طريقين كما ذكره، واعترض عليه بعض الشراح، وقال: إنه موضوع، ورجاله مطعون فيهم كذابون ووضاعون، ولم يرد أن الحق خلافه والذى غره كلام ابن الجوزى السابق ولم يقف على أن كتابه أكثره مردود، وقد قال خاتمة الحفاظ السيوطى وكذا السخاوى: إن ابن

الجوزى فى موضوعاته تحاملاً كثيرًا حتى أدرج فيه كثيرًا من الأحاديث الصحيحة كما أشار إليه ابن الصلاح.

وهذا الحديث صححه المصنف، رحمه الله تعالى، وأشار إلى أن تعدد طرقه شاهد صدق على صحته، وقد صححه قبله كثير من الأئمة كالطحاوى، وأخرجه ابن شاهين، وابن منده، وابن مردويه، والطبرانى فى معجمه، وقال: إنه حسن، وحكاه العراقى فى التقريب، ولفظه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم صلى الظهر بالصهباء ثم أرسل عليا فى حاجة، فرجع وقد صلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم العصر فوضع رأسه فى حجر على فنام، ولم يحركه حتى غابت الشمس، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «اللهم إن عبدك عليا إنما احتبس نفسه على نبيه، فرد عليه الشمس»[1]، إلى آخره، وإنكار ابن الجوزى فائدة ردها مع القضاء لا وجه له، فإنها فائتة بعذر مانع عن الأداء، وهو عدم تشويشه على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذه فضيلة أى فضيلة، فلما عادت الشمس حاز فضيلة الأداء أيضًا.

وقد قال ابن حجر فى شرح الإرشاد: لو غربت الشمس ثم عادت عاد الوقت أيضًا لهذا الحديث، وأما حديث أن الشمس لم ترد إلا ليوشع حين قاتل الجبارين يوم الجمعة، فلما أدبرت الشمس خاف أن تغيب الشمس، ويدخل السبت، فلا يحل له قتالهم، فدعى الله تعالى فرد الشمس، حتى فرغ من قتالهم، فقد أجيب عنه بأنه قاله قبل قصة خيبر، أو المراد أنها لم ترد لأحد من الأمم السالفة، فالحصر إضافى، مع أنه نقل ابن حجر عن المصنف، رحمه الله تعالى، فى الإكمال: أن الشمس حبست لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فى الخندق، حين شغل عن صلاة العصر حتى أدركها أداء، وما روى أنه قضاها بعد ما غربت الشمس، لعله كان فى يوم آخر، وفى تفسير البغوى والكواشى والثعلبى: أن الشمس ردت لسليمان أيضًا، وروى عن على، وضمير ﴿رُدُّوهَا﴾ [ص: ٣٣] عائد على الشمس فى الآية، لعلمها وإن لم يجر لها ذكر، وأقول: إن السيوطى صنف فى هذا الحديث رسالة مستقلة سماها كشف اللبس عن حديث رد الشمس، وقال: إنه سبق لأبى الحسن الفضلى أورد طرقه بأسانيد كثيرة، وصححه بما لا مزيد عليه، ونازع ابن الجوزى فى بعض من طعن فيه من رجاله، والحاجة التى أرسل صلى الله تعالى عليه وسلم لها عليا قسمة غنائم خيبر، وما ذكره من الحديث المعارض له لا يعارضه وهو أنه لم يكن لنبى معجزة إلا وكان لنبينا مثلها، وهذه المعجزة كانت ليوشع وسليمان.

---

(١) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/٢٩٧)، وعزاه للطبرانى، والسيوطى فى اللآلى (١/١٧٥)، والزبيدى فى الإتحاف (٧/١٩١).

ومن غريب طرقه ما رواه الطبرانى فى الكبير عن أسماء أيضًا قالت: «اشتغل على، رضى الله تعالى عنه، مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى قسمة الغنائم يوم خيبر، حتى غابت الشمس، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: يا على أصليت العصر؟، قال: لا يا رسول الله فتوضأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وجلس فى المسجد، فتكلم بكلمتين، أو ثلاثة كأنها من كلام الحبشة، فارتجعت الشمس كهيئتها فى العصر، فقام على فتوضأ، وصلى العصر ثم تكلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمثل ما تكلم به من قبل ذلك، فرجعت الشمس إلى مغربها فسمعت لها صريرًا كالمنشار فى الخشبة، وطلعت الكواكب»(١)، انتهى.

وإذا صح الحديث علم منه أن الصلاة ليست بقضاء بل يتعين بهذا الدعاء الأداء، وإلا لم يكن له فائدة فما أورده وارد عليه ولا حاجة إلى أن يقال: إنه من خصائصه، فإنه لا يقع مثله حتى يقاس عليه، وقد يقال نظيره على القول باختلاف المطالع ما لو صام أول يوم من رمضان ببلده ثم سافر وأفطر ووصل لبلد فيها الشهر ناقص، وعلم أنه تم ببلدته، فهل يلزمه قضاؤه تماما أما لا؟.

(وحكى الطحاوى عن أحمد بن صالح) هو أبو جعفر الطبى الحافظ الثقة روى عنه أصحاب السنن وتوفى سنة ثمان وأربعين ومائتين، وله ترجمة فى الميزان **(كان يقول: لا ينبغى لمن سبيله العلم)**: أى لمن طريقته، ودأبه الاشتغال بالعلم ومعرفة الحديث، فجعل نفس العلم طريقا لأنه يصل به صاحبه إلى سعادة الدارين **(التخلف عن حفظ حديث أسماء)** بنت عميس الذى روته فى رد الشمس؛ **(لأنه من علامات النبوة)** أى من الآيات الدالة على نبوته؛ لأنه معجزة عظيمة، وهذا مؤيد لصحته، فإن أحمد هذا من أكابر أئمة الحديث الثقات، ويكفى فى توثيقه أن البخارى روى عنه فى صحيحه، فلا يلتفت إلى من ضعفه وطعن فى روايته، وبهذا أيضًا سقط ما قاله ابن تيمية وابن الجوزى من أن هذا الحديث موضوع، فإنه مجازفة منهما، وما قيل من أن هذه الحكاية لا موقع لها بعد نصهم على وضع الحديث، وأن كونه من علامات النبوة لا يقتضى تخصيصه بالحفظ خلط وخبط لا يعبأ به بعد ما سمعت.

(وروى يونس بن بكير) بالتصغير وهو أبو بكر الشيبانى الإمام الثقة، وقول أبى داود: إنه ليس بحجة مردود فإن ابن معين وثقه وقال: إنه صدوق، توفى سنة تسع وتسعين ومائة وله ترجمة فى الميزان، **(فى زيادة المغازى روايته عن ابن إسحاق)** محمد بن يسار صاحب السيرة وروايته مفعول روى، **(لما أسرى برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم**

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٦/٩٧).

وأخبر قومه) من قريش بعد إسرائه (**بالرفقة والعلامة التى فى العير)** بكسر العين المهملة، وهى الإبل، والرفقة: جمع رفيق مثلث الراء، أى أخبرهم بقافلتهم ومن فيها من الجماعة المترافقين.

والعلامة هى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه يقدمها جمل أورق على ما فصل واشتهر فى السير ويأتى بعضه قريبا.

(**وقالوا: متى تجىء؟)**: جواب لما أى فى أى يوم تصل لمكة؟ وسؤالهم لامتحانه صلى الله تعالى عليه وسلم.

(**قال: يوم الأربعاء)** بتثليث الباء والمد: أى تجىء يوم الأربعاء.

(**فلما كان ذلك اليوم)** بالرفع والنصب والأول أولى؛ لأنه نعت فاعل كان التامة، بمعنى وجد، (**أشرفت قريش)** بشين معجمة وراء مهملة، أى قامت على شرف، وهو المكان المرتفع، وقوله: (**ينتظرون)**: حال أو مستأنف، أى يترقبون قدوم عيرهم، وقافلتهم فى اليوم الموعود، (**وقد ولى النهار)**: أى قارب ذلك اليوم، وهو يوم الأربعاء أن يتم ويدخل الليل بغروب الشمس فيه، (**ولم تجئ)** العير وتصل إليهم فى المكان الذى وقفوا فيه لانتظارها.

(**فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)**: أى سأل ربه وتضرع له أن يمد ذلك اليوم حتى تجىء العير قبل انقضائه، (**فزيد له فى النهار ساعة و)** ذلك أنه (**حبست له الشمس)** ساعة: أى أمسكها الله بقدرته، وعوقها عن سيرها المعتاد مقدار ساعة، حتى قدمت العير قبل غروبها فى ذلك اليوم، وقد تقدم أنها حبست له صلى الله تعالى عليه وسلم فى الخندق أيضًا.

وفى سيرة مغلطاى نقلاً عن الخطيب فى كتاب النجوم: أنها حبست لداود، عليه الصلاة والسلام، أيضًا، وقال: إنه رواية ضعيفة، وذكر البغوى وغيره فى سورة ص أنها حبست لسليمان، عليه الصلاة والسلام، حين عرض الجياد كما مر آنفًا.

(**تنبيه)**: الذى ذكر هنا من حبس الشمس، وأن العير قدمت بعد العصر قبيل الغروب، ينافيه ما ورد من أنها قدمت صباحا، وعليه اقتصر المفسرون كالزمخشرى والبيضاوى فى أول سورة الإسراء وهو أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما رجع من الإسراء قعد حزينا؛ لعلمه بتكذيبهم له فمر به أبو جهل عدو الله وقال له مُستهزءًا: هل استفدت من شىء؟ قال: «نعم أسرى بى الليلة إلى بيت المقدس، قال: وأصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم، قال: أتحدث قومك بهذا؟ قال: نعم. فنادى هلموا فانقضوا إليه

حتى جلسوا إليهما، فقال: حدثهم بما حدثتنى به، فقصه عليهم، فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا للكذب على زعمهم، وارتد ناس، وسعى بعضهم إلى أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، وقال له: هل لك فى صاحبك يزعم أنه أسرى به؟ الخ قال: قد صدق وإنى لأصدقه فيما هو أعظم من ذلك من أخبار السماء فسمى لذلك الصديق»(١).

وكان فيهم من رأى المسجد الأقصى فقالوا له: هل تستطيع أن تنعته لنا؟ قال: نعم، فنعته لهم ثم التبس عليه بعض أمره، فجئ بالمسجد الأقصى، ووضع دون دار عقيل، فنظره فنعته لهم فقالوا: أصاب، ثم قالوا له أخبرنا عن عيرنا، هل لقيتها؟ قال: نعم مررت على عير بنى فلان بالروحاء وقد ضلوا بعيرًا لهم وطلبوه، وفى رحالهم قدح ماء وعطشت فشربته، فسألوهم هل وجدوا ماء فى قدح؟ قالوا: نعم، وهذه آية، قال: ومرت بعير بنى فلان وفلان راكب قعودا نفر فوقع وانكسر؟ قالوا: نعم وهذه آية، قالوا: فأخبرنا عن عيرنا، قال مررت بها بالتنعيم، قالوا: أخبرنا عن عدتها وأحمالها وهيآتها ومن فيها، قال: كنت فى شغل عن ذلك، ثم مثلت له فنعت ذلك لهم، وقال: يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع الشمس. قالوا: نعم. وهذه آية أخرى، ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية، وقالوا: لقد قضى محمد بيننا وبينه، حتى أتوا كدا، فجلسوا ينتظرون طلوع الشمس كى يكذبونه، فقال قائل منهم: هذه الشمس قد طلعت.

وقال آخر: هذه الإبل قد طلعت يقدمها بعير أورق فرأوا فيها كل ما ذكره، فقالوا: إنْ هذا إلا سحر مبين. انتهى مع طى لبعض ألفاظه، وهذا منافٍ لما رواه المصنف رحمه الله تعالى، والعجب من بعضهم إذ أورد هذا هنا، ولم ينتبه لما قلنا.

فوالله ما أدرى أأحلام نائم ... ألمت بنا أم كان فى الركب يوشع

(لطيفة) من الاتفاقات الحسنة أن المظفر الواعظ ذكر يومًا قريب الغروب فضائل علىّ كرم الله وجهه ورد الشمس له، والسماء مغيمة غيمًا مطبقًا، فظنوا أن الشمس غربت وهموا بالانصراف، فأضحت السماء، ولاحت الشمس صافية الإشراق، فأشار إليهم بالجلوس وأنشد ارتجالا:

لا تغربى يا شمس حتى ينتهى ... مدحى لآل المصطفى ولنجله
واثنى عنانك إذ أردت ثناهم ... أنسيب إذ كان الوقوف لأجله

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف (٣٠٥/١٤).

إن كـان للمولـى وقوفك فليكـن هـذا الوقـوف لخيلـه ولرجلـه

* * *

(فصل فى نبع الماء من بين أصابعه)

[وتكثيره ببركته]

أى خروجه من بين أصابعه صلى الله تعالى عليه وسلم معجزة له، يقال: نبع ينبع نبعًا ونبوعًا، من باب نصر وعلم وضرب، ومنه: الينبـوع لعـين المـاء، وهـو مصـدر مضـاف لفاعله.

(وتكثيره ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم) أى تكثير الماء ببركة وضـع يـده الشـريفة فيه، وهو نبع أيضًا وإن لم يشاهده الناس.

وقد كان هذا مرات كثيرة، ورويت بطرق متعددة فـى الصحيحـين وغيرهمـا، ففـى بعضها أتى بقدح، وفى بعضها جفنه، وفى بعضها ميضـأة، وهـى إنـاء معـدة للوضـوء، وفى بعضها مزادة والماء قليل، فكفى جماعة كثيرة، وفى بعضـها كـانوا خمسـمائة، وفـى بعضـها ثمانمائـة، وفـى بعضـها خمسـمائة، وألـف إلى غـير ذلـك مما اعتنـوا بجمعـه فـى المعجزات.

وهذه المعجزة أعظم من معجزة موسى، عليه الصـلاة والسـلام، إذ نبـع لـه المـاء مـن الحجـر؛ لأنـه معتـاد (﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾) [البقـرة:٧٤] الآيـة، وأما خروجه من لحم ودم فلم يعهد كما قال الشاعر:

إن كان موسى سقى الأسباط من حجـر فإن فى الكـف معنـى ليـس فـى الحجر

ولله در البوصيرى فى قوله فى لاميته(١):

ومنبـع المـاء عذبـا مـن أصابعـه وذى أيـاد عليهـا قـد جرى النيـل

قالوا: وهذا الماء أفضل من ماء زمزم والكوثر.

ويحتمل قوله: وتكثيره أن لا يكون عطف تفسير، بل من عطف الأعم علـى الأخـص ليشمل ما كان بدعائه، وتفل ريقه فيه وهو الأظهر.

والبركة: اليمن وأصل معناه: زيادة الخير، فهو مناسب هنا جدا.

(أما الأحاديث فى هذا فكثيرة جدًا): أى كثيرة عظيمة تفـوت الحصـر، وهـو مصـدر لازم النصب والتنكير، وفيه إيماء إلى أنها لا تدرك إلا بغاية الجد والاجتهاد فيها.

---

(١) تقدم الاستشهاد به.

وقال النووى، رحمه الله تعالى: إنها بلغت مرتبة التواتر.

(روى حديث نبع الماء من بين أصابعه صلى الله تعالى عليه وسلم جماعة من الصحابة) بفتح الصاد مصدر فى الأصل كالصحبة ثم جمعا للصحابى، **(منهم أنس، وجابر، وابن مسعود)**، رضى الله تعالى عليهم.

وأشار بمن التبعيضية إلى أنه روى عن كثير غير هؤلاء كبلال، وابن عباس، رضى الله تعالى عنهما؛ لأنه وقع بين الجم الغفير منهم فى الحديبية وغيرها، كما قال أولاً: إن أحاديثه كثيرة جدًا فلا حاجة لما قيل: إن الكثرة باعتبار المخرجين لها فى كتبهم من أئمة الحديث، حتى صار متواترا تواترا معنويًا، وإنما نص على رواية هؤلاء؛ لقوة صحتها برواية الإمام مالك والشيخين لها.

(حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر الفقيه، رحمه الله تعالى، بقراءتى عليه) هو ابن أحمد الفاسى اللواتى نسبة للواتة بفتح اللام والواو المخففة تليها مثناة فوقية، وهو شيخ المصنف، رحمه الله تعالى، قال: **(حدثنا)** القاضى **(عيسى بن سهل)**: ضد الصعب، وتقدمت ترجمته، قال: **(حدثنا أبو القاسم)** حاتم بن محمد، كما تقدم فى ترجمته قال: **(حدثنا أبو عمر بن الفخار)**: بفتح الفاء وتشديد الخاء لقب بمعنى كثير الفخر، ونوع من الأوانى تجعل من الطين ولذا قيل:

لا يفخرن امرؤ بذات يد   فالكسر يدنو لكل فخار

وقيل على المصنف، رحمه الله تعالى: إن الصواب أبو عبد الله بن الفخار، قال ابن رشد: أبو عمر الذى يروى عن أبى عيسى ليس بابن الفخار، وإنما هو ابن القطان الفقيه، وهو أبو عمر أحمد بن محمد بن عيسى القرطبى، المتوفى سنة ستين وأربعمائة.

وبقراءته على أبى عيسى سمع الموطأ يونس بن المعتب لكن ابن أبى حاتم لم يذكر الرواية عنه، وإنما يروى عن عبد الله محمد بن عمر بن الفخار المتوفى سنة تسع عشرة وأربعمائة، ففى كلام المصنف، رحمه الله تعالى، سهو من وجهين إذ سماه أبو عمر، وهو أبو عبد الله، وفى قوله قال: **(حدثنا أبو عيسى)** قال: **(حدثنا يحيى)** إذ أسقط راويًا بين أبى عيسى ويحيى وهو عبيد الله أبو مروان.

وقد ذكر المصنف، رحمه الله تعالى، على الصواب فى غير هذا المحل فيما مر، وفيما سيأتى.

وأبو عيسى هذا هو يحيى بن عبد الله بن يحيى بن كثير صاحب مالك، وراوى الموطأ عنه، وليس من قبيل الانقطاع لتصريحه بصيغة التحديث، اللهم إلا أن يقال: إنه جعل

اتصاله فى غير هذا المحل قرينة على تقديره هنا، فليتأمل.

قال أبو محمد القرطبى: صوابه حدثنا عيسى، حدثنا عبيد الله إلخ، وصوابه: أبو عيسى بالكنية لا عيسى بالاسم؛ لأن أبا عيسى إنما تحمل، عن عبيد الله بن يحيى، عن أبيه يحيى.

وأبو عيسى هو يحيى بن عبد الله بالتكبير ابن يحيى، سمع عم أبيه عبيد الله بالتصغير ابن يحيى، وقد تقدم على الصواب فى فصل الحلم والاحتمال ويأتى أيضًا كذلك فى فصل كنيتة.

قال: (**حدثنا مالك**) إمام دار الهجرة المشهور (**عن إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة**) الإمام المشهور الفقيه وأنس عمه، توفى سنة اثنين وثلاثين ومائة (**عن أنس بن مالك**) قال، فيما رواه مالك فى موطئه عنه، والشيخان عنه: (**رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم**)، وقد (**حانت صلاة العصر**)، بمهملة ونون: أى قربت، أو دخل وقتها، وهو مأخوذ من الحين بمعنى الوقت، (**فالتمس الناس الوَضوء**) بفتح الواو، وهو الماء الذى يتوضأ به، ويجوز ضمها. والالتماس افتعال من اللمس بمعنى المس، ثم صار حقيقة فى مطلق الطلب (**فلم يجدوه فأتى**) بالبناء للمجهول (**بوضوء**): تقديره بإناء وضوء بقرينة قوله: (**فوضع يده فيه**).

وفى مسلم: بقدح زجاج (**وأمر الناس أن يتوضئوا منه قال**): أى أنس (**فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ الناس من عند آخرهم**)، أى جميعهم، وتقدم معنى ينبع وأنه بتثليث الباء، وقد قالوا: إنه يحتمل أن الماء خرج من أصابعه صلى الله تعالى عليه وسلم، حقيقة وهو الظاهر.

ويحتمل أنه كثر من غير نبع منها، وإنما وضع يده فيه سترًا عن الناس؛ حتى لا يروه فيفتتن بعضهم به، وتأدبًا مع الله الذى لا يُوجِدُ المعدوم سواه.

وأصابع جمع أصبع، وفيه عشر لغات: تثليث الهمزة مع تثليث الباء، والعاشرة أصبوع، قال ابن مالك، رحمه الله تعالى:

تثليث با أصبع مع ضم همزته والفتح والكسر والأصبوع قد كملا

وعند مثلث العين والأفصح الكسر، وهى ظرف مكان يلزم النصب على الظرفية، أو الجر بمن، ويتجوز بها عن العلم وغيره من معانيه.

وقوله: من عند آخرهم لفظ مسموع من فصحاء العرب قديمًا، وقال النووى: إنه لغة لبعضهم، وعندهم من للغاية بمعنى إلى، ولم يأت على الأصل؛ لأن إلى عنده لحن

عندهم، ونقله عن سيبويه.

وقيل: بل هى هنا ابتدائية لابتداء الغاية إذ لم تسمع بمعنى إلى، وأنه كناية عن الاستيعاب والشمول، والمعنى: توضئوا كلهم بحيث لو قيل: إن ابتداء وضوئهم كان من آخرهم صدق قائله.

أقول: سمع أيضًا: من آخرهم بدون عند كما فى الكشاف فى أول البقرة، وما ذكره ركيك جدًا، فالصواب، أن يقال: إنه كناية، كما قال، وتوجيهه أن ماء الوضوء كأنه مأخوذ ومبذول من آخرهم، والمعروف أنه لا يبذل إلا ما فضل عن حاجته، فكأنهم بذلوه لأولهم ولمن بعدهم، وما قاله النووى أسهل وأظهر، وقد نقل أنه لغة فى شرح مسلم، وهى عبارة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ولشراح الكشاف فيه كلام فيها.

(ورواه أيضًا)، أى كالرواية السابقة **(عن أنس)**، رضى الله عنه، **(قتادة)** كما فى صحيح مسلم.

(قال)، أى أنس: فى هذه الرواية فأتى **(بإناء فيه ماء)**.

الإناء بكسر الهمزة مفرد، وتقدم أن آنية جمعه، وليس مفردًا كما يتوهم.

(يغمر أصابعه) بالغين المعجمة وميم وراء مهملة: هو ما يسترها، ومنه استعير الغمرة للشدة، **(أو لا يكاد يغمرها)**: يعنى أنه قليل لا يغطيها.

وتقدم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، فعله تسترًا وتأدبًا مع الله تعالى الذى لا يوجد المعدوم سواه.

وكاد للمقاربة ونفيها أبلغ من نفى الفعل الذى هو خبرها، والكلام عليها مشهور فلا حاجة لتكثير السواد به هنا كما فعله بعضهم.

(قال): أى قتادة لأنس، رضى الله تعالى عنه: **(كم كنتم؟)** معاشر الناس الذين توضئوا من ذلك الماء.

(قال: زهاء) بضم الزاء المعجمة والمد، ويقال أيضًا لهاء باللام: أى مقدار **(ثلاثمائة)** رجل، وأصل الزهاء: العدد الذى يقدر بالتخمين، فقد ينقص أو يزيد بمقدار يسير، يقال: زهوت القوم إذا حذرتهم وقدرتهم من غير عد حقيقى، وليس من الزهو بمعنى الفخر والعجب.

(وفى رواية عنه)، أى عن أنس، رضى الله تعالى عنه، **(وهم بالزوراء عند السوق)**، الزوراء: مكان مرتفع قريب من مسجد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، بالمدينة، وثمة سوقها.

(ورواه) أى حديث نبع الماء **(أيضًا حميد)** بالتصغير، وهو المعروف بالطويل، واختلفوا فى اسمه. فقيل: تير، وقيل: تبرويه. وقيل: طرخان، وقيل غير ذلك، وهو أبو عبيدة مولى طلحة الطلحات الخزاعى أو الدارمى، مات وهو قائم يصلى سنة اثنين وأربعين ومائة وهو ثقة، أخرج له الأئمة الستة إلا أنه نسب للتدليس، وترجمته فى الميزان.

(وثابت والحسن) بن أبى الحسن البصرى كما تقدم **(عن أنس)**.

وتفرد البخارى عن مسلم بالرواية الأولى والثالثة واتفقا على الثانية.

(وفى رواية حميد قلت: كم كانوا؟ قال:) كانوا **(ثمانين ونحوه عن ثابت عنه)**، أى عن أنس، **(وعنه أيضًا)**، أى عن أنس **(وهم نحو من سبعين رجلاً)**، وفى مسلم عنه أيضًا بين الستين إلى الثمانين، وحمل اختلاف الرواية عنه على أنهما كانا قضيتين فى وقتين، ووقعتا حال حدث عنهما، وإذا كان الأمر على التقريب والتخمين، فلا إشكال أيضًا.

(وأما ابن مسعود ففى الصحيح)، أى الحديث الصحيح أو صحيح البخارى **(عنه)** أى عن ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، **(من رواية علقمة)** تقدم ترجمته **(بينا نحن مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)**: أى كانوا مجتمعين عنده.

وبين ظرف والألف فيه إشباع كافة عن الإضافة كما ذكره النحاة، وفى نسخة: بينما وهى كبينا فيما ذكر، وتقع بعدها الجملة الاسمية والفعلية، وقد يتلقى بإذ وإذا والأصمعى يستفصح تركهما كما هنا.

(وليس معنا ماء فقال لنا: اطلبوا من معه فضل ماء)، أى بقية من ماء كان أو زيادة منه على حاجته، وقد مر أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، إنما طلبه تسترًا لئلا يتوهم أنه موجد له من العدم دون الله، وهو الواجد الموجد لكل فتأدب بذلك مع الله، لو شاء لأوجده بدعائه وطلبه له من الله تعالى، ولو شاء لأوجده ابتداء من غير شىء.

(فأتى بماء) بالبناء للمجهول، والفاء فصيحة، أى فطلبوا الماء فوجده بعضهم وأتى به **(فصبه فى إناء)** أى صبه وسكبه فى إناء آخر مكشوف، وكأنه أتى به فى مزادة لا تدخلها اليد، **(ثم وضع كفه فيه)**: أى فى الإناء الثانى، والعطف بثم، لما بينهما من تراخ يسير بدعائه، أى فدعا الله تعالى، ثم إلى آخره.

(فجعل ينبع) بتثليث الموحدة كما مر، وجعل بمعنى صار وليس الإسناد مجازيًا كما قيل **(من بين أصابعه صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وهذه القصة هى المتقدمة، وإنما أعادها إشارة إلى تعدد طرقها الدالة على ذلك، ويحتمل أنها غيرها.

(وفى الصحيح)، أى صحيح البخارى، أو المراد فى الحديث الصحيح له ولغيره **(عن**

سالم بن أبى الجعد) الأشجعى الكوفى، وهو من كبار التابعين الثقات روى عن ابن عباس وغيره، توفى سنة مائة وله ترجمة مفصلة فى الميزان.

(عن جابر، رضى الله تعالى عنه: عطش الناس يوم الحديبية): وهو يوم معروف بمكان معروف بين مكة والطائف، وهو مصغر وياؤه مخففة على الأفصح فيه الفتح، ويجوز تشديدها كما تقدم.

(ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، بين يديه) أى عنده فى مكان قريب منه **(ركوة)** بتثليث الراء المهملة وكاف وواو، والأفصح فيه الفتح، وجمعه ركاء بالكسر والمد، وهى إناء للماء من جلد كالإبريق **(فتوضأ)** صلى الله تعالى عليه وسلم، **(منها وأقبل الناس نحوه)**: أى جاءوا له ﷺ، **(وقالوا له: ليس عندنا ماء إلا ما فى ركوتك)** جملة حالية والاستثناء متصل.

(فوضع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يَده فى الركوة فجعل الماء يفور): أى ينبع ويرتفع لزيادته **(من بين أصابعه كأمثال العيون)**: أى كان بين كل أصبعين من أصابعه الشريفة عين ماء نابعة.

(وفيه) أى فى حديث سالم هذا **(فقلت)** لجابر، رضى الله تعالى عنه، **(كم كنتم؟)**: معاشر الصحابة **(قال: لو كنا مائة ألف لكفانا)** ذلك الماء لما شاهد من فورانه الدال على عدم انقطاعه.

(كنا خمس عشرة مائة) يعنى ألفًا وخمسمائة رجل، وهم أصحاب الشجرة وبيعة الرضوان، وقد اختلف فى عددهم وهذه رواية مشهورة، ولذا اقتصر عليها المصنف، رحمه الله تعالى.

وقيل: كانوا ألفًا وأربعمائة، وصحح هذه الرواية البيهقى. **وقيل**: كانوا ألفًا وستمائة. **وقيل**: ألفًا وخمسمائة وأربعون. **وقيل**: وخمسة وعشرون. **وقيل**: وثمانون. **وقيل**: وثلاثمائة.

وجمع ابن دحية، رحمه الله، بين الروايات بأنه كان حزرًا وتخمينًا، لا تحقيقًا وتحديدًا ورواية سبعمائة وَهْم من راويها.

(وروى مثله) بالبناء للمجهول، أى مثل حديث سالم المذكور **(عن أنس عن جابر)** صحح فى النسخ بدون عاطف بينهما، فإن صح هذا، فليس رواية أنس عن جابر، رضى الله تعالى عنه، فى الكتب الستة كما قاله البرهانى الحلبى.

(وفيه) أى فى هذا الحديث **(أنه كان بالحديبية)** كما فى الرواية التى قبله.

(وفى رواية الوليد بن عبادة بن الصامت عنه) أى عن جابر، رضى الله تعالى عنه، والوليد هذا ولد فى حياته صلى الله تعالى عليه وسلم وتوفى فى خلافة عبد الملك بن مروان، وهو ثقة لكنه قليل الحديث وأخرج له الشيخان والترمذى وابن ماجه، وهو يروى عن أبيه **(فى حديث مسلم الطويل)**: صفة للحديث.

(فى ذكر غزوة بواط) بضم الباء الموحدة، وفتح الواو المخففة، وألف، وطاء مهملة، وهى ثانى غزواته، وهى مفصلة فى مسلم وغيره، ويجوز فتح بائه أيضًا وهى اسم لجبال لجهينة على أبراد من المدينة، فهى بقرب الينبع، وكانت فى ربيع الأول سنة اثنين وفى هذا الحديث معجزات له صلى الله تعالى عليه وسلم.

(قال: قال لى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: يا جابر ناد الوضوء) ناد أمر من النداء محذوف الآخر المعتل، والوضوء بفتح الواو وهو منصوب بمقدر، ومفعول ناد مقدر أيضًا أى ناد الناس، وقل لهم: أعطوا أو ناولوا الوضوء وهو الماء الذى يتوضأ به، وفيه حث لهم عليه.

(وذكر الحديث بطوله) وفيه أن رجلاً من الأنصار يبرد لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ماء فى سقاء، فلما أخبره أنه نادى فلم يجد الماء، قال له: انطلق إلى فلان الأنصارى، فانظر هل فى أشجائه من شىء؟ قال: فانطلقت إليه وأخبره بماء عنده، **(وأنه لم يجد)** عند الأنصارى **(إلا قطرة)** أراد ماء قليلا جدا **(فى عزلاء شجب)** بالإضافة أى فم قربة بالية وعزلاء بفتح العين المهملة، وسكون الزاء المعجمة، ولام بعدها مدة وهمزة، وهو فم الرواية ومصب الماء منها، وجمعه عزالى بفتح اللام وكسرها، وشجب بفتح الشين المعجمة قيل أو كسرها وسكون الجيم وباء موحدة: ما قدم من القرب أو أعواد تعلق عليها القرب ونحوها، وجمعه شجب وأشجاب وأصل معناه: الهلاك، **(فأتى به)** بالبناء للمفعول، ويجوز بناؤه للفاعل، والرواية الأولى وضمير به للمذكور **(النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فغمزه)** بفتح الغين المعجمة والميم والزاء المعجمة، أى وضع يده عليه وكبسه بها، والغمز هنا كالذى فى قوله[1]:

وكنت إذا غمزت قناة قوم كسرت كعوبها أو تستقيما

---

(١) البيت من الوافر، وهو لزياد بن الأعجم فى ديوانه (ص١٠١)، الأزهية (ص١٢٢)، شرح أبيات سيبويه (٢/١٦٩)، شرح التصريح (٢/٢٣٧)، شرح شواهد المغنى (١/٢٠٥)، شرح شواهد الإيضاح (ص٢٥٤)، لسان العرب (٥/٣٨٩)، الكتاب (٣/٤٨)، المقاصد النحوية (٤/٣٨٥)، المقتضب (٢/٩٢)، وبلا نسبة فى شرح الأشمونى (٣/٥٥٨)، شرح المفصل (٥/١٥)، شرح ابن عقيل (ص٥٦٩)، مغنى اللبيب (١/٦٦)، المقرب (١/٢٦٣)، أوضح المسالك (٤/١٧٢).

والغمز بالغين الإشارة بها معنى آخر.

(وتكلم بشىء لا أدرى ما هو)، وفى الحديث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم جعل يتكلم بشىء لا أدرى ما هو، فكأنه سر من أسرار الله تكلم به بالسريانية ونحوها؛ ليخفى على غيره وقد تقدم حكاية مثله فى رد الشمس المتقدم.

(وقال: ناد بجفنة الركب): الجفنة كالقصعة لفظا ومعنى، وهى التى تشبع عشرة فأكثر ودونها الصحفة، ثم المأكلة.

والركب، بفتح ثم سكون: اسم جمع لراكب، والمراد الناس وأن يكونوا راكبين بالفعل، وهذا وقع فى رواية لقتادة، والذى فى مسلم ناد بجفنة، فكأنه لم يكن معهم إلا جفنة واحدة، وضمن ناد معنى ائت بها، بدليل قوله:

(فأتيت بها) بالبناء للمفعول كما قاله البرهان وغيره، ويجوز البناء للفاعل وقيل مفعوله محذوف: أى ناد القوم ليأتوا بجفنتهم، أو هى مُنَزَّلَةٌ مَنْزِلَةَ من يعقل، لا أن الله تعالى خلق فيها إدراكا حتى تنادى هى فتأتى بنفسها، ويكون ذلك معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ لأنه لم ينقل لنا مثله.

(فوضعتها بين يديه وذكر) جابر، رضى الله تعالى عنه، **(أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بسط يده)** بالسين والطاء، وبهما قرئ أى وضع يده الشريفة **(فى الجفنة)** مبسوطة ليكون أبرك.

(وفرق أصابعه وصب جابر عليه) ما كان فى القربة من الماء **(وقال)** أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: **(بسم الله)** أتبرك وأطلب نبع الماء، ويحتمل القسم لصحة نيته بذلك، واقتصر عليه؛ لأنه المأثور فى سائر الأفعال لا لبيان أنه يجزى بدون الرحمن الرحيم كما قيل.

ولو قلنا: فاعل قال بسم الله جابر كان أوفق بما فى الرواية من أنه وضع يده فى قعر الجفنة، وقال: خذ يا جابر صب على، وقل بسم الله فصببت عليه صلى الله تعالى عليه وسلم وقلت: بسم الله، فلا يقال: كيف استبد جابر بالصب من غير إذن؟ وأن المصنف، رحمه الله تعالى، غير الرواية ونسب لجابر ما لم يقله.

فيجاب بأن كمال جابر وما علم من آداب الصحابة رضى الله تعالى عنهم معه صلى الله تعالى عليه وسلم قرينة على ما ذكر.

(قال) جابر، رضى الله تعالى عنه: **(فرأيت الماء يفور)** أى يزيد ويرتفع حتى يتدفق، من فار القدر إذا غلا ما فيه **(من بين أصابعه)** صلى الله تعالى عليه وآله وسلم **(ثم فارت**

الجفنة) أى فار ماؤهـا، ففيه مضاف مقدر، أو الإسناد مجازى للمبالغة فى فورانه، **(واستدارت)** أى دار ماؤها لأن الماء إذا زاد بسرعة يرى كأنه يدور، وليس المراد أن الجفنة نفسها استدارت؛ لعظم الأمر فإنه لا محصل له.

(حتى امتلأت وأمر الناس بالاستقاء فاستقوا حتى رووا) أى أخذ كل منهم من الماء ما يكفيه ودوابه، وشربوا حتى ذهب عطشهم، والرى مقابل العطش.

وفيما رواه المصنف، رحمه الله، بعض مخالفة لما فى صحيح مسلم بحسب اللفظ دون المعنى، كقوله: ودارت وفى بعض نسخه: فارت الجفنة ثم فارت بالتكرار.

(فقلت: هل بقى أحد له حاجة)؟ أى قال جابر: فقلت إلى آخره، وهل هنا قيل: إنها نافية كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(هل ترك لنا عقيل من دار؟)** ويجوز أن تكون استفهامية.

وقوله: **(فرفع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يده من الجفنة)** الفاء فيه فصيحة أى فقال: لا فرفع إلى آخره، وحديث جابر هذا ليس فى شىء من الكتب الستة غير مسلم، **(وهى ملأى)** بوزن سكرى أى مملوءة بالماء لم ينقص شيئًا بما أخذوه.

(وعن الشعبى): هو من كبار التابعين فحديثه هذا مرسل، والمرسل يستدل به عند مالك، والمصنف، رحمه الله تعالى، مالكى المذهب.

(أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم) بالبناء للمجهول أى أتاه بعض الصحابة **(بإداوة)** بكسر الهمزة وفتح الدال المهملة وألف وواو وهاء وجمعها أداوى وهى إناء صغير للماء من جلد؛ ولذا أضافها لقوله: **(ماء فى بعض أسفاره، وقيل: ما معنا يا رسول الله ماء غيرها فسكبها فى ركوة)**: أى صبها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بنفسه أو أمر بصبها، **(ووضع أصبعه)** بالإفراد، وقد تقدم لغات الأصبع وأنها عشرة.

(وسطها) بفتح السين وسكونها وهو منصوب على الظرفية أى وضعه فى وسط مائها، وفى الفرق بين الوسط مسكنا ومحركا كلام فى كتب العربية ليس هذا محله، وبيناه فى شرح الدرة، وتقدم فيما مر ما فيه الكفاية.

(وغمسها فى الماء): تفسير لما قبله، والغمس بغين معجمة الإدخال.

(وجعل الناس يجيئون ويتوضئون) جعل هنا بمعنى صار وطفق نحو: جعل زيد يقول كذا، وهو أحد معانيه الخمسة. **(ثم يقومون)** بعد الوضوء.

(قال الترمذى): أبو عيسى إمام أهل السنة المشهور صاحب الجامع وغيره.

(وفى الباب): أى فى هذا الباب الذى ذكر فيه معجزاته ونبع الماء، **(عن عمران بن**

حُصَين) بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين أى روى عنه مثله.

(ومثل هذا) الأمر المعجز المروى فى هذا الحديث **(فى هذه المواطن)** جمع موطن، وهو موضع التوطن، وهو هنا بمعنى المجالس **(الحفلة)** بفتح الحاء المهملة وكسر الفاء واللام والهاء: أى الكثيرة الناس، **(والجموع الكثيرة)** أى جموع الناس الكثيرة فى مثل هذه المحافل **(لا تتطرق التهمة)** بضم المثناة الفوقية وفتح الهاء ويجوز تسكينها وهاؤه مبدلة من الواو.

والتهمة ما يتوهم ويظن فى شىء على خلاف الواقع، وقيل: التسكين غلط وهو ظاهر ما فى القاموس والصحاح، ولا يكون إلا اسما لما يتهم به، وقيل: إنه بالسكون مصدر وبالفتح اسم كما فى شرح المفتاح لابن كمال، وفيه نظر.

ويتطرق بمعنى يصل وأصل معناه يجد طريقا **(إلى المحدَّث به)** بفتح الدال المهملة المشددة وكسرها؛ **(لأنهم كانوا أسرع شىء إلى تكذيبه)** أى تكذيب المخبر عنه والخبر لوقوعه بين ناس كثيرين لا يمكن تواطؤهم على الكذب **(لما جبلت عليه النفوس من ذلك)** أى الإسراع إلى التكذيب **(ولأنهم)** أى من حضر تلك المحافل **(كانوا ممن لا يسكت على باطل)** فلا يقرونه على ما قاله إذا كذب فيهم، وهم عرفوا خلافه ولا يخافون فى الله لومة لائم.

(وهؤلاء) المذكورون من الصحابة وغيرهم **(قد رووا هذا)** الحديث الذى فيه نبع الماء من بين أصابعه صلى الله تعالى عليه وسلم **(وأشاعوه ونسبوا حضور الجماء الغفير له)** أى قالوا: إنه وقع فى محافل ناس لا يحصون كثرة، فلا يمكن كونه كذبا، وحضور الجماء الغفير كجاؤا الجماء الغفير: أى كلهم شريفهم ووضيعهم بحيث لم يتخلف منهم أحد، وفيه لغات واستعمالات كثيرة ذكرها فى القاموس، وليس هذا محل تفصيلها، **(ولم ينكر أحد من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم)** أى لم يقل أحد أن ما نقلوه من هذه المعجزة أنها لا أصل لها ونحوه **(أنهم فعلوه وشاهدوه)** بفتح همزة أن بدل من ماحدثوا وما فعلوه، كوضوئهم وتقديمهم الإداوة وصب الماء وغيره مما تقدم، وما شاهدوه من نبع الماء وتدفقه وكثرته.

(فصار) ما ذكر من كثرة من نقله من عدول الصحابة وعدم إنكار غيره **(كتصديق جميعهم له)** أى لذلك الخبر، والحديث، فيتواتر تواترًا معنويًا وأمرًا مجمعًا عليه، وفى نسخة لهم.

* * *

(فصل)

(ومما يشبه هذا) أى من المعجزات المشبهة لنبع الماء من بين أصابعه صلى الله تعالى عليه وسلم.

(من معجزاته): بيان لما أو حال من اسم الإشارة **(تفجير الماء ببركته)** صلى الله تعالى عليه وسلم.

والتفجير: الشق الواسع، يقال: فجر الأرض فانفجرت وتفجرت، ومنه الفجر بمعنى الصبح فإضافته للماء إضافة مجازية من إضافة ما للمحل إلى الحال، قال عز وجل: (﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾) [القمر:١٢].

أو التفجير مجاز بمعنى الإخراج، وهو شائع فيه وقوله: ببركته: أى بيمنه وجوده فى مكان أخرج منه الماء.

والبركة الخير الدائم وهى فى الأصل من البرك وهو الموضع الذى يضعه البعير على الأرض إذا برك، ومنه البركة وهو الموضع الذى يحبس فيه الماء، وقوله تبارك وتعالى ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ [المؤمنون: ٢٩] أى كثير الخير، وتبارك الله بمعنى زاد خيره الذى أفاضه على عباده، وهو لا ينصرف ولا يستعمل فى غير الله.

(وابتعاثه): وهو افتعال من البعث، وهو الإثارة والإخراج للماء حتى يجرى **(بمسه ودعوته)** أى بلمسه لمحله ودعائه فيه، وأخر هذا عن نبعه من بين أصابعه؛ لأن الأول أقوى فى المعجزة لاحتمال هذا لكونه من الاتفاقيات كغيره من الماء الجارى، وفى بعض النسخ انبعاثه من الانفعال بالنون، وهما بمعنى واحد مطاوع بعثه فانبعث وابتعث، كانشوى واشتوى وجعل هذا مشبها بذاك لما تقدم.

(مما روى مالك فى الموطأ) ومسلم فى صحيحه وعزاه المصنف للموطأ دونه؛ لأن روايته له أعلى سندا عنده، أو لترجيح روايته **(عن معاذ بن جبل)** الصحابى المشهور، رضى الله تعالى عنه، **(فى قصة غزوة تبوك)** بفتح المثناة الفوقية: اسم مكان بين الشام والمدينة غزاه صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزوة مبينة فى السير.

(وأنهم) أى الجيش الذين كانوا معه صلى الله تعالى عليه وسلم **(زردوا العين)** تعريفها للعهد: أى عينا بتبوك نزلوا عليها فى سفرهم هذا، **(وهى تبض)** مضارع بض بزنة رد بموحدة وضاد معجمة مشددة، من بض الماء: إذا سال سيلانا قليلا، ويجوز أن يكون بصاد مهملة من بص إذا لمع وبرق، وهو رواية فيه، وهو كناية عن قلة الماء، ولذا قال: **(بشىء من ماء مثل الشراك)** بكسر الشين المعجمة وفتح الراء المهملة وألف وكاف:

وهو سير النعل الذى يكون على وجهه، وشبهه به لقلته وضعف جريانه، وليس بمعنى أخدود فى الأرض، كما قيل.

(فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع) الماء الذى غرفوه **(فى شىء)** من الأوانى التى كانت معهم، وليس فيه قلب وأن الأصل: غرفوا فى شىء حتى اجتمع ماء كثير كما توهم.

(ثم غسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيه وجهه ويديه) ضمير فيه للشىء بمعنى الإناء، أو للماء وكان الظاهر منه، ولكنه لمشاكلة قوله: **(وأعاده فيها)** أى فى العين التى غرفوا منها، وضمير أعاده للماء لا للوجه كما توهم.

(فجرت بماء كثير): أى جرى من تلك العين ماء كثير، **(فاستقى الناس)**: أى شربوا وسقوا دوابهم.

(قال) معاذ بن جبل، رضى الله تعالى عنه، **(فى حديث ابن إسحاق)** صاحب السير فيما رواه عن معاذ فى سيرته **(فانخرق)** بنون وخاء معجمة وراء مهملة وقاف: أى انفجر انفجارًا بشدة **(من الماء ماله حس كحس الصواعق)** الحس بحاء وسين مهملتين: بمعنى الصوت المحسوس بحاسة السمع، وهو مجاز مشهور، يقال: لمشيه حس: أى يسمع حركته، والصواعق يكون معها أصوات شديدة من الصعقة وهى الصيحة، وهو من تشبيه المحسوس بالمحسوس، وهذا كان فى رجعته صلى الله تعالى عليه وسلم من تبوك كما قال ابن إسحاق، ثم انصرف قافلاً من تبوك إلى المدينة، وكان فى الطريق ما يخرج من وشل ما يروى الراكب والراكبين والثلاثة بواد يقال له: وادى المشقق فذكر القصة.

(ثم قال) النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد جرى الاستقاء: **(يوُشِك)** بضم الياء المثناة التحتية وواو وشين معجمة مكسورة وكاف: مضارع أوشك، وفتح شينه لغة ردية كما فى القاموس وغيره، ومعناه يقرب ويسرع من غير بطء **(يا معاذ إن طالت بك حياة)** أى إن أطال الله عمرك، ورأيت هذا المكان **(أن ترى)** بعينك، وهو فاعل يوشك وأن بالفتح مصدرية **(ما هاهنا)** ما موصولة أى الذى هاهنا وهو إشارة للمكان **(قد مُلِئَ)** بالبناء للمجهول **(جِنانا)** منصوب على التمييز وهو بكسر الجيم: جمع جَنة بفتحها، وهى البستان أى يكثر ماؤه ويخصب أرضه فيكون بساتين ذات ثمار وشجر كثيرة، والحديث طويل اقتصر المصنف منه على بعضه المراد منه اختصارًا.

(وفى حديث البراء) ابن عازب بفتح الباء الموحدة كما تقدم.

(وسلمة بن الأكوع) أفعل من الكوع بفتحتين وهو اعوجاج اليد وحديث البراء فى

صحيح البخارى، وحديث سلمة بفتحتين فى مسلم **(وحديثه)** أى حديث سلمة الذى رواه مسلم **(أتم)** من حديث البراء كما سيأتى **(فى قصة الحديبية)** التى قدمناها وفيها بيعة الرضوان.

(وهم أربع عشرة مائة) رجل من الصحابة كما تقدم.

(وبئرها) أى وماء بئرها **(لا تروى)** بضم المثناة الفوقية **(خمسين شاة)** الشاة معروفة وروى إشاء بهمزة مكسورة فى أوله مفتوحة فى آخره: وهى النخلة الصغيرة.

(فنزحناها) أى أخرجنا جميع ما فيها من الماء بطينة، **(فلم يترك فيها قطرة)** من مائها.

(فقعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على جَبَاهــا) بفتح الجيم والباء الموحدة مقصور، وهو فم البئر وما حولها، وبالكسر ما جمع فيها من الماء، ويروى شفاها بشين معجمة وهما بمعنى هنا.

(قال البراء: وأتى) بالبناء للمفعول **(بدلو منــها)** أى من تلك البئر أى بماء دلو مما نزحوه منها **(فبصق)** أى ألقى ريقه **(ودعا)** بعد بصاقه، أو هو شك من الراوى هل بصق فيها أو دعا الله لتكثير مائها كما أشار إليه بقوله: **(وقال سلمة)** راوى الحديث **(إما دعا وإما بصق فيها)** بكسر همزة إما فيهما بيان للشك فى الرواية وفى نسخة فإما دعا إلى آخره، وضمير فيها راجع للبئر لا للدلو كما قيل.

(فجاشت) البئر أى فار ماؤها حتى ارتفع لفمها، من جاشت القدر: إذا غلت **(فرووا أنفسهم وركابهم)**: أى شربوا منها حتى ارتووا وسقوا ركابهم حتى رويت.

والركاب بكسر الراء المهملة الإبل جمع لا واحد له من لفظه.

وقد علم أن حديث البراء رواه البخارى ولفظه قال تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحا ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أربع عشر مائة، والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأتاها، فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ فتمضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا نحن وركابنا: أى صرفتنا ونحن وإبلنا رواء، ولم يحتج للمقام بها لأجل الماء، وأن حديث سلمة فى صحيح مسلم، وهو أنه قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ونحن أربع عشر مائة وعليها خمسون شاة لا نرويها، قال: فقعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على جباء الركية فإما دعا وإما بصق فيها، قال: فجاشت فسقينا واستقينا، قال: ثم إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم دعانا للبيعة فى أصل الشجرة، فبايعته أول

الناس ثم بايع حتى إذا كان فى وسط النهار قال: بايع يا سلمة، فقلت: قد بايعتك يا رسول الله فى أول الناس، قال: وأيضًا، ورآنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعزل: أى ليس معى سلاحا فأعطانى جحفة أو درقة ثم بايع حتى كان فى آخر الناس، قال: ألا تبايعنى يا سلمة؟ قلت: قد بايعتك يا رسول الله أول الناس وأوسط الناس. قال: وأيضًا، فبايعته الثالثة... الحديث.

ومنه تعلم ما قدمه المصنف من أن حديث سلمة أتم لما فيه من تفصيل القصة، وأنه كان عليها من يستقى للشاء حين قدموا، ولذكره كيفية المبايعة، وما جرى له معه صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وفى غير هذه الروايتين) كذا فى أكثر النسخ بتوحيد هذه وفى بعضها هاتين الروايتين.

قيل: وهو الصواب لتثنية المشار إليه، ووجه الأول بأنه وَحَّدَ اسم الإشارة لاتحاد الروايتين معنى؛ لأن القصة فيهما واحدة، لكنه لا يخلو من التكلف.

والروايتان رواية البراء ورواية سلمة **(فى هذه القصة)**: أى قصة الحديبية **(من طريق ابن شهاب)** الزهرى وقد تقدمت ترجمته مرارا **(فى الحديبية)** تفسير قصة **(فأخرج سهما من كنانته)**: هى ما يوضع فيه السهام؛ لأنها تكنها أى تسترها **(فوُضع)** بالبناء للمجهول، وفى بعض النسخ فوضعه أى أمر بوضعه **(فى قعر قليب ليس فيها ماء)**:

القليب: البئر المحفورة من غير بناء، فإن بنيت فهى طوى ويذكر ويؤنث، وهو مخالف للرواية السابقة أنه كان ماء قليل والذى وضع السهم البراء، وقيل: ناجية على ما يأتى.

(فرَوىَ الناس) بفتح الراء المهملة والمثناة التحتية بينهما واو مكسورة: أى شبعوهم ودوابهم لقوله: **(حتى ضربوا بعطن)** هو بفتح العين والطاء المهملتين ونون: محل تبرك فيه الإبل عند الماء بعد شربها؛ لتعود لعلل بعد نهل، وضربوا: بمعنى أقاموا من ضرب الخيمة إذا نصبها، يقال: ضربت الإبل بعطن إذا بركت: يعنى أنهم لما رأوا كثرة الماء نزلوا عنده.

وهذا الحديث رواه البيهقى مسندًا لمروان بن الحكم والمسور بن مخرمة قال فيه: خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لزيارة البيت لا يريد حربا فذكر الحديث وفيه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: أيها الناس: انزلوا، فقالوا: ما بالوادى ماء ننزل عليه، **فأخرج** سهما من كنانته أعطاه رجلاً من أصحابه، فقال: انزل للقليب واغرزه فيه ففعل **فجاش** الماء، حتى ضرب الناس بعطن.

وفيه أن الذى نزل فى البئر خلاد الغفارى دلاه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعمامة.

وقيل: هو ناجية السلمى وكان البراء بن عازب، رضى الله تعالى عنه، يقول: أنا الذى نزلت، كذا فى دلائل النبوة.

(**وعن أبى قتادة**): هو الحارث بن ربعى، وقيل: النعمان بن ربعى، وقيل: اسمه عمرو.

وهذا الحديث رواه البيهقى أيضًا فلذا عطفه، فقال: (**وذكر أن الناس شكوا إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم العطش فى بعض أسفاره**)؛ لأنه كان يومًا شديد الحر، (**فدعا بالميضأة**) بكسر الميم وياء منقلبة عن واو؛ لأنها آلة الوضوء وهى مقصورة وزنها مفعلة، وقد تمد فوزنها مفعالة، ودعا بمعنى طلب مطهرة ماء الوضوء فأتى بها.

(**فجعلها فى ضبنه**) بكسر الضاد المعجمة وسكون الباء الموحدة والنون، وهو ما تحت الإبط قريب من الحضن، يقال: أضبنته إذا جعلته فى ضبنك، وبه سمى العيال كما فى الغريبين، والمراد أنه أمسكها وضمها إليه.

(**ثم التقم فمها**) أى أدخل فمها فى فيه كما تدخل اللقمة، (**فالله أعلم**): أى قال الراوى: إنى لا أعلم.

(**نفث فيها أم لا؟**) أى أنفث فى تلك الميضأة أم لا؟.

والنفث بنون وفاء وثاء مثلثة: نفخ لطيف بغير ريق كالنفخ وأقل من التفل.

(**فشرب الناس**) من تلك الميضأة (**حتى رووا**): أى حصل لهم الرى المزيل للعطش، (**وملئوا كل إناء معهم**) مما فضل عن شربهم، (**فخيل**) بالبناء للمجهول (**إلىَّ أنها كما أخذها منى**) أى مثل ما أخذها منى لم تنقص شيئًا مما كان فيها حين أخذها منى، وإنما قال: خيل؛ لأنه بالحدس إذ لم يتحقق مقدار ما كان فيها.

(**وكانوا اثنين وسبعين رجلاً وروى مثله عمران بن حصين وذكر الطبرى**) محمد بن جرير الإمام المشهور (**حديث أبى قتادة**) المذكور (**على غير ما ذكره أهل الصحيح**) أى فيه مخالفة لما رواه أصحاب الحديث المعتنون بتصحيحه (**وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خرج بهم**) أى بهؤلاء المذكورين من الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، (**ممدًّا الأهل موتة**) بضم الميم وسكون الواو، وجوز بعضهم همزها ساكنة ثم مثناة فوقية، وهى أرض من البلقا وقربة بين تبوك وحوران من الشام، وممدا بمعنى مقويًا ومعينا.

(**عندما بلغه قتل الأمراء**) ما مصدرية، والأمراء: جمع أمير، وهو زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة، وذلك

أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل حارث بن عمير الأزدى بكتاب إلى ملك بصرى، فلما نزل بموتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فقتله، ولم يقتل رسول له قبله فأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم زيد بن حارثة على ثلاثة آلاف، وأرسلهم لقتال شرحبيل، وقال: إن قتل زيد فأميركم جعفر فإن قتل جعفر فأميركم عبد الله بن رواحة، فإن قتل فليرض المسلمون برجل منهم، وعقد للسرية لواء دفعه لزيد وأوصاهم كما ذكره أهل السير، فلما التقوا قتل زيد ثم جعفر ثم عبد الله كما أخبرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فدفعت الراية لخالد بن الوليد... إلى آخر الحديث.

وفيه معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم من إخباره بالغيب كما أشار إليه بقوله: **(وذكر)** أى ابن جرير **(حديثا طويلا فيه معجزات وآيات للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** كما ذكر، وما شاهده من جعفر وطيرانه فى الجنة بجناحين، وغير ذلك مما فضله الله تعالى به وعظم قدره.

(وفيه إعلامهم أنهم يفتقدون الماء فى غد وذكر) ابن جرير **(حديث الميضأة)** السابق.

(قال: والقوم زهاء ثلاثمائة): أى قريب من ذلك بطريق الحزر والتخمين، كما تقدم آنفًا **(و فى كتاب مسلم أنه)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(قال لأبى قتادة)** وقد رأى معه ميضأته: **(احفظ على)** وفى نسخة علينا **(ميضأتك)** هذه، وأمسكها عندك **(فإنه)** ضمير شأن **(سيكون لها نبأ)** أى خبر عظيم، وقصة عجيبة فى أمر مائها وكفايته القوم، وما يظهر بها من المعجزة العظيمة، **(وذكره نحوه)**: أى مثل ما تقدم.

(ومن ذلك): أى من قبيل المعجزة السابقة فى تفجير الماء **(حديث عمران بن حصين حين أصاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه عطش فى بعض أسفارهم فوجه رجلين من أصحابه)**: أى أرسلهما لجهة من الجهات **(وأعلمهما أنهما يجدان امرأة بمكان كذا)**: الرجلان عمران بن حصين الراوى وعلى بن أبى طالب، كرم الله وجهه.

وقيل: إنهما على والزبير بن العوام، وفى البيهقى أن عليا خرج فى نفر من أصحابه.

ولم يسم أحد هذه المرأة إلا أنه وقع فى السير أنها أسلمت، ولم يذكروا اسم المكان إلا أن فى حديث أنه بروضة خاخ إن كانت القصة واحدة.

(معها بعير) قال أهل اللغة: إنه يطلق على الذكر والأنثى.

(وعليه مزادتان) المزادة بفتح الميم: ظرف من جلد يحمل فيه الماء كالقربة، وهو من الزيادة، ؛ لأنه زيد فيه جلد لا من الزاد كما توهمه بعضهم، فقالوا: تثنية المزود.

(الحديث فوجداها) أى المرأة **(وأتيا بها إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فجعل فى**

إناء من مزادتيها): أى جعل ماء من مائها فى إناء عنده، أى وضع فيه ماء المزادتين، **(وقال فيه)**: أى فى الماء الموضوع فى الإناء **(ما شاء الله أن يقول)** المراد دعاؤه، وذكر اسم الله عليه ونحوه، مما لم يسموه ولذا أبهموه **(ثم أعاد الماء)** الذى أخذه فى إنائه من المزادتين، فرده بعده ما دعا له **(فى المزادتين)** اللتين للمرأة.

(ثم فتحت عزاليهما) ببناء الفعل للمجهول، وعزاليهما بكسر اللام: جمع عزلاء وهو فم القربة كما تقدم، والتأنيث والجمع وليس للقربة إلا فم واحد، قيل: لأنها كانت تتعدد فى قربهم عزلاء وإن من أسفل، وعزلاء وإن من فوق، وما كان من أسفل يخص باسم العزلاء، والأحسن أن الجمع قد يطلق على الواحد وليس على حد قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]؛ لاختصاصه بما إذا كان المضاف مثنى، وإنما جنى على مائها؛ لأنها كانت حربية والضرورة العطش، وقد قيل: إن هذه المرأة أسلمت لما شاهدت هذه المعجزة العظيمة منه صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وأمر) صلى الله تعالى عليه وسلم **(الناس)** أن يملئوا منه **(فملئوا أسقيتهم)** جمع سقاء وهو إناء من جلد يوضع فيه الماء **(حتى لم يدعوا شيئًا)**من أوانيهم **(إلا ملئوه)** ماء.

(قال عمران) بن حصين، رضى الله عنه: **(و)** أنا **(يخيل إلى)** بالبناء للمجهول **(أنهما لم يزدادا إلا امتلاء)**، فالجملة حالية بتقدير مبتدأ أى حال كونى وقع فى مخيلتى أن المزادتين بعد أخذ الناس منهما الماء أنهما لم ينقصا بل زادا عما كانا عليه.

(ثم أمر) صلى الله تعالى عليه وسلم أن يعطوها من زادهم شيئًا بدلا مما أخذ من مائها؛ تفضلا منه فإن ماءها لم ينقص، **(فجمع)** بالبناء للمفعول أى جمع الناس **(للمرأة من الأزواد حتى ملئوا ثوبها)**، وحملوه على بعيرها.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم للمرأة: **(اذهبى فإنا لم ناخذ من مائك شيئًا ولكن الله سقانا)** من فضله.

واختلفت الروايات هنا ففى بعضها ما ذكره المصنف فقط، وفى بعضها أنهم ملئوا أسقيتم وسقوا إبلهم وأنه أمرهم بذلك، واستعماله صلى الله تعالى عليه وسلم من ماء القربة التى للكافرة لا ينافى النهى منه عن استعمال أوانيهم، وأنهم نجس وأمره بغسلها إذا اضطروا لاستعمالها لاختصاصه بما يحتمل النجاسة، كقدورهم وأوانيهم التى يضعون فيها الخمر والخنزير، وقرب الماء لا يتوهم فيها ذلك **(الحديث بطوله)** أى اقرأ الحديث بطوله وتمامه إن أردت الوقوف عليه، وفيه إشارة إلى أنه حديث طويل مروى فى كتب الحديث كالبخارى وغيره، لاشتماله على رجوعها لقومها وذكرها لهم القصة بتمامها،

وتعجبها مما رأته من المعجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم لكن المصنف اقتصر على محل الشاهد منه.

(**وعن سلمة بن الأكوع**) رضى الله تعالى عنه، تقدم بيانه أنه قال: (**قال نبى الله صلى الله تعالى عليه وسلم**)فى يوم من الأيام: (**هل من وَضوء؟**) بفتح الواو كما تقدم، وأنه الماء الذى يتوضؤ به، وبالضم نفس الفعل، ومن زائدة فى المبتدأ المقدر خبره: أى هل معكم وضوء؟ وسوغ الابتداء بالنكرة وقوعه بعد الاستفهام.

(**فجاء رجل بإداوة**) بكسر الهمزة ودال مهملة أى إناء من جلد صغير (**فيها نطفة**) أى ماء قليل، وقد تطلق على غيره لتنزيله منزلته لنكتة، وأصل معناها القطرة، ومنه نطفة الرجل لمنيه، (**فأفرغها فى قدح**) أى صبها فى إناء، (**فتوضأنا كلنا**) بالرفع توكيد لضمير الفاعل.

(**نُدَغْفِقُهُ دغفقة**) مفعول مطلق وندغفقة بضم النون وفتح الدال المهملة وسكون الغين المعجمة ثم فاء مكسورة وقاف: أى نصبه صبا كثيرًا من قولهم: عيش دغفق أى واسع.

(**أربع عشر مائة**) من الرجال وأربع بالرفع خبر مبتدأ مقدر: أى ونحن أربع إلى آخره أو بدل من ضمير ندغفقه، أو توضأنا لأنه بيان لعدد من توضأ وكثرتهم مع قلة الماء وصغر الإناء، ونصبه على الحالية عن أحد الضمائر.

(**وفى حديث عمر**) بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، الذى رواه البيهقى والبزار وابن خزيمة فى مسنده بسند صحيح، (**فى جيش العسرة**) بضم العين فسكون السين المهملتين: وهى غزوة تبوك الواقعة فى سنة تسع من الهجرة، وسميت بذلك لأنها اتفقت فى زمان كانت النفقة والزاد فى غاية القلة عندهم؛ ولذا لم يورِّ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيها، كما كانت عادته فى أسفاره.

ولعثمان بن عفان، رضى الله تعالى عنه، فيها اليد البيضاء؛ لما جهزهم بماله كما بين فى السير. وتسمى الفاضحة لافتضاح المنافقين فيها، والعسرة هى الشدة والضيق.

(**وذكر**) عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، (**ما أصابهم**) أى جيش العسرة (**من العطش**) لقلة الماء، (**حتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه**): هو ما فى كرشه، (**فيشربه**) أى يشرب ما عصره منه مع تغيره وقلته، وهم كانوا يفعلون ذلك فى ضرورتهم، (**فرغب أبو بكر**)، رضى الله تعالى عنه، (**إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم**) والرغبة طلب ما يحبه، ويتعدى للمطلوب بفى، فيقال: رغب فى كذا، ولضده بعن فيقال: رغب عنه، ويكون بمعنى التضرع فيتعدى بإلى لمن طلب منه: أى تضرع وتذلل.

(فى الدعاء): أى فى دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم وتوجهه لربه؛ ليزيل ما بالناس من البأس الذى علمه منهم، **(فرفع يديه)** نحو السماء التى جعلها الله تعالى قبلة للدعاء، ورفع اليدين نحوها سنة كمسح الوجه بهما بعده، كما ذكره ابن حجر أى ودعا ربه وتضرع إليه، كما ورد أنه طفق يهتف بربه: أى يدعوه ويناشده فى سرعة إجابته، **(فلم يرجعهما)** بفتح الياء أى لم يرد يديه من دعائه، ويرجع متعد كما فى قوله تعالى: (﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:٨٣]) ويكون لازما أيضًا.

(حتى قالت السماء) أى غيمت وظهر فيها سحاب من قولهم: قال كذا إذا تهيأ له واستعد كما فى القاموس، وفى بعض الحواشى يقال: قالت السماء: إذا أرعدت وغيمت، وتفسيرها بأمطرت لا يناسب قوله: **(فانسكبت)** أى انسكب ماؤها فالإسناد مجازى، وكون السماء بمعنى المطر بعيد هنا، وكذا كونه استخداما كقوله:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

(فملئوا ما معهم من آنية) جمع إناء كأوان، وبعضهم ظنه مفردًا وهو وهم كما مر، والإناء معروف.

(ولم يجاوز العسكر) فى يجاوز ضمير مستتر راجع للسماء، بمعنى السحاب أو المطر المعلوم من السياق، وهذه معجزة أخرى.

(وعن عمرو بن شعيب) بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص السهمى الصحابى المشهور.

وفى الاحتجاج بعمرو هذا اختلاف وأقوال، والأكثر على الاحتجاج به، وهو يروى عن أبيه وغيره، وأخرج له أربعة من أصحاب السنن، وهذا الحديث ليس فيها، وتوفى سنة ثمان عشرة ومائة ودفن بالطائف.

(أن أبا طالب قال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو رديفه) أى راكب خلفه وضمير هو للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وضمير رديفه لأبى طالب، **(بذى المجاز)** بفتح الميم والجيم وألف ثم زاء معجمة، وذى بمعنى صاحب: أى محل الجواز.

وذو المجاز: اسم سوق تقرب عرفة كانوا يجتمعون فيه فى الجاهلية كما كانوا يجتمعون بعكاظ.

وهذا الحديث رواه ابن سعد عن إسحاق بن الأزرق عن عبد الله بن عون عن عمرو.

(عطشت وليس عندى ماء فنزل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم) عن الدابة التى

أردف عليها (**وضرب بقدمه الأرض فخرج الماء فقال**) صلى الله تعالى عليه وسلم لأبى طالب: (**اشرب**).

قيل: هذا كان قبل البعثه، قيل: و لم يذكره على سبيل الاحتجاج؛ لأن أبا طالب كافر لا يستدل بقوله.

(**والحديث فى هذا الباب**): أى باب نبع الماء وخروجه ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم (**كثير، ومنه الإجابة بدعاء الاستسقاء**): أى دعاؤه صلى الله تعالى عليه وسلم بطلب السقيا، وإيجاد الماء عند الحاجة له، وما جانسه أى شابه الاستسقاء من السماء، كما ذكر هنا وهو مأخوذ من الجنس وهو معروف.

* * *

(فصل)

مناسب لما قبله؛ لأن الأكل والشرب توءمان.

(**ومن معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم تكثير الطعام ببركته ودعائه**) النافعين عند الحاجة، وبدأه بحديث رواه مسلم فى صحيحه بسند صحيح، وهو:

(**حدثنا القاضى الشهيد أبو على، رحمه الله**)، هو الحافظ ابن سكرة، وتقدمت ترجمته قال: (**حدثنا العذرى**) قال: (**حدثنا الرازى**)، تقدمت ترجمتهما وبيان نسبتهما قال: (**حدثنا الجلودى**) تقدمت ترجمته ونسبته، وأنه يجوز ضم الجيم وفتحها قال: (**حدثنا ابن سفيان**) هو إبراهيم بن محمد بن سفيان راوى صحيح مسلم وقد تقدمت ترجمته قال: (**حدثنا مسلم بن الحجاج**) صاحب الصحيح المشهور كما تقدم قال: (**حدثنا سلمة بن شبيب**) أبو عبد الرحمن النيسابورى الحافظ الثقة أخرج له أصحاب السنن، وتوفى سنة سبع وأربعين ومائتين، قال: (**حدثنا الحسن بن أعين**) أفعل تفضيل من العين، وهو الحسن بن أعين بن محمد الحرانى الثقة قال: (**حدثنا معقل**) بفتح الميم وسكون المهملة والقاف المكسورة، (**عن أبى الزبير**) محمد بن مسلم الثقة وترجمته مشهورة، (**عن جابر**) الصحابى المشهور، رضى الله تعالى عنه، (**أن رجلاً أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يستطعمه**): أى يطلب منه طعاما له ولأهله؛ لشدة احتياجه، وهذا الرجل لم يعرفوا اسمه؛ لأنه من أهل البادية، والطعام ما يؤكل وبه قوام البدن، ويطلق على غيره مجازًا.

(**فأطعمه**) أى أعطاه؛ لأن الإطعام يكون بمعنى الإعطاء كثيرًا حتى أنه لكثرته يستعمل فيما لم يكن مأكولا، فيقال: أطعمه السلطان بلدة، وهو مجاز مرسل أو استعارة.

(**شطر وسق شعير**) الشطر هنا بمعنى النصف، وهو أصله ويكون بمعنى البعض مطلقا،

وبمعنى الجهة كقوله تعالى: (﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤])، والمراد جهته، والوسق بفتح الواو وكسرها وسكون السين المهملة وقاف: بمعنى الحمل، فيقال: وسق بعير أى حمله، ثم خص وصار حقيقة عرفية فى ستين صاعًا بصاعه صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو ثلاث مائة وعشرون رطلاً حجازية، وأربع مائة وثمانون رطلاً عراقية، على الاختلاف فى قدر الصاع والمد، فشطره ثلاثون صاعًا، وعلى الأول مائة وستون رطلاً، وعلى الثانى مائتان وأربعون رطلاً، والكلام فى المقادير الشرعية مفصل فى كتب الفروع.

(فما زال يأكل منه وامرأته) بالرفع معطوف على الضمير المستتر فى يأكل من غير فصل مؤكد كـ(﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة:٣٥]) وهو الأفصح، وقد يعطف بفاصل من غير ضمير كما هنا فإنه فصله بقوله: منه، وهو فصيح أيضًا، وقد يعطف من غير فاصل أصلاً كما فى قول على، كرم الله وجهه: كنت وأبو بكر وعمر لكنه قليل.

(وضيفه) أى من ينزل عليه من غير أهله، وهو يطلق على الواحد وغيره، وقد يختص بالمفرد فيقال: ضيف وضيفان وضيوف: أى لم يزالوا يأكلون منه، وهو باق بحاله من غير نقص؛ لأنه لا يزال يكثر ببركة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو محل استشهاد المصنف وفى نسخة وضيف.

(حتى كاله) غاية لأكله أى استمر أكلهم منه من غير نقص شىء منه إلى أن كاله فظهر نقصه بعد الكيل بما يأخذه منه، فكانت البركة فى ترك كيله حتى لو لم يكله لم ينفد، وترك الكيل والعد فيه بركة لما فيه من الاتكال على الله، وهو أكثر بركة، وهكذا جرت عادة الله، وأما ما ورد فى الحديث من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «كيلوا طعامكم يبارك لكم فيه»: فهو بالنسبة لمن كان يخشى خيانة فيه، وقيل: المراد كيلوا ما تخرجونه للنفقة منه؛ لئلا يخرج أكثر من الحاجة أو أقل، بشرط أن يبقى الباقى مجهولا غير مكيل، وقيل: إنه إنما كان كذلك لإفشائه سرا من أسرار الله تعالى ينبغى كتمه.

(فأتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره) بتكثير ما أعطاه له صلى الله تعالى عليه وسلم ببركته **(فقال: لو لم تكله لأكلتم منه)** أى لاستمر أكلكم منه إلى غير النهاية، **(ولقام بكم)** أى لكفاكم مدة حياتكم وكان فيه قوام لكم من غير نقص، وهذا الرجل هو جد سعيد بن الحارث، وكان استعان به صلى الله تعالى عليه وسلم فى نكاحه، فأنكحه امرأة فطلب منه طعاما يقوم به وبزوجته، ولم يكن عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شىء، فبعث أبا رافع وأبا أيوب الأنصاريين بدرعه، فرهناه عند يهودى فى شطر وسق من شعير، ودفعه إليه، قال: فأكلنا منه سنة وبعض سنة، ثم كِلْناه فوجدناه كما أدخلناه.

(ومن ذلك) أى تكثير الطعام ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم **(حديث أبى طلحة المشهور)** فى قصته التى رواها الشيخان عن أنس، رضى الله تعالى عنه -، وهو زيد بن سهل بن الأسود الأنصارى الصحابى، رضى الله تعالى عنه، توفى سنة إحدى وثلاثين، وقيل غير ذلك، والمشهور بمعنى أنه كثرت روايته فى كتب الحديث وتعددت طرقه، ويحتمل أن يريد بالمشهور معناه المعروف فى مصطلح الحديث.

(وإطعامه صلى الله تعالى عليه وسلم) مرفوع عُطف على حديث **(ثمانين أو سبعين رجلاً)**، وجزم مسلم بالثمانين.

(من أقراص من شعير) جمع قرص وهو رغيف صغير **(أتى بها أنس)** بن مالك وفى نسخة جاء وهو عم أبى طلحة **(تحت يده أى إبطه)** بكسر الهمزة والباء وتسكينها، والإبط: ما تحت المنكب، وفسره به لأن اليد تشمله وغيره، والإبط يذكر ويؤنث، **(فأمر بها)** أى بالأقراص، **(ففتت)** يقال فتته إذا قطعه بأصابعه قطعا صغيرة بمقدار اللقمة، وقد يطلق بمعنى التكسير مطلقا، **(وقال فيها)**: أى فى شأنها بأن دعا ببركتها وذكر أسماء الله عليها، وقيل فى بمعنى على كقوله تعالى: (﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]).

(ما شاء الله أن يقول) أى ما قدره وعلمه من الذكر الذى لم يطلع عليه، وهو حديث طويل فى الصحيحين، اقتصر المصنف على بعضه؛ اعتمادا على شهرته؛ وفيه أن أبا طلحة، رضى الله تعالى عنه، قال لأم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ضعيفا أعرف فيه الجوع، فهل عندك شىء؟ فقالت: نعم فأخرجت أقراصًا من شعير، وفيه أنه دعا القوم عشرة عشرة، وحكمته أن لا يزدحموا على قصعة واحدة كانت صغيرة، وهذا كان بالمدينة لا بالخندق، كما توهمه القسطلانى.

وقد علمت أن الحديث طويل، والكلام عليه مفصل، وفيه أنهم بعد ما أكلوا دفعه لأهل المنزل فأكلوا وأطعموا جيرانهم.

(وحديث جابر)، رضى الله تعالى عنه، الذى رواه البخارى **(فى إطعامه)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(يوم الخندق)**: أى قصة الخندق المشهورة فى السير، ومعناه معروف وهو معرب كندة بمعنى الحفر.

(ألف رجل) بالنصب مفعول إطعام، ويوم الخندق منصوب على الظرفية، وحديث مبتدأ خبره مقدر أى من ذلك.

وقوله: **(من صاع شعير)** بالإضافة، وفى نسخة من صاع من شعير، وتقدم معنى الصاع.

(وعناق) بفتح العين وهى الأنثى من أولاد المعز لم يتم لها سنة، وقيل: هى التى قاربت الحمل و لم تحمل.

(قال جابر: فأقسم بالله لأكلوا) فى نسخة لقد أكلوا، ولما كان هذا أمر غريبا خارقا للعادة أكده بالقسم؛ لأنه مظنة الإنكار، **(حتى تركوه وانحرفوا)** أى أكلوا كلهم حتى شبعوا وقاموا وانصرفوا.

والانحراف الميل إلى جهة أخرى غير التى كان متوجهًا لها من الحرف وهو الطرف، ومنه قوله تعالى: (﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ [الحج:١١]) أى على طرف غير متمكن.

(وإن برمتنا لتغط) البرمة بضم الباء الموحدة وسكون الراء المهملة ثم ميم وهاء: القدر مطلقا، أو من حجارة وهو المعروف، وجمعها برام، وتغط بفتح المثناة وفتح أو كسر الغين المعجمة وبعدها طاء مهملة مشددة: أى تغلى غليانا شديدا يسمع لها صوت كهدير النائم والمخنوق.

(كما هى) أى على حالها الأول، لم ينقص منها شىء مع كثرة من أكل منها، وهذا محل الشاهد، **(وإن عجيننا ليخبز)**: أى أنهم استمروا على خبز العجين، وإيصاله شيئًا فشيئا لمن يأكل منه، و لم ينقص ببركة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ لأنه بصق فى البرمة والعجين، وبارك عليه كما ذكره المصنف بقوله: **(وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بصق فى العجين والبرمة وبارك)** فيهما، ومعنى بارك: دعا فيهما بالبركة كما مر، أى الزيادة والنمو.

(رواه) أى روى هذا الحديث **(عن جابر سعيد بن ميناء)** بكسر الميم وسكون المثناة التحتية والنون والمد والقصر، والصرف وعدمه، على أن وزنه فعلاء أو مفعال، وسعيد هذا أخرج له البخارى ومسلم، وميناء علم منقول من الميناء، وهى مرسى السفن وجوهر الزجاج.

(وأيمن) بزنة أفعل من اليمن: وهو أيمن الحبشى المكى، والد عبد الواحد بن أيمن مولى عمرة المخزومى الثقة، وقال ابن حبان: إنه أيمن ابن أم أيمن مولاة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأخو أسامة لأمه، قال البرهان: وفيه نظر لأن ابن أم أيمن هذا قتل بحنين، فقد خلط ترجمته بترجمته وتبعه التلمسانى، **(وعن ثابت مثله)** أى مثل حديث جابر بن عبد الله، رضى الله عنهما، **(عن رجل من الأنصار وامرأته ولم يسمها، قال: وجئ بمثل الكف)** وفى نسخة بملء الكف، **(فجعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم**

يبسطها فى الإناء ويقول: ما شاء الله) أن يقول **(فأكل منه من فى البيت والحجرة والدار وكان ذلك)** أى ما ذكر من الثلاثة **(قد امتلأ ممن قدم معه صلى الله تعالى عليه وسلم، لذلك وبقى بعدما شبعوا مثل ما كان فى الإناء)**، وقد علم أن ذلك ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وحديث أبى أيوب) أى ومن ذلك حديث أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه الذى رواه عنه الطبرانى والبيهقى، وهو **(أنه صنع لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولأبى بكر)** حين قدما المدينة فى الهجرة **(من الطعام زهاء)**: أى مقدار **(ما يكفيهما)** أى طعاما يكفى رجلين فقط، وهو بيان لقلته، **(فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم :)** لما أخبره بذلك، ودعا له: **(ادع ثلاثين من أشراف الأنصار)** إنما خصهم، قيل: ليتألفهم كى يسلموا، فإن ذلك كان فى أول الهجرة، وسماهم أنصارًا لعلمه صلى الله تعالى عليه وسلم بأنهم سينصرونه وتفاؤلا بذلك.

(فدعاهم فأكلوا حتى تركوه) أى شبعوا وتركوا الطعام أو الأكل منه.

(ثم قال) صلى الله تعالى عليه وسلم: **(ادع ستين)**: أى من أشراف الأنصار، **(فكان مثل ذلك)** أى أكلوا حتى تركوه.

(ثم قال) صلى الله تعالى عليه وسلم له: **(ادع سبعين)** فدعاهم **(فأكلوا حتى تركوا)** الطعام والأكل كما مر، **(وما خرج أحد منهم)**: أى ممن دعاه وأكل حتى شبع و**(حتى أسلم وبايع)** رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الجهاد معه ونصرته، لما رأوا من تلك المعجزة ولطفه بهم، وفى نسخة إلا حتى أسلم، قيل: وصوابه إسقاط إلا، ولا وجه له.

(قال أبو أيوب)، رضى الله تعالى عنه، **(فأكل من طعامى مائة وثمانون رجلاً)**، ذكر بعضا منهم، وترك الباقى كأنه لكونهم لم يدعهم بأمره، والمذكور مائة وستون غير أبى بكر والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وعن سمرة بن جندب) تقدمت ترجمته وأنه بضم الدال وفتحها **(أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** بالبناء للمجهول، إذ لا يتعلق غرض بيان الآتى هنا **(بقصعة)** بفتح القاف ولا تكسر القصعة، **(فيها لحم)** مطبوخ، **(فتعاقبوها)**: أى دخل جماعة من الصحابة بعد جماعة لأن كلاًّ منهم أتى على عقب بعض، أى من غير فاصل بينهم؛ لأنه محل الإعجاز.

(من غدوة حتى الليل) بالجر ويجوز رفعه ونصبه.

(ويقوم قوم ويقعد آخرون) تفسير لما قبله من تعاقب القوم، وقيل عليه المعروف من حديث سمرة من غدوة إلى الظهر، فيقوم قوم ويقعد قوم آخرون، قال: فقيل لسمرة: هل كان يمد؟ قال: فمن أى شيء تعجب؟ ما كان إلا من هنا، وأشار إلى السماء.

(ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي بكر) الصديق، رضى الله تعالى عنهما، أى من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم فى تكثير الطعام ببركته.

وهذا الحديث رواه الشيخان فى صحيحيهما **(كنا مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** ضمير كنا له مع غيره من الصحابة، وخبر كان **(ثلاثين ومائة)** ومع النبى حال من اسم كان، أو هما خبران أى خبر بعد خبر.

(وذكر في الحديث أنه عجن صاعًا من طعام): روى ببناء عجن للفاعل ونصب صاعًا، وببنائه للمفعول ورفعه، وصنعت بمعنى طبخت فى قوله: **(وَصُنِعَتْ شاة فشوى)** ببناء المفعول **(سواد بطنها)**: المراد به الكبد خاصة أو حشوها مطلقا، والأول أظهر.

(قال) أى عبد الرحمن بن أبى بكر، رضى الله تعالى عنهما، **(وايم الله)** قسم كعهد الله، وهو مبتدأ خبره محذوف تقديره: قسمى فهو مرفوع، وجوز بعضهم جره بواو القسم، وفيه لغات كثيرة؛ وهمزته همزة وصل، وهو اسم، وقيل: حرف، وقيل: إنه فى الأصل جمع يمين، والكلام عليه مفصل فى باب القسم، ولا يجر بالإضافة بعده إلا لفظ الله، وجوز ابن مالك جر غيره.

(ما من الثلاثين ومائة) أحد **(إلا وقد حز له حزة)** بفتح الحاء المهملة والزاء المعجمة المشددة، والحز هو القطع بالسكين، والحزة بالضم: القطعة من اللحم.

(من سواد بطنها) أى كبدها كما مر، والحز بعينه بحسب الظاهر، وهو أنسب بمحل الاستشهاد لكفاية الكبد لهم فى تفريقها عليهم، **(ثم جعل منها)** أى طبخ من الشاة ما جعل ملء **(قصعتين فأكلنا أجمعون)** بالرفع تأكيد لاسم كان من غير أن يكون تابعا لكل، كقوله: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٣٩].

(وفضل فى القصعتين): أى فضل من لحمها مقدار فى القصعتين بعد ما أكلوا حتى شبعوا، وقد صرح به فى الصحيحين، قيل: ولو ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، كان أولى؛ لأنه محل الشاهد، وفضل بمعنى: بقى فيه ثلاث لغات، كدخل يدخل وعلم يعلم، وبالكسر فى الماضى وضم عين المضارع، وهى شاذة أو من التداخل، فإن كان من الفضيلة فبالفتح والضم لا غير.

(فحملته على البعير) فيه إشارة لكثرة ما بقى بعد أكلهم كلهم.

(ومن ذلك) أى من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم فى تكثير الطعام ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم ما رواه ابن سعد والبيهقى وصححاه **(حديث عبد الرحمن بن أبى عمرة)** بفتح العين وسكون الميم وراء مهملة **(الأنصارى عن أبيه)** أبى عمرة بشير بن عمرو بن محصن الأنصارى البخارى الصحابى البدرى، قتل مع على، كرم الله وجهه، بصفين، وفى اسم أبى عمرة اختلاف، وابنه عبد الرحمن أخرج له أصحاب الكتب الستة إلا الدارقطنى فقط، وهو ثقة، وهذا الحديث مروى فى بعض غزواته صلى الله تعالى عليه وسلم.

(ومثله) أى مثل حديث عبد الرحمن **(لسلمة بن الأكوع وأبى هريرة)** فى مسلم **(وعمر بن الخطاب)** ورواه أبو يعلى بسند جيد، **(فذكروا)**: أى هؤلاء **(مخمصة)** بفتح الميمين بينهما خاء معجمة ساكنة ثم صاد مهملة، وهى الجوع من الخمص: وهو خلو البطن من الطعام أى مجاعة.

(أصابت الناس مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى بعض مغازيه) جمع مغزاة: بمعنى موضع الغزو، وهو بمعنى الغزو نفسه، واختلف فى هذه الغزوة، والذى فى مسلم: خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزوة، وفى دلائل النبوة أنه فى غزوة غطفان، وفى غيره عن ابن عباس أنه فى مرجعهم من الحديبية كلمه بعض أصحابه، وقالوا: جهدنا، وفى الناس ظهر فانحره لنا... الحديث، فالقصة وقعت مرتين.

(فدعى ببقية الأزواد): أى طلب من كل رجل منهم أن يأتى بما بقى عنده من زاد، **(فجاء الرجل بالحثية)** بفتح الحاء المهملة وسكون الثاء المثلثة والمثناة التحتية، ويقال: حثوة بالواو؛ لأنه يقال حثى يحثى وحثا يحثو، وهى والجفنة بالفاء والنون بمعنى، وهو ما يملأ اليدين معًا، وقيل بالفاء فى اليدين، وبالثانى أحدهما، وروى بالخبنة بخاء معجمة مضمومة وبعدها موحدة تحتية ساكنة ونون، وهى ما يحمل فى الحضن تحت الكشح، والأول أشهر وأظهر، وتعريف الرجل هنا للعهد الذهنى، كادخل السوق، وليس المراد به رجلاً معينًا.

(من الطعام) اليسير الذى بقى عنده، **(وفوق ذلك)**: أى أزيد منه بيسير **(وأعلاهم)**: أى أكثرهم زادًا وبقية **(الذى يأتى بالصاع من التمر فجعله)**: أى وضع ما اجتمع من الأزواد **(على نطع)** بكسر النون، وفتح الطاء المهملة بزنة عتب، بساط من أدم وفيه لغات أربع هذه أفصحها، وبفتح نونه مع فتح الطاء وسكونها وبكسر نونه مع سكون الطاء.

(قال سلمة: فحزرته) بحاء مهملة وزاء معجمة: أى قدرته بطريق الحدس، والتخمين **(كربضة العنز)** براء مهملة مفتوحة، وقيل: إنها مكسورة لا غير؛ لأن المراد بيان الهيئة، وموحدة وضاد معجمة من الربوض: وهو كالجلوس فى الإنسان، والبروك للإبل، والجثوم للطير: أى مقداره مقدار جثة عنز باركة على الأرض، أو هو تقدير لموضع من النطع بموضع ربوضها، **(ثم دعا الناس بأوعيتهم)**: أى طلب مجيئهم ومعهم أوعيتهم، ليأخذوا مما اجتمع عنده فى الحديث حتى ملئوا أزودتهم، قال المصنف فى الإكمال: كذا الرواية عن جميع شيوخنا، والأزودة: بمعنى الأوعية كما سميت الأسقية روايا، وورد أيضًا جاؤوا بأوعيتهم.

(فما بقى فى الجيش وعاء إلا ملئوه) مما اجتمع عنده **(وبقى منه)** أى فضل منه بقية بعد ما أخذ الجميع كفايتهم، والمصنف اقتصر على محل الشاهد من الحديث لطوله، وفيه أنهم أكلوا حتى شبعوا، ثم حثوا فى أوعيتهم، وقبله أنهم لما أصابهم الجوع قال له بعضهم: لو أمرتنا نحرنا نواضحنا: أى إبلنا، فقال: افعلوا فقال: عمر، رضى الله تعالى عنه: إن فعلوه قل الظهر، يعنى ما يركب، ولكن ادع بفضل أزوادهم فجعل الرجل يجىء بكف ذرة، والآخر بكف تمر، والآخر بكسر، حتى اجتمع على النطع فدعا بالبركة، قال: خذوا فأخذوا كلهم وفضلت فضلة، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله الحديث.

(وعن أبى هريرة) فى حديث رواه ابن أبى شيبة، والطبرانى بسند جيد **(أمرنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن أدعو له أهل الصفة)** تقدم أن الصفة محل مرتفع فى الدار، والمسجد وغيره، مفرز عن غيره للجلوس فيه، وكان فى مسجده صلى الله تعالى عليه وسلم محل كذلك فيه المنقطعون عنده صلى الله تعالى عليه وسلم من فقراء الصحابة الأعراب وغيرهم، كسلمان وأبى ذر.

قال أبو نعيم فى الحلية: كانوا نيفًا ومائة، وفى عوارف المعارف أنهم كانوا نحو الأربعمائة ونحوه فى الكشاف، ولا ينافيه ما روى أنه رؤى منهم نحو ثلاثين رجلاً يصلون مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بلا أردية، وهؤلاء هم صفوة خلق الله، هنيئا لهم وإنا نتوسل إلى الله تعالى بهم[1] أن يجعلنا فى بركتهم.

---

(١) التوسل إلى الله بشىء من المخلوقات لا يجوز، وكذلك لا يجوز التوسل بالنبى أى بذاته وجاهه، وإنما كان التوسل به فى حياته بدعائه للمتوسل، والتوسل المشروع إنما يكون بأسماء الله وصفاته، وكذلك بالأعمال الصالحة، كما فى حديث الثلاثة الذين أواهم المبيت إلى الغار، فانسدت عليهم فتحته فتوسلوا إلى الله بأعمالهم الصالحة، كما يجوز طلب الدعاء من الآخرين =

(فتتبعتهم) أى ذهبت لكل واحد منهم فى مكان كان فيه، لأنهم فى النهار يتفرقون فى المدينة، لأن كل أحد لا يخلو من حاجة يذهب لها.

(حتى جمعتهم) عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم **(فوُضِعَتْ)** بالبناء لمجهول **(بين أيدينا صحفة)** بالرفع نائب الفاعل، وهى إناء بين الصغير والكبير يعد للطعام.

(وأكلنا ما شئنا وفرغنا) أى حتى شبعنا، وانتهت إرادتنا للأكل **(وهى مثل ما وضعت)** جملة حالية، أى هى مملوءة بما فيها كما كانت حين وضعت بين أيدينا، **(إلا أن فيها أثر الأصابع)**: أى أصابع من أكل منها، وهذا تشبيه لحالها بعد الأكل بحالها قبله، فليس فيه تشبيه الشىء بنفسه كما لا يخفى، وكان أهل الصفة يسمون أضياف الإسلام؛ لأن أكثرهم أغراب، وقال: أكلنا بضمير المتكلم مع الغير لأن أبا هريرة منهم.

(وعن على بن أبى طالب) فى حديث رواه أحمد، والبيهقى بسند جيد **(جمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بنى عبد المطلب وكانوا أربعين)** رجلاً، وهذا كان بمكة فى ابتداء البعثة، **(منهم قوم)** هو فى الأصل مصدر قام، ثم صار اسم جمع للرجال خاصة لقيامهم بالأمور **(يأكلون الجذعة)** بفتح الجيم والذال المعجمة والعين المهملة: وهى من البقر والغنم ما تم له سنة، وقيل: إنه فى البقر ما دخل فى الثالثة، والمراد هنا الأول أى أقل ما يكفيهم، كما يقال لمن دونهم: أكلة رأس.

(ويشربون الفَرَقَ) بفتح الفاء والراء المهملة ويجوز تسكينها: وهو مكيال يسع ثلاثة آصع، وهو ستة عشر رطلاً كما تقدم، أى يرويهم ما فيه، وفى النسخ هنا اختلاف، ففى بعضها بنى عبد المطلب، منهم من يأكل جذعة بنى عبد المطلب، منهم قوم يأكل الجذعة، وفى بعضها منهم قوم يأكل، وفى بعضها منهم قوم يأكلون، وهذه أقرب، وفى التى قبلها قلق ما، وقال التلمسانى: المراد بالجذعة: جذعة الإبل كما ورد مفسرا فى بعض الروايات، وهى التى تدخل فى الخامسة، **(فصنع لهم مدا من طعام)**: أى طبخه وسواه: **(فأكلوا حتى شبعوا وبقى كما هو)**: ما موصولة، وهو مبتدأ وخبره محذوف: أى قبل الأكل والجملة صلة، والمراد أنه لم ينقص، كأنه ما أكل منه شىء.

(ثم دعا بعُسٍّ) بضم المهملة وتشديد السين المهملة، وهو قدح من خشب يروى الثلاثة والأربعة، والمعنى بعُسٍّ من لبن طلبه من أهله لهم، **(فشربوا)** من العس، **(حتى رووا)** أى تم شربهم منه، **(وبقى كأنه لم يشرب)** منه شىء، وتفصيله كما فى الدلائل للبيهقى وغيره بسند صحيح، أنه لما نزل عليه صلى الله تعالى عليه وسلم قوله تعالى:

= وهو من التوسل المشروع.

(﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]) الآية، قال صلى الله تعالى عليه وسلم: إن بدأت قومى بها رأيت منهم ما أكره، فصمت فجاءه جبريل، عليه الصلاة والسلام، فقال: يا محمد إن لم تفعل ما أمرك به ربك عذبك، فدعا عليا، رضى الله تعالى عنه، وأخبره بذلك، وبما قاله جبريل له، ثم قال له: فاصنع طعاما وأعد لنا عُسّ لبن ثم اجمع بنى المطلب، وهم نحو أربعين من أعمامه، فلما اجتمعوا قدم لهم الطعام، وقال: كلوا بسم الله، فأكلوا ثم شربوا فلما أراد أن يكلمهم، قال أبو لهب: سحركم محمد، فتفرقوا ولم يكلمهم، فلما كان فى الغد فعل مثل ذلك، فلما أراد أن يكلمهم تفرقوا، وفى الثالثة قال لهم: يا بنى عبد المطلب إنه لم يجئكم أحد بأفضل مما جئتكم به، إنى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة... إلى آخر الحديث.

والذى فى البخارى عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: أنها لما نزلت صعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الصفا ونادى: «يا بنى فهر يا بنى عدى ويا بطون قريش، حتى اجتمعوا»[1]، إلى آخره، ولعل ذلك تكرر فخصص أولاً ثم عمهم.

(وقال أنس)، رضى الله تعالى عنه، فى حديث رواه الشيخان واللفظ لمسلم: **(إن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما)** وفى نسخة: حين **(ابتنى بزينب)** بنت جحش أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، وهو افتعال من البناء، وهو التزوج هنا، ويقال: بنى بها وعليها **(أمره)** أى أمر النبىُّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنسًا **(أن يدعو له قوما سماهم)** أى عينهم بأسمائهم، **(وكل من لقيتَ)** بتاء الخطاب، ومن منصوبة محلا بمقدر، أى قال له صلى الله تعالى عليه وسلم: ادعهم وادع كل من لقيته من غيرهم، فهو تعميم بعد تخصيص لمن اعتنى به فدعاهم، أو فقال: فدعوتهم، **(حتى امتلأ البيت)** بالناس، المراد به المنزل كله، وقيل: إنه أراد به الصفة التى فيه كما ورد مصرحا به.

(والحجرة) هى بمعنى البيت والغرفة وكان لكل زوجة من أزواجه صلى الله تعالى عليه وسلم، حجرة تخصها، وأصل معنى الحجرة: بقعة تفرز ببناء الحجر ثم عم.

(وقدم إليهم تورًا) بمثناة فوقية مفتوحة وواو ساكنة وراء مهملة وهو إناء من صفر أو حجارة كالإجانة أو كالقدح الذى يشرب فيه.

(فيه قدر مد من تمر) بيان للمد وقد تقدم تفسيره.

(جُعل) بالبناء للمفعول **(حَيْسا)** مفعوله الثانى، وهو بفتح المهملة وسكون المثناة التحتية والسين المهملة، وهو تمر خلط بسمن وأقط أو دقيق، قال:

---

(١) أخرجه البخارى (٦/١٤٠)، وأبو عوانة (١/٩٢)، والبيهقى (٦/٣٧١).

التمر والسمن يقال الأقط أو الدقيق الحيس لما يختلط

وقال ابن قرقول: إنه قيل: إنه تمر ينزع نواه ويخلط بالسويق، والأول أعرف وأصل معنى الحيس الخلط.

(فوضعه) صلى الله تعالى عليه وسلم والضمير للتور **(قدامه)**: بين يديه **(وغمس ثلاث أصابعه)** أى أدخلها فيه لتحصل البركة، وليطيب قلوبهم بأكله معهم، والسنة أن يأكلا بثلاث أصابع ففيه تعليم لهم.

(وجعل القوم يتغذون) بذال معجمة من الغذاء بمعجمتين، وهو أعم من الغداء بالدال المهملة.

وفى مسلم: أنه دعا الناس بعد ارتفاع النهار، فيصح أن يكون بالمهملة أيضًا كما فى المقتفى.

(ويخرجون) من الحجرة، **(وبقى التور نحوا)**: تمييز أو حال **(مما كان)** قبل الأكل منه، لم ينقص نقصًا كثيرًا.

(وكان القوم أحدًا أو اثنين وسبعين) رجلاً، وهو شك من الرواى، وقيل: إن هذه القصة فى بنائه صلى الله تعالى عليه وسلم بصفية، والرواى أدخل قصة فى قصة، وقيل: يحتمل أنه اتفق الشيئان من الشاة والحيس الذى لأم سليم، وفى قوله: بقى التور تجوُّز: أى بقى ما فيه.

(وفى رواية أخرى فى هذه القصة) أى قصة وليمة زينب، رضى الله تعالى عنها، **(أو مثلها)** فيما ذكر من الطعام **(أن القوم كانوا زهاء ثلاثمائة)**: أى مقدارهم **(وأنهم أكلوا حتى شبعوا، وقال)** لى بعد ما شبعوا: **(ارفع)** التور من مكانه، **(فما أدرى حين وضعت)** بضم التاء للمتكلم: أى حين وضعته أو بتاء التأنيث الساكنة كالتى فى قوله: **(كانت)** بالتأنيث باعتبار أنه آنية **(أكثر أم حين رفعت)** بالوجهين، وروى لترفع بدل ارفع بلام الأمر والخطاب، والأولى أولى وأفصح، وهذا حديث طويل فى مسلم اختصره المصنف، رحمه الله تعالى، اقتصارًا على محل الشاهد منه.

(وفى حديث جعفر) الصادق **(عن أبيه محمد)** الباقر **(عن على)** بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنه، جد والد محمد: أعنى زين العابدين بن على بن الحسين بن على، فهو حديث منقطع كما رواه ابن سعد، رضى الله تعالى عنه، فإن كان عليا المذكور: على الأصغر، فالحديث مرسل أو معضل، فهو ضعيف.

(أن فاطمة) الزهراء **(طبخت قدرًا)**: أى طعاما فى قدر، ففيه تجوُّز، أو هو بتقدير

مضاف: أى طعام قدر (**لغذائهما**) بالمعجمة: وهو كل ما يؤكل فى أى وقت، أو بمهملة: وهو ما يؤكل أول النهار: أى لأجل غدائهما، وفى نسخة تتغذى به وفى نسخة لغدائهما.

(**ووجهت عليا**): أى أرسلته (**إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم**): أى لجهته والمراد بيته (**ليتغدى معها**) وفى نسخة معهما، (**فأمرها**): أى قال لها: اغرفى من القدر، (**فغرفت**) بالغين المعجمة (**لجميع نسائه**) التسع المعروفة (**صحفة صحفة**) منصوب، كتعلمت النحو بابا بابا، والصحفة إناء صغير معروف، (**ثم له ولعلى**) أى ثم غرفت له صلى الله تعالى عليه وسلم، ولعلى، (**ثم لها**) أى غرفت لنفسها ما تتغدى به، رضى الله عنها.

(**ثم رفعت القدر**) بعد ما غرفت لجميع من ذكر، (**وإنها لتفيض**) جملة حالية، وتفيض بفاء وضاد معجمة من الفيض: والمراد أنه بعد ما غرف منه وبقى مملوءًا بطعام يسيل من جوانبه ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم، وكأنها بعثت له صلى الله تعالى عليه وسلم ليجيئها ويأكل معها وحده، فلم يأت وأمرها بما ذكر فيه، لما فيه من مكارم الأخلاق والإيثار.

(**قالت**): فاطمة، رضى الله تعالى عنها: (**فأكلنا منها**): أى أكلنا كلنا من طعامها، والضمير للقدر؛ لأنها مؤنثة، وقيل: يجوز تذكيرها وتأنيثها، فالمراد أن أهل فاطمة، رضى الله تعالى عنها، وأهل بيتها أكلوا مما بقى فى القدر بعد ما فرقته (**ما شاء الله**): أى الذى أراده الله لنا أو مدة إرادة الله تعالى ذلك، وهو كناية عن كثرة ذلك.

(**وأمر**) رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث آخر (**عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أن يزود أربعمائة راكب**) أى يعطيهم ما يكفيهم من الزاد (**من أحمس**) بزنة أحمر بحاء وسين مهملتين بينهما ميم: اسم قوم من العرب، وهم بطن من ضبيعة، يقال لهم: بنو أحمس وهو من الحماسة: وهى الشدة والصلابة، ويقال لقريش: الحمس لتصلبهم فى دينهم فى الجاهلية.

(**فقال**) عمر، رضى الله تعالى عنه: (**يا رسول الله ما هى إلا أصْوُع**) بفتح الهمزة وضم الواو، ويجوز أن تبدل همزة كما فى الصحاح، وهو إناء يشرب فيه ومكيال معلوم، وهو جمع صاع، قال ابن قرقول: فيه لغات صاع وصوع وصواع، ويجمع على أصوع وصيعان، وفى كثير من الروايات، أى فى الحديث، آصع بالمد، والصواب أصوع، انتهى.

وقوله: والصواب أصوع غير مسلم، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، وهو مبنى على عدم صحة الاستدلال بالحديث فى العربية، وهو على الإطلاق فاسد، أى قال عمر، رضى الله تعالى عنه، ليس التمر الذى عندى يكفى، فإنه أصوع قليلة، فإن الصاع مكيال يسع أربعة أمداد، والمد رطل وثلث، أو رطلان عراقيان على اختلاف فيه كما تقدم، والضمير أعنى هى راجع للأصوع، وإن تأخر لا للوديعة كما فى قوله تعالى: (﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ﴾) [الأنعام:٢٩]، قال الزمخشرى: هذا ضمير لا يعلم ما يعنى به إلا مما يتلوه وأصله إن الحياة إلا حياتنا الدنيا، ثم وضع الضمير موضع الحياة؛ لأن الخبر يدل عليها ويبينها ومنه قوله:

هى النفس ما حملتها تتحمل وهى العرب تقول ما شاءت

انتهى.

قال ابن مالك: وهذا من جيد كلامه، وفيه كلام فى شرح التسهيل لا يسعه المقام **(قال)** صلى الله تعالى عليه وسلم لعمر، رضى الله تعالى عنه: **(اذهب)** وافعل ما أمرتك به، ولا تبادل بقلة ما عندك، **(فذهب)** عمر **(فزودهم منه)** أى أعطاهم ما يكفى لهم من التمر الذى عنده، **(وكان)**: أى التمر **(قدر الفصيل)**، هو ولد الناقة الصغير **(الرابض)** أى البارك على الأرض، وهو بيان لمقداره تخمينًا **(من التمر)** بيان لقدر، **(وبقى بحاله)**: أى لم ينقص شيئًا مع إعطائهم منه، وهو من المعجزات.

(من رواية دُكَيْن) خبر مبتدأ مقدر، أى وهذا الحديث من رواية دكين، وهو بضم الدال المهملة وكاف مفتوحة، ثم ياء تصغير ونون، ورواه العزفى بالراء بدل الدال وقال: إنه الصحيح، ودكين هو ابن سُعَيْدٍ بالتصغير، وقيل: سعد، وقيل: مسعد المزنى، وقيل: الخثعمى، وله صحبة.

وهذا الحديث رواه أبو داود فى الأدب قال: أتينا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فسُألناه الطعام فقال: يا عمر اذهب فأعطهم فارتقى بنا إلى علية، فأخذ المفتاح من حجرته ففتح، وليس له غير هذا الحديث، ولم يروه غير أبى داود.

(الأحمسى) نسبة لبنى أحمس قبيلة كما تقدم، وهو صفة دكين.

(ومن رواية جرير) أى مثل رواية دكين ولم يخرجه.

(ومثله) أى مثل المروى المذكور ما أخرجه أحمد، والبيهقى بسند صحيح **(من رواية النعمان بن مُقَرِّن)** بضم الميم، وفتح القاف، وكسر الراء المهملة المشددة، وقيل: القاف ساكنة والراء مخففة مكسورة، وهو أحمسى أيضًا، وأحمس فخذ من مزينة، وتقدم أنهم

من ضبيعة من نسل إد بن طابخة، وللنعمان سبعة إخوة كلهم صحابة هم: النعمان، ومعقل، وعقيل، وسويد، وسنان وعبد الرحمن، ولم يسم السابع.

قال السهيلى: بنو مقرن المزنى هم البكاؤن الذين نزل فيهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ [التوبة: ٩٢] الآية.

(الخبر بعينه) بالرفع والنصب والباء مزيدة فى التأكيد يقال هذا عينه وبعينه كما ذكره، وتلطف القائل متغزلا:

فقلت فهذا قاتلى بعينه وحاجبه

وزيادة حاجبه فيه من كلام المولدين؛ لتوهمهم أو لإيهامهم أنها الباصرة **(إلا أنه قال)** فى هذه الرواية: **(أربعمائة راكب من مزينة)** فزاد قوله من مزينة، وكذا رواه أبو داود فى سننه، قيل واختلاف الروايات يدل على تعدد القصة وفيه شيء.

(ومن ذلك) أى من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم فى جعل القليل كثيرًا **(حديث جابر)** بن عبد الله الأنصارى، رضى الله تعالى عنهما.

وهذا الحديث رواه البخارى **(فى دين أبيه بعد موته)**: أى فى قصته لما مات أبوه وعليه دين أراد أداءه لغرمائه، **(وكان قد بذل)** بموحدة وذال معجمة: أى أعطى وهو مجاز: بمعنى أراد بذله **(لغرماء أبيه)** جمع غريم: وهو صاحب الدين الطالب له من الغرام: وهو اللزوم كما قال تعالى: (﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾)[الفرقان: ٦٥].

(أصل ماله) أراد بأصل ماله بستانا ونخلا له كان يتقوت منه، والمال فى لسان العرب لا يختص بالنقود كما فى العرف، وشاع إطلاقه على الإبل قديما كما يشير إليه قوله: **(فلم يقبلوه)**؛ إما لأنه لا يفى بدينهم، أو لعدم احتياجهم؛ أو لأنه لم يكن مرضيا لهم.

(ولم يكن فى ثمرها) أنث الضمير الراجع للمال نظرًا لمعناه؛ لأن المراد بها هنا: النخيل جمع نخل وهى تؤنث، والثمر بالمثلثة واحده ثمرة، ولا حاجة لجعله راجعًا لأمواله المعلومة من قوله مال ولا إلى تفسيره بالفوائد مطلقًا، فيشمل الألبان والنتاج كما قيل، ولا وجه له لما ستسمعه فى الحديث.

وقوله: **(سنتين)** مثنى سنة، وفى نسخة: سنين بصيغة الجمع والأول هو الصحيح.

(كفاف دينهم) بفتح الكاف: بمعنى ما يفى به ويكفيه، ومنه اللهم اجعل رزقى كفافا أى مقدار الكفاية، وبفتحها معناه الخيار وهو غير مناسب هنا، كقراءة تمر بمثناة فوقية، وإن صح معنى، وسنتين ظرف مستقر لا أنه متعلق بثمر بالمعنى المصدرى حال من ثمر.

(فجاءه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن أمره بجذها) بفتح جيمه وذال معجمة،

ويجوز إهمالها وكلاهما بمعنى قطع الثمار وجمعها.

(وجعلها) بصيغة المصدر **(بيادر)** بمثناة تحتية، ودال وراء مهملتين: جمع بيدر بزنة حيدر، وهو الموضع الذى يوضع فيه التمر لينشف، والبر ونحوه ليخلص من تبنه، والكوم من الطعام كالتمر والحنطة، ويصح إرادة كل منهما هنا، والظاهر الثانى.

والبيدر: هو الجرين والجرن، وأهل العراق يسمونه أندر وجمعه أنادر، وفى المغرب يسمونه نادر، وكأنه غلط من الأندر.

(فى أصولها): أى جعلها كومًا كومًا فى أصول الثمار، وهى النخل، والمراد أنه كومه فى حديقة نخله حتى يعلم مقدارها.

(فمشى فيها) النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيه مضاف مقدر أى فى أرضها أو المراد ما بينها، وفعل ذلك لتحصل البركة وينمو ما فيها.

(ودعا) الله تبارك وتعالى أن يبارك فيها فنمت وزادت.

(فأوفى منه جابر غرماءه): أى أعطاهم مما فى البيدر مقدار حقهم بتمامه، من قولهم: أوفاه حقه ووفاه فاستوفاه وتوفاه: أخذه بتمامه، وضمير غرماءه لأبيه لعلمه مما تقدم، أو له لقيامه مقامه فى أداء دينه، وفى نسخة غرماء أبيه وهى ظاهرة.

(وَفَضَلَ): أى بقى منه بعد ما أدى كل ذى حق حقه، وهو مثلث الضاد المعجمة والفتح أفصح.

(مثل ما كانوا يجدون) بفتح المثناة التحتية، وضم الجيم، وتشديد الذال معجمة أو مهملة: أى ما كانوا يقطعونه من ثمارها.

(كل سنة): أى فيها **(وفى رواية: مثل ما أعطاهم)**: أى بقى مثل ما أعطى غرماء أبيه، وفيه زيادة كثيرة على ما فى الرواية الأولى من أن ثمرها لا يفى بدينهم فى سنتين أو سنين.

(قال): أى جابر، رضى الله تعالى عنه: **(وكان الغرماء يهود)** بالنصب خبر كان، وهو ممنوع من الصرف؛ لأنه علم لهذه الطائفة، وقد ينكر وينون.

(فعجبوا من ذلك) أى مما رأوه من كفاية ثمرها وزيادته، مع أنه كان لا يكفى فى سنين، وهو من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم العظيمة.

وهذا الحديث قد علمت أنه فى البخارى، وكذا فى غيره، واقتصر المصنف، رحمه الله، على محل الشاهد منه، وكان أبو جابر عبد الله استشهد بأحد وترك عليه دينا كثيرًا،

وله ست بنات، وكان الدين لرجل من اليهود كما علم ثلاثين وسقا، فاستنظره جابر، فلم ينظره فكلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك، فكلم اليهودى فلم يرض، فأمره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بما مر فأتاه وطاف ببيدره ثلاث مرات، وأمره بأن يكيل لهم، فكال حتى وفّى لهم ثلاثين، وفَضَلَ سبعة عشر، وفيه: فلما حضر جذاذ النخل أتيته صلى الله تعالى عليه وسلم وفيه تصريح بأن ماله حديقة نخل، وهذا ما وعدناك به فلا تكن من الغافلين.

(وقال أبو هريرة)، رضى الله عنه، فى حديث رواه البيهقى مسندًا: **(أصاب الناس مخمصة)**: أى جوع كما مر.

(فقال لى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: هل) عندك **(من شىء؟)** من جنس الطعام، ومن زائدة هنا لاطراد زيادتها بعد النفى والاستفهام، وشىء مبتدأ خبره مقدر كما ذكرناه.

(قلت: نعم شىء نصفين من التمر) قليل **(فى المزود)** بكسر الميم: وهو وعاء الزاد، **(قال: فأتنى به)** فأتاه به أى بالمزود أو التمر، **(فأدخل يده)** الشريفة فى المزود، **(فأخرج)** منه **(قبضة)** بفتح القاف: وهى المرة كالضربة، أريد بها المقبوض من القبض، وهو الأخذ بالكف، وبالضم: اسم المقبوض.

(فبسطها): أى وضعها مبسوطة متفرقة، ليعلم قلتها، **(ودعا بالبركة)**، أى بأن يبارك الله فيها حتى تزيد، **(ثم قال)** صلى الله تعالى عليه وسلم بعدما دعا: **(ادع عشرة)** من الناس، فدعاهم، **(فأكلوا حتى شبعوا)** من ذلك التمر، **(ثم)** قال: ادع **(عشرة كذلك)**: أى فدعوتهم فأكلوا حتى شبعوا، وهكذا **(حتى أطعم الجيش كلهم وشبعوا)**.

وهذا يقتضى أنه كان فى بعض غزواته، وقد صرح به فى بعض الروايات وسيأتى، **(وقال)** لى: **(خذ ما جئت به)**؛ لأنه أطعمهم كلهم، وبقى ما جاء به كما كان، وهو محل الاستشهاد، فإنه أمره برفعه، وأن يأخذ كل ما أراد، وقال له: ولا تكله ليبارك فيه كما مر.

(وأدخل يدك واقبض منه ولا تكبه فقبضت على أكثر مما جئت به) قال: **(فأكلت منه وأطعمت)** أهلى، ومن أردت إطعامه **(حياة رسول الله)**: أى مدة حياته **(صلى الله تعالى عليه وسلم و)** فى مدة حياة **(أبى بكر وعمر إلى أن قتل عثمان)** بن عفان، رضى الله تعالى عنهم، **(فانتهب منى)** بالبناء للمجهول: أى نهبه الناس، وأغاروا عليه، فأخذوه فى زمن الفتنة، **(فذهب)**: أى عدم، ولم يبق منه شىء، ولولا ذلك لكفاه مدة حياته لما فيه من البركة.

(وفى رواية) رواها الترمذى فى سننه وحسنها عن أبى هريرة، رضى الله عنه: **(فقد حملت من ذلك التمر)** الذى أعطانيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: أى جعلته محمولا معى فى أسفارى **(كذا وكذا)**: كناية عن مقدار ما حمله **(من وسق)**: بيان لكذا وكذا، والوسق حمل بعير، كما مر.

(فى سبيل الله): أى من أسفارى غازيا، وسبيل الله: الطريق الموصلة إليه، فإذا أطلق، فالمراد به ما ذكر، وفى رواية: فلقد حملت بلام القسم، وكان يعلقه خلف رحله، وكان يقول: أصبت بثلاث مصائب لم أصب بمثلهن: موت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وقتل عثمان، وذهاب مزودى.

وروى هذا الحديث بطريق آخر قريبة مما هنا.

(وذكرت مثل هذه الحكاية) بالبناء للمجهول، وأنث لأنه اكتسب التأنيث من المضاف إليه، وفى نسخة وذكر **(فى غزوة تبوك وأن التمر كان بضعة عشر تمرة)** ذكره؛ لأنه أبلغ فى المعجزة لغاية قلته.

(ومنه): أى من تكثير الطعام ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم **(أيضًا حديث أبى هريرة)**، رضى الله تعالى عنه، الذى رواه البخارى **(حين أصابه الجوع)** وأعلمه منه صلى الله تعالى عليه وسلم **(فاستتبعه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى طلب منه أن يتبعه، فقال له: اتبعنى وكن ماشيا معى فتبعه، **(فوجد لبنا فى قدح)** فى بيته **(قد أهدى إليه)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(وأمره أن يدعو أهل الصفة)**؛ ليكونوا تابعين معه، وهم فقراء المهاجرين الذين تقدم بيانهم، **(فقال: فقلت: ما)** موقع **(هذا اللبن فيهم؟)** وما مقداره القليل كاف لهم، **(كنت أحق)** منهم؛ لشدة جوعتى، وما علمه الرسول من حالى **(أن أصيب منه شربة)**: أى من ذلك اللبن **(أتقوى بها)**: أى يكون فيها تقوية لضعفى بجوعى، وليس هذا إنكارًا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه لا يليق بمثله، فهو إما تعجب منه لما استغربه قبل مشاهدة الحقيقة، ومثله من الخواطر لا يؤاخذ بها، وقيل: غايته أنه ارتكب خلاف الأولى، ولا حاجة لمثله، **(فدعوتهم)** إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم.

(و) بعد حضورهم **(أمرنى أن أسقيهم)** وفى نسخة: وذكر أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يسقيهم، **(فجعلت)**: أى شرعت **(أعطى الرجل)** منهم، **(فيشرب)** بالنصب، **(حتى يروى)** بفتح المثناة: أى يروى عطشه، **(ثم يأخذه الآخر)**: أى فيشرب حتى يروى وهكذا **(حتى روى جميعهم)**: أى جميع أهل الصفة.

(قال) أبو هريرة، رضى الله تعالى عنه، **(فأخذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم القدح)** الذى فيه اللبن، وهذا القدح يحتمل أن يكون لصاحب اللبن الذى أهداه له، أو هو من أقداحه صلى الله تعالى عليه وسلم صب فيه اللبن الذى جاءه.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم لأبى هريرة، رضى الله تعالى عنه: **(بقيت أنا)** تأكيد لضمير الفاعل ليعطف عليه قوله:

(وأنت. اقعد فاشرب) أمره بالقعود؛ لأن الشرب قائما من غير ضرورة مكروه[1].

(فشربت، ثم قال: اشرب) مرة أخرى، **(وما زال يقولها)**: أى كلمة اشرب **(وأشربُ)** بالرفع: أى وأنا أشرب، والجملة حالية **(حتى قلت: لا)** أشرب بعد هذا نفى للشرب المأمور به، واعتذر عن رده بقوله: **(والذى بعثك بالحق لا أجد له)**: أى اللبن **(مسلكا)** أى لم يبق فى جوفى محلاً خاليًا يدخله، وهو جواب القسم إن لم يكن تأكيدًا للنفى قبله، وما بعده استئناف أو تعليل له، **(فأخذ)** صلى الله تعالى عليه وسلم أى تناول من يد أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، **(القدح فحمد الله تعالى)** على ما أنعم به من الزيادة، **(وسمى)** فقال: بسم الله، **(وشرب الفضلة)** أى ما بقى منهم بعد شربهم كلهم.

والحديث بتمامه فى صحيح البخارى، اقتصر المصنف، رحمه الله تعالى، منه على محل الشاهد منه كما هو دأبه **(وفى حديث خالد بن عبد العزى)** الذى رواه البيهقى مسندًا عنه، ولم يذكره أصحاب الكتب الستة، وخالد هذا، كما قاله البرهان، هو ابن سلامة أبو خُناش بخاء معجمة مضمومة ونون وآخره شين معجمة ونونه مخففة، وهو خزاعى وله صحبة، وروى عنه ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه.

وقال التلمسانى: إنه خالد بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى، هاجر إلى الحبشة فى المرة الثانية، فمات فى الطريق، وهو ابن أخى خديجة أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها.

(أنه أجزر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم شاة) بالنصب مفعول أجزر بمعنى أعطى، والنبى بالنصب أيضًا مفعول أول وأجزره: أعطاه جزرة، وهى شاة أو نعجة أو كبش أو

(١) قال ابن القيم فى «زاد المعاد» فى الكلام عن هدى رسول الله: وكان أكثر شربه قاعدًا، بل زجر عن الشرب قائمًا، وشرب مرة قائمًا، فقيل: هذا نسخ لنهيه، وقيل: بل فعله لبيان جواز الأمرين، والذى يظهر فيه، والله أعلم، أنها واقعة عين شرب فيها قائما لعذر، وسياق القصة يدل عليه، فإنه أتى زمزم وهم يستقون منها، فأخذ الدلو وشرب قائمًا، والصحيح فى هذه المسالة النهى عن الشرب قائمًا وجوازه لعذر يمنع من القعود، وبهذا تجمع أحاديث الباب والله أعلم. زاد المعاد (٣٨/١) دار الفكر.

عنز، تعطى لتجزر: أى تذبح، ولا تكون فى الناقة، فإنه يقال: أجزره أو جزره: إذا أعطاه جزورًا لغير الذبح كالركوب، وهو معنى قول الجوهرى يقال: أجزرت القوم إذا أعطيتهم شاة يذبحونها أو كبشا أو عنزا، ولا تكون الجزرة إلا من الغنم، ولا يقال: أجزرهم ناقة؛ لأنها قد تصلح لغير الذبح، وفى القاموس هنا كلام غير مهذب، وقصة خالد هذه كانت بالجعرانة؛ لما نزل عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأمسى ثم بدت له صلى الله تعالى عليه وسلم العمرة، فأرسله إلى رجل من تهامة كما فى بعض الشروح هنا، **(وكان عيال خالد كثيرًا يذبح الشاة)** لأجلهم وإطعامهم، **(فلا تبد عياله)** بفتح المثناة الفوقية وضمها وضم الموحدة وكسرها وفاعله ضمير الشاة، يقال: بده بموحدة ودال مهملة مشددة يبده إذا فرقه، وقال ابن القطاع: بددت الشىء: فرقته، وأبددتهم العطاء: فرقته فيهم، وفى المحكم أبد الطعام بينهم: إذا أعطى كل واحد منهم نصيبه على حدة، وهو بيان لكثرتهم: يعنى أن الشاة إذا فرقت عليهم لا تكفيهم.

وقوله: **(عظمًا عظمًا)** أى إذا فرقته عليهم قطعة قطعة، وعظمة بعد عظمة لا تكفيهم لكثرتهم، **(وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** بفتح همزة أن بالعطف على قوله أنه أجزر إلى آخره الذى هو مبتدأ مقدم خبره، وهو قوله فى حديث خالد.

(أكل من هذه الشاة) التى أجزرها له خالد، **(وجعل فضلتها)** أى ما بقى منها بعد أكلهم **(فى دلو خالد)** هو وعاء من أدم وجلد يستقى به الماء، فالمراد به هنا جراب يشبه الدلو، ويجوز أن يراد حقيقته؛ لأنه لم يكن معه وعاء غيره.

(ودعا له): أى لخالد ويجوز أن يعود للدلو **(بالبركة)**: أى بالزيادة، ولفظه: اللهم بارك لأبى خُناش، **(فنثر ذلك)** الطعام الذى فى الدلو: أى رماه **(لعياله)** بكسر العين:

قال الصاغانى فى التكملة: إنه جمع عيل كجياد وجيد، وهم من يلزمه الإنفاق عليه، ويكون اسما للواحد كما استعمله الحريرى فى مقاماته، وذكره المطرزى فى شرحه، **(فأكلوا وأفضلوا)** أى أبقوا بقية زادت عن كفايتهم ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم وبركة دعائه.

(ذكر خبره): أى خبر خالد، أو خبر ما ذكر من الأكل والزيادة **(الدولابى)** فاعل ذكر وهو بضم الدال المهملة وواو ساكنة ولام، وألف وباء موحدة، وهو اسم بلدة نسب إليها وهو منقول من الدولاب: بضم الدال وفتحها معرب دولب، وهو الحافظ أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد بن سعيد بن مسلم الأنصارى الرازى الوراق المحدث الجليل، صاحب التصانيف، روى عنه الكبار كالطبرانى، وأبو حاتم، وتوفى بين مكة

والمدينة بالعرج فى ذى القعدة سنة عشر وثلاث مائة، ومولده سنة أربع وعشرين ومائتين، وفيه كلام مفصل فى الميزان فى ترجمته، وله ذرية مشهورة، ولهم دولابى آخر وهو أبو جعفر بن الصباح صاحب السنن، والمراد الأول كما ذكره البرهان وغيره.

(وفى حديث الآجرى) بالمد وضم الجيم، وتشديد الراء المهملة منسوب للآجرّ المعروف بالطوب نسب لعمله وهو أبو بكر بن محمد الإمام البغدادى، كما تقدم تفصيله فى ترجمته **(فى إنكاح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فاطمة لعلى، رضى الله تعالى عنهما)** أى عقده نكاحها واللام مزيدة للتقوية **(أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمر بلالاً)** أن يأتى **(بقصعة)** مملوءة **(من أربعة أمداد أو خمسة)** من حنطة أو غيرها **(ويذبح جزورًا)** بنصب يذبح بأن مصدرية مقدرة، وجزورًا مفعوله، أى أن يذبح أو معطوف على مقدر كما أشرنا إليه، أو على أمر بتقدير وأمره أن يذبح، والجزور بوزن الشكور رأس من الإبل ناقة أو جملاً، سميت بها؛ لأنها مما يجز: أى وهى مؤنثة سماعية وإن عمت، ففيها شبه تغليب فافهم.

(لوليمتها) الوليمة: هى الدعوة لطعام يصنع فى النكاح خاصة، ويجمع على ولائم وهو مستحب.

(قال) بلال، رضى الله تعالى عنه، **(فأتيته بذلك)** الذى أمرنى به من القصعة والجزور، **(فطعن فى رأسها)** إن كان الضمير للقصعة، فرأسها بمعنى أعلاها، وإن كان للجزور فهو ظاهر، وطعنه فيها إدخال يده فيها أو مسها؛ لتحصل البركة فيها **(ثم أدخل الناس)** أى أمر صلى الله تعالى عليه وسلم بدخولهم ليأكلوا **(رفقة رفقة)** بالنصب: أى حال كون دخولهم جماعة بعد جماعة، والرفقة بضم الراء وكسرها: بمعنى الجماعة المترافقين المتصاحبين.

(يأكلون منها) جملة مستأنفة أو حال مقدرة **(حتى فرغوا)** أى أكلوا جميعا إلى أن شبعوا وفرغوا من أكلهم.

(وبقيت منها فضلة) أى فضل منها ما زاد على أكلهم، **(فبرك فيها)** وفى نسخة بها وبرّك بتشديد الراء المهملة أى دعا بأن يبارك فيها، ويجعل فيها البركة: وهو الزيادة والنمو كما مر.

(وأمر بحملها) أى بحمل القصعة بما فيها أو بحمل الفضلة **(إلى أزواجه)** أى إلى بيوتهن.

(وقال) لأزواجه: **(كلن وأطعمن من غشيكن)** بفتح الغين وكسر الشين المعجمتين:

أى كل من يأتى إليكن من غير أهل البيت، يقال: غشيه غشيا وغشاه: إذا أتاه إتيان ما قد غشيه أى ستره.

(وفى حديث أنس) الذى رواه الشيخان مسندًا **(تزوج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)** بعض أزواجه وهى صفية بنت حيى، رضى الله تعالى عنها، فى مرجعه من خيبر بمحل يسمى سد الصهباء، قال أنس، رضى الله تعالى عنه، **(فصنعت أمى)** وكنية والدة أنس **(أم سُليم)** بضم السين مصغرًا واسمها سهلة، وهى زوجة أبى طلحة الخزرجية الصحابية الصالحة القانتة، وكان لها منزلة عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم **(حيسا)**، وقد تقدم أنه طعام يصنع من لبن وأقط وتمر وسمن يحاس: أى يخلط بعضه ببعض، **(فجعلته)**: أى وضعته **(فى تور)** بفتح المثناة الفوقية وواو ساكنة وراء مهملة، وهو إناء من صفر أو حجارة واسع رحراح كالصينية القريبة القعر.

(فذهبت) بضم التاء وهو ضمير أنس المتكلم **(به إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: ضعه)** على الأرض **(وادع لى فلانا وفلانا)** ممن كان معه ثمة من كبار الصحابة، وخصهما تشريفا لهما، ثم عمم فقال: **(ومن لقيت)**: أى وادع كل من صادفته **(فدعوتهم)**: أى دعوت من عينه أولاً ولم يقل دعوتهما؛ إما لأن قوله فلانًا فلانًا مختصر كناية عمن عينه من القوم، أو لأن الاثنين جمع على قول: **(ولم أدع)** أى لم أترك **(أحدًا)** أى دعوته **(لقيته إلا دعوته)** كما أمرنى به.

(وذكر) أنس **(أنهم)** أى من دعاهم **(كانوا زهاء)**: أى مقدار **(ثلاثمائة)** رجل، فاجتمعوا ثمة **(حتى ملئوا الصفة)**: وهى موضع مظلل قدام البيت، أو دكة علية فيه، وليس المراد صفة المسجد المعهودة، **(والحجرة)** وهى البيت الصغير المفرز من الدار.

(فقال لهم صلى الله تعالى عليه وسلم) بعد اجتماعهم: **(تحلقوا)** تفعل أى استديروا حول الطعام كالحلقة، طائفة بعد طائفة من غير ازدحام.

(عشرة عشرة) يسعهم مكان الطعام.

(ووضع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يده على الطعام) الموضوع، وهو الطعام الذى جاءه، **(فدعا فيه)** بالبركة **(وقال ما شاء الله أن يقول)**: أى ما أراد الله من دعائه الذى علمه، وأبهمه؛ لأنه أسره فلم يسمعوه؛ لأنه من الأسرار التى خصه الله تعالى بها، **(فأكلوا حتى شبعوا كلهم فقال)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(لى)** أى لأنس: **(ارفع)** التور بما فيه **(فما أدرى حين وضع)** عنده قبل الأكل منه **(كان)** الطعام **(أكثر أم حين رفع؟)** بالبناء للمجهول، وفى بعض النسخ وضعت ورفعت.

واعلم أن هذا الحديث ذكره بعينه عن أنس قبل هذا، فإعادته هنا تقتضى أن القصة صح تكررها، وأنه وقع مرة فى تزوجه صلى الله تعالى عليه وسلم بزينب بنت جحش، وأخرى حين تزوج صفية وقد استشكله المصنف، رحمه الله تعالى، فى شرح مسلم، فقال: ما وقع فى الحديث من أن تكثير الطعام كان فى وليمة زينب، يخالف الروايات المشهورة من أن وليمتها كانت بالخبز واللحم، ولم يذكر فيها تكثير الطعام، وإنما فيه أنهم شبعوا من الخبز واللحم، ففيه وهم من الراوى أدخل فيه قصة فى قصة، فإن التكثير فى قصة صفية، لا فى وليمة زينب التى نزلت فيها آية الحجاب.

وتعقبه القرطبى بأنه لا وهم فيه، وأنه لا مانع من الجمع بين الروايتين بأن الذين دعوا للخبز واللحم أكلوا، وذهب منهم جمع، وبقى آخرون يتحدثون، فجاء أنس بالحيس ودعا الناس كما ذكره المصنف رحمه الله هنا.

وقال ابن حجر أيضًا: لا وجه لإنكاره تكثير الطعام فى حديث الخبز واللحم، فإن أنسا قال: إنه أولم بشاة أشبعت الناس، وما قدرها حتى تشبعهم، وهم نحو الألف، فالظاهر أن المصنف، رحمه الله تعالى، رأى هنا تعدد القصة، ولذا صرح بزينب أولاً، ولم يسمها إشارة إلى أنها صفية إلا أن فيه توقفا عندى من جهة أخرى، فإن وليمة صفية كانت فى السفر، وذكر الصفة والحجرة ينافيه، والحيس فيها صنعه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأم سليم، وما قيل من أن أم سليم أهدته له صلى الله تعالى عليه وسلم بعد قدومه المدينة فرحًا بتزوجه لا يخفى ما فيه من البعد، وبعد كل كلام، فكلام المصنف، رحمه الله تعالى، فيه اضطراب يحتاج للتحرير.

(وأكثر أحاديث هذه الفصول الثلاثة): أى نبع الماء من بين أصابعه، وانفجاره بدعوته، وتكثير الطعام ببركته **(فى الصحيح)** من الأحاديث وكتبها المعتمدة، وقوله: أكثر إشارة لضعف بعضها.

(وقد اجتمع على معنى هذا الفصل بضعة عشر من الصحابة): يعنى توافقوا على ما يفيده المجموع، بقطع النظر عن كل واحدة على حدة، وتقدم أن البضع بكسر الباء من الثلاثة إلى التسعة، مع اختلاف فى استعماله فيما فوق العشرين، والصحيح جوازه لوروده فى الحديث، وقوله ببضع وعشرين درجة فى فضل الصلاة وتفصيله مشهور.

(رواه عنه أضعافهم من التابعين ثم) رواه عن الأضعاف من التابعين وتبع التابعين **(من لا يعد بعدهم)** بصيغة المجهول، وفى بعض النسخ من لا نعد بالنون.

(وأكثرها): أى أكثر أحاديث الفصول الثلاثة **(فى قصص مشهورة)** بحسب الرواية

(**ومجامع مشهودة**): جمع مجمع، وهو محل يجتمع فيه الناس بكثرة، قال الفرزدق[1]:

إذا جمعتنا يا جرير المحافل

والمشهد من الشهود بمعنى الحضور، وفيه تجنيس وتورية بديعية، وما يقع بين كثير من الناس لا يمكن أن يكون غير واقع أو منتقل، (**ولا يمكن التحدث عنها إلا بالحق**): أى لا ينتقل عن مثلها إلا الأمور الصادقة المحققة، (**ولا**) يمكن أن (**يسكت الحاضر**) فى مجالس وقوعها، والتحدث بها، وضمن الحاضر معنى السامع فعداه باللام فى قوله: (**لها على ما أنكره**) منها، مما خالف الواقع.

* * *

تم بحمد الله الجزء الثالث من كتاب نسيم الرياض لشهاب الدين الخفاجى رحمه الله
فى شرح الشفاء للقاضى عياض
ويليه الجزء الرابع، وأوله:
«(**فصل فى كلام الشجر**)»

* * *

(١) عجز بيت وصدره:

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم

والبيت من الطويل، وهو فى ديوان الفرزدق (ص٣٦٠)، وفيه: المجامع، بدل: المحافل.

المحتويات

نسيم الرياض

في شرح شفاء القاضي عياض

تأليف

شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر

الخفاجي المصري

المتوفى سنة ١٠٦٩هـ

ضبطه وقدم له وعلق عليه

محمد عبد القادر عطا

الجزء الرابع

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



الطّبعَة الأولى
١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان
رمل الظريف، شـارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ١١ ـ ٩٤٢٤ بيروت ـ لبنـان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3209-1



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(فصل فى كلام الشجر)
[وشهادتها له بالنبوة وإجابتها دعوته]

الآتى بيانه، والشجر ما قام على ساق، واحده شجرة، وما عداه نبات، وقد يطلق على بعض النبات شجر كاليقطين، والحنطة، والكلام ما يتلفظ به اسم ويجيء بمعنى التكليم، وتكليمه له صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يخلق الله تعالى فيه نطقا، ولما كان هذا أمرا خارقا للعادة، لم يقل: ومن معجزاته فلا حاجة لذكره كما قيل.

(وشهادتها له بالنبوة) من عطف الخاص على العام **(وإجابتها دعوته)** أى طلبه صلى الله تعالى عليه وسلم منها أن تجيء نحوه كما سياتى، وله منها حديث رواه البيهقى والبزار والدارمى مسندًا عن ابن عمر، وهو ما ذكره بقوله: **(حدثنا أحمد بن محمد بن غلبون)** بفتح الغين المعجمة وسكون اللام وموحدة، ممنوع من الصرف للعلمية، وشبه العجمة كزيدون وسعدون، ومثله كثير فى لسان أهل المغرب **(الشيخ الصالح فيما أجازنيه)** عداه بنفسه لمفعولين، وهو لغة حكاها ابن فارس فى المجمل، وبتعدى باللام والباء، والإجازة: الإذن فى الرواية عنه، والكلام على أنواعها ولغتها مفصل فى ابن الصلاح وحواشيه، فلا حاجة لذكره هنا **(عن أبى عمرو الطلمنكى)** بالطاء المهملة واللام والميم المفتوحات ونون ساكنة وكاف، تقدم الكلام عليه وعلى نسبته **(عن أبى بكر بن المهندس)** المعروف بابن أبى طاهر، والمهندس بوزن اسم الفاعل، ويقال: مهندز بالزاء، وهو معرب، وليس فى لغة العرب دال بعدها زاء، والهندسة اسم علم معروف من الرياضيات، وفى العرف العارف بأحوال البناء.

(عن أبى القاسم البغوى) نسبة إلى بغ، ويقال بغا، وهى قريبة بين مرو وهراة، وأصلها بغشور فخفف، وهذا هو عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان الإمام الحافظ

الجليل البغدادى، ابن بنت أحمد بن منيع، وليس هو البغوى المشهور صاحب المصابيح والتفسير محيى السنة، ومولد هذا فى رمضان سنة أربع عشر ومائتين وتوفى ليلة عيد الفطر سنة سبع عشرة وثلاثمائة، وترجمته فى الميزان قال: **(حدثنا أحمد بن عمران الأخنسى)** بياء النسبة لأخنس بخاء معجمة ونون وسين مهملة بوزن أفعل، وقيل: إنه الأخنس بغير نسبة لقب له، وهو كذلك فى بعض النسخ، وقيل: هما واحد، وقيل: اسمه محمد، وتوفى فى حدود الثلاثين ومائتين، وكان ببغداد، وفيه كلام قال **(حدثنا أبو حيان التيمى)** بحاء مهملة مفتوحة ومثناة تحتية مشددة منسوب لتيم قبيلة مشهورة، وهو إمام ثقة أخرج له الستة، وتوفى سنة خمس وأربعين ومائة، وهذا الحديث منقطع، فإنه سقط بين ابن عمران، وأبى حيان راو، وهو محمد بن فضيل كما سيأتى فى كلام المصنف فى بعض النسخ، وتردد فى تعيينه البرهان، ومثله لا يكون رجما بالغيب.

(وكان صدوقا) وثقة ردا على بعض من طعن فيه.

(عن مجاهد) تقدمت ترجمته **(عن ابن عمر)** الصحابى المشهور، رضى الله تعالى عنهما: **(قال: كنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى سفر فدنا منه)**: أى قرب منه من الدنو **(أعرابى)**: نسبة إلى الأعراب، وهم سكان البادية من العرب، وفى النسبة إليه وهو جمع حقه أن يرد لمفرده كلام مشهور.

(فقال) له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم **(يا أعرابى أين تريد؟)** أى تقصد بمسيرك وسفرك هذا.

(قال: إلى أهلى) أى أريد مكانا فيه أهلى ولم يعينه لأنهم نزالة رحالة، وعداه بإلى لتضمنه معنى التوجه، والإرادة متعدية بنفسها، وإنما قدم سؤاله؛ تأنيسا له وإزالة لما فى نفسه من مهابته صلى الله تعالى عليه وسلم فإنه كان مهيبا لمن رآه، وتوطئة لقوله: **(قال: هل لك إلى خير؟)** أى هل تنقاد وتذعن لخير مما أنت فيه؟ **(قال: وما هو؟)** أى الخير الذى دعوتنى إليه **(قال: تشهد أن)** مخففة من الثقيلة **(لا إله إلا الله وحده)** حال لازمة، أى متوحدا منزها عما يشاركه فى ذاته وصفاته، وفى كونه معبودًا بحق.

وقوله: **(لا شريك له)** تأكيد لوحدانيته بعد تأكيد.

(وأن محمدًا عبده ورسوله) قدم العبودية؛ تنزيها لنفسه عن الإطراء فى مدحه.

(قال) الأعرابى: **(من يشهد لك على ما تقول؟)** من دعوى الرسالة.

(قال: هذه السمرة) بفتح السين المهملة وضم الميم وراء مهملة مفتوحة، وهى شجرة عظيمة ذات شوكة من الطلح، وأشار إليها لقربها منه، وفى نسخة بعد ما تقدم: فادعها فإنها ستجيبك، قال: فدعوتها **(وهى)**، أى السمرة **(بشاطئ الوادى)** بشين معجمة وألف

وطاء مهملة وهمزة: بمعنى جانب وطرف، والوادى: الأرض الواسعة المستوية، من ودى بمعنى سال لما فيها من المياه السائلة **(فأقبلت)** الفاء فصيحة: أى فدعاها لتشهد له فأقبلت **(تخد الأرض)** بمثناة فوقية، وخاء معجمة مضمومة، ودال مهملة مشددة: أى تشقها، ومنه الأخدود، وشقها لتسعي بعروقها التى فى جوف الأرض، ولولا ذلك لم تتحرك **(حتى وقفت بين يديه)** صلى الله تعالى عليه وسلم بأن قامت محاذية له قريبا منه **(فاستشهدها ثلاثًا)**، أى قال لها ثلاث مرات وطلب منها أن تشهد له بأنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وجملة تخد الأرض حالية أو مستأنفة، وإنما كرر استشهادها تأكيدا؛ ليقرر ذلك فى قلب الأعرابى.

(فشهدت) له بأنه رسول الله حقًا أرسله الله الذى لا شريك له، ولم يبين ما نطقت به لأنه معلوم من السياق، **(ثم رجعت إلى مكانها)** الذى كانت فيه.

وفى هذه القصة معجزات له صلى الله تعالى عليه وسلم خلق الله فى الجماد إدراكا ونطقا وحركة إرادية يجيء بها ويذهب، وقد وقعت على سبيل التحدى، فحد المعجزة منطبق على كل واحدة منها.

(و) وفى حديث رواه البزار مسندًا **(عن بريد)** بضم الموحدة، وفتح الراء المهملة ومثناة تحتية ودال مهملة، علم منقول من مصدر البردة المعروفة، وهو أبو عبد الله بن الحصيب مصغر حصب بمهملتين وموحدة، وهو صحابى أسلم قبل بدر، وشهد الحديبية، ومات بمرو خراسان غازيا فى أيام معاوية، أو يزيد سنة اثنين أو ثلاث وستين من هجرته صلى الله تعالى عليه وسلم **(سأل أعرابى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، آية)**: أى علامة ومعجزة تدل على أنه رسول الله حتى يؤمن به، **(فقال له: قل لتلك الشجرة)** مشيرًا لسمرة كانت ثمة، وهى تلك السمرة المذكورة فى الحديث الذى قبله، أى غيرها **(رسول الله يدعوك)** بكسر الكاف، أى يطلب منك المجئ إليه والحركة نحوه.

(قال) أى بريدة: فدعاها، **(فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها)**: أى مالت ميلا شديدا وتحركت فى جهاتها الأربع، حتى تخلص عروقها من الأرض، وتمكنها الحركة نحوه صلى الله تعالى عليه وسلم.

(فتقطعت عروقها) المتمكنة فى مغرسها، وهو إما على ظاهره أو المراد أنها تخلصت، وهذا هو الظاهر من قوله: **(ثم جاءت تخد الأرض)** وتشقها **(تجر عروقها)** من خلفها، وهذا يدل على أنها لم تقطع، ولو تقطعت فسدت ولم تبق نابتة بحالها، وقيل: إنه معجزة أخرى مخالفة للعادة من بقائها بعد تقطع عروقها التى هى سبب حياتها، والجملتان حالان مترادفتان أو متداخلتان، والثانية مؤكدة للأولى، ولذا لم تعطف عليها **(مغيرة)**،

أى مسرعة فى مشيها، قال الله تعالى: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ [العاديات: ٣]، ومنه المغارة على العدو، وهو منصوب على الحال أيضًا، ومغيرة اسم فاعل من الغارة، وبعد الغين المعجمة مثناة تحتية ساكنة.

وقيل: إنه بباء موحدة مشددة مكسورة وراء مهملة مخففة.

وقيل: الغين ساكنة، والباء مفتوحة مخففة والراء مفتوحة مشددة من الغبار، وهو حال من الفاعل المستتر، أو من العروق، ولكل منها ذهب بعض.

(حتى وقفت بين يدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم) قريبا منه مواجهة له **(فقالت: السلام عليك يا رسول الله)**، وفيه شهادة برسالته وتوقير له، ولم يذكر أنه رد عليها السلام؛ لأن السلام إنما شرع تحية موجبة للرد فى حق البشر؛ لأنه أمان وليست من أهله، فما قيل من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم رد عليها السلام مكافأة لها لا وجوبًا، إذ ليست مكلفة أمر يحتاج للنقل، فكان عليه بيانه، والسلام دعاء بالسلامة.

وقيل: إنه هنا اسم الله أى الله معك حفيظ لك، وفيه كلام ليس هذا محله.

(قال الأعرابى: مرها) بضم الميم أمر أصله أؤمرها فخفف، **(فلترجع إلى منبتها)** تفسير للأمر، ومنبتها بكسر الباء موضع نباتها ويجوز فتحها، فأمرها **(فرجعت)** حملها **(فدلت عروقها)** أى أدخلتها فى الأرض، أصلها **(فاستوت)** أى انتصبت قائمة من غير ميل بها **(فقال الأعرابى)** لما رأى هذه المعجزة، وآمن به صلى الله تعالى عليه وسلم **(ائذن لى)** أمر من الإذن بكسر الهمزة الأولى وسكون الثانية، ويجوز إبدالها ياء.

(أسجد لك) مجزوم فى جواب الأمر، أو جواب شرط مقدر، أى أن تأذن لى فى السجود أسجد لك فأبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك، و**(قال)** له **(لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد)**: أى لو جاز لى أمر مخلوق بالسجود لمخلوق مثله، **(لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)**: لوجوب طاعته عليها، ولماله عليها من الحقوق الموجبة للتعظيم، والخضوع والسجود والركوع لا يجوز لغير الله تعالى فى ملتنا، وقد قيل إنه كان جائزًا فى الشرائع التى قبل شريعتنا بقصد التعظيم، لا العبادة، ولذا قال الله تعالى: (﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾) [يوسف: ١٠٠]، إذا كان الضمير ليوسف عليه الصلاة والسلام، ولذلك جاز سجود الملائكة لآدم، عليه الصلاة والسلام، ثم نسخ هذا فى شريعتنا، وكان ذلك تحية الملوك عندهم، ولذا طلب الأعرابى الإذن فى تعظيمه، عليه الصلاة والسلام، بذلك، فنهاه عنه وكذلك الانحناء على هيئة الركوع نهينا عنه، وعوضنا عن ذلك تحية الناس بالسلام والمصافحة.

(قال) الأعرابى لما نهاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن السجود: **(فأذن لى أقبل)**

مجزوم فى جواب الأمر **(يديك ورجليك)** تعظيما لك، **(فأذن له)** فى تقبيل يديه ورجليه فقبلهما، وفيه دليل على جواز تقبيل اليد والرجل من الفاضل للمفضول، إذا كان لزهده وصلاحه، أو علمه وشرفه، وليس بمكروه، بل يستحب إذا كان تعظيمه لأمر دينى، كما قاله النووى فى الأذكار، فإن كان لأمر دنيوى فهو مكروه.

وقد ورد فى أحاديث كثيرة صحيحة تقبيل يد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وبهذا رد على المتولى من أئمة الشافعية حيث أطلق القول بعدم جوازه.

(وفى الصحيح) أى الحديث الصحيح، أو المراد به صحيح مسلم؛ لأنه روى هذا الحديث مسندًا فيه، **(وفى حديث جابر بن عبد الله الطويل)** بالجر صفة الحديث، وصفه به، لتوجيه عدم إيراده بتمامه هنا.

(ذهب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم) إلى الصحراء **(يقضى حاجته)**؛ لأنه لم يكن فى بيته خلاء، وهكذا سائر بيوتهم، وهو كناية عن التغوط: أى ذهب لأجل ذلك، **(فلم ير شيئًا يستتر به)**: أى حائلاً بينه وبين رؤية عورته بعد كشفها، **(فإذا بشجرتين)** إذا فجائية والباء زائدة: أى فاجأه بغتة من غير ترقب منه أى فإذا هو، فالمبتدأ مقدر هنا.

(فى شاطئ الوادى) بالهمزة أى طرفه وجانبه، **(فانطلق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى إحداهما)** أى توجه إلى إحدى الشجرتين حتى قرب منها.

(فأخذ بغصن من أغصانها) أى أمسكه صلى الله تعالى عليه وسلم بيده، **(فقال)** للشجرة: **(انقادى على)**: أى طاوعينى، وميلى على؛ لتكون ساترة له عن الأعين **(بإذن الله)** أى بتيسيره وتسهيله وإرادته، لا بقوة جذبى، وإذن الله يتجوز به تجوزًا مشهورًا، **(فانقادت معه)**: أى طاوعته ومالت حتى سترته كما أراد وإنما أمسك غصنها و لم يكتف بمجرد دعوتها كما فى الحديث الذى قبله؛ لأن ذلك كان لإظهار المعجزة، حتى يسلم الأعرابى، وهنا لم يقصد ذلك.

(كالبعير المخشوش): أى كما ينقاد البعير المخشوش لمن يقوده بسهولة، وهو اسم مفعول بخاء وشينين معجمتين، وهو الذى يوضع فى أنفه خِشاش بكسر الخاء، والبعير الذى يعسر قوده يخرق أنفه ويوضع فيه شىء يذلل به، فإن كان عودا من خشب فهو خشاش، وإن كان مفتولا من وبر ونحوه فهو خزام، وإن كان من نحاس ونحوه من المعدنيات فهو برة، كما قاله الخطابى.

وبهذا علمت موقع قوله المخشوش هنا؛ لأن الغصن من جنس العود؛ فلذا لم يقل المخزوم، وهى نكتة سرية لم ينبهوا عليها، والتشبيه فى السرعة والسهولة، وفيه تشبيه الشجرة بالبعير، وهو واقع فى كلامهم كعكسه فى قوله فى الإبل:

لمن شجر قد أثقلتها ثمارها سفائن بر والسراب بحارها

والخشاش: مأخوذ من قولهم خش بمعنى دخل لإدخاله الأنف، وقوله: (**الذى يصانع قائده**): صفة البعير، وهو يطلق على الذكر والأنثى كما مر، والمصانعة مفاعلة من المصنع، وهو العمل، والمراد به الملاينة وسهولة الانقياد، مستعار من المصانعة: وهى المداراة والإعطاء، ولذا قيل للرشوة مصانعة كما قاله الراغب.

(**وذكر**) أى جابر، رضى الله تعالى عنه، فى حديثه هذا (**أنه**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**فعل بالأخرى**): أى بالشجرة الأخرى التى كانت بالوادى (**مثل ذلك**)، أى مثل ما فعل بالأولى بأن أمسك غصنا منها، حين انقادت له صلى الله تعالى عليه وسلم بسهولة (**حتى إذا كان**) صلى الله تعالى عليه وسلم أى حن ووجد (**بالمَنْصَفِ**) بفتح الميم وسكون النون وفتح الصاد المهملة المخففة: أى حل فى وسط المكان (**بينهما**): أى بين الشجرتين، وهذا أستر له (**قال: التئما**) بفتح المثناة الفوقية، وكسر الهمزة، أى انضما واجتمعا (**عليَّ بإذن الله فالتأمتا**) بتيسيره وإرادته، والالتئام: الاجتماع، ومنه التئام الجرح.

والاستتار من رؤية العورة واجب إذا كان عنده من لا يغض بصره ممن يحرم نظره إليها، وهذا لا ينافى كون هذا معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم فإن اللازم التستر بأى وجه كان.

(**وفى رواية أخرى**) لحديث جابر، رضى الله تعالى عنه، من غير طريق مسلم، (**فقال**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**يا جابر: قل لهذه الشجرة**) التى بشاطئ الوادى: (**يقول لك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: الحقى بصاحبتك**) أى تحركى واذهبى حتى تكونى مع الشجرة الأخرى، وسماها صاحبة لكونهما فى واد واحد، أو باعتبار ما يئول بعد اللحوق والانضمام (**حتى أجلس**) لقضاء الحاجة مستترا (**خلفكما فزحفت**) بزاء معجمة وحاء مهملة وفاء، وفى نسخة براء وعين مهملتين بينهما جيم، (**حتى لحقت بصاحبتها فجلس خلفهما**) أى بأن جعلهما بينه وبين الناس، قال جابر، رضى الله تعالى عنه: (**فخرجت أحضر**) بضم الهمزة وسكون الحاء المهملة وكسر الضاد المعجمة والراء المهملة: أى أسرع فى العدو، من الحضر بالضم والسكون.

قال الجوهرى: الحضر بالضم العدو يقال: أحضر الفرس إحضارا، واحتضر إذا عدا. انتهى فهو مضارع المزيد للمتكلم كأكرم يكرم.

(**وجلست أحدث نفسى**) حديث النفس مجاز عما يخطر بالبال من هذه الأمور العجيبة، والمنقبة الشريفة التى شاهدها، رضى الله تعالى عنه، من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنما أسرع وعدا؛ لما كان يعلمه من المبالغة فى التستر، والإبعاد عن الناس

إذا قضى حاجته؛ لشدة حيائه صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أنه كان يذهب وهو بمكة لقضاء حاجته إلى المغمس، وهو مكان بينه وبين مكة نحو ميلين، ولذا تأدب و لم يمش على تؤدته، حتى يقف صلى الله تعالى عليه وسلم منتظرا لبعده عنه.

(فالتفت): أى حولت وجهى وأنا جالس إلى جانبه لأنظر ما حدث بعد الحدث.

(فإذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مقبل) إذا فجائية أى فاجأنى بغتة بعد التفاتى، فأبصرته، ومقبلٌ اسم فاعل من الإقبال مرفوع خبر رسول، وفى نسخة: مقبلاً بالنصب على الحالية من مقدر: أى جاء مقبلا، والجملة خبر المبتدأ والحال مؤكدة كـ ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ [النمل: ١٠].

(والشجرتان قد افترقتا)، وعادت كل واحدة منهما لمحلها، وهى جملة اسمية حال من الضمير المستتر فى قوله مقبل.

(فقامت كل واحدة منهما على ساق) منتصبة فى منبتها مفارقة لصاحبتها، والساق حقيقة فيما قام عليه الشجر، وما لا ساق له فهو نجم ونبت، فإذا ظهر على وجه الأرض فهو عشب، فإذا غطى الأرض فهو كلأ كما فصله أهل اللغة.

(فوقف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقفة) يسيرة ينتظر؛ لما أكرمه الله تعالى به من مشى الشجر لأجله، **(فقال برأسه)** أى حركه **(هكذا)** وفسره بقوله: **(يمينا وشمالا)** منصوبان على الظرفية: أى فى جانب اليمين والشمال، وقال هنا بمعنى مال: أى ميل رأسه الشريف فى الجهتين، قال فى القاموس: قال ابن الأنبارى: يجىء قال لمعان: تقول قال فأكل، وقال فضرب، وقال فتكلم، ومال، وأقبل إلى آخر ما فصله.

وقيل: قال هنا مجاز عن الإشارة لاشتراكهما فى الإفهام.

وقيل: إنه أذن لهما فى الرجوع إلى مكانهما، وهو لا يوافق قوله: فقامت كل واحدة منهما على ساق فتدبر.

(وروى أسامة بن زيد) فى حديث أخرجه البيهقى فى الدلائل وأبو يعلى بسند حسن عنه **(نحوه)**: أى بمعنى الحديث الذى قبله.

(قال) أسامة: **(قال لى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى بعض مغازيه)**: جمع مغزاة بمعنى الغزاة أو محلها كما مر: **(هل)** استفهام حذف المستفهم عنه للعلم به، أو استهجان ذكره، أو لأنه لم يسمعه، أو لم يفهمه أو لم يجده فى أصله: أى هل ترى مكانا لائقا بقضاء الحاجة؟ وإليه أشار بقوله: **(تعنى مكانا لحاجة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)**: الحاجة هنا كناية عن البول والغائط.

(**فقلت: إن الوادى ما فيه موضع بالناس**) الباء سببية، وما نافية أى ما فيه موضع خال بسبب نزول الناس فيه، فهو مملوء بهم.

(**فقال: هل ترى من نخل أو حجارة**) مرتفعة يمكن أن يستتر بها كالنزيل الذى يقضى الحاجة خلفه، ويكون فيه سترة ومن زائدة بعد الاستفهام.

(**قلت: أرى نخلات**) جمع نخلة (**متقاربات**): أى قرب بعضها من بعض وهو مناسب للسترة بها للجلوس بينها، وروى متكاربات بالكاف: وهو لغة بمعنى متقاربات، والقاف تبدل كافًا كثيرًا، وقرئ فى الشواذ لا تكهر فى ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩]، ورأى بصرية، وكونها علمية بعيد، فهى صفة نخلات منصوبة.

(**قال: انطلق وقل لهن**) أى للنخلات: (**إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمركن أن تأتين**): أى تجتمعن ويتزايد قربكن؛ ليكون أستر له (**لمخرج رسول الله**) صلى الله تعالى عليه وسلم أى لمكان خرج إليه لقضاء حاجته فيه.

(**وقل للحجارة مثل ذلك**): أى مثل قولك للنخلات من أمره صلى الله تعالى عليه وسلم لها أن تأتين لمخرجه، وفى كلام أسامة لم يأمر الحجارة؛ إما لعدم الحاجة إليها مع النخيل، أو لأنها لم تكن مرفوعة حتى تعد ساترة.

(**فقلت ذلك لهن**) الفاء فصيحة: أى فذهبت فقلت ما أمرنى به لهن، (**فوالذى بعثه بالحق**) قسم: أى بالدين الحق (**لقد رأيت النخلات يتقاربن**): أى يدنو بعضها من بعض (**حتى اجتمعن**) فى مكان واحد، (**والحجارة**) بالنصب (**يتعاقدن**): أى ينضم بعضها إلى بعض، حتى يصرن كالبنيان المعقود بعضه ببعض، (**حتى صرن ركاما**) بضم الراء المهملة: أى بعضها فوق بعض (**خلفهن**) متعلق بركاما، والضمير للنخلات يعنى أن الحجارة اجتمعت مع النخل، وفى نسخة: فجلس خلفهن، فالضمير للنخلات والحجارة.

(**فلما قضى حاجته قال لى: قل لهن يفترقن**): أى يرجع كل نخلة وحجر إلى موضعه الذى كان فيه أولاً، (**فوالذى نفسى بيده**): أى الله الذى روحى فى قبضة تصرفه وإرادته إن شاء أبقاها، وإن شاء أماتها.

والنفس لها معان مشهورة، منها: الروح، وغاير بين القسمين تفننا مع مناسبة الأولى للمقسم عليه من أن له دينا حقا، وهو رسول له معجزات منها ما ذكر ومناسبة الثانى لحاله من أن من آمن بالله وخشيه لا يتكلم إلا بالحق لا سيما فيما ذكر (**لرأيتهن والحجارة**) بالنصب عطف على الضمير، وهو مفعول معه، والضمير للنخلات، واللام فى جواب القسم.

(**يفترقن حتى عدن إلى مواضعهن**)، وفيه معجزات له صلى الله تعالى عليه وسلم فى

سعى النخل والحجارة بأمره مرتين، وخلق الله تعالى فيها قوة تسمع وتأتمر بأمره، والحديث طويل وفيه معجزات أخر من إتيان امرأة له صلى الله تعالى عليه وسلم بولد لها صغير، كان يرضع فتفل فى فيه، فلم يعد له ذلك وإن أمه أتت له صلى الله تعالى عليه وسلم بشاة فسواها أسامة له، فقال له: ناولنى منها ذراعا فناوله ثم قال ذلك، فناوله ثم قال، فقال أسامة: إنها غير ذراعين، فقال: لو سكت لم تزل تناولنى منها، وكان ذلك فى سفره للحج بمحل يقال له: الروحاء.

(وقال يعلى ابن سيابة) فى حديث صحيح رواه أحمد، والبيهقى، والطبرانى، ويعلى: بزنة يرضى علم منقول من المضارع، وسيابة بفتح السين المهملة وتشديد المثناة التحتية وألف وموحدة يليها هاء: اسم أمه، فيرسم ابن بالألف وأبوه مرة بن مرازم، وقيل: مرة بن وهيب الثقفى، وقال: إنهما اثنان وهو صحابى بصرى أو كوفى، وترجمته مفصلة فى الإصابة، والرواية عنه نادرة، وهو من أهل الشجرة.

(كنت مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى مسير) بفتح الميم مصدر ميمى أو اسم زمان أو مكان قيل: والأول أولى.

(وذكر نحوًا من هذين الحديثين) اللذين قبله فى ذهابه لقضاء حاجته، وأمره للشجرتين غير أنه قال: **(وذكر فأمر وديتين)** تثنية ودية بفتح الواو وكسر الدال المهملة والمثناة المشددة قبل الهاء، وهى صغار النخل التى تخرج من أصول كبارها، فتنقل وتغرس، وتسمى فسيلا وفراخا **(فانضمتا)** أى انضمت إحداهما للأخرى كالذى مر.

(وفى رواية أشاءتين) بفتح الهمزة، وكسرها فى بعض النسخ خطأ، وشين معجمة وألف ممدودة وهمزة وتاء تأنيث: مثنى أشاءة، وهى من صغار النخل أيضًا، لكنها أكبر من الودية وهمزة الثانية منقلبة عن ياء وقيل: أصلية.

(وعن غيلان بن سلمة الثقفى مثله فى شجرتين)، وغيلان بفتح الغين المعجمة وتحتية مثناة ولام ونون، وهو غيلان بن سلمة بن معتب بوزن معلم بالتشديد، ابن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف الصحابى الشاعر، أسلم بعد الطائف وتوفى فى آخر خلافة عمر، وهو الذى أسلم على عشر نسوة وفى هذه الرواية لم تعين الشجرتان.

(وعن ابن مسعود مثله فى غزاة حنين): اسم موضع معروف، وغزوة حنين كانت بعد الفتح بسنة كما فصل فى السير، وضمير مثله راجع لما ذكر من أمر الشجرتين.

(وعن يعلى بن مرة وهو ابن سيابة أيضًا) إشارة إلى مامر من الاختلاف فى اسم أبيه كما سمعته آنفا، وأن سيابة اسم أمه.

(وذكر أشياء رآها من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم) أى ذكر ابن سيابة أمورًا خارقة للعادة من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم شاهدها منه صلى الله تعالى عليه وسلم فى تلك الغزوة، **(فذكر أن طلحة أو سمرة)**: بفتح المهملة وضم الميم كما مر نوعان من شجر البرية، ذات شوك تسمى العضاة، وأو للشك من الراوى فى تلك الشجرة.

(جاءت فطافت به) صلى الله تعالى عليه وسلم أى دارت حوله، وفى بعض النسخ فأطافت بهمزة قبل الطاء المهملة، وهو بمعناه يقال طاف وأطاف ويطوف واستطاف بكذا: إذا ألم به، ودار حوله، وأما كونه من الطوف بمعنى الغائط، ويقال منه أيضًا طاف وأطاف: إذا ذهب إلى البراز ليتغوط، وأنه أسند إلى الشجرة مجازًا، فتكلف لا حاجة إليه، وليس فى هذا التجوز معنى حسن يرتكب لأجله وإن كان صحيحا بحسب اللغة، ولا يناسب قوله بعده: **(ثم رجعت إلى منبتها)** أى موضعها الأول الذى نبتت فيه، **(فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إنها)**: أى تلك الشجرة **(استأذنت أن تسلم على)** أى استأذنت ربها، ويجوز أن يكون هذا مجازًا، والمعنى أنها طلبت من الله تعالى أن يعطيها قدرة كقدرة العقلاء من المشى إليه صلى الله تعالى عليه وسلم، والسلام عليه بالمقال، لا بلسان الحال وهذا صريح فى أنه لم يكن للتغوط كما قيل.

(وفى حديث عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه): الذى رواه الشيخان مسندًا **(آذنت)** بالمد بمعنى أعلمت وفاعله شجرة الآتى.

وقوله: **(النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** بالنصب مفعوله.

و**(بالجن)** متعلق به أى بحضورهم عنده صلى الله تعالى عليه وسلم واستماعهم منه القرآن.

(ليلة استمعوا له) منصوب على الظرفية أى فى الليلة التى استمعوا قراءته صلى الله تعالى عليه وسلم للقرآن.

(شجرة): وفيه دلالة على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يرهم عيانا فى هذه القصة، وإنما كانوا عنده وهو لم يرهم، وإنما نطقت الشجرة، وأعلمته بحضورهم واستماعهم وفى هذه القصة كلام سنفصله.

(وعن مجاهد عن ابن مسعود فى هذا الحديث) الذى رواه الشيخان **(أن الجن قالوا)** له صلى الله تعالى عليه وسلم لما اجتمعوا به: **(من يشهد لك)** بأنك رسول الله؟ **(قال: هذه الشجرة)**، ثم دعاها: للشهادة، فقال: **(تعالى يا شجرة)** بفتح اللام وسكون الياء التحتية، وهو أمر من تعالى يتعالى بالطلوع لمكان عال، ثم عم وصار بمعنى أقبل مطلقا، وكسر اللام قال كثير من النحاة: إنه لحن، ولم يرتضه الزمخشرى، وقال: إنه قرئ به فى الشواذ،

وإنه لغة، وعليه قول أبى فراس وهو أسير يسمع تغريد حمامة شوقته لأوطانه، ومعاهد إلفه وإخوانه:

أقول وقد ناحت بقربى حمامة ... أيا جارتى هل بات حالك حالى؟
معاذ النوى ما ذقت طارقة النوى ... ولا خطرت منك الهموم ببالى
أتحمل محزون الفؤاد قوائم ... إلى غصن نائى المسافة عالى
أيا جارتى ما أنصف الدهر بيننا ... تعالى أقاسمك الهموم تعالى
تعالى ترى روحا لدى ضعيفة ... تردد فى جسم يعذب بالى
أيضحك مأسور ويبكى طليقه ... ويسكت محزون ويندب سالى
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ... ولكن دمعى فى الحوادث غالى

(فجاءت) امتثالا لأمره صلى الله تعالى عليه وسلم إذ قال: تعالى **(تجر عروقها)**؛ لأنها لما خرجت من محلها أخرجت عروقها التى كانت فى داخل الأرض، فلما مشت انجرت خلفها.

(لها): لعروقها، أو للشجرة نفسها **(قعاقع)**: أى صوت كصوت الرحا، وهو جمع قعقعة وهى حكاية صوت الحركة من الأجرام الصلبة، وقيل: يجوز أن يراد به صوت كلام جهورى لها إذ أنطقها الله تعالى، أو الصوت من شق الأرض كما مر أنها جاءت تخد الأرض، أو صوت اصطكاك أغصانها.

وقال الحافظ العراقى: حديث مجاهد عن ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، مرسل نقلاً عن شيخه العلائى، وابن الصلاح.

(وذكر) مجاهد **(مثل الحديث الأول)** أى ما يشابهه لفظا ومعنى أو **(نحوه)** أى قريبا منه، وإن لم يكن بينهما شبه تام، ونحو يكون بمعنى مثل مطلقا، ويكون بمعنى ما يقرب منه، وإن لم يكن مثله، وهو المراد هنا لجمعه بينهما، وقوله فى أول الحديث: إن الشجرة أعلمته بالجن يقتضى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يرهم.

وقوله بعده: إنهم قالوا له: من يشهد لك؟ يقتضى أنه رآهم وخاطبهم، ولا تناقض فيه؛ لأن القصة تعددت، وتحقيقها كما فى كتاب آكام المرجان فى أحكام الجان: أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما أيس من ثقيف، رجع من الطائف لمكة، فقام بنخلة يصلى جوف الليل، فمر به نفر من الجن جن نصيبين، وسمعوا قراءته فآمنوا به، وأتوا قومهم منذرين كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] إلى آخره.

وفى هذه القصة كما فى الصحيحين: لم يقرأ عليهم ولا رآهم، وإنما كانت الشياطين

لما حيل بينهم وبين خبر السماء تفرقوا فى الأرض؛ ليعلموا سبب ما حدث، فمر به صلى الله تعالى عليه وسلم نفر منهم من جان تهامة، وهو راجع من عكاظ، وقد قام يصلى الفجر بأصحابه فلما سمعوا قراءته صلى الله تعالى عليه وسلم قالوا: هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا وأخبروا قومهم، وأنزل الله عليه ﴿قُلْ أُوحِىَ﴾ [الجن: ١] إلى آخر السورة كما قاله ابن عباس، رضى الله عنهما.

قال البيهقى: وهذا كان فى أول أمره، و لم يرهم وأتاه مرة أخرى داعى الجن، فرآهم وقرأ عليهم، كما رواه ابن مسعود.

وفى القصة الأولى لم يرهم، وإنما الذى أعلمه بهم الشجرة، وروى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قرأ عليهم سورة الرحمن، فكانوا كلما قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] قالوا: ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد.

وابن مسعود أعلم بقصة الجن من ابن عباس لأنها كانت قبل الهجرة سنة إحدى عشرة من النبوة، وابن عباس طفل.

وقال السهيلى، رحمه الله تعالى: إنهم كانوا يهود لقولهم: ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠] دون عيسى كما ذكره ابن سلام.

واختلف فى عددهم فقيل: سبعة، وقيل: تسعة.

وفى مسلم أنه قيل لابن مسعود: هل صحب أحد منكم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة الجن؟ قال: لا وكنا فقدناه ليلة فالتمسناه فى الأودية، فلم نجده وبتنا بشر ليلة، فلما أصبحنا جاء من قبل حراء، وقال: أتانى الليلة داعى الجن، فذهبت معه وقرأت عليهم القرآن، وانطلق بنا وأرانا آثار نيرانهم، وذكر لنا ما أمرهم به من الزاد، وهذه غير الليلة التى أعلمهم بها، وذهب معه ابن مسعود، وخط له خطا غاب عنه، ثم عاد إليه، وكانت بمكة، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم لأصحابه: من أحب منكم أن يحضر الليلة أمر الجن فليفعل، فلم يحضر أحد منهم غيرى، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لى برجله خطا أمرنى أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام يقرأ فغشيته أسودة حالت بينى وبينه صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم انصرفوا مثل قطع السحاب إلى الفجر، ثم أتانى(١).

وفى هذه الرواية أن ابن مسعود قال: سمعتهم يقولون: من يشهد أنك رسول الله إلى آخر ما ذكر من قصة الشجرة، وما هنا من إعلامه لهم وخروجه معه إلى آخره، وما روى عنه من أنهم التمسوه وباتوا بشر ليلة، يدل على أن قصة الجن تعددت.

(١) أخرجه مسلم فى الصلاة (١٥٠)، والترمذى (٣٢٥٨)، والبيهقى (١/١١).

وقول البيهقى: إنها واحدة لا يمكن فيه الجمع بين الروايتين، ويعينه ما رواه أبو نعيم فى دلائله من أن القصة كانت بالمدينة بالبقيع، وروى ابن الزبير أنه حضرها بالمدينة، فهذه مرة ثالثة، وذكر مثله عن بلال بأحاديث مفصلة، ثم قال: دل مجموع الأحاديث أن وفادة الجن عليه صلى الله تعالى عليه وسلم كانت ست مرات.

الأولى: لم يشعروا بها والتمسوه فيها، فلم يجدوه.

والثانية: كانت بأعلى مكة فى الجبال.

والثالثة: ببقيع الغرقد قد حضرها ابن مسعود، رضى الله عنه، وخط عليه الخط.

والرابعة: كانت مع ابن مسعود أيضًا.

والخامسة: خارج المدينة مع ابن الزبير.

والسادسة: فى بعض أسفاره مع بلال، رضى الله تعالى عنه.

ولكل منها حديث مسند إن أردته، فانظر الكتاب المذكور، فإنه لم يصنف فى معناه مثله.

أقول: وفيما ذكرناه معجزات آخر.

منها: انقياد الجن له صلى الله تعالى عليه وسلم باختيارهم، وهى أعظم من تسخيرهم لسليمان، عليه الصلاة والسلام. ومنها: كلام الشجرة له.

ومنها: سعيها له، وعودها لمحله بعد خروج عروقها من منبتها، وهو أمر خارق للعادة.

وفى الحديث فوائد منها: كراهة الاستنجاء بالعظم، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن ذلك فيه.

ومنها: أن غيره صلى الله تعالى عليه وسلم من الأنبياء بعث للجن كموسى، عليه الصلاة والسلام، وأنهم مكلفون.

وقد اختلف هل بعث منهم رسول أم لا؟ فقيل: منهم رسول يسمى يوسف وثمة فوائد أخر لا يسعها نطاق البيان هنا.

(قال القاضى أبو الفضل): هو عياض المصنف، **(رضى الله تعالى عنه)**، وهذا فذلكة لما تقدم بقوله **(فهذا ابن عمر)**، رضى الله تعالى عنهما، **(وبريدة وجابر)** بن عبد الله رضى الله عنهما **(و)** عبد الله **(ابن مسعود، ويعلى بن مرة، وأسامة بن زيد وأنس بن مالك، وعلى بن أبى طالب و)** عبد الله **(بن عباس)**، رضى الله تعالى عنهم، **(وغيرهم)** إلى قوله **(قد اتفقوا على هذه القصة نفسها)** يعنى كلام الشجر، **(أو معناها)** مما يدل على ذلك.

(وقد رواها عنهم) أى عمن ذكر من الصحابة **(من التابعين أضعافهم)** لتعدد طرقهم، والضِّعف هو المثل أو المثلان **(فصارت فى انتشارها)** أى اشتهار روايتها عنهم **(من القوة حيث هى)**: يعنى أنها نقلت عن كثير من الصحابة والتابعين، حيث بلغت التواتر المعنوى، وصارت فى مرتبة قوية لا يشك فيها أحد من العقلاء، فحيث: ظرف مكان مضاف لجملة، وهى ضمير القصة مبتدأ خبره محذوف، تقديره: هى معروفة مشهورة.

(وذكر ابن فورك) تقدم الكلام عليه، وعلى صرف فورك وعدمه، وأنه إمام ثقة جليل القدر: **(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم سار فى غزوة الطائف)**: اسم بلدة قريبة من مكة كثيرة المياه والأشجار، يقال: إن جبريل اقتطعها من أرض صنعاء، وهى المذكورة فى سورة **(ن)**، فى قوله تعالى: (﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾) [القلم:١٩]، والطائف: هو جبريل، عليه الصلاة والسلام، اقتلعها وطاف بها حول البيت، ثم أنزلها حيث هى كما نقله السهيلى عن بعض المفسرين، قال: فلذا سميت بالطائف، وهذه الغزوة كانت فى السنة الثامنة من الهجرة **(ليلاً)** متعلق بسار، **(وهو وسن)** بزنة حذر، والوسن: قريب من النعاس، وفى فقه اللغة فى مراتب النوم أوله النعاس، ثم الوسن، ثم الترنيق، ثم الكرى والغُمْضُ، ثم التغفيق[(١)]، ثم الإغفاء[(٢)]، ثم التهويم، ثم الضرار، ثم التهجاج، وهو الهجوج[(٣)]، يعنى: أنه صلى الله تعالى عليه وسلم نعس، وهو سائر على دابته، بحيث لايرى ما فى طريقه، **(فاعترضته سدرة)** أى وقع اتفاقًا أن شجرة فى طريقه أتت دابته لها، بحيث كادت تمنعه عن سيره لسدها طريقه، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم لنومه لم يعدل عنها لطريق أخرى.

(فانفرجت له نصفين): أى انشقت وتباعد بعضها عن بعض، بحيث صار بينهما فرجة يمر فيها الراكب، **(حيث جاز بينهما)** أى بين النصفين، **(وبقيت)** الشجرة شجرتين **(على ساقين)** قائمة **(إلى وقتنا)**: أى إلى زمن أدركه ابن فورك **(وهى هناك)**: أى فى الأرض التى فيها من الطائف **(معروفة معظمة)** لأنها من آثار معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم.

(ومن ذلك): أى من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم فى الشجر ما ورد فى حديث رواه الدارمى وابن ماجه والبيهقى كما قاله السيوطى، وهو **(حديث أنس أن جبريل، عليه الصلاة والسلام، قال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ورآه حزينا)** جملة

(١) فى الأصل: التغفيف، والتصويب من كتاب فقه اللغة (ص ١٨٤)، طبعة دار الحكمة، دمشق.

(٢) فى الأصل: الإغضاء، والتصويب من فقه اللغة.

(٣) فى فقه اللغة: [ثم التهويم والغرار والتهجاع، وهو النوم القليل، ثم الرقاد، وهو النوم الطويل، ثم الهجود، والهجوع، والهبوع، وهو النوم الغرق].

حالية، أى: وقد رآه محزونا لعدم إطاعة قومه له فى أول البعثة، إذ عرض نفسه على القبائل (**أتحب أن أريك آية**): أى معجزة تزيل حزنك؛ لأنه إذا أطاع دعوته الجماد دل ذلك على أن الناس ستطيعه ولكن تأخيره لِحكَم خفية.

(**قال: نعم**) أحب ذلك؛ ليزول حزنى وأعلم أن الله سينصرنى، ويلين قلوب قومى لإجابة دعوتى، (**فنظر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى شجرة من وراء الوادى**) الذى كان فيه مع جبريل، (**فقال**) جبريل له صلى الله تعالى عليه وسلم: (**ادع تلك الشجرة**): أى مرها بأن تأتى إليك، ولم يدعها هو ليكون معجزة له لا لجبريل كما توهم فأمرها، (**فجاءت تمشى حتى قامت بين يديه**) صلى الله تعالى عليه وسلم بمكان قريب منه.

(**ثم قال: مرها فلترجع**) إلى مكانها الذى كانت فيه فأمرها، (**فعادت إلى مكانها**) كما كانت.

(**وعن على**)، كرم الله وجهه، (**نحوه**) قال السيوطى: لم أجده عن على، وإنما هو عن جابر، رضى الله تعالى عنه، (**ولم يذكر فيها**): أى فى هذه الرواية (**جبريل**) وكلامه له (**وإنما**) الذى فيه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم (**قال: اللهم أرنى آية**): أى معجزة ملزمة لمن رآها دالة على أنى مستجاب دعوتى، وينفذ بلاغى، واللهم معناه يا الله كما فصل فى النحو، وتقدم منه ما فيه الكفاية (**لا أبالى من كذبنى بعدها**)؛ لأنها معجزة قطعية، لا يفيد إنكارها وجحدها عنادا، ولا أبالى بمعنى: لا أعتد ولا ألتفت لمن خالفها.

قال ابن فارس، رحمه الله تعالى، فى المجمل: اشتبه علىَّ اشتقاق لا أبالى فرأيت قول ليلى الأخيلية[1]:

تبالى رواياهم هبالة بعدما ... وردن المساء بالجم يرتمى

إذ فسر التبالى بالمبادرة للاستقاء، يقال: تبالى القوم إذا تبادروا للماء عند قلته، وانتظار بعضهم لبعض، فقولهم لا أبالى معناه: لا أبادر إلى اقتنائه، بل أنبذه ولا أعتد به، انتهى.

(**فدعى شجرة وذكر مثله**) من مجيئها ورجوعها.

(**وحزنه**) بالنصب، أى التعب والكدر كما مر؛ (**لتكذيب قومه**) له فى أول أمره، (**وطلبه الآية لهم**) أى لقومه المكذبين، (**لا له**) صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ لأنه على يقين من أمره وعلمه بقدرة ربه.

(**وذكر ابن إسحاق**) مما رواه فى سيره، ورواه أبو نعيم، والبيهقى، عن أبى أمامة

---

(1) تقدم الاستشهاد به.

بسند من طريقين مرفوعًا ومرسلاً **(أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أرى ركانة مثل هذه الآية فى شجرة دعاها، فأتت حتى وقفت بين يديه، ثم قال: ارجعى، فرجعت)** كما ستسمعه قريبا فى الحديث الذى أذكره لك.

ورُكَانة بضم الراء المهملة وفتح الكاف المخففة وألف تليها نون وهاء: وهو ركانة ابن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف القرشى المكى، الصحابى الذى أسلم عام الفتح، وتوفى بالمدينة فى خلافة معاوية، رضى الله عنه، سنة اثنين وأربعين، وكان شديد البأس قويًا جسيمًا معروفًا بالقوة فى المصارعة، بحيث أنه لم يصرعه أحد قط، ولم يمس جنبه الأرض مغلوبًا قط.

وقد صح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم صارعه فصرعه، وأما مصارعته لرجل آخر يقال له أبو جهل، فلم تصح كما قاله المقدسى.

وكان ركانة قبل إسلامه يرعى غنما له بوادى إضم بالمدينة، وهو من أفتك الناس وأشدهم، فخرج صلى الله تعالى عليه وسلم يومًا من بيته وتوجه لذلك الوادى، فلقيه ركانة وليس ثمة أحد غيرهما، فقال له: أنت الذى تشتم آلهتنا وتدعو إلهك العزيز، ولولا رحم بينى وبينك قتلتك، ولكن ادع إلهك أن ينجيك منى اليوم، وأنا أدعوك لأمر، وهو أن تصارعنى، وتدعو إلهك وأدعو اللات والعزى، فإن غلبتنى، فلك من غنمى هذه عشرة تختارها، فصارعه صلى الله تعالى عليه وسلم فغلبه، فقال: لم تصرعنى وإنما غلبنى إلهك وخذلنى اللات والعزى، وما وضع جنبى على الأرض أحد قبلك، ولكن عد فإن صرعتنى، فلك على عشرة أخرى، فعاد فصرعه فقال له كما قال أولاً، ثم دعاه ثالثة فصرعه، فقال له: دونكها ثلاثين من غنمى تختارها، فقال له: لا أريد ذلك، ولكن أدعوك إلى الإسلام، فأسلم تسلم من النار، فقال: لا إلا أن ترينى آية، فقال له: إن أريتك آية تسلم، قال: نعم وكان بقربه شجرة سمرة، فقال لها: أقبلى بإذن الله تعالى، فانشقت اثنتين، وأقبل نصفها حتى كان بين يديه صلى الله تعالى عليه وسلم ويدى ركانة، فقال: أريتنى أمرًا عظيما، فمرها فلترجع، فقال: إن أمرتها فرجعت تسلم، قال: نعم فأمرها فرجعت والتأمت بقضبانها وفروعها مع نصفها الآخر، فقال له: أسلم، فقال: أكره أن يتحدث نساء المدينة وصبيانها بأنى أجبتك لرعب قلبى منك، ولكن الغنم لك، فقال: لا حاجة لى بها، وانطلق فلقيه أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، فقال له: تخرج إلى الوادى وبه ركانة، فضحك صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: أليس الله عصمنى، وحدثه الحديث المار.

والحديث يقتضى جواز المصارعة إلا أنهم قالوا: إنها بالمال حرام كالمسابقة عليه.

والجواب: أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يطلب منه ذلك، وإنما أقره على مقالته؛ ليريه آية رجى بها إسلامه، أو أنه من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم أو تحريه.

ورده الغنم عليه قيل: إنه كان بعد إسلامه، وصارعه هنا ثلاثًا كما علم، وقيل: مرتين، وقيل: إنه كان صارعه بمكة و لم يسلم إلا يوم الفتح.

(وعن الحسن) فى حديث رواه البيهقى مرسلاً، وهو الحسن بن على، رضى الله عنهما، وقيل: يحتمل أنه الحسن البصرى، رحمه الله تعالى، **(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم شكى إلى ربه من قومه)** فى أوائل البعثة قبل قوة الإسلام وأهله، **(وأنهم يخوفونه)** كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وهو عطف تفسيرى؛ لأن المراد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم شكى له تعالى تخويفهم له، وإنما شكى ذلك؛ لأنه خاف القصور فى تبليغ ما أرسل به، فلا ينافى كونه صلى الله تعالى عليه وسلم على كمال يقين من الله فى رسالته كما توهم، وهذا كان قبل الهجرة، وقبل نزول قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

(وسأله آية) ومعجزة **(يعلم بها أن لا مخافة عليه)** أن هنا مخففة من الثقيلة، وأصلها أنه.

(فأوحى الله إليه: أن ائت وادى كذا) من أودية مكة، فإن **(فيه شجرة، فادع غصنا منها)**: أى غصنا وطرفا **(يأتك)** مجزوم فى جواب الأمر، **(ففعل)** أى أتى الوادى، ودعا الغصن كما أمر، **(فجاء يخط الأرض خطا)** أى يشقها شقا، وهذا يدل على أنه غصن مع بعض ساق منها، وهو بمعنى قوله فيما تقدم يخد، ويحتمل أن الطاء مبدلة من الدال المهملة، وقيل: المراد بالخط أثر مشيه الذى يشبه خط الكتابة، كقول البوصيرى[1]:

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة تمشى إليه على ساق بلا قدم
كأنما سطرت سطرًا لما كتبت فروعها من بديع الخط فى اللقم

(حتى انتصب بين يديه) أى قام عنده، **(فحبسه ما شاء الله)**: أى جعله مدة من زمان أرادها الله قائمًا عنده، **(ثم قال له: ارجع كما جئت فرجع)** إلى مكانه الذى كان فيه، والتأم بأصله، **(فقال)** صلى الله تعالى عليه وسلم: **(يا رب علمت أن لا مخافة على)** بتسخير الجمادات لامتثال أمرى، الدال على أن من عصاه سيرجع عما كان عليه، **(ونحو منه)** أى فيما رواه البزار وأبو يعلى والبيهقى، بسند حسن ما هو قريب مما ذكر فى هذا الحديث مروى.

(عن عمر) بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه.

(وقال) عمر **(فيه)** أى فيما رواه: **(أرنى آية لا أبالى من كذبنى بعدها)**: أى لا أعتد

(١) البيتان من البسيط، وهما فى ديوان البوصيرى (ص١٦٩).

وأهتم به؛ لاطمئنان قلبى وذهاب خوفى.

(فذكر نحوه وعن ابن عباس): رضى الله تعالى عنهما، فى حديث رواه البخارى فى تاريخه، والدارمى، والبيهقى مسندًا: **(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال لأعرابى: أرأيت)** بهمزة الاستفهام، وتاء الخطاب، بمعنى: أخبرنى وقل لى، وهو مجاز مشهور، ورأى فيه علمية أو بصرية، فأريد به لازمه كما بينه النحاة **(إن دعوت)** إن شرطية أى أمرت **(هذا العذق)** إشارة لعذق كان عنده، وهو بكسر العين المهملة وسكون الذال المعجمة والقاف، وهو العرجون من النخلة وشماريخها، كما بينه بقوله: **(من هذ النخلة)**، وقد يطلق على النخلة نفسها، ولا يناسبه قوله من هذه النخلة، فلا وجه لتفسيره به هنا، وقيل: إن النخلة يقال لها: عذقا بفتح العين.

(أتؤمن بأنى رسول الله؟) أى أتؤمن بى وبما أرسلت به؟ وتقر بذلك.

(قال: نعم) أشهد بأنك رسول الله.

(فدعاه): أى العذق، بأن أمره بالمجىء إليه، **(فجعل)** أى طفق وصار العذق **(ينقز)** بفتح المثناة التحتية وسكون النون، وضم القاف، وكسرها كما فى المحكم، ففى الاقتصار على الضم قصور، وآخره زاء معجمة، ومعناه: يثب صعدا.

وروى هذا الحديث مفصلا البيهقى، وقال: إن الأعرابى من بنى عامر. **(حتى أتاه)**، ووصل إلى مكان عنده بقربه، **(فقال)** له: **(ارجع فعاد إلى مكانه)** الذى كان فيه.

(وخرَّجه) بالتشديد أى رواه بسند **(الترمذى وقال: هذا حديث صحيح)** متنا وسندًا.

* * *

(فصل) [فى قصة حنين الجذع]

من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم ما اشتهر. **(فى قصة حنين الجذع)** الحنين بفتح الحاء المهملة ونونين بينهما ياء تحتية، وهو صوت كالأنين يكون عند الشوق لمن يهواه، إذا فارقه، وتوصف به الإبل كثيرًا، قال الجوهرى: الحنين الشوق، وتوقان النفس، يقال: حن إليه يحن حنينا، وحنين الناقة صوتها فى نزاعها إلى ولدها، والجذع بكسر الجيم وسكون الذال المعجمة وعين مهملة: وهو ساق النخلة اليابس، وقيل: إنه لا يختص به لقوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم:٢٥] وتعريف الجذع للعهد، والمراد به جذع كان قائما بالمسجد النبوى، كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذا خطب يستند إليه، ويخطب قائمًا، ولم يكن له منبر، فلما وضع له المنبر وخطب عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سمع للجذع حنين لمفارقته له كما يأتى.

قال البرهان وغيره: إن الخبر به متواتر، وكذا قال المصنف، رحمه الله تعالى، هنا، وهذا

الجذع من سوارى المسجد النبوى وهكذا كانت سواريه كلها، وسقفه من جريد النخل، كما يأتى فى رواية جابر، رضى الله تعالى عنه، ولا بدع فى أن يخلق الله تعالى فيه حياة وصوتا مما قيل إنه لا يلزم من سماع صوته عنده أن يكون منه مما لا ينبغى ذكره.

(ويعضد هذه الأخبار) المذكورة فى الفصل الذى قبل هذا من كلام الشجر، ومشيها إليه صلى الله تعالى عليه وسلم أى يقويها ويؤيدها، وهو بعين مهملة وضاد معجمة: من عضد اليد وساعدها **(حديث أنين الجذع)**: الأنين: صوت المريض، والأنين والحنين متقاربان، وقيل: الأنين فيه زيادة امتداد الصوت وفى تعبيره به إشارة إلى أنه لحقه ألم كما يلحق المريض، ولله در الشهاب المنصورى فى قوله:

يا ألسنًا فصحاء قد خرست إن الجماد بفضله نطقا

واعلم أن المصنف، رحمه الله تعالى، إنما عطف الأنين على الحنين، لنكتة وهى أن حقيقة الحنين فى الإبل فتحن إذا فارقت أولادها، ثم شاع فى مطلق الشوق، ولو بالكلام كقوله:

والمرء يشتاق الديار وأهلها وحنينه أبدا لأول منزل

وأما الأنين فإنه مما لا يفهم كالتأوة، ففيه إشارة إلى أن حنين الجذع لم يكن بكلام يفهم، وإنما كان بصوت يفهم منه الحزن، بدلالة طبيعة كأنين المريض، فهو من عطف الخاص على العام فتنبه.

(وهو)أى حديث الجذع **(فى نفسه)** بقطع النظر عن غيره مما يؤيده، فإنه غير محتاج لذلك لأنه **(مشهور منتشر)**: أى شائع بين الخلف والسلف، **(والخبر به متواتر)**؛ لكثرة طرقه الصحيحة، ونقل جماعة له عن جماعة لا يمكن تواطؤهم على الكذب.

(وخرجه أهل الصحيح) أى رواه مسندًا أصحاب الكتب الستة الصحيحة، كالبخارى ومسلم وابن حبان وابن خزيمة، وما وصل إلى مثلهم بطرق متعددة صحيحة يكون متواترًا حقيقة؛ لإجماع من بعدهم على صحتها، كما قاله ابن حجر ردًا على ابن الصلاح فى قوله: إن التواتر لا يكاد يوجد، كما بينه فى شرح النخبة، والمراد بأهل الصحيح من التزم أن يورد فى كتابه الأحاديث الصحيحة عنده.

(ورواه من الصحابة بضعة عشر) تقدم أن البضع من الثلاثة إلى تسعة، فما زاد على العقود مطلقًا كبضعة وستين، ونحوه على الصحيح عند أهل اللغة، وهو كما مر بكسر الباء وفتحها.

(منهم) أى من الصحابة الذين رووه مرفوعًا **(أبى بن كعب)** كما رواه عنه الشافعى فى مسنده، وابن ماجه والدارمى، والبيهقى.

(**وجابر بن عبد الله، رضى الله تعالى عنه**)، كما رواه عنه البخارى.

(**وأنس بن مالك، رضى الله تعالى عنه**)، كما رواه عنه الترمذى وصححه.

(**وعبد الله بن عمر، رضى الله عنهما**)، كما رواه عنه البخارى.

(**وعبد الله بن عباس، رضى الله عنهما**)، كما رواه عنه أحمد فى مسنده بإسناد صحيح على شرط مسلم، والدارمى والبيهقى.

(**وسهل بن سعد**) كما رواه عنه الشيخان.

(**وأبو سعيد الخدرى**) بالدال المهملة كما تقدم فى ترجمته، رواه عنه الدارمى.

(**وأم سلمة**) أم المؤمنين كما رواه عنها البيهقى.

(**والمطلب بن أبى وداعة**) بفتح الواو والدال المهملة وألف وعين مهملة بعدها هاء ابن الحرث بن صبرة بن سعيد القرشى السهمى الصحابى، ممن أسلم عام الفتح رواه عنه أحمد والزبير بن بكار.

(**كلهم يحدث بمعنى هذا الحديث**) فجميع روايتهم متفقة بحسب المعنى، وكأنه إشارة إلى أن تواتره معنوى لا اصطلاحى؛ لما مر عن ابن الصلاح وقد علمت ما فيه.

(**قال الترمذى**) صاحب السنن الإمام المشهور، وقد تقدمت ترجمته: (**وحديث أنس صحيح**): إنما نص عن صحته لرجحانه عنده على غيره، لا لنفى صحة غيره حتى ينافى ما مر من رواية أهل الصحيح له، أو لأن فى بعض رجاله شىء (**وقال جابر ابن عبد الله، رضى الله تعالى عنه**)، فى روايته: (**كان المسجد**) أى مسجد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة (**مسقوفا**): اسم مفعول من سقف البيت ونحوه، إذا جعلت عليه سقفا وهو معروف (**على جذوع نخل**) جمع جذع، وقد تقدم يعنى أن له سوارى وضع السقف عليها من النخل، والإضافة بيانية.

(**فكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذا خطب**) أى قام للخطبة، (**يقوم**) مستندا (**إلى جذع منها**)، وكان هنا تفيد تكرار ذلك كثيرًا منه صلى الله تعالى عليه وسلم لأن كان إذا كان خبرها مضارعا تفيد ذلك فى استعمالهم، كقولهم: كان حاتم يقرى الضيف، وقال الله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٥٥]، وهو مما صرح به فى كتب العربية والأصول، وفى وجه دلالتها على ذلك كلام مقرر مشهور، لا حاجة لنا به هنا.

(**فلما صنع**) بالبناء للمجهول وفى نسخة وضع (**له**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**المنبر**) بكسر الميم، من نبره بمعنى رفعه ورقاه؛ لأنه يرتفع القائم عليه به عن غيره، (**سمعنا**

لذلك الجذع) الذى كان يستند إليه صلى الله تعالى عليه وسلم فى خطبه **(صوتا كصوت العشار)** بكسر العين المهملة وشين معجمة وألف وراء مهملة، جمع عشراء كنفساء، وهى الناقة التى أتى عليها الفحل عشرة أشهر، وزال عنها اسم المخاض، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع، وبعد وضعها أيضًا، والمراد خوارها حين وضعها، أو عقبه، نزاعا لولدها إذا لم تره، وفيه مناسبة تامة هنا لما عرفته من أن الحنين أصله فى النوق، والتشبيه به لشدته، وأنه لحزنه على مفارقته صلى الله تعالى عليه وسلم، كما أنه فى النوق كذلك، ويزيده حسنًا أن النوق تشبه بالنخل، فليس المقصود تشبيه مسموع بمسموع فقط كما قيل.

(وفى رواية أنس) أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما قعد على المنبر خار الجذع، **(حتى ارتج المسجد)** بهمزة الوصل وسكون الراء المهملة وفتح التاء الفوقية وتشديد الجيم: مطاوع رَجَّهُ فَارْتجَّ إذا تحرك حركة شديدة واضطرب، وهو بتقدير مضاف: أى أهله، أو هو على ظاهره بأن تتحرك حيطانه وجدرانه لشدة صوته، إما حقيقة، أو لظن ذلك ممن هو فيه.

(لخواره) بضم الخاء المعجمة وفتح الواو بعدها ألف وراء مهملة بوزن فعال، وهو بناء مطرد فى أسماء الأصوات، والخوار فى الأصل، كما قال الراغب، يختص بصياح البقر، ثم توسعوا فيه فى أصوات جميع البهائم، وفى بعض النسخ جؤار بضم الجيم وفتح الهمزة والراء المهملة، وهو بمعنى الأول.

وقال الراغب: **(قال تعالى: إليه يجأرون)**[1] من جأر: إذا أفرط فى الدعاء تشبيها له بجؤار الوحشيات، كالظباء ونحوها انتهى. والمعنى فيهما واحد أى صاح.

(وفى رواية سهل: وكثر بكاء الناس لما رأوا به) البكاء يمد ويقصر معروف، وما موصولة والعائد محذوف: أى رأوا بالجذع، ورأى بصرية، وكونها قلبية يجوز على بعد، والمرئى حركته ونحوها، والباء بمعنى فى أو سببية، وفيه تجوز أى للذى رأوا آثاره بسببه، إذ الصوت لا يرى، ويجوز كونها مصدرية.

(وفى رواية المطلب) ابن أبى وداعة **(وأبى)** بن كعب: **(حتى تصدع وانشق)** عطف تفسيرى؛ لأن حقيقة الصدع شق الأجسام الصلبة كالزجاج والحديد، يقال: صدعته فانصدع وصدعته فتصدع، ثم استعير منه صدع الأمر إذا فصله، كقوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر:٩٤] ومنه صداع الرأس لوجعه، وانصداع الفجر وهو مبالغة فى

---

(١) هذه ليست بآية ولا قرآنًا، حتى يقول: قال تعالى، وكلمة يجأرون وردت فى القرآن مرة واحدة فى قوله تعالى: ﴿**حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون**﴾ [المومنون: ٦٤].

شدة صياحه، كما يقال: صاح حتى انفلق، ويجوز بقاؤه على ظاهره، ويؤيد الأول قوله: **(حتى جاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى نزل عن منبره، وأتى له **(فوضع يده عليه فسكت)**: أى ترك خواره لما زال ألمه؛ بقربه صلى الله تعالى عليه وسلم منه ومشيه له.

(زاد غيره) أى غير المطلب، وهو فى رواية أبى بن كعب **(فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: إن هذا بكى لما فقد من الذكر)**، فقد كقتل من الفقد، وهو العدم بعد الوجود فهو أخص من العدم، والمراد بالذكر: ذكر الله أو الموعظة أو القرآن، وجوز أن يكون نفس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه أطلق عليه الذكر أيضًا.

(وزاد غيره) أى غير الغير أو من ذكر: **(والذى نفسى بيده)** قسم بالله على عادته صلى الله تعالى عليه وسلم، والنفس: الروح هنا، وبيده معناه بقبضة قدرته وتصرفه حياته ومماته، متى أراد **(لو لم ألتزمه)** هو افتعال من اللزوم، وعدم الفراق، ثم استعير للعناق كما فى الأساس يقال: التزمه إذا اعتنقه وضمه إليه.

(لم يزل هكذا): أى له صراخ وجؤار **(إلى يوم القيامة؛ تحزنا على)** مفارقة **(رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)**، والتحزن: تفعل من الحزن، والمراد به الزيادة لا التكلف.

(فأمر به نبى الله صلى الله تعالى عليه وسلم): أى أمر بعض الصحابة بأخذه أو بدفنه، **(فدفن تحت المنبر)** وإنما أمر بذلك؛ لئلا يشتغل به الناس، وربما افتتن به بعد العصر الأول، وفيه إشارة إلى أنه سينبت فى الجنة كما سيأتى، وأن بعض أغصان الأشجار بعد قطعها إذا دفن نبت، وطلع من الأرض.

واعلم أن سوارى المسجد فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم معدودة، مفصلة فى تاريخ المدينة كهيئة حرمه، ومنبره صلى الله تعالى عليه وسلم كان من خشب أثل الغابة، والأثل بالمثلثة: شجر معروف، والغابة: اسم موضع بالمدينة، فيه أشجار.

وفى النجار الذى صنعه له صلى الله تعالى عليه وسلم أقوال كثيرة:

فقيل: إنه قبيصة المخزومى.

وقيل: إنه غلام للعباس اسمه صباح.

وقيل: هو غلام اسمه: باقوم أو باقول باللام، غلام سعيد بن العاص.

وقيل: هو تميم الدارى.

وقيل: غلام لسعد بن عبادة.

وقيل: إنه غلام امرأة أنصارية.

وقول الكرمانى، رحمه الله تعالى: إنه غلام لعائشة، رضى الله تعالى عنها، لا مستند له فيه.

وقيل: إنها عائشة الأنصارية. وقيل: هى من بنى سعد.

وكان وضع منبره صلى الله تعالى عليه وسلم فى السنة السابعة، وقيل: الثامنة من الهجرة، وعلى القول بأنه تميم تكون التاسعة؛ لأنه أسلم سنة تسع، إلا أن يقال: عمله قبل إسلامه، وهو أول منبر فى الإسلام، وكان له درجة ثلاثًا، ومن قال: اثنتين أسقط محل قيامه صلى الله تعالى عليه وسلم عليه، وقيل: إنه كان أكثر من ثلاث، وكان طوله أكثر من ذراعين، وعرضه ذراع، وطول صدره وهو مستنده: ذراع، ورمانتاه اللتان يمسكهما بيده الكريمة فى قيامه.

ولما حج معاوية، رضى الله تعالى عنه، كساه قباطى، ثم لما رجع إلى الشام كتب لمروان، وهو عامله على المدينة، فرفعه وزاد عليه ست درجات، فصارت تسعا، ثم لما قدم جدده بعض بنى العباس، واتخذ من أعواده القديمة أمشاطا يتبرك بها، إلى آخر ما فصل فى تاريخ المدينة.

(كذا فى حديث المطلب وسهل بن سعد وإسحاق عن أنس)، وفى بعض النسخ هنا، وفى بعض الروايات عن سهل، فدفنت تحت منبره أو جعلت فى السقف انتهى.

وضمير دفنت وجعلت على هذه الرواية لأعواده، أو لتأويل الجذع بالخشبة، وإسحاق المذكور هو ابن عبد الله بن أبى طلحة الأنصارى، أخرج له الستة، وتوفى سنة اثنين وثلاثين ومائة من الهجرة، وكونه دفن تحت المنبر على ظاهره، أو تسمح فيه لأنه قيل: دفن فى يسار المنبر، وروى: دفن فى المسجد.

(وفى حديث أبى فكان إذا صلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صلى إليه): أى استقبله وجعله كالسترة للمصلى من المارين.

(فلما هُدِمَ) بالبناء للمجهول، والهدم والهد: نقض البناء ونحوه **(المسجد)** أى مسجده صلى الله تعالى عليه وسلم وهدمه فى زمن عمر، رضى الله تعالى عنه، لأن بناءه فى عهده صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن بالحجارة، ثم هدمه عثمان، رضى الله تعالى عنه، وزاد فيه كما ذكر فى تاريخ المدينة.

(أخذه أبى، رضى الله تعالى عنه): هذا لا ينافى ما مر من أنه جعل فى السقف، أو دفن تحت المنبر، أو فى المسجد قريبا منه؛ لجواز وضع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم له تحت المنبر، ثم رفع فى السقف؛ لئلا يداس بالأرجل تكريمًا لأثر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ثم حين الهدم أخذه أبى تبركا به.

(وكان عنده إلى أن أكلته الأرض) ووقع فى رواية الأرضة بفتحات، وهى دويبة صغيرة تأكل الخشب وغيره من الثياب والكتب، وهى العثة.

وقال الإمام المزنى: إن هذه الرواية هى المشهورة عند المحدثين، وما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، صحيح، والأرض فيه إما بمعناها المشهور؛ لأنها تبلى ما يدفن فيها، فاستعير له الأكل، أو هو بتقدير: أى دابة الأرض، وهى تلك المتقدمة بعينها، أو مصدر أرض يأرض أرضا إذا أكلته الأرضة، وبه فسر قوله تعالى: ﴿دَابَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ [سبأ:١٤] ذكره السيوطى ولابن عنين:

يا أهل مصر وجدت أيديكم عن بسطها بالنوال منقبضه
لما عدمت النوال عندكمو أكلت كتبى كأننى أرضه

فليس فى كلامه ما يعترض به عليه كما توهم قاله القسطلانى.

فإن قلت: هذا يخالف قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: لو لم ألتزمه بقى هكذا إلى يوم القيامة، وكيف يتصور هذا مع قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦] قلت: هذا وقع على طريق المبالغة، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠] وإن لم يقع، وهذا مما لا حاجة إليه، وبقاؤه على ظاهره لا مانع منه؛ فإنه علق بقاءه على عدم فعله به ما فعله، فإذا فعله تغير وفنى، وقد علم الله بما ذكر.

(وعاد رفاتا) عاد هنا بمعنى صار، لا بمعنى رجع لأمر كان عليه، وهو أحد معنييه كما بين فى كتب اللغة وغيرها، والرفات بوزن غراب: براء مهملة وفاء ومثناة فوقية، كالقناة وهو ما تكسر وتفرق.

(وذكر الإسفراينى) بكسر الهمزة، وسكون السين المهملة، وفتح الفاء والراء المهملة، وألف بعدها همزة مكسورة ونون، بلدة بالعجم نسب إليها هذا الأستاذ الإمام الأصولى المتبحر فى سائر العلوم المعروف بالزهد والورع، وهو أبو إسحاق؛ لأنه إذا أطلق فالمراد هو، وإن نسب لهذه البلدة غيره من الأئمة، كأبى حامد وطاهر بن محمد.

(أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم دعاه): أى دعا الجذع المذكور **(إلى نفسه)** أى أمره بأن يأتيه، ويقبل ساعيا إليه، وزاد لفظ نفس هنا، لئلا يتحد ضمير الفاعل والمفعول بواسطة ودونها، فإنه ممتنع فى غير أفعال القلوب، وما ألحق بها كما مر، وقد أورد عليه نحو قوله: (﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم:٢٥]) و﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة:٢٦٠] وقد أجيب عنه بما يطول، وقد فصلناه فى السوانح، والمقام يضيق عنه هنا.

(فجاءه يخرق الأرض): أى يشقها بمشيه فيها، **(فالتزمه)** واعتنقه، **(ثم أمره)** بالرجوع لمحله، **(فعاد إلى مكانه)** الذى كان فيه من المسجد، وهذه زيادة منه لا يقال مثلها من قبل الرأى، وهو إمام ثقة على أن هذا رواه الإمام البيهقى فى دلائله، والحافظ أبو القاسم فى

تاريخه عن العباس، كما فى الشرح الجديد، ولو وقف عليه المصنف عزاه له.

(وفى حديث بريدة) علم منقول من تصغير البردة المعروفة، وهو بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحرث بن الأعرج السلمى، واختلف فى كنيته، فقيل: هو أبو عبد الله، وقيل: أبو سهل، وقيل غير ذلك، وهو صحابى أسلم حين مر به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مهاجرًا، ثم قدم المدينة قبل الخندق، ثم نزل البصرة، وأخرج له أحمد فى مسنده وغيره، وليس هو بريدة الأسلمى كما توهم؛ فإنه تابعى روى أحاديث مرسلة فظن أنه صحابى، وله ترجمة فى الميزان.

(فقال يعنى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم) للجذع حين سمع حنينه: **(إن شئتَ)** بتاء الخطاب خاطبه لما علم أن الله خلق فيه حياة وإدراكًا **(أردك إلى)** مكانك **(الحائط الذى كنت فيه)**: هو فى الأصل اسم فاعل من حاطه إذا أحاط به ودار عليه، ثم نقل للبستان نفسه الذى فيه الشجر والنخل، وهو المراد هنا، ولذا قال: الذى كنت فيه.

(ينبت لك عروقك) بدل من قوله: أردك، أو مستأنف لبيان علة الرد إلى مكانه الذى نبت فيه.

(ويكمل خلقك ويجدد لك خوص وثمرة) الخوص بضم الخاء المعجمة وواو ساكنة وصاد مهملة واحده خوصة، وهى كالورق للنخل، والثمر بمثلثة واحده ثمرة: أى تعود لك خلقتك بتمامها ونضارتها.

(وإن شئت) مفعوله مقدر أى غرسك فقوله: **(أغرسك فى الجنة)** جواب الشرط مجزوم، **(فيأكل أولياء الله من ثمرك)** معطوف على الجواب، وهو مرتبط بقوله: فالتزمه فى الكلام الذى قبله فخيره صلى الله تعالى عليه وسلم بين الحياة الدنيوية والحياة الأخروية **(ثم أصغى له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** بصاد مهملة وغين معجمة: أى أمال رأسه وَقَرَّبَهَا منه **(يستمع ما يقول)**: أى ليسمع قوله، وما يجيبه به، هو من الصغى بمعنى الميل كما علم، يقال: صغت الشمس إذا مالت للغروب وصغيت الإناء وأصغيته إذا أملته، وأصغيت إلى فلان ملت بسمعى نحوه، وحكى صغوت إليه أصغو صغوا، وصغيت أصغى قاله الراغب.

(فقال): أى الجذع: **(بل تغرسنى فى الجنة)** أى تصيرنى من غراس الجنة، وتغرسنى بيدك، **(فيأكل منى)**: أى من ثمرى **(أولياء الله وأكون فى مكان لا أبلى فيه)** أبلى كأفنى لفظا ومعنى من البلاء بالكسر، وهو الفناء فاختار الحياة الباقية كسائر أهل الجنة وأشجارها، وأبلى بفتح الهمزة وضمها خطأ.

(فسمعه من يليه) أى سمع كلام الجذع، والضمير الأول له، والثانى يحتمل عوده له

وللنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ويليه بمعنى يقرب منه.

(فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد فعلتُ) بضم التاء للمتكلم: أى أجعلك من غراس الجنة.

(ثم قال) صلى الله تعالى عليه وسلم: **(اختار دار البقاء)**، وهى الجنة كما تقدم **(على دار الفناء)** وهى الدنيا، **(فكان الحسن)** البصرى التابعى الإمام المشهور **(إذا حدّث بهذا بكى، وقال: يا عباد الله الخشبة)** يعنى الجذع **(تحن إلى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** تقدم تفسير الحنين؛ **(شوقا إليه)** مفعول مطلق لقوله: تحن، كجلست قعودًا أو مفعول له، والأول أولى؛ لأن قوله: **(لمكانه)** لامه للتعليل، إن لم يكن بدلا من قوله إليه، وقيل: إنه علة متداخلة فشوقا علة لتحن، ولمكانه علة لقوله شوقا: أى الخشبة اشتاقت لعلو مقامه وجلالة قدره، وهى جماد، وهذه معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم أعظم من معجزة موسى، عليه الصلاة والسلام، فى العصا وإحياء عيسى عليه الصلاة والسلام للموتى؛ لأن الشوق والكلام يستلزمان الإحياء عند الأشعرى.

وإن قيل: إن مجرد الصوت المسموع لا يستلزمه كما تقرر فى محله، فالمكان على حقيقته، وهو الجنة أو بمعنى علو قدره وشرفه صلى الله تعالى عليه وسلم كما أشرنا إليه، **(فأنتم أحق)** من الجماد **(أن تشتاقوا إلى لقائه)**، ونقل عن صاحب القاموس أنه استأذن سلطان اليمن فى الحج وزيارة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فكتب إليه بكلام قال فيه: إنه صح فى الحديث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «لا يحل بالمؤمن أن يمر عليه أربع سنين، ولا يتجدد له شوق للحج، وزيارة سيد المرسلين»، وقد تجدد لى من الشوق ما شب عمره عن الطوق، وقد تضعضع السن وتقعقع الشن، فما هو الأعظم فى جراب، وقد بلغت دقاقة الرقاب، إلى آخر ما قاله.

وقلت أنا حين وقفت على ما كتبه:

لم لا أحن إلى المختار من إضم   والجذع حن اشتياقا بعد فرقته
إنى لأعجب من خشب مسندة   ماهزها الشوق أحيانًا لروضته

والشوق: نزاع النفس للشىء والهيجان إليه، ونقل ابن عطية فى سورة الكهف أنه سمع الجوهرى الواعظ يقول: كلب أحب أهل الخير نالته بركتهم وشرف صحبتهم، حتى ذكره الله فى كتابه، فالخشبة تحن والكلب يحب، وهذا عبرة لأولى الألباب، وفقنا الله لما يقربنا إليه.

(رواه عن جابر حفص بن عبيد الله، ويقال: عبيد الله بن حفص) بتصغير عبيد فيهما، وقيل: إنه حفص بن عبد الله بلا تصغير، قال البرهان: والصواب الأول، وهو حفص بن

عبيد الله بن أنس بن مالك، وهو يروى عن جده وروى عنه أصحاب السنن، وقال أبو حاتم: إنه لم يثبت له سماع، إلا عن جده.

(وأيمن) الحبشى والدعبد الواحد بن أيمن مولى بن أبى عمرة المخزومى، وقد وثقه أبو زرعة، وقد تقدم فيه كلام، وأن ابن حبان خلط فى ترجمته، وأيمن منقول من أفعل التفضيل من اليمن وهو البركة.

(وأبو نضرة) بفتح النون وسكون الضاد المعجمة وراء مهملة، ووقع فى بعض النسخ بصرة بباء موحدة وصاد مهملة، وهو تحريف، وليس لنا أبو نضرة غير أبى نضرة، واسمه جميل، وليس له رواية عن جابر كما قاله الحافظ الحلبى، وأبو نضرة الأول اسمه المنذر بن مالك بن قطعة العبدى النضرى، له رواية عن ابن عباس وغيره، وأخرج له أصحاب السنن، وله ترجمة فى الميزان وكان فصيحا ثقة توفى سنة تسع ومائة، **(وابن المسيب)** سعيد الإمام المعروف تقدمت ترجمته، وأن ياءه تفتح وتكسر.

(وسعيد بن أبى كرب) بكاف وراء مهملة وباء موحدة الهمدانى، وله ترجمة فى الميزان.

(وكريب) مثله إلا أنه مصغر، وهو ابن رشدين مولى ابن عباس.

(وأبو صالح) وهو ذكوان السمان، وتقدمت ترجمته.

(رواه عن أنس بن مالك الحسن) البصرى، وقد تقدمت ترجمته، **(وثابت)** البنانى وقد تقدمت ترجمته، **(وإسحاق بن أبى طلحة)** السابق بترجمته.

(ورواه عن ابن عمر نافع) أبو عبد الله مولى ابن عمر الإمام الثقة المشهور، توفى سنة سبع عشرة ومائة، وأخرج له الستة **(وأبو حية)** بفتح الحاء المهملة وتشديد المثناة التحتية، واسمه حيى الكوفى الإمام الثقة، والدابى حناب يروى عن ابن عمر، ولهم أبو حية آخر يروى عن على، وترجمته فى الميزان.

(ورواه أبو نضرة) السابق ذكره قريبًا.

(وأبو الوداك) بفتح الواو وتشديد الدال المهملة ثم ألف وكاف، وهو جبر بن نوف البكالى وله ترجمة فى الميزان **(عن أبى سعيد)** الخدرى، رضى الله تعالى عنه، وقد قدمنا ترجمته **(وعمار بن أبى عمار)** مولى أبى هاشم، وهو ثقة أخرج له مسلم **(عن ابن عباس وأبو حازم)** بحاء مهملة وزاء معجمة وهو سلمة بن دينار الأعرج المدنى الثقة أحد الأعلام أخرج له الستة، **(وعباس)** بعين وسين مهملتين بينهما موحدة مشددة وألف **(ابن سهل)** بن سعد الساعدى، توفى سنة بضع عشرة ومائة، وقد زاد على التسعين وأخرج له أصحاب السنن **(عن سهل بن سعد)** أبو عباس المذكور روى عنه ابنه وغيره.

(وكثير) بفتح الكاف ومثلثة وراء مهملة **(ابن زيد)** الأسلمى أبو محمد المدنى، وله ترجمة فى الميزان **(عن المطلب)** السابق ذكره، ورواية كثير عنه ليس لها ذكر فى الكتب الستة كما قاله البرهان، **(وعبد الله بن بريدة عن أبيه)** عبد الله قاضى القضاة بمرو، وعالمها الثقة، وترجمته فى الميزان، **(والطفيل)** بصيغة تصغير طفل **(ابن أبى عن أبيه)** أبى بن كعب، وكنيته أبو بطن لعظم بطنه.

(قال القاضى أبو الفضل) وهو عياض المصنف **(رضى الله تعالى عنه: فهذا)** يعنى حديث حنين الجذع **(حديث كما تراه)**، يعنى أنه علم مما ذكره من كثرة طرقه عن الصحابة والتابعين وغيرهم أنه **(خرجه أهل الصحة)**: أى الثقات من المصنفين الذين التزموا فى كتبهم رواية الأحاديث الصحيحة.

(ورواه من الصحابة من ذكرناه) فى هذا الفصل، **(وغيرهم من التابعين ضعفهم)** بكسر الضاد المعجمة؛ لأن كل صحابى روى عنه من طرق كما فصله، فإذا ضممتهم **(إلى من لم نذكره)**، فإذا علمت هذا تحقق عندك القطع بصحته لتواتره، **(و)**من **(دون)** وفى نسخة وبدون **(هذا العدد)** الذى ذكره **(يقع العلم)**: أى يوجد العلم وتتفق صحته، فكيف به **(لمن اعتنى)**: أى اهتم به وتقيد **(بهذا الباب)** من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم؟ **(والله المثبت)** بضم الميم وبالمثلثة المفتوحة وتشديد الموحدة قبل المثناة: أى توفيق الثبات، وعدم تقلب القلب نعمة من الله على عبده المؤمن، فيثبته **(على الصواب)**: وهو ضد الخطأ.

* * *

(فصل ومثل هذا) [فى سائر الجمادات]

من حنين الجذع واشتياقه ونطقه **(فى سائر الجمادات)** أى جميعها أو بقيتها، والجماد ما لا روح له، ومثل مرفوع خبره ما بعده، أو فاعل فعل مقدر: أى ورد مثله، وهذا يحتمل أنه إشارة لجميع ما سبق من كلام الشجر وغيره، واستشهد بحديث رواه البخارى، وهو ما أشار إليه بقوله: **(حدثنا القاضى أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمى)** تقدم بيانه وترجمته قال: **(حدثنا القاضى أبو عبد الله محمد بن المرابط)** بصيغة اسم الفاعل من المرابطة، وهى الإقامة بالثغور بنية الجهاد، وهو محمد بن خلف بن سعيد بن وهب المرى، توفى بالمدينة قاضيا بها سنة ثمانين وأربعمائة، وكان متفننا فى العلوم، سمع من المهلب والدانى وغيرهما قال: **(حدثنا المهلب أبو القاسم)** والمهلب بصيغة المفعول، هو ابن أبى صفرة، وفى التكنية بأبى القاسم، وجوازه على الصحيح كلام مشهور تقدم، وسيأتى بيانه أيضًا قال: **(حدثنا أبو الحسن القابسى)** على بن محمد بن خلف الحافظ المغافرى كما تقدم.

قال: **(حدثنا المروزى)** أبو زيد كما تقدم قال: **(حدثنا الفربرى)** تقدم بيانه وبيان نسبته على اللغتين فى اسم بلده قال: **(حدثنا البخارى)** صاحب الصحيح، وقد تقدم بيانه قال: **(حدثنا محمد بن المثنى)** وهو محمد بن المثنى، أبو موسى العنزى الحافظ الثقة الورع، توفى سنة اثنين وخمسين ومائتين، وترجمته مفصلة فى الميزان قال: **(حدثنا أحمد الزبيرى)** بضم الزاء المعجمة، وهو محمد بن عبد الله بن الزبير بن عمر الزبيرى، نسبة لجده، وليس هو الزبير بن العوام، بل هو كوفى مولى لبنى أسد، توفى سنة ثلاث ومائتين.

قال: **(حدثنا إسرائيل)** بن يونس بن إسحاق السبيعى الكوفى أبو يوسف الثقة، أخرج له الستة، وتوفى سنة اثنين وستين ومائة وترجمته فى الميزان **(عن منصور)** أبى عتاب بن المعتمر السلمى، من أئمة الكوفة **(عن إبراهيم)** بن يزيد النخعى **(عن علقمة)** بن قيس تقدم بيانه، **(عن عبد الله)** بن مسعود **(قال)** أى ابن مسعود:

(لقد كنا) معاشر الصحابه **(نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل)** جملة حالية: أى حال أكلنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وفى غير هذه الرواية)** يعنى رواية البخارى، وهو رواية الترمذى **(عن ابن مسعود)** أيضًا **(كنا نأكل مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الطعام ونحن نسمع تسبيحه)**: أى قوله: سبحان الله، وهذا مما يستأنس به؛ لأن معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] تسبيح حقيقى بلسان القال لا بلسان الحال، وأنه يشهد له تذييله بقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤] وهو حديث صحيح حسن أخرجه الترمذى عن ابن يسار أيضًا من طريق آخر، وفى قوله: كنا إلى آخره دليل على تكرره، وأنه وقع مرارًا عديدة كما تقدم، وفى هذا معجزة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وكرامة للصحابة إذ سمعوا ما لم يسمعه غيرهم، وهذه المعجزة أعظم من معجزة فهم منطق الطير والجبال لسليمان وداود، عليهما الصلاة والسلام، وفى الدر المنثور للسيوطى: إن كل شىء يسبح إلا الكلب والحمار.

وتقدم أن التسبيح معناه: تنزيه الله عما لا يليق به، وأهل الظاهر أولوا الآية بلسان الحال كالزمخشرى، وجعلوه خطابا للمشركين، ولذا قال: ﴿لَّا تَفْقَهُونَ﴾ [الإسراء:٤٤] ولم يقل: لا تسمعون، وذكر المصنف، رحمه الله، هذه الرواية؛ لما فيها من التصريح بأنه كان معه صلى الله تعالى عليه وسلم ولبعض الشراح هنا كلام طويل لا طائل تحته.

(وقال أنس) فى حديث أخرجه ابن عساكر فى تاريخه: **(أخذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كفا)** أى مقدرًا يملأ الكف، وهو باطن اليد، وقيل: فيه مضاف مقدر أى ملء

كف **(من حصى)** جمع حصاة، وهى صغار الحجارة.

(فسبحن فى يد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم) من وضع الظاهر موضع المضمر تعظيما وإشارة إلى أنه معجزة، وفى نسخة فى يده.

(حتى سمعنا التسبيح ثم صبهن): أى وضعهن، وهو استعارة شائعة فى الأجرام الصعبة كصبينا الصبرة من المكيل، وأصله فى المائعات كالماء **(فى يد أبى بكر فسبحن)** جملة حالية **(ثم)** صبهن **(فى أيدينا فما سبحن)**.

وفى قوله: حتى سمعنا، إشارة إلى خفاء صوتهن، وفيه دليل ظاهر على فضل أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، على غيره، وإيماء إلى خلافته، ومعنى قوله: فما سبحن، أنه ما سمع تسبيحهن، أو أن التسبيح لم يكن من الجمادات دائمًا، والأول أولى.

(وروى مثله أبو ذر)، رضى الله تعالى عنه، ورواه الطبرانى والبيهقى والبزار.

والمثلية فى مجرد تسبيح الحصى، فلا ينافى قوله: **(وذكر أنهن سبحن فى كف عمر وعثمان)**، رضى الله تعالى عنهما.

ولفظ هذا الحديث عن أبى ذر فى دلائل البيهقى قال: كنت أتتبع خلواته صلى الله تعالى عليه وسلم، فرأيته يومًا خاليًا فاغتنمت خلوته وجئته، حتى جلست إليه فجاء أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، فسلم ثم جلس عن يمين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم جاء عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، فسلم وجلس عن يمين أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، ثم جاء عثمان فسلم وجلس عن يمين عمر، وبين يدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبع حصيات فأخذهن فوضعهن فى كفه فسبحن، حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن، ثم أخذهن فوضعهن فى يد أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، فسبحن حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن، ثم تناولهن فوضعهن فى يد عمر، فسبحن، حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن، ثم تناولهن فوضعهن فى يد عثمان، فسمعت لهن حنينًا كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «هذه خلافة النبوة»[1]، وهكذا أخرجه الحافظ أبو القاسم فى تاريخه مسندًا عن أنس، رضى الله تعالى عنه، وزاد فيه عثمان، ثم وضعهن فى أيدينا رجلاً رجلاً فما سبحت حصاة منهن، وفى رواية: صبهن فى أيدينا رجلاً رجلاً إلى آخره.

وفى الشرح الجديد: أنه لم يذكر عليا، رضى الله تعالى عنه وكرم وجهه، فإن كان تسبيحها فى يد غيره مخصوصًا بالخلفاء، فهو خليفة كابنه الحسن أيضًا، وأجاب بأنه لم

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٦/٦٥)، وأورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٦/١٥١).

يكن حاضرًا ثمة أو لأن خلافته أدركت الفتنة على أن مثله لا يشين مقامه، رضى الله تعالى عنه، مع ماله من المناقب.

أقول: الظاهر أن هذه الواقعة تعددت؛ لأن رواية أبى ذر أنه لم يكن ثمة غيره، وما فى رواية البيهقى يقتضى أنه حضرها جماعة من الصحابة؛ لقوله: رجلاً رجلاً، وعلى كليهما لم يكن معهم على، رضى الله تعالى عنه، وفيهما إشارة إلى عدم امتداد خلافته استقلالا.

(وقال على)، رضى الله عنه، فى حديث رواه الدارمى والترمذى بسند حسن: **(كنا بمكة مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فخرج صلى الله تعالى عليه وسلم إلى بعض نواحيها فما استقبله)**، وفى بعض النسخ فما استقبلته **(شجرة)**: أى وقعت فى مقابلة وجهه قريبًا منه، **(ولا جبل إلا قال له)** كل واحد منهما: **(السلام عليك يا رسول الله)**: بأن خلق الله تعالى فيه نطقا، وإن لم يكن معه حياة؛ لأنه لا تلازم بينهما، ولكن الظاهر أنه كان فيه حياة أيضًا، وهذا ما قاله ابن إسحاق، رحمه الله تعالى، كان فى بدء النبوة، تطمينا لقلبه صلى الله تعالى عليه وسلم وتبشيرا له بانقياد الحق له بعد، وإجابتهم لدعوته.

(عن جابر بن سمرة)، رضى الله تعالى عنه، **(عنه صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى حديث صحيح رواه مسلم: **(إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على)**: أى يقول السلام عليك يا رسول الله ونحوه.

(قيل: إنه الحجر الأسود)، فقد قال السهيلى وغيره: روى فى المسندات أن هذا الحجر هو الحجر الأسود، وهذا هو المأثور وقد قيل: إنه حجر غيره، وإنه معروف إلى الآن بمكة فى محل يقال له: زقاق المرفق، والناس يتبركون به الآن، ويقولون: إنه الذى كان يسلم على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم.

وهذه المعجزة أعظم من معجزة داود، عليه الصلاة والسلام، فى قوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ﴾ [ص: ١٨]؛ لأنها لم تسبح بيده وفى يد من أراده من أمته، وتسبيح الطعام أعظم منها؛ لأنه لم يعهد مثله، والجبال قد وصفت بالخضوع والخشوع، وتأكيده بأن، وتنكيره إشارة إلى أن له شأنًا خاصًا به، وأنه حجر ليس كسائر الحجارة، ولذا فسر بالحجر الأسود، فلا يقال: ما الفائدة فى ذكر حجر واحد، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم كان لا يمر بحجر ولا شجر إلا سلم عليه؟ كما أشار إليه بقوله.

(وعن عائشة)، رضى الله تعالى عنها، عنه صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث صحيح رواه البزار فى مسنده: **(لما استقبلنى جبريل)**، عليه الصلاة والسلام: أى نزل على وأتانى **(بالرسالة جعلت)**: أى صرت **(لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا**

رسول الله) تشريفا له وتطمينا، وإنها لعموم رسالته. وأمر يقر به الحجر، كيف ينكره البشر؟ **(وعن جابر بن عبد الله)**، رضى الله تعالى عنه، فى حديث رواه البيهقى: **(لم يكن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى ابتداء بعثته **(يمر بحجر ولا شجر إلا سجد له)**: أى انخفض حتى مس الأرض على هيئة السجود؛ تواضعا له صلى الله تعالى عليه وسلم تعظيما وتكريما، كما سجدت الملائكة لآدم، عليه الصلاة والسلام.

والسجود لغير الله، سبحانه وتعالى، إنما يمتنع من البشر، وهذا محمول على السماع منه صلى الله تعالى عليه وسلم كما ورد التصريح به فى الحديث السابق، ومثله لا يقال من قبل الرأى، فلا حاجة إلى أن يقال: إنه علم من باب الكشف ويحتمل أن الرواى شاهد ذلك فى حال مروره معه صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وفى حديث العباس)، رضى الله تعالى عنه، الذى رواه البيهقى، رحمه الله تعالى، عن أسيد الساعدى: **(إذ اشتمل عليه)** الضمير للعباس، رضى الله تعالى عنه، أى الحديث الذى ذكر فيه أنه كان فى وقت اشتمل أى ضمه **(صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى رداء له **(وبنيه)**: وهم عبد الله وعبيد الله و الفضل وقثم **(بملاءة)** بميم مضمومة ولام وهمزة ممدودة وهاء، وهى الإزار والملحفة، وقيل: الملاءة الإزار الذى له شقتان، فإن كان له شقة واحدة فهى ريطة براء وطاء مهملتين، والجمع ملأ وريط.

(ودعا لهم) أى العباس وبنيه **(بالستر من النار)** الستر: ما يمنع المستور ويحجبه، فهو مجاز واستعارة لما يمنعهم من دخولهم النار، وعن ارتكاب ما يوجب العذاب بها، وهو بفتح السين مصدر ستره، ثم شبه بعد التجوز فى قوله: **(كستره)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(إياهم بملاءته)** إذ قال: يا رب هذا عمى وصنو أبى، وهؤلاء بنوه، فاسترهم من النار كسترى إياهم بملاءتى هذه **(فأمنت)** بفتح الهمزة والميم المشددة والنون: أى قالت: آمين طلبا لاستجابة دعائه.

(أسكفة الباب) بضم الهمزة وسكون السين المهملة وضم الكاف وفاء مشددة مفتوحة وهاء، وهى العتبة وما يعلوه الداخل من الباب، ومن المجاز وقعت الدمعة على أسكفة عينه: أى جفنه الأسفل، وهذا محل الشاهد من الحديث؛ لنطق الجماد فيه **(وحوائط البيت)** جمع حائط: وهو معروف أى جدرانه المحيطة بجوانبه ونواحيه **(آمين آمين)** هو اسم فعل أمر، بمعنى استحب، وفيه لغات أشهرها مد الهمزة، وتخفيف الميم وروى قصرها وتشديد الميم، وفيه كلام فى التفسير واللغة مشهور، وآمين آمين إما معمول لمقدر أى وقالت: آمين أو لأمنت لتضمنه معنى القول وتكريره، إما على التوزيع أى قالت الأسكفة: آمين، والحوائط: آمين، ويحتمل أن كل واحد منهما كرر قوله: آمين

تأكيدًا وتحقيقًا للمقال، إذ قد يغفل عن مثله.

وهذا الحديث بتمامه فى دلائل البيهقى، وفيه أنه قال للعباس: «يا أبا الفضل لا تفارق أنت وبنوك بيتك، حتى آتيك فإن لى بكم حاجة، فانتظروه فلما أتاهم قال: كيف أصبحتم؟ فقالوا: بخير، فقال: تقاربوا، فاجتمعوا فجمعهم معه فى ملاءته، وقال: يا رب هذا عمى وصنو أبى وهؤلاء بنوه، فاسترهم من النار»[1]، إلى آخر ما ذكره المصنف، رحمه الله.

وفى دلائل أبى نعيم: أنهم كانوا سبعة: الفضل وعبد الله حبر الأمة أبو الخلفاء وعبيد الله وعبد الرحمن وقثم وسعيد وأم حبيبة أختهم، وفيهم يقول عبد الله الهلالى:

ما ولدت نجيبة من فحل   بجبل نعلمه أو سهل
كستة من بطن أم الفضل   أكرم بها من كهلة كهل
عم النبى المصطفى ذى الفضل   وخاتم الرسل وخير الرسل

ومثل هذه القصة حديث الكساء فى المباهلة المقدم، وهو جمع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لخمسة من أهل بيته، وهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى وفاطمة والحسنان فى كساء له، ويقال: إن جبريل، عليه الصلاة والسلام، كان معهم كما قيل:

أفضل من تحت الفلك   خمسة رهط وملك

وقال الخالدى:

أعاذلى إن كساء التُّقَى   كسانيه حبى لآل الكساء

وقال أبو على الضرير لمن وعده بكساء ثم أخلف:

من غزل من هذا الكساء ونسج من   هل فى عمان طرازه أم فى عدن
ولأى وقت بعد ريح قرة   هبت وأمطار ألمت تختزن
أم ذا كساء العز آل محمد   فالضن عن بذله له أمر حسن

وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس المشاهد، فلا يقال عليه: إن المشبه هنا أعظم من المشبه به، والمعهود فى التشبيه عكسه كما قيل.

(وعن جعفر بن محمد عن أبيه) محمد الباقر بن زين العابدين، وقال السيوطى: لم أجد هذا فى كتب الحديث يعنى المشهورة، فلا ينافى اطلاع المصنف، رحمة الله تعالى عليه، **(مرض النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فاتاه جبريل، عليه الصلاة والسلام، بطبق فيه رمان وعنب)** المذكور فى اللغة أن الطبق بمعنى الغطاء، والمراد به هنا الوعاء مجازًا؛ لأنه على

(١) أخرجه ابن عدى فى الكامل (٦/ ٢٣٤٠).

هيئته، والظاهر أنهما من ثمرات الجنة، وكونه من ثمرات الدنيا، وأنه لو كان من الآخرة لم يفن لقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥] لا يلتفت إليه كالبحث عن كونهما فاكهة أولاً، (**فأكل منه صلى الله تعالى عليه وسلم فسبح**) أى فأراد الأكل منه إذ تناوله بيده، لا بعد الأكل كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] الآية، ولم يذكر هذا مع الطعام؛ لكونه ليس من طعام الدنيا المعقود له فصله؛ فلذا ذكره مع الجمد، وهو ما لا روح له مطلقا.

(**وعن أنس**) بن مالك، رضى الله تعالى عنه، فى حديث رواه أحمد والبخارى والترمذى وابن ماجه: (**صعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأبو بكر الصديق وعمر وعثمان أحدًا**) بضمتين وقد يسكن ثانيه، وقيل: إن تسكينه ضرورة، وهو جبل معروف بقرب المدينة، وقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيه: (**إنه جبل يحبنا ونحبه**) وأخبر أنه سيكون فى الجنة، (**فرجف**) الجبل (**بهم**) أى تحرك حركة شديدة واضطرب، واضطرابه؛ إما لمهابته صلى الله تعالى عليه وسلم ولخوفه من الله تعالى، أو أنه لزلزلة اتفقت عند صعودهم عليه.

(**فقال: اثبت أحدُ**) بضم آخره من غير تنوين: أى يا أحد، فأمره صلى الله تعالى عليه وسلم بالثبات وعدم الحركة، وقد خلق الله فيه إدراكًا وحياة إذ فهم كلامه، وامتثل أمره، وهو محل الشاهد فى هذا الحديث: أى ينبغى أن يكون فيك وقار وسكون؛ لشرف من علا عليك ممن ينبغى عدم الاضطراب المشوش عليهم، فلذا قال: (**فإنما عليك نبى**) يعنى نفسه صلى الله تعالى عليه وسلم (**وصديق**) يعنى أبا بكر، رضى الله تعالى عنه، (**وشهيد**) يعنى عمر وعثمان، رضى الله عنهما؛ لأنهما قتلا ظلمًا، كما لا يخفى.

ورواه بعضهم وشهيد بالإفراد، وقال: لم يصف عثمان بالشهادة اختصارًا واقتصارًا، ولا وجه له وكل الشراح على خلافه.

وروى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم ضربه برجله أى ركضه بها.

(**ومثله**) أى مثل الحديث الذى فى أحد مارواه مسلم (**عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، فى حراء**) بالمد والقصر والتذكير والتأنيث والصرف وعدمه، وهو جبل معروف على ثلاثة أميال من مكة، وقد تقدم الكلام عليه، (**وزاد**) فى هذه الرواية على ما تقدم من ذكر عمر وعثمان وأبى بكر، رضى الله تعالى عنهم، (**ومعه على وطلحة والزبير**)، وفى رواية سعد بن أبى وقاص، رضى الله تعالى عنه، بدل على، (**وقال**) فى هذه الرواية: (**فإنما عليك نبى أو صديق أو شهيد**) أو هنا بمعنى الواو للتقسيم، وبها عبر المصنف، رحمه الله تعالى، عند سياقه هذه الرواية فيما يأتى، فقال: اثبت إنما عليك بنى وصديق وشهيد،

ويأتى الكلام عليها ثمة، وأراد بذلك ما يشمل ما فوق الواحد، وبالشهيد المقتول ظلما مطلقا؛ لأن عمر، رضى الله تعالى عنه، قتله أبو لؤلؤة غلام المغيرة الكافر، وعثمان قتل يوم الدار، واختلف فى قاتله، وعلى، رضى الله تعالى عنه، قتله ابن ملجم الخارجى الشقى، والزبير، رضى الله تعالى عنه، قتل بوادى السباع ظلما، وطلحة، رضى الله تعالى عنه، اعتزل الناس، فأصابه سهم فقتله، فكلهم قتلوا ظلما فهم شهداء حقيقة وحكمًا.

وروى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «اسكن حراء أو اهدأ حراء...»[1] إلى آخره كما رواه مسلم والترمذى، و لم يذكر سعدًا كما سيأتى.

(والخبر) الذى رواه مسلم والترمذى عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، رواه الترمذى والنسائى **(فى حراء أيضًا عن عثمان)** بن عفان، رضى الله تعالى عنه، **(قال)** عثمان، رضى الله تعالى عنه، فى هذه الرواية: **(ومعه عشرة من أصحابه أنا فيهم، وزاد)** فى رواية عثمان **(عبد الرحمن)** بن عوف **(وسعدًا)** ابن أبى وقاص **(قال: ونسيت الاثنين)** تتمة العشرة، وهما طلحة والزبير.

(وفى حديث) آخر رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه **(سعيد بن زيد أيضًا)** ابن عمر بن نفيل أحد العشرة المبشرة **(مثله)** أى مثل حديث عثمان، وفى الصحابة سعيد بن زيد أنصارى أسلمى، وهو غير هذا لأنه لا يعرف له رواية **(وذكر)** فى هذه الرواية أيضًا **(عشرة وزاد نفسه)** فيهم.

(وقد روى) فى حديث الهجرة المذكور فى السير و لم يسنده السيوطى هنا **(أنه)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(حين طلبته قريش)** لما خرج مهاجرًا، وأرسلوا خلفه من يطلبه منهم، **(قال له ثبير)** بثاء مثلثة مفتوحة وموحدة مكسورة ومثناة تحتية ساكنة وراء مهملة: جبل بالمزدلفة عن يسار الذاهب إلى منى، ولهم جبال أخر تسمى ثبيرًا، كلها حجازية، وسمى ثبيرا من الثبور باسم رجل كان يسمى ثبيرًا دفن به، فسمى باسمه: **(اهبط يا رسول الله)** أى انزل من على ظهرى، واذهب إلى مكان آخر تختفى به عنهم، ثم علل أمره بالهبوط والنزول منه إلى مكان آخر بقوله: **(فإنى أخاف أن يقتلوك على ظهرى فيعذبنى الله)** بالنصب معطوف على يقتلوك، وإنما خاف العذاب بسبب قتله؛ لأنه لو لم يذكر له ذلك مع علمه بأنه ليس فيه مكان يستره كان غشًّا منه يستحق به العذاب، أو لأنه لو قتل على ظهره غضب الله على المكان الذى يقع فيه مثل هذا الأمر العظيم، كما غضب على أرض ثمود، فلا يقال: إنه كيف يعذب بذنب غيره ﴿وَلَا تَزِرُ

---

(١) أخرجه مسلم فى فضائل الصحابة (٤٩)، وأحمد (١/١٨٨)، والدارقطنى (٤/١٩٨)، والبيهقى (٦/١٦٧).

﴿وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]؟ حتى يوجه بأن خوفه بمعنى حزنه وتأسفه عليه، ونحوه من التخيلات التى لا وجه لها كما قيل.

(**فقال له حراء**) اسم جبل كما تقدم: (**إلىّ يا رسول الله**) بتشديد الياء المفتوحة: تقديره ائت إلى، أو هو اسم فعل بمعنى أقبل، وقال له ذلك؛ لأنه ألهمه الله أنه يقدره على أن ينشق له، ويستتر فى جوفه، ونحو ذلك مما تقع به سلامته صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان هذا قبل توجهه صلى الله تعالى عليه وسلم إلى غار ثور الذى اختفى فيه عند الهجرة.

(**وروى ابن عمر**) فى حديث رواه مسلم والنسائى وأحمد فى مسنده، وما ذكره المصنف هو رواية أحمد بلفظه (**أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قرأ على المنبر**) آية ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام:٩١]: أى ما عظموه حق تعظيمه، وما عرفوه حق معرفته، قيل: إن بعض أحبار اليهود قال له: يا محمد إن الله يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على أصبع، ويقول: أنا الملك أنا الله، فضحك صلى الله تعالى عليه وسلم تصديقًا له وتعجبًا، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية، ونحو منه فى جامع الترمذى.

وقال الخطابى: إنه إنكار لمقالته؛ لتوهمه أن لله يدًا حقيقية ذات أصابع، وهو منزه عن مثله، ولذا قال: (**ثم قال**) أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ما تلا الآية: (**يمجد الجبار نفسه**) أى يعظم وينزه ذاته، وروى: يحمد بالحاء المهملة من الحمد والثناء الجميل، وفى ذكره الجبار موافقة للقرآن، وهو صيغة مبالغة من الجبر وهو القهر ونفوذ الأمر والنهى.

وفيه دليل على جواز إطلاق النفس بمعنى الذات على الله، وإن لم يكن بطريق المشاكلة كما ورد فى القرآن أيضًا، وليس من قبيل قوله: (﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦])، فإنه يشترط فيه المشاكلة؛ لأنه إطلاق آخر، ومن اشترط ذلك مطلقًا، فقد وهم، وهذا مماخفى على كثير من الفضلاء، يعنى المقصود من الآية تعظيم كبريائه، توفيقا لعباده على كنه ذاته، فلذا قال: (**أنا الجبار، أنا الجبار**) وكرره للتأكيد والتهويل (**أنا الكبير المتعال**) أى المتعالى فى عظمته عما يخطر بالعقول، وحذف الياء فى الوقف، وهو جائز أى: أنا الجليل المتكبر العلى الأعلى المنزه عن الجارحة، وفيه إشارة إلى أنَّ ما ذكر من الإصبع واليد والقبضة، تمثيل لجلالة قدره وعظم ذاته.

(**فرجف المنبر**): أى اهتز واضطرب من مهابة مقاله صلى الله تعالى عليه وسلم (**حتى قلنا**) أى قال من كان حاضرًا: (**ليخرن عنه**) أى ليقع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم

من شدة اضطراب المنبرِ من عليه، أو لينهد المنبر، وهذا وما قبله من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم لنطق الجبل له، وفهم المنبر كلامه وتحركه، وهو محل الشاهد.

(وعن ابن عباس) فى حديث أخرجه الشيخان والبزار والطبرانى وأبو يعلى عن جابر، وابن مسعود أيضًا: **(كان حول البيت)** فى الجاهلية، وقبل الفتح **(ستون وثلاثمائة صنم)**، اتخذها قريش آلهة يعبدونها من دون الله، **(مثبتة الأرجل بالرصاص فى الحجارة)**: أى قيدت أرجلها، ومكنت فى الأرض برصاص جعل عليها حتى لا تسقط وتزول من مكانها.

والرصاص معروف، قال الجوهرى: بفتح الراء والعامة تكسره انتهى، فكسره كضمه لحن من العامة، وكون الأصنام حول الكعبة لا فوقها ورد فى كثير من الروايات، **(فلما دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المسجد)**: أى مسجد مكة المشرفة **(عام الفتح)**: أى فتح مكة، **(جعل)**: أى شرع وطفق **(يشير بقضيب)** وعصا كانت **(فى يده إليها)**: أى إلى الأصنام المذكورة، وإليها متعلق بيشير، **(ولا يمسها)** بيده ولا بقضيبه؛ لاستكراهه صلى الله تعالى عليه وسلم لها ولأنه لو مسها توهم أن سقوطها بشدة دفعه لها، **(ويقول)** حال من فاعل يشير، لا من فاعل يمسها، كما قيل، وإن جاز بتكلف أى قائلا: (﴿**جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ**﴾ [الإسراء: ٨١] الآية) والحق: التوحيد والإسلام، والباطل ضده، وزهوقه: زواله واضمحلاله، وزهقت نفسه: خرجت **(فما أشار)** بالقضيب **(إلى وجه صنم)**: أى ما هو على صورة وجه مقابل له، **(إلا وقع)** خر ساقطا **(لقفاه)** أى على قفاه، فاللام بمعنى على كقوله:

وخر صريعًا لليديـــــن وللفـــــم

والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال: أى فى حال من الأحوال إلا حال سقوطه، **(ولا)** أشار **(لقفاه إلا وقع لوجهه)** أى: جهة أشار صلى الله تعالى عليه وسلم إليها من الصنم وقع على مقابلها، **(حتى)** سقطت كلها، و**(ما بقى منها صنم)** قائم إذ سقطت كلها.

والقفا: مقابل الوجه، وهو مقصور، وسمع مده فى لغة ضعيفة، وقيل: إنه ضرورة، والحاصل أنها سقطت كلها بإشارته صلى الله تعالى عليه وسلم من غير أن يمسها، واختلفت الروايات، فقيل: أشار بيده، وقيل: بقوس، وقيل: بقضيب، وقيل: بعود.

وهذا فيما كان حول البيت، وأما ما كان فى جوفه فأمر بإخراجه، ولم يدخل صلى الله تعالى عليه وسلم البيت حتى أخرجت منه، ومحيت الصور التى كانت فيه، ولم يعترض له المصنف، مع أنه فى الصحيحين؛ لأن كلامه فى إطاعة الجمادات له صلى الله

تعالى عليه وسلم وقد علم أن هذه الأصنام كانت موثقة بالرصاص لو أراد أحد قلعها، لم يقلعها إلا بعلاج شديد، وقد سقطت بإشارته من بعيد، فهو كتحريك الشجر من مغرسه له صلى الله تعالى عليه وسلم، فلذا اقتصر عليه المصنف، رحمه الله، وأشار إليه بقوله: مثبتة بالرصاص.

(ومثله) أى مثل هذا الحديث، وبمعناه **(فى حديث ابن مسعود)** الذى رواه الشيخان **(وقال)**: أى ابن مسعود فى روايته: **(فجعل يطعنها)** أى الأصنام المذكورة.

ويطعن: بفتح العين كمنع يمنع، ويجوز ضمها، والأول أشهر وأفصح خلافا لمن عكس.

وقد تقدم اختلاف الروايات فيما طعن به، وهى متقاربة، والذى مر فى الرواية السابقة أنه أشار إليها من غير أن يمسها بيده، وما فيها من عصا ونحوها، وهذه الرواية تقتضى أنه مسها بالعصا ودفعها بها كالطاعن لها، فبينهما اختلاف، ولذا فسر بعضهم طعنها بأشار إليها من غير مس، وهو خلاف الظاهر، وقيل: إنها كانت كثيرة، فأشار لبعض منها وطعن بعضًا منها، فلا تعارض فى الروايات.

(ويقول) معطوف أو حال بتقدير: وهو يقول: **(جاء الحق)** أى الدين الحق والتوحيد، أو وعد الله بفتح مكة، **(وما يبدئ الباطل وما يعيد)**(١) الإبداء: الإيجاد ابتداء من غير سبق إيجاد آخر، والإعادة الإيجاد مرة بعد مرة أخرى، وما هنا جوز فيها أن تكون نافية أى أن الشرك هلك واضمحل، واستفهامية استفهاما إنكاريا وهو بمعنى النفى أيضًا، فالمعنى واحد، وإنما ذكر حديث ابن مسعود؛ لأنه فى الصحيحين، وقدم الأول لأنه أوفق بمراده هنا، وفيه زيادة ثقة وهى مقبولة.

(ومن ذلك) أى مما ذكر من أمر الجمادات: **(حديثه)** الذى رواه الترمذى والبيهقى **(مع الراهب)**، وهو بحيراء، واسمه جرجس؛ ويقال جرجيس بياء: ابن عبد القيس من نصارى تيما أو بصرى، وهو ممن آمن به صلى الله تعالى عليه وسلم قبل بعثته صلى الله تعالى عليه وسلم ولذا عده بعضهم من الصحابة كورقة بن نوفل، وفى المسألة اختلاف، ذكره البرهان فى النبراس وغيره.

وقيل: إن بحيراء يهودى، واسمه بفتح الباء مقصور ويروى مده، وتسميته راهبا تؤيد نصرانيته؛ لأن الرهبانية، وهى الزهد فى المأكل وغيره لشدة رهبته: أى خوفه معروفة فيهم، كما لا يخفى.

---

(١) قال تعالى: ﴿**قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد**﴾ [سبأ: ٤٩] وسورة سبأ مكية، فكأن هذا امتثال لما أمر به

(فى ابتداء أمره) صلى الله تعالى عليه وسلم: أى وهو صغير السن لم يبعث **(إذ خرج تاجرا)** أى لأجل التجارة **(مع عمه)** أبى طالب.

واعترض عليه بأنه لما خرج مع عمه المذكور كان عمره تسع سنين، وقيل: اثنا عشر ولم يكن تاجرًا، وإنما تعرض لعمه وهو خارج، وقال له: تتركنى وليس معى أحد؟ فأخذه معه، وإنما خرج تاجرًا بعد ذلك مع ميسرة غلام خديجة، رضى الله تعالى عنها، وميسرة هذا لم يذكر فى الصحابة، وقد مات قبل البعثة، وفى هذه الخرجة لقى راهبًا آخر، وهو نسطورا، وقصته مشهورة أيضًا، ففى كلام المصنف، رحمه الله تعالى، ما لا يخفى.

وما قيل فى الجواب من أن تاجرًا حال من ضمير عمه، أو حال من ضميره صلى الله تعالى عليه وسلم المستتر فى خرج، وجعله تاجرًا لمجاورته لعمه الذى خرج للتجارة تعسف، وتكلف جدًا.

(وكان الراهب لا يخرج) من صومعة له كان يترهب فيها **(إلى أحد)** ممن يمر عليه من أبناء السبيل؛ لأن صومعته كانت على طريق قريش فى ممرهم للشام تجارًا، فكان يراهم ولا يخرج إليهم؛ لانفراده واشتغاله بعبادته على عادتهم، **(فخرج)** على خلاف عادته، لما نزل قريبًا منه أبو طالب والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم معه وأبصرهم، **(فجعل)** أى صار **(يتخللهم)** بفتح المثناة التحتية والفوقية والخاء المعجمة واللام المشددة بعدها لام مخففة: أى يدخل فى خلالهم ويدور بينهم ينظرهم واحدًا بعد واحد، من تخلل القوم: إذا دخل بينهم كما فى الصحاح.

(حتى أخذ بيد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم) أى أمسك بيده الشريفة، **(فقال: هذا سيد العالمين)** أى أشرف المخلوقات كلهم؛ لما رأى فيه من الصفات التى علمها من كتبهم **(يبعثه الله)**: أى يرسله لدعوة الكافة بعد ما نبأه **(رحمة للعالمين)**: أى لأجل رحمتهم جميعا؛ لمجيئه بما يسعدهم فى الدنيا والآخرة كما تقدم، **(فقال له)** أى للراهب **(أشياخ من قريش)**: جمع شيخ، وحقيقته الكبير السن، ثم شاع فى الشريف المتقدم على غيره: **(ما علمك؟)** بما ذكرته من كونه سيدا ورحمة عامة: أى من أين عرفت هذا؟ **(فقال: إنه لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجدًا له)**، وهو شاهد ذلك من صومعته لما نزلوا عنده، ومن معه لم يروا ذلك؛ لاشتغالهم بأحوالهم فى السفر، **(ولا تسجد إلا لنبى)**؛ تعظيما له إذا مر بها، أو نزل عندها.

والسجود للتحية والإكرام كان سنة عندهم على أن امتناعه إنما هو فى حق العقلاء دون غيرهم، كما مر فإنهم لا يتصور منهم شرك، فالبحث عنه لا وجه له، **(وذكر**

القصة) إلى آخرها مفصلة كما فى السير، وشهرتها تغنى عن ذكرها.

(ثم قال): أى الراهب: **(فأقبل)** صلى الله تعالى عليه وسلم للمنزل، **(وعليه غمامة تظله)** دون من معه من رفقته، **(فلما دنا من القوم)** المرافقين له الذين نزلوا قبله، **(وجدهم سبقوه إلى فىء الشجرة، فلما جلس)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(مال الفىء إليه)** أى إلى جانبه الذى جلس فيه.

والفىء هو الظل، أو الظل بالغداة، والفىء بالعشى؛ لأنه من فاء إذا رجع، وهذا هو أصل معناه، لكن توسعوا فيه، فاستعملوا كلا منهما مقام الآخر، والغمامة السحابة أو البيضاء، والمراد الأول.

وخبر بحيراء صحيح روى من طرق صحيحة، إلا أنه طعن فيما رواه الحاكم فيه من أن سبعة من الروم أقبلوا يقصدون قتله صلى الله تعالى عليه وسلم، فاستقبلهم بحيراء، وقال لهم: ما جاء بكم؟ فقالوا: إن هذا النبى خارج فى هذا الشهر، وإنا بعثنا له، فقال لهم: أرأيتم أمرا أراده الله، هل يستطيع أحد رده؟ قالوا: لا، فصدهم عما أرادوه وأقاموا معه، ورده أبو طالب، وبعث معه أبو بكر بلالاً، رضى الله تعالى عنهما.

وقال الذهبى: إنه حديث منكر، وإنما طعن فيه؛ لأن أبا بكر، رضى الله عنه، كان صغيرا إذ ذاك، ولم يملك بلالا، وقيل: إن هذا مدرج من حديث آخر، والآفة فيه من رواته.

وما آفة الأخبار إلا رواتها

* * *

(فصل فى الآيات فى ضروب الحيوانات)

الآيات جمع آية، وهى العلامة والمعجزة؛ لأنها علامة نبوة النبى، والضروب جمع ضرب وهو النوع.

حدثنا سراج بن عبد الملك أبو الحسين الحافظ، قال: حدثنا أبى قال: حدثنا القاضى يونس:

رجال هذا السند تقدموا كلهم، مع الكلام عليهم، وعلى أسمائهم، فلا حاجة للتكرار الممل.

(قال حدثنا أبو الفضل الصقلى): بفتح الصاد المهملة والقاف وكسر اللام المشددة وياء نسبة لصقلية: جزيرة بالأندلس كثيرة الأشجار والثمار، قال الشاعر[1]:

ذكرت صقلية والأسى تأجج نيران تذكارها

---

(١) البيت من المتقارب، وهو لابن حمديس فى تاج العروس (صقل) ومعجم البلدان (٣/٤١٧) (صقلية).

وكسر صادها خطأ، وإن ذكره البرهان ظنًا من عنده.

(قال: حدثنا ثابت بن قاسم بن ثابت عن أبيه وجده قالا: حدثنا أبو العلاء أحمد بن عمران قال: حدثنا محمد بن فضيل قال: حدثنا يونس بن عمرو) كذا في النسخ؛ وقد سقط منه راو، وصوابه حدثنا أحمد بن عمران، حدثنا محمد بن فضيل قال: حدثنا يونس بن عمرو كما في بعض النسخ موصولاً، وهو من رجال مسلم، وأصحاب السنن الأربعة، وترجمته في شروحها كما تقدم.

ويونس هو ابن إسحاق السبيعي وهو ثقة صدوق، وقيل: إنه مضطرب لا يحتج به، وترجمته في الميزان، توفي سنة تسع وخمسين ومائة.

(قال: حدثنا مجاهد)، وفي نسخة عن مجاهد **(عن عائشة)**: أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، ومجاهد هو ابن جبر كما تقدم، وقيل: إن مجاهدًا لم يسمع منها، والصحيح خلافه، قالت عائشة: **(كان عندنا داجن)** من المداجنة، وهي لزوم البيوت وسكونها، والمراد بها شاة تألف البيوت وتعلف فيها، وتطلق على غيرها من الحيوانات التي تربى في البيوت كالناقة والحمام، والمراد بقولها: عندنا منزلها الذي تسكنه، وكذا في قوله: **(فإذا كان عندنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قر وثبت مكانه)**: أي وقف أوربض في مكانه لا يتحرك؛ تأدبا معه صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وإذا خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)** من منزله **(جاء وذهب)**: أي مشى في البيت، وتردد فيه؛ لأنه ليس ثمة من يهابه.

وقيل: المعنى أنه لم يقر لعدم رؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم اشتياقا لرؤيته.

وهذا حديث صحيح رواه أحمد والبزار وأبو يعلى والبيهقي والدارقطني.

وهذا من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم لإلفْ الحيوانات التي لا تعقل ومهابتها له، وروى داجنة بالهاء وراجن بالراء، وقد علم أن قر من القرار، وهو السكون وعدم الحركة.

(وروى عن عمر) بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، في حديث رواه الطبراني والبيهقي، وروى أيضًا عن عائشة، رضى الله عنها، وأبي هريرة وهو ضعيف كما قاله السيوطي، وليس بموضوع كما قيل.

(أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان في محفل) بفتح الميم وسكون الحاء المهملة وكسر الفاء واللام: محل يجتمع فيه ناس كثيرون، من حفل بمعنى جمع **(من أصحابه إذ جاء أعرابي)**: أي دخل بغتة عليهم رجل من أهل البادية غير معروف **(قد صاد ضبا)**: جملة حالية بفتح الضاد المعجمة وتشديد الباء الموحدة، حيوان بري أكبر من

الجرذون يبيض، والأعراب تصطاده وتأكله، **(فقال)** الأعرابى للصحابة: **(من هذا)**؟ سأل عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه ينكره أو لم يعرفه.

(قالوا) له جوابا: **(نبى الله)** أى هو نبى الله ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.

وليس قولك مَنْ هذا بضائره البيت يعرف من أنكرت والحرم

(فقال: واللات والعزى)، وهما صنمان عبدا فى الجاهلية، وأصل اللات اللاه فحذفوا الهاء، وأدخلوا تاء التأنيث عوضا عنها، وهو من لوى سمى به؛ لالتوائهم فى طوافهم حولها، وكان بنخلة والطائف لقريش وثقيف، والعزى تأنيث الأعز شجر من السمرة كانت لغطفان، بعث إليها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خالد بن الوليد، فقطعها فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية: ويلها، فقتلها، وقال:

يا عزى كفرانك لاسبحانك إنى رأيت الله قد أهانك

ثم أخبر به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: تلك العزى ولن تعبد أبدًا، وأقسم الأعرابى بهما؛ لأنه لم يكن مسلما كما يدل عليه ما بعده من قوله: **(لا آمنت بك)** أى بأنك رسول الله **(أو يؤمن بك هذا الضب)** بنصب يؤمن، أى إلا أن يؤمن هذا الضب، فأومن أنا بك أيضًا بعد رؤية معجزتك من نطق هذا الحيوان، وإقراره برسالتك، وأو بمعنى إلا أو إلى غاية لانتفاء إيمانه، وهما مما ينتصب بعده المضارع بعد النفى ونحوه، وفى نسخه حتى بدل أو.

(وطرحه) أى رمى الأعرابى الضبَّ **(بين يدى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)**: أى فى مقابلته قريبا منه، **(فقال)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(له)**: أى للضب: **(يا ضبُّ)** بالضم لأنه منادى مفرد، **(فأجابه بلسان بين)** كلامه، أو بكلام ظاهر مفهوم **(يسمعه القوم)** الذين عنده **(جميعا لبيك)**: أى إجابة لك بعد إجابة، وهو مثنى منصوب على المصدرية كما بينه النحاة، **(وسعديك)**: أى مساعدة وطاعة لك بعد طاعة، وهو مثله فى المعنى والنصب، وهما عبارة عن سرعة الإجابة والانقياد والطاعة **(يا زين من وافى القيامة)** أى من تزين وتحسن من كل من جاء إلى القيامة والموافاة الحضور والمجىء، والقيامة معروفة، وإنما جعله زينا أى مزينا لأهلها ومن بها؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم سيدهم وقائدهم والشفيع فيهم، وهذه العبارة شائعة فى لسان عامة العرب، فيقولون: يا زين القوم لأشرفهم وأحسنهم.

(قال) رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم للضب: **(من تعبد؟)** سأله ليقر بعبوديته لله، فوصفه بما يعرفه كل أحد.

(قال): أعبد **(الذى فى السماء عرشه)**، وهو فى الأصل سرير الملك، والعرش

والكرسى إجمالا معلوم، وتحقيقه فى كتب التفسير، والمراد بالسماء ما يقابل الأرض، أو جهة العلو مطلقا، فلا ينافى ما ورد من أنه فوق السموات كما قال الله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وللكلام فى هذا مقام آخر لا تحيط به ظروف الحروف، **(وفى الأرض سلطانه)**: أى فى الأرض ومن فيها يظهر عدله وحكمه وقهره، لمن فيها من الثقلين، وسلطانه وإن كان على كل موجود، لكن ظهوره فيمن قد يخالف ظاهر فيها، والسلطان فى الأصل مصدر من التسلط والقهر، **(وفى البحر سبيله)**: أى طريقه التى جعلها مسلوكة لعباده بتسخير الريح ونحوه، مما لا يقدر عليه غيره كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢]، ولذا كانت الكفرة لا يدعون فيها سواه كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، **(وفى الجنة رحمته)** المختصة به لعظمته الباقية، وإن كان رحيم الدنيا والآخرة، **(وفى النار عذابه)**، وفى نسخة عقابه، فلما آمن بالله، ووصفه بما هو مختص به دال على عظمته **(قال)** له صلى الله تعالى عليه وسلم ليكمل إيمانه: **(فمن أنا؟)**: أى إذا آمنت بى فمن أنا؟ **(قال: رسول رب العالمين)**إشارة إلى عموم رسالته صلى الله تعالى عليه وسلم لكل موجود حتى الجمادات والحيوانات، **(وخاتم النبيين)**، فلا نبى بعدك كما تقدم، **(وقد أفلح)** وفاز بسعادة الدارين **(من صدقك)** وأقر برسالتك، **(وخاب من كذبك)** بإنكار رسالتك، وعدم إجابة دعوتك، **(فأسلم الأعرابى)** لما رأى معجزته صلى الله تعالى عليه وسلم علما ضروريا بتوحيد الله تعالى، والإقرار برسالة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم.

وهذا الحديث طويل رواه البيهقى، وفيه أن الأعرابى من بنى سليم، وأنه كان ذاهبًا بالضب ليشويه ويأكله، فلما رأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقع له معه ما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، من إسلامه، قال: لا أتبع أثرًا بعد عين، والله لقد جئتك وما على ظهر الأرض أبغض إلىّ منك، وأنت اليوم أحب إلىّ من نفسى وولدى، فلما أسلم وتشهد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «الحمد [لله] الذى هداك، إن هذا الدين يعلو ولا يعلى ولا يقبل إلا بصلاة ولا صلاة» إلا بقرآن، ثم علمه الصلاة والقراءة، وعلمه سورة الإخلاص، وكان هذا سببًا لإسلام قومه وقدومه على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد علمت ضعف الحديث، وإن قال ابن دحية: إنه موضوع.

(ومن ذلك): أى من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم، فى تسخير الحيوانات وإنطاقها **(قصة كلام الذئب المشهورة)** التى رواها أحمد، والبزار، والبيهقى وصححها، **(عن أبى سعيد الخدرى)**، رضى الله عنه، هو سعيد بن مالك الصحابى كما تقدم.

(بينا راع) تقدم أن بينا من الظروف وأن الألف للإشباع أو كافة عن الإضافة، فراع فى محل رفع أو جر، وهو اسم فاعل من رعى الغنم ونحوها، وهو معروف، وقوله: **(يرعى غنما له)** ذكره لبيان أن الغنم له، فليس بأجنبى، وأنه كان يرعى غنما، فإن الراعى قد يرعى غيرها كالإبل والبقر.

واختلف فى اسم هذا الراعى فقيل: إنه أهبان بن أوس، وقد جرى عليه المصنف، رحمه الله تعالى، فيما يأتى، وأنه وقع مثل هذه القصة لأبى سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية فى ذئب أخذ ظبيًا، ولأبى جهل وأصحابه.

وفى حديث آخر أن الذئب أخذ شاة، فتبعه الراعى، فقال له الذئب: من لها يوم السبُع يوم لا راعى لها غيرى؟ وأن الذى كلمه الذئب أهبان بن أوس الأسلمى، وقيل: أهبان بن عقبة عم سلمة بن الأكوع أحد أصحاب الشجرة، وقيل: أهبان بن الأكوع، وعند السهيلى أنه رافع بن ربيعة، وقيل هو أهبان بن عباد الخزاعى، وقيل: الذى كلمه الذئب سلمة بن الأكوع، ويأتى بيان ذلك كله، وقيل: أهبان بن صيفى، وعن ابن عساكر، أن الذى كلمه الذئب: رافع بن عميرة الطائى، كلمه الذئب وهو فى ضأن له يرعاها، ودعاه إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأمره باللحوق به صلى الله تعالى عليه وسلم فقال:

رعيت الضأن أحميها زمانا ... من الضبع الخفى وكل ذيب
فلما أن سمعت الذئب نادى ... يبشرنى بأحمد من قريب
سعيت إليه قد شمرت ثوبى ... عن الساقين قاصدة الركيب
فألفيت النبى يقول قولا ... صدوقا ليس بالقول الكذوب
فصيرنى لدين الحق حتى ... تبينت الشريعة للمنيب
وأبصرت الضياء يضئ حولى ... أمامى إن سعيت وعن جنوبى
ألا بلغ بنى عمرو بن غوث ... وإخوتهم جذيلة أن أجيبى
دعاء المصطفى لا شك فيه ... فإنك إن أجبت فلن تخيبى

وقد علم أن قصة كلام الذئب وقعت مرارا عديدة على أنحاء مختلفة، وكلامه وإن كان لغيره، لكن إقراره به معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم **(عرض الذئب لشاة منها)**: أى أتاها لاختطافها، وأخذها، **(فأخذها الراعى منه)** أى أدركه وانتزعها من يده وردها، **(فأقعى الذئب)** أى مكث على عقبيه ناصبا يديه، كما هو معروف فى إقعاء الكلب والذئب، وللإقعاء معنى آخر كما ذكره الفقهاء فى كتاب الصلاة.

(فقال) الذئب بعد إقعائه: **(للراعى: ألا)** حرف استفتاح هنا **(تتقى الله)**: تخافه وتحذره

(حُلْتَ) بضم الحاء المهملة وسكون اللام وفتح تاء الخطاب: أى فصلت وفرقت **(بينى وبين رزقى)** الذى رزقه الله لى.

(قال الراعى: العجب من ذئب يتكلم بكلام الإنس)، وفى نسخة: البشر، وهما بمعنى، تعجب من نطقه وليس من شأنه ذلك.

(فقال الذئب) مجيبا له: **(ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟)**: أى من كلام حيوان أعجم: **(رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين الحرتين)** بفتح الحاء وتشديد الراء المهملتين وتاء تأنيث: مثنى حرة، وهى ثنية مرتفعة ذات حجارة سود كأنها اسودت من الحر، والحرتان بالمدينة، **(يحدث الناس بأنباء ما سبق)**، وفى نسخة: من سبق أى الأمم السابقة وأحوالهم، وإنما جعله أعجب؛ لأنه إخبار بالغيب معجز، فلذا عده أعجب من نطق حيوان أنطقه الله الذى أنطق كل شىء، وكون الأمر أعجب يختلف باختلاف الأسباب، والأنباء جمع نبأ وهو الخبر.

(فأتى الراعى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره) بكلام الذئب وقصته معه.

(فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للراعى: قم) من عندى فاذهب للحاضرين، **(فحدثهم)** بما شاهدته ليزداد إيمانهم ويسرهم ما ظهر من معجزاته.

(ثم قال: صدق. والحديث فيه قصة) لما فيه من الغرابة، وأنه من أشراط الساعة؛ لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الناس، ويكلم الرجل شراك نعله وعذبة سوطه ويخبره فخذه بما حدث فى أهله»(١)، ولما لم يكن فى هذا استشهاد لما هو بصدده، أسقطه واعتذر عنه بقوله: **(وفيه)** أى فى بعض رواياته **(طول)** ولذا تركه، عدم الحاجة إليه هنا.

(وروى حديث الذئب عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه) رواه أحمد والبزار والبيهقى وصححه والبغوى، وأبو نعيم بسند صحيح، **(وفى بعض الطُرق)** بضمتين: جمع طريق، تجوز به عن الرواية.

(فقال الذئب) للراعى: **(أنت أعجب)** أى حالك أعجب من حالى فى حال كونك **(واقفا على غنمك)**: أى مراعيا وحافظا لها، **(وتركت نبيا)**: أى وقد تركت إلى آخره، فالجملة حالية بتقدير قد **(لم يبعث الله نبيا)** من أنبيائه السالفة **(قط أعظم منه عنده)**، وأجل **(قدرًا)** ومنزلة عند ربه، وهو تمييز لنسبه أعظم، **(وقد فتحت له أبواب الجنة)** بتشديد تاء فتحت وتخفيفها: أى هيئت وأعدت له، والجملة حالية أيضًا.

---

(١) أخرجه الترمذى (٢١٨١)، والحاكم فى المستدرك (٤/٤٦٧، ٤٧٥)، وأبو نعيم فى الحلية (٨/٣٧٨).

وقوله: **(وأشرف أهلها)** يدل على أن المراد أنها انفتحت حقيقة؛ لينظر من فيها من الملائكة والإشراف النظر من مكان عال، مأخوذ من الشرف: وهو المكان العالى **(على أصحابه ينظرون قتالهم)**: أى ينظرون إليهم، وهم صفوف واقفون فى القتال كصفوف الملائكة.

(وما بينك وبينه إلا هذا الشعب) بكسر الشين المعجمة وسكون العين المهملة بعدها موحدة: وهو منفرج بين جبلين، يعنى أنه قريب منك لا عذر لك فى التخلف عنه، **(فتصير فى جنود الله)** إذا ذهبت إليه، وتصير من حزب الله المفلحين، فتخلفك عنه مع هذا أعجب من نطقى الذى تعجبت منه.

(قال الراعى) للذئب لما أشار عليه بالذهاب لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(ومن لى بغنمى؟)**: أى إذا ذهبت إليه من يتكفل لى بحفظ غنمى حتى أجىء؟ **(قال الذئب: أنا أرعاها)**: أى أحفظها وأحرسها **(حتى ترجع)** إليها من عنده صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فأسلم الرجلُ)**: وهو الراعى **(إليه غَنَمَهُ)** أى سلمها للذئب، وتركها عنده، **(ومضى)** إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وذكر له قصته)** مع الذئب، وما كلمه به وما فعله معه، **(وإسلامه)** الغنم له، **(ووجوده النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقاتل)** كما قال له الذئب.

(فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم) بعد ما قص قصته عليه وأسلم وآمن به صلى الله تعالى عليه وسلم: **(عد إلى غنمك تجدك بوفرها)** بفتح الواو وسكون الفاء: أى بتمامها وكمالها لم ينقص منها شىء، من قولهم: أرض وفرة لم يرع نباتها، **(فوجدها كذلك)** أى تامة غير ناقصة، **(وذبح للذئب شاة منها)** جزاء له على صنيعه، وإشادة له.

(وعن أهبان بن أوس) عطف على قوله عن أبى هريرة، وهو بضم همزة أهبان وأوس بفتحها: علم منقول، معناه العطية، وهذا الحديث رواه البيهقى والبخارى فى تاريخه عنه، **(وأنه كان صاحب هذه القصة)** المذكورة فى كلام الذئب **(و)** أنه **(المحدث بها ومكلم الذئب)** كما فى الروض الأنف، وأنه كان فى غزوة ذى قرد **(و)** روى أيضًا **(عن سلمة بن عمرو بن الأكوع وأنه)** أى ابن الأكوع لا سلمة كما قيل، ويجوز فتح همزة أنه وكسرها **(كان صاحب هذه القصة أيضًا)** يعنى أنها تعددت، **(و)** كانت **(سبب إسلامه)**، وفى مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى أهبان بن الأكوع اسمه عقبة من الطبقة الثالثة من المهاجرين، وهو مكلم الذئب فى رواية هشام، وقد اختلفوا فيه، فقال هشام: هو أهبان بن الأكوع.

وعن الواقدى هو أهبان بن أوس الأسلمى الصحابى، رضى الله تعالى عنه، من أسلم،

نزل الكوفة، وتوفى فى خلافة معاوية.

وحكى ابن سعد عن ابن الأشعث أن مكلم الذئب: أهبان بن عباد بن ربيعة بن كعب بن أمية بن نقطة بن خزيمة من أسلم. وذكر جدى فى التلقيح أن من اسمه أهبان أربعة: أهبان بن الأكوع أبو عقبة، وأهبان بن أوس الأسلمى، وأهبان بن صيفى الغفارى، وأهبان بن عباد الخزاعى مكلم الذئب.

قال: وقيل: إن مكلم الذئب أهبان بن أوس انتهى، ولم يذكر فى الرواية منهم سوى أهبان بن صيفى، والحاصل أن مكلم الذئب على رواية هشام أهبان بن الأكوع، وعلى قول الواقدى أهبان بن أوس الأسلمى، وعلى قول ابن الأشعث أهبان بن صيفى الغفارى انتهى، ففيه أقوال ارتضى المصنف منها قول الواقدى، فإن كانت القصة تعددت فلا خلاف، وليس فى الصحابة من اسمه أهبان بن عقبة، وقد يقال إنه غلط من أبى عقبة فليحرر (**بمثل حديث أبى سعيد**) الخدرى أى روى سبب إسلامه بمثله.

(**وروى**) عبد الله (**بن وهب**) السابق ترجمته (**مثل هذا**) المذكور من كلام الذئب (**أنه جرى**) أى وقع واتفق (**لأبى سفيان بن حرب**) والد معاوية وأم حبيبة المشهور، رضى الله تعالى عنهم، (**وصفوان بن أمية**) الصحابى المعروف وقع هذا لهما قبل إسلامهما، وكانا من أشد الناس عداوة له صلى الله تعالى عليه وسلم قبل إسلامهما، فلما أسلما صار صلى الله تعالى عليه وسلم أحب إليهما من نفسهما (**مع ذئب وجداه أخذ ظبيا**): أى أراد أخذه، فجرى خلفه فى الحل ليأخذه بقرينة قوله: (**فدخل الظبى الحرم، فانصرف الذئب**) عنه لأنه فى الحرم المحرم صيده، أو أنه انفلت منه بعد أخذه، (**فعجبا من ذلك**): أى من كون الذئب عرف حرمة الحرم، وكف عن صيد أمكنه وهو ليس من العقلاء.

(**فقال الذئب**) لما سمع تعجبهما، أو علمه من حالهما: (**أعجب من ذلك**) الفعل الذى صدر منه: (**محمد بن عبد الله**) موجود (**بالمدينة يدعوكم إلى الجنة**) بدعوته للإسلام الذى هو مقتضى لدخولها، (**وتدعونه إلى النار**) بقولكم له: لم لا توافقنا وتعبد آلهتنا مما هو سبب للخلود فى النار، وإنما كان هذا أعجب؛ لأنه مخالف لما يقتضيه العقل، ونطق حيوان أعجم لقدرة الله تعالى، وإقداره ليس بعجيب كهذا فى النظر السديد والعقل السليم، وليس بأغرب من عبادة الحجارة.

(**فقال أبو سفيان: واللات والعزى لئن ذكرت**) بضم التاء وفتحها (**هذا**): أى تكلم الذئب وما قاله (**بمكة**) أى ذكرته لأهلها (**لتتركنا خلوفا**) بضم الخاء المعجمة واللام والفاء مصدر، أو جمع خالف، والمراد تركها خالية من أهلها بأن يسلموا جميعا، ويرتحلون له صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ لأن من سمع مثله لا يتردد فى صحة رسالته صلى الله تعالى

عليه وسلم وسعادة من اتبعه، أو المراد يدعها وأهلها متغيرة فاسدة؛ لما يقع بين أهلها من الفساد والفتن باختلاف الكلمة، فالأول من قولهم: أتيت الحى، فوجدته خلوفًا: أى ليس فيه أحد من الرجال بل النساء، ويقال لهن: خوالف؛ لأنهن يخلفن الرجال، والثانى من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك» أى رائحة تغيره.

(**وقد روى مثل هذا الخبر**) الذى وقع لأبى سفيان وصفوان (**وأنه جرى لأبى جهل وأصحابه**) أى أنهم شاهدوا مثله، وتعجبوا منه، ولكن الله أشقاه وأشقاهم.

(**وعن عباس بن مرداس**) بكسر الميم وهو من الصحابة، شاعر مجيد وشجاع شهم، وكان ممن حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية كالصديق، رضى الله تعالى عنه، وجماعة إلا أنه كان من المؤلفة قلوبهم، ثم حسن إسلامه ونور الله قلبه (**لما تعجب**) لما ظرف متعلق بمقدر: أى وقع ذلك، أو شرطية جوابها قوله فإذا طائر إلخ، فإن جواب لما قد يقترن بالفاء لكنه نادر (**من كلام ضمار**) بكسر الضاد المعجمة وميم وآخره راء مهملة بوزن كتاب كما فى القاموس، وفى بعض نسخ الذيل والصلة للصاغانى بالدال المهملة، وفيه نظر كما قاله البرهان الحلبى (**صنمه**) بالجر بدل من ضمار، فإنه اسم صنم كان يعبده مرداس ورهطه، (**وإنشاده**) بالجر معطوف على كلام (**الشعر**) بالنصب مفعول المصدر، (**الذى ذكر فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم**) صفة الشعر، وضمير إنشاده للصنم، وسبب ذلك أن مرداس لما احتضر قال لابنه: يا عباس أى بنى اعبد ضمارا، فإنه سينفعك ويضرك، فتفكر عباس يومًا عند ضمار، وقال: إنه حجر لا يضر ولا ينفع، ثم صاح بأعلى صوته يا إلهى الأعلى اهدنى للتى هى أقوم فصاح صائح من جوف الصنم:

أودى ضمار وكان يعبد مرة ... قبل البيان من النبى محمد
وهو الذى ورث النبوة والهدى ... بعد ابن مريم من قريش مهتد
قل للقبائل من سليم كلها ... أودى ضمار وعاش أهل المسجد

فحرق عباس ضمارا ولحق بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم (**فإذا طائر سقط**) أى خر من الجو بغتة عليه، (**فقال**) الطائر (**يا عباس أتعجب من كلام ضمار**) بالتنوين والصرف إلا أنه وقع فى الشعر غير مصروف، فإن لم يكن ضرورة فهو جائز، وتعجبه لنطق الجماد بما سمع من جوفه وإنكاره لتعجبه؛ لأنه كلام شيطان فى جوفه وكلام الطائر أعجب منه، (**ولا تعجب من نفسك أن رسول الله يدعو إلى الإسلام**) حذف مفعوله للتعميم: أى كل أحد إليه (**وأنت جالس**) فى منزلك متخلف عن إجابة دعوته صلى الله تعالى عليه وسلم التى هى السعادة العظمى، (**فكان ذلك**) المذكور مما سمعه من الصنم

والطائر **(سبب إسلامه)**؛ لأنه لما سمع ما ذكر نهض فى ثلاثمائة فارس من قومه، وهم سليم، فلما رآه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تبسم، وقال له: يا عباس حدثنا بما رأيت، فقص عليه القصة وأسلم.

وقيل إن ضمارا كان صنما لخزاعة يتحاكمون إليه، وأن قصة نطقه وقعت لعمر بن الخطاب، وكأنه صنم آخر.

والقصة ونطق الأصنام وإخبارها ببعثة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقعت مرارًا، وفيها أخبار مذكورة فى السير، قيل: إنما تركها المصنف؛ لأن النطق المسموع منها من الجن.

(وعن جابر بن عبد الله)، رضى الله تعالى عنهما، فى حديث رواه البيهقى **(عن رجل)** اسمه أسلم وعن الواقدى أن اسمه يسار، وهو رجل أسود كماياتى، قاتل بخيبر حتى قتل، كما ذكره ابن سيد الناس فى سيرته فى غزوة خيبر **(أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وآمن به وهو على بعض حصون خيبر)**: قوله: وهو جملة حالية، أى وهو صلى الله تعالى عليه وسلم مقيم عنده لفتحه.

والحصون: جمع حصن وهى القلعة التى يتحصن بها، لا القصر كما قيل، ولا حذف فى هذا الكلام، وقيل الضمير للرجل، ويبعده قوله **(وكان فى غنم يرعاها لهم:)** أى لأهل خيبر، والظرفية بمعنى المعية أو هى مجازية لقوله: (﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ [النساء:١٠٢]) الآية **(فقال: يا رسول الله فكيف بالغنم؟)** أى كيف أفعل بالغنم إذا أسلمت وهى ملك غيرى وأنا أجير؟ **(فقال)** له صلى الله تعالى عليه وسلم: **(احصب وجوهها)**: أى ارمها فى وجوهها بالحصباء، وهى صغار الحجارة ودقاقها.

وما قيل من أن حكمة هذا أن الحصاة وردت بمعنى الفعل فى قوله:

وإن لسان المرء ما لم يكن له حصاة على عوراته لذليل

ومنه الإحصاء بمعنى العد أو أخذ العلم، والهداية لها إلى أهلها هذيان لا معنى له، وإنما المراد أنه إذا ضرب وجوهها ولت مدبرة فهداها الله ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم للرجوع لمنازل أصحابها حتى يخلص من عهدة ضمانها، كما أشار إليه بقوله **(فإن الله سيؤدى عنك أمانتك)**، وهى الغنم التى أسلمت لك، أى يوصلها ويبلغها، **(ويردها إلى أهلها)**، وهم أصحابها المالكون لها فتخرج أنت من عهدة ضمانها، **(ففعل)** ما أمره به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فسارت كل شاة حتى دخلت إلى أهلها)** وإنما كان هذا؛ لأنه كان مستأمنا وفى يده أمانة لأهل خيبر قبل فتحها، فلذا ردها صلى الله تعالى عليه وسلم لأصحابها مع ما فيه من تطمين قلبه من خروجه من عهدتها، ولذا لم

يجعلها فيئا مع أنه علم أنها ستكون كذلك بعد الفتح.

وقيل: إن الراعي كان عبدًا أسود رقيقا لبعض أهل خيبر، فلما غزاها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وسمع خبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من اليهود جاءه وأسلم: أي أظهر إسلامه، فلا منافاة بينه وبين ما مر وحسن إسلامه، واستشهد في تلك الغزوة بحجر أصابه أو سهم، ولم يصل صلاة قط، فشهد له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالجنة، وأخبر أنه رأى عنده حوريتان من الحور العين، كما رواه مفصلاً في دلائل النبوة، وهذا من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم الظاهرة كما لا يخفى.

(وعن أنس) في حديث صحيح مسند رواه أحمد والبزار: **(دخل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حائط أنصاري)** الحائط معروف ويتجوز به عن البستان، وهو المراد هنا، **(وأبوبكر وعمر ورجل من الأنصار، وفي الحائط)**: أي البستان **(غنم، فسجدت له)** صلى الله تعالى عليه وسلم تعظيما له لما شاهدت من نور نبوته، وألهمها الله تعالى معرفته.

(فقال أبو بكر) لما رأى سجودها له صلى الله تعالى عليه وسلم: **(نحن أحق بالسجود لك منها)** يعني لو كان السجود لغير الله تعالى، والجار الأول متعلق بالسجود، والثاني بأحق، وفي بعض النسخ تقديم لك على السجود؛ لأنه ظرف يتوسع فيه، ومعمول المصدر غيره لا يتقدم عليه لضعف علمه **(الحديث)** وتتمته أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال له: لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد، وأحد المخصوص بالنفي يشمل الواحد وغيره، ويختص بالعقلاء كما صرحوا به، ففي ذلك إشارة إلى أن الغنم ونحوها من غير جنس الناس، سجودها تعظيما ليس ممنوعا كسجود الكواكب ليوسف، عليه الصلاة والسلام.

(وعن أبي هريرة) قال السيوطي: هذا الحديث رواه البزار بسند حسن، وحديث ثعلبة بن مالك الآتي رواه أبو نعيم، وحديث جابر رواه أحمد والدارمي والبزار والبيهقي، وحديث يعلى بن مرة رواه أحمد والحاكم والبيهقي، رحمهم الله تعالى، بسند صحيح، وحديث عبد الله بن جعفر رواه مسلم، وأبو داود وحديث عبد الله بن أبي أوفى رواه أبو نعيم والبيهقي.

(دخل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حائطًا) أي بستانًا، **(فجاء بعير)** كان في البستان، **(فسجد له)** صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وذكر مثله)** أي مثل الحديث الذي قبله، فقالوا: هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك، ونحن نعقل، فنحن أحق أن نسجد لك، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لما له من الحق عليها.

(و) روى **(مثله في الجمل عن ثعلبة بن مالك)** الصحابي، وهو ممن استشهد بأحد،

لكن ذكره ابن عبد البر أنه ثعلبة بن أبى مالك القرظى، وأبوه قدم من اليمن على دين اليهودية، فنزل على بنى قريظة، فنسب إليهم، ثم أسلم فقول ابن مالك صوابه ابن أبى مالك.

(وجابر بن عبد الله، ويعلى بن مرة، وعبد الله بن جعفر)، فحديث الجمل، وسجوده روى من طرق متعددة مروية عمن ذكر، والقصة واحدة كما بينه السيوطى.

(قال) كل منهم أو عبد الله بن جعفر: **(وكان لا يدخل أحد الحائط)** من غير أصحاب البستان **(إلا شد عليه الجمل)** شد هنا: بمعنى أسرع، وحمل حملة عليه، قال الراغب: يقال: شد واشتد إذا أسرع، وشد عليه: حمل يعنى أنه كان عقورًا هائجًا على كل من استقر به.

(فلما دخل صلى الله تعالى عليه وسلم عليه) أى على الجمل فى البستان **(دعاه)**، وأمره بالإقبال عليه، **(فوضع مشفره فى الأرض)** بكسر الميم وسكون الشين المعجمة وفتح الفاء وراء مهملة، وهو فى الإبل كالشفة للإنسان، والجحفلة للفرس، والخرطوم للسباع، والمنقار للطير كما بينه أهل اللغة فى الفروق.

(وبرك بين يديه) البروك للجمل كالجلوس للإنسان، من البرك وهو صدر الجمل ونحوه، **(فخطمه)** أى وضع زمامه الذى يقاد به فى رأسه وعلى فمه؛ لأنه برك عنده صلى الله تعالى عليه وسلم، وانقاد له متذللا بعد ما كان لا يطاق.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم لمن عنده: **(ما بين السماء والأرض شىء)** من الحيوان والطيور وغيرها، والمراد بالأرض الجنس، فيشمل الأراضى السبع **(إلا يعلم)**، وفى نسخة إلا ويعلم **(أنى رسول الله)** بعلم خلقه الله فيه، ويلهمه له **(إلا عاصى الجن والإنس)**: أى إلا من عصى الله ورسوله، وكفر؛ فإنه ينكر معرفتى: أى معرفة أنى رسول الله حقا، وعاصى يجوز أن يكون مفردًا[1]، وأصله عاصين فحذفت النون للإضافة، والياء لالتقاء الساكنين، وقدم الجن لسبقهم خلقا ومعصية؛ لأن أول من عصى الله إبليس، والأكثر حيث اجتمعا تقديم الجن فى القرآن **(ومثله عن عبد الله بن أبى أوفى)** هو وأبوه صحابيان، رضى الله تعالى عنهما، شهدا المشاهد مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو الذى دعا له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حين أتى إليه بصدقته، وقال: اللهم صل على آل أبى أوفى، وحديثه مذكور فى دلائل النبوة لأبى نعيم والبيهقى كما علمت، ولفظه قريب مما ذكره أولاً.

(وفى خبر آخر فى حديث الجمل أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سألهم عن شأنه)

---

(١) يظهر من السياق أن هنا سقط، ويكون تقديره: [وأن يكون جمعًا...].

لما أبق منهم، وبطش بكل من قرب منه، **(فأخبروه)**، وفى نسخة، فأخبر بالبناء للمفعول **(أنهم أرادوا ذبحه)**؛ لأنه ضعف كما سيأتى.

(وفى رواية: أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال لهم: إنه شكا كثرة العمل وقلة العلف) وهو بفتحتين فعل بمعنى المفعول، والمعلوف يطلق على قوت الدواب من الحبوب وغيرها، وشكايته الظاهر أنها بنطق، فهو من المعجزات.

(وفى رواية: إنه شكا إلىّ أنكم أردتم ذبحه) ونحره، وأكثر ما يستعمل فى الإبل النحر، وفى غيرها الذبح، والفرق بينهما قريب جدا، فلذا استعمل كل منهما بمعنى الأخر، ومعرفته إرادتهم ذبحه بالإلهام **(بعد أن استعملتموه)**: أى أكثرتم العمل به من التحميل ونحوه **(فى شاق العمل)**: أى فيما يشق: أى يصعب عليه من العمل، وقولهم: عمل مشق غير مسموع، فكأنه مبنى على أن التعدية بالهمزة مقيسة، وفيه خلاف مذكور فى كتب اللغة.

(من صغره) إلى أن بلغ الكبر، وعجز عن العمل، **(فقالوا: نعم)** اعترافا بما ذكر، فبئس الجزاء الذى أرادوه، وهذا الحديث أخرجه الطبرانى وابن ماجه فى سننه فى غزوة ذات الرقاع عن جابر وتميم الدارى، وفيه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال لهم: ما هكذا جزاء المملوك الصالح يعينه، فابتاعه منه، وأرسله يرعى فى الشجر، حتى قوى، والحديث فيه طويل.

(وقد روى) بالبناء للمجهول، قيل: وهذه القصة بهذا التفصيل الآتى لا يعرف راويها **(فى قصة)** الناقة **(العضباء)** بفتح العين المهملة وسكون الضاد المعجمة والموحدة والمد، وهى اسم ناقة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ومعناها المشقوقة الأذن، وقد اختلف فى ناقته العضباء، والقصواء والجدعاء بالمد فيهما أيضًا، هل هن ثلاثة أو واحدة لها ألقاب متعددة؟ أو اثنتان؟.

فذهب التيمى والعراقى فى منظومته إلى أنها واحدة، ولا عضب ولا جدع: أى شق أذن فيها، وإنما هو لقب، وقيل: كان بأذنها عضب أى شق.

وفى البخارى: أن الجدعاء هى التى هاجر عليها، وقيل: إن التى هاجر عليها القصواء.

وعن ابن عباس أنه صلى الله تعالى عليه وسلم خرج ذات ليلة، فمر بناقة باركة فى الدار، فقالت: السلام عليك يا نبى الله يا زين القيامة يا رسول رب العالمين، فالتفت لها، وقال: وعليك السلام، فقالت: إنى كنت لرجل من قريش، يقال له: أعضب فهربت **منه، فوقعت فى مفازة، فكان إذا غشينى الليل احتوشنى السباع ينادى بعضها بعضا لا**

تؤذوها؛ فإنها مركب محمد، فإذا أصبحت رتعت نادتنى كل شجرة إلى إلى، فإنك مركب محمد، حتى وقعت هاهنا، فسميت عضباء باسم صاحبها، وفيه أنها قالت له صلى الله تعالى عليه وسلم: ادع الله أن يجعلنى مركبك فى الجنة، فقال: قد قضيت.

وقد قيل: إن هذا الحديث كله فى سنده طعن وقدعلمت أنها واحدة قد سميت عضباء وقصواء وجدعاء بدال مهملة، وصلما ومخضرمة، والكل متقاربة المعانى.

والجدع: قطع طرف الأذن، فإذا بلغ الربع فهو قصو، فإذا جاوزه فهو عضب، فإن استوصل فصلم، ونقل ابن الجوزى عن ثعلب أنها كلها ألقاب لناقة له صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا جدع لها ولا عضب، واختاره فى القاموس.

(وكلامها للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم) كلام بمعنى تكليم مصدر، والنبى منصوب به مفعوله، **(وتعريفها له بنفسها)** كما سمعته آنفًا، **(ومبادرة العشب إليها)** بالدال المهملة، مفاعلة من البدار، وهو الإسراع، وقد تقدم أنه كان يناديها إلى إلى، فالمراد طلبه منها أن ترعاه قبل غيره، والعشب بالضم معروف **(فى المرعى)**: أى مكان رعيها، **(وتجنب الوحوش لها)** أى عدم أذيتها وأكلها لها كما مر، **(وندائهم لها: إنك)** معدة **(لمحمد)** ولركوبه، وضميرهم العقلاء، وعبر به لصدور فعل العقلاء منها، وهو النداء كما فى قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] **(وأنها لم تأكل ولم تشرب بعد موته)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(حتى ماتت)** من الحزن والأسف على فراقه ﷺ، وقيل: إنها التى اشتراها أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، من بنى الحريش مع أخرى بثمانمائة درهم، فلما هاجرا اشتراها صلى الله تعالى عليه وسلم منه بأربعمائة درهم.

وقد ذكر قصتها مفصلة أبو سعيد فى كتاب الشرف، وكان له صلى الله تعالى عليه وسلم نوق أخر كما بينه أصحاب السير **(ذكره الإسفرائنى)**، رحمه الله، وقد تقدمت نسبته وترجمته.

(وروى ابن وهب)، رحمه الله تعالى، وهذا الحديث لم يخرجوه وأما ابن وهب فقد تقدمت ترجمته **(أن حمام مكة)** الموجود بحرمها إلى الآن، والحمام كل ذات طوق برى أو أهلى، وقيل: إنه مخصوص بالبرى، وقيل: إنه كل ما عب وهدر، والعب كرع الماء من غير نفس، والهدير، ويقال: الهديل: ترجيع صوت الطائر المعروف **(أظلت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى اجتمعت؛ لتجعل ظلها عليه وقاية من الحر.

قيل: ولذا كانت محترمة لا تصاد، وقيل: إنها من نسل حمامتى الغار، وسيأتى. **(يوم فتحها)**: أى فتح مكة، **(فدعا لها بالبركة)**، فأجاب الله دعاءه فيها، وكانت محترمة لا تصاد كما تقرر.

(وروى عن أنس) رواه عنه ابن سعد، والبزار، والطبرانى، والبيهقى، وأبونعيم.

(وزيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة قال: أمر الله ليلة الغار) منصوب على الظرفية، والغار: غار ثور الذى اختفى فيه صلى الله تعالى عليه وسلم لما هاجر، وقصته مشهورة مذكورة فى القرآن غنية عن البيان **(شجرة فنبتت)** من وقتها، والأمر هنا مجاز عن التسخير كقوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ [البقرة: ٦٥]، فنزلها منزلة المأمور المختار، وروى: بشجرة بالباء الجارة، وهما بمعنى.

والشجرة كانت من الطلح تسمى الراء كما قاله السهيلى، وهى بمقدار القامة، ولها زهر أبيض وبها شىء شبه القطن يحشى به المخاد كالريش خفة ولينا، واحده راه كما فى كتاب النبات، قال الشاعر(١):

ترى ودك السَّدِيفِ على لحاهم   كمثل الراء لبده الصَّقيع

(تجاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم) تقدم أن التُجاه بضم التاء المثناة الفوقية المبدلة من الواو، وأصله وجاه: أى فى مقابلة وجهة باب الغار، **(فسترته)** عمن ينظره بحيث لا يراه من طلبه من كفار قريش، **(وأمر)** أى ألهم الله **(حمامتين)** ذكرًا وأنثى، فعششتا وباضتا على تلك الشجرة، **(فوقفتا بفمه)** أى بفم الغار؛ لأن مثله لا يكون إلا بمكان خال من الناس، وورد فى الحديث، فسمت عليهما صلى الله تعالى عليه وسلم أى دعا لهما بالبركة، فانحدرا إلى الحرم، فأفرخا كل حمام به، وفى حديث الأكل **(سموا الله ودنوا وسمتوا)** أى إذا بدأتم بالأكل فكلوا مما يليكم ودنا منكم، وإذا فرغتم فسمتوا أى ادعوا لمن أكلتم عنده، وقيل: إن الشجرة جاءت تسعى من مكان آخر تشق الأرض كما أشار إليه القائل:

قامت إليه سرحة سترته من   نظر العدو بأحسن الأغصان

(وفى حديث آخر) رواه ابن سعد، والبزار، والطبرانى، والبيهقى، وأبو نعيم، عن أنس وزيد بن أرقم، والمغيرة بن شعبة، وفيه فسمت عليهما ودعا لهما، وانحدرا إلى الحرم، فأفرخ ذلك الزوج كل شىء فى الحرم كما تقدم **(أن العنكبوت نسجت على بابه)**: أى على باب الغار وفمه، **(فلما أتى الطالبون له)** صلى الله تعالى عليه وسلم الذين قصوا أثره واتبعوه ليأخذوه، **(ورأوا ذلك)** المذكور من الشجرة والحمام والعنكبوت بباب الغار، **(قالوا: لو كان فيه)**: أى فى هذا الغار **(أحد)** من الناس، **(لم تكن الحمامتان)** يقران **(ببابه)** الذى منه المرور، **(والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يسمع**

---

(١) البيت من الوافر، وهو لبشر بن أبى حازم فى ديوانه (ص١٣٤)، تاج العروس (٢١/٣٤٢)، المعانى الكبير (ص٣٨٢).

كلامهم)؛ لقربهم منه بحيث لو أمعنوا النظر رأوه، **(فانصرفوا)** راجعين تاركين للطلب، وكانوا فتيان من قريش مضوا خلفه صلى الله تعالى عليه وسلم، ومعهم سراقة القائف يقص أثره، فلما انتهوا إلى الغار، رأوا نسج العنكبوت، والحمامتين على بيضهما، فقالوا: إنه لو دخل أحدٌ لم يكن مثل هذا مع قربهم منه، بحيث لو طأطأ أحد رأسه رآه صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى هذا معجزات شاعت حتى بلغت حد التواتر.

ورواه المحدثون من طرق كثيرة صحيحة، وقد قال فيها الشعراء كثيرًا، ويعجبنى قول ابن النقيب:

ودود القز إن نسجت حريرا يجمل لبسه فى كل زى
فإن العنكبوت أجل منها بما نسجت على رأس النبى

وانظر إلى هذا مع قولى:

على غار ثور عنكبوت بنسجه لقد حاز فخرًا فاق كل فخار
لذلك دود القز يهلك نفسه وقد غار من نسج له بفم الغار

وفيه معان أخر لا نطيل بها تنبيه قول البوصيرى فى همزيته[1]:

أخرجوه منها وأواه غار وحمته حمامة ورقاء
وكفته بنسجها عنكبوت ما كفته الجنانة الحصداء

الجنانة بنونين: هى الدرع؛ لأنها تجن البدن: أى تستره، والحصداء المحكمة النسج كما فى كتب اللغة، وهذا البيت حرفه شراحه وصاحب المواهب، إذ جعلوه لحمامة الحصداء، أى الكثيرة الريش، وهذا قول من لم يصل إلى العنقود، ويفسره قوله فى البردة[2]:

وقاية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الأطم

(وعن عبد الله بن قرط) بضم القاف وراء مهملة ساكنة يليها طاء مهملة، وهو صحابى ثمالى، وكان أميرا على حمص من قبل معاوية، وقتل بأرض الروم سنة ست وخمسين، وأخرج له أصحاب السنن، وأحمد فى مسنده وغيرهم، وهذا الحديث رواه الحاكم والطبرانى وأبو نعيم مسندًا **(قُرِّبَ)** بالبناء للمفعول أى أتى بعض الصحابة **(إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بدنات)** جمع بدنة، وهى ما يعد للنحر من الإبل خاصة، ولا تطلق على البقر وغيرها، وإن كانت فى حكمها شرعًا فى الإجزاء عن

---

(١) البيتان من الخفيف، وهما فى ديوان البوصيرى (ص١٣).
(٢) البيت من البسيط، وهو للبوصيرى فى تاج العروس (وقى)، ولم أجده فى ديوانه.

سبعة، وقال ابن الأثير: إنها من الإبل والبقر حقيقة.

وبَدَنَات بفتحات، وقال العزفى: إنه بُدْنات بضم الموحدة وسكون الدال، وَرُدَّ بأنه على خلاف القياس، إلا أن يكون جمع بدن فهو جمع الجمع، وهو بعيد إلا أن تساعده الرواية، وسميت بدنة لعظم بدنها.

(خمس أو ست أو سبع) الشك من الراوى؛ **(لينحرها يوم عيد فازدلفن إليه)** افتعال من الزلفى، وهى القرب أبدلت تاؤه دالاً لأجل الزاء أى تقدمت كل واحدة منهن إليه صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ رغبة فى أن يذبحها، وانقياداً له بإلهام من الله تعالى **(بأيتهن يبدأ)** فى الذبح، وهذه معجزة باهرة.

(وعن أم سلمة) فى حديث رواه الطبرانى، والبيهقى، واسمها هند أو رملة كما تقدم **(كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى صحراء فنادته ظبية)**: أى كلمته بنطق سمعه الناس، لا بلسان الحال، قالت له: **(يا رسول الله)**، فالتفت إليها، فإذا هى موثقة عندها أعرابى نائم.

(قال: ما حاجتك؟) حتى ناديتنى.

(قالت: صادنى هذا الأعرابى ولى خشفان) مثنى خشف بوزن طفل بمعجمتين، وهو الظبى الصغير الذى ولدته أمه **(فى ذلك الجبل)** تشير لجبل بتلك الصحراء، **(فأطلقنى حتى أذهب فأرضعهما وأرجع)** بنصب الأفعال الثلاثة.

(قال: أو تفعلين؟) أى ترجعين إلى أن أطلقتك؟ **(قالت: نعم. فأطلقها)**، والأعرابى نائم لا يشعر بذلك، **(فذهبت)** وأرضعتهما، **(ورجعت فأوثقها)** وربطها كما كانت، **(فانتبه الأعرابى)**، ورأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنده، **(فقال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ألك حاجة؟ قال: تطلق هذه الظبية فأطلقها)** من وثاقها، **(فخرجت تجرى، وهى تقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله)**، فالجملة حالية بتقدير مبتدأ، وقد ذكرنا من روى هذا الحديث، وقد صححه ابن حجر؛ لوروده من طرق أخر، فلا نلتفت لقول ابن كثير: إنه لا أصل له؛ لأن فى سنده مجاهيل، وإنما استأذنه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك؛ لأنه ملكها بالحيازة، وإتلاف ملك الغير بغير إذنه ممنوع، والواو فى قوله: أو تفعلين؟ محركة عاطفة على مقدر: أى أتقولين ذلك لى وترجعين إلى؟ أو استئنافية على القولين فى مثله، وفى الحديث معجزات ظاهرة.

(ومن هذا الباب) أى باب المعجزات بإطاعة الحيوانات **(ما روى)** قال السيوطى: لم أقف على هذا الحديث هكذا، وأخرج البيهقى أنه وقع لسفينة حين ضل عن الجيش بأرض الروم، إلا أن البخارى ذكره فى تاريخه كما قاله المصنف، فلا اعتراض عليه.

(من تسخير الأسد) أى تذليله وانقياده **(لسفينة مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وهو من خدمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو الذى لقبه سفينة؛ لأنه رآه فى بعض أسفاره حاملاً لأمتعة، فقال له: إنما أنت سفينة فاشتهر بذلك.

واختلف فى اسمه، فقيل: رومان، وقيل: مهران، وقيل: طهمان، وروى عنه مسلم وغيره من أصحاب السنن، وفى الحديث مناسبة اتفاقية لاسمه.

(إذ وجهه إلى معاذ) بن جبل حال كونه **(باليمن)**، وهو الإقليم المعروف، وسفينة من مولدى العرب، وقيل: من فارس، اشتراه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأعتقه، وقيل: إن أم سلمة أعتقته، فخدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل معاذ بن جبل لليمن؛ ليجمع الزكاة، **(فلقى الأسد)** فى طريقه **(فعرفه)**: أى قال له **(أنه مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه كتابه)**، فألهمه الله تعالى فهم كلامه وكف عنه.

(فهمهم) الهمهمة: صوت لا يفهم، وقيل: صوت فيه بحة، وفى الحديث أن سفينة قال: ظننته السلام يعنى عليه، أو على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وتنحى عن الطريق)** أى تأخر عنه فى ناحية متباعدة عن الطريق؛ إذهابا لخوفه.

(وذكر): أى سفينة **(فى منصرفه)** أى انصرافه ورجوعه من اليمن **(مثل ذلك)**: أى مثل ما وقع له فى ذهابه؛ فيكون لقيه فى سفره هذا مرتين.

(وفى رواية أخرى عنه) أى عن سفينه، وهذه الرواية هى التى رواها البيهقى والبزار وصححها السيوطى فى تخريجه **(أن سفينة تكسرت به)** فى بعض أسفاره، **(فخرج إلى جزيرة فإذا الأسد)**: أى فاجأه بها أسد لقيه فيها، والجزيرة معروفة، **(فقلت)** للأسد: **(أنا مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فجعل)** أى طفق وصار **(يغمزنى)** بسكون الغين المعجمة وكسر الميم وضمها وزاء معجمة، وأصل الغمز الإشارة بالجفن، فتجوز به عن الدفع الخفيف بقرينة قوله: **(بمنكبه)** بفتح الميم وكسر الكاف، وهو رأس الذراع، وما بين الكتف والعنق، **(حتى أقامنى على الطريق)**: أى حتى أتى بى إلى الطريق، ليعرفه بما يذهب فيه.

وقال البيهقى: قال سفينة: وكنت فى البحر، فانكسرت السفينة، فركبت لوحا منها، فأخرجنى إلى أجمة فيها أسد، فرأيته أقبل إلى، فقلت: يا أبا الحارث: أنا مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأقبل نحوى حتى ضربنى بمنكبه، ثم مشى معى حتى أقامنى على الطريق، ثم همهم ساعة، وضربنى بذنبه فظننته أنه يودعنى، فكان آخر عهدى به، وفيه معجزة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بانقياد الأسد له إذ ذكر اسمه، وكرامة

لسفينة أيضًا، رضى الله تعالى عنه.

(وأخذ، عليه الصلاة والسلام، بأذن شاة) أى أمسكها، وأخذ المتعدى بالباء بمعنى أمسك بخلاف أخذه فهو تضمين **(لقوم من بنى عبد القيس)**: اسم قبيلة مشهورة **(بين إصبعيه)** بكسر الهمزة مثنى إصبع معروف، وفيه لغات عشر تقدمت، **(ثم خلاها)** أى نحى إصبعيه عنها وتركها، **(فصار ذلك)** أى أخذه بأذنها يعنى أثره **(ميسما)** بكسر الميم، أصله موسم، فقلبت واوه ياء من الوسم: وهو الكى، فهو اسم آلة الكى من الحديد، فأطلقت على العلامة وأثرها مجازا كما يطلق على العضو الذى فيه الأثر كما ورد فى الحديث **(فيها)** أى الشاة **(ونسلها بعد)** بالبناء على الضم: أى بعدها أو بعد أخذه وعهده، قالوا: وهذا الحديث لا يعلم من رواه من المحدثين.

(وما روى عن إبراهيم بن حماد بسنده) هذا الحديث رواه ابن حبان لكنهم قالوا: إنه ضعيف **(من كلام الحمار)** ونطقه له صلى الله تعالى عليه وسلم صريحا بمقاله **(الذى أصابه بخيبر)** أى وجده بها لما فتحها، **(وقال له: ما اسمك؟ قال: يزيد بن شهاب)**، وأنه من نسل ستين حمارًا كلها لم يركبها إلا نبى، وقال له: كنت أتوقع أن تركبنى إذ لم يبق من نسل جدى غيرى، ولا من الأنبياء غيرك، وكنت ليهودى فكنت أعثر به عمدًا، فكان يجيعنى ويضربنى، **(فسماه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يعفورًا)** هو فى أكثر النسخ مصروف منون منصوب؛ لأنه مفعول سمى، وروى غير منون قيل: لمنع صرفه للعلمية ووزن الفعل كيعقوب، قاله التلمسانى، أقول: فيه نظر؛ لأن زيادة الواو فيه أخرجته عن شبه الفعل، والظاهر صرفه، ويعفور لم يمنع صرفه لذلك بل للعلمية والعجمة، ألا ترى أن يعفر بضم الياء يصرف؟ لذلك قال فى الصحاح: الأسود بن يعفر بضم الياء منصرف؛ لأنه قد زال عنه شبه الفعل انتهى، وليس فى أوزان الفعل يفعول، وفى هذه المسألة كلام فى شرح التسهيل.

واعلم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان له حماران يعفور وعفير، وهو الذى رمى نفسه فى البئر كما سيأتى، ويقال: هما واحد، وقال ابن فورك: إنه كان من مغانم خيبر، وقيل: إن عفير كان أشهب، وهو مما أهداه له المقوقس ملك القبط، وكان له حمار آخر أهداه له فروة كان يركبه، وآخر أعطاه له سعد بن عبادة، وقصة يعفور هذه نقلها السهيلى فى الروض عن ابن فورك فى كتاب الفصول، قال السهيلى: وزاد الحوفى فى كتاب الشامل.

(وأنه كان يوجهه إلى دور أصحابه فيضرب عليهم الباب برأسه ويستدعيهم)، ومعنى يوجهه: يرسله إلى جهة، ودور جمع دار، ويستدعيهم بمعنى يطلب منهم إجابة دعوة

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ لأنهم كانوا إذا خرجوا لدقه الباب، ورأوه علموا أنه يطلبهم لا أنه يكلمهم، لكنه يفهم ما أمره به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بإلهام من الله، وهو من معجزاته إذ سخر له وفهم مراده.

(وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما مات تردى) الحمار أى ألقى نفسه وطرحها **(فى بئر)** كانت بالمدينة معروفة لأبى الهيثم بن التيهان، فكانت البئر قبره.

والتردى: تفعل من الردى، وهو الهلاك، وهو مخصوص بهلاك من ألقى نفسه، يقال: تردى من الجبل، وفى البئر إذا سقط أو ألقى نفسه فيها، **(جزعا وحزنا)** على فراق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وفقده، **(فمات)**.

وكونه صلى الله تعالى عليه وسلم كان له حمار، وأنه كان يركبه، وأن ركوبه سنة لا كلام فيه، وإنما الكلام فى هذا الحديث، فإنه رواه ابن حبان بسند ضعيف فيه من طعن فيه، حتى قيل: إنه كذب موضوع كما قال ابن الجوزى وغيره، وقال بعضهم: لا أصل له.

(و) مما ذكر من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم فى الجماد والبهائم، ونطقها **(حديث الناقة)** الذى رواه الطبرانى عن زيد بن ثابت بسند فيه مجاهيل، والحاكم عن ابن عمر، وقال الذهبى: إنه موضوع **(التى شهدت)** بنطق بين **(عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لصاحبها)** ومالكها الذى قيل: إنه سرقها، فقالت: **(إنه ما سرقها وإنها ملكه)**، فحكم له صلى الله تعالى عليه وسلم بها؛ لأن للقاضى أن يحكم بعلمه، أو نقول: إنه من خصائص الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

والحديث هو ما قال زيد بن ثابت: غزونا معه صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى إذا كنا بمجمع طرق المدينة، أبصرنا بأعرابى آخذ بخطام بعير، حتى وقف صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال: السلام عليك يا نبى الله، فرد عليه السلام، فجاء رجل، وقال: إنه سرق هذا البعير فرغا البعير وهو منصت له، ثم قال للرجل: انصرف فإن البعير شهد بأنك كاذب.... إلى آخره.

(وفى العنز) أى فى حديث العنز الذى أخرجه ابن سعد والبيهقى وابن عدى عن سعد مولى أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، **(التى أتت رسول الله)** صفة العنز، وفى نسخة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم **(فى عسكره)** حال: أى وهو فى عسكره، **(وقد أصابهم عطش، ونزلوا على غير ماء)**: أى فى مكان لا ماء فيه، **(وهم زهاء ثلاثمائة)**: أى قريب عددهم تخمينا من ثلاثمائة رجل، وقد تقدم الكلام على زهاء ومعناه وضبطه، **(فحلبها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)** يحتمل أنه على ظاهره، وأن يكون أمر بحلبها،

والإسناد مجازى **(فأروى)** بلبنها **(الجند)** بأجمعهم لما سقاهم، فشربوا حتى زال ما كان بهم من العطش والرى ضده، ومنه أروى، والعسكر والجيش والجند بمعنى، ففيه تفنن وإسناد أروى للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه سببه بحلبه وسقيه، فهو مجاز أيضًا إن لم نقل فاعل أروى ضمير يعود على ما حلبه المفهوم مما قبله مع بعد، **(ثم قال)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(لرافع)** براء وعين مهملتين بينهما ألف وفاء، بزنة اسم الفاعل من الرفع، علم لصحابى كانت تلك العنز عنده، وتقدمت ترجمته: **(املكها)** أى خذها واتخذها ملكا؛ لأنها لا صاحب لها إذ وجدت بأرض العدو، ويحتمل أن يكون معناه شدها، وأوثقها من ملاك الأمر، أو ملك العجين ونحوه.

(ما أراك) مالكًا لها أو فاعلا ذلك، وهو بضم الهمزة مبنى للمفعول، أى لا أظنك تملكها أو تحفظها، **(فربطها)** وشدها بوثاق ثم ذهب ورجع، **(فوجدها قد انطلقت)** أى انحل وثاقها، ومضت وغابت عنه فالفاء فصيحة.

(رواه) أى حديث هذه العنز **(ابن قانع)** بقاف ونون وعين مهملة، **(وغيره)** من الرواة من غير هذه الطريق، فقد رواه البيهقى، وابن عدى عن جماعة من الصحابة، قالوا: كنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى سفر، وكنا أربعمائة، فنزلنا فى موضع ليس فيه ماء، فشق ذلك علينا، وأعلمناه ذلك، فجاءت شويهة لها قرنان، وقامت بين يديه صلى الله تعالى عليه وسلم، فحلبها وشرب حتى روى، وسقانا حتى روينا، وقال: يا رافع املكها الليلة، وما أراك تملكها، فأخذت لها ووتدت لها ونمت، ثم قمت فى بعض الليل، فلم أجدها، فأخبرت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قبل أن يسألنى، فقال: يا رافع ذهب بها الذى جاء بها، وما قيل من أنها ليست من جنس حيوان الدنيا، وإنما هى ككبش الفداء، وإنما سماها عنزا لكونها على صورتها، لا وجه له، ومثله من خلاف الظاهر يحتاج للرواية، والذى أوهمه ذلك قوله: **(وفيه فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** لرافع لما أخبره بانطلاقها: **(إن الذى جاء بها هو الذى ذهب بها)** يعنى الله أو الملك.

(و) من هذا القبيل ما روى أنه، عليه الصلاة والسلام، **(قال لفرسه)** الفرس: واحد الخيل يطلق على الذكر والأنثى إلا أنه مؤنث سماعى، وسمع فرسه وكان له صلى الله تعالى عليه وسلم عدة أفراس مذكورة فى السير بأسمائها، ومن أين ملكها ولا داعى لتفصيلها هنا كما ذكره بعضهم، **(وقد قام إلى الصلاة فى بعض أسفاره)**، والفرس غير مربوط، ولم يأمر أحدا بإمساكه، بل خاطب الفرس وقال له: **(لا تبرح)** أى لا تزل من مكانك الذى أوقفتك فيه، من البراح وهو المكان الواسع، وبرح بمعنى ثبت فى مكانه

بمعنى زال وهو نفى معين، فإذا دخل عليه صار لنفى النفى، وهو إثبات كما هنا فمعناه اثبت والزم كما حققه النحاة وأهل اللغة.

(بارك الله فيك): دعاء له من البركة، وقد تقدم تحقيقها ويأتى أيضًا مع زيادة، **(حتى نفرغ من صلاتنا)** ونتمها، وهو غاية لثباته فى مكانه، **(وجعله قبلته)** أى جعله فى جهة قبلته ساترا ومانعا لمن يمر بين يديه صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيه دليل على جواز الاستتار بالحيوان، والكلام عليه مفصل فى كتب الفقه لا حاجة لذكره هنا.

(فما حرك) الفرس **(عضوًا)** من أعضائه، وهو بضم العين وكسرها وسكون الضاد المعجمة معروف، **(حتى صلى)** أى أتم صلاته **(صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وفيه معجزة له، عليه الصلاة والسلام، لفهم الحيوان كلامه وطاعته له وانقياده لعلمه بأنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.

وفى بعض النسخ هنا زيادة وهى **(ويلتحق بهذا)** المذكور من معجزاته أو من كلام الحيوانات؛ لأن فهم لغة لم يعرفها كفهم العربى كلام العجمى قريب منه ومشابه له **(ما روى الواقدى)** صاحب السير، وهو محمد بن عمر بن واقد قاضى العراق وعالمها، وقد قيل فيه: إنه ضعيف ونسب للوضع، وقيل: إنه مجمع على ضعفه ونازع فيه بعضهم، وقال: كفى برواية الشافعى عنه دليلا على صحة ما رواه، وترجمته فى الميزان مفصلة، وكذا فى أول سيرة ابن سيد الناس **(أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما وجه رسله)** جمع رسول **(إلى الملوك)** من العرب والعجم: أى أرسلهم لجهتهم وناحيتهم، لما فشا الإسلام وقوى، **(فخرج ستة نفر منهم)** أى ستة رجال من الرسل، والنفر اسم جمع للثلاثة فما فوقها إلا أنه يستعمل بمعنى الرجل الواحد كما بيناه فى شرح الدرة، وقد صرح به الكرمانى فى شرح البخارى، وهو عربى فصيح أيضًا، وكان إرساله لهم **(فى يوم واحد)** خرجوا من عنده صلى الله تعالى عليه وسلم فيه، **(فأصبح كل واحد منهم يتكلم بلسان القوم الذى بعثه)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(إليهم)** من غير مضى زمان يحتمل التعلم فيه، وتفصيل الرسل ومن أرسلوا إليه مفصل فى السير أيضًا، وهذا معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم لشمول بركته لهم.

(والحديث فى هذا الباب كثير، وقد جئنا منه بالمشهور من ذلك، وما وقع منه فى كتب الأئمة) رضى الله تعالى عنهم، ونفعنا ببركاتهم.

(خاتمة) مما يلتحق بمعجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم فى الحيوانات والجمادات ما ذكر فى بعض الكتب، وشاع فى الأقطار ونظمه الشعراء فى فصيح الأشعار من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان فى بعض الأحيان إذا مشى غاص قدمه فى الحجارة

بحيث بقى ذلك إلى الآن، وارتسم فيها مثاله بعينه، والناس تتبرك به وتزوره وتعظمه، كما فى القدس، ونقل منه لمصر فى أماكن متعددة، حتى قيل: إن السلطان قايتباى اشتراه بعشرين ألف دينار، وأوصى بجعله عند قبره، وهو موجود إلى الآن، وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم إذا مشى على الرمل أحيانا لا يكون لقدمة أثر فيه، إلا أن هذا لم يضبط لأن هذا أمر عدمي لا يعرفه إلا من كان حاضرًا ثمة، وقد ذكر هذا السبكى فى تائيته وغيره.

قال الإمام القسطلانى فى المواهب اللدنية: كان صلى الله تعالى عليه وسلم إذا مشى على الصخر غاصت قدماه فيه كما هو مشهور قديما وحديثا على الألسنة، ونطق به الشعراء فى قصائدهم النبوية، والبلغاء فى منثورهم مع اعتضاده بوجود أثر قدمى الخليل، عليه الصلاة والسلام، فى حجر المقام المنوه به فى التنزيل، فى قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٩٧] البالغ تعيينه، وأنه أثره مبلغ التواتر، وفيه يقول أبو طالب:

وموطئ إبراهيم فى الصخر وطؤه ... على قدميه حافيا غير ناعل

وبما فى البخارى من معجزة موسى، عليه الصلاة والسلام، بتأثير ضربه فى الحجر ستًا أو سبعًا، لما فر بثوبه حين اغتسل، وقد صح «ما من معجزة لنبى إلا ولنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم مثلها»، ويؤيده وجود أثر حافر بغلته صلى الله تعالى عليه وسلم فى مسجد بطيبة عرف بها إلى الآن، يقال له: مسجد البغلة، وما ذاك إلا من سره صلى الله تعالى عليه وسلم السارى فيها؛ ليكون أوضح فى الدلالة على أنه أوتى مثل ما أوتى الخليل صلى الله تعالى عليه وسلم على وجه أعلى منه، ونقل المجد الشيرازى عن ابن بكار فى المغانم المطابة بعد ذكره لحافر البغلة، ومسجدها أنه فى غربى هذا المسجد أثر كأنه مرفق، يذكر أنه صلى الله تعالى عليه وسلم اتكأ عليه بمرفقه الشريف، فأثر فيه، وفى آخر أصابعه انتهى.

وممن ذكر أثر البغلة السيد السمهودى فى تاريخ المدينة، وقال: إنه مسجد بنى ظفر من الأوس شرقى البقيع بطرف الحرة الغربية، ويعرف بذلك.

وذكره ابن النجار فى تاريخه أيضًا، لكن قال الشيخ محمد بن يوسف الدمشقى فى سيرته: إن هذا لا وجود له فى شيء من كتب الحديث، وممن أنكره الشيخ برهان الدين التاجى، وقال السيوطى فى فتاويه: لم أقف له على أصل ولا سند، ولا رأيت من خرجه فى شيء من كتب الحديث، وتبعه تلميذه العلقمى فى شرح الجامع الصغير، وزاد أنه لم يوجد فى شيء من التواريخ المعتمدة، فلا يسوغ نسبته له صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد تعقبه من علماء عصرة الشيخ الصالح المحدث أحمد المتولى شارح الجامع الصغير،

فقال بعد ما ساق ما قلناه مفصلاً: سبحان من لا ينسى كيف سها السيوطى؟ وقد قال فى خصائصه الصغرى: إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما وطئ على صخر إلا وأثر فيه وعزاه للحافظ رزين العبدرى، انتهى.

قلت: لا سهو ولا نسيان، فإن السيوطى، رحمه الله تعالى، لم يذكرهذه المعجزة، وإنما أنكر ما يؤثر بعينه فى الأماكن التى ذكروها، وكذا ما قاله صاحب المواهب إلا أن ما نقله السيوطى من قوله:» ما وطئ صلى الله تعالى عليه وسلم على صخر إلا وأثر فيه» لا ينبغى؛ لأن الظاهر أنه كان أول البعثة ككلام الحجر والشجر الذى تقدم، وأما كونه لا أثر لقدمه صلى الله تعالى عليه وسلم فى الرمل، فقد رواه ابن سبع والنيسابورى وغيرهما بسند ضعيف، وقال: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم ألطف خلق الله وأخفهم، ولذا لم يؤثر مشيه فى الرمل، ولا ينافيه تأثيره فى الحجارة، فإنما هو لبقاء أثره وتبكيت حاسديه وأنهم أقسى من الحجارة إلا أنه وقع فى الإحياء ما يقتضى خلافه؛ لأنه نقل فيه أثرًا، فيه أن بعض الصحابة أنكر على أبى موسى، رضى الله تعالى عنه، دعاءه على المنبر لعمر، رضى الله تعالى عنه، إذ لم يذكر أبا بكر، رضى الله تعالى عنه، فقام بين الملأ بالمسجد وقال له: أين من كان قبله، فشكاه لعمر، رضى الله تعالى عنه، فأمر بإشخاصه إليه من البصرة، فلما جاءه دق عليه الباب، فخرج إليه وقال له: أزعجتنى من وطنى، فسأله عن سبب شكاية أميره منه، فقص عليه القصة، فبكى، رضى الله تعالى عنه، وقال: والله ليوم وليلة لأبى بكر، رضى الله تعالى عنه، خير من خلافتى، يعنى باليوم لما قام على المنبر خطيبًا يوم مات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وبالليلة ليلة ذهابه معه إلى الغار، فكان يمشى تارة خلفة، وتارة أمامه، وتارة يحمله، يقصد بذلك إخفاء أثر أقدامه فى الرمل حتى لا يشعر به من يقص أثره.

قلت: وكان هذا هو مستند ابن خلدون فى مقدمة تاريخه إذ ذكر فيها أن الدعاء للسلاطين فى الخطبة سنة، وإن كان الزركشى قال فى كتاب أحكام المساجد: إنه بدعة ينبغى تركها لخوف الفتنة فاعرفه، فإنه من الفوائد النفيسة الجليلة.

* * *

[فصل من معجزاته ﷺ فى إحياء الموتى وكلامهم]

(فصل) من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم **(فى إحياء الموتى وكلامهم)** له صلى الله تعالى عليه وسلم، و»**إحياء**» مصدر مضاف لمفعوله، وفاعله الله أوالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه سببه، وإن كان الفاعل الحقيقى هو الله، وهو أعظم معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم، ولذا قال فى البردة:

لـو ناسبـت قـدرة آياتـه عظمـا أحيى اسمه حين يدعى دارس الرمم

وقد تكلم الناس فى معنى هذا البيت وأورد عليه أن من جملة معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم القرآن، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «آيه من كتاب الله خير من محمد وآل محمد» فكيف لا يكون فى معجزاته ما يناسب مقداره فى الشرف.

وأجيب: بأن المراد بمعجزاته ما أحدثه الله، تعالى، على يديه، والقرآن صفة لله قديمة، ومعناه أنه لا يعد شيئًا من معجزاته عظيمًا بالنسبة إليه إلا أن يكون منها أن كل أحد لو دعا باسمه وتوسل به فى إحياء الموتى وقع له ذلك بأن يقول: اللهم إنى أسألك بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم أن تحيى صاحب هذا القبر، وليس عطف الكلام من عطف الخاص على العام كما توهم.

(وكلام الصبيان) الذى فى المهد لم يصلوا لسن يتكلم فيه مثلهم، ولذا عطف على كلام الموتى؛ لأنه ليس من شأنهم الكلام، وأخره لأنهم أحياء من شأنهم الكلام فهو دونه مرتبة.

(والمراضع) جمع مرضع اسم مفعول، وهو الولد الصغير على القياس، وليس جمع راضع على خلاف القياس كما قيل، وليس جمع مرضع بكسر الضاد، وهو الأم؛ لأنه ليس فيه خرق للعادة ولا مرضعة بالفتح بمعنى بنت صغيرة ترضع وإن كان الأحسن أن يقول: الأطفال؛ لأنه عطف تفسير للصبيان بمعنى من ابتدأ رضاعه؛ والأطفال كالصبيان لا تؤدى مؤداه الذى قصده.

(وشهادتهم له صلى الله تعالى عليه وسلم بالنبوة) أى قول من فى المهد: إنك نبى الله ورسوله وعطفه على كلام الصبيان من عطف الخاص على العام، ثم شرع فى إثبات ما ذكره بحديث أورده أبو داود مسندًا عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، فقال:**(حدثنا أبو الوليد هشام بن أحمد الفقيه)** أى المتبحر فى معرفة الأحكام الشرعية الفرعية، وقيل: المراد به العالم بالعلوم الشرعية مطلقاً **(بقراءتى عليه والقاضى أبو الوليد محمد بن رشد)** علم منقول من [الرشد] ضد الغى، وهو محمد بن أحمد بن رشد، الإمام فى كل فن، الجليل قاضى قرطبة، تولى قضاءها بعد أبى القاسم بن حمدين سنة أحد عشرة وخمسمائة، ثم عزل سنة أربع عشرة وولى أبو القاسم، وذلك فى سلطنة يوسف بن تاشفين، **(والقاضى أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمى)** الذى تقدمت ترجمته **(وغير واحد سماعاً وإذناً)** يعنى أنه سمع منهم وأذنوا له فى الرواية عنهم **(قالوا: حدثنا أبو على الحافظ)** الغسانى الذى تقدم، قال:**(حدثنا أبو عمر الحافظ)** هو ابن عبد البر الإمام المشهور كما تقدم، قال:**(حدثنا أبو زيد عبد الرحمن بن يحيى)** ابن محمد، المعروف بابن

العطار، قال:(**حدثنا أحمد بن سعيد**) تقدمت ترجمته، قال: (**حدثنا ابن الأعرابى**) تقدم، قال:(**حدثنا أبو داود**) الإمام صاحب السنن، قال:(**حدثنا وهب بن بقية**) الواسطى أبو محمد ويقال له وهبان، توفى سنة تسع وثلاثين ومائتين، وروى له مسلم، وأبو داود، والنسائى، (**عن خالد، هو الطحان**) هو خالد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن يزيد، المعروف بالطحان، كان من الزهاد الصالحين، يقال:إنه اشترى نفسه من الله ثلاث مرات فتصدق بوزنه فضة، توفى سنة تسع وتسعين ومائة، وولد سنة عشر ومائة، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، (**عن محمد بن عمرو**) بن علقمة، وله ترجمة فى الميزان، (**عن أبى سلمة**) أحد الفقهاء السبعة كما تقدم، (**عن أبى هريرة**)، رضى الله تعالى عنه: (**أن يهودية**) من يهود خيبر، اسمها زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشكم صاحب الكنز، وهو من بنى النضير، وقيل: إنها زينب أخت عبد الله بن سلام (**أهدت للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بخيبر شاة مصلية**) أى مشوية، من صلاه بالنار إذا شواه، وأصلها مصلوية، فقلبت الواو ياء وأدغمت وكسر ما قبلها (**سمتها**) أى وضعت فيها السم، يقال:سممته أنا، والعامة تقول:سميته، وهو خطأ كما قال السراج الوراق، رحمه الله تعالى:

رزقت بنتا ليتها لم تكن فى ليلة كالدهر قضيتها
فقيل ما سميتها قلت لو مكنت منها كنت سميتها

وقد يقال: أصله سممتها بثلاث ميمات، أبدلت الثالثة ياء على القياس (**فأكل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منها وأكل القوم**) الذين كانوا معه من الصحابة، رضى الله تعالىعنهم، أى شرعوا فى الأكل (**فقال**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**ارفعوا أيديكم**) أى كفوها عن الأخذ منها للأكل وابعدوا أيديكم عنها، وأصل الرفع الإعلاء، فكنى به عما ذكر وشاع حتى صار حقيقة فيه، (**فإنها أخبرتنى أنها مسمومة**) وهو محل الشاهد؛ لأنها كلمته صلى الله تعالى عليه وسلم وهى ميتة بكلام لم يسمعه غيره، ولو شاء الله أسمعهم كلامها (**فمات بشر بن البراء**) بفتح الباء الموحدة والراء المهملة والمد، ابن معرور بسكون العين المهملة، وفتحها خطأ، وهو صحابى خزرجى، شهد العقبة وبدراً، قيل:إنه مات فى الحال، وقيل: لم يزل مريضاً حتى مات بعد سنة، (**وقال**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**لليهودية: ما حملك على ما صنعت؟**) من السم ووضعه حتى حصل منه ما حصل، وهو مجاز مشهور من الحمل المشهور من قوله:حمله كذا وحمله عليه، إذا كلفه به، قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ [الجمعة: ٥]، أى كلفوا أن يقوموا بحقها فلم يفعلوا، فالمعنى:ما دعاك لصنعك هذا؟ (**قالت:**) الداعى أنى أردت معرفة حالك واختبارك (**إن كنت نبيًا لم يضرك ما**) وفى نسخة «الذى» (**صنعت**) من وضع السم وأكلك له، (**وإن كنت ملكاً**) بكسر اللام أى سلطاناً (**أرحت الناس منك**) بموتك، فلم

يضره السم ضررًا يظهر لغيره، علم بذلك أنه نبى.

وهذه معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم لأن الله عصمه من أذى الناس، و لم يمكن أحدًا من قتله صلى الله تعالى عليه وسلم بأى طريق كان، فإنما احتجم بعده كما روى هنا بيانًا لاستحباب المداواة وتعليمًا للأمة، ولذا لم تخبره الشاة قبل الأكل، ولينال مرتبة الشهادة العظمى من غير إهانة له صلى الله تعالى عليه وسلم، واختلف فى السم هل كان فى الشاة كلها، وفى الذراع زيادة على غيره؛ لأنها سألت: ما أحبها إليه صلى الله تعالى عليه وسلم؟، فقالوا: الذراع، أو كان فى الذراعين فقط، لذلك ذهب إلى كل منهما ناس، وإنما سألها صلى الله تعالى عليه وسلم لتقر، فتتبين القصة؛ ولأنه كان بينه وبين اليهود عهد، وهذا نقض له.

(قال) أى أبو هريرة راوى الحديث كما ذكره البيهقى، وإن كان رواه مرسلاً فى محل آخر **(فأمر بها)** أى بقتلها، **(فقتلت، وقد روى هذا الحديث)** أى حديث أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، من طريق آخر فى الصحيحين **(عن أنس)** بن مالك، **(وفيه)** أى فيما رواه أنس **(قالت: أردت قتلك)** إن لم تكن نبيًا كما مر، **(فقال)** لها **(ما كان الله ليسلطك)**، من التسليط والسلاطة، وهى التمكن من القهر والأذية كما قال الله، تعالى، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٠] **(على ذلك)** أى القتل، وروى «علىّ» مشددًا بجر ياء المتكلم والكاف مكسورة؛ لأن الخطاب لمؤنث كما قاله التلمسانى، **(فقالوا: أنقتلها)** وفى نسخة «نقتلها» بتقدير همزة الاستفهام، وفى أخرى «ألا نقتلها»، **(قال: لا)** تقتلوها، ولعل هذا كان قبل موت بشر بن البراء، وبهذا يجمع بين هذه الرواية وبين رواية أبى هريرة أنه قتلها، وبه يجاب عما قيل: إنه مشكل؛ لأنه كيف يعفى عنها مع قتلها للبراء، إلا أن يقال: إن البراء عفى عنها، أو على أنه لا يقتل بالسم، وإنما يستحق الدية على ما فصل فى كتاب الفقه.

(وكذلك روى) بالبناء للمجهول، أى روى هذا الحديث **(عن أبى هريرة من رواية غير ابن وهب)** بن بقية شيخ أبى داود أنه روى و**(قال: فما عرض لها)** «عَرَضَ» بفتحتين، بمعنى تعرض المشدد، أى تركها.

(ورواه أيضًا جابر بن عبد الله) كما فى سنن أبى داود والبيهقى، **(وفيه)** أى فيما رواه جابر **(أخبرتنى به)** أى بالسم الذى فيها **(هذه الذراع)** أى ذراع الشاة، وهو مؤنث سماعى، ولذا قال: هذه، وكذا الفخذ الآتى مؤنث.

(قال) جابر، رضى الله تعالى عنه: **(ولم يعاقبها)** أى لم يقتلها، وفى بعض النسخ **(وفى رواية الحسن)** البصرى: **(إن فخذها)** هو بفتح الفاء وكسر الخاء وسكونها ما فوق الساق

(كلمتنى) أى قالت لى: **(أنها)** أى الشاة**(مسمومة)** إما لأن السم عمها أو فى ذراعها فقط كما مر، وهذا لا ينافى ما مر من أن الذراع كلمته؛ لأنه لا مانع من أن تكلمه الذراع والفخذ معًا، ويكون عود الضمير للفخذ بناء على أحد الوجهين.

(وفى رواية أبى سلمة بن عبد الرحمن قالت: إنى مسمومة، وكذلك) أى مثل هذه الرواية **(ذكر الخبر)** السابق **(ابن إسحاق)** فى سيرته، **(وقال فيه:فتجاوز عنها)** أى عفى عنها و لم يقتلها فى أول الأمر، ثم لما مات بشر بن البراء قتلها به كما مر فى الجمع بين الروايتين، أو لم يقتلها بسببه إما لأنه لا يوجب القتل أو لأمر آخر رآه.

(وفى الحديث الآخر) الذى رواه الشيخان **(عن أنس أنه قال: فما زلت أعرفها)** أى أعرف الفعلة التى فعلتها اليهودية **(فى لهوات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)** بفتح اللام والهاء والواو جمع لهاة بوزن قناة، وهى لحمة فى أقصى سقف الفم تنطبق على آخر اللسان وأول الحلق، وهى لا ترى إلا إذا فتح الفم انفتاحًا تامًا، فكأنه يريد بها الفم بإطلاق الجزء على الأقل كما فى قولهم «اللهى تفتح اللها» فكان لها أثر فى ظاهر فمه من بثر ونحوها؛ لأن الإطلاع على حقيقتها بعيد، وقيل: المراد أنها أثرت فى صورته تأثيرًا قليلاً يظهر لمن تأمله، فأراد باللهاة الصوت، ولا يخفى ما فيه، والحديث فى البخارى وفيه كلام فى شروحه.

والحاصل: أنهم اختلفوا فى قتلها كما مر، وعن ابن شهاب أنها أسلمت فتركها لإسلامها، وفى الروض الأنف أنه تركها أولاً؛ لأنه كان لا ينتقم لنفسه، فلما مات بشر قتلها قصاصًا به، إلا أن فيه أن فقهاءنا والشافعى قالوا: إن من قدم لضيفه طعامًا مسمومًا فأكل منه وهو لا يعلم فمات لا يجب القصاص، ولذا قيل: إنه إنما قتلها سياسة أو لنقض العهد، والقصاص يجب فيه المماثلة، والذى فى البخارى أن اليهود سموها لا ينافيه، لأنه كان بأمرهم واتفاق منهم.

(وفى حديث) عن **(أبى هريرة)**، رضى الله تعالى عنه، الذى رواه عنه ابن سعد بسند صحيح **(أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال فى وجعه)** يعنى مرضه فعبر عنه بلازمه **(الذى مات فيه)** أى مات متلبسًا به أو فى زمنه، وروى منه بدل فيه **(:ما زالت أكْلة)** بضم فسكون، وهى ما يؤكل كالغرفة لما يغرف؛ لأن فعلة بالفتح للمرة، وبالكسر للهيئة، وبالضم للمقدار كما قاله النحاة **(خيبر)** بمنع الصرف، بلدة على أميال من المدينة أهلها يهود. **(تعادنى)** بضم المثناة الفوقية وفتح العين المهملة وألف ودال مهملة مشددة ونون الوقاية وضمير المتكلم، أى تعود إلىّ مرة بعد مرة أخرى فى أوقات معلومة، من العداد، وهو كما قال ابن الأثير:ما يأتى لوقت كالحمى والسم، وقال السهيلى: تعادنى

بمعنى تعتادنى، وقيل: هو ما يهيج بعد سنة من ألم لدغ ونحوه، وليس المراد بالألم نقص فى الذوق؛ لأنه لا يعد مثله ألم.

وما قيل من أن المراد مكابرة فى المحسوس لا وجه له، مع أنه لا ينافى قوله **(فالآن)** مبنى على الفتح ولا يستعمل بغير «أل»، وهو الزمن الحاضر **(أو إن قطعت)** أى الأكلة بسمها وتأثيره. **(أبهرى)** بهمزة مفتوحة وموحدة وهاء وراء مهملة بزنة أفعل التفضيل، وهو عرق كبير متصل بالقلب أو داخله، وهما أبهران، وقيل: هو الوريد، وهو إذا انقطع يموت صاحبه، وقيل: إنه الأكحل، وموته بهذا السم لا ينافى قوله تعالى: ﴿**وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ**﴾ [المائدة: ٦٧] إلى آخره، لا لأنه قبل نزول هذه الآية، بل لأن المراد عصمته صلى الله تعالى عليه وسلم من قتلهم له بسيف ونحوه مجاهرة، بحيث يظهر فى وقته، وهذا مع أنه سم ساعة لم يظهر فيه صلى الله تعالى عليه وسلم حتى عد من معجزاته لخفاء أثره، وإنما قدر الله تعالى، تأثيره فيه بعد زمان ليرزقه، الله تعالى، الشهادة، وهذا مما لا دخل لمخلوق فيه.

ومرضه الذى مات فيه صلى الله تعالى عليه وسلم كان حمى مع صداع، وروى أبو يعلى بسند ضعيف: أنه ذات الجنب، وأورد عليه: أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لد بقسط وزيت فلما أفاق صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «كنتم ترون أن بى ذات الجنب، ما كان الله تعالى ليجعل لها علىّ سلطانًا والله لا يبقى أحد فى البيت إلا لد ففعلوه»(١)، واللدود دواء ذات الجنب.

وقد ورد: أن ذات الجنب من الشيطان، وأجيب بأن ذات الجنب قسمان حار يكون فى مستبطن الحشاء وهو المنفى، وآخر يكون بين الأضلاع وهو المروى فى الحديث المذكور، والحمى المذكورة إنما كانت بسبب ذلك السم.

(وحكى ابن إسحاق إنْ) بكسر الهمزة وتخفيف النون الساكنة المخففة من الثقيلة، واسمها مقدر أصله إنهم **(كان المسلمون ليرون)** بفتح اللام وهى لام الابتداء، ويرون بضم المثناة التحتية أى يجوزون، ويجوز فتحها. **(أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مات شهيداً)** بسم الشاة ليكرمه الله بنيل الشهادة. **(مع ما أكرمه الله به من النبوة، وقال ابن سحنون)** بضم السين وفتحها ومنع الصرف وهو محمد بن عبد السلام المالكى الإمام المشهور عمدة مذهب مالك كما تقدم: **(أجمع أهل الحديث أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قتل اليهودية التى سمته)** كما مر فى بعض الروايات مع ما فيه.

ودعواه الإجماع مع هذا غير مسلمة منه، وكون الرواية الأخرى مؤولة عنده كما مر

---

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣١/٢/٢).

لا تصفى كدره وإليه أشار المصنف، رحمه الله، بقوله: **(وقد ذكرنا اختلاف الروايات فى ذلك)** الدال على خلاف ما قاله ابن سحنون: **(عن أبى هريرة وأنس بن مالك وجابر)**، وغيرهم من الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، فمع ذلك كيف تصح دعوى الإجماع.

وما ذكر فى الحديث الذى قبل هذا من كون آثار السم تشاهد فى لهواته من تتمة القصة، فلا ينافى كون الفصل معقودًا لإحياء الموتى كما توهم، وكذا ما ذكر فى هذا الحديث.

(وفى رواية ابن عباس) التى رواها ابن سعد **(أنه)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(دفعها)** أى سلم المرأة التى سمته. **(لأولياء بشر بن البراء فقتلوها)** يعنى ورثته الذين لهم دعوى القصاص.

(وكذلك) أى مثل ما اختلف فى قتل من سمه وحكمه **(قد اختلف فى قتله من سحره)** وفى نسخة « الذى سحره» وهو رجل يهودى من بنى زريق يقال له: لبيد بن الأعصم، كما صرح به بعد سحره صلى الله تعالى عليه وسلم حتى كان يخيل له أنه يفعل الشىء وما يفعله، ثم شفاه الله تعالى، منه كما سيأتى الكلام على قصته فى كلام المصنف، رحمه الله تعالى.

(وقال الواقدى: وعفوه عنه) أى الساحر **(أثبت)** أى أقوى وأصح، وأصل معناه: أشد ثبوتًا ولزومًا فاستعير لما ذكر **(عندنا)** معاشر أهل السنة والحديث.

(وروى عنه أنه قتله)، وفى الوفاء عن زيد بن أرقم قال: سحر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رجل يهودى، فاشتكى لذلك ألمًا فأتاه جبريل، عليه الصلاة و السلام، فقال له: إن رجلاً من اليهود سحرك فعقد لك عقدًا فى بئر كذا وكذا، فأرسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عليًا فاستخرجها وجاء بها وحلها، فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة، فقام كأنما نشط من عقال، فما ذكر لذلك اليهودى ولا أراه فى وجهه قط، وقال الثعلبى: إنهم قالوا له صلى الله تعالى عليه وسلم: أما تأخذ الخبيث فتقتله، فقال: « أما أنا فقد شفانى الله وأكره أن أثير على الناس منه شراً بسببى»(١) وقتل الساحر ذكره الفقهاء مفصلاً فى الفروع، وفى السحر وجواز تعلمه كلام مشهور بيناه فى غير هذا المحل.

(وروى الحديث) أى حديث الشاة المسمومة السابق لا حديث السحر كما توهم **(البزار عن أبى سعيد)** الخدرى **(فذكر مثله إلا أنه قال فى آخره: فبسط يده)** مدها صلى

---

(١) أخرجه البخارى (٤/١٤٨، ٧/١٧٨)، ومسلم (٢١٨٩/٤٣)، وأحمد (٦/٥٧، ٦٤)، والبيهقى فى الكبرى (٨/١٣٥)، وفى دلائل النبوة (٦/٢٤٧).

الله تعالى عليه وسلم ليتناول من لحمها، **(وقال)** لمن عنده من الصحابة: **(كلوا)** متبركين **(بسم الله فأكلنا منها فلم يضر منا أحداً)** وهو مصادم لحديث البراء الصحيح الذى تقدم، وقال السيوطى نقلاً عن الشيخ ابن حجر: إن هذا الحديث منكر.

(قال القاضى أبو الفضل) عياض مصنف هذا الكتاب، **(رضى الله تعالى عنه: وقد خرج حديث الشاة المسمومة أهل الصحيح)** الذين اعتنوا بتصحيح الحديث وروايته، **(وخرجه الأئمة)** فى كتبهم كأصحاب السنن، **(وهو حديث مشهور)** بين المحدثين، **(واختلف أئمة أهل النظر)** من المتكلمين وغيرهم من نقاد الحديث **(فى هذا الباب)** أى باب خلق الله الكلام فى أجسام غير ناطقة، ثم بين وجوه اختلافهم بقوله: **(فمن قائل يقول: هو كلام يخلقه الله فى الشاة الميتة)** بالتشديد والتخفيف، **(أو الحجر، أو الشجر)** ولما كان الكلام يطلق عند المتكلمين على اللفظى والنفسى بالاشتراك أو الحقيقة فى الأول، والمجاز فى الثانى، أو بالعكس، أشار إلى أن المراد الأول بقوله: **(وحروف وأصوات)** أى هواء يخرج من الجسم متكيف بكيفية مخصوصة، ومجموعها هو الحروف ذات المخارج المعروفة، وهو معطوف على قوله: كلام **(يحدثها)** أى يوجد تلك الحروف والأصوات **(فيها)** أى فى تلك الأجسام بلا حياة مخلوقة فيها؛ لعدم توقفها عليها.

(ويُسمعها) بضم التحتية: أى يجعلها مدركة بالسمع لمن شاء من خلقه الأحياء **(منها)** أى من تلك الأجسام لا من الأصوات والحروف كما قيل، **(دون تغيير أشكالها)** جمع شكل بفتح فسكون، وهو الصورة والهيئة، ومنه المشاكلة، قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٨]، أى هو مثله فى الهيئة، ومنه قولهم: الناس أشكال وآلاف، وهو من الشكل بمعنى تقييد الدابة كما قال الراغب، فقوله: **(ونقلها من هيئتها)** أى نقلها من هيئتها الأصلية إلى هيئة أخرى لذوات الأرواح والنطق.

(وهو) أى عدم لزوم ما ذكر **(مذهب الشيخ أبى الحسن)** الأشعرى إمام أهل السنة، **(والقاضى أبى بكر)** الباقلانى فعندهما الحياة ليست بشرط لخلق الكلام فى الأجسام.

(و) قوم **(آخرون)** من أهل السنة **(ذهبوا إلى)** اشتراط ذلك، وإلى **(إيجاد الحياة بها أولاً)** قبل نطقها وصدور الكلام منها، **(ثم الكلام بعده)** أى بعد إيجاد الحياة بها.

(وحكى هذا أيضًا عن شيخنا أبى الحسن) الأشعرى كما حكى القول الأول عنه، فله قولان فى هذه المسألة، والضمير لأهل السنة المعلوم من السياق، والشيخ هو المسن، وشاع بمعنى الأستاذ كما مر، ولا يلزم أن يكون المصنف، رحمه الله تعالى، أدركه وتتلمذ له كما لا يخفى فى مثله.

(وكل) من القولين **(محتمل)** اسم الفعول: أى جائز عقلاً، فيحتمل فيما صدر عنه

النطق أن يخلق الله فيه حياة، وأن ينطقه بدونها، ولا تناقض على ما قررناه فى كلام الشيخ حتى يحتاج لحمل أحد قوليه على الكلام النفسى؛ لاستلزامه الحياة كاستلزام العلم لها، والآخر على اللفظى لعدم استلزام خلقه فى محل خلقها فيه، ومثل هذا لا يلتفت له حتى يسود به وجه الصحف كما لا يخفى.

(**إذا لم تجعل الحياة شرطا لوجود الحروف والأصوات**)، وحينئذ يحتمل أنه تعالى خلق فيها حياة ويحتمل أنه أنطقها بدون ذلك، إذ لا يشترط وجوده ولا عدمه، (**إذ لا يستحيل**) ويمتنع عقلا (**وجودها**) أى الحروف والأصوات، (**مع عدم الحياة بمجردها**): أى وحدها من غير جارحة وحياة ونحوها، (**فأما إذا كانت**) أى الحروف والأصوات أو هذه العبارة التى هى الكلام، فالتأنيث لمراعاة الخبر فى قوله: (**عبارة**) أى معبرًا بها، والظاهر الثانى (**عن الكلام النفسى**) الذى يعبر به عندهم، وتحقيق الكلام النفسى والفرق بينه وبين العلم فيه كلام طويل فى علم الكلام يضيق طوق المقام عنه.

(**فلابد من شرط الحياة لها**)؛ لأنها العلم أو مستلزمة له، وعلى كل حال فلابد من الحياة فيها، (**إذلا يوجد كلام النفس إلا من حى**) إذ لابد له من نفس تقوم به، والنفس لا تكون إلا ذات حياة، وأما الكلام اللفظى فلا يشترط فيه ذلك (**خلافا للجبائى**) بضم الجيم وفتح الباء الموحدة المشددة والمد وياء نسبة إلى الجباء قرية بالسواد، وهو أبو على محمد بن عبد الوهاب بن سلام مخفف اللام ابن خالد بن حمدان بن أبان مولى عثمان بن عفان البصرى رئيس المعتزلة مات سنة ثلاث وثلاثمائة (**من بين سائر متكلمى الفرق**) أى فرق أهل السنة والمعتزلة، فإنه تفرد (**فى إحالة وجود الكلام اللفظى**) أى عده محالا عقلا وعادة، (**والحروف والأصوات إلا من حى مركب**) قائم بحسب الصورة (**على تركيب من يصح منه النطق بالحروف والأصوات**) بأن يكون جسمًا له آلة نطق وجوف، ثم لما ورد عليه ما تواتر عن نطق غيره قال دفعا له يلتزمه وإليه أشار بقوله: (**والتزم ذلك**) أى وجود التركيب المذكور (**فى الحصا**) بمهملتين جمع حصاة، (**والجذع والذراع**) الذى نطق له صلى الله تعالى عليه وسلم لتواتره، (**وقال: إن الله خلق فيها حياة وخلق لها فمًا**) أى أبدعه وميزه عن غيره من الأعضاء كما خرق سمعه وشقه إذا أبرزه وصوره (**ولسانًا وآلة**) للكلام (**أمكنها**) أقدرها وجعلها متمكنة بها (**من الكلام**) والنطق (**وهذا**) أى المذكور من الآلة والأعضاء دعوى بلا بينة إذ (**لو كان**) أى ما دعاه وقع فى الخارج (**لكان نقله**) أى وجد نقله وسمع فكان فيهما تامة.

(**والتهمم به**) تفعل من الهم أى الاهتمام، والاعتناء به (**آكد**) بالمد وأوكد بالواو بمعناه: أى أقوى وأشد (**من التهمم بنقل تسبيحه**):أى تسبيح الحصا (**وحنينه**) أى الجذع

كما تقدم، والأمر بالعكس، فإنه نقل تسبيحه وحنينه ونطقه نقلاً شائعا لم ينقل أنه رؤى له فم ولا لسان، فما ذكره مكابرة فى المحسوسات ودعوى شهد الحس بخلافها.

(**ولم ينقل أحد من أهل السير**): أى رواة الحديث والسير النبوية (**والروايات**) وفى نسخة الرواية: (**شيئًا من ذلك**) المذكور الذى ادعاه، (**فدل**) عدم نقلهم (**على سقوط دعواه**): أى بطلانها (**مع أنه لا ضرورة**) داعية (**إليه فى النظر**)، والفكر فى الأمر المعقول وأما كون الله خلق ذلك وأخفاه فأوهى من دعواه، (**والله الموفق**) للصواب.

(**وروى وكيع**) بفتح الواو والكاف المكسورة هو أبو سفيان بن الجراح بن مليح بن عدى الراسبى (**رفعه**) أى رواه مرفوعًا له صلى الله تعالى عليه وسلم (**عن فهد بن عطية**) هو بفاء مفتوحة وهاء ساكنة ودال مهملة وفى نسخة راء مهملة، قال البرهان: لا أعرفه بدال ولا براء والذى فى البيهقى أنه عن سمى بن عطية من بعض أشياخه، فيحتمل أنه تحرف على الناسخ (**أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أتى بصبى قد شب**) أى كبر وصار شابا وهو(**لم يتكلم قط**) من طفوليته لشبابه؛ لأنه خلق أخرس، (**فقال**) له: (**من أنا؟ فقال: أنت رسول الله**) فأنطقه الله معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ما كان أبكم، وذكر هذا فى الفصل الذى بعده أظهر، وإن كان هذا بتنزيل الأبكم لمنزلة الميت والجماد، لعدم القدرة على النطق.

(**وروى عن معرض بن معيقب**) بميم مضمومة وعين مهملة فيهما وضاد معجمة بزنة اسم الفاعل، وقيل الراء مكسورة مشددة، وروى معيقب بباء، وقيل: معيقل بلام: (**رأيت من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عجبا**) أى أمراً عجيبا وقع عنده، وهو أنه (**جىء**) بالبناء للمجهول أى جاء إليه بعضهم (**بصبى يوم ولد**) مجهول أيضًا، (**فذكر**) راويه وهو معرض (**مثله**) أى مثل ما مر من أنه قال له صلى الله تعالى عليه وسلم من أنا؟ فقال له: أنت رسول الله، (**وهو**) معروف فى المعجزات بأنه(**حديث مبارك اليمامة**)، وفى نسخة: وكان يسمى أى ذلك الولد مبارك اليمامة؛ لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم له: بارك الله فيك، واليمامة علم لأرض باليمن منقول من اسم طائر وهذا مؤخر فى النسخ كما سيأتى.

(**ويعرف**) ذلك الحديث (**بحديث شاصونة**) بشين معجمة وألف وصاد مهملة وواو ساكنة تليها نون وهاء، وهو (**اسم راويه**) أى راوى هذا الحديث، وبيانه ما قاله السيوطى فى خصائصه الكبرى: قال الخطيب: أخبرنى على بن أحمد الرزان قال: حدثنا أبو عمر محمد بن عبد الواحد بن أبى هاشم إملاء قال: حدثنا محمد بن يونس بن موسى الكديمى إملاء قال: حدثنا شاصونة بن عبيد أبو محمد اليمامى منصرفا من عدن سنة

عشر ومائتين بقرية يقال لها: الجردة قال : حدثنا معرض بن عبد الله اليمامى عن أبيه عن جده: حججت حجة الوداع، فدخلت مكة، فرأيت فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ووجهه مثل دارة القمر، وسمعت منه عجبا: جاءه رجل من أهل اليمامة بغلام يوم ولد، وقد لفه فى خرقة، فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: يا غلام من أنا؟ فقال: أنت رسول الله. قال: صدقت بارك الله فيك(١). ثم أن الغلام لم يتكلم حتى شب.قال أبى: فكنا نسميه مبارك اليمامة، قال شاصونة: سمعت هذا الحديث منه منذ ثمانون سنة، و لم أسمع منه إلا هذا الحديث.

قال الدارقطنى: كان الكديمى يتهم بوضع الحديث، ومما تكلم به فيه حديث شاصونة، وقيل: إنه حديث عمن لم يخلق بعد، فلما بلغه ذلك قال: عقدت بينى وبينه عقدة لا أحلها إلا بين يدى الجبار، فانتهى إليه الخبر فكان لا يذكره إلا بخير، وقال الخطيب: إن الكديمى لما أملى هذا الحديث استعظمه الناس، وقالوا: إنه كذاب، إلا أنه قد وقع إلينا من غير طريق الكديمى، ثم ساقه بسنده إلى آخره.

قال السيوطى: فقد وقع روايته من طرق، فهو حديث حسن وسبب إنكاره أنه من الأمور الخارقة للعادة، وقد وقع فى حجة الوداع مع كثرة الناس، فكان حقه أن يشتهر انتهى باختصار.

فقول بعض الشراح تبعا لابن دحية: إنه موضوع غير مسلم، وتبعه السيوطى هنا من غير تعقب له فبين كلاميه تناف.

(وفيه) أى فى هذا الحديث **(فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم له)** أى للصبى حين تكلم (**:صدقت بارك الله فيك ثم إن الغلام لم يتكلم بعد)** مبنى على الضم أى بعد ذلك الكلام **(حتى شب)** أى كبر ووصل سن النطق، **(فكان يسمى مبارك اليمامة)** لدعاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم له بالبركة، **(وكانت هذه القصة بمكة فى حجة الوداع)** بفتح الواو وكسرها سميت بها لأنها آخر حجه صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد ذكر فيها ما يشعر بقرب أجله، وأنه يوادع فيها أمته.

(وعن الحسن) البصرى وقدمنا ترجمته، وهذا الحديث لم يخرجه السيوطى: **(أتى رجل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فذكر أنه طرح بنية له)** تصغير بنت **(فى وادى كذا)** لم يعينه راويه أى رماها ثمة، فماتت، وقيل: إنه وأدها على عادة الجاهلية، **(فانطلق)**، أى مشى صلى الله تعالى عليه وسلم **(معه إلى الوادى)** الذى ذكره، **(وناداها)** أى نادى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بنت ذلك الرجل **(باسمها: يا فلانة أجيبينى بإذن الله تعالى)** أى

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥٩/٦)، وأورده ابن كثير فى البداية والنهاية (١٨١/٦).

بإرادة الله تعالى وقدرته، والإذن يتجوز به عما ذكر تجوزًا مشهورًا.

(فخرجت) حية من قبرها **(وهى تقول: لبيك وسعديك)** أى إجابة لك بعد إجابة وإسعادًا بعد إسعاد، ومعناه سرعة الإجابة والانقياد، ولا يستعمل إلا مثنى، والكلام عليه مشهور فى كتب النحو كما تقدم.

(فقال لها) لما أجابته: **(إن أبويك قد أسلما، فإن أحببت أن أردك عليهما)** بعد استقرار الحياة فيك رددتك عليهما.

(قالت:لا حاجة لى فيهما) ولا أريد الرجوع إليهما، **(وجدت الله)** وما عنده من الخير **(خير إلى منهما)**، ومما عندهما، وفيه دليل إن صح الحديث على أن أطفال الكفار غير معذبين وهو الأصح، وفيه من المعجزات إحياء الموتى وكلامهم ونطق الطفل الصغير أيضًا، وقد نطق فى المهد جماعة منهم من ذكر فى هذه الأحاديث وسيأتى تمامه.

واعلم أن من تكلم فى المهد من الأطفال كثير عدوا منهم: عيسى ابن مريم وصاحب الأخدود، وابن ماشطة بنت فرعون، وصاحب جريج، وشاهد يوسف، وشاهد الأمة والجبار، وما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، وقد نظمهم السيوطى فى قوله:

تكلم فى المهد النبى محمد ويحيى وعيسى والخليل ومريم
ومبرى جريج ثم شاهد يوسف وطفل لدى الأخدود يرويه مسلم
وطفل عليه مر بالأمة التى يقال لها تزنى ولا تتكلم
وماشطة فى عهد فرعون طفلها وفى زمن الهادى المبارك تختم

وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك أيضًا.

(وعن أنس) فى حديث رواه البيهقى وابن عدى مسندًا **(أن شابا من الأنصار توفى وأمه عجوز عمياء)**، وهذا مما يدل على شدة حزنها؛ لكبر سنها وعجزها المحوج لولدها، **(فسجيناه)** بالسين المهملة والجيم أى غطيناه، من قولهم: سجا الليل إذا ستر بظلمته الأرض أو كفناه، **(وعزيناها)** أى صبرناها وسليناها بذكر ما لها من الأجر ونحوه، كما هو معلوم، والتعزية: تسلية أهل الميت عنه، وهى سنة معروفة.

(فقالت لهم) لما عزوها: **(مات ابنى؟)** فيه استفهام مقدر أى أمات ابنى، وإنما قالته إما لأنها لم تعلم أو لتذكر ما بعده، أو لذهولها بالمصيبة.

(قلنا: نعم، فقالت: اللهم إن كنت تعلم أنى هاجرت) الهجرة: الانتقال من بلد إلى آخر، وهذا لا ينافى كونها من الأنصار لأنها قد تسكن فى مكان بعيد هاجرت منه **(إليك وإلى نبيك)** الهجرة إلى الله بالهجرة لرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم وإلا فالله معها أينما كانت **(رجاء أن تعيننى)** بالفوقية خطاب لله لأنه هو المعين **(على كل شدة)**

الشدة بمعنى الصعوبة هنا، أى على كل أمر شاق يصعب علـى، ويعسـر تحملـه لا سـيما فقد الولد مـع كـبر السـن وعـدم البصـر، وعلقتـه بـإن المشـعرة بعـدم الجزم باعتبـار أن خلوصها فى هجرتها لله ورسوله مما لا يخفى على غيرهـا، ومـن شـأنه أن يشـك فيـه لا لأنها لا تعلم ذلك لأنه ينـافى توصيلـها بـه إلى الله، أو باعتبـار القبـول أو تجـاهلاً رجـاء للإجابة، ورجاء منصوب مفعول لـه **(فـلا تحملـن)** بالحـاء المهملـة وتشـديد الميـم ونـون التوكيد بمعنى: لا تكلفن؛ لأن التكليف كالحمل الثقيل، فأستعير له كقولـه تعـالى: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٦] **(على)** بجر ياء المتكلـم **(هـذه المصيبـة)** يعنـى موت ولدها فى هذه الحالة، **(فما برحنا)** أى ما ذهبنا من مكاننـا الـذى كنـا فيـه **(حتـى كشف)** ولدها **(الثوب عن وجهه)** بعد ما غطى به، **(فطعـم وطعمنـا)** أى قـدم لنـا طعـام أكل منه ولدها وأكلنا معه، وذكروا أنه عاش إلى وفاة النبى صلى الله تعالى عليـه وسـلم وقيل: بقى بعده كما ذكره ابن أبى الصيف، وفيه معجزة حيث إنه أحيـا الميـت للدعـاء باسم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فلا يقال: إن هذا كرامة لأم الصبى.

(وروى) الراوى له البيهقى، رحمه الله تعالى، **(عـن عبـد الله بـن عبيـد الله الأنصـارى)** بتصغير الثانى: **(كنت فيمن دفن ثابت بن قيس)** أى حضر دفنه، وهو ابن مالك بن زهـير ابن امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخـزرج الأنصـارى المدنـى الصحـابى، وكان خطيب الأنصار، وشهد له النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم بالجنـة، **(وكـان قتـل باليمامة)** وروى له البخارى والنسائى وأبو داود، وكـان جـهورى الصـوت، فلمـا نـزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجـرات: ٢] احتبـس عـن الحضور عنده؛ لأنه كان يرفع صوته إذا تكلم، فسئل عن سبب ذلك، فقال: قـد علمتـم أنى أرفعكم صوتًا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأخشى أن أكون من أهـل النار، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: بل هـو مـن أهـل الجنـة، وقال التلمسانى: إنه كانبأذنه صمم، فلذا كان يرفع صوته، وفيه أن الأصم لا يحتاج لرفع صوته، وقد قال ابن حجر: إن الصحابة لم يكن فيهم أصم، وكـانت وقعـة اليمامـة فـى ربيع الأول سنة اثنتى عشرة فى خلافة الصديق، واليمامة اسـم بلـدة مـن جـانب اليمـن كما مر، وهى بلدة مسيلمة الكذاب، وهى على ستة عشر مرحلة من المدينة، وقد قالوا: إنه أوصى بعد موته ونفذت وصيته و لم تنفذ وصية أحد بعد موته إلا هو وذلـك أنـه لمـا قتل كان له درعان، فسرقت إحداهما وجعلت تحت قدر وكانت أنفـس درعيـه، فـرأى رجل ثابتا فى منامه، فقال: أوصيك بوصية فإياك أن تقول إنها حلم فتضيعها: إنى قتلت أمس فمر بى رجل فأخذ درعى، ومنزله فى أقصى الناس، وعند خبائه فـرس يسـتن فـى طوله، وقد كفى على الدرع برمة وفوق البرمة رحلاً، فـأت خـالدًا يعنـى أمـيرهم فمـره

فليأخذها، وإذا قدمت المدينة فقل لأبى بكر: إن عليَّ دينا لناس مقداره كذا، والدائن فلان وفلان، وإن رفيقى فلانا حر، فأتى الرجل خالدًا فأخبره، فبعث إلى من عنده الدرع فوجدها كما وصف، وأخبر أبو بكر بوصيته فأجازها.

(فسمعناه حين أدخلناه القبر يقول) أى سمعنا كلامه، ففيه مضاف مقدر أو الضمير مفعوله الأول، وقوله: يقول مفعوله الثانى على ما ذهب إليه أبو على الفارسى من أن سمع إذا تعدى لغير مسموع نصب مفعولين، وغيره يقول: إنه متعد لواحد مقدر والجملة حالية أو مستأنفة، وقد خطأ ابن السيد أبا على فى هذه المسألة فى كتاب الحلل، كما فصلناه فى غير هذا المحل وأجبنا عنه **(محمد رسول الله. أبو بكر الصديق)** مبتدأ أو خبر أى الكامل فى التصديق والصدق؛ لأنه لم يرتب فى تصديقه صلى الله تعالى عليه وسلم وقد سبق الناس فى ذلك؛ فلذا خص بالصديقية وسيأتى تحقيقها.

(عمر الشهيد) أى المخصوص بالشهادة الكاملة من بين الخلفاء؛ لأن قاتله كافر مجوسى وهو أبو لؤلؤة غلام المغيرة بخلاف قاتل عثمان؛ فإنه من رعاع الناس، وهو شهيد أيضًا.

(عثمان) بن عفان **(البر الرحيم)** ذو البر والإحسان لشهرته بالكرم وهو رحيم أيضًا أى ذو رحمة ورأفة بالمسلمين؛ لحسن أخلاقه وشفقته.

(فنظرنا إليه) لما تكلم بعد موته لتوهمنا أنه عادت إليه حياته، **(فإذا هو ميت)** أى فاجأنا بغتة معرفة كونه ميتا على حاله، وإنما أنطقه الله الذى أنطق كل شىء ؛ لتحقق حياة الشهداء. قيل: وقوله هذا كان عند سؤال الملكين له إن قلنا أن الشهداء يُسئلون وفيه نظر.

(وذكر) بالبناء للمجهول، وهذا مما رواه الطبرانى وأبو نعيم وابن منده، ورواه ابن أبى الدنيا عن أنس أيضًا **(عن النعمان بن بشير)** الصحابى الأنصارى الخزرجى البدرى، وهو أول من بايع أبا بكر، واستشهد مع خالد بن الوليد بعين النهر بعد انصرافه من اليمامة، والنعمان أول مولود بعد الهجرة، ولد بعد أربعة أشهر منها، ومات بقرية من قرى حمص فى ذى الحجة سنة أربع وستين، وولاه معاوية حمصا والكوفة.

(أن زيد بن خارجة) هذا أصح مما وقع فى بعض النسخ: ابن حارثة، وإن كان من بنى الحارث بن الخزرج؛ لأنه زيد بن خارجة بن زيد بن أبى زهير بن مالك من بنى الحارث بن الخزرج.

قال فى الاستيعاب: ولم يختلفوا فى أنه هو الذى تكلم بعد الموت، وقال ابن سيد الناس: قال أبو نعيم الأصبهانى: خارجة بن زيد هو الذى تكلم بعد الموت على اختلاف

فيه، والصحيح أنه زيد بن خارجة كما قاله ابن عبد البر وابن الأثير فى أسد الغابة، وكذا قال الذهبى، وقيل المتكلم أبوه، وهو وهم لأنه قتل بأحد، وجزم به ابن الجوزى، و لم يحك فيه خلافا، ولابن أبى الدنيا جزء وأفرده لمن تكلم بعد الموت و لم نقف عليه.

(خر ميتا) أى سقط من قيام فى حال كونه ميتا، وأصل معنى خر: سقط سقوطا يسمع معه خرير، وتقدم أن الخرير صوت الماء والريح ونحوه مما سقط من علو، قال تعالى: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] **(فى بعض أزقه المدينة)** جمع زقاق كغراب وهو الطريق.

(فرفع) بالبناء للمجهول، أى أخذ مكانه الذى سقط فيه، **(وسجى)**، بالبناء للمجهول، أى غطى **(إذ سمعوه بين العشائين)** إذ هنا فجائية، والتقدير فبينما هو كذلك إذ سمعوه إلخ والعشائين يعنى المغرب والعشاء على التغليب، **(والنساء يصرخن)** بالصاد المهملة والخاء المعجمة ونون النسوة **(حوله يقول)** مفعول ثان لقوله: سمعوه أو حال أو جملة مستأنفة كما مر ومقول القول **(:أنصتوا أنصتوا)** أى استمعوا وكرره للتأكيد، **(فحسر عن وجهه)** بضم الحاء وكسر السين والراء المهملات: أى كشف عنه بعد ما كان عليه غطاء، **(فقال)** لما كشف عن وجهه **(: محمد رسول الله النبى الأمى وخاتم النبيين)**. أى آخرهم بعثا كما مر؛**(كان ذلك)** المذكور من كونه رسولا ونبيا أميا خاتما للرسل **(فى الكتاب الأول)** أى فى جنسه من الكتب المتقدمة، أو اللوح المحفوظ المكتوب فيه كل ما قدره الله تعالى.

(ثم قال) زيد بن خارجة مخاطبا لمن كان عنده، أو لمن يصح أن يتوجه الخطاب إليه، أو مجردا من نفسه مخاطبا مأمورا إن كان قوله:**(صدق صدق)** أمرا كما ذهب إليه بعض الشراح، فإن كان ماضيا كما رأيناه بضبط القلم، واعتمد عليه فى الشرح الجديد، وقال: فاعله ضمير مستتر عائد للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فالأمر ظاهر أى صدق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فيما بلغ عن الله.

(وذكر) بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم **(أبا بكر وعمر وعثمان)**، وكأنه لم يذكر عليا، رضى الله تعالى عنه، لعدم إدراكه خلافته؛ لأنه توفى زمن عثمان كما ذكروه، ومراده الثناء عليهم، رضى الله تعالى عنهم، بما فعلوه وأيدوا به الدين الذى بلغه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن ربه.

(ثم قال: السلام عليك يا رسول الله) دعاء له صلى الله تعالى عليه وسلم وأصله سلمت سلاما، فأقيم المصدر مقام فعله، ثم عدل إلى الرفع وجعل مبتدأ للدلالة على الثبوت ثم عرف ليدل على استغراق أنواع السلام الذى يوجه للأنبياء وزيادة، ومعناه

السلامة من النقائص والتشريف له بما يليق بجنابه كما بينوه، وخص وصف الرسالة بالذكر لانتفاع الأمة بها الذى هو من جملتهم **(ورحمة الله وبركاته)** والرحمة بمعنى الإنعام والإحسان أو إرادة ذلك، وفيه دليل على جواز الدعاء بالرحمة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم خلافا لمن أباه لورودها فى حديث التشهد كما هى، ويأتى بيانه أيضًا.

والبركات جمع بركة، وهى الخير الإلهى وكثرته. قال الراغب: أصل البركة صدر البعير وغيره، وبرك البعير ألقى بركه، واعتبر فيه معنى اللزوم، فقيل: ابتركوا فى الحرب، وبركات القتال مكان يلزمه الأبطال، وسمى محبس الماء بركة والبركة ثبوت الخير الإلهى فى الشىء قال الله تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

ولما كان الخير الإلهى من حيث لا يحس على وجه لا يحصى ولا يحصر، قيل لكل من يشاهد منه زيادة غير محسوسة: مبارك وفيه بركة. **(ثم عاد ميتا كما كان)** قبل تكلمه حين سجى وكفن.

فإن قلت: المقام والفصل معقود لذكر معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم بإحياء الموتى وإنطاق من ليس من أهل النطق له، وما فى هذا الحديث ليس كذلك.

قلت: هو من أمته صلى الله تعالى عليه وسلم وصحابته، وكلامه بعد موته كرامة له وكرامات الأمة من جملة كراماته، وقد يقال: إنه دليل على ما قبله ومؤكد له؛ لأنه إذا كان فى أمته من يصدر عنه مثله، فكيف لا يصدر عنه صلى الله تعالى عليه وسلم؟.

* * *

[فصل من معجزاته ﷺ فى إبراء المرضى وذوى العاهات]

(فصل) من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم **(فى إبراء المرضى)** جمع مريض كقتلى وقتيل، وإبراؤهم زوال مرضهم وحصول شفاء لهم، وأصل البرء والبرأة والتبرى والتفصى مما يكره؛ ولذلك قيل: برئت من المرض إذا خلصت منه، **(وذوى العاهات)** جمع عاهة، وهى الآفة، ويقال: عاه الزرع إذا أصابته العاهة، والعاهة قد تخص بالأمراض المزمنة وقد لا تخص بها، فتكون الأمراض ما يعرض مما لم يزمن كالحميات ونحوه فتكون أتم فائدة، وهو المراد هنا، فليس من عطف المترادفين، وتطلق العامة على بعض الأعضاء كالشلل والعرج والعمى، وقد يكون بعضها خلقيا أيضًا، وهذا هو المعروف.

(أخبرنا أبو الحسن على بن مشرف فيما أجازنيه وقرأته على غيره) تقدم الكلام على هذا، وعلى معنى الإجازة قال:**(حدثنا أبو إسحاق الحبال)** بحاء مهملة وموحدة مشددة كما تقدم فى ترجمته قال:**(حدثنا أبو محمد بن النحاس)** بحاء مهملة أيضًا كما تقدم قال:**(حدثنا ابن الورد)** عبد الله بن جعفر بن محمد بن الورد بن زنجويه راوى سيرة ابن

هشام **(عن البرقى)** هو أبو سعيد عبد الرحيم بن عبد الله بن عبد الرحيم بن أبى ذرعة البغدادى الزهرى مولاهم، المعروف بابن البرقى نسبة لبرقة اسم مكان **(عن ابن هشام)** أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الإمام الأديب النحوى صاحب السير، وهو حميرى معافرى بصرى، وسكن مصر وتوفى بها سنة ثلاث عشرة ومائتين، وله تآليف نفيسة ككتاب الأنساب وغريب أشعار السير وغيره كما فصله ابن خلكان، وفى تاريخ وفاته اختلاف **(عن زياد البكائى)** بفتح الموحدة وتشديد الكاف والمد، وهو ربيعة بن عامر بن صعصعة سمى البكائى؛ لأنه دخل على أمه فرآها تحت أبيه وهو صغير، فخرج يصيح ويقول: إن أبى قتل أمى توفى سنة ثلاث وثمانين ومائة، وروى له أصحاب السنن وترجمته فى الميزان مفصلة **(عن محمد بن إسحاق)** الإمام صاحب المغازى والسير كما تقدم **(حدثنا ابن شهاب)** محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهرى شيخ ابن إسحاق الإمام المشهور كما تقدم، ووقع فى بعض النسخ هنا ابن هشام، وهو غلط من الناسخ كما فى المقتفى، **(وعاصم بن عمر بن قتادة)** بن النعمان الظفرى الثقة إمام رواة المغازى توفى سنة تسع أو سبع وعشرين أو عشرين فقط ومائة، أخرج له الستة وترجمته فى الميزان، **(وجماعة ذكرهم)** فاعل ذكرهم لابن شهاب الزهرى **(بقضية أحد بطولها)** متعلق بذكرهم، والباء بمعنى فى، وقضية أحد غزاتها وما وقع فيها **(قال: وقالوا)** أى الجماعة المذكورون الذين رووا هذا الحديث من طريق ابن إسحاق التى أسندها المصنف، رحمه الله، عنهم ورواه البيهقى أيضًا **(قال سعد بن أبى وقاص)** الصحابى المشهور، رضى الله تعالى عنه، فى قصة أحد التى رواها بطولها (: **إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليناولنى)** أى يعطينى بيده، وهو معنى المناولة ومنه النوال بمعنى العطية **(السهم الذى لا نصل له)** بفتح النون وسكون الصاد المهملة قبل لام، وهو حديدة فى طرف السهم والرمح، وفى بعض النسخ نضل بضاد معجمة بدل الصاد، قال: قال البرهان: والصحيح الأول، والثانى لا يتضح معناه ولا يستعمل، قلت: هو بعيد هنا رواية ودراية، وكأنه من تحريف النساخ، إلا أن معناه صحيح أيضًا لأن النضل رمى السهام، فالمعنى أنه ليس مما يرمى به لأنه لا نصل له فيئول إلى الرواية الأخرى، وإن كان لا وجه له هنا، **(فيقول)** رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لسعد بعد مناولته السهم له: **(ارم به)** بكسر الهمزة والميم أمر من الرمى، والضمير للسهم، وفى الكلام مقدر أى فيرمى به ويقتل من أصابه سهمه مع أنه لا نصل له، ومثله لا يقتل عادة، وهذه معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم؛ ولذا ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، وإن لم يكن محل الشاهد.

(وقد رمى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يومئذ) أى يوم أحد **(عن قوسه)** يقال: رمى عن قوسه وبقوسه لا قوسه **(حتى اندقت)** أى انكسرت، والقوس مؤنثة

سماعية، وأصل معنى الدق الرض بجرم صلب **(وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان)** أصيبت مبنى للمجهول :أى أصابها سهم، فأخرجها وأذهبها وروى أصيب بدون تأنيث للتأويل بالعضو أو للفاصل بينهما **(حتى وقعت)** عينه **(على وجنته)** الوجنة أعلى الخد، وما يلى العين من الوجه، ويطلق على الخد كله، **(فردها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بيده)**، أى أعاد حدقة عينه التى سالت لمكانها، **(فكانت)** العين المردودة بيده صلى الله تعالى عليه وسلم **(أحسن عينيه)** أى أجملهما وأقواهما حسنًا أى أحسن من عينيه اللتين كانتا له قبل ما أصيب وردت عينه، فلا يرد عليه أن الشىء لا يكون أحسن من نفسه، وقوله:أصيبت عينه: ظاهره أنما أصيبت عين واحدة، وهو كذلك عند الأكثر، وروى أن عينيه أصيبتا، فيكون من التعبير عن العضوين المتفقين ذاتا وصفة واسما بأحدهما، وهو فصيح مشهور كما يقال: نظر بعينه ومشى بقدمه كما قرره النحاة، وقالوا: إنه حقيقة مشهورة.

وروى أن عاصم بن عمر بن قتادة وفد على عمر بن عبد العزيز، رضى الله تعالى عنه، فقال له: من أنت؟ فقال بديهة:

أنا ابن الذى سالت على الخد عينه فردت بكف المصطفى أيما رد
فعادت كما كانت لأول أمرها فيا حسن ما عين ويا حسن مارد

فقال عمر:

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وروى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال له:إن شئت رددتها لك وإن شئت فاصبر ولك الجنة.فقال: يا رسول الله إن الجنة لعطاء جزيل جميل، ولكنى أكره العور، فردها واسأل الله تعالى لى الجنة، فردها ودعا له.

وكان لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قسى اختلف أهل السير فى عدها، فقيل: سبع، وقيل: ست، وهى الروحاء والصفراء من بتع، والبيضاء من شوحط، والزوراء والكتوم سميت به لعدم صوت لها، والسداد، ورند الرنان لصوتها، والتى انكسرت بأحد هى الكتوم كما فى الهدى النبوى والكلام على قسيه صلى الله تعالى عليه وسلم ومن أين صارت، وتوجيه تسميتها مذكور فى السير وشروحها.

(وروى قصة قتادة) المذكور فيها رد عينه، وهى قصة فيها طول اقتصر المصنف منها على محل الشاهد، وذكر أولها لما فيها من المعجزة أيضًا.

(عاصم بن عمر بن قتادة) صاحب القصة، **(ويزيد بن عمر بن قتادة)** كذا فى النسخ كما قاله البرهان الحلبى، والصواب يزيد بن عياض عن ابن عمر بن قتادة، ففيه سقط

لأن عاصما شيخ يزيد أو سقط عن عاصم ويزيد بن عياض الليثى الحجازى حدث عن نافع إلى آخره، و كذا وقع فى نسخة على الصواب.

(ورواها أبو سعيد الخدرى عن قتادة)، رضى الله تعالى عنه، وأبو سعيد هو أخو قتادة لأمة، وقتادة بن النعمان أنصارى أوسى، وشهد مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بدرًا وأُحُدًا وغيرهما من المشاهد، وكانت واقعته يوم أُحُد، وقيل: يوم بدر وقيل: يوم الخندق، والصحيح الأول كما قاله ابن عبد البر، وقد اختلف كما مر هل قلعت عينه أو عيناه؟ والمشهور الأول، ووقع الثانى مصرحاً به فى بعض الروايات أيضًا كما رواه أبو نعيم الأصبهانى، ونقله السهيلى.

وقال الدارقطنى: إنه غريب تفرد به عمار بن نصر عن مالك وهو ثقة، قال ابن حجر فى شرح الهمزية: وهى زيادة ثقة فتقبل، وترجح به رواية الثنتين وهو رد على من قال:إن هذه الرواية غلط، وفيه نظر وقد اختلف أيضًا: هل انفصلت أو لا؟ فقيل: إنها بقيت معلقة، وقيل: سقطت فأتى بها أوبهما فى كفه، فقال له رسول الله: إن شئت فاصبر ولك الجنة، وإن شئت رددتها، فقال :يا رسول الله إنى محب للنساء وعندى امرأة أحبها فأخشى أن تعذرنى، فردها وادع الله لى بالجنة، ففعل فكانت أقوى عينيه وأحسنهما، وتوفى وهو ابن خمس وستين سنة ثلاث وعشرين وصلى عليه عمر، رضى الله تعالى عنهما.

(و) روى البيهقى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم **(بصق على أثر سهم)** أى جعل ريقه وما فيه على جراحة **(فى وجه أبى قتادة)** الحارث بن ربعى الأنصارى السلمى الصحابى توفى بالمدينة وهو ابن أربع وخمسين، وقيل: ابن سبعين، وفى وجه ظرف لغو متعلق بقوله: بصق أومستقر حال أوصفة لسهم **(فى يوم ذى قرد)** بقاف وراء مفتوحتين ودال مهملتين، وروى بضمتين كحبك، وهو اسم ماء بينه وبين المدينة مسافة يوم وليلتين من جهة خيبر.

والقرد: الوبر والصوف الردى المتجعد، فسمى به؛ لأنه معاطن فيها ذلك، أولكثرة طحلبه الشبيه به واليوم هنا بمعنى الغزوكما يقال: أيام العرب وقد تقدم.

ويقال: ذو القرد معرفا، وهى غزوة تسمى أيضًا غزوة الغابة، وكانت قبل الحديبية، وقيل: بعدها، ورده فى الهدى النبوى والقرطبى فى شرح مسلم، وسببها أنه كان لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لقاحا يرعى بالغابة، فيها ابن أبى ذر وامرأة من غفار، فأغار عليها عيينة بن حصن الفزارى فى أربعين فارساً فاستاقوها وقتلوا ابن أبى ذر، وسبوا المرأة فركبت المرأة ناقة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على غفلة

منهم، ونذرت إن نجت لتنحرنها فنجت، فأخبرت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك فقال: لا نذر فى معصية الله ولا لأحد فيما لا يملك(١)، وركب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ونودى: يا خيل الله اركبى، وكان أول ما نودى به فأدركهم فى خمسمائة، وقيل: سبعمائة فاستنقذ منهم عشرا وفروا بباقيهاكما فصل فى السير.

(قال) أبو قتادة: **(فما ضرب)** الجرح وأثر السهم، **(على)** أىما آلمنى ولا أوجعنى ضربانه، ولا سلط على ضربانه من الضربان، يقال: ضرب الدهر بمعنى ألم **(ولا قاح)**: أى سال منه قيح ومدة، يقال: قاح يقيح وتقيح والقيح صديد وهو شىء كالماء أصفر يخالطة قليل من دم، وهذا حديث حسن صحيح رواه الترمذى والبيهقى.

(وروى النسائى)، والترمذى، والحاكم، والبيهقى وصححوه، والنسائى بالهمزة، نسبة لنساء بلدة، ويقال: نسوى بالواو أيضًا هو أبو عبد الرحمن بن أحمد بن شعيب بن على بن سنان الإمام المشهور صاحب السنن، توفى سنة ثلاث وثلاثمائة على الأصح وله ثمان وثمانون و لم يتأخر عن الثلاث مائة من أصحاب السنن غيره **(عن عثمان بن حنيف)** بضم الحاء المهملة ونون وفاء مصغر، وهو أخو عباد وسهل ابنا وهب، وله صحبة ورواية، وروى عنه أحمد وأصحاب السنن، وهو من الأشراف، ولى سواد العراق والبصرة وعاش إلى زمن معاوية وسنقرر هذا الحديث قريبا إلاأن البرهان قال:كان ينبغى للقاضىأن يذكر سنده، ليعلم أنه صحابى لئلا يتوهم أن النسائى سمع منه ومثله سهل **(أن أعمى)** لم يذكروا اسمه **(قال: يا رسول الله ادع الله لى وأن يكشف عن بصرى)** المعنى أن يدعو له بأن يصح بصره ويزيل الله عنه العمى، فعبر عنه بالكشف وهو إزالة الغطاء، فإما أن يكون على بصره غشاوة وجلدة رقيقة طلب إزالتهما، أو شبه عدم الرؤية بحجاب حائل بينه وبين المبصرات، والرؤية بإزالته ففيه استعارة.

(فقال) له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم آمرًا له: **(انطلق)** أى قم من مجلسك هذا، **(فتوضأ)** أمر بالوضوء، **(ثم صل ركعتين)** نافلة، وتسمى صلاة الحاجة، ومنه أخذ أن كل من أهمه أمر ينبغى له ويستحب أن يصلى قبل الدعاء تقربا إلى الله، **(ثم قل: اللهم)** أى يا الله والكلام عليه مشهور ذكرناه فى غير هذا المحل **(إنى أسألك)** وأطلب منك حاجتى هذه **(وأتوجه إليك)** أصل معنى التوجه المقابلة بالوجه، فأريد الإخلاص فى القصة للدعاء والتوسل **(بنبيك)** وفى بعض النسخ: بنبيى بالإضافة إلى ياء المتكلم **(محمد نبى الرحمة)** بدل من نبيك أو عطف بيان، وقد تقدم معناه ثم التفت من خطابه لله تعالى

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٤١)، والترمذى (١٥٢٤)، والنسائى (٢٩/٧)، وابن ماجه (٢١٢٤)، والدارقطنى (١٦/٤)، والبيهقى (٦٩/١٠).

إلى خطاب نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه واسطة فى كل ما يصل من الإحسان والفيض الإلهى، **(يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربك)** أى أتوسل بك فيما طلبته من الله، وهو **(أن يكشف عن بصرى)** حجابه المانع له من الرؤية، وفيه مقدر أى فدعا فأبصر، ونداؤه صلى الله تعالى عليه وسلم باسمه إنما يحرم إذا كان بحضرته، وإذا لم يكن فى الدعاء مأثورا مر به كما هنا لقوله تعالى: **(قل اللهم)** إلى آخره، فإن امتثال الأمر هو عين الأدب كما ذكره ابن حجر، فما قيل: إن نداءه صلى الله تعالى عليه وسلم باسمه لعله كان قبل علمه تحريمه، أو قبل تحريمه بقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] ليس بظاهر، وعدل صلى الله تعالى عليه وسلم عن دعائه له بأمره أن يدعو لنفسه؛ تعليمًا وإرشادًا لأمته وتواضعًا وتأدبًا مع الله تعالى، وهذا الحديث مسند صحيح أخرجه الترمذى والحاكم وغيرهما، وكان ابن حنيف وبنوه يعلمونه الناس، وقد حكى فيه إجابة دعاء من دعا به من غير تأخر، وقد أخرجه البرهان الحلبى من طرق متعددة، فلم يبق فيه شبهة فاحفظه، **(اللهم شفعه)** أى اقبل شفاعته **(فى)** وهو يحتمل أن يريد شفاعته صلى الله تعالى عليه وسلم فيه فى الدنيا برد بصره، أو شفاعته له فى الآخرة، أو ما يشملهما وهذا أولى، ومنه علم استحباب الدعاء عقب الصلاة.

(وروى) بالبناء للمجهول، والراوى له الواقدى، وأبو نعيم، عن عروة **(أن ابن ملاعب الأسنة)** قال البرهان الحلبى: إن ابن ملاعب الأسنة لا يعرف اسمه ولا ترجمته، وأما ملاعب الأسنة فهو عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة سمى ملاعب الأسنة جمع سنان، وهو حديد فى طرف الرمح يعد للطعن ويقال له: ملاعب الرماح، سمى بذلك لأنه فى يوم سوبان بزنة طوفان، وهو يوم كان فيه بين قيس وتميم وقعة، وكان أخوه طفيل بن مالك فارس قرزل، وهو اسم فرس له فر فى ذلك اليوم، فقال فيه الشاعر :

فررت وأسلمت ابن مالك عامرا يلاعب أطراف الوشيح المزعزع

فسمى بذلك ملاعب الرماح وملاعب الأسنة، وهو عم لبيد وهو أبو براء عامر، وذكره بعضهم فى الصحابة، وقال الذهبى: الأصح أنه لم يسلم؛ لأنه قدم المدينة وعرض عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الإسلام فلم يسلم، وهو عم لبيد بن ربيعة المسمى بربيعة الفرس.

(أصابه استسقاء) أصل معناه طلب السقى، وهواسم مرض معروف قال فى الأساس: سقى بطنه واستسقى، وبه سقى بكسر السين، وهو أن يقع الماء الأصفر فى بطنه،

انتهى. وهو مرض علاجة صعب لا يكاد ينجو من أصابه منه.

(فبعث إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم) قاصدا يلتمس منه الدعاء، وأن يشفيه الله ببركته، وهذا يدل على أنه أسلم بخلاف أبيه كما مر، **(فأخذ)** صلى الله تعالى عليه وسلم لما قص عليه قاصده أمره **(بيده)** الشريفة **(حثوة من الأرض)** بفتح الحاء المهملة وسكون المثلثة ويقال حثية بالياء أيضًا، وهو ملء يده أو يديه وهو من التراب هنا، **(فتفل)** بفتح المثناة الفوقية والفاء وفى نسخة بصق **(عليها)** أى الحثوة من ماء فمه المبارك، **(ثم أعطاها)** أى حثوة التراب **(رسوله)** الذى أرسله للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم **(فأخذها متعجبا)** مما أعطاه، وأن مثله لا يداوى به الاستسقاء بل يزيده؛ لأن مبدأه سدة فى الجوف، والتراب يزيدها كما يشاهد ممن يأكل الطين **(يرى)** بفتح الياء وضمها أى يظن **(أن قد هزئ به)** الضمير للرسول أو لمرسله، وهزئ بالبناء للمجهول ويجوز فيه بناء الفاعل أيضًا، **(فأتاه بها)** أى بالحثوة **(وهو)** أى ابن ملاعب الأسنة على **(شفا)** بفتح الشين المعجمة والفاء مقصور: أى قريب من الموت، وأصل الشفا مكان متصل بحفرة كالبئر قال تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩]، ويجوز أن يراد به الكناية عن الموت، و يراد بالحفرة القبر، والجملة حالية وبينه وبين قوله: **(فشربها فشفاه الله)** تجنيس بديع: أى وضعها فى ماء وشربها، فشفاه الله ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم **(وذكر العقيلى)** بالتصغير، وهو الإمام الحافظ أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد المكى صاحب كتاب الضعفاء الذى رتبه الهيثمى، وهو ثقة جليل توفى سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة.

(عن حبيب بن فديك) حبيب بفتح الحاء المهملة وبموحدتين بينهما ياء مثناة تحتية، وقيل: إنه بخاء معجمة مضمومة، وفديك، وقيل: فويك بضم الفاء ودال مهملة مفتوحة مصغر وكاف، وقيل: إنه بواو بدل الدال، وقيل: براء مهملة ذكره الذهبى فى الصحابة، وقيل: إنه حبيب بن عمرو بن فديك السلامانى، وقد اضطرب فيه وفى اسمه، وأخرج حديثه هذا البيهقى والطبرانى وابن أبى شيبة فى مسنده عن رجل من بنى سلامان عن أمه أن خالها حبيب بن فديك حدثها أن أباه خرج به إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعيناه مبيضتان، فسأله: ما أصابه؟ فقال: كنت أقود جملا لى فوقعت رجلى على بيض حية فأصبت فى بصرى، فلا أبصر شيئًا[1]، وإلى بعض ما ذكر من الاختلاف فى اسمه أشار بقوله:**(ويقال فويك)** بواو أو براء بدل الدال **(أن أباه أبيضت عيناه)** لغشاوة غطتهما أو هو عبارة عن العمى، **(فكان لا يبصر بهما شيئًا فنفث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)** بالمثلثة أى تفعل ريقه **(فى عينيه فأبصر)** بهما وذهب عنه عماه فى

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة (٤٠٢/٧، ٥١٢/١١).

ساعته، (**فرأيته يدخل الخيط فى الإبرة**) لقوة بصره وصحته، (**وهو ابن ثمانين سنة**) وهو من يضعف فيه بصر مثله، وإن لم يعرض له عارض وليس فى الحديث أن البياض لم يزل بعينه مع شدة نظره وقوته وأنه أعظم فى المعجزة كما قيل؛ لاحتمال أن البياض زال ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم و لم يصرح به؛ لأنه معلوم.

(**ورمى**) بالبناء للمجهول (**كلثوم بن الحصين**) بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين ونون مصغر حصن، وهو أبو رهم الغفارى الصحابى، وهو من أصحاب الشجرة وشهد أحدًا واستخلفه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عام الفتح (**يوم أحد**) لما وقع السهم فى نحره وخشى الموت من وقوع السهم (**فى نحره**) أى مقدم عنقه عند حبل الوريد الذى لا يعيش من جرح به، (**فبصق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيه**) أى فى نحره ومحل جراحته، (**فبرأ**) بفتحات وهمزة مقصورة آخره، ويقال: برئ أيضًا بزنة علم وضرب كما قاله ابن السكيت: أى حصل له البرء من حينه، وهذا الحديث لم يخرجوه.

(**و**) روى الطبرانى حديثًا مسندًا فيه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم (**تفل**) بتاء مثناة وفاء ولام مفتوحات أى بصق (**على شجة عبد الله بن أنيس**) الشجة بفتح الشين المعجمة والجيم المشددة: جراحة ضربة فى الوجه أو الرأس، وقد تطلق على ما فى غيرهما من الجسد، والمعروف الأول.

وأنيس مصغر ابن أسعد بن حرام بن مالك بن غنم بن كعب الجهنى الأنصارى الصحابى شهد أحدًا، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم بعثه مع عبد الله بن رواحة ونفر من الصحابة إلى اليسير بن رزام بخيبر لما جمع جمعًا من غطفان لغزو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا له: إن قدمت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أكرمك، فلم يزالوا به حتى خرج معهم، فحمله ابن أنيس على بعيره حتى كانوا بالقرقرة بقرب خيبر ندم ففطن له ابن أنيس وضربه بسيفه فقطع رجله، وضرب اليسير ابن أنيس بعصاه فشجه، فلما قدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تفل فى شجته، (**فلم تمد**) بضم المثناة الفوقية وكسر الميم وتشديد الدال المهملة المفتوحة، أى لم يبق فيها مدة وقيح، يقال: أمد الجرح إذا صارت فيه مدة وهى القيح كما فى الصحاح وغيره والمدة بكسر الميم.

(**وتفل فى عينى على**) بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنه، فى حديث رواه الشيخان عن سهل بن سعد (**يوم خيبر وكان رمدا**) بزنة حذر منصوب منون: أى به رمد، والرمد وجع العين، (**فأصبح بارئا**) أى صار بارئا فى الحال لا أنه تأخر برؤه إلى وقت الصباح، وأصبح له معنيان هذا أحدهما، والحديث بتمامه فى الصحيحين وغيرهما.

وفى دلائل البيهقى عن بريدة كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ربما أخذته الحمى، فيمكث اليوم أو اليومين لا يخرج، فلما نزل خيبر أخذته، فلم يخرج، فأخذ أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، الراية وقاتل قتالاً شديدًا، ثم أخذها عمر، رضى الله تعالى عنه، وقاتل، فلما خرج وأخبر بذلك قال: «لأعطينها غدًا رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، فتطاول الناس لذلك فأصبح وجاء على وقد عصب عينيه، فقال: ادن إلىّ وتفل فى عينيه، ففتحهما وأعطاه الراية»(١).

وروى أنه وضع رأسه فى حجره، ثم بصق فى راحتيه ودلك بهما عينيه، والحديث طويل والكلام عليه وعلى الاستدلال به لتفضيل علىّ مشهور غير محتاج للبيان.

(و) فى صحيح البخارى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم **(نفث على ضربة بساق سلمة بن الأكوع يوم خيبر فبرئت)** من حينها، والضمير للساق لأنها مؤنث سماعا أو للضربة وبرؤها بذهاب أثر الجراحة والتحامها.

(و) روى عبد بن حميد فى تفسيره أنه صلى الله تعالى عليه وسلم نفث **(فى)** جراحة **(رجل زيد بن معاذ)**: أى جعل ريقه عليها **(حين أصابها السيف إلى الكعب حين قتل ابن الأشرف فبرأت)** رجله أو جراحتها، واعتراض البرهان الحلبى على المصنف بأن قصة كعب بن الأشرف مقررة فى السير، ورواها مسلم فى الجهاد كغيره، وذكروا الجماعة الذين اشتركوا فى قتله بأسمائهم، وليس فيهم من اسمه زيد بن معاذ، بل لا يعرف فى الصحابة من اسمه زيد بن معاذ إلا أن يكون نسبه إلى أحد أجداده وإلى جد أعلى له، وهو خلاف الظاهر، والجرح الذى فى رأسه أو رجله على الشك من الراوى فى قصة كعب إنما هو الحارث بن أوس بن معاذ بن النعمان بن أخى سعد بن معاذ الأشهلى، وقد سمى البخارى الذين قتلوا كعبا، وسمى منهم الحارث بن أوس بن سعد بن النعمان، وهو الذى تفل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على جرحه، وقيل: هو الحارث بن أوس بن النعمان، وقيل: هما واحد.

وقال التلمسانى: إن العزيزى نقل فى تفسيره فى سورة الحشر ما ذكره المصنف بعينه، وقال: إنه زيد بن معاذ وهو ابن أخى سعد بن معاذ فالمصنف لم يقل ما قاله إلا عن تحقيق وقع له، ولا يخفى ما فيه فإنه مصادم للنقول الصريحة، ومثله لا يقال بسلامة الأمير.

وكعب بن الأشرف بزنة أفعل التفضيل من الشرف يهودى من بنى نبهان، وقصته كما فى السير أنه لما أصيب أصحاب القليب من كفار قريش وبلغه الخبر، قال: إن كان

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤/٢١١).

محمد أصاب هؤلاء لبطن الأرض خير من ظهرها، فلما تحقق الخبر خرج لمكة يحرض الكفار على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ويبكى أصحاب القليب ويرثيهم بشعره تارة، وتارة يشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: من لابن الأشرف؟ فإنه آذى الله ورسوله، فقال محمد بن مسلمة أخو بنى عبد الأشهل: أنا لك به يا رسول الله.

قال: فافعل إن قدرت، فرجع وأقام ثلاثًا لا يأكل الطعام ولا يشرب، فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم: لم تركت الطعام والشراب؟ قال: قلت قولا لا أدرى أفى به أم لا؟ قال: عليك الجهد، فقال:لابد أن نقول.

فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: قولوا ما بدا لكم فأنتم فى حل من ذلك. فاجتمع فى قتله محمد بن مسلمة، وسلكان بن سلامة أبو نائلة الأشهلى، وكان أخا ابن الأشرف من الرضاعة، وعباد بن بشر وقيس، وأبو عبس بن جبير، ثم قدموا إلى عدو الله، فتقدم ابن سلامة رضيعه وتحدث معه وناشده الأشعار، وكان شاعرا، ثم قال له: ويحك يا ابن الأشرف إنى جئتك لحاجة أذكرها لك فاكتمها، قال: أفعل، قال:كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء، عادتنا العرب، ورمتنا عن قوس واحدة، وانقطعت عنا السبل حتى ضاعت العيال وجهدت الأنفس، فقال كعب: قد أخبرتك أن الأمر سيصير لما أقول.

فقال: إنا لا نحب أن ندعه حتى ننظر لِمَ يصير شأنه وإنى قد جئتك أستسلفك، وقال الدمياطى: الذى تحدث معه أبو نائلة وهو الذى نزل له كعب من حصنه، فلما استسلفه، وقال له: نرهنك ما تثق به، قال: ارهنوا أبناءكم ونساءكم. قال: أردت أن تفضحنا فأنت أشب أهل يثرب وأعطرهم، ولكن نرهنك الحلقة والسلاح، فقال: إن فيها الوفاء وأراد أن لا ينكر بجيئهم مسلحين ولى أصحاب جاءوا لذلك، فرجع إلى أصحابه وأمرهم أن يأخذوا السلاح ويجتمعوا إليه، فلما قفلوا شيعهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى البقيع فى ليلة مقمرة، فلما انتهوا إلى حصنه هتف به أبو نائلة وكان كعب حديث عهد بعرس، فقالت له امرأته: إنك رجل محارب لا ينبغى لك الخروج فى مثل هذا الوقت، وإن فى الصوت لسوء، وإنه صوت يقطر منه الدم، فقال: إن الكريم لو دعى لطعنة ليلا أجاب.

والبلاء موكل بالمنطق

فقال لها: إنه أبو نائلة لو وجدنى نائما ما أيقظنى، ونزل لهم فى ملحفة، فتحدثوا معه، ثم قالوا: نمشى لشعب العجوز نتحدث بقية ليلتنا. قال: إن شئتم فتماشوا ساعة، ثم وضع أبو نائلة يده على رأسه ثم شمها، وقال: ما رأيت كالليلة طيبا أعطر من هذا، ثم

تماشى ساعة وفعل مثل ذلك، ثم أخذ بفود رأسه وقال: اضربوا عدوا الله، فصاح صيحة أشرف عليه أهل الحصون، فلما قتلوه أتوا برأسه، ويقال: إنها أول رأس حملت فى الإسلام، وقيل: بل هى رأس أبى عزة الجمحى، وقيل: رأس عمرو بن الحمق، فأصاب الحارث بن أوس سيف من أصحابه برجله، فأبطأ عليهم ثم أتاهم يتحامل، فحملوه آخر الليل وأتوا به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يصلى، فأخبروه بقتله وجراحة صاحبهم، فتفل على جراحته كما ذكره المصنف على ما فيه[1].

وفى هذه القصة إشكال مشهور، وهو أنهم تكلموا فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم بما لا يجوز مما ظاهره ومثله كفر، ولا إكراه فيه.

وقد أجاب عنه الفقهاء وغيرهم بأنه لم يقصد ظاهره، وهو من المعاريض التى تجوز لمصلحة، وإذا تأملت ما قالوه تجده يحتمل المدح، وقد أذن لهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيه، وسيأتى تفصيله فى محله آخر الكتاب إن شاء الله تعالى، وفى قوله: إلى الكعب نكتة يعنى أن صدمة السيف امتدت إلى أن وصلت إلى كعبه، وكأنه قصد تجنيسا لأن ابن الأشرف اسمه كعب كما علمت، فكأنه قال: جرح إلى الكعب فى قصة كعب، وعلى كل حال فكلامه هنا فيه ما فيه فتأمل.

(و) نفث **(على ساق علىّ بن الحكم يوم الخندق)** علىٌّ هذا صحابى، وهو أخو معاوية بن الحكم السلمى، وهذا الحديث أخرجه أبو القاسم البغوى فى معجمه كما قاله السيوطى، ويوم الخندق هذا كان فى غزوة الأحزاب سمى به لأن سلمان، رضى الله تعالى عنه، أشار على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بحفر خندق حول المدينة، ولم تكن العرب تعرف ذلك، وإنما كان يعمله ملوك الفرس.

قال الطبرى: إن أول من عمله منوشهر بن إيدج بن فريدون، وهم يزعمون أن فريدون ابن إسحاق وأكثرهم على خلافه، وخندق معرب كندة، ومعناه الحفر وهو من الألفاظ الإسلامية **(إذ انكسرت)** أى ساقه لأنها مؤنثة، وهى ما بين القدم والركبة، **(فبرئ)** أى صح وزال ما به من الكسر، ويقال: برئ كعلم وبرأ كضرب وآخره مهموز **(مكانه)** بالنصب على الظرفية: أى كائنا فى مكانه وسرجه الذى ركب عليه، **(وما نزل عن فرسه)** الذى كان عليه لما جاءه يستشفيه.

قال أبو القاسم البغوى بإسناده عن معاوية بن الحكم عن أبيه قال: كنا مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأنزل أخى على بن الحكم فرسًا له الخندق، فأصاب رجله جدار الخندق، فدقها فأتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وما نزل عن فرسه، فمسحها له،

---

(١) أورد القصة بتمامها ابن كثير فى البداية والنهاية (٤/٧)

وقال: بسم الله فما آذاه شيء منها وقد عده أبو حاتم البغوى فى الثقات.

(و) روى البيهقى فى الدلائل عن على بن أبى طالب، كرم الله وجهه، ورضى الله تعالى عنه، قال: (**اشتكى على بن أبى طالب**) رضى الله تعالى عنه مرضًا، والمرض يسمى شكاة، (**فجعل يدعو**) الله تعالى لما ضجر كما سيأتى، (**فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم**) لما سمعه:(**اللهم اشفه أو عافه**) شك من الراوى فى لفظه والمعنى واحد، (**ثم ضربه برجله**) ليقوم من مضجعه، (و) قام و(**ما اشتكى ذلك الوجع بعد**) مبنى على الضم أى بعد ضربه أو دعائه أو هما، ولفظ البيهقى عن عبد الله بن سلمة قال: سمعت عليا، رضى الله تعالى عنه، يقول: أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأنا شاك أقول: اللهم إن كان أجلى قد حضر فأرحنى، وإن كان متأخرًا فاشفنى، وأن كان بلاء فصبرنى فضربنى برجله، وقال: كيف قلت؟ فأعدت عليه، فقال: اللهم اشفه أو قال: اللهم عافه، قال على، رضى الله تعالىعنه: فما اشتكيت وجعى ذلك بعد.

(**وقطع أبو جهل يوم بدر**) اعترض على المصنف، رحمه الله تعالى، بأن المعروف أن القاطع عكرمة بن أبى جهل لا هو، وأن المقطوع معاذ بن عمرو بن الجموح حين ضرب أباه، وقد نقله ابن سيد الناس عن المصنف، رحمه الله، (**يد معوذ**) بضم الميم وفتح العين المهملة وتشديد الواو المكسورة وتفتح وذال معجمة (**ابن عفراء**) بعين مهملة وفاء ساكنة وراء مهملة ومدة اسم أمه، وهو من جملة شهداء بدر، وهم أربعة عشر، ومعوذ بن الحارث بن رفاعة النجارى الأنصارى، رضى الله تعالى عنه، وعفراء بنت عبيد بن ثعلبة النجارية، وعرف بأمه هو وأخواه معاذ وعوف، شهدوا بدراً فاستشهد عوف ومعوذ بها، وبقى معاذ بن عفراء إلى زمن عثمان بن عفان، رضى الله تعالى عنه، والذى فى سيرة ابن سيد الناس أن معاذ بن عفراء قتل أبا جهل، فضربه ابنه عكرمة على عاتقه وطرح يده، وتعلقت بجلدة من جنبه وأجهضه القتال، فقاتل يومه وهو يسحب يده خلفه، فلما آذته وضع عليها قدمه فقطعها.

(**فجاء يحمل يده، فبصق عليها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وألصقها فلصقت**) كما كانت فى مكانها ببركته وبركة ريقه الشريف الذى تفله عليها، وهذا لا ينافى كونه فعل الله تعالى، ولا حاجة لذكر مثله.

(**رواه ابن وهب**) وقد علمت ما يخالفه مما رواه ابن إسحاق، وصححه ابن سيد الناس، والمصنف، رحمه الله تعالى، فى غير هذا الكتاب، وقيل: إن ابن وهب لا شك فى جلالته، فما رواه يخالف ما قاله ابن إسحاق لجواز كون معاذ قطعت يده أيضًا، وعكرمة قطع يد أخيه معاذ و أبو جهل نفسه قطع يد معوذ وألصقها له رسول الله صلى الله تعالى

عليه وسلم، ثم قتل، وهذا من غير نقل صريح لا يقبل مثله بمجرد الاحتمال، فلا ينبغى ذكره من غير تثبت.

(ومن روايته) أى رواية ابن وهب التى رواها ابن إسحاق والبيهقى عنه كما نقله السيوطى **(أيضًا)** كروايته الأولى **(أو خبيب)** بالتصغير وخاء معجمة وموحدتين تصغير خب وهو المغفل **(ابن يساف)** بكسر الياء آخر الحروف وسين مهملة وألف وفاء ويقال: إساف بهمزة مكسورة **(أصيب)** بالبناء للمجهول أى أصابته ضربة سيف **(يوم بدر مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بضربة على عاتقه)** وكتفه، **(حتى مال شقه)** الذى أصابته الضربة بقطع يده وانفصالها عن عاتقه من غير انفصالها، **(فرده رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)**: أى رد عضوه إلى مكانه الذى كان فيه، **(ونفث عليه حتى صح)** أى التأم وعاد كما كان فيه، ويساف هو ابن عيينة بن عمرو الخزرجى شهد ابنه حبيب بدرًا وأحدًا، وكان بالمدينة حين قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وتأخر إسلامه حتى سار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى بدر، فلحقه وأسلم وشهد بدرًا، فضربه رجل على عاتقه يومئذ فمال شقه، فأتاه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فتفل عليه ورده، فالتأم فانطلق وقتل الذى ضربه وتزوج ابنته بعد ذلك، فكانت تقول: لا عدمت رجلاً وشحك هذا الوشاح، يعنى الضربة التى فى محل الوشاح، فيقول: لا عدمت رجلاً عجل أباك إلى النار، وإلى ذلك أشار المصنف بما ذكر.

(و) ورى ابن أبى شيبة عن أم جندب أنه صلى الله تعالى عليه وسلم **(أتته امرأة من خثعم)** بخاء معجمة ومثلثة وعين مهملة وميم بزنة جعفر اسم جبل واسم قبيلة نزلت عنده منها هذه المرأة لأنها كانت نازلة بالجبل كما توهم **(معها صبى)** وهو ابنها **(به بلاء)**، وهو ما يبتلى به الناس، وفسره بقوله: **(لا يتكلم)** فإن كان بمعنى لا يقدر على الكلام فبلاؤه أنه كان أخرس أو أبكم، وإن كان بمعنى أنه به ذهول وعدم عقل للكلام، فهو مستأنف، وهذا هو المراد كما سيأتى **(فأتى بماء)** بالبناء للمجهول أى أمر من يأتيه بماء فى إناء فأتاه به، **(فمضمض فاه)** مضمض متعد وفاه مفعول، والمضمضة إدارة الماء فى الفم، فذكر الفم بعده تجريدًا وهو لازم ضمن معنى غسل، **(وغسل يديه)** بذلك الماء **(ثم أعطاها إياه)** أى أعطى المرأة ذلك الماء الذى رده فى إنائه بعد المضمضة وغسل اليدين منه، **(وأمرها بسقيه)** أى أمر المرأة بأن تسقى الصبى من ذلك الماء، **(ومسه به)** مصدر مضاف للمفعول أى مسحه بالماء، **(فـ)** لما فعلت ما أمرها به **(برأ الغلام، وعقل عقلا يفضل)** بزنة يقعد ويرقد **(عقول الناس)** أى يزيد على عقول الناس الذى من أمثاله.

وهذا الحديث رواه أحمد فى مسنده متصل بابن عباس قال: إن امرأة جاءت بولدها

إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وقالت: يا رسول الله إن به لمسا، أى جنونا، يأخذه عند طعامنا، فيفسده علينا، قال: فمسح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صدره ودعا له، فثع ثعة أى تقيأ، فخرج من فيه مثل الجرو، وهو الكلب الصغير جدًا، وفى كون هذه القصة ما ذكر القاضى بعينه نظر لما بينهما من الخلاف، مع احتمال تعدد القصة، وهو الظاهر، فلا وجه لجعلهما قصة واحدة، بل هذه التى رواها أحمد، والبيهقى، وابن أبى شيبة ما أشار إليه المصنف، رحمه الله تعالى، بقوله: **(وعن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، جاءت امرأة بابن لها به جنون، فمسح صلى الله تعالى عليه وسلم صدره)** بيده المباركة الشريفة، **(فثع ثعة)** بفتح المثلثة وتشديد العين المهملة أى قاء مرة واحدة، كذا قاله أهل اللغة، وقال بعض أهل اللغة: ثع بمعنى سعل، وروى الحديث من طرق متعددة.

(فخرج من جوفه) وبطنه **(مثل الجرو الأسود)** بجيم مثلثة وراء مهملة ساكنة وواو، وهو الصغير من أولاد الكلاب والسباع، ويطلق على صغار الحنظل والقثاء أيضًا، وهو يحتمل هنا، وجمعه أجر كأدل بكسر آخره، وحذف الواو بعد قلبها ياء، **(فشفى)** بالبناء للمجهول أى شفاه الله.

(و) فى حديث رواه البيهقى، والنسائى، والطيالسى مسندًا مصححا فيه أنه **(انكفأت)** بنون وكاف وفاء وهمزة مفتوحة بعدها تاء تأنيث ساكنة: أى انقلبت **(القدر)** التى يطبخ فيها: أى وقع ما فيها من طعام حار كالنار المحرقة **(على ذراع محمد ابن حاطب)** بن الحارث بن معمى القرشى الجمحى الصحابى الذى ولد بالحبشة، وهو أول من سمى محمدًا فى الإسلام، وحاطب بزنة فاعل بحاء وطاء مهملتين وموحدة علم منقول من جامع الحطب، وسمى لذلك **(وهو طفل)** صغير، والجملة حالية، وفيه تقدير أى فحرق ذراعه، **(فمسح عليه)** أى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مسح على ذراع محمد أو على محمد نفسه، **(ودعا له وتفل عليه)**: أى نفخ نفخا فيه ريقه الشريف، وفى نسخة وتفل فيه، **(فبرأ لحينه)** من غير بطؤ، ومثله يكون فى أيام عديدة، ومحمد بن حاطب هذا صحابى ابن صحابى، توفى عام أربع وسبعين بمكة وقيل بالكوفة.

(و) فى حديث رواه الطبرانى، والبيهقى مسندًا **(كانت فى كف شرحبيل)** بضم الشين المعجمة وفتح الراء وسكون الحاء المهملتين وموحدة مكسورة ومثناة تحتية ساكنة ولام، قال ابن السيد فى شرح أدب الكاتب عن الأصمعى: شرحبيل أعجمى، وكذا شراحيل، وإيل معناه الله، ومعنى شراحيل وديعة الله عند أهل اليمن، ورأى أكثر البصرية خلافه بل شرحبيل كقذعميل، وشراحيل كسراويل جمع سمى به، أو بزنة الجمع انتهى، وهو عند

سيبويه اسم عربى غير منصرف، (**الجعفى**) بضم الجيم نسبة للجعفة مكان معروف، وشرحبيل صحابى ذكره الذهبى.

(**سلعة**) بكسر السين وسكون اللام وعين مهملة: زيادة بين الجلد واللحم كالغدة، وفيها لغات فتفتح سينها مع سكون اللام وفتحها، ويقال: سلعة بزنة عنبة، وقول البرهان هنا من فتح أراد الشبحة لا وجه له، فإنها لغة والكل بمعنى، ولا ينافى كون السلعة بمعنى الشبحة كما فى القاموس، والسلعة المتاع الذى يباع أيضًا (**تمنعه**) أى تلك السلعة لكونها فى داخل كفه (**القبض على السيف وعنان الدابة**) بكسر العين المهملة، وهو ما يقاد به الفرس ونحوه، (**فشكاها**) أصله شكى منها لضررها له (**للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فما زال يطحنها**) أى يدير كفه الشريفة عليها بقوة كما تدور الرحا، وهو بفتح الحاء ونون كسأل يسأل، (**حتى رفعها**) أى حتى أزالها من كفه، (**ولم يبق لها أثر**) فى كفه يضره ويمنعه، ففى قوله يطحنها استعارة.

(**و**) فى حديث رواه الطبرانى عن أبى أمامة أنه صلى الله تعالى عليه وسلم (**سألته جارية طعاما**) أى امرأة صغيرة السن أو خادمة لبعض أهل المدينة، (**وهو يأكل**) جملة حالية أى حال تناوله من طعامه، (**فناولها**) أى أعطاها (**من بين يديه**) أى من طعامه صلى الله تعالى عليه وسلم الذى كان بين يديه، (**وكانت**) الجارية (**قليلة الحياء**) من الناس لوقاحتها، (**فقالت**) الجارية له صلى الله تعالى عليه وسلم: (**إنما أريد**) بسؤالى أن تناولنى (**من الذى**) وضعته من الطعام (**فى فيك**)، وقصدت التبرك والتلذذ بما فيه ريقه الشريف، لكن فيه من ترك الأدب ما لا يخفى، (**فناولها ما فى فيه**) ولم يحرمها ويردها بعنف، (**ولم يكن**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**يُسأل**) بالبناء للمفعول أى يسأله أحد (**شيئًا فيمنعه**) بالنصب فى جواب النفى، (**فلما استقر**) الطعام الذى ناولها من فيه (**فى جوفها ألقى**) بالبناء للمفعول أى ألقى الله (**عليها من الحياء**) بالمد، وأما بالقصر فهو المطر (**ما لم تكن امرأة بالمدينة أشد حياء منها**) أى حياء لم يكن فى امرأة غيرها، لشدته ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم فما موصولة أو موصوفة فى محل رفع نائب فاعل ألقى، والجملة صلة أو صفة بتقدير العائد أى ما لم يكن به أى بسببه، وذكر هذا لأن قلة الحياء من العاهات النفسية والجبلة الخبيثة التى يصعب زوالها، فمناسبة الحديث ظاهرة هنا، وفى هذا الباب من أمثال ما ذكر أحاديث كثيرة من أرادها فعليه بالنظر فى مطولات كتب الحديث.

* * *

(فصل فى إجابة دعائه ﷺ)

أى دعائه للناس وعليهم، (**وهذا**) الأمر المذكور هنا والإجابة وذكرها رعاية للخبر

فى قوله: (**باب واسع جدًا**) بكسر الجيم منصوب على المصدرية، فهو فى الأصل ضد الهزل، ثم استعمل فى معنى الزيادة المفرطة المحققة هنا، وهو ظاهر، (**وإجابة دعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لجماعة**) أى لأجل ناس استحقوا ذلك سواء كان ذلك لهم أو عليهم، كما أشار إليه بقوله: (**دعا لهم وعليهم**) فإنَّ دعا إذا تعدى باللام كان للنفع؛ لأنه أوصل لهم بدعائه ما ينفعهم، وإذا تعدى بعلى كان للضرر كأنه أنزل عليهم البلاء وصبه عليهم، وهذا مخصوص بلفظ دعا، ألا ترى صلى الله على محمد، فإنه تعدى بعلى للرحمة؛ لما فيه من الحنو والشفقة.

قيل: إنما أعاده بلفظ الإفراد دون الجمع المعنوى كدعائه كما تقدم؛ لإرادة التنصيص على ما وقع منه فردًا فردًا، فالأول على الإجمال المطلق، والثانى على الإجمال التشخيصى، وقد أدرج شيئًا مما عقد له هذا الفصل فى الفصل الذى قبله، انتهى.

(**متواتر على الجملة**) أى متواتر تواترًا معنويًا باعتبار معناه الإجمالى، وإن لم تتواتر أفراده (**معلوم ضرورة**) أى بعلم ضرورى غير محتاج لدليل، (**وقد جاء**) أى ورد فى حديث رواه أحمد بن حنبل (**فى حديث حذيفة**) بن اليمان الصحابى المشهور، رضى الله تعالى عنه، (**كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذا دعا لرجل أدركت**) أى وصلت وأثرت (**دعوته**) المستجابة له (**ولده وولد ولده**)، فوصل أثرها لهم، وظهر فيهم ثم استشهد لما ذكره بقوله فيما رواه من حديث الصحيحين عن أنس، رضى الله تعالى عنه، (**حدثنا أبو محمد العتابى**) هو بفتح العين المهملة، وتشديد المثناة الفوقية نسبة لعتاب كما تقدم (**بقراءتى عليه**) من صحيح البخارى قال: (**حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد**) الذى تقدمت ترجمته، وتقدم ويأتى أنه يجوز التكنى بأبى القاسم على الصحيح من أن النهى مخصوص بعصره صلى الله تعالى عليه وسلم أو بالجمع بين الاسم والكنية قال: (**حدثنا أبو الحسن القابسى**) الحافظ السابق ترجمته قال: (**حدثنا أبو زيد المروزى**) نسبة لمرو كما تقدم قال: (**حدثنا محمد بن يوسف**) الفربرى كما تقدم.

قال: (**حدثنا محمد بن إسماعيل**) الإمام البخارى قال: (**حدثنا عبد الله بن أبى الأسود**) واسمه حميد البصرى الحافظ روى عنه البخارى وغيره، وتوفى سنة ثلاث وعشرين ومائتين، وترجمته فى الميزان قال: (**حدثنا حرمى**) بفتح الحاء والراء المهملتين وهو حرمى بن عمارة بن أبى حفصة العتكى توفى سنة إحدى ومائتين قال: (**حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس**)، رضى الله تعالى عنه، تقدم تراجم هؤلاء كلهم (**قال**) أنس، رضى الله تعالى عنه: (**قالت أمى**) لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واسم أمه رميلة، وقيل: الرميصاء وهى أنصارية صحابية، وهى أم سليم (**يا رسول الله خادمك أنس**) بن مالك بن ضمضم

ابن زيد الأنصارى النجارى، وكنيته أبو حمزة، وكان لما قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة صغيرًا فخدمه وشهد معه المشاهد، وفى عمره اختلاف والأصح أنه عمر مائة إلا سنة، وقيل: إحدى وتسعين، وقيل: مائة وعشرين، وقال النووى: الأصح أنه جاوز المائة، ومات بمكان يسمى الطف على فرسخين من البصرة ودفن به. وقيل: إنه آخر من مات بالبصرة من الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، وقال ابن عبد البر: لا أعلم أحدًا مات بعده غير أبى الطفيل، وخدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مدة إقامته بالمدينة، وروى عنه كثيرًا فروى عنه ألفى حديث ومائتين وستة وثمانين حديثا: **(ادع الله تعالى له)**، ولم تعين الدعوة، بل فوضتها له صلى الله تعالى عليه وسلم النبى **(وقال: اللهم أكثر ماله وولده)** أكثر وكثر بمعنى، **(وبارك له فيما آتيته)** أى فيما أعطيته من المال والولد، فأجاب الله تعالى دعوته حتى مات له فى الطاعون الجارف من نسله سبعون ولدًا، قيل: وفى هذا دليل على فضل الغنى على الفقير، وارتضوا أن الغنى الشاكر خير من غيره، والفقير الصابر خير من غيره، والظاهر أنه يتفاوت بحسب الناس كما ورد فى الحديث القدسى **(إن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر)**، ودعا له صلى الله تعالى عليه وسلم بالبركة؛ لأن من بورك له فيما أوتى لم يكن فيه ضرر ولا تقصير فى الحقوق، وهو غنى محمود.

(ومن رواية عكرمة) عن أنس بن مالك صلى الله تعالى عليه وسلم كما أخرجه مسلم **(قال أنس: فوالله إن مالى لكثير)** ببركة دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وإن ولدى وولد ولدى)** لكثير لما مر **(ليعادون اليوم)** المراد باليوم الزمن الحاضر مطلقا، ويعادون بضم الياء المثناة التحتية وفتح العين المهملة المخففة وألف بعدها دال مهملة مشددة وواو جماعة ونون أى يزيدون **(على نحو المائة)**، وهو مفاعلة من العدد، وروى فى الصحيحين وغيرهما ليتعادون بزيادة تاء فوقية، والمعنى واحد، وقد وقع فى نسخ الشفاء بالروايتين أيضًا، وفى الأساس بنو فلان يتعادون على بنى فلان أى يزيدون. انتهى. كأن بعضهم يعد بعضا، ثم عبر به عما ذكر وأقحم، والمعنى أنهم يزيدون على ما يقرب من المائة اقتصارًا على المتيقن المتحقق.

(وفى رواية) قالوا هذه الرواية لا يعرف من رواها، **(و ما أعلم أحدًا أصاب)** أى وجد عنده **(من رخاء العيش)** أصل الرخاء بفتح الراء المهملة وخاء معجمة ومد بمعنى اللين، ثم استعير للسعة، والعيش بمعنى المعيشة **(ما أصبت)** أى كالذى أصبته أنا، **(ولقد)** جواب قسم مقدر، وقد هنا للتحقيق وكثيرًا ما يقترن بها جواب القسم **(دفنت بيدى)** بالتثنية **(هاتين)** إشارة ليديه ليبين أنه على ظاهره، وحقيقته فى الجارحة لا بمعنى القدرة والتصرف **(مائة من ولدى)**، ثم بين أن المراد بالولد أولاده الكبار لصلبه، فقال: **(لا**

أقول) إن الولد كان **(سقطا)** بتثليث السين المهملة، وهو ما سقط من بطن أمه قبل مدة تمام حمله، وأوان ولادته، **(ولا ولد ولد)** نفاه لأن الولد قد يطلق عليه مجازًا، وعلى ما يشمل الولد الصلبى وغيره بعموم المجاز، وهو منصوب بمقدر أى لا أقول: دفنت سقطا إلى آخره، والجملة مقول القول.

وحديث أنس هذا صحيح، وروى من طرق مختلفة فى ألفاظها اختلاف يحتاج للتوفيق إن لم تكن القصة متعددة، وفى الوفاء لابن الجوزى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال فى دعائه له: وأطل حياته، وأن أنسا قال: فأكثر الله مالى حتى أن لى كرما يحمل فى السنة مرتين، وولد لصلبى مائة وستة، وفى مسلم أنه قال: دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم علينا وما هو إلا أنا وأمى وأم حرام خالتى، فقالت أمى: يا رسول الله خويدمك أنس ادع الله له، فدعا لى بكل خير، وكان فى آخر ما دعا لى: اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيه.

وفيه أيضًا جاءت أمى إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد أزرتنى بنصف خمارها وردتنى بنصفه، فقالت: هذا ابنى أتيتك به يخدمك فدعا له، وفيه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مر بأمى فسمعت صوته، فقيل: يجوز أن يكون مر فعرفت صوته فدعته لدخول دارها فدخلها.

(تنبيه): قال ابن قتيبة: إن ثلاثة من أهل البصرة رزق كل منهم مائة ولد صلبى: أنس وأبو بكرة وخليفة بن بدر، وفى تاريخ ابن خلكان أن تميم بن المعتز بن باديس خلف مائة ذكر وستين أنثى.

(ومنه) أى من دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم كما رواه البيهقى **(دعاؤه لعبد الرحمن ابن عوف)** الصحابى أحد عشرة المبشرين بالجنة، وهو من أغنياء الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، وترجمته معروفة **(بالبركة)** أى بأن يبارك الله تعالى له فيما رزقه.

(قال عبد الرحمن: فلو رفعت حجرًا) من مكانه بيدى، **(لرجوت)** ببركة دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم **(أن أصيب)** وأجد **(تحته ذهبا، وفتح الله عليه)** أى يسر له أمور الدنيا بسهولة، وتقدم أن أصل الفتح إزالة الإغلاق والإشكال، قال الله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] أى وسعنا عليهم بإقبال أنواع الخيرات عليهم، وهذا ببركة دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم له فإنه لما قدم المدينة آخى بينه وبين سعد بن الربيع، وتعاطى التجارة فرزقه الله تعالى مالا كثيرًا، **(ومات)** فى سنة إحدى وثلاثين، وقيل: اثنين وثلاثين، وهو ابن خمس أو ثلاث أو اثنين وسبعين سنة ودفن بالبقيع، **(فحفر الذهب من تركته بالفئوس)** الحفر معروف وهو فى الأصل إخراج تراب

الأرض، قيل: المراد به هنا قطعه لأنه فى صدر الإسلام لم يكن تضرب الدنانير، وإنما كانت تأتى من غير ديارهم، وتجعل الذهب والفضة سبائك وقطعا توزن، فكان عنده منها قطع كثيرة لما أريد قسمتها كسرت، والتركة بفتح أوله وكسر ثانيه ما تركه الميت خالصا من حق الغير، والفئوس بضم الفاء والهمزة تليها واو ساكنة بزنة كئوس، جمع فأس بفتح فهمزة ساكنة وتبدل ألفًا، **(حتى مجلت فيه الأيدى)** بفتح الميم والجيم، ويجوز كسرها، وفى آخره لام وتاء تانيث، وضمير فيه للحفر المعلوم مما قبله، والمجل تغير يكون فى اليد من كثرة العمل حتى خرج فى أيديهم نفاطات وجراحات من كثرة عملهم، **(وأخذت كل زوجة)** واحدة من زوجاته **(ثمانين ألفًا)** لم يبين هل هى ذهب أو فضة؟ وهل هى مثاقيل أو دراهم؟ إلا أنه وقع التصريح فى رواية بأنها دراهم، والعادة أن يعد الذهب بالمثاقيل والفضة بالدراهم **(وكن)** أى زوجاته التى مات عنهن ورثته **(أربعا)** من النسوة، **(وقيل)**: إن نصيب كل واحدة من هؤلاء الزوجات الأربع **(مائة ألف، وقيل: بل صولحت)** بالبناء للمجهول **(إحداهن)** أى صالحها بعض ورثته بعد موته على طريق الخارج من التركة **(لأنه طلقها فى مرضه)** الذى مات فيه، والمطلقة فى مرض الموت ترث إذا مات وهى فى العدة، ولم يكن الطلاق بطلب منها بشروط مفصلة فى كتب الفقه، وهو مذهب أبى حنيفة، رحمة الله تعالى عليه، وخالفة فى ذلك الشافعى، رحمة الله تعالى عليه، فى أحد قوليه، وذهب إلى كل من المذهبين كثير من الصحابة كما فصل فى كتب الفقه، وليس هذا محله.

(على نيف) بفتح النون وتشديد الياء المكسورة بوزن كيس، وهو كل ما زاد على عقد إلى أن يبلغ ما فوقه من العقود، من ناف بمعنى زاد، ويجوز تخفيفه **(وثمانين ألفًا)** من الدنانير **(وأوصى بخمسين ألفًا)** من الدنانير كما ذكره الطبرانى فى الرياض النضرة قال: أوصى عبد الرحمن بن عوف بخمسين ألف دينار فى سبيل اللّه، وأوصى بحديقته لأمهات المؤمنين، فبيعت بأربعمائة ألف، وأوصى لمن بقى من أهل بدر لكل رجل بأربعمائة دينار، وبألف فرس فى سبيل اللّه، وهذا كله **(بعد صدقاته الفاشية)** أى الظاهره المشهورة من فشى السر إذا شاع **(فى حياته وعوارفه العظيمة)** جمع عارفة، وهى ما يعتاد من الإحسان والعطايا بجعل المعروف عارفًا مبالغة وتمليحًا، وهو من لطائفهم المشهورة، ثم أشار إلى شىء مما ذكره، فقال:**(أعتق يومًا ثلاثين عبدًا وتصدق يومًا بعير)**بكسر العين المهملة، وهى الجمال التى تحمل الميرة اسم جمع لا واحد له، وقد يقال لكل ما تحمل الميرة من الإبل وغيرها، والمراد الأول لقوله: **(فيها سبعمائة بعير وَرَدَتْ عليه)** أى جاءته مع قافلة أرسلها للتجارة **(تحمل من كل شىء)** أى عليها أحمال من أمور مختلفة كالبر والتمر والثياب، والاستغراق عرفى أى من كل ما عهد حمله للتجارة، **(فتصدق بها)** أى

بالإبل، **(وبما عليها)** من طعام وغيره **(بأقتابها)** جمع قتب بفتحتين ويجوز إسكان ثانيه، وهو إكاف صغير يوضع على سنام البعير ليقيه من الأذى، **(وبأحلاسها)** جمع حلس بكسر الحاء المهملة وسكون اللام وسين مهملة، وهو كساء يوضع تحت الإكاف على ظهر البعير، وهذا قليل بما ذكر فى مناقب ابن عوف وصدقاته، فإنه لايعد ولا يحصى، وكان أهل المدينة عيالا عليه يصلهم دائما ويقضى ديونهم، ويقوم بمؤنة فقرائهم وليس هذا محل تفصيله.

(ودعا) صلى الله تعالى عليه وسلم **(لمعاوية)** بن أبى سفيان صلى الله تعالى عليه وسلم **(بالتمكن فى البلاد)** التمكن تفعل من المكان، والمراد به القدرة على التصرف فيها يقال: مكنته ومكنت له، قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٠].

(فنال الخلافة) أى صار خليفة وسلطانًا مالكًا للبلاد بدعائه صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو إشارة إلى حديث رواه أبو سعيد فيه أنه قال: اللهم علمه الكتاب ومكن له فى البلاد وقه العذاب، ومعاوية رضى الله تعالى عنه، أسلم هو وأبوه وأمه هند وأخوه يزيد فى فتح مكة، وقال معاوية: أنه أسلم فى يوم الحديبية، وكتم إسلامه عن أبويه، وشهد مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حنينًا فأعطاه من غنائم هوازن أربعين أوقية، ولما بعث أبو بكر صلى الله تعالى عليه وسلم الجيش إلى الشام سار هو وأخوه يزيد معهم، فاستخلفه أبو بكر على دمشق، ثم أقره عمر عليها، ثم أقره عثمان عليها، فلما قتل لم يبايع عليا لطلبه بدم عثمان ممن كان معه ممن باشر قتله، وجرى بينهما ما جرى فى وقعه صفين مما ينبغى الكف عنه، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم لمعاوية: اللهم اجعله هاديا مهديا. وورد فى فضائله أحاديث أخر، فكان فى أول أمره أميرًا لأبى بكر وعمر وعثمان، رضى الله تعالى عنهم، فلما قتل عثمان استقر مكانه، ولم يمتثل أمر على، كرم الله تعالى وجهه، لاجتهاد أداه لذلك، فلما قتل على، واستخلف ابنه الحسن، رضى الله تعالى عنه، سار معاوية إلى العراق، وسار إليه الحسن، ثم رأى أن الخطب عظيم تراق فيه دماء المسلمين، فسلم الأمر إلى معاوية باختيار منه، فرجع إلى المدينة فتسلم منه معاوية الخلافة، وأتى الكوفة فبايعه الناس واجتمعوا عليه، فسمى ذلك العام عام الجماعة، وصار معاوية خليفة حقيقة بعد ما كان الحق مع على، كرم الله وجهه، كما ارتضاه القاضى أبو بكر بن العربى لا متغلبا كما أشار إليه المصنف بقوله: نال الخلافة، فاندفع ما قيل من أن الصواب أن يقول: نال الإمارة أو الملك؛ لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «الخلافة بعدى ثلاثون سنة، ثم يكون ملكا عضوضا» وسيأتى الكلام على ذلك كله، وكملت الخلافة بمدة الحسن بعد أبيه ستة أشهر، وقيل: الخلافة بالمعنى اللغوى؛ لأنه خلف من قبله، أو الخلافة اتباع السنة.

(و) دعا صلى الله تعالى عليه وسلم **(لسعد بن أبى وقاص)** أى دعا دعاء مستجابا لسعد بن أبى وقاص، رضى الله تعالى عنه، كما ورد فى حديث رواه الترمذى مسندًا متصلاً عن سعد والبيهقى، عن قيس بن أبى حازم مرسلاً حسنًا، وأبو وقاص كنية أبيه، وهو مالك بن وهيب بن عبد مناف الزهرى القرشى أحد العشرة المبشرين بالجنة، وهو أول من أراق دما فى الإسلام، وهو من الشجعان الذين كانوا يحرسون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وآخر العشرة موتا مات سنة خمس وخمسين، وله بضع وستون أو سبعون سنة أو ثمانون، ودفن فى البقيع ومناقبه مشهورة.

(أن يجيب الله دعوته) أى كل دعوة له، **(فما دعا على أحد إلا استجيب له)** بالبناء للمجهول، والاستجابة بمعنى الإجابة قال[١]:

وداع دعا يا من يجيب إلى النداء فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وأصل معناه الإجابة، قال الترمذى: قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: اللهم استجب لسعد إذا دعاك، وعن المقداد، رضى الله تعالى عنه، أن سعدًا قال: يا رسول الله ادع الله أن يستجيب دعائى، فقال: «يا سعد إن الله لا يستجيب دعاء أحد حتى يطيب طعمته»، فقال: ادع الله أن يطيب طعمتى فإنى لا أقوى إلا بدعائك، فقال: «اللهم أطب طعمة سعد»[٢]، الحديث، ودعواته مشهورة مأثورة، وقد أجيب له دعوات مخرجة فى الصحيح وغيره.

(ودعا) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه الترمذى عن ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، **(بعز الإسلام)** بأن الله يعز الإسلام أى يقويه وينصره ويظهره بأحد الرجلين **(بعمر)**، رضى الله تعالى عنه، **(أو بأبى جهل)**؛ لما كان يعلم من شدتهما وشجاعتهما، وبتفرسه فيهما لا على التعيين، وكان هذا بمكة قبل الهجرة، وتمكن المسلمين من إظهار الدين، **(فاستجيب له فى عمر)** بأن هداه الله تعالى، وأعز به دينه فسبقت له السعادة، وسبقت الشقاوة لأبى جهل عمرو بن هشام فرعون هذه الأمة لعنه الله، فقتل كافرًا يوم بدر فى السنة الثانية من الهجرة، والمراد بعز الإسلام عز أهله، وإلا فهو دائما عزيز؛ لأنهم كانوا قبل إسلام عمر لا يظهرون صلاتهم عند البيت خوفًا من المشركين، فلما أسلم، رضى الله تعالى عنه، قاتلهم حتى صلوا معه عند الكعبة، ولذا قال ابن مسعود،

---

(١) البيت من الطويل، وهو لكعب بن سعد الغنوى فى الأصمعيات (ص٩٦)، لسان العرب (٢٨٣/١)، تاج العروس (٢٠٦/٢)، جمهرة أشعار العرب (ص٧٠٥).

(٢) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٢٩١/١٠)، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (١٠٤/٦).

رضى الله تعالى عنه: كان إسلام عمر فتحًا وهجرته نصرًا وخلافته رحمة، وتشريكه صلى الله تعالى عليه وسلم له فى الدعاء مع أبى جهل؛ لأنه لم يتعين عنده أحدهما أو لم يعينه لأمر ما.

وقد روى من طرق أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، خص عمر بالدعاء؛ فقال: «اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب، اللهم أيد الإسلام بعمر»[1]، وجمع بين الروايتين بأنه لما تفرس فيهما الشهامة، ونفوذ الكلمة بحيث لا يعصى أمرهما دعا بذلك، ثم لما تبين له بإعلام من الله تعالى، وإلهام منه أن اللائق بذلك عمر خصه بدعائه ثانيًا، وكرره حتى استجيب له، وقصة إسلامه مفصلة فى السير.

(**قال ابن مسعود: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر**)؛ لأنه أظهر ذلك، وقاتلهم فى بلدهم كما فعل حمزة أيضًا، رضى الله تعالى عنه، فكان ذلك ابتداء الظهور، وكان ما كان مما لم يجل فى خواطر الإمكان.

(**و**) مما وقع له صلى الله تعالى عليه وسلم من إجابة دعائه ما رواه البيهقى والحاكم وصححه عن عمر، رضى الله تعالى عنه: (**أصاب الناس فى بعض مغازيه**) صلى الله تعالى عليه وسلم، (**عطش فسأله عمر الدعاء**) للناس أن يسقيهم الله من فيض فضله، (**فدعا فجاءت سحابة**) أى ظهرت سحابة عقب دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم وفيه استعارة لتشبيهها برجل يسمع نداءه فجاءه، فهى تصريحية تبعية أو تخييلية كما فى قوله: (**فسقتهم**) أى شربوا من ماء مطرها، وقوله: (**حاجتهم**) مفعوله لتضمينه معنى أعطتهم حاجتهم، وهى الماء الذى يزيل عطشهم، (**ثم أقلعت**) أى انجلت وكفت عن المطر بعد قضاء حاجتهم من مائها، قيل: هذه الغزاة هى غزاة بدر المشار إليها بقوله فى سورة الأنفال: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال:١١] كما ذكره ابن الجوزى فى الوفاء، وساق الحديث بتمامه.

(**ودعا**) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه الشيخان عن أنس، رضى الله تعالى عنه، (**فى الاستسقاء**) أى فى دعائه وطلبه أن يسقيهم، (**فسقوا**) بالبناء للمجهول أى سقاهم الله تعالى عقب دعائه، ودام السحاب يمطر، (**ثم شكوا إليه المطر**) من كثرته ودوامه المضر بهم، (**فدعا**) الله بأن يكف المطر ويقلع السحاب، (**فصحوا**) أى صحت السماء وانكشف غيمها: فإسناد الصحو إليهم مجازى، وهو بفتح الحاء بزنة رموا، وروى بضمها، وأصله صحووا، فنقل وحذف. (**ودعا لأبى قتادة**) الحارث بن ربعى

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٠٥)، والحاكم (٨٣/٣)، وابن حبان (٢١٨٠)، والطبرانى (١٩٧/١٠)، والبيهقى فى السنن الكبرى (٣٧٠/٦)، وفى دلائل النبوة (٨/١).

الصحابى، وقد تقدمت ترجمته، وهذا الحديث رواه البيهقى فى الدلائل وبين دعاءه بقوله: **(أفلح وجهك)** الفلاح الظفر وإدراك البغية، وهو دنيوى وهو نيل ما يطيب به حياة الدنيا، والبقاء فى عز وغنى وأخروى، وهو النعيم المخلد والوجه معروف، وقد يعبر به عن الذات كما فى قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

(اللهم بارك له) أى لأبى قتادة، رضى الله تعالى عنه، وتقدم معنى البركة **(فى شعره وبشره)**، والشعر معروف، والمراد به ما يستحسن ويعد زينة، والبشر ظاهر الجلد والبدن، وكنى بذلك عن جملته، وجميع بدنه فدعا له صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يبقى معمرًا على أحسن تقويم، كاملاً جميع أعضائه.

(فمات وهو ابن سبعين سنة، وكأنه ابن خمس عشرة سنة) فى نضارته وقوته لم يتغير بدنه، و لم يشب شعره ببركة دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم له، وتوفى بالمدينة سنة أربع وخمسين، وقد تقدم أن الفلاح دنيوى وأخروى وما ذكره من تمام خلقته دنيوى، فتمامه يدل على فوزه بالفلاح الأخروى؛ لأن الكريم إذا طلب منه أمران فعجل بأحدهما، دل على أنه يعطى الآخر، وإنما اقتصر على هذا؛ لأنه معلوم مشاهد دال على غيره كما قيل:

كما أحسن الله فيما مضى سيحسن الله فيما بقى

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم: **(للنابغة)** الجعدى، وهو قيس وقيل: حبان بن عبد الله بن عمر بن عدس، بوزن عمر، وفى الشعراء من لقب بالنابغة غيره كالنابغة الذبيانى، ولكنه إذا أطلق يراد به هذا، وهو أحد المخضرمين المعمرين، قيل: إنه عاش مائتين وثمانين سنة، وقيل: مائتين وأربعين، وقيل: مائة وعشرين سنة كما يأتى.

واجتمع بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأخرج له بقى بن مخلد حديثا، ومدح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقصيدته الرائية، وهى نحو مائة بيت فى غاية البلاغة أنشدها بين يديه صلى الله تعالى عليه وسلم فدعا له بما ذكره المصنف، ولما بلغ قوله فيها[1]:

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرًا

قال إلى أين يا أبا ليلى؟ قال: إلى الجنة: قال: نعم إن شاء الله[2]، ثم لما أنشده صلى

(١) البيت من الطويل، وهو للنابغة الجعدى فى ديوانه (ص٦٨)، خزانة الأدب (١٦٩/٣)، شرح التصريح (١٦١/٢)، لسان العرب (٥٢٣/٤)، المقاصد النحوية (١٩٣/٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم فى تاريخ أصفهان (٧٤/١)، وابن حجر فى الكاف الشاف (١٠٦).

الله تعالى عليه وسلم قوله:

ولا خير فى علم إذا لم يكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

قال له صلى الله تعالى عليه وسلم :(**لا يفضض الله فاك**)، وروى لا يفضى الله فاك بضم أوله وسكون ثانيه وكسر الضاد يليها ياء ساكنة مضارع أفضى كأعلى يعلى، قال المرزوقى فى شرح الفصيح: تقول العرب فى الدعاء عليه: فض الله فاه، وفى الدعاء له لا يفضض الله فاه، ومصدره الفض ومعناه الكسر، وبعض العرب تقول: لا يفضى الله فاك: أى لا يجعله فضاء خاليًا عن الأسنان، وهذا كقوله:

قد ترك البرنى فاه بلدا

انتهى.

فعلى الأول الفم مجاز عما فيه من الأسنان، وعلى الثانى على حقيقته، والنابغة لقب له لأنه نبغ فى الشعر: أى فاق أقرانه، والهاء للمبالغة كعلامة (**فما سقطت له سن**) ببركة دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم له، والسن واحد الأسنان المعروفة، وقد قالوا: زيادة السن نقص فى السن، فالسن الأول العمر، والثانى واحد الأسنان.

(**وفى رواية**) لحديث النابغة المذكور (**فكان أحسن الناس ثغرًا**) بثاء مثلثة مفتوحة وغين معجمة ساكنة وراء مهملة، وهو ما تقدم من الأسنان، ويقال: اثغر الغلام بتشديد المثلثة واتغر بتشديد المثناة، ويطلق الثغر على الفم، ويصح إرادته هنا، وثغرًا منصوب تمييز.

(**إذا سقطت له سن نبتت له أخرى**) مكانها لئلا يخلو فمه من الأسنان (**وعاش عشرين ومائة، وقيل: أكثر من هذا**) فقيل: مائة وأربعين، وقيل: مائتين وأربعين، وقيل: مائتين وثمانين؛ لأن دعاءه صلى الله تعالى عليه وسلم له بأن لا تسقط أسنانه يتضمن الدعاء له بطول العمر، وفيه معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم بإجابة دعوته فيه.

وأكثر أعمار هذه الأمة ما بين الستين والسبعين، وما زاد لا يزيد غالبا على مائة وعشرين ويزعم الأطباء أنه العمر الطبيعى، وقد زاد بعضهم على ذلك كما استقصاه الأصمعى فى كتاب المعمرين، ومنهم سلمان الفارسى، وقد اختلفوا فى مدته كما هو مفصل فى ترجمته.

وفى الحديث ما يدل على أن مدح الشعراء للأشراف غير مكروه، وأن الإحسان لمن مدحهم بعطية وجائزة أو بدعاء وجميل من القول سنة.

وقصيدة النابغة هذه طويلة بليغة رواها ابـن حجـر بتمامـها فـى بعـض كتبـه، ولـولا خوف الإطالة أوردناها هنا.

(ودعا) صلى الله تعالى عليه وسلم **(لابن عباس)** فى حديث صحيح رواه الشيخان، وابن عباس هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، غلب عليه حتى صار علمًا بالغلبة له دون سائر بنيه.

وقوله: **(اللهم فقهه فى الدين)** معمول مقدر، أى فقال أو قائلاً إلى آخـره، أى فهمـه وعلمه. قال الراغب: الفقه التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم، قال تعـالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشـر: ١٣]، والفقـه العلـم بالأحكـام الشرعية، يقال: فقه إذا صار فقيها وفقه بمعنى فهم، وفقهه فهمه، وتفقه إذا طلبه فيخص به كما قال تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] انتهى.

(وعلمه التأويل) أى التفسير، وقد يفرق بينهما فقال: التفسير بيان معنى القـرآن بما هو مأثور عن النبى صلى الله تعـالى عليـه وسـلم أو كبـار الصحابـة، والتـأويل بيانـه بما تقتضيه قواعد العربية، وهو تفعيـل مـن الأول بمعنـى الرجـوع إلى الأصـل، ومنـه الموئـل لموضع الرجوع، فهو رد الشىء إلى الغاية المرادة منه علما كان أو فعـلا، فـالعلم كقولـه تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] والفعل كقوله:

وللنوى قبل يـــوم البـين تأويـل

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعـراف: ٥٣]، أى بيـان غايتـه المقصـودة منـه، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] بمعنى أحسـن معنـى وترجمـة، وقيـل: أحسن ثوابا فى الآخرة، فدعاؤه له صلى الله تعالى عليـه وسـلم بـأن يعلمـه الله الشـريعة المحمدية وأن يهديه للوقوف على معانى كلامه، فأجاب الله دعاءه حتى كان معول الناس عليه فى ذلك.

(فسمى بعد) بالبناء على الضم: أى بعد دعائه، صلى الله تعالى عليه وسلم له، أو بعد موته صلى الله تعالى عليه وسلم **(الحبر)** مفعول سمى، وهو بكسر الحاء وفتحـها، ومعنـاه العالم المتقن الذى تبقى آثاره بعده، وأصل معنـى الحـبر: الأثـر المستحسـن، ومنـه ذهـب حبره وسبره: أى جماله وبهاؤه: أى كان الصحابة وسائر الناس يسمونه بذلك؛ لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم توفى، وابن عباس ابن عشر أو ثلاث عشر أو خمس عشر سنة على اختلاف فيه.

(وترجمان القرآن) ترجمان بالضم كعنوان، والفتح كزعفران، وبفتح أوله وضم الجيم، وهو من يفسر لسانا بلسان، ويطلق الترجمان على من يبلغ الكـلام، وللترجمـة إطلاقـات

أخر، وفى كلام المصنف، رحمه الله تعالى، شبه اللف والنشر، فإن كونه حبر الأمة ناظر لقوله: «فقهه فى الدين» وكونه ترجمان القرآن ناظر لعلم التأويل والتفسير، ودعاؤه صلى الله تعالى عليه وسلم لابن عباس وقع مرارا، وروى من طرق صحيحة.

منها ما روى عنه أنه قال: أتى صلى الله تعالى عليه وسلم الخلاء، فوضعت له وضوءًا أى ماء يتطهر به فقال: من صنع هذا؟ فقالوا: ابن عباس، فقال: اللهم... إلى آخره.

قال ابن المنير: مناسبة الدعاء لما فعله أنه يدل على ذكائه لعلمه بأنه يحتاج لطلب الماء، فبادر لذلك وكان عند خالته ميمونة ليلا، وهى المخبرة له صلى الله تعالى عليه وسلم بما صنعه، وفى رواية «علمه الكتاب وزده علما وفهما»، ووضع يده الشريفة على كتفه، وفى رواية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم ضمه لصدره.

وأول من لقبه بترجمان القرآن ابن مسعود، وكان أعلم الناس بالفقه والفرائض، وأشعار العرب وأيامها، وكان يجلس لإفادته، فكان لا يسأل عن شيء إلا وجد عنده علم منه، كل ذلك ببركة دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم.

(ودعا) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه البيهقى عن عمرو بن حريث **(لعبد الله بن جعفر)** بن أبى طالب بن عبد المطلب، فعبد الله هاشمى مدنى صحابى ولد بالحبشة، وتوفى سنة تسعين أو ثمانين، وروى عنه أحاديث عدة، وجعفر هو الطيار ذو الجناحين، وكان عبد الله ولده من أسخى الناس حتى لقب بحر الجود وقطب السخاء **(بالبركة)** أى الزيادة والنماء **(فى صفقة يمينه)** أى فى بيعه وشرائه ومعاملته، وسمى ذلك صفقة لأنهما كانوا إذا تبايعوا يصفق أحدهم يده بيد الآخر، والصفقة ضرب اليد بصوت، وذكر اليمين لأن الأكثر فى الأخذ والعطاء بها تيمنا، **(فما اشترى شيئًا إلا ربح فيه)**: أى وجد فيه ربحا وفائدة.

(ودعا) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه البيهقى فى الدلائل وأبو نعيم **(للمقداد)** بن الأسود، والمقداد هو ابن عمرو بن ثعلبة، ويأتى أنه اشتهر بابن الأسود؛ لأنه تربى فى حجره، وهو صحابى مشهور توفى فى خلافة عثمان رضى الله تعالى عنه **(بالبركة)** أى الزيادة فى ماله، **(فكان عنده غرائر من المال)** ببركة دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم له، والغرائر: جمع غرارة بكسر الغين المعجمة، وهى معروفة، وقال الجوهرى: أظنها معربة، قال أبو نعيم: قالت ضباعة بنت الزبير وهى زوجة المقداد: خرج المقداد يومًا لقضاء حاجته فبينما هو جالس خرج جرذ: من جحره بدينار، ولم يزل يخرج دينارًا دينارًا حتى بلغ سبعة عشر، فجاء بها المقداد للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأخبره بخبره، فقال له: أدخلت يدك فى الجحر؟ قال: لا والذى بعثك بالحق فقال: صدقة

تصدق الله بها عليك بارك الله لك فيها. قالت ضباعة: فما فنى آخرها حتى رأيت غرائر الورق فى بيت المقداد. انتهى.

(ودعا بمثله): أى بمثل ما دعى للمقداد وغيره فى حديث رواه البخارى والدارقطنى وأحمد فى مسنده **(لعروة بن أبى الجعد)** البارقى، وقيل: الأزدى، واختلف فيه فقيل: عروة بن أبى الجعد، وقيل: ابن الجعد، وهو صحابى مشهور أخرج له الستة وأحمد، وبارق بطن من الأزد نزلوا عند جبل يقال له: بارق فنسبوا له، قيل: من قال ابن الجعد فقد أخطأ. وولاه عمر قضاء الكوفة.

(قال) عروة: **(فلقد كنت)** جواب قسم مقدر **(أقوم بالكناسة)** بضم الكاف معناها القمامة، ثم صارت علما لسوق مشهور بالكوفة، وقيل: إنه يجوز أن يراد به حقيقته: أى أقوم بمقام حقير يستبعد الكسب فى مثله، وهو بعيد، **(فما أرجع)** أى أعود من المحل الذى قمت فيه، **(حتى أربح أربعين ألفًا)** مما يبيعه ويشتريه.

(وقال البخارى فيه) أى فى حديث عروة: **(فكان)** عروة، رضى الله تعالى عنه، **(لو اشترى التراب ربح فيه)** ببركة دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وروى مثل هذا): أى مثل حديث عروة المذكور **(لغرقدة أيضًا)** بفتح الغين المعجمة وسكون الراء المهملة وقاف ودال مهملة واحدة الغرقد، وهو شجر معروف له شوك يسمى العوسج والعضاه، وبه سمى بقيع الغرقد، وهو مقبرة أهل المدينة، وغرقدة صحابى يسمى أبا شبيب روى عنه ابنه.

(وندت له ناقة) الضمير للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وندَّ ماض بفتح النون وتشديد الدال المهملة: بمعنى نفرت وشردت حتى غابت عن نظره، فلا يراها، وأصل معناه انفردت عن أندادها، وهذا يختص بالإبل ونحوها فلا يقال: ند الرجل، وليس ضمير له لغرقدة كما توهمه بعضهم، **(فجاء بها إعصار ريح)** الإعصار بحروف مهملة: ريح شديدة تثير غبارا، ويرتفع إلى السماء، كأنها عمود، وهى الزوابع، وقيل: ريح تثير سحابا ذات رعد وبرق، والمراد الأول هنا **(حتى ردها)** الإعصار **(عليه)** أى على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم.

وهذا الحديث لم يخرجوه، وكون الضمير لغرقدة لا يناسب المقام وإن اتفقوا عليه، والظاهر ما قلناه.

وليس من هذا أيضًا كما فى الشرح الجديد ما وقع فى غزوة بنى المصطلق؛ لأنها هاجت فيها ريح شديدة فآذتهم، وكانت ناقته صلى الله تعالى عليه وسلم ضلت ليلا فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم: إنها هبت لموت عظيم من الكفار، وهو رفاعة بن

زيد، فقال بعض المنافقين: أيزعم محمد أنه يعلم الغيب، وهو لا يعلم مكان ناقته؟ فأتاه جبريل وأخبره بما قاله، وبمكان ناقته بالشعب إلى آخر القصة، إذ ليس فيها أن الريح ردت الناقة عليه، فلعل المصنف وقف عليه من طريق آخر فيه رد الريح.

(ودعا) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه مسلم فيه أنه دعا **(لأم أبى هريرة)**، رضى الله تعالى عنهما، بأن يهديها الله للإسلام، وكانت مشركة، **(فأسلمت)** وهداها الله للإسلام، وحازت شرف الصحبة، واسمها: أميمة بنت صبيح بن الحارث ابن دوس كما ذكره ابن بشكوال، وأبوها صبيح بالموحدة وقيل: صفيح بالفاء، وقيل: اسمها ميمونة، وحكى القولين ابن الأثير فى أسد الغابة، وأما أبو هريرة فقد تقدم الكلام على اسمه والخلاف فيه، وكان، رضى الله عنه، حريصا على إسلامها فدعاها للإسلام فأسمعته ما يكره فى حق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأتاه وهو يبكى، وقال له: إنى كنت أدعوها للإسلام فتأبى فدعوتها اليوم فأسمعتنى فيك ما أكره فادع الله أن يهديها، فقال: **(اللهم اهد أم أبى هريرة)**، فخرج مستبشرًا بدعائه صلى الله تعالى عليه وسلم فلما أتى الباب سمعت خشف أقدامه، فقالت: مكانك يا أبا هريرة، فسمع صبها الماء، فاغتسلت ولبست درعها وخمارها وفتحت له الباب، فلما دخل قالت: يا أبا هريرة إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فرجع إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فرحا، وقال: أبشر يا رسول الله، فقد أجيبت دعوتك وهدى الله تعالى أمى للإسلام، فحمد الله تعالى فقال: يا رسول الله ادع الله أن يحببنى أنا وأمى إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا فقال: **(اللهم حبب عبدك هذا وأمه إلى عبادك وحببهم لهما)**، فكان لا يسمع به أحد أو يراه إلا أحبه كما ذكره مسلم والبيهقى فى دلائله.

(ودعا) صلى الله تعالى عليه وسلم **(لعلى)** بن أبى طالب فى حديث رواه البيهقى وابن ماجه بسند صحيح متصل لعلى رضى الله تعالى عنه، **(أن يُكْفَى)** بالبناء للمجهول: أى أن يكفيه الله تعالى بفضله **(الحر والقر)** أى ألمهما وهو بفتح الحاء وتشديد الراء المهملتين وهو ضد البرد، والحرارة سخونة تعرض للهواء من نحو الشمس والنار، ومنها ما يعرض للبدن من الطبيعة كحرارة المحموم، والقر بضم القاف وتشديد الراء هو البرد، ويخص ببرد الشتاء كما يخص الحر بحرارة الصيف، وهو المراد، وحكى ابن قتيبة تثليث قافه فيجوز فتحها هنا للازدواج، وأصله من القرار؛ لأن البرد يقتضى السكون، والحر يقتضى الحركة كما قاله الراغب.

(فكان) على، رضى الله تعالى عنه، بعد دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم له **(يلبس)** فى زمن **(الشتاء ثياب الصيف)** الخفيف كالقميص الواحد، **(وفى)** زمن **(الصيف ثياب**

الشتاء)، وهى المضربات المحشوة والثياب الثخينة، **(ولا يصيبه)**: أى لا يجد ويحس **(حر ولا برد)** أى ألمهما.

ويقصد بإظهار ذلك أنه اختص بأمر يخالف به غيره لدعائه صلى الله تعالى عليه وسلم له، فإذا كان لا يضره شدة حر الصيف لاسيما فى الحجاز، ولا شدة برد فصل الشتاء، فغيره بالطريق الأولى.

وكان دعاؤه صلى الله تعالى عليه وسلم له بخيبر لما أصابه بها رمد شديد، قال عبد الرحمن بن أبى ليلى: كان على، رضى الله تعالى عنه، يلبس فى الحر القباء المحشو الثخين ولا يبالى بشدة الحر، ويخرج فى البرد الشديد بثوب خفيف ولا يبالى، فسئل عن ذلك، فقال: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم أعطى الراية يوم خيبر أبا بكر، ثم عمر، فلم يحصل فتح على يديهما فقال: «لأعطين الراية اليوم رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله خيبر على يديه»، فدعانى وأعطانى الراية، وكان بى رمد شكوته له صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: «اللهم اكفه الحر والبرد»[(١)]، فما وجدت لهما ألما بعد ذلك، وإنما دعا له برفع الحر والبرد مع أن تألمه، رضى الله تعالى عنه، كان من رمد ووجع العين؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم علم أن رمده كان من زيادة الدم الذى حصل له من الحر، فدعا له بدفع سبب ذلك، وزاد عليه دفع ألم البرد؛ لأنه ضده فربما آذاه لقوته بعدم ضده وروى يسيئه من الإساءة ويسوءه من السوء بدل قوله يصيبه، والمعنى واحد.

(ودعا) صلى الله تعالى عليه وسلم **(لفاطمة ابنته)**، رضى الله تعالى عنها، فى حديث رواه البيهقى عن عمران بن حصين.

(الله) مفعول دعا، وفى نسخة أن الله **(أن لا يجيعها)**: أى أن لا يجعلها متألمة من الجوع وترك الطعام وأكله.

(قالت) فاطمة، رضى الله تعالى عنها: **(فما جعتُ)** بضمير المتكلم **(بعد)** مبنى على الضم: أى بعد دعائه وبركته.

قال عمران بن حصين: كنت معه صلى الله تعالى عليه وسلم فأقبلت فاطمة، ووقفت بين يديه، فنظر إليها وقد اصفر وجهها من الجوع، فوضع يده على صدرها، وقال: اللهم مشبع المجاعة ورافع الوضيعة ارفع فاطمة بنت محمد، قال عمران: فرأيت وجهها وقد احمر وذهبت صفرته ثم جئتها، فقالت لى: ما جعت بعد يا عمران.

---

(١) أخرجه البخارى (٦٥/٤، ٧٣)، ومسلم (١٨٠٧/١٣٢)، وأحمد (٥٢/٤)، والترمذى (٣٧٢٤)، وابن ماجه (١٢١)، والبيهقى فى السنن الكبرى (١٣١/٩)، وفى دلائل النبوة (٢٠٨/٤، ٢١٣)، وابن أبى شيبة (٦٣/١٢).

قال البيهقى بعد ما ذكر الحديث: هذا كان قبل نزول آية الحجاب، وذكر دفع الجوع عنها بعد دفع الحر والبرد عن على لما بينهما من المناسبة مما لا يخفى.

(وسأله) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه ابن إسحاق بلا سند والبيهقى عنه، وابن جرير من طريق الكلبى **(الطفيل بن عمرو)** بضم الطاء المهملة المشددة والفاء المفتوحة وسكون المثناة التحتية واللام، كتصغير عقيل، ابن عمرو بن طريف بن العاص ابن ثعلبة بن سليم الأزدى الدوسى، ويقال له: ذو النور، وقتل فى وقعة اليمامة، وتقدم أن وقعتها كانت فى ربيع الأول سنة اثنتى عشرة فى خلافة أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، وقيل: فى عام اليرموك فى خلافة عمر، رضى الله تعالى عنه، وهو من كبار الصحابة، ومن أصحاب النور، وهم ستة: أسيد بن حضير بضم الهمزة، وعباد بن بشر، وحمزة بن عمرو الأسلمى، وقتادة بن النعمان كما يأتى، والطفيل هذا، والحسن بن على، رضى الله تعالى عنهم، ولكل منهم قصة مذكورة فى محلها.

(آية لقومه) مفعول سأل أى سأله صلى الله تعالى عليه وسلم معجزة تكون معه يؤمن بها قومه إذا دعاهم للإسلام، وكان آمن بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم قبل الهجرة، ودعا قومه فلم يطيعوه، فقال: يا رسول الله إن دوسا قد عصت وأبت فادع عليها، فقالوا: هلكت دوس إن دعا عليها، فقال: «اللهم اهد دوسا»(١)، فعلم أن الله تعالى سيهديهم ببركة دعائه، فطلب الطفيل منه صلى الله تعالى عليه وسلم أن يريهم آية يهتدوا بها.

(فقال: اللهم نور له) الضمير للطفيل: أى اجعل معه نورًا يكون آية لصدقه، رضى الله عنه، **(فسطع له نور بين عينيه)**: أى ظهر بين عينيه نور ساطع، وأصل معنى السطوع الارتفاع والظهور، وهو المراد هنا.

(فقال) أى الطفيل لما علم بذلك النور الذى بين عينيه: **(يا رب إنى أخاف)** من قومى إذا رأوا ذلك النور **(أن يقولوا مثلة)**: خبر مبتدأ مقدر أى هو أو هذا مثلة بضم الميم وسكون المثلثة ولام بعدها هاء، وهو التنكيل والعقوبة وتغيير الخلقة الأصلية بقطع بعض الأعضاء وتسويد الوجه ونحوه، وهذا هو المراد هنا أى خشى أن يعدوه عارا؛ لتوهم أنه برص ونحوه، وجوز بعضهم نصبه وفتح ميمه وكسرها، وهو تكلف لا داعى له.

(فتحول) ذلك النور **(إلى طرف سوطه)**: أى لما شكى إلى الله تعالى ما يخافه وتضرع

---

(١) أخرجه البخارى (٥٤/٤، ٢٥٠/٥)، ومسلم (٢٥٢٤/١٩٧)، وأحمد (٢٤٣/٢، ٤٤٨، ٥٠٢)، والحميدى (١٠٥٠)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٣٥٩/٥)، وأبو نعيم فى دلائل النبوة (٧٩/١).

إليه، انتقل ذلك النورمن بين عينيه إلى سوط كان معه، والسوط فى الأصل بمعنى الخلط، فسمى به ما يعد للضرب من جلد ونحوه وهو معروف، **(فكان)** أى سوطه **(يضيء فى الليلة المظلمة)** كالشمع والمصباح، **(فسمى)** الطفيل **(ذا النور)** أى صاحب النور لذلك، وروى الظلماء بدل المظلمة، ولا إشكال فى شيء من هذا كما توهمه بعضهم.

وأغرب منه أنه قال: روى صوته بصاد مهملة ومثناة فوقية، ثم تكلم فى تأويله بخرافات لا ينبغى تسويدها لوجه الصحف.

وقصة الطفيل كما نقله ابن عبد البرّ عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، قال: كان الطفيل سيدا مطاعا فى قومه وشاعرا بليغًا، فقدم مكة ومشى لقريش، فقالوا له: إنك سيد قومك وإنا نخشى أن يلقاك هذا الرجل يعنون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيصيبك، فإنه يفرق بين المرء وزوجه وولده، فما زالوا ينهونى ويحذرونى منه، حتى قلت لهم: لا أدخل المسجد إلا سادا أذنى فحشوتهما كرسفا أى قطنا، ودخلت المسجد، فإذا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قائما قريبا منى، وأبى الله إلا أن يسمعنى قوله، فقلت فى نفسى: إن هذا لمعجز، وأنا امرؤ ثبت لا يخفى على الحسن والقبيح، والله لأسمعنه فإن كان رشدا أخذته أو عناء تركته فنزعت ما بأذنى، واستمعت له فلم أسمع بأحسن وأحلى مما قاله فانتظرته صلى الله تعالى عليه وسلم حتى انصرف وتبعته، فدخلت منزله معه، وقلت له: يا محمد إن قومك قالوا: كذا وكذا، وقد سمعت ما قلت ووقع فى نفسى أنه حق فاعرض على دينك وما تأمر به وتنهى عنه، ففعل فأسلمت، ثم قلت: يا رسول الله إنى راجع لدوس، وأنا فيهم سيد مطاع وأنا داعيهم إلى الإسلام، فادع الله تعالى أن يجعل لى آية تكون عونًا لى عليهم، فقال: اللهم اجعل له آية قال: فخرجت حتى أشرفت على حاضرة دوس، ولى هناك أب شيخ كبير وامرأة وولد، فلما علوت الثنية ظهر بين عينى نور كالشهاب، فقلت: اللهم فى غير وجهى فإنى أخشى أن يظنوه مثلة لفراق دينهم، فتحول فى رأس سوطى، فلقد رأيتنى أسير وإنه على رأس سوطى كأنه قنديل معلق فيه، فلما قدمت عليهم أتانى أبى فقلت: إليك عنى، فلست منك ولست منى فإنى أسلمت واتبعت دين محمد، فقال: أى بنى إن دينى دينك فأسلم وحسن إسلامه، ثم أتتنى صاحبتى فقلت لها: كما قلت لأبى، فأسلمت وحسن إسلامها واغتسلت، ثم دعوت دوسا فأبت وتعاصت على، فأتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو بمكة، فقلت: يا رسول الله إن دوسا غلب عليها الزنا والربا فادع عليهم، فقال: اللهم اهد دوسا، فرجعت إليهم، وأقمت بين ظهرانيهم أدعوهم إلى الإسلام، حتى استجاب لى منهم من استجاب، ثم قدمت المدينة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أحد والخندق، وثمانين أو سبعين من أهل بيتى، حتى فتحت مكة وأرسله

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لإحراق صنم عمرو بن حممة، فأحرقه وأقام معه حتى قبض[١]، ثم بعثه أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، إلى مسيلمة فاستشهد باليمامة، وقيل: باليرموك فى خلافة عمر، رضى الله عنه، كما تقدم.

(ودعا على مضر) أى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كما ورد فى حديث صحيح رواه الشيخان والنسائى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، والبيهقى عن ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، دعا عليهم.

ومضر اسم قبيلة سميت باسم الجد، وهو مضر بن معد بن عدنان، وفى وجه تسميته اختلاف، وتسمى مضر الحمراء، وتسمى مضر ربيعة، وقبيلة ربيعة الفرس لأن نزار أبوهم أوصى لمضر بالذهب، وهو قد يؤنث فيوصف بالحمرة ويقال: ذهب حمراء، وأعطى ربيعة الخيل فقال لها ربيعة الخيل، وكان شعارهم فى الحرب العمائم والرايات الحمر، وشعار أهل اليمن الصفر، وبه فسر قول أبى تمام فى الربيع[٢]:

محمرة مصفرة فكأنها ... عصب تيمن فى الوغى وتمضر

ومضر أبو قريش **(فأقحطوا)** بالبناء للمجهول: أى أصابهم القحط لاحتباس المطر عنهم، حتى كادوا يهلكون وتهلك دوابهم، ويجوز بناؤه للفاعل قيل: وهو الأفصح لأنه لازم، والهمزة للصيرورة لا للتعدية، **(حتى استعطفته قريش)**: أى سألوه صلى الله تعالى عليه وسلم أن يعطف عليهم ويرحمهم بدفع القحط عنهم، وما حل بهم من البلاء، **(فدعا)** الله **(لهم)** أن يمطرهم ويزيل قحطهم، **(فَسُقُوا)** أى سقاهم الله تعالى، عز وجل، وأمطر أرضهم فزال عنهم القحط بدعائه صلى الله تعالى عليه وسلم سريعا.

وكان دعاؤه صلى الله تعالى عليه وسلم لما لم يجيبوا دعوته أنه قال: «اللهم اجعلها عليهم سنينا كسنين يوسف»[٣]، فأقحطوا حتى أكلوا الجراد والدم والعظام، فقال له أبو سفيان أو كعب بن مرة: إنك تأمر بصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم، فقال: «اللهم اسقنا غيثا مريعا طبقا غدقا عاجلا غير رابث نافعًا غير ضار»[٤]، فما أتى عليهم جمعة حتى مطروا كما رواه أبو نعيم فى الدلائل.

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣٦١/٥)، وابن سعد (١٧٦/١/٤)، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٦٥/٧)، وأوردها ابن كثير فى البداية والنهاية (٩٩/٣).

(٢) البيت من الكامل، وهو فى ديوان أبى تمام (٣٣٤/١)، لسان العرب (١٧٨/٥).

(٣) أخرجه البخارى (٢٣/٢، ٥٥/٨، ١٠٤)، وأحمد (٤٧٠/٢، ٥٠٢، ٥٢١)، وابن سعد (٩٦/١/٤)، والبيهقى فى الكبرى (١٩٨/٢).

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٦/٤)، وأبو داود (١١٦٩)، وابن ماجه (١٢٦٩، ١٢٧٠)، والحاكم (٣٢٧/١)، وابن خزيمة (١٤١٦)، وعبد الرزاق (٤٩٠٧، ٤٩٠٩).

(ودعا) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه الشيخان، عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما **(على كسرى)** بكسر الكاف، وقد تفتح كما مر، وهو معرب خسرو، وهو لقب لكل من ملك الفرس، واسم هذا الذى كتب إليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام أبرويز بن هرمز، وهو من أولاد أنوشروان قيل: أبرويز معناه المظفر، وأنوشروان معناه مجدد الملك كما قاله السهيلى، رحمه الله.

(حين مزق كتابه) الذى بعثه صلى الله تعالى عليه وسلم إليه يحثه فيه على الإسلام وسعادة الدارين، وكان بعثه صلى الله تعالى عليه وسلم مع عبد الله بن حذافة السهمى، وقيل مع غيره، فقطعه تحقيرا به، وقيل: جعله هدفا ورماه بالسهام حتى تمزق، تجبرًا منه، وقيل: لأنه كتب اسمه فوق اسمه وصورة الكتاب.

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس:

سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أرسله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن توليت فإن عليك إثم المجوس.

وقوله حين مزق كتابه، وإن كان الدعاء بعده حين بلغه خبره بعد زمان، إما لأن المراد زمان ممتد لأن الحين يطلق على مطلق المدة، كما فى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان:١] أو المراد حين بلغه تمزيقه، ففيه تقدير، فما قيل: إنه كان ينبغى أن يقول: من أجل تمزيقه كتابه، ليس بشىء.

(أن يمزق الله ملكه) معمول دعا أى بأن يمزق... إلى آخره، بإهلاكه وانتقال ملكه لغيره، فمزق كل ممزق.

(فلم يبق له): أى لكسرى أو لملكه **(باقية)** أى نفس باقية من عقبه أو هو مصدر بمعنى بقية وبقاء، والمصدر يكون بوزن فاعله قليلاً.

(ولا بقيت لفارس) هو معرب بارس بالباء العجمية، ويطلق على القبيلة وعلى بلادهم **(رياسة)**: أى ملك ونفاذ كلمة **(فى أقطار الدنيا)**، وفى نسخة البلاد: أى فى جميع نواحيها، فقطع الله دابرهم، وأفناهم بدعائه صلى الله تعالى عليه وسلم عليهم لما عصوه، وتجبروا فلم يزل أمره فى انحطاط، حتى قتله ابنه شيرويه، ثم مات ابنه بعده بزمن يسير، ومالت دولتهم حتى انقرضوا كما فصل فى التواريخ، والحديث فى البخارى والكلام عليه مبسوط فى شروحه.

(ودعا) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه أبو داود والبيهقى أنه دعا **(على**

صبى) صغير، قال ابن حبان: اسم الصبى يزيد بن بهرام، وقيل: إنه لا يعرف اسمه، وحديثه ضعيف.

وقال الذهبى: أظنه موضوعًا؛ لأنه أشكل عليهم بأن الصغير غير مكلف، فكيف يدعو صلى الله تعالى عليه وسلم عليه مع رأفته به، وما أجاب به البرهان الحلبى من أن الأحكام إنما تعلقت بالبلوغ بعد أحد كما قاله التقى السبكى، أو بعد الهجرة كما قاله غيره، أو هو من باب خطاب الوضع المتعلق بالإتلاف وهو لا يشترط فيه التكليف، لا يخفى ما فيه على بعده، وأبعد منه وأغرب ما قيل: إن الله أطلعه صلى الله تعالى عليه وسلم على حال هذا الصبى، وأنه سيصير متعديا، وأنه لو لم يكن كذلك أضر بالناس، فلذا دعا عليه كما أطلع الخضر، عليه الصلاة والسلام، على حال الغلام الذى قتله، وأنه لو عاش كان كافرًا، وقد قرر أئمة الحديث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم له أن يحكم بالباطن أحيانًا كما يحكم بالظاهر، وأنه من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم وقد أفرده السيوطى بجزء ألفه فيه إلا أنه هنا تعسف لا يلتفت إليه.

(قطع عليه صلاته) بمروره بين يديه صلى الله تعالى عليه وسلم، وقطع الصلاة مجاز عن إفسادها قبل تمامها حتى يحتاج للإعادة، والمصلى إذا صلى فى غير العمران، يستحب له أن يجعل بين يديه سترة تمنع المار عن المرور بينه وبين القبلة، وينبغى أن تكون مرتفعة ارتفاعًا ما، فكأنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن له سترة فى هذه الصلاة، أو كانت ومر الصبى بينه وبين السترة، وحينئذ فلو مر إنسان أو حيوان لا يقطع صلاته عند الجمهور من المحدثين والفقهاء، ولا يفسدها، كما صرحوا به، وذهب بعضهم إلى أنه يقطعها لأنه ورد فى أحاديث صحيحة، منها ما رواه أبو ذر أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: إذا قام أحدكم يصلى بسترة ما يضعه بين يديه مثل آخرة الرحل، فإذا لم يكن ذلك فإنه يقطع صلاته الحمار والمرأة والكلب الأسود، وخصه لأنه ورد فى الحديث: «الكلب الأسود شيطان»(1)، وقد علمت أن الجمهور على خلافه، فقيل: إنه منسوخ، وقيل: إنه مؤول، والمعنى يقطع خشوعه فى صلاته وهو صلى الله تعالى عليه وسلم وإن كان لا يشغله عن الله شىء فعله تشريعا لأمته.

(أن يقطع الله أثره) معمول دعا أى دعا صلى الله تعالى عليه وسلم على ذلك الصبى بأن يقطع الله أثره، والأثر بفتحتين ما يؤثره بمشيه وغيره، ويبقى بعده علامة عليه، وقطع الأثر يكنى به فى الأكثر عن الفناء والذهاب بالكلية، فيقال: ما بقى له عين ولا أثر كما قيل:

---

(1) أخرجه مسلم (٢٦٥/٥١٠)، وأحمد (١٤٩/٥، ١٥١، ١٥٦، ١٦٠)، وأبو داود (٧٠٢)، والترمذى (٣٣٨)، وابن ماجه (٩٥٢)، وابن خزيمة (٨٣٠)، وأبو عوانة (٤٧/٢).

الدهر يفجع بعـد العيـن بالأثر فمـا البكاء على الأشباح والصور

وهو هنا كناية عن كونه زمنا مقعدًا لأن الأثر إنما يكون من المشى، فإذا انقطع مشيه انقطع أثره كما تقرر، ويجوز أن يراد المعنى الحقيقى؛ فلذا قيل: إنـه كناية لا مجاز كما أشار إليه بقوله: (**فأقعد**) الصبى، وصار مقعدًا زمنًا لا يمكنه المشى ليبس أعصاب رجله التى يتحرك بها، وروى أن يقطع الله دابره، والدابر فى الأصل الآخر كما فى قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنعام: ٤٥] أى آخرهم، فلم يبق منهم أحد، فاستعير هنا للزمانة بأن يسلبه الله قوة مشيه.

وهذا رواه ابن حبان عن ابن مهران قال: رأيت مقعدا بتبوك يسمى يزيد بن بهرام، يقول: مررت بين يدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يصلى فقال: اللهم اقطع أثره فما مشيت بعد، وقد سمعت ما فيه.

(**وقال**) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه مسلم عن سلمة بن الأكوع أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال (**لرجل**) قال البرهان الحلبى اسم هذا الرجل بُسْر بضم الموحدة وسكون السين وراء مهملة، ومن أعجمه فقد صحف، وهو بسر بن راعى العير الأشجعى، (**رآه يأكل بشماله: كل بيمينك**) إرشادًا له للسنة، فإن الأكل بغير اليمين مكروه، وقوله إلى آخره مقول القول.

(**فقال: لا أستطيع**): أى لا أقدر على الأكل بيمينى.

(**فقال**) له صلى الله تعالى عليه وسلم: (**لا استطعت**) بتاء الخطاب، وهو دعاء عليه بأن يسلبه الله القدرة على الأكل باليمين، (**فلم يرفعها**): أى يده اليمنى؛ لأنها مؤنثة سماعا أى لم يقدر بعد دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم عليه أن يرفع يده اليمنى (**إلى فيه**) ويحركها؛ لأنها شلت وبطل عمله بها لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم أمره بالتيمن وهو سنة بالأكل والشرب؛ لقوله: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه»، فلا يتركه إلا لعذر، وقد علم صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لا عذر له، وأنه إنما لم يمتثل أمره إلا لتكبره، ولذا قال المصنف فى شرح مسلم: إنه كان منافقا، إلا أن الذهبى قال: إنه صحابى جليل، فيحتمل أنه كان كذلك فى أول أمره، ثم لما ظهرت له هذه الآية تاب وأخلص لله، فلا إشكال فيه، وما قيل من أن ترك المندوب لا يقتضى استحقاق العقاب ليس بشىء؛ لأن مخالفة أمره صلى الله تعالى عليه وسلم مشافهة بغير عذر لا تجوز، وليس هذا الرجل جاهليًا كما توهم هذا القائل وخبط وخلط هنا على عادته، وليس فى قوله: قال دون دعا إشارة لما توهمه.

(**وقال**) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه الحاكم والبيهقى وابن إسحاق من

طرق صحيحة مسندة (**لعتبة بن أبى لهب**) الجهنمى عدو الله ورسوله، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم المشهور، وكان له ثلاثة أولاد عتبة وعتيبة بالتصغير ومعتب، أسلم منهم اثنان يوم الفتح و لم يهاجرا من مكة، وبقى واحد منهم على الكفر، وهو عقير الأسد، وكان عنده ابنة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فطلقها فآذاه فدعا عليه بما يأتى، فافترسه الأسد بالزرقاء من أرض الشام، كما رواه الحاكم من حديث أبى نوفل، وقال: إنه صحيح الإسناد.

قال: تجهز أبو لهب وابنه عتبة إلى الشام، فنزل بالسراة قريبًا من صومعة راهب، فقال لهم الراهب: هنا سباع فاحذروا على أنفسكم، فقال أبو لهب لمن معه: أنتم قد عرفتم سنى وحقى. قالوا: أجل، فقال: إن محمدًا دعا على ابنى، فاجمعوا متاعكم على هذه الصومعة، وافترشوا لابنى عليها وناموا حوله ففعلوا، ونام عتبة فوق متاع عال فجاء أسد فشم وجوههم ووثب على عتبة فقطع رأسه وذهب، قيل: إنه لم يأكله لما فيه من خبث الطوية ببغض خير البرية، إلا أنه قيل: إن العقير عتيبة مصغر، وأن عتبة أسلم وحسن إسلامه، فهو من كبار الصحابة، والصواب عتيبة.

وقال البرهان: إن الذى فى نسخ الشفاء بالتكبير، وكذا صححه بعضهم، وقال: الذى أسلم عتيبة بالتصغير، والمشهور أن المصغر عقير الأسد، والمكبر هو الصحابى كما فى بعض النسخ مما خالفه على قول خلاف المشهور انتهى. فقد علمت الاختلاف فيه، وفى النسخ، والأصح منها.

(**اللهم سلط عليه كلبا من كلابك**) قال فى حياة الحيوان: الأسد يسمى كلبا لأنه يشبهه فى بعض أحواله ويرفع رجله إذا بال، فلما أضاف الكلب إلى العظيم علم أنه أعظم ما يسمى بذلك الاسم كما قاله الثعالبى، وإلى ذلك أشار بقوله: (**فأكله الأسد**).

وفى دلائل النبوة للبيهقى: كانت أم كلثوم ابنته صلى الله تعالى عليه وسلم فى الجاهلية تحت عتيبة بن أبى لهب، وأختها رقية تحت أخيه عتبة، فلما نزل ﴿**تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾ [المسد:١] قال أبو لهب لابنيه: رأسى من رأسيكما حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد، وقالت أمهما حمالة الحطب مثله، فطلقها عتبة، وأتاه صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له: إنى طلقت ابنتك، فإنى لا أحبك ولا تحبنى وشق إزاره وسفه عليه، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: اللهم سلط إلى آخره، ثم خرج فى نفر من قريش إلى الشام، فكانت قصة الأسد، وفى روايتها وتسمية ابنه اختلاف كما مر، ولا خلاف فى أصل القصة، وقد ذكرها حسان، رضى الله تعالى عنه، فى شعره، (**قال**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**لامرأة: يأكلك**) وفى نسخة: أكلك (**الأسد فأكلها**) الأسد.

قال البرهان الحلبى: هذه المرأة لا أعرفها، وذكر غيره أنها بنت المطعم الأنصارية، فإنها أتت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو مولى ظهره الشمس، فضربت منكبه، فقال: من هذا؟ أكله الأسد. فقالت أنا ابنة مطعم الطير ومبارى الريح أبو ليل جئت لأعرض نفسى عليك لتتزوجنى، فقال: قد فعلت فرجعت إلى قومها وأخبرتهم الخبر، فقالوا: أنت امرأة غيرى، وللنبى صلى الله تعالى عليه وسلم نساء، فيدعو عليك فرجعت، وقالت له: أقلنى، فأقالها وتزوجت بغيره، فبينما هى فى حائط بالمدينة افترسها ذئب[1]، فالأسد هنا بمعنى الحيوان المفترس، فلا يقال إن دعوته صلى الله تعالى عليه وسلم لم تتحقق، وهذا الحديث سقط من بعض النسخ.

(و) من ذلك (**حديثه**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**المشهور**) الذى رواه مسلم والبخارى (**عن عبد الله بن مسعود فى دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم على قريش**) قبل الهجرة بمكة (**حين وضعوا**): أى حين إذ وضع بعض منهم، فهو من إضافة ما للبعض إلى الكل.

(**السلا**) بفتح السين المهملة واللام المخففة مقصور، وهو جلد رقيق يخرج مع الولد من بطن أمه ملفوفًا فيه، قيل: وهو كالمشيمة من المرأة، وفى النهاية الأول أشبه لأن المشيمة إنما تخرج بعد الولد، والسلا: وهو للمواشى إن نزع عنه ساعة يولد بقى حيا وإلا هلك، وكذا إذا انقطع فى البطن، ويقال للولد بعينه: سلا أيضًا تسمية باسم محله، ويكون فيه دم ونحوه.

(**على رقبته**) الشريفة، والرقبة مؤخر أصل العنق عند الكتفين، (**وهو ساجد**) عند البيت فى صلاته، والجملة حالية.

(**مع الفرث والدم**) حال من السلا، والفرث بالفاء وراء مهملة وثاء مثلثة هو السرجين مادام فى الكرش.

(**وسماهم**) فاعل سمى ضمير ابن مسعود، وضمير المفعول لقريش، وهو يدل على أن المراد بعضهم لا الجميع كما أشرنا إليه وهم المستهزؤن المذكورون فى الآية، وكانوا سبعة كما تقدم، ويحتمل أن فاعل سمى هو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو الذى صرح به سياق أهل الحديث.

(**فقال**) أى ابن مسعود: (**فلقد رأيتهم قتلوا يوم بدر**)، فأجاب الله تعالى دعوته صلى الله تعالى عليه وسلم فيهم، وحديث ابن مسعود هذا فى الصحيحين كما مر قال: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يصلى عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، فقال

---

(١) أخرجه ابن سعد (٨/١٠٧، ١٠٨)، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (١/٣١٤).

بعضهم لبعض: أيكم يجىء بسلا جزور بنى فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم فجاء به وانتظر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حتى سجد، فجعله بين كتفيه وأنا أنظر، فجعلوا يضحكون ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يرفع رأسه، حتى جاءت فاطمة، رضى الله تعالى عنها، فطرحته عنه، فرفع صلى الله تعالى عليه وسلم رأسه الشريف، ثم قال: اللهم عليك بقريش[1] ثلاث مرات، اللهم عليك بأبى جهل وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبى معيط وعمارة بن الوليد، وعدهم.

والذى جاء بالسلا وألقاه عقبة وهو أشقاهم لمباشرته الفعل كأشقى ثمود، والكلام على الحديث مفصل فى شروح البخارى، وأما استمراره صلى الله تعالى عليه وسلم فى سجوده مع ما عليه من النجاسة المفسدة للصلاة، فقد أجابوا عنه بأجوبة، منها أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يرها حتى يتحقق نجاستها، وكان هذا فى آخر الصلاة، فلا يلزم إعادتها مع أنه كان قبل الهجرة وتحقق شروط الصلاة المفروضة، ثم إنه قيل: إنهم كلهم لم يقتلوا ببدر، ولم يلقوا فى قليبها، فإن عقبة بن أبى معيط أسر ببدر، ثم قتله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد مرحلة منها، وعمارة بن الوليد مات بالحبشة، فقيل: إنه باعتبار أكثرهم وغالبهم على ما فيه.

(ودعا) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه البيهقى مسندًا من طرق صحيحة **(على الحكم بن أبى العاص)** بن عبد شمس بن مناف بن قصى القرشى الأموى، وهو أبو مروان، وعم عثمان بن عفان، رضى الله تعالى عنه، وهو ممن أسلم فى الفتح.

(وكان): أى الحكم **(يختلج بوجهه)** أى يحرك وجهه وبعضه كحاجبيه وعينيه، **(ويغمز)** بعينيه أى يحركهما مشيرًا بهما وهو جالس **(عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** قاصدًا بإشارته وغمزه لمن يراه ثمة من المنافقين ونحوهم أن ما حدث به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لا أصل له كما أشار إليه بقوله: **(أى لا)** فهو تفسير للغمز بالمراد منه، وليس المراد بالغمز هنا العيب، كما قيل لأنه غير مناسب هنا، وإن كان ورد بهذا المعنى فى اللغة، فلا وجه لتفسير يغمز بيعيب، لأنه كان يخبر المنافقين بأسراره صلى الله تعالى عليه وسلم وإلا لما قيل: إنه كان يحرك ذقنه وشفتيه محاكاة لفعله صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فرآه)** صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يختلج، **(فقال)** له: **(كن كذلك)** دعا عليه بأن لا يزال وجهه يختلج، وفى نسخة كذلك كن، **(فلم يزل يختلج إلى أن مات)**

---

(١) أخرجه البخارى (٦٩/١، ١٣٨، ٥٣/٤)، ومسلم (١٧٩٤/١٠٧)، والنسائى (١٦٢/١)، والبيهقى فى السنن الكبرى (٨/٩)، وفى دلائل النبوة (٥٥/٢، ٨٢، ٢٧٩، ٣٥٧).

بدعائه، وكان موته فى خلافة عثمان قبل فتنته والقيام عليه بأشهر، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم أخرجه من المدينة، ونفاه إلى الطائف ومعه ابنه مروان، وقيل: إن مروان ولد بالطائف، فلم يزل بها إلى أن رده عثمان فى خلافته، فكان بسبب رده وابنه ما كان.

ولما توفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سأل عثمان أبا بكر، رضى الله تعالى عنه، فى رده فقال: ما كنت لأرد من نفاه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: إنى سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رده، فوعدنى به فقال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: إنى لم أسمع ذلك، ولم تكن معه بينة، ثم لما ولى عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، سأله ذلك، فقال كما قال أبو بكر الصديق، رضى الله تعالى عنه.

فلما تولى عثمان بن عفان، رضى الله تعالى عنه، عمل بعلمه ورده، فلا وجه للتشنيع عليه بذلك، والطعن بسببه فى خلافته، كما تزعم الشيعة مع أنه، رضى الله تعالى عنه، علم من الحكم أنه تاب وخلصت طويته.

واختلف فى سبب نفيه، فقيل: إنه كان يستخفى ويسمع ما يسره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، لكبار الصحابة فى أمر المشركين والمنافقين، فيخبرهم به.

وقيل: إنه كان يحاكى مشى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وحركاته، فيفعل مثلها ويتغامز فى مجلسه كما مر، فلما علم ذلك منه نفاه.

وروى عن عائشة أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، أنها قالت لمروان لما قال فى حق أخيها عبد الرحمن ما قال: أما أنت فأشهد أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعن أباك وأنت فى صلبه، تشير إلى ما روى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال يومًا لأصحابه: سيدخل عليكم رجل لعين، فدخل عليهم الحكم. فلذا قيل:

فليت عثمان لم يحكم بعودته   رضى بما حكم الصديق فى الحكم

(ودعا) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه البيهقى وابن جرير موصولا عن ابن عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنهما، قال: بلغنا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم دعا **(على محلم)** بميم مضمومة وحاء مهملة مفتوحة ولام مشددة مكسورة فميم **(ابن جُثَّامة)** بضم الجيم وتشديد الثاء المثلثة وألف وميم وهاء، واسمه جثامة بن بدر بن قيس ابن ربيعة الكنانى الليثى، أخو الصعب، قيل إنه نزل فيه: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٩٤] الآية كما يأتى، **(فمات)** أى محلم هلك عقب دعائه عليه **(لسبع)** أى عند سبع أو بعد سبع ليال من دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا رواه ابن سيد الناس وغيره.

وقال السهيلى: إنه مات بحمص أيام ابن الزبير، وسيأتى مثله، وبينهما بون بعيد كما

قاله البرهان الحلبى، **(فلفظته الأرض)** أى قذفته وطرحته وأخرجته من بطنها لعدم قبولها له وهذا مما شوهد كثيرًا، وورد فى الحديث: «يبقى فى كل أرض شرار أهلها تلفظهم أرضوهم».

(ثم وورى) بواوين مضمومة فساكنة وراء مكسورة ومثناة تحتية أى ستر وغطى وغيب، فهو مجهول واراه إذا غيبه، **(فلفظته)** الأرض **(مرات)**، فكانوا كلما دفنوه أصبحوا رأوه فوق الأرض تفضيحًا له وإشارة إلى أنه من الأشرار، فعجزوا **(فألقوه)** أى ألقوا بدن محلم **(بين صدّين)** مثنى صدّ بضم الصاد وفتحها وتشديد الدال المهملتين، وهو ناحية الوادى أو الشعب أو الجبل، **(ورضموا عليه الحجارة)** رضم بفتح الراء المهملة والضاد المعجمة وميم من الرضم بالفتح والسكون، وهو وضع الصخور بعضها فوق بعض كالبناء، **(والصد)** بالضم والفتح **(جانب الوادى)** وهو الأرض الواسعة، وهذا أحد الأقوال فيه كما تقدم، وسبب دعائه، عليه الصلاة والسلام، أنه بعثه فى سرية أمر عليها عامر بن الأضبط، فبلغوا بطن واد، فقتل محلم عامرًا، فلما بلغه صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك قال: «اللهم لا تغفر لمحلم ثلاث مرات»، فمات فلفظته الأرض مرات فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن الأرض لتقبل من هو شر منه، ولكن أراد الله أن يجعله لكم عبرة»، فألقوه بين صوحى جبل حتى أكلته السباع، قال الزبيدى: الصوح: الشق.

قال التلمسانى: والذى رواه ابن عبد البر مسندًا إلى القعقاع عن أبيه أنه قال: بعثنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى سرية إلى إضم، فلقينا عامر بن الأضبط فحيانا بتحية الإسلام، فحمل عليه محلم، فقتله وسلبه، فلما قدمنا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأخبرناه نزل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء: ٩٤] الآية، وقد قيل: إن الملفوظ غير محلم بن جثامة وأن محلما نزل حمصًا، ومات بها فى زمن ابن الزبير، رضى الله تعالى عنهما.

ولهم اختلاف فى سبب نزول الآية المذكورة، وفيمن نزلت، على أقوال كثيرة، وقد اختلف فى محلم هذا بعد تحقق إسلامه وصحبته، هل كان منافقا أم لا؟.

(وجحده) صلى الله تعالى عليه وسلم **(رجل بَيْع فرس)** أى أنكره، وكان اشتراها منه صلى الله تعالى عليه وسلم وهذا الرجل أعرابى يسمى سواد بن قيس، وقيل: ابن الحارث، وهو صحابى، والفرس المرتجز كما قاله الجوهرى، وقيل الطرف بكسر الطاء المهملة، وقيل: النجيب.

(وهى) أى هذه الفرس **(التى شهد فيها)** أى بيعتها **(للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم خزيمة)** بخاء وزاء معجمتين، ويقال: اسمه أبو خزيمة، وهو صحابى مشهور قتل بصفين مع

على، رضى الله تعالى عنهما، سنة سبع وثلاثين، ولما شهد له قبل صلى الله تعالى عليه وسلم شهادته، وجعل شهادته بشهادتين وهو من خصائصه، رضى الله تعالى عنه، (**فرد الفرس**) بالنصب مفعول رد (**بعد**) مبنى على الضم، أى بعد جحده وشهادة خزيمة له (**النبى صلى الله تعالى عليه وسلم**) هو فاعل رد (**على الرجل**) الذى جحد البيع، وهو متعلق برد وإنما ردها صلى الله تعالى عليه وسلم تعففًا منه وتكرمًا (**وقال**) إذ ردها (**اللهم إن كان كاذبا فلا تبارك له فيها**) أى لا تجعل له بركة فى فرسه (**فأصبحت**) أى الفرس (**شاصية برجلها**) الباء زائدة، وشاصية بشين معجمة وألف وصاد مهملة ومثناة تحتية وهاء (**أى رافعة**) رجلها، والمراد أن رجلها مرفوعة والإسناد مجازى، وارتفاع رجلها كناية عن أنها ماتت وانتفخ بطنها حتى صارت رجلها مرفوعة، كما يشاهد فى الجيف بعد أيام، يقال: شصا الميت إذا انتفخ وارتفعت يداه ورجلاه كما قاله أهل اللغة، ووقوع مثله عادة لا يكون إلا بعد أيام، فوقوعه بسرعة من الآيات أيضًا.

وحاصل قصة خزيمة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ابتاع الفرس من ذلك الأعرابى وتبعه ليقبض الثمن، فجعل الناس يساومونه ويزيدون ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يشعر، فناداه الأعرابى: إن كنت مبتاعًا الفرس، وإلا بعته، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: قد ابتعته، فقال: هلم شاهدا، فقال خزيمة: أنا أشهد، فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم أحضرتنا فقال: بأبى أنت وأمى أنا أصدقك فى أخبار السماء أفلا أصدقك فى ابتياع فرس؟ فسماه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذا الشهادتين، وقال: «من شهد له خزيمة فحسبه»[1]، وكان كلام الأعرابى قبل إسلامه، أو قبل خلوص إسلامه وإلا فمثله لا يليق.

(**وهذا الباب**) أى باب دعاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وإجابة دعائه وقع كثيرًا، وروى فى أحاديث كثيرة (**أكثر من أن يحاط به**): أى لا يمكن أحد من علماء هذه الأمة أن يعلم جميع دعواته صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ فإنها كثيرة جدا، وما نقله المصنف، رحمه الله تعالى، منها قطرة من بحر يعلم بها ما سواه إجمالا، ويحصل به اليقين لمن كان من المؤمنين، وقوله: أكثر من أن يحاط به كقولهم: أكثر من أن يحصى، ومثله كثير وتأويله مشهور، فإن ظاهره غير مراد إذ لا يعنى أنه أكثر من الإحاطة، وقد بينوه فى محله حتى أفرده بعض فضلاء العصر بجزء مستقل، والإحاطة بالشىء معناها استقصاء جميع أفراده.

---

(١) أخرجه الحاكم (١٨/٢)، والطبرانى فى الكبير (١٠١/٤)، والبخارى فى التاريخ الكبير (٨٧/١)، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (١٣٦/٥).

(تنبيه): مر أن الدعاء معناه التضرع إلى الله تعالى فى جلب ما ينفع ودفع ما يضر، وقد قيل: إذا كان كل شىء بقضاء وقدر وقد جف القلم، فما فائدة الدعاء؟.

وأجيب: بأنه أمر تعبدى محافظة على مقام العبودية، وقد يكون ذلك معلقًا بالدعاء موقوفًا عليه كما أشار إليه صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»، فمن أنكر الدعاء، وقال: إنه لا فائدة فيه، فقد ضل عن سواء السبيل فاعرفه.

* * *

(فصل فى كراماته)

صلى الله تعالى عليه وسلم أى ما أكرمه الله تعالى سبحانه به من الأمور الخارقة للعادة، والكرامة أعم من المعجزة، فإن المعجزة تكون بعد دعوى النبوة مقارنة للتحدى بالفعل أو بالقوة، والكرامة لا يشترط فيها ذلك، ويكون للنبى وغيره من أولياء الله تعالى سبحانه، وإن غلب فى العرف جعل الكرامة للولى، والمعجزة للنبى إلا أنها لا تختص بذلك على ما عرف، وما كان منها قبل النبوة للنبى يسمى إرهاصا؛ لأنه تأسيس للنبوة ومقدمة لها، **(وبركاته)** أى ما وقع له صلى الله تعالى عليه وسلم ببركته من الخوارق.

(وانقلاب الأعيان له): أى تبدل حقيقتها وماهيتها وصورتها، وذلك جائز وواقع على الأصح، وليس بممتنع كما توهم، وليس هذا الفصل مقصورا على هذا، وإن كان أعظمه، فما قيل: الأحسن أن يقول فى كراماته بانقلاب الأعيان ليس بظاهر، والأعيان جمع عين، وهى الذات، **(فيما لمسه)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(أو باشره)** المباشرة أن يلى الأمر بنفسه، فهى أعم من اللمس، واللمس والمس متقاربان.

(أخبرنا أحمد بن محمد) بن عبد الله بن عبد الرحمن بن غلبون الخولانى شيخ المصنف، رحمه الله، توفى سنة ثمان وخمس مائة، وكان فى الحديث وسائر الفنون إمام عصره قال: **(حدثنا أبو ذر الهروى)** تقدم بيان ترجمته **(إجازة، وحدثنا القاضى أبو على سماعا)** أبو على هو ابن سكرة السابق ترجمته، **(والقاضى أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن وغيرهما)** ابن عبد الرحمن هو ابن سعيد كما تقدم.

(قالوا: حدثنا أبو الوليد القاضى) الباجى الحافظ وقد تقدم قال: **(حدثنا أبو ذر)** يعنى الهروى المتقدم قال: **(حدثنا أبو محمد)** السرخسى المتقدم **(وأبو إسحاق)** المستملى المتقدم، **(وأبو الهيثم)** الكشميهنى المشهور، **(قالوا: حدثنا الفربرى)** تقدم بيانه ونعته ونسبته قال: **(حدثنا البخارى)** صاحب الصحيح المشهور قال: **(حدثنا يزيد بن زريع)** بالتصغير أبو معاوية البصرى، ولد سنة إحدى ومائة، ومات سنة ست وثمانين ومائة كذا فى النسخ هنا، وصوابه حدثنا البخارى حدثنا عبد الأعلى بن حماد حدثنا يزيد بن زريع، وهكذا

هو فى صحيح البخارى، فسقط منه راو من قلم المصنف قال: حدثنا سعيد بن أبى عروبة كما تقدم وفى نسخة عن سعيد **(عن قتادة)** تقدمت ترجمته **(عن أنس بن مالك)** الصحابى المشهور **(أن أهل المدينة فزعوا مرة)**: أى وقع بهم فزع بفتح الفاء والزاء المعجمة والعين المهملة، قال المبرد فى الكامل: الفزع فى كلام العرب على وجهين أحدهما الخوف والذعر، والآخر الاستنجاد والاستصراخ، يقال: فزع وأفزع وهو من الأضداد قال زهير(١):

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم طوال رماح لاضعاف ولا هزل

وقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: **(إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع)**، والمراد هنا الأول: أى وقع خوف استصرخوا بسببه وهو أشهر معنييه.

(فركب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم) لما سمع صياح الناس وفزعهم؛ لظنهم أن عدوًا هجم عليهم، فسبق الناس كلهمإلى الجانب الذى سمع منه الصوت، ورأى الناس فى رجوعه، فقال لهم: لن تراعوا وهو راكب **(فرسًا لأبى طلحة)** ركبها عريا من غير سرج عليه، وأبو طلحة هو زيد بن سهل الأنصارى النجارى الصحابى البدرى، وهو أحد النقباء ليلة العقبة، وممن شهد المشاهد مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وله مقام محمود بأحد كما تقدم، وروى عنه أحاديث كثيرة، وتوفى سنة أربع وثلاثين من هجرته.

(كان يقطف أو به قطاف) بكسر القاف وبالطاء المهملة والفاء، والشك فيه من الراوى.

قال البرهان: يقطف بضم الطاء فى قولهم الدابة بمعنى تبطئ، وإما من قطف العنب، فبكسر الطاء كما قاله الزمخشرى، والقطاف بكسر القاف: الاسم منه، وقال الجوهرى: المقطوف فى الدواب البطئ، وقال أبو زيد: الضيق المشى وهما متقاربان، ويوصف به الإنسان والخيل وهو عيب فى الخيل، وهو معنى قوله وبه قطاف.

(وقال غيره) أى غير أنس **(يبطأ)** مكان يقطف بمثناة تحتية مضمومة وباء موحدة مفتوحة وطاء مهملة مشددة مفتوحة، وهمزة مضارع بطأ، والبطؤ ضيق الخطأ فهو قريب من الرواية الأولى، والظاهر أن المراد به هنا أنه كان يوصف بالبطؤ، وينسب إليه ذلك وهو مبنى للمجهول.

(فلما رجع) رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الفزع، ولقى أبا طلحة **(قال)** له: **(وجدنا فرسك بحرا)** أى كالبحر فى شدة جريه وعدوه بسهولة، وهو استعارة

---

(١) البيت من الطويل، وهو فى ديوان زهير بن أبى سلمى (ص١٠٢)، لسان العرب (٨/٢٥٢).

تصريحية كما يقال: تبحر فلان فى علمه أى توسع.

(فكان) ذلك الفرس **(بعد)** مبنى على الضم: أى بعد قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم له ذلك ببركته **(لا يجارى)** مبنى للمجهول: مفاعلة من الجرى، وهو مما يوصف به الماء والحيوان أيضًا فهو تجريد شبه بالترشيح، وفيه مبالغة، والمعنى لا يسبق فكأنه لذلك لا يجاريه أحد بقرينة السياق، وهذا الحديث رواه البخارى، والكلام عليه مفصل فى شروحه، وكان ذلك الفرس يسمى مندوبا.

(و) مما رواه الشيخان من هذا النوع أنه صلى الله تعالى عليه وسلم **(نخس جمل جابر)** ابن عبد الله الأنصارى الصحابى المعروف، رضى الله تعالى عنهما، ونخس بخاء معجمة وسين مهملة كنصر من النخس، وهو أن يطعنه فى جنبه أو نحوه بعود أو نحوه، وكان ذلك بمحجن فى يده الشريفة.

(وكان) ذلك الجمل **(قد أعيى)** أى تعب وقلت حركته من السير، **(فنشط)** بكسر الشين المعجمة فى الماضى وفتحها فى المضارع: أى أسرع فى السير وخف، من النشاط ضد الكسل، والمراد أنه ذهب إعياؤه فأبدى قوة وسرعة، وفى النهاية روى كثيرًا نشط وليس بصحيح، يقال: نشطت العقدة إذا عقدتها وأنشطتها إذا حللتها، وفى الحديث: «كأنما أنشط من عقال»، ونشطت الدلو إذا جذبتها بقوة انتهى، يعنى أن الصواب هنا أنشط من المزيد، وأصل معناه الجذب بسرعة، وإذا صحت الرواية بخلافه، فكيف يقال: إنه غير صواب؟ ولا يخفى أنه استعارة، فيجوز أن يستعار من نشط الدلو إذا نزعها، فيشبه الجمل بدلو فى بئر، ويشبه نخسه له حتى جد فى سيره بإخراجه من البئر كأنه جذبه، وأبدى قوته التى لم تكن ظاهرة فيه.

(حتى كان) أى جابر أو الجمل **(لا يملك زمامه)** الزمام مقود الجمل، ويملك يجوز بناؤه للمعلوم، فالضمير فيه لجابر، وللمجهول فهو للجمل، ومعناه أنه لا يقدر على ضبطه وحبسه، لأنه لشدة نشاطه يجذبه من يده، وينازعه فيه.

والحديث كما فى الصحيحين قال جابر، رضى الله تعالى عنه، إنه كان معه صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزوة، فأبطأ به جمله، ومر به صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال له: ما شأنك، فقال له: أبطأ بى جملى وأعيى، فتخلفت فنزل ونخسه بمحجن، وقال له: اركب قال: فصار لا يقدر على كفه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم إنه اشتراه منه، ثم وهبه له كما فصل قصته فى الحديث وشروحه، وفى ثمنه اختلاف أيضًا.

وفيه من بركته صلى الله تعالى عليه وسلم ولطف معاملته مع أصحابه وكرمه مالا يخفى، وهذه الغزوة هى غزوة ذات الرقاع، كما فى شرح البخارى.

(وصنع مثل ذلك) أى مثل ما صنع مع جابر، رضى الله تعالى عنه، فى حديث رواه البيهقى **(بفرس لجعيل)** بضم الجيم وفتح العين المهملة وياء تصغير ولام، وهو جعيل بن زياد، وقيل: إنه سمرة الصحابى الكوفى، وقيل اسمه **(الأشجعى)** بشين معجمة وجيم وعين مهملة منسوب لأشجع، وهى قبيلة وحديثه هذا رواه عنه عبد الله بن أبى الجعد، قال: كنت فى بعض غزواته صلى الله تعالى عليه وسلم على فرس عجفاء ضعيفة، فضربها بمخفقة كانت فى يده، وقال: بارك الله لك فيها، قال: فلقد رأيتنى أول الناس ما أملك رأسها، وبعت من بطنها عدة كثيرة أشار إليه بقوله **(فخفقها)** رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أى ضربها **(بمخفقة)** كانت **(معه)** بكسر الميم وسكون الخاء المعجمة وفتح الفاء وقاف وهاء، اسم آلة من الخفق، وهى الدرة، وقيل: إنها عصا، والخفق الضرب ومنه خفق الطائر بجناحه، وخفقان القلب والخافقان كله يرجع لهذا **(وبرك عليها)** بالتشديد تفعيل من البركة أى دعا مرارًا بالبركة فيها، **(فلم يملك رأسها)** أى لم يقدر على ضبط رأسها بلجامها لقوة سيرها ومجاذبتها له، وهذا من قولهم: ملك العجين إذا عجنه بقوة، والملك مأخوذ من هذا وهو حقيقته **(نشاطا)** أى من شدة نشاطها، **(وباع من بطنها)** أى مما ولدته وحصل من نسلها الخارج من بطنها، والبطن حقيقة الجوف ثم شاع فى الولد والنسل **(باثنى عشر ألفًا)** وهذه بركة عظيمة لدعائه صلى الله تعالى عليه وسلم، ولعله كان عنده منها بطون متعددة تتناسل، فيكون ذلك ولدها وولد أولادها، وفيه لف ونشر، فقوله: يملك ناظر لقوله خفقها، وقوله: وباع إلى آخره ناظر لقوله وبرك عليها، وهو ظاهر، وهذا رواه النسائى وابن عبد البر فى الاستيعاب.

(و) فى حديث رواه ابن سعد من حديث إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة أنه صلى الله تعالى عليه وسلم **(ركب حمارًا قطوفًا)** قليل السير متقارب الخطا **(لسعد بن عبادة)** الأنصارى سعدهم المشهور، **(فرده)** أى أعاده صلى الله تعالى عليه وسلم لصاحبه بعد ما ركبه، أو معناه صيره لأن رد يكون بمعناها، ويعمل عملها كما صرحوا به، فعلى الأول ما بعده حال وعلى الثانى مفعول ثان **(هِمْلاجا)** بكسر الهاء وسكون الميم ولام وجيم، وهو فارسى معرب، وهو من البرازين ما يسرع مشيه، ويكثر نقله على هيئة مخصوصة والعامة يسمونه رهوان، **(لا يساير)** مبنى للمجهول أى يسبق كل ما سار معه فعبر بما ذكر مبالغة كما مر فى قوله: لا يجارى.

(و) روى البيهقى أنه **(كانت شعرات من شعره)** صلى الله تعالى عليه وسلم وهو بفتح العين فيهما **(فى قلنسوة خالد بن الوليد)** أى أنه، رضى الله تعالى عنه، وضعها فى داخل قلنسوته تيمنًا بها، والقلنسوة بفتح القاف واللام وضم السين وفتح الواو قبل هائه ما يوضع على الرأس، وهى معروفة، ويقال: قلنسية كما فى الصحاح، **(فلم يشهد بها)** أى

لم يحضر **(قتالا)** وحربا قاتل فيه **(إلا رُزِقَ النصر)** أى إلا نصره الله تعالى على أعدائه فيقتلهم أو يهزمهم ببركة تلك الشعرات التى كانت فى قلنسوته، وجملة إلا رزق إلى آخره حال مستثناة استثناء مفرغًا من أعم الأحوال، وحكى ابن العديم أن ابن أبى طاهر العلوى كان عنده أربعة عشر شعرة من شعره صلى الله تعالى عليه وسلم فبلغه أن بعض أمراء حلب يحب العلويين وله كرم، فارتحل له وأهدى تلك الشعرات له فأكرمه ثم أتاه بعد أيام فعبس فى وجهه و لم يلتفت إليه، فسأله عن السبب، فقال له: قال لى فلان: إن هذه الشعرات لا أصل لها، فسأله إحضارها فأحضرت فطلب منه نارًا موقدة، فأتى بها فرمى شعرات منها فى النار، فلم تحترق بل صارت أحسن مما كانت، فقبل رجله وأنعم عليه بنعم لا تحصى، وأكرمه غاية الإكرام.

(وفى الصحيح): أى فى الحديث الصحيح، أو صحيح مسلم لأن هذا الحديث رواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه **(عن أسماء بنت أبى بكر)** الصديق، رضى الله تعالى عنهما، **(أنها)** أى أسماء **(أخرجت)** أى أظهرت وأرت الناس **(جبة)** بضم الجيم وتشديد الباء الموحدة، وهى ثوب مخيط **(طيالسة)** قال النووى: إنه روى بإضافة جبة لطيالسة جمع طيلسان بتثليث اللام، والأشهر فتحها، وطيالسة منون مصروف؛ لأنه بزنة ثمانية ورفاهية، ويجوز نصبه على أنه صفة جبة كثوب أخلاق، وقد سقط لفظ طيالسة من بعض النسخ، وهذه الجبة كانت عند أختها عائشة أم المؤمنين، فلما ماتت بعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بنحو خمسة وأربعين سنة، انتقلت لها، والطيالسة نوع من الأكسية، قيل: إنها ذات أعلام خضر، ولذا روى جبة خضراء، فوصفت بوصف بعضها، وقيل: معنى طيالسة خلقة، وقيل: إنه جمع طيلس كصيقل، وهو المتقن النسج، وقيل: الطيلسان كساء أخضر يعرف بالساج، وقيل: الطيلسان رداء من صوف تستعمله العجم، ولذا يقال: يا ابن الطيلسان فى الشتم.

(قالت) أسماء: **(كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يلبسها)** أى كان يكثر لبس هذه الجبة؛ لأنه كان يفعل كذا يدل على تكرر الفعل عرفًا كما ذكره الأصوليون، وليس بطريق الوضع كما مر، **(فنحن نغسلها)** ونأخذ ما غسلها فنعطيه **(للمرضى فتستشفى)** المرضى **(بها)** أى بمائها بأن يشرب منه ويمسح به الأبدان تيمنًا بآثاره صلى الله تعالى عليه وسلم فيرزقهم الله الشفاء ببركته.

وفى مسلم أنها جبة كسروانية نسبة لكسرى أى عجمية، وأنها كانت مكفوفة بالديباج، واستدل به بعضهم على حل السجاف من الحرير، وقيده بعضهم بأن لا يزيد على أربعة أصابع، ولا ينافى كونها من الطيالسة ما قيل: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم

لم يستعمل الطيلسان، وكرهه بعضهم لما ورد أنه حلية قوم الدجال.

(وحدثنا القاضى أبو على) هو ابن سكرة وقد تقدم **(عن شيخه أبى القاسم بن المأمون)** بن محمد بن هشام الرعينى السبتى المعروف بابن المأمون الإمام المشهور **(قال: كانت عندنا قصعة)** بفتح القاف ولا تكسر كما مر، وهى الجفنة المعروفة وتخص فى العرف بما كان من الخشب، وقيدها النووى بما كانت تسع عشرة، والقائل ابن المأمون، فيحتمل أنها كانت عنده وصلت إليه بطريق من الطرق، ويحتمل أنها كانت بديارهم وبلادهم **(من قصاع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** بكسر القاف كجمع جفنة وجفان، ويجمع على قصع أيضًا، وقصاعه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يعدوها، ولم يذكروا صفاتها؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان لا يعتنى بها، ولا يعدها ولا يدخرها.

(فكنا نجعل فيها الماء للمرضى) جمع مريض **(فيستشفون بها)** أى يطلبون الشفاء، فيحصل لهم بشربهم مما وضع فيها لبركة آثار آثاره.

(وأخذ جهجاه الغفارى) جهجاه بجيمين مفتوحتين بينهما هاء وبعد الأخيرة ألف وهاء، وقيل: إن صوابه جهجا مقصورًا لا هاء فى آخره، والغفارى بكسر الغين نسبة لغفار، وهى قبيلة معروفة واختلف فى اسم أبيه، فقيل: هو ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، وقيل: ابن سعد بن حرام، وقيل: ابن سعيد، وقيل: ابن قيس، وهو صحابى مهاجرى مدنى، وروى عنه أحاديث وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وتوفى بعد عثمان بن عفان، رضى الله تعالى عنه، بسنة.

(القضيب) يعنى قضيب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذى كان مع الخلفاء، والقضيب عصى قصيرة **(من يد عثمان)** بن عفان لما قام عليه قبل يوم الدار، فقيل: أخذه وجذبه من يده وهو على المنبر، وقيل: بعد نزوله منصرفًا لداره **(ليكسره)** أى أخذه بقصد أن يكسره، وظاهر أنه لم يكسره لصياح الناس عليه، وقاله ابن عبد البر وبعض أهل السير: إنه كسره **(على ركبته)** أى اتكأ على ركبته فى كسره كما هو معتاد، **(فصاح به الناس)** ليمنعوه من كسر قضيب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فإنه أمر عظيم وجرأة لم يرضوها، ولذا قال ابن العربى: لا يصح كسر العصا عمن أطاع أو عصى، وهذه العصا كان يعتمد عليها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذا خطب وكذا الخلفاء بعده، **(فأخذته)** أى أصابته ووقعت به، وأصل معنى الأخذ التناول فتجوز به عما ذكر **(الأكلة)** كفرحة، وهو داء يصيب بعض الأعضاء فيتآكل أى يتفتت ويتقطع، وهو نوع من الجذام والفرق بينهما مذكور فى مفصلات كتب الطب، والناس تقول آكلة بالمد، وقد قيل: إنه خطأ إلا أن الثعالبى أنشد لبعض العرب فى كتابه ثمار القلوب:

ومن أنت هل أنت إلا امرؤ إذا صح نسلك فى باهلة
وللباهلى على خيره كتاب لآكله الآكلة

و لم يخطئه فيه، وهو من أئمة اللغة فيصح أن تقرأ عبارة المصنف، رحمه الله تعالى، به إلا أن تعارضه الرواية.

(فقطعها) أى قطع جهجاه ركبته أو رجله من ذلك، لئلا يسرى المرض لبدنه، فإن هذا المرض يعالج بقطع العضو كما قيل:

القطع طب كل عضو فاسد

فلا حاجة لما قيل: إن ضمير الفاعل للأكلة، وذكره بتأويل المرض ونحوه.

(ومات) الجهجاه من قطعها **(قبل)** تمام **(الحول)** أى السنة التى وقع فيها القطع؛ بسبب إهانته لقضيبه صلى الله تعالى عليه وسلم.

قال ابن عبد البر فى الاستيعاب: إنه تناول العصا من يد عثمان، رضى الله تعالى عنه، وهو يخطب، فكسرها فوقعت الأكلة فى ركبته، وتوفى بعد عثمان، رضى الله تعالى عنه، بسنة، وهو مناف لكلام المصنف، رحمه الله تعالى، من وجهين؛ لأن ظاهره أنه لم يكسرها، وأنه حال عليه الحول، وفى الروض الأنف أنه انتزعها من يد عثمان، رضى الله تعالى عنه، حين أخرج من المسجد ومنع من الصلاة فيه، وهو أيضًا مخالف لكلام ابن عبد البر فى قوله: إنه أخذها وهو على المنبر، وكان عثمان لما قام عليه الناس وهاجموا المدينة، يخرج يصلى بالناس على عادة الخلفاء الراشدين، ثم خرج فى آخر جمعة، فحصبوه حتى وقع من على المنبر، و لم يقدر على الإمامة، فصلى بهم أبو أمامة بن سهل، ثم حاصروه ومنعوه من المسجد، وكان من القائمين عليه الجهجاه وشافهه بما لا يليق، وفعل بالقضيب ما فعل، وفى جرأته على قضيب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع أنه من الصحابة الذين شهدوا المشاهد معه صلى الله تعالى عليه وسلم إشكال لا يخفى، فإن الظاهر أنه يعرف القضيب وحرمته، وغضبه على عثمان، رضى الله تعالى عنه، لا يسوغ له مثل ذلك، وعثمان، رضى الله تعالى عنه، كان مجتهدًا متأولاً فيما أنكروه عليه، وما هذه إلا زلة عظيمة لا تليق بمن كان مؤمنًا صحابيًا.

(و) روى البيهقى عن أنس بن مالك، رضى الله تعالى عنه، حديثًا متصلاً أنه صلى الله تعالى عليه وسلم **(سكب من فضل وضوئه)**، السكب بمعنى الصب، وفضل وضوئه ما زاد عليه، وقال شيخنا المقدسى، قدس الله تعالى روحه فى كتابه الرمز، إن الوضوء بالفتح فى المصدر كما فى الصحاح وبالضم مصدر عن اليزيدى، والفتح أولى وفى كتاب سيبويه فيما جاء على فعول بالفتح توضأ وضوءًا، وتطهر طهورًا، وولع ولوعًا، وقبل

قبولاً، وقال ابن خروف فى شرحه: زعموا أن الوضوء من أسماء الماء كالوقود، و لم يحك عمن يوثق به الوضوء بالضم، قلت: ولولا أنه ضعيف ما تبرأ منه الجوهرى والقاضى عياض وتبعه النووى، وكلاهما لم يحرراه. انتهى ما قاله شيخنا فلك هنا الفتح والضم.

(فى بئر قباء) بضم القاف والمد مكان بقرب المدينة الشريفة غير مصروف، ويجوز صرفه أيضًا باعتبار المكان، وألفه ليست للتأنيث، وقال فى التبصرة: إنه اسم أماكن ثلاثة، وينسب إليه قباى، وإلى قبا فرغانة قباوى، والقصر لغة فيه أيضًا.

(فما نزفت) البئر أى انقطع ماؤها **(بعد)** مبنى على الضم: أى بعد ما سكب فيها فضل وضوئه صلى الله تعالى عليه وسلم، ونزفت بفتح الزاء المعجمة، ويجوز كسرها، فهو مبنى للفاعل، ويجوز بناؤه للمفعول أيضًا؛ لأنه ورد متعديا، وغير متعد، فمن اقتصر على الثانى فقد قصر، وقد ورد ثلاثيه متعديًا ومزيده لازمًا على خلاف القياس ككبه الله تعالى فأكب، وله أخوات فصلناها مع الكلام عليها فى السوانح، والمصنف، رحمه الله تعالى، قال: إنه صب فضل وضوءه أى بقيته، ووقع فى رواية: أنه تفل فيها، وعد هذا من كراماته صلى الله تعالى عليه وسلم وتقدم أن من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم تفجير الماء فى بئر الحديبية وبئر تبوك؛ لأنه ثمة وقع التحدى لمشاهدة الكفار له وهنا لم يقصد التحدى كما قيل.

(و) روى أبو نعيم فى دلائله أنه صلى الله تعالى عليه وسلم **(بزق)** بزاء وصاد وكلاهما بمعنى، وهو مج الريق من فيه **(فى بئر كانت فى دار أنس)** بن مالك خادمه صلى الله تعالى عليه وسلم **(فلم يكن بالمدينة)** بئر من آبارها **(أعذب منها)** أى أحلى وألذ من مائها، وهذا كان بين أظهر المؤمنين فلذا لم يعده معجزة كما أشرنا إليه.

(ومر) صلى الله تعالى عليه وسلم **(على ماء)** فى بعض أسفاره **(فسأل عنه)** أى عن اسمه، **(فقيل)** له: **(اسمه بيسان)** بموحدة مكسورة، وقال التلمسانى بالفتح، وهو الظاهر لموازنته لنعمان الآتى، ولولاه جاز فتحه وكسره ومثناة تحتية ساكنة وسين مهملة وألف ونون، **(وماؤه ملح)** جملة حالية أى لا عذوبة فيه، فلما سمى بما يوهم البؤس ضد النعيم لم يجب صلى الله تعالى عليه وسلم بما يتشاءم به فغيره؛ لأنه كان يحب الفأل الحسن، **(فقال: بل هو نعمان)** بفتح النون فعلان من النعيم والنعمة، وبيسان موضعان أحدهما بالشام وهو فى حديث الدجال، والآخر بالحجاز وهو الذى مر به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزوة ذى قرد، وهو المذكور هنا فغير اسمه فغير الله ماءه، فاشتراه طلحة، رضى الله تعالى عنه، وتصدق به، فقيل له: طلحة الفياض وضبط الأنطاكى فى حواشيه هنا نعمان بضم النون، والصواب ما تقدم، وفى الشرح الجديد أنه بكسر النون،

فكأنه قصد بذلك موافقة بيسان، وملح هو الفصيح ومالح لغة أيضًا لكنها غير فصيحة، وليست لحنا كما قيل، لورودها فى النظم والنثر كثيرًا، ولولا خوف الإطالة أوردنا ذلك.

(وماؤه طيب) هذا من جملة مقوله صلى الله تعالى عليه وسلم وإلا تناقض كلامه، **(فطاب)** ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم لما غير اسمه وقال: إنه طيب.

(و) روى ابن ماجه فى حديث آخر مسندًا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم **(أتى)** بالبناء للمجهول: أى أعطاه بعض أصحابه صلى الله تعالى عليه وسلم وجاء له **(بدلو)** مملوء **(من ماء زمزم)** ورواه البيهقى عن وائل الحضرمى إلا أنه لم يقل فيه أنه من ماء زمزم **(فمج فيه)** أى ألقى فيه صلى الله تعالى عليه وسلم ماء فمه وريقه **(فصارت)** رائحته **(أطيب من)** رائحة **(المسك)**، وقريب منه قصة نافع أحد القراء السبعة المذكورة فى شروح الشاطبية.

(و) من كراماته صلى الله تعالى عليه وسلم ما رواه الطبرانى عن أبى هريرة أنه **(أعطى الحسن والحسين لسانه)** الشريف: أى وضعه فى فمهما **(فمصاه)** أى جذبا ريقه وشربا منه، **(وهما يبكيان)** جملة حالية أى باكين **(عطشا)** تمييز أو مفعول له، والعطش: حرارة تقتضى اشتهاء ما يشرب، **(فسكتا)** فسكن عطشهما وتركا البكاء، وكان الأحسن أن يذكر هذا مع قوله: وكان يتفل فى أفواه الصبيان إلى آخره.

(و) فى حديث صحيح رواه مسلم عن جابر أنه **(كان لأم مالك)** الأنصارية الصحابية، وهى أم سليم بنت ملحان قيل: والصواب أن يقول أم أنس بن مالك، وفى الصحابة أم مالك البهزية، وليست هذه، وفيه نظر لأن أم مالك هذه ليست أم أنس، وقد قالوا: إنه لا يعرف اسمها، وفى شرح المصابيح للتوربشتى أن أم مالك فى الصحابة اثنتان: أم مالك الأنصارية، وأم مالك البهزية، وهى صاحبة العكة انتهى.

(عكة) بتثليث العين المهملة، والمشهور ضمها، وهى صفن من الجلد يوضع فيه السمن غالبا وكافها مشددة.

(تهدى فيها للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم سمنا): أى ترسل به على طريق الهدية، وهو بفتح السين المهملة وسكون الميم وفتحها لحن، قال الزبيدى: السمن للبقر غالبا ويكون للمعزى أيضًا، وفى القاموس أنه سلاء الزبد و لم يقيده.

(فأمرها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن لا تعصرها) الأمر هنا بمعناه اللغوى لأن قوله: لا تعصرها نهى لا أمر، أو هو باعتبار لازمه؛ لأن النهى يلزمه الأمر بالكف، وعلى الأول هو مطلق الطلب، والعصر الضغط للظرف؛ ليخرج بقية ما فيه مما قل، ففيه إشارة

إلى أنه لا ينبغى النظر لقلة ما فيها واحتقاره، وتعظيم ما قل من نعم الله يزيده ويجعل فيه البركة، ولذا قيل: إن فيه دقيقة لمن نظر بين الحقيقة، ويعصر بكسر الصاد كضرب يضرب.

(ثم دفعها) أى دفع صلى الله تعالى عليه وسلم العكة **(إليها)** أى إلى أم مالك المهدية له **(فإذا هى مملوءة سمنا)** أى فاجأها بغتة ملؤها من ذلك، فمملوءة بزنة المفعول مهموز، ويجوز إبدال الهمزة واوًا وإدغامها.

(فيأتيها بنوها يسألونها الأدم) بضم الهمزة وسكون الدال المهملة وضمها، وهو جمع إدام وهو ما يؤتدم به مع الخبز كالسمن والعسل، واختلف الفقهاء فى اللحم هل يسمى إدامًا عرفا أم لا؟ فلا ينافى ما ورد فى الحديث: «سيد إدام الدنيا والآخرة اللحم» وقيل: الأدم ما يصلح به الطعام.

(وليس عندهم شىء) يعنى من الأدم، **(فتعمد إليها)** أى تقصدها وتمسكها بيدها، وعمد يعمد بفتح الميم فى الماضى وكسرها فى المضارع، ويجوز العكس كما فى شرح الفصيح للبلى، **(فتجد فيها سمنا)** كما كانت، فلا تنقص، **(فكانت تقيم أدمها)** أى تجده قائما أى باقيا على حاله، **(حتى عصرتها)** غاية للإقامة أى لما عصرته انتهت إقامة السمن فى العكة، وفقدته وذهبت بركته لما خالفت أمره صلى الله تعالى عليه وسلم.

قال النووى فى شرح مسلم: الحكمة فى ذلك أن عصرها يضاد التوكل والتسليم، ويتضمن التدبير والأخذ بالحول والقوة، فعاقبها الله تعالى بزوال ما أنعم به عليها، ولم يذكر هذا فى المعجزات، لأنه لم يتحد به، ولأنه حصل فى بيت أم مالك.

وفى أسد الغابة لابن الأثير أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أمر بلالا، فعصرها ثم دفعها إليها فلما أخذتها إذا هى مملوءة، فأتت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وقالت: يا رسول الله نزل بى شىء، فقال: «ما ذاك يا أم مالك؟»، قالت: رددت على هديتى، فدعا بلالاً وسأله عن ذلك، فقال: والذى بعثك بالحق نبيا لقد عصرتها حتى استحييت، فقال: «هنيئا لك يا أم مالك هذه بركة عجل الله ثوابها»[1]، ثم علمها صلى الله تعالى عليه وسلم أن تقول دبر كل صلاة: سبحان الله عشرًا، والحمد لله عشرًا، والله أكبر عشرًا، وهذا صريح فى أن ما ذكر كان بركة لا معجزة بملاحظته، عليه السلام، كما قيل فتدبر.

(و) فى حديث رواه البيهقى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم **(كان يتفل)** بفتح المثناة

---

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (١٠٢/١٠)، وقال الهيثمى: فيه عطاء بن السائب، ثقة، ولكنه اختلط، وفيه راو لم يسم.

التحتية وسكون التاء المثناة الفوقية وضم الفاء وكسرها، والتفل البصاق وخصه البيهقى بيوم عاشوراء **(فى أفواه الصبيان)** وأفواه جمع فم باعتبار أصله؛ لأن أصله فوه، والصبيان جمع صبى والمراد بهم الصغار الذين يرضعون، ولهذا قال: **(المراضع)** بزنة مساجد جمع مرضع بفتح الضاد اسم مفعول من الرضاعة، وهى مص الشدى، لا جمع رضيع بمعنى مرضع كما قيل، فإن فعيل لا يجمع على مفاعل، وادعاء أنه على خلاف القياس لا حاجة إليه، وفى بعض النسخ مراضيع بزيادة الياء، فإن صحت رواية فهو على خلاف القياس كما قيل فى جمع خاتم خواتيم، إلا أن ابن عصفور قال: إنه شاذ، وادعاء بعضهم أنه ضرورة لا يصح، فإنه ورد فى الحديث «الأعمال بخواتيمها» وما قيل: إن تقدير هذا الكلام: صبيان المراضع، وهن الأمهات خطأ، اللهم إلا إن وقع له رواية صبيان المراضع بالإضافة، ولم نجده فى شىء من النسخ.

(فيجزيهم) بضم المثناة التحتية وسكون الجيم وكسر الزاء المعجمة وهمزة: أى فى الفرق بين الإجزاء والصحة **(ريقه)** الشريف **(إلى الليل)** أى فيكفيهم عن الرضاعة النهار كله ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم فيقوم المص منه مقام لبن الأم الكثير.

(ومن كراماته) أى من كرامات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما رواه البيهقى **(بركة يده فيما لمسه)** اللمس قريب من المس، وهو وضع اليد على الشىء، فقوله بيده تأكيد أو تجريد كنظرت بعينى، والبركة الزيادة المعنوية والحسية كما تقدم، **(وغرسه لسلمان الفارسى)** أى لأجله كما سيأتى، والغرس وضع أصول الشجر فى الأرض لينمو، وفى نسخة أو غرسه فهو شك من الراوى، وسلمان هو أبو عبد الله الفارسى مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو من قرية يقال لها: جىء من قرى أصبهان أو رام هرمز، ولم يتخلف عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعدما أعتقه، وكان من علماء الصحابة وزهادهم المعمرين، وكان رضى الله تعالى عنه، يعمل الخوص، ويأكل منه مع أن عطاءه من بيت المال خمسة آلاف كل سنة، وكان إذا أخذها تصدق بها.

قال النووى: اتفقوا على أنه عاش مائتين وخمسين سنة، وقيل: ثلاث مائة وخمسين سنة، وتوفى بالمدائن ودفن بها سنة خمس أو ست وثلاثين، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن الجنة لتشتاق له»، وكان مولاه قبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رجلاً من اليهود، فاشتراه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منه وقصته مشهورة.

(حين كاتبه مواليه) من اليهود، وهذا ينافى ما قاله البرهان أنه صلى الله تعالى عليه وسلم اشتراه، وجمع الموالى، ولم يكن إلا مولى واحد تجوزًا، وقد قيل: إنه على ظاهره؛ لأنه ورد أنه اشتراه من قوم من اليهود، وفيه نظر، والمولى هنا هو السيد وهو مشترك بينه

وبين العبد وله معان أخر، والكتابة معلومة مفصلة فى كتب الفقه **(على ثلاثمائة ودية)** بفتح الواو وكسر الدال المهملة وياء مثناة تحتية مشددة قبل الهاء، وهى صغار النخل **(يغرسها لهم كلها تعلق)** بفتح التاء الفوقية وسكون العين وفتح اللام، ثم قاف أى تنبت بعد غرسها ويتم غراسها من علقت المرأة إذا حبلت، وقال بعض الشراح: تؤكل ثمرتها من علق يعلق كعلم يعلم، وقيل: تدرك وتضم لأمه كيكتب، فهو متداخل من بابين، والمراد الأكل هنا وهو الظاهر، وجملة كلها تعلق بدل مما قبله، وقوله: **(وتطعم)** أى يوجد فيها ما يؤكل من ثمرها، ويؤيد أن المراد بما قبله تدرك، وإن جاز أن يكون عطف تفسير، وهو بوزن يكرم، **(وعلى أربعين أوقية)** بضم الهمزة وتشديد الياء، ويقال وقية أيضًا بفتح الواو.

وقال السعد فى شرح الكشاف: الأوقية أفعولة، فأصلها أوقوية فأعلت أو فعلية من الأوق، وهو الثقل، والمراد أربعون درهما كما فى كتب اللغة، وعند الأطباء وهو المتعارف الآن أنها عشر دراهم وخمسة أسباع درهم، وقال الزمخشرى: إنها اثنان وأربعون درهما. انتهى، وقيل: إنها سبعة مثاقيل **(من ذهب)** بيان للأوقية وأنها ليست من فضة، ولفظ الوقية وقع فى حديث رواه الشيخان، فقول بعضهم: إنها عامية كما فى النهاية، لا وجه له، اللهم إلا أن يريد أنها المشهورة بين العوام، فلا ينافى تصحيح أهل اللغة لها كما فى القاموس وغيره، والنش بفتح النون وتشديد الشين المعجمة عشرون درهما، **(فقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)** من مجلسه إلى محل عين لغراسها فيه، **(وغرسها له بيده)** الشريفة تبركا **(إلا واحدة)** منها **(غرسها غيره)** قيل: هو عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، كما رواه ابن عبد البر، وقيل: إنه سلمان ووفق بينهما بأنهما غرساها معًا أو أن كل واحد منهما غرس واحدة.

(فأخذت كلها) بمعنى أنها طلعت وأدركت فهو مجاز كأنها أخذت من الأرض ما قامت به ونمت كما يدل عليه الكلام **(إلا تلك الواحدة)** التى غرسها غيره، **(فقلعها)** من محلها، **(وردها)** أى أعادها إلى محلها **(فأخذت)** أى نبتت وأدركت ببركة يده الشريفة ومسها، وهو من معجزاته الباهرة صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقوله: إلا واحدة يدل على بطلان التوفيق بأنها غرس كل واحد منهما ودية، وفى بعض السير أنه صلى الله تعالى عليه وسلم غرسها كلها من غير ذكر الواحدة، فينبغى أن يحمل على القصة إجمالا، فإنه غرس تلك الواحدة بعد ذلك، فلا منافاة بينهما.

(وفى كتاب البزار) بموحدة وزاء معجمة وألف وراء مهملة، نسبة لعمل بزر الكتان زيتًا عند البغداديين، وهو الحافظ المشهور، **(فأطعم النخل)** أى أثمر ذلك النخل الذى

غرسه صلى الله تعالى عليه وسلم بيده الشريفة **(من عامه)** أى فى سنته التى غرس فيها، ومن ابتدائية **(إلا الواحدة، فقلعها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وغرسها فأطعمت من عامها)** وإضافة العام لها حقيقية، لوقوع الغراس فيه.

(وأعطاه) أى أعطى صلى الله تعالى عليه وسلم سلمان مما كوتب عليه **(مثل بيضة الدجاجة)** أى قدر حجمها لا وزنا كما قيل **(من ذهب)** جاءه من الغنائم **(بعدما أدارها على لسانه)** الشريف، ليحصل فيها بركته، ولا حاجة إلى أن يقال: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم دعا بالبركة فيها، ولم يسمع فإنه لا يقال مثله بالرأى.

(فوزن) سلمان، رضى الله تعالى عنه، **(منها لمواليه)** أى لمن كاتبه كما مر **(أربعين أوقية، وبقى عنده مثل ما أعطاهم)**، وهى أربعون أخرى، وكانت فى رأى العين دون ما كوتب عليه من الذهب، لكنها زادت وزنا، ورجحت ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو من نمو الأعيان، قيل: يجوز أن يكون فاعل وزن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وكذا بقى وهو بكسر القاف المخففة ويجوز فتحها مشددة.

وقصة سلمان، رضى الله عنه، طويلة مفصلة فى السير، وحاصلها: أنه كان بجئ وهى قرية بفارس كان أبوه رئيسها، وهو ممن يعبد النار، فمر سلمان برهبان فى كنيسة يصلون ويتعبدون فأعجبه أمرهم، وقال: هذا خير من ديننا فلما أخبر أباه بذلك نقم عليه وقيده، مخافة أن يتبعهم فأرسل سلمان إليهم يقول: إذا كان عندكم من يذهب إلى الشام، فأخبرونى به، وكانوا قالوا له: إن ديننا هذا بالشام، فأخبروه، فكسر قيده وذهب معهم وجاء إلى الشام، ودخل كنيسة فيها قسيس يتعبد بها، فاستمر عنده إلى أن مات فذهب لآخر بعمورية، ثم لآخر بالموصل ومكث عنده فمرض وأشرف على الموت، فقال له: إن متَّ ما أفعل؟، قال إن ديننا هذا قديم، وقد دنا زمن نبى على الحنيفية يظهر بأرض النخل، فسأله عن علامته، فقال: به خاتم النبوة ولا يأكل الصدقة ويأكل من الهدية. فمر به قوم من كلب، وكان له بقرات وغنيمات اكتسبها من عمله، فأعطاها لهم على أن يحملوه إلى أرض العرب، فغدروا به وأسروه وباعوه من يهودى، وقيل: ابتاعته امرأة، والأصح الأول، فكان يخدمه، حتى قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة، فبينما هو على نخلة من النخيل، وسيده الذى اشتراه منهم تحتها، إذا برجل غريب جاء إلى سيده المذكور، وقال: هل سمعت ما فعله الأنصار؟ قدم عليهم رجل من مكة وهو معهم بقباء الآن، فلما سمع مقالته عراه نافض كالحمى، ونزل يسأل الرجل عما قاله، فنهره سيده فأضمر مقالته، ثم ذهب إليه صلى الله تعالى عليه وسلم بتمرات من نخل سيده، فأكلها فلما رأى العلامات المذكورة جاء وكاتب سيده على ما ذكره

المصنف، رحمه الله تعالى.

فإن قلت: تقدم فى الحديث أنه مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال: «سلمان منا أهل البيت»(١) فكيف يكون هذا وهو مكاتب؟ وكيف أكل صلى الله تعالى عليه وسلم مما أتى به والعبد لا يملك شيئًا؟.

قلت: أجابوا عنه بوجوه منها أنه ورد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم اشتراه منه مما ذكر، وعلى هذا فلا إشكال، ومنها أنه علم أنه لم يمسه الرق كما مر، وإنما باعوه ظلمًا وغصبًا، ولو سلم فهو مولى موالاة لا مولى رق، ولذا قبل صلى الله تعالى عليه وسلم ما أهداه له لأنه أجرة له أو أذن له سيده فى دفعه لمن يريد.

(وفى حديث حنش) بفتح الحاء المهملة والنون وشين معجمة **(ابن عقيل)** بفتح العين وكسر القاف، وليس مصغرا وهو صحابى ترجمته فى الاستيعاب وغيره، وهذا الحديث رواه بطوله قاسم بن ثابت فى الدلائل عن المسور بن مخرمة **(سقانى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شربة من سويق)** بالسين، وقد تبدل صادًا، وهو قمح يقلى ويطحن ثم يجعل فى ماء ونحوه من المائعات ويشرب، فهوطعام وشراب، وشربة بفتح الشين المرة من المشروب، وليس بضم الشين كما قيل فهو مفعول به لا مفعول مطلق كما قيل. **(شرب)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(أولها وشربتُ آخرها)** يعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم شرب منها أولا لتحصل البركة فيها، ثم ناوله الإناء فشرب بقيته، **(فما برحت)** أى لم أزل بعد ما شربت سؤره **(أجد شبعها)** أى يحصل عندى الشبع بزنة العنب، وهو معروف **(إذا جعت)** أى إذا جاء وقت الجوع والحاجة إلى الطعام، **(وريها)** بكسر الراء، وهو برد يحصل فى الجوف من الماء ونحوه يغنى عن الماء، **(إذا عطشت)**، أى جاء وقت الحاجة إلى الشرب، والضميران للشربة، **(وبردها إذا ظمئت)** بزنة علمت بهمزة بعد الميم ويجوز إبدالها، وهو من الظمأ وهو العطش فغاير بينهما فى العبارة تفننا أى لم يفارق بعد شربها الشبع والرى، لبركة سؤره صلى الله تعالى عليه وسلم.

(و) فى حديث صحيح رواه أحمد فى مسنده عن أبى سعيد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم **(أعطى قتادة بن النعمان)** بن زيد، ويكنى أبا عمر، وهو صحابى مشهور، توفى سنة ثلاث وعشرين، وصلى عليه عمر رضى الله تعالى عنه وهو الذى ردت عينه كما تقدم، وهو من الأنصار **(وصلى بعد العشاء)** جملة حالية بتقدير قد أى: وقد صلى مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم العشاء **(فى ليلة مظلمة مطيرة)**: أى ذات ظلمة من

---

(١) أخرجه الحاكم (٥٩٨/٣)، والطبرانى (٢٦١/٦)، وابن سعد (٥٩/١/٤)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٤١٨/٣)، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٢٠٠/٦).

ظلمة الليل والسحاب المطبق بالمطر، وهو متعلق بأعطى **(عُرْجُونًا)** بضم العين وسكون الراء المهملتين وضم الجيم كعنقود وبكسر وفتح كفردوس، وبهما قرئ، وهو فعلون من الانعراج وهو الانعطاف، وقيل: وزنه فعلول وإليه ذهب صاحب القاموس، والصحيح الأول.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم لقتادة **(انطلق بـه)** أى خذ العرجون واذهب به لمنزلك، **(فإنه سيضيء لك من بين يديك عشرًا ومن خلفك عشرًا)**: أى مقدار عشرة أذرع فى طريقك حتى تبصرها، وليست العشرة من الأشبار كما قيل، **(فإذا دخلت بيتك فسترى سوادًا)** وهو ضد البياض، والمراد جسم أسود، والسواد يطلق على الجثة والشبح، وفى توثيق عرى الإيمان للبارزى أنه كان هيئة قنفذ، فإذا رأيته، **(فاضربه حتى يخرج)** من البيت، **(فإنه)** أى السواد المرئى **(الشيطان)** تصور بهذه الصورة، **(فانطلق)** قتادة **(فأضاء له العرجون حتى دخل بيته، ووجد السواد فضربه حتى خرج)** من بيته كما أخبره به صلى الله تعالى عليه وسلم قيل: ما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، رواية بالمعنى، فإن لفظ الحديث كما رواه أبو سعيد الخدرى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خرج ذات ليلة لصلاة العشاء، وهاجت السماء وأظلمت وبرقت، فرأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قتادة، فقال له: قتادة قال: نعم يا رسول الله. علمت أن شاهد الصلاة قليل فأحببت أن أشهدها. فقال له: إذا انصرفت فأتنى، فلما انصرف أعطاه عرجونا، وقال: خذه فسيضيء أمامك عشرًا وخلفك عشرًا. الحديث، ويضيء جاء متعديًا، فعشرًا مفعوله، ولازما فهو منصوب على الظرفية، والشيطان المراد به: واحد من الجن المردة، أو إبليس بعينه.

(ومنها) أى من كراماته صلى الله تعالى عليه وسلم فى قلب الأعيان ما رواه البيهقى فى حديث مسند وهو **(دفعه لعكاشة)** ابن محصن الصحابى المشهور، وهو بضم العين المهملة وتخفيف الكاف وتشديدها معجمة علم منقول، وأصله العنكبوت أو بيته وهذه القصة وقعت له وهو ببدر مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، والدفع أصل معناه الإزاحة باليد والمنع، ويطلق على الإعطاء والتسليم كما يقال: دفع المال له **(جذل حطب)** بجيم مكسورة وذال معجمة ساكنة ولام وقد تفتح جيمه، وهو عود غليظ، أو أصل من أصول الشجر، ومنه المثل أنا جذيلها المحكك، وهو عمود ينصب لتحتك به الإبل الجرباء، فاستعير لمن يرجع لرأيه، ويستشفى بهدايته فى المهمات، والحطب: ما يبس من أغصان الشجر، وهو معروف، وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: سبقك بها عكاشة، وقد كان قال: يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، وهم الذين لا يرقون ولا يسترقون، فقال عكاشة ادع الله أن يجعلنى منهم، فقال: جعلك

الله منهم، ثم قام آخر فقال: مثل ما قال، فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم: سبقك بها عكاشة(١).

قال ابن عبد البر: الثانى كان من المنافقين، ورده السهيلى بأنه ورد فى رواية، فقام رجل من خيار المهاجرين، وأيضًا ورد أنه إنما قال لثالث، ولعل الساعة الأولى كانت ساعة إجابة انقطعت أو لأنه عرف صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لو دعا له استرسل الأمر وطال وعم مثله الناس وهو مما يكتم.

(**وقال: اضرب به حين انكسر سيفه يوم بدر**) أى فى وقعة بدر كما مر فى إطلاق اليوم على مثله، (**فعاد فى يده سيفًا**) أى صار؛ لأنه عاد يكون بمعنى رجع، وليس مناسبا هنا، وبمعنى صار كما فصل فى محله، وقوله (**صارمًا**) أى قاطعا، ومنه الصرم وهو الهجر والقطيعة (**طويل القامة**) أى طويلاً مستقيمًا (**أبيض**) اللون (**شديد المتن**) أى قوى الجرم صلبًا من المتانة، وهى القوة، ولذا سمى الظهر متنا لقوته فى اشتداد الأعضاء وقوامها به.

(**فقاتل به**) ببدر حتى انقضت، (**ثم لم يزل**) السيف (**عنده**) أى فى ملكه وتصرفه، والعند للحضرة، وترد لمعان أخر منها هذا.

(**يشهد**) أى يحضر (**به المواقف**) أى قتال الكفرة (**إلى أن استشهد فى قتال أهل الردة**)، واستشهد بمعنى صار شهيدا، وقيل: معناه طلب الله تعالى منه الشهادة، وذلك فى خلافة أبى بكر رضى الله تعالى عنه، وهو مشهور وقوله: إلى أن استشهد إلى آخره: غاية لبقائه فى يده، فلا ينافيه بقاؤه عند أهله بعده كما توهم.

(**وكان هذا السيف يقال له: العون**) سمى بهذا المصدر مبالغة لإعانته على الأعداء وكان من عادة العرب وأهل الصدر الأول أنهم يسمون آلات حربهم وخيولهم بأسماء كالأناسى.

(**وَدَفْعُهُ**) مصدر مرفوع مبتدأ خبره مقدر أى من كراماته صلى الله تعالى عليه وسلم دفعه، أو هو معطوف على دفعه السابق بلا تقدير وهو الأولى (**لعبد الله بن جحش يوم أحد**): أى فى وقعة أحد المشهورة، وهو ابن عمته صلى الله تعالى عليه وسلم أميمة بنت عبد المطلب، وهو من المهاجرين بالهجرتين، ويسمى المجدع؛ لأنه استشهد بأحد ومثل قطع أنفه وأذنيه؛ لأنه طلب ذلك من الله، وقصته مشهورة فى السير ورواها البيهقى مسندة.

(**وقد ذهب سيفه**) جملة حالية أو معترضة، فأعطاه صلى الله تعالى عليه وسلم (**عسيب نخل**) عسيب بوزن كريم بعين وسين مهملتين ومثناة ساكنة تحتية وباء موحدة، قيل:

(١) تقدم تخريجه.

وهى جريدة النخل لا خوص عليها، والصواب ما فى الصحاح من أنه من السعف ما فوق الكرب لم ينبت عليه خوص كعسب الذنب.

(فرجع) أى صار العسيب وهو أحد معنيى الرجوع ويكون لازمًا ومعتديًا **(سيفا)** مفعول رجع.

قال ابن عبد البر فى الاستيعاب: انقطع سيف عبد الله بن جحش يوم أحد، فأعطاه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم أحد عرجون نخلة، فصار فى يده سيفًا يقال: إن قائمه كان منه، فبقى إلى أن بيع من بغاء التركى بمائتى دينار، وكذا ذكره ابن سيد الناس وغيره.

وهذه الرواية تدل على أن العسيب أصل العرجون لا الجريد كما قيل، وهذه أعظم من معجزة موسى، عليه الصلاة والسلام، فى عصاه؛ لأنها بقيت بعده صلى الله تعالى عليه وسلم، وعصا موسى لم تبق بعد موته، وقد وقعت مرارًا فى عصى متعددة، وتلك عصا واحدة.

وفى سيرة ابن سيد الناس مثله لسلمة بن أسلم يوم بدر.

(ومنه) أى من هذا النوع من الكرامات والبركات **(بركته)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(فى درور الشاة)** ودرور بدال ورائين مهملات: مصدر درت الشاة ونحوها درورًا:سال لبنها من ضرعها بكثرة، والدر اللبن، ومنه لله دره، ثم شاع فى معنى الخير والنفع، والشاة من الغنم وأصلها شوهة فأعلت وتطلق على ما يشمل المعز مجازا، والشياه بزنة رجال جمع شاة.

(الحوائل) جمع حائل، وهى التى لم تحمل مطلقا أوما حمل عليها فلم تحمل، وقيل إنها مالم تكمل سنة أو سنتين، وقيل: إنها جمع حول جمع حائل جمع الجمع، ووصفها بذلك لأنها أبعد من الدر **(باللبن الكثير)** ذكره للإيضاح والتأكيد، أو أراد بالدور مطلق الخروج على طريق التجريد والمجاز المرسل.

(كقصة شاة أم معبد) عاتكة بنت خالد الخزاعى أخت حبيش الصحابى المعروف بالأشقر وأبو معبد أسلم ومات فى حياة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وله رواية.

وقال السهيلى: إنه لا يعرف اسمه، وقيل: اسمه حبيش، وقيل أكثم بن أبى الجون ومنزله بقديد.

وقصة أم معبد مشهورة وتقدمت الإشارة إليها وأفردها الحافظ العلائى بالتأليف، وملخصها أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مر على خبائها وهو مهاجر للمدينة، فنزل عندها وطلب منها زادًا، فقالت: ما عندى غير شاة عجفاء لا لبن فيها، فمسح صلى الله

تعالى عليه وسلم ضرعها فدرت ما كفاه ومن معه، وبقى فى الإناء بقية، فلما جاء زوجها أخبرته بخبره وصفته فعرفه، ثم قدمت عليه صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة بولد صغير لها، وأسلمت كما بيناه سابقا وتفصيله فى السيرة وشرحها، وهو مشهور لا حاجة لذكره هنا.

(و) منها قصة **(أعنز)** جمع عنز **(معاوية بن ثور)** بالمثلثة ابن عبادة بكسر العين ابن البكاء والد بشر، وقصته رواها ابن سعد وابن شاهين عن الجعد بن عبد الله، وفى نسخة العزفى: أنه معونة بعين مضمومة ونون صححه، ولم يذكره الحافظ الحلبى، ونقل خلافه عن الذهبى، وكان وفد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو شيخ كبير ومعه ولده بشر، ومعه الضجيع بن البكاء والأصم بن كعب، فقال: يا نبى الله بأبى أنت وأمى امسح على وجه ابنى، فمسح عليه وأعطاه أعنزًا سبعا، ودعا لها بالبركة: قال الجعد: وكانت السنة ذات قحط وغلاء أصاب بنى البكاء فأصابتهم بركته صلى الله تعالى عليه وسلم ونمت الأعنز وكتب لهم كتابا هو عند بنى بشر المذكور، وفيه قصة الأعنز، وفى ذلك يقول بشر، رضى الله عنه:

وأنا الذى مسح الرسول برأسه ودعا له بالخير والبركات

(وشاة أنس) وقصتها كقصة شاة أم معبد إلا أن الشراح لم يذكروها، ولم يذكرها السيوطى فى تخريجه أيضًا لعدم الوقوف عليها.

(وغنم حليمة مرضعته) صلى الله تعالى عليه وسلم أى قصة غنمها التى رواها أبو يعلى والطبرانى وغيرهما بسند حسن، لما حملته صلى الله تعالى عليه وسلم لترضعه فى سنة كان فيها قحط أصاب أرض قومها، وقل النبات فيها، فكان غنمها تأتى من المرعى، وقد رعت كثيرًا ودر لبنها، وغنم قومها تأتى عجافا جافة الضروع، فيتعجبون منها وما ذاك إلا ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم ويمن قدمه.

وحليمة هى بنت عبد الله بن الحارث السعدية وزوجها هو الحارث بن عبد العزى، وقد أسلمت هى وزوجها وأولادها كما تقدم، ومرضعته بالجر بدل من حليمة.

(وشارفها) بالجر عطف على غنم، والشارف الناقة المسنة المهرية، وقيل: إنها تشمل الذكر والأنثى والمعز، والمراد الأول، فكانت خرجت من بلدها مع زوجها وابن رضيع لها ومعهم شارف ليس فى ضرعها قطرة لبن، فكانوا لا ينامون من الجوع، فلما أخذت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لترضعه، قام زوجها فوجد شارفة حاملة بالدر، فحلب منها ما شربوا كلهم وشبعوا، وبات بخير ليلة، فقال لحليمة: إنه نسمة مباركة. فقالت: إنى والله أرجو بركته إلى آخر القصة.

(وشاة عبد الله بن مسعود) التى روى قصتها البيهقى وابن أبى مسعود من كبار المهاجرين السابقين، وترجمته تقدمت، وكان وهو صغير يرعى غنما لعقبة بن أبى معيط، فمر عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأبو بكر، فقال له: هل عندك لبن؟ قال: نعم لكنى مؤتمن، فقال: ائتنى بشاة لم ينز عليها الفحل، فأتيته بجذعة فاعتقلها ومسح ضرعها ودعا الله، وأتاه أبو بكر بصحفة فحلب فيها، وقال لأبى بكر: اشرب، ثم قال للضرع اقلص فعاد كما كان، وكان هذا سبب إسلامه، **(وكانت لم ينز عليها فحل)** نزا الذكر على الأنثى إذا علاها لينكحها وأنزاه غيره وهو مخصوص بالبهائم والسباع، والفحل الذكر، فيصح فى ينز أن يكون بفتح الياء التحتية وضم الزاء المعجمة مبنى للفاعل، ويصح ضم أوله وفتح آخره بالبناء للمجهول، وهو مبالغة فى عدم اللين بنفى اللازم البعيد؛ لأنه إذا نزا عليها حملت، ثم ولدت ثم يدر لبنها.

(وشاة المقداد) بالجر أى قصتها التى رواها مسلم والبيهقى، وهو ابن عمرو لا الأسود وإن اشتهر به كما يأتى ابن عبد يغوث الصحابى المشهور، وقصته أنه قال: كنت أنا وصاحبان لى قد بلغ منا الجهد، فعرضنا أنفسنا على أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فلم يقبلنا أحد فأتينا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فانطلق بنا إلى أهله فإذا ثلاثة أعنز، فقال: احتلبوا منها لبنا بيننا فكنا نحتلب ويشرب منا كل نصيبه، ونرفع للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم نصيبه، فيجىء من الليل ويشربه، فوقع فى نفسى ذات ليلة، أنه صلى الله تعالى عليه وسلم يأتيه الأنصار لحاجتهم لهذه الجرعة، فشربتها ثم ندمت خشية أنه إذا لم يجدها يدعو علىَّ فأهلك، فلم أنم وقد نام صاحباى، فجاء صلى الله تعالى عليه وسلم لعادته ليكشف الإناء، فلم يجد شيئًا ورفع بصره إلى السماء، فقلت: الآن يدعو علىَّ، فقال: اللهم أطعم من أطعمنى واسق من سقانى، فأخذت الشفرة وانطلقت إلى الأعنز لأذبح ما سمن منها، فإذا هن حفل كلها، فحلبت إناء حتى علت رغوته، وجئت إليه صلى الله تعالى عليه وسلم به فشرب ثم ناولنى، فلما علمت أنه روى وأصبت دعوته ضحكت حتى استلقيت فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: احذر سوآتك يا مقداد يعنى أنك فعلت سوءة فما هى؟ فقلت: يا رسول الله كان منى كذا وكذا، فقال: ما هذه إلا رحمة من الله لو كنت أيقظت صاحباك فأصابا منها، فقلت: والذى بعثك بالحق ما أبالى إذا أصبتها وأصبت فضلك من أخطأت من الناس(١).

(ومن ذلك) أى من كراماته وبركاته صلى الله تعالى عليه وسلم كما رواه ابن سعد عن سالم بن أبى الجعد مرسلاً **(تزويده أصحابه)**: أى إعطاءهم ما يتزودونه أى يكون

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٥٥/١٧٤)، وأحمد (٣/٦)، وابن سعد (١٢١/١/١).

زادًا، والزاد يشمل الماء والطعام، والمراد الأول لقوله: **(سقاء ماء)** السقاء ككساء جلد كالقربة يوضع فيه الماء واللبن ونحوه، وضمن تزويد معنى إعطاء، ولذا نصب السقاء أو هو على التسمح، وقوله سقاء ماء المراد به: سقاء فيه ماء كما يشهد له ما بعده **(بعد أن أوكاه)** أى شده بالوكاء، وهو ما يربط به القربة ونحوها، **(ودعا فيه)** أى دعا فى شأنه وأمره وبسببه، وبعد متعلق بتزويد.

(فلما حضرتهم الصلاة) أى دخل وقتها حتى كأنها جاءتهم، وهذا يقتضى أنه كان ماءً يصلح للوضوء **(نزلوا فحلوه)** أى حلو وكاءه ليستعملوا ماءه، **(فإذا هو لبن حليب)** أى فاجأهم كونه لبنا خالصًا بعد ما كان ماء، وهذا من قلب الأعيان ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم **(وزبده)** بباء موحدة أو بالإضافة لضمير اللبن أو للسقاء بأدنى ملابسة **(فى فمه)** أى فى فم ذلك السقاء، والزبد دليل على خلوص لبنه وجودته، وإنما أوكأه لئلا يتوهم أن اللبن وضع فيه وبدل لمن لم يكن معه، وفى نسخة فنزلا فحلاه بضمير التثنية لرجلين كان السقاء معهما.

وهذا الحديث **(من رواية حماد بن سلمة)** بن دينار الإمام أبو سلمة أحد الأعلام، وله ترجمة فى الميزان كما تقدم، وذكر أنه من روايته على خلاف المعتاد من أسلوبه فى تحريره قبل بيانا لشأن هذا الحديث حيث رواه مثل هذا الإمام الثقة العابد الزاهد الذى كان مجاب الدعوة معدودًا من الأبدال، ومسلم ممن أجله وروى عنه، والمغاربة، والمصنف، رحمه الله تعالى، من أجلهم يمشون أثر مسلم فلا يعتدون بمن غض منه، وقال: إن البخارى لم يرو عنه إلا على طريق الاستشهاد، وهذا من قلة الإنصاف وسلمة بفتحتين كما مر.

(ومسح على رأس عمير بن سعد) أى أمرَّ صلى الله تعالى عليه وسلم يده على رأسه، قال الحافظ البرهان الحلبى: كذا فى نسخ من الكتاب، وفى بعضها عمر بن سعد بلا تصغير، وهو أبو كبشة الأنصارى الصحابى، وعمير من الصحابة أيضًا، ولا أعرف من جرت له هذه القصة منهما.

وقال السيوطى: إن الذى رواه الزبير بن بكار فى أخبار المدينة عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد أنه عبادة لا عمير، ولعل ذلك واقعتان، وفى نسخة التلمسانى عمر بن سعيد، وقال: إنه أبو يحيى النخعى الكوفى مات سنة خمس عشرة ومائة، **(وبرَّك)** بالتشديد: أى دعا له صلى الله تعالى عليه وسلم بالبركة فى عمره وصحته.

(فمات وهو ابن ثمانين): أى وقد بلغ سنه الثمانين، فجعله ابنها مجازًا، ومثله مشهور يجعلون الدهر كالأب والأم كما يقال الليالى حبالى، قال:

فمخضت المنون لـــه بيـــوم أتى ولكـــل حاملـــة تمـــام

(فما شاب) أى ببركة مس يده الشريفة له لم يشب رأسه وشعره و لم يهرم، فنفى الهرم بنفى الشيب لأنه من لوازمه.

(وروى) للبناء للمجهول نائب فاعله **(مثل هذه القصص)** من بركاته صلى الله تعالى عليه وسلم **(عن غير واحد)** أى عن كثير، فنفى الوحدة كناية عن الكثرة، **(منهم السائب بن يزيد)** بن سعيد بن ثمامة بن الأسود، **(ومدلوك)** بفتح الميم وسكون الدال المهملة وضم اللام وواو تليها كاف، وهو أبو سفيان الفزارى له وفادة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأسلم مع مواليه، وعلق البخارى حديثه فى غير الصحيح، وذكره ابن حبان، فقال: مدلوك أبو سفيان كان يسكن الشام وأتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فمسح برأسه، فكان ما مست يده أسود وسائر رأسه أبيض انتهى. وفيه تفضيل عدم الشيب عليه وإن كان الشيب وقارًا؛ لأن مدحه لدلالته على الصحة كما مر، ولكل شيء جهة مدح وجهة ذم، وقد أفرد ذلك الثعالبى فى كتاب سماه مدح الشيء وذمه.

(و) روى الطبرانى والبيهقى أنه **(كان يوجد لعتبة بن فرقد)** أى كان موجودًا عنده، والمضارع حكاية الحال الماضية، هو أبو عبد الله عتبة بن فرقد بن يربوع السلمى الصحابى، شهد خيبر وابتنى بالموصل دارًا ومسجدًا، وابنه عمرو عد من الأولياء، وسكن عتبة الكوفة، ويقال لأولاده: الفراقدة وولى الموصل **(طيب)** نائب فاعل يوجد، والمراد بالطيب الرائحة الطيبة، وقيل: إنه بتقدير مضاف أى رائحة طيب يشم من جسده ويفوح فى مجلسه، **(يغلب طيب نسائه)** أصل معنى الغلبة القهر والاستيلاء، فاستعير للزيادة والقوة كما ورد: «غلبت رحمتى غضبى»(١) وروى: سبقت، فالمراد أن رائحته تزيد على رائحة غيره حتى لا يظهر عندها، فإنه روى كما فى الدلائل والاستيعاب عن زوجته أم عاصم أنها قالت: كنا عنده ثلاث نسوة ما منا واحدة، إلا وهى تجتهد فى الطيب؛ لتكون أطيب ريحًا من صاحبتها، وعتبة لا يمس طيبًا، فكان أطيب منا ريحًا، فقلت له فى ذلك، فقال: أصابتنى الضراء على عهده صلى الله تعالى عليه وسلم فأقعدنى بين يديه وتجردت من ثيابى، فتفل فى كفه ودلك الأخرى، ثم أمرَّهما على ظهرى وبطنى، فعبق بى ما ترون، وإليه أشار بقوله: **(لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مسح بيديه على بطنه وظهره)**، وهو متعلق وتعليل لقوله يغلب.

(وسلت الدم عن وجه عائذ بن عمرو) أى مسح صلى الله تعالى عليه وسلم وجهه

---

(١) أخرجه الحميدى فى مسنده (١١٢٦)، وابن أبى عاصم فى السنة (١/٢٧٠)، وابن أبى الدنيا فى حسن الظن (١٣).

بيده متكئا عليه، حتى أخرج ما عليه من الدم، وهذا معنى السلت، ويختص بإخراج المائع والرطب الملتصق بشىء آخر، يقال: سلت القصعة إذا أمر أصابعه على جوانبها لتنظف كما فى صحاح الجوهرى، وهو معنى معروف، فلا وجه لما قيل: إنه من سلت الدم قطعه.

وعائذ بعين مهملة وذال معجمة اسم فاعل من العوذ سمى به، وهو عائذ بن عمر ابن هلال المزنى الصحابى من أصحاب الشجرة، وهو مزنى وحديثه هذا رواه عنه الطبرانى.

(وكان) عائذ **(خرج يوم حنين)**: أى فى وقعته التى وقعت مع هوازن سنة ثمان من الهجرة كما فصل فى السير، وحنين اسم موضع قريب من الطائف بينه وبين مكة ثلاثة أميال، سمى باسم حنين بن مهيلائيل لنزوله به كما مر، وجملة وكان إلخ حالية.

(ودعا له) لجهاده فى سبيل الله، **(فكانت له غرة)** بيضاء منيرة **(كغرة الفرس)** من أثر يده الشريفة لما مسح وجهه، والغرة بياض منتشر طولاً وعرضًا فى وجهه، فإن قلت: سميت فرجة وليس فيه مثله كما توهم، فإنه كبياض يد موسى، عليه الصلاة والسلام، والفرق بينه وبين البرص ظاهر، وفى نسخة ولا كغرة الفرس أى لا تشبه غرته؛ لما فيه من النور، وليس كالوضح فى البدن.

(و) ذكر ابن الكلبى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم **(مسح على رأس قيس بن زيد)**، وهو صحابى له وفادة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان سيد قومه، وفى بعض النسخ يزيد بياء فى أوله، وأبوه يسمى عامرًا **(الجذامى)** نسبة لجذام كغراب قبيلة مشهورة.

(ودعا له) صلى الله تعالى عليه وسلم بما فيه بقاء صحته وعافيته، **(فهلك)** أى مات، فالهلاك والموت بمعنى، وقد يخص الهلاك بموت غير مرض لكنه ليس معنى وضعيا، **(وهو ابن مائة سنة ورأسه أبيض)** لشيبه **(وموضع كف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وما مرت عليه يده أسود)** لم يشب ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وكان يدعى الأغر) أى كان يسمى بالأغر، لما فى وجهه من النور، تقول: دعوت ابنى محمدًا إذا سميته به.

(وروى) بالبناء للمجهول، والذى رواه البيهقى **(مثل هذه الحكاية لعمرو بن ثعلبة الجهنى)** فى مسحه صلى الله تعالى عليه وسلم برأسه وبقاء أثره فى وجهه وموته كما مات قيس على أحسن حالة، وثعلبة هو وهب بن عدى بن مالك النجارى الزهرى، والجهنى منسوب لجهينة وهى قبيلة مشهورة، وقصته كما فى دلائل البيهقى أنه قال: لقيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالسيالة، فأسلمت ومسح على وجهى،

فمات عمرو وقد أتت عليه مائة سنة، وما شاب منه شعرة مستها يد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من وجهه ورأسه، وسيالة بوزن سحابة بسين مهملة ولام موضع قريب من المدينة الشريفة.

(ومسح) صلى الله تعالى عليه وسلم **(على وجه آخر)** قال البرهان: لا أعرفه، وقيل لعله حزيمة بن سواد بن الحارث؛ لأنه روى أنه مسح على وجهه فصارت له غرة بيضاء، وقيل: لعله طلحة ابن أم سليم، فإنه روى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مسح بناصيته، فكان كغرة **(فما زال على وجهه نور)** من آثار أنواره صلى الله تعالى عليه وسلم.

(ومسح) صلى الله تعالى عليه وسلم **(وجه قتادة بن ملحان)** بكسر الميم، ويجوز فيه الصرف وعدمه، وقتادة هذا صحابى له رواية وترجمة.

(فكان لوجهه بريق) أى لمعان وصفاء بشرة من أثر مرور يده الشريفة عليه، **(حتى كان ينظر)** بالبناء للمجهول **(فى وجهه)** أى يقابل وجهه بوجهه، ليرى الناظر صورة وجهه فيه لشدة صفاء بشرته **(كما ينظر فى المرآة)** بكسر الميم اسم آلة من الرؤية معروفة، والظاهر أنه مبالغة فى صفائه وحسنه، وليس المراد حقيقته.

(ووضع) صلى الله تعالى عليه وسلم **(يده على رأس حنظلة)** فى حديث رواه البيهقى بطوله مسندًا **(ابن حذيم)** قال ابن ماكولا: هو بكسر الحاء المهملة وسكون الذال المعجمة وفتح المثناة التحتية وميم، وقال: إنه حنيفة بن حذيم أبو حنظلة له صحبة، وكذا قال الذهبى فى المشتبه والتجريد: حنيفة والد حذيم، ولهما صحبة، ولحنظلة ابنه وذكر حذيما فقال: حذيم ابن حنيفة بن حذيم الحنفى والده له فيما قيل صحبة، ولابنه وابن ابنه صحبة، وفيه خلاف انتهى.

فعلم منه أنهم أربعة لهم صحبة، وقد قال ابن الجوزى: لا يعلم أربعة أدركوه صلى الله تعالى عليه وسلم إلا أبا قحافة وابنه أبا بكر وابنه عبد الرحمن وابنه محمد، ويكنى أبا عتيق انتهى. والصحيح أن أبا عتيق تابعى، وحمل عليه الذهبى فى تجريده: ولو قالوا عبد الله بن الزبير وأمه أسماء وأبوها أبو بكر وأبوه أبو قحافة كان صوابًا، فإنه لا خلاف فى صحبتهم، فحصل بمجموعه ثلاثة أشخاص ولهم رابع، ذكره العراقى فى حاشية ألفيته، وحنظلة مالكى، وقيل: حنفى، وقيل: سعدى. هذا محصل ماقاله البرهان.

(وبرّك عليه) بالتشديد: أى دعا له بالبركة، وقال: بارك الله فيك، **(فكان يؤتى)** بصيغة المجهول أى يأتيه الناس **(بالرجل)** تعريفه للعهد الذهنى المساوى للنكرة **(قد ورم وجهه)** جملة حالية: أى أصابه مرض ورم منه وجهه، **(والشاة)** بالجر من المعز والضأن **(وقد ورم ضرعها)**، وهو كالثدى للإنسان وهو معروف، **(فيضع)** محل الورم من الوجه

والضرع **(على موضع كف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** الذى مسه به، **(فيذهب الورم)** الذى كان أصابه.

(و) روى ابن عبد البر فى الاستيعاب أنه صلى الله تعالى عليه وسلم **(نضح فى وجه زينب بنت أم سلمة)** بفتحتين علم منقول من اسم شجرة معروفة، وأم سلمة هى أم المؤمنين، وزينب بنتها ربيبة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأخت ابن الزبير من الرضاعة، ونضح ينضح من باب ضرب يضرب، بمعنى رش بالماء ونحوه **(نضحة)** أى رشة **(من ماء، فما كان يعرف فى وجه امرأة)** أى ما كان يرى وينظر فى وجه أحد من النساء أو يعلم بالأخبار لمن لم يرها **(من الجمال)** أى حسن الوجه ورونقه **(ما بها)**: أى ماكان بها من ذلك ببركة الماء الذى رشه صلى الله تعالى عليه وسلم فى وجهها؛ لأن ذلك الماء كان مسه صلى الله تعالى عليه وسلم.

قال ابن عبد البر فى الاستيعاب:دخلت زينب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يغتسل، فنضح فى وجهها ماء، فلم يزل ماء الشباب بوجهها حتى كبرت وعجزت، وكانت عند عبد الله بن زمعة، فولدت له وكانت من أفقه أهل زمانها وأعقلهم، وتقدم أن اسم أم سلمة هند، وقيل: رملة، وأبوها حذيفة المعروف بزاد الراكب، وزينب ولدت بأرض الحبشة، فقدمت بها أمها وكان اسمها برة، فسماها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم زينب.

(ومسح) صلى الله تعالى عليه وسلم بيده الشريفة المباركة **(على رأس صبى)** كان ذلك الصبى **(به عاهة)** أى آفة ومرض، والمراد أنه كان أقرع، واسم هذا الصبى لا يعرف، **(فبرأ)** بزنة ضرب، وآخره مهموز، وأما برى بمعنى خلق فمعتل أى زالت عاهته وشفى مما به، **(واستوى شعره)** أى نبت وتم وحسن من قولهم: استوت الثمرة إذا كملت، والشعر معروف بفتح العين وسكونها، وهذا الحديث لم يخرجه السيوطى ولا غيره من الشراح.

(ومثله روى فى خبر المهلب بن قبالة ومسح) صلى الله تعالى عليه وسلم **(على غير واحد)** أى على كثير كما مر بيانه **(من الصبيان المرضى)** جمع مريض **(والمجانين فبرءوا)** أى زال ما بهم من المرض والجنون، قيل: هذا كله كان ينبغى ذكره فى فصل إبراء المرضى وذوى العاهات، وأكثر فصوله متداخلة ولكل وجهة لمن تدبر، وعرف مقاصد المصنف.

(و) فى حديث لم يخرجوه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم **(أتاه رجل به أدرة)** بضم **الهمزة** وسكون الدال وبالراء المهملتين وهاء، وهو انتفاخ فى الخصيتين معروف **(فأمره**

أن ينضحها) أى يرش على أدرته **(بماء من عين مج فيها)** أى كان صلى الله تعالى عليه وسلم تفل ريقه فيها، **(ففعل)** أى رش من مائها على أدرته، **(فبرأ)** أى شفاه الله وزال ورمه على السرعة ببركة الله وبركته صلى الله تعالى عليه وسلم فى الماء الذى خالطه فيه، وضمير فيها للعين أى عين الماء؛ لأنها مؤنثة، وفى بعض النسخ فيه بالتذكير، فالضمير للماء أو للعين لتأويلها به، والأمر فيه سهل ويجوز فى الأدرة الهمزة مع سكون الدال وفتحها، وقد قيل: إنها انفتاق فيها أو فى أحد جانبيها، وقد يكون بلحم يزيد فيها أو ريح كما يعرفه الأطباء، وينضحها يجوز فى ضادها الفتح والكسر، وفى بعض الحواشى أن الرجل اسمه المهلب بن قبالة بفتح القاف والباء الموحدة الخفيفة ولام، وروى هلب بن قنافة وهلب بضم الهاء وسكون اللام بزنة قفل، وقنافة بضم القاف ونون مفتوحة مخففة وفاء.

قال ابن عبد البر: هو الصواب إن لم يكونا قصتين.

وقال الطبرى: هو المهلب بن يزيد بن عدى بن قنافة بن عبد الشمس بن عوف الطائى وفد على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبه قرع، فمسح برأسه ونبت شعره فسمى المهلب لذلك.

(و) فى حديث روى **(عن طاوس)** بن كيسان اليمانى أبو عبد الرحمن اليمانى المشهور، وهو من أبناء الفرس واسمه ذكوان، فلقب بطاوس لأنه طاوس القراء روى عن ابن عباس وأبى هريرة وغيرهما، وكان رأسا فى العلم والعمل توفى سنة ست أو خمس ومائة وأخرج له الستة، وهو ممن اتفق على زهده وعلمه حج أربعين حجة، وصلى الصبح بوضوء العتمة أربعين سنة إلى غير ذلك من مناقبه، وهو من أجل التابعين دفن بمكة، رضى الله تعالى عنه.

(لم يؤت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم) بالبناء للمجهول أى لم يأته أحد **(بأحد به مس)** سيأتى تفسيره، **(فصك فى صدره)** بصاد مهملة وكاف مشددة: أى ضرب صدره بيده المباركة، والصك مطلق الضرب أو أشده **(إلا ذهب)** المس عنه وبرأ مما به، وهذا الحديث موقوف على طاوس ولم يذكروا من رواه عنه، والجملة حالية تأتى بالواو وقد وبدونهما.

(والمس: الجنون) واللمس والمس متقاربان إلا أنه يكنى به عن الجنون، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥] لأنه يقال على كل ما ينال الإنسان من الأذى، كقوله تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة:٢١٤].

(و) روى أحمد عن وائل بن حجر مسندًا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم **(مج)** أى

صب من فيه **(فى دلو)** فيه ماء أخرج **(من بئر، ثم صب فيها)** أى فى البئر الماء الذى مج فيه ريقه، **(ففاح منها ريح المسك)** الريح هنا بمعنى الرائحة، ويطلق فى الأصل على نفس الهوى، والمراد أنه مثله فى الطيب، وهو أتم منه وأطيب ولكن جعل مشبها به لشهرته.

(و) فى حديث مشهور رواه مسلم عن سلمة بن الأكوع أنه صلى الله تعالى عليه وسلم **(أخذ قبضة)** بفتح القاف وضمها **(من تراب)**: أى ملء كفه من التراب **(يوم حنين)**: أى فى وقعتها المشهورة فى السير، **(ورمى بها)** أى بترابها **(فى وجوه الكفار)**، فأصابتهم جميعا، **(وقال: شاهت الوجوه)** جملة دعائية بمعنى قبحت، وقبحها الله، وهى من الشوهة والتشويه وهو القبح، قيل: وأول من تكلم به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ووقع مثله فى يوم بدر كما فى السير، وهو شيء أقدره الله تعالى، عليه كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فإن إيصال هذا المقدار اليسير إلى أعين هؤلاء الجم الغفير من صنع الملك القدير، **(فانصرفوا)** أى ولى الكفار حال كونهم **(يمسحون القذا)** بفتح القاف والذال المعجمة وألف مقصورة، وهو ما يقع فى العين من التراب، ويكون أيضًا ما يقع فى الماء المشروب ونحوه مما يكدره **(عن أعينهم)** أى يزيحونه ويزيلونه منها لتأذيهم به، ومنعهم من الإبصار وفتح العين، وهو معروف وواحده قذاه، وفى الحديث: «يرى أحدكم القذاة فى عين أخيه ويعمى عن الجذع فى عينه» وهو مثل يضرب لمن يرى عيوب الناس الصغيرة، ولا يرى عيوبه الكبيرة، وهو مثل تمثل به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ونظمه بعض المتأخرين فقال:

واعجبا للمرء مع علمه   أن ليالى عمره سارية
ينظر فى عين أخيه القذا   ولا يرى فى عينه السارية

وقوله: فانصرفوا بمعنى انهزموا لما وصل التراب إلى أعينهم، وقال: شاهت الوجوه، وفيه معجزة عظيمة له صلى الله تعالى عليه وسلم.

(و) فى بعض النسخ أنه صلى الله تعالى عليه وسلم **(ضرب صدر جرير بن عبد الله)** البجلى الصحابى، رضى الله تعالى عنه، وليس هو جرير الشاعر، وخص الصدر؛ لأنه محل الرهبة والأمن لأنه مقر القلب.

(ودعا له وكان) جرير **(ذكر له)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(أنه لا يثبت على الخيل)** أى لا يقر على ظهورها لعدم فروسيته، **(فصار)** جرير، رضى الله عنه، حينئذ **(من أفرس العرب)** أى أقواهم **(وأثبتهم)** على ظهورها ببركة دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم له، فالفاء فصيحة أى فدعا له فصار إلى آخره.

(ومسح) صلى الله تعالى عليه وسلم **(على رأس عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب)** بن

نفيل القرشى العدوى المدنى الصحابى، **(وهو صغير)** وكان أتى به إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فحنكه **(وكان دميما)** بدال مهملة بمعنى حقير، وأما ذميم بالمعجمة فهو بمعنى مذموم وليس مرادًا هنا.

(ودعا له بالبركة) أى بالزيادة فى خلقته وسائر أموره، **(ففرع)** بفاء وراء وعين مهملتين مفتوحات **(الناس)** أى جنسهم، وفى نسخة: الرجال بدله بمعنى زاد عليهم **(طولا)** أى فى طول قامته، **(وتماما)** أى بأن تم سائر أعضائه، وكمل الله خلقته بدعائه له صلى الله تعالى عليه وسلم، وإلى هنا انتهى ما زيد فى الأصل، ونقل من خط المصنف، رحمه الله تعالى.

(وشكى إليه) صلى الله تعالى عليه وسلم **(أبو هريرة)** الصحابى المشهور، رضى الله تعالى عنه، وقد قدمنا ترجمته وما يتعلق به من الصرف وعدمه، وما فيه من الكلام للناس **(النسيان)** مصدر بكسر النون وهو ضد الحفظ، والفرق بينه وبين السهو: أن الثانى يتنبه صاحبه بأدنى تنبه، والفرق بينه وبين الخطأ: أنه صدور أمر من غير قصد، **(فأمره)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(ببسط ثوبه)** أى ما كان لابسًا له فى ذلك الوقت أى بأن يضعه على الأرض ويفرشه، **(وغرف بيده فيه)**: أى فعل فعلا شبيهًا بمن يغرف من شىء ما يضعه فى آخر، وضمير فيه للثوب الذى أمره صلى الله تعالى عليه وسلم ببسطه للأمر الذى أراده له.

(ثم أمره) بعد ما غرف فيه **(بضمه)** أى ضم ثوبه على جسده، **(ففعل)** أى ضمه عليه حتى كأنه صار بدنه ما غرفه له، **(فما نسى شيئًا بعد)** بالبناء على الضم؛ لما تقرر فى محله فى علم العربية، أى لم ينس أبو هريرة شيئًا مما كان يسمعه منه صلى الله تعالى عليه وسلم ومن غيره؛ لما ناله من البركة.

قال أبو هريرة، رضى الله تعالى عنه: فما كان أحد أحفظ منى لحديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا [ابن عمرو](١)، رضى الله تعالى عنهما، لتقدم إسلامه عليه، ولأنه كان يكتب.

وهذا الحديث رواه البخارى وفيه بدل الثوب الرداء ولا مخالفة بينهما؛ لأن المراد بالثوب الملبوس مطلقًا كما تقرر، وإن خص فى العرف بالمحيط منه، وما فعله صلى الله تعالى عليه وسلم من الغرف ونحوه بجعل المعانى المعقولة بمنزلة الأمور المحسوسة، فجعل

(١) فى الأصل: ابن عمر، والصواب ما أثبتناه، والحديث فى صحيح البخارى (رقم١١٣)، قال أبو هريرة: ما من أصحاب النبى ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه منى، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب.

الحفظ كشيء عنده اغترف منه حتى ملأ رداءه وضمه إليه، حتى يحيط بـه ويسرى من ظاهره لباطنه، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم كما فوض إليه التصرف فى عالم الشهادة فوض إليه التصرف فى غيره أيضًا، وهو سر من الأسرار دقيق لا يوقف عليه إلا بالكشف.

* * *

[فصل فيما اطلع عليه من الغيوب وما يكون]

(فصل ومن ذلك) أى من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم وكراماته الباهرة **(وما اطلع عليه)** هو أما مبنى للمجهول من الإفعال أى أطلعه الله تعالى عليه، أو من الأفعال مبنى للفاعل بتشديد الطاء **(من الغيوب)** بغين معجمة جمع غيب المصدر على خلاف القياس، من غاب بمعنى استتر عن العين، يقال: غاب عنى كذا ويستعمل فى كل غائب عن الحاسة، وما يغيب عن الإنسان بمعنى الغائب، والغيب بالنسبة للناس لا لله فإنه لا يعزب عنه مثقال ذرة وقوله: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣] أى ما يغيب عنكم وما تشاهدونه، وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] أى بما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداهة العقول، وإنما يعلم بإخبار الرسل، عليهم الصلاة والسلام، **(وما يكون)** فى المستقبل وهو معطوف على الغيوب، عطف الخاص على العام؛ لأن الغيب إما باعتبار أنه موجود لم يطلع عليه غير الله أو ما سيوجد فهو قبل وجوده والعلم به من المغيبات.

(والأحاديث) الواردة **(فى هذا الباب)** أى فى هذا النوع من كراماته صلى الله تعالى عليه وسلم فى إخباره عن الغيب الذى أطلعه الله عليه، فإنه لا يظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول.

(بحر) تشبيه بليغ أى فى كثرتها كالبحر **(لا يدرك قعره)** بالبناء للمجهول، والإدراك الوصول، وقعره قراره وأرضه أى لا يصل أحد إلى نهايته، **(ولا ينزف)** بمعجمة وفاء مبنى للمفعول أو للفاعل بزنة يضرب، والنزف والنزح بمعنى: أى لا ينفد ويفنى **(غمره)** بفتح الغين المعجمة وسكون الميم قبل راء مهملة وهو الماء الكثير جدًا.

(وهذه المعجزة) فى اطلاعه صلى الله تعالى عليه وسلم على الغيب **(من جملة معجزاته)** إشارة إلى كثرتها، فهى البحر حدث عنه ولا حرج **(المعلومة)** للناس **(على)** طريق **(القطع)** بتحققها، بحيث لا يمكن إنكارها أو التردد فيها لأحد من العقلاء، وقوله: المعلومة على القطع: صفة للمعجزات، والقطع بنوعها ومجموعها، وكذا تواترها تواترًا معنويًا حاصلاً من مجموعها بقطع النظر عن كل فرد منها مما لا شبهة فيه، كتواتر جود

حاتم، وهذا غير التواتر المصطلح عليه فإنه جار فى بعضها كالقرآن، وإلى هذا أشار بقوله: **(الواصل إلينا خبرها)** جاريًا **(على)** نهج **(التواتر)** المشهور؛ **(لكثرة رواتها)** أى رواة مجموعها **(واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب)** أى الأمور المغيبة، وهذا لا ينافى الآيات الدالة على أنه لا يعلم الغيب إلا الله، وقوله: ﴿**وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ**﴾ [الأعراف: ١٨٨] فإن المنفى علمه من غير واسطة، وأما اطلاعه عليه بإعلام الله له فأمر متحقق بقوله تعالى: ﴿**فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ**﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] قال ابن عطاء الله فى لطائف المنن، اطلاع العبد على غيب من غيوب الله بنور منه بدليل [قوله]: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله تعالى»(١) لا تستغرب، وهو معنى قوله: «كنت بصره الذى يبصر به» فمن كان الحق بصره فاطلاعه على غيبه غير مستغرب.

وقال بعض العارفين: قوله: ﴿**إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ**﴾ [الجن: ٢٧] لا ينافى قول المرسى فى تفسيرها: إلا رسول أو صديق أو ولى، ولا زيادة فيه على النص، فإن السلطان إذا قال: لا يدخل علىَّ اليوم إلا الوزير لا ينافى دخول أتباع الوزير معه، فكذلك الولى إذا أطلعه الله على غيبه لم يره بنور نفسه، وإنما رآه بنور متبوعه، ولم يكلفنا الله الإيمان بالغيب إلا وقد فتح لنا باب غيبه، وإلى هذا أشار الغزالى فى أماليه على الإحياء، ثم قال: ويحتمل أن يكون المراد بالرسول فى الآية ملك الوحى الذى بواسطته تنكشف الغيوب، فيرسله للإعلام بمشافهة أو إلقاء فى روع، أو ضرب مثل فى يقظة أو منام؛ ليطلع من أراد.

وفائدة الإخبار الامتنان على من رزقه الله ذلك، وإعلامه بأنه لم يصل إليه بحوله وقوته، فلا يظهر على غيبه أحدًا من عباده إلا على يدى رسول من ملائكته أرسله لمن فرغ قلبه لانصباب أنهار العلوم الغيبية فى أوديته، حتى يصل لأسرار الغيب المكنونة فى خزائن الألوهية، انتهى.

فاعرفه فإنه من المهمات، وإليه أشار القاضى فى تفسيره وبقى ثمة أسرار لا تسعها الحرف.

ثم إنه بين ما أجمل بحديث رواه أبو داود عن حذيفة، وعدل عما رواه الشيخان، رحمهم الله تعالى، لما فى طريقه التى رواه منها من الزيادة، فقال: **(حدثنا الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الفهرى)** المعروف **(إجازة)** منه بروايته عنه **(وقرأته على غيره)** إشارة إلى

---

(١) أخرجه الترمذى (٣١٢٧)، والطبرانى (١٢١/٨)، وأبو نعيم فى الحلية (٩٤/٤)، والعقيلى فى الضعفاء (١٢٩/٤).

أنه رواه من طرق متعددة قوية، والقـراءة والإجـازة طريقـان اختلـف فـى أيـهما أقـوى، وقيل: إنهما متساويان وهو الظاهر.

(قال أبو بكر: حدثنا أبو على التسترى) على بن أحمد بن علـى الإمـام المشـهور أحـد رواة سنن أبى داود، وتستر كجندب بلد معروفة وسينه مهملة وإعجامها لحن قال:

(حدثنا أبو عمر الهاشمى) وهو القاسم بن جعفر بن عبد الواحد قال: **(حدثنا اللؤلوى)** وهو أبو على محمد بن أحمد بن عمـر السـابق ترجمتـه قـال: **(حدثنـا أبـو داود)** صـاحب السنن المشهور كما تقدم قال: **(حدثنا عثمان بن أبـى شيبة)** بـن محمـد بـن إبراهيـم أبـو الحسن الكوفى الحافظ، توفى سنة تسع وثلاثـين ومـائتين، وأخـرج لـه أصحـاب السـنن وغيرهم وترجمته فى الميزان قال:

(حدثنا جرير) بن عبد الحميد الضبى، صاحب المصنفات المشهورة الثقـة، توفـى سـنة ثمان وثمانين ومائة، وأخرج له الستة وترجمته فى الميزان وغيره.

(عن الأعمش) هو سليمان بن مهران كما تقدم فى ترجمته.

(عن أبى وائل) سفيان بن سلمة الأسدى المخضرم، توفى سنة اثنين وثمانين وهـو مـن العلماء العالمين ثقة أخرج له الستة.

(عن حذيفة) بن اليمان الصحابى المشهور صاحب سر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذى أخبره بالفتن وما سيكون، وروى عنه أحاديث كثيرة، وكـان عمـر، رضـى الله تعالى عنه، إذا لم يشهد حذيفة جنازة لا يشهدها هو؛ لاطلاعه على المنافقين بـإعلام منه صلى الله تعالى عليه وسلم له بذلك، توفى سنة ست وثلاثين بعد قتل عثمان، وروى عنه «لا تقوم الساعة حتى يسود كل قبيلة منافقوها»، وحديثه الطويل فى الفتن مشـهور وإليه أشار بقوله:

(قال: قام فينا رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسـلم) الضمـير للصحابـة، والمـراد أنـه خطبهم يومًا فعبر بالقيام عـن الخطبـة؛ لأن الخطيـب يخطـب قائمـا أى قـام ونحـن عنـده فالظرفية مجازية **(مقاما)** بفتح الميم اسم مكان أو مصدر ميمى، فهو مفعول مطلـق، **(فمـا ترك)** رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى مقامه هذا **(شيئًا)** مما **(يكـون)** أى يوجـد ويحدث بعده مما يهم من أحوال المسلمين، ومن يتولى أمورهم بعده، وما يكون بعده من الفتن والحروب، فيكون تامة والجملة صفة شيئًا **(فى مقامـه ذلـك)** أى فـى خطبتـه التـى خطبها، وهو من وضع الظاهر موضع المضمر بكمال العناية به **(إلى قيام الساعة)** أى من أول زمنه إلى آخره فقدره لدلالة المقام عليه **(إلا حدثـه)** أى إلا حدثنـا بـه، وذكرنـا أنـه سيوجد، وفى نسخة: حدث به، والفعل فى تأويل الاسم كقولهم أنشـدك الله إلا فعلـت

والاستثناء متصل لدخول المحدث به فى الشىء، وقيل: إنه منقطع بمعنى لكن.

(حفظه من حفظه) الضمير للحديث المفهوم من السياق، **(ونسيه من نسيه)** أى حفظه بعض السامعين له ونسيه بعضهم **(قد علمه أصحابى هؤلاء)** الحاضرون عنده، أو المراد أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهذه الزيادة فى رواية أبى داود ولم يذكرها البخارى.

(وإنه) الضمير للشأن **(ليكون منه الشىء)** أى يوجد شىء مما حدثنا به فى ذلك المقام فى الخارج قد نسيته لطول العهد بحديثه، فأراه بعينى بعد ما وجد **(فأعرفه فأذكره)** أى أتذكره بعد ما نسيته فأتذكر ما أخبرنا به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم شبه تذكره أيضًا حاله **(كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه)** فيه تقديم وتأخير: أى كما أن الرجل إذا غاب عنه رجل كان يعرف وجهه وسيماه، وهو فى مخيلته إلا أنه لم يذكره، فإذا رآه تذكره وعرفه، فليس إذا متعلقا بتذكر، بل بنسى المعلوم من الكلام، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس تشبيها تمثيليًا.

(ثم قال) حذيفة فيما رواه أبو داود وزاده على ما رواه الشيخان: **(ما أدرى أنسى أصحابى)** هذا الحديث **(أم تناسوه)** أى أظهروا نسيانه خوف الفتن لا لقلة الاهتمام به كما قيل، بل لأنه من الأسرار التى لا ينبغى أن يحدث بها كل أحد **(والله)** قسم أكد به ما بعده **(ماترك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من قائد)** بالقاف والدال المهملة ومن زائدة، والمراد به المتغلبة الذين معهم جند تتبعهم كما يتبع الجمل والفرس من يقوده ويمشى خلفه **(فتنة)**، فيأتى للمحاربة وإيقاع الضرر بالمسلمين كالحجاج وغيره من أصحاب البدع من زمنه **(إلى أن تنقضى الدنيا)** أى إلى أن تتم وتنتهى مدتها ويخرب العالم، وتبدو مقدمات الساعة بخروج الدجال ويأجوج ومأجوج **(ويبلغ من معه)** أى يصل من معه من أتباعه والضمير للقائد **(ثلاثمائة)** رجل **(فصاعدًا إلا قد سماه لنا)** رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم **(باسمه واسم أبيه وقبيلته)** بحيث لم يبق شبهة فيه، وهذا الحديث روى من طريق آخر مفصلاً على كلام فيه ذكره ابن الجوزى وغيره.

(وقال أبو ذر) الصحابى المشهور فى حديث رواه أحمد والطبرانى وغيرهما بسند صحيح: **(لقد تركنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى ذهب عنا وانتقل إلى الآخرة من بين أظهرنا، ولم يدع شيئًا إلا بينه لنا بحيث لا يخفى علينا شىء من بعده، وكان قد خطب قبل موته خطبًا أطال فيها مرة من الصباح إلى الظهر، ومرة من الظهر إلى قبيل الغروب لم يدع شيئًا إلا بينه لأصحابه.

(وما يحرك طائر جناحيه فى السماء) أى فى الجو، وهو كناية عن بيان كل شىء **(إلا**

ذكر لنا منه علما)، وفى نسخة: إلا ذكرنا منه علما، أى تذكرنا من طيرانه علما يتعلق به، فكيف بغيره مما يهمنا فى الأرض؟ وهذا تمثيل لبيان كل شيء تفصيلاً تارة وإجمالاً أخرى.

(وقد خرج أهل الصحيح) أى رووا بأسانيدهم ما صح عندهم كالشيخين وأصحاب السنن والمسانيد **(والأئمة)** الحفاظ الثقات كأحمد والشافعى وأبو حنيفة ومالك **(ما أعلم به أصحابه صلى الله تعالى عليه وسلم مما وعدهم به)** بيان لما **(من الظهور على أعدائه)** لغلبتهم وقلة شوكتهم، **(وفتح مكة)** الذى أخبر به قبل وقوعه فحققه الله تعالى.

(و) فتح **(بيت المقدس)** كما رواه البخارى وغيره، وبيت المقدس تقدم الكلام فيه، وقد أخبر صلى الله تعالى عليه وسلم تميمًا الدارى بفتحه لما أسلم، وأقطعه أرضًا بها ثم فتح فى خلافة عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، فأعطى تميمًا إقطاعه فى سنة ست عشرة من الهجرة.

(و) فتح **(الشام و)** فتح **(اليمن و)** فتح **(العراق)** يعنى ما يشمل العراقين عراق العرب والعجم، وكلها مجرورة بالعطف على مكة كما مر، والشام واليمن والعراق بلاد معروفة، وكان إخباره صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك بمكة قبل الهجرة فى حديث رواه ابن دحية كما فى كتاب مرج البحرين فى أخبار المشرقين والمغربين، وأصل معنى العراق شاطئ البحر، وقيل: إنه معرب.

(وظهور الأمن) فى الممالك الإسلامية، وهو مجرور أى أعلم أصحابه بظهور الأمن، **(حتى تظعن المرأة)** بظاء معجمة وعين مهملة ونون: أى تسافر وحدها من الظعن بفتح العين وسكونها وهو السفر، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ [النحل: ٨٠] وذكر المرأة للمبالغة فى الأمن؛ لأنها مع ضعفها وشدة خوفها إذا أمنت علم أمن غيرها بالطريق الأولى.

(من الحيرة إلى مكة) بكسر الحاء المهملة وسكون المثناة التحتية وفتح الراء المهملة والهاء، مدينة بقرب الكوفة واسم بلدة أخرى بقرب نيسابور **(لاتخاف)** المرأة **(إلا الله)** كناية عن أنها لا تخاف أحدًا من الناس من قطاع الطريق واللصوص وغيرهم.

(وأن المدينة) يعنى طيبة، وهو عَلَم بالغلبة عليها، وأصل معناها كل قصر يجتمع فيه الناس **(ستغزى)** روى بغين وزاء معجمتين من الغزو، وهو القتال، وهو إشارة إلى وقعة الحرة الآتى ذكرها، فإنها وقعة عظيمة قتل بها المسلمون حتى تركت الصلاة فى الحرم، وروى بعين وراء مهملتين ومثناة فوقية مفتوحة، وهى مضمومة فى الرواية الأولى أى تخرب وتخلو، فتصير عراء ليس فيها أحد، والعراء الفضاء الخالى من الناس، قال الله تعالى:

﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات:١٤٥]، وهذا لم يقع بعد، وإنما يكون قرب الساعة، وقيل: إنه وقع وهو مقتضى السياق، فهو إشارة إلى قصة الحرة أيضًا، فإن الناس ارتحلوا فيها منها، وتركت الصلاة والأذان حتى سمع الأذان من مرقده صلى الله تعالى عليه وسلم ثم أمنهم يزيد حتى عادوا لها.

(و) أعلمهم صلى الله تعالى عليه وسلم **(بفتح خيبر على يد على)**، كرم الله تعالى وجهه، **(فى غد يومه)** أى أخبرهم فيه بفتحها كما رواه الشيخان عن سهل بن سعد: لما كانت وقعة خيبر، وتعسر فتحها، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله يفتح الله تعالى على يديه»(١)، فدعا عليا وكان أرمد، فبصق فى عينيه فبرأ وفتحها الله على يديه، على ما فصل فى السير، وقد تقدم الكلام على شيء منه.

(و) أعلم صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه **(بما يفتح الله تعالى على أمته)** أى بما ييسره الله تعالى لأمته من فتح البلدان، وما يوسعه لهم **(من الدنيا)** بكثرة المال والعزة، **(ويؤتون)** بالبناء للمجهول أى يؤتيهم الله تعالى **(من زهرتها)** أى زهرة الحياة الدنيا، وهى زينتها وطيب نضارتها ونعيمها، وهذا رواه الشيخان من طرق صحيحة.

(وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر) الكنوز جمع كنز معرب كنج، وهو المال المدفون، ويطلق على كل نفيس مدخر، والمراد هنا خزائنهما وما لهما، وكسرى بكسر الكاف وفتحها وهو علم لملك من ملوك الفرس، ثم صار علم جنس لكل من ملكهم أو نكر، وقيصر علم ملك من ملوك الروم ثم أطلق على كل ملك لهم كذلك، ومعناه المشقوق لأن أمه ماتت حين أرادت وضعه فشق بطنها وأخرج منها حيا.

وهو إشارة لحديث رواه الشيخان عن أبى هريرة وغيره من طرق وفيه: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذى نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله»(٢) وقد حقق الله تعالى ما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم وصدق الله وعده، وكان ذلك على يد خلفائه، رضى الله تعالى عنهم.

(وما يحدث بينهم) أى أعلمهم صلى الله تعالى عليه وسلم بما يحدث بين أمته **(من الفتون)** بوزن دخول مصدر بمعنى الافتنان، كما فى أكثر النسخ جمع فتنة كما قال البرهان.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخارى (٤/١٠٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٨/١٦٠)، ومسلم (٢٩١٩/٧٧)، وأحمد (٢/٢٣٣)، والترمذى (٢٢١٦)، والبيهقى (٩/١٧٧)، والحميدى (١٠٩٤)، والطبرانى فى الكبير (٢/٢٣٤)، والصغير (١/٢٤٥).

والفتنة أصلها الاختبار، ثم قيلت لكل ما يقع بين الناس من النزاع والحروب، وقيل: صوابه الفتن جمع فتنة كما فى بعض النسخ؛ لأن الفتون الميل للزنا ونحوه من الفجور وليس بشيء؛ فإنه ورد بمعنى الفتنة أيضًا وهو بطريق المجاز أى مطلق الميل، **(والاختلاف)** فى الكلمة والآراء وهو سبب الفتن، ولذا قيل: إنه لو قدمه كان أحسن **(والأهواء)** بالمد جمع هوى، وهو ما تهواه النفس وتميل له وإذا أطلق خص بالأمور الباطلة.

(وسلوك سبيل من قبلهم) من الأمم، إشارة لما رواه الشيخان: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم» قيل: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟[1] والسنن بفتحتين الطريق، وهو تميثل لما أحدثوه من الضلال والبدع والتحريف كما صرح به فى الحديث.

(وافتراقهم): أى افتراق هذه الأمة **(على ثلاث وسبعين فرقة)** أى ينقسمون إلى هذه الأقسام، وعداه بعلى لما وقع عليه الانقسام من النهج المخصوص، كما يقال: الدار مبنية على طبقات ثلاث، وعلى بنائية كما قاله الدوانى فى حواشى الشمسية فى قوله: رتبته على مقدمة إلى آخره، فقال: الترتيب لا يتعدى بعلى، فإما أن يكون بتضمين معنى الاشتمال، وإما أن يريد بمدخول على هذا الأسلوب الخاص، وحينئذ فإما أن يقال: إذا تعدى بعلى: إنه تضمن معنى البناء فإنه يتعدى بعلى إلى أسلوبه، فيقال: بنى الدار على طبقتين، أو يقال: تعدى بها بناء على أن معنى الترتيب جعل الأجزاء مترتبة، وهو مقصور على أنحاء، فيتعدى بعلى إلى النحو المعين انتهى.

وهذا الحديث رواه أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم كما فى مناهل الصفاء للجلال السيوطى.

(الناجية منها واحدة): أى الفرقة الناجية من هذه الفرق فرقة واحدة، وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله، كما بينه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذا الحديث، فإنه قال فيه: «ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذوة بالقذوة، وإن بنى إسرائيل افترقت على ستين أو سبعين ملة، فستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة، كلها فى النار إلا ملة واحدة أو فرقة واحدة» قالوا: يا رسول الله من هم؟ أى الناجون منهم قال: «من كان على ما أنا عليه وأصحابى».

فمعنى الناجية أنهم على الحق، فهم ناجون من غضب الله وعذابه، وفى قوله:

---

(١) أخرجه البخارى (٢٠٦/٤، ١٢٦/٩)، ومسلم (٢٦٦٩/٦)، وأحمد (٣٢٧/٢، ٨٤/٣، ٨٩)، وابن ماجه (٣٩٩٤)، والحاكم (٣٧/١).

ستفترق إشارة إلى أنه ليس فى زمانه صلى الله تعالى عليه وسلم اختلاف، وأنه إنما يحدث ذلك بعده، بل بعد الخلفاء الراشدين.

وفى قوله: ملة إشارة إلى أن الخلاف المذكور فى الدين والاعتقاد، فلا ينافيه ما وقع بينهم فى أمور جزئية وقد بينت هذه الفرق، وفصلت فى كتاب الملل والنحل، وفى علم أصول الدين، وهذا من جملة ما أطلعه الله عليه من المغيبات.

(و) فى حديث رواه الشيخان عن جابر، رضى الله تعالى عنه، و**(أنهم سيكون لهم أنماط)** جمع نمط كسبب وأسباب، وهو البساط يعنى أن أمته صلى الله تعالى عليه وسلم يتوسعون فى الدنيا، حتى يتخذوا الفرش النفيسة؛ لبسط الله لهم الرزق بعدما كانوا فيه من الفقر وضيق المعيشة، **(و)** قوله **(يغدو أحدهم فى حلة ويروح فى أخرى)** وما بعده من حديث رواه الترمذى عن على وحسنه، والغدو بغين معجمة ودال مهملة سير أول النهار، ويقابله الرواح.

والحلة هى الثوب النفيس، ولا تطلق إلا على ثوبين أحدهما فوق الآخر كما مر، إلا أنهم توسعوا فيه فأطلقوه على ما قلناه، والمراد تعدد لباسهم ونفاسته بعد ما كانوا عليه من التقشف، كما أن قوله: **(وتوضع بين يديه)** أى بين يدى أحدهم **(صحفة)** بزنة قصعة، وهى إناء الطعام، **(وترفع أخرى)** أى صحفة أخرى إشارة إلى تلون أطعمتهم وتعددها ونفاستها، **(ويستر بيوتهم)** بالبناء للمجهول: أى يسترون حيطان بيوتهم وأبوابها، وفى نسخة: ويسترون بيوتهم **(كما تستر الكعبة)** وهذا كما تفعله الأمراء والعظماء الذين اتسعت دنياهم حتى كسوا الحجارة والجدران، وهذا لم يكن فى العصر الأول وهو إسراف، وقد ورد النهى عنه.

(ثم قال) صلى الله تعالى عليه وسلم مخاطبًا لأصحابه **(فى آخر الحديث)** الذى رواه الترمذى وغيره: **(وأنتم اليوم)** المراد به مطلق الزمان الحاضر **(خير منكم يومئذ)** أى أحسن منكم حالا من حالكم الآتى الذى يبسط لكم فيه الرزق ويوسع عليكم، ففضلهم على أنفسهم باعتبارين؛ لأن الرزق الكفاف خيرمن غنى يشغل عن عبادة الله ويتعب القلب والبدن، كما يشاهده من ابتلى به.

(و) مما أعلم به صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه **(أنهم إذا مشوا المطيطاء)** كما ورد فى حديث رواه الترمذى عن ابن عمر إلا أن الذهبى قال فى ميزانه: إنه لم يصح، والمطيطاء بضم الميم وفتح الطاء المهملة ومثناة تحتية ساكنة وألف ممدودة، كما فى الصحاح، ويقصر أيضًا كما فى النهاية، وهو مبنى على التصغير كالكميت، وهو مشية فيها مد اليدين فهو منصوب على المصدرية، والمراد به التبختر وهو كالثريا والمريطا،

ويجوز فتح ميمه وكسر طائه، وهو من مط بمعنى مد، أو من مطا يمطو كما بين فى كتب اللغة.

(**وخدمتهم بنات فارس والروم**) أى اتخذوا الجوارى والخدم منهم، وخصهما لأن الرقيق كان منهم فى الأكثر لأنهم كفرة يحل سبيهم لأهل الإسلام كثيرًا أو لأنهم مع تكبرهم وتعاظمهم يصيرون خدمة أرقاء لأهل الإسلام.

ففيه إشارة لعزتهم وعلوهم على غيرهم، وفارس علم للجيل المعروف ممنوع من الصرف، ويطلق على بلادهم أيضًا وهو معرب بارس بالباء المعجمة، ولا يدخل عليه الألف واللام والروم جيل معروف أيضًا سموا باسم أبيهم.

(**رد الله بأسهم بينهم**)جواب إذا، والبأس معناه الخوف الشديد لا مطلقه، والمراد به العداوة ووقوع القتال بينهم؛ لأن الله كان أعطى نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم النصرة بإيقاع الرعب فى قلوب أعدائه الكفرة، وبقى من ذلك أثر فيمن اقتدى به من الخلفاء، فلما اشتغلوا بزخرف الدنيا نزع الخوف من قلوب الأعداء، وصار بعضهم يعادى بعضا ويقاتله لما بينهم من التحاسد والتباغض، وطلب كل منهم ما فى يد الآخر لما ظهرت الملوك المتغلبة، فصار الأمر لمن غلب.

(**وسلط شرارهم على خيارهم**) الشرار جمع شر بمعنى شرير، وخيار جمع خير بمعنى أخير، أو مخفف خير، وتسليطهم بقهرهم والعلو عليهم بالباطل، وهو كالتفسير لما قبله، وكان ابتداء ذلك بعد فتح فارس والروم وسبى ذريتهم واستخدامهم وتنافسهم فى الدنيا، وذلك من الدولة الأموية إلى الآن.

(**و**) أخبرهم صلى الله تعالى عليه وسلم (**قتالهم الترك**) كما ورد فى حديث رواه الشيخان: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك صغار الأعين حمر الوجوه دلف الأنوف، كأن وجوههم المجان المطرقة»، وقد ورد هذا الحديث من طرق بألفاظ مختلفة، والترك بضم التاء جيل معروف من الناس يقال لهم: بنو قنطورا وهى أمة لإبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، واختلف فى نسبهم اختلافًا كثيرًا، والمشهور أنهم من أولاد يافث بن نوح عليه الصلاة والسلام، وقيل: إنهم الديلم، وقيل: المراد بهم هنا يأجوج ومأجوج، وعلى كل حال فهم قوم من الكفرة دارهم بعيدة من ديار الإسلام، ومنهم التتار ولهم وقائع مشهورة كوقعة جنكيز وهلاكه المفصلة فى التواريخ.

(**والخزر**) بضم الخاء وسكون الزاء المعجمتين وراء مهملة، وهم جيل من الناس كفرة، قيل: إنهم من الترك، وقيل: من العجم، وقيل: من التتار لأنهم جمع أخزر، وهو الضيق العين، وقيل: المراد بهم الأكراد، ووقائعهم كلها مشهورة فقد وقع ذلك كما

أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم، وروى الخزر بفتحتين أيضًا، وفى بعض نسخ الشفاء بخاء مضمومة، وواو وزاء معجمة ساكنة، وفيه نظر، والخزر ضيق العين كما علمت أو النظر بمؤخرها.

(والروم) أى مما وقع من إخباره صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه إخباره بما سيكون من قتال الروم، وهم قوم معروفون من ولد روم بن عيص بن إسحاق سموا باسم أبيهم، ثم قيل: روم ورومى كزنج وزنجى، وقد ملكوا الشام، واختلط بهم قوم من العرب من غسان، وأصل مساكنهم جهة الشمال.

(وذهاب كسرى) بفتح الكاف وكسرها كمامر: أى ذهاب ملكه وقومه بعد ظهور دولته وتغلبه، **(وفارس)** من أرض العراق وغيرها وقد تقدم بيانه، **(حتى لا كسرى ولا فارس)** أى حتى لا يبقى له ذكر، ولا ملك إلى يوم القيامة، ولا إنما تدخل على نكرة فأما أن نقول إنه نكرة كما فى هذا الحديث: لا قيصر، فهو كقولهم: لكل فرعون موسى، أى لكل جبار مبطل محق يغلب عليه ويمحو أثره، وفيه مقدر أى لا مثل كسرى، ومثل وغير لا يتعرفان بالإضافة **(بعده)** أى لا يكون بعده من جنسه.

(وذهاب قيصر) ملك الروم بذهاب ملكه وقومه **(حتى لا قيصر بعده)**، وهذا مما رواه الشيخان أيضًا بدون فارس إلا أنه وقع فى رواية من غير طريقهما.

(وذكر) صلى الله تعالى عليه وسلم فيما أخبر به من المغيبات التى كانت كما قال: **(إن الروم)** أى جنسهم المعروف **(ذات قرون)**، وفى نسخة: ذات القرون بالتعريف، جمع قرن وهم الجماعة فى عصر واحد: أى كلما مضى قرن خلفه قرن، وقوم يملك ملكهم منهم، وقيل: القرن السيد: أى كلما هلك مَلِكٌ مَلَكَ بعده غيره، كما بينته رواية كلما هلك قرن خلفه مكانه قرن، وقيل: المراد بهم قرون شعورهم التى كانوا يطولونها ويعرفون بها للإشارة إلى طول هممهم **(إلى آخر الدهر)** أى يمتد ملكهم بديارهم بخلاف فارس فإن الله مزقهم ومزق ملكهم بدعوته صلى الله تعالى عليه وسلم عليهم، لما مزقوا كتابه حين بعثه لهم، كما هو مذكور فى السير، وقد تقدم أيضًا، وهو مشاهد إلى الآن ليس لغيرهم ملك كملكهم، وذلك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما أرسل الكتب للملوك فى عهده كتب لكسرى، فلما قرأ كسرى كتابه مزقه فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: مزق الله ملكهم، فكان كما قيل:

وكسر كسرى بتمزيق الكتاب فقد ... أذاقه الله تمزيقا بتمزيق

وأما قيصر فلما أتاه كتابه صلى الله تعالى عليه وسلم مع دحية قبله وأجله، فدعا له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يثبت ملكه، وقد ذكروا أن مكتوبه صلى الله

تعالى عليه وسلم إلى الآن عند ملوكهم يجلونه، وهو محفوظ عندهم فى صندوق من ذهب، وأوصى بعضهم بعضا بحفظه، فإن ملكهم لا يزال قائما ما دام هذا الكتاب عندهم، حتى أنهم أخرجوه لابن الصائغ الحنفى لما أرسله السلطان قلاوون إلى ملك النصارى بالمغرب لأمر مهم، وقالوا له: هذا كتاب نبيكم لجدنا نحفظه ونتبرك به، وكان عند ملك طليطلة، وهو إلى الآن عندهم، ولكن الله يهدى من يشاء.

(و) أعلم صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه (**بذهاب الأمثل فالأمثل من الناس**) الأمثل هنا بمعنى الأشرف؛ لأنه أكثر مماثلة ومشابهة لأهل الحق والصدر الأول، والفاء لترتيب التفاضل لإثباته للأول ثم للثانى وهكذا إلى أن يبقى حثالة لا عبرة بهم، وفى الصحاح فلان أمثل بنى فلان أى أدناهم للخير، وهؤلاء أماثل القوم أى خيارهم، أى أعلمهم صلى الله تعالى عليه وسلم بموت الأقرب إلى الخير قبل غيره، وفى البخارى يذهب الصالحون الأول فالأول، وتبقى حثالة كحثالة الشعر أو التمر لا يباليهم الله بالة: أى لا يرفع لهم قدرا ولا يقيم لهم وزنا، والحثالة بالحاء المهملة والثاء المثلثة من كل شىء رديه.

(**وتقارب الزمان**) فى حديث رواه الترمذى عن أنس، رضى الله تعالى عنه: «لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم، واليوم كالساعة، والساعة كالضرمة بالنار»[١] بضاد مفتوحة معجمة وراء مهملة مفتوحة، وهو حشيش يحترق بسرعة، والتقارب تفاعل من القرب، والمراد قصره وقلته لأن القصير يقرب بعضه من بعض، ويقال للقصير متقارب، وهكذا يكون إذا قربت الساعة فى آخر الزمان كما ورد التصريح به فى بعض الروايات، واختلفوا فى معناه، فقيل: المراد أنهم يوسع عليهم من الدنيا فيستلذون معيشتهم، ويكونون مسرورين، ومازال الناس يصفون الأيام الهنية بالقصر، وللشعراء فيها مبالغة ومعان لطيفة يعرفها من له إلمام بالأدب كقول أبى تمام[٢]:

أعوام وصل كان ينسى طيبها ذكر النوى فكأنها أيام
ثم انبرت أيام هجر أعقبت نحوى أسى فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

وهذا المذكور هو الذى ارتضاه الخطابى، واعترض عليه الكرمانى بأنه لا يناسب قوله بعده (**وقبض العلم**)، وقال ابن حجر: إنما احتاج الخطابى لتأويله بما ذكر لأنه لم يشاهد

---

(١) أخرجه أحمد (٥٣٧/٢)، والترمذى (٢٣٣٢)، وابن حبان (١٨٨٧).

(٢) الأبيات من الكامل، وهى فى ديوان أبى تمام (ص٢٦٣).

النقص فى زمنه، والذى تضمنه الحديث نجده فى زماننا هذا، فإنا نجد من سرعة الأيام ما لم نجده فى العصر الذى قبله، وإن لم يكن هناك عيش مستلذ كما قيل[1]:

كفى حزنا أن لا حياة هنية ولا عمل يرضى به الله صالح

فالحق أن المراد نزع البركة من كل شيء حتى من الزمان، وذلك من علامات قرب الساعة، وهذا هو الذى ارتضاه النووى، رحمه الله تعالى.

وقيل: المراد بتقاربه وقصره قصر الأعمار، فإن كل قرن أهله أقصر أعمارا من أعمار القرن [الذى] قبله.

وقال البيضاوى فى شرح المصابيح: المراد تسارع انقضاء الدول وانقراضها، وهنا وجه آخر قريب من الأول، وهو أنه لكثرة الظلم والأحزان، والاشتغال بأمور الدنيا، وكثرة الحرص على تحصيلها يغفلون عن أوقاتهم ولا يشعرون بها.

كما قلت:

إن الزمان مقصر ذهبت به بركاته إذ زادت الآلام
ما ذاك إلا أنه قد فر من خوف وقد جارت به الحكام

وهو مناسب لذكر الفتن بعده فى قوله: **(وظهور الفتن والهرج)** وهى جمع فتنة وهى معروفة وهذا قد شاهدناه، وقبض العلم بمعنى أخذه ونزعه من الناس، وذلك بموت العلماء حتى لا يبقى إلا ناس جهلة إذا استفتوا أفتوا بغير علم، وبهذا فسره صلى الله تعالى عليه وسلم لما سئل عنه، وموتهم بالكلية إنما يكون إذا قربت الساعة، فلا ينافى هذا قوله فى الحديث الصحيح الآتى: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يأتيهم أمر الله تعالى»[2] عز وجل، فإنه قبل ذلك.

والهرج بالهاء وسكون الراء المهملة وجيم بمعنى القتل، وأصل معناه لغة الكثرة، وقد ورد تفسيره فى الحديث بالقتل، وورد بمعنى اختلاط الناس بعضهم ببعض، وقيل: إنه لغة حبشية، فهو معرب صار عربيا فصيحا، ومنه قولهم: هم فى هرج ومرج.

(وقال) رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه الشيخان عن زينب أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، **(ويل للعرب من شر قد اقترب)** أى قرب ودنا منه، وويل كلمة تفجع وتعجب، فتعجب مما ينالهم من المشقة والهلاك بفتن تقع بين المسلمين كقطع الليل المظلم، يصير المتمسك فيها بدينه كالقابض على الجمر، يشير بذلك إلى أمر عثمان

(١) البيت من الطويل، وهو بلا نسبة فى لسان العرب (٥٤١/١٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٥٦/٢٤٧)، وأبو داود (٢٤٨٤)، والترمذى (٢١٩٢)، وابن ماجه (٦)، وأحمد (١٠١/٤).

وعلى، رضى الله تعالى عنهما.

وويل مبتدأ وإن كان نكرة، لما فيه من الدعاء مثل سلام عليكم، وهى ترد للتحزن والتحسر والكلام عليها مفصل فى العربية واللغة، والمراد بالشر ما مر لقوله اقترب، وقيل: إنه إشارة لفتح سدّ يأجوج ومأجوج؛ لأن الحديث أوله: قالت زينب، رضى الله تعالى عنها: استيقظ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من النوم محمرًا وجهه صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب» إلى آخره «فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج»[1]، أى السد، وعقد تسعين، يعنى جعل سبابته مضمومة لأصل إبهامه صلى الله تعالى عليه وسلم يشير للفرجة اليسيرة بينهما بحسابهم المشهور، ومثله كثير فى الحديث لتعارفه بينهم، والحديث والكلام عليه مبسوط فى شروحه.

(و) أعلم صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه أيضًا بـ**(أنه زويت له الأرض)** بالبناء للمجهول: أى جمعت وضم بعضها لبعض حتى يطلع على جميعها **(فأرى مشارقها ومغاربها)** أى جميع الأرض وجوانبها كما يضم البساط الكبير، حتى يصير فى محل واحد يحيط به الناظر إليه سريعًا وأرى بضم الهمزة مبنى للمجهول أى أراه الله جميع ذلك، ومشارقها مفعول ثانى، والمشارق والمغارب كناية عن الجميع، كما فى قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، والجمع باعتبار تعدد المطالع كما ذكره المفسرون، قيل: إنه لم يذكر الجنوب والشمال؛ لأن معظم امتداد ملك هذه الأمة فى جهتى المشرق والمغرب، وهكذا هو فى الواقع كما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم.

وفى قوله: **(وسيبلغ)** أى يصل **(ملك أمته)** أى سلطانهم وحكمهم إشارة إليه **(ما زوى له)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(منها)** أى الأرض أو المشارق والمغارب، وهو من تتمة الحديث، ومن تفصيلية بيانية أو تبعيضية لما مر، **(وكذلك كان)** أى وقع ما ذكر من الامتداد.

(امتدت) مملكتهم واتسعت أو أمته بمعنى انتشرت فى نواحيها **(فى المشارق والمغارب ما بين أرض الهند)** بيان للمشارق والمغارب أو بدل **(أقصى المشرق)** بيان لأرض الهند أو بدل أيضًا **(إلى بحر طنجة)** بفتح الطاء المهملة ونون ساكنة وجيم بلدة مشهورة بساحل بحر المغرب **(حيث لا عمارة وراءه)**: أى انتهت إلى مكان من ذلك البحر، لا عمارة بكسر العين: أى ليس بعده بلاد ولا جزائر معمورة.

وطنجة لفظ بربرى، وهى مدينة عظيمة فتحت فى الإسلام، ثم استولى عليها

(١) أخرجه البخارى (١٦٨/٤، ٢٤١، ٦٠/٩، ٧٦)، ومسلم (٢٨٨٠/١)، والترمذى (٢١٨٧)، وابن ماجه (٣٩٥٣)، وأحمد (٤٢٨/٦)، وابن حبان (١٩٠٦)، والحميدى (٣٠٨).

النصارى فى سنة سبعين وثمانمائة بعد قتال عظيم، فلما رأى المسلمون أن لا معين لهم ولا مغيث سلموها لهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولم تزل النصارى ظاهرين ثمة حتى تملكوا أكثر البلاد، فعاد الإسلام غريبا كما بدأ، ومن أراد تفصيل ذلك فلينظر تاريخ الأندلس.

(وذلك) الذى امتد لهذه الأمة **(ما لم يملكه أحد من الأمم)** السالفة، **(ولم تمتد)** الممالك الإسلامية **(فى)** جهة **(الجنوب، ولا فى)** جهة **(الشمال مثل ذلك)** أى مثل امتدادها فى المشرق والمغرب، فما قيل فى تفسيره أنه بلغ ملكها أقصى الجهات الأربع مهاب الريح قبولاً ودبورًا وجنوبًا وشمالاً لم يتنبه لما قلناه.

(وقوله) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه مسلم عن سعد بن أبى وقاص، رضى الله تعالى عنه: **(لا يزال أهل المغرب)** سيأتى تفسيره مفصلا فى كلامه **(ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة)** غاية لاستمرار ظهورهم بتأييد الله تعالى لهم، و إعلائه لكلمة الدين بجهادهم وقوله: ظاهرين أصل معنى الظهور العلو على الظهر، ويطلق على ما يلزمه وهو الشهرة والعلو، وقديراد به العلو المعنوى، وهو الغلبة والقهر، وقد اختلفوا فى المشرق والمغرب أيهما أفضل؟ فذهب إلى كل منهما طائفة، وهو خلاف لا طائل تحته، قال ابن العماد فى كتابه كشف الأسرار: استدل من قال بفضل المغرب بهذا الحديث، قال: وأجيب بأن الثابت: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله وهم بالشام»، فإن ثبت هذا اللفظ، فالمراد الشام لأنه غربى المدينة، وقوله: على الحق خبر بعد خبر لأنه ليس المعنى على الظهور على الحق، بل أنهم ظاهرون وأنهم على الحق، وهو ضد الباطل أو هو متعلق بظاهرين بتضمين معنى محافظين مداومين على إقامة الحق وشعائر الدين.

(ذهب ابن المدينى) فى تفسير هذا الحديث، وهو على بن عبد الله بن جعفر بن جريج أبو الحسن إمام أهل الحديث، وأعلمهم به فى عصره.

وقال النسائى: كأن الله تعالى لم يخلقه إلا لهذا الشأن.

وقال البخارى، رحمه الله تعالى: ما استصغرت نفسى إلا بين يدى على بن المدينى إلى آخره. وكان من أحسن الناس كلامًا على حديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم توفى لليلتين بقيتا من ذى القعدة سنة أربع وثلاثين ومائتين، وله ثلاث وسبعون سنة، وروى عنه البخارى، رحمه الله تعالى، وغيره من أصحاب السنن، وهو منسوب لمدينة الرسول على خلاف القياس، والقياس مدنى كما بينه النحاة، والمشهور أن يقال: مدينى فى النسبة لمدينة المنصور، فرقا بينه وبين المنسوب للمدينة المنورة، ولكنه اشتهر بذلك،

وله ترجمة فى الميزان، وقال ابن الأثير: النسبة إلى المدينة مدنى، والأكثر مدنى، والمدينى نسبة إلى مدائن سبعة غيرها كما فصله، وقال الجوهرى: المدينى نسبة لمدينة الرسول، والمدنى نسبة لمدينة المنصور، وبين كلاميهما تناف.

وقال ابن الصلاح فى الكلام على المسلسل بالأولية المدينى نسبة لحى مدينة أصبهان، وهو من المدينة إلا أنه سكن البصرة، وفى القاموس:النسبة لمدينة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم مدنى، ولمدينة المنصور، وأصبهان وغيرهما مدينى، وقال الكرمانى: قال الحافظ المقدسى: قال البخارى: المدينى الذى أقام بمدينة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يفارقها، والمدنى الذى تحول عنها وكان منها. انتهى.

(إلى أنهم العرب) مطلقًا ووجه تسميتهم بأهل الغرب بقوله: **(لأنهم المخصوصون بالسقى بالغرب)** بفتح الغين المعجمة وسكون الراء المهملة والموحدة، **(وهى الدلو)** العظيمة المعروفة تذكر وتؤنث سماعا، وقيل: المراد بالغرب فى الحديث الحدة والشوكة، وتقدم تفسيره بالشام أيضًا، ومنه غرب الشام لحدته، وللغرب معان كثيرة فى كتب اللغة.

(وغيره) أى غير ابن المدينى من علماء الحديث **(يذهب إلى أنهم)** فى الحديث **(أهل المغرب)** بميم فى أوله، **(وقد ورد المغرب كذا)** أى بهذا اللفظ فى بعض الروايات، وهو مؤيد للتفسير الثانى ولا يعينه، لاحتمال أنه روى **(فى الحديث بمعناه)** فهو رواية بالمعنى، ولولا هذا لم يفسره بغيره.

(وفى حديث آخر) من هذا القبيل رواه الطبرانى وعبد الله بن أحمد بن حنبل **(من رواية أبى أمامة)** عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: **(لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق قاهرين لعدوهم)** من الكفرة بالجهاد فى سبيل الله، **(حتى يأتيهم أمر الله)** يعنى الساعة وأشراطها، وهو غاية لظهورهم على ظاهرها، أو المراد أنهم لا يعدم ظهورهم كقوله عليه السلام: **(إن الله لا يمل حتى تملوا)** كما حققه الكرمانى وغيره، **(وهم كذلك)** أى باقون على حالهم والجملة حالية، **(قيل: يا رسول الله وأين هم؟)** من البلاد ومقرهم.

(قال: ببيت المقدس) بالإضافة، وفيه لغات فمقدس كمرجع اسم مكان أو مصدر ميمى من القدس، وهو الطهر أى المكان الذى يطهر فيه العابد من الذنوب أو يطهر فيه للعبادة من الأصنام، وجاء فيه ضم الميم وفتح القاف والدال المشددة اسم مفعول من التقديس: أى التطهير، وجاء بكسر الدال المشددة اسم فاعل؛ لأنه يقدس العابد فيه من الآثام، ويقال: البيت المقدس بالتوصيف، والأشهر الإضافة، والظاهر أن الطائفة المذكورة الأمراء والحكام وولاة الأمور؛ لأنهم المعروفون بالقهر والغلبة، وقيل: إنه يشملهم

ويشمل غيرهم من الفقهاء والمحدثين، وكل من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وقال البخارى: هم أهل العلم، ونقل عنه أيضًا أنهم أهل الحديث، وكل محتمل، والتعميم أولى كما لا يخفى.

وفى شرح مسلم للقرطبى بعد ما ذكر رواية أهل المغرب من طرق متعددة وصححها أنه يدل على إبطال التأويلات فيه، والمراد بالمغرب جهة المغرب من المدينة إلى أقصى بلاد المغرب، فيدخل فيه الشام وبيت المقدس، فلا منافاة بين الروايات، وفى رسالة للطرسوسى أرسلها لأهل المغرب، وذكر فيها هذا الحديث، وقال فيها: هل أرادكم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بهذا إلا لما أنتم عليه من التمسك بالسنة، وطهارتكم من البدع واقتفاء أثر السلف، وفيه دليل على صحة الإجماع.

(وأخبر) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حيدث رواه الترمذى والحاكم عن الحسن بن على، رضى الله تعالى عنهما، **(بملك بنى أمية)**، وهذا من جملة ما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم من المغيبات، وهم بنو مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى، وقد رواه البيهقى مرسلاً من طريق آخر فى سنده ضعف، **(وولاية معاوية)** بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس.

ولقد أجاد المصنف، رحمه الله تعالى، إذ عبر فى بنى أمية بالملك، ولم يدخل فيهم معاوية، وعبر فى معاوية، رضى الله عنه، بالولاية الشاملة للملك والخلافة كما سنبينه عن قريب، والفرق بين الملك والخلافة والولاية: أن الملك هو السلطنة بطريق التغليب، والخلافة ما كان ببيعة أهل الحق لمن هو قرشى جامع لشروط الخلافة المذكورة فى الأصول، والولاية أعم منهما فتشملهما وتشمل الإمارة ونيابة الخلفاء وغيرهم، كما فى الحديث الآتى مع الكلام عليه «الخلافة بعدى ثلاثون عاما ثم تصير ملكا عضوضا»، ومعاوية كما تقدم كان أولا أميرا ثم صار ملكا، وهو أول ملوك الإسلام، ثم لما بايعه الحسن، رضى الله تعالى عنه، برضاه صار خليفة، فلذا كان ذكر الولاية فيه إشارة لهذا، وليس عثمان، رضى الله تعالى عنه، من بنى أمية لأنه خليفة بحق، ومعاوية وإن كان منهم نسبا لأن أبا سفيان كما علمت ابن حرب بن أمية، فلم يدخله المصنف فيهم لما ذكرناه.

وقيل: إنه أول ملوك بنى أمية، ولكل وجهة، وقد ورد فى الحديث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم رأى مناما بنى أمية على منبره الشريف، فساءه ذلك فأنزل الله عليه تسلية له صلى الله تعالى عليه وسلم سورة الكوثر، وسورة القدر لأن ملك بنى أمية كان ألف شهر لا تزيد ولا تنقص، فأعطى الله أمته فى كل سنة ليلة تعدل ملكهم، وتزيد بما لا يحصى من العجائب الواقعة فى تلك الليلة مما لا يعلم مقدار ثوابه إلا الله تعالى، يعرف

ذلك من ألهمه الله تعالى الفهم الثاقب وخصه بالمواهب، وفيه من الأسرار الخفية ما لا يخفى على ذى بصيرة.

(ووصاه) أى وصى، عليه الصلاة والسلام، معاوية إذا تملك بالعدل والرفق لما قال له: «إذا ملكت فانصح».

قال معاوية، رضى الله تعالى عنه: فما زلت أطمع فى الخلافة منذ سمعتها من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.

قيل: فى قوله: إذا ملكت إشارة إلى أنه، رضى الله عنه، لم يكن خليفة، وإنما كان ملكا، وروى البيهقى عن معاوية أنه قال: ما حملنى على الخلافة إلا قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: يا معاوية إن ملكت فأحسن، وهو ضعيف إلا أن له شواهد، منها ما روى أنه تبع بالإداوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له: «يا معاوية إن وليت أمرًا فاتق الله، واعدل»[1]، وروى ما يقرب منه من طرق متعددة، وهذا من جملة ما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم من المغيبات.

(و) منه أيضًا قوله: و**(اتخاذ بنى أمية مال الله دولا)** كما ورد فى حديث رواه الترمذى والحاكم والبيهقى عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، **(إذا بلغ بنو أبى العاص أربعين أو ثلاثين اتخذوا دين الله دغلا وعباد الله خولا ومال الله دولا)**، ودول بضم الدال المهملة وفتح الواو ولام جمع دولة بالضم والفتح وهو ما يتداول: أى يأخذه واحد بعد واحد، والمراد أنهم استأثروا به ومنعوا حقوقه فأسرفوا وبذروا وضيعوا بيت مال المسلمين، وهم أول من فعل ذلك فى الإسلام، وأول ملوكهم بعد معاوية بن يزيد مروان بن الحكم، ثم ولى ابنه عبد الملك، وتمت دولتهم بالرابع عشر مروان بن محمد كما فصله المؤرخون.

(و) منه أيضًا **(خروج ولد العباس)** بعد انقراض الدولة الأموية أى ولد العباس بن عبد المطلب، كما ورد فى حديث رواه أحمد، والبيهقى بسند فيه ضعف، وهو مما أخبر به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، والولد يطلق على الواحد والجمع، والمراد هنا الثانى.

(بالرايات السود) إشارة إلى ما فى هذا الحديث: «تظهر الرايات السود لبنى العباس حتى ينزلوا بالشام، ويقتل الله على أيديهم كل جبار وعدو لهم»[2]، وفى رواية: «تخرج الرايات السود من خراسان لا يردها شىء حتى تنصب بإيلياء»[3]، أى بيت المقدس وفى سنده ضعف.

---

(١) أخرجه أحمد (١٠١/٤)، وابن أبى شيبة (١٤٨/١١)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٤٤٦/٦).
(٢) أخرجه الخطيب فى تاريخه (٤٤٦/١٠)، وأورده السيوطى فى اللآلى (٢٢٧/١).
(٣) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥١٦/٦).

وكان صلى الله تعالى عليه وسلم أخبر العباس أن الخلافة تكون فى ولده، فكانوا يتوقعون ذلك، وقد روى تبشيره صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك له ولأم الفضل زوجته من طرق أفردها السخاوى بتأليف ليس يسع تفصيله هذا المقام، وكان شعار بنى العباس السواد فى لباسهم وراياتهم، وسببه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أخبرهم بذلك، وقيل: سببه أن مروان الحمار آخر بنى أمية لما بلغت دعوة أبى مسلم إلى محمد ابن على الإمام، ومات محمد فعهد إلى ابنه إبراهيم فأتى به مروان وسجنه، فلما أحس بالقتل أوصى أتباعه بالثبات على أمرهم، واستخلاف أخيه السفاح، فلما قتل لبسوا السواد إظهارًا لحزنهم، وحثا للأخذ بثأره فاستمر ذلك فيهم، فلا منافاة بين الروايتين، ولم يزل ذلك إلى عهد المأمون بن الرشيد فى سنة إحدى ومائتين، فأمر بترك السواد ولبس الخضرة لمحبته للعلويين، حتى خلع أخاه المؤتمن وجعل العهد لعلى الرضى، فمات ولم يتم أمره، فكلمه العباسيون فى إعادة شعار السواد وترك الخضرة ففعل، وهذا أول لبس العلويين الخضرة، وليس مبدؤه، كما توهمه المتأخرون، فى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة برسم الملك الأشرف بمصر، وفى ذلك يقول ابن جابر الأندلسى:

جعلوا لأبناء الرسول علامة ... إن العلامة شأن من لم يشهر
نور النبوة فى كريم وجوههم ... يغنى الشريف عن الطراز الأخضر

وقال ابن حبيب:

عمائم الأشراف قد تميزت ... بخضرة رقت وراقت منظرا
وهذه إشارة أن لهم ... فى جنة الخلد لباسا أخضرا

وقال ابن المزين:

أطراف تيجان أتت من سندس ... خضر كأعلام على الأشراف
والأشرف السلطان خصهم بها ... شرفا لتعرفهم من الأطراف

ولكن الأول لما لم يستمر وترك حتى نسى، توهموا أن ابتداءه كان كذلك، وكان سبب حدوث شعارهم أن يهوديا دخل بعمامة فعظم، ودخل بعض الأشراف فلم يلتفت إليه لعدم العلم به، فأمر بذلك.

وقال السبكى: إنه مستحب، واستنبطه من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب:٥٩] وهو كلام حسن.

(وملكهم) أى تملك بنى العباس الخلفاء **(أضعاف ما ملكوا)** أى أضعاف تملك بنى أمية وأضعاف خلفائهم، فإن أولهم السفاح بويع فى ربيع الآخر سنة اثنين وثلاثين ومائة، واستمر ملكهم إلى سنة ست وخمسمائة وكانوا نحو ثلاثين ببغداد انقضت تلك السنون

وأهلها، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

(وخروج المهدى) فى آخر الزمان كما ورد فى حديث رواه أصحاب السنن وغيرهم من طرق كثيرة إلا أنه قيل: إن أسانيده لا تخلو من ضعف، وفيه اختلاف كثير أفرد بالتأليف، فقيل: إنه عباسى، وقيل: إنه علوى، وأنه يملك سبع سنين، وكنيته أبو القاسم، واسمه محمد بن عبد الله، وفى زمنه ينبسط الأمن والعدل، وقيل: المراد به عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، وذكره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم باسمه وصفته كما فصلوه، وأحواله مبسوطة فى تذكرة القرطبى، وهو ممن يملك الأرض كلها، وقد ملكها قبله مسلمان: سليمان عليه الصلاة والسلام، وذو القرنين، وكافران: نمرود وبخت نصر.

(وما ينال أهل بيته وتقتيلهم وتشريدهم) يقال: نال كذا إذا وصل إليه، فيجوز أن يكون فاعله مستترا يعود لما، وأهل منصوب، ويجوز رفعه بتقدير أى ما يناله أهل بيته، وما قيل: إنه لا يجوز رفعه لا وجه له أى مما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم من المغيبات كما فى حديث رواه الحاكم: «إن اهل بيتى سيلقون بعدى من أمتى قتلا وتشريدًا»(١)، وضعفه الذهبى، والتشريد الطرد والتفريق من شرد البعير إذا ند، وشردت فلانا من البلاد وشردت به قال الله تعالى: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧].

(وقتل على) بن أبى طالب كرم الله وجهه، أى مما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم قتل على كما رواه أحمد، والطبرانى فى حديث فيه **(وأن أشقاها)** أى أشقى الخلائق أو الدنيا أو الطائفة الخوارج أو أشقى هذه الأمة **(الذى يخضب هذه)** أشار به إلى لحيته **(من هذه)** إشارة لرأسه: أى يضربه على رأسه ضربة يسيل بها دمه، حتى يبل لحيته، والخضاب صبغ معروف، فشبه دمه بالخضاب؛ لتغييره لونها كما يغير الخضاب، ففيه استعارة، وهو عبد الرحمن بن ملجم، بضم الميم وسكون اللام وفتح الجيم، على زنة اسم المفعول كما قاله النووى فى تهذيبه وغيره.

(أى لحيته من رأسه) أى من دمها، وهو تفسير لما قبله، وقصة الخوارج والتحكيم وقتل على مشهورة لا حاجة لنا بها، وكذا قصة قتل أهل بيته، وإخباره بقتل سبطه بكربلاء.

(وأنه) يعنى عليا، كرم الله وجهه ورضى الله تعالى عنه، **(قسيم النار)** ظاهر كلامه أن هذا مما أخبر به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلا أنهم قالوا: لم يروه أحد من المحدثين إلا أن ابن الأثير قال فى النهاية: إلا أن عليا، رضى الله تعالى عنه، قال: أنا قسيم النار،

---

(١) أخرجه الترمذى (٤٠٨٢)، والحاكم (٤/٤٨٧)، والطبرانى فى الكبير (١٠/١٠٤)، وابن أبى عاصم فى السنة (٢/٣٣٣)، وأبو نعيم فى تاريخ أصفهان (٢/١٢).

يعنى أراد أن الناس فريقان: فريق معى فهم على هدى، وفريق علىَّ فهم على ضلال، فنصف معى فى الجنة ونصف على فى النار. انتهى.

قلت: ابن الأثير ثقة، وما ذكره عليّ لا يقال من قبل الرأى، فهو فى حكم المرفوع إذ لا مجال فيه للاجتهاد، ومعناه أنا ومن معى قسيم لأهل النار: أى مقابل لهم لأنه من أهل الجنة، وقيل: القسيم القاسم كالجليس والسمير، وقيل أراد بهم الخوارج ومن قاتله كما فى النهاية.

(يدخل أولياؤه الجنة) أى من والاه ونصره وكان من حزبه، ويدخل بفتح المثناة التحتية وضم الخاء المعجمة، ويجوز ضم أوله وكسر ثالثه، فيرفع أولياؤه أو ينصب، أو تدخل بفوقية، وذلك بإذن من الله تعالى تكريما له على الثانى؛ لأن كبار الأمة لهم شفاعة ثمة كما ورد فى الحديث.

(و) يدخل **(أعداؤه النار)** لبغضهم له وعدم اتباعهم الحق، وفى الغيلانيات أنه ينادى يوم القيامة أين أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فيؤتى بالخلفاء، رضى الله تعالى عنهم، فيقول الله لهم: أدخلوا من شئتم الجنة، ودعوا من شئتم، أو ما هو بمعناه.

(فكان ممن عاداه) أى أظهر العداوة له **(الخوارج)**، وهم الذين خرجوا عليه عند التحكيم، فكانوا اثنى عشر ألفًا أصحاب صلاة وصيام، وقد أخبر عنهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وذكرهم بصفاتهم، وكان لعلى، رضى الله تعالى عنه، معهم وقائع مدونة فى التواريخ وهم من الفرقة الضالة، ولهم اعتقادات فاسدة وأعمال كاسدة، والواحد منهم خارج وخارجى، **(والناصبة)** أى الفرقة أو الطائفة الناصبة، ويقال لهم: النواصب، وهم قوم تدينوا ببغض على، كرم الله وجهه ورضى الله عنه، قال ابن السيد: من نصبت الشرك والحبالة، فاستعير ذلك لكل من يكيد ويوقع المكروه، واشتق منه هذا الاسم. انتهى.

وفى الكشاف النصب بغض عليّ وعداوته، وهو بالصاد المهملة وهم من الخوارج أيضًا.

(وطائفة ممن ينسب) بالياء التحتية وبالمثناة الفوقية، وروى ينتسب افتعال من النسبة **(إليه)** أى إلى عليّ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنه الخليفة بحق، وأن الإمامة حقه وتلك الطائفة **(من الروافض)** من الرفض، وهو الترك سموا بذلك لتركهم السنة والجماعة **(كفروه)** أى نسبوه إلى الكفر لتركه الخلافة، وهى حقه، وهو زعم فاسد وحماقة وهم المنكرون للتحكيم، وقولهم: لا حكم إلا لله وهى كلمة حق أريد بها باطل، وقد كفروا غيره من الصحابة أيضًا.

وفى قوله السابق: ممن عاداه إشارة إلى أن من عاداه ليس منحصرًا فيمن ذكر، فإن كثيرًا من بنى أمية والعباسيين أظهروا عداوته وسبه.

(وقال) رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كما رواه الشيخان: **(يقتل عثمان بن عفان وهو يقرأه)** القرآن **(فى)** داره فى **(المصحف)**.

وروى الترمذى عن ابن عمر، رضى الله تعالى عنه، أنه صلى الله تعالى عليه وسلم ذكر فتنة، فقال: يقتل فيها هذا مظلوما: يعنى عثمان، رضى الله تعالى عنه، وحسنه، وهو من جملة ما أخبر به من المغيبات، فكان كما قال، والمصحف بضم الميم وكسرها محل الصحف؛ لجمعه ما كان فيها كما ياتى.

(وأن الله عسى أن يلبسه قميصًا) أتى بعسى هنا تأدبا؛ لعدم جزمه، واستعارها للاستقبال اللازم للترجى: أى سيلبسه، واستعار القميص للخلافة استعارة مرشحة بقوله: **(وأنهم يريدون خلعه)**، وظاهره أن الضمير للقميص، ويجوز عوده لعثمان وخلعه بمعنى عزله، فإنهم اجتمعوا لخلعه، فلم يرض لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم نهاه عنه بقوله: فلا تخلعه فقتلوه، فأهدر الله تعالى بدمه سبعين ألفًا فقتلوا بصفين وغيرها، كما رواه الترمذى عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، وهو حديث حسن.

وعن ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، أنه أى عثمان أصبح يحدث الناس، فقال: رأيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: «يا عثمان أفطر عندنا»(1)، فأصبح صائما، وقتل فى يومه، **(وأنه سيقطر دمه على قوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧])** أى يأخذ ثأرك ممن يقتلك، وهذا رواه الطبرى فى كتابه الرياض النضرة، ورواه الحاكم عن ابن عباس، وقال الذهبى: إنه موضوع، وتبعه السيوطى، والظاهر منه أن دمه وقع على هذه الآية، وقيل: المراد أنه أريق دمه، وهو يقرأها، وهو بعيد، وفيه إخبار بمغيبات منها وقوع هذه الفتنة، وأن عثمان سيقتل شهيدًا وأن القرآن سيجمع فى مصحف، فإنه لم يكن فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم مصحف، واختلفوا فيمن قتله، فقيل: رومان بن سرحان، وقيل: الأسود التجيبى، وهذه أول فتنة ومصيبة وقعت فى الإسلام.

ومن لم يقاس الدهر لم يعرف الأسى   وفى غير الأيام ما وعد الدهر

(و) مما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم **(أن الفتن لا تظهر ما دام عمر حيا)** روى البيهقى هذا الحديث عن ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، والشيخان عن حذيفة، ولقى يومًا عمر، رضى الله تعالى عنه، أبا ذر فأخذ بيده وعصرها، فقال: دع يدى يا قفل

(1) أخرجه الحاكم (١٠٣/٣)، وابن سعد (٥٢/١/٣)، وابن أبى شيبة (٧٦/١١).

الفتنة، فقال له: ما هذا يا أبا ذر؟ قال: جئت يومًا، ونحن عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فكرهت أن تتخطى الناس، فجلست فى أدبارهم، فقال: لا تصبكم فتنة مادام هذا فيكم.

وقال عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه يومًا: أيكم يحفظ ما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الفتنة التى تموج كموج البحر؟ فقال حذيفة: ليس عليك منها يا أمير المؤمنين إن بينك وبينها بابا مغلقا. قال: أيفتح أم يكسر؟ قال: يكسر. قال: إذن لا يغلق أبدًا، فقيل له: أكان عمر يعلمه؟ قال: نعم كما أن دون الغد الليلة[1].

أقول: فى هذا سر من كنايات البلاغة عجيب، فإن قوله فيه: تموج إشارة إلى أنها ليست فتنة المال والأولاد، وقوله: يكسر يشير إلى أنه يقتل، فيتجرأ الناس على الخلفاء، والباب إذا انكسر لا يقفل، وقوله: دون الغد الليلة كناية عن أنه كان يقينا عنده، وإنما سأل ليعلم هل علمه غيره أم لا؟.

وخطب خالد بن الوليد يومًا فقال: إن أمير المؤمنين قد بعثنى إلى الشام، وهو يهمه فألقى بوانيه بثنية وعسلا أراد أن يؤثر به غيرى، فقال له رجل: أصبر أيها الأمير فإن الفتن قد ظهرت، فقال: أما وابن الخطاب حى فلا، إنما ذاك بعده إذا كان الناس بذى بلى، أو بذى بليان، فينظر الرجل هل يجد مكانا لم ينزل به ما نزل بمكانه من الشر، فلا يجده نعوذ بالله أن تدركنى وإياكم أولئك الأيام، وبوانيه جمع بانيه أى خيره وسعته، والبثنية حنطة منسوبة لبثنية ناحية بدمشق، وقيل: هى الزبدة أى كأنها عسل وزبد لما يجىء من أموالها، وذى بلى وذى بليان يريد به طوائف بلا إمام، وكل من بعد حتى لا يدرى موضعه، فهو بذى بلى من بلى فى الأرض إذا ذهب أراد أن أمور الناس تضيع بعد عمر، رضى الله تعالى عنه.

(و) أخبر صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه البيهقى من طرق وهو مما أخبر به من المغيبات **(بمحاربة الزبير لعلى وهو ظالم له)**.

كان صلى الله تعالى عليه وسلم رآهما يومًا وكل منهما يضحك، فقال لعلى: أتحبه؟ فقال: كيف لا أحبه وهو ابن عمتى صفية وعلى دينى؟ فقال للزبير: أتحبه؟ فقال: كيف لا أحبه وهو ابن خالتى وعلى دينى؟ فقال: أما إنك ستقاتله وأنت له ظالم، فلما كان يوم الجمل قاتله، فبرز له على، رضى الله تعالى عنه، وقال: ناشدتك الله أسمعت من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قوله: إنك ستقاتلنى وأنت لى ظالم؟ قال: نعم

---

(١) أخرجه البخارى (٧٠٩٦)، ومسلم (١٤٤/٢٦)، وابن أبى شيبة (١٥/١٥، ١٦).

ولكن أنسيته وانصرف عنه[1]، فلما كان بوادى السباع خرج عليه ابن جرموز وهو نائم، فقتله وأتى برأسه كما فصله المؤرخون.

(و) مما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم من المغيبات (**نباح كلاب الحوأب على بعض أزواجه**) يعنى عائشة، رضى الله تعالى عنها، وهو بحاء مهملة وواو ساكنة وهمزة مفتوحة وموحدة اسم ماء، أو موضع وقرية، فيه الماء فى طريق الذاهب من المدينة إلى البصرة.

قال ابن عبد ربه فى العقد: وبعضهم يقول فيه: الحوأب بضم الحاء وتشديد الواو، والمشهور الأول قال الشاعر من الخوارج:

وأنا البرئ من الزبير وطلحة ومن التى نبحت كلاب الحوأب

وفى معجم البلدان أصل معناه الوادى الواسع، وإنما كان المراد عائشة، رضى الله تعالى عنها، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يومًا جالسا، وعنده نساؤه يتحدثن معه، فقال: أيتكن تنبحها كلاب الحوأب سائرة إلى الشرق فى كتيبة؟ فكانت عائشة فى وقعة الجمل، ولما مرت بذلك المكان نبحتها كلابه، فسألت عن اسم ذلك المكان، فقيل لها: الحوأب، فهمت بالرجوع فحلفوا لها: إنه ليس بالحوأب، والحوأب أيضًا اسم مخلاف بالطائف قتلت فيه سلمى المرادية عتيقة عائشة، وقيل أيضًا: إنها المرادة بالحديث أيضًا؛ لأنها كانت مع نسائه صلى الله تعالى عليه وسلم لما حدثهن به كما فى المعجم، والصحيح خلافه لما يأتى فى بقية الحديث، والنباح بضم النون وكسرها: صوت الكلب والتيس، وقيل: إنه أى الحوأب سمى باسم حوأب بنت كلب، لنزولها به كما قاله ابن ماكولا، واختلف فى وزنه، فقيل: فوعل، وقيل: فعال، وفيه الإخبار بالمغيبات، وهو حديث صحيح رواه البزار عن ابن عباس، وهو من تتمة حديث الزبير، رضى الله تعالى عنه؛ لأن عائشة ذهبت معه لتصلح بينه وبين على، فاتفق ما اتفق فى وقعة الجمل.

(و) أخبر صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذا الحديث (**أنه يقتل حولها**) ممن كان معها (**قتلى كثيرة**) قيل: كانوا نحو ثلاثين ألفًا، (**وتنجو**) أى تسلم هى (**بعد ما كادت**) أى قاربت عدم النجاة، (**فنبحت**) كلاب الحوأب (**على عائشة عند خروجها إلى البصرة**)، وهذا الحديث صحيح كمامر، روى من طريق عديدة فعن ابن عباس أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال لنسائه: «ليت شعرى أيتكن صاحبة الجمل الأزب تنبحها كلاب

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٢٦، ٣/٤٣٦، ٥/٣٥)، والنسائى (٤/٢٣)، والحاكم (١/٣٨٤)، وابن أبى شيبة (٣/٣٥٤)، وابن سعد (١/٢/١٣٢).

الحوأب؟»[1]، والأزب كثير شعر الوجه، وفك إدغامه وعدمه لمشاكلة الحوأب، فكان ما أخبر به، لأنه لما قتل عثمان، رضى الله تعالى عنه، وكانت هى وأمهات المؤمنين حاجّات فى ذلك العام فبايع الناس عليا، وانحاز إليه قتلة عثمان من غير رضى منه، لكنه خشى الفتنة لكثرتهم وتغلبهم، واشتد غيظ الناس، فخطبتهم عائشة، رضى الله تعالى عنها، وحثتهم على الطلب بدمه ودفع الخوارج عن البلد الحرام، فأجابها الناس وقالوا لها: حيثما سرت فنحن معك فسارت فى هودجها على جمل يقال له: عسكر وودعتها أمهات المؤمنين يبكين، فسمى ذلك العام عام النحيب، فلما وصلت إلى الحوأب وأناخوا جملها نبحتها الكلاب، فقالت: ردونى وأخبرت بما قاله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال لها الزبير: يا أم المؤمنين أصلحى بين الناس، فسارت لذلك وكان ما كان.

(و) مما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم من المغيبات **(أن عمارا)** ابن ياسر الصحابى المشهور **(تقتله الفئة الباغية)** من البغى، وهو الخروج بغير حق على الإمام، ولفظ مسلم: قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لعمار: تقتلك الفئة الباغية، وروى: وقاتله فى النار.

(فقتله أصحاب معاوية) وكان هو مع على بصفين، وهو صريح فى إن الخليفة بحق هو على، رضى الله عنه، وأن معاوية مخطئ فى اجتهاده كما فى حديث: «إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق»[2]، وابن سمية هو عمار، رضى الله تعالى عنه، كان مع على، وهذا هو الذى ندين الله به، وهو أن عليا، كرم الله وجهه، على الحق، ومجتهد مصيب فى عدم تسليم قتلة عثمان، ومعاوية، رضى الله تعالى عنه، مجتهد مخطئ، فدع القيل والقال فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وقد تأول معاوية حديث عمار لما لم يجد مجالا لإنكاره، فقال: إنما قتله من أخرجه، ولذا قال على، كرم الله وجهه لما بلغه قوله: فرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قتل حمزة، رضى الله تعالى عنه، لما أخرجه لأحد كما نقله ابن دحية، رحمه الله تعالى.

وقتل عمار بصفين، وهو ابن سبعين سنة قتله ابن العمادية، واحتز رأسه ابن جزء، ودفنه على، رضى الله تعالى عنه.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث تقدم **(لعبد الله بن الزبير)** لما شرب دما من فضلاته صلى الله تعالى عليه وسلم: **(ويل للناس منك وويل لك من الناس)**، وويل هنا

---

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٧/٢٣٤)، وابن أبى حاتم فى العلل (٢٧٨٧)، وأورده ابن حجر فى المطالب العالية (٤٤٦٤).

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٠/١١٨)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٦/٤٢٢).

للتحسر والتأسف، وتكون للدعاء بالهلاك، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم احتجم، وأعطاه دمه، وقال له: أرقه فى محل لا يرى، فلما رجع قال له صلى الله تعالى عليه وسلم: لعلك شربته، فقال: نعم، فقال له ذلك، واستدل به على طهارة فضلاته صلى الله تعالى عليه وسلم كما مر، وكان الناس يرون أن ما عنده من القوة والجرأة مكتسبة من ذلك الدم، والمراد من الناس الجنس، وويله من الناس لأن منكان على الحق جريئا على المقاتلة عليه، تكثر أعداؤه وحساده، وينال من الناس أذى، ووقع له ذلك، رضى الله تعالى عنه، حتى قتل هو وابنه ظلمًا وعدوانًا كما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم فلم يرق ذلك الدم حتى أراق دمه.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم فى إخباره عن المغيبات فى حديث صحيح رواه الشيخان **(فى)** حق **(قُزْمَان)** بقاف مضمومة وزاء معجمة ساكنة وميم، وهو مولى لبعض الأنصار وكان شجاعا لكنه منافق، وكان قاتل قتالاً شديدًا أعجب الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، كما أشار إليه بقوله: **(وقد أبلى مع المسلمين)**، وأبلى بفتح الهمزة وموحدة ساكنة ولام وألف مقصورة، فعل ماض من أبلى بمعنى اختبر، ويقال: أبلى بلاء حسنًا فى الحرب إذا صبر فى قتاله وأجاد، والجملة حالية أى أبان شجاعته وإقدامه، إلا أن ذلك لم يكن خالصا لله، وقد أطلع الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم على حاله **(فقال فيه: إنه من أهل النار)**، فعجب الناس من ذلك، فأظهره الله لهم، **(فقتل نفسه)** لما كثرت الجراحة فيه، وأثخنته، واختلفت الرواية فى أى موطن قال صلى الله تعالى عليه وسلم هذا الحديث بعد الاتفاق على صحته، لرواية الشيخين له عن أبى هريرة، فقيل: إنه كان ذلك بأحد، وقيل: بحنين، وقيل: بخيبر وأن حنين الواقع فى صحيح مسلم محرف من خيبر؛ لقرب رسمها بها خطا.

وقيل: إن القصة تعددت، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم فى بعض غزواته رأى رجلاً، فقال: إنه من أهل النار، فلما قاتلوا قاتل معهم أشد القتال حتى أثخن بجراحات كثيرة، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: إنه من أهل النار، فكاد بعض الناس يرتاب، فلما اشتد عليه ألم جراحاته قتل نفسه، فقيل: إنه جعل سيفه بين ثدييه وتحامل عليه حتى مات، وقيل: أخرج من كنانته سهما نحر به نفسه، وقيل: قطع عروق يده فأخبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك تصديقا لمقالته، فقال: «إن الله لينصر الدين بالرجل الفاجر وأمر مناديًا ينادى فى الناس إنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن»[1]، أى مؤمن كامل، أو قد علم منه أنه منافق، أو أنه ارتد قبيل موته.

---

(١) أخرجه مسلم (١١١/١٧٨)، وأحمد (١٣٥/٤)، والطبرانى (٨٣/١٩، ٨٤).

والمنادى قيل: إنه عمر، رضى الله تعالى عنه، وقيل: بلال، وقيل: عبد الرحمن بن عوف، وجمع بين الروايات بتعدد القصة أو بأنه وقع كل ذلك مع تحامله وغيره وتعدد من نادى، وفيه إشارة إلى أنه لا ينبغى النظر لظاهر العمل ولا الاتكال عليه.

(و) روى الطبرانى والبيهقى من طرق، بعضها متصل وبعضها منقطع أنه صلى الله تعالى عليه وسلم **(قال فى)** حق **(جماعة)** من الصحابة كانوا عنده، **(فيهم أبو هريرة وحذيفة وسمرة بن جندب: آخركم موتا فى النار)** آخركم مبتدأ خبره محذوف تقديره يموت موتا فى النار، فموتا مفعول مطلق، والجار والمجرور متعلق بالخبر أو بالمصدر، أو آخركم فاعل يموت، وأما كونه مبتدأ وموتا تمييز والظرف خبره وإن احتمل، فليس بمراد، ولذا قيل: إن فيه إيهاما وتورية لأن المراد أنه يحترق فى الدنيا حريقا يموت به، لا أنه يدخل نار جهنم؛ لأن ابن عساكر روى عن ابن سيرين أن سمرة أصابه كزاز، وهو مرض يصيب صاحبه برد، لا يدفئوا منه، فكان يُملأ له قدر عظيم ماء يسخن ويجلس عليه ليدفأ من بخاره، فسقط فيه فاحترق، وقيل: إنه مات فى حريق، قيل: ويحتمل أنه على ظاهره بأن يدخل النار فى الآخرة ثم يخرج لأمر صدر منه، والذى صححه السيوطى وغيره الأول، وإليه يشير المصنف بقوله: **(فكان بعضهم)** أى بعض من قيل فى حقه ذلك مما تقدم **(يسأل عن البعض)** من رفقائه الذين قال صلى الله تعالى عليه وسلم فيهم ما مر، قال ابن حكيم الضبى: كنت إذا لقيت أبا هريرة سألنى عن سمرة فإذا أخبرته بصحته فرح، فسألته عن ذلك، وقال: كنا عشرة فى بيت فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «آخركم موتا فى النار»(١)، فمات منا ثمانية ولم يبق غيرى وغيره، وكان إذا قيل له مات سمرة يغشى عليه حتى مات قبله.

(فكان سمرة آخرهم موتًا هرم) بزنة علم أى كبر سنه وضعف بدنه وأصابه هزال الشيخوخة **(وخرف)** بخاء معجمة مفتوحة وراء مهملة مكسورة أى فسد عقله وتغير من الكبر **(فاصطلى)** أصله اصتلى فأبدلت التاء طاء لمجاورة الصاد أى تدفى **(بالنار)** أى بنار أوقدت له **(فاحترق فيها)** لغفلة أهله عنه وضعفه عن الحركة، فعلم صحة ما أخبر به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم قبل وقوعه، ولم يكشف لهم الغطاء عن مراده؛ ليجدوا فى أعمالهم ويداوموا على الخوف والمراقبة، أو لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يؤذن له فى ذلك، وهو من الحكم الخفية.

قيل: إن ما ذكر لم ير منقولا عن غير المصنف، ولم يذكر أحد أن سمرة حرق بل لم

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٢١١/٧)، والدولابى فى الكنى (٣٧/٢)، وابن أبى حاتم فى العلل (٦٦٠).

ينقل أن أحدًا من الصحابة حرق إلا بشر بن أرطأة أو ابن أبى أرطأة على القول بأنه صحابى، وقد نعى بشرًا سفينة مولاه صلى الله تعالى عليه وسلم كما قاله البرهان.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه ابن إسحاق عن عاصم بن عمر ابن قتادة أنه قال **(فى حنظلة)** بن أبى عامر الأنصارى الصحابى المشهور بـ**(الغسيل)**، فعيل بمعنى مفعول من الغسل، سمى بذلك، لأن الملائكة غسلته لما استشهد بأحد، وكان جنبًا فقتله أبو سفيان بن حرب، وقيل: قتله شداد بن أوس الليثى وهو حنظلة بن أبى عامر الراهب الذى لقبه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالفاسق، فرأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الملائكة تغسله مع أنه شهيد، فقال: **(سلوا زوجه)** يعنى امرأته وزوجته، فإنه يقال للمرأة: زوج كالرجل فى الفصيح، وقد يقال: زوجة للفرق **(عنه)** أى عن حاله فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم علم أن تغسيله لجنابته، وهى لا يطلع عليها غيرها كما أشار إليه بقوله: **(فإنى رأيت الملائكة تغسله)**، والشهيد لا يغسل وكان ذلك بأحد، **(فسألوها فقالت:)** إنه **(خرج)** من بيته لأحد **(جنبا)** من جماع امرأته **(أعجله الحال)** أى محبة الجهاد واللحوق برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم **(عن الغسل)** بضم فسكون أى عن أن يغتسل من جنابته؛ لخوفه أن يبطئ عن حضوره معه صلى الله تعالى عليه وسلم، فيفوته ذلك الوقت.

وفى رواية قالت: كان جنبا فغسلت إحدى شقى رأسه، فلما سمع صوتا خرج فقتل، وكان ابتنى بزوجته فى تلك الليلة، وهى جميلة بنت أبى بن سلول المنافق.

(قال أبو سعيد) بن مالك بن سنان الخدرى وقد تقدم ذكره مرارًا (: **ووجدنا رأسه)** أى رأس حنظلة لما قتل **(يقطر ماء)** من أثر تغسيل الملائكة له، وهذا من ظهور ما فى عالم الغيب، وهذا مما وقع فى بعض النسخ ملحقا بالأم، والشهيد فى المعركة لا يغسل، لكنه لو كان جنبا هل يلزم تغسيله أم لا؟ اختلف فيه، فقيل: يجب لأنه بسبب آخر وهو ظاهر الحديث، والكلام عليه مفصل فى كتب الفقه.

(وقال) رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه أحمد والترمذى، وهو مما نحن فيه إذ فيه مع الحكم إخبار ببعض المغيبات (: **الخلافة فى قريش)** ولو كان هذا لمجرد الحكم لم يكن مما نحن فيه؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم حكم باستحقاقهم لها وقع أو لم يقع، وقد وقع كما أخبر مدة طويلة إلى انقضاء دولة بنى العباس.

(و) فى حديث آخر رواه البخارى: **(لن يزال هذا الأمر)** يعنى الخلافة **(فى قريش ما أقاموا الدين)** بيان لغايته أى ما حموا شوكة الإسلام، وأقاموا شعائر الدين الظاهرة، فإذا غيروا غيرهم الله تعالى، ونزع الملك منهم، وقد وقع كما قال رسول الله صلى الله تعالى

عليه وسلم، وفيه روايات متغايرة تحتاج لكلام طويل طويناه خوف السآمة والملل، وفى رواية حتى يمضى فيهم اثنا عشر خليفة، وما ظرفية مصدرية أى مدة إمامتهم، والإجماع منعقد على أن الخلافة مختصة بقريش.

(وقال) رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه مسلم والبيهقى: **(يكون)** أى يوجد بعده صلى الله تعالى عليه وسلم **(فى ثقيف)** قبيلة معروفة **(كذاب ومبير)** أى مهلك يكثر القتل بغير حق، من البوار فهو الهلاك قال تعالى: ﴿**وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا**﴾ [الفتح: ١٢] أى هالكين **(فرأوهما)** من الرأى أى رأى العلماء أن المراد فى الحديث بهما **(الحجاج)** بن يوسف الثقفى، وهذا مما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم من المغيبات، ففى حديث أسماء، رضى الله تعالى عنها، من طريق مسلم أنها قالت للحجاج: إن فى ثقيف كذابًا ومبيرًا أما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه.

وقال النووى، رحمه الله، أجمع العلماء على أن المبير هو الحجاج، وقال هشام بن حسان: إنه قتل مائة وعشرين ألفًا.

(و) الكذاب هو **(المختار)** بن أبى عبيد الثقفى بن مسعود بن عمر بن عمير، ففى عبارته لف ونشر مشوش، وأبوه أسلم فى حياة النبى، عليه السلام، ولم يره فلم يعد من الصحابة، والمختار هذا كان يزعم أن جبريل، عليه الصلاة والسلام، يأتيه، وكان يظهر مدح ابن الزبير ومحمد ابن الحنفية، واستحوذ على الكوفة وأظهر التشيع، واجتمع عليه ناس كثيرون وطلب الأخذ بثأر الحسين، فقتل كثيرًا من قتلته وعظم أمره، وكان يتكهن ويزعم أنه يوحى إليه، وله كرسى يضاهى به تابوت بنى إسرائيل فهو ضال مضل، واستمر على ذلك مدة حتى قتله مصعب بن الزبير، وأمر الحجاج أشهر من أن يذكر.

(وأن مسيلمة يعقره الله تعالى) أى مما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم من المغيبات ما ورد فى الحديث الصحيح الذى رواه الشيخان عن ابن عباس، رضى الله عنهما، من ظهور مسيلمة الكذاب وأن الله يقتله، ومسيلمة بصيغة التصغير فلامه مكسورة والعامة تفتحها وهو خطأ قبيح كما مر، وهو رجل من بنى حنيفة كنيته أبو ثمامة، ادعى النبوة وزعم أنه يأتيه الوحى بقرآن، فكان له هذيانات سخيفة تقدم بعض منها، ولما قدم وفد بنى حنيفة المدينة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو معهم لم يقابله، وقال: لو جعل الأمر لى بعده اتبعته، فبلغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما قاله، فقال: لو سألنى هذه الشظية ما أعطيتها له، فرجع معهم وتمخرق بشعبذة فافتتنوا به، وزعم أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أشركه معه فى أمره، وكتب إليه: من مسيلمة رسول

الله إلى محمد رسول الله، أما بعد:

فإنى قد أشركت فى الأمر معك، فإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكنهم يعتدون.

فكتب إليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب أما بعد:

فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

فأخفى الكتاب وكتب كتابًا من عنده أظهره لأصحابه زعم أنه صدقه فيما قاله، فكذبه من بنى حنيفة ثمامة بن مالك، رضى الله تعالى عنه، ونهى الناس عنه وقال يخاطبه وكان مؤمنا، رضى الله عنه:

مسيلمة ارجع ولا تمحك ... فإنك فى الأمر لم تشرك

كذبت على الله فى وحيه ... هواك هوى الأحمق الأنوك

فما فى السماء لك مصعد ... ومالك فى الأرض من مبرك

وكان يلقب نفسه برحمان اليمامة، ولما توفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، جمع جموعا سفها، فجهز له أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، جيشا أميرهم خالد بن الوليد، رضى الله تعالى عنه، فقتل مسيلمة كافرًا لعنه الله تعالى، قتله وحشى قاتل حمزة، رضى الله تعالى عنه، وشاركه فيه ناس، والعقر أصله يستعمل فى الحيوان كعقر الناقة ونحوها، ففيه إشارة إلى أنه بهيمة من البهائم مات ميته جاهلية فلم يذك ولم يزك.

(و) مما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم من المغيبات ما رواه الشيخان عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، **(أن فاطمة)** الزهراء بنته صلى الله تعالى عليه وسلم، ورضى الله عنها، **(أول أهله لحوقا)** وروى لحاقا **(به)**: أى أول من يموت بعده صلى الله تعالى عليه وسلم من أهل البيت، فماتت بعد ستة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: مائة يوم، وهى أصغر بناته صلى الله تعالى عليه وسلم وأحبهم إليه وهى أول من غطى نعشه من النساء فى الإسلام، وأول الحديث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم سارها فى مرض موته فبكت، ثم دعاها وسارها بشىء فضحكت، فسئلت عن ذلك بعد موته صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: سارنى أولاً بأنه يموت فى مرضه هذا فبكيت، ثم سارنى بأنى أول أهله يتبعه فضحكت، ولما توفيت دفنها على، كرم الله وجهه، ليلاً، واختلف فى محل دفنها، فقيل: فى قبة ولدها الحسن قرب محرابها.

وروى أحمد بن حنبل فى المناقب أنها اغتسلت ولبست ثيابا لها وكفنا، وقالت: إنى مقبوضة فلا يغسلنى ولا يكفننى أحد، فامتثل أمرها، وفيه كلام للفقهاء، وأنه هل يكفى

غسلها فى الحياة عن غسل الميت أم لا؟ إلا أنه يعارضه ما روى من أنها أمرت فاطمة بنت عميس أن تغسلها، وقيل: إنه من خصائصها وفى اللآلىء للسيوطى عن أم سلمة قالت: مرضت فاطمة فقالت: يا أمتاه اسكبى لى غسلا فسكبته، فاغتسلت ثم قالت: هاتى ثيابى الجدد فناولتها فلبستها، فقالت: قدمى الفراش فقدمته فاضطجعت مستقبلة، ثم قالت: إنى اليوم مقبوضة فلا يكشفنى أحد، فقبضت مكانها وأتى على فأخبرته فدفنها بغسلها، وقال ابن الجوزى: إنه موضوع، ورد بأنه رواه الطبرانى إلا أنه يعارضه ما روى بخلافه كما مر، ولعله من خصوصياتها وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم أخبرها به.

(**وأنذر بالردة**) أى أعلم صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه بمن يرتد بعده وما يكون من قتالهم، وقد وقع ذلك فى خلافة أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، والإنذار إخبار بأمر مكروه مخوف ضد التبشير، وهو مما رواه الشيخان أيضًا عن ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، وكان ذلك بعد ابتداء خلافة الصديق بسبعة أشهر وستة أيام، فإنه بعد انتقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ارتد كثير من الناس إلا أهل الحرمين والبحرين، فكفى الله أمرهم بأبى بكر، رضى الله تعالى عنهم، بعد أن قاسى منه أمورا شديدة.

(**و**) مما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم من المغيبات فى حديث رواه أصحاب الكتب الستة مسندًا وفيه (**أن الخلافة**) أى خلافة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بحق، وخلافة النبوة إنما تكون لمن تمسك بالسنة من قريش، وهى (**بعده ثلاثون سنة ثم تكون**) أى تتحول الخلافة، وتصير (**ملكا**) عضوضا أى سلطنة بالقهر والتطلب من غير وجود شروطها، (**فكانت**) الخلافة الحقيقية (**كذلك**) أى كما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم، وتمت المدة التى ذكرها (**بمدة الحسن بن على**) بن أبى طالب كما رواه سفينة مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فكانت خلافة الصديق، رضى الله تعالى عنه، سنتين وأربعة أشهر، وخلافة عمر، رضى الله تعالى عنه، عشر سنين ونصفا، وخلافة عثمان، رضى الله تعالى عنه، اثنى عشر سنة إلا أيامًا، وخلافة على رضى الله تعالى عنه أربع سنين وتسعة أشهر وأيامًا، وفى المغرب خلافة أبى بكر سنتان وثلاثة أشهر وتسع ليال، وعمر عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال، وعثمان اثنى عشر سنة إلا اثنى عشر ليلة، وعلى خمس سنين إلا ثلاثة أشهر، فتتم المدة بمدة الحسن لما بويع فى عشر رمضان الأخير سنة أربعين من هجرته، ثم سلمها لمعاوية فى نصف جمادى الأول سنة إحدى وأربعين فمدته كانت سبعة أشهر ونصفا وأياما، فبها تتم الثلاثون كما ذكره **المصنف**، رحمه الله تعالى.

والملك بضم الميم، والعضوض بفتح العين المهملة صيغة مبالغة، وروى ثم يكون ملك عضوض بضم العين جمع عض بكسرها، وهو الشرير الخبيث، والملك السلطان والخليفة أمير المؤمنين، ويقال: خليفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه خلفه فى القيام بأمر المسلمين، ولا يقال: خليفة الله لغير داود صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه البزار عن أبى عبيدة، رضى الله تعالى عنه، والبيهقى عن معاذ بن جبل، رضى الله تعالى عنه: **(إن هذا الأمر)** أراد به دين الإسلام، وأمر الشريعة المحمدية **(بدأ)** بهمزة فى آخره أى ابتدأ فى أول أمره، أو بألف مقصورة بمعنى ظهر وبرز من كون العدم إلى الخارج، والظاهر الأول هنا **(نبوة ورحمة)** بالنصب على الحالية أو بنزع الخافض: أى بدأ بنبوته صلى الله تعالى عليه وسلم ورحمته للعالمين بإنقاذهم من الضلال والكفر وأمور الجاهلية، وهذا فى حياته صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ثم تكون)** بعده **(رحمة وخلافة)** فى زمن الخلفاء الراشدين، وأخر الرحمة أولاً؛ لأنها نشأت من النبوة، وقدمها هنا لسبقها على الخلافة، فإن رحمته صلى الله تعالى عليه وسلم كانت قبلهم واستمرت، **(ثم يكون)** بعد الخلافة **(ملكا عضوضا)** بفتح العين وضمها كما تقدم فى رواية ملك عضوض، وهو استعارة تصريحية أو مكنية بتشبيه ظلمهم وتعديهم على الرعية بعض حيوان مفترس يعض من رآه، **(ثم يكون)** بالتحتية والضمير للأمر **(عتوا وجبرية)** العتو بضم العين: الخروج عن طاعة الله تعالى، يقال: عتا يعتوا عتوا وعتا، والجبرية بفتح الجيم والموحدة وتسكن أيضًا من الجبر، وهو الإكراه والقهر، قال الراغب: الإجبار فى الأصل حمل الغير على أن يجبر الأمر لكن تعارف فى الإكراه المجرد، فقيل: أجبرته على كذا، وسمى الذين يدعون أن الله يكره العباد على المعاصى فى تعارف المتكلمين مجبرة، وفى قوله المتقدمين: جبرية وجبرية انتهى.

وقال غيره: الجبرية بفتح الباء أى قهرًا وتكبرًا، ولفظ الحديث الذى رواه البيهقى أن الله بدأ بهذا الأمر نبوة ورحمة، وكانتا خلافة ورحمة، وكانتا ملكا عضوضا، وكانتا عتوا وجبرية وفسادا فى الأمة يستحلون الفروج والخمور والحرير، وينصرون على ذلك، ويرزقون أبدا حتى يلقوا الله، وهما منصوبان خبر كان، وروى بالرفع فكان تامة، وروى جبروتا بمثناة فوقية.

والعتو بمثناة أيضًا وما قيل: إنه بمثلثة ومعناه الفساد وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠][1] فالحال مؤكدة، وقوله فى الحديث عتوا وجبروتا **(وفسادا فى الأرض)** يلزمه عطف الشىء على نفسه، وفى الكشاف معناه: أشد الفساد،

(١) [البقرة:٦٠، الأعراف:٧٤، هود:٨٥، الشعراء:١٨٣، العنكبوت:٣٦].

فقيل لهم: لا تتمادوا فى الفساد فى حال فسادكم انتهى.

وكونه أشد الفساد يحتاج إلى النقل، وفى الصحاح ما يخالفه؛ لأنه فسره بمطلق الفساد، ويلزمه أن يكون النهى عن التمادى فى حال الفساد انتهى ملخصه، وفيه بحث، وإنما تركناه لأنه أطال فيه من غير طائل، وأنا أقول: لا يخلو ما فى كلامه من الخبط، فإن العتو هنا بالمثناة فقط، والمثلثة تحريف، واعتراضه على العلامة من قصور نظره، فإن مثله لا يطلب منه النقل، ومراده أن العتو إن كان بمعنى الفساد، فالمراد بقوله: مفسدين، مستمرين على الفساد لأن الأصل التأسيس، وقد قرره فى سورة البقرة فى أمر المؤمنين بالإيمان ومثله كثير.

(و) مما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم عن المغيبات ما أشار إليه بقوله و**(أخبر)** صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه مسلم **(بشأن أويس)** بن عامر المرادى نسبة لمراد قبيلة مشهورة **(القرنى)** بفتحتين نسبة لقرن بن ردمان بن ناجية بن مراد، وغلط الجوهرى فى نسبته لقرن المنازل كما غلط فى فتح راء قرن المنازل كما فى القاموس، وتبعه بعض الشراح هنا، وقال ابن حجر فى فتح البارى: بالغ النووى فى حكاية الاتفاق على تخطئته فى تحريك قرن المنازل، وحكى المصنف، رحمه الله تعالى، عن تعليق القابسى أن من قال، بالإسكان أراد الجبل، ومن قال بالتحريك أراد البلد، وقال الكرمانى: أويس القرنى منسوب إلى قبيلة بنى قرن، ولا منافاة بينه وبين ما قدمناه، وفى طبقات الأولياء للشرجى أنه خير التابعين مطلقًا بشهادة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم له، وكان أدرك زمن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يره لاشتغاله ببر أمه، وعن عمر، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: «يأتيكم أويس بن عامر مع أنداد من أهل اليمن من مراد من قرن كان به برص، فبرأ منه إلا موضع درهم منه لأنه دعا أن يزيله إلا لمعة أذكر بها نعمك على، فمن أدركه منكم فاستطاع أن يستغفر له فليفعل»، ووصفه صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه أشهل ذو صهوبة بعيد ما بين المنكبين، شديد الأدمة ضارب بذقنه إلى صدره، رام ببصره إلى موضع سجوده يبكى على نفسه ذو طمرين لا يؤبه به، مجهول فى أهل الأرض معروف فى السماء، لو أقسم على الله لأبره، تحت منكبه الأيسر لمعة بيضاء، ألا وإنه إذا كان يوم القيامة قيل للناس: ادخلوا الجنة، وقيل لأويس: قف واشفع فيشفعه الله فى ربيعة ومضر، يا عمر ويا على إذا أنتما لقيتماه، فاطلبا منه أن يستغفر لكما، فمكثا عشر سنين يطلبانه، فلم يلقياه، فلما كانت السنة التى توفى فيها عمر قام على أبى قبيس، فنادى يا أهل اليمن هل فيكم أويس؟ فقام شيخ، وقال: لا ندرى ما أويس، ولكن ابن أخ لى أخمل ذكرًا وأهون من أن نرفعه إليك، وهوفى إبلنا يرعاها، فعمى عليه عمر، رضى الله تعالى عنه، كأنه لا يريده،

ثم قال: أين هو؟ فقال: بأراك عرفات، فركب عمر وعلى، رضى الله تعالى عنهما، إليه، فإذا هو قائم يصلى، فسلما عليه وقالا: من الرجل؟ فقال: راعى إبل أجير، فقالا: لسنا نسألك عن ذاك، ما اسمك؟ فقال: عبد الله. فقالا: كلنا عبيد الله ما اسمك الذى سمتك به أمك؟ قال: فما ترايدان منى؟ فأخبراه بما قاله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لهما، وعرفاه بأنفسهما، فقام عليهما وقال لهما: جزاكما الله عن أمة محمد خيرًا واستغفر لهما كما أمرهما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك، فقال له عمر، رضى الله تعالى عنه: مكانك يرحمك الله حتى آتيك بنفقة من عطائى، وكسوة من ثيابى فقال: لا ميعاد لى ولا ترانى بعد اليوم، وما أصنع بالنفقة والكسوة، ثم أقبل على العبادة، وتوفى بصفين على ما قيل عام سبع وثلاثين شهيدًا مع أصحاب على، رضى الله تعالى عنهم[1].

وقال ابن سلمة: غزونا أذربيجان فى زمن عمر، رضى الله تعالى عنه، ومعنا أويس، فلما رجع مرض ومات فدفناه، وجعلنا على القبر علامة، فلما رجعنا لم نجد له أثرا، والأول أصح لقول أبى هريرة: إن اجتماعه بعمر فى السنة التى توفى فيها، فكيف يكون غزا فى أيامه، وقيل: دفن بدمشق والله أعلم انتهى.

وهذا هو المراد بشأنه الذى أشار إليه المصنف، رحمه الله تعالى، وبما مر علمت أن أويسًا لم يدفن باليمن كما توهمه بعض الناس، وأنه أفضل التابعين وأنه لقى عليا وعمر وأدرك زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لما ورد فى الحديث الصحيح: «إن خير التابعين رجل يقال له أويس القرنى».

وقال أحمد بن حنبل: أفضل التابعين سعيد بن المسيب، قال العراقى: لعل أحمد لم يقف على هذا الحديث، أو لم يصح عنده، وفيه أنه ذكره فى مسنده ولم يضعفه، وإنما وجهه أنه رواه: «إن من خير التابعين»[2] بمن التبعيضية، وقال النووى: أفضلية أويس بشدة زهده وخشيته لله وأفضلية سعيد بكثرة علمه وحفظه الحديث، فلا منافاة بينهما.

وقيل: أفضلهم الحسن البصرى، وقيل: حفصة بنت سيرين ولا شك أن الأفضلية على الإطلاق لأويس، وبالعلم النافع لسعيد وفيه نظر.

(و) مما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم ما رواه مسلم من طرق عن أبى ذر، رضى الله عنه، **(بأن أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها)**.

لفظ الحديث: «كيف أنت إذا كنت وعليك أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها؟ قلت:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٥/٢٥٤٢)، وابن سعد (١١٢/٦)، وأبو نعيم فى الحلية (٧٩/٢).
(٢) أخرجه أحمد (٤٨٠/٣)، وابن سعد (١١٣/٦).

فما تأمرني؟ قال: «صل الصلاة لوقتها، فإن أدركتها فصل فإنها لك نافلة»(١)، وفي رواية: وإلا كنت قد أحرزت صلاتك.

قال النووى: المراد فى الحديث تأخيرها عن وقتها الاختيارى، لا عن وقتها مطلقا بشهادة أمره صلى الله تعالى عليه وسلم بإعادتها معهم بعد أدائها منفردًا إذ لا إعادة بعد خروج وقت الصلاة، ولا جماعة فى الصلاة المقضية، والقول بأن المراد تأخيرها عن جميع وقتها دعوى بلا بينة، وتلك بشهود لم تكن تقبل الرشا، والمراد الأمراء لغة، فيشمل الملوك، وخصهم لأن الإمامة كانت وظيفة لهم، فكل سلطان أو حاكم بلدة يؤم الناس فى المكتوبات، أو يستخلف من يصلى بهم، وقد وقع هذا فى زمن بنى أمية، لأنهم أول من غير رسم الخلافة، وقد وقع هذا التأخير فى زمن الحجاج وأنكر عليه ذلك.

(و) مما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم من المغيبات ما رواه أحمد والطبرانى والبزار، رحمهم الله تعالى، أنه قال: **(سيكون فى أمتى)**، وفى بعض النسخ فى أمته **(ثلاثون كذابا فيهم أربع نسوة)** إدخال النسوة فيهم بطريق التغليب، والذى فى صحيح مسلم: أنهم قريب من ثلاثين، وورد فى حديث آخر أنهم سبعة وعشرون دجالاً فيهم أربع نسوة، والذى ذكره المصنف رواية أخرى، وتسميتهم أمة بناء على ظاهر حالهم، أو المراد بالأمة أمة الدعوة، والمراد بالكذب فيهم كذب مخصوص، وهو ادعاء النبوة، وقد وقع هذا بعده صلى الله تعالى عليه وسلم من الرجال لمسيلمة، والأسود العنسى بالنون، ومن النساء لسجاح التى ظهرت باليمن، وقصتها مشهورة، وتفسيره بما ذكر ورد مصرحًا به فى الحديث كحديث: «فى أمتى دجالون كذابون وأنا خاتم النبيين لا نبى بعدى»(٢)، ولو استقصى عدتهم بلغت ما ذكر.

والدجال الكذاب الذى يخلط ويلبس، يقال: دجل أمره إذا خلطه وموهه، ولبس فيه، حتى يخفى، ومنه الدجال المشهور، وجمعه دجالون ودجاجلة.

(وفى حديث آخر) رواه الشيخان عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، **(ثلاثون دجالا كذابا)** عطف بيان على ما قبله، **(آخرهم الدجال الكذاب)** الأعور الذى يظهر فى آخر الزمان، ويقتله عيسى ابن مريم، عليه الصلاة والسلام، فالتعريف فيه للعهد، وتقدم أنه من الدجل وهو الكذب والتمويه، وفى تذكرة القرطبى فيه أقوال أخر: أحدها أنه ابن صياد يدعى الألوهية، ويظهر أمورًا خارقة للعادة، ولا يدخل مكة والمدينة والقدس، معه جنة ونار وجبال من خبز.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٤٨/٢٣٨)، والبيهقى فى السنن الكبرى (١٢٤/٣).
(٢) أخرجه أحمد (٣٩٦/٥).

(كلهم يكذب على الله ورسوله) كذبه على الله قوله: إنه أوحى إليه، وعلى رسوله قوله: إنه بشر بى، وأخبر بنبوتى كقول مسيلمة المتقدم: إنه أشركنى فى أمره، ويحتمل أن يكون الرسول من رسل الملائكة، كقولهم: إن جبريل نزل علىَّ وأوحى إلىَّ كذا.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه البزار والطبرانى بسند صحيح من حديث طويل فيه: **(يوشك)** بضم أوله مضارع أوشك بمعنى قرب ودنا وأسرع، يقال: وشك وأوشك **(أن يكثر فيكم العجم)** هم خلاف العرب مطلقا؛ لأن ألسنتهم عجم أى غير ظاهرة لهم، وقد يخص بأهل فارس، والأول أقرب هنا، والمراد أنه يكثر فيهم حكمهم وإمارتهم عليهم، كما فى كثير من الدول كالنوبة والأكراد والأتراك الذين كانت فيهم السلطنة والدولة، ولذا قال: **(يأكلون أفياءكم)** جمع فىء، وهو الغنيمة من الكفار بغير قتال، ويطلق على مطلق الغنيمة، والأكل فيه مجاز عن الاستيلاء عليه وأخذه قهرا ومنع المستحقين منه بغير وجه، وإضافة الأفياء إليهم باعتبار حقهم، ويحتمل أن يراد بأفيائهم مالهم الذى بأيديهم؛ سماه فيئًا لأنه مما أفاء الله لهم بغير مشقة عليهم.

(ويضربون رقابكم) أى يقتلونهم بغير حق، فالخطاب خطاب مشافهة لجنس المؤمنين من العرب، فيشمل جميع من بعد عصر النبوة كما فى غيره من خطابات الشارع، وإنما جعله قريبا منهم لأن كل آت قريب، والدنيا ساعة، وقد فسره الشارح الجديد بما لا وجه له، فتركه خير من ذكره.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الشيخان: **(لا تقوم الساعة حتى يسوق الناس بعصاه)** أى يملك الناس ويسخرهم، كما يريد من غير مانع ولا كد وتعب، وفيه استعارة تمثيلية لتشبيهه براع لغنم يسوقها بعصاه يهش بها عليها، وفيه إشارة إلى ضعف الناس وجهلهم، فكأنهم غنم سائمة همها أن ترعى، والعصا فيه كما فى قولهم: فلان تحت عصا فلان، أى منقاد لأمره وحكمه، وهم عبيد العصا.

(رجل من قحطان): أى من عرب اليمن وقحطان أبو اليمن، وهذا الرجل يسمى الجهجاه كما ورد فى الحديث، وقحطان اسمه يقظ أو يقظان، وكان تجبر ومنع أرزاق الناس، فسمى قحطان لقحط الرزق بسببه.

(وقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الشيخان أيضًا: **(خيركم)** المراد أمته، ولفظ الصحيحين خير أمتى وهو المراد **(قرنى)**: أى عصرى وزمانى الذى أنا فيه، والمراد أهله لقوله: **(ثم الذين يلونهم)** أى يأتون بعدهم بلا فصل، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان، **(ثم الذين يلونهم)**، وهم تبع التابعين، والقرن أهل زمان اجتمعوا واقترنوا فيه فى أعمارهم وجميع أحوالهم، وفى تفصيله كلام تقدم، والخيرية إن كانت

بالنسبة لما بعده، وهو الظاهر فلا كلام فيه، وإن كان على إطلاقه لا يلزم منه تفضيل أصحابه على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام؛ لأن المراد تفضيل الجملة والمجموع على المجموع، لا تفضيل كل فرد على كل فرد، وثم لبيان التراخى فى الرتب كالأفضل والأفضل، ولا شبهة فى فضل العصر وجملة أهله من غير تفصيل، فلا ينافيه حديث: «أمتى كالمطر لا يدرى الخير فى أوله أم فى آخره»(١)، فإن هذا من واد آخر، وهذا إشارة إلى أنه قد يجيء فى الأمة من ينفع الناس نفعًا عظيمًا لم يتيسر لغيره ممن سبقه، وهذا بالنظر لأفراد مخصوصة، وذاك بالنظر لمجموع العصر، وشتان ما بينهما، ولذا عبر بالقرن، فلا يتوهم واهم نظر لعمر بن عبد العزيز، وما صدر منه، ولعثمان وما كان فى عهده تفضيل لعصره فَيَضِلّ ويُضِلّ.

(ثم يأتى بعد ذلك قوم)، وروى ثم إن بعدكم قومًا **(يشهدون ولا يستشهدون)**: أى يؤدون الشهادة قبل أن تطلب منهم، ومثله لا يقبل، وهذا لا ينافى ما ورد فى الحديث: «إن خير الشهود من يأتى بالشهادة قبل أن يسألها»(٢)، فإن هذا حمل على من كان عنده علم بأمر وشهادة فيه، وصاحبها لا يدرى أنها عنده، فيخبره بما عنده؛ ليستشهده عند حاجته، ولكل مقام مقال.

(ويخونون ولا يؤتمنون) هو عطف مؤكد لما قبله؛ لأن الخائن لا يؤتمن أو المراد ظهور خيانتهم حتى لا يأمنهم أحد بعد ذلك، بخلاف من خان مرة فإنه قد يؤتمن، أو المراد أنهم يخونون فيما لم يؤتمنوا عليه كمن سرق أو غصب ونحوه.

(وينذرون) بضم الذال المعجمة وكسرها **(ولا يوفون)** بما نذروه من غير عذر ومانع لهم، ويقال وفى وأوفى بمعنى.

(ويظهر فيهم السمن): أى عظم البدن بكثرة لحمه، وهذا علامة على كثرة أكلهم وشرابهم وترفهم، وعدم خوفهم من الله، وعدم تفكرهم فى عواقب الأمور.

وروى: «يأتى فى آخر الزمان قوم يتسمنون»، وفى التوراة: إن الله يبغض الحبر السمين، وفى الغالب أن من سمن وكثرت رطوبة بدنه كان بليدًا مغفلا غير مكترث بدينه ودنياه، فجعل هذا كناية عما ذكر؛ لأنه من لوازمه غالبًا، فلا ينافيه ما يشاهد من كون بعض العلماء والصلحاء سمين الجثة خلقة أنشأه الله عليها لقوة نطفة أبويه، وقيل: المذموم منه ما يكتسب دون الخلقى؛ لأنه ورد فى الحديث: «ويل للمتسمنات يوم القيامة»: أى اللواتى يستعملن السمنة، وهى دواء يتسمن به، وروى تخلف قوم يحبون

(١) أخرجه ابن عبد البر فى الاستذكار (١/٢٣٩)، والعقيلى فى الضعفاء (١/٣١٠).
(٢) أخرجه أحمد (٥/١٩٢)، وابن ماجه (٢٣٦٤)، والطبرانى فى الكبير (٥/٢٦٦).

السمانة بفتح السين المهملة، وهى السمن.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه البخارى عن أنس، رضى الله تعالى عنه: **(لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه)** المستثنى جملة حالية يجوز فى مثلها الواو وتركها، والحديث هكذا قال الزبير بن عدى: أتينا أنسًا، رضى الله عنه، فشكونا له الحجاج، فقال: «اصبروا فإنه لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه حتى تلقون ربكم»، سمعته من نبيكم، عليه الصلاة والسلام.

وروى أشر على الأصل كأخير، والمستعمل منهما خير وشر، وسمعًا على الأصل نادرًا وفى معنى هذا الحديث ما اشتهر من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «كل عام ترذلون» إلا أنهم قالوا: إنه لم يرد بهذا اللفظ، وإن كان معناه ثابتًا فى أحاديث كثيرة، فهو رواية بالمعنى، وقال الحسن البصرى: لما ذكر مجىء ابن عبد العزيز بعد الحجاج لابد للناس من تنفس يعنى أنه الله ينفس عن عباده، ويكشف عنهم البلاء أحيانًا.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الشيخان: **(هلاك أمتى على يدى أغيلمة من قريش)** أغيلمة تصغير أغلمة، وهو جمع قلة يجوز فيه التصغير على لفظه، وهو فى حكم المفرد، وفى القاموس جمع غلام غلمة وأغلمة وغلمان، والغلام الشاب قد طر شاربه، وهو المراد فما فى النهاية من أنه تصغير غلمة على القياس ولم يرد فى جمعه أغلمة، ومثله أضبية تصغير ضبية كلام لا وجه له، فإن رد جمع القلة لجمع قلة آخر فى التصغير مما لا يعقل ولا يسمع، ولو لم يرد غير هذا دلنا على أنه سمع فيه أغلمة، فلا حاجة للتعسف فى تأويله، والمراد بهلاكهم ضياع أمورهم وهلاك بعضهم.

(وقال أبو هريرة راويه) أى راوى هذا الحديث: **(لو شئت سميتهم لكم بنو فلان وبنو فلان)** أى لو أردت أن أسميهم لكم سميتهم كيزيد، فإنه أباح المدينة ثلاثة أيام، وقتل من خيار أهلها ناسًا فيهم ثلاثة من الصحابة، وأزيلت بكارة ألف عذراء، وكبنى مروان ابن الحكم وغيرهم من بنى أمية، ولم يسمهم خوف الفتنة.

(وأخبر)، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن بعض المغيبات فى حديث رواه الترمذى، وأبو داود، والحاكم **(بظهور القدرية)** فى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «القدرية مجوس هذه الأمة»[(١)]، وهم لما قالوا بأن الأمور كلها ليست بقضاء الله وقدره، وأن الإنسان خالق لأفعاله، وأنها بقدرته سموا قدرية لإثباتهم للعبد قدرة لا لإنكار قدرة الله على أفعاله، وشبههم بالمجوس؛ لأنهم أثبتوا خالقين خالق الخير، وهو النور الذى سموه

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩١)، وابن المبارك (٣٠٥)، وابن أبى عاصم فى السنة (١/١٤٩)، والحاكم (١/٨٥).

يزدان، وخالق الشر الظلمة سموها أهرمن، وهؤلاء لما نسبوا أفعال العباد لهم قالوا بتعدد الخالق على ما تقرر فى الأصول، وأما معنى القضاء والقدر فعند السلف القضاء إرادة الله الأزلية المتعلقة بجميع الأشياء خيرها وشرها، والقدر إيجاده إياها على ما قضاه أولاً، وعند الفلاسفة القضاء علمه بما عليه الوجود، حتى يكون على أحسن نظام، ويسمونه العناية، والقدر خروجها على وفقه، وهؤلاء القدرية هم المعتزلة، وأما القدرية الذين أنكروا القدر، وأن الأمر أنف أى مستأنف لا يعلمه الله إلا بعد وجوده، فليس المراد بالحديث هم؛ لأنهم انقرضوا، ولم يبق منهم أحد.

(والرافضة) الذين أخبر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، بظهورهم كما ورد فى حديث رواه البيهقى من طرق إلا أنها كلها ضعيفة، فقال: «يكون فى أمتى قوم فى آخر الزمان يسمون الرافضة يرفضون الإسلام»(١)، وروى: «يلفظونه فاقتلوهم فإنهم مشركون»، انتهى.

وفيه بيان لوجه التسمية، فإن الرفض معناه لغة الترك، وقيل: هم قوم تركوا حب الشيخين من الشيعة، وهم اثنان وعشرون فرقة، وقد وقع ما أخبر به الصادق الأمين لما ظهر الفاطميون ومن بالعجم الآن منهم.

(وسب آخر هذه الأمة أولها) أى أخبر صلى الله تعالى عليه وسلم بأن من تأخر من أمته سيظهر سب أولها، وهذا من المغيبات ورد فى حديث رواه البغوى عن عائشة، رضى الله عنها، مرفوعًا، فقال: «لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها»(٢)، وقد وقع هذا كثيرًا من الرافضة، فأظهروا سب الشيخين وسب عائشة ومعاوية وغيرهم من الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم.

ووقع من بنى أمية سب على، كرم الله تعالى وجهه، على المنابر، وأدخل بعضهم فى هذا من سب بعض الأولياء وعلماء السلف، وذكرهم بالسوء، وافترى عليهم ما لم يقولوه كما شاهدناه من بعض السفهاء يسبون العارف بالله سيدى محيى الدين بن عربى، وسيدى عمر بن الفارض، ونحوهما من أولياء الله تعالى حتى صنف بعضهم تصانيف فى الرد عليهم، ومقامهم أعلى من ذلك، والاشتغال بمثل هذا تضييع للزمان وتسويد لوجوه الأوراق، ويخشى على المتصدى لذلك من سوء الخاتمة، نفعنا الله تعالى ببركاتهم وحشرنا فى زمرتهم.

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٦/٥٤٨)، والعقيلى فى الضعفاء (١/٢٨٥)، وأبو نعيم فى الحلية (٤/٩٥)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/١٦٠).

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة (١٥/١٢٥)، والطبرانى فى الصغير (٢/٨٣).

(و) أخبر رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بقلة الأنصار)** بعد عصر النبوة وهم الأوس والخزرج، وسموا أنصارًا لأنهم نصروا الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، وآووه، وهو جمع ناصر أو نصير غلب على هذه القبيلة، ولذا نسب إليهم أنصارى، و لم يرد لواحده، وهذا إشارة لما رواه الشيخان عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، أنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فى مرضه الذى مات فيه، فجلس على المنبر، وحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال[1]: أما بعد، فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار، **(حتى يكونوا كالملح فى الطعام)**، فمن ولى منكم شيئًا يضر قومًا فيه وينفع فيه آخرين، فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم: أى أن أهل الإسلام لا يزالون يدخلون فيه أفواجًا أفواجًا، وهؤلاء يقلون ويفنى نسلهم، فإن خيار الأكثر قليل فى كل جيل، و لم تزل قلتهم إلى أن صاروا بالنسبة لغيرهم كالملح فى الطعام، ووجه التشبيه أنهم مع قلتهم فيهم صلاح وإصلاح، وأنهم يذوبون بينهم كالملح، فإنه يذوب فيما وضع فيه، وقد كان كما قال.

فإن الآن فى المدينة لم يبق منهم إلا أقل من القليل كما أشار إليه بقوله: **(فلم يزل أمرهم يتبدد)**: المراد بأمرهم ما به بقاؤهم وانتظام حالهم من أملاكهم وأموالهم، ويتبدد بمعنى يتفرق، ويتشتت حتى يفنى ويضمحل ويقلون، **(حتى لم يبق لهم جماعة)**: أى لم يبق من نسلهم قوم مجتمعون بالمدينة كما كانوا عليه أولاً، وهكذا السادات العظام إذا مات واحد منهم لم يقم بعده من يخلفه.

(و) أشار لسبب ذلك بقوله: و**(إنهم سيلقون بعده)** أى يلقى الأنصار بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أثرة)** بفتح الهمزة والمثلثة والراء المهملة قيل: ويجوز كسر الهمزة وسكون المثلثة، وهما بمعنى، وهو الاستبداد، وقيل: الثانى شدة الاستبداد أى يلقون بعده، صلى الله تعالى عليه وسلم، من يؤثر عليهم غيرهم، ويقدمه عليهم فى العطاء من الديوان، ويقل نصيبهم من الفىء، فتضيق معيشتهم وفى نفسهم شرف وحمية فيشتتوا ويتبدد أمرهم.

قال ابن سيد الناس: كان ابتداء هذا فى زمن معاوية، رضى الله عنه، ويجوز فى أثرة أن يكون جمع آثر ككاتب وكتبة: أى آثر لنفسه وقومه عليهم وبعده، فاصبروا حتى تلقونى على الحوض، والحديث طويل فى الصحيحين، وهذا كله من الإخبار عن المغيبات.

---

(١) أخرجه البخارى (٢٤٨/٤)، والبيهقى فى دلائل النبوة (١٧٧/٧)، والبغوى فى شرح السنة (١٧٨/١٤).

(و) منه إخباره صلى الله تعالى عليه وسلم **(بشأن الخوارج)** الذين خرجوا على أمير المؤمنين على، كرم الله وجهه، ورضى الله عنه، بالنهروان، وهم نحو أربعة آلاف، فقاتلهم حتى قتلهم، واستشهد بحربهم بعض أصحابه، وقيل: كانوا أكثر من ذلك بكثير، وحديثهم رواه الشيخان **(وصفتهم)** بالجر عطفًا على شأن، وهم فرق من أهل الضلال كالمحكمة الذين أنكروا تحكيم الحكمين، والأزارقة المنسوبين إلى نافع بن الأزرق، وغيرهم مما لا حاجة لتفصيل أحوالهم.

وقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنهم أهل صلاة وصيام يحقر أحدكم صلاته فى جنب صلاتهم وصيامه فى جنب صيامهم»، إلا أنهم مرقوا من الدين كما يمرق السهم من الرمية، وقد كفروا مرتكب الكبيرة، وأكثر الصحابة، ومواطنهم الجزيرة وعمان والموصل وحضرموت وبعض نواحى المغرب.

(و) أخبر صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بالمخدج الذى فيهم)** وهو بضم الميم وسكون الخاء المعجمة وفتح الدال المهملة، ويروى بفتح الخاء وتشديد الدال والمعنى واحد، وروى المخدوج وهو الناقص خلقه، ومنه الخداج وهو إشارة لما فى حديث الصحيحين من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قسم فى بعض الأيام قسمة، فقال له رجل من تميم وهو ذو الخويصرة: اعدل يا رسول الله، فقال: «ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ خبت وخسرت»[1]، فقال عمر، رضى الله عنه: ائذن لى أضرب عنقه فقال له: دعه إن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته... إلى آخره، وآيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدى المرأة، أو مثل البضعة تدر درا، ولما كانت وقعتهم وقتال علىّ لهم خطب الناس، وذكر الحديث.

وقال: اطلبوا ذا الثدية، فطلبوه فوجدوه تحت القتلى فجاءوا به، فقال: شقوا قميصه فشقوه، فلما رأى إحدى ثدييه مثل ثدى المرأة عليه شعرات سجد شكرًا لله تعالى إذ صدق نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلم أنه على الحق، وهم على الباطل.

(وإن سيماهم) بكسر السين المهملة وهى العلامة **(التحليق)** أى يحلقون شعور رءوسهم، ولم يكن فى الصدر الأول حلق الرأس إلا فى النسك، وهذه الأحاديث ظاهرة فى تكفيرهم كما قاله الخطابى، وفيه اختلاف.

وقيل: المراد جلوسهم حلقا حلقا، وليس بشىء، وقيل: المراد به العلو والارتفاع من قولهم حلق الطائر إذا طار وعلا، وبما ذكرناه علم أن حلق جميع الرأس ليس بممنوع، وليس فيما ذكر دليل على حرمته ولا كراهته على أنه استدل لجوازه بحديث صحيح

(١) تقدم تخريجه.

على شرط الشيخين أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، رأى صبيًا حلق بعض رأسه، فقال: «احلقوه كله أو اتركوه كله»(١)، قال النووى، رحمه الله فى شرح مسلم: وهو صريح فى إباحته، وقال: قال الفقهاء: إنه جائز على كل حال، فإن شق عليه تعهده بالتسريح والدهن استحب حلقه، وإن لم يشق استحب تركه.

(ويرى رعاء الشاء) يرى بالتحتية مبنى للمجهول، ورعاء بكسر الراء المهملة والمد جمع راع كرعاة ورعيان، والشاء بالمد جمع شاة وهى معروفة **(رءوس الناس)** ورءوس جمع رأس، وهو مجاز مشهور بمعنى الرئيس، وروى ترى بالتاء الفوقية، والخطاب لغير معين نحو: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ [السجدة: ١٢]، ويجوز رفعه ونصبه.

(والعراة الحفاة) العراة جمع عار من اللباس، والحفاة جمع حاف، وهو من ليس فى رجله نعل، وهذا الحديث فى الصحيحين بمعناه، وبعض ألفاظه، فالمصنف، رحمه الله تعالى، رواه من طريق آخر، ورواه بالمعنى **(يتبارون فى البنيان)** أى يناظر بعضهم بعضًا فى بنائه، فيريد كل منهم أن يزيد على غيره، يقال: باراه إذا عارضه، فتبارى وانبرى، وهذا وما قبله كناية عن توسع من لا قدرة له فى الدنيا عليها، وعلوه على غيره، حتى يصير رئيسًا بعد فقره وذله وكثرة مفاخرة بعضهم لبعض فى البناء العالى، كالقصور المشيدة والمساجد المزخرفة.

وفى مسلم: «أن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء الصم البكم ملوك الأرض»، وروى: «يتطاولون فى البناء»، يعنى: إن من أشراط الساعة أن أهل البادية ونحوهم ممن لا لباس له ولا نعل يتوطنون البلاد ويبنون القصور ويترأسون، وجهلة الناس وأراذلهم يصير حاكمًا واليًا عظيم الشأن، ولقد ظهر ما أخبر به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، من هذا المغيبات، وهو الآن عيان رأى العين، وكنى بكونهم رعاء إلى أنهم مجهولوا الأنساب جهلة وأنهم مشغولون عن عبادة الله، وروى يتمارون بالميم بمعنى يتنازعون، والمعنى واحد.

(وأن تلد الأمة) أى الجارية المملوكة التى اتخذت سرية **(ربتها)** بالتاء التأنيث وربت ورب بمعنى سيد وسيدة، والرب لغة له معان السيد والمالك والمربى والمدبر والقيم والمنعم، ويطلق على الله وعلى غيره مضافًا وغير مضاف، نكرة ومعرفة بحسب القرائن والمقامات، والمراد هنا السيد ذكرًا كان أو أنثى، وأنثه باعتبار النسمة وهو من حديث صحيح مشهور رواه الشيخان وغيرهما، وهو من المغيبات وأشراط الساعة التى أخبر

(١) أخرجه أحمد (٢/٨٨)، وأبو داود (٤١٩٥)، والنسائى (٨/١٣٠)، وعبد الرزاق (١٩٥٦٤).

بها، صلى الله تعالى عليه وسلم، أصحابه، وفى معناه اختلاف كثير، فقيل: معناه أن الإماء تلدن الملوك، فتكون أمه أمة من جملة رعيته.

وقيل: هو عبارة عن فساد أحوال الناس فى آخر الزمان وكثرة بيع أمهات الأولاد، حتى يشترى الرجل أمه وهو لا يدرى أنه ابنها، فلا يخص بأم الولد، والأمة قد تلد حرًا من غير سيدها؛ لوطئها بشبهة قوية أو رقيقًا بنكاح أو زنا، ويعتق ويتداول الأيدى أمه حتى يشتريها ابنها.

وقيل: معناه كثرة العقوق حتى يستطيل الولد على أمه استطالة السيد، والذى عد من الأشراط على الأول كثرة التسرى، فلا ينافى تسرى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، بمارية وغيره.

وفى الشروح كلام مبسوط فى هذا الحديث.

وفيه من دلائل النبوة الإعلام بكثرة التسرى والسبى بعد ظهور الإسلام، واستيلاء المؤمنين على الكفرة، وتملك ديارهم، والإنذار بأن غايته الانحطاط لإيذانه بقيام الساعة، وكل شىء بلغ الحد. انتهى.

(و) مما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم، من المغيبات ما رواه الشيخان، وهو **(أن قريشًا والأحزاب لا يغزونه أبدًا)** الأحزاب جمع حزب، وهو الطائفة الكثيرة المجتمعة للتعصب والقتال، وتعريفه هنا للعهد إذ المراد أحزاب مخصوصون فى الغزوة المشهورة، **(وأنه هو الذى يغزوهم)** بعد إخباره بذلك فى الأحزاب، وهى غزوة الخندق، وبعد أحد والخندق لم تغزه قريش، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم، غزاهم حين فتح مكة، وأتى بالجملة مؤكدة بالاسمية وأن وضمير الفصل؛ لتحقيق وقوعه ونصره، ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم، يوم فتحها: «لا تغزى قريش بعد هذا إلى يوم القيامة»[1]، أى لا تعود مكة دار كفر ولا تغزوها الكفار، فلا ينافى ما وقع لبعض المسلمين كالحجاج، وكذا حديث ذى السويقتين، قال الواقدى: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قال هذا لسبع بقين من ذى القعدة.

(و) مما رواه الشيخان أيضًا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أخبر بالموتان)** بضم الميم بزنة بطلان وبفتحها وسكون الواو، وهو مصدر بمعنى الموت الكثير، وفتح الميم والواو لا يصح هنا؛ لأنه اسم يقابل الحيوان، وفى القاموس الموتان بالتحريك خلاف الحيوان أو أرض لم تحيى بعد، وبالضم موت يقع فى الماشية وتفتح، انتهى، يعنى أن فعلان بفتحتين

(١) أخرجه الطبرانى (٣/٣٩٢)، وابن أبى شيبة (١٤/٤٩٠)، وابن سعد (٢/١/١٠٥)، والبيهقى فى الكبرى (٩/٢١٤)، وفى دلائل النبوة (٥/٧٥).

فى المصادر يختص بما يدل على الحركة، كالجولان والدوران، وهو من محاسن اللغة العربية إذ جعل اللفظ على وفق معناه؛ فلذا امتنع تحريكه هنا.

(الذى يكون بعد فتح بيت المقدس)، وكان ذلك فى خلافة عمر، رضى الله تعالى عنه، بعمواس بفتحتين، وهى قرية من قرى بيت المقدس نزل بها عسكره، وهو أول طاعون وقع فى الإسلام، مات فيه سبعون ألفًا فى ثلاثة أيام، وكان ذلك سنة ست عشرة من الهجرة، وعمواس هذه هى القرية التى بين الرملة وبيت المقدس، مات فيها أبو عبيدة بن الجراح.

والحديث أوله عن عوف بن مالك، رضى الله تعالى عنه، قال: أتيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فى غزوة تبوك وهو فى قبة من أدم، فقال: «اعدد ستًا بين يدى الساعة: موتى، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم بقاف وعين وصاد مهملتين داء تموت به الغنم من وقتها، ثم استفاضة المال، وعدها إلى آخرها، وفتنة، وهدنة بينكم وبين بنى الأصفر»(١).

والموتان إن خص بالماشية كما مر، فهو هاهنا مجاز مرسل لمطلق الموت أو استعارة، ولا ينافيه التصريح بأداة التشبيه؛ لأنه من وجه آخر، وهو شدة السرعة، والمنافى له ذكر التشبيه فى ذلك المجاز بعينه، وقد أشار لما قلناه الشريف فى حواشى الكشاف فى قوله: كان أذنى قلبه خطلاوان، وهو من الفوائد النفيسة.

(وما وعد من سكنى البصرة) بتثليث الباء، ومعناها أرض غليظة أو ذات حجارة، والفتح أشهر وأفصح، وهى بلدة إسلامية، ويقال لها: بصيرة بالتصغير أيضًا، بناها عتبة ابن غزوان فى خلافة عمر سنة سبع عشرة، وسكنت سنة ثمان، ومن شرفها أنه لم يعبد بها صنم، وينسب إليها بصرى بكسر وفتح ولا يجوز الضم.

وهذا الحديث رواه أبو داود عن أنس أنه قال له صلى الله تعالى عليه وسلم: «يا أنس إن الناس يمصرون أمصارًا وإن مصرًا منها يقال له: البصرة، فإن أنت مررت بها أو دخلتها، فإياك وسباخها وكلاؤها وسوقها وباب أمرائها، وعليك بضواحيها، فإنه يكون بها خسف وقذف ورجف ومسخ»(٢)، وضواحيها نواحيها، ومنه قريش الضواحى للنازلين ببطحائها وظواهرها، وكلاؤها بتشديد اللام مرسى سفنها، وفى هذا من أعلام

---

(١) أخرجه البخارى (٤/١٢٤)، والحاكم (٣/٥٤٧، ٤/٤١٩)، والطبرانى (١٨/٤١)، والبيهقى فى السنن الكبرى (٩/٢٢٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٠٧)، وابن الجوزى فى الموضوعات (٢/٦٠)، وابن عدى فى الكامل (٥/١٧٣١)، وأورده ابن عراق فى تنزيه الشريعة (٢/٢١).

النبوة والإخبار بالغيب ما لا يخفى، ويجوز كسر صادها ولهم بلدة بالغرب تسمى البصرة أيضًا، والمراد الأولى، وسكنى مصدر كعقبى بمعنى الإقامة بها ونزولها.

(و) من إخباره صلى الله تعالى عليه وسلم، عن الغيب أيضًا فى حديث رواه الشيخان **(أنهم)** أى أمته صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يغزون فى البحر)** بعده صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه لم يكن ذلك فى حياته، والمراد بالبحر البحر الملح؛ لأنه إذا أطلق ينصرف إليه، ولم يعهد فى غيره إلا نادرًا **(كالملوك على الأسرة)** وهو تشبيه بليغ، والأسرة جمع سرير، وهو مقعد يعد للملوك مرتفع يجلسون عليه ترفعًا وتعظمًا، ومؤخر المراكب المعدة للغزو الذى يقعد عليه رئيسهم يعمل على هيئة سرير الملك بعينه، كما يعرفه من شاهده، فهو من الأعلام العجيبة؛ لأنه لم تكن ذلك بديار العرب، ولم يره أحد منهم، فتوصيفه صلى الله تعالى عليه وسلم، له كمن عرفه وجلس عليه مما تحار فيه العقول.

والحديث عن أنس بن مالك، رضى الله تعالى عنه، عن خالته أم حرام بنت ملحان، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، نام عندها يومًا لأنه محرم لها، ثم استيقظ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو يتبسم، فقالت له: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أناس من أمتى عرضوا على يركبون البحر الأخضر كالملوك على الأسرة»[1]، قالت: ادع الله تعالى أن يجعلنى منهم، فدعا لها، ثم نام فرأى ذلك، فقال لها ما قال أولاً ودعا لها، وقال لها: أنت من الأولين، فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت مع المسلمين الغزاة فى البحر مع معاوية، رضى الله تعالى عنه، فلما انصرفوا قرب لها دابة تركبها، فوقعت وماتت شهيدة ثمة، واختلف فى زمنه، فقيل: فى زمن معاوية كما مر، وقيل: فى زمن عثمان، رضى الله عنه، وجمع بينهما بأنه فى زمن عثمان، رضى الله تعالى عنه، أمر معاوية، رضى الله تعالى عنه، بغزو البحر، فغزاه بأمر عثمان، رضى الله عنه، ثم لما ولى الخلافة غزاه بنفسه.

وفى الحديث معجزات إخباره، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن غزو أمته فى البحر وغلبتهم، وظهور شوكة الملوك فيهم، وأن أم حرام من أولهم، وفيه دليل على جواز ركوب البحر للرجال والنساء، خلافًا لمالك فى كراهته للنساء فى رواية عنه، وأن الغزو فيه مشروع مطلوب، وورد فى الحديث: «إن غزو البحر يزيد أجره على البر بعشر درجات»[2]، لما فيه من المشاق، وهذه الغزوة أول غزوة فيه، وهى فتح قبرس، وكان عمر ابن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، لم يأذن فى ذلك أولاً، ثم لما ذكر له هذا

---

(١) أخرجه البخارى (٢١/٤)، والترمذى (١٦٤٥)، وابن ماجه (٢٧٧٦).

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة (٣١٥/٥)، وابن عبد البر فى التمهيد (٢٣٨/١).

الحديث أمر به وجهز الأسطول كما هو مفصل فى محله، وليس المراد بالبحر فى الحديث بحر الشام وتعريفه للعهد، بل مطلقه كما لا يخفى، وأم حرام، رضى الله تعالى عنها، مدفونة بقبرس وقبرها معروف بها يزار، وفى نسخ ثبج البحر بمثلثة وموحدة وجيم، وهو وسطه ومعظمه.

(و) أخبر صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أن الدين لو كان منوطًا)** أى معلقًا **(بالثريا لناله)** أى وصل إليه **(رجال من أبناء فارس)** أى ناس منهم، ومناط الثريا كناية عن غاية البعد، وهى كواكب مجتمعة اختلف فى عدتها كما مر، وهى المنازل المشهورة، وهى أى الثريا مشهورة بالعلو فى السماء، ويضرب بها المثل، ولفظها مصغر من الثروة كما تقدم، والدين بمعنى الإيمان أو الشرع وما يتعلق به، وهو كناية عن أن هؤلاء يصلون منه لما لم يصل إليه غيرهم قط.

وهذا من حديث رواه الشيخان، وهو من أعلام النبوة أيضًا لما ظهر فيهم من الأولياء والعلماء، وما ظهر منهم من التصانيف التى لا تعد، ولم يأت الدهر بمثلها، وما كان فيهم من خدمة كتاب الله وحديث رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا تجد فنا إلا وقد حازوا قصب السبق فيه، وانظر إلى البخارى هل له مثل؟، وليست هذه شعوبية كما يتوهمه من يتعصب تعصب الجاهلية، وإنما هو تحقيق لما أخبر به سيد البرية، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفارس جيل معروف ويقال لهم: الفرس أيضًا، وهم من أولاد سام بن نوح على الأشهر، وفارس اسم جدهم سموا به، ويطلق على بلادهم أيضًا.

والحديث مروى عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، قال: كنا جلوسًا عنده، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأنزل الله تعالى سورة الجمعة، وقوله فيها: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣]، فقلت: من هم يا رسول الله؟ وفينا سلمان الفارسى، رضى الله تعالى عنه، فوضع صلى الله تعالى عليه وسلم، يده عليه، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء»[1]، وفى رواية: لو كان العلم. وروى أيضًا أن ذلك كان عند نزول قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، ولا مانع من تعدد سبب النزول كما حققه المفسرون، والإشارة بهؤلاء مع أن المشار إليه واحد، وهو سلمان، رضى الله تعالى عنه؛ لأن المراد به الجنس، أو هو بتقدير من جنس هؤلاء.

(و) من ذلك ما رواه مسلم، عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنه، أنه **(هاجت)** أى

---

(١) أخرجه البخارى (١٨٩/٦)، ومسلم (٢٥٤٦/٢٣١)، وأحمد (٤١٧/٢)، والترمذى (٣٢٦١)، ٣٣١٠).

هبت (**ريح**) بشدة (**والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم،فى غزواته**) أى فى غزوة من غزواته، وهى غزوة تبوك، وهو محل من أرض الشام كما قيل وفيه نظر، (**فقال: إنها لموت منافق**) أى رجل من المنافقين، وهو رفاعة بن زيد بن التابوت أحد بنى قينقاع وكان من عظماء اليهود كهف المنافقين، فلذا سماه منافقًا، وقال ابن الجوزى: إنه عم قتادة بن النعمان، رضى الله تعالى عنه، وذكر قتادة بن النعمان، رضى الله تعالى عنه، أنه رأى منه ما يدل على صحة إسلامه.

وقال الذهبى فى التجريد: إن له صحبة فتسميته منافقًا على حقيقته وظاهره، وروى أنها لموت عظيم من عظماء الكفار، وهو أيضًا محمول على ظاهره أو هو باعتبار ما فى قلبه من الكفر المضمر، وصحح البرهان أن هذه الغزوة غزوة بنى المصطلق، وكان ذلك فى رجوعه منها سنة ست أو أربع أو خمس قبل الخندق على اختلاف فيها، وهذه علامة لما ذكر؛ لأنها تدل على غضب الله تعالى، كما فى ريح عاد التى أهلكتهم كما تهلك ريح السموم، من هبت عليه إلا أنه استدل بها كما يستدل بالنجوم وحوادث الجو عند الحكماء والمنجمين، ولا حاجة إلى أنها علامة لما صنعه الله تعالى وقدره وأطلع من أراد عليه، والممنوع هو إسناده لها وجعلها مؤثرة فيه.

(**فلما رجعوا**) أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن معه من تلك الغزوة (**وجدوا ذلك**) أى ما أخبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، من المغيبات بموت ذلك المنافق المذكور، فهلك فى وقت إخباره، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(**وقال**) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الطبرانى عن رافع بن خديج، رضى الله تعالى عنه، بسند صحيح (**لقوم من جلسائه**) من الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، وهو جمع جليس بمعنى مجالس مثل كريم وكرماء (**ضرس أحدكم**): أى واحد منكم أيها الحاضرون (**فى النار**): أى إذ كان فى جهنم (**مثل أحد**): أى كالجبل المذكور عظما، وهو عبارة عن أن أحدهم يموت كافرًا؛ لما فى حديث آخر: «ضرس الكافر مثل أحد»(١)، وجسم المعذب كلما زاد عذابه فكان أشد عليه، وكونه عبارة عن ثبات عذابهم وقوة صبرهم عليه، قيل: فى غاية البعد.

(**قال أبو هريرة**)، رضى الله تعالى عنه، الذى كان الخطاب له: (**فذهب القوم**) الذين كانوا جلساءه: أى ماتوا كلهم، كما أشار إليه بقوله: (**يعنى**) أبو هريرة بقوله ذهب القوم (**ماتوا**)، فإن الذهاب حقيقته الانصراف عن مكان، وقد يخص بالموت كقول قس:

فى الذاهبين الهالكين لنا بصائر

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥١/٤٤)، وأحمد (٣٣٤/٢)، والترمذى (٢٥٧٩)، والبيهقى فى السنن الكبرى (٢٧٦/١).

(وبقيت أنا ورجل) منهم، و لم يعينه لكراهته، والستر على من كان صحابيًا بحسب الظاهر، واسمه الرحال بن عنعوة، والرحال براء مهملة وحاء مهملتين ولام، وقيل: إنه بالجيم وهو الأصح رواية، وهو من أهل اليمامة، **(فقتل مرتدًا)** حال من ضمير قتل النائب عن الفاعل، والضمير لرجل **(يوم اليمامة)** أى فى حرب كانت باليمامة، وهى اسم أرض معروفة شرقى الحجاز، ومدينتها العظمى الحجر، ويسمى حجر اليمامة أيضًا، وقيل: قتله زيد بن الخطاب فى حرب مسيلمة لعنه الله، وكان معه، وقدم مع وفد بنى حنيفة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأسلم وتعلم القرآن، فلما ادعى مسيلمة الشرك مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الوحى ارتد، وشهد له بذلك.

(وأعلم) الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، بمغيب عنهم، وهو ماض مبنى للفاعل بوزن أكرم، وفاعله ضمير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا الحديث رواه أبو داود والنسائى عن زيد بن خالد الجهنى **(بالذى غل)** بغين معجمة ولام مشددة، من الغلول وهو السرقة خفية، كأن الأيدى غلت أو من الغلل، وهو الماء الجارى تحت النبات، وكثر استعماله فى السرقة من الغنائم، **(خرزًا)** بخاء معجمة وراء مهملة وزاء معجمة واحده خرزة، وهى حجارة تنظم ويزين بها وكل جوهر **(من خرز يهود)** ممنوع من الصرف؛ لأنه علم لهذه الطائفة سموا باسم جدهم يهود بن يعقوب أخو يوسف، والمراد يهود خيبر؛ لأنه توفى بها، فذكر ذلك له صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: «صلوا على صاحبكم»، فتغيرت وجوه الناس لذلك، فقال: «إن صاحبكم قد غل فى سبيل الله»، ففتشنا متاعه وما معه، **(فوجدت)** تلك الخرز التى غلها **(فى رحله)** أى فى منزله وما معه بعد موته، وهى لا تساوى درهمين، وأصل الرحل ما يوضع على البعير، وتجوز به هنا عن محله النازل فيه بما معه، وهذا الرجل لا يعرف اسمه.

(و) أعلم أيضًا بما هو من الغيب **(بالذى غل)** أى سرق كما مر **(الشملة)**، وهى المرة من الشمول، وكساء صغير يشتمل به الإنسان، وهذا بعض حديث رواه الشيخان عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، قال: أهدى رجل لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، غلامًا اسمه مدعم، فبينما هو يحط رحل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جاءه سهم عائر، فقتله فقلنا: هنيئًا له الجنة، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «كلا والذى نفسى بيده إن الشملة التى أخذها يوم خيبر من الغنائم قبل القسمة لتشتعل عليه نارًا»[(١)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٧١١)، والنسائى (٢٤/٧)، والحاكم (٤٠/٣)، والبيهقى فى السنن الكبرى (١٠٠/٩).

ففيه إخبار عن الغيب باعتبار إخباره بسرقته، وبكونه معذبًا، وعائر بعين وراء مهملتين إصابة من غير قصد، من عار الفرس إذا انفلت، وقيل: إنه إشارة لحديث المصابيح، وهو أن رجلاً قفل عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، يقال له: كركرة بفتحتين أو كسرتين، فمات فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: هو فى النار، فذهبوا ينظرون، فوجدوا عنده عباءة غلها، واقتصر السيوطى، رحمه الله تعالى، على الأول وأنه الذى عناه المصنف، وهو الظاهر، والنووى فى المبهمات على الثانى والبرهان تبعه، والذى أوجب عدول الجلال عنه لفظ الشملة، وفيه تعظيم الغلول فى الغنائم لتعلق حق المسلمين كلهم به، وإذا عرف يرد للإمام أو يتصدق به، وقيل: إنه يحرق، وقيل: إنه مبنى على التعزير بأخذ المال وهو منسوخ، وإذا كان هذا من الكبائر فما حال ولاة الأمور اليوم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

(وحديث ناقته) أى مما أعلم به صلى الله تعالى عليه وسلم، من المغيبات حديث ناقته الذى رواه البيهقى عن عروة مرسلاً **(حين ضلت)** ناقته وغابت عنه حتى لم يروها، **(وكيف تعلقت)** ناقته **(بالشجرة بخطامها)** بكسر الخاء المعجمة، وهو زمامها ومقودها، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم، طلبها لما ضلت فقال رجل من المنافقين: كيف يزعم محمد أنه يعلم الغيب ولا يعلم مكان ناقته ألا يخبره الذى يأتيه بالوحى؟ فأتاه جبريل وأخبره بقول المنافق وبمكان ناقته، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: ما أزعم أنى أعلم الغيب وما أعلمه، ولكن الله تعالى أخبرنى بقول المنافق وبمكان ناقتى، وهى فى الشعب قد تعلق زمامها بشجرة كذا، فخرجوا يسعون قبل الشعب، فوجدوها حيث قال وكما وصف، فجاءوا بها وآمن ذلك المنافق، وهو زيد اللصيب بن اللصيب بفتح اللام وكسر الصاد المهملة، وكان أولاً من اليهود وما ذكرناه من عبارة المتن هو الصحيح كما ذكره السيوطى فى مناهل الصفاء فى تخريج أحاديث الشفاء، ووقع فى بعض النسخ وحيث هى ناقته حين ضلت، وفى أخرى ومن ضلت ناقته حيث هى حين ضلت، وكيف إلى آخره.

فقال بعضهم: هو مجرور عطف على الذى، أو مبنى على الكسر كما جوزه النحاة، وحيث خرجت عن الظرفية معمول لا علم، وناقته مبتدأ وهى مبتدأ ثان خبره محذوف أى موجودة، والجملة فى محل جر بإضافة حيث، وأنت فى غنى عن مثله.

(و) من المغيبات التى أعلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، أصحابه بها ما رواه الشيخان عن على، كرم الله وجهه، حين أعلم **(بشأن كتاب حاطب)** بن أبى بلتعة الصحابى البدرى المشهور الذى أرسله **(إلى أهل مكة)** لما تجهز النبى صلى الله تعالى عليه

وسلم، لفتح مكة، ولم يعلم أحدًا بتوجهه ومقصده، فكتب حاطب كتابًا إليهم، فيه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده نصره الله عليكم، فإنه منجز له ما وعده، فعليكم الحذر.

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، لعلى وبعض الصحابة: اذهبوا إلى روضة خاخ، ففيها جارية معها مكتوب، فأتونى به، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم، أخفى مسيره فأتوا المحل فوجدوا الجارية، فأنكرت ففتشوها فلم يجدوا معها شيئًا، فهموا بالرجوع، ثم بدا لعلى، رضى الله تعالى عنه، أن خبره صلى الله تعالى عليه وسلم، صدق، فهدد الجارية فأخرجت الكتاب من عقصتها، فلما أتوا به قال عمر، رضى الله تعالى عنه: دعنى أضرب عنقه، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: لا فإن الله اطلع على أهل بدر، وقال: اصنعوا ما شئتم، فاعتذر له حاطب بأن له ثمة أهلاً ومالاً خشى ضياعه، فأراد أن يضع فيهم يدًا يقتضى حفظه، فقبل عذره كما تقدم، والقصة مفصلة فى شروح السير والبخارى، والكتاب كان مع امرأة تسمى أم سارة.

(و) مما أخبر به، صلى الله تعالى عليه وسلم، من المغيبات ما رواه ابن إسحاق والبيهقى والطبرانى حين أعلم **(بقصة عمير)** بالتصغير ابن وهب بن خلف **(مع صفوان)** ابن أمية بن خلف **(حين ساره)** أى أخبر عمير صفوان سرًا فى خفية لم يسمعه أحد، وذلك السر أنه يقتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، إذ يأتيه بغتة بحيث لم يشعر به أحد، وكان شجاعًا فاتكًا، **(وشارطه على قتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى اشترط عليه ما يعطيه إن فعل ذلك، **(فلما جاء عمير إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، قاصدًا لقتله، وأطلعه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، على الأمر والسر)** الذى كان بينهما، لم يطلع عليه غيرهما وهما بمكة **(أسلم)** عمير وحسن إسلامه لما شاهده من المعجزات الباهرة، وحاصل ذلك أن عمير بن وهب جلس مع صفوان بن أمية، وهو ابن عمه فى الحجر بعد بدر، فذكروا أصحاب القليب ومصابهم.

فقال صفوان: والله ليس فى العيش بعدهم خير، فقال عمير: صدقت والله لولا دين على ليس عندى قضاؤه وعيال أخشى ضياعهم لكنت آتى محمدًا حتى أقتله، فإن لى فيهم علة ابنى أسير عنده، فاغتنمها صفوان فقال: على دينك أقضيه وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا، فقال: اكتم عنى شأنى ثم شحذ سيفه أى سنه وسمه، وانطلق حتى أتى المدينة وأناخ بباب المسجد متوشحًا بسيفه، فرآه عمر، رضى الله تعالى عنه، فقال: هذا الكلب عدو الله ما جاء إلا لشر، وأخبر به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال

له: أدخله على فأقبل عمر، رضى الله تعالى عنه، حتى أخذ بحمالة سيفه لببه بها، ثم أدخله فلما رآه صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: أرسله يا عمر ادن منى يا عمير، فدنا فقال: ما جاء بك؟ قال: جئت لهذا الأسير فأحسنوا فيه، قال: فما بال السيف فى عنقك؟ قال: قبحه الله ما أغنى شيئًا، قال: اصدقنى ما الذى جئت له؟ قال: ما جئت إلا لذاك، قال: بل قعدت أنت وصفوان بالحجر، وذكر أصحاب القليب، وقلت: لولا دين على وعيالى خرجت إلى محمد حتى أقتله، فتحمل دينك وعيالك وجئت لتقتلنى، فقال: أشهد أنك رسول الله، وقد كنا نكذبك، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إنى لأعلم أنه ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام. وتشهد، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «فقهوا أخاكم دينه فأقرءوه القرآن، وأطلقوا أسيره، وأما صفوان فهرب خائفًا يوم الفتح، ثم جاء مستأمنًا فأسلم وحسن إسلامه، وكان عمير أبغض الناس لعمر، فلما أسلم كان أحب الناس إليه، وهو من سادات قريش وفصحائها، فتمت سيادته بالإسلام، وله أحاديث فى السنن.

(و) أخبر أيضًا صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما رواه أحمد عن ابن عباس والحاكم والبيهقى عن عائشة بسند صحيح **(بالمال الذى تركه عمه العباس)** بمكة **(عند أم الفضل)** لبابة بنت الحارث بن حرب الهلالية زوجته، كنيت باسم ابنها الفضل كما كنى العباس أبو الفضل، وهى من أشراف الصحابة، رضى الله تعالى عنها، يقال: إنها أول امرأة أسلمت بعد خديجة، وكان كتم ماله عندها، وأخفاه حتى عن أولاده كما أشار إليه بقوله: **(بعد أن كتمه)**، فلما أسر ببدر لما خرج مع كفار قريش، وطلب منه الفداء، فقال: لا مال لى، فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم: ما صنع المال الذى وضعته عند أم الفضل؟ **(فقال: ما علمه غير وغيرها فأسلم)**، وقيل له: لم لم تسلم قبل الفداء ليبقى لك مالك الذى افتديت به، فقال: لم أكن لأحرم المؤمنين ما طمعوا فيه من مالى، وقد قيل: إنه أسلم قبله ولكن كان يخفى إسلامه؛ لما فيه من نفع المسلمين من وجوه لا تعد.

وفى بعض النسخ أم الفضيل بالتصغير، وهو خطأ من الناسخ.

وأصل الحديث أنه كانت قريش بعثت بفداء أسراهم، فقال العباس: يا رسول الله إنى كنت مسلمًا، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول، فالله يجزيك، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا، فافد نفسك وابنى أخيك نوفل بن الحارث وعقيل بن أبى طالب، وحليفك عتبة وأخى بنى الحارث، قال: ما عندى ما يفى بالفداء، قال: ما فعلت بالمال الذى دفنته عند أم الفضل؟ وقلت: إن أصبت فى سفرى فالمال لولدى، فقال: والله يا رسول الله هذا شىء ما علمه غيرى وغيرها، فاحسب لى ما

أصبتم أى فإنه جاء أن العباس خرج لبدر ومعه عشرون أوقية من الذهب؛ ليطعم بها المشركين فأخذت منه فى الحرب، فكلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يحسب العشرين أوقية من فدائه فأبى، وقال: أما شيء خرجت تستعين به علينا فلا نتركه لك، فقال: ذاك أعطاه الله لنا ففداهم فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ [الأنفال: ٧٠] الآية.

ومقتضى قول المصنف فأسلم أنه ما أسلم إلا حينئذ، والذى قالوه أنه أسلم قبل فتح خيبر، وكان يكتم إسلامه، وقال ابن عبد البر: قيل إن إسلامه كان قبل بدر، وكان المسلمون بمكة يتقوون، وكان العباس يكتب لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، أحوال المشركين، وأحب أن يقدم عليه المدينة، فكتب إليه مقامك بمكة خير، ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم، يوم بدر: من لقى منكم العباس فلا يقتله فإنه إنما خرج مكرهًا.

(و) مما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما رواه البيهقى عن عروة وسعيد بن المسيب مرسلاً أنه **(أعلم أنه سيقتل)** بنفسه **(أبى بن خلف)** كما تقدم، فجرحه بعنقه فى أحد فمات بمحل يسمى سرفا، وكان قبل ذلك إذا لقيه بمكة يقول: عندى فرس أعلفها كل يوم لأقتلك عليها، فيقول له صلى الله تعالى عليه وسلم: بل أنا أقتلك إن شاء الله، فلما كان يوم أحد أقبل يقول: أين محمد لانجوت إن نجا، فاعترض دونه جماعة من المسلمين، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: خلوا سبيله ونظر فرجة من درعه على ترقوته، فطعنه طعنة لم يخرج منها دم، ووقع عن فرسه ورجع إليهم، فقالوا له: ما بك من بأس، فقال: لو بصق على محمد لقتلنى، فقتل قاتله الله فى مرجعه من أحد.

(و) مما أعلم به صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال **(فى عتبة بن أبى لهب: إنه يأكله كلب من كلاب الله)** فأكله الأسد وهو ذاهب إلى الشام، والأسد يسمى كلبًا وهو يشبهه صورة، ولما أضافه لله أفادته الإضافة تعظيمًا، كما قاله الثعالبى فى المضاف والمنسوب، وقد تقدم أن أبا لهب كان له أولاد: معتب، وعتبة، وعتيبة بالتصغير، وأن المصغر هو عقير الأسد والمكبر أسلم وكان من كبار الصحابة، فالصواب أن يقول المصنف، رحمه الله تعالى: عتيبة بالتصغير، إلا أن من علماء الحديث من قال مثل ما قاله المصنف، رحمه الله تعالى، فالاعتراض غير مسلم كما مر، ثم إن المصنف، رحمه الله تعالى، ذكر هذا فى فصل إجابة دعائه، فتكون هذه الجملة دعائية إنشائية، وكلامه هنا يقتضى أنها خبرية أخبر بها عن أمر مغيب، فبين كلاميه تدافع.

والجواب عنه أن كلا منهما محتمل فذكره ثمة باعتبار، وهنا باعتبار، ويؤيده أنه لما

خاف من الأسد قال له رفقاؤه: لم اشتد رعبك؟ قال: إن محمدًا قال لى كذا وهو لا يقول إلا صدقًا، والصدق من خواص الخبر، وقد يقال: إن الدعاء عند من تحقق إجابته خبر معنى.

(و) أخبر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، **(عن مصارع أهل بدر)** أى محال قتلهم ووقوعهم على الأرض يعنى من قتل بها من كفار قريش وصناديدهم، فقال قبل وقعتها: هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان مشيرًا إلى محال قتلاهم بها قبل وقوعه، وسماهم أهلها لبقاء جثثهم فيها كما يقال: أهل الدار لمن بها.

(فكان) ما أخبر به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، عن مصارعهم **(كما قال)**، لم يتجاوز أحد منهم موضعه الذى عينه له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيه من الإخبار بالغيب ما لا يخفى.

وأصل هذا الحديث كما فى صحيح مسلم وغيره أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قام ببدر قبل قتالهم، وقال: هذا مصرع فلان ووضع يده على الأرض، ثم قال: هذا مصرع فلان ووضع يده عليها، وعدهم واحدًا واحدًا مشيرًا لمصارعهم، فلم يتجاوز أحدهم موضعه فصرعوا كذلك، ثم جروا بأرجلهم وطرحوا فى القليب، ثم جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى وقف عليهم، وقال: يا فلان ابن فلان يناديهم بأسمائهم واحدًا بعد واحد، هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟ فقال الصحابة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: أتكلم أجسادًا لا أرواح لها؟ فقال: والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع منهم لكلامى، ولكنهم لا يستطيعون أن يردوا.

(وقال) رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث صحيح رواه الشيخان وغيرهما **(فى الحسن)** بن على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنه، **(إن ابنى هذا)** سماه ابنًا له مجازًا؛ لأنه يطلق على الولد وعلى ولد الولد إطلاقًا مشهورًا حتى صار حقيقة عرفية فيه **(سيد)**: أى شريف رئيس مسود فى قومه؛ لشرف نسبه وذاته وفضله على غيره من جهات، وللسيد إطلاقات ويطلق على الله تعالى وعلى غيره كما تقدم تفصيله، **(وسيصلح الله به)** أى بسببه سيقع الصلح والإصلاح **(بين فئتين)** عظيمتين من المسلمين، والفئة الجماعة من فاء بمعنى رجع، والمراد بهما من كان معه ومن كان مع معاوية، رضى الله تعالى عنهما.

وفى صحيح البخارى عن الحسن عن أبى بكرة قال: رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، على المنبر والحسن إلى جنبه وهو يلتفت إلى الناس مرة، وإليه مرة ويقول:

«إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح بـه بـين فئتـين مـن المسـلمين»[1]، وهـو حديـث صحيح مروى من طرق، وفى رواية: فئتين عظيمتين.

قال ابن عبد البر، رحمه الله تعـالى، فـى الاسـتيعاب: لمـا قتـل علـى، كـرم الله وجهـه ورضى الله عنه، بايع الحسن أكثر من أربعين ألفًا على الموت، وكانوا أطـوع وأحـب لـه من أبيه، فبقى نحو سبعة أشهر خليفة بالعراق وخراسان وما وراء النهر، ثم سار، رضـى الله عنه، إلى معاوية، وسار معاوية إليه، فلما تراءا الجمعان بناحية الأنبار، علم الحسن أنه سيقع قتال يذهب فيه كثير من المسلمين، فأرسل إلى معاوية يخبره أنه يفـوض الأمـر لـه، بشرط أن لا يطلب أحدًا من أهل المدينة والحجاز والعـراق بشـىء كـان فـى أيـام أبيـه، فأجابه معاوية، رضى الله تعالى عنه، لذلك، وقد طار فرحًا إلا أنه قال: عشـرة أنفـس لا أؤمنهم: قيس بن سعد، فراجعه الحسن، وقال: لا أبايعك وأنـت تطلـب أحـدًا منـهم لا قيس ولا غيره، فأرسل له معاوية، رضى الله عنه، رقا أبيض، وقال: اكتب فيه ما شئت وأنا ألتزمه فاصطلحا على ذلك، وعلى أن الأمر له بعد معاوية فالتزمه كله معاوية، وساء ذلك أكثر الناس حتى كانوا يقولون للحسن: يا ذل المسلمين وعار المؤمنـين، ولمـا سـلم الأمر له قال له: اخطب الناس فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فـإن أكيـس الكيس التقى، وإن أعجـز العجـز الفجـور، ألا وإن هـذا الأمـر الـذى اختلفـت فيـه أنـا ومعاوية حق لأمر كان أحق به منى، أو حـق لى تركتـه لمعاويـة إرادة إصـلاح المسـلمين وحقـن دمائـهم، ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبيـاء: ١١١]، ثـم استغفر الله ونزل.

(و) مما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم ما رواه الشيخان من قوله (**لسعد**) بن أبـى وقاص، رضى الله تعالى عنه، مالك بن وهيب بـن عبـد منـاف أحـد العشـرة وأصحـاب الشورى، ولتبادره إذا أطلق لم يقيده بما يخرج سعد بن معاذ، رضى الله تعالى عنه، وغيره من سعود الصحابة، فلا اعتراض عليه كما قيل، ولسعد معطوف على قوله فـى الحسـن أى قال لسعد: (**لعلك تخلف**)، وفى نسخة أن تخلف بالمصدرية فى خبرها حملاً لهـا علـى عسى؛ لأنها أختها فى الترجى كما قال:

لعلـك يومًـا أن تلـم ملمـة[2]

---

(١) أخرجـه البخـارى (٣/٢٤٤، ٩/٧١)، وأحمـد (٥/٣٨)، والطـبرانى (٣/٢١)، وابـن عسـاكر (٤/٢٢٦).

(٢) صدر بيت وعجزه:

عليك من اللاتـى يدعنـك أجدعـا

وهو من الطويل، وهو لمتمم بن نويـرة فـى ديوانـه (ص١١٩)، خزانـة الأدب (٥/٣٤٥)، شـرح شواهد المغنى (٢/٥٦٧)، لسان العرب (١١/٤٧٤).

وكان سعد، رضى الله تعالى عنه، مرض بمكة، وكان يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها، فأتاه صلى الله تعالى عليه وسلم، يعوده، فقال: يا رسول الله أوصى بمالى كله، فقال: لا، إلى أن قال: الثلث والثلث كثير إلى آخر الحديث، وهو مشهور، ولم يكن له إلا ابنة وقد طال عمره، فخشى أن يموت ثمة، وذلك فى حجة الوداع، وقوله: تخلف بضم المثناة الفوقية وتشديد اللام: أى تبقى بعد هذا الزمان، فكان كما قال: فإنه عاش بعد ذلك نحو خمسين سنة.

وقوله: (**حتى ينتفع بك أقوام ويستضر بك آخرون**) قال النووى: فى هذا الحديث من المعجزات تحقق ما أخبر به فإنه عاش بعد ذلك زمانًا كما تقدم، ونفع الله به المسلمين لما كان على يديه من الفتوح، وهدى الله به ناسًا أسلموا على يديه وغنموا معه، وضر الله به ناسًا من الكفار جاهدهم وقتل منهم وسبى، وليس المراد بضرره ضرر المسلمين؛ لأن ابنه عمر كان أميرًا على الجيش الذين قتلوا الحسين؛ لأنه لم يرض بذلك ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾ [الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧].

وقال ابن حبيب: المراد أنه تولى العراق، وأتى بقوم ارتدوا وسجعوا سجع مسيلمة، لعنه الله تعالى، فاستتابهم فتاب بعضهم وانتفع به، وأبى بعضهم فقتلهم، فتضرروا به، وهذا تأويله عند بعضهم، وقيل: الرواية إنما هى يضر بك آخرون، والمصنف أراد باستفعل فعل، وجعل المصنف الترجى إخبارًا؛ لأنه بمعناه، وهو المراد لكن عبر به تأدبًا منه، وقد صرحوا بأن الترجى فى حق الله والرسول والأولياء تحقيق معنى، كما قال ابن الملقن.

(**وأخبر**) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث صحيح رواه البخارى عن أنس (**بقتل أهل مؤتة**) بضم الميم وسكون الواو والهمزة، فإن فيها لغتين كما فى القاموس، وهى اسم موضع بالشام كان فيه غزوة مشهورة، وإضافة أهل للعهد، ولا يجوز أن تكون للاستغراق كما قيل؛ لأنه إنما أخبر بقتل ناس منهم قبل مجيء الخبر له صلى الله تعالى عليه وسلم، بيوم، والذى أتى بالخبر يعلى بن منبه، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم، نعاهم لأصحابه، فقال: أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله يعنى خالد بن الوليد، ففتح الله تعالى عليهم، فلما أتاه يعلى قال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إن شئت أخبرنى وإن شئت أخبرتك، فقال: أخبرنى فأخبره ووصفهم له، فقال: والذى بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفًا واحدًا.

وقوله: (**يوم قتلوا**) متعلق بأخبر (**و**) بينه صلى الله تعالى عليه وسلم، و(**بينهم**) أى

المقتولين بموتة **(مسيرة شهر أو أزيد)** ذكره تحقيقًا؛ لأنه إخبار بالغيب لبعده بحيث لا يمكن مجيء الخبر له صلى الله تعالى عليه وسلم، في يومه، ولذا ورد فى هذا الحديث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «إن الله رفع لى الأرض حتى رأيت معركتهم»[1]، وما قيل: إن المدينة ليس بينها وبين مؤتة هذا المقدار، بل بينهما نحو عشرة مراحل كما يعرفه من سلك طريقها، لكنه لم يعرفه لبعد بلاده، يقتضى أنه قالها من نفسه من غير تثبت فيه، وليس كذلك، فإنه يختلف باختلاف الأحوال كالسير ماشيًا وكسير الجمال فى القافلة بأحمالها، بخلاف الفرسان، ويختلف أيضًا بطول الأيام وقصرها، والأمر فيه سهل.

(وبموت النجاشى) أى أخبر صلى الله تعالى عليه وسلم، بموته كما رواه الشيخان عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، **(يوم مات)** متعلق بأخبر، وذلك سنة سبع من الهجرة، وصلى عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، صلاة الغائب، وبه استدل الشافعى على جوازها، وهو ملك الحبشة، واسمه أصحمة كما تقدم، وهو الذى أرسل إليه مكتوبه خلافًا لابن القيم فى الهدى النبوى[2] إذ قال: إن الذى كاتبه غيره، فإن كل من ملك الحبشة يقال له: نجاشى بفتح النون وكسرها وتخفيف الياء وتشديدها، **(وهو بأرضه)** جملة حالية، والضمير للنجاشى أى والحال أن النجاشى مات بأرض الحبشة، فهو إخبار عن الغيب، ويحتمل أن يعود للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، أى والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وقت موت النجاشى كان بأرضه أى المدينة، فلا يحتمل أنه رآه عادة، وإن أمكن أن يرفع له حتى رآه كما قاله من لم يقل بالصلاة على الغائب، كما قيل: إنه من خصائصه أيضًا.

(وأخبر) أيضًا صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث آخر رواه البيهقى **(فيروز)** علم عجمى ممنوع من الصرف، وهو وزير كسرى ملك فارس، ومعناه الفوز والظفر، وفاؤه مفتوحة وقد تكسر، وفيروز ديلمى، والديلم جيل من العجم **(إذ ورد)** أى جاء فيروز وقدم **(عليه)** أى على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، **(رسولا من كسرى بموت كسرى ذلك اليوم)** بنصبه على الظرفية أى يوم ورد عليه، أو يوم مات كسرى، **(فلما تحقق فيروز القصة)** التى قصها عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وأخبره بموت كسرى الذى هو رسوله، **(أسلم)** فآمن برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وفاز فوزًا عظيمًا، وقصته رويت من طرق، وحاصلها أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، كتب لكسرى مكتوبًا فيه:

---

(١) أخرجه ابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٩٧/١)، وابن كثير فى البداية والنهاية (٢٤٧/٤).

(٢) يقصد كتاب «زاد المعاد فى هدى خير العباد».

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس:

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بداعية الله عز وجل، فإنى رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيا، ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم.... إلى آخره، فلما قرأ كتابه مزقه فمزق الله ملكه، وكتب إلى باذان عامله على اليمن: أن ابعث إليه رجلين جلدين يأتيانه، فبعث قهرمانه بانونة، ومعه آخر من الفرس، ومعهما مكتوب يأمره فيه بالانصراف معهما، فلما أتياه قال: ائتيانى غدًا، فلما أتياه قال لهما: إن الله سلط على كسرى ابنه شهرويه، فقتله فى وقت كذا، فأخبر باذان بما قاله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: لننظرن ما قال فإن تحقق، فهو نبى مرسل، فلم يلبث أن قدم عليه مكتوب شهرويه بما وقع، فأسلم وأسلم معه أبناء فارس باليمن، وحسن إسلامهم، ووزير كسرى هذا اسمه أبرويز، وهذا ما ذكره المؤرخون وأصحاب السير، وأما ما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، فلم يشتهر، ولم يقل أحد أن من الصحابة من اسمه فيروز، لكن السيوطى نقله عن دلائل النبوة للبيهقى، فقيل: إنه ليس فيها ذلك، وفى الاستيعاب أن فيروز الديلمى وفد على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنه الذى قتل الأسود العنسى، وكذلك ذكر قضية فيروز على الوجه الذى ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، الماوردى فى أعلام النبوة وأطال فيها.

(وأخبر) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أبا ذر)** الغفارى كما رواه أحمد فى مسنده **(بتطريده)** أى بنفيه من المدينة، وقد ذكر الحريرى فى الدرة: الفرق بين طرده وأطرده وطرَّده المشدد، وأنه إنما يقال فى النفى إلا مشددًا كقول أبى سفيان:

وأنت الذى طردتنى كل مطرد

وطرده وأطرده بمعنى نحاه، وكثير من أهل اللغة لم يقولوه **(كما كان)** أى وقع ما أخبر به، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعينه **(ووجده)** أى وجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، أبا ذر **(فى المسجد)** أى مسجده بالمدينة **(نائمًا، فقال له)** رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(كيف بك إذا أخرجت منه؟)** أى من هذا المسجد، وكيف استفهام عن الحال، والظاهر أنه ليس على حقيقته هنا، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم علم ما سيجرى عليه، وإنما مراده إخباره بحاله وما يكون له لقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧]، والمعنى كيف ظنى أو علمى بك فى هذه الحالة؟ **(قال: أسكن المسجد الحرام)** يعنى مكة المشرفة، **(قال: فإذا أخرجت منه .... الحديث)** أى اقرأ الحديث أو اذكر الحديث الذى رواه أحمد، ومعناه أنه كان يخدم رسول الله صلى الله تعالى عليه

وسلم، وينام فى المسجد، وليس له مأوى غيره، فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ليلة، فرآه نائمًا فقال له: أراك نائمًا، فقال: أين أنام وهل لى بيت غيره؟ فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم: كيف بك إذا أخرجوك منه؟ قال: ألحق بالمسجد الحرام، فقال له: كيف بك إذا أخرجوك منه؟ قال: ألحق بالشام أرض الهجرة والمحشر وأرض الأنبياء، فأكون رجلاً من أهلها، قال: فإذا أخرجوك من الشام؟ قال: أرجع إليه فيكون منزلى، قال: فكيف بك إذا أخرجوك منه الثانية؟ قال: آخذ سيفى وأقاتل حتى أموت، فوكزه صلى الله تعالى عليه وسلم، بيده، وقال: خير لك منه أن تنقاد حيث قادوك حتى تلقانى وأنت على ذلك.

وأما تطريده، رضى الله تعالى عنه، فرواه بعض الشيعة على وجه منكر أسندوا فيه لعثمان، رضى الله عنه، ما لا أصل له، والصحيح ما رواه قتادة من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قال لأبى ذر: إذا رأيت المدينة بلغ بناؤها سلع، فاخرج منها وأشار إلى جهة الشام، فلما زاد بناؤها ذهب إلى الشام، ثم إنه رضى الله عنه، أنكر على معاوية بعض أموره، فشكاه لعثمان، فكتب إليه أقبل إلينا فنحن أرعى لحقك، فقدم عليه، ثم استأذنه فى الخروج إلى الربذة، فأذن له فأقام بها إلى أن مات، والذى قيل: إن عثمان أمر بإزعاجه بعنف، فلما وصل إليه قال له: ما حملك على ما صدر منك؟ قال: أشهد أن رسول الله قال: إذا بلغ بنو العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مال الله دولا وعباد الله خولا، ودين الله دغلاً، ثم يريح الله العباد منهم، فقال له: اخرج من هذه البلدة، فخرج منها، قال أكثرهم: لا أصل له.

(وبعيشه وحده) أى أخبره رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأنه يعيش بعد خروجه من المدينة ثانيًا وحده معتزلاً عن الناس، وفى نسخة عيشة بالتاء، **(وموته وحده)**، فكان كما قال؛ لأن البيهقى روى أن أم أبى ذر لما حضرته الوفاة بكت، فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: ما لى لا أبكى وأنت تموت بفلاة، وليس عندنا كفن، فقال: لا تبكى فإن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، قال لنفر كنت فيهم: «ليموتن أحدكم بفلاة يشهده عصابة من المسلمين»[1]، وأنا ذلك الرجل فأبصرى الطريق، فخرجت فإذا برجال على رحالهم، فأخبرتهم بذلك فدخلوا عليه، فقال: أنشدكم الله أن يكفننى منكم من لم يكن نقيبًا ولا أميرًا، فقال غلام منهم: أنا أكفنك يا عم فى ردائى وثوبين فى عيبتى من غزل أمى، قال: فكفنى، فلما مات كفنوه وصلوا عليه ودفنوه.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/١٥٥)، والحاكم (٣/٣٤٥)، وابن حبان (٢٢٦٠)، وابن سعد (٤/١/١٧١)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٦/٤٠١، ٤٠٢).

(وأخبر) صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما رواه مسلم **(أن أسرع أزواجه به لحوقًا)** أى أول من يموت من أمهات المؤمنين بعده **(أطولهن يدا)** لم يقل طولاهن بالتأنيث؛ لأن اسم التفضيل المضاف يجوز فيه المطابقة وعدمها، وهذا يحتمل أن يكون من الطول بالضم ضد القصر، ومن الطول بالفتح وهو الجود والإنعام، ولاحتمال المعنيين قيل: إن أزواجه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعده كن يقسن أذرعتهن لينظرن للأطول منها، فلما ماتت زينب، رضى الله تعالى عنها، علمن أن المراد الثانى، فإن كان من الأول كان استعارة، ويدًا ترشيح للاستعارة مع ما فيه من التورية؛ لأن اليد بمعنى النعمة.

(فكانت) أى أطولهن يدًا وأسرعهن لحوقًا به، صلى الله تعالى عليه وسلم، فاسمها ضمير عائد على ما ذكره، وقوله: **(زينب)** بالنصب خبرها، وهى زينب بنت جحش أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، **(لطول يدها بالصدقة)** بيان للمراد كما تقدم، وتوفيت، رضى الله تعالى عنها، سنة عشرين أو إحدى وعشرين، وليس المراد بذلك زينب بنت جزيلة التى كانت تدعى أم المساكين.

والحديث عن عائشة من طرق قالت: قلن: أيتنا أسرع لحوقًا بك؟ قال: «أطولكن يدًا»، فأخذن يتذارعن، وفى رواية: أخذن قصبة يذرعن بها أى يقسن أذرعتهن لظنهن أن المراد الحقيقة، فلما توفيت زينب علمن المراد؛ لأنها كانت أكثرهن صدقة، وكانت تعمل بيدها وتتصدق.

وما فى البخارى عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، أنه اجتمع زوجاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، عنده، فقلن له: أيتنا أسرع لحوقًا بك؟ قال: «أطولكن يدًا»[(١)]، فكانت سودة بنت زمعة، فتوفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فكانت أسرعنا لحوقًا به، فعرفنا أن طول يدها الصدقة، وكانت تحب الصدقة، مشكل لمخالفته لما رواه مسلم من إنها زينب، وهو الذى صححوه، وفيه اضطراب أيضًا؛ لأن أوله يقتضى أن المراد الطول الحقيقى، وما بعده يدل على خلافه، ولذا قال الكرمانى: إن فيه تلفيقًا وحذفًا، ولم يلتفت لإيهامه خلاف المراد اعتمادًا على شهرة القصة، وهو غاية ما يقال فيه.

قيل: وهو مجاز مرسل بعلاقة مجاورة الصدقة لليد، أو شبهت الصدقة باليد فهو استعارة مصرحة، والطول ترشيح، والقرينة أن عظم الأبدان لا يقتضى حوز هذه الفضيلة، فلا يرد أنه إن لم يكن فيه قرينة لم يصح المجاز، وإن كان كيف يفهمن خلاف المراد حين تذارعن، وهن من أهل اللسان.

---

(١) أخرجه البخارى (٢/١٣٧)، وأحمد (٦/١٢١)، والنسائى (٥/٦٧).

أقول: التحقيق أنه استعارة تمثيلية بأن يشبه كثرة الإحسان والتصدق وإيصال البر، ومن أوصله بشخص له طول فى يديه يصل به إليه غيره إذا مدهما أو هو مجاز مرسل باستعمال طول اليد فى لازمه، وهو إيصال الإنعام، أو اليد استعارة مصرحة، والطول ترشيح، ويحتمل أنه كناية.

(وأخبر) صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما رواه البيهقى من طرق **(يقتل الحسين)** بن على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنهما، **(بالطف)** بفتح الطاء المشددة المهملة وتشديد الفاء، وهو مكان بناحية الكوفة.

(وأخرج) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بيده تربة)** أى مقدار ملء كف من تراب أراه لبعض أصحابه وأهل بيته، **(وقال)** إذ أخرجها: **(فيها)**: أى فى أرض هذا التراب منها، وفيها يموت ويقتل **(مضجعه)**: أى مصرعه إذ يقتل، وجيمه مفتوحة وتكسر، والأول أقيس وأفصح، وفى التعبير به إيماء إلى أنه، رضى الله تعالى عنه، حى شهيد لأن أصله محل يضطجع فيه النائم.

وأصل الحديث عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، أن جبريل كان عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فدخل عليه الحسين، فقال جبريل: من هذا؟ قال: ابنى، فقال: ستقتله أمتك، فإن شئت أخبرتك بالأرض التى يقتل فيها، وأشار جبريل بيده إلى الطف من أرض العراق، وأخذ تربة حمراء فأراه إياها، ولا ينافى ذلك ما جاء أنه يقتل بكربلاء؛ لأن كربلاء اسم الموضع، والطف ناحية تشتمل عليه، وكان قتله فى عاشوراء، وقتل معه جماعة من أهل البيت، وقيل: إن هذه التربة كانت عندهم، وإنها فى يوم قتله يظهر عليه دم، واختلف فيمن باشر قتله قاتله الله وأخزاه، وجعل سجين مأواه، ولابن العربى هنا مقالة أظنه برىء منها.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه ابن عدى والبيهقى مسندًا **(فى زيد بن صوحان)** بضم الصاد المهملة وواو ساكنة وحاء مهملة وألف ونون، وهو زيد ابن صوحان بن حجر بن الحارث العبدى أخو صعصعة، وله وفادة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: إنه تابعى.

وقال الذهبى ومن خطه نقلت: كان زيد بن صوحان مؤاخيًا لسلمان حتى يكثر: يا سلمان؛ لحبه له، وكان زاهدًا عابدًا ذكر له مناقب كثيرة وعده من الصحابة، وصوحان معناه اليابس، يقال: صوح النبت إذا صار هشيمًا **(يسبقه عضو)** من أعضائه **(إلى الجنة)** أى يدخل الجنة قبله؛ لأنه قطع فى سبيل الله قبل موته، ومعنى السبق إما تقدمه حقيقة، ولا مانع من أن يحفظها الله فى الجنة، فإذا استشهد وصلها ببقية أعضائه فى الجنة، **وأمور**

الآخرة لا تقاس على أمور الدنيا، ويجوز أن يراد أن يده تقطع فى سبيل الله أولاً، ثم يستشهد بعد ذلك، فكنى عنه بما ذكره.

ولفظ الحديث: «من سره أن ينظر إلى رجل يسبقه بعض أعضائه إلى الجنة، فلينظر إلى زيد بن صوحان»[1]، وفى سنده هذيل بن بلال وهو ضعيف، **(فقطعت يده)** الشمال كما رواه الذهبى **(فى الجهاد)** لم يعينه للخلاف فيه، فقيل: إنه كان يوم نهاوند، وقيل: فى قتال المشركين.

وقد روى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، شهد لثلاثة من التابعين بالجنة أويس القرنى وزيد بن صوحان وجندب الخير، وقتل مع على، رضى الله تعالى عنه، فى وقعة الجمل، وعلى هذا فإخباره عن المغيب أقوى وأبلغ فى اطلاعه على أمره قبل خلقه.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه مسلم وغيره **(فى الذين كانوا معه)** أى حاضرين معه، وهم **(على حراء)** اسم جبل معروف بقرب مكة بنحو ثلاثة أميال يمد ويقصر ويذكر ويؤنث، فيجوز صرفه وعدم صرفه كما تقدم، فتحرك وهم عليه، فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم: **(اثبت)** أى لا تتحرك وترجف وتتزلزل.

ولفظه كما فى صحيح مسلم: أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، كان على حراء هو وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، فتحرك بهم، فقال: «اهدأ فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد»[2]، وزاد بعضهم سعدًا وأورده بعضهم مكان على.

والمصنف رواه **(إنما عليك نبى وصديق وشهيد)**، والمعنى واحد، والنبى معناه المراد به ظاهر، وكذا الشهيد، وتفصيله وقد وقع الترتيب فى الحديث على وفق ما فى القرآن، والصديق فعيل صيغة مبالغة من الصدق ضد الكذب، ولهم فى تفسيره أقوال:

فقال ابن المظفر: إنه من صدق بأمر الله تعالى وبرسله، بحيث لا يخالجه شك فى شىء.

وقال الكلبى، رحمه الله تعالى: الصديقون أفاضل الصحابة، واختاره البغوى.

وقيل: من صدق بالأنبياء حين عاينهم.

واختار الرازى أنهم أول من صدق الرسل، ويؤيده قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: ما عرضت الإسلام على أحد إلا وله كبوة، إلا أبو بكر، فله رضى الله تعالى عنه، مزية

(١) أخرجه الحاكم (٣٤٧/١)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٤١٦/٦)، وأبو نعيم فى الحلية (٨٨/١)، وابن عدى فى الكامل (٢٥٨٣/٧).
(٢) تقدم تخريجه.

بأنه صار قدوة لغيره، ولذا أجمعوا على تسليم هذا اللقب له، ومرتبة الصديقية تلى مرتبة النبوة، وقد أفرد ذلك بالتأليف الكمال ابن الزملكانى.

(فقتل على وعمر وعثمان) فقتل عليًّا، كرم الله تعالى وجهه، عبدُ الرحمن بن ملجم من الخوارج، وقصته مشهورة، وقتل عمر، رضى الله تعالى عنه، أبو لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبة، وكان عمر، رضى الله تعالى عنه، لا يأذن لمحتلم من المشركين أن يدخل المدينة، فاستأذنه المغيرة فى غلامه هذا؛ لأنه كان نجارًا، وله صنائع ينتفع بها الناس، فأذن له فى دخوله فضرب عليه سيده فى كل شهر مائة درهم، فشكى ذلك لعمر، فسأله عن صنعته فأخبره، فقال: ما خراجك بكثير فغاظه ذلك، وأضمر قتله فضربه بخنجره وهو يصلى، فاستشهد، وعثمان استشهد يوم الدار فى قصته المشهورة.

(وطلحة والزبير) أما طلحة بن عبد الله فقتل يوم الجمل وهو محارب لعلى، وقيل كما مر أنه ذكره ووعظه فاعتزل حربه، ثم أصابه سهم فمات منه، وأما الزبير، رضى الله تعالى عنه، فرجع عن قتال على بعد تذكيره له بما مر، فقتله أبو جرموز نائمًا بوادى السباع كما تقدم.

(وَطُعِنَ) بالبناء للمجهول **(سعد)** بن أبى وقاص سنة خمس أو أربع وخمسين، وهو آخر من مات من العشرة المبشرة بالجنة، وقيل: مات سنة ست وقيل: سبع وخمسين، وقيل: سنة ثمان، وقيل: سنة اثنان وثمانون، وطعن بمعنى أصيب بالطاعون وهو من أقسام الشهادة أيضًا، وإن لم يكن مثل غيره من كل وجه، ولذا أخره المصنف، وقول بعضهم: إنه لم تنله الشهادة غير مناسب هنا، إلا أنه يدخله فى الصديقين.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه البيهقى **(لسراقة)** بضم السين وفتح الراء المهملتين مخففة وقاف، وهو سراقة بن مالك بن جعشم بن مالك بن عمرو أبو سفيان الكنانى المدلجى، سكن مكة، وهو الذى خرج فى طلب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فساخت به فرسه فى القصة المشهورة، ويأتى فى كلام المصنف، رحمه الله تعالى، الإشارة لبعضها، ثم أسلم وتوفى سنة أربع وعشرين، وقيل: مات بعد عثمان، وفى الصحابة من اسمه سراقة غيره، وفى هذا الإخبار عن الغيب، وخص سراقة لأنه أعرابى من البادية، ولبس مثله لما يلبسه المترفهون من ملوك العجم آية عظيمة من آيات النبوة وعز الدين.

(كيف بك) كيف جواب عما أبهم من الأحوال، وهو استخبار يتضمن التعجب من حاله التى هو عليها؛ لأن كل أحد لا ينفك عن حال من الأحوال إذا طرأ عليه ما لم يعهد مثله، ونال ما لم ينله أمثاله، فكنى بما ذكر، وفيه من البلاغة ما لا يخفى.

(إذا لبست) أى وضعت فى يديك وساعديك، ومثله يسمى لبسًا، وإن كان المعروف إطلاقه على ما يعم البدن من الثياب والحلل **(سوارى)** مثنى سوار بضم السين وكسرها، ويقال: أسوار بضم الهمزة وكسرها أيضًا، وهذا مما كان يتزين بـه العجـم والملـوك، وإن كان الآن مختصًا بالنساء عند العرب، وبعد الإسلام حتى يعاب على غيرهن **(كسرى)** تقدم أنه كل من ملك العجم، ويخص ببعضهم وهو كسرى الـذى أدرك عـهد الإسـلام كما تقدم، وأن كافة مكسورة وتفتح وهو معرب خسرو ومعناه واسع الملك، **(فلما أتى بهما)** أى بسوارى كسرى **(لعمر)** ضمن أتى بصيغة المجهول معنى أوصل، فعدى بـاللام وفى نسخة عمر بدونها **(ألبسهما إياه)**: أى سراقة، تحقيقًا لما أخـبر بـه، صلـى الله تعـالى عليه وسلم، ويجوز ألبسه إياهما، وقيل: وهو الأولى.

(وقال) عمر، رضى الله تعالى عنه، **(الحمد لله)** حمـد الله علـى تصديـق كلمـة النبـوة، وإعزاز دينه وزوال شوكة أعدائه، وما فتح الله على يديه.

(الذى سلبهما) من يدى **(كسرى، وألبسهما سراقة)**، وهو بدوى أعرابـى متقشـف، هو من آحاد أمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأصل الحديث كما فى دلائل النبوة عـن الحسن أن عمر، رضى الله تعالى عنه، لما أتى بسوارى كسرى بن هرمز وضعتا بين يديه، وفى القوم سراقة وضعهما فى يديه، فبلغا منكبيه، فقال: الحمد لله الذى جعـل سـوارى كسرى بن هرمز فى يدى سراقة بن مالك، ثم قال له: قل: الله أكـبر، الله أكـبر، وحمـد الله لما من به من نعمة الفتح وإعزاز الدين، وكبر تعظيمًا لمالك الملك الـذى يؤتـى ملكـه من يشاء، وينزعه ممن يشاء، فتبارك الذى بيده الملك الذى قصم من نازعه رداء كبريائه، فلا سلطان إلا سلطانه، ولا عز لغير من أعزه، وليس فى هـذا اسـتعمال للذهـب ولبـس الرجال له، وهو من المحرمات؛ لأنه لا يفعله إلا تحقيقًا وتصديقًا لقول رسوله، صلـى الله تعالى عليه وسلم، من غير أن يقرهما، ومثله لا يعد استعمالا، فلا حاجة لما قيل: إن فيـه مصلحة ومفسدة ارتكبت المفسدة فيه لأجل المصلحة، وهى تحقيق المعجزة فإنه لا محصل له.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى جملة إخباره عن المغيبات فى حديث رواه أبو نعيم فى الدلائل والخطيـب فـى تاريخـه: **(تبنـى)** بالبنـاء للمجـهول، والبـانى أبـو جعفـر الدوانيقى ثانى خلفاء بنى العباس **(مدينة)** هى البلدة العظيمة، مـن التمـدن وهـو التعيـش والسكنى الكثيرة، وتكون أكبر من البلدة والقرية **(بين دجلـة)** بـدال مهملـة مفتوحـة أو مكسورة، من دجله إذا غطاه، ومنه الدجال لخفاء أمره بتخليطه فـى أمـوره، وهـو علـم لنهر مشهور بالعراق، ولا يجوز دخول الألف واللام عليه؛ لأنه علـم مرتجـل، **(ودجيـل)**

مصغر علم نهر بالأهواز حفره أزدشير بن بابك، أول ملوك بنى ساسان بالمدائن، عليه قرى كثيرة، ومخرجه من أصبهان.

وقيل: إنه خليج متشعب من دجلة، **(وقطربل)** بضم القاف وسكون الطاء المهملة وضم الراء المهملة وضم الباء الموحدة المشددة وقد تخفف وتشدد اللام، وهو موضع بالعراق تنسب إليه الخمر.

(والصراة) بفتح الصاد المشددة والراء المخففة المهملتين، ثم ألف وهاء، وهو نهر بالعراق أيضًا مشهور، وهو الأصح المعروف، وفى بعض النسخ والهراة بهاء بدل الصاد، وهى بلدة بالعجم، وقد ضرب عليه وصحح الصراة وهو المعتمد **(تجبى إليها)** أى يجمع مال غيرها من البلاد إلى تلك المدينة، وهو عبارة عن أنها دار الخلافة العظمى وكرسى الملك، يقال: جبى الخراج والمال إذا جمعه للسلطان بأمره.

(خزائن الأرض): أى ما كان مخزونًا فى غيرها من البلاد بيد أهاليها **(يخسف بها)** أى يخسف الله أرضها ودورها بأهلها، وقد وقع ما أخبر به، صلى الله تعالى عليه وسلم، من بنائها فى الدولة العباسية وجباية الأموال إليها، وبقى أمر الخسف، وسيظهر كما أخبر به، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد ذكره الذهبى فى ميزانه فى ترجمة عمار بن سيف الضبى الكوفى راوى هذا الحديث، وقال: إنه منكر جدًا والله أعلم بأمره.

(يعنى بغداد) اسم المدينة المشهورة، وتسمى دار السلام، وهو اسم أعجمى عرب، وفيه لغات تقدم الكلام عليها.

(وقال) صلى الله عليه وسلم، فى حديث رواه الإمام أحمد، والبيهقى عن سعيد بن المسيب مرسلاً، وحسنه قال: ولد لأخى أم سلمة من أمها غلام سموه الوليد، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا تسموا بأسماء فراعنتكم، فسموه عبد الله»، فإنه **(سيكون فى هذه الأمة رجل يقال له: الوليد، هو شر لأمتى من فرعون لقومه)**.

قال الأوزاعى: كانوا يرون أنه الوليد بن عبد الملك ثم رأوا أنه ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك الجبار الذى كان مفتاح أبواب الفتن على هذه الأمة، وكان ماجنا سفيها مدمنًا للخمر، نسب إليه ما يقتضى الكفر، قيل: ويجوز أن يراد كلاهما لخبثهما وعتوهما، إلا أن الثانى أشقاهما، وفى هذا معنى حسن، وهو أن فرعون مصر الكافر كان اسمه الوليد، كما أشار إليه فى الحديث.

وقال ابن الجوزى: إن هذا الحديث موضوع، فكأنه ثبت عند المصنف، رحمه الله تعالى، فإن موضوعات ابن الجوزى مدخولة تكلم فى كثير منها، وصحح فى الشرح الجديد أن المراد إنما هو الثانى المعروف بالفاسق، بويع بالخلافة بعد هشام بن عبد الملك

لست خلون من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة، وأظهر من فسقه وولعه بالملاهى وتهاونه بالدين أمورًا شنيعة لا حاجة لنا بها، ولذا جعله صلى الله تعالى عليه وسلم، شرًا من فرعون موسى مع الاتفاق على كفره؛ لأنه كان فى زمان الكفر، وهذا كان والإسلام غض طرى.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الشيخان: **(لا تقوم الساعة)** أى لا يأتى زمانها ويقرب أوانها، **(حتى تقتتل فئتان)** أى طائفتان وجيشان من هذه الأمة المسلمة، **(دعواهما)** فى اعتقادهما ودينهما **(واحدة)**، وهى الإسلام والدين الحق، وقد وقع هذا فى صفين فى وقعة على ومعاوية، رضى الله تعالى عنهما، ثم سرى ذلك لكثير بعد ذلك، فكم وقع بين المسلمين من الحروب والوقائع التى لا تحصى، إلا أن الوقعة الأولى أول ما دهم أهل الإسلام من الأمور المنكرة التى كانت ثلمة فى الدين.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه البيهقى، والحاكم عن الحسن ابن محمد مرسلاً **(لعمر)** بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، **(فى سهيل بن عمرو)** بن عبد شمس بن عبد ود أبو يزيد العامر القرشى أحد خطباء قريش، أسلم يوم الفتح واستشهد باليرموك، وقيل: توفى بالشام سنة ثمان عشرة.

وقال الواقدى: توفى سنة تسع عشرة فى طاعون عمواس، وكان يقوم خطيبًا يحرض المشركين على قتال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فلما أسر يوم بدر قال عمر: يا رسول الله إنه رجل مفوه، فدعنى أنتزع ثنيته السفليتين، فلا يقوم خطيبًا عليك بعد اليوم؛ لأنه كان أعلم السفلى أى مشقوقها، فإذا انتزعت ثنيتاه السفليتان يندلع لسانه، فلا يطيق الكلام، وهذا من عمر، رضى الله تعالى عنه، أمر بديع، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم، لعمر: دعه **(عسى أن يقوم مقامًا)** أى يقوم خطيبًا فى مقام ينفع بخطبته، ويأتى بما يمحو مقاماته الأول.

وقد مر أن عسى من الله ومن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تحقيق **(يسرك يا عمر، فكان كذلك)**: أى وقع ما قاله صلى الله تعالى عليه وسلم، وتحقق ما أخبر به من المغيبات، فسره وسر المسلمين مقامه لما **(قام بمكة مقام أبى بكر)** الصديق، رضى الله تعالى عنه، أى مثل مقامه بالمدينة، وخطب بخطبة مثل خطبته **(يوم بلغهم)**: أى بلغ المسلمين بمكة **(موت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وخطبهم)** فى مقامه بمكة **(بنحو خطبته)**: أى بخطبة مثل خطبة أبى بكر بالمدينة لفظًا ومعنى، ثم بين المماثلة بقوله: **(وثبتهم)** أى ثبت المسلمين على دينهم، **(وقوى بصائرهم)** بإعلامهم أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بشر وكل نفس ذائقة الموت، فقال: من كان محمد إلهه فإن محمدًا قد مات،

والله حى لا يموت، وأبو بكر، رضى الله تعالى عنه، قال: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت، فتواردا على معنى واحد فى مقام غفل فيه كثير من كبار الصحابة دهشة من هذه المصيبة العظيمة.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، كما رواه بن إسحاق والبيهقى، **(لخالد)** بن الوليد **(حين وجهه)**: أى أرسله، صلى الله تعالى عليه وسلم، متوجهًا **(لأكيدر)** بضم الهمزة وكاف مفتوحة ومثناة تحتية ساكنة ودال مكسورة وراء مهملتين كمصغر أكدر، ويقال له: أكيدر دومة بضم الدال المهملة، وقد تفتح ويقال لها: دومة الجندل، ويقال: دوماء بالمد، وهى إيلياء وهو موضع بين مكة وبرك الغامة، أو بين الحجاز والشام، سميت بدومان بن إسماعيل؛ لأنه كان ينزلها.

(إنك تجده) أى تصادف أكيدر **(يصيد البقر)** أى بقر الوحش؛ لأنها التى تصاد، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم، بعثه فى أربعمائة وعشرين فارسا إلى أكيدر بن عبد الملك بن عبد الحق بن أعياء بن الحارث بن معاوية الكندى، كما قاله الخطيب والماوردى، وفى مختصر الشافعى أنه من كندة أو غسان، وكان نصرانيًا قد ملك دومة وأهلها، فأتاه خالد، رضى الله تعالى عنه، فى ليلة مقمرة، فوجده يصطاد الوحش هو وأخوه حسان، فشدوا عليه فاستأسر أكيدر، وقاتل أخوه حتى قتل، فقدم به على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فصالحه على الجزية، وحقن دمه وخلى سبيله، فمات نصرانيًا.

وقال البلاذرى: إنه عاد إلى دومة، فلما توفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، نقض العهد، فحاصره خالد وقتله مشركًا نصرانيًا، وقيل: إنه أسلم وأهدى للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، حلة سيراء، فوهبها لعمر، وعده ابن منده وأبو نعيم فى الصحابة، وقال ابن الأثير: إن الهدية صحيحة، وأما إسلامه فغلط باتفاق أهل السير، وقيل: إنه أسلم ثم ارتد بعده صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى هذا لا يعد فى الصحابة أيضًا.

(فوجدت) بالبناء للمجهول **(هذه الأمور)** المذكورة فى هذا الفصل **(كلها فى حياته)** بعد ما أخبر بها، **(و)** وجد بعضها **(بعد موته كما قاله صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى مطابقة لخبره، ومماثلة له منتهية أو مضمومة **(إلى ما أخبر به جلساءه)** من الصحابة **(من أسرارهم)** أى ما أسروه وأخفوه **(وبواطنهم)** أى أمورهم المخفية وقلوبهم، وهو بيان لما أخبر به.

(واطلع عليه) عطف على ما أخبر به **(من أسرار المنافقين)** أى ما أسروه فى أنفسهم، ولم يخبروا به أحدًا منهم، ولا من غيرهم، أو ما كانوا يقولونه سرًا بينهم بحيث لا يقف

عليه المؤمنون، **(وكفرهم)** المضمر فى قلوبهم مع إظهارهم الإيمان **(وقولهم فيه)** أى فى حق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وفى المؤمنين) وهو معطوف على أسرار المنافقين عطف تفسير، كقول رأسهم ابن أبيٍّ لهم وقد استقبله الصحابة: انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم، فأخذ بيد أبى بكر، وقال له: مرحبًا بسيد تيم وشيخ الإسلام وثانى اثنين فى الغار وباذل نفسه وماله لرسول الله، ثم أخذ بيد عمر فقال له: مرحبًا بسيد بنى عدى الفاروق فى دين الله، ثم أخذ بيد على فقال: مرحبًا بابن عم رسول الله وختنه سيد بنى هاشم ما خلا رسول الله افترقوا، فقال لأصحابه: كيف رأيتمونى فعلت فأثنوا عليه.

(حتى إن) بكسر الهمزة وسكون النون المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن مقدر **(كان بعضهم)** أى بعض المنافقين **(يقول)**، وفى نسخة ليقول **(لصاحبه)** أى من هو معه منهم إذا أراد أن يتكلم بشىء فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم، سرًا معه: **(اسكت)** ولا تنطق بشىء من أمره، ثم بين وجه أمره بالسكوت مقسما عليه ليحقق ما قاله، فقال: **(فوالله لو لم يكن عنده من يخبره)** بما يقوله فى شأنه من ملك أو جن يبلغه ما يقال فيه.

(لأخبرته حجارة البطحاء)، وهى أرض مستوية يسيل فيها الماء، والمراد بحجارتها ما فيها من الحصباء، يعنى أن الحجارة تعلمه بما غاب عنه، وهذا إشارة أيضًا لما وقع له، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما فتح مكة وأمر بلالاً، رضى الله تعالى عنه، بأن يعلو ظهر الكعبة ويؤذن عليها، وأبو سفيان بن حرب، وعتاب بن أسيد، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيدًا إذ لم ير هذا اليوم، وقال الحارث: أما وجد محمد مؤذنًا غير هذا الغراب الأسود؟ فقال أبو سفيان: لا أقول شيئًا ولو تكلمت لأخبرته هذه الحصباء، فخرج عليهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال: علمت الذى قلتم وذكر مقالتهم، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول: أخبرك به.

(وإعلامه) بالجر معطوف على ما أخبر به، وهو إشارة إلى ما فى الصحيحين عن عائشة، رضى الله عنها، وهو مصدر مضاف لفاعله، ومفعوله محذوف أى إعلامه الناس **(بصفة السحر الذى سحره به لبيد بن الأعصم)**، وهو يهودى من بنى زريق، وقصة سحره مشهورة فى السير والتفسير، **(وكونه)** أى السحر المذكور الذى وضعه **(فى مشط)** بضم الميم وكسرها وسكون الشين المعجمة وطاء مهملة: اسم آلة معروفة يسرح بها الشعر، ويقال لها: ممشط أيضًا **(ومشاطة)** بضم الميم، وهى ما يسقط من الشعر إذا

سرح، وفى نسخة مشاقة بقاف بدل الطاء، وهما بمعنى، أو الأول من الشعر والثانى من الكتان.

(فى جف) بضم الجيم وتشديد الفاء، وهو وعاء الطلع الذى يكون عليه كالغشاء، وفى نسخة جب بياء موحدة بمعنى داخل وجوف، ومنه جب البئر وهو مضاف لقوله: **(طلع نخلة ذكر)**، والطلع ما يخرج من النخل فى ظرف منطبق عليه معروف، والنخل منه ذكر وأنثى تحمل بثمرها المعروف، **(وأنه)** بفتح الهمزة، والضمير للسحر المذكور **(ألقى فى بئر ذروان)** أى وضع فى هذه البئر، وهى بئر بالمدينة لبنى زريق، وهى بذال معجمة مفتوحة وراء مهملة ساكنة وواو بزنة فعلان.

(فكان) ما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم **(كما قال)** عليه السلام، **(ووجد)** السحر **(على تلك الصفة)** التى وصفها، فهو من إخباره بالغيب بوحى من الله تعالى كما فصلوه، وعن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، لما سحر قال: أتانى رجلان، فقعد أحدهما عند رأسى، والآخر عند رجلى، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب: أى مسحور، قال: من طبه؟ قال لبيد بن الأعصم، قال: فى أى شىء؟ قال: فى مشط مشاطة وجف طلع ذكر قال: وأين هو؟ قال: فى بئر ذروان فجاءها، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى ناس من أصحابه، فاستخرجه فلما رجع قال: يا عائشة كأن ماءها نقاع الحناء، وكأن رءوس نخلها رءوس الشياطين، فقالت: هلا أخرجته يا رسول الله؟ قال: قد عافانى الله تعالى، فكرهت أن أثير على الناس منه شرًا، فأمر بها فدفنت(١).

قال أبو عبيدة: هو عند المحدثين هكذا بئر ذروان، وقال ابن قتيبة عن الأصمعى: هو خطأ وصوابه أروان بالهمزة، انتهى.

وفى القاموس بئر ذروان بالمدينة، وهى ذو أروان بسكون الراء وقيل بتحريكه انتهى، وفى مسلم بئر ذى أروان قال النووى: وهو صحيح والأول أجود، وأصح ويحتمل أن الأول مخفف منه.

(وإعلامه) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قريشًا)** كما رواه البيهقى عن الزهرى فى الدلائل **(بأكل الأرضة)** بفتحات دودة تأكل الورق، وتتكون فيه إذا انطبق زمانًا بحيث لا يمر به الهوى، وهى معروفة وعلى أنواع، ومنها ما يأكل الخشب، فمن فسرها هنا بدويبة تأكل الخشب، قال الله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ [سبأ: ١٤]، والأرض بالسكون مصدر أرض إذا كان به أرضة أضيفت لها لم يطبق

---

(١) أخرجه البخارى (١٤٨/٤، ١٧٧/٧)، والحميدى (٢٥٩)، وابن سعد (٤/٢/٢).

الفصل، وليست هى الدابة المسماة سرقة كما قيل، وكذا من قال: إنها سوس الخشب.

(ما فى صحيفتهم) الإضافة للعهد أى الصحيفة المشهورة وسيأتى بيانها، **(التى تظاهروا بها)**: أى تعصبوا وتعاونوا باتفاقهم على عهود كتبوها فى تلك الصحيفة كما سيأتى **(على بنى هاشم)**، وهم فخذ من قريش، **(وقطعوا بها رحمهم)**: أى قصدوا بما كتب فى الصحيفة قطع رحمهم: أى قرابتهم: أى أبطلوا حقوق القرابة بينهم وبين بنى عمهم من بنى هاشم، وأصل الرحم مقر الولد، ثم شاع فى القرابة حتى صار حقيقة فيها.

(وأنها) أى الأرضة وهو معطوف على أكل الأرضة أى وإعلامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأنها **(أبقت فيها)** أى الصحيفة **(كل اسم لله تعالى)** دون غيره مما عاهدهم عليه، فمحته لأنه باطل، وأبقت اسم الله تعالى تبركًا وتأدبًا، وهذا على إحدى الروايتين، والأخرى ستأتى وتوجيهها، **(فوجدوها كما قال)** صلى الله تعالى عليه وسلم، وأخبر به عن الغيب، فهو من معجزاته، وما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، من أنها أبقت اسم الله تأدبًا، ومحت غيره للإشارة إلى أنه أمر باطل على إحدى الروايتين كما علمت.

وفى رواية أخرى: أنها لحست اسم الله تعالى، وأبقت غيره من عهودهم الفاسدة للإشارة إلى أن الله تعالى برىء منهم، وأنه لا يليق ذكر اسمه بين ذكر عهودهم، ولكل وجهة، والروايتان ذكرهما ابن سيد الناس فى سيرته، فإذا صحت الروايتان أشكل ذلك؛ لأن القصة واحدة والصحيفة واحدة، وقول البرهان فى التوفيق بينهما إن لم نقل أن رواية أنها لحست اسم الله أقوى، والمعول إنما هو عليها أنه كتب نسختان علقت إحداهما فى الكعبة، والأخرى كانت عندهم، بعيد إذ لم يقع ذلك فى رواية أصلاً.

وقد قيل: إن كاتبها شلت يده، وهو منصور بن عكرمة، وقيل: بغيض بن عامر بن هشام، وحاصل قصتها أنهم لما اشتد عليهم أمره صلى الله تعالى عليه وسلم، واشتد على المسلمين قهرهم أرادوا قتله، فلم يرض به أبو طالب وبنو هاشم، فقالوا: إما أن تسلموه لنا أو تعتزلوا عنا جميعًا فى الشعب، بحيث لا تقابلوننا ولا تجتمعون معنا، فرضوا بذلك وكتبوا بالعهد صحيفة علقوها فى الكعبة، فكان كلما جاء أهل البادية بما يباع منعوهم عنهم، فمكثوا ثلاث سنين كذلك حتى ضاق عليهم الحال، وندم بعض قريش وأراد نقض العهد فبينما هم كذلك، إذ قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، لأبى طالب: يا عم إن الله أبطل عهدهم وأكلته الأرضة، فخرج إليهم فظنوه أنه أتاهم ليسلم لهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فأخبرهم بالقصة، فأتوا بالصحيفة فوجدوها كما قال، فأذنوا لهم بالخروج من الشعب على ما فصل فى السير، وكان ذلك مما أطلعه الله تعالى عليه من

غيبه، وهذا يقتضى صحة ما قاله المصنف، رحمه الله تعالى، وأن الرواية الأخرى غير ثابتة عنده، وعلى كل حال، فلم نجد ما يشفى الصدور.

(**ووصفه لكفار قريش**) بعد الإسراء كما تقدم تفصيله (**بيت المقدس**) مفعول وصف، وقوله (**حين كذبوه فى خبر الإسراء**): أى فى إخباره بأنه أسرى به لبيت المقدس، (**ونعته إياه**) أى بيت المقدس (**نعت من عرفه**) بالنصب مفعول نعته، والنعت والوصف متقاربان، والمصنف، رحمه الله تعالى، غاير بينهما تفننا، وقيل: النعت يقال فى غير الله تعالى، ولا يقال: نعت الله كما ذكره بعض النحاة، ولم يذكر له وجهًا.

(**وإعلامهم**) بالجر أى إعلام الكفار (**بعيرهم**) بكسر العين أى قافلتهم من عار بمعنى سار، وأما بالفتح فهو الحمار وليس بمراد هنا (**التى مر عليها فى طريقه**) لما رجع من الإسراء، (**وإنذارهم بوقت وصولها**) لهم، والإنذار هنا بمعنى الإعلام مجازًا، وأصله التخويف والإخبار بما فيه خوف ضد التبشير، كما تقدم، ومن فسره بالتخويف هنا لم يصب يعنى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم، أنها تقدم وقت كذا يقدمها جمل أورق كما مر.

(**فكان ذلك كله**) أى وجد ووقع (**كما قال**) صلى الله تعالى عليه وسلم، من غير زيادة ولا نقص فيما أخبر به، وقد قدمنا تفصيله ثمة، فلا حاجة لإعادته (**إلى ما أخبر به من الحوادث**) أى ما تقدم ينتهى أو ينضم لغيره مما أخبر به مما سيحدثه الله بعده من الأمور (**التى تكون**) فى المستقبل، (**ولم يأت بعدُ**) مبنى على الضم أى لم يقع عقب إخباره، بل بعده بأزمان متباعدة، بعضها ظهرت مقدماتها وبعضها لم تظهر، فإذا جاء ألا بأن تجىء، فإن خبره، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يتخلف.

(**و**) إلى ذلك أشار بقوله: (**منها ما ظهرت مقدماته**) بكسر الدال أى علاماته المتقدمة عليه، (**كقوله**) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه أبو داود فى سننه (**عمران بيت المقدس**) بضم العين مصدر كالغفران، بمعنى كونه معمورًا بتمام بنائه، وكثرة سكانه، وذلك باستيلاء الكفرة عليه وتعميره، وتقدم معنى كونه مقدسًا بما فيه، وهو مبتدأ خبره (**خراب يثرب**) بالمثلثة ومنع الصرف، وهو اسم المدينة الشريفة، وجعله عينه مبالغة كقولهم عتابة السيف، وليس المراد به التشبيه، فالحمل فى قوله: عمران بيت المقدس خراب يثرب، وما بعده على طريق المجاز فى النسبة الإسنادية بجعل ما يقرب من الشىء ويلاصقه له كأنه هو بعينه، فلا يقال: إنه غيره فكيف أخبر به عنه.

(**وخراب يثرب**) الذى يعمر عنده بيت المقدس (**خروج الملحمة**) أى ظهورها، والملحمة بميم مفتوحة ولام ساكنة وحاء مهملة، وهى موضع المعركة والقتال، ويكون

بمعنى الحرب نفسه كما فى النهاية الأثيرية، وفى الصحاح أنها الوقعة العظيمة فى الفتنة، من التحم بمعنى اشتبك ودخل بعضه فى بعض كالسد أو اللحمة أو من اللحم لكثرة لحوم القتلى فيها، ومنه الملحمة اسم كتاب يذكر فيه أحكام النجوم وآثار الجو من السحاب ونحوه، والمراد به الفتن العظيمة والهرج الذى يكون فى آخر الزمان.

(**وخروج الملحمة فتح القسطنطينية**) وفى نسخة قسطنطينية بغير ألف ولام وبعد النون الثانية ياء تشدد وتخفف، وهى مدينة عظيمة هى قاعدة ديار الكفر وكرسيها، وهى منسوبة لقسطنطين اسم أول ملك بناها، وهو أول من أظهر دين النصرانية ودونه، وهى مدينة عظيمة الشكل منها جانبان فى البحر وجانب فى البر، ولها سبعة أسوار وسمك سورها الكبير إحدى وعشرون ذراعًا، وفيه مائة باب، وبابها الكبير يسمى باب الذهب وهو باب مموه بالذهب، وفيها منارة من نحاس قد قلبت قطعة واحدة وليس لها باب، وفيها منارة قريبة من مارستانها قد ألبست كلها بالنحاس، وعليها قبر قسطنطين وهو راكب على فرس وقوائمه محكمة بالرصاص، ما عدا يده اليمين فإنها مطلقة فى الهوى؛ لأنه سائر والملك على ظهره، ويده موقوفة فى الجو، وقد فتح كفه يشير نحو بلاد الشام، ويده اليسرى فيها كرة مكتوب عليها: ملكت الدنيا حتى بقيت وكفى مثل هذه الكرة، وخرجت منها كما ترى، وفيها لغات ضم القاف وفتح الطاء الأولى وضمها مع تخفيف الياء الأخيرة وتشديدها وحذفها وهى ستة، ووقعت فى الحديث بالألف واللام واستعملها الناس بحذفها كقول أبى تمام:

حتى النوى من بقع قسطلها على   حيطان قسطنطينية الأعصار

وهى المسماة برومية، وقد اختلف هل فتحت هذه أم لا؟ فقيل: فتحت فى زمن الخلفاء، والأصح أنها إنما تفتح فى آخر الزمان قبل خروج المهدى، وهو الذى صححه المقدسى فى كتاب الدرر، فى أخبار المهدى المنتظر، والذى أوقعهم فى اللبس اشتراك الاسم، فإنه سمى بها مدن متعددة، والمذكور فى هذا الحديث كله يكون إذا قرب نزول عيسى عليه الصلاة والسلام، وكذا ما معه من الأشراط وإليه أشار بقوله: (**ومن أشراط الساعة وآيات حلولها**) معطوف على قوله من الحوادث، والأشراط جمع شرط بفتحتين، وهى العلامة والمقدمة، وهى والآية بمعنى، وقيل: هى ما ينكره الناس من صغار أمورها، وعلامات القيامة التى تكون فى آخر الزمان كالدجال ودابة الأرض وغيره، مما هو مشهور غنى عن البيان، وهذا كله مما أخبر صلى الله تعالى عليه وسلم، من المغيبات، وقد فصله القرطبى فى تذكرته.

(**وذكر النشر والحشر**) الذى هو آخر الأشراط، وآخر الدنيا إذا نفخ فى الصور،

والنشر للميت أن يحيى، فيقوم من قبره من نشر الثوب إذا بسطه، قال الشاعر:

طوتك خطوب دهرك بعد نشر كذاك خطوبه طيا ونشرا

والحشر سوق الناس إلى المحشر للحساب.

(وأخبار الأبرار) بالجر أى مما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم، من المغيبات ما ورد فى الحديث من إخباره عن صلحاء أمته وفجارهم، أو إخبارهم بما يسرهم وتقر به أعينهم وإخبار غيرهم بما يسوؤهم وينكبهم، فأخبار بفتح الهمزة جمع خبر أو بكسرها مصدر أخبر، والأبرار جمع بر أو بار كرب وأرباب وصاحب وأصحاب، وهو التقى الصالح، **(والفجار)** جمع فاجر، وهو الفاسق المجاهر بالمعاصى، والمعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، أعلم أمته بما سيكون فيهم، وهو كثير فى الأحاديث.

(والجنة والنار) أى ذكر أحوالهما وأهلهما[1]، وما سيكون فيهما، **(وعرصات القيامة)** بفتحات جمع عرصة بسكونها، وهى كل موضع واسع لا بناء فيه أى مما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم، من المغيبات ما ورد فى الحديث من بيان مواقف القيامة وعرصاتها ووصفها بصفاتها.

(وبحسب هذا الفصل) الباء زائدة كما فى قولهم بحسبك درهم، وهو بسكون السين المهملة مبتدأ خبره **(أن يكون ديوانًا)** أى كتابًا مدونًا مستقلاً، وقد تقدم لفظ الديوان ومعناه، وهذا الفصل إشارة إلى الفصل المعقود لإخباره صلى الله تعالى عليه وسلم، بالمغيبات، وهذا عبارة عن المبالغة فى كثرته كما ذكره فى أوله، وأنه لو ألف فيه تأليف مستقل دون غيره من معجزاته لم يكن أمرًا غريبًا **(مفردًا)** عن غيره من المعجزات، **(يشتمل)** ذلك الديوان المفرد له **(على أجزاء)** بتمييز أنواعه وإفراد كل نوع بباب **(وحده)** منفردًا من بينها، ثم اعتذر لعدم إفراده بالتأليف بقوله: **(وفيما أشرنا إليه)**، أى ما ذكره فى هذا الفصل منه، وهو خبر مقدم **(نكت من نكت الأحاديث التى ذكرناها)** أى لطائف ودقائق نفيسة، وقد تقدم بيان النكت مفصلاً، وقوله: **(كفاية)** مبتدأ مؤخر ولو حذف قوله نكت كان أحسن؛ لأنه إذا كان مبتدأ كان قوله كفاية مبتدأ آخر، أو بدل أو صفة بتأويله بكافية، وكله تكلف أى المقدار الذى اقتصر عليه المصنف كاف عن إفراده بالتأليف.

(وأكثرها) أى النكت المذكورة فى هذا الفصل منقول **(فى الصحيح)** من كتب الحديث المعتمدة، **(و)** موجود **(عند الأئمة)** من علماء الأثر ومشايخ المصنف، وفى تعبيره بالأكثر إشارة إلى أن فيه ما هو ضعيف أو لم يثبت كما بيناه لك فى أثناء شرحه.

---

(١) فى المطبوعة (وأهلها) والصواب ما أثبتنا هنا.

[فصل فى عصمة الله له ﷺ من الناس]

أصل معنى العصمة: الإمساك والشد، قال الراغب: الاعتصام التمسك بالشىء واستعصم استمسك، كأنه طلب ما يعتصم به من ركوب الفاحشة، وعصمة الله الأنبياء حفظه إياهم بما خصهم من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية والنفسية، ثم بالنصرة وتثبيت أقدامهم، ثم بإنزال السكينة عليهم، وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق. انتهى.

يعنى أن حقيقتها التمسك، ثم صار حقيقة فى المنع عن ارتكاب المعاصى، وفى الحفظ عن نيل المضرة من أعدائهم، والمراد هنا المعنى الأخير كما أشار إليه بقوله: **(وكفايته من آذاه)** أى كفاية الله إياه بحفظه ممن قصد أذيته، والمراد بالناس ما يشمل الإنس والجن، فإنه ورد بهذا المعنى كما ذكروه فى تفسير المعوذتين، أو خصهم لأنهم الذين عادوه صلى الله تعالى عليه وسلم، وقصدوا أذيته، وقوله: من آذاه من ذكر العام بعد الخاص، ليشملهم صريحًا، واستشهاده له بقوله: قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، يقتضى أنه لم يقصد الأخير بحسب الظاهر، وهذه الآية وسورتها مدنية على الأشهر.

وقال العلامة الخيضرى فى الخصائص: يرده ما روى عن ابن عباس وغيره أنه قال: كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا خرج بعث معه أبو طالب من يحرسه، حتى نزلت هذه الآية، فقال له: يا عم إن الله عصمنى من الجن والإنس، فلا حاجة لى بمن تبعثه معى، وهذا يدل على أنها مكية.

وفى مسلم عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، أرق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذات ليلة أى عند مقدمه المدينة، فقال: ليت رجلاً صالحًا من أصحابى يحرسنى الليلة، فسمعت صوت السلاح، فقال: من هذا؟ قال: سعد بن أبى وقاص جئت لأحرسك، فنام حتى سمعنا غطيطه[1]، وروى الترمذى عن عائشة كما يأتى كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحرس، حتى نزلت الآية إلى آخره: أى فهذا يدل على أنها مدنية، فيحتاج للجمع وكونها نزلت مرتين بمعنيين، فالناس على الأول أهل مكة، وعلى الثانى أعم خلاف الظاهر.

ثم قال أكثر المفسرين: إن هذا الذى كان يخشاه، فعصم منه القتل لا الأعم، فلا يرد عليه أنه إذا عصم، لم لبس الدرع وشج وكسرت رباعيته؟ وكان يحرس مع أنه قيل: إنه كان تشريعًا لأمته ليأخذوا بالحزم، وكسر الرباعية والشج قيل: إنه كان لحكمة، وهى كما مر أن يشارك المؤمنين فى المصيبة تسلية لهم؛ لما نالهم من فقد أحبابهم، وليشتد

(١) تقدم تخريجه.

غيظهم على الكفار، فيشتد بطشهم بهم، انتهى.

وأما العصمة عن الذنوب فسيأتى فى محله، وإلى ما قدمناه أشار فى الكشاف، ومن لم يفهم كلامه اعترض عليه بمالا محصل له.

وقد تقدم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، سم بخيبر، وقال: إنه سبب موته لقوله: أكلة خيبر قطعت أبهرى، وقالوا: حكمته أن ينال أجر الشهادة ورتبتها مع مرتبته العلية، فيرد هذا على ما قالوه، وأجيب بأن الله كفاه قتله بالسم حين أكله، فلم يؤثر فيه، فلما قضى أجله أثر فيه بقيته لعلو مقامه، وليس لأحد صنع فيه.

والقول بأن الشج وغيره كان قبل نزول الآية ينافيه ثبوت أنها نزلت بمكة، ولا مانع من ضمان الله عصمته بوحى غير متلو بمكة، وضمانه بالمتلو بالمدينة، انتهى.

ولا يخفى ما فى كلامه كما يعلم مما مر، وقصة السم غير واردة على العصمة من القتل؛ لأن المفهوم منه حفظه عن أن يقتله عدو له مجاهرة بالبطش فيه بسلاح ونحوه خصوصًا، ولم يظهر له أثر حال أكله ولا بعده مما يطلع عليه أعداؤه، وإنما كان بالسراية بعد زمان طويل، ومثله لا يعد قتلاً.

(**وقال الله تعالى**: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾) [الطور: ٤٨]، أمره بالصبر على أعباء الرسالة، ومشقة تبليغ ما أمر بتبليغه، ثم سلاه بأن لا يخاف من أحد، فإنه محفوظ بعين العناية من الله، فاستعار العين للحفظ، وجمعها جمع قلة؛ لأنه محفوظ من جهاته الست ومن ظاهره وباطنه، وهذا أظهر مما فى الكشاف، ومما قيل: إنه للمبالغة والتأكيد، قال الراغب: يقال: فلان بعينى أى أحفظه وأراعيه كقولهم هو منى بمرأى ومسمع، وقوله: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧]، أى بحيث يرى ويحفظ، وفيه كلام مفصل ليس هذا محله.

(**وقال**: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾) [الزمر: ٣٦]، فيه إثبات لكفاية الله له على أبلغ وجه؛ لأنه استفهام إنكارى وهى نفى معنى، ونفى النفى إثبات يعنى أن عبادى يحفظون عبيدهم، فكيف لا أحفظ عبدى؟ ولما كان العبد غير معين هنا أشار بقوله نقلاً عن السلف أنه (**قيل**): إن معناه (**بكاف محمدًا**) المراد بعبده؛ لأن الإضافة عهدية (**أعداءه المشركين**)، وبهذا يكون دالاً على المقصود، ومطابقًا لما قدمه، وما قيل: من أنها نزلت لما قالوا له، صلى الله تعالى عليه وسلم: أما تخاف أن تخبلك آلهتنا لكونك تعيبها ليس مطابقًا لهذا المقام، وقوله: أعداءه المشركين يأباه.

(**وقيل**) فى تفسير هذه الآية (**غير هذا**) كالقول بأن المراد أنه تعالى تكفل بأرزاق جميع عباده، ويؤيده أنه قرئ بكاف عباده بصيغة الجمع.

(و) مما يدل على عصمة الله له قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]، الهزؤ السخرية والتهكم على سبيل التحقير، والمراد بهم نفر من قريش كانوا يؤذونه صلى الله تعالى عليه وسلم، ويهزؤون به، فأهلكهم الله لما اشتدت أذيتهم ودعا عليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، كما بينه المفسرون والمحدثون فى تفسير هذه الآية، وهذا نوع من حفظ الله تعالى له بتعجيل إهلاك عدوه، وقد تقدم الكلام على هذه الآية، وبيان هؤلاء المستهزئين، وذكر هلاكهم، والمقصود من ذكر هذه الآيات الاستدلال على ما عقد له الفصل بما يدل عليه، ويذكر بعض أفراده المثبت لمراده.

(وقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية) [الأنفال: ٣٠]، وقد تقدمت هذه الآية وبيان معناها، وإنما أتى بها المصنف هنا استشهادًا على عصمة الله له، كما هو دأبه، والمكر: الحيلة والخداع، ولا يوصف به الله إلا مجازًا على طريق المشاكلة، وهى إشارة إلى ما كان منهم بدار الندوة، وهو مشهور غير محتاج للبيان.

واعلم أن الشيخ الأكبر قال فى بعض رسائله: إن الله كما عصم نبينا فى حياته، عصم رؤياه فى المنام بعد وفاته من دعاية الشيطان التخيل وتمثله فى صورته، فطيفه كذاته معصوم من أن تؤذيه الأحلام، وعبارته كل من يرى فى المنام فتمثله فى خيال الرائى الملك أو النفس أو الشيطان، إلا الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فإن الشيطان لا يتمثل بهم عصمة لهم، كما كانوا فى حياتهم معصومين فى البواطن من إلقائه، فانسحبت عليهم حياة وموتًا فى المحل الذين كانوا معصومين فيه، والرؤية والنوم من عالم الباطن، انتهى.

ثم شرع فى ذكر الحديث الذى رواه الترمذى عن عائشة، رضى الله عنها، فقال: **(أخبرنا القاضى الشهيد أبو على الصدفى)** الأندلسى المعروف بابن سكرة، ووصف بالشهيد؛ لأنه استشهد فى وقعة بالأندلس، وقد تقدم الكلام عليه وترجمته، والصدفى بفتحتين نسبة لصدف بفتحتين قرية بقرب قيروان **(بقراءتى عليه)** لا بالإجازة.

(والفقيه الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله المغافرى) هو القاضى أبو بكر بن العربى، ويقال: ابن عربى أيضًا معرفًا ومنكرًا، وبعضهم يخصه بالتعريف، ويقول ابن عربى بدون أل، هو: الشيخ محيى الدين الصوفى نفعنا الله به، وهذا المذكور هو: محمد بن عبد الله صاحب التصانيف الجليلة، وأبوه من كبار أصحاب ابن حزم الظاهرى، وابنه ممن أخذ عن الغزالى وغيره، ورحل لملاقاة الكبار والأخذ عنهم، وتوفى بفاس فى ربيع الآخر، سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ونسبته لمغافر بغين معجمة وفاء وراء مهملة وميمه مفتوحة، وحكى فى اسم الحى الضم وأنكره ابن السكيت حى من همدان وبلدة ولا ينصرف،

وإليه تنسب الثياب المغافرية.

(قالا: حدثنا أبو الحسين الصيرفى) المبارك بن عبد الجبار والحسين بالتصغير، وما فى بعض النسخ الحسن مكبرًا خطأ من الناسخ، وقد تقدمت ترجمته قال: **(حدثنا أبو يعلى)** بفتح المثناة التحتية واللام وألف **(البغدادى)** نسبة للمدينة المعروفة قال: **(حدثنا أبو على السنجى)** نسبة لسنج بسين مهملة مكسورة ونون وجيم، وهى قرية بمرو قال: **(حدثنا أبو العباس المروزى)** وهو محمد بن أحمد بن محبوب راوى الترمذى، وقد تقدم.

قال: **(حدثنا أبو عيسى الحافظ)** بن سعد الترمذى صاحب السنن إمام الحديث المشهور شهرة تغنى عن ذكره قال: **(حدثنا عبد بن حميد)** بلا إضافة العبد، وقد تقدم.

قال: **(حدثنا مسلم بن إبراهيم)** الأزدى الفراهيدى أبو عمرو الإمام الحافظ الذى أخرج له الستة، توفى سنة مائتين واثنين وعشرين قال: **(حدثنا الحارث بن عبيد)** أبو قدامة الإيادى البصرى له ترجمة فى الميزان **(عن سعيد الجريرى)** بضم الجيم وفتح الراء كالمصغر نسبة لجرير الضبى، كما فى الكاشف للذهبى عباد، وترجمته فى الميزان **(عن عبد الله بن شقيق)** التابعى العقيلى من كبار التابعين، توفى سنة مائة أو ثمان ومائة.

(عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، يحرس) بصيغة المجهول: أى يحرسه الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، فى وقت الحاجة لذلك كالليل، ووقت القيلولة إذا كان خارج بيته **(حتى نزلت هذه الآية ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾)** [المائدة: ٦٧]، ونزولها بالمدينة؛ لأن سورة المائدة من آخر ما نزل.

وتقدم قول آخر: بأنها مكية لكن الصحيح خلافه، وفى بعض الحواشى عن ابن عرفة أنهم اختلفوا فى صحة الدعاء بالعصمة لغير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، والآية تدل على صحته، فإن العصمة مقولة بالتشكيك، وقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم، معصومًا قبل نزولها، والمراد بالناس الكفار، فهو عام مخصوص، ولا مانع من إبقائه على عمومه؛ لأن من المسلمين من يتصور أذيته له من غير قصد، انتهى.

قلت: قال شيخ والدى الشهاب ابن حجر فى شرح الإرشاد: اختلف فى سؤال العصمة، فقيل: يجوز لقول مالك والشافعى فى الرسالة: نسألك العصمة، وكذا قول الشاذلى: نسألك العصمة فى الحركات والسكنات.

وفى الحديث: «إذا دخل أحدكم المسجد، فليسلم على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وليقل: اللهم اعصمنى من الشيطان»(١)، وقيل: يمتنع، والحق أنه إن سأل التوقى

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٥)، وابن ماجه (٧٧٢، ٧٧٣)، والدارمى (٣٢٤/١)، وابن خزيمة (٤٥٢، ٢٧٠٦)، والحاكم (٢٠٧/١)، والبيهقى (٤٤١/٢).

عن جميع المعاصى والرذائل فى جميع الأحوال امتنع؛ لأنه طلب مقام النبوة، فإن قصد التحصن عن أفعال السوء فلا بأس به، انتهى، وهذا كله كلام غير مهذب؛ لأن العصمة لها معنيان:

أحدهما: الحفظ من أذية الناس.

والثانى: حفظه فى نفسه عن ارتكاب المعاصى.

وكل منهما يكون مقيدًا ومطلقًا، فإن قيد فهو جائز فيهما، كاللهم اعصمنى من الكذب أو الزمان، أو اللهم احفظنى من أسر الكفار، واعصمنى من كيد الشيطان والفجار، ومطلق فيهما ولا مانع منه أيضًا إذ لا مانع أن يقول: اللهم اعصمنى من جميع الذنوب أو من جميع الناس، فإنه أمر مطلوب.

وقوله: إنه طلب مقام النبوة كلام واه، والذى اختصت به الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وقوعه لهم لا طلبه، فقد خلط هؤلاء العصمتين و لم يقفوا على الفرق بين المقامين فاعرفه.

(فأخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، رأسه من القبة) بالضم وتشديد الموحدة وهى كل مرتفع من البناء أو الخيمة والخباء من وقب إذا علا، وليس معناه ما هو مستدير على شكل كرى كما تفهمه العامة، فإنه عرف طار، والمراد به هنا خباء كان فيه صلى الله تعالى عليه وسلم، فى بعض أسفاره، وقيل: إنه بيت صغير مستدير من الخيام وبيوت العرب، ومن يحرسه من الصحابة ناس كثيرون عدهم التجانى فى شرحه ولا يترتب عليه فائدة هنا، فلذا تركناه.

(فقال لهم: أيها الناس انصرفوا) من حولى واتركوا حراستى، **(فقد عصمنى)** وحفظنى **(ربى عز وجل)** فلا حاجة لى أن يحرسنى الناس.

(وروى) بصيغة المجهول **(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، كان إذا نزل منزلاً)** أى أقام به زمانًا **(اختار له أصحابه شجرة يقيل تحتها)** من قال يقيل قيلولة إذا نزل فى وقت القائلة وهى الظهيرة وما قرب منها للاستراحة سواء نام أم لا، وإن كثر فيها النوم، **(فأتاه أعرابى)** هذه فاء فصيحة أى فاختاروا له فى بعض أسفاره شجرة لقيلولته فنزل تحتها، وليس معه من يحرسه فأتاه إلى آخره.

والأعرابى رجل من أهل البادية تقدم بيانه **(فاخترط سيفه)** أى سله وأخرجه من قرابه ليضربه به، وضمير سيفه إما للأعرابى فمعناه سل سيفًا كان معه، أو للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه كان سيفه معلقًا بالشجرة، فلما هجم عليه الأعرابى أخذه وسله، وهو صريح ما يأتى فى لفظ رواية الصحيحين، وأصل معنى الاختراط إزالة ما على

القضيب من ورق أو قشر، فشبه إزالة عمده بذلك، أو هو من اخترطه إذا أخرجه من خريطته بجعل الغمد كالخريطة.

(ثم قال) الأعرابى بعد اخترطه له، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(من يمنعك منى؟)** الاستفهام إنكارى بمعنى النفى أى لا يمنعك منى أحد؛ لأنى دخلت على حين غفلة وليس معك أحد، وعطف بثم والظاهر الفاء إذ لا مهملة هنا، فإما أن يكون تربص لينظر ما يصنع، أو كان أتاه من خلفه، أو استعمل ثم بمعنى الفاء وهو كثير.

(فقال: الله) أى يمنعنى الله والله منعنى وحمانى، **(فارتعدت يد الأعرابى)** وقع فى بعض النسخ بالهمزة المضمومة مبنى للمجهول أى أصابته رعدة بكسر الراء وفتحها، وهى اهتزاز اليد واضطرابها من غير قصد لشدة الخوف.

وقال التلمسانى: إنه الصواب، يعنى لأرعدت الثلاثى وهو خطأ منه، فإن الذى صححه البرهان أنه رعدت ثلاثى مبنى للمفعول، وتبعه الشمنى وغيره، وقالوا: إنه من الأفعال التى لم يسمع فيها إلا المجهول نحو: جن، وهو الموافق للرواية واللغة.

(وسقط سيفه) من يده لشدة ارتعاده من خوفه، **(وضرب)** ذلك الأعرابى **(برأسه الشجرة)** لما اعتراه من ذهاب عقله، فلم يزل ينطحها **(حتى)** تكسر عظم رأسه، و**(سال دماغه)** لما كسر قحفه الذى كان فيه الدماغ، **(فنزلت الآية)** المذكورة: ﴿**وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ**﴾ [المائدة: ٦٧]، إلى آخره، وسيلان دماغه؛ لأنه كالدهن، فلما انكسر رأسه سال منها، وليس فيه كما توهم حذف لتذهب النفس كل مذهب ممكن: أى سال دمًا أو نحوه.

وهذا الحديث بهذا اللفظ قالوا: لم يوجد فى الكتب المعتبرة عند أهل الأثر، ولم يذكروه فى أسباب النزول، وإليه إشارة ما بقوله: **(وقد رويت هذه القصة)** يعنى قصة الأعرابى **(فى الصحيح)** أى فى الحديث الصحيح، أو فى صحيح البخارى **(وأن غورث ابن الحارث)** وفى نسخة غويرث بالتصغير، وغورث بغين معجمة مضمومة، وواو ساكنة، وراء مهملة مفتوحة فى المكبر ومثلثة **(صاحب هذه القصة، وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، عفا عنه)** وهذا يخالف ما قبله فى تلك الرواية من أنه ضرب برأسه الشجرة إلى آخره، إذ صريحها أنه هلك بذلك السبب فينافى العفو عنه.

(فرجع إلى قومه وقال: جئتكم من عند خير الناس) لما رآه من حلمه وعفوه عنه مع قدرته عليه.

وهذا الحديث رواه البخارى ومسلم، رحمهما الله تعالى، عن جابر، رضى الله تعالى عنه، قال: غزونا قبل نجد مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فلما قفلنا أدركتنا

قائلة فى واد كثير العضاه، فنزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وتفرق الناس يستظلون بالشجر، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، تحت شجرة علق بها سيفه، ونمنا نومة فإذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، يدعونا وعنده أعرابى، فقال: إن هذا اخترط سيفى، وأنا نائم فاستيقظت وهو فى يده مصلتا، فقال: من يمنعك منى؟ فقلت: الله تعالى عز وجل ثلاثا، و لم يعاقبه(١).

وروى أنه شام السيف أى أغمده، وفى سيرة ابن سيد الناس أن غورث رجل من محارب قال لقومه: ألا أقتل لكم محمدًا أفتك به، فأقبل إليه وسيفه فى حجره، فقال: يا محمد أعطنى سيفك أنظر إليه، فأعطاه له فاستله، وجعل يهزه ويهم به، فمنعه الله تعالى، فقال: يا محمد أما تخافنى وفى يدى السيف؟ قال: لا، يمنعنى الله تعالى منك، فرد السيف، فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ﴾ الآية [المائدة: ١١].

وروى أن السيف سقط من يده فأخذه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال له: من يمنعك منى؟ فقال له: كن خير آخذ، وأسلم. فرجع إلى قومه وقال: جئتكم من عند خير الناس.

(وقد حكى مثل هذه الحكاية)، وفى كثير من النسخ حكيت مثل هذه الحكاية بتاء التأنيث؛ لأن المضاف يكتسب التأنيث من المضاف إليه كقوله:

كما شرقت صدر القناة من الدم

وهو كثير وجعله صفة مؤنث مقدر أى حكاية مثل هذه إلى آخره كما قيل: تكلف لا حاجة إليه، وفى بعض النسخ: وقد حكيت هذه الحكاية، وهى ظاهرة بحسب اللفظ والأولى أظهر بحسب المعنى.

(وأنها جرت له) صلى الله تعالى عليه وسلم، أى وقعت **(يوم بدر)**: أى فى وقعة بدر يقال: جرى لنا كذا، أى وقع، وهو مجاز من الجرى، فاستعير لما ذكر ثم صار حقيقة عرفية فيه، وقوله: **(وقد انفرد من أصحابه)** جملة حالية من ضمير له أى منفردًا عنهم **(لقضاء حاجته)** كناية عن البراز مشهورة، **(فتبعه رجل من المنافقين وذكر مثله)** بالنصب مفعول ذكر، ومماثلته له فى سل سيفه، وقوله: من يمنعك ونحوه مما ذكر قبله، وهذا الرجل لا يعرف كما قاله البرهان، و الحديث لم يخرج أيضًا.

(وقد روى) رواه ابن إسحاق فى سيرته عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنهما، **(أنه وقع له)** صلى الله تعالى عليه وسلم، **(مثلها)** أى مثل هذه الحكاية، والواقعة **(فى غزوة**

(١) تقدم تخريجه.

غطفان) بغين معجمة وطاء مهملة مفتوحتين، وهى قبيلة مشهورة غزاها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فى سرية نحو أربعمائة وخمسين فارسًا فى ربيع الأول بعد خمسة أشهر من الهجرة.

(بذى أمر) بهمزة وميم مفتوحتين وراء مهملة وهو اسم مكان، ويسمى غزوة غطفان وغزوة أنمار وغزوة ذى أمر، وأنمار اسم ذلك المكان أيضًا.

(مع رجل) متعلق بوقع **(اسمه دعثور)** بضم الدال وسكون العين المهملتين ومثلثة وواو ساكنة وراء مهملة، وهو علم بزنة بهلول منقول من اسم الحوض الصغير **(ابن الحارث)**، وهو رجل من بنى محارب، وتقدم أنه غورث بن الحارث.

وقال ابن سيد الناس فى غزوة ذات الرقاع: إن الخبرين والرجلين واحد، وكان جمع بين ثعلبة ومحارب للإغارة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فلما سمع بذلك خرج لحربه، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان،، رضى الله تعالى عنه، فهربوا فى رءوس الجبال، وكان قبل ذلك يدعى أنه يهجم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فى غرته ويقتله، فكان منه مثل هذه القصة.

(و) روى **(أن الرجل أسلم، فلما رجع إلى قومه الذين أغروه به)** أى حرضوه على الفتك برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فعصمه الله تعالى منه، **(وكان)** ذلك الرجل **(سيدهم وأشجعهم)** جملة معترضة بين لما، وجوابها بيان لسبب إغرائهم له وإقدامه على ذلك.

(قالوا له) جواب لما **(أين ما كنت تقول)** إنكار عليه لما هرب، وقد كان يقول: إنى أقتل محمدًا، **(وقد أمكنك)** فاعله ضمير مستتر يرجع لما، وأمكنه الأمر إذ لم يمنعه مانع فصار ممكنًا له، ويجوز أن يكون للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، لعلمه من السياق: أى تمكنت منه لمصادفته له وحده ومعه سيف مسلول فى يده، **(فقال: إنى نظرت إلى رجل أبيض طويل)** حال بينى وبينه.

و**(دفع فى صدرى فوقعت لظهرى)** أى وقعت على ظهرى لشدة دفعه وقوته، **(وسقط السيف)** الذى كان بيدى **(من يدى فعرفت أنه)** أى الرجل الذى دفعنى **(ملك)**؛ لأنه لم يكن ثمة أحد حين هجمت عليه؛ ولأن قوة دفعه ومهابته ليست مما عهدته، **(وأسلمت)** لما شاهدته مما يدل على نبوته.

قال ابن إسحاق: أصابه صلى الله تعالى عليه وسلم فى بعض أسفاره مطر، فنزع ثوبه ونشره على شجرة ليجف، واضطجع تحته، فقالوا لدعثور: انفرد محمد فعليك به فأقبل بسيفه حتى قام على رأسه، وقال: من يمنعك اليوم منى؟ فقال: الله فتمثل له جبريل عليه

السلام، ودفع فى صدره، فوقع سيفه فأخذه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال له: من يمنعك منى؟ فقال: لا أحد وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، ورجع لقومه ودعاهم للإسلام.

(قيل: وفيه) أى فى هذا الرجل وقصته **(نزلت)** هذه الآية **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ﴾** الآية [المائدة: ١١]، وفى سبب نزولها أقوال أخر فقيل: نزلت بعسفان لما شرعت صلاة الخوف، وقيل: فى بنى قريظة، وقيل: فى بنى النضير كما سيأتى.

(وفى رواية الخطابى) وهو حميد أو أحمد بن محمد بن إبراهيم، الإمام الجليل فى العلوم الشرعية ينسب لجده الخطاب، وقيل لزيد بن الخطاب أخى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب،، رضى الله تعالى عنه، وتآليفه جليلة مشهورة، ككتاب الآثار، وشرح السنن وغيره.

(أن غورث بن الحارث المحاربى) منسوب لمحارب القبيلة المشهورة، وفى نسخة غويرث بالتصغير كما تقدم، وقد مر أن ابن سيد الناس قال فى غزوة ذات الرقاع فى دعثور بن الحارث: إن المذكور فى غزوة ذى أمر من الخبر يشبه هذا الخبر، فالظاهر أن الخبرين واحد.

وقال الذهبى فى التجريد: دعثور بن الحارث الغطفانى الأشبه أنه غورث.

وقال البرهان: إنه ضبب عليه، فهو عنده غلط، وفى هامش نسخته من الشفاء عوض دعثور غويرث، وعليها علامة نسخة وصححت أيضًا، انتهى، وهو كلام مضطرب يحتاج للتحرير.

(أراد أن يفتك بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم)، يفتك مثلث التاء من الفتك، وهو الهجوم من حيث لا يشعر به على أمر عظيم فيه مخاطرة، ويطلق ويراد به القتل مطلقًا، وقيل: الفتك القتل مجاهرة.

(فلم يشعر به) أى لم يعلمه ويحس به في حال من الأحوال **(إلا وهو قائم على رأسه)** المراد بقيامه على رأسه: وقوفه خلفه متصلاً به **(منتضيا)** بضاد معجمة ومثناة تحتية أى مجردًا وسالا **(سيفه)**؛ ليضربه به، فلما رآه **(قال)** صلى الله تعالى عليه وسلم: **(اللهم اكفنيه بما شئت)** الضمير لغورث وبما شئت ما موصولة عائدها مقدر: أى بالأمر والسبب الذى شئته وأردته، والمراد تفويض أمر كفايته إلى الله وتسليم أمره له كما ورد: «اللهم اكفنا السوء بما شئت وكيف شئت»(١)، وهو أقرب إلى الإجابة من تعيين ما يدفعه عنه.

---

(١) أخرجه ابن سعد (٨١/٢/٤)، وابن أبى شيبة (٣٢٨/١٤)، وأبو نعيم فى دلائل النبوة (١١٣).

(**فـ**) عقب قوله من غير مهلة (**انكب لوجهه**) اللام بمعنى على، أى سقط على وجهه، يقال: كبه فأكب وانكب إذا وقع، وثلاثيه متعد ومزيده لازم على خلاف القياس، واللام بمعنى على كما فى قوله:

فخـر صريعًـا لليديـن وللفـم

وقوله: (**من زلخة**) متعلق بانكب، والزلخة بضم الزاى المعجمة وفتح اللام المشددة وخاء معجمة وتاء كغيرة وروى بعضهم تخفيف لام زلخة (**زلخها**) بضم الزاء وتشديد اللام المكسورة وخاء مفتوحة معجمة وهاء ضمير للزلخة، وقرأ بعضهم بالجيم وهو غلط كما قاله الخطابى، وهو ماض مجهول متعد لمفعولين من باب أعطى وفاعله الله، والمراد: أوجدها الله حين سل السيف.

وقوله: (**بين كتفيه**) لا ينافى تفسير الزلخة المذكور، فإن ما بين كتفيه من أعلى الظهر، فهو تأسيس وإشارة لعلة سقوط سيفه، فإنه إذا امتد للكفين ضعفت اليد عن حمله.

(**وندر سيفه من يده**) أى من داخل قبضة كفه وأصابعه، وندر بنون ودال مهملة مفتوحتين وراء مهملة: أى سقط، يقال: ندر إذا خرج وسقط من جوف أو من بين أشياء.

(**والزلخة وجع**) يأخذ فى (**الظهر**)، فيمنع الإنسان من الحركة من الزلخ، وهو الزلل ويقال: لزحلوفة تلعب بها الصبيان.

(**وقيل**): أى قال غير الخطابى (**فى قصته**) أى قصة غورث (**غير هذا**) المذكور من إرادته الفتك، فإنه روى أنه جمع ناسًا للإغارة على المسلمين، فلما خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، لهم هربوا فى رءوس الجبال كما مر.

(**وإن**) الأمر والشأن فضميره مقدر (**فيه**) أى فى غورث (**نزلت**) آية: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ**﴾ [المائدة: ١١]، الآية، (**وقيل: كان صلى الله تعالى عليه وسلم، يخاف قريشًا، فلما نزلت هذه**) وهى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟**﴾ إلى آخره، أو قوله: ﴿**يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ**﴾ [المائدة: ٦٧].

(**استلقى**) أى نام صلى الله تعالى عليه وسلم، واضعًا ظهره على الأرض لأمنه أعداءه، واطمئنان قلبه، (**ثم قال: من شاء فليخذلنى**) بخاء وذال مضمومة معجمتين، والخذلان ترك النصرة واللام للأمر، وظاهره غير مراد، فإنه إنشاء بمعنى الخبر أى إنى غنى عن المعين والحرس؛ لأن الله حمانى وضمن لى أن لا يضرنى أحد يصل إلى، ولذا استلقى على ظهره وأظهر هيئة الآمن، والمتبرى من حوله وقوته اعتمادًا على وعد الله.

وحكاه بقيل؛ لأنه يقتضى أن هذه الآية مكية؛ لأن خوفه من قريش إنما كان بمكة،

وسورة المائدة كلها مدنية على الصحيح، وتكرر النزول بعيد كما تقدم.

(وذكر عبد بن حميد) الحافظ المشهور، وقد تقدم بيانه، وهذا رواه ابن جرير فى تفسيره مرسلاً **(قال: كانت حمالة الحطب)** وهى أم جميل بنت حرب بن أمية، أخت أبى سفيان بن حرب، زوجة أبى لهب، وسميت حمالة؛ لأنها كانت **(تضع الغضاة)** بغين وضاد معجمتين واحدة الغضا، وهو شجر له شوك، إذا أوقد كان شديد الاحتراق، فلذا قالوا: نار الغضا للنار القوية.

وقوله: **(وهى جمر)** يحتمل أن يكون تفسيرًا للغضاة؛ لأنه يطلق على ناره كما يطلق على محله قال(١):

فسقى الغضى والساكنيه وإن هم شبوه بين جوانحى وضلوعى

وأن يكون حالاً من الغضاة، وجمر بمعنى متوقدة، أى تضعه حالة كونه جمرًا.

(على طريق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)، وممره من بيته للحرم وغيره، تقصد بذلك أن يمشى عليه فيؤذيه ويؤثر فى قدمه، وقد قيل فى تسميتها حمالة الحطب وجوه أخر مذكورة فى التفاسير، منها أنه على ظاهره، ومنها أنه عبارة عن النميمة وحمل الأوزار.

(فكان) صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى نسخة فكأنما بزيادة ما **(يطؤها)** أى يضع قدمه على تلك الغضاة، وهو حاف أو بنعل يؤثر مثلها فيه، فيجدها **(كثيبا)** بالمثلثة ومثناة تحتية وموحدة، وهو ما اجتمع من الرمل **(أهيل)** مبنى للمجهول يقال: أهال الرمل إذا أساله، ولم يجمعه كالربوة، والمشى عليه حينئذ أسهل وألين، أى يجده، صلى الله تعالى عليه وسلم، سهلا لا يؤذيه كما كانت نار الخليل عليه الصلاة والسلام، قال ابن مقبل(٢):

يمشين هيل النقا لانت جوانبه ينهال حينًا وينهال الثرى حينًا

(وذكر ابن إسحاق) إمام أهل السير وهو محمد بن إسحاق بن يسار، الإمام الثقة الصدوق، وإن طعن فيه بعضهم، وترجمته مفصلة فى الميزان وغيره **(أنها لما بلغها نزول)** سورة: (**﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾، وذكرها**)، مصدر مرفوع معطوف على نزول **(بما ذكرها الله)** به **(مع زوجها من الذم)** بيان لما، وهو ما فى السورة **(أتت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو جالس فى المسجد ومعه أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، وفى يدها فهر)** بكسر الفاء وسكون الهاء، وراء مهملة، وهو حجر ملو الكف، أو هو الحجر

(١) البيت من الكامل، وهو بلا نسبة فى تاج العروس (غضى).

(٢) البيت من البسيط، وهو لابن مقبل فى ديوانه (ص٣٢٦)، أساس البلاغة (نهى).

مطلقًا، وهو فى قوله: يهود خرجوا من فهرهم: بيت دراستهم كلمة معربة أصلها بهر بالباء.

وقوله: **(من حجارة)** بيان لفهر **(فلما وقفت عليهما)** أى على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وأبى بكر **(لم تر إلا أبا بكر وأخذ الله ببصرها)** أى قبض وحبس نظرها **(عن نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى عن رؤيته، وهو جالس عندها، فأخفاه الله تعالى عصمة له صلى الله تعالى عليه وسلم، عن أذيتها، وهذا يقتضى أن عصمته صلى الله تعالى عليه وسلم، كانت ثابتة قبل الهجرة، كما تقدم.

(فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك؟ فقد بلغنى أنه يهجونى) أى يذمنى على أن الهجو لا يختص بالشعر حقيقة، أو مجازًا أو هو منها لتوهمها أنه شاعر كما ادعاه غيرها، تريد به ما نزل فى حقها فى سورة: ﴿تَبَّتْ﴾.

(والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه) خصته؛ لأنه محل النطق بذمها، فرجعت خاسئة وهذا رواه البيهقى وغيره، عن أسماء بنت أبى بكر الصديق، رضى الله تعالى عنهما، كما رواه ابن إسحاق.

(و) روى أبو نعيم فى الدلائل والطبرانى بسند جيد **(عن الحكم بن أبى العاص)** والد مروان، وهو ممن أسلم عام الفتح وتوفى فى خلافة عثمان، وفى الصحابة من وافقه فى اسمه واسم أبيه، ولكن المشهور هو هذا فلذا لم يميزه المصنف.

(تواعدنا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم) أى تواعد هو وبعض الكفرة على قتله صلى الله تعالى عليه وسلم، والفتك به فى بعض الليالى، وخرجنا فى الميعاد فوقفنا نرقبه، **(حتى إذا رأيناه)** أى لما قرب منا وأبصرناه بحيث تمكنا منه **(سمعنا صوتًا)** أى صيحة عظيمة **(خلفنا)** أى من خلفنا **(ما ظننا أنه لم يبق بتهامة أحد)** ما يحتمل أن تكون زائدة إن كان التقدير أنه لم يبق أحد بتهامة، إلا وقد هلك بتلك الصيحة، وأن تكون نافية إذا أريد أن جميع أهل تهامة صاحوا علينا صيحة واحدة، وقد لحقونا ليقتلونا، فالمعنى أنا تيقنا وجودهم خلفنا، والمعنيان متقاربان والمآل واحد، ولهم هنا كلام لم يفصح بالمراد، وتهامة بكسر التاء معناها أرض منخفضة، ويقابلها نجد من التهم وهو الانخفاض أو شدة الحر والريح، أو لتغير هوائها يقال: تهم الدهر إذا تغير وهى أرض معينة وراء مكة من المغرب من ذات عرق إلى البحر، والمدينة لا تهامية ولا نجدية.

(فوقعنا مغشيًا علينا) من هول تلك الصعقة، والغشى كالإغماء ذهاب العقل مع سقوط القوى.

(فما أفقنا) من ذلك الغشى **(حتى قضى صلاته)** أى فرغ منها وأتمها **(ومضى إلى أهله)**

أى رجع صلى الله تعالى عليه وسلم، من صلاته بالمسجد الحرام إلى منزله ليلاً، ولم نظفر منه بشيء أردناه، (ثم تواعدنا) على ما قصدناه وأن نعود لذلك (ليلة أخرى، فجئنا حتى إذا رأيناه) بقربنا وهو مار للمسجد؛ ليصلى به كما فى المرة الأولى (جاءت الصفا والمروة) هما ربوتان مرتفعتان فى محل سعى الحجاج معروفتان، والمراد بمجيئهما تحركهما من مكانهما، حتى كانا بينهم وبينه صلى الله تعالى عليه وسلم، كما بينه بقوله: (فحالت) أى الصفا والمروة (بيننا وبينه)، فمنعنا من الوصول إليه؛ لعصمة الله تعالى له، والصفا كالمروة مؤنثة باعتبار البقعة والربوة، وأفرد ضميرهما وكان الظاهر، فحالتا لتأويله بحالت كل واحدة منهما، وفى هذا معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم، ظاهرة.

(وعن عمر) بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه: (توعدت أنا) أكد ضميره؛ ليعطف عليه قوله: (وأبو جهم بن حذيفة)، واسمه عامر أو عبيد بن حذيفة بن غانم بن عامر العدوى أسلم عام الفتح، وصحبه صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان معظمًا فى قريش، توفى فى أيام معاوية،، رضى الله تعالى عنه، وترجمته معروفة، وهو صاحب الأنبجانية (ليلة) منصوب على الظرفية منون (قتل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)، منصوب على أنه مفعول له، أو بنزع الخافض أى على قتله أو لقتله، أو بمقدر أى وأضمرنا قتله ونحوه، (فجئنا منزله) ليلاً خفية، (فسمعنا إليه) وفى نسخة له، وفى نسخة فتسمعنا أى أطلنا السماع لا تكلفناه كما قيل، وعداه بالحرف لتضمنه معنى أصغينا لقراءته حتى نسمعها، وهو يقرأه فى صلاة الليل.

(فافتتح) ابتدأ قراءته (وقرأ: ﴿ٱلْحَاقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾) [الحاقة: ١، ٢]، حتى انتهى (إلى) قوله: (فهل ترى لهم من باقية) يعنى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٤ - ٨].

والمراد بالحاقة، ما حق وقوعه بهم من الداهية أو الساعة التى وقعت فيها، من حق بمعنى وجب وثبت، وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ٣]، تهويل وتعظيم لها، والطاغية الداهية المتجاوزة الحد، وهى الصيحة أو الرجفة، وغايته شديدة العتو والطغيان.

والحسوم أيام نحسة من صبيحة يوم الأربعاء إلى أربعاء آخر.

وقوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾، استفهام بمعنى النفى أى ما ترى لهم بقية أو بقاء، على أنه مصدر بزنة فاعلة، وهو قليل فى كلامهم أو نفسًا باقية، (فضرب أبو جهم

على عضد عمر، رضى الله تعالى عنه، وقال) لعمر، رضى الله تعالى عنه: **(انج)** أى قم لتنج من وقوع الهلاك بك، خوفًا من أن يحل بهما ما حل بثمود وعاد؛ لأنهما كانا مكذبين له كما كذب أولئك رسلهم.

(وفرا هاربين) أى قاما من محلهما مسرعين جادين فى الهرب؛ لخوفهما مما ذكر، وهو كقوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ [النمل: ١٩]، فهاربين حال مؤكدة وعلى الأول هو تجريد نحوى، **(فكان)** أى ما ذكر من هذه القضية **(من مقدمات إسلام عمر، رضى الله تعالى عنه)**؛ لتأثيرها فى قلبه، فأسلم بعدها بمدة يسيرة.

وهذا الحديث لم يوجد بهذا اللفظ إلا أنه فى مسند أحمد بما يقرب منه، وهو أن عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، قال: خرجت ليلة لأتعرض لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، قبل أن أسلم فوجدته قد سبقنى إلى المسجد، فقمت خلفه فاستفتح الحاقة، فجلست أعجب من تأليف القرآن، وقلت: والله ما هو بشاعر كما قالت قريش فقرأ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١]، فقلت: هو كاهن فقرأ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٢، ٤٣]، إلى آخره، فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع، وليس فيه أنه صحب أبا جهم، وفى التعبير بمن التبعيضية إشارة إلى أن له مقدمات أخر إلى أن أسلم، لما سمع سورة طه، فى بيت أخته فى قصته المشهورة.

(ومنه) أى مما يشهد لأن الله تعالى عصمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من أعدائه **(العبرة المشهورة)** بكسر العين المهملة وسكون الموحدة، وهو الأمر العجيب الذى يعتبر به ويتعظ، من الاعتبار، والعبرة هى الحالة التى يتوصل بها من معرفة الشاهد إلى الغائب، من العبور، ومنه العبارة، وأشار بقوله: المشهورة إلى أنها ثابتة مشهورة بين المحدثين غير محتاجة إلى النقل من كتاب معين.

(والكفاية التامة) أى كون الله تعالى عصمه وصانه صيانة تامة ليست ككفاية غيره، كما قال الله تعالى عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤]، **(عندما أخافته قريش)** تفعل من الخوف، وهو توقع المكروه يقال: خوفه وأخافه إذا فعل أو قال ما يدل على أنه يهم بإيقاع المكروه به، وفسره بقوله: **(واجتمعت على قتله)** أى اتفقوا على ذلك إلا قليل منهم لقلتهم لم يعدوا، **(وبيتوه)** أى قصدوا قتله وإيقاعه ليلاً فى خفية.

قال الراغب: التبييت قصد العدو ليلاً، ويقال لكل فعل دبر بالليل: بيت قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨].

وعلى هذا حديث: «لا صيام لمن لم يبيت الصيام من الليل»[1]، وبات موضوعة لما يفعل بالليل، كظل لما يفعل بالنهار انتهى، ويقال: هذا أمر بيت بليل: أى دبر فعله ليلاً، ليوقع غيلة على غيره.

(فخرج عليهم، صلى الله تعالى عليه وسلم، من بيته) وهم لا يشعرون كما رواه ابن إسحاق والبيهقى، **(فقام على رءوسهم)** أى وقف عندهم وهم نيام، **(وقد ضرب الله على أبصارهم)** أى لم يحسوا به ويروه لاستغراقهم بالنوم وحجب عيونهم عنه، وقد كانوا أحاطوا ببيته ليقتلوه، عليه الصلاة والسلام، **(وذر)** بذال معجمة وراء مهملة مشددة أى نثر **(التراب على رءوسهم)** إهانة لهم، **(وخلص منهم)** أى نجا مما دبروه وهموا به، وأصل ذلك كما قال ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: إن قريشًا حين أسلم الأنصار، رضى الله عنهم، خافوا أن يتفاقم أمره، عليه الصلاة والسلام، عليهم، فاجتمع كبارهم فى دار الندوة، واتفقوا على قتله وبيتوه، فخرج عليهم وفعل ما ذكر، وذهب إلى الغار مهاجرًا إلى الله، كما فصل فى السير، وذكر فيها هؤلاء الذين اجتمعوا وبيتوا بأسمائهم، وأنهم نحو مائة، وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، خرج من ظهر البيت وطأطأت له جارية اسمها مارية خادمته، حتى تسور الجدار الذى من ظهر البيت.

(وحمايته) أى حماية الله له صلى الله تعالى عليه وسلم منهم، وحفظه بعصمته من أعدائه ومنعهم **(عن رؤيتهم)** إياه وأبا بكر، وهما **(فى الغار)** أى غار ثور، وثور اسم جبل يمنة مكة، والغار كالمغار نقرة فى الجبل كالبيت، وسمى بثور بن عبد مناف؛ لنزوله به، ويقال له: ثور المحل وهو اسم جبل آخر خلف أحد **(بما هيأ الله)** أى بما أعده ويسره له، والجار متعلق بحمايته، والباء للسببية العادية **(من الآيات)** أى المعجزات والعلامات الدالة على نبوته وصدقه وعصمته، **(ومن العنكبوت الذى نسج عليه)** نسج سنين فى طرفة عين، والعنكبوت دويبة معروفة تذكر وتؤنث، ونسجها خيوط دقيقة تمدها فى الهواء لصيد الذباب، وإنما يكون ذلك فى مكان خال لا يمر به شيء.

(حتى قال أمية بن خلف) أحد صناديد قريش، وقد تقدم أنه مات كافرًا بسرف، وهو اسم موضع معروف، **(حين قالوا)** أى كفرة قريش لما قصدوا أثره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وانتهوا إلى فم ذلك الغار **(ندخل الغار)** لتفتيشه؛ لاحتمال أنه مختف به: **(ما أربكم)** بفتح الهمزة والراء المهملة والموحدة ويجوز كسر الهمزة وتسكين الراء، وهو الحاجة المطلوبة وما استفهامية، أو نافية أى ليس لكم مطلوب، وهو محمد صلى الله تعالى

---

(١) أخرجه النسائى (١٩٧/٤)، وابن ماجه (١٧٠٠)، والدارقطنى (١٧٣/٢)، وابن أبى شيبة (٣٢/٣).

عليه وسلم، ولا حاجة **(فيه)** أى فى الغار، **(وعليه)** أى على فم الغار ومدخله.

وروى ما أرابكم من الريبة أى ما أوقعكم فى الشك فيما لا شك فيه **(من نسج العنكبوت ما أرى)** بضم الهمزة وفتحها أى أظن وأعتقد **(أنه)** قديم **(قبل أن يولد محمد)** أى قبل وجوده وولادته؛ لأن مثله لا يكون إلا فى مدة طويلة، وفيه معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم، كما قيل:

ألقنى فى لظى فإن أحرقتنى فتيقن أن لست بالياقوت

جمع النسج كل من حاك لكن ليس داود فيه كالعنكبوت

وقال البوصيرى، رحمه الله تعالى[1]:

وقاية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الأطم

(ووقعت حمامتان) ذكر وأنثى على عش فيه بيض لهما، ومثله لا يكون إلا فى محل خال من الناس، ووقفت بالفاء وروى بالعين المهملة من وقوع الطائر، وهو نزوله بمحل **(على فم الغار)** أى مدخله، **(فقالت قريش: لو كان فيه)** أى فى الغار **(أحد لما كان هناك الحمام)** لما عرفته آنفًا، وفى نسخة هنالك باللام وهو اسم إشارة للمكان، وقصة الحمام كما رواه البزار مسندًا وغيره، أن الله أمر العنكبوت، فنسجت على فم الغار وأرسل حمامتين وحشيتين، فوقعتا على وجهه فصد به المشركين عنه، وحمام مكة من فراخهما، وفى المواهب أن الحمامتين باضتا فى أسفل فم الغار، ونسج العنكبوت عليه، فقالوا: لو دخلاه تكسر البيض وزال النسج.

وروى أيضًا كما تقدم أنه نبت فى فمه شجرة صغيرة تسمى شجر الرا، وهى شجرة مقدار القامة، لها زهر وشىء كالقطن يحشى به الوسائد كما مر.

أمرها الله بأن تنبت لتسترهما لما أقبل فتيان قريش بأسلحتهم، حتى أتوا الغار، فلما رأوا ما به من الأمور المذكورة رجعوا، وقال أبو بكر: لو نظر أحدهم إلى قدمه رآنا، فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: ما ظنك باثنين الله ثالثهما، وقد قص القافة أثرهما فانتهى للغار، فلما رآهم أبو بكر اشتد حزنه على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال: إن قتلت أنا فإنما أنا رجل واحد، وإن قتلت أنت هلكت الأمة، فقال له: لا تحزن إن الله معنا، فانظر قوله: لا تحزن دون لا تخف، فإن فيه إشارة إلى أنه لم يخف على نفسه، وإنما حزن على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وأمته؛ لأنه أحب إليه من نفسه وكل شىء، ولسع أبو بكر فى هذه الليلة غير مرة، فمزق ثوبه وجعله فى الشقوق التى فى الغار، وسد بعضها بقدمه اتقاء لرسول الله صلى الله تعالى

(١) البيت من البسيط، وهو فى ديوان البوصيرى (ص١٦٩)، ضمن قصيدته فى مدح النبى ﷺ.

عليه وسلم، وأقام فيه ثلاثة أيام، ثم خرج منه فلقيه سراقة.

ولذلك ذكر المصنف قصته عقب ذلك بقوله: **(وقصته)** صلى الله تعالى عليه وسلم، أى ومما يدل على عصمة الله له وحمايته سيرته الواقعة له **(مع سراقة بن مالك بن جعشم)** بضم الجيم والشين، وروى فتح شينه أيضًا، وفى بعض النسخ شجعم بتقديم الشين كما فى المقتفى، وفيه نظر.

وقصته فى الصحيحين وهى مشهورة، فإنهم كما ذكره المصنف جعلوا لكل من دل عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، جعلاً عظيمًا، وهو أن لكل من قتله أو أتى به ديته، فلما خرج من الغار رآه سراقة، وكان ينزل بقديد بين مكة والمدينة، وهو من جملة من توجه إليه لطلبه، فركب فرسه ليدركه، فلما دنا منه صلى الله تعالى عليه وسلم ساخت قوائم فرسه إلى إبطها فى الأرض؛ لدعائه عليه كما يأتى بقوله: اللهم اكفنا سراقة، ثم إن الله هداه للإسلام فأسلم فى مرجع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، من حنين، فهو صحابى مدلجى حجازى كنانى، وهو الذى أخبره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، بلبس سوارى كسرى، لما رأى ذراعيه دقيقتين أشعرين فى حديثه المشهور المتقدم، وقوله: **(حين الهجرة)** أى فى وقت هجرته من مكة إلى المدينة، وذكر ابن سعد أن سراقة عارضهم يوم الثلاثاء بقديد، والهجرة ترك الوطن من الهجر وهو بكسر الهاء وفتحها وقد تضم.

(وقد جعلت قريش) جملة حالية، وجعلت من الجعل، وهو ما يعطى فى مقابلة عمل ما **(فيه)** أى فى شأن رسول الله والإخبار به، **(وفى أبى بكر)** لأنه كان رضى الله عنه، معه كما علمت **(الجعائل)** جمع جعيلة، وهى كالجعالة معنى، والجعالة مثلثة الجيم، ويقال: جعال ككتاب وجعل بزنة قمل، ومعناه تقدم، وتلك الجعالة كما قال السهيلى: كانت مائة ناقة أى حمراء كما قاله الماوردى فى الأعلام.

(وأنذر به) بالبناء للمجهول: أى أعلم سراقة بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، يقال: أنذرته بكذا بنون ومعجمة وراء أى أعلمته، ويكون الإنذار بمعنى التخويف أيضًا، وكيفية الإعلام مشهورة فى السير أيضًا، وحاصلها أن رجلاً أتى سراقة، وقال له: إنى رأيت أسودة بالساحل أظنهم محمدًا وأصحابه، فقال بعدما عرف أنهم هم: ليسوا هؤلاء، ثم أخرج بعد ذلك فرسه وذهب خلفهم، فكان ما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، بقوله: **(فركب فرسه واتبعه حتى إذا قرب منه، دعا عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فساخت قوائم فرسه)**، أى غاصت فى الأرض، ودخلت فيها حتى كادت تبتلعها وتنخسف من تحتها، يقال: ساخ يسوخ ويسيخ بسين مهملة وخاء معجمة فى آخره،

بمعنى غاص ودخل، وبمعنى الخسف، فيقال: ساخ الفرس وساخت الأرض، وهما بمعنى واحد يختلف باختلاف المسند إليه، وهذا مما اتفقت عليه كلمة أهل اللغة، وفى القاموس ساخت قوائمه ثاخت، والشيء رسب، والأرض بهم سيوخًا، انتهى.

وثاخت فى تفسيره بثاء مثلثة بمعنى غاصت كما ذكره فى فصله، وقد تحرف على الشارح الجديد، فتوهم أنه ناخت بنون بمعنى بركت، فقال: لا ينبغى هذا والذى ينبغى أن يفسره بغاصت، وهو غلط فاحش منه، وقوائم الفرس رجلاها ويداها.

(فخر عنها) أى سقط من فوق ورمى نفسه عنها؛ خوفًا من أن تخسف به الأرض، فيهلك لدعاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، لما لحقه كما مر، وضمير عنها للفرس لأنها تذكر وتؤنث، ويقع على الذكر والأنثى، وقد قيل: إنها كانت أنثى تسمى العود، وقد نقل بعض أهل السير أن الصديق، رضى الله تعالى عنه، له قصيدة قص فيها هذه القصة منها:

حتى إذا قلت قد انجدن عارضها ... من مدلج قابس فى منصب وارى
يردى به مشرف الأقطار معتزم ... كالسيد ذى اللبدة المستأسد الضارى
فقال كروا فقلنا إن كرتنا ... من دونها لك نصر الخالق البارى
إن تخسف الأرض بالأحوى وفارسه ... فانظر إلى أربع فى الأرض غوار
فهيل لما رأى أرساخ مهرته ... قد سخن فى الأرض لم يحفر بحفار
فقال هل لكم أن تطلقوا فرسى ... وتأخذوا موثقى فى نصح أسرارى

(واستقسم بالأزلام) جمع زلم بفتحتين وبضم وفتح بزنة عمر، وهى قداح أى سهام لا ريش لها ولا نصل، كانوا فى الجاهلية يكتبون على بعضها أفعل، وعلى بعضها لا أفعل، ويضعونها فى متاعهم إذا سافروا، فإذا عرض لهم مهم أخرجوا منها زلما يتفاءلون به، فيفعلون أو يتركون، وهو معنى الاستقسام أى طلب ما قسم وقدر له.

وقيل: كان يكتب على بعضها أمرنى ربى، وعلى بعضها نهانى ربى، وبعضها غفل أى خال من الكتابة، فإذا خرج غير الغفل عملوا به، وإن خرج الغفل أعادوا حتى يخرج غيره، ويسمون ذلك استقسامًا، ولهم أزلام أخر أى سهام كانت فى الكعبة مكتوب عليها النوازلى، وهى التى استقسم بها عبد المطلب على ذبح ولده، وكذا كان عند كهانهم، ولهم مثلها قداح الميسر السبعة التى كانوا يقامرون بها، وقيل: الأزلام حصى صغار يتفاءل بها والصحيح الأول.

(فخرج له) أى لسراقة **(ما يكره)** أى ما لم يرده؛ لأنه أتى ليرده صلى الله تعالى عليه وسلم، وأبا بكر، ويأخذ من قريش الجعل المتقدم، فخرج له لا تفعل فلم ينته، **(ثم**

ركب) فرسه ثانيًا بعد ما سقط عنها، وساخت قوائمها، **(ودنا)** أى قرب من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو سائر يقرأ **(حتى إذا سمع قراءة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو لا يلتفت)** له؛ لعدم مبالاته، ولاعتماده على ربه.

(و) كان **(أبو بكر يلتفت)** وراءه؛ لخوفه على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، أو ليرى ما يصدر من سراقة، وخوفه لشدة حبه، وإن كان قال له فى الغار: لا تحزن إن الله معنا؛ لأنه قد يتوهم أنه مخصوص بذلك الوقت فتدبر.

(فقال) أبو بكر **(له)** صلى الله تعالى عليه وسلم: **(أتينا)** بالبناء للمجهول: أى أتانا العدو وأدركنا من يطلبنا منهم.

(فقال) له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(لا تحزن)** وتخف ممن أتانا **(إن الله معنا)** أى مصاحبًا لنا بتأييده ونصره وحفظه وعصمته لنا من جميع الأعداء، فلا تخف ممن لحقنا منهم، ولذا لم يلتفت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، لتمكنه وشدة ثقته، وحزن أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، لخوفه وشفقته على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، كما تقرر، وليس بمعصية لنهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، عنه؛ لأنه أمر طبيعى، ولا نسيانًا لقوله له فى الغار؛ فإن المحب ظنين وضنين بمحبوبه، لاسيما هذا الرسول العظيم، وليس هنا ما يحتاج لجر ذيل البيان، فإنه تطويل بغير طائل، **(فساخت)** قوائم فرس سراقة مرة **(ثانية)** بعد المرة الأولى **(إلى ركبتيها)** تثنية ركبة: هى ما نبا من يديها ورجليها، **(وخر عنها)** أى وقع وسقط عن فرسه لما ساخت، وانكبت على وجهها، **(وزجرها)** أى صاح عليها، **(فنهضت)** أى قامت وخلصت قوائمها من الأرض، **(ولقوائمها مثل الدخان)** أى غبار مرتفع فى الجو كأنه دخان كما ورد التصريح به فى السير.

قال ابن سيد الناس: ولقوائمها عثان مثل الدخان، والعثان بضم العين المهملة ومثلثة هو الغبار هنا، ويكون بمعنى الدخان، والدخان بضم الدال وتخفيف الخاء، وقد تشدد ويقال: دخ، ودخن، والكل بمعنى، وفى رواية ولقوائمها دخان وهو استعارة للغبار، **(فناداهم)** أى نادى سراقة رسول الله، وأبا بكر الصديق، وعامر بن فهيرة رفيقهما **(بالأمان)** أى رفع صوته به قائلاً لهم: الأمان الأمان، كما يفعله الناس، والمراد تأمينهم منه وأنهم لا يلحقهم منه ضرر وخوف بإخباره الأعداء، أو طلب منهم، والمراد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يعطوه أمانًا، فلا يلحقه ضرر، لخوفه منه ومن دعائه عليه.

وقد ورد التصريح بالأمانين فى سيرة ابن إسحاق وإلى الثانى أشار بقوله: **(فكتب له**

النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، أمانًا) أى أمر بكتابته له، فالإسناد مجازى لقوله: **(كتبه** أى كتاب الأمان، وهو رقعة من أدم، وفى رواية ابن إسحاق: فكتب لى كتابًا فى عظم أو رقعة أو خرقة، ثم ألقاه إلىّ فأخذته ثم جعلته فى كنانتى ثم رجعت **(ابن فهيرة)** مصغر فهرة وهو عامر بن فهيرة مولى أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، وهو من مولدى الأزد مملوك للطفيل، فاشتراه أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، منه، وأعتقه وأسلم، وكان يرعى غنمًا لأبى بكر، رضى الله تعالى عنه، ويجىء لهما كل ليلة فى الغار باللبن يتغذيانه، ثم هاجر معهما وشهد بدرًا وأحدًا، وقتل ببئر معونة، فلم يوجد جسده مع القتلى، فيقال: إن الملائكة دفنته وقيل: رفعته إلى السماء.

(وقيل): كتبه **(أبو بكر، رضى الله تعالى عنه)**.

وجمع بينهما بأن ابن فهيرة كتبه أولاً، فلم يرض سراقة بكتابته، وطلب كتابة أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، لشرفه وشهرته، فكتبه له وللنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، كتب تزيد على الأربعين مذكورة فى المفصلات، وأفردهم ابن أبى الحديد بتأليف مستقل.

(وأخبرهم) أى أخبر سراقةُ النبىَّ صلى الله تعالى عليه وسلم، وأبا بكر، رضى الله تعالى عنه، وابنَ فهيرة **(بالأخبار)** أى بأخبار قريش وما جرى منهم بعد خروجهم من مكة، وجعلهم الجعائل أى لمن أتى بهم أو قتلهم ديتهم كما مر.

(وأمره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)، أى أمر سراقة **(أن لا يترك أحدًا)** من قريش أى لا يدع أحدًا، ويمكنهم بأخبارهم حتى **(يلحق بهم)** أى يسير خلفهم، ويصل إليهم بأن يقول: لم أرهم ونحوه، ولو كذبا إذ قد يجوز عند الضرورة والحاجة، وقد يجب.

وفى حديث أنس، رضى الله تعالى عنه، فقال: يا نبى الله مرنى بما شئت، قال: تقعد مكانك لا تتركن أحدًا يلحق بنا، قال: فكان أول النهار جاهدًا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان آخر النهار مسلحة له.

(فانصرف) أى رجع سراقة عنهم حال كونه **(يقول للناس)** جملة حالية مضارعية لا تقترن بواو فى الفصيح: أى قائلاً للناس، والمراد بالناس إن كان من لقيهم ممن ذهب لطلبهم، فقوله: **(كفيتم ما هاهنا)** معناه ارجعوا كفيتم الطلب، فإنى لم أجدهم، وما موصولة ويحتمل أن تكون نافية أى ما هنا أحد، وإن كان المراد النبى ورفيقاه، فالمعنى عصمتم وسلمتم مما هاهنا من الخوف، وإلى كلا الوجهين ذهب الشراح، وفى الشرح الجديد خلط هنا غنى عن الرد.

وذكر ابن سعد، رضى الله تعالى عنه، أنه لما رجع قال لقريش: قد عرفتم بصرى

بالطريق وبالأثر، وقد استبرأت لكم، فلم أر شيئًا فرجعوا.

(**وقيل: بل قال لهما**) أى للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وأبى بكر، رضى الله تعالى عنه، و لم يذكر ابن فهيرة؛ لأنه إنما خاف دعاءهما لاعتقاده فيهما.

(**أراكما دعوتما علىّ**)، فلذا كادت الأرض تبتلعنى، (**فادعوا لى**) بالسلامة، فدعوا لـه، (**فنجا**) أى ذهب آمنا مما خافه.

(**ووقع فى نفسه**) أى خطر بباله ووقر فى قلبه، واعتقد لما شاهده (**ظهور النبـى صلى الله تعالى عليه وسلم**)، أى ظهوره على أعدائه وغلبتهم، وظهور نبوته وعلو شأنه، وكان ذلك من مقدمات إسلامه.

قال ابن إسحاق: وقال أبو جهل لما بلغه ما لقى سراقة، فلامه فى تركهم فأنشده:

بنى مدلج إنـى لأخشـى سـفيهكم　　سـراقة يستغنى بنصـر محمـد[1]
عليكـم به أن لا يفـرق جمعكـم　　فيصبح شتـى بعـد عـز وسـؤدد

فأجابه سراقة بقوله:

أبا حكم واللات لو كنت شـاهدًا　　لأمر جوادى إذ تسـيخ قوائمـه[2]
عجبـت و لم تشـكك بـأن محمـدًا　　نبـى وبرهـان فمـن ذا يكاتمـه
عليك بكف النـاس عنـه فإننـى　　أرى أمره يومًـا ستبـدو معالمـه

كذا فى سيرة مغلطاى، رحمه الله تعالى.

(**وفى خبر آخر**) يتعلق بما نحن فيه إلا أنه قيل: إنه لا يعرف مـن رواه (**أن راعيًـا**) مـن رعاة الغنم فى البرية (**عرف خبرهما**): أى خبر النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم، بوقوفـه على مكانهما فى الغار، (**فخرج**) الراعى من محله (**يشتد**) أى يسرع فى مشيه.

قال الراغب: اشتد إذا أسرع، يجوز أن يكون من قولهم: اشتدت الريح، انتهى.

وإنما أسرع لأجل أن (**يعلم قريشًا**) بخبرهما ومكانهما.

(**فلما ورد إلى مكة**): أى جاءها من محله الذى رعى فيه الغنم، وأصل الـورود المجىء للماء، فاستعير للغريب القادم لحاجة، ثم عم لكل جاء وشاع فيه، حتى صار حقيقة فيـه (**ضرب**) بالبناء للمجهول أى ضرب الله (**على قلبه**) أى منع مـن الإدراك، وذهـل عما جاء له كقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ [الكهف: ١١]، وهو مستعار من ضرب الخيمة فى الأرض ليضرب أوتادها، وأصله إيقاع شىء على شـىء كمـا قالـه الراغـب،

(١) البيتين من بحر الطويل.
(٢) الأبيات من بحر الطويل.

فليس كناية عن الذهول والغفلة كما قيل.

(فما يدرى) ويعرف **(ما يصنع)** ويقول، **(وأنسى)** بجهول أيضًا **(ما خرج له)** أى ما جاء له من مكانه الذى خرج منه، **(حتى رجع إلى موضعه)** الذى جاء منه، وهذه معجزة ظاهرة وعصمة قوية.

(و) فى دلائل أبى نعيم عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، **(جاء فيما ذكر ابن إسحاق)** فى سيرته **(وغيره أبو جهل)** عمرو بن هشام فرعون هذه الأمة، لعنه الله تعالى، وهو فاعل جاء، وقوله: **(بصخرة)** متعلق به أى حجر كبير، **(وهو)** أى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فى المسجد **(ساجد، وقريش ينظرون)** له ما يصنع، وكان ذهب **(ليطرحها)** أى ليرمى الصخرة **(عليه)**، وفى نسخة هنا: «وقد كان حلف إن رآه ساجدًا ليدمغنه»، أى ليضربه بها ضربة تكسر رأسه، وتقلع دماغه وتسمى هذه الدامغة أحد الشجاج التى ذكرها الفقهاء فى الجنايات، **(فلزقت)** الصخرة بيده، ولم يقع عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، ولزق بلام وزاء معجمة لغة فى لصق بالصاد بمعنى التصق.

(ويبست يداه إلى عنقه) أى تشجت بحيث لا يمكنه تحريكها، **(وأقبل)** أى انصرف من مقصده نحو قريش حال كونه **(يرجع)** أى راجعًا **(القهقرى)**، ومعناه **(إلى خلفه)** موليا عن وجهته، وفى العين: القهقرى: الرجوع على الدبر، وهو قريب منه، وهو مفعول مطلق مؤكد للرجوع، **(ثم سأله)** أى سأل أبو جهل، لعنه الله تعالى، رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أن يدعو له، ففعل)** أى دعا له صلى الله عليه وسلم، لكرمه وحلمه، **(فانطلقت يداه)** أى عادتا لما كانتا عليه، ولم يلتصقا ببركة دعائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وكان)** أبو جهل **(تواعد مع قريش بذلك)** أى بطرح الصخرة عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا رآه يصلى، **(وحلف لئن رآه ساجدًا ليدمغنه)** أى ليضربنه بصخرة يكسر رأسه، ويخرج دماغه، وهى أحد الشجاج يقال: دمغه إذا أصاب دماغه فقتله، وهذا مقدم فى بعض النسخ كما مر، ويدمغنه بفتح الياء وجوز بعضهم ضمها، والظاهر الأول، **(فسألوه)** أى سأل قريش أبا جهل **(عن شأنه)** أى أمره وما منعه عما قصده، **(فذكر)** لهم **(أنه)** أى الشأن أو أبو جهل **(عرض لى)** أى له كما فى نسخة، ففيه التفات، وقيل: غلب معنى التكلم لأن ذكر بمعنى قال.

(دونه) ظرف أى حال بينى وبينه **(فحل)** أى جمل عظيم هائج، وهو مخصوص بالبعير الذكر، **(ما رأيت مثله)** فى عظمته وشدته **(قط)** أى فى جميع الزمان الماضى، وهى ظرف لتوكيد نفى الماضى بفتح القاف وتشديد الطاء المهملة وكسرها وسكونها مخففة، **(هم**

بى) أى عزم على الحملة على والهجوم، وقوله: **(أن يأكلنى)** بدل اشتمال من ضمير المتكلم أى هم بأكلى.

(فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم) لما سمع مقالته لهم: **(ذاك جبريل)** تمثل له بصورة فحل **(لو دنا)** أى قرب أبو جهل من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، بالصخرة التى أراد طرحها **(لأخذه)** وأكله وأهلكه أخذ عزيز مقتدر، وتفصيله كما فى دلائل البيهقى والسير أن أبا جهل قال: يا معشر قريش إن هذا الرجل قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا وآلهتنا، وتسفيه أحلامنا، وإنى أعاهد الله لأجلسن غدًا عند الحجر بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد رضخت به رأسه، فامنعونى، وليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، فقالوا: والله لا نسلمك لأحد، فامض لما تريد، فلما أصبح جلس ينتظره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ما هو فاعل، فلما جاء صلى الله تعالى عليه وسلم، وصلى فعل ما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، وله وقائع مثل هذه حماه الله منها وعصمه.

(وذكر السمرقندى) إمام الحنفية المشهور، وقد تقدمت ترجمته **(أن رجلاً من بنى المغيرة)** بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم جد أبى جهل، وهذا الرجل قال البرهان: لا أعرفه، وقال غيره: إنه الوليد بن المغيرة، وقيل: إنه أبو جهل **(أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ليقتله، فطمس الله على بصره)** أى غطاه وغشاه حتى لم يره، لا أنه أعماه وأذهبه بالكلية، كما يدل عليه قوله:

(فلم ير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وسمع قوله، فرجع إلى أصحابه، فلم يرهم حتى نادوه) باسمه فعرف مكانهم، وأتاهم ثم رآهم بعد ذلك بشهادة حتى، ويحتمل أنه عمى وذهب بصره.

(وذكر) السمرقندى **(أن فى هاتين القصتين)** أى قصة أبى جهل وقصة هذا الرجل **(نزلت ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ الآيتين)** [يس: ٨]، يعنى **﴿فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾)** [يس: ٨، ٩]، قال البغوى فى تفسير هذه الآية: نزلت فى أبى جهل ورفيقه المخزومى حين حلف إن رآه صلى الله تعالى عليه وسلم، ليرضخن رأسه، وذكر ما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، غير قوله: إنه حال بينه وبينه فحل، وقال المخزومى: أنا أقتله بهذا الحجر، فأتاه وهو يصلى فأعماه الله إلى آخر ما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى.

وفى تفسير القرطبى: أنها نزلت فى أبى جهل وصاحبيه المخزوميين، ثم ذكر قصة أبى جهل، وأن صاحبه الثانى: هو الوليد بن المغيرة، وأنه الذى أعمى الله بصره و لم ير

أصحابه حتى نادوه، فقال الثالث: والله لأشدخن رأسه وأنه رجع وقال بعد ما خر مغشيًا عليه، وسئل عن أمره، فقال: حال بينى وبينه فحل لو دنوت منه أكلنى، وأنه لم ير مثله، فنزلت هذه الآية، فقيل: إنه معارض لما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، فإنه يقتضى أن الذى حال بينه وبينه الفحل الرجل الثانى، لا أبو جهل.

وأما كونه من بنى المغيرة أو مخزوميًا، فلا منافاة فيه لأن كلا نسبه إلى أحد جديه كما مر.

وأجيب: بأن قصة أبى جهل تكررت، فعلها مرة وحده ورأى الفحل، ومرة مع غيره، أو اقتصر فى هذه الرواية على بعض القصة وفيه نظر، والآية على هذا من الاستعارة التمثيلية، فشبه يبس يديه وعدم قدرته على تحريكهما والرمى بمن غلت يده لعنقه، وشبه حالهم وما حال بينهم وبينه بمن بينه وبين مقصده سد مانع عن الوصول.

وما قيل من أن الآية تعزير لتصميم أهل مكة على كفرهم، وإبطال الله كيدهم، فشبهت حالهم بهذه الحال لا منافاة بينه وبين ما قبله؛ لصدق هذا على ما قبله، ومن هذا علم ما فى كلام البيضاوى من سؤال يجاب كما بيناه فى حواشيه.

(ومن ذلك) أى حفظ الله وعصمته **(ما ذكره ابن إسحاق)** إمام أهل السير فى سيرته **(وغيره)** كالكلبى فى تفسيره **(فى قصته)** صلى الله تعالى عليه وسلم، **(إذ خرج إلى بنى قريظة)** بالظاء المعجمة وصيغة التصغير كجهينة قبيلة من يهود خيبر معروفة **(فى أصحابه)** أى فى جماعة منهم أبو بكر وغيره، **(فجلس)** مستندًا **(إلى جدار بعض آطامهم)** بالمد والطاء المهملة جمع أطم بضمتين، وهو الحصن هنا، ويكون بمعنى البيت المربع والقصر، **(فانبعث)** مطاوع بعثه فانبعث: أى توجه وقام، وأصل معنى البعث الإثارة، وقيل معناه هنا: أسرع واندفع.

(عمرو بن جَحّاش) بفتح الجيم والحاء المهملة المشددة وآخره شين معجمة، وهو من بنى قريظة قتل كافرًا **(أحدهم)**: أى بنى قريظة؛ **(ليطرح)** من فوق الجدار **(عليه)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(رحى)** يقتله بها؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لما جلس تحت الحائط تخافتوا بينهم، وقالوا: لن تجدوه على مثل هذه الحالة أبدًا، فمن يعلوا الجدار ويرسل عليه حجرًا يقتله؟ فقال سلام بن مشكم: لا تفعلوا فوالله ليخبرن بما هممتم به، ويكون هذا سببًا لنقض العهد بيننا وبينه، فأخبره جبريل، عليه الصلاة والسلام بذلك.

(فقام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وانصرف إلى المدينة)، وكان هذا سببًا لغزوهم ونقض عهدهم، **(وأعلمهم بقصتهم)** أى أخبر بنى قريظة فى نبذ عهدهم وأصحابه بعد انصرافه أو قبله.

وقد اعترض على المصنف، رحمه الله تعالى، بأن هذه القصة ليست مع بنى قريظة كما فى السير، وسيأتى أيضًا فى هذا الكتاب، وإنما هو مع بنى النضير، وهو سبب غزوة بنى النضير، وأما سبب غزوة بنى قريظة فهو وقعة الخندق وتظاهرهم مع قريش ونقضهم العهد وهو الصواب.

قال ابن سيد الناس: خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى بنى النضير ليستعين بهم فى دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى؛ لحلف بينهم وبين بنى عامر، فلما أتاهم قالوا: نعينك يا أبا القاسم على ما جئت، ثم خلا بعضهم إلى بعض وهموا به كما مر، وقال ابن الملقن: إنه روى أن بنى النضير لما تآمروا ألقوا عليه حجرًا، فأخذه جبريل، ولم يصل إليه صلى الله تعالى عليه وسلم، ويأتى ما فيه.

(وقد قيل: إن قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ﴾ [المائدة: ١١]، **فى هذه القصة نزلت)**، وجعل الهم حينئذ بالمؤمنين، وأن بسط اليد إليهم مع أنه بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وحده؛ لأن ما يصيبه يصيبهم، وموته موت لهم، ولذا قيل: إنها نزلت فى الكفرة لما كانوا غالبين على المؤمنين يوصلون إليهم الضرر والأذية.

وقيل: نزلت فى الأعرابى الذى اخترط سيفه إذ وجده صلى الله تعالى عليه وسلم، وحده كما مر.

وقوله: وقد قيل يحتمل أن يكون إشارة إلى أن هذه القصة فى بنى قريظة، وإن خالف الصحيح المنقول الواقع، ووقع فى بعض التفاسير فتأمله، فإن غفلته عما ذكر بعيدة مع قوله عقبه: **(وحكى السمرقندى أنه)** صلى الله تعالى عليه وسلم، كما رواه ابن سيد الناس وغيره من أصحاب السير، وقد تقدم أنه الصحيح، وأن فى كلام المصنف، رحمه الله تعالى، إشارة إليه **(خرج)** من المدينة **(إلى بنى النضير)** بنون مفتوحة وضاد معجمة مكسورة، وهم قوم من يهود خيبر **(يستعين)** بهم **(فى عقل الكلابيين)** مثنى كلابى رجل منسوب لبنى كلاب، وهى قبيلة من قريش والعقل مصدر عقل البعير يعقله إذا ربطه بالعقال المانع له من الحركة، وأصل معنى العقل المنع، ومنه العقل المعروف لمنعه عما لا يليق كما أشار إليه القائل(١):

قد عقلنا والعقل أى وثاق   وصبرنا والصبر مر المذاق

وسميت به دية المقتول؛ لأنها كانت عند العرب إبلاً يسوقها القاتل ونحوه، فيعقلها بفناء أهل القتيل ليأخذوها، واستعانته صلى الله تعالى عليه وسلم، المراد بها طلبه أن

---

(١) البيت من البسيط، وهو بلا نسبة فى تاج العروس (عقل).

يعينوه فى الدية لما سيأتى (**اللذين قتلهما عمرو بن أمية**)، وفى نسخة الكلابى بالإفراد، وقتل مفرد أيضًا، وعمرو بن أمية هو الضمرى بضاد معجمة مفتوحة وميم ساكنة وراء مهملة نسبة لبنى ضمرة، وهم قومه، وهو عمرو بن أمية بن خويلد بن عبد الله بن إياس الصحابى الذى كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، يبعثه فى أموره، وهو الذى ذهب للنجاشى بكتابه، فأجابه وأسلم وزوجه أم حبيبة، أسلم بعد أحد وشهد بئر معونة، ومات بالمدينة فى خلافة معاوية، رضى الله تعالى عنه، وهو الذى قتل الكلابى، فهو مرفوع فاعل قتل، والتثنية هى الموافقة لما فى السير من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، بعث المنذر بن عمرو الساعدى أحد نقباء ليلة العقبة فى ثلاثين راكبًا من المهاجرين والأنصار إلى بنى عامر بن صعصعة، فلقوا عامر بن الطفيل ببئر معونة فاقتتلوا، فقتل المنذر وأصحابه، ونجا عمرو الضمرى وحده أو وصاحب له على اختلاف فى الرواية، ورجعا فلقيا رجلين من بنى سليم، وكان بينهم وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، موادعة، فانتسبا لهما إلى بنى عامر، فقتلاهما وكان عمرو لا يعرف ذلك العهد، ولو عرفه لم يفعله، ولذا لزمته الدية؛ لأنه خطأ، فقدم قومهما على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، يطلبون ديتهما، فخرج لبنى النضير هو وأبو بكر وعمر وعلى، رضى الله عنهم، يستعينهم فى العقل؛ لأنهم كانوا عاهدوه على ترك القتال، والإعانة فى الديات، فلما دخل عليهم وطلب ذلك منهم أجابوه، وقالوا له: اجلس حتى نأتى لك بما سألت، فجلس بجنب جدار من بيوتهم.

كما أشار إلى ذلك بقوله: (**فقال له**) أى لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رجل منهم اسمه (**حيى**) بضم الحاء المهملة ومثناتين تحتيتين الأولى مفتوحة مخففة والثانية مشددة (**ابن أخطب**) بزنة أفعل بخاء معجمة وطاء مهملة وموحدة وجوز فى حاء حيى الكسر، وهو من يهود بنى النضير، ومن رؤسائهم والد صفية أم المؤمنين: (**اجلس يا أبا القاسم حتى نطعمك، ونعطيك ما سألتنا**) من الدية، وهو عطف تفسير على نطعمك؛ لأن الطعم بالضم فى الأصل المأكول فتجوز به عما ذكر كما يقال: أقطعه الأرض طعمة له أى عطية.

(**فجلس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، مع أبى بكر وعمر**) وزاد أبو نعيم: الزبير وطلحة، وسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وسعد بن عبادة، وفى سيرة ابن إسحاق: فى نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى، ولا منافاة بين الروايات (**وتوامر**) بفتح التاء الفوقية والواو، ويقال: بالهمزة تفاعل من الأمر أى نظر كل أمر الآخر، والمراد به هنا المشاورة يقال: وامره وآمره وقيل: الواو لغة العامة (**حيى معهم**) أى مع بنى النضير أى تشاوروا واتفقوا (**على قتله**) صلى الله تعالى عليه وسلم، بإلقاء الحجر عليه، (**فأعلم**

جبريل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بذلك) الذى أرادوه قبل وقوعه، **(فقام)** من تحت الجدار بسرعة، **(كأنه يريد حاجة)** أى أراهم صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه يريد حاجة له، وفى نسخة حاجته بالإضافة، فيحتمل قضاء الحاجة المعهودة للإنسان، فإنه يكنى بها عنها كثيرًا.

(حتى دخل المدينة)، ثم سار إليهم وحاصرهم ست ليال، وهم داخل حصنهم، فقطع نخيلهم وحرقها تنكيلا لهم، كما قال حسان(١):

وهان على سراة بنى لؤى حريق بالنويرة مستطير

فقال صلى الله تعالى عليه وسلم، لهم: اخرجوا ولكم ما حملت الإبل، فنزلوا على ذلك، وحملوا ما لهم من الأمتعة على ستمائة بعير، ولحقوا بخيبر، وأخذ منهم صلى الله تعالى عليه وسلم، الأموال، ومن الحلقة خمسين درعًا وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفًا، فكان ذلك مرصدًا لنوائبه، ولم يسهم منها لأحد غير أبى دجانة وسهل بن حنيف؛ لفقرهما، ثم قسمها بين المهاجرين رفعًا لمؤنتهم عن الأنصار إذ كانوا قاسموهم الأموال والديار لما هاجروا إلى المدينة، ثم إنه قيل: إن ما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، يقتضى أن اليهود هموا بإلقاء الحجر عليه، ولم يلقوه، وذكر ابن الملقن كما مر أنهم ألقوه عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، فأخذه جبريل، عليه الصلاة والسلام، ومنعه عن الوصول إليه، والمشهور الأول.

(وذكر أهل التفسير معنى الحديث عن أبى هريرة) كما رواه مسلم والنسائى، أى رووه بهذا المعنى، وفى بعض النسخ وروى أهل التفسير الحديث عن أبى هريرة، وهما أحسن مما فى بعض النسخ، وذكر أهل التفسير، ومعنى الحديث بالواو العاطفة فإنه محتاج للتقدير أى وذكره أهل الحديث، وعلى هذا فقوله عن أبى هريرة خبر عن معنى وهو مبتدأ، والجملة معترضة بين ذكر ومفعوله، وهو **(أن أبا جهل وعد قريشًا لئن رأى محمدًا)** جواب قسم مقدر، لما مر من أنه حلف لهم على ما وعدهم به، وقوله: **(يصلى)** جملة حالية **(ليطأن رقبته)** أى يدوس على عنقه الشريف برجله، حماه الله، **(فلما صلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)**، بالمسجد الحرام **(أعلموه)** أى أعلمه قريش به، **(فأقبل)** متوجهًا إليه ليدوسه إهانة منه لمن أعزه الله، **(فلما قرب منه ولى)**، ورجع عن مقصده حال كونه **(ناكصًا على عقبيه)** أى متأخرًا راجعًا لخلف، والعقب مؤخر القدم **(متقيا بيديه)** أى مادًا يديه كمن يدفع أمرًا يتقيه، وفى بعض النسخ ولى هاربًا ناكصًا على

---

(١) البيت من الوافر، وهو فى ديوان حسان (ص٢٥٢)، تاج العروس (١٠/٢٥٧)، معجم ما استعجم (ص٧٥٣)، معجم البلدان (١/٥١٢).

عقبيه، فهى حال متداخلة أو مترادفة، ونكص على عقبيه يستعمل فيمن ولى عن خير أو عن شر يخاف عاقبته كما هنا.

إلا أنه قيل: إن الثانى نادر، وذهب الجوهرى وصاحب النهاية إلى أنه يختص بالأول، وفى القاموس: نكص عن الأمر تكأكأ عنه وأحجم، وعلى عقبه رجع عما كان عليه من خير، فهو خاص بالرجوع عن الخير، ووهم الجوهرى فى إطلاقه أو هو فى الشر نادر، انتهى.

وفى نفوذ السهم فيما فى الجوهرى من الوهم كون النكوص مخصوصًا بما ذكر غير ثابت فى اللغة.

وقوله: (**فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه**) لا دليل فيه؛ لأنه وإن كان رجوع الشيطان عن معاونة الكفار ببدر، ليس رجوعًا عن خير يحتمل الاستعارة التهكمية، وقد مر الكلام عليه أيضًا فى إعجاز القرآن فتأمله.

(**فسأل**) أى سأل قريش أبا جهل (**عن ذلك**) أى عن رجوعه كذلك وما سببه، (**فقال**) مجيبًا لهم: (**لما دنوت منه أشرفت**) أى اطلعت قريبًا منى (**على خندق**) حفير (**مملوء نارًا كدت أهوى**) أى أقع وأسقط (**فيه، وبصرت هولاً عظيمًا**) أى أمرًا مخوفًا عظيمًا لم أر مثله مما ذكر ومن غيره كالفحل الذى أراد إهلاكه، (**وخفق أجنحة**) أى أجنحة يضرب بعضها بعضًا لها أصوات هائلة (**قد ملأت الأرض**) الذى كان فيها، وهى أجنحة الملائكة التى أرسلت لحمايته ونصره، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما أشار إليه بقوله: (**فقال، عليه الصلاة والسلام: تلك الملائكة لو دنا**) أى قرب منه لإيقاع ما قصده، (**لاختطفته**) الملائكة (**عضوًا عضوًا**) أى مزقته وفرقت أعضاءه، وهو منصوب على الحال بتأويل ممزقًا مفرقًا كقرأت النحو بابًا بابًا كما فصله النحاة.

(**ثم أنزل الله**) وحيه (**على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم**)، فى شأن ذلك، فقال: (﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧] **إلى آخر السورة**) يعنى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٨ - ١٠] إلى آخره، ويناسب ما ذكر قوله: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥]، وقوله: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق: ١٨، ١٩]، فالمراد بالإنسان أبو جهل، وطغيانه تجاوز حده.

قيل: هذه القصة فى صحيح مسلم، فالذى ينبغى نقلها منه دون التفاسير، وهو أمر سهل لا ينبغى الاعتراض بمثله، وتفصيل معنى الآية فى التفاسير، فلا حاجة لذكره.

(**وروى**) الراوى له أبو نعيم فى الدلائل (**أن شيبة بن عثمان الحجبى**) بفتح الحاء

المهملة والجيم وموحدة وياء نسبة لحجبة جمع حاجب ككتبة جمع كاتب، وفى النسبة إلى الجمع يرد إلى مفرده، والقياس حاجبى لكنه لما غلب على حجبة الكعبة جاز النسبة إليه كأنصارى، أو لأنه على زنة المفرد، ومثله ينسب إليه على قول، والحاجب من يتولى الحجابة وهو البواب، ومن بيده المفتاح، من الحجب وهو المنع، وشيبة علم منقول من الشيب المعروف، وهو شيبة بن عثمان بن أبى طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى الصحابى المشهور، خادم الكعبة ومن بيده مفتاحها، وهو بيد أولاده إلى الآن أسلم يوم الفتح، وقيل: يوم حنين، ومات سنة تسع وخمسين، وأخرج له البخارى وأحمد فى مسنده وأبو داود، وترجمته معروفة، وما فى النسخ الجمحى بميم غلط من الناسخ.

(أدركه) صلى الله تعالى عليه وسلم، أى لحق به ووصل إليه **(يوم حنين)** فى غزوتها وهو واد قريب من الطائف معروف **(وكان)** قبل ذلك **(حمزة)** عم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وسيد الشهداء **(قد قتل أباه)** عثمان بن أبى طلحة، **(وعمه)** طلحة بن أبى طلحة المشهور، وكان قتله لهما بأحد، وكان طلحة ليث الكتيبة، وحامل لواء الكفرة، فلما قتل حمل اللواء أخوه عثمان فقتل إلا أنه قيل: إن المروى فى السير أن الذى قتل طلحة، على بن أبى طالب، فلما أخذ اللواء أخوه عثمان حمل عليه حمزة فقتله، وقال الذهبى فى تجريده: إن الذى قتل أبا شيبة على أيضًا، وهو مخالف لما قاله المصنف، رحمه الله تعالى، كما قاله البرهان الحلبى، وفى سيرة ابن سيد الناس أن عليًّا ضرب أباه فأزال منعته، فحمل عليه حمزة فقطع يده وكتفه وقده، حتى بدا سحره أى ريته، فكل من على وحمزة له دخل فى قتله إلا أن عليًّا لما زال منعته وقوته نسب القتل له حتى استحق سلبه، فلا منافاة بين كلام المصنف، رحمه الله تعالى، وكلام غيره.

(فقال) أى شيبة لما أدركه: **(اليوم)** المراد الوقت الحاضر **(أدرك ثأرى)** بمثلثة وراء مهملة بينهما ألف وتهمز وهى الأصل، وهو طلب الدم وأخذ حق من قتله **(من محمد)**؛ لأنه سبب قتله، فأراد أن ينتقم منه ويشفى غيظه وحزازة نفسه لتمكنه منه، **(فلما اختلط الناس)** فى القتال وازدحموا، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيهم **(أتاه من خلفه)** بحيث لا يراه، **(ورفع سيفه)** بيده **(ليصبه عليه)** أى ليضربه ويقتله، ويأخذ ثأره ويشفى غليله ممن كان سببًا لقتل أبيه وعمه، وأصل الصب إراقة الماء، واستعير للضرب بالآلة كالسيف، قال الله تعالى: ﴿**فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ**﴾ [الفجر: ١٣]، ويرشحه أن السيف يشبه بالماء لرونقه وفرنده.

(قال) شيبة: **(فلما دنوت منه)** أى لما قصدت ذلك **(ارتفع إلى)** أى علا وصعد إلى من

جانبه **(شواظ)** أى لهب **(من نار)**، والشواظ اللهب مطلقًا، أو لهب لا دخان له، أو لا يخالطه غيره، أو يخالطه شيء آخر وهو بضم الشين المعجمة وكسرها، وقوله: من نار: بيان مؤكد لأن اللهب لا يكون إلا من النار **(أسرع)** فى ارتفاعه **(من البرق، فوليت هاربا)** خوفًا من أن يحرقنى **(وأحس بى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى علم رجوعى عنه، **(فدعانى)** فجئته، **(فوضع يده على صدرى وهو أبغض الخلق إلىّ)**؛ لأنه أسلم خوفًا من القتل، ولم يخلص إيمانه وفى قلبه حقد على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من قتل أبيه وعمه، **(فما رفعها)** أى يده عن صدرى **(إلا وهو أحب الخلق إلىّ)** فبدل الله بغضه بحبه، وأزال عن صدره وقلبه الحقد وأثر الكفر، فلما علم ذلك منه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، أحبه، **(وقال لى: ادن)** من العدو أو منى **(وقاتل)** فى سبيل الله خالص السريرة مخلصًا ببركة مس يده، صلى الله تعالى عليه وسلم له، **(فتقدمت أمامه)** بين يديه **(أضرب بسيفى)** كل من لقيته من الكفار **(وأقيه بنفسى)** أى أجعلها وقاية له صلى الله تعالى عليه وسلم، مانعة عنه، **(ولو لقيت تلك الساعة)** التى قاتلت فيها **(أبى لأوقعت به)** سيفى وقتلته، وفى بعض النسخ **(دونه)** وإنما خص للمبالغة فى عموم قتله لمن لقى حتى أعز الناس، وللإشارة إلى أن سبب بغضه وهو قتل أبيه قد زال بالكلية، حتى يجوز عنده أن يقتله بنفسه فضلاً عن قتل قاتله.

والحديث مفصل فى سيرة ابن سيد الناس بسند صحيح مروى عن شيبة، وكان صالحًا ذا فضل حدث بإسلامه، وأنه إنما سار لحنين ليغتال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، لكراهته له، وأن ذلك لم يزدد فى قلبه وتصميم عزمه على قتله، فلما اختلط الناس نزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، عن بغلته، فدنوت منه وذكر ما هم به، وأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، مسح صدره، وقال: اللهم أعذه من الشيطان، فأذهب الله ما بقلبه حتى صار أحب إليه من نفسه وأهله وأبيه، فلما رجع ودخل خباْه، فدخلت عليه كغيرى حبًا لرؤية وجهه، فقال لى: يا شيب الذى أراد الله بك خير مما أردت بنفسك، وحدثنى بكل ما أضمرته فى نفسى مما لم أذكره، فقلت: إنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، ثم قلت: استغفر لى، فقال: غفر الله لك(١).

(وعن فضالة بن عمرو) عن ابن إسحاق وابن سيد الناس، وفضالة بضم الفاء وفتحها وتخفيف الضاد المعجمة واللام، وأبوه عمرو ويقال: عمير بالتصغير ابن الملوح الليثى، والتصغير أصح، والملوح بكسر الواو المشددة وفتحها اقتصر على الثانى فى القاموس.

---

(١) أخرجه ابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٦/٣٥).

(قال: أردت قتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، عام الفتح) أى فتح مكة **(وهو يطوف بالبيت، فلما دنوت منه قال: أفضالة)** الهمزة للنداء، وفى نسخة فضالة بدون همزة وحرف النداء مقدر فيه قيل: ويمكن أن تكون الهمزة للاستفهام وفضالة خبر مبتدأ محذوف تقديره: أأنت فضالة؟ فقال: نعم، تصديقًا له، والاستفهام حقيقى، وكونه للتعجب مما يختلج فى صدره، أو إجابة لندائه أو إعلام له بأنه فضالة كما قيل تكلف لا يخفى.

(قلت: نعم قال: ما كنت تحدث به نفسك) حديث النفس عبارة عما يخطر بالقلب.

(قلت: لا شىء) أى لم يخطر بقلبى شىء فما ظننته، **(فضحك فاستغفر لى)** أى دعا لى بأن يغفر الله لى ما خطر بقلبى، **(ووضع يده على صدرى)** ليذهب الله ما فيه من الضلال، وما عزم عليه من الأوهام، **(فسكن قلبى)** أى اطمأن وذهب ما فيه من الوسواس وتكذيب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، وثلج صدره ببرد اليقين.

قال فضالة: **(فوالله ما رفعها)** أى رفع يده عن صدره، **(حتى ما خلق الله شيئًا أحب إلىّ منه)**.

وحديثه كما فى سيرة ابن إسحاق وابن سيد الناس: أنه أراد قتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو يطوف عام الفتح، وذكر ما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، ثم قال: فرجعت إلى أهلى ومررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هلم إلى الحديث، فقلت: لا، وانبعثت أقول:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك الله والإسلام[1]
أو ما رأيت محمدًا وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الأصنام
ورأيت دين الله أضحى بينا ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

وفضالة الليثى هذا هو ابن وهب بن بجرة بن يحيى بن مالك، وليس هو الزهرانى، فإنه تابعى غيره، ومن ظنه هذا فقد أخطأ.

(ومن مشهور ذلك) أى عصمة الله لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم، ما رواه ابن إسحاق والبيهقى بلا سند، وأبو نعيم فى الدلائل مسندًا إلى عروة **(خبر عامر بن الطفيل)** العامرى، وهو عامر بن الطفيل بن عامر بن مالك سيد بنى عامر فى الجاهلية، مات كافرًا بالاتفاق **(وأربد بن قيس)** بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة، وفتح الموحدة ودال مهملة، وهو أخو لبيد بن ربيعة الصحابى لأمه، وكان شاعرًا مفلقًا ومات على الكفر أيضًا، **(حين وفدا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وذلك أنه لما فرغ رسول الله

(١) الأبيات من بحر الكامل.

صلى الله تعالى عليه وسلم، من تبوك وأسلمت ثقيف، ودخل الناس فى الإسلام أفواجًا، قدمت عليه وفود الناس أفواجًا، فوفد عليه أربعة من رؤسائهم عامر بن الطفيل، وأربد ابن قيس وغيرهما.

(**وكان عامر قال له**) أى لأربد: (**أنا أشغل عنك وجه محمد**) أى ألهيه حتى تبطش به، (**فاضربه أنت**)، وخصه بسره لما بينهما من الصداقة، فامتثل أمره وهم بذلك، فانتظره ليفعل ما أمره به، (**فلم يره**) أى لم ير عامر أربد، (**فعل شيئًا**) مما اتفقا عليه من البطش به، وعامر يكلمه صلى الله تعالى عليه وسلم، ويلهيه، (**فلما كلمه**) أى كلم عامر أربد (**فى ذلك**) أى فى الأمر الذى اتفقا عليه بأن قال له مالك: لم تفعل ما اتفقنا عليه من البطش برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فاعتذر إليه (**قال له: والله ما هممت أن أضربه**) أى أضرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، بالسيف (**إلا وجدتك بينى وبينه**) أى أرى جسدك حائلاً بينى وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، بحيث لو ضرب ضرب صاحبه، (**أفأضربك؟**) إنكار له أى كيف أضربك؟، وكان عامر شاعرًا ورئيسًا مطاعًا فى قومه، فقالوا له لما جاءت العرب أفواجًا للإسلام: إن الناس قد أسلموا فأسلم فقال: إنى آليت لا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى، أفأتبع فتى من قريش، ثم قدم هو وأربد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال له ما قصه المصنف، رحمه الله تعالى، فخرجوا راجعين لبلادهم.

وفى الدلائل: أنه قال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم: خالنى يا محمد، فقال: لا حتى تؤمن بالله وحده، وقال ذلك مرارًا وهو يجيبه بذلك، فقال: والله لأملأنها عليك خيلا ورجلاً تواعدًا منه بأن يغزو المدينة، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: اللهم اكفنى عامرًا، فلما رجع أصابه طاعون فى عنقه، فمات فى بيت امرأة من سلول، فكان يقول: غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية، يعنى أخس موتة فى أخس قبيلة، فمات كافرًا وواروا جثته التراب، ورجع أصحابه لقومهم، فقالوا لأربد: ما وراءك يا أربد؟ فقال: لا شىء لقد دعانا لعبادة شىء، ولقد وددت أنه عندى الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله، ثم خرج بعد مقالته هذه بيوم أو يومين، ومعه جمل له، فأصابتهما صاعقة أحرقتهما، فهلك كافرًا كما مر.

وعن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، أن عامرًا قدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو فى المسجد مع أصحابه، وكان من أجمل الناس إلا أنه كان أعور، فجعل الناس ينظرون لجماله، وأخبروا به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: إن يرد الله تعالى به خيرًا يهده، فقام وقال: يا محمد مالى إن أسلمت؟ فقال: لك ما

للمسلمين وعليك ما عليهم، فقال: أتجعل لى الأمر من بعدك؟ قال: ذاك ليس إلىّ إنما هو لله يجعله حيث يشاء قال: أتجعلنى على الوبر وأنت على المدر؟ أى حكم البادية وحكم المدن، قال: لا.

قال: فما تجعل لى قال: أجعل لك أعنة الخيل الغازية فى سبيل الله.

قال: أو ليس لى أعنة الخيل اليوم، فقم معى أكلمك، فقام صلى الله تعالى عليه وسلم، معه، وكان عامر وصى أربد إذا خلا به أن يدور من خلفه ويضربه بسيفه.

وروى أن الغدة كانت فى ركبته ورويت القصة على وجوه أخر هذه محصلها كما فى السير وكتب التفسير، غير أن البغوى، والقرطبى فى التفسير ذكرا أن أربد دار خلفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، واخترط سيفه، فقال: اللهم اكفنيهما بما شئت، فوقعت عليه صاعقة فأهلكته، وهو يقتضى أنه مات قبل عامر.

وفى هذين التفسيرين أن أربد بن ربيعة، والمصنف، رحمه الله تعالى، قال: إنه ابن قيس، ولا منافاة بينهما كما توهم؛ لأن ربيعة جده الأعلى.

وفى أربد نزل قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ١٣]، وأجمعوا على أن عامرًا مات كافرًا كما مر.

وفى التجريد للذهبى: عامر بن الطفيل بن مالك العامرى سيد بنى عامر فى الجاهلية، روى عنه أبو أمامة كما ذكره المستغفرى، ونقله البرهان الحلبى وفيه نظر.

(ومن عصمته) أى حفظ الله تعالى له **(أن كثيرًا من اليهود والكهنة)** جمع كاهن، وهو الذى يخبر عن المغيبات وما يقع فى المستقبل بما يتلقاه أو يعرفه بفراسته، ويسمى الثانى عرافًا **(أنذروا به)** أى أخبروا وأعلموا، والإنذار إعلام المخوف قبل وقوعه، **(وعينوه لقريش)** أى بينوا ذاته الشريفة لهم، **(وأخبروهم بسطوته بهم)** أى أنه يغزوهم ويقتلهم، **(وحضوهم على قتله)** أى حثوهم وحرضوهم على ذلك، حتى يسلموا منه، **(فعصمه الله عز وجل)** بأن حفظه ومنعه من كيدهم مع أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، كان بين أظهرهم بمفرده، **(حتى بلغ)** الله تعالى بلطفه وحفظه له **(فيه أمره)** بأن نصره وأظهر دينه على جميع الأديان **(أن الله تعالى بالغ أمره)**، وبلغ بفتح اللام المخففة من البلوغ، قال الراغب: هو الانتهاء إلى أقصى الأمد والمنتهى مكانًا أو زمانًا أو أمرًا من الأمور المقدرة، انتهى.

(ومن ذلك) أى عصمة الله له صلى الله تعالى عليه وسلم، وصيانته ما رواه الشيخان، وهو **(نصره بالرعب)** أى بإلقاء الخوف منه فى قلوب أعدائه ومن لم يتبعه **(مسيرة شهر)**: أى فى مكان بعيد عنه أقل ما يقطع مسافته فى شهر: أى فى ثلاثين يومًا: **(كما قال**

صلى الله تعالى عليه وسلم)، أي أنه ثابت بهذا اللفظ في الحديث الصحيح، كما تقدم.

وهو في الصحيحين وفي مسند أحمد عن أبي هريرة، رضي الله تعالى عنه، أنه قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب»(١)، قيل: وهو مخصوص به، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولو كان وحده، وتقييده بالشهر لأنه لم يكن بينه وبين أعدائه أكثر منه، وتخصيصه به باعتبار من قبله، فإن ابن حجر، رحمه الله تعالى، قال: إن ذلك لأمته من بعده أيضًا، ويؤيده أن في مسند أحمد: «الرعب يسعى بين يدي أمتي شهرًا»، والرعب كناية عما يلزمه من الظفر.

* * *

فصل مما أكرمه الله تعالى به ﷺ

(ومن معجزاته) أي أموره الخارقة للعادة التي عجز غيره عنها وعن معارضتها والإتيان بمثلها، وتاء المعجزة للمبالغة كهاء علامة، أو للتأنيث؛ لأن المراد الآية والعلامة أو الخصلة المعجزة **(الباهرة)** أي البالغة أو الظاهرة على غيرها، من بهر القمر بضوئه الكواكب حتى أخفاها، وهو تشبيه بليغ أو استعارة مصرحة **(ما جمعه الله له من العلوم والمعارف)** جمع معرفة لا معروف كما قيل؛ لأنه على تقديره غير مناسب، والعلم والمعرفة بمعنى، وقد يفرق بينهما بتخصيص الثاني بالأمور الجزئية، أو بما يسبقه جهل على كلام فيه، تقدم تفصيله، ومن بيانية ويجوز أن تكون تبعيضية، والأول أظهر.

(وخصه به) أي جعله مخصوصًا به دون من قبله، وكذا خص أمته بما لم يكن لغيرهم من الأمم من العلم، وكثرة التأليف، والتصنيف الذي لم يكن لأمة من الأمم، مع قصر أعمارهم وضعف أبدانهم، والباء تدخل على المقصور والمقصور عليه، وفي أيهما الأصل كلام مفصل في حواشي المطول لا حاجة لنا به هنا.

(من الاطلاع) أي الوقوف والعلم وهو بيان لما.

(على جميع مصالح الدنيا والدين) متعلق بالاطلاع ومصالح الدنيا ما يصلح به أمر المعاش، ومصالح الدين معرفة أحكامه المصلحة لهم في الدارين، ولا ينافي هذا أي اطلاعه على مصالحهما قصة بدر في اختياره صلى الله تعالى عليه وسلم، الفداء، وكان الأولى به ما رآه عمر، رضي الله تعالى عنه، من قتلهم، حتى عوتب صلى الله تعالى عليه وسلم، على ذلك، وكذا منعه صلى الله تعالى عليه وسلم، الناس من تأبير النخل، فلم يثمر في ذلك العام، فقال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم مني»(٢)، إما لأنه كما قيل كان له حالات

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (١٤١/٢٣٦٣).

وأطوار منها ما يغلب عليه عدم الالتفات للأسباب الظاهرة؛ لقصر نظره على تفويض الأمر لله، والتوجه للعلم بالله، وقطع نظره عن الحوادث الكونية، وعلم عمر، رضى الله تعالى عنه، مقتبس منه ومن نور مشكاته كما قيل:

كالبحر يمطره السحاب وما له مَنٌّ عليه لأنه مِنْ مائه[1]

وما قيل من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، بنى أمره فى ذلك على الظن دون الجزم، والأنبياء قد يظنون فى أمور الدنيا المجردة عن الآخرة ما الأمر على خلافه، ليس بشىء.

وقيل: إنه إنما كان ليعلم الله نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالمشاهدة وتبين الأمر، حتى يكون شرعًا متبعًا، ولو بقى الأمر كما كان، فقد يقال: إنه كما وجد بقى، والحكم بالدليل أقوى عنه بالسكون وفيه نظر.

وقال السنوسى: أراد صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يحملهم على خرق العوائد فى ذلك اعتمادًا على التوكل، فلم يمتثلوا و لم يصبروا، ولو صبروا كان خيرًا لهم بأن يمتثلوا ويصبروا سنين فأكثر، فلو فعلوه كفوا ذلك؛ لأنه أعلم منهم بذلك وغيره، قيل: وهو فى غاية الحسن لمن تأمله وسيأتى تتمته، إن شاء الله تعالى.

(ومعرفته) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بأمور شرائعه)** التى شرعها الله تعالى له ولعباده على لسانه: جمع شريعة، وهى فى الأصل طريق مسلوكة، ومورده ما يباح، نقلت لوضع إلهى موصل لسعادة الدارين، والمناسبة بينهما ظاهرة، **(وقوانين دينه)** جمع قانون، وهى لفظة معربة من الرومية، معناه الأصل المقيس عليه، ثم نقل لقضية كلية يستخرج منها أحكام جزئياتها بجعلها كبرى لصغرى سهلة الحصول تنتج المطلوب، كما تقرر فى محله.

والدين والملة بمعنى وإن تغايرا مفهومًا، والمراد بمصالح الدنيا والدين منافع ذلك وحكمه وفوائده، وهو غير ضبطه لأمور الشريعة وقوانينها، فما قيل من أنه إذا حصل له العلم بجميع مصالح الدنيا والدين، فقد خص مما يخص به بشر قبله، فيكون الثانى غير الأول، فما موقع قوله ومعرفته إلى آخره؛ لأن جملة الدين مبنية على جلب المصالح ودرء المفاسد خبط لا فائدة فيه، كما يعلم مما قررناه.

(وسياسة عباده) أى القيام بضبط العامة من عباد الله، فالضمير لله، والسياسة لفظ عربى من ساسه يسوسه إذا أمره، ومن قال: إنه معرب من سهسأ أى ثلاثة قوانين، فقد أخطأ، ولها معنى آخر عند الفقهاء، وربما تجعل مقابلة للشرع، ولا يصح ذلك هنا، وفى القاموس أنها مصدر سست الرعية إذا أمرتها ونهيتها.

---

(١) البيت من بحر الكامل، وهو بلا نسبة فى تاج العروس (١/١١٧).

(ومصالح أمته) المراد الإجابة، وأمة الدعوة، والظاهر أن المراد غير ما تقدم كالسؤال عن أمورهم، وقضاء ديونهم، والإحسان إلى فقرائهم وغير ذلك من لطفه بهم، **(و)** معرفة **(ما كان فى الأمم قبله)** مما وقع لهم وجرى بينهم **(من الاختلاف)**: أى مخالفة بعضهم لبعض، وما جرى لهم من النعم والنقم التى لا يعلمها إلا القليل من أهل الكتاب وعلمائهم، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم، أمى نشأ فى أمة أمية، ولم يرتحل للبلاد النائية، ولم يعاشر بقايا الأمم الخالية مما بينه أحسن بيان، وقرره أحسن تقرير، **(وقصص الأنبياء والرسل)** من عطف العام على الخاص، والفرق بينهما مشهور، وقصص بكسر القاف جمع قصة أو بفتحها مصدر قصه يقصه قصصا إذا حكاه، **(والجبابرة)** جمع جبار وهو المتكبر.

قال الراغب: الجبار فى صفة الإنسان الذى يجبر نقصه بادعاء منزلة من التعالى لا يستحقها، ولا يقال إلا على طريق الذم، كقوله تعالى: **(وخاب كل جبار عنيد)**، ويقال للقاهر لغيره جبار كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، انتهى، وقد تقدم ما فيه الكفاية.

(والقرون الماضية) قبله من الأمم، وقد تقدم معنى القرن ومقدار زمانه، وأصله الزمان ثم أطلق على أهله، قيل: يجوز أن يراد الأمم التى هلكت، ولم يبق منها أحد لأنه يطلق على ذلك وأن يراد الزمن نفسه، **(من لدن آدم إلى زمنه)** لدن ظرف زمان مبنى ومعرب فى لغة قيس، وهو قريب من معنى عند، وبينهما فرق ذكره النحاة أى أحاط علمه بذلك، وأخبر به أمته.

(وحفظ شرائعهم وكتبهم)، ولم يقرأ ولم يكتب، **(ووعى سيرهم)** الوعى الحفظ والجمع، والسير جمع سيرة بالكسر، وهى حالة الإنسان غريزية أو مكتسبة، يقال: سيرة حسنة وسيرة قبيحة، قال الله تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١]، أى إلى حالتها الأولى: أى حفظه وجمعه فى ذهنه لأحوالهم وما كانوا عليه، **(وسرد أنبائهم)** أى سوق أخبارهم للناس سوقًا حسنًا منتظمًا كسرد حلقات الدرع ونسجها، **(وأيام الله فيهم)** أو وقائعهم التى قدرها الله لهم، والأيام تطلق على الوقائع والحروب كأيام العرب، وهو معنى مشهور صار حقيقة عرفية؛ وقيل: المراد نعمه ولا وجه له، **(وصفات أعيانهم)** أى كبارهم ورؤسائهم، وقيل: المراد ذواتهم كما وقع فى الإسراء من ذكر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وصفات ذواتهم.

(واختلاف آرائهم) جمع رأى أى عقائدهم ونحوها، **(والمعرفة بمددهم)** جمع مدة، وهى مقدار من الزمن أى كم كانت مدة كل أمة ومدة ملكهم وملوكهم وأنبيائهم؟،

(وأعمارهم) جمع عمر بضم العين وفتحها وهى مدة الحياة، **(وحِكَم)** جمع حكمة، وهو قول الصواب المتضمن للنصيحة أى موعظة **(حكمائهم)** جمع حكيم، وهو العالم بالحكمة الناصح لغيره المعلم للحكمة فى عصره كحكماء الفرس والعرب وغيرهم، **(ومحاجة كل أمة من الكفرة)** أى ذكر حجته وبرهانه وما حاج به غيره، وقيل: المراد محاجته نفسه لغيره كمحاجته لنصارى نجران، ومباهلته لهم والظاهر ما قدمناه.

(ومعارضته) أى مخالفته ورده **(كل فرقة)** وطائفة **(من الكتابيين)** أى أهل الكتاب، والمراد به التوراة والإنجيل؛ لأن الزبور والصحف لم تتضمن الأحكام، ولم تشتهر، وهو جمع كتابىٍّ بياء النسبة، **(بما فى كتبهم)** متعلق بمعارضة، وجمعها لاشتمالها على ما فى غيرهما؛ ولأن الجمع باعتبار المعنى كثير **(وإعلامهم بأسرارها)** أى دقائق معناها التى لم يطلعوا عليها، **(ومخبآت علومها وأخبارهم)** بكسر الهمزة مصدر مضاف للفاعل ويجوز فتحها أى ما خفى عليهم منها **(بما كتموه)**: أى أخفوه كصفته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقصة رجم الزانى المشهورة **(من ذلك)** الإعلام وما معه، **(وغيروه)** بتحريف لفظه وتأويله بغير معناه **(إلى الاحتواء)** أي الاشتمال والحفظ والتضمن، متعلق بجمع السابق أول الفصل لتضمنه معنى ضم أو إلى بمعنى مع.

(على لغات العرب) جميعها من غير قومه، **(وغريب ألفاظ فرقها)** جمع فرقة، وهى الطائفة المتفرقة، **(والإحاطة بضروب فصاحتها)** تركيبًا وإفرادًا، فكان صلى الله تعالى عليه وسلم، يخاطب كل قوم بلغتهم كما تقدم، **(وأمثالها)** جمع مثل، وهو كلام شبه مضربه بمورده، **(وحكمها)** أى جوامع كلمها فى النصائح، فإن العرب معروفة بذلك، وحكماء العرب وحكمهم مشهورة.

(ومعانى أشعارها) فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يعرفها، وإن لم ينشدها موزونة ويتكلم بها، **(والتخصيص)** أى تخصيص الله إياه بنطقه **(بجوامع كلام العرب)** أى الألفاظ الحسنة البليغة الجامعة للمعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة، وقد يراد به القرآن، وليس بمراد، ومفرده جامعة **(إلى المعرفة بضرب الأمثال الصحيحة)** الأمثال المتقدمة أمثال صادرة ممن قبله، وهذه أمثال ابتدعها، صلى الله تعالى عليه وسلم، والأمثال النبوية مشهورة مدونة، وإلى كالتى تقدمت، والجار والمجرور هنا وما بعده متعلق بمقدر، أو بدل مما قبله، أو متعلق به بعد تقييده، وإلى فيها بمعنى اللام؛ لأن العامل الواحد لا يتعدى بحرفين بمعنى واحد فأكثر، إلا على هذه الوجوه كما قرره فى قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾ [البقرة: ٢٥].

وتقدم تفسير المثل وأن ضربه من ضرب الخاتم إذا طبعه وصاغه، وأنها صادرة كثيرًا

من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لتقرير المعانى فى النفوس، وإيضاحها بجعل المعقول كالمحسوس كما حققه فى الكشاف.

(**والحكم البينة**) أى الظاهرة فى نفسها المظهرة لأمور بديعة ومعان لطيفة، (**لتقريب التفهيم للغامض**) أى المعنى الخفى الدقيق، وهو فى الأصل المكان المنخفض، فاستعير لما ذكر وتقريبه إيضاحه، والجار الأول متعلق بضرب الأمثال، والثانى بالتفهيم.

وقوله: (**والتبيين للمشكل**) أى إظهار ما التبس وإن كان غير غامض، وأصل معنى الإشكال كونه غير متميز عن أشكاله وأشباهه، وهو متعلق وراجع للحكم البينة (**إلى تمهيد**) أى بسطه بتوطئته له، وبيان مقدمات (**قواعد الشرع**) أى أساسه وقضاياه وأصوله الكلية، المحمدى الذى جاءه بوحى من الله (**الذى لا تناقض فيه**) أى لا تخالف بين قضاياه وإحكامه لأحكامه، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

(**ولا تخاذل**) بخاء وذال معجمتين ولام تفاعل من الخذلان، وهو ترك نصرة من يستحق نصرته وهو استعارة تمثيلية؛ لأن الشرع يعضد بعضه بعضًا ويؤيده، وأحكامه متناسبة متعاضدة كما أن القرآن يفسر بعضه بعضا، ومن فسره بأن قواعد الشرع مشتملة على أنه لا يخذل أخاه إذا ظلم؛ لاقتضاء قواعد الشرع استواء الرفيع والوضيع والمالك والمملوك والعالم والجاهل فى جريان أحكامه عليه من غير فرق بين صغير وكبير، لم يأت بشىء يعتد به.

(**مع اشتمال شريعته**) وتضمنها واحتوائها (**على محاسن الأخلاق**) أى على بيانها للناس، وحث الناس على التحلى بها، وقد ورد فى الحديث: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وقد تقدم معنى الخلق وأن منه مكتسبًا وطبيعيًا، وأن الخلق يقبل التغير، ولذا ورد فى الشرع النهى عن الأخلاق الردية والأمر بضدها، ولولا ذلك لم يفد.

(**ومحامد الآداب**) جمع محمدة وهو ما يحمد فعله، والآداب بالمد جمع أدب بفتحتين، وهو معاملة الخلق بلطف ومداراتهم، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»[1]، وهو من إضافة الصفة للموصوف أى الآداب المحمودة، وفسر الأدب فى القاموس بالظرف وحسن التناول والفعل الجميل.

(**وكل شىء مستحسن**) عند أرباب الطباع السليمة وهو مجرور معطوف على محاسن الأخلاق (**مفصَّل**) بزنة اسم المفعول بالضاد المعجمة والصاد المهملة كما قاله، أو مفضل على غيره أو فصله للناس تفصيلاً.

---

(١) تقدم تخريجه.

(لم ينكر منه ملحد) أى عادل عن الحق زنديق، ومعناه لغة: الميل فخص بالميل عن الحق، قال الراغب: الإلحاد ضربان إلحاد إلى الشرك بالله، والإلحاد إلى الشرك بالأسباب، فالأول ينافى الإيمان ويبطله، والثانى يوهن عراه ولا يبطله انتهى.

(ذو عقل سليم) مستقيم مدرك إدراكًا سالمًا عما يضعفه، ويمنعه عن العدول عن الحق **(شيئًا)** مفعول ينكر **(إلا من جهة الخذلان)**.

تقدم أن الخذلان لغة عدم النصر، والمراد به عدم التوفيق، والتوفيق خلق قدرة الطاعة فى العبد عندنا، وفسره المعتزلة بلطف الله تعالى بعبده، والخذلان المقابل له عدم لطفه به كما فصل فى علم الكلام، يعنى لا ينكره إلا من خذله الله، و لم يوفقه للعلم به ومشاهدة أحواله، ثم ترقى عما ذكره، فأضرب إضرابًا انتقاليًا أو إبطاليًا لإنكاره بإثبات ضده فقال: **(بل كل جاحد)** أى منكر **(له)** أى لما ذكر مما قدمه.

(وكافر) بما جاء به **(من الجاهلية)** أى أهلها **(به إذا سمع ما يدعو)** صلى الله تعالى عليه وسلم، الخلق **(إليه)** من الحق المبين **(صوَّبه)** أى اعتقد أنه صواب، واعترف به؛ لأن إنكاره مكابرة تأباها العقول السليمة والطباع المستقيمة، **(واستحسنه)** أى عرف حسنه واعترف به **(دون طلب إقامة برهان)** وحجة **(عليه)** أى على ما أتى به لظهور حقيقته كنار على علم، كعبد الله بن أبى بن سلول، وغيره مما ذكره فى كتب الحديث والسير.

(ثم ما أحل لهم من الطيبات) أى اشتمال شريعته على ما جعلته حلالاً للناس مما حرمه غيره، كبنى إسرائيل الذين حرموا كل ذى ظفر من البقر والغنم لحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا.

(وحرم عليهم من الخبائث) كالميتة والدم ولحم الخنزير والزنا وغير ذلك من المحرمات، وعطف بثم لما بينهما من تفاوت الرتبة، وقيل: لأن الأول تفصيل وهذا إجمال، وبينهما تفاوت وبون ظاهر، وفسر الشافعى الطيبات بما ليس بمستقذر، والخبائث بضده، والعبرة فى ذلك بالطباع السليمة.

(و) اشتمال شريعته على ما **(صان به أنفسهم)** من الهلاك كتحريم قتل النفس بغير حق وقصاص القاتل، **(وأعراضهم)** بفتح الهمزة جمع عرض بكسر العين وسكون الراء، وهو فى العرف كل ما يخل تركه بالإنسان، وهو المراد واختلف فى معناه الحقيقى لغة، فقيل: هو ما يمدح به المرء أو يذم سواء وصف به دون أسلافه أم لا، وفى الحديث: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه»(١)، وفى الحديث: «أهل الجنة لا يبولون ولا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤/٣٢)، وأحمد (٢٧٧/٢، ٣٦٠)، وأبو داود (٤٨٨٢)، والترمذى (١٩٢٧)، وابن ماجه (٣٩٣٣).

يتغوطون وإنما هو عرق من أعراضهم»، ففسر بكل موضع يعرق من الجسد، وقال الأصمعى: يقال: هو طيب العرض أى الريح، وفسر بعضهم العرض بالنفس فعلى هذا هو عطف تفسير.

(وأموالهم) فمن آمن به، صلى الله تعالى عليه وسلم، واتبع شرعه صان دمه وعرضه وماله.

(من المعاقبات) بيان لما صان كالحد والتعزير والحبس، **(والحدود)** كحد الزنا والسرقة والقذف وشرب الخمر **(عاجلاً)** أى فى الدنيا، وهو حال مقيد للمعاقبات والحدود، **(والتخويف بالنار آجلا)** فى الآخرة؛ لأنه مستقبل من الأجل وهو الوقت المحدود، وفى بعض النسخ بدل التخويف التحريق تفعيل من الحرق بالنار، أى نار جهنم، واختلفوا فيمن حد وعوقب فى الدنيا هل يسقط عنه عذاب الآخرة أم لا؟ فقيل: يسقط مطلقًا، وقيل: بشرط التوبة أيضًا، وإلى هذا ذهب المعتزلة، وقيل: لا يسقط وإنما شرع زجرًا ليرتدع الناس عنه، والأصح الأول، لما ورد فى الحديث: «من أصاب من ذلك شيئًا فعوقب فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفى عنه وإن شاء عاقبه»(١).

وما ورد فى الحديث من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «لا أدرى الحدود كفارة لأهلها أم لا».

فقيل: الأول أصح، وقيل: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قاله قبل العلم به فهو منسوخ.

وقوله: **(مما لا يعلم)** بالبناء للمجهول أى لا يعلمه غيره من الناس، وهو بيان لجميع ما تقدم من أول الفصل إلى هنا، **(ولا يقوم به جملة)** أى بحفظه وتيقنه كما هو حقه، وبه فسر القيوم، بل **(ولا بعضه)** فضلا عن كله **(إلا من مارس الدرس)** أى لازم دراسة الكتب واجتهد فيها، **(والعكوف على الكتب)** السالفة، قال الراغب: العكوف الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم، ومنه الاعتكاف انتهى، وهذا تأييد لأنه منحة إلهية خصه الله تعالى بها، فما قيل: إنه لا حاجة إليه وهم من قائله، فقوله لا حاجة إليه فاعرفه، فإنه فى غاية الظهور.

(ومناقثة(٢) بعض هذا) الظاهر أنه بميم ونون وقاف ومثلثة وهو بمعنى الاستخراج كما

---

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا فى حسن الظن (٥٢)، وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٢٠٩).

(٢) وفى كتاب الشفاء طبعة دار الفكر «مثافنة»، والمثافنة: هى المجالسة والملازمة، فهى الصواب وكذلك فى هامش النسخة المطبوعة بمكة المكرمة، وهى مكتوبة بخط اليد، وسيأتى فى =

فى القاموس معطوف على الدروس، والمعنى ظاهر.

وما فى بعض النسخ من أنه بالفاء مفاعلة من النفث، وهو تفل الريق من الساحر والراقى ويطلق على لازمه وهو السحر، والسحر قد شاع فى الدقة وكأنه المراد أى والدقيق فى بعض هذه الأمور.

وقوله مما لا يعلم إلى هنا ساقط من أكثر النسخ و لم يتعرض له الشراح.

(**إلى الاحتواء**) أى مع اشتمالها أو مضمومًا إلى الاشتمال (**على ضروب العلم**) أى أنواعه جمع ضرب بفتح الضاد وكسرها، ويكون بمعنى المثل أيضًا (**وفنون المعارف**) أى أقسام المعرفة المتعلقة بأحوال الدنيا وأهلها، كما أن ضروب العلم المراد بها ما يتعلق بالشرائع والآخرة، فهو من عطف المتغايرين لامن غيره على أنه تفنن، والفرق بين العلم والمعرفة مشهور.

(**كالطب**) أى معرفة ما يتعلق ببدن الإنسان من حيث الصحة والسقم، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم، أعرف الناس به كما فى الطب النبوى، وهو من العلوم القديمة المدونة، وله معان فى اللغة وهو مثلث الطاء مشدد الباء.

(**والعبارة**) بكسر العين المهملة أى تعبير رؤيا المنام، وفعله عبر بتخفيف الباء، والناس يشددونها وقد أنكره بعض أهل اللغة إلا أنه سمع فى بيت أنشده المبرد، رحمه الله تعالى، فى الكامل، وهو قوله:

رأيت رؤيا ثم عبرتها   وكنت للأحلام عبارا

كما فى الكشاف، ووقع فى بعض النسخ العبارة مضبوطًا بفتح العين، و لم أقف عليه.

(**والفرائض**) جمع فريضة، وهو النصيب من الميراث، والفرائض صار علمًا للعلم بذلك، وهو قسم من علم الفقه أفرد بالتأليف، فصار علمًا مستقلاً، ولذا نسب إليه فقيل فرائضى.

(**والحساب**) هو علم يتعلق بالعدد، ولابتناء الفرائض عليه فى الأكثر قرنه به.

(**والنسب**) أى معرفته بأنساب العرب وغيرهم وهو من علم التاريخ، وكان أبو بكر الصديق، رضى الله تعالى عنه، أعلم الناس به بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، (**وغير ذلك من العلم**) وأنواعه (**مما اتخذ أهل هذه المعارف**) لو قال أهله: كان أظهر وأشمل وأخصر (**كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم، فيها**) أى فى هذه العلوم والمعارف، وقيل:

= الصفحات التالية ما يؤيد أنها «مثافنة».

الضمير للشريعة أى فى شريعته وهو خلاف الظاهر.

(قدوة وأصولاً) أى أدلة مثبتة لها أو قواعد وضوابط يرجعون إليها فى الحوادث الجزئية إذا وقعت لهم **(فى علمهم)** أى علومهم التى دونوها فى هذه الفنون، **(كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم)**، فى حديث رواه ابن ماجه، عن أنس، رضى الله تعالى عنه: **(الرؤيا)** أى ما يرى فى المنام من الأحلام مصدر يختص بذلك، ويقال فى غيره رؤية بالتاء ورأيا **(لأول عابر)** متعلق بمقدر أى مصادفة وموافقة لأول تفسير يفسر به، والعابر هو الذى يبين الرؤيا ويفسرها، وأول الحديث اعتبروها بأسمائها وكنوها بكناها، والرؤيا لأول عابر: أى فسروها بما يناسب ألفاظها، كما إذا قيل: سالم فأول بالسلامة وهو نوع من التعبير، والتكنية ليس من الكنية المشهورة، بل المراد به التمثيل كما فى النهاية، وهى عند أهل السنة أمر يلقيه الله تعالى فى قلب عبده كالإلهام، وورد أن ملكًا يلقيه وهو ملك الرؤيا، وعند الحكماء أن الروح فى النوم تفارق البدن، وتتصل بالملأ الأعلى، فيلقى إليها ما يفيضه على ذهن النائم، فمنه ما يقع بعينه ومنه ما يأول بغيره، ومنها أضغاث أحلام، ودعابة الشيطان لا تأويل له، ومن هذا القبيل ما هو من غلبة الأخلاط كالصفراء إذا غلبت يرى النائم نارًا، والبلغم يرى ماء والسوداء يرى شيئًا أسود، وليس كل رؤيا كذلك كما يوهمه كلام الأطباء، وإنكار هذا القسم لا وجه له أيضًا.

والكلام على الرؤيا وحقيقتها وأقسامها مبسوط فى محله، قيل: المراد بالعابر هنا العالم بأحوال الرؤيا لا كل عابر، وظاهر كلام أهل هذا الفن يخالفه؛ لأنه عندهم كالفأل والإلهام فلا يختص بمن ذكر، وقد قيل: إن رجلاً رأى أنه شرب البحر، فقصه على ابن سيرين، رحمه الله تعالى، فقال له: هل ذكرته لأحد؟ قال: نعم، قال: ما قال لك؟ قال: قال: أراه ينشق بطنك، فلم يعبرها له، وقال: قضى الأمر.

(و) قوله و **(هى على رجل طائر)** رواه أبو داود، والترمذى، عن أبى ذر، رضى الله عنه، وصححه يؤيده بل يعينه، وأول الحديث: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة وهى على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت، فلا يحدث بها إلا حبيبًا أو لبيبًا»(١)، ورجل بكسر الراء وسكون الجيم ولام، وهو تمثيل لكونها كالفأل على قدر جار من خير أو شر قدر لصاحبها، فكأنها بصدد وقرب من أن تقع بأدنى حركة، فهو بمعنى قوله لأول عابر، وفيه من لطف البلاغة وسرها ما لا يخفى، فإن الطائر يكون للفأل، ومنه التطير، وليس المراد به ظاهره كما توهم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠١٨)، والترمذى (٢٢٧٨، ٢٢٧٩)، وأحمد (٢/٢٣٣)، والدارمى (٢/١٢٣)، وعبد الرزاق (٢٠٣٥٢)، والحاكم (٤/٣٩٠).

وقد وقع فى بعض الكتب الرؤيا على جناح طائر إذا قص وقع، ولا أدرى هل هى رواية بالمعنى تطرقًا أو رواية وفيه تورية فى القص؛ لأنه يكون من قص الجناح إذا قطع ريشه، ومن قصص الرؤيا أى ذكرها للعابر فوقع محتمل لمعنيين أيضًا من الوقوع والسقوط، وقد نظمه بعض المتأخرين فقال:

رؤيا إذا قصصتها واقت كبدر قد طلع
على جناح الطائر فهو إذا قص وقع

وهذا الحديث روى من طرق اختلف العدد فيها، فروى سبعين وأربعة وعشرين وستة وأربعين جزءًا، والأخير من رواية البخارى، وجعلها جزءًا من النبوة؛ لأن رؤياهم وحى صادق، فقيل: حقيقة العدد وقدره غير مقصود والمقصود التكثير، وقيل: وجهه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، أوحى إليه إحدى وعشرين سنة، ستة منها منام والباقى وحى يقظة على أنواع بينوها، وجاءت امرأة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقالت: رأيت أن جذع السقف من بيتى وقع وعندى ولدٌ أعور، فقال: يقدم زوجك وتلدين ولدًا برًا، ثم رأتها بعد ذلك فقصتها على أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، فقال: يموت زوجك وتلدين فاجرًا؛ لأنها فى زمن الرؤيا كان زوجها غائبًا، وهو عمود البيت فسقوطه بجيئه قال:

فاسقط علينا كسقوط النداء بالليل لا ناه ولا آمر

وأول العور بالبر لغض بصره عن المحرمات، وفى وقت كلامها لأبى بكر، رضى الله تعالى عنه، كان زوجها مقيمًا، وسقوطه موته، والأعور يتشاءم به، فالمنام واحد اختلف تأويله بحسب الحال وأمثاله كثيرة.

(وقوله) صلى الله تعالى عليه وسلم: **(الرؤيا ثلاث)** أنواع: **(رؤيا حق)** بالإضافة والتوصيف، والظاهر الثانى وهو المناسب لما بعده، وعلى الأول الإضافة بيانية أى رؤيا هى حق فالمعنى واحد.

(ورؤيا يحدث بها المرء نفسه) المراد أنها خواطر تخطر بالبال لأمور مفاضة من عالم المثال، والملك يشبه بمن يجاور غيره فى خلوة لما يورده عليها من الأمانى والأوهام، وهو فى معنى التجريد المذكور فى علم البديع، فهو بديع، وليس المراد من نفسه ذاته وهما معنيان متغايران، يعنى أنه رأى فى منامه ما كان فى فكره قبله وهو من أضغاث الأحلام.

(ورؤيا تحزين من الشيطان) بأن يلقى له ما يكره ويخاف بوسوسته، وورد فى الحديث أنه ينبغى للإنسان أن يتحول من شقه الذى نام عليه، ويستعيذ بالله تعالى من شره،

ويتفل عن يساره، أو يصلى ركعتين إن انتبه، ولا يحدث به أحدًا.

قال السيوطى، رحمه الله فى مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفا: هذا الحديث رواه الشيخان وغيرهما عن بضعة عشر من الصحابة إلا أنه قيل: إن الذى فى مسلم عن ابن سيرين، عن أبى هريرة: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا، ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءًا من النبوة، والرؤيا ثلاث رؤيا صالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا يحدث بها المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره، فليقم فليصل ولا يحدث بها الناس»[1]، قال: وأحب القيد وأكره الغل والقيد ثبات فى الدين، فلا أدرى أهو فى الحديث أم قاله ابن سيرين، انتهى ما فى مسلم.

وقد اختلفوا فى ما ذكر من كون الرؤيا ثلاثًا إلى آخره، فقيل: هو مدرج فى الحديث من كلام ابن سيرين، وقيل: هو موقوف على أبى هريرة، وقيل فيه: إنه مرفوع ويؤيده أن ابن حنبل رفعه مسندًا، والحافظ السيوطى اعتمده.

وكذا المصنف، رحمه الله تعالى، فلا يرد عليه: أن ابن الملقن قال فى شرح البخارى: إن الصحيح أنه ليس من كلامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، واختلف فى قائله، والصحيح أنه ابن سيرين، وقول ابن حجر فى فتح البارى: إنها ليست منحصرة فى الثلاث، فإن منها رابعًا: وهو تهويل الشيطان، وخامسًا: وهو ما يهم به المرء فى يقظته، وسادسًا: وهو تلاعب الشيطان، وسابعًا: وهو ما يعتاده الإنسان وبينه وبين حديث النفس عمومٌ وخصوص ليس بشىء؛ لأنه راجع لما ذكر أو ما فى معناه، وقد بسطنا الكلام على الرؤيا فى تعليقة مستقلة يضيق عنها نطاق المقام، فانظرها إن شئت.

(وقوله) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الشيخان عن أبى هريرة مسندًا: **(إذا تقارب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب)** التقارب تفاعل من القرب ضد البعد، واختلف فى المراد به هنا فقيل: المراد به زمان الربيع وقرب الليل والنهار من التساوى، وهو زمان تدرك فيه الثمار وتنفتح الأزهار ويرق النسيم فتعتدل الطباع البشرية فيه، فيقوى قواها على تلقى ما يفاض عليها.

ولذا قال أهل التعبير: أصدق زمان لوقوع الرؤيا زمان الربيع، وقيل: المراد به آخر الزمان إذا قربت الساعة كما فى زمان المهدى وتقاربه، وقصره إما حقيقة لما فى الحديث فى أيامه: «السنة كشهر والشهر كجمعة والجمعة كيوم واليوم كساعة».

---

(١) أخرجه البخارى (٤٨/٩)، ومسلم (٢٢٦٣/٦)، وأحمد (٥٠٧/٢)، وأبو داود (٥٠١٩)، والترمذى (٢٢٧).

وقيل: إنه لكثرة اشتغال الناس بالدنيا لسعتها عليهم أو لغير ذلك، وذهب كل لترجيح أحد الوجهين لورود ما يؤيده، وقوله: «لم تكد» إلى آخره نفي للكذب بأبلغ وجه برهاني؛ لأن ما لا يقرب من الوقوع أبلغ مما لا يقع فليس نفيها إثباتًا ولا إثباتها نفيا كما توهم والقربة، وأجيب عنه كما فصله النحاة وشهرته تغني عن ذكره، وخص المؤمن لأن نفسه أقوى وعقله أتم من غيره، وقيل: إنه لبعد العهد بالوحي عوضوا المبشرات.

(وقوله) صلى الله تعالى عليه وسلم، في حديث رواه الدارقطني وضعفه، فلا وجه لما قيل من أنه لا صحة له **(أصل كل داء)** أي مرض وتغيير مزاج **(البردة)** بموحدة وراء ودال مهملتين مفتوحات، وهي والتخمة الإكثار من الطعام حتى لا تقدر المعدة على هضمه، سميت بها لبرد المعدة حتى تضعف عن طبخه وتصفية أخلاطه، والمراد بكونه أصلاً لذلك أنه منشؤه ومبدؤه في الغالب:

فإن الداء أكثر ما تراه   يكون من الطعام أو الشراب

(وما روى) عنه صلى الله تعالى عليه وسلم، والراوي له الطبراني في الأوسط كما يأتي بيانه، والمصنف لم يثبته **(في حديث أبي هريرة من قوله)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(المعدة)** بوزن كلمة وبكسر الميم وسكون العين ودال مهملة مقر الطعام كالكرش للحيوان والحوصلة للطائر **(حوض البدن)** تشبيه بليغ، والحوض مجمع الماء فشبهها به وشبه البدن بما يستقي منه، وقيل: شبهها به بعروق الشجر والبدن بفروعها، وهو مكدر لما في الحوض من الصفاء والتشبيه ثم رشح ذلك بقوله: **(والعروق إليها واردة)** جمع عرق، وهو مجرى الدم والورود الإتيان للماء مفرد أو جمع وارد، فشبه إيصال خلاصة الغذاء إلى الأعضاء بالأخذ من الحوض المورود، والعروق تنقسم إلى شريانات وأوردة كما ذكره أهل التشريح، **(فإن كان هذا حديثًا)** خبر كان.

وقوله: **(لا نصححه)** أي لا نحكم بصحته خبر ما الموصولة قبل وروى حديث بالرفع بدلاً من هذا والنصب أولى؛ **(لضعفه وكونه موضوعًا)** بالجر ترق من ضعفه، ويجوز رفعه على أنه مبتدأ خبره.

(تكلم عليه) الإمام أبو الحسن **(الدارقطني)** نسبة لدار القطن محلة ببغداد، ولا يرد على المصنف، رحمه الله تعالى، أنه كيف ذكر الموضوع، وهو كذب عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو ممتنع؛ لأن ذلك في ذكره مع بيانه، وقد اختلف فيه فقيل: إنه مرفوع.

قال الطبراني في الأوسط عن الزهري، عن أبي هريرة مرفوعًا: «المعدة حوض البدن

والعروق إليها واردة، فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة، وإذا فسدت المعدة صدرت العروق بالسقم»(١)، ولم يروه عن الزهرى إلا زيد بن أبى أنيسة تفرد به الرهاوى.

وقوله: تكلم إلى آخره أى بحث فى سنده وكونه مرفوعًا، وقال فى كتاب العلل: اختلف فيه عن الزهرى فرواه أبو قرة الراوى عنه، وقال: عن عائشة، ولم يقل عن أبى هريرة، وكلا الروايتين عن أبى هريرة لم يصح، ولا يعرف من كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنما هو من كلام عبد الملك بن سعيد بن أبجر، وقيل: إنه من كلام الحارث بن كلدة، وعن ابن منبه ما يقرب منه، وذكر ابن أبى الدنيا أنه أجمعت الأطباء على أن رأس الطب الحمية، والحكماء عن أن رأس الحكمة الصمت.

وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها، أنها قالت: الأزمة داء والعدة دواء، وعودوا كل بدن ما اعتاده.

(وقوله) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الترمذى عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: **(خير ما تداويتم به السعوط)** بفتح السين وضم العين وواو وطاء مهملات، وكذا كل ما يداوى به، فإنه على فعول بالفتح، وهو ما يجعل فى الأنف ويستنشق به لفتح السدد الدماغية ومنع النزلات، **(واللدود)** بفتح اللام وضم الدال المهملة وواو ودال مهملة، وهو ما يجعل فى أحد شقى الفم ويتغرغر به لدفع ورم به يعترى الصبيان غالبًا، وهما فى الأصل اسمان لمرضين فى الرأس وأعلى الحلق، ويسمى الثانى نزلة الحلقة وهو ورم فيه معروف، وكان النساء يعالجنه برفعه بالأصبع، فنهاهم صلى الله تعالى عليه وسلم، عنه وأمرهم بما ذكر وهو العود الهندى يحك فى الماء، ثم يفعل به ذلك فيحلله بحرارته، وهو مأخوذ من اللديد، وهو جانب الوادى كما قاله الأصمعى.

وهذا من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه مرض خفى لا يعرفه أكثر الأطباء قديمًا فضلاً عن زماننا، وفى الهدى النبوى لابن القيم من هذا النوع ما فيه شفاء للصدور.

(والحجامة) وهى مص الدم بآلة معروفة فى الرأس وبين الكتفين، وهى فى مؤخر الدماغ تورث النسيان، وهى دواء للشقيقة فى الرأس مع أنه مرض مزمن، وورد فيها أحاديث منها أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، ما مر ليلة الإسراء بملأ من الملائكة إلا قالوا له: مر أمتك بالحجامة.

(١) أخرجه ابن الجوزى فى الموضوعات (٢/٢٨٤).

(والمشى) بفتح الميم وكسر الشين المعجمة وتشديد المثناة التحتية، وهو المسهل يقال: شربت مشيًا ومشوا سمى به؛ لأن صاحبه يكثر المشى للخلاء، وفى الحديث: «لو كان شيء فيه شفاء من الموت لكان فى السنا»[1]، ولبعض الشراح هنا كلام مختل تركه خير منه.

(وخير الحجامة) أى أنفعها بعد نصف الشهر **(يوم سبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين)** فى الوتر دون الشفع، وهذا الحديث رواه الحاكم عن ابن عباس، رضى الله عنهما، وصححه وأبو داود، عن أبى هريرة مرفوعًا وشينه مفتوحة وساكنة، وغلب فيه المؤنث على المذكر، أو ذكر لحذف المميز، ونهى عن الحجامة فى يوم الأربعاء والسبت والأحد.

وروى عن ابن حنبل أنه كره الحجامة فى هذه الأيام، وإنما كانت الحجامة فى النصف الأخير والربع الثالث من الشهر أنفع؛ لأن الأخلاط تهيج فى أوله وتسكن بعده لهبوط القمر، فالاستفراغ فيه أقل فلا يضعف، ويقولون: إنه ينبغى أن يكون فى الساعة الثانية أو الثالثة ولا يكون عقب حمام ولا جوع ولا شبع ولا فى الصوم.

(وفى العود الهندى سبعة أشفية) والمراد بالعود الهندى العود المعروف، وقيل: القسط الأبيض وهو مبين فى باب المفردات من الطب، والأشفية جمع شفاء على خلاف القياس، والقسط بضم القاف ويقال: كسط بالكاف، والسبعة أنه ينفع من ذات الجنب وحصر البول وضعف شهوة الطعام والجماع والسم ويدر الطمث وينفع أمراض الكبد والربع، والسبعة علمت بالوحى وما عداها بالتجربة.

(وقوله) صلى الله تعالى عليه وسلم، كما تقدم الكلام فيه **(ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطن)** شبه البطن بالوعاء الذى فيه الطعام، وفى بعض النسخ من بطنه، والشرية فى البطن محققة لأنه يضر ويورث الكسل المانع من العبادة، وفى المفضل عليه تقديرية، **(فإن كان لابد)** أى إن لزم، وأصل معنى البد المفارقة، يقال: لابد من كذا ولا محالة أى لا مفارقة ولا تحول، فأريد به لازمه، **(فثلث)** من البطن **(للطعام وثلث للشراب وثلث)** يكون خاليا **(للنفس)** أى لدخوله وخروجه، وهذا إيماء إلى أنه لا ينبغى ملؤه بتمامه، وأن يكون ما فيه أقل من ملىء ثلثيه، وهذا بعض حديث رواه ابن ماجه، والترمذى، وابن خزيمة مرفوعًا وحسنوه وهو: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطن حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث...»[2]، إلى آخره.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/٣٦٩)، وابن ماجه (٣٤٦١)، وابن عبد البر فى التمهيد (٥/٢٧٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤/١٣٢)، والدارمى (٢١٣)، والترمذى (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وابن حبان (١٣٤٨)، والحاكم (٤/٣٣١).

وجعله من طبه؛ لأنه بين مبدأ الصحة والمرض ومقدار ما يكفى البدن، وربما يتوهم بعضهم أنه يضعفه، وقد قال بعض أهل الكتاب: ليس فى كتابكم الطب، فقال له بعضهم: قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]، فقال: إنها جمعت طب جالينوس، ثم ذكر ما يتعلق بعلمه صلى الله تعالى عليه وسلم، بالأنساب ولم يراع فى اللف والنشر ترتبًا، فإنه ليس بلازم، وقد يستحسن تركه اعتمادًا على فهم السامع، فقال: (**وقوله**)، عليه السلام، فى حديث رواه الترمذى عن فروة، وأحمد، عن ابن عباس مسندًا.

(**وقد سئل عن سبأ**) بهمزة فى آخره يجوز إبدالها ألفًا وعلى همزه يصرف ولا يصرف، فيجوز تنوينه وعدمه وهذا مما اختلفوا فيه وفى مسماه (**أهو رجل أم امرأة أم**) هو اسم (**أرض**) كان يسكنها وينزل بها؟ (**فقال**): هو اسم (**رجل**) سمى باسمه أرض، وهى مدينة بلقيس باليمن، فلا خلاف بين القولين فصرفه ظاهر، ومنعه لأنه أريد به قبيلته، فإن أريد به الأرض فباعتبار البقعة (**ولد عشرة**) من الأولاد الذكور، ولذا قال: عشرة، (**تيامن منهم ستة**) أى سكن اليمن، فتوالد منه أكثرهم ونسبوا له، وهم مذحج وحمير وكندة والأزد، والأشعريون كما ذكره علماء النسب وأهل التاريخ، واليمن أقليم معروف منه تهامة ومنها المدينة.

(**وتشاءم أربعة**) أى سكنوا الشأم بالهمزة، وقد تمد وتبدل ألفًا وهو من الفرات إلى العريش، وهم لخم وجذام وعاملة وغسان كما قاله الواحدى فى تفسيره، وتحت هؤلاء قبائل وبطون وأفخاذ ليس هذا محل تفصيلها (**الحديثَ بطوله**) بالنصب أى اذكر هذا الحديث، وفيه إشارة إلى أنه اقتصر على بعض منه يكفى فيما أراده وترك الباقى لطوله والغنى عنه، واختلف فى وجه تسمية الشأم شامًا فقيل: لأنها فى جانب اليسار، ويقال له: شامى كسرى، وقيل: سميت باسم سام بن نوح وعربت بالإعجام، وقيل: إنه بمعنى الشأمة لشامات حمر وسود فيها.

(**وكذلك**) أى مثل ما تقدم من علمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالأنساب (**جوابه**) صلى الله تعالى عليه وسلم، لمن سأله، وهو عمرو بن مرة (**فى نسب قضاعة**) فى حديث رواه أحمد، وأبو يعلى والطبرانى، عن عمرو بن مرة الجهنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: من كان هنا من معد فليقم، فقمت، فقال: اقعد، فقلت: ممن نحن؟ قال: «أنتم من قضاعة بن مالك بن حمير»[1]، وقضاعة بضم القاف وضاد معجمة وعين مهملة

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٣٧/٧، ٣٠٤/١٧)، وابن سعد (٦٦/٢/٤)، والدولابى فى الكنى (٨٨/١).

أبو حى من اليمن، لقب به لانفصاله عن الناس؛ لأن القضاعة ما ينفصل عن أصل الحائط، وقيل: من قضع بمعنى قهر لقهره بشجاعته من عاداه، وقيل: القضاعة من أسماء الفهد أو كلب الماء.

(وغير ذلك) المذكور **(مما اضطرت)** بالنباء للمفعول، وهو لغة القرآن الفصحى، أو الفاعل افتعال من الضرورة والاحتياج، قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، **(العرب على)** أى مع **(شغلها)** بضم الشين المعجمة ويجوز فتحها، والأول هنا أولى أى اشتغالها وتقييدها **(بالنسب)** أى بمعرفته وحفظه؛ لاعتنائهم بضبط أنسابهم ومع ذلك اضطروا فالتجأوا، **(إلى سؤاله)** صلى الله تعالى عليه وسلم، **(عما اختلفوا فيه)** لخفائه عليهم.

(من ذلك) أى معرفة ذلك أى مشكل أنسابهم ومعرفة ما أشكل عليهم مما جل أمرهم ضبطه، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يعتنى به ولا يشتغل بحفظه، وذلك يدل على قوة معرفته بالأنساب، وفى نسخة مصححة ومن ذلك بالواو، فهو خبر مقدم.

(و) قوله: **(قوله)** مبتدأ، أى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه البزار **(حمير)**، وهم قوم من العرب بوزن درهم ابن سنان بن يشخب **(رأس العرب)**: أى منزلتهم من الشرف فى العرب بمنزلة الرأس من الجسد، **(ونابها)** وهو سن كبير خلف الرباعية أى هم عمدتهم ومن أشدهم، وهم من ولد معد بن عدنان ومن ذرية إسماعيل.

(ومذحج) بفتح الميم وسكون الذال المعجمة وكسر الحاء المهملة وجيم، وهما حيان من العرب مالك وطى سميا باسم أكمة ولدتهما أمهما عندها، وميمه زائدة فوزنه مفعل، وقال الجوهرى: أصلية فوزنه فعلل ووهم فيه عما فصل فى كتاب سيبويه وشروحه، وليس هذا محله **(هامتها)** أى رأسها **(وغلصمتها)** بفتح الغين المعجمة وسكون اللام وفتح الصاد المهملة وميم وهاء، وهى لحمة بين الرأس والعنق أو رأس الحلقوم، وفيه إشارة إلى اشتركهما فى الشرف، وتخصيص كل بفضيلة مع التفنن فى التعبير، فإن الرأس والهامة متقاربان، والناب والغلصمة يحتاج لكل منهما فى إساغة الطعام الذى هو مادة الحياة، وقيل: إنه تفضيل لمذحج؛ لأن الحاجة للغلصمة أشد ولك أن تقول: إنه إشارة إلى أن فى حمير مع الشرف شدة وقهر، وفى مذحج لين ونفع، وعلى كل حال فما وصفوا به دال على المدح والشرف على طريق التشبيه للبليغ، أو المجاز المرسل بتسمية الكل باسم الجزء، وقول أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، فى حديثه المشهور: أمن هامها أم من لهازمها، أى أشرافها أو أوساطها يدلّ على تفضيل حمير.

(والأزد) بهمزة مفتوحة وزاء معجمة ساكنة ودال مهملة، وهو الأزد بن الغوث،

وهو بالسين أفصح كما فى القاموس أبو حى باليمن منه الأنصار، ويقال للأزد: شنوءة وعمان وسراة وأزد بن الفتح محدث (**كاهلها**) بوزن فاعل، وهو ما يلى العنق من أعلى الظهر كما قاله الخليل، وعليه الكل والحمل، وقيل: ما بين كتفيه أو موضع العنق فى الصلب (**وجمجمتها**) بضم الجيمين وميمين الأولى ساكنة والثانية مفتوحة، وهى عظام الرأس، وتطلق على الرأس نفسها، وجماجم العرب بطون منها، والجمجمة أيضًا اسم قدح، ونقل معروف، وفيه إشارة إلى أن غيرهم وإن كان أشرف كالمهاجرين والخلفاء، فهم لهم الفضل بمعاونتهم وحمل كدهم لأن الأنصار منهم.

(**وهمدان**) بسكون الميم ودال مهملة قبيلة باليمن، وبفتح الميم اسم بلدة (**غاربها**) هو من البعير كالكاهل من الإنسان والكتف، (**وذروتها**) بكسر الذال المعجمة وضمها وسكون الراء المهملة أى أعلاها وسنامها، ففيه من المعرفة بأنساب العرب ومنازلها فى الشرف والإحاطة بأحوالها ما لا يهتدى له سواه صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: أراد بالذروة أعلى السنام، وإن مخائل الضعف والنكارة لائحة على هذا الحديث لتكريره ذكر الرأس بألفاظ مختلفة، ولذا جزم ابن حجر بأنه منكر.

قلت: أما إنكاره من جهة الرواية فمسلم، وأما من جهة تكراره المذكور، فتفنن بديع ونوع من الفصاحة، فلا وجه للاستدلال به وهو عليه.

(**وقوله**) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الشيخان عن أبى بكرة فى خطبة حجة الوداع، ولفظ قوله فى جميع ما وقع هنا بالجر رواية عن المصنف، وإن جاز رفع بعضها: (**إن الزمان قد استدار**) أى عاد لما كان عليه كالدائرة التى يرجع انتهاؤها إلى ابتدائها (**كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض**)، وتتمة الحديث السنة اثنى عشر شهرًا، منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب منفرد بين جمادى وشعبان، انتهى.

وقيده بذلك دفعًا للنسىء وتغيير الشهور الذى كانت الجاهلية تفعله، فإنهم كانوا أهل حروب وغارات، فربما أتاهم بعض الأشهر الحرم وهم يحاربون، فيشق عليهم الترك فيجعلونه وينقلونه من شهر إلى آخر، ويستمر نقله من شهر لآخر سنة بعد سنة حتى يعود لموضعه الأول، فينتقل بذلك شهر الحج وكانوا يحجون فى كل شهر عامين، فوافق حجة أبى بكر العام الثانى من حجة ذى القعدة، فلما حج صلى الله تعالى عليه وسلم، حجة الوداع وافق حجه شهر ذى الحجة المشروع، فوقف كما هو الآن فخطب وأعلمهم أن حجه فى هذا الشهر ليس اتفاقيًا بموافقته لدور الشهور فى الجاهلية، وإنما هو أمر شرعه الله وقدره فى الأزل وأمره به نسخًا لما كانوا يفعلونه، وأمرهم صلى الله تعالى عليه وسلم، بالمحافظة عليه وأن لا يبدل ويدور دور الجاهلية الأولى.

فقوله: استدار بمعنى رجع لما فى علم الله وقضائه قديمًا، وهو معنى قولـه: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [التوبة: ٣٦]، إلخ فنسى النسىء ونسخ، وكانوا إذا أرادوا ذلك يقوم رجل من بنى كنانة لأنهم أهل غارات على جمل بالموسم، وينادى بأعلى صوته: إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوها، واستدارته بموافقة حجه للمشـروع، ولـذا لم يحـج صلـى الله تعالى عليه وسلم، قبله وأرسل أبا بكر، رضى الله تعالى عنـه، بالعـهد ليظـهر الحـرم قبـل حجه، ونقل ابن حجر أن حجة الوداع كانت والشمس فى الحمل، وقد تسـاوى الليـل والنهار واعتدل بشرف شمس النبوة، وقال الصدر القونوى فى شرح الأربعين حديثًا لـه: إن فى هذا الحديث أسرار إلهيـة لا يطلـع عليـها إلا بعـض الكمـل، ثـم قـال: إن النـوع الإنسانى أوجد بالأمر الألهى فى أول دور السنبلة ومدتـه سبعة آلاف سنة، بعـث نبينـا صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الألف الأخير منها الجـامع بـين أحكـام السـنبلة والميزان المختص بالآخرة، والبروج تتمازج بالقرب فامتزج فى زمان بعثته الدنيا بالآخرة البرزخية كالصبح بالنسبة للنهار، فظهور النور تدريجًا حتى تطلع الشمس، وكذلك ظهور أحكام الآخرة من حين المبعث إلى طلوع الشـمس مـن مغربـها، ومنـه ظـهر سر ختميـة النبـوة والولاية، انتهى ملخصًا.

ومن لم يفهم الحديث ذكر ما لا مساس له به، ولا ينبغى ذكره، وذكر هذا الحديـث هنا إثباتًا لعلمه، عليه الصلاة والسلام، بالحساب، فـإن الزمـان وحركاتـه الدوريـة مبنيـة عليه.

(وقوله) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الشيخان عن ابـن عمـر، رضـى الله تعالى عنهما، **(فى الحوض)** أى فى شأن حوضه الذى يكون يوم القيامـة يشـرب منـه العطاش، وقد تقدم الكلام فيه رزقنا الله وروده وسقانا منه شربة لا نظمأ بعدها **(زوايـاه سواء)** جمع زاوية، وهو ما يحصل من تلاقى خطين من داخله، وسـواء بمعنـى متسـاوية، وهذا يقتضى أنـه مربـع متسـاوى الأضـلاع مستقيمها؛ فإنـه لا تتسـاوى زوايـاه إلا إذا استقامت أضلاعه، وهذا أمر مبنى على المساحة ودقائق الهندسة، وذكر ابن أبى الإصبـع أنه نوع من البديع غريب سماه الاستقصاء وأن منه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠]، فقال: إنه إيماء إلى أنه ليس بظل؛ لأن المثلث لا ظـل لـه، وهـذا كلـه كلام يحتاج للتحرير لكن لكل مقام مقال، وهذا لا ينافى ما ورد فيه من أن مسـافته مـا بين أيلة وصنعاء، ومسافته شهر وغير ذلك كما مر؛ لا لأنه أعلم بأحواله شيئًا بعد شىء كما قيل، بل لأن المراد من كل زيادة سعته، فهو كما فى المثل كلا جـانبى هرسـى إليـه طريق.

(وقوله) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه أبو داود، وابن ماجه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضى الله تعالى عنهما، **(فى حديث الذكر)** وهو أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «خصلتان لا يحصيهما رجل مسلم إلا دخل الجنة وهما يسير ومن يعمل بهما قليل، يسبح الله عز وجل دبر كل صلاة عشرًا وتحمده عشرًا وتكبر عشرًا»[(١)]، قال: فرأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، يعقدها بيده، «فذلك خمسون فهى مائة باللسان وألف وخمسمائة فى الميزان، فإذا آوى إلى فراشه سبح وحمد وكبر مائة، فتلك مائة باللسان وألف فى الميزان فأيكم يعمل فى اليوم ألفين وخمسمائة سيئة»، إلى آخر الحديث: **(وإن الحسنة بعشر أمثالها فتلك مائة وخمسون على اللسان)** أى إذا جرت على اللسان، وذكرت فى دبر كل صلاة من الصلوات الخمس، فإنها ثلاثون مضروبة فى خمسمائة، **(وألف وخمسمائة فى الميزان)** التى توزن به الأعمال، والوزن إما لصحفها أو لها نفسها بجعل الأعراض أجسامًا، وعند المعتزلة أنه تمثيل لمضاعفة أجرها، فإن الحسنة بعشر أمثالها كما ورد به النص، وهو أقل مراتبها، وقد يزيد على ذلك وهذا استدلال من المصنف، رحمه الله تعالى، على معرفته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالحساب، وهو بالنسبة لمقامه وحدة ذهنه أمر سهل.

وقوله: يعقدها إشارة إلى أنه لم يكن له صلى الله تعالى عليه وسلم، مسبحة يسبح بها، ولذا قال بعضهم: إنها بدعة، وقال السيوطى فى رسالة سماها المنحة فى السبحة: إنها سنة وإن لم يباشرها بنفسه؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، رأى عند بعض الصحابيات نوى تعد به الذكر فأقرها عليه.

(وقوله) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الطبرانى عن أبى رافع بسند قالوا: إن فيه ضعفًا، **(وهو فى موضع)** جملة حالية وفى نسخة ومر بموضع **(نعم موضع الحمام هذا)** بفتح الحاء المهملة وتشديد الميم بيت يعد للغسل يذكر ويؤنث، ولم يكن فى عصره صلى الله تعالى عليه وسلم، بالمدينة حمام ولم يدخله، وهذا تمثيل لما لم يذكره، فإن فيه الإخبار بمحال البناء ومهاب الهوى، ونعم للمدح والمخصوص به هذا، وقيل: موضع الحمام كقوله تعالى: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

(قوله) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الترمذى عن أبى هريرة وصححه **(ما بين المشرق والمغرب قبلة)** القبلة تطلق على المسجد كما فى قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧]، فى أحد التفاسير، وعلى الكعبة، وعلى جهتها

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٦٥)، والترمذى (٤١٠)، وابن ماجه (٩٢٦)، وابن حبان (٥٣٩، ٢٣٤٢)، وابن المبارك (٣١٨٩).

وسمتها، وهو المراد هنا لأنه المراد عند الإطلاق، وهو إما بيان لقبلة أهل المدينة لأنهم المخاطبون أو على من هى فى جنوبه أو شماله والتبست عليه، وقال ابن عمر: إذا جعلت المغرب عن يمينك والمشرق عن يسارك بينهما قبلة، وأما كون الواجب استقبال عين الكعبة أو جهتها فمبحث طويل مفصل فى التفسير وكتب الفقه لا يسعه هذا المقام، والشاهد فى الحديث أنه يدل على علمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعلم الميقات فإن معرفة سمت القبلة باب منه تضمنه هذا الحديث.

(وقوله) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث ذكره ابن الأثير فى النهاية و لم يخرجه السيوطى؛ لأنه لم يقف عليه **(لعيينة)** بن حصن الفزارى، ويكنى أبا مالك وأسلم يوم الفتح، وكان من المؤلفة وكان من جفاة الأعراب، وهو الذى قال فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم: إنه الأحمق المطاع؛ لأنه كان سيد قومه، وعيينة علم منقول من تصغير العين، **(أو الأقرع بن حابس)** بن عفان بن محمد بن سفيان بن مجاشع التميمى، واسمه فراس ولقب بالأقرع لقرع فى رأسه، وهو من المؤلفة أيضًا، وكان شجاعًا فارسًا شريفًا فى قومه فى الجاهلية والإسلام أسلم وقدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فى وفد بنى تميم، وهو الذى نزل فيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ [الحجرات: ٤]، وقصته مذكورة فى السير والشك فى المقول له من الراوى.

وقال ابن الأثير: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم، عرض عليه الخيل وعنده عيينة، فقال: أنا أعلم بالخيل منك، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: («**أنا أفرس بالخيل منك**»)، أى أبصر وأعرف ومصدره الفراسة بفتح الفاء، والفراسة بالكسر من التفرس وهو معنى آخر، وهو رد عليه بأسلوب حكيم، و لم يقل له: لست كذلك لما يعلمه من أنه أعرابى جافى.

(وقوله) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه الترمذى عن زيد بن ثابت **(لكاتبه)** وكان له كتبة عديدة كما مرَّ، والمقول له منهم قيل: إنه معاوية رضى الله تعالى عنه وقد عد البرهان فى حاشيته هنا كتاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فبلغ عددهم ثلاثة وأربعين، وعدهم شيخه الحافظ العراقى، وقال: إن شيخه الجمال الأنصارى أفردهم بتأليف.

قلت: وقد وقفت أنا أيضا على تأليف لابن أبى الحديد فيهم، وكأنه لم يقف عليه و لم يفصلهم هنا لأن له مقاما آخر، وكان المداوم على الكتابة له صلى الله تعالى عليه وسلم زيد ومعاوية، رضى الله تعالى عنهما.

(ضع القلم على أذنك) لم يعينها والمراد اليمين، **(فإنه)** أى وضعه كذلك **(أذكر)** أى

أكثر ذكرا بكسر الذال وضمها، وهو ضد النسيان **(للمُمِلّ)** اسم فاعل أصله المملل، وجوز فيه أن يكون اسم مفعول أيضا أى مايذكر ويملى، وأمل وأملى بمعنى، وهو إلقاء ما يكتب على الكاتب، وبهما ورد القرآن قال الله تعالى: **(فليملل الذى عليه الحق)** وقال الله: **(فهى تملى عليه)**، والأصل أمللت فقلب تخفيفا كما قاله الراغب.

وأما قوله تعالى: ﴿**وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾ [الأعراف: ١٨٣]، فمعناه أمهلهم **(هذا)** أى خذ هذا أو اذكره، وقيل ها اسم فعل بمعنى خذ من غير تقدير، والرسم يخالفه وهى كلمة مستعملة فى الانتقال والتخلص من كلام لآخر أو ما يتممه، وهى كذلك فى القرآن وكلام العرب أى معرفته صلى الله تعالى عليه وسلم بالكتابة وأحوالهم **(مع أنه صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أمى من أمة أمية لا يكتب ولا يحسب، فهو من معجزاته لأنه **(كان لا يكتب)** كما تقدم بيانه.

وإنه قيل: إنه كان ذلك فى أول أمره وإنه كتب بعد ذلك فى الحديبية كما ذكره بعضهم، وقد ردوه وشنعوا عليه كما فصله ابن حجر فى تخريج أحاديث الرافعى وقد تقدم بيانه فى غير ما موضع.

(ولكنه)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أوتى)** بالبناء للمجهول للعلم بأن المؤتى له هو الله تعالى **(علم كل شىء حتى قد وردت آثار)** جمع أثر وهو ما يؤثر ويروى مطلقا، وقد يخص بما يقابل الحديث المرفوع من كلام بعض الصحابة أو التابعين، رضى الله تعالى عنهم، **(بمعرفته حروف الخط)** أى كيفية رسمها **(وحسن تصويرها)** أى صورتها المستحسنة عند أهلها ومن مارسها **(كقوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، لكاتبه **(لا تمد بسم الله الرحمن الرحيم)** أى لا تجعل السين مدة طويلة من غير بيان لسناتها، فإنه يلبس صورتها.

وفى نسخة لا تمدوا **(رواه ابن شعبان من طريق ابن عباس)**، رضى الله تعالى عنهما، وابن شعبان هو محمد بن القاسم بن شعبان بن إسحاق المصرى المالكى توفى سنة خمس وخمسين ومائة، وضعفه ابن حزم وله ترجمة فى الميزان، وقال السيوطى: حديث ابن عباس، رضى الله تعالى عنه، لا تمد بسم الله الرحمن الرحيم لم أجده، وللديلمى من حديث أنس، رضى الله تعالى عنه، إذا كتب أحدكم بسم الله الرحمن الرحيم، فليمد الرحمن.

وله من حديث زيد بن ثابت، رضى الله تعالى عنه، إذا كتبت فبين السين فى بسم الله الرحمن الرحيم.

(وقوله) صلى الله تعالى عليه وسلم **(فى الحديث الآخر الذى يروى)** بالبناء للمجهول

ونائب فاعله قوله **(عن معاوية)** بن أبى سفيان، رضى الله تعالى عنه، أحد كتبته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما تقدم، وفى نسخة الذى يروى معاوية أى يرويه عنه صلى الله تعالى عليه وسلم ويروى مبنى للفاعل على هذا **(أنه كان يكتب بين يديه)** أى عنده وفى مجلسه، **(فقال له ألق الدواة)** ألق أمر بفتح الهمزة وكسر اللام والقاف لالتقاء الساكنين، يقال: لاق الدواة يليقها وليقة وليقا وألاقها، ولاق يتعدى ولا يتعدى أى أصلح مدادها من قولهم لاق به إذا ألصقه، ومنه يليق بك كذا ولا يليق أى يناسب، واشتهر استعمال ذلك فيما يجعل فى الدواة من حرير أو لبد أو نحوه؛ لأنه يصلحها لمنعه كثرة أخذ المداد فى القلم الذى قد يفسد الخط.

(وحرف القلم) أى اجعل قطه محرفا فإنه أعون على تصوير السنات ويكون تحريفه من جهة اليمين.

(وأقم الباء) أى اجعلها مستقيمة أو طولها قليلا لأنها عوض عن ألف اسم.

(وفرق السين) أى اجعلها سننها منفصلا بعضها من بعض.

(ولا تعور الميم) أى لا تجعل دائرتها مطموسة كالعين العوراء، وهو بضم المثناة الفوقية وفتح العين المهملة وكسر الواو المشددة وراء مهملة.

(وحسن الله) أى كتابته وصورة لفظه تعظيمًا لمسماه.

(ومد الرحمن) لم يبينوا معنى المد فيه، فهو بمعنى مد ما بين الميم والنون هكذا الرحمـــن عوضا عن الألف الساقطة خطًا، أو المراد ارسم ألفا بعده ويبعده مخالفة رسم المصحف العثمانى.

(وجود الرحيم) أى حسن كتابته، والتجويد مطلق التحسين، ويختص فى العرف بتحسين الخط، وفى عرف القراءة تحسين التلفظ بالحروف ورعاية مخارجها وصفاتها، وهذا الحديث رواه الديلمى فى مسند الفردوس.

(وهذا) أى معرفته صلى الله تعالى عليه وسلم بالخط، وهو مبتدأ خبره قوله الآتى، فلا يبعد والفاء زائدة أو هو خبر مقدر أى محقق، ونحوه والفاء فى جواب الشرط، **(وإن لم تصح الرواية أنه، عليه الصلاة والسلام، كتب)** بيده الشريفة إشارة إلى ما قاله الباجى من أنه روى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كتب بيده فى الحديبية كما تقدم، وأنه لا يضر فى كونه أميا لأنه كان فى بدء أمره لأمر انقضى بانقضاء سببه، فهو معجزة أخرى له، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فلا يبعد)** عقلا **(أن يرزق علم هذا)** أى علم الخط من غير تعليم.

(ويمنع الكتابة والقراءة) من المصحف قيل: ولا يبعد أن يقع منه الكتابة والقراءة فى

وقت معجزة أخرى له بشهادة ما فى البخارى، رحمه الله تعالى، أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أخذ الكتاب، فكتب:

هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فى عمرة القضاء، وأنه قال لعلى بن أبى طالب، كرم الله وجهه، ورضى الله تعالى عنه: امح رسول الله لما أباها بعض المشركين، فقال: والله لا أمحوها أبدا فأخذ الكتاب وليس يحسن يكتب، فكتب هذا ما قاضى عليه محمد ابن عبد الله(١).

أقول: قد علمت أن هذه مقالة صدرت عن الباجى أنكرها عليه أهل عصره ونسبوه للزندقة، وعقد مجلس له فحاجه علماء عصره، وقالوا: إنه مخالف لنص الحديث والقرآن، وكونه عد من معجزاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأجاب بأنه صرح به فى حديث البخارى، رحمه الله تعالى، والتجوز خلاف الأصل وفى القرآن ما يشير إليه لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، يقتضى كتابته من بعده، وهو معجزة لا تنافى كون أميته معجزة فى أول أمره، وقد ذكره ابن حجر وغيره من شراح البخارى.

(وأما علمه صلى الله تعالى عليه وسلم بلغات العرب) جميعها قبائل وبطونا وكل أحد لا يعرف ولا ينطق إلا بلغته، حتى لو حاول التكلم بغيرها لم يطق، **(وحفظ معانى أشعارها)** وإن كان لا يقول الشعر ولا ينشده، وإن أنشده نادرا غير وزنه فى أكثر أحواله إلا أنه كان ترد عليه شعراء العرب الملقون بمدائح يمدحونه بها، وتنشد بين يديه فيصغى لها ويعلم منها ما لم يعلمه غيره من فصحائهم، ألا ترى كعبا لما أنشده قصيدته وقال فيها(٢):

قنواء فى جريتها للبصير بها   عنق متين وفى الخدين تسهيل

قال الصحابة رضى الله تعالى عنهم: الجريان العينان.

فقال لهم، صلى الله تعالى عليه وسلم، لابل الأذنان، وهو كذلك عند العرب ألا ترى قول علقمة:

له جريان يعرف العتق فيهما   كسامعتى مذعورة وسط ربرب

وقد نقل بعضهم نظائر لهذه القصة، والثمرة تدل على الشجرة وفى ذكره الشعر بعد الكتابة مناسبة تامة إذ كل منهما مما عرفه صلى الله تعالى عليه وسلم أتم معرفة ولم يتلبس

(١) تقدم تخريجه.

(٢) البيت من البسيط، وهو فى ديوان كعب (ص١٣)، لسان العرب (٤١٣/١٣)، تاج العروس (٥٨٢/١٠).

به وهو من مقاصده الحسنة.

وفيه دليل على أن ذكر الشعر والبحث عنه أمر مسنون كغيره من العلوم، وقد قالوا: إن معرفته من فروض الكفاية حتى شعر المولدين كما ذكره السيوطى فى شرح منظومة المعانى والبيان، واختلفوا بعد الاتفاق على امتناع الخط حتى قال بعض الشافعية بحرمتها هل كان يحسنهما أو لا؟ فقيل بكل من القولين كما فى الروضة، والحفظ يتعلق بالمعانى والألفاظ فلا وجه للاعتراض عليه بأنه لو قال فهم معانى أشعارها كان أظهر.

(فأمر مشهور قد نبهنا على بعضه فى أول الكتاب) فى فصل فصاحته كما تقدم.

(وكذلك) أى مثل معرفته للغات العرب **(حفظه لكثير من لغات الأمم)** غير العرب، وهذا ترق فى معرفته لذلك ودليل على أنه معجزة وموهبة ربانية **(كقوله فى الحديث)** الذى رواه البخارى عن أم خالد **(سَنَهْ سَنَهْ)** قاله:صلى الله تعالى عليه وسلم، لأم خالد ابن سعيد بن العاص أمها أميمة بنت خلف تزوجها الزبير، وهى صحابية ولدت بالحبشة وتربت بها وهى صغيرة، ولذا تلطف النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بها وخاطبها بما تعرفه من لغتهم، وإن كانت عربية من صميم العرب، وقاله لها لأنه أتى بثياب فيها خميصة صغيرة سوداء فيها أعلام صفر وخضر، فدعاها وألبسها لها وقال لها ذلك كما فصله البخارى، وفيها لغات سنة سنة كما ذكر، وسنا سنا بالقصر، وسناه سناه مع تخفيف النون وتشديدها، وأنكر بعضهم تخفيفها، وروى كسر سين سنا.

فقول الكرمانى أنها عربية وأصلها حسنه فخففت بحذف الحاء كقوله كفا بالسيف شا أى شاهدا، تأباه هذه الروايات وإن الحذف من الأسماء فى غير ترخيم النداء مع شذوذه لم يعهد من الأول.

(وهى) أى سنه بمعنى **(حسنة)** أنثها باعتبار الخميصة ولمناسبة سنه لفظا **(بالحبشية)** أى بلغة الحبشة، وهم جيل معروفون.

(وقوله)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الشيخان وغيرهما من طرق فى حديث الفتن المقدم، **(ويكثر الهرج)** بفتح الهاء وسكون الراء المهملة وجيم، **(وهو القتل بها)** أى بلغة الحبشة، فعربه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال ابن قرقول فى المطالع: فسر فى الحديث بالقتل بلغة الحبشة، وهو وهم من بعض الرواة، وإلا فهى عربية صحيحة، وأصل معناه اختلاط الناس بعضهم ببعض، ومنه لن يزال الهرج إلى يوم القيامة، والعبارة فى الهجرج كهجر إلى، انتهى.

وهو رد لما قاله المصنف، رحمه الله تعالى، ولمن توهم أن تفسيره مروى فى الحديث، ومنه يعلم أنه ورد بمعنى الفتنة، وما قيل من أنه المهرجان اسم يوم؛ لأنه يوم قتل يحيى بن

زكريا لا وجه له لأنه يقتضى أنه فارسى، ولم يقله أحد، وقيل: إنه من توافق اللغتين وهو أقرب إلى الصواب إن صحت الرواية فيه، ومنه المثل هم فى هرج ومرج، والمرج بمعناه وتسكينه للازدواج وقد تظرف القائل:

أتى زمن الربيع فهاج قوم إلى الصهباء فى هرج ومرج

(وقوله) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى حديث أبى هريرة)** الذى رواه ابن ماجه عنه **(أشكنب درد)** وفى بعض الروايات أشكنب دردم بزيادة ميم ساكنة، وأشكنب بهمزة مفتوحة وشين معجمة ساكنة وكاف عربية مفتوحة ونون ساكنة وباء موحدة ساكنة، وفسره المصنف، رحمه الله تعالى، بما يأتى، وفى الفارسية بهمزة مكسورة وقد تفتح ويزاد فيها هاء، فيقال: شكنبة، بكسر الشين، فعربت وغير لفظها ومعناها، فإن معناها الكرش عند العجم.

ودرد بدالين مهملتين مفتوحتين بينهما راء مهملة ساكنة والميم عندهم ضمير المتكلم، وسيأتى ما فيه، وقد علمت أن الصحيح إهمال الدالين وإسقاط الميم كما رواه ابن ماجه، وضبطتبه الرواية عنه فإنه قزوينى أعلم بلغته وثقة فى الرواية فما قيل: إن دال درد الأولى معجمة وهم من راويه كرواية الميم لأنه لا يناسب قوله: **(أى وجع البطن)** فإنه لو صح ذلك قال: أى وجع بطن، وفسره غيره بوجع بطنك، وهو أنسب بترك الميم إلا أن يقال: ترك معناه التعريب، والذى رواه ابن ماجه شكم بشين مكسورة وكاف مفتوحة وهو أصح؛ لأن شكم بالفارسية معناه البطن.

وفى سننه قال أبو هريرة: هجر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فهجرت وصليت، ثم جلست فالتفت إلى وقال: شكم درد، فقلت: نعم، يا رسول الله، فقال: «قم فصل فإن فى الصلاة شفاء»(١).

كذا صححه الشارح الجديد نقلاً عن شيخنا ابن عبد الحق السنباطى وغيره، وهو الحق المعتمد فاعرفه فإن شيخنا هذا خاتمة الحفاظ بمصر وإليه انتهى علم القراءات، وله تآليف مشهورة، رحمه الله تعالى، وروى إشكنب بكسر الهمزة، وأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، قاله لأبى الدرداء، والمشهور الأول كما قاله التلمسانى، ولم يذكروا وجه تكلمه صلى الله تعالى عليه وسلم، معه بالفارسية، وهو ليس بعجمى فلعله أراد ستره.

ولذا ورد أنه قال: ثم فسره لى، وذكر البرهان بعضًا مما تقدم وقال: إنه فى بعض النسخ أشقنب بالقاف، وهو غريب ولم يسنده لرواية فاعتمد على ما قدمناه.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٩٠)، وابن ماجه (٣٤٥٨).

وقوله: **(بالفارسية)** أى باللغة الفارسية نسبة لفارس ابن كومرت، وكومرت ابن سام أو يافث، وقيل: إنه ولد لصلبه، وقيل: إنه آدم عندهم، ويقال لهم: الفرس، ومما تكلم به صلى الله تعالى عليه وسلم، بالفارسية لفطسور فى حديث جابر، وهو الدعوة للطعام وبالعربية العرس.

(إلى غير ذلك) أى مضمومًا ما ذكر من معرفته باللغات أو من معارفه التى لا تحصر **(مما لا يعلم بعض هذا)**، وفى نسخة بعضه فضلاً عن كله، **(ولا يقوم به)** أى يوفى حقه كله، **(ولا ببعضه)** فضلا عن كله **(إلا من مارس الدرس)** أى عالجه واجتهد فى حفظه ودراسته وتلقيه من أهله، وفى نسخة الدروس، **(والعكوف على الكتب)** أى ملازمة مطالعتها ومذاكرتها والنظر فيها، من الاعتكاف وهو ملازمة المكان، فاستعاره لما ذكر، وفيما تقدم دليل على جواز التكلم بغير العربية ولو بلا ضرورة خلافًا لمن ذهب لكراهته.

وروى فيه أحاديث واهية كمن تكلم بالفارسية نقصت مروءته، وأنه يورث النفاق وأنه لسان أهل النار، ويدل لعدم الكراهة أحاديث كحديث: «الفارسية الدرية لسان أهل الجنة فى الجنة».

(ومثافنة أهلها) مفاعله من ثفن بمثلثة وفاء ونون أى جالسهم ولازمهم، وهو أبلغ منه لأنه من ثفن البعير إذا برك، والثفنات ما غلظ لطول مسه للأرض كالركب، وصدر الدابة من ذوات الأربع يعنى جلس بين يديه للتعلم كالبعير البارك على الأرض، وهذه هيئة المتعلم فى أدبه.

وقال التلمسانى: هى المثفنة من ثافنته أعنته، وروى مثاقبة بمثلثة وقاف وموحدة كما تقدم[1] انتهى، وفى بعض النسخ منافثة بنون وفاء ومثلثة أى مباحثة ونظر فى الدقائق التى كنفثات السحر، وفيه نظر، وفى بعض الشروح ما لا معنى له هنا.

(عمره) منصوب على الظرفية متعلق بجميع ما قبله: أى فعل ذلك مدة عمره كلها ولم يتركه طرفة عين، **(وهو صلى الله تعالى عليه وسلم، رجل كما قال الله تعالى: أمى)** منسوب إلى الأم كأنه كما خرج من بطن أمه لم يتعلم، وهو مبرأ من كل عيب، أو إلى أمة العرب لأنهم معروفون بذلك كما مر، وقال الشاعر:

عمـــى خالـــى وأبـــى أمـــــى

فقوله: **(لم يكتب ولم يقرأ)** صفة كاشفة مفسرة وإنما ذكر قوله: كما قال الله تعالى؛ تأدبًا يعنى لم أصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بهذا إلا اتباعًا لما وصفه الله به بقوله: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس: ٢]، وهو قيد لما بعده وما قبله، فلا يقال: إنه ترك

(١) الذى تقدم «مناقثة» وليس «مثاقبة».

أدب، فإن مثله لا يقال له: يا رجل كما لا ينادى باسمه، فلله در المصنف ما أبعد مرماه.

(ولا عرف بصحبة من هذه) أى الكتابة والقراءة **(صفته)** حتى يقال: إنه تعلم منه فهذه الصفة فى حقه معجزة، وفى حق غيره نقص كما قال:

كفاك بالعلم فى الأمى معجزة

(ولا نشأ) أى لم يكن من أول نشأته وبدء أمره إلى بعثته **(بين قوم لهم علم)** أى معرفة بشىء من العلوم؛ لأنهم من الجاهلية، **(ولا قراءة لشىء من هذه الأمور)** أى الكتب وغيرها؛ لأنهم لم يكونوا أهل كتاب.

(ولا عرف هو)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قبل)** مبنى على الضم أى قبل بعثته وظهور معرفته بما ذكر **(بشىء منها)** أى بما ذكر من المعارف اللدنية، ثم استدل على ذلك بقوله: **(قال الله)** وفى نسخة عز وجل: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، أى القرآن وما علمك الله (﴿مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾) أى بيدك اليمنى التى يكتب بها، وهو تأكيد وتصوير، وبين الله تعالى علة ذلك بقوله: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، أى شكوا وقالوا: تعلمه ممن قرأه وكتبه ثم بين حال قومه فى عدم ما ذكر بقوله: **(إنما كانت غاية معارف العرب)** أى ما انتهى إليه علمهم **(النسب)** أى معرفة أنساب قبائلهم إلى أجدادهم **(وأخبار أوائلها)** أى ما وقع لآبائهم وأسلافهم من الحروب والوقائع، **(والشعر)** أى حفظ شعر من قبلهم من القصائد والقطعات والأبيات، **(والبيان)** ليس المراد به علم البيان المعروف؛ لأنه أمر حدث كانوا فى غنى عنه بالسليقة، ولا ثمرة علم البلاغة كله كما توهم أيضًا، وإنما المراد به المنطق الفصيح المعرب عما فى الضمائر، وعنى به الخطب والرسائل ونحوها من الكلام المنثور الذى كانوا يذكرونه فى محافلهم لمقابلته للشعر، وهو المعنى بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم، «إن فى البيان لسحرًا».

(وإنما حصل ذلك لهم) أى معرفة النسب وما بعده **(بعد التفرغ لعلم ذلك)** أى مع ذلك لم يكن علمهم بما ذكر إلا بمزاولة واكتساب وصرف زمان لكسبه، حتى عرف به بعضهم دون بعض، فكان يقال: فلان نسابة وفلان راوية ونحوه **(والاشتغال بطلبه ومباحثة أهله عنه)** بالسؤال عنه والحفظ له، ولم يعهد منه اعتناء بذلك فى أول أمره.

(وهذا الفن) أى النوع الذى كانت العرب تعرفة وتعتنى به **(نقطة من بحر علمه صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى أقل قليل بالنسبة لما ظهر من علمه لهم، ونقطة استعارة وبحر علمه استعارة أو كلجين الماء، **(ولا سبيل إلى جحد الملحد)**، أى لا يمكن الكفرة المائلين عن الطريق المستقيم إنكاره، وهو إشارة لتفسير قوله تعالى: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

(لشىء مما ذكرناه) من معارفه متعلق بجحد واللام زائدة للتقوية، **(ولا وجد الكفرة حيلة)** يبدونها تلبيسًا **(فى دفع ما نصصناه)** مما تقدم تفصيله **(إلا قولهم أساطير الأولين)** استثناء متصل؛ لأنه مما احتالوا به على بعض ضعفاء العقول، أو منقطع؛ لأنه لا حيلة فيه وهو جمع أسطورة كأحدوثة، أو جمع أسطار جمع سطرا أو أسطير أو أسطور، أى هى أحاديث مما سطره من قبله وأكاذيب.

(و) قالوا: **(إنما يعلمه بشر)**، أى هو مما تلقاه من غيره وتعلمه، **(فرد الله قولهم)** المذكور وأبطله **(بقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾)** [النحل: ١٠٣]، أى لسان من ادعوا أنه تعلم منه لسان عجمى، فكيف يمكن تعليمه أو التعلم منه، ومعنى يلحدون يميلون عن الحق بمقالتهم هذه.

(ثم ما قالوه) من أنه يعلمه رجل أعجمى، وفى نسخة قالوه بهاء الضمير **(مكابرة العيان)** بكسر العين، ولا تفتح فيه كما مر، والمكابرة الإنكار من غير دليل، وأصل معناه هجوم السارق نهارًا، أى معاندة فى المحسوس لا تفيد.

(فإن الذى نسبوا تعليمه) له صلى الله تعالى عليه وسلم، بزعمهم الباطل **(إليه)** متعلق بنسبوا أى أسندوه له.

(إما سلمان) الفارسى الصحابى المشهور، رضى الله تعالى عنه؛ لأنه كان عنده صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أو العبد الرومى)**، وهو يعيش غلام حويطب بن عبد العزى الرومى، وكان ممن قرأ الكتب، ثم أسلم وسيأتى تفصيل قصته.

(و) قصة **(سلمان إنما)** أسلم و **(عرفه)** بالمدينة **(بعد الهجرة)**، وعلومه صلى الله تعالى عليه وسلم ومعارفه هذه كانت ظاهرة قبل ذلك، فكيف أنه كان يعلمه.

(و) بعد **(نزول الكثير من القرآن)** حتى هذه الآية.

(و) بعد **(ظهور)** وفى نسخة نزول **(ما لا ينعد)** لكثرته **(من الآيات)** القرآنية، أو العلامة الدالة على نبوته من المعارف المذكورة الدالة على إبطال زعمهم.

(وأما) العبد **(الرومى فكان أسلم)** قبل الهجرة، **(و)** لكنه **(كان يقرأ على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)**، ويتعلم منه، فكيف يقال: إنه يعلمه؟ **(واختلف)** بالبناء للمجهول أى اختلف المحدثون **(فى اسمه)** كما سيأتى فى كلامه، فقيل: إنه بلعام أو يعيش أو جبر، أو يسار أما بلعام فبموحدة مكسورة، وقول البرهان: إنها مفتوحة لا أصل له ولام ساكنة وعين مهملة وألف وميم.

ويعيش يأتى أنه بفتح التحتية وعين مهملة مكسورة وتحتية ساكنة وشين معجمة ذكره الذهبى فى الصحابة، وقال: إنه غلام المغيرة وهو الذى نزل فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا

يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾، وجبر يأتى أيضًا أنـه بجيـم مفتوحـة وموحـدة سـاكنة وراء مهملـة قـال البرهان: لم أقف عليه فى الصحابة، وكذا يسار بفتح التحتية المثناة تتمة لهذا فى محله.

(**وقيل: بل كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، يجلس عنده**) إضـراب عـن إسـلامه وقراءته عليه إلى أنه كان عبدًا روميًا يحترف بصقـل السـيوف (**عند المروة**) مـع النـاس، فكيف قالوا: إنه تعلم منه وهو لم يخل معه و لم يعرف؟ وقيل: المخالفـة بينـه وبـين الأول فى أيهما كان يجلس عند الآخر، فالإضراب انتقالى أو إبطالى.

(**وكلاهما**) أى سلمان والغلام الرومى (**أعجمى اللسـان**) أى لسـان كـل منـهما فيـه عجمة، (**وهم**) أى الطاعنون فيه بما ذكر وإسناد التعلم له (**الفصحاء اللد**) جمع ألد، وهو الشديد الخصومة ويجمع على لداد أيضًا من اللدد، وهـو العنـاد وفـى الحديـث: «أبغـض الرجال إلى الله تعالى الألد الخصم».

(و) هم (**الخطباء**) جمع خطيب، وهو من يقوم على رءوس القوم بكـلام بليـغ ملـزم مفحم، ولا يشترط فيه أن يكون سـجعا، وقـد كـان للعـرب ولكـل قـوم منـهم خطبـاء معروفون بالبلاغة وارتجال الكلام الجزل (**اللسن**) بضم اللام وسكون السـين جمـع لسـن كحذر، وهو الفصيح اللسان الطلق البيان، وقيل: جمع ألسن فلا إسهاب فيـه كمـا قيـل (**قد عجزوا**) بفتح الجيم وكسرها (**عن معارضة ما أتى به**) أى مقابلته بكلام يحكيه.

(**والإتيان بمثله**) عطف تفسير مع تحديه وطلبه منهم وتقريعـهم، (**بـل**) عجـزوا كلـهم (**عن فهم وصفه**) ومعرفة كنه بلاغته ووجه إعجازه ونظمه، فتارة قالوا: هو شعر، وتارة قالوا: إنه سحر وكهانة والحس يكذبـهم والفصاحـة تنـادى علـى فصاحتـهم، (**وصـورة تأليفه**) أى عجزوا عن فهم صـورة تأليفـه ونظمـه المعجـز، فإنـه لا يشـبه كـلام البشـر، والتأليف أخص من التركيب لأنه تركيب مع ألفـة ومناسـبة، وفـى أكـثر النسـخ رصفـه بالراء المهملة جمع رصف بفتحتين، وهو فى الأصل وضـع بعـض الحجـارة علـى بعـض، فاستعير لترتيب الكلام المتين المحكم.

وفى بعض النسخ (**ونظمه**) وهو وما قبله معطوف على وصفـه، ويجـوز عطفـه علـى معارضة، والأول أقـرب، والنظـم مسـتعار مـن نظـم الـدر لتناسـق الكلمـات التـى هـى كالجواهر، وما بعد بل ترق فى العجز ومغايرته لما قبله ظاهرة لا تحتـاج لتوجيـه إلا عنـد عدم الفهم.

(**فكيف**) هى للاستفهام عن الحال والوصـف المبـهم، ويـراد بـها التعجـب نحـو قولـه تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨].

وقوله: (**بأعجمى**) متعلق بمقدر أى كيف الظن بـأعجمى، وهـذا تركيـب سـائغ فـى

كلامهم تقول: كيف بك إذا جاء الشتاء.

(ألكن) من اللكنة، وهى عدم إفصاح اللسان وبيان النطق.

(نعم) بفتحتين وقد تكسر عينه، ويقال: نعام أيضًا فى لغة، وهى كلمة تقع فى جواب الكلام الموجب، وقد تقع فى ابتداء الكلام كما هنا، فكأنها جواب سؤال مقدر، وفى غير جواب كما يقال لمن طرق الباب: نعم نعم، وعليه حمل قول جحدر:

نعم وأرى الهلال كما تراه

كما سيأتى، وقال بعضهم: إنها زائدة فى مثله وفيه كلام لم يحضرنى الآن.

(وقد كان سلمان) الفارسى، رضى الله عنه، **(أو بلعام)** وهو بفتح الباء الموحدة على ما تقدم واشتهر كسرها، ويقال: بلعم أيضًا وهو اسم الغلام **(الرومى أو يعيش)** بفتح المثناة التحتية وعين مهملة مكسورة وياء تحتية ساكنة وشين معجمة علم منقول من المضارع، **(أو جبر)** بفتح الجيم وسكون الباء الموحدة وراء مهملة، وهو عبد للفاكه بن المغيرة، وقيل: لعباد الحضرمى، قيل: إن سيده كان يضربه ويقول له: أنت تعلم محمدًا؟ فيقول: لا والله بل هو يعلمنى ويهدينى **(أو يسار)** بفتح المثناة التحتية، وهذا المذكور مبنى **(على اختلافهم فى اسمه)** كما تقدم.

(بين أظهرهم) خبر كان أى مقيمًا بينهم يعرفونه، ويقال: ظهرانيهم بألف ونون مفتوحة كأنه لاستناده إليهم ظهر وراءه وظهر قدامه، ثم كثر فشاع فى الإقامة بين قوم يخالطهم **(يكلمونهم مدى أعمارهم)** أى فى جميع مدة أعمارهم يخاطبهم ويكلمهم ويكلمونه، فكيف لا يعرفون حاله وهو استدلال على كذبهم، وأصل معنى المدى الغاية ويطلق على جميع المدة الطويلة كما فى النهاية، وذكر الماوردى أن غلامين نصرانيين من عين النمر أحدهما: يسار، والآخر جبر كانوا يسندون لهما ما ذكر، وقيل غير ذلك.

(فهل حكى عن واحد منهم) أى من الكفرة **(شىء من مثل ما كان يجىء به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم)**، فيه حذف تقديره نقله عن هذين، فإن كان ضمير منهم لسلمان، رضى الله تعالى عنه، والغلام فهو تعبير عن المثنى بضمير الجمع تجوزًا، وفى نسخة من مثل ما كان يجىء به، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وهل عرف واحد منهم بمعرفة شىء من ذلك) الذى جاء به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، من الآيات الباهرة وهو كالذى قبله.

(وما منع العدو حينئذ) أى حين حضورهم معه **(على كثرة عدده)** بفتح العين أىْ أىُّ مانع لهم مع كثرتهم وحرصهم على تكذيبه، **(ودؤوب طلبه)** بدال مهملة وهمزة وواو موحدة مصدر بوزن القعود من الدأب، وهو الجد والتعب يقال: أدأبه إذا أتعبه ثم صار

بمعنى العادة المسببة عن ذلك وصار حقيقة فيه، **(وقوة حسده)** بحاء مهملة وهو مما يبعثهم على الطلب ويحثهم **(أن يجلس إلى هذا)** الذى زعموا أنه يعلمه.

(فيأخذ عنه) أى يتلقن بتعلمه منه **(أيضًا)** أى كما تعلم منه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، على زعمهم الفاسد **(ما يعارض به)** ما جاء به، **(ويتعلم منه ما يحتج به)** أى يجعله حجة ودليلاً **(على شغبه)** أى لجاجة فى خصومته وعناده وتهيج الشر بفتنته، يقال: شغب به وعليه وهو بفتح الغين المعجمة هنا لوقوعه قافية لقوله طلبه، وهو لغة فيه كما فى القاموس وغيره وتسكن أيضًا، وهى اللغة المشهورة فيه، ومن أنكر الفتح وقال: إنه لغة عامية كالحريرى لم يصب، مع أن الكوفيين يجوزون تحريك كل ما عينه حرف حلق كالشعر، على أنه لو صح ما قاله قلنا له: إنه ازدواج ومشاكلة وحرفه بعض بشيعته.

(كفعل النضر بن الحارث) وهو من كفار قريش وكان ذهب إلى الحيرة ليتعلم منهم أخبار ملوك الفرس رستم وأضرابه، فكان إذا قرأ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، القرآن وقص عليهم قصص الأمم وحذرهم ما وقع، جلس النضر بين قريش وقص عليهم قصص ملوك الفرس وقال: قد أتيتكم بأحسن مما جاء به محمد، وهو الذى نزل فيه: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣] الآية، ثم إنه لم يزل كذلك مصرًا على عداوته صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أظفره الله عليه فقتله كما ذكر فى السير.

(بما كان يمخرق به) متعلق بفعل، ويمخرق بمعنى يكذب والمخرقة لفظة مولدة ومعناها افتعال الكذب يتلهى به، أخذوها من المخراق وهى خرقة يلعب بها من يرقص، وهذه لفظة عربية ميمها زائدة تصرف فيها المولدون، وتوهموا أصالة ميمها كما فى قولهم تمسكن، ويمخرق بضم التحتية وفتح الميم وخاء معجمة وراء مهملة وقاف **(من أخبار كتبه)** التى كان يأتى بها ويقصها عليهم.

(ولا غاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن قومه) ولا خرج من بلده إلى بلاد بعيدة أقام بها إقامة يحتمل أنه لقى بها من تعلم منه، وهذا معطوف على قوله ولا عرف إلخ، ولا يضره طول الفصل وما اعترض بين المعطوفين.

(ولا كثرت اختلافاته) أى رواحه ومجيئه مرارًا عديدة، يقال: فلان يختلف إلى بلاد كذا أى يسافر ويذهب إليها لأنها مخالفة لمقره المعروف **(إلى بلاد أهل الكتاب)**، وهم اليهود والنصارى والتعبير بالكثرة هنا إشارة إلى ما يأتى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، وقع له ذلك مرة أو مرتين، إلا أنه فيهما لم يفارق رفقاءه من قومه، ولم يقم عند غيرهم حين سافر إلى الشام كما يأتى.

(فيقال: إنه استمد منهم) أى طلب المدد والإعانة من أهل الكتاب بتعليمه لشىء مما

كان يتلوه على قريش، **(بل لم يزل)** مقيمًا عندهم **(بين أظهرهم)** فى وسطهم مختلطًا معهم، وتقدم أنه يقال بين أظهرهم وظهرانيهم.

(يرعى) ضبطه بعضهم بضم المثناة التحتية أى يلاحظ ويحفظ، فهو بمرأى منهم ومسمع لا يخفى أمره عليهم، وبعضهم فتحه وجعله من رعاية الغنم والمواشى، وهو المناسب لقوله **(فى صغره)** أى وهو طفل، **(وشبابه)** أى بعد ما بلغ وصار شابًا، وكأن من ذهب إلى الأول أنف من جعله صلى الله تعالى عليه وسلم، راعيًا، ولكنه وقع ذلك له ولغيره من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ولم يكن معيبًا عندهم، وهو أقوى فى إثبات مدعاه؛ لأن من يرعى يكون فى الغالب معتزلاً عن الناس بعيدًا عن التعلم **(على عادة أبنائهم، ثم لم يخرج عن بلادهم)** بعد ما شب وبلغ، أو بعد ما وجد وعرف حاله **(إلا فى سفرة)** واحدة **(أو سفرتين)** إلى بلاد الشام مرة مع أبى طالب ورده من الطريق بإشارة بحيراء الراهب كما مر.

ومرة فى تجارة لأم المؤمنين خديجة، رضى الله تعالى عنها، مع غلامها ميسرة فلم ينفرد عن أهل بلدته أبدًا سفرًا وإقامة، ولم يتردد المصنف، رحمه الله تعالى، فى السفرتين حتى يرد عليه قول البرهان: إن السفرتين محققتين كما فى السير، فكان ينبغى أن يقول إلا فى سفرتين جزمًا لأن السفرة الأولى لما رده فيها عمه أبو طالب من الطريق كانت كالعدم، فإنه يقال لمن رجع إنه لم يسافر فلا وجه للاعتراض عليه، ومثله لا يخفى.

وأما ذهابه صلى الله تعالى عليه وسلم، مع مرضعته حليمة لبنى سعد، فلا يعد مثله سفرًا، لاسيما والمراد سفر خاص لديار أهل الكتاب وسفر يمكنه التعلم فيه، وكذا ذهابه صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى الطائف إلى بنى عبد ياليل، فإنه لقربه لا يعد سفرًا وأهلها جهلة أهل شرك لا علم عندهم يعلمونه له.

وقوله: **(ولم يطل فيها)** أى فى جنس السفرة **(مكثه)** أى إقامته وهو بفتح الميم وضمها **(مدة يحتمل فيها)** أى فى المدة **(تعليم القليل)** وتعلمه من علم وغيره، **(فكيف الكثير؟)** الذى كانوا يعرفونه منه وهو استفهام إنكارى بنفيه بطريق برهانى، ثم أكده وأثبت مدعاه بقوله: **(بل كان فى سفره فى صحبة قومه)** لم يفارقهم ولم يخالط غيرهم طرفة عين **(ورفاقة)** بفتح أوله مصدر كالسماحة بمعنى المرافقة، وهى الاجتماع فى السير والسفر من الرفق لأن كلا منهما يرفق بصاحبه.

(عشيرته) أى قومه وقبيلته من العشرة، وهى الاختلاط، قال فى القاموس: عشيرة الرجل بنو أبيه الأدنون أو قبيلته **(لم يغب عنهم)** ويفارقهم مفارقة تحتمل ملاقاة أهل الكتاب وتعلمه منهم، **(ولا خالف حاله)** التى نشأ عليها وعرف بها **(مدة مقامه)** بضم

الميم مصدر بمعنى الإقامة (**بمكة**) إلى أن هاجر صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى المدينة، وفاعل خالف ضمير يعود له صلى الله تعالى عليه وسلم، وحاله مفعوله وقوله: (**من تعليم**) بيان لمقدر فى قوة المذكور لعلمه مما قبله أى ما خالفه لأمر آخر من تعليم إلى آخره، وليست من زائدة فى الفاعل ومحله رفع كما قيل.

(**واختلاف**) أى مجىء وذهاب وأصله مجىء القوم بعضهم خلف بعض، فاستعمل المقيد فى المطلق ومنه اختلاف الليل والنهار (**إلى حبر**) بكسر الحاء وفتحها، وهو العالم من علماء اليهود (**أو منجم**) أى عالم بالنجوم وأحكامها (**أوقس**) بفتح القاف كما فى القاموس وغيره واشتهر ضمه، وذكره ابن السيد فى المثلثات رئيس علماء النصارى.

(**أو كاهن**) وهو من العرب من يخبر عن المغيبات بواسطة جن ونحوه، فاستوفى أقسام من يمكن التعلم منه من أنواع الناس، ثم ترقى فى إبطال ما قالوه فقال: (**بل لو كان هذا**) أى لو فرض خلاف ما ذكر من حاله صلى الله تعالى عليه وسلم، بأن فرضنا أسفارًا كثيرة له ومكثا مع أهل الكتاب واختلافًا للقسيسين والأحبار (**بعد**) مبنى على الضم والتقدير بعد ثبوت خلافه لا بعد مكثه بين أظهرهم يرعى فى صغره وشبابه كما قيل، فإنه غير مناسب لمن تأمل كلامه.

(**كله لكان مجىء ما أتى به**) صلى الله تعالى عليه وسلم، (**فى معجز القرآن**) الذى لا يشبه شيئًا من كلام البشر (**قاطعًا لكل عذر**) اعتذروا به عن مخالفتهم له عنادًا وبغيا منهم، وجعله عذرًا إيماء إلى أنهم معترفون بجرمهم بدلالة الحال، (**ومدحضًا**) أى مزيلاً ومبطلاً من الإدحاض وهوالإزلاق، ففيه استعارة مكنية لتشبيههم بمن زلت قدمه لمشبه فى أوحال الشرك (**لكل حجة**) تشبثوا بها، وهى أوهى من بيت العنكبوت وفى نسخة لكل شبهة، (**ومجليا**) بضم الميم وفتح الجيم وكسر اللام المشددة ويجوز تخفيفها وتسكين الجيم، وقال البرهان: إنه بضم الميم وسكون الخاء المعجمة والظاهر ما قدمناه أى موضحًا وكاشفًا ومزيلاً ومبعدًا (**لكل أمر**) غيهب تخيلوه وتلبيس احتالوا به.

* * *

(فصل ومن خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم)

التى خصه الله بها عن غيره من الرسل، عليهم الصلاة والسلام، وسائر الخلق (**وكراماته**) التى أكرمه الله تعالى وشرفه بها، (**وباهر آياته**) أى ظاهر آيات نبوته ومعجزاته والجار والمجرور خبر مقدم للحصر والاعتناء.

وقوله: (**أنباؤه**) بفتح الهمزة جمع نبأ، وهو الخبر أى أخباره الصحيحة الواقعة له صلى الله تعالى عليه وسلم (**مع الملائكة والجن وإمداد الله له بالملائكة**) بكسر الهمزة مصدر أمده

إمدادًا من المد، قال الراغب: أمددت الجيش بمدد، والإنسان بطعام وأكثر ما جاء الإمداد فى المحبوب، والمد فى المكروه نحو أمددناهم بفاكهة: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم:٧٩]، انتهى، أى إرسال الله الملائكة، عليهم الصلاة والسلام، مددًا له صلى الله تعالى عليه وسلم، وإعانة كما سيأتى.

(**وطاعة الجن له**) بانقيادهم وإسلامهم لا بإمدادهم، ولذا خالف فى العبارة بينهم وبين الملائكة.

(**ورؤية كثير من أصحابه لهم**) أى للملائكة والجن كما سيأتى، ولا وجه لتخصيصه بالجن ثم ابتدأ بما يثبت ما قاله من القرآن فقال: (**قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا﴾**) [التحريم: ٤]، أى تتعاونا (**﴿عَلَيْهِ﴾**) أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، بما يسوؤه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ أى ناصره ومعينه ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أبو بكر وعمر معطوف على محل اسم إن فيكونون ناصريه (**الآية**) أى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾، وضمير تظاهرا لحفصة وعائشة أمى المؤمنين، والآية وسبب نزولها وتفسيرها مبسوط فى محله، وقد تقدم فى أول الكتاب بعض منه.

(**وقال الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾**) [الأنفال: ١٢]، بنصرى وتأييدى ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، بالقتال معهم وتقوية قلوبهم بوعدهم بالنصر وظهورهم على أعدائهم، وهذا كان ببدر وقد كثر أعداؤه المشركون وعددهم وقلة المسلمين وضعفهم، وهو تعالى يؤيد من يشاء بنصره (**وقال**) فى وقعة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، تطلبون غوثه وإعانته ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، أجاب دعاءكم وأنجز وعده لكم، (**﴿أَنِّى مُمِدُّكُم﴾ الآيتين**) أى اقرأهما إلى آخرهما أى ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، أى متتابعين.

(**وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الآية**) [الأحقاف: ٢٩]، أى أملناهم وأوصلناهم إليك والنفر ما دون العشرة وهؤلاء جن نصيبين، وهذا كان ببطن نخلة فى منصرفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الطائف، وقد ذكر هؤلاء النفر وعدتهم وأسماءهم فى مفصلات التفسير واجتماع الجن به، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقع مرتين بل أكثر، وهو شاهد على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، مرسل للجن ولا شبهة فيه، ولا خلاف عند من يعتد به.

(**حدثنا سفيان بن العاصى الفقيه بسماعى عليه**) تقدم بيانه وبيان السماع ورتبته قال: (**حدثنا أبو الليث السمرقندى**) تقدمت ترجمته قال: (**حدثنا عبد الغافر الفارسى**) تقدم أيضًا قال: (**حدثنا أبو أحمد الجلودى**) تقدم ضبطه وترجمته قال: (**حدثنا ابن سفيان**) هو

إبراهيم بن محمد بن سفيان راوى صحيح مسلم عنه وترجمته معروفة.

قال: **(حدثنا مسلم)** القشيرى النيسابورى صاحب الصحيح المشهور قال: **(حدثنا عبيد الله بن معاذ)** أبو عمرو العنبرى الحافظ الفصيح الثقة، توفى سنة مائتين وسبع وثلاثين وأخرج له أصحاب السنن.

قال: **(حدثنا أبى)** معاذ بن معاذ التميمى الحافظ قاضى البصرة وإليه انتهى علم الحديث، توفى سنة مائة وستة وتسعين وأخرج له أصحاب السنن أيضًا قال: **(حدثنا شعبة)** تقدمت ترجمته أيضًا قال: **(حدثنا سليمان الشيبانى)** ابن أخى سليمان فيروز أو خاقان الشيبانى بالمعجمة مولاهم الكوفى الحافظ الثقة، توفى سنة ثمان وثلاثين أو إحدى أو اثنين وأربعين.

وقول الواقدى وابن كثير: سنة تسع وعشرين غلط وأخرج له الأئمة الستة **(سمع زر)** بكسر الزاى المعجمة وتشديد الراء المهملة **(ابن حبيش)** بالتصغير بحاء مهملة وموحدة وتحتية ساكنة وشين معجمة، وهو أبو مريم الأسدى أدرك وسمع عليا وعمر، رضى الله تعالى عنهما، وعاش مائة وعشرين سنة، وتوفى سنة اثنين وثمانين وأخرج له الستة **(عن عبد الله)** بن مسعود الصحابى المشهور، وهذا التفسير الآتى أخرجه مسلم، والترمذى، والنسائى موقوفًا، والذى ذكره المصنف رواية السنن.

وقال الترمذى: إنه حسن صحيح ولفظه، **(قال)** أى الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨]، **(قال)** ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، فى تفسيره وهو موقوف له حكم الرفع **(رأى جبريل فى صورته)** الأصلية التى خلق عليها **(له ستمائة جناح)** اللام جواب قسم مقدر، أى رأى الآية الكبرى من آيات ربه، والكبرى اسم تفضيل مؤنث أكبر ومن تبعيضية، وفيه إيماء إلى أنه رأى ربه، وهو قول الأكثر فقد رآه بعين بصره، وهو مذهب ابن عباس وارتضاه الأشعرى والنووى.

وما نقل عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، من إنكاره، فقيل: إن الذى قالته كما فى مسلم عن مسروق أنه قال: كنت متكئًا عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة: «ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية»، قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم، رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال: وكنت متكئًا فجلست وقلت: يا أم المؤمنين أنظرينى ولا تعجلى ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣].

فقالت: أنا أول من سأل عن ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: «إنما هو جبريل لم أره على صورته غير هاتين المرتين، رأيته منهبطًا من السماء سادا عظم

خلقه ما بين السماء والأرض»[1]، الحديث.

فليس فيه نفى رؤيته لربه، وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، ذكر لها ذلك، وقد تقدم جميع ذلك مع ما فيه، وقد ذكر هنا أنه رأى جبريل وله ستمائة جناح سدت ما بين السماء والأرض، والعدد لا مفهوم له، فلا ينافى أن تكون أجنحته تزيد على ذلك، فإن الملائكة أجسام مجردة قابلة للتشكل.

(والخبر) أى الحديث الصحيح المسند **(فى محادثته)** صلى الله تعالى عليه وسلم، **(مع جبريل وإسرافيل وغيرهم من الملائكة)** أعاد ضمير الجمع على المثنى تعظيمًا لهما تنزيلاً لهما منزلة الجماعة، أو لتنزيل ذلك منزلة تعدد الصور الذى يشير إليه ما قبله، وبينه بقوله بعده: **(وما شاهده من كثرتهم وعظم صور بعضهم ليلة الإسراء مشهور)**، وفى نسخة وصورة بعضهم، وفى نسخة وعظم صورهن.

وحديث الإسراء ورؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم، الملائكة والأنبياء مشهور، وتقدم طرف منه.

ورؤيته للملائكة كملك الجبال وملك المطر وإسرافيل صحيح مشهور أيضًا، ومن أراد تفصيله فلينظر كتاب السيوطى المسمى بالحبائك فى أخبار الملائك، فإنه كتاب جليل فى بابه، وفيه عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، لما عيره المشركون بالفاقة أى الفقر، وقالوا: ما قصه الله من قوله تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧] الآية، حزن لذلك فنزل عليه جبريل وقال له: رب العزة يقرؤك السلام ويقول لك: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٢٠]، إلى آخره، فبينما جبريل والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، يتحدثان إذ ذاب حتى صار مثل البردة وهى العدسة، فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم: ما لك يا جبريل؟ فقال: فتح باب من أبواب السماء لم يفتح قبل، ثم عاد لحاله وقال: أبشر يا محمد هذا رضوان خازن الجنة، فأقبل رضوان وسلم وقال: يا محمد رب العزة يقرؤك السلام، ومعه سفط من نور يتلألأ ويقول لك: هذه مفاتيح خزائن الأرض، فنظر لجبريل كالمستشير فضرب جبريل بيده الأرض وقال: تواضع لله عز وجل، فقال: يا رضوان لا حاجة لى فى الدنيا، قال: أصبت أصاب الله بك ويرون أن هذه الآية أنزلها رضوان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ١٠].

أقول: ومن هذا علم أنه لم ينزل بالقرآن إلا جبريل غير هذه الآية، والسر فيما ذكر

(١) أخرجه مسلم (١٧٧/٢٨٧).

أن نزول رضوان وهو ملك الجنان وتخييره دون بت بإعطائها علم منه جبريل أن الله أراد له صلى الله تعالى عليه وسلم، ما هو أرقى من ذلك فى الجنة، وأنه لم يرض عجوز الدنيا الفانية أن تكون له، ولو أراد خلافه أتاه ملائكة الأرض، ومن له التصرف فيها كإسرافيل وإلا فجبريل، عليه الصلاة والسلام، لا يقول شيئًا برأيه، ولا يفعل إلا ما يؤمر به فافهم.

(وقد رآهم) أى الملائكة **(بحضرته)** أى فى مجلسه صلى الله تعالى عليه وسلم، والحضرة مثلث الحاء مصدر حضر يحضر إذا جاء وقدم، وتجوز فيه تجوزًا مشهورًا عن مكان الحضور نفسه، ويستعمل للتعظيم فى صاحب المجلس فيقال: الحضرة العالية تأمر بكذا كالمقام كما يكتبه أصحاب الترسل **(جماعة من أصحابه فى مواطن)** جمع موطن، وهو محل الوطن وهو هنا لمطلق المكان مجازًا مرسلاً **(مختلفة)** أى متعددة، وأصل معناه المتغايرة فاستعمل فى لازم معناه، وقد تقدم بعض من الكلام على رؤية بعض الصحابة للملائكة عنده صلى الله تعالى عليه وسلم.

وفى بعض النسخ **(فرأى أصحابه جبريل، عليه السلام، فى صورة رجل يسأله عن الإسلام والإيمان)** والإحسان وعن الساعة، وهو إشارة إلى الحديث الذى فى أول البخارى، والكلام عليه وعلى الفرق بينه وبين الإسلام مفصل فى شروحه.

(ورأى ابن عباس وأسامة) بن زيد **(وغيرهما)** من الصحابة كعائشة، رضى الله تعالى عنها، وأم سلمة وعمر وحارثة **(عنده)** صلى الله تعالى عليه وسلم، **(جبريل فى صورة دحية)** بن خليفة الكلبى الصحابى الجليل المشهور، توفى فى خلافة معاوية، رضى الله عنهما، وكان من أجمل الناس وأجلهم، ولذا كان جبريل، عليه الصلاة والسلام، يأتى للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، على صورته رضى الله تعالى عنه، ودحية بفتح الدال وكسرها ومعناه الرئيس بلغة اليمن، وتمثل الملك مع عظم خلقته الأصلية بصورة صغيرة ليس بإفناء بعض أجزائه، ولا بإزالتها ثم إعادتها كما قيل، بل لأنهم أنوار لطيفة قابلة للتشكل والتضام والانتشار، كما يشاهد فى اللهب فى هبوب الرياح، وقول إمام الحرمين أنه كالقطن المنفوش تمثيل وتقريب للعقول أيضًا، فلا ينقلب حقيقة إذا تمثل رجلاً تأنيسًا لمن يخاطبه، ولا بعد فى أن يحض الله بعض الأنفس القدسية الملكية بقوة تقدر بها على التصرف فى يديه كما يريد، كما قيل: إن الأبدال سموا أبدالاً؛ لأنهم كانوا يرى لهم فى بعض الأمكنة شبحًا يقوم مقامهم؛ لقدرة أرواحهم القدسية على التصور بصورتهم، وهو المسمى بعالم المثال وفيه كلام فى كتب الأصول والحكمة، وبعض أهل الشرع ينكره وتبعهم شارح المقاصد.

وقوله: فى صورة دحية بتقدير مضاف أى فى مثل صورة دحية، وما قيل من أنه تمثيل لتمكنه منها واستقراره فيها استقرار المظروف فى ظرفه، تكلف لا حاجة إليه؛ لأن مثله للشمول والإحاطة يعد ظرفًا حقيقة فى العرف، ورواية ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، له مرتين رواها الترمذى ورؤية أسامة له رواها الشيخان عنه، فقول الشارح الجديد لم أقف عليها من قصور النظر.

(ورأى سعد) بن أبى وقاص فى حديث رواه الشيخان **(على يمينه ويساره جبريل وميكائيل)** لف ونشر مرتب **(فى صورة رجلين عليهما ثياب)** تسميتهما وقع فى الحديث عن غير واحد، وهذا كان بغزوة أحد وقد قاتلا معه صلى الله تعالى عليه وسلم.

قال النووى فى شرح مسلم: هذا مما أكرمه الله به، وفيه رد لمن قال: إن الملائكة لم تقاتل معه بغير بدر، وقد صح أنهم قاتلوا معه بحنين وهذا هو الصواب.

وقال القرطبى فى تفسيره: لم تقاتل إلا ببدر ووعد الله المؤمنين بأحد إن صبروا وثبتوا أن يمدهم بالملائكة، فلم يصبروا و لم يمدهم، وكان للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ملكان يقاتلان عنه دائما، وفى الحديث دليل على أن رؤية الملائكة لا تختص بالأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فيراهم الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، والأولياء.

(ومثله عن غير واحد) أى روى مثل ما فى هذا الحديث عن ناس كثيرين من طرق متعددة، **(وسمع بعضهم)** أى بعض الصحابة وغيرهم من الحاضرين **(زجر الملائكة)** زجرها حسها **(خيلها)** على الجرى بصوت **(يوم بدر)** أى وقعتها حين القتال، وهذا رواه أبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس أن رجلاً من غفار قال: قدمت أنا وابن عم لى ونحن مشركان، وصعدنا على جبل مشرف على بدر ننظر الواقعة وننظر على من تكون الدبرة، فبينا نحن كذلك إذ دنت سحابة فيها حمحمة خيل، فسمعت قائلاً يقول: اقدم حيزوم، فمات ابن عمى من خوفه وكدت أهلك، وحيزوم منادى اسم فرس الملك بالميم، وروى حيزون بالنون والصحيح الأول.

(وبعضهم رأى تطاير الرءوس) أى سرعة وقوعها بخفة كطائر طار عن مقره، وهذا رواه البيهقى عن سهل بن حنيف وأبى واقد الليثى **(من الكفار)** فى يوم بدر، **(ولا يرون الضارب)**؛ لأنه ملك خفى عنهم، وبعضهم رآه وعرفه.

وقد روى كلاهما فى أحاديث ذكروها، ويجوز أن يقال: إن النظائر استعارة شبهت بطائر وحمام طار من برج بدنه بنفسه، كأنه ليس جزءًا منه بدليل قوله: ولا يرون الضارب ولا الضرب.

قال أبو داود المازنى: إنى لأتبع رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه، فوقع رأسه قبل

أن يصل إليه سيفى، وكانوا يعرفون قتل الملائكة بأن بهم سمة نار ونحوه.

(ورأى أبو سفيان بن الحارث) بن عبد المطلب قبل إسلامه **(يومئذ)** أى يوم بدر **(رجالاً بيضًا)** وجوههم وأبدانهم **(على خيل بلق)** أى فيها بياض ولون آخر **(بين السماء والأرض ما يقوم لها شيء)** أى لا يمكن أن يقاوم شدتها وقتالها شيء غيرهم قل أو كثر؛ لما رآه من مهابة بطشها وسرعته.

وقيل: إن الرائى لذلك سهيل بن عمرو كما رواه البيهقى، وهو مخالف لما رواه المصنف، رحمه الله تعالى، هنا وهو هكذا فى تخريج السيوطى لأحاديث هذا الكتاب، وفى الشرح الجديد أنه رواه ابن إسحاق فى سيرته ونقله فى حديث طويل فى مهلك أبى لهب والعهدة فيه عليه.

(وقد كانت الملائكة تصافح عمران بن حصين) بأكفها والذى رواه مسلم أنها كانت تسلم عليه ولا منافاة بينهما، فإن المتلاقيين يستحب لهما السلام والمصافحة تحية وإكرامًا؛ لأن السلام أمان، والمصافحة تسليم يده له فهو أمان لفظًا ومعنى وحسا، وعمران بن حصين هذا هو الصحابى الخزاعى، رضى الله تعالى عنه، وحصين علم منقول من مصغر حصن، وهو كما قالوا أفضل من نزل البصرة وتوفى فى خلافة معاوية، رضى الله تعالى عنه، سنة اثنين وخمسين، ومصافحة الملائكة له مشهورة فى الكتب المعتمدة، وأما السلام ففى صحيح مسلم مسندًا إلى مطرف أن عمران، رضى الله تعالى عنه، قال له: كانت الملائكة تسلم علىّ حتى اكتويت، فتركت الملائكة السلام علىّ، ثم تركت الكى فعادوا، وقال له: اكتمه ما دمت حيا.

قال النووى، رحمه الله تعالى: كان به بواسير فاكتوى لها لقطع دمها، وكان عظيم الصبر والتوكل وفى العلاج ترك التوكل، فلذا قطعت الملائكة السلام عليه، وإلا فالكى ليس محرمًا، وإن قيل بكراهته إذا أمكن العلاج بغيره.

كما ورد فى المثل: «آخر الدواء الكى»، وروى أنه كان يسمع فى داره السلام عليه من غير أن يرى أهل الدار المسلم كما ذكره الترمذى، وهذا وإن كان خارجًا عما عقد له الفصل من رؤية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، الملائكة، ورؤية الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، لهم عنده، فهو يعلم منه المقصود بالطريق الأولى أو هو استطراد.

(ورأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)، فى حديث رواه البيهقى مرسلاً عن عمار ابن ياسر، رضى الله تعالى عنهما، ورأى بصرية تعدت بالهمزة لمفعولين أولهما **(حمزة)** بن عبد المطلب عمه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

وفى نسخة لحمزة، رضى الله تعالى عنه، باللام، فهى زائدة كما فى ردف لكم،

وثانيهما (**جبريل، عليه السلام، في الكعبة**) أى فى داخلها أو عندها فخر (**مغشيًا عليه**) خوفًا من مهابته؛ لأنه رآه على صورته.

ففى دلائل البيهقى، رحمه الله تعالى، وطبقات ابن سعد عن عمار بن ياسر أن حمزة، رضى الله تعالى عنه، قال: يا رسول الله أرنى جبريل، عليه السلام، على صورته قال: إنك لا تستطيع أن تراه قال: بلى فأرنيه، فقال له: اقعد فقعد فنزل جبريل على خشبة كانت فى الكعبة، فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم: ارفع طرفك فانظر فرفع طرفه فرأى قدمه مثل الزبرجد الأخضر، فخر مغشيًا عليه(١).

واعلم أن رأى إذا تعدى بالهمزة لمفعولين كان من باب أعطى، قال ابن مالك: لا تدخل اللام عليهما؛ لأنه يلزم تعدى فعل بحرفين بمعنى، وإن تعدى أحدهما لزم الترجيح بلا مرجح ما لم يتقدما أو أحدهما فتعديه هنا باللام ولا وجه له، وقال ابن هشام: إنه شاذ واللام زائدة، كقول ليلى الأخيلية(٢):

أحجاج لا يعطى العصاة مناهم ... ولا الله يعطى للعصاة مناها

فإن كان هذا ورد كذا فهو من الشاذ المسموع ولا اعتراض عليه.

واعلم أن الحافظ السخاوى قال فى كتابه عمدة الناس فى مناقب العباس، رضى الله تعالى عنه، أن العباس بعث ابنه عبد الله إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فقام وراءه وعنده رجل فالتفت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فرآه، فقال له: متى جئت؟ فقال: منذ ساعة، قال: هل رأيت رجلاً؟ قال: نعم، قال: ذاك جبريل ولم يره خلق إلا عمى إلا أن يكون نبيًا لكن أسأل الله تعالى أن يجعل ذلك فى آخر عمرك، وله طرق من الأسانيد إلا أنه معارض برؤية جماعة من الصحابة لجبريل لم يعموا، ولكن هذا ضعيف، وتلك صحيحة فلا يتكلف الجمع بينهما، وقد عمى ابن عباس فى آخر عمره فقال:

إن يأخذ الله من عينى نورهما ... ففى لسانى وقلبى منهما نور
عقل صحيح ورأى غير ذى زلل ... وفى فمى صارم كالسيف مشهور

وقال له بعض الأمويين: ما لكم يا بنى هاشم تصابون فى أبصاركم؟ فقال: وأنتم يا بنى أمية تصابون فى بصائركم. انتهى.

أقول: ما ذكره من حديث عمى الرائى لجبريل إذا ورد من طرق صار قويا، وليس من قبيل الأحكام فيجعل معارضه ناسخًا، فلابد من التوفيق فيحمل على ما رآه وحده

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٨١/٧)، وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٩١/٢).

(٢) البيت من الطويل، وهو فى ديوان ليلى (ص١٢٢)، الدرر (١٧٣/٤)، شرح شواهد المغنى (٥٨٨/٢)، مغنى اللبيب (٢١٨/١)، همع الهوامع (٣٣/٢).

فى بيت ونحوه من مكان منحصر كالبيت من غير علم للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، برؤيته، فلا يرد رؤية عائشة وغيرها، وذلك لأنه نور شديد قد يورث ضعف البصر المؤدى للعمى إذا حدق فيه الناظر وأطال نظره فى نوره الذى لم يتفرق، وهو من الأسرار الإلهية فتأمله.

ثم إن المصنف، رحمه الله تعالى، قدم الملائكة لشرفهم ثم ذكر أمر الجن فقال: **(ورأى ابن مسعود)** فى حديث رواه البيهقى **(الجن ليلة الجن)** أى فى ليلة رأى فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، الجن، وقد أمر بإنذارهم ودعوتهم للإسلام فدعاهم **(وسمع كلامهم)**.

قال البرهان فى المقتفى: الذى فى صحيح مسلم من حديث ابن مسعود أنه لم يكن مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ليلة الجن، وقال ابن سيد الناس فى سيرته: إن حديث ابن مسعود فى كونه حاضرًا فى ليلة الجن روى من طرق، وفيه أنه توضأ بنبيذ التمر، وذكر الشراح هنا كلامًا لا محصل له، والحق ما قاله أبو البقاء الشبلى الحنفى فى كتابه آكام المرجان فى أحكام الجان من أنه روى فيه أحاديث متعددة، منها ما رواه أبو داود، عن ابن مسعود أن علقمة قال له: هل صحب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ليلة الجن أحد؟ قال: ما صحبه منا أحد ولكن فقدناه ليلة فالتمسناه فى الأودية والشعاب، فقلنا: اغتيل فبتنا بشر ليلة، فلما أصبحنا جاء من قبل حراء، وقال: أتانى داعى الجن فذهبت معه وقرأت عليهم القرآن، وانطلق بنا وأرانا آثار نيرانهم، وذكر أنهم سألوه الزاد فقال: لكم العظم والبعر، ونهى عن الاستنجاء بهما رواه أحمد.

وهذه الليلة غير الليلة التى حضرها ابن مسعود، وهى فى دلائل البيهقى مسندة قال: إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، قال لأصحابه بمكة: من أحب منكم أن يحضر الليلة الجن، فليفعل فلم يحضر أحد غيرى فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لى برجله خطًا أمرنى بالجلوس فيه، وانطلق حتى قام وافتتح القرآن فغشيته أسودة كثيرة حالت بينى وبينه حتى ما أسمع صوته إلى الفجر، وسمعتهم يقولون له: من يشهد لك أنك رسول الله؟ وبقربه شجرة، فقال: أرأيتم إن شهدت هذه الشجرة تؤمنون؟ قالوا: نعم، فدعاها والله فشهدت له فآمنوا به.

وجمع البيهقى بين الروايتين فقال: قوله: ما صحبه منا أحد أراد به حال ذهابه لقراءة القرآن إلا أن قوله: إنه أعلم أصحابه بخروجه ينافى فقدهم له، حتى قالوا: إنه استطير أو اغتيل، وفيه تصريح بأنه ممن فقده والتمسه، وفى هذا الحديث أنه خرج معه وخط له خطًا جلس فيه، فلا يصح ما قاله البيهقى، وهذا كله منشأه ظنهم أنها ليلة واحدة، ولا

شك أنها تعددت فمنها ما كان بمكة كما تقدم.

ومنها ما كان بالمدينة كما في دلائل النبوة لأبى نعيم مسندًا لابن مسعود، وأنه قيل له: أكنت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ليلة وفد الجن؟ قال: أجل أخذ كل رجل رجلاً من أهل الصفة يعشيه، ولم يأخذنى أحد فمر بى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال: ما أخذك أحد يعشيك؟ قلت: لا، قال: انطلق معى لعلى أجد لك ما يعشيك، فانطلقت معه لحجرة أم سلمة فتركنى ودخل، ثم خرجت جارية فقالت لى: لم يجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، لك عشاء، فرجعت إلى المسجد، والتففت بثوبى، فجاءت الجارية وقالت: أجب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فأتيته أرجو العشاء، فخرج وبيده عسيب نخل، فعرض به على صدرى وقال: انطلق معى حيث انطلقت، فقلت: ما شاء الله وكررتها ثلاث مرات، فانطلقنا حتى أتينا بقيع الغرقد فخط بعصاه خطًا، وقال: اجلس فيه حتى آتيك ولا تبرح فانطلق وأنا أراه خلال النخل، فثارت مثل عجاجة سوداء فخفت عليه وقلت: ألحق أو أستغيث الناس لظن هوازن مكرت به، ثم ذكرت قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: لا تبرح فسمعته يقول: اجلسوا وهو يقرعهم بعصاه، فجلسوا حتى كاد ينشق عمود الصبح فذهبوا وأتى لى، فذكرت له ما فى نفسى فقال: هم وفد نصيبين إلى آخره.

فهذه الليلة كانت بالمدينة حضرها ابن مسعود وما سئل عنه أولاً كان بمكة، وقد وفدوا عليه صلى الله تعالى عليه وسلم مرة أخرى حضرها ابن الزبير رواها الطبرانى ومرارًا أخر ذكرها فى باب مستقل بطولها، ثم قال: وهذه الأحاديث تدل على أن وفادة الجن كانت ست مرات، الأولى فقد فيها وقيل: اغتيل والتمس بمكة، والثانية كانت بالحجون، والثالثة كانت بأعلى مكة بالجبال، والرابعة كانت ببقيع الغرقد، والخامسة كانت خارج المدينة حضرها ابن الزبير، والسادسة كانت فى بعض أسفاره حضرها بلال انتهى ملخصه.

(وشبههم) أى ابن مسعود لا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لقول قتادة: إن ابن مسعود لما قدم الكوفة رأى شيوخًا سوداء أقرعوه، فقال: أخرجوهم ما أشبههم بالنفر الذين صرفوا إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعنى الجن، وفيه دليل على أنه رآهم **(برجال الزط)** متعلق بقوله: شبههم، والزط بالزاء المعجمة وتشديد الطاء المهملة قوم من السودان طوال، وفى القاموس: أنهم جيل بالهند معرب جت بفتح الجيم، والقياس يقتضى معربه والواحد زطى.

(وذكر ابن سعد) وهو محمد بن سعد كاتب الواقدى، وقد تقدم وهو بصرى **(أن**

مصعب بن عمير) القرشى العبدرى الصحابى البدرى، وهو ممن أسلم قديمًا وكان يحمل راية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين يديه **(لما قتل يوم أحد)**، أى فى وقعته قتله ابن قميئة، لعنه الله، ظانًا أنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى صحيح البخارى عن خباب أن مصعبًا لما قتل لم يكن له إلا نمرة كنا إذا غطينا رأسه بها بدت رجلاه، وإذا غطى رجلاه بدت رأسه، فجعلوا على رجليه شيئًا من الإذخر **(أخذ الراية ملك على صورته)** أى تشكل بشكله وبرز على صورته، حتى لا تقع راية المسلمين، فإن وقوع راية العسكر فيه ضعف لهم، ولتمام تلك الصورة فيه جعل كأنه عليها راكب لتمكنها فيه.

(فكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، يقول له: تقدم يا مصعب) لنحو الأعداء فى القتال، فإن الراية يتبعها المقاتلون؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لشدة توجهه للقتال لم يشعر بقتل مصعب، ولم يتأمل حامل الراية، **(فقال له الملك: لستُ بمصعب)** كما ظننته، **(فعلم أنه ملك)**، وفيه لطف وتبشير بسهولة الأمر وظهور النصر، وأن مع العسر يسرا، وهذا بناء على أنه لم يعلمه كما رواه ابن سعد فى طبقاته، وعلى ما رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قال يوم أحد: اقدم مصعب، فقال له عبد الرحمن بن عوف لما سمع مقاله: يا رسول الله ألم يقتل مصعب؟ يعنى فكيف تناديه قال: بلى، ولكن ملك قام مقامه وتسمى باسمه، فهو الذى ناديته[1]، يكون علم صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه ملك، وإنما تسمى باسمه؛ لئلا يعلم الناس قتل حامل الراية، فيحصل فيهم اضطراب وتشمت الأعداء بهم ويتمنون انهزامهم، فعلم صلى الله تعالى عليه وسلم، قتل مصعب، وعلى الأول لم يشعر بقتله، وكونه علمه ونسى أو ظن أن الله أحياه كما قيل بعيد، فلا يقال: كيف ناداه باسمه بعدما علم أنه ملك؟ مع أن هذا السؤال غير وارد رأسًا بعد علمه أنه تسمى باسمه لما مر.

وكان مصعب، رضى الله تعالى عنه، حامل راية المهاجرين بأحد، ولواء الخزرج حامله الحباب بن المنذر، وقيل: سعد بن عبادة، وراية الأوس بيد أسيد بن حضير، وما روى من أن حامل رايته بأحد على بن أبى طالب، كرم الله وجهه، لا ينافيه؛ لأن الراية كانت أولاً بيد مصعب، فلما استشهد أخذها الملك، فلما انجلى الأمر وعلم أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يقتل كما شنع به ابن قميئة، وصرخ إبليس اللعين أن محمدًا قد قتل، أخذ على الراية بعد ما أمسكها الملك لحظة؛ لئلا تسقط ويخذل المسلمون وتقر أعين الكفار.

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة (١٤/٣٩٧، ٣٩٨).

وقول الملك: لست بمصعب، يعنى لست مصعبًا المعروف لكم، فلا يقال: كيف قال ذلك بعد ما تسمى مصعبًا؟.

(وقد ذكر غير واحد من المصنفين) كالبيهقى وابن ماكولا **(عن عمر بن الخطاب)**، رضى الله تعالى عنه، **(أنه قال: بينا نحن جلوس مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، إذ أقبل شيخ بيده عصا)** كونه بيده عصا تحقيق لشيخوخته، فإن العصا سلاح المشايخ، ولله در الباخرزى فى قوله:

حمل العصا للمبتلى ... بالشيب عنوان البلا
وصف المسافر أنه ... ألقى العصا كى ينزلا
فعلى القياس سبيل من ... حمل العصا أن يرحلا

وهو تلميح لقوله(١):

فألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قرَّ عينًا بالإياب المسافرُ

(فسلم على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فرد عليه) النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، سلامه بأن قاله له: وعليك السلام وجواب السلام يقال له: رد حقيقة، وهو فى الأصل مجاز لتشبيهه بمن أعطى شيئًا فأعاده لصاحبه، ثم صار حقيقة فيما ذكر.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، لمن سلم عليه بعد رده جوابه: **(نغمة الجن)**، وفى نسخة نغمة جنى أى هذه أو نغمتك نغمة الجن وصوتهم، فهو خبر مبتدأ مقدر، وقال الثعالبى فى فقه اللغة: حسن الكلام وحسن الصوت، والنغمة بالفتح جمعها نغم بفتح النون وكسرها وهو شاذ، ومع شذوذه فله نظائر كهضبة وهضب وخيمة وخيم وبضعة وبضع **(من أنت؟)** من الجن وما اسمك وشهرتك؟، وفيه إشارة إلى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، يعرفهم؛ لأنهم وفدوا عليه مرارًا كما تقدم.

(قال: أنا هامة بن الهيم) بهاء مكسورة فمثناة تحتية فميم **(بن لاقس بن إبليس)** فى ضبط هذه الأسماء اختلاف، فقيل: هامة بوزن قامة، وقيل: لام بألف ولام دون هاء، والصحيح الأول والهيم بوزن الفيل كما مر.

وقيل: إنه مهموز بوزن كيف ووعل، وفى الشرح أنه مضبوط بخط الحافظ بتشديد الياء بوزن قيم، ولا يعتمد عليه.

والكلام على إبليس مشهور وهو أبو الجن كما أن آدم عليه السلام، أبو البشر،

---

(١) البيت من الطويل، وهو لمعقر بن أوس فى الاشتقاق (ص٤٨١)، لسان العرب (٣٤٧/١٥)، وبلا نسبة فى خزانة الأدب (٤١٣/٦)، رصف المبانى (ص٤٨).

ويسمى عزازيل وقيل: الحارث، ويكنى بأبى مرة، ولاقس بزنة فاعل، وفى بعض النسخ لاقيس بزيادة ياء وهو الأشهر الأصح حتى قيل: إن الياء سقطت سهوا من الكاتب.

(فذكر) للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أنه لقى نوحًا، عليه الصلاة والسلام، ومن بعده)** من الرسل والأنبياء **(فى حديث طويل، وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، علمه سورًا من القرآن)** ستأتى، والحديث عن عمر، رضى الله تعالى عنه، قال: بينا نحن مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، على جبل من جبال تهامة إذ أقبل شيخ فى يده عصا، فسلم على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وله نغمة الجن وهمهمتهم، فقال له: من أنت؟ قال: هامة بن الهيم بن لاقس بن إبليس، قال: ليس بينك وبين إبليس إلا أبوين؟ قال: نعم، قال: فكم لك من العمر؟ قال: أفنيت الدنيا عمرها وكنت مع نوح فى مسجده مع من آمن به من قومه، فلم أزل أعاتبه على دعوته عليهم حتى بكى وأبكانى، فقال: لا جرم إنى على ذلك من النادمين، وأعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، وقلت له: يا نوح إنى ممن شارك فى دم الشهيد هابيل، فهل تجد لى من توبة؟ قال: يا هام هم بالخير وافعله قبل الحسرة والندامة إنى قرأت فيما أنزل الله علىَّ أنه ليس من عبد تاب إلى الله بالغًا ذنبه ما بلغ إلا تاب الله عليه، فقم وتوضأ واسجد لله سجدتين، ففعلت من ساعتى ما أمرنى به، فنادانى: ارفع رأسك فقد نزلت توبتك من السماء، فخررت ساجدًا لله، وكنت مع هود فى مسجده مع من آمن به من قومه، فلم أزل أعاتبه على دعوته على قومه حتى بكى وأبكانى، وكنت مع يوسف بالمكان المكين، وكنت ألقى الناس بالأودية وإنى ألقاه الآن، ولقيت موسى بن عمران فعلمنى من التوراة، وقال: إن لقيت عيسى ابن مريم، فأقرأه منى السلام، وإن عيسى قال: إن لقيت محمدًا فأقرأه منى السلام، فبكى صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال: على عيسى السلام ما دامت الدنيا، وعليك يا هامة لأدائك الأمانة، فقال: يا رسول الله افعل بى ما فعله موسى بن عمران، فإنه علمنى من التوراة، فعلمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، سورة المرسلات، وعم يتساءلون عن النبأ العظيم، وإذا الشمس كورت، وقل هو الله أحد والمعوذتين، وقال له: ارفع إلينا حاجتك يا هام ولا تدع زيارتنا، فقبض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم ينعه لنا، فلست أدرى أحى هو أم ميت؟ انتهى.

واعلم أنهم اختلفوا فى هذا الحديث، فقال ابن الجوزى: إنه حديث موضوع لا أصل له، وذكر له طرقًا ذكر من فى رواتها من الكذابين، ومن لم تقبل روايته، وخالفه فيه غيره، وقال: إن تعدد طرقه تدل على صحته، وابن الجوزى له مجازفة فى موضوعاته أكثرها مردودة، وقد روى هذا الحديث من يعتمد عليه كالبيهقى كما علمت وابن عساكر وغيرهما.

(وذكر الواقدى) محمد بن عمر بن واقد المدينى صاحب التآليف الكثيرة الغريبة، وقد وثقه كثير وطعن فيه آخرون، توفى ببغداد سنة سبع ومائتين وعمره ثمان وسبعون كما تقدم، وهذا حديث صحيح رواه البيهقى والنسائى وغيرهما وهو مذكور فى أكثر التفاسير **(قتل خالد)** بن الوليد، وهو مصدر مضاف لفاعله ومفعوله السوداء **(عند هدمه العزى)**، وفى نسخة قطعه وهى أظهر؛ لأن العزى كانت شجرة أو ثلاثة أشجار فى مكان واحد بنوا عليها بناء، وكانوا يعبدونها ويسمع منها أصوات فذكر الهدم باعتبار ما حولها، فهو بتقدير مضاف هو مفعول هدم كقطع أى قطعها أو هدم بنائها وكانت لغطفان وهى سمرة **(للسوداء)** مفعول قتل كما مر، وفى نسخة للسوداء واللام للتقوية، وهو شيطان فى صورة امرأة سوداء **(التى خرجت له)** أى لخالد، رضى الله تعالى عنه، لما باشر قطعها **(ناشرة شعرها عريانة)** واضعة يدها على رأسها صائحة ياويلها، وناشرة وما بعده منصوب على الحالية، وشعر بسكون العين وفتحها.

(فجزلها) بجيم وزاء معجمة مفتوحتين والزاء مشددة للمبالغة ومخففة أى جعلها جزلين أى قطعتين، وروى جدلها بدال مهملة مشددة وروى عن خطه بخاء وذال معجمتين بمعنى قطعها ومعانيها متقاربة، وأشهرها أولها والضمير للسوداء أى قطعها قطعا **(بسيفه)** وهو يقول:

يا عزى كفرانك لا غفرانك إنى رأيت الله قد أهانك

والعزى تأنيث الأعز.

(وأعلم) خالد بما فعله **(النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: تلك العزى)** إن كانت الإشارة لما وقع به الفعل من الشجرة، فظاهر وإن كانت الإشارة للسوداء، فتسميتها عزى وهى اسم للشجر والبناء باعتبار أنها هى التى عبدوها حقيقة، وسمعوا منها ما كانت تخبرهم به من المغيبات ونحوها، كما يقال: الحج الثج والعج بإطلاق الشيء على المقصود منه، فهو مجاز وكانت بنخلة تعبدها قريش وكنانة، وهى من أجل أصنامهم، وقصة هدمها مفصلة فى السير، وكان خرج خالد لها فى ثلاثين فارسا. والجن قادرة على التشكل بصور مختلفة كالملائكة إلا أن هذه إذا قتل ما تصور منها هلك، ولما قتلها خالد قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «تلك العزى لن تعبد أبدًا»[1]، وقتل سادنها أى خادمها المتوكل بها، وهو دُبَيَّة بضم الدال المهملة وفتح الباء الموحدة وتشديد المثناة التحتية ابن حزمى من بنى مرة.

(وقال، صلى الله تعالى عليه وسلم)، فى حديث صحيح رواه الشيخان عن أبى هريرة

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥/٧٧)، وابن عساكر (٥/١٠١).

رضى الله تعالى عنه: **(إن شيطانا)** هو المتمرد من الجن من شطن إذا بعد، أو من شاط إذا احترق فنونه زائدة أو أصلية **(تفلت)** بتشديد اللام نفد أى وثب بسرعة بغتة، وأصله التخلص بغتة يقال: انفلتت الدابة إذا تخلصت من مربطها.

(البارحة) هى الليلة الماضية قبل وقتك الذى تكلمت فيه يعنى فى ليلة يومه، وقد ترد بمعنى اليوم الذى قبل يومك وفيه كلام فى شرحنا لدرة الغواص **(ليقطع علىَّ)** بتشديد الياء متعلق بيقطع بمعنى يبطل **(صلاتى)** التى كنت أصليها ويجوز أن يتنازعه هو وتفلت، **(فأمكننى الله منه)** أى أقدرنى عليه وعلى أخذه وحبسه **(فأخذته)** أى أمسكته وعقته عن مضيه وهروبه منى.

(فأردت أن أربطه) بكسر الباء وضمها أى أوثقه بوثاق يضمه **(إلى سارية)** أى عمود أو اسطوانة من عمد المسجد و**(من سوارى)** جمع سارية **(المسجد)** المدنى **(حتى تنظروا إليه كلكم)** لأجل أن تروه مربوطًا.

(فذكرت دعوة أخى سليمان) بن داود نبى الله، عليهما الصلاة والسلام، وهى قوله فى دعائه: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ [ص: ٣٥] كل ما صدر منى من تقصير بالنسبة لمقام النبوة، وإن كان معصوما، ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ أى سلطانا عظيما ﴿لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِيٓ﴾ أى لا يتيسر لأحد غيرى، وهو أحد معانى الانبغاء مطاوع بغى بمعنى طلب، وليس هذا حرصا منه، عليه الصلاة والسلام، على الملك وسعة الدنيا، وإنما طلب عظمة ينفرد بها؛ لتكون خارقة للعادة دالة على نبوته مقدرة له على تنفيذ أوامر ربه وإظهار دينه، وفى تقديم الدعاء بالمغفرة على حصول الملك إيماء إلى أن السلطنة لا تخلو من أمور تحتاج لعفو الله تعالى، أو حياء من الله لطلبه أمرا لا يليق بغيره، ولتركه مقام العبودية الذى ارتضاه نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقال الزمخشرى: إن سليمان، عليه الصلاة والسلام، نشأ فى بيت ملك ونبوة، فأراد أن يكون ما ورثه زائد على غيره خارقا للعادة، ليتم به أمره، ويعلم أنه باستحقاق للفيض الإلهى لا بمجرد ميراث كأولاد الملوك، ولا يتوهم أنه طلب قصر نعم الله عليه، والمؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه فكيف بالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن خصائص الأنبياء وطلبها أمر آخر، وقد علم أن هذا الشيطان مارد من المردة، ويأتى الكلام فى تعيينه ألقى على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، شعلة نار وهو يصلى؛ ليقطع صلاته فأخذه هو بنفسه، لا ملك منعه عنه كما قيل، ولبعضهم هنا أبحاث زوائد لا طائل تحتها، وقوله: رب اغفر لى بدل مفسر لقوله دعوة أخى، وتسخير الجن داخل فى هذه الدعوة، لقوله بعدها: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾

﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ [ص: ٣٦، ٣٧] إلخ، ولما استجاب الله دعوته ترك، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك تأدبا منه وتواضعا وتوقيرا لسليمان، صلى الله تعالى عليه وسلم.

قال ابن عرفة، رحمه الله تعالى: وما نقل عن الحجاج من أنه قال فى حق نبى الله سليمان: إنه كان حسودًا، من فسقه وجهله بل من كفره وعدم علمه بمقامات الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فإن للإنسان أن يطلب من الملك شيئا يخصه به إذا علم أنه لا يعطيه إلا لواحد من مملكته، فيجوز أن يكون هو ذلك الواحد.

وقوله: **(فرده الله)** أى رد الله ذلك الشيطان بإقدارى عليه وتمكنى منه **(خاسئًا)** أى خائبًا حقيرًا مطرودًا من كلامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما هو واضح، وقول البخارى: قال روح: فرده الله خاسئا بيان؛ لأنه وقع من روايته؛ لأنه روى فرددته وهى صريحة فى ذلك.

وهذا الحديث روى من طرق، وفيها زيادة واختلاف ففى بعضها عرض لى فى صورة هر، وأخذته فخنقته حتى وجدت برد لسانه على يدى، وروى أنه سمع، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقول فى صلاته: «أعوذ بالله منك وألعنك بلعنة الله» ثلاثًا، وبسط يده كأنه يتناول شيئا فسألوه عن ذلك، فقال: «إن عدو الله إبليس، لعنه الله، جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى»[(١)].

وقوله فى الرواية المارة: فأخذته وخنقته يعلم منه أن قول المصنف، رحمه الله تعالى، فى شرح مسلم أنه يحتمل أنه لم يقدر عليه لاوجه له، فإنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان قادرًا على ذلك، فإنه أوتى مثل كل معجزة لغيره كما يأتى، وفى بعض طرق هذا الحديث تصريح بأن الشيطان هو إبليس، وقيل: يحتمل أنه غيره وأن الواقعة تعددت.

قال ابن عبد البر: الجن على مراتب جنى وعامر، وهو الذى يخالط الناس، وأرواح وهم الذين يتعرضون للصبيان وأجنتها، قيل: وقرين الأنبياء والعباد يقال له الأبيض كما فى تفسير القرطبى.

(وهذا) أى ما كان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، مع الملائكة والجن **(باب واسع)** إشارة إلى أن ما ذكره قليل من كثير وغيض من فيض، وفى آكام المرجان ربطه إلى السارية من التصرف الملكى الذى تركه لسليمان، وتصرفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، نبوى بالدعوة للإسلام والأمر والنهى، فإنه كان عبدًا رسولاً، وهو أفضل من الملك النبى، ثم إن خنقه وفعله به ما فعله فى صلاته احتج به على جواز مثله فى الصلاة،

---

(١) أخرجه مسلم (٥٤٢/٤٠)، والنسائى (١٣/٣)، وابن خزيمة (٨٩١)، وأبو عوانة (١٤٤/٢)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٩٨/٧)، وابن حبان (٩٧١٩).

كدفع المار وقتل الأسودين والمسابقة فى صلاة الخوف انتهى، وفيه تأمل.

* * *

(فصل، ومن دلائل نبوته ﷺ)

والدليل ما يعلم منه شيء آخر ويكون قطعيًا وظنيًا قال أستاذ والدى الشيخ أحمد بن قاسم فى الآيات البينات: هى جمع دليل على خلاف القياس، ويحتمل أن يكون جمع دلالة بمعنى دليل، فإن إمام الحرمين قال: إن الدليل يسمى دلالة، وجمع فعالة على فعائل قياسى، والظاهر أن تسمية الدليل دلالة مجاز. انتهى.

وقال الراغب: الدلالة ما يتوصل به إلى معرفة الشيء، وتسمية الدال والدليل دلالة كتسمية الشيء بمصدره انتهى.

وفيه دليل لما قاله إمام الحرمين وأنه سمع، فلا وجه للتوقف فيه ولا لقول بعض شراح المنهاج الأصولى فى قوله: دلائل الفقه صوابه أدلة، وقال ابن مالك فى شرح الكافية: لم يأت فعائل جمع اسم جنس على فعيل فيما أعلم، لكنه بمقتضى القياس جائز فى علم المؤنث كسعيد علم امرأة جمع على سعايد.

وذكر النحاة أنه فى غاية القلة، ورد منه لفظان لا يقاس عليهما، وهما وصايد جمع وصيد وهو الباب، وسلايل جمع سليل وهو واد، وزاد الجوهرى تبايع جمع تبيع وأقايل جمع أقيل، وهو الصغير من الإبل، وقول بعضهم: إنه قيده بقلمه فقد يقال: إنه لا يمتنع سماعًا ولا قياسًا خبط لا معنى له.

(وعلامات رسالته) العلامة: الأمارة، وأكثر ما يستعمل فى الظنيات وفيما يكون قبل الوقوع، والفرق بين النبوة والرسالة مشهور، وقد يكونان بمعنى وأضاف الدلائل للنبوة والعلامات للرسالة تفننا، وقيل: لأن النبوة أصل والرسالة وصف زائد، انتهى.

والظاهر ما قلناه أنه غاير بينهما تفننا، والمراد بالدلائل الدلائل القطعية وقدمها لشرفها، وأضافها للنبوة لسبقها على الرسالة، وكل مادل على النبوة دل على الرسالة للزوم تصديقه بعد ثبوته فى قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وكذا الرسالة مستلزمة للنبوة ومبنية عليها فعلاماتها **(ما ترادفت به الأخبار)** أى تتابعت فجاء بعضها يتبع بعضا من غير انفصال كأن بعضها ركب خلف الآخر، ففيه استعارة مكنية وتخييلية والأخبار جمع خبر **(عن الرهبان)** وهم عباد النصارى وعلماؤهم كبحيراء فى قصته المشهورة جمع راهب من الرهبة، وهى الخوف لإظهارهم خشية الله، والخوف منه مقابل للراغب لتركهم الرغبة فى الدنيا كما قيل:

يهوى غلاما من نصارى جاف   فاعجب له من راغب فى راهب

(والأحبار) جمع حبر بالفتح والكسر كما مر، وهو العالم من أهل الكتاب واشتهر فى علماء اليهود.

وقوله **(وعلماء أهل الكتاب)** من عطف العام على الخاص، وأهل الكتاب غلب على اليهود والنصارى، فالمرد بالكتاب التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية، وفى نسخة الكتب جمعًا وهما بمعنى **(من صفته)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وصفة أمته واسمه وعلاماته)**، ففى التوراة عن كعب: محمد رسول الله عبدى المختار إلى آخره، وأمته الحمادون وفى الزبور عن وهب بن منبه:سيأتى من بعدك نبى يسمى أحمدًا ومحمدًا أمته مرحومة أعطيتهم مثل ما أعطيت الأنبياء إلى غير ذلك مما نقله الثقات، كقوله فى علامته فى الإنجيل: صاحب المدرعة والعمامة والهراوة الجعد الرأس الصلت الجبين.... إلى آخر ما ذكره من حليته فيه.

(وذكر الخاتم) بالفتح والكسر يعنى خاتم النبوة **(الذى بين كتفيه)**، وقد تقدم الكلام عليه وأنه مثل زر الحجلة أو بيضة الحمام وأنه ختم به بعد شق صدره، وفيه شعرات وخيلان عند نغض كتفه اليسرى، وهو مذكور فى كتب الله تعالى القديمة.

(وما وجد) بالبناء للمجهول **(فى ذلك)** أى مما يدل على نبوته ورسالته **(من أشعار الموحدين المتقدمين)** من العرب المتألهين قبل بعثته، صلى الله تعالى عليه وسلم، العالمين بما فى الكتب السماوية القديمة **(من شعر تبع)** بيان لما وجد، وتبع بضم التاء وتشديد الباء الموحدة اسم لملك اليمن، وجمعه تبابعة سمى به لكثرة أتباعه المنقادين له، وأصل معناه الظل ولا يسمى تبعًا إلا إذا ملك حمير وحضرموت، واشتهر منهم اثنان تبع الأكبر وهو الأول والثانى أبا كرب، وتبع الثانى هو الذى أراد تخريب المدينة واستئصال اليهود لما شكى له الأنصار منهم؛ لأنهم من اليمن نزلوا عندهم، فقال له رجل معمر: الملك أجل من أن يطريه فرق أو يستخفه غضب، وأمره أعظم من أن يضيق حلمه أو يخرم صفحه، وهذه البلدة مهاجر بلدة نبى يبعث بدين إبراهيم، عليه الصلاة والسلام.

قال السهيلى، رحمه الله تعالى: وهذا الرجل من اليهود، وهو أحد الحبرين اللذين كلما الملك سحيت ومنبه أو بنيامين، ويأتى أن شامول كلمه أيضًا فآمن به، عليه الصلاة والسلام، وكسى الكعبة، وهو أول من كساها والشعر المذكور قوله:

شهدت على أحمد أنه ... نبى من الله بارىء النسم
فلو مد عمرى إلى عمره ... لكنت وزيرًا له وابن عم
وجاهدت بالسيف أعداءه ... وفرجت عن صدره كل غم
له أمة سميت فى الزبور ... وأمته هى خير الأمم

(وقوله):

ويـأتى بعدهـم رجـل عظيـم   نبـى لا يرخـص فـى الحـرام
يسمـى أحمـدًا يـا ليـت أنـى   أعمـر بعـد مبعثـه بعـام

(والأوس بن حارثة) بن ثعلبة العنقا بن عمرو بن مزيقيا بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة البهلول بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سباء بن يشخب بن يعرب بن قحطان، والأوس فى اللغة الذئب أو العطية سمى به وله تنسب الأنصار، وكان أوس من عدة ناس فى الفترة هداهم الله تعالى للتوحيد، ولم يعبدوا الأصنام وكانوا يعاشرون أهل الكتاب فيخبرونهم بما فى كتبهم من ذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فيذكرونه فى خطبهم وأشعارهم، ولأوس شعر فيه لم يذكره أحد هنا من الشراح، وهو سيد جواد طائى كان صديقًا لحاتم الطائى، والأوس بالألف واللام للمح، ولذا قال السهيلى: إنه منقول من اسم العطية لا من اسم الذئب؛ لأنه علم جنس كأسامة لا تدخل عليه الألف واللام قبل النقل فبعده أولى.

وقال التلمسانى: إنه روى هنا بدون الألف واللام وهو مخالف لما قاله الإمام السهيلى.

(وكعب بن لؤى) هذا هو الصواب، وفى بعض النسخ: لؤى بن كعب وهو غلط من الناسخ، ولؤى بهمزة ولا يهمز، وهو تصغير لأى بمعنى البطؤ، وهو أول من جمع يوم الجمعة وسماها جمعة وكانت تسمى عروبة فى الجاهلية، فكان يخطب فيه الناس ويبشر بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيما نقل من كلامه نظما ونثرا أنه قال فى خطبة له: أما بعد فاسمعوا وتعلموا وافهموا واعلموا، ليل ساج، ونهار ضاج، والأرض مهاد، والسماء بناء، والجبال أوتاد، والنجوم أعلام، إلى قوله: الدار أمامكم، والظن غير ما تقولون حرمكم زينوه وعظموه، فسيأتى له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبى كريم، وينشد:

نـهار وليـل كـل يـوم بحـادث   سـواء علينـا ليلـها ونـهارها
منونـان بـالأحداث حـين تناوبـا   وبـالنعم الضـافى علينـا سـتورها
على غفلـة يأتـى النبـى محمـد   فيخبر أخبـارًا صدوقـا خبيرهـا

إلى آخر ما رواه ابن الجوزى مسندًا فى كتاب الوفاء.

(وسفيان بن مجاشع) التميمى الدارمى المجاشعى جد الفرزدق والأقرع بن حابس، وكان احتمل عن قومه ديات فخرج لحى من تميم، فإذا هم مجتمعون عند كاهنة فأتاهم وجلس عندهم فسمع الكاهنة تقول:

العزيز من والاه، والذليل من خالاه، والموفور من والاه، والموتور من عالاه.

فقال سفيان: من تذكرين لله أبوك؟.

فقالت: صاحب هدى وعلم، وبطش وحلم، وحرب وسلم، ورأس رءوس، ورابض شموس، وما جن بؤس، وما هد زعموس، وناعس ومنعوس.

فقال سفيان: لله أبوك من هو؟.

قالت: نبى مؤيد قد أتى حين يوجد، ودنا أوان يولد، يبعث إلى الأحمر والأسود بكتاب لا يفند، اسمه محمد.

قال سفيان: لله أبوك أعربى هو أم أعجمى؟.

فقالت: أما والسماء ذات العنان، والشجر ذات الأفنان، إنه لمن معد بن عدنان، فأمسك عن سؤالها، ثم إن سفيان ولد له ولد، فسماه محمدًا لرجاء أن يكون هو النبى المذكور، وهو أحد من سمى باسمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قبل مبعثه كما تقدم، وهذا ما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، من تبشيره به، وله شعر فيه إلا أن الشراح قالوا: لم نقف عليه، وما ذكر يكفى فى المقصود.

(وقس بن ساعدة) الإيادى قس، بضم القاف وتشديد السين، والقس العالم، والإيادى بكسر الهمزة نسبة لإياد حى من معد، وكان من الحكماء الزهاد كعمه وخاله منقطعًا للعباده فى برية، وآمن بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، قبل مبعثه ورآه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، مرتين بسوق عكاظ، ولذا عده ابن شاهين وغيره فى الصحابة، رضى الله عنهم، وعمر حتى قيل: إنه عاش ستمائة أو سبعمائة سنة، وأدرك الحواريين، فكان على دين عيسى، عليه الصلاة والسلام، قيل: وكانت السباع تدور عنده ولا تؤذيه، وربما ضربها بعصاه، وهو خطيب مفلق يضرب به المثل.

وعن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، لما قدم الجارود على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان سيد قومه قال: يا رسول الله والذى بعثك بالحق لقد وجدت صفتك فى الإنجيل، وبشر بك ابن البتول، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فآمن هو وكل سيد من قومه وسر بذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال له: يا جارود هل فى وفد عبد القيس من يعرف قسا؟ قال: كلنا نعرفه وكنت أقفو أثره كأنى أنظر إليه يقسم بالرب الذى هو له، ليبلغن الكتاب أجله، ويقول:

هاج للقلب من جواه أذكار   وليال خلا لهن نهار

فى أبيات أخر، فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم: فلست أنساه بسوق عكاظ

يذكر كلامًا ما أحفظه، فقال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: كنت حاضرًا وأنا أحفظه، سمعته يقول فى خطبته: يا أيها الناس اسمعوا وعوا وإذا وعيتم فانتفعوا إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، مطر ونبات، وأرزاق وأقوات، وآباء وأمهات، وأحياء وأموات، وجمع وأشتات، وآيات بعد آيات بعد آيات، إن فى السماء لخبرًا، وإن فى الأرض لعبرًا، ليل داج، وسماء ذات أبراج، وأرض ذات رتاج، وبحار ذات أمواج، مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا هناك فناموا، أقسم قس قسما حاتمًا، لا حانثًا فيه ولا آثمًا، إن لله دينًا هو أحسن من دينكم الذى أنتم عليه ونبيًا قد حان حينه، وأظلكم أوانه، فطوبى لمن آمن به فهداه، وويل لمن خالفه وعصاه، تبًا لأرباب الغفلة، من الأمم الخالية والقرون الماضية، يا معشر إياد أين الآباء والأجداد؟، وأين المريض والعواد؟، وأين الفراعنة الشداد؟، وأين من شيد وزخرف ونجد، وغره المال والولد؟، أين من بغى وطغى، وجمع فأوعى وقال: أنا ربكم الأعلى؟، ألم يكونوا أكثر منكم أموالاً، وأطول منكم آجالاً، وأبعد منكم آمالاً؟، طحنهم الثرى بكلاكله، ومزقهم بتطاوله، فتلك عظامهم بالية، وبيوتهم خاوية، عمرتها الذئاب العاوية، كلا بل هو الله أحد، الواحد المعبود، ليس بوالد ولا مولود(١)، وأنشأ يقول:

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر ... لما رأيت مواردًا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها تمضى الأصاغر والأكابر ... لا يرجع الماضى إلى ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر

انتهى، وروى له أشعار كثيرة فيها ذكره صلى الله تعالى عليه وسلم، كقوله:

الحمد لله الذى لم يخلق الخلق عبث ... ولم يخلقنا سدى من بعد عيسى واكترث
أرسل فينا أحمدًا خير نبى قد بعث ... صلى الله عليه ما حج له ركب وحث

إلى آخر ما ذكروه إلا أن ابن الجوزى قال: حديث قس المذكور موضوع، وذكر أسانيده وبين من فيها من الكذابين، ورده السخاوى وقال: إنه يجازف فى الوضع ولا يلزم من كون السند فيه كذاب، أن يكون المتن كذبًا إذا تعددت طرقه، وقد رواه ابن سيد الناس بسند ليس فيه كذاب، ورواه غيره أيضًا، فالصحيح أنه ليس بموضوع.

(وما ذكر عن سيف بن ذى يزن وغيرهم) ابن ذى يزن من ملوك حمير، وتنسب إليه الرماح فيقال: رمح يزنى وأزنى، وفيه وفى اشتقاقه كلام طويل للصاغانى، وقال البرهان: إنه مصروف والذى فى القاموس أنه ممنوع من الصرف لوزن الفعل وأصله

(١) أخرجه ابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٣٥٦/١، ٣٥٧)، وأورده السيوطى فى اللآلى المصنوعة (٩٧/١).

يزان، ورد الصاغانى فى الذيل والصلة منع صرفه، وأطال فيه وقال: مادة زان غير معروفة ولا تضاف ذو هنا إلا إلى أسماء الأجناس، وفى شرح الدريدية لابن النحاس أن فيه قولين:

أحدهما: أنه من وزن حذفت الواو لوقوعها بين فتحة وكسرة، ثم أبدلت الكسرة فتحة تخفيفًا فلا ينصرف على هذا.

الثانى: أنه ماض أصله وزن قلبت الواو همزة كما فى أحد ثم أبدلت ياء، وسمى به فهو منصرف انتهى، وهذا لا يرد عليه ما أورده الصاغانى، وقوله: لا تضاف ذو إلا لأسماء الأجناس ممنوع، فإنه يضاف للأعلام كما هنا، وهى لغة أهل اليمن فيضيفونه لأعلام ملوكهم وعظمائهم، وهو من إضافة المسمى للاسم، ويقال لملوك اليمن: إلا ذو، وقصة سيف مشهورة فى التواريخ والسير، وكان ظهر على اليمن وظفر بالحبشة فنفاهم بعد مولد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، بسنتين، فأتته وفود العرب تهنئه وتمدحه، فأتاه وفد قريش وفيهم عبد المطلب وأمية بن عبد شمس وخويلد بن أسد وغيرهم من وجوه قريش، واستأذنوا عليه فأذن لهم وهو معطر بالمسك والعنبر، وحوله أبناء الملوك فقال لعبد المطلب: إن كنت ممن يتكلم بين الملوك فتكلم فقال: أيها الملك إن الله قد أحلك محلاً رفيعًا، شامخًا منيعًا، وأنبتك منبتًا طابت أرومته، وعذبت جرثومته، وثبت أصله، وبسق فرعه، فى أطيب موطن، وأكرم معدن، وأنت أبيت اللعن أيها الملك رأس العرب وربيعها التى تخصب به، ورأسهم الذى له ينقاد، وعمودها الذى عليه العماد، ومعلقها الذى إليه يلجأ العباد، وسلفك لنا خير سلف، وأنت لنا خير خلف، ولن يخمل ذكر من أنت خلفه، ولن يهلك من أنت سلفه، ونحن أيها الملك أهل حرم الله وبيته أشخصنا إليك الذى أبهجنا بك لكشف الكرب الذى قد حنا، فنحن وفد التهنية لا وفد الرزية.

فقال له سيف: وأيهم أنت أيها المتوكل؟ قال: أنا عبد المطلب بن هاشم، قال: ابن أختنا؟ قال: نعم، فأدناه وأقبل عليه وعلى القوم وقال: مرحبًا وأهلا، وناقة ورحلا، ومستناخًا سهلاً، وملكًا ربحلا، يعطى عطاء جزلا، قد سمعت مقالتكم، وعرفت قرابتكم، وقبلت وسيلتكم، وأنتم أهل الليل والنهار، لكم الكرامة ما أقمتم والحباء إذا ظعنتم، انهضوا إلى دار الضيافة والوفود، وأمر لهم بالإنزال فأقاموا شهرًا لا يصلون إليه ولا يأذن لهم فى الانصراف، ثم أرسل إلى عبد المطلب وقال له بعد ما قرب مجلسه: يا عبد المطلب إنى مفض إليك بسر لو يكون غيرك لم أبح به ولكن وجدتك معدنه، فليكن عندك مطويا حتى يأذن الله فيه فإن الله بالغ أمره: إنى أجد فى الكتاب المكنون، والسر

المخزون، الذى اخترناه لأنفسنا دون غيرنا، خبرًا عظيمًا، وخطرًا جسيمًا، فيه شرف الحياة، وفضيلة الوفاة، للناس كافة، ولرهطك عامة، ولك خاصة.

فقال عبد المطلب: فتلك أيها الملك من سر وبر، فما هو فداك أهل الوبر والمدر، زمرًا بعد زمر؟.

فقال له: إذا ولد بتهامة، غلام به علامة، بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة.

فقال له عبد المطلب: أبيت اللعن لولا هيبة الملك وإجلاله سألته عما أزداد به سرورًا.

قال: هذا حين زمانه الذى يولد فيه أو قد ولد، واسمه محمد، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه، قد ولدناه سرارًا، والله باعثه جهارًا، وجاعل له منا أنصارًا، يعز بهم أولياءه، ويذل بهم أعداءه، ويضرب بهم الناس عن عرض ويستبيح بهم كرام الأرض، يعبد الرحمن، ويدحر الشيطان، ويخمد النيران، ويكسر الأوثان، قوله فصل وحكمه عدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله.

فقال عبد المطلب: أيها الملك عز جارك، وسعد جدك، وعلا كعبك، ونما أمرك، وطال عمرك، هل للملك أن يسرنى بإفصاح؟ فقد أوضح لى بعض إيضاح.

فقال: والبيت ذى الحجب، والعلامات على النقب، إنك لجده بلا كذب، فخر عبد المطلب ساجدًا فقال له: ارفع رأسك فقد ثلج صدرك، وعلا أمرك، فهل أحسست شيئًا مما ذكرت؟ فقال: نعم؟ أيها الملك إنه كان لى ابن كنت به معجبًا، فزوجته كريمة من كرائم قومى آمنة بنت وهب بن عبد مناف، فجاءت بغلام سميته محمدًا، ومات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه، بين كتفيه شامة وفيه كلّ ما ذكرت من علاماته، فقال: الذى ذكرت كما ذكرت، فاحتفظ به واحذر عليه اليهود، فإنهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا، واطو ما ذكرت لك دون هذا الرهط الذين معك، فإنى لست آمن أن تدخلهم النفاسة فيبغون لك الغوائل وينصبون لك الحبائل، وهم فاعلون أو أبناؤهم ولولا أعلم أن الموت مجتاحى قبل بعثه سرت بخيلى ورحلى حتى آتى يثرب وأصير هادرًا مملكتى، فإنى أجد فى الكتاب الناطق، والعلم السابق أن يثرب استحكام أمره وموضع قبره وأهل نصره، ولولا أنى أقيه الآفات وأحذر عليه العاهات لأوطأت العرب كعبه وأعلنت على حداثة سنه ذكره، ثم أمر لكل رجل منهم بمائة من الإبل، وعشرة أعبد، وعشرة إماء، وعشرة أرطال فضة، وخمسة ذهبًا وكرش مملو عنبرًا، وأمر لعبد المطلب بأضعافه وقال له: إذا كان رأس الحول، فأتنى بخبره وما يكون من أمره، فهلك قبل رأس الحول، فكان عبد المطلب يقول: لا يغبطنى أحد من قريش بجزيل الملك، فإنه إلى نفاد ولكن الغبطة بما

يبقى لى شرفه وذكره فى العقبى، فإذا سئل عنه قال: سيظهر بعد حين وفيه شعر له.

وعن ابن عباس أنه قال لعبد المطلب: أشهد أن فى إحدى يديك ملكًا وفى الأخرى نبوة، فكانت النبوة والخلافة العباسية كما فى كتب السير والتواريخ، وبما ذكرناه من أنه مات قبل الحول يعلم أنه ليس بصحابى ولا تابعى، فذكر الذهبى له فى الصحابة لا وجه له، والعجب من بعض الشراح حيث نقل ما ذكرناه، وقال: إنه تابعى فالحق أنه ليس كذلك ولا مخضرم أيضًا كما قيل، ولعل الذى ذكره الذهبى إشارة إلى أن مثله لا يقال بالرأى أيضًا.

(وما عرف به من أمره) وكونه نبيًا مرسلاً وعرف بتشديد الراء مبنى للفاعل لا للمفعول، وإن صح بناء على أنه عرفه به أهل الكتاب والفاعل أو نائبه **(زيد بن عمرو ابن نفيل)** قال الذهبى: هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رباح العدوى، الذى قال فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إنه يبعث أمة وحده؛ لأنه كان يطلب دين إبراهيم ويكره الشرك وأهله ويوحد الله، ويقول لقريش: ما قومكم على شيء قد أخطئوا دين إبراهيم بأوثان لا تضر ولا تنفع بعد، وكان يخالفهم ولا يأكل ذبائحهم، فاجتمع بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، قبل نبوته، وتوفى قبل مبعثه، وقال: شاممت اليهودية والنصرانية فكرهتهما وكنت بالشام فأتيت راهبًا فقصصت عليه فقال: أراك تريد دين إبراهيم يا أخا أهل مكة إنك لتطلب دينًا لا يوجد اليوم، وهو دين أبيك إبراهيم فالحق لبلدك، فإن الله يبعث لك من يأتى بدين إبراهيم الحنيفية، وهو أكرم الخلق على الله تعالى، انتهى المراد منه.

ومن خطه نقلت وروى غيره أيضًا: أنه لقى راهبًا بالجزيرة فسأله عن دين إبراهيم فقال له: إن كل من رأيته من الأحبار والرهبان فى ضلال، وإنك لتسأل عن دين الله وقد خرج فى أرضك أو هو خارج نبى يدعو إليه، فارجع إليه وصدقه، فلقيه قبل بعثته ببلد حيد فقال: يا عم مالى أرى قومك قد أبغضوك فقال: أما والله إن ذلك لغير ثائرة منى إليهم ولكنى أراهم على ضلالة، فخرجت أبتغى هذا الدين، ثم أخبره بما عرفه به الراهب من أمره صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا ما أشار إليه المصنف وعده من الصحابة توسعًا؛ لأنه لم يجتمع به صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد النبوة، ونفيل تصغير نفل وهو العطية نقل للعلمية وقيل: إن اليهود قتلوه بلخم.

(وورقة بن نوفل) أحد النفر الذين كانوا فى الفترة على الدين الحق من قريش، وهو ورقة بن أسد بن عبد العزى بن قصى، وهو معطوف على زيد أى وما عرف به ورقة من أمره صلى الله تعالى عليه وسلم، وأخبر به خديجة أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها،

كما ذكره البخارى، وآمن به بعد رسالته ولـذا قيـل: إنـه أول الصحابـة، وكـان شيخًا كبيرًا يقرأ الكتب ويعرف العبرانية، وقال للنبى صلـى الله تعـالى عليـه وسـلم، لما أخـبره بأمره: أبشر فإنك الذى بشر به ابن مريم ورآه صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الجنة عليه ثياب خُضر، وقال: لا تسبوا ورقة كما تقدم، وله أشعار مدح بها النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم.

(وعثكلان الحميرى) بفتح العين المهملة وسـكون المثلثة وكـاف ولام وألـف ونـون، والحميرى نسبة لحمير قبيلة باليمن سميت باسم حمير بن سبأ أى مـا عـرف بـه مـن أمـره صلى الله تعالى عليه وسلم، عمن لقيه من الرهبان، وقـال الشـراح: لم نقـف علـى قصـة عثكلان، وفى الخصائص أن ابن عساكر أخرج من طريق عبد الرحمن بن عوف بن عبـد عوف بن عبد الحارث، عن أبيه، عن جده، وقال: سافرت إلى اليمن قبل مبعثه صلى الله تعالى عليه وسلم، فنزلت على عثكلان بن عواكن الحمـيرى، وكـان شـيخًا كبـيرًا أنـزل عليه إذا جئت اليمن فنزلت عليه مرة فسألنى عن مكة والكعبة وزمزم، وقال: هـل ظـهر منكم أحد خالف دينكم؟ فقلت: لا ثم قدمـت عليـه بعـد بعثـه، صلـى الله تعـالى عليـه وسلم، وقد ضعف وثقل سمعه، فنزلت عليه واجتمـع عليـه ولـده وولـد ولـده وأخـبروه بمكانى، فشد على عينيه عصابة واستند وقعد وقال لى: انتسب يا أخا قريش، فقلت: أنا عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث بـن زهـرة، قـال: حسـبك يـا أخـا زهرة ألا أبشرك ببشارة هى خير لك من التجـارة؟ قلـت: بلـى، قـال: أنبئـك بالمعجمـة وأبشرك بالمرعبة إن الله قد بعث فى الشهر الأول من قومك نبيـا ارتضـاه صفيـا، وأنـزل عليه كتابًا وجعل له ثوابًا، ينهى عن الأصنام يدعو إلى الإسلام، يأمر بالحق ويفعله وينهى عن الباطل ويبطله، فقلت: ممن هو؟ قال: لا من الأزد ولا ثمالة ولا من السرف ولا تبالة، هو من بنى هاشم وأنتم أخواله يا عبد الرحمن، أحق الوقعـة وعجـل الرجعـة، ثـم امـض ووازره واحمل إليه هذه الأبيات:

أشـــهد بـــالله ذى المعـــالى ... وفـــالق الليـــل والصبـــاح
أنـك فـى السـر ومـن قريـش ... يـا ابـن المفـدى مـن الذبـاح
أرسـلت تدعـــو إلى يقـــين ... ترشـــد للحـــق والفـــلاح
أشـــهد بـــالله رب موســـى ... أنـــك أرســـلت بالبطـــاح
فكـــن شفيعـــى إلـــى مليـــك ... يدعـو البرايـا إلـــى الفـــلاح

قال عبد الرحمن: فحفظت الأبيات وانصرفـت، فلمـا قدمـت مكـة لقيـت أبـا بكـر، رضى الله تعالى عنه، وأخبرته الخبر فقال: هذا محمد قد بعثـه الله فأتـه، فلمـا أتيـت بيـت

خديجة رآني صلى الله تعالى عليه وسلم، فضحك وقال لى: أرى وجهًا خليقًا أن أرجو له خيرًا فما وراءك؟ قلت: وديعة، فقال: أرسلك مرسل برسالة هاتها فأخبرته وأسلمت، فقال: أخا حمير مؤمن مصدق بى وما شاهدنى أولئك من إخوانى حقًا[1]، انتهى.

(وعلماء يهود)، وفى نسخة علماء اليهود بالألف واللام، وكلاهما صحيح كما بينه سيبويه فى باب العلم، فإنه يكون علما لهذه القبيلة فيمنع من الصرف ولا تدخله الألف واللام قال الشاعر[2]:

أولئك أولى من يهود بمدحة إذا أنت يومًا قلتها لم تُؤنب

وإذا قلت: اليهود فإنه بمعنى اليهوديين، ولكن حذفوا ياء النسبة، انتهى، وفصله شراحه أى ما عرف به من أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، علماؤهم مما قرأوه فى كتبهم، ورووه عن أسلافهم كابن صوريا وابن أخطب وأبى ياسر ووهب بن يهود وغيرهم ممن لا يحصى، ومنهم من أسلم، ومنهم من عاند حسدًا، فمات على كفره، ثم ذكر بعضًا منهم، وعطفه عطف الخاص على العام، فقال: **(وشامول عالمهم)** بشين معجمة وميم ولام بينهما ألف بوزن فاعول، وهو من علماء اليهود وكان مع تبع صاحبه، وفى كتاب الوفاء:لما قدم تبع المدينة لنصرة الأوس والخزرج على اليهود، قال: إنى مخرب هذه البلدة حتى لا يقوم بها يهودية ويرجع الأمر لدين العرب، فقال له شامول اليهودى، وهو يومئذ أعلم اليهود: أيها الملك إن هذه البلدة مهاجر نبى من بنى إسماعيل مولده مكة واسمه أحمد، وهذه دار هجرته وإن منزلك الذى أنت به سيكون فيه من القتلى من أصحابه وأعدائه أمر عظيم، فقال تبع: ومن يقاتله وهو نبى؟ قال له: قومه، قال: وأين قبره؟ قال: بهذه البلدة، قال: وإذا قوتل لمن تكون النصرة، قال: يكون له مرة وعليه أخرى، ثم تكون العاقبة له فيظهر حتى لا ينازعه أحد، ثم سأله عن صفته فأخبره بها كما مر فى حديث الحلية الشريفة.

وقوله: **(صاحب تبع)** أى الذى كان معه ورهبان آخرين لما قدم المدينة، فقالوا له لما قص عليهم شامول القصة المارة: إنا لن نبرح هاهنا لعلنا ندركه أو أبناؤنا، فأعطى كل واحد منهم مالاً وجارية، فمكثوا فيها.

وقوله: **(من صفته وخبره)** صلى الله تعالى عليه وسلم، كما عرفته آنفًا بيان لما عرف به **(وما ألفى من ذلك)** أى من صفته وخبره **(فى التوراة والإنجيل)**، وألفى بهمزة

---

(١) أورده السيوطى فى الجامع الكبير (٢/٢٢٧).

(٢) البيت من الطويل، وهو لرجل من الأنصار فى ما ينصرف وما لا ينصرف (ص٦٠)، وبلا نسبة فى الكتاب (٣/٢٥٤)، لسان العرب (٣/٤٣٩).

مضمومة ولام ساكنة وفاء مكسورة ومثناة تحتية مبنى للمجهول بمعنى وجد، ونصوص التوراة والإنجيل كثيرة، وسيأتى طرف منها، واعلم أن التابعة أربعة، وقد اختلفوا فى أيهم آمن به، صلى الله تعالى عليه وسلم، هل هو الأكبر أو غيره كما قاله السهيلى، وليس هذا محل تفصيله وتقدم بيانه إجمالاً.

وقوله: (**مما قد جمعه العلماء**) فى تآليفهم بيان لما ألفى فيهما من صفته صلى الله تعالى عليه وسلم، وخبره، (**وبينوه**) أى أظهروه ووضحوه للناس، (**ونقله عنهما ثقات من أسلم منهم**) أى من أهل الكتاب (**مثل**) عالمهم وحبرهم عبد الله (**ابن سلام**) بتخفيف اللام، وهو من اليهود وتقدم الكلام عليه وعلى إسلامه، (**وبنى سعية**) بنى جمع ابن، وسعية بسين مفتوحة وعين مهملتين ساكنة ومثناه تحتية، وقيل: صوابه النون بدل المثناة التحتية، بل قيل: النون أكثر وأشهر، وهم ثعلبة وأسيد بالتصغير والتكبير وفتح الهمزة وزيد، وقيل: إنهم سبعة لكن الذى فى سيرة ابن سيد الناس عن ابن إسحاق، أن ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد، وهم نفر من هذل بنو عم قريظة والنضير، أسلموا فى الليلة التى نزلت فيها قريظة على حكم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.

قال البرهان: وهذا هو الذى أعرفه وأنهما اثنان لا جماعة، فيحتمل أن القاضى رأى معهم أسد بن عبيد فظنه أخاهم، ويحتمل أنه وقف على أنهم ثلاثة، انتهى.

وسبب إسلامهم أنه قدم عليهم رجل من أهل الشام يقال له: ابن الهيبان أقام عندهم، وكان عالمًا يتبركون به ويستسقون فيسقون، فلما حضرته الوفاة قال: يا معشر يهود إنما أقدمنى هذه البلدة خروج نبى قد أظل زمانه وهذه البلدة مهاجره، وقد كنت أرجو أن أدركه فأتبعه، فلما بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهاجر وحاصر بنى قريظة قال لهم بنو سعية وهم أحداث: والله إنه هو الذى عهد إليكم فيه ابن الهيبان، فقالوا: ليس به. قالوا: بل هو هو بصفته فنزلوا وأسلموا وأحرزوا أهلهم وأموالهم ودماءهم، كما فى الاكتفاء ودلائل البيهقى.

(**وابن يامين**) بن عمير بن عمرو بن كعب بن جحاش من بنى النضير، وقيل: إنه بنيامين، ويقال: بليامين باللام، وهو أحد الحبرين اللذين قدما من اليمن مع تبع، واسم الآخر سخيت كما مر، وكأنه تصغير سخت كما قاله التلمسانى، وقال الشارح الجديد لم أطلع عليه.

(**ومخيريق**) بضم الميم وفتح الخاء المعجمة والياء الساكنة وكسر الراء المهملة والياء الساكنة وقاف بصيغة المصغر، وهو كما مر كان عالمًا حبرا من أحبار اليهود كثير المال والخيل، وكان يعرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، بصفته إلا أنه غلبه إلف

دينه، فلما كان أحد يوم السبت قال: يا معشر يهود، إنكم لتعلمون أن نصر محمد لحق عليكم، فقالوا: اليوم يوم السبت فقال: إنكم لا سبت لكم، ثم أخذ سلاحه وخرج حتى أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وأصحابه بأحد، وعهد إلى قومه: إن قتلت هذا اليوم فأموالى لمحمد يصنع بها ما رآه، ثم قاتل حتى قتل، فجعل ماله صدقة بالمدينة، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم، يقول: مخيريق خير يهود، ويهود كما مر اسم هذه القبيلة ولاشك أنه منها ومن خيرها فلا يقال: كيف أضافه لهم بعد إسلامه والأمر فيه سهل.

(وكعب) بن ماتع، وهو كعب الأحبار كما تقدم، التابعى المشهور أدرك زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم، وأسلم فى خلافة أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، وقيل: فى خلافة عمر، رضى الله تعالى عنه، وتوفى فى خلافة عثمان، رضى الله تعالى عنه، سنة ثنتين وثلاثين، ودفن بحمص على ما مر.

وروى عنه آثار كثيرة فى صفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى التوراة كما فى الوفاء وكتاب الشرف لأبى سعيد وفى خير البشر لابن ظفر، وسأله عمر، رضى الله تعالى عنه، عن صفته صلى الله تعالى عليه وسلم، فى التوراة، فقال: إن فيها سيد الناس والصفوة من ولد آدم وخاتم النبيين يخرج من جبال فاران ومنبت القرط من الوادى المقدس، فيظهر التوحيد والحق، ثم ينتقل إلى طيبة فتكون حروبه وأيامه بها، ثم يقبض ويدفن بها إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة.

(وأشباههم) من علمائهم الذين كانوا يعرفون أمره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأخباره من كتبهم **(ممن أسلم)** وآمن برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ورآه كمخيريق أو لم يره ككعب **(من علماء يهود وبحيرا)** عطفه على علماء اليهود؛ لأنه ليس منهم فإنه كان نصرانيًا، وبحيرا بفتح الموحدة وكسر الحاء المهملة ومثناة تحتية وراء مهملة وألف مقصورة على المشهور إلا أن البرهان قال: إن راءه ممدودة بخط العلامة ابن المرحل، فلعله وقف على لغة فيه، وقصته صحيحة مشهورة فى السير، وهو راهب كان منقطعًا للعبادة بصومعة له عند محل يقال له: بصرى فى طريق الشام، وكانت قافلة قريش تمر عليه فلا يلتفت لأحد منها، فلما ذهب أبو طالب للشام، ومعه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو صغير ابن تسع سنين أو اثنتى عشرة سنة، نزل لهم وقال: يا معشر قريش إنى صنعت لكم طعامًا، فذهبوا معه وتركوه فى رحالهم لصغر سنه، فقال لهم هل بقى أحد؟ قالوا: لا إلا ولد صغير، فدعاه حتى أتى فسألوه عن سبب هذا ولم يكن دأبه، فقال: إنى رأيت غمامة تظله، ولما نزل عند الشجرة مالت لجانبه،

وإن مثله لا يكون إلا لنبى وإنا لنجده فى كتابنا، وهذه صفته ونظر لخاتم النبوة فيه فقال لأبى طالب: احترس عليه من اليهود، وأقسم عليه أن يرده، فقيل: إنه رده وقيل: أسرع فى سفره وعاد به، والقصة مفصلة فى السير، وبحيرا هذا من أول من آمن به وعد من الصحابة إن قلنا: إن من اجتمع به مؤمنًا مطلقًا يعد من الصحابة.

(ونسطور الحبشة) احترز به عن نسطور الشام وغيره، ونسطور معرب ويقرأ بالسين والصاد كما فى بعض الشروح، ونسطور الشام قصته مذكورة فى السير وهى قريبة من قصة بحيرا، وفى بعض النسخ نسطور بدون إضافة للحبشة، وقد قال الشراح: إن نسطور الحبشة غير معروف، ولعله من علماء أهل الكتاب الذين كانوا عند النجاشى.

(وصاحب بصرى) بضم الباء كحبلى بلدة بالشام، وهى بين المدينة والشام، وقيل: إنها حوران وهذا هو المعروف، وفى نسخة: راهب بصرى، وصاحبها ملكها الذى أرسل إليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، دحية بكتابه، وهو الحارث بن أبى شمر الغسانى كما قاله ابن حجر، وقال: إنه مات عام الفتح ولم يذكر قصته وإسلامه وما أخبر به عن أمره صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وأسقف الشام) وفى نسخة أساقفة الشام، ويعنى بهم صاحب إيليا وهرقل وابن الناطور وغيرهم، وأسقف بضم الهمزة وسكون السين المهملة وضم القاف وتشديد الفاء، ولا نظير له إلا الأسرب.

وحكى ابن سيدة ثالثًا، وهو الأسلف للصالح، وقال العينى فى شرح البخارى: ولا يرد عليه الأترج لأنه جمع، والكلام فى المفرد وفيه نظر لا يخفى.

وقال عبد الغافر الفارسى فى كتاب منبع الرغائب والغرائب فى الحديث فى كتابه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأهل نجران: لا يمنع أسقف من سقيفاه وجمعه أساقفة، والسقيفى مصدر كالحليفى ومعناه لا يمنع أسقف من تسقفه ولا راهب من ترهبه، والمسقف الطويل مع انحناء وكذا الأسقف، ويقال: هو بين السقف، وفى خطبة الحجاج المعروفة إياكم وهؤلاء السقفاء.

قال القتيبى: أكثرت السؤال عنه، فلم يعرفه أحد، وقال بعض أهل اللغة: إنما هو الشفعاء أى الذين يشفعون عند السلطان فى المريب، انتهى.

وفى القاموس: وقول الحجاج إياكم وهذه السقفاء تصحيف صوابه الشفعاء، كانوا يجتمعون عند السلطان فيشفعون فى المريب، انتهى.

وليس كما قال، فإن الزمخشرى أثبته فى الفائق والأسقف عالم النصارى ورئيسهم.

(وضَغَاطر) بضاد وغين معجمتين مفتوحتين بعدهما ألف وطاء وراء مهملتان،

ويقال: ضغاطن بنون وبفاطر بموحدة تحتية مفتوحة وفاء وهو أسقف من كبار الروم أسلم على يد دحية، رضى الله تعالى عنه، لما أرسله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى هرقل وغير لباسه، وأظهر إسلامه فقلتوه كما ذكره الذهبى، وكان ذلك فى سنة ست من الهجرة، وهو الذى أبهمه البخارى فى أوله فى قصة قيصر حيث قال: كتب هرقل إلى صاحب له برومية كان نظيره فى العلم، قال دحية: لما خرج عظماء الروم من عند هرقل أدخلنى عليه وأرسل إلى أسقف كان صاحب أمرهم، فسأله عن أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال له: هذا الذى كنا ننتظره وبشرنا به عيسى، عليه الصلاة والسلام، أما أنا فمصدقه ومتبعه، فقال قيصر له: إن فعلت ذهب ملكى، فقال لى الأسقف: خذ هذا الكتاب واذهب به إلى صاحبك واقرأ عليه السلام، وأخبره أنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأنى قد آمنت به وصدقته.

وروى ابن إسحاق أن هرقل أرسل دحية إلى ضغاطر الرومى، وقال: إنه فى الروم أنفذ قولا منى فأظهر إسلامه وألقى ثيابه ولبس ثيابًا بيضًا، وخرج ودعا الروم إلى الإسلام وشهد شهادة الحق فقتلوه، فلما رجع دحية إلى هرقل قال له: أما قلت لك إنا نخافهم على أنفسنا، فضغاطر كان عندهم أعظم منى وحينئذ فضغاطر تابعى مخضرم.

وقيل: إنه المراد بأسقف الشام السابق لكونه ساكنًا بها، وهو عندهم رئيس دينهم وعالمهم المتعبد المتخشع، وهو فوق القسيس ودون المطران، وكان عالمًا بصفة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فى كتبهم، وقيل: إنه غيره، ودحية، رضى الله تعالى عنه، وفد على هرقل مرتين.

(والجارود) بن عمرو بن العلاء أو ابن العلاء، ويكنى أبا غياث أو أبا عتاب واسمه بشر، وكان سيد عبد القيس على دين النصرانية، وقد وفد على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، سنة تسع فعرض عليه الإسلام ورغبه فيه، فأسلم هو وأصحابه وحسن إسلامه، وكان متصلبًا فى دينه وأدرك الردة، ولما ارتد قومه دعاهم إلى الحق، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وكفر من لم يشهد، وله أشعار رويت فى السير كقوله:

شهدت بأن الله حق وسامحت ... بنات فؤادى بالشهادة والنهض
فأبلغ رسول الله عنى رسالة ... بأنى حنيف حيث كنت من الأرض

وسكن بالبصرة وقيل: بفارس، وقيل: بنهاوند سنة إحدى وعشرين، وسمى الجارود؛ لأنه غار على بكر بن وائل فجردهم كما قال العبدى(١):

(١) البيت من الطويل، وهو للجارود فى كتاب العين (٦/٧٦)، وبلا نسبة فى لسان العرب (١١٦/٣)، تهذيب اللغة (٦٣٩/١٠)، جمهرة اللغة (ص٤٤٦)، الاشتقاق (٣٢٧).

ودسناهم بالخيل من كل جانب كما جرد الجارود بكر بن وائـل

وقيل: لأنه فر بإبله وبها داء إلى أخواله بنى شيبان، ففشا الداء فى إبلهم حتى أهلكها فهو فاعول من الجرد بالجيم وهو الاستئصال.

(وسلمان) الفارسى وقصة إسلامه وملاقاته للرهبان وتبشيرهم له ببعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، مشهورة تقدم بعض منها.

(وتميم) الدارى ينسب للدار، وهم بطن باليمن من لخم هم ولد هانئ بن حبيب بن نمارة بن لخم بن عبد الحارث بن مرة بن أدد، منهم تميم بن أوس بن خارجة بن سواد ويقال: سواد بن خذيمة بن دراع بن عدى بن الدار، ويكنى بأبى رقية وأسلم تميم سنة تسع، وسكن المدينة، ثم انتقل إلى الشام بعد قتل عثمان، وكان من أهل الكتاب عالمًا بكتبهم فقرأ فيها بعثة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، والتبشير به، فقدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وآمن به وأقطعه أراضى بالقدس، وقصته مشهورة أفردها ابن حجر وكذا السيوطى بالتأليف.

(والنجاشى) بفتح النون وكسرها وتشديد الياء وتخفيفها، واسمه أصحمة وقيل غير ذلك، كسليم بالتصغير، وهو ملك الحبشة توفى فى السنة التاسعة من الهجرة فى شهر رجب، وصلى عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، صلاة الغائب، وهاجر إليه المسلمون الهجرة الأولى، وكان من قصة إسلامه المشهورة أنه قال للقسيسين: أشهد أنه رسول الله، وأنه الذى بشر به عيسى، ولولا ما أنا فيه من الملك أتيته وكنت أحمل نعليه وكان من أعلم أهل عصره بالإنجيل يقرأ صفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ويبكى حتى يبل لحيته، وقد تقدم الكلام فى ترجمته.

(ونصارى الحبشة) هم قوم منهم عرفوا صفته صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الإنجيل وأخبروا بها.

(وأساقفة نجران) وفى نسخة: أساقف بدون هاء جمع أسقف، وقد تقدم الكلام عليه قريبًا أى علماؤهم ورؤساهم، ونجران بفتح النون وسكون الجيم وراء مهملة، وألف ونون، وهو موضع باليمن سمى بنجران بن زيدان بن سبأ، بينه وبين مكة سبع مراحل، وليس من الحجاز وبه يسمى أهله، وهم نصارى وفدوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، أى ستون راكبًا من أشرافهم، وكان لهم علم بالكتاب، وأشرفهم أبو حارثة كان ملوك النصارى يجلونه لعلمه بالنصرانية فملكوه ومولوه وبنوا له كنائس وأخدموه، فقدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ومعه أخوه كوز بضم الكاف وآخره زاء معجمة على بغلة له، فعثرت فقال له كوز: تعس الأبعد، فقال له: لم يا أخى؟ قال:

لم لم تؤمن بهذا النبى؟ وإنه الذى كنا ننتظره، فقال: بلى والله، فقال له: ما يمنعك؟ قال: ما أصنع! هؤلاء القوم شرفونا ومولونا وقد أبوا إلا خلافه، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى، فأضمرها فى نفسه حتى أسلم وكان يحدث به، فلما دخلوا المسجد الشريف وقت العصر وعليهم الحبرات فى جمال لم ير مثله، فحانت صلاتهم فقاموا فى مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، يصلون إلى الشرق، فقال: دعوهم ثم أتوه صلى الله تعالى عليه وسلم، فكلمه منهم أبو حارثة والعاقب والآئهم ودينهم النصرانية والتثليث، فقال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: أسلموا، قالوا: أسلمنا، قال كذبتم يمنعكم الإسلام دعاؤكم لله ولدا وعبادة الصليب وأكل الخنزير، فأنزل الله تعالى فيهم أول سورة آل عمران، فلما أراد صلى الله تعالى عليه وسلم، ملاعنتهم تشاوروا، فقالوا: إنه ما لاعن نبى قومًا إلا استؤصلوا، ثم نزلوا على أمره فأسلم بعضهم، وقبل بعضهم الجزية، وأرسل معهم أبا عبيدة بن الجراح، رضى الله عنه، يقضى بينهم، والقصة مفصلة فى كتب التفسير والسير.

(وغيرهم ممن أسلم من علماء النصارى وقد اعترف بذلك) أى ببعثته صلى الله تعالى عليه وسلم وأنه بشر به فى الكتب القديمة **(هرقل)** ملك الروم، وقصته مذكورة فى أول البخارى، وهرقل بكسر الهاء وفتح الراء وسكون القاف، كما مر، وحكى إسكان الراء وكسر القاف، وكان يعرف أمره صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الكتب الإلهية، ولكن أحب الملك فحكم بشقائه مالك الملك، وفى الاستيعاب: أنه آمن به صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيه نظر؛ لأنه قاتل المسلمين بمؤتة ووعدهم أن يأتيهم فى العام القابل، فالأصح الأول وقد مات على النصرانية، وكان عالمًا بالكتاب وبأحوال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، كما أخبر به دحية.

(وصاحب رومة) بضم الراء وسكون الواو وميم مخففة مفتوحة يليها هاء فى أكثر النسخ، وفى بعضها رومية بياء مخففة عند أهل اللغة كأنطاكية وغيرها، وعدوا التشديد لحنا؛ لأنه ليس بنسبة عربية وبعضهم يشددها، واختلف فيه فقيل: هو ابن الناطور بطاء مهملة، وهو لفظ عجمى معناه حارس الكروم والعامة تقوله: ناطر بدون واو، وتجعله بمعنى الحارس مطلقًا وأعجمه بعضهم، وقيل: هو ضغاطر الذى تقدم، واعترض بأنه أسلم، فلا يناسبه قوله بعده إنه ممن حمله الشقاء على البقاء على كفره إلا أن يخص ذلك باليهود، وهو بعيد، وفى القاموس: رومة بلدة عند طبرية فيها رياستهم وعلمهم، وقيل غير ذلك، ولا وجه لما قيل إن الصواب صاحبه برومة كما ورد فى الحديث، ولا دليل لما ذكره على ما زعمه **(عالما النصارى)** مثنى عالم **(ورئيساهم)** مثنى رئيس وهو سيد القوم وحاكمهم، وهذا صريح فيما قلناه من أنه كان صاحب رومية أى حاكمها.

(ومقوقس صاحب مصر) أى ملكها، ومقوقس بزنة اسم فاعل فووعل علم رومى، قيل: معناه عندهم مطول البناء، وهو الذى أهدى إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، قدحًا من قوارير وجاريته مارية، ومنه اتخذت مصر و لم يسلم، وغلط من عده من الصحابة كيف وهو لم يلاق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وما زال نصرانيًا على الأصح، واسمه جريج بن مينا كما قاله الدارقطنى، ولهم مقوقس آخر عد فى الصحابة قاله الذهبى، ولعله الأول وهو ملك القبط وصاحب الأسكندرية، وأرسل له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام، فأجابه بما هو معلوم فى كتب الحديث والسير وقد يدخلون عليه الألف واللام.

(والشيخ صاحبه) أى صاحب المقوقس قال البرهان وغيره: وهذا الشيخ لا نعرفه إلا أن المسعودى ذكره، وذكر له قصة فى كتاب العجائب أحال عليها فى مروج الذهب، فإن وقفنا عليها ألحقناها بما هنا.

(وابن صوريا) بضم الصاد المهملة وواو ساكنة يليها راء مهملة مكسورة ومثناة تحتية وألف مقصورة، وقيل: إنها ممالة وهو عبد الله بن صوريا الأعور اليهودى، و لم يكن فى زمانه أعلم منه بالتوراة، وقال النقاش: إنه أسلم وقيل: أسلم ثم ارتد، و لم يذكر ابن إسحاق إسلامه، وعده فى الإصابة من الصحابة، وفى معالم التنزيل أنه الذى نزل فيه قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧]، وكلام المصنف، رحمه الله، مبنى على عدم إسلامه.

(وابن أخطب) بزنة أفعل من الخطبة، وهو حيى أبو أم المؤمنين صفية، رضى الله تعالى عنها.

(وأخوه) أبو ياسر اليهوديان اللذان قتلا كافرين صبرا فى أسراء بنى قريظة، وكانا يعلمان أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وما فى التوراة من ذكره بصفته، ومع ذلك كانا أشد الناس عداوة له كما ذكرت ذلك صفية لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، بعدما أسلمت، وقالت: لما قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى المدينة غدا إليه أبى وعمى، ثم جاءا بالعشى، فسمعت عمى يقول لأبى: أهو هو؟ قال: نعم، الحديث.

(وكعب بن أسد) من بنى قريظة وهو صاحب عقدهم، وقال لهم لما حاصرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: يا معشر يهود إنكم ترون ما نزل بكم من الأمر، فتعالوا نتابعه ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم، فتأمنوا على نسائكم وأموالكم وأهلكم، فقالوا: لا نفارق حكم التوراة ولا نستبدل به غيره....

إلى آخر القصة وما فيها من نقضهم العهد وقتلهم، ويقال: إن اسم كعب كتد بفتحتين وكاف ومثناة فوقية ودال مهملة.

(والزبير بن باطيا) الزبير هنا بفتح الزاء المعجمة، وهو من يهود بنى قريظة أيضًا، قتل كافرًا فى وقعة بنى قريظة، وهو جد عبد الرحمن بن الزبير بضم الزاء وقيل: إنه بفتحها كاسم جده، قيل: والصحيح أنه بالضم كما فى تاريخ البخارى، وقال ابن مرزوق: الزبير بفتح الزاء فى اليهود، وفى غيرهم بالضم والزبير هذا قتله ثابت بن قيس بن شماس يوم بنى قريظة، وكان من أعلم اليهود روى عنه ابنه أنه كان يقول: إنى وجدت سفرًا كان أبى يختمه فيه ذكر أحمد نبى يخرج بأرض القرظ صفته كذا وكذا، فتحدث به الزبير بعد أبيه، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يبعث، فما هو إلا أن سمع بأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، خرج بمكة، فعمد إلى السفر فمحاه وكتم شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، وصفته، وقال: ليس به وباطيا بموحدة وألف تليها طاء مهملة ومثناة تحتية وألف مقصورة، وفى بعض النسخ باطا بدون ياء وكتب عليها صح، وقال التلمسانى: إنها رواية فيه.

(وغيرهم من علماء اليهود) الذين عرفوا نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم، وذكروه بصفته نقلاً عن كتبهم وأحبارهم، ولهم ذكر فى مفصلات السير **(ممن حمله الحسد)** له صلى الله تعالى عليه وسلم، كابن سلول، والحسد للعرب إذ كان هذا الرسول منهم دون بنى إسرائيل **(والنفاسة)** بفتح النون بمعنى المنافسة، وفسرت بالحسد وهى مغايرة له؛ لأنها المنازعة فى الأنفسية بأن يدعى أنه أنفس وأحق بما هو فيه، وأنه لا يستأهله ولا يستحقه، وحمله بمعنى بعثه ودعاه لما ذكر حتى كأنه حمله حتى أوصله ثم صار حقيقة عرفية فيما ذكر **(على البقاء على الشقاء)** أى إصراره على كفره أو ارتداده عنادًا والشقاء ضد السعادة وبين الشقاء والبقاء تجنيس.

(والأخبار) الواردة **(فى هذا)** الباب **(كثيرة لا تنحصر)** إشارة إلى أن ما ذكره قليل بالنسبة لما تركه منها، إذ هى لا يمكن حصرها أى الإحاطة بها.

(وقد قرع) بالبناء للفاعل والتخفيف والتشديد، والقرع الضرب والصدم بما يسمع له صوت، فإذا شدد كان مبالغة فيه، ويكون بمعنى التوبيخ والتعيير فإذا خفف فهو استعارة للمبالغة فى الجهر، حتى كأنه يضرب أسماعهم، فإذا شدد فالمراد به توبيخهم بما ذكر.

(أسماع اليهود والنصارى) خصهم؛ لأنهم أهل الكتاب، وقدم اليهود؛ لأنهم أشد عداوة له صلى الله تعالى عليه وسلم، وأكثر إنكارًا وعنادًا، وفى بعض النسخ يهود والنصارى، فعرف النصارى بأل دون يهود؛ لأنه علم كما مر.

وقيل: لأن اليهود أشد عداوة للمؤمنين وفيه نظر **(بما ذكر أنه فى كتبهم)** متعلق بقرع، وفاعله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، **(من صفته صلى الله تعالى عليه وسلم، وصفة أصحابه)** وفى نسخة وصفة أمته، وكلاهما صحيح متقارب المعنى، فإنه وقع فى الكتب الإلهية ذكرهما خصوصًا وعمومًا، ففى التوراة أنهم خير أمة هم الآخرون السابقون يوم القيامة، أناجيلهم صدورهم يؤمنون بالكتاب الأول والآخر، ويقاتلون أهل الضلالة إلى غير ذلك مما استوفاه ابن ظفر فى كتابه خبر البشر بخير البشر.

(واحتج) صلى الله تعالى عليه وسلم، أى أقام الحجة **(عليهم بما انطوت عليه صفحهم)** أى بما حوته واشتملت عليه، وفيه إشارة إلى إخفاء ما فيها وكتمه لأن الصحيفة إذا طويت لم ينظر لما فيها وصحف بضمتين وتسكن تخفيفًا جمع صحيفة وهى الكتاب، والأكثر جمعه على صحائف؛ لأن فعيلة لا تجمع على فعل إلا نادرًا **(من ذلك)** أى صفته صلى الله تعالى عليه وسلم، وصفة أمته.

(وذمهم بتحريف ذلك) المذكور فى كتبهم بتغيير بعض ألفاظه وتفسيره بغير المراد منه كقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦] الآية، فبدلوا صفته، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى أضلوا جهالهم وقالوا: ليس هو الموعود به فى كتابنا **(وكتمانه)** أى إخفاء صفته صلى الله تعالى عليه وسلم، وصفة أمته كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

(وليهم ألسنتهم ببيان أمره) أى صرفه لغيره حسدًا وبغيا بأن يتركوا بيانه ويعدلوا عنه لغيره، وأصل اللى فتل الحبل ونحوه، فاستعير لصرفها عن الصدق إلى الكذب.

قال الراغب: لوى لسانه بكذا كناية عن الكذب، قال الله تعالى: ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧٨]، انتهى.

(ودعوتهم إلى المباهلة على الكاذب) أى قرع أسماعهم بدعوتهم إليها وطلبها منهم كما وقع له صلى الله تعالى عليه وسلم، مع نصارى نجران إذ دعاهم للمباهلة، فأبوا وبذلوا الجزية كما مر.

والمباهلة: الملاعنة من البهل، وهى اللعنة بأن يقول كل منهما: لعنة الله على الظالم والكاذب منا، وقد جرب أن المباهل لا تمضى عليه سنة، وقيل: معناها التضرع والاجتهاد فى الدعاء ويتعدى بعلى، **(فما)** أحد **(منهم)** أى اليهود والنصارى **(إلا من نفر)** أى أعرض وهرب **(عن معارضته)** فيما قرع به أسماعهم وذمهم به، فترك المعارضة لعدم قدرته عليها **(وأبدى)** فاعله ضمير من أفرده نظرًا للفظه وجمعه فى قوله: **(ما ألزمهم)** نظرًا لمعنى من، وفاعل ألزم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقوله: **(من كتبهم)** بيان لما، أى مما ألزمهم به من نصوص كتبهم كقصة الرجم المشهورة **(إظهاره)** مفعول ألزم أى ألزمهم إظهاره إذا كتموه.

(ولو وجدوا خلاف قوله) فى كتبهم **(لكان إظهاره)** اسم كان، وقوله: **(أهون عليهم)** أى أسهل، خبر كان **(من بذل النفوس)** بموحدة وذال معجمة أى إعطائها له بالقتل **(والأموال)** التى غنمها وأخذها منهم قهرًا.

(وتخريب الديار) كما وقع ليهود خيبر وبنى النضير، **(ونبذ القتال)** أى تركه وهو أشفى لغليلهم، يقال: نبذ النواة إذا طرحها.

(وقد قال لهم) جملة حالية أى لليهود لما قرع أسماعهم بقوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، فقالوا: لسنا بأول من حرمت عليه، فقد حرمه على إبراهيم ومن بعده حتى انتهى الأمر إلينا، فقال لهم: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]؛ ليظهر أنها لم تحرم إلا عليكم لظلمكم وبغيكم فأمر بمحاجتهم بما فيها توبيخًا لهم، فلما قال لهم ذلك بهتوا و لم يأتوا ببنت شفة؛ لانقطاع حجتهم وظهور كذبهم كما فى قصة الرجم، وكانوا ادعوا أن لحوم الإبل حرمت على يعقوب وبنيه فى التوراة، فنحن نحرمها، فقال لهم صلى الله تعالى عليه وسلم: إنها لم تحرم عليه، وإنما امتنع يعقوب من أكلها؛ لأنه كان به عرق النسا وهى تضره.

(إلى ما أنذر به الكهان) جمع كاهن، وهو الذى كان يخبر بالأمور قبل وقوعها ويدعى الاطلاع عليها، والإنذار الإعلام بما فيه موعظة وتخويف، وإلى غاية لما تقدم أى انتهى ما ترادف من الأخبار إلى إنذارهم به بقرب زمانه، أو إلى بمعنى مع وكانت الكهان تتلقى ذلك من الشياطين.

(مثل شافع بن كليب) شافع بشين معجمة كاسم الفاعل من الشفاعة، وكليب مصغر كلب، وهو كاهن من كهان العرب أخبر تبعًا بخبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وبمهاجرته إلى المدينة كما تقدم بيانه، وقال الحافظ ومن تبعه: لا أعرفه.

(وشق وسطيح) وهما كاهنان من كهان العرب، وشق بكسر الشين المعجمة، هو شق بن صعب بن يشكر وجده الأعلى ربيعة بن أنمار، وكان بيد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة، وكانت العرب تأتيه فيخبرهم بما سيأتى، وسطيح بفتح السين وكسر الطاء المهملتين ومثناة تحتية ساكنة وحاء مهملة وهو ابن ربيعة بن مسعود بن مازن بن غسان، قيل: إن جسده كان لا عظم فيه غير جمجمة رأسه، فكان يدرج كالثوب، فإذا

غضب انتفخ، وقيل: إنه عاش ثلاثمائة سنة وقصتهما وذكرهما للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، لما أرسل كسرى عبد المسيح يسألهما عن رؤيا هالته مذكورة فى السير مشهورة، ولهما قصص كثيرة فى التواريخ وأدركا زمانه صلى الله تعالى عليه وسلم.

(**وسواد بن قارب**) بلفظ السواد ضد البياض، وقارب بزنة اسم فاعل من القرب، وهو سواد الدوسى الصحابى، وكان كاهنًا من كهان العرب له رئى من الجن يأتيه ويخبره بالمغيبات، فبينما هو ذات ليلة إذ أتاه فضربه برجله وقال له: قم يا سواد بن قارب، فاسمع مقالتى إن كنت تعقل: قد بعث رسول من لؤى بن غالب يدعو إلى الله تعالى، عز وجل، وإلى عبادته، ثم أتاه ليالى يقول له مثل مقالته، فركب ناقته وأتى المدينة واجتمع مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وآمن به وأخبره بخبر رؤيته وما قال له من الأشعار، فسر بذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وتفصيله فى السير.

(**وخنافر**) بضم الخاء المعجمة ونون وألف بعدها فاء مكسورة وراء مهملة، وهو كاهن من حمير له رئى من الجن أخبره ببعثة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فأسلم على يد معاذ، رضى الله تعالى عنه، كما يأتى، ولم ير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فهو تابعى، وهو ابن التوأم الحميرى، وله جنية تسمى شصار أو شاصر، وكان عاتيا ذا مال وسعة، فأسلم وحسن أسلامه.

وفى آمالى القالى عن الكلبى قال: كان خنافر بن التوأم الحميرى كاهنًا قد أوتى بسطة فى الجسم وسعة المال وكان عاتيا، فلما وفدت وفود اليمن على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وظهر الإسلام أغار على إبل لمراد، فلحق بأهله وبها الشجر، فخالف بها جودان، وهو سيد منيع ونزل عنده بواد مخصب، وكان له رئى فى الجاهلية لا يكاد يغيب عنه، فلما فشى الإسلام فقده مدة حتى ساءه ذلك، فبينا هو بذلك الوادى هوى عليه هوى العقاب وناداه خنافر فقال: شصار قال: أقل قال: قل أسمع فقال: ع تغنم لكل مدة نهاية وكل ذى أمد إلى غاية، قلت: أجل، قال: كل ذى دولة إلى أجل ثم يتاح له حول انتسجت النحل ورجعت إلى حقائقها الملل إنك بخير موصول والنصح لك مبذول إنى لست بأرض الشام نفرا من آل العرام حكاما يزبرون ذا رونق من الكلام ليس بالشعر المؤلف ولا السجع المتكلف، فأصغيت فزجرت فعاودت فطلعت، فقلت: بم تهيمون وإلى من تقرعون؟ قالوا: خطابا كبار جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا شصار أصدق الأخبار واسلك أوضح الآثار تنج من أوار النار، قلت: وما هذا الكلام؟ قال: فرقان بين الكفر والإيمان رسول من مضر من أهل المدر انبعث فظهر فجاء بقول قد بهر وأوضح نهجا قد دثر ومواعظ لمن اعتبر ومعاذا لمن ازدجر ألف بالآى الكبر قلت: ومن

هذا المبعوث من مضر؟ قال: أحمد خير البشر فإن آمنت أعطيت البشر وإن خالفت أصليت سقر، فآمنت يا خنافر وأقبلت إليك أبادر، فجانب كل نجس كافر وشائع كل مؤمن طاهر وإلا فهو الفراق عن لا تلاق، قلت: من أين أبغى هذا الدين؟ قال: من ذات الآخرين والنفر الميامين أهل الماء والطين، قلت: أوضح، قال: الحق بيثرب ذات النخل والحرة ذات النعل، فهناك أهل الطول والفضل والمواساة والبذل، ثم أملس عنى فنمت مذعورًا لداعى الصباح، فلما فرق لى النور امتطيت راحلتى وأذنت عبدى واحتملت بأهلى حتى وردت الجوف، فرددت الإبل على أربابها بحولها وأسقائها، وأقبلت أريد صنعاء فأصبت بها معاذ بن جبل أمير رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فبايعته على الإسلام، وعلمنى سورًا من القرآن، فمن الله تعالى على بالهدى بعد الضلالة والعلم بعد الجهالة، ثم ذكر له شعرًا وشرح ما فى الخبر من اللغة، فإن أردته فارجع إليه وفيما ذكرنا كفاية.

(وأفعى نجران) هو ملك من ملوك نجران كان كاهنًا، وهو الأفعى ابن الأفعى الجرهمى، فعن عاصم بن عمر بن قتادة قال: قدم شيخ من صداء على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ومعه أربعون رجلاً يحفون به، فقال: يا رسول الله حزفت ودردرت وشمطت، ثم رجع ذلك فاسود شعرى وثار عقلى، ونبتت أسنانى، وهو لا ولدى لصلبى وخلفهم من نسلهم أضعافهم، وقد سمعت أفعى نجران يذكر فى غابر الزمان أنه سيبعث نبى من صفته أن له خاتمًا يسطع نوره بينكتفيه يبعث بمكة ويهاجر إلى طيبة، فبالذى فضلك بالرسالة وإيضاح الدلالة ألا كشفت لى عن خاتم نبوتك، فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال: حفظت على طول العهد وإن فيك لمعتبرا، ثم كشف له عن خاتم النبوة فأكب عليه يقبله وأفعى نجران هذا هو الذى حكم بين أولاد نزار لما تشاحوا فى ميراث أبيهم، وهم مضر وربيعة وأنمار وإياد، وقال: يا مضر أنت أبو النبى التهامى، فإنا نجد فى الآثار أنه من ولد نزار بن معد بن عدنان، وإنى لأرى للنبوة بين عينيك نورًا وأجلسه على سرير ملكه وجلس تحته، وهذا ما أشار إليه المصنف، رحمه الله تعالى، والشراح كلهم لم يقفوا عليه.

(وجذل بن جذل الكندى) قال الحافظ الحلبى: لا أعرفه وتبعه غيره من الشراح، وهو كاهن من كهان العرب أخبر بمبعثه صلى الله تعالى عليه وسلم، قديمًا، ولم نر تفصيل قصته إلا أن التلمسانى قال: جذل بكسر الجيم وسكون الذال المعجمة ولام، وقيل: إنه بجيم ودال مهملة مفتوحتين من كندة، وهى قبيلة معروفة لما ولدته أمه التمست ذكره، فلم تجده من شدة البرد فظنته جارية فطرحته، وزوجها فى سكرات الموت فاشتغلت بموته، ثم ذكرت بعد ثلاث رؤيا بشرت فيها بولد ذكر تسميه باسم أبيه، فقامت وهى

تظن أنه مات، فوجدت كلبة ترضعه فحملته وسمته باسم أبيه.

(وابن خلصة الدوسى) بخاء معجمة ولام وصاد مهملة مفتوحات، هو كاهن من كهان العرب بشر بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يذكروا له ترجمة، ودوس بفتح الدال المهملة قبيلة معروفة، وقال فى الخصائص الكبرى نقلاً عن الهواتف عن مرداس بن قيس الدوسى قال: ذكرت الكهانة عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله: كانت عندنا جارية يقال لها: خلصة لم نعلم عليها إلا خيرًا فخانتا، فقالت: يا معشر دوس هل علمتم لى إلا خيرًا؟ قلنا: وما ذاك؟ قالت: إنى لفى غنمى إذا غشيتنى ظلمة فوجدت كحس الرجل مع المرأة فحبلت، فلما دنت الولادة وضعت غلاما أعصف له أذنان كأذنى الكلب، فمكث فينا وكان لا يقول شيئًا، فلما كان مبعثك صار يكذب، فقلنا له: ما هذا قال: ما أدرى كذبنى الذى كان يصدقنى اسجنونى فى بيتى ثلاثًا، ثم ائتونى ففعلنا وفتحنا عنه فإذا هو كأنه جمرة نار، فقال: يا معشر دوس حرست السماء وخرج خير الأنبياء، فقلنا: من أين؟ قال: بمكة وأنا ميت فادفنونى برأس جبل فإنى سأضطرم نارًا، فإذا رأيتم ذلك فاقذفونى بثلاثة أحجار قولوا مع كل حجر: باسمك اللهم فإنى أهدى وأطفى، ففعلنا ذلك وأقمنا حتى قدم علينا الحاج، فأخبر بمبعثك يا رسول الله، انتهى.

ومنه تعلم أن الشراح لعدم وقوفهم على قصتها ظنوها كاهنًا ذكرًا، وإنما هى كاهنة فاعرفه فإن خلصة امرأة والكاهن ابنها.

(وسعدى بنت كريز) بضم الكاف العربية وبالراء المهملة وآخره زاء معجمة وفى النسخ هنا اختلاف، والصحيح ما ذكرناه وهى خالة عثمان بن عفان أخت أمه، كانت فى الجاهلية لها علم وكهانة، فأخبرت عثمان ببعثة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وتزوجه بابنته رقية فصدقها، وكان ذلك سبب إسلامه فلما أسلم كانت تنشد:

هدى الله عثمانا بقولى إلى التى ... بها رشده والله يهدى إلى الحق

وفى بعض النسخ سعد ابن بنت كريز.

(وفاطمة بنت النعمان) قال التلمسانى: هى فاطمة بنت النعمان البخارية كان لها تابع من الجن، وكان إذا جاء اقتحم عليها، فلما بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، أتاها وقعد على حائط الدار، فقالت له: لم لا تدخل؟ فقال: قد بعث نبى يحرم الزنا، فكان ذلك أول ما سمع بذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، بالمدينة، وكانت فى الجاهلية عالمة كاهنة، ونعمان بضم النون هو نعمان بن قراد وقيل: هو على بن نعمان بن قراد، وروى عن ابن عمر وغيره، فهو تابعى ونعمان اسم موضع واسم الدم أيضًا.

(ومن لا ينعد كثرة) وفى نسخة ينعد مطاوع يعد أى لا يعد لكثرته، لا لعدم اعتباره مضمومًا أو منتهيًا **(إلى ما ظهر على ألسنة الأصنام)** الظاهر أنه استعارة تمثيلية شبهها فى ظهور صوت شخص تكلم بكلام، وقيل: هذا لا يصح لأنه على مذهب الجبائى الذى يشترط الآلة المخصوصة للنطق، ونحن لا نشترط إلا الحياة فالصواب كلام الأصنام أو نطق الأصنام إلا لأن يراد باللسان الكلام، وليس بشىء لما علمت من أنه استعارة وهو تغيير فى وجوه الحسان.

وقد ذكر ابن إسحاق وغيره كثيرًا مما سمعه المشركون من أجواف أصنامهم يقول: إن أمرهم بطل بظهور الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، ويأمرهم باتباعه، وأن الباطل بطل وقد جاء الحق.

(من نبوته) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وحلول وقت رسالته)**، ومن بيانية لما كصنم كان لمازن الطائى قرب له يومًا قربانًا، فسمعه يقول: يا مازن أقبل إلى أقبل، تسمع ما لا تجهل، هذا نبى مرسل، جاء بحق منزل، آمن به كى تعدل، عن حر نار تشعل، إلى آخر ما فى السير من أنه سمعه منه مرارًا فكسره ورحل إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ونظائره كثيرة، وكانت الشياطين هى التى تسمعهم الكلام من غير أن يروهم.

(وسمع) مبنى للمفعول معطوف على ظهر **(من هواتف الجن)** وفى نسخة الجان، وهما بمعنى وقد فرق بينهما بأن الجان أبو الجن، والجن الجنس كله، والهواتف جمع هاتف من الهتف وهو الصوت العالى مطلقًا، ثم خص بصوت يسمع ممن لا يرى شخصه من صرخ، ولذا خص بالجن عند العرب، وكانت عند مبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، كثر ذلك، وللخرائطى كتاب الهواتف جمع فيه ذلك، فكانت تلك الهواتف تخبر ببعض أحواله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذه آية عظيمة من آياته، وظهور بيناته كسماع ذياب بن الحارث هاتفًا يقول: يا ذياب يا ذياب، اسمع العجاب، بعث محمد بالكتاب، يدعو فلا يجاب، وسماع ابن قرة الغطفانى هاتفًا يقول: جاء حق فسطع، وذم باطل فانقمع، وسماع قريش هاتفًا يخبر بنزوله صلى الله تعالى عليه وسلم، على أم معبد، إلى غير ذلك، فكل الكون ألسنة تنطق تخبر به وتدل على علو منزلته، ولكن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء والصوفية يسمون الواردات الإلهية هاتفًا، كما مر.

(ومن ذبائح النصب) أى ما سمع منها إذ قربت للذبح، والذبائح جمع ذبيحة وهى ما يذبح من بقر ونحوه، والنصب بضمتين جمع نصب بفتح فسكون وهو ما ينصب من الحجارة والأصنام للعبادة، وهو مثل ما سمع عمر، رضى الله تعالى عنه، من عجل قربه رجل ليذبحه قربانًا لصنم، فقال: يا آل ذريح، أمر نجيح، رجل فصيح، يقول: لا إله إلا

الله.... إلى آخر ما رووه.

(وأجواف الصور) أى ما سمع من الأصنام التى كانوا يصوورونها، فهو جمع صورة بمعنى جثة مصورة وهى التمثال، والأجواف جمع جوف وهو داخل كل شيء.

(وما وجد من اسم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، مكتوبًا فى الحجارة والقبور) أى وعلى القبور **(بالخط القديم)** المتقادم عهد كتابته.

(والشهادة له بالرسالة) بذكر اسمه وأنه نبى مرسل من الله تعالى **(ما أكثره مشهور)** بين الناس وما الثانية بدل من الأولى أو خبر والأولى مبتدأ وهما موصولتان، وقد نقله ثقات المؤرخين فى قصص لا تحصى، ومكتوب روى مرفوعًا خبر مبتدأ محذوف ومنصوبًا مفعول ثان لوجد، والخبر مقدر أى ثابت، وقد تقدم أنه وجد بخط عبرانى على بعض الحجارة: محمد نقى مصلح أمين وأن فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]، عن ابن عباس أنه لوح من ذهب مكتوب فيه عجبًا لمن أيقن بالقدر كيف ينصب، وعجبا لمن أيقن بالنار كيف يضحك، وعجبًا لمن يرى الدنيا وتقلبها كيف يطمئن إليها، أنا الله لا إله إلا أنا محمد عبدى ورسولى، وتقدم شرح ذلك كله بما فيه الكفاية.

(وإسلام من أسلم بسبب ذلك) أى بسبب ما رآه من الكتابة القديمة، والمراد أنها بغير اللسان العربى وهو مما يدل على صدق ما كتب فاعرفه **(معلوم مذكور)** فى السير والتواريخ.

* * *

[فصل فيما ظهر من الآيات عند مولده ﷺ]

(فصل ومن ذلك) أى مما يدل على نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم ورسالته **(ما ظهر من الآيات)** أى العلامات أو الأدلة **(عند مولده)** أى ولادته صلى الله تعالى عليه وسلم، فهو مصدر ميمى، **(وما حكته أمه)** آمنة بنت وهب وهى أشهر من أن تذكر، **(ومن حضره)** ولادته **(من العجائب)** قيل: أخر هذا الفصل، وكان ينبغى تقديمه؛ لأنه أول أحواله لتقدم المعجزات بحسب الشرف، ويأباه أنه ذكر فيه ما يتعلق بوفاته صلى الله تعالى عليه وسلم، وهى متأخرة، فهو ناظر لذلك أو لأنه لا يختص بزمان وهو كالإجمال لما قدمه والفذلكة تؤخر.

والعجائب وما معه إشارة إلى ما رواه أبو نعيم عن ابن عباس من أن أمه صلى الله تعالى عليه وسلم، لما حملت به أتاها آت فى منامها بعد ستة أشهر وقال لها: آمنة إنك حملت بخير العالمين، فإذا ولدتيه فسميه محمدًا واكتمى شأنك، فلما أخذنى ما يأخذ

النساء لم يعلم بى أحد وإنى لوحيدة فى منزلى فى طرفه، فسمعت وجبة عظيمة وأمرًا عظيمًا هالنى، فرأيت كأن جناح طائر أبيض قد مسح على فؤادى، فذهب عنى الرعب وكل ما أجد، ثم التفت فإذا نور غالب ونسوة طوال حولى، فقلت: من أين علمن بى وفى رواية أنهن قلن: نحن آسية امراة فرعون ومريم ابنت عمران، وهؤلاء من الحور العين، فبينا أنا كذلك وإذا أنا بديباج أبيض بين السماء والأرض، وقائل يقول: خذاه عن أعين الناس، ورجال فى الهواء بأيديهم أباريق من فضة وقطعة من الطير مناقيرها من زمرد وأجنحتها من الياقوت، فكشف الله عن بصرى فرأيت مشارق الأرض ومغاربها، فرأيت علما بالمشرق وعلما بالمغرب، فوضعته صلى الله تعالى عليه وسلم، وكانت قريش مجدبة فأخصبت إلى غير ذلك مما ذكروه.

وقال ابن الجوزى فى تلقيح الكفر: اتفقوا على أنه ولد يوم الاثنين فى شهر ربيع الأول عام الفيل، واختلفوا فيما مضى منه على أربعة أقوال، فقيل: لثنتين خلتا منه، وقيل: لثمان، وقيل: لعشر، وقيل: لاثنتى عشرة خلت منه، ومات أبوه وهو ابن خمس وعشرين سنة ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، حمل، وقيل: ابن سبعة أشهر، وقيل: ابن ثمانية وعشرين شهرًا، والأول أصح.

(وكونه رافعًا رأسه عندما وضعته) أى رفعه نحو السماء كما ذكره البيهقى **(شاخصًا ببصره إلى السماء)**، قال الراغب: شخص من بلده ذهب، وشخص سمعه وبصره، وأشخصه صاحبه، وقوله: ﴿شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ﴾ [الأنبياء: ٩٧]، أى أجفانهم لا تطرف انتهى.

وقوله إلى السماء تنازعه رافعًا وشاخصًا، وهذا إشارة إلى تعلقه صلى الله تعالى عليه وسلم، بالملأ الأعلى وتوجهه لذلك من أول أمره كما قال البوصيرى[1]:

رافعًا رأسه وفى ذلك الرفـ ... ـع إلى كل سؤدد إيماء
رافعًا طرفه إلى السماء ومرمى ... عين من شأنه العلو العلاء

وروى أنه خرج معه نور أضاء له المشرق والمغرب، وروى أنه ولد وأصابعه مقبوضة مشيرًا بالسبابة كالمسبح.

(وما رأته) أمه كما رواه أحمد والبيهقى **(من النور الذى خرج معه عند ولادته)**، وحديث النور الذى خرج معه أضاء له جميع الأرض رواه جماعة وصححه ابن حبان والحاكم.

وعن إسحاق بن عبد الله أن أمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قالت لما ولدته: خرج

(١) البيتان من الخفيف، وهما للبوصيرى فى ديوانه (ص١٠).

من فرجى نور أضاء له قصور الشام، وتقدم فى كلام المصنف عن أمه أنها قالت: فولدته نظيفًا ما به قذر، قال أبو شامة: كان أمر هذا النور اشتهر ذكره فى قريش وإليه أشار العباس كما مر بقوله:

وأنت لما ولدت أشرقت الأر ... ض وضاءت بنورك الأفق

إلى آخره وقال حسان، رضى الله تعالى عنه:

نورًا أضاء له على البرية كلها ... من يهد للنور المبارك يهتدى

قال ابن رجب، رحمه الله تعالى: وهو إشارة إلى نور هدايته الذى محى ظلمة الشرك كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقوله: وأضاء له قصور الشام خصه؛ لأنه مشرق أنوار النبوة، وهى دار ملكه.

(وما رأته إذ ذاك) أى وقت ولادته **(أم عثمان بن أبى العاص)** أبو عبد الله بن بشير الثقفى، وأمه اسمها فاطمة بنت عبد الله، وعثمان هذا من أكابر الصحابة وله فتوحات وتولى قضاء البصرة، وروى عنها ابنها أنها شهدت مولده صلى الله تعالى عليه وسلم، ورأت ما رأته **(من تدلى النجوم)** التدلى الدنو والقرب كما قاله الراغب، وهو فى الأصل استعارة من الدلو صار حقيقة عرفية فى القرب، **(وظهور النور)** الذى خرج معه كما مر، ويحتمل أنه نور النجوم لقربها **(عند ولادته حتى ما تنظر)** أى أم عثمان المذكورة بتاء المضارعة، ويجوز أن يقرأ بالنون للحاضرين أو الموجودين والأول أولى رواية ودراية **(إلا النور)** أى لا ترى شيئًا غير النور، وهو مبالغة فى قوته وانتشاره فى جميع النواحى، والظاهر أى تدلى النجوم على ظاهره، قال البوصيرى، رحمه الله تعالى[1]:

وتدلت زهر النجوم إليه ... فأضاءت بضوئها الأرجاء

وقيل معنى تدليها سقوطها ولا ينبغى من مثله.

(وقول الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف) الشفاء بشين معجمة مفتوحة وفاء مشددة ومد كما قاله الدلجى، والمعول عليه ما قاله البرهان الحلبى: إنه بكسر الشين والقصر، وهى كما قال الذهبى بنت عوف بن عبد الزهرية من المهاجرين والدة عبد الرحمن وبنت عم أبيه عوف بن الحارث.

وقال السهيلى: إن اسمها يمد أيضًا، وفى الاستيعاب أنها أخت عبد الرحمن بن عوف وحكاه عن الزبير، قال: وقد قيل: إنها أمه.

(لما سقط) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(على يدى)** أى وضعته أمه فنزل على يديها

---

(١) البيت من الخفيف، وهو فى ديوان البوصيرى (ص١٠).

(واستهل) أى عطس لا صاح، وإن كان يقال: استهل الصبى إذا صاح بدليل قولها **(سمعت قائلا)** أى ملكًا **(يقول)** له صلى الله تعالى عليه وسلم، **(رحمك)** أو رحمك ربك أو يرحمك ربك تشميتا له بناء له على أن رحمك بفتح الكاف، وقال التلمسانى: إنه روى بكسرها والظاهر الأول وهو لم يفسره فالخطاب لأمه أو له صلى الله تعالى عليه وسلم، باعتبار النسمة، وتفسير استهل بعطس ذكره الدلجى، ويشهد له قول البوصيرى:

شمتته الأملاك إذ وضعته وشفتنا بقولها الشفاء[1]

إذ القول المذكور لا يقال إلا عند العطاس أى الذى هو التشميت بالشين المعجمة والمهملة، فلذا حمل الاستهلال على العطاس مع تصريحهم بأنه لم يجىء فى شىء من الأحاديث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لما ولد عطس.

وفى الجامع الصغير استهلال الصبى العطاس، فاستهلال المولود له معنيان مجرد رفع الصوت والعطاس، فلذا حمل هنا على العطاس بقرينة الجواب الذى لا يقال إلا عند العطاس، وهذا الحديث رواه أبو نعيم فى الدلائل عن عبد الرحمن بن عوف، رضى الله تعالى عنه.

(وأضاء لى ما بين المشرق والمغرب حتى نظرت إلى قصور الروم) ولا منافاة بين هذه الرواية وبين رواية قصور بصرى والروم؛ لأنها كانت إذ ذاك بيد الروم، وتتمة الحديث ثم أضجعته فلم أنشب أن غشيتنى ظلمة ورعب وقشعريرة، ثم غبت عنى فسمعت قائلاً يقول: أين ذهب به؟ قال: إلى المشرق، فلم يزل ذلك على بال منى حتى انبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فكنت أول الناس إسلامًا.

وفى الخوارق أمور غريبة من تنكيس أسرة الملوك، وذهاب الحيوانات من المغرب للمشرق للتبشير به صلى الله تعالى عليه وسلم.

وروى كما تقدم فى كلامه أنه ولد مختونًا مسرورًا أى مقطوع السرة، كما تقدم الجزم به فى كلام المصنف، رحمه الله تعالى، بل قال الحاكم فى مستدركه: إنه تواترت به الأخبار، وقال الذهبى: لا أعلم صحته فضلاً عن تواتره، وأجاب بعضهم بأنه أراد بالتواتر الاشتهار فقد جاءت أحاديث كثيرة من ذلك.

قال الحافظ ابن كثير: فمن الحفاظ من صححها ومن ضعفها ومنهم من رآها من الحسان، وتقدم أن هذا الجواب بعيد، وقيل: إنه ختن يوم سابعه وتقدم ما عليه من الكلام.

(وما تعرفت به حليمة) بنت أبى ذؤيب السعدية مرضعته صلى الله تعالى عليه وسلم،

---

(١) البيت من الخفيف، وهو فى ديوان البوصيرى (ص١٠).

وخبرها مشهور، **(وزوجها)** الحارث بن عبد العزى **(ظئراه)** عطف بيان أو بدل من حليمة وزوجها، وهو تثنية ظئر وهو المرضعة فى الأصل وتطلق على الأب من الرضاعة كما هنا، والظئر مشترك معنوى؛ لأنه من ظأر إذا عطف فلا إشكال فى تثنيته فإنه ليس نحو عينين مع أنه مسموع أيضًا **(من بركته)** صلى الله تعالى عليه وسلم، لما أخذته من أمه.

(ودرور لبنها له) أى زيادة خروجه له صلى الله تعالى عليه وسلم، ولأخيه من الرضاعة بعد قلته **(ولبن شارفها)** أى ودرور لبن شارفها، والشارف الناقة المسنة والغالب أن لبنها لا يدر.

(وخصب غنمها) بكسر الخاء أى رعيها فى مكان مخصب فى سنة مجدبة، أو هو مجاز عن سمنها وكثرة لبنها، وكل ذلك ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم، لكونه عندها، وأصل معنى الخصب بكسر الخاء المعجمة المكان الكثير العشب، وأول من أرضعته صلى الله تعالى عليه وسلم، ثويبة جارية أبى لهب، ثم حليمة، رضى الله تعالى عنها، وقد تقدم أن حليمة وفدت على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فأكرمها وبسط لها رداءه لتجلس عليه، وقال ابن عبد البر: إنها أسلمت وأنكره الدمياطى وصنف فيه مغلطاى جزءًا، وله صلى الله تعالى عليه وسلم، إخوة من الرضاعة مفصلة فى السير كما فصل فيها أحوال مرضعته وذهابها به صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى أرض قومها.

(وسرعة شبابه وحسن نشأته) أى سرعة نمو خلقه وقامته، ونشأته ابتداء أمره فى صغره، من نشأ ينشأ فهو ناشئ، وأن حليمة قالت: والله ما بلغ سنية حتى صار غلامًا جفرا.

(وما جرى) أى وقع وحدث فى **(من العجائب)** فى **(ليلة مولده)** أى فى ليلة ولادته مما رواه البيهقى وغيره، وفى نسخة ببلاده وهما بمعنى، وهذا يدل على أنه ولد ليلاً، وهو الذى رواه ابن السكن، رحمه الله تعالى، فى حديث نقلوه، والذى فى مسلم وصححوه أنه ولد نهارًا بعد الفجر وقبل طلوع الشمس، وجمع بينهما بأن تلك الحصة قد تعد ليلاً لقربها منه، وبعضهم يرى أن اليوم من طلوع الشمس، والحاصل أنه لا ينافى ما تقرر من ولادته نهارًا الحديث المتقدم عن أم عثمان بن أبى العاص على تقدير صحته من دلالته على أنه ولد ليلاً، فإن زمان النبوة صالح للخوارق، ويجوز أن يسقط النجوم نهارًا أى فضلاً أن تكاد تسقط سيما إن قلنا: ولد عند الفجر لأن ذلك ملحق بالليل كما تقرر.

(من ارتجاج) أى تحرك واضطرب **(إيوان كسرى)** وهو قصره، ومن الأولى بيان لما والثانية: للعجائب، وقيل بيان لما أيضًا وفيه نظر، وكسرى تقدم أنه بكسر الكاف

وفتحها معرب خسرو، وكسرى هذا هو أنوشروان بن قباد، وهو غير كسرى الذى كتب له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فمزق كتابه، فهو أبرويز بن هرمز بن أنوشروان.

وهذا الحديث رواه البيهقى وابن أبى الدنيا وابن السكن، والإيوان الصفة العظيمة والبناء العالى العظيم، وأصله إوّان بتشديد الواو فأبدلت الأولى ياء، وفسر بعضهم الإيوان ببيت الملك العظيم المعد لجلوسه مع وزرائه لفصل الأمور.

(وسقوط شرفاته) جمع شرفة بضمتين كما فى تثقيف اللسان ويجوز سكونها وفتحها كما قاله البرهان جمع شرفة بضمتين أو بضم فسكون بوزن غرفة، وفسرت بأعاليه وإنما هى ما يبنى على أعلى الحائط منفصلاً بعضه من بعض على هيئة معروفة، وله شرفات كثيرة فسقط منها أربعة عشر بعدد من ملك من أولاده بعد ظهور الإسلام، وانقضت مدتهم فى زمان قليل، وإطلاق شرفات على ما ذكر لاستواء القلة والكثرة فيه، لإضافته أو لأنه لا جمع له سواه، أو لأنه يجوز استعمال كل من الجمعين فى معنى الآخر.

(وغيض بحيرة طبرية) غيض بفتح الغين المعجمة وسكون الياء التحتية وضاد معجمة مصدر غاض يغيض إذا قل أو ذهب، يقال: غاض الماء وغاضه الله وأغاضه فيتعدى ولا يتعدى، وبحيرة تصغير بحرة وهى البركة الكبيرة التى كثر ماؤها، ويطلق على الأرض الواسعة والمراد الأول، وطبرية بلدة بالشام معروفة من الأرض المقدسة بينها وبين المقدس مرحلتين، وبحيرتها عظيمة الآن.

البرهان قال: المعروف بالغيض بحيرة ساوة اللهم إلا أن يريد عند خروج يأجوج ومأجوج فإن أولهم يشربها ويجىء آخرهم فيقول: كان هاهنا ماء، انتهى.

أقول: ما قاله غير صحيح هنا لأن الكلام فيما حصل عند ولادته صلى الله تعالى عليه وسلم، من الآيات والعجب مما تابعه على هذا مع ظهوره، وساوة بلدة أخرى بينها وبين الرى اثنان وعشرون فرسخًا، والجواب الحق أن المراد بحيرة طبرية وطولها ستة أميال وكذا عرضها، وقد روى الحديث البيهقى، وابن أبى الدنيا، وابن السكن كما نقله السيوطى وغيره، فالمعترض لم يقف على هذه الرواية، فلعل ماءها نقص نقصًا لا ينقص مثله فى زمان طويل، أو غار ماؤها ثم عاد بعد ذلك؛ لما فيها من العيون النابعة التى تمدها الأمطار، وقد علمت أن بحيرة تصغير بحرة لا بحر، والتاء زائدة كما قيل وهى ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث وليست التاء مزيدة فيها بعد العلمية، كذى الثدية لتأويلها بالبقعة، وهى تكلف لا داعى له.

(وخمود نار فارس) بمنع الصرف لأنه علم أعجمى، وفارس إقليم معروف هو وأهله،

فكأن ما غاض من الماء فاض على النار فأطفأها، والخمود الانطفاء وكان هذا ليلة مولده صلى الله تعالى عليه وسلم كما تقرر، **(وكان لها)** أى لتلك النار **(ألف عام لم تخمد)**؛ لشدة اشتعالها وكثرة إمدادها دائما وكانوا يعبدونها كما قال ابن هانى:

سجدت إلى النيران أعصرها ومـذ ... شعرت به سجدت لـه نيرانهـا

وقال آخر:

وذاك ليل للنجاة مـن اللظـا ... به لانطفاء النار من كـل موقـد

وقوله: لم تخمد بضم الميم وفتحها لأنه ورد من باب نصر وعلم، وكان كسرى وأتباعه يعبدونها ويرمون فيها المسك والعنبر ونحوه، ولهم بها فتنة عظيمة إذ لم تزل فى تأجج وإن لم تمد، وقصة النار ورؤيا كسرى وقصتها على سطيح مذكورة فى السير مشهورة.

(وأنه) صلى الله تعالى عليه وسلم **(كان)** وهو طفل صغير كما رواه ابن سعد وغيره عن ابن عباس **(إذا أكل مع عمه أبى طالب وآله)** أى أهل بيته، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم عنده فى حضانته بعد عبد المطلب، **(وهو صغير)** جملة حالية **(شبعوا)** من الطعام، **(ورووا)** إذا شربوا لبنًا ونحوه لا ماء، ولذا جعله مأكولا؛ لأنه غذاء ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم مما لا يشبع منه مثلهم لقلته.

(وإذا غاب) أى عنهم، فلم يكن معهم **(فأكلوا)** وحدهم **(فى غيبته)** عنهم **(لم يشبعوا)** وباتوا جياعًا.

(وكان سائر ولد أبى طالب) أى جميعهم أو بقيتهم بعده صلى الله تعالى عليه وسلم منهم تغليبا وأنكر بعضهم ورود سائر بمعنى جميع، ورددناه فى شرح الدرة **(يصبحون)** إذا قاموا من نومهم **(شعثا)** جمع أشعث وهو المغبر المتغير لونه كما هو عادة الأطفال إذا قاموا من نومهم فى مضاجعهم، **(ويصبح صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى يدخل فى وقت الصباح إذا قام من نومه **(صقيلا)** أى رائق اللون غير متغير البشرة، فهو استعارة من المرآة الصقيلة **(دهينا)** أى كأن وجهه دهن بغالية ونحوها مما كانوا يدهنون به حتى تبرق وجوههم **(كحيلا)** أى مكحل العين، وكل ذلك من غير صنع لأحد، وهى منصوبة بيصبح إن كانت ناقصة أو أحوال، وكان أولاد أبى طالب سبعة إذ ذاك عقيل، وجعفر وطالب وعلى، كرم الله وجهه، وأم هانئ وأم طالب وحمامة، وكلهم أسلموا إلا طالبا، فإنه مات كافرًا، وهذا مجاز أو حقيقة، وفسر المدهون بخلاف الأشعث والمصقول بالمستوى الشعر والكحيل بالذى لا رمض بعينيه ولاقذى، وكان أبو طالب يحبه صلى الله تعالى عليه وسلم حبًا شديدًا، ويؤثره على أولاده، فإذا أتى بطعام يقول: لا تأكلوا حتى يأتى ابنى.

وروى فى بعض النسخ **(قالت أم أيمن)** هى بركة بنت محصن بن ثعلبة بن عمرو بن حفص بن مالك بن سلمة بن عمرو بن النعمان مولاة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم **(حاضنته)** أى التى كانت تربيه طفلاً سميت حاضنة؛ لأنها تجعل الولد فى حضنها، وقيل: إنها أرضعته، وهى حبشية، وابنها أيمن بن عبيد الحبشى، وتزوجها زيد ابن حارثة وكانت وصيفة لعبد الله أبيه صلى الله تعالى عليه وسلم، وروى عنها فى الصحيحين وأدركت خلافة عثمان، رضى الله تعالى عنه، كما نقله الذهبى عن الواقدى، وفى مسلم عن الزهرى أنها توفيت بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بخمسة أو ستة أشهر وهو الذى صححه النووى رحمه الله تعالى وخطأ الواقدى فيما قاله، وإنما حضنته لموت أمه آمنة.

(ما رأيته صلى الله تعالى عليه وسلم يشكو جوعًا ولا عطشًا صغيرًا ولا كبيرًا)؛ لأن الله تكفل به فكان يبيت عند ربه يطعمه ويسقيه كما قال تعالى: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ**﴾ [الضحى: ٦]، وحاضنة اسم فاعل مؤنث من الحضن، وليس فعلا من المفاعلة وأنه عدل عن حضنه لحاضنته للإشعار بالفاعلية من جانبه تبركا به كما توهم، وهو خطأ فاحش على عادته.

(ومن ذلك) أى دلائل رسالته المشاهدة عند ولادته **(حراسة السماء بالشهب)** وهى شعل النار المرئية فى نجوم السماء جمع شهاب.

(وقطع رصد الشياطين) أى ترصيدهم وترقبهم لسماع ما تقوله الملائكة فتحفظه وتلقيه للكهنة، هو مصدر ويكون بمعنى راصد وجمعا له، فلذا أطلق على الواحد وغيره والشياطين مردة الجن.

(ومنعهم) أى منع الله لهم **(استراق السمع)** وهو أن يختفى أحد ليسمع كلام من لم يرد سماعه، فكأنه يسرق الكلام الذى سمعه، واعلم أن رمى الشياطين بالشهب لم يحدث فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه كان قبل ذلك أيضًا، ولكنه لما ولد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى زمان كان كثير الكهنة وكانت الجن تخبرهم ببعض المغيبات، فيلقونها للناس، منعهم الله بالكلية حتى لا يلتبس الوحى بغيره، فكثر الرجم بالشهب من جميع النواحى، فبطلت الكهانة ومنع الجن من الاطلاع على المغيبات، ولذا لما رأت قريش كثرة القذف بالنجوم قالوا: قربت الساعة وخراب الدنيا. فقال لهم عتبة بن ربيعة: انظروا إلى العيوق إن كان رمى به فقد آن قيام الساعة، وإلا فلا، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا**﴾ [الجن: ٨] الآية.

وقد روى أن إبليس كان يخترق السموات، فلما ولد عيسى، عليه الصلاة والسلام، حجب عن ثلاث سموات، فلما ولد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم حجب عن جميعها ومنع غيره من القرب منها، والشهاب الذى يرمى به قيل: إنه لا يخطيه ولكنه يحرقه ولا يقتله، وقال الحسن: إنه يقتله، فقد علمت أن رمى الشهب لم يحدث فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم كما توهمه بعضهم، وإنما كثر واشتد فيه، وكانوا فى الجاهلية إذا رأوا شهابًا سقط قالوا: يموت أو يولد عظيم كما ورد فى الحديث.

(و) من دلائل نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم **(ما نشأ عليه)** أى خلقه الله عليه من ابتداء نشأته وطفوليته **(من بغض الأصنام)** وكراهة قربها ومسها، كما روى البيهقى أن زيد بن حارثة مر بصنم فتمسح به، فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم: لا تمسه، ونهاه عن القرب منه كما نهى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، آزر عنها.

(والعفة عن أمور الجاهلية) التى كانوا يرتكبونها، فخلقه الله تعالى مستغفلا عنها لسلامة طبعه كاللهو واللعب وغيره، والعفة حالة للنفس تمنع من غلبة الشهوة والتعفف عن تعاطيها كما قاله الراغب.

(وما خصه الله به من ذلك) فجعل فيه أخلاقًا مرضية وأعمالاً زكية ونفسًا قدسية فصانه، **(وحماه)** قبل بعثته من الصفات الردية **(حتى فى ستره)** بفتح السين المهملة وسكون المثناة الفوقية مصدرا: أى ستر بدنه حتى لا يرى أحد منه صلى الله تعالى عليه وسلم ما لا ينبغى رؤيته كالعورة، فكان لا يتعرى عند أحد، وكانت الجاهلية تفعله حتى كانوا يطوفون عراة أحيانا، وفى نسخة: حتى ستره مجرورًا بحتى، وهو غاية لما قبله من الحماية، وما قيل: إن كان المراد كشف العورة، فهو قبيح عقلاً، وما دونها ليس بقبيح عقلاً وشرعًا، إلا أن يقال: إنه من خصوصياته الدالة على نبوته، أمر لا طائل تحته.

(فى الخبر المشهور) الذى رواه الشيخان عن جابر، والبيهقى، عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، **(عند بناء الكعبة)** أى لما بنتها قريش، ونقلهم الحجارة لبنائها، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم ينقل الحجارة معهم **(إذ أخذ إزاره)** أى ملحفته التى كان مؤتزرًا بها؛ **(ليجعله على عاتقه)**، أى أخذ الإزار ليجعله على كتفه الذى يضع عليه الحجارة حتى لا تؤذيه؛ **(ليحمل عليه)** أى على عاتقه أو إزاره **(الحجارة وتعرى)**، أى انكشف أسفله لنزع الإزار عنه، **(فسقط إلى الأرض)** مغشيا عليه وعينه شاخصة للسماء **(حتى رد إزاره عليه)** وستر عورته، **(فقال له عمه)**، وهو العباس كما صرحوا به: **(ما بالك)** أى ما شأنك وحالك الذى عرض لك حتى سَقَطْتَ **(قال: إنى نهيت)** بالبناء للمجهول **(عن التعرى)** وكشف العورة كغيرى، وكانت قريش بنت الكعبة لسيل أتى

من فوق الردم ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ابن خمس وثلاثين سنة.

قال العباس: فكانوا ينفردون رجلين رجلين ينقلون الحجارة، فكان العباس مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فكانوا يجعلون إزارهم على عواتقهم، فإذا دنوا من الناس لبسوها، فبينما هو كذلك صرع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يستغيث رافعا بصره إلى السماء، فقال له: ما بالك يا ابن أخى. فقال: نهيت أن أمشى عريانا، فكتمها حتى بعثه الله تعالى مخافة أن يقال: إنه مجنون وفى رواية: أن ملكًا مهيبًا ناداه اشدد إزارك، وروى أنه لكمه لكمة شديدة وقيل: وهو أول ما نودى به.

(ومن ذلك) أى مما دل على نبوته فى أول أمره ما رواه الترمذى، والبيهقى، رحمهما الله تعالى، **(إظلال الله تعالى له بالغمام فى سفره)** أى كون غمامة تسير معه صلى الله تعالى عليه وسلم أنى سار تقيه حر الشمس دون غيره من الركب، كما رآه بحيرا لما سافر للشام مع عمه، ورآه ميسرة غلام خديجة لما سافر معه للشام، وخص السفر؛ لأنه محل التأثر من الشمس.

(وفى رواية) لابن سعد **(أن خديجة)** أم المؤمنين **(ونساءها)** أى النساء التى كن معها عند الرؤية، فالإضافة لأدنى ملابسة **(رأينه لما قدم)** لمكة من سفره فى تجارة لها، **(وملكان يظللانه)** أى يمدان أجنحتهما عليه ليكون ظلة له ووقاية من الشمس، **(فذكرت)** خديجة **(ذلك)** أى ما رأته **(لميسرة)** غلامها الذى بعثته معه صلى الله تعالى عليه وسلم، فى سفره، وميسرة بفتح السين وضمها، **(فأخبرها)** ميسرة **(أنه رأى ذلك)** أى كونه مظللا من السماء بالملكين، فلا ينافى أن خديجة رأت تظليل الملائكة وميسرة رأى تظليل الغمام، أو أن الغمام كانت تسوقه ملائكة فجعلت مظللة له كحامل الظلة يسمى مظللا **(منذ خرج معه فى سفره)** إلى الشام أى من أوله إلى آخره.

وهذا الحديث رواه الواقدى عن نفيسة بنت منبه وهى إحدى النساء اللاتى كن مع خديجة فى علية لها ينظرن إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، حين قدم. قال البرهان: لم يذكر ميسرة فى الصحابة، فكأنه مات قبل نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى رؤية خديجة الملائكة كرامة لها، رضى الله تعالى عنها.

(وقد روى) بالبناء للمجهول، والذى رواه الواقدى، وابن سعد، وابن عساكر فى تاريخه عن ابن عباس **(أن حليمة)** بنت أبى ذؤيب السعدية التى أرضعته صلى الله تعالى عليه وسلم، **(رأت غمامة تظله)** وتقيه من حر الشمس، **(وهو)** مقيم **(عندها)** لما أخذته صلى الله تعالى عليه وسلم، لحيها لترضعه.

(وروى ذلك) أى تظليل الغمامة له **(عن أخيه من الرضاعة)** يعنى أنه رآه فى صغره،

ورواه بعد كبره لأنه كان معه، والظاهر أن مراده أنه هو الذى ذكره لأمه وأنها لم تشاهده لأن عبارة الواقدى عن ابن عباس أن حليمة خرجت تطلبه صلى الله تعالى عليه وسلم، فوجدته مع أخيه من الرضاعة، وهو ولدها فقالت: أفى حر الشمس يمكث شفقة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، منها، فقال أخوه: يا أماه ما وجد أخى حرًا رأيت غمامة تظله إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت معه، وهذا يدل على أنه ليس أمرا اتفاقيا، وهل كان هذا دائما أو أحيانا؟ لم ينقل فيه شىء.

وما فى المواهب نقلا عن الزركشى فى شرح البردة عن بعض العارفين أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان مزاجه معتدل الحرارة والبرودة، فلا يحس بالحر ولا بالبرد، فكأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى ظل غمامة من اعتداله قيل عليه: إنه ساقط لأنه يقتضى أن تظليل الغمامة لم يكن حقيقيا محسوسا، وإنما هو على طريق التمثيل.

قلت: إن أراد ذلك فهو وارد عليه، ويحتمل أن يريد أنه لم يدم ذلك، ولم يكن بعد بلوغه سن الاعتدال بعد النبوة لتمام اعتداله المغنى عنه، أو أنه كان غنيا عنه، وإنما هذا تكريم من الله له لم يرد عليه شىء فاعرفه، فإنه لا يخفى مثله على مثله، وقد علمت أن الذى فى نسخ الشفاء كما قاله البرهان عن أخيه مذكر بياء تحتية، والذى فى سيرة ابن سيد الناس أخته بالمثناة الفوقية، فهذا تصحيف أو رواية رواها أيضًا.

(ومن ذلك) أى مما يدل على نبوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا لم يذكروا من رواه من المحدثين **(أنه نزل)** أى قعد فى محل نزل به **(فى بعض أسفاره قبل مبعثه)** مصدر ميمى بمعنى بعثته ونبوته **(تحت شجرة يابسة)** أى ليست مخضرة وليس لها ورق، **(فاعشوشب ما حولها)** من الأرض أى ظهر به عشب لم يكن قبله، واخضرت من ساعتها وافعوعل للمبالغة أى كثر عشبه ونباته، والعشب الكلأ ما دام رطبا، وقدمه لما فيه من المبالغة، **(وأينعت هى)** أى الشجرة، وأبرز الضمير لئلا يتوهم أنه عائد على ما حولها باعتبار أنه أرض، وهى مؤنثة سماعية، ومعنى أينعت ظهر خضرة ورقها وزهرها أو ثمرها، يقال: ينعت الثمرة ينعا وينعا وأينعت إيناعًا إذا نضجت، وقال تعالى: ﴿**ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ**﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقرئ وينعه، وهو جمع يانع وهو المدرك قال الراغب، **(فأشرقت)** أى تمت وعلت أغصانها **(وتدلت عليه)** صلى الله تعالى عليه وسلم، قضبانها لتقيه وتظله **(أغصانها)** جمع غصن وهى أعلاها وفروعها **(بمحضر من رآه)** أى أن من كان عنده شاهد حدوث ذلك وعلم منه ما يدل على كرامته لسرعته.

(و) من ذلك **(ميل فىء الشجرة إليه)** الفىء هو الظل مطلقًا أو بعد الظهيرة؛ لأنه من فاء إذا رجع، والكلام عليه مفصل فى كتب اللغة، وميل الفىء إما وحده أو مع ميل

الشجرة نفسها **(فى الخبر الآخر)** الذى روى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم، فى سفره إلى الشام وقصته مع بحيرا الراهب كما تقدم **(حتى أظلته)** علة أو غاية مقصودة من ميلها، وكان رفقاؤه صلى الله تعالى عليه وسلم، سبقوه فجلسوا فى الفيء، فلما جلس فى الجانب الآخر مالت الشجرة عليه بفيئها، فظللته فرآه الراهب فى قصته التى تقدمت، وكان مع عمه أبى طالب وهو ابن عشر سنين.

(و) من دلائل نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ما ذكر)** بالبناء للمجهول والذى ذكره ابن سبع **(من أنه)** بيان لما الموصولة **(لا ظل لشخصه)** أى لجسده الشريف اللطيف إذا كان **(فى شمس ولا قمر)** مما ترى فيه الظلال لحجب الأجسام ضوء النيرين ونحوهما، وعلل ذلك ابن سبع بقوله؛ **(لأنه)** صلى الله تعالى عليه وسلم، **(كان نورًا)** والأنوار شفافة لطيفة لا تحجب غيرها من الأنوار، فلا ظل لها كما هو مشاهد فى الأنوار الحقيقية، وهذا رواه صاحب الوفاء عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، قال: لم يكن لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ظل ولم يقم مع شمس إلا غلب ضوؤه ضوئها، ولا مع سراج إلا غلب ضوؤه ضوءه، وقد تقدم هذا والكلام عليه ورباعيتنا فيه وهى:

ما جر لظل أحمد أذيال فى الأرض كرامة كما قد قالوا
هذا عجب وكم به من عجب والناس بظله جميعًا قالوا

وقالوا: هذا من القيلولة، وقد نطق القرآن بأنه النور المبين وكونه بشرًا لا ينافيه كما توهم، فإن فهمت فهو نور على نور، فإن النور هو بنفسه المظهر لغيره، وتفصيله فى مشكاة الأنوار للغزالى.

(و) من دلائل نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أن الذباب كان لا يقع على)** ما ظهر من **(جسده ولا)** يقع على **(ثيابه)**، وهذا مما قاله ابن سبع أيضًا إلا أنهم قالوا: لا يعلم من روى هذا، والذباب واحده ذبابة قيل: إنه سمى به لأنه كلما ذب آب، أى كلما طرد رجع، وهذا مما أكرمه الله تعالى به لأنه طهره من جميع الأقذار، وهو مع استقذاره قد يجىء من مستقذر.

قيل: وقد نقل مثله عن ولى الله العارف به الشيخ عبد القادر الجيلانى، ولا بعد فيه لأن معجزات الأنبياء قد تكون كرامة لأولياء أمته وفى رباعية لى:

من أكرم مرسل عظيم حلا لم تدن ذبابة إذا ما حلا
هذا عجب ولم يذق ذو نظر فى الموجودات من حلاه أحلا

وتظرف بعض علماء العجم، فقال: محمد رسول الله ليس فيه حرف منقوط؛ لأن الموجودات النقط تشبه الذباب، فصين اسمه ونعته عنه كما قلت فى مدحه صلى الله

تعالى عليه وسلم:

لقد ذب الذباب فليس يعلو رسول الله محمودًا محمد
ونقط الحرف يحكيه بشكل لذاك الخط عنه قد تجرد

(ومن ذلك) أى من دلائل نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم، فى أول أمره ومنتهاه كما رواه الشيخان **(تحبيب)** الله تعالى بجعله طبيعة له **(الخلوة)** أى الوحدة والانفراد عن الناس للعبادة **(إليه حتى أوحى إليه)** أى أنه كان يفعل ذلك قبل بعثته حتى نزل الوحى عليه تكريمًا له صلى الله تعالى عليه وسلم.

وفى البخارى: ثم حبب إليه الخلاء، أى العزلة عن الناس إذ بها فراغ القلب، والإعانة على التفكر، والانقطاع عن مألوفات النفس، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد فى الليالى ذوات العدد قبل النبوة، فإذا نزل منه طاف بالبيت وذهب لأهله، وخص حراء كما قاله ابن أبى جمرة؛ لأنه كان يتبرك به وينظر منه البيت فيستقبله، وقال: حبب بصيغة المجهول إشارة إلى أنه ليس تقليدًا لغيره، وإنما هو جبلى بإلهام الله تعالى له، وهو من الإرهاصات حتى جاءه الوحي وهو فيه.

(ثم إعلامه) صلى الله تعالى عليه وسلم، أى إعلام الله تعالى له **(بـ)** قرب **(موته ودنو أجله)** أى آخر عمره الذى أجل له وقدر، وهذا مما رواه الشيخان وفهمه صلى الله تعالى عليه وسلم، من قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٨].

وفى الصحيحين: أنه مر على قتلى أحد بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر فقال: إنى بين يديكم فرط وأنا عليكم شهيد، وإن موعدكم الحوض... إلى آخره.

وقوله فى خطبة له: إن عبدًا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده فاختار ما عنده، فبكى أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا فقال عمر: انظروا لهذا الشيخ يقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إن الله تعالى خيره بين زهرة الدنيا وما عنده فاختار ما عنده، فكان الصديق أعلمهم بكلامه صلى الله تعالى عليه وسلم، وأسر بذلك لفاطمة كما تقدم فى الحديث إلى غير ذلك مما لا يحصى.

(و) إعلامه صلى الله تعالى عليه وسلم: **(أن قبره بالمدينة)** كما رواه أبو نعيم عن معقل بن يسار بلفظ: «المدينة مهاجرى ومضجعى من الأرض».

(و) أن قبره **(فى بيته)** فقبره صلى الله تعالى عليه وسلم فى مسكنه وكذا كان لكثير من الأنبياء، عليهم السلام، إشارة إلى أنهم أحياء عند ربهم يرزقون **(وأن بين بيته ومنبره روضة من رياض الجنة)** كما سيأتى يعنى أنها تنقل وتجعل روضة فى الجنة، أو أن العمل

فيها موجب لصاحبه روضة من رياض الجنة، وقال ابن أبى جمرة: الأظـهر إرادة المعنيين والجمع بينهما معا إذ لا مانع منه، ومن لم يعرف هذا قال: لابد من تأويله باعتبار القرب من أقرب الخلق إلى الله، ومن قرب منه كالجالس فى رياض الجنة لتنزل الرحمات، وتلذذه بالمشاهدات، كما يقال: اللهم اجعل قبر فلان روضة من رياض الجنة.

(وتخيير الله له عند موته) أى لما قرب موته خـيره الله بـين البقـاء فـى الدنيـا والرحيـل للآخرة كما سمعته آنفًا، ورواه البيهقى فى دلائله وعن عائشـة، رضـى الله تعـالى عنـها، كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فى صحته يقول: «لم يقبض نبـى قـط حتـى يرى مقعده فى الجنة ويخير»، فلما اشتكى صلى الله تعالى عليه وسلم، غشـى عليـه فلمـا أفاق شخص بصره لسقف البيت، وقال: اللهم الرفيق الأعلى، فقالت: لا يختارنا وعرفت أنه خير وفهمت ما فهم أبوها، رضى الله تعـالى عنـهما[1]، وهـو حديـث صحيـح رواه أحمد فى مسنده وغيره، وقد صرح به رسـول الله صلـى الله تعـالى عليـه وسـلم، فقـال: أوتيت مفاتيح خزائن الأرض، وخيرت بين الخلد فيها ثـم الجنـة واخـترت إلى آخـره مما يطول ذكره.

(وما اشتمل عليه حديث الوفاة) أى وفاته صلى الله تعالى عليه وسـلم، وهـو حديـث طويل رواه الشافعى، والبيهقى فى سننه **(من كراماته)** التى أكرمه الله تعالى بها عند موته كسماع بكاء الملائكة، وسماع صوت من السماء ينادى وامحمداه... الحديث.

وقول جبريل له، صلى الله تعالى عليه وسلم: إن الله يقرؤك السلام ويقول لـك وهـو أعلم: كيف تجدك؟ إلى غير ذلك.

(وتشريفه) بما مر وغيره.

(وصلاة الملائكة على جسده)، وفى نسخة عليه، وكان إقحام الجسد هنا لأن الصلاة معناها الدعاء، وروحه صلى الله تعالى عليه وسلم، غير محتاجة لذلـك، أو لنكتـة أخـرى قيـل: هـى أن الصـلاة علـى جسـده وروحـه مستمرة دائمًـا؛ لقولـه تعـالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ﴾ [الأحزاب: ٥٦]... الآية.

(على ما رويناه فى بعضها) أى فى بعض طرق حديث الوفاة، وهو ما روى عـن ابـن عباس، رضى الله عنه، أنه لما هاجر، صلى الله تعالى عليه وسلم، يوم الثلاثاء وضـع علـى سريره فى بيته، فصلت عليه الملائكة فوجًا فوجًا، ثم الناس فوجًا فوجًـا، ثـم نسـاؤه ثـم النساء، ثم الصبيان، و لم يؤمهم أحد، وكان صلى الله تعالى عليه وسـلم، أوصـى بذلـك وذلك لعظم أمره، ولئلا يتنافسون فى الإمامة والخلافة؛ لأن الخليفة يستحقها، ومن زعم

---

(١) تقدم تخريجه.

أن المراد بالصلاة مجرد الدعاء دون صلاة الجنازة لم يأت بشيء، وكونه لم يؤمهم أحد ذكره الإمام الشافعي، رضى الله تعالى عنه، فى الأم وغيره وصححوه، وحكمة ما ذكر ولم يدع له صلى الله تعالى عليه وسلم، بدعاء الجنازة المشهور كما ذكره السهيلى، بل قالوا: إنا نشهد أنك بلغت الأمانة ونصحت الأمة إلى آخره ما ذكره، والحديث بطوله مذكور فى كثير من كتب الحديث تركناه لطوله.

(**واستئذان ملك الموت عليه**) أى طلبه الإذن منه فى قبض روحه الشريف إن أراد أو تركه حيا.

(**ولم يستأذن على غيره**) نبيًا أو غيره (**قبله**) روى أن جبريل قال له، صلى الله تعالى عليه وسلم: إن ملك الموت بالباب يستأذن عليك، ولم يستأذن على أحد قبلك ولا بعدك، فقال: السلام عليك يا محمد إن ربى أمرنى أن أطيعك فيما أمرتنى به إن أقبض نفسك قبضتها وإن أتركها تركتها، فقال: اقبض يا ملك الموت كما أمرت، فقال جبريل: السلام عليك يا رسول الله هذا آخر موطىء من الأرض.

(**وندائهم**) أى نداء الملائكة لهم (**الذى سمعوه**) ولم يروا من ينادى (**أن لا**) أى بأن لا إلى آخره فأن مصدرية ولا نافية (**تنزعوا القميص عنه**) أى قميصه الذى عليه لما أرادوا نزعه (**عند غسله**) بضم الغين، ويجوز فتحها إشارة لما فى حديث أبى داود، والبيهقى الصحيح عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، أنهم لما أرادوا غسله صلى الله تعالى عليه وسلم، قالوا: لا ندرى أنجرده من ثيابه كسائر موتانا أم نغسله وعليه ثيابه، واختلفوا فغشيهم النوم، فإذا قائل من ناحية البيت لا يرونه: اغسلوه فى ثيابه، فغسلوه وعليه قميصه يصبون الماء فوق القميص، ويدلكونه بالقميص، وهو من جملة حديث الوفاة، وهذا تكريم له بإجرائه على عادته، فإنه صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، كان لا يتجرد عند أحد، وإشارة إلى أن تغسيله ليس للاحتياج إليه، وإنما هو إجراء لسنته وكفن فى ثلاثة أثواب يمنية سحولية.

(**وما روى من تعزية الخضر، عليه الصلاة والسلام**)، كما رواه البيهقى فى دلائله يشير إلى ما روى عن على، كرم الله تعالى وجهه، ورضى الله عنه، أنه قال: لما توفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، سمعوا صوتًا ولم يروا شخصًا وهو يقول: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وإن فى الله عز وجل لعزاء من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت، فبالله فثقوا وإياه فارجوا، واعلموا أن المصاب من حرم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فكانوا يرون أنه الخضر، عليه السلام، كما

رواه البيهقى، وابن أبى حاتم، وقال فى مرآة الزمان: المعزى هو جبريل لا الخضر، ورواه العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء بلفظ: «إن فى الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل مخافة، فالله فارجوا وبه فثقوا»، وسمعوا آخر بعده يقول: إن فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضًا من كل رغبة، فالله فأطيعوا، وبأمره فاعملوا، فقال أبو بكر، رضى الله عنه: هذا الخضر واليسع ولم أجد فى رواية ذكر اليسع، وإنما ذكر الخضر فى التعزية، فقد أنكر النووى وجوده فى كتب الحديث، وإنما ذكره الأصحاب، **قلت**: بل رواه الحاكم فى المستدرك من حديث أنس ولم يصححه، ولا يصح.

ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب العزاء قال: لما قبض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، اجتمع أصحابه حوله يبكون، فدخل عليهم رجل طويل شعر المنكبين فى إزار ورداء، فتخطى الصحابة حتى أخذ بعضادتى الباب وبكى، ثم قال: إن فى الله عزاء من كل مصيبة، وعوضًا من كل من مات، وخلفا من كل هالك، فإلى الله فانتهوا ولصرف الله البلاء فانظروا، فإن المصاب من حرم الثواب، فقال أبو بكر: لعل هذا الخضر أخو نبينا جاء يعزينا، رواه الطبرانى فى الأوسط وإسناده ضعيف جدًا وابن أبى الدنيا عن على بسند واه أيضًا، وذكره الشافعى فى الأم من غير ذكر الخضر، انتهى.

وإنما قال الحاكم وغيره: إنه غير صحيح لحديث: «إنه لا يبقى على وجه الأرض ممن هو عليها أحد على رأس مائة سنة من تلك الليلة»[1]، وأراد به انخرام كل أحد فيشمل الخضر وغيره، يعنى به إنكار وجوده، وسئل عنه ابن حجر، رحمه الله تعالى، فقال: سنده ضعيف ولو قدر ثبوته لم يخالف الحديث المذكور؛ لأنه يخص من عمومه إن صح ما ينقل عن بعض الصالحين من اجتماعه بالخضر، إلا أنّا لم نجد خبرًا صحيحًا يقتضى أنه صاحب موسى، عليه الصلاة والسلام، والعلم عند الله.

والحاصل أنهم قد اختلفوا فى وجوده، فالصوفية يثبتون وجوده، وأن منهم من رآه والمحدثون ينكرونه، وبعضهم توقف فيه كابن حجر، ومنهم من شدد النكير على من أثبت حياته كصاحب مرآة الزمان حتى صنف فى إبطاله كتابًا مستقلاً سماه: «عجالة المنتظر فى شرح حال الخضر»، ولكنا لا ننكر ما قاله المشايخ، واختلفوا فيه هل هو نبى، أو ملك، أو عبد صالح من أولياء الله تعالى أطال الله تعالى عمره، وجعل مرجع الأولياء والأقطاب إليه؟ وما مر من أنه لم ير شخصه يقتضى أنه ملك.

وقوله: **(والملائكة)** بالجر عطف على الخضر يشير لما قلناه.

(أهل بيته) مفعول التعزية، وهى الإرشاد للصبر والتسلية عند المصيبة، واعلم أنه ليس

(١) أخرجه ابن الجوزى فى زاد المسير (١٦٨/٥).

الخلاف فى وجود الخضر صاحب موسى، عليه الصلاة والسلام، إنما هو فى كونه عاش إلى زمن النبوة وإلى الآن، **(إلى ما ظهر على أصحابه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإلى هذه متعلقة بمقدر أى مضمومًا ما ذكر من أول الفصل إلى هنا، أو منتهيًا وهو كما يقوله المصنفون، رحمه الله تعالى، إلى آخره إشارة إلى أنه ترك أمورًا كثيرة من جنس ما ذكر، والمراد بظهورها عليهم أن شرف صحبته صلى الله تعالى عليه وسلم، أثر فيهم حتى ظهرت منهم أمور تشابه ما ظهر منه ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم، **(من كرامته وبركته)** أى من مثل ذلك **(فى حياته وموته)**: أى وبعد موته.

(كاستسقاء عمر) بن الخطاب، رضى الله عنه، **(بعمه)** العباس، رضى الله عنه، ابن عبد المطلب أى تقديمه فى دعاء الاستسقاء كما رواه البخارى، وتفسير عمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالعباس وإن كان له أعمام غيره؛ لأنه لم يعش بعده صلى الله تعالى عليه وسلم، منهم غير العباس، وقد صرح به فى الحديث، وأعمامه: أبو طالب والزبير، وعبد الكعبة، وحمزة، والقدم، وحجل، واسمه المغيرة، والعوام، وضرار، والحارث، وهو أكبرهم وقسم مات صغيرًا، وأبو لهب واسمه عبد العزى، والغيداق، واسمه مصعب أو نوفل، فهم ثلاثة عشر ولم يسلم منهم غير حمزة والعباس، وجعل بعضهم الغيداق وحجل واحدًا فعدهم اثنى عشر، وأسقط بعضهم العوام وعبد الكعبة فعدهم أحد عشر، وبعضهم عدهم سبعة، وبعضهم عشرة لإسقاط بعضهم.

وحاصل ما أشار إليه أنه كان فى زمن عمر، رضى الله تعالى عنه، إذا وقع قحط استسقى بالعباس، رضى الله تعالى عنه، فوقع قحط شديد فى خلافته عام الرمادة سنة سبع عشرة، فقال كعب: يا أمير المؤمنين إن بنى إسرائيل كانوا إذا حصل لهم مثل هذا استسقوا بعصبة الأنبياء، فقال عمر: هذا عم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، صنو أبيه وسيد بنى هاشم، ثم صعد المنبر ومعه العباس وقال: اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك ونستشفع به أتيناك مستغفرين متشفعين، ثم أقبل على الناس وقال: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ إلى قوله: ﴿أَنْهَـٰرًا﴾، ثم قام العباس، رضى الله تعالى عنه، وعيناه تنضحان، فقال: اللهم إن عندك سحابًا وعندك ماء، فانشر السحاب ثم أنزل الماء منه علينا، فاشدد به الأصل وصل به الفرع وأدر به الضرع، اللهم إنك لم تنزل بلاء إلا بذنب ولم تكشفه إلا بتوبة، وقد توجه القوم بى إليك فاسقنا اللهم الغيث، وشفعنا فى أنفسنا وأهلينا، وفيمن لا ينطق من بهائمنا وأنعامنا، اللهم اسقنا سقيا وادعا نافعًا طبقًا سحا عاما، اللهم إنا لا نرجو إلا إياك، ولا ندعوا غيرك ولا نرغب إلا إليك، اللهم إليك نشكو جوع كل جائع وعرى كل عار وخوف وضعف كل ضعيف، اللهم أنت الراعى لا تهمل الضالة ولا تدع الكسير بدار مضيعة، فقد ضرع الصغير ورق

الكبير وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السر وأخفى، اللهم وأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا، فإنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون، فلم يستتم دعاءه حتى نشأت سحابة فقال الناس: ترون ترون، ثم تلامت ومشت وانتشرت، ثم درت وأرخت عزاليها كأفواه القرب، فما برحوا حتى علقوا الحدا وقلصوا المآزر وطفق الناس يتمسحون بالعباس، ويقولون: هنيئًا لك يا ساقى الحرمين، وفى ذلك يقول حسان، رضى الله تعالى عنه:

سأل الإمام وقد تتابع جدبنا … سقى الغمام بغرة العباس
أحيى الإله به البلاد فأصبحت … مخضرة الأرجاء بعد البأس

فى أبيات أخر.

(وتبرك غير واحد) أى كثير من الناس **(بذريته صلى الله تعالى عليه وسلم)**، من السادة الأشراف نفعنا الله تعالى بهم، ولهم فى ذلك حكايات كثيرة ليس هذا محلها، وقد أفرده السيد السمهودى، شكر الله تعالى سعيه، بتأليف مستقل نافع.

* * *

فصل فيه فذلكة هذا الباب

(قال القاضى أبو الفضل قد بينا) أى ذكرنا وجمعنا **(فى هذا الباب)** الرابع المذكور فيه معجزاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ودلائل نبوته، وأصل الإتيان المجىء بسهولة وقد يكون بمعنى المرور فيتعدى بعلى، ولذا قال: **(على نكت من معجزاته واضحة)** إلا أنه تجوز به عما ذكر من الجمع وعداه بتعديته الأصلية؛ لأنه من لوازم من يريد أخذ شىء وجمعه أن يأتى له حتى يصل إليه، ويقال: أتى على كذا إذا استوفاه واستوعبه، والنكت جمع نكتة وهى الأمر الدقيق الذى يحصل بفكر يقارنه، من نكت الأرض بقضيب ونحوه كما مر، والنكت بمثناة فوقية ومن نطق بها بالمثلثة فقد أخطأ فلا وجه لما ذكره البرهان هنا.

(وجمل) جمع جملة وهى الأمر المجمل **(من علامات نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم، مقنعة)** أى كافية عن غيرها مستعار من القناعة، وفى نسخة مغنية بالغين المعجمة والنون أى يستغنى بها عن غيرها، وهو مجرور صفة جملة ويجوز نصبه على الحالية، **(فى واحد منها الكفاية)** عن غيره كالقرآن أى فى الاقتصار عليه، وضمير منها للنكت والجمل، **(والغنية)** بالضم والسكون فى ثانيه أى الاستغناء عن غيره؛ لأنه يدل عليه دلالة قوية.

(وتركنا الكثير) منها **(سوى ما ذكرنا)** إشارة إلى أن ما ذكره قليل بالنسبة لما تركه، **(واقتصرنا من الأحاديث الطوال)** بكسر الطاء جمع طويل **(على عين الغرض)** عين الشىء

المختار منه، وهو المراد منه لا الحقيقة، وإن كان أحد معانيها والغرض ما يقصد منه وفائدته، وأصل معناه الهدف كما مر فنقل لما ذكر، **(وفص المقصد)** أى الأمر المقصود، والفص مثلث الفاء بمعنى الأصل يقال: أتى بالأمر من فصه أى من أصله قال الشاعر:

ورب امرئ تزدريه العيون ويأتيك بالأمر من فصه[1]

وفص الخاتم ما يزين به من الجواهر، ويقال: نقل الحديث بنصه إذا استوفاه.

وتظرف ابن نباتة، رحمه الله تعالى، فى قوله:

حملت خاتم فيه فصا أزرقا من كثرة اللثم الذى لم أحصه
لولاه ما علم الرقيب فيا له من خاتم نقل الحديث بفصه

وقول الجوهرى العامة تقول: الفص بالكسر ظاهره أنه غير صحيح، وقد نقل الثقات كابن السيد وغيره تثليثه كما علم، والمقصد بكسر الصاد وهو القياس وفتحها بعضهم، والمراد به المقصود كما مر فهو مصدر ميمى تجوز فيه.

(و) اقتصرنا **(من كثير الأحاديث وغريبها)** هو بمعناه اللغوى أى ما بعد مستغربًا غير معهود أو غير مشهور، والمراد به ما اصطلح عليه المحدثون، وهو كما قال ابن الصلاح: ما انفرد به بعض الرواة سواء انفرد بجمعه أو بزيادة فيه كزيادة ثلاث فى حديث: «حبب إلىّ من دنياكم ثلاث النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة»[2]، التى تفرد بها ابن فورك وتبعه غيره كما مر، وهو لا ينافى الصحة إذا كان راويه ثقة، وقد يكون ضعيفًا وإضافة كثير من إضافة الصفة للموصوف أى الأحاديث الكثيرة **(على ما صح)** نقله وروايته.

(واشتهر) بين المحدثين **(لا يسيرا)** أى قليلاً نورده وإن لم يصح ويشتهر، واليسير ما تيسر وسهل وشاع استعماله بمعنى القليل لسهولته **(من غريبه)** أى غريب الحديث، وإنما اقتصر على المشهور الصحيح الشامل للحسن؛ لأن المعجزات الخارقة للعادة لا تخفى غالبا، ثم اعتذر عن إيراده فى كتابه بقوله: **(مما ذكره مشاهير الأئمة)**؛ لأنهم يعتمد على نقلهم لشهرة علمهم وفضلهم وإن لم يرد لغيرهم.

(وحذفنا) أى تركنا وعبر بالحذف وهو الترك بعد الذكر، إما لتنزيل ذكر غيره منزلة ذكره، أو لجعله لكونه مهما وحقه أن يذكر بمنزلة المذكور، والحذف أخص من الترك **(الإسناد)** أراد به السند تسمحًا شائعًا وهم رواة الحديث، أو هو بمعناه الحقيقى **(فى**

---

(١) البيت من المتقارب، وهو لعبد الله بن جعفر فى مجمع الأمثال (٢/٤١٨)، الزبير بن العوام فى تاج العروس (١٨/٧٤)، وبلا نسبة فى لسان العرب (٧/٦٦)، ديوان الأدب (٣/٨).

(٢) تقدم تخريجه.

جمهورها) أي معظم الأحاديث وأكثرها وقد يورد الحديث مسندًا؛ **(طلبا للاختصار)** وعدم التطويل وهو مفعول لأجله، **(وبحسب هذا الباب)** المذكور فيه المعجزات، وحسب بفتح فسكون بمعنى كافي أو كفاية وهو مبتدأ مجرور بالباء الزائدة، وخبره أن يكون الآتي أي يكفيه في شرفه والعلم بكثرة ما ورد فيه عن ذكره واستقصائه، وهو المعنى تعليل ثان لاختصاره، إلا أن العبارة لا تخلو من الحزازة **(لو تقصى)** مبني للمجهول بقاف وصاد مهملة أي استوفى وبلغ أقصاه ونهايته، وضبطه بعضهم بفاء بدل القاف وهو غير مناسب هنا؛ لأن التفصي التخلص وهو غير مراد، وتفسيره بتتبع وخلص من مظانه تكلف لا يخفى.

(أن يكون ديوانًا) أي كتابًا مستقلاً مدونًا **(جامعا)** لما في غيره، وتقدم الكلام على الديون وأنه معرب بكسر الدال وفتحها **(يشتمل على مجلدات عدة)** أي كتب من شأنها أن تجلد متعددة، وعدة بكسر العين بمعنى معدودة.

(ومعجزات نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، أظهر من سائر معجزات الرسل)، عليهم الصلاة والسلام، أي من بقيتها أو جميعها **(بوجهين: أحدهما كثرتها)** وشهرتها؛ لأن الكثرة تستلزم الشهرة.

(تنبيه): قال التلمساني: مجلدات جمع مجلدة، وهي الكتب الكثيرة، وهي عبارة فقهية مولدة، ولا وجه له؛ لأن المجلد ما عليه جلد كما في القاموس، وفي رسالة المجلد لأبي العلاء المعري: المجلد لا يزال فيما غبر من الزمان نقيض مجلد العرب من شام ويمان، قال الراجز:

هل أنت كاسل المعتمل ... مجلد يكشف عن مخض الإبل

انتهى.

فقد أثبت ذلك وناهيك به من إمام في اللغة، فإن أراد تخصيصها بالكتب الضخمة وأنها لم ترد في كلام العرب، فهو مجاز لا يتوقف على السماع، والتجلد يكون بمعنى التصبر، وتظرف بعض المتأخرين في قوله:

ملكت كتابًا أخلق الدهر جلده ... وما أحد في دهره بمخلد
إذا عاينت كتبي القديمة جلده ... يقولون لا تهلك أسى وتجلد

(وأنه لم يؤت نبي معجزة إلا وعند نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، مثلها) أي من نوعها مساوية لها أو مقاربة في الإعجاز، **(أو ما هو أبلغ منها)** أبلغ ليس من البلاغة كما توهمه من قال كالقرآن العظيم، فإنه أبلغ معجزة أوتيت، فإن معناها هنا أعظم وأقوى، وليس مقيدًا بالقرآن؛ لأن بلوغ الشيء وصوله لغايته ومنتهاه، أو هو من المبالغة على

خلاف القياس وكثيرًا ما يقولونه بهذا المعنى، والمعجزة هنا فى النفى فتعم وتفيد الكثرة، والخارق للعادة إذا عظم من شأنه الشهرة والظهور، فلا يرد عليه أنه كان ينبغى أن يقول أظهر، وأنه لا يلزم مما ذكره الظهور الذى ادعاه.

(وقد نبه الناسُ على ذلك) أى نبه علماء الحديث والآثار وفصلوه فى كتبهم كابن المنير فى كتاب المقتفى، **(فإن أردته)** أى أردت معرفته والوقوف على ما بينوه **(فتأمل فصول هذا الباب)** أى أعد النظر فيه فتأمل وتدبر معانيه، **(ومعجزات من تقدم من الأنبياء)**، عليهم الصلاة والسلام، **(تقف)** مجزوم فى جواب الأمر **(على ذلك إن شاء الله تعالى)**، والوقوف فى الأصل القيام تجوزوا به عن المعرفة، وهو مجاز مشهور ثم إن بعض الشراح ذكر هنا أمورًا شرفه الله بها لغيره من الأنبياء لا مساس لها بالمعجزات تركناها، ولم نطول بذكرها.

(وأما كونها كثيرة، فهذا القرآن كله معجز) وفى بعض النسخ، وكله معجز بالواو، فالتقدير: فهذا القرآن موجود معروف وجميع أجزائه معجزة، فناهيك به كثرة، ثم شرع فى بيان المقدار الذى يقع به الإعجاز، فقال: **(وأقل ما يقع الإعجاز فيه عند بعض أئمة المحققين سورة: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾)** [الكوثر: ١]، وهى أقصر سورة فى القرآن، **(أو آية بقدرها)**: أى مساوية لها فى الحروف والكلمات، وسورة مرفوع خبر أقل، وفى نسخة بسورة بباء الجر.

(وذهب بعضهم إلى أن كل آية منه كيف كانت) طويلة بمقدار سورة أم لا **(معجزة وزاد بعضهم)**، وفى نسخة آخرون أى ترقى عن هذا المقدار إلى **(أن كل جملة منتظمة منه)** أى مفيدة تامة **(معجزة، وإن كانت من كلمة أو كلمتين)**، **فإن قلت**: كيف تكون جملة منتظمة وهى كلمة؟ **قلت**: يكون فيها مقدر كمدهامتان ونحوها فتأمل، وليس هذا مبنيًا على أن إعجازه بالصرفة كما قيل، **(والحق ما ذكرناه أولا)** من أن المعجز أقصر سورة أو مقدارها **(لقوله تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ﴾)** [البقرة: ٢٣]، أى سورة كانت **(من مثله)** فى الإعجاز، والضمير للقرآن أو للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، كما فى الكشاف، وفيه كلام مشهور، ودخل مقدار السورة فيه بدلالة النص، فلا يتوهم أنه ليس فيه التعرض للدليل على مدعاه، **(فهو)** أى ما ذكر **(أقل ما تحداهم)** الله أو الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، **(به)** أى طلب منهم معارضته **(مع ما ينصر هذا)** القول المذكور أولاً أى يقويه ويؤيده **(من نظر)** أى فكر وتدبر، **(وتحقيق يطول بسطه)** ببيان الحق بالأدلة والبراهين القائمة لمن تدبره ونظر ما فيه من مراعاة كل مقام، وما احتوى عليه من الجزالة واللطافة التى تحير العقول، فقد تحداهم أولاً بجملته، فقال: ﴿فَأۡتُواْ

بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٤٩]، ثـم تحداهـم بعشـر سـور، فقـال: ﴿فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [هـود: ١٣]، ثـم تحداهـم بسـورة، فسـجل عجزهـم بعـد إرخـاء عنـان التكليف، والحاصل أن الكلام اللفظى الذى وقع التحدى به لا النفسى، فإنـه لا يتصـور فيه ذلك على الصحيح.

اختلفوا فى مقدار معجزه فذهب بعض المعتزلة إلى أنـه بجميـع القـرآن، ورد بـالآيتين المذكورتين، وقال القاضى: يتعلق بسورة طويلة أو قصيرة لظاهر الآية، وقال فى موضع: بها أو بمقدارها قالوا: و لم يقم دليل على العجز عن أقل من هذا القدر، وقيل: لا يحصـل العجز إلا بآيات كثيرة، وقيل: قليله وكثيره معجز؛ لقوله فليأتوا بحديث مثله.

(فإذا كان هذا) أى ثبـت أن مـا تحداهـم بـه هـذا المقـدار الأقـل، **(ففـى القـرآن مـن الكلمات نحو من سبعة وسبعين ألف كلمة ونيف)** أى وزيادة على هذا المقدار، من نـاف بمعنى زاد، وياؤه تخفف وتشدد، وكلما زاد على عقد حتى يبلغ ما بعده فهو نيف **(على عدد بعضهم)** أى هذا مقداره عند بعض دون غيره، فإنـه كمـا قـال الدانـى، رحمـه الله، سبعة وتسعون بالتاء الفوقية ألفا وأربعمائة وتسع وثمانون كلمة، وحروفـه ثلاثمائـة ألـف وثلاثة وعشرون ألفا، وقيـل: ثلاثمائـة ألـف وأحـد وعشـرون ألفـا أو خمسـمائة وثلاثـة وثلاثون حرفا، وقيل: إنه الصـواب لا مـا ذكـره المصنـف، رحمـه الله تعـالى، وهـذا مـع تصريحه بالنقل وإتيانه بلفظه غير وارد عند من أنصف، ولهم فى عدده اختلاف قيل: لأن الكلمة والحرف لهما إطلاقات، وقول السخاوى: لا فائدة فى عدد حروفه؛ لأنه لا يقبل زيادة ولا نقصًا لا وجـه لـه غـير الكسـل **(وعـدد كلمـات ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ عشر كلمات فتجزئ القرآن)** بصيغـة المصـدر، وفـى نسـخة فَيَتَجَزَّأ بالمضـارع المجـهول وآخره مهموز، ويجوز إبداله ألفًا أى بأن تعد عشر آيات عشرة أجزاء **(على نسبة ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾)**: أى على مقدارها، وإنما زاد نسبة ليشـمل آيـة واحـدة بمقدارهـا كما مر، فالنسبة مجاز عن المقدار، ومعناها الحقيقى لغة واصطلاحًا مشهور.

(أزيد) بالرفع خبر تجزى المصدر، وبالنصب إن كان فعلاً أى تجزيـه أزيـد، أو يكـون أزيد **(من سبعة آلاف جزء، كل واحد منها معجز فى نفسه)** أى بقطع النظـر عـن غـيره، ففيه أزيد من سبع ألف معجزة، وهذا مبنى على ما تقدم من العدد.

(ثم إعجازه) أى القرآن **(كما تقدم)** من ذكر الاختلاف فى مقداره **(بوجهين):**

الأول: **(طريق بلاغته)** أى ما فيه من مراعاة الوجوه التى بـهـا يطـابق اللفـظ مقتضـى الحال.

(و) الثاني: **(طريق نظمه)** أى أسلوبه، وكونه علـى نسـق لا يشـبه غيره مـن الكـلام

نظمًا وسجعًا ونثرًا، وتناسب كلماته وجمله، وإيتاء كل كلمة منه ما تستحقه، وتنزيلها فى محل لا يليق بها غيره كما يعرفه من ذاق طعم البلاغة، فقارئه لا يمله وإن كرره كما لا يخفى على من تأمله حق التأمل، ونظر فيه بنور الإيمان، **(فصار فى كل جزء من هذا العدد)** المذكور آنفًا **(معجزتان)**: من جهة بلاغته، ومن جهة نظمه، **(فتضاعف العدد)** أى عدد معجزاته، وهو ماض من التفاعل أو مضارع من المفاعلة **(من هذا الوجه)** أى من هاتين الجهتين: البلاغة والنظم، فإن قلنا كلماته معجزة صار فيه من المعجزات ما لا يعد ولا يحصى.

قال ابن عطية، رحمه الله تعالى: الصحيح الذى عليه الحذاق أن إعجازه بنظمه، وصحة معانيه، وتوالى فصاحة ألفاظه؛ لأنه عز وجل أحاط بكل شىء علمًا وبكل كلام، فأتى فى كلامه بما لا يحيط به علم غيره وقدرته، وبهذا بطل القول بالصرفة.

(ثم فيه وجوه إعجاز أخر) غير ما ذكر من الطريقين **(من الإخبار بعلوم الغيب)** بيان لوجوه أى الأمور الغيبية بما وقع أو سيقع، **(فقد يكون فى السورة الواحدة من هذه التجزئة)** أى الأجزاء المذكورة المضاعفة من جهتى الإعجاز **(الخبر)** أى الإخبار **(عن أشياء من الغيب)** أى الأمور المغيبة عن علمنا **(كل خبر منها بنفسه معجز)** أى باعتبار إخباره عن الغيب، وقطع النظر عن غيره من وجوه الإعجاز، **(فتضاعف)** بصيغة الماضى والمضارع كما مر.

(العدد) المذكور أى العدد المضاعف؛ لقوله: **(كرة أخرى)** أى بعد مضاعفته السابقة، وكرة بمعنى مرة وأصل الكر الرجوع بعد الفر، فهو ضد الفرار. قال امرؤ القيس[1]:

مكر مفر مقبل مدبر معا

(ثم وجوه الإعجاز الأخر التى ذكرناها)، وهى ذكر المغيبات **(توجب التضعيف)**، والزيادة إلى ما لا يكاد يحصى كثرة.

(هذا فى حق القرآن) دون غيره من المعجزات التى تزيد على معجزات سائر الأنبياء، **(فلا يكاد يأخذ العدُّ معجزاته)**، وفى نسخة العدد، وهما بمعنى، والمراد بالأخذ الإحاطة مجازًا بليغًا كقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أى لا يغلبه ذلك أى لا يحيط بها العدد؛ لكثرتها، وهو مبالغة؛ ولذا قال: لا يكاد، و لم يقل: لا يعد، **(ولا يحوى**

(١) صدر بيت وعجزه: «كجلمود صخر حطه السيل من عل»، وهو من الطويل، وهو لامرئ القيس فى ديوانه (ص١٩)، لسان العرب (٨٤/١٥)، جمهرة اللغة (ص١٢٦)، تاج العروس (٣١٨/١٣)، كتاب العين (١٧٤/٧)، إصلاح المنطق (ص٢٥)، خزانة الأدب (٣٩٧/٢)، الدرر (١٥٥/٣)، شرح أبيات سيبويه (٣٣٩/٢)، شرح التصريح (٥٤/٢).

الحصر) أى الإحاطة **(براهينه)** أى براهين إعجازه؛ لأن كل جزء فيه معجزة قاطعة البرهان واضحة البيان، ولما فرغ من وجوه الإعجاز العقلية أردفها بالنقلية فقال: **(ثم الأحاديث)** النبوية **(الواردة)** فى الروايات الصحيحة **(والأخبار الصادرة عنه)**، عليه الصلاة والسلام، **(فى هذه الأبواب)** أى أبواب إعجاز القرآن والتحدى به، أو أبواب معجزاته، عليه الصلاة والسلام، كما يؤيده قوله: **(وعن ما دل على أمره)** أى نبوته وعلو شأنه **(مما أشرنا)** فيما سبق من هذا الكتاب **(إلى جملة)** منه، وفى نسخة إلى جمل **(يبلغ نحوا)** أى قريبًا **(من هذا)** المقدار الكثير.

(الوجه الثانى) من وجهى ظهور معجزاته وشهرتها، وأنها أظهر من معجزات سائر الرسل قبله **(وضوح معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى شهرتها بحيث لا تجهل، وهذا عين ظهورها، أو مستلزم له، والمراد به شدة إيضاحها بحيث لا تخفى على أحد غير أعمى الفكر والنظر، وأنها لا يرتاب فيها عاقل مع بقائها على ممر الدهور وازدياد شهرتها فى كل عصر كالشمس فى رابعة النهار، وهذا مما يدل على أظهريتها دلالة ظاهرة لا عينها، فسقط ما قيل: إن المدعى أن معجزاته أظهر من غيرها، والوضوح عين الظهور فهو مصادرة للاستدلال على الشىء بنفسه، وحاصله الظهور بالكثرة، فيرجع إلى الوجه الذى قبله إلا أن يقال: المراد بقاؤها على وجه الدهر إلى يوم القيامة، فيكون المراد الزيادة فى الوضوح بهذا الاعتبار وإن كان فيه الإخبار بمعجزات الرسل، وفيه خلط وخبط لا يخفى، وقد أشار إلى ما ذكرناه المصنف بتفسيره بقوله: **(فإن معجزات الرسل كانت بقدر همم أهل زمانهم)** أى همتهم فيما يهتمون به ويعتنون، **(وبحسب)** بفتح الحاء والسين المهملتين، وقيل: إنه بسكون السين، وهو بمعنى المقدار **(الفن)** أى النوع **(الذى سما)** أى اشتهر وعلا مقداره بينهم؛ لاعتنائهم به **(فيه قرنه)** بفتح القاف وسكون الراء أى عصره، والمراد به أهله مجازًا، أو بتقدير مضاف، والقرن الزمن المقترن فيه أعمارهم وأحوالهم، واختلف فى مقداره هل هو مائة سنة أو ثمانون أو أقل كما تقدم، ثم فصل هذا بقوله: **(فلما كان زمان موسى)** كليم الله، عليه الصلاة والسلام، أى زمن بعثته ونبوته **(غاية علم أهله)** أى أهمه وأعظمه عندهم **(السحر)**، وهو معروف تقدم الكلام عليه **(بعث إليهم بمعجزة تشبه ما يدعون قدرتهم عليه)**، وليست منه للفرق بين السحر والمعجزة، **(فجاءهم)** على يد موسى، عليه الصلاة والسلام، **(منها ما خرق عادتهم)** أى خالف ما يعتادونه، ويسهل عليهم فعله، وأصل الخرق إبانة جسم من آخر، فنقل لما ذكر كخرق الإجماع أى مخالفته، وهو استعارة صار حقيقة عرفية، وذلك كقلب العصا حية، واليد البيضاء من غير سوء، **(ولم يكن)** ما جاء به **(فى قدرتهم)** أى لا يقدرون عليه، فيدخل فى جملة مقدراتهم، **(وقد أبطل سحرهم)** بما عارضهم به، وهى جملة حالية يشير

إلى ما قصه الله فى كتابه العزيز، وفى نسخة: وأبطل بدون قد، فهو معطوف على جاءهم.

(وكذلك) أى كزمن موسى، عليه الصلاة والسلام، **(زمن عيسى)** ابن مريم، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أغنى ما كان الطب)** أى أعظم ما كان فى عصره وعهد رسالته علمه، والطب فى اللغة معناه العادة والسحر، وفى العرف علم يعرف به أحوال الإنسان من حيث الصحة والسقم، وأغنى أفعل تفضيل بغين معجمة ونون من الغنا وهو الفائدة، وقيل: إنه بعين مهملة ومثناة تحتية أى أكثر مشقة وتعبًا، وقيل: إنه بغين معجمة ومثناة تحتية من الغاية وهو النهاية، وهو بعيد ولم نره فى كلامهم لتفسيره بأنهى، والطب مثلث الطاء مشدد الباء.

(وأوفر ما كان أهله) أى أهل الطب وعلماؤه أى أكثر ما كان فى زمنهم، **(فجاءهم)** على يد عيسى، عليه الصلاة والسلام، **(أمر لا يقدرون عليه)** بواسطة علمهم بالطب، فإنهم لا يقدرون على إزالة الأمراض المزمنة والخلقية، وقدرتهم فى الأكثر على حفظ الصحة.

وكم من مرض أعيى الطبيب المداويا

(وأتاهم ما لم يحتسبوه) أى ما لم يخطر ببالهم وقدرة حسابهم، وما لم يترقبوه، وجعل أمر وما فاعلاً، ولم يقل أتاهم بأمر وبما، وهو الظاهر إشارة إلى أنه من عند الله من غير تصنع وحيلة، وفى نسخة يحسبوه أى يظنوه ويقدروه، قيل: ويجوز فيه ضم الياء إليه ينكرونه، وهو بعيد لفظًا لا معنى **(من إحياء الميت)** بتخفيف الياء وتشديدها **(وإبراء الأكمه)** أى الذى ولد أعمى مطموس العين: أى فتح عينه حتى يبصر **(والأبرص)**، وهو الذى فيه بياض يخالف لونه، والخفيف منه يسمى بهقًا **(من دون معالجة)** المعالجة المزاولة، وعند الأطباء مداواة الأمراض بعد تشخيصها، **(وطب)** المراد به هنا المعنى المصدرى أى إعطاء الدواء، وإنما كان مداواة عيسى، عليه الصلاة والسلام، بالدعاء والتوجه إلى الله تعالى، وكان يجتمع عنده من المرضى العدد الكثير، ومن لم يقدر على المجىء إليه يذهب بنفسه إليه، وكان أطباء عصره لا يقدرون على ما ذكر، فلذا كان معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم.

(تنبيه): قال البخارى فى تفسير الأكمه الذى يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل، انتهى، وقال السهيلى: إنه قول فيه فلا يرد الاعتراض بأنه معنى الأعشى، وإنما الأكمه من ولد أعمى.

(وهكذا) أى مثل ما ذكر **(سائر معجزات الأنبياء)** فى أنها كانت مقدار علم أهل زمانهم وما يهتمون به من الأحوال والعلوم.

(ثم إن الله تعالى بعث محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم، وجملة معارف العرب) جمع معرفة بمعنى المعروف عندهم، لا جمع معروف ضد المنكر المجهول كما قيل، **(وعلومها)** أى ما يعلمونه من الجزئيات والكليات **(أربعة)** أنواع **(البلاغة)** أى الملكة، والجبلة التى يعرفون بها تأدية الكلام حقه فى كل مقام من مقاماته نظما ونثرًا، وهم فرسان ميدانها، **(والشعر)** الكلام الموزون المقفى، **(والخبر)** عمن سلف وما لهم من الوقائع والأيام والأنساب والمنازل، **(والكهانة)** بفتح الكاف مصدر، وبكسرها صناعته، وحرفته وهى معاناة علم المغيبات بتلقيها عن الجن كما مر.

(فأنزل عليه القرآن) أى أنزل الله عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما يناسب قرنه، وأهل عصره أعنى القرآن أى كلامه الموحى إليه **(الخارق)** أى المخالف **(لهذه الأربعة فصول)** أى الأنواع المذكورة، وهى البلاغة وما معها، فهى جمع فصل، وهو النوع المستقل المنفصل المتميز عن غيره **(من الفصاحة)**، وهى خلوص الكلام عن الغرابة وغيرها مما يشينه، من فصح بمعنى خلص، ويشمل البلاغة، والفرق بينهما اصطلاح طارئ فى علم المعانى، ومعناهما عندهم غنى عن البيان لشهرته **(والإيجاز)** أى اختصار الكلام اختصارًا غير مخل، ويقابله الإطناب والمساواة و لم يذكرهما لعلمهما بالمقابلة؛ لأنهما الأكثر ونكات الإيجاز أكثر وأعظم فهو أهم عندهم، **(والبلاغة)** وقيدها بقوله: **(الخارجة لهذه عن نمط كلامهم)** أى كلام العرب؛ لدخولها فى الفصاحة كما مر، والنمط بمعنى الجنس والطريقة أى لا يعرفون مثل بلاغته؛ لخروجها عن جنس بلاغتهم، وما يعهدونه فى مخاطباتهم ومحاوراتهم، والنمط الجماعة من الناس أمرهم واحد، فاستعير لما ذكر أى نوعه وطريقته، **(ومن النظم)** أى تأليف الكلمات وتركيبها متناسبة كنظم الجواهر وعقدها، وليس المراد الكلام المنظوم شعرًا **(الغريب)** أى الذى لم يعهده البلغاء فى كلامهم، **(والأسلوب)** أى الطريق **(العجيب)** أى الذى يتعجب منه سامعه، أو يعجبه ويستحسنه **(الذى لم يهتدوا)** أى لم يصلوا ويقدروا **(فى المنظوم)** أى المؤلف من كلامهم **(إلى طريقه)**، فضلا عن الاهتداء إليه نفسه، حتى يعارضوه وينسجوا على منواله الذى هو ينسج وحده، **(ولا علموا فى أساليب الكلام)** مطلقًا أو المنثور من خطبهم وأسجاعهم، **(والأوزان)** الشعرية الموزونة على بحوره **(منهجه)** أى طريقه، **(ومن الإخبار)** بكسر الهمزة ويجوز فتحها جمع خبر **(عن الكوائن)** أى عما سيكون فى المستقبل من المغيبات جمع كائن، وهو معطوف على قوله من النظم، وأعاد من؛ لأنه نوع آخر من الإعجاز ولطول الفصل بينهما، كقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤].

(والحوادث) أى ما يحدث فى المستقبل أيضًا **(والأسرار)** أى ما أسروه فى أنفسهم كقوله تعالى فى قصة أزواجه، صلى الله تعالى عليه وسلم: ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾

[التحريم: ٣]، **(والمخبآت)** أى ما أخفوه عنه فأطلعه الله عليه، **(والضمائر)** أى ما أضمروه فى أنفسهم كقصة مسجد الضرار، ثم فسر ذلك بقوله، **(فتوجد)** تلك الأمور المخبر عنها وما أسر وأخفى عنه **(على ما كانت عليه)** ذاتا وصفة مطابقة لما قاله، **(ويعترف)** ويقر **(المخبَرُ)** بفتح الباء اسم المفعول أى من أخبره الرسول بما أطلعه الله عليه **(عنها بصحة ذلك)** الخبر الذى أخبره به **(وصِدْقِه)** بمطابقته للواقع **(وإن كان)** المخبَر بالفتح **(أعدى العدو)** أى أقوى أعدائه وأشدهم عداوة له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأعدى أفعل تفضيل من العداوة مسموع على خلاف القياس، والعدو بمعنى الأعداء؛ لأنه يطلق على الواحد وغيره كقوله تعالى: ﴿مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٩٢]، أى مع شدة عداوته لا يمكنه إنكاره هربًا من وصمة التكذيب؛ لظهور صدقه؛ **(فأبطل)** القرآن أو النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(الكهانة)** بفتح الكاف مصدر وبكسرها صناعته وحرفته كما مر، والرواية هنا الكسر؛ لأنه الأنسب **(التى تصدق مرة وتكذب عشرا)** صفة الكهانة: أى التى كذبها أكثر من صدقها كما ورد فى الحديث أنه تعالى كان إذا قضى أمرًا فى السماء سبحت حملة العرش، ثم أهل كل سماء حتى ينتهى إلى سماء الدنيا، فتستخبر أهل كل سماء ممن فوقهم حتى ينتهى الخبر إلى أهل هذه السماء، فتخطفه منهم الجن، ويزيدون فيه من عندهم ما يزيدون من أكاذيبهم، وبما فسرناه ظهر سقوط ما قيل صوابه مائة بدل قوله عشر؛ لأنه ورد فى الحديث تكذب مائة أو أكثر من مائة، **(ثم اجتثها)** بجيم ومثناة فوقية ومثلثة، والضمير للكهانة أى قطعها بعد إبطالها، وعطف بثم لأنه أبلغ مما قبله وأبعد رتبة، وأصل معناه نزع الشجر ونحوه بعروقه وأصوله كقوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦]، ففيه استعارة مرشحة بقوله: **(من أصلها)** وإن كان المراد به إزالتها بالكلية **(برمى الشهب)** بضم الهاء وسكونها جمع شهاب أى رمى الشياطين بشهب تمنعهم من استراق السمع لما تلقى الكهنة، والمراد زيادة الرمى وكثرته فإنه كان قبل كما مر، وفى نسخة رجم بدل رمى، **(ورصد النجوم)** رصد بسكون الصاد المهملة مصدر رصده يرصده إذا ترقبه وأعد له ما يمنعه، ويجوز فتحها ويكون واحدًا أو جمعًا لراصد كخدم، فهو من إضافة الصفة لموصوفها أى النجوم المرصدة أى المعدة لمنعهم من السمع، وذلك لأن الشهب نجوم أو شعل نار تنفصل منها، وارتضاه كثيرون فرصدها لأنها مبدأ لما يمنعهم.

(وجاء) فى القرآن **(من الأخبار عن القرون)** والأمم **(السالفة)** أى الماضية قديمًا **(وأنباء)** جمع نبأ وهو الخبر **(الأنبياء والأمم البائدة)** أى الهالكة الفانية فى الزمن السابق يقال: باد يبيد إذا هلك، وفى الحديث: «الجنة لا تبيد أبدا»، أى لا تهلك ولا يموت أهلها، **(والحوادث)** أى الأمور الواقعة من خير وشر فى الأزمان السالفة **(الماضية)** قبل

ذلك (**ما يعجز من تفرغ لهذا العلم**) أى العلم بالأخبار وتواريخ الأمم (**عن بعضه**) أى عن معرفة بعض منه فضلا عن جميعه، وما فاعل جاء، ومن فاعل يعجز (**على الوجوه التى بسطناها**) أى جاء مبينا على وجوه تقدمت مفصلة، (**وبينا المعجز فيها**) أى أوضحنا المعجزات فيها بما أغنى عن إعادته.

(**ثم بقيت هذه المعجزة**) أى القرآن، وفى نسخة المعجزات باعتبار وجوه إعجازه (**الجامعة لهذه الوجوه**) أى وجوه الإعجاز المذكورة آنفًا (**المضمومة إلى الفصول الأخر**) يعنى الأربعة المتقدمة (**التى ذكرناها فى معجزات القرآن ثابتة إلى يوم القيامة**) لا تبدل ولا تغير ولا تذهب، أبقاها الله (**بينة الحجة**) أى ظاهرة الدلالة على رسالته، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**لكل أمة تأتى**) بعد نزول القرآن جيلا بعد جيل، وعصرًا بعد عصر (**لا يخفى وجوه ذلك**) الإعجاز الذى ذكر أولاً (**على من نظر فيه**) أى من نظر فى القرآن بتلاوته أو سماعه، (**وتأمل وجوه إعجازه**) أى أطال النظر فيها، وكرره وهو من الأمل تفعل تجوز به عما ذكر لترقب الأمل وامتداده (**إلى ما أخبر به من الغيوب**) أى مع ما أخبر به من المغيبات (**على هذا السبيل**) والطريق المذكور، (**فلا يمر عصر وزمن**) أى يجىء كالمار على أهله، وليس المراد به ينقضى لقوله (**إلا ويظهر فيه صدقه**) أى صدق القرآن، أو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، (**بظهور مخبره**) بفتح الباء أى ما أخبر به أو خبره (**على ما أخبر**) أى كائنًا متحققا على وفق خبره، أو باقيا على حاله فى وجوه إعجازه السابقة: أى أخبر به، فهو مبنى للفاعل، (**فيتجدد الإيمان**) به كل ما ظهر أمر جديد مصدق له بوقوع ما فيه، (**ويتظاهر البرهان**) أى يقوى الدليل ويزيد قوة، وأصل التظاهر المعاونة والمساعدة كأنه يستند لظهوره، (**وليس الخبر كالعيان**) وهو بكسر العين المعاينة والمشاهدة ولا تفتح فيه العين، وهو مَثَل، وورد فى الحديث الصحيح: «ليس الخبر كالمعاينة»؛ لأن الخبر يحتمل الصدق والكذب بقطع النظر عن قائله، فإذا شوهد معناه بان المراد واطمأن الفؤاد، ولذا قال إبراهيم، عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، (**كما قيل**):

ولكن للعيان لطيف معنى لـه سأل المعاينة الكليم

• (**وللمشاهدة**) بحس البصر (**زيادة فى اليقين**) الذى كان بالبرهان القاطع، (**والنفس أشد طمأنينة**) الطمأنينة والاطمئنان السكون بعد الانزعاج (**إلى عين اليقين**) أى إلى ما يتيقن بالمعاينة والمشاهدة (**منها**) أى من طمأنينتها (**إلى علم اليقين**) أى العلم المتيقن بالبرهان القاطع، فالنفس مفضل ومفضل عليه باعتبار حالتين، (**وإن كان كل**) من عين اليقين وعلم اليقين (**عندها**) أى عند النفس، وفى علمها، فإن عند يكون بمعنى العلم كما

فسر عند الله تعالى بعلمه تارة وحكمه أخرى (**حقًا**) أى متحققًا ثابتًا بلا مرية، لكن الأول أقوى، وفيه إشارة إلى الفرق بين عين اليقين وعلم اليقين وحق اليقين، وفيه كلام فصلناه فى غير هذا المحل، والأول ضرورى وغيره نظرى.

(**وسائر معجزات الرسل**) قد مر، وفصلناه فى شرح الدرة أن لفظ سائر ورد بمعنى الباقى من السؤر المهموز، وبمعنى الجميع من السير المعتل، وأن من أنكر الثانى كالحريرى وغيره لم يصب (**انقرضت بانقراضهم**) أى انقطعت وذهبت معهم بسبب ذهابهم، (**وعدمت**) بعد وجودها وعدم مبنى للمجهول؛ لأنه يقال: عدمه كعلمه بمعنى أعدمه بزنة كرم (**بعدم**) بفتحتين أو بضم فسكون (**ذواتها**) أى الرسل، وفى نسخة ذواتهم جمع ذات بمعنى نفس، وفى ثبوتها فى اللغة كلام تقدم، ويأتى والمعروف أنه بمعنى صاحبة مؤنث ذو المشهور فى العربية: أى تلك المعجزات تعدم فتنقرض، وإن علم ثبوتها لكونها أمرًا غير مؤبد، ومعنى عدم ذوات الأنبياء ذهابها من الدنيا وعن الحس، وإن كانت باقية فى البرزخ أحياء لا يموتون كما فى حديث الإسراء والاجتماع بالأنبياء.

(**ومعجزة نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، يعنى القرآن (**لا تبيد**) أى لا تفنى وتعدم، (**ولا تنقطع**) أى تذهب بالكلية، (**وآياته**) أى معجزاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، التى تضمنها القرآن (**تتجدد ولا تضمحل**) بالضاد المعجمة والميم والحاء المهملة واللام المشددة: أى لا تنحل وتفنى كاضمحل السحاب إذا انقشع، (**ولهذا**) المذكور من بقاء معجزاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**أشار صلى الله تعالى عليه وسلم، بقوله**) فى حديث صحيح رواه البخارى، رحمه الله تعالى، والإشارة هنا بمعنى التصريح، أو عبر به لأنه غير صريح فيما ذكر؛ لأن الوحى الآتى أعم من القرآن، فيحتمل أن المراد به أحكام شريعته الباقية إلى يوم القيامة، والظاهر أن المشار إليه ما مر من أن القرآن فيه معجزات لا تحصى، وليس بصريح الحديث كما سنبينه (**فيما حدثنا به القاضى الشهيد أبو على**) ابن سكرة وقدمنا ترجمته قال: (**حدثنا القاضى أبو الوليد**) تقدم أيضًا قال: (**حدثنا أبو ذر**) الهروى وقد تقدم قال: (**حدثنا أبو محمد**) بن حمويه السرخسى وقد تقدم، (**وأبو إسحاق**) المستملى كما تقدم، (**وأبو الهيثم**) الكشميهنى كما تقدم (**قالوا: حدثنا الفربرى**) راوى صحيح البخارى، وقد تقدم ضبط نسبته قال: (**حدثنا البخارى**) صاحب الصحيح المشهور قال: (**حدثنا عبد العزيز بن عبد الله**) العامرى الأوسى الفقيه الحافظ الثقة، وترجمته فى الميزان قال: (**حدثنا الليث**) تقدمت ترجمته (**عن سعيد**) المعروف بالمقبرى (**عن أبيه**) كيسان أبو سعيد المقبرى نسبة للمقبرة؛ لأنه كان يتولى حفرها وهو مولى بنى ليث، روى عنه أصحاب الكتب الستة، وتوفى سنة مائة فى خلافة الوليد وهو ثقة (**عن أبى هريرة**)، رضى الله تعالى عنه، هو عبد الرحمن بن صخر، وفى اسمه اختلاف كثير لشهرته بكنيته كما مر.

(عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)، فى حديث صحيح رواه البخارى ومسلم والنسائى، وما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، لفظ البخارى **(قال: ما من الأنبياء)** تقديره ما من نبى من الأنبياء **(إلا أعطى)** بالبناء للمجهول أى إلا أعطاه الله تعالى **(من الآيات)** أى المعجزات الظاهرة **(ما مثله)** ما موصولة أو موصوفة **(آمن)** بالمد ماض أى صدق **(عليه البشر)** على تعليلية كما فى قوله تعالى: ﴿**عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ**﴾ [البقرة: ١٨٥]، أو تقديره مستقرًا عليه البشر يعنى أهل عصره، **(وإنما كان الذى أوتيت)** من الآيات والمعجزات **(وحيا أوحاه الله تعالى عز وجل، إلى)** يعنى القرآن المعجز المتحدى به، ثم رتب عليه قوله: **(فأرجو)** من الله تعالى بما أكرمنى به من المعجزة الشاملة على معجزات لا تتناهى الباقية إلى يوم القيامة التى ليست كمعجزة غيرى تنقرض بانقراضهم، فيؤمن بها فى كل أمة ما لا يحصى، فلذا رجوت **(أن أكون)** دونهم **(أكثرهم تابعا)** أى أمة **(يوم القيامة)** إذا حشرت الأمم مع أنبياءهم **(هذا معنى)** هذا **(الحديث عند بعضهم ممن)** فسره وبين المراد منه ففيه إشارة إلى كثرة ما فيه من المعجزات، وأنه باق على وجه الدهر إلى يوم القيامة لا يقبل نسخًا ولا تبديلاً، ولا ينسى كغيره من الكتب والمعجزات، ومثله المتقدم المراد به نفسه كما فى قولهم: مثلك لا يبخل وعليه للتعليل كما مر.

وعبر بها لما فيها من الدلالة على الاستعلاء بالقهر والغلبة الملزم لهم بالإيمان به، وقال: إنما مع كثرة ماله من المعجزات إشارة إلى أنه أعظم معجزاته، والعرب قد تحصر الشيء فى فرد كامل منه بادعاء أن ما عداه لا يعد معه لكفايته عن غيره، وقد حقق الله تعالى رجاءه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وهو الظاهر)** من معنى الحديث، **(والصحيح إن شاء الله)** وقد تقدم الكلام على هذا الحديث مستوفى، ثم أشار إلى أن فيه وجوها أخر بقوله: **(وذهب غير واحد)** أى كثير **(من العلماء)** أى علماء الحديث **(فى تأويل هذا الحديث)** أى تفسيره وبيان ما يئول إليه، وعبر بالتأويل إشارة إلى أنه خلاف الظاهر بعد ما صرح به، **(وظهور معجزة نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى فى بيان وجه ظهورها **(إلى معنى آخر)** غير ما ارتضاه **(من ظهورها)** أى بيان ظهورها **(بكونها)** أى هذه المعجزة الباهرة **(وحيا)** أى كلاما موحى إليه من الله، فقوله: **(وكلامًا)** عطف تفسير؛ لأن الوحى يحتمل المعنى المصدرى، ثم بين وجه الظهور على هذا فقال: **(لا يمكن)** لأحد ممن ينكره **(التخيل فيه)** تفعل من الخيال بالخاء المعجمة، وفى نسخة التخييل بالتفعيل منه، والأول أنسب بقوله **(ولا التحيل عليه)** بالحاء المهملة؛ لأنه كلام بليغ دال على معناه وما قصد به دلالته لا يمكن الواقف عليه أن يقول: إنه تخيل وتمويه لا أصل له، ولا أن يعمل حيلة فى الإتيان بمثله كما فعل سحرة موسى، عليه الصلاة والسلام، بحبالهم إذ جعلوها تتحرك

كعصاه **(ولا التشبيه)** به، **(فإن غيرها)** أى غير المعجزة القرآنية **(من معجزات الرسل)** كلها **(قد رام)** أى قصد وطلب **(المعاندون)** أى المنكرون **(لها)** عنادًا **(بأشياء)** متعلق برام **(طمعوا)** أى توهموا، فجعل كالمتوهم لقربه منه معنى **(فى التخييل)** والتمويه **(بها)** بإظهار ما لا حقيقة له **(على الضعفاء)** المراد بهم العامة الذين ضعف عقلهم عن الفرق بين السحر والمعجزة، لعدم تمييزهم **(كإلقاء السحرة)** عند فرعون جمع ساحر **(حبالهم وعصيهم)** جمع حبل وعصا؛ لإبطال معجزة عصا موسى بالإتيان بمثلها، فلما ابتلعت عصى موسى ما ألقوه وأبطلته علموا أنها معجزة، فآمنوا به واختاروا القتل على اتباع فرعون، ولم يغن كيده شيئًا، **(وشبه هذا)** المذكور فى قصة موسى **(مما يخيله)** بالمعجمة أى يلبس به ويموه **(الساحر أو يتحيل فيه)** بالحاء المهملة أى يأتى حيلة منه غير واقعة ثم أشار إلى أن معجزة نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا تقبل ما ذكر بقوله: **(والقرآن كلام)** من جنس الكلام البالغ غاية البلاغة ومثله **(ليس للحيلة)** ممن لا يقدر عليه، **(ولا للسحر فى التخييل فيه)** بأن يعمل بقوة السحر ما يؤثر فى شخص لا بلاغة له حتى يتكلم بكلام بليغ خطبة أو شعرًا **(عمل)** أى تأثير كما عرفته آنفًا، فإن ساحرًا لو أتى عاميًا لا قدرة له على كلام حسن، ثم سحره بجميع أنواع سحره لا يمكنه أن يقوم فى ناد منشدًا أو خطيبًا، فإنه أمر جبلى لا يمكن إيجاده لغير خالق القوى والقدرة، فتجد الجلف الأعرابى يتكلم بكلام عند أعقل الناس وأظرفهم لا يمكنه أن يأتى بشىء منه، وبهذا علم أن الكلام لا يكون بحيلة ولا سحر، فما بالك بكلام أفحم جميع الفصحاء وأخرس ألسنة البلغاء؟ وهو المراد بقوله: **(فكان)** القرآن من حيث كونه كلامًا **(من هذا الوجه)** أى من الجهة المذكورة بقطع النظر عن غيرها من جهات الإعجاز **(عندهم)** أى عند المفسرين لهذا الحديث بما ذكر ثانيًا **(أظهر من غيره من المعجزات)**؛ لعدم قبول التخييل والتمويه **(كما لا يتم)** أى يحصل ويتيسر، وعبر بالتمام؛ لأنه يتحقق به الأمر، ولذا قيل: الأعمال بخواتمها، أى بأواخرها **(لشاعر)** يتكلم بالمنظوم، **(ولا خطيب)** يتكلم بالمنثور **(أن يكون شاعرًا أو خطيبًا يضرب)** أى بشىء ونوع **(من الحيل)** جمع حيله، **(والتمويه)** أى التخييل والتلبيس، وهو مأخوذ من قولهم: موه النحاس بذهب أو فضة لتوهم من رآه أنه ذهب أو فضة، وهو فى الأصل من الماء يذاب، فيصير كالماء ثم يطلى به، وتقول العامة لمذابه: ماء الذهب وماء الفضة، وصيغة فعل يكون للتشبيه كثيرًا، فإنكار أهل المعانى لقوله: أنف مسرج بمعنى كالسراج فى البريق واللمعان لا وجه له كما مر.

(والتأويل) أى التفسير **(الأول)** الذى قال: إنه الظاهر الصحيح **(أخلص)** أفعل تفضيل من خلص بخاء معجمة ولام وصاد مهملة، أى أصفى من الكدر أى الإشكال.

قال فى المغرب: والخلوص الصفا، ويستعار للموصول انتهى، وهو بمعنى أجود، أو من الخلاص بمعنى النجاة والسلامة، **(وأرضى)** أفعل تفضيل من الرضى أى أكثر رضى وقبولا عند العقول السليمة.

(وفى هذا التأويل الثانى) الذى ذهب إليه غيره من علماء الحديث **(ما يغمض)** بالبناء للمجهول وتشديد الميم قبل ضاد معجمة من تغميض الجفن، وهو غطاء العين ومعنى يغمض **(عليه الجفن)** أنه يغض عنه البصر والنظر، فلا يلتفت إليه ويعتنى به، أو هو كالقذاء فى العين الذى يمنع انفتاح الأجفان، وهو كناية عن أنه غير سالم من الاعتراض، **(ويغضى)** بغين وضاد معجمتين وألف مبنى للمجهول، لأجل قافية السجع من أغضى الجفن إذا أطبقه، أو بمعنى سكت وهو قريب مما قبله، قيل: جعله مرجوحًا؛ لما فيه من إيهام أن معجزات الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، يمكن معارضتها، ولو بطريق التخييل والحيلة، وفيه وجوه أخر.

(وجه ثالث) فى إعجاز القرآن وأنه أعظم معجزاته، صلى الله تعالى عليه سلم، **(على مذهب من قال بالصرفة)** على أن إعجازه بصرف الله قدرتهم وتمكنهم من معارضته مع أنهم بحسب الجبلة قادرون على الإتيان بمثله لولا ما ذكر، وإليه ذهب النظام وكثير من المعتزلة والشريف المرتضى من الشيعة، **(وأن المعارضة)** له والإتيان بمثله **(كانت فى قدرة البشر فصرفوا عنها)** إما بسلب قدرتهم ودواعيهم، أو بسلب علمهم بتأليف كلام مثله وتمكنهم منه، **(أو على أحد مذهبى أهل السنة من أن الإتيان بمثله من جنس مقدورهم)** على الإتيان بكلام من جنسه، أى مما هو فى قدرتهم متمكنون منه، ولكن لم يكن ذلك قبل بالبناء على الضم أى قبل ظهوره، **(ولا يكون بعد)** بالضم وقيل: المراد قبل التحدى وبعده؛ **(لأن الله تعالى لم يقدرهم)** بسكون القاف وفتحها وتشديد الدال وتخفيفها: أى لم يجعل فيهم القدرة على الإتيان بمثله؛ لأنهم لم يسمعوا كلامًا مثله، **(ولا يقدرهم عليه)** بعده، ولما كان هذا المذهب قريبًا مما قبله أشار إلى الفرق بينهما بقوله: **(وبين المذهبين)** أى مذهب الصرف والمذهب المذكور بعده **(فرق بين)** التشديد واضح ظاهر؛ لتمكنهم على الأول من الإتيان بمثله، لكن صرفوا عنه، ولعدم تمكنهم منه على الثانى مع أنه من جنس مقدورهم، ومثله فى الجملة، وليس هذا نوع من الصرفة، وذهب إليه بعض أهل السنة كما توهم، وهو عجيب من قائله فتدبر.

(وعليهما جميعًا) أى على هذين القولين **(فترك العرب)** الفصحاء على المذهب الأول **(الإتيان بما فى مقدورهم)** أى قدرتهم على الإتيان بما هو مثله، أو مثل بعضه كأقصر سورة منه، **(أو)** تركهم على الثانى **(ما هو من جنس مقدورهم)** أى من جنس كلامهم

البليغ الذى يقدرون عليه، **(ورضاهم)** أى اختيارهم **(بالبلاء)** أى بما ابتلوا به لعنادهم، **(والجلاء)** بفتح الجيم واللام والمد بوزن البلاء، وهو إخراجهم من ديارهم وأوطانهم، **(والسباء)** بكسر السين المهملة والموحدة والمد، وهو سبى أولادهم وأهلهم واسترقاقهم، **(والإذلال)** لأنفسهم وأهليهم، **(وتغيير الحال)** التى كانوا عليها من العزة والشهامة، **(وسلب النفوس)** بالقتل والفتك فيهم، **(والأموال)** بأخذ الغنائم منهم، **(والتقريع)** باللوم والزجر والتغيير، **(والتوبيخ)** بذمهم وتقبيح ما هم عليه من الجهل، **(والتعجيز)** بإظهار عجزهم بالتحدى، **(والتهديد)** لهم بإنذارهم بعذاب الدنيا والآخرة، **(والوعيد)** بما يقع بهم إن لم يؤمنوا **(أبين آية)** أى أظهر علامة وهو خبر قوله فترك العرب **(للعجز عن الإتيان بمثله)** أى بمثل القرآن فى فصاحته وإعجازه.

(والنكول) وهو النكوص أى الرجوع والإعراض **(عن معارضته)** أى الإتيان بمثله **(وأنهم منعوا عن شىء هو من جنس مقدورهم)** أى كلامهم الذى يقدرون عليه، لا من نوعه المشابه له من جميع الوجوه.

(وإلى هذا) المذهب وهو أنهم قادرون على شىء من جنسه عاجزون عن مثله لا بالصرفة، وهذا هو الفرق بين القولين **(ذهب)** أى اختاره مذهبًا **(الإمام أبو المعالى الجوينى)** منسوب إلى جوين بزنه المصغر اسم بلدة، وهو إمام أهل السنة عربا وعجما فرد الأمة عبد الملك بن عبد الله بن يوسف النيسابورى الشافعى إمام الحرمين، أعلم أئمة الشافعية هو ووالده، ولد فى ثامن عشر المحرم سنة تسع عشرة وأربعمائة، وتوفى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فى الخامس والعشرين من ربيع الآخر، **(وغيره)** من أهل السنة.

(وقال) أبو المعالى: **(وهذا)** إعجاز **(وعندنا أبلغ)** أى أقوى وأكثر مبالغة **(فى خرق العادة بالأفعال البديعة)** أى المبتدعة الغريبة **(فى أنفسها)** أى فى حد ذاتها، وهو متعلق بالبديعة، وفى نسخة فى أنفسنا وهو متعلق بأبلغ **(كقلب العصا حية)** لموسى، عليه الصلاة والسلام، وكانت من شجر اللوز، وفيها معجزات كانت تثمر له وتضىء وينتفع بها إلى غير ذلك مما فصلوه، **(ونحوها)** كاليد البيضاء وإبراء الأبرص والأكمه وإحياء الموتى.

(فإنه) أى الأمر والشأن أو كونه أبلغ **(قد يسبق إلى بال الناظر)** فيها وفكره وخاطره **(بدارًا)** أى مبادرًا بسرعة فى أول نظره **(أن ذلك)** الأمر البديع الخارق للعادة نشأ **(من اختصاص صاحب ذلك)** الأمر الذى ظهر على يديه **(بمزيد معرفة)** أى بزيادة معرفة امتاز بها عمن لم يقدر عليها **(فى ذلك الفن)** أى النوع الذى كان يعتنى به أهل زمانه، **(وفضل علم)** به وأحواله **(إلى أن يرد ذلك)** الخاطر الذى سيق لفهمه **(صحيح النظر)**

بالتأمل والتدبر فيه حتى يعلم إعجازه.

ثم بين أبلغيته وقوته بقوله: **(وأما التحدى)** أى طلب معارضة الكلام، أو تقدم أنه مشتق من الحد التقابل الحداة فى حداتهم للإبل **(للخلائق)** جمع خليقة بمعنى خلق **(مئين)** بكسر الميم جمع مائة **(من السنين)** فى عصر النبوة وبعده إلى غير النهاية **(بكلام من جنس كلامهم)** المقدور لهم؛ **(ليأتوا بمثله)** علة للتحدى، **(فلم يأتوا)** أى لم يقدروا على مثله، وهم فحول البلاغة وقد وبخوا وعيروا على رءوس الأشهاد، **(ولم يبق بعد توفر الدواعى)** أى كثرة ما يدعوهم لمعارضته ويحثهم عليها من الحمية الجاهلية **(على المعارضة ثم عدمها)** أى المعارضة مع كثرة دواعيها، **(إلا أن منع الله الخلق عنها)** بالصرفة، أو بعدم القدرة على نوعه دون جنسه، فيصدق على المذهبين، وفى نسخة إلا منع الله إلخ، **(بمثابة)** أى هذا المنع بمنزلة، وأصل المثابة المكان الذى يرجع الناس إليه، أو يكتسبون فيه الثواب، ثم شاع فيما ذكر كما أشار إليه الراغب، وقيل: أصله مبلغ جموم البئر والحجارة حولها، ثم نقل لما ذكر، وقد اصطلح الفقهاء على استعماله للتشبيه كما قيل، فالمراد أنه نحو **(ما لو قال نبى: آيتى ومعجزتى أن يمنع الله القيام عن الناس مع مقدرتهم عليه وارتفاع الزمانة عنهم)** بأن لا يكونوا مقعدين، وهو بيان لقدرتهم على القيام، والمقدرة بضم الدال وفتحها كما تقدم، **(فلو كان ذلك)** أى عدم قيامهم **(وَعَجَّزَهُمْ)** بتشديد الجيم أى جعلهم الله عاجزين عنه، **(لكان ذلك من أبهر آية)** أى أقوى معجزة **(وأظهر دلالة)** على نبوته، **(وبالله التوفيق)** فيه إشارة إلى أن فيه توفيقًا بين القولين لاتفاقهم من وجه واختلافهم من آخر.

(وقد غاب عن بعض العلماء) أى خفى عليهم؛ لأن من شأن الغائب أن يخفى، فأريد به لازمه **(وجه ظهور آيته، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، ولتضمينه معنى العلو قال: **(على سائر آيات الأنبياء)** الذين سلفوا قبله، **(حتى احتاج للعذر عن ذلك)** أى عن كون معجزته أظهر من معجزات غيره مع أن إحياء الموتى ونحوه من آيات الأنبياء قد يتوهم أنه أقوى وأظهر **(بدقة أفهام العرب)** أصل معنى الدقة كون الشىء دقيقًا، ثم استعير للوقوف على ما خفى من الأمور، **(وذكاء ألبابها)** جمع لب، وهو العقل الخالص، والذكاء قوة للذهن تقتضى سرعة الانتقال، **(ووفور عقولها)** الوفور من الوفرة، وهى الكثرة والزيادة، والعقول جمع عقل وهو القوة المدركة يعنى أن هذا من شأن هذا الجنس، ولا يضره تفاوتهم بحسب الأشخاص فيما ذكر كما توهم مع أنه لا يرد على المصنف، رحمه الله تعالى؛ لأنه حكاه عن غيره، **(وأنهم)** لما خصوا به من الذكاء والفطنة **(أدركوا المعجزة فيه)** أى فى القرآن لما علموه من خواص تراكيبه، وجزالة معانيه، وحسن نظمه واتساقه **(بفطنتهم)** أى قوة ذكائهم **(وجاءهم من ذلك)** أى حصل فى

نفوسهم من معرفة إعجازه وظهوره على غيره (**بحسب إدراكهم**) بفتح السين أى حصل منه على مقدار إدراكهم وقوته.

(**وغيرهم**) من الأمم (**من القبط**) القبط بكسر القاف، جيل من الناس كانوا قوم فرعون بمصر، (**وبنى إسرائيل**) أى أولاد يعقوب بن إبراهيم وإسرائيل لقب يعقوب، (**وغيرهم لم يكونوا بهذه السبيل**) أصل معناه الطريق، وهو هنا كناية عن عدم ذكائهم وفهمهم كالعرب، ونفى سبيل الشيء أبلغ من نفيه، (**بل كانوا من الغباوة وقلة الفطنة**) الغباوة: عدم الفهم والبلادة، وعطف قلة الفطنة عليه عطف تفسير، ورجل غبى جاهل قال:

ليس الغبى بسيد فى قومه لكن سيد قومه المتغابى

(**بحيث جوز عليهم فرعون أنه ربهم**) حيث ظرف مكان، وهو خبر كان أى بلغت غباوتهم أن فرعون قال لهم: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، فسلموا له ذلك، وهذا بالنسبة للقبط، (**وجوز عليهم السامرى**)، وهو رجل من بنى إسرائيل يسمى موسى ابن ظفر، وهو منسوب لرجل اسمه سامر (**ذلك فى العجل**) أى أنه ربهم فعبدوه، والعجل الصغير من البقر (**بعد إيمانهم**) بالله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]، وكان من أهل كرمان من قوم تسمى السامرة يعبدون البقر، وكان منافقا يظهر الإسلام، فلما مضى موسى، عليه الصلاة والسلام، صاغ لهم عجلا من الحلى وزينه بالجواهر، وقذف فيه ترابًا من أثر فرس ركبه جبريل، عليه الصلاة والسلام، فكان يتحرك، فقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى، وإن موسى أخطأ الطريق إليه، فجاءكم يكلمكم كما كلمه، فاتبعوه لسخافة عقولهم كما فصله المفسرون وغيرهم.

(**وعبدوا**) أى بنو إسرائيل (**المسيح**) عيسى ابن مريم (**مع إجماعهم على صلبه**) وإذا كان ربا كيف يصلب مع أنه اعتقاد باطل، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، أى ألقى شبهه على رجل إسرائيلى فظن اليهود أنه عيسى، عليه السلام، فصلبوه وهذا جهل عظيم منهم.

(**فجاءهم من الآيات الظاهرة البينة للأبصار**) أى لعدم دقة أفهامهم كانت آياتهم فى غاية الظهور تدرك بالبصر (**بقدر غلظ أفهامهم ما لا يشكون فيه**) فاعل جاء وعدم شكهم لظهور ما جاءهم، (**ومع هذا**) الظهور (**فقالوا لموسى**: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾) [البقرة: ٥٥]، أى معاينة بأبصارنا لشكهم فيما أتاهم به، وتفصيله فى التفاسير غنى عن البيان، (**ولم يصبروا**) أى بنو إسرائيل (**على المن**)، وهو طل كالعسل ينزل على الأشجار فيجمع ويؤكل، (**والسلوى**) وهو طائر كالسمانى واحده سلواه،

وكانوا لما خرجوا من التيه قالوا لموسى، عليه الصلاة والسلام: أخرجتنا من العمران للفقر، فادع الله أن يرزقنا فرزقهم المن، ثم سألوه أن يطعمهم من اللحوم فأتاهم بالسلوى، فكانوا يأخذونها بأيديهم، ثم قالوا: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١]، ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾، أى طلبوا بدلاً أدنى مما عندهم، وهو الفوم والعدس والبصل ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، وهو المن والسلوى، والباء داخلة على المتروك، وفيها تفصيل أفرد بالتأليف.

(والعرب على جاهليتها) أى على حالها التى كانت عليه قبل الإسلام من الجهل، وأنها أمة أمية، والجاهلية مصدر بمعنى الجهل، وعلى بمعنى مع، وقيل: إنها مستعارة لتمكنهم فى الجهل كقوله: ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥].

(أكثرها يعترف بالصانع) أى بوجوده تعالى، وليست معطلة كبعض الأمم، وإطلاق الصانع على الله تعالى صحيح ثبت فى السنة كما ذكره السيوطى، رحمه الله تعالى، وليس مما أحدثوه، وفى قوله أكثرها إشارة إلى أن معهم فرقة دهرية قالوا: ما يهلكنا إلا الدهر، وفرقة عبدوا الملائكة وفرقة عبدت الكواكب، **(وإنما كانت)** عبدة الأصنام منهم **(تتقرب بالأصنام إلى الله تعالى زلفى)** ولا تدعى أنها خالقة رازقة، وزلفى مقصور بمعنى الحظوة من ازدلف، بمعنى دنى، وهو مصدر كالزلفة مؤكد لتتقرب من غير لفظه.

(ومنهم من آمن بالله وحده من قبل) بعثة **(الرسول)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الجاهلية كابن نفيل وقس بن ساعدة وأمية بن أبى الصلت **(بدليل عقله وصفاء لبه)** الذى هداه إلى معرفة الله تعالى وتوحيده للنظر فى مصنوعاته(١):

وفى كل شىء له آية   تدل على أنه الواحد

(ولما جاءهم الرسول) صلى الله تعالى عليه وسلم، أى بعثه الله تعالى؛ ليهديهم إلى الله تعالى **(بكتاب الله تعالى)** المنزل عليه **(فهموا حكمته)** أى ما فيه من الحكم والعلوم النافعة، **(وتبينوا بفضل إدراكهم)** وزيادة عقلهم **(لأول وهلة)** أى فى أول نظر بالبديهة منهم، يقال: لقيته أول وهلة بسكون الهاء وفتحها، أى أول شىء، ولام لأول توقيتية، أى عند أول وهلة **(معجزته)** يعنى القرآن، **(فآمنوا)** به **(وازدادوا كل يوم إيمانًا)** وتصديقًا بنبوته ومعجزاته، والإيمان بمعنى التصديق يقبل الزيادة قوة وضعفا عند المحققين، وإن لم نقل إن الأعمال داخلة فيه كما تقرر فى علم الكلام.

(ورفضوا) أى تركوا **(الدنيا كلها فى صحبته)** أى لاختيار صحبته على كل شىء.

(وهجروا ديارهم وأموالهم) طلبًا لرضا الله تعالى ورضاه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

---

(١) البيت من المتقارب، وهو لأبى العتاهية فى ديوانه (ص١٠٤).

(وقتلوا آباءهم وأبنائهم) المعاندين له لأجل نصرته وإعزاز دينه **(فى نصرته)** فى هنا تعليلية، **(وأتى)** هنا القائل الذى غاب عنه ما تقدم **(فى معنى هذا)**، وزعم أن ظهور آياته لما قاله **(بما يلوح له رونق)** أى يظهر له لفظ حسن، **(ويعجب منه زبرج)** بكسر الزاء المعجمة وسكون الباء الموحدة وكسر الراء المهملة وجيم، وهى الزينة والوشى الذى هو كالطلاء، وفيه إشارة إلى عدم قبوله لضعفه، ولذا قال: **(لو احتيج إليه وحقق)** أى بينت حقيقتة، **(لكنا قدمنا من بيان معجزات نبينا)** صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وظهورها)** من غير حاجة لما ذكره من ذكاء العرب وفهمهم **(ما يغنى عن ركوب بطون هذه المسالك)** أى ادعاء مثل هذه الأمور الخفية، **(وظهورها)** أى ما يظهر منها قبل تدقيق النظر والتدبر.

(وبالله أستعين)، والحمد لله وحده، وصلى الله تعالى على من لا نبى بعده، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا دائمًا.

* * *

القسم الثانى
فيما يجب على الأنام من حقوقه، عليه الصلاة والسلام

الوجوب الشرعى ما يلزم شرعًا، وهو ظاهر والأنام الخلق والناس، والحقوق جمع حق وهو ما يستحقه، عليه الصلاة والسلام.

(وهذا قسم) من الأقسام الأربعة التى ذكرها المصنف، رحمه الله تعالى، **(لخصنا الكلام فيه)** أى اختصرناه من غيره من الكتب وبيناه وسهلناه **(فى أربعة أبواب على ما ذكرناه فى أول الكتاب)** فى إجمال ما اشتمل عليه وفهرسته، **(ومجموعها)** أى محصلها وإجمالها من قولهم جمل الحساب والضمير للأبواب الأربعة **(فى وجوب تصديقه)**، عليه الصلاة والسلام، فى كل ما جاء به عن ربه، ويدخل فيه الإيمان بأنه رسول، والإيمان بسائر الرسل والكتب المنزلة، وقدمه لأنه الأصل فلا حاجة لما قيل من أنه خصه لأنه المقصود من تصنيف الكتاب؛ ولأنه أشرفهم وخاتمهم.

(واتباعه) صلى الله تعالى عليه وسلم، أى الاقتداء به فيما ليس من خواصه، وهو مجرور معطوف على تصديقه أى بأن يجب اتباعه فى وجوب الواجب، وسنية المسنون، وإباحة المباح، وتحريم المحرم، وقيل: ينبغى تقييده بالواجب لا المسنون.

(وطاعته) بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والطاعة كما قاله الراغب: الانقياد، ويضادها الكره قال الله تعالى: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١]، وأكثر ما يقال لما مر، انتهى، فلذا عطفها على الاتباع، فإنه قد يكون كرهًا فمن قال فى الفرق: إن المطيع مسلوب الاختيار مع المطاع، وفى الصحاح: فلان مطيع لك أى منقاد لم يصب فى مدعاه واستدلاله.

(ومحبته) بأن يكون، صلى الله تعالى عليه وسلم، أحب إليه من نفسه وأهله وماله، والمحبة الميل النفسانى وهى معروفة.

(ومناصحته) له، وهى لغة: الخلوص، وشرعًا: إرادة الخير للمنصوح وسيأتى، وعبر بالمناصحة دون نصحه؛ لأنها أبلغ ولأن الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، نصح الأمة وبالغ فى نصحهم.

(وتوقيره) أى تعظيمه والتأدب معه بما هو لائق به، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وبره) صلى الله تعالى عليه وسلم، ببذل ما فى وسعه له من المال وغيره من أمور الدنيا، فما قيل من أنه تكرار ينبغى تركه لأنه للطاعة لا وجه له.

(وحكم الصلاة عليه والتسليم) من الوجوب ومحله.

(وزيارة قبره) أى وحكم زيارة قبره الشريف، **(عليه الصلاة والسلام)**، وعبر بالحكم فيهما لأن وجوب ما قبلها مستمر دونها، وتعبيره به لأنه فى بيته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا حكمة دفنه دون المقابر.

* * *

الباب الأول
[فى فرض الإيمان به ووجوب طاعته واتباع سنته]

تقدم وجه تقديمه **(فى فرض الإيمان به)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، عبر فيما سبق بوجوب تصديقه، وهنا بفرض الإيمان تفننا وإشارة إلى أن الفرض والواجب بمعنى عنده هنا، وأن المراد بالتصديق الإيمان لا معناه اللغوى، والحنفية تقدم أنهم فرقوا بين الفرض والواجب بأن الفرض ما ثبت بدليل قطعى بخلاف الواجب، فإن الفرض لغة القطع وخالفهم فيه غيرهم كما بين فى الأصول.

(ووجوب طاعته) أتى هنا لما ذكرناه، وللإشارة إلى أنه فيما سبق معطوف على تصديقه لا على وجوب، فلا وجه لما قيل إنه لا حاجة إليه، وأنه ينبغى تقديمه.

(واتباع سنته) أى طريقته التى سنها صلى الله تعالى عليه وسلم، وشرعها فهو بالمعنى اللغوى، فيدخل فيه السنن الاصطلاحية وغيرها، وهو مقابل لقوله أولاً اتباعه، ولم يعد فى لأنه غير مغاير لما قبله؛ لأن اتباع سنته طاعة له، فلا يقال: إنه ينبغى ذلك.

(إذا تقرر) وثبت **(بما قدمناه)** فى هذا الكتاب **(ثبوت نبوته)** بالوحى إليه، **(وصحة رسالته)** لجميع الخلق وآخرها لأنها أخص، وعبر بالصحة تفننا؛ ولأن من الكفرة من ادعى عدم صحتها كاليهود المنكرين للنسخ، وبعض من غيرهم ادعى عدم عموم رسالته، **(وجب الإيمان به وتصديقه فى)** جميع **(ما أتى به)** وأخبرنا به، ومنه الإيمان بالله ورسله وكتبه وغيرها إن لم نقل: إن الإيمان بالله واجب عقلاً مقدمًا على ما عداه؛ لئلا يلزم الدور كما ارتضاه بعض الماتريدية، وخالف فيه بعض الأشعرية كما حقق فى كتب الكلام، وقيل: الإيمان بالله تعالى مقدم على الإيمان بالرسل، والإيمان بالرسل متوقف على ثبوت الرسالة كما قاله، ثم من آمن به وجب عليه طاعته بامتثال ما جاء به من الشرائع، انتهى وفيه نظر.

(قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾) [التغابن: ٨]، محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، **﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾**، يعنى ما أوحى به إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الشريعة، وهذا هو المناسب لما قبله، وقيل: المراد به القرآن إذ هو بإعجازه ظاهر بنفسه مظهر لغيره ببديع بيانه، فإطلاق النور عليه استعارة كما ذكر، أو لأنه يهتدى به، والأمر للوجوب والاستدلال بالآية ظاهر.

(وقال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا﴾) [الأحزاب: ٤٥]، على من صدق وكذب

ليثاب أو يعاقب، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن آمن بسعادة الدارين، وحذف المبشر به تفخيمًا لتذهب نفس السامع كل مذهب كما فى قوله تعالى: ﴿وَنَذِيرًا﴾ أى منذرًا ومخوفًا لمن عصاك، ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الفتح: ٩]، الخطاب فى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ له صلى الله تعالى عليه وسلم، ولام لتؤمنوا لام كى، وقيل: تحتمل أن تكون لام أمر وهو بعيد، وقرئ ليؤمنوا بالغيبة وهى ظاهرة؛ لأن خطابه صلى الله تعالى عليه وسلم، خطاب لأمته، وفيه كلام بيناه فى حاشية القاضى، والاستدلال بالآية على التعليل لأن الإنذار يقتضى وجوب اتباعه على أنه فى غنية عنه بما قبله وبعد من قوله: (**وقال الله تعالى:** ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾) [الأعراف: ١٥٨] الآية، أى ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، وقد تكرر الأمر به فى القرآن فى آيات كثيرة، (**فالإيمان بالنبى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم واجب**)، لأمر الله به مرارًا (**متعين**) أى فرض عين لا فرض كفاية، فيجب الاعتراف به باللسان إن قدر، والتصديق بالجنان فلابد منهما شرعًا (**إذ لا يتم**) ويصح (**إيمان**) لأحد بالله (**إلا به**) أى الإيمان برسوله، عليه السلام، وبكل ما جاء به، (**ولا يصح إسلام إلا معه**) أى مع الإيمان بالله والإيمان بالرسول بعينه، وليس هذا مبنيًا على تغاير الإيمان والإسلام على قول، بل هو تأكيد لما قبله لتغايرهما بحسب المفهوم، وإن اتحدا بحسب الماصدق، فإنه لا يكون مؤمن إلا وهو مسلم، ولا مسلم إلا وهو مؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

(**قال الله تعالى:** ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾) [الفتح: ١٣]، وفى الآية نص على أن الإيمان المعتد به إنما يكون بالجمع بين الإيمان بالله وبرسوله، فينتفى بانتفاء أحدهما لتفريع قوله: (**فإنا أعتدنا إلخ**) عليه.

(**حدثنا أبو محمد الخشنى بقراءتى عليه**) هو حديث صحيح رواه مسلم والبخارى، والخشنى بضم الخاء والشين المعجمتين ونون وياء نسبة تقدمت ترجمته قال: (**حدثنا الإمام أبو على الطبرى**) تقدمت ترجمته قال: (**حدثنا عبد الغافر الفارسى**) تقدمت ترجمته قال: (**حدثنا ابن عمرويه**) الجلودى، وقد تقدم وأن عمرويه بفتح العين وسكون الميم وفتح الراء وضمها، وأن مثله صيغة تصغير عند أهل البصرة مولدة قال: (**حدثنا ابن سفيان**) إبراهيم بن محمد بن سفيان راوى مسلم قال: (**حدثنا أبو الحسين**) هو الإمام مسلم القشيرى صاحب الصحيح المشهور قال: (**حدثنا أمية بن بسطام**) بكسر الباء الموحدة وفتحها، وفيه الصرف وعدمه توفى سنة إحدى وثلاثين ومائة، وهو إمام جليل أخرج له الشيخان والنسائى قال: (**حدثنا يزيد بن زريع**) بزنة مصغر الزرع الإمام الحافظ أبو معاوية البصرى كما تقدم قال: (**حدثنا روح**) بفتح الراء المهملة وواو ساكنة وحاء

مهملة وهو ابن القاسم التميمى البصرى الإمام الثقة مات سنة نيف وخمسين ومائة **(عن العلاء)** بفتح العين المهملة والمد **(ابن عبد الرحمن بن يعقوب)** عالم المدينة، وهو أبو شبل مولى الحرقة أخرج له مسلم وأصحاب السنن **(عن أبيه)** عبد الرحمن **(عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: أمرت)** ببناء المجهول أى أمرنى الله إذ لا آمر له، صلى الله تعالى عليه وسلم، سواه **(أن أقاتل الناس)** أى بأن أقاتلهم، ومحله بعد حذف الجار نصب أو جر، وهو عام للناس كلهم خص منه من ضربت عليه الجزية، **(حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله)** غاية لقتالهم ينتهى ويتخصص بالغاية، **(ويؤمنوا بى)** أى بكونى نبيا رسولاً، **(و)** يؤمنوا **(بما جئت به)** من الله وأوحاه إليه من شريعته التى أمر بتبليغها وتكليفهم بها، **(فإذا فعلوا ذلك)** المذكور من الشهادة والتصديق لما جاء به والتزام أحكام شريعته **(عصموا)** أى صانوا وحفظوا **(منى دماءهم)** بعد المقاتلة لهم **(وأموالهم)**، فلا تؤخذ بالغنائم ولا بسبب من الأسباب **(إلا بحقها)** أى أن تستحق إباحة دمائهم بقتل نفس ظلمًا ونحوه، أو يستحق أموالهم بمنع زكاة أو ثبوت حق عليهم، **(وحسابهم على الله)** أى أمرهم بعد ما ذكر موكول إلى الله تعالى إذا حاسبهم على ما أسروه فى أنفسهم، وما لم نقف عليهم من الكفر والمعاصى، فيثيب من يشاء ويعاقب من يشاء، والمنافق لا يقتل إلا إذا ظهر منه ما يقتضى كفره، ومثله الزنديق واختلفوا فى قبول توبته، فقيل: يقبل مطلقًا، وقيل: قبل الأخذ، وقيل: لا يقبل مطلقا وتوبته إن خلصت نفعته فى الآخرة، وقيل: إن تاب مرة قبلت وإن تكررت لا، وقيل: لا تقبل إن دعى لزندقته.

وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: ويؤمنوا بى إشارة إلى أن أهل الكتاب لا يمنع قتالهم بمجرد الشهادة بأن لا إله إلا الله، ودخل قتال البغاة ومانعى الزكاة وتاركى الصلاة فى قوله إلا بحقها، وفى الحديث دليل على أن الإيمان يكفى فيه الإقرار بما ذكر فيه، وأنه لا يشترط فيه معرفة الأدلة الأصولية كما قاله النووى، رحمه الله تعالى، وليس مبنيا على قبول إيمان المقلد كما توهم.

(قال القاضى أبو الفضل) عياض المؤلف، رضى الله تعالى عنه: **(والإيمان به، صلى الله تعالى عليه وسلم، هو تصديق نبوته)** أى التصديق بها، **(ورسالة الله له)** أى إرساله، والإضافة اختصاصية لا بمعنى الباء كما توهم، وإن كان المعنى عليها، **(وتصديقه فى جميع ما جاء به)** عن الله بالوحى بأنواعه، **(وما قاله)** أى فى جميع أقواله؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، معصوم لا يصدر عنه ما يخالف الواقع لاسيما ما أمر به بتبليغه، **(ومطابقة)** أى موافقة **(تصديق القلب)** أى اعتقاده والجزم به، وأصل المطابقة وضع شىء على شىء هو طبقة، وقوله **(بذلك)** أى بالتصديق بالنبوة والرسالة، وما جاء به **(شهادة اللسان)**

بنطقه واعترافه (**بأنه رسول الله، فإذا اجتمع التصديق به، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالقلب والنطق بالشهادة بذلك**) المذكور من رسالته وما جاء به (**باللسان ثم الإيمان**) الحقيقى المنجى فى الدنيا والآخرة.

(**والتصديق له**) أى كيفيته ولفظه (**كما ورد فى هذا الحديث**) الذى رواه المصنف، رحمه الله تعالى، عن أبى هريرة (**نفسه**) بالجر تأكيد للحديث (**من رواية عبد الله بن عمر، رضى الله تعالى عنهما: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله**)، وهذه رواية مسلم عن ابن عمر وفيها: (**ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا**) إلى آخره، وقوله: ثم الإيمان أى تحقق وصح، وليس مراده أنه إذا وجد أحدهما كتصديق القلب كان إيمانًا ناقصًا كما سنفصله، والنطق بالشهادة مع أنه لابد من اختلف فيه، هل هو شطر أو شرط، والأعمال ليست داخلة فيه عند المحققين، وفيه كلام مفصل فى كتب الأصول وشروح الصحيحين يضيق المقام عنه.

(**وقد زاده وضوحًا**) أى زاد صلى الله تعالى عليه وسلم، ما ذكر بيانًا (**فى حديث جبريل**)، عليه الصلاة والسلام، الذى رواه الشيخان كما تقدم (**إذ قال**) له جبريل لما جاءه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى صورة إنسان: (**أخبرنى عن الإسلام**) أى حقيقته ومعناه شرعًا، وهو فى اللغة الانقياد والطاعة كما علم، وقيل: السؤال عن شريطته وشروطه.

(**فقال**) صلى الله تعالى عليه وسلم: (**أن تشهد أن لا إله إلا الله**) أن مخففة من الثقيلة، وتشهد بمعنى تعلم بأن يقول: أشهد إلى آخره، وقد اختلف هل يشترط فيه لفظ الشهادة أو يكفى ما يؤدى معناه، والصحيح عندنا الثانى معاشر الحنفية، ولو بغير لفظ العربية لمن لا يقدر عليه، (**وأن محمدًا رسول الله**) أرسله لجميع خلقه، (**وذكر أركان الإسلام**) يعنى قوله: (**ويقيم الصلاة**)، بالنصب عطف على تشهد، وجوز بعضهم رفعه استئنافًا نظرًا إلى أنه يكفى فى إجراء أحكام الإسلام الشهادتان، وكذا ما بعده.

وجوابه: أنه بيان لأكمله، وإقامة الصلاة أداؤها (**وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال: صدقت فعجبنا له كيف سأله ويصدقه**).

(**ثم سأله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**عن الإيمان**) أى عما يجب التصديق به شرعًا، (**فقال**) مجيبًا له: (**أن تؤمن بالله**) أى تصدق بوجوده وأنه واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله، ولا شريك له فى ذلك وليس هذا تعريفًا للشىء بنفسه؛ لا لأنه يكونمتعديًا بنفسه، ومعناه أن يأمن التكذيب، ومتعديًا بالباء لتضمنه معنى الاعتراف، وقد يتعدى باللام لتضمنه معنى القبول والإذعان، والمعروف هو الأول، وما وقع فى التعريف هو الثانى،

بل لأن الأول معلوم، والمسئول عنه بيان متعلقاته التى يجب الإيمان بها إجمالاً، وعلم من الحديث تغاير مفهوم الإسلام والإيمان، فإن الإسلام كما مر لغة الاستسلام والانقياد، وهو جزء من مفهوم الإيمان الذى هو التصديق بالقلب واللسان، وقيل: إنهما مترادفان والأظهر أنهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، وقيل: بينهما عموم وخصوص مطلق وأن الإسلام يتناول التصديق وأصله الطاعات كما فصل فى علم الكلام.

(وملائكته) جمع ملك من الألوكة وهى الرسالة، وأصله مالك ثم قلب وجمع وخفف مفرده، وتاؤه لتأنيث الجميع أو المبالغة، وتقدم الكلام على ذلك فى الخطبة، وأنهم أجساد نورانية سالمة من الكدورات الجسمانية قابلة للتشكل، والإيمان بهم أن تؤمن بأنهم عباد الله معصومون لا يفعلون غير ما يؤمرون لا يعلم عدتهم إلا الله.

(وكتبه) التى هى كلامه تعالى المنزل على رسله الأزلى، فيصدق بحقيقتها وحقيقة ما تضمنته.

(ورسله) جمع رسول، وهو من أوحى إليه بشرع وكتاب وأمره بتبليغه عباده **(الحديث)** أى اذكره واقرأه واعرف ذلك إلى آخره، **(وهو اليوم الآخر والقدر خيره وشره)**، واقتصر المصنف، رحمه الله تعالى، على المقصود منه.

(فقد قرر) أى بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فى هذا الحديث **(أن الإيمان)** أى بالله أو بما ذكر فى الحديث **(محتاج إلى العقد)** أى الاعتقاد الجازم **(بالجنان)** بفتح الجيم، وهو القلب سمى به لاستتاره أو استتار ما فيه، من جنه إذا ستره، **(والإسلام به)** أى بالله أو بما ذكر **(مضطر)** أى محتاج إليه ضرورة لأنه لا يظهر الانقياد بدونه، ولذا غاير بينهما **(إلى النطق باللسان)** ليعلم ما فى قلبه، **(وهذه الحالة)** أى اعتقاد الجنان والنطق باللسان **(هى المحمودة)** عند الله والناس **(التامة)** بناء على أنه اسم لفعل القلب واللسان كما ذهب إليه بعض الأشعرية، ووصفها بالتام إشارة إلى أن عقد الجنان كاف، وإن لم ينطق به، والنطق شرط لإجراء أحكام الإسلام عليه فى الدنيا كالصلاة عليه، ودفنه فى مقابرنا، فمن آمن بقلبه و لم يعلم به أحد نفعه إيمانه إلا على وجه الإباء.

(وأما الحالة المذمومة) لضررها فى الآخرة **(فالشهادة باللسان)** أى الإقرار والتلفظ بالشهادة به **(دون تصديق القلب)** بالاعتقاد الجازم، **(وهذا هو النفاق)** الذى يسمى صاحبه منافقًا، وهو من يظهر الإيمان ويخفى الكفر، وهو لغة إظهار خلاف ما يضمر من نافقاء اليربوع، وهو ما يخفيه من أبواب جحره؛ ليخرج منه إذا أحس بصائده كما قال:

ويستخرج اليربوع من نافقائه

(قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾) [المنافقون: ١]، الخطاب له، صلى الله تعالى

عليه وسلم، (**قالوا: نشهد إنك لرسول الله**)، فأقروا بشهادة مواطئة لقلوبهم بزعمهم، فرد عليهم علام الغيوب بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾، وهو توطئة لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾، (**أى كاذبون فى قولهم ذلك**) أى قولهم: إنك لرسول الله عن اعتقاد وتصميم؛ لأن سياقه مؤكدا بهذه التأكيدات يقتضى أنه ناشئ (**عن اعتقادهم**) الجازم (**وتصديقهم**) القلبى أو اللسانى، (**وهم لا يعتقدونه**) جملة حالية أى والحال أنهم ليسوا معتقدين لذلك كما أخبر الله تعالى به، (**فلما لم يصدق ذلك**) القول (**ضمائرهم**) أى ما أضمروه فى قلوبهم أو قلبهم؛ لأن الضمير يطلق عليه، (**لم ينفعهم أن يقولوا**) أى قولهم لم يفدهم فى الآخرة؛ لأنهم فى الدرك الأسفل من النار (**بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم**) لاعتقادهم خلافه، فهو كذب غير مطابق للواقع، وليس هذا مبنيًا على أن الكذب ما خالف الاعتقاد كما حققه أهل المعانى، وهذه الآية نزلت فى ابن أبى بن سلول رأس المنافقين وأصحابه، وقصته مشهورة فى كتب الحديث فلا نطول بها.

(**فخرجوا عن اسم الإيمان**) أى عن أن يسموا بما اشتق منه، فيقال لهم: مؤمنين فى الدنيا عند من عرفهم، (**ولم يكن لهم فى الآخرة حكمه**)، وهو دخول الجنة، فهم فى الدرك الأسفل من النار مع الكفار كما يأتى، وقوله فى الآخرة إشارة إلى أنهم يجرى عليهم فى الدنيا حكمه نظرًا لظاهر حالهم كما بينه بقوله: (**إذ لم يكن معهم إيمان**) فى الآخرة لانكشاف حالهم وافتضاحهم فيها، وقال: معهم، ولم يقل: إذ لم يكونوا مؤمنين، إيماء إلى أن إيمانهم لم يكن فى قلوبهم، فكأنه كان رفيقًا لهم لتلفظهم به، فإذا ماتوا فارقهم وبطل حكمه.

(**ولحقوا بالكافرين فى الدرك الأسفل من النار**) الدرك بفتح الراء وسكونها ما ينزل به لأسفل ضد الدرج يعنى أنهم فى قعر جهنم، وآخر طبقة منها، وهى سبع طبقات: جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم الجحيم، ثم الهاوية، ويطلق اسم كل طبقة منها على الجميع أيضًا بالاشتراك اللفظى والمعنوى.

(**وبقى**) جار (**عليهم حكم الإسلام**) فى الدنيا فيعاملون معاملة المسلمين فيما لهم وعليهم (**بإظهار شهادة اللسان**) أى بسببه لأنا نحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر، والمراد بحكم الإسلام كل ما كان داخلاً (**فى أحكام الدنيا**) أى ما يحكم به لهم وعليهم من أحكام الشرع (**المتعلقة بالأئمة**) أى السلاطين والخلفاء لا العلماء؛ لأنهم ليسوا مأمورين بإجرائها، (**وحكام المسلمين**) كالقضاة وغيرهم من النواب، وهذا حكم من لم يظهر لنا حاله منهم، فإن من ظهر حاله يكون كافرًا، فلا وجه لإيراده نقضًا هنا كما توهم، ولذا لم يصل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على ابن أبى بن سلول، وإن كنا نصلى عليهم،

وإنما لم يقتله لمصلحة أشار إليها فى الحديث الآتى بقوله: (**لئلا يتحدث الناس بأن محمدًا يقتل أصحابه**)، فكان هذا من خصائصه فى ابتداء الإسلام، ثم انتهى بانتهاء سببه، ولذا رفع عمر، رضى الله تعالى عنه، حكم المؤلفة قلوبهم، وهذا من عطف العام على الخاص، ثم زادهم بيانًا بقوله: (**الذين أحكامهم**) جارية ومبنية (**على الظواهر**) من أحوال الناس كلهم (**بما أظهروه من علامة الإسلام**) أى أن أحكام الدنيا جارية عليهم بسبب إظهار الإسلام بانقيادهم له والتزامهم أحكامه ظاهرًا، وإن لم يعتقدوها بقلوبهم، وفى نسخة علامات وزادها إشارة إلى أنهم ليسوا مسلمين حقيقة وإنما عليهم علامته (**إذ لم يجعل**) بيناء المجهول أى لم يجعل الله (**للبشر**) أى الناس كلهم (**سبيل**) أى طريق (**إلى السرائر**) جمع سريرة، وهى ما فى القلب مما لم يطلع عليه، فلم يكلفهم بمعرفته وإجراء حكمه (**ولا أمروا**) الضمير للبشر باعتبار المعنى (**بالبحث**) أى التفحص والتفتيش (**عنها**) أى عن السرائر، ثم ترقى فقال: (**بل نهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، عن التحكم عليها**) أى الحكم على السرائر، وعبر بالتحكم لما فيه من التكلف، أو لأنه ليس بحكم كما يقال: تحلم الرجل لمن لا حلم له.

(**فقال**) صلى الله تعالى عليه وسلم، لأسامة بن زيد فى حديث صحيح رواه البخارى لمن اضطر بعض الكفار فأسلم، فقتله أسامة لاعتقاده أن إسلامه بلسانه خوفًا من القتل، فقال له: أقتلته بعد أن أسلم (**هلا شققت عن قلبه**)، وهلا أداة تخصيص إذا دخلت على المستقبل أفادت الأمر، وإذا دخلت على الماضى أفادت الإنكار والتوبيخ، وشق متعد بنفسه، وعداه بعن لتضمينه معنى التفتيش أى شققت قلبه لتفتش عما فيه من الاعتقاد، وتعلم أقال ما قاله خوفًا أم لا؟ وهو كناية عن استحالة الوقوف عليه؛ لأنه بشقه لا يدرى ما فيه، والذم فيه ظاهر لما فيه من التوبيخ على ما لا يليق به، وكان عليه أن يختبره حتى يعلم هل هو مخلص أم لا؟ لكن لما رآه لم يسلم حتى رفع السيف لقتله، فظنه إيمان يأس لا يفيده كحال الغرغرة، فهو متأول لا متعمد للخطأ فى قتله.

والحديث كما فى الصحيحين عنه: بعثنا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى الحرقة من جهينة فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف عنه الأنصارى وطعنته برمحى حتى قتله، فلما قدمنا بلغ ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال لى: يا أسامة أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟ قلت: يا رسول الله إنما كان متعوذًا، فقال: أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟ ولم يزل يكررها، وقال: هلا شققت عن قلبه، فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟ فقلت: استغفر لى يا رسول الله، فقال: كيف تصنع بلا إله إلا الله إلى آخره، فلم

يقبل عذره[(١)].

وفيه تنبيه وموعظة وزجر، والرجل المقتول اسمه مرداس الفزارى أو الفدكى، وبما ذكرناه علم أن أسامة، رضى الله تعالى عنه، متأول فى قتله، ولم يسمع منه كلمة الشهادة بتمامها حتى يحكم بإسلامه، وإنما لامه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، لعجلته وعدم تثبته، وإنما كان يجب عليه أن يختبره، فلا يقتله وهو مسلم شرعًا كما لا يخفى، فقول الداودى: إنه يلزمه الدية لقتله لمسلم خطأ وإنما سكت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، عن ذكرها لعلمه لعلم السامع بذلك، أو لأنه كان قتل قبل نزول آية الدية والكفارة، وقول القرطبى: إنه لا يلزم من السكوت عدم الوقوع، وقول غيره إنه يحتمل أنه لم يجب عليه شىء لأنه مأذون فى أصل القتل، فهو كالطبيب والخاتن أو لم يكن له وارث مسلم ولا ولى، وأسامة، رضى الله تعالى عنه، أقر بذلك لا حاجة إليه.

أقول: إذا لم يكن له وارث ديته لبيت المال ولا يصح عفو الإمام عنه عندنا، وإن رجح السبكى فى فتاويه جوازه لمصلحة، ولا دليل فى الحديث لما عرفته ولأنه يستحق من بيت المال، فتنفيله الدية لا يكون عفوا.

(**والفرق بين القول**) أى مجرد التلفظ بالشهادة بلسانه، (**والعقد**) أى التصديق بقلبه واعتقاد جنانه (**ما جعل**) ما مصدرية أى جعله (**فى حديث جبريل**) الذى تقدم فى سؤاله عن الإسلام والإيمان (**الشهادة**) أى التلفظ بها ركنًا (**من الإسلام**) لما قال فى جوابه: أن تشهد إلى آخره، (**و**) جعله (**التصديق من الإيمان**) أى الاعتقاد بالقلب، وهذا بناء على تغاير الإسلام والإيمان، وفيه إشارة إلى تفسير تؤمن فى قوله: أن تؤمن بالله تعالى عز وجل إلى آخره.

(**وبقيت حالتان أخريان بين هذين**) أى الإقرار بلسانه والتصديق بجنانه أى الجمع بينهما (**أحديهما أن يصدق**) المكلف (**بقلبه ثم يخترم**) بخاء معجمة وتاء مثناة فوقية وراء مهملة مبنى للمجهول، يقال: اخترمته المنية والموت إذا أتاه بغتة بسرعة، وأصل معنى الخرم القطع، وتفريق المتصل فقيل له ذلك لقطعه الحياة، كما أشار إليه بقوله: (**قبل اتساع وقت الشهادة باللسان**) أى التلفظ والنطق بها لضيق الزمن، فهذه حالة بين الحالتين السابقتين، وهما الإقرار اللسانى والتصديق بقلبه الموافق له، وهو مؤمن بالاتفاق، والثانية: الإقرار باللسان وقلبه غير مصدق وهو منافق بالاتفاق، وحكمه ما مر وهذه حالة بينهما، (**فاختلف فيه**) أى فيمن هذه حاله أمؤمن هو أم لا؟.

(**فشرط بعضهم**) أى قال: إنه (**من تمام الإيمان القول والشهادة به**) باللسان، فلا يكون

(١) أخرجه البخارى (١٨٣/٥، ٤/٩)، ومسلم (٩٦/١٥٩)، وأحمد (٢٠٠/٥).

هذا مؤمنًا عنده لعدم تمام إيمانه، وفقد شرطه عنده، وعند بعضهم أن الشهادة جزء من الإيمان وركن لا شرط، فعرفه بأنه إقرار باللسان وتصديق بالجنان، وهو المشهور عند الأشاعرة فلا إيمان إلا بهما إلا عند العجز عن النطق.

(**ورآه**) ماض من الرأى (**بعضهم مؤمنًا**)، فقال: من اعتقد بقلبه واخترم قبل تمكنه من النطق مؤمن كالعاجز، فيكون مؤمنا حقيقة (**مستوجبًا**) أى مستحقًا (**للجنة**) ودخولها؛ لعذره بعدم تمكنه، و(**لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم**)، فى حديث رواه الشيخان: (**يخرج**) روى بالبناء للفاعل والمفعول (**من النار من كان فى قلبه**) باعتقاده (**مثقال ذرة من الإيمان**) أى وزنها ومقدارها فى الثقل، والذرة بالمعجمة صغار النمل والهباء، وهو كناية عن غاية القلة، وإن كان عند الله عظيمًا، وهو بعض من حديث فى الصحيحين، ولم يقل يدخل الجنة ابتداء لأن المراد به العصاة المعذبون بسبب آخر، أو بترك الشهادة فيكون عاصيًا بذلك، والظاهر الأول ولذا بينه وبين الاستدلال به بقوله: (**فلم يذكر**) فى الحديث شيئًا (**سوى ما فى القلب**) من إيمان بمقدار ذرة، (**وهذا**) المصدق بقلبه دون لسانه لعدم تمكنه من النطق (**مؤمن بقلبه**)، فينفعه إيمانه عند الله تعالى؛ لأنه (**غير عاص**) أى تارك لما يلزمه، (**ولا مفرط**) بتشديد الراء المهملة أى مقصر عمدًا (**بترك غيره**) وهو التلفظ بالشهادة.

(**وهذا**) الرأى الذى رآه بعضهم (**هو الصحيح فى هذا الوجه**) أى الحالة المعذور فيها بعدم تمكنه، وهذا وإن صححه المتكلمون إلا أنه قيل: إن ما استدل به المصنف لا يثبت ما ادعاه؛ لأن هذا فى عصاة أمته الذين ثبت إيمانهم ويدل عليه ما فى الصحيح عن أنس أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وفى قلبه وزن شعيرة من خير»(١)، ثم إن ذكر الوزن فى الإيمان، وهو من المعانى لأنه كما قال الكرمانى شبه بالجسم، فأضيف إليه ما هو من لوازمه، وهو الوزن ففيه استعارة بالكناية.

(**الثانية**) أى الحالة الثانية من هاتين الحالتين (**أن يصدق بقلبه**) ويعتقد اعتقادًا جازمًا، (**ويطول**) بضم التحتية وفتح الطاء المهملة وتشديد الواو المكسورة (**مَهْلَةُ**) بميم وهاء مفتوحتين مفعول يطول، ويجوز تسكين هائه مع فتح ميمه وضمها، وهى التؤدة والتأنى فأريد به لازمه، وهو طول الزمان، والمراد زمان سكوته وعدم نطقه بالشهادة، (**وعلم ما يلزمه من الشهادة**)، والنطق بها هذه جملة حالية بتقدير قد: أى سكت زمانًا طويلاً مع علمه بلزوم النطق والاعتراف بما صدق به قلبه، (**فلم ينطق بها**) أى بالشهادة (**جملة**)

---

(١) أخرجه البخارى (١/١٧، ٩/١٥٠)، ومسلم (١٩٣/٣٢٥)، والترمذى (٢٥٩٣)، وابن ماجه (٤٣١٢)، وأحمد (٣/١١٦)، وابن أبى شيبة (١١/٣١)، وأبو عوانة (١/١٨١).

منصوب على الحالية، والمراد به مجموعها بأن لم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره تفصيلاً أو إجمالاً بأن لا يفصل الملائكة والكتب ونحوها، **(ولا استشهد فى عمره)** ومدة حياته أى أتى بالشهادة، وفى نسخة شهد **(ولا مرة)** أى مرة واحدة، **(فهذا اختلف فيه أيضًا)** كما اختلف فى الذى قبله، وهو فى الأصل مصدر آض إذا رجع، وشاع فى التشبيه وفى نصبه كلام مشهور.

(فقيل: هو مؤمن لأنه مصدق) وحقيقة الإيمان هو التصديق القلبى، وقد اتصف به فيكفيه، **(والشهادة من جملة الأعمال)** الزائدة على حقيقة الإيمان، وإن كانت لازمة شرعًا، **(فهو عاص بتركها)** كمرتكب الكبائر غير كافر فهو **(غير مخلد)** فى النار عند أهل السنة القائلين بأن أصحاب الكبائر غير مخلدين.

(وقيل: ليس بمؤمن) لأن الشهادة شرط فيه أو شطر **(حتى يقارن عقده)** أى اعتقاد قلبه وجزمه **(شهادة اللسان)** أى التلفظ بها مطابقة لما فى قلبه **(إذ الشهادة إنشاء عقد)** عند الأصوليين؛ لأنها عندهم إنشاء يتضمن الإخبار بالمشهود به لا أخبار وعزى الثانى أنه خبر لأبى حنيفة وأنكره السروجى، وقال: لا نعرفه، وإنما هو إنشاء عندنا أيضًا، ونظر فيه بأنهم عرفوها بأنها أخبار بحق للغير على آخر، وقد يقال: إنه بحسب ظاهره لأنه خبر لفظًا أريد به الإنشاء كقوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ومن لم يفهم مراده قال: إنشاؤه بمعنى ابتداؤه، **(والتزام إيمان)** أى التزام لأحكامه، **(وهى)** أى الشهادة **(مرتبطة)** أى ملازمة متصلة **(مع العقد)** الجنانى لاتفارقه، فلا يكتفى بأحدهما **(ولا يتم التصديق)** ويكتفى به **(مع المهلة)** أى تأخير النطق زمانًا طويلاً من غير مانع **(إلا بها)** أى بالشهادة والنطق بها.

(وهذا) القول **(هو الصحيح)** من أنه ليس بمؤمن لعدم مقارنة الاعتقاد للإقرار مع التمكن منه، ومن يقول: إنه التصديق فقط يقول: إنه مؤمن وإن لم يقر بلسانه، وإن لم تجر عليه أحكام الإيمان فى الدنيا، فهو ينفعه فى الآخرة، والأصح أنه لابد منه فى الاعتداد به فى الدنيا والآخرة، وهو شرط أو شطر، ثم إنهم اتفقوا على أنه يلزم المصدق أن يعتقد أنه متى طولب أتى به فإنه إن طولب به، فلم يقر فهو كفر عناد.

(وهذا نبذ) بفتح النون وسكون الموحدة وذال معجمة وهو الشىء اليسير، وأصله الرمى والطرح، فكأنه لقلته مما يطرح، وفى نسخة هذه نبذ بضم النون ففتح الموحدة جمع نبذة بزنة غرفة، وقيل: إنه بضم فسكون والمعروف ما قدمناه **(تفضى إلى متسع من الكلام)** تفضى بضم المثناة الفوقية وسكون الفاء وكسر الضاد المعجمة قبل ياء ساكنة مضارع أفضى بمعنى أوصل، وأصل معناه الإيصال إلى الفضاء، والمتسع بزنة اسم

المفعول، وهو مصدر ميمى أو اسم يعنى أنها تحتاج إلى بسط وانتشار لكثرة مباحثه، وما للعلماء فيه من القيل والقال **(فى الإسلام والإيمان)** أى فيما يتعلق بهما **(وأبوابهما)** المعقودة لتفصيلهما، **(وفى الزيادة فيهما والنقصان)** فيهما، والكلام فى أنهما يقبلان زيادة ونقصا، وفيه اختلاف مشهور **(وهل التجزى)** بالزيادة والنقص فيهما **(ممتنع على مجرد التصديق)**، فهو فى نفسه من غير نظر لما ينضم له من الأقوال والأعمال لا يقبلهما، فإنه كما مر قيل: إنهما مجرد التصديق، وهو لا يزيد ولا ينقص، وقيل: إنه قول واعتقاد، وقيل: قول وعمل واعتقاد، فعلى هذا يقبل التجزى، وقوله: **(لا يصح فيه)** أى فى التصديق تجزى بزيادة ونقص **(جملة)** أى مجموعه، أو الإجمالى منه لا يقبل التجزى، **(وإنما يرجع)** تجزيه والزيادة فيه **(إلى ما زاد عليه)** أى ما زاد على التصديق **(من عمل)** ونحوه، فإنه قد يزيد وقد ينقص، بل قد لا يكون كمن أسلم ثم مات فجأة، فلم يأت بشىء من الأعمال الصالحة، **(وقد يعرض فيه)** أى قد يطرؤ على التصديق نفسه زيادة أو نقص وتجز، فإنه من الكيفيات النفسانية، وهى تتفاوت قوة وضعفا، فإن العلم بطلوع الشمس وأن الواحد نصف الاثنين ليس كالعلم بحدوث العالم، ولا شك فى أن إيمان أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، ليس كإيمان غيره، وقال الشمنى فى الصحاح: عرض له كذا يعرض: أى ظهر، وعرضت العود على الإناء تعرضه وتعرضه هذه وحدها بالضم، وعرضت له القول بالكسر إلى آخره؛ **(لاختلاف صفاته)** قوة وضعفا، **(وتباين)** أى بعد وافتراق **(حالاته)** بعضها عن بعض **(من قوة يقين)** بيان للصفات والحالات، **(وتصميم اعتقاد)** أى الجزم به بحيث لا يقبل الشك لمشاهدة وقوة أدلة، **(ووضوح معرفة)** أى ظهورها كمن شاهده، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعاين معجزاته، **(ودوام حاله)** أى استمرار التصديق وامتداده، فإنه زيادة فيه، **(وحضور قلب)** أى حضور التصديق به حتى لا يغفل عنه قلبه المطمئن.

(وفى بسط هذا) أى بسط الكلام فيما ذكر، وذكر تفاصيله، وتحقيق أدلته مع مالها وعليها **(خروج عن غرض التأليف)** أى المقصود منه، وهو بيان علو مقامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وما يجب له، وهذا يكفى فيه الإجمال وقطع النظر عن الاستدلال.

(وفيما ذكرناه غنية) بضم الغين المعجمة ونون ساكنة وياء مثناة تحتية مفتوحة: أى كفاية مغنية عن غيره **(فيما قصدناه)** فى هذا الكتاب **(إن شاء الله تعالى)**، وهذا الذى ذكره المصنف مذهب المحققين الأظهر المختار أن التصديق يزيد وينقص بكثرة النظر ووضوح الأدلة، ولاشك فى أن إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم.

* * *

[فصل وأما وجوب طاعته ﷺ]

بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، (**فإذا وجب الإيمان به وتصديقه فيما جاء به**) من الله، وقد علم هذا مما تقدم فى أول الباب (**وجبت طاعته**)؛ لأن من صدقه وأخبره بما يلزمه اتباع أمره ونهيه، فلو خالفه من غير إنكار منه كان عاصيًا بترك ما يجب عليه؛ (**لأن ذلك**) أى وجوب طاعته (**مما أتى به**) عن الله بوحيه كما يدل عليه ما (**قال الله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾) [الأنفال: ٢٠]، قدم طاعة الله تمهيدًا لوجوب طاعة رسوله، وإشارة إلى أن طاعته تعالى بطاعة رسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهما شىء واحد، ولذا أفرد الضمير فى قوله: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾، وهو قياس منطقى تقديره وجوب طاعته مما أتى به من عند الله، وكل ما أتى به من عند الله يجب الإيمان به، فيجب طاعته، وشرك بينهما فى صيغة الأمر كما ذكرناه (**وقال الله تعالى:** ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾) [النور: ٥٤]، قال القاضى: أمره الله أن يبلغ المؤمنين ما خاطبهم به مبالغة فى تبكيتهم، يعنى أن هذه الآية نزلت فى بشر المنافق لما دعى خصما له يهوديًا إلى كعب بن الأشرف، ودعاه خصمه إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، الآتى بيانه، ولا ينافى هذا أن الكلام فى وجوب طاعته على المؤمنين؛ لأن العبرة بعموم اللفظ دون خصوص السبب.

(**وقال تعالى:** ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾) [آل عمران: ١٣٢]، الترجى بلعل وعسى على لسان العباد للإشارة إلى عزة المطلوب، وأن العبد دائمًا بين الرجاء والخوف.

(**وقال تعالى:** ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾) [النور: ٥٤]، فجعل هدايتهم متوقفة على طاعته، والهداية للحق والإيمان وغيره أمر لازم لهم.

(**وقال:** ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾) [النساء: ٨٠]، فجعل طاعته هى طاعة الله؛ لأنه لا يأمر إلا بأمره، ولا ينهى إلا بنهيه، ولذا أردفه بقوله: (**وقال تعالى:** ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾) [الحشر: ٧]، هذا محمول على العموم فى جميع أوامره ونواهيه؛ لأنه لا يأمر إلا بصلاح، ولا ينهى إلا عن فساد، وإن كانت الآية نزلت فى الفىء والغنائم، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما تقرر، فلا يتوهم أنها غير مناسبة لما هو بصدده.

(**وقال:** ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾) [النساء: ٦٩]، المطيعون ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ الآية، ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وسيأتى أن هذه الآية

نزلت فى ابن عبد ربه الأنصارى حين قال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم: إذا مت كنت فى عليين، فلا نراك وذكر شدة حزنه لذلك، فنزلت، فلما مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، دعى الله أن يعمى بصره حتى لا يرى غيره، فعمى مكانه وهو الذى رأى واقعة الأذان، وقيل: نزلت فى ثوبان مولاه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان شديد الحب لرسول الله لا يصبر عن رؤيته، فحزن حتى تغير لونه، فسأله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، عن ذاك، فقال: ما بى ضر غير أنى لا أصبر عنك، فذكرت الآخرة وأنى لا أراك ثمة لرفعة مقامك وهبوط منزلتى، والمراد بالمعية سهولة الاجتماع والتزاور بينهم فى الجنة وإن تفاوتت مراتبهم ومنازلهم فيها.

(**وقال الله تعالى**: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾) [النساء: ٦٤]، الإذن مجاز عن إرادة التسهيل والتوفيق أو هو نفس التسهيل والتوفيق أى إلا ليطيعه من بعث إليه ويرضى بحكمه، فمن لم يرض به لم يرض برسالته، فهو تارك لما يجب عليه كافر، وقيل: إذنه بمعنى أمره، وقال القاضى: كأنه أى الله احتج بذلك على أن الذى لم يرض بحكمه، وإن أظهر الإسلام كافر مستوجب القتل انتهى.

وقيل فى توجيهه: إن لم يرض بحكمه لم يرض بحكم الله تعالى، ومن لم يرض بحكم الله فهو كافر، ولذا لما تخاصم المنافق واليهودى، وطلب اليهودى حكم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان محقًا يعلم حكم رسول الله له، فأبى المنافق وطلب أن يتحاكما عند كعب بن الأشرف، وأبى اليهودى، وأتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فحكم له، فلم يقبل المنافق فأتيا أبا بكر، رضى الله تعالى عنه، فحكم بما حكم به رسول الله، فلم يرض فأتيا عمر وذكر له اليهودى ما وقع، فقال: رويدكما ودخل بيته وخرج بسيفه وضرب به المنافق فقتله، وبلغ ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فلم ينكره، (**فجعل طاعة رسوله طاعته**) فهما شىء واحد؛ لأنه لا يأمر إلا بأمره ولا ينهى إلا بنهيه بنص قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]، (**وقرن طاعته بطاعته**) فى القرآن كما فى قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، وفيه من تعظيمه ووجوب طاعته ما لا يخفى، (**ووعد على ذلك بجزيل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب**) الجزيل بمعنى العظيم أو الكثير، وعبر فى جانب الثواب بالوعد، وفى جانب العقاب بالإيعاد المزيد لما اشتهر من الفرق بينهما فى أصل الاستعمال كما قال الشاعر:

وإنى وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادى ومنجز موعدى(١)

---

(١) البيت من بحر الطويل وهو لعامر بن طفيل فى ديوانه (ص٥٨)، لسان العرب (٦٣/١)، تاج العروس (٢٠٧/١).

وقد يستعمل كل منهما فى مكان الآخر لنكتة، وقد تقدم الكلام على ذلك مبسوطًا فى خطبة الكتاب، وسوء العقاب بمعنى العقاب السئ وهو ظاهر.

(وأوجب) الله تعالى **(امتثال أمره)** بالإتيان بما أمر به، **(واجتناب نهيه)** بتركه ما نهاه عنه، فقال: ﴿**وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟**﴾ [الحشر: ٧]، كما تقدم بيانه.

(وقال المفسرون) فى تفاسيرهم **(والأئمة)** أى أئمة الدين من الفقهاء والمحدثين: **(طاعة الرسول)** التى أمرنا الله تعالى، عز وجل، بها فى القرآن متحققة ومتبينة **(فى التزام سنته)** أى المداومة على سلوك طريقته، فالسنة بمعناها اللغوى فيعمل ما عمله ويترك ما تركه، **(والتسليم)** أى الانقياد والمتابعة له **(لما جاء به)** من شرعه الموحى إليه الذى أخبرنا به وتصديقه فيما أخبر به من غير تحكيم العقل.

(وقالوا) أيضًا **(ما أرسل الله من رسول)** من زائدة فى النفى لتأكيد العموم **(إلا فرض طاعته)** أى جعلها فرضًا متحتمًا يثاب فاعله ويعاقب تاركه **(على من أرسله إليه)** لتبليغ شرعه، والضمير لمن باعتبار لفظه.

(وقالوا) أى المفسرون والأئمة **(من يطع الرسول فى سنته)** بنون مشددة وتاء مثناة فوقية أى فى طريقته وشريعته من أمر ونهى وسنة وفرض، وليس المراد بها ما يقابل الفرض كما يوهمه قوله: **(يطع الله فى فرائضه)** جمع فريضة بمعنى الفرض، وفى بعض النسخ سننه بنونين جمع سنة، ويحتمل أن تفسر السنة والسنن بمعنى ما يقابل الفرض؛ لأن من اتبع الرسول فيما سنه من غير إيجاب عليه كان متبعًا له فى فرائض الله بالطريق الأولى، والمراد أن طاعة الله وما جاء به عين طاعة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، وفى الأم للشافعى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لألفين أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه ما أمرت أو نهيت، فيقول: لا أدرى ما وجدنا فى كتاب الله عملنا به».

وسيأتى بيان ألفاظه عند ذكر المصنف، رحمه الله، له قريبًا مرتين لأمر اقتضاه، فهذا بيان لأن العمل بسنة رسول الله عمل بكتاب الله، وهو معنى ما قالوه هنا.

(وسئل سهل بن عبد الله) التسترى الإمام الزاهد المشهور **(عن شرائع الإسلام)**، أى ما المقصود منها والمراد، **(فقال)** سهل فى الجواب: ﴿**وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ**﴾ [الحشر: ٧]، أى تمسكوا به.

(وقال) الإمام أبو الليث الفقيه المشهور **(السمرقندى: يقال)** فى طاعة الله ورسوله أن معناه **(أطيعوا الله فى فرائضه)** أى فيما فرضه عليكم فى كتابه الكريم، **(والرسول فى**

سنته) أى ما سنه وشرعه لنا.

(وقيل) فى معنى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، **(أطيعوا الله فيما حرم عليكم)** باجتناب جميع محرماته، وكان الظاهر أن يقال فيما أوجبه وحرمه وغيره كما عمم اتباع الرسول بقوله: **(والرسول)** أى وأطيعوا الرسول **(فيما بلغكم)** عن الله من أوامره ونواهيه مخلصًا فى ذلك، فإنه مأمور بتبليغه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

(ويقال) فى معناه **(أطيعوا الله بالشهادة)** أى الإقرار والاعتراف **(له بالربوبية)** أى أنه رب خالق مالك لجميع الموجودات متفرد بالملك والربوبية، **(والنبى)** بالنصب أى وأطيعوا النبى، عليه السلام، **(بالشهادة له بالنبوة)** المراد بالنبى هنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم قال للعهد، وهو الفرد الكامل المتبادر عند الإطلاق، فيدل حينئذ على رسالته وأنه رسول، وإن قلنا: النبى أعم من الرسول، بناء على المشهور، فلا حاجة لما قيل: إن المراد النبوة المقترنة بالرسالة، وأنه كان ينبغى له الجمع بينهما إظهارًا للنعمة بهما عليه وتعظيمًا للمنة لديه، والعدول عن الظاهر إن قلنا: إن النبوة أفضل ظاهر لا لرعاية السجع كما قيل.

(حدثنا أبو محمد بن عتاب بقراءتى عليه)، وهو حديث رواه الشيخان، ومحمد بن عتاب تقدمت ترجمته قال: **(حدثنا حاتم بن محمد)** المعروف بابن الطرابلسى كما تقدم قال: **(حدثنا أبو الحسن على بن محمد بن خلف)** الحافظ القابسى كما تقدم قال: **(حدثنا محمد بن أحمد)** وهو أبو زيد المروزى كما تقدم قال: **(حدثنا محمد بن يوسف)** الفربرى راوى صحيح البخارى كما تقدم.

قال: **(حدثنا البخارى)** قال: **(حدثنا عبدان)** يعنى: عبد الله بن عثمان بن جبلة بفتح الجيم والموحدة ابن أبى رواد الحافظ المروزى الفقيه الثقة، توفى سنة إحدى وعشرين ومائتين قال: **(أخبرنا عبد الله)** بن المبارك المروزى قال: **(حدثنا يونس)** بن يزيد الأيلى الإمام الثقة، توفى سنة تسع وخمسين ومائة، وأخرج له أصحاب الكتب الستة **(عن الزهرى)** محمد بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهرى الإمام المشهور كما تقدم مرارًا قال: **(أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن)** أحد فقهاء المدينة السبعة على قول الأكثر واسمه عبد الله أو إسماعيل **(أنه سمع أبا هريرة يقول: إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله»)**؛ لأنه لا يأمر إلا بما أمر الله به ولا ينهى إلا عما نهى الله تعالى عنه، فمن امتثل أمره واجتنب نهيه امتثل أمر الله ونهيه، أو أن الله عز وجل أمر بطاعة رسوله وأمره ونهيه، فمن امتثل أمره ونهيه

أطاع الله فى أمره ونهيه بطاعته كما تقدم.

(ومن أطاع أميرى) أى من جعله هو أو خلفاؤه حاكمًا على أمته **(فقد أطاعنى)** لأن طاعته طاعة من أمره؛ لأنه مبلغ عنه، **(ومن عصى أميرى فقد عصانى)** قيل: إن قريشًا وسائر العرب كانوا لا يعرفون الإمارة، وإنما كانوا يطيعون رؤساء قبائلهم، فلما ظهر الإسلام ولى عليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، الأمراء أنكروا ذلك، ولم يطيعوا الأمراء، فقال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك إعلامًا لهم بأنهم يلزمهم إطاعة أمرائه، وتوقيرهم والاقتداء بهم فى أقوالهم وأفعالهم، ورواه مسلم الأمير بالألف واللام.

(وطاعة الرسول) أى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، **(من طاعة الله)** المرسل له **(إذ الله أمر بطاعته)** أى لأن الله أمر جميع الناس باتباعه فيما جاء به من الله، **(فطاعته)** أى الرسول ورسوله **(امتثال لما أمر الله به)** فى قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [محمد: ٣٣].

(وطاعة له) أى لله لأنه أمرهم إجمالاً بإطاعته، فطاعته طاعة لربه لأنا نطيعه لأمرنا بإطاعته فى أوامره ونواهيه، وهو إنما يأمرنا بما أمر الله تعالى بتبليغه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]، ويدخله ما كان باجتهاده؛ لأنه أمر بالاجتهاد على الأصح، وهذا بسط لما قدمه وإيضاح له ولا تكرار فيه كما قيل.

(و) قد **(حكى الله عن الكفار)** ما سيقولونه أى ذكر فى القرآن إخبارًا عنهم بما سيكون، وهذه العبارة مأثورة عن السلف من غير إنكار لها إلا أن العارف بالله ابن عباد المغربى قال: إنه ليس بصواب؛ لأن كلام الله صفه قديمة، فلا يقال: حكى الله فى كلامه عن كذا لأن الحكاية متأخرة عن المحكى، وإنما يقال: أخبر الله ونحوه، انتهى.

وهذا مما لا وجه له؛ لأنه تعالى قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٣]، والقصص والحكاية بمعنى، وما احتج به لا حجة له فيه، فإنه وارد على الإخبار بعينه من غير فرق.

(فى دركات جهنم) أى محلهم الأسفل فيها ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأحزاب: ٦٦]، أى تصرف من جهة إلى أخرى، لاضطرابهم فهى كقطع لحم يغلى فى قدر يفور، أو تقلبها تغيرها عن حالها وهيأتها أو تبدل ألوانها، وخص الوجه؛ لأنه أشرف الأعضاء وأظهرها، والمراد به الجملة، ﴿يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦]، لنسلم مما نحن فيه لندمهم حيث لا ينفعهم الندم، **(فتمنوا طاعته)** صلى الله تعالى عليه وسلم، **(حيث لا ينفعهم التمنى)** أى فى زمان أو مكان لا ينفعهم تمنيهم فيه، والتمنى طلب ما لا يمكن حصوله.

(وقال صلى الله تعالى عليه وسلم)، فى حديث رواه الشيخان: **(إذا نهيتكم عن شىء)**

محرم أو مكروه **(فاجتنبوه)** أى اتركوه كأنه طرح فى جانب منكم، **(وإذا أمرتكم بأمر)** أى بمأمور به إيجابًا أو ندبًا، **(فأتوا منه ما استطعتم)** أى قدرتم عليه من غير ترك للواجب بغير عذر، وأول هذا الحديث: «دعونى ما تركتكم إنما هلك من قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه»(١) إلى آخره، وسببه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قال فى خطبة: «إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا»(٢)، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله، فسكت حتى قالها ثلاثًا؛ فقال: لو قلت: نعم لوجبت ولما استطعتم، ثم قال: دعونى الحديث، وزاد الدارقطنى فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].

وروى ذلك عن ابن عباس فى التفسير، وشىء عام خص منه ما أكره عليه المكلف، وفيه خلاف هل الإكراه على المعصية يبيحها، أو هى باقية على حرمتها ولا يأثم مرتكبها، وهو مبنى على الخلاف فى أن المكره مكلف أم لا؟، ومعنى ائتوا منه ما استطعتم: افعلوا على قدر استطاعكم.

قال النووى: وهذا الحديث من جوامع الكلم وقواعد الإسلام يدخل فيه كثير من الأحكام، كمن عجز عن ركن من أركان الصلاة أو شرط من شروطها يأتى بمقدوره، ولا يسقط عنه مقدوره، ولذا قال الفقهاء: الميسور لا يسقط بالمعسور، وفى الحديث إشارة إلى اعتناء الشارع بالمنهيات لإطلاقه الاجتناب، ولو مع مشقة الترك، وتقييد المأمورات بالاستطاعة والطاقة كما قاله أحمد بن حنبل.

فإن قلت: الاستطاعة معتبرة فى النهى، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قلت: قال ابن حجر: الاستطاعة لا تدل على المدعى، وهو الاعتناء بل هو جهة الكف، وكل أحد قادر عليه لولا داعية الشهوة، فكل أحد قادر على الترك بخلاف الفعل؛ فإن العجز عنه محسوس فلذا قيد الأمر بالاستطاعة دون النهى.

وقال الماوردى: الكف عن المعاصى ترك، وهو سهل وعمل الطاعة فعل وهو شاق، فلذا لم يبح ارتكاب المعاصى مع العذر، وأبيح ترك العمل للعذر، وقال بعضهم فى قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، أنه يتناول امتثال المأمور واجتناب المنهى، وقيد الأمر بالاستطاعة لكثرته، فإن العجز فى النهى محصور فى الاضطرار لقوله: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقيل: إن قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾،

---

(١) أخرجه البخارى (١١٧/٩)، والدارقطنى (٢٨١/٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥٠٨/٢)، والنسائى (١١٠/٥)، والطبرانى (١٦٨/٨).

منسوخ بقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، والصحيح أنه غير منسوخ، والمراد بحق تقاته امتثال أمره واجتناب نهيه مع القدرة دون العجز عنه.

(**وفى حديث أبى هريرة**)، رضى الله تعالى عنه، الذى رواه الحاكم (**كل أمتى**) يعنى أمة الإجابة (**يدخلون الجنة**) الضمير لكل باعتبار معناه، ويجوز إفراده باعتبار لفظه، ولفظ الحاكم: «كلكم يدخل الجنة»(١)، والخطاب خطاب مشافهة للأمة أيضًا، وقيل: إنه لم يرو بهذا اللفظ والسيوطى فى تخريجه سكت عنه لنكتة (**إلا من أبى**) أى امتنع ثم فسره بقوله: (**قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟**)، فهموا منه أنه أبى دخول الجنة ولا يأباها أحد؛ لأنه روى كما فى النهاية وشرد.

(**قال**) صلى الله تعالى عليه وسلم، مجيبًا لهم: (**من أطاعنى**) وانقاد ممتثلاً لأمرى ومجتنبًا لنهيى (**دخل الجنة**)، وفاز بنعيمها المقيم، (**ومن عصانى**) وخالفنى، (**فقد أبى**) أى امتنع من دخول الجنة؛ لأنه بسبب تركه للطاعة باختياره كأنه دعى إلى الجنة فامتنع، واعلم أنه إن أريد بالعصاة المذنبون من المؤمنين، فهو تمثيل ولا ينافى العفو عنهم، ولا إخراجهم من النار وإن أريد الكفار فهو استعارة أيضًا، والمراد خلودهم فى النار.

قال التلمسانى بعد قوله: «إلا من أبى» أى امتنع قولاً وفعلاً، ولم يقبل شيئًا فالأمة أمة الدعوة أى كلهم إلا من أبى، وهم الكفار يدخلون الجنة، ويحتمل أن يريد بالأمة أمة الإجابة فأبى هو العاصى من أمته، فاستثناهم تغليظًا عليهم وزجرًا لهم عن المعاصى، وزاد فى الجواب فقد أبى توضحيًا لبيان الصنفين، والتقدير: من أطاعنى وتمسك بالكتاب والسنة دخل الجنة، ومن اتبع هواه ضل عن سواء السبيل ودخل النار، انتهى.

(**وفى الحديث الآخر**) عرفه إشارة إلى أنه معلوم مشهور؛ لأنه رواه البخارى فى كتابه، ولذا وصفه بقوله: (**والصحيح عنه، عليه الصلاة والسلام: مثلى ومثل ما بعثنى الله به**) ضرب للناس مثلاً فيما جاءهم به مما يورث الفوز بخير الدارين وانتظام أمر المعاش والمعاد، والمثل بفتحتين، والمثيل فى الأصل بمعنى النظير كشبه وشبه وشبيه نقل إلى قول شبه مضربه بمورده، وأكثر ما يكون بأمر عجيب غريب، ثم نقل لكل حالة وقصة أو صفة، والذى فى البخارى: «مثل ما بعثنى الله»، وليس فيه به، فقال ابن حجر: إنه مقدر وما موصولة، وقيل عليه شرط حذف العائد المجرور جر الموصول بمثله لفظًا ومعنى، وإن لم يتحدا متعلقًا فما مصدرية لا عائد لها.

أقول: ما ذكره النحاة إنما هو لجوازه قياسًا مطردًا لا لعدم صحته فيما سمع منه واقتضاه المقام، وذكر المصنف، رحمه الله تعالى، له إن كان لرواية وقعت له فظاهر، أو

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (١/٥٥، ٤/٢٤٧).

لبيان أنه مقدر فيه، فهو رواية بالمعنى يدل على ما قاله ابن حجر، والمعنى عليه وفيما ذكره تكلف لا يخفى.

(**كمثل رجل أتى قومًا**) ليحذرهم وينذرهم بعدوهم الذى قرب مجيئه لهلاكهم، (**فقال: يا قوم إنى رأيت الجيش**) هم جمع كثيرون سائرون للمحاربة والقتال (**بعينى**) هو مفرد مكسور النون مضاف لياء المتكلم الخفيفة أو بفتحها وياء مشددة مفتوحة مثنى، وهو لتأكيد الرؤية وتحقيق أنها رؤية حقيقية بصرية ضرورية حسية، (**وإنى أنا النذير**) المنذر المعلم بما يحذر قبل وقوعه (**العريان**) أى المجرد من ثيابه المكشوف جميع بدنه، وهو مثل تمثل به صلى الله تعالى عليه وسلم، والمراد به المبالغة فى إنذار ووضوح ما أنذر به، وعدم احتمال خلاف، وأصله أن الرجل كان إذا رأى العدو قرب جدًا، وليس بينه وبينهم حجاب يمنعهم عن رؤيته، لو خشى أن يسبق خبره وقف على مكان عال ونزع عنه ثوبه ورفعه يلوح به أى بادروا إلى الحذر والفرار، فقد جاءكم من العدو ما لا تطيقونه، وأصله كان فى رجل معين من خثعم قطع رجل يده ويد امرأته، فأتى قومه يحذرهم بفعل ذلك، وقيل: إنما هى امرأة، وقيل: هو عوف بن عامر اليشكرى وامرأة من كنانة، وقيل: امرأة من بنى عامر، وقيل: أبرهة الحبشى، وقيل: إنه رجل سلبه العدو فأتى قومه عريانًا لما انفلت منهم، فتحققوا صدقه، وعلى كل حال فهو استعارة ومن اللطائف ما قاله الإمام السهيلى فى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢]، إن تعبيره بالمدثر والمزمل فيه ملاطفة له، صلى الله تعالى عليه وسلم، كأنه يقول له: أنا أرسلتك نذيرًا والنذير يكون عريانًا لا ملفوفًا بثيابه، وهى نكتة سرية.

(**فالنجاء**) بالنصب على المصدر بعامل محذوف لضيق المقام، ومعناه الخلاص والفرار أى انجوا نجاء بسرعة من غير لبث، فناب عن عامله وعرف وهو ممدود أو مقصور بنية الوقف، ورواه البخارى النجاء النجاء بالتكرير بمدهما وقصرهما، وبمد الأول وقصر الثانى، وهو منصوب على الإغراء أى اطلبوا النجاء بالهرب، ويجوز رفعه أى النجاء خير لكم.

(**فأطاعه طائفة**) أى جماعة وفرقة (**من قومه**) لما أتاهم، وقال لهم ما قاله، (**فأدلجوا**) أى ساروا من أول الليل أو ساروا الليل كله هربًا من عدوهم، وهو بتخفيف الدال وتشديدها، وقيل: المخفف سير أول الليل والمشدد سير آخره، والاسم الدلجة بالضم والفتح، (**وانطلقوا**) أى ساروا طالبين النجاة من عدوهم (**على مهلهم**) أى متمهلين بتؤدة وتأن بعد ذلك، أو فى سيرهم هذا لسعة وقتهم، ومهل بفتح الميم مع فتح الهاء وسكونها وبضم الميم وسكون الهاء كما مر.

وفى مسلم مهلتهم بزيادة تاء والكل بمعنى واحد، **(فنجوا)** بفتح النون مع الجيم أى سلموا من عدوهم.

(وكذبت طائفة منهم) النذير فى إنذارهم بالعدو **(فأصبحوا)** أى مكثوا **(مكانهم)** أى فى مكانهم الذى كانوا فيه حتى دخلوا فى الصباح، **(فصبحهم الجيش)** أى أتاهم فى وقت الصباح، **(وأهلكهم واجتاحهم)** بجيم ومثناة فوقية وألف وحاء مهملة أى أهلكهم جميعًا واستأصلهم، فلم يبق لهم باقية من الذرارى والأموال، والجائحة الآفة التى تصيب الثمار فتستأصلها أى تفنيها من أصلها، وكل مصيبة عظيمة فهى جائحة.

(فذلك) المذكور والمثل المضروب لكم **(مثل من أطاعنى)**، فشبهوا بمن صدق النذير فنجا، **(واتبع ما جئت به)** فصدقه وعمل بما أمره به مما أوحاه الله إليه، فسلم ونجا وفاز بالسعادة الأبدية واجتنب ما نهاه عنه، **(ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق)**، فهم كمن كذب النذير ومكث مكانه حتى هلك ومن معه.

وفى شرح المشكاة للطيبى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، شبه نفسه وإنذاره بالعذاب القريب بالرجل الذى أنذر قومه بالجيش المصبح، وشبه من أطاعه من أمته ومن عصاه بمن كذب الرجل ومن صدقه، وقيل عليه: إنما هو تشبيه تمثيلى شبه فيه المجموع وهيئته بالمجموع وهيئته، لا تشبيه الأجزاء بالأجزاء، فإن الأول أبلغ وأحسن.

وأقول: إعادة مثل فى الحديث تقتضى ما قاله الطيبى، والمآل واحد، وأبلغية ما ذكره فى هذا المقام غير مسلمة بسلامة الأمير، وقيل: إنه تشبيه بليغ استعير فيه المثل للحال والقصة والصفة الغريبة العجيبة، وهو وجه تحقيقه فى شروح الكشاف.

(وفى الحديث الآخر) الذى رواه الشيخان **(فى مثله)** أى تمثيل حاله وصفته صلى الله تعالى عليه وسلم، مع أمته فى دعوته لهم **(كمثل)** بفتحتين أى كصفة وقصة **(من بنى دارًا)** عظيمة أنشأها وفرشها بفرش نفيسة، **(وجعل فيها مأدبة)** بميم مفتوحة وهمزة ساكنة ودال مهملة مثلثة والأشهر الضم، ثم الفتح وباء موحدة وهاء، وهى الأطعمة الكثيرة النفيسة المعدة لإكرام الضيوف والأصحاب، وفى القاموس: إنها طعام صنع لدعوة أو عرس، والمشهور الأول فهى عامة لكل دعوة.

وفى فقة اللغة القرى بكسر القاف والقصر وفتحها والمد: طعام الضيف الغريب، وهو للزائر تحفة، وللأملاك شنوخة، وللعرس وليمة، وللولادة خرس، ولحلق شعر المولود عقيقة، وهو فى الأصل اسم لنفس الشعر من عقه قطعه، وللختان عذيرة وللمعلل قبل الغداء سلفة، ولمستعجل الغداء عجالة، وللكرامة منزلة من النزل، انتهى، والمأدبة من الأدبة بالضم وهى الطعام.

(وبعث داعيًا) يدعو لمنزلـه وأكـل طعامـه، **(فمن أجـاب الداعـى)** أى امتثـل دعوتـه وذهب معه **(دخل الدار)** التى بناها، **(وأكل من)** طعام **(المأدبة)** التى أكرم بـها، **(ومـن لم يجب الداعى)** لدعوته **(لم يدخل الدار ولم يـأكل مـن المأدبـة)** التـى حـرم منـها، ثـم فصـل التشبيه وبينه وسكت عن بيان من بنى، وهو الله الذى خلق الجنة، وهيأ أسـباب دخولهـا لظهوره مما بعده، وهـو قولـه: **(فـالدار الجنـة)** التـى أعدهـا الله لمـن اختـاره مـن عبـاده، ومأدبتها ما فيها من النعيم وما تشتهيه الأنفس، **(والداعى)** لهـا **(محمـد)** صلـى الله تعـالى عليه وسلم، مما بلغهم عن الله وأمرهم به مما يدخلهم جنته، ويوصلـهم للسـعادة والنعيـم المخلد.

(فمن أطاع محمدًا فقد أطاع الله) تقدم بيانه، **(ومن عصى محمدًا فقد عصـى الله)**؛ لأن مخالفه مخالف لأمر الله كما مر.

(ومحمد فرق بين الناس) فرق بفتح الفاء وسكون الراء المهملـة وتنوينـه مصـدر بمعنى فارق بين المؤمنين والكافرين بإطاعته وعصيانه، وروى فرق بصيغة المـاضى مشـدد الـراء المهملة أى فرق بين مؤمنهم وكافرهم، أو بين من دعى للجنة وبين من لم يدع لها، وهذا أنسب بالسياق والمعنى واحد، وأول هذا الحديث أنه صلـى الله تعـالى عليـه وسـلم، نـام وكان إذا نام نفخ، فجـاءه ملائكـة وهـو نـائم فقـال بعضـهم: إن العـين نائمـة والقلـب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل إلى آخره، وفيه فقالوا: أولوها له يفقهها، فقالوا: الـدار الجنة إلى آخره، فالممثل الملائكة وكذا المبين له، وهذه رواية غير رواية المصنف، رحمه الله تعالى، وفى رواية أن القائل جـبريل وميكـائيل، ولا يخفـى أن ظـاهر الحديـث أنـه تشـبيه مركب، فقول الكرمانى: إنه ليس المقصود تشبيه المفردات بل هو تشبيه تمثيل مما لا وجه له.

* * *

(فصل وأما وجوب اتباعه ﷺ وامتثال سنته)

السـنة هنـا بمعناهـا اللغـوى، وهـى والطريقـة والسـيرة بمعنـى، وهـى أقوالـه وأفعالـه وتقريراته، وليس المراد بها ما يقابل الفرض حتى يتوهم منافاتها للوجوب؛ لأنه معطوف على اتباعه **(والاقتداء بهديه)** هدى بزنة ضرب بمعنى سنته وطريقته أيضًا، وفـى نسـخة: والاهتداء بهديه.

(فقد قال الله تعالى) هو جواب أما أى فقد ثبت ذلك بنص القرآن كقوله عـز وجـل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١]، أى اقتدوا بسنتى واهتدوا بـهديى ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ الآيـة، فسـروا محبـة الله ورسـوله باتباعـهما ومحبـة الله

بإنعامه وفضله، وهذا تفسير له بلازمه المتجوز، فإن المحبة الحقيقية ميل النفس لما يستلذه، وهو غير متصور هنا، ولذا قال الغزالى: إن العصيان يضاد أصل المحبة، وقال البيضاوى: يحببكم الله: يرضى عنكم ويكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم، ويقربكم من جناب عزه ويبوئكم فى جوار قدسه، عبر عن ذلك بالمحبة على طريق الاستعارة أو المقابلة أى المشاكلة، ولبعض الشراح من المتأخرين هنا كلام لا طائل تحته غير التطويل.

(**وقال**) تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، والإيمان به وتصديقه يقتضى اتباعه (**الذى يؤمن بالله وكلماته**) التى نزل بها الوحى عليه وما أوحى إلى من قبله من الرسل من الكتب والشرائع، وعبر عما ذكر بالكلمات إشارة إلى أنها بالنسبة لعلمه المحيط بكل شىء، ولكلامه الذى يغنى مداد البحار فى دواة الإمكان كالكلمات القليلة، وجمع بين النبوة والرسالة؛ لأن المقام مقام مدح وإطناب؛ ولأنه يجب الإيمان بكل من الوصفين، وإن كان ذكر الأخص يكفى هنا أعنى الرسول، وعبر بالظاهر و لم يقل بى لبلاغة الالتفات، ولتجرى عليه الصفات الداعية للإيمان به واتباعه، وعبر بالرجاء فى قوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أى راجين الاهتداء باتباعه؛ تحريضًا لهم على اتباعه، وإيماء إلى أن من آمن به و لم يقتد بما شرعه لهم لا ينجو من الضلال، والرجاء بالنسبة للمخاطبين، أو هو مجاز عن التعليل كما ذهب إليه بعض النحاة.

(**وقال الله تعالى**: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾) [النساء: ٦٥]، لا مزيدة للتأكيد، أو نفى لما تقدمها أى ليس الأمر كما يزعمون من أنهم آمنوا بما أنزل إليك، وقيل: لا الثانية زائدة، والقسم معترض بين حرفى النفى.

﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ أى يرجعون لحكمك ويرضون به، وهو غايه لصحة إيمانهم ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أى فيما وقع بينهم من المشاجرة وهى المخاصمة، وأصل معناه الاختلاط، ومنه الشجر لتداخل أغصانه واختلاطها (**إلى قوله**: ﴿تَسْلِيمًا﴾ يعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، والحرج ضيق الصدر أو الشك، وهذه الآية نزلت فى بعض الأنصار لما اختصم مع الزبير فى ماء سقى به أرضه، وسيأتى تفصيله (**أى ينقادون لحكمك**)، تفسير لقوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾، وأكده ليفيد الانقياد ظاهرًا وباطنًا، وفى نسخة ينقادوا قيل: وهو الظاهر؛ لأنه منصوب بحذف النون لا سيما إن قيل: إن أى عاطفة، وليس بلازم لأنه مفسر للجملة بتمامها لا للمضارع وحده، (**يقال: سلم**) بالتشديد (**واستسلم**) أى طلب

السلامة بانقياده، **(وأسلم إذا انقاد)** هذا هو المصرح به فى كتب اللغة كما ذكره الراغب وغيره، فما قيل: إن المذكور فى القاموس إن التسليم الرضا والاستسلام الانقياد، فلو فسر التسليم فى الآية بالرضى الأخص كان أحسن ليس بشىء.

(وقال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ﴾ **)** [الأحزاب: ٢١]، بالكسر والضم أى قدوة يقال: أسيته بمالى أسوة وواسيته لغة قليلة، وقيل: هى الصواب، فهى الخصلة التى يراد الاتصاف بها **(حسنة)** أى خصلة حسنة من حقها أن يؤتسى بها أى يقتدى، ويجوز أن يراد بالأسوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، نفسه لأنه قدوة يحسن التأسى به فى أقواله وأفعاله، وحسنة هنا على الأول صفة مؤكدة.

ويجوز أن يكون احترازًا عما هو من خصائصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فتكون صفة مقيدة ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، أى يرجو ثوابه ولقاءه، ونعيم الآخرة أو أيامه الأخر خصوصًا مع قوله: لمن كان، وفى الكشاف أن لمن بدل من لكم، قيل: والأكثر على أن ضمير المخاطب لا يبدل منه، فهو صلة أو صفة لحسنة قرنت كثرته بالرجاء لإيذانها بملازمة الطاعة إذ المؤتسى من شأنه ذلك.

(قال محمد بن على الترمذى): هو المعروف بالحكيم الترمذى الصوفى صاحب نوادر الأصول وليس هو صاحب السنن، وقد تقدمت ترجمته: **(الأسوة فى الرسول)** تعريفه للعهد الخارجى، فالمراد به محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، أو هو للعهد الذهنى أو الاستغراق، فهو أعم أى فى حق رسول من الرسل، أو لكل رسول **(الاقتداء به)** فى أقواله وأفعاله كما فى قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

(والاتباع لسنته) أى لطريقته وشريعته، **(وترك مخالفته فى قول)** قاله أمرًا أو نهيًا أو إرشادًا **(أو فعل)** فعله ليقتدى به فيه؛ لأنه ليس من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وقال غير واحد)** تقدم أن معناه ناس كثيرون **(من المفسرين بمعناه)** أى قالوا قولاً بمعنى ما قاله الترمذى.

(وقيل) معنى الآية المذكورة **(هو عتاب)** من الله تعالى أى توبيخ ولوم **(للمتخلفين عنه)** صلى الله تعالى عليه وسلم، ممن لم يخرج معه لمحاربة أعدائه؛ لأنهم كان عليهم أن يقتدوا به فى جهاد أعداء الدين، ومقاساة أهوال الحرب، وكان ذلك فى غزوة الأحزاب أو تبوك حبًا للبقاء والراحة، وكان عليهم المبادرة لطاعته صلى الله تعالى عليه وسلم، وبذل أنفسهم له؛ لأنه سبب سعادتهم وحياتهم الأبدية، وفيه دليل على ما ذكر على التفاسير، ومعنى الظرفية إن قلنا: الأسوة أفعاله وأقواله المتبعة ظرفية الموصوف للصفة؛ لأنها قائمة به كقيام المظروف بظرفه، فإن قلنا: الأسوة نفسه صلى الله تعالى عليه وسلم،

فهو تجريد جعل كأنه فيه مقتدى به منتزع كقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فصلت: ٢٨]، وليست هذه الظرفية كقولهم: الدار فى نفسها تساوى كذا، وفى البيضة عشرون منًّا من حديد كما قيل، وقد أشرنا إلى أن الاقتداء إنما يجب فيما ليس من خصائصه كالأمور الجبلية فيه، فإنها لا يمكن أن تكون لغيره.

(**وقال سهل**) بن عبد الله التسترى، وقد قدمنا ترجمته (**فى قوله تعالى**: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾) [الفاتحة: ٧]، بين ما أنعم به على من سلك الطريق المستقيم.

(**قال**) سهل فى تفسير: إنه أنعم عليهم (**بمتابعة السنة**) أى اتباع طريقه الذى هو الصراط المستقيم الذى يجب اتباعه، (**فأمرهم الله تعالى بذلك**) أى باتباعه (**ووعدهم**) الجزاء عليه أعنى (**الاهتداء باتباعه**) أى حصول الهداية التى طلبوها بقولهم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، فقال: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وفيه إيماء إلى أن الترجى من الله تعالى وعد لمن لا يخلف الميعاد؛ (**لأن الله تعالى أرسله بالهدى**) أى بما فيه هدايتهم، (**ودين الحق**) أى الدين الحق أو دين الله؛ (**ليزكيهم**) أى يطهرهم من الشرك والمعاصى، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ١٢٩]، أى القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أى العلوم النافعة المحكمة، والشريعة التى صيرتهم حكماء متقنون للعلم والعمل، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦]، بإسلامهم وطاعة الله ورسوله الموصل لهم للنعيم المقيم، (**ووعدهم محبته تعالى**) أى محبة الله لهم، فالمصدر مضاف لفاعله (**فى الآية الآخرى**) يعنى قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، (**ومغفرته**) بقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، (**إذا اتبعوه**)؛ لأن جواب الأمر فى معنى جواب الشرط، (**وآثروه**) بالمد أى قدموه واختاروه من الأثرة (**على أهوائهم**) جمع هوى بالقصر، وهو ما تميل إليه النفس وتدعو إليه، وهو إذا أطلق يراد به ما ليس بمحمود منالشهوات، (**وما تجنح**) بجيم ونون وحاء مهملة، ويجوز فى نونه الفتح والضم والكسر يعنى تميل، وأصله الميل على أحد شقيه مأخوذ من الجناح (**إليه نفوسهم**) وضع الظاهر فيه موضع الضمير إذ المعنى يجنحون إليه، ويقدمون اتباعه ومحبته على محبة أنفسهم وأموالهم وأولادهم والناس أجمعين كما ورد فى الحديث.

(و) أخبرهم بـ(**أن صحة إيمانهم فى انقيادهم له**) فى جميع ما أمرهم به ونهاهم عنه، (**ورضاهم بحكمه**) فيما تخاصموا فيه يعنى قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

(**وترك الاعتراض عليه**) فيما حكم به ومخالفته ومعارضته وعدم رضاه كما تقدم فى

قصة الأنصارى مع الزبير.

(وروى عن الحسن) البصرى، رحمه الله تعالى، والراوى له ابن المنذر فى تفسيره، ويحتمل أنه الحسن بن على، رضى الله تعالى عنهما، **(أن قومًا قالوا: يا رسول الله إنا نحب الله)** أى تميل إليه أنفسنا ونخصه بالعبادة والرغبة لما رغبنا فيه، **(فأنزل الله)** مبينًا لهم محبتهم، والمراد منها بقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ الآية [آل عمران: ٣١]، أى ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ يعنى أن محبته إنما تتحقق بطاعة الله، وطاعته بطاعة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن أحب الله أحبه الله كما قيل: ما جزى من يحب إلا يحب.

(وروى) فى سبب نزول هذه الآية **(أن الآية نزلت فى كعب بن الأشرف)**، وهو رجل من عظماء اليهود من بنى النضير، وأمه من طى وقتل كافرًا بعد بدر بستة أشهر كما تقدم، وقصته مشهورة مفصلة فى السير، **(وغيره)** من اليهود أتباعه **(وأنهم)** أى ابن الأشرف وأتباعه **(قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه ونحن أشد حبًا لله)**، وهذا ما حكاه الله تعالى عنهم فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ١٨]، إلى آخره، وكانوا أتوه صلى الله تعالى عليه وسلم، فأنذرهم وخوفهم عذاب الله، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد نحن أبناء الله إلى آخره، فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب: يا معشر اليهود اتقوا الله، فإنكم تعلمون أنه رسول الله، وكنتم تصفونه قبل مبعثه، فقالوا: ما قلنا هذا وما أنزل الله بعد موسى كتابًا، ولا بعث رسولا، ومعنى قول النصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ﴾، أنهم أشياع عيسى صلى الله تعالى عليه وسلم الذى زعموا أنه ابن الله، ومعنى: وقالت اليهود ذلك أنهم أشياع عزير الذى زعموا أنه ابن الله، وقيل: تقديره رسل الله.

(فأنزل الله تعالى الآية) جوابًا لهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ الآية.

(وقال الزجاج) فى تفسير هذه الآية **(معناه: إن كنتم تحبون الله أى اقصدوا طاعته)** إذ لا يصح تفسير المحبة فيها بما تعارفه الناس، وفى نسخة إن تقصدوا هذا تفسير لمحبة العبد، **(فافعلوا ما أمركم)** الله تعالى **(به)** الفاء فصيحة أى اتبعونى وافعلوا **(إذ محبة العبد لله والرسول)** أى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فاللام عوض عن المضاف **(طاعته لهما)** باتباع أمرهما ونهيهما، **(ورضاه بما أمرا)** بأن يطيعه ظاهرًا وباطنًا إذ لو لم يطعه باطنًا كان منافقًا، **(ومحبة الله لهم)** أى لعباده، ففسر محبة الله بعد تفسير محبة عباده لذكرهما فى الآية **(عفوه عنهم)** بمغفرة ذنوبهم، وقدمه على قوله **(وإنعامه)** أى الله **(عليهم)** أى على عباده **(برحمته)** اهتمامًا به، والرحمة فى حق الله بمعنى الإنعام وإرادته فى

حقه تعالى؛ لأن معناها الحقيقى لا يصح فى حقه تعالى، فالمراد بها هنا لطفه بعباده ورأفته بهم.

(ويقال) فى تفسير محبة الله ومحبة عباده له أن معنى **(الحب من الله عصمة)** أى حفظ الله لعبده من مخالفة أمره ونهيه، والعصمة بمعنى مطلق الحفظ لا تختص بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فيكون لغيره، ويجوز الدعاء بها لكل أحد كما تقدم، والذى يختص به صلى الله تعالى عليه وسلم، دون غيره هو أن يخلق الله فيه جبلة تمنعه عن كل ما لا يرضاه الله، وأن لا يقدر أحد على قتله ونحوه، وإليه أشار بقوله: **(وتوفيق)** أى خلق الله فيه قدرة على طاعة الله ومراقبته فى السر والعلانية حتى يمتنع من المقحمات، ومبدؤه ميل نفسانى يتعالى الله عنه.

(و) المحبة **(من العباد)** معناها **(طاعة)** وانقياد لله ورسوله **(كما قال القائل)** أى معنى ما ذكر هو معنى قول هذا الشاعر، وهو كما فى زهر الآداب للحصرى محمود بن الحسن الوراق، وقيل: إنه لمنصور الفقيه وهو بليغ مفلق كان فى أول الدولة العباسية، وكان كثيرًا ما يأخذ حكم المتقدمين من الفلاسفة وغيرهم، فينظمها فى شعره كقوله:

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة ... على له فى مثلها يجب الشكر[1]
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عم سرورها ... وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
فما منهما إلا له فيه نعمة ... يضيق بها الأوهام والبر والبحر
تعصى الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمرى فى القياس بديع[2]
لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

وفى معناه قول منصور الفقيه أيضًا:

غلط فاحش وجهل مبين ... وعمى لا يحول لا بَلْ جنون
طمع العبد فى كرامة مولاه ... وإصراره على ما يهين

ومعنى الشعر أنك تدعى محبة الله وأنت عاص له، ولو كنت صادقًا لم تعص؛ لأن المحب لا يخالف حبيبه، والعمر بفتح العين الحياة كالعمر بضمها، إلا أنهم فى القسم التزموا فتحها إلا شذوذًا، وهو مبتدأ خبره محذوف تقديره قسمى، والقياس لغة تقدير الشىء بذراع ونحوه، وفى الاصطلاح إلحاق شىء بشىء لمناسبة بينهما، ويطلق بمعنى الدليل المعروف، والمراد قياسه بغيره، وبديع بمعنى غريب عجيب يعنى أن المعاصى لا

---

(١) الأبيات من بحر الطويل عروضه مقبوضة، وضربه صحيح.

(٢) البيتان من بحر الكامل عروضه صحيحه، وضربه مقطوعة.

تضر المحب؛ لأن المتحابين لا يؤاخذ أحدهما الآخر، وهو أمر عجيب ومقتضى القياس أن المحب لا يعصى أمر حبيبه، ويجوز أن يراد القياس المنطقى كما قيل، وهو تكلف، **(ويقال: محبة العبد لله تعظيمه له وهيبته منه)** أى خوفه إذا تأمل عظمته، **(ومحبة الله له)** أى لعبده **(رحمته له)** أى إحسانه وإكرامه لأن معناه الحقيقى لا يليق به، فأريد به غايته **(وإرادته)** الفعل **(الجميل له، وتكون)** بالمثناة الفوقية، وفيه ضمير المحبة، وقيل: إنه بالتحتية والضمير للجميل، والأول أولى **(بمعنى مدحه والثناء عليه)** أى على العبد.

(قال القشيرى) الإمام الزاهد أبو القاسم صاحب الرسالة وقد تقدمت ترجمته: **(فإذا كان)** أى المحبة وذكره لتأويله، أو لأن تأنيث المصدر غير معتبر لتأويله بأن والفعل، أو الضمير للجميل **(بمعنى الرحمة والإرادة)** عطف تفسير؛ لأن الرحمة تفسير بالإنعام، فيكون من صفات الأفعال، **(والمدح)** فى كلامه الأزلى كالثناء على المؤمنين فى القرآن **(كان من صفات الذات)** أما الإرادة فظاهر، وأما المدح فلأنه يرجع لصفة الكلام، والكلام على صفات الذات والأفعال مفروغ منه فى علم الكلام.

(وسيأتى بعد) مبنى على الضم لقطعه عن الإضافة أى بعد هذا **(فى ذكر محبة العبد غير هذا)** فاعل سيأتى أى غير ما ذكر هنا **(بحول الله تعالى)** أى بإعانته وقوته؛ لأن الحول له معان منها هذا، ثم ذكر حديثًا مسندًا رواه الآجرى شاهدًا لوجوب اتباعه صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: **(حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر الفقيه)** بن أحمد شيخ المصنف، رحمه الله تعالى، قال: **(حدثنا أبو الأصبغ عيسى بن سهل)** أصبغ بصاد مهملة وموحدة وغين معجمة **(ح وحدثنا)** تقدم أن ح بحاء مهملة يذكرها المحدثون إذا أرادوا التحول من رواية لرواية أخرى كما بينه ابن الصلاح **(أبو الحسن يونس بن مغيث)** بميم مضمومة وغين معجمة وياء تحتية ساكنة ومثلثة **(الفقيه بقراءتى عليه)** قال: **(حدثنا حاتم بن محمد)** تقدم بيانه.

قال: **(حدثنا أبو حفص الجهنى)** نسبة لجهينة مصغرًا قبيلة مشهورة قال: **(حدثنا أبو بكر الآجرى)** بفتح الهمزة الممدودة وضم الجيم وتشديد الراء المهملة نسبة للآجر، وهو الطوب المعروف وهو الإمام الحافظ محمد بن الحسين، وقد تقدم بيانه.

قال: **(حدثنا إبراهيم بن موسى الجوزى)** بفتح الجيم وسكون الواو وزاء معجمة مكسورة وياء نسبة، وهو أبو إسحاق الجوزى نسبة لجوزة قرية من قرى بغداد وعلى هذا اقتصر الحافظ الحلبى.

وقال التلمسانى: إنه كذا فى أصل المصنف، رحمه الله تعالى، ورواه العزفى خوزى بخاء مضمومة وواو ساكنة وزاء معجمة نسبة لخوز جيل من الناس، أو قرية مشهورة

قال: **(حدثنا داود بن رشيد)** بالتصغير علم منقول، وهو أبو الفضل الخوارزمى الحافظ الثقة، روى عنه أصحاب السنن، وتوفى فى شعبان سنة تسع وثلاثين ومائتين قال: **(حدثنا الوليد بن مسلم)** الحافظ أبو العباس عالم الشام صاحب التآليف الجليلة، روى له أصحاب الكتب الستة إلا أنه نسب إلى التدليس، وتوفى سنة خمس وتسعين ومائة، وله ترجمة فى الميزان **(عن ثور بن يزيد)** الحافظ الحمصى ثقة لكنه نسب إلى القدرية حتى أخرج من حمص، وتوفى سنة ثلاث وخمسين ومائة، **(عن خالد بن معدان)** الكلاعى الزاهد الفقيه الجليل، أخرج له أصحاب الكتب الستة، توفى سنة أربع وثمانين ومائة، قيل: إنه كان يسبح فى كل يوم أربعين ألف تسبيحة، **(عن عبد الرحمن بن عمرو الأسلمى)** كذا فى النسخ، وصوابه كما قال البرهان الحلبى: السلمى بضم السين المهملة وفتح اللام، وهو ابن عنبسة، وهو حافظ ثقة توفى سنة عشرة ومائة، **(وحجر الكلاعى)** حجر بضم الحاء المهملة وسكون الجيم وراء مهملة، والكلاعى بفتح الكاف ولام وألف وعين مهملة نسبة إلى كلاع بزنة سحاب بلدة بالأندلس، وذو الكلاع من ملوك اليمن المسمين بالأذواء، وهذه النسبة لأحدهما توفى سنة خمس وسبعين، وروى له أصحاب السنن **(عن)** أبى نجيح **(العرباض)** بعين مهملة مكسورة وراء مهملة ساكنة وباء موحدة وضاد معجمة، وأصله الطويل وتقدم الكلام عليه.

(ابن سارية) بسين مهملة وياء آخر الحروف صاحب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، من أهل الصفة سكن حمص **(فى حديثه فى موعظة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه قال)** أى فى حديث وعظ فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، من كان فى مجلسه من الصحابة، وذلك أن عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن عمرو السلمى، وحجر بن حجر قالا: أتينا العرباض بن سارية، وهو ممن نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٩٢]، وقلنا: أتيناك زائرين وعائدين ومقتبسين، فقال: صلى بنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، الصبح ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيًا، فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافًا كثيرًا»(١).

(فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ،

---

(١) أخرجه أحمد (٤/١٢٦، ١٢٧)، والدارمى (١/٤٤)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذى (٢٦٧٦)، وابن حبان (١٠٢)، والبيهقى (١٠/١١٤)، والحاكم (١/٩٦، ٩٧، ٣/٣٨٠)، والطبرانى (١٨/٢٤٦، ٢٤٩).

وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة) رواه على عن الوليد كذا قال الذهبى فى تاريخه، ومن خطه نقلت، واعلم أن الموعظة هى التذكير بما يحث على الطاعة، وعليكم اسم فعل يتعدى بنفسه إن كان بمعنى الزم كقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وبالباء إن كان بمعنى تمسك كما هنا، والسنة الطريقة مما هم عليه، والخلفاء جمع خليفة وراشدين جمع راشد ضد الغاوى، والمراد بهم الخلفاء الأربعة ومن كان على طريقتهم كعمر بن عبد العزيز، وأئمة الإسلام المجتهدين فى إعلاء كلمة الله، وقوله عضوا إلى آخره فعل أمر، والنواجذ بالذال المعجمة جمع ناجذ أقصى الأضراس وهى أربعة أو الأنياب أو التى تليها، والمراد الاجتهاد فى التمسك بها، فهو استعارة تمثيلية لما ذكر لا كناية، ولا يجوز أن تكون استعارة تصريحية تبعية، وقيل: المراد بالنواجذ جميع الأسنان هنا، وقال البرهان عن المنذرى: إنه يجوز إهمال داله، وفيه نظر لمخالفته لكتب اللغة، وإياكم تحذير أى احذروا المحدثات والرضا بها، وهى جمع محدثة اسم مفعول وهو ما حدث مما خالف الكتاب والسنة وإجماع المسلمين، والبدعة بمعناها وهى ما لم يعهد فى عصره صلى الله تعالى عليه وسلم، وهى كما قاله العز بن عبد السلام تنقسم إلى واجبة ومحرمة ومندوبة ومباحة، فالمندوبة كتدوين الكتب وعلم النحو واللغة والاشتغال بذلك وأحداث الربط والمدارس، ومن المكروه تزويق المصاحف والمساجد وتكبير العمائم وتوسيع الملابس، ومن الواجب وفرض الكفاية تعلم علم العربية الذى يتوقف عليه فهم كلام الله وكلام رسوله، ولا ينافى هذا قوله: (**كل بدعة ضلالة**)؛ لأن البدعة لها معنيان كل ما حدث بعد العصر الأول، وهو المقسم للأقسام المذكورة، ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها»(١)، وإليه الإشارة بقوله: «سنة الخلفاء»)، وقد خصها الشارع مما هو مذموم؛ لعدم دخوله تحت القواعد الشرعية، وهذا هو المراد بالبدعة عند الإطلاق، وهو الذى جعل ضلالة، وفى عوارف المعارف وإحياء الغزالى البدعة المذمومة ما زاحم السنة المأثورة أو كان يفضى إلى تغييرها، وفى كتاب المدخل لابن الحاج بيان لها شاف كاف.

(**وزاد**) على ما رواه العرباض (**فى حديث جابر**) بن عبد الله، رضى الله تعالى عنهما، الذى رواه مسلم (**بمعناه**) أى ملتبسًا بمعنى حديث العرباض موافق له، وليس المراد أنه رواية بالمعنى كما قيل.

(**وكل ضلالة**) أى ضلال بارتكاب البدع المذمومة (**فى النار**) أى معذب بها أو مستحق للعذاب، وقيل: إنه متضمن لشكل منطقى منتج لما ذكر أى كل محدث بدعة

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧/١٥)، وأحمد (٣٦١/٤)، والترمذى (٢٦٧٥)، وابن ماجه (٢٠٧)، والدارمى (١٣١/١)، والحميدى (٨٠٥).

وكل بدعة ضلالة معذب مرتكبها، فكل محدث ضلالة مستوجب للعذاب الأليم.

(وفى حديث أبى رافع) الصحيح الذى رواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وأبو رافع هو الصحابى مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان قبطيًا، واختلف فى اسمه فقيل: إبراهيم وقيل: أسلم، وقيل: ثابت، وقيل: هرمز، ولهم أبو رافع غير راوى هذا الحديث معدود فى الصحابة أيضًا يروى **(عنه، عليه الصلاة والسلام، لا ألفين)** نفى بمعنى النهى أى لا أجدن وألفى بمعنى وجد، قال الله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾ [يوسف: ٢٥]، وروى لألفين كما تقدم عن الأم للشافعى، والصحيح رواية الأول وإن صح هذا أيضًا كأنه لتحققه وجده هو، وهو بضم الهمزة وسكون اللام وكسر الفاء وفتح المثناة التحتية وتشديد النون أى لا يفعل **(أحدكم)** معاشر الأمة أو الصحابة، فلا يكون هذا من سببه، وهو نهى فى الحقيقة عن التكبر والبطر **(متكئًا)** أى مائلاً مستندًا معتمدًا، وهو بالهمزة والياء أيضًا وقد تقدم أن العامة لا تعرف المتكئ إلا من مال فى قعوده معتمدًا على أحد شقيه، وتاؤه مبدلة من واو من الوكاء **(على أريكته)** هى سرير مزين يتخذ فى قبة أو بيت، وليس مطلق السرير أريكة، وقيل: هو سرير له حجلة، وقيل: كل ما اتكئ عليه من سرير أو فراش أو منصة أو مخدة مما يفعله المترفهون، وجمعه أرائك.

وقال الراغب: سمى به لاتخاذه من الأراك أو لأنه محل الإقامة من أرك بالمكان أروكا إذا أقام به، وأصله الإقامة لرعى الأراك، ثم يتجوز به عن كل إقامة **(يأتيه الأمر من أمرى)** أى شىء مما أمرت به فقوله: **(مما أمرت به)** تفسير لقوله: «من أمرى»، بدل منه، ومن بيانية فيهما، وقيل: الثانية بمعنى الباء كقوله: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ﴾ [الشورى: ٤٥]، أى به متعلقة بأمرى، والأمر الأول بمعنى الشأن شامل للنهى وغيره، والثانى مقابل النهى بقوله: **(أو نهيت عنه فيقول: لا أدرى)** هذا الأمر الذى نقلتموه لنا ولا أتبع وأعرف غير القرآن.

(ما وجدنا فى كتاب الله تعالى اتبعناه) دون غيره مما روى فى الأحاديث، ولم يعرف أن ما فى الحديث عن الله تعالى أيضًا، وأن الوحى وحيان متلو وغير متلو، وأن السنة لا تخالف الكتاب، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [الحشر: ٧]، فهو تحذير عن ترك امتثال أمره واجتناب نهيه والعمل بهما، وسنة رسوله ككتابه يجب اتباعه سواء تواترت أم لا، وفى الحديث الصحيح الذى رواه الترمذى: «ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بالقرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، وإن ما

حرم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، كما حرم الله تعالى»[١]، الحديث، ومعلوم أن هذه شبهة فاسدة مبطلة لكثير من الشرع كشبهة الخوارج.

(**وفى حديث عائشة، رضى الله تعالى عنها**)، المروى فى الصحيحين، وما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، لفظ البخارى (**صنع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، شيئًا**) يأتى بيانه.

(**ترخص فيه**) أى ارتكب فيه الرخصة وترك العزيمة، والرخصة الأمر المتغير من صعوبة إلى سهولة كقصر المسافر صلاته وإفطاره، وهذه الرخصة أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يصبح جنبًا، فبلغ ذلك بعضهم فقال: لسنا كرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فسمعه صلى الله تعالى عليه وسلم، فغضب، فقال: «لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأتقاكم»[٢]، وقيل: هو أن بعض الصحابة سأل أزواجه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن عبادته ليلاً، فلما أخبر بها استقلها، وقال: إنه غفر له ما تقدم وما تأخر فأنا أصلى الليل كله، وقيل: إن بعضهم قال: أعتزل النساء ولا أتزوج، وقال البرهان نقلاً عن شيخه ابن الملقن أنه إفطاره صلى الله تعالى عليه وسلم، عام الفتح، والكل صحيح هنا.

(**فتنزه**) أى تباعد (**عنه قوم**) عن العمل بما ترخص فيه، (**فبلغه ذلك**) أى نقل له صلى الله تعالى عليه وسلم، تنزه هؤلاء، فخطبهم موعظة على عادته، (**فحمد الله**) وأثنى عليه، (**وقال: ما بال قوم**) أى ما شأنهم وحالهم وهو استفهام إنكارى (**يتنزهون عن الشىء**) حال كونى (**أصنعه؟**)، فتركهم لمثله لأنهم يظنون أن خوفهم من الله تعالى أشد من خوفى له؛ لأن الله تعالى غفر لى ما تقدم وما تأخر، ولم يكلفنى ما كلفهم، (**فوالله**) تأكيدًا وتقريرًا لقوله: (**إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية**) أى خوفًا وقدم أعلميته به؛ لأن الخشية بمقدار العلم كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فأنكر عليهم ذلك لظنهم أن حالهم ليس كحاله، وأن ارتكاب مثلهم الرخص يفضى إلى عدم الخوف والتهاون بالعبادة، وليس كذلك بل لأن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، فإنها صدقة تصدق الله بها عليهم لا يليق عدم قبولها، وقيل: إنه ليس محلاً للإنكار، لكنه نزلهم منزلة المنكرين لما لاح عليهم من علامات الإنكار وليس بشىء.

(**وروى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم**)، كما رواه الديلمى وأبو نعيم وأبو الشيخ مسندًا (**أنه قال: القرآن صعب**) بسكون العين ضد السهل (**مستصعب**) بكسر العين اسم

---

(١) أخرجه أحمد (١٣١/٤)، وأبو داود (٤٦٠٤).

(٢) أخرجه أحمد (٦٧/٦)، وأبو داود (٢٣٨٩).

فاعل من استصعب الأمر بمعنى صعب، وبفتحها من استصعبت الأمر بمعنى وجدته صعبًا أو صيرته صعبًا أى هو فى نفسه عسر على من أراد حفظه وفهمه والعمل به، وقد صيره الله تعالى أيضًا صعبًا **(على من كرهه)** أى من لم يرد حفظه وتدبر آياته، وأما من أحبه وتلذذ بتلاوته وداوم على مدارسته وتأمله، فيسهله الله تعالى عليه.

(وهو) أى القرآن **(الحكم)** بفتحتين أى الذى يحكم على الناس بما تضمنه من الأحكام، والحكم من الأمثال والموعظة، وجعله حكمًا أى حاكمًا بنفسه مبالغة، **(فمن استمسك بحديثى)** المروى عنى، **(وفهمه وحفظه)** بتدبر معانيه وضبط ألفاظه **(جاء)** يوم القيامة محشورًا **(مع القرآن)** أى إذا تسمك به وعمل بما فيه، وفيه استعارة بتشبيه العامل به بالمتمسك بشىء محكم وثيق لا ينقطع، فإنه حبل الله المتين والعروة الوثقى كما ورد التعبير به عنه فى الأحاديث، وفيه إشارة إلى أن الحديث لا يفارق القرآن وأنهما كشىء واحد؛ لأن السنة تبين القرآن ومجيئه معه أو بمجيئه مع أهله أو مع نوره أو أعماله التى عمل بها منه، أو هو على ظاهره بأن يجىء تاليًا له، فيشفع فيه، ويقال له: اقرأ وارق كما ورد فى الحديث، والمراد بالقرآن، ألفاظه لا الكلام النفسى الذى هو صفة ذاتية.

(ومن تهاون بالقرآن) أى أعرض عنه، ولم يوجه إليه فكره لإهانته أوعَدَّهُ هينًا، **(وحديثى)** بعدم حفظه والعمل به، **(فقد خسر الدنيا)**؛ لأنه يحيى جاهلاً مهانًا فقيرًا، **(والآخرة)** لفوات السعادة والفوز بنعيمها كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ الآية [طه: ١٢٤].

(أمرت) بالبناء للمجهول أى أمر الله تعالى **(أمتى أن يأخذوا بقولى)** أى يتمسكوا بحديثى، ويعملوا به كما سيأتى، **(ويطيعوا أمرى)** لقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]، **(ويتبعوا سنتى)** أى يقتدوا بى ويسلكوا طريقى وشريعتى السمحة كما قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فالعمل بسنته عمل بالقرآن لأنهما توأمان، وفيه رد على من قال: لا أعمل إلا بالقرآن، ونهى عن ترك السنة وخبر الآحاد كما تقدم.

(فمن رضى بقولى) فاتبعه وعمل به، **(فقد رضى بالقرآن)**؛ لأنه موافق له وغير مخالف له، فهما كالشىء الواحد **(قال الله تعالى:** ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ **)** [الحشر: ٧]، عنه، فارضوا بما رضيه واكرهوا ما كرهه، فإن سنته مبينة موضحة للقرآن، فمن خالفه فقد ضل، وكذا قالوا من أراد تفسير القرآن فليتأمله، فإن بعضه يفسر بعضًا، فإن لم يجده فيه فعليه بالسنة، فإن لم يجد ما أراده فيها فعليه بأقوال الصحابة فإنها فى حكم المرفوع؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يقرؤهم القرآن،

ويبين لهم معانيه كما وراه ابن تيمية.

(وقال صلى الله تعالى عليه وسلم)، فيما رواه عبد الرزاق عن الحسن مرسلاً بلفظ: «من استن بسنتي»، أي تبعها وعمل بما فيها والمصنف، رحمه الله تعالى، رواه بلفظ: **(من اقتدى بي)** في سنتي وشريعتي **(فهو مني)** أي من أتباعي وأشياعي الذين يحشرون معي، ويتصلون بي حتى كأنهم بعض مني لا ينفصل عني، ومن هذه تسمى من الاتصالية كقوله عليه السلام، لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»(١).

(ومن رغب عن سنتي) أي تركها وأعرض عنها يقال: رغب عنه إذا كرهه، وضده رغب فيه، وسنته طريقته أو أحاديثه المروية عنه الشاملة لأقواله وأفعاله وتقريراته، وهما متقاربان معنى.

(فليس مني) هذا تبرؤ منه كقوله:

لست من قيس ولا قيس مني

وعجزه هذا مذكور في الصحيحين أيضًا، ومعناه ليس مقربًا مني أي فهو كافر، وليس هو على ملتي لإهانته الحديث.

(وعن أبي هريرة) رضي الله عنه، ولم يخرجه السيوطي بهذا اللفظ **(عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: إن أحسن الحديث كتاب الله)** كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ الآية [الزمر: ٢٣]، **(وخير الهدى)** بالنصب ويجوز رفعه **(هدى محمد)** بفتح الهاء وسكون الدال المهملة وتحتية، وهو مصدر بمعنى السيرة والطريقة من قولهم: تهادى في مشيته، قيل: روايته هنا كما قاله القاضي في الإكمال الهدى بضم الهاء وفتح الدال مقصور، أو الهداية بمعنى الدلالة والتأييد بالعصمة، وهذه هي التي تضاف إلى الله، **(وشر الأمور محدثاتها)** بفتح الدال تقدم تفسيره.

(وعن عبد الله بن عمرو بن العاص) في حديث رواه أبو داود وابن ماجه **(قال: قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: العلم ثلاثة)** أقسام حصره فيها إن قلنا: العدد يفيد الحصر؛ لعدم الاعتداد بغيرها، **(فما سوى ذلك)**، وفي نسخة وما سوى ذلك **(فضل)** أي زائد لا حاجة إليه، ولا يفتقر إليه وتفسيره بالبقية غير سديد هنا، والأظهر ما قيل: إن المراد كل علم غير هذه الثلاثة وما يتعلق بها، وما يتوقف عليه فهو زائد لا ضرورة داعية لمعرفته، ومعنى الفضل في اللغة الزيادة كما علم.

(آية) من كتاب الله **(محكمة)** غير متشابهة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠/٢٤٠٤)، وأحمد (١٧٩/١، ٣٢/٣، ٣٦٩/٦)، والترمذي (٣٧٣٠)، وابن ماجه (١٢١).

ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ [آل عمران: ٧]، أو غير منسوخة؛ لأن المحكم يفسر بهذا أيضًا، أو المراد ما يشملهما لإحكام بيانها حتى لا يحتاج لزيادة، وإحكام نظمها فلا خلل فيها، ويطلق المحكم على جميع القرآن أيضًا كما قال الله تعالى: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]، ويجوز إرادته أيضًا.

(**أو سنة قائمة**) أى دائمة مستمرة يعنى لم تنسخ لدوام العمل بها.

(**أو فريضة عادلة**) أى لا جور فيها، وفسرت هنا بالأحكام المستنبطة من القرآن، والحديث تسمية لها بأعظم أقسامها، أو لأنها استنبطت بالاجتهاد المفروض على هذه الأمة، وسميت عادلة لمساواتها بالنص، أو المراد بها فريضة المواريث وقسمتها، وهو المشهور، ويطلق على ما يقابل العائلة وليس بمراد هنا، وفيه إشارة إلى أن العلم اللازم العلوم الشرعية، وهى التفسير والحديث والفقه.

(**وعن الحسن بن أبى الحسن**) هو الحسن بن يسار البصرى، وقد تقدم وهو حديث رواه عبد الرزاق عن معمر مرسلاً، والدارمى متصلاً عن ابن مسعود، (**عنه**) صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى نسخة قال (**عليه الصلاة والسلام: عمل قليل فى سنة**) فى هنا بمعنى مع كقوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾ [الأعراف: ٣٨]، أى موافق للسنة ومصاحب لها، وإن قل (**خير من عمل كثير فى بدعة**)، وإن كثر لزيادة نفعه وكثرة ثوابه، والتعبير بفى إشارة إلى أنه يراعى السنة فى جميعه عددًا وهيئة حتى يحيط السنة به، وقيل: إنه لمصاحبته السنة، وتمكنه فيها شبه بالظرف والمظروف، وهذا كمن تهجد منفردًا ركعتين، ولم يصل الصلوات التى ابتدعها بعض الصوفية بجماعة كالرغائب، ووجهه ظاهر، وخير اسم تفضيل يقتضى الخيرية فى البدعة بحسب ظاهره، وليست مرادة، وإنما عبر بها هنا بناء على اعتقاد فاعلها القربة فيما فعله، وقيل: المراد الابتداع بالأعمال التى لها أصل فى العبادة كوصال الصوم وما أشبهه.

(**وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: إن الله يدخل العبد الجنة بالسُّنَّةِ**) الواحدة وإن قلت: (**تمسك بها**) أى امتثلها، وعمل بها مخلصًا.

(**وعن أبى هريرة**) فى حديث رواه الطبرانى فى الأوسط (**المتمسك بسنتى**) أى العامل بها والسالك طريقتى (**عند فساد أمتى**) أى تغير أحوالها، وتركها أمور الدين واتباع البدع، وذلك فى آخر الزمان (**له أجر مائة شهيد**) فيه إشارة إلى أن المراد بالتمسك بها العمل بها، وأمر غيره بالعمل أيضًا فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهو الجهاد الأكبر، وأيضًا هو يجاهد نفسه حتى يترك ما ألفه الناس، ومثله مما يرغب الناس عنه فيؤذيه أشد الإيذاء، فلذا أعطى ثواب الشهداء وجعله أجر مائة للتكثير أو للإشارة إلى أن

أكثر ما يقاومه عشرة، والحسنة بعشر أمثالها، وقيل: إن الشهيد يرقى منزلته بترك الدنيا، وبذل نفسه فى نصرة الدين، وثناء غيره عليه ودعائه له، ومن وفقه الله تعالى مع فساد عصره وأهله، فقد اختار دار البقاء على دار الفناء، وارتكب المشاق بمخالفة الناس، والتقوى بين الفجار كالمعصية بين الأبرار، كما أن الجود بين اللئام يعز عزة البخل بين الكرام كما قيل:

رأيت عبيد الله أكرم من مشى | وأكرم من فضل بن يحيى بن خالد
أولئك جادوا والزمان مساعد | وقد جاد ذا والدهر غير مساعد

(وقال صلى الله تعالى عليه وسلم)، فى حديث رواه الترمذى: **(إن بنى إسرائيل افترقوا)** أى صاروا فرقًا، وإسرائيل لقب يعقوب بن إبراهيم الخليل، عليهما الصلاة والسلام، وإليه انتسب كل من كان قبيلة وهم قوم مشهورون **(على اثنين وسبعين ملة)** أى مذهبًا أو دينًا لأنه الملة والدين بمعنى، وإن افترقا مفهومًا واستعمالاً، وقد تقدم تفصيله، **(وإن أمتى تفترق على ثلاث وسبعين)** فرقة مختلفة الاعتقاد والمذاهب، وروى فرقة مكان ملة، وفى الحديث روايات مختلفة **(كلها فى النار إلا واحدة قالوا: ومن هم يا رسول الله؟)** هكذا روى، فالواو عاطفة على مقدر أى هذا عددهم ومن هم أو هى زائدة.

(قال: هم الذين على الذى أنا عليه وأصحابى)، وفيه معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم، لإخباره بالغيب، فإذن ذلك لم يكن فى عصره، ولا عصر الخلفاء الراشدين من بعده، وقد وقع ذلك كما قال، وهذا باعتبار أصول الفرق، فإن شعبها كثيرة وقد ألف فى بيانها تآليف أجلها كتاب الملل والنحل للشهرستانى، وقد عدوها فكانت كما ذكر صلى الله تعالى عليه وسلم، وهم أهل السنة والشيعة والخوارج والمعتزلة ونحوهم من الفرق، وأصنافها مما يطول ذكره، والمراد بكونهم فى النار أنهم مستحقون للعذاب دون الخلود إلا أن يكون فى اعتقادهم ما يقتضى الكفر كبعض غلاة الرافضة، وللفرقة الناجية أهل السنة والجماعة لاتباعهم القرآن والحديث فى الاعتقاد من غير اعتقاد ارتكاب تأويلات بعيدة، وزعم الطوسى وابن مطهر أنهم الإمامية ورده الجلال الدوانى فى شرح العقائد كما بيناه فى حواشيها، ومطابقة الجواب للسؤال ظاهرة من غير احتياج للتأويل كما توهم.

(وعن أنس)، رضى الله تعالى عنه، **(قال صلى الله تعالى عليه وسلم)**، فى حديث رواه الأصفهانى فى ترغيبه وغيره **(من أحيا سنتى)** أى أظهرها بالعمل بها والحث على اتباعها جعل ذلك بمنزلة الإحياء، ففيه استعارة تبعية أو مكنية وتخييلية، وهو كالحديث الذى

رواه أبو هريرة؛ لأن المراد إظهارها بعد تركها، **(فقد أحيانى)** أى أظهر ذكرى ورفع أمرى، فجعله بمنزلة إحيائه كما قيل:

وتحسبه قد عاش آخر دهره   إلى الحشر إن أبقى الجميل من الذكر

(ومن أحيانى) ببقاء ذكرى وشرعى **(كان)** أى تحقق أن جزاءه أن يكون **(معى فى الجنة)**، والمراد دخوله فيها وعلو مرتبته، لامساواته فيها، وحذف ظرف المعية من الزمان والمكان تفخيمًا له؛ لتذهب نفسه كل مذهب.

(وعن عمرو بن عوف) بن يزيد بن مليحة **(المزنى)** الصحابى، وهو قديم الإسلام شهد المشاهد وتوفى فى زمن معاوية، وهو منسوب لمزينة قبيلة مشهورة **(أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، قال لبلال بن الحارث)** بن عاصم بن سعيد بن قرة بن مازن أبو عبد الرحمن المزنى الصحابى، وفد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، مع وفد مزينة وسكن وراء المدينة، وتوفى سنة ستين وسنه ثمانون سنة **(من أحيا سنة من سنتى قد أميتت بعدى)** أى تركت وترك العمل بها، فشبه الترك بالموت لاشتراكهما فى العدم وسنته طريقته وشريعته، فهى تشمل السنن وغيرها فلا وجه لما قيل: الظاهر سنتى بصيغة الرواية بالإفراد، والإماتة ضد الإحياء وتختص بالحيوان حقيقة **(كان له من الأجر)** أى الثواب **(مثل من عمل بها)** فيه مضاف مقدر أى أجر من عمل بها **(من غير أن ينقص ذلك)** أى الأجر الذى له **(من أجورهم شيئًا)**؛ دفعًا لتوهم أنه يعطى من ثوابهم فينقص أجرهم، **(ومن ابتدع بدعة ضلالة)** وفسرها بقوله: **(لا ترضى الله ورسوله)**؛ لأنها بدعة غير مرضية **(كان عليه مثل آثام)** بالمد جمع إثم وهو الوزر **(من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئًا)**، وهذا رواه الترمذى، وابن ماجه وحسنه، وفى من الموصولة من العموم ما لا يخفى، وكذا قوله شيئًا، وقوله: بدعة ضلالة بالإضافة والتوصيف، ولا ينافى هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٧]؛ لأن هذا وزره وكسبه؛ لأنه بعلمه سنها لهم وأرشدهم لفعلها وحسنها لهم، فكان فى قوة الأمر لهم كما ذكره شراح الحديث، وقيل: المراد أن عليهم إثمًا بالغا فى المقدار مثل آثام العاملين بها من جهة أنه كان طريقًا لهم فى العمل بها، ولذا غاير بين المقامين، فقال: عليه من الأجر مثل إلخ، ولم يقل عليه من الإثم انتهى، ولا حاجة لما طوله، وتحقيقه أنه كان سببًا فى الخير، والثانى سببًا لضده، وسبب منزل منزلة الفاعل، فله ماله وعليه ما عليه أى مثله.

وفى الحديث **(الدال على الخير كفاعله)** كمن حفر بئرًا، فوقع فيها غيره، فإنه يضمن فى بعض الصور، وهو لا ينافى الآية إما لأن المراد بها أن وزر غيره لا ينتقل له، أو لأنه مخصوص بغير السبب بالأحاديث المذكورة، وأخذ من الخبر المذكور أن الداعى إلى الإثم

كفاعله، وقد صرح به فى بعض الروايات.

قال شيخ والدى الشهاب ابن حجر فى شرح المشكاة: لكن لو تاب الداعى إلى الإثم وبقى العمل به، فهل ينقطع إثم دلالته بتوبته؛ لأن التوبة تجب ما قبلها أو لا؟؛ لأن شرطها رد الظلامة، وإلا فلا، وما دام العمل بدلالته موجودًا فالفعل منسوب إليه، فكأنه لم يرد ولم يقلع كل محتمل، ولم أر فى ذلك نقلاً، والذى ينقدح الآن الثانى انتهى، وفيه نظر ظاهر.

* * *

[فصل فيما ورد عن السلف والأئمة من اتباع سنته]

(**فصل وأما ما ورد عن السلف**) الصالحين يعنى الصحابة والتابعين فى أول القرون، وأما إشارة إلى أنه قسيم لما قبله مما فى القرآن والحديث، ولذا قال ورد، (**والأئمة**) يعنى من بعدهم من العلماء والمجتهدين (**من اتباع سنته**) أى طريقته، وهو بيان لما، وفى نسخة فى اتباع متعلق بورد بمعنى جاء، (**والاقتداء بهديه وسيرته**) عطف تفسير لما قبله، وهديه وسيرته بمعنى، وهو الهيئة والطريقة أيضًا.

(**فحدثنا الشيخ**) أصل معناه الكبير سنًا، ثم شاع عرفًا بمعنى من كان قدوة مفيدًا لطلبة العلم؛ لأنه فى الغالب يكون مسنًا، وهذا مما استعمل قديمًا، وأول من أطلق عليه شيخ الإسلام الصديق، رضى الله تعالى عنه، كما قاله السخاوى، رحمه الله تعالى، (**أبو عمران موسى بن عبد الرحمن**) الرعينى علامة عصره بالمغرب، وقد تقدمت ترجمته (**ابن أبى تليد**) بفتح المثناة الفوقية منقول من تليد بمعنى قديم (**الفقيه سماعًا عليه**)، وهذا الحديث من أحاديث الموطأ ورواه النسائى، وابن ماجه قال: (**حدثنا أبو عمر الحافظ**) هو ابن عبد البر وتقدم بيانه قال: (**حدثنا سعيد بن نصر**) تقدمت ترجمته قال: (**حدثنا قاسم ابن أصبغ**) بالغين المعجمة كما تقدم.

(**ووهب بن ميسرة**) كذا فى بعض النسخ بتحتية بعد الميم، وقال التلمسانى: إنه مسرة مفعلة من السرور، ووهب يحرك ويسكن، وهو وهب بن مسرة بن مفرح بن بكر التميمى مات بقرطبة منتصف شعبان سنة اثنين وأربعين وثلاثمائة، انتهى.

(**قالا**): بالتثنية وهو الصحيح، وروى قال أى كل واحد منهما أو اكتفاء بأحدهما (**حدثنا محمد بن وضاح**) تقدم أيضًا قال: (**حدثنا يحيى بن يحيى**) الليثى راوى الموطأ قال: (**حدثنا مالك**) إمام دار الهجرة الغنى عن البيان (**عن ابن شهاب**) محمد بن مسلم الزهرى، وقد تقدم بيانه.

(**عن رجل من آل خالد**) أى أهله وقومه، وهو غير مسمى، فقال الحلبى: لا أعرفه،

وقال التلمسانى: هو أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بفتح الهمزة وكسر السين أو بضمها وفتح السين، والأول أصح وهكذا رواه مالك، ولم يدخل بينه وبين ابن شهاب أحد، ورواه الليث بن سعد فسمى الرجل وأدخل بين ابن شهاب وأمية عبد الله بن أبى بكر، وأمية هذا يروى عن ابن عمر، توفى سنة سبع وثمانين، انتهى.

وقال القرطبى فى تفسيره: إنه يعلى بن أمية بن عبد الله إلى آخره، وهو خالد هو **(ابن أسيد)** بفتح الهمزة وكسر السين على ما مر وياء ودال مهملة، وهو ابن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس أخو عتاب **(أنه سأل عبد الله بن عمر، فقال: يا أبا عبد الرحمن إنا نجد صلاة الخوف وصلاة الحضر)** بفتحتين أى الصلاة من غير قصر مذكورة، **(فى القرآن ولا نجد صلاة السفر)** المقصورة فى القرآن.

(فقال ابن عمر) فى جوابه: **(يا ابن أخى)** هذا جار على عادة العرب فى الشفقة بالصغير، وقولهم له: يا ابنى ويا ابن أخى كما يقال للكبير: يا أبى ويا عمى **(إن الله بعث إلينا محمدًا)** أى نبأه وأرسله صلى الله تعالى عليه وسلم، **(و)** نحن **(لا نعلم شيئًا)** من أمور الدين، **(فإنما نفعل كما رأيناه يفعل)**، وروى ما رأيناه بدون كاف وما موصولة أو مصدرية أى نقتدى به فى ما جاء به، وهذا هو المقصود هنا، أما صلاة الخوف، فقد ذكرت فى القرآن، وهى سنة خلافًا لمن قال: إنها مخصوصة به صلى الله تعالى عليه وسلم، وأما قصر الصلاة سفرًا، فقد ذكرت فى القرآن فى قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ﴾ [النساء: ١٠١]، لكنها مقيدة بقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ الآية، ولذا سألوا عنها إلا أن إطلاقها مبين بالسنة، فقد سئل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، عن قصرها، فقال: تلك صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته، وقد يذكر الله شيئًا مقيدًا بشرط ويبيحه على لسان نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من غير شرط، وقد ورد فيها أحاديث أخر.

(وقال عمر بن عبد العزيز) الخليفة العادل الزاهد المشهور، رضى الله تعالى عنه، **(سن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى أتى بأفعال وأقوال وطريقة شرعها هو **(وولاة الأمر بعده)** بضم الواو جمع وال، وهو من يتولى أمور الناس، والمراد بهم هنا الخلفاء الراشدون **(سننا)** جمع سنة، **(الأخذ بها)** أى العمل بها واتباعها **(تصديق بكتاب الله)** بالباء واللام لأنه أمر بالعمل بها واتباع سبيل المؤمنين، **(واستعمال لطاعة الله)**؛ لأن طاعتهم طاعة له فى الحقيقة؛ لأنهم لا يقولون شيئًا من عند أنفسهم وإنما يقولون ما رووه عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو ما استنبطوه من الكتاب والسنة، **(وقوة على دين الله ليس لأحد تغييرها)** أى تغيير تلك السنن بوجه من الوجوه، **(ولا تبديلها)** ببدل

لها يغايرها، وهو أخص من التغيير لشمول الزيادة والنقص، ويجوز أن يكونا بمعنى، **(ولا النظر فى رأى من خالفها)** أى لا يلتفت إليه، ولا يعتبر ما خالفها أصلا، وليس المراد بالنظر حقيقته حتى يقال: يجوز أن ينظر فيه ليرده **(من اقتدى بها)** أى عمل بتلك السنن، فهو **(مهتد)**؛ لأنهم على هدى من الله.

(ومن انتصر بها فهو منصور) على من خالفه، **(ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين)** غير ما هم عليه من اعتقاد أو عمل، **(ولاه الله ما تولى)** أى جعله واليا لما تولى من الضلال، وخلى بينه وبين ما اختاره من الضلالة، **(وأصلاه جهنم)** أى أدخله فيها، **(وساءت مصيرا)** جهنم، وفى ذلك دليل على حرمة مخالفة الإجماع.

(وقال الحسن ابن أبى الحسن) هو الحسن البصرى كما تقدم: **(عمل قليل فى سنة خير من عمل كثير فى بدعة)** تقدم هذا، وقد بينا معناه وقيل: لا تكرار فيه؛ لأنه ذكره أولاً خبرًا، وذكره هنا أثرًا وفيه نظر.

(وقال ابن شهاب) الزهرى: **(بلغنا عن رجال من أهل العلم)** أنهم **(قالوا: الاعتصام بالسنة)** أى التمسك بها **(نجاة)** مما يخافه المرء فى الدنيا والآخرة، وفى القاموس: اعتصم بالله امتنع بلطفه من المعصية أو من تلبس بالسنة حفظ من أن يقع فى معاصى الله، وفيه حث على حفظها والعمل بها.

(وكتب عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، إلى عماله) ونوابه وأمرهم **(بتعليم السنة)** أى ما روى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم، من أقواله وأفعاله فى أسفاره وإقامته، **(والفرائض)** أى قسمة المواريث؛ لأنها نصف العلم، وفقدها من أشراط الساعة، **(واللحن)** بفتح اللام وسكون الحاء المهملة وفسره بقوله: **(أى اللغة)**، والمراد بها لغة العرب وما يتعلق بها من الإعراب وعلمى البلاغة.

وقال الزهرى: معناه تعلموا لغة العرب فى القرآن واعرفوا معانيه، واللحن بسكون الحاء كما علمت، وقد تفتح له معان منها التعريض وفحوى الكلام كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، والخطأ فى الإعراب، وقال الزمخشرى: معنى اللحن فى كلام عمر، رضى الله تعالى عنه، وقوله: تعلموا اللحن الغريب، واللحن علم الغريب الواقع فى القرآن والحديث، ومن لم يعرفه لم يعرف أكثر كلام الله وسنة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا رواه سعيد بن منصور فى سننه، فاللحن من الأضداد ومن معانيه الفطنة.

وقال ابن الأعرابى: إن اللحن بالسكون الفطنة والخطأ، وقال غيره من أهل اللغة الفطنة بالفتح والخطأ بالسكون.

(وقال) عمر، رضى الله تعالى عنه، فى أثر آخر رواه عن الدارمى **(إن ناسًا يجادلونكم يعنى بالقرآن)** أى يخاصمونكم وينازعونكم فى بعض الأحكام التى قلتم بها، فيقول: القرآن فيه ما يخالفكم نظرًا لظاهره مما بينته أو خصصته أو نسخته السنة، **(فخذوهم)** أنتم حجوهم واغلبوهم **(بالسنن)** الواردة عنه صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فإن أصحاب السنن)** أى علماء الحديث ونقاده **(أعلم بكتاب الله)** أى بمعانى القرآن ممن يتمسك بظاهر القرآن؛ لمعرفتهم بناسخه ومنسوخه ومخصصه ومؤوله، فإن تفسير القرآن إنما يعلم من السنة.

(وفى خبره) أى خبر عمر الذى رواه عنه مسلم **(حين صلى)** عمر، رضى الله تعالى عنه، **(بذى الحليفة)** بضم الحاء المهملة ولام وفاء بصيغة المصغر اسم مكان على ستة أو سبعة أو أربعة أميال من المدينة من جهة الشام، وهو ميقات أهل المدينة والشام الذى يحرمون منه **(ركعتين)** اختلف فيهما، والأصح أنهما سنة لمن أراد أن يحرم بنسك مؤكدة عند أكثر الفقهاء، فى تركهما فوات فضيلة من فضائل الإحرام، ولم يخالف فيه إلا الحسن البصرى فإنه استحب كونه أى الإحرام بعد صلاة فرض؛ لأنه روى أنها كان صلاة الصبح، والصحيح غيره ولو كان كذلك لم يسأل عنها، ولم يحتج لقوله: **(فقال: أصنع كما رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، يصنع)** فأقتدى بآثاره وكل ما صنعه.

(وعن على) بن أبى طالب، كرم الله وجهه، فى أثر رواه عنه البخارى والنسائى **(حين قرن)** بين الحج والعمرة فى حجة حجها، **(فقال له)** أى لعلى **(عثمان)** بن عفان وهو خليفة إذ ذاك، وفى نسخه فقال له عمر، والصحيح رواية أن القائل له عثمان، رضى الله تعالى عنه، كما فى الصحيحين وغيرهما، فهذا وهم من الناسخ: **(ترانى)** وفى نسخة ترى أى تعلم أو تشاهدنى وأنا **(أنهى الناس عنه)** أى عن القرآن، **(وتفعله)** أنت فأنكر عليه عدم اتباعه له.

(قال) على لعثمان، رضى الله تعالى عنهما: **(لم أكن أدع)** وأترك **(سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، لأحد من الناس)** أى لأجل أحد من الناس خالف فعله فعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فأقتدى بغيره مع علمى بما صنعه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، والحديث عن مروان بن الحكم، قال: شهدت عثمان وعليا، رضى الله تعالى عنهما، وعثمان ينهى عن المتعة وأن يجمع بينهما، وعلى رضى الله تعالى عنه، أهل بهما، وقال: لبيك بعمرة وحجة، فلما كلمه عثمان فى ذلك قال له ما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، والمتعة تستعمل بمعنيين أحدهما أن يحرم بالعمرة ثم يحرم بالحج

كالمكى، فالعطف من عطف المتغـايرين، وأن يجمـع بـين الحـج والعمـرة بـإحرام واحـد، والعطف على هذا تفسيرى، وهذا هو المراد كمـا هـو صريـح الحديـث، واحتمـال إرادة الأول كما قيل: يأباه الحديث، وسمى متعة لما فيه من ترك السفر والإحرام مرتين، وكـل منهما جائز، وإنما نهى عن ذلك لترك الأفضل عنـده، وعلـى رضـى الله تعـالى عنـه، إنمـا خالفه لاعتقاده خلافه للآفاقى، أو لئلا يتوهم أحد أنه ممتنع، وكل منهما مجتهد مـأجور، وهذا مبنى على مسألة أصولية، وهى أنه إذا وقع الاختلاف فى عهد الصحابة فى حكـم شرعى هل يصح الإجماع بعدهم على أحد قولى الصحابة؟ فذهب أحمد وأكثر الأشاعرة والشافعية أن حكم الخلاف لا يرتفع، وذهب الغزالى وبعض الشافعية وأكـثر الحنفيـة إلى ارتفاع الخلاف، كبيع أم الولد فإن الصحابة اختلفوا فيه، ثم أجمـع الفقـهاء علـى منعـه، وفيه بحث وهذا الخلاف بين على وعثمان مبنى على الاختلاف فى حج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، أو على ما روى من أن عثمان، رضى الله تعالى عنه، لما كلم عليًّا، كرم الله وجهه، فى ذلك قال له على: قد علمت أنا تمتعنا مع رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم، فقال: أجل ولكنا كنا خائفين يعنى أن فعله ذلك لعارض، لا أنـه الأفضـل، وروى أن عثمان رجع لما قاله، وقال: ما كنت لأدع عليًّا لكنه مما تفرد به مسلم، وكان الكلام بينهما بعسفان وهو اسم موضع معروف.

(وعنه) أى مما روى عن على، رضى الله تعالى عنه، ولم يذكروا من رواه عنه **(إلا أنى لست بنبى ولا يوحى إلى)** بالبناء للمجهول، **(ولكنى أعمل بكتـاب الله وسـنة رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ما استطعت)** أى ما لم أضطر إلى خلافهما، فـإن الضـرورات تبيح المحظورات، وفى نسخة وسنة نبيه **(وكان ابن مسعود، رضى الله عنه، يقول)** فى أثـر رواه الدارمى والطبرانى عن أبى الدرداء: **(القصد)** أصل معنى القصد التوجـه إلى جهـة، ويطلق على استقامة الطريق، ثم شـاع فـى الاعتـدال بـين الإفـراط والتفريـط كمـا قالـه الراغب، وهذا هو المراد **(فى السنة)** أى فى سلوك طريقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، **(خير من الاجتهاد)** أى الإكثار منه وبذل الجهد والطاقة فى العمل الملتبس بغيرها، وهو معنى قوله: **(فـى البدعة)**، وتقـدم تفسـيرها، وأنـها تنقسـم لواجـب وسـنة ومحـرم ومكروه كما قاله ابن عبد السلام.

(وقال ابن عمر)، رضى الله تعالى عنهما، فيما رواه عبد بن حميـد فـى مسـنده بسـند صحيح **(صلاة السفر)** أى المقصورة فيه وجوبًا أو استحبابًا **(ركعتان مـن خـالف السـنة)** أى طريقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فى قصر الصلاة سفرًا **(كفر)** أى صـار كافرًا إن قصد مخالفة فعله صلى الله تعالى عليه وسلم، عنـادًا أو أنكـر جـواز نعلـه، وإلا فهو بمجرد الإتمام مبتدع عند أبى حنيفة، رحمه الله تعالى، وبعض الفقهاء، وقيـل: الكفـر

بمعنى كفران النعمة التى أنعم الله تعالى عليه من إحسانه عليه بتسهيل أمره.

(وقال أبى بن كعب)، رضى الله تعالى عنه، فيما رواه الأصبهانى فى ترغيبه وغيره، وأبى هو المنذر النجارى الأنصارى الصحابى، توفى سنة تسع عشرة على الأصح، وقيل: سنة اثنين وثلاثين فى خلافة عثمان: **(عليكم)** هو هنا اسم فعل بمعنى التزموا أو تمسكوا **(بالسبيل)** أى طريق الله وصراطه المستقيم، وهو العمل الخالص تقربًا إلى الله تعالى، **(والسنة)** أى طريقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهديه، وقدم السبيل اهتمامًا بالإخلاص إن لم نقل: العطف تفسيرى وهو جائز، **(فإنه)** تعليل للحث على التمسك بالسنة والضمير للشأن **(ما على الأرض)** الظاهر أن المراد بمن عليها كل موجود من الأحياء العقلاء من هذه الأمة من عصره إلى يوم القيامة، وقيل: المراد به من كان موجودًا فى عصره من الصحابة، وخصهم لأن قرنه خير القرون، وثوابهم أكثر من ثواب غيرهم، والظاهر ما قدمناه لما مر من أن: «العامل بسنتى عند فساد أمتى له أجر مائة شهيد».

(مِنْ عبد) مِنْ زائدة للاستغراق **(على السبيل والسنة)** متمسك بها، والسبيل كالطريق يذكر ويؤنث وجعله لتمكنه كأنه راكب مستعل عليها فهو تمثيل **(ذكر الله فى نفسه)** صفة مخصصة لعبد، **(ففاضت عيناه)** أى فاض ماء عينيه ببكائه **(من خشية الله تعالى)** وخوفه، وفى نسخة من خشية ربه، **(فيعذبه الله تعالى أبدا)** أى إلا لم يعذبه الله أبدا ولا يدخله النار وإن كان مذنبًا، ولا يعذبه فى قبره أيضًا ويعذبه فى جواب النفى المحض كقوله: ﴿يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [فاطر: ٣٦].

(وما على الأرض من عبد على السبيل والسنة) أى متى سلك طريقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ومصدقًا به فى أقواله وأفعاله **(ذكر الله فى نفسه)** أى أحضره فى قلبه وذهب لملاحظة ربه وجلاله وعظمته، والظاهر أن هذا بمجرد التصور من غير لفظ لمقابلته للذكر قبله، والذكر المذكور المراد به المقارن للفكر؛ لأنه لا يفيض ماء عينيه إلا لتصوره وإحضاره فى قلبه، وقيل: إن هذا يحتمل التصور المجرد والمقارن للذكر اللسانى، ولا يخفى ما فيه، **(فاقشعر جلده)** اقشعر بالتشديد أى أخذته قشعريرة، وهى الرعدة كما فى القاموس **(من خشية الله)** أى من شدة خوفه.

قال الراغب: الخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه، ولذا خص العلماء بها فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، انتهى.

(إلا كان مثله) بفتحتين أى صفته وحاله العجيبة **(كمثل)** بفتحتين أى كهذه الصفة **(شجرة)** ذات أغصان وورق، **(قد يبس ورقها)** صفة شجرة، وإنما وصفها بهذا توطئة

للتحات الآتي؛ لأنه لا يكون كذلك إلا الورق اليابس وهو إشارة إلى أنه له خطايا كثيرة قديمة، **(فهي كذلك)** أي فهي دائمة على هذه الحالة من قدم أوراقها ويبسها، وأصله فبينما هي كذلك **(إذ أصابتها ريح شديدة)** والريح مؤنثة **(فتحاتّ عنها ورقها)** أي سقط، وفي القاموس حته فركه وقشره فانحتّ وتحاتّ، والورق سقطت كانحت انتهى، وفتحات بفتحات وتاء مشددة آخره مطاوع حته.

(إلا حط الله خطاياه) المراد بالحط هنا المغفرة، وعبر بها على طريق الاستعارة، وعبر به لمناسبة المشبه، وخطاياه جمع خطيئة وهي الذنب، وهذا بدل من إلا الأولى وما معها، وكرر إلا مع البدل تأكيدًا لبعد المسافة باعتراض المثل، وقيل: إنه استئناف جوابًا لمقدر كأنه قيل: ماذا يترتب على اقشعراره من الخشية؟ مع مراعاة النفي فقيل: إلا حط عنه خطاياه **(كما تحات)** أصله تتحات مضارع بمعنى تسقط **(عن الشجرة ورقها فإن اقتصادًا)** أي اعتدالاً وتوسطًا من غير تفريط تقدم، وهو افتعال من القصد وهو تعليل لما تضمنه ما قبله من مغفرة الذنوب الكثيرة بمجرد ذكر الله، أو تذكره مع الخشوع والخشية، وهو قليل ظاهرًا، وإن كان عظيمًا في نفسه **(في سبيل الله وسنة)** عبر بفي لمناسبة السبيل؛ ولأن ذلك الاتباع والاقتداء محيط بعلمه إحاطة الظرف بالمظروف **(خير من اجتهاد)** أي زيادة وبذل جهده وطاقته **(في خلاف سبيل الله وسنة)** أي بدعة مخالفة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، وتقدم تفسيره.

(وانظروا) المراد بالنظر هنا التدبر والتأمل، وهذا تتميم لما قبله وتأكيد له **(أن يكون عملكم إن كان اقتصادًا أو اجتهادًا)** أي تدبروا في جميع أعمالكم قليلة كانت أو كثيرة، سواء بالغتم أو لم تبالغوا **(أن تكون)** أعمالكم كلها، وهو مع ما بعده بدل مما قبله أو تأكيد له وأعاده للفصل بينهما كما تقدم، وأن بفتح الهمزة هي المصدرية لا شرطية مكسورة **(على منهاج الأنبياء)** أي على طريقتهم، والمنهاج والمنهج بمعنى الطريق الواضح.

(وسنتهم) أي طريقتهم وشريعتهم وعبر بالأنبياء، والمراد منهاج نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، إشارة إلى أن منهاجه جار على منهاجهم غير مخالف له كما قال الله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وجريه باعتبار التوحيد والعقائد الحقة والأعمال الصالحة والإخلاص، لا لأنا مأمورون باتباعهم فيما لم يرد فيه نص كما توهم، وإن كان صلى الله تعالى عليه وسلم نفسه كذلك.

(وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز)، رضي الله تعالى عنه، وعمال بضم العين وتشديد الميم جمع عامل، وهو الأمير المولى من جانب الخليفة لعمله في الأموال والمصالح

(إلى عمر بحال بلده) أى يخبره بحال بلـده الـذى ولاه عليـها، وهـى حمـص كمـا قـالوه، **(وكثرة لصوصه)** وعطف تفسير لحـال جمـع لـص بتثليـث الـلام، وهـو السـارق وقـاطع الطريق وغيرهما من الذين يأخذون أموال الناس بالباطل، وهذا رواه اللالكائى فى السنة كما قاله السيوطى، رحمه الله تعالى، **(هل يأخذهم)** أى يحبسهم ويعاقبهم **(بالظنة؟)** بكسر الظاء المعجمة المشالة وتشديد النون أى بمجـرد الظـن بأنـهم لصـوص، **(أو يحملهـم)** أى يطلب منهم ويكلفهم **(على البينة)** كما فى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ [الجمعة: ٥]، أى تكلفوا حملها كما قاله الراغب، وضمير يأخذهم للصوص، وضمير يحملهم للمدعين المعلومين من السياق، وعداه بعلى باعتبار معنـاه الأصلـى كمـا تقدم.

(وما جرت عليه السنة) أى ما اقتضته الشـريعة مـن لـزوم الثبـوت بالبينـة ونحـوه ممـا يترتب عليه الحكم دون السياسة المحضة، وإن كان ذلك يجوز للحاكم فى بعض الأحيان.

(فكتب إليه) أى إلى عامله **(عمر)** بن عبد العزيز، رضى الله تعالى عنـه: **(خذهـم)** أى احكم عليهم **(بالبينة وما جرت عليه السنة)** أى وردت واستقرت عليه، **(فإن لم يصلحهم الحق)** أى حكم الشريعة دون السياسة والعنف، **(فلا أصلحهم الله تعالى)** أى ينتقم منـهم إذ لم يوفقهم لعمل الخير، وهذا من شدة تقواه وانقياده للشريعة وأحكامها، قيل: فكـان من ثبت عليه سرقة نصاب قطع يده فما دار الحول وفيها سارق.

(وعن عطاء فى) تفسـير **(قولـه)** تبـارك وتعـالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ [النسـاء: ٥٩]، أى اختلفتم أيها الناس **(فى شىء)** من أمـور الديـن **(فـردوه)** أى ارجعـوا فيـه **(إلى الله و)** إلى **(الرسول)** أى إلى ما قـالاه **(أى إلى كتـاب الله وشـريعة رسـول الله صلـى الله تعـالى عليـه وسلم)**، وهذا مؤيد لما قاله عمر، رضى الله تعالى عنه، ولذا ساقه عقبه، وهذا لا ينافى ما ذكره الفقهاء من حبس المتهم وضربه حتى يقر، وأنه قد يعمل بـإقراره كمـا ذهـب إليـه مالك وغيره، فإنه استحسان منهم إذا قويت التهمة واقتضته الحال كمـا فصلـه الفقـهاء، وما قاله عمر، رضى الله تعالى عنه، شىء آخر، وعطاء هو عطاء بـن أبـى ربـاح المفسـر كان من كبار التابعين، وتوفى سنة خمس عشرة ومائة.

(وقال الشافعى) الإمام المشهور إمام الأئمة وسلطان الأمة: **(ليس فى سـنة رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى لم يثبت فى حديث فـى شـريعته **(إلا اتباعـها)** أى اتبـاع السنة والعمل بها، وكان يقول: إذا صح الحديث فهو مذهبى، وإذا خالف قولى الحديث فاضربوا به عرض الحائط، وهكذا تبعه أئمتنا الشافعية، رضى الله تعالى عنهم.

(وقال عمر) بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، كما رواه عنه الشيخان، **(و)** قد **(نظر**

إلى الحجر الأسود) فى طوافه، والجملة حالية بتقدير قد، أو معترضة مؤذنة بأن قوله ذلك حال مشاهدته له: **(إنك حجر لا تضر ولا تنفع)** أى لا تقدر على ضرر ونفع بالذات، وإن كان الله جعله سببًا لإجابة الدعاء عنده وسنبينه، **(ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، يقبلك ما قبلتك)** أى فى طوافه، وإنما استحب تقبيله؛ لأنه نزل من الجنة، وكان أبيض كاللبن فسودته خطايا بنى آدم كما رواه، **(ثم قبله)** عمر بعد ما ذكر.

وروى الحاكم أن عليًا، رضى الله تعالى عنه، كان خلف عمر، فلما سمع قوله هذا قال له: بل يضر وينفع، فإن الله لما أخذ الميثاق على بنى آدم فى عالم الذر كتب ذلك فى رق وألقمه الحجر الأسود، وسيأتى يوم القيامة وله لسان يشهد به لمن استلمه بالتوحيد ووفائه العهد، وروى أن ذلك ذكر له صلى الله تعالى عليه وسلم، فأقره، وقد قالوا: إن عمر، رضى الله تعالى عنه، كان عالمًا بذلك، ولكنه قال مقاله هذا، وأسمعه للناس لقرب عهدهم بالجاهلية وعبادة الأحجار، فخشى أن يضلوا ويعتقدوا نفعها قياسًا عليه، وقد ورد أن الحجر الأسود يمين الله فى أرضه أى وضعه فى الأرض؛ ليقبل كما يقبل اليد اليمنى دون اليسرى تكريمًا لها، أو أن تقبيله يفيض الإنعام والرضى كتقبيل يد العظماء، فهو استعارة، والإضافة للتشريف كبيت الله، وفيه رد على من قال: إن الحجر الأسود له خاصة فى ذاته كخاصة المغناطيس لجذب الحديد، وفى الحديث من الأحكام أنه يكره تقبيل ما لم يرد الشرع بتقبيله كما يفعله بعض العوام من تقبيل قبور الأولياء والأماكن المباركة.

وقول الشافعى، رضى الله تعالى عنه: كل مكان قبل من البيت حسن، لم يرد به استحبابه، وإنما أراد إباحته؛ لأن المباح حسن عند بعض الأصوليين.

(ورئى) مبنى للمجهول براء مهملة مضمومة وهمزة مكسورة وياء مفتوحة، وقال ابن مرزوق: إنه بوزن قيل: ففيه ما فيه من اللغات وآخره همزة بالقلب المكانى، وتبعه بعضهم فإن ساعدته رواية فبها ونعمت، وإلا فهو تكلف لا حاجة إليه **(عبد الله بن عمر)** الصحابى المشهور رواه عنه أحمد بن حنبل والبزار بسند صحيح **(يدير ناقته فى مكان)**، وهو راكبها أى بلغت وجهها أو يطيفها حوله حتى عادت لموضعها الأول.

(فسأل) عن فعله ذلك لأى شىء هو؟ **(فقال: لا أدرى)** وجه ما فعلته وحكمته **(إلا أنى رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، يفعله)** أى يدير ناقته فى هذا المكان، **(ففعلته)** اقتداء به صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيه أنه يستحب الاقتداء بأفعاله صلى الله تعالى عليه وسلم، تبركًا وتيمنًا إلا أنه قيل: إذا صدر عنه أمر محتمل أنه اتفاقى بمقتضى

الجبلة البشرية لا بنية التعبد، هل يستحب فعله أم لا؟ فذهب الأكثرون إلى أنه لا يستحب إلا أنه لا بأس به، وهو الظاهر، وأما غيره فيكره الاقتداء به فى مثله كما يفعله بعض الصوفية فى اتباع آثار مشايخهم، ومن هذا القبيل لبس الخرقة ونحوه فاعرفه.

(وقال أبو عثمان الحيرى) شيخ الصوفية بنيسابور، وهو بكسر الحاء والراء المهملتين وبينهما مثناة تحتية ساكنة وفى آخره ياء نسبة مشددة نسبة للحيرة اسم محلة بها كان يسكنها، وهو أبو عثمان سعيد بن إسماعيل، توفى سنة ثمان وتسعين ومائتين، وهو من كبار الزهاد والمشايخ الصوفية، وهو صاحب أبى حفص النيسابورى كما قاله ابن ماكولا والذهبى، وذكره القشيرى فى رسالته ونقل ما ذكره المصنف عنه، رحمه الله تعالى، وقال: إنه صاحب شاه الكرمانى ويحيى بن معاذ الرازى، ثم ورد نيسابور مع شاه الكرمانى على أبى حفص الحداد، فتخرج عليه وزوجه ابنته، وقد صحف الناس هنا نسبته فقيل: إنه الحنيذى بحاء مهملة مضمومة ونون مفتوحة بعدها ياء ساكنة وذال معجمة مكسورة وياء نسبة كذا فى أصل أبى العباس العزفى، وهو مخالف لما فى أصل المصنف بخطه، وهو الصحيح، وفى بعض النسخ الجنيدى بجيم مضمومة ودال مهملة، وفى بعضها الحميدى مصغرًا بحاء ودال مهملتين، والكل تحريف وتصحيف، والصحيح ما نقلناه أولاً، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، وأقربها الجنيدى فإنه كان على طريقته فى الزهد، ولم يكن فى عصره أعرف منه بطريق المشايخ، ومن كلامه، رضى الله تعالى عنه: الصحبة مع الله عز وجل بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، باتباع سنته وظاهر فعله، والصحبة مع أولياء الله بالاحترام والخدمة، والصحبة مع الأهل بحسن الخلق، والصحبة مع الإخوان بدوام البشر، والصحبة مع العوام بالدعاء والرحمة لهم.

(من أمَّرَ السنة على نفسه) وهو بفتح الهمزة وتشديد الميم وراء مهملة خفيفة أى جعل سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وطريقته **(قولاً وفعلاً)** أى فى أقواله وأفعاله، فهو منصوب على الظرفية أو تمييز محول عن المفعول أى جعلها أميرًا عليه وحاكمًا، وهو عبارة عن عدم مخالفتها، وقيل: إنه بفتح الهمزة والميم المخففة وتشديد الراء المهملة أى أجراها ومشاها عليه، وهو بعيد **(نطق بالحكمة)** أى القول الصواب النافع له فى الدنيا والآخرة، وكل كلام وافق الحق فهو حكمة.

(وَمَنْ أمَّرَ الهوى) أمر كالذى قبله، ففيه استعارة، والهوى ما تهواه نفسه الأمارة وتشتهيه **(نطق بالبدعة)** أى بما يخالف الحق مما زينه له الشيطان من الضلالة.

(وقال سهل التسترى)، وهو سهل بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع شيخ

الصوفية، الزاهد، تقدمت ترجمته والكلام على بلدته تستر وهى مشهورة: **(أصول مذهبنا)** أى التصوف أى قواعده التى تدور عليها **(ثلاثة)**:

أولها وأعظمها **(الاقتداء بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** واتباعه **(فى الأخلاق والأفعال و)** الثانى **(أكل الحلال و)** الثالث **(إخلاص النية فى الأعمال)**، وهذه الأصول وإن كانت أصول الصوفية فهى أصول للشريعة أيضًا، وقد ورد فى الحديث بمعناه وهو ظاهر.

(وجاء) أى ورد عن السلف فى التفاسير المأثورة **(فى تفسير قوله)** تعالى: (﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] **أنه)** بفتح الهمزة فاعل جاء **(الاقتداء بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم)**، فإن العمل لا يكون صالحًا مقبولاً إلا إذا وافق الكتاب والسنة، وموافقتهما عين الاقتداء به قولاً وعملاً، وضمير أنه للعمل الصالح، وضمير يرفعه المرفوع، والمنصوب الأول: للكلم الطيب، وهو التوحيد، والثانى: العمل والرفع بمعنى القبول، ويجوز العكس أى يرفع التوحيد الاقتداء برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه لا يقبل بدونه، وعلى الثانى المراد بالكلم الطيب الأذكار وما هو قريب منها، وهى إنما تقبل إذا وافقت السنة، والكلام عليه مفصل فى كتب التفسير.

(وحكى) بالبناء للمجهول أى نقل لنا **(أن)** الإمام **(أحمد بن حنبل)**، رحمه الله تعالى، وحنبل اسم جده، فإنه أحمد بن محمد بن حنبل كما أشار إليه المصنف، رحمه الله تعالى، فيما يأتى ابن هلال الشيبانى المروزى ثم البغدادى؛ لأنه تربى بها ودفن فيها ثانى عشر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين، وهو إمام السنة صاحب المذهب الزاهد والعابد، وله مناقب أفردت بالتأليف.

(قال: كنت يومًا مع جماعة تجردوا) من ثيابهم عريانًا، **(ودخلوا الماء)** للاغتسال، **(فاستعملت الحديث)** أى عملت به فالسين للتأكيد، وقيل: المعنى طلبت ذلك من نفسى، وقلت: لا توافقى هؤلاء، وهذا الحديث رواه مسلم، والترمذى، وهو **(من كان يؤمن بالله)** أى يصدق ويعترف بالله.

(واليوم الآخر) أى يوم البعث والحشر، وهو يوم القيامة، والإيمان بهما عبارة عن الإيمان بجميع ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، فكنى بالطرفين عن الجميع فهو من باب الاكتفاء، **(فلا يدخل الحمام)** المراد به كل مكان فيه ماء يغتسل به، ثم غلب فى العرف على محل مخصوص **(إلا بمئزر)** المئزر بكسر الميم وهمزة ساكنة وتبدل ياء بمعنى الإزار، وهو مايستر به نصف المرء الأسفل، **(ولم أتجرد)** أنا أى لم أخلع ثيابى وأتعرى منها، وهو عطف تفسير لاستعملت الحديث.

(فرأيت) فى المنام **(تلك الليلة)** أى فى تلك الليلة التى تلى يوم تجردهم **(قائلاً لى:)** أى شخصًا يقول لى: **(يا أحمد أبشر)** أى مبشرًا من الله بما يسرك، **(فإن الله قد غفر لك)** أى عفا عنك وأنعم عليك بقبول ما صدر منك **(باستعمال السنة)** أى بسبب اقتدائك بالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، والعمل بحديثه، **(وجعلك إمامًا)** يؤتم بك ويقتدى بك لكونك مجتهدًا صاحب مذهب.

(قلت) لمن رأيته فى المنام **(من أنت؟)** استفهامًا يريد به تعينه عنده **(قال: جبريل)** أى أنا جبريل رسول الله إلى عباده.

* * *

[فصل فى أن مخالفة أمره وتبديل سنته ضلال]

(فصل ومخالفة أمره) أى بترك ما أمر الأمة به **(وتبديل سنته)** أى تغييرها بوجه من وجوه التغيير، ولو بتأويله على خلاف مراده **(ضلال)** أى عدول عن الطريق المستقيم، وهى طريق الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، وشريعته، **(وبدعة)** أى أمر إحداثه فى الدين، وإذا أطلقت البدعة انصرفت إلى غير الحسنة، وهى المرادة هنا **(متوعد عليها)** أى ورد الوعيد لفاعلها فى أحاديث كثيرة تقدم بعضها، وفى آيات قرآنية **(من الله بالخذلان)** متعلق بقوله متوعد، والخذلان ضد التوفيق، وهو أن يخلق الله فيه داعية المعاصى فى الدنيا، **(والعذاب)** الأليم فى الآخرة **(قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾)** [النور: ٦٣]، ضمن يخالفون معنى يعرضون، فلذا عداه بعن وهو متعد بنفسه، وضمير أمره للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه المقصود بالذكر فى الآية، وهو الذى بنى المصنف، رحمه الله تعالى، عليه كلامه هنا، وفيه وجه آخر أنه لله؛ لأنه الآمر الحقيقى، والفتنة ما فى الدنيا من المصائب لا المحنة الدنيوية والعذاب الأليم فى الآخرة، **(وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾)** [النساء: ١١٥]، أى يعاديه ويخاصمه، فيكون فى شق وهو فى شق آخر **﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾** أى ظهر له الحق وثبت معانيه بمعجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم، وهداية الله تعالى له لمن هداه برسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، **﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾** أى يسلك طريقًا غير طريقتهم فى الاعتقاد والعمل **﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾** أى نجعله متوليًا لما تولاه من الضلالة والبدع **(الآية)** أى اقرأها يعنى قوله تعالى: **﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾**، وهذا وعيد شديد لمن لم يقتد به صلى الله تعالى عليه وسلم، واستدل بهذه الآية على حجية الإجماع كما بين فى كتب الأصول.

ثم ذكر حديثًا رواه مسلم، والإمام مالك مسندًا شاهدًا لما ذكره، فقال: **(حدثنا أبو**

محمد عبد الله بن أبى جعفر) هو عبد الله بن محمد بن عبد الله الحسنى، وقد تقدمت ترجمته، **(وعبد الله بن عتاب)** تقدم أيضًا **(بقراءتى عليهما)** بيان لطريق روايته، ويسمى عرضًا **(قالا: حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد)** تقدم أيضًا قال: **(حدثنا أبو الحسن القابسى)** تقدم قريبًا قال: **(حدثنا أبو الحسن بن مسرور الدباغ)** بسين مهملة منقول من اسم المفعول، وهو على بن محمد بن مسرور، توفى فى منتصف رمضان سنة تسع وخمسين وثلاثمائة قال: **(حدثنا أحمد بن أبى سليمان)** هو تلميذ سحنون، وهو مولى لربيعة ويكنى أبا جعفر، توفى سنة إحدى وتسعين ومائتين، وقد ناهز السبعين قال: **(حدثنا سحنون)** عبد السلام **(بن سعيد)**، وستأتى ترجمته مفصلة قال: **(حدثنا ابن القاسم)** تقدمت ترجمته قال: **(حدثنا مالك)** الإمام المشهور **(عن العلاء بن عبد الرحمن)** تقدم أيضًا **(عن أبيه، عن أبى هريرة أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، خرج إلى المقبرة)** مثلثة الباء والكسر لغة قليلة فيها.

(وذكر الحديث فى صفة أمته، صلى الله تعالى عليه وسلم)، يعنى قوله، لكم سيما ليست لأحد من الأمم: تردون على غرا محجلين من آثار الوضوء.

(وفيه) أى فى الحديث المذكور: **(فليذادن رجال عن حوضى)** اللام فى جواب قسم مقدر، ويذادن مبنى للمجهول بذال معجمة وألف بعدها دال مهملة ونون توكيد مشددة، والذود هنا بمعنى الطرد والمنع، وهذه رواية ابن القاسم ورواية غيره، فلا يذادن ولا نافية أو ناهية أى لا يفعل أحدكم فعلا يطرد بسببه عن حوضى على معنى التحذر والإشفاق، ورجحت الرواية التى اختارها المصنف، رحمه الله تعالى.

(كما يذاد البعير الضال) أى كما يطرد البعير إذا ضل من صاحبه، وأتى ليدخل فى إبل أخرى ليستقى، فيطرد من بينها لئلا ينتقص شربها، **(فأناديهم)** إذا طردوا **(ألا هلم ألا هلم ألا هلم)** كرره للتأكيد على العادة فى نداء من ضل، وهذا بيان لحرصه صلى الله تعالى عليه وسلم على ردهم لشفقته عليهم ورحمة لهم، وهلم بفتح الهاء وضم اللام، وقد تفتح، وهى اسم فعل بمعنى أقبل واحضر، ويتعدى بنفسه وبإلى واللام وميمها مشددة مفتوحة يستوى فيها المذكر وغيره، وهى بسيطة فى الأصل أو مركبة من ها لم أو من هل أم، وهذه لغة أهل الحجاز وهى الفصحاء؛ لأنها لغة القرآن، ولغة غيرهم هلم وهلما وهلموا وهلمن فهى عندهم فعل؛ لأن اسم الفعل لا يتصل به الضمائر، والمطرودون من المنافقين والمرتدين لكونهم أظهروا الإسلام وتوضئوا وصلوا، فيكونون غرا محجلين، ولذا دعاهم وناداهم، ولم تكن هذه السيما إلا للمؤمنين لم يدعوا، فإن كان المراد أهل البدع من المؤمنين وأصحاب الكبائر، فالأمر ظاهر.

وقال النووى: اختلف فى المراد به على أقوال:

أحدها: أن المراد بهم المنافقون ويجوز أن يحشروا غرا محجلين، فينادون بسيماهم فيقال: إنهم بدلوا بعدك و لم يموتوا على الإسلام.

الثانى: أن المراد من كان فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم ارتد فيناديهم وإن لم يكن لهم سيما؛ لأنه يعرفهم.

والثالث: أن المراد أصحاب الكبائر والمعاصى الموحدين وأصحاب البدع، فينادون عقوبة لهم.

(فيقال) بالبناء للمجهول أى يقول الله تعالى أو الملائكة أو من عرفهم من الصحابة: **(إنهم قد بدلوا بعدك)** أى غيروا سنتك، وارتكبوا ما لم تعهده منهم، وفى نسخة إنهم قد تبدلوا بعدك.

(فأقول: سحقًا سحقًا سحقًا)، وفى نسخة فسحقا بإعادة الفاء للتأكيد، وهو بضم السين والحاء وتسكن تخفيفًا قال تعالى: ﴿**فسحقا**﴾ أى جعلهم الله فى مكان سحيق أى بعيد، وأصله من سحقه إذا فتنه، والسحق الثوب البالى، وهو على تقدير: اسحقوا وابعدوا بعدًا شديدًا، ويحتمل أنه دعاء عليهم تقديره: ألزمهم الله سحقًا فنصبه على المصدرية، أو هو مفعول به، وإذا كان دعاء فعامله محذوف وجوبًا كجدعا وعقرا، قيل: هل هو مصدر لفعل ثلاثى وهو سحقه أو لغيره؟ أى أسحقه على حذف الزوائد وقياسه إسحاقًا، ولا يحتاج لذلك، وإن اختاره أبو على.

أقول: بل له داع؛ لأن سحقه بمعنى فتنه كسحق المسك ونحوه، وأما من البعد فالمستعمل أسحقه يقال: أبعده الله وأسحقه كما قاله الراغب.

(وروى أنس) بن مالك فى حديث رواه الشيخان **(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: من رغب عن سنتى)** أى تركها لأن رغب إذا تعدى بعن يكون بمعنى الترك ضد رغب فيه، وسنته طريقته وشريعته، **(فليس منى)** أى ليس من أتباعى وأشياعى، ومن اتصالية كما تقدم بيانه، وهذا تبرؤ منه ورد له، فهو فى معنى الحديث الذى قبله.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الشيخان: **(من أدخل فى أمرنا)** أى أحدث بدعة فى الدين، وروى: من أحدث وهما بمعنى **(هذا)** عبر باسم الإشارة إشارة إلى أنه لظهوره بمنزلة المحسوس المشاهد **(ما ليس منه)** أى أمر مخالف للكتاب والسنة، **(فهو رد)** أى مردود، وعبر بالمصدر للمبالغة كرجل عدل، وهذا من حديث طويل من قواعد الدين، وقال الطوفى: إنه نصف الدين.

(وروى ابن أبى رافع عن أبيه) وهذا الحديث رواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجه

كما تقدم قريبًا (**عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: لا ألفين أحدكم**) بالبناء للمجهول نهى لنفسه، والمراد به نهى غيره عن أن يجده ويراه على هذه الحالة (**متكئا على أريكته**) أى مترفهًا جالسًا على سريره، وتقدم بيان الأريكة (**يأتيه الأمر**) جملة حالية تقريرًا لبطره وسوء أدبه (**من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا أدرى**) ما أتيت به لا أدرى غير كتاب الله (**ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه**)، وقد تقدم قريبًا الكلام عليه.

(**زاد المقدام**) فى هذا الحديث كما رواه الحاكم عنه، وهو المقدام بكسر الميم ابن معدى كرب الكندى المكنى بأبى صالح ممن وفد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من كندة، وتوفى بالشام سنة سبع وثمانين وهو ابن إحدى وسبعين سنة (**ألا**) بفتح الهمزة كلمة استفتاح (**وإن ما حرم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مثل ما حرم الله**)؛ لأنه مبلغ عنه فيجب اجتناب ما حرمه، وفيه رد على القائل لا يتبع إلا كتاب الله، وفيه إشارة أنه معصوم فى أقواله وأفعاله.

(**وقال**) رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه الدارمى، وابن المنذر، وابن جرير، وأبو داود مرسلاً: (**وجىء**) مجهول جاءوا جملة حالية بتقدير قد أو معترضة (**بكتاب**) أى مكتوب (**فى كتف**) أى فى عظم كتف؛ لأنهم فى الصدر الأول كانوا يكتبون فيها، وفى الجلود لعز الورق إذ ذاك، والجائى به عمر رضى الله تعالى عنه، أو ابنته حفصة أو عائشة كما قيل، وقيل: إنه شىء كان كتبه بعض المسلمين عن اليهود، فلما رآه صلى الله تعالى عليه وسلم، ألقاه و(**قال: كفى بقوم**) متعلق بكفى أو الباء زائدة فى المفعول (**حمقًا أو قال: ضلالا**) شك من الراوى ونصبهما على التمييز، والحمق الغباوة وعدم الفهم، والضلال ضد الهداية، وجعله كذلك لنظرهم فى أمور منسوخة محرفة، وتركهم السنة، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، معهم بين أظهرهم كما بينه بقوله: (**أن يرغبوا**) هو فاعل كفى أى رغبتهم (**عما جاءهم به نبيهم**) معرضين عنه مشتغلين بما لا يعنيهم (**إلى**) ما جاء به (**غير نبيهم**) أى ناظرين إليه راغبين فيه، وهم لا يعلمون بصحته.

(**أو**) ناظرين إلى (**كتاب غير كتابهم**) الذى أنزله الله تعالى على رسولهم، فلا ينبغى لهم الاقتداء به والسماع منه اعتناء لما له وهو بين، وفيه إشارة إلى أنه كان أمرًا منقولاً عن اليهود كما نقله فى زاد المسير.

(**فنزلت**) آية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٥١]، أى القرآن الذى ما فرطنا فيه من شىء، فهو لوم على ما فعلوه وهو عطف على ما قبله، والهمزة مقدمة من تأخير أو على مقدر معلوم من الحال أى قالوا ذلك، ونقلوه و لم

يكتفوا إلى آخره، وهذا سبب نزول الآية كما نقله فى أسباب النزول، وقيل: سبب نزولها أن المشركين طلبوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يأتيهم بآية من آيات الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، كعصى موسى، عليه الصلاة والسلام، وناقة صالح، عليه السلام.

فقال الله تعالى لهم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، معجزة القرآن التى هى أعظم المعجزات وهى باقية مستمرة، ولذا قال: (﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الآية)، وعبر بالمضارع، والضمير لليهود أو المسلمين أو المشركين، وقيل: إن كلا منهما سبب لنزولها، ولا مانع من تعدد السبب، ولا حاجة لتعدد النزول كما قيل، وفيه دليل على النهى عن قراءة الكتب المنسوخة إلا لمصلحة ممن يعرف النسخ والتحريف.

(وقال صلى الله تعالى عليه وسلم)، فى حديث رواه مسلم عن ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه: **(هلك المتنطعون)** أى وقع فى أمر يهلكه يؤدى إلى غضب الله تعالى وعقابه، من تنطع أى بالغ وغالى فى الأمور، وتشدق بكلام لا حاجة إليه، من النطع وهو الفك الأعلى من الفم استعير لكل متعمق فى قول أو فعل غير مهم، وأصله من يفتح فمه فى تكلمه، وقال الخطابى: المتنطع المتعمق المتكلف للبحث عن مذاهب أهل الكلام الخائض فيما لم يبلغه عقله، ومناسبته لما نحن فيه أن من تنطع خرج عن ظاهر السنة، وعدل عن ظاهر سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وبه صرح أول الحديث، وهو تعلموا الفرائض قبل أن يقبض وإياكم والتنطع والتعمق والبدع، وهلك جاء من باب ضرب ومنع وعلم.

(وقال أبو بكر الصديق، رضى الله تعالى عنه)، وهذا رواه عنه أبو داود والبخارى وغيرهما: **(لست تاركًا شيئًا كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يعمل به)** من سنته فى أقواله وأفعاله وأحكامه وهديه **(إلا عملته)** اقتداء به، صلى الله تعالى عليه وسلم، واتباعًا لآثاره الحميدة **(إنى أخشى)** أى أخاف **(إن تركت شيئًا من أمره)** أى شأنه وحاله الذى كان عليه، عليه الصلاة والسلام، **(أن أزيغ)** بزاء وغين معجمتين أى أميل عن الحق والسنة، وأصل معنى الزيغ الميل عن الاستقامة، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، أى لما فارقوا الاستقامة عاملهم الله بذلك والله أعلم.

* * *

(الباب الثانى)
[فى لزوم محبته]

من القسم الثانى من الكتاب **(فى)** ذكر ما يدل على **(لزوم محبتـه)** أى وجوبـها علـى كل مكلف من أمته، وفى نسخة فصل، والصحيح الأول، ووجوبها عقلاً وشرعًا لقوله: **(قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾**) [التوبـة: ٢٤]، أى زوجاتكم جمع زوج وهو يطلق على الذكر والأنثى، وزوجة لغة أيضًا فرقـا بـين المذكـر والمؤنـث، ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ وهـم أقرباء النسـب، ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أى اكتسـبتموها وملكتموها **(الآية)**: أى اقرأ مـا بعـد مـا ذكـر وهـو: ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، وسبب نزولها أن رسول الله، صلى الله تعـالى عليه وسـلم، أمـر بالهجرة تخلف بعضهم عنه فنزلت، وتفسير الآية معلوم من التفاسير لا حاجة لذكره هنا.

(فكفى بهذا) المذكور فى الآية **(حضا)** أى حثًا وتحريضًا وترغيبًا قال الراغب: الحـض التحريك كالحث إلا أن الحث يكون بسـير وسـوق، والحض لا يكـون بذلـك، وأصلـه الحث على الحضيض، وهو قرار الأرض، انتهى.

(وتنبيهًا) أى إيقاظًا لهم من نومة الغفلة عن محبته، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى لا يغيب عنهم طرفة عين، **(ودلالة)** لهم على ما يجب فـى محبتـه، **(وحجـة)** أى إثباتـًا لدليـل وجوب محبته عليهم، والآخران بالنسبة لمن لا يعرف ذلك ومـا قبلـة لغـيره **(علـى التـزام محبته)** أى لزومها عقلاً، **(ووجوب فرضها)** عليـهم شـرعًا، **(وعظـم خطرهـا)** أى قدرهـا وفائدتها، وأصله ما يعطى عند الرهان، **(واستحقاقه)**، صلى الله تعالى عليه وسـلم، **(لهـا)** أى للمحبة المذكورة كما قيل:

تملك بعـض حبـك كـل قلبـى ... فإن تـرد الزيـادة هـات قلبـا(١)

اللهم املأ قلبى بنور إيمانك ومحبتك ومحبة نبيك محمد، صلى الله تعـالى عليـه وسـلم، حتى لا يكون فيه محلاً لغيركما **(إذ قرَّع)** بفتـح القـاف والـراء المهملـة المشـددة والعـين المهملة أى وبخ، وقيل: وفى أصل المصنـف، رحمـه الله تعـالى، تقـرع، والصـواب الأول **(تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله)** صلى الله تعالى عليـه وسـلم، ثم بين تقريعه بقوله: **(وأوعدهم بقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾**) أى انتظروا أمره، وفيه من التوبيـخ ما لا يخفى، **(وفَسَّقهم)** أى وصفهم ونسبهم للفسق **(بتمام الآية)** أى بما ذكر فى آخرها

---

(١) البيت من بحر الوافر. وتقدم الاستهاد به.

حيث قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، فجعلهم فاسقين بتخلفهم عن الهجرة، وسلب عنهم الهداية بوصف يشعر بعلتها، وهو معنى قوله: (**وأعلمهم أنهم ممن أضل ولم يهده الله**)، تبارك وتعالى.

(**حدثنا أبو على الغسانى**) الجيانى الحافظ، وتقدمت ترجمته (**فيما أجازنيه**) يعنى أنه رواه عنه بالإجازة، ولم يقرأه عليه مع أنه معاصر له، (**وهو**) أى هذا الحديث الذى رواه البخارى وغيره (**مما قرأته على غير واحد**) من المشايخ غيره، فله فى روايته طرق كثيرة أقوى من هذه، وإنما اختارها لعلو سنده وجلالته.

(**قال**) الغسانى: (**حدثنا سراج بن عبد الله القاضى**) تقدم بيانه قال: (**حدثنا أبو محمد الأصيلى**) تقدم أيضًا قال: (**حدثنا أبو عبد الله محمد بن يوسف**) هو الفربرى راوى البخارى، وقد تقدمت ترجمته قال: (**حدثنا محمد بن إسماعيل**) هو إمام أهل السنة صاحب صحيح البخارى قال: (**حدثنا يعقوب بن إبراهيم**) بن كثير البغدادى الدورقى صاحب المسند وإمام الحديث، توفى سنة اثنين وخمسين ومائتين، ونسب إلى دورق اسم بلدة أو إلى صنعة الدوارق، وهى نوع من القلانس قال: (**حدثنا ابن علية**) بالتصغير الإمام الثقة الحافظ إسماعيل بن إبراهيم بن ميسم المشهور بابن علية، أخرج له أصحاب السنن الستة، وتوفى سنة ثلاث وتسعين ومائة، وله ترجمة فى كتاب الميزان، وعلية أمه (**عن عبد العزيز بن صهيب**) علم منقول من المصغر، وهو البنانى الأعمى الإمام الثقة الحافظ أخرج له الستة، وتوفى سنة خمس وثلاثين ومائة وترجمته مشهورة (**عن أنس**) بن مالك الصحابى المشهور (**أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: لا يؤمن أحدكم**) هو من خطاب المشافهة، فيعم الموجودين وغيرهم، وقيل: خص بالخطاب الموجودين، والحكم عام بشهادة أنه روى بغير خطاب فى مسلم: «لا يؤمن عبد»، وفى رواية غيره أحد أى لا يؤمن إيمانًا كاملاً كما فى رواية ابن حبان: «لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان»، (**حتى أكون**) بالنصب وهو غاية لما قبله (**أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**) إيثارًا له صلى الله تعالى عليه وسلم، وإكرامًا له وإجلالاً، وأحب بمعنى أكثر محبوبية على خلاف القياس كأشغل من ذات النحيين، ولم يذكر نفسه لدخولها فى الناس، وقوله إليه لا يقتضى خروجها لمغايرتها له من جهة كونه محبا وهى محبوبة، والأم وسائر الأهل داخل فى الناس أيضًا، ولا حاجة لإدخالها فى الوالد كما قيل، وسيأتى معنى محبتهم له، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**وعن أبى هريرة**)، رضى الله تعالى عنه، (**نحوه**) أى روى عنه حديث بمعنى الحديث المذكور.

(**و**) روى (**عن أنس**) خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه

الشيخان (**عنه، عليه الصلاة والسلام: ثلاث**) أى ثلاث خصال أو خصال ثلاث، فالوصف المقدر سوغ الابتداء بالنكرة كقولهم: ضعيف عاد بقرملة أى رجل ضعيف (**من كن**) أى الخصال (**فيه وجد حلاوة الإيمان**) خبر المبتدأ وصفته، وكن بمعنى وجدن فكان تامة، وحلاوة الإيمان لذته، ففيه استعارة أو هو مجاز مرسل.

الخصلة الأولى: (إن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) جمع الله وغيره فى ضمير، وقد نهى صلى الله تعالى عليه وسلم، عنه كما تقدم حيث قال للخطيب الذى قال: ومن يعصمها فقد غوى: بئس خطيب القوم أنت، قل: ومن يعصى الله ورسوله لإيهامه التسوية بين الله وغيره، ولذا قيل: إنه مكروه، وأجيب عنه بأن الخطبة مقام إطناب لا إيجاز، أو أنه يجوز لله ورسوله ذلك دون غيرهما، فهو من خصائصه، وإليه مال ابن عبد السلام، وقيل: إنها واقعة حال لا تخصص لاحتمال أنه كان بالمجلس من يتوهم التسوية، أو أن هذا كان فى ابتداء الإسلام ووجود المشركين بين أظهرهم، لاسيما إذا قصد المبالغة فى تعظيم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وأن لا يفصل بين محبته ومحبة الله بفاصل لفظى، وملاحظة أنه لا يمكن التسوية بين العبد وسيده، وفيه كلام فصلناه فى غير هذا المحل.

(و) الثانية (أن يحب المرء) بالنصب مفعول يحب وفاعله ضمير من (**لا يحبه إلا لله**) أى يخلص فى محبته من غير ملاحظة انتفاع ما، وعلامته أن لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء كما قاله ابن معاذ.

(و) الثالثة (أن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار) لتمكن الإيمان من قلبه ومحبته له واطمئنان قلبه، وفى رواية بعد إذ أنقذه الله تعالى منه، والإنقاذ الإخراج وهذا ظاهر فى حق من تلبس بالكفر كالعود، فإنه بمعنى الرجوع أما من ولد مسلمًا واستمر على إسلامه، فيعلم بالمقايسة عليه، وبالطريق الأولى، وقيل الإنقاذ بمعنى العصمة منه والعود بمعنى الصيرورة، وعدى العود بفى وهو يتعدى بإلى لتضمنه معنى الاستقرار كما فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ**﴾ [الأعراف: ٨٩].

(**وعن عمر**) بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، فى حديث رواه البخارى عن عبد الله ابن هشام (**أنه قال للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأنت أحب إلىّ**) خبر أنت واللام فى جواب قسم مقدر (**من كل شىء**) فى الدنيا وغيرها (**إلا نفسى التى بين جنبى**) بتشديد الياء كياء إلى (**فقال له النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه**) إيثارًا له، صلى الله تعالى عليه وسلم، على نفسه وغيره.

(**فقال عمر**) مجيبًا له، صلى الله تعالى عليه وسلم: (**والذى**) أى الله الذى (**أنزل عليك**

الكتاب) وأوحى إليك القرآن **(لأنت أحب إلى من نفسى التى بين جنبى، فقال له النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: الآن)** نطقت بالحق أو ظهر اتصافك بكمال الإيمان، فهو متعلق بمقدر وهو مبنى على الفتح، وأل فيه لازمة كما اتفق عليه النحاة، وهو الزمان الحاضر **(يا عمر)** صرح باسمه إشارة إلى أنه وصل لرتبة علية تخصه بالنسبة لبعض من عداه أى لا يكفيك المرتبة الأولى، ولا يليق بعلو همتك الاقتصار عليها، وإنما اقتصر على الأولى احترازًا عن المبالغة؛ لأن محبة المرء لنفسه وترجيحها أمر طبيعى لا يسلم منه إلا من ملك نفسه وجاهدها.

وقال ابن حجر: جوابه أولا كان بحسب ما طبع عليه، ثم تأمل فعرف بالاستدلال أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، أحب إليه منها؛ لأنه منها لأنه الذى نجاه من الهلاك فى الدنيا والآخرة فأخبره بذلك ثانيًا، ولذا قال له: الآن تحققت ونطقت، وقيل: معناه لن يؤمن أحدكم إيمانًا يعتد به حتى يقتضى عقله ترجيح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، على ما سواه، وفيه سوء أدب، ثم قال: والحديث يومئ إلى أن محبة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أمر غير اعتقاد أعظمية كما زعمه المصنف، رحمه الله، ورده القرطبى ولا وجه له، فإن عمر لا يشك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، أعظم من نفسه ومن كل شىء، ولا يلزم من اعتقاد الأعظمية المحبة كما لا يخفى، والمراد بالحب هنا العقلى الاختيارى الذى يقتضى العقل إيثاره وإن خالف كمحبة المَرِيض الدواء، لا الطبيعى الذى لا يدخل تحت اختياره، فإن الله لا يؤاخذه به لأنه لا يدخل تحت استطاعته، والمراد بالنفس هنا الذات ولوازمها من الحياة ونحوها، وقيل: المراد الروح وإن فرقوا بينهما، وأراد بالتى بين جنبيه السر القائم به الحياة، وأضافه إليهما لجرى العادة بسبب الحياة بسبب ما بينهما، وهو القلب، وما يتعلق به من سائر الأعضاء الرئيسية، وليس هذا موضع الكلام على الروح انتهى، وأبرز عمر، رضى الله تعالى عنه، القسم بعد ما قدره تحقيقًا لخلوص طويته فى مقالته، ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم: الآن؛ لما علمه منه.

(وقال سهل) بن عبد الله التسترى: **(من لم ير)** أى يعلم ويتحقق يقينًا **(ولاية الرسول عليه فى جميع أحواله)** الولاية بكسر الواو وفتحها بمعنى نفوذ حكمه وسلطانه حتى كأنه مملوك له، وقال الراغب: الولاية بالفتح النصرة وبالكسر تولى الأمر، وقيل: الولاية والولاية واحدة وهى مصدر نحو الدلالة والدلالة، وحقيقتها تولى الأمر انتهى، والمراد أنه لا يخالفه فى أمر من أموره، **(ويرى نفسه فى ملكه)** بكسر الميم أى يملكه حتى كأنه عنده، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لا يذوق حلاوة سنته)** استعارة تصريحية أو مكنية وتخييلية، والمراد أنه إذا سلم ولاية رسوله بطيب قلب شرح الله تعالى صدره لاتباعه والاقتداء به، فاستلذ بالأعمال الصالحة، فقام ذلك له مقام الغذاء الحلو اللذيذ، وهذا

مأخوذ من قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، كما تقدم بيانه؛ (**لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: لا يؤمن أحدكم**) أى لا يكمل إيمانه (**حتى أكون أحب إليه من نفسه الحديث**) منصوب بأعنى ونحوه، وتقدم تمام الحديث، ووجه مناسبة كلام سهل لما نحن فيه، ولما علل به أنه يدل على أن من جعل نفسه تابعة للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، فى أقواله وأفعاله تلذذ بالاقتداء به، ولا يستلذ بذلك إلا إذا أحبه، فإن المحب لا يخالف محبوبه، فيترك مراده لمراده، وبهذا دل على الأحبية وطابقت العلة معلولها كما لا يخفى، وقد تقدم قوله:

إن المحب لمن يحب مطيع

مع الكلام عليه.

* * *

(فصل فى ثواب محبته ﷺ)

بما يرجوه من بركتها فى الدنيا، ومن سعادته بها فى الآخرة كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «المرء مع من أحب»، والثواب الجزاء ثم أسند حديثًا فى ذلك رواه البخارى، فقال: (**حدثنا أبو محمد بن عتاب بقراءتى عليه**) تقدم بيانه، وأن القراءة والإجازة سواء عند المصنف، رحمه الله تعالى، وعند غيره القراءة أقوى وهو الظاهر، قال: (**حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد**) تقدم أيضًا، والكلام على التكنى بأبى القاسم مشهور سيأتى منه ما فيه الكفاية قال: (**حدثنا أبو الحسن محمد بن خلف**) القابسى كما تقدم قال: (**حدثنا أبو زيد المروزى**) تقدم أيضًا قال: (**حدثنا محمد بن يوسف**) الفربرى، وقد تقدم قال: (**حدثنا محمد بن إسماعيل**) البخارى وقد تقدم قال: (**حدثنا عبدان**) عبد الله بن عثمان، وقد تقدم قال: (**حدثنا أبى**) أبو عثمان بن جبلة بن أبى رواد العتكى الثقة أخرج له أصحاب السنن قال: (**حدثنا شعبة**) تقدمت ترجمته (**عن عمرو بن مرة**) الجملى بفتحتين نسبة إلى جمل أبو حى أحد الأعلام العاملين، أخرج له أصحاب الكتب الستة، وتوفى سنة ستة عشر ومائة، (**عن سالم بن أبى الجعد**) الأشجعى الكوفى توفى سنة خمس وخمسين ومائة وأخرج له الستة واسمه رافع (**عن أنس أن رجلاً أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم**)، قيل: إن الرجل أعرابى لا يعرف، وقيل: هو الأعرابى الذى بال فى المسجد، وقال ابن بشكوال: إنه أبو موسى الأشعرى، رضى الله تعالى عنه، أو أبو ذر، رضى الله تعالى عنه، واحتج بحديثين لا حجة له فيهما، وقيل: إنه أعرابى اسمه ذو الخويصرة، وقيل: إن السائل عمير بن قتادة، وفى معجم الذهبى: أنه عمر بن الخطاب

وأبان، قيل: ولذلك أورد البخارى هذا الحديث فى مناقب عمر، رضى الله تعالى عنه.

قلت: التعبير برجل من غير تعيين يأبى كونه عمر أو غيره من مشاهير الصحابة، إلا أن يكون الراوى نسبه، والظاهر أنه أعرابى.

(**فقال: متى الساعة يا رسول الله؟**) سأله عن تعيين زمان وقوعها، والساعة جزء من أربعة وعشرين جزءًا من اليوم والليلة، ثم أطلق لغة على كل زمان قليل، فيقول: جلست عندك ساعة أى قليلة، ثم شاع فى يوم القيامة وصار حقيقة فيه؛ إما لأنه قليل بالنسبة لما بعده من الخلود، أو بالنسبة لما يقع فيه من الأمور العظيمة، وهو مجاز صار حقيقة فى عرف الشرع واللغة، وقيل: سميت بها لقربها كأنها لتحقق وقوعها تقع بعد ساعة، أو لأنها تأتى بغتة، أو لأن البعث من القبور يكون فى أسرع من لمحة ولا يخفى ما فيه.

(**قال**) صلى الله تعالى عليه وسلم: (**ما أعددت لها؟**) أى ما هيأت وأحضرت لها من الأعمال الصالحة التى تنفعك فيها إذا قامت؟ وهذا قريب من الأسلوب الحكيم؛ لأنه ترك جوابه وسأله عما هو عدة له، فيها إشارة إلى أنها لا يعين زمان وقوعها؛ لأنه مما لا يعلمه إلا الله.

(**قال: ما**) نافية (**أعددت لها من كثير**) بالمثلثة، وفى بعض النسخ بالموحدة التحتية وهو صحيح أيضًا (**صلاة ولا صيام ولا صدقة**) من إضافة الصفة للموصوف أى لم أعد لها ما ينفعنى فيها، (**ولكنى أحب الله ورسوله**) استدراك على ما ذكره من تفريطه وتركه ما ينفعه أى ليس عندى ما ينفعنى ثمة إلا الإيمان بالله ورسوله ومحبتهما.

(**قال: أنت مع من أحببت**)، وفيه جواب له على أتم الوجوه وتبشير له ولمن أحب الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولذا قال فى تتمة الحديث: إن من حضر من الصحابة قالوا: يا رسول الله ونحن كذلك؟ قال: نعم. قالوا: ففرحنا كما مر، وإنما المراد أنه يدخل الجنة فى زمرة المؤمنين، وإن كانت مراتبهم متفاوتة، وقد نظم معنى الحديث الحافظ ابن حجر، رحمه الله تعالى، كما تقدم فقال:

وقائل هل عمل صالح ... أعددته ينفع عند الكرب
فقلت حسبى خدمة المصطفى ... وحبه فالمرء مع من أحب

(**ومن شعر الصبا قولى**):

وحق المصطفى لى فيه حب ... إذا مرض الرجاء يكون طبا
ولا أرض سوى الفردوس مأوى ... إذا كان الفتى مع من أحبا

وتقدم أيضًا.

(وعن صفوان بن قدامة) الصحابى التميمى المرادى كما قاله الذهبى، وله ولابنه صحبة واسمه عبد الرحمن قال: **(هاجرت إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى سافر ليلقى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فأتيته فقلت: يا رسول الله ناولنى يدك)** أى امددها لى كما كان عادته فى المبايعة **(أبايعك)** مجزوم فى جواب الأمر، والمبايعة الإقرار بما جاء به واتباعه صلى الله تعالى عليه وسلم، مفاعلة من البيع نقلت لما ذكر، **(فناولنى يده، فقلت: يا رسول الله إنى أحبك. قال: المرء مع من أحب)** تقدم تفسيره، وكان قدم المدينة مع ابنين له كما ذكره الترمذى والنسائى.

(روى هذا اللفظ) يعنى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: المرء مع من أحب **(عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)**، مخاطبًا له من ذكر محبته له **(عبد الله بن مسعود وأبو موسى)** الأشعرى **(وأنس)**، رضى الله عنهم.

(وعن أبى ذر بمعناه)، وهذا سبب ما تقدم من اختلافهم فى تعيين الرجل الذى ورد مبهمًا فى الحديث السابق، ونسبه بعضهم إلى الغلط فيه.

(وعن على) بن أبى طالب فى حديث رواه عنه الترمذى **(أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، أخذ بيد حسن وحسين)** ابنى على، رضى الله تعالى عنهم، أى أمسكها، **(فقال)**، وفى نسخة وقال: **(من أحبنى وأحب هذين)** إشارة إلى السبطين الحسن والحسين **(وأباهما)** عليًّا، رضى الله تعالى عنه، **(وأمهما)** فاطمة الزهراء أى مال إليهم ميلاً اختياريًا لله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، **(كان معى فى درجتى)** أى رتبتى ومنزلتى، قال الراغب: الدرجة تعتبر بالصعود دون الامتداد كدرجة السطح والسلم، ويعبر بها على المنزلة الرفيعة، قال الله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، انتهى، **(يوم القيامة)** إن أريد بيوم القيامة فى الحشر، فالمعية على ظاهرها، والمعنى أنهم معه صلى الله تعالى عليه وسلم فى صعيد واحد لقربهم منه، ويقدمهم على غيرهم من أمته وسائر الأمم، وإن أريد به الآخرة الشاملة للجنة، فالمعية والدرجة عبارة عن زيادة القرب لا المعية الحقيقية كما مر.

(وروى) رواه الطبرانى، وابن مردويه، عن عائشة، وابن عباس، رضى الله تعالى عنهم، **(أن رجلاً أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)**، قال البغوى فى تفسيره: إنه ثوبان مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: هو صاحب الأذان أى قيل: هو عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه الأنصارى الحارثى، **(فقال: لأنت)** اللام جواب قسم مقدر **(أحب إلى من أهلى ومالى وإنى لأذكرك)** أى أتذكرك فى ذهنى وأتصورك أو أذكر اسمك وصفاتك، فهو من الذكر بالكسر أو الضم، **(فما أصبر عنك)** أى عن رؤيتك

لشدة محبتى لك (**حتى أنظر إليك فيطمئن قلبى**) وتقر عينى برؤيتك، (**وإنى ذكرت موتى وموتك**) أى أنا سنموت وننقل من هذه الدار لدار أخرى، (**فعرفت**) وتحققت (**أنك إذا دخلت الجنة**) بعد الموت (**رفعت**) إلى الدرجات العلى (**مع النبيين**) صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، (**وإن دخلتها**) أنا بضم التاء، وعبر فى جانب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، بإذا لتحقيق دخوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، الجنة ورفعته فيها، وفى جانبه هو بإن لعدم جزمه فى نفسه بذلك (**لا أراك**) بعد الدخول لأنك فى مقام أعلى لا يصل إليه غيرك، (**فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾**) [النساء: ٦٩]، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى امتثال أمره ونهيه ويلزمه محبته له أيضًا، و لم يذكر لتحققها لذكر الرجل لها وعلمه صلى الله تعالى عليه وسلم، بخلوصه فيها ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [النساء: ٦٩]، بنعيم الجنة وعالى مراتبها، ففيه تبشير له بمرافقة أكرم خلق الله وأقربهم وأرفعهم منزلة ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ بيان للمنعم عليهم بما أخفى لهم من قرة الأعين، ﴿وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ تعجب أى ما أحسنهم ﴿رَفِيقًا﴾ تمييز، و لم يجمع لوقوعه على الواحد وغيره، أو لإرادة كل واحد منهم.

(**فدعا به صلى الله تعالى عليه وسلم**) أى طلب حضور ذلك الرجل، (**فقرأها**) أى هذه الآية (**عليه**) جوابًا له وتبشيرًا، وفى تفسير القرطبى أنه لما قرأها صلى الله تعالى عليه وسلم عليه دعا الله أن يعميه حتى لا يرى أحدًا غيره فى الدنيا، فعمى مكانه وقسمهم كما قال البيضاوى أربعة أقسام باعتبار منازلهم فى العلم والعمل، وهم الأنبياء الفائزون بكمال العلم والعمل المتجاوزون حد الكمال إلى درجة التكميل، ثم صديقون صعدت نفوسهم تارة إلى مراقى النظر فى الحجج والآيات، وأخرى إلى معارج القدس بالرياضة والتصفية، حتى اطلعوا على ما لم يطلع عليه غيرهم، ثم شهداء بذلوا أنفسهم فى إعلاء كلمة الله وإظهار الحق، ثم صالحون صرفوا أعمارهم فى طاعته وأموالهم فى مرضاته، والمراد بالمعية ما تقدم.

(**وفى حديث آخر**) لم يعز لناقله (**كان رجل**) قيل هو ثوبان أو من تقدم ذكره قريبًا (**عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم**)، أى ملازمًا لمجلسه (**ينظر إليه**) أى يديم النظر إلى وجهه الكريم (**لا يطرف**) بفتح الياء وسكون الطاء وكسر الراء المهملتين وفاء: أى لا يطبق أحد جفنيه على الآخر ويغض بصره أو يصرفه عنه من طرفة العين، من طرف يطرف كضرب يضرب، وما طرف البصر: أى تحرك، وظاهر قول بعضهم أى لا يغض بصره مطرقًا راميًا ببصره إلى الأرض أنه من الإطراق بضم أوله وقاف وهو صحيح أيضًا لكنى لا أعرف هل هو رواية أو تحرف عليه أو تسامح فى تفسيره.

(فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: ما بالك؟) أى مـا شـأنك حتـى تحـد النظـر وتديمـه كالمبهوت.

(قال): أفديك **(بأبى أنت وأمى)** جريا على عادتهم فيمن يحبونه ويجلونه **(أتمتع بـالنظر إليك)** أى أتلذذ بإدامة نظرى فى وجهك ما دام تمكنها فى الدنيا لأنتفع به وأتـزود منـه، **(فإذا كان يوم القيامة)** وبعدها **(رفعك الله)** إلى المنازل العالية فى جـواره **(بتفضيلـك)** أى بسبب تفضيل الله لك على سائر مخلوقاته، **(فأنزل الله الآية)** المذكورة يعنى قولـه: ﴿**وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ**﴾، إلى آخره.

(وفى حديث أنس)، رضى الله تعالى عنه، الذى رواه الأصفهانى فى ترغيبه، وسـيأتى إخراج المصنف، رحمه الله تعالى، له بقوله بطوله فى فصل علامة محبته: **(من أحبنـى كـان معى فى الجنة)** أى قريبًا منى متمكنًا من رؤيتى وزيارتى، وليس المراد المعية الحقيقية كمـا تقدم.

* * *

[فصل فيما روى عن السلف والأئمة من محبتهم له وشوقهم إليه]

(فصل فيما روى عن السلف) من العلماء والصلحاء، **(والأئمة)** وفى نسخة بعكسـه: الأئمة والسلف، وهو من عطف الخاص على العام، وقـد يفسـران بما يقتضـى المغـايرة، ففسر بعضهم السلف بالصحابة والتابعين والأئمة بأتباع التابعين ومن بعدهم **(من محبتهم للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وشـوقهم لـه)**، والمحبـة الميـل الروحـانى طبيعيًـا كـان أو مكتسبًا اختياريًا، والمحبة تكون فى الحضور والغيبة والشوق انجذاب النفـس فـى الغيبـة، فهو أخص من المحبة، وقال القيصرى، رحمه الله تعالى، فى شرح قول ابن الفارض، قدس سره[1]:

وما بين شوق واشتياق فنيت فـى تـول بخطـــر أو تجـــل بحضـــرة

الشوق انجذاب باطن المحب إلى محبوبه حال الفراق، والاشتياق انجذابه حـال الوصـال لنيل زيادة أو دوامها انتهى، والفرق المذكور إما من الفحوى أو هو اصطلاح للقوم.

(حدثنا القاضى الشهيد) ابن سكرة، وقد تقدم قال: **(حدثنا العذرى)** نسبة لبنى عذرة وقد تقدم قال: **(حدثنا الرازى)** تقدم، وهو نسـبة إلى الـرى علـى خـلاف القيـاس قـال: **(حدثنا الجلودى)** تقدم بيانه وبيان نسبتة قال: **(حدثنا ابن سفيان)** هو إبراهيـم بـن محمـد ابن سفيان كما تقدم قال: **(حدثنا مسلم)** إمام السنة وصاحب الصحيح كما تقدم قـال: **(حدثنا قتيبة)** بن سعيد واختلف فى اسمه، فقيل: يحيـى وقيـل: علـى وقيـل: سيار قـال:

(١) البيت من الطويل، وهو فى ديوان ابن الفارض (ص٢٨).

(حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن) القارى نزيل الأسكندرية الثقة أخرج له الستة، وتوفى سنة إحدى وثمانين ومائة **(عن سهيل)** تقدم بيانه **(عن أبيه)** هو صالح السمان المعروف بذكوان **(عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه)**، فى حديث صحيح رواه مسلم **(إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: من أشد أمتى لى حبًا)** منصوب على التمييز ولم يقل: أحب مع أنه أخصر؛ لأن هذا أبلغ وإن وافق السماع والقياس لدلالته صريحًا على المراد، وكونه بالصيغة والمادة كقوله تعالى: ﴿أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، دون أقسى، وأتى بمن التبعيضية؛ لأنهم مثل من كان فى عصره، وهو أحب إليه من نفسه وأهله، ومن لم يفهم هذا مع ظهوره قال: الحب يتفاوت شدة وضعفًا، ويبقى مفهوم قوله: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه»(١)، ولا شيء فوقه إلا أن يقال: إنهم من جملة من بلغ هذا المبلغ فى محبته انتهى، والتفضيل تختلف جهاته، فلشدة محبة من لم يره الداخلة فى الإيمان تفضل غيرها بهذا الاعتبار، ولذا قال: **(ناس يكونون بعدى)** فبين أشديته بهذا وبقوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ [البقرة: ٩٦]، أى يحب ويرغب فى أنه **(لو رآنى)** ببصره وشاهدنى، ولو للتمنى **(بأهله وماله)** الباء هنا للبدلية والمقابلة كبعته بكذا أى يتمنى لو بذل أهله وماله لأجل رؤيته، وفى لو فى مثله أقوال: فقيل إنها شرطية محذوفة الجواب ومفعول يود مقدر أى يتمنى رؤيتى ويودها ببذل كل ما يعز عليه، والتقدير ولو رآنى بمقابلة كل شيء له فعل، وقيل: إنها مصدرية وهى مع ما بعدها مفعول يود، وقيل: إنها حرف تمن كما بينه النحاة، **(ومثله)** أى بمعناه وقريب منه لفظًا **(عن أبى ذر)** الغفارى الصحابى المشهور.

(وقد تقدم حديث عمر، وقوله للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، لأنت أحب إلىّ من نفسى)، وتقدم تفصيله فى الفصل الذى قبل هذا، **(وما تقدم عن الصحابة)** كثوبان وصفوان وغيرهما **(فى مثله)** من كونه أحب إليهم من أنفسهم.

(وعن عمرو بن العاص) بحذف الياء وإثباتها وقفًا كما مر: **(ما كان أحد أحب إلىّ من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وهذا من حديث صحيح طويل رواه مسلم فيه أنه بكى عند موته، وقال بعد ما ذكر مبايعته لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وطلب منه أن يدعو له بمغفرة ما صدر منه، وأنه كان أبغض الناس له، وأحرصهم على قتله وبعدما بايعه وأسلم قال: ما كان أحد أحب إلىّ من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا أجل فى عينى منه، وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالاً له، حتى لو قيل لى: صفه ما استطعت أن أصفه إلى آخره وسيأتى الكلام عليه عند ذكر المصنف، رحمه

---

(١) أخرجه أحمد (٣٣٦/٤)، والنسائى (١١٥/٨)، وابن ماجه (٦٧)، والدارمى (٣٠٧/٢).

الله تعالى، له بسنده فى فصل تعظيم الصحابة له صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وعن عبدة بنت خالد بن معدان) بفتح الميم وسكون العين وفتح الدال المهملتين وألف ونون تقدم الكلام عليه، وأما بنته عبدة فبفتح العين المهملة وسكون الموحدة ودال مهملة قال البرهان الحلبى: لا أعرفها وفى الصحابة عبدة بنت صفوان ذكرها الحاكم **(قالت: ما كان خالد)** يعنى أباها **(يأوى إلى فراش)** أى إذا أراد النوم ليلاً، وخصت هذا الوقت؛ لأن المرء فيه يتذكر من يهواه غالبًا كما قال الشاعر[1]:

نهارى نهار الناس حتى إذا دنـا لى الليل هزتنى إليك المضاجع

(إلا وهو يذكر من شوقه إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)، استثناء من أعم الأحوال أى لم يكن له غير هذه الحال، **(وإلى أصحابه)** الضمير لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، أو لخالد **(من المهاجرين والأنصار)**، وخالد هذا هو الكلاعى الحمصى لقى سبعين رجلاً من الصحابة **(يسميهم)** أى يعدهم بأسمائهم، **(ويقول: هم أصلى وفصلى)** يعنى: إنى أفتخر بهم وأنتسب إليهم دون آبائى وقبيلتى، كذا قيل من غير نقل، وهو إتباع، وفى المجمل ما له أصل وفصل أى حسب ولسان، وكذا فى الصحاح.

وعن ثعلب: قولهم: لا أصل له ولا فصل الأصل الوالد والفصل الولد، هذا ما ذكره أهل اللغة، والظاهر أن المراد أن عليهم عمدتى وبهم أفصل وأحكم فليحرر **(وإليهم)** لا إلى غيرهم **(يحن قلبى)** أى يشتاق بتذكر عهودهم من الحنين **(طال شوقى إليهم)** لبعد عهدى بهم وطول مفارقتى بموتهم، **(فعجل)** يا **(رب قبضى إليك)** أى عجل موتى حتى ألقاهم ولا يزال يردد ذلك **(حتى يغلبه النوم)** أى حتى ينام ويستغرق فى نومه، فيترك قوله هذا، وتمنى الموت وإن كان مكروهًا؛ فإنه يجوز إذا خاف فتنة فى دينه، فلعل خالدًا كان كذلك، وسيأتى لهذا مزيد بيان فى الفصل الآتى عن الحكيم الترمذى.

(وعن أبى بكر) الصديق، رضى الله تعالى عنه، وفى نسخة وروى **(أنه قال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** لما أسلم أبو قحافة والده كما رواه ابن عساكر فى تاريخه عن ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما: **(والذى بعثك بالحق)** أى بالدين الحق، وهو قسم **(لإسلام أبى طالب)** جواب القسم يعنى عمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(كان)** أى إسلامه **(أقر لعينى)** أى أسر وأحب عندى، وهو قرة عينى من القر وهو البرد؛ لأن دمع السرور بارد ودمع الحزن حار، أو من القرار والثبات فإن العين إذا رأت ما يسرها سكنت و لم تلتفت لغيره **(من إسلامه يعنى أباه أبا قحافة)**، رضى الله تعالى عنه، وأبو قحافة: هو أبو الصديق، وهو عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم، أسلم يوم الفتح وحسن

(١) البيت من الطويل، وهو لابن الدمينة فى ديوانه (ص٨٨)، الأغانى (١٧/١٠٥).

إسلامه، وبقى بعد وفاة ابنه حتى توفى سنة أربع عشرة، وليس فى الصحابة من اسمه أبو قحافة غيره وغير أبى قحافة المزنى كما ذكره الذهبى، وسقط من بعض النسخ هنا لفظ أباه.

(و) بيان (**ذلك**) المذكور من كون إسلام أبى طالب أقر لعينه من إسلام أبيه (**أن إسلام أبى طالب كان أقر لعينك**) أى أحب إليك من كثير من الأمور؛ فإنه كان يحبه حبًا شديدًا، وكان بمنزلة والده إذ كان فى كفالته، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم، يتمنى أن يهديه الله للإسلام، فمات كافرًا، وهذا الحديث رواه أحمد، وابن إسحاق، وأبو حاتم، وليس قول المصنف، رحمه الله تعالى، وروى كما فى بعض النسخ تمريض له كما توهم حتى يعرض عليه بأنه صحيح تعددت طرقه، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، يوم الفتح دخل المسجد فأتاه أبو بكر رضى الله تعالى عنه، بأبيه يقوده، وكان قد عمى، فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه». فقال أبو بكر: يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك، فأجلسه صلى الله تعالى عليه وسلم، بين يديه، ثم مسح صدره وقال له: أسلم فأسلم ورأسه كالثمامة بياضًا، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: غيروا هذا يعنى أخضبوه، ولما سر بإسلامه رسول الله الله صلى الله تعالى عليه وسلم، قال أبو بكر: والذى بعثك بالحق... إلى آخره[1]، وفيه من محبته لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ما لا يخفى حيث قدم ما يسره على ما يسره تقديمًا له على نفسه، واعلم أن أبا طالب كانت محبته لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ومعرفتهبأنه رسول الله، وتصديقه فى قلبه محققة لكن الله لم يهده للإسلام، وفيه حكمة عظيمة، وهو أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، كان فى جواره وحمايته ظاهرًا حتى ما كان أحد يجترئ عليه، فلو أسلم لم يقبلوا جواره إذ لا جوار للمسلمين عندهم، فختم الله على لسانه لذلك، ولذا لما مات لزمت الهجرة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وأهل بيته، وهذا مما تفطن له بعض العلماء كابن القيم فى الهدى النبوى وصاحب الإمتاع.

(**ونحوه**) أى فى معنى ما رواه البيهقى والبزار عن ابن عمر (**عن عمر**) بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، أنه (**قال للعباس**) عم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: (**إن تسلم**) بكسر همزة إن الشرطية إن كان قال له قبل إسلامه، وبفتحها على أنها مصدرية إن كان بعده، والصحيح الثانى لما يأتى (**أحب إلىّ من إسلام الخطاب**) يعنى أباه؛ (**لأن ذلك**) أى إسلام العباس (**أحب إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم**)، فقدم ما يحبه

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/٢٤٤، ٢٤٦).

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، على ما تحبه نفسه، وكان قوله ذلك له في فتح مكة لما أشرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، على مكة، وركب العباس بغلته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأركب أبا سفيان بن حرب خلفه وهو كافر وركضها، فرآه عمر فقال: أبو سفيان عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكنني منك، فاشتد جريه حتى دخل به على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وعمر خلفه، فقال: دعني أضرب عنقه، فقال العباس: إني أجرته يا رسول الله، فلما أكثر عمر في شأنه قال: مهلاً يا بن الخطاب لو كان من رجال بني عدي ما قلت مثل هذا، فقال: مهلاً يا عباس لإسلامك يوم إسلامك أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم إلى آخره.

(وعن ابن إسحاق) صاحب السيرة وقد تقدمت ترجمته، وهذا رواه أيضًا البيهقي عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص مرسلاً **(أن امرأة من الأنصار)** هي من بني دينار ولم يسمها **(قتل أبوها وأخوها وزوجها)** شهداء **(يوم أحد)** اسم جبل كانت عنده الغزوة المشهورة **(مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقالت: ما فعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؟)** ليس المراد السؤال عن فعله حقيقة، وإنما المراد السؤال عن سلامته وحياته، وعبرت بذلك تأدبًا لأن الفعل يستلزم الحياة، فأريد لازمه.

(قالوا: خيرًا) أي فعل خيرًا، والمراد أنه بخير، ولذا قالوا بعده: **(هو بحمد الله كما تحبين)** أي سالم منصور مظفر.

(قالت) لمن سألته: **(أرنيه)** أي دلني عليه **(حتى أراه)** وأتلذذ بمشاهدته، وفي نسخة أرونيه، **(فلما رأته)** بعد ما دلها عليه **(قالت: كل مصيبة)** تصيب المال والأهل **(بعدك)** أي بعد سلامتك ورؤيتك **(جلل)** بفتح الجيم واللام، ثم لام أخرى بمعنى هين لا أبالي به، ولا أحزن عليه، ويكون جلل بمعنى عظيم أيضًا؛ لأنه من الأضداد، والمراد الأول وشاهد الأول قول امرئ القيس[1]:

بقتل بني أسد ربهم ... ألا كل شيء سواه جلل

والثاني قوله[2]:

فلئن عفوت لأعفون جللا ... ولئن سطوت لأوهنن عظمي

وهو دليل على قوة إيمانها، وتقديمها محبة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، على

(١) البيت من المتقارب، وهو لامرئ القيس في ديوانه (ص٢٦١)، خزانة الأدب (٢٣/١٠)، الدرر اللوامع (١٢٤/٥)، شرح شواهد المغني (٣٦٤/١)، لسان العرب (١١٧/١١).

(٢) البيت من الكامل، وهو للحارث بن وعلة في الدرر (١٢٣/٥)، وسمط اللآلئ (ص٣٠٥، ٥٨٤).

محبة غيره من الأهل.

(وسئل على بن أبى طالب)، كرم الله وجهه، ولم يذكروا من رواه عنه: **(كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم؟)** أى ما مقداره فى شدته؟.

(قال: كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا) بضم الهمزة وكسرها مع فتح الميم وكسرها جمع أمهة بمعنى أم لغة فيه إلا أن يختص ببنى آدم قال:

أمهتـــى خنـــدق واليـــأس أبـــى

ويقال فى البهائم: أمات.

(و) أحب **(من الماء البارد على الظمأ)** بمعنى شدة العطش، ويمد ويقصر والأفصح قصره، وأعاد الجار لأنه نوع آخر مما يحب ولشدة منفعته، وخص الظمأ لأنه حال محبة الماء وشدة الرغبة فيه.

(وعن زيد بن أسلم) الفقيه العمرى توفى سنة ست وثلاثين ومائة، أخرج له أصحاب الكتب الستة وله ترجمة فى الميزان قال: **(خرج عمر)** بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، من بيته لأزقة المدينة **(ليلة يحرس الناس)** على عادته فى خلافته إذ كان يدور فى الأزقة ويعس ليعرف حال الناس، **(فرأى مصباحًا)** موقدًا **(فى بيت)** فقصده ليرى ما فى البيت الذى هو فيه، **(فرأى عجوزًا)** أى امرأة مسنة، ويقال عجوزة أيضًا ولم أر من الشراح هنا من ترجمها بشىء **(تنفش صوفًا)** بضم الفاء وشين معجمة ونفش الصوف والقطن لإصلاحه معلوم.

(و) هى **(تقول)**: أى تنشد شعرًا من بحر السريع: **(على محمد صلاة الأبرار)** معنى الصلاة مشهور، وعلى متعلق بصلاة أو بمقدار ويجوز تقديم الظرف على المصدر لتوسعهم فيه، والأبرار جمع بر وبار، وهو كل مطيع لربه متق أى أدعو له بكل ما تدعو به الأبرار.

(صلى عليه الطيبون الأخيار) المراد بالطيبين المتقون الذين طابت ظواهرهم وسرائرهم، والأخيار جمع خير مخفف أو جمع خير بمعنى أخير وأتقى.

(قد كنت قوامًا ما بكا بالأسحار) قوامًا أى متهجدًا؛ لأن القيام يختص بصلاة الليل: أى كثير القيام للعبادة، وبكا بضم الباء والقصر مصدر بمعنى اسم الفاعل أطلق عليه للمبالغة وهو يمد ويقصر، والأسحار جمع سحر وهو آخر الليل والباء بمعنى فى هذا هو الصواب رواية ودراية، وما قيل من أن بكا بتشديد الكاف، والكلام سجع لانظم لانكسار الوزن، وكذا ما قيل من أن بكاء ممدود مضاف للأسحار بدون باء والإضافة على معنى فى تكلف وتعسف.

(يا ليت شعرى والمنايا أطوار) شعرى بمعنى علمي، وهو اسم ليت وخبره محذوف أى حاصل وقوله: **(هل يجمعنى وحبيبى الدار)** قائم مقام معمول شعرى علق عنه، والمنايا جمع منية وهى الموت من منى بمعنى تصير، وتقدر، وأطوار جمع طور وهو الحال أى أمور شتى مختلفة، ومراده بالحبيب كما قاله المصنف، رحمه الله، النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، والظاهر أن مرادها بالدار الآخرة أى هل أراه صلى الله تعالى عليه وسلم، الموت، فإنه مقرر وله أسباب مختلفة كما قيل:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والداء واحد

وقيل: المعنى: هل تجمعنا الدار ويحول بينى وبينه الموت، فالمراد بالدار الدنيا، وليس بمناسب هنا وهذه القصة حكاها ابن المبارك فى كتاب الزهد، وفيها: فما زال عمر، رضى الله تعالى عنه، يبكى وطرق عليها الباب، فقالت: من هذا؟ فقال: عمر بن الخطاب، فقالت: ما لى ولعمر فى هذه الساعة؟ فقال: افتحى، يرحمك الله، فلا بأس عليك، ففتحت له فدخل عليها، وقال: ردى الكلمات التى قلتيها آنفًا، فردتها فقال: أدخلينى معكما، وقولى: وعمر فاغفر له يا غفار **(تعنى)** تقصد بقولها: حبيبى **(النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وفيه مناسبة لما نحن فيه، **(فجلس عمر يبكى، وفى الحكاية)** التى نقلها ابن المبارك **(طول)** اقتصرنا منها على المراد منها.

(وروى أن ابن عمر)، رضى الله عنهما، رواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة **(خدرت رجله)** بفتح الخاء المعجمة وكسر الدال وفتح الراء المهملتين أى أصابها خدر، وهو أمر يعترى الرجل لما يصيب العصب، فيمنع عن تحريكها بسهولة ويزول سريعًا؛ لأنه لو امتد كان فالجًا أو من مقدماته، **(فقيل له: اذكر أحب الناس إليك يزل عنك)**؛ لأن الناس جربوا فى الخدر أن من أصابه إذا ذكر محبوبه زال بسهولة؛ لأنه بمسرته تنتفش الحرارة الغريزية فتدفع الخدر، **(فصاح: يا محمداه)** يعنيه، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه أحب الناس إليه وإلى كل مؤمن كما مر، ويا محمداه مفعول صاح لتضمنه معنى القول أو القول مقدر بعده كما هو مشهور فى أمثاله عند النحاة، ومن قال: إنه لم يعطف على جملة صاح لكمال الاتصال بينهما، فهو كأبو حفص عمر عطف بيان لم يصب المحز، **(فانتشرت)** رجله أى امتدت لزوال خدرها، وهذا يقتضى صحة ما جربوه، وقد روى أنه وقع مثله لابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، وذكره النووى فى أذكاره، وروى أيضًا عن غيرهما، وفيه يقول أبو العتاهية:

وتخدر فى باب الأحايين رجله فإن لم يقل يا عتب لم يذهب الخدر

وهذا مما تعاهده أهل المدينة، وقوله: يا محمداه بألف وهاء للندبة فى النداء لمن يتوجع

أو يتفجع كما قرره النحاة، **(ولما احتضر بـلال)**، رضـى الله عنـه، بالبنـاء للمجـهول أى حضرته الملائكة لتقبض روحه **(نادته امرأته)** أى صاحت بأعلى صوتها **(واحربـاه)** بفتـح الحاء والراء المهملتين وباء موحدة، وهو فى الأصل النهب والسلب من حربته إذا سلبت ماله وما يعيش به، قيل: فكأنها لتفجعها لموته نهبت وسلبت، وفـى القـاموس قيـل: إن أصله أن حرب بن أمية لما مات قيل فى نعيه واحرباه، ثم نقل ذلـك يعنـى عـم فـى كـل نعي وحرب كغارة، ووا حرف ندبة، والمندوب إما ميت ينعى أو أمر يتفجع منه نحو يـا حسرتاه، وقيل: إنه روى حزناه بفتح الحاء المهملة والزاء المعجمة، أو بضم أوله وسكون ثانيه، وروى أيضًا حوباه بفتح الحاء وواو ساكنة تليـها بـاء موحـدة مـن الحـوب، وهـو الإثم، والمراد إثمها لشدة جزعها وقلقها فى المصيبة، فهى تتفجع على نفسها أو هـو مـن الحوبة بمعنى رقة القلب، وهو تكلف، والرواية الأولى كما تقدم.

(فقال) بلال، رضى الله تعالى عنه، ردًا لما قالته: **(واطرباه)** الطرب خفـة تعـترى المـرء لحزن أو سرور، فهو مشترك بينهما، والمراد هنـا الثـانى، ووا هنـا للنـداء والألـف والهـاء مزيدة فى آخره كأنه يستغيث بطربه ويدعوه فى سكرات الموت؛ لمـا تيقنـه مـن الثـواب وملاقاة الأحباب لعلمه بأن الأرواح تتلاقى فى البرزخ كما أشار إليه بقوله: **(غـدًا ألقـى الأحبة محمدًا وحزبه)**، فمحمدًا وحزبه بيان لمراده بالأحبة، والحزب الجماعة المتحزبين أى المجتمعين، والمراد بهم الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، والمراد بقوله: غدًا الزمان المستقبل بعد الموت، وروى كما يأتى نلقى الأحبة محمـدًا وصحبـه، وهـذا بيـت مـن مجـزوء بحـر الوافر، فيه زحاف يعلمه من له خبرة بعلم العروض **(ذكره القشيرى)**، رحمه الله تعالى.

(ومثله) روى **(عن حذيفة بن اليمان، رضى الله تعـالى عنـهما، وروى أن امـرأة قـالت لعائشة)** رضى الله تعالى عنها: **(اكشفى لى عن قبر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)**؛ قالته لها لأنه كان فى بيتها، وكان مستورًا عن النـاس تكريمًـا لـه، صلـى الله تعـالى عليـه وسلم، **(فكشفته لها)** برفع الستارة عنه، **(فبكت حتى ماتت)** لشدة محبتها للنبى صلـى الله تعالى عليه وسلم، وهذا لم يخرجوه.

(و) روى البيهقى، رحمه الله تعالى، عن عروة أنه **(لما أخرج أهل مكة زيد بـن الدثنـة)** بفتح الدال المهملة وكسر المثلثة وتسكن ونون وهاء تأنيث اسم والده، من قولهـم: دثـن الطائر إذا طار حول وكره، ولم يسقط عليه، أو من دثن إذا اتخـذ عشـا، وهـو زيـد بـن الدثنة بن معاوية بن عبيد بن معاوية بن عامر بن بياضة الخزرجى الصحابى، وكـان أسـر يوم الرجيع **(من الحرم ليقتلوه)** فقتل صبرا، وإنما أخرجوه منه لأنهم كانوا لا يقتلـون فيـه تعظيمًا له، وكان قتله فى السنة الثالثة من الهجرة **(قال له)** قبل قتله **(أبو سفيان بن حرب)**

والد معاوية، وكان ذلك قبل إسلامه، وقيل: إن الذى قيل له ذلك الآتى حبيب ابن عدى حين رفع على خشبة، فقال: لا، والله فضحكوا منه كما نقله ابن سيد الناس فى سيرته عن ابن عقبة، وما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، روايه ابن إسحاق: (**أنشدك الله تعالى**) قسم، وأنشدك بفتح الهمزة وضمها يقال: نشدته وأنشدته إذا سألته، وفى القاموس نشد فلانًا عرفه، وبالله استحلفه وقال له: نشدتك الله أى سألتك بالله ونشدك الله بالفتح أنشدك الله، وقد ناشده مناشدة ونشادًا حلفه، والله منصوب بنزع الخافض أى أسألك بالله، وفى النهاية أنه متعد لمفعولين، وقال الوقشى: الصواب نشدتك فليحرر (**يا زيد أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه**)، فيقتل حماه الله تعالى من ذلك، (**وأنك**) بفتح الهمزة سالمًا مقيما (**فى أهلك؟ فقال زيد، رضى الله تعالى عنه: والله ما أحب**) وأرضى (**أن محمدًا فى مكانه الذى هو فيه مقيم تصيبه شوكة**) أى أقل شىء من الأذى فضلا عما قلتم، (**وأنا جالس فى أهلى**) سالم من الأذى وهو متأذ.

(**فقال أبو سفيان: ما رأيت أحدًا من الناس**) ما نافية لا تعجبية كما توهم، وإن كان مراده بهذا الكلام التعجب من شدة محبة أصحاب محمد له (**يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا**) مفعول حب المصدر، وهذه القصة مفصلة فى السير لا نطيل بذكرها هنا.

(**وعن ابن عباس**)، رضى الله تعالى عنهما، فيما رواه ابن جرير والبزار: (**كانت المرأة إذا أتت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، مهاجرة إلى المدينة (**أحلفها بالله**)، وفى نسخة حلفها بالتشديد، وهما بمعنى أى كلفها القسم بالله أنها (**ما خرجت**) من أرضها وبلدها لشىء (**من بغض زوج**) لها ناشزة منه، (**ولا رغبة بأرض**) أى فى أرض (**عن أرض**) خرجت منها.

(و) أنها (**ما خرجت**) من أرضها بشىء (**إلا حبًا لله ورسوله**)، فهى هجرة خالصة لله، وفيه وجوب محبة الله ورسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو الذى قصده المصنف، رحمه الله تعالى هنا، وكان ذلك لما وقعت الهدنة بين رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، والمشركين، وشرطوا عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يرد عليهم كل من آتاه من أهل مكة ولو كان مسلمًا، فرد أبا جندل، رضى الله تعالى عنه، ولم يرد النساء إما لعدم دخولهن فى العهد، أو لأن الله نسخه صونًا للفروج ولضعفهن، فكان صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يرد من ظهر إسلامها، وأمره الله بامتحانهن باستحلافهن بما ذكر، فإذا حلفن أعطى مهرهن ونفقتهن، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠] الآية، وبما ذكرنا سقط ما قيل: فى نظم هذا فى هذا الفصل نوع نظر.

(ووقف ابن عمر)، رضى الله تعالى عنهما، كما رواه ابن سعد **(على)** عبد الله **(ابن الزبير بعد قتله)**، رضى الله تعالى عنهما، حين قتله الحجاج وصلبه على جذع، وقد حاصره، ثم قتله سنة ثلاث وسبعين يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الأولى أو الآخرة كما فصل فى التواريخ، **(فاستغفر له)** أى دعا له ابن عمر بالمغفرة، **(وقال)** ابن عمر مخاطبًا له بعد موته: **(كنت والله فيما علمت)** أى فيما ثبت وتحقق فى علمى بك **(صوامًا)** أى مبالغة فى الصوم وكثرته **(قوامًا)** أى كثير القيام والتهجد كما مر. قيل: إنه كان رضى الله تعالى عنه، قسم لياليه ثلاثة أقسام: ليلة يصلى قائمًا إلى الصباح، وليلة راكعًا إلى الصباح، وليلة ساجدًا إلى الصباح **(تحب الله ورسوله)** أى مخلصًا فى محبتهما مؤثرًا لهما على كل شىء حتى على نفسه وأهله، أما عبادته، رضى الله تعالى عنه، وتوجهه إلى الله فيها، فنقل عنه أمور عجيبة، فكان إذا توجه انتصب كأنه جذع لا يحس بشىء، ولا يتحرك حتى يقع عليه الطير، ورمى بحجر من المنجنيق وهو يصلى فى أيام محاصرته، فلم يقطع صلاته، وقد جذبه مغناطيس المحبة، فدفن قريبًا منه صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنهم لما أنزلوه عن جذعه الذى صلب عليه، غسلته أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق، رضى الله تعالى عنهما، بعد أن قطعت مفاصله وحنطته وكفنته، وصلت عليه وحملته إلى المدينة ودفنته فى دار صفية أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، وهذه الدار زيدت فى المسجد النبوى على صاحبه أفضل الصلاة وأشرف السلام.

* * *

[فصل فى علامة محبته عليه الصلاة والسلام]

أى فى ذكر صفات تدل على أن من اتصف بها محب له صلى الله تعالى عليه وسلم.

(اعلم) أمر لكل من توجه إليه الخطاب من غير تعيين سد مسد مفعوليه قوله: **(أن من أحب شيئًا آثره)** أى اختاره وقدمه على غيره، وهو بفتح الهمزة والمد كقوله: **(وآثر موافقته)** فى أقواله وأفعاله **(وإلا)** أى وإن لم يؤثره ويؤثر موافقته، وأصله وإن لا بإن الشرطية ولا النافية **(لم يكن صادقًا)** فى دعوى المحبة كما قال **(فى حبه وكان مدعيا)** أى كاذبًا فى دعواه؛ لأن المدعى هو الزاعم للباطل عند الإطلاق، ولذا يقال: مسيلمة مدعى النبوة لكن لا يقال مثله فى حق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، كما قال:

وكل يدعى وصلا لليلى ... وليلى لا تقر له بذاكا

وقال:

ولما ادعيت الحب قال كذبتنى ... فمالى أرى الأعضاء منك كواسيا

فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا ... وتذهل حتى لا تجيب المناديا

(فالصادق فى حب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، من يظهر عليه علامات ذلك) الحب الذى ادعاه بحيث لا يخفى، **(وأولها)** أى أول تلك العلامات **(الاقتداء به)** صلى الله تعالى عليه وسلم، باتباع أقواله وأفعاله وآثاره، **(واستعمال سنته)** أى العمل بها، **(واتباع أقواله وأفعاله)**، فلا يخالفها، **(وامتثال أوامره واجتناب نواهيه)** بأن يفعل ما أمر به ويترك ما نهى عنه بقدر استطاعته، قال ابن هشام فى تذكرته، ومن خطه نقلت قال الأصوليون: الأمر بمعنى القول المخصوص على أوامر، وبمعنى الفعل الشأن على أمور، ولا نعلم من وافقهم إلا الجوهرى، وفى التهذيب خلافه، ولم يذكر النحاة أن فعلا يجمع على فواعل، وفى شرح البرهان قول الجوهرى غير معروف، وصحح بوجوه:

الأول: أنه جمع آمر؛ لأنه اسم أو صفة لما لا يعقل، وهو مجاز لأن الآمر الشخص لا القول، ولم يقولوا: إنه مجاز وصرحوا بأنه جمع أمر، فكيف يخرج عليه كلامهم؟.

الثانى: أنه جمع آمرة، وهى الصفة وفيه ما مر، وقال ابن سيده: آمرة مصدر كالعافية، وعليه جرت هذه الصيغة، ورد بأنه لا يتأتى لأن معناها إيجاد الطلب لا الصيغة.

الثالث: أنه جمع الجمع جمع على أفعل، وجمع أفعل على أفاعل، ورد بأن أوامر فواعل لا أفاعل والإبدال فيه مطرد، وقال الأصفهانى فى شرح المحصول: هذا التوجيه لا يتم فى النواهى، وكونه جمع ناهية مجازًا تكلف، وكونه لمشاكلة الأوامر يرده استعماله مفردًا انتهى.

(والتأدب بآدابه) الأدب حسن تناول الأمور والتلطف فيها، والمراد التخلق بأخلاقه صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الكرم وحسن الشيم، والأدب غلب فى العرف على هذا المعنى **(فى عسره ويسره)** بضمتين فيهما، ويسكن السين تخفيفًا فى الشدة والرخاء، والضمير للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، أو لصاحب الحالة المصدرية، **(ومنشطه)** أى فى نشاطه وخفته، **(ومكرهه)** أى كراهته لأمر يتحمله من غيره وميمها مفتوحة، **(وشاهد هذا)** المذكور كله أى ما يشهد له ويدل عليه حتى كأنه شهد به وأثبته: **(قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾** [آل عمران: ٣١]، جعل محبة الله لازمة لاتباع رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن أحب الله أحب رسوله، فكأنه قال: إن كنتم تحبونى فاتبعونى، وبهذا ظهر مطابقة هذه الآية لما عقد له الفصل.

(وإيثار ما شرعه) من أحكامه الواجبة وغيرها، **(وحض عليه)** أى حث الناس على فعله وحرضهم عليه **(على هوى نفسه)** أى مما تهواه وتميل إليه، **(وموافقة شهوته)** أى ما تشتهيه نفسه ويميل إليه طبعه؛ لأن الاشتهاء ميل طبيعى غير مقدور، ولذا يعاقب المكلف بإرادة المعاصى عند بعضهم ولا يعاقب باشتهائها، والشهوة مغايرة للإرادة؛ لأن الشهوة

توقان النفس إلى الأمور المستلذة، والإرادة قد تتعلق بنفسها بخلاف الشهوة؛ فإنها لا تتعلق بنفسها بل بالذات، فإن تعلقت بنفسها كانت مجازًا عن المجازاة كما فى قوله: أشتهى أن اشتهى.

(قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ﴾ **)** [الحشر: ٩]، أى سكنوها واستقروا بها، وهم الأنصار، والمراد بالدار المدينة، ﴿وَالْإِيمَنَ﴾ أى وأخلصوا الإيمان، وعطفه على الدار على حد قوله[1]:

وزججـــن الحواجـب والعيونـا

أو جعل الإيمان لملازمتهم له كالمنزل المستقر فيه ساكنه، وتحقيقه فى الكشاف وشروحه ﴿مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ من المؤمنين ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ﴾ أى فى قلوبهم وأنفسهم، وما وقع فى بعض النسخ فى أنفسهم سهو من الكاتب ﴿حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا﴾ أى لا يخطر ببالهم وتطمح أنفسهم إلى ما أعطى المهاجرون من فىء وغيره حسدًا وطمعًا، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أى يقدمون المهاجرين على أنفسهم تكريمًا منهم، ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ﴾ أى فيهم ﴿خَصَاصَةٌ﴾ احتياج وفاقة لما أثروهم به، وسبب نزول هذه الآية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قسم بين الصحابة غنائم بنى النضير، ولم يعط الأنصار منها إلا ثلاثة من فقرائهم، وقال لهم: إن شئتم أشركتكم معهم وقسمتم لهم من دياركم وأموالكم، وإن شئتم كان لكم أموالكم ودياركم ولا تأخذوا منه شيئًا. فقالوا: بل نؤثرهم بالفىء ونقسمهم لهم من ديارنا وأموالنا، فلله درهم ما أكرمهم وأعونهم على البر والتقوى، وهذا كله محبة لله ورسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان المهاجرون قبل ذلك نزلوا دور الأنصار، فلما فتح الله عليهم فعل ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وإسخاط العباد)** أى إغضابهم عليهم بمخالفتهم **(فى رضى الله)** أى فيما يرضيه، وهذا وما قبله معطوف على الاقتداء، وهذا كما قال الحريرى:

وابغ رضى الله فأعيى الورى   من أغضب المولى وأرضى العبيد

(حدثنا القاضى أبو على الحافظ) هو ابن سكرة، وقد تقدمت ترجمته قال: **(حدثنا أبو**

---

(١) عجز بيت وصدره:

إذا ما الغانيات برزن يومًا

وهو من الوافر، وهو للراعى النميرى فى ديوانه (ص٢٦٩)، والدرر (١٥٨/٣)، شرح شواهد المغنى (٧٧٥/٢)، لسان العرب (٢٧٨/٢)، المقاصد النحوية (٩١/٣)، وبلا نسبة فى الإنصاف (٦١٠/٢)، تذكرة النحاة (ص٦١٧)، الخصائص (٤٣٢/٢)، لسان العرب (٤٢٢/١).

الحسن الصيرفي) تقدم أيضًا، وفي نسخة الحسين وهو سهو، **(وأبو الفضل بن خيرون)** تقدم أيضًا **(قالا: حدثنا أبو يعلى البغدادي)** الذي يقال له: زوج الحرة كما تقدم قال: **(حدثنا أبو على السنجي)** تقدم أيضًا قال: **(حدثنا محمد بن محبوب)** تقدم أيضًا قال: **(حدثنا أبو عيسى)** هو الإمام الترمذي صاحب السنن، وهو محمد بن عيسى بن سورة كما تقدم قال: **(حدثنا مسلم بن حاتم)** الأنصاري إمام جامع البصرة قال: **(حدثنا محمد ابن عبد الله الأنصاري)** هو محمد بن عبد الله بن المثنى الأنصاري قاضي البصرة الإمام الثقة، توفي في رجب سنة خمسة عشر ومائتين، وله ترجمة في الميزان **(عن أبيه)** هو عبد الله بن المثنى البصري، وقد وثقوه وله ترجمة في الميزان **(عن علي بن زيد)** بن عبد الله بن أبي مليكة زهير بن عبد الله بن جدعان بن عمر بن كعب الضرير أحد الحفاظ، وإن قيل: فيه لين وليس بثبت، وأخرج له الأربعة وله ترجمة في الميزان توفي سنة إحدى وثلاثين أو تسعة وعشرين ومائة **(عن سعيد بن المسيب)** تقدم أيضًا **(قال: قال أنس بن مالك)**: الصحابي المشهور.

(قال لي رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: يا بني) مصغر بتشديد الياء ويجوز كسرها وفتحها، والتصغير للشفقة والمحبة، وكان خادمه صلى الله تعالى عليه وسلم وفيه دلالة على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أبو المؤمنين كما أن زوجاته، رضي الله عنهن، أمهاتهم، وبناته أخواتهم، وقد وقع إطلاق هذا كله في الأحاديث الصحيحة، وقرئ: **(وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم)**، وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، المنفي فيه أبوة النسب حقيقة خلافًا لمن لم يجوز إطلاقه عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، عملاً بظاهر الآية، والصحيح خلافه كما تقدم بيانه في أول فصل وأما حسن عشرته إلخ.

(إن قدرت أن تمسي وتصبح) أي إن أمكنك ذلك، ولم يمنعك منه مانع أي على أن إلخ لأن حذف الجار هنا مطرد، والمراد بالإصباح والإمساء جميع زمانه لاخصوصهما إذ لا وجه للتخصيص، وهما فعلان تامان وقوله: **(ليس في قلبك غش لأحد)** جملة حالية بدون تقدير قد، لجمود فعلها أو هي خبر وهما ناقصان، والغش بكسر الغين المعجمة ضد النصح، والمراد به هنا مجازًا غل وحقد، وهو المراد إذا أضيف للقلب، ولو كان على ظاهره فهو بتقدير مضاف أي نية غش، والأول أحسن وأقرب، **(فافعل)** أي فكن مداومًا على ذلك، **(ثم قال)** رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لي: يا بني وذلك)** أي نزع الغش من القلب **(من سنتي)** أي طريقتي وأخلاقي، **(ومن أحيا سنتي)** أي أظهرها واتبعها، **(فقد أحبني)** أي علم حبه لي وهذه رواية، والذي في الترمذي فقد أحياني وهو الظاهر، **(ومن أحبني كان معي في الجنة)** لأن المرء مع من أحب كما تقدم، والمحب

الصادق لا يخالف من أحبه، بل يقدم مراده على مراده؛ لأنه أحب إليه من نفسه، **(فمن اتصف بهذه الصفة)** أى بإحياء السنة واتباعها، وقيل: المراد بالصفة أن لا يكون فى قلبه غش لأحد، **(فهو كامل المحبة لله ورسوله ومن خالفها)** أى خالف السنة **(فى بعض هذه الأمور)** كترك بعض ما أمر به، أو أتى بعض ما نهى عنه أحيانًا، **(فهو ناقص المحبة)** لا كاملها، **(ولا يخرج)** بارتكاب البعض **(عن اسمها)** أى عن الاتصاف بها، وتسميته محبًا فى الجملة ولا ينافى هذا فى قوله المتقدم:

لو كان حبك صادقًا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

لأن ذلك فى المحبة الكاملة التى هى محبة الخواص على نهج قوله: («**لا يزنى الزانى وهو مؤمن**»)، ولذا عقبة بقوله: **(ودليله)** أى دليل أن بعض المخالفة لا يخرجه عن اتصافه بالمحبة **(قوله صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى حديث رواه البخارى عن عمر، رضى الله تعالى عنه، **(للذى حده فى الخمر)**، أى أقام عليه الحد لشربه الخمر واللام كهى فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، أى قوله فى حقه وشأنه، وهى فى الحقيقة لام تعليل، والصحابى الذى حد فى الخمر فى هذا الحديث قيل: هو عبد الله الملقب بحمار باسم الحيوان بحاء مهملة، وقيل: بل هو بخاء معجمة مكسورة وأنه الصواب، وقيل: ابن نعيمان أو نعيمان نفسه ابن عمرو بن رفاعة البدرى، وهو الذى حد فى الخمر مرارًا، وهو صاحب الدعابة الذى كان صلى الله تعالى عليه وسلم، يضحك منه، توفى فى زمن معاوية، وصحح هذا، وقصة حمار أخرى كانت بخيبر، وقيل: إنه هو نفسه، وقال الحافظ الدمياطى: إن كون هذا الرجل حمارًا وهم، وإنما هو نعيمان وحمار هذا معدود فى الصحابة ولم يذكروا نسبه.

(فلعنه بعضهم) أى قال: اللهم العنة، وروى أنه قال له: أخزاك الله تعالى، والقائل له عمر بن الخطاب كما رواه البيهقى، **(وقال: ما أكثر ما يؤتى به!)** تعجب من كثرة ما أتوا به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو سكران، **(فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله)**، وفيه دليل على أن المسلم وإن ارتكب الكبائر لا يجوز لعنه، ومن كان كذلك لا يجوز لعنه، وفيه أن محبة الله ورسوله من أعظم المنجيات، وفيه رد على المعتزلة فى أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار.

(ومن علامات محبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، كثرة ذكره) صلى الله تعالى عليه وسلم، وذكره بالصلاة عليه، ومنه علم فضيلة الحديث وأهله لذكرهم له صلى الله تعالى عليه وسلم، كثيرًا.

(ومن أحب شيئًا أكثر من ذكره)، وهذا مثل مشهور، وهو أمر طبيعى عادى.

(ومنها) أى علامات محبته صلى الله تعالى عليه وسلم، **(كثرة شوقه إلى لقائه)** أما فى حياته فظاهر، وأما بعد موته صلى الله تعالى عليه وسلم، فبأن يشتاق للقائه فى الآخرة ويشاهد ذاته الكريمة، اللهم ارزقنا ذلك، **(فكل حبيب)** أى محب **(يحب لقاء حبيبه)** أى محبوبه، فإن فعيل يأتى بمعنى اسم الفاعل والمفعول، وإن اشتهر هذا فى الثانى وذكره معادلاً لقوله قبله: من أحب شيئًا إلى آخره، وكل منهما علة لما قبله، وهو من حسن التعليل البديعى، والشىء بالشىء يذكر، ما أحسن قول عروة بن حزام فى قصيدة له:

وإنى لأهوى الحشر إذ قيل إننى ... وعفراء يوم الحشر تلتقيانى

ومنه أخذ ابن رواحة قوله:

إن كان يحلو لديك ظلمى ... فزد من الهجر فى عذابى
عسى يطيل الوقوف بينى ... وبينك الله فى الحساب

وقلت أنا فى رباعية:

كم قال لحبه الكثير الآفات ... واطول وقوفنا بيوم العرصات
هيهات لئن بدا محياه له ... يغفر ويهب له جميع الزلات

(وفى حديث الأشعريين) يعنى أبا موسى الأشعرى وأصحابه المنسوبون إلى أشعر أبو قبيلة باليمن، وكانوا قدموا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، سنة سبع من الهجرة، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم، قال لأصحابه: يقدم عليكم قوم أرق قلوبًا منكم، فقدم الأشعريون، وكانوا **(عند قدومهم المدينة)** منصوب بنزع الخافض؛ لأنه يقال: قدم فلان على فلان، وقدم إلى بلد كذا **(أنهم كانوا يرتجزون)** أى ينشدون شعرًا وكلامًا موزونًا، وهو: **(غدًا نلقى الأحبة، محمدًا وصحبه)** لكنهم قالوا: إنما يقال: ارتجز إذا أنشد شعرًا من بحر الرجز، وتمامه مستفعل ست مرات، ومجزوءه أربعًا، وهذا ليس منه، وإنما هو من الوافر والهزج، وقيل: إنما سماه رجزًا لمشابهته له لتقارب أجزائه وقلة حروفه، ولعل العرب كانت تطلق على ما يقوله الركبان من الأوزان القصيرة رجزًا، وما ذكروه من تخصيصه بهذا الوزن اصطلاح حدث بعد الخليل، رحمه الله تعالى، والذى يظهر أن هذا كله تكلف لا حاجة إليه، فإنه هنا بمعناه اللغوى، وهو يصيحون ويصوتون فإنه أصل معناه، ومنه المرتجز اسم فرس لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لحسن صهيله وصوته، وكون المصنف يخفى عليه مثله سوء ظن به، وفى نسخة وحزبه بدل صحبه كما تقدم.

(وتقدم قول بلال مثله) يعنى أن بلالاً ذكر مثله لفظًا ومعنى، وإن اختلف مرادهما، فإن مراد هذا القائل لقاء النبى وأصحابه فى الحياة الدنيا، وبلال رضى الله تعالى عنه،

أراد لقاءهم فى الآخرة، ثم إنه يحتمل أنه توارد معهم فى هذا الكلام وأنه تمثل به.

(ومثله) أى المذكور وإن لم يساوه **(ما قاله عمار)** بن ياسر الصحابى **(حين قتل)** أى قتله أهل الشام الذين كانوا مع معاوية: أى لما قتل بصفين مع على، رضى الله تعالى عنه، سنة ست وثلاثين، فيما رواه ابن سلمة قال: كأنى أنظر إلى عمار يوم صفين، وقد استسقى فأتته امرأة بشربة من لبن فشربها، ثم قال: اليوم ألقى الأحبة إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، عهد إلى أن آخر شربة أشربها من الدنيا شربة لبن، ثم قاتل حتى قتل، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «تقتل عمارًا الفئة الباغية»(١) كما تقدم، ومنه علم أن عليًا، كرم الله وجهه، كان على الحق.

(و) مثله أيضًا **(ما ذكرناه من قصة خالد بن معدان)** التى تقدمت من أنه كان إذا آوى إلى فراشه لا يزال يذكر شوقه إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وأصحابه حتى يغلب عليه النوم، وليس هذا من تمنى الموت المنهى عنه، فإن من أحب الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، وتمنى الموت لأجل لقائه والاستراحة من الدنيا وغمها ليس من هذا كما قال فى الفتوحات، ومن هذا ما تقدم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لما خير بين البقاء فى الدنيا والانتقال للآخرة قال: اللهم الرفيق الأعلى.

واعلم أن تحقيق هذا المقام ما قاله الحكيم الترمذى فى فروقه أن تمنى الموت على ثلاثة أقسام:

الأول: تمنى عبد اقترب إلى ربه فى منازل القرب لما تطهر من أدناس الشهوة وكدورة الأخلاق، فكلما اقترب ازداد شوقًا فتمنى الموت.

الثانى: عبد رأى نعمة الله عليه فى دينه شاملة لكل خير، فخاف زوالها لما رأى من نفس خادعة وعدو لا يألوه خبالاً، فتمنى الموت رجاء أن يحرز ذلك لنفسه فى لحده، فهذان محمودان وردا عن الصحابة كسلمان، رضى الله تعالى عنه، إذ قال: أحب الموت اشتياقًا، وقال ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه: أحب الموت لأنى لا أدرى ما ينزل بى، فأخاف على دينى، والأول قول صديق، والثانى قول صادق، والحظ لصاحبه فيهما.

والثالث: عبد تربى فى رفاهية عيش وثقلنعمة، ثم انقلب الزمان عليه وعضته النوائب، فقل صبره وتمنى الموت، وهذا مذموم، ولذا جاء فى الحديث: «لا يتمنى

---

(١) أخرجه مسلم فى الفتن (٧٣)، وأحمد (٥/٢١٤، ٢١٥)، والحاكم (٢/١٥٥، ٣٨٧)، والطبرانى فى الكبير (٤/٩٨، ٢٠٠)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/٥٤٩)، وابن أبى شيبة (١٥/٣٠٢).

أحدكم الموت لضر نزل به»[١]، وأما تمنى مريم، رضى الله تعالى عنها، الموت وقولها: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ [مريم: ٢٣]، إلخ، فلخير مضى، ولذا لم تقل الآن فهو لأمر دينى رجاء أن لا يزول لما رأت فتنا تموج، وذلك لما اتهموا زكريا وهموا بقتله، فجاءها النداء والبشرى، فصدقت بكلمات ربها وسميت صديقة، انتهى.

إذا علمت هذا فقول السخاوى كغيره تمنى الموت منهى عنه، ولذا جاء فى الحديث الصحيح: «فإن كان ولابد فاعلاً فليقل: اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى»[٢]، انتهى بإطلاقه ليس كما ينبغى، والتحقيق ما عرفت.

(ومن علاماته) أى علامة حب الله ورسوله، فالضمير راجع للمحبة لتأويلها بالحب، وليس راجعًا للقاء المحب حبيبه، وإن كان أقرب وغير محتاج للتأويل كما قيل **(مع كثرة ذكره)** له صلى الله تعالى عليه وسلم، **(تعظيمه له وتوقيره)** حق توقيره **(عند ذكره)** له **(وإظهار الخشوع)** أى الخضوع **(والانكسار)** أى التذلل والتواضع **(مع سماع اسمه)** أى إذا ذكر غيره لاسمه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وقال إسحاق التجيبى) هو إمام المحدثين أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم التجيبى، توفى لثمان بقين من ذى القعدة سنة اثنين وخمسين وثلاثمائة، وهو منسوب لقبيلة من كندة تسمى تجيب، واختلف فى تائه هل هى أصلية أم زائدة، وضمها المحدثون وكثير من الأدباء، وفتحها غيرهم قال فى القاموس: تجيب بالضم وتفتح بطن من كندة، منهم كنانة بن بشر التجيبى، وتجوب بالواو قبيلة من حمير منهم ابن ملجم التجوبى قاتل على، رضى الله تعالى عنه، وغلط الجوهرى وحرف بيت الوليد بن عقبة[٣]:

ألا إن خير الناس بعد ثلاثة ... قتيل التجيبى الذى جاء من مصر

انتهى يعنى أنه أنشده التجيبى، وإنما هو التجوبى كما فى كامل المبرد، واعلم أن بعضهم زعم أن تاءه أصلية؛ لأنه فى العين ذكره فى فصل التاء، وتبعه صاحب القاموس، وهى زائدة كما قاله ابن السيد، وجوز فى تائه الوجهين أى الفتح والضم، وقال النووى فى شرح مسلم: إن التاء زائدة؛ لأنه من جاب يجوب.

---

(١) أخرجه البخارى (٩/١٠٤)، وأحمد (٣/١٠١)، والنسائى (٤/٣)، وابن ماجه (٤٢٦٥)، والطبرانى فى الكبير (٤/٧٤، ١٨/٣٦)، وابن أبى شيبة (١٠/٤٣٧).

(٢) أخرجه البخارى (٧/١٥٦، ٨/٩٤)، وأبو داود (٣١٠٨)، وابن ماجه (٤٢٦٥)، وأحمد (٣/١٠٤، ١٧١، ١٩٥، ٢٠٨، ٢٤٧).

(٣) البيت من الطويل، وهو للوليد بن عقبة فى ديوانه (ص٦٢)، لسان العرب (١/٢٨٧)، تاج العروس (٢/٥٩)، التنبيه والإيضاح (١/٥٦).

(**كان أصحاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعده**) أى بعد وفاته (**لا يذكرونه إلا خشعوا**) أى أظهروا الخشوع والتذلل، (**واقشعرت جلودهم**)، أى عرض لها قشعريرة، (**وبكوا**) حزنًا لفراقه وشوقًا للقائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**وكذلك**) أى ومثل الصحابة فيما ذكر (**كثير من التابعين**) لهم بإحسان يفعلون كفعلهم، (**منهم من يفعل ذلك**) أى من المذكورين كلهم الصحابة والتابعين، أو من التابعين من يبكى ويخشع ويقشعر جلده (**محبة له وشوقًا إليه**) تمييز أو مفعول له أى من محبته وشوقه، أو لأجلهما، (**ومنهم من يفعله تهيبًا وتوقيرًا**) أى لمهابته صلى الله تعالى عليه وسلم، فى أنفسهم وإجلاله وتكريمه، (**ومنها**) أى من علامات محبته صلى الله تعالى عليه وسلم، (**محبته**) أى محبة الإنسان (**لمن أحب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم**)، بالرفع والعائد محذوف أى أحبه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم.

(**و**) محبة (**من هو بسببه**) الباء للملابسة أى تلبس بسبب من أسبابه، وكان بينه وبينه علامة بقرابة أو صهارة، وقال فى النهاية: السبب الزواج وأصله الحبل الذى يتوصل به لسقى الماء، فاستعير لكل ما يتوصل به قال الله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، أى الوصل والمودات.

(**نكتة**) إنما خص ابن الأثير السبب هنا بالزواج، وإن كان عامًا؛ لأن الزواج لمناسبة الماء المخصص فى المستعار؛ لأنه يطلق على المنى كما فى الحديث: «إنما الماء من الماء»، وفى قوله: «تقطعت» فى الآية لطف خفى، وقوله: (**من أهل بيته**) إلى آخره بيان لمن أحبه، ومن هو بسببه، ويجوز أن يكون بيانًا لمن هو بسببه بناء على عمومه، وفى نسخة من آل بيته وفيهم خلاف، والمشهور عند الشافعى أنهم المؤمنون من بنى هاشم وبنى المطلب ابنى عبد مناف، لا بنى عبد شمس وبنى نوفل ابنى عبد مناف؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، أشرك الأولين فى خمس الخمس الذى هو سهم ذوى القربى دون هؤلاء، وقال: إنهم والفونا فى الجاهلية والإسلام، (**وصحابته**) بفتح الصاد جمع أو اسم جمع صحابى وهو فى الأصل مصدر، وهو كل مسلم لقى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد بعثته ومات على ذلك، فإن تخللت ردة ولم تدم لم يضروهم لا يحصون كثرة، وقد روى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قبض عن مائة وأربعة وعشرين ألفًا، والله تعالى أعلم.

(**والمهاجرين**) هو من هاجر وترك وطنه لله ورسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيدخل فيه مهاجروا المدينة والحبشة، وقدمهم لأنهم أفضل.

(**والأنصار**) جمع ناصر أو نصير غلب على الأوس والخزرج، وكذا نسب إليه وقيل:

أنصارى، وهو تخصيص بعد تعميم؛ لأنهم أفضل من غيرهم، وفى نسخة من المهاجرين والأنصار، والظاهر أنه عبارة عن جميع الصحابة ليشمل من مات قبل الهجرة كخديجة، رضى الله تعالى عنها، وقيل: إنهم فى حكم المهاجرين؛ لأنهم السابقون بإحسان قبل غيرهم فتأمله.

(وعداوة من عاداهم) أى من علامات المحبة لهم عداوة من عاداهم ظلمًا وبغيًا كالخوارج، فلا يدخل فيه ما وقع بين الصحابة ظاهرًا، **(وبغض من أبغضهم)** أى كرههم وقلاهم، **(وسبهم)** وأظهر شتمهم كالروافض قاتلهم الله، **(فإن من أحب شيئًا أحب من يحبه)** وكره من يكرهه كما قيل، وقد تقدم:

إذا صافى صديقك من تعادى فقد عاداك وانفصل الكلام

(وقد قال عليه الصلاة والسلام، فى الحسن والحسين) أى فى حقهما وشأنهما كما رواه البخارى: **(اللهم)** أى يا الله ناداه بيانًا لتحقق حبه وعلم الله به، وتوطئة لما طلب منه **(إنى أحبهما فأحبهما)** أى أعطهما كل خير دنيوى وأخروى كما سيأتى فى بيان محبة الله، وهذا بلفظه وقع فى رواية الترمذى فى حديث قال: إنه حسن صحيح، والذى فى الصحيحين ذكر فيه أسامة والحسن، وفيه روايات مختلفة، وليس هذا محل تفصيلها وإليه أشار المصنف، رحمه الله تعالى بقوله: **(وفى رواية فى الحسن)** وحده، وليس المراد التخصيص: **(اللهم إنى أحبه فأحب من يحبه، وقال)** صلى الله تعالى عليه وسلم، فى رواية أخرى: **(من أحبهما)** أى الحسن والحسين **(فقد أحبنى ومن أحبنى فقد أحب الله)** لعلمه بالطريق الأولى، **(ومن أبغضهما فقد أبغضنى ومن أبغضنى فقد أبغض الله، وقال)** صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه الترمذى وغيره: **(الله الله)** بنصبهما بمقدر كاتقوا الله واحذروه واخشوه، وفى تكريره تخفيف وتحذير على وجه المبالغة **(فى أصحابى)** أى فى شأنهم وحقهم فاحذروا تنقيصهم ونسبتهم لما لا يليق بهم والطعن فيهم، ثم بين ذلك بقوله: **(لا تتخذوهم غرضًا بعدى)** بغين معجمة وراء مهملة مفتوحتين وضاد معجمة، وهو الهدف الذى يرمى بالسهام، فهو استعارة أو تشبيه بليغ على القول فى مثله كما بين فى المعانى أى لا تقصدوا ذكرهم بسوء ولا تبحثوا عما وقع منهم، ولذا منع السلف منه، **(فمن أحبهم فبحبى أحبهم)** أى بسبب حبى لهم ويلزم من المحبة لهم أن لا يذكروا بسوء، **(ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم)**، ولذا ذهب بعض المالكية كما سيأتى إلى قتل من سبهم؛ لأنه كسبه صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ومن آذاهم)** بذكر ما يسوءهم، **(فقد آذانى)** لأنه لا يسوءه ذلك، **(ومن آذانى فقد آذى الله)** أى عصاه وفعل ما لا يرضاه وهو المراد بأذية الله، **(ومن آذى الله يوشك أن يأخذه)** أى يهلكه سريعًا ولا يمهله،

فيأخذه أخذ عزيز مقتدر، وفى النهاية يوشك أن يكون كذا أى يقرب ويسرع.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى فاطمة)**، رضى الله تعالى عنها، أى فى حقها وشأنها، وفى حديث رواه البخارى وغيره **(إنها بضعة)** بفتح الباء وكسرها أى قطعة وجزء **(منى)** لأن الولد حاصل من أبيه وقطعة من كبده **(يغضبنى ما أغضبها)** أى يسوءنى ويؤذينى كل ما آذاها؛ لأن ألم الجزء يتألم به الكل، فهو كالدليل لما قبله وسبب الحديث أن عليًا، كرم الله وجهه، خطب بنتًا لأبى جهل، فسمعت بذلك فاطمة، رضى الله تعالى عنها، فأتت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا على ناكح بنت أبى جهل، فقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فتشهد، وقال: «أما بعد، فإن فاطمة بضعة منى وإنى أكره أن يسوءها، والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد»[1]، فترك على ذلك، والحديث وتفسيره مفصل فى كتب الحديث.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الترمذى عن عائشة وحسنه **(لعائشة فى أسامة بن زيد)** فى حقه وشأنه **(أحبيه فإنى أحبه)**، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم: أسامة بن زيد أحب الناس إلى فاستوصوا به خيرًا، ولذا أمر عائشة أن تستوصى به خيرًا بعده، وهذا مما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم، من المغيبات.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم فيما رواه الشيخان **(آية الإيمان)** أى علامة تحققه وصدقه وكماله **(حب الأنصار)** لمحبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، لهم ومحبتهم له؛ ولأنهم نصروا الدين وساعدوا المؤمنين من الصحابة وواسوهم بما هو معلوم، **(وآية النفاق)** المنافى لتحقيق الإيمان **(بغضهم)**، وصحف بعضهم الحديث، فقال: إنه بالهمزة المكسورة والنون المشددة وضمير الشأن وهو سهو ظاهر.

(وفى حديث ابن عمر) كما أخرجه البيهقى فى دلائله **(من أحب العرب)** والمراد بهم هؤلاء الجيل المعروفون مطلقًا، **(فبحبى)** أى بسبب حبى **(أحبهم ومن أبغضهم)** من حيث ذواتهم لا لسبب آخر يكون لبغض منهم: **(فببغضى أبغضهم)**، وفى حديث رواه الترمذى عن سلمان أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: أو لا تبغضنى فتفارق دينك؟ قال: كيف أبغضك وبك هدانا الله؟ قال: تبغض العرب فتبغضنى، وفى شعب الإيمان للحليمى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «إن الله عز وجل خلق الخلق فاختار منهم بنى آدم، واختار من بنى آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من

---

(١) أخرجه البخارى (١٠٢/٤، ٢٨/٥)، ومسلم فى فضائل الصحابة (٩٥، ٩٦)، والترمذى (٣٧٤).

مضر قريشًا، واختار من قريش بنى هاشم، فأنا خيار من خيار فمن أحب العرب، فبحبى أحبهم ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم»[١]، ولذا قيل: إطلاق اللسان بالوقيعة فيهم كالشعوبية أذية الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وقد فصل ذلك العراقى فى تأليف له مستقل سماه أنفع القرب فى بيان فضل العرب.

(**قال المؤلف، رحمه الله تعالى: فبالحقيقة**) أى بسبب النظر للحقيقة ونفس الأمر المحقق عند العقول السليمة (**من أحب شيئًا**) من الأشياء (**أحب كل شىء يحبه**) محبوبه، (**وهذه سيرة السلف**) أى دأبهم وطريقتهم فى محبتهم كل ما كان يحبه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، (**حتى المباحات**) أى كانوا يحبون ما أحبه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، من الأمور المباحة، (**وشهوات النفس**) أى فيتبعونه صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما يتعلق بشهوة النفس والطبيعة البشرية كمحبة الطيب، وبعض الأطعمة والزوجات وغير ذلك، واستشهد لذلك بقوله: (**وقد قال أنس، رضى الله تعالى عنه، أنه رأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، يتتبع الدباء**) بضم الدال المهملة وتشديد الموحدة والمد والهمزة فى آخره للإلحاق، والواحدة دباءة وهى نوع من المأكول معروف عند الناس بالقرع، ومعنى تتبعها أنه يأخذ قطع القرع من أى محل وجدت فيه.

فإن قلت: أكل إنسان مما يليه مستحب، وأكله من غيره مكروه، لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «كل مما يليك»[٢]، لمن رآه يجيل يده فى الطعام إلا فى الفواكه فإنه لا يكره فيها ذلك لعدم الاستكراه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠، ٢١].

قلت: قالوا: إنه إذا كان الآكل مما يتبرك به لا يكره فى حقه ذلك لاسيما النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، قيل: هو مخصوص باللون الواحد، وهذا كان معه قديد، وقيل: إنه صنع له صلى الله تعالى عليه وسلم، وحده، فله أن يفعل فيه ما يريد لعلمه برضا صاحبه، وقيل: هو مخصوص بمن لم يواكله أتباعه وخدمه، واعلم أن القرع معروف وأما الدباء بالمد كما مر، وجوز بعضهم قصره وأنكره القرطبى، فقيل: هو والقرع بمعنى واحد، وقيل: هو المستدير منه، وقيل: هو اليابس منه، وقال ابن حجر: إنه سهو من النووى وهو اليقطين، وهمزته زائدة، ولذا ذكره فى باب دبب، وخطأ صاحب القاموس

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخارى (٨٨/٧)، ومسلم فى الأشربة (١٠٨)، وأحمد (٢٦/٤)، والطبرانى فى الكبير (١٢/٩، ١٣، ١٤)، والترمذى فى الشمائل (٩٧).

الجوهرى فى ذكره فى المعتل فى مادة د ب ى، فقال: هو وهم وليست همزته منقلبة عن واو ولا ياء.

أقول: أخطأ من خطأه ومن تبعه هنا لأن الزمخشرى ذكره فى المعتل أيضًا، ووجهه الهمزة للإلحاق كما ذكروه، فهى فى حكم الأصلية كما حرروه فى باب الإلحاق.

(من حوالى القصعة) بفتح القاف إناء معروف، وحوالى مثنى حوال بمعنى حول وجانب والتثنية لمجرد التعدد والتكرار كـ﴿ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤]، وهو بفتح الحاء واللام ويجوز كسر لامه وياء تثنية ساكنة، وفيه لغات مذكورة فى كتب اللغة، **(فما زلت)** هذا مقول أنس فتاؤه مضمومة **(أحب الدباء)** أى أحب أكلها تبركًا بها **(من يومئذ)** أى من يوم إذ رآه يتتبعها، ويحبها لحب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، لها، وهذا من علامات صدق محبته، وهو شاهد لاتباعهم له فى المباحات وما تشتهيه الأنفس.

وهذا الحديث أخرجه الشيخان، وكان الذى دعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، لذلك خياطًا صنع لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، طعامًا من الدباء، ودعاه له فذهب معه أنس، وقال ابن حجر: إنه لم يقف على اسم هذا الخياط.

(وهذا الحسن بن على) بن أبى طالب، وكان الظاهر أن يقول وأتى الحسن وابن عباس إلى آخره، فعدل عنه لأنه لشهرته كالمشاهد، **(وابن عباس وابن جعفر أتوا سلمى)** بفتح السين وهى زوجة أبى رافع ومولاة صفية عمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: مولاته صلى الله تعالى عليه وسلم، وداية فاطمة الزاهراء، وهى التى غسلتها لما ماتت، وقابلة إبراهيم ابن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وهى صحابية مشهورة، وفى الصحابة سلمى غيرها خمس عشرة امرأة، **(وسألوها أن تصنع لهم طعامًا)** أى تطبخه وتحضره لهم **(مما كان يعجب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وإنما سألوها ذلك؛ لأنها كانت تخدمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتعرف مأكوله ومشروبه، والعجب عندهم حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشىء، وهذه الحالة تكون كثيرًا مع الاستحسان، فيلزمها الميل والمحبة، فأريد به لازمه وهو المحبة، وفيه دليل على محبة ما يحبه صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو المراد، وهذا رواه الترمذى فى الشمائل وابن جعفر هذا هو عبد الله بن جعفر بن أبى طالب الطيار ذو الجناحين الصحابى ابن الصحابى، وتتمة الحديث مما كان يعجب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ويحسن أكله، فقالت: إنا لا نشتهيه اليوم، فقالوا: بل اصنعيه لنا فقامت وطبخت شيئًا من شعير، وجعلته فى قدر وصبت عليه شيئًا من زيت وفلفل وتوابل وقربته إليهم.

(وكان ابن عمر) عبد الله الصحابى ابن الصحابى، رضى الله تعالى عنهما، فى حديث رواه الشيخان **(يلبس النعال)** جمع نعل، وهو كل ما وقيت به الرجل وهى مؤنثة **(السبتية)** بكسر السين المهملة وسكون الموحدة وتاء مثناة فوقية وياء نسبة إلى السبت، وهو جلد دبغ وأزيل شعره من سبته إذا قطعه لإزالة شعره، وكانوا فى الجاهلية لا يلبس النعال المدبوغة منهم إلا أهل السعة والجاه، وهى منسوبة لمحل يسمى سوق السبت كما قاله ابن قرقول، وقيل: إنه يجوز فتح أوله أيضًا، ويقال: إنها نعال سود.

(ويصبغ بالصفرة)، وهو كل ما يصفر الشعر وغيره كالحناء والكتم ويصبغ مثلث الموحدة، وفيه تسمح لأنه لا يصبغ بنفس الصفرة، وإنما هو يصبغ أصفر، والمراد أنه يصبغ ثيابه بشىء أصفر كالزعفران، ونقل عن مالك جواز لبسه وما ورد من النهى عنه ليس نهيا تحريميًا، وإنما نهى عنه المحرم فى الحج وعممه بعضهم، ويدل على الجواز ما روى عن ابن جعفر أنه قال: رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وعليه ثوبان مصبوغان بالزعفران كما رواه الحاكم، والطبرانى وغيرهما، وكذا أحاديث كثيرة صحيحة تدل على جوازه أيضًا وقوله: **(إذ رأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، يفعل نحو ذلك)** تعليل لفعله ومحبته لما أحبه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وذلك إشارة إلى الصبغ، أو له وللبس النعال، وهو أنسب بإشارة البعيد، وهذا استشهاد للاقتداء به صلى الله تعالى عليه وسلم، فى المباحات بالنسبة إليه، وإن اختلف فى الاقتداء به فى مثله، هل هو مباح فى حق المقتدى به أم لا؟ كذهابه فى العيد من طريق وعوده من أخرى، ورجحوا الندب لمن نوى الاقتداء به، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو الظاهر.

(ومنها) أى من علامات محبته صلى الله تعالى عليه وسلم **(بغض من أبغض الله ورسوله)** بغض الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ظاهر من مثل أبى جهل، وبغض الله تعالى إما ببغض رسوله أو بكفره أو بإنكاره كالمعطلة والدهرية.

(ومعاداة من عاداه) أى من يتخذ الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، عدوًا و لم يقل من عاداهما؛ لأن معاداة الله تعالى إنما هى بمعاداة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن عداوته تعالى حقيقة تتصور، **(ومجانبة من خالف سنته)** أى اجتناب من لم يتبع طريقته والبعد عنه، **(وابتدع فى دينه)** أى أظهر البدع وخالف الشريعة وهو عطف تفسيرى لما قبله، **(واستثقال كل من يخالف شريعته)** أى عده ثقيلاً منفورًا عنه غيره مقبول، وأصل الثقل فى الأجسام ضد الخفة، وفى نسخة كل أمر، ثم ذكر ما بينه من الكتاب العزيز فقال: **(قال الله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾)** [المجادلة: ٢٢]، أى لا يكون كذا حتى تجدهم، فإنه لا ينبغى أن يكون وهو مبالغة فى النهى ﴿يُوَآدُّونَ﴾

أى يكون بينهم وبينهم مودة ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أى يخالفونه ويعارضونه، **(وهؤلاء أصحابه، رضى الله تعالى عنهم)**، أى مما علم من حال أصحابه حتى كأنهم يشاهدون متلبسين به **(قد قتلوا أحباءهم)** أى أصدقاءهم قبل الإسلام، وقد وقع هذا لكثير من الصحابة، وروى قلوا، أى أبغضوهم، وأبعدوهم قال الله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣].

(وقاتلوا آباءهم وأبناءهم) الذين بقوا على الكفر **(فى مرضاته)** فى تعليلية، والمرضاة مصدر ميمى بمعنى الرضا كأبى عبيدة بن الجراح قتل أباه ببدر، وعمر رضى الله تعالى عنه، قتل خاله العاص، ومصعب بن عمير، رضى الله تعالى عنه، قتل أخاه ونحوه مما هو مذكور فى السير.

(وقال له) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(عبد الله)**، رضى الله تعالى عنه، **(ابن عبد الله ابن أبى)** ابن سلول رأس المنافقين، وابنه عبد الله هذا كان من الصحابة المخلصين فى محبة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(لو شئت)** خطاب لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لأتيتك برأسه يعنى أباه)** عبد الله بن سلول، أى قتلته وأتيت برأسه لك، وكان ابن سلول رئيس أهل يثرب قبل الهجرة، فلما هاجر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وظهر الإسلام بطلت رياسته، فكان لحرصه على الدنيا يكره الإسلام ويظهر النفاق، وهو الذى نزل فى حقه سورة المنافقين، وأما ابنه عبد الله فكان من خيار الصحابة الصادقين كما علم غير مرة، فلما ظهر من أبيه ما ظهر قال: يا رسول الله أسألك بالله إلا ما أذنت لى فى قتل أبى، فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: بل ترفق به وتحسن إليه، وهذا مما رواه البخارى.

(ومنها) أى من علامات محبته صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أن يحب القرآن الذى أتى به)** للناس من عند ربه عز وجل، **(وهدى به)** الخلق كلهم لسعادة الدارين، **(واهتدى)** هو أى وصل إلى الله به، **(وتخلق به)** أى اتخذه خلقًا له يعمل بكل ما فيه **(حتى قالت عائشة)**، رضى الله تعالى عنها، وقد سئلت عن خلقه صلى الله تعالى عليه وسلم: **(كان** رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، **(خلقه القرآن)** أى كان دأبه التمسك به، والتأدب بآدابه والعمل بما فيه من مكارم الأخلاق، فجعلت القرآن نفس خلقه مبالغة فى شدة تمسكه به، وأنه صار سجية له وطبيعة كأنه طبع عليها، فتخلق بمعنى أظهر الخلق كتجمل بمعنى أظهر الجمال، كما فى كامل المبرد، رحمه الله تعالى، وقد يكون التخلق للتكلف كما فى قوله[1]:

---

(١) البيت من البسيط، وهو لسالم بن وابصة فى لسان العرب (٨٧/١٠)، تاج العروس (٢٦١/٢٥)، شرح ديوان الحماسة للمرزوقى (ص٧١٠).

يا أيهـا المتحلـى غيـر شيمتـه إن التخلـق يأتـى دونـه الخلـق

وليس بمراد هنا.

(وحبه للقرآن تلاوته) أى كثرة تلاوته له على الوجه المرضى فيها عند أهل الأداء، وليس المراد مطلق القراءة، **(والعمل به)** أى بما فيه من الأحكام والمواعظ، **(وتفهمه)** أى التقيد بفهم معانيه وجعل هذا عين الحب لتسببه عنه.

(و) من العلامات لمحبته صلى الله تعالى عليه وسلم، أيضًا أن **(يحب سنته)** أى طريقه وهديه بالاقتداء به قولاً وفعلاً، ويجوز أن يريد بسنته أحاديثه المروية عنه بقرينة جعلها قرينة للقرآن، وكثيرًا ما تطلق عليه، **(ويقف عند حدودها)** أى لا يتعداها، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وحدود الله محارمه وأحكامه من الحد، وهو المنع والفصل ومنه حدود الدار، واستعير الحد لما ذكر فالوقوف فيه ترشيح مليح.

(قال سهل بن عبد الله) التسترى وقد تقدم: **(علامة حب الله)** أى أمارته ودليله **(حب القرآن)**، وقد تقدم بيانه، **(وعلامة حب القرآن حب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** فإن من أحب الله تعالى أحب حبيبه وكلامه.

(وعلامة حب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، حب السنة) فإن من أحبه لا يخالفه ولا يعصيه.

(وعلامة حب السنة حب الآخرة)؛ لأن من أحبه واتبعه أحب لقائه، ورغب فى الآخرة كما مر.

(وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا) والزهد فيها؛ لأنهما ضرتان لا يجتمعان فى قلب مؤمن، وبغضها لا يقتضى التبذير والإسراف كما توهم، وإنما هو كما قيل: اللهم اجعلها فى أيدينا ولا تجعلها فى قلوبنا.

(وعلامة بغض الدنيا أن لا يدخر) ويقتنى **(منها إلا زادا)** أى مقدارًا يتزود به ويتقوت ولا يختبئ منها ما لا حاجة له به كما قيل:

يكفيـك ممـا تبتغيه القـوت مـا أكثر القـوت لمـن يمـوت

(وبلغة) بضم فسكون أى ما يبلغه به **(إلى)** الدار **(الآخرة)** كالمسافر يحمل من الزاد ما يبلغه لقصده ومنزله، فإنما الدنيا دار سفر لا دار مقر:

وإنا لفى الدنيا كركـب سفينـة نظن وقوفًا والزمـان بنـا يسـرى

(وعن ابن مسعود) فى حديث رواه البيهقى فى الأدب وابن الضريس فى فضائل القرآن، وفى نسخة: وقال ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه: **(لا يسأل أحد)** من غيره

(عن نفسه) أى عن أحوال نفسه فى محبتها لله ورسوله **(إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله ورسوله)**، فإذا أراد أن يعرف حاله ينظر فى ذلك، فيستدل به حتى كأنه سأله وأجابه ببيان حاله، فإذا استلذ بتلاوته وسماعه علم حاله، وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهى غاية مطلوبه كما قيل:

إن كنت تزعم حبى فلم هجرت كتابى
أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابى

(ومن علامات محبته للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، شفقته على أمته) بأن يحبهم ويتلطف بهم ويرقق قلبه عليهم، **(ونصحه لهم)** ببيان ما يصلحهم من أمورهم، **(وسعيه فى مصالحهم)** بشفاعته ومعاونته وقضاء حوائجهم، **(ورفع المضار عنهم)** بدفع المظالم وإزالة مضايقتهم، **(كما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، بالمؤمنين)** منا ومن غيرنا لا بغيرهم **(رؤوفا)** شفوقا **(رحيمًا)** منعمًا متفضلاً عليهم، كما وصفه الله تعالى به فى كتابه العزيز، فعلينا الاقتداء به والتخلق بأخلاقه.

(ومن تمام محبته) أى كمالها وأقصى مراتبها التى لا تتم إلا بها **(زهد مدعيها)** أى المحبة **(فى الدنيا)** وأمورها وزخرفها، **(وإيثاره الفقر)** أى اختياره وتقديمه على الغنا وسعة الدنيا، **(واتصافه به)** أى جعله شعارًا وصفة له تواضعًا وزهدًا.

(وقد قال، عليه الصلاة والسلام، لأبى سعيد الخدرى، رضى الله تعالى عنه) تقدمت ترجمته: **(إن الفقر إلى من يحبنى منكم)** معاشر المسلمين أو الصحابة **(أسرع)** أى يصل إليكم بسرعة أقوى **(من)** سرعة **(السيل)** إذا انحدر ونزل **(من أعلى الوادى)**، وهو الموضع الذى يسيل فيه الماء من ودى بمعنى سال، ويسمى لفرجة بين جبلين واديًا، ويستعار للطريقة والمذهب كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٥]، **(أو من الجبل إلى أسفله)**، والماء النازل من علو لسفل فى غاية السرعة، فضربه مثلاً لسرعة افتقارهم، وإلى متعلق باسم التفضيل، وضمير أسفله لأحد الأمرين من الوادى أو الجبل، وأفرد لأنه بعد شيئين عطف بأو هذا بعض من الحديث الذى بعده وقد رواه الترمذى وحسنه.

(وفى حديث عبد الله بن مغفل) بضم الميم وفتح الغين المعجمة وتشديد الفاء المفتوحة ولام، وهو صحابى مزنى من أصحاب الشجرة أخرج له الستة وغيرهم وتوفى سنة ستين **(قال رجل)** من الصحابة و لم يسموه **(للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: يا رسول الله إنى أحبك، فقال: انظر ما تقول)** أى تفكر فيه وتأمل، فإن محبتى أمر عظيم من اختارها صادقًا مخلصًا ينبغى أن لا يحب أمرًا من أمور الدنيا، وهو أمر صعب **(قال: والله**

إني أحبك) أكده بالقسم لما رأى في قوله صلى الله تعالى عليه وسلم، له المشعر بالتردد فيه، وزاد أن كرره **(ثلاث مرات)** ليزيل الشبهة.

(قال) له صلى الله تعالى عليه وسلم: **(إن كنت تحبني)** حبًا خالصًا صادقًا لا تؤثر عليه شيئًا، **(فأعد)** أي أحضر وهيأ **(للفقر تجفافًا)** بكسر المثناة الفوقية وسكون الجيم وفائين بينهما ألف وتاؤه مزيدة، من جف إذا يبس، وهي شيء يوضع على الخيل ليقيها في الحرب الأذى كالدرع للإنسان، وقد يلبسه الناس وجمعه تجافيف أي أعد له عدة تقيك من أذى الفقر، فإن النفوس لا تتحمله يعني الصبر عليه ورياضة النفس في تحمله، فشبه الفقر بجواد محسن بما يقيه لإيصاله إلى السعادة، أو شبه صاحبه بجواد والفقر بالمحاربة لمجاهدة النفس به، وفيه إيماء إلى أن من أحبه صلى الله تعالى عليه وسلم، يبتلى بالفقر، وكأنه فقر اختياري يزهده في الدنيا، وقد اختلف في الفقر والغني، وفي الفقير الصابر والغني الشاكر أيهما أفضل؟ وظاهر هذا الحديث والكلام عليه مفصل في كتب المشايخ وغيرها، وقدمنا منه ما فيه الكفاية، وروى جلبابًا بدل تجفافًا.

(ثم ذكر) أي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد هذا الكلام الذي قاله للرجل المذكور **(نحو حديث أبي سعيد)** الخدري أي ما يشبهه **(بمعناه)** يعني قوله في الحديث الذي سبق: «للفقر أسرع إلى ما يحبني من السيل إلى مقره ومنتهاه»، تشبيهًا له بالسيل، وإشارة إلى تلاحق النوائب به سريعًا حتى لا يخلص منها فليستعد لها.

(فصل في معنى المحبة للنبي ﷺ وحقيقتها)

أي المعنى الذي وضعه لها واضع اللغة وعين لفظه **(اختلف الناس)** المراد بهم علماء السلف والخلف، وسبب اختلافهم أن المحبة التي تعارفها الناس كما سنبينه بحسب الظاهر لا تليق بالله ورسوله **(في تفسير محبة الله ومحبة النبي)** أي في بيان المراد بهما، **(وكثرت عباراتهم في ذلك)** التفسير، **(وليست ترجع بالحقيقة)** أي ليس مآلها إن نظر إلى نفس الأمر المحقق في الواقع **(إلى اختلاف مقال)** أي اختلافًا لفظيًا، والمعنى واحد، **(ولكنها اختلاف أحوال)** أي سبب اختلافهم اختلاف حال المحب، وحال المحبة قوة وضعفًا، فكل نظر إلى حال من أحوالها، وفسرها بتفسير يناسبه فليس اختلافًا حقيقيًا ولا لفظيًا، فإنما هو باعتبار المحبوب والمحب وحالاتهما حتى أنكر بعضهم إمكان محبة الله تعالى حقيقة كما في الإحياء، وقال: لا معنى لها إلا المواظبة على طاعته، وقال القشيري: هي حالة للقلب تلطف عن العبارة تحمل على التعظيم وإيثار رضاه، واشتقاقها قيل: من حبب الأسنان وبياضها لصفاء مورده، وقيل: من الحباب الذي يعلو الماء إذا انصب وتحرك لفورانها في القلب، وقيل: من أحب البعير إذا برك لثبات القلب عليها، وهو اشتقاق

بعيد، وحقيقتها ميل النفس ميلاً كليًا لما يدعوه لمحبوبه من رائق جمال أو فائق كمال أو فائض إحسان وإفضال.

(فقال سفيان): يحتمل سفيان بن عيينة، وسفيان الثورى قيل: والظاهر أنه الثورى لطول باعه فى علوم القوم وعلو رتبته فى العلم الظاهر أيضًا، فإنه كان مجتهدًا وصاحب مذهب مستقل فى عزة **(المحبة)** يعنى محبة الله تعالى بدليل الآية استدل بها **(اتباع الرسول)** صلى الله تعالى عليه وسلم، فى أقواله وأفعاله، وكل ما جاء به عن الله؛ لأن من أحب الله لا يعصيه فيما أمره به، وإنما يعلم أوامره ونواهيه منه، فهو تفسير لها بلازمها ولما كان فى هذا خفاء قال: **(كأنه)** أى سفيان **(التفت)** أى نظر فى تفسيره هذا **(إلى قوله تعالى)** واستنبط منه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فإنه أقام اتباعه مقام محبته إذ لم يذكر محبتهم وذكر محبته وهى لا تكون إلا لمن أحبه، والآية نزلت فى اليهود لما قالوا: **(نحن أبناء الله وأحباؤه)** فأرشدهم إلى ما يحقق مدعاهم، فإن حقيقة المحبة ميل النفس إلى شىء أدرك منه كمالاً يحمله على ما يقربه إليه، والكمال الحقيقى ليس إلا لله، وكل كمال فى غيره فهو منه، فحبه يقتضى طاعته والرغبة فيما يقرب إليه، وليس ذلك إلا بطاعته، وطاعته لا تقبل إلا باتباعه صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وقال بعضهم) فى معنى **(محبة الرسول)** صلى الله تعالى عليه وسلم: إنها **(اعتقاد)** لزوم **(نصرته)** بالمجاهدة لينصره ويعلى كلمته، **(والذب)** بالمعجمة أى المنع والطرد **(عن سنته)** أى طريقته وشريعته برد ما يخالفها ودفع الشبهة الموردة عليها، وتصحيح أحاديثه وتفسيرها وبيانها، **(والانقياد لها)** بأن لا يخالفها ويعمل بها، **(وهيبة مخالفته)** أى الخوف من مخالفته مع تعظيمه وإجلاله، وفى نسخة مخالفتها أى السنة وفى النسخة الأولى الضمير للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وقال بعضهم) فى تفسير مطلق **(المحبة)**، ويحتمل أنه بيان لمحبة الله تعالى **(دوام الذكر للمحبوب)**؛ لأن من أحب شيئًا أكثر من ذكره كما مر.

(وقال آخر: إيثار المحبوب) أى اختياره وتقديمه على ما سواه بأن يكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله كما تقدم.

(وقال بعضهم: المحبة) معناها **(الشوق إلى المحبوب)** بأن يكون نفسه وقلبه دائمًا تدعوه إلى قربه وتحثه على لقائه، وقد تقدم الفرق بين الشوق والاشتياق، وأنه من الاصطلاحات الصوفية لا من المعانى اللغوية.

(وقال بعضهم: المحبة مواطأة القلب) بضم الميم وطاء مهملة تليها همزة، ومعناها الموافقة وأصله أن يطأ الرجل برجله وطأ صاحبه، قال الله تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ

أَتْقَٰكُمْ﴾ [التوبة: ٣٧]، أى موافقة القلب (لمراد الرب) بأن لا يريد إلا ما أراده، فيترك ما يريد الله ثم بينه بقوله: (فيحب) مضارع أحب (ما أحب ويكره ما كره)، وفى نسخة ما يكره والأولى أولى.

(وقال آخر: المحبة ميل القلب إلى قبوله قوله)، أى المحبوب، والمراد كل ما يقوله، وهذا كله من كلام أهل الطريقة، وله أمثال كثيرة، كقول ذى النون:

قل لمن أظهر حب الله   احذر أن تدل لغير الله بمقت

(وقال آخر: المحبة ميل القلب إلى موافق له) أى موافق لما يرضاه ويريده محبوبه وهى أقوال متقاربة (وأكثر العبارات المتقدمة)، من أول الفصل إلى هنا (إشارة إلى ثمرات المحبة) إنما قال: إشارة لأنهم لم يصرحوا بأنها من ثمراتها، وأصل الثمرة نتاج الشجرة، ثم قيل لكل نفع يصدر عن شىء: ثمرة كثمرة العلم والعمل، فهو استعارة تصريحية أو تخييلية ومكنية أو مجاز مرسل (دون حقيقتها) أى لا حقيقتها، ودون ترد لمعان هذا منها، وإنما قال أكثر؛ لأن منها ما هو سبب كاتباعه، أو لأنه احتراز عن الأخير؛ لأنه حقيقة لغوية وفيه نظر، ثم بين حقيقتها بقوله: (وحقيقة المحبة) الموضوعة لها مطلقًا (الميل) معناه حقيقة العدول عن الوسط إلى أحد الجانبين، ثم تجوز به عن إرادته والرغبة فيه (إلى ما يوافق الإنسان) أى طبيعته قيل هذا بعينه هو المعنى الأخير، وفيه أن معنى قوله موافق له ثمة موافق لمحبوبه وهنا لنفسه، فبينهما فرق نعم هو قريب منه وبين الموافقة بقوله: (وتكون موافقته له) أى لنفس المحب.

(إما لاستلذاذه) أى عده لذيذًا تشتهيه نفسه وتستحسنه (بإدراكه) منه محققًا أمرًا محبوبًا كالطعم الحلو والمشروب العذب (كحب الصور الجميلة والأصوات الحسنة والأطعمة والأشربة اللذيذة وأشباهها) كالروائح الطيبة والملابس الفاخرة، وهو إشارة إلى المحسوس بالحواس الظاهرة (مما كل طبع سليم) من غلظ الطبع وفساد الحواس كالمريض يجد الحلو مرًا لفساد ذوقه، فهذا لا يرد نقضًا (مائل إليه لموافقته له) طبعًا.

وفى نسخة: موافقتها أى المذكورات (أو لاستلذاذه) أى وجود لذته، واللذة من الكيفيات النفسية وضدها الألم، وتصور ذلك بديهى لأنه من الوجدانيات، وهى إدراك الملائم من حيث هو ملائم، والألم ضده والمراد بالملائم للشىء اللائق به كالتكيف بالحلاوة للذائق ونحوه من المحسوسات، وكتعقل الأشياء على ما هى عليه بالقوة العاقلة، وقيد بالحيثية؛ لأن الشىء قد يكون ملائمًا من وجه دون آخر، والمراد بإدراكه إدراكه بعد الوصول لا مجرد تخيله كما تقرر فى كتب الحكمة باللذة تكون حسية وعقلية، وإليه أشار بقوله أولاً بإدراكه إلى آخره، وهو القسم الأول.

والثانى بينه بقوله **(بإدراكه)** بعد الوصول إليه لا قبله **(بحاسة عقله وقلبه)** فيه تسمح على رأى الحكماء؛ لأن المدرك عندهم القوى الناطقة فى الدماغ لا العقل المدرك للكليات لكن لما كان أهل الشرع لم يثبتوها تسمح فيها **(معانى باطنة)** غير مدركة بالحواس الظاهرة **(شريفة)** أى نفيسة القدر دقيقة عالية القدر كأنها فى شرف أى مكان عال، وحاسة العقل قوته المدركة فالإضافة لامية أو المراد حاسية هى العقل فالإضافة بيانية **(كحب الصالحين والعلماء وأهل المعروف)** المراد بالمعروف كل ما يعرف بالشرع والعقل حسنه كالجود كما قاله الراغب والصغانى. حب **(المأثور)** أى المنقول **(عنهم السير)** المراد بها الأحوال والصفات **(الجميلة)** الحسنة المحمودة شرعًا وعقلاً.

(والأفعال الحسنة) كالكرم والعلم والزهد كالحسن البصرى، **(فإن طبع الإنسان مائل إلى الشغف)** أى المحبة الزائدة، وهو بشين وغين معجمتين وفاء من شغفه الحب إذا وصل إلى شغاف قلبه أى غلافه أو نياطه أو داخله وحبته، وهذا أنسب بالمراد، وروى بعين مهملة فقيل: هما بمعنى، وقيل: الثانى بمعنى الإحراق يقال: شعفه الحب إذا أحرقه وأمرضه، ومع ذلك يجد له لذة، فإن عذابه عذب لذيذ ويأتى بهذا مزيد بيان وقوله: **(بأمثال هؤلاء)** أى بهؤلاء وأمثالهم أنفسهم كمثلك لا يبخل، وهو كناية عما تقرر فى كتب المعانى، والإشارة للصالحين ومن بعدهم **(حتى يبلغ)** الشغف بهؤلاء وفرط حبهم **(التعصب)** تفعل من العصبة، وهى الجماعة المتعاضدة المتعاونة، والمعنى إظهار الحمية والمبالغة فى الصيانة حتى تفارقوا من خالفهم فى محبتهم للحمية والغضب لمن أحبه، **(والتشيع)** تفعل من الشيعة، فهو هنا بمعنى التعصب أيضًا، وضمنه معنى الانفصال؛ لقوله: **(من أمة)**، أى فارقوا أمة خالفوهم وصاروا **(فى آخرين)**، أى فى قوم آخرين.

وفى نسخة: أخرى، أى أمة أخرى، والشيعة من المشايعة وهى المتابعة، والشيعة الفرقة من الناس غلب على من والى عليًا، رضى الله تعالى عنه، كما مر، ويأتى **(ما يؤدى)**، أى يوصل، يقال: أداه إلى كذا، أى أوصله وهو بهمزة ودال مشددة، وهو مفعول يبلغ، أى يصل، والتعصب فاعله.

فإن نصب على أنه مفعوله وفاعله ضمير الشغف، فهو بدل منه، والثانى أقرب **(إلى الجلاء)**، بفتح الجيم واللام والمد: الخروج **(عن الأوطان)**، أى المساكن والبلاد والأهل، **(وهتك الحرم)** بضم الحاء وفتح الراء المهملتين جمع حرمة، والهتك بمثناة فوقية وكاف كشف الستر بإزالته وتقطيعه، والحرم جمع حرمة بضمتين وضم فسكون وفتح كهمزة، وهو كل ما يصان ويمنع، ولذا قيل للنساء: حرم، أى افتضاح نسائهم وذهاب عرضهم وكل ما يلزمهم صيانته، **(واخترام)** بخاء معجمة ومثناة وراء مهملة **(النفوس)**، أى

الذوات أو الأرواح، أى إهلاكهم بسرعة.

يقال: اخترمته المنية كأنها قطعت عمره، وكل ما استأصل شيئًا اخترمه، وفى نسخة القلوب والأول أحسن، فترى المرء يحب هؤلاء وإن لم يرهم فحبهم يحمله على ما ذكر، ثم ذكر سببًا ثالثًا للمحبة، فقال: (**أو يكون حبه إياه**).

وقيل: نفسه وطبعه إليه (**لموافقته له**)، أى لملائمته وموافقة طبعه (**من جهة إحسانه إليه**)، أى إنعامه وبذله وجوده، وفى نسخة له، أى لأجل ذلك، فقوله (**وإنعامه عليه**) عطف تفسير، (**فقد جبلت النفوس**) بالبناء للمفعول، أى جعلت مطبوعة ومخلوقة (**على حب من أحسن إليها**)، كما جبلت على بغض من أساء إليها.

وقيل: إن هذا من ألفاظ النبوة، ولم أره بعينه حديثًا، إلا أنه ورد بمعناه، ففى الحديث أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «اللهم لا تجعل لفاجر علىَّ يدًا فيحبه قلبى»[(١)]، فأشار إلى أن حب المحسن اضطرارى، وفى الإحياء أن المحبة قد تكون لغير هذا من الإلف الروحانية من غير سبب ظاهر.

وقال فيه أيضًا: فى ائتلاف القلوب أمر غامض لا يطلع عليه، فقد يحب المرء من غير حسن وإحسان وسبب ظاهر، بل لمناسبة روحانية وشبه الشىء منجذب إليه، وفى الحديث: «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[(٢)].

وقول المنجمين: إنه دائر على الطالع ومقابله لا أصل له، وورد فى حديث رواه فى الفردوس: «لو أن مؤمنا دخل مجلسًا فيه مائة منافق ومؤمن واحد لجاءه حتى جلس إليه ولو أن منافقًا دخل مجلسًا فيه مائة مؤمن ومنافق واحد لجاءه حتى جلس إليه»[(٣)]، فما ذكره هو الأغلب المعروف.

(**فإذا تقرر**)، أى ثبت وتحقق، (**لك هذا**) المذكور من أسباب المحبة، (**نظرت لهذه الأسباب كلها**)، أى عرفتها بنظر شديد، وكلها تأكيد للأسباب، أو مبتدأ خبره (**فى حقه**)، أى موجودة فى حقه وشأنه، مقررة محققة، (**فعلمت أنه، عليه الصلاة والسلام، جامع لهذه المعانى الثلاثة الموجبة للمحبة**)، بمقتضى العقل والشرع والطبع السليم.

ثم بين ذلك بقوله: (**أما جمال الصورة**)، وهو السبب الأول، وهو حب الصورة

(١) انظر: تذكرة الموضوعات (١٨٤)، وكشف الخفا (٣٩٦/١)، والفوائد المجموعة (٢١١)، والإتحاف (١٧٧/٦).

(٢) أخرجه البخارى (١٦٢/٤)، ومسلم فى البر والصلة (١٥٩)، وأبو داود (٤٨٣٤)، وأحمد (٢٩٥/٢، ٥٢٧، ٥٣٩)، والطبرانى (٣٢٣/٦، ١٠/ ٢٨٣).

(٣) أورده الزبيدى فى الإتحاف (١٨٣/٦).

الحسنة والصورة الهيئة، والمراد ما يظهر للناظر كالوجه، **(والظاهر)** عطف تفسير للصورة، **(وكمال الأخلاق)**، أى كونها فى غاية الكمال فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا ليس من الحسن الظاهرى، بل حسن باطنى كالصورة؛ لأن حسن الصورة يدل على حسن السيرة، فقوله: **(والباطن)** عطف تفسير له، **(فقد قررنا)**، أى بينا فى هذا الكتاب سابقًا، **(منها قبل)** مبنى على الضم **(فيما مر أول الكتاب ما لا يحتاج إلى زيادة)** فيه هنا.

(وأما إحسانه)، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا هو السبب الثانى، **(وإنعامه على أمته)**، يعنى أمة الإجابة **(فكذلك)**، أى مثل ما قبله فى عدم احتياجه للبيان هنا؛ لأنه **(قد مر منه)** إشارة إلى أن ما ذكر بعض منه لا يمكن استيفاؤه.

وعلى تفنن مادحيه ووصفه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف.

(فى أوصاف الله تعالى له)، صلى الله تعالى عليه وسلم، جمع وصف بمعنى صفة أو توصيف، ثم بينه بقوله: **(من رأفته بهم)**، أى شفقته ولطفه بهم كما مر، **(ورحمته لهم)**، أى إنعامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عليهم وكرمه **(وهدايته إياهم)**، أى من إحسانه أنه هداهم إلى سعادة الدارين وأى إحسان أعظم من هذا؟.

(وشفقته)، أى حنوه **(عليهم)** ومرحمته لهم **(واستنقاذهم)**، أى تخليص الله هذه الأمة **(به)**، أى بسببه، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذ بعثه إليهم **(من النار)** وعذاب جهنم إذ هداهم لطريق النجاة منها، **(وأنه بالمؤمنين رءوف رحيم)** كما فى قوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، كما مر مع تفسيره.

(و) أنه **(رحمة للعالمين)**، فهو مرفوع وضبط فى بعض النسخ منصوبًا، أى كونه رحمة، ويؤيد ذلك قوله: **(ومبشرًا)** بكل خير، **(ونذيرًا)** مخوفًا لهم ليرتدعوا عما يضرهم، **(وداعيًا إلى الله)** ودينه الحق **(بإذنه)** فى الدعوة أو بإرادته كما مر، **(وسراجًا منيرًا)** منقذًا لهم من ظلمة الجهالة والضلال، **(ويتلو عليهم آياته)** المرشدة لهم، فيقرأ عليهم ما يوحى إليه من دلائل التوحيد والنبوة.

(ويزكيهم) يطهرهم من الشرك والمعاصى، **(ويعلمهم الكتاب)**، أى القرآن العظيم **(والحكمة)**، وما يكملهم من المعارف والأحكام، **(ويهديهم إلى صراط مستقيم)** يدلهم على الطريق الموصل إلى الله تعالى بلطفه، وهذا مما وصفه الله به فى كتابه العزيز.

(فأى إحسان)، أى للتعظيم والتفخيم، كما يقال: عندى رجل، أى كامل الرجولية، **(أجل قدرًا)**، وأرفع رتبة، **(وأعظم خطرًا)**، بفتح الخاء المعجمة، والطاء المهملة، أى قدرًا، أو شرفًا، فغاير بينهما تفننًا، **(من إحسانه)**، أى إحسان هذا النبى الكريم على أمته،

فكيف لا يحسن **(إلى جميع المؤمنين؟)** خصهم؛ لأنهم هم المنتفعون به، وإلا فإحسانه عام.

(وأى إفضال)، بمعنى إحسان وتفضل **(أعم منفعة وأكثر فائدة من إنعامه على كافة المسلمين)**، أى جميعهم، وقد قيل كما مر: إن كافة تلزم التنكير والنصب على الحالية، واستعمالها على خلاف ذلك خطأ، وإن وقع فى عباراتهم كما فى درة الغواص، وقد أجبنا عنه فى شرح تلك الدرة وبينا أنه سمع خلافه **(إذ)** تعليلية، أى لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(كان ذريعتهم)**، أى وسيلتهم، وسبب موصل لهم **(إلى الهداية)**، أى ما يخلصهم وينجيهم، وأصل الذريعة سترة يتخذها الصائد للفوز بالصيد والوصول إليه، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم، سترة من النيران وجنة لمن طلب الجنان.

(ومنقذهم) مخلصهم **(من العماية)** بفتح العين، وهى الغواية والجهالة، **(وداعيهم إلى الفلاح)**، أى الفوز والظفر بسعادة الدارين، **(و)** إلى **(الكرامة)**، أى الإكرام بنيل الخير، **(ووسيلتهم إلى ربهم)**، أى موصلهم ومقربهم إليه، وجاعل لهم منزلة عنده، **(وشفيعهم)** فى الدنيا والآخرة، **(والمتكلم عنهم)** عند الله ببيان أعذارهم وهم أحوج ما يكونون إلى الكلام، وقد خرست الألسن، ولم يؤذن لأحد غيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يتكلم.

(والشاهد لهم) بأنهم آمنوا وصدقوا يوم القيامة حين يشهدون للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أنهم قد بلغوا قومهم فيزكيهم كما تقدم، **(والموجب لهم)**، أى الذى يحقق لهم **(البقاء الدائم)** بالخلود فى الجنة، وليس المراد الوجوب الشرعى؛ لأنه لا يجب على الله شىء، **(والنعيم)** فى الجنة **(السرمد)**، أى الدائم الذى لا ينقطع، ولولاه صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يكن شىء من ذلك.

(فقد استبان لك) بما ذكر، أى ظهر واتضح **(أنه، عليه الصلاة والسلام، مستوجب)**، أى مستحق **(للمحبة الحقيقية)**؛ لأن أسبابها متوفرة فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، على أكمل وجه لا يتيسر لغيره **(شرعًا بما قدمناه من صحيح الآثار)**، الموجبة له مزيد شرف وحسن ترف، وأنه المحسن والمتفضل بكل خير، وأنا مأمورون بمحبته واتباعه بأمر من الله له.

(وعادة) معطوف على قوله شرعًا، أى ما اعتاده الناس فى كل عصر من محبة من حاز الكمال كله، **(وجبلة)** لأن كل خير وإحسان وصل إلينا، فهو منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، والنفوس مجبولة على حب من أحسن إليها كما مر، والجبلة بمعنى الطبيعة، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٤] المجبولين الأولين **(لما ذكرناه)** متعلق باستبان **(آنفًا)** بالمد، أى قريبًا، وهو منصوب على الظرفية من أنف بمعنى

تقدم، ومنه الأنف اسم الجارحة **(لإفاضته)**، أى إعطائه من بحر كرمه **(الإحسان)** بكل خير دنيوى وأخروى **(وعموم الإجمال)**، أى تعميم الجميل منه لكل أحد، وهذا إجمال لما قدمه بذكر السابقة.

ثم وضحه بقوله: **(فإذا كان الإنسان يحب من منحه)**، أى أعطاه، والمنحة العطية **(فى دنياه)**، أى فى حياته فى الدنيا **(مرة أو مرتين معروفًا)**، أى شيئًا حسنًا كما مر تفسيره **(أو استنقذه)** ونجاه **(من هلكة)** بفتح الهاء واللام أمر مهلك **(أو مضرة)** أمر يضره ويؤذيه بفتح الميم والضاد **(مدة التأذى بها)** أى بالمضرة **(قليل منقطع)**، أى زائل فى زمن قليل، وذكره لأن المدة بمعنى الزمان، أو لأنه فعيل ومنقطع لمشاكلته، ومدة مضافة للتأذى، أو منون منصوب، والتأذى مبتدأ خبره قليل، وعلى الأول المبتدأ مدة **(فمن منحه ما لا يبيد)** بمثناة تحتية مفتوحة وبموحدة مكسورة وتحتية ساكنة ودال مهملة، أى يذهب وينفد **(من النعيم)** المخلد فى الجنة، وهذه النسخة أولى مما وقع فى بعض النسخ من النعم جمع نعمة للسجع فى الأولى.

(ووقاه) بالتشديد والتخفيف، أى صانه وحماه **(ما لا يفنى من عذاب الجحيم)**، أى النار من جحم بمعنى توقد، وقد يخص بطبقة منها. وقوله: **(أولى ما يحب)** بالبناء للمفعول، وفى نسخة: أولى بالحب، وأولى أفعل تفضيل، بمعنى أحق، وهو خبر من، أى أحق من كل شىء يحب من نفسه وماله وأهله.

(وإذا كان يحب) مبنى للمجهول أيضًا **(بالطبع)** متعلق بيحب، وخص هذا بالطبع؛ لأنه ليس محبوبًا شرعًا، والعقل والعادة لا تخالفا **(ملك)** بكسر اللام نائب فاعل يحب، فهو مرفوع، وكذا ما بعده، وفى نسخة نصب الجميع، ويحب مبنى للفاعل **(لحسن سيرته)** بعدله فى رعيته، **(أو حاكم)** غير ملك كأمير، **(لما يؤثر)**، أى ينقل عنه، وهو مجهول أيضًا **(من قوام طريقته)**، أى حسن سلوكه، وقوامه بكسر القاف وهو العماد والنظام، ويجوز فتحها بمعنى الاعتدال، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] أى معتدلاً.

(أو قاض) بضاد معجمة، أى حاكم الشرع إذا سمع بعدله، وهو **(بعيد الدار)** عنه، ويروى بصاد مهملة، فبعيد تفسير له؛ **(لما يشاد)** مبنى للمجهول، أى لأجل ما يشيع ويشتهر من ذكره بين الناس، وهو مستعار من شاد البناء بشين معجمة ودال مهملة إذا رفعه، ومنه قصر مشيد، وغلط من قال: إنه بذال معجمة من شاذت علت.

وفى نسخة لما فشا بالفاء والشين المعجمة، أى ظهر وانتشر **(من علمه أو كرم شيمته)**، أى سجيته وخلقه، وهذا مناسب لإهمال قاض، وإذا كان يحب من فيه بعض

هذه الخصال، **(فمن جمع هذه الخصال)** كلها وحواها وكل منها فيه مستقر **(على غاية مراتب الكمال)**، بحيث لا يشبه صفاته صفات غيره كما قال البوصيرى[1]:

إنما مثلوا صفاتك للنا … س كما مثل النجوم الماء

(أحق بالحب) مما عداه **(وأولى بالميل)** إليه، واعلم أنه إنما ذكر من قوله: فقد استبان لك... إلى آخره؛ لدفع شبهة لمن لا بصيرة له، وهى أن هذه الأمور إنما تتحقق فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عند من رآه وشاهده منه؛ لأنها المؤثرة فى الطباع بأن وصول نفعه وخيره لمن بعده معلوم لكل مؤمن بالغيب، وكمالاته، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لتواترها وبقاء آثارها كالمحسوس المشاهد.

(وقد قال علىٌّ، رضى الله عنه) فى حديث الحلية السابق ذكره: **(من رآه)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(بديهة)**، أى أبصره فى أول رؤيته **(هابه)** توقيرًا وجلالاً لما يرى من نور نبوته، **(ومن خالطه)**، أى صاحبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعاشره **(معرفة أحبه)**، أى بعدما عرف فضائله وفواضله، وشاهد شمائله لابد أن يحبه.

(ذكرناه) فى فضل ثواب محبته، **(عن بعض الصحابة)**، وهو ثوبان كما تقدم **(أنه كان لا يصرف بصره منه محبة فيه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشرف وكرم.

* * *

(فصل فى وجوب مناصحته ﷺ)

النصح معناه الخلوص لغة، ثم قيل لإرادة الخير بقلبه ولسانه، وإنما قاله بصيغة المفاعلة؛ لأن نصح رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أمر مقرر لكل أحد، فإذا نصحه أحد من أمته، تحققت المناصحة من الجانبين، وأخر هذا الفصل عن المحبة؛ لأنها تترتب عليها.

واعلم أنه يأتى أن أصل معنى النصح تصفية العسل وخياطة الثوب، ثم استعمل فى ضد الغش والإخلاص، أى التوبة النصوح، **(قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾)** [التوبة: ٩١]، أى إثم وضيق إذا تخلفوا عن الخروج مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لفقرهم المانع لهم، **﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾** إلى آخره، أى إذا أخلصوا الإيمان بهما والطاعة لهما ظاهرًا وباطنًا ما استطاعوا وأخلصوا لهما من فعل وقول يعود على المسلمين بالصلاح.

وفى الصحيحين عن جابر، رضى الله عنه، قال: كنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزوة، فقال: «إن بالمدينة ناس ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا، إلا كانوا معكم، حبسهم المرض شركوكم فى الأجر»، ففى الآية دليل على وجوب النصح

(١) البيت من الخفيف، وهو فى ديوان البوصيرى (ص٩).

لله ورسوله، كما أشرنا إليه.

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾، أى ليس عليهم جناح، ولا إلى معاتبتهم سبيل، ووضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على أنهم منخرطون فى سلك المحسنين غير معاتبين فى ذلك، (**والله غفور رحيم**) لهم أو للمسىء، فكيف المحسن؟.

(**قال أهل التفسير**) فى بيان معنى الآية إجمالاً: (**إذا انصحوا لله ورسوله**)، معناه (**إذا كانوا مخلصين**) فى أقوالهم وأفعالهم (**مسلمين**) منقادين مطيعين حال لازمة (**فى السر**)، أى فيما فى باطنهم مما أسروه، (**والعلانية**) ظاهر حالهم المطابق لما فى ضمائرهم، والعلن والعلانية بتخفيف الياء مصدر الجهر والإظهار، فالنصح هنا بمعنى الإخلاص والصدق.

ثم أتبع ما استشهد به من الكتاب العزيز بحديث رواه أبو داود كما رواه مسلم، فقال: (**حدثنا أبو الوليد**) شيخ المصنف، رحمه الله تعالى، (**بقراءتى عليه**)، قال: (**حدثنا حسين بن محمد**)، هو أبو على الغسانى، وقد تقدمت ترجمته، قال: (**حدثنا يوسف بن عبد الله**)، هو حافظ الإسلام ابن عبد البر، وقد تقدم، قال: (**حدثنا أبو محمد بن عبد المؤمن**)، تقدم أيضًا، قال: (**حدثنا أبو بكر بن التمار**)، قال: (**حدثنا أبو داود**) صاحب السنن، قال: (**حدثنا أحمد بن يونس**) أبو عبد الله أحمد بن عبد الله بن يونس اليربوعى الكوفى الحافظ الثقة المتقن المتفنن، روى عنه الستة، توفى سنة سبع وعشرين ومائتين، قال: (**حدثنا زهير**) بن محمد المروزى نزيل الشام الثقة، توفى سنة اثنين وستين ومائة، أخرج له الستة، وترجمته فى الميزان، قال: (**حدثنا سهيل بن أبى صالح**)، تقدمت ترجمته، (**عن عطاء بن يزيد**) الليثى الثقة التابعى، توفى سنة سبع أو خمس ومائة، وأخرج له الستة، (**عن تميم الدارى**)، وهو تميم بن أوس بن خارجة اللخمى المكنى بأبى رقية، وهى ابنة له لم يولد له غيرها، والدارى نسبة لجده الدار بن هانئ، أو لدارين اسم مكان، ويقال الديرى لدير كان يتعبد فيه، وقيل: إنه اسم قبيلة وهو بعيد كما فى المطالع، وكان نصرانيًا، أسلم سنة تسع من الهجرة، وتوفى سنة أربعين، وروى عنه فى السنن ومسند أحمد وقصته فى الجساسة مشهورة.

(**قال**) تميم: (**قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن الدين النصيحة إن الدين النصيحة إن الدين النصحية**)، كررها ثلاثًا لزيادة الحث والتحريض، ولذا عدل المصنف، رحمه الله تعالى، عن رواية مسلم، مع أن كتابه أصح الكتب عند علماء المغرب، وما قيل إنها مكررة فى هامش نسخة مسلم، فلا وجه للعدول عنه أمر سهل، وسؤال ساقط، والدين ملة الإسلام، والنصيحة تقدم بيانها، وفى رواية: «إنما الدين النصيحة»، وهما بمعنى لإفادة تعريف الطرفين الحصر.

(قالوا)، أى الصحابة الحاضرون عنده: **(لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه)** بالعمل بما فيه وتعظيمه وحفظه، **(ولرسوله)** بالإيمان به واتباعه وطاعته، **(ولأئمة المسلمين)** الخلفاء والسلاطين والحكام، **(وعامتهم)** إن أريد العوام فظاهر، وإن أريد جميعهم فهم من عطف العام على الخاص، وسيأتى بيانه.

(قال أئمتنا): المراد بهم علماء الإسلام أو أئمة مذهبه **(النصيحة لله ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم واجبة)**، أى فرض عين على كل مكلف، ونقل النووى أنها فرض كفاية، فإن خشى أذى فهو فى سعة من الترك.

(قال الإمام أبو سليمان البستى) بضم الموحدة وسين مهملة ومثناة فوقية وياء نسبة، بلدة بسجستان، وهو أبو سليمان بن محمد بن إبراهيم بن خطاب، المعروف بالخطابى الإمام المشهور، واختلف فى اسمه، فقيل: أحمد، وقيل: حمد، توفى ببست فى ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة: **(النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة)** بالتنوين، فقوله: **(إرادة الخير)** بدل منه أو مرفوع أو منصوب على هذا، ولا مانع من الإضافة **(للمنصوح له وليس يمكن أن يعبر عنها)**، أى عن جملة **(بكلمة واحدة تحصرها)**، أى تجمع جميع معانيها.

قيل: تقديره غيرها، أى غير هذه الكلمة، وهى النصيحة ومادتها كالنصح والنصاحة، وفى كلامه تسمح، فإن مجرد إرادة الخير لا يسمى نصحًا، فالظاهر أن يقول: إرشاد المنصوح للخير، وأيضًا فى تركيبه شىء؛ لأن اسم ليس الظاهر أنه أن يعبر، وجملة يمكن خبرها فيتعين تأخيرها لما فيه من اللبس بالفاعل، ومراده أن هذه من أوجز الأسماء وأخصرها لدلالتها على معان بمفردها، ولذا قيل فى كلمة لفظ الفلاح: إنه ليس فى كلام العرب كله أجمع لخيرى الدنيا والآخرة منها.

ثم أشار إلى أصل معناها لغة بعدما بين حاصل معناها فى عرف اللغة والشرع بقوله: **(ومعناها فى اللغة)**، أى فى عرف أهل اللغة **(الإخلاص)**، أى لنفسه وغيره **(من قولهم: نصحت العسل إذا خلصته)** وصفيته **(من شمعه)** بسكون الميم وفتحها مضاف لضمير العسل، فهى فعيلة بمعنى فاعلة أو مفعولة؛ لأنها خلصت من الغش كما خلص العسل من شمعه.

(وقال أبو بكر بن أبى إسحاق الخفاف)، وهو إمام من أئمة اللغة ترجمته مذكورة فى التاريخ، وفى نسخة: ابن إسحاق، وهو أبو بكر أحمد بن عمر بن يوسف الشافعى، وهو صاحب كتاب الخصال فى مذهب الشافعية، كما قاله الرافعى: **(النصح فعل الشىء الذى به الصلاح)** لنفسه وغيره، وأراد بالفعل ما يشمل القول **(والملاءمة)** بضم الميم ومد

الهمزة من لأمت بينهم إذا وفقت، وتلاءموا والتأموا بمعنى، وقد تبدل همزته ياء (مأخوذة) أى مشتقة اشتقاقًا، وكثيرًا ما يعبر عنه بالأخذ.

ويقولون: دائرة الأخذ أوسع من دائرة الاشتقاق (من النصاح)، بكسر النون وتخفيف الصاد، (وهو الخيط الذى يخاط به الثوب)، فتلتئم أجزاؤه، فالنصيحة على هذا مأخوذة من نصح الثوب إذا خاطه، ولا حاجة لنقله من الخفاف، فإنه فى أكثر كتب اللغة.

(وقال أبو إسحاق الزجاج) إمام العربية والتفسير تلميذ المبرد وشيخ أبو على الفارسى، وهو إبراهيم بن سهل الزجاج، منسوب لعمل الزجاج؛ لأنه كان حرفته، توفى فى جمادى الآخرة من سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، وقد ناف على الثمانين (نحوه)، أى قريب مما قاله الخطابى معنى.

ثم فرع على ما بينه من معناه لغة وعرفًا بيان أقسامه، فقال: (فنصيحة الله) معناها، والمراد بها (صحة الاعتقاد)، أى إخلاص الإيمان به، ولذا عداه باللام فى قوله (له)، وذلك بتخصيصه (بالوحدانية)، أى بأنه واحد أحد لا شريك له فى الألوهية، ولا يشاركه أحد فى ذاته وصفاته، وهو مصدر بمعنى الانفراد، وزيد فيه الألف والنون على خلاف القياس.

قال الكرمانى: (ووصفه بما هو أهله)، أى بما يستحقه ويليق به كما يقال: هو أهل الحمد وهو أهله ومحله، وهو مجاز مأثور مشهور، (وتنزيهه عما لا يجوز عليه) فى كل ما يوهم نقصًا، (والرغبة فى محابه) بفتح الميم جمع محب اسم مفعول أحب بمعنى محبوب، أى يرغب فى كل ما يحبه ويرضاه، (والبعد عن مساخطه) بفتح الميم جمع مسخط اسم مفعول، أى كل ما يسخط الله ويورث غضبه من المعاصى.

وقيل: هما جمع محبوب ومسخوط، والأصل محابيب ومساخيط، (والإخلاص فى عبادته)، فيعبده امتثالاً لأمره من غير رياء ولا إرادة أمر آخر، ولا تضره العبادة رجاء جنته وخوف ناره، وإن قال الرازى: إنه الإخلاص نعم هو مرتبة الخواص، وقد فصلناه فى محل آخر، فالنصيحة لله حقيقة راجعة إلى العبد نفسه؛ لأنه تعالى ليس له ناصح، ولا يتصور فى حقه، فلذا حملت على هذا.

(والنصيحة لكتابه) معناها (الإيمان به)، أى بأنه كلام الله المنزل على رسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيصدق بذلك تصديقًا لا ريب فيه، (وللعمل بما فيه) باتباع أوامره ونواهيه، وتسليم متشابهه والإيمان به، (وتحسين تلاوته) بالتجويد والترتيل بأن يخرج حروفه من حاق مخرجها من غير تكلف وتشدق فيه، ويدخل فيه تحسين الصوت به من غير تغن وزيادة مد.

وقد قال القراء: إن تجويده واجب، واختلف هل هو واجب شرعًا أو صناعة؟ فذهب إلى كل من القولين قوم من الفقهاء، والحق أنه واجب شرعًا للقادر عليه من غير مشقة لبعض العجم، **(والتخشع عنده)**، أى عند تلاوته وسماعه، فينبغى له أن يظهر الخشوع، وإن لم يكن خاشعًا كبعض العوام، كما قيل: **(إن لم تكن باكيًا فكن متباكيًا)**، وضمير عند للكتاب.

وقيل: إنه لتحسين التلاوة والأول أولى وأفيد، وفى التخشع ما يفيد أنه لا ينبغى الصياح وإظهار الوجد ما لم يكن عن حال سلب اختياره، **(والتعظيم له)** بأن لا يقرأه محدثًا وأن لا يمد رجليه حال تلاوته، ولا يجلس لها فى محل قذر، ولذا كرهت القراءة فى الحمام وعلى الطرقات والأسواق.

(وتفهمه)، أى تدبر معانيه والفكر فيها بدقة نظر، **(والتفقه فيه)**، أى فهم معانيه أو النظر فى أحكامه الفقهية من حلاله وحرامه، والاتعاظ بمواعظه ونصائحه وأمثاله، **(والذب عنه)** بمعجمة وموحدة، أى زجر من طعن فيه من الملحدين **(من تأويل الغالين وطعن الملحدين)** فى تأويله بما لا يليق به من الغلو، وهو تجاوز الحد، ولتاليه ومستمعه آداب كثيرة بينها النووى فى كتاب التبيان فى آداب حملة القرآن، فعليك به.

(والنصيحة لرسوله)، صلى الله تعالى عليه وسلم **(التصديق بنبوته)** ورسالته إلى الناس كافة، وإلى غير ذلك من الملائكة والجن، **(وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه)**؛ لأن طاعته واجبة، وهى طاعة الله كما مر **(كما قاله أبو سليمان)** هو الخطابى الذى تقدم بيانه.

(وقال أبو بكر)، هو ابن أبى إسحاق الخفاف الذى مر ذكره، وهو الظاهر الذى ذكره الثقات، وقيل: هو الحافظ الآجرى الآتى قريبًا: **(وموازرته)** بواو مفتوحة أو همزة من الأزر، وهو القوة أو من الوزر، وهو الملجأ، أى معاضدته ومعاونته، وهو معطوف على مقدر أو على ما قبله عطف تلقين، **(ونصرته)**، أى إعانته على أعدائه أو نصرة دينه وإعلاء كلمته، **(وحمايته)**، أى دفع السوء عنه **(حيًا)** بالمجاهدة معه وخدمته، **(وميتًا)** بتقوية دينه وتأييد شريعته، وهو راجع لكل ما قبله.

(وإحياء سنته)، أى هديه وطريقته، وفيه استعارة تصريحية **(بالطلب)** لها بأن يسأل عنها ويجتهد فى معرفتها، **(والذب عنها)**، أى دفع الشبه عنها والتأويلات الفارغة، **(ونشرها)**، أى إظهارها وإشاعتها وتعليمها من انتشر الحديث إذا شاع، **(والتخلق بأخلاقه)**، أى الاتصاف بمثل صفاته المأثورة عنه، وإن لم يمكن مساواته.

إن التشبه بالكرام فلاح

(الكريمة)، أى المكرمة الممجددة، **(وآدابه الجميلة)**، التى فيها جمال ومدح لمن اتصف بها.

(وقال أبو إبراهيم إسحاق التجيبى)، تقدم بيانه وأنه بفتح التاء وضمها، وأنه المعروف بالوراق: **(نصيحة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** معناها **(التصديق بما جاء به)**، أى الإيمان بكل ما جاء به عن الله **(والاعتصام بسنته)**، أى التمسك بها، **(ونشرها والحض عليها)**، أى حث الناس وتحريضهم على اتباعها، **(والدعوة إلى الله)**، أى إلى الإيمان به وتوحيده، **(وإلى كتابه)** القرآن بالإيمان به والعمل بما فيه، **(وإلى رسوله)** بالإيمان به واتباعه، **(وإليها)**، أى الدعوة إلى سنته، **(وإلى العمل بها)** كما مر.

(وقال أحمد بن محمد)، هو الإمام المشهور أحمد بن حنبل، نفعنا الله ببركاته، وهذا ما وعدناك به من نسبته إلى أبيه محمد: **(من مفروضات القلوب)**، أى مما فرض ووجب اعتقاده، وجزم القلوب به **(اعتقاد)** وجوب **(النصيحة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)** بالمعنى المتقدم.

(وقال أبو بكر الآجرى) الحافظ، وقد تقدم بيانه، **(وغيره)** من الأئمة: **(النصح له)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(يقتضى نصحين)**، أى منقسم إلى قسمين، **(نصحًا فى حياته ونصحًا بعد مماته، ففى حياته)**، أى النصح له وهو حى **(نصح أصحابه)**، أى هو نصح أصحابه، أو كنصح أصحابه **(له بالنصر)** له على أعدائه، **(والمحاماة عنه)** بدفع السوء عنه ومن يريده.

(ومعاداة من عاداه) ببغضه وتنقيصه وعدم موالاته **(والسمع)**، أى امتثال ما يقوله وقبوله كما فى قوله: سمع الله لمن حمده، فإنه فسر بقبوله، **(والطاعة له)**، أى الانقياد التام، **(وبذل النفوس)**، أى الذوات والأرواح **(والأموال دونه)**، أى صرفها والجود بها فى حمايته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتقديمها دون ما يضره، **(كما قال الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾** [الأحزاب: ٢٣] **الآية)**، أى عاهدوا الله على بذل أرواحهم وأموالهم فى سبيل الله ونصرة رسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فوفوا بعهدهم.

وهذه الآية كما فى الصحيحين، نزلت فى أنس بن النضر، وكان شق عليه أنه لم يحضر بدرًا، وقال: أول مشهد من مشاهد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، غبت عنه، لئن أرانى الله تعالى مشهدًا بعده، ليرى الله ما أصنع، فلما كان من العام المقبل وقعة أُحُد، استقبله سعد بن مالك، فقال له: يا أبا محمد، إلى أين؟ قال: واها لريح الجنة، أجدها دون أُحُد، فقاتل حتى قُتل، رضى الله تعالى عنه، ووجد فيه بضعًا وثمانين طعنة وضربة.

(وقال الله تعالى: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ الآية) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، وهذه الآية نزلت فى المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ابتغاء رضوان الله.

(وأما نصيحة المسلمين له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد وفاته فالتزام التوقير)، أى الأدب والتعظيم، **(والإجلال)** لقدره برفع ذكره وتعظيمه **(وشدة المحبة له)** بكونه أحب عنده من نفسه وأهله وماله، **(والمثابرة)** بمثلثة وموحدة وراء مهملة، أى المداومة والمحافظة **(على تعلم سنته)**.

وفى نسخة: تعليم، وسنته طريقته وهديه أو حديثه، **(والتفقه فى شريعته)** بفهم معانيها والعلم بأحكامها، **(ومحبة آل بيته)**، وهم أقرباؤه الذين لا تحل لهم الزكاة، وقد تقدم بيانهم، **(وأصحابه)** وهم كل من اجتمع به صلى الله تعالى عليه وسلم مؤمنًا ومات على ذلك، **(ومجانبة من رغب عن سنته)**، أى البعد عن كل من تركها وعدم الركون إليه، **(والنحرف عنها)**، أى مال عنها ورغب فى غيرها، **(وبغضه)**، أى إظهار عداوته، **(والتحذير منه)** من لا يعرفه بأن يعرفهم حاله وينهاهم عن استعمال كلامه.

(والشفقة على أمته)، أى اللطف بهم والإحسان إليهم لأجله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا لأمر آخر، **(والبحث)**، أى التفتيش **(عن تعرف أحواله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى أحواله المعروفة، وفى نسخة: أخلاقه، **(وسيرته)**. قال المرزوقى: معناها حالة من أحوال السير، ثم أجرى مجرى الشيم والعادات. انتهى.

(وآدابه) ليقتدى بها، **(والصبر على ذلك)**، أى حبس النفس عليها بحيث تصير طبيعة له، **(فعلى ما ذكره)**، أى الخفاف أو الآجرى **(تكون النصيحة إحدى ثمرات المحبة)**؛ لأن كل ما ذكره متفرع عليها كما يعرفه من له تأمل، **(وعلامة من علاماتها كما قدمناه)** فى فصل العلامات، ولذا قدم المصنف، رحمه الله تعالى، أمر المحبة على النصيحة كما مر.

(وحكى الإمام أبو القاسم القشيرى) عبد الملك بن هوازن بن عبد الملك النيسابورى صاحب الرسالة، وشيخ الطريقة، فريد دهره علمًا وعملاً، وعمدة أهل السُنة، وفقهاء الشافعية، الجامع بين الشريعة والحقيقة، وترجمته مشهورة وتقدم طرف منها، توفى سنة خمس وستين وأربعمائة وعمره تسع وثمانون سنة **(أن عمرو بن الليث أحد ملوك خراسان)**، إقليم معروف، وعمرو هذا أخو يعقوب الصفار، وكان يعقوب هذا كما قال المسعودى فى خلافة المعتضد بالله أحد الخلفاء العباسيين فى صغره صفارًا، فتغلب وصار له جيوش عظيمة فتسلطن، ثم توفى سنة خمس وستين ومائتين، وخلف أموالاً كثيرة خلفه عليها أخوه عمرو المذكور.

(ومشاهير) جمع مشهور **(الثوار)** بضم المثلثة وتشديد الواو وألف تليها راء مهملة،

جمع ثائر من ثار يثور، إذا هاج ووثب بقوة، والمراد بهم المتغلبون على الملك، فإنه كان كذلك لشجاعته وكثرة جنده (**المعروف بالصفار**) منسوب لعمل الصفر، وهو نوع من النحاس تعمل منه الأوانى، وقد مر وجه التسمية به (**رئى**) مبنى للمجهول من الرؤيا، وهو مهموز، أى رآه بعضهم (**فى المنام**).

وفى نسخة: فى النوم، (**فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لى**) ذنوبى ومحى سيئاتى، (**فقيل: بماذا؟**)، أى بأى سبب هذا الذى نلته؟ (**فقال: صعدت**) بكسر العين فى الماضى وفتحها فى المستقبل، أى ارتقيت وعلوت (**ذروة**) بكسر الذال المعجمة، وهى أعلى كل مرتفع من (**جبل**) ونحوه، (**يومًا، فأشرفت على جنودى**)، أى رأيتهم فى مكان عال، واطلعت عليهم، (**فأعجبتنى كثرتهم**)، أى حسنت عندى فسرتنى، (**فتمنيت أنى حضرت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، أى كنت فى عصره، فشهدت غزواته وحروبه بجندى، (**فأعنته ونصرته**) على أعدائه بمقاتلتى أنا وجندى معه، (**فشكر الله لى ذلك**) القول والتمنى، كما قال ورقة:

يا ليتنى فيها جذع أخب فيها وأضع

ومعنى شكر الله ثوابه وإنعامه (**وغفر لى**) بسبب قولى هذا. وقال ابن قرقول: شكر الله ثناؤه عليه عند ملائكته. وقيل: هو مضاعفة ثوابه.

(**وأما النصح لأئمة المسلمين**) جمع إمام، وهو الخليفة والسلطان المقتدى به، والمراد الحكام مطلقًا هنا (**فـ**) معناه (**طاعتهم فى الحق**) الموافق للشرع، إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الله كما ورد فى الحديث، ولقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩].

(**ومعونتهم فيه**)، أى فى الحق لا فى الباطل، فالمعونة والإعانة بمعنى (**وأمرهم به**)، أى باتباعه، (**وتذكيرهم إياه**) بأن يذكره لهم ويعظهم ويحثهم على اتباعه (**على أحسن وجه**) برفق وتلطيف القول وتحسينه، فإنه أدعى للامتثال، (**وتنبيههم على ما غفلوا عنه**) لعدم العلم به لخفائه أو لعدم الوقوف عليه (**وكُتِمَ عنهم**) بأن خفى عليهم، فلم يبلغهم خبره (**من أمور المسلمين**)، فيمضوه عليهم، (**وترك الخروج عليهم**) بمخالفتهم وعصيان أمرائهم، وهو معطوف على طاعتهم، (**وتضريب الناس**) بمثناة فوقية مفتوحة، وسكون الضاد المعجمة وكسر الراء المهملة ومثناة ساكنة وموحدة تحتيتين مجرور، أى ترك تضريبهم، وهو إغراؤهم وتحريكهم عليهم، يقال: ضربه، إذا أغراه.

(**وإفساد قلوبهم**)، أى ترك إفساد قلوب الناس (**عليهم**) بذمهم وتشهير مساويهم حتى تنفر عنهم القلوب، فتؤدى إلى التجرئ عليهم ومخالفتهم تجر إلى مفاسد عظيمة.

(و) أما (**النصح لعامة المسلمين**) المراد بالعامة هنا من عدا الحكام لا العوام بالمعنى العرفى، فمعناه (**إرشادهم إلى مصالحهم**)، أى دلالتهم على ما يوصلهم إلى ما فيه صلاح أمورهم، (**ومعونتهم**)، أى إعانتهم (**فى أمر دينهم ودنياهم بالقول والفعل، وتنبيه غافلهم**) لما غفل عنه من مصالحه، (**وتبصير جاهلهم**)، أى تعريفه بما جهله ليكون ذا بصيرة فى أموره.

(**ورفد محتاجهم**) بفتح الراء المهملة، أى إعانته، ويجوز كسرها، فإن الرفد بمعنى العطاء والصلة، وكل شىء عمدته وجعلت له عونًا فقد رفدته، ومنه الرفادة التى كانت لقريش فى الجاهلية، (**وستر عوراتهم**)، أى يستر عليهم بعض معاصيهم إذا رآها، فلا يذكرها حتى يفتضح مرتكبها، فإذا أرشده لتركه ذكره خفية، فإن النصيحة بين الملأ تقريع، (**ودفع المضار عنهم**)، أى ما يضرهم فى دينهم ودنياهم، (**وجلب المنافع لهم**)، أى كل ما ينفعهم دينًا ودنيا.

* * *

(الباب الثالث فى تعظيم أمره)

أى شأنه وقدره والأمور المتعلقة به، (ووجوب توقيره)، أى تبجيله وترجيح ما يتعلق به، (وبره) وصلته بالدعاء له، والصلاة عليه وزيارة مقامه وبر أهل بيته.

(قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [الأحزاب: ٤٥] ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾) [الفتح: ٨، ٩] هذا فى أكثر النسخ، وليس موافقًا للتلاوة؛ لأن آية الأحزاب المصدرة بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ ليس فيها ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟﴾ إلى آخره، والتى فى الفتح: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾، دون ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾، فقيل: بدأ بآية الأحزاب، وثنى بآية الفتح، فسقط الفاصل بينهما سهوًا، أو بيض له، فوصله الناسخ، وفى بعض النسخ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾ فقط، و﴿شَـٰهِدًا﴾ وما بعده أحوال مقدرة، كجاء معه صقر صائدًا به غدًا.

واستشهاده بالآية بناء على ما ذهب إليه الضحاك، من أن الضمائر كلها له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشهادته لهم يوم القيامة مما عملوه من طاعة وغيرها، وعلى هذا فالوقف على قوله وتوقروه، كما أشار إليه المصنف، رحمه الله تعالى، وهو وقف كاف. وقال القرطبى: إنه تام، وفيه نظر، فقوله تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ [الفتح: ٩] ابتداء كلام، فإن ضميره لله.

(وقال) عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، تقدموا بضم أوله مضارع قدم بمعنى تقدم فتوافق القراءة الأخرى بفتحها، أو هو مضارع قدمه المتعدى حذف مفعوله لتذهب النفس كل مذهب، أو لتنزيله منزلة اللازم، والمراد نفى التقديم رأسًا، وعلى كل حال فالشاهد فيها ظاهر، فلا يتوهم أنه لا شاهد فيها على القراءة المشهورة.

(و) قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجرات: ٢]، أى لا تجعلوا أصواتكم فى خطابكم جهرًا فوق جهره، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالقول واخفضوها تأدبًا وتكريمًا له، فإنه لعظم مقامه لا يليق عنده الصخب والعياط على عادة جفاة الأعراب فى ترك الأدب (الآيات الثلاث)، وهى ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٢، ٣].

وإضافة ذى الألف واللام لمثله جائزة فى الثلاث ونحوه، كما تقرر لمن عنده علم بالعربية، والشاهد فيها أنه أمرهم إذا خاطبوه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن لا يجهروا، فيخفضوا أصواتهم تأدبًا معه؛ لما فى الجهر من الاستخفاف المؤدى إلى الكفر المحبط للأعمال؛ لما فيه من الإهانة وعدم الاعتناء بمقام النبوة، ثم أثنى على من غض صوته عنده بأن الله تعالى بعد امتحانه وعده بأن له مغفرة وأجرًا عظيمًا لارتضائه لـه، وفيه تعريض بشناعة الجهر وأنه لا يغفر، وأن من ناداه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو فى حجراته مع أزواجه مسلوب العقل؛ لعدم إذنه وأرشدهم إلى الأولى بهم، وهو الصبر حتى يخرج إليهم من نفسه من غير نداء له، فيكون هو المفتتح بكلامهم، والكلام على الآية مفصل فى كتب التفاسير.

(**وقال الله تعالى**: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣])، بأن تنادوه باسمه يا محمد ونحوه كما سيأتى، فلا تقيسوه بغيره، (**فأوجب الله تعالى**) على المؤمنين (**تعزيره**) بزاء معجمة وراء مهملة، أى إجلاله (**وتوقيره**)، أى التأدب معه (**وألزم إكرامه وتعظيمه، قال ابن عباس**): معنى (**تعزروه تجلوه**) الإجلال إفعال من الجلال، وهو التناهى فى عظم القدر، ولذا خص بالله تعالى، فقيل: ذو الجلال والإكرام كما قاله الراغب.

(**وقال المبرد**) شيخ التفسير والعربية: (**تعزروه وتبالغوا فى تعظيمه**)، وهو موافق لما قاله ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، وليس أخص منه كما توهم، (**وقال الأخفش**): الكبير لتبادره، وقيل: هو الأوسط صاحب التفسير المسمى بالمعانى، والأخافشة المشهورة ثلاث، وهو لقب له من الخفش، وهو ضعف البصر، وهو من يرى ليلاً ولا يرى نهارًا، (**تنصرونه**).

وقال الراغب: التعزير نصرة مع تعظيم. (**وقال الطبرى**)، وهو محمد بن جرير، كما تقدم: (**تعينونه**) الإعانة أعم من النصرة، والتعزير من العزر بفتح فسكون، وهو الرد والدفع، ثم نقل لما ذكر لما فيه من دفع العدو والنقائص، ولذا قيل لما دون الحد: تعزير؛ لردعه ودفع عوده لجنايته، وله معنى آخر، وهو الوقوف على الأحكام.

(**وقرىء**) فى الشواذ (**تعززوه بزائين**) معجمتين تفعيل (**من العز**)، وهو التقوية والغلبة كما فى قوله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: ١٤]، والعزيز رفعة القدر، وهذه كالمفسرة للقراءة المشهورة.

(**ونهوا**)، أى نهاهم الله فى الآية الثانية، (**عن التقدم بين يديه**)، أى بحضرته وعنده (**بالقول**) بأن يسبقه بالكلام، (**وسوء الأدب بسبقه بالكلام**) فى أمر ما، (**وهو قول ابن

عباس وغيره واختيار ثعلب) فى تفسير الآية، وثعلب لقب إمام العربية واللغة، وهو أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد الشيبانى البغدادى، توفى سنة إحدى وتسعين ومائتين.

(وقال سهل بن عبد الله) التسترى الإمام الزاهد شيخ الطريقة فى تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١]: **(لا تقولوا قبل أن يقول)**، فتستفتحون الكلام عنده، وهو ترك أدب، **(وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا)**، أى اسكتوا.

ثم عطف عليه عطف تفسير قوله: **(ونهوا عن التقدم والتعجل بقضاء أمر قبل قضائه فيه)**، أى فى الأمر، **(وأن يفتاتوا)**، أى يستبدوا ويستقلوا **(بشىء فى ذلك)**، أى فى قضاء أمر من الأمور عنده، يقال: افتأت، بفاء وهمزة أصلية عند أبى عمرو وغيره من أهل اللغة، أو هى مبدلة من حرف العلة كما قالوا فى رثيت الميت رثائة، فهو من الفوت عند بعضهم، ويقال: افتات، بألف.

ويقال: افتات الباطل إذا اختلقه **(من قتال أو غيره من أمر دينهم إلا بأمره ولا يسبقوه به، وإلى هذا)** المذكور فى تفسير الآية **(يرجع قول الحسن)** البصرى **(ومجاهد والضحاك والسدى و)** سفيان **(الثورى)**، يعنى أنهم فسروا الآية بما هذا حاصله، ومآله إشارة إلى أن أكثر المفسرين ارتضوه.

(ثم وعظهم الله) فى الآية بعدما ذكر **(وحذرهم مخالفة ذلك)**، أى أمره فى قضائه بعدما نهاهم عن سبقه بالقول، **(فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾)**، فدل على أن مخالفه غير متق ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم عند رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١] بأفعالهم، فهو رقيب عليهم يخشى من غضبه وعقابه، ففيه من الموعظة والتحذير ما لا يخفى.

(قال الماوردى) أبو الحسن، وقد تقدم ذكره: **(اتقوه يعنى)**، أى يريد الله به هنا **(فى التقدم)** بقرينة أول الآية، وإن كان مطلقًا.

(وقال السلمى) أبو عبد الرحمن، كما تقدم: **(اتقوا الله فى إهمال)** أى **(ترك حقه وتضييع حرمته)**، أى احترامه وتوقيره، **(إنه سميع لقولكم عليم بفعلكم)**، فسبقه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالقول ترك أدب من فعله لم يراع حقه، ولا وقر حرمته، فهو فى معنى ما قبله.

(ثم إنه تعالى نهاهم عن رفع الصوت فوق صوته) فى الآيات الأخيرة، وأعاد النداء اهتمامًا به وتنبيهًا على أنه أمر آخر مستقل بالنهى، ورفع الصوت بشدة الجهر سوء الأدب وغلظة يعتادها العوام، **(والجهر له)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، عطف تفسير على رفع الصوت **(بالقول كما يجهر بعضهم لبعض ويرفع صوته)**، المراد النهى عن ارتفاع

الأصوات عنده، وإن لم يكن الخطاب له في النداء.

(وقيل: كما ينادى بعضهم بعضًا)، فالمراد برفع الصوت النداء، فنهاهم عن أن ينادونه كما ينادى بعضهم بعضًا **(باسمه)**، فعبر عن النداء برفع الصوت؛ لأنه يلزمه غالبًا، فهو كقوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، وبيانه ما **(قال أبو محمد مكى)**، وهو مكى بن أبى طالب القيروانى المالكى، نزيل قرطبة، كان متبحرًا فى العلوم، لاسيما علوم القرآن، متواضعًا مجاب الدعوة، له تصانيف جليلة منها تفسيره المسمى بالهداية، وكتاب أحكام القرآن، توفى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة: **(أى لا تسابقوه بالكلام)**، هو معنى قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟﴾ إلى آخره.

(وتغلظوا له بالخطاب)، أى تخاطبوه بغلظة، وأصل الغلظة ضد الرقة فى الأجسام، ثم شاع فى المعانى والخطاب توجيه الخطاب للغير، والمراد به هنا الكلام المخاطب به، **(ولا تنادوه باسمه نداء بعضكم بعضًا)**، أى كنداء بعضكم، فهو منصوب على المصدرية، وهو عطف تفسير، **(ولكن عظموه ووقروه ونادوه بأشرف ما يحب أن ينادى به، يا نبى الله، يا رسول الله)** بدل من أشرف، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الحجرات: ٢]؛ لأن كثيرًا من جفاة الأعراب دأبهم فيما بينهم هذا.

(وهذا)، أى ما قاله مكى، **(كقوله فى الآية الأخرى ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾)**، وجهه أن النهى عن الشىء أمر بضده أو بتضمنه، وقد نهى الله تعالى عن هذه الأمور التى تقتضى إهانته، فكأنه أمر بتعظيمه وتوقيره **(على أحد التأويلين)**، أى التفسيرين اللذين ذكرا فى التفاسير، وهو أن يكون الدعاء بمعنى النداء والتسمية، أى لا تنادوه باسمه رافعين أصواتكم بأن تقولوا: يا محمد، يا أبا القاسم، كما ينادى بعضكم بعضًا إذا طلب إقباله، بل خاطبوه بأدب، فقولوا: يا رسول الله، يا نبى الله، يا خير خلق الله، ونحوه.

والثاني: أن يكون المراد بالدعاء الدعاء على أحد، أى لا تظنوا أن دعاءه كدعائكم يحتمل الإجابة وعدمها كدعائكم، سواء كان بخير أو شر، فإن الله ضمن له إجابة دعائه ووعده بها من لا يخلف الميعاد، وهذا غير مراد هنا كما أشار إليه المصنف، رحمه الله تعالى، وهو الذى قاله مكى.

و**(قال غيره)**، أى غير مكى: معنى الآية، أى ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ...﴾ إلى آخره، **(لا تخاطبوه إلا مستفهمين)**، وفى نسخة: إلا مشفقين، من الإشفاق، وهو الخوف وعلى الأول معناه: إلا سائلين له متعلمين منه بالأدب.

(ثم خوفهم الله عز وجل) من **(أن تحبط أعمالهم إن هم فعلوا ذلك)**، أى جهروا له

بالقول ولم يتأدبوا عنده، **(وحذرهم منه)** أى من فعلهم هذا بقوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، فإن تحبط فى محل نصب بنزع الخافض أو بحذف المضاف، أى لأن لا تفعلوا ما يؤدى إلى إحباط أعمالكم بالاستخفاف به، وهو كفر، فليس فيه دليل لإحباط الأعمال بالكبيرة كما قاله المعتزلة والخوارج.

قال فى الإمتاع: من خصائصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه لا يجوز لأحد أن يناديه باسمه، وما ورد فى الحديث من أن أعرابيًا قال له، صلى الله تعالى عليه وسلم: يا محمد، أنا رسول لك... إلى آخره، صدر منه قبل إسلامه، أو قبل النهى، أو قبل علمه به، ثم إنه لو ناداه أحد بكنيته، فقال: يا أبا القاسم، هل يحرم أم لا؟ انتهى. ويأتى ما فيه، وأن هذا مخصوص بحياته، ولا يخفى أن هذا مقيد بما فيه استخفاف، فلو اقتضته حال لم يحرم كما فى حال الحرب والمجادلة.

(قيل: نزلت الآية فى وفد بنى تميم)، قبيلة مشهورة سموا باسم جدهم، والوفد جمع وافد، وهو القادم على العظماء لأمر ما، وكان ذلك فى سنة تسع، وهو سنة الوفود، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم، أرسل لهم سرية، فهجموا عليهم، وأخذوا مواشيهم وأسارى قدموا بها المدينة، فحبسوا فى دار رملة بنت الحارث، فأرسلوا عدة من رؤسائهم، فجاؤا بابه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ونادوا: يا محمد، اخرج إلينا، كما فصل فى السير.

(وقيل): نزلت الآية **(فى غيرهم)**، أى غير بنى تميم من العرب، **(أتوا النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فنادوه)** من خلف داره: **(يا محمد اخرج إلينا، فذمهم الله تعالى بالجهل)** بمقام النبوة وترك الأدب، **(ووصفهم بأن أكثرهم لا يعقلون)** بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤].

(وقيل: نزلت الآية الأولى)، أى قوله: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] **(فى محاورة)** بميم مضمومة وحاء وراء مهملتين، وهى المجادلة ومراجعة القول **(بين أبى بكر وعمر، رضى الله تعالى عنهما، بين يدى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى فى مجلسه وحضوره، **(واختلاف جرى)**، أى وقع **(بينهما حتى ارتفعت أصواتهما)**.

وهما كما فى البخارى عن الزبير، رضى الله عنه، وهو أن أبا بكر، رضى الله تعالى عنه، قال فى أمر بنى تميم لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: أمر عليهم القعقاع بن معبد، فقال عمر، رضى الله تعالى عنه: بل الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافى، فقال عمر: ما أردت خلافك، وتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت الآية،

فما كانت بعدها يسمع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى يستفهمه، والحكم عام وسببه خاص. وقيل: إنه فى أمر الزبرقان والذى ارتضاه السيوطى الأول.

(وقيل: نزلت الآية) كما روى عن ابن عباس، **(فى ثابت)** بن قيس **(بن شماس)** بن مالك بن امرىء القيس الخزرجى الأنصارى، وكان خطيب الأنصار، وكان أيضًا **(خطيب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، ليس المراد بالخطيب خطيب الجمعة والعيدين، بل ما كان من عادة العرب إذا اجتمعوا لمهم يقوم واحد منهم، ويذكر كلامًا بليغًا مقدمة للأمر الذى اجتمعوا له كالمفاخرة وتفضيل بعضهم بِعَدّ مآثره، فكان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، خطباء عند الوفود، وشعراء كحسان، رضى الله تعالى عنه **(فى مفاخرة بنى تميم)** لما قدم وفدهم عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشرف وكرم، ودخلوا المسجد، ونادوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: أن اخرج إلينا يا محمد، ورفعوا أصواتهم، فآذى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صياحهم، فخرج إليهم، فقالوا: جئناك لنفاخرك، فأذن لخطيبنا أو شاعرنا.

فأذن لهم، فقام خطيبهم وهو عطارد، فقال: الحمد لله الذى له علينا الفضل والمن وهو أهله، الذى جعلنا ملوكًا، ووهب لنا أموالاً عظامًا نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق، وأكثره عددًا وعدة، فمن مثلنا فى الناس؟ ألسنا برءوس الناس وأولى فضلهم، فمن فاخرنا فليعد مثل عددنا، ولو شئنا لأكثرنا الكلام، ولكنا نجباء من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نعرف بذلك أقول هذا، لأن يأتوا بمثل قولنا، أو أمر أفضل من أمرنا، ثم جلس.

فقال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لثابت بن قيس بن شماس الخزرجى: «قم فأجبه»، فقام وقال: الحمد لله الذى السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يكن شىء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا، واصطفى من خير خلقه رسولاً أكرمه نسبًا، وأصدقه حديثًا، وأفضله حسبًا، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله تعالى من العالمين، دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسوله المهاجرون من قومه، وذوى رحمه أكرم الناس أحسابًا، وأحسنهم وجوهًا، وخيرهم فعالاً، ثم كنا أول الخلق إجابة لله تعالى حين دعانا رسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فنحن أنصار الله ووزراء رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه وكان قتله علينا يسيرًا، أقول قولى هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم.

ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر، فأنشد شعرًا فى فخر قومه، فأمر رسول الله، صلى

الله تعالى عليه وسلم، حسان فأجابه، كما هو مبسوط فى السير، فأسلم بنو تميم، فرد عليهم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، سبيهم وماهم[1].

وروى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «ما بالشعر بعثت ولا بالفخر، ولكن هاتوا ما عندكم».

(وكان فى أذنيه)، أى فى أذنى ثابت، رضى الله تعالى عنه، **(صمم، فكان يرفع صوته)**، أى كان هذا دأبه كما نراه فيمن به صمم، وإنما المحتاج لرفع الصوت من يكلمه ليسمعه، أو نسب الرفع له؛ لأنه سببه، والأول هو المراد كما صرح به، **(فلما نزلت هذه الآية)** التى نهت عن رفع الأصوات عنده، **(أقام فى منزله)**، يعنى لم يأت مجلس رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وخشى أن يحبط عمله)** برفع الصوت عنده، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(ثم أتى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم) ليعتذر له عن سبب تخلفه عنه بعدما سأل عنه، **(فقال: يا نبى الله، لقد خشيت أن أكون هلكت)**، أى تحقق هلاكى؛ لأنى إن حضرت عندك بطل عملى، وإن تخلفت فاتنى كل خير، وليس المراد بلزوم منزله أنه ترك حضور صلاة الجماعة معه لمرض لحقه من شدة خوفه كما قيل، إذ ليس هنا ما يدل عليه.

وقد بين موجب هلاكه الذى تحقق عنده حتى كأنه وقع بقوله: **(نهانا الله تعالى أن نجهر بالقول)** عندك **(وأنا امرؤ جهير الصوت، فقال)** رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(يا ثابت، أما ترضى أن تعيش حميدًا؟)**، أى محمودًا عند الله تعالى والناس، وهذا يدل على قبول عمله، وأنه لا يحبط، فهو الجواب حقيقة، **(وتقتل شهيدًا؟)** فيكون لك خير الدنيا والآخرة، **(وتدخل الجنة؟)**، وفيه معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم لإخباره بالغيب، كما أشار إليه بقوله: **(فقتل يوم اليمامة)**، أى فى وقعة اليمامة، فى خلافة أبى بكر الصديق سنة ثنتى عشرة، فى ربيع الأول، وهى وقعة مسيلمة المشهورة.

واليمامة اسم مدينة من جانب اليمن على مرحلتين من الطائف، وأربع من مكة، وكان خرج فى وقعتها مع خالد بن الوليد، فلما التقو لم يثبتوا، فقال ثابت وسالم مولى أبى حذيفة: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فحفر كل واحد منهما حفرة له وثبتا وقاتلا حتى قتلا.

(وروى) رواه طارق بن شهاب، **(أن أبا بكر)** الصديق، رضى الله تعالى عنه، **(لما**

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥/٣١٤)، والطبرانى فى تفسيره (٤/٩٠)، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٣/٩١، ٤/١٣٣).

نزلت هذه الآية) ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجرات: ٢] صلى الله تعالى عليه وسلم، (قال) أبو بكر، رضى الله عنه، امتثالاً لقول الله تعالى، وخوفًا من مخالفة نهيه، ولذا أكده بالقسم، فقال: (والله يا رسول الله لا أكلمك بعدها)، أى بعد نزول هذه الآية (إلا كأخى السرار)، أى إلا كلامًا خفيًا كالمسارة، وهى الكلام بخفية حتى لا يسمعه من عنده، والسرار بكسر السين مصدر ساره مسارة وسرارًا، وهى مفاعلة من السر، والأخ فى النسب معروف يتجوز به عن المثل والشبه، كقولهم: كان وأخواتها، ويكون بمعنى الصاحب، والمراد الأول، ويجوز إرادة الثانى، وهذا مروى عن ابن عباس، وعمر، رضى الله تعالى عنهما، أيضًا كما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، بقوله: (وإن عمر كان إذا حدثه)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (حدثه كأخى السرار)، وهذه العبارة من كلامهم قديمًا (ما كان يُسمع) بضم الياء وكسر الميم وفاعله ضمير أبى بكر أو عمر (رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد) نزول (هذه الآية، حتى يستفهمه) رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لشدة إخفائه كلامه، وهو تفسير لقوله: كأخى السرار.

(فأنزل الله تعالى فيهم)، أى فى حق أبى بكر وعمر، رضى الله تعالى عنهما، ومن ضاهاهما كثابت، مدحًا لهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ﴾ أى يخفونها ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

والامتحان التجربة، والمراد أنه عاملهم معاملة المحنة؛ ليظهر للناس أدبهم وتقواهم، واستحقاقهم للأجر العظيم، (وقيل: نزلت) آية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ [الحجرات: ٤] إلى آخره، (فى غير بنى تميم) من الأعراب، (نادوه باسمه)؛ لجهلهم بمقامه، وعدم أدبهم.

(وروى) رواه الترمذى، والنسائى، (عن صفوان بن عسال)، بفتح العين والسين المشددة المهملتين، ابن الربض بن زاهد المرادى الكوفى الصحابى المشهور، روى عنه الستة، (بينا) بألف كافة كبينما، وفى نسخة: بينما، (رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى سفر، إذ ناداه أعرابى بصوت له جهورى)، بفتح الجيم وسكون الهاء وواو مفتوحة، أى صياح شديد، يقال: جهور وجهر، إذا رفع صوته، وهو جهورى الصوت وجهيره، أى رفيعه، بين ظرف مكان أو زمان تجاب بجملة، وقد تقرن بإذا، وإذا الفجائية، والأفصح تركها، كقوله:

فبينما نحن نرقبه أتانا ... يعلق وقصة وزنا ذراعى

وتقع بعدها الجمل إذا كفت بما أو ألف (أيا محمد أيا محمد) مرتين، وفى نسخة ثلاثًا، وأيا ينادى بها البعيد، (فقلنا له)، أى قال له الصحابة تعليمًا له وتأديبًا: (اغضض من صوتك)، أى لا ترفعه، (فإنك قد نُهيت عن رفع الصوت)، أى نهاك الله تعالى عنه،

حذف فاعله للعلم به.

واعلم أن رفع الصوت يكره فى بعض المواضع، كمجلس العظماء إذا تكلف ذلك من غير داع، وقد يستحب فى بعض المواضع، كالأذان وكمجالس الوعظ والخطبة، ولذا روى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان إذا خطب وذكر الساعة غضب وعلا صوته حتى يسمع بالسوق، وكانت العرب تفخر بالصوت الجهير، كما قيل(١):

جهير الكلام جهير العطاس جهير الرواء جهير النغم

فنهى الله عما اعتادوه فى الجاهلية، وقول لقمان لابنه ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾ [لقمان: ١٩]، نهى عن الجهر تهاونًا بالناس، ثم ذكر من توقيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، أمرًا آخر، فقال: (**وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾** [البقرة: ١٠٤])، كان المؤمنون يقولونه لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذ خاطبهم، يريدون تأن فى خطابك حتى نفهم كلامك، فراع مقامنا، فإنا لسنا فهما مثلك، فانظر لحالنا، فانتهز اليهود الفرصة وقالوها؛ لأنها كانت كلمة يتسابون بها كما يأتى عن الكشاف.

(**قال بعض المفسرين: هى لغة فى الأنصار**)، كانوا يقولونها فى محاورتهم إذا أرادوا التفهم، (**نهوا عن قولها تعظيمًا للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**)؛ لإيهامها ولاعتياد خطاب الأقران، (**وتبجيلاً له**)، أى تفخيمًا له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو أبلغ من التعظيم؛ لأن معناه، قال له: بجل، أى حسبك؛ (**لأن معناها ارعنا نرعك**) من المراعاة، أى احفظنا نحفظك، (**فنهوا عن قولها**)، أى هذه الكلمة (**إذ مقتضاها**) على تفسيرها السابق (**أنهم لا يرعونه**) ويراعون مقامه (**إلا برعايته لهم**)؛ لأن المعنى: ارعنا نرعك، (**بل حقه**) اللائق به (**أن يرعى على كل حال**) راعاهم أم لا بخلاف انظرنا، فإن معناها انظر إلينا وفهمنا وبين لنا وهيئ كل أدب، فلذا أمر الله تعالى بأن يقال له: انظرنا دون راعنا.

(**وقيل: كانت اليهود تعرض بها له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالرعونة**)، وهى الخفة والحماقة، وجعلها تعريضًا؛ لأنها تحتمل الرعاية احتمالاً ظاهرًا، وقول البرهان أنها إنما تأتى على قراءة شاذة، راعنا بالتنوين والنصب ليس بشىء؛ لأنه لو كان كذلك كان تصريحًا لا تعريضًا، ولذا روى أن اليهود قالوا: كنا نسب محمدًا سرًا، فصار ذلك علنًا، فكانوا يقولون: يا محمد راعنا، ويضحكون، ففطن لهم سعد بن معاذ، رضى الله عنه، فقال لليهود: عليكم لعنة الله، والله لأضربن عنق من سمعته يقولها.

(**فنهى المسلمون**) مبنى للمفعول، أى نهاهم الله عز وجل (**عن قولها قطعًا للذريعة**)،

---

(١) البيت من المتقارب، وهو بلا نسبة فى أساس البلاغة (جهر).

الذريعة في اللغة الوسيلة والسبب، وقال بعض شراح المدونة: إن أصل معناها لغة جمل يترك هملاً فى فلاة يصاد فيها الظباء والحمر الوحشية، فتأنس الصيد وتدور معه، فإذا ذهبوا للصيد لم يهرب الجمل منهم لإلفه بالناس، فإذا وقف وقف الصيد معه، فيأخذون منه بسهولة، ثم سمى كل ما كان سببًا للهلاك، فإنه سبب لهلاك الصيد الذى معه، كما أن هذه سبب لهلاك من قالها، فلذلك جعلت ذريعة، وهى فعيلة بذال معجمة وراء وعين مهملتين.

واعلم أن الشراح، رحمهم الله تعالى، لم يتعرضوا هنا لبيان المراد بهذه العبارة هنا، وهى إشارة إلى قاعدة مشهورة فى مذهب الإمام مالك، وهى وجوب سد الذريعة، أى يجب دفع كل ما يؤدى إلى فساد فى أمر مشروع، وقد ظن كثير أن هذه المسألة مخصوصة بمذهب مالك، وأنه واجب عنده مطلقًا، وليس كذلك، كما قاله العلامة القرافى، حيث قال: ليس كل ذريعة فسادًا يجب سدها مطلقًا، فإن الذرائع ثلاثة أقسام:

فمنها: ما أجمع الناس على وجوب سده، كسب الأصنام عند من يسب الله إذا سبت، وحفر الآبار فى طريق المسلمين، وإلقاء سم فى طعامهم.

ومنها: ما أجمعوا على عدمه كالمنع من غرس الكروم؛ لئلا يتخذ منها خمر.

ومنها: ما اختلف فيه كبيوع الآجال.

ومنها: ما يكون خلاف الأولى، وقد تكون ذريعة الفساد ذريعة لمصلحة أيضًا، فيقدم الأرجح منهما كدفع المال للكفار لافتداء الأسير، والحاصل كما نقله بعضهم من علمائهم المتأخرين أن سد الذريعة فى الأصل من باب الورع والاحتياط، لا من الواجب، إذ المفعول بها ليس فسادًا فى حد ذاته، والفساد معها مظنون، وقد اشتهر نسبة هذه المسألة للمالكية، حتى ظن كثير أنها من خواصهم، وليس كذلك كما علم مما بينه القرافى.

(**ومنعًا للتشبيه بهم**)، أى أن يتشبه المؤمنون باليهود (**فى قولها**)، أى فى التكلم بهذه الكلمة (**لمشاركة اللفظ**) واتحاده، وإن كان قصد المسلمين غير ما قصده اليهود. وقال الواحدى فى الوسيط: النهى عن التكلم بهذه الكلمة مخصوص بذلك الوقت؛ لإجماع الأمة على جواز المخاطبة بهذه اللفظة الآن، ونقله الأصبهانى فى تفسيره، ويبقى الكلام فى استحباب الترك.

(**وقيل**) فى تفسير هذه الآية (**غير هذا**) المذكور فى تفسيرها، ففى الكشاف: كان المسلمون يقولون له صلى الله تعالى عليه وسلم إذا خفى عليهم شىء من كلامه: راعنا، أى تأن حتى نفهم كلامك ونحفظه، وكان لليهود كلمة سريانية أو عبرانية يتسابون بها،

وهى راعنا، فلما سمعوا قول المسلمين: راعنا، بمعنى انظر إلينا، انتهزوا الفرصة وقالوها، يريدون سبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بها، فنهى المسلمون عن قولها؛ لما فيها من الإيهام، وأمروا أن يقولوا: انظرنا، من النظرة، أى أمهلنا.

* * *

(فصل فى عادة الصحابة فى تعظيمه عليه الصلاة والسلام وتوقيره وإجلاله)

أى فى نقل أخبارهم فيما كانوا يعتادونه من المعاملة معه بالأدب وغاية الإجلال، فمنه ما رواه المصنف، رحمه الله تعالى، هنا من حديث طويل رواه مسلم، وأشار إليه بقوله: **(حدثنا القاضى أبو على الصدفى)**، هو ابن سكرة، وقد تقدم أن الصدفى نسبة لصدف قرية بالمغرب، **(وأبو بحر الأسدى)**، نسبة لقبيلته، **(بسماعى عليهما فى آخرين)** مبتدأ وخبر إشارة إلى أنهما من مشايخه، ولطريق روايته هذا الحديث عنهما.

(قالوا:)، أى شيخاه لا هما والآخرون؛ لأنه لم يرو عنهم، وعبر بضمير الجمع تعظيمًا، أو لأن الواحد وما فوقه جمع **(حدثنا أحمد بن عمر)**، قال: **(حدثنا أحمد بن الحسن)** أبو العباس بن بندار الرازى المعروف بالرواية، وفى بعض النسخ الحسين، والصحيح الأول، قال: **(حدثنا محمد بن عيسى)**، هو الجلودى كما تقدم، قال: **(حدثنا إبراهيم بن سفيان)**، قدمنا ترجمته، قال: **(حدثنا مسلم)** صاحب الصحيح، وقد تقدمت ترجمته، قال: **(حدثنا محمد بن مثنى)**، تقدم تفصيل ترجمته، **(وأبو معن الرقاشى)**، وهو زيد بن يزيد البصرى الثقة، **(وإسحاق بن منصور)** الحافظ الثقة المعروف بالكوسج، أخرج له الستة، وتوفى سنة إحدى وخمسين ومائتين.

(قالوا: حدثنا الضحاك بن مخلد) أبو عاصم الشيبانى البصرى الثقة، توفى فى ذى الحجة سنة ثلاث عشر ومائتين، وترجمته فى الميزان، قال: **(حدثنا حيوة بن شريح)**، تقدم أيضًا، وفى نسخة: أنبأنا، قال: **(حدثنا يزيد بن أبى حبيب)** الأزدى محدث مصر، وكان حبشيًا من العلماء الحكماء الأتقياء، توفى سنة ثمان وعشرين ومائة، وأخرج له الستة، **(عن ابن شماس)**، بضم الشين المعجمة وفتحها وميم مخففة وألف وسين مهملة، واسمه عبد الرحمن **(المهرى)** بميم مفتوحة وهاء ساكنة وراء مهملة وياء نسبة، وهو حافظ ثقة، توفى فى خلافة يزيد بن عبد الملك، وما وقع فى بعض النسخ من أنه الفهرى بالفاء بدل الميم تحريف.

(قال: حضرنا عمرو بن العاص) يرسم بياء، وقد تحذف كما مر، **(فذكر حديثًا طويلاً فيه عن عمرو، قال: وما كان أحدٌ أحب إلىّ من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا)** أحد **(أجل فى عينى منه)** تثنية عين، ويجوز إفراده والمعنى واحد، **(وما كنت أطيق)**،

أى أقدر (**أن أملأ عينى منه**)، أى أطيل النظر إليه، وملء العين تحقيق النظر وتطويله، وهو مجاز مشهور، وقوله: ولكن ملء عين حبيبها بمعنى آخر، بمعنى ما يعجبه ويحسن منظره (**إجلالاً له**)، أى لإجلاله ومهابته، (**ولو شئت أن أصفه**) بحليته (**ما أطقت**) وقدرت؛ لعدم إحاطة علمى به؛ (**لأنى لم أكن أملأ عينى منه**)، لو هنا لتحقيق الجواب على كل حال، كقوله: (**نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه**)، أى لا أقدر أن أصفه على تقدير أنى شئت، فكيف إذا لم أشأ، فلا يقال: إن لو، لامتناع الشرط والجواب، فيقتضى أنه يطيق وصفه، والمراد خلافه.

وحديث مسلم فى الإيمان: حضرنا عمرًا فى سياقة الموت يبكى طويلاً، وحول وجهه إلى الجدار، فقال ابنه عبد الله: يا أبتاه، أما بشرك رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بكذا وكذا، فأقبل بوجهه، وقال: إن أفضل ما بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، أنى كنت على أطباق ثلاث إلى آخره، فذكر حاله فى جاهليته وبغضه لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم ذكر إسلامه وشدة حبه له بعد ذلك، ثم ذكر ما آل إليه أمره فى الولاية وخوفه من آثامها، رضى الله تعالى عنه.

(**وروى الترمذى، عن أنس**)، رضى الله تعالى عنه، (**أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يخرج**) من بيته (**على أصحابه من المهاجرين والأنصار**)، رضى الله تعالى عنهم، وعداه بعلى وهو يتعدى بإلى، ومعناه خروج خاص لمن لم ينظره، (**وهم جلوس**) فى المسجد، (**فيهم أبو بكر وعمر**)، رضى الله تعالى عنهما، (**فلا يرفع أحد منهم إليه بصره**)، بل يطرقون لمهابته، (**إلا أبو بكر وعمر، رضى الله تعالى عنهما**)، ويجوز إلا أبا بكر وعمر نصبا، (**فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما، ويتبسمان إليه ويتبسم إليهما**)؛ لما بينهما من الألفة، وقدم الصحبة والصهارة، ولتمكن مقامهما عنده، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(**وروى أسامة بن شريك**) الصحابى الثعلبى، من ثعلبة بن يربوع، وهو الأصح، وقيل: من ثعلبة بن يشكر، وقد أخرج له أصحاب السنن وأحمد فى مسنده، (**قال:**)، أى أسامة، (**أتيت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأصحابه حوله**)، أى محيطون به فى مجلسه، (**كأنما على رءوسهم الطير**)، هذا مثل تضربه العرب لشدة الرزانة والسكون؛ لأن الطير لا تنزل إلا على ساكن، وقد تقدم فى مقصورتى النبوية:

كأنما الطير على رءوسهم ... من كل غصن فى ربا المجد نما

وهذا الحديث رواه الأربعة، وصححه الترمذى.

(**وفى حديث صفته**)، بالتاء المثناة الفوقية، يعنى حديث الحلية المشهور، وصحفه

بعضهم بصفية، بالياء التحتية، اسم امرأة، ولا يعرف هذا، وإنما المعروف روايته عن هند ابن أبى هالة كما تقدم، (**إذا تكلم**) صلى الله تعالى عليه وسلم، (**أطرق جلساؤه، كأنما على رءوسهم الطير**)، أى طأطئوا رءوسهم تأدبًا، وذكر هذا مع ما تقدم، إشارة لتعدد طرقه، ولما بينهما من المغايرة بذكر وجه الشبه والعموم فى الجلساء؛ لما فيه من أن كل من حضر مجلسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولو من أعدائه يهابه؛ لأنه أمر ذاتى له.

(**وقال عروة بن مسعود**)، رضى الله تعالى عنه، ابن معتب الثقفى (**حين وجهته قريش إلى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم**) سنة سبع بالحديبية؛ لما صدوه عن دخول مكة معتمرًا (**عام القضية**)، أراد بها قصة الحديبية، وقيل: أراد السنة التى قضى فيها العمرة، فالقضية بمعنى القضاء، والمراد عام جرى فيه القضاء والقضية، إذ القضاء وقع بعد الحديبية، وعروة إنما جاء بالحديبية، فهو محتاج للتأويل، ولذا قيل: إن القضية وقعت عام الحديبية سنة ست، وعام القضاء كان سنة سبع بعد فتح خيبر، فلعل المصنف أراد القضية اللغوية التى جرت فى الحديبية من الصلح، والصد عن البيت، وبيعة الشجرة، ولم يرد القضية التى أرادها أهل السير. انتهى.

وهذا بناء على أن عمرته صلى الله تعالى عليه وسلم بالحديبية لم تتم، ففسدت لما صدوه عن البيت، وقد اختلف الفقهاء فى مثله، فقيل: يجب الهدى ولا قضاء، وقيل: يجب القضاء بلا هدى، وقيل: لا يلزمه هدى ولا قضاء، وقيل: يلزمه الهدى والقضاء، وقصة القضية مفصلة فى السير، وعروة هذا أسلم لما انصرف النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الطائف وأدركه قبل وصوله إلى المدينة، وكان حين أرسلوه مشركًا.

(**ورأى**) عروة (**من تعظيم أصحابه له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما رأى**)، هذا فيه من المبالغة ما فى قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، أى رأى من إكرامهم له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتعظيمهم له شيئًا عظيمًا لا يمكن التعبير عنه؛ لفواته الحصر، ولذا أبهمه، وإن ذكر بعضًا منه، بقوله: (**وإنه**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**لا يتوضأ إلا ابتدروا**) أى أسرعوا وأخذوا (**وضوءه**) بفتح الواو، بقية الماء الذى توضأ به وما تساقط منه قبل وصوله إلى الأرض، (**وكادوا**)، أى قربوا لازدحامهم ودفع بعضهم بعضًا من (**أن يقتتلوا عليه**)، أى على وضوئه وأخذه لحرصهم على التبرك بما مسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بيده.

(**ولا بصق بصاقًا**)، أى رمى شيئًا من ريقه الشريف (**ولا تنخم نخامة**) بضم النون؛ لأن فعالة وضعها لكل قليل انفصل من شيء كالبراية، والتنخم إخراجه من الفم، والفرق بين البصاق والنخامة أن الأول ما يخرج من الفم، والثانى ما يخرج من أقصى الحلق (**إلا**

تلقوها)، أى النخامة (**بأكفهم**)، واكتفى بضميرها عن ضمير البصاق، وكان الظاهر تلقوهما، أو جعلهما شيئًا واحدًا لاتحادهما جنسًا (**فدلكوا بها وجوههم وأجسادهم**) تبركًا بهما، (**ولا تسقط منه شعرة**)، بفتح العين وسكونها فى حلاقة رأس ونحوه (**إلا ابتدروها**) وسارعوا لأخذها.

(**وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره**) بالامتثال، والأمر مصدر أو بمعنى المأمور، وكان حقه أن يقول: ابتدروه، فصرح به تفخيمًا لشأنه وتنويهًا لقدره.

(**وإذا تكلم**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**خفضوا أصواتهم عنده**)؛ لتبيين ما يقول لهم، (**ولا يحدون إليه النظر**)، أى لا ينظرون إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، نظرًا حديدًا، أى قويًا، أو لا يبلغ نظرهم إليه حده ومنتهاه، بل ينظرون إليه من طرف خفى مطرقين رءوسهم تأدبًا لجلالته فى قلوبهم (**تعظيمًا له**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، علة للنفى لا للمنفى، أى لا يتركون كمال نظرهم لتعظيمه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(**فلما رجع**) عروة (**إلى قريش، قال**) لهم: (**يا معشر قريش**)، المعشر والمعشرة بمعنى (**إنى جئت كسرى**)، بفتح الكاف وكسرها ملك فارس كما تقدم، (**فى ملكه**) فى زمن سلطنته، (**وقيصر**) ملك الروم (**فى ملكه، و**) جئت (**النجاشى**) ملك الحبشة (**فى ملكه**)، فرأيتهم وشاهدت عظمتهم، والنجاشى بفتح النون وكسرها وياؤه مشددة ومخففة كما مر، (**وإنى والله ما رأيت ملكًا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه**)، أى لا يعظمون ملكهم كما يعظمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أصحابه.

(**وفى رواية**) لحديث عروة (**إن**) بكسر وتخفيف نافية بمعنى ما (**رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه**) كمثل (**ما يعظم محمدًا أصحابه**)، ففيه مضاف مقدر وما مصدرية أو موصولة، أى كالتعظيم الذى يعظمه أصحابه، فالعائد مقدر، (**وقد رأيت قومًا**)، يعنى بهم الصحابة، رضى الله عنهم، (**لا يسلمونه**)، أى بضم أوله وسكون ثانيه المهمل وكسر لامه مضارع أسلمه، يقال: أسلمه لعدوه، إذا أمكنه منه وخلى بينهم وبينه، ويقال: أسلمه، إذا ألقاه فى هلكة، فهو عام أريد به خاص (**أبدًا**) ظرف لاستغراق الزمان المستقبل، كما أن قط لاستغراق الماضى، يعنى أن ما شاهدته من أحوالهم فى تعظيمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وانقيادهم له يدل على أنهم لا يقصرون فى نصره، ويبذلون أنفسهم دونه، وإياكم أن تطمعوا فى خلافه، وهذا بعض من حديث طويل رواه البخارى.

(**وعن أنس**) فى حديث رواه مسلم، قال فيه: (**لقد رأيت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، والحلاق**)، بتشديد اللام، وهو الذى يحلق شعر رأسه، فقوله: (**يحلقه**) بتقدير

مضاف، **(وقد أطاف به أصحابه)**، أى جلسوا حلقة حوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وطاف بمعنى دار، وأطاف بمعنى استدار من غير حركة، **(فما يريدون أن يقع شعرة)** من شعر رأسه **(إلا فى يد رجل)** منهم، حرصًا على التبرك بآثاره، صلى الله تعالى عليه وسلم، والذى حلق رأسه وقلم أظفاره معمر بن عبد الله العدوى فى حجة الوداع، وقال ابن الأثير فى الأنساب: إنه خراش بن أمية الكلبى، وكان ذلك يوم الحديبية، كما قاله ابن عبد البر، والذى حلقه بالجعرانة أبو هند، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يحلق رأسه إلا فى حج أو عمرة.

(ومن هذا)، أى تعظيم الصحابة له، صلى الله تعالى عليه وسلم **(لما أذنت قريش لعثمان)** بن عفان، رضى الله تعالى عنه، حين أرسله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى أهل مكة وهو بالحديبية، وقد صدوهم عن البيت وإرساله لإعلامهم بأنهم لم يأتوا لقتالهم، فلا وجه لصدهم عن دخول الحرم، فلم يرضوا بذلك، ولكنهم أذنوا لعثمان، رضى الله تعالى عنه **(فى الطواف بالبيت)** بعد منعهم منه له كغيره **(حين وجهه)**، أى أرسله رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لجهتهم **(فى القضية)**، أى قضية صدهم المسلمين عن البيت، وهم بالحديبية كما مر **(أبى)** الطواف، وهو جواب لما.

(وقال: ما كنت لأفعل) الطواف وحدى، ورسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قد منع منه، ولم يرسلنى لذلك، فلا أطوف **(حتى يطوف به رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، ففيه من تعظيمه والوقوف عند أمره ما لا يخفى، وهذه القصة مفصلة فى السير، وحاصل ذلك أنهم لما صدوهم عن دخول مكة وأرسلوا عروة لإعلامهم بذلك، أرسل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عثمان لعظماء قريش؛ ليخبرهم بمجيئه، صلى الله تعالى عليه وسلم، معتمرًا لا مقاتلاً، فلما دخل مكة أجاره أبان بن العاص، حتى بلغ رسالته، فلما بلغهم، قالوا له: يا عثمان، إن شئت فطف، فقال: ما كنت لأفعل، فاحتبسوه، وبلغ المسلمين أنه قتل، فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا نبرح حتى نناجز القوم الحرب»(١)، وبايع أصحابه بيعة الرضوان تحت الشجرة، كما رواه الترمذى، عن طلحة، رضى الله تعالى عنه، وقال: إنه حسن غريب، وقوله: ما كنت لأفعل، أبلغ من: لا أطوف.

(وفى حديث طلحة) الذى رواه الترمذى وحسنه، **(أن أصحاب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قالوا لأعرابى جاهلى: سله)**، أى سل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(عمن قضى نحبه)** فى قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾

---

(١) أخرجه ابن الجوزى فى زاد المسير (٧/٤٢٢).

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، والنحب النذر والعهد استعير هنا للموت؛ لأنه للزومه كأنه نذر فى ذمته يجب قضاؤه وإلزام نفسه أن يجاهد فى سبيل الله، وقتال أعدائه، والثبات فى مواقفه، حتى كأنه نذر عليه، والمراد هنا الثانى، فمن اقتصر على الأول، فقد قصر، أى منهم من قاتل حتى مات شهيدًا كحمزة، رضى الله تعالى عنه.

(وكانوا)، أى أصحابه **(يهابونه ويوقرونه)**، فلا يكثرون سؤاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إجلالاً له، **(فسأله)** الأعرابى، **(فأعرض عنه)** ولم يجبه، **(إذ طلع طلحة)**، أى كان إعراضه فى وقت طلوعه، أى بجيئه لمجلسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: إذ هنا فجائية، كقوله:

فبينمـا العسـر إذ دارت مياسيـر

أى فاجأهم طلوعه عليهم بغتة، **(فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: هذا ممن قضى نحبه)**، وهو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن كعب بن سعد التيمى، أحد العشرة، وفى الصحابة طلحة تيمى غيره، وهو الذى نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣] الآية. وروى أبو نعيم أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، تلا هذه الآية على المنبر، فسأله رجل: من هؤلاء؟ فأقبل طلحة بن عبيد الله، فقال: «هذا منهم»[1]، وكذا فى سنن ابن ماجه.

وفى تفسير ابن أبى حاتم: أن عمارًا منهم. وفى تفسير يحيى بن سلام: هم حمزة وأصحابه. قال ابن التين: كان ممن مات ذلك اليوم عبد الله بن جحش، ومنهم من ينتظر منهم طلحة بن عبيد الله. انتهى.

قال ابن الملقن: فاجتمع منهم أنس بن النضر، وطلحة بن عبيد الله، وعمار، وحمزة، وأصحابه الذين قتلوا معه بأحد. انتهى.

وطلحة هذا هو الملقب بطلحة الخير والفياض، وإنما قال، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حقه ذلك؛ لأنه كان قد غاب عن بدر، فقال: لئن حضرت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مشهدًا آخر ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أُحُد أبلى فيه بلاء حسنًا، ووقى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يومئذ بنفسه، واتقى النبل عنه بيده، حتى شلت أصابعه، وحمل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على ظهره حتى استعلى الصخرة، فلذا شهد له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بما شهد، وهو أحد العشرة، فالنحب هنا بمعنى العهد؛ لأنه مشترك بينه وبين النذر والموت، وفى الآية كلام طويل فى

---

(١) أخرجه الترمذى (٣٢٠٣، ٣٢٠٣، ٣٧٤٢)، وابن ماجه (١٢٦)، والطبرى فى تفسيره (٢١/٩٣)، وابن أبى عاصم فى السنة (٢/٦١٣).

التفاسير وأمالى ابن الحاجب ليس هذا محله.

(وفى حديث قيلة) الذى رواه أبو داود والترمذى، وقيلة بفتح القاف وسكون المثناة التحتية ولام وهاء، بنت مخرمة العنبرية الصحابية، وقيل: إنها تميمية كما تقدم، وحديثها فى الشمائل، وفيه قالت: **(فلما رأيته، صلى الله تعالى عليه وسلم، جالسًا القرفصاء)**، وهو نوع من الجلوس محتبيًا بيديه، قال فى القاموس: القرفصى مثلث القاف والفاء مقصور، والقرفصاء بضم القاف والراء، أن يجلس على أليتيه ويلصق فخذيه ببطنه ويحتبى بيديه ويضعهما على ساقيه، أو يجلس على ركبتيه متكئًا بطنه بفخذيه. انتهى.

(أرعدت)، أى حصل لى رعدة واضطراب **(من الفرق)** بفتحتين، أى شدة الخوف، **(وذلك)**، أى ما كان لى من الرعدة والخوف **(هيبة له وتعظيمًا)** لجلالته وعظمه فى عين رائيه.

(وفى حديث المغيرة) بن شعبة الذى رواه الحاكم والبيهقى، **(كان أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)** إذا أتوه لأمر وهو فى منزله **(يقرعون)**، القرع ضرب خفيف ومس له صوت، **(بابه بالأظافير)**، جمع ظفر، على غير القياس، أو جمع أظفور أو أظفار، بمعنى ظفر، فأظافير جمع الجمع، فالأول أولى؛ لأن جمع المفرد أقيس من جمع الجمع، وهذا أى ذكر الباب والقرع يقتضى أن حجرته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان لها باب من خشب ونحوه، وقد ورد أنه كان عليه ستر أو سجف، وجمع بأنه كان من جلد يقرع فليحرر، فإن مثله لا يقال بالرأى، واعلم أن مثله هذا هل يسمى حديثًا أو لا؟ وعلى تقدير تسميته حديثًا، هل هو مرفوع أم لا؟ اختلفوا فيه كما قال الحافظ العراقى فى ألفيته:

لكن حديث كان باب المصطفى يقرع بالأظفار مما وقفا
حكما لدى الحاكم والخطيب والرفع عند الشيخ ذو تصويب

والمراد بالشيخ ابن الصلاح، رحمه الله تعالى.

(وقال البراء بن عازب) بن حارث الخزرجى الأنصارى، توفى فى أيام مصعب بن الزبير، فى حديث رواه أبو يعلى وصححه: **(لقد كنت)**، اللام جواب قسم مقدر، أى والله، **(أريد أن أسأل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن الأمر)**، من الأمور التى تهمنى أو تخطر ببالى مما أحتاج لبيانه، **(فأؤخر)** بهمزتين، وقد تبدل الثانية واوًا، والأفصح الأول **(سنتين)** مثنى سنة، وفى نسخة: سنين، بصيغة الجمع، **(من هيبته)** صلى الله تعالى عليه وسلم، أى من مهابته فى قلبى وعظمته فى نفسى.

* * *

[فصل فى تعظيم النبى ﷺ بعد موته]

(**فصل واعلم**)، أمر من العلم معطوف على ما قبله، والخطاب عام لكل من يصلح له، وسد مسد مفعوليه، قوله: (**أن حرمته، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، بضم فسكون وبضمتين، وكهمزة، وهى المهابة، أى احترامه والتأدب معه (**بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم**) على كل أحد (**كما كان**) لازمًا فى (**حال حياته**)؛ لبقاء نبوته ورسالته، (**وذلك**)، أى ما ذكر من احترامه وتعظيمه لازم (**عند ذكره وذكر حديثه وسنته، وسماع اسمه وسيرته، ومعاملة آله**)، تقدم بيان المراد بهم، (**وعترته**) بكسر العين، وسكون المثناة، وكونها مثلثة خطأ من العامة، وهم نسله، ورهطه، وعشيرته الأدنون، ومعاملتهم بمعنى مخالطتهم فى أمور دينية أو دنيوية، (**وتعظيم أهل بيته**)، أى زوجاته، وخدمه، وأتباعه، وليس المراد به آله وعترته، حتى يكون إطنابًا، (**وصحابته**)، رضى الله تعالى عنهم.

(**قال أبو إبراهيم التجيبى**)، بضم التاء وفتحها كما تقدم: (**واجب على كل مؤمن**) خصه؛ لأن الكافر لا يجب عليه ذلك، وقيل: إنه يجب عليه أيضًا بناء على أنه مخاطب بفروع الشريعة، والوجوب عليه بمعنى مطالبته به فى الآخرة وعقابه عليه، (**متى ذكره صلى الله تعالى عليه وسلم أو ذكر عنده**) وسمعه (**أن يخضع**)، أى يبدى التذلل والاستكانة وخفض الجناح، وخضع يكون لازمًا، وهو المعروف، ومتعديًا يقال: خضع الحديث، أى لينه، (**ويخشع**) الخضوع والخشوع متقاربان، كما قاله الراغب.

وقيل: الخشوع أعم؛ لأنه يوصف به القلب والجماد، كترى الأرض خاشعة، ولا يخفى أنه مجاز لا يدل على مدعاه، (**ويتوقر**)، أى يظهر الوقار والرزانة، (**ويسكن من حركته ويأخذ**)، أى يشرع (**فى هيبته**)، أى إظهار مهابته صلى الله تعالى عليه وسلم، عنده (**وإجلاله**) بتعظيمه حق تعظيمه (**بما كان يأخذ به نفسه**)، أى يكلفها ويلزمها (**لو كان بين يديه صلى الله تعالى عليه وسلم**)، حاضرًا فى مجلسه، فيفرض ذلك ويلاحظه ويتمثله، فكأنه عنده، (**ويتأدب بما أدبنا الله به**)، مثل قوله تعالى: ﴿**لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ**﴾ [النور: ٦٣] إلى آخره، و﴿**لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَٰتَكُمْ**﴾ [الحجرات: ٢] وغيره كما تقدم آنفا.

وفيه إشارة إلى أن هذا ثابت بالقرآن أيضًا؛ لدخوله فى عموم ما تقدم وإطلاقه، وإن لم يرد تصريح فيه بخصوصه فى النصوص القرآنية، ومن لم يتنبه لهذا، قال: كان على المصنف، رحمه الله تعالى، أن يقدم دليلاً قرآنيًا على الحديثين، يدل على أن وجوب حرمته ميتًا كحرمته حيًا، كما هو دأبه، وأن يذكر أنه حكم عام فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى سائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لما ورد فى حقهم من المدح

والتعظيم.

وقوله تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ولقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، واقتران اسمه باسمه الواجب التعظيم، يقتضى تعظيمه، ولقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، الآتى: «رغم أنف من ذكرت عنده فلم يصل علىَّ»، ولا يخفى ما فيه.

(قال القاضى) أبو الفضل عياض المؤلف **(رحمه الله تعالى: وهذه)** الأمور المذكورة من توقيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، حيًا وميتًا، وأنثه باعتبار ما ذكر؛ لقوله: **(كانت سيرة سلفنا الصالح)**، أى دأب وطريقة من تقدم من الصالحين والعلماء العاملين، رضى الله تعالى عنهم أجمعين.

ثم بين هذه السيرة بقوله: **(حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الأشعرى)**، هو ابن سعيد القرطبى، وقد تقدم، **(وأبو القاسم بن بقى)**، بفتح الموحدة وتشديد القاف المكسورة وياء مثناة تحتية، **(الحاكم)**، وهو أحمد بن محمد بن أحمد بن مخلد بن يزيد بن بقى، **(وغير واحد فيما أجازونيه)**، أى روايته عنهم بطريق الإجازة المعروفة بين المحدثين كما بينه ابن الصلاح وغيره.

(قالوا): أى قال هؤلاء كلهم **(أنبأنا أبو العباس أحمد بن عمر بن دلهاث)**، بكسر الدال المهملة وسكون اللام وهاء وألف، يليها مثلثة بزنة جلباب علم مصروف منقول من اسم الأسد، كدلهث ودلاهث، قال: **(حدثنا أبو الحسن على بن فهر)**، بالكسر كاسم القبيلة، قال: **(حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج)**، قال: **(حدثنا أبو الحسن عبد الله بن المنتاب)**، بضم الميم وسكون النون وتاء مثناة فوقية، وألف وباء موحدة، وهو عبد الله بن المنتاب بن الفضل بن أيوب، قاضى المدينة، قال: **(حدثنا يعقوب بن إسحاق بن أبى إسرائيل)**، قال: **(حدثنا ابن حميد)**، بالتصغير، ابن حميد بن ثعلبة، أحد رواة مالك، **(قال: ناظر)** ماض من المناظرة، وهى المباحثة فى أمر من الأمور، وهى مفاعلة من النظر بمعنى الفكر؛ لأن كلا منهما ينظر فى كلام من يجادله، وفيه كلام فى شرح آداب البحث، ليس هذا محله.

(أبو جعفر أمير المؤمنين)، ثانى خلفاء بنى العباس أخو السفاح المعروف بالمنصور، وترجمته مفصلة فى التواريخ، **(مالكًا)** إمام المدينة وعالمها المشهور، رحمه الله، **(فى مسجد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، فرفع صوته فى مناظرته، **(فقال مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك فى هذا المسجد)** النبوى المحترم.

وأول من سمى بأمير المؤمنين على العموم عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، سماه

به المغيرة بن شعبة، وقيل: لبيد بن ربيعة، وعدى بن حاتم حين وفدا عليه من العراق، وقيل: إنه، رضى الله تعالى عنه، قال للناس: أنتم المؤمنون وأنا أميركم، فسمى بذلك، وكان قبل ذلك يقال له: يا خليفة خليفة رسول الله، فعدلوا عن ذلك لطوله، واحترزنا بعلى العموم عن عبد الله بن جحش، فإنه سمى بها على الخصوص فى ولايته على سرية اثنى عشر رجلاً، وقيل: ثمانية، وأول من سمى بأمير المسلمين يوسف بن تاشف بن الملثم.

(**فإن الله أدب قومًا، فقال:** ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ [الحجرات: ٢]) إلخ، وتقدم تفسيرها، (**ومدح قومًا، فقال:** ﴿ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ﴾ [الحجرات: ٣]) إلى آخره، وتقدم بيانها أيضًا، (**وذم قومًا، فقال:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ [الحجرات: ٤]) إلى آخره كما تقدم، (**وإن حرمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ميتًا كحرمته حيًا**)، أى ما يجب أن يراعى فى حقه فى حياته يراعى بعد مماته، (**فاستكان لها أبو جعفر**)، استكان افتعل من المسكنة، بمعنى خضع وذل، أشبعت حركته كما فى القاموس، وفيه كلام فى التصريف، وضمير لها راجع لمقالة الإمام مالك المعلومة من المقام، ولم يذكروا ما ناظره فيه؛ لأنه لا يترتب عليه فائدة هنا.

(**وقال**) أبو جعفر للإمام مالك: (**يا أبا عبد الله**)، كناه تعظيمًا له بسؤاله، بقوله: (**أستقبل القبلة**)، أصله: أأستقبل، بهمزتين، همزة الاستفهام وهمزة المضارع للمتكلم، فحذفت الأولى للتخفيف، ووجود القرينة، وقد ورد حذفها كثيرًا، كقوله:

فوالله ما أدرى وإن كنت داريا بسبع رمين الجمر أم بثمان

وهو من خصائص الهمزة، (**وأدعو**) إذا أردت زيارته، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**أم أستقبل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم؟**)، أى أجعل وجهى مقابلاً لجهته، وحينئذ يكون مستدبرًا القبلة، فلذا أشكل عليه؛ لأن استقبال القبلة فى الدعاء مشروع، فإذا عارضه هذا، فأيهما يقدم؟.

(**فقال**) له مالك، رحمه الله تعالى: (**ولم تصرف وجهك عنه؟**)، أى عن مقابلته ومواجهته حال الدعاء، (**وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم، عليه الصلاة السلام، إلى يوم القيامة**)، المراد بالوسيلة، وهى السبب ما يتوصل به إلى إجابة الدعاء، وكنى بذلك عن جميع الناس، أى هو الشفيع المشفع المتوسل به إلى الله يوم القيامة، إشارة إلى حديث الشفاعة العظمى، وقد تقدم وإلى ما ورد أن الداعى إذا قال: اللهم إنى أستشفع إليك بنبيك، يا نبى الرحمة اشفع لى عند ربك، استجيب له، (**بل استقبله**) صلى الله تعالى عليه وسلم، بوجهك فى دعائك بما تريد، (**واستشفع به**) إلى الله تعالى فى الإجابة، فإنه شفيع لا يرد من توسل به إليه، (**فيشفعه الله**) فيك ويقبل دعاءك.

وفي نسخة: فيشفعك الله، وهي مشكلة، إذ المراد الأول، وأولت هذه بأن أصلها: فيشفعه فيك، فحذف المفعول والجار، ووصل به الضمير، وقيل: المعنى يقبل شفاعتك، والمصدر مضاف للمفعول، ولا يخفى ما فيه، وفي هذا رد على ما قاله ابن تيمية، من أن استقبال القبر الشريف في الدعاء عند الزيارة أمر منكر، لم يقل به أحد، ولم يرو إلا في حكاية مفتراة على الإمام مالك، يعني هذه القصة التي أوردها المصنف، رحمه الله هنا، ولله دره حيث أوردها بسند صحيح، وذكر أنه تلقاها عن عدة من ثقات مشايخه، فقوله: إنها كذب محض، ومجازفة من ترهاته، وقوله: لم ينقل ولم يرو باطل، فإن مذهب مالك، وأحمد، والشافعي، رضي الله تعالى عنهم، استحباب استقبال القبر الشريف في السلام والدعاء، وهو مسطر في كتبهم، وصرح به النووي في أذكاره وإيضاحه.

وقال السبكي: صرح أصحابنا بأنه يستحب أن يأتي القبر ويستقبله، ويستدبر القبلة بعيد من رأس القبر نحو أربع أذرع، فيسلم عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم يتأخر ويسلم على أبي بكر، رضي الله تعالى عنه، ثم يتأخر ويسلم على عمر، رضي الله تعالى عنه، ثم يرجع لموقفه الأول مستقبلاً للقبر، ويدعو بما أراد. وقد نقل عن أبي حنيفة، رضي الله تعالى عنه، أنه يستقبله، صلى الله تعالى عليه وسلم، في الزيارة، ثم يستقبل القبلة بعده، ويدعو كما ذكره السروجي من أئمتنا.

وقيل في قوله: وسيلة أبيك آدم أن آدم، عليه الصلاة والسلام، لما أكل من الشجرة ثم ندم، قال: يا رب، أسألك بحق محمد إلا غفرت لي، فقال له الله: كيف عرفت محمدًا؟ فقال: لأني رأيت على قوائم العرش: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعرفت أنك لم تضف لنفسك إلا أحب الخلق إليك، فقال: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إليّ، ولولاه ما خلقتك، وهو حديث صحيح رواه الحاكم.

(**قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾** [النساء: ٦٤] **الآية**)، استدل بهذه الآية على ما ادعاه من التوسل به، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقبول التوسل به، كما ينادي عليه: ﴿لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، لتعليق قبول استغفارهم على استغفاره صلى الله تعالى عليه وسلم لهم، واستؤنس به لاستحباب استقباله أيضًا دون استقبال القبلة؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، حي في قبره يسمع دعاء زائره، ومن جاء عظيمًا لرجاء شفاعته له، لا شك في أنه يتوجه إليه بقلبه وقالبه، كما قاله ابن المقري، رحمه الله تعالى:

تخاطبه لما تناجيه مقبلا ... على غيره فيها لأي ضرورة
ولو رد من ناجاك للغير طرفه ... تميزت من غيظ عليه وغيرة

فتدبر.

(وقال مالك، وقد سُئل عن أيوب السختيانى)، وهو الإمام أبو بكر البصرى التابعى، سيد الفقهاء والمحدثين، روى عنه مالك، والثورى وغيره، والسختيانى بكسر السين نسبة لعمل السختيان، وهو الجلد المدبوغ، وهو معرب وتاؤه تفتح وتكسر، أخرج له الستة، وتوفى سنة إحدى وثلاثين ومائة، وقيل غير ذلك: **(ما حدثتكم)**، أى رويت لكم **(عن أحد)** من مشايخه **(إلا وأيوب أفضل منه، قال)** مالك: **(وحج حجتين)**، وكنت حاجًا إذ ذاك، **(فكنت أرمقه)**، أى أنظر إليه، يقال: رمقه إذا نظر إليه **(ولا أسمع منه)** شيئًا يتكلم به لطول صمته، كذا قيل.

والظاهر أنه أراد لا أسمع منه الحديث، فأرويه عنه لما سيأتى من قوله: كتبت عنه، **(غير أنه كان إذا ذكر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** عنده **(بكى حتى أرحمه)**، أى يرق قلبى عليه، رحمة له، لما أراه منه، **(فلما رأيت منه ما رأيت وإجلاله للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، واتباع سنته فى جميع أحواله المقتضية لمحبة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وخشوعه لذكره علمت شدة ديانته، وأنه ثقة ظاهر العدالة، فسمعت منه، و**(كتبت عنه)** الحديث ورويته عنه، وهذا يدل على كمال ورعه فى الرواية، وأنه لا يروى عن كل أحد حتى يختبره، وبكاؤه إما لتحسره على أنه لم يره، صلى الله تعالى عليه وسلم، واشتياقه له أو لخوفه من تقصيره فى اتباعه، أو لإجلاله وتذكر مهابته حتى كأنه يراه، وهذا أقرب للسياق.

(وقال مصعب) بصيغة المفعول علم منقول من الفحل الشديد **(ابن عبد الله)** بن مصعب بن ثابت الزبيرى الحافظ، أحد رواة الإمام مالك، **(كان مالك)** بن أنس، رضى الله تعالى عنه ورحمه، **(إذا ذكر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** عنده **(يتغير لونه)** بأن يصفر كما يعترى من اشتد خوفه من شىء، **(وينحنى)**، أى يتضاءل لشدة خشوعه حتى يصير كالمنحنى، **(حتى يصعب ذلك على جلسائه)** وتلامذته؛ لخوفهم عليه، **(فقيل له فى ذلك)**، أى سئل عنه وما سببه، **(فقال: لو رأيتم ما رأيت)** من السلف من خشوعهم وإجلالهم لذكره، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لما أنكرتم على ما ترون)** مما شاهدتموه من حالتى.

(لقد رأيت محمد بن المنكدر) بن عبد الله التيمى المدنى الحافظ، توفى فى سنة خمس ومائتين، أخرج له الستة، **(وكان سيد القراء)**، أى كان فى عصره رئيس العلماء العارفين بالقرآن وتفسيره ووجوه قراءته وأحكامه، **(لا نكاد نسأله عن حديث أبدًا إلا يبكى حتى نرحمه)** شفقة عليه لما نراه من اضطرابه؛ لشدة مهابته لذكره، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو لشدة شوقه إلى لقائه وتأسفه على عدم رؤيته، صلى الله تعالى عليه وسلم،، وكاد هنا

زائدة لتأكيد الكلام، وقد ورد فى كلامهم كثيرًا كما فى القاموس، وهو أحد الوجوه فى قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠]، أى لم يرها، وهو المراد وأبدا لمطلق الاستغراق، ويكون لاستغراق الأزمنة المستقبلة، فهى هنا لحكاية الحال الماضية وتنزيلها منزلة ما حضر واستمر، كالمضارع فى قوله هنا إلا يبكى.

قال الإمام مالك، رحمه الله تعالى: **(ولقد كنت أرى جعفر بن محمد)** اللام فى جواب قسم مقدر، ووقع فى بعض النسخ هنا تلقيب جعفر بأنه **(الصادق)**، ومحمد هو الباقر بن زين العابدين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنهم، **(وكان كثير الدعابة)**، بضم الدال والعين المهملتين وألف وباء موحدة، وهى المزاح، **(والتبسم)**، وهو أقل الضحك، والجملة معترضة ومع كثرة مزاحه وانشراح صدره، **(فإذا ذكر عنده النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، اصفر)** لونه وتغير وجهه لمهابته وإجلاله لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وما رأيته يحدث عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلا)** وهو **(على طهارة)**، أى بوضوء لنقل الحديث، فيعلم منه نفى الحدث الأكبر بالطريق الأولى، وذلك لتعظيمه الحديث.

(ولقد اختلفت إليه زمانًا) كثيرًا، أى ذهبت إليه مرارًا كثيرة، يقال: اختلف إليه، إذا جاء وذهب وأتى وقتًا بعد وقت فى أوقات مختلفة، فنزل اختلاف الأوقات منزلة اختلاف الذوات، وضمير إليه لجعفر المذكور، **(وما كنت أراه إلا)** مستمرًا **(على ثلاث خصال، إما مصليًا وإما صامتًا)** لا يتكلم، **(وإما يقرأ القرآن)**، فيناجى ربه، **(ولا يتكلم فيما لا يعنيه)**، بفتح أوله، أى يهمه ويجديه نفعًا لصون لسانه عن اللغو، **(وكان من العلماء)** بالعلوم الشرعية، **(و)** من **(العباد الذين يخشون الله)**، وهذا حاله فى منزله وخلوته والدعابة والتبسم، إذا كان فى ملأ من الناس تلطفًا بهم وحسن خلق، فلا منافاة بينهما كما توهم.

قال مالك، رحمه الله تعالى: **(ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم)** بن محمد بن أبى بكر الصديق، أحد فقهاء المدينة، توفى رحمه الله تعالى سنة إحدى وثلاثين ومائة، وأبوه أحد الفقهاء السبعة، **(يذكر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فينظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم)**، نزف مبنى للمجهول، ومعناه سال، وفيه تسمح أو تقدير، إذ اللون لا ينزف، والمراد أنه سال دمه فاصفر صفرة مفرطة؛ لأن حمرة البشرة بما تحتها من الدم وتوهم بعضهم أن معناه أنه احمر خجلاً.

واعترض بأن المناسب لقولهم: **(ولقد جف لسانه فى فمه)** الاصفرار لا الاحمرار، ثم قال ولعله يحصل له حالة خجل، ثم حالة خوف، وهو من عدم التأمل وجفاف اللسان

بذهاب ريقه لخوفه؛ **(هيبة لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، مفعول له لما قبله، وقيل: لمقدر ليتحد فاعلاهما ولا حاجة إليه وإن جاز، **(ولقد كنت آتى عامر بن عبد الله ابن الزبير)** بن العوام العابد الجليل القدر، أخرج له الستة، وتوفى بعد عشرين ومائة، وترجمته معروفة، **(فإذا ذكر عنده النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بكى حتى لا يبقى فى عينيه دموع)**، أى لبكائه بكاء شديدًا لما مر.

(ولقد كنت آتى صفوان بن سليم)، مصغر، وهو مولى حميد بن عبد الرحمن الزهرى الرقاشى، مات سنة اثنين وثلاثين ومائة، وكان أكثر أهل المدينة عبادة وزهدًا وفضلاً، وبها توفى كما قال. **(وكان)** صفوان المذكور **(من المتعبدين)**، أى المكثرين للعبادة المداومين عليها **(المجتهدين)** فى العبادة المجدين فيها، ويحتمل أن يكون وصل لمرتبة الاجتهاد فى أحكام الدين لزيادة فضله وإحاطته بالسنة، وهو جملة معترضه، **(فإذا ذكر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، عنده بكى، فلا يزال يبكى حتى يقوم الناس عنه ويتركوه)**؛ لاتصال بكائه وطوله.

(ولقد رأيت الزهرى) الإمام محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب التابعى الإمام الجليل المشهور، توفى فى رمضان سنة أربع وعشرين ومائة، وهو ابن اثنين وسبعين كما تقدم، **(وكان من أهنأ الناس)**، أى أسهلهم وأحسنهم خلقًا، وألينهم عريكة، مستعار من هنُأ الطعام إذا ساغ وسهل، **(وأقربهم)** إلى الناس لحسن تودده لهم ومع ذلك، **(فإذا ذكر عنده النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فكأنه ما عرفك ولا عرفته)** لدهشته وحيرته وإعراضه عمن عنده وذهوله عن معرفته؛ لاشتغال قلبه وحواسه بالفكر لإجلاله له وتعظيمه، وقد ذكر مالك، رحمه الله تعالى، هؤلاء بيانًا؛ لأنه اقتدى بهم واهتدى بهديهم، وأن حاله لم يصل لحالهم، فلا يتعجب منه.

(وروى عن قتادة)، تقدم بيانه، **(أى كان إذا سمع الحديث)** يقرأ عنده **(أخذه)**، أى عرض له واستولى عليه، حتى كأنه أخذه **(العويل)**، بعين مهملة، هو صياح مع البكاء، **(والزويل)** بفتح الزاء المعجمة، وكسر الواو، وياء، ولام، وهو القلق والانزعاج؛ لشدة الخوف، يقال: زال زويله فى الدعاء، أى ذهب ذعره، وهو مأخوذ من الزوال؛ لتغير حاله عما كان عليه.

(ولما كثر على) الإمام **(مالك الناس)**، أى اجتمع عنده لسماع الحديث ناس لا يحصون كثرة، وأتوه من كل فج، **(قيل له: لو جعلت مستمليًا)**، أى أحدًا يجلس قريبًا منك ويملى عليه الحديث فيأخذه عنك فيبلغهم، و**(يسمعهم)** ما يعيده لهم لكثرتهم وبعد بعضهم عنك ممن فى آخر الحلقة، ولو للتمنى للمناسبة بينهما فى عدم الوقوع، ولما لزم

بما قالوه، رفع صوت المبلغ كما هو المعتاد لم يرتض ما قالوه من وضع مستمل فى الحلقة، والاستملاء طلب الإملاء، وهو إلقاء الكلام على الغير.

(فقال) مالك مجيبًا إرشادًا لهم وتأدبًا، مستدلاً بقوله تعالى: **(قال الله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ [الحجرات: ٢] **إلى آخره)**، فقاس منع رفع الصوت فى مجلس قراءة الحديث، على منعه فى مجلسه حال حياته، وبينه بقوله: **(وحرمته)**، أى احترامه وتوقيره، **(حيًا وميتًا سواء)**، فكما يلزم الأول، يلزم الثانى، ثم نقل ما يوافق ما قاله مالك بقوله: **(وكان ابن سيرين ربما يضحك، فإذا ذكر عنده حديث النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، خشع، وكان عبد الرحمن بن مهدى)** بن حسان أبو سعيد الحافظ، الثقة البصرى المعروف باللؤلؤ، أحد أعلام الحديث. وقال ابن المدينى: أعلم الناس بالحديث ابن المهدى، توفى سنة ثمان وتسعين ومائة، وأخرج له أصحاب الكتب الستة.

(إذا قرأ حديث النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أمرهم)، أى أمر من حضر فى مجلسه **(بالسكوت)** والإنصات لاستماعه، **(وقال)** مخاطبًا لمن عنده: (﴿تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ **ويتأول)** الآية التى تلاها بجعل الصوت شاملاً لحكايته، وأنه عام لهما ودال على **(أنه يجب له)** صلى الله تعالى عليه وسلم، **(من الإنصات عند قراءة حديثه ما يجب له عند سماع قوله)** حقيقة فى حياته؛ لما فيه من التوقير وحرمته وحسن الأدب، كما قيل:

حديثه أو حديث عنه يطربنى   هذا إذا غاب أو هذا إذا حضرا

فإن قلت: ما نقله عن مالك من أنه لم يرض بمستمل فى مجلسه ينافى ما نقل عنه أنه كان له مستمل يبلغ الناس عنه.

قلت: حاله الأول كان قبل كثرة الناس جدًا، بحيث يسمعون كلامه بغير واسطة، ثم كثر الناس عليه بعد ذلك، فرأى أن المستملى لابد منه، فاتخذه للضرورة.

وقد قال المحدثون: إنه لا يضع مستمليًا إذا سمعوه؛ لأن أعلى مرتبة السماع ما كان من لفظه، فإن لم تتيسر ذلك اتخذ مستمليًا واحدًا فأكثر، واستدلوا لذلك بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، خطب الناس بمنى على بغلته الشهباء، وعلى رضى الله تعالى عنه، يبلغ الناس، فعلم ما تقرر أنهم إن كثروا بحيث لا يكفى مستمل واحد زادوا بقدر الحاجة، ويكون المستملى على مكان واحد مرتفع من كرسى ونحوه، أو قائمًا إن أمكنه.

* * *

(فصل فى سيرة السلف) وعادتهم
(فى تعظيم رواية حديث رسول الله ﷺ وسنته)

عطف تفسير؛ لشمولها لأقواله وأفعاله، وجميع ما يتعلق به، وفى نسخة: سننه، بصيغة الجمع، وفى أخرى: وسننهم، وهذا تتمة للفصل الذى قبلـه، كمـا أدرجـه فـى ترجمتـه، لكنه فصله لاختصاصه بالحديث، وأتى له بشاهد رواه مسندًا، فقال: **(حدثنا الحسين بـن محمد الحافظ)** المعروف بابن سكرة، كما تقدم، قال: **(حدثنـا أبـو الفضـل بـن خـيرون)**، تقدمت ترجمته، وأنه يجوز فيه الصرف وعدمه، قال: **(حدثنا أبو بكر البرقانى)**، وهو أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب الخارزمى الشافعى، شيخ بغداد، وأحد الأعلام بها، صاحب التصـانيف الجليلـة بـها، وتخريـج الصحيحـين، روى عنـه كثـير كـالصورى، والبيـهقى، والخطيب، وأبى إسحاق الشيرازى، وابن خيرون، وتوفـى ببغـداد فـى أول رجـب سـنة خمس وعشرين وأربعمائة، وترجمته معروفة، والبرقانى بباء موحدة، وراء مهملة، وقاف.

(وغيره)، قال: **(حدثنـا أبـو الحسـن الدارقطنى)** شيخ الإسـلام الحـافظ، تقـدم وأنـه منسوب لدارقطن، محلة ببغداد، وراؤه مفتوحة وبعضهم يسكنها، كما قاله ابن مرزوق، والأولى الأول، قال: **(حدثنا على بن مبشر)** بن إسماعيل الكلبـى، الثقـة، وشـينه معجمـة مشددة مكسورة بوزن اسم الفاعل، قـال: **(حدثنـا أحمـد بـن سـنان القطـان)** أبـو جعفـر الحافظ الواسطى الثقة إمام أهل زمانه، توفـى سـنة ثمـان وخمسـين ومـائتين، وأخـرج لـه أصحاب السنن، قال: **(حدثنا يزيد بن هارون)** أبو خالد السلمى الواسطى العابد الزاهد، أحد الأعلام، قال ابن المدينى: ما رأيت أحفظ منه، وعمى فى آخر عمره، وتوفـى سـنة ست ومائتين، وأخرج له الستة.

قال: **(حدثنا المسعودى)** عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود، ولذا عرف بالمسعودى، وهو كوفى روى عنه خلق كثير، وهو ثقة كثير الحديث، توفـى سـنة ستين ومائة، وترجمته فى الميزان، **(عن مسلم البطين)** بفتح الموحدة وكسر الطاء المهملـة، وهو مسلم بن عمران أبو عبد الله الكوفى، وثقه أحمد، وأخرج له الستة، **(عن عمرو بن ميمون)** العابد التابعى الأزدى، أدرك زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يلقه، وهو ثقة، حج مائة حجة، وتوفى سنة أربع وسبعين ومائة.

(قال: اختلفت إلى ابن مسعود)، أى ترددت عليه **(سنة)** تمييز، **(فما سمعته)** إذا حدث، **(يقول: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، صونًا لذكره وهيبة له واحتياطًـا فـى النقل عنه، **(إلا أنه حدث يومًا)** بحديث نقله، **(فجرى على لسانه، قال رسـول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم علاه كرب)**، أى ظـهر عليـه حـزن وغـم يـؤدى لضيـق نفـس،

(فرأيت العرق يتحدر)، أى ينزل سائلاً منه مفصلاً **(عن جبهته، ثم قال)** ابن مسعود: **(هكذا)** قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما رويته لكم مساوى له لفظًا ومعنى، **(إن شاء الله)**، إشارة إلى أنه لم يصدر عن جزم منه، وهذا بناء منه على عدم جواز الرواية بالمعنى، وفيه خلاف مشهور تفصيله فى كتاب ابن الصلاح، وهو احتراز عن الكذب عليه، وأن يقول ما لم يقله، **(أو فوق ذا)**، أى يزيد عليه يسيرًا، **(أو ما دون ذا)**، أى ينقص عنه، **(أو ما هو قريب من ذا)** بمخالفته بأمر قليل جدًّا، وهو احتياط منه، رضى الله عنه.

(وفى رواية: فتربد وجهه) بباء موحدة بعد راء ثم دال مهملتين، أى تغير لونه لكموده من شدة الكرب. **(وفى رواية: وقد تغرغرت عيناه)**، أى امتلأتا بدمع متردد كالماء فى فم من يتغرغر به، فهو مجاز كما فى حديث: «تقبل توبة العبد ما لم يغرغر»، أى تبلغ روحه حلقومه كماء الغرغرة، **(وانتفخت أوداجه)** جمع ودج بفتحتين، وهو عرق غليظ فى العنق والودجان يقطعهما الذابح، وانتفاخهما كبرهما بغليان الدم؛ لانتشار الحرارة الغريزية لخوف ونحوه.

(وقال إبراهيم بن عبد الله بن قريم)، بضم القاف وفتح الراء المهملة ومثناة تحتية وميم مصغر قرم، **(الأنصارى قاضى المدينة)**، ذكره فى التهذيب والميزان، وأخرج له الترمذى فى علل جامعه ولم يترجموه، وروى عن مالك كما قال، **(مر مالك بن أنس على أبى حازم)**، بحاء مهملة وزاء معجمة، وهو سلمة بن دينار الأعرج، أحد الأعلام الذى روى عنه مالك وغيره ثقة، لم يكن فى زمانه مثله، توفى سنة أربعين ومائة، وأخرج له الستة، **(وهو يحدث)**، أى يروى الحديث لمن عنده، **(فجازه)**، أى تجاوز مجلسه ولم يقف.

(وقال) حين سُئل عن سبب ذلك: **(إنى لم أجد موضعًا أجلس فيه)**، لكثرة الناس، **(فكرهت أن آخذ)**، أى أسمع لأروى **(حديث رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنا قائم)**، صونًا لحديثه عن الابتذال والامتهان واستماعه فى محل يخل بتعظيمه، وهكذا كان دأبه، ولذا رفع الله قدره وشيد ذكره، وهذا لا ينافى ما نقل عنه من أنه كان لا يعمل بالحديث ما لم يوافق عمل أهل المدينة، فإنه لشدة احتياطه فى أحاديث الأحكام، فلا وجه لإيراد هذا هنا. وقيل: التعظيم شىء آخر لا مساس له هنا.

(وقال مالك: جاء رجل إلى ابن المسيب، فسأله عن حديث وهو مضطجع)، أى واضع جنبه على الأرض والجملة حالية، **(فجلس وحدثه، فقال له الرجل: وددت)**، أى كان أحب إلىّ **(أنك لم تتعن)**، أى لم تتعب وتترك راحتك، **(فقال: إنى كرهت أن أحدثك عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنا مضطجع)** تعظيمًا للحديث وتأدبًا معه.

(وروى عن محمد بن سيرين أنه قد يكون يضحك، فإذا ذكر عنده) فى حال ضحكه **(حديث رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، خشع)**، أى أظهر الخشوع والاستكانة تأدبًا ومهابة.

(وقال أبو مصعب: كان مالك لا يحدث بحديث رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلا وهو على وضوء)، أى متوضئًا متطهرًا **(إجلالاً له)** أى للحديث.

(وحكى مالك ذلك)، أى الحديث على وضوء، **(عن جعفر بن محمد)** الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب، وقد تقدم قريبًا، **(وقال مصعب بن عبد الله)**، وهو الزبيرى كما تقدم: **(كان مالك بن أنس إذا حدث عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى إذا أراد أن يحدث عنه، **(توضأ وتهيأ)** للحديث بإصلاح هيئته فى ثيابه وجلوسه، **(ثم يحدث)** تعظيمًا لذلك.

(قال مصعب: فسُئل عن ذلك)، أى عن الداعى له، **(فقال: إنه حديث رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وفى نسخة: لأنه، وهو من بليغ المدح كما إذا قيل لك: لم عظمت فلانًا، فيقول: إنه فلان، ولا تزيد، أى حقيق بذلك وشهرة استحقاقه تغنى عن بيان وجهه، فلا حاجة لتقدير، وهو جدير بالتعظيم كما قيل.

(وقال مطرف) بزنة الفاعل بطاء وراء مشددة مهملتين وفاء، وهو مطرف بن عبد الله ابن مطرف بن سليمان بن يسار مولى ميمونة، وهو ابن أخت الإمام مالك، توفى سنة عشرين ومائتين، وترجمته فى الميزان: **(كان إذا أتى الناس مالكًا)** لطلب العلم وهو داخل منزله وطلبوا خروجه لإقرائهم، **(خرجت إليهم الجارية)**، أى أرسل لهم جارية له فيه، **(فتقول لهم:)** لما تعلم من العادة **(يقول لكم الشيخ:)** تعنى مالكًا **(تريدون الحديث؟)** بتقدير أداة الاستفهام، أى أتريدون قراءة الحديث وسماعه **(أو المسائل؟)**، تعريفه للعهد، أى مسائل الفقه، **(فإن قالوا:)** نريد **(المسائل)**، أى قراءتها **(خرج إليهم)** بسرعة من غير تهيؤ.

(وإن قالوا:) نريد **(الحديث)**، أى قراءته، **(دخل مغتسله)**، أى موضعه المعد للغسل والطهارة فى بيته، **(واغتسل وتطيب)** وتضمخ بما تطيب رائحته، **(ولبس ثيابًا جددًا)**، بضم أوله وثانيه، جمع جديد، كسرير وسرر، **(ولبس ساجه)**، وهو الطيلسان مطلقًا، أو الأخضر، أو الأسود منه، وهو شىء كالبرنس، **(وتعمم)**، أى وضع عمامته المعدة للتجمل على رأسه، **(ووضع على رأسه رداءه)** على عادة أشراف العرب، **(وتلقى له منصة)** فى محله المعد له لإقرائه، وهو بكسر الميم وفتحها، شىء عال كالكرسى والسرير، من نصصته إذا رفعته، **(فيخرج)** من بيته للناس، **(ويجلس عليها وعليه الخشوع)**، أى

السكينة والوقار، **(ولا يزال يبخر)** بالبناء للمفعول، ويجوز بناؤه للفاعل، بمعنى يأمر **(بالعود)** الهندى المعروف، فيوقد عنده ليعطر مجلسه به **(حتى يفرغ من)** قراءة **(حديث رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، إجلالاً له وتكريمًا وتطييبًا، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يحب الرائحة الطيبة، فجعل مجلس حديثه كمجلسه حيًا كما تقدم.

(قال غيره:)، أى غير مطرف **(ولم يكن يجلس على تلك المنصة، إلا إذا حدث عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، فعلم أنه إنما فعله رعاية للحديث لا لنفسه.

(قال ابن أويس:)، هو إسماعيل بن عبد الله بن أويس بن أبى عامر، وقيل: إسماعيل بن عبد العزيز بن عبد الله، توفى سنة ست، أو سبع، وعشرين ومائتين فى رجب، وهو ابن عم الإمام مالك وابن أخته، وزوج بنته، روى عنه وعن غيره، ولازم مالكًا إحدى وعشرين سنة، وأخرج له فى الصحيحين والسنن، وضعفه النسائى؛ لأنه كان مغفلاً، كما قاله أبو حاتم، وترجمته فى الميزان، **(فقيل لمالك فى ذلك)**، أى سُئل عن سبب ما كان يفعله من لباسه واغتساله وبخوره، وجميع ما تقدم عنه، **(فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** بما فعلته، **(ولا أحدث به)**، أى بحديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم **(إلا على طهارة)** كاملة **(متمكنًا)** أى جالسًا فى مكانه على هيئة مستقرة غير مستوفز؛ لما فيه من عدم المبالاة بما حدث عنه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(قال: وكان) مالك، رحمه الله تعالى **(يكره أن يحدث)**، أى ينقل الحديث وهو مار **(فى الطريق، أو وهو قائم)** على رجليه، **(أو مستعجل)**، أى على عجلة، فيتأنى، فإن الخير كله فى ترك العجلة، ولذا قيل: العجلة من الشيطان، وقد يكون مع المستعجل الزلل فيخطىء فيما نقله.

(وقال) مالك: **(أحب أن أفهم حديث رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، فلذا تأنى فى نقله؛ ليكون أعون على فهمه، **(وقال ضرار بن مرة)** أبو سنان الشيبانى الكوفى العابد الثقة، أخرج له أصحاب السنن: **(كانوا)**، أى السلف ومن لقيهم من التابعين، **(يكرهون أن يحدثوا)**، أى ينقلوا **(الحديث)** النبوى **(على غير وضوء)** وطهارة، **(ونحوه)** روى **(عن قتادة)** بن النعمان، وقد تقدمت ترجمته، وفى نسخة هنا، **(وكان الأعمش)** سليمان بن مهران، **(إذا أحب أن يحدث، وهو على غير وضوء)**، ولم يتمكن منه **(تيمم، وكان قتادة لا يحدث إلا على طهارة)**، ويأتى الكلام على ذلك آخر الفصل.

(وقال عبد الله بن المبارك): تقدمت ترجمته، **(كنت عند مالك)** بن أنس، **(وهو يحدثنا)**، أى ينقل لنا الحديث، **(فلدغته عقرب)**، أى فى حال قراءته، والعقرب من ذوات

السموم المعروفة، وسمها فى رأس ذنبها، فإذا ضربت به أحدًا انتشر فيه سمها فيقتله، ولدغها ضربها بعقد ذنبها، وقد اشتهر على الألسنة أن اللذغ بذال وغين معجمتين، وقد قال الشراح هنا: إن الصحيح أن داله مهملة وغينه معجمة، وأنه يقال: لدغته العقرب ولسعته الحية، ويقال: عقرب وعقربة. ونقل بعض العلماء أن الذال والغين المعجمتين لا يجتمعان فى كلمة عربية، أما لذع النار فهو بإعجام الأولى وإهمال الثانية معناه الإحراق. وقوله: **(ست عشر مرة)**، كذا فى النسخ، وصوابه ست عشرة، بلحوق التاء فى جزئه الثانى، كذا قيل، وفيه نظر.

(وهو يتغير لونه ويصفر) عطف تفسير، **(ولا يقطع حديث رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** احترامًا له وإجلالاً، **(فلما فرغ من المجلس)**، أى أتم نقل الحديث، **(وتفرق عنه الناس)** المستمعون له، **(قلت له: يا أبا عبد الله لقد رأيت منك اليوم عجبًا)**، أى أمرًا يتعجب منه لصبرك وعدم تحريكك، **(قال: نعم)** ما قلته صحيح، **(إنما صبرت إجلالاً لحديث رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** إذ لم يتحرك وينزعج وهو يحدث.

(وقال ابن مهدى: مشيت يومًا مع مالك إلى العقيق)، وهو اسم لمواضع كثيرة بالحجاز، والمراد به هنا موضع قريب من المدينة على نحو ميلين منها يتنزه فيه أهل المدينة، **(فسألته)** وأنا ماش معه فى الطريق **(عن حديث)** من أحاديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فانتهرنى)**، أى زجرنى، والنهر الزجر كما قال الله تعالى: ﴿**وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ**﴾ [الضحى: ١٠]، **(وقال:)** بعد الزجر باسكت ونحوه موبخًا لى **(كنت فى عينى)**، كناية عن اعتقاده فيه الناشىء عن رؤيته **(أجل من أن تسألنى)**، فيه توسع معروف كأكثر من أن يحصى، أى أعظم من السائلين **(عن حديث رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ونحن نمشى)**، جملة حالية.

(وسأله)، يعنى الإمام مالك، رحمه الله تعالى، **(جرير بن عبد الحميد القاضى)** الضبى الثقة المحدث صاحب المصنفات الجليلة، روى عنه البخارى وغيره من أصحاب الكتب الستة، وكان رحلة، توفى سنة ثمان وثمانين ومائة، **(عن حديث وهو قائم)** الضمير لجرير، ويجوز أن يكون لمالك، رحمه الله تعالى، **(فأمر)** مالك **(بحبسه)**، قيل: مالك لم يكن حاكمًا حتى يحبسه بأمره، وأجيب بأن الولاة كانوا يمتثلون أمره، فالمعنى أرسله للحاكم ليحبسه فحبسه، وفى تاريخ الذهبى أن مالكًا كان يجلس فى المسجد يحدث ويقضى، فإن كان أذن له فى القضاء فى بعض الأمور، فهو على ظاهره، **(فقيل له: إنه قاض)** لا يليق حبسه، **(فقال: القاضى أحق من أدب)**، بالهمزة المضمومة لا بواو، وإن رسم بها فى بعض النسخ، يعنى أن العلماء والأشراف أولى برعاية الأدب، فإذا تركوه كانوا أحق

بذلك من العوام.

(وذكر أن هشام بن الغازى) بغين وزاء معجمتين بزنة فاعل من الغزو، قالوا: وهذا ليس بصواب، فإن هشام بن الغازى بن ربيعة تابعى مات قبل مالك، ولم يرو عنه، والحكاية المذكورة إنما وقعت لمالك مع هشام بن عمار خطيب دمشق كما رواها مسندة البرهان الحلبى، وقيل: إنها تصحفت على الناسخ، وصوابها القارى، بالقاف والراء المهملة، وقيل: ما فى الأصل صواب، وهو هشام بن الغازى بن ربيعة الشامى، وفيه أن الحافظ الحلبى أسند رواية هذه القصة عن هشام بن عمار كما علمت.

(سأل مالكًا عنحديث، وهو)، أى هشام أو مالك **(واقف، فضربه عشرين سوطًا)**، وهذا دليل على أنه كان مأذونًا له فى إجراء الأحكام على تلاميذه، أو كان يعلم برضاهم بحكمه، فهو محكم فيهم، **(ثم أشفق عليه)**، أى حصل عنده رقة قلب وشفقة لضربه، لا لأنه ضربه بغير ذنب كما قيل، وهذا بناء على أنه يجوز أن يزاد التعزير على عشرة أسواط فى غير الحدود كما هو مذهب أبى حنيفة، والحديث الوارد فى النهى عنه فيه كلام للمحدثين ليس هذا محل تفصيله، ولعله وجه إشفاقه عليه، **(فحدثه)**، أى أفاد مالك هشامًا وروى له **(عشرين حديثًا)** تطييبًا لخاطره، **(فقال هشام)** بعد ذلك لأصحابه: **(وددت)**، أى أحببت، يقال: وددت كذا، إذا رغبت فيه وأحببته، **(لو زادنى سياطًا)**، أى ضربًا بها، **(ويزيدنى حديثًا)** بعدد زيادة ضربه، ولو مصدرية أو شرطية جوابها مقدر.

(وقال عبد الله بن صالح) الجهنى، ويقال له: الحربى العجلى، وله ترجمة فى الميزان مطولة، توفى سنة ثلاث وعشرين ومائتين، وعمره ست وثمانون سنة، وأخرج له أصحاب السنن: **(كان مالك والليث)** بن سعد بن عبد الرحمن الفهرى المصرى، الفقيه، البارع، الذى قيل فيه: إنه كان أفقه من مالك، إلا أن أصحابه أضاعوه، وهو من تبع التابعين، توفى سنة خمس وسبعين ومائة، وحيث قال مالك: أخبرنى من أرضى به من أهل العلم فهو الليث، **(لا يكتبان العلم إلا وهما طاهران)**، أى على طهارة تامة، وجملة: هما طاهران، حالية يجوز اقترانها بالواو وتركها لا صفة واوها للإلصاق كما قيل، وتحقيقه فى كتب العربية، والظاهر أن المراد بالعلم مطلقه لا الحديث.

(وكان قتادة يستحب أن لا يقرأ أحاديث النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلا على وضوء)، أى متوضئًا؛ تعظيمًا لحديثه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ولا يحدث)** بتشديد الدال، أى ينقل الحديث، ويجوز بناؤه للمفعول أى يسمع من غيره حديثًا **(إلا على طهارة)**، قيل: المراد أنه يغتسل بقرينة ما قبله.

(وكان الأعمش) سليمان بن مهران كما تقدم، **(إذا أراد أن يحدث وهو على غير**

وضوء) جملة معترضة أو حالية **(تيمم)** إن لم يحضر عنده الماء بسهولة؛ لشدة اعتنائه بتعظيم الحديث، وللمحدث آداب أخر ذكرها المحدثون، كافتتاح أول مجلسه وختمه بالحمد لله والصلاة والسلام على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأن لا يقوم من مجلسه لأحد من الناس.

* * *

(فصل ومن توقيره ﷺ)

أى تعظيمه وتبجيله، **(وبره)**، أى صلته ورعاية جانبه، وللبر معان أخر غير مرادة هنا، والجار والمجرور خبر مقدم لقوله: **(بر آله)**، تقدم أن فى آله خلاف، فقيل: إنهم ذوو القربى، ومن تحرم عليهم الصدقة، وهم المؤمنون من بنى هاشم وبنى المطلب دون غيرهم كما بينه الفقهاء، وأن أصله أول. وقيل: أهل وبرهم الإحسان إليهم ومعاونتهم ومودتهم ورعايتهم، **(وذريته)**، الذرية النسل من الأولاد وأولادهم، وهو بضم الذال وكسرها، وفى اشتقاقه خلاف، فقيل: من الذر، وهو صغار النمل اعتبارًا بأول أحوالهم، وقيل: من ذرأ، بالهمزة بمعنى خلق والتزم إبدالها ياء بعد النقل.

(وأمهات المؤمنين)، فسره بقوله: **(أزواجه)** صلى الله تعالى عليه وسلم، ورضى عنهن، جمع زوج لإطلاقه على الذكر والأنثى، أو زوجة على لغة فيه، وإطلاقه عليهن لحرمة نكاحهن بعده.

واختلف فى وجهه، هل هو لتكريمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو أنه حى؟ ولذا وجبت النفقة عليهن لحرمة نكاحهن بعده، وهل هن أمهات للمؤمنات أيضًا؟ فقيل: لا، وإلا حرم نكاحهن عليه، وقيل: نعم، لوجوب إكرامهن لهن، وهو تشبيه بليغ لا يراعى فيه جميع وجوه الشبه، وأسماء أزواجه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مشهورة فى السير قدمناها أيضًا.

(كما حض)، أى حث وحرض بطلبه من كل أحد **(عليه)**، أى على بر من ذكر **(عليه الصلاة والسلام)** بما روى عنه من الأحاديث وسيأتى بعضها، **(وسلكه السلف الصالح)** من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من العلماء العاملين، والتقدير سلك طريقه أو شبه برهم بطريق مسلوك، فهو استعارة مكنية مخيلة، ثم أيده بدليل من القرآن، فقال: **(قال تعالى:** ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾)، أصل معناه القذر الحسى، ثم استعير للإثم والذنب، وهو المراد، (﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾)، نصب على النداء والمدح والاختصاص، (﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾) [الأحزاب: ٣٣]، ترشيح لاستعارة الرجس للذنب، واستشهاده بهذه الآية على أن أهل بيته ذريته وأزواجه كما اختاره ابن عطية

فى تفسيره، وهو أحد الأقوال فيه.

وقيل هم: أهل الكساء الآتى بيانهم، عليٌّ وفاطمة وابناهما؛ لما روى فى الحديث أنه خرج، عليه الصلاة والسلام، غداة وعليه مرط مرجل، فأدخلهم فيه، ثم تلى الآية، وقيل: المراد زوجاته وتذكير الضمير يأباه، ووجه الاستشهاد أن من طهره الله من الآثام أحبه الله ورسوله، ومن أحباه يلزمنا محبته وبره وصلته.

(وقال تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦])، إن كانت شاهدًا لتسمية أمهات، فهو ظاهر، وإن كان للزوم برهن وتكريمهن، فلأن حق الوالدة على الولد ولزوم برها أمر معلوم مركوز فى الطباع؛ لأن وجه الشبه وجوب احترامهن وبرهن، والحصر يقتضى أن إكرامهن أحق فى الأمهات الحقيقية، ثم أسند المصنف، رحمه الله تعالى، حديثًا صحيحًا شاهدًا لما قدمه، رواه من طريق له عن مشايخه، مع أنه فى غيره من السنن، كمسلم، والنسائى بسند أعلى مما هنا، واعتذر له بأنه تنويع لما فيه من الفائدة الزائدة، ولأنه مسلم من التدليس.

فقال: **(أخبرنا الشيخ أبو محمد)** عبد الله **(بن أحمد)** التميمى **(العدل من كتابه، وكتبت من أصله)**، إشارة إلى ضبطه فيما رواه عنه، والمراد بأصله نسخته التى قرأ منها، قال: **(حدثنا أبو الحسن المقرى الفرغانى)**، بفاء وغين معجمتين، نسبة لفرغانة اسم بلدة، قال: **(حدثتنى أم القاسم، بنت الشيخ أبى بكر الخفاف، قالت: حدثنى أبى، قال: حدثنا حاتم، هو ابن عقيل، قال: حدثنا يحيى، هو ابن إسماعيل، قال: حدثنا يحيى، هو الحمانى، قال: حدثنا وكيع)**، هو وكيع بن الجراح بن فليح بن عبدى الروابيلى، أحد الأعلام المشهورين، توفى سنة سبع وتسعين ومائة، أخرج له الأئمة الستة، **(عن أبيه)** الجراح، **(عن سعيد بن مسروق)** الثورى الثقة، توفى سنة ست وعشرين ومائة، وأخرج له الستة، **(عن يزيد بن حيان)**، بفتح الحاء المهملة ومثناة تحتية، وهو التيمى الثقة.

(عن زيد بن أرقم، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: أنشدكم الله)، أى أسألكم بالله وأقسم عليكم به، يقال: أنشدك الله وبالله، أى أذكرك به، ثم استعمل فى القسم وصار حقيقة فيه، وليس السؤال بمراد هنا، بل المراد حقيقته، وتقدم فيه كلام، **(وأهل بيتى)**، معطوف على الله، أى وأذكركم أهل بيتى، فلا تنسوا حقوقهم ورعايتهم، فإن رعايتهم رعاية لى، وقيل: إنه منصوب بنزع الخافض، أى فى أهل بيتى، كما روى فى هذا الحديث ولا وجه له، فإنه تعسف من غير داع له، ومثله قول المرى ومن تبعه هنا: لعله فى أهل بيتى **(ثلاثًا)**، كرره للاهتمام به والتشديد فى رعايتهم.

(قلنا لزيد) بن أرقم راوى الحديث لما ذكره، وما فى بعض النسخ ليزيد من غلط الكتاب: **(من أهل بيته؟)**، أى ما المراد بهم فى هذا الحديث؟، **(قال: آل على)** بن أبى طالب، وهم أولاده وأهل بيته من أقاربه الأدنون، **(وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس)**، وهم من تحرم عليهم الصدقة من أقاربه كما تقدم، وهذا كما رواه مسلم فى فضائل آل البيت فى خطبة خطبها، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو راجع من حجة الوداع فى آخر عمره، قال فيها: «أما بعد، أيها الناس، إنما أنا بشر مثلكم يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيبه، وإنى تارك فيكم الثقلين، كتاب الله فيه الهدى والنور، فتمسكوا به، وأهل بيتى»(١).

وفيه ما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، من تفسيره لأهل بيته بما ذكر، وهو الذى فهم عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، هنا لأنه علم بالوحى ما يكون بعده فى أمر الخلافة والفتن، فلذا خصهم وحرض على رعايتهم، كما اقتضاه المقام، وما قيل: من أن جوابه هنا خاص بأقاربه، وهو أحد الأقوال، ويعارضه الآية الدالة على دخول أزواجه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأهل بيته كما تقدم، لا وجه له؛ لما عرفته من وجه تخصيصه هنا.

(وقال صلى الله تعالى عليه وسلم) فى حديث رواه الترمذى، عن زيد بن أرقم وجابر وحسنه: **(إنى تارك فيكم)** إشارة إلى قرب أجله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنه وصية لأمته، **(ما إن أخذتم به)**، أى تمسكتم وعملتم به واتبعتموه، وما موصوفة وإن شرطية، والجملة صفة أو موصولة، وصلته **(لن تضلوا)** بمخالفة الشريعة والطريق المستقيم، **(كتاب الله)** بدل مفسر له، **(وعترتى)**، بمثناة فوقية ومعناه **(أهل بيتى)** السابق بيانهم ووجه تخصيصهم هنا، وروى: لم تضلوا.

وما قيل: إن قوله: أخذتم به، هنا يدل على إرادة المجتهدين منهم، فلا يبعد دخول الصحابة المتصفين بهذه الصفة، كما دلت الآية على دخول أزواجه، صلى الله تعالى عليه وسلم، غير مناسب لسياق الحديث، والمراد منه هنا، **(فانظروا كيف تخلفونى فيهما)**، أى بعد وفاتى انظروا فى عملكم بكتاب الله واتباعكم لأهل بيتى ورعايتهم وبرهم بعدى، فإن ما يسرهم يسرنى، وما يسوءهم يسوءنى.

(وقال، عليه الصلاة والسلام)، فى حديث لم يخرجوه: **(معرفة آل محمد براءة من النار)**، أى معرفة مقدارهم وحرمتهم، ورعاية ما يجب من حقوقهم، فإن محبتهم لأجله، صلى الله تعالى عليه وسلم، تدل على خلوص محبته له، وذلك مرتبة مستوجبة لذلك

---

(١) أخرجه البيهقى فى السنن (١١٤/١٠)، والطبرانى فى الكبير (٢٠٦/٥)، والبغوى فى شرح السنة (١١٧/١٤).

تفضلاً من الله وكرامة لرسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وحب آل محمد جواز على الصراط)**، أى مرور عليه بسرعة جوازًا موصلاً للجنان، فإن المرء مع من أحب، ومن فسر الجواز بالجائزة بمعنى العطية، فقد تعسف تعسفًا غريبًا.

(والولاية) بفتح الواو ويجوز كسرها؛ لأنها ترد بمعناها، وإن اشتهرت فى الملك والحكومة، أى الموالاة بالنصرة والمودة **(لآل محمد أمان من العذاب، وقال بعض العلماء: معرفتهم)**، أى معرفة الآل المذكورة، **(هى معرفة مكانهم منه، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، والمراد بالمكان المنزلة المعنوية، وهى قرب نسبهم ومراتبهم منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولذا علق به قوله: منه، **(وإذا عرفهم بذلك)**، أى بسبب علو مراتبهم لقربهم منه، **(عرف وجوب حقهم وحرمتهم)**، أى احترامهم وإكرامهم **(بسببه)** صلى الله تعالى عليه وسلم، لا لفرض آخر، وقد دعا النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لمن أحبهم لحبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن أراد تفصيل هذا، فلينظر كتاب السيد السمهودى الذى صنفه فى فضائل آل البيت، فإنه جمع فأوعى، جزاه الله خيرًا.

(وعن عمر بن أبى سلمة) فى حديث رواه الترمذى، وابن أبى سلمة هو الصحابى المخزومى ربيبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وابن أخيه من الرضاع، وترجمته مشهورة: **(لما نزلت)** آية (﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣] **الآية)**، وقد قدمنا تفسيرها، فكفينا مؤنته هنا، **(وذلك)**، أى نزولها كان **(فى بيت أم سلمة)** أم المؤمنين، رضى الله عنها، **(دعا)** جواب لما، أى طلب، صلى الله تعالى عليه وسلم، ونادى **(فاطمة)** الزهراء، رضى الله عنها، **(وحسنًا وحسينًا)** سبطاه وريحانتاه، رضى الله تعالى عنهما، **(فجللهم)**، أى غشاهم وغطاهم، ومنه الجل للفرس، **(بكساء)**، وهو مرط من شعر كما ورد فى رواية أخرى، **(وعلى)** كرم الله وجهه **(خلف ظهره)** صلى الله تعالى عليه وسلم، داخل الكساء أيضًا، وإنما جعله خلف ظهره ليفرق بينه وبين زوجته وقت الدعاء.

(ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتى)، ليس المراد الحصر، أو هو مراد لإرادته أقرب الناس إلىَّ نسبًا، **(فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا)**، أى جنبهم الآثام والمعاصى وما يشينهم، ولذا سموا أهل الكساء، وإدخالهم فى الكساء إشارة إلى قربهم منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأن الله سترهم كما سترهم الكساء، وأنه صانهم وأحرزهم تفاؤلاً بذلك، كما حول، صلى الله تعالى عليه وسلم، رداءه فى الاستسقاء إشارة إلى تبدل الحال وتغيرها عما هى فيه، وذلك سبب الدعاء، وإنما دعا لهم بما ذكر بعدما ذكر الله تعالى أنه أراد ذلك لهم، وإرادته تعالى لا تتخلف عن مراده، إما تأكيدًا أو تنويهًا

بقدرهم؛ ليعلم الناس به أو المراد دوام ذلك وثباته وزيادته.

(وعن سعد بن أبى وقاص) فى حديث رواه مسلم فى صحيحه **(لما نزلت آية المباهلة)**، تقدم أن المباهلة مفاعلة من البهلة، وهى اللعنة، أى الملاعنة، وهى أن يقول كل من المتخاصمين فى المجادلة: لعنة الله على الظالم منا، والآية هى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] إلى آخرها.

وذلك لما وفد عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، نصارى نجران، ودعاهم للإسلام فلم يسلموا، وادعوا حقية دينهم، وأنه لم ينسخ، وقصتهم مفصلة فى كتب التفسير والسير، **(دعا النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** جواب لما، أى أحضر عنده، **(عليًا وحسنًا وحسينًا وفاطمة، رضى الله عنهم)**؛ لأنهم كانوا فى المباهلة يحضرون أولادهم وأهلهم، ويدعون بوقوع العقاب على الكاذب وأهله جميعًا، ولذا قال: **(وقال)** صلى الله تعالى عليه وسلم: **(اللهم هؤلاء أهلى)** وأقربائى، فامتنعوا من المباهلة لعلمهم بأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، نبى، وأنه ما باهل نبى قومًا إلا وأهلكهم الله تعالى، ورضوا بالجزية، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «لو باهلوا مسخوا قردة وخنازير، واشتعل عليهم الوادى نارًا»، وحكم المباهلة باق إلى الآن، وقد فعله العز بن عبد السلام، فلم يمض الحول حتى هلك من باهله.

(وقال صلى الله تعالى عليه وسلم) فى حديث تقدم **(فى على)** بن أبى طالب، أى فى حقه وشأنه، وسبب قوله هذا أن أسامة قال لعلى: لست مولاى، إنما مولاى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان هذا فى سفره، وهو عند غدير خم، وقد خطب الناس، فقال: **(من كنت مولاه)**، أى لى عليه ولاء وحكم، والمولى له معان، منها السيد، وهو المراد، والمعتق، والمنعم، والمعاهد، والمعسر، إلى غير ذلك من المعانى.

وقال الشافعى، رحمه الله تعالى: المراد ولاء الإسلام، وقوله: **(فعلى مولاه)**، أى سيده وناصره، واستدل به على الولاء بعض الفقهاء وغيرهم بقول: المراد بره وصلته، وهو الموافق لسياق المصنف، رحمه الله، واستدل به بعض الشيعة على تقدم على، كرم الله تعالى وجهه، على غيره فى الخلافة، ولا دليل لهم فيه لما عرفته من معانى المولى، وإنما المراد من أحبنى يحبه؛ لقوله: **(اللهم وال من والاه وعاد من عاداه)**، أى من كرهه غضب الله عليه وانتقم منه، فالمعاداة من الله مجاز أو مشاكلة.

(وقال فيه:)، أى فى حق على، كرم الله وجهه، كما فى مسلم **(لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق)**؛ لأن من أحب أصحابه وأقرباءه لمحبته فهو مؤمن، ومن كان بخلاف ذلك، ففى قلبه كفر مضمر وإن أظهر إسلامه كالخوارج، والمقصود ذمه

وتهديده والمبالغة في النهى عنه، ولكون ظاهره الإسلام، وارتكب ما لا يليق بأهل الإسلام سماه منافقًا مجازًا، ومثله في الخطابيات كثير.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(للعباس)** بن عبد المطلب عمه، في حديث صحيح رواه الترمذى، وابن ماجه: **(والذى نفسى)**، أى روحى وما به حياتى **(بيده)**، أى في قبضة تصرفه؛ لأنه المحيى والمميت، وهو قسم للتأكيد والتحقيق، **(لا يدخل قلب رجل الإيمان)**، أى لا يؤمن ويصير مؤمنًا كاملاً، ففى الدخول استعارة ظاهرة، **(حتى يحبكم)**، يعنى آله صلى الله تعالى عليه وسلم، وأقرباءه، فجعل من رآه وعرفه كمن عرفهم كلهم، **(لله ورسوله)**، أى محبة خالصة من الأغراض الدنيوية والرياء، فإنما هى محبة الله ورسوله ورضاهما، **(ومن آذى عمى)** بشىء يؤذيه، **(فقد آذانى)**؛ لأن ما يؤذى آل بيتى يؤذينى، **(وإنما عم الرجل صنو أبيه)**، الصنو بكسر الصاد المهملة وضمها، وهو هنا بمعنى المثل، أى في المعنى أبوه، والرجل يغار لأبيه، ويؤذيه ما يؤذيه، وأصل معناه نخلتان فأكثر يخرج من أصل واحد، فاستعير للأخ ولما ذكر، أى كأنه أبى يجب علىَّ بره، وكذا على غيرى، وروى «العباس صنوى»[(١)]، أى مثلى في النسب.

وسبب قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، هذا أن العباس دخل عليه مغضبًا، فقال له: «ما أغضبك؟»، قال: يا رسول الله، ما لنا ولقريش، إذا تلاقوا فيما بينهم تلاقوا بوجوه مسفرة، وإذا لقونا لقونا بغير ذلك، فغضب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى احمر وجهه[(٢)]، ثم قال ما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى.

(وقال، صلى الله تعالى عليه وسلم، للعباس) أيضًا في حديث رواه البيهقى: **(اغد على يا عم)**، أى ائتنى، يقال: غدا عليه إذا أتى، وأصل معناه المجىء في وقت الغداة، فاستعمل في مطلق المجىء **(مع ولدك)**، أى مع أولادك، وكان له، رضى الله تعالى عنه، إذا ركب عدة أولاد، عشرة ذكور: الفضل، وعبد الله، وقثم، وعبيد الله، ومعبد، وعبد الرحمن، وغيرهم من الذكور والإناث، وأشهرهم عبد الله، وهو الحبر وترجمان القرآن وأبو الخلفاء، **(فجمعهم)**، أى فجمع العباس، رضى الله تعالى عنه، أولاده عند رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو المراد أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ضمهم إليه.

وقال ابن الجوزى في الوفاء: إن الذى جمعهم من أولاده سبعة، **(وجللهم)**، أى غطاهم وسترهم وألبسهم **(بملاءته)**، بضم الميم ولام وهمزة ممدودة، وهو رداء أو ملحفة،

(١) أخرجه ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٢٣٩/٧).
(٢) أخرجه الترمذى (٣٧٥٨).

وقد يخص بما يكون من ثوبين.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، بعدما ضمهم كما فعل مع على وأهله فيما تقدم: **(هذا عمى وصنو أبى، وهؤلاء أهل بيتى)**، أى من أقربائى، **(فاسترهم من النار كسترى إياهم)**، إشارة إلى وجه إدخاله فى ملاءته كما تقدم، **(فأمنت)** بتشديد الميم، أى قالت بعد قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ودعائه هذا **(أسكفة الباب)**، بضم الهمزة وسكون السين المهملة وضم الكاف وتشديد الفاء بزنة طرطبة، ويقال: أسكوفة، فأبدل أحد حرفى التضعيف واوًا وتخفيف فائه أيضًا، وفسر بالعتبة التى فى أسفل الباب، وتطلق على ما يقابلها من أعلاه أيضًا، **(وحوائطه)**، جمع حائط وهو معروف، **(آمين آمين)** بالمد ويقصر ويشدد، وهو اسم فعل معناه استجب، وفيه كلام ليس هذا محله، وهو مفعول أمنت؛ لأنه تضمن معنى قالت، أو مقدر قبله، وفيه معجزة له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بنطق الجماد له كرامة لأهل البيت.

(وكان) صلى الله تعالى عليه وسلم، كما فى حديث رواه البخارى **(يأخذ بيد أسامة ابن زيد والحسن)**، **أى يمسكهما بيده، وسقط لفظ بيد من بعض النسخ، فالمعنى يضمهما إليه**، **(ويقول)** داعيًا لهما: **(اللهم إنى أحبهما فأحبهما)** بالإدغام، ويجوز فكه فيقال: أحببهما، والأمر للدعاء، ودعا بذلك لعلمه بأن من أحبه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحبه الله وعكسه، والقول بأن أحبهما: مشاكلة لا وجه له؛ لأن محبة الله لعبده مجاز باعتبار غايته ورد كثيرًا من غير مشاكلة، وأسامة بن زيد هو ابن حارثة مولى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وحبه.

(وقال أبو بكر) الصديق، رضى الله تعالى عنه: **(ارقبوا محمدًا)**، ارقب وراقب من المراقبة، وهى إدامة النظر فى مقابلة شىء، ثم أريد به لازمه وهو الحفظ، فالمراد احفظوا محمدًا، أى حقه عليكم، **(فى أهل بيته)**، أى فى رعايتهم وإكرامهم وبرهم، فإن رعاية حقه تتحقق بذلك بعد موته.

(وقال) أبو بكر، رضى الله عنه **(أيضًا)**، أى كمقالته المذكورة فيما رواه الشيخان عنه: **(و)** الله **(الذى نفسى)**، أى روحى وحياتى **(بيده)** بقبضة تصرفه، **(لقرابة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وهى مصدر صارت اسم جمع لقريب النسب، **(أحب إلىَّ أن أصل)**، أى صلتهم بدل اشتمال من قرابة **(من قرابتى)** فيه مضاف مقدر، أى من صلة قرابتى، قال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، هذا لما أرسلت إليه فاطمة الزهراء، رضى الله عنها، تطلب ميراثها من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من فدك وغيرها، وقال له الإمام على، كرم الله وجه، ورضى الله تعالى عنه: قرابة رسول الله، صلى الله تعالى

عليه وسلم، صلتهم لازمة، فقال: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: إنا لا نورث ليس لآل محمد أن يزيدوا على المأكل، لا أغير شيئًا كان فى عهد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه: **(أحب الله من أحب حسنًا)**، دعاء أو خبر، فحب حسن حسن، وبغضه قبيح، وروى حسينًا.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث تقدم: **(من أحبنى وأحب هذين، وأشار إلى حسن وحسين وأباهما)** عليًّا، رضى الله عنهم، وهو معطوف على هذين، **(وأمهما)** فاطمة الزهراء، رضى الله عنها، **(كان معى فى درجتى)**، بدل من معى، أى فى منزلتى ورتبتى فى الجنة **(يوم القيامة)** إن كان على ظاهره، وأنه معه فى المحشر، فهو كناية عن سلامة من هو له، فإن أريد به الآخرة مطلقًا، فالمراد قربه منه؛ لأنه لا يساويه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى درجته أحد، كقوله: «المرء مع من أحب».

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الترمذى وحسنه: **(من أهان قريشًا أهانه الله)**؛ لأنهم أكرم الناس فى الجاهلية، فكانوا سادة العرب، لهم الرياسة والرفادة، وفى الإسلام؛ لأن الإمامة بحق لهم، وقريش مصغر تصغير تعظيم لقب النضر ابن كنانة ونسله، من التقرش وهو التجارة والاكتساب، أو التجمع لاجتماعهم فى الحرم، وهو من توافق اللغات، وقيل: سموا باسم دابة عظيمة فى البحر لا تطاق، كما قيل[1]:

وقريش هى التى تسكن البحـ ـر بها سميت قريش قريشًا

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه البزار عن على وابن أبى شيبة، عن سهل: **(قدموا قريشًا)** فى كل أمر من الأمور، لاسيما فى الإمارة والخلافة، واقتدوا بمآثرهم، **(ولا تقدموها)**، نهى عن تأخيرهم والتقدم عليهم مؤكد للأمر قبله، وهو بفتح المثناة والدال المهملة المشددة، وأصله تتقدموا بتائين حذفت إحداهما تخفيفًا.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لأم سلمة)** فى حديث رواه البخارى: **(لا تؤذينى فى عائشة)**، رضى الله تعالى عنها، وسببه أنه قيل لأم سلمة أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها: إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، فقولى له، صلى الله تعالى عليه وسلم، يأمر الناس بأن يهدوا له حيث كان، أو حيث يرى، فذكرت ذلك له، صلى الله تعالى عليه

---

(١) البيت من الخفيف، وهو للمشمرج الحميرى فى خزانة الأدب (٢٠٤/١)، وللهبى فى المقتضب (٣٦٢/٣)، وبلا نسبة فى لسان العرب (٣٣٥/٦).

وسلم، مرتين وهو يعرض عنها، فلما كان فى الثالثة، قال لها: «يا أم سلمة، لا تؤذينى فى عائشة، فإنه ما نزل علىَّ الوحى وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها»[1]، فبين صلى الله تعالى عليه وسلم، لها محبته لها وتقدمها عنده، وأن الناس لذلك خصوا يومها بالهدايا، واستدل بهذا على تفضيل عائشة، رضى الله تعالى عنها، على سائر أمهات المؤمنين حتى خديجة.

وقال السبكى: الذى ندين الله به أن فاطمة أفضل، ثم خديجة، ثم عائشة، والحديث مخصوص بمن كان موجودًا حال الخطاب بقوله: منكن. وقال ابن تيمية: الرأى فى هذا التوقف لتقابل أحاديث التفضيل وتكافئها واختصاص نزول الوحى بلحافها وجه بأنها كانت تبالغ فى التنظف والتعطر والعبادة، مع شدة حبها وشوقها لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وحفظها لأوامره ونواهيه، حتى غلبت صفاته صفاتها، فصارت معه كشىء واحد، رضى الله عنها.

(وعن عقبة بن الحارث) فى حديث رواه البخارى عنه، **(رأيت أبا بكر)** الصديق، رضى الله عنه، **(و)** قد **(جعل الحسن على عنقه)**، أى حمله على عاتقه المجاور لعنقه، ففيه تجوز، **(وهو يقول)**: الجملتان حاليتان، أى حاملاً وقائلاً وشعرًا من مجزوء الكامل لا رجز، وقيل: إنه منه وهو مخزوم **(بأبى شبيه بالنبى)**، أى أفدى بأبى من اشتد شبهه برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو كناية عن شدة المحبة وتقدم الرتبة عنده، **(ليس شبيهًا بعلى)**، أى ليس شبيهًا بأبيه، رضى الله تعالى عنه، شبهًا تامًا، وإنما تمام شبهه بجده صلى الله تعالى عليه وسلم، والباء متعلقة بأفدى، فليست قسمية.

وقيل: إنها قسيمة، وقد ورد النهى عنه بحديث: «لا تحلفوا بآبائكم»، وأجيب بأنه قبل النهى عنه، وهو بعيد، والظاهر أن النهى عن القسم الحقيقى لا عما ورد للتعظيم والاستعطاف، وهذا كله فى غير الله ورسوله، فإن لهما أن يقسما بما أرادا، ويقال: تأبى وأبى بى وبأبأ الرجل إذا قال: بأبى، **(وعلى يضحك)** من فعل أبى بكر، رضى الله تعالى عنهما، وقوله هذا تعجبًا منه وسرورًا وفرحًا بذلك، وتعجبًا من أن الظاهر أن كل أحد يشابه أباه[2]:

ومن أشبى أباه فما ظلم

---

(١) أخرجه البخارى (٣٧/٥)، والترمذى (٣٨٧٩، ٣٨٨٩)، وأحمد (٢٩٣/٦).

(٢) عجز بيت وصدره:

أنا ابن الذى لم يخزنى فى حياته

وهو من الطويل، وهو لكعب بن زهير فى ديوانه (ص٦٥)، مقاييس اللغة (٤٦٨/٣).

ولكنه جذبه عرقه لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولذا سماه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ابنًا له، وجعل نسبه منه، وهى خاصية لحكم ربانية.

وقد روى أن فاطمة، رضى الله تعالى عنها، كانت ترقص الحسن وهو طفل، وتقول: بأبى شبيه بالنبى... إلخ، فيحتمل التوارد، أو أن أبا بكر تمثل به بعدما سمعه. ووقع فى البخارى: ليس شبيه بعلى، بالرفع، فقال ابن مالك: ليس حرف عطف كما ذهب إليه الكوفيون. وغيرهم يقول: هو اسمها والخبر محذوف، أى ليس الشبيه غيره، وقد يؤول بغير ذلك، وهذا لا ينافى ما فى الشمائل لم أر قبله ولا بعده مثله؛ لأن المنفى المماثلة من جميع الوجوه والمثبت من بعضها، وقيل: المثل أخص من الشبيه، ولا ينتفى الأعم بانتفاء الأخص.

والذين شبهوا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نحو العشرة، الحسن والحسين، وقيل: الحسن كان أعلاه أشبه برسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، والحسين أسفله، وجعفر بن أبى طالب، وقثم بن عباس، والسائب بن يزيد، أحد أجداد الشافعى، وأبو سفيان بن الحارث، وكابس بن ربيعة الآتى فى كلام المصنف مع ضبطه، وعبد الله بن عامر بن كريز، بضم الكاف، ومسلم بن معتب، وعبد الرحمن بن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبى طالب، وابنه القاسم، رضى الله تعالى عنهم، ونظم بعضهم ابن سيد الناس، رحمه الله تعالى، فقال:

بخمسة شبه المختار من مضر — يا حسن ما خولوا من شبهه الحسن
بجعفر وابن عم المصطفى قثم — وسائب وأبى سفيان والحسن

وقال أبو محمد الآمدى، وزاد اثنين، وقيل: إنه للعراقى، رحمه الله تعالى:

وسبعة شبهوا بالمصطفى قسما — لهم بذلك قدر قد زكى ونما
سبطا النبى أبو سفيان سائبهم — وجعفر وابنه ذو الجود مع قثما

وقال ابن حجر، رحمه الله تعالى، وزاد ثامنًا:

قد أشبه المصطفى الهادى ثمانية — من صحبه فعلا فى الناس قدرهم
سبطاه وابن كريز وابن حارثهم — وجعفر وابنه مع سائب قثم

وزاد عليه ابن سيدى الحسن، فقال:

قد أشبه المصطفى المختار من مضر — جماعة عدهم يربو على العشرة
سبطاه وابن كريز وابن حارثهم — وجعفر وابنه هم سادة خيرة
وسائب مسلم وكابس قثم — وسبط نجد عقيل وابنه البررة

وقد زيد على هذا كثير بلغوا العشرين فى بعضها كلام وطعن، ونظموها نظمًا متكلفًا، ولذا لم أتعرض له، فتابعهم ابن الشحنة فى نظم له خمسة عشر، فزاد ابن عقيل الثانى، وزيد بن عبد الله بن الحارث الملقب مية، وقد مات فى حياته، صلى الله تعالى عليه وسلم.

وزيد عثمان بن عفان؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «إنه أشبه الناس بأبيه إبراهيم الخليل»، عليه السلام، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يشبه الخليل أيضًا، وشبيه الشبيه شبيه، وعد ابن سعد منهم على بن بجاد بن رفاعة، ولو ذكر كل من قيل: إنه يشبهه صلى الله تعالى عليه وسلم لبلغ عددًا كثيرًا، فإنه ذكر منهم عبد الله بن محمد عقيل، وإبراهيم، وعبد الله بن الحسن بن الحسين بن على، ويحيى بن القاسم بن جعفر العلوى، ومنهم كما قيل: المهدى الذى يخرج آخر الزمان، والظاهر منهم أنهم تسمحوا فى وجه الشبه فى الخلق والخلق، فإن الشبه التام لم يتيسر لأحد، كيف وقد أعطى صلى الله تعالى عليه وسلم الحسن كله؟ وأعطى يوسف، عليه الصلاة والسلام شطره، فهو كما قيل[1]:

إنما مثلوا صفاتك للنا ... س كما مثل النجوم الماء

(و) روى (**عن عبد الله بن حسن بن حسين**) بن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، وهو من ثقات آل البيت وفضلائهم، وله ترجمة، وأخرج له أصحاب السنن، (**قال: أتيت عمر بن عبد العزيز فى حاجة، فقال لى: إذا كان لك حاجة، فأرسل إلىّ أو اكتب لى**) كتابًا تعلمنى فيه بحاجتك، (**فإنى أستحيى من الله تعالى أن يراك**) واقفًا (**على بابى**)، كما هو المعتاد لمن أتى باب عظيم أن يقف حتى يؤذن له، وهذا تعظيم منه لآل البيت لمحبة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وآله.

(**وعن الشعبى**) عامر بن شرحبيل كما تقدم، وهذا رواه الحاكم والبيهقى وصححه، (**قال: صلى زيد بن ثابت**) بن قيس بن شماس الأنصارى الصحابى المشهور، رضى الله عنه. وقال البرهان: زيد بن ثابت الكلبى، (**على جنازة أمه**)، أى أم زيد، والجنازة بفتح الجيم وكسرها، الميت أو التابوت، وأمه هى النوار بنت مالك بن معاوية بن عدى بن عامر الأنصارية، (**ثم قربت له بغلته ليركبها**)، فلما ركبها (**جاءه ابن عباس، رضى الله عنهما، فأخذ بركابه**)، أى أمسكه ليركب أو مشى معه ماسكًا ركابه، (**فقال زيد**) لابن عباس: (**حل عنه**)، أى دع الركاب وتباعد عنه (**يا ابن عم رسول الله**)، يعنى أنه لا يليق مثله بآل البيت؛ لتعظيمهم وتكريمهم اللازم لكل أحد.

---

(١) تقدم الاستشهاد به.

(فقال) ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، مجيبًا له: **(هكذا نفعل بالعلماء)**، أى مثل هذا التعظيم نعظم به علماءنا، **(فقبل زيد يد ابن عباس)** تعظيمًا له وجزاء لإكرامه **(فقال: هكذا أمرنا بأن نفعل بآل بيت نبينا)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقول الصحابى: أمرنا، كما بين فى مصطلح الحديث، له حكم الرفع على كلام فيه، ليس هذا محله، والشاهد فيه تعظيم آل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومحبتهم.

(ورأى) عبد الله **(بن عمر)** بن الخطاب، رضى الله تعالى عنهما، أحد العبادلة المشهور **(محمد بن أسامة بن زيد)** بن حارثة، مولى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا الحديث فى صحيح البخارى، **(فقال: ليت هذا عندى)**، بكسر العين وسكون النون أو بفتحها، والباء الموحدة الساكنة، وروى بالوجهين، والذى رجحوه الأول، وهكذا ضبطه الحافظ العراقى وتمنى ذلك ليعلمه ويؤدبه، و لم يكن عرفه حين رآه، **(فقيل له: هو محمد ابن أسامة، فطأطأ ابن عمر رأسه)**، أى خفضها وأطرق حياء لما عرفه، **(ونقر بيده الأرض)** وهو يتفكر فيما قاله ندمًا عليه، **(وقال: لو رآه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأحبه)** كما كان يحب أباه أسامة، وإنما فعل ذلك وقال ذلك تعظيمًا لموالى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وقال الأوزاعى:) الإمام العابد الزاهد الحافظ صاحب المذهب الذى كان عليه أهل المغرب قبل اتباع مذهب الإمام مالك، سكن الشام حتى مات، وهو منسوب للأوزاع، بطن من حمير أو همدان أو قرية، وقد تقدم **(دخلت بنت أسامة بن زيد)** مولى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، واسمها فاطمة، وكانت تسكن المزة بالشام كما ذكره ابن عبد البر **(صاحب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، بالجر صفة أسامة أو زيد، فإن كلا منهما صحابى مشهور، **(على عمر بن عبد العزيز)**، وهو خليفة.

وقيل: إنها دخلت عليه وهو أمير بالمدينة قبل خلافته فى خلافة الوليد بن عبد الملك ابن مروان، والصحيح الأول؛ لأن هذه القصة ذكرها ابن عساكر فى تاريخه، وأن أسامة توفى بقرية يقال له: بوادى القرى، وخلف بنته فاطمة بالمزة، فلم تزل بها إلى أن ولى عمر بن عبد العزيز.

(فأتته ومعها مولى لها)، أى عبد **(يمسك بيدها)**؛ لكبرها وضعف بصرها، **(فـ)** لما رآها عمر **(قام لها ومشى إليها)** تكريمًا وتعظيمًا لها؛ لكونها من نسل موالى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(حتى جعل يدها بين يديه)** بأن أمسكها بدلاً عن مولاها وتولى خدمتها، **(ويداه فى ثيابه)**، أى مغشاة بكمه حتى لا يمس بدنه بدن أجنبية لتقواه، **(ومشى بها حتى أجلسها على مجلسه)**، أى على فراشه الذى كان جالسًا عليه، **(وجلس**

بين يديها)، كما يفعله الصغير مع الكبير تأدبًا منه وإكرامًا وتعظيمًا، **(وما ترك لها حاجة)** ذكرتها له **(إلا قضاها)** ونجزها، وكان قال لها: ما حاجتك يا فاطمة؟ قالت: تحملنى إلى أخى، فجهزها وحملها إليه، فانظر رحمك الله تعالى، إلى الخلفاء الراشدين لم تمنعهم الخلافة عن قضاء الحوائج للناس والتواضع لهم.

(ولما فرض عمر) بن الخطاب، رضى الله عنه، فى ديوانه الذى رتب فيه الوظائف للناس، وهذا مما رواه الترمذى وحسنه، فلما عين من بيت المال لهم فرض **(لابنه عبد الله)** وظيفة **(فى ثلاثة آلاف)**، أى فى الطبقة التى واحد منها ثلاثة آلاف فى السنة، **(و)** فرض **(لأسامة بن زيد فى ثلاثة آلاف وخمسمائة)**، فجعل وظيفته من بيت المال فى رتبة أعلى من ابنه عبد الله.

(قال) جواب لما **(عبد الله)** ابنه **(لأبيه)** عمر، رضى الله تعالى عنهما، **(لم فضلته؟)** على بزيادة عطائه، **(فوالله ما سبقنى إلى مشهد)**، أى محل شهده الناس من الجهاد وخدمة الدين التى ترتب الوظائف بقدرها وبالتقدم فيها، **(فقال)** عمر **(له:)**، أى لابنه مجيبًا له **(لأن زيدًا)** أباه **(كان أحب إلى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من أبيك)**، يعنى نفسه، **(وأسامة أحب إليه منك)**، فتقديمه إنما هو لمحبة رسول الله، لا لسبقه لك، وهى أمر يقتضى التقديم وزيادة التكريم.

وهذا قيل: إنه تواضع منه لخدمته لموالى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وإلا فهو أحب إلى رسول الله؛ لحديث عمرو بن العاص قلت: يا رسول الله، أى الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة»، قلت: من الرجال؟ قال: «أبوها»[1]، قلت: ثم من؟ قال: «عمر». ولك أن تقول: الأحبية تختلف، فأسامة، رضى الله تعالى عنه، أحبيته لكونه من خدمته المقربين له، فلا ينافى كون عمر أحب إليه من غير ذلك الوجه، فآثر القرب منه على غيره.

ثم إن ما ذكره من الفرض المذكور يخالفه ما فى الاستيعاب أنه فرض لأسامة خمسة آلاف، ولابنه ثلاثة آلاف، لكنه لا ينافى المقصود من القصة، وهذا كله من الغنائم كما فصلوه، **(فآثرت)**، أى أجزت وقدمت **(حب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، على حبى)**، بضم الحاء فيهما، أى محبته، أو بكسرها، بمعنى محبوبه على محبوبى.

(وبلغ معاوية) بن أبى سفيان، رضى الله تعالى عنهما، فيما رواه ابن عساكر **(أن كابس بن ربيعة)** بن مالك بن لوى السامى البصرى، بسين مهملة من بنى سامة بن لوى،

---

(١) أخرجه البخارى (٦/٥، ٢٠٩)، ومسلم فى فضائل الصحابة (٧)، وأحمد (٢٠٣/٤)، والبيهقى (٣٧٠/٦، ٢٩٩/٧).

وكابس بكاف وباء موحدة بعد ألف وسين مهملة، وما قيل من أنه بمثناة تحتية وأنه صحح، وفى نسخة العزفى تلميذ المصنف تصحيف من ناقله، وقول القرطبى: إن المحفوظ فيه عابس الصحيح خلافه، **(يشبه برسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** بنوع من الشبه، وأين الثرى والثريا، **(فلما دخل عليه من باب الدار)**، الفاء دالة على مقدر، أى وجه له من أحضره، فلما دخل باب داره، **(قام عن سريره)**، فمشى له **(وتلقاه وقبل بين عينيه)** تكريمًا لمشابهته لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.

وكان أنس بن مالك إذا رآه بكى لتذكره رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وأقطعه المرغاب)** اسم أرض بمرو الشاهجان، أو قرية بهراة كانت ذات غلة كثيرة يرغب فيها، وهو بكسر الميم وغين معجمة وألف وباء موحدة قبلها راء مهملة، والإقطاع أن يفوض إليه أرضًا بتمليك ونحوه، ويسوغه لمن هو أهل له، وفى شرح أحكام عبد الحق، أنه اسم نهر بالبصرة، وما فى القاموس مما يقتضى أن ميمه مفتوحة مخالف لما نقله أهل اللغة كأبى عبيد فى معجمه، والظاهر أنه لا وجه له، وعبارته المرغاب ع ونهر بمرو الشاهجان وبلدة بهراة، وبالكسر سيف مالك بن حمار. انتهى.

وقوله: **(لشبهه صورة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)** متعلق بما قبله جميعه، أى كل ما فعله معاوية، رضى الله تعالى عنه، من تعظيمه لمشابهته له، والصورة ظاهر الوجه وهيئة الإنسان وصفته، وصورة مضاف لما بعده مفعول أو منصوب منون تمييز للنسبة.

(وروى أن مالكًا)، هو ابن أنس الإمام المعروف، **(لما ضربه جعفر بن سليمان)** بن على ابن عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما، وجعفر هذا كان واليًا على المدينة من قبل عمه المنصور، **(ونال منه ما نال)** من تجريده من ثيابه وإهانته وسبه، وكان سببه أنه بلغه أنه يقول: إن الأيمان فى بيعة الخلفاء ليست لازمة؛ لأن الناس يكرهون فيها، فغضب لذلك ودعاه، فحصل منه ما لا خير فيه، **(وحمل)** لمنزله **(مغشيًا عليه)** من الضرب، وإنه مدت يده حتى خلعت من كتفه، **(دخل عليه الناس)** جواب لما، **(فأفاق)** من غشيته، **(فقال: أشهدكم أنى جعلت ضاربى)**، أى الآمر بضربى ومن باشره **(فى حل)** بكسر الحاء، يقال: هو فى حل من كذا، إذا أبرأ ذمته من عهدته.

(فسئل بعد ذلك) عن وجه ما قاله وإسقاطه حقه، **(فقال: إنى خفت أن أموت)** مما فعله بى، **(فألقى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى الدار الآخرة، **(فأستحيى منه)** لما يلحقنى من الخجل منه خوفًا **(أن يدخل بعض آله)** من أقربائه **(النار بسببى)** جزاء له على ما فعله؛ لأن حق العبد لا يسقط إلا برضاه، وإذا لم يرض يعذبه الله عدلاً منه، فلذا قال حذرًا من ذلك، ولذا جزم بذلك، واحتمال إرضاء الله له وغيره أمر مخالف للظاهر، فلا

وجه للاعتراض على جزمه بذلك كما قيل، ولله در الإمام النووى فى قوله:

ما نال منى أو علقت بذمته أبرأته لله شاكر منته

والله ما طالبت عبدا بعده ولئن طلبت رجوت واسع رحمته

أأرى معوق مؤمن يوم الجزا ء وأن أسوء محمدًا فى أمته

(**وقيل: إن المنصور**) الخليفة العباسى المشهور (**أقاده من جعفر**)، أى أمر أن يقتص لمالك من جعفر، فيضرب كما ضربه، وسيأتى كلام فى قصاص الضرب، (**فقال: أعوذ بالله**) وألتجىء إليه فى الإعانة على عدم ما أريد، وهو عبارة فى العرب عن عدم الرضا، (**والله ما ارتفع سوط عن جسمى**) فى حال الضرب (**إلا وقد جعلته فى حل**) وأبرأت ذمته منه؛ (**لقرابته من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم**) تكريمًا له لتعظيمه ومحبته.

(**وقال أبو بكر بن عياش:**)، بفتح العين المهملة وتشديد المثناة التحتية وآخره شين معجمة، ابن سالم الأزدى المقرى، أحد الأعلام، اختلف فى اسمه، فقيل: شعبة، وقيل: اسمه كنيته، وشهرته تغنى عن ذكره، توفى سنة تسع وثلاثين ومائة فى جمادى الأولى، وعمره ستة وتسعون سنة (**لو أتانى أبو بكر وعمر وعلى**) فى حاجة أقدر عليها، (**لبدأت بحاجة على قبلهما**) وقدمته عليهما وهما ما هما إيثارًا عليهما؛ (**لقرابته**)، وفى نسخة: لقرباه (**من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم**)، لشدة قربه وصهارته، فتقدمه ذاتى وعرضى وقربهما منه لا يمنعه، (**ولأن أخر من السماء إلى الأرض**) هذا تمثيل لصعوبته، حتى أن مخالفته عنده أشد عنده من أنه يرفع إلى السماء ويرمى به منها إلى الأرض، فتنقطع وتتكسر جميع أعضائه، وخر بمعنى سقط، (**أحب إلىَّ من أن أقدمه عليهما**)، يعنى لولا قرابته منه صلى الله تعالى عليه وسلم ما قدمته عليهما مع علمى بأفضليتهما عليه، وإنما قدمه لما فيه من صلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وشرف وكرم:

ولأجل عين ألف عين تكرم

ففى الكلام تقدم كما أشرنا إليه.

(**وقيل لابن عباس:**) كما رواه أبو داود والترمذى وحسنه (**ماتت فلانة**)، كناية عن امرأة معينة كما بينه بقوله: (**لبعض أزواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم**) ولم يعينوها، وقيل: هى ميمونة، وقيل: هى زينب، (**فسجد، فقيل له: أتسجد فى هذه الساعة؟**)، أى فى مثل هذه الساعة التى أخبرت فيها بهذه المصيبة، والسجود يكون لشكر ونحوه، (**فقال: أليس قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إذا رأيتم آية فاسجدوا»**)، أى أمرًا عظيمًا فيه عبرة كالكسوف والخسوف، وجزم بعضهم بأنها ميمونة خالة ابن عباس، وهى آخر زوجاته صلى الله تعالى عليه وسلم موتًا، وفى انقراضهن يخشى رفع

الرحمة من الأرض وغضب الله على أهلها، وفى السجود والصلاة تذلل برفع غضب الرب، ولذا استحب بعضهم الصلاة للخسوف والزلزلة، **(وأى آية أعظم من ذهاب أزواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم؟)**، وغلق بابه فإنه أمر عظيم يورث حزنًا وأسفًا.

(وكان أبو بكر وعمر يزوران أم أيمن مولاة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويقولان: كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يزورها)، فاقتديا به وأحبا ما أحب، واسمها بركة بنت حفص بن ثعلبة بن عمر بن حفص بن مالك بن سليمان بن عمر بن النعمان، كانت وصيفة لعبد الله بن عبد المطلب، تزوجها زيد مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فولدت له أسامة وهاجرت الهجرتين، وكانت آلت إليه من أبيه، وقيل: كانت لأمه، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يحبها ويحب زوجها وابنها، ويقول: «هى أمى بعد أمى»، فلذا كان يزورها ويصلها، وكانت تحبه وتحضنه، وآمنت به صلى الله تعالى عليه وسلم قبل بعثته لأن أمه ذهبت به لأخواله بنى النجار بالمدينة، وأقامت شهرًا عندهم، فكان اليهود يختلفون وينظرونه، فسمعتهم أم أيمن يقولون: هذا نبى هذه الأمة، فرق ذلك فى قلبها، فهى أول من آمن به صلى الله تعالى عليه وسلم ثم رجعت به فماتت أمه بالأبواء وقبرها هنالك، فحضنته أم أيمن.

(ولما وردت حليمة السعدية) من بنى سعد، وهى أمه من الرضاعة، وهذا الحديث رواه ابن سعد، رحمه الله، **(على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، بعد هجرته، **(بسط لها رداءه)**؛ لتجلس عليه إكرامًا لها ولحق أمومة الرضاع، **(وقضى حاجتها)** التى سألته قضاءها، **(فلما توفى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وفدت)**، أى جاءت وافدة وقادمة من محل بعيد، **(على أبى بكر وعمر)** فى خلافتهما لحاجة لها، **(فصنعا بها مثل ذلك)**، أى بسطا رداءهما وأكرماها وقضيا حاجتها تأسيًا به، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومحبة لمن أحب.

واعترض عليه البرهان، وقال: إن التى قدمت عليه بنت حليمة المسماة بالشيماء، وهى التى أسلمت لا حليمة، كما ذكره الدمياطى وتبعه غيره، لكن رد عليه ذلك مغلطاى فى مؤلف له سماه التحفة الجسيمة فى إسلام حليمة، والحاصل كما تقدم أنهم اختلفوا فى إسلامها وأنها صحابية، وأنكره بعضهم، وقال: إنه غلط من بنتها الشيماء، فإنها أسلمت. وقال ابن عبد البر فى الاستيعاب: إنها أتته صلى الله تعالى عليه وسلم يوم حنين، فبسط لها رداءه، وأنه روى عنها حديث، ورد بأنه لم يصح، والتى أتته بنتها الشيماء بنت الحارث كما مر، واسمها حذافة، وأما هى فأتته صلى الله تعالى عليه وسلم زمن خديجة، فأعطاها أربعين شاة وجملاً، وانصرفت إلى أهلها و لم يذكر إسلامها إلا ابن

عبد البر أثبته وعدها فى الصحابة، وقال: هى أتته بحنين وروى عنها عبد الله بن جعفر، وذكر فى الوفاء أنها أسلمت هى وزوجها وبنتها، وكفى بهذا مستندًا للمصنف، فالمخطىء له مخطىء.

والشاهد فيما ذكره لما نحن فيه، أن أبا بكر أكرمها وعظمها اقتداء به، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومحبة لمن أحبه، وهى فى حكم آل بيته؛ لأنها أمه من الرضاعة، وهى فى حكم القرابة، وهذا مع ظهوره لم يفهمه من قال معترضًا على المصنف، رحمه الله تعالى: إن هذه القصة لا مدخل لها فى هذا الفصل؛ لأنه معقود لتوقير آله وأصحابه تكريمًا له وتعظيمًا، وهذا إنما هو من قبيل تعظيم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، نفسه لغيره، وهذه غفلة منه عجيبة.

* * *

(فصل ومن توقيره ﷺ وبره)

توقيره بتعظيمه، وبره مضاف إلى المفعول، بمعنى الإحسان، والمراد به رعاية جانبه، وصلته، **(توقير أصحابه وبرهم)**، أى تعظيمهم والإحسان إليهم بموالاتهم ونصرتهم، وكل ما يليق بهم قولاً وفعلاً، فإن من أكرم عظيمًا، أكرم أتباعه، والأصحاب جمع صاحب، وتعريفه كما تقدم: من رآه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مؤمنًا به، ومات على ذلك، وتفصيله فى كتب الحديث والأصوليين، **(ومعرفة حقهم)**، أى ما يلزم لهم من تكريمهم، وحسن معاملتهم، وتنزيل كل منهم فى منزلته اللائقة به، وليس المراد به مجرد المعرفة، حتى يقال: ينبغى أن يقول: القيام بها؛ لأن ثمرة العلم العمل، ولذا عطف عليه قوله: **(والاقتداء بهم)**، أى اتباع أقوالهم وأفعالهم، فإنهم على هدى أضاءت فى مشكاتهم الأنوار النبوية، فهم خير الناس، ومجموعهم أفضل من مجموع من بعدهم.

وأما كون كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم، فصرحوا بأنه لا يلزم، فقد يكون بعض التابعين أفضل من بعض الصحابة، واستدل لحديث: **(أمتى كالمطر، لا يدرى الخير فى أوله أم آخره)**، والمشاحة فيه بأنه باعتبار النفع لا لفضيلة غير مسلمة، وبالجملة فكلهم عدول مطلقًا، صغيرهم وكبيرهم.

(وحسن الثناء عليهم)، إذا ذكروا مدحوا، **(والاستغفار لهم)**، أى الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة نحو: رحمهم الله ورضى عنهم، **(والإمساك)**، أى السكوت، يقال: أمسك عن ذكره، إذا سكت، وهو مجاز صار حقيقة فيه، **(عما)**، أى عن كل أمر **(شجر بينهم)**، أى وقع فيه خلاف ونزاع، مأخوذ من الشجر المختلف المتداخل أغصانه بعضها فى بعض، وفى الحديث: «إياكم وما شجر بين أصحابى»، **(ومعاداة من عاداهم)**، كالخوارج

والرافضة، **(والإضراب)**، أى الترك والإعراض، **(عن أخبار المؤرخين)**، التى نقلوها عنهم، فإنها تورث تنقيص بعضهم بما نقلوه، **(وجهلة الرواة)** الذين رووا قصصًا باطلة تؤدى لسوء ظن بهم.

(وضلال الشيعة)، بضم الضاد المعجمة وتشديد اللام، جمع ضال، والشيعة كل فرقة تابعة لأحد، ثم خصت بفرقة مخصوصة شايعوا عليًّا وبالغوا فيه، وقالوا: إن الإمامة حقه وحق بنيه دون غيرهم، وهو من إضافة الصفة لموصوفها، أى الشيعة، والصفة كاشفة معرفة لا مقيدة حتى يتوهم أن من الشيعة فرقة غير ضالة، وهى مقيدة للمعطوف والمعطوف عليه، أعنى قوله: **(والمبتدعين)**، فإن البدعة على أقسام كما تقدم، والمراد ابتداع العقائد الفاسدة كالخوارج وبعض المعتزلة.

وقوله: **(القادحة)** صفة إخبار، والقدح الذم والتنقيص بذكر ما يؤدى إليه **(فى أحد منهم)**، أى من الصحابة، **(وأن يلتمس لهم)**، أى يطلب لهم، وأصله إدراك ظاهر البشرة كالمس، فعبر به عن مطلق الطلب، **(فيما نقل عنهم من مثل ذلك)** الأمر المنقول عنهم فى الأخبار المروية **(فيما كان بينهم من الفتن)** كما وقع بين على ومعاوية، رضى الله تعالى عنهما، **(أحسن التأويلات والمحامل)**؛ لأنها أمور وقعت باجتهاد منهم، لا لأغراض نفسانية ومطامع دنيوية كما يظنه الجهلة، **(ويخرج)** بضم أوله مجهول، كقوله: يلتمس، المتقدم أيضًا **(أصوب المخارج)** بأن يحمله على أمر محمود، ويأوله بما يخرجه عن عده من المعايب إلى إلحاقه بالمحاسن، **(إذ هم أهل ذلك)**، أى مستحقون بأن يحمل ما صدر منهم على أمور حسنة محمودة.

(ولا يذكر)، مبنى للمجهول **(أحد منهم بسوء)**، أى بأمر قبيح، **(ولا يغمص عليه أمر)** بضم الياء التحتية، وسكون العين المعجمة، وميم مفتوحة، وصاد مهملة، مبنى للمجهول، أى لا يعاب ولا ينقص فى أمر من أموره، يقال: غمصه، إذا احتقره وتهاون به، وجوز فيه أيضًا إعجام ضاده من أغمض الجفن، إذا أطبق بعضه على بعض، ثم استعير للتغافل والتساهل، قال الله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، فالمعنى لا يحتقر، والأول أولى رواية ودراية، **(بل يذكر حسناتهم)** المروية من عبادتهم وزهدهم، **(وفضائلهم)** الكثيرة من علمهم وكرمهم وحلمهم، **(وحميد سيرهم)** من إنصافهم وعدلهم وإصابة رأيهم وعلو هممهم، **(ويسكت)**، مبنى للمجهول **(عما وراء ذلك)**، أى عن غيره مما لا يليق بشرف مقامهم.

(كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم): فى حديث رواه الطبرانى وابن أبى أسامة، عن ابن مسعود **(إذا ذكر أصحابى)** بذكر أحوالهم، **(فأمسكوا)** عن الطعن فيهم وذكرهم بما

يوهم نقصًا فيهم، (**قال الله تعالى**: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ﴾ [الفتح: ٢٩] **إلى آخره**)، فتضمن خاتمة سورة الفتح الثناء عليهم كلهم، وأن الله تعالى وعدهم بمغفرته وأجر عظيم منه، وأنهم من ابتداء أمرهم إلى آخره نفع وخير، كزرع تكامل شيئًا فشيئًا حتى تمت سنابله وعم نفعه، والآية وما فيها من التفاسير قد كفينا مؤنته هنا، والذى يراد منها هنا أن من مدحه الله وبالغ فى مدحه فى كتبه المنزلة على رسله لا يحتاج لمدح، فكيف يقدح فيه قادح؟ لكنى أقول:

أعمى البصائر بالتكحل يذهب

(**وقال**) الله تعالى عز وجل فى حقهم أيضًا: (﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠] **الآية**)، وفى هذه الآية مدح عظيم أيضًا لهم، ووعد عظيم بما لهم فى العقبى، وهم على طبقات ثلاث:

الأولى: السابقون الأولون الذين صلوا للقبلتين وشهدوا بدرًا، والذين أسلموا قبل الهجرة.

الثانية: السابقون الأولون للبيعة، وهم الأنصار أصحاب العقبة الأولى والثانية.

والثالثة: الذين اتبعوا هؤلاء بإحسان، وهم اللاحقون بالسابقين من أهل القبلتين، وشمل هؤلاء كلهم الثناء والوعد، وقد قسموا أقسامًا أخر ليس هذا محل تفصيله.

(**وقال الله تعالى**: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾) [الفتح: ١٨]، وهذه قصة الحديبية، وما وقع فيها مما تغنى شهرته عن ذكره، (**وقال الله تعالى**: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] **الآية**)، هذه الآية قدمنا أنها نزلت فى ناس من الصحابة، منهم أنس بن النضر عم أنس بن مالك، كان لم يشهد بدرًا، فكبر عليه ذلك، فقال: أول مشهد لرسول الله غبت عنه، والله لئن أرانى الله مشهدًا بعده ليرين الله ما أصنع، فلما كانت وقعة أُحُد من العام القابل، قاتل فيها حتى قتل، ومنهم حمزة، وسعد بن معاذ، وطلحة بن عبيد الله.

(**حدثنا القاضى أبو على**)، هو ابن سكرة، كما تقدم، قال: (**حدثنا أبو الحسين**)، تقدم أيضًا، (**وأبو الفضل بن خيرون، قالا: حدثنا أبو يعلى**)، أحمد بن عبد الواحد البغدادى، وقد تقدم، (**قال: حدثنا أبو على السنجى**)، قال: (**حدثنا محمد بن محبوب**)، المعروف بالمحبوبى كما تقدم، قال: (**حدثنا الترمذى**)، الحافظ أبو عيسى، صاحب السنن، قال: (**حدثنا الحسن بن الصباح**)، هو البزار، براء مهملة فى آخره، كما تقدم، وهو الحسن ابن محمد بن الصباح أبو على الزعفرانى، قال: (**حدثنا سفيان بن عيينة**)، كما تقدم أيضًا، (**عن زائدة**) بن قدامة أبو الصلت الثقفى، الكوفى، الحافظ، الثقة، الحجة، توفى غازيًا

بالروم سنة ستين أو إحدى وستين ومائة، وأخرج له الستة، **(عن عبد الملك بن عمير)** الكوفى، التابعى، روى عنه الستة، توفى سنة ست وثلاثين ومائة، **(عن ربعى)**، بكسر الراء المهملة، وسكون الموحدة، **(ابن حراش)** بكسر الحاء، وفتح الراء المهملتين، وآخره شين معجمة، وما عداه خراش بخاء معجمة، وهو أبو مريم العبسى.

(عن حذيفة) ابن اليمانى، بإثبات الياء، وهو الأفصح، وتحذف، وهو الصحابى المشهور، **(قال: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**: فى حديث رواه الترمذى، وابن ماجه، **(اقتدوا باللذين من بعدى: أبى بكر، وعمر)**، أراد بهم الخلفاء الراشدين مطلقًا، وخص منهم أبو بكر وعمر؛ لزيادة فضلهما وتقدمهما على غيرهما، وهذا الحديث أخرجه الحاكم، وابن حبان أيضًا، وفى طرقه اختلاف بزيادة ونحوها، وأوله قال حذيفة: كنا جلوسًا عنده، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: «إنى لا أدرى ما بقائى فيكم، فاقتدوا باللذين من بعدى»[1]، وأشار إلى أبى بكر وعمر.

وأخرجه القصار بلفظ: «اقتدوا بالذين من بعدى، أبى بكر وعمر، فإنهما حبل الله تعالى الممدود، من تمسك بهما فقد تمسك بعروة الله الوثقى، لا انفصام لها»[2]، والمراد الاقتداء بهما إذا قاما مقامه فى الخلافة، وهو دليل على خلافتهما، وعلى أن قول الصحابى حجة مقدمة على القياس، ومنهم من خصه بأبى بكر وعمر، واستدل بهذا الحديث كما فصل فى كتب الأصول.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث آخر رواه الدارقطنى، وابن عبد البر فى العلم من طرق أسانيدها كلها ضعيفة، حتى قال ابن حزم: إنه موضوع. وقال الحافظ العراقى: كان ينبغى للمصنف، رحمه الله، أن لا يورده بصيغة الجزم، وما قيل من أنه ليس بوارد؛ لأن المصنف، رحمه الله، ساقه فى فضل الصحابة، وقد اتفقوا على جواز العمل بالحديث الضعيف فى فضائل الأعمال، فضلاً عن فضائل الرجال لا وجه له؛ لأن قوله: **(أصحابى كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم)**، فيه العمل بما فعلوه وقالوه من الأحكام، وليس هذا من قبيل الفضائل التى يجوز العمل فيها بالضعيف، فلو قال: إنه بمعنى الحديث الذى قبله، وهو حديث صحيح يعمل به، ولذا ساقه بعده كالمتابعة له، ولذا جزم به كان أقوى وأحسن مما قاله، وقال ابن الرومى، رحمه الله تعالى[3]:

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٣٨٥)، والترمذى (٣٦٦٣)، وابن ماجه (٩٧)، والبيهقى (٥/١٥١)، وابن أبى شيبة (١٢/١١، ١٤/٥٦٩).

(٢) أخرجه أحمد (٥/٣٨٢، ٣٨٥، ٣٩٩، ٤٠١، ٤٠٢)، والترمذى (٣٦٦٢)، والحاكم (٣/٧٥)، وابن حبان (٢١٩٣)، والطبرانى (٩/٦٨)، والحميدى (٩٤٩).

(٣) البيتان من الكامل، وهما فى ديوان ابن الرومى (ص٢٣٤٥).

قوم إذا دجت الخطوب فإنما آراهم في الحادثات نجوم
منها مصابيح الدجى ومعالم فيها الهدى والأخريات رجوم

وليس هذا مع ما قبله حديثًا واحدًا كما نبه عليه المصنف بقوله، وقال: فوجه التشبيه ما ذكر من العلو والشرف.

(وعن أنس) بن مالك فيما رواه البزار وأبو يعلى، **(قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: مثل أصحابي)** زاد في المصابيح: «في أمتي»، **(كمثل الملح في الطعام)**، أي فيما يطبخ ويؤكل مما يعتاد إصلاحه بالملح، ووجه الشبه الإصلاح، وإن ضر كثير الملح وأصلح قليله، ولدفع توهم ضرر كثرتهم، قال: **(لا يصلح الطعام)**، بالبناء للفاعل ويجوز بناؤه للمفعول أيضًا، **(إلا به)**، أي بوضعه فيه، وهذا الحديث رواه ابن أبي حاتم وغيره من طرق مختلفة.

وقال الحسن البصري: قد ذهب ملحنا، فكيف نصلح؟ وإصلاحهم بإرشادهم وهدايتهم وحثهم على الطاعات، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وخلافتهم وبيان الشريعة وأمور الدين، فعلينا باتباعهم واقتفاء آثارهم، ومن أشراط الساعة فساد العلماء، كما قيل:

بالملح يصلح ما يرجى تغيره فكيف بالملح إن حلت به الغير؟

قيل: فيه دقيقة، وهي الإشارة إلى الاعتدال، وأنهم أمة وسط، ولا يخفى بعده، ولو قيل: إنه إشارة إلى قلتهم وسرعة انقراضهم، كان أظهر، فتأمل.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم في حديث تقدم: **(الله الله في أصحابي)**، أي اتقوا الله فيهم، وكرره للحث والتأكيد، وهو منصوب على التحذير بعامل يجب حذفه؛ لقيام التكرير مقامه ولولاه حسن إظهاره كما قاله ابن مالك. وفي البسيط يجوز إظهاره. وقال الجزولي: إنه يجوز مع قبحه.

(لا تتخذوهم غرضًا بعدي)، الظرف متعلق بالفعل لا صفة غرضًا، والغرض الهدف الذي يرمى به السهام، والمعنى لا تذموهم وتطعنوا فيهم بإسناد أمور قبيحة لهم، **(فمن أحبهم)** وصان أعراضهم، **(فبحبي أحبهم)**، أي فإنما يحبهم لأجل محبتي لهم، فمحبتهم عين محبتي، وبرهم بري، **(ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله)**، أذية الله عبارة عن فعل ما لا يرضاه، إذ معناها الحقيقي لا يتصور في حقه، فهو مشاكلة، **(ومن آذى الله يوشك)**، بكسر الشين وقد تفتح، بمعنى يقرب ويسرع، **(أن يأخذه)**، أي يهلكه ويستأصله بعذابه، ويوشك يجوز رفعه وجزمه؛ لأن من شرطية أو موصولة، ورواه في المصابيح: فيوشك، بالفاء والرفع بتقدير مبتدأ، أو هو

مستأنف، دليل على الجواب.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه مسلم وغيره: **(لا تسبوا أصحابى، فلو أنفق أحدكم مثل أحُد ذهبًا)**، وفى بعض الروايات من طريق أبى بكر بن عياش زيادة: «كل يوم»، وأحُد اسم جبل معروف، أى لو بذل فى سبيل الله مقدار وزنه ذهبًا، **(ما بلغ)**، أى ما وصل وساوى ثوابه ثواب **(مد أحدهم ولا نصيفه)** الذى يتصدق به من تمر أو شعير أو قمح ونحوه، ففيه من المبالغة ما لا يخفى، والمد بضم الميم: ربع صاع، وهو أقل ما يتصدق به عادة، وهو رطل وثلث عراقى عند الشافعى، ورطلان عند أبى حنيفة، رحمه الله تعالى.

وروى: مد، بفتح الميم، أى مداه وغايته، كمد البصر ومداه، والنصيف بفتح النون وكسر الصاد المهملة بوزن رغيف، وفيه أربع لغات، نصف بكسر النون وضمها وفتحها، ونصيفة بزيادة تحتية لغة فى النصف كثمين بمعنى ثمن، وقيل: النصيف مكيال دون المد، أى أعلى صدقتكم وإنفاقكم لله لا يبلغ أجره وموقعه عند الله أقل صدقتهم؛ لسبقهم فى الخير وخلوص نيتهم بدون رياء منهم، وقد أنفقوا، رضى الله تعالى عنهم، وهم فى فاقة وقلة، ومن بعدهم أنفق والدنيا واسعة دارة عليهم، مع شدة الحاجة لما أنفقوه فى أول ظهور الإسلام وقتال أعداء الدين، مع بذلهم من مالهم وأهلهم وأرواحهم فى سبيل الله، كما قيل:

رأيت عبيد الله أكرم من مشى   وأكرم من فضل بن يحيى بن خالد
أولئك جادوا والزمان مساعد   وقد جاد ذا والدهر غير مساعد

ولمهيار:

جدت وقارا والزمان هازلى   وجاد عفوا والزمان جامد

والخطاب للموجودين من غير الصحابة، ولمن يوجد بعدهم كما قيل، أو المراد بأصحابه هنا السابقون الأولون منهم، كما قال الله: **(﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾** [الحديد: ١٠] **الآية)**، فالأصحاب جماعة مخصوصون منهم، واختلف فى حكم من سبهم، هل هو كبيرة يعزر فاعله، أو كفر فيقتل؟ وسيأتى تفصيله آخر الكتاب.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم فيما رواه الديلمى وأبو نعيم فى الحلية، عن جابر: **(من سب أصحابى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)**، اللعنة بمعنى الإبعاد والطرد، والمراد بعده من رحمة الله، وبهذا تمسك من قال بكفره وقتله، ومثله كثير فى أحاديث التهديد والتخويف، حتى لا يتجرأ عليه أحد من الناس، **(لا يقبل الله منه)**، أى ممن سبهم

(**صرفًا ولا عدلاً**)، فى تفسيرهما أقوال، فقيل: الصرف التوبة، وقيل: التصرف فى الأمور، وقيل: التطوع، وقيل: الوزن، وقيل: الغنيمة، وقيل: المثل، وقيل: ما تصرف فيه، وقيل: الزيادة، والعدل، قيل: الفرض، وقيل: الفدية، وقيل: المكيل، وقيل: المثل، وقيل: الفضل.

قال النووى: ومعنى الفدية أنه لا يجد فى يوم القيامة من يفتدى به، فإن بعض المؤمنين قد يفديه الله ببعض الكفار كما ورد فى الحديث.

(**وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: إذا ذكر أصحابى فأمسكوا**)، أى إذا ذكروا بسوء وغيبة، فاتركوا ذلك ولا تخوضوا مع الخائضين فيهم، وقد تقدم هذا وبيانه.

(**وقال فى حديث جابر**)، رضى الله عنه، الذى رواه البزار والديلمى عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم: (**إن الله اختار أصحابى على جميع العالمين**)، أى فضلهم على الناس كلهم، وجعلهم خيرة خلقه عدولاً أتقياء كلهم، (**سوى الأنبياء والمرسلين**)، فإنهم أفضل منهم، (**واختار لى منهم**)، أى من الصحابة فضلهم على غيرهم من الصحابة (**أربعة أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعليًّا**).

وقد روى الترمذى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم رأى أبا بكر وعمر، فقال: «هذان السمع والبصر»، ثم فسر اختيارهم له بقوله: (**فجعلهم خير أصحابى**) وأفضلهم، (**وفى أصحابى كلهم خير**)، أى فضل وتقوى، فكلهم علماء عدول، كما فى حديث: «خير القرون قرنى، ثم وثم»[(١)]، وهذا سبب ما حكاه إمام الحرمين، رحمه الله تعالى، من الإجماع على عدالتهم كلهم، صغيرهم وكبيرهم، فلا يجوز الانتقاد عليهم بما صدر عن بعضهم، مما أدى إليه اجتهاده، لما أوجب القطع بأنهم خير الناس بعد النبيين والمرسلين، ولما ألفوه من الهجرة وترك الأهل والأوطان، وبذل النفوس والأموال فى نصرة الدين، وقتل الآباء والأبناء، والمناصحة فى الدين، وقوة الإيمان واليقين، وغير ذلك من المنح الإلهية.

(**وقال، صلى الله تعالى عليه وسلم:**) فى حديث رواه الطبرانى فى أوسطه بسند حسن (**من أحب عمر فقد أحبنى، ومن أبغض عمر فقد أبغضنى**)، خصه بذلك لما كان فيه من الشدة على أمور الدين التى قد تورث حزازة فى بعض النفوس القاصرة، ولا يلزم منه تفضيله على أبى بكر، رضى الله عنه، وقد جعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بغضه نفاقًا؛ لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحبه وقدمه وارتضاه، فعدم ارتضائه يفضى إلى عدم ارتضاء رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما قيل:

---

(١) أخرجه الترمذى (٢٣٠٢، ٢٣٠٣)، وأبو نعيم فى الحلية (١٧٢/٤)، والخطيب فى تاريخه (٥٣/٢).

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينـه

نكتة من خصائص أبى بكر وعمر أنهما جليساه وضجيعـاه فـى حياتـه ومماتـه، وقـد ورد فى حديث أن كل أحد يدفن بتربته التى خلق منها، وهو يدل على أنهما خلقا مـن طينة واحدة، وليس بعد هذه المنقبة شرف أعظم منها.

(**وقال مالك بن أنس**) شيخ السنة، وإمام دار الهجرة (**وغيره:**) من الأئمـة، إشـارة إلى أنه لم ينفرد بهذا الاستنباط، فإنه سبق له ابن عباس كما نقلـه ابـن تيميـة فـى كتـاب رد الروافض (**من أبغض الصحابة وسبهم فليس له فى فىء المسلمين حق**)، الفىء ما أخذ من غنيمة الكفار، وهو مرصد للمسلمين، فعدم نصيبه منه عقوبـة لـه علـى مـا فعلـه، وفيـه إشارة إلى أنه يخرج بذلك عـن الإسـلام، ولـذا حكـم بعـض المالكيـة بقتلـه إن لم يتـب، والفىء هنا شامل للغنيمة، فإن كلا منهما يطلق على الآخـر، وإن فـرق بينـهما الفقـهاء وأهل اللغة.

وقد قال مشايخنا فى هذا ونحوه: إنه كالمسكين والفقير إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا، وهو معنى بديع سمعته من شيخنا النور الزيادى (**ونزع**) بنون وزاء معجمة وعـين مهملة مبنى للفاعل، ويجوز جعله مبنيًا للمجهول أيضًا، فعلى الأول فاعله ضمير من ذكر أو ضمير مالك وغيره، وعلى الثانى نائب فاعلـه قولـه: (**بآيـة**) سـورة (**الحشـر**)، وقيـل: ضمير من أبغضهم، وفيه نظر، وفسر نزع بمعنى استدل واستخرج من الآية، وسيأتى فى آخر الكتاب.

قال مالك: من انتقص أحدًا من أصحاب رسول الله، صلـى الله تعـالى عليـه وسـلم، فليس له فى هذا الفىء حـق، قـد قسـم الله الفـىء فـى ثلاثـة أصنـاف، فقـال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ [الحشر: ٨] الآية إلى آخره، فمن انتقصهم فلا حق له فى الإسلام، وعطف سبهم على أبغض عطف تفسـيرى؛ لأن البغـض أمـر قلبـى لا يطلـع عليـه، وهـذا قـوى أماراته، فلا يرد عليه أن تعليق الحكم بهما يقتضى أنه لا يكفى أحدهما فيـه، وهـو محـل نظر كما قيل، ومن فسر نزع ببعد عن الإيمان بشهادة حديث: «الله الله فـى أصحـابى»، إلى آخره لم يصب.

وأصل معنى النزع القلع والخروج، فيجوز به عما مر، فليس من النزوع عن الأوطان والتقرب كما توهمه هذا القائل، والآية المذكورة، قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [الحشـر: ٧] إلى قولــه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ووجه الاستدلال بالآية أنه جعل ما أفاء الله على رسوله حقًا للفقراء المهاجرين، والفقراء الذين تبوؤا الدار، والفقراء الذين جاءوا من بعدهم مهاجرين بعدما قوى الإسلام، والتابعين لهم بإحسان ممن آمن بعد المهاجرين والأنصار إلى آخر الزمان، وجملة يقولون إلى آخره حال، أى القائلين: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا﴾، وهى حال مقيدة، فجعل شرط استحقاقهم قولهم ذلك، ومن لم يسبهم لم يقل ذلك لاقتضائه محبتهم والشفقة عليهم، وأنهم لا غل ولا بغض لهم فيهم، حيث قالوا: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وسيذكره المصنف، رحمه الله تعالى، فى آخر الكتاب.

ثم إنه بين أن هذه يقتضى كفرهم والكفار لا حق لهم فى الفىء، فلذا قال: **(وقال)** مالك بن أنس: **(من غاظ)** بظاء مشالة، قيل: وبالضاد المعجمة أيضًا، وهو لغة فيه لا إبدال، واختلف فى الغيظ والغضب، هل هما بمعنى أو الغيظ أشد الغضب، أو الكمين فى النفس، أو الغضب للقادر والغيظ للعاجز، أى من اغتاظ واحتد إذا ذكر **(أصحاب محمد)** عنده، **(فهو كافر)**؛ لأن من أبغضهم فقد أبغضه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وبغضه كفر.

وهذا رواه الخطيب البغدادى، عن عروة الزبيرى، قال: كنا عند مالك بن أنس، فذكر عنده رجل انتقص الصحابة، فتلا قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩] إلى آخره، وقال: من أصبح فى قلبه غيظ على أصحاب محمد، فقد أصابته هذه الآية؛ لأنها صدرت بلام التعليل، وهى إما علة لما قبلها من تشبيههم بالزرع فى النمو والاستحكام، ثم ذكر أنه إنما شبههم بذلك لغيظهم، **(قال تعالى:** ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩])، فالمؤمن لا يكون عنده غيظ منهم، أو علة لقوله بعده: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الفتح: ٢٩] منهم فإنما وعدهم لغيظ الكفار بوعده لهم، والحاصل أنه لا يغيظ بأصحابه مؤمنًا من غيرهم، فخرج غيظ بعضهم على بعض لما أداه إليه اجتهاده.

(وقال عبد الله بن المبارك: خصلتان من كانتا فيه نجا)، من أكل أمر يشينه وينقصه عند الله **(الصدق)** بأن يتحرى الصدق فى جميع أقواله حتى يكون عند الله صديقًا، **(وحب أصحاب محمد)** صلى الله تعالى عليه وسلم، كبيرهم وصغيرهم، حتى يقدمهم على نفسه وأهله، وليس هذا من كلام ابن المبارك، بل هو حديث رواه ابن مسعود عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه قال: «إن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن

الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»[1]. وقد روى من طريق آخر بمعناه، وترتب النجاة على ما ذكر سر من أسرار الله يطلع عليه من شاء من خلص عباده، ومنهم ابن المبارك وناهيك به.

(وقال أيوب السختيانى): التابعى المشهور **(من أحب أبا بكر، فقد أقام الدين)**؛ لأن الدين استقام به فى صحبته لرسول الله فى أول الإسلام، وفى أول الهجرة، وفى قيامه مقامه بعد وفاته، وقد تزلزل الناس وارتد بعضهم، وفاض النفاق وانفرج الخلاف بين القول والعمل، وقد نزل بهم ما لو نزل بالجبال هاضها، فحمل أعباء الخلافة حتى قر الدين، وفاء من فاء، ومن أحب أحدًا كان معه وتخلق بأخلاقه.

(ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل)، أى بين طريق الحق لمن أراد سلوك الطريق المستقيم؛ لأنه بعده، صلى الله تعالى عليه وسلم، أظهر الدين وأنعم به على الأقطار، وقضى لأهله الأوطار، ففتح الفتوح حتى بلغ صيت الإسلام أقصى الأرض كما فى حديث الشيخين هنا: «بينا أنا نائم رأيتنى على قليب عليها دلو، فنزعت فيها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبى قحافة، فنزع بها ذنوبًا وذنوبين، وفى نزعه ضعف، والله يغفر له، ثم استحالت غربًا، أى دلوًا كبيرًا، فأخذها ابن الخطاب، فلم أر عبقريًا من الناس ينزع نزع عمر»[2]، وفى رواية: «فلم أر عبقريًا من الناس يفرى فريه حتى ضرب الناس بعطن»، وهو تمثيل لطول مدة خلافته وكثرة فتوحاته فى الإسلام.

(ومن أحب عثمان فقد استضاء بنور الله) الذى أظهره الله فيه، ولذا لقب بذى النورين؛ لما فيه من الكرم، والحلم، والزهد، والورع، والصبر على ما ابتلاه الله به حتى لقى الله وهو عنه راض، وكان أشد الناس حياء.

(ومن أحب عليًا، فقد أخذ بالعروة الوثقى)، أى تمسك بها لكونه عالمًا بعلم الحقيقة وقائمًا بالذب عن حوزة الدين لا يلحقه فى الله لومة لائم، وهو باب مدينة العلم، فمن أحبه فهو مستمسك بالعروة الوثقى، أى بالحق والرأى القويم الذى هو عروة لا تنفصم، وهو استعارة مصرحة من عروة الكلام، وهو ما له أصل ثابت وأطراف لا تنقص إذا سقت الأوراق.

(ومن أحسن الثناء) بمدح ناشئ عن محبة خالصة، فإن الظاهر عنوان الباطن **(عن**

---

(١) أخرجه البخارى (٨/٣٠)، ومسلم فى البر والصلة (١٠٣، ١٠٤)، وأحمد (١/٣٨٤، ٤٣٢)، والدارمى (٢/٢٩٩)، والحاكم (١/١٢٧)، والبيهقى (١٠/١٩٦).

(٢) أخرجه البخارى (٥/٧)، والنسائى فى فضائل الصحابة (١٧)، والبيهقى (٨/١٥٣)، وابن أبى عاصم فى السنة (٢/٦٢٥)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٦/٣٤٤).

أصحاب محمد) تعميم بعد التخصيص، (**فقد برىء**)، أى سلم وخلص (**من النفاق**)، المراد به معناه العرفى، وهو مخالفة الظاهر للباطن مطلقًا، وأصله إخفاء الكفر وإظهار الإسلام، ويجوز أن يراد هذا، والمراد بالثناء ثناء من غير غلو كغلو الشيعة، (**ومن انتقص**)، أى أبغض (**أحدًا منهم**) بذمه، وذكر ما يشينه، (**فهو مبتدع**)؛ لمخالفته السنة وإتيانه ما نهى الله تعالى عنه ورسوله.

وفى نسخة: أبغض، ثم فسر المبتدع بقوله: (**مخالفة للسنة**)، أى لهديه وطريقته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى جميع أقواله وأفعاله، (**والسلف الصالح**) من الصحابة والتابعين، (**وأخاف**)، أى أظن أو أعلم، (**أن لا يصعد له عمل**) من أعماله الصالحة، أى لا يقبله الله تعالى منه ولا يثيبه عليه، ورفع الأعمال يعبر به عما ذكر، وليس الخوف بمعناه الحقيقى، وهو ضد الأمن لعدم مناسبته هنا.

قال الراغب: الخوف يوقع فى مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، وفسر قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا**﴾ [النساء: ٣٥] بعرفتم انتهى (**إلى السماء**)؛ لعدم تمسكه بالكتاب والسنة (**حتى يحبهم جميعًا ويكون قلبه سليمًا**)، من بغضهم مقتديًا بالسلف الصالح.

(**وفى حديث خالد بن سعيد**:) بن العاص بن أمية بن عبد شمس الصحابى، وهو ثالث أو رابع أو خامس من أسلم وسبق غيره، ويقال: أسلم قبل الصديق، ويقال: أسلم قبل على، وليس فى الصحابة من اسمه خالد بن سعيد غيره، ولم يرو عنه حديث فى الكتب الستة، ولا فى مسند أحمد ولا فى مسند بقى بن مخلد، وهذا الحديث رواه الطبرانى وابن منده، وما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، نقله البرهان الحلبى.

وقال غيره: إنه خالد بن عمر بن سعيد، فسعيد جده، وذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب، وذكر سبب إسلامه فى واقعة رآها، وخالد بن سعيد إن كان غير المذكور؛ لأنه لم يشتهر عنه الرواية، فالحديث مرسل، وإلا فمعضل، والظاهر هو المقدم، وأول هذا الحديث أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما قدم من حجة الوداع المدينة صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس...» إلخ، (**أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: أيها الناس، إنى راض عن أبى بكر، فاعرفوا له ذلك**)، أى رضاى عنه فى صحبته له، وأنه لم يأل جهدًا فى خدمته، ولم يفارقه فى حياته ومماته، ولم ير منه إلا ما يسره، وفى تقديمه وإفراده له بالذكر، وعدم تشريكه له مع غيره ما يدل على خلافته له، وفضله على سائر الصحابة، وهو صريح فيه إلا عند من ختم الله على سمعه وقلبه، وسيأتى الكلام أن من أنكر خلافة أبى بكر يبدع ولا يكفر، ومن سب أحدًا من

الصحابة ولم يستحل يفسق، وإلا كفر.

(**أيها الناس، إني راض عن عمر، وعن عثمان، وعن على، وعن طلحة والزبير**) بن العوام، رضى الله عنهم، (**وسعد**) بن أبى وقاص، (**وسعيد**) بن زيد بن عمرو بن نفيل، (**وعبد الرحمن بن عوف**) الزهرى، (**فاعرفوا لهم ذلك**)، أى كونوا راضين عنهم، والمراد بمعرفتهم رعاية حقوقهم وتوقيرهم ومحبتهم، والواو لا تدل على الترتيب، وإن كان أهل السنة على تقديم أبى بكر، ثم عمر بالاتفاق، واختلفوا فى عثمان وعلى، أيهما أفضل؟ والمشهور تقديم عثمان، ومنهم من قدم عليًّا، ومنهم من توقف فى أيهما الأفضل، وأن هذه المسألة غير قطعية عندهم، لكن الذى عليه اعتقاد السلف الصالح واعتقادنا ما ذكر، وبقية الصحابة لم ينصوا على شىء فيهم، ولم يذكر عاشرهم، وهو أبو عبيدة بن الجراح؛ لدخوله فى الصحابة وشهرته.

(**أيها الناس، إن الله قد غفر لأهل بدر**) كلهم جميع ما صدر منهم؛ لحضورهم أول مشهد أعز الله به الإسلام والمسلمين، وبدر اسم موضع معروف سميت باسم رجل حفر بئرها كما تقدم، (**و**) أهل (**الحديبية**) بتشديد الياء وتخفيفها، وهى اسم مكان قريب من مكة من الحرم أو خارجه أو بعضه منه، **أقول**: وفيه الشجرة التى كان تحتها بيعة الرضوان، وقصتها معروفة فى السير، وقد تقدم ذكرها.

(**أيها الناس احفظونى**)، أى احفظوا حقى وقدرى، برعاية ما يجب منه، كما تقدم تفصيله، (**فى أصحابى**)، أى وحفظ حقى يتم ويتحقق بحفظ أصحابى ومحبتهم وتوقيرهم، وأن من أبغضهم يبغضنى ولم يحفظنى، ثم خص بعد التعميم، احتياطًا وحثًا بقوله: (**وأصهارى وأختانى**)، الأصهار جمع صهر، بكسر فسكون.

قال الجوهرى: هم أهل المرأة عن الخليل. قال: ومن العرب من يجعل الصهر من الأحماء والأختان جميعًا، والختن بفتحتين، واحد الأختان، كل من كان من قبل المرأة، كالأب والأخ، وعند العامة ختن الرجل زوج ابنته، وكل شىء من قبل الزوج، فهو حمو، وفيه لغات مشهورة، فالمراد بهما هنا من بينه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وبينه علاقة سببية بتزويجه أو التزوج منه.

(**لا يطالبنكم**)، معاشر الناس أجمعين (**أحد منهم**)، أى من المذكورين من أصحابى وأتباعى، أى لا يكون لأحد منهم عليكم حق يستحق أن يطالبكم به، ويدعيه عليكم، وهو معنى قوله: (**بمظلمة**) بكسر اللام وفتحها، وهى ما يؤخذ ظلمًا وجورًا، فيطالب به ويشكى ممن أخذه، والكسر فيها أكثر وأشهر، (**فإنها مظلمة**)، أى حق للعبد أخذ منه ظلمًا، (**لا توهب فى القيامة غدا**)، أى لا يهبها الله؛ لأنها حق العبد ما لم يرض صاحبها

لا تترك، وقوله: غدا، إشارة إلى قرب اليوم الذى يؤخذ فيه العباد؛ ترهيبًا لهم وتخويفا.

(وقال رجل للمعافى)، بفتح الفاء والقصر، **(ابن عمران:)** أبو مسعود الأزدى الموصلى، أحد الأعلام المحدثين، كان يقال له: ياقوتة العلماء، توفى سنة خمس وثمانين ومائة، وأخرج له البخارى وغيره، والقائل له لا يعرف، **(أين عمر بن عبد العزيز)** الخليفة، العابد، الزاهد، العادل، **(من معاوية)** بن أبى سفيان، رضى الله عنه، أى أيهما أفضل؟ وخصهما بالسؤال؛ لأنهما أمويان، فأين تذهب أنت فى الفرق بينهما؟! **(فغضب)** على السائل؛ لما لاح عليه من تفضيله لابن عبد العزيز، نظرًا لظاهر الحال، **(وقال: لا يقاس)**، أى لا يستوى فضلاً عن التفضيل، **(بأصحاب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أحد)**، وفى نسخة: على أصحاب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقاس يتعدى بالباء وعلى، وقد يعدى بإلى؛ لما فيه من معنى الجمع والضم، قال المتنبى[1]:

بمن أضرب الأمثال أم من أقيسه إليك وأهل الدهر دونك والدهر

ثم أشار لفضل معاوية على غيره، لقوله: **(معاوية صاحبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وصهره)**؛ لأنه أخو زوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان أم المؤمنين، **(وكاتبه)**؛ لما ثبت أنه من أحد كتابه صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وأمينه على وحيه)**؛ لأنه بعد أن استكتبه، كان يكتب ما ينزل عليه من الوحى، ولو لم يستأمنه، ما استكتبه الوحى، وكفاك بهذه مرتبة لم يصل إليها عمر بن عبد العزيز وأضرابه، وابن المعافى رجل منصف، ما صح عنه يرد ما قيل: إن معاوية لم يكتب له شيئًا من الوحى، وإنما كان يكتب له كتبه إلى الأطراف، ولم يذكر فضل معاوية بقرب نسبه من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ لأن عمر بن عبد العزيز شاركه فى ذلك، وروى أن عمر سمع مثله، فقال: لغبار بغزوة غزاها معاوية مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خير من عمر وآل عمر، وفى الطاعن فى معاوية ما قيل:

ومن يكن يطعن فى معاوية فذاك كلب من كلاب الهاوية

(و) روى الترمذى، عن جابر وضعفه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم **(أتى)** بالبناء للمفعول النبى، عليه السلام، **(بجنازة رجل)** بفتح الجيم وكسرها الميت ونعشه، أو فوق لفوق وتحت لتحت، وقد يعكس، **(فلم يصل عليه، وقال: كان)** هذا الميت **(يبغض عثمان، فأنا أبغضه)**، فلذا لم يصل عليه؛ لأن صلاته على الميت دعاء له وشفاعة له، فحرم من ذلك، والعياذ بالله، وفى نسخة بدل ما ذكر، **(فأبغضه الله)**، فهو خبر أو دعاء عليه، وليس فى الحديث نهى عن الصلاة حتى يقتضى كفره كما توهم؛ لجواز أن لا

(١) البيت من الطويل، وهو فى ديوان المتنبى (٢/٢٣٠)، تاج العروس (١٦/٤١٦).

يصلى هو ويصلى غيره كما فى المديون، والبغض لا يقتضى الكفر.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الشيخان **(فى الأنصار:)**، أى فى حقهم والوصية بهم، وقيل: فى شأنهم وفضلهم **(اعفوا عن مسيئهم)**، أى عمن وقع منه إساءة ما، **(واقبلوا من محسنهم)** كل ما أحسنوه، فحذف مفعوله تعميمًا.

وفى البخارى: «أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين والأنصار أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم»(١)، أى ما فرط منه من زلة، والأنصار اسم حدث لهم فى الإسلام، وهم الأوس والخزرج، والتجاوز عن مسيئهم فى غير الحدود وحقوق الناس، وهو ما ذكر بعض من حديث رواه الشيخان.

ففى البخارى عن أنس بن مالك، أن أبا بكر والعباس، رضى الله عنهما، مرا بمجلس من مجالس الأنصار، وهم يبكون مرضه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقالا: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، منا قد خلا عنه، عليه السلام، فدخلا عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأخبراه بذلك، فخرج وقد عصب على رأسه حاشية برد، فصعد المنبر و لم يصعده بعد ذلك، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتى، وقد قضوا الذى عليهم وبقى الذى لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم»(٢)، وهذا تمثيل لأن الكرش تجمع الغذاء الذى به حياة الحيوان ونماؤه، ويقال: لفلان كرش منثورة، أى عيال كثيرة، والعيبة بفتح العين المهملة ما يحرز فيه المتاع، يريد صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك أنهم موضع سره وأمانته.

قال ابن دريد: وهو من موجز الكلام الذى لم يسبق إليه، وقيل: الكرش بمنزلة المعدة، والعيبة مستودع الثياب، والأول أمر باطن، والثانى ظاهر، فضربه مثالاً لاختصاصهم بأموره الباطنة والظاهرة، وهو تشبيه بليغ أو استعارة، وأراد عليه السلام بما عليهم نصرته وقضاء ما تابعوه عليه، وما لهم الجزاء فى الدنيا والآخرة، وقد علمت أن معنى: وتجاوزوا عن مسيئهم، أى فى غير الحدود وحقوق الآدميين، وهذا أيضًا محمل الخبر الصحيح: «أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم»(٣)، ومن ثم ورد فى رواية: «إلا فى الحدود»، وفسره الشافعى بأنهم الذين لا يعرفون بالشر، ويقرب منه قول غيره: هم أصحاب الصغائر دون الكبائر، وقيل: من إذا أذنب تاب.

---

(١) أخرجه البخارى (٥/٤٣)، والبيهقى (٦/٣٧١).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد (٦/١٨١)، وأبو داود (٤٣٧٥)، وابن حبان (١٥٢٠)، والبيهقى (٨/٢٦٧)، والدارقطنى (٣/٢٠٧).

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث رواه أبو نعيم والديلمى، عن عياض الأنصارى وابن أنس: **(احفظونى فى أصحابى وأصهارى)** تقدم بيانه، **(فإنه)** أى الشأن **(من حفظنى فيهم)** برعاية حقوقهم وإكرامهم **(حفظه الله فى الدنيا والآخرة)** حفظه فى الدنيا مما يسوءه، وتوفيقه لترك المعاصى، وفى الآخرة من العذاب والعقاب، **(ومن لم يحفظنى فيهم)** بترك ما مر **(تخلى الله عنه)**، أى أعرض عنه وتركه فى غيه استدراجًا له، **(ومن تخلى الله عنه يوشك)** يسرع ويقرب **(أن يأخذه)** أخذ عزيز مقتدر بأن يهلكه ويستأصله، مستعار من الأخذ المعروف، وقوله: تخلى الله... إلخ، إخبار عما يقع به وكونه إنشاء للدعاء يأباه السياق، فما قيل: إنه أقرب، ليس بشىء، ولهذه الزيادة ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، وإن تقدم.

(وعنه، صلى الله تعالى عليه وسلم:) فى حديث رواه سعيد بن منصور، عن عطاء مرسلاً، **(من حفظنى فى أصحابى)** برعاية حقى فيهم، **(كنت له حافظًا يوم القيامة)**، أى مانعًا من هول المحشر وما يسوءه فيه.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، كما رواه الطبرانى بسند ضعيف: **(من حفظنى فى أصحابى ورد على الحوض)**، أى وصل إليه وشرب منه حتى لا يظمأ بعده، **(ومن لم يحفظنى فى أصحابى)** بتضييع حقوقهم وعدم محبتهم ورعاية ذريتهم، **(لم يرد على الحوض ولم يرنى إلا من بعيد)**، فلا يقرب منه، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن من أبغض الصحابة مقته الله، فاستحق الطرد عن الحوض، وعدم شفاعته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتفوت بركته وعنايته فى مثل ذلك اليوم الشديد الهول.

(قال مالك:) إمام دار الهجرة ونجم السنة، رحمه الله: **(هذا النبى)** صلى الله تعالى عليه وسلم، عبر باسم الإشارة القريب؛ لأنه لحضوره فى قلبه وذهنه قدر نفسه كأنه بين يديه بمرأى منه صلى الله تعالى عليه وسلم **(مؤدب الخلق الذى هدانا الله به)**، لخيرى الدنيا والآخرة، والضمير للناس كلهم، **(وجعله رحمة)** عامة **(للعالمين)** وجميع المخلوقين، **(يخرج فى جوف الليل)**، أى فى شبهه بالجوف، وهو داخل البدن، وعبر بالمضارع لحكاية الحال الماضية **(إلى البقيع)** اسم موضع بظاهر المدينة، وأصله اسم كل مكان متسع فيه شجر، ويقال له: بقيع الغرقد، بغين معجمة، وهو اسم لنوع من شجر العضاه كان به، ثم زال وصار مقبرة لأهل المدينة المنورة، وإنما كان يخرج إليه ليناجى ربه متخليًا عن أهله، **(فيدعو لهم)**، أى يدعو لمن بتلك المقبرة منهم، **(ويستغفر لهم)**، أى يدعو لأمواتهم وأحيائهم بالمغفرة، **(كالمودع لهم)**، كأنه يودع من فى تلك الجبانة؛ لعلمه صلى الله تعالى عليه وسلم بقرب أجله ومفارقة زيارتهم، **(وبذلك أمره الله)**، أى أمره بأن يدعو لأمته أو

لأمواتهم ويستغفر لهم، وفيه دليل على شدة محبته لهم، فيجب علينا اتباعه فى ذلك.

(**وأمر**) بالبناء للمجهول (**النبى**) صلى الله تعالى عليه وسلم، أى الله أمره (**بحبهم**) لله (**وموالاتهم**)، أى معاونتهم ونصرتهم كما أمروا بذلك، (**ومعاداة من عاداهم**) من الكفرة والمنافقين، وهو إشارة لما رواه مسلم، عن عائشة، أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يخرج فى ليلتها آخر الليل إلى البقيع، ويقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد»[1]، وكان ذلك لما خرج خرجت عائشة وراءه مستخفية منه، فأحس صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك وسألته عما صنع، فقال: «إن جبريل أتانى ونادانى و لم يدخل عليك، و لم أوقظك خشية أن تستوحشى، فقال: إن ربك يأمرك أن تأتى أهل البقيع فتستغفر لهم، فقلت: كيف أقول؟ فقال: تقول: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله عز وجل المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا بكم إن شاء الله لاحقون»[2]. وهو ما أشار إليه مالك، رحمه الله. وقيل: إنه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ**﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فإذا أمر بذلك، فنحن أحق به، والظاهر ما قدمناه.

(**وقال كعب**)» الأحبار، رضى الله عنه، التابعى المشهور، وهذا رواه عنه ابن سعد بلفظ: ليس مؤمن، بدل قوله: (**ليس أحد من أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم إلا وله شفاعة**) فى غيره من المؤمنين (**يوم القيامة**)، وهذا إما مروى عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فهو مرسل، أو هو مما قرأه فى الكتب القديمة؛ لأنه كان عالمًا بها، وفيه تكريم لهم وما يقتضى محبتهم رجاء شفاعتهم فيمن أحبهم، (**وطلب**)، أى كعب الأحبار، وهذا دليل على صحة اعتقاده لما قاله، وأنه كان محبًا لهم مترجيًا لشفاعتهم، رضى الله عنهم (**من المغيرة بن نوفل**) بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم القرشى الصحابى، ولد على عهد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بمكة قبل الهجرة، وكان من أنصار على، رضى الله عنه.

وقيل: إنه لم يدرك من حياة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا ست سنين، وكان قاضيًا فى خلافة عثمان، رضى الله تعالى عنه، وعد من الصحابة، وطلب كعب منه (**أن يشفع له يوم القيامة**)، يدل عليه، ونوفل والده هو ابن عم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، والحارث جده لم يدرك الإسلام، وهذا ما ذكره البرهان ومن تبعه.

---

(١) أخرجه مسلم فى الجنائز (١٠٤)، وأحمد (١١١/٦، ١٨٠)، والنسائى (٩٤/١)، وأبو داود (٢٣٣٧)، وابن ماجه (١٥٤٦)، وأبو عوانة (١٣٨/١)، والبيهقى (٧٨/٤، ٧٩، ٢٤٩/٥).

(٢) تقدم تخريجه.

وقال التلمساني: نوفل والده هو ابن معاوية بن عروة الدؤلي، من كنانة، سمع النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومات في زمن يزيد بن معاوية، وقد بلغ المائة، كما قاله الواقدي. وقال البرهان الحلبي: الحارث، وهو ابن عبد المطلب.

قال ابن عبد الغني المقدسي: إنه لم يدرك الإسلام، وأسلم من أولاده أربعة، نوفل، وربيعة، وأبو سفيان، وعبد الله، ونوفل أسن إخوته، وأسن من أسلم من بني هاشم، ولم يذكر المغيرة فيهم، ومنهم من جعل المغيرة اسم أبي سفيان، والصحيح خلافه وأنه غيره، ولم يتعقب أبا الفتح اليعمري حين ذكره. وقال الذهبي في التجريد: أبو سفيان اسمه المغيرة، قاله ابن المنذر ولم يتعقبه.

(وقال سهل بن عبد الله التستري): تقدم ضبطه **(لم يؤمن بالرسول)** صلى الله تعالى عليه وسلم إيمانًا كاملاً **(من لم يوقر أصحابه)** بتعظيمهم ومحبتهم، **(ولم يعز)** من أعزه إذا نصره وقواه أو جعله عزيزًا موقرًا مبجلاً معظمًا، **(أوامره)** جمع أمر، وقد تقدم الكلام عليه قبل، وهذا يقتضي أن سب الصحابة وتنقيصهم كفر، وقيل: إنه كبيرة. قال الزركشي: وينبغي أن يقيد الخلاف بغير من فعل ذلك بهم، لكونهم صحابة لا لأمر آخر، وهو مقتضى مذهبنا أيضًا. وفي منظوم ابن وهبان، رحمه الله تعالى: أخاف على من قال: أبغض عالمًا من الكفر، إذ لا مقتضى الكفر يظهر، وسيأتي تفصيله آخر الكتاب إن شاء الله تعالى.

* * *

(فصل ومن إعظامه وإكباره ﷺ)

إعظامه وإكباره بمعنى تعظيمه وتكبيره وإجلاله. وفي القاموس: أعظمه، فخمه وكبره، واستعظمه رآه عظيمًا، أي من تفخيمه وتعظيمه اللذين هما واجبان على المؤمن **(إعظام جميع أسبابه)**، قيل: هو بالمعنى العرفي، وهو كل ما ينسب إليه من فراشه ولباسه، مما لا روح له أو له روح كعبده ودوابه. وقال الراغب: السبب الحبل الذي يصعد به النخل، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ [ص: ١٠]، ويسمى كل ما يتوصل به سببًا أو يسمى العمامة والخمار والثوب الطويل سببًا، تشبيهًا بالحبل في الطول. انتهى.

(وإكرام مشاهده) جمع مشهد، وهو محل الشهود، أي الحضور من المشاهدة، وهي الإدراك بالبصيرة والبصر، ومشاهد الحج مواضع المناسك، **(وأمكنته)** جمع مكان عطف تفسير، **(من مكة والمدينة)** بيان للأمكنة، فالمراد به مساكنه ومحل إقامته لا مطلق المكان، **(ومعاهده)**، أي المحال التي عهد إلفه صلى الله تعالى عليه وسلم لها كالأساطين التي كان يصلي عندها، ومحل صلاته في المساجد، والأماكن المباركة ومنازله، **(وما لمسه)** بيده أو

بغيرها من أعضائه كالحجر الأسود والركن اليماني، واللمس والمس متقاربان، **(أو عرف به)** كالأماكن التي جاهد فيها، والغار الذي دخله، صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقد مر أن ابن عمر كان يتحرى الصلاة والنزول والمرور، حيث حل، صلى الله تعالى عليه وسلم، ونزل، وما روى عن مالك مما يخالف ذلك، فهو جرى على عادته في سد الذرائع، وكذا ما جاء عن عمر أنه رأى الناس في الرجوع من الحج ابتدروا مسجدًا، فقال: ما هذا؟ قالوا: مسجد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم، اتخذوا آثار الأنبياء بيعًا، من عرضت له منكم الصلاة فليصل، ومن لم تعرض له فليمض.

وكلام المصنف، رحمه الله تعالى، هنا غير موافق لما مر عن مالك، لا يقال: يمكن حمل كلامه على إكرام ذلك بغير نحو الصلاة، ليوافق ما مر عن إمامه؛ لأنا نقول: يمكن لكنه بعيد من ظاهر عبارته، ويؤيد ظاهرها أن محققهم الشيخ خليل لما قال: يسن زيارة البقيع ومسجد قباء، قيد ذلك بمن كثرت إقامته بالمدينة، قال: وإلا فالمقام عنده، صلى الله تعالى عليه وسلم، أحسن ليغتنم، ثم نقل عن العارف ابن أبي جمرة أنه من حين دخل المسجد ما جلس إلا للصلاة حتى رحل الركب، ولم يخرج لبقيع ولا لغيره، ولما خطر له ذلك، قال: هذا باب الله تعالى مفتوح للسائلين والمتضرعين، وليس ثم من يقصد مثله.

(وروى عن صفية بنت نجدة) في الحواشي التلمسانية، أن هذه المرأة زوجة أبي محذورة الآتي ذكره، وقد روى عنها أيوب بن ثابت، وروت هي عن زوجها أبي محذورة، واختلف في ضبط اسم أبيها نجدة، فقيل: إنه بنون مفتوحة وجيم ساكنة ودال مهملة وهاء، وقيل: نجداه، بدال مهملة تليها ألف وهاء، وقيل: نجراة، براء مهملة بدل الدال المهملة، وقيل: الصواب بحرة، بموحدة مفتوحة وحاء وراء مهملتين وهاء.

(قالت: كان لأبي محذورة)، بحاء وذال معجمة، وبعدها راء مهملة، وهاء بزنة اسم مفعول، وهو محذورة بن معير، بميم مكسورة، وعين مهملة ساكنة، ومثناة تحتية مفتوحة، وراء مهملة، وقيل: معين، بنون بدل الراء، ابن لوذان، بفتح اللام وضمها، وواو وذال معجمة، القرشي مؤذن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بمكة، ولم يزل الأذان فيه وفي عقبه، واختلف في اسمه اختلافًا كثيرًا، فقيل: سمرة، وقيل: أويس، وقيل: سلمان، وقيل: سلمة، وهو جمحي صحابي، توفي سنة تسع وخمسين، أو سبعين، وأخرج له مسلم، وأحمد، وأصحاب السنن، **(قصة)** بضم القاف، وتشديد الصاد المهملة، وهي خصلة من شعر الرأس، **(في مقدم رأسه)**، مما يلي وجهه من الناصية، سميت بها؛ لأنها مما يقص.

وقال ابن دريد: كل خصلة من الشعر قصة. وقال الجوهرى: هو شعر الناصية، وسبب توقيرها أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، مسحها بيده وأبقاها تبركًا بما مسه، وهو محل الشاهد، وكان لما قدم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، مكة وأذن له بها، وهو مع فتية من قريش سمعوا الأذان، فاستهزءوا به وجعل أبو محذورة يحاكى الأذان استهزاء، فسمعه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه، ظن أنه مقتول، فمسح رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ناصيته وصدره بيده، قال: فامتلأ قلبى يقينًا وإيمانًا، وعلمت أنه رسول الله، فأسلم وعلمه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، الأذان وأمره أن يؤذن لأهل مكة، وهو ابن ستة عشر سنة، فكان مؤذنهم حتى مات، **(إذا قعد وأرسلها)**، أى حل عقصها وسدل شعرها، **(أصابت الأرض)**، أى وصلت إليها لطولها.

(فقيل له): أى قال الناس لأبى محذورة: **(ألا تحلقها)**، بكسر اللام، مضارع حلق الشعر بفتحها، وألا للعرض أو الاستفتاح، **(فقال: لم أكن بالذى أحلقها وقد مسها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بيده)** الشريفة، فأبقاها تبركًا بما مسه بيده، وبهذا زالت الكراهة، وإن قيل بها فى غيره.

(و) فى حديث رواه أبو يعلى، قال: **(كانت فى قلنسوة خالد بن الوليد)** بن المغيرة الصحابى المخزومى المشهور، والقلنسوة ما يوضع على الرأس تحت العمامة، وتسمى شاشيه وقبعًا، ويقال: قلنسية، وهو بفتح القاف وضمها، وضم السين وكسرها، ففيه لغات **(شعرات من شعره)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، جعلها فى داخله تبركًا بها، **(فسقطت قلنسوته)** عن رأسه **(فى بعض حروبه)**، قيل: هو فى غزوة اليمامة فى خلافة أبى بكر الصديق، رضى الله تعالى عنه، **(فشد عليها شدة)**، أى كرة قوية، أى رجع لأخذها، وهو يعدو عدوًا شديدًا سريعًا، يقال: شد، إذا جرى جريًا قويًا، أى كارًا عليها؛ ليأخذها خوفًا من ضياعها.

(أنكر عليه أصحاب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم) رجوعه لأجل عمامته؛ لظنهم أنه حرص عليها لذاتها، **(كثرة من قتل فيها)**، أى فى شدته هذه، ممن رجع معه لجانب العدو بسببه، وكثرة منصوب مفعول أنكر، أو هو مفعول لأجله، **(فقال: لم أفعلها)**، أى هذه الشدة والكرة، **(بسبب)** أخذ هذه **(القلنسوة)** كما ظننتم، **(بل)** فعلتها **(لما تضمنته)**، أى لما فى ضمنها وداخلها، **(من شعره)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، بفتح العين وسكونها؛ **(لئلا تسلب)** بالبناء للمجهول، ونائب فاعله **(بركتها)**، وتسلب بمعنى تذهب بركتها منى، وذلك أمر عظيم يخاطر بالأرواح لأجله، وفى نسخة: أسلب، ويحتمل أنه

من السلب، بفتحتين، أى يأخذها العدو، ويدل عليه قوله: **(وتقع فى أيدى المشركين)** الذين لا يليق أن تكون عندهم آثار رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(ورئى) مبنى للمجهول بهمزة قبل الياء آخره، **(ابن عمر واضعًا يده على مقعد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى موضع قعوده، **(من المنبر، ثم وضعها على وجهه)**، أى مسحه بها تبركًا بمس ما مس جسده وثيابه، وهذا رواه ابن سعد، ويأتى الكلام على ذلك عند إعادة المصنف، رحمه الله تعالى، وهذا يدل على جواز التبرك بالأنبياء والصالحين وآثارهم، وما يتعلق بهم ما لم يؤد إلى فتنة أو فساد عقيدة، وعلى هذا يحمل ما روى عن عمر، رضى الله عنه، من أنه قطع الشجرة التى وقعت تحتها البيعة؛ لئلا يفتتن بها الناس؛ لقرب عهدهم بالجاهلية، فلا منافاة بينهما ولا عبرة بمن أنكر مثله من جهلة عصرنا، **(وفى معناه أنشدوا)**، أى تمثلوا[1]:

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى ولكن حب من سكن الديارا

قيل: الشغف باطن القلب، وقيل: شغاف القلب غلافه، وهو جلدة عليه، وقيل: هو وسط القلب، والمعنى فى هذه الأقوال متقارب، أى ما وصل حب الديار إلى شغاف قلبى، فغلب عليه، قال النابغة[2]:

وقد حال همٌّ دون ذلك والج مكان الشغاف تبتغيه الأصابع

وروى الشعف، بالعين المهملة، ومعناه الإحراق، وعلى الأول العمل. قال الجوهرى: وشغفه الحب، أحرق قلبه. وقال أبو زيد: أمرضه، وقد شغف بكذا، فهو شغوف. وروى عن الشعبى أنه قال: الشغف بالغين المعجمة حب، وبالمهملة جنون، وقيل: الأول حجاب القلب، والثانى سويداء القلب، ويقال: إن الشغاف الجلدة اللاصقة بالكبد التى لا ترى، وهى الجلدة البيضاء، وهذا المنشد وقع مقدمًا فى بعض النسخ.

(ولهذا)، أى للتبرك بآثاره صلى الله تعالى عليه وسلم **(كان)** الإمام **(مالك لا يركب بالمدينة دابة)**، فرسًا ونحوها مما يركب؛ رجاء لأن يمس جسده ترابًا مشى عليه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولما ذكره بقوله: **(وكان يقول:)** إذا سُئل عن ذلك **(أستحيى من الله تعالى)**، أى أخشى وأهاب **(أن أطأ تربة فيها رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بحافر دابة)**، أى أرضًا ذات تراب، ونسب الوطاء له، مع أنه للدابة؛ لأنه

(١) البيتان من الوافر، وهما للمجنون فى ديوانه (ص١٣١).

(٢) البيت من الطويل، وهو فى ديوان النابغة الذبيانى (ص٣٢)، لسان العرب (١٧٩/٩) (شغف)، جمهرة اللغة (ص٨٦٩، ٨٧٣)، كتاب العين (٣٦٠/٤)، تاج العروس (٥١٨/١٣) (شغف).

منسوب له، والحافر للفرس ونحوها، كالخف للبعير والقدم للإنسان.

ثم بين أن عدم ركوبه لم يكن لكونه ليس لـه دواب، بـل لتعظيمـه، صلى الله تعـالى عليه وسلم، فقال: (**وروى عنه**)، أى عن الإمام مالك (**أنه وهب**) للإمـام (**الشـافعى**) لمـا كان عنده بالمدينة، وضمن وهب معنى أهدى، فعداه بـاللام، وهـو متعد لاثنـين بنفسه (**كراعًا**) بوزن غراب، وهو جمع من الخيل، وله معان أخر، فيطلق على الخيل، والسلاح، وما استدق من الساق، واسم موضع (**كثيرًا كان عنده**)، أى فـى ملكـه وحيازتـه، وهـو يدل على كرمه وإجلاله للإمـام الشـافعى، (**فقـال لـه الشـافعى:**) لمـا وهبـه جميـع دوابـه (**أمسك منها دابة**)، أى أبقها عندك لتركبها، (**فأجابه بمثل هذا الجواب**) الذى أجـاب بـه من تقدم بأنه يستحيى من الركوب بالمدينة.

(**وقد حكى أبو عبد الرحمن السلمى**)، بضم السين وفتـح الـلام، الإمـام الجليـل شيخ الإمام القشيرى صاحب الرسالة، (**عن أحمـد بـن فضلويـه**)، بفتـح الفـاء وسـكون الضـاد المعجمة، وفتح اللام والواو، وسـكون اليـاء، ويجـوز ضـم الـلام، وهـو طريقـة المحدثـين يقولونه كراهة من لفظة ويه، فإنه كلمة تدل على مكـروه كـالويل. وقـال المعـرى: إنـه كلمة تصغير عند عوام البصرة، ثم وصفه بقوله: (**الزاهد، وكان من الرماة الغزاة**)، كان مكثرًا للمجاهدة فى سبيل الله مجيدًا لرمى السهام، ملازمًا للمجاهدة بها، (**أنـه قـال: مـا مسست القوس بيدى**)، ولمسته بها حال الرمـى وغـيره، (**إلا على طـهارة**)، أى متوضئـًا (**منذ بلغنى أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أخذ القوس بيـده**)، أى أمسـكها، وهـو كناية عن الرمى بها، وقد ثبت أنه صلى الله تعالى عليه وسلم حث على الرمى وأمر بـه، فهو سُنة، ففى صحيح مسلم، عن عقبة بن عامر، سمعت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو على المنبر يقـول: «﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ**﴾ [الأنفال: ٦٠]، ألا إن القوة الرمى»، وكررها ثلاثًا.

وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن الله يدخـل بالسـهم الواحـد ثلاثـة نفـر الجنـة، صانعه، والرامى به، ومنبله»(١)، أى من يناوله النبل ليرمى به. وصح أنه، صلى الله تعـالى عليه وسلم، رمى بالسهام فى غزوة أُحُد، وكان له قسى ست مذكورة فى السير، ثم إنه قيل: إن تخصيصه الطهارة بمس القوس دون السيف وغيره مما مسـه، وتعظيمـه أزيـد مـن غيره من آلات الحرب؛ لما فيه من دفعـه عنـه دون مشـقة كمـا فـى غـيره، ولـذا كـانت العرب تسميها، أى السهام: رسل المنايا، وما قيل: إنه يحتمل أنه كان يفعل ذلك فى كل

---

(١) أخرجه أحمد (٤/١٤٦، ١٤٨)، والنسائى (٦/٢٢٣)، والحاكم (٢/٩٥)، والبيـهقى (١٠/١٣، ٢١٨)، وعبد الرزاق (٢١٠١٠).

نوع من الآلات، لا يساعده لفظه.

(**وقد أفتى مالك فيمن قال: إن تربة المدينة**)، أى أرضها (**ردية**) لمن يحل فيها غير طيبة ذات وباء متعفنة الهوى، وردية مهموز وغير مهموز مأخوذة من الردى، (**بضرب ثلاثين درة**)، بكسر الدال وتشديد الراء المهملتين، وهى آلة من جلد غليظ يضرب بها معروفة، وفى الكلام مقدر، أى وقال: إنه يضرب أو يضرب، بدل من أفتى، (**وأمر بحبسه**) تعزيزًا له، (**وكان**) الذى حبسه (**له قدر**) عظيم وشرف بين الناس، وذكر هذا لأن التعزيز يختلف حاله بحال من عزر، ففيه إشارة إلى أنه أذنب ذنبًا عظيمًا، إذا لو كان أمرًا سهلاً صدر من شريف لعزره باللسان والزجر.

وإلى هذا أشار بقوله: (**وقال**) الإمام مالك: (**ما أحوجه**)، تعجب من استحقاقه العقاب أشد مما فعله، وفيه تجوز؛ لأنه جعل استحقاقه بمقتضى ما صدر عنه كأنه له حاجة إليه؛ لأن العاقل لا يفعل ما لا يحتاج إليه، ففيه تهكم به يومئ إلى عدم شعوره بمصالحه (**إلى ضرب عنقه**)، أى إلى القتل، (**تربة**) وأرض (**دفن فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يزعم أنها غير طيبة**)، أى ردية متغيرة الهواء ذات وباء، وهى وإن كانت ذات حمى قبل الهجرة، فقد دعا لها رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بنقل حماها وعفونة هواها إلى الجحفة، فصارت معتدلة طيبة كما هو مشاهد فيها، وعبر بيزعم للإشارة إلى أنه قول باطل، وإن كان الزعم يجيء بمعنى القول، ولذا قالوا: زعم مطية الكذب، وهذا مبالغة عن زجره تفاديًا عن تنقيص ما هو من أفضل الأماكن عند الله، وإن أمكن حمله على محل آخر من أن بعض أماكنها سباخ، ولكونها كانت ذات وباء لما قدم الصحابة لها وأخذتهم الحمى.

قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم بارك لنا فيها وصححها لنا وانقل حماها إلى الجحفة»[1]، فطابت وطابت تربتها حتى صار ترابها شفاء من الجذام، كما ورد فى الآثار. قال البوصيرى[2]:

لا طيب يعدل تربا ضم أعظمه طوبى لمستنشق منه وملتثم

(**وفى الصحيح**)، أى الحديث الصحيح الذى رواه الشيخان، عن أنس، (**أنه**) صلى الله تعالى عليه وسلم، (**قال فى المدينة:**)، أى فى حقها وشأنها، (**من أحدث فيها حدثًا**)، أى من فعل فيها أمرًا قبيحًا ابتدعه فيها كالمظالم، وأصل الحدث كل ما حدث وتجدد، ثم

---

(١) أخرجه البخارى (٣/٣٠، ٥/٨٤، ٧/١٥١، ١٥٨)، ومسلم فى الحج (٤٨٠)، وأحمد (٦/٥٦)، والبيهقى (٣/٣٣٢).

(٢) البيت من البسيط، وهو فى ديوان البوصيرى (ص١٦٨).

خصه العرف بما ذكر من البدع المنكرة شرعًا كما فى النهاية، ومن موصولة أو شرطية، **(أو آوى)** بالمد ويجوز قصره **(محدثًا)** بكسر الدال، اسم فاعل من أحدث، أى أدخله، وضمه لأهلها، يقال: آوى إليه كذا، إذا انضم إليه، أى أدخلها جانيًا، فأجاره ونصره على خصمه، وفتح داله كما قيل على أنه بمعنى الأمر المبتدع وإيواؤه الرضى به تكلف لا حاجة إليه، **(فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً)**، وقد تقدم تفسيره، وأنه تغليظ فى الزجر، أو مأول كما قدمناه، وفيه من تعظيم المدينة لكونها مكانه ما لا يخفى، ولها حرمة الحرم كما فصلوه، وسيأتى.

(وحكى) بالبناء للمفعول، والذى حكاه ابن عبد البر، رحمه الله، كما تقدم **(أن جهجاه الغفارى)** بن سعد بن حرام. قال الطبرى: كذا رواه المحدثون والصواب جهجا، بلا هاء. وقال الذهبى: هو جهجاه بن قيس، وقيل: ابن سعد، وهو مدنى صحابى شهد بيعة الرضوان وبعض الغزوات، وتوفى بعد عثمان بسنة، وقد تقدم وسيأتى أنه مات قبل الحول **(أخذ قضيب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من يد عثمان، رضى الله تعالى عنه، وتناوله)** منه **(ليكسره على ركبته)** كما هو معتاد فى كسر ما يحتاج كسره لقوة، والقضيب عصا قصيرة كان يمسكها، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى يده، وكذا فعله الصحابة بعده، رضى الله تعالى عنهم، **(فصاح به الناس)** تحذيرًا له وزجرًا ليرتدع عما أراده، **(فأخذته الآكلة)**، أى أصابته وبدت به **(فى ركبته)** لوضعه القضيب ليكسره عليها، **(فقطعها)** لأن العضو المتآكل إن لم يقطع سرت أكلته للبدن وأهلكته، **(ومات قبل الحول)** الذى بعده، أو قبل تمام الحول الذى فعله فيه، وروى أنه مات عقبه كما تقدم.

قال فى القاموس: الأكلة، بضم الهمزة وسكون الكاف، وورد كسرها أيضًا. قال بعض الفقهاء: وما اشتهر من مد همزته خطأ وفيه نظر، فقد روى الثعالبى فى ثمار القلوب شعرًا فيه ذكر الآكلة ولم ينكره، وهو ما قيل فى هجاء الأصمعى:

ومن أنت هل أنت إلا امرؤ إذا صح نسلك من باهله
وللباهلى على خبزه كتاب لآكله الآكلة

والآكلة كالأكال، مرض يفسد الأعضاء كالجذام معروف، وليس فى كلام القاضى هنا، وفيما تقدم ما يقتضى أنه كسر القضيب. وروى الطبرى فى الرياض النضرة: أنه كسرها. ورواية: أنها عصا، ليست مخالفة لما ذكر؛ لأن القضيب يسمى عصا، وكان هذا فى الفتنة لما حصب الناس عثمان وهو على المنبر، فلما نزل أخذ الجهجاه منه العصا التى كانت بيده، وكان ممن قدم عليه فى قصته المشهورة، وقد تقدم الكلام عليها فى فضل الكرامات وانقلاب الأعيان له.

(وقال) رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه مالك، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، عن أبى هريرة: **(من حلف على منبرى)**، المراد بكونه على المنبر أنه عنده، ويجوز إبقاؤه على ظاهره، بأن يصعد عليه ويحلف، وقد نص عليه الشافعية، وأنه يجوز أن يؤمر بصعوده، ولكن الأصح الأول، وهذا بناء على أن اليمين تغلظ بالمكان والزمان، فيذهب بالحالف للمسجد، وكان فى حياته، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحلف عند المنبر؛ لأن ما بينه وبين القبر الشريف أفضل بقعة بالمدينة بعد مرقده الشريف، وما ضمه جسده العظيم المنيف، **(كاذبًا، فليتبوأ مقعده من النار)**، يتبوأ بمعنى يتخذه مباءة، أى مقرًا ومسكنًا، يقال: بوأه، إذا أسكنه، وهو دعاء، أو أمر أريد به الخير، وجعل استحقاقه العذاب بمنزلة حضوره وحضور محله، فأمر بأن يجعله مقرًا له على طريق التمثيل، وهو من بليغ الكلام وبديعه الذى يعرفه من ذاق حلاوة البلاغة والفصاحة.

(وحدثت)، بالبناء للمجهول **(أن أبا الفضل الجوهرى)**، ليس هو عبد الله بن الحسن المصرى الواعظ بجامع مصر فى حدود السبعين وأربعمائة، وكان من العلماء الصالحين، يتبرك به ويقتدى به فى السلوك، وإنما هو كما فى تاريخ الأندلس: عبد الله بن الحكيم الرندى الأندلسى، ذو الوزارتين، له فصل وحسب، وفضل باهر وأدب، عالم بالقراءات والحديث والعربية، وله شعر رائق ونثر فائق، وارتحل للمشرق، فأخذ بها عن ابن عساكر، وأكثر الرواية عنه، وله رياسة فى عصره، صار بها كالمثل السائر، إلى أن ردت منه الأيام ما وهبت، فانقضت أيامه وذهبت، فقتل لما خلع سلطانه، فنهبت أمواله وكتبه، ومات شهيدًا، رحمه الله تعالى، **(لما ورد المدينة زائرًا وقرب من بيوتها ترجل)**، أى نزل عن دابته التى كان راكبها تأدبًا، **(ومشى باكيًا)** خضوعًا وخشية، وعليه شوق أو مسرة، فإن من المسرة قد يحصل البكاء **(منشدًا)** إنشاد الشعر قراءته، والمراد أنه تمثل به؛ لأن الشعر من قصيدة المتنبى أولها:

فديناك مع ربع وإن زدتنا كربا ... لأنك كنت الشرق للشمس والغربا
(ولما رأينا رسم من لم يدع لنا ... فؤادا لعرفان الرسوم ولا لُبًّا)

ومنها:

(نزلنا عن الأكوار نمشى كرامة ... لمن بان عنه أن نلم به ركبا)

وغيره قليلاً؛ لأنه فى ديوانه، وكيف عرفنا رسم إلى آخره، والقصيدة فى مدح سيف الدولة، ولقد أجاد فى تمثله به ونقله لمحل لائق به، وقد ضمنه المصنف، رحمه الله تعالى، أيضًا فى قصيدة نبوية له، فقال بعده:

وتهنا بأكناف الخيام تواجدا ... نقلبها طورا ونرشفها حبا

ونبدى سرورا والفؤاد بحبها تقطع والأكباد أورى بها لهبا
أقدم رجلا بعد رجل مهابة وأسحب خدى فى مواطنها سحبا
وأسكب دمعى فى مناهل حبها وأرسل حبا فى أماكنها النجبا
وأدعو دعاء اليائس الواله الذى براه الهوى حتى بدا شخصه سحبا

والرسم آثار الديار الدارسة، والمراد آثاره صلى الله تعالى عليه وسلم فى معاهده ومساكنه، والفؤاد القلب أو داخله، والعرفان والمعرفة بمعنى، واللب العقل الخالص من الشوائب، سمى به لأنه خالص ما فى الإنسان فى قواه كاللباب من الشىء، وأما تفسيره بمطلق العقل أخذًا من القاموس، ففيه نظر، والأكوار جمع كور، بضم الكاف وهو للإبل بمنزلة السرج، وبان هنا بمعنا بعد، أى لا يليق به الركوب لمن قرب من مقامه تأدبًا، ونلم نأتيه لزيارته والإلمام الإتيان قليلاً، ويكون بمعنى القرب، ومن فسر بان معنى ظهر لم يصب، والركب اسم جمع لراكب، ويختص بالإبل وقد يعم، وقد شرح البيت هنا بعضهم بما أستحيى من إيراده.

(وحكى عن بعض المريدين)، والمريد صاحب الإرادة لغة، والمراد به ما اصطلح عليه مشايخ الصوفية، من هو طالب الحق على يد المرشد الكامل بجعل إرادة ما عدا الحق عبثًا، **(أنه لما أشرف على مدينة الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى قرب منها بحيث يراها، وأصل الإشراف النظر من مكان عال أريد به لازمه **(أنشأ)**، أى شرع، والإنشاء يكون بهذا المعنى، وبمعنى الإيجاد ابتداء، **(يقول متمثلاً)** التمثل إنشاد شعر الغير فى مقام يناسبه، وهو من قصيدة لأبى نواس بن هانئ فى مدح الأمين الخليفة ابن هارون الرشيد العباسى من قصيدة قصد المتمثل به لمدح النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لموافقة اسمه اسمه، وهذا نوع من البلاغة قريب من التضمين، وهو أن يورد شعرًا لغيره فى مقام يكون أحق به من صاحبه، و لم يتعرض له أصحاب البديع إلا أن الإمام محمد التوزرى أورده فى كتابه الغرة اللائحة، وأورد منه ما ذكر المصنف، رحمه الله تعالى، هنا بقوله:

رفع الحجاب لنا فلاح لناظر قمر تقطع دونه الأوهام
وإذا المطى بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام
قربننا من خير من وطىء الثرى فلها علينا حرمة وذمام

وأول هذه القصيدة المذكورة:

يا دار ما فعلت بك الأيام لم يبق فيك بشاشة تستام

والمراد برفع الحجاب فى كلام أبى نواس ستائر أبواب الملوك والعظام، وهو هنا بمعنى انقضاء المسافة والقرب من المدينة، والقمر الممدوح فيها، وتقطع ماض أو مضارع

حذف إحدى تائيه تخفيفًا، والأوهام جمع وهم وتقطعها اضمحلالها باليقين، وناظر اسم فاعل من نظر أو ناظر العين وإنسانها، والمطى جمع مطية ناقة تمتطى، أى تركب ولاح بمعنى بدا وظهر، ودونه بمعنى قريبًا منه ويجوز فى تقطع بناؤه للمجهول أيضًا، وقوله: فظهورهن إلى آخره جمع ظهر وهو معروف، والرحال بحاء المهملة جمع رحل، وهو للإبل كالسرج للخيل أو بجيم جمع رجل ذكر من بنى آدم، والمعنى متقارب، أى إذا أوصلتهم لمقاصدهم كان لها حرمة تقتضى رعايتها وراحتها، فلا يركبها بعد ذلك رجل، ولا يوضع على ظهرها رحل، بل تترك سارحة منعمة فى مرعاها، ومعناها ظاهر.

ثم بين علة هذه الرعاية بقوله: قربننا، وهى جملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا، والحرمة الحق الذى يلزمه احترامه، والذمام مفرد بمعنى ما يلزم احترامه أو جمع ذمة، وهى العهد وما يجب الوفاء به، والمعنى ظاهر لا حاجة للتطويل بشرحه، ومن وطىء الثرى، وهو التراب كناية عن الناس كلهم، وما قاله أبو نواس من تحريم ركوبها كناية بديعة؛ لأنه يشير إلى أن من وصل له لا يرحل بعدها؛ لعدم حاجته لسواه، ولأنه لا يقدر على مفارقة من هو غاية ما يتمناه، وقد كان ذلك وكما قال عبد الله بن رواحة فى قصيدة له:

إذا أديتنى وحملت رحلى ... مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك فانعمى وخلاك ذم ... ولا أرجع إلى أهلى ورائى

وفيه رد على الشماخ فى قوله[1]:

إذا بلغتنى وحملت رحلى ... عرابة فاشرقى بدم الوتين

وقال المبرد بعدما أنشد قول ابن رواحة المذكور: لقد أحسن كل الإحسان، حيث قال: لا أحتاج إلى أن أرحل لغيره، وقد عاب الرواة قول الشماخ المذكور، ولذا قال، صلى الله تعالى عليه وسلم، للأنصارية التى أتته على ناقة لها، وقالت: إنى نذرت إن نجوت عليها أن أنحرها: «بئس ما جزيتها»[2]. وقال فى الموازنة: إن الشماخ رأى ناقته شقها السير وهزلت ودبرت كما قال:

إليك بعثت راحلتى لتشكى ... كلوما بعد محفدها السمين

فقال: إذا بلغتنى عرابة، فلا أبالى أن تهلكى، وليس دعاء عليها، وإنما أراد أنه بلغ المنى، وليس هذا مضادًا لقول أبى نواس، وإنما يضاده قول الأنصارية، وللشعراء والأدباء هنا كلام كثير لا يسعه هذا المقام، وقلت أنا فى معناه:

---

(١) البيت من الوافر، وهو فى ديوان الشماخ (ص٣٢٣)، مقاييس اللغة (٢/٢٣٦).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٩٣٩٥)، والبغوى فى شرح السنة (١٠/٣٢)، وسعيد بن منصور (٢٩٦٧).

إذا بلغتنا النوق حين تلفتت قريرة عين فى أعز المسارح
وحق لها تحذى الخدود وتفتدى بأنفسنا من قادحات الطوائح
فياليتها تمشى لا كرام مثلها جميع نياق الأرض ناقة صالح

(وحكى عن بعض المشايخ)، يعنى به كبار الصالحين والعلماء، **(أنه حج ماشيًا)** تواضعًا وقصد الزيادة فى الثواب، وقد قال الفقهاء: إنه أفضل لمن قدر عليه من داره، فإن لم يقدر فمن الميقات، فإن لم يقدر فمن دون الميقات، فإن لم يقدر فعند الدخول ونحوه. وذكر مجاهد أن إبراهيم وإسماعيل، عليهما الصلاة والسلام، حجا ماشيين، وحج الحسين، رضى الله عنه، ماشيًا ونجائبه تقاد معه، **(فقيل له فى ذلك)**، أى سُئل: لم فعله؟ **(فقال: العبد الآبق)**، أى الفار من سيده إذا رجع إليه **(لا يأتى إلى بيت مولاه)**، أى سيده **(راكبًا)**، وفى نسخة: يأتى، بدون لا، وتقديرها أيأتى بتقدير الاستفهام الإنكارى، وأراد بالآبق المذنب المقصر فى خدمة مولاه مجازًا، أى أنا مذنب مقصر حقيق بالخضوع والتذلل، **(لو قدرت أن أمشى على رأسى ما مشيت على قدمى)**، مثنى قدم مضاف لياء المتكلم، والمشى على الرأس عبارة عن غاية الجد والاجتهاد والتذلل كما قيل:

سعيا على الرأس لا مشيًا على القدم

(قال القاضى): يعنى المصنف عياض، رحمه الله تعالى، فى بيان إيضاح أنه ينبغى للزائر المشى وإظهار الخضوع والذلة، **(وجدير)**، أى خليق وحقيق، وهو خبر مقدم، **(لمواطن)**، أى أماكن ومساكن جمع موطن، وهو محل التوطن والإقامة، وأراد بها مكة والمدينة **(عمرت)**، أى صارت معمورة **(بالوحى والتنزيل)** من عطف الخاص على العام، والباء للسببية، أو هى للتعدية بجعل الوحى بمنزلة ساكن عمرها.

(وتردد بها)، التردد بمعنى المجىء والذهاب، من قولهم: فلان يتردد إلينا، وليس من التردد بمعنى الشك، **(جبريل وميكائيل)**، أما تردد جبريل، عليه الصلاة والسلام، فظاهر، وأما ميكائيل، عليه الصلاة والسلام، فكان ينزل عليه أحيانًا.

(وعرجت)، أى صعدت من عنده، **(منها)**، أى من المواطن **(الملائكة والروح)**، هو جبريل، عليه السلام، عطف عليهم عطف الخاص على العام، وقيل: ملائكة كالحفظة على الملائكة لا تراهم الملائكة، كما أنا لا نراهم، وأما أن المراد به أرواح الناس، فمما لا يليق ذكره هنا.

(وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح)، هما لغة التطهير والتنزيه، والمراد بهما هنا توحيد الله تعالى وذكره، كقوله: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والضجيج والضجاج: الصياح ورفع الأصوات المختلفة، وأصله صياح العاجز المغلوب، والعرصات

بفتحتين جمع عرصة، وهى الأرض والساحة المتسعة من غير بناء، والمراد هنا الأرض مطلقًا، وإسناد الضجيج للعرصات تجوزٌ للمبالغة فى كثرة الذكر والدعاء والتلاوة.

(واشتملت تربتها)، أى تضمنت وحوت أرضها، **(على جسد سيد البشر)**، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم، أشرف المخلوقات، فالمكان الذى حواه أفضل الأمكنة، فيلزم تعظيمه والسعى إليه ماشيًا بالذلة والأدب، ثم ذكر بعد فضيلتها الذاتية، ما نشأ عنها وعرض منها، فقال: **(وانتشر)**، أى شاع وتفرق، واشتهر فى الأرض منتقلاً، **(عنها)**، أى عن تلك المواطن، وفى نسخة منها: **(من دين الله، وسنة رسوله ما انتشر)**، أى أمر عظيم كثير، لا يعلمه إلا الله، ولذا عبر بما المبهمة، كقوله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١، ٢].

(مدارس آيات)، عطف بيان أو بدل من مواطن، أى محال يدرس فيها القرآن، جمع مدرس من درس إذا قرأ وتلى. وقيل: جمع مدراس ومفعال غريب فى اسم المكان كالمرصاد، ولا حاجة لارتكابه.

(ومساجد) جمع مسجد، بالكسر، موضع السجود، وهو وضع الجبهة على الأرض خضوعًا وعبادة، وليس المراد به الموضع المعد للعبادة، وإن صحت إرادته.

(وصلوات)، جمع صلاة، وهى العبادة المعروفة، وأصل معناها الدعاء، ويجوز إرادته هنا، وفى نسخة: مساجد صلوات، بالإضافة على تقدير لام الاختصاص، ومن قال: معناه مساجد لأجل الصلوات لم يصب.

(ومشاهد الفضائل والخيرات)، المشاهد جمع مشهد، وهو محل يشهده الناس ويجتمعون فيه، والفضائل جمع فضيلة كالعلم وتعليم الآداب وغيرها من الكمالات، والخيرات هى خير الدنيا والآخرة.

(ومعاهد البراهين والمعجزات)، أى عهد فيها ظهور معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم وبراهين نبوته الدالة على صدقه، وهو عطف تفسير. وقيل: البراهين أعم من المعجزات.

(ومناسك الدين) جمع منسك، وهو محل العبادة والنسك.

(ومشاعر المسلمين)، أى محال معالمهم التى يجب القيام بها من الواجبات وغيرها.

(ومواقف سيد المرسلين)، أى المحال التى قام فيها صلى الله تعالى عليه وسلم لإعلاء كلمة الله وإظهار دينه كمحاريبه ومحال صلاته.

(ومتبوأ خاتم النبيين)، بفتح الباء وكسرها، أى مساكنه ومحال إقامته، **(حيث انفجرت**

النبوة)، أى ظهرت وفاض على جميع الخلق منافعها، وأشرق فى القلوب أنوارها، ففيه استعارة مكنية وتخييلية، إما بتشبيه النبوة بالفجر والصبح الصادق فى ظهوره الماحى لظلمة الكفر، أو بمنبع الماء المروى للناس بعد ظمأ الجهل، فقوله: **(وأين فاض عبابها)**، بضم العين، وهو الماء الكثير كالسيل، والماء الكثير المتدفق الفائض، وحيث يكون ظرف زمان ومكان، وفيه لغات مشهورة، وأين اسم يستفهم به عن المكان، فجرد عن الاستفهام لمجرد المكان، وقيل: إنها باقية على أصلها، أى هى جواب من سأل، وقال: أين فاض عباب النبوة، فيقال: فى هذه الأماكن.

(ومواطن مهبط الرسالة)، مهبط مصدر ميمى بمعنى الهبوط، أى محال نزول الوحى برسالته وأمره بتبليغ الخلق ما أرسل به لهم، والمراد مكة؛ لأن مراده مدح الحرمين، كما فسرنا به المواطن أولاً، ولذا قال: **(وأول أرض مس جلد المصطفى ترابها)**، هو يكنى به عن مولد كل أحد؛ لأنه لو فرض أنه سقط على أرضها كان كذلك، كما قال[1]:

بلاد بها نيطت على تمائمى   وأول أرض مس جلدى ترابها

ومنه أخذ المصنف، رحمه الله، كلامه ولمح به، **(أن تعظم عرصاتها)**، جمع عرصة، وهى كما تقدم أرض لا بناء فيها، فالمراد بها هنا مطلق الأرض أو معناه الحقيقى، فهو ساحة المدينة ومكة وفناء أرضها، فيعلم منه غيرها بالطريق الأولى، وهذا هو المبتدأ الذى قدم خبره وطول ليتشوق سامعه إليه وينتظره، **(وتتنسم نفحاتها)**، تفعل من النسيم مبنى للمجهول، والمراد ما فى النسيم من نفحاتها الطيبة، والنفحة فى الأصل دفعة من الريح يجوز بها عن الطيب الذى ترتاح له النفس من نفح الطيب إذا فاح.

وفى الحديث: **(إن لربكم فى دهركم نفحات فتعرضوا لها)**، فشبه ما فيها من بركاته وطيب نسيم روائحه استعارة تبعية أو مكنية وتخييلية، **(وتقبل)**، أى تلثم وتباس بالشفاه **(ربوعها)** جمع ربع، وهو المنزل فى الربيع ويطلق على المنزل مطلقًا، وهو المراد هنا **(وجدرانها)**، بضم الجيم وسكون الدال وبالراء المهملتين وألف ونون جمع جدار، وهو أصل الحائط، ويطلق عليه أيضًا، ويجوز أن يكون بتاء التأنيث جمع الجمع، ثم لما تزايد شوقه لمعاهده، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال مخاطبًا بها بتنزيلها منزلة العقلاء فى شعر له مروى عنه، وهو قوله، أعنى المؤلف:

---

(١) البيت من الطويل، وهو لرقاع بن قيس الأسدى فى لسان العرب (٤١٨/٧)، تاج العروس (١٦٠/٢٠)، ولأحد الأعراب فى الكامل (ص٨٤٢، ١٣٢٠)، معجم البلدان (٢١٣/٥)، ولامرأة من طيئ فى سمط اللآلئ (ص٢٧٢).

(يـــا دار خيـر المرسلين ومـن بـه هُـــدِىَ الأنـــام وخـص بالآيـات)

أراد بداره محل قر فيه مطلقًا، فيشمل مكة والمدينة، وفى نسخة: المسلمين، والأولى أولى، وهدى مبنى للمجهول، أى هدى الله تعالى به، والأنام والخلق مطلقًا أو كل ذى روح كما مر، وقوله: خص بالآيات، المراد بها القرآن أو جميع المعجزات؛ لأن الله تعالى خصه منها بما لم يكن لغيره، أو التعريف فيه للعهد.

(عنـدى لأجلك لوعـة وصبابـــة وتشـــوق متوقـــد الجمـــرات)

اللوعة شدة الحب وحرقته، والصبابة رقة الشوق من صبا إليه إذا مال، والتشوق زيادة الشوق، وشبه ما فى القلب منه بجمرات متوقدة، ومتوقد بكسر القاف من إضافة الصفة للموصوف، وضبط بفتحها أيضًا كما فى المقتفى.

(وعلى عهد إن ملأت محاجـــرى من تلكـم الجـدران والعرصـــات)

وعلىَّ عهد، أى توثق التزمته، وهو يمين كما يقال: علىَّ عهد الله تعالى، والمحاجر جمع محجر، وهو جوانب العين، وملؤها مجاز عن النظر إليها وإبصارها، والجدران جمع مؤنث لجدر جمع جدار كما تقدم، والعرصات تقدم تفسيرها.

(لأعفـرن مصـــون شيبـى بينهـــا مـــن كثـرة التقبيـــل والرشفـات)

التعفير تمريغه فى التراب، ويقال له: عفار، وأراد بشيبه لحيته المبيضة، وبينها أى بين ترابها وأرضها، وجعله مصونًا؛ لأنه محفوظ عما يلوثه ويشينه، والتقبيل اللثم، والرشفات جمع رشفة وهى مص الريق ونحوه، وفسر هنا بالتقبيل أيضًا، وتفسيره بمص ريق المحبوب غير مناسب هنا، واللام جواب القسم الذى تضمنه قوله: علىَّ عهد.

(لولا العوادى والأعادى زرتهـــا أبـــدا ولو سحبـا على الوجنـات)

العوادى جمع عادية، وهى الأمور التى تمنع عن زيارتها والعوائق، أو الظلمة بمعنى غائرة ظالمة، والأعادى جمع عدو أو هو جمع أعداء جمع الجمع، والوجنات جمع وجنة، وهى أعلى الخد وهو ما ارتفع منه وغلظ، وسحبا منصوب بمقدر، أى أسحب وجهى على الأرض بذلة وخضوع، وضمير زرتها للدار، وأبدا ظرف مستغرق لما يستقبل من الزمان، والمعنى لولا عوائق الدهر لم أفارقها و لم أتخلف عنها.

(لكن سأهدى مـن حفيـل تحيتـــى لقطـين تلك الـدار والحجـــرات)

استدرك على ما أفاده ما قبله، أى إن منعت عن زيارتها والإقامة بها والتضمخ بتربها تبركًا، فإنى أهدى لمن سكن بـها، يعنى بـه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم،

وأصحابه الذين دفنوا بها، والإهداء الإرسال، والحفيل بحاء مهملة مكسورة وفاء وياء تحتية ساكنة ولام، بمعنى كثير نفيس يحتفل به، والتحية من الحياة بمعنى السلام، والقطين بقاف مفتوحة وطاء مهملة مكسورة والمثناة تحتية ساكنة ونون بمعنى المقيم، ويطلق على الأتباع والخدم، والحجرات جمع حجرة وهى بيت صغير من تلك الدار يفرز ويحجر، إشارة إلى حجراته التى كان بها زوجاته أمهات المؤمنين، رضى الله عنهن أجمعين، وكان سيدى الشيخ أحمد بن الرفاعى كل عام يرسل مع الحجاج السلام على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلما زاره وقف تجاه مرقده، وأنشد:

فى حالة البعد روحى كنت أرسلها   تقبل الأرض عنى فهى نائبتى
وهذه نوبة الأشباح قد حضرت   فامدد يديك لكى تحظى بها شفتى

فقيل: إن اليد الشريفة بدت له فقبلها، فهنيئًا له، ثم هنيئًا.

(أزكى من المسك المفتق نفحة   تغشاه بالآصال والبكرات)

أزكى بمعنى أكثر طيبًا ورائحة طيبة، والمفتق بزنة مكرم بالتشديد من فتق المسك والطيب إذا خلط بغيره مما يزيد طيبه كماء الورد، ونفحة تقدم تفسيره، وهو منصوب تمييز، وروى بالرفع، وإضافته للهاء، أى رائحته نائب فاعل المفتق، وتغشاه تعرض له أو تغطيه وتجلله من الغشا، والآصال جمع أصيل أو جمع أصل جمعه، فهو جمع الجمع، وهو ما قرب من الغروب، والبكرات جمع بكرة، وهى أول النهار، وخصهما لطيب النسيم ولطافة الهواء فيهما.

(وتخصه بزواكى الصلوات   ونوامى التسليم والبركات)

وتخصه بتاء التأنيث فاعله ضمير التحية، أو بنون المتكلم مع الغير، والزواكى جمع زاكية، وهى الزائدة بمعنى النوامى جمع نامية، وحركت ياءهما بالكسر للضرورة، والصلاة والتسليم عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، معناهما ظاهر ويأتى قريبًا، ولقد أجاد فى الختم بهما، والبركات جمع بركة، ولا وجه لما قيل: إنه فاسد الوزن، وصوابه أن يقول:

وتخصه أزكى صلاة دائما   بنوامى التسليم والبركات

مع أنه وقع فيما هرب منه. روى أن المصنف، رحمه الله تعالى، لم يحج ولم يزره، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال هذا الأبيات الثمانية متحسرًا على ما فاته، كما وقع للعارف بالله تعالى أبى العباس بن العريف، نفعنا الله به، فقال متأسفًا على فوات ذلك:

سار الركاب وسوء الحظ أقعدني ... ولم أجد لبلوغ القصد مفتاحًا
يا سائرين إلى المختار من إضم ... سرتم جسوما وسرنا نحن أرواحًا
إنا أقمنا على عجز ومسكنة ... ومن أقام على عجز كمن راحا

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

* * *

تم بحمد الله الجزء الرابع من كتاب نسيم الرياض لشهاب الدين الخفاجي رحمه الله في شرح الشفاء للقاضي عياض

ويليه الجزء الخامس، وأوله:

«(الباب الرابع) من القسم الثاني (في حكم الصلاة عليه والتسليم)»

* * *

فهـرس محتويـات

الجزء الرابع

مـن

نسيم الرياض

في شرح شفاء القاضي عياض

المحتويات

نسيم الرياض

في شرح شفاء القاضي عياض

تأليف

شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر

الخفاجي المصري

المتوفى سنة ١٠٦٩هـ

ضبطه وقدم له وعلق عليه

محمد عبد القادر عطا

الجزء الخامس

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان
رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد: ١١ ـ ٩٤٢٤ بيروت ـ لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3209-1



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(الباب الرابع) من القسم الثانى
(فى حكم الصلاة عليه والتسليم)

والصلاة أصل معناه الدعاء والعبادة المخصوصة؛ لما فيها من تحريك الصلوين، والمراد بها أن يقال: صلى الله تعالى عليه وسلم، والتسليم مصدر سلم تسليمًا، ككلمه تكليمًا، إذا انقاد له وسلم أمره إليه، (**وفرض ذلك**)، أى وجوبها على أمته فى أى مقام، (**وفضيلته**)، أى فضيلة ما ذكر من الصلاة والتسليم، وليس الضمير للتسليم فقط، والمراد بفضيلته ما هو أعم من الوجوب، فيشمل الندب والاستحباب.

وقال أبو ذر، رضى الله عنه: ابتداء مشروعية الصلاة عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان فى السنة الخامسة من الهجرة، وقيل: كان الابتداء بمكة؛ لأنه ورد فى حديث الإسراء، وما قاله أبو ذر، رضى الله عنه، هو ابتداء إظهاره للناس، وهذا مما خص به صلى الله تعالى عليه وسلم دون الأنبياء، عليهم السلام، كلهم، فإنه لم يشرع ذلك لأممهم، وإن كانت الصلاة والسلام عليهم مشروعة.

(**قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾** [الأحزاب: ٥٦] **الآية**)، صدر بهذه الآية؛ لإثبات مدعاه؛ لأن الأمر محتمل الإيجاب والندب، واعلم أن معنى الصلاة لغة الدعاء، ويطلق شرعًا على العبادة المخصوصة، واختلف هل هى منقولة من المعنى اللغوى لمعنى آخر وضعه الشارع له لمناسبته لمعناه الأصلى؛ لاشتمالها على الدعاء، ولما فيها من تحريك الصلوين، وهما طرفا العجز، أو هى مجاز؛ لاشتمالها على الدعاء؟ والظاهر الأول.

وقال ابن القيم وبعض المتأخرين: إنها باقية على معناها اللغوى ولا نقل فيها ولا

تجوز؛ لأن المصلى فى جميع صلاته فى دعاء وعبادة، غايته أن الشارع خصها بفرد من أفراد الحقيقة كالدابة لذوات الأربع، ورد بأنه كلام من لم يعرف معنى النقل وأهل الشرع إذا استعملوها لا يلاحظون معناها اللغوى ولا ينظرون إليه، وهو كلام غير مهذب، فإن المجاز إذا اشتهر يتناسى فيه المعنى الأصلى ويصير كالعلم بالغلبة، وهو المراد بقولهم: إنه حقيقة عرفية شرعية، فالمآل واحد والخلاف لفظى، وهذه الآية مدنية أخبر الله عباده فيها بشرف منزلته، صلى الله تعالى عليه وسلم، عنده، وأن الله وملائكته يثنون عليه فى الملأ الأعلى، ثم أمر أهل العالم السفلى بأن يفعلوا كفعلهم.

وفى الكشاف: لما نزلت هذه الآية، قال جبريل: ما خصك الله بشرف إلا أشركنا فيه، فنزل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤٣]. قال الحافظ السخاوى: لم أقف على أصله إلى الآن. وقال شيخ مشايخنا ابن حجر الهيتمى: هو موافق لما أخرجه أبو نعيم فى الدلائل فى ترجمة سفيان بن عيينة، أنه سئل عن قوله: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، فقال: أكرم الله أمة محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، فصلى عليهم كما صلى على الأنبياء، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾، وقال لنبيه: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، أى سكينة، فصلى عليهم كما صلى على إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط، وهو والأنبياء مخصوصون منهم، وعم هذه الأمة بالصلاة وأدخلهم فيما أدخل فيه نبيهم، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يدخل فى شىء إلا دخل فيه أمته، ثم تلى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٦] الآية، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾... إلخ، وأشار إلى مزيد خصوصية على أمته بإسناد الصلاة عليهم إليه وإلى ملائكته.

وصلاة الملائكة على الأمة لا تكون إلا بتبعيته، وجمهور القراء على نصب الملائكة عطفا على اسم إن، ويصلون خبر عنهما، وقيل: خبر ملائكته، وخبر الجلالة محذوف لدلالة يصلون عليه، ورجح بتغاير الصلاتين، ورجح الأول أبو حيان.

والجملة اسمية خبرها مضارع؛ لإفادة الاستمرار التجددى، فالملائكة استمرت صلاتهم عليه، وهذه منقبة لم يوجد لغيره أعظم من سجود الملائكة لآدم الذى وقع وانقطع، وقال: ﴿عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، دون محمد أو الرسول، تنويها بقدره صلى الله تعالى عليه وسلم، والنبوة أشرف من الرسالة؛ لأنها اتصال بالله واشتغال به، والرسالة اشتغال بالناس، ثم إنه أكد السلام وخصه بالمؤمنين.

قيل: لأن الصلاة مؤكدة معنى بصدورها من الله وملائكته، فكيف لا تصلى عليه

أمته، أو لأنها مؤكدة بإن، والجملة اسمية، والسلام سواء كان بمعنى الانقياد، أو بمعنى السلامة من الإيذاء، لا يليق إسناده إلى الله والملائكة، ولذا استحق التأكيد لصدور خلافه من جنسهم، ولا يرد عليه قوله تعالى: ﴿**سلام على إبراهيم**﴾ [الصافات: ١٠٩]، وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، كما أورد السخاوى؛ لأنه تحية وإكرام، وبقى هنا كلام بيناه فى رسالة مستقلة.

ثم شرع فى بيان معنى الصلاة، فقال: (**قال ابن عباس: معناه**)، أى معنى الصلاة، وذكره لتأويله بالدعاء، أو لأن تأنيث المصادر غير معتبر، وهذا رواه ابن جرير وابن أبى حاتم (**أن الله وملائكته يباركون على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، أى يدعون له بزيادة بركة لائقة بمقامه وشرف قدره، وسيأتى فيه كلام، وأصل معنى البركة النمو وزيادة الخير اللازم.

(**وقيل**) فى معناه: أنه بمعنى (**إن الله يترحم على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، أى يدعو له بالرحمة، وفى القاموس: رحمت عليه وترحمت، والأولى الفصحى، وهو رد على من قال: ترحمت عليه لحن، كما نقله الصاغانى، ورد بأنه ورد فى الحديث، وتأتى الإشارة إليه أيضا، (**وملائكته يدعون له**)، ولم يبين الدعاء لتفسيره بقوله: (**قال المبرد: وأصل**) معنى (**الصلاة، الترحم**)، أى الإنعام أو الدعاء بالرحمة، ومعنى الدعاء من الله إرادته أو التبشير به؛ لأن معناه الحقيقى لا يتصور فى حق الله تعالى، فأريد به لازمه وغايته، ولذا فسره بقوله: (**فهى من الله رحمة**)، أى إنعامه أو إرادته، (**ومن الملائكة رقة**)، أى شفقة عليه ومحبة، (**واستدعاء للرحمة من الله**) له، أى طلبها والدعاء بها.

(**وقد ورد فى الحديث**) الذى رواه الشيخان، عن أبى هريرة: (**صفة صلاة الملائكة على من جلس ينتظر الصلاة**) فى المسجد (**اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، فهذا دعاء**) لهم بالمغفرة والرحمة، وقد صرح بهذا فى حق الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧]، وفى قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

وقد بينا وجه الدعاء بخصوص الاستغفار فيما يأتى فى فصل المواطن، ولفظ الحديث فى مسلم: «لا يزال العبد فى صلاة ما كان فى مصلاه ينتظر الصلاة، والملائكة تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه»، حتى ينصرف أو يحدث[1].

---

(١) أخرجه البخارى (١/٥٥)، ومسلم (٦٤٩/٢٧٢)، وأبو داود (٤٧١)، وأحمد (٢/٤١٥، ٣/٩٥، ٥/٤٥٣)، وابن خزيمة (٣٦٠)، وأبو عوانة (٢/٢٣).

(وقال) الإمام **(أبو بكر القشيرى: الصلاة من الله تعالى لمن دون النبى)**، أى لمن منزلته دون منزلته من الأمة **(رحمة)**، أى طلب أن يرحمه الله، وأما النبى فمرحوم بإعلاء أنواع الرحمة، فهو غير محتاج لأن يدعى له بها. وفى فتاوى الصوفية: لو قال: اللهم ارحم محمدًا كما رحمت أو ترحمت على إبراهيم، قال الصفار: إنه مكروه فى حق الأنبياء والرسل. وحكى عن محمد أنه كان يكرهه، ويقول: فيه ظن نوع تقصير بهم، فإنه لا يستحق الرحمة إلا من أتى بما يلايم عليه، وقد أمرنا بتعظيم الأنبياء وتوقيرهم، فإذا ذكر النبى لا يقال: رحمه الله، بل: صلى الله تعالى عليه وسلم، بل لا يقال للصحابة: رحمه الله، بل: رضى الله عنهم، وكذا قال جواهر زاده وصاحب المحيط والظهيرية، وأنا أقول: اللهم ارحم محمدًا وآل محمد، جائز متوارث، وكان الشيخ الزاهد الرستغفنى يقول: معنى ارحم محمدًا، ارحم أمة محمد، والترحم لأمته لآله كما يقال لمن يراد عقابه، وله أب حاضر يتوجع لابنه: ارحم هذا الشيخ الكبير، وهو لم يجن و لم يؤاخذ كما فى جامع المضمرات. وقال الزيلعى: الصحيح أنه لا يكره؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم لمن أشوق الناس إلى رحمة ربه. انتهى.

(وللنبى صلى الله تعالى عليه وسلم تشريف وزيادة مكرمة) بميم فى أوله وراء مضمومة، وفى نسخة: تكرمة، بتاء بدل الميم وراء مكسورة، وهما مصدران، وظاهره أن معنى الصلاة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم غير الرحمة، وإنما هى فى حقه بمعنى التشريف والتعظيم اللائق به، وقد علمت ما فيه، وأنه ورد الدعاء له بالرحمة، ولكن استحبوا الدعاء له بلفظ الصلاة تأدبًا وفرقا بينه وبين غيره.

(وقال أبو العالية: صلاة الله عليه) صلى الله تعالى عليه وسلم **(ثناؤه عليه)** بمدحه وبيان منزلته عنده **(عند الملائكة)**، أى بحيث يطلعون على ذلك، **(وصلاة الملائكة الدعاء له)** كما مر.

(قال القاضى أبو الفضل) عياض مصنف هذا الكتاب: **(وقد فرق النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث تعليم الصلاة عليه بين لفظ الصلاة ولفظ البركة، فدل)** تفريقه بينهما بعطف أحدهما على الآخر على **(أنهما بمعنيين)** متغايرين، وحديث تعليمهم الصلاة سيأتى بيانه وبيان طرقه، ومراده أن بعضهم فسر الصلاة بالبركة، وهذا الحديث يدل على خلافه، وكونه عطف تفسير خلاف الظاهر، والفرق بينهما أن الصلاة كما تقدم معناها الرحمة، والبركة كما قال الراغب أصلها من البرك، وهو صدر البعير، ومنه برك البعير، إذا ألقى بركه، واعتبر فيها معنى اللزوم، ولذا سمى مجلس الماء بركة، فالبركة ثبوت الخير الإلهى فى الشىء، والمبارك ما فيه ذلك الشىء، ولما كان الخير الإلهى

يصدر من حيث لا يحس وعلى وجه لا يحصر، قيل لكل ما يشهد منه زيادة غير محسوسة: مباركة، وفيه بركة، وكل ما ذكر فيه مبارك تنبيه على اختصاصه تعالى بالخيرات المذكورة معه، فمعنى صل وبارك على محمد، ارحمه وآدم خيراتك التى لا تحصى عليه، ثم إن إطلاق الصلاة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى غيره، فهى على أنبيائه ثناء وتعظيم، وعلى غيرهم رحمة من رحمته التى وسعت كل شىء. وقال الغزالى: لفظ الصلاة مشترك فى الاعتناء بالمصلى عليه.

ثم لما فسر الصلاة وذكر الأقوال فيها ذكر تفسير السلام الذى هو قرينها، فقال: (**وأما التسليم الذى أمر الله تعالى به عباده**) فى قوله: وسلموا تسليما، (**فقال القاضى أبو بكر بن بكير:**) بالتصغير، وهو أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن بكير التميمى المالكى البغدادى الفقيه الثقة صاحب التآليف الجليلة التى منها أحكام القرآن، وهو عراقى من أقران ابن الجهم، وقيل: اسمه أحمد بن محمد بن بكير، وقيل: محمد بن بكير، لا غير، فبكير أبوه أو جده (**نزلت هذه الآية**)، يعنى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ﴾ [الأحزاب: ٥٦] إلخ (**على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأمر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أصحابه أن يسلموا عليه**) امتثالا لأمر الله لهم، (**وكذلك من بعدهم أمروا أن يسلموا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عند حضورهم قبره، وعند ذكره**) فى سائر مجالسهم، كما سيأتى بيانه، وهذا مبنى على أن الأمر العام النازل عليه صلى الله تعالى عليه وسلم هل يختص بالموجودين أو يعمهم ومن بعدهم؟ وهو خطاب المشافهة، والكلام عليه مبسوط فى كتب الأصول وعلى الأول إذا قام دليل أو قياس جلى على شموله لمن بعدهم يعمل به، وما نحن فيه من هذا القبيل.

(**وفى معنى السلام عليه**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**ثلاثة أوجه**)، وفى نسخة: ثلاثة وجوه، باستعمال جمع القلة للكثرة، وهو جائز شائع فى كلامهم.

(**أحدها**): أنه بمعنى (**السلامة**) من النقائص والآفات ثابتة (**لك ومعك**)، أى مصاحبة وملازمة لك، (**ويكون**) على هذا التفسير (**السلام مصدرا**) بمعنى السلامة، (**كاللذاذ واللذاذة**)، بمعنى التلذذ باللذة فمعناهما واحد بتاء ودونها، ومثله كثير كالملام والملامة، والمقال والمقالة، ولما فى السلام من الثناء عدى بعلى، لا لأنه بمعنى القضاء، والمعنى قضى الله عليك السلام كما قيل؛ لأن القضاء كالدعاء لا يتعدى بعلى للنفع، ولا لتضمنه معنى الولاية والاستيلاء؛ لأنه وجه آخر ذكره بقوله:

(**الثانى: أى السلام مداوم على حفظك ورعايتك**)، أى إكرامك وعنايته بك

ومراقبتك، **(ومتول له)**، أى قائم به بحيث لا يكل أمرك لغيره، **(وكفيل بـه)**، أى متكفـل ملتزم له، **(أو يكون هنا)**، أى فى هذا الوجه **(السلام اسم الله تعالى)**، ومعناه ذو السلامة، وليس فى أسماء الله مصدر غيره.

(الثالث) من الأوجه **(أن السلام بمعنى المسالمة له والانقياد)**، عطـف تفسـير، فالمسـالمة التسليم وعدم المخالفة كما قال الله تعالى: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ**﴾ قسم جوابـه ﴿**لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [النساء: ٦٥]، أى لا يظهر إيمانهم ولا يكمل ﴿**حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ**﴾، أى يفوضون الحكـم إليـك ﴿**فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾، أى وقـع بينـهم مـن المنازعـات والدعـاوى، ﴿**ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا**﴾، أى ضيقـا لعـدم رضـاهم ﴿**مِّمَّا قَضَيْتَ**﴾ حكمـت بـه عليهم، ﴿**وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾، أى يذعنون وينقادون لأمرك منشرحة صدورهم لقبوله.

قال الراغب: السلام والسلامة التعرى مـن الآفـات الظـاهرة والباطنـة، والسـلام مـن أسمائه لسلامته وتنزهه عما لا يليق به. انتهى.

وقال: الخطاب صيغته خبر معناها الدعاء، والطلب ومثله يحتاج للنية إلا إذا شاع فيـه عرفا، فإنه لا يحتاج للنية. انتهى. ومعناه من الله فى صلى الله تعالى عليه وسلم على محمد ونحوه، فإنه لا يتصور فى حقه الطلب من غيره إذ هو المطلوب من أنه يريد من نفسه لـه الخير والسلامة والعزة حتى ينقاد الناس كلهم له، فبين الطالب والمطلوب تغاير اعتبارى، ومثله يكفى فى هذا المقام، وقد أفرد السلام بتأليف نفيس السيد السـمهودى، وقفـت عليه وفيه أمور يضيق المقام عنها، وفى الشرح الجديد هنـا كـلام غـير محرر، رأينـا تـرك التعرض له أولى.

وفى الأذكار للنووى أنه يكره إفراد الصلاة عن السلام فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويأتى فيه كلام، وهذه الآية الأخيرة نزلت فى حق من خاصم الزبـير فـى سـقاية الماء، وسيأتى الكلام عليه إن شاء الله تعالى.

* * *

(فصل) [حكم الصلاة على النبى ﷺ]

(اعلم أن الصلاة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فرض فى الجملـة) أى إجمـالا من غير تعيين زمان أو محل **(غير محدد)** بحاء ودال مشددة مهملتين، أى غير معين، وأصله ما له حدود، فاستعمل فى لازم معناه **(بوقت)** من الأوقات المعلومة، واستدل على مطلق الوجوب بقوله: **(لأمر الله)**، وأصل الأمر الوجوب **(بالصلاة عليه)** بقولـه: ﴿**صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٥٦]، **(وحمل الأئمـة)** مـن السـلف **(والعلمـاء)** مـن أهـل

التفسير **(له على الوجوب)**، أى على أنه أمر إيجاب لا ندب أى فسره بأن المراد منه ذلك، يقال: حملت كلامه على كذا إذا فسرته به، **(وأجمعوا عليه)**، أى على أنه للوجوب من غير تعيين محل أو زمان، والآية تدل على ذلك عند الجمهور؛ لأنه الأصل فى الأمر، وحقيقته عند الأكثر، وتقريره فى كتب الأصول ومستند الإجماع هذه الآية.

وما عضد من الأحاديث لا الآية فقط، حتى يقال: إنه ينافيه ما حكاه عقبة، من قوله: **(وحكى أبو جعفر الطبرى)**، هو الإمام محمد بن جرير، وقد تقدم بيانه، **(أن يحمل الآية)**، أى المراد منها وما فيها من الأمر، **(عنده)**، أى عند أبى جعفر، **(على الندب)**، وفيه تقدير، أى تبعا لغيره، وإلا فلا معنى لحكايته ما عنده، ويدل على المقدر قوله: **(وادعى فيه)**، أى فى أن الأمر فيها للندب، **(الإجماع)**، وفى قوله: ادعى، إشارة إلى أن ما قاله ممنوع عنده؛ لثبوت خلافه عنده، ثم وفق بينه وبين ما ذكره قبله، فقال: **(ولعله)**، أى ما ادعاه، **(فيما زاد على مرة)** واحدة فى العمر، فإنه لا خلاف فى عدم وجوبه على كل أحد، **(والواجب منه)** مبتدأ خبره مرة الآتى، **(الذى يسقط به الحرج)**، أى التضييق على الناس لو وجب دائما أو كلما ذكر، أو الإثم، فإن الحرج ورد بهذين المعنيين كما صرحوا به، **(ومأثم ترك الفرض)**، أى يسقط به الإثم عمن تركه إذا كان فرضا.

والمأثم بالمثلثة مصدر ميمى بمعنى الإثم مضاف لترك المضاف للفرض بمعنى الواجب **(مرة)** مرفوع على الخبرية **(كالشهادة له بالنبوة)** والرسالة، فإنها واجبة فى العمر مرة، فإذا سقط الوجوب بمرة يتحقق فى ضمنها ماهية المأمور به، فالصلاة بالطريق الأولى، وهو أحد المذاهب والصلاة كما يأتى بيانه، **(وما عدا ذلك)**، أى المرة الواحدة فى الصلاة والشهادة **(فمندوب مرغب فيه)** بكثرة ثوابه وفوائده **(من سنن الإسلام وشعائر أهله)**، أى دأبهم الذى هو علامة لهم، وهو لغة بمعنى العلامة وله معان أخر، وهو جواب عما اعترض به على ابن جرير مما خالف الإجماع الذى حكاه المصنف، رحمه الله، وليس مذهب مالك كما نقله بعض الشراح، وما نقله المصنف صرح به ابن عبد البر من غير عزو له لمذهب وهو ظاهر.

(وقال القاضى أبو الحسن بن القصار): بقاف وصاد مشددة وراء مهملتين، وهو على ابن عمر بن أحمد الفقيه الثقة، له كتاب فى الخلاف كثير الفوائد لم يصنف فى بابه أحسن منه، وفى بعض النسخ: الصفار، بصاد مهملة بعدها فاء مشددة وألف وراء. قال التلمسانى: والأول هو المعتمد وهو من أئمة المالكية منسوب لصنعة قصار الثياب، وهى تبييضها، والثانى لبيع الصفر وهو النحاس **(المشهور عن أصحابنا)**، يعنى المالكية **(أن ذلك)**، أى الصلاة على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(واجب فى الجملة)**، أى

إجمالاً ومطلقًا من غير تعيين وقت له **(على الإنسان وفرض عليه)**، إشارة إلى أن الواجب والفرض عنده بمعنى كالشافعية خلافًا للحنفية **(أن يأتى به مرة من دهره)**، أى فى مدة عمره؛ لخروجه بذلك عن عهدته **(مع القدرة على ذلك)**، أى شرط فى وجوبه مرة فى عمره أن يقدر على التكلم به، فلو عجز عنه لمانع منعه من التلفظ به سقط عنده كسائر الواجبات، كمن اخترمته المنية.

وقوله: لا ينافى ما تقدم من الإجماع؛ لأنه لا مفهوم له، وقصده أنه مع الإجماع مما اشتهر بين الأئمة أيضًا، أو هو إشارة لما نقله عن الطبرى، وإن كان عنده لا ينافى الإجماع؛ لكونه واهيًا أو مؤولاً كما تقدم، ولم يتعرضوا لحكم السلام عنده، وما نقله عن الخطاب من متأخرى المالكية، عن الرصاع، أن الذى يظهر أن السلام عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، واجب مرة مثل الصلاة عليه، والزائد مستحب لقول ابن عباس، رضى الله عنهما: فريضة من الله علينا أن نصلى على نبينا، ونسلم تسليمًا. وما نقل عن مشايخ المغاربة من التوقف فى وجوبه، لا أصل له، والحق أن حكمه حكم الصلاة. انتهى.

(وقال القاضى أبو بكر بن بكير): وتقدمت ترجمته **(افترض الله تعالى عز وجل)**، افترض وفرض بمعنى، وفيه زيادة تأكيد لزيادة بنيته **(على خلقه)** جميعًا **(أن يصلوا على نبيه ويسلموا تسليما)** كما مر، نقله عن ابن عباس من فرض الصلاة والسلام، وينبغى ذكره مع مصدره المؤكد امتثالاً للمأمور، **(ولم يجعل ذلك)** الافتراض **(لوقت معلوم)**، واللام فيه للتوقيت والظرفية، كما يقال: كتبته لستة عشر، مثلاً **(فالواجب)** على الخلق **(أن يكثر المرء)**، أى الرجل، والمراد به الإنسان ولو امرأة تغليبًا **(منها)**، أى من الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ولا يغفل عنها)**، أى يتركها ويشغل عنها بغيرها.

وفى كلامه شىء؛ لأنه بصدد بيان وجوبها مرة، وكونه يكثر منها ولا يغفل عنها مناف له؛ لاقتضائه مرات كثيرة، فإن أراد أنه إن فعلها فى وقت ما يكررها مرارًا فى ذلك الوقت، فإيجاب مثله غير ظاهر مما نقله قبله، فإن كان قولاً آخر، فسياقه لا يساعده، وأما الاعتراض عليه بأنه أمر مطلق لا تعرض فيه لعدم تعين وقتها، فلا معنى له، وفى بعض الشروح قول ثالث أنه يجب الإكثار منها مطلقًا من غير تعيين مقدار ووقت، وهو كلام حسن.

(وقال القاضى أبو محمد بن نصر المالكى): وهو القاضى عبد الوهاب بن نصر بن أحمد بن حسين، وقيل: ابن الحسن بن أحمد بن هارون بن مالك، أدركه الشيرازى، وسمع منه

فى النظر، وكان فقيهًا، شاعرًا، أديبًا، له شعر كثير، وكتب كثيرة فى كل فن، وارتحل فى آخر عمره لمصر، فحصلت له ثروة، وتوفى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة (**الصلاة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم واجبة فى الجملة**)، أى من غير تعيين مقدار ولا زمان ولا غيره.

(**قال القاضى أبو عبد الله محمد بن سعيد**): قيل: هو محمد بن سعيد بن بشر بن شرحبيل الفقيه، كتب فى حداثته للقاضى مصعب بن عمران، ثم رحل إلى المشرق، فلقى مالكًا، رضى الله تعالى عنه، فقرأ عليه، ثم انصرف للأندلس، والتزم ضيعة بباجة إلى أن توفى سنة ثمان وتسعين ومائة، كما قاله القاضى فى المدارك (**ذهب مالك وأصحابه وغيرهم وأهل العلم إلى أن الصلاة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فرض بالجملة**)، أى إجمالاً من غير تعيين مقدار ووقت (**بعقد الإيمان**)، أصل معنى العقد ربط أطراف الشىء كعقد الحبل، وعقد الإيمان والأيمان بفتح الهمزة وكسرها بمعنى تصميمها واعتقادها يقينًا، فقوله: بعقد الإيمان، وهو بكسر الهمزة والباء سببية، أو بمعنى بعد، أى هى أول ما يفرض بعد الإيمان بالله ورسوله (**لا يتعين فى الصلاة**)، أى ليس وجوبًا مخصوصًا وموقتًا بها، (**وأن من صلى عليه مرة واحدة من عمره**) ومدة حياته إلى موته، (**سقط الفرض عنه**)؛ لخروجه عن عهدته.

قيل: حاصل ما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، عنه غير ما نقله عن الطبرى، ولم يرتضه قولان، الأول: أنها فرض فى الجملة تسقط بمرة، والثانى: أنه يجب الإكثار منها من غير تعيين، وقد تقدم ما فيه، والفرق بين القول: بأنها تجب مرة، والقول: بأنها تجب فى الجملة مطلقًا، أنَّ ما زاد على المرة فى القول الأول يقع نفلاً، وعلى الثانى يقع الكل فرضًا، ويثاب عليه ثواب الفرض.

قيل: وهو التحقيق، ونظيره ما قاله الشافعى، رحمه الله، فى مسح الرأس: أنه يجب مسحها مطلقًا، فلو مسح شعرة يحصل الفرض، ولو مسح الجميع وقع فرضًا، وبقى أقوال غير ما ذكره المصنف منها أنها تجب فى كل مجلس مرة فى جلسته، وهل هى فرض كفاية على أهل المجلس، فلو صلى واحد كفى على الجميع أو فرض عين، ومنها أنها تجب كلما ذكر. وقيل: كلما ذكر أو سمع.

ونقلا عن الطحاوى وبعض الحنفية والشافعية للحديث الآتى: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علىَّ»[1]، وقيل: إنه مبنى على أن الأمر يفيد التكرار، وهو

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٥٤)، والترمذى (٣٥٤٥)، والحاكم (١/٥٤٩)، والبغوى فى شرح السنة=

ضعيف. وقيل عليه: إنه يلزمه شغل المرء عن غيرها من العبادة، وأنه يقتضى وجوب ذلك على المصلى وقارئ القرآن والمتشهد، ويلزمه التسلسل، وفيه مشقة على الناس، و لم ينقل مثله عن أحد من الصحابة والتابعين، ولو كان كذلك وجب الثناء على الله كلما ذكر بالطريق الأولى، و لم يقله أحد، وأجيب بأنه منقول عن الأئمة الأجلة، وأنه مخصوص بما لم يكن فى الصلاة ونحوها، والحرج فيه غير مسلم، وأنا نلتزم وجوب الثناء على الله أيضًا، أو نقول بالفرق بينهما بأنه تعالى غنى مطلق، وعظمته غير متوقفة على ذكرها، وأن هذا حق العبد وذاك حق الله، وهو مبنى على المسامحة دون المشاحة، والقول بأنه حق الله أيضًا لأمره به ناشئ من عدم فهم المراد بحق الله.

(**وقال أصحاب الشافعى: الفرض منها الذى أمر الله به**) فى الآية المذكورة أولاً (و) أمر به (**رسوله، عليه الصلاة والسلام**)، كما سيأتى بيانه (**هو فى الصلاة**)، أى هو عقب التشهد، قبل التحلل، وسيأتى تفصيله وذكر الأحاديث التى استدل بها الشافعى وأصحابه كما صرح به فى الأم. وقول القرافى فى الذخيرة: إنه استدل بالإجماع، مردود بأنه صرح بخلافه، ولا إجماع على وجوبها.

(**وقالوا**): أى أصحاب الشافعى (**وأما فى غيرها**)، أى غير الصلاة وهو خارجها، (**فلا خلاف**) فى (**أنها غير واجبة**)، المراد أنه لا خلاف عند الشافعى وأصحابه، وإلا فقد تقدم القول بوجوبها، وتقدير إلا مرة واحدة كما مر لا يجدى نفعًا إلا أن نفى الخلاف بناء على المشهورة عندهم، وفى الشرح الجديد ما نقله المصنف عن الشافعية غير صحيح، فإن المفتى به عندهم أن الصلاة واجبة فى الخطبة الأولى والثانية للمجمعة؛ لأنه لم ينقل عن الخلفاء الراشدين تركها فيهما، ووافقه أحمد وهما إماما السنة. وقال الشافعى أيضًا بوجوبها فى صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثانية، كما سيأتى، ووافقه أحمد وأتباعه أيضًا، ورووا فيه أحاديث صححوها.

(**وأما فى الصلاة**)، أى حكمها فيها، (**فحكى الإمامان أبو جعفر**) يعنى محمد بن جرير، وقد تقدمت ترجمته (**الطبرى والطحاوى**) أحمد بن محمد بن سلامة كما تقدم بيانه، وهما ممن قال بعدم وجوبها فى الصلاة (**وغيرهما**) من الأئمة (**إجماع**) جميع (**المتقدمين والمتأخرين من علماء الأمة على أن الصلاة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى التشهد**)، الأول والأخير منها (**غير واجبة، وشذ الشافعى**)، أى أتى بقول شاذ انفرد به عن جمع أئمة الدين، و لم يقل به أحد قبله و لم يوافقه عليه أحد (**فى ذلك**)، أى

= (١٩٨/٣)، والشجرى فى أماليه (١٢٩/١).

بقوله بوجوبها فى تشهد الصلاة الأخير، **(فقال: من لم يصل على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، من بعد التشهد الأخير قبل السلام فصلاته فاسدة)**؛ لأنها ركن من أركان الصلاة، فتفسد بتركها فى التشهد الأخير فقط، **(وإن صلى عليه)** صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قبل ذلك)**، أى قبل التشهد الأخير.

وقوله فيه: أشهد أن محمدًا رسول الله، **(لم تجزه)** صلاته، أى لم تصح، ولم يسقط عنه الفرض، فتجب عليه إعادة صلاته، **(ولا سلف له فى هذا القول)** بوجوبها فى التشهد الأخير، أى لم يقل به أحد من السلف، **(ولا سنة يتبعها)**، أى لم يثبت فى السنة والأحاديث النبوية ما يكون دليلاً على ما قاله الإمام الشافعى، **(وقد بالغ فى إنكار هذه المسألة عليه لمخالفته فيها من تقدمه)** من الأئمة والسلف **(جماعة، وشنعوا عليه الخلاف فيها)**، مفعول شنعوا بمعنى قبحوا، أى عدوا ما قاله أمرًا قبيحًا وقولاً مبتدعًا منه، **(منهم)** محمد بن جرير **(الطبرى و)** الإمام **(القشيرى)**، قيل: المراد به أبو ناصر ابن صاحب الرسالة، أو أبو بكر بن العلاء القشيرى المالكى، وأما الإمام القشيرى صاحب الرسالة، فهو شافعى لم ينكر عليه شيئًا مما ذكر، **(وغير واحد)**، أى ناس كثيرون من الفقهاء والعلماء.

(وقال أبو بكر بن المنذر:) بصيغة اسم الفاعل، وهو الإمام الأوحد أبو بكر محمد بن إبراهيم النيسابورى الثقة الحجة إمام عصره وشيخ الحرم، توفى بمكة سنة تسع أو عشرة وثلاثمائة، **(يستحب أن لا يصلى أحد صلاة)** ما فرضا كانت أو نفلاً أو جنازة **(إلا صلى فيها على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** بعد التشهد وبعد التكبيرة الثانية، **(فإن ترك ذلك تارك)**، أى واحد كان فى أى صلاة كانت، **(فصلاته مجزئة)**، أى صحيحة، وإن كان الأفضل عدم الترك **(فى مذهب مالك وأهل المدينة)**، أى علماؤها، وهو من عطف العام على الخاص.

(وسفيان) الثورى صرح به؛ لأنه مجتهد صاحب مذهب، **(وأهل الكوفة)**، أى علماؤها **(من أصحاب الرأى)**، المراد بالرأى القياس فى عرف الفقهاء، والمالكية والشافعية يريدون بهذه العبارة أتباع أبى حنيفة، ويقابلهم أهل الحديث لاقتصارهم فى العمل عليه **(وغيرهم)** من العلماء، **(وهو قول جل أهل العلم)**، الجل بضم الجيم المعظم والأكثر من كل شىء.

(وحكى عن مالك وسفيان) الثورى **(أنها فى التشهد الأخير مستحبة)** لا واجبة، وخص الأخير لأنه محل الخلاف، **(وأن تاركها فى التشهد)** الأخير **(مسىء)** غير محسن

لارتكابه أمرا مكروها قصده، **(وشذ الشافعى)**، أى انفرد بهذه المقالة المخالفة عن غيره من الأئمة، **(فأوجب على تاركها فى الصلاة الإعادة)** لتركه ركنا به يتم سواء تركها عمدا أو سهوا، **(وأوجب إسحاق)** بن إبراهيم بن مخلد، وهو الإمام الجليل أبو يعقوب ابن راهويه عالم خراسان ومحدثها، توفى وسنه سبع وتسعون سنة فى شعبان سنة ثمان وثلاثين ومائتين **(الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان وحكى)** الشيخ **(أبو محمد بن أبى زيد)** هو صاحب الرسالة المشهورة وهو من أئمة المالكية **(عن محمد بن المواز:)** بفتح الميم والواو المشددة وآخره زاء معجمة، وهو الإمام محمد بن إبراهيم ومن أجل الأئمة فى مذهب مالك وعليه المعول فيه، وهو إسكندرانى تفقه بابن الماجشون وابن عبد الحكم الآتى، واعتمد على إصبغ، وتوفى ببعض حصون الشام، اختفى به وقد هرب فى فتنة، ووفاته سنة إحدى وثمانين ومائتين **(أن الصلاة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فريضة)**، ولم يبين لوجوبها وقتا ولا غيره.

(قال أبو محمد:) هو ابن أبى زيد، المار ذكره قريبا، فى تفسير كلام ابن المواز، **(يريد: ليست من فرائض الصلاة)**، بل إنها فرض فى الجملة، كما تقدم، وسيأتى ما يخالفه.

(وقاله محمد بن عبد الحكم وغيره)، هو أبو عبد الله محمد بن عبد الحكم المصرى صاحب الإمام الشافعى، لم يكن فى عصره أجل منه ولا أعرف بأقوال الصحابة والتابعين، ولد سنة اثنين وثمانين ومائة، وتوفى لليلة خلت من ذى القعدة سنة ثمان أو تسع وستين ومائتين، وأخرج له النسائى.

(وحكى ابن القصار وعبد الوهاب) من أئمة المالكية **(أن محمد بن المواز يراها فريضة فى الصلاة كقول الشافعى)**، وقد نقل الأسنوى أيضا أن للشافعى قولا آخر غير ما اشتهر عنه أنها سنة فى الصلاة لا ركنا واجبا.

وقال ابن عبد السلام المالكى: هو ظاهر كلام ابن المواز وصححه ابن الحاجب فى مختصره الفرعى وابن العربى فى سراج المريدين.

(وقد حكى أبو يعلى العبدى المالكى عن المذهب)، أى مذهب الإمام مالك، رحمه الله، **(فيها)**، أى فى الصلاة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم **(ثلاثة أقوال فى الصلاة)**، الأول: **(الوجوب، و)** الثانى: **(السنة، و)** الثالث: **(الندب)** جريا على اصطلاحهم فى التفرد بين السنة والندب.

(وقد خالف) الإمام **(الخطابى من أصحاب الشافعى وغيره الشافعى فى هذه المسألة، قال الخطابى: وليست بواجبة فى الصلاة، وهو قول جماعة الفقهاء إلا الشافعى)**، فإنه

ذهب لوجوبها فيها، **(ولا أعلم له فيها قدوة)**، أى ما يقتدى به من الأئمة والسلف، وسيأتى رد هذا.

(والدليل على أنها ليست من فروض الصلاة)، كما قال الشافعى **(عمل السلف الصالح قبل الإمام الشافعى)** من الصحابة والتابعين، وهذا لا وجه له، كما سيأتى بيانه، **(وإجماعهم عليه)** سيأتى أيضا، أنه لا إجماع فيه، **(وقد شنع الناس عليه فى هذه المسألة جدا)**، أى قبحوه وأنكروه، أى تشنيعا كثيرا اجتهدوا وجدوا فيه جدا، ثم بين وجه الإنكار بقوله: **(وهذا تشهد ابن مسعود)**، جعله لشهرته كمحسوس حاضر عنده، يشير إليه **(الذى اختاره الشافعى)**، رحمه الله تعالى، أى رجحه على غيره، فإن التشهد له طرق مختلفة، **(وهو الذى علمه له النبى، صلى الله تعالى عليه سلم، ليس فيه الصلاة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وما قاله مردود أيضا، فإنه إنما اختار تشهد ابن عباس الذى فيه زيادة لفظ المباركات؛ لموافقته لقوله تعالى ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١]، لتأخره عن تعليم ابن مسعود كما قاله البيهقى، رحمه الله تعالى.

(وكذلك)، أى مثله فى عدم ذكر الصلاة عليه فيه، **(كل من روى التشهد عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** من الصحابة الذين علمهم التشهد، **(كأبى هريرة، وابن عباس، وجابر، وابن عمر، وأبى سعيد الخدرى، وأبى موسى الأشعرى، وعبد الله بن الزبير)**، كلهم **(لم يذكروا فيه)**، أى فى تشهدهم الذى تعملوه، **(صلاة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** هذا أعظم ما تمسك به المصنف فى رده لما ذكر، لما يلزم من عدم ذكرهم، أنه لم يأمرهم به، وهو مردود أيضا؛ لأن تعلمهم ذلك كان فى ابتداء الهجرة قبل نزول الآية، والأمر بها فى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، الآية، فلذا لم يأمرهم، صلى الله تعالى عليه وسلم، بما لم يؤمر به، فلما نزلت أمرهم، وهذا مصرح به فى الحديث وسيأتى نقله مفصلا بطرقه.

(وقد قال ابن عباس وجابر) فى حديث رواه مسلم **(:كان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن)**، فيقرأه عليهم ويأمرهم بتلقنه بألفاظه وحفظه، فكيف يترك ما هو مذكور فيه، وقد عرفت جوابه.

(ونحوه)، أى مثل ما ذكر **(عن أبى سعيد)** الخدرى كما رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه.

(وقال ابن عمر: كان أبو بكر يعلمنا التشهد على المنبر)، وهو يخطب عليه فى خلافته، **(كما تعلمون الصبيان فى الكتاب)**، بضم الكاف وتشديد المثناة الفوقية، وهو

اسم للمحل الذى فيه الصبيان منقول من جمع كاتب، فهو تسمية للمحل باسم الحال فيه، وقد ورد بهذا المعنى فى كلامهم كما ذكره الزمخشرى فى الأساس وغيره، ولا عبرة بمن أنكره أو قال إنه مولد، والصواب المكتب، **(وعلمه)**، أى التشهد **(أيضًا على المنبر عمر بن الخطاب)** كما علمه عليه أبو بكر فى خلافته، يعنى بذلك شهرته بحيث لا يخفى على أحد ولا يترك. ولا دليل له فيه؛ لأن ما علم على المنبر لم ينقل و لم يذكر بدون ذكر الصلاة، حتى يتم له ما ادعاه.

ثم أشار إلى الجواب عن بعض ما استدل به الشافعية، فقال: **(وفى الحديث)** الذى رواه ابن ماجه والحاكم فى مستدركه والطبرانى والدارقطنى والبيهقى، وفى بعض ألفاظه اختلاف ما: **(لا صلاة لمن لم يصل علىَّ)** بالتشديد، وروى: «لمن لم يصل على نبيه»، وهو بظاهره دليل للشافعى على أن الصلاة لا تصح بدونها.

(قال ابن القصار: معناه)، المراد منه، **(كاملة)** الأجر، وهو صرف للنفى عن المتبادر منه من نفى الصحة إلى نفى الكمال، فتصح وإن لم تكمل، وهذا مبنى على قاعدة أصولية، وهى أن النفى إذا دخل على شىء ليس بمنفى، هل يقدر الصحة، أو الكمال؟ فقال الشافعى: الأرجح تقدير الصحة؛ لأنه أقرب إلى نفى ذات الشىء. وقال غيره: يقدر الكمال، وقد بينه البيضاوى فى شرح المصابيح فى حديث: «إنما الأعمال بالنيات»(١).

(أو لمن لم يصل علىَّ مرة فى عمره)، وهو تحكم وترجيح بلا مرجح، وسيأتى تفصيله، ثم بين ما فيه بحسب الرواية، بقوله: **(وضعف أهل الحديث كلهم رواية هذا الحديث)**؛ لأنه كما قاله الإمام الخيضرى، فى كتاب اللواء المعلم من حديث عبد المهيمن ابن عبائل، عن أبيه، عن جده، وعبد المهيمن ليس بحجة، وروى من طريق أخرى لم يثبت. انتهى.

(وفى حديث أبى جعفر) محمد الباقر بن زين العابدين، **(عن ابن مسعود، عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: من صلى صلاة لم يصل علىَّ فيها وعلى أهل بيتى لم تقبل منه)**، وهذا يفيد أن الصلاة على الآل فى التشهد الأخير واجبة كالصلاة عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيه، وفيها قولان للشافعى، والصحيح فى المذهب أنها غير واجبة، وأما فى التشهد الأول فمن قال: إنها واجبة فى الأخير، قال باستحبابها، ومما ينسب للشافعى، رضى الله عنه، فى ذلك:

---

(١) تقدم تخريجه.

يا أهل بيت رسول الله حبكم فرض من الله فى القرآن أنزله
كفاكم من عظيم القدر أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له

فيحتمل لا صلاة له صحيحة، فيكون موافقًا لقوله بوجوب الصلاة على الآل، ويحتمل لا صلاة له كاملة، فيوافق أظهر قوليه.

(**قال الدارقطنى: الصواب أنه من قول أبى جعفر بن محمد**) الباقر بن زين العابدين (**ابن على بن الحسين**) بن على بن أبى طالب (**لو صليت صلاة لم أصل فيها على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولا على أهل بيته لرأيت أنها لا تتم**)، وهذا يوافق ما قاله الإمام الشافعى، ففيه تأييد له دون ما قاله المصنف.

واعلم أن الإمام الخيضرى صنف فى هذه المسألة كتابًا سماه زهر الرياض فى رد ما شنعه القاضى عياض، طالعته بتمامه، وقد قال فيه: ما قصدت به تنقيص مقداره، فإنه طراز هذه العصابة، وتلخيصه أن الإمام الشافعى، رضى الله تعالى عنه، قال فى الأم: فرض الله تعالى عز وجل الصلاة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٦] الآية، فلم يكن فرض الصلاة عليه فى موضع أولى منه فى الصلاة، ووجدنا الدلالة بما وصفت عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم ساق بإسناده إلى أبى هريرة، أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلى عليك؟ يعنى فى الصلاة، قال: «تقولون: اللهم صل على محمد...» إلى آخره، وساق بسنده أيضًا إلى كعب بن عجرة عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه كان يقول فى الصلاة: «اللهم صل على محمد...» إلى آخره.

فلما روى أنه كان يعلمهم التشهد فى الصلاة، وأنه علمهم كيف يصلون عليه فيها، لم يجز أن يقول: التشهد واجب والصلاة غير واجبة، والخبر فيهما عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فعلى كل مسلم وجبت عليه الفرائض أن يتعلم التشهد والصلاة عليه، فمن صلى و لم يتشهد و لم يصل عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، فعليه إعادتها. انتهى.

ثم ذكر ما قاله المصنف، رحمه الله، وقال: هذا قول لا ينبغى الاعتماد عليه، ولا الاستناد إليه، ولقد عجبت منه، كيف أقدم على هذه المقالة الشنيعة؟ وتجاسر على الإتيان بهذه العبارة الوضيعة؟ وهى مقولة غير صحيحة ينادى مدعيها على نفسه بفضيحة، وأى فضيحة، وسترى حججًا بالغة، وسننًا متنوعة، وثمار براهين لا مقطوعة ولا ممنوعة، فمن الأدلة على وجوبها فى التشهد الأخير، الآية المذكورة؛ لاتفاقهم على أن الأمر المطلق يقتضى الوجوب، ما لم يقم الدليل على خلافه، والله قد أمر عباده

بالصلاة والتسليم عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، وثبت أن الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، سألوه عن كيفية هذه الصلاة المأمور بها، فقال: «قولوا: اللهم صل على محمد...» إلى آخره، والسلام الذى علموه هو السلام فى الصلاة والتشهد، فمخرج الأمرين والتعليمين والمحلين واحد، ويوضحه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما علمهم التشهد علمهم التسليم فيه، فقالوا: كيف الصلاة عليك المأمور بها؟ فقال: «اللهم صل...» إلى آخره، وهما فى الصلاة فى ظاهر الحال، ويؤيده أنه لو كان خارج الصلاة كان كل من دخل عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقول له: السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته كما علموه، وكذا كل من واجهه بالصلاة عليه بهذه الألفاظ بتمامها.

والمنقول أنهم كانوا يقولون فى تحية: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، أو نبى الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ونحوه، فما تعلموه زائد على التحية فى الصلاة، فخرج هذا مخرج البيان لما فى القرآن، وظهر وجه دلالة الآية عليه، وأورد عليه أن قول الصحابة: قد عرفنا السلام عليك، فكيف الصلاة؟ يحتمل أنه يراد به السلام فى الخروج من الصلاة كما قاله ابن عبد البر، والدليل إذا طرقه الاحتمال بطل به الاستدلال، وأن غاية ما ذكرتم دلالة اقتران الصلاة بالسلام على الوجوب فى الصلاة، ودلالة الاقتران ضعيفة، وهذا إنما يتم إذا سلم وجوب السلام، وهو غير مسلم، وأجيب بأن الأول فاسد يرده لفظ الحديث، وقولهم: هذا السلام عليك، لا السلام فقط حتى يكون المراد السلام من الصلاة، والسائل لم يستدل باقترانه، وإنما استدل بالأمر بها فى الآية، وبهذا سقط ما بعده.

والدليل الثانى من السنة ما فى البخارى مسندًا: قال عبد الرحمن بن أبى ليلى: لقينى كعب بن عجرة، فقال: ألا أهدى لك هدية؟ إن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، خرج علينا، فقلنا: يا رسول الله، قد علمتنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلى عليك؟ فقال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد»[1]، وأخرجه مسلم وغيره من طرق ساقها، وأصحاب السنن.

فإن قلت: قد علمنا من الأحاديث صفة الصلاة لكنها مطلقة لم تقيد بالصلاة. **قلت:** علم هذا من إطباق العلماء والمحدثين من غير نكير على أن المراد بها فى الصلاة، ولذا

(١) تقدم تخريجه.

وردت مذكورة فى التشهد فى كتبهم دون باب الأدعية، ولا نكتفى بهذا، بل نقول: ورد التصريح بذلك فى الحديث أيضًا فيما رواه أحمد فى مسنده من طريقين، عن ابن إسحاق، قال: حدث فى الصلاة على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا المرء المسلم صلى عليه فى صلاته... وساقه إلى آخره.

والعجب من المصنف، رحمه الله تعالى، أنه قال فى شرح مسلم فى سؤالهم عن الصلاة: يحتمل أنه فى غير الصلاة وفى الصلاة، والأظهر الثانى؛ لقوله: «والسلام كما علمتم»، انتهى، فسبحان الله كيف ينكر بعد هذا على الشافعى؟ وهذا من زيادة الثقة، فهى مقبولة، وقد رواها الشافعى فى مسنده، فدعاه ذلك إلى حمل الآية عليها.

فإن قلت: بعد تخصيصه بالصلاة: ليس فى الحديث ما يدل على الوجوب.

قلت: الوجوب معلوم من قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «صلوا كما رأيتمونى أصلى»، ولا يلزمه وجوب ما فى صلاته من السنن لقيام دليل من خارج على عدم وجوبها، ثم ذكر أحاديث أخر عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، صريحة فيما ذكر رواها بمعنى ما تقدم أى ما سبق.

ومن الأدلة الآتية ما فى مسند أحمد الآتى فى كلام المصنف، رحمه الله تعالى، أيضًا أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، سمع رجلاً يدعو فى صلاته، فلم يحمد الله تعالى فى صلاته، ولم يصل عليه، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «عجل هذا»، ثم دعاه، فقال له أو لغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميده والثناء عليه، ثم يصلى على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم يدعو بما شاء»(١)، وهو حديث صحيح أخرجه الترمذى والحاكم وابن حبان، وقال: إنه على شرط الشيخين.

فإن قلت: إن هذا يدل على عدم الوجوب؛ لأنه لم يأمر بإعادة الصلاة، وقد يقال أيضًا: إن هذا الدعاء كان خارج الصلاة؛ لأن الترمذى روى هذا الحديث فى جامعه، عن فضالة بن عبيد: بينا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قاعد، إذ دخل عليه رجل فصلى، وقال: اللهم اغفر لى وارحمنى، فقال له: «عجلت أيها المصلى، إذا صليت فقعدت، فاحمد الله تعالى بما هو أهله، وصل علىَّ، ثم ادع»(٢)، وفى رواية: «بما تحب».

قلت: إنه كان غير عالم بوجوبها، فلم يأمره بالإعادة، ويحتمل أنه أعادها، أو أنها

(١) أخرجه أبو داود (١٤٨١)، والترمذى (٣٤٧٧)، وأحمد (٦/١٨)، وابن حبان (٥١٠)، وابن خزيمة (٧١٠)، والحاكم (١/٢٣٠)، والبيهقى (٢/١٤٨).

(٢) أخرجه الترمذى (٣٤٧٦)، والنسائى (٣/٤٤)، والطبرانى (١٨/٣٠٨).

نفل لا تجب إعادتها، وما ذكر من الحديث رواية غير ثقات، فهو ضعيف لا يصلح لمعارضة الحديث الآخر مع قوته ورواته على شرط الشيخين، وقد ورد التصريح بأنه يتشهد ويصلى على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعده فى الصلاة. ثم أورد على قول المصنف أنه، أى الشافعى، لا سلف له فيما قاله أنه قال به جماعة من الصحابة والتابعين، منهم عبد الله بن مسعود روى حديث التشهد، وروى عنه أنه كان يراها واجبة فى الصلاة، وأبو مسعود البدرى، روى عنه مرفوعًا وموقوفًا، ومنهم ابنه عبد الله ابن عمر أبو جعفر محمد بن على بن الحسين، والشعبى كما نقله البيهقى، ومقاتل بن حيان، ومحمد بن كعب القرظى كما نقله الماوردى، وإسحاق بن راهويه كما نقله المصنف، وأحمد بن حنبل فى رواية عنه.

ومن العجائب أن المصنف أنكر على الشافعى ما ذكر، وقال فى شرح مسلم، ما نصه: «حكى بعض البغداديين عن مذهب مالك فى المسألة ثلاثة أقوال: الوجوب، والسنة، والفضيلة، وحمل بعضهم كلام ابن المواز على الوجوب فى الصلاة، كمذهب الشافعى، وكلامه محتمل للوجوب على الجملة»، ونقله أيضًا فى كتابه هذا، وعبارة ابن القصار فى كتابه عيون الأدلة، وهو من أجل كتبهم بعدما نقل ما سيأتى من أدلة المخالفين فى فرضيتها فى الصلاة وجه ما نقل عن ابن المواز ما استدل به القائلون بالوجوب، فتكون الجلسة الأخيرة للتسليم عليه، وأن الصلاة لما تضمنت ذكر الله وتمجيده كما فى فاتحة الكتاب، وجب أن يذكر فيها الصلاة والسلام على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم حتى لا تخلو الصلاة عن ذكره مع الله كما فى الأذان والإقامة، فذكر وجهه يدل على أنه مال إليه.

وقال ابن العربى فى أحكام القرآن: إن الصحيح ما قاله ابن المواز، فتعينت كيفية ووقتا كما بيناه فى مسائل الخلاف. انتهى، وهو إمام مشهور من أئمتهم، وكذا ذكره ابن الحاجب فى منهاجه، وشارحه ابن عبد السلام، فظهر منه أنه قول راجح فى مذهبهم، وأنه ذهب إليه كثير من السلف، فنسبته إلى الشذوذ خطأ ظاهر مع ما يناقضه من كلامه هنا، وإذا نقل هذا عن الصحابى و لم يصرح غيره بخلافه يصير إجماعًا سكوتيًا، وحكمه مفصل فى الأصول.

وعمل الناس على الصلاة عليه بعد التشهد وتعليمها للصبيان، فكيف يدعى خلافه؟ أما أدلة المخالفين للشافعى كأبى حنيفة وأتباعه ومالك فى أحد قوليه، وإليه ذهب بعض الشافعية، كابن المنذر والخطابى والقشيرى والطبرى، كما نقله المصنف، رحمه الله تعالى، ولهم أدلة وحديث التشهد المروى عن نحو أربعة وعشرين من الصحابة، وليس فى رواية

منه ذكر الصلاة، ثم سردها ورواتها وفصلها تفصيلاً لم يسبق إليه، ثم قال: والجواب عنه وجوه.

منها: أنه لم يقل: إنه جميع الواجب فى الجلسة الأخيرة، فإيجاب الصلاة فيها بدليل آخر لا ينافيه:

ومنها: أنكم قلتم بوجوب السلام ولم يأمرهم به فى هذا التشهد، فيلزمكم عدم وجوبه، وقد أوجبتموه فما كان جوابكم فهو جوابنا؛ لثبوته بدليل آخر، وأيضًا التشهد ثبت بتعليمه، وكذا الصلاة، فأى فرق بينهما، وقد بينا أنه مخصوص بالصلاة كالسلام.

ومنها: أن أحاديث التشهد لو كانت نافية للوجوب كان الوجوب مقدمًا عليها؛ لأن النافى مستصحب للأصل من عدم الوجوب، والموجب ناقل، وهو مقدم على المستصحب لزيادة علمه، فكيف إذا لم يعارضه رأسًا؟ ورد أيضًا بأن التشهد فرض حين فرضت الصلاة، وفرضت الصلاة عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، حين نزلت آية الأحزاب بعد تخييره أزواجه، فالتشهد كان تعليمه قبل فرضها، فلا يضر عدم ذكره فى تلك الرواية، فلذا قالوا له صلى الله تعالى عليه وسلم: قد عرفنا السلام، فكيف نصلى عليك؟.

فإن قلت: فما تقول فى الحديث الصحيح المروى الذى فيه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ بيد ابن مسعود وعلمه التشهد، إلى قوله: أشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ثم قال: فإذا قلت هذا، فقد قضيت صلاتك إن شئت أن تقوم فقم، وإن شئت أن تقعد فاقعد، فإنه يدل على أن الصلاة عليه فيها ليست بواجبة ولا سنة، كما قاله ابن عبد البر فى التمهيد.

قلت: هذا مطعون فيه، وقد قال الدارقطنى فى العلل: إنه من زيادة زهير مدرجة فى الحديث، وصله بكلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وليس منه، وتتبع طرق الحديث شاهدة لما قالوه، وأيضًا إنه يحتمل أيضًا أنه قبل إيجاب الصلاة عليه، وأيضًا هو ورد نفيًا لما كانوا يقولون: السلام على الله، فقال لهم: لا تقولوا هذا، فإن الله هو السلام، ولكن قولوا كذا مع سائر ما علمتم وجوبه، ولذا لم يتعرض لذكر السلام مع وجوبه مع أن المستدل بهذا أصحاب أبى حنيفة القائلين بأن التشهد ليس بواجب، وإنما الواجب الجلوس بمقداره، فلو تم هذا كان دليلاً عليهم لا لهم؛ لتعليقه تمام الصلاة على التشهد، وهم لا يقولون به، فيطلب المعارضة به، ولا يصح أن يقال: المراد تمام الاستحباب؛ لأنه موقوف عليها عندهم، انتهى زبدة ما ذكره الإمام الخيضرى مما يهمنا هنا.

وقد بالغ الشافعية فى الرد على المصنف، رحمه الله تعالى، وتخطئته فيما قاله كما سمعته حتى قال بعضهم: هذا المشنع إنما هو يشنع على نفسه لا على الشافعى، إذ لم يخالف كتابًا، ولا سُنة، ولا إجماعًا، ولا مصلحة راجحة، بل تمسك بأدلة واضحة تامة، وعد ذلك من محاسن مذهبه، ولم ينفرد بذلك.

قال بعض المحققين: ولو سلم تفرده بذلك لكان حبذا التفرد. انتهى.

وقال شيخنا ابن قاسم: قلت: وأى محذور فى تفرد ابن إدريس؟ وأى حاجة إلى موافقة غيره له؟ انتهى.

ولكن إذا أمعنت النظر علمت أنه ناقل لما قاله الطحاوى ومن تبعه، وما على الناقل إلا تصحيح نقله، وما على الرسول إلا البلاغ، ففيما قالوه أيضًا تحامل عليه، لكن الجزاء من جنس العمل، وهذا من لباب الألباب الذى لا تجده فى غير هذا الكتاب، وهاهنا بحث ذكره الإسنوى فى التمهيد، وهو أن الأمر بعد سؤال التعليم كالأمر بعد الاستئذان أو بعد التحريم يفيد الإباحة عند الشافعية، والوجوب عند أبى حنيفة، فلا يستقيم استدلالهم على وجوب الصلاة عليه بقوله: قولوا: اللهم صل... إلى آخره، بعد قولهم: كيف نصلى عليك؟ إلا أن يقال: استفيد الوجوب من أمر خارجى، فيكون الأمر للوجوب؛ لأنه بيان لكيفية بيان واجب. انتهى، وفيه نظر.

* * *

(فصل فى المواطن) [التى يستحب فيها الصلاة على النبى ﷺ ويُرغب]

أى الأماكن، فهو من قبيل المستقر؛ لأن معناه مكان التوطن والإقامة **(التى يستحب)** ويسن **(فيها الصلاة والسلام على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويرغب)** بالبناء للمفعول وتشديد المعجمة من الترغيب ويجوز تخفيفها، وهو عطف تفسير، والرغبة بمعرفة ما فيه من الفوائد والثواب **(من ذلك)** المستحب المرغب فيه **(فى تشهد الصلاة)**، وهو الثناء على الله فى الجلسة فيها، وسمى تشهدًا باسم جزئه، وهو قوله **(فيها: أشهد أن لا إله إلا الله... إلخ)**، وأطلقه ليشمل الأول والأخير، فإنه مستحب فى الأول واجب فى الأخير كما تقدم تفصيله **(كما قدمناه)** فى الفصل الذى قبله.

(وذلك)، أى موطنه ومحله المعلوم مما قبله **(بعد التشهد)**، أى قوله: أشهد أن محمدًا رسول الله، **(وقبل الدعاء)** المأثور فى كتب الفقه أو بما شاء.

(حدثنا القاضى أبو على) هو ابن سكرة شيخه كما تقدم **(بقراءتى عليه)** لا بغيره من طرق الإجازة قال: **(حدثنا الإمام أبو القاسم البلخى)** نسبة لبلخ مدينة معروفة، قال:

(حدثنا الفارسي)، تقدمت ترجمته، **(عن أبى القاسم الخزاعى، عن أبى الهيثم ابن كليب، عن أبى عيسى الحافظ)**، هو الترمذى صاحب الشمائل والسنن، وقد تقدم قال: **(حدثنا محمود بن غيلان)** أبو أحمد الحافظ المروزى، أخرج له أصحاب السنن، وتوفى سنة تسع وعشرين ومائتين، قال: **(حدثنا عبد الله بن يزيد المقرى)**، وفى نسخة: زيد، بدون ياء، والصواب الأول، وهو المعروف بالقصير البصرى نزيل مكة ومولى آل عمر بن الخطاب، وهو حافظ ثقة روى عن أبى حنيفة وغيره، وتوفى سنة ثلاث عشرة ومائتين، **(عن حيوة بن شريح)** تقدم بيانه، وحيوة على خلاف القياس فى الأعلام وقياسه حية.

قال: **(حدثنى أبو هانىء الخولانى)** اسمه حميد بن هانىء، وهانىء بهمزة فى آخره يجوز إبدالها ياء، وقال البرهان: إنه أحمد بن هلال وهو ثقة، توفى سنة اثنين وأربعين ومائتين **(أن عمر بن مالك الجنبى)**، وفى نسخة عمرو بواو، وهى الصواب وهو أبو على الجنبى بفتح الجيم ثم نون ساكنة وباء موحدة نسبة لجنب بطن من مذحج، وهو مصرى ثقة وذكره فى الميزان توفى سنة اثنين أو ثلاث ومائة **(أخبره أنه سمع فضالة)** بضم الفاء وفتح الضاد المعجمة ولام وهاء تأنيث **(ابن عبيد)** بالتصغير بن فاقد بن قيس الأنصارى الأوسى أبو محمد الصحابى، ولى قضاء دمشق، وتوفى سنة ثلاث وخمسين ومائة، وأخرج له أحمد وغيره **(يقول: سمع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رجلاً يدعو فى صلاته)** بعد التشهد فى الجلسة الأخيرة، **(فلم يصل على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** بعد تشهده، **(فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: عجل هذا)**، بفتح العين وكسر الجيم، أى أسرع بدعائه، وأتى به فى غير محله قبل أن يصلى عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأن الدعاء معلق حتى يصلى عليه كما يأتى.

فإن من سأل حاجة، لابد له أن يقدم وسيلة توصل لقضاء حاجته، **(ثم دعاه)**، أى طلب ذلك الرجل وقربه إليه، **(فقال له أو لغيره)**، أو وجه خطابه لغيره وهو يسمع، وهو المراد بالإعلام، وفى نسخة ولغيره بالواو **(إذا صلى أحدكم فليبدأ)**، بالهمز، أى يقدم على دعاءه ليقبل **(بتحمد الله والثناء عليه)** عطف تفسير لبيان أن المراد ما يفيد المدح والثناء لا خصوص الحمد، والمراد قوله: التحيات... إلخ، وفى كيفيته روايات مختلفة بلغت نحو ثلاثة عشر كما فصل فى محله، **(ثم ليصل على ثم ليدع)** بلام مكسورة أو ساكنة للأمر **(بعد بما شاء)** من الخير، والدعاء بالمأثور أفضل.

(ويروى من غير هذا السند) الذى رواه المصنف عن الترمذى، ورواه أبو داود **(بتمجيد الله)**، بميم وجيم ودال مهملة، ومعناه التعظيم ومعناهما متقارب، والرواية الثانية لابن ماجه بسند آخر، **(وهو أصح)** رواية لقوة سنده لا من حيث المعنى، وإن قيل: إنه

أمدح، وفيه نظر، وإنما يتم استدلال المصنف، رحمه الله، بـه إن كـان فـى الصـلاة، وقـد استدل به الشافعى على وجوبها فيها كما مر، وقد نوزع فيه، فإنه ورد من طريـق آخـر تقدمت قريبًا: بينا رسول الله صلـى الله تعـالى عليـه وسـلم قـاعدًا إذا دخـل عليـه رجـل فصلى، وقال اللهم اغفرلى وارحمنى فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم، له: «عجلت أيها المصلى إذا صليت فقعدت، فاحمد الله بما هو أهله وصل على، ثم ادع»[1]، وظاهر قوله: فقعدت أنه كان بعد الصلاة، فلا يدل على مدعاه.

أقول: قد أجاب الخيضرى عنه بأجوبة حاصله أنه ليس نصًا فيما ذكـرت، لأن المراد بالقعود الجلسة الأخيرة فى التشهد، وقـد ورد التصريـح بـه فـى روايـة أخـرى، فـاندفع الإيراد.

(وعن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه)، كما رواه الترمذى **(قـال: الدعـاء والصـلاة)** عطف تفسير، والمراد به العبادة المخصوصة، إلا أنه قيل: إن هذا اللفظ، أى الصلاة، ليس مذكورًا فى الترمذى، وهو المشهور **(معلق)** كل منهما، أى موقوف قبوله، فهو استعارة أو حقيقة؛ لأن الملائكة لا تصعد به **(بـين السـماء والأرض لا يصعـد إلى الله منـه شـىء)**؛ لعدم رضاه برفعه إليه **(حتى يصلى عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم)**؛ لأن أعمال المؤمنين تكتب وترفع إلى السماء إذا قبلت، وقبولها متوقف علـى الصـلاة عليـه؛ لأنـه هـو الـذى هدانا وأرشـدنا إلى الله، وهـو وسـيلتنا إليـه، وقـد فسر قولـه تعـالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ٤٠] بـهذا، والرفـع والصعـود مـن صفـات الأجسـام، فـالمراد رفـع صحفها، وقيل: إنها تجسم ولا مانع منه.

(وعن على) بن أبى طالب، رواه عنه البيهقى وابن عساكر وغيره، **(عن النبـى، صلـى الله تعالى عليه وسلم، بمعناه)**، أى بمعنى حديث عمـر، إلا أنـه زاد فيـه عـن عائشـة، عـن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وقال: وعلى آل محمد)**، فلابد من الصلاة علـى الآل مع الصلاة عليه، وهذا هو الأكمل، ووجوبها تقدم الكلام عليه.

(وروى) رواه عبد الرزاق والطـبرانى بسـند صحيـح، **(عـن ابـن مسـعود، أن الدعـاء محجوب)** عن السماء، فلا تفتح له ويلزمه أنه لا يقبل، ويجوز أن يكـون تمثيـلاً واستعارة لعدم القبول، **(حتى يصلى الداعى على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وليس فى هذا دليل على وجوبه فى الصلاة إذ القبول ليس من شرائط الصحة، ومن ادعاه فقد تبرع بما لا يملكه ولا يقبل، ولو عد المصنف هذا موطنًا مستقلاً كان أولى كما فعله غـيره، لكنـه

---

(١) تقدم تخريجه.

أدرجه فى التشهد؛ لأنه محل الدعاء أيضًا.

(وعن ابن مسعود) فى حديث صحيح مسند: **(إذا أراد أحدكم أن يسأل الله شيئًا فليبدأ بمدحه والثناء عليه)**، كما أرشدنا لذلك فى سورة الفاتحة. قال ابن برحان فى تفسيره: إذا قيل لك: إن أحدًا أحيى ميتًا بقراءة الفاتحة، فلا ينكره وليقرأها ملاحظًا للثناء عليه وحمده؛ لأنه المنعم بجميع النعم الدنيوية والأخروية، جليلها ودقيقها، كما أشار إليه بقوله: بسم الله الرحمن الرحيم... إلخ، ثم يلاحظ عظمته وجلاله المشير إليه بقوله: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، ثم يخضع غاية الخضوع كما يشير إليه قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ثم يفوض أموره إليه لقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ثم يسأله حاجته لقوله: ﴿ٱهْدِنَا﴾ إلخ، ولذلك سميت سورة تعليم الدعاء.

(بما هو أهله)، أى بما يستحقه ويليق به، **(ثم يصلى على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**؛ ليستشفع بأقرب مخلوقاته وأحبهم إليه، فإنه الوسيلة العظمى، **(فإنه)**، أى دعاه بهذه الكيفية **(أجدر)**، أى أحق وأليق **(أن ينجح)** بضم أوله مبنى للفاعل من أنجح، إذا فاز وبلغ مقصوده ومطلوبه، وهذا الحديث رواه عبد الرزاق والطبرانى وابن أبى الدنيا بسند صحيح، فيقدم صلاته على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويختم بها ويوسطها فى دعائه كما قال الخيضرى، ويدل له ما يأتى، فكلما أكثر من صلاته عليه صلى الله تعالى عليه وسلم تحقق الإجابة.

(وعن جابر) بن عبد الله فيما رواه البزار وأبو يعلى والبيهقى فى شعب الإيمان، **(قال: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: لا تجعلونى كقدح الراكب)**، قيل: وما قدحه يا رسول الله؟ قال: **(فإن الراكب)**، أى من يريد ركوب راحلته لسفر ونحوه، **(يملأ قدحه)**، وهو إناء صغير من خشب يشرب به ونحوه، **(ثم يضعه)** عنده، **(ويرفع متاعه)** الذى يريد حمله على راحلته، **(فإن احتاج إلى شراب)**، أى شرب ماء **(شربه)**، أى شرب ماء قدحه الذى وضعه فيه، **(أو الوضوء)** من ماء قدحه **(توضأ)** بالهمزة، ويجوز إبدالها ألفًا، **(وإلا)**، أى وإن لم يكن محتاجًا لشرب أو وضوء **(هراقه)** بتقدير مضاف، أى هراق ماءه، أى صبه على الأرض لاستغنائه عنه، وأصل هراقه أراقه، فأبدلت همزته هاء، وقد يجمع بينهما، فيقال: أهراقه، وتفصيله فى كتب العربية، قال ابن الأثير وغيره: معناه لا تؤخرونى إذا صليتم علىَّ فى الذكر، وتجعلوا ذكرى تبعًا لغيره، بل اعتنوا به فقدموه واذكروه فى وسطه واختموا به.

كما أشار إليه بقوله: **(ولكن اجعلونى)**، أى اجعلوا ذكرى فى الصلاة علىَّ، **(فى أول**

الدعاء وأوسطه وآخره)، ففيه تشبيه تمثيلى بليغ؛ لتأخر ذكره عن دعائه، كما أن من يريد الركوب لراحلته يبدأ بمتاعه، فيحمله ويجمع ماله، وقدحه موضوع على الأرض، ثم ينظر لقدحه، فيأخذ ما فيه، أو يريقه، وهذا كقول حسان، رضى الله عنه، فى هجائه[1]:

وأنت زنيم نيط فى آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

والراكب يجعل القدح خلفه، وفى هذا الحديث زيادة على ما قبله بجعله أولاً ووسطًا وآخرًا.

(**وقال ابن عطاء**) أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل الآدمى، وهو من أجل مشايخ الصوفية، توفى سنة تسعة وثلاثمائة: (**للدعاء أركان**)، أى أمور مهمة لابد منها، شبهت بأركان البناء، ومنه أركان الصلاة عند الفقهاء، (**وأجنحة**) جناح الطير كاليد للإنسان يحصل بها ما يريد، وفيه استعارة تخييلية ومكنية، شبه ما هو مقدمة لقبوله ورفعه إلى السماء بالأجنحة للطائر، (**وأسباب**)، أى وسائل للوصول للمطلوب والفوز به، (**وأوقات**) مخصوصة يكون فيها أسرع إجابة كأوقات الصلاة، (**فإن وافق أركانه**)، أى قارنها وكانت تامة، (**قوى**)، أى كمل وتم كما يتقوى البناء والبدن بأركانه، (**وإن وافق أجنحته**) بأن كان له أجنحة كاملة، (**طار فى السماء**)، أى صعد إليها وقيل كما مر، (**وإن وافق مواقيته**)، جمع ميقات بمعنى الوقت، أى إن وقع فى أوقاته، (**فاز**)، أى بالإجابة وحصلها، (**وإن وافق أسبابه أنجح**)، أى تم وكمل نجاحه وسعادته.

ثم بين ذلك، فقال: (**فأركانه حضور القلب**)، أى توجهه توجهًا تامًا بجميع فكره وحواسه، (**والرقة**)، أى رقة القلب، وفسرها بقوله: (**والاستكانة**)، أى الخضوع والانقياد، (**والخشوع**) بالمذلة والخوف وعدم رفع الصوت والبصر، (**وتعلق القلب بالله**)، بقطع النظر عما سواه، (**وقطعه الأسباب**)، بأن لا يرجو غيره كما فى الدعاء المأثور: اللهم اقذف قلبى رجاك، واقطع رجائى عما سواك، (**وأجنحته الصدق**) بأن يوقن بأنه لا معطى ولا مانع غيره. وفى الحديث: «الصدق يهدى إلى البر»[2]، فالصدق معناه خلوص النية والطوية، (**ومواقيته الأسحار**)، أى أواخر الليل؛ لأنها محل الإجابة وتجلى الرحمن وقرب عباده منه، وهو أقوى فى التوجه، وفيه تهب نفحات الرحمة ونسمات الخير، كما قال الله تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

---

(١) البيت من الطويل، وهو فى ديوان حسان (ص ١١٨)، لسان العرب (٥٥٦/٢)، تهذيب اللغة (٢٩/١٤)، تاج العروس (٤٣/٧)، الأغانى (١٤٨/٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(وأسبابه) المسرعة لحصول المراد **(الصلاة على محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم)** كما تقدم، وقال: أسبابه، والمراد أسباب إجابته، ففى ذلك إشارة إلى أنه بدون الإجابة كالعدم، وفيه إشارة إلى الحديث: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا فى الثلث الأخير، فيقول: من يدعونى فأستجب له، ومن يسألنى فأعطيه، ومن يستغفرنى فأغفر له»[1]، كما فى الصحيحين، وقد اختلفوا، هل الدعاء أفضل لما فيه من التذلل والافتقار، أو السكوت لما فيه من التسليم والرضا، فذهب إلى كل طائفة، وقيل: إنه يختلف باختلاف الأحوال، وهو الأرجح عند البعض، وفيه كلام ليس هذا محله.

(وفى الحديث)، لم يذكروا من رواه: **(الدعاء)** الواقع **(بين الصلاتين علىَّ)** بأن يصلى عليه صلى الله تعالى عليه وسلم قبله وبعده **(لا يرد)**، أى فيستجاب ذلك الدعاء، فإن الصلاة عليه مقبولة، ومن كرم الله إذا قبل الطرفين لا يترك ما بينهما. وسُئل السنوسى، رحمه الله تعالى، عن القطع بقبول الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، فأجاب بأنه منصوص عن السلف، واستشكله بأنه لو قطع بها للمؤمن المصلى عليه، لقطع له بحسن الخاتمة إذا دعى بها مع الصلاة، وبين الصلاتين عليه، وهى مجهولة لكل أحد، وأجاب بأن معنى القطع بقبولها أنه إذا قضى الله له بخاتمة الإيمان، ووجدت حسنة الصلاة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فهى مقبولة بلا ريب فيها بفضل الله، بخلاف سائر الحسنات، فإنه لا وثوق بقبولها، ويحتمل أنها إذا صدرت على سبيل المحبة من صاحبها يقطع بانتفاعه بها فى الآخرة بوجه ما، ولو بتخفيف العذاب، وفيه نظر.

(وفى حديث كل دعاء محجوب دون السماء) كما مر فى حديث الترمذى، عن عمر، **(فإذا جاءت الصلاة علىَّ)**، أى ذكرت معه، **(صعد الدعاء)** إلى السماء، أى قبل واستجيب، وقد أخرج الديلمى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «الدعاء محجوب حتى يصلى على محمد وأهل بيته».

(وفى دعاء ابن عباس الذى رواه عنه حنش)، بفتح الحاء المهملة والنون وشين معجمة، وهو ابن عبد الله بن عمرو بن حنظلة بن مهد أبو راشد التابعى الصنعانى أحد الداخلين إلى الأندلس فى صدر الإسلام، وله رواية عن على وابن عباس وغيرهما، إلا أن هذا الحديث لم يرو عنه فى الكتب، وروى له غيره، توفى بأفريقية سنة مائة، وقيل: إن قبره بسرقسطه، **(فقال فى آخره)**، أى آخر الدعاء: **(واستجب دعائى، ثم تبدأ بالصلاة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** قبل ما تدعو به، وتقول: أسألك **(أن تصلى على**

---

(١) أخرجه البخارى (٢/٦٦)، ومسلم (٧٥٨/١٦٨)، وأبو داود (١٣١٥، ٤٧٣٣)، والترمذى (٣٤٩٨)، وابن ماجه (١٣٦٦)، وأحمد (٢/٢٨٢)، وأبو عوانة (١/١٤٤)، والبيهقى (٣/٢).

محمد عبدك ورسولك) صلاة من (**أفضل ما صليت على أحد من خلقك أجمعين آمين**)، أى استجب، وهو اسم فعل له.

فإن قلت: هل يحسن أن يقال: صلى على سيدنا محمد؟.

قلت: نعم، ويجوز اتباع المأثور فيه، ولكنه اختلف فى أيهما الأفضل، رعاية الأدب أو امتثال الأمر، فذهب إلى كل من القولين بعض، وقيل: امتثال الأمر عين الأدب وهو الظاهر، ولنا عودة إلى بسط الكلام فيه، وإطلاق السيد عليه صلى الله تعالى عليه وسلم جائز، وكذا على الله، وفيه خلاف ليس هذا محله.

(**ومن مواطن الصلاة عليه**)، وأماكنها عند ذكره وسماع اسمه، (**أو كتابته**) وتقدم القول بأن ذلك واجب كلما ذكر أو سمع، وذكره أعم من أن يكون فى الصلاة، أو عند قراءة القرآن كما ذكره الخيضرى فى كتاب اللواء المعلم، ورواه عن السلف قوله أو كتابته، أى وعند كتابة اسمه، وهل يكتفى بكتابة الصلاة عليه، أو الأفضل أن يتلفظ به؟ تردد فيه بعضهم، والأفضل أن يكتبه ويتلفظ به؛ ليحصل له الثواب الآتى فى حديث: «من صلى علىَّ فى كتاب آه على ما يأتى فيه»[(١)]، وقال بعض الحفاظ: كنت أكتب الحديث فأكتب الصلاة فقط، فرأيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى النوم، فقال لى: «أما تتم الصلاة فى كتابك»، فما كتبت بعد ذلك إلا صليت عليه وسلمت.

(**أو عند الأذان**)، أى بعده، وهو مستحب للمؤذن وسامعه؛ لما رواه مسلم أنه، عليه السلام، قال: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علىَّ، فإنه من صلى علىَّ صلاة، صلى الله عليه بها عشرًا»[(٢)] الحديث. وهل يقتصر على الصلاة، أو يذكر معها السلام لما ذكروه من كراهة الاقتصار عليها مطلقًا للآية السالفة كما صرح به النووى؟ وقال غيره: يقتصر عليها لظاهر حديث مسلم. قال الخيضرى: وتستحب الصلاة عليه أيضًا بعد الإقامة؛ لما رواه الطبرانى فى كتاب الدعاء، عن أبى الدرداء، أنه قال: كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا استمع المؤذن يقيم يقول: «اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمدًا سؤله يوم القيامة»[(٣)]، يسمعها من حوله،

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط كما فى مجمع الزوائد (١/١٣٦)، وقال الهيثمى: «فيه بشر بن عبيد الدارسى، كذبه الأزدى وغيره».

(٢) أخرجه البخارى (١/١٥٩)، ومسلم (١١/٣٨٤)، وأبو داود (٥٢٢)، والترمذى (٣٦١٤)، والنسائى (٢/٢٥)، وأحمد (٣/٦، ٧٨)، وابن خزيمة (٤١٨)، وعبد الرزاق (٨٤٢)، والبيهقى (١/٤٠٨).

(٣) أخرجه البخارى (١/١٥٩، ٦/١٠٨)، وأحمد (٣/٣٠٢، ٣٥٤).

ويجب أن يقولوا مثله، وهذا مما سكتوا عنه. انتهى.

وفيه أن الذى فيه إنما هو استحباب الدعاء عندها لا الصلاة عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وقد قال، صلى الله تعالى عليه وسلم) فى حديث رواه مسلم، عن أبى هريرة: **(رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليَّ)**، فيدخل فيه ما فى هذا الموطن كله؛ لأن الذكر يشمل ذكره وذكر غيره، والكتابة ذكر معنى، وهذا دعاء عليه بأن يذله الله؛ لعدم إعزاز رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا ذكر عنده فلم يصل عليه، ورغم يرغم كسأل يسأل رغمًا، وأرغمه الله أذله، وهو من الرغام بمعنى التراب، فجعل عبارة عما ذكر، ولذا ذكر الأنف الذى من أنف رفعه، ويقال: رفع أنفه إذا تكبر، وهذا الحديث رواه الترمذى، عن أبى هريرة، ولفظه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليَّ، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة»[1]، ورواه الحاكم أيضًا، وقال: هو صحيح الإسناد، وسيأتى الكلام عليه عند ذكر المصنف، رحمه الله تعالى، برمته.

(وكره ابن حبيب)، وهو عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون السلمى، من ولد العباس بن مرداس الصحابى، وقيل: عبد الملك بن سليمان، وهو فقيه، نحوى، طبيب، مفسر، محدث، إلا أنه لم يكن له نقد ونظر تام فى الحديث، توفى سنة ثمان أو تسع وثمانين ومائتين، **(ذكر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، عند الذبح)**، وهو مذهب مالك، وقال غيره: يستحب، وإنما كره؛ لئلا يكون مما أهل به لغير الله، وإلى هذا ذهب الحنفية كما فى المحيط، وخالفهم الشافعى، فقال فى الأم: وتسن التسمية على الذبيحة عند الذبح باسم الله، ولا أكره أن يقول: وصلى الله على رسول الله، بل أحبه.

وقال المزنى: إنها لا تستحب ولا تكره، فهى مباحة. وقال الأوزاعى: تختص ذلك بما إذا كان قربة كالأضحية.

وقال الرافعى: لا يجوز أن يقول: باسم محمد، ولا باسم الله واسم محمد، وذهب بعضهم إلى أن ما ذبح باسم غير الله لا يحل أكله، وكذا ما ذبح للكعبة أو عند قدوم سلطان، وقيل: إن قصد التبرك جاز، ونقل عن ابن حنبل فيه خلاف، وكذا قيل: إنه لا يستحب عند العطاس كما يأتى، وقيل: إنما يكره إذا لم يقصد بعد الحمد الصلاة على

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٥٤)، والترمذى (٣٥٤٥)، والحاكم (١/٥٤٩).

من سنه. وقال الحطاب: الذى تحصل من كلام المالكية أن فى الصلاة على النبى عند الذبح والعطاس قولين، ويكره عند الجماع والحاجة. انتهى.

(**وكره سحنون**)، الفقيه المشهور المالكى، واسمه عبد السلام بن عبد السلام بن سعد ابن حبيب بن حسان التنوخى، وهو بمرتبة من الكمال، فضلاً وزهدًا وسماحة، ولد فى رمضان سنة ستين أو إحدى وستين ومائة، وتوفى لتسع خلون من رجب سنة أربعين ومائتين، وعمره ثمانون سنة كما فى الميزان، وسينه مضمومة ويجوز منع صرفه وفتح سينه أيضًا كما سيأتى، (**الصلاة عليه**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**عند التعجب**) لرؤية أمر عجيب، وهو مذهب مالك، وإليه ذهب الشافعية كما فى الأذكار للنووى. وقال الحليمى، من الشافعية: لا يكره، كسبحان الله؛ لأن التسبيح تنزيه لموجد العجائب، والصلاة عليه؛ لأنه أعظم المخلوقات وأعجبها، والشىء بالشىء يذكر. وقال قاضيخان: لو رأى شيئًا جيدًا، فقال: اللهم صل على محمد؛ لأن قصد الإعلام بجودته كره، والناس يستعملونه نظمًا ونثرًا، قال عرفلة:

أقبل يهتز فى غلالته ... من ليس يشفى لعاشق عمله

فقال كل امرئ تأمله ... ألف صلاة على رسول الله

وقلت فى مطلع قصيدة:

ظبى على الصب حين سلم ... صلى على المصطفى وسلم

(**وقال**) سحنون: (**لا يصلى عليه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**إلا على طريق الاحتساب**)، أى من غير سبب، بل خالصًا لوجه الله وحسبة، (**وطلب الثواب**) لا للتعجب وغيره كما أمرنا الله به تعظيمًا له، وأما عند الضحك ورؤية مستقذر، فقالوا: يخشى عليه الكفر. وقال العينى: لا يؤمر بها عند الغضب خوفًا من أن يحمله الغضب على الكفر، ونقله النووى فى أذكاره عن بعض الشافعية وأقره عليه.

(**وقال أصبغ**)، هو أبو عبد الله بن أصبغ بن فرح بن سعيد بن نافع الأموى، مولى عمر بن عبد العزيز، المصرى، الفقيه الجليل المحدث، روى عنه البخارى وغيره، وتوفى سنة خمس وعشرين ومائتين فى قول: (**عن ابن القاسم**) عبد الرحمن بن القاسم بن خالد ابن جنادة المصرى، إمام الفقه صاحب الإمام مالك، وهو ثقة حجة، توفى سنة إحدى وتسعين ومائة، وارتحل إلى الإمام مالك اثنى عشر مرة، أنفق فى كل مرة ألف دينار: (**موطنان لا يذكر فيهما إلا اسم الله الذبيحة والعطاس، فلا تقل فيهما: محمد رسول الله**)، أى لا تقول فيهما باسم الله وباسم محمد رسول الله؛ لئلا يكون الإهلال فى الذبيحة لغير

الله، والعطاس يدل على قوة الدماغ الدافعة لأذى البخار، فهو نعمة من الله خفية لا يقدر عليها غير الله، فيذكر اسمه شكرًا له على نعمه دون غيره.

قال أصبغ: **(ولو قال بعد ذكر الله)** فيهما: وصلى الله على محمد **(لم يكن)** ذلك **(تسمية له مع الله)**، ولكنه صلاة عليه بنية التقرب إلى الله بالصلاة عليه، فلا يكره.

وعن أبى سعيد الخدرى عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «من عطس فقال: الحمد لله على كل حال، وصلى الله على محمد وعلى أهل بيته أخرج الله عز وجل من منخره الأيسر طائرًا يقول: اللهم اغفر لقائلها»(١) أخرجه الديلمى فى الفردوس بسند لا بأس به، وعطس رجل عند ابن عمر، فحمد الله، فقال له: لقد بخلت هلا حيث حمدت الله صليت على نبيه، ولذا رجح البيهقى استحباب الصلاة عليه عند العطاس، وإليه ذهب جماعة، وقال الآخرون: لا يستحب ولكل موطن ذكر يخصه، واستدلوا بحديث: «لا تذكرونى فى ثلاث مواطن عند العطاس والذبيحة والتعجب»، وروى بعد تسمية الطعام بدل التعجب، أخرجه الديلمى فى مسنده، وفيه من اتهم بالوضع. وقال الخيضرى: يستحب لمن تعجب أن يصلى على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذكره شيخنا. وقال: أخذته من نص الشافعى، رحمه الله تعالى، فى قوله: أحب أن تكثر الصلاة عليه فى كل الحالات، فدخل ذلك فى عمومه، وفيه نظر.

(وقاله أشهب)، أى كما قال أصبغ، وأشهب هو أبو عمر، لقب بمسكين بن عبد العزيز بن داود بن إبراهيم العبسى، ولد سنة أربعين ومائة، وقيل: سنة ست وخمسين، وتوفى سنة ثلاث أو أربع ومائتين، بعد الشافعى بثمانية عشر يومًا، وسنه أربع وستون، وأخرج له أصحاب السنن، وهو أحد فقهاء مصر المالكية، حتى فضل على ابن القاسم.

(قال) أشهب: **(ولا ينبغى أن يجعل الصلاة فيه)**، أى فيما ذكر من الذبيحة والعطاس **(استنانا)**، أى سنة وطريقة؛ لأنه تشريع فيما لم ينقل، وقيل: الاستنان هنا بمعنى الفرح والنشاط واللعب، وقيل: معنى استن جرى فى غير طريق وهو خلاف الظاهر، والذى عليه الشراح الأول، والكلام على ذكر الله والتسمية عند الذبح وأنه سنة أو واجب مفصل فى الفروع.

(وروى النسائى)، وأبو داود، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وصححه، **(عن أوس بن أوس)**، الثقفى الصحابى، ويقال: أوس بن أبى أويس كما فى الاستيعاب **(عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، الأمر بالإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة)** وليلتها؛ لأنه

(١) أخرجه ابن الجوزى فى الموضوعات (٣/٧٥).

أفضل الأوقات، ولما ورد أن الصلاة عليه تعرض عليه فيه، والحديث المذكور طرف من حديث: «أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق الله آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، وأكثروا من الصلاة فيه عليَّ، فإن صلاتكم معروضة عليَّ»، قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت؟ يعنى بليت، فقال: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»(١)، وفيه أحاديث أُخر بمعناه، وهذا أحد مواطن الصلاة عليه.

(ومن مواطن) استحباب **(الصلاة عليه)** صلى الله تعالى عليه وسلم، **(دخول المسجد)**، أى عند إرادة دخوله والخروج منه كما سيصرح به؛ لورود الأمر به فى الحديث.

(وقال أبو إسحاق بن شعبان)، هو محمد بن قاسم المصرى، وقد تقدم بيانه: **(وينبغى لمن دخل المسجد أن يصلى على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى آله)** تبعًا كما مر، **(وأن يترحم عليه وعلى آله)**، أى فيقول: اللهم ارحم محمدًا وآل محمد، وقد تقدم الكلام فى الدعاء له بالرحمة وما فيه، **(ويبارك عليه وعلى آله)**، أى يقول: اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، أى زد البركة وأدمها لهم كما تقدم شرحه، **(ويسلم تسليمًا)**، أى يقول: صل عليه وسلم تسليمًا، فيأتى بالسلام مؤكدًا كما ورد الأمر به فى الآية الكريمة، وتقدم أن النووى كره إفراد الصلاة عن السلام.

(ويقول) بعد الصلاة والسلام، وفى الأذكار تقول: أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وبسلطانه القديم من الشيطان الرجيم، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، **(اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك)**.

وروى النسائى وابن ماجه: «إذا دخل أحدكم المسجد، فليصل على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم ليقل: اللهم افتح لى أبواب رحمتك»، فإذا خرج صلى، وقال: «اللهم إنى أسألك من فضلك»(٢)، وروى: «أجرنى من الشيطان»، وما فى معناه، وفيما ذكره النووى زيادة، وسيأتى للمصنف ذكرها فى آداب المسجد النبوى، قيل: وينبغى ذكر السلام أيضًا، وسيأتى ما يصرح به، وذلك لأن المساجد محل العبادة والثواب والرحمة، والمراد بأبواب الرحمة أنواعها، وفتحها تيسيرها وإعطاؤها، وعبر بالفتح وأبوابها لمناسبته للدخول.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٨)، وأبو داود (١٠٤٧)، وابن ماجه (١٠٨٥)، وابن حبان (٥٥)، والحاكم (٤/٥٦٠)، والطبرانى فى الكبير (١/١٨٦)، والبيهقى (٣/٢٤٩)، وابن أبى شيبة (١٢/٥١٦).

(٢) أخرجه مسلم (٦٨/٧١٣)، وأحمد (٥/٤٢٥)، والدارمى (٢/٢٩٣)، والنسائى (٢/٢٣)، وابن ماجه (٧٧٣).

ففيه من اللطف ما لا يخفى، وكذا فى قوله: **(وإذا خرج)** من المسجد **(فعل مثل ذلك)**، أى يقول ما قاله بعينه، **(وجعل موضع رحمتك فضلك)**؛ لأن من خرج من المسجد يخرج بكسبه ومصالحه ملتمسًا لفضل الله، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وسيأتى بسط الكلام على ذلك، والحديث فى مسلم إلا قوله: «وترحم وبارك».

(وقال عمرو بن دينار)، هو أبو محمد مولى قيس الإمام المكى التابعى، توفى سنة ست وعشرين ومائة، وله ترجمة فى الميزان، **(فى قوله تعالى:** ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] **الآية)**، فهذا أحد المواطن التى تستحب فيها الصلاة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عند دخول المرء منزله، وفى هذه الآية أقوال للمفسرين، فقيل: البيوت المساكن، وقيل: المساجد، كما يأتى، وفى قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ وجهان أيضًا، فقيل: هو على ظاهره، وقيل: المراد به من فيها بجعله كنفسه لاتحاد جنسه وأهله، وقال: تحية من عند الله مباركة طيبة، ومعنى كونها من عنده أنه أمر بها، وكونها مباركة لحصول البركة وسعة الرزق بها وطيبها لذلك وأطيب الأنفس بها.

(فائدة) قال الإمام الخيضرى فى اللواء المعلم: روى أبو موسى المدينى، عن سهل بن سعد، قال: جاء رجل إلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فشكا إليه الفقر وضيق العيش أو المعاش، فقال له رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إذا دخلت منزلك فسلم إن كان فيه أحد أو لم يكن، ثم سلم علىَّ، ثم اقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] مرة واحدة»(١)، ففعل الرجل، فأدر الله عليه الرزق حتى أفاض عليه خيراته.

(قال)، أى ابن دينار: **(إن لم يكن فى البيت أحد)** يسلم عليه، **(فقل: السلام على النبى ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)** من الملائكة وغيرهم، **(السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته)**، كلام المصنف هنا فى استحباب الصلاة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لمن دخل المسجد، وهذا التفسير لا يوافقه؛ لأنه لم يذكر فيه صلاة، وهو مبنى على أن المراد بالبيوت المنازل، فإما أن يقال: ذكره استطرادًا أو تتميمًا لكلام المفسرين فيها، أو يقال: إنه إذا شرع التسليم على أهل كل بيت، فبيت الله وأهله أولى، ولكن حمل التحية على هذا على الصلاة عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مع أنه خلاف الظاهر، لم يقله المفسرون، فإن التحية عندهم على هذا بمعنى السلام على من

---

(١) أخرجه ابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٣/١٤٥).

بالمنزل؛ لما رواه الترمذى من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «إذا دخلت على أهلك فسلم، تكن بركة عليك وعلى أهل بيتك»(١)، كذا قيل، وهو تكلف لا داعى له.

(قال ابن عباس)، رضى الله عنهما، فيما رواه عنه ابن أبى حاتم: **(المراد بالبيوت هنا)**، أى فى هذه الآية **(المساجد)**؛ لأنه ورد إطلاقها عليها حقيقة، فإذا دخلها سن له الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم كما تقدم تفصيله.

(وقال النخعى:)، بفتح المعجمة، نسبة لقبيلة، وهو إبراهيم بن يزيد بن الأسود بن عمرو بن ربيعة، فقيه الكوفة المشهور، توفى سنة خمس أو ست وتسعين، لا الأسود بن يزيد الكوفى كما قيل؛ لأن الأول هو المتبادر لشهرته **(إذا لم يكن فى المسجد أحد)**، ودخلته يا رجل، **(فقل: السلام على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)**، تحية من عند الله مباركة عليه، **(وإذا لم يكن فى البيت أحد، فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)**، وهذا يقتضى استحباب السلام عليه، ولم يذكر معه الصلاة عليه، وهكذا ورد فى الحديث كما تقدم، وقد عدوا من مواطن الصلاة عليه دخول المنزل والمسجد كما علم.

(وعن علقمة) بن قيس أبو شبل الفقيه كما تقدم: **(إذا دخلت)** أنا **(المسجد أقول: السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، صلى الله وملائكته على محمد)** كما تقدم من أنه يسن لداخل المسجد والخارج منه أن يصلى عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى هذا زيادة السلام عليه على الصلاة وتقديمه عليها.

(ونحوه) مروى **(عن كعب)** الأحبار، وقد تقدم بيانه: **(إذا دخل)** المسجد **(وإذا خرج)** منه **(ولم يذكر الصلاة)** على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهى مستحبة أيضًا.

(واحتج ابن شعبان لما ذكره) فيما تقدم من استحباب أن يصلى عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى آله ويترحم عليهم ويبارك ويسلم تسليما، **(بحديث فاطمة)** الذى تقدم، إلا أنه ليس فيه ترحم وتبرك **(بنت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يفعله إذا دخل المسجد، ومثله)**، أى مثل حديث فاطمة وبمعناه روى **(عن أبى بكر بن عمرو بن حزم)**، هو محمد بن عمرو بن حزم، قاضى المدينة وأميرها، ولد قبل وفاة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بسنتين، فسماه، صلى الله تعالى عليه وسلم، محمدًا، وقيل: إنه ولد بنجران، وأبوه عامل عليها من قبله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى سنة عشر من الهجرة، فسماه أبو سليمان، وكتب بذلك إلى رسول الله،

---

(١) أخرجه الترمذى (٢٦٩٨)، وابن عساكر (١٤٦/٣).

صلى الله تعالى عليه وسلم، فأمره أن يسميه محمدًا ويكنيه بعبد الملك ففعل، وتوفى سنة عشرين ومائة، وأخرج له الستة.

(وذكر)، أى ابن حزم **(السلام والرحمة)**، أى الدعاء بهما، **(وقد ذكرنا هذا الحديث)**، يعنى حديث فاطمة الزهراء **(فى آخر القسم)** الثانى من هذا الكتاب، **(و)** ذكرنا **(الاختلاف فى)** بعض **(ألفاظه)**؛ لتعدد طرقه وتغاير بعض ألفاظه.

(ومن مواطنها أيضًا)، أى الصلاة عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، التى تستحب فيها **(الصلاة على الجنائز)**، وهى عند الشافعى من أركانها بعد التكبيرة الثانية، ويقرأ بعد الأولى سورة الفاتحة، ثم يدعو للميت بعد الثالثة كما بينه الفقهاء، وتجزى الفاتحة بعد غير الأولى.

(وعن أبى أمامة)، هو أسعد بن سهل بن حنيف بن واهب بن العليم بن ثعلبة الأنصارى، ولد فى زمنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فكناه وبارك عليه، ولم يسمع منه، وحديثه مرسل، وتوفى سنة مائة، وأخرج له الستة **(أنها من السُنة)**، فتستحب فى صلاة الجنازة عنده، وليست من أركانها، وذهب الشافعى فى أحد قوليه أنها واجبة، واستدل بقول أبى أمامة؛ لأن مراده بالسنة طريقته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيشمل الواجب وغيره، وقول الصحابى ونحوه: من السنة كذا فى حكم المرفوع، واختلفوا فى الصلاة على الآل هنا أيضًا، فقيل: واجبة، وقيل: سُنة، وروى المزنى أنه يحمد الله، ثم يصلى على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ويدعو للمؤمنين والمؤمنات، وقيل: إن التحميد لا يعرف هنا، ويصلى عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عند إدخال الميت قبره أيضًا، فيقول: بسم الله وعلى ملة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما رواه الترمذى وأبو داود، وهذا الحديث رواه الشافعى فى الأم، إلا أن فى سنده ضعفًا كما قاله الخيضرى، ورواه الحاكم والبيهقى وغيرهما، وهذا وجه عند أبى حنيفة وأحمد ومالك.

(ومن مواطنها) مواطن الصلاة التى يستحب فيها **(الصلاة)** عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(التى عليها عمل الأمة ولم تنكرها)** الأمة **(الصلاة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى آله)** تبعًا له، **(فى الرسائل)**، جمع رسالة كعصائب وعصابة بمعنى المفعول، وهو المكتوب الذى يرسل مطلقًا ولا وجه لتخصيصه بما يكتب بين الإخوان كما قيل، **(وما يكتب بعد البسملة)**، أى كتابة: بسم الله الرحمن الرحيم، وهو من باب النحت كالحوقلة والسبحلة، وليس بمولد كما قيل؛ لسماعه من العرب، كما رواه الثقة، وكتابة البسملة سُنة فى الكتب المقررة فى القرآن والسنة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠]، وتقدم على غيرها، وذكر سليمان إنما هو عنوان للكتاب لا فاتحة له كما ذكره المفسرون.

(**ولم يكن هذا**)، أى ابتداء الكتب بالصلاة على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**فى الصدر الأول**)، أى فى ابتداء الإسلام وزمن الخلفاء الراشدين، فالصدر مستعار للابتداء، والأول صفة موضحة ومفسرة له، (**وأحدث عند ولاية بنى هاشم**)، يعنى بنى العباس، واختلف فى أول من كتبه، فقيل: السفاح عبد الله بن محمد بن على ابن عبد الله بن عباس، وقيل: هارون الرشيد، وأورد عليه أن الكلاعى قال فى كتاب الاكتفاء، عن الواقدى بسنده: أن أبا بكر الصديق، رضى الله تعالى عنه، كتب فى ردة بنى سليم إلى طريفة بن حاجز عامله ما صورته:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من أبى بكر خليفة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى طريفة بن حاجز: سلام عليك، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو، وأسأله أن يصلى على محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، أما بعد... إلى آخره)، فهذا يدل على أن أول من فعله الصديق، إلا أنه ترك ذلك فى زمن بنى أمية، وفى الأذكار مثله، وهو يدل على أنه سُنة قديمة، وهذا غفلة بمورده عن قوله بعد البسملة، فإنهم أحدثوا أن يكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله تعالى عليه وسلم، فتصديره بذلك على جميع ما بعده، وليس فيما ذكره ذلك فتفطن له، ثم اختلفوا فى الصلاة، هل تعطف أو لا؟ على قولين، فمن عطف فظاهر، ومن قطعه رآه إنشاء، وفى عطفه على الخبر كلام طويل فى كتب النحو والمعانى.

(**فمضى عليه عمل الناس فى أقطار الأرض**)، أى استمر، فصار سُنة أو بدعة حسنة مستحبة، (**ومنهم من يختم به أيضًا الكتب**)، أى كما بدأها به، فتجعل فى الأول والآخر؛ لتشمل بركته جميع ما كتبه.

(**وقال عليه الصلاة والسلام: «من صلى علىَّ فى كتاب، لم تزل الملائكة تستغفر الله له مادام اسمى**) مكتوبًا (**فى ذلك الكتاب**)، أى المكتوب مطلقًا، وليس المراد به المصنفات كما يتوهم، حتى يقال: إن تدوين الكتب حدث بعد العصر الأول، هو من المغيبات التى أخبر بها صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقال الشيخ زروق فى معنى ذلك: يحتمل أن المراد كتب الصلاة، وهو أظهر، أو قرأ الصلاة المكتوبة، وهو أوسع وأرجى. انتهى. وقال بعضهم: إنه يشترط فى حصول الثواب المذكور أن يتلفظ بالصلاة فى حال الكتابة، وهو خلاف ظاهر الحديث وكلام العلماء.

وقال السخاوى فى كتابه: «القول البديع فى الصلاة على الحبيب الشفيع»: هذا الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط، والخطيب فى شرف أصحاب الحديث، وأبو الشيخ، والمستغفرى، وصاحب الترغيب بسند ضعيف، وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات، وقال ابن كثير: إنه لم يصح، وروى «من كتب فى كتابه: صلى الله تعالى على محمد، لم تزل الملائكة تستغفر له مادام فى كتابه»[1]. انتهى. والمراد باستغفار الملائكة دعاؤهم لبنى آدم مطلقًا، حيث ورد حتى للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، بالاستغفار، قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧]، وكان وجهه أنهم لما علموا ما ركب فى طبيعة النوع الإنسانى من الشهوات والمشاغل، التى هى من لوازم البشرية يقتضى الاشتغال بغير الله، وهم لا يفترون عن التسبيح، ولا يفعلون إلا ما يؤمرون، وأشفقوا عليه، وراموا أن الله لا يؤاخذه بشىء من تبعاته فاعرفه، فإنى لم أر من نبه عليه، وذكروا فى ذلك آثارًا عن السلف الصالحين ومنامات، منها أن الشافعى رئى فى المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لى و لم يحاسبنى وأكرمنى؛ لصلاة صليتها عليه صلى الله تعالى عليه وسلم فى أول الرسالة، وهى: اللهم صل على محمد كلما ذكره الذاكرون، وصل على محمد كلما غفل عن ذكره الغافلون، وصل عليه فى الأولين والآخرين أفضل وأكثر وأزكى ما صلى عليه أحد من خلقه، وقد روى هذا من طرق بألفاظ مختلفة.

(**ومن مواطن السلام عليه صلى الله تعالى عليه وسلم**)، أى الأماكن التى يستحب فيها السلام عليه (**تشهد الصلاة**) الذى يذكر فى آخرها، وأطلقه ليشمل الأول والثانى كما مر، وأورد فى ذلك حديثًا رواه البخارى، وهو: (**حدثنا أبو القاسم خلف بن إبراهيم المقرى الخطيب وغيره، قال: حدثتنى كريمة بنت محمد**)، وتقدمت ترجمتها، (**قالت: حدثنا أبو الهيثم**)، تقدم أيضًا، قال: (**حدثنا محمد بن يوسف**)، هو الفربرى كما تقدم، قال: (**حدثنا محمد بن إسماعيل**)، هو الإمام البخارى كما تقدم، قال: (**حدثنا أبو نعيم**) الفضل بن دكين عمرو بن حماد الحافظ، توفى فى سلخ شعبان سنة تسع عشرة ومائتين، أخرج له الستة، وترجمته فى الميزان، قال: (**حدثنا الأعمش**) سليمان بن مهران، وقد تقدم (**عن شقيق بن سلمة**) الأسدى المخضرم، توفى سنة إحدى وثمانين كما تقدم، (**عن عبد الله بن مسعود، قال:**)، أى ابن مسعود، فهو موقوف له حكم المرفوع، وفى نسخة (**عن النبى**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فهو مرفوع (**قال: إذا صلى أحدكم**) صلاة ما فرضًا أو نفلاً،

---

(١) أورده السيوطى فى اللآلى (١٠٦/١)، والزبيدى فى الإتحاف (٥٠/٥)، والخطيب فى شرف أصحاب الحديث (٢٤٨).

(فليقل: التحيات) إلى آخره، والتحية تفعلة من الحياة، ومعناها الإحياء والإبقاء والملك والبقاء، وكل منها صحيح هنا، أى كل تحية يحيى بها الملوك والعظماء ثابتة **(لله)** لا تليق بغيره، **(والصلوات)**، أى أنواع الدعاء الذى يراد به الثناء.

وقيل: الصلاة المعتادة يعنى العبادة، **(والطيبات)**، أى جميع كلمات الثناء الطيب لله لا لغيره، **(السلام عليك أيها النبى)**، حكاية لما علمه لهم حال حياته، ثم استمروا على ذلك تعبدًا، وعن ابن مسعود: كنا نقوله وهو بين أظهرنا، فلما قبض قلنا: السلام على النبى، **(ورحمة الله وبركاته)**، أى كل نعمة وخير كثير لازم ثابت له فى كل زمان، **(السلام علينا)** معاشر الأمة، **(وعلى عباد الله الصالحين)** من جميع الأمم السالفة وملائكة السماء والأرضين والجن المؤمنين، كما قال: **(فإنكم إذا قلتموها)**، أى قلتم هذه الكمات، وهى السلام علينا... إلخ، **(أصابت)**، أى نالت رحمتها وبركتها **(كل عبد)** لله **(صالح فى السماء والأرض)**؛ لعموم الجمع المحلى بالألف واللام، ومن هنا علم أن المصلى محسن لنفسه ولجميع خلق الله، وأن تارك الصلاة ظالم لنفسه ولجميع خلق الله، قيل: الفصل المعقود لمواطن الصلاة عليه، وهو وإن لم يقل بوجوبها لا ينكر كونها سُنة، وأجيب بأنه لما ذكر الصلاة شرع فى موطن السلام عليه، وقد يقال: إنه طوى ذكر الصلاة لعلمها مما تقدم.

(هذا)، أى التشهد فى الصلاة، **(أحد مواطن التسليم عليه)**، إشارة إلى أن له مواطن أخر، **(وسنته)**، أى استحبابه وفى نسخة: سنيتة، بياء النسبة، وهى أولى **(أول التشهد)**، أى قبل أن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وبعد التحيات لله، وفى التشهد وفى كيفيته روايات مفصلة فى كتب الفقه.

(وقد روى مالك، عن ابن عمر، أنه كان يقول ذلك)، أى السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، **(إذا فرغ من تشهده، وأراد أن يسلم)** سلام التحليل، أى الخروج من الصلاة.

(واستحب مالك فى المبسوط)، اسم كتاب له، وفى نسخة: المبسوطة، **(أن يسلم بمثل ذلك)**، المذكور من السلام على النبى إلى آخره، **(قبل السلام)** من صلاته، وهو فيما قيل خلاف المشهور من مذهبه.

(قال محمد بن مسلمة)، بفتح الميمين، وهو محمد بن مسلمة بن هشام بن الوليد بن المغيرة، توفى سنة ست عشرة ومائتين، **(أراد ما جاء)** مرويًا **(عن عائشة وابن عمر أنهما كانا يقولان عند سلامهما)**، أى قبل سلام الخروج: **(السلام عليك أيها النبى ورحمة الله**

وبركاته، **السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**)، ثم يقول: (**السلام عليكم**)، وهو خاتمة الصلاة، (**واستحب أهل العلم أن ينوى الإنسان**) المصلى إمامًا أو مقتديًا أو منفردًا (**حين سلامه**)، أى قوله: السلام، فى صلاته، (**كل عبد صالح فى السماء والأرض من الملائكة**)، ونوع (**بنى آدم**)، ومؤمنى (**الجن**)، وقيل: الإمام ينوى السلام على من اقتدى به، وهم ينوون الرد عليه، وغيره ينوى به من على يمينه ويساره، وهم الرد، وغيرهم ينوى من حضر أو غاب.

(**قال مالك فى المجموعة:**)، قيل: أراد بها المدونة، (**وأحب للمأموم إذا سلم إمامه أن يقول:**) قبل أن يسلم هو (**السلام على النبى ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**)، ثم يقول: (**السلام عليكم**)، واعلم أن عقد الفصل الذى قبل هذا لوجوب الصلاة عليه، وعقبه بفصل عقده للمواطن التى يستحب فيها الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد أفرد له الخيضرى كتابًا مستقلاً سماه اللواء المعلم فى المواطن التى يستحب فيها الصلاة عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولما أتم المصنف، رحمه الله تعالى، ما قصده، شرع فى بيان كيفيتها، فقال:

* * *

(فصل فى كيفية)، أى بيان ألفاظ (الصلاة عليه)

وهو لفظ مولد نسب لكيف اسم الاستفهام؛ لأنها من شأنها أن يسأل بها عن مثله، (**والتسليم**) عليه، أى كيف يذكر السلام عليه، والمراد بيان الهيئة الفاصلة، إذ أصلها معلوم، وبدأ بحديث رواه فى الموطأ، وهو قوله: (**حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر الفقيه**)، وقد تقدم، وقوله: (**بقراءتى عليه**) هو أحد طرق الرواية، قال: (**حدثنا القاضى أبو الأصبغ**) عيسى بن سهل صاحب كتاب الإعلام فى نوازل الأحكام، قال: (**حدثنا أبو عبد الله بن عتاب**)، تقدم بيانه، قال: (**حدثنا أبو بكر بن واقد وغيره**)، بالقاف وهو معروف، قال: (**حدثنا أبو عيسى**)، هو عم يحيى بن كثير الذى تقدم بيانه، قال: (**حدثنا عبيد الله، حدثنا يحيى بن يحيى**) الليثى، أحد رواة الموطأ عن مالك كما تقدم، قال: (**حدثنا مالك**) الإمام المشهور، (**عن عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم، عن أبيه**)، تقدم ترجمته، (**عن عمرو بن سليم الزرقى**)، سليم بضم السين وفتح اللام، والزرقى بضم الزاء المعجمة وفتح الراء المهملة قبل القاف، وهو الأنصارى، وترجمته فى الميزان.

(**قال: أخبرنى أبو حميد الساعدى**)، اسمه عبد الرحمن بن عمرو بن سعد، وقيل: المنذر ابن سعد، وهو خزرجى، مدنى، له صحبة، أخرج له الستة وأحمد فى مسنده، توفى فى حدود الستين، (**أنهم**)، أى الصحابة، (**قالوا: يا رسول الله، كيف نصلى عليك؟**)، سألوه

عنه بعد ورود الأمر به فى الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٦] إلى آخره، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: (**قولوا: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته**)، أزواجه أمهات المؤمنين معلومة، والذرية النسل والولد بضم الذال وكسرها، فعيلة من ذرأ بمعنى خلق، ترك الهمزة فى الاستعمال تخفيفًا، وقيل: إنه نسبة إلى الذر لصغرهم، والذرية الولد وولده، ويشمل أولاد البنات كما ذكروه مفصلاً فى كتب الفقه، وسؤالهم بكيف المراد به السؤال عن العبارة التى يعبر بها، وبأى كيفية تؤدى.

وقيل عن معناها: ولا يخفى ما فيه، فإنهم لما سمعوا السلام عليه فى التشهد وأمروا بالصلاة سألوه عما يقولونه، فعلمهم ذلك، وفيه من التعظيم ما لا يخفى، فإنه أمرهم أن يطلبوا من الله أن يصلى هو عليه، فكأنهم قالوا: لا نقدر على أداء الصلاة حق الأداء، فافعل أنت ما يليق به، (**كما صليت على آل إبراهيم**)، أى أزواجه وذريته، والتشبيه إنما وقع بهم لشهرتهم وتقررهم، وفى الرواية الآتية المسلسلة: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم...» إلخ، وآله فيهم أنبياء ورسل، فشبه المجموع بالمجموع أو الآل بالآل، فلا يرد عليه أن المشبه دون المشبه به، فكيف شبه صلاة نبينا بصلاة إبراهيم، وهو أفضل منه فى السؤال المشهور.

وقد أجيب عنه بأجوبة هذا محصلها، وللجلال الدوانى رسالة فيه مشهورة شهرتها تغنى عن ذكرها، ويأتى الكلام عليه أيضًا قريبًا.

فإن قلت: الذى فى الآية الأمر بالصلاة عليه فقط من غير تشبيه بإبراهيم وآله.

قلت: لما كان معنى الصلاة الرحمة، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم مرحوم ومنعم عليه فى الدارين بأعظم النعم، ضم ذلك للصلاة عليه إشارة إلى أن المقصود من رحمته رحمة أهل ملته، كما يقال لمن يراد عقوبة ولده: ارحم هذا الشيخ، كما أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

(**وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم**)، أى أدم وكثر الخيرات النازلة عليهم، كما أدمت ذلك لإبراهيم وآله، (**فى العالمين إنك حميد مجيد**)، أى رحمة وبركة منتشرة فى جميع الخلق، وحميد فعيل من الحمد، وهو الثناء الجميل، ومجيد فعيل من المجد، وهو الشرف والكرم، وفعيل فيهما بمعنى فاعل أو مفعول، أى أنت فاعل الجميل وواهبه، أو أنت المحمود المعظم، فكل حمد وإكرام لرسلك وأتباعهم عائد إليك، فإنه لأجلك وامتثال أمرك، وهو تذييل فى موقع جليل، ومما ذكرناه علمت معنى قوله

على آل إبراهيم دون إبراهيم، فتفطن لهذه الدقائق.

(وفى رواية مالك) فى الموطأ، **(عن أبى مسعود الأنصارى)** الصحابى البدرى **(قال: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آله، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين، إنك حميد مجيد)**، ذكره إشارة إلى أن له طرقًا كثيرة، وأنه إنما قدم رواية الموطأ لعلو سنده فيها، فلا وجه لما قيل: إنه لا فائدة فى ذكره، وهو بعينه ما قبله.

(والسلام)، أى كيفيته ولفظه، **(كما قد علمتم)** فى التشهد كما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، سابقًا، وسيأتى أيضًا شرحه فى كلامه، وعلمتم بفتح العين وكسر اللام المخففة مبنى للفاعل، أو بضمها وتشديد اللام مبنى للمجهول من العلم أو التعليم، وكلاهما صحيح رواية ودراية، كما قاله النووى، وقيل: الأول أصح.

ولفظ الموطأ عن أبى مسعود، قال: أتانا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى مجلس سعد بن عبادة، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلى عليك يا رسول الله، فكيف نصلى عليك؟ فسكت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد»(١)، والسلام كما قد علمتم.

(وفى رواية كعب بن عجرة) فى الترمذى، بضم العين وسكون الجيم وراء مهملة، وهو أبو محمد، أو أبو عبد الله، أو أبو إسحاق، من بنى سالم بن عوف، أو من غيرهم، صحابى شهد بيعة الرضوان، وتوفى سنة اثنتين، أو إحدى، وخمسين، وأخرج له الستة وغيرهم، قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام عليك قد علمناه، وكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا: **(اللهم صل على محمد وآل محمد، كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد)**».

قال الترمذى: حديث كعب بن عجرة، حديث حسن صحيح، وهذا الحديث أيضًا رواه الشيخان، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن كعب بن عجرة، قال: قلت: يا رسول الله، قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلى عليك؟ فقال: «قولوا: اللهم صل...» إلى آخره، وهو متفق عليه، إلا أن لفظ البخارى: «على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»، فى الموضعين، وسقط منه: «آل»، فى الموضعين، ورواية المصنف، رحمه الله تعالى، تخالفه.

---

(١) تقدم تخريجه.

(وعن عقبة بن عمرو) عبد الله الأنصارى الصحابى، توفى بالمدينة سنة إحدى وأربعين فى أيام على أو معاوية، رضى الله عنهما، وكان على كرم الله وجهه، استخلفه على الكوفة لما خرج لصفين **(فى حديثه)** الذى رواه: **(اللهم صل على محمد النبى الأمى وعلى آل محمد)**، هم المؤمنون من أزواجه وذريته ومن يحرم عليه الصدقة من أقربائه على الراجح، وفسر بجميع أمته أيضًا كما يأتى فى كلام المصنف، وهذا الحديث أخرجه أحمد وابن حبان والدارقطنى والبيهقى ومسلم بدون لفظ: النبى الأمى.

(وفى رواية أبى سعيد الخدرى)، وهو سعد بن مالك بن سنان كما تقدم: **(اللهم صل على محمد عبدك ورسولك)**، أخرجه الحاكم بسند فى بعض رجاله كلام، **(وذكر معناه)**، أى معنى الحديث السابق من قوله: كما صليت... إلى آخره، ورواه البخارى أيضًا، ثم أورده من طريق آخر مسلسل فيه زيادة، والمسلسل ما وقع معه أمر من النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، من قول أو فعل ونحوه، وقع مثله قصدًا من جميع رواته تبركًا بمحاكاته فى حال صدوره، كالعد فى اليد هنا.

وهو قوله: **(حدثنا القاضى أبو عبد الله التيمى)**، تقدم بيانه **(سماعًا عليه)** بقراءة غيره عليه، **(وأبو على الحسن بن طريف النحوى)**، طريف بفتح الطاء وكسر الراء المهملتين ومثناة تحتية ساكنة وفاء، أحد شيوخ المصنف، رحمه الله تعالى، ولم يذكره فى كتابه إلا فى هذا الموضع، توفى تاسع ذى الحجة سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، وفيها توفى ابن رشد **(بقراءتى عليه، قالا: حدثنا أبو عبد الله بن سعدون الفقيه) يعرف به كما تقدم فى ذكر الشوق إليه قال: (حدثنا أبو بكر المطوعى)**، بضم الميم وفتح الطاء المهملة وكسر الواو المشددتين وعين مهملة تليها ياء نسبة غلب على المجاهد تطوعًا بلا أجرة، وهو محمد بن على الغازى النيسابورى، قال: **(حدثنا أبو عبد الله الحاكم)** محمد بن عبد الله ابن حمدويه بن نعيم الضبى النيسابورى الإمام الحافظ شيخ الحديث فى عصره، عرف بابن البيع صاحب التصانيف الجليلة، ولد فى ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وتوفى فى صفر سنة خمس وأربعمائة، وله ترجمة فى الميزان، وفى مستدركه أحاديث ضعيفة وموضوعة انتقدت عليه.

(عن أبى بكر بن أبى دارم الحافظ) المسند السبيعى الحاكم أحمد بن محمد بن السرى ابن يحيى بن السرى التميمى الكوفى محدث الكوفة، روى عنه الحاكم وغيره، وهم متهم بالكذب، توفى فى المحرم سنة اثنتين أو ست وخمسين وثلاثمائة، وله ترجمة فى الميزان، **(عن على بن أحمد العجلى)**، هو ممن يروى عنه أبو بكر المذكور ولم يعرف، **(عن حرب ابن الحسن)**، وفى نسخة: ابن الحسين، وهو الطحان، قال فى الميزان: ليس حديثه بذاك،

وذكره ابن حبان فى الثقات، **(عن يحيى بن المساور)**، بميم مضمومة وسين وراء مهملتين، قيل: إنه كذاب، **(عن عمرو بن خالد)** أبو خالد القرشى مولى بنى هاشم الكوفى، روى عنه خلق، إلا أنه كذاب له قبائح مذكورة فى الميزان، **(عن زيد بن على بن الحسين)** بن على بن أبى طالب، وهو أبو الخير العلوى المدنى، أخو محمد الباقر النسيب الإمام الثقة، رأى جماعة من الصحابة، واستشهد، رضى الله عنه، سنة اثنتين وعشرين ومائة.

(عن أبيه) على بن الحسين بن على بن أبى طالب، قال الزهرى: ما رأيت قرشيًا أفضل منه، توفى سنة أربع وتسعين، وهو إمام ثقة جليل، أخرج له الستة، **(عن أبيه الحسين، عن أبيه على بن أبى طالب، قال:)** على، رضى الله تعالى عنه، **(عدهن فى يدى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، صفة لمقدر، أى كلمات تذكر فى التشهد أو صلوات ذكرها لى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان فى حال ذكرها يعدها لى فى يدى بأشكالها، يشير إلى أنه حديث مسلسل بالعد فى اليد إلى جبريل تنبيهًا على حفظها، وأن لا يترك واحدة منها.

(وقال: عدهن فى يدى جبريل، وقال: هكذا)، أى بهذا العدد **(نزلت من عند رب العزة)** سبحانه وتعالى، والعزة كما قال الراغب حال يقتضى الامتناع من القهر والغلبة، من الأرض العزاز، وهى الصلبة، فرب العزة إما بمعنى من له العزة، وهو مالكها، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: ٨]، أو من يعطيها من يشاء، كما قال الله تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وله موقع هنا لإعزازه وإكرامه لرسوله.

(اللهم صل على محمد وعلى آل محمد)، أى أفض عليه وعلى آله رحمتك وإنعامك، **(كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم)**، جعله مشبهًا به لشهرته، لا لأنه أفضل وأعلى كما مر، **(إنك حميد مجيد)**، أى محمود ممجد، أو المستحق للثناء والشرف من أثنيت عليه وشرفته، **(اللهم بارك على محمد)**، أى أنزل البركة عليه؛ ولذا عداه بعلى، **(وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم وترحم على محمد وعلى آل محمد كما ترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد)**، وفيه أنه يدل على جواز الدعاء للأنبياء بالرحمة والترحم عليهم كما تقدم، **(اللهم وتحنن على محمد وعلى آل محمد كما تحننت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد)**، تحنن تفعل من الحنين، صار بمعنى الرحمة والشفقة، والحنان المنان من أسماء الله بمعنى الرءوف المنعم، **(اللهم وسلم على محمد وعلى آل محمد كما سلمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد)**.

قال السيوطى فى الجامع الكبير: قال الحاكم: هكذا بلغنا هذا الحديث وإسناده ضعيف، وأخرجه الديلمى وابن منده والترمذى. وقال العراقى: ضعيف جدًا، وعمرو بن خالد كذاب وضاع، وكذا ابن مساور، وحرب بن الحسن أورده الأزدى فى الضعفاء، وقال: حديثه ليس بذلك، وقال ابن حجر فى أماليه: اعتقادى أنه موضوع، وفى سنده ثلاثة ضعفاء، وبعضهم ممن نسب إلى الوضع والكذب.

قلت: وجدت له متابعات تجبره وإن لم يخل من الضعف، ووجدت له طريقًا آخر عن أنس فى مسنده. انتهى.

قلت: ذكر البرهان أنه رواه مسندًا أيضًا، فتعدد هذه الطرق يقتضى أنه غير موضوع، غاية ما يقال فيه: إنه ضعيف فاعرفه، وقد علمت أن الحديث مسلسل، وتقدم أن المسلسل ما توارد رواته على حالة واحدة، أو صفة فى إسناده، أو صيغ أدائه، ومن قوله: وترحم، يرد قول ابن العربى: أن زيادة الترحم فى الصلاة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بدعة.

وقال الصيدلانى: إنه مع أنه لم يرد غير صحيح؛ لأنه لا يقال: رحمت عليه، بل رحمته، وفى الترحم معنى التكلف، فلا يصح إطلاقه على الله، ويأتى رده. وفى الأذكار زيادة: ارحم محمدًا، بدعة لا أصل لها. وقال ابن أبى زيد المالكى، وبعض المالكية: يستحب زيادة ارحم محمدًا فى التشهد، ويأتى نقله عنه فى كلام المصنف، مع رده.

وفى شرح مسلم: الاختيار تركه إن لم يأت فى خبر صحيح. وقال السخاوى: من زاده رآه من فضائل الأعمال، ويكفى فيه الحديث الضعيف. وقال أبو جعفر والسرخسى من الحنفية باستحبابه؛ لتوارث العمل به، ورحمة الله لا يستغنى أحد عنها، وذهب كثير إلى أنه لا يدعى للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، بالرحمة.

وفى شرح البخارى لابن حجر: أنه غير مسلم؛ لوروده فى أحاديث كثيرة، ففى التشهد: السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، وسبقه إليه صاحب القاموس، واستدل عليه بقول الأعرابى له صلى الله تعالى عليه وسلم: اللهم ارحمنى وارحم محمدًا، وتقريره له.

وفى حديث ابن عباس: «أسألك رحمة من عندك»، وفى الحديث عنه: «أستغفرك لذنبى وأسألك رحمتك، ويا حى يا قيوم برحمتك أستغيث». وفى الذخيرة من كتب الحنفية كراهته، وجزم الغزالى بعدم جوازه مفردًا؛ لإيهامه النقص، وأنه كغيره يدعى له بالرحمة.

أقول: هذا كلام مضطرب، وتحريره أن يقال: دعاؤه لنفسه بالرحمة لا منع منه أصلاً، وأما دعاء غيره له فيما لم يؤثر، فعلى الإفراد مكروه، وبالتبع للصلاة ونحوها لا كراهة فيه، وهذا هو الحق عندى.

ثم إن الصاغانى نقل فى العباب: أن قول الناس: ترحمت عليه، لحن، والصواب: رحمت ترحيمًا، وفى الحديث ما يرده. وخص إبراهيم، عليه السلام، بالتشبيه. قال البغوى، عن مقاتل: لأنه أفضل الأنبياء بعد نبينا، ومكافأة له على دعائه لأمة محمد بقوله: رب اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين، أو لمشاركته على دعائه لأمة محمد فى التأذين للحج والإيمان، أو أمر بذلك إجابة لدعائه بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]؛ ولأنه أمر بالاقتداء، وأما التشبيه له والمشبه دون المشبه به، فقد أجيب عنه بأنه قاله قبل أن يعلم أنه أفضل منه، أو لسبق زمانه واشتهاره، لا لعلو مرتبته، وقيل: المشبه آل محمد، وفيه تحقيقات فى رسالة الجلال الدوانى.

وفى الدر المنضود لشيخ مشايخنا ابن حجر: إن التشبيه للمجموع بالمجموع، فإن الأنبياء من آل إبراهيم كثيرون، فإذا قابلت تلك الذوات الكثيرة من إبراهيم وآله بالصفات الكثيرة التى لمحمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، أمكن انتفاء التفاضل، ويقرب منه قول ابن عساكر وابن عبد السلام ما حاصله أن الصلاة على النبى وآله شبهت بالصلاة على إبراهيم وآله، فيحصل لنبينا وآله من آثار الرضوان ما يقارب الحاصلة لإبراهيم وآله الذين هم معظم الأنبياء، ثم تقسم الجملة، فلا يحصل لآله منها ما حصل لآل إبراهيم، إذ غير الأنبياء لا يساويهم، فيتوفر ما بقى من آثار الرضوان الشاملة لمحمد وآله على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا يشعر بأنه أفضل من إبراهيم. انتهى.

واعترض بأنه جاء فى رواية مقابلة الاسم بالاسم فقط، ولفظها: اللهم صل على محمد كما صليت على إبراهيم. انتهى.

(وعن أبى هريرة) فى حديث رواه أبو داود وغيره، **(عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت)**، أى من أحب أن يأتى بأحسن صلاة وأعظمها، أو من أراد أن ينال أجرًا لا يساويه فيه غيره، فالاكتيال عبارة عن ذلك استعارة تبعية مصرحة، أو شبه الأجر بما يشترى من الحبوب والتمر، وشبه ذكره أو مثله باكتياله له؛ لاستيفائه على طريقة المكنية والتخييلية، والأجر لظهور إرادته فى قوة المذكور، ووجه الشبه أنه به البقاء، والمكيال بكسر الميم، آلة الكيل، والأوفى أفعل التفضيل من الوفاء، وهو استيفاء الشىء وحيازته، والمراد الترغيب فى

الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى أهل بيته بهذه العبارة المخصوصة.

(فليقل) إذا صلى عليهم: (**اللهم صل على محمد النبى وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته، كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد**)، ففضل هذه الصلاة لما فيها من شمول آل بيته كلهم، وتعظيمه بوصفه بالنبوة التى هى أقرب منزلة إليه، وتعظيم أزواجه بما يحبه، وذكر الصلاة على أبيه إبراهيم والإيمان به وبغيره من الأنبياء، وهذا الحديث صحيح أخرجه أبو داود، والطبرانى وغيرهما كما علمت.

(**وفى رواية زيد بن خارجة الأنصارى**) الصحابى المعروف، توفى فى خلافة عثمان، وله قصة فى تكلمه بعد موته، وهذا أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس، وأبو نعيم، والنسائى، والطحاوى، والبغوى: (**سألت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: كيف نصلى عليك؟**)، هذه الجملة معمولة لسألت؛ لتضمنه القول، أو لقول مقدر، (**فقال: صلوا علىَّ واجتهدوا فى الدعاء**)، المراد به الصلاة، وعبر به تفننا، أو المراد الدعاء لأنفسهم بما يريدون، واجتهدوا بمعنى بالغوا فى ذلك بالإتيان بجهدكم وطاقتكم، (**ثم قولوا**) بعد الصلاة عليه وعلى آله وأزواجه وذريته: (**اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد**)، تقدم ما يغنى عن إعادته.

(**وعن سلامة الكندى**)، هو سلامة بن قيصر الحضرمى التابعى، ذكره ابن حبان فى الثقات، وأنه يروى عن على، كرم الله وجهه، (**كان على يعلمنا الصلاة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم**)، وفى رواية: يعلم الناس، ويقول: قولوا. وفى الدر المنضود: أن ذلك جاء عن على بسند ضعيف، وله طرق أخر رجالها رجال الصحيح، إلا أنها مرسلة؛ لأن راويها لم يدرك عليًا، (**اللهم داحى المدحوات**)، وروى: المدحيات، ودحى بمعنى بسط، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، أى مدها وبسطها؛ لأنها خلقت أولاً ربوة، ثم بسطت ومهدت، والمدحوات الأراضى السبع، وفيه إطلاق الداحى على الله تعالى، واستدل به من قال: الأسماء ليست توقيفية، وأنه يكفى ورود مادتها كدحى، (**وبارىء**)، بالهمز اسم فاعل من برأ، بمعنى خلق على غير مثال، أى ميز وأبرز.

و(**المسموكات**) بمعنى المرفوعات، والمراد بها السموات، وروى: سامك المسموكات، وسمك بمعنى رفع وارتفع متعد ولازم، (**اجعل شرائف صلواتك**)، أى أفضل صلواتك وأعلاها، جمع شريفة، بمعنى عالية رفيعة المقدار من الشرف، وأصله ما علا من الأرض على غيره، (**ونوامى بركاتك**)، أى ما زاد إلى غير النهاية من خيراتك، أى بركاتك

النامية، فهى من إضافة الصفة لموصوفها، **(ورأفة تحننك)**، أى لطفك ورحمتك وعنايتك نازلة متوالية، **(على محمد عبدك)**، قدمه لشرف العبودية على غيرها بدلالتها على القرب، **(ورسولك)** الذى أرسلته لجميع خلقك، **(الفاتح لما أغلق)**، بضم الهمزة وكسر اللام، مبنى لما لم يسم فاعله، من أغلق الباب والقفل ونحوه إذا قفله، وهو ضد الفتح هذا حقيقته، ويستعار لما صعب وأشكل وأبهم.

فالمعنى أنه فتح ما كان غير مفتوح من الشرائع لإرساله بعد الفترة الجاهلية، أو أنه فتح الله به على عباده أنواع الخيرات وأبواب السعادات الدنيوية والأخروية، أو بين لأمته ما أوحى إليه بتفسيره وتيسيره وإيضاحه، وفك قيد إشكاله بإيضاح براهينه وحججه، وتفسيره بأنه أول الناس خلقًا وآخرهم بعثًا، كما فسر به: جعلتك فاتحًا وخاتمًا، كما قيل بعيد هنا كما لا يخفى، وفيه استعارة وتلميح لقوله، عليه السلام: «أوتيت مفاتيح الكلام»(١)؛ لما أوضحه ببراعته وبلاغته، ويجوز أن يراد به ما فتح الله به عليه وعلى أمته من تيسير الفتوحات، وتسخير الممالك كما فى قوله: «أوتيت مفاتيح خزائن السماوات والأرض»(٢).

(والخاتم لما سبق)، من النبوة والرسالة، فإنه لا نبى ولا رسول يرسل بعده، ولا فى عهده، وعيسى إذا نزل كان على شريعته ومن أمته، والخضر وإلياس إن قيل بنبوتهما بعد بعثته، من أمته أيضًا، ولا حاجة لتفسير ما سبق بالأنبياء والرسل، وجعل ما بمعنى من.

(والمعلن) اسم فاعل بمعنى المظهر من الإعلان، وهو الجهر، **(الحق)** بالنصب مفعول المعلن، والجر بإضافته له، وليس منصوبًا بنزع الخافض أى **(بالحق)**، أى بالأمر الحق لا بالقهر والغلبة، والمراد بالحق الدين والشرع، ففيه إقامة الظاهر مقام الضمير أو الحق الثانى المراد به الله عز وجل، فإنه من أسمائه، أى بمعونة الله وتأييده.

(والدامغ)، أى الدافع والمزيل، ومنه حجة دامغة، وهو مستعار من دمغه إذا كسر دماغه كما قاله الراغب، قال الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء: ١٨]، **(لجيشات الأباطيل)**، جمع جيشة، وهى المرة من جاش يجيش إذا فار وارتفع، والأباطيل جمع باطل، وهو مقابل الحق على خلاف القياس، أو جمع مفرد مقدر، أى الدافع لما ظهر من الباطل وشاع، ففيه استعارة وتمثيل لما ظهر من الكفر والفساد بأمر

(١) أخرجه ابن المبارك فى الزهد (١٩٤).
(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٢/٣٦١).

علا، وألقى عليه صخرة رضته وألصقته تراب المذلة، وتفسير الجيشات بالأجناد لا ينبغى، وقيل: الأباطيل جمع أبطولة أو أبطيلة أو إبطالة، و لم يسمع.

(**كما حمل**)، بضم الحاء المهملة وكسر الميم المشددة، مبنى للمجهول، (**فاضطلع**)، بضاد معجمة وطاء مهملة، بمعنى قوى على حمله ونهض به؛ لشدة تحمله عليه وقيامه بأعبائه، وهو افتعال من الضلاعة وهى القوة، وأصلها قوة الإضلاع والكاف للتشبيه، وجوز أن يكون للتعليل، وأن تكون بمعنى على، والأول أولى وأظهر، فهو متعلق بما قبله، أو خبر مبتدأ مقدر، أى هذه الحالة المذكورة ثابتة له كما ثبت له تحمله أثقال الرسالة وأعباءها، فقام بها أتم قيام، أو صلى وسلم عليه لقيامه بذلك، أو فعل به هذا جزاء له على ذلك.

(**بأمرك**)، أى قام بها بسبب أمرك امتثالاً له لا لغرض آخر، أو المراد بأمره تيسيره وإعانته، وقوله: (**بطاعتك**) بدل مما قبله أو متعلق به لأمره بإطاعتك، فامتثله وأدى ما كلفته به، وفى نسخة: لطاعتك، باللام (**مستوفزًا**) حال من الضمير فى حمل أو اضطلع، والاستيفاز الوثوب والانتصاب من قعود، والمراد به التقيد وعدم الإهمال، أى مسرعًا مستعجلاً فى الإتيان بما أمرته به جادًا غير متوان، ومنه قولهم: ألفيته على، أوفاز، أى على عجلة، جمع وفز، ومن العجيب ما قيل: إنه اسم مكان بزنة المفعول يشير به إلى المستوى الذى سمع فيه صريف الأقلام وتأخر عنه جبريل، وفيه خبط لا يخفى على عادته، (**فى مرضاتك**)، مصدر ميمى بمعنى الرضى، وفى ظرفية، ويجوز كونها بمعنى لام التعليل، كما فى حديث: «دخلت امرأة النار فى هرة».

وفى بعض النسخ: (**بغير نكل فى قدم، ولا وهن فى عزم**)، أى لا جبن يطرؤ عليه فى إقدامه، ولا ضعف فى عزيمته، ويروى واهيًا بالمثناة التحتية، (**واعيًا**)، أى حافظًا ضابطًا، (**لوحيك**) الذى أوحيته إليه لم يشغله عنه ما حمله من الأعباء وما لقيه من المشاق فى تبليغه الرسالة، ومنه: أذن واعية، وأصل الوعى جعل الشىء فى وعاء، قال:

والشر أخبث ما أوعيت من زاد(١)

وحفظه شامل للعمل به، (**حافظًا لعهدك**)، أى متمسك ومداوم على ما عهدته عليه

---

(١) هذا عجز بيت وصدره:

الخير يبقى وإن طال الزمان به

والبيت من البسيط، وهو لعبيد بن الأبرص فى ديوانه (ص ٤٩)، لسان العرب (١٥/٣٩٧)، مجمل اللغة (٤/٥٣٨)، جمهرة الأمثال (١/٥٤٢)، المستقصى (١١/٣٢٦).

من الإيمان بك، والإخلاص فى طاعتك، وامتثال أمرك ونهيك، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت»، **(ماضيًا)**، أى مجتهدًا مستمرًا على إمضاء ما عهدته وأنزلته مداومًا **(على نفاذ أمرك)**، بذال معجمة من أنفذ كذا، إذا أمضاه وبلغ أقصاه، **(حتى أورى قبسًا لقابس)**، الإيراء قدح الزناد لخروج النار شررًا توقد منه، والقبس ما يتناول من الشعلة، قال الله تعالى: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [النمل: ٧]، والاقتباس طلبه، ثم استعير ذلك لإظهار الحق وما يهدى به الناس، وفى المثل: ما كل قادح زنده يورى، أى لم يزل صلى الله تعالى عليه وسلم مجاهدًا قائمًا على الحق حتى أظهره أبلج نيرًا، فاهتدى بنوره من كان فى ظلمات الجهالة.

وقوله: لقابس، أى لقابل وطالب نور الحق والهداية التى هى من **(آلاء الله)**، بالمد جمع إلى، وفيه لغات بكسر الهمزة وبفتحها وبالتنوين فيهما، والخامسة إلى بكسر فسكون فتنوين، ومعناها النعم الإلهية والسعادة الأبدية فى الدارين بواسطته صلى الله تعالى عليه وسلم، **(تصل بأهله أسبابه)**، الجملة صفة قبس، أى ذلك القبس سبب موصل لمن طلبه من أهله الذين أهلهم الله تعالى له، ووفقهم لقبوله ونور بصائرهم بأنواره، والسبب تقدم أن معناه الحبل، ثم صار بمعنى كل واسطة موصلة.

(به)، أى بذلك القبس الذى أوراه فرآه من رآه، وقيل: الضمير له صلى الله تعالى عليه وسلم. **(هديت)** بالبناء للفاعل والمفعول، **(القلوب)** الضالة عن طريق الحق فى ظلمة الجهل، **(بعد خوضات الفتن والإثم)**، جمع خوضة بمعجمتين، وهى المرة من الخوض، وهو الدخول فى الماء، ويستعار للشروع والدخول فى كل أمر يذم، والإثم الذنب، والفتن جمع فتنة، وهى ما يفتتن به المرء، ويطلق على الكفر، وبه فسر قوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، وهو المراد هنا بعد كفرهم وارتكابهم الآثام، **(وأنهج موضحات الأعلام)**، وقع فى النسخ هنا اختلاف، فسقط من أكثرها لفظ أنهج، فموضحات بفتح الضاد اسم مفعول لهديت بنزع الخافض، أى إلى موضحات الأعلام، وهو حال من القلوب، والأعلام جمع علم، بمعنى علامة، وقيل: إنه جمع علامة، ولا وجه له، ويجوز رفعه على أنه خبر مبتدأ مقدر، وهو ضمير القلوب، أى هى ظاهرة أدلة هدايتها، وجوز فيه كسر الضاد جمع موضحة اسم فاعل من الإيضاح، وهو الكشف والبيان، أى صارت القلوب بما رزقت من الهداية منشورات الأعلام، أو ناشرة لها، **فالعلم** بمعنى اللواء استعارة لما ذكر، ومن أثبت أنهج ماض، فهو بالنون من النهج بمعنى أوضح وبين وسهل وقوم، كما ذكره ابن القوطية كما فى بعض الشروح، وفى بعضها: **أبهج**، بالباء الموحدة من البهجة، أى أنار وأشرق، وهذا ساقط من خط المصنف، كما

قاله التلمسانى.

فإن قلت: على النسخة المشهورة الساقط منها لفظ أنهج، فالمعنى ظاهر؛ لأن مآله إلى أنه هديت به القلوب للأدلة الدالة على ما هداهم الله له من أحكام الشريعة الظاهرة، ولما يظهر الإسلام ويؤيده من نصرة الإسلام باليد واللسان، وأما على النسخة الأخرى التى فيها أبهج بمعناه، ففيه تحصيل الحاصل؛ لأن مآلها إظهار الظاهر، والمظهر.

قلت: على هذه الرواية أنه ظاهر فى نفسه لمن له بصيرة ونفس قدسية، وإظهاره بالنسبة لغيرهم، وإظهاره إشاعته وانتشاره إلى أن يصل إلى أقصى الأرض، فتدين له الجبابرة والملوك، (**ونائرات الأحكام**)، جمع نائرة، اسم فاعل من النور والضياء من نار لازم بمعنى ظهر واتضح، والأحكام أحكام الشريعة من الحلال والحرام وغيرهما. وفى القاموس: نار نورًا وأنار واستنار ونور وتنور. انتهى.

(**ومنيرات الإسلام**)، من أنار المتعدى، والإسلام بمعنى الدين أو الاستسلام والانقياد لأمر الله تعالى.

(**فهو**) صلى الله تعالى عليه وسلم، (**أمينك**) على وحيك وأسرار ملكك وملكوتك التى أطلعته عليها، (**المأمون**) الذى ارتضيته لحفظ أسرارك، أو خلقته حفيظًا عليها، كما أشار إليه بقوله: (**وخازن علمك المخزون**) فى خزائن ملكوتك وكنوز عرشك، حتى أنزلته له وائتمنته عليه دون غيره، وأمرته بإيصاله لمن يليق له الاطلاع عليه.

(**وشهيدك**)، فعيل بمعنى فاعل صيغ للمبالغة، فارتضاه للشهادة على الأنبياء وأممهم، أى تصديقهم على تبليغهم لهم، كما قال الله تعالى: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ [النساء: ٤١]، كما تقدم، (**يوم الدين**)، أى القيامة والجزاء بما يعلمه الله، (**وبعيثك**)، فعيل بمعنى مفعول، أى مبعوثك ورسولك الذى بعثته وأرسلته لتبليغ أوامرك ونواهيك، (**نعمة**) مفعول لأجله، أى بعثته ليكون نعمة ورحمة للعالمين، (**ورسولك**) الذى أرسلته للناس كافة، خاتمًا للنبوة والرسالة (**بالحق**)، متعلق برسول، أى أرسلته بالدين الحق الثابت فى نفس الأمر، (**رحمة**) عامة لجميع خلقك، وهو منصوب مفعول له أيضًا، فهو رحمة فى الدنيا والآخرة لمن آمن به، وفى الدنيا لمن كفر بحقن دمه وصيانة ماله، وقد يحصل ببعضهم رحمة فى الآخرة بتخفيف عذابه أيضًا، وقد يفرق بين النعمة والرحمة هنا بأن يقال: النعمة ما حصل به من الخير والبركة ليمنه، والرحمة هدايتهم بسببه التى كانت سببًا لخلوصهم من الكفر والضلال؛ لئلا يكون تكرارًا.

(وأفسح له فى عدنك)، الفسحة التوسعة، وعدن بسكون الدال اسم للجنة، ومعناها دار للإقامة والخلود، من عدن بمعنى أقام، وهو اسم للجنة مطلقًا، ولها أسماء أخر، ويكون اسمًا لجنة مخصوصة أيضًا عرفها لهم، والمراد بالدعاء له بالفسحة طلب بهجة مقامه وزيادة حسنه وشرف منظره؛ لأن سعة المنزل أمر مستحسن، ولذا قالوا: حسن المنازل ما سافر فيه النظر، وإلا فسعة الجنة معلومة، قيل: روى عدلك، باللام، أى معدلتك وجزاؤك له بما يليق به.

(واجزه مضاعفات الخير من فضلك)، المعنى أعطه من إنعامك وفضلك، ما تضاعفه له من الخيرات الأخروية، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وهو ظاهر، إلا أنه اختلف فى ضبطه بعد الاتفاق على أنه بهمزة وجيم وزاء معجمة، فقيل: إنه بهمزة وصل وجيم ساكنة من الجزاء، فإنه ثلاثى، وقيل: إنه بهمزة قطع مفتوحة وجيم مكسورة وزاء ساكنة من الجائزة، وهى العطية.

وقال السخاوى فى القول البديع فى الصلاة على الحبيب الشفيع: إنه بفتح الهمزة وجيم ساكنة وزاء مكسورة، من الجزاء كما ضبط فى بعض نسخ الشفاء، والصواب كما وجد فى بعض الأصول المعتد بها وصل الهمزة؛ لأن فعله ثلاثى، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا﴾ [الإنسان: ١٢]. انتهى.

أقول: إن صحت الرواية بما ذكره أولاً، فتوجيهه أنه من الإجزاء بمعنى الكفاية، أبدلت همزته الأخيرة، ثم عومل معاملة المعتل كآدم، والمعنى اكفه عمن سواك؛ لما كلفته به من القيام بأعباء رسالتك، والضعف المثل فما زاد، وليس بمحصور كما حققه أهل اللغة، وقوله: من فضلك، إشارة إلى أن الثواب تفضل من الله تعالى؛ لأنه لا يجب عليه شىء، خلافًا للمعتزلة كما بينه المتكلمون.

(مهنئات له)، صلى الله تعالى عليه وسلم، جمع مهنأة، بتشديد النون والهمزة، اسم مفعول من الهنىء، وهو السائغ، وكل ما أتى من غير تنغيص وتعب، وهو حال من مضاعفات، **(غير مكدرات)**، أى منغصات، وهو حال أيضًا أو صفة لمهنآت مؤكدة، **(من فوز)**، بفاء وزاء معجمة عند الأكثر، وهو الظفر بنيل البغية، وقيل: إنه براء مهملة بمعنى سريع عاجل كما قيل: أهنأ البر عاجله، مستعار من فارت القدر إذا غلت.

(ثوابك)، الثواب: العطاء فى مقابلة عمل، **(المحلول)** بحاء مهملة، اسم مفعول من حل المكان وبه وفيه إذا نزل، أى الكائن فى الجنة، أو الذى أوصلته له، فصار صفة حالة فيه، وقيل: معناه المستوجب، بفتح الجيم، أى الذى استوجبه واستحقه من حل إذا وجب،

وهو بعيد متكلف، وفى رواية: المضنون، بدل المحلول، أى الذى يضن به لنفاسته، **(وجزيل)**، أى كثير عظيم، **(عطائك)**، أى إحسانك وإنعامك، **(المعلول)**، أى المضاعف من العلل، وهو الشرب مرة بعد أخرى، ويقابله النهل، وهو الشرب مرة، قال كعب:

كأنــه منهــل بــالراح معلــول

فشبه عطاءه بمنهل عذب يرده العطاش كما تريد مرارًا، فهو استعارة، والمراد أنه كثير لا ينقطع.

(اللهم أعل)، بقطع الهمزة، **(على بناء الناس)**، بموحدة ونون، وروى بدل الناس: البانين، جمع بان، **(بناءه)**، بموحدة ونون، أى اجعله عاليًا رفيعًا، أى اجعل مقامه فى الجنة فوق كل مقام، أو اجعل مقداره أرفع من كل مقدار، أو ذاته أشرف من جميع الذوات؛ لأن الذوات بناء الله كما ورد فى الحديث، وصحح فى بعض النسخ: ثناء الناس، وثناء بمثلثة، أى اجعل مدحه والثناء عليه فوق ما يثنى به الناس عليه، فإنهم لا يقدرون على أدائه حق الأداء.

(وأكرم مثواه لديك)، أى اجعل مقامه عندك كريمًا، أى حسنًا مرضيًا، من ثوى بالمكان إذا أقام به، **(ونزله)**، بضم النون وسكون الزاء المعجمة ويجوز ضمها، وهو القرى المعد للضيف إذا نزل، والمراد به ثوابه وأجره، وحسن استعارته هنا ذكره بعد المثوى، وهو المنزل، فإنه كرم على كرم.

(وأتم له نوره)، أى اجعل النور الذى أودعته فيه تامًا كاملاً، فيكون فى سائر جهاته وحواسه وقلبه، كما ورد فى دعائه، عليه الصلاة والسلام: «اللهم اجعل فى قلبى نورًا، وفى سمعى نورًا، وفى بصرى نورًا، وفى سائر جهاتى نورًا»(١).

(واجزه)، فيه ما تقدم من الضبط قريبًا، **(من ابتعاثك)**، افتعال من البعث بموحدة ومثلثة، أى بعثك له بالنبوة والرسالة، فقوله: **(له)** متعلق به، وليست اللام تعليلية متعلقة باجزه كما قيل، أى كافئه على ما قام به من أمور الرسالة، **(مقبول الشهادة)**، أى شهادته فى المحشر للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وعلى الأمم، **(ومرضى المقالة)**، أى ما يقوله ثمة من الشهادة والشفاعة، فلا يسخط ولا يرد له قوله، **(ذا منطق عدل)**، مصدر ميمى بمعنى النطق، وعدل بمعنى معتدل مستقيم، وهو حال أيضًا، والمراد به ما يقول بعد الشفاعة من حمده تعالى بمحامد لا تضاهى.

---

(١) أخرجه البخارى (٨/٨٦)، ومسلم (١٨١/٧٦٣)، وأبو داود (١٣٤٩)، والنسائى (٢/٢١٨)، وأحمد (١/٣٥٢)، والحاكم (٣/٥٣٥)، وعبد الرزاق (٣٨٦٢).

(وخطة فصل)، بتقدير مضاف، أى وذا خطة، وهى بضم الخاء المعجمة وتشديد الطاء المهملة، وهى الأمر والشأن، والفصل الجزل الفاصل بين الحق والباطل يوم القيامة، **(وبرهان عظيم)**، أى دليل نبوته ورسالته القوى القاطع من معجزاته الباهرة، وقد ذكر هذا صاحب القاموس فى كتابه المسمى بالصلات والبشر فى الصلاة على خير البشر، مع ما فيه من الزيادات واختلاف الروايات، وحسبك من القلادة ما أحاط بالجيد، وزاد أبو بكر بن أبى شيبة فى رواية فيها مجهول: اللهم اجعلنا سامعين مطيعين، وأولياء مخلصين، ورفقاء مصاحبين، اللهم أبلغه منا السلام، واردد عليه منا السلام.

(وعنه)، أى عن على، كرم الله وجهه، **(أيضًا فى)** كيفية **(الصلاة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، لكن قال الحافظ السخاوى: إنه لم يقف على أصله أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] **(الآية)**، أى وتلا الآية الآمرة بذلك إلى آخرها؛ لتقع صلاته بعدها امتثالاً لأمر الله فى قوله عقبها: **(لبيك اللهم ربى وسعديك)**، أى إجابة بعد إجابة وإسعادًا بعد إسعاد فى طاعتك وامتثال أوامرك، والتثنية فيهما لمجرد التكرار، وعاملهما محذوف وجوبًا كما فصل فى كتب النحو.

(صلوات الله البر الرحيم)، أى المنعم المتفضل بأنواع البر والرحمة، ومعنى البر العطوف اللطيف بعباده، وهو من أسمائه تعالى، ولم يسمع بار؛ لأن البر أبلغ منه، وصلوات **(الملائكة المقربين)**، كجبريل وإسرافيل وخصهم لشرفهم، **(والنبيين والصديقين)** المبالغين فى الصدق والإخلاص من أشراف المؤمنين الصالحين، **(والشهداء والصالحين)**، لكل خير القائمين من غير تقصير بحقوق الله وحقوق عباده، والشهداء جمع شهيد فعيل بمعنى فاعل أو مفعول، وهو من قُتِلَ مجاهدًا فى سبيل الله لإعلاء كلمته تعالى، ومن ألحق بهم كالمبطون والغريق ونحوهما، سمى به؛ لأن الله وملائكته يشهدون له بالجنة، أو لأنه حى، فكأنه شاهد حاضر، أو لأن ملائكة الرحمة تشهده، أو لقيامه بشهادة الحق أو لشهود ما أعد له من الكرامة حين قتل.

(ما سبح لك من شىء)، ما مصدرية ومن زائدة، وهو للتأبيد، أى صلوات هؤلاء دائمة مستمرة مدة تسبيح الأشياء لك، ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وهذا على ما وقع بدون واو فى قوله: ما سبح... إلى آخره، وفى نسخة: وما سبح، فما موصولة معطوفة على الاسم، ومن بيانية، أى وصلوات الله وصلوات كل شىء سبحك.

(يا رب العالمين)، أى جميع المخلوقات، فهو شامل للعقلاء وغيرهم تغليبًا كما حقق

فى كتب التفسير.

(على محمد بن عبد الله)، متعلق بمقدر خبر لصلوات الله، **(خاتم النبيين)**، أى آخرهم بعثة، **(وسيد المرسلين)**، أى أفضلهم وأشرفهم، وأضاف خاتم للنبيين متابعة لما فى القرآن، وسيد المرسلين تفننًا، وإطلاق السيد عليه ثابت بالأحاديث كقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[1]، وأما قوله: «لا تسمونى سيدًا»، فمؤول بلا تصفونى بسيادة كسيادتكم، أو هو تواضع منه، وورد إطلاقه على الله أيضًا بمعنى المالك كما فصلناه فى غير هذا المحل، **(وإمام المتقين)**، الذين يقتدون به فى العلم والعمل، **(ورسول رب العالمين)** إلى الخلق أجمعين، **(الشاهد)** على الأنبياء بأنهم بلغوا أممهم، وعلى أممهم بما بلغوهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] كما تقدم تحقيقه.

(البشير) للمؤمنين بسعادة الدارين، **(الداعى إليك)**، أى الذى دعا الخلق إلى طاعة الله تعالى وتوحيده **(بإذنك)**، أى بأمرك بدعوتهم، أو بتيسيرك وتسهيلك، **(السراج المنير)**، شبهه بذلك لإزالته ظلمة الكفر، وتنويره لقلوب المؤمنين بنور هدايته، وتوضيحه لطرق الحق والحقيقة، ولأن ذاته صلى الله تعالى عليه وسلم نور، ولذا ورد أنه لم يكن له ظل كما مر، **(وعليه السلام)**، أى السلامة من كل وصمة ونقص.

(وعن ابن مسعود) كما رواه ابن ماجه والبيهقى فى كيفية أخرى للصلاة عليه: **(اللهم اجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك)**، المراد بجعلها إنزالها، ولذا عداه بعلى، فقال: **(على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد)**، بالجر بدل مما قبله، **(عبدك ورسولك)**، قدم وصفه بالعبودية لشرفها بالاختصاص وتقدمها، **(إمام الخير)**، أى إمام الأخيار، أو المقتدى به فى كل خير، **(ورسول الرحمة)**، أى الذى أرسل رحمة للعالمين، وقد ورد فى حديث مسلم: «أنا نبى الرحمة».

(اللهم ابعثه مقامًا محمودًا)، يحمده فيه جميع الأنبياء وسائر الخلق، وهو مقام الشفاعة العظمى، وقد ورد تفسيره بهذا، ومقامًا منصوب على الظرفية بابعثه بمعنى أقمه، وفسر بعضهم البعث بالإحياء والتنكير للتعظيم، **(يغبطه فيه الأولون والآخرون)**، أى يتمنون نيل مثله من غير زوال له، وهذا هو الفرق بين الغبطة والحسد، ولذا قيل: إن الغبطة حسد غير مذموم، وقد يراد بالغبطة لازمها، وهى المحبة والسرور بما رأوه فقط، وهو اللائق بالرسل والكمل، فإن منهم من تمنى مقام غير الذى خصه الله تعالى به، كأنه يقول: هلا

---

(١) تقدم تخريجه.

ساويته فى مقامه، وفيه اعتراض خفى، ولذا لما قيل له، صلى الله تعالى عليه وسلم: هل يضر الغبط؟ قال: «لا، إلا كما يضر العضاة الخبط»، فأشار إلى أن فيه ضررًا ليس كضرر تمنى الزوال، فإن الخبط يقطع الورق دون الأغصان والساق، فاعرفه فإنه دقيق.

(**اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد**)، تقدم بيانه، (**وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد، وكان الحسن البصرى، رحمه الله، يقول: من أراد أن يشرب بالكأس الأوفى**)، أراد به إناء فيه ما يرويه ويزيد، من الوفاء وهو الكثرة، وفى القاموس: وفى وأوفى، نمى وكثر فهو وفى ووافٍ، وهو المراد، ورده الزبيدى فى لحن العوام بأنهم يقولون: درهم واف، إذا كان يزيد فى وزنه. وقال أبو بكر: الوافى الذى لا زيادة فيه ولا نقص، وهو الذى وفى بزنته. انتهى.

(**من حوض المصطفى**) الذى يسقى منه العطاش يوم القيامة، وهل هو الكوثر أو غيره، فيه ما فيه، (**فليقل: اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه وأولاده وأزواجه وذريته**)، بضم المعجمة وقد تكسر كما مر: نسل الإنسان من ذكر وأنثى، وقد يخص بالنساء والأطفال، ومنه ذرارى المشركين من الذرء وهو الخلق، ولكثرتها أسقط الهمزة، وقيل: من ذر فرق أو من الذر؛ لأنهم خلقوا أولاً مثل الذر وهو النمل الصغير، وعليهما فلا أصل له فى الهمز، ويدخل فيهم أولاد البنات اتفاقًا على ما قاله ابن الحاجب.

لكن رُدَّ بأن مذهب أبى حنيفة أنهم لا يدخلون، وهو رواية عن أحمد، نعم أجمعوا على دخول أولاد بنات فاطمة فى ذريته، صلى الله تعالى عليه وسلم، خصوصية لهم؛ لشرف هذا الأصل العظيم والمجد الكريم، وبين الأزواج والآل عموم وخصوص من وجه، وبين الذرية والآل عموم وخصوص مطلق.

(**وأهل بيته وأصهاره وأنصاره وأشياعه**)، أى أتباعه جمع شيعة، وشيعة الرجل أتباعه، والفرقة على حدة، ويقع على الواحد المذكر وغيره، وغلب بعد ذلك على طائفة ادعت تفضيل على، كرم الله وجهه، على غيره كما سيأتى بيانهم فى محله.

(**ومحبيه**)، المراد بهم من بلغت محبته منه محلاً لا يصل إليه غيره، بحيث يكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله.

(**وأمته**)، من عطف العام على الخاص؛ ليشمل جمع الأمة، (**وعلينا**)، يعنى المتكلم ومن يختص به، (**معهم أجمعين يا أرحم الراحمين**)، ولتعميمه فى هذا الدعاء وتفصيله تفصيلاً تامًا كان جزاء من صلى عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، ودعا له بهذا الدعاء من جنس

عمله بأن يكون مشربه أوفى.

(وعن طاوس)، هو الإمام أبى عبد الرحمن بن كيسان كما تقدم، **(عن ابن عباس أنه كان يقول)** إذا صلى عليه صلى الله تعالى عليه وسلم: **(اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى)** يوم القيامة، إذا قيل له صلى الله تعالى عليه وسلم: اشفع تشفع، وقال: الكبرى؛ لأن له صلى الله تعالى عليه وسلم شفاعات ثمة بلغها النووى خمسًا، وقد تقدم ذكرها، والمراد بها شفاعته لفصل القضاء، لا لإخراج عصاة المؤمنين من النار كما قيل.

فإن قلت: شفاعته مقبولة، فما فائدة الدعاء له بهذا؟ **قلت:** هذا أمر نابه تعبدًا لنيل الثواب، وإن كان أمرًا محققًا كما فى قوله: **(وارفع درجته العليا)**، ومرتبته فى جنات النعيم، والمراد بهذا كله تعظيمه، **(وآته)**، أى أعطه وأنعم عليه، **(سؤله)**، فعل بمعنى مفعول كخبز بمعنى مخبوز، أى مسئوله ومطلوبه وما يحبه ويبتغيه، **(فى الآخرة والأولى)** أى الدنيا، سميت أولى لتقدمها على الآخرة، ومطلوبه فى الآخرة درجات قربه، ونجاة أمته فى الدعاء إعلاء كلمة الله ونصره، ونصر أمته، وسعة ملكهم، وأن لا يسلط عليهم أعداءهم، ولا يستأصلهم، ولا يهلكهم بسنة عامة، ونحوه مما ورد فى الحديث: **(كما آتيت إبراهيم وموسى)**.

فإن قلت: الفصل معقود لبيان كيفية الصلاة، وليس فى هذا ذكر لها. **قلت:** المراد بالصلاة الدعاء له، وهو دعاء فيه تعظيم وثناء عليه بما يليق به.

(وعن وهيب)، بالتصغير، **(ابن الورد)**، ويقال: ابن أبى الورد المخزومى المكى الزاهد الثقة مولاهم، واسمه عبد الوهاب، ووهيب لقبه، وكنيته أبو عثمان، روى عن عطاء مرسلاً وغيره، وروى عنه كثير، وأخرج له مسلم وأصحاب السنن، وله أحاديث ومواعظ، توفى سنة ثلاث وخمسين ومائة، وفى بعض النسخ: وهب، مكبرًا والمعروف الأول.

(أنه كان يقول فى دعائه) له، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(اللهم أعط محمدًا أفضل ما سألك لنفسه)**، أى أجب دعاءه بما أحبه لنفسه، **(وأعط محمدًا أفضل ما سألك له)**، أى لأجله، **(أحد من خلقك)**، واستجب دعاءهم له، **(وأعط محمدًا أفضل ما أنت مسئول له إلى يوم القيامة)**، تعميم بعد تعميم.

(وعن ابن مسعود)، رواه عنه ابن ماجه، والبيهقى، والديلمى، والدارقطنى، وتمام فى فوائده، **(أنه كان يقول: إذا صليتم على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأحسنوا الصلاة عليه)**، أى اقصدوا أحسنها وقولوه، **(فإنكم لا تدرون)**، أنها تبلغه أم لا **(لعل**

ذلك) الدعاء والصلاة **(يعرض عليه)**، وتبلغه صلاتكم عليه، فينبغى أن يتحرى الأحسن حتى يسره صلى الله تعالى عليه وسلم ما يبلغه منه، قيل: لعل هنا للجزم، فإنه ورد أنها تعرض عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، وسيأتى.

وسُئل ابن حجر: هل الأفضل والأحسن فى الصلاة عليه أن يقول: صلى الله على محمد، أو على سيدنا محمد بصفة السيادة؟.

فأجاب: بأن اتباع الآثار الواردة أرجح، لا يقال: لعله تركه تواضعًا منه كما لم يكن يقول عند ذكر اسمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو مندوب لغيره؛ لأنا نقول: لو كان كذلك جاء عن الصحابة والتابعين، ولم يرو عنهم إلا فى حديث ضعيف فى الشفاء عن ابن مسعود، وذكر الشافعية: أنه لو حلف أحد أن يصلى على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أفضل صلاة، فبره بأن يقول: اللهم صل على محمد كلما ذكره الذاكرون، وسهى عن ذكره الغافلون.

وقال النووى، رحمه الله: أفضله ما فى التشهد، والحاصل أنه لم يرو ذكر سيدنا عن أحد من الصحابة، ولو كان مندوبًا ما خفى عليهم، والخير كله فى الاتباع. انتهى.

وهذا يقرب من مسألة أصولية، وهى أن سلوك الأدب أحسن، أو الاتباع والامتثال؟ ورجح الثانى، وقيل: إنه هو الأدب كما مر.

وقوله: **(وقولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك)**، إلى قوله: **(إنك حميد مجيد)**، تقدم بيانه بما يغنى عن إعادته، إلا أنه قيل: إنه بيان للحسن الذى ذكره ابن مسعود، وأشاد لما أمر به من الإحسان فى الصلاة عليه، وأنه الأحسن، وقيل: إنه يحتمله ويحتمل أن يكون تمثيلاً للحسن منه، وإنكان فوقه ما هو أحسن منه، وأنه هو الظاهر، وفيه نظر.

(وما يؤثر)، بالبناء للمجهول، أى ينقل عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعن الصحابة والتابعين، وما اسم موصول مبتدأ خبره كثير الآتى، **(من تطويل الصلاة وتكثير الثناء على أهل البيت وغيرهم)** من الصحابة وتفضيلهم كما مر، **(كثير)** فى الآثار المروية عن السلف حتى أفرد بتآليف، من أحسنها القول البديع للسخاوى المتقدم ذكره.

(وقوله) فى الحديث المتقدم فى التشهد: **(والسلام كما علمتم)**، يعنى فى تشهد الصلاة فى قوله: السلام عليك أيها النبى... إلخ، وهو إشارة إلى تفسير ما سبق فى رواية مالك، عن ابن مسعود لما سألوه: كيف نصلى عليك؟ أخره إلى هنا، وهو إشارة إلى ما علمهم من التشهد، وقوله: علمتم بالبناء للمجهول وبتشديد اللام، أو بالبناء للفاعل وتخفيف اللام كما تقدم، والمعنى ظاهر، وهما متلازمان؛ لأنهم إذا علموا عَلِمُوا، لكن

ما بعده يقتضى الأول، أعنى قوله: (**هو ما علمهم فى التشهد من قوله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم: (**السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**) تقدم تفسيره.

(**وفى تشهد على**)، رضى الله عنه، وتقدم أن التشهد روى عن الصحابة من طرق كثيرة أسندوها، وهذا لم نر من رواه عن على، (**السلام على نبى الله، السلام على أنبياء الله ورسله**)، قدمه لبيان شرفه وتفضيله عليهم، (**السلام على رسول الله**) صلى الله تعالى عليه وسلم، قيل: أخر وصفه بالرسالة إشارة إلى تأخر رسالته بحسب الزمان؛ لأنه مسك الختام، (**السلام على محمد بن عبد الله**)، كرر السلام عليه باسمه ونسبه تأكيدًا، (**السلام علينا وعلى المؤمنين والمؤمنات من غاب منهم ومن شهد**)، أى حضر، (**اللهم اغفر لمحمد**)، سيأتى بيان الدعاء له صلى الله تعالى عليه وسلم بالمغفرة، (**وتقبل شفاعته، واغفر لأهل بيته، واغفر لى ولوالدى**)، بالتشديد مضاف لياء المتكلم، (**وما ولدا**)، زاده ليشمل أقرباءه المسلمين وحواشى نسبه، إلا أن فيه إشكالاً؛ لأن عليًا هو الذى قاله، فكيف يدعو لوالديه، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، وهى أول هاشمية ولدت هاشميًا، أسلمت وتوفيت بالمدينة، وكفنها رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى قميصه، واضطجع فى قبرها، وقال: «جزاك الله من أم خيرًا»؛ لأنها ربته صلى الله تعالى عليه وسلم وأحسنت صنيعها معه كما ذكره الطبرى فى الرياض النضرة، وإنما اضطجع صلى الله تعالى عليه وسلم فى قبرها ليخفف عنها ضغطة القبر كما صرح به فى الحديث، وأبو طالب مات كافرًا، وادعاء بعض الشيعة أنه أسلم لا أصل له، وقد نهى عن الاستغفار للمشركين كما فى الآية الكريمة. انتهى.

وأجيب عنه بأجوبة، فقيل: إنه تغليب لأمه، ولا وجه له، وقيل: المراد بأبويه آدم وحواء، ولا يخفى بعده، وقيل: المراد تعليم من يدعو من المؤمنين أن يقوله، وهو أقربها، وما قيل: إنه سهو من الناسخ، زاد فيه ألفًا، وإنما هو ولدى، يعنى الحسن والحسين وأولادهما، ليس بشىء، وكذا إن كان من كلامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو هو بناء على إسلام أبويه على ما ارتضاه السهيلى، وسيأتى بيانه، (**وارحمهما**)، فيه ما تقدم، (**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته**)، تقدم بيانها.

(**جاء فى هذا الحديث عن على الدعاء للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالغفران**)، وهى المغفرة، وهى كما قال الراغب: إلباس الشىء ما يصونه، فهى من الله صون عبده من مس العذاب، والدعاء بها له، صلى الله تعالى عليه وسلم، من أمته لا ينبغى؛ لإيهامه

القصور من المدعو له كالدعاء له بالرحمة، وأما قول الله له: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، ودعاؤه لنفسه بالمغفرة، فلا يقاس عليه.

(وفى حديث الصلاة عليه) صلى الله تعالى عليه وسلم **(عنه أيضًا)**، أى عن على مثله، **(قبل)** بالبناء على الضم، أى قبل هذا، تقدم من طريق الحاكم، **(الدعاء له)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بالرحمة)**، وإنما يدعى له بالصلاة والبركة اقتصارًا على ما ورد فى حقه، وإن كان معناها الرحمة، لكنها رحمة خاصة مشعرة بنوع تعظيم، **(ولم يأت فى غيره)**، أى فى غير هذا الحديث **(من الأحاديث المرفوعة المعروفة)** المنسوبة إليه صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو بيان لغيره.

(وقد ذهب أبو عمر بن عبد البر) الإمام الجليل القدر، كما تقدم، **(وغيره)** من علماء المالكية والحديث، **(إلى أنه لا يدعى للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالرحمة)**، فهو مكروه عندهم؛ لإيهامه التقصير، **(وإنما يدعى له بالصلاة)**، أى بهذا اللفظ المأمور به فى القرآن، **(والبركة التى تختص به)**، يعنى التى بمعنى الدوام والثبوت على التشريف والتكريم، بكثرة الخيرات الإلهية وفيض المواهب اللدنية، **(ويدعى لغيره)** من المؤمنين، **(بالرحمة والمغفرة)**؛ لأنه غير معصوم، ولا يخاف من تقصير، فهو محتاج لمغفرة الله ورحمته أشد، لا كالرسول المعصوم الذى غفر الله له ما تقدم وما تأخر، والمراد غيره صلى الله تعالى عليه وسلم من أمته، لا الأنبياء، فإن من الأدب أن لا يدعى لهم بذلك أيضًا، وكذلك الصحابة ينبغى أن يقال فيهم: رضى الله تعالى عنهم، ولا يرد على هذا أن الصلاة معناها الرحمة، فإنه لا يلزم من كون لفظ بمعنى لفظ أنه يستعمل فى محله، مع أنه غير مسلم، فإن الصلاة فيها معنى التعظيم، ولو كانت مطلق الرحمة لزم استعمالها فى حق غيره، وليس كذلك.

(وقد ذكر) الإمام **(أبو محمد بن أبى زيد)** فى مذهب مالك صاحب الرسالة المشهورة كما تقدم، **(فى الصلاة على النبى)** صلى الله تعالى عليه وسلم فى تشهد الصلاة، **(اللهم ارحم محمدًا وآل محمد، كما ترحمت على إبراهيم وآل إبراهيم)**، ورده المصنف بقوله: **(ولم يأت هذا فى حديث صحيح، وحجته)** فى جواز الدعاء له صلى الله تعالى عليه وسلم بالرحمة الذى منعه غيره **(قوله)** صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما روى عنه **(فى السلام)** المروى فى التشهد: **(السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته)**، وإطلاق الرحمة عليه هنا يدل على جواز الدعاء له صلى الله تعالى عليه وسلم بالرحمة، إذ لا فرق بينهما.

وقال الرافعى فى الشرح الكبير: من الناس من زاد: وارحم محمدًا كما رحمت على إبراهيم، وربما يقولون: وترحمت على إبراهيم، بالتاء، ولم يرد فى خبر صحيح، وإنه لا

يقال: ترحمت عليه، وإنما يقال: رحمته، وفى الترحم تكلف لا يحسن إطلاقه على الله. وقال الإسنوى: فيه أقوال، وقد أسقطها النووى من الروضة، وقول الرافعى: إنه لا يقال: رحمت عليه، غير مستقيم، فإن الصغانى قال: يقال: ترحمت عليه، وقال الغزالى: لا يجوز ترحم بالتاء، وهو مراد الرافعى بقوله: إنه لا يحسن.

وقال النووى: إنه بدعة، وتابع ابن العربى فى إنكاره، وتخطئة ابن أبى زيد، وفى الأذكار ما قاله بعض أصحابنا، وابن أبى زيد من استحباب زيادة: وارحم محمدًا وآل محمد، بدعة لا أصل لها، وقد جهّل ابن العربى فى شرح الترمذى قائله؛ لأنه ليس فى التشهد الذى علمه رسول الله الصحابة، فالزيادة استدراك عليه. وقال بعضهم: إنكاره غلط؛ لأن الحاكم رواه فى مستدركه بأسانيد صحيحة عن ابن مسعود، وكذا رواه الذهبى، وقد قاله الشافعى فى رسالته، وهو رد لما قاله مقلدوه، كما قال البرهان الحلبى فى حواشيه.

أقول: محصل ما قالوا بأسرهم، أنهم اختلفوا فى جواز الدعاء له صلى الله تعالى عليه وسلم بالرحمة والمغفرة، وفى وروده فى الحديث، والذى صححه أكثر الفقهاء والحفاظ، ثبوته وجوازه، ومنشأ الخلاف أن الرحمة والمغفرة تقتضى قصورًا وذنبًا حماه الله تعالى منه وأعطاه براءة منه، إذ قال له صلى الله تعالى عليه وسلم: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾ [الفتح: ٢]، وسوى بينهما إيماء إلى أن المتقدم كالمتأخر فى عدم الوقوع، ولذا قيل: المراد بذنبه ذنب أمته كما تقدم، فينبغى أن يقال: بجوازه مقرونًا بغيره غير منفرد تعبدًا وطلبًا للثواب، والمغفور له ليس ذنبًا كذنوبنا، بل أمور تقتضيها الجبلة البشرية، وتأباه العادة الملكية من الأشغال الدنيوية، وإن كانت مباحة أو لازمة لمقامه صلى الله تعالى عليه وسلم، ولذا قال: (**إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة**)، وسيأتى تحقيقه، إن شاء الله تعالى.

* * *

(فصل فى فضيلة الصلاة عليه ﷺ)

أى ثوابها وفوائدها لمن قالها، (**والتسليم عليه**)، أى قوله: السلام عليك أيها النبى، ونحوه، (**والدعاء له**) المأثور، نحو: اللهم آته الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة، والمراد تعظيمه صلى الله تعالى عليه وسلم وإظهار محبته بطلب بغيته، فليس من تحصيل الحاصل، ولا الاحتياج له، صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقدم حديثًا مسندًا برواية تبركًا به، رواه النسائى ومسلم، عن ابن عمر: (**حدثنا أحمد**

ابن محمد الشيخ الصالح من كتابه)، قالوا: من روى عنه المصنف، رحمه الله تعالى، من مشايخه واسمه أحمد بن محمد، عدة ناس، منهم أحمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عثمان بن غلبون الخولانى، وأحمد بن محمد بن عبد العزيز اللخمى، وهو ابن الرضى أبو جعفر، وأحمد بن محمد بن عبد الله الشارقى، والمراد الأول؛ لأنه أشهر مشايخه، وكان عليه أن يذكر ما يعينه، فكأنه اعتمد على شهرته.

قال: **(حدثنا القاضى يونس بن مغيث)**، تقدمت ترجمته، قال: **(حدثنا أبو بكر بن معاوية)** بن الأحمر الأندلسى، وهو محمد بن معاوية بن عبد الرحمن بن معاوية بن إسحاق بن عبد الله بن هشام بن عبد الملك بن مروان أبو بكر القرطبى، الإمام، الثقة، الجليل، رحل إلى المشرق سنة خمس وتسعين ومائتين، وسمع من النسائى وغيره، ودخل الهند تاجرًا، وتوفى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، قال: **(حدثنا النسائى)**، إمام الحديث، صاحب السنن المشهور، واسمه أحمد بن شعيب كما تقدم بيانه.

قال: **(حدثنا)**، وفى نسخة: أخبرنا من هنا... إلخ، **(سويد بن نصر)** أبو الفضل المروزى المعروف بالشاه الإمام الثقة، روى عن ابن المبارك وغيره، وأخرج له أصحاب السنن، وتوفى سنة أربعين ومائتين، قال: **(أخبرنا عبد الله، عن حيوة بن شريح)**، هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح التميمى مولاهم المروزى، شيخ خراسان، وأبوه تركى تاجر، وأمه خوارزمية، ولد سنة ثمان وعشرين ومائة، وتوفى سنة إحدى وثمانين ومائة، وقبره مهيب يزار، وأخرج له الستة، كما تقدم، وحيوة بن شريح، تقدمت ترجمته وما فيه.

(قال: أخبرنى كعب بن علقمة) بن كعب بن عدى التنوخى المصرى التابعى الثقة، توفى سنة ثلاثين ومائة، وأخرج له أصحاب السنن، وفى بعض النسخ: كعب، عن علقمة، وهو سهو، وقد تقدم هذا الحديث، **(أنه سمع عبد الرحمن بن جبير، مولى نافع)**، الإمام الجليل الثقة، أخرج له أصحاب السنن، وتوفى سنة سبع وتسعين، **(أنه سمع عبد الله بن عمر)** الصحابى المشهور، رضى الله تعالى عنهما، **(يقول: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: إذا سمعتم المؤذن)** وهو يؤذن للصلاة أو غيرها مما يشرع، **(فقولوا مثل ما يقول)**، من تكبير وتشهد وصلاة وحيعلة تصديقًا، وهو سنة معروفة، وقيل: إنه واجب، وتقدم بسط الكلام فيه، **(وصلوا علىَّ)**، وفى مسلم: «ثم صلوا علىَّ»، والمعنى واحد.

وقد علمت أن هذا أحد المواطن التى يستحب فيها الصلاة عليه كما تقدم، وأنه

يقرن فيه الصلاة بالسلام، فإنه الأفضل، وارتكاب خلافه مكروه، ولا يحتج لتعليمهم كيفية الصلاة السابقة؛ لأن السلام سبقها فى التشهد، فلا إفراد فيه، وقد جاء ذكر الصلاة مقرونًا بالسلام فى مواطن، منها عقب ما يقال عند ركوب الدابة، كما رواه الدارقطنى فى الدعاء مرفوعًا، وكذا فى غيره، وإنما حذف فى بعض المواضع اختصارًا، وكذا يستحب الصلاة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الإقامة كما ذكره الخيضرى فيما تقدم.

(فإنه من صلى علىَّ مرة واحدة، صلى الله عليه عشرًا)، فإن الحسنة بعشرة أمثالها، وكون الله عز وجل يصلى عليه، فيه من الرحمة له، وإعلاء قدره، ما لا يخفى، وقال يقول بالمضارع، إشارة إلى أنه يقوله من غير تأخر لما بعد الأذان، وظاهره أنه يتابعه فى الحيعلتين، وهو قول فيه، وفى قول معتمد أنه يقول عندهما: لا حول ولا قوة إلا بالله، أى لا قدرة للعبد على طاعته التى دعى إليها، إلا بتوفيقه، وكان ابن جبير يقول: سمعنا وأطعنا، ويسن أنه لا يرفع المجيب صوته فى الإجابة؛ لأن التشبيه ليس من كل الوجوه.

(ثم سلوا الله لى الوسيلة)، بأن يقول: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته، فإن من قال ذلك، حلت له شفاعتى يوم القيامة، والوسيلة لغة ما يتقرب به إلى كل كبير، وفسرت فى الحديث بقوله: **(فإنها منزلة فى الجنة)**، من أعلى منازلها، وقد يرد هذا لمعناها اللغوى، فإنها تقربه إلى الله، **(لا تنبغى لأحد من عباد الله إلا لعبد)**، أى لا تليق بكل أحد، فإنها أعلى المنازل، فلا تليق إلا بأقرب البشر، وقد فسرت الوسيلة أيضًا بالشفاعة العظمى كما مر، وجمع بينهما بأن صاحب تلك المنزلة هو صاحب الشفاعة العظمى أيضًا.

(وأرجو أن أكون أنا هو)، عبر بالرجاء، وإن كان الله تعالى أعطاه ذلك لوعد من لا يخلف الميعاد تواضعًا منه صلى الله تعالى عليه وسلم وتفويضًا لأمره فيما يستقبل إلى الله وتعليمًا لأمته وإرشادًا لهم؛ لأن يكونوا بين الخوف والرجاء دائمًا، لاسيما فى أمور الآخرة، وأنا تأكيد لاسم كان المستتر، وهو خبرها، وضع موضع إياه استعير ضمير الرفع لضمير النصب، وتقدم أن ذلك خلاف الظاهر، وقيل: اسمها ضمير مستتر، وأنا هو مبتدأ وخبر، والجملة خبر أكون، وما قيل: من أن هو وضع اسم الإشارة، أى أن كون ذلك العبد، كما فى قول رؤبة[1]:

(١) الرجز لرؤبة فى ديوانه (ص١٠٤)، وأساس البلاغة (ص٥٠٩)، والاشباه والنظائر (٦٣/٥)، وخزانة الأدب (٨٨/١)، ولسان العرب (٤١١/٨)، والمحتسب (١٥٤/٢)، وتهذيب اللغة (٤٠٧/٥)، ومقاييس اللغة (٣١٠/١)، ومجمل اللغة (٢٩٩/١).

فيهـا خطـوط مـن سـواد وبلـق كأنـه فـى الجلـد توليـع البهـق

لا وجه له، فإن مثله إنما ذكروه فى وضع الضمير المفرد موضع غيره، لا فى وضع المرفوع موضع غيره كما ذكره النحاة.

(**فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة**)، أى استحقت ووجبت له بفضل الله تعالى، عز وجل، من حل بمعنى نزل، وفى البخارى حلت له، وهما بمعنى، والشفاعة هنا مطلقة، فإن كان مذنبًا خلصته شفاعته، صلى الله تعالى عليه وسلم، من العذاب، وإلا شفع له بإعلاء درجته، أو بإدخاله الجنة من غير حساب.

وفى شرح مسلم للمصنف: أن هذا مختص بمن قال مخلصًا قاصدًا بذلك تعظيمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا مجرد الثواب، وقال ابن حجر: إنه تحكم غير مرضى، ولو أخرج الغافل كان أشبه، وتقدم الكلام على ذلك كله، وفيه الحث على الدعاء فى أوقات الصلاة؛ لأنه محل الإجابة كما قالوه.

(**وروى أنس بن مالك**)، كما فى شعب الإيمان للبيهقى: (**أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: من صلى علىَّ صلاة**) واحدة فى وقت ما، (**صلى الله عليه عشر صلوات**)، أى رحمة مضاعفة معظمة لا تشابه غيرها؛ لأن إضافته إلى الله إضافة تعظيم وتشريف، وإن كان كل من جاء بحسنة له عشر أمثالها، (**وحط عنه عشر خطيئات**)، إن كان ارتكب خطية، (**ورفع له عشر درجات**)، بإعلاء مقاماته فى جنة النعيم وعلو منزلته بقربه من الله.

(**وفى رواية**) أخرى رواها أبو يعلى: (**وكتب له عشر حسنات**)، فإن الصلاة عليه حسنة، وكل حسنة بعشر أمثالها، والزيادة هنا بإسناد ذلك إلى الله، وأنه فعل ذلك بنفسه، ولم يوكله للملائكة الكتبة، فيدل على أنها أعظم من سائر الحسنات، وصلاة الله كما علمت رحمته رحمة خاصة به، فهى على حقيقتها من غير مشاكلة كما قيل.

(**وعن أنس**) بن مالك، أنه روى (**عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، فى حديث رواه ابن أبى شيبة فى مسنده، أنه قال: (**إن جبريل**)، عليه الصلاة والسلام، (**نادانى**)، أى قال لى، ويحتمل أنه رآه فى الأفق، فناداه بصوت عال، قال فيه له: من صلى... إلى آخره، ويؤيد الأول قوله فى بعض النسخ: (**فقال: من صلى عليك صلاة**) بإخلاص، يقصد بها تعظيمك كما مر، (**صلى الله تعالى عليه عشرًا، ورفعه عشر درجات**)، فوق مقامه الذى يستحقه، وصلاة الله على من صلى عليه ثابتة فى أحاديث كثيرة مسندة صحيحة، وفى بعض الروايات زيادة على العشر، والأقل لا ينفى الأكثر.

(وفى رواية عبد الرحمن بن عوف) التى رواها الحاكم والبيهقى وصححها، **(عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه قال: لقيت جبريل، فقال لى: أبشرك)**، أى أخبرك بما يسرك سرورًا عظيمًا يظهر فى وجهك وبشرتك، وهو أصل معناه **(أن الله)**، أى بأن الله **(يقول: من سلم عليك)**، أى قال: السلام عليك أيها النبى، داعيًا لك بالسلامة من كل نقص وسوء، وملقيًا إليك عنان تسليمه، **(سلمت عليه)**، أى سلمته من كل سوء وحفته عنايتى، وعبر بهذا مشاكلة، **(ومن صلى عليك، صليت عليه)**، ليس فى هذه الرواية عدد ولا غيره، فهى محمولة على ما مر.

والحديث صحيح، روى من طرق، وسببه أن عبد الرحمن بن عوف كان يلازم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويخدمه ليلاً ونهارًا، فاتبعه ليلة، وقد خرج من منزله، فدخل حائطًا وسجد سجودًا طويلاً، حتى ظن أنه قبض روحه، فبكى، فقال له رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «ما لك؟»، فأخبره بما خطر بباله، فقال له: «جاءنى جبريل، وأخبرنى بأن الله يقول لى: من سلم عليك، سلمت عليه، ومن صلى عليك، صليت عليه، فسجدت شكرًا له»، وهو حديث صحيح المتن والسند. وقال الحاكم: لا أعلم فى سجدة الشكر أصح منه، والأحاديث فى فضل الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم كثيرة لا تحصى.

(ونحوه)، أى مثل هذا الحديث لفظًا ومعنى، **(من رواية أبى هريرة، ومالك بن أوس ابن الحدثان)**، بفتح الحاء والدال المهملتين ومثلثة وألف ونون، علم منقول من المصدر، ومالك هذا هوازنى مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، وأخرج له الستة، واختلف فيه، هل هو صحابى رأى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وروى عنه أحاديث مرفوعة؟ أو تابعى روايته مرسلة؟ والأصح عند الذهبى وغيره أنه تابعى، وتوفى سنة اثنين وتسعين، وهو ما روى عن عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، خرج يتبرز، ولم يجد من يتبعه، ففزع عمر واتبعه بمطهرة، فوجده ساجدًا فى شربة، فتنحى عنه حتى رفع رأسه، فقال له: أحسنت يا عمر؛ لتنحيته عنه تأدبًا، ثم قال لى: «إن جبريل أتانى، فقال: من صلى عليك واحدة، صلى الله عليه عشرًا، ورفعه عشر درجات»، أخرجه البخارى فى الأدب وغيره.

(وعبيد الله بن أبى طلحة) الأنصارى، وعبيد الله بالتصغير، وفى نسخة: عبد الله، مكبرًا. قال البرهان: وهو الأصح بل الصواب، وهو عبد الله بن أبى طلحة زيد بن سهل الأنصارى، أخو أنس لأمه، ووالد إسحاق وإخوته، وهو صحابى له رواية، توفى فى زمن الوليد، وحنكه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وسماه، وحديثه رواه أحمد،

والحاكم، وابن حبان، والنسائى، قال: خرج رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذات يوم، والبشر يرى فى وجهه، فقال لما سُئل عن سبب بشره: «جاءنى جبريل، فقال لى: أما يرضيك يا محمد أن لا يصلى عليك أحد من أمتك واحدة إلا صليت عليه عشرًا ولايسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرًا»، وأخرجه ابن الجوزى فى الوفاء بزيادة: «ولا يكون لصلاته منتهى دون العرش، ولا تمر بملك إلا قال: صلوا على قائلها كما صلى على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم».

(وعن زيد بن الحباب)، بضم الحاء المهملة، وموحدتين بينهما ألف، **(قال: سمعت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول:)**، الظاهر من السياق أنه صحابى سمع من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، كما فى سائر النسخ، وهو كما قالوه: وهم أو بيض له، أو سقط من الكاتب، فإن ابن الحباب ليس بصحابى ولا تابعى، وأين هو، وأين رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأصحابه؟ وإن صحت روايته.

وقيل: إنه لم يكن به بأس، ورحل فى طلب الحديث إلى الأندلس مع فقره، وله ترجمة فى الميزان، وكان المصنف، رحمه الله تعالى، لما أراد الحديث، سقط أول سنده، ولذا قال يحيى بن على القرشى المحدث: إنه وهم ظاهر، فإنه ليس بتابعى ولا من أتباعه، وإنما روى عن مالك وأمثاله، وليس له نظير فى اسمه واسم أبيه من الصحابة.

وهذا الحديث رواه ابن الحباب، عن ابن لهيعة، عن بكر بن سوادة، عن زياد بن نعيم، عن ابن شريح الحضرمى، عن رويفع بن ثابت الصحابى، عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فهو معضل لا مرسل كما قيل، وابن الحباب توفى سنة ثلاث ومائتين، وقيل: إنما حذف سنده؛ لضعفه، وهو اعتذار أعظم من الذنب، فإنه ليس بمعضل أيضًا؛ لأن المعضل إذا قيل: سمعت، يكون كذبًا، فالصواب أنه وهم، وجواب الشمنى عنه: بأن المصنف، رحمه الله تعالى، أسقط ما عدا زيد؛ لأنه لا غرض له فى ذكر رواته، لا وجه له، وإنما يصح لو لم يقل: سمعت، وزيد هذا هو أبو الحسين الحافظ الخراسانى، والذى يخطر بالبال أن قوله: سمعت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليس من قول زيد، وإنما هو قول أبى هريرة، وهو المقصود بالرواية، وما بعده متابعة له وبيان لكثرة طرقه، وهذا غاية ما يمكن فى توجيهه لحسن الظن به، وليس ببعيد، إلا إن نظر لزيادة قوله: وعن.

(من قال) فى صلاته على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(اللهم صل على محمد، وأنزله)**، أى أعطه، **(المنزل المقرب)** بصيغة المفعول، ويجوز كسر رائه، **(يوم القيامة)**، هو على ظاهره، أو المراد فى الآخرة، والقرب منه رفعة معنوية، المراد منه تعظيم

الثواب وفيض المواهب الربانية لأقرب مكان؛ لأن الله تعالى منزه عنه، (**وجبت له شفاعتى**)، أى تعينت وتحققت بلا تردد؛ لأن الله تعالى لا يجب عليه شىء عندنا.

(**وروى ابن مسعود**) فى حديث رواه الترمذى، وابن حبان، وفى نسخة: وعن ابن مسعود: (**أولى الناس بى يوم القيامة**)، أى أحقهم بشفاعتى وعنايتى، أو أقربهم منى منزلة، (**أكثرهم صلاة علىَّ**)، فإن ذلك يدل على محبته، والمرء مع من أحب.

(**وعن أبى هريرة، عنه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم: (**من صلى علىَّ فى كتاب**) كتبه من تأليف ورسالة وغيره كما مر بيانه، (**لم تزل الملائكة تستغفر له**)، أى تدعو له بالمغفرة، (**ما بقى اسمى**)، أى مدة بقائه مكتوبًا، (**فى ذلك الكتاب**)، والمراد التأبيد، كقوله تعالى: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧].

قال الطبرانى فى الأوسط: رواه أبو الشيخ فى الثواب، والمستغفرى. وقال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء: رووه بسند فيه ضعف، ومثله يعمل به فى فضائل الأعمال. وقال خاتمة العلماء المالكية: الخطاب فى معنى ذلك يحتمل أن المراد أنه كتب الصلاة عليه فى كتابه، ويحتمل أنه قرأ الصلاة عليه المكتوبة، وهو أوسع وأرجى، والأول أظهر وأقوى. انتهى. وتقدم نقله عن شيخ زروق.

قلت: الأول هو المراد؛ لأن المعنى أنه سن بذلك سنة حسنة لما كتبه، وكان سببًا لقراءته، فله أجره وأجر من قرأه أجرًا غير مقطوع ولا ممنون.

(**وعن عامر بن ربيعة: سمعت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: من صلى علىَّ صلاة، صلت عليه الملائكة ما صلى علىَّ، فليقلل من ذلك عبد أو ليكثر**)، العطف للتخيير، والفاء فصيحة، أى إذا عرفت بقاء هذا ودوامه ونفعه لك، فإن شئت أكثرت من كتابته كما استفيد من الأول، أو التلفظ به كما استفيد من هذا؛ لتربح ربحًا كثيرًا دائمًا، وإن لم تشأ فاقتصر على قليل منه نافع لك، وهذا فى الحقيقة حث له على الإكثار فى الحقيقة، فإن العاقل لا يترك الخير الكثير ما أمكنه، ولذا قيل: التخيير بعد الإعلام بما هو خير أكثر تحذيرًا من التفريط فى تحصيله قريب من التهديد، وفيه من البلاغة ما لا يخفى.

(**وعن أبى بن كعب**)، فى حديث رواه الترمذى وحسنه: (**كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا ذهب ربع الليل**)، أى الأول، وكان فعل ماض، لكنها تستعمل عرفًا للدوام، نحو: (**كان الله غفورًا رحيمًا**)، كما ذكره ابن جنى فى الخصائص، (**قام**) من نومه، وانتبه بعد استراحته، (**فقال**) لمن عنده من زوجاته وأهل بيته: (**يا أيها الناس اذكروا**

الله) بتمجيده وتحميده بأسمائه الحسنى، ثم ذكرهم ووعظهم، وقيامه ليتهجد، وخص هذا الوقت بما ذكر؛ لأنه وقت غفلة بمقتضى الطبيعة البشرية.

(جاءت الراجفة تتبعها الرادفة)، والراجفة من الرجفة، وهى الحركة بشدة، والرعدة معها صوت واضطراب، ولذا قيل للبحر: رجاف، وقد تظرف ابن نباتة المصرى فى قوله فى وصف من حدثت له رعشة فى كفه:

ما كان من رجاف كفك منكر فالبحر من أسمائه الرجاف

والمراد بالراجفة ما يكون بين يدى الساعة من الفتن والهرج والمرج والزلازل، والرادفة من ردف بمعنى تبع، والمراد الساعة أو الصيحة أو النفخة أو زلزلة أخرى، والمراد إخبارهم بقرب الساعة وأشراطها.

(جاء الموت بما فيه)، من سكراته وأهواله وهو أقرب لكل أحد من حبل الوريد، والمراد حثهم على طاعة الله وإيقاظهم من نوم الغفلة.

(فقال أبى بن كعب)، لما سمع ما قاله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(يا رسول الله، إنى أكثر الصلاة عليك)**، وأشغل بها أوقاتى بعد أداء الفرض ونحوها، **(فكم أجعل لك من صلاتى؟)**، أى ما مقدار الوقت الذى أصلى عليك فيه؟ **(قال: ما شئت)**، أى أى قدر تريده ويتيسر لك، **(قال: الربع؟)**، أى أصرف ربع أوقاتى لها؟ **(قال: ما شئت، وإن زدت)** على الربع، **(فهو خير لك)**، نافع فى الدنيا والآخرة.

(قال: الثلث؟)، أى أصرف لها ثلث وقتى؟ **(قال: ما شئت)**، أى يكفى هذا، **(وإن زدت فهو خير)** وأحسن لك.

(قال: النصف؟ قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير لك، قال: الثلثين؟ قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير، قال: يا رسول الله، أجعل صلاتى كلها لك؟ قال: إذا تكفى)، أى تغنيك عما عداها؛ لأن فيها خير الدنيا والآخرة، وزيادة الرزق ببركتها، **(ويغفر ذنبك)**؛ لأنها مكفرة لسائر الذنوب.

أقول: الصلاة فى هذا الحديث بمعنى الدعاء كما ذكره فى كتاب الصلاة والبشر، ومعناه أنه فى مواطن الدعاء كعقب الصلاة ونحوها إذا أراد أن يدعو لنفسه، وله صلى الله تعالى عليه وسلم، هل يزيد فى دعائه لنفسه على الصلاة عليه، أو يسوى بينهما، أو يزيد فى الصلاة عليه، أو يجعل دعاءه كله له ويترك دعاءه لنفسه، فإنه إذا فعل ذلك كفاه عن الدعاء لنفسه، فإن الله يصلى عليه أضعاف صلاته، فينال كل خير من الله تعالى من غير طلب، وهذا أولى وأحب إلى الله ورسوله.

إذا عرفت هذا، فما قيل هنا من أن هذا الحديث يقتضى أن الصلاة عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أفضل من سائر العبادات؛ لأن الشارع إذا خص وقتًا بعبادة تكون فيه أفضل من غيرها، كأذكار الركوع والسجود، فإنها أفضل من غيرها، وإن كان غيرها فى نفسه أفضل، فالصلاة عليه لمن يريد الدعاء أفضل من قول: لا إله إلا الله، وإن ورد فى الحديث: «أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى: لا إله إلا الله»(١).

وقد سُئل شيخ الإسلام السراج البلقينى عن قراءة القرآن وذكر الله، والصلاة على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أيها أفضل؟.

فأجاب بأن كلاً منها أفضل فى محله، فالصلاة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى وقت الدعاء وهى فى الصلاة واجبة، فهى أفضل من غيرها، فإذا جعل الإنسان دعاءه كله للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه يكفى عما ثمة، وهى أفضل من الاستغفار وغيره من الدعاء، وهذا مما لا وجه له، ولا حاجة بنا إليه، فإن الحديث كما علمت، إنما يدل على أن صلاته على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تغنى عن دعائه لنفسه، ولا يقتضى أنها أفضل من سائر العبادات، ولا من قراءة القرآن وغيرها كما لا يخفى.

وقد أطال هذا القائل من غير طائل، وبعد عن المرام بمراحل، ولبعض الشراح هنا كلام لا مساس له بهذا المقام، وهذا الحديث فى المعنى كالحديث القدسى: «من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين».

(**وعن أبى طلحة**)، زيد بن سهل الصحابى، وفى الصحابة أبو طلحة آخر، وهو الذى نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، كما قاله الخطيب. وقال البرهان: لا أعرف فى الصحابة من اسمه أبو طلحة غير ابن سهل هذا، وحديثه هذا أخرجه النسائى: (**دخلت على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فرأيت**) فى وجهه (**من**) آثار (**بشره**)، أى مسرته وانشراحه، (**وطلاقته**)، الطلاقة مصدر بمعنى البشاشة، قال الراغب: يقال: هو طلق الوجه، وطليق الوجه، إذا لم يكن كالحًا. انتهى. وهو فى الأصل من الإطلاق من الوثاق، فاستعير للبشاشة والسرور.

(**ما لم أره قط**) فيه؛ لأن دأبه الخشوع والسكون، (**فسألته**) عن سبب ذلك، (**فقال: وما يمنعنى؟**) من المسرة وانشراح الصدر، (**وقد خرج جبريل**) من عندى (**آنفًا**)، أى قريبًا من مجيئك، (**فأتانى ببشارة من ربى**)، الظاهر أن فيه قلبًا، أى أتانى ببشارة، ثم خرج،

---

(١) أخرجه الترمذى (٣٥٨٥)، والبيهقى (٤/٨٩، ٢٨٩، ٥/١١٧).

ومثله فى كلامهم، والحديث صحيح، أخرجه أحمد، وأصحاب السنن، (**أن الله**)، بفتح الهمزة بدل مما قبله وبكسرها، والجملة مفسرة للبشارة، وهى الخبر السار، (**بعثنى**)، أى أرسلنى (**إليك أبشرك أنه ليس أحد من أمتك يصلى عليك، إلا صلى الله عليه وملائكته بها**)، أى بصلاته التى صلاها، (**عشرًا**)، وقد تقدم هذا وتفسيره.

(**وعن جابر بن عبد الله**) فى حديث رواه البخارى، (**قال: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: من قال حين يسمع النداء:**)، أى الأذان، فتعريفه للعهد (**اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة**)، أى الدائمة، أو التى تقدم لها الناس، فهو كعيشة راضية. (**آت محمد الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذى وعدته، حلت له شفاعتى**) أى تحققت (**يوم القيامة**)، وظاهره أنه يقوله وهو يسمع الأذان من غير إجابة.

وبه استدل الطحاوى، على أنه لا يتعين الإجابة، أو المراد أنه يقوله حين يسمع النداء بتمامه، فيكون بعد الإجابة، والرواية تنكير مقامًا، حكاية لما فى القرآن، وهو منصوب مفعول «آت»، و»الذى» بدل، أو عطف بيان، أو هو منصوب على الظرفية، و»الذى» مفعول، وروى: «المقام المحمود»، بالتعريف كما قاله النووى، ولا وجه لإنكاره، وقد تقدم بيانه.

(**وعن سعد بن أبى وقاص**)، فى حديث صحيح رواه مسلم: (**من قال حين يسمع المؤذن:**)، أى أذانه (**وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، رضيت بالله ربًا، وبمحمد رسولاً، وبالإسلام دينًا، غفر له**)، أى جميع ذنوبه، وذكره استطرادًا لمناسبته لما قبله؛ لأنه ليس فيه شىء مما نحن فيه من فضيلة الصلاة عليه، وما قيل: إنه يعلم منه التزامًا؛ لأن مجرد الرضا به إذا كان سببًا للمغفرة، فكيف إذا قرن به الصلاة والسلام عليه، بعيد جدًا؛ لأنه ليس فى الكلام ما يدل عليه بوجه من الوجوه.

(**وروى ابن وهب**)، هو الإمام أبو محمد عبد الله الفهرى، كما تقدم، (**أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: من سلم علىَّ عشرًا**)، أى قال: السلام عليك يا رسول الله عشر مرات، (**فكأنما أعتق رقبة**): أى عبد، وعبر بالجزء عن الكل، أى كان ثوابه مثل ثواب ذلك.

(**وفى بعض الآثار**)، جمع أثر بمعنى الخبر الذى يؤثر، أى ينقل، والمراد به هنا الحديث: (**ليردن علىَّ أقوام**)، أى يأتونى على الحوض، (**لا أعرفهم إلا بكثرة صلاتهم علىَّ**)، وفى نسخة: ما، بدل: لا، يعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم يرى فى وجوههم نورًا وعلامة من آثار الصلاة عليه.

(وفى) حديث (**آخر: إن أنجاكم**)، أى أسرعكم نجاة وخلاصًا (**يوم القيامة من أهوالها**)، أى شدائدها وخوفها، (**ومواطنها**)، الضمير للأول أو للقيامة التى تخافونها، (**أكثرهم علىَّ صلاة**)، يعنى أن بركتها تسهل عليه شدائدها، وهذا الحديث رواه الأصفهانى فى ترغيبه، عن أنس، رضى الله عنه.

وفيه أيضًا: (**وعن أبى بكر الصديق: الصلاة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أمحق للذنوب**)، أى أشد إبطالاً وإذهابًا، من محق الشىء إذا أبطله، (**من الماء البارد للنار**)، فإنه إذا صب عليها أطفأها وأذهب ضررها، ففيه تشبيه للصلاة بذلك، (**والسلام عليه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**أفضل من عتق الرقاب**)، إنما خص السلام بجعل ثوابه كثواب عتق الرقاب؛ لأن السلام فيه تسليم له من سائر النقائص، ومن أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضوًا منه من النار، فسلم مما يخشاه فى الآخرة، فلذا جعل السلام عليه وأجره كالإعتاق وأجره، وشبهه به دون الصلاة، وهذه نكتة لطيفة لا تنافى ما مر؛ لأن وجه الشبه قد يكون أقوى فى المشبه.

وفى الدر المنضود بعد كلام الصديق هنا: وحب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل من مهج الأنفس، أو قال: من ضرب بالسيف فى سبيل الله، وله حكم المرفوع، إذ مثله لا يقال من قبل الرأى، وأخرجه التيمى، وعنه أبو القاسم بن عساكر، ومن طريقه اليمن بن عساكر بلفظ: الصلاة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل من عتق الرقاب، أو قال: من ضرب بالسيف فى سبيل الله، وسنده ضعيف.

قيل: وإنما كان السلام عليه أفضل من عتق الرقاب؛ لأن ثواب العتق إنما علم من جهته، ولأن العتق يقابله العتق من النار؛ لما فى الحديث الصحيح: «من أعتق رقبة، أعتق الله بكل عضو منها عضوًا منه، حتى الفرج بالفرج»(١)، والسلام عليه يقابله سلام الله على المصلى عشرًا، وسلام الله عز وجل أفضل من مائة ألف ألف ألف جنة، فناهيك به من متعة. انتهى. وفى بعض الشروح هنا كلام تركه خير منه.

* * *

(فصل فى ذم من لم يصل على النبى ﷺ وإثمه)

لتركه الواجب عليه، وذمه بترك الأفضل فى حقه، ففيه إشارة إلى أنه قد يجب وقد يندب كما مر، ولهذا أخَّر هذا الفصل عما قبله، وصدره بحديث مسند رواه الترمذى

(١) أخرجه مسلم (١٥٠٩/٢٢)، وأحمد (٤٢٩/٢، ٤٣٦، ١١٣/٤، ٣٢١، ٤٠٤)، والترمذى (١٥٤١)، والحميدى (٧٦٧)، والطبرانى (١٩٤/٦)، والبيهقى (٢٧٢/١٠).

كما هو دأبه في كتابه هذا، فقال:

(حدثنا القاضي الشهيد أبو علي، رحمه الله) هو ابن سكرة، وقد تقدم مرارًا قال: **(حدثنا أبو الفضل بن خيرون)**، هو أحمد بن الحسن بن خيرون البغدادي الحافظ الناقد، وقد تقدم أيضًا، **(وأبو الحسن الصيرفي)** كذا في النسخ، والصواب: أبو الحسين بالتصغير، وقد تقدمت ترجمته أيضًا **(قالا: حدثنا أبو يعلى)**، هو أحمد بن عبد الواحد المعروف بزوج الحرة، كما تقدم، قال: **(حدثنا السنجي)**، تقدم بيانه وبيان نسبته وضبطها، قال: **(حدثنا محمد بن محبوب)** تقدمت ترجمته قال: **(حدثنا أبو عيسى)** محمد ابن عيسى بن سورة الإمام الترمذي المشهور، وقد تقدم بيانه، قال: **(حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي)**، هو أحمد بن إبراهيم البغدادي الحافظ، والدورقي بفتح الدال والراء المهملتين، بينهما واو يليها قاف وياء نسبة منسوب لبلد، وهو في الأصل اسم إناء للماء كالجرة، ولنوع من القلانس شبهت بالأواني لطولها.

ووهم من غلط المزي في قوله: إنه اسم بلد، فإنه سبقه إليه الحاكم في كتاب الكنى، والمعترض اعتمد على كتاب الرشاطي، وقد رده البرهان الحلبي في المقتفى، والدورقي كان إمام الحديث في عصره، أخرج له الستة وغيرهم، وتوفي سنة ست وأربعين ومائتين، قال: **(حدثنا ربعي بن إبراهيم)** هو ربعي بن مقسم الأسدي الثقة الحافظ، توفي سنة سبع وتسعين ومائة، **(عن عبد الرحمن بن إسحاق)** بن عبد الله بن الحارث بن كنانة القرشي العامري المدني، ويقال له: عباد بن إسحاق، وثقوه وضعفه بعضهم، وله ترجمة في الميزان، **(عن سعيد بن أبي سعيد)** هو المقرى، وقد تقدم.

(عن أبي هريرة قال: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: رغم أنف رجل)، أي أذله الله وأخزاه، وحقيقته: ألصق الله وجهه بالرغام، وهو التراب، فكنى به عما ذكر، وأضيف للأنف لتقدمه، **(ذكرت عنده فلم يصل عليّ)**؛ لأن الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم تعظيم له وثواب لقائله، وعزة له بإعزاز نبيه، فمن تركه مع سهولته عليه كان مستحقًا للإهانة، وهذا الحديث أخرجه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه.

(ورغم أنف رجل دخل رمضان)، أي جاء زمانه، والتعبير فيه بالدخول حقيقة عرفًا، أي في عرف اللغة، **(ثم انسلخ)**، أي تم ومضى، وأصل السلخ نزع جلد الحيوان، فاستعير لكل إخراج، يقال: سلخت درعه، أي نزعته، ومنه سلخ الشهر لآخره، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، ومما قلته:

أدهم الليل حين كان حرونا سلخت بذي الأهلة سلخًا

(قبل أن يغفر له)، أي ولم يغفر له، وفي التعبير بالقبلية إشارة إلى أنه لكونه محل

المغفرة كانت كالموجودة، فذهب قبلها، **(ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر)**، أى أدرك الشيخوخة وعمر، أو هو معهما، إلا أنه لم يبرهما ويعاملها بما يرضيهما، **(فلم يدخلاه الجنة)**؛ لأنه لو فعل ذلك، أثابه الله وأدخله الجنة، فإن الجنة تحت أقدام الوالدين كما ورد فى الحديث.

(قال عبد الرحمن) بن إسحاق الذى تقدم قريبًا، **(وأظنه)** أى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: **(أو أحدهما)**، أى أحد أبويه، ويجوز عود الضمير لأبى هريرة، ففيه شك من الراوى، وسيأتى تتمة الكلام على هذا الحديث، والجامع بين هذين أن فى صوم رمضان رضى ربه وخالقه، وفى رضى الوالدين بر من هو سبب لوجوده، وفى الصلاة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، رضى من هو سبب لبقائه فى النعيم المخلد، والصوم رضى للرب بأمر ليس عليه فيه كلفة، كالصلاة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وبر الوالدين، فقد حرم نفسه من فائدة عظيمة بترك أمر لا مشقة فيه.

ورواه مسلم بثم بدل الفاء؛ لاستبعاده ممن له عقل، والفاء نظرًا لكون ذلك واقعًا عقبه، لا أن الفاء بمعنى ثم كما توهم، وقيد بر الوالدين بحال الكبر؛ لأنها حالة العجز ورحمتهما، والإسناد فى قوله: يدخلاه، إسناد مجازى للسبب.

(وفى حديث آخر) رواه الحاكم وصححه، عن كعب بن عجرة بطريق أطول من هذا **(أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، صعد المنبر)** صعد بكسر العين فى الماضى وفتحها فى المستقبل كما قاله البرهان الحلبى، والمنبر بكسر الميم اسم آلة من نبر بمعنى ارتفع؛ لارتفاع الخطيب عليه، **(فقال: آمين)** إذ صعد درجة، وآمين اسم فعل بمعنى استجب كما مر. وقوله: آمين، يقتضى أنه سمع داعيًا يدعو، و لم يكن معه أحد، فلذا سألوه عن سبب قوله هذا، كما سيأتى.

(ثم صعد) درجة أخرى من درجات المنبر، **(فقال: آمين، ثم صعد)** درجة، **(فقال: آمين، فسأله معاذ)**، راوى الحديث **(عن ذلك)**، أى عن قوله: آمين ثلاثًا، وما سببه؟ **(فقال)** مجيبًا للسائل عن سؤاله: **(إن جبريل أتانى)** لما صعدت المنبر، وروى أنه أتاه قبله، **(فقال: يا محمد)**، وروى أنه قال له: لبيك وسعديك **(من سُمِّيتَ)** بالبناء للمجهول وتاء الخطاب المفتوحة نائب الفاعل، أى ذكر اسمك **(بين يديه)**، أى عنده، وهو حاضر يسمع، **(فلم يصل عليك، فمات)** تاركًا للصلاة عليك، والتعقيب عرفى كتزوج فولد له، **(فدخل النار)** عقوبة له على تركه الصلاة، وقد قدمنا أنه يقتضى وجوبها كلما سمع اسمه، والجواب عنه: **(فأبعده الله)** عن رحمته ونعيم جنته، وقال له جبريل: **(قل: آمين)** طلب منه التأمين على دعائه ليستجاب، وفيه تعظيم له لا يخفى، **(فقلت: آمين)** امتثالاً لأمره الذى

بلغه عن ربه.

قال ابن حجر فى الزواجر: ولهذا الوعيد بتكرير الدعاء عليه بالبعد والسحق وعده أبخل الناس، عَدُّوا ترك الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم عند ذكره من الكبائر بناء على وجوبها كلما سمع ذكره، كما ذهب إليه طائفة من الحنفية وغيرهم، ويمكن حمله على من ترك الصلاة عليه لاشتغاله بلهو ولعب على وجه يشعر بالاستخفاف بحقه صلى الله تعالى عليه وسلم، فيكون الترك حينئذ كبيرة مفسقة، فلا منافاة بين هذا وبين القول بعدم الوجوب بالكلية، وهذا أمر مهم لم نر من نبه عليه. انتهى.

(**وقال فيمن أدرك رمضان**) وصومه، (**فلم يقبل منه**) مبنى للمجهول، أى لم يقبله الله منه بأن أبطله وأحبط عمله، (**فمات مثل ذلك**)، أى فدخل النار، فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين، (**ومن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما**)، أى لم يقم بواجب حقوقهما وما يستحقانه.

يقال: بره، بفتح عين الماضى يبره بضمها؛ لأنه مضاعف متعد، والمطرد فيه ذلك، إلا أفعالاً قليلة جاء فيها الضم والكسر، كما قاله ابن القوطية وغيره، كما فصل فى كتب التصريف، (**فمات مثله**) بالنصب، أى وذكر مثله، أى فدخل النار، فأبعده الله... إلخ، وعدم قبول رمضان إما لأنه لم يأت به على وفق أمر الله له به بأن أخل به، أو إما لأنه لم يخلص نيته فيه، وهذا حديث صحيح روى من طرق كثيرة بأسانيد متعددة.

(**وعن على**) بن أبى طالب، كرم الله وجهه، من حديث صحيح رواه الترمذى وصححه، والبيهقى، والنسائى، رحمهم الله، (**عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه قال: البخيل**) كل البخيل (**الذى**) إذا (**ذكرت عنده، فلم يصل علىَّ**)، وتعريف الطرفين يدل على الحصر، أى لا بخيل إلا هذا، والبخل الإمساك عن بذل ما ينبغى شرعًا أو مروءة، والشرع يقتضى ذلك؛ لأنه أمر نابه، وكذ المروءة؛ لأنها تقتضى الثناء على ما أنعم وأحسن، وأى منعم مثله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه واسطة لكل أحد فى جميع النعم التى وصل إليها، والبخل بكلمة تنفع فى الدنيا والآخرة لا يضاهيه بخل.

وفى الحديث روايات مختلفة، فروى: البخيل كل البخيل، وموكدًا كما يأتى، وفيه مبالغة لا تخفى، وهو هنا استعارة تبعية بتشبيه ترك الصلاة بترك الإنفاق، أو مكنية وتخييلية بتشبيه الصلاة بالمال الذى ينبغى إنفاقه.

(**وعن جعفر**) الصادق (**بن محمد**) الباقر، (**عن أبيه**) محمد الباقر، وهو تابعى، فالحديث مرسل كما فى شعب الإيمان للبيهقى، ورواه الطبرانى فى الكبير متصلاً عن الحسين بن

على جده، رضى الله عنهم، (**قال: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: من ذكرت عنده فلم يصل عليَّ أخطىء به طريق الجنة**)، أخطىء بضم الهمزة وكسر الطاء فى أكثر النسخ، مبنى لما لم يسم فاعله، وجوز بناؤه للفاعل أيضًا، أى دخل النار؛ لأنه أخطأ عن طريق الجنة، فكانت طريقه إلى النار؛ لأنه قد أضله الله عن طريقها، وهذا رواه جماعة من طرق متعددة، وفى بعضها خطىء.

(**وعن على بن أبى طالب، قال: إن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: إن البخيل كل البخيل من ذكرت عنده فلم يصل عليَّ**)، وكل هنا صفة البخيل للمبالغة، كأنه جمع أفراده كلها، وتجب حينئذ إضافته لظاهر مماثل لموصوفه لفظًا ومعنى كما هنا، وكقوله:

وإن الذى حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

وقد يضاف لما يماثله معنى فقط، وهذا الحديث أخرج من طرق متعددة أخرجه النسائى والبيهقى والبخارى فى تاريخه.

(**وعن أبى هريرة**) رواه أبو داود والترمذى وحسنه، والحاكم وصححه، (**قال أبو القاسم، صلى الله تعالى عليه وسلم: أيما قوم**)، أى هنا للعموم، وما مزيدة، أى كل قوم (**جلسوا مجلسًا**)، أى فى مجلس ما، (**ثم تفرقوا**)، أى قاموا من مجلسهم (**قبل أن يذكروا الله**)، أى من غير ذكر له تعالى فى مجلسهم أو عند قيامهم منه، (**و**) قبل أن (**يصلوا عليَّ، كانت عليهم من الله ترة**)، وترة بكسر التاء المثناة وفتح الراء المهملة وهاء تأنيث عوض من الفاء المحذوفة كعدة وزنة، وهى مرفوعة اسم كان، وعليهم خبر مقدم وجوز نصبها على الخبرية، واسم كان ضمير مستتر راجع إلى الجلسة المفهومة مما قبله، والترة لها معان الظلم والذنب والنقص والتبعة، وقد فسرت بالحسرة، وهو أقربها؛ لأنه ورد كذلك فى رواية كما سيأتى.

وقوله: (**إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم**)، يقتضى أنه بمعنى الذنب والخطيئة، فهو كالتفسير لما قبله، والمعانى كلها متقاربة، وما قيل من أنها بمعنى الحجة القائمة عليهم، فهم فى مشيئة الله إن شاء عذبهم بترك الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، وإن شاء غفر لهم؛ لأنه الغفور الرحيم، وقد علم أن الترة هى فى الأصل النقص، قال تعالى: ﴿**وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ**﴾ [محمد: ٣٥]، ومعناها التبعة كما فى شرح السنة.

وفى غريب المدونة أن بعض الفقهاء حرفه، وقرأه بالثاء المثلثة من الثأر بالهمزة، أى طلب الدم من القاتل، وأين هو منه لفظًا ومعنى، إذا علمت هذا، فيسن لمن أراد القيام

من مجلس أن يقول: لا إله إلا الله، وصلى الله وسلم على رسوله، ليكون مكفرًا لما فى ذلك المجلس.

(وعن أبى هريرة)، رضى الله عنه، فى حديث رواه البيهقى فى الشعب **(من أنسى الصلاة علىَّ نسى)** بضم أوله وتشديد ثانيه، مبنى للمجهول، وفى نسخة: نسي، مخفف مبنى للفاعل **(طريق الجنة)**، ففيه جعل الصلاة كأنها دليل يرشده لطريق الجنة، أو مذكر يذكره بها، ففيه استعارة، أو النسيان بمعنى الترك مجازًا من ذكر المقيد، وإرادة المطلق، كقول الله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]. وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٦].

(وعن قتادة، عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم)، فى حديث رواه عبد الرزاق، عن معمر، والحديث مرسل يستدل به فى الفضائل دون الأحكام، كما علم مما مر: **(من الجفاء)**، الجفاء ترك الصلة والبر، ويكون بمعنى غلظة الطبع، ومنه قيل للأعراب: أهل الجفاء، والجفاء يمد ويقصر، وهو ضد الصلة، **(أن أذكر عند الرجل)**، وفى نسخة: «رجل»، وفى أخرى: «أحد»، **(فلا يصلى علىَّ)**، المراد بالرجل الجنس، كاللئيم فى قوله:

ولقد أمر على اللئيم يسبنى[1]

(وعن جابر)، رضى الله عنه، فى حديث رواه البيهقى **(عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم: ما جلس قوم مجلسًا، ثم تفرقوا منه على غير صلاة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلا تفرقوا على)** رائحة تفوح منهم **(أنتن)**، أفعل من النتن، وهى الرائحة الخبيثة التى يكرهها كل طبع، وتكون كاللحوم المتغيرة بعد الموت، وفعلها نتن بالكسر والضم عند ابن قوطية، فأفعل من الثلاثى على القياس، أو من أنتن على مذهب سيبويه، فما قيل: إن صوابه أشد نتنًا، لا وجه له، مع أنه يكفى لصحته وروده فى كلام أفصح الناس صلى الله تعالى عليه وسلم: **(من ريح الجيفة)**، الريح إما على ظاهره، أو بمعنى الرائحة، والجيفة فى الأصل رمة الحيوان إذا انتفخت وتغيرت؛ لأنهم أتوا بأمر مذموم، فشبه المعقول بالمحسوس.

وقيل: إنه لما صدر عنهم من الكلام المذموم شرعًا من غير مكفر له، وهو تقييد من غير دليل، وقيل: إنه ريحهم فى الملأ الأعلى أو يوم القيامة يشمه أهل الموقف، وهو بعيد لا يلائمه السياق.

فالظاهر أنه على التشبيه، أو المراد أنه كذلك فى الدنيا، وقد نقل عن بعض المشايخ

(١) هذا صدر بيت من بحر الكامل، وعجزه:

فمضيت ثمت قلت لا يعنينى

أنه كان يشم من أهل الغيبة رائحة خبيثة، وهذا الحديث رواه الطيالسى، والبيهقى، والنسائى، والضياء فى المختارة بسند صحيح، إلا أنه فيه ذكر الله مع الصلاة كما مر، والمشبه به إما فرد من أفراد الجيفة، أو شىء غيرها أشد نتنًا منها.

(وعن أبى سعيد) الخدرى فى حديث رواه البيهقى، وسعيد بن منصور وغيرهما، من طريق صحيحة، **(عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: لا يجلس قوم مجلسًا)**، أى فى مجلس يتحدثون فيه، و**(لا يصلون فيه على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى أثنائه، أو فى آخره، **(إلا كان)** ذلك المجلس **(حسرة عليهم)**، أى ندامة وتأسفًا على ما فاتهم فيه، **(وإن دخلوا الجنة، لما يرون من الثواب)** لمن صلى عليه، والقوم جماعة الرجال خاصة؛ لقوله[1]:

أقوم آل حصن أم نساء

ويطلق على ما يشملهم تغليبًا، وقيل: إنه عام لكل جماعة، وهو المناسب هنا، وقد تقدم معنى الحسرة، وهى فى الأصل بمعنى الانقطاع من حسرت الناقة، إذا انقطعت عن السير لكلال، ويجوز فى كان أن تكون تامة وناقصة، وجعله نفس الحسرة مبالغة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الحاقة: ٥٠]، أو إسناده مجازى.

(وحكى أبو عيسى الترمذى) إمام الحديث وصاحب الجامع والشمائل، وقد قدمنا ترجمته، وشهرته تغنى عن ذكره **(عن بعض أهل العلم)**، أنه **(قال: إذا صلى الرجل على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، مرة فى مجلس أجزأ)** بالهمزة **(عنه ما كان فى ذلك المجلس)**، أى كفت المرة عن تكريرها بقدر ما ذكر اسمه فى ذلك المجلس، فهو سنة كفاية أو فرض كفاية بناء على الخلاف السابق.

وفى بعض الحواشى اختلفت الرواية فيه، فعن صاحب المجتبى من الحنفية أنه يتكرر الوجوب بتكرر ذكره، وقيل: لا يتكرر كما لو تكررت آيات سجدة فى مجلس، فإنه يكفى فيها سجدة واحدة، وقيل: المراد بما كان فى ذلك المجلس اللغط ونحوه مما يحتاج للكفارة.

=وهو لرجل من سلول فى الدرر (٧٨/١)، وشرح التصريح (١١/٢)، والكتاب (٢٤/٣)، والمقاصد النحوية (٥٨/٤)، ولشمر بن عمرو الحنفى فى الأصمعيات (ص١٢٦).

(١) عجز بيت من الوافر، وصدره:

وما أدرى وسوف أخال أدرى

وهو زهير بن أبى سلمى فى ديوانه (ص٧٣)، والاشتقاق (ص٤٦)، وجمهرة اللغة (ص٩٧٨)، والدرر (٢٦١/٢، ٢٨/٤، ١٢٦/٥)، ومغنى اللبيب (ص٤١، ١٣٩، ٣٩٣، ٣٩٨).

ويؤيده ما ورد فى الحديث: «من صلى عليَّ مرة واحدة، محا الله عنه بها ذنوب ثمانين سنة»، فيعلم منه ما ذكر بالطريق الأولى، وكذا ورد عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أن من قال إذا قام من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، غفر الله له ما كان فى مجلسه ذلك»، فإذا ضم إلى ذلك الصلاة والسلام عليه صلى الله تعالى عليه وسلم حاز فضلاً عظيمًا، وكفر عنه ما صدر منه، ومن أهل مجلسه.

واعلم أنه قال فى الخزانة: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يجب عليه أن يصلى على نفسه. انتهى.

قيل: فإذا كان لا يجب عليه ذلك، فهل كانت صلاته صلى الله تعالى عليه وسلم على نفسه فى صلاته بطريق الاستحباب، أو لم يكن يصلى على نفسه فيها؟ قيل: لم يصرح به أحد.

وفى فتاوى السبكى الحلبيات: الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم واجبة بالإجماع، وكونها ركنًا من الصلاة مذهب الشافعى، والظاهر أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مشارك لأمته فى هذا الحكم من كونها واجبة عليه فى صلاته ركنًا فيها، فإن نقل إجماع أنه لم يكن يجب على الأمم المتقدمة أن يصلوا على أنبيائهم، فينبغى أن تعد من الخصائص، وأما غيره من الأنبياء، فأقل من أن يتوهم مشاركتهم فى الوجوب حتى يقتضى خصوصية.

وما نقله الجرجانى: من أنها لا تجب على غيره استقلالاً بالإجماع إن أريد فى غير هذه الملة إن صح ثبتت الخصوصية، وإن أريد أنه لا يجب علينا فى ملتنا أن نصلى على غيره استقلالاً، فيفهم أنه يجب بغير استقلال، ولا نعرفه. انتهى.

* * *

(فصل فى تخصيصه ﷺ
بتبليغ صلاة من صلى عليه أو سلم من الأنام)

كسحاب مطلق، أو كل ذى روح، أو الجن، أو الإنس خاصة، ويقال: آنام، بالمد كساباط، وأنيم كأسير، وبدأ بحديث رواه أحمد، وأبو داود، والبيهقى بسند حسن، وهو قوله: **(حدثنا القاضى أبو عبد الله التميمى)**، قال: **(حدثنا الحسين بن محمد)** أبو على الغسانى، وقد تقدما، قال: **(حدثنا أبو عمر الحافظ)** هو ابن عبد البر، كما تقدم، قال: **(حدثنا ابن عبد المؤمن)**، قال: **(حدثنا ابن داسة)** تقدم ترجمته، قال: **(حدثنا أبو داود)** إمام

الحديث وصاحب السنن كما تقدم، قال: **(حدثنا ابن عوف)** محمد بن عوف الطائى الحمصى، راوى سنن أبى داود عنه، توفى سنة اثنين وسبعين ومائتين، قال: **(حدثنا المقرى)** أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن يزيد القصير المقرى، مولى عمر، رضى الله تعالى عنه، وهو ثقة أخرج له الستة، وتوفى سنة ثلاث عشر ومائتين، كما تقدم.

قال: **(حدثنا حيوة)** بن شريح، كما تقدم قريبًا، **(عن أبى صخر حميد بن زياد)** الخراط، قال أحمد: لا بأس به، وله ترجمة فى الميزان، **(عن يزيد بن عبد الله بن قسيط)** بالتصغير الليثى التابعى الثقة، توفى سنة اثنين وعشرين ومائة، وأخرج له الستة، وترجمته فى الميزان، **(عن أبى هريرة أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: ما من أحد يسلم علىَّ، إلا رد الله علىَّ روحى، حتى أرد عليه السلام)**، أى أجبته.

وكلام المصنف فى تبليغ الصلاة له، وهذا فى تبليغ السلام، ولذا قيل: إنه مخصوص بوقت الزيارة، وإن توزع فيه كما يأتى، فإما أن يكون ذكره لمناسبته للصلاة، أو فهم منه أن المراد بالسلام قولهم: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، وفيه دليل على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم حى حياة مستمرة؛ لأن الكون لا يخلو من مسلم يسلم عليه فى كل لحظة، وقد ثبت بالأحاديث الصحيحة أنه صلى الله تعالى عليه وسلم وسائر الأنبياء أحياء حياة حقيقية كالشهداء، وإن كان حال البرزخ لا يقاس على حال الدنيا.

وقد قال ابن العماد، رحمه الله: إن رد الروح يقتضى الموت، وهو خلاف المقصود، وقد أجيب عنه بأجوبة، منها ما قاله صاحب القاموس فى كتاب الصلاة والبشر: أن البيهقى قال: معناه أن الله تعالى رد روحه الشريفة لأجل رد سلام من يسلم عليه، ثم استمرت فى جسده.

وقال عبد الكافى السبكى شيخه: إنه يحتمل أنه رد معنوى بأن تكون روحه مشتغلة بشهود الحضرة الإلهية والملأ الأعلى عن عالم الدنيا، فإذا سلم عليه أقبلت روحه لهذا العالم لرد السلام.

وقال السخاوى فى كتابه القول البديع: رد روحه الشريفة يلزمه تعدد حياته ووفاته فى أقل من ساعة؛ إذ الكون لا يخلو من مسلم يسلم عليه، بل قد يتعدد فى آن واحد كثيرًا.

وأجاب الفاكهانى وبعضهم: بأن الروح هنا بمعنى النطق مجازًا، فكأنه قال: يرد الله علىَّ نطقى، والنطق من لوازم وجود الروح بالفعل أو بالقوة، فعبر بأحد المتلازمين عن الآخر، ويؤيده أن الحياة مرتين لا غير؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾

[غافر: ١١]. وقيل: إنه على ظاهره بلا مشقة، وقيل: المراد بالروح ملك وكل بإبلاغه السلام، وفيه نظر. انتهى.

وفي رواية كما قاله السبكي: «ما من أحد يسلم عليَّ عند قبري»[(١)]، فإن ثبتت فهو مخصوص، ولا يرد بالرأي. قال في الدر: وزيادة: «عند قبري»، بعد: «عليَّ»، قال السخاوي: لم أقف عليها فيما رأيته من طرق الحديث.

أقول: هذا جملة ما في الحديث من القيل والقال، وللنظر فيه مجال أما أو لا، فاستعارة رد الروح للنطق بعيدة وغير معروفة، ولا مألوفة وليس لها رونق يليق بالفصاحة النبوية، ولو سلم لكان ركيكًا؛ لأن قوله: «حتى أرد عليه السلام يأباه»، ولو قيل: إنه مجاز عن المسرة، كان أقرب، فإنه يقال لمن سر: عادت له روحه، ولضده: راحت روحه، ولولا خوف الإطالة أوردت له شواهد، وهذا يكون جوابًا سادسًا.

وجواب البيهقي خلاف الظاهر كما لا يخفى، وكون المراد بالروح الملك تأباه الإضافة لضميره، إلا أن يقال: إنه ملك كان ملازمًا له صلى الله تعالى عليه وسلم، فاختص به على أنه أقرب الأجوبة، وقد ورد في بعض الأحاديث.

وقال أبو داود: بلغني أن ملكًا موكلاً بكل من صلى عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى يبلغه سلامه، ويأتي الكلام عليه. وقد ورد أيضًا إطلاق الروح على الملك في القرآن، وإذا خص هذا بالزوار هان أمره، وجملة: «رد الله عليَّ روحي» حالية، ولا تلزمها قد إذا وقعت بعد إلا كما ذكره السهيلي، وهو استثناء من أعم الأحوال، وبالجملة فهذا الحديث لا يخلو من الإشكال.

أقول: الذي يظهر في تفسير الحديث من غير تكلف أن الأنبياء والشهداء أحياء، وحياة الأنبياء أقوى، وإذا لم يسلط عليهم الأرض، فهم كالنائمين والنائم لا يسمع ولا ينطق حتى يتنبه، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّتِى لَمۡ تَمُتۡ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] الآية، فالمراد بالرد الإرسال الذي في الآية، وحينئذ فمعناه أنه إذا سمع الصلاة والسلام بواسطة أو بدونها تيقظ، ورد لا أن روحه تقبض قبض الممات، ثم تنفخ وتعاد كموت الدنيا وحياتها؛ لأن روحه صلى الله تعالى عليه وسلم مجردة نورانية، وهذا لمن زاره، ومن بعد عنه يبلغه الملك سلامه كما ذكره بعده، فلا إشكال أصلاً إلا لمن [لم] يتدبر.

وما قيل: إن رده صلى الله تعالى عليه وسلم مختص بسلام زائره مردود؛ لعموم الحديث، فدعوى التخصيص تحتاج لدليل، ويرده أيضًا الخبر الصحيح: «ما من أحد يمر

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان كما في الدر المنثور (١/٢٣٧).

بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فى الدنيا، فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام، فلو اختص رده صلى الله تعالى عليه وسلم بزائره، لم يكن له خصوصية به لما علمت أن غيره يشاركه فى ذلك.

قال أبو اليمن بن عساكر: وإذا جاز رده صلى الله تعالى عليه وسلم على من يسلم عليه من الزائرين لقبره، جاز رده على من يسلم عليه من جميع الآفاق من أمته على بعد مسافة.

(وذكر أبو بكر بن أبى شيبة)، هو عبد الله بن محمد العبسى الكوفى الحافظ الثقة، صاحب التصانيف الجليلة، أخرج له الأئمة الستة، وتوفى سنة خمس وثلاثين ومائتين، وترجمته مفصلة فى الميزان، **(عن أبى هريرة، رضى الله عنه)**، كما رواه البيهقى وأبو الشيخ، **(قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: من صلى علىَّ عند قبرى سمعته، ومن صلى علىَّ نائيًا)**، أى بعيدًا عنى، والنأى بالهمز البعد **(بلغته)** بالبناء للمفعول، أى بلغتنى الملائكة سلامه وصلاته، كما ورد مصرحًا به فى الحديث، وفى بعضها أنه ملك معين.

وقوله: **(وعن ابن مسعود)** عقبة بن عمرو الأنصارى، وفى نسخة: ابن مسعود، وهو غلط، **(إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغونى عن أمتى السلام)**، وفى أخرى: «إن لله ملائكة يسبحون فى الأرض يبلغونى صلاة من صلى علىَّ من أمتى».

وهذا يقتضى أنهم جماعة كثيرة لا واحد معين، والسياحون جمع سياح صيغة مبالغة من السياحة، وهى الطواف فى الأرض والدوران فيها، والذهاب إلى البلاد البعيدة، وكانت النصارى تفعله تعبدًا، فنهى عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله: «لا سياحة فى الإسلام»؛ لما فيه من ترك الجمعة والجماعة، وهو مستعار من ساح الماء إذا جرى على وجه الأرض.

أما الملائكة إذا أمروا بذلك لهذه الخدمة، فهو عبادة لهم؛ لأنهم لا يفعلون إلا ما يؤمرون. وقوله: «يبلغونى...» إلى آخره، صفة لملائكة أو جملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا، وليس هذا الحديث موقوفًا، بل هو مرفوع رواه أحمد والنسائى والبيهقى والدارمى وابن حبان وأبو نعيم والخلعى بسند صحيح.

(ونحوه عن أبى هريرة)، أى بمعناه، ما رواه فى الترغيب عن أبى هريرة، وفى الحلية لأبى نعيم، واللفظ الذى فى الترغيب عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن لله تعالى عز وجل سيارة من الملائكة، إذا

مروا بحلق الذكر قال بعضهم لبعض: اقعدوا، فإذا دعا القوم أمنوا على دعائهم، فإذا صلوا عليَّ صلوا معهم حتى يفرغوا، ثم يقول بعضهم لبعض: طوبى لهؤلاء، فإنهم مغفور لهم»(١). وفى الحلية: أنه تبلغ صلاتهم ويكفوا أمر دنياهم وآخرتهم(٢).

(وعن ابن عمر)، رضى الله عنهما، لم يخرجوا هذا الحديث: **(أكثروا من السلام على نبيكم كل جمعة)**، المراد به الصلاة والسلام عليه فى يوم الجمعة وليلتها، ويحتمل أن يريد السلام وحده، **(فإنه)**، أى السلام **(يؤتى به منكم فى كل جمعة)**؛ لأنه يوم يعرض فيه الأعمال، وللصلاة فيه فضل على غيره.

وذكر فى الدر المنضود، أن فى رواية: «ليس أحد يصلى عليَّ يوم الجمعة، إلا عرضت عليَّ صلاته»(٣)، صححها الحاكم والبيهقى، وفى سندها راو وثقه البخارى وضعفه غيره.

(وفى رواية) أخرى: **(فإن أحدًا لا يصلى عليَّ)**، فى ذلك اليوم وليلته، **(إلا عرضت عليَّ صلاته حين يفرغ منها)**. قال السخاوى، رحمه الله: هذا الحديث لم أقف عليه.

وفى الدر المنضود: وفى رواية رجالها ثقات، إلا أنها منقطعة: «أكثروا من الصلاة عليَّ يوم الجمعة، فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة، وإن أحدًا لن يصلى عليَّ، إلا عرضت عليَّ صلاته حين يفرغ منها»(٤)، قال راويه أبو الدرداء: وبعد الموت؟ قال: «وبعد الموت».

وروى البيهقى، عن أنس، قال: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن أقربكم منى يوم القيامة أكثركم عليَّ صلاة فى الدنيا، ومن صلى عليَّ يوم الجمعة وليلة الجمعة، قضى الله له مائة حاجة، سبعين من حوائج الآخرة، وثلاثين من حوائج الدنيا»(٥). وورد فى الأحاديث الحث عليه فى يوم الجمعة، فإنه يوم مشهود، والأنبياء أحياء فى قبورهم كما تقرر.

فإن قلت: ورد تبليغ الصلاة عليه له صلى الله تعالى عليه وسلم مطلقًا فى أحاديث تأتى، وفى بعضها مقيدًا بيوم الجمعة كما مر ويأتى، فما وجهه؟

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٥٢، ٣٥٩)، والحميدى (١٨٧٦)، والحاكم (١/٤٩٥).
(٢) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٦/٢٦٨).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) أخرجه ابن ماجه (١٦٣٧)، والبيهقى (٣/٢٤٩).
(٥) أخرجه أحمد (٥/١٦٥)، وأبو نعيم فى الحلية (١/١٦٢).

قلت: وجهه يجوز أن يكون عرضها وتبليغها فى كل يوم من بعض الملائكة، وما فى يوم الجمعة من آخرين، أو ذاك عرض لها فرادى، وهذا جملة على وجه خاص، أو لتكتب فى صحف عنده كما وقع فى بعض الروايات.

(وعن الحسن) بن علىّ بن أبى طالب فى حديث رواه ابن أبى شيبة والطبرانى وأبو يعلى بسند صحيح، **(عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم: حيثما كنتم فصلوا علىَّ، فإن صلاتكم تبلغنى)**، أى تبلغها له الملائكة كما تقدم، وحيث إذا اتصلت بما فهى شرطية، وهى ظرف مكان وتأتى للزمان، كما فى قوله(١):

حيثما تستقم يقدر لك الله نجاحًا فى غابر الأزمان

(وعن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما) فى حديث موقوف رواه البيهقى وابن راهويه: **(ليس أحد من أمة محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، يسلم أو يصلى عليه إلا بلغه)**، بضم الباء وكسر اللام المشددة مبنى للمفعول، أى بلغته الملائكة سلامه وصلاته.

وهذا يحتمل تعيين المصلى وعدمه، فلذا أردفه بقوله: **(وذكر بعضهم أن العبد إذا صلى)** أو سلم **(على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، عرض عليه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، صلاته وسلامه و**(اسمه)** واسم أبيه وعشيرته، فيثبت عنده فى صحيفة، كما ورد فى حديث مرفوع. وقيل: المراد ببعضهم النميرى، عن حماد، ويأتى قريبًا ما يؤيد صحة ما قالاه.

(وعن الحسن بن على: إذا دخلت) بتاء الخطاب لغير معين **(المسجد)** تعريفه للجنس، فإن كل من دخل مسجدًا، أى مسجد كان يستحب له أن يصلى على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما ذكر الخيضرى فى كتابه اللواء المعلم. وقيل: تعريفه للعهد، والمراد به مسجد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم.

والظاهر الموافق للرواية الأول، والذى حمله على هذا قوله: **(فسلم على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: لا تتخذوا بيتى عيدًا)**، فإن بيته عند مسجده، ولذا قيل: المراد ببيته قبره، فإنه فى بيته دفن، ويأتى فى رواية أخرى: «ولا تجعلوا قبرى عيدًا»، مع الكلام عليها.

والعيد الموسم الذى يجتمع فيه، وياؤه منقلبة عن الواو؛ لأنه سمى به لعوده فى كل، وجمع على أعياد وقياسه الجمع على أعواد للفرق بينه وبين جمع عود، ونهيه، صلى الله

---

(١) البيت من الخفيف، وهو بلا نسبة فى تذكرة النحاة (ص٧٣٦)، وخزانة الأدب (٧/٢٠)، وشرح الأشمونى (٣/٥١٠)، وشرح شذور الذهب (ص٤٣٧)، وشرح ابن عقيل (ص٥٨٣).

تعالى عليه وسلم، عما كان يفعله اليهود والنصارى عند قبور أنبيائهم من الزينة واللهو والطرب، وقيل: النهى عن تعظيمها؛ لما فيه من الفتنة بها حتى لا يتخذ وثنًا يعبد. وقيل المراد لا تتخذوها كالعيد تزورونها فى العام مرة، بل أكثروا من زيارتها.

(ولا تتخذوا بيوتكم قبورًا)، أى لا تتركوا الصلاة والعبادة فيها، فتكونوا فيها كأنكم أموات، وكذا قيل:

فيا نائم الليل هنيته فقبل الممات سكنت القبورا

وقيل: المراد لا تدفنوا فى البيوت، بل فى الجبانة، ولا يرد عليه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، دفن فى بيته؛ لأنه اتبع فيه سنة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قبله كما ورد: «ما قبض نبى إلا دفن حيث يقبض»، فهو مخصوص بهم.

(وصلوا علىَّ حيث كنتم)، أى فى أى مكان، فلا يحتاج للإتيان لمسجده ولا لقبره الشريف حتى يسلم عليه، وهذا دليل على أن المسجد فى أول الحديث ليس المراد به مسجده، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم)**، أعاد حيث كنتم؛ لئلا يتوهم أن الصلاة إنما تبلغه ممن كان عنده فى مسجده الشريف، أو عند قبره الشريف، وليس تأكيدًا لما قبله لإفادته تعميمًا آخر لا يعلم مما قبله، وهذا الحديث أخرجه الطبرانى وأبو يعلى.

(وفى حديث أوس) بن أوس الصحابى الثقفى: **(أكثروا من الصلاة علىَّ يوم الجمعة)**، خصها لما فيها من الفضل، وهى يوم تشهده الملائكة، وتعرض عليه صلاة من صلى عليه، وللصلاة عليه فيه فضل على غيرها، ولما فيه من الصلة؛ لأنه يوم يزار فيه، وهذا الحديث رواه أبو داود، والنسائى، وأحمد فى مسنده، والبيهقى وغيرهم وصححوه.

وقيل: إنما خص يوم الجمعة؛ لأنه كما ورد فى الحديث: «أفضل الأيام الجمعة، فيه خلق آدم، عليه السلام، وقبضت روحه، وفيه النفخة والصعقة»[(١)].

وقيل: وحد أقل الكثرة من الصلاة ثلاثمائة وبضع عشرة، كما فى قوت القلوب. وقال السخاوى: لم أقف له على مستند، فلعله تلقاه عن أحد من الصالحين عرفه بتجارب أو غيره، أو رآه أقل ما تحصل به الكثرة، **(فإن صلاتكم معروضة علىَّ)**، تقدم بيانه قريبًا.

(وعن سليمان بن سحيم) بالتصغير، وسين وحاء مهملتين، وهو مولى آل العباس،

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١/١٨٦)، وابن أبى حاتم فى العلل (٥٨٣)، وأورده العجلونى فى كشف الخفا (١/١٧٧).

وقيل: آل الحسين، وهو من علماء الحجاز المشهورين، وحيث أطلق فى النقل فهو المراد، ولهم سليمان بن سحيم آخر، لكنه لم يشتهر النقل عنه، وهو الثقة، توفى فى خلافة المنصور، وهذا رواه عنه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى حياة الأنبياء، (**رأيت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى المنام**)، ومن رآه فى المنام فقد رآه حقًا، فإن الشيطان لا يتمثل فى صورته، (**فقلت: يا رسول الله، هؤلاء الذين يأتونك فيسلمون عليك**)، إذا زاروا مقامك بعد الانتقال (**أتفقه سلامهم؟**)، أى أتسمعه وتفهمه؟ (**قال: نعم، وأرد عليهم**) وفقه يفقه ورد من باب نصر وفرح، ومعناه فهم.

وعن إبراهيم بن شيبان: تقدمت إلى القبر الشريف، فسلمت على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فسمعته من داخل القبر يقول: «وعليك السلام».

ووقع للسيد نور الدين بن العفيف الأيجى، أنه سمع جواب سلامه من داخل القبر الشريف: «وعليك السلام يا ولدى».

وفى مسند الدارمى أن الأذان والإقامة تركا أيام الحرة، وأن ابن المسيب لم يبرح مقيمًا فى المسجد، فكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمة يسمعها من قبره، صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقوله: وأرد عطف على قول السائل أتفقه، ويسمى هذا عطف التلقين، وقد فصل فى شروح الكشاف فى قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، ويكون فى الجمل والمفردات كما تقدم، ونعم وقع فى الجواب عما سئل عنه وهو ظاهر.

(**تنبيه**) إذا رأى أحد النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى منامه، وأمره بأمر، هل يلزمه العمل بما قاله؟ فيه تفصيل، فإن وافق الشرع، فله نفسه العمل به، ولا يلزمه أمر غيره به، وما عداه لا يلزمه العمل به؛ لأن الرؤيا لا يضبطها النائم، ويحتمل التأويل، وهذا هو الصحيح، وفيه كلام ليس هذا محله.

(**وعن ابن شهاب**)، هو الزهرى كما تقدم، وهذا رواه عنه النميرى: (**بلغنا عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه قال**)، وفى نسخة: بلغنا أن رسول الله قال: (**أكثروا من الصلاة علىَّ فى الليلة الزهراء واليوم الأزهر**)، يعنى ليلة الجمعة ويومها، ويعنى بالأزهر الأبيض المستنير، ولذا كان الأزهر لا يطلق فى وضع اللغة على اللون الأبيض، وشاع بعد ذلك مطلقه، ونورهما لبركتهما وما فى ذلك اليوم من العبادة التى خص بها، وما فيه من ساعة الإجابة وغير ذلك مما ذكر فى فضائله، وهو عيد المؤمنين وتنزل

فيه الملائكة كثيرًا، **(فإنهما)**، أى يوم الجمعة وليلتها، **(يؤديان عنكم)**، بضم المثناة التحتية وفتح الهمزة والدال المهملة المشددة، أى يوصلان صلاتكم علىّ ويبلغانها إلىّ.

والإسناد إلى الزمان إسناد مجازى، أى يؤدى الملائكة فيهما ذلك، وكونهما يخلق لهما نطق بذلك الأداء خلاف الظاهر، وإن جاز إلا أن التصريح بعده بحمل الملك لذلك يأباه، وبما تقرر فى هذه الأحاديث علم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم تبلغه الصلاة والسلام عليه إذا صدرا من بعد، ويسمعهما إذا كانا عند قبره الشريف بلا واسطة، سواء ليلة الجمعة وغيرها.

وأفتى النووى فيمن حلف بالطلاق الثلاث أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يسمع الصلاة عليه، هل يحنث؟ بأنه لا يحكم عليه بالحنث للشك فى ذلك، والورع أن يلتزم الحنث.

(وإن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء)؛ لأنهم، عليهم الصلاة والسلام، أحياء فى قبورهم لا تبلى أجسادهم، وهذا جواب عن سؤال مقدر، كأنه قيل: كيف يكون ذلك لمن مات وأكلته الأرض؟ كما ورد مصرحًا به فى حديث آخر، وإن بكسر الهمزة والجملة حالية أو بفتحها بتقدير: وبلغنا أن الأرض إلى آخره.

وقيل: إنه بيان لخاصية أخرى، والأول أولى، ولا ينافى ما تقرر من حياتهم ما فى صحيح ابن حبان فى قصة عجوز بنى إسرائيل، أنها دلت موسى، عليه السلام، على الصندوق الذى فيه عظام يوسف، فاستخرجه وحمله معهم عند قصدهم الذهاب من مصر إلى الأرض المقدسة، إما لأنها أرادت بالعظام كل البدن، أو لأن الجسد لما لم تشاهد فيه روح عبر عنه بالعظم الذى من شأنه عدم البلى، أو أن ذلك باعتبار ظنها أن أبدان الأنبياء كأبدان غيرهم فى البلى.

(وما من مسلم)، من مزيدة للتعميم، أى كل مسلم **(يصلى علىَّ)** وهو بعيد، **(إلا حملها)**، أى صلاته وسلامه، **(ملك حتى يؤديها)**، أى يوصلها **(إلىَّ، ويسميه حتى إنه)** بكسر الهمزة، **(ليقول: إن فلانًا يقول لك كذا وكذا)**، فيذكر ما قاله بعينه بعد تعيينه باسمه واسم أبيه ومكانه وشهرته.

وأخرج جمع أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «إن لله ملكًا أعطاه أسماع الخلائق، فهو قائم على قبرى إذا مت، فليس أحد يصلى علىَّ صلاة إلا قال: يا محمد، صلى عليك فلان، فيصلى الرب تعالى على ذلك الرجل بكل واحدة عشرًا»[1].

---

(١) أورده المنذرى فى الترغيب والترهيب (٢/٤٩٩).

وفى رواية: «فهو قائم على قبرى حتى تقوم الساعة، ليس أحد من أمتى يصلى علىَّ صلاته، إلا قال: يا أحمد، فلان ابن فلان، باسمه واسم أبيه، يصلى عليك، كذا وكذا، وضمن لى الرب أن من صلى علىَّ صلاة، صلى الله عليه عشرًا، وإن زاد زاده الله».

وتقدم أنه كان من عادة السلف أيضًا أن يرسلوا السلام له، صلى الله تعالى عليه وسلم، مع الزوار أيضًا كل عام، كما قيل:

ألا أيها الغادى إلى يثرب مهلا لتحمل شوقًا ما أطيق له حملا
تحمل رعاك الله منى تحية وبلغ سلامى روح من طيبة حلا

* * *

(فصل فى الاختلاف) الواقع بين العلماء
(فى الصلاة على غير النبى ﷺ)

أى فى جواز الصلاة على غيره من المؤمنين غير الأنبياء، كالصحابة ونحوهم، **(وسائر الأنبياء)**، أى بقيتهم غيره، كإبراهيم وموسى ونحوهما، وسائر بمعنى باقى كما تقدم، والخلاف فى جواز الصلاة على من ذكر استقلالاً لا بطريق التبعية له، كالصلاة على آله وأزواجه.

(قال القاضى) عياض المؤلف، وفقه الله: **(عامة أهل العلم)**، أى جميعهم، **(متفقون على جواز الصلاة على غير النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** من الأنبياء والملائكة والمؤمنين، ودعواه الاتفاق مطلقًا ليست بمسلمة، وقد قال النووى فى الأذكار: أجمعوا على طلب الصلاة على نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، وكذلك أجمع من يعتد به على استحبابها على سائر الأنبياء والملائكة استقلالاً، وأما على غيرهم ابتداء، فالجمهور على أنه لا يصلى عليهم.

واختلف فى هذا المنع، فقال بعض أصحابنا: إنه حرام، والأكثر على أنه مكروه كراهة تنزيه، وذهب كثير إلى أنه خلاف الأولى وليس مكروهًا، والصحيح الذى عليه الأكثر كراهة تنزيه؛ لأنه شعار أهل البدع. انتهى ملخصًا.

فدعواه الاتفاق مخالفة للمنقول. وقال الجوينى: إن السلام مثل الصلاة، فلا يقال: على عليه السلام، اللهم إلا أن يقال: مراده بغير النبى بقية الأنبياء، إلا أنه تخصيص من غير دليل.

(وروى عن ابن عباس أنه لا تجوز الصلاة على غير النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)، رواه البيهقى فى الشعب، وسعيد بن منصور فى سننه، والطبرانى، وابن أبى شيبة، وعبد

الرزاق، ومراده بغيره بقية أمته؛ لقوله فيه: ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار، ولقوله: **(وروى عنه)**، أى عن ابن عباس، رواه القاضى إسماعيل فى أحكام القرآن، **(لا تنبغى الصلاة)** من أحد **(على أحد إلا النبيين)**، وهذا مفسر لما قبله.

(وقال سفيان) الثورى: **(يكره أن يصلى إلا على نبى)**، وهو موافق لكلام ابن عباس، ولما فى الكراهة من معنى النفى عم وصح وقوع الاستثناء المفرغ بعده، وهذه إحدى الروايتين عن سفيان، رواها عنه عبد الرزاق والبيهقى، والأخرى تفرد بها البيهقى: يكره أن يصلى على غير النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(ووجدت بخط بعض شيوخى مذهب مالك أنه لا يجوز أن يصلى على أحد من الأنبياء سوى محمد) صلى الله تعالى عليه وسلم، فعلى هذا لا يصلى على غيره من الأنبياء استقلالاً، وهو إحدى الروايتين عن الثورى كما تقدم، **(وهذا غير معروف من مذهبه)**، أى مذهب الإمام مالك.

وأيد كونه غير معروف من مذهبه بقوله: **(وقد قال)** الإمام **(مالك فى المبسوط)** اسم كتاب كالمدونة **(ليحيى بن إسحاق)** الذى روى المبسوط عن مالك، وهو يحيى بن إسحاق بن عبد الله بن إسحاق بن المهلب بن جعفر، ويكنى أبا بكر، وله بيت شريف بقرطبة: **(أكره الصلاة على غير الأنبياء، وما ينبغى لنا أن نتعدى ما أمرنا به)**، فلا نتجاوزه لغيره؛ لأنه أمر تعبدى لا يعقل معناه بالرأى، ويقتصر فيه على ما روى عنهم.

(وقال يحيى بن يحيى) الليثى عالم الأندلس، وراوى الموطأ عن مالك، رحمه الله تعالى: **(لست آخذًا بقوله)**، أى لا أتمسك بقول مالك: ما ينبغى لنا أن نتعدى ما أمرنا به من الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم قط، يعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] الآية، ومن عزا لمالك عدم الجواز حمل قوله: ما ينبغى، على عدم الجواز، فعزاه له وهى تستعمل لهذا المعنى، ووردت لغيره أيضًا، **(ولا بأس بالصلاة على الأنبياء كلهم وعلى غيرهم)** من الملائكة والمؤمنين.

(واحتج) يحيى بن يحيى لما قاله، **(بحديث ابن عمر)** الآتى، أنه كان يصلى على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى أبى بكر، وعمر تبعًا، **(وبما جاء فى حديث تعليم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، الصحابة الصلاة عليه)** كما مر، **(وفيه)**، أى فى حديث تعليمه أيضًا: **(وعلى أزواجه وعلى آله)**، فهذا ونحوه يدل على أن الصلاة على غير الأنبياء جائزة، إلا أن هذا بطريق التبعية، والخلاف فى الصلاة على غيرهم استقلالاً كما مر، وحينئذ فما ذكر لا ينافى ما قاله مالك، ولا يتجه ما قاله يحيى بن يحيى، رحمه الله.

وفى بعض النسخ زيادة، وهى: (**وقد وجدت معلقًا**)، أى مكتوبًا فى بعض الكتب، وقيل: التعليق هنا ما اصطلح عليه المحدثون من ذكر حديث طوى سنده أو بعضه، وقوله: وجدت من الوجادة، وهى فى اصطلاح المحدثين أن يجد حديثًا بخط من يعرفه، سواء عاصره أم لا، فيرويه (**عن أبى عمران الفاسى**)، هو موسى بن عيسى الغثجومى، بفتح الغين المعجمة، وسكون المثلثة، وجيم وواو وميم، نسبة لقبيلة من البربر، والفاسى نسبة لفاس بلدة بالمغرب، وقوله فى القاموس: إنه بهمزة، لا أصل له، وأبو عمران فقيه المغرب، توفى سنة ثلاثين وأربعمائة، فى ثالث شهر رمضان، (**روى عن ابن عباس كراهة الصلاة على غير النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، نبيًا أو غيره.

(**قال**) أبو عمران: (**وبه نقول**)، أى نعتقده ونعمل به، (**ولم تكن**) الصلاة على غير نبينا استقلالاً (**تستعمل فيما مضى**) من عصر الصحابة فمن بعدهم، وهو غير مسلم كما تقدم.

(**وقد روى عبد الرزاق**)، وهو إمام الحديث أبو بكر بن همام بن نافع الحميرى، وله تصانيف جليلة، وروى عنه أحمد وغيره، وتوفى سنة إحدى عشر ومائتين، (**عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: صلوا على أنبياء الله ورسله، فإن الله بعثهم كما بعثنى**)، تعليل للصلاة عليهم بأنهم ساووه صلى الله تعالى عليه وسلم فى أصل البعثة، وينبغى أن يصلى عليهم كما صلى عليه، وهذا الحديث رواه الطبرانى والقاضى إسماعيل والتميمى فى الترغيب وغيرهم بسند صحيح.

(**قالوا: والأسانيد عن ابن عباس**) الواردة فى منع الصلاة على غيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**لينة**) أى ليست بقوية، فلا تعارض ما روى عنه وعن غيره من طرق متعددة بأسانيد صحيحة قوية، وهذا اصطلاح المحدثين، يقال: فلان لين الحديث، وسند لين، إذا كان لا يصلح للاحتجاج به، واللين غير الضعيف، لكنه يقرب منه. وقيل: إن رجاله رجال الصحيح، فليس بلين فتأمله.

ثم رده بوجه آخر مقبول، فقال: (**والصلاة**) معناها التى وضعت له (**فى لسان العرب**)، أى فى لغتهم، واللسان اسم للجارحة التى هى آلة النطق تجوز بها عما ذكر، كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ**﴾ [إبراهيم: ٤]، (**بمعنى الترحم والدعاء**) بالرحمة، (**وذلك**) أى الدعاء بالرحمة (**على الإطلاق**)، أى يجوز مطلقًا على نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى غيره.

وليس قوله: وذلك، إشارة إلى قول يحيى: لا بأس بها على الأنبياء وغيرهم كما قيل،

(حتى يمنع منه حديث صحيح أو إجماع)؛ لأن الأصل أن كل لفظ وضع لمعنى يجوز إطلاقه على ما وجد فيه ذلك المعنى، إلا أن هذا غير مسلم؛ لأنه لم يوضع لمطلق الدعاء بالرحمة، بل هو مقيد بنوع من التعظيم يليق بمقام النبوة.

ثم إنه أورد دليلاً أقوى من هذا، فقال: **(وقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾** [الأحزاب: ٤٣])، وفى هذه الآية دليل على أنه تجوز الصلاة على كل مؤمن، فضلاً عن الأنبياء؛ لأن سبب نزولها كما مر أنه لما نزل عليه: **﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾** [الأحزاب: ٥٦]، قال الصحابة: هذا لك يا رسول الله خاصة وليس لنا فيه شىء، فأنزل الله هذه الآية، وتقدم أن صلاة الله رحمته وصلاة الملائكة الدعاء والاستغفار لسائر المؤمنين.

(وقال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾) الآية، **﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾** [التوبة: ١٠٣]، فأمره بالدعاء لهم بلفظ الصلاة لمن أدى الصدقة، فكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: «اللهم صلى على آل أبى أوفى»(١)، كما يأتى، وفى دعائه بذلك دليل على جوازه مطلقًا، وتطهيرهم بمغفرة ذنوبهم، وسكنهم باطمئنان قلوبهم.

(وقال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾)، الإشارة لمن صبر عند المصيبة من المؤمنين، **﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾** [البقرة: ١٥٧]، وعطف الرحمة عطف تفسير، وإن قلنا: إنها أعم؛ لأنه يجوز التفسير بالأعم المقصود منه، فلا يرد عليه أن العطف يقتضى المغايرة؛ لأن الصلاة رحمة مشتملة على تعظيم وتكريم.

(وقال، صلى الله تعالى عليه وسلم) فى حديث رواه الشيخان: **(اللهم صل على آل أبى أوفى)**، وهذا الحديث روى عن عبد الله بن أبى أوفى، وتتمته: **(وكان إذا أتاه قوم بصدقتهم، قال: اللهم صل على آل فلان)**، فأتاه بصدقته، فقال: «اللهم صل على آل أبى أوفى»، والصدقة المراد بها هنا الزكاة، وإن كانت عامة، ومعنى صل عليهم، ارحمهم وطهرهم وزك أموالهم التى بذلوا زكاتها، وآله أهله وأتباعه، وقيل: المراد نفسه وذاته، كما فى قوله: لقد أوتى مزمارًا من مزامير آل داود، أى من مزامير داود، عليه الصلاة والسلام، نظير ما ذكره المصنف فى تفسير آله صلى الله تعالى عليه وسلم كما يأتى.

وأبو أوفى هو علقمة بن خالد بن الحارث الأسلمى الصحابى، وهو آخر من مات من الصحابة بالكوفة سنة سبع وثمانين، وابنه صحابى أيضًا، شهد مع أبيه بيعة الرضوان،

(١) تقدم تخريجه.

وهذا الحديث من أقوى ما استدل به على جواز الصلاة على غير الأنبياء استقلالاً.

(وفى حديث الصلاة) عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى التشهد، وقد تقدم بيانه وبيان سنده وطرقه مفصلاً، **(اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته)**، وهم نسله وأولاده كما تقدم.

(وفى حديث آخر) روى فى صلاة التشهد: **(وعلى آل محمد)**، وفسر الأول بقوله: **(قيل:)** آله **(أتباعه)**، جمع تابع أو تبيع، وهو من يقفو أثره ويلحقه، وخص عرفًا بمن يخصه من الأهل والخدم، **(وقيل:)** آله **(أمته)**، والمراد أمة الإجابة، وهم كل من آمن به، وأمة الدعوة أعم منهم، **(وقيل:)** هم **(الأتباع والرهط والعشيرة)**، الرهط القبيلة مطلقًا، وهو فى الأصل ما دون العشيرة، ثم عم، والعشيرة بنو أبيه الأدنون وقبيلته، **(وقيل: آل الرجل ولده)**، أى نسله مطلقًا، **(وقيل: قومه، وقيل: أهله الذين حرمت عليهم الصدقة)**؛ لأنها أوساخ الناس، فلا تليق بهم وقد طهرهم الله تعالى، وهم بنو هاشم والمطلب الذين لهم سهم من خمس الخمس يكفيهم.

(وفى رواية أنس: سُئل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: من آل محمد؟ فقال: كل تقى)، وهذا حديث صحيح روى من طرق، رواه الطبرانى والديلمى وشيبان وغيرهم، وهذا معنى مجازى، كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «سلمان منا آل البيت»(١)؛ لأن الله طهر أهل البيت ووعدهم بمغفرة ذنوبهم، فأطلق على كل تقى أكرمه الله تعالى وغفر سيئاته، وهذا معروف فى لسانهم، كما قيل: رب أخ لى لم تلده أمى.

(ويجىء على مذهب الحسن) البصرى، رضى الله عنه، والضمير المستتر فى يجىء للآل **(أن المراد بآل محمد)** الوارد فى الصلاة عليه **(محمد نفسه)**، أى فعنده أن الآل معناه الذات والنفس، فيقال: آل فلان بمعنى ذاته، وغيره من النحاة واللغويين يجعله فى مثله زائدًا مقحمًا، والزيادة فى الأسماء خلاف ما عهد من كلامهم، وإن أمكن حمل كلامه عليه، إلا أن ابن حبيب نقل عن محمد بن سلام أن الحسن قال ذلك.

(فائدة) روى عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه قال: «تكون أرض يقال لها: البصرة، أقوم الأرضين قبلة، قارئها أقرأ الناس، وعابدها أعبد الناس، ومتصدقها أعظم الناس صدقة، وتجارها أعظم الناس تجارة، منها قرية يقال لها: الأبلة، أربعة فراسخ يستشهد عند مسجدها تسعون ألف شهيد من أفضل الشهداء»(٢).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق (٦٢/١).

قلت: وعلماؤها أقوالهم فى العربية مقدمة على غيرهم لمدحه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لها (**فإنه كان يقول فى صلاته على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**) فى التشهد: (**اللهم اجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد، يريد نفسه؛ لأنه كان لا يخل**)، بضم الياء وكسر الخاء المعجمة وتشديد اللام أى لا يترك، والخلل يأتى بمعنى الترك والنقص (**بالفرض**) يعنى به الصلاة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**ويأتى بالنفل**)، يعنى به الصلاة على آل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم.

واعترض عليه بما تقدم من أن الصلاة عليه فى التشهد ليست بفرض إلا عند الشافعى، وعند المصنف أنه شذ فيه ولم يوافقه غيره فيه كما مر؛ (**لأن الفرض الذى أمر الله به**) فى آية ﴿صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] (**هو الصلاة على محمد نفسه**) لا على آله كما ذهب إليه الشافعى، فموافقة الحسن له تنافى الشذوذ الذى ذكره وشنع به عليه، والجواب عنه أن مراده بالفرض ما لابد منه لمن أراد الصلاة، فإنه يلزمه أن يذكره ولا يتركه مقتصرًا على غيره، أو يقول: إنه مذهب الحسن وموافقة واحد لا تنافى الشذوذ عنده.

(**وهذا**)، أى ذكر الآل، وإرادة الذات منه، (**مثل قوله صلى الله تعالى عليه وسلم**) فى حق أبى موسى الأشعرى، لما سمعه يتلو القرآن بصوت حسن، كما رواه الشيخان عنه: (**لقد أوتى**)، أى والله لقد آتى الله أبا موسى، (**مزمارًا من مزامير آل داود، يريد**) رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم (**من مزامير داود**) نبى الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فآله بمعنى نفسه، كما فى صلاة الحسن، وقد تقدم بيانه، والمزامير جمع مزمار، بكسر الميم، وهو اسم آلة، ويقال: مزمور أيضًا، والزمر النفخ فى المزمار، والصوت الحسن بغير آلة؛ لأن أصل معنى الزمر الحسن، كما قال الشاعر(١):

دَنَّان حَنَّان بينهما ... رجل أحسن غناؤه زمر

أى حسن، كما قاله ابن الأنبارى، فمزاميره بمعنى ترنماته، لا أنه كان له الآلة المعروفة، والمنقول أنها له نفسه لا لآلة، وكان الحسن صوته إذا قرأ بتلاحينه الزبور وأدعيته، تقف له الطيور والدواب، حتى قيل: إن الماء الجارى يقف له، وهو مبالغة فى نهاية حسنه.

وأول هذا الحديث أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مر هو وعائشة، رضى الله عنها،

---

(١) البيت من الكامل. وهو لابن أحمد الباهلى فى ديوانه (ص٩٢)، وبلا نسبة فى لسان العرب (٤/٣٢٨) (زمر)، وتاج العروس (١١/٤٤٣) (زمر).

على بيت أبى موسى، وهو يقرأ القرآن ليلة، فوقفا يستمعان له، وكان من أحسن الناس صوتًا، فلما أصبح أخبره صلى الله تعالى عليه وسلم بإنصاته له، وقال: «لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود»(١)، فقال: لو علمت بذلك لحبرته تحبيرًا، أى لزدت فى تحسين صوتى؛ لاستماعك لى.

(وفى حديث أبى حميد) بالتصغير **(الساعدى)**، وهو أبو عبد الرحمن بن عمرو بن سعد الخزرجى كما تقدم الذى رواه **(فى الصلاة)** عليه صلى الله تعالى عليه وسلم فى التشهد: **(اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته)**، وهو يدل على جواز الصلاة على غير الأنبياء، لكن تبعًا لهم.

(وفى حديث ابن عمر، رضى الله عنهما، أنه)، أى ابن عمر، **(كان يصلى على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى أبى بكر وعمر ذكره مالك فى الموطأ من رواية يحيى بن يحيى الأندلسى)**، عن مالك، وإنما قيده بالأندلسى؛ لأن الموطأ رواه عن مالك اثنان، كل منهما يسمى يحيى، أحدهما: يحيى بن يحيى بن كثير الأندلسى الليثى، مات سنة أربع وثلاثين ومائتين، والآخر: أبو زكريا يحيى بن يحيى بن بكر بن عبد الرحمن التميمى النيسابورى، توفى سنة ست وعشرين ومائتين، وله رواية فى الصحيحين كما قاله السيوطى فى مناقب مالك، وتقدم ضبط الأندلسى بفتح الهمزة والدال وضمهما، **(والصحيح من رواية غيره ويدعو لأبى بكر وعمر)**، رضى الله عنهما.

(وروى ابن وهب، عن أنس بن مالك: كنا ندعو لأصحابنا بالغيب) حال، أى فى حال غيبتهم عنا وعدم حضورهم معنا، **(فنقول)** فى دعائنا لهم: **(اللهم اجعل منك على فلان صلوات قوم أبرار الذين يقومون بالليل)** للتهجد والعبادة، **(ويصومون بالنهار)**، ففى هذا دليل على جواز الصلاة على غير الأنبياء استقلالاً، وقوله: الذين، بدل من قوم مفسر له.

(قال القاضى أبو الفضل، رحمه الله تعالى: والذى ذهب إليه المحققون وأميل إليه)، أى أرجحه وأعتقد صحته، والميل فى الأجسام معروف وشاع فى المحبة، والمصنف، رحمه الله تعالى، تجوز به عما قلناه، **(ما قاله مالك)** بن أنس إمام أهل الحديث، **(وسفيان)** الثورى، رحمهما الله تعالى.

(وروى عن ابن عباس، واختاره غير واحد)، أى كثير **(من الفقهاء والمتكلمين)**، أى أهل علم الكلام؛ لأن منهم من ذكرهم فى السمعيات، كمسائل الأمانة **(أنه)**، بفتح

(١) أخرجه البخارى (٦/٢٤١)، ومسلم (٢٣٦/٧٩٣)، والبيهقى (١٢/٣، ٢٣١/١٠).

الهمزة بدل من ما، **(لا يصلى على غير الأنبياء)** بانفراده، ولا **(عند ذكرهم)**، أى ذكر الأنبياء والصلاة عليهم، فلا يصلى على غيرهم تبعًا، والصحيح جوازه تبعًا، وعود ضمير ذكر لغير واحد يأباه قوله: **(بل هو)**، أى المذكور، وهو الصلاة أو ذكر رعاية للخبر، **(شىء يختص به الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام)** لا يشاركهم فيه غيرهم مطلقًا.

وقيل: لا يشاركهم فى الانفراد به، وفيه نظر، **(توقيرًا لهم وتعزيزًا)**، أى تعظيمًا وتبجيلاً بجعله شعارًا لهم **(كما يختص الله تعالى عند ذكره بالتنزيه)**، أراد به قوله: سبحانه وتعالى، فإن معناه أنزهه، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، منزهون عن النقائص، ولكن لا يجوز أن يقال فى حقهم ذلك، **(والتقديس)** بإطلاق قدس وقدوس ونحوه، وهو بمعنى التطهير، **(والتعظيم)** المخصوص به، نحو: جل جلاله، وعز وجل، فتعريفه للعهد، وليس المراد به هذه المادة؛ لعدم صحته، **(ولا يشاركه)**، أى لا يشارك الله **(فيه)**، أى فيما ذكر من التنزيه وما بعده **(غيره)** من نبى وغيره.

(كذلك يجب تخصيص النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وسائر الأنبياء بالصلاة والتسليم)، أى بهما معًا، **(ولا يشارك)** مبنى للفاعل أو المفعول هنا **(فيه)**، أى فى ذكر الصلاة والتسليم **(سواهم)** من غير الأنبياء. وفى نسخة: ولا يشاركهم، **(كما أمر الله بقوله: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** [الأحزاب: ٥٦])، وقوله المذكور بيان لما ذكر لا دليل لما ذكره؛ لأنه ليس فيه جواز الصلاة على غيره، ولا معنها عمن عداهم؛ لأن التخصيص بالذكر لا يفيده، ثم بين كيفية الدعاء لغيرهم، فقال: **(ويذكر من سواهم)**، أى من سوى الأنبياء والرسل فى الدعاء لهم، **(من الأئمة)**، أى أئمة الدين أو الخلفاء، **(وغيرهم)** من سائر العلماء والمؤمنين، **(بالغفران والرضى)**، فيقال: غفر الله تعالى لهم ورضى عنهم، **(كما قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾** [الحشر: ١٠]، **وقال الله تعالى:) ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾** (**﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾**) [التوبة: ١٠٠]، فيدعى بذلك المذكور من المغفرة والرحمة والترضى لسائر المؤمنين والصحابة.

وقيل: فى الاستدلال بما ذكر نظر، فإن قوله: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾، ليس دعاء لهم، بل إخبار بأن الله رضى عنهم، وأعد لهم جنات النعيم، ولا يلزمه جواز الدعاء به، كما أن إخبار الله بالصلاة على المؤمنين بمعنى رحمتهم لا يدل على جواز الصلاة عليهم، وهو مردود بأن من رضى الله عنه يدعى له بزيادة رضوانه، ولا مانع منه، وقياسه على الصلاة قياس مع الفارق، وأما ما قيل: من أنه لا يدعى للصحابة إلا برضى الله تعالى عنهم، فهو أمر حسن للأدب، وليس بلازم، فلو قال للصحابى: رحمه الله تعالى، أو غفر له، كان

حسنًا، إلا إذا أوهم وقوع ذنب ونحوه، ومن لا يعلم صحة نبوته كمريم ولقمان والخضر، لا يصلى عليهم.

وقال النووى: لا بأس به، والأرجح أن يقال: رضى الله تعالى عنهم. وقال إمام الحرمين فى الإرشاد: مريم ليست نبية بالإجماع، مردود بذهاب بعضهم لنبوتها ورجحه ابن السيد.

(**وأيضًا فهو**)، أى الصلاة عليهم (**أمر لم يكن معروفًا فى الصدر الأول**)، أى عصر الصحابة ومن قرب منهم، والفاء فى: فهو، جواب شرط مقدر، أى فإن أردت دليلاً أوضح مما ذكر، فهو إلى آخره، وفيه بحث سيأتى فى آخر هذا الفصل، (**كما قال أبو عمران**) موسى بن عيسى الفاسى فقيه القيروان كما تقدم قريبًا: (**وإنما أحدثته الرافضة والمتشيعة**)، هما طائفتان من أهل البدع والأهواء المخالفين لأهل السنة، والرافضة قيل: إنهم فرقة من الشيعة، وكلاهما ممن اتفق على تفضيل على، كرم الله وجهه، وأن الخلافة حقه، وسموا رافضة من الرفض، وهو الترك؛ لأنهم رفضوا زيد بن على بن الحسين لما طلبوا منه أن يتبرأ من الشيخين وأن يقول: إمامتهما باطلة، فأبى وقال: إن الخلافة فوضت لأبى بكر لمصلحة رأوها من تسكين ثائرة الفتنة، وتطييب قلوب العامة، فتركوه حتى قتل وصلب.

وليست الشيعة قومًا أظهروا بغض على كما توهم، وأصل معنى الشيعة الجماعة مطلقًا، ثم خص بهؤلاء، والذى أحدثه هؤلاء إنما هو الصلاة على علىّ وحده، فترك ذلك لكونه شعارهم وطردوه فى سائر الصحابة حسمًا لمادة المخالفة، فسقط ما قيل: إن الكلام فى الصلاة على غير الأنبياء مطلقًا، والشيعة إنما يصلون على علىّ فقط، فلا مناسبة لما هو بصدده، والرافضة اسم جمع لرافضى، والمتشيعة اسم جمع لمتشيع من تشيع إذا عد نفسه من الشيعة، وفى نسخة: الشيعة بدل المتشيعة، (**فى بعض الأئمة**)، المراد علىّ وأولاده، وفى نسخة: فى بعض أئمتهم، (**فشاركوهم عند الذكر لهم بالصلاة عليهم**) بانفرادهم، وإن لم يكونوا تبعًا له صلى الله تعالى عليه وسلم، (**وساووهم بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك**)، أى فى قولهم فى الدعاء لكل واحد منهم: صلى الله عليه وسلم؛ لاعتقادهم عصمتهم، وأن الإمامة العظمى لهم كالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فصلوا عليهم استقلالاً كما صلوا عليه.

(**وأيضًا**) مما يدل على عدم الصلاة على غير الأنبياء (**فإن التشبه بأهل البدع**) المراد بهم أصحاب المذاهب الباطلة (**منهى عنه**) شرعًا، (**فتجب مخالفتهم فيما التزموه من**

ذلك)، أى الصلاة على غيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيه أن ذلك غير واجب عند من لم يمنعه، فتأمله.

ثم أجاب عما ورد عليه بقوله: **(وذكر الصلاة على الآل والأزواج مع النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بحكم التبع)**، والكلام فى ذكره مستقلاً، فلا يرد هذا نقضًا عليه، **(والإضافة إليه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى إنما ذكر الصلاة عليهم بعد ذكر الصلاة عليه، فتعظيمهم بذلك إنما هو لكونهم من أتباعه صلى الله تعالى عليه وسلم، فتعظيمهم تعظيم له فى الحقيقة، **(لا على التخصيص)** لهم بذلك.

(قالوا:)، أى جمهور العلماء الذاهبين لمنع الصلاة على غيره بانفراده مجيبين عما استدل به من خالفهم **(وصلاة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على من صلى عليه)** بانفراده، كقوله: «اللهم صل على آل أبى أوفى»(١)، كما تقدم **(مجراها مجرى الدعاء)** بضم الميم وفتحها فيهما، والجرى المشى السريع، والمجرى محل الجرى أو الإجراء، وجريه فى مجراه جعله مثله ومن نوعه، أى المقصود بها الدعاء بالرحمة لهم، **(والمواجهة)** لهم بالدعاء بأن يرحمهم تعطفًا عليهم وجبرًا لقلوبهم، فهى كالسلام يقال تحية لكل أحد تواجهه، ولا يقال: فلان عليه السلام، دون مواجهة؛ لأنه فى المواجهة يقصد به مجرد معناه الحقيقى، وفى ذكره فى الغيبة زيادة توقير لا يليق لكل أحد كما قال.

(وليس فيها)، أى فى المواجهة **(معنى التعظيم والتوقير)** الذى فى الغيبة، فإنه من خصائص مقام النبوة، وهذا مما دل عليه الاستعمال وعرف التخاطب ويدرك بالذوق، ومن لم يذق لم يعرف.

(وقالوا:) تأييدًا لما ذكر من الفرق بين المواجهة وغيرها تمسك بقوله: **(وقد قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾** [النور: ٦٣]) بالدعاء، وقوله: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ خصه بالمواجهة، فلا تنادوه باسمه كما ينادى بعضكم بعضًا، فلا يقال: يا محمد، بل: يا رسول الله ونحوه، فإذا كان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، شأن يخصه فيما يطلق عليه مواجهة ليس لغيره، فكذا الدعاء له بغير مواجهة ينبغى أن يكون بغاية التعظيم والتوقير اللائق به دون غيره، فسقط ما قيل من أنه ليس فى هذه الآية مناسبة لمقصوده وما هو بصدده.

(فكذلك)، أى مثل ما يجب له فى الدعاء مواجهة **(يجب أن يكون الدعاء له)** فى غير حال المواجهة **(مخالفًا لدعاء الناس بعضهم لبعض)**، فلذا خص بالصلاة عليه التى قصد بها

---

(١) تقدم تخريجه.

التوقير وغاية التعظيم.

(وهذا)، أى اختصاصه بالصلاة استقلالاً، وفى نسخة: وهو **(اختيار الإمام أبى المظفر الإسفرائينى من شيوخنا)**، أى من كبار علماء أهل السنة بقرينة مقابلة الرافضة، وإسفرائين بلدة بخراسان معروفة، وأبو المظفر كنية طاهر بن أحمد، وهو الملقب بشاه كما تقدم.

(وبه قال) الإمام **(أبو عمر بن عبد البر)**، رحمه الله، وتقدمت ترجمته، واعلم أن التصلية والتسليم على نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم مطلوبة، أمرنا بالتعبد بها، فهى واجبة له على اختلاف محل الوجوب كما تقدم، والصلاة على غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أيضًا استقلالاً مستحبة، وما نقل عن مالك أنها منهى عنها مخالف للقول الصحيح، وقال القرطبى: إنه مجمع عليه، والصلاة على غير الأنبياء، صلى الله تعالى عليهم وسلم، مستحبة أيضًا كما فى التشهد، فلا عبرة بمن خالف فيه أيضًا، فلم يبق محل الخلاف غير الصلاة على غير الأنبياء بانفرادهم، فالصحيح أنه مكروه، وأن كراهته كراهة تنزيه لا تحريم؛ لأنه اختص به، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما اختص عز وجل بالله تعالى، فلا يقال: محمد عز وجل، وإن كان عزيزًا جليلاً، هذا هو الصحيح، فلا يعتد بخلافه، وقد قيل: إن السلام مثل الصلاة مخصوص بالأنبياء أيضًا، فلا يقال فى غيرهم: عليه السلام، كما صرح به الفقهاء، فهو مكروه تنزيهًا.

* * *

(فصل فى حكم زيارة قبره ﷺ)

أى ذكر ما يتعلق به من سننه وآدابه، وما يلزم من أتاه، والزيارة مصدر زاره يزوره زيارة ومزارًا، فالمزار مصدر واسم مكان أيضًا، والزيارة تختص بمجىء بعض الأحياء لبعض مودة ومحبة، هذا أصل معناها لغة، واستعمالها فى القبور للأموات لإعطائهم حكم الأحياء، وصار حقيقة عرفية فيه لشيوعه فيها، **(وفضيلة من زاره)** بالجر عطفًا على الحكم، أو على ما أضيف إليه، والضمير له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو للقبر، وفضيلته ما يستحقه من الثناء والثواب، **(وسلم عليه وكيف يسلم)** من زاره، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى ما يقوله ويفعله عند الزيارة، **(ويدعو له)**، أى وكيف يدعو له صلى الله تعالى عليه وسلم عند زيارته بما يليق بمقامه.

(وزيارة قبره سُنة) مأثورة مستحبة **(مجمع عليها)**، أى على كونها سنة، ولا عبرة بمن خالف فيها كابن تيمية كما سيأتى بيانه، **(وفضيلة مرغب فيها)**، بصيغة المفعول مشددة

الغين المعجمة، أى رغب السلف فيها، وحثوا عليها، وزيارة القبور إما ليتذكر بها الموت ويتعظ، وهذا يجرى فى جميعها، أو للدعاء لأهلها المسلمين كما زار، صلى الله تعالى عليه وسلم، البقيع، وهذا مستحب، أو للتبرك بمن فيها من الأنبياء والصالحين، فينتفع بزيارتهم، فذهب بعض المالكية إلى أنه مخصوص بالأنبياء، وأنه فى غيرهم بدعة، وأما فى الأنبياء، فهى مشروعة، وتوقف فيه السبكى.

وقد يقصد بالزيارة برهم وإكرامهم كزيارة قبر الوالدين ومن عليه حق لإكرامه، فإن الميت يكرم كالحى، وقد يقصد بالزيارة تأنيس الميت ورحمته، وهو مستحب أيضًا؛ لما روى عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أن الميت آنس ما يكون إذا زاره من كان يحبه فى دار الدنيا»، وزيارته صلى الله تعالى عليه وسلم جامعة لهذه المعانى كلها، فلهذا كانت سُنة، وإن كان غنيًا عن الدعاء، وما عدا ذلك بدعة، كتقبيل القبور وغيره مما يفعله العوام.

(**روى عن ابن عمر**) رواه ابن خزيمة، والبزار، والطبرانى، والذهبى وحسنه، وله طرق وشواهد تعضده، والطعن فى رواته مردود كما بينه السبكى وأطال فيه، وقول البيهقى: إنه منكر، يجاب عنه بأن معناه أنه تفرد به رواته، والفرد قد يطلق عليه ذلك، كما قاله أحمد فى حديث دعاء الاستخارة مع أنه فى الصحيحين، وقول الذهبى: طرقه كلها لينة يقوى بعضها بعضًا لا ينافيه؛ لأن غايته أنه بتسليم ذلك حسن، أو هو يطلق عليه الصحة كما بين فى محله، وفى نسخة هنا (**حدثنا القاضى أبو على**)، تقدمت ترجمته، قال: (**حدثنا أبو الفضل بن خيرون**)، تقدم أيضًا، قال: (**حدثنا الحسن**) بن جعفر، قال: (**حدثنا أبو الحسن على بن عمر الدارقطنى**)، المشهور كنار على علم، قال: (**حدثنا القاضى المحاملى**)، قال: (**حدثنا محمد بن عبد الرزاق**)، قال: (**حدثنا موسى بن هلال، عن عبد الله**) بن عمر، عن نافع، (**عن ابن عمر**)، رضى الله تعالى عنهما، فذكره (**أنه قال: قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: من زار قبرى وجبت له شفاعتى**)، أى سؤالى الله له أن يتجاوز عنه مكافأة له، ومعنى وجبت تحققت وثبتت، فهى ثابتة له بالوعد الصادق لابد منها، وليس المراد به الوجوب الشرعى، وروى: حلت له شفاعتى، والمراد أنه يخصه بشفاعة ليست لغيره، وإضافته لنفسه للتنويه به والتعظيم.

قال شيخ والدى الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمى: وأفاد قوله: له، مع عموم شفاعته له ولغيره أنه يخص بشفاعة تناسب عظيم عمله، إما بزيادة النعيم، وإما بتخفيف الأهوال عنه فى ذلك اليوم، وإما بكونه من الذين يحشرون بلا حساب، وإما برفع درجات فى الجنة، وإما بزيادة شهود الحق والنظر إليه، وإما بغير ذلك مما لا عين

رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، هذا كله إن أريد أنه يخص بشفاعة لا تحصل لغيره.

ويحتمل أن يراد أنه يفرد بشفاعة مما يحصل لغيره، والإفراد للتشريف والتنويه بسبب الزيارة، وأن يراد أنه ببركتها يجب دخوله فيمن تناله الشفاعة، فهو بشرى بموته مسلمًا، فيجرى على عمومه، ولا يضمن فيه شرط الوفاة على الإسلام، وإلا لم يكن لذكر الزيارة معنى؛ لأن الإسلام وحده كاف فى نيل مثل هذه الشفاعة بخلافه على الأولين، وأفادت إضافة الشفاعة له صلى الله تعالى عليه وسلم أنها شفاعة عظيمة جليلة إذ هى تعظم بعظم الشافع، ولا أعظم منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا أعظم من شفاعته، ثم أشار إلى أن هذا الثواب العظيم، وهو الفوز بتلك الشفاعة العظيمة منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا تحصل إلا لمن أخلص وجهته فيها بأن لا يقصد بها أو معها أمرًا آخر ينافيها بقوله: (**وعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: من زار قبرى فى المدينة محتسبًا**)، أى ناويًا بزيارته وجه الله تعالى من غير غرض، مخلصًا فى نيته وقصد إكرامه لا ينوى غيره، والاحتساب افتعال من الحساب معناه الاعتداد، والاسم منه الحسبة.

وعن عمر، رضى الله عنه: «أيها الناس، احتسبوا أعمالكم، فإن من احتسب عمله كتب له أجر عمله وأجر حسبته»، فالمراد أن يقصد بالزيارة إكرامه صلى الله تعالى عليه وسلم وتفويض أجره فيه إلى الله تعالى.

(**كان فى جوارى**)، أى له منزلة رفيعة فى الآخرة، أو المراد أنه يكون فى أمانه وعهده، فلا يناله مكروه أصلاً، والجوار مصدر بكسر الجيم وضمها، والكسر أفصح، (**وكنت له شفيعًا يوم القيامة**)، المراد به شفاعة خاصة غير الشفاعة العامة، فإن له شفاعات كما تقدم، وفى قوله: فى المدينة، إعلام بأنه صلى الله تعالى عليه وسلم يموت بالمدينة ويدفن بها، فهو من إخباره صلى الله تعالى عليه وسلم بالمغيبات، وإن كان لا تدرى نفس بأى أرض تموت.

(**وفى حديث آخر**) رواه البيهقى، والدارقطنى، والطبرانى، وسعيد بن منصور، عن ابن عمر: (**من زارنى بعد موتى، فكأنما زارنى فى حياتى**)؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم حى فى قبره يدرى بمن يزوره ويرد سلامه كما تقدم، وروى هذا بلفظه من طرق كثيرة.

(**وكره مالك أن يقال: زرنا قبر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، هكذا روى عنه،

(وقد اختلف فى معنى ذلك)، وما أراده مالك، رحمه الله؛ لأنه خلاف المعروف بين الناس، **(فقيل: كراهة الاسم)**، أى اسم الزيارة وإطلاقها؛ **(لما ورد من قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: لعن الله زوارات القبور)**، فلعنهن من حيث إنهن زوارات يقتضى ذم الزيارة، وهذا رواه أحمد، والترمذى، وابن حبان، عن أبى هريرة، **(وهذا يرده قوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(نهيتم)**، بالبناء للمجهول، والرواية: كنت نهيتكم **(عن زيارة القبور فزوروها، ولا تقولوا هجرا)**، فهذا ناسخ؛ لأنه أمر بعد نهى، وهذا الدليل وجوابه أوهن من بيت العنكبوت؛ لأن الأول فى حق النساء المكثرين للزيارة، وهذا لمطلق زيارة الرجال، ودخول النساء تغليبًا لا يسلمه المعترض، ولكن عهدته على قائله لا على المصنف، رحمه الله، فإنه ناقل غير مرتض لما نقله.

وقيل: إن الحديث الأول خاص بزوارات القبور المتخذات عليها مساجد وسرجًا، كما ورد مصرحًا به فى حديث رواه أبو داود، والترمذى وحسنه، فليس بمنسوخ، والحديثان مرويان فى السنن من طرق صحيحة، ولما كان هذا فى غير ما نحن فيه من إطلاق الزيارة على قبره صلى الله تعالى عليه وسلم، أورد ما يدل عليه أيضًا، فقال: **(وقوله)** صلى الله تعالى عليه وسلم فى الحديث الذى تقدم روايته، عن ابن عمر: **(من زار قبرى، فقد أطلق اسم الزيارة)**، فدل على أن الكراهة التى رويت عن مالك ليست لهذا كما توهم.

(وقيل:) وجه كراهته؛ **(لأن ذلك لما قيل: إن الزائر أفضل من المزور)**، هو من يزار، ولا يقال فيه: مزار، بضم الميم، وقول العامة: الزائر فى قبضة المزار، خطأ قبيح، **(وهذا أيضًا)** كالذى قبله، **(ليس بشىء)** يعتد به، بل عكسه أقرب إلى الصواب منه، **(إذ ليس كل زائر بهذه الصفة)**، وهى الأفضلية، فقد يكون مساويًا له وأدنى منه، **(وليس عمومًا)** فى كل زائر، **(وقد ورد فى حديث: أهل الجنة زيارتهم لربهم)** فى الجنة وهم عبيده، لا مناسبة بينهم وبينه فى العظمة، فكيف يتوهم هذا؟ **(ولم يمنع)** إطلاق **(هذا اللفظ فى حقه تعالى)**، ولو كان كذلك لم يجز، وحديث الزيارة روى على وجوه، منها ما رواه أبو نعيم، عن علىٍّ، كرم الله وجهه: «إذا سكن أهل الجنة الجنة، أتاهم ملك يقول: إن الله تعالى يأمركم أن تزوروه، فيجتمعون ثم توضع لهم مائدة...»[1] الحديث.

وقال أبو عمران، رحمه الله: إنما كره مالك أن يقال: طواف الزيارة، وزرنا قبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ لاستعمال الناس ذلك بينهم بعضهم لبعض، فكره تسوية

---

(١) أخرجه الحاكم (٢٢٥/١).

النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع الناس بهذا اللفظ، وأرخص بأن يقال: سلمنا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وأيضًا فإن الزيارة مباحة بين الناس، وواجب شد المطى إلى قبره صلى الله تعالى عليه وسلم، يريد بالوجوب هنا وجوب ندب وترغيب وتأكيد.

(والذى عندى) فى وجه الكراهة عنده وفى نسخة: والأولى عندى، أى فى اعتقادى وحكمى فى توجيه الكراهة عنده **(أن منعه)** من إطلاق الزيارة على قبره.

(و) وجه **(كراهة مالك له)**، أى لقولهم: زرنا قبر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(للإضافة)**، أى نسبة الزيارة **(إلى قبر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، بإيقاعها عليه، فليست الإضافة هنا نحوية، بل عرفية، وذلك بذكر القبر وجعله مزورًا، **(وأنه لو قال:)** كل قائل **(زرنا النبى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، بدون ذكر القبر، **(لم يكرهه)**، أى على ما يأتى قبل، وهو مناف لما قدمه من حديث ابن عمر: «من زار قبرى وجبت له شفاعتى»[1]، إلا أن يقال: إنه ضعيف، وأن الصحيح حديث أنس: «من زارنى»، بدون ذكر القبر، إلا أنه غير مسلم؛ لأن عبد الحق رواه فى الأحكام و لم يتعقبه، وتقدم الكلام أيضًا فيه، **(لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: اللهم لا تجعل قبرى وثنًا)**، أى كالوثن، وهو الصنم من الحجارة **(يعبد بعدى)**، أى بعد وضعى فيه، وقيل: الفرق بين الوثن والصنم أن الأول ما كان نحتيًا من حجارة وغيرها، والثانى ما كان صورة مجسمة، وقيل: هما بمعنى فيطلقان عليهما، وهو المشهور.

(اشتد غضب الله تعالى على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، أى يسجدون لها كما يسجدون للأوثان. قال الشراح هنا: كالنصارى، وهو مشكل كما تقدم؛ لأن نبى النصارى عيسى، صلى الله عليه وسلم، لا قبر له، فإنه رفع إلى السماء، اللهم إلا أن يقال: إنه تغليب، أى قبور كبارهم ممن يعتقدونه ويعظمونه، إلا أنه بعيد جدًا، فلا حاجة لتفسير الحديث هنا بهذا، نعم وقع فى حديث آخر: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[2]، وهذا يشكل عليه ما ذكرناه، ويحتاج إلى الجواب بما قلناه، والمصنف لم يورده هنا، فلا حاجة إلى الكلام عليه.

واعلم أن هذا الحديث هو الذى دعا ابن تيمية ومن تبعه كابن القيم إلى مقالته

---

(١) أخرجه الدارقطنى (٢/٢٧٨)، والبيهقى (٥/٢٤٥)، والدولابى فى الكنى (٢/٦٤)، وابن عدى فى الكامل (٦/٢٣٥٠).

(٢) أخرجه البخارى (١/١١٦، ٢/١١، ١٢٨، ٦/١٣)، ومسلم (١٩/٥٢٩)، وأحمد (١/٣١٨، ٥١٨، ٥/٢٠٤)، والنسائى (٤/٩٦)، والحاكم (٤/١٩٤)، والطبرانى فى الكبير (١/١٢٧، ٥/١٦٦)، وفى الصغير (١/٣٤).

الشنيعة التى كفروه بها، وصنف فيها السبكى مصنفًا مستقلاً، وهى منعه من زيارة قبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وشد الرحال إليه، وهو كما قيل:

لمهبط الوحى حقا ترحل النجب   وعند ذاك المرجى ينتهى للطلب

فتوهم أنه حمى جانب التوحيد بخرافات لا ينبغى ذكرها، فإنها لا تصدر عن عاقل، فضلاً عن فاضل سامحه الله عز وجل. وأما قوله صلى الله تعالى عليه وسلم الآتى: «لا تتخذوا قبرى عيدًا»(١)، فقيل: كره الاجتماع عنده فى يوم معين على هيئة مخصوصة. وقيل: المراد لا تزوروه فى العام مرة فقط، بل أكثروا الزيارة له كما مر، وأما احتماله للنهى عنها، فهو يفرض أنه المراد محمول على حالة مخصوصة، أى لا تتخذوه كالعيد فى العكوف عليه وإظهار الزينة عنده وغيره مما يجتمع له فى الأعياد، بل لا يؤتى إلا للزيارة والسلام والدعاء، ثم ينصرف.

(فحمى)، أى صان مالك، رحمه الله، **(إضافة هذا اللفظ)**، أى لفظ الزيارة إضافة معنوية **(إلى القبر)**، يعنى قبره الشريف، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(والتشبه بفعل أولئك)** الكفرة الذين اتخذوا قبور الأنبياء مواطن للسجود **(قطعًا للذريعة وحسمًا)** أى قطعًا وسدًا **(للباب)**، أى باب الذريعة، وهذا مبنى على سد الذرائع التى هى من قواعد مذهب مالك، وقد قدمنا تحقيقه، **(والله تعالى أعلم)** بمراد مالك فيما قاله، وهذا كما قيل: مما يتعجب منه، فإنه لا تشبيه فيه بوجه من الوجوه أصلاً بفعل أولئك، فالظاهر أنه لم يصح عنه، وإنما المروى عنه كما وقع هنا فى بعض النسخ.

(وهو كما قال أبو عمران) موسى بن عيسى الفاسى، فقيه القيروان، وقد تقدمت ترجمته: **(إنما كره أن يقول: طواف الزيارة)**، الذى يكون بعد رمى الجمار، فقال: إنما يقال له: طواف الإفاضة وطواف الصدر؛ لأنه لا معنى للزيارة هنا عنده، وإن خالفه فى إطلاقه غيره، فالتبس عليهم كراهة إطلاق الزيارة فى كلام مالك، وفى نسخة بدل هذه النسخة قبل قوله: والذى عندى... إلى آخره، وقال أبو عمران: إنما كره مالك... إلى آخر ما تقدم.

(تنبيه) ما ادعى المصنف، رحمه الله تعالى، أنه الأولى لا وجه له رواية ودراية، فقد ورد إطلاق الزيارة لقبره فى أحاديث كثيرة، منها ما رواه ابن عمر أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «من حج فزار قبرى بعد موتى، كان كمن زارنى فى حياتى

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٦٧)، وابن أبى شيبة (٢/٣٧٥)، وعبد الرزاق (٦٧٢٦)، وأبو نعيم فى الحلية (٦/٢٨٣).

وصحبنى»، إلا أن قوله: «وصحبنى»، تفرد به بعض رواته، كما قاله ابن عساكر. وقال ابن حجر: إنها زيادة منكرة، ورد بأن له متابعات، وليس التشبيه من كل الوجوه، فلا ينافى خبر: «لو أنفق أحدكم مثل أُحُد ذهبًا...» الحديث، روى أيضًا فى معناه أحاديث كثيرة.

قال السبكى: كأنها لم تبلغ مالكًا، رحمه الله، مع أنه روى عنه أيضًا كراهة أن يقال: زرنا النبى؛ لأنه أعظم من أن يزار، ولأنه اشتهر فى الموتى، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم حى فى قبره. وقيل: كرهه لأن الذهاب ليس لصلته ونفعه، وإنما هو رغبة فى الثواب. قال السبكى: وهو الأقرب فى توجيه كلام مالك، وإن كان المختار الصحيح أنه لا يكره شىء من ذلك. وقيل: كرهه لأن الزيارة من شاء فعلها، ومن شاء تركها، وهى كالواجب عنده، واختار ابن رشد أنه إنما كره لفظ: القبر؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم حى.

(**قال إسحاق بن إبراهيم الفقيه: ومما لم يزل من شأن من حج**)، أى أنه استمر من عادة السلف إذا حجوا أن يأتوا (**المزور**)، قيل: إنه بكسر الميم وسكون الزاء المعجمة وفتح الواو مصدر ميمى بمعنى الزيارة، وقوله: (**بالمدينة**) متعلق به، وهو تكلف لا يخفى، ولا رواية تدعو إليه، والظاهر كما فى بعض النسخ أنه بضم الميم ورائين مهملتين مصدر مر، أى من حج يمر بالمدينة ويقصدها، ويدل عليه قوله: (**والقصد إلى الصلاة فى مسجد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم**) اقتداء به صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه كان إذا قدم من سفر دخل المسجد وصلى فيه، (**والتبرك برؤية روضته**)، وهى ما بين قبره الشريف (**ومنبره**)، سميت روضة؛ لقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيها: «إنها روضة من رياض الجنة»، (**وقبره**) وكيفية التبرك به ستأتى.

(**ومجلسه**)، أى موضع جلوسه فى الروضة المأثور، (**وملامس يديه**)، أى المحال التى لمسها بيده الشريفة فى سجوده فيها، (**ومواطىء قدميه، والعمود الذى استند إليه**) بإسناد ظهره الشريف إليه فى جلوسه، (**ومنزل جبريل بالوحى فيه عليه**)، وكان مراده أنه يقصد التبرك بمسجده الشريف؛ لأنه كان محلاً لما ذكر، وإن لم يكن ذلك مبنيًا الآن، فإن نقل تعيين شىء من ذلك فعل به ذلك، رزقنا الله تعالى عز وجل الفوز بالوصول إلى السعادة العظمى، بمشاهدة تلك المآثر والمشاهد بجاه محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**وبمن عمره**)، بتخفيف الميم، أى سكنه، وأما بتشديد الميم فمن التعمير، وهو بلوغ العمر، بضم الميم، أى مدة الحياة كما اعتمده أهل اللغة، (**وقصده من الصحابة وأئمة المسلمين، والاعتبار بذلك كله**)، أى الاعتناء به تعظيمًا وتكريمًا، أو التفكر فيهم وفى مآثرهم.

(وقال ابن أبى فديك) محمد بن إسماعيل بن مسلم بن أبى فديك، بضم الفاء، ودال مهملة، وياء تصغير، وكاف، الإمام الثقة، روى عنه الستة وأحمد، وتوفى سنة مائتين، وله ترجمة فى الميزان، وحديثه هذا رواه البيهقى: **(سمعت بعض من أدركت)**، يقال: أدرك فلانًا، إذا أدرك زمانه ورآه، والمراد من أدركه من العلماء والصلحاء، **(يقول: إنه من وقف عند قبر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** متوجهًا له، **(وقال)** تاليًا **(هذه الآية:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٦] **إلخ، ثم قال)** بعد تلاوتها: **(صلى الله عليك يا محمد) (سبعين مرة، ناداه ملك: صلى الله عليك يا فلان، ولم تسقط له حاجة)**.

وفى رواية: ولم تسقط لك اليوم حاجة، أى لا ترد ولا تخيب، شبه عدم قبولها بسقوط شىء ويضيع منه، وخص السبعين؛ لأنها محل الإجابة، كما قال الله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠]، وقد قيل على هذا: إنه ينافى ما قالوه كما مر، من أنه لا يجوز نداؤه باسمه: يا أحمد، يا محمد، فى حياته وبعد مماته؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، بل يقال: يا رسول الله، ونحوه تعظيمًا، وكذا لا ينادى بكنيته كأبى القاسم، وقد تقدم، فإن كان هذا مأثورًا عنه، فيغتفر اتباعًا للمأثور، ولتقديم تعظيمه هنا بقوله: صلى الله عليك، فليتأمل هذا.

وفى الدر المنظم بعد ذكره إخراج البيهقى لما ذكره عن ابن أبى فديك، ما نصه: ولا دليل فيه لجواز ندائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، باسمه، فقد صرح أئمتنا بحرمة ذلك، وظاهره أنه لا فرق بين أن يتقدمه له تعظيم له وأن لا، وهو ظاهر خلافًا لمن بحث تخصيصه بالثانى، وذلك لما فى النداء بالاسم، وأن تقدمه تعظيم، كما هو جلى من ترك التعظيم، إذ مثله يقع من بعضنا لبعض، وما تقدمه لا نظر إليه لانقضائه. قال أئمتنا: وإنما ينادى بنحو: يا نبى الله، يا رسول الله، فقول الزين المراغى، رحمه الله تعالى: الأولى لمن عمل بالأثر أن يقول: يا رسول الله وهم، بل الصواب أن ذلك واجب لا أولى. انتهى.

(وعن يزيد بن أبى سعيد المهرى)، بفتح الميم، نسبة إلى مهرة قبيلة، وهو محدث مشهور أخرج له مسلم، رحمه الله تعالى، وغيره قال: **(قدمت على عمر بن عبد العزيز)**، أى أتاه قاصدًا له واجتمع به، **(فلما ودعته)**، أى لما أردت الانصراف من عنده، **(قال: لى إليك حاجة)** أسألك قضاءها، وهى أنك **(إذا أتيت المدينة سترى قبر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، إذا زرته، فإذا رأيته **(فأقره منى السلام)**، أى بلغه سلامى، وأنى مسلم عليه، يقال: قرأ عليه وأقرأه السلام، إذا بلغه سلامًا من غائب عليه، وقيل: لا يقال: أقرأه، إلا إذا كان مكتوبًا، والمشهور أنهما بمعنى، وهو الذى يناسب الحديث الذى نحن فيه.

(وقال غيره)، أى غير يزيد المذكور، والقائل هو حاتم بن وردان، كما ذكره البيهقى فى شعب الإيمان **(وكان)**، أى عمر بن عبد العزيز الخليفة المشهور الجليل المقدار **(يبرد)**، بضم أوله من أبرد، بمعنى أرسل **(إليه)** صلى الله تعالى عليه وسلم، **(البريد من الشام)**؛ لأنها كانت مقر الخلفاء، أى يرسل رسولاً إلى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليبلغه سلامه ويقرأه السلام، لا لقصد غير ذلك البتة، وكان ذلك فى صدر زمن التابعين، و لم ينكر ذلك أحد منهم، فالبريد كما علمت هو الرسول الذى يكون مستعجلاً لتبليغ أمر الخلفاء ونحوهم، وهو فى الأصل فارسى معرب من بريدة دم، أى مقطوع الذنب؛ لأنهم كانوا يضعون فى المنازل بغالاً تركبها الرسل لتبليغ الأخبار بعجلة، ويجعلون قطع أذنابها علامة لها، ثم أطلق على الرسول، وصار حقيقة فيه مطلقًا.

وقيل: سمى الرسول بريدًا؛ لأنه يقطع البريد، وهو اثنى عشر ميلاً، وصاحب البريد رجل يعد لتبليغ الأخبار وأحوال البلاد والولاة، وأصحاب البريد قوم معدون لذلك عندهم براذين سيارة، فإذا وقع أمر عظيم وجههم صاحب البريد للإخبار به.

وكان من دأب السلف أنهم يرسلون السلام إلى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان ابن عمر يفعله ويرسل له، عليه الصلاة والسلام، السلام لأبى بكر وعمر، رضى الله عنهما، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وإن كان يبلغه سلام من سلم عليه وإن كان بعيدًا عنه، لكن فى هذا فضيلة خطابه عنده ورده عليه السلام بنفسه كما مر، إلا أنه قيل: إنه لا يجب عليه تبليغه بخلاف من قال: سلم لى على فلان، فإنه يجب عليه أداء أمانته له، أى إن لم يصرح له بعدم القبول كما هو ظاهر، ويجب على المسلم عليه الرد بلسانه فورًا كما لو كان المسلم حاضرًا، وفرق بينهما بأن القصد بالسلام ابتداء وردا من الأحياء التواصل وعدم التقاطع الذى يغلب وقوعه بين الأحياء، وحينئذ فإرسال السلام للغائب القصد به مواصلته وعدم مقاطعته، وإذا كان هذا هو القصد به، كان تركه مع تحمله تسببًا أو وسيلة إلى المقاطعة المحرمة، أى من شأنه ذلك، وللوسائل حكم المقاصد.

وأما إرسال السلام له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فالقصد به الاستمداد منه، وعود البركة على المسلم، فتركه ليس فيه إلا عدم اكتساب فضيلة للغير، فالتبليغ سنة لا واجب، ولا يقال: تفويت الفضائل على الغير حرام؛ لأنا نقول: فرق واضح بين عدم اكتساب الفضيلة للغير وتفويت الفضيلة الحاصلة على الغير.

(فائدة) قال صاحب القاموس فى رسالة الصلاة له: إن السلام عليه، صلى الله تعالى

عليه وسلم، عند قبره الشريف أفضل من الصلاة عليه، أى للأخبار الكثيرة، ومنها: «ما من أحد يسلم علىَّ عند قبرى...» إلخ، وفيه نظر، ثم رأيت فى الدر المنظم بعد ذكره له، ويعارضه ما تقدم أنه تعالى يصلى هو وملائكته على المصلى بدل الصلاة الواحدة عشرًا أو مائة على ما مر، وصلاة الله أفضل من رده، صلى الله تعالى عليه وسلم، على أنه مر أنه صلى الله تعالى عليه وسلم يرد الصلاة عليه كالسلام، فالأولى أن يوجه أفضلية السلام بأنه شعار اللقاء والتحية، وحينئذ تختص أفضليته بحالة اللقاء عند كل زيارة، أما إذا سلم سلام اللقاء، فالصلاة بعده أولى من استمرار السلام، وإن كان باقيًا فى مقام الزيارة، ويدل لذلك صنيع العلماء، فإنهم لما ذكروا أن الزائر يبدأ بالسلام، ذكروا أنه يختم بالصلاة عليه.

(قال بعضهم: رأيت أنس بن مالك) الصحابى خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم **(أتى قبر النبى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، لزيارته **(فوقف)** عند القبر الشريف، **(فرفع يديه)** للدعاء، فإنه مستحب لمن زاره، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يدعو ويستشفع به ويتضرع، **(حتى ظننت أنه افتتح الصلاة)**؛ لأنه يسن رفع اليدين لافتتاح الصلاة، ولعله كان مستقبل القبلة للظن المذكور، **(فسلم على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** بعد رفع يديه ودعائه، **(ثم انصرف)** من عنده.

(قال مالك فى رواية ابن وهب) عنه، وهو عبد الله بن وهب عالم مصر كما تقدم، وهو ممن روى عن الإمام مالك: **(إذا سلم)** الزائر لقبره الشريف **(على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ودعا بما يريد الدعاء به يقف)** عنده **(ووجه إلى القبر الشريف لا إلى القبلة)**، كما يستحب للداعى فى غير هذا الموطن؛ لأن استدباره خلاف الأدب، **(ويدنو)**، أى يقرب من القبر فى حال الدعاء، **(ويسلم)** عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ولا يمس القبر بيده)**، فيكره إلصاق الظهر أو البطن بجدار القبر المكرم، ويلحق بجداره جدار الساتر عليه المستور بالحرير الآن؛ لما فى ذلك من مخالفة الأدب معه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن ثم تعين على كل أحد أن لا يعظمه صلى الله تعالى عليه وسلم إلا بما أذن الله فيه لأمته صلى الله تعالى عليه وسلم فى جنسه مما يليق بالبشر، فإن مجاوزة ذلك تفضى إلى الكفر والعياذ بالله، بل مجاوزة الوارد من حيث هو ربما تؤدى إلى محذور، فليقتصر على الوارد ما أمكن، واستقبال وجهه صلى الله تعالى عليه وسلم واستدبار القبلة مذهب الشافعى والجمهور، ونقل عن أبى حنيفة.

وقال ابن الهمام: ما نقل عن أبى حنيفة أنه يستقبل القبلة، مردود بما روى عن ابن عمر أن من السنة أن يستقبل القبر المكرم، ويجعل ظهره للقبلة، وهو الصحيح من مذهب

أبي حنيفة، وقول الكرماني: إن مذهبه بخلافه ليس بشيء؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم حي في ضريحه يعلم زائره، ومن يأتيه في حياته إنما يتوجه إليه، ويستحب القيام في حال الزيارة كما نبه عليه المصنف بقوله: يقف، وهو أفضل من الجلوس عند القبر الشريف عند الجمهور، ومن خير بينهما أراد الجواز دون المساواة، فإن جلس فالأفضل أن يجثو على ركبتيه ولا يفترش ولا يتربع؛ لأنه الأليق بالأدب.

(**وقال**) مالك (**في المبسوط**): اسم كتاب له كما تقدم (**لا أرى**)، أي لا أستحسنه وأعده رأيًا (**أن يقف عند قبر النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، يدعو**)، أي في حال كونه داعيًا لما أراد، (**ولكن يسلم**) عليه (**ويمضي**)، أي ينصرف من عنده من غير وقوف، وظاهره أن مذهب مالك عدم استحباب الوقوف مطلقًا. ونقل الشافعية عنه أن استحباب عدم الوقوف عنده لأهل المدينة المقيمين بها لا للغرباء الزوار، فإنهم يستحب لهم الوقوف للدعاء له صلى الله تعالى عليه وسلم ولأبي بكر وعمر، ففرق بين المدني وغيره، فلا يجعل المدني قبره الشريف كالمسجد يأتيه في أكثر أيامه للعبادة والقربة بناء على قاعدته في سد الذرائع، وسيأتي أيضًا بيان ذلك في كلام المصنف عن المبسوط، والصحيح عند غيره أنه لا فرق بين المدني وغيره في استحباب الإكثار من زيارته والوقوف عنده للدعاء، وسيأتي ما يعلم منه أن في المسألة ثلاثة مذاهب.

(**وقال ابن أبي مليكة:**)، هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة بالتصغير، وهو من أعلام التابعين، وأبوه أبو مليكة صحابي جليل، وابنه توفي سنة سبع عشرة ومائة، وأخرج له أصحاب الكتب الستة (**من أحب أن يكون**)، وفي نسخة: يقوم (**وجاه النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، أي في مواجهته ومقابلته، ووجاه مثلث الواو، بمعنى تجاه، وهو مثلث التاء أيضًا كما في مثلثات صاحب القاموس، ومعناه أن يقابل وجهه وجهه، وتاء تجاه مبدلة من الواو كتخمة، (**فيجعل القنديل الذي في القبلة عند القبر**) الشريف (**على رأسه**)، أي محاذيًا لها.

والقنديل بكسر القاف مصباح من زجاج يعلق وهو معروف، وبفتح القاف معناه العظيم الرأس، ووزنه فعليل، وقيل: فنعيل، ونونه زائدة، وهو إرشاد لكيفية الزيارة، وأن يكون بينه وبين القبر فاصل، فقيل: إنه يبعد عنه بمقدار أربعة أذرع، وقيل: ثلاثة، وهذا مبني على أن البعد أولى وأليق بالأدب، كما كان في حياته صلى الله تعالى عليه وسلم، وعليه الأكثر. وذهب بعض المالكية إلى أن القرب أولى، وقيل: يعامله معاملته في حياته، فيختلف ذلك باختلاف الناس، وهذا باعتبار ما كان في العصر الأول، وأما اليوم فعليه مقصورة تمنع من دنو الزائر، فنقف عند الشباك.

(وقال نافع:)، هو ابن هرمز مولى ابن عمر اشتراه من سبى خراسان، وهو تابعى جليل، توفى بالمدينة سنة سبع عشر، وهو غير نافع عبد الرحمن المدنى المقرى، وهذا رواه البيهقى وغيره، **(كان ابن عمر)**، الصحابى المشهور، **(يسلم على القبر)** الشريف، **(رأيته مائة مرة وأكثر يأتى إلى القبر)**، بدل من قوله: يسلم، مفسر له، **(فيقول: السلام على النبى، السلام على أبى بكر، السلام على أبى)**، وفى نسخة: أبى حفص عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، **(ثم ينصرف)**، قيل: وفيه إشارة إلى أنه لا ينبغى أن يطيل الكلام عند السلام ويختصر، وقيل: يطيل ما شاء فى الثناء والدعاء والتوسل. وقيل: يختلف باختلاف الناس والأحوال، ويأتى للزيارة من قبل رأسه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم يتأخر لأبى بكر وعمر، رضى الله عنهما، فيبدأ بالأشرف فالأشرف تعظيمًا لهما كما يليق. وقيل: يأتى من قبل رجل عمر؛ لأنه من الأدب ويتأخر قليلاً قليلاً، وفى كيفية وضع القبور الثلاثة اختلاف مذكور فى تاريخ المدينة الكبير للسيد السمهودى مفصل ليس هذا محله.

(وفى الموطأ من رواية يحيى بن الليثى)، تقدم أن يحيى بن يحيى راوى الموطأ عن مالك اثنان، **(أنه كان يقف على قبر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، على هنا بمعنى عند، وهذا إشارة إلى اختيار القرب منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما مر، **(فيصلى على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى أبى بكر وعمر)**، تبعًا له، أو يصلى بمعنى يدعو. **(وعند ابن القاسم)** عبد الرحمن فقيه مصر كما تقدم، **(والقعنبى)** بفتح القاف وسكون العين المهملة وفتح النون بعدها باء موحدة وياء نسبة، وهو عبد الله بن سلمة بن قعنب الحارثى أبو عبد الرحمن، أحد الأعلام، روى عنه البخارى، وأبو داود وغيرهما، وهو ثقة حجة، توفى سنة عشرين أو إحدى وعشرين ومائتين، أخرج له الشيخان وغيرهما كما علم فى روايتهما عن مالك بلفظ: **(ويدعو لأبى بكر وعمر)**، لا بلفظ: يصلى، كما مر.

(قال مالك فى رواية ابن وهب) عنه **(يقول المسلم)** أو الزائر: **(السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته)**. و**(قال)** مالك **(فى المبسوط: ويسلم على أبى بكر وعمر)** بعد السلام عليه.

و**(قال القاضى أبو الوليد الباجى:)**، تقدمت ترجمته، **(وعندى)**، أى الراجح عندى، **(أنه يدعو للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بلفظ الصلاة)**؛ لما فيها من التعظيم كما تقدم، **(و)** يدعو **(لأبى بكر وعمر، كما جاء فى حديث ابن عمر)** الذى تقدم، وقوله فيه: السلام على أبى بكر، السلام على أبى عمر، فيدعو لهما بالسلامة من كل مكروه، ولا

يصلى عليهما؛ لما مر **(من الخلاف)**، أى مخالفة الدعاء لهما للدعاء لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى المناسك هنا تفصيل طويل فيما يقوله الناس، ليس هذا محله.

(وقال ابن حبيب:) عبد الملك بن حبيب القرطبى الإمام الجليل الثقة مصنف كتاب الواضحة، ولا يلتفت لمن نسبه للكذب، وترجمتهفى الميزان، **(ويقول)** الزائر **(إذا دخل مسجد رسول الله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(بسم الله، وسلام على رسول الله)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(السلام علينا من ربنا، وصلى الله وملائكته على محمد، اللهم اغفر لى ذنوبى، وافتح لى أبواب رحمتك وجنتك)**، أى يسر لى ما يوصلنى إليهما، فإن دخوله من باب المسجد الموصل لجنة روضة شوقه إلى الجنان، وقوى رجاءه فناسب دعاءه بما ذكر، ولما سلك الطريق الموصلة اعتصم بالله من قطاع طريقها بقوله: **(واحفظنى من الشيطان الرجيم، ثم اقصد)** بعد الدعاء **(إلى الروضة، وهى ما بين القبر والمنبر، واركع فيها ركعتين)** تحية المسجد شكرًا لهذه النعمة **(قبل وقوفك بالقبر)**، أى عنده، **(تحمد الله تعالى فيها)**، أى فى تلك الصلاة، **(وتسأله تمام ما خرجت إليه)** من زيارتك وسفرك **(والعون عليه)**، أى المساعدة بتيسيره له، **(وإن كانت ركعتاك فى غير الروضة)** من المسجد النبوى **(أجزأتاك)** بالهمزة، أى كفتاك فى أداء السنة، **(وفى الروضة أفضل)**، أى أكثر ثوابًا اقتداء به، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وقد قال، عليه السلام: ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة)**، ويأتى الكلام عليه، وما بين القبر والمنبر نحو خمسين ذراعًا.

ومعنى كونه روضة من رياض الجنة، أنه يؤدى إلى دخولها، فكأنها منها، فأطلق السبب وأراد المسبب، أو هو تشبيه بليغ، وقيل: إنه على حقيقته، وأنه ينقل إلى الجنة، وفى حديث آخر: يأتى، وإن أوهم كلامه هنا أنه من تتمة الأول، **(ومنبرى على ترعة من ترع الجنة)**، ترعة وترع بمثناة، كغرفة وغرف، قيل: هى الروضة تكون فى مكان مرتفع مطمئن، وقيل: الباب، والروضة محل الأشجار مطلقًا، أو فى مكان مطمئن تجمع أشجارًا ورياحين، والترعة تكون أيضًا محل الماء، وبمعنى الدرجة كما ذكره أهل اللغة، والكل محتمل هنا، والكلام فى هذا كما تقدم فى قوله: روضة من رياض الجنة، فى احتمال التشبيه والاستعارة، ويأتى بيان الحديث فى كلام المصنف، **(ثم تقف بالقبر)**، أى عنده، **(متواضعًا متوقرًا)**، أى بتواضع ووقار، أى سكون تأدبًا بهيبة وإجلال وغض طرف.

وقال الكرمانى الحنفى فى مناسكه: إنه يضع يمينه على شماله كما يقف فى الصلاة. وقال غيره: الأولى الإرسال؛ لئلا يتشبه بالمصلى، فإنه منهى عنه **(فتصلى)** بالخطاب لكل زائر **(عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، وتثنى)** عليه بثناء يليق به **(بما يحضرك)**، أى يخطر

بالك من غير تكلف لأمور تستعد لها بمسبحة ونحوها، ويقبح الانحناء وتقبيل الأرض، وما يظنه جهلة العوام من أن فيه زيادة تعظيم ليس بشيء، **(وتسلم على أبى بكر وعمر، وتدعو لهما)** بما يناسب مقامهما كما مر، **(وأكثر من الصلاة فى مسجد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالليل والنهار)**، والمراد بمسجده هنا هو المراد بقوله: «صلاة فى مسجدى هذا تعدل ألف صلاة فى غيره»(١)، كما يأتى، وهو ما كان مسجدًا فى زمنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا مازيد فيه كما قاله النووى وغيره، والإشارة بقوله هذا تعينه، واعتراض ابن تيمية عليه بما ورد فى الحديث: «لو زيد فى مسجدى إلى ذى الحليفة كان مسجدى»، رد بأنه لا يقتضى مساواته من كل وجه، ولا شك فى أن الأول أفضل من غيره، وفى حديث الزيادة معجزة وإخبار بالغيب، ولا ينبغى للزائر جعل القبر خلف ظهره ولا بجانبه كما قاله ابن عبد السلام.

(ولا تدع) بالخطاب والجزم، أى تترك **(أن تأتى مسجد قباء)**، بضم القاف ويمد ويقصر، ويذكر ويؤنث، فيجوز صرفه ومنع صرفه، وهو اسم موضع قريب من المدينة بنى فيه عمرو بن عوف الأنصارى مسجدًا أتاه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وصلى فيه، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [التوبة: ١٠٨] على الراجح كما يأتى، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يزوره راكبًا وماشيًا فى كل سبت، وحكمة تخصيصه أن فى إتيانه زيارة أهله، والموتى يعلمون بزوارهم يومًا قبل الجمعة ويومًا بعده، وأعطى أهل أحد يوم الخميس؛ لأنهم أفضل، فبقى السبت لأهل قباء. وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «صلاة ركعتين فيه كعمرة»، ويقال له: مسجد الفتح، وكان عمر، رضى الله عنه، يأتيه فى كل اثنين وخمسين(٢)، وقال: رأيت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأصحابه ينقلون حجارته على بطونهم، فلو كان فى طرف الأرض لضربنا إليه أكباد الإبل. وقال: «صلاة ركعتين فيه أحب إلىّ من أن نأتى بيت المقدس مرتين»، وكذا يستحب إتيان غيره من المساجد المأثورة صلاة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيها كمسجد القبلتين، **(وقبور الشهداء)** المعهودين وهم شهداء أُحُد، رضى الله عنهم، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يزورهم، وينبغى أن لا تدع زيارتهم وأن تبدأ منهم بحمزة سيد الشهداء فى الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه البخارى (٧٦/٢)، ومسلم (١٣٩٤/٥٠٦)، وأحمد (٢٩/٢، ١٠٢، ٢٥١، ٣٨٦، ٤٦٨، ٤٧٣)، والترمذى (٣٢٥٠، ٣٩١٦)، وابن ماجه (١٤٠٤، ١٤٠٦)، والحاكم (٥٠٩/٤)، والطبرانى (١٣٧/٢)، والبيهقى (٢٤٦/٥).

(٢) لعل صوابها: [وخميس].

(وقال مالك فى كتاب محمد: ويسلم عليه صلى الله تعالى عليه وسلم إذا دخل وخرج)، أى إذا دخل مسجد المدينة وخرج منه، أى بالفعل، لا عند إرادة ذلك، **(وفيما بين ذلك)**، أى فى أيام إقامته بالمدينة يدخل المسجد ويسلم عليه صلى الله تعالى عليه وسلم كلما دخل وخرج.

(قال محمد: وإذا خرج) من المدينة من أتاها زائرًا، **(جعل آخر عهده)** بالمدينة **(الوقوف بالقبر)** أى عنده للوداع، **(وكذلك)** كل **(من خرج مسافرًا)** من المدينة يجعل آخر عهده زيارته صلى الله تعالى عليه وسلم والسلام عليه.

(وروى ابن وهب، عن فاطمة) الزهراء **(بنت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: إذا دخلت المسجد)**، يعنى مسجده، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو الأعم منه، **(فصلى على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقولى: اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك)**، وفيه مناسبة تامة؛ لأن العبادة مكفرة للسيئات وللدخول بفتح الباب، وهو باب موصل لأعظم رحمة، **(وإذا خرجت)** من المسجد النبوى أو الأعم منه، **(فصلى على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقولى: اللهم اغفر لى ذنوبى)** ببركة العمل الصالح، **(وافتح لى أبواب فضلك)**، وذكر الفضل هنا أنسب؛ لأن الخارج من المسجد يخرج لكسب مصالحه، والفضل الرزق.

وفتح الباب كناية عن تسهيل أموره وتيسير مسالكه وأسباب معاشه، وقد علم بذلك حكمة ذكر الرحمة فى الدخول والفضل فى الخروج، وحاصلها أن المساجد محال رحمة الحق تعالى لعباده رحمة مخصوصة تناسب قصده وعبادته، فطلب تلك الرحمة الخاصة عند دخولها، وأما الخروج منها فهو إلى محال الأسباب والاكتساب التى بها تحصل الأرزاق والغناء عن الناس، وهذا مظهر الفضائل التى تفضل بها على عباده، فسئل عند التوجه ليفاض عليه منه ما يتوفر به خشوعه وانقطاعه إلى الله تعالى، قالوا: ويصلى ركعتين نفلاً مطلقًا، وقيل: إنهما سُنة الوداع، واختلف هل يقدم الوداع على الصلاة أو يؤخرها ليكون آخر عهده ملاقاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويحسن أن يقول: لا تجعل هذا آخر العهد بحرم رسولك، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويسر لى العود إليه، وارزقنى العفو والعافية فى الدنيا والآخرة، ويتأسف على مفارقته، واعلم أن هذا الحديث رواه أصحاب السنن على أنه سُنة لدخول كل مسجد، وليس مخصوصًا بالمسجد النبوى كما ذكره الخيضرى فى اللواء المعلم، إلا أنه يكفى أنه يدخل فيه دخولاً أوليًا، وزاد بعضهم فى المسجد النبوى: رب وفقنى وسددنى وأصلح لى وأعنى على ما يرضيك عنى، ومن علىَّ بحسن الأدب فى هذه الحضرة الشريفة.

(وفى رواية أخرى) من طريق آخر، وحديث فاطمة رواه أحمد وأبو يعلى والترمذى وحسنه: **(فليسلم مكان فليصل فيه، ويقول إذا خرج: اللهم إنى أسألك من فضلك وفى)** رواية **(أخرى: اللهم احفظنى من الشيطان الرجيم)**، وهذه الأمور كلها محل ذكرها مناسك الحج، وفصلت ثمة.

(وعن محمد بن سيرين) التابعى المشهور **(كان الناس يقولون إذا دخلوا المسجد)** النبوى: **(صلى الله وملائكته على محمد، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، بسم الله دخلنا، وبسم الله خرجنا)**، أى ندخل ونخرج، عبر بالماضى مشاكلة، وإشارة إلى أن المساجد إنما هى للعبادة، وليست محل مكث وإقامة لغير المعتكف، **(وعلى الله توكلنا)**، أى فوضنا له أمورنا كلها لترك من دخل المسجد أمور دنياه، فإن توجهه فيه إنما هو لله، **(وكانوا يقولون إذا خرجوا مثل ذلك)**، وهذا ليس خاصًا بمسجد المدينة، بل هو مستحب فى كل مسجد كما تقدم، واستحب الصلاة عليه عند دخولها والخروج منها؛ لأنه هو الذى بين لنا العبادة فيها، وهدانا الطريق الخير، فكان حقًا علينا أن نذكره ثمة والدعاء له.

والمراد بالناس هنا الصحابة، ففعلهم يدل على أنه سُنة مأثورة، فلا يتوهم أنه كيف يكون دليلاً على أنه سُنة، ولذا أردفه بما يوضحه من قوله: **(و)** روى **(عن فاطمة أيضًا)**، أى كما روى عنها ما قبل هذا **(كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذا دخل المسجد قال: صلى الله على محمد وسلم، ثم ذكر مثل حديث فاطمة قبل هذا، وفى رواية: حمد الله)** الذى وفقه للعبادة، **(وسمى)** الله تيمنًا وتبركًا ليتم ما شرع فيه، **(وصلى على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** لما مر، **(وذكر مثله)**، أى ما هو بمعناه.

(وفى رواية) يقول إذا دخل المسجد: **(بسم الله، والسلام على رسول الله)**، فهذا صريح فى أن ما فعله الناس فعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بنفسه، فهم مقتدون به.

(و) روى **(عن غيرها)**، أى غير فاطمة، رضى الله عنها: **(كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا دخل المسجد قال: اللهم افتح لى أبواب رحمتك)**، وإنعامك بنعم الدنيا والآخرة، **(ويسر لى أبواب رزقك)**، أى سهلها ويسر أسبابها، والتعبير بالتيسير إشارة إلى أنه مما مضى وفرغ منه.

(وعن أبى هريرة، رضى الله عنه: إذا دخل أحدكم المسجد، فليصل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وليقل: اللهم افتح لى)، يعنى ما تقدم بتمامه، وحاصله أن هذه

الأحاديث تدل على أن من دخل المسجد أو خرج منه أو مر به، أى مسجد كان يستحب له أن يسمى الله، ويصلى ويسلم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ويدعو بخير من خيرى الدنيا والآخرة، والمأثور أفضل، وهذا مما اتفقوا عليه ووردت فيه أحاديث صحيحة مسندة فى باب الدعوات.

(وقال مالك فى المبسوط: وليس يلزم من دخل المسجد) النبوى، **(وخرج منه من أهل المدينة)** المقيمين بها **(الوقوف بالقبر)**، أى عنده للزيارة، **(وإنما)** يلزم **(ذلك)**، أى الوقوف لازم **(للغرباء)** الذين جاءوا المدينة للزيارة، وليس اللزوم هنا بمعنى الوجوب الشرعى، بل التأكيد فى حقه.

(وقال) مالك **(فيه)**، أى فى كتاب المبسوط **(أيضًا)** كما نقل عنه أولاً: **(لا بأس لمن قدم من سفر أو خرج إلى سفر)** من أهل المدينة **(أن يقف على قبر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى يقوم عنده زائرًا، **(فيصلى عليه)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(ويدعو له ولأبى بكر وعمر)** بعد الصلاة على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فقيل له: إن ناسًا من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه)**، أى الخروج للسفر فهم مقيمون **(يفعلون ذلك)**، أى الوقوف عند القبر والصلاة عليه والدعاء لصاحبيه **(فى اليوم)** الواحد **(مرة أو أكثر، وربما وقفوا فى الجمعة أو الأيام المرة والمرتين أو أكثر عند القبر فيسلمون)** عليه صلى الله تعالى عليه وسلم **(ويدعون)** لأبى بكر وعمر **(ساعة، فقال)** مالك لما ذكر له ذلك: **(لم يبلغنى هذا)**، أى وقوف المدنى من غير سفر عند القبر **(عن أحد من أهل الفقه ببلدنا)**، يعنى المدينة؛ لأن عمل أهلها حجة عنده، **(وتركه)**، أى ترك هذا الفعل **(واسع)**، أى أكثر وأولى، **(ولا يصلح آخر هذه الأمة)** المحمدية وآخرها من بعد الصحابة والعصر الأول **(إلا ما أصلح أولها)**، أى لا يصلح لآخرهم إلا ما صلح لأولهم، ولا يستحب لهم إلا ما استحبوه أولاً، **(ولم يبلغنى)**، أى لم أسمع بنقل صحيح **(عن أول هذه الأمة وصدرها)** من الصحابة ومن لحق بهم **(أنهم كانوا يفعلون ذلك)**، أى الوقوف للزيارة من غير الغرباء بلا إرادة سفر، **(ويكره)** ذلك **(إلا لمن جاء من سفر أو أراده)** من أهل المدينة.

(قال ابن القاسم)، من أتباع الإمام مالك: **(ورأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها)** للسفر **(أو دخلوها)** قادمين من السفر **(أتوا القبر، فسلموا)** عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم. **(قال)** ابن القاسم: **(وذلك رأى)**: أى قول لمالك، وفى نسخة: رأيى، بالإضافة أى أنه يقوله.

(قال الباجى): بباء موحدة نسبة لباجة اسم بلدة بالمغرب، وهو أبو الوليد الحافظ، من أئمة المالكية وقد تقدم **(ففرق)** مالك أو ابن القاسم رواية عنه **(بين أهل المدينة والغرباء)** فاستحب للغرباء الزيارة فى الدخول للمسجد فى كل حين، ولم يستحبه للمدنى إلا إذا خرج لسفر أو قدم منه؛ **(لأن الغرباء قصدوا)** المدينة **(لذلك)**، أى لأجل الزيارة، فينبغى له فعل ذلك فى كل حين، **(وأهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها)** من أوطانهم **(من أجل)** زيارة **(القبر والتسليم)** عليه صلى الله تعالى عليه وسلم.

قال السبكى فى كتابه شفاء السقام بعد نقل ما هنا: مذهب مالك أن الزيارة قربة، لكنه كره الإكثار منها للمقيم بالمدينة على قاعدته فى سد الذرائع، وغيره من أهل المذاهب قالوا باستحباب الإكثار منها مطلقًا، واتفقوا عليه، وهو الحق الذى لا شبهة فيه، والذريعة ليست بمسموعة من كل مقام كما تقدم عن القرافى.

(وقال، صلى الله تعالى عليه وسلم) فى حديث رواه عبد الرزاق ومالك فى الموطأ، عن عطاء بن يسار: **(اللهم لا تجعل قبرى وثنًا)**، أى كالوثن، وهو الصنم الذى **(يعبد)**، أى يتخذ معبودًا، وتقدم فيه زيادة: بعدى، **(اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)**، أى يسجدون لها كما يسجدون لله.

(وقال، صلى الله تعالى عليه وسلم) فى حديث رواه ابن أبى شيبة وغيره بسند متصل: **(لا تجعلوا قبرى عيدًا)**، أى كالعيد باجتماع الناس عنده، وقد تقدم تأويل الحديث وأنه لا حجة فيه لما قاله ابن تيمية وغيره، فإن إجماع الأمة على خلافه يقتضى تفسيره بغير ما فهموه، فإنه نزعة شيطانية، وقوله: وقال:... إلخ، يحتمل أنه من كلام الباجى، أو من كلام مالك وابن القاسم تأييدًا لما قاله، وهو الظاهر، واحتمال أنه من كلام المصنف، رحمه الله تعالى، غير مناسب لما عقد له هذا الفصل.

(و) نقل **(من كتاب أحمد بن سعيد الهندى)** عالم الأندلس، توفى سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، وعمره سبع وسبعون سنة، وترجمته مبسوطة فى التواريخ، وفى نسخة: سعد الهندى، والصحيح الأولى، **(فيمن وقف بالقبر)** الشريف، أىقال فى حقه وبيان حاله أنه ينبغى له أن **(لا يلصق به)** صدره، **(ولا يمسه)** بشىء من جسده، فلا يقبله فيكره مسه وتقبيله وإلصاق صدره؛ لأنه ترك أدب وكذا كل ضريح يكره فيه ذلك، وهذا أمر غير مجمع عليه، ولذا قال أحمد والطبرى: لا بأس بتقبيله والتزامه، وروى أن أبا أيوب الأنصارى كان يلتزم القبر الشريف، قيل: وهذا لغير من لم يغلبه الشوق والمحبة، وهو كلام حسن، **(ولا يقف عنده طويلاً)**، بل بمقدار الصلاة والدعاء تأدبًا منه، فهذا مستحب عنده.

(وفى العتبية)، بضم العين المهملة وسكون المثناة وكسر الموحدة وياء نسبة، اسم كتاب يعرف بالعتبية، وبالمستخرجة من الأسمعة، أى مما سمع من مالك من مسائل المدونة، وصاحبها يسمى العتبى نسبة لعتبة بن أبى سفيان، وهو فقيه الأندلس محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عتبة بن أبى سفيان القرطبى، وتوفى منتصف ربيع سنة خمسين أو أربع وخمسين ومائتين، وأخذ عن يحيى بن يحيى الليثى وطبقته، ويقال: إنه من موالى عتبة، وله رحلة إلى المشرق، وفى تاريخ الأندلس: محمد العتبى هو أحمد بن محمد بن عتبة الأموى، من أهل قرطبة، وقيل: هو مولى لآل عتبة بن أبى سفيان، وهو الأصح، وسمع من سحنون وأصبغ وغيرهما، وجمع كتابًا سماه المستخرجة، أكثر فيه من الشواذ والمسائل الغريبة، فإذا سمع غريبة قال: أدخلوها فى المستخرجة. وقال ابن وضاح: فى المستخرجة خطأ كثير.

(يبدأ بالركوع)، المراد به الصلاة، أى تحية المسجد إذا دخله تسمية باسم الجزء كالركعة، **(قبل السلام)** على قبره، عليه الصلاة والسلام، وزيارته وهو أحد القولين كما تقدم **(فى مسجد النبى)** صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: يسلم أولاً، ثم يصلى ويتحرى بصلاته محلاً كان يصلى فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وله علامة ذكروها وتبعهم المصنف، وهو على يسار محراب الشافعية.

(و) شمل ذلك عموم قوله: و**(أحب)** أفعل تفضيل من المحبة **(مواضع التنفل فيه)**، أى أفضلها للصلاة النافلة وتحية المسجد والزيارة **(مصلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى محل صلاته المأثورة، وبين محله بقوله: **(حيث العمود المخلق)**، بضم الميم وفتح الخاء المعجمة وتشديد اللام وقاف، وهو ما عليه الخلوق بالفتح، وهو نوع من الطيب أصفر فيه زعفران، والعمود هو السارية والأسطوانة، وسمى مخلقًا؛ لأنه كان يطيب بالخلوق تعظيمًا، وهذا هو المعروف، وقيل: إنه محلق، بحاء مهملة، أى له حلقة من حديد ونحوه، وقيل: وهو محل جذعه الذى كان صلى الله تعالى عليه وسلم يخطب عنده قبل عمل المنبر له، وهذه الأماكن الشريفة وأسماؤها وفضائلها من أراد الوقوف عليها فيطالع تاريخ المدينة الكبير للسيد السمهودى.

(و) فضيلة هذا المحل والصلاة عنده إنما هو للمتنفل الزائر، **(وأما فى)** صلاة **(الفريضة، فالتقدم إلى الصفوف)**، أى التقدم فى الصف الأول أفضل من غيره مطلقًا، **(والتنفل)**، أى صلاة النافلة **(فيه)**، أى فى المسجد النبوى **(للغرباء)** الذين قدموا للزيارة، وليسوا من أهل المدينة المقيمين بها **(أحب إلىّ)**، أى أفضل عندى **(من التنفل فى البيوت)**، أى مساكنهم ومحل نزولهم، وهذا مستثنى مما قاله الفقهاء، وأطلقوه أن الأفضل فى الفرض الصلاة فى

المساجد، والنافلة الأفضل فيها أن تصلى فى المنازل، ووجه المخالفة أن الصلاة فى مسجد المدينة أفضل من ألف صلاة فى غيره على ما يأتى، وهذا مبنى على أن المضاعفة تختص بمسجد المدينة، وذهب بعضهم إلى أن الصلاة فى المدينة مطلقًا مضاعفة، لا فرق بين فرضها ونفلها، ومسجدها وغيره، فعلى هذا نافلتها كغيرها، إلا أن الغريب يستحب له الإكثار من المكث فى مسجدها، والزيارة والتبرك بمواطن عبادته، فله شأن يخصه، وهو الظاهر.

* * *

(فصل فيما يلزم من دخل مسجد النبى ﷺ من الأدب)

اللازم لمن حضر مجلسه فى حياته، (**سوى ما قدمناه**) فى الفصل الذى قبل هذا، (**وفضله**)، أى المسجد النبوى، (**وفضل الصلاة فيه**)، أى زيادة ثوابها على ثواب غيرها، (**وفى مسجد مكة**) وفضله وفضل الصلاة فيه، (**وذكر قبره ومنبره، وفضل سكنى المدينة ومكة**)، والمجاورة فيهما، لم يتكلم فى الشفاء على المجاورة، إلا أن الشارح أشار إلى ذلك فيما يأتى.

(**قال الله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾** [التوبة: ١٠٨])، وضع أساسه فيه، (**أحق أن تقوم فيه**) للصلاة من غيره، وقد اختلف فيه كما سيأتى.

(**روى**) عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه مسلم وغيره، (**أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، سُئل**) عن المراد به فى هذه الآية، (**أى مسجد هو؟ قال: مسجدى هذا**)، يعنى الذى هو داخل المدينة، وهو معروف، (**وهو**)، أى كونه المراد فى الآية (**قول ابن المسيب، وزيد بن ثابت، وابن عمر، ومالك بن أنس، وغيرهم**) من كبار الصحابة، قيل: كان ينبغى له تقديم ابن عمر، ثم زيد، ثم ابن المسيب، ثم مالك هكذا، لكنه قدم بالأسن، والترتيب فى الذكر ليس بلازم.

(**وعن ابن عباس، أنه مسجد قباء**) الذى تقدم بيانه، وهو المراد فى الآية عنده؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، أسسه وصلى فيه أيام إقامته من الاثنين إلى الاثنين، وكلاهما مما أسسه على التقوى، إلا أن تأسيس مسجد قباء كان فى ابتداء دخوله صلى الله تعالى عليه وسلم دار الهجرة، ثم انتقل منه وأسس الآخر، فالأولية ظاهرة فيه، إلا أن تجعل شاملة للحقيقية والنسبية، والمراد بالتقوى الإخلاص فى رضى الله، لا كمسجد الضرار، وما ذكره ابن عباس هو الذى ارتضاه المفسرون وهو الظاهر، والأول أيضًا مروى عن كبار الصحابة مسندًا له صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد رواه مسلم وأصحاب السنن،

ولذا قيل: كان ينبغي للمصنف أن يقول: صح عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، لا روى بصيغة المجهول التي يغلب استعمالها في الضعيف، فكأنه إيماء إلى أن الأقوى ما قاله ابن عباس، وهو مشكل.

وغاية ما يقال فيه: إن الأولية إضافية باعتبار ما بنى بعد الهجرة ومسجد مكة، فيشمل مسجد قباء ومسجد المدينة، والمراد إخراج مسجد الضرار، ولا ينافيه ما بعده؛ لأنه أثنى على أهل أحد المسجدين بزيادة الطهارة، وإنما فسره صلى الله تعالى عليه وسلم بمسجده؛ لأجل قوله: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨]؛ لأنه إنما كان أكثر قيامه به، فلو فسر بمسجد قباء، لكان صلى الله تعالى عليه وسلم، تاركًا للأحق، ففسره بما يدل على دخوله مع مسجد قباء في الحكم، ونص على ما خرج عن منطوقه؛ لأنه هو المحتاج للبيان، فاعرفه فإنه دقيق جدًا.

(**حدثنا هشام بن أحمد الفقيه**)، هو أحد شيوخ المصنف، رحمه الله؛ لقوله: (**بقراءتى عليه**)، قال: (**حدثنا الحسين بن محمد الحافظ**)، هو الغسانى، وقد تقدم، قال: (**حدثنا أبو عمر**)، هو ابن عبد البر كما تقدم، (**النمرى**)، تقدم بيانه أيضًا، قال: (**حدثنا أبو محمد ابن عبد المؤمن**) تقدم بيانه قال: (**حدثنا أبو بكر بن داسة**) تقدم أيضًا، قال: (**حدثنا أبو داود**)، صاحب السنن تقدم أيضًا، قال: (**حدثنا مسدد**)، تقدم، قال: (**حدثنا سفيان**)، هو ابن عيينة، وقد تقدم، (**عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة**)، تراجمهم تقدمت كلها، (**عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، أنه قال: (**لا تشد الرحال**)، لا نافية، وتشد مضارع مجهول، وهو خبر أريد به النهى، وهو أبلغ فى النهى؛ لأنه جعل كأنه أمر لا يقع فى الخارج، أخبر عنه لتحققه، والرحال بالحاء المهملة جمع رحل، وهو للجمال كالسروج للخيل كما مر، لا جمع راحلة كما توهم، وهو البعير ونحوه، والمقصود منه المنع، أو نفى شدها كناية عن منع السفر، أى لا ينبغى السفر وقطع المسافة، (**إلا إلى ثلاثة مساجد**)، جمع مسجد، وهو المكان المعد للعبادة، وأصله موضع السجود، (**مسجد الحرام**) بالحركات الثلاث، وفى نسخة: المسجد الحرام، وهو مسجد مكة، ويطلق على مكة نفسها، وكلاهما جائز هنا، والأول من إضافة الموصوف للصفة، أى المسجد الذى جعله محترمًا، وهو مشهور غنى عن البيان، (**ومسجدى هذا**)، أى مسجد المدينة المعروف، (**والمسجد الأقصى**)، بالإضافة كالأول، وفى نسخة: والمسجد الأقصى، أى الأبعد؛ لأنه أبعد من مكة بالنسبة للمدينة، وفيه كلام مشهور ليس هذا محله.

واختلف فى هذا النهى، هل هو على ظاهره للتحريم كما ذهب إليه بعضهم؟

والصحيح أنه مؤول، أى لا تشد الرحال لنذر العبادة إلا فيها، ولذا قالوا: لو نذر الصلاة فى غيرها لم تلزمه، فلا يكره شد الرحل لبعض الأماكن المتبرك بها، أو لزيارة من فيها من الصالحين، أو لطلب العلم، بل قد يكون هذا واجبًا عليه.

(وقد تقدمت الآثار) والأحاديث **(فى الصلاة والسلام على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عند دخول المسجد)** النبوى فى الفصل الذى قبل هذا كما سمعته آنفًا، والآثار كل مأثور، أى مروى، فيشمل الحديث وغيره، ويطلق على ما يقابله، والفرق بين الحديث والخبر والأثر مشهور فى مصطلح الحديث ككتاب ابن الصلاح وغيره.

(وعن عبد الله بن عمرو بن العاص) فى حديث رواه أبو داود بإسناد جيد حسن كما فى الأذكار للنووى، **(أن النبى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(كان إذا دخل المسجد)**، أى مسجده بالمدينة، وتقدم أن هذا مستحب فى دخول كل مسجد، **(قال: أعوذ بالله العظيم)**، أى ألتجىء فى أمورى كلها وفى التوفيق للعبادة وإخلاصها إلى عظيم لا يخاف من التجأ إليه، **(وبوجهه الكريم)**، الوجه معروف، فإذا أضيف إلى الله تعالى، فالمراد به ذاته المكرمة المبجلة، **(وسلطانه القديم)**، سلطانه بمعنى قهره وغلبته، والقديم صفة سلطان، وذلك ثابت له فى الأزل والقدم، **(من الشيطان الرجيم)**، المطرود عن رحمة الله وقربه، واستعاذته منه؛ لئلا يصده عما نواه من العبادة ويشغله بوسوسته، وتتمة الحديث: «فإذا قال ذلك، قال الشيطان: حُفظ منى سائر اليوم».

(وقال مالك) بن أنس، رضى الله تعالى عنه، فى حديث رواه البخارى والنسائى، فيه: **(سمع عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، صوتًا)** عاليًا كالصياح **(فى المسجد)**، أى مسجد النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فدعا بصاحبه)**، أى أمر بمجيئه إليه، فجىء له به، وسقط هذا من بعض النسخ، فالفاء فى قوله: **(فقال: ممن أنت؟)**، فصيحة أى من أى قبيلة وطائفة من الناس؟ **(قال: من ثقيف)**، قبيلة من العرب مشهورة من هوازن، **(قال)** عمر، رضى الله عنه، له: **(لو كنت من)** أهل **(هاتين القريتين)**، يعنى مكة والمدينة، **(لأدبتك)**، كما فى نسخة، وفى أخرى: لعلوتك بالدرة، بكسر الدال وتشديد الراء المهملتين، وهى سوط عريض يضرب به، وعلوتك بمعنى ضربتك، وهو تعبير فصيح مشهور؛ لأنه يضربه على رأسه وأعالى بدنه، يقال: علاه بالدرة وجلله وقنعه بالسيف، وهذا ساقط من بعض النسخ، فالجواب مقدر، كقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ**﴾ [الرعد: ٣١] ونحوه.

وإنما قال له هذا؛ لأن من كان من أهل الحرمين، وهما مهبط الوحى ومقر الدين، لا

يعذر فى الجهل بالشرع وآدابه، ثم بين لـه وجـه مـا قالـه بقولـه: **(إن مسـجدنا)**، يعنـى مسجد المدينة، أو الأعم منه، **(لا يرفع فيه الصـوت)**، فعلـى الأول يعلـم غـيره بالقيـاس، وعلى الثانى هو داخل نصًا، وهو الظاهر؛ لأنه ورد من طريق آخر: ومساجدنا، وذهب كثير من الفقهاء إلى أن رفع الصـوت فـى المسـاجد مطلقًـا مكـروه، ولحديـث: «جنبـوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم ورفع أصواتكم وخصوماتكم»(١)؛ لأنها متخذة للعبادة، ولذا يكره النوم فيها لغير ضرورة، إلا أنـه قيـل: إن مرتكـب المكـروه لا يعـذر، وكـلام عمر، رضى الله عنه، يدل على أنه لو كان من أهل القريتين عزره؛ لأنه لا يعـذر بجهلـه، وأجيب بأنه علم منه عدم اكتراثه بحضرته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو حرام يؤدى إلى الكفر والعياذ بالله.

قلت: ليس كما قاله، بل لأنه يمتنع رفع الصوت عنده، صلى الله تعـالى عليـه وسـلم؛ لقولـه تعـالى: ﴿تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجـرات: ٢]، أى عنـده صلـى الله تعالى عليه وسلم وهو فى حياته كما تقدم، إلا أن قولـه: إن مسـجدنا يأبـاه، فـإن قيـل: المراد بمسجدنا مسجده، صلى الله تعالى عليه وسلم، بخصوصه، فالإضافة عهديـة لم يـرد عليه شىء فاعرفه، ويستثنى من هذا رفع الصوت بـالأذان والإقامـة، وكـذا التلبيـة كمـا صرحوا به على ما يأتى.

(قال محمد بـن مسـلمة)، بميمـين مفتوحتـين كمـا تقـدم: **(لا ينبغـى لأحـد أن يعتمـد المسجد)**، أى يقصده، وفى نسخة: يتعمد، **(برفع الصوت)** فيه، فيقال: عمده واعتمـده، إذا قصده فإن فعله لاعن عمد لجهل أو غيره جاز له ذلك، **(ولا بشـىء مـن الأذى)** هـو كل مستقذر لأن الطبع يتأذى به، **(وأن ينزه)** بالبناء للمجهول أى يبعـد عنـه فيبعـد هـو **(عما يكره)** مجهول أيضًا، والمكروه المراد به أيضًا المستقذرات، ولا ينبغى تحتمل الكراهة والحرمة وخلاف الأولى، وقـد صـرح الفقـهاء بمنـع جعـل النجاسـة، والمستقذرات فـى المساجد حتى النخامة، والروائح الخبيثة كرائحة البصل والثوم إلى غير ذلك مما فصل فـى أحكام المساجد، وقد أفرده بالتأليف الإمام الزركشى، فلا حاجة لذكره هنا؛ لأنـا لسـنا بصدده.

(قال القاضى) عياض هـو المصنـف، رحمـه الله تعـالى: **(حكـى ذلـك)** المذكـور **(كلـه القاضى إسماعيل)** بن إسحاق بن إسماعيل الأزدى البصرى العلامة الرحلة فى سائر الفنون والأدب، وكان ممن له معرفة بكتاب سيبويه حتى عد من أقـران المـبرد حتى قيـل: لـولا

(١) أخرجـه ابـن ماجـه (٧٥٠)، والطـبرانى (١٥٦/٨)، وعبـد الـرزاق (١٧٢٦)، وابـن عـدى فـى الكامل (١٤٥٤/٤)، والعقيلى (٣٤٨/٣)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٤٠٤/١).

اشتغاله بالقضاء اندرس ذكر المبرد، ومات سنة اثنين وثمانين ومائتين ببغداد فجأة **(فى مبسوطه)** اسم كتاب له كما تقدم **(فى باب فضل مسجد النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: والعلماء كلهم متفقون على أن حكم سائر المساجد هذا الحكم)**؛ لأن المقصود منها واحد، وشرفها كلها لكونها محلا لعبادة الله تعالى، فإذا تساوت فى ذلك كان حكمها واحدًا.

(قال القاضى إسماعيل) بن إسحاق المتقدم: **(قال محمد بن مسلمة)** المتقدم: **(يكره فى مسجد الرسول، عليه الصلاة والسلام، الجهر على المصلين فيما يخلط عليهم صلاتهم)** أى يشوش عليهم، والخلط مزج شىء بشىء من المائعات ونحوها بحيث لا يتميز أحدهما عن الآخر كالدقيق والشعير بالبر، فالمراد أن أصواتهم لشدة الجهر تلهيهم عن قراءتهم وصلاتهم، فاستعير لذلك الخلط، **(وليس)** أى كراهة رفع الصوت **(مما يخص به المساجد)** فثبتت كراهة **(رفع الصوت)** رفع اسم ليس خبره الجار والمجرور قبله، **(فيكره رفع الصوت بالتلبية)** أى قول الحاج لبيك اللهم لبيك **(فى مساجد الجماعات)** التى تجمع فيها لصلاة الجمعة ونحوها **(إلا المسجد الحرام)** يعنى مسجد مكة، **(ومسجدنا)** يعنى مسجد المدينة؛ لأن محمد بن مسلمة كان من سكانها، فرفع الصوت فى التلبية مأمور به؛ لحديث «أفضل الحج العج والثج»، والعج: رفع الصوت، والثج: إراقة الدماء، ورفع الصوت مستحب لغير المرأة والخنثى، وهذا مذهب مالك، وخالفه فيه غيره فجعله مستحبا فى جميع المساجد، وإنما كرهه مالك فى المساجد؛ لأنها محل الخشوع.

(وقال أبو هريرة) فى حديث رواه الشيخان **(عنه، عليه الصلاة والسلام)** أنه قال: **(صلاة فى مسجدى هذا خير)** أى أفضل وأكثر ثوابا **(من ألف صلاة فيما سواه)** من جميع المساجد **(إلا المسجد الحرام)** يعنى مسجد مكة المشرفة، وسمى حرامًا لحرمة القتال فيه، وكذا الصيد وقطع أشجاره، وتتمة الحديث «وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة فى مسجدى هذا».

(قال القاضى) أبو الفضل مصنف هذا الكتاب، وهو عياض، رحمه الله: **(اختلف)** بالبناء للمجهول أى اختلف العلماء والفقهاء **(فى معنى هذا الاستثناء)** يعنى المراد بقوله إلا المسجد الحرام، واختلافهم فيه مبنى **(على اختلافهم فى المفاضلة)** أى القول بأيهما أفضل من الآخر **(بين مكة والمدينة، فذهب)** الإمام **(مالك فى رواية أشهب)** بن عبد العزيز أبو عمرو القيسى المصرى تلميذ مالك فى مروياته **(عنه)** أى عن مالك.

(وقال) عبد الله **(بن نافع صاحبه)** أى صاحب الإمام مالك الذى يروى عنه، **(وجماعة**

أصحابه) أى أصحاب مالك **(إلى أن معنى الحديث)** المذكور والاستثناء فيه؛ لأنه إن لم يكن خيرًا من ألف صلاة فيما سواه احتمل أن يكون الصلاة فى المسجد الحرام أكثر ثوابا من الصلاة فى المسجد النبوى، وأن الصلاة فيه تفضل صلاة المسجد الحرام بأقل من ألف، وأن الصلاة فى المسجد النبوى لاتفضله بل تساويه، والكل محتمل.

وهذه رواية أشهب عنه، ورواية ابن وهب وابن مطرف وابن حبيب من أصحاب مالك عنه موافقة للجمهور فى تفضيل مكة على المدينة، والأولون على أن معناه **(أن الصلاة فى مسجد الرسول)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أفضل من الصلاة فى سائر المساجد)** أى باقيها **(بألف صلاة إلا المسجد الحرام، فإن الصلاة فى مسجد النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أفضل من الصلاة فيه)** أى فى المسجد الحرام **(بدون ألف)** أى أقل منه، وهو تأويل بعيد.

وممن استبعده من المالكية ابن عبد البر، رحمه الله، وناهيك به؛ لما ثبت فى مسند أحمد عن عبد الله بن الزبير أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة فى مسجدى هذا»(١)، وسيذكره المصنف، رحمه الله تعالى، قريبا، وهو حديث حسن كما ذكره البيهقى، كيف لا وقد مدحه الله تعالى وأمر بالحج إليه، وفى الحديث أيضا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم وقف على راحلته لمكة، وهو يقول: والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت، كما رواه الترمذى والنسائى، وقال إنه حديث حسن.

(واحتجوا) لما ذهبوا إليه من تفضيل المدينة **(بما روى عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: «صلاة فى المسجد الحرام خير من مائة صلاة فيما سواه»)** أى غير المسجد الحرام لما علم مما تقدم، **(فتأتى فضيلة مسجد الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم عليه)** أى على المسجد الحرام **(بتسعمائة، وعلى غيره بألف)** أى غيره من المساجد، ورد بأن هذه الرواية شاذة، والمحفوظ مارواه سليمان بن عتيق عن ابن الزبير عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، بلفظ «صلاة فى المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا مسجد الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن فضله عليه بمائة صلاة»، وقد روى من طرق.

(وهذا) أى ما ذكره من أن الصلاة فى مسجد الرسول أفضل من الصلاة فى مسجد مكة بدون الألف **(مبنى على تفضيل المدينة على مكة على ما قدمناه)** قريبا، **(وهو)** أى

---

(١) تقدم تخريجه.

تفضيلها عليها (**قول عمر بن الخطاب ومالك**) فى إحدى الروايتين عنه، (**وأكثر المدنيين**) أى علماؤها؛ لقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، «ما بين قبرى ومنبرى»[1] إلخ، ونحوه.

(**وذهب أهل مكة و**) علماء (**الكوفة إلى تفضيل مكة**) على المدينة، (**وهو قول ابن وهب وعطاء وابن حبيب من أصحاب مالك**) فى رواية عنه، (**وحكاه الساجى**) بسين مهملة وجيم نسبة إلى ساج بلدة، وهو أبو يحيى زكريا بن يحيى الضبى البصرى (**عن الشافعى**)، رضى الله عنه؛ لأنه من أئمة الشافعية، توفى بالبصرة سنة سبع وثلاثمائة، وله كتاب جليل فى علل الحديث، وكتاب فى اختلاف الفقهاء وهو حجة، وإن ضعفه بعضهم وله ترجمة فى الميزان، (**وحملوا**) أى المفضلون لمكة (**الاستثناء فى الحديث المتقدم على ظاهره**) من استثنائه وإخراجه مما فضل عليه مسجد المدينة، فلا يكون مفضلا عليه بل دونه لما عرفته، فلا يرد أنه يحتمل المساواة، وهو على هذا مستثنى مما سواه لقربه (**وأن الصلاة فى المسجد الحرام أفضل، واحتجوا**) لما قالوه (**بحديث عبد الله بن الزبير عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم**) الذى أخرجه أحمد وابن حبان (**بمثل حديث أبى هريرة، وفيه**) أى فى حديث ابن الزبير (**وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من الصلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة، وروى قتادة مثله**) أى مثل حديث ابن الزبير فى أفضلية مكة، (**فيأتى فضل الصلاة فى المسجد الحرام على هذا**) الذى رواه ابن الزبير وقتادة (**على الصلاة فى سائر المساجد مائة ألف**)، وفيما قاله شيء؛ لأنه كما قيل أسقط منه مضاف إلى صلاة أى مائة ألف صلاة، وهو كذلك فى رواية أحمد وابن ماجه بإسنادين صحيحين، فلا يخفى ما فيه، وحديث ابن الزبير هذا روى صدره أبو هريرة وعجزه عمر فاعرفه.

(**ولاخلاف**) بين العلماء والمحدثين فى (**أن موضع قبره**) أى الموضع الذى قبره فيه صلى الله تعالى عليه وسلم، وضم جسده الشريف (**أفضل من**) سائر (**بقاع الأرض**) كلها، بل هى أفضل من السماوات والعرش والكعبة كما نقله السبكى، رحمه الله تعالى؛ لشرفه صلى الله تعالى عليه وسلم وعلو قدره.

وقال القرافى فى القواعد: للتفضيل أسباب، فقد يكون للذات كتفضيل العلم، وقد يكون بكثرة العبادة له أو لما وقع فيه، وقد يكون بالمجاورة كتفضيل جلد المصحف، وقد يكون بالحلول كتفضيل قبره، صلى الله تعالى عليه وسلم، على البقاع، فلا وجه لإنكار مافى الشفاء أن الأفضل إنما هو بكثرة الثواب على الأعمال، ولا عمل على القبر، فإنه ممنوع ويلزمه أن لايكون جلد المصحف، بل المصحف مفضل، وبطلانه معلوم من الدين

---

(١) أخرجه البخارى (٢٩/٣)، وأحمد (٦٤/٣)، والطبرانى (٢٩٤/١٢)، والبيهقى (٢٤٦/٥)، وابن أبى شيبة (٤٣٩/١١).

بالضرورة انتهى، ووافقه السبكى، رحمه الله، فقال: الإجماع على أن قبره صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل البقاع، وهو مستثنى من تفضيل مكة على المدينة كما قيل:

جزم الجميع بأن خير الأرض ما قد حاط ذات المصطفى وحواها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علت كالنفس حين زكت زكى مأواها

وقال ابن عبد السلام: التفضيل يكون لأمور غير العمل، فقبره، صلى الله تعالى عليه وسلم، أفضل الأمكنة؛ لتجلى الله له بما ينزل عليه من الرحمة والرضوان والملائكة، ولا حاجة إلى ما قيل: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم حى فى قبره، له أعمال فيه مضاعفة، وإن كان صحيحا، ولو سلمنا أن المكان لا أفضلية له فى ذاته، فالفضل كفى أنه لأجل ما حل فيه، وقول السروجى من الحنفية: لم نجد من تعرض لهذا فى مذهبنا ليس لتوقف فيه، بل لعدم وقوفه عليه، ويكفى لفضله ما اشتهر من أن كل أحد يدفن فى التربة التى خلق منها.

قلت: وفى هذا فضل لضجيعيه، وفخر كفى شرفًا لهما حتى قال فى عوارف المعارف: روى عن ابن عباس: أن أصل طينته، صلى الله تعالى عليه وسلم، من سرة الأرض، وهو موضع الكعبة بمكة، فأول ما أجاب ذريته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومنها دحيت الأرض، فهو أصل التكوين والكائنات تبع له، ولما تموج الطوفان أتى بطينته لمحل دفنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ففى الحقيقة لم يدفن إلا فى أصل الكعبة الذى خلق منه صلى الله تعالى عليه وسلم، انتهى.

وهو غريب لا يعلم مثله إلا بالنقل، وهو قول ثقة، ويؤيده ما جاء فى بعض الآثار أن سليمان، عليه الصلاة والسلام، زار محل قبر نبينا، وأخبر أنه سيقبر فيه، وترك ثم أربعمائة من أحبار بنى إسرائيل ينتظرون بعثته وهجرته إليهم، ﴿**فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ**﴾ [البقرة: ٨٩]، وهاهنا بحث، وهو أن البقعة التى ضمت الجسد العظيم إذا كانت أفضل من سائر البقاع يلزم أن تكون المدينة أفضل من مكة بلا نزاع؛ لأن المدينة هى تلك البقعة مع زيادة وزيادة الخير خير، فكيف يتصور الخلاف بينهم على هذا، بل نقول المدينة بعد هجرته صلى الله تعالى عليه وسلم إليها وإقامته بها تفضل مكة حينئذ؛ لأن شرف المكان بالمكين، فلابد من تحرير الخلاف حتى يقام عليه الدليل، وفى كلام شيخنا ابن قاسم ما يقتضى ما تقدم أن أفضل البقعة التى ضمت أعضاءه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثابت قبل دفنه فيها، وقبل موته بل وقبل هجرته، نعم قد يقال: تفضيلها على الكعبة والعرش والكرسى إنما ثبت بعد دفنه فيها؛ لشرفها به،

لا قبله لأنها حينئذ ليس فيها إلا أنها جزء من الكعبة مجرد، فلا يزيد على بقية أجزائها إلا أن يقال: إعدادها لدفنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيها اقتضى مزيتها على بقية الأجزاء قبل دفنه فيها أيضا، وهل البقعة المذكورة أفضل من منزله، عليه الصلاة والسلام، فى الجنة أو منزله فيها أفضل كما يسبق إلى الفهم؟ وقد يقال: هذه أفضل مادام فيها، فإذا صار فى الجنة صار منزله أفضل، وقد يقال: يجوز أن يكون هذه منقولة من منزله فى الجنة، أو ينقل إليها فلها حكمة فليتأمل.

واعلم أن العز بن عبد السلام لما قال: إن الأمكنة والأزمنة متساويان لا تفاضل بينهما، ظن بعضهم أن القبر الشريف لايتصور تفضيله لذاته، فإن التفضيل للمكان إنما هو بحسب فضل الأعمال الواقعة فيه، ورد بأن التفضيل له أسباب غير ذلك كما مر، وفضل الأعمال فى المدينة على أعمال مكة غير مسلم كما مر، ولو سلم ففيها أعمال كثيرة ليست بغيرها كالحج والعمرة والمناسك، فهى تزيد بذلك، فلذا قال مالك: فى المدينة أيضا ماليس فى غيرها لمجاورة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وظهور الإسلام ونحوه، والخلاف لفظى فتدبر.

(قال القاضى أبو الوليد الباجى) بموحدة وقد تقدمت ترجمته: **(الذى يقتضيه الحديث)** المتقدم الذى فى فضل مسجديهما **(مخالفة حكم مسجد مكة لسائر المساجد)** حتى مسجد الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه ذكر فيه التفاضل بين الصلاة فى المسجدين، **(ولا يعلم منه)** أى من الحديث الذى استدلوا به **(حكمها)** أى حكم مكة فى التفاضل **(مع المدينة)** أى بالقياس إليها بالتفاضل، فأيتهما أفضل، وهو الذى ذكر الخلاف فيه بين مالك وغيره.

(وذهب الطحاوى) هو الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد الحنفى كما تقدم **(إلى أن هذا التفضيل)** بالضاد المعجمة أى تضعيف أجر الصلاة بأحد المسجدين مسجد مكة أو المدينة، وضبطه بعضهم بالصاد المهملة، وقال: إنه المسموع عن المصنف فى الأصول، والظاهر الأول **(إنما هو فى صلاة الفرض)**، وأنه الذى يضاعف ثوابه، وعممه بعضهم فى الفرض والنفل، وهو المختار، وإليه أشار بقوله: **(وذهب مطرف)** بضم الميم وفتح الطاء وكسر الراء المشددة المهملتين وفاء، وهو أبو مصعب مطرف بن عبد الله بن مطرف النيسابورى المدنى ابن أخت الإمام مالك، روى عنه البخارى، وهو ممن جاز القنطرة حتى روى عنه مالك، وإن كان من أتباعه فى الفقه، توفى سنة عشرين ومائتين وعمره ثلاث وثمانون سنة **(من أصحابنا)** أى من المالكية، وقيده به احترازا عن مطرف بن عبد الله بن الشخير البصرى الزاهد، توفى سنة خمس وتسعين كما فى الحلية لأبى نعيم **(إلى**

أن ذلك) أى مضاعفة ثواب الصلاة **(فى النافلة أيضا)** أى كالفرض؛ لظاهر عموم الحديث، وهو المختار عند الشافعى إذ لا داعى للتخصيص، بل شامل لسائر العبادة بدلالة النص كما أشار إليه بقوله: **(قال)** أى مطرف، وقيل الضمير للطحاوى: **(وجمعة خير من جمعة)** أى ثواب جمعة فيه يزيد على جمعة فى غيره، ويحتمل أنه جمع جمعة مضاف لضمير المسجد، والأولى أولى لقوله: **(ورمضان)**، فيه **(خير من رمضانٍ)** فى غيره، وهو منون مصروف لتنكيره.

(وقد ذكر عبد الرزاق) بن همام المحدث الحافظ كما تقدم **(فى تفضيل رمضان بالمدينة وغيرها)** من البلاد **(حديثا نحوه)** أى مثل الحديث المذكور فى فضل الصلاة، وهو ما رواه الطبرانى وغيره عن بلال أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «صيام شهر رمضان فى المدينة كصيام ألف شهر فيما سواها»(١)، ثم رجع إلى بيان فضائل المدينة فقال: **(وقال)** صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديثرواه الشيخان **(ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة)** تقدم الكلام عليه، وأن الروضة أرض فى مكان مطمئن ذات أشجار ومياه.

(ومثله) فى معناه ولفظه **(عن أبى هريرة وأبى سعيد)** الخدرى، **(وزاد)** فيه أبو سعيد كما فى الموطأ (: **ومنبرى على حوضى)** قيل: إنه تمثيل لأن الذكر والعبادة عنده، والإيقاظ يورث الرى من العطش فى هول القيامة.

(وفى حديث آخر) تقدم (: **منبرى على ترعة من ترع الجنة)** تقدم بيانه، وهو تمثيل أيضًا، وتقدم تفسير الترعة.

(قال الطبرى) محمد بن جرير لا الكيا كما قيل (: **فيه معنيان)** أى وجهان واحتمالان:

(أحدهما: أن المراد بالبيت بيت سكناه) الذى كان يسكنه، وهذا مبنى **(على الظاهر)** المتبادر من لفظه **(مع أنه ورد)** فى بعض الروايات **(ما يبينه)**، ويعين المراد منه، وهو **(ما بين حجرتى ومنبرى)**؛ لأن الحجرة بضم الحاء محل السكنى على وجه الأرض، وقد فسرت بالغرفة، فلم يبق الاحتمال إرادة القبر؛ لأنه لا يطلق عليه حجرة.

(والثانى: أن البيت هنا) أى فى الحديث المذكور المراد به **(القبر)**، فإنه يطلق عليه بيت مجازًا؛ لأن معناه ما يبيت فيه الحى، وقربه هنا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم حى فى قبره، **(وهو قول زيد بن أسلم)** الفقيه العمرى كما تقدم **(فى هذا الحديث)**، وفسره به، **(كما روى: ما بين قبرى ومنبرى)** فهذا يؤيده، ووفق القولين بما **(قال الطبرى: وإذا كان**

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٤٧/٦)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٨٧/٢).

قبره فى بيته اتفقت معانى الروايات، ولم يكن بينها خلاف) بحسب المعنى؛ **(لأن قبره فى حجرته وهو بيته)** وإخباره صلى الله تعالى عليه وسلم به قبل موته إخبار بإحدى المغيبات الخمس، فهو من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وقوله) فى هذا الحديث (: **ومنبرى على حوضى)** فى تفسيره أقوال منها ما **(قيل:)** إنه **(يحتمل أنه منبره)** المعروف **(بعينه الذى كان فى الدنيا، وهو الأظهر)** لتبادره من غير داع لتأويله، فنقل ويجعل ثمة كما أن الجذع الذى كان يخطب عنده يغرس فى الجنة كما مر ويأتى.

(و) القول **(الثانى: أن يكون له هناك)** أى فى المحشر عند الحوض **(منبر)** آخر يوضع له عند الحوض تكريما له صلى الله تعالى عليه وسلم، فيقوم عليه لدعوة الخلق لحوضه تكريما له ولأمته.

(و) القول **(الثالث:)** أنه ليس على حقيقته، بل من باب ذكر السبب وإرادة المسبب، فالمراد **(أن قصد منبره والحضور عنده)** فى الدنيا **(لملازمة الأعمال الصالحة)** متعلق بقصد أو حضور أو هو علة مقدمة لقوله: **(يورد الحوض ويوجب الشرب منه)** لأعماله الصالحة فى الدنيا **(قاله الباجى)** تقدم بيانه.

(وقوله) فى الحديث (: **روضة من رياض الجنة يحتمل معنيين)** وتفسيرين **(أحدهما: أنه موجب لذلك)** أى مقتضى له اقتضاء محققا، فكأنه موجب له أى لدخول روضة من رياض الجنة لمن دخله فى الدنيا، **(وأن الدعاء والصلاة فيه)** أى فيما بين المنبر والقبر **(يستحق)** صاحبها **(ذلك من الثواب)** بيان لذلك أو تعليل له، ففيه تجوز، **(كما قيل)** فى حديث صحيح فى الترغيب فى الجهاد والشهادة (: **الجنة تحت ظلال السيوف)** كناية عن دنو المجاهدين من الجنة حتى كأنه إذا رفع سيفه للضرب به، أو علاه سيف لمن يضربه وظهر ظله، فالجنة تحت ذلك الظل، أو ظلال السيوف كناية عن القتال بها، فجعله سببا لدخول من أظلته الجنة، وهذا مراد القاضى هنا.

(والثانى) من معانيه المحتملة **(أن تلك البقعة)** من بقاع المسجد التى بين القبر والمنبر **(قد ينقلها الله)** من الدنيا إلى الآخرة، **(فتكون فى الجنة بعينها)**، فهو على حقيقته، **(قال الداودى)** هو أحمد بن نصر شارح البخارى، وهو أبو جعفر الأسدى اليشكرى التلمسانى، توفى بتلمسان سنة أربعين وأربعمائة، وتلمسان بكسر التاء واللام، ويقال تلمسين ويجوز تسكين لامها، وفى نسخة الماوردى، وقال ابن حجر: إن معنى قوله روضة إلى آخره أنه كروضة من رياض الجنة فى نزول الرحمة وحصول السعادة لمن يلازم

حق ذكرها، لاسيما فى عهده صلى الله تعالى عليه وسلم، فهو تشبيه بليغ، ومعناه أن العبادة فيه تؤدى إلى الجنة، أو هو على ظاهره بأن ينقل من الدنيا للآخرة.

قال ابن حجر: والوجوه الثلاثة على ترتيبها فى القوة، فالوجه الأخير أضعفها، وقال بعضهم: إنه أقواها لأن الأصل الحقيقة ولا يخفى ما فيه، ثم قال ابن حجر الهيتمى: والأظهر الجميع بين المعنيين يعنى أنها تنقل إلى الجنة وتؤديه إلى رياضها، ويؤيده ويقويه أن الصلاة فيه بألف صلاة فى غيره، وأن الجذع الذى كان صلى الله تعالى عليه وسلم يخطب عنده يغرس فى الجنة، فهذا يقتضى أن هذه البقعة تنقل إليها أيضا، ولا يخفى ما بين أول كلامه وآخره من التدافع، وقوله: «الجنة تحت ظلال السيوف» حديث صحيح كما مر، رواه الشيخان عن عبد الله بن أبى أوفى، وأوله أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى بعض غزواته انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام فى الناس خطيبا، فقال: «يا أيها الناس لاتتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف، اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم»[(١)]، وفى النهاية أنه كناية عن الضراب والجهاد والدنو منه، والظل والفىء بمعنى، وقد يقال: الظل لما قبل الزوال والفىء لما بعده كما فصله أهل اللغة، وقلت فى قطعة:

قلت له لما دنا طرفه ... بناظر أهدى إلينا الحتوف
أو جنة من تحت أهدابه ... أم جنة تحت ظلال السيوف

(وروى ابن عمر) فى حديث رواه مسلم **(وجماعة من الصحابة أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم)** قال فى حق **(المدينة)** والساكنين بها: إنه **(لايصبر على لأوائها)** بفتح اللام وسكون الهمزة وواو بعدها مد، **(وشدتها)** عطف تفسير؛ لأن اللأواء هى الشدة والمشقة والضيق، وجاءت بمعنى القحط، ورجح الأخير ليكون تأسيسا **(أحد)** فاعل يصبر **(إلا كنت)** عبر بالماضى لتحققه أى أكون **(له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة)**.

قال المصنف، رحمه الله تعالى، والنووى: أو هنا ليست للشك من الراوى؛ لأنه رواه نحو عشرة من الصحابة، كذا ولا يظهر اتفاقهم على الشك، فهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، قاله هكذا، فأو للتقسيم أى شهيدًا لبعض وشفيعًا لبعض، أو شهيدًا للمطيعين أو لمن مات فى حياته وشفيعًا للعاصين أو لمن مات بعده، وشهادته بأنهم ماتوا على خير، وشفاعته لهم بتضعيف ثوابهم، أو تخفيف حسابهم، وغير ذلك، وينبغى أن تكون هذه

---

(١) أخرجه البخارى (٦٢/٤)، ومسلم (١٧٤٢/٢٠).

خصوصية زائدة لعموم شفاعته صلى الله تعالى عليه وسلم، وشهادته كما قال الله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وأو بمعنى الواو فيه، وقال بعضهم: إنها للشك، وعليه فرواية شهيدًا ظاهرة ورواية شفيعًا أنها شفاعة خاصة لهم بعلو درجاتهم، وجعلهم في جواره دنيا وآخرة، وفي الحديث دليل لمن استحب الجوار بالحرمين، ومن كرهه لأمر خاص بمن لايراعى حقوقهما لمضاعفة الأعمال ثمة.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم في حديث رواه الشيخان **(فيمن تحمل عن المدينة)** أى رحل عنها وفارقها مختارًا لسكنى غيرها عليها، ومعنى تحمل رفع حمله وأمتعته معه، فكنى به عما ذكر، وفي نسخة يحتمل وهما بمعنى (: **والمدينة خير لهم)** من غيرها من البلاد **(لو كانوا يعلمون)** فيه إيجاز أى لو كانوا يعلمون فضلها ما اختاروا غيرها من البلاد، ويحتمل أن لايقدر شيء، والمعنى لو كانوا من ذوى العلم والإدراك وهو أبلغ في أداء المراد، ولو شرطية أو للتمنى أى ليتهم علموا ذلك، وهو حديث طويل معناه أنه سيفتح بلاد اليمن والشام، ويأتي منها قوم يسوقون إبلهم ودوابهم، ثم يترحلون عن المدينة، وهي خير لهم والحديث في البخارى وشرحه، وفيه معجزة له بإخباره صلى الله تعالى عليه وسلم بالمغيبات؛ لأنها فتحت في عهد الخلفاء واختاروا سكناها.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، في حديث رواه الشيخان عن جابر: **(إنما المدينة كالكير)** بكسر الكاف وسكون المثناة التحتية وراء مهملة، وهو آلة للحداد معروفة ينفخ بها النار لإيقادها على الحديد، والكور البناء من طين ونحوه يوضع عليه، وقيل: هما بمعنى، والياء منقلبة عن الواو، وهما من الكور وهو الزيادة، وقيل الكير: حانوت الحداد، وفي النهاية: الكير الطين الذى يبنيه الحداد لأجل النار، وقيل: هو الزق والحصر فيه إضافي، وفي الصحاح خلافه.

ووجه الشبه أنها **(تنفى خبثها)** بفتحتين وآخره مثلثة نصب على المفعولية أى تخرج ما خبث منها ولاتقبله كما ينفى الكير خبث الحديد؛ لأن ما فيه من الصدأ والأجزاء التى ليست خالصة منه تطير عنه مع الشرر وتبقى خالصة، فكذلك المدينة لا يخرج عنها ويختار غيرها من غير ضرورة إلا من خبثت طويته، فهو لايترك فيها من في قلبه غل وعدم صدق، فتميزه عن غيره، كما يميز الحداد بكيره جيد الحديد من رديه.

(وينصع طيبها) بكسر الطاء وسكون المثناة التحتية وموحدة، وروى طيب بزنة سيد وهو مرفوع فاعل، وينصع بفتح الياء وسكون النون وفتح الصاد المهلة وبعدها عين مهملة أى يخلص ويبقى خالصا فيها ما طاب، كما يبقى من الحديد جيده ويذهب رديه،

من النصوع وهو صفاء البياض، ومنه أبيض ناصع، وأكثر الرواة على تشديد يائه، وأن ينصع بمثناة تحتية، ورفع طيبها على الفاعلية حتى قيل: إن التشديد متفق عليه، وروى تنصع بمثناة فوقية ونصب طيبها وفاعله ضمير المدينة، وضبط القزاز طيبها بكسر أوله واستشكله فإن النصوع لايعرف، والمعروف فيه يضوع بضاد معجمة وواو مشددة.

وأغرب فى الفائق فقال: إنه بموحدة وضاد معجمة من أبضع التاجر أعطى البضاعة أى تعطى طيبها من يسكنها، وتبعه فى النهاية، وقال الصاغانى: إنه خالف فيه جميع الرواة، وكأنه تصحيف وروى: ينضخ بضاد وخاء معجمتين، ففيه روايات مختلفة أصحها بصاد وعين مهملتين بعد النون، وقال المصنف، رحمه الله تعالى، فى شرح مسلم: الأظهر أن هذا يختص بزمنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، والهجرة واجبة لأنه لايصبر على الهجرة والإقامة بها إلا من ثبت على إيمانه، لا المنافقون وجهلة الأعراب كما وقع للأعرابى الذى أصابه الوعك، وقال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: أقلنى، فقال هذا الحديث فى حقه.

وقال النووى: ليس هذا أظهر لما فى صحيح مسلم: «لاتقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها»، يعنى فى زمن الدجال، وأن المدينة ترجف ثلاث رجفات، فيخرج منها كل كافر ومنافق، ويحتمل أن يكون هذا فى أزمنة متفرقة انتهى.

قلت: إن أراد المصنف أنه المراد بهذا الحديث بقرينةسببه، وقصة الأعرابى لايرد عليه ما قاله النووى.

(وروى عنه)، وفى نسخة وقال صلى الله تعالى عليه وسلم كما فى مسلم رواية عن جابر: **(لا يخرج أحد من المدينة رغبة عنها)** من غير داع له، ولا ضرورة **(إلا أبدلها الله خيرًا منه)**، يقال: رغب عنه إذا كرهه، فالمنهى عنه ذلك، فلا ينافى أن بعض الصحابة ارتحل عنها كبلال ومعاذ وأبى موسى الأشعرى، أو هو مخصوص بزمنه إذ كانت الهجرة لها واجبة.

(وروى عنه) صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه قال فى حديث رواه البيهقى والدارقطنى عن عائشة، رضى الله عنها، بسند ضعيف: **(من مات فى أحد الحرمين)** حرم مكة والمدينة **(حاجا أو معتمرا)** أى قاصدًا الإحرام بحج أو عمرة، وهو حال من الفاعل **(بعثه الله يوم القيامة لا حساب عليه ولا عذاب)**، وإنما فسرناه بقاصدًا لذلك؛ لأن الإحرام من المدينة لايتصور إلا لمن أحرم من دويرة أهله، أو لقرب ميقاتها، والإحرام من الميقات أفضل عند بعضهم، وقيل: إنه بتقدير أو زائرًا، واكتفى بما لأحد الحرمين بعلم ما لغيره، وهو متجه

أيضًا، وقوله: لا حساب عليه ولا عذاب حال مقدرة، أو مأولة بمبشر ونحوه.

(وفى طريق آخر) فى هذا الحديث للبيهقى والطبرانى: **(بعث)** أى أحيى بعد موته **(من الآمنين يوم القيامة)** أى آمنا من مناقشة الحساب والعذاب.

(وعن ابن عمر) رضى الله تعالى عنهما، فى حديث رواه ابن ماجه وابن حبان والترمذى وصححه: **(من استطاع أن يموت بالمدينة)** أى يقيم بها حتى يموت؛ لأن الموت ليس بقدرته واختياره، **(فليمت بها)** أى فليقم بها حتى يأتيه الموت كما سمعته آنفا، والأمر للاستحباب، **(فإنى أشفع لمن يموت بها)** شفاعة خاصة كما مر؛ لأنه فى جواره وحمايته، وهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، أوصى بالجار، وروى فإنها تشفع على الإسناد المجازى.

فإن قيل: قد جاء ما يعارض هذا، وهو ما رواه النسائى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: مات رجل بالمدينة ممن ولد بها، فصلى عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم قال: ياليته مات بغير مولده. قالوا: لم ذاك يا رسول الله؟ قال: «إن الرجل إذا مات بغير مولده يشق له من مولده إلى منقطع أثره فى الجنة»[(١)]، وذكره ابن طاهر فى الصفوة، وبوب عليه: إيثارهم الغربة على الوطن.

فالجواب: إن صح ذلك فلا معارضة، بل الحديث خاص بمن لم يولد فى المدينة، وقد أحسن المصنف بختم ما يتعلق بالمدينة مع ذكر الحرمين، لذكره بعده ما يتعلق بمكة كما أشار إليه فى الترجمة، وقوله: **(وقال تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ إلى قوله ﴿ءَامِنًا﴾ [آل عمران:٩٦،٩٧])** شروع فى بيان فضل مكة، ووضعه للناس جعله معبدًا وقبلة لهم، وبكة ومكة بمعنى عند جماعة، والباء تعاقب الميم كثيرا، وقيل: بكة موضع الكعبة، ومكة اسم البلد، وقال آخرون: مكة الحرم كله وبكة المسجد خاصة، حكاه الماوردى عن الزهرى وزيد بن أسلم، وبكة من بكه إذا دقه، وهى تدق أعناق الجبابرة إذا قصدوها بسوء، أو هو إشارة إلى ازدحام الناس إذا طافوا، وسئل، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن أول بيت وضع للناس، فقال: «المسجد الحرام، ثم بيت المقدس، فقيل: كم بينهما؟ فقال: أربعون سنة»[(٢)]. وهو حديث صحيح لكنه مشكل؛ لأن وضع المسجد فى زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ووضع بيت المقدس فى زمن داود وسليمان عليهما السلام، وبينهما زمان أطول من تلك الأربعين بأضعاف مضاعفة.

(١) أخرجه النسائى (٧/٤)، وابن ماجه (١٦١٤)، وأحمد (١٧٧/٢)، وابن حبان (٧٢٩).

(٢) أخرجه البخارى (١٧٧/٤، ١٩٧)، ومسلم (٥٢٠/١)، وابن ماجه (٧٥٣)، والطبرانى فى تفسيره (٧/٤)، وأحمد (١٦٧/٥).

وأجيب بأن داود، عليه الصلاة والسلام، لم يضعه، وإنما عمره كما بيناه فى حواشى البيضاوى، وتفسير الآية ظاهر تكفلت به التفاسير، وبركته كثرة الخير فيه ومضاعفة ثواب العمل فيه.

(قال بعض المفسرين) فى هذه الآية: معنى قوله ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾: أمنه **(من النار)** وعذابها فى الآخرة إذا دخله مؤمنا به، وورد أنه يدخل الجنة بغير حساب.

(وقيل) المراد بالأمن أمنه فى الدنيا، وفى بعض النسخ بل إضراب عن التفسير الأول: **(كان يأمن من الطلب من أحدث حدثا)** أى فعل أمرًا يستحق به العقوبة كالقتل، **(ولجأ)** بالهمزة بوزن ضرب بمعنى التجأ واعتصم من عدوه **(إليه)** أى المسجد الحرام بدخوله فيه هاربا **(فى الجاهلية)** هو زمن الفترة بين عيسى ونبينا، صلى الله تعالى عليهما وسلم، سمى بها؛ لكثرة الجهل فيه، فكان الرجل إذا جنى جناية ودخله لا يمسكه أحد حتى يخرج، وقال أبو حنيفة: من لزمه القتل ودخل الحرم لايتعرض له، ولكنه لايؤوى ولايطعم ولايسقى ولايعامل حتى يضطر للخروج منه، وغيره يقول: إن الحدود تقام ويؤخذ من دخله فارًا، وإليه أشار المصنف بقوله: كان إشارة إلى تغير هذا الحكم بعد مجىء الإسلام.

(وهذا) أى قوله ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ **(مثل قوله تعالى** ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾ [البقرة: ١٢٥]**)** أى الكعبة وحرمها ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أى ملجئًا ومرجعًا، من ثاب يثوب إذا رجع، ومثابة اسم مكان منه، ومعناه ملجأ لكل مطلوب يحرم، ولا يليق تفسيره هنا بمرجع الزيارة؛ لأنه يأباه سياق المصنف لقوله: **(﴿ءَامِنًا﴾ على قول بعضهم)** إشارة إلى أن فى الآية أقوالاً أخر منها أنه محل الثواب.

(وحكى أن قوما أتوا سعدون الخولانى) بخاء معجمة نسبة لخولان قبيلة من اليمن مشهورة، واسمه إفكل بن أحمد بن مالك، وهو من أهل القيروان وعظماء علمائها، وسعدون لقب له بصورة الجمع، ومثله يجوز فيه الصرف وعدمه للعلمية وشبه العجمة، وقول بعض الشراح: إنه منصرف ولاوجه لما وقع فى بعض كتب الحديث من ضبطه غير منصرف غفلة منه **(بالمنستر)** الباء بمعنى فى، والمنستر بميم ونون وسين مهملة ومثناة فوقية وراء مهملة، وهذا لفظ رومى معناه عندهم خانقاه للرهبان على الطريق؛ لينزل فيه أبناء السبيل، والذى سمعناه منهم فتح الميم وألف مع سكون السين وكسر التاء الفوقية وياء تحتية، وقد يخفف بحذف الألف والياء، وهذا مما لا شبهة فيه عندهم، فقوله فى القاموس: منستر بضم الميم وفتح النون موضع بأفريقية معبد الزهاد والمنقطعين، وبلد آخر بأفريقية أهله من قريش بينه وبين القيروان ستة مراحل، وموضع بشرقى الأندلس انتهى،

مخالف لما صح سماعا، فإن ظنه عربيا فهو خطأ، وإن قال: عرب وغير كان عليه أن ينبه عليه.

وقال التلمسانى: إنه بضم الميم والنون ويجوز كسر نونه والعامة تفتحها، وعليه اقتصر الشمنى، وهى بلدة بساحل البحر أو حصن رباط بأفريقية له سور بناه هرثمة بن أعين حين بعثه الرشيد لأفريقية سنة تسع وسبعين ومائة، وهو الذى بنى سور طرابلس الغرب، **(فأعلموه أن كتامة)** بضم الكاف وفتح المثناة الفوقية وألف وميم مخففة اسم لقبيلة من البربر، وأصلهم فيما قيل من حمير **(قتلوا رجلا وأضرموا عليه النار)** أى أوقدوها وقودًا شديدًا **(طول الليل)** منصوب على الظرفية، والطول بضم الطاء المهملة مصدر طال، وطول الليل بمعنى الليل كله، والناس يستعملونه بهذا المعنى تسمحا وتجوزا، ووجهه أن الطول أبعد الامتدادين، فما شغله شغل غيره بالطريق الأولى، وقد سمع فى كلامهم كقول الوزير المهلبى:

قال لى من أحب والبين قد جد وفى مهجتى لهب الحريق
ما الذى فى الطريق تصنع بعدى؟ قلت أبكى عليك طول الطريق

ثم استعمل فيما لا طول له ولا عرس، كقوله تعالى: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت:٥١]، **(فلم تعمل فيه)** هو مجاز بمعنى لم تؤثر فيه، **(وبقى أبيض اللون)** لم يتغير لونه، ولو حرق اسود لونه، وفى نسخة أبيض البدن، **(فقال: لعله)** أى الرجل المقتول، والفاء فصيحة أى وسئل عن وجهه فقال إلخ، ولعل هنا مجاز عن الظن إذ لا وجه للترجى هنا **(حج ثلاث حجج)** بكسر الحاء بمعنى حجة، وهى المرة من الحج **(قالوا: نعم)** أى الأمر كذلك.

(قال: حُدثت) بالنباء للمجهول أى روى لى من سمعت منه الحديث عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أن من حج حجة)** أى مرة **(أدى فرضه)**؛ لأنه فرض على كل أحد أن يحج فى عمره مرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧]، الآية، **(ومن حج ثانية)** بعد أداء الفرض **(دان ربه)** أى أقرضه كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، والدين والقرض دفع شىء إلى غيره ليرد مثله أو بدله.

قال الراغب: قال أبو عبيدة: يقال: دنته إذا أقرضته فهو دائن وذاك مدين ومديون، وهو لما لم يكن هذا الحج فرضا عليه كأنه أعطاه لله قرضا يرد عليه ثوابه الذى هو كبدل القرض، فهو استعارة، ومن فسر دان هنا بمعنى أطاع وعبد لم يصب، وفى نسخة داين

مفاعلة منه وهما بمعنى، وتمام الحديث (**فينادى غدا ملك من عند الله: من كان له عند الله دين فليقم**).

(**ومن حج ثلاث حجج حرم الله شعره وبشره**) أى ظاهر جلده وبدنه (**على النار**) أى لم يعذبه ولم يدخله نار جهنم، وفيه كناية بليغة، وقوله: فينادى إلخ سقط من بعض النسخ، والمراد بقوله: غدا يوم القيامة، وأصل معناه اليوم الذى قبل يومك، فعبر به إيماء لقربه، وهذا الحديث لا يعرف من رواه.

(**ولما نظر رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى الكعبة**) لما هاجر، أو فى حجة الوداع، أو يوم الفتح كما رواه الطبرانى فى الأوسط عن جابر، رضى الله تعالى عنه، (**قال: مرحبا بك**) بفتح الكاف وكسرها أصله دعاء للقادم بالرحب والسعة، أريد به هنا إظهار محبته لها والقرب منها (**من بيت**) بيان للمدعو له (**ما أعظمك**) عند الله وعند الخلق، (**وأعظم حرمتك**) أى احترامك وشرفك، وهو تعجب أريد به المبالغة فى عظمته وتعظيمه.

(**وفى الحديث عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم: ما من أحد يدعو الله تعالى عند الركن الأسود**)، المراد به الركن الذى فيه الحجر الأسود، وهو معروف (**إلا استجاب الله له**) دعاءه أى قبله وأعطاه ما دعا به، أو خيرا منه، والحجر الأسود لما نزل من الجنة كان أشد بياضا من اللبن، فسودته خطايا بنى آدم، وأبقى سواده ليكون عبرة، والكلام عليه مبسوط فى تاريخ مكة.

(**وكذلك**) يستجاب الدعاء (**عند الميزاب**) والملتزم والصفا والمروة، وغيرها من المواطن التى جاء فى الحديث الصحيح استجابة الدعاء عندها، والميزاب هو المسمى الآن ميزاب الرحمة، وهو مسيل ماء السطح وهو معروف من جانب الحجر، وفى كتاب العلل لابن فارس الميزاب مهموز، وأصحابنا يقولون: ليس فيه همز لأنه من وزب يزب انتهى، ووزب بمعنى سال، ويقال: إنه فارسى معرب معناه بل الماء، وأطال التلمسانى هنا بذكر مساحة البيت والحرم وغيره مما ليس هذا محله.

(**وعنه**) أى روى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم، والراوى هو الحسن البصرى فى رسالته إلى أهل مكة: (**من صلى خلف المقام**) أى مقام إبراهيم الخليل المعروف الذى قام عليه لما بنى الكعبة (**ركعتين**) نافلة (**غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وحشر يوم القيامة من الآمنين**) من العذاب وهول الحشر، والمغفور الصغائر والكبائر، وقيل: الصغائر فقط، والمقام معروف فى موضعه الذى كان فيه قديما، وتفصيله فى تاريخ مكة.

(قرأت على القاضى الحافظ أبو على) هو ابن سكرة وقد تقدم **(قلت: حدثك أبو العباس العذرى)** قد تقدمت ترجمته، وهذا طريق من طرق الرواية يقولها التلميذ لشيخه، ويصدقه عليه **(قال: حدثنا أبو أسامة محمد بن أحمد الهروى)** قال: **(حدثنا الحسن بن رشيق)** عبد الغنى بن سعيد العسكرى الحافظ العالى السند، وترجمته فى الميزان بطولها **(سمعت أبا الحسن محمد بن الحسن بن راشد)** فى الميزان محمد بن الحسن بن على بن راشد الأنصارى، وفيه كلام **(سمعت أبا بكر محمد بن إدريس)** ذكر كنيته، وقدمها لئلا يلتبس بمحمد بن إدريس الشافعى، رضى الله تعالى عنه؛ فإن كنيته أبو عبد الله لا أبو بكر، وهو محمد بن إدريس بن عمر، وهو من أهل مكة **(سمعت الحميدى)** بالتصغير وهو عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبد الله القرشى الأسدى المكى صاحب الشافعى، ورفيقه فى رحلته لمصر، وهو شيخ البخارى، وهو لأهل الحجاز كأحمد بن حنبل لأهل العراق هو نسبة لحميد بطن من أسد بن عبد العزى، وقيل: نسب للحميدات، وهى قبيلة، توفى سنة تسع عشرة أو عشرين ومائتين **(قال: سمعت سفيان بن عيينة)** تقدم بيانه، **(قال: سمعت عمرو بن دينار)** تقدم ترجمته **(قال: سمعت ابن عباس يقول: سمعت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقول: ما دعا أحد بشىء فى هذا الملتزم)** بزنة اسم المفعول من التزمه إذا أمسكه سمى به لالتصاق الناس فى الدعاء عنده، وهو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود، وقدره عشرة أشبار وأربعة أذرع، وتسميته بهذا قديمة وردت فى الحديث، ويسمى المدعى والمتعوذ بفتح الواو المشددة، وهو أحد المواضع التى ورد استجابة الدعاء فيها، وقد جرب كذلك **(إلا استجيب له. قال ابن عباس)** رضى الله تعالى عنهما: **(وأنا فما دعوت الله بشىء فى هذا الملتزم منذ سمعت هذا)** الحديث **(من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا استجيب لى)** إلى آخر الحديث، وهو ظاهر غير محتاج للشرح إلا كلمات يسيرة فيه، والفاء فى قوله: فما دعوت الله إلخ، إما زائدة بناء على أنه يجوز زيادتها فى الخبر مطلقا، والمشهور زيادتها فى الخبر إذا تضمن المبتدأ معنى الشرط نحو، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، وبعضهم قيد زيادتها بكون الخبر أمرا أو نهيا كقوله[1]:

---

(١) صدر بيت وعجزه:

وأكرومة الجبين خلو كما هيا

وهو من الطويل، وهو بلا نسبة فى الأزهية (ص٢٤٣)، أوضح المسالك (١٦٣/٢)، الجنى الدانى (ص٧١)، الدرر (٣٦/٢)، الرد على النحاة (ص١٠٤)، رصف المبانى (ص٣٨٦)، شرح أبيات سيبويه (٤١٣/١)، شرح التصريح (٢٩٩/١)، شرح شواهد الإيضاح (ص٨٦)، شرح المفصل (١٠٠/١).

وقائلة خـولان فانكـح فتاتهـم

وإما عاطفة على مقدر تقديره: وأنا جربت ذلك، فما دعوت إلخ، أو جـواب شـرط مقدر أى إن سألت عما عندى فيه، فما إلى آخره، وقوله منذ فى الجميع روى مذ بدون نون، ومنذ بضم أوله وكسره معناه أشهر من أن يذكر.

(**وقال عمرو بن دينار**) الراوى عن ابن عباس: (**وأنا فمـا دعـوت الله بشـىء فـى هـذا الملتزم منذ سمعت هذا من ابن عباس إلا استجيب لى، وقال سـفيان**) المتقـدم ذكـره: (**وأنـا فما دعوت الله بشىء فى هذا الملتزم منذ سمعت هذا من عمرو**) بن دينار (**إلا استجيب لى، وقال محمد بن إدريس**) المكنى بأبى بكر: (**وأنا فما دعوت الله بشىء فى هذا الملـتزم منـذ سمعت هذا من الحميدى إلا استجيب لى، وقـال أبـو الحسـن محمـد بـن الحسـن: وأنـا فمـا دعوت الله بشىء فى هذا الملتزم منذ سمعت هذا من محمد بن إدريس**) المتقدم (**إلا استجيب لى**)، وهذا الحديث مسلسل بالسماع رواه البيهقى وسعيد بن منصور وغيرهما من طرق بينوها.

(**قال أبو أسامة: وما أذكر الحسن بن رشيق قال فيه شـيئًا**) أى لم يحفـظ عنـه أنـه قـال كغيره، وأنا فما دعوت الله بشىء إلا استجيب لى، والتسلسل قد يقطـع بعـض منـه فـى أوله وآخره أو وسطه، فلا يضر التسلسل مع أن هذا ليس بقطع فى الواقع، والأحـاديث المسلسلة صحتها قليلة، وتقدم أن التسلسـل يقـع بـأمور متغـايرة مـن الأقـوال والأفعـال والأمكنة والأزمنة كما فصل فى مصطلح الحديث.

(**وأنا فما دعوت الله بشىء فى هذا الملتزم منذ سمعـت هـذا مـن الحسـن بـن رشـيق إلا استجيب لى من أمر الدنيا، وأنا أرجو أن يستجاب لى من أمر الآخرة، قال العـذرى: وأنـا فما دعوت الله بشىء فى هذا الملتزم منذ سمعت هذا من أبى أسـامة إلا اسـتجيب لى، قـال أبو على: وأنا قد دعوت الله فيه بأشياء كثيرة استجيب لى بعضها، وأرجو من سـعة فضلـه أن يستجيب لى بقيتها**) أى أرجو ذلك لزيادة كرمه، وسعة بفتح بفتـح السـين وكسـرها بمعنى الوسع.

(**قال القاضى أبو الفضل**) عياض مصنف هذا الكتاب، رحمه الله تعالى، (**ذكرنـا نبـذا**) بفتح النون وسكون الموحدة وذال معجمة أى شيئا قليلا، وأصـل معنـاه الطـرح والرمـى كأنه لقلته مما يطرح، ويجوز ضم أوله وفتح ثانيه على أنه جمع نبـذة كمـا مـر (**من هـذه النكت**) جمع نكتة، وتقدم بيانها (**فى هذا الفصل**) الذى نحن فيه، (**وإن لم يكن من الباب**) أى من المعانى التى عقد لها الباب، فإنه معقود للصلاة علـى رسـول الله صلـى الله تعـالى

عليه وسلم، وتعظيمه فذكر فضائل مكة وحرمها ليست منه، بل من موضع كتابه؛ **(لتعلقها)** أى مناسبتها **(بالفصل الذى قبل)** من ذكر مسجده، صلى الله تعالى عليه وسلم، وما يتعلق به **(حرصا على تمام الفائدة)** بإفادة أمور مهمة يرغب فيها، والشىء بالشىء يذكر، **(والله الموفق للصواب برحمته)** أى بفضله وإنعامه، لا بكدنا وكسبنا.

* * *

القسم الثالث

[فيما يجب للنبى ﷺ وما يستحيل فى حقه أو يجوز عليه وما يمتنع أو يصح من الأحوال البشرية أن يضاف إليه]

من هذا الكتاب (**فيما يجب للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**) المراد به الوجوب الشرعى أو العقلى لقوله: (**وما يستحيل فى حقه**) أى يعد كالمحال عقلاً؛ لأنه لا يليق بجنابه العظيم أو عادة، وأصل معنى الاستحالة التغير من حالة إلى أخرى، ومنه استحال الخمر خلا، (**أو يجوز عليه**) مما لا يخل بشريف مقامه، (**وما يمتنع**) فى حقه شرعا وعادة وعقلا، (**أو يصح**) وصفه به، وإطلاقه عليه كما سيأتى (**من الأحوال البشرية**) أى التى تطرؤ عليه باعتباراته، وهو بيان لما (**أن يضاف إليه**) أى تنسب إليه، والإضافة بمعناها اللغوى لا النحوى، ثم صدر الكلام بآية دالة على ما سيأتى إجمالاً فقال: (**قال الله تعالى**) فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ**﴾ **الآية**)، فهذا بيان لما يجوز عليه، ويصح من الأحوال البشرية كالموت والقتل، كما أن الرسل قبله منهم من مات ومنهم من قتل، والقصر فيها قصر إفراد أى ليس بمخلد حتى يستبعد موته أو قتله، وهذا كما وقع بأحد لما نادى إبليس، لعنه الله: إن محمدًا قد قتل، فقال ناس من المنافقين: ارجعوا إلى دينكم، فإن محمدًا لو كان نبيا ما قتل، وقال المؤمنون: إن كان محمد مات فرب محمد لا يموت، فما نصنع بالحياة فقاتلوا على ما قاتل عليه، وكما وقع لبعض الصحابة لما توفى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنهم ذهلوا من عظم المصيبة، فخطبهم أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، وتلا هذه الآية كما مر، والقصة مشهورة، وقوله: أفإن.... إلى آخره إنكار توبيخى لمن توهم خلافه، والانقلاب على العقب كناية عن الرجوع عما كانوا عليه من الدين.

وقال الله تعالى: ﴿**مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ**﴾ [المائدة: ٧٥] **الآية**) أى ليس المسيح إلا رسولا كغيره من الرسل له آيات ومعجزات مثلهم، وليس بإله كما زعمت النصارى، وأمه صديقة أى صادقة فى أقوالها وأفعالها، أو مصدقة للرسل، وهذا غاية أمرهما دون ما يزعمون فيه، ولذا أتى بإثبات صفات بشرية تنافى الألوهية من الأكل ونحوه، ولذا قال الله تعالى: ﴿**ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ**﴾.

(وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠])، فهو كغيره من البشر يصح له ما صح لهم.

(وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠] **الآية)**، فلا يزيد على البشر إلا بما خصه الله من الوحي والرسالة والتوحيد، فهذا تميز عنهم، ولذا قال: **(فمحمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، وسائر الأنبياء)** أى باقيهم، فهو من عطف المتغايرين لا من عطف العام على الخاص كما توهم، وإنما يكون كذلك لو فسر بجميع ما تقدم **(من البشر)** أى من جنسهم تميزوا عنهم بأنهم **(أرسلوا إلى البشر)** لتبليغ ما أمرهم الله به، ووضع فيه الظاهر موضع الضمير، **(ولولا ذلك)** أى كونهم من جنس البشر بأن كانوا ملائكة، **(لما أطاق الناس مقاومتهم)** أى مقابلتهم فى الأمور الدنيوية؛ لقدرة الملائكة على مالا يقدر عليه غيرهم، **(والقبول عنهم)** أى ما بلغوهم عن الله مما أرسلوا به، **(ومخاطبتهم)** حتى بلغوهم عن الله، ثم أثبت هذا بقوله: **(قال الله تعالى:** ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ﴾**)** أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المرسل إليهم ﴿مَلَكًا﴾ أى قدرنا إرسال الملك للبشر من غير جنسهم كما اقترحوا؛ ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩] أى لما كان **(إلا فى صورة البشر)** تفسير لجعله رجلا، وإشارة إلى أنه بحسب الصورة؛ لأن الملك يتصور بأى صورة أراد، ثم بين وجهه بقوله: **(الذين يمكنكم)** بحسب الطاقة البشرية **(مخالطتهم)** أى معاشرتهم والاختلاط معهم، وفى نسخة مخاطبتهم، وفى أخرى مخاللتهم أى اتخاذهم أخلاء، وهى متقاربة معنى **(إذ لاتطيقون مقاومة الملك، ومخاطبته ورؤيته إذا كان على صورته)** الأصلية التى خلق عليها ابتداء.

(وقال) الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]. هذا جواب عن شبهة المشركين وقولهم بعد مشاهدة الآيات التى ألقمتهم الحجر، فقالوا: لم لم يرسل الله ملكا يبلغ أوامره ونواهيه؟ فقال الله لرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم: قل لهم جوابًا عن شبهتهم الواهية إنما يرسل الله الملائكة لو كان أهل الأرض ملائكة من جنسهم، كما قال المصنف، رحمه الله تعالى: **(أى لا يمكن فى سنة الله)** أى طريقته وعادته المستمرة **(إرسال الملك إلا لمن هو من جنسه)** حتى يمكنه مخالطته وتلقيه عنه، ولما نافى هذا الحصر إرسال الرسل من الملائكة إلى الأنبياء بين وجهه بقوله: **(أومن خصه الله)** معطوف على من هو من جنسه أى خصه بنفس قدسية ملكية، **(واصطفاه)** أى اختاره من نوع البشر لتلقى وحيه من الملك، **(وقواه على مقاومته)** أى مقاومة الملك ومخالطته لمناسبة تامة بينه وبين الملك باستعداده حتى يكون واسطة بينه وبين الناس **(كالأنبياء والرسل)** صلوات الله وسلامه

عليهم أجمعين، فإنهم خلقهم الله بأبدان بشرية وأرواح ملكية، فكانوا دون غيرهم مستعدين لمقاومة الملك ومخالطته ومخاطبته، ثم فصل هذا فقال: **(فالأنبياء والرسل)** صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين **(وسائط بين الله وبين خلقه)**، وتوسطهم لأمر هو أنهم **(يبلغونهم)** عن الله **(أوامره ونواهيه)** أى كل أمر ونهى لهم، وفى كتب الأصول تبعا للصحاح أن الأمر بمعنى القول المخصوص يجمع على أوامر، وبمعنى الفعل والشأن يجمع على أمور، ولم يوافقهم عليه أحد من النحاة وأهل اللغة، فإن فعلا لا يجمع على فواعل، ونقل ابن هشام فى تذكرته أنه صحح بوجهين:

أحدهما: أنه جمع آمر اسم فاعل لما لايعقل، وسمى القول أمرا مجازيا، وكلامهم لايدل عليه.

والثانى: أنه جمع آمرة مصدر كالعافية أى صيغة آمرة للأمر بها، وقد نقله ابن سيده، وقيل: إنه جمع الجمع فجمع آمر على أءمر كأكلب، ثم جمع أوامر كأكالب، فهو فواعل أو أفاعل، وقال الأصفهانى فى شرح المحصول: إن هذا التوجيه لايتم فى النواهى، وكونه جمع ناهية مجازًا تكلف، وكذا كونه مشاكلة للأوامر، فإنه استعمل مفردًا انتهى، وقد تقدم أيضا ذكرنا لهذا.

(ووعده ووعيده) الوعد يستعمل فى الخير، والوعيد فى الشر كما فصلوه فى محله، **(ويعرفونهم مالم يعلموه من أمره)** هو الفعل والشأن واحد الأمور كما مر أى أقواله وأفعاله فيما سبق قضاؤه فى كل شىء، وقيل: يجوز أن يراد بالأمر هنا عالم الأمر بقرينة قوله: **(وخلقه)** وعالم ما أبدعه الله تعالى من غير مادة، وتولد من أصل بمجرد كن، وعالم الخلق مقابلة قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وعلى الأول الخلق بمعنى الإيجاد، **(وجلاله)** أصل معناه العظمة، وهو فى صفاته تعالى كما يقتضيه كلام الغزالى والقشيرى الصفات الثبوتية، وكلام غيرهما يقتضى أنه الصفات السلبية أوما يعمهما، وقال الغزالى فى معنى ذى الجلال والإكرام: إن الجلال كما له فى ذاته وإكرام ما كان منه لغيره، **(وسلطانه)** أى قهره وغلبته أو حجته الباهرة أو ملكه أى أنهم يبينون للناس ذلك، **(وجبروته وملكوته)** التاء فيه زائدة أى كونه جبارًا قهارًا، ومالك الملك الذى لا مرد لقضائه ولا معقب لحكمه، ثم فصل هذا بقوله: **(فظواهرهم)** أى ما يظهر من حال أنبياء الله ورسله وصفاتهم، **(وأجسادهم)** أى ذواتهم الظاهرة المشاهدة، **(وبنيتهم)** بكسر الباء أى هيئة تركيب أبدانهم التى خلقهم الله تعالى عليها؛ لأنه بناء الله تعالى، وهو فى الأصل مصدر، ثم أطلق على الهيكل المخصوص والبدن المحبوس **(متصفة بأوصاف البشر)** من الخلق والتركيب ونحوه **(طارىء)** بهمزة فى آخره وإبدالها ياء أى

حادث متجدد (**عليها ما يطرؤ على البشر**)؛ لأن الأجسام كلها متساوية فى قبول ذلك (**من الأعراض**) جمع عرض، والمراد به مطلق الآلام، أو مالا يكون قارا منها، ويقابله عند الأطباء الأمراض، (**والأسقام**) جمع سقم وسقم كحزن وحزن، (**والموت والفناء**) الموت ضد الحياة، واختلف فيه هل هو عدمى أو وجودى؟ كما بين فى محله، ويطلق مجازًا على النوم والجهل كما فى قوله:

ذو الجهل ميت وثوبه كفنه

وأما الفناء فهو تفرق الأعضاء وتفتتها حتى تضمحل، وهذا لا يكون فى الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام؛ لأن الله تعالى حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء كما ورد فى الحديث المتقدم، ولذا قيل: إنه كان ينبغى للمصنف، رحمه الله تعالى، أن يبدل قوله السابق متصفة بقوله قابلة، وقد يقال: المراد بالفناء هنا كبر السن والهرم، ومنه الشيخ الفانى إلا أن اقترانه بالموت يبعده، (**ونعوت الإنسانية**) جمع نعت، وفسره النحاة واللغويون بالوصف مطلقا، فهما مترادفان، ومنهم من فرق بينهما فقيل: إنه لايطلق على الله تعالى و لم يبين وجهه، فقيل: لأنه ما يصيب ويطرق من العوارض، وهذه قضية مطلقة فلا يقتضى أن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لايصيبهم بعض الأمراض المنفرة، وهى ما يفسخ بها النكاح كالبرص والجذام والعمى.

أما ما أصاب أيوب ويعقوب، عليهما الصلاة والسلام، فلم يكن من ذلك، ويعقوب إنما ضعف بصره، وقيل: إن بعضهم يطرؤ عليهم بعد استقرار النبوة فيهم، وإنما يمتنع عند ابتداء الدعوة، والحق أنها لا تطرؤ عليهم أصلا، (**وأرواحهم وبواطنهم**) كالقلب والدماغ ومالا يدرك بالحواس الظاهرة، والباطن خلاف الظاهر (**متصفة بأعلى من أوصاف البشر**) أى بأوصاف أعلى منها من الفضائل الروحانية، والتبرى من العلائق الجسمانية كحب المال والتنعم بالمآكل والمشارب، فأرواحهم وبواطنهم (**متعلقة بالملأ الأعلى**) هو كالرفيق الأعلى الملائكة العلوية، وتعلقها به اتصالها.

قال الراغب: الملأ جماعة تملأ العيون رواء والقلوب جلالة وبهاء، (**متشبهة بصفات الملائكة**) فى القوة والتجرد من العلائق الدنيوية، وترك الشهوات والانهماك، ولايفعلون إلا ما يؤمرون غالبا، (**سليمة من التغير**) أى تبدل أحوالهم الصالحة بغيرها (**والآفات**) وهى النقائص، (**لايلحقها**) أى لاتطرؤ على أرواحهم وبواطنهم (**غالبا عجز البشرية**) كالجبن والخوف المفرط من تحصيل المهمات، وقال: غالبًا لأنه قد يلحقهم شىء منه كما فى قوله تعالى: ﴿**فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً**﴾ [طه: ٦٧].

(ولا ضعف الإنسانية) فإنه لا يلحقهم، وإن كان الإنسان خلق ضعيفا إلا أنه قد يعرض لهم شىء من ذلك بحسب الجبلة البشرية، ولايخرجهم عن كمال القوة والهمة **(إذ لو كانت بواطنهم)** أى أمورهم الباطنة، وهو شامل لأرواحهم هنا **(الخالصة للبشرية كظواهرهم)**، وظواهر غيرهم وبواطنهم **(لما أطاقوا الأخذ)** أى قدروا على تلقى الوحى **(عن الملائكة ورؤيتهم ومخاطبتهم)** أى مكالمتهم، **(ومخالتهم)** بضم الميم وفتح الخاء المعجمة وألف ولام مشددة مفاعلة من الخلة بالضم، وهى اتخاذه خليلا وصديقا، وقد تقدم معناه والفرق بينه وبين المحبة، ويجوز مخاللتهم بفك الإدغام كما مر، والأول أفصح **(كما لا يطيقه)** أى وما بعده **(غيرهم)** أى غير الأنبياء **(من البشر)**؛ لضعف أرواحهم وبواطنهم.

(ولو كانت أجسامهم) أى الأنبياء، وفى نسخة أجسادهم **(وظواهرهم متسمة)** أى موصوفة مستعار من السمة، وهى العلامة، والوسم بمعنى الكى **(بنعوت الملائكة)** أى صفاتهم الذاتية وهيئتها الحقيقية، **(وبخلاف صفات البشر)** مما خلقت عليه الملائكة، وصورهم التى صوروا عليها عظما ونورانية **(لما أطاق البشر)** غير الأنبياء **(ومن أرسلوا)** أى الأنبياء **(إليهم)** من أممهم **(مخاطبتهم)** ورؤيتهم ومخالطتهم، **(كما تقدم من قول الله تعالى)** يعنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾، وهو يدل على أنهم لايطيقون رؤية الملك على خلقته الأصلية، بخلاف مالو تمثل بصورة البشر؛ فإنه يمكن البشر رؤيته كما كان يأتى بصورة دحية وتراه الصحابة، وكما كان يتمثل لمريم فما قيل من أن هذا لايتم أن لو كان رؤيته ومخالطتهم وهم على خلقتهم، والوارد فى القرآن والحديث خلافه، وقد رآهم بعض الصالحين وأصحاب الرياضة خلط وخبط ناشئ من عدم الفهم.

(فجعلوا) أى الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، **(من جهة الأجسام والظواهر مع البشر)**، أى موافقين لهم فى صورتها، **(ومن جهة الأرواح والبواطن مع الملائكة)** أى متصفين بصفاتهم، والمراد بالمعية المشاكلة فى الروحانية والقوى الباطنية حتى أطاقوا رؤيتهم ومخالطتهم ومخاللتهم، **(كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى حديث رواه البخارى وغيره يشهد لمخالته للملائكة: **(لو كنت متخذا من أمتى خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا)**، فإنه أقرب الناس إليه، وأصدقهم محبة له، وأعظمهم مواساة له بماله ونفسه، وأسبق الناس لاتباعه له، فإذا لم يتخذه خليلا لم يتخذ أحدًا غيره، وهذا دليل على أنه لم يكن مع البشر بباطنه، فهو لا يعتمد على غير الله، ولايحتاج لأحد سواه، ثم استدرك على ما يتوهم من نفى خلة أبى بكر من أنه لا مناسبة بينه وبينه فقال: **(ولكن)** بينى وبين أبى بكر **(أخوة الإسلام)** أى إن لم يكن خليلى، فهو أخى فى

محبة الله وفى دين الإسلام، لاشتراكه معى فى محبة الله تعالى وطاعته واتباع دينه والإخلاص فيه، والأخوة بضم الهمزة مصدر أى كونه أخًا لى، ويقال خوة بضم الخاء وحذف الهمزة وهى لغة قليلة فيه، والحاصل أن بواطنهم وقواهم الروحانية ملكية، ولذا ترى مشارق الأرض ومغاربها وتسمع أطيط السماء، وتشم رائحة جبريل، عليه الصلاة والسلام، إذا أراد النزول إليهم كما شم يعقوب، عليه الصلاة والسلام، رائحة يوسف، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولذا عرج به، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى السماء، ولما نفى الخلة عن أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، استدرك توهم ثبوتها لغيره من الناس، فقال: **(لكن صاحبكم خليل الرحمن)**، وقال: صاحبكم، و لم يقل ولكننى وهو أخصر وأظهر إشارة إلى أن مناسبته لهم بحسب الظاهر، وأنه بين أظهرهم لابحسب الحقيقة، وقال: خليل الرحمن دون خليل الله إشارة إلى أن خلته لله برحمته وبخلقه بصفة الرحمة، فليس خليله إلا الله لأن الخلة تخلل المحبة فى باطنة، وباطنة مشغول بمحبة الله تعالى عما سواه، وهذا لا ينافى ماورد فى حديث آخر: «لم يكن نبى إلا وقد اتخذ من أمته خليلا إلا أن الله تعالى اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»[(١)]؛ لأن النفى للخلة الحقيقية المقتضية لاعتماده عليه ظاهرًا وباطنًا، والمثبتة الخلة بحسب الظاهر بحيث يكون وزيره ووكيله فى أمور الدنيا، وأيضًا خليل فعيل بمعنى فاعل ومفعول، وأبو بكر، رضى الله تعالى عنه، خليله بمعنى الفاعل، وليس مخاللا له بمعنى المفعول، أو أنه كان خليله أولاً، ثم تمحضت خلته بعد ذلك لله عندما قربت رحلته للقاء ربه، فإن أول الحديث كما فى البخارى عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله تعالى عنه، قال: خطب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، الناس فقال: إن الله، تعالى عز وجل، خير عبده بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله، فبكى أبوبكر، رضى الله تعالى عنه، فعجبنا لبكائه من إخبار عن عبد خير، فكان أعلمنا. فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن من أمن الناس علىَّ فى صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين فى المسجد باب إلا سد إلا باب أبى بكر»[(٢)]، وهو نص منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، على خلافته كما يعرفه من له بصيرة.

(وكما قال) رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما يدل على أن باطنه ملكى

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٤١/١٩).

(٢) أخرجه ابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٤١٢/٦)، والخطيب فى تاريخه (٦٣/١٣)، وابن الجوزى فى الموضوعات (٣٦٦/١)، وابن أبى عاصم فى السنة (٥٧٧/٢، ٣٨/١٤).

وظاهره بشرى: **(تنام عيناى)** بتغميض الأجفان والنوم ظاهر، **(ولا ينام قلبى)** لبقاء إحساسه وتعلقه بالملأ الأعلى، وكذا سائر الأنبياء تنام أعينهم دون قلوبهم كما ورد مصرحا به فى حديث البخارى، فليس ذلك من خواصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما توهمه القضاعى ومن تبعه هنا، وهذا دليل على أن ظاهره، صلى الله تعالى عليه وسلم، بشرى وباطنه ملكى، ولذا قالوا: إن نومه، عليه الصلاة والسلام، لاينقض وضوءه كما صرحوا به، ولايقاس عليه غيره من الأمة كما توهم، وتوضيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد نومه استحبابًا أو تعليمًا لغيره، أو لعروض ما يقتضيه.

(وقال) رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الشيخان فى النهى عن صوم الوصال فى الصوم مع فعله، صلى الله تعالى عليه وسلم، له: **(إنى لست كهيئتكم)** أى لست فى حالى وأمورى مثلكم، فإن لى خواص خصنى الله تعالى بها إكراما منه، وأصل معنى الهيئة الصورة الظاهرة تجوز بها عن الكيفيات النفسانية بتنزيل المعقول منزلة المحسوس، ثم بين ذلك بقوله: **(إنى أظل)** بفتحتين أى أكون **(عند ربى)** خص الرب إشارة إلى تربيته له بإعطائه ما يقويه، فلذا وقع موقعه هنا، ولم يقل عند الله ونحوه.

(يطعمنى ويسقينى) أى يهبنى قوة على ذلك حتى أكون كأنى أكلت وشربت، وليس المراد أنه يطعمه ويسقيه حقيقة، وطعام الجنة وشرابها لايفطر كما قيل؛ لأنه ينافى الغرض المقصود منه من اختصاصه بأمر ليس لغيره مع أن قوله: أظل يأباه بحسب الظاهر، وإن أمكنه التجوز فيه لأن ظل حقيقته فعل نهارًا، ولو كان كذلك لم يكن صائمًا، وكون طعام الجنة لايفطر لم يقل به أحد، وهذه القوة تدل على أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ملكى الباطن.

وقول ابن حبان وغيره: إذا أعطاه الله تعالى قوة الصوم من غير جوع لم يكن فيه عظيم أجر فهو لايناسبه، وقوله: إنه يدل على أن ما روى من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يجوع حتى يشد الحجر على بطنه لايصح، وإنما هو الحجز بزاء معجمة، وشد الحجر لا معنى له فى إذهاب الجوع غير ظاهر؛ لأن جوعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشكواه منه وخروجه لأصحابه وسؤالهم له، فأخبرهم فشكوا له مما شكاه، وشد الحجارة على بدونهم أمر ثابت فى أحاديث لا وجه لإنكاره، وشد الحجر يخفف ألم الجوع ببرده وإقامة صلبه ومنع أمعاءه من الارتخاء، ولاينافى هذا أنه يطعمه ربه لاختلاف الحالتين، فإن فى الصوم رياضة وانجذابًا للملأ الأعلى، واشتغال الروح عن البدن يمنع الجوع ألا ترى المريض يمكث أياما لا يأكل ولا يضره، وقد بين وجهه الشيخ

فى آخر كتاب الإشارات، فهذا لقوة ملكية روحانية، واستبعد القرطبى ما قيل: إن الله تعالى عز وجل، يخلق فيه شبعا كما يخلقه فيمن أكل، ومراده ما ذكرناه فلا وجه لاستبعاده.

(فبواطنهم) أى بواطن الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، **(منزهة عن الآفات)** أى ما ينقص قواهم الملكية **(مطهرة عن النقائص والاعتلالات)** أى العلل المضعفة لهم.

(فهذه جملة) فيما يختص بالأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، إجمالا **(لن يكتفى بمضمونها)** أى ما تضمنته ودلت عليه **(كل ذى همة)** فى تحصيل الفضائل، **(بل الأكثر يحتاج إلى بسط)** أى تطويل **(وتفصيل على ما نأتى به)** صفة لبسط، وتفصيل أى تفصيل على نهج ما نأتى به **(بعد هذا فى البابين)** المذكورين عقب هذا **(بعون الله)** أى إعانته على ما قصده، **(وهو حسبى ونعم الوكيل)** الذى لايكل من توكل عليه لغيره.

* * *

الباب الأول

فيما يجب للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ويمتنع عليهم (فيما يختص بالأمور الدينية) أى ما هو من الدين والشرائع النبوية، (والكلام فى عصمة نبينا)

أى وفى الكلام فى عصمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(و)** فى عصمة **(سائر الأنبياء)** أى باقيهم **(صلوات الله وسلامه عليهم)**، والعصمة قالوا: تخصيص قدرته بالطاعة دون المعصية، أو خلق مانع فيه عن المعصية، لكن لا بحيث أن يلجئه ويسلب اختياره ويجبره على الطاعة، بل هى لطف من الله يحمله على الطاعة، ويزجره عن المعصية مع بقاء الاختيار تحقيقا للابتلاء والتكليف كما قاله الماتريدى، ويأتى الكلام على ذلك مبسوطا.

(قال القاضى أبو الفضل) المصنف عياض، رحمه الله تعالى، بتمهيد مقدمة لما سيأتى **(اعلم أن الطوارىء)** أى ما يحدث من غير ما قارن خلقتة **(من التغيرات)** المغيرة لما خلق عليه، **(والآفات)** جمع آفة وهى ما يفسد ما أصابه، والمأوف ما أصابته وأنكره أبو حاتم، وقال: إنما هو مئيف كما هو فى أفعال السرقسطى **(على آحاد البشر)** بالمد جمع أبدلت واوه همزة، ثم ألفا لأنه من الوحدة أى أفرادهم وأشخاصهم **(لايخلو أن تطرأ على جسمه)** اى ظاهر بدنه وجسده، **(أو على حواسه)** جمع حاسة، وهى ما يدرك به من البصر والسمع والشم واللمس والذوق، فالمراد الحواس الظاهرة، وفعله أحس وحس لغة قليلة ومعناهما أدرك، وحواس وحاسة من هذه اللغة غير الفصحى، وأنكره بعضهم وقال: إنه لم يسمع وقياسه محسة **(بغير قصد واختيار)**، بل يخلق الله ألما فيه **(كالأمراض والأسقام)** السقم بمعنى المرض كما فى الصحاح، وقيل: السقم مسبب عن المرض، فالحمى مرض، وتغير البدن وضعفه سقم، ويقال: سقم وسقم وسقام بمعنى **(أو تطرؤ بقصد واختيار)** كأفعال العبد وأعماله، **(وكله)** أى كل ما يطرؤ باختيار وغيره **(فى الحقيقة)** أى حقيقة الأمر فى الواقع **(عمل وفعل)**.

قال فى القاموس: الفعل بالكسر الإنشاء وكناية عن كل عمل فهما على هذا بمعنى، وقال الصاغانى: بينهما فرق فالفعل إحداث شىء من عمل أو غيره فهو أعم، وقال الخوى: الفعل ما يكون فى زمان يسير من غير تكرير، والعمل ما تكرر وطال زمنه، وقيل: الفعل يختص بمن يعقل ورد بقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الحديث: «يا أبا

عمير ما فعل النغير»[١]، **(ولكن جرى رسم المشايخ)** أى استمرت عادتهم والرسم التصوير بكتابة ونحوها، والفقهاء استعملوه بمعنى العادة وهو المراد هنا، والمراد بالمشايخ العلماء **(بتفصيله)** أى تفصيل ما يطرأ **(إلى ثلاثة أنواع)**.

الأول: **(عقد بالقلب)** أى نيته نية جازمة وعزمًا مصممًا صادقًا، والعقد بهذا المعنى ورد فى الحديث، وأصل معناه الربط المحكم.

(و) الثانى: **(قول باللسان)**.

(و) الثالث: **(عمل بالجوارح)** جمع جارحة، وهى العضو من أعضاء البدن من الاجتراح، وهو الاكتساب، **(وجميع البشر تطرؤ عليهم الآفات والتغيرات بالاختيار، وبغير الاختيار)** أى لهم حالات مختلفة تنتقل منها من حال إلى حال من نعيم وبؤس ونصر وقهر، وهذا أمر عام شامل، وليس المراد به العزائم وأحوال القلب كما قيل **(فى هذه الوجوه كلها، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى جنس النبى، أو كل نبى، فتعريفه جنسى أو استغراقى، وليس المراد نبيا مخصوصا لاستوائهم فيما ذكر.

(وإن كان من) جنس البشر، **(ويجوز على جبلته)** بكسر الجيم وكسر الباء الموحدة وفتح اللام المشددة بمعنى الطبيعة والخلقة التى خلق عليها بحيث لا يقبل التغير بسهولة **(ما يجوز على البشر)** سواه، وما موصولة فى محل رفع فاعل يجوز الذى تقدم، **(فقد قامت)** أى تحققت وظهرت **(البراهين)** جمع برهان، وهو الدليل والحجة كما تقدم **(القاطعة)** أى القطعية دلالتها على ما ثبت بها **(وتمت كلمة الإجماع)** أى انعقد إجماع من يعتد بإجماعه، واتفقوا عليه حتى كأن كلامهم كلمة واحدة تامة **(على خروجه عنهم)** أى خروج النبى عن جنس البشر غيره، **(وتنزيهه)** أى تبرئته بنفى ذلك عنه وتبعيد ساحته **(عن كثير من الآفات)** أى العوارض التى تطرؤ على البشر، فتنقص مقاماتهم العلية **(التى تقع)** أى تصدر وتحقق فى الواقع والخارج **(على الاختيار، وعلى غير الاختيار)** لتكريم الله لهم بالعصمة من أمثالها كالأمور القبيحة، والأخلاق الذميمة **(كما سنبينه إن شاء الله تعالى فيما نأتى به)** من هذا الكتاب، وهذا القسم **(من التفاصيل)** الموضح لها.

* * *

(فصل فى حكم عقد قلب النبى ﷺ)

والمراد بعقد قلبه، ما انعقد عليه اعتقاده وجزم به مما ثبت عنده يقينًا، **(من وقت نبوته)** ورسالته، أى إظهارها للناس بعد الوحى إليه، والغاية محذوفة للعلم بها، أى إلى

---

(١) تقدم تخريجه.

آخر عمره، فعقد القلب هو الاعتقاد الجازم الذى لا يحتمل النقيض أصلاً.

(اعلم)، تقدم أن مثله يبتدأ به فيما يهتم به، والخطاب عام لكل من يصلح للخطاب، **(منحنا الله)** عز وجل، أى أعطانا وأنعم علينا، **(وإياك)**، الخطاب كالذى قبله، وهو معطوف على المفعول الأول.

وقوله: **(توفيقه)** المفعول الثانى، وقوله: **(أن ما تعلق منه بطريق التوحيد)**، ضمير منه لعقد قلب النبى، أى اعتقاده وعلمه اليقين الجازم الذى اتصف به بعد نبوته، وما موصولة، والعائد ضمير منه، أى علمه الذى له تعليق بالتوحيد، **(والعلم بالله)**، أى بذاته وحقيقته.

(وصفاته) الذاتية النبوتية والسلبية والإضافية وغيرها، **(والإيمان به)**، أى بما ذكر من توحيده وتحقق ذاته وصفاته، **(وبما أوحى إليه)**، بالبناء للمجهول، أى بكل ما أوحاه الله إليه من شرعه ليعمل به أو يبلغه لغيره.

(فعلى غاية المعرفة)، الفاء زائدة فى خبر الموصول، ودخول الباء لا يمنع منه، كما بينه النحاة، يعنى أن علم الأنبياء المتعلق بأصول الدين والعقائد وصل إلى النهاية والغاية التى لا يصل إليها سواهم، **(ووضوح العلم واليقين)**، أى لتيقنهم لذلك، انكشف لهم انكشافًا تامًا، بحيث أنه لا يقبل الزوال ولا ترتاب فيه أنفسهم القدسية.

(و) على غاية **(الانتفاء عن الجهل بشىء من ذلك)**، فليس لهم جهل بشىء من ذلك أصلاً، **(أو الشك أو الريب فيه)**، أى التردد، واحتمال نقيضه؛ لأنه حق اليقين الذى لا يطرأ عليه شىء من ذلك، **(والعصمة)** بالجر، عطف على المعرفة، أى على غاية العصمة، وتقدم معناها، **(عن كل ما يضاد المعرفة بذلك)** المذكور من التوحيد وما بعده بأن يجهل شيئًا منها، **(و)** يضاد **(اليقين)** من شك أو ريب فى شىء منها.

(هذا) المذكور من علم الأنبياء بما ذكر، **(ما وقع إجماع المسلمين عليه)**، ولم يخالف فيه أحد منهم، **(ولا يصح بالبراهين الواضحة)** التى هى فى غاية الظهور، **(أن يكون فى عقود الأنبياء)**، أى عقائدهم التى ارتبطت عليها قلوبهم، **(سواه)**، أى غيره مما يخالفه أصلاً، **(ولا يعترض على هذا)**، أى ما وقع عليه الإجماع وكشفته البراهين القاطعة، حتى لا يحتمل غيره بوجه من الوجوه، **(بقول إبراهيم الخليل)**، صلى الله عليه وسلم، فيما حكاه الله عنه، إذ ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فجعل اطمئنان قلبه بمشاهدة الإحياء، يقتضى أن عنده ريبة وشبهة فى ذلك.

ورده بقوله: **(إذ لم يشك إبراهيم)** متعلق بالنفى، أى انتفى الاعتراض بما ذكر، **(فى**

إخبار الله له بإحياء الموتى)، أى ما أخبر الله به من أنه هو الذى يحيى الموتى ويوجدها من العدم، **(ولكن أراد)** بما قاله مما يوهم الشك.

(طمأنينة القلب). قال الراغب: الاطمئنان السكون بعد الانزعاج، واطمأن وتطامن متقاربان لفظًا ومعنى. انتهى.

فطمأنينته زوال قلقه وانزعاجه من أمرها، **(وترك المنازعة)** مفاعلة من النزع، وهو جذب الشىء عن مقره كنزع القوس، ويعبر بها عن المخاصمة والمجادلة، ومنازعة القلوب ميلها إلى شىء ما، والمراد هنا ترك القلق أو ترك الميل إلى الشبهة فى كيفية ذلك بعد تحققه عنده، كما أشار إليه بقوله: **(بمشاهدة الإحياء)** وكيفية صدوره عن القدرة، **(فحصل له العلم الأول بوقوعه)**، أى تيقن وقوعه من الله إجمالاً من غير شبهة فيه.

(وأراد) بسؤاله ربه **(العلم الثانى بكيفيته ومشاهدته)**، أى مشاهدة صدوره عن الله تفصيلاً؛ ليزيد علمه واطمئنانه، لا أنه شك فيه، وهو جواب عن الاعتراض الوارد على قولهم: إن علم الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، بالله لا يعتريه شك بأن الخليل، عليه الصلاة والسلام، من أجلهم، وقد شك، فأجاب بأنه لم يشك ولم يجهل، وإنما أراد الانتقال عن علم اليقين إلى عين اليقين، وهذا أمر لا ضير فيه.

(الوجه الثانى)، فى جواب الاعتراض على ما وقع من الخليل، **(أن إبراهيم)**، صلى الله عليه وسلم، **(إنما أراد)** بسؤال ربه، **(اختبار منزلته عند ربه)**، المراد بالاختبار لازمه، وهو العلم، أى أن يتحقق رتبته عند الله.

(وعلم إجابته دعوته بسؤال ذلك من ربه)، أى يعلم أنه مقبول عنده، حتى لا يرد دعاءه، ولا يخيب فيه رجاءه، وأن يريه كيف أحيا الموتى، وفى نسخة: إجابة دعوته، بالإضافة، وعدم تحقق رتبته عند الله ليس فيه ما يضره وينقص معرفته بربه، فما قيل: إنه يقتضى شكه فى منزلته عند الله، وهو غير واقع، لا وجه له.

ولما كان قوله تعالى فى جوابه: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ [البقرة: ٢٦٠]، يقتضى الاعتراض، دفعه بقوله: **(ويكون)** على هذا **(قوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾)** بالاستفهام الإنكارى، المقتضى بحسب الظاهر نفى إيمانه، فيأول **(أى لم تصدق بمنزلتك منى وخلتك)**، أى اتخاذك خليلاً، **(واصطفائك)**، أى اختيارك على غيرك تشريفًا وتكريمًا لك، فالإيمان بمعناه اللغوى، وهو التصديق والمصدق به، المنزلة والاصطفاء، فإنه لا يلزم من النبوة اصطفاؤه بحيث يطلعه على أسرار قدرته، ولعله كان فى أول أمره.

(الوجه الثالث أنه سأل) من ربه **(زيادة يقين وقوة طمأنينة)**، أى أن يقوى طمأنينة قلبه

وسكونه، بحيث يقر إقرارًا متمكنًا غاية التمكن، **(وإن لم يكن فى)** علمه **(الأول)** الذى كان قبل المشاهدة **(شك)** فى شىء من أمور الرب وتوحيده وقدرته، وهو دفع لما يتوهم من أن هذا الطلب يقتضى الشك منه، بأنه إنما هو لقبول اليقين الزيادة كما بينه بقوله: **(إذ العلوم الضرورية)**، التى تحصل من غير استدلال؛ لظهورها، **(والنظرية)** التى تتوقف على نظر واستدلال؛ لكونها غير بديهية **(قد تتفاضل)**، أى يزيد بعضها على بعض؛ لأنه تفاعل من الفضل، بمعنى الزيادة كمًا وكيفًا **(فى قوتها)**؛ لأنها كيفيات نفسانية تقبل التفاوت فى الوضوح والخفاء، والعلم ينقسم إلى ضرورى ونظرى، وعلم الله حضورى لا يوصف بذلك أصلاً.

(وطرئان) بفتحات، بمعنى حدوث، **(الشكوك)**، جمع شك، **(على الضروريات)**، أى العلوم الضرورية، كالواحد نصف الاثنين، والضدان لا يجتمعان، **(ممتنع)**؛ لما هو ظاهر، **(ومجوز)** بصيغة المفعول، أى يجوز العقل طريانها وعروضها.

(فى النظريات) المكتسبة بالنظر والفكر، يعنى أن علم الخليل، عليه الصلاة والسلام، بذلك أولاً كان نظريات يقينيًا لا شبهة له فيه، ولكن النظريات من شأنها أنها تحتمل الشكوك، فأراد الانتقال إلى رتبة أعلى منها بكون علمه بقدرة الله على الإحياء ضروريًا فيها لا يحتمل خلافه أصلاً؛ ليطمئن قلبه بذلك فقط، وهذا معنى ما فى المواقف من أن سؤال الخليل، عليه الصلاة والسلام، لم يكن عن شك فى قدرته تعالى بل طلبه؛ لأن فى عين اليقين ما ليس فى علم اليقين، فإن للوهم بإحداث الوسواس والدغادغ سلطانًا على القلب عند علم اليقين دون عين اليقين.

وليس فى كلام المصنف، رحمه الله، ما يقتضى أن إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، وقع منه شك فى علمه النظرى، بل إن النظرى من حيث هو يجوز طريان الشك عليه، وفرق بين الشك وجوازه، فجوازه على علم اليقين لا يقتضى وقوعه حتى يعترض عليه بأن علم إبراهيم يقينى لا يحتمل النقيض، وأنه يجوز أن يخلق الله فيه علمًا ضروريًا بذلك بعد الوحى أو الكشف، وكذا ما قيل من أنه: إذا علم منه ذلك فما وجه قوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؟ [البقرة: ٢٦٠]؛ لأن المصنف أشار إلى دفعه فى الجواب الثانى، فيعلم بالقياس عليه إن لم تعلم ذلك علمًا غير محتاج للمشاهدة.

وإلى هذا أشار المصنف بقوله: **(فأراد)** إبراهيم، صلى الله عليه وسلم، بسؤاله **(الانتقال من النظر)**، أى من العلم الحاصل من البرهان القطعى اليقينى الذى لا يحتمل النقيض، **(أو الخبر)** الصادق بالوحى إليه الذى لا شك فيه، **(إلى المشاهدة)** والنظر بعينه،

(والترقى)، أى الصعود إلى الأعلى، **(من علم اليقين)** الحاصل بالنظر أو الخبر **(إلى عين اليقين)** الحاصل بمشاهدته عيانًا، وهذا يقتضى أن المحسوسات والعلوم الضرورية تسمى يقينًا وإيقانًا، وفى الكشاف وشروحه وتفسير القاضى: إن العلم الذى من شأنه أن يتطرق إليه الشك والشبهة إذا انتفيا عنه، كان إيقانًا، ولذلك لا يوصف به العلم القديم ولا الضرورى، فلا يقال: تيقنت أن الكل أعظم من الجزء، وينافيه قوله فى سورة التكاثر: علم المشاهدة أعلى مراتب اليقين، وقد بيناه فى حواشى القاضى.

(فليس الخبر كالمعاينة)، هذا من الأمثال النبوية، ورد فى حديث مرفوع رواه أحمد فى مسنده عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «ليس الخبر كالمعاينة، إن الله أخبر موسى بما صنع قومه بالعجل، فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت»، وقال الشاعر:

ولكن للعيان لطيف معنى   له سأل المعاينة الكليم

(ولهذا قال سهل بن عبد الله) التسترى، وقد قدمنا ترجمته: **(سأل)** الخليل، عليه الصلاة والسلام، **(كشف غطاء العيان)**، أى الغطاء المانع للعيان، بكسر العين كما مر، أى المعاينة، والغطاء ما يغطيه ويستره؛ **(ليزداد بنور اليقين)**، أى ما ينوره ويظهره عيانًا، **(تمكنًا فى حاله)** من العلم والمشاهدة؛ ليكون على بصيرة تامة فى معرفة الله، وفيه استعارة مكنية مرشحة لتشبيهه بأمر محتجب تحت غطاء أزالته المشاهدة، والكلام على علم اليقين، وحق اليقين، وعين اليقين، والفرق بينها بحسب اللغة ظاهر، وللصوفية فيها اصطلاح أورده بعضهم، هذا وبين أمورًا واهية، ولا حاجة لنا به.

وهاهنا سؤال مشهور، وهو يروى عن على، كرم الله وجهه، أنه قال: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا، فقيل: كيف يقول هذا، والخليل، عليه الصلاة والسلام، يقول: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فطلب كشف الغطاء ليزداد يقينًا، وهو أجل رتبة. ونقل السبكى، عن الغزالى، رحمه الله، أنه قال: اليقين يتصور أن يطرأ عليه الجحود؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، والطمأنينة لا يطرأ عليها ذلك.

قال ابن عبد السلام: أراد على ما ازددت يقينًا فى الإيمان، وإن كان برؤيته يزداد بمعرفة تفاصيلها، كمن رأى بناءًا عجيبًا، علم أن له صانعًا قادرًا، فيطلب أن يرى كيف يبنى، وعندى أن السؤال غير وارد رأسًا حتى يحتاج لما قالوه، فإن كلامهما لم يتوارد على أمر واحد، إذ مراد على، كرم الله وجهه، أن أمور الآخرة التى عرفها من رسول الله

صلى الله تعالى عليه وسلم وقف على حقائقها بالكشف إذا شاهدها عيانًا لا يزيد يقينه بها، والخليل، عليه الصلاة والسلام، طلب فى الدنيا أن يشاهد كيفية الإحياء ونفخ الروح لأمر أحبه، وأين هذا من هذا حتى يحتاج للتوفيق.

(**الوجه الرابع أنه**)، أى إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، (**لما احتج على المشركين**)، يعنى نمرود وقومه، (**بأن ربه يحيى ويميت**)، بقوله: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، (**طلب ذلك من ربه**)، أى سأل ربه الإحياء وكيفيته؛ (**ليصح احتجاجه**)، ويتحقق ما أنكروه (**عيانًا**) ومشاهدة؛ ليقطع عنادهم ويبطل شوكتهم، وهو فى نفسه غير متردد فيه، فقوله: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، تعريض لهم على حد قوله: إياك أعنى فاسمعى يا جاره، ولا طريق لإلزامهم إلا هذا، فسقط ما قيل: إنه لا يلزم من إقامة البرهان بشىء مشاهدته.

(**الوجه الخامس، قول بعضهم: هو سؤال على طريق الأدب، والمراد**) منه حقيقة (**أقدرنى على إحياء الموتى**)؛ ليكون معجزة له، كما وقع لعيسى، عليه الصلاة والسلام، ليفحم من عارضه ويوبخهم، فلم يسند الإحياء إليه تأدبًا منه، وأسنده إلى الله؛ لأنه المحيى والمميت حقيقة، وإن أجراه على يد غيره.

(و) معنى (**قوله**: ﴿لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾) [البقرة: ٢٦٠]، على هذا التقدير اطمئنانه، (**عن هذه الأمنية**) بضم الهمزة، ما يتمنى ويراد، وبين معجزة إحيائه الموتى عيانًا، وقوله: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ﴾، أى أو لم تصدق بأنى مجيب دعوتك ومعطيك أمنيتك، أو تعريض كما تقدم، وقوله: ﴿أَرِنِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] إلخ، تجوز به عن سببه ولازمه؛ لأنه إذا أقدره على صدور فعل منه رآه، فلا يرد عليه أنه لا دلالة للفظ على هذا المعنى، ولا تمكن مع قوله: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ﴾.

(**الوجه السادس، أنه رأى**)، أى أظهر لغيره (**من نفسه**)، وفى نسخة: رأى فى نفسه، والأصح ما تقدم؛ لاحتياج هذا للتكلف، (**الشك**)، أى صورته والتكلم به، (**وما شك**) حقيقة؛ لقوة يقينه وكمال علمه بالله وقدرته، (**ولكن**)، فعل ذلك (**ليجاوب**)، بالبناء للمجهول، أى ليجيبه ربه تأدبًا منه، (**فيزداد قربه**) من الله حال مناجاته له وتلذذه بخطابه وشرفه بقرب منزلته عنده؛ لاعتنائه بإجابته، فاستبعد هذا بأنه كيف يظهر ما هو منتف عنه مما يؤدى إلى تنقيصه وسوء الظن باعتقاده، وليس بشىء؛ لأنه يتم ما قاله لو استقر على حاله، أما إذا أدى إلى ما تحقق كماله وتيقنه، كما هو معروف فى طريق المجادلة والجرى مع الخصم حتى يفحمه، فلا.

(**وقول نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم: نحن أحق بالشك من إبراهيم**)، هذا جواب عن سؤال تقديره: قد نفيت الشك عن إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، فى هذا الأجوبة، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أثبته له فى هذا الحديث، وجعل نفسه أحق بذلك منه، فأجاب بما أجاب به المزنى صاحب الشافعى، فقال: هو (**نفى؛ لأن يكون إبراهيم شك وإبعاد للخواطر**)، جمع خاطر أو خاطرة، بمعنى القلب أو الشبهة؛ لأنها فى الأصل ما يعرض للإنسان من الأفكار والشبه، ويتجوز بها عن محله، وهو القلب، ويصح إرادة كل منهما هنا، وقوله: (**الضعيفة**)، أى التى تدفع بأدنى تأمل لظهور بطلانها، (**أن يظن هذا**)، أى الشك بإبراهيم؛ لأن مقامه يجل عن مثله.

وحاصله أنه صلى الله تعالى عليه وسلم نفى الشك عنه ببرهان قوى، وقياس منطقى تقريره: لو شك إبراهيم كنت أنا شاكًا أيضًا، بل أحق، أى أولى وأقربه لذلك منى؛ لأنى لا يجوز على غيرى من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وما كنت بدعًا من الرسل، وقد علم أنى لم يقع منى شك ظاهر، فكذلك إبراهيم أيضًا، فنفاه بنفى لازمه، إلا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل من إبراهيم، ولا يلزم من نفى شىء عن التفاضل نفيه عن المفضول، فكيف قال: إنه أحق منه؟.

وأشار المصنف إلى جوابه بقوله: (**أى نحن موقنون بالبعث وإحياء الله الموتى**)، عطف تفسير على البعث، (**فلو شك إبراهيم**)، إشارة إلى أنه قياس استثنائى، (**لكنا أولى**) بيان؛ لأن أحق بمعنى أولى، (**بالشك منه**)، أى من إبراهيم، ثم أشار إلى دفع السؤال الوارد على قوله: أحق، كما قدمناه بأنه (**إما على طريق الأدب**) منه مع أبيه إبراهيم، عليهما الصلاة والسلام، بقوله: أحق، (**أو أن يريد**) بقوله: نحن، (**أمته الذين يجوز عليهم الشك**)؛ لعدم عصمتهم؛ لأنه عليه السلام، كثيرًا ما يسند لنفسه ما هو لأمته؛ لنكتة تقتضيه، أى أنتم مع أنكم دون مقام إبراهيم لم تشكوا، فكيف به؛ لأنه قيل: إن بعضهم لما سمع قوله: ﴿أَرِنِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] إلخ، قال: إن إبراهيم شك، (**أو**) قاله (**على طريق التواضع**) منه، وهو قريب من الجواب الأول، مع الفرق الظاهر، (**والإشفاق**)، أى الخوف من أن يبتلى بما ابتلى به، (**إن حملت**) بالبناء للمفعول ونائب الفاعل (**قصة إبراهيم**)، عليه الصلاة والسلام، فى سؤال ربه (**على اختبار حاله**) بالباء الموحدة، وهو الوجه الثانى من الأجوبة السابقة كما تقدم، (**أو زيادة يقينه**)، وقيل: إنه قاله قبل علمه بأنه أفضل من إبراهيم، وقيل: إنما قاله لما عاين من إنكار قومه البعث، فتأمل.

ثم أورد دفع شبهة تتوهم من ظاهر بعض الآيات، وتقريرها: أن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لا يطرأ عليهم شك فى عقائدهم وفيما أوحى إليهم، فقال: (**فإن قلت:**

فما معنى قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [يونس: ٩٤]، بناءً على أن الخطاب له صلى الله تعالى عليه وسلم لا عام له ولغيره، والشك فيه شك فى أنه من عند الله، ومطابق لما أوحى لغيره من الأنبياء، (﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] **الآيتين**)، يعنى ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿94﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [يونس: ٩٤، ٩٥]، وفى الأربعين أن هذه الشرطية غير ممكنة.

(**فاحذر، ثبت الله قلبك**)، جملة دعائية معترضة، (**أن يخطر ببالك**)، أى قلبك وفكرك، (**ما ذكره بعض المفسرين**)، ممن لم يدقق النظر، وليس من أهل التحقيق، وهو مبالغة فى عدم اعتقاد مثله، (**عن ابن عباس أو غيره**) من السلف، (**فى إثبات شك للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما أوحى إليه**)، بناء على ظاهر اللفظ، (**وأنه من البشر**)، فيطرأ عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما يطرأ عليهم، (**فمثل هذا**) هذا وأمثاله أو مثله غير جائز، فكيف به (**لا يجوز**)، أى لا يطرأ (**عليه جملة**)، أى لا يجوز كله ولا شىء منه.

(**بل**) إضراب إبطالى، (**قد قال ابن عباس**) فيما صح روايته عنه كما قاله ابن أبى حاتم فى تفسيره: (**لم يشك النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**)؛ لأن الشرطية فرضية غير ممكنة، ولو قلنا: الخطاب له صلى الله تعالى عليه وسلم، (**ولم يسأل**) أحد من أهل الكتاب، (**ونحوه عن ابن جبير والحسن**) البصرى، (**وحكى قتادة**)، كما رواه ابن جرير، (**أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال**) لما نزلت الآية: «لا أشك»، وفى نسخة: «ما أشك»، (**ولا أسأل**) فى شىء من ذلك، (**وعامة المفسرين**)، أى كلهم، يقال: جاءوا عامة قاطبة، أى جميعًا، (**على هذا**)، أى متفقون على أنه ليس المراد أنه شك أو سأل.

(**و**) بعد اتفاقهم على هذا، (**اختلفوا فى معنى الآية**) المقصود بها، (**فقيل: المراد: قل يا محمد للشاك:**)، أى لمن يشك فى الوحى المنزل عليك، (﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ [يونس: ٩٤] **الآية**)، فالخطاب ليس له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا ترد الشبهة، وبراءة ساحته قرينة قريبة، وتقدير القول كثير فى كلام العرب.

(**قالوا**)، أى الذاهبون لهذا التأويل: (**وفى السورة نفسها**)، عطف على مقدر، أى فى القرآن ما يدل عليه، وفى السورة... إلخ، (**ما دل على هذا التأويل، قوله:** ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ [يونس: ١٠٤] **الآية**)، وقوله: ﴿قُلۡ﴾ بدل من ما، أو خبر مبتدأ تقديره هو، ويجوز نصبه، أى أعنى قوله، والآية تمامها: ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾ [يونس: ١٠٤]، ووجه السؤال أن

الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لا يعتريهم شك فى شيء من أمور الدين، والآية بحسب الظاهر دالة على خلافه، فأجاب بأن الخطاب لغيره، وأيده بأنه ورد مصرحًا به فى هذه السورة، والقرآن يفسر بعضه بعضًا كثيرًا، ووصف الله بأنه الذى يتوفاهم ويميتهم كما أحياهم تهديدًا لهم وتنبيهًا لهم على أنه الذى ينبغى أن يخاف منه، ولا يشك فيه أحد، فضلاً عن سيد الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

(**وقيل: المراد بالخطاب**) فى قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ [يونس: ٩٤] الآية، (**العرب، وغير النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، وإفراد الضمير لتأويله بمن يسمع الخطاب، فالخطاب بحسب الظاهر، والمراد غيره بطريق التعريض، ومثله كثير فى القرآن وكلام العرب، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، بدليل قوله بعده: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢]، ولو كان الخطاب له قال: بما تعمل، ووجه الخطاب تعظيمًا له وتهويلاً لأمر الشرك، (**كما قال**) الله عز وجل: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] الآية، أى يفسد ويسقط عن الاعتبار ويبطل، من حبطت الدابة إذا أفرطت فى المرعى حتى ماتت وانتفخت، وجعل هذه الآية مشبهًا بها؛ لأنها أظهر فى التعليق بالمحال؛ لأن الخطاب فيها للرسل كلهم، إذ أولها: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، أى من الرسل، ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ﴾ إلخ، وأفرد؛ لأن المراد كل أحد منهم، وهم مبرءون عن الشرك، فالمراد بذلك أممهم ممن يجوز عليه الشرك، وإليه أشار بقوله: (**الخطاب له، والمراد غيره**) تعريضًا وتهييجًا لحميتهم حتى ينتهوا عما لو وقع من أحب خلق الله تعالى لم يعف عنه.

(**ومثله**)، أى ما ذكر من الخطاب المقصود به غيره، قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ﴾، أى شك وريب، ﴿مِّمَّا يَعۡبُدُ﴾ [هود: ١٠٩]، أى لا تشك فى أنه ضلال باطل مؤد إلى العذاب الشديد، (**ونظيره**) مما قصد بالخطاب الغير، (**كثير**) فى القرآن وكلام العرب، وهو باب واسع يسمونه التعريض والتلويح، وله نكات ومقاصد جليلة كحمله على قبول ما يلقى إليه، والإذعان وإطفاء نار الغضب والحمية، كما فصله أهل المعانى وقسموه أقسامًا مشهورة.

(**قال بكر بن العلاء**)، بفتح العين، وهو القاضى بكر بن العلاء، من علماء المالكية الأجلاء، وما قاله مويدٌ لما قدمه من أن الخطاب لغيره: (**ألا تراه**)، أى الله عز وجل، (**يقول**) فى هذه الآية: (﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٩٥] **الآية**)، فهذا شاهد صدق فى غاية الظهور، (**وهو**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**كان المكذب**)، بالتشديد، وصيغه اسم المفعول من التكذيب، (**فهذا كله**) مما ذكر فى تكوين

الخطاب، (**يدل على أن المراد بالخطاب غيره**)؛ لأنه لا يصح كونه مرادًا بالخطاب؛ لظهور فساده لما عرفت مما قرره.

(**ومثل هذه الآية**) فى أن المقصود بالخطاب غير من ألقى إليه، (**قوله**) تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٩]، أتى بهذه الآية دليلاً لما قاله من أنه قد يؤمر الرسول بأمر، والمقصد أمر غيره من أمته أن يسأل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فهو مسئول، وإن كان ظاهر النظم أنه سائل كما بينه بقوله: (**المأمور هاهنا**)، أى فى قوله: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾، (**غير النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**) من أمته، (**ليسأل النبى، والنبى هو**)، المقصود بقوله: (**الخبير**)، أى العارف بحقيقة الأمر، فهو فى الحقيقة، (**المسئول**) منه، (**لا المستخبر السائل**)، هو تفسير للمستخبر، أى الطالب للخبر السائل عنه.

وهذا وما بعده من كلام بكر بن العلاء، رحمه الله تعالى، وهذا بناء على أحد التفاسير فى هذه الآية.

وقيل: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم أمر أن يسأل جبريل أو الله عز وجل، والآية على ظاهرها.

وقيل: إنه أمر بسؤال أهل الكتاب، فيصدقوه لتندفع شبهة المشركين.

وقيل: الضمير راجع للرحمن، وإن المشركين أنكروا اسم الرحمن، فالمعنى إن أنكروا إطلاق الرحمن على الله، فاسأل أهل الكتاب ليخبروهم بإطلاقه عليه فى الكتب المنزلة على غيرك من الرسل، وعلى هذا فلا شاهد فيه لما نحن بصدده والباء سببية أو تجريدية أو بمعنى عن.

(**وقال**) بكر بن العلاء فى معنى قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ﴾ [يونس: ٩٤] الآية: (**إن هذا الشك الذى أمر به غير النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بسؤال الذين يقرءون الكتاب**)، عنه من الأحبار والرهبان، (**إنما هو فيما قصه الله**) عز وجل فى كتابه الكريم.

(**من أخبار الأمم**) السالفة مع أنبيائهم ونجاة المؤمنين منهم وهلاك من كفر، فإنهم أمة أمية لا يعرفون أحوال الأمم، و لم يصدقوا ما قصه الله عز وجل على رسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(**لا فيما دعا**) النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (**إليه**)، أى إلى الإيمان به (**من التوحيد**)، أى الإيمان بالله ووحدانيته.

(والشريعة) التى شرعها على لسان نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم وبلغها لهم وأمرهم باتباعها من الملة الحنيفية، فإن هذا أمر لا تندفع شبهة المشركين فيه بسؤال أهل الكتاب، وإنما تندفع بالبراهين والمعجزات الباهرة.

(هذا)، أى أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالسؤال، والمقصود أمر غيره، **(قوله)** عز وجل (**﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾** [الزخرف: ٤٥] **الآية)**، أى اقرأ الآية بتمامها، وهو (**﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾**) [الزخرف: ٤٥]، الاستفهام إنكارى لتكذيبهم، ونفى ما ادعوه ببرهان تقديره: أن لم نجعل آلهة غير الله تعبد فى ملة من الملل؛ لإجماع من قبلك من الأنبياء على توحيد الله، فهو أمر لم تبتدعه، فكيف يكذب ويعادى من أتى به، ولما كان ظاهر الآية مشكل؛ لأنه أمره، صلى الله تعالى عليه وسلم، بسؤال الرسل الذين قبله، وهم غير موجودين، فكيف يتمكن من سؤالهم؟ وهو أيضًا عالم بالتوحيد متيقن له كما أخبره الله تعالى به، غير محتاج للسؤال عنه، أشار إلى تأويلها بقوله: **(المراد به المشركون)**، والمسئول منه أهل الكتاب وأحبارهم، فالمعنى: اسألوا علماء أهل الكتاب العالمين بما أنزل على الرسل من قبلك، هل فى كتبهم غير التوحيد؟ **(والخطاب)** فى هذه الآية **(مواجهة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم)**؛ لأمره به ظاهرًا، والمقصود غيره من المشركين.

(قاله)، أى هذا التأويل والتوجيه، **(القتبى)**، اختلفت النسخ هنا، ففى أكثرها: القتبى، بقاف مضمومة، ومثناة فوقية مفتوحة، وباء موحدة، وياء نسبة مشددة، وفى بعضها: القتيبى، بزيادة ياء مثناة تحتية بعد التاء الفوقية، وهما بمعنى، والمراد به إمام أهل اللغة والتفسير ابن قتيبة بن سعيد بن طريف بن جميل، صاحب التآليف الجليلة المشهورة، وفى بعضها: العتبى، بضم العين المهملة، وسكون التاء المثناة الفوقية والموحدة، وهو عمدة مذهب مالك، فقيه الأندلس محمد بن أحمد بن عبد العزيز القرطبى العتبى، نسبة لعتبة بن أبى سفيان؛ لأنه من مواليه، وهو صاحب كتاب العتبية المشهورة فى مذهب مالك، وتسمى المستخرجة كما تقدم بيانه، ورجح البرهان الحلبى النسخة الأولى.

(وقيل: معناه)، المذكور فى هذه الآية **(سلنا)**، أصله اسألنا، فنقل حركة الهمزة للسين، فحذفت همزة الوصل، وهى لغة مشهورة، وضمير العظمة لله وحده، **(عمن أرسلنا، فحذف الخافض)**، أى عن الجارة، **(وتم الكلام)** من غير تعلق له بما بعده بعد حذف المفعول والجار وإيصال الفعل بنفسه، ومثله كثير، وإن كان غير مقيس، **(ثم ابتدأ)** الكلام واستأنفه، فقال: (**﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾** [الزخرف: ٤٥] **إلى آخر الآية)**، يعنى آلهة يعبدون **(على طريق الإنكار)** لعبادة غير الله بالاستفهام الإنكارى الذى

هو فى معنى النفى، فلذا قال: (**أى ما جعلنا**) آلهة، فلا عبادة لغيره، وفى نسخة: ماجعلناه، (**قاله**)، وفى نسخة: حكاه (**مكى**) بن أبى طالب، الإمام المفسر الزاهد صاحب التآليف الجليلة، ولد بالقيروان، وأقام بالأندلس بعد إقامته بمكة، ولذا نسب إليها كما تقدم.

(**وقيل**) فى تأويل الآية وأمره بسؤال الرسل وهم غير موجودين: أنه (**أمر**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأمر مبنى للمفعول أو الفاعل، أى أمر الله، ورجح الأول (**أن يسأل الأنبياء**)؛ لما اجتمع بهم (**ليلة الإسراء**)، كما مر من اجتماعه بهم فى السماء، (**عن ذلك**)، أى عن جعله آلهة تعبد من دونه، (**فكان**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، بما كشف له من عين اليقين (**أشد يقينًا**)، وأكثر علمًا بالله، وبما جعله من سائر الأنبياء (**من أن يحتاج إلى السؤال**) منهم؛ لأنه أعرفهم بالله وبما فعله، وفى قوله: وقيل، إشارة إلى ضعفه، إلا أن مثله لا يقال من قبل الرأى، وشدة يقينه، صلى الله تعالى عليه وسلم، معروف، فأمره بذلك إنما هو لإظهار أمره ورفعة قدره، فلا وجه للاعتراض عليه بما ذكر.

(**فروى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، وروى، مبنى للمجهول، وأوله أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليلة أسرى به، بعث الله له آدم وولده من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فأذن جبريل، ثم قال له: يا محمد، صل بهم، فلما فرغ قال له عن الله: ﴿**وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ**﴾ [الزخرف: ٤٥]، ومن ثم قيل: إن هذه الآية قدسية بناء على أن ذلك كان ببيت المقدس قبل العروج، (**قال: لا أسأل**) أحدًا منهم، (**وقد كفيت**)، وفى نسخة: اكتفيت بما عندى من اليقين الذى ثلج به صدرى.

(**قال ابن زيد**)، هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كما تقدم: وليس فيه مخالفة لأمر الله له بالسؤال؛ لأنه علم أنه ليس أمرًا يجاب، بل إظهار لعلمه وشدة يقينه.

(**وقيل**) معناها: (**سل أمم من أرسلنا**)، بتقدير مضاف بقرينة أن الرسل لم يكونوا موجودين لما أمر بالسؤال، بل الإخبار من أممهم، (**هل جاءوهم**)، أى هل جاءوهم رسلهم من عند الله، (**بغير التوحيد**)، أى اعتقاد وحدانيته وعبادته وحده، والاستفهام تقريرى، أى ما جاءوهم إلا بهذا، هو لنفى مجيئهم بغيره، (**وهو**)، أى ما ذكر (**معنى قول مجاهد، والسدى، والضحاك، وقتادة**)، فى تفسير هذه الآية.

(**والمراد بهذا**)، أى ما قاله مجاهد، ومن ذكر بعده، (**والذى قبله**) مما حكاه يقبل، أو ما ذكره ابن زيد ومن تقدمه، وقيل: المراد بهذا قوله: (﴿**وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن**

رُسُلِنَآ﴾ الآية)، والذى قبله قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ [يونس: ٩٤] إلى آخره، **(إعلامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بما بعثت به الرسل)**، من التوحيد، **(وأنه سبحانه وتعالى لم يأذن لأحد)** من الرسل وأممهم، **(فى عبادة غيره)** عز وجل، **(ردًا على مشركى العرب وغيرهم)** من عبدة الأصنام وغيرهم، وردًا مفعول لأجله تعليلاً لما قبله من مراد الله، فإنه لا يتصور نسبة ما ذكر له، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى قوله سبحانه وتعالى حكاية عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾)** [الزمر: ٣]، أى الأوثان، ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، أى قربى من زلف، بمعنى قرب، فهو مؤكد لما قبله، وفى نسخة فى قولهم: «إنما نعبدهم ليقربونا»، وتفصيله فى التفاسير.

وفى الشرح الجديد: أن الأجوبة المذكورة كلها بعيدة، وأن الداعى لهم لتأويل الآية بما ذكر، قصور النظر عن تصور مقامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، واتصاله بالملأ الأعلى فى كل حين، واجتماعه بأرواح الأنبياء، وأطال فى ذلك بنقل كلام ساداتنا الصوفية، وهو قريب مما ذكر المصنف، رحمه الله، فى سؤاله فى قصة الإسراء، ولولا خشية الإطالة بلا طائل، نقلنا كلامه هنا.

(وكذلك)، أى مثل ما ذكر من الآيات التى نسب له، صلى الله تعالى عليه وسلم، الشك فيها، والمراد غيره بلا شك، **(قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ﴾** [الأنعام: ١١٤])، أى القرآن ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾، أى ملتبسًا به، ونسب العلم لجميعهم لعلم أحبارهم به، وتمكن باقيهم من ذلك بأدنى تأمل، **﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾** [الأنعام: ١١٤]، أى لا يكن عندك شك، فالمراد ظاهرًا نهيه عن الشك، والمراد نهى غيره، كقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ [يونس: ١٠٤].

ووجه آخر أشار إليه بقوله: **(أى فى علمهم بأنك رسول الله، وإن لم يقروا بذلك)**، أى بحقية ما نزل عليك، وأنك رسول الله، حسدًا منهم بعدما تبين لهم الحق، **(وليس المراد به)**، أى بقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، **(شكه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما ذكر فى أول الآية)**، يعنى قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ كما يتوهم من ظاهر الآية، بل المراد ما قدمناه لك، **(وقد يكون أيضًا)** هذه الآية واردة **(على مثل ما تقدم)**، أى طريقته فى التأويل السابق، بأن يكون الخطاب له، صلى الله تعالى عليه وسلم، والمقصود غيره على نهج الكناية التعريضية التلويحية، **(أى قل يا محمد لمن امترى)** وشك **(فى ذلك)**، أى فى حقية ذلك، وأنك لرسول الله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، فى أن القرآن نزل عليك من الله، أرسلك به وأيدك بمعجزاته، فليست الآية على ظاهرها، **(بدليل قوله تعالى فى أول الآية)** التى فيها: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، (**﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ**

﴿أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤] **الآية)**، أى لا أريد حاكمًا غير الله يحكم بينى وبينكم، يميز الحق والمبطل، فهذا صريح فى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مبرأ عن الشك والريب، **(وأن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يخاطب بذلك)**، أى بما يدل على الشك والامتراء **(غيره)** من أهل الكتاب أو المشركين، كما تقدم بيانه.

(وقيل: هو)، أى ما ذكر مما نسب إليه فيه ما لا يليق، وقيل: المراد أمره صلى الله تعالى عليه وسلم بالسؤال فى الآية **(تقرير)**، أى حمل لغيره على أن يقر بما عنده، فيزجر عنه، أو بالحق حتى يسجل عليه، **(كقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾)** [المائدة: ١١٦]، فإنه استفهام تقريرى حمله على الاعتراف توبيخًا لغيره ممن أسند ذلك لغيره، **(وقد علم الله سبحانه وتعالى أنه لم يقل)** ذلك.

(وقيل: معناه)، أى معنى الأمر بالسؤال فى الآية **(ما كنت فى شك)**، فى حقية ما أنزل إليك، **﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾** [يونس: ٩٤] **(تزدد)** بسؤالك **(طمأنينة)**، اطمئنان قلب، **(وعلمًا إلى علمك، و)** يقينًا إلى **(يقينك)**، فإنه يقبل الزيادة كما تقدم. **(وقيل:)** معناه وتأويله **(إن كنت تشك فيما شرفناك وعظمناك وفضلناك به)**، لا فى أمر التوحيد والدين، **(فسلهم)**، أى أهل الكتاب، **(عن صفتك فى الكتب)** المنزلة على من قبلك، **(ونشر فضائلك)**، أى ما انتشر فيها وشاع من فضائلك التى فضلك الله بها على غيرك من الرسل.

(وحكى عن أبى عبيدة) معمر بن المثنى التيمى، إمام أهل اللغة، توفى سنة عشر أو إحدى عشرة ومائتين، وقد قارب المائة، **(أن المراد)** من هذه الآية: **(إن كنت فى شك من غيرك)** من اعتقادغيرك، **(فيما أنزلناه)** عليك من الحق المنقذ من الضلال، فاسأل الذين يقرأون الكتاب حتى يخبروك بما عندهم فيه، **(فإن قيل: فما معنى قوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾** [يوسف: ١١٠] **على قراءة التخفيف)** فى ﴿كُذِبُوا۟﴾، أى تخفيف الذال والبناء للمفعول ﴿ٱسْتَيْـَٔسَ﴾ استفعل من اليأس، ضد الرجاء، واستيأس بمعنى يئس، كاستعجب بمعنى عجب، إلا أن فيه مبالغة فى اليأس عند الزمخشرى؛ لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى، وبهذه القراءة قرأ عاصم، وحمزة، والكسائى، وغيرهم، والمعنى أنهم لشدة مخالفة أممهم لهم يئسوا منهم، فظنوا أن ما وعدوا به من النصر عليهم كذب، والوعد من الله الذى لا يخلف الميعاد، فهذا منهم يقتضى شكهم فيما جاءهم من الوحى، وهم منزهون عن مثله، فهذه شبهة تقتضى خلاف ما قرره أولا وحتى غاية مغياها محذوف قدروه بوجوه متقاربة منها: ما أرسلنا قبلك إلا رجالا تراخى النصر عنهم حتى يئسوا منه وظنوا تخلف ما وعدهم الله به.

فأجاب المصنف عنه بقوله: (**قلنا**) جوابا عن هذه الشبهة التى هى أقوى مما قبلها؛ لأن فى تلك نسبة الشك بحرف الشرط المقتضى لعدم وقوعه، وفى هذه نسبة الظن بإذا المقتضية لتحققه، (**المعنى فى ذلك**) أى فى نسبة الظن المذكور فى الآية (**ما قالته عائشة**) أم المؤمنين، (**معاذ الله**) منصوب على المصدرية، أى أنزه الله وأبريه.

(**أن تظن ذلك الرسل بربها**) أى تظن أن الله أخلفهم ما وعدهم به (**وإنما معنى ذلك**) أى ما ذكر فى الآية (**أن الرسل لما استيأسوا**) ليس المراد أنهم وقع منهم يأس من إنجاز ما وعدهم الله به، بل المراد أنه طالت المدة عليهم فاستعار اليأس له، أو المراد أنهم يئسوا من أتباعهم بقرينة.

قوله: (**ظنوا أن من وعدهم النصر من أتباعهم**) جمع تابع كأصحاب جمع صاحب، (**كذبوهم**) بالتخفيف والتشديد، أى اخلفوا ما وعدوا رسلهم به من نصرهم على عدوهم، فليس يأسهم وظنهم التكذيب معناه اليأس من نصر الله، والتكذيب كذب وعد الله لهم فلا يرد عليه ما ذكر من الشبهة.

(**وعلى هذا**) التأويل (**أكثر المفسرين**) وفيما نقله المصنف عن عائشة نظر، فإن المروى عنها فى صحيح البخارى أن عروة بن الزبير سألها عن هذه الآية، فقال لها، وقد تلا الآية: أهم كذبوا، أم كذبوا، أى بالتشديد أو بالتخفيف؟ فقالت: كذبوا بالتشديد، فقال: أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك، وظنوا أنهم قد كذبوا، قالت: معاذ الله، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها، فقال لها: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم، عز وجل، وصدقوهم، وطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، حتى استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم، فظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم فجاءهم نصر الله عند ذلك.

قلت: لا منافاة بين ما ذكره المصنف هنا، وبين ما فى صحيح البخارى، إذ مراده أنه على قراءة التخفيف والتشديد المعنى واحد، وإنكارها قراءة التشديد؛ لأنها لم تبلغها لا لأن معناها لا يصح، ولا أنها لا تأول بما ذكر، وقول عائشة: معاذ الله، ليس لإنكار هذه القراءة، بل لما فهمه عروة منها من أن الرسل ظنوا بربهم ما هم معصومون عنه، فضمير ظنوا للرسل، وكذبوا مبنى للمجهول وفاعله أتباع الرسل لا الله كما تقدم، وقيل: الظن هنا بمعنى الوسوسة والهاجس، وأن أنفسهم كذبتهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون، وله تفصيل فى الكشاف وشروحه.

(**وقيل: إن الضمير فى ظنوا عائد على الأتباع والأمم**)، أى أمم الدعوة لا أمم الإجابة

المؤمنين برسلهم **(لا على الأنبياء والرسل)**، فظن بعض أمتهم، ممن لم يؤمن بهم، أن الرسل كذبوا بما وعدوهم من النصر على أعدائهم، والأتباع وإن لم يسبق لهم ذكر معلومون من فحوى الكلام؛ لأن الرسل لابد لهم من مرسل إليه مؤمنًا كان، أو كافرًا، ففى مرجع الضمرين اختلاف بين المفسرين علم مما ذكر، ويجوز أن يراد أمة الإجابة مطلقًا، وهذا الظن يقع مثله، وإن كان منكرًا من المؤمن مثله.

(وهو) أى هذا التفسير المذكور **(قول ابن عباس والنخعى وابن جبير وجماعة من العلماء)** أى علماء التفسير من السلف **(وبهذا المعنى)** أى بسبب هذا المعنى الذى جعل فيه ضمير ظنوا للأمم.

(قرأ مجاهد) أى اختار ورجح قراءة **(كذبوا بالفتح)** أى للكاف والتخفيف مبنيًا للفاعل، أى ظنوا أن رسلهم كذبوا فيما وعدوهم به من النصرة على أعدائهم، فإن القراءة سنة متبعة لا تكون بالرأى، وإن جاز ترجيحها على غيرها كاختيارات القراء، ووجهه كما قيل: أنه على هذه القراءة يكون ضمير ظنوا للأتباع، أى ظن أتباع الرسل أن الرسل كذبوا فيما وعدوهم به من النصرة على أعدائهم، فلا ينافى هذا عصمة الرسل.

لأن صدور مثل هذا الظن عن غيرهم جائز عقلاً، ويمكن على قراءة التخفيف والبناء للمجهول أيضًا أن يفسر بهذا أيضًا، بأن يجعل فاعل كذبوا المحذوف راجع إلى الأتباع، وقيل: إنه تمثيل كيقدم رجلاً ويؤخر أخرى، فشبه حال الرسل لما أبطأ عليهم النصر وصاروا فى غم وكرب بحال من وعد بأمر يحتاج إليه ولم يعجل له فقنط، وحدثته نفسه بل مواعيده عرقوبية، فبينما هو كذلك جاءه الفرج، وإليه ذهب الزمخشرى.

(فلا تشغل بالك) الفاء فصيحة فى جواب شرط مقدر، أى إذا عرفت أن ما فسر به الآية جاريا على مقتضى مقام النبوة، فلا تجعل فكرك مشغولا بغيره مما يوهم خلافه، فالبال بمعنى القلب والفكر، وتشغل بفتح أوله وثالثه هو الفصيح.

(من شاذ التفسير) أى غريبه مما لم يشتهر، فالشاذ حقيقته المنفرد فتجوز به عما ذكر، وهو بيان لقوله: **(بسواه)** أى بغيره، والضمير لما ذكر، وقيل: لقول عائشة، رضى الله تعالى عنها، **(مما لا يليق)** أى يناسب، وهو بدل من قوله: بسواه.

(بمصب العلماء) أى بمقامهم ومقاصدهم، وهذا معناه لغة، ويكون بمعنى الحسب وإطلاقه على الأعمال السلطانية مولد، وما موصولة عبارة عن الشك فى مثله **(فكيف بالأنبياء)** أى فكيف يليق بهم، عليهم الصلاة والسلام، وكيف يجوز بها عن الاستبعاد

نحو كيف تكفرون بالله، ويجوز أن يريد بالشاذ ما ذكر فى مصطلح الحديث، وهو ما خالف الراوى فيه غيره من الثقات.

والمراد به ما روى عن ابن عباس، رضى الله عنهما، أنهم أخلفوا ما وعدهم الله به؛ لأنهم بشر، وتلا قوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة ٢١٤]، وقد ضعف ابن الأنبارى هذه الرواية عن ابن عباس، وقال الزمخشرى: إن صح عنه هذا، فالمراد بالظن الوسوسة، وحديث النفس على ما عليه البشر لا الطرف الراجح؛ فإنه لا يليق بهم أن يظنوا أن الله يخلف وعده وتوقف فى صحة هذه الرواية عنه، وتبعه البيضاوى واعترض عليه بأنها ثابتة عنه فى صحيح البخارى.

وقال الخطابى: لا شك أن ابن عباس لا يجوز على الرسل الشك فى الوحى، فيحمل كلامه على أنهم لشدة تأخره وإبطائه توهموا أن أنفسهم غلطت فى تلقى ما ورد عليهم منه، فالمراد بالكذب الغلط كقولهم: كذبتك نفسك، وقال القشيرى: إنه هاجس خطر على قلوبهم فصرفوه عنها، فالمعنى أنهم قربوا من الظن، وقال الحكيم: إنهم ظنوا تخلفه لتخلف بعض شروطه لا إنهم اتهموا الوحى، ورجح ابن حجر أن الظان اتباعهم، وحمل عليه كلام ابن عباس وهو بعيد جدًا.

(وكذلك) أى مثل ما ذكر مما ظاهره الشك فيما جاءه من الوحى، وهو مأمول، أو مثل قوله: ﴿اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ الآية [يوسف ١١٠]، **(ما ورد فى حديث السيرة)** أى الحديث المتعلق بسيرته وطريقته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى النبوة، وهو ما رواه البخارى وغيره.

(ومبتدأ الوحى) أى ما وقع له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى ابتدائه **(من قوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لخديجة)** أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، لما أخبرها برؤية جبريل، عليه الصلاة والسلام، وهو بحراء: **(لقد خشيت على نفسى)** أى خفت عليها، فإن ظاهره أنه شك فى أنه وحى أتاه به الملك؛ لأن مثله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يخشى، **(وليس معناه الشك فيما آتاه الله)** أى أوحى الله به إليه.

(بعد رؤية الملك ولكن لعله يخشى) وخاف **(أن لا تحتمل قوته)** أى لا تطيق قواه البشرية **(مقاومة الملك)** أى مقابلته، وأن لا يقوم بحقه ومكالمته **(وأعباء الوحى)** استعارة؛ لأنه جمع عبء، وهو الحمل فاستعير لمقاساة مشاقة ففيه استعارة مكنية وتخييلية **(فينخلع قلبه)** وفى نسخة: ينخلع قلبه، وأصل معنى الخلع النزع، كما قال تعالى: ﴿فَاخْلَعْ

﴿نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١٢]، فاستعير لشدة الخوف كأنه نزع قلبه.

(أو تزهق نفسه) أى تخرج روحه من فزعه **(وهذا)** بناء **(على ما ورد فى)** الحديث **(الصحيح أنه)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(قاله)** أى قوله: خشيت على نفسى **(بعد لقائه الملك)** حين ظهر له، وبشره بأنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم **(أو يكون)** قال **(ذلك قبل لقياه)** الملك **(و)** قبل **(إعلام الله له بالنبوة)** أى أنه صيره نبيًا، وفيما خشيه اثنى عشر وجها، فقيل: خشى الجنون، أو أنه هاجس ووسوسة، أو الموت من شدة الرعب، أو المرض، أو دوامه، أو العجز عن النظر للملك، أو القتل، أو عدم الصبر على أذى قومه، أو تكذيبهم، إلى غير ذلك من الأقوال، وأضعفها الأولان، والثالث هو الصحيح، لما فى البخارى وغيره كما يأتى من أنه غطه، وقال له: اقرأ، ومن قال: أنه قبله يقول: فى زمن الأرهاص، والمنامات، وضعفه الكرمانى.

(لأول) اللام بمعنى فى كما فى قولهم: كتبته لست خلون من الشهر، **(ما عرضت عليه)** بالبناء للمجهول، أى أظهر له ورآه **(من العجائب)** أى من الأمور الخارقة للعادة المفسرة بقوله: «وسلم عليه الحجر والشجر»، أى قال: السلام عليك يا رسول الله، والمراد الجنس، أو هى شىء معين منهما، وقد روى أنه الحجر الأسود كما تقدم فى المعجزات، وهو كان قبل النبوة وبعد مبعثه أيضًا.

(وبدأته المنامات) الصالحة التى كان يراها، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى أول أمره ورؤيا الأنبياء قسم من الوحى، **(والتباشير)** أى العلامات المبشرة له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالنبوة والمقدمات الدالة على النتائج، قال فى الأساس: من المجاز تباشير الفجر، وهى أوائله، كأنها جمع تبشير مفرد بشر، وفيه مخايل الخير، وتباشيره وتباشير الثمر بواكيره، قال ابن كمال: وهذا يبين ما فى قول الجوهرى التباشير البشرى، وتباشير الصبح أوائله، وكذا أوائل كل شىء، ولا يكون منه فعل من الخلل.

قلت: يعنى أنه أنكر فعله، وكلام الزمخشرى يدلعلى خلافه، والمخطئ ابن أخت خالته؛ لأن الفعل من البشارة، وهى الخبر السار لا من الأولية والتقدم، واعلم أنه يقال فى تباشير الصبح: بشائره أيضًا، قال أبو فراس[1]:

أقول وقد نمَّ الحلى بجرسه علينا ولاحت للصباح بشائره

(كما روى فى بعض طرق هذا الحديث) أى حديث مبتدأ الوحى **(أن ذلك)** المذكور من التباشير **(كان فى المنام أولا)** أى فى ابتداء البعثة، **(ثم أرى فى اليقظة)** ضد المنام **(مثل**

(١) البيت من الطويل، وهو فى ديوان أبى فراس (ص١١٩)، تاج العروس (١٠/١٩٠).

ذلك) أى مثل ما رأى فى المنام أولاً، **(تأنيسا له)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليحصل له الأنس بالملائكة والوحى، فيراه أولاً منامًا، ثم يراه جهرة.

(لئلا يفجأه الأمر) أى يراه بغتة وابتداء من غير تدريب فى رؤيته، **(مشاهدة)** برؤية البصر، **(ومشافهة)** أى يخاطبه بفمه حقيقة، **(فلا يحتمله)** أى لا يقدر عليه ويطيقه **(لأول حاله)** بالإضافة إلى الضمير أو بتاء التأنيث، أى فى أول أحواله لعدم تدربه وتأنسه **(بنية)** فعله بالكسر لهيئة البناء، والمراد جسده وما جلبت عليه.

(البشرية) أى الإنسان فإنه لا يطيق رؤية الملائكة ابتداء، وهذا إشارة إلى حديث البخارى من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان فى أول أمره يجاور فى كل سنة شهرًا فى غار حراء يتعبد فيه، وكان ذلك عادة قريش، فإذا انصرف، صلى الله تعالى عليه وسلم، منه طاف بالبيت ويرجع لبيته، فكان يرى فى منامه ما يرى، ثم جاءه جبريل إلى آخر الحديث المشهور فى أول البخارى والكلام عليه مفصل فى شروحه.

(وفى الصحيح) أى الحديث الصحيح والبخارى ومسلم **(عن عائشة)**، رضى الله تعالى عنها، وهو من مرسل الصحابة؛ لأنها، رضى الله تعالى عنها، لم تكن معه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو هى سمعته منه فهو متصل، **(أول ما بدئ به رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الوحى الرؤيا الصادقة)** فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح، وهكذا رؤيا الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فإنها قسم من الوحى كما مر، وروى «الصالحة» بدل «الصادقة» وهما بمعنى.

(قالت) عائشة، رضى الله تعالى عنها، **(ثم حبب)** بالبناء للمجهول **(إليه الخلاء)** بفتح أوله والمد، وهو المكان، أو بمعنى الخلوة، وهو الانفراد عن الناس لفراغ القلب وتوجه الفكر والرياضة؛ ليفرغ قلبه عما سوى الله ليتمكن الوحى منه إذا أتاه فصادف قلبًا خاليًا متمكنًا.

(وقالت: إلى أن جاءه الحق) أى الوحى الذى تحققه ورآه عيانا **(وهو فى غار حراء)** الغار هو النقب فى الجبل، وحراء بكسر أوله والمد والقصر يذكر ويؤنث، فيجوز صرفه، وعدم صرفه وبينه وبين مكة ثلاثة أميال على يسار السائر لمنى والجملة حالية، **(الحديث)** بالنصب، أى اذكره أو اقرأه **(وعن ابن عباس)** رضى الله تعالى عنهما، فى حديث مسند رواه ابن سعد.

(مكث النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بمكة خمس عشرة سنة) قال البرهان الحلبى: هذا على القول المرجوح إنه عاش خمسًا وستين سنة، والصحيح أنه عاش ثلاثًا وستين

منها بمكة ثلاث عشرة، وبالمدينة عشرة، وقيل: إنه ستين سنة، وقد جمع بين الأقوال الثلاثة، انتهى.

يعنى إنه عد الكسر سنة، وفيه نظر وبعث على رأس الأربعين، **(يسمع الصوت)** أى يسمع صوت ملك يناديه، ولا يراه وكان من الأنبياء من يسمع الملك ولا يراه كما حكاه ابن سيد الناس، عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما.

(ويرى الضوء) أى نور الملك من غير رؤية ذاته؛ لأن الملائكة أنوار مجردة، **(سبع سنين)** قبل أن يظهر له الملك، **(ولا يرى شيئا وثمان سنين يوحى إليه)** أى يأتيه الملك ظاهرًا له بالوحى من الله، وهذا مبنى على القول السابق لا على الثانى كما توهم، **(وقد روى ابن إسحاق عن بعضهم)**: هذه رواية لم تخرج.

(أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: وذكر جواره) بكسر الجيم وضمها كما مر، أى مجاورته واعتكافه والجوار جاء بمعنى الإقامة، ومعناه الآخر معروف والجوار أعم من الاعتكاف؛ لأنه يختص بالمسجد كما قاله ابن عبد البر، **(بغار حراء)** أى إقامته به كما تقدم بيانه. **(قال:)** تأكيد لقال الأول **(فجاءنى)** يعنى الملك، وهو جبريل، عليه الصلاة والسلام، **(وأنا نائم)** الظاهر أنه نوم حقيقى لما يأتى من قوله: هببت من نومى، ويحتمل أن يريد أنه مضطجع على هيئة النائم. **(فقال: اقرأ)** أمر **(فقلت: ما أقرأ)** ما استفهامية، أو نافية؛ لأنه روى: «ما أنا بقارئ»، وتفصيله فى شرح البخارى.

(وذكر) الراوى **(نحو حديث عائشة فى غطه له)** بفتح الغين المعجمة وتشديد الطاء المهملة مصدر بمعنى شدة ضمه وخنقه وغمه ليصرفه عن الدنيا، ويوقظه لما يلقيه له، واستدل به على تأديب المعلم للمتعلم منه، **(واقرائه له ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾** [العلق ١] **السورة)** واستدل به على أن البسملة ليست آية من كل سورة وفيه نظر، وهذه أول نازل فى قول **(قال)** النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم (: **فانصرف)** جبريل عليه الصلاة والسلام **(عنى)** أى فارقنى، **(وهببت)** ببائين موحدتين فعل ماض مسند إلى ضمير المتكلم، يقال: هب إذا استيقظ من منامه وتحرك من هبت الريح.

(من نومى) أى استيقظت منه وتقدم كلام فيه **(كأنما صورت)** سورة اقرأ **(فى قلبى)** أى مثلت السورة فى قلبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فحفظها، وفى رواية: «كأنما كتبت فى قلبى»، وهو كناية عن حفظها وبقائها فى قوته الحافظة بحيث لا ينساها بعده، ورؤيا الأنبياء، وإن كانت وحيًا إلا أن رواية ابن إسحاق هذه تدل على أن من القرآن ما نزل عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى منامه، وقد قسموا النزول إلى أقسام منها ما

نزل عليه سفرًا وحضرًا، وقل من تعرض إلى نزوله يقظة ومنامًا، ولم يتعرض له الشراح هنا.

(ولم يكن) كان إن كانت ناقصة فاسمها ضمير يرجع إلى شىء المفهوم من السياق وخبرها قوله: **(أبغض إلىّ)** أى أشد بغضًا عنده، **(من)** أن يقال: إنى **(شاعر أو مجنون)** وقيل: إن اسمها ضمير شأن وأبغض خبرها، وهذا بناء على إنه يجوز الإخبار عن ضمير الشأن بمفرد، نحو: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩]، وقيل: اسمها أبغض وهو صفة موصوف مقدر، والخبر محذوف أيضًا وتقديره لم يكن شىء أبغض إلىّ موجودًا، وإن كان تامة فأبغض فاعلها، وإنما بغض هذا لأنه إذا أخبر قريشًا إنه جاءه ملك بوحى يتلوه عليهم، منهم من يقول: إنه شاعر، ومنهم من يقول: إنه مجنون.

(ثم قلت) أى قال، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما أوحى إليه وخشى مما مر (: **لا تحدث)** مضارع مرفوع بتائين فوقانيتين حذفت إحديهما تخفيفًا، ويجوز بناؤه للمجهول، وهو نهى فى صورة الخبر، أى لا يخبرهم أحد سمعه منى وينقله، **(عنى قريش بهذا أبدًا)** وهذا إشارة إلى كونه شاعرًا أو مجنونًا.

(لأعمدن) جواب قسم مقدر، أى والله لأعمدن، أى أقصدن مضارع من العمد بمعنى القصد بكسر الميم وفتحها، وماضيه عمد بهما والمشهور كضرب يضرب، **(إلى حالق من الجبل)** بالحاء المهملة واللام المكسورة والقاف، أى مكان مرتفع منه، وقيل: إنه الجبل المرتفع، من قولهم: حلق الطائر إذا ارتفع فى الجو، **(فلأطرحن نفسى منه)** أى أرمين جسدى من أعلى الجبل **(فلأقتلنها)** برميها من الجبل حتى لا يبلغنى ما يتحدثون به إنى شاعر أو مجنون إذا بلغهم ما جرى لى.

(فبينا أنا عامد لذلك) أى وقع لى عقب إذ كنت قاصدًا لإلقاء نفسى من أعلى الجبل لأهلكها حتى لا أسمع ما تحدثوا به فى حقى، وهذا كان هاجسًا خطر على قلبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لشدة حميته وغيرته على عرضه، ولم يكن فى ابتداء أمره معصومًا عن مثله، فلا يتوهم أنه أمر جزم به وهو ممتنع شرعًا **(إذ سمعت مناديًا)** أى سمعت صوته ونداءه لى **(ينادى من السماء)** أى من جانبها يسمعه ولا يراه كما تقدم، وهو يقول: **(يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل)** أرسلنى الله إليك لتبليغ وحيه، وتعيينًا لمن ناداه لئلا يظنه غيره.

(فرفعت رأسى) إلى جانب السماء لأراه **(فإذا)** أى فاجأنى بغتة رؤية **(جبريل على صورة رجل)** حال من جبريل، أى متمثلاً بصورته الحقيقية حتى لا يهوله فى ابتداء أمره

(الحديث) أى أذكر الحديث الذى رواه ابن إسحاق إلى آخره، ثم إنه فسر ما ذكر بقوله: **(فقد بين)** الراوى للحديث أو النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى هذا)** الحديث **(أن قوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لما قال)** بكسر اللام وتخفيف الميم، أى لقوله، **(وقصده)** مصدر معطوف على قوله، وقوله: **(لما قصد)** متعلق به، وما موصولة والعائد مقدر تقديره لما قصده، وما قاله خشية أن يتحدثوا بأنه شاعر إذا تلى عليهم ما أوحى إليه، أو مجنون إذا قيل: إنه يسمع صوتًا، أو يرى فى الأفق ملكًا لتوهمهم أن كلامه شعر، وما تراء له جنى.

(إنما كان قبل لقاء جبريل)، عليه الصلاة والسلام، أى قبل رؤيته على صورة رجل **(وقبل إعلام الله له بالنبوة)** بواسطة جبريل وإخباره له **(وإظهاره)** أى الله، أو جبريل عليه الصلاة والسلام، **(واصطفائه)** أى الله **(له بالرسالة)** أما بعد ذلك فلا فإنه حينئذ لا يخشى أحدًا، ولا يتوهم شيئًا يضيق به صدره.

(ومثله) أى مثل حديث ابن إسحاق فيما ذكر **(حديث عمرو بن شرحبيل)** الذى رواه البيهقى وشرحبيل، بضم الشين المعجمة، وفتح الراء وسكون الحاء المهملتين، وموحدة مكسورة، ومثناة تحتية، ولام، وعمرو ابنه تابعى، عابد، جليل، توفى سنة ثلاث وستين ومائة، وهو أبو ميسرة الهمدانى، ولهم عمرو بن شرحبيل آخر خزرجى، وليس بمراد هنا، **(أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وهو بفتح الهمزة بدل من حديث عمرو، **(قال لخديجة)** أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها: **(إنى إذا خلوت وحدى، سمعت نداء)**، بيا محمد، **(وقد خشيت والله أن يكون هذا)** النداء **(لأمر)** يصيبنى مما لم أحط به خبرًا، فقالت له: معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك ذلك، فوالله إنك لتؤدى الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث، فمثلك لا يخشى أمرًا شيطانيًا.

(وفى رواية حماد بن سلمة)، كما رواه الطبرانى وابن منيع، عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، **(أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال لخديجة: إنى لأسمع صوتًا)** من جانب السماء، **(وأرى ضوءًا)**، أى نور الملك النازل عليه قبل تمثله له وظهوره له عيانًا، **(وأخشى أن يكون بى جنون)**، يخيل لى ما ذكر، وهذا كله قبل ظهور الأمر له، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما مر، **(وعلى هذا)** المذكور **(يتأول لو صح)** رواية **(قوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى بعض هذه الأحاديث)**، التى ورد فيها **(أن الأبعد شاعر أو مجنون)**، فخشى أن ما سمعه شعر يلقيه الجن عليه، كما كان فى الجاهلية لبعض الشعراء رئى من الجن، ومثل هذه الكلمة تقولها العرب إذا تحاشوا تأدبًا عن إطلاق شىء على المخاطب، أى الشاعر، أمر متباعد عنك، وإن قاله غيرك فيأتون به فى مكان أنت كذا، وهو استعمال شائع.

فما قيل: من أنه شتم معناه الخائن الذى لا خير فيه، ليس بشىء، **(وألفاظًا)** وردت عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى بعض الأحاديث، **(يفهم منها معانى الشك فى تصحيح ما رآه)**، أى فيما أوحى إليه، ومثله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يليق به شك وتردد فى مثله، فهو لا يرتاب فى شىء مما ذكر، **(وأنه كان كله فى ابتداء أمره، وقبل لقاء الملك له، و)** قبل **(إعلام الله له أنه رسوله)**، وبعده اطمأن قلبه، وشاهد الأمر عيانًا، **(فكيف وبعض هذه الألفاظ)** الموهمة لما ذكر، **(لا تصح طرقها)** بحسب الرواية؟ **(وأما بعد إعلام الله تعالى له، ولقائه الملك، فلا يصح فيه ريب، ولا يجوز عليه شك فيما ألقى إليه)** من الوحى، فإن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لا يتصور منهم ذلك.

(وقد روى ابن إسحاق)، صاحب السيرة فى سيرته، **(عن شيوخه)**، ممن لقيه وأخذ عنه، وله شيوخ كثيرون، **(أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يرقى)**، بالبناء للمجهول، من الرقية المعروفة، **(بمكة من العين)**، أى صيانة له، صلى الله تعالى عليه وسلم، من إصابة العين، والعين حق كما ورد فى الحديث، قال ابن القيم فى كتاب الروح: تأثير النفس أمر لا ينكر، لاسيما عند تجردها عن العلائق البدنية، وحينئذ تؤثر ما يعجز عنه البدن، كمن نظر إلى بحر فشقه، أو إلى نعمة فأزالها، وهذا مما شاهده الناس على اختلاف الملل والأعصار، ويسمونه إصابة العين، يضيفون الأثر إلى العين، وإنما هو للنفس المتكيفة بالكيفية الردية السمية، فيكون بواسطتها، وقد يكون بدونها، فيوصف له شىء يتوجه إليه، فيؤثر فيه، وإن لم يره بعينه.

وقد أمر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يغسل مغابن العائن بماء يصب على من أصابته عينه، فيزول عنه ما يجده، والمغابن بغين معجمة، وباء موحدة، ونون، المواضع القذرة من البدن، كتحت الإبط، وهو لأمر طبيعى اقتضته الحكمة، فإن الأرواح الخبيثة تألف هذه المواضع فتساعدها، فإذا غسلت انطفت نارها، كما فصله صاحب النهاية فى حرف العين فى حديث: «العين حق، ولو كان شىء سابق القدر لسبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا»[(١)].

وفى شرح مسلم: أنهم أخذوا بظاهر الحديث، وأنكره بعض المبتدعة وأهل الطبائع، زعموا أنه ينبعث من عينه قوة سمية تؤثر فيما نظره، وقيل: إنه ينفصل عنه أجزاء لطيفة يخلقها الله ولا ترى، وقيل: إنه ليس بانفصال شىء، وقد قيل: إنه يجب عليه إذا استغسل أن يغسل، وأن من عرف بذلك يلزمه الإمام بيته ويرزقه من بيت المال، وتداوى، صلى

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٨/٤٢)، والطبرانى فى الكبير (٢٠/١١)، وأبو نعيم فى الحلية (١٧/٤)، والبغوى فى شرح السنة (١٦٥/١٢).

الله تعالى عليه وسلم، برقى معروفة قبل الإصابة وبعدها، ومن فسر العين هنا بما يلم به من العوارض، عدل عن الظاهر بغير داع له.

(قبل أن ينزل عليه)، بالبناء للمجهول، أى قبل نزول القرآن عليه، **(فلما نزل عليه القرآن، أصابه نحو ما كان يصيبه)** من العين، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [القلم: ٥١]، ولم يبينه أحد بأكثر مما ذكر، **(فقالت له خديجة)** بنت خويلد أم المؤمنين، رضى الله عنها: **(أوجه إليك)**، أى أأوجه، فحذفت همزة الاستفهام، ومعناه: أأرسل لك، **(من يرقيك)**، أى يقرأ عليك رقية، **(قال: أما الآن فلا)**، الآن الزمن الحاضر، وهو ظرف متعلق بمقدر، أى إن أردت أن ترقينى الآن، فلا تفعلى ذلك، أى لا حاجة لى بالرقى بعد نزول القرآن، فإنه شفاء من كل داء، وقد ورد فى أحاديث كثيرة الرقى وجوازها والنهى عنها، وجمع بينهما بأن الجائز منها ما كان بلسان عربى ظاهر المعنى، كأسماء الله، وسورة الفاتحة.

وورد فى الحديث أن جبريل جاءه، عليهما الصلاة والسلام، وقد أصابته حمى، فقال: «بسم الله أرقيك، من كل شىء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، بسم الله أرقيك». والممنوع المنهى عنه، ما لم يكن بشىء مما ذكر، واعتقاد تأثيرها بنفسها، ولذا ورد ما توكل من استرقى، ولما كانت الرقى من باب مباشرة الأسباب وتركها توكل وتسليم لله، وهو أليق بمقام النبوة، تركها، صلى الله تعالى عليه وسلم، وله رقى مأثورة استوفيت فى محلها.

(وحديث خديجة)، رضى الله تعالى عنها، الذى رواه ابن إسحاق، والبيهقى، وأبو نعيم فى الدلائل، **(واختبارها)**، بخاء معجمة ومثناة فوقية، وباء موحدة، وراء مهملة، أى تجربة خديجة، **(أمر جبريل)**، عليه الصلاة والسلام، لما أخبرها النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بمجيئه إليه، فأرادت أن تعرف أمره، هل هو ملك أم لا، **(بكشف رأسها الحديث)**؛ لأن الملك لا يدخل بيتًا فيه عورة مكشوفة، والمرأة الحرة بدنها كله عورة، وكانت قالت له صلى الله تعالى عليه وسلم: إذا أتاك جبريل أخبرنى به، فلما أتاه وأخبرها، كشفت رأسها، فرجع فعلمت أنه ملك؛ لأنه لو كان شيطانًا لدخل البيت، ولما كان فى إقرار النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما فعلته خديجة ما يوهم الشك دفعه.

بقوله: **(إنما ذلك)**، الاختبار والتردد، واقع **(فى حق خديجة)**، لا صادر منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى يتوهم شك فى نزول الملك عليه، **(لتحقق)** خديجة **(صحة نبوته)**،

صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وإن الذى يأتيه ملك ويزول الشك عنها)**، لا عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما توهم، **(لا أنها فعلت ذلك)** الاختبار، **(للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، ولا نافية داخلة على أن المفتوحة وما وقع فى بعض النسخ من لأنها بالتعليل خطأ من الناسخ، **(وليختبر)**، أى يعرف، **(هو)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(حاله بذلك)**، وهو معطوف على المنفى، فهو منفى، أى لم يفعله لإزالة شكة ولا لاختباره، فالاختبار بكشف رأسها، وهى كانت جازمة بنبوته، ولكن أرادت كشف الغطاء لتزداد يقينًا.

فالمراد بالشك مجرد الاحتمال المرجوح، لا لتساوى الطرفين كما يعرفه من وقف على جلية حالها، **(بل)** إضراب انتقالى، **(قد ورد فى حديث عبد الله بن محمد بن يحيى ابن عروة)** بن الزبير المدنى، وقد قال ابن حبان فيه: إنه متروك الحديث، ويروى الموضوعات، وله ترجمة فى الميزان، **(عن هشام، عن أبيه)**، هو هشام بن عروة بن الزبير أبو المنذر، وقيل: أبو عبد الله القرشى مولاهم، توفى سنة ست وأربعين ومائة، وهو إمام ثقة، أخرج له الستة، وقال ابن القطان: إنه اختلط فى آخر عمره ورده الذهبى كما فصله فى ترجمته، **(عن عائشة)** أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، **(أن ورقة)** بن نوفل بن أسد المشهور، **(أمر خديجة)** بنت خويلد بن أسد أم المؤمنين، وورقة ابن عمها كانت تأتيه وتذكر له ما كان يراه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى أول بعثته، أى تعرض عليه ما كان يراه، وأنه يقول: إنه يأتيه بالوحى ملك فأمرها، **(أن تخبر الأمر)**، أى أمر الملك مع النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بذلك)**، أى بكشف رأسها إذا أتاه وهو عندها، فإن رجع فهو ملك وإلا فلا، ففعلت كما مر وتخبر ثلاثى بفتح المثناة الفوقية، وسكون الخاء المعجمة، وضم الباء الموحدة، وراء مهملة مضارع خبره إذا امتحنه وجربه وحاصله أنه لم يكن من النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، شك فى أمره، إنما هو تردد ما من خديجة فى أول أمرها كما ذكر فى الحديث الذى بعده فى قوله.

(وفى حديث إسماعيل بن أبى حكيم) الذى رواه ابن إسحاق أيضًا، وحكيم بفتح الحاء المهملة، وكسر الكاف، ومثناة تحتية، وميم، وإسماعيل ابنه قرشى، مدنى، ثقة، كان كاتبًا لعمر بن عبد العزيز فى خلافته، أخرج له مسلم وغيره من أصحاب السنن، وتوفى سنة ثلاثين ومائة، **(أنها)**، أى خديجة، **(قالت لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: يا ابن عم)**، وهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، ابن عمها لاجتماع نسبهما فى قصى، فإنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى، وهى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى، ولا حاجة لما قيل أنه

جار على عادة العرب فى تخاطبهم، بل لا وجه له، **(هل تستطيع أن تخبرنى بصاحبك)**، يعنى الملك الذى يأتيك، وهو جبريل، عليه الصلاة والسلام، **(إذا جاءك)** الوحى جهرة، وإنما قالت له: هل تستطيع؛ لأنها تخشى أنه لا يقدر على إخبار غيره لما يغشاه من دهشة الوحى وشدته عليه.

(قال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(نعم)** أخبرك به، **(فلما جاءه جبريل)**، وهو عندها **(أخبرها)** بمجيئه إليه، **(فقالت له: اجلس إلى شقى)**، بكسر السين المعجمة، أى بجنبى ملاصقًا لى، **(وذكر)** إسماعيل **(الحديث... إلخ)**، يعنى من أنه جلس وجبريل قادم عليه، فكشفت رأسها، فلم يدخل جبريل عليه، فأخبرها بذلك، **(وفيه: فقالت: ما هذا)**، الآتى لك، **(بشيطان، هذا الملك يا ابن عم)**؛ لأنه لو كان شيطانًا دخل البيت ورأسها مكشوفة، **(فاثبت)** له إذا جاءك واسمع منه ما أتاك من الوحى، **(وأبشر)**، أى قر عينًا وكن مسرورًا بما أكرمك الله به، **(وآمنت به)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، وبرسالته، وهى أول من آمن به مطلقًا، أو من النساء، رضى الله عنها، **(فهذا)**، أى ما روى عن خديجة، **(يدل على أنها)**، أى خديجة **(مستثبتة)**، أى طالبة للثبات باطمئنان القلب وزيادة اليقين، **(بما فعلته لنفسها)**، من السؤال والاختبار، **(ومستظهرة لإيمانها)**، أى طالبة لظهور ما آمنت به حتى لا يبقى عندها شائبة تردد، **(لا للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**؛ لأنه لا شبهة عنده ولا تردد أصلاً.

(و) مما يوهم وقوع ما نزهه عنه، **(قول معمر)** بن راشد اليمانى فيما رواه عنه أحمد والبيهقى، **(فى)** حديث **(فترة الوحى)**، أى انقطاعه فى ابتداء أمره مقدار سنتين ونصف والفتر، والفترة كون بعد حدة ولين بعد شدة، وضعف بعد قوة، قال الله تعالى: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩]، قاله الراغب، والمراد ما مر، **(فحزن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى عرض له حزن وغم لانقطاع الوحى، **(فيما بلغنا)** رواية عمن علمه، **(حزنًا غدا)**، بغين معجمة، أى ذهب ومشى **(به)**، أى بسبب حزنه لذلك، وفى نسخة منه، **(مرارًا)** متعددة، **(كى يتردى)**، أى يلقى نفسه وهو فى الأصل تفعل من الردى بمعنى الهلاك؛ لأن من يفعله يهلك غالبًا **(من)** رءوس **(شواهق الجبال)**، أى من أعالى جبال مكة، وهذا جواب سؤال تقديره إذا كان الأمر، كما قلت: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يغتر به شك فيما يتعلق بالعقائد والنبوة، فلم حزن حتى كاد يقتل نفسه فيما رواه معمر، أجاب عنه بأنه **(لا يقدح)**، أى لا يطعن فيما قلناه ولا يضره من القدح بمعنى الذم.

(فى هذا الأصل)، أى القضية الكلية من أنه فى غاية اليقين لأمور الوحى والتوحيد،

وليس المراد به ما قاله لخديجة كما قيل، ثم بين عدم القدح بوجوه الأول قوله: **(لقول معمر)** بفتح الميمين، وهو من أتباع التابعين **(عنه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فيما بلغنا ولم يسنده)**، أى لم يرفعه إلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا يستدل به **(ولا ذكر رواته)** جمع راو، وهو من رواه عنه، **(ولا من حدث به)**، عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلا أن ابن سيد الناس، رواه مسندًا من طريق الدولابى، ولم يذكر فيه معمرًا، بل رواه عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة، فقال: لم يلبث ورقة أن توفى وفتر الوحى، وذكر هذا الحديث.

(ولا) ذكر معمر أيضًا، **(أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قاله ولا يعرف مثل ذلك)**، وفى نسخة: ولا يعرف مثل هذا من أحواله، **(إلا من جهة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**؛ لأن مثله لا يقال من قبل الرأى، فهو فى حكم المرفوع، وإن كان منقطعًا، والجواب الثانى ما أشار إليه بقوله: **(على أنه)**، أى ما ذكر من حزنه إلى آخره، وفى نسخة: مع أنه قد يحمل على أنه **(كان أول الأمر كما ذكرناه)**، أى أول أمر من قبل أن يلقاه جبريل، عليه الصلاة والسلام، ويعلمه بأنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنه أوحى إليه، وتمكن من حمل أعباء النبوة.

وجواب آخر أشار إليه بقوله: **(أو أنه فعل ذلك)** المذكور، **(لما أحرجه)**، بكسر اللام، وتخفيف الميم، وأحرجه بحاء مهملة وجيم، أى أوقعه فى حرج وضيق صدر، **(من تكذيب من بلغه)**، ما أرسل به إليهم، وهو بتشديد اللام، ويجوز تخفيفها، **(كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾)** [الكهف: ٦]، وباخع بمعنى قاتل، من بخع الشاة، إذا ذبحها، والأسف الحزن على ما فات وعلى آثارهم، أى بعدهم جمع أثر، فحزنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يكن لشك اعتراه، وإنما كان لتكذيبهم له وعدم طاعتهم له، وهو حريص على أن يهديهم الله رحمة منه؛ لما فاتهم من سعادة الدارين، وهذا للشفقة عليه تسلية له، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(ويصحح معنى هذا التأويل)، أى تأويل ما رواه معمر، وجعله بمعنى الآية المذكورة، **(حديث رواه شريك)**، والراوى له البزار، وهو شريك بن عبد الله النخعى، الإمام، الثقة، وقد وثقه ابن معين، وقال غيره: لا بأس به، وقد قيل: إنه كان سيىء الحفظ، توفى سنة سبع وسبعين ومائة، وسنه ثمانون سنة، وله ترجمة فى الميزان، **(عن عبد الله ابن محمد بن عقيل)** بن أبى طالب بن عبد المطلب، توفى بعد الأربعين ومائة، وهو لين الحديث، حتى قيل: إنه لا يحتج بروايته، **(عن جابر بن عبد الله)**، رضى الله تعالى عنهما، **(أن المشركين لما اجتمعوا بدار الندوة)**، بفتح النون، وسكون الدال المهملة، والندوة بمعنى الاجتماع،

ومنه النادى، ودار الندوة دار كانت بمكة تجتمع فيها قريش للمشاورة والحكومة، بناها قصى بن كلاب، فكانت ديوان رؤسائهم، **(للتشاور فى شأن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وكان ذلك بعد موت خديجة، رضى الله تعالى عنها، وأبى طالب، وقد أمر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بإنذارهم وأنذرهم مرارًا كما هو مشهور مفصل فى السير وحضور إبليس، لعنه الله تعالى، ورأيه فى هذه القصة مشهور.

(واتفق رأيهم على أن يقولوا: إنه ساحر)، كما مر عن أبى جهل، والوليد بن المغيرة، **(اشتد ذلك)**، أى قولهم هذا واشتد عليه الأمر بمعنى صعب وعسر، **(عليه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وتزمل فى ثيابه)**، أى تلفف فيها كالنائم، **(وتدثر فيها)**، أى تغطى بها فوق لباسه الذى على بدنه، ويلى جسده، ومنه حديث: «الأنصار شعارى والعرب دثارى»، **(فأتاه جبريل)**، عليه الصلاة والسلام، **(فقال)** له جبريل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، أصله المتزمل والمتدثر، تفعل من زمله إذا لفه، ودثره إذا غطاه، فأبدل وأدغم على قاعدة أهل الصرف.

قيل: إنه اجتمع فى دار الندوة أبو لهب، وأبو سفيان، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، وأبو العاصى بن وائل السهمى، ومطعم بن عدى، وقالوا: إن العرب يستجمعون فى أيام الحج ويسمعون أمر محمد، وقد اختلفتم فيه، فأجمعوا على رأى فيما يقال لهم، فقال رجل منهم: نقول: إنه شاعر، فقال الوليد: قد سمعت الشعر، وكلام محمد لا يشبهه، فقالوا: نقول: كاهن، فقال: الكاهن يكذب ويصدق، وما كذب محمد قط، فقالوا: نقول: إنه مجنون، فقال: المجنون يخنق ولم يخنق، ثم انصرف لبيته، فقالوا: صبأ الوليد، فذهب أبو جهل، وقال له: إنا نجمع لك شيئًا من المال، فقال: ما لى حاجة إليه، ولم أصب، وإنما فكرت فى أمرى، فرأيته يفرق بين المرء وزوجه، وبين الوالد وولده، وهذا شأن الساحر، فنقول: إنه ساحر، فلما سمع هذا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حزن حزنًا شديدًا، كما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، وغيره من غير تعقب له، ولا يخفى أنه مخالف للرواية الصحيحة من أن اجتماعهم بدار الندوة إنما كان وقت الهجرة، ونزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ كان فى ابتداء الوحى عليه كما فى البخارى، وهو مخالف لما هنا، فإن صحت هذه الرواية تكون نزلت عليه مرتين، ومن العجب أن الشراح لم ينبهوا على هذا مع ظهوره.

ثم أجاب بجواب آخر عن هذه الشبهة، فقال: **(أو خاف)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، من **(أن الفترة)**، أى انقطاع الوحى عنه سنة ونصف، أو سنتين، أو سنتين ونصف، على اختلاف فيه، كان **(لأمر)** صدر منه **(أو سبب)** صدر **(منه)** لم يعرفه،

(فخشى أن يكون) انقطاع الوحى عنه، **(عقوبة من ربه)**؛ لغضبه عليه، **(ففعل ذلك)**، أى ألهم بأن يلقى نفسه من أعالى الجبال حتى يهلك **(بنفسه)**، أى بذاته وجسمه، **(ولم يرد بعد)**، بالبناء على الضم، أى بعد ما وقع له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وما هم به، **(شرع)** يبين **(بالنهى عن ذلك)**، أى بنهيه عما فعله وخطر على قلبه، **(فيعترض به)**، بالبناء للمجهول، أى يكون سببًا لأن يعترض معترض به عليه، ويعده شبهة فى فعله، ويعترض مرفوع، أى فكيف يعترض ويجوز نصبه.

(ونحو هذا)، أى مثل ما صدر عن نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، مما يتوهم فيه أمر ويحتاج للتأويل، أو نحو ما روى من حزنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإرادته لإلقاء نفسه من الجبل، **(فرار يونس)** بن متى، نبى الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، المعلوم، وقد تقدم أن يونس مثلث النون بهمز ودونه، ففيه ست لغات مشهورة، **(خشية)** بالنصب، أى خوفًا من **(تكذيب قومه لما)**، بكسر اللام وتخفيف الميم، **(أوعدهم به من العذاب)** بيان لما، ويونس، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما فى مرآة الزمان كان بعد سليمان نبى الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد علم أنه ابن متى، ومتى اسم أبيه، وقيل: اسم أمه، وهو من ولد بنيامين بن يعقوب، عليه الصلاة والسلام، وكان من عباد بنى إسرائيل ينزل بشاطىء دجلة، فبعثه الله نبيًا مرسلاً لأهل نينوى من أهل الموصل، فلما بلغهم الرسالة لم يجيبوه، فأنذر بعذاب يصيبهم بعد أربعين يومًا، فقالوا: إن رأينا أسباب العذاب آمنا بك، فلما مضى من ميقاته خمسة وثلاثون يومًا، غامت السماء غيمًا أسود يدخن، فلما أيقنوا برزوا من القرية بأهليهم وبهائمهم، وفرقوا بين كل دابة وولدها، وضجوا إلى الله تعالى، فقبل الله توبتهم، وقد ساح يونس، عليه الصلاة والسلام، فى الأرض.

وروى ابن مسعود، أن يونس، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعد قومه العذاب، وأخبرهم أنه يأتيهم إلى ثلاثة أيام، ففرقوا بين كل والدة وولدها، وجأروا إلى الله، فرفع عنهم العذاب بعد مشاهدة البأس، وذلك لم يكن لغيرهم، وانتظر يونس العذاب، فلم ير شيئًا، وخاف الكذب على ما يأتى، فانطلق مغضبًا وركب سفينة، فركدت وغيرها سائرة، فقال: ما بالها؟ قالوا: لا ندرى، فقال: إن عبدًا أبق من ربه لا تسير حتى تلقوه منها، فقالوا: أما أنت فلا نلقيك، فقال: اقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة ألقى، فخرجت القرعة عليه ثلاث مرات، فألقى فى البحر وابتلعه الحوت وهوى به لقراره، فسمع تسبيح الحصى، فنادى فى الظلمات، يعنى ظلمة بطن الحوت والليل وجوف البحر إلى آخر ما قصه الله من أمره.

واختلفوا فى مدة مكثه فى بطن الحوت، فقيل: عشرون، وقيل: أربعون، وقيل:

سبعة، وقيل: ثلاثة أيام، وقيل: يوم، (**وقول الله تعالى فى يونس**)، أى فى قصته، عليه السلام، ﴿**فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ**﴾ [الأنبياء: ٨٧]، جواب سؤال مقدر تقديره: أنك قلت: إن من الأصول المقررة كما تقدم أن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، منزهون من أن يكون عندهم شك وشبهة فى شىء مما يتعلق بالعقائد وذات الله وصفاته، فكيف يظن يونس نبى الله، عليه السلام، أن قدرة الله لا تتعلق به، وهو على كل شىء قدير، أجاب عنه بقوله: (**معناه أن لن نضيق عليه**)، فإنه يقال: قدر وقتر وقتر، بمعنى ضيق، أى ظن أنا لا نضيق عليه، وهذا مروى عن جماعة من أئمة التفسير واللغة.

(**قال مكى**)، رحمه الله: (**طمع فى رحمة الله تعالى، وأن لا يضيق عليه مسلكه فى خروجه**) مما هو فيه، وقيل: إنه لا يناسب قوله: إنى كنت من الظالمين، وأجيب بأنه باعتبار مقامه، فإنه أمر بالصبر، فكان عليه أن يسلم أمره لله عز وجل، ولا يذهب مغاضبًا لقومه وللأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، مقامات لا تناسب مقام غيرهم، فليس من القدرة؛ لأنه غير مناسب هنا، وقيل: إنه تمثيل لحاله بحال من ظن أنه لن نقدر عليه، لما استعجل و لم ينتظر أمر الله عز وجل، (**وقيل: حسن ظنه بمولاه**)، يعنى الله عز وجل، (**أنه لا يقضى عليه العقوبة**)، هذا جواب ثان، فهو من التقدير.

قال الجوهرى: قدرت الشىء أقدره وأقدره من التقدير، وهو القضاء والحكم، أى ظن أن الله لا يقضى عليه بعقوبة ويجازيه على ذهابه وعدم صبره، وهذا قاله مجاهد وقتادة، واختاره الفراء وثعلب، (**وقيل:**) فى تأويله إن معناه (**نقدر**) عليه، بضم أوله وتشديد ثالثه، (**ما أصابه**) من الابتلاء بابتلاع الحوت له، (**وقرىء: نُقَدِّر عليه، بالتشديد**)، فهذه القراءة تدل على أن المخفف بمعنى المشدد كما قاله ثعلب، رحمه الله تعالى، وأنشد شاهدًا عليه قوله:

ولا عائدا ذاك الزمان الذى مضى تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر

وفى الآية قراءات لا حاجة لتفصيلها هنا، وهذا قريب من الجواب الذى قبله، فإن الفعل فيهما من التقدير، والفرق بينهما أنه فى الأول عرف أن فعله مستحق للعقوبة، ولكن رجاء العفو من كرم ربه، وفى هذا لم يكن يخشى عقوبة، ويظن أن الله لا يبتليه بما ابتلاه به.

(**وقيل**) معناه: (**يؤاخذه**)، أى الله يجازيه (**بغضبه**) على قومه، (**وذهابه**) مفارقًا لهم، و لم يصبر منتظرًا لأمر الله، فلن يقدر عليه، بمعنى لن يؤاخذه بغضبه وذهابه، فأطلق السبب على المسبب، فليس فيه ظن لعدم قدرة الله عليه، وليس هذا راجعًا إلى معنى القضاء

عليه؛ لأن المؤاخذة بالقضاء والحكم السابق، كما قيل. (**وقال ابن زيد**)، هو كما تقدم عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد تقدمت ترجمته، وما فى بعض النسخ: أبو زيد، وفى بعضها: ابن دريد، من تحريف الناسخ، والصحيح الأول كما فى المقتفى للبرهان الحلبى: (**معناه أفظن أن لن تقدر عليه على**) تقدير حرف (**الاستفهام**)، وقد ورد حذفه كثيرًا، كقوله[1]:

ثم قالوا: تحبهـا؟ قلـت بهـرًا   عـدد الرمـل والحصـى والتـراب

أى أتحبها؟ وهو مفصل فى كتب النحو، والاستفهام إنكارى، أى أتظن عدم قدرتنا عليه، أى لم يظنه ولم يخطر له ببال، كما أشار إليه بقوله: (**ولا يليق**)، أى لا يناسب عقلاً ولا شرعًا، (**أن يظن**) بالبناء للمجهول، أى يظن أحد (**بنبى**) من الأنبياء (**أن يجهل صفة من صفات ربه**)، وهى هنا قدرته تعالى وتعلقها بكل شىء، وفى نسخة: أنه جهل، (**وكذلك**)، أى مثل ما تقدم فى أنه مصروف عن ظاهره، (**قوله: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧]**، **الصحيح**) فى معناه أنه أراد (**مغاضبًا لقومه لكفرهم**)، أى إقامتهم على كفرهم، فراغمهم بفراقهم رغمًا لهم؛ لظنه أنه سائغ شرعًا، حيث لم يفعله إلا غضبًا لله، وأنفة لدينه، وبغضًا للكفر وأهله، وأن ينتظر الإذن من الله، كما قاله الزمخشرى.

(**وهو**) التفسير المذكور (**قول ابن عباس والضحاك، وغيرهما**) من السلف، (**لا**) مغاضبًا (**لربه**)، إذ لا يليق ذلك بمقام النبوة، (**إذ مغاضبة الله تعالى**) معناها (**معاداة له**)، تفسير باللازم؛ لأن العداوة تقتضى عدم الرضا، (**ومعاداة الله تعالى كفر لا يليق بالمؤمنين، فكيف**) يليق (**بالأنبياء، عليهم الصلاة والسلام**)، وكيف استفهام تجوز به عن الاستبعاد لما بعده كما تقدم، والمغاضبة مفاعلة أريد بها أصل الفعل، أو هى على ظاهرها؛ لأنها بمعنى العداوة، وهى من الجانبين؛ لأنه عاداهم لله وعادوه لجهلهم وكفرهم، فلا حاجة لصرفه عن ظاهره.

(**وقيل:**) ذهابه فى صورة الغضب؛ لأنه كان (**مستحييًا**)، اسم فاعل بيائين، أى حياء، (**من قومه أن يسموه**) بدل من قومه بدل اشتماله، أى يصفوه (**بالكذب**)؛ لأنه أوعدهم بعذاب يحل بهم لما خالفوه وعين له مدة كما تقدم، وهى من السمة، بمعنى العلامة، كالكى وغيره، فاستعير للصفة؛ لأنها تميزه كالعلامة، أى كراهة أن يصفوه به، إذ كان

(١) البيت من الخفيف، وهو لعمر بن أبى ربيعة فى ديوانه (ص٤٣١)، الأغانى (٨٧/١)، أمالى المرتضى (٢٨٩/٢)، الدرر (٦٣/٣)، جمهرة اللغة (ص٣٣١)، الخصائص (٢٨١/٢)، شرح أبيات سيبويه (٢٦٧/١)، شرح شواهد المغنى (ص٢٩)، شرح المفصل (١٢١/١)، لسان العرب (٨٢/٤)، مغنى اللبيب (ص١٥).

أجلهم أربعين ليلة، فقالوا: إن رأينا مخايله آمنا، فلما رأوا ذلك آمنوا، فكشف عنهم العذاب، كما قصه الله تعالى بقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ﴾ [يونس: ٩٨].

وقوله: **(أو يقتلوه)**، أى وخوفًا من أن يقتلوه، فهو كقوله: متقلدًا سيفًا ورمحًا، **(كما روى فى الخبر)** المذكور فى قصص الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وتقدم بعض منه، وليس هذا راجعًا إلى القوم بأنه غضب من ربه، كما حكاه ابن عطية، فتوهمه لا وجه له. وفى مرآة الزمان أن يونس، عليه الصلاة والسلام، لما ساح، فرأى راعيًا فى فلاة فسقاه لبنًا، وهو مستند إلى صخرة، فأعلمه أنه يونس، وأمره أن يقرأ على قومه السلام، فقال: يا نبى الله، لا أستطيع؛ لأن من كذب منا قتل، قال: فإن كذبوك فالشاة التى سقيتنى من لبنها وعصاك والصخرة يشهدن لك، فأتاهم الراعى وأخبرهم، فأنكروا، فنطقت الشاة والصخرة والعصا وشهدن له، فقالوا له: أنت خيرها، إذ رأيت نبينا، وملكوه عليهم أربعين سنة.

(وقيل:) إنه ذهب **(مغاضبًا لبعض الملوك)** فى عهده، **(فيما أمره به)**، أى بسبب أمر أمره به **(من التوجه)** بيان لما، **(إلى أمر أمره الله به على لسان نبى آخر)** بواسطته يبلغه له وضمير أمره للملك، **(فقال له)**، أى قال يونس، عليه الصلاة والسلام، للملك: **(غيرى أقوى عليه منى)**، اعتذارًا له لخشيته من التقصير فيه، **(فعزم عليه)**، أى صمم أو أقسم عليه أنه يفعل ما أمر به، ولم يقبل عذره، **(فخرج لذلك)**، أى لما صنعه الملك معه **(مغاضبًا له)**، أى للملك، لا لربه كما توهم، وهذا إشارة لما فى بعض التفاسير كما حكاه الأخفش، من أن يونس، عليه الصلاة والسلام، لما خرج مغاضبًا لملك كان لقومه، والنبى المذكور كما روى عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، شعيبًا، والملك اسمه: حزقيل، فأوحى الله إلى شعيب أن قل لحزقيل: أن يبعث نبيًا من أنبياء بنى إسرائيل إلى أهل نينوى يأمرهم بتخلية بنى إسرائيل، فإنى ملق على قلوب جبابرتهم وملوكهم، فقال ليونس: اخرج إليهم، فقال يونس: هل أمر الله بإخراجى لهم وسمانى، فقال: لا، فقال: هاهنا أنبياء أقوياء، فألح عليه، فخرج مغاضبًا إلى آخر ما قصه الله تعالى.

(وقد روى عن ابن عباس، أن إرسال يونس)، عليه الصلاة والسلام، **(ونبوته)**، أى بعثته نبيًا مرسلاً إلى أهل نينوى من أرض الموصل، **(إنما كان بعد أن نبذه الحوت)**، ونبذه بلفظ الماضى المعلوم، وفى نسخة: بعد نبذه، بإضافة المصدر لمفعوله، أى قذفه من بطنه، والمراد مطلق الإلقاء. وقال الراغب: النبذ إلقاء الشىء وطرحه لقلة الاعتداد به، ولذا يقال: نبذه نبذ النعل الخلق، وقال تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧]

انتهى، وفيه نظر؛ لأنه لا يناسب قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥]، فتأمل.

(واستدل) لما قاله ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، **(بقوله:** ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ **)**، العراء بالفتح والمد المكان المتسع الخالى من البناء والشجر، فهو كأنه عار، وكان الحوت يسير مع السفينة رافعًا لرأسه ليتنفس، واختلف فى مدة لبثه فى بطنه كما مر، وقوله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾، أى ضعيف كالطفل حين يولد من حرارة بطن الحوت، ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٦]، تفعيل من قطن إذا أقام، وهى شجرة تين، وقيل: القرع، وعلى هذين فإطلاق الشجرة عليه مجاز لأنها ما له ساق، والمشهور الثانى؛ لما روى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يحبه ويقول: «هى شجرة أخى يونس»، فأنبتت عليه لتظله ويأكل منها، وقيل: إنها لا يقع عليها الذباب.

(﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ﴾ [الصافات: ١٤٧] **الآية)**، ووجه الاستدلال أنه ذكر الإرسال بعد إخراجه من بطن الحوت والواو، وإن لم تفد الترتيب على الصحيح، لكن الترتيب الذكرى يقتضيه؛ لأنه غيره مخالف للظاهر، وهو معنى ما نقل عن الشافعى، إذ لا وجه للعدول عن الظاهر من غير قرينة، وقوله: أو يزيدون، أو بمعنى الواو، أو المراد وصفهم بالكثرة أو تردد من رآهم، وقد أجيب عما استدل به ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، بأنه إرسال لغوى، أى أرجعه إلى من أرسل إليه أولاً، أو هو إرسال لغيرهم إلى غير ذلك مما ذكره المفسرون.

(ويستدل أيضًا)، أى لقول ابن عباس، كما استدل بما قبله، **(بقوله:** ﴿وَلَا تَكُن﴾ **)**، الخطاب له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ﴿كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾، إذ ضجر، ولم يصبر فاصبر، فإن الله ناصرك، **(وذكر القصة)**، يعنى قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨] إلى آخره، **(ثم قال:** ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ **)** [القلم: ٥٠]، وهذا بناء على أن معنى اجتباه، اصطفاه واختاره لرسالته، وهذا ليس بمتعين، فقوله: **(فتكون هذه القصة قبل نبوته)**، وإرساله لقومه، غير مسلم؛ لما تقدم، وإنما قال هذا ابن عباس؛ لأنه قبل النبوة، إذ يجوز صدور ما ذكر عنه؛ لأنه لم يوح إليه بما يزيل الشك عنه.

ثم أورد سؤالاً على الأصل الذى قرره من براءة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، مما يعرض لغيرهم من الشك ونحوه، فقال: **(فإن قيل: فما معنى قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى حديث رواه مسلم عن الأغر المزنى، **(أنه)**، أى الأمر والشأن، **(ليغان على قلبى)**، الغين بالغين المعجمة وياء ونون، الستر والتغطية، وهو قريب من الغيم، ويكون

بمعناه، أى ترد على قلبى أمور تشغله، ويقال: غين على قلبه، إذا عرض له وسوسة ونحوها.

ولما توهم من ظاهر الحديث أنه قد يعرض له، صلى الله تعالى عليه وسلم، شك فى بعض شئونه، ورد سؤال بأنه مخالف لما قرره؛ لأن قوله: (**فاستغفر الله فى كل يوم**)، وفى نسخة: فى اليوم، (**مائة مرة، وفى طريق**)، أى فى رواية له (**فى اليوم أكثر من سبعين مرة**)، يقتضى أنه خواطر غير مرضية محتاجة للعفو عنها، دفعه فقال: إذا سمعت هذا وعرفت ما يوهمه، (**فاحذر أن يقع ببالك**)، أى يخطر على قلبك وفكرك، وذكر البال هنا فيه لطف صادف محزه، (**أن هذا الغين**) الوارد فى هذا الحديث، (**وسوسة أو ريبًا**)، أى شكًا فى شىء من أموره المتعلقة بالوحى، (**وقع فى قلبه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى شىء من أمور الدين.

ثم وضحه بعد بيان معناه حقيقة، فقال: (**بل أصل الغين**)، أى أصل معناه وما وضع له لغة، (**فى هذا**) الكلام (**ما يغشى القلب ويغطيه**)، عطف تفسير، وهو استعارة لما يشغله، (**قاله**) الإمام (**أبو عبيدة**)، وفى نسخة: أبو عبيد القاسم بن سلام كما تقدم، (**وأصله**)، أى ما وضع له أولاً مأخوذ (**من غين السماء، وهو إطباق الغيم عليها**)، أى على السماء، وإطباقه تغطية جميع نواحيها، وقريب منه ما قيل: إنه الغيم المطبق، فيحتمل أن النون مبدلة من الميم.

(**وقال غيره:**)، أى غير أبى عبيدة، (**الغين شىء يغشى**)، بفتح الياء والشين المخففة أو بضمها، وكسر الشين المشددة، والأول أظهر، (**القلب**)، أى يعرض له أو يستره، (**ولا يغطيه كل التغطية**)، أى لا يغطيه كله، (**كالغيم الرقيق الذى يعرض فى الهواء**)، أى فى الجو، (**فلا يمنع ضوء الشمس**)؛ لرقته فيه، (**وكذلك**)، أى مثل ما ذكر من أنه لا يفهم منه أنه وسوسة، (**لا يفهم من الحديث أنه يغان على قلبه مائة مرة أو أكثر من سبعين مرة فى اليوم**)، ثم بينه بقوله: (**إذ ليس يقتضيه لفظه الذى ذكرناه**)، أى لا يدل عليه دلالة متعينة، (**وهو أكثر الروايات**) إشارة إلى أن فيه روايات أخر.

(**وإنما هذا**) المذكور فى الحديث (**عدد للاستغفار لا للغين**)، فإنه واقع بعد الاستغفار المرتب على الغين بالغا، وإن احتمل أن يكون كل استغفار لغين، فيكون المراد العدد، وأما الروايتان، فلا تنافى بينهما؛ لأنه إما باعتبار الأحوال أو الأكثر من سبعين هو المائة نفسها، (**فيكون المراد بهذا الغين إشارة إلى غفلات قلبه وفترات نفسه**)، أى فتورها وكسلها، (**وسهوها**)، أى زوال صورتها عن الكفر، وبين ما غفل عنه فى فتورها

وسهوها بقوله: (**عن مداومة الذكر**)، أى ذكره، صلى الله تعالى عليه وسلم، بلسانه وقلبه، (**ومشاهدة الحق**)، إن أريد به الله تعالى، فالمراد مشاهدته فى مرايا مصنوعاته، حتى كأنه يراه بعين عيانه، وإن أريد به ما هو حق ثابت متيقن من العلوم الحقة والأمور اليقينية اللدنية، فالأمر واضح.

ولما كان هذا يوهم أمرًا لا يناسب مقامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى قيل: إنه لا ينبغى ذكره، فإنه يقتضى تفضيل الملائكة على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام؛ لأنهم لا يفترون عن العبادة والتسبيح طرفة عين، أشار إلى دفعه بما لم يتنبه له المعترض، فقال: (**بما كان**)، أى بسبب ما كان (**صلى الله تعالى عليه وسلم، دفع إليه**)، بالدال المهملة المضمومة، مبنى للمجهول، أى فوض إليه وأعطيه.

قال الراغب: الدفع إذا عدى بإلى، معناه الإنالة، كقوله تعالى: ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦]، فإن عدى بعن، فمعناه الحماية، نحو: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، (**من مقاساة البشر**)، المقاساة والمكابدة مباشرة ما فيه مشقة من أمور غيره، (**وسياسة الأمة**)، السياسة هو الحكم والتدبير لأمر غيره من ساسه يسوسه، إذا قام عليه لإصلاح أموره، وهو لفظ عربى لا معرب كما توهم، وهى حكم مخصوص بما يكون بطريق القهر والضبط، (**ومعاناة الأهل**)، أى الاعتناء بأمرهم والتقيد بما فيه معاشهم، (**ومقاومة الولى**)، أى القيام بالأمر الذى يتعلق بالولى، وهو من يواليه ويتبعه، (**والعدو**) من يظهر عداوته ومقاومته بالغلبة والقهر، كما كان يفعله، عليه السلام، فى غزواته وتدبير جيوشه، (**ومصلحة النفس**)، أى مصلحة نفسه فى أمور معاشه، (**وكلفه**)، بالبناء للمجهول، معطوف على دفع إليه، (**من أعباء أداء الرسالة**)، جمع عبء، بهمزة فى آخره، وهو كالحمل لفظًا ومعنًا، بكسر أوله، وهو ما يكون له فى تبليغها ودعوة الخلق، (**وحمل**)، بفتح أوله، (**الأمانة**)، أى ما استودعه الله من أسراره وإعطاء كل ذى حق حقه، وليس المراد بها طاعة الله التى أوحيها عليه كما قيل.

(**وهو**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**فى كل هذا**)، أى ما دفع إليه وكلفه بما ذكر من المقاساة وما بعدها، (**فى طاعة ربه وعبادة خالقه**)، دفع لما يتوهم من أنه كان اللائق به، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن لا يشغله شىء عن ذكر ربه ومشاهدته، بأنه لم يشغله به لحظوظ نفسانية ولا لأمور رياسية، وإنما الله شغله بذلك، فما انقطع عنه إلا لخدمته التى أمره الله عز وجل بها، كما قيل:

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

ولما ورد عليه أن هذا إذا كان طاعة وعبادة، فلم استغفر منه؟ والاستغفار إنما يكون من الذنب، وجهه على طريق الاستدراك بقوله: (**ولكن لما كان**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**أرفع الخلق عند الله مكانة**)، أي له رتبة عند الله ومنزلة عالية على كل مخلوق، والمكانة بالتاء تختص بالمحل المعنوى كالمنزلة، (**وأعلاهم درجة**)، الدرجة ما في جانب العلو ضد الدرك، ومكانة ودرجة تمييز، (**وأتمهم**)، أي أكملهم (**به**)، أي بالله (**معرفة**)، فهو أعرف بالله مما سواه، وأخر هذا؛ لأنه مترتب على ما قبله في المعقول والمحسوس، (**وكانت حاله**)، الحال مؤنث، أي أمره وشأنه، (**عند خلوص قلبه**) لله، بحيث لا يمر به سواه، (**وخلو همه**)، أي جعل همته وعزمه وفكره خالية عن غير الله تعالى، (**وتفرده بربه**)، أي جعل أمره منفردًا بالتوجه لجانبه الأعلى، فيكون قلبه معه وحده في خلوته، فإن ذاكر الله جليس الرحمن كما ورد عنه.

(**وإقباله بكليته عليه**)، أي بذاته كلها قلبًا وقالبًا، (**ومقامه هنالك**)، أي إقامته مع الله في حظيرة قدس قربه، وأشار بالبعد لعلو مقامه ثمة (**أرفع**)، أي أعلى (**حاليه**)، أي حالة اشتغاله بالظاهر، وحالة كونه مع الله عالم السرائر وكل منهما رفيعة، ولكن هذه أرفع، (**رأى، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، أي علم أو شاهد (**حال فترته عنها**)، أي عن أرفع حاليه (**وشغله بسواها**)، أي اشتغاله بغيرها، (**غضًا عن على حاله**)، وهو مفعول ثان لرأى أو حال، وغض الطرف إرخاؤه وإطراقه، ويكون بمعنى النقصان، كما يقال: غض صوته، قاله الراغب، وهو المراد هنا، وكنى به عن التنزل عما ذكر، (**وخفضًا**)، أى حطًا وتنزيلاً (**من رفيع مقامه**)، وهذا بالنسبة للحالة الأخرى، وإن لم يكن كذلك في نفسه، (**فاستغفر الله تعالى**)، أي طلب مغفرته وعفوه ومسامحته له (**من ذلك**)، لعده بالنسبة لمقامه الآخر كالذنب، كما قال البحترى:

إذا محاسني اللاتي أدل بها   كانت ذنوبي فقل لي كيف أعتذر

ولذا ورد أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان إذا قام من مجلسه، قال: «أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه»[(١)]، وروى أنه كان يقول: «رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم»[(٢)]، مائة مرة.

(**وهذا**) التفسير (**أولى وجوه الحديث**) التي ذكرت في توجيهه، (**وأشهرها، وإلى معنى**

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (١٢٣، ١٣٤)، وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (١٤٢/٥).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥١٦)، والترمذى (٣٤٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٤)، وأحمد (٢١/٢، ٣٧١/٥)، والبخارى في الأدب المفرد (٦٢٧)، وابن حبان (٢٤٥٩).

ما أشرنا إليه مال كثير من الناس، وحام حوله)، أى دار بأطرافه وقرب منه، كقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «من حام حول الحمى»(١)، وأصله رفرفة الطائر على الماء عند إرادة النزول، **(وقارب)**، أى حاول القرب والوصول إليه، **(ولم يرد)**، أى لم يصل إليه، استعارة من ورد الماء، إذا أتاه ليستقى منه، وفيه إشارة إلى ذلك فيه شفاء العليل وثلج الصدور، وإن النفس لها ظمأ إليه، وفيه من البلاغة ما لا يخفى.

(وقد قربنا غامض معناه)، أى دنيناه لمن قاربه، ففيه لطف لا يخفى، أى خفية الذى لم يتضح، وأصله المكان المنخفض، فكنى به عما ذكر، ثم صار حقيقة فيه، **(وكشفنا للمستفيد)**، أى طالب الفائدة العلمية من تجارته الرابحة **(محياه)** بالضم والفتح والتشديد، بمعنى الوجه، وفيه استعارة مكنية تخييلية بتشبيهه بحسان مخدرة، والكشف للحديث هنا لرفع غينه وإظهار محياه لعينه، **(وهو)**، أى هذا التفسير **(مبنى)**، أى متفرع **(على جواز الفترات والغفلات والسهو)** على سائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(فى غير طريق البلاغ)**، أى ما أمر لتبليغه لأمته من الشرائع، وأما ما طريقه البلاغ فلا، فإنه لا يجوز فيه ذلك؛ لمنافاته له **(على ما سيأتى)** فى هذا الكتاب.

وفى كلامه نظر لا يخفى، فإنه جعل الغفلة والفترة والسهو عبارة عن اشتغاله بأمر أمته وأهله، ولا غفلة ولا فترة ولا سهو حقيقة، فكيف بناه على غير أساسه؟ وهذا عنده كالغفلة فيما قاله، فتأمله فإنه غريب، ومن هنا علمت سر دعاء الملائكة لبنى آدم بالمغفرة، وتفسير صلاتهم بها، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، وسر تذييل هذه الآية بما ذكر.

(فذهبت طائفة)، أى اختاروا مذهبًا ورأيًا، كقوله: وللناس فيما يعشقون مذاهب، **(من أرباب القلوب)**، أى أولياء الله الذين نور الله قلوبهم وطهرها، حتى صاروا من أرباب الكشف، **(ومشيخة)**، بفتح الميم وسكون الشين ويجوز كسرها، جمع شيخ، وهو الكبير سنًا، ثم شاع فيمن كبر قدره فى العلم والصلاح، **(المتصوفة)**، أى أرباب التصوف، وهو علم السلوك، وهو لفظ أطلق على هؤلاء بعد العصر الأول؛ لتقشفهم ولبسهم الصوف، أو لصفاء قلوبهم أو لمضاهاتهم لأهل الصفة، كما بيناه فى كتاب شفاء الغليل.

(ممن قال بتنزيه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن هذا)، أى ما ذكر من الغفلة وما بعده **(جملة)**، أى كله ومجموعه، **(وأجله)**، أى عظمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بتنزيهه

(١) أورده الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين (٤/١٥٩، ٧/٢٧٥).

عن مثله، **(عن أن يجوز)** بالبناء للمجهول بضم أوله وتشديد واوه المفتوحة، أى يراه جائزًا إطلاقه، **(عليه فى حال)** من أحواله **(سهوًا أو فترة)**، السهو الذهول عن شىء يتنبه له سريعًا، وقيل: إنه فى الشىء تركه من غير علم، وعن الشىء تركه مع علم، ومنه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥]، والفترة السكون بكسل ونحوه كما تقدم.

(إلى أن معنى) هذا **(الحديث)**، وإلى متعلقة بذهبت **(ما يهم)**، بضم أوله وكسر هائه، من أهمه إذا أقلقه وأحزنه، **(خاطره)** بالنصب مفعوله، أى قلبه وفكره، وجعل ذا هم مجاز، كقوله: **(ويغم فكره)**، أى يجعله ذا غم، والغم والهم والحزن، وقد يفرق بينهما، **(من أمر أمته)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لاهتمامه بهم وكثرة شفقته عليهم)** وحنوه ورحمته لهم، **(فيستغفر لهم)**، أى يدعو لهم بالمغفرة؛ لما صدر منهم، أو لما سيصدر، فالغين خواطره فيما يتعلق بهم، واستغفاره صلى الله تعالى عليه وسلم إنما هو لهم، فلا إشكال فى الحديث أصلاً.

(قالوا)، أى المشايخ المنزهون له، صلى الله تعالى عليه وسلم، عما ذكر: **(وقد يكون الغين هاهنا)**، أى فى هذا الحديث، **(هو السكينة)**، أى الوقار والتأنى والطمأنينة فى الأمور **(التى تتغشاه)**، أى تعرض له، **(لقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾)** [التوبة: ٤٠]، أى طمأنينته وحلمه ووقاره، وفى الضمير فى عليه قولان، أحدهما: على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، والثانى: على أبى بكر.

قال ابن العربى: قال علماؤنا: وهو الأقوى؛ لأنه خاف على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأنزل الله سكينته عليه بتأمين النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وسكن فسكن جأشه، وذهب روعه، وحصل الأمن، والسكينة لها معان، منها الوقار، والسكون، والرحمة، وقيل: إنها وردت بمعنى ذات لطيفة هوائية لها وجه كوجه الإنسان، أو على صورة هرة مع بنى إسرائيل إذا ظهرت انهزم عدوهم، ووردت بمعنى السحابة، كذا فى الشرح الجديد.

وقال الراغب فى قوله: ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤]: قيل: هى ملك يسكن قلب المؤمن فيؤمنه، ومنه أن السكينة تنطق على لسان عمر، وقيل: هو العقل، ويقال له: سكينة، إذا سكن عن الميل والشهوة، والسكينة زوال الرعب، وعليه قوله تعالى: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، وما ذكر من أنها شىءله رأس كرأس الهرة، لم يصح، **(ويكون استغفاره صلى الله تعالى عليه**

وسلم عندها على هذا إظهارًا للعبودية والافتقار) إلى ربه عز وجل، وهو ليس بذنب، بل خضوع وخشوع.

(وقال ابن عطاء)، تقدمت ترجمته، **(استغفاره وفعله هذا)**، أى الواقع فى هذا الحديث، **(تعريف للأمة)**، أى تعليم لهم، **(يحملهم على الاستغفار)**، أى طلب مغفرة ربهم. **(وقال غيره)**، أى غير ابن عطاء، **(ويستشعرون)**، أى يدركون ويعرفون من تعريف رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأصله طلب الشعور، فعبر به عما ذكر، **(الحذر)**، أى الاحتراز من المعاصى والخوف منه، كما قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وفى نسخة: الحصر، أى حبس أنفسهم على طاعة الله تعالى، والامتناع من الذنوب، **(ولا يركنون)**، أى لا يميلون ميلاً ما **(إلى الأمن)** من الوقوع فى المعاصى والذنوب منها، فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

(وقد يحتمل أن تكون هذه الإغانة)، فى قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنه ليغان على قلبى»، **(حالة خشية وإعظام)**، أى يخطر بباله عظمة الله تعالى والخشية منه، **(تغشى قلبه)** إن تعرض له حالة من تصور ذلك، **(فيستغفر حينئذ)**، أى حين ما غشيته هذه الحالة، **(شكرًا لله تعالى)** على نعمة جليلة، إذ عرفه عظمته وخشيته، وهو أعظم المعلومات، فهو نعمة لا يساويها غيرها، **(وملازمة لعبوديته)**، أى مداومته عليها، إذ مقتضاها عده نفسه مقصرة لا تفى بأداء خدمته، فلذلك يستغفره.

(كما قال، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى ملازمة العبادة)، كما ورد فى حديث أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أكثر من قيام الليل حتى تورمت قدماه، فقال له الصحابة: أتفعل هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: **(أفلا أكون عبدًا شكورًا)**، عطفه بالفاء على كلامهم بتقدير إذا أنعم الله تعالى علىّ بمغفرة ما تقدم وما تأخر، ففى مقابلة هذه النعمة اللائق منى الشكر وأعظمه الانقياد بالجنان والعمل بالأركان، ولا عمل له أفضل من الصلاة، وقد كمل شكره بلسانه لما قال هذا، فلذا قال: «عبدًا شكورًا»، فاعترف بعبوديته وهى من أعظم النعم عليه، وأتى بصيغة المبالغة وفاء السببية، وهو معطوف على كلامهم ويسمى عطف تلقين كما صرح به سيبويه وذكره فى الكشاف كما مر.

وهذا الحديث رواه البخارى وغيره، وفى رواية: «أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا»، فإن الشكر يديم النعم، أو معطوف على مقدر، أى أأترك التهجد فلا أكون... إلخ، وفيه حث لغيره، ودليل على أن الشكر كما يكون باللسان يكون بالأبدان، كما قال الله

تعالى: (﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾) [سبأ: ١٣]، لكن غيره إذا خشى الملال لا يأتى إلا بما يستطيعه كما ورد فى الحديث، فلا منافاة بينه وبين قوله: «عليكم من الأعمال ما تستطيعون، فإن الله لا يمل حتى تملوا»[(١)].

(وعلى هذه الوجوه الأخيرة)، قالوا: هى قوله، وقد يكون الغين إلى هنا، وقيل: من قوله: وذهبت طائفة من أرباب القلوب... إلخ، **(يحمل)**، أى يفسر **(ما ورد فى بعض طرق هذا الحديث)** من رواية البخارى، عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، **(عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنه ليغان على قلبى فى اليوم أكثر من سبعين مرة، فأستغفر الله»)** تعالى، فيفسر الغين بما مر، ويجعل الاستغفار له لما مر، أو لأمته تعليمًا لهم، والعدد للاستغفار لا للغين لبعده لفظًا ومعنى.

وقال الخيضرى فى خصائصه: قال السهرودى: لا تعتقد أن هذا الغين نقص، بل هو كمال متمم لكمال، ومثله بجفن العين يسبل لدفع القذى عن العين، فيمنع من الرؤية، فهو نقص بحسب الظاهر، وكمال فى الحقيقة، وهكذا بصيرة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، للأغبرة الثائرة من أنفاس الأغيار إلى ستر حدقة بصيرته صيانة ووقاية لها. وقول ابن الجوزى: هفوات الطبائع البشرية لا يخلو أحد منها، والأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وإن عصموا من الكبائر لم يعصموا من الصغائر، مبنى على خلاف المختار.

وقال ابن بطال: الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أشد الناس اجتهادًا فى العبادة، فهم دائبون فى شكره معترفون بالتقصير عما يجب له تعالى، ويحتمل أنه عد اشتغاله بالمباحات ذنبًا، كالأكل والشرب والجماع، وغيره من أمور الدنيا، والنظر فى أمر العباد وغيره مما يشغله عن ذكر الله تعالى ومراقبته، فعده ذنبًا بالنسبة لعالى مقامه يمنعه من اتصاله بحضرة القدس وكونه تعليمًا لأمته مخالف للسياق، وكذا ما قيل: إنه لاطلاعه على ما يحدث من أمته بعده.

وفى الإحياء: كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، دائمًا يترقى فى المقامات، فإذا انتقل من مقام إلى أعلى منه رآه نقصًا، فتاب منه واستغفر، وحسنات الأبرار سيئات المقربين كما قاله الجنيد، وتعقب هذا بأنه يدل على وقوع الاستغفار مفرقًا بحسب الأحوال، وظاهر الحديث يخالفه كما قال ابن حجر، وفيه نظر؛ لأنه ليس فى الحديث ما يدل على افتراق واجتماع. انتهى.

وسُئل العراقى عن هذا الحديث، فأجاب بما مر، ثم قال: والظاهر أن الجملة الثانية

---

(١) تقدم تخريجه.

مترتبة على الأولى، وأن سبب الاستغفار الغين، بدليل ما روى: «حتى أستغفر الله»، فاستغفر الله، ويحتمل أن الجمع بينهما من الراوى، فأخبر بحصول ذلك الغين مع كثر الاستغفار، فما ظنك بمن لم يكن كذلك، والجملة حال مقدرة.

وقال بعض المشايخ من الصوفية: الغين فى اصطلاح أرباب السلوك شهود الحق بشهود الأغيار، التى هى حجاب عن شهود الحق، وهو منزه عنه، فالمراد به اختلاف التجليات كالتجلى الصفاتى والذاتى. وقال الشاذلى: أشكل علىّ هذا الحديث، فرأيته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى المنام، فقال: «يا مبارك ذاك غين الأنوار لا غين الأخيار». وفى لطائف المنن لابن عطاء الله وحل الرموز للمقدسى: من ظنه غين غفلة وحجاب، فقد أخطأ، وإنما كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يستغرق فى أنوار التجليات، فيغيب فى ذلك الحضور ويسأله المغفرة، أى ستر هذه الحالة؛ لأنه من الغفر بمعنى الستر؛ لأن الخواص لو دام لهم تجلى ما يكاشفون به تلاشوا عن ظهور سلطان الحقيقة، وهذا الستر لهم رحمة وللعوام عقوبة؛ لأنه حجاب يستر عين بصائرهم، فإنهم مستورون عنه بغيره، والخواص مستورون به عما سواه، وهو عن دنو الذات المحرق للسواء، كما قال عمر بن الفارض، رحمه الله[1]:

ولولا احتجابى بالصفات لأحرقت مظاهر ذاتى من سناء سجيتى

هذا محصل ما قاله أهل الباطن والظاهر، وزبدة ما فى الحديث من الظواهر والسرائر، فاختر لنفسك ما يحلو.

ثم انتقل لشبهة أخرى ترد على الأصل الذى قرره، فقال: (**فإن قلت: معنى قوله تعالى لمحمد، صلى الله تعالى عليه وسلم:** ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ﴾) [الأنعام: ٣٥]، أى جعل الناس كلهم مجتمعين متفقين، ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ بهدايتهم للعقائد الحقة واتباع الشريعة اللازمة، فلا يضل أحد منهم عن الطريق المستقيم، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، أو الآية، (**فإن استطعت أن تبتغى نفقًا فى الأرض، أو سلمًا فى السماء فتأتيهم بآية**)، وهو شفقة عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما رأى من حرصه على إيمان الناس، فنهيه عن الجهل بقدرة الله لما شاء يوهم أنه لم يحظ بذلك، وهو منزه عنه، ودفعه بما سيأتى.

(و) كذلك (**قوله تعالى لنوح، عليه الصلاة والسلام:** ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾) [هود: ٤٦]، حين ناداه وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى

(١) البيت من الطويل، وهو فى ديوان ابن الفارض (ص٧٩).

﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: ٤٥]، يعنى ما وعده به من نجاة أهله؛ لما قال الله تعالى له: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [هود: ٤٠]، وابنه من أهله، فسأله عن سبب عدم نجائه، فأنكر عليه سؤاله ونسبه لما لا يليق بالأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، من الجهل، وإلى دفع وجه السؤال والشبهة إشارة بقوله: **(فاعلم)**، أمر لكل من يمكن توجه الخطاب إليه، وسد مسد مفعوله قوله: **(إنه لا يلتفت)**، بالبناء للمجهول، أى لا يتوجه التفات أحد ونظره **(فى ذلك)**، أى فى خطابه تعالى لهما بما ذكر **(إلى قول من قال)** من المفسرين **(فى آية نبينا)**، أى فى الآية الأولى التى نزلت فى حقه **(صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وقوله فيها: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وأن معناها **(لا تكونن ممن يجهل أن الله لو شاء لجمعهم على الهدى)**، بإسناد الجهل بمشيئة الله إليه.

(و) لا تلتفت أيضًا لقول من قال **(فى آية نوح، عليه الصلاة والسلام: لا تكونن ممن يجهل أن وعد الله حق؛ لقوله:** ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾)، فإنك لا تخلف الميعاد، وعلل عدم الالتفات لهذا القول بقوله: **(إذ فيه)**، أى فى هذا القول وتفسير الآيتين بما ذكر **(إثبات الجهل بصفة من صفات الله تعالى)**، وهى قدرته وعلمه، **(وذلك لا يجوز على الأنبياء)**، صلوات الله وسلامه عليهم لمعرفتهم بالله تعالى وصفاته، **(والمقصود)**، أى المعنى المراد من هاتين الآيتين **(وعظهم)**، أى إرشادهم وتنبيههم على **(أن لا يتشبهوا فى أمورهم)** حين الدعوة للخلق **(بسمات الجاهلين)**، أى لا يتصفوا بصفاتهم من عدم الصبر والحرص على سرعة حصول المراد مما هو شأن الجهلة.

(كما قال: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ﴾) [هود: ٤٦] ، فهو دليل على أنه إرشاد له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن لا يتسم بما ليس من شأنه، ولا يتخلق بما يضاهى أخلاق الجهلة، لا أنه جاهل بذلك، **(وليس فى آية منها)**، أى من الآيات المذكورة، **(دليل على كونهم على تلك الصفة)**، أى صفة الجهل بصفة من صفات الله، فإنهم أعلم الناس بها **(التى نهاهم عن الكون عليها)**، أى الاتصاف بذلك والنهى عن الكون أبلغ من النهى عن الاتصاف بها كما قرره ابن جنى فى كتاب المحتسب، **(فكيف)** يكونون وهم أعلم الخلق، على صفة نهوا عن الكون عليها؟ والاستفهام لاستبعاد ذلك.

(وآية نوح)، عليه الصلاة والسلام، المذكور فيها قصته، وهى قوله: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ﴾ إلخ، **(قبلها:** ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٦]، فهى مؤذنة بأن المراد نهيه عن التشبيه بالجهلة؛ لنهيه عن السؤال عما لا يحتاج إليه، **(فحمل ما بعدها على ما قبلها أولى)** من الجرى على ظاهرها، ونسبة ما لا يليق بهم إليهم.

(لأن مثل هذا) السؤال عما ليس له به علم من حال ابنه، **(قد يحتاج إلى إذن)** من الله، فلا يقدم عليه بدونه، **(وقد تجوز إباحة السؤال فيه ابتداء)** منه من غير إذن، فيختلف باختلاف الأحوال والمقامات، **(فنهاه الله عن أن يسأله عما طوى عنه)**، أى أخفى عنه **(علمه)** به، فشبه الأمر المخفى عنه بثوب مطوى ملفوف لا يظهر باطنه وما فى داخله، **(وأكنه)**، أى ستر، كقوله: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥]، أى حجاب يمنع الإدراك **(من غيبه)**، أى من الأمر المغيب عنه، وفى نسخة: فى غيبه، **(من السبب الموجب لهلاك ابنه)** بإغراقه وعدم إدخاله فى سفينته بيان لما انطوى عنه وأكنه؛ لأنه لم يكن على دينه؛ لأنه كان يبطن الكفر، ونوح، عليه الصلاة والسلام، لم يعلمه.

(ثم أكمل الله نعمه عليه)، جمع نعمة، وفى نسخة بالإفراد **(بإعلامه ذلك)**، أى ما سأل عنه، وإنما جعله من كمال النعمة؛ لأنه علم ما لم يعلم، وبين له ما نهى عن السؤال عنه، **(بقوله)** عز وجل له: ﴿إِنَّهُۥ﴾، أى ابنه، ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾؛ لانقطاع الولاية بكفره وخروجه عن دينه، ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، تعليل لنفى كونه منه ومعدودًا من أهله.

(حكاه)، أى هذا التفسير حكاه عن السلف، **(مكى)**، تقدمت ترجمته، **(كذلك)**، أى مثل قصة نوح، عليه الصلاة والسلام، فى أنها مخالفة للظاهر محتاجة للتأويل بأنها تشبيه بمن امتطى مطية الجهل، **(أمر)**، فعل مبنى للمفعول، **(نبينا)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى الآية الأخرى)**، السابقة وهى ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٥] إلخ، **(بالتزام الصبر)**، متعلق بأمر، والمراد بالأمر ما يلزم النهى، وأمره، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالصبر مذكور صريحًا فى آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] **(على إعراض قومه)** عن دينه وعنه، **(ولا يحرج)** من الحرج، وهو ضيق الصدر والقلق، **(عند ذلك)**، أى عند إعراضهم عنه، **(فيقارب)** حاله **(حال الجاهل بشدة التحسر)**، أى التأسف والندم على عدم إطاعة قومه له، **(حكاه)**، أى ما ذكر من التفسير، **(أبو بكر بن فورك)**، تقدمت ترجمته والكلام على اسمه فى منع الصرف وعدمه.

(وقيل: معنى الخطاب) فى قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] **(لأمة محمد)** لا له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فهو تعريض كما تقدم تحقيقه، **(أى فلا تكونوا من الجاهلين)**، أى ممن اتصف بصفاتهم وانخرط فى سلكهم، **(حكاه أبو محمد مكى)** أيضًا، **(وقال)** مكى **(مثله فى القرآن كثير)**، فيخاطب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، والمراد أمته، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]، **(فبهذا الفصل)** الذى قرره فى حق الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، من تأويل ما يوهم نسبتهم مما لا يليق

بعلى مقامهم، **(وجب)**، وفى نسخة: أوجب، **(القول بعصمة الأنبياء)**، عليهم الصلاة والسلام، **(منه)**؛ لشرفهم وكمال علمهم ورجحان عقولهم، وتبرئة الله لهم عن النقائص **(بعد النبوة قطعًا)**؛ لقيام الأدلة عليه.

والحاصل أن معنى الآية الأولى، أنه تعالى لما رأى اشتداد حرصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، على إيمانهم وشق عليه، حتى كاد يهلك نفسه، لم يرض تهالكه، فقال له: إن كان عظم ذلك عليك، فإن أمكنك أن تغوص فى الأرض لتطلع منها آية لهم، أو تنصب سلمًا تصعد به إلى السماء لتأتيهم بآية منها حتى يؤمنوا، أى أنت لا تستطيع هذا، فما فائدة هذا الحرص؟ ولو أراد الله هدى جميع الخلق، فلا تحرص على ما لم يرده، وقيل: كانوا يقترحون عليه آيات يود لو أجيبوا لها؛ حرصًا على إيمانهم، فقيل له: إن استطعت أن تفعل هذا لتأتيهم بما اقترحوه فافعل ليؤمنوا، وقيل: ابتغاء النفق والسلم هو الآية نفسها، فهذا ثلاثة أوجه:

الأول: بيان لشدة حرصه، عليه الصلاة والسلام، وأنه لو قدر على المحال فعله.

والثانى: بيان لحرصه على تثبيت مطلوبهم ومقترحهم.

والثالث: حرصه على جعل الصعود والهبوط آية لهم حتى يؤمنوا به.

وترك القاضى الأخيرين؛ لأن عادة الله أن من أجيب لما اقترح، عجل هلاكه، وهو مناف لحرصه على إيمانهم، ولأن المتبادر من الآية النفق والسلم غير الآية مع ما فيه من النزعة الاعتزالية، وقصة نوح وهلاك ابنه كنعان، بعدما سأل الله نجاته، فقيل له: إنه سبق القول بهلاكه لكفره، والكلام فيه مفصل فى التفاسير، فلا نطيل بذكره.

ثم أورد سؤالاً آخر على ما قرره من الشك فى شىء مما يتعلق بالعقائد والدين، فقال: **(فإن قلت: فإذا قررت عصمتهم من هذا)**، أى حفظ الله لهم عما ذكر، **(وأنه لا يجوز عليهم شىء من ذلك)**، ولا يصح اعتقاده فيهم، **(فما معنى إذن)**، وقعت فى جواب سؤال مقدر فاصلة بين المضاف والمضاف إليه، ملغاة لعدم شروط عملها، **(وعيد الله تعالى لنبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى تخويفه بتقدير صدور شىء من ذلك منه وتهديده، **(على ذلك إن فعله)** ونحوه مما يقتضى جواز مثله عليه، **(وتحذيره منه، كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾** [الزمر: ٦٥] **الآية)**، حبوط العمل بطلانه بالكلية بحيث لا يثاب عليه ولا يبقى له عمل، من حبطت الدابة، إذا وجدت مرعى طيبًا فأكلت منه أكلاً كثيرًا، حتى انتفخت بطنها فماتت، فالإتيان بالشروط وإسناد الشرك له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بحسب الظاهر يدل على جواز مثله عليه وعلى غيره من الأنبياء، مع أنهم منزهون عنه.

وإطلاق الإحباط فى هذه الآية إما لأنه مخصوص؛ لأن ذنب العظيم عظيم، أو هو مقيد بموته على ذلك كما يعلم من قوله: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧]، والجواب علم مما تقدم، واللام الأولى توطئة لقسم مقدر، والثانية فى جوابه، (**وقوله:**) بالجر، أى وما معنى قوله تعالى: (﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦] **الآية**)، أى فإن فعلت فإنك إذًا من الظالمين، ونهيه عن أن يدعو غير ربه، أى يعبده؛ لأن الدعاء هنا بمعنى العبادة يقتضى صدوره منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتأويله يعلم مما مر.

(**وقوله تعالى:** (﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ [الإسراء: ٧٥] **الآية**)، أى وضعف الممات، أى يضاعف له عذاب الدنيا والآخرة، (**وقوله تعالى**)، ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: ٤٤]، أى لو افترى علينا، ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٥]، جواب لو، وعطف عليه قوله: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٦]، والكلام على الآيتين وسبب نزولهما مبين فى التفاسير، والذى يهمنا هنا ما قصده المصنف، رحمه الله تعالى، بإيرادهما هنا، (**وقوله:** ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾) [الأنعام: ١١٦]، والمراد بهم الكفرة الجهلة، وإطاعتهم بموافقة ما هم عليه، ومثله لا يجوز عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فكيف أسند إليه فيها؟ وقد مر جوابه.

(**وقوله تعالى:** ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾) [الشورى: ٢٤]، وهذا بناء على الظاهر من أن المراد يمنعه من قبول الحق، كما فى قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، لا على تفسير مجاهد بأنه إن يشأ يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا تلقي مشقة، (**وقوله تعالى:** ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾) [المائدة: ٦٧] ما أمرت، ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]، أى فكأنك لم تبلغ شيئًا منها لتقصيرك، فهذا يقتضى جواز تقصيره ظاهرًا فى تبليغ جميع ما أوحى إليه، فأمره بأن يبلغه جميعًا ولا يخشى مكروهًا من أحد، فإن الله عصمه وصانه وجعله فى حصن حمايته، وكان عمر، رضى الله تعالى عنه، أول من أظهر ذلك، وقال: لا نعبد الله سرًا.

(**وقوله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾)، ولا تخف من أحد، ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، فيما يؤدى إلى تفريط فى شىء من أمر الدين، روى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما هاجر إلى المدينة، كان يحب إسلام اليهود، وقد تبعه ناس على نفاق منهم، فكان يلين جانبه لهم، ويتجاوز عن قبائحهم، فنزلت هذه الآية فيهم، وقيل فى سبب نزولها غير ذلك، كما ذكره الواحدى وغيره.

ثم شرع فى الجواب عما ذكر فى هذه، فقال: **(فاعلم وفقنا الله وإياك)** للوقوف على معانى كلامه، فإنه لا يكون إلا بتوفيق منه تعالى، **(أنه، عليه الصلاة والسلام، لا يصح)** عقلاً ولا شرعًا، **(ولا يجوز عليه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أن لا يبلغ شيئًا)** مما أمره الله بتبليغه كما يوهمه ظاهر قوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]، **(ولا أن يخالف أمر ربه)**، كما يوهمه له: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾، **(ولا أن يشرك به، ولا أن يتقول على الله)**، أى يكذب عليه ويفترى كما مر فى قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ [الحاقة: ٤٤] الآية، **(ما لا يحب)**، بالحاء المهملة، أى ما يرده و لم يأذن له فيه، **(أو يفترى عليه)**، أى يكذب عليه، وهو بمعنى يتقوله، وأعاده لأنه صريح فى المراد.

وقد يفرق بينهما بأن يراد بالتقول تكلفه فيما يقوله بزيادة أو مبالغة فيه، وهو مناسب لعطفه بأو، **(أو يضل)** عن الصواب والطريق المستقيم بإطاعة غير الله تعالى، فهو إشارة إلى قوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾ [الأنعام: ١١٦] إلخ، **(أو يختم الله على قلبه)**، ويطبع عليه ما يمنعه عن قبول الحق، **(أو يطيع الكافرين)** والمنافقين فى أمر تهواه أنفسهم، وهو إشارة إلى قوله: (﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾) [الأحزاب: ١]، فإن الأمة أجمعوا على عصمة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قبل النبوة وبعدها عن الكفر غير الخوارج، حيث جوزوا عليهم بعض الذنوب، وهى كفر عندهم.

ولبعض الشيعة القائلين بجواز إظهار الكفر تقية، ولا يعتد بأقوالهم الواهية، فلذا كان المراد بقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ [الزمر: ٦٥] تهييج الرسل وإقناط الكفرة على طريق الفرض، أى إذا كان هؤلاء يحبط عملهم به، فكيف حال غيرهم؟ وكذا قيل فى نفى الافتراء والتقول عنهم، وقس عليه ما بعده.

(لكن يسر الله أمره)، أى حاله صلى الله تعالى عليه وسلم أو ما أمره به، **(بالمكاشفة)**، متعلق بيسر أو بأمر أو بهما على التنازع، **(والبيان)** عطف تفسير؛ لأن المراد بالمكاشفة كشفه له وتبيينه، أو المراد بالأول ما يكشفه بالإلهام، وبالثانى ما يوحى به إليه، **(فى البلاغ)** متعلق بأمره، وقيل: بالمكاشفة، **(للمخالفين)**، متعلق بالبلاغ، أى من خالفه فيما بلغه لهم عن ربه، ويجوز فى قوله بالمكاشفة والبيان أن يراد به المبارزة والإظهار للبلاغ من غير مبالاة بأحد، فهو متعلق بأمره، فإذا لم يبارزهم به، فكأنه لم يفعل، **(وأن إبلاغه)**، بفتح همزة أن، وهو معمول لمقدر، أى وأعلمه أن تبليغه لما أمر به، **(إن لم يكن بهذه السبيل)**، أى على هذه الحالة والطريقة من تبليغ جميعه وإظهاره والصدع به، **(فكأنه ما بلغ)** أصلاً؛ لأنه كالعدم كمن ترك ركنًا من أركان الصلاة لا يعتد بصلاته، وأنث اسم الإشارة؛ لأن السبيل تذكر وتؤنث، **(وطيب نفسه)**، طيب النفس جعلها مسرورة

غير مكدرة ولا خائفة من شيء، (**وقوى قلبه**)، أى كان قويًا متحققًا؛ لأنه لا يصيبه مكروه، ويقابله ضعفه وهو خوفه مما يتوهمه، (**بقوله**: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾) [المائدة: ٦٧]، أى يحميك ويصونك عنهم، حتى لا يقدر أحد على شيء يضرك.

وهذه الآية إن كانت نزلت بعد أُحُد، فهى على عمومها، وكان قبل نزولها له صلى الله تعالى عليه وسلم حرس يحرسونه، فلما نزلت ترك ذلك، وإن كانت نزلت قبلها، فالمراد عصمته من القتل، فلا ينافى ما أصابه بأُحُد من جراحته وكسر ثنيته؛ لحكمة تطييبًا لقلوب المؤمنين وتكثيرًا للثواب، فمن ظن من تلاقى الحروب أن لا يصاب، فقد ظن عجزًا، (**كما قال الله**) عز وجل (**لموسى وهارون**)، عليهما الصلاة والسلام، حين أرسلهما إلى فرعون وقومه الجبابرة، (﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾) [طه: ٤٦]، أى حافظًا وناصرًا لكما على هؤلاء مع عتوهم وتجبرهم، فبلغا أوامرى وأصدعا بالحق، (**لتشتد**)، أى تقوى وتزيد شدة، (**بصائرهم**)، أى موسى وهارون ومحمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيكونوا على بصيرة ويقين فى أمورهم، (**فى الإبلاغ**)، أى تبليغ ما أرسلوا به لهم، (**وإظهار دين الله**) من غير خوف، (**ويذهب عنهم**)، بالبناء للمجهول والنصب معطوفًا على تشد (**خوف العدو**)، لوعده تعالى بحفظهم ونصرهم عليهم، (**المضعف للنفس**)، صفة خوف اسم فاعل، بتخفيف العين وتشديدها، أى المؤدى لضعف نفس من خاف، فهو بنون وفاء وسين مهملة، وروى لليقين بيائين تحتيتين وقاف بينهما ونون، والأول أولى رواية ودراية؛ لأن يقين الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، بربهم قوى أبدًا، وإن جاز ضعف أنفسهم بمقتضى البشرية.

ويؤيده بل يعينه قوله: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧]، والخوف من المضمرات أمر طبع عليه البشر، مع أنهم على يقين من أن الله هو الضار النافع، وهو لا ينافى التسليم والتوكل، ألا تراهم خندقوا فى الأحزاب وهاجروا من عدوهم ودخلوا الغار وهو بحسب المقامات، فلا يرد عليه أن بعض الأولياء لا يفر من الأسد، (**وأما قوله تعالى**: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: ٤٤] **الآية**)، تقدم أنه ليس فيه شين له، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**وقوله**: ﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ [الإسراء: ٧٥]، **فمعناه أن هذا**) العذاب المضاعف فى الدنيا والآخرة، (**جزاء من فعل هذا**) التقول والافتراء على الله، (**وجزاؤك لو كنت ممن يفعله**)، فإذا هدد به من لا يصدر عنه، فما بالك بغيره!.

(**وكذلك**)، أى مثل ما ذكر فى الآيتين، (**قوله**: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾) [الأنعام: ١١٦]، الخطاب له، صلى الله تعالى عليه وسلم،

ظاهرًا، (**والمراد غيره**)، بطريق التعريض، قرعًا للعصاة، وإيقاظًا لهم، وتحريكًا لغفلتهم؛ لارتفاع قدره، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن ارتكاب مثله، (**كما**) صرح تعالى بالمراد، إذ (**قال**) مخاطبًا لهم صريحًا: (﴿**إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ **الآية**)، يعنى قوله: ﴿**يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٩]، فإن الخطاب للمنافقين، إذ قالوا للمؤمنين بأُحُد لما أرجف بقتله، صلى الله تعالى عليه وسلم: ارجعوا لإخوانكم وادخلوا فى دينهم، فلو كان محمد نبيًا ما قتل.

(و) كذلك (**قوله**: ﴿**فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ**﴾) [الشورى: ٢٤]، خوطب والمراد غيره، (و) كذلك قوله تعالى: ﴿**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**﴾ [الزمر: ٦٥] كما تقدم بيانه، (**وما أشبهه**) مما خوطب به، (**فالمراد**) به (**غيره**) تعريضًا وإيقاظًا، (**وأن هذه**) الحال المذكورة من الإحباط ونحوه، (**حال من أشرك**) بالله، لا حاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يجوز عليه هذا**)، فلابد من تأويله بما مر.

(و) أما (**قوله**) تعالى: ﴿**اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ**﴾ [الأحزاب: ١]، فى رأيهم بما تقدم، (**فليس فيه أنه أطاعهم**)، وإنما نزلت لما بايعه بعض اليهود على نفاق منهم، فكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يداريهم رجاء أن يحسن إسلامهم، وليس فى الآية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم فعل ما نهى عنه، ولما استشعر سؤالاً، وهو أن يقال حيث كان الأمر كما ذكر: فلم نهى عنه؟ أجاب عنه بقوله: (**والله سبحانه**) يعامل نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بما لا يجوز أن يعامل به غيره، ولا يُسئل عما يفعل، فله أن (**ينهاه عما يشاء**)، وإن لم يتصور صدوره منه، (**ويأمره بما يشاء**)، وإن لم يتصور مخالفته له، كقوله: ﴿**اتَّقِ اللَّهَ**﴾، و(**كما قال تعالى**) له: ﴿**وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم**﴾ [الأنعام: ٥٢]، أى يعبدونه.

وقوله: (**الآية**) إشارة لقوله: ﴿**بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأنعام: ٥٢]، (**وما كان**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**طردهم**) عن مجلسه، (**ولا كان من الظالمين**)، أى ممن ظلمهم بطردهم وهم أحقاء بتقريبه لهم وإكرامهم، وأن لا يطيع فيهم من يبتغى خلافه إرضاء له، وكان المشركون قالوا: لا نرضى بمجالسة مثل هؤلاء، يعنون سلمان، وصهيبًا، وبلالاً، وحسان، فاطردهم عنك، وطلبوا أن يكتب لهم بذلك، فقاموا وجلسوا ناحية، فنزلت الآية، فنهاه عما قالوه كما فى مسلم، وإنما هم بذلك رجاء لإسلامهم، مع أن ذلك لا يضر أصحابه؛ لعلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأحوالهم ورضاهم بما يرضاه كما فسره المفسرون.

(فصل) [فى عصمة الأنبياء قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك فى شىء من ذلك]

(وأما عصمتهم) أى حفظ الله أنبيائه، عليهم السلام، **(من هذا الفن)**، أى اعتقاد ما لا يليق فى التوحيد والعلم بالله وصفاته، وبما أوحى إليه من أمور الدين كما تقدم، **(قبل النبوة)**، أى قبل أن ينبئهم الله، ويأتيهم الوحى من الله، والنبوة والرسالة، والفرق بينهما مشهور، وليس هذا محل تفصيله، **(فللناس)** من علماء الأصول والسلف **(فيه خلاف)** جرى بينهم، مذكور فى كتبهم، **(والصواب)**، أى القول الموافق للواقع والأدلة التى على خلافه خطأ من قائله، **(أنهم معصومون)**، أى محفوظون مصونون، **(قبل النبوة من الجهل بـ)** معرفة ذات **(الله تعالى)** بوجوه ما، أو بحقيته، **(وصفاته)**، فلا يجهلون شيئًا منها، **(و)** معصمون أيضًا من **(التشكيك فى شىء من ذلك)**، وفى نسخة: أو التشكيك، بالعطف بأو الفاصلة، أى لا يقع فى نفسهم شك فى ذات الله تعالى، ولا فى صفة من صفاته؛ لأن فطرتهم جبلت على التوحيد والإيمان.

وأما قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، والمراد به الإيمان بما لا يعرف إلا بالوحى، كوجوب الصلاة ونحوه من فروع الشريعة، وقوله: من الجهل، بيان لما قصد من العصمة، فلا وجه لما قيل: إنه أطلق فيما منه العصمة، وكان عليه أن يعينه، وهذا أظهر من الشمس، لا يخفى على ذى بصيرة، وقد تقرر أن العصمة عند المتكلمين أن لا يخلق الله فى النبى ذنبًا، وعند الحكماء ملكة تمنع من الفجور حاصلة من العلم بالقبائح والمحاسن، فإنه الزاجر عن المعاصى والداعى للطاعة، ويتأكد فى الأنبياء بالوحى الإلهى، وقيل: العصمة خاصة فى النفس أو البدن، بسببها يمتنع عن صدور الذنب، ويأباه أنه لو كان كذا، ما استحق المدح والثواب؛ لأنها ليست داخلة تحت الاختيار، وهم مكلفون بالاتفاق.

وفى التحرير لابن الهمام: العصمة عدم القدرة على المعصية، أو خلق مانع منها غير ملجىء، وهو مناسب لقول الماتريدى: العصمة لا تزيل المحنة، أى الابتلاء المقتضى لبقاء الاختيار، ومعناه كما فى الهداية أنها لا تجبره على الطاعة، ولا تعجزه عن المعصية، بل هى لطف من الله تعالى يحمله على فعله ويزجره عن الشر مع بقاء الاختيار تحقيقًا للابتلاء.

واعلم أن العلامة القرافى قال فى التقييد شرح الأربعين الرازية: العصمة لغة الامتناع، ومنه العصم لبعض الوحش؛ لبعده عن مظان الأذى وامتناعه، واستعصم الرجل امتنع،

ومنه عصمة الزوجية، وحملة الشرع يطلقون العصمة على معنيين، **أحدهما**: عدم المعصية فى الجملة، ومنه قولهم فى الدعاء: نسألك من العصمة تمامها. **والثانى**: عصمة الأنبياء والملائكة عن الكفر دون سائر البشر، مع أن الله أثنى على الخلق بدوام الإيمان، فلابد من تفسير عصمة الأنبياء بغير عدم الكفر، ومنع الله منه حتى يصح قولنا: ليس أحد منا معصومًا، وإن كنا غير كافرين مساوين للأنبياء فى ذلك، فتميزهم إنما هو بإعلام الله تعالى لنا أنه صانهم فى قضائه وقدره عن الكفر، وقدر لهم السعادة الأبدية حتمًا مقضيًا، فهذا الإعلام الربانى هو عصمة الأنبياء والملائكة ومجموع الأمة دون كل واحد منهم. انتهى.

(**وقد تعاضدت**)، أى تقوت، وهو مأخوذ من العضد، وهو ما بين المرفق إلى الكتف، ولكون عمل الإنسان واعتماده بذلك، قيل: عضدته، بمعنى قويته، كما أشار إليه الإمام الراغب: (**الأخبار والآثار**)، هما بمعنى، وقد يفرق بينهما كما تقدم، أى قوى كل منهما الآخر، حتى حصلت القوة التامة، والمراد بها ما اشتهر من أحوالهم وصفاتهم المأثورة المعروفة عند كل أحد، (**عن الأنبياء**) كلهم والمرسلين بأسرهم، وليس المراد أنه نقل عنهم، بل عرف منهم وفى حقهم، فمن قدر هنا وعن غيرهم لم يصب، (**بتنزيههم**)، أى تبرئتهم (**عن هذه النقيصة**)، بصاد مهملة، أى الصفة المنقصة لمن اتصف بها، (**منذ ولدوا**)، أى من ابتداء زمن ولادتهم إلى آخر عمرهم، والكلام على مذ ومنذ معروف فى كتب النحو.

(**ونشأتهم**) بالجر، معطوف على تنزيههم، والنشأة ابتداء خلقهم لا زمن شبابهم كما توهم، (**على التوحيد**)، وهو عدم الشرك بالله تعالى، (**والإيمان**) بالله وبكل ما يجب الإيمان به، (**بل**) للانتقال على سبيل الترقى، (**على إشراق أنوار المعارف**)، جمع معرفة، والمراد معرفة الله تعالى وصفاته وكل ما يتعلق به، وإشراقها سطوع أنوارها منهم وشدة ظهورها فى أحوالهم وأقوالهم.

(**ونفحات ألطاف السعادة**)، والنفحة الرائحة الطيبة التى تفوح، والسعادة أى كونهم سعداء الدارين، فشبه ما يلوح منهم من أماراتها برائحة طيب يعبق منهم، فيعطر الكون، وفى الحديث: «إن لله فى أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها»، (**كما نبهنا عليه فى الباب الثانى من القسم الأول من كتابنا هذا**)، فمن أراده ينظره ثمة، (**ولم ينقل أحد من أهل الأخبار**) عن أحد غيره (**أن أحدًا نبىء**)، بالبناء للمجهول وهمز آخره، أى صيره الله نبيًا، (**واصطفى**)، أى اصطفاه الله واختاره لذلك، وهو مجهول أيضًا، (**ممن عرف بكفر وإشراك**)، وهو من عطف الخاص على العام، (**قبل ذلك**)، أى قبل نبوته واصطفائه.

(ومستند)، اسم مفعول، أى ما يستند إليه ويعلم بـه **(هـذا البـاب)**، أى بـاب معرفـة أحوال الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(النقل)** عن أهل الأخبار والآثار، ويؤيده العقـل الدال على أنه تعالى لا يختار من خلقه لنبوته إلا من كان كذلـك، فليس المـراد الحصـر، ولذا عقبه بما يدل على أن العقل موافق للنقل.

فقال: **(وقد استدل بعضهم)** عليه **(بـ)**دليل عقلى، وهو **(أن القلوب)** والعقول السليمة **(تنفر)**، أى تكره فكأنها تفر، **(عمن كانت هذه)**، أى صفة الكفر والشرك **(سـبيله)**، أى طريقه، والمراد عادته ودأبه، قيل: إن فيه إشارة إلى أن منهم من خالف فى ذلـك، فجـوز عدم عصمتهم عن الكفر قبل النبوة، إلا أنه ليس بصواب، وقـد نقـل عـن البـاقلانى أنـه جوزه عقلاً، وإن لم يقع أن الله بعث كافرًا ولا فاسقًا، وفى المواقف اجتمعت الأمة على عصمتهم عن الكفر قبل النبوة وبعدها كما تقدم.

(وأنا أقول) ناقلاً لما يؤيد ذلك: **(أن قريشًا قد رمت نبينا، صلى الله تعالى عليه وسـلم، بكل ما افترته)** عليه، وأصل الرمى فى الأعيان كرمـى السـهم والحجـر، واستعير للشتم والقذف والرجم، والمراد أنها ذمته ونسبته لكل نقيصة مثل قولهم: إنه ساحر، أو مجنون، أو شاعر، أى لم تترك شيئًا من مفترياتها التى وسعتها قوتهم حتى افترته عليـه، **(وعـير)**، بفتح العين المهملة وتشديد الياء المثناة التحتية وراء مهملة.

(كفار الأمم أنبياءها)، وفى نسخة: أنبيائهم، أى نسـبوهم للعـار، وهـو الأمـر الـذى يستقبح وينفر منه. وقال الراغب: عيرته ذممته من العار، وقولهم: تعاير بنـو فـلان، قيـل: معناه تذاكروا العار، وقيل: تعاطوا العيارة، أى فعل العير فى الانفـلات والتخليـة، ومنـه عارت الدابة. انتهى. فالمعنى عيروهم.

(بكـل مـا أمكنـها)، وفـى نسـخة: أمكنـهم، أى تيسـر لهـم، وجـاز صـدوره منـهم، **(واختلقته)**، وكذبت عليهم بوصفهم بما ليس فيهم، وأصل اختلاق الشيء اختراعـه مـن غير سبق لمثله، فيعم كل كذب، **(بما نص الله عليه)**، أى ذكـره فـى كتابـه الكريـم وفـى غيره من الكتب الإلهية من تكذيبهم ورميهم بأنواع البهتان، **(أو نقلته إلينا الرواة)**، نقـلاً مستفيضًا، بحيث لا يمكن إنكاره.

(ولم نجد فى شيء من ذلك)، أى من الكتب الإلهية والأخبار المروية، أو المراد ما نقلته الرواة؛ لقوله: **(تعييرًا لواحد منهم)**، أى من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أى نسبتهم لعار بذمهم ووصفهم، **(برفضه)**، أى تركه **(بعد اتباعه)** آلهته، إن كان هذا الضمير راجعًا لمن عير المعلوم من السياق، فالأمر واضح لا لواحد؛ لأنـه مـن الأنبيـاء وليـس لهـم آلهـة،

اللهم إلا أن يكون على طريق الفرض، فحينئذ يصح تفسير ذلك بالكتب الإلهية والأخبار، فاعرفه.

(وتقريعه)، أى توبيخه وتعييره **(بذمه)**، أى ذم أحد من الأنبياء، **(بترك ما كان)** النبى صلى الله تعالى عليه وسلم **(قد جامعهم)**، أى وافقهم واجتمع معهم **(عليه)**، أى على عبادته كما فعلوا، ولو كان هذا، **(لكانوا)**، أى كفار الأمم، **(بذلك)**، أى تعييره وتوبيخه برجوعه من عبادة آلهتهم التى كان موافقًا لهم على عبادتها، **(مبادرين)**، بدال وراء مهملتين، أى مسارعين لذكره مقدمين له على جميع ما افتروه، **(وبتلونه)**، بالباء الجارة ومثناة فوقية ولام مفتوحتين، وواو مكسورة مشددة، ونون، وضمير مضاف إليه، مصدر تلون تلونًا، إذا تغير وتنقل من حال إلى حال آخر، تفعل من اللون، كالبياض والصفرة، تجوز به عن الأحوال، كما عبر به عن الأجناس والأنواع.

قال الراغب: يقال: فلان أتى بألوان من الأحاديث، وتناول ألوانًا من الطعام، **(فى معبوده)**، أى ما يعبده متعلق بتلونه المتعلق بقوله: **(محتجين)**، أى مقيمين الحجة والدليل، فيقولون: أنت لا تستقر على دين، تارة تعبد هذا، وتارة تعبد ذاك، فما صرفك عن معبودك الأول ومعبود قومك، **(ولكان توبيخهم له)**، أى توبيخ كفار كل أمة لنبيهم، **(بنهيهم)**، مصدر مضاف للمفعول، أى نهى النبى لأمته، **(عما كان يعبد قبل)**، أى قبل نبوته.

(أفظع) بفاء وظاء معجمة، أى أشد فظاعة، وهى الشناعة والقباحة، **(وأقطع)** بقاف وطاء مهملة، أى أقوى وأشد قطعًا، **(فى الحجة)**، أى الدليل الذى استدلوا به عليه، **(من توبيخه)**، هو المفضل عليه فيهما على التنازع أو التجاذب، **(بنهيهم عن تركهم آلهتهم)**، إن قيل: الظاهر عن آلهتهم وترك تركهم، أو عن تركه، قيل: ضمير نهيهم للكفار، وضمير تركهم للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(وما كان يعبد آباؤهم من قبل)**، أى قبل أنبياءهم.

(ففى إطباقهم)، أى اتفاق كفار الأمم وإجماعهم، يقال: أطبق القوم على كذا، إذا اتفقوا، **(على الإعراض عنه)**، أى عن التوبيخ بما ذكر، وهو أقوى وأظهر فى احتجاجهم على رسلهم، **(دليل على أنهم لم يجدوا سبيلاً)** وطريقًا موصلاً **(إليه)** فى نص أو خبر وأثر، **(إذ لو كان)** لهم سبيل إليه، **(لنقل)**، بالبناء للمجهول، أى نقل الرواة لهم ذلك، ونقل لنا من بعدهم احتجاجهم به، ولم ينقله أحد.

(و) لو نقلهم ذلك، **(ما سكتوا عنه)**، بل بادروا إليه قبل كل شىء، **(كما لم يسكتوا)**

عن الكفار، **(عن)**، وفى نسخة: عند، **(تحويل القبلة)** عن بيت المقدس إلى الكعبة، فإنهم وبخوا به وشنعوا حين سفههم الله، فقال: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: ١٤٢] الآية، **(وقالوا: ما وليهم)**، أى صرفهم ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢] فى أول أمرهم، **(كما حكاه الله عنهم)** فى القرآن، والكلام عليه مفصل مشهور فى كتب التفسير والحديث.

(وقد استدل القاضى القشيرى)، هذا هو الإمام عبد الرحيم ابن الإمام عبد الكريم ابن هوازن، الأستاذ أبو نصر ابن الأستاذ أبى القاسم القشيرى، صاحب الرسالة المجمع على جلالته وعلمه وزهده وإمامته، تخرج على إمام الحرمين، توفى سنة أربع عشرة وخمسمائة بنيسابور، وله عدة أولاد، كما فصله البرهان الحلبى، وقال: إنه لم يل هو ولا أحد من أولاده القضاء، فقول المصنف، رحمه الله تعالى، له: القاضى، لا أصل له، وما قيل: أنه شخص آخر غير هؤلاء، احتمال واه لنقله عن شخص غير معلوم موهم لغير مراده.

(على تنزيههم عن هذا)، أى عن الكفر والإشراك بالله قبل النبوة، لا عن نقيصة الجهل بالله وصفاته، والشك فى شىء؛ لعدم مناسبته لما بعده، وإن كان منزهًا عن ذلك أيضًا، **(بقوله تعالى:** ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ﴾ [الأحزاب: ٧] **الآية)**، تقدم أن الميثاق العهد، وهو مأخوذ من الوثاق، وهو حبل يشد به الأسير، استعير للعهد كما استعير له الحبل، كما ورد فى الحديث: «بيننا وبينهم حبال»، وتمام الآية: ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، وخص هؤلاء بالذكر؛ لشرفهم، وقدم نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، لشرفه وفضله على جميع الأنبياء، والميثاق الذى أخذ عليهم هو تبليغ الرسالة ودعوة الخلق إلى دين الإسلام، وأن يصدق بعضهم بعضًا ويبشر به، وكان هذا حين كتب وقدر كل ما هو كائن.

وقال مجاهد: إنه كان فى عالم الذر، ووجه الاستدلال على أحد الوجهين أنه إذا عهد إليهم قبل ظهورهم بتبليغ دينه وتوحيده، فكيف يصدر عنهم ما يخالفه قبل النبوة وبعدها، وهو معنى قوله، عليه السلام: **(كل مولود يولد على الفطرة)** الحديث، **(وبقوله تعالى:** ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ **إلى قوله)** ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١]، فعهد إليهم أنفسهم أو إلى أولادهم، فهو على تقدير مضاف، واكتفى بذكر أنبيائهم أو سماهم أنبياء تهكمًا لقولهم: نحن أحق بالنبوة من محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد قدمنا الكلام على هذه الآية، وأن للسبكى فيها تأليف مستقل، لخصناه فيما مر.

(قال) القشيري: **(فطهره الله)**، أي برأه ونزهه عما لا يليق بعلي قدره، **(في الميثاق)**، أي حين أخذ الميثاق عليهم في عالم الأزل، **(وبعيد)** غاية البعد عند العقول السليمة، **(أن يأخذ)** الله **(منه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(الميثاق)** والعهد الوثيق المحكم بالإيمان وأمور الدين كله، وكذا إخوانه من الأنبياء المرسلين، **(قبل خلقه)**، وظهوره في عالم الأرواح والذر وآدم بين الماء والطين، **(ثم يأخذ ميثاق النبيين)** بما عهد إليهم **(بالإيمان به)**، أي محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ونصره)** على أعدائه إن أدرك زمانه، فيتبعه ويكون من أمته، **(قبل مولده)**، أي زمان ولادته، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بدهور)**، جمع دهر، وهو الزمان الطويل، كما قيل[1]:

إن دهرًا يلف شملي بسعدى لزمان يهم بالإحسان

(ويجوز) بتشديد الواو، ويجوز تخفيفها أيضًا، من الجواز أو التجويز، وهو منصوب معطوف على يأخذ، أي وأن يجوز إلى آخره، ويجوز رفعه بتقدير، وهو يجوز **(عليه الشرك أو غيره من الذنوب)**، والضمائر عائدة عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا يجوز عليه ولا على غيره من الأنبياء الشرك ولا غيره من الذنوب بعد أخذ الميثاق عليهم قبل خلقهم بالإيمان وإقامة شرعه القويم.

(هذا)، أي تجويز الشرك والذنوب بعد اصطفائهم وأخذ الميثاق عليهم، **(ما)**، أي أمر وشيء، **(لا يجوزه)** عليه وعليهم **(إلا)** شخص **(ملحد)** فاسق العقيدة عادل عن طريق الحق ونهج الصواب، يقال: لحد، إذا حفر حفرة مائلة عن الوسط، كلحد القبر، ثم عم لكل ميل، يقال: لحد وألحد، وشاع في الميل عن الحق وصار حقيقة فيه، **(هذا)** المذكور **(معنى كلامه)**، أي كلام القشيري، واستدلاله على ما ذكر.

قال: **(وكيف يكون ذلك)**، وفي نسخة: وكيف ذلك، وفي أخرى: فكيف، وهو اسم استفهام عن الكيفية والهيئة التي وقع عليها الأمر تجوز به عن التعجب الإنكاري، فهو إنكار لتجويز ما ذكر عليه بإنكار حالته التي يكون عليها؛ لأن كل امرئ لا ينفك عن حالة وصفة يكون عليها، فإذا أنكرت حالته لزم إنكار وجوده كناية على وجه برهاني أقوى من إنكاره ابتداء، كما قرروه في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]، وذلك إشارة لتجويز ما ذكر.

(وقد أتاه جبريل)، عليهما الصلاة والسلام، كما تقدم عن أنس، وفي رواية مسلم،

---

(١) البيت من الخفيف، وهو لحسان بن ثابت في أساس البلاغة (لفف)، ولم أقف عليه في ديوانه، وبلا نسبة في لسان العرب (٤/٢٩٣)، تهذيب اللغة (٦/١٩٢)، ديوان الأدب (١/١٠٧).

(وشق قلبه صغيرًا)، أى فى حال صغره وهو عند مرضعته حليمة كما تقدم تفصيله، **(واستخرج منه علقة)**، أى قطعة صغيرة من دم متجمد يشبه العلقة المعروفة، **(وقال)** جبريل، عليه الصلاة والسلام: **(هذا)** المستخرج **(حظ الشيطان منك)**، أى نصيبه فى وسوسته لبنى آدم الذى يسره من غيرك لقبوله ما يلقيه له، فبإخراجه لم يبق له عليه سبيل كغيره من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ**﴾ [الحجر: ٤٢]، وجعلها نفس الحظ مبالغة تقدم فيه كلام نفيس.

(ثم غسله) بماء زمزم والكوثر كما تقدم، أى قلبه الشريف، **(وملأه حكمة وإيمانًا)**، تمثيل لاستقرارهما فيه، أو أنه تعالى جسم ذلك بقدرته، وقد تقدم الكلام عليه مفصلاً فى قصة الإسراء، **(كما تظاهرت)**، أى اشتهرت وقويت، من قولهم: ظاهره إذا أعانه **(به)**، أى بشق صدره الشريف، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد وقع مرارًا كما تقدم، **(أخبار المبدأ)**، أى الأحاديث الصحيحة الواردة فى ابتداء أمره ونبوته، فهو مصدر ميمى أو اسم زمان أو مكان، والأول أظهر.

(ولا يشبه عليك)، بضم أوله وفتح ثانيه الموحدة المشددة مبنى للمجهول، أى لا يشبه عليك ويوقعك فى شبهة، وليس كقوله تعالى: ﴿**وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ**﴾ [النساء: ١٥٧]، وهذه شبهة شرع فى دفعها لإيهامها فى حق الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ما يخالف ما قدمه فى تنزيههم عن الشك فى معرفة الله وصفاته، **(بقول إبراهيم)**، أى بسبب قول الخليل، عليه الصلاة والسلام، لما جن عليه الليل **(فى الكواكب)**، إذ رآه طالعًا، **(والقمر)** إذ رآه بازغًا، **(والشمس هذا ربى)**، هذا أكبر الآية، أى لا تقع فى شبهة مما وقع لإبراهيم، عليه الصلاة والسلام، فى إطلاقه على هذه الكواكب ربًا، وهو من كبار أولى العزم.

وذلك إشارة إلى ما روى، وهو أنه، عليه الصلاة والسلام، لما كان فى السرب، قال لأمه: من ربى؟ قالت: أنا، قال: فمن ربك؟ قالت: أبوك، قال: فمن رب أبى؟ قالت: اسكت، فقالت لأبيه: الغلام الذى تحدثوا بأنه يغير دين أهل الأرض هو ابنك، وأخبرته بما قال، ثم أتاه أبوه، فقال له مثل ذلك، فلطمه، ثم قال لأبويه: أخرجانى من السرب، فأخرجاه، فنظر إبلاً وغيرها سارحة، فقال: لابد لهذه من خالق يطعمها ويسقيها، وتفكر فى خلق السموات والأرض، فقال: إن الذى خلقنى ورزقنى هو ربى لا إله سواه، ثم نظر إلى كوكب طلع، وهو المشترى أو الزهرة مطالعة، فقال: هذا ربى... إلى آخر ما قصه الله تعالى عنه، وهذا ما ذكره أهل الأخبار.

وإلى جواب هذه الشبهة أشار المصنف، رحمه الله تعالى، بقوله: **(فإنه قد قيل: كان هذا فى سن الطفولية)**، هو مصدر طفل إذا كان طفلاً، أى ولدًا صغيرًا، كما تقدم، لكن الذى ذكره الراغب وغيره ممن يعتمد عليه من أهل اللغة؛ لأنه يقال: طفل طفولة وطفالة، فإذا كانت الطفولية مصدر لا يحتاج لياء النسبة التى تصير بها الجوامد مصادر، فإن مثله سماعى كالخصوصية، كما فصله المرزوقى وغيره من أئمة اللغة، إلا أن المصنف، رحمه الله تعالى، ثقة، فلعله وقف عليه، **(وابتداء النظر والاستدلال)** على وحدانية الله تعالى ووجوده؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣].

(وقبل لزوم التكليف) فى ابتداء تمييزه من غير ثبات على ما قاله، بل أراد الاستدلال على وجود صانع قديم لا يجرى عليه تغير، إلا أنه جواب ضعيف؛ لاقتضائه صدور شك منه فى صغره، ومثله لا يليق بمثله، عليه الصلاة والسلام، وكونه تنبيهًا لأبويه وقومه على خطائهم فى عبادة غير الله جواب آخر، فإدخاله فى الكلام هنا غير مناسب لمنافاته لقوله: وابتداء النظر... إلى آخره.

(وذهب معظم الحذاق)، جمع حاذق، وهو من له ذكاء وفهم، ومعظم بمعنى أكثر، **(من العلماء والمفسرين)**، إشارة إلى ضعف ما قبله، وإن قائله لا يعتد به، **(إلى أنه)**، عليه الصلاة والسلام، **(إنما قال ذلك)**، أى هذا ربى... إلى آخره، **(تبكيتًا)**، وفى نسخة: مبكتًا ويناسبها المعطوف الآتى، **(لقومه)**؛ لأنهم كانوا يعبدون الكواكب والتبكيت بالمثناة الفوقية والموحدة وكاف ومثناة تحتية ساكنة وآخره مثناة فوقية، وهو اللوم والتقريع، يقال: بكته، إذا عنفه واستقبله بمكروه أو غلبه بحجة، وكله صحيح هنا.

وفى الكشاف: إنه قول من ينصف خصمه مع علمه أنه مبطل، وهو جواب آخر قريب مما ذكر، **(ومستدلاً عليهم)**، لإلزام الحجة؛ لأن الظهور والاحتجاب تغير يؤذن بالحدوث مناف للألوهية، فأراد إرشادهم إلى النظر بإرخاء العنان، حتى ينقادوا للحق من غير عناد، **(وقيل: معناه)**، أى معنى قوله: هذا ربى، هذا أكبر **(الاستفهام)** الإنكارى بتقدير الهمزة كما بينه بقوله: **(الوارد مورد الإنكار)**، الذى صدر منه مصدر الإنكار، لا على طريق الشك ولا الاعتقاد، ولا بعد فيه، وإن كان الأصل عدم التقرير، **(والمراد: فهذا ربى)**، أى يليق بمثله أن يكون ربًا معبود.

(وقال الزجاج: قوله: هذا ربى، أى على قولكم)، وفى نسخة: قولهم، أى حكاية لقول الخصم حتى يكر عليه بالإبطال، كما تقدم فى كلام الكشاف، **(كما قال)** الله

تعالى فى آية أخرى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ [النحل: ٢٧]، فأضافهم إلى نفسه لما سألهم تهكمًا منه، (**أى عندكم**)، أى كونهم شركاء على زعمهم وادعائهم كما فى هذه الآية، فسماهم الله شركاء باعتبار اعتقادهم الفاسد، وقومه إن كانوا يعبدون الكواكب فظاهر، وإن كانوا يعبدون الأصنام، فإبطال ألوهية الأجرام العلوية النيرة يقتضى إبطال غيره بالطريق الأولى.

وفى شرح المواقف هذا الكلام صدر عن الخليل، عليه الصلاة والسلام، قبل تمام النظر فى معرفة الله، وكم بينه وبين نبوته، إذ لا يتصور نبوة إلا بعد تمام ذلك النظر، فلا إشكال، أو يختار أنه لم يعتقده، فيكون كذبًا صادرًا قبل البعثة، أو هو على سبيل الفرض إرشادًا لقومه كما فى برهان الخلف، أى الكواكب لو كانت أربابًا كما يزعمون، لزم أن يكون الرب متغيرًا، وذلك باطل وفيه ما فيه.

(**ويدل على أنه**)، أى الخليل، عليه الصلاة والسلام، (**لم يعبد شيئًا من ذلك**)، أى من جنس الكواكب والأوثان، (**ولا أشرك قط**)؛ لاستغراق الأزمنة، (**بالله**) عز وجل (**طرفة عين**)، أى فى أقل الأزمنة، وطرفة العين مقدار تحريك جفنها من أعلى لأسفل، ويكنى به عن غاية القلة، وطرفة مصدر منصوب على الظرفية الزمانية، ومثله كثير.

(**قول الله**) فيما حكاه (**عنه**، ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾) آزر، ﴿وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٧٠]، سائلاً لهم، مضيفًا العبادة لهم، (﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾) [الشعراء: ٧١] الآية، (**ثم قال**) إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، لهم: (﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾) [الشعراء: ٧٥ - ٧٧]، يريد أنهم أعداء لعابديهم؛ لتضررهم بعبادتهم فوق ضررًا عدى أعدائهم، وهو الشيطان، فضرر الأمر فى نفسه تعريضًا لهم، فإنه أنفع فى النصح من التعريض، وإشعارًا بأنها نصيحة بدأ فيها؛ ليكون أدعى إلى القبول، كما قاله البيضاوى. وقوله: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، استثناء منقطع، والقول بأن هذا لا يتم؛ لاحتمال أنه بعد النبوة، لا وجه له، وفى المقام كلام يضيق عنه البيان هنا، فحسبك ما فيه شفاء الصدور.

(**وقال**: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤]، **أى من الشرك**)، فسلامته منه دليلاً على أنه لم يعرض له أصلاً، (**وقوله**: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾) [إبراهيم: ٣٥]، أى باعد بينهم وبين عبادتها، فهذا يدل على أنه هو وذريته لم يصدر منهم شىء من ذلك، (**فإن قلت: فما معنى قوله**)، أى قول إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، بعد أفول القمر، ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام:

٧٧]، فإنه ربما يتوهم منه أنه في شبهة ما **(قيل)** في الجواب **(أنه)** أراد به الاستيقان بربه، وقد استعجز نفسه وعلم أنه إنما يهتدي بتوفيق الله تعالى له، فقال لقومه: **(إن لم يؤيدني)**، أي يقويني **(بمعونته أكن مثلكم)**، أيها القوم **(في ضلالتكم وعبادتكم)**، لغير الله تعالى، وإنما قال هذا وهو مهتد بلا شك، **(على معنى الإشفاق)** على قومه ترحمًا لهم، **(والحذر)**، أي الخوف من الله والاحتراز عما هم فيه، **(وإلا)**، أي وإن يحمل ما ذكره على هذا، لم يكن لذكره هنا فائدة، **(فهو معصوم في الأزل)**، قديمًا في قضاء الله له بالسعادة وتطهير فطرته، **(من الضلال)**، وهذا السؤال وارد على ما قرره عصمة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، عن الريب والشبهة، وبعض الشراح هنا حاطب ليل تركناه ما كثر به سواده.

(فإن قلت: فما معنى قوله) تعالى في سورة إبراهيم، عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣]، فالعود يقتضي منهم أنهم كانوا على دينهم وكفرهم، وهم معصومون من ذلك قبل البعثة وبعدها كما تقدم، فالآية يشكل ظاهرها عليهم.

(ثم قال) الله عز وجل **(بعد)**، بالبناء على الضم، أي بعد قول الذين كفروا ما ذكر، وقيل: بعد قول: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ الآية وسيأتي ما فيه.

(عن الرسل)، أي حاكيًا عنهم، وما تقدم كان محكيًا عن قومهم لا عنهم، والثاني أظهر في الإشكال؛ لأن قومهم قد يظنون أنهم قبل البعثة كانوا على دينهم، وأما الرسل فعلى يقين من خلافه، فكيف يصح منهم أن يفتروا؟ ويرد على التقدير الثاني، أن قوله تعالى: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، ليس بعد هذه الآية، فإن الأولى في سورة الأعراف، وهذه في سورة إبراهيم، وكونها بعدها في النزول يحتاج إلى نقل.

وقيل: إنها بعدها في الجملة؛ لأن القصة واحدة، وهي قصة شعيب، وليس المراد بالرسل جميعهم، بل الجنس الصادق على الواحد، وقد وقع جوابًا للكفرة، فهو أقوى في الشبهة، فإنهم لا يقولون على أنفسهم ما لم يتصفوا به؛ لأنهم منزهون عن الكذب، ومعنى ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ﴾ التعجب، أي ما أكذبنا على الله، ومعنى ﴿نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾، عصمنا عن الميل إليها، فضلاً عن الدخول فيها، وجواب الشرط مقدر يدل عليه ما قبله، وهو ماض لفظًا مستقبل، معنى لدخول حرف الشرط عليه تقديرًا، وقد مقربة له للحال.

إذا عرفت هذا، **(فلا تشكل عليك لفظة العود)**، بمعنى الرجوع إلى الكفر المقتضية

لاتصافهم به أولا وهم معصومون منه قبل البعثة وبعدها كما قرره أولاً، فتشكل هى، **(وأنها تقتضى)**، أى تستلزم بحسب الدلالة **(أنهم)**، أى الرسل، **(إنما يعودن)**، أى يرجعون **(إلى ما كانوا فيه**، أى داخلين فيه ومتصفين به **(من ملتهم)**، يعنى الكفر؛ لأن الملة تطلق عليه كالدين، **(فقد تأتى هذه اللفظة)**، أى لفظة العود وردت كثيرًا، **(فى كلام العرب)** الفصحاء **(لغير ما ليس له)**، أى لما لم تثبت له **(ابتداء)**، أى قبل حاله التى هو عليها مما ينافيها، **(بمعنى الصيرورة)**، وهو وجود الشىء بعد أن لم يكن، تقول: صار لفلان كذا، وصار غنيًا بعد فقره. وفى المحصول: إن ما صار إليه شرع نسخ، وقيل: الصائر لذلك أمتهم، فادخلوا فيه بطريق التغليب، أو هو باعتبار ظنهم وزعمهم، أو على حد قولهم ضيق فم الركية يجعل المتوهم كالمتحقق، وفيه كلام فى شرح المفتاح وحواشيه.

(كما جاء فى حديث الجهنميين)، أى الحديث الذى فى حق أهل جهنم، المروى فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله تعالى عنه، **(عادوا حممًا)**، بضم أوله، وفتح ثانيه، بزنة صرد، أى سودًا كالفحم، جمع حمة، وأوله: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يقول الله تعالى: من كان فى قلبه حبة خردل من إيمان، فأخرجوه، فيخرجون قد امتحشوا وعادوا حممًا، فيلقون فى نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل»[1]، وعاد هنا بمعنى صار، **(ولم يكونوا)**، أى الجهنميون، **(قبل ذلك كذلك)**، أى حممًا.

(ومثله)، أى مثل الحديث فى أن عاد بمعنى صار وحدث، وإن لم يكن موجودًا قبل، **(قول الشاعر)**، هو أمية بن أبى الصلت، من قصيدة مدح بها سيف بن ذى يزن ملك اليمن لما ظفر بالحبشة، وقد غلبوا على ملكهم، فغزاهم ونفاهم عن بلاده، وذلك بعد مولد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بسنتين، فأتته وفود العرب تهنيه وفيهم قريش وعبد المطلب، فأنشده أمية بن أبى الصلت:

لا يطلب الثأر إلا كابن ذى يزن ... يتمم البحت للأعداء جوالا
أتى هرقلا وقد شالت نعامته ... فلم يجد عنده للنصر تسئالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد تاسعة ... من السنين يهين النفس والمالا
حتى أتى ببنى الأحرار يقدمهم ... تخالهم فوق متن الأرض أجبالا

إلى أن قال فيها:

فاشرب هنيئًا عليك التاج مرتفعا ... فى رأس غمدان دارا منك محلالا

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٣/٥٦).

قد ليط بالمسك إذ شالت نعامتهم واسبل اليوم من برديك إسبالا
تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وعارضها بعضهم بقصيدة، منها فى مدح الصوفية، فقال:

لله تحت قباب العز طائفة أخفاهم فى ثياب الفقر إجلالا
هم السلاطين فى أثواب مسكنة استعبدوا من ملوك الأرض إقيالا
غبر ملابسهم شم معاطسهم جروا على فلك العلياء أذيالا
هذى المناقب لا ثوبان من عدن خيطا قميصا فعادا بعد أثمالا
هذى المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

والقصيدة الأولى بتمامها فى ديوانه، وفى كثير من كتب الأدب والتاريخ والسير بأسانيد صحيحة، ولها قصة مشهورة، وفيها البشارة ببعثة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما فصله، وليس الشعر المذكور منها كما توهمه من لا خبرة له بالأدب وأساليب كلام العرب، وليس كما قيل لأبى الصلت ولا للأعشى ولا للنابغة ولا لعمر بن عبد العزيز، وإنما تمثل، رضى الله تعالى عنه، بهذا البيت، فتوهم الحافظ الحلبى أنه له، وهذا مثل فى الفخر بمعالى الأمور وعدم التنزل لسفسافها وشيبا بمعنى خلطا ومزجا، والقعب إناء معروف يقول: إنك فى معال وقصور رفيعة، متلذذًا بالخمور أم الشرور تجود بالأموال لست كعرب البادية الذين جودهم سقى ضيفانهم لبنًا بماء مزج به يعود فى يومه بولاً مراقًا وجودك بمكارم وأموال تبقى عند من أنعمت عليه، فشتان بينك وبين غيرك، فعاد هنا بمعنى صار؛ لأنه لا يتصور أنها كانت بولاً قبل ذلك، وإليه أشار بقوله: **(وما كان)** ما ذكر **(قبل ذلك كذلك)**، أى بولاً، وهو ظاهر، وإنما أطلنا فيه لما فى الشرح هنا من الخلط.

ثم أورد سؤالاً آخر على ما قرره من عصمة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فقال: **(فإن قلت: فما معنى قوله تعالى:** ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ **)** [الضحى: ٧]، الخطاب له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأصله: فهداك، فحذف المفعول رعاية للفاصلة، فإنه يقتضى نسبته، صلى الله تعالى عليه وسلم، للضلال قبل البعثة، والضلال شرعًا إما بالكفر أو بارتكاب المعاصى، وهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، منزه عنهما، وجوابه قوله: **(فليس هو من الضلال الذى هو الكفر)**، فإنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، معصوم من المعاصى قبل النبوة وبعدها، فضلاً عن الكفر، فإذا كان كذلك، **(قيل:)** معناه هنا **(ووجدك ضالاً عن النبوة، فهداك إليها)**؛ لأن الضلال معناه لغة العدول عن الطريق المستقيم وضده

الهداية، فكل عدول ضلال، سواء كان عمدًا أم لا، فمعناه غير مهتد لما سبق لك من النبوة، كقوله: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]، كما يأتى، **(قاله)**، أى التفسير المذكور، محمد بن جرير **(الطبرى)**، وقد قدمنا ترجمته.

(وقيل:) فى معناه وتأويله **(ووجدك بين أهل الضلال فعصمك)**، عن أن تنظم فى سلكهم وتعد منهم، فصانك **(من ذلك)**، أى من الضلال وموافقة أهله فيه، **(وهداك للإيمان بالله)** ومعرفته، إذ جعله فطرة لك، ثم أودع ما يرشدك له بعقلك السليم، أى أرشدك له بالوحى، **(وإلى إرشادهم)**، أى إرشاد من لم يكن مهتديًا للحق، أفعال من الرشد ضد الغى، وهو قريب من الهداية كما قاله الراغب، وله معان أخر.

(إليه)، أى الإيمان وسلوك الطريق المستقيم بتبليغ ما أوحى إليه، **(ونحوه)**، أى قريب منه ومشابه له ونحوه، نقل **(عن السدى)**، رحمه الله، وتقدمت ترجمته، **(و)** نقل ذلك أيضًا عن **(غير واحد)**، أى عن ناس كثيرين من أهل التفسير، فعلى هذا الضلال بمعناه المشهور، وليس متصفًا، ولكنه لكونه بين أهله أطلق عليه مجازًا بعلاقة المجاورة، وليس من قبيل قولهم: بنو فلان قتلوا قتيلاً كما لا يخفى، ولم يبين وجهه الشراح هنا.

(وقيل:) معناه المراد **(ضالاً عن شريعتك)** التى أوحيها الله سبحانه وتعالى إليك، **(أى لا تعرفها)** قبل أن أوحى إليك، فالضلال بمعنى الغفلة، وقد ورد بهذا المعنى، كقوله: (﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾) [البقرة: ٢٨٢]، كما قيل له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعدما أوحى إليه، فلا تكن من الغافلين، ويأتى أيضًا أنه بمعنى النسيان، واستدل له بهذه الآية، ومثله قبل البلاغ ليس بنقص، كذا قيل، **(فهداك إليها)** ودلك إلى ما لا تعرفه وأنت طالب له، فعلمك ما لم تكن تعلم، وقوله: **(والضلال هاهنا)**، أى فى هذه الآية على هذا القول، **(التحير)**، أى الوقوع فى الحيرة حتى لا يدرى أين يذهب وما يفعل:

حيـــرة تمـــت فـــأى فتـــى رام عرفـــــا فلـــــم يحـــــر

لا يناسبه، فإنه ليس للغافل والناسى حيرة، فالظاهر تفسيره بعدم المعرفة، كما صرح به، ومن لم يعرف شيئًا وطلبه تحير فتدبر، **(ولهذا كان صلى الله تعالى عليه وسلم)** قبل نزول الوحى عليه **(يخلو)**، أى يختلى ويعتزل الناس، **(بغار حراء)**، بالصرف وعدمه، اسمه جبل بمكة كما تقدم، **(فى طلبه ما يتوجه به إلى ربه)**، أى بسبب تصفية باطنه وإعمال فكره فى وسيلة توصله إلى الله، **(ويتشرع به)**، أى يتخذه شريعة وعبادة تقربه لربه، وفى نسخة: يشرع بلا تاء، بضم أوله وبكسر ثالثه وشينه معجمة، وقيل: إنه بسين مهملة من

الإسراع فى أصل المصنف، رحمه الله تعالى، وقيل: الرواية الصحيحة فى الأصول الأول، وهو الأظهر، و لم يزل، صلى الله تعالى عليه وسلم، يفعل ذلك، **(حتى هداه الله)** ودله دلالة موصولة **(إلى الإسلام)** والدين الحق، بما جاءه عن الله كما تبين فى بدء الوحى.

(قال)، أى حكى كما فى نسخة **(معناه)** الإمام **(القشيرى)** التى تقدمت ترجمته: يعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان موحدًا فى أول أمره طالبًا لإتمام النعمة عليه بهدايته لما يرضيه ويكمله، فمن عليه بذلك، **(وقيل:)** معنى ضالاً **(لا تعرف الحق)**، أى الدين الحق؛ لأنه لا يعرف إلا بالوحى، **(فهداك إليه)** بما أوحاه له، **(وهذا)** فى المعنى **(مثل قوله)** عز وجل: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] من الشرع وأحكامه، أو من خفيات وأسرار الله تعالى التى لم تقف عليها، ومعنى ﴿مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾، ما لم يكن فى قوتك وقدرتك علمه، ولذا عدل عما لم تعلم، وهو أظهر، وأما كونه لغوًا؛ لأن كل أحد إنما يعلم ما لم يعلم، إذ تعليم ما يعلم تحصيل للحاصل، وكذا قال السبكى فى عروس الأفراح وغيره.

أن قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، بتقدير ما لم يكن يعلم، فليس بشىء؛ لأنه للامتنان أو بتأويل ما لم يكن من مقامك علمه والوقوف عليه، ومر لهذا تتمة عن بعض حواشى المطول **(قاله على بن عيسى)** الإمام فى العربية والكلام، شارح الكتاب المعروف بالرمانى، وقد تقدمت ترجمته.

(قال ابن عباس)، رضى الله تعالى عنهما، فى تفسير هذه الآية: **(لم تكن له)**، أى من شأنه وصفته، **(ضلالة معصية)**، أى ليس الضال هنا بمعنى مرتكب المعاصى؛ لعصمة الله تعالى له، فالضلال مأول ومفسر بما مر، **(وقيل)** معنى **(هدى)** هنا، **(أى بين أمرك)** للناس **(بالبراهين)** والأدلة القاطعة لعرق الشبه فيك وفيما جئت به، حتى صرت لا تخفى على أحد، والبرهان الدليل اليقينى، ومن تفسيره الهداية علم معنى ضالاً، وإنه وجدك خفيًا وكنزًا مخفيًا لم يعرفه الناس و لم يطلعوا على شأنه وعلو قدره، فأظهره الله تعالى، حتى ذاع وشاع وملأ الأفكار والأسماع، فتقدير مفعوله على هذا هدى الناس كلهم، وهدى العقول.

(وقيل:) معناه **(وجدك ضالاً بين مكة والمدينة، فهداك إلى المدينة)**، بأن جعلها دار هجرتك ومثواك، فالمراد أنه بعد البعثة ودعوة الناس لدينه مع ما كان عليه قومه فى القيام عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأذيته وهجرة بعض المسلمين للحبشة، كان فى حيرة مترددًا فى الإقامة بمكة والهجرة للمدينة، يرجو أن يؤذن له فى الهجرة إليها، حتى

أذن الله تعالى له فى ذلك، كما فصل فى السير، **(وقيل: المعنى وجدك)** قائمًا بأعباء الرسالة وتبليغها، وهو عالم بذلك قبل وقوعه، ولكن هو تمثيل وتنويه بأمره ومحبة الله تعالى له، فكأنه أمر مطلوب لعظم عثر عليه، كما يقال: العلم ضالة المؤمن، **(فهدى بك ضالاً)**، بإرشادك له، فضالاً مفعول لهدى، قدم عليه لرعاية الفاصلة، وليس صفة له، حتى بتوجه السؤال، وهو وجه متكلف عهدته على قائله لا ناقله.

(وعن جعفر بن محمد)، هو جعفر الصادق الذى تقدم، ومحمد هو الباقر زين العابدين، فقال جعفر: معناه **(ووجدك ضالاً عن محبتى لك)**، أى لم يظهر لك، أى أنى اتخذتك حبيبًا لى مقربًا عندى **(فى الأزل)**، أى فى القدم قبل خلقك، **(أى لا تعرفها)**، هو معنى ضالاً، **(فمننت عليك بمعرفتى)**، أى أنعمت وتفضلت؛ لأنى أحبك، وهو تفسير لقوله: ﴿**فَهَدَىٰ**﴾ [البقرة: ٢١٣]، فعلى هذا لا يتوهم فيه نقص؛ لأن معناها ليس أحد أكرم علىّ منك. قال فى المجمل: الأزل القدم، وأصله أنهم قالوا للقديم: لم يزل، ثم نسبوا له باختصار، فقالوا: يزل، ثم أبدلوا الياء همزة، فهو من النحت عنده. وقال غيره: هو من الأزل، وهو الضيق لضيق القلوب عن تقديره، وهى كلمة محدثة.

(وقرأ الحسن بن على) بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنهما: **(ووجدك ضال)**، بالرفع، والضلالة صفة لغيره على هذه القراءة الشاذة، فلا يرد السؤال، ﴿**فَهَدَىٰ**﴾، فهو على هذا لازم، **(أى اهتدى بك)** لسعادة الدارين، أو المعنى فهداه الله بك، وجوز أيضًا على القراءة المشهورة أن يكون فاعل وجد ضمير الواجد المفهوم منه، وضالاً حال من هذا الضمير، وهو بعيد.

(وقال ابن عطاء) فى تفسير الآية: (﴿**وَوَجَدَكَ ضَآلًّا**﴾ [الضحى: ٧]، **أى محبًا لمعرفتى)**، فهداك بأنوار هدايته وعنايته، ولما كان هذا خلاف المشهور فى اللغة، بينه بقوله: **(والضال)** ورد بمعنى **(المحب، كما قال)** الله **(تعالى:** ﴿**إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ**﴾**)** [يوسف: ٩٥]، هو من كلام أخوة يوسف، عليه الصلاة والسلام، لأبيهم، حكاه الله تعالى عنهم، **(أى)** فأرادوا أنك على **(محبتك القديمة)** ليوسف، عليه الصلاة والسلام، لا تنساه، وهذا منقول عن قتادة وسفيان. وقيل: أرادوا بضلاله خطأه، وقيل: جنونه من حب يوسف، عليه الصلاة والسلام، كما قاله الحسن.

(ولم يريدوا)، أى لم يقصدوا أولاد يعقوب، عليه الصلاة والسلام، **(هاهنا)**، أى فيما حكى عنهم فى هذه الآية ضلاله **(فى الدين)** بأن يعتقدوا خطأه فى دينه باعتقاد ما يخالفه أو إصراره على ما ينافيه، **(إذ لو قالوا ذلك)** معتقدين مثله **(فى نبى الله)** الذى

عصمه الله عن الخطأ فى دينه علمًا وعملاً، **(لكفروا)** فى اختراعهم على نبى الله ونسبته لما لا يليق به وتحقيره، ومثله كفر فى الشرع، فلذا فسر الضلال بالمحبة، **(ومثله)**، أى مثل كون الضلال بمعنى المحبة فى هذه الآية: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]، هو فى حق زليخا وقد شغفها حب يوسف، عليه الصلاة والسلام، **(أى)** فإن المناسب للمقام أنه بمعنى **(محبة بينة)**، أى ظاهرة مكشوفة لافتضاحها **(عند هذا)**، أى ابن عطاء الذى فسر الضلال بالمحبة، فوضع اسم الإشارة موضع الضمير لتميزه أكمل تميز، وفى بعض النسخ: ومثله عند هذا... إلخ.

(وقال الجنيد:)، رحمه الله تعالى، فى تأويل هذه الآية، وهو أبو القاسم بن محمد الزاهد، العابد، شيخ وقته، ووحيد عصره، وأصله من نهاوندو، نشأ بالعراق، وتفقه بأخذه عن الثورى، رحمه الله تعالى، وسفيان، وأخذ الطريق عن السرى السقطى، والمحاسبى، توفى سنة سبع وتسعين ومائتين، وهو من فقهاء الشافعية كما فى طبقات السبكى، ودفن بالشونيزية عند خاله السرى ببغداد.

(وجدك متحيرًا فى بيان ما أنزل إليك) من القرآن، تفسيرًا لقوله: ﴿ضَآلًّا﴾، **(فهداك لبيانه)** بإظهاره وبيان ما خفى من معانيه فى حال تبليغه لأمته، **(لقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾** [النحل: ٤٤] **الآية)**، المراد بالذكر القرآن، لما ذكر من التذكير والموعظة لتبين للناس ما نزل إليهم مما خفى عليهم، فالضلال التحير فيما شق عليه فى ابتداء أمره، ومثله لا ضير فيه.

(وقيل:) معناه ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ [الضحى: ٧]، بمعنى أنك فى خفاء حالك بين الناس، كمن ضل فتاه وفارق قومه، حتى خفى أمره عليهم، فهو استعارة وعبارة عن أنك **(لم يعرفك أحد)** من الناس، ولم يعرف اتصافك **(بالنبوة حتى أظهرك الله، فهدى بك السعداء)**، أى من أسعده الله تعالى بمعرفتك واتباعك والإيمان بك، وفى الآية وجوه كثيرة، منها أنه بمعناه الحقيقى؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو طفل ضل فى شعاب مكة، فرآه أبو جهل ورده لجده عبد المطلب، كما رواه ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما.

وعن ابن جبير أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، خرج مع أبى طالب فى سفر، فأخذ إبليس بزمام ناقته وعدل به عن الطريق فى ليلة ظلماء، فجاء جبريل، عليه الصلاة والسلام، ونفخ إبليس نفخة رماه بها للهند ورده، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى القافلة، فمن الله عليه بذلك.

وعن كعب، أن مرضعته حليمة، لما أتت به لترده لعبد المطلب، جلست لتصلح ثيابها، فلم تره، وسمعت هدة شديدة، فقالت: أين الصبى؟ قالوا: لم نره، فصاحت: وامحمداه، فرأت إبليس، لعنه الله، على هيئة شيخ متكىء على عصا، وقال: اذهبى لهبل يرده عليك، ثم جاء وقبل رأس الصنم، وقال له: رد ابن السعدية عليها، فتساقطت الأصنام، وقال له: إليك عنا، فارتعد، وقال لها: لابنك رب يحميه فاطلبيه، فطلبته فى جماعة من قريش فيهم عبد المطلب، فتضرع إلى الله تعالى قائلاً فى ذلك:

يا رب رد ولدى محمدا فاردده لى ليتخذ عندى يدا فشمل قومى كلهم تبددا

فسمعوا مناديًا يقول: لا تضجوا، فإن لمحمد ربًا لا يضيعه، وها هو بتهامة عند شجرة، فوجدوه، عليه الصلاة والسلام، عندها يلعب بأوراقها، وقيل: المعنى وجدك ضالاً عن طريق المعراج فهداك له، **(ولا أعلم أحدًا من المفسرين قال فيها)**، أى فى تفسير آية ﴿**وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ**﴾ : أن معناها **(ضالاً عن الإيمان)**؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وسائر الأنبياء معصومون قبل النبوة وبعدها عن الكفر، وكل ما ينفر عنه القلوب.

وفى الكشاف: من قال: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان على أمر قومه أربعين سنة، إن أراد خلوه عن الأمور السمعية فنعم، وإن أراد أنه على كفرهم ودينهم، فمعاذ الله، فإنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وسائر الأنبياء معصومون قبل النبوة وبعدها عن الكبائر والصغائر الشائنة، فما بالك بالكفر والجهل بالصانع، ﴿**مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ**﴾ [يوسف: ٣٨] وكفى نقيصة عند الكفار أن يسبق منه كفر. انتهى.

وما نقل عن الكلبى والسدى، من أن الآية على ظاهرها ومعناها وجدك كافرًا فى قوم كفار، مخالف للإجماع وبعيد عن الإدراك أن ينسب، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى إشراك، ولهذه الرواية الشاذة، بل الفاسدة، رده الزمخشرى فيما قاله، والعجب ممن نقل هذه المقالة، وقال: لا وجه لترديده مع حملها على الشق الثانى.

(وكذلك)، أى مثل آية: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ**﴾ [الضحى: ٧] وتأويلها، قوله تعالى **(فى قصة موسى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى قوله تعالى عنه: ﴿**قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ**﴾ [الشعراء: ٢٠]، وقرأ ابن مسعود: من الجاهلين، **(أى)** ومعناه **(من المخطئين الفاعلين شيئًا بغير قصد)** وتعمد لقتل النفس التى قتلتها أو الذاهبين إلى ما يفضى إليه الوكز قصدًا من التأديب، وهذا معنى جائز قبل النبوة، فلا يتوهم من هذه الآية أن فيها نقيصة لموسى، عليه الصلاة والسلام؛ لأن الضلال بمعنى الخطأ، وضمير **فعلتها** للفعلة التى

فعلها، وهى قتله قبطيًا من أتباع فرعون بمصر قبل نبوتـه، وبخه فرعـون عليـها لما دعـاه وعدد نعمـه عليه بقولـه: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨]، إلى قولـه: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩]، فأجابه بقولـه: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، فوصف نفسه بالضلال، وهو معصوم منه، فأجاب بأن الضلال بمعنى الخطأ وعدم القصد لقتله، وإنما أراد دفعه، فوكزه فمات من وكزه، ومثلـه لا ضـير فيـه؛ لأنه خطأ معفو عنه، ويأتى الكلام على ذلك أيضًا.

(قاله)، أى قال هذا التفسير لهذه الآية، **(ابن عرفة)**، وهو الحسن العبدى المؤدب، المحدث، الثقة، الذى روى عنه الترمذى وغيره، وهو معمر عاش مائـة وسبعًا أو عشـرًا، وتوفى سنة سبع وخمسين ومائتين، وهو المراد هنا عند الحافظ الحلبى وغيره، لا ابن عرفة الذى هو عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن عرفة، المعروف بنفطويه. وقال التلمسانى: إنـه المراد هنا، وفيه نظر.

(وقال الأزهرى) أبو منصور محمد بن أحمد، إمام أهل اللغة، صاحب التهذيب، توفى سنة سبعين وثلاثمائـة: **(معناه)**، أى معنى ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ فـى الآيـة، **(من الناسين)**، وعروض النسيان للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، جائز، وهو تكذيب لفرعون فى قوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، والمراد به عدم القصد، إذ القتـل لا يكون نسيانًا، اللهم إلا أن يريد نسيان أنه من القبط وجند فرعون، وهو الظـاهر لقولـه: **(وقد قيل ذلك)**، أى أن الضلال بمعنى النسيان، **(فى قوله)** عز وجل فى حق نبينا، صلـى الله تعالى عليه وسلم، كمـا تقـدم: (﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾، **أى ناسيًا فهداك**)، أى فـهداك وذكرك، **(كما قال:** ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾) [البقرة: ٢٨٢]، أى تنسى إحـدى المرأتـين ما شهدت به، فتذكرها الأخرى ما نسيته.

ثم أورد آية أخرى تخالف ما قرره من عصمة الأنبياء، عليهم الصـلاة والسـلام، عـن الشرك وكل ما ينفر كالجهل، فقال: **(فإن قلت: فما معنى قوله)** عز وجـل لنبينـا، صلـى الله تعـالى عليـه وسـلم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، ووجه السؤال أنه نفى عنـه، صلى الله تعالى عليـه وسلم، معرفته بالقرآن المنزل عليـه وبالإيمـان، والأول صحيـح؛ لأن عـدم معرفتـه بـالقرآن قبـل الوحى أمر مقرر، والمشكل إنما هو الثانى؛ لأنه يقتضى أنه، صلى الله تعالى عليـه وسـلم، لم يكن مؤمنًا قبله، وهو معصوم عن الكفر قبل النبوة وبعدها كما تقدم، ولـذا قيـل: إن المراد به الإيمان بما يجب الإيمـان بـه مـن أحكـام الشـريعة، لا بمجـرد التوحيـد والتصديـق، والكل ينتفى بانتفاء جزئه، ولا حاجة لما تكلفه بعضهم من أن الإيمان المراد به مـا ذهـب

إليه المحدثون، وهو التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح، ومجموعه لم يكن معلومًا له، صلى الله تعالى عليه وسلم، قبل الوحى.

(فالجواب) عما ذكره فى هذه الآية، **(أن السمرقندى)**، هو الإمام أبو الليث، رحمه الله تعالى، وقد تقدمت ترجمته، **(قال: معناه)**، أى ما ذكر فى هذه الآية، **(ما كنت تدرى قبل الوحى أن تقرأ القرآن)**، أى لا تعرف قراءته ولا دراسته، **(ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان)**، وقيل: إنه بعيد غاية البعد، فإن قدر مثله فى النظم، فلا قرينة تدل عليه، وقد يقال: تعريف الإيمان عهدى، والمراد به إيمان أمته، أى لا تدرى كيف يؤمن قومك، وبأى طريق يدخلون فى الإيمان وملة الإسلام، وهو بدعوته له، وستسمع بيانه قريبًا.

(وقال أبو بكر القاضى)، تقدمت ترجمته **(نحوه)**، أى نحو ما قاله السمرقندى بما هو قريب منه. **(قال)**، أى أبو بكر، لا السمرقندى كما قيل، ومقوله هو قوله: **(ولا الإيمان)**، مصدر بمعنى المفعول، أى ما يجب الإيمان به، **(الذى هو الفرائض والأحكام)** الشرعية التى كلف بها علمًا وعملاً مما لابد منه.

(قال) أبو بكر: **(فكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، قبل)**، أى قبل نزول الوحى ومجىء الملك له **(مؤمنًا)**، أى مصدقًا **(بتوحيده)**، وإنه لا إله إلا هو، **(ثم نزلت الفرائض التى لم يكن يدريها قبل)**، أى قبل نزولها وقبل بعثه، **(فزاد بالتكليف)**، أى بسبب ما كلفه الله من الفرائض، **(إيمانًا، وهو)**، أى ما قاله السمرقندى وأبو بكر، **(أحسن وجوهه)**، أى أحسن ما وجهت به هذه الآية، وأحسن تفاسيرها؛ لأنه تعالى لم يرد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لا يدرى وأنه لا يعرف الإيمان؛ لأنه لو كان الأمر كذلك، قال: ما كنت تدرى الكتاب ولا الإيمان، فلما أتى بما الاستفهامية، كان معناه أنه لم يدر حال الكتاب وحال الإيمان، وحال الكتاب تلاوته وحفظه، وهو أمى لا يعرفه، وحال الإيمان لم يرد به إيمان النبى بالله، وهو مجبول عليه متيقن له من ابتداء خلقه إلى آخره، فالمراد به إيمان غيره من أمته، وهو ما يعرف إيمانهم المضمر فى قلوبهم، إلا إذا دعاهم فأجابوه وطابق لسانهم جنانهم، فهذا تفسير له بلازمه البين، وهو وجه دقيق كما أشار إليه المصنف، رحمه الله تعالى، ومن لم يقف على مراده قال على هذا الإيمان فى هذه الآية: معناه التصديق والإقرار والعمل والتصديق بما جاء به محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، هو معناه الحقيقى شرعًا، وما عداه غير داخل فيه إلا على قول.

وأما تفسيره بدعوة الخلق ومعرفتها، فلم يقله أحد، فكيف يكون ما ذكره وجهًا ولا دلالة للفظ عليه بوجه من الوجوه، والمراد ما قدمناه. قيل: معناه: وما كنت تعرف

الكتاب قبل نزوله عليك، ولا الإيمان بالفرائض والأعمال التفصيلية قبل مجىء الكتاب الذى هو تبيان لكل شىء، وهذا وجه آخر غير ما ذكره المصنف، ومنهم من نزل عليه كلام المصنف، فخلط وخبط.

(**فإن قلت:**) إذا كان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، عالمًا بالله وصفاته، (**فما معنى قوله تعالى**) له: ﴿**وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ**﴾ [يوسف: ٣]، فوصفه إن كان غفلة عن آيات الله قبل الوحى نافى ما قررته أولاً، ورده بقوله: (**فاعلم أنه**)، أى ما ذكر من وصفه بالغفلة، (**ليس بمعنى الغفلة**)، التى فى (**قوله تعالى:** ﴿**وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ**﴾) [يونس: ٧]، فإن الغفلة فى هذه الآية غفلة عن العلم بالله وصفاته، وأول الآية: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ**﴾ [يونس: ٧، ٨]، وهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، معصوم عن هذه الغفلة.

(**بل**) معنى الغفلة المذكورة (**ما حكى أبو عبيد الهروى**) إمام أهل اللغة (**أن معناه: لمن الغافلين عن قصة يوسف**) مع أبيه وإخوته، عليهم الصلاة والسلام، فإنه صريح قوله تعالى: (﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ**﴾) [يوسف: ٣]، (**إذا لم تعلمها إلا بوحينا**)، قبل ما قصه الله تعالى عليه، والغفلة عن مثله مما لا يعلم إلا بالنقل ولا نقص فيه، وهذا أظهر من أن يذكر، فالفرق بين الغفلتين ظاهر، وفى التعبير بالغفلة إشارة استعداده للعلم بما لم يعلم، حتى كأنه عالمًا به ونسيه.

(**وكذلك**)، أى ما ذكر مما يوهم ما لا يليق بعصمته قبل النبوة، (**الحديث الذى يرويه**) أبو يعلى الموصلى فى مسنده، و(**عثمان بن أبى شيبة**)، وهو من المحدثين، إلا أنه ضعيف على ما يأتى؛ لأنه نسب إليه أوهام، (**بسنده عن جابر، رضى الله تعالى عنه**)، كما قال أبو يعلى: حدثنا ابن أبى شيبة، قال: حدثنا جرير بن عبد الحميد الضبى، عن سفيان الثورى، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر بن عبد الله، رضى الله تعالى عنهما، (**أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قد كان يشهد**)، أى يحضر (**مع المشركين**) بمكة فى صغره (**مشاهدهم**)، أى محل اجتماعهم عند أصنامهم، وهذا هو محل الإنكار من هذا الحديث، فإنه لم ينقل ذلك عنه إلا فى رواية ذكرها السهيلى، وقال: إنها مرة واحدة على ما فيها، وكان ذلك بإلحاح عليه من عمه أبى طالب، ثم لم يعد لها.

(**فسمع ملكين خلفه**) كانا موكلين به يحفظانه، (**أحدهما**)، أى أحد الملكين، (**يقول**

لصاحبه: اذهب حتى تقوم خلفه) تحفظه، **(فقال الآخر: كيف أقوم خلفه)** وأقرب منه **(وعهده)** مبتدأ خبره محذوف، أى قريب، والعهد بمعنى الزمان، كقولهم: فى عهد خلافة فلان، **(باستلام الأصنام)**.

وفى الزاهر لابن الأنبارى: الاستلام افتعال من السلمة، وهى الحجر، ومعناه مس الحجر أو استفعال من من اللأمة، وهى السلاح، أى حصن نفسه بمسه وحنف. وعن الفراء: استلمت الحجر واستألمته بالهمز. انتهى.

ولم يقف الدمامينى فى حاشية البخارى على هذا، فذكره بطريق البحث من عنده. وفى كشف الكشاف: إنه مأخوذ من عين لا من مصدر، وفيه صيرورة تقديرية، وهو افتعال للاتخاذ والاختصاص، أى اتخذ سلمة وحجرًا لنفسه يعظمه بالإشارة إليه بيده ومسه، ثم عم لكل تقبيل.

(فلم يشهدهم)، أى لم يشهد المشركين فى مشاهدهم **(بعد)**، أى بعدما سمع من الملكين ما قالا، وهذا الحديث مشكل، لما تقرر من أنه لم يكن على شىء مما كان عليه المشركون من ولادته إلى وفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ورده المصنف، رحمه الله تعالى.

بقوله: **(فهذا حديث أنكره أحمد بن حنبل جدًا)**، أى إنكارًا شديدًا، ولم يقل بصحته، وأصل الجد ضد الهزل، استعير لما ذكر، **(وقال: هو موضوع)**، وكذب لم يثبت والثابت خلافه، **(أو شبيه بالموضوع)**، على زنة فعيل، يعنى به أنه يشبه الموضوع بشدة ضعفه، وليس من الفضائل حتى تغتفر روايته، وحرف بعضهم شبيه بتشبه تفعل منه، روى يشبه مضارع مجهول مشدد الباء.

(وقال الدارقطنى: يقال: إن عثمان وهم)، بوزن غلط، ومعناه: ويقال: وهم وأوهم، بمعنى غلط أيضًا، **(فى إسناده، والحديث بالجملة)**، أى إجمالاً، **(منكر غير متفق على إسناده)**، أى فى روايته، **(فلا يلتفت إليه)**، أى لا يعتبر، بل ينبغى تركه وعدم روايته أصلاً؛ لثبوت خلافه كما سيبينه المصنف، رحمه الله تعالى، وقال: إنه مما أنكر على عثمان، وقد أنكر عليه أحاديث أخر رواها مع أن الشيخين رويا عنه بعض الأحاديث، وعثمان هو عثمان بن محمد بن أبى شيبة أبو الحسن العبسى الكوفى الحافظ، توفى سنة تسع وثلاثين، وقد ضعفوه، إلا أن ابن معين قال: إنه ثقة مأمون، والسعيد من عدت غلطاته.

ثم أشار إلى رده بعدما رد سنده بين الوهم فيه، فقال: **(والمعروف عن النبى، صلى الله**

تعالى عليه وسلم، خلافه)، أى ما يخالفه معنى، **(عند أهل العلم)** بالحديث وبأحواله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(من قوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بغضت)**، بالتشديد والبناء للمجهول، **(إلىّ الأصنام)**، أى جعلنى الله مجبولاً على عدم حبها، وهو يقتضى ظاهرًا أنه لم يشهد مشاهدها و لم يوافق قومه فى أمرها.

(ومن قوله فى الحديث الآخر الذى روته أم أيمن) حاضنته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهى أم أسامة، واسمها بركة، وهى صحابية وترجمتها مشهورة، وحديثها هذا رواه ابن سعد، عن ابن عباس، رضى الله عنها، **(حين كلمه عمه)** أبو طالب، **(وآله فى حضور بعض أعيادهم)**، وكان قال له، صلى الله تعالى عليه وسلم: يا بنى، لم لا تشهد مع قومك مشاهدهم عند أصنامهم، يريد بذلك أن يؤلف بينه وبينهم بإظهاره لموافقته لما هم عليه، لما رأى اجتنابه لهم ولأصنامهم، **(وعزموا عليه)**، أى ألحوا عليه وأقسموا عليه **(فيه)**، أى فى شأن الحضور معهم، يقال: عزم عليه، إذا أقسم، وهو قسم استعطاف وطلب، وضمير عزموا لأهل بيته لإخبارهم أبا طالب بأنه لا يريد ذلك.

وإليه أشار بقوله: **(بعد)** ظهور **(كراهته لذلك)**، أى لحضور مشاهدهم، **(فخرج)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(معهم)**، أى مع أهل بيته وقومه إلى أعيادهم ومجامعهم، **(ورجع)** من عندهم **(مرعوبًا)**، أى ظاهرًا عليه آثار الرعب والخوف، وفى نسخة منقولة من الأم: **(فقال:)** الفاء فصيحة، أى فسأله عمه عن سبب رعبه، فقال: **(كلما دنوت)**، أى قربت **(منها)** لأمسها بيدى **(من صنم)**، بدل من قوله: منها، مفسر له **(تمثل)**، أى ظهر **(لى شخص)**، وهو ملك موكل بحفظه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ظهر له على مثل **(رجل أبيض طويل يصيح بى: وراءك)**، بالنصب على أنه ظرف جعل اسم فعل، أى ارجع، **(لا تمسه)**، أى لا تمس صنمًا منها بيدك كما يفعلون، وهذا سبب رعبه، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه كان قبل بعثته وأنسه بالملائكة الكرام، عليهم الصلاة والسلام، **(فلم يشهد)**، أى لم يحضر، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بعد)**، مبنى على الضم، أى بعدما رأى ذلك الملك الموكل بحفظه، **(عيدًا)** لهم يجتمعون فيه عند أصنامهم، وهذا مناف لقوله: إنه كان يشهد مشاهدهم، المقتضى لوقوع ذلك منه باختياره مرارًا، فإن كان يقتضى تكرر ما بعدها كقولهم: كان حاتم يكرم الضيف، وهذا الحديث تقدمت الإشارة إليه فى الإسراء حين نفر البراق، وهو ضعيف أيضًا.

(وقوله فى قصة بحيرا) الراهب، بفتح الباء والمد والقصر، وقصته معروفة حين سافر، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى الشام مع عمه أبى طالب، ومر بصومعة بحيرا، ورأى السحاب تظله والشجرة التى نزل تحتها، صلى الله تعالى عليه وسلم، تميل إليه لتظله،

وقصته مشهورة، **(حين استحلف النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى أقسم عليه أو طلب منه أن يحلف **(باللات والعزى)**، اسم صنمين معروفين، **(إذ لقيه بالشام)**، أى قريبًا منها أو بأرضها وإقليمها، **(فى سفره مع عمه أبى طالب)**، لما استصحب معه صغير، إلا أنه كان لا يفارقه سفرًا ولا حضرًا، **(وهو صبى)** صغير، **(ورأى بحيرا)** عند قدومه عليه **(فيه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(علامات النبوة)**، كتظليل الغمامة له وميل الشجرة لجانبه ونزوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى منزل كان الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ينزلون فيه كما فصل فى قصته وإرهاصاته قبل النبوة.

(فاختبره بذلك)، وفى نسخة: فأخبره، أى أخبر بحيرا أبا طالب بذلك، أى بعلامات النبوة التى شاهدها فيه، **(فقال له)**، أى لبحيرا **(النبى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(لا تسلنى)**، أصله كما فى نسخة: لا تسألنى، فخفف بحذف الهمزة بعد نقل حركتها، أى لا تقسم علىّ **(بهما)**؛ لما فيه من الشرك وتعظيم الأصنام، **(فوالله)** أقسم، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالله إرشادًا له وبيانًا لما حقه أن يقسم به وتأكيدًا لقوله: **(ما أبغضت شيئًا)** وكرهته **(قط بغضهما)**، أى كبغضى لهما، **(فقال له بحيرا: فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه، فقال)** له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشرف وكرم: **(سل عما بدا لك)**، أى عن كل شىء خطر ببالك، وقد تقدم الكلام على هذا التركيب.

واعلم أن قصته، صلى الله تعالى عليه وسلم، مع عمه أبى طالب رواها ابن سعد فى طبقاته، وابن سيد الناس فى سيرته، وحاصلها بيانًا لما مر أن قريشًا كانوا يجتمعون فى كل سنة بمحل وراء ينبع يسمى: بولاه، بضم الباء أو فتحها، وواو مفتوحة وألف وهاء، اسم هضبة فيها أصنام لهم عيد فيه فى كل سنة، فقال أبو طالب وعماته له، صلى الله تعالى عليه وسلم: اذهب معنا لعيدنا، فأبى، فقال له أبو طالب: إنا نراك تخالفنا فى أمر آلهتنا، ونحن نخاف عليك من ذلك، وألحوا عليه حتى غضب أبو طالب، فلم يزالوا به، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى ذهب معهم، وبينما هو معهم ثمة غاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع مرعوبًا فزعًا، فقالوا له: ما دهاك؟ فقال: «أخشى أن يكون بى لمم»، فقالوا له: ما كان الله ليبتليك بالشيطان مع ما فيك من خصال الخير، فما رأيت؟ قال: «إنى كلما دنوت من صنم منها، يميل إلىّ رجل أبيض طويل ينادينى: وراءك يا محمد لا تمسه»، ثم ما عاد صلى الله تعالى عليه وسلم إلى عيد لهم حتى نبىء[1]. وأما قصة بحيرا، فمذكورة أيضًا فى السير، وقد عرفت محصلها.

---

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (١/١/١٠٣)، وأبو نعيم فى الدلائل (١/٥٩).

(**وكذلك**)، أى مثل ما ذكر فى الدلالة على خلاف ما رواه ابن أبى شيبة، أو مثل ما تقدم من نزاهته، صلى الله تعالى عليه وسلم، عما كان عليه أهل الجاهلية، (**المعروف من سيرته**)، عليه الصلاة والسلام، وأحواله المروية عنه فى السير، (**وتوفيق الله له**) بهدايته وخلوص طويته من ابتداء خلقته إلى وفاته، والمعروف مبتدأ خبره قوله: (**أنه كان قبل نبوته**)، بفتح همزة أنه، وقوله: كذلك، مبتدأ خبره الجملة التى بعده، أو إنه مبتدأ مؤخر، وكذلك خبر مقدم، والمعروف بدل من اسم الإشارة، (**يخالف المشركين فى وقوفهم بمزدلفة فى الحج، فكان**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا حج (**يقف بعرفة**)، اسم مكان معروف يقف به الحاج ويسمى عرفات أيضًا، ويقال: المعروف والتعريف، قال ابن دريد فى مقصورته:

ثم أتى التعريف بفر ومخبتا

وأصله الوقوف بعرفة، وعرفة علم منقول من جمع عارف سمى به لتعارف آدم وحواء فيه، وقيل: إن عرفة اسم مولد، ويرده حديث: «الحج عرفة»، وقيل: عرفات اسم المكان، وعرفة اسم يوم الاجتماع، وفيه كلام ليس هذا محله.

(**لأنه**)، أى عرفة، (**كان موقف إبراهيم**) الخليل، عليه الصلاة والسلام، فهداه الله لاتباع شريعته ومخالفة الجاهلية فيما كانوا عليه، وكانت قريش تقف بمزدلفة؛ لأنها من الحرم، وسائر العرب تقف بعرفات، وهى خارجة عن الحرم، فخالفهم، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى ذلك كما فى صحيح البخارى، وفى هذا نزل: ﴿**ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ**﴾ [البقرة: ١٩٩] الآية.

* * *

(فصل) [فى حكم عقد النبى ﷺ فى التوحيد والشرع والمعارف والأمور الدينية]

(**قال القاضى أبو الفضل**) هو كنية المؤلف عياض، رحمه الله تعالى، (**قد بان**)، أى ظهر واتضح (**بما قدمناه**) فى هذا الباب (**عقود الأنبياء**)، عليهم الصلاة والسلام، جمع عقد، وهو الجزم والتصميم، مستعار من العقد، وهو جمع الأطراف (**فى التوحيد**)، أى اعتقاد وحدانيته تعالى، وعدم الشرك (**والإيمان**)، أى التصديق بكل ما يجب الإيمان به، (**والوحى**) النازل عليه من الله تعالى، (**وعصمتهم فى ذلك**)، أى حفظهم من اعتقاد خلاف ذلك المذكور كله، (**على ما بيناه**) فى هذا الفصل الذى قبل هذا، (**فأما ما عدا هذا الباب**)، أى غير ما ذكر من التوحيد والإيمان والوحى وعصمتهم فيه، (**من عقود**

قلوبهم)، أى جزمها، وهو بيان لما عدا، **(فجماعها)**، بكسر الجيم، بمعنى جميع ومجتمع، والمراد جملتها وما يجمعها، أى جملة عقود قلوبهم فى غيرها، **(أنها)** أى قلوبهم كلها، **(مملوءة علمًا ويقينًا)**، نصب على التمييز، والمراد بما عداها ما لابد من علمه، كأحوال الآخرة والبرزخ والملائكة، **(على الجملة)**، أى هذا حالها إجمالاً لا تفصيلاً؛ لأنه لا يحصى لكثرته، **(وإنها قد احتوت)**، أى اشتملت وجمعت.

وقوله: **(من المعرفة والعلم)**، بيان لما تقدم عليه بناء على جواز تقدم من البيانية على مبينها، كما ذهب إليه بعض النحاة، ومن منعه يقدر له مبينًا يبينه ما يأتى، والفرق بين المعرفة والعلم أن الأول متعلق بالجزئيات والعلم بغيرها، أو مما يسبقه جهل، ولذا قيل: إنه لا يطلق على الله معرفة، إلا أن ابن جماعة اعترض عليه، وقال: إنه ورد فى الحديث ما يخالفه، وقد بيناه فى غير هذا المحل، **(بأمور الدين والدنيا)**، جزئياتها وكلياتها، **(ما لا شىء فوقه)**، أى يزيد عليه ويفضله، وفوق ضد تحت، ويكون فى المكان والزمان، والجسم والعدد ونحوه، فاستعيرت لما ذكر كما قاله الراغب.

(ومن طالع الأخبار)، أى اطلع على ما فى كتبها، والمطالعة تختص عرفًا بالنظر فى الكتب وقراءتها، **(واعتنى)**، أى اهتم واشتغل **(بالحديث)** النبوى رواية ودراية **(وتأمل)**، أى فكر ودقق النظر، وأصله مفعل من الأمل استعير لما ذكر، **(ما قلناه)** فيما تقدم **(وجده)** محققًا كما قلناه، **(وقد قدمنا منه)**، أى من الأمور المتعلقة بعقد قلوب الأنبياء فى ما ذكر، **(فى حق نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الباب الرابع)**، فيما أظهره الله على يديه من المعجزات وشرفه به من الخصائص والكرامات فى القسم الأول، **(أول قسم من هذا الكتاب ما ينبه على ما وراءه)**، أى مع ما ذكر بعده فى هذا الكتاب، فعلى بمعنى أو محتويًا ذلك عليه، **(إلا أن أحوالهم فى هذه المعارف تختلف)** استثناء منقطع كالاستدراك على ما قبله، أى لكن أحوالهم مختلفة، فبعضهم له مرتبة فيها أعلى مما عداه كنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، فالتفاوت لا ضرر فيه.

وقال الباقلانى: يجوز عقلاً عدم معرفة النبى ببعض شرائع من قبله، وعدم معرفته ببعض الفروع الفقهية التى فرعها الفقهاء، لكنه إذا سُئل عنها لابد أن يعرفها، وكذا علمه باللغات، بشرط أن لا يخل بالتوحيد كما قيل فيه نظر لا يخفى.

(فأما ما تعلق منها)، أى من العلوم المفهومة من السياق لا بالعقود **(بأمور الدنيا)**، كأمر المعاش وأحوال الناس، **(فلا يشترط)** بالياء التحتية، مبنى للمفعول ونائب فاعله العصمة فى قوله: **(فى حق الأنبياء العصمة من عدم معرفتهم ببعضها)**، ويجوز أن يكون

مبنيًا للفاعل، ونصب العصمة على المفعولية، والضمير فيه للعلماء، وأجاد فى قوله: ببعضها؛ لأن عدم معرفتها بالكلية ينافى شدة فطنتهم وسلامة عقولهم، والمراد ما لا تعلق له بالدين أصلاً، فيجوز عدم معرفتهم بذلك، **(أو اعتقادها على خلاف ما هى عليه)**، كقصة تأبير النخل وسيأتى، ورجوعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لرأى الحباب بن المنذر فى بدر، والمراد بالاعتقاد ما يشمل الظن لا الجازم منه.

(ولا وصم)، فتح الواو وسكون الصاد المهملة، أى لا عيب ولا نقص تقصير **(عليهم)**، أى عائد على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(فيه)**، أى فى عدم معرفته، وبين علته بقوله: **(إذ هممهم)**، جمع همة، وهى العزيمة، من هم بالأمر، إذا عزم عليه، **(متعلقة)**، أى مشغولة **(بـ)** أمور **(الآخرة وأنبائها)**، جمع نبأ، وهو الخبر، وعبر به؛ لأنها إنما تعلم بالوحى وإخبار الله لهم بها، **(وأمر الشريعة وقوانينها)**، وهو لفظ رومى معرب، **(وأمور الدنيا تضادها)**، أى تخالفها، فالاشتغال بها لا يليق بعلو هممهم، **(بخلاف غيرهم من أهل الدنيا)**، أى غير الأنبياء، عليهم السلام، من الناس **(الذين يعلمون)** بدل من أهل الدنيا تلويحًا؛ لأن علمهم لا يعتد به؛ لأنهم إنما يعلمون **(ظاهرًا من الحياة الدنيا)**، ففيه إشارة لبلادتهم وأنهم إنما يعلمون ظاهر زخارفها الذين يتمتعون به دون باطنها الذى يستعدون به للآخرة، ويتزودون به لدار القرار من صالح الأعمال، وتنكير ظاهرًا إشارة إلى أنه متاع قليل، ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧] عنها لا يخطر ببالهم تدارك ما يلزمهم منها، فهم كالأنعام، وهم الثانية تكرير للأولى، وغافلون خبرها أو مبتدأ خبره غافلون، والجملة خبر الأولى.

وعلى كل حال فيه تأكيد لغفلتهم، وهو اقتباس، وأشار بالمضادة إلى أن المراد بالدنيا ما تمحض لها كرياستها وجاهها ولذائذها، بخلاف بيان أمور المعاملات، فإنها أمور شرعية يلزمهم بيانها، فلا وجه لذكره هنا؛ لأنه سيأتى، وإليه أشار بقوله: **(كما سنبين هذا فى الباب الثانى، ولكنه)**، ضمير شأن، وهو استدراك عما قبله، **(لا)** يصح أن **(يقال: إنهم لا يعلمون شيئًا من أمور الدنيا)** أصلاً، **(فإن ذلك)**، أى عدم علمهم بشىء منه **(يؤدى إلى)** نسبتهم إلى ما لا يليق بهم من **(الغفلة والبله)**، أى شدة البلادة وعدم الإدراك، **(وهم المنزهون عنه)**، أى عما ذكر من الغفلة والبله؛ لكمال عقولهم وتمام خلقتهم، فالله نزههم وأبعد خلقهم عن مثله، وأشار بتعريف الطرفين لكمالهم فيه، حتى كأنه مخصوص بهم، والحاصل أن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، كلهم لابد لهم من العلم بالعقائد والشرائع، والوحى يقينًا من غير شك وشبهة.

وأما أمور الدنيا لبخسها، فلا يلزم العلم بها لكنهم، عليهم الصلاة والسلام، لكونهم

أكمل الناس فطنة وعقلاً لا يكثر عدم علمهم بها، وإنما يكون ذلك من النادر، وليس فى كلامه هنا ما يقتضى أن كل نبى أكمل أهل زمانه وأعلمهم، كما قيل، وهو غير مسلم؛ لقول ابن الهمام: إنه أكمل أهل زمانه ممن ليس بنبى، وقيده فى الكشاف بمن أرسل إليه، وهو الحق، فلا يلزم أن يكون موسى، عليه الصلاة والسلام، أعلم من الخضر، عليه الصلاة والسلام؛ لأنه لم يرسل إليه ولا يحتاج إليه أن يقال: إنه موسى بن ميشا، لا موسى بن عمران.

(**بل قد أرسلوا إلى أهل الدنيا وقلدوا**)، بالبناء للمجهول، أى ولوا وحكموا، ومنه تقليد القضاء، وهو فى الأصل من قلادة العنق، (**سياستهم**)، أى ضبط أمورهم أمرًا ونهيًا بالقهر، وأصلها القيام على الشىء بما يصلحه، (**وهدايتهم**)، أى إرشادهم لكل خير فى الدارين.

(**والنظر فى مصالح دينهم ودنياهم**)، ببيان ما ينتظم به صلاح المعاش والمعاد، (**وهذا**)، أى النظر والسياسة، (**لا يكون**) ويوجد (**مع عدم العلم بأمور الدنيا بالكلية**)، بأن لا يعلم شيئًا منها أصلاً؛ لأنه مانع للنظر فى أحوالهم، لكن العلم بها ليس مقصودًا لهم بالذات، (**وأحوال الأنبياء**)، صلوات الله وسلامه وتحياته عليهم أجمعين، (**وسيرهم**) جمع سيرة، وقد تقدمت (**فى هذا الباب**)، أى فى هذا النوع من العلم، وهو العلم بأمور الدنيا، (**معلومة**) بما اشتهر من أخبارهم (**ومعرفتهم بذلك**) المذكور (**مشهورة**) لا تخفى على أهل العلم.

(**وأما إن كان هذا العقد**)، أى عقد قلوبهم بالاعتقاد الجازم، (**فيما يتعلق بالدين**)، وإن كان له تعلق بالدنيا كالمعاملات، (**فلا يصح من النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلا العلم به**) يقينًا وجزمًا من غير شك وشبهة فيه، (**ولا يجوز عليه جهله جملة**)، أى لا يجهل شيئًا منه، ولا يخفى عليه شىء من جملته، ويجوز أن يراد بالجملة الإجمال، أى يعلم علمًا إجماليًا أنه يجب اعتقادنا أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يجهل شيئًا بما له تعلق بالدين، وقيل: إنه قيد للنفى، أى انتفى جهله به انتفاء كليًا، فيعلم جميع ذلك.

(**لأنه**)، أى علمه بذلك (**لا يخلو**) علمه من (**أن يكون حصل عنده ذلك**) العلم صادرًا (**عن وحى من الله**) بإرسال ملك ونحوه، (**فهو ما**)، أى أمر (**لا يصح الشك منه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**فيه**)، أى فى الوحى وما يتعلق به بناء (**على ما قدمناه**)، كما علمته قبل هذا، وإذا لم يحصل منه أدنى شك فى شىء من ذلك، (**فكيف الجهل**)، أى فكيف يصح منه جهل بشىء منه، وهو إنكار لجهله بإنكار كيفيته وحاله على طريق

برهانى؛ لأنه إذا وقع لابد أن يقع على كيفية مخصوصة.

(**بل حصل له العلم اليقين**)، أى المتيقن واستدركه؛ لأنه لا يلزم من عدم العلم تيقن ضده، (**أو يكون فعل ذلك**) الأمر المتعلق بالدين ببيان أحكامه حلاً وحرمة ونحوه (**باجتهاده**)، وهو افتعال من الجهد، وهو الطاقة والوسع، وبذله فى تحصيل المطلوب، وهو تحصيل الحكم مما أعلمه الله تعالى واستخراجه من قواعد الدين بالتفاته إليه، (**فيما لم ينزل عليه فيه شىء**) من الوحى فى بيان حكمه، فيعلم حكمه بذلك، وهو فى غيره تحصيل ظن بحكم شرعى استخرجه من نص ونحوه.

(**فعلى القول بتجويز وقوع الاجتهاد منه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**فى ذلك**)، أى فيما لم ينزل عليه وحى فيه، (**على قول المحققين**) الذاهبين لجواز اجتهاده، وهو القول الصحيح، ثم على هذا هل يجوز وقوع الخطأ منه فيما اجتهد فيه؟ فمنعه بعضهم وجوزه بعض، مع الاتفاق على عدم إقراره صلى الله تعالى عليه وسلم على الخطأ، وهذا رجحه كثير من الأصوليين، وذهب كثير منهم إلى ترجيح عدم وقوع الخطأ فى اجتهاده أصلاً، وإليه مال المصنف، رحمه الله تعالى، وأدلتهم مبسوطة فى كتب الأصول، فمن أرادها فليأخذ الماء من مجاريه.

(**وعلى مقتضى**)، بصيغة المفعول، أى على ما يقتضيه ويدل عليه لزومًا، (**حديث أم**) المؤمنين هند بنت أبى أمية المشهورة بأم (**سلمة**)، رضى الله تعالى عنها، بفتحات فيما روته عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه قال: (**إنى إنما أقضى بينكم برأيى**) واجتهادى (**فيما لم ينزل علىّ فيه شىء**)، أى فيما لم ينزل من الله فيه شىء من وحيه، وهو صريح فى وقوع الاجتهاد منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**خرجه الثقات**)، أى رواه مسندًا من يوثق به، كأبى داود وغيره، فهو حديث صحيح دال على صحة اجتهاده، صلى الله تعالى عليه وسلم.

وسبب هذا الحديث، أنه عليه الصلاة والسلام، أتاه رجلان يختصمان فى مواريث وأشياء قد درست، فقال: «إنى...»، إلى آخره، وهو كما علمت دليل على جواز اجتهاده ووقوعه منه خلافًا لمن يجوزه أو جوزه، وقال: لم يقع؛ لقوله تعالى: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ**﴾ [النجم: ٣، ٤]، أو خصه بالحروب؛ لأن اجتهاده فى حكم الوحى؛ لاستنباطه منه بالقياس، فليس هوى، وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا أدرى»، فى بعض الأحيان، لا ينافيه لعدم ظهور القياس له، والقياس مستند إلى الوجه؛ لقوله تعالى: ﴿**فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ**﴾ [الحشر: ٢].

(وكقصة أسرى بدر)، جمع أسير كأسارى، وهما بمعنى، وقيل: الأسرى، من لم يوثق، والأسارى الموثقون، وهم سبعون رجلاً، والقصة كما فى صحيح مسلم أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال لأبى بكر والصحابة: «ما ترون فى هؤلاء؟»، فقال أبو بكر، رضى الله عنه: بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية يكون لنا بها قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام، فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «ما تقول يا عمر؟»، فقال: أرى أن تضرب أعناقهم، فإنهم أئمة الكفر وصناديده، فنزل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] بعدم الفدية، فجلس، صلى الله تعالى عليه وسلم، هو وأبو بكر يبكيان، فقال لهما عمر: لما تبكيان؟ أخبرانى، فإن وجدت بكاء بكيت وإلا تباكيت، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أبكى لما عرض من الفداء، لقد عرض عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة عنده»(١)، وتقدم ذلك مع ما فيه، فهذا دليل على وقوع الاجتهاد منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما علمته.

(و) كقصة **(الإذن للمتخلفين)** عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى غزوة تبوك، فإنه أذن لجماعة استأذنوه فى القعود عنها، فأذن لهم باجتهاد منه، ولم ينتظر الوحى، فعاتبه الله على ذلك مع لطفه فى تقديم العفو عنه بقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ [التوبة: ٤٣] الآية؛ لأنه كان مع من استأذنه واعتذر بأعذار بعض المنافقين لم يعرف نفاقهم، حتى نزلت آية التوبة عليه **(على رأى بعضهم)**، راجع للقصتين أو للثانية فقط، فإنه قيل: إن ذلك كان باجتهاد من أصحابه بناء على جواز وقوع الاجتهاد منهم عنده، صلى الله تعالى عليه وسلم، بناء على أن العتاب لهم، وخطابه لقبوله له وإقرارهم، مع أنه خلاف الأولى، أو أن الله تعالى خيره فى ذلك قبل، وأذن له، ولا اجتهاد فيه، وإنما كان عليه أن ينتظر الوحى أن يبين الأولى به، وفيه مباحث وأنظار دقيقة.

(فلا يكون أيضًا ما يعتقده مما يثمره اجتهاده)، أى يترتب عليه، ويكون ثمرة له، ومن بيانية أو تبعيضية أو تجريدية، **(إلا حقًا)** موافقًا للواقع **(وصحيحًا)** فى نفسه بقطع النظر عن الواقع ومطابقته، وهذا بناء على أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يخطىء فى اجتهاده أصلاً، كما ارتضاه الغزالى وبنى عليه أنه يجوز القياس على ما اجتهد فيه، وهو اللائق بمقام النبوة، ومثله فى هذا كله سائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٦٣/٥٨)، وابن جرير فى تفسيره (٣١/١٠)، والبيهقى فى دلائل النبوة (١٣٧/٣).

وذهب ابن الحاجب وغيره إلى أنه يقع منه الخطأ نادرًا، إلا أنه لا يقر عليه، وليس ما استدلوا به خطأ، بل خلاف الأولى، فإن أرادوه ارتفع الخلاف، فتدبر (**هذا**) القول من أن اجتهاده، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يكون إلا حقًا صحيحًا، (**هو الحق الذى لا يلتفت**) ولا يعتد (**إلى خلاف من خالف فيه**) بأن قال: لا يجتهد أصلاً أو يقع فى اجتهاده الخطأ أو اجتهاده مخصوص بالحروب، (**ممن أجاز عليه الخطأ فى الاجتهاد**) ونحوه، وهذا وقع فى بعض النسخ وسقط من بعضها، (**أن لو قام عليه دليل لا على القول بتصويب المجتهدين**)، بصيغة التثنية أو بصيغة الجمع، أى موافقة حكم كل منهما أو منهم للصواب، وقوله: (**الذى هو الحق والصواب**)، مفعول تصويب فى محل نصب، أى ما اعتقده كل موافق للحق والصواب، فكل مجتهد مصيب، كما قيل:

رمى فأصاب قلبى باجتهاد صدقتم كل مجتهد مصيب

أو الذى مبتدأ خبره قوله: (**عندنا**)، وهو أحد قولين، ورجحه المصنف والأشعرية، فالضمير راجع للأشعرية، (**ولا على القول الآخر**) الذى ذهب إليه الجمهور القائلون (**بأن الحق فى طرف واحد**)، غير معين، فالآخر خطأ، إلا أنه لا إثم عليه فيه، وهذا فى غير النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه لا يخطئ أو لا يقر على الخطأ؛ (**لعصمة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، أى لعصمة الله تعالى له (**من الخطأ فى الاجتهاد فى الشرعيات**)، قيده به؛ لأنه محل الخلاف بخلاف العقائد وأمور الآخرة كما تقدم، وما لا تعلق له بالدين، فإن الأول لا يجوز فيه الخطأ بالاتفاق، والثانى يجوز فيه بالاتفاق كما تقدم تفصيله.

ومحل الخلاف فى اجتهاد غير الأنبياء (**ولأن القول فى تخطئة المجتهدين**)، أى كلام الأصوليين فيما يتعلق به، (**إنما هو بعد استقرار الشرع**)، فلا يتصور بدونه اجتهاد؛ لأنه يكون قياسًا على حكم شرع قبله، (**ونظر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، واجتهاده إنما هو فيما لم ينزل عليه فيه شيء**) من الوحى، (**ولم يشرع له قبل**)، أى قبل اجتهاده فيه ونظره؛ ليظهر له الصواب فى محل الاجتهاد، فلا يتصور خطأه؛ لأن خطأ المجتهد إنما يظهر بمخالفة نص أو إجماع أو قياس جلى، وقد تقرر أنه لم يسبق به شرع، وهذا دليل على أنه لا يقع الخطأ فى اجتهاد، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيه بحث؛ لأن الاجتهاد بالنظر فى نظائره، فإن أراد أنه لم ينزل شيء فى عينه فمسلم، لكنه لا يمنع الاجتهاد، وإن أراد شيء من نوعه وأشباهه فممنوع، فهذه مغالطة وتمويه، فتأمله.

(**هذا**) المذكور فيما أوحى الله إليه، أو عمل فيه برأيه واجتهاده فيما لم ينزل فيه

شىء، **(فيما عقد)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى علمه علمًا جازمًا أو عزم **(عليه قلبه)** الشريف، وأعمل فيه فكره من أمور الدين التى لابد منها، سواء كان من العقائد وأمور الوحى مما لابد من علمه من غير شك فيه، أو من الشرع المعلوم بالوحى أو الاجتهاد، كما فصله، وليس هذا مخصوصًا بالاعتقاديات كما قيل، **(فأما ما لم يعقد)** النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(عليه قلبه)** و لم يعلمه علمًا جازمًا، **(من أمر النوازل)**، جمع نازلة، وهى القضية التى تحدث له ويحتاج لبيان الحكم فيها، وقوله: **(الشرعية)**، أى المتعلق بها حكم شرعى من حل وحرمة ونحوه.

(فقد كان)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لا يعلم)** شيئًا **(منها أولاً)**، أى فى ابتداء بعثته، وقبل الوحى والإذن له فى التشريع، **(إلا ما علمه الله تعالى)** بالوحى إليه **(شيئًا فشيئًا)**، أى شيئًا بعد شىء على سبيل التدريج بحسب الوقائع وأسبابها المقتضية لبيانه لها، وهذا منصوب على الحال، كعلمته النحو بابًا بابًا؛ لأنه مأول بفصل ونحوه، وليس الثانى تأكيدًا، وتفصيله فى كتب العربية، **(حتى استقر علم جملتها)**، أى علم جميعها **(عنده)**، أى فى علمه وحفظه لما نزل عليه منها، **(إما بوحى من الله أو إذن له)** فى **(أن يشرع فى ذلك)**، بفتح أوله وثالثه المخفف، أو بضم أوله وكسر ثالثه المشدد، أى يأخذ فى بيانه، أو يبين ما حكم الشرع فيه برأيه واجتهاده، **(ويحكم)** فى القضايا **(بما أراه الله)**، أى عرفه وعلمه بوحى منه، أو إلهام ونظر فيما أنزل عليه، كما قال الله تعالى: (﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾) [النساء: ١٠٥]، والآية دالة على اجتهاده المأذون له فيه، وأنه مصيب فيه.

(وقد كان) صلى الله تعالى عليه وسلم **(ينتظر الوحى فى كثير منها)**، أى من النوازل الواقعة؛ ليبين الله له الحكم فيها ويجتهد فى قليل منها أحيانًا، **(ولكنه لم يمت حتى استقر علم جميعها عنده)**، أى تحقق، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتقرر عنده العلم بجميع الأحكام الشرعية اللازمة، ولذا قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وفى نسخة: استفرغ، بفاء وغين معجمة، أى استوفى واستكمل، وهو استعارة من استفراغ الماء وصبه، كأنه أفاض ماءه على العطاش، **(وتقررت)** وتحققت **(معارفها)**، أى العلوم بالأحكام الشرعية وجزئياتها **(لديه)**، أى عنده وعند أمته **(على التحقيق)**، أى متيقنة محققة بلا تردد، **(ورفع الشك والريب)**، أى الاشتباه فى شىء منها، **(وانتفاء الجهل)** عن أمته.

(وبالجملة)، أى إجمالاً، وقد يراد بهذه الكلمة على كل حال، وبكل وجه **(فلا يصح)** ولا يجوز عقلاً وشرعًا **(منه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن كل نبى **(الجهل بشىء من**

تفاصيل الشرع)، أى شرعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**الذى أمر**)، بالبناء للمفعول، أى أمره الله تعالى (**بالدعوة**)، أى دعوة أمته (**إليه**)، أى إلى اتباعه والعمل به؛ لأن جهله به ينافى أمره بدعوته، (**ولا تصح دعوته إلى ما لا يعلمه**)؛ لأنه طلب للمجهول، وهو ممتنع عقلاً وشرعًا، وعبث غير مفيد، فكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، أعلم الناس بأحكام ربه، وله الولاية العامة على جميع خلقه، والإمامة العظمى، فكان يحكم بالقضاء والسياسة والإفتاء، ويحكم بالظاهر والباطن كالخضر، عليه الصلاة والسلام، كما قاله السيوطى، والفرق بين أحكامه بما ذكر فصله السبكى والعراقى فى قواعده، وللعلامة أبى شامة فيه تأليف مستقل لا يستطيع هذا المقام تفصيله، وإن تكلم بعضهم فيه هنا كلامًا غير مهذب، فإذا أردت تحققه، فانظر كلام القوم فيه.

(**وأما ما تعلق بعقده**)، أى بجزم قلبه فيما بصره الله تعالى به، عليه الصلاة والسلام، (**من ملكوت السموات والأرض**)، الملكوت مبالغة فى الملك، كالرهبوت والجبروت، وقد يخص بغير المشاهد، كعالم الأمر كما مر، والمرا علمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بحقيقة الأجرام العلوية، وأنها حادثة مستغن عنها وما فيها من الملائكة الموكلين بها، والكواكب التى خلقت فيها زينة لها وهداية لخلقه، وعلامات لحكم الهيئة، وكذلك الأرض التى جعلها الله مقر العبادة، وعلمه بما فيها علمًا اطلع به على حقيقتها، وما أودعه فيها، وليست كما تزعم الفلاسفة وأهل الطبيعة من أمور مخرومة القواعد كثيرة المفاسد.

(**وخلق الله**)، أى مخلوقاته التى بثها فيهما وأبدعها وأودعها حكمًا تحار فيها العقلاء، وفى كل شىء له آية، تدل على أنه الواحد، (**وتعيين أسمائه الحسنى**) الدالة على ذاته وبديع صفاته، وفى قوله: تعيين، إشارة إلى أنها توقيفية، فلا يطلق عليه إلا ما ورد به إذن شرعى، والكلام عليها مفرد بالتأليف، وأجل ما صنف فيها كتاب الإمام القرطبى، وقيل: يصح أن يطلق عليه كل اسم ثبت اتصافه به مما لا يوهم نقصًا، وقيل: يجوز ما كان على سبيل التوصيف، والكلام عليه مفصل فى كتب الأصول.

(**وآياته الكبرى**)، إن عجائب مخلوقاته الدالة على عظمته، والكبرى بمعنى العظمى، مما أخبر عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مما شاهده فى نفس الإسراء كما تقدم، (**وأمور الآخرة**)، كالحشر، والنشر، وأحوال الموقف، والصراط، والميزان، والنفخ فى الصور.

(**وأشراط الساعة**)، أى علامتها الدالة عليها، جمع شرط بفتحتين، وفى الأساس يقال لأوائل كل شىء: أشراط، ومنه أشرط إليه رسولاً، إذا قدمه، وأشراط الساعة مشهورة،

والساعة مقدار من الزمان، ثم خص بالقيامة، وقيل: الأشراط تختص بعلاماتها الصغار، كما نقله الخطابى، عن أبى عبيدة، والمشهور شمولها للصغار والكبار، كخروج المهدى والدجال.

(**وأحوال السعداء والأشقياء**) فى البرزخ والدنيا والآخرة، وما لهم من نعيم وعقاب، (**وعلم ما كان**) من أحوال الأمم السالفة، وما كان فى ابتداء خلق العالم.

(**وما يكون**) بعده من الفتن وغيرها، كما فى حديث حذيفة المشهور، (**مما لا يعلمه إلا بوحى**) أعلمه الله به فى المغيبات.

(**فعلى ما تقدم**)، أى واقع على أسلوب ما تقدم، والفاء فى جواب إما (**من أنه**) بيان لما تقدم (**معصوم فيه**) عن الخطأ والشك فى شىء منه، (**لا يأخذه**)، أى لا يعرض له ولا يطرأ عليه، (**فما أعلم**)، بالبناء للمجهول، أى أعلمه الله بوحيه، وجوز فيه البناء للفاعل، أى أعلم به أمته (**منه**)، أى مما ذكر، (**شك ولا ريب**)، وتردد فى علمه به، (**بل هو فيه**)، أى فيما أعلم به، (**على غاية اليقين**) والجزم به بلا تردد، فقلبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مطمئن بعلمه لا يقلق ويضطرب؛ لأن أصل معنى الريب الاضطراب كما حققه أهل اللغة.

(**لكنه**) استدراك من كونه على غاية من اليقين؛ لأنه ربما يتوهم إحاطة علمها بتفاصيلها، فلذا قال: (**لا يشترط له العلم بجميع تفاصيل ذلك**)؛ لأنه مما يعجز عنه البشر، (**وإن كان عنده**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**من علم ذلك ما ليس عند جميع البشر**) سواه؛ لما خصه الله به من اطلاعه على ما لم يطلع عليه أحد غيره؛ (**لقوله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه البيهقى: (**إنى لا أعلم إلا ما علمنى ربى**)، أى لا أعلم شيئًا مما يخفى على الناس إلا بتعليمه تعالى، (**ولقوله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث روى فى الصحيحين: (**ولا خطر**)، أى طرأ علمه (**على قلب بشر**)، أى أحد من الناس، هو حديث قدسى، أوله: «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، بله ما اطلعتم عليه، اقرأوا إن شئتم: (﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ [السجدة: ١٧] **الآية**)»، ففيه دليل على أن من أحوال السعداء ما لم يطلع عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وبله اسم فعل بمعنى دع، والآية أيضًا تدل على أن الله تعالى أخفى ذلك عن أنبيائه من أحوال السعداء التى تتجافى جنوبهم عن المضاجع، وقرة العين سرورها، إما لأن دمعة السرور باردة، أو لأنها تقر وتسكن لعدم التفاتها لغير ما هى فيه.

(و) مما يدل على أن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قد يخفى عليهم بعض العلوم، **(قول موسى)** كليم الله تعالى، عليه الصلاة والسلام، وهو من كبار الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(للخضر)** فى قصته التى قصها الله تعالى فى القرآن: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾ [الكهف: ٦٦]، وموسى هو ابن عمران، وما روى عن نوف البكالى من أنه موسى بن ميشا، وهو نبى آخر من بنى إسرائيل، ليس من أولى العزم، هو قول أهل الكتاب، يرون أن موسى الكليم مقامه أجل من أن يتعلم من غيره، وقد نقل ما قاله نوف لابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، فقال: كذب عدو الله، وإنما هو ابن عمران، واستشكل هذا بأن نوفًا تابعى صالح ثقة، فكيف يقال: إنه عدو الله، فقيل: إنه قصد زجره فى حال شدة غضبه وتهوره، لما سمع ما يخالف ما صح عنده عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم.

وأما كونه استعارة، كقاتله الله، فليس بشىء، والخضر هو صاحب موسى، عليه الصلاة والسلام، وهو بليا بن ملكان، والكلام فيه هل هو ولى أو ملك، وهل هو حى الآن مشهور، وللعلامة الخيضرى فيه كتاب سماه الروض النضر فى أحوال الخضر، لم يدع فيه مقالاً لغيره يحتاج إليه، وخضر كحذر، لقبه سمى به؛ لأنه كان إذا جلس على أرض اخضرت، وقصته معلومة، وتفسير هذه الآية قد كفينا مؤنته، ووجه استشهاد المصنف بهذه الآية والقصة غنى عن البيان.

(و) مما يدل على أن النبى لا يجب أن يعلم تفاصيل كل شىء، **(قوله)** صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث صحيح رواه الديلمى، عن أنس، رضى الله عنه، فى بعض الأدعية المأثورة عنه صلى الله تعالى عليه وسلم: **(أسألك)** يا ألله **(بأسمائك الحسنى)**، تأنيث أحسن، وأسماؤه عز وجل كلها حسنة، لما دلت عليه من المعانى الجليلة، والحسن فى العرف العالم، يقال لما يدرك بالبصر، وأكثر ما جاء فى القرآن لما تستحسنه البصيرة، كقوله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ**﴾ [الزمر: ١٨]، كما قاله الراغب فى مفرداته، **(ما علمت منها وما لم أعلم)**، بدل من أسمائك، وهذا الحديث يدل على أن لله أسماء لم يعلمها صلى الله تعالى عليه وسلم مما لا يعلمه إلا الله ولا ضير فى مثله.

(قوله)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه أحمد فى مسنده فيه: **(أسألك بكل اسم هو لك)**، أى مخصوص لك، **(سميت به نفسك)**، أى ذاتك، وفيه دليل على صحة إطلاق النفس على ذاته من غير مشاكلة خلافًا لمن منعه، وفيه لبعض المحققين تفصيل حسن، وهو أنه إن كان بمعنى الذات صح إطلاقه مطلقًا، نحو: ﴿**كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ**

﴿ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ [الأنعام: ١٢]، وإن كان بمعنى الروح ونحوه، كقوله تعالى: (﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾) [المائدة: ١١٦]، لم يطلق إلا مشاكلة فتدبر، **(أو استأثرت به)**، أى انفردت بعلمه دون غيرك، **(فى علم الغيب عندك)**، أى فى جملة معلوماتك المغيبة عن غيرك، والشاهد فيه كالحديث الذى قبله.

(وقد قال الله تعالى)، مما يدل على أنه لا يحيط بجميع العلوم غيره: (﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾) [يوسف: ٧٦] هو أعلم وأعلى رتبة فى العلم، فهذا دليل على أن علم البشر متناه محصور. وقال القاضى فى تفسيره: المراد كل ذى علم من الخلق؛ لأن الكلام فيهم، ولأن العليم هو الله عز وجل، الذى له العلم البالغ، فلا فرق بينه وبين قولنا: فوق كل العلماء عليم، وهو مخصوص. انتهى.

وهو إشارة إلى دفع شبهة تقريرها، أن الله ذو علم، فهو داخل فى هذه الكلية، فيقتضى أن فوق الله عليم يعلم ما لم يعلمه، بأنها قضية مخصوصة بالمخلوقين، فالعليم الذى فوق كل ذى علم، هو الله لا غير، فهو عام مخصوص.

(قال زيد بن أسلم وغيره) فى تفسير هذه الآية إشارة لما قلنا: المراد أن رتبة العلماء لا تزال تترقى فى العلم، **(حتى ينتهى العلم إلى الله تعالى)**، فهو الذى فوق كل ذى علم فوقية بالغة إلى مرتبة ليس فوقها شىء أصلاً، فهو العليم المحيط علمه بكل شىء علمًا بسائر الجزئيات علمًا تفصيليًا خلافًا للفلاسفة القائلين بأنه يعلم الكليات دون الجزئيات وبطلان قولهم مذكور فى كتب الكلام، إلا أن النصير الطوسى قال فى مقالة له فى هذا المبحث: إن المخطئين لم يقفوا على مرادهم، وأنهم لم ينكروا ذلك، وهو كلام طويل لا يحيط به نطاق البيان هنا، وقد ذهب إلى ما قاله النصير ابن عربى فى فتوحاته وارتضاه بعض مشايخ عصرنا ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]، ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾.

(وهذا)، أى انتهاء العلم إليه تعالى، **(ما لا خفاء به)** عند من له عقل سليم، **(إذ معلوماته تعالى لا يحاط بها)**، أى لا يقفون على جميعها ولا يحيطون بشىء من علمه، وقد أحاط بكل شىء علمًا، وهو فى الأصل استعارة من إحاطة الحائطة بما فى داخله، **(ولا منتهى لها)**، عطف تفسير لعدم الإحاطة، **(هذا)**، أى ما ذكر فى عصمة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما يتعلق بعقد قلبه فيما ذكر فى هذا الفصل، كما أشار إليه بقوله: **(حكم عقد)** قلب **(النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى اعتقاده الجازم فيما ذكر فى هذا الفصل **(فى التوحيد)**، المراد به ما يتعلق بالعقائد، **(والشرع)** ونحوه مما أوحى إليه،

(والمعارف والأمور الدينية)، من عطف بعض أفراد العالم عليه لمزيته، والكلام على العلم وحقيقة علم الله الحضورى وما له وعليه مما تكلفت به الكتب الكلامية، ولكل مقام مقال.

* * *

(فصل) [فى إجماع الأمة على عصمة النبى ﷺ من الشيطان]

(واعلم أن الأمة) أى أمة الإجابة **(مجتمعة على عصمة النبى)**، أى حفظه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(من الشيطان)**، والتعريف فى النبى للجنس أو للاستغراق، ويجوز أن يكون للعهد، ويعلم غيره بطريق الدلالة، فإنه تعالى قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، فإذا لم يكن له سلطان على خلص عباده، علم أنه ليس له تسلط على أنبيائه، عليهم الصلاة والسلام، بالطريق الأولى.

(وكفايته منه)، أى حمايته **(لا فى جسمه بأنواع الأذى)**، أى أذى الشيطان مما يكون من إصابته أو إصابة جنده من الجن، كالصرع والطاعون وذات الجنب، فإنها من الشيطان، ولذا لم يرض، صلى الله تعالى عليه وسلم، بلدوده فى مرض موته؛ لظنهم أن به ذات الجنب، فقال: «إنها من الشيطان، وقد عصمنى الله منه»، كما يأتى، ومنه علم أن الطاعون لا يصيب الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

(ولا) يسلط الشيطان **(على خاطره)**، أى فكره وقلبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بالوساوس)**، جمع وسوسة، وهو ما يلقيه الشيطان فى نفسه قبل، ومن الوسوسة ما هو غير اختيارى يقدر الإنسان على دفعه، ولا يؤاخذ به ما لم يعمل أو يتكلم، وهذا مما لم يعصم عنه أحد؛ لأنه من الأعراض البشرية، إلا أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، معصوم عن أن يقر فيه إذا عرضت له نادرًا، وليس من هذا القبيل السحر، فتأمله.

(وقد أخبرنا القاضى الحافظ أبو على)، هو ابن سكرة، وقد تقدمت ترجمته، قال: **(حدثنا أبو الفضل بن خيرون العدل)**، تقدم أيضًا، قال: **(حدثنا أبو بكر البرقانى وغيره)**، بكسر الباء الموحدة، وسكون الراء المهملة، وقاف وألف ونون، نسبة لبرقانة، قرية من نواحى خوارزم، وهو الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب الخوارزمى الشافعى، إمام بغداد كما تقدم، قال: **(حدثنا أبو الحسن)** على بن عمر **(الدارقطنى)**، نسبة لدارقطن، محلة ببغداد كما تقدم، قال: **(حدثنا إسماعيل)** بن محمد ابن إسماعيل الثقة النحوى المشهور **(الصفار)**، نسبة لعمل الصفر، وهو النحاس، توفى سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، وقد جاوز التسعين بأربع سنين، قال: **(حدثنا عباس)**، بمهملتين بينهما موحدة

(الترقفى)، بفتح المثناة الفوقية وسكون الراء وضم القاف وفاء مكسورة وياء نسبة، وهو إمام ثقة روى عنه ابن ماجه وغيره، وهو يروى عن الفريابى، وترقف قيل: اسم امرأة، وقيل: اسم بلدة.

قال: **(حدثنا محمد بن يوسف)**، وهو الفريابى، وقد تقدم، **(عن سفيان)** الثورى، وقد تقدم، **(عن منصور)**، هو ابن المعتمر، وقد تقدم، **(عن سالم بن أبى الجعد)** الأشجعى الكوفى، وقد تقدم أيضًا، **(عن مسروق)** بن الأجدع الهمدانى العابد، الزاهد، التابعى، توفى سنة ثلاث وستين، وأخرج له الستة، **(عن عبد الله بن مسعود)** الصحابى المشهور، فى حديث رواه مسلم، عن سالم بن أبى الجعد، عن أبيه، عن ابن مسعود، ورواه من طريق آخر لعلو سنده فيه وعظم رجاله.

(قال) ابن مسعود: **(قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: ما منكم)**، أى معاشر الناس **(من أحد)**، من زائدة، وأحد مبتدأ خبره مقدم عليه، وهو منكم، وزيادة من لتأكيد العموم، **(إلا وقد وكل)**، مشدد مبنى للمجهول، أى عين لملازمته كالحفيظ الملازم لمن يحفظه، كما قال تعالى: ﴿**وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ**﴾ [الأنعام: ١٠٧]، فاستعمل المقيد فى المطلق مجازًا **(به قرينه)**، أى الذى يكون مقارنًا له، **(من الجن وقرينه من الملائكة)**، أما قرين الجن، فإنه موكل بوسوسته وإغوائه، وأما قرينه من الملائكة، فهو من الحفظة لا من الكتبة كما قيل؛ لعدم مناسبته لما هنا.

(قالوا)، أى قال الصحابة الحاضرون عنده، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(وإياك يا رسول الله)**، أيا ضمير نصب معمول لمقدر، وأصله أوكل بك قرين من الجن كغيرك، فحذف الفعل وحرف الجر، فانتصب الضمير وانفصل، وإنما عدل عن الظاهر تأدبًا، وإشارة إلى استبعاد أن يكون كغيره فى ذلك؛ لأن معنى توكيله به تسليطه عليه بوسوسته وإغوائه، وهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، معصوم من مثله، أو الضمير مستعار من ضمير الرفع، وأصله وأنت، كما ورد فى رواية صححها البرهان، عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، وسيأتى.

(قال) رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(وإياى)**، أى وكل بى قرين من الجن كغيرى، ثم استدرك بيان تميزه صلى الله تعالى عليه وسلم عنهم بقوله: **(ولكن)**، بالتشديد والتخفيف، **(الله)**، بالرفع والنصب على وجهين، لكن **(أعاننى عليه)**، أى على قرينى من الجن، فحفظنى منه، ومنعه من التسلط علىَّ لهدايته للإسلام، **(فأسلم)**، بصيغة الماضى من الإسلام، أى هدى الله قرينى للإسلام ببركة مقارنته له، صلى الله تعالى عليه

وسلم، أو هو مضارع مرفوع فاعله ضميره، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى سلمنى الله منه.

وقال النصير الطوسى فى شرح الإشارات فى الحديث: «ما من مولود ولد من بنى آدم، إلا ولد معه قرينه من الشياطين»، فقيل: وأنت يا رسول الله كذلك؟ قال: «وأنا كذلك، إلا أن الله أعاننى عليه، فأسلم»[1]، أى فأسلم الشيطان، ومنهم من أنكر هذه الرواية، وقال: الرواية الصحيحة: «فأسلم»، ومعناها أن الله أعاننى عليه حتى أسلم من شره، فإن الشيطان لا يسلم قط، انتهى.

ومنهم من أوله، فقال: المراد بالشيطان القوة الغضبية، وإسلامها انقيادها للعقل والنفس القدسية، وإليه ذهب الإمام الغزالى فى الإحياء، ويجوز كون الروايتين بمعنى على أن أسلم، مضارع منصوب على نهج قوله[2]:

وألحق بالحجاز فأستريحا

ولك أن تقول: أعاننى عليه، بمعنى لم يسلطه علىَّ، فالمضارع منصوب فى جواب النفى، وقد يخرج عليه البيت.

(زاد غيره) أى غير سفيان، راوى هذا الحديث فيه، **(عن منصور)** بن المعتمر الذى تقدم فى جملة رواة هذا الحديث، **(فلا يأمرنى)** هذا القرين **(إلا بخير)**، فصار قرينه صلى الله تعالى عليه وسلم قرين خير.

(و) روى **(عن عائشة)**، رضى الله عنها، **(بمعناه)**، و**(روى)**، أى عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، فهو بيان لما قبله، **(فأسلم، بضم الميم)**، وهمزة المتكلم مضارع مرفوع، **(أى)** فأنا **(أسلم منه)**، وفى نسخة: أى فأسلم أنا منه، ومن وسوسته، **(وصحح بعضهم هذه الرواية ورجحها)** على الرواية الأولى، ولم يخرجه المحدثون، وقد تقدم فى كلام الطوسى، وهو ليس من فرسان هذا الميدان.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) عجزه بيت وصدره:

سأترك منزلى لبنى تميم

والبيت من الوافر، وهو للمغيرة بن حبناء فى خزانة الأدب (٥٢٢/٨)، الدرر (٣٤٠/١)، شرح شواهد الإيضاح (ص٢٥١)، شرح شواهد المغنى (ص٤٩٧)، المقاصد النحوية (٣٩٠/٤)، وبلا نسبة فى الرد على النحاة (ص١٢٥)، رصف المبانى (ص٣٧٩)، شرح الأشمونى (٥٦٥/٣)، شرح شذور الذهب (ص٣٨٩)، شرح المفصل (٥٥/٧)، المحتسب (١٩٧/١)، مغنى اللبيب (١٧٥/١).

(وروى) بالبناء للمجهول، والرواية فى صحيح البخارى: **(فأسلم)**، بصيغة الماضى، **(يعنى القرين)**، تفسير لضمير الفاعل المستتر فيه، ومعنى أسلم **(أنه انتقل عن حال كفره)** بناء على أن الشياطين منهم من يسلم.

وقوله: **(إلى الإسلام)**، متعلق بانتقل، أى تحول من حال لأخرى، **(فصار لا يأمر إلا بخير كالملك)** القرين الموكل به، **(وهو)**، أى هذا المعنى، وهو انتقاله من الكفر إلى الإسلام، **(ظاهر الحديث)** المفهوم من سياقه، بدليل قوله: **(ورواه بعضهم: فاستسلم)**، أى انقاد وكف عن الوسوسة.

قال ابن الأثير: رواية: «أسلم» بفتح الميم، يشهد لها ما روى: «كان شيطان آدم كافرًا وشيطانى مسلمًا»(١)، ورواية: «حتى أسلم»، ورواية: «مسلم»، بضم الميم، وقد علمت أن المصنف، رحمه الله، مرجح لرواية الفتح، وأن فى الحديث ثلاث روايات، وأن أسلم جاء بمعنى استسلم وانقاد أيضًا، قيل: إنه تقدم أن الشيطان ممنوع من التسلط بالأذى على المؤمنين، وفيه أنا نجد منهم من حصل له مس وخطف كتميم، رضى الله تعالى عنه، فلعله لتقدم سبب يمنع من حفظه. انتهى.

ولا يخفى أنه فى حق الأنبياء محقق، وفى غيرهم أغلبى، والنادر لا حكم له، ومر أن القرين الملازم، ولذا سميت الزوجة: قرينة، وقدم قرين الجن؛ لمناسبته المقام له، وحديث عائشة هذا فى مسلم، قالت: خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من عندها ذات ليلة، قالت: فغرت، فلما جاء قال: «ما لك يا عائشة، أغرت؟»، فقالت: كيف لا يغار مثلى على مثلك؟ فقال: «هذا من شيطانك»، قلت: أو معى شيطان يا رسول الله؟ قال: «نعم، ومع كل إنسان»، قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: «نعم، ولكن الله أعاننى عليه حتى أسلم»(٢).

قال الخطابى، رحمه الله تعالى: الصحيح المختار عندهم، أى ورجحه القاضى عياض، الفتح كما مر، وهو المختار لقوله: «ولا يأمر إلا بخير»، واختلفوا فى الفتح، فقيل: أسلم بمعنى استسلم كما رواه مسلم، وقيل: معناه صار مسلمًا، وهو الظاهر. انتهى.

وأيد هذا بما أخرجه البيهقى، وابن الجوزى فى الوفاء، عن نافع، عن ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «فضلت على آدم بخصلتين، كان شيطانى كافرًا، فأعاننى الله عليه حتى أسلم، وكن أزواجى عونًا لى، وكان شيطان آدم

---

(١) أخرجه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/١٧٦).

(٢) تقدم تخريجه.

كافرًا، وكانت زوجته عونًا على خطيئته»[(١)]، وقد أشار إلى ذلك الصرصرى، رحمه الله تعالى، فى نونيته بقوله:

فى خصلتين يفوق آدم فيهما وهما لأهل الحق واضحتان
شيطان آدم كافر يغوى وقد وصلت هدايته إلى الشيطان
ولزوجه عون عليه وأنه بنسائه قد كان خير معان

ونقل الشيخ محمد الشامى فى سيرته عن المطلع: ما أسلم من الشياطين إلا شياطنان، شيطان نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشيطان نوح، عليه الصلاة والسلام. وقال بعضهم: بل سائر الأنبياء على هذا المنوال، فتدبر.

(**قال القاضى أبو الفضل**) عياض، مصنف هذا الكتاب، رحمه الله تعالى، (**فإذا كان هذا حكم شيطانه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى احتياجه إلى إعانة الله تعالى له عليه حتى يسلم منه، (**و**) حكم (**قرينه**) من الجن الذى وكل به، وهو عطف تفسير لما قبله، ووصفه بقوله: (**المسلط على كل أحد من بنى آدم**)، وفى نسخة: المسلط على بنى آدم، والمراد المسلط نوعه وجنسه؛ لأن قرينه مختص به، (**فكيف**) الظن (**بمن بعد منه**)، ولم يقارنه من الشياطين، أيتوهم أحد أنه لا يسلم منه، فعدم تسلطه معلوم بالطريق الأولى؛ لأنه لا يقدر على الدنو منه.

(**و**) هو (**لم يلزم صحبته**)؛ لأن الله لم يجعله قرينًا له، إذ القرين معناه الملازم للصحبة كما تقدم، (**ولا أقدر**)، بضم الهمزة والبناء للمفعول، أى لم يجعله قادرًا، (**على الدنو**) والقرب (**منه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعصمة الله له عن تسلطه عليه وعلى سائر الأنبياء وخلص عباده.

(**وقد جاءت الآثار**) والأحاديث المروية عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**بتصدى**)، أى تعرض (**الشياطين له**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**فى غير موطن**)، أى فى مواضع كثيرة، كالصلاة وغيرها (**رغبة**) مفعول له أو حال، (**فى إطفاء نوره**)، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، (**وإماتة نفسه**)، أى إهلاكه أو صده عما هو مشغول به من العبادة، (**وإدخال شغل عليه**)، أى بالوسوسة المانعة له عن الفكر فيما فيه صلاحه وصلاح أمته فعلوا ذلك، (**إذ يئسوا من إغوائه**)، وإضلاله عن طريق الحق، (**فانقلبوا**)، أى رجعوا عما تصدوا له، (**خاسرين**) خائبين لعدم قدرتهم عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى القرب منه.

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤٨٨/٥)، والخطيب فى تاريخه (٣٣١/٣)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (١٧٦/١).

(**كتعوضه له**)، أى تعرض الشيطان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو مستغرق بالتوجه إلى الله تعالى، (**فى صلاته، فأسره**)، أى أخذه وقهره، باستيلائه عليه قهرًا، وبينه بقوله: (**ففى الصحاح**)، أى الأحاديث الصحيحة المروية فى البخارى، ومسلم، وغيرهما، (**قال أبو هريرة**)، رضى الله تعالى عنه، فى حديث رواه (**عنه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم: (**إن الشيطان تعرض لى**)، وفى نسخة: «عرض لى»، أى أتانى ووقف عندى.

(**قال عبد الرزاق**) بن همام، الإمام الحافظ كما تقدم فى ترجمته، وهذا فى زيادته على الصحيحين: (**فى صورة هر**)، وهو السنور الذى يقال له: قط، والشياطين تتمثل بأى صورة أرادت من صور الحيوان وغيره، (**فشد علىّ**)، أى حمل ووثب وثبة علىّ، يقال: شد يشد بكسر الشين المعجمة وضمها، إذا حمل على العدو ونحوه، (**يقطع علىّ الصلاة**)، أى يبطل صلاتى بإخراجى منها، وأصله: «ليقطع علىّ...» إلى آخره، أو أراد أن يقطع صلاتى ويفسدها، (**فأمكننى الله منه**)، أى أقدرنى عليه، ومكننى من أخذه وقهره.

(**فدعته**)، بفاء ودال مهملة ومعجمة وعين مهملة ومعجمة، ويقال: دأته، بدال مهملة وهمزة، أى خلته ودفعته حتى صرعته، وروى: «فأخذت بحلقه»، وأصل الدعت بمهملة ومعجمة الدفع بعنف، والمعك فى التراب كما فى النهاية، وفى غيرها أنه الغط فى الماء والخنق الشديد، وأنكر الخطابى المهملة وصححه غيره.

(**ولقد هممت أن أوثقه**)، أى أربطه، والوثاق ما يشد به، قال تعالى: ﴿**فَشُدُّوا الْوَثَاقَ**﴾ [محمد: ٤]، وهممت بمعنى عزمت ونويت (**إلى سارية**)، وروى: بسارية من سوارى المسجد، والسارية العمود المنصوب ليوضع عليه سقف ونحوه، وكان ذلك فى تهجده، ولذا قال: (**حتى تصبحوا**)، أى تدخلون فى وقت الصباح، (**تنظرون إليه، فذكرت قول أخى سليمان**)، عليه الصلاة والسلام، والأخوة هنا المراد بها أخوة النبوة؛ لأنها تطلق على المشابهة والمشاركة فى أمر ما، (﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا**﴾ [ص: ٣٥] **الآية**)؛ لأن الملك الذى أعطاه الله له ملك الإنس والجن والدنيا كلها، وليس طلب سليمان لذلك محبة للدنيا وزينتها، إنما هو لأجل أن يتم له إعلاء كلمة الله وتنفيذ أمره.

وقدم الدعاء بالمغفرة عليه؛ لأنه أدعى للإجابة، وللإشارة إلى أن القيام بأعباء الملك والنبوة شاغل عن العبودية، فهو عنده، صلى الله تعالى عليه وسلم، كالذنب، (**فرده الله**)، أى رد ذلك الشيطان (**خاسئًا**)، أى خائبًا حقير العدم ظفره بما أراد، ومنه قولهم للكلب: اخسأ؛ لأنها تدل على الطرد مع التحقير. قال الخطابى: هذا يدل على أن سليمان، عليه

السلام، وأصحابه كانوا يرون الجن على خلقتهم الأصلية، فيجوز وقوعه لغيرهم.

فإن قلت: كيف يأتي الشيطان لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد قال: «لو سلك عمر فجًا لم يسلكه الشيطان»[1]، فكيف يخاف عمر ولا يخافه، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى يتغلب عليه؟.

قلت: عمر، رضى الله تعالى عنه، لما لم يكن معصومًا محفوظًا من الجن، حفظه الله بإلقاء الرعب منه فى قلوبهم لجدته وشدته، والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، معصوم من الجن والإنس، فلو سلكوا فجه أخذوا وأوثقوا، ويكون ذلك معجزة له، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا تليق بغيره كما قيل. وفى شرح مسلم للنووى: أن سليمان، عليه الصلاة والسلام، اختص بهذا عن غيره، فامتناعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن إمساكه إما لأنه لم يقدر عليه لذلك، أو قدر وتركه تواضعًا وتأدبًا منه، وكونه لم يقدر عليه يرده قوله: «أمكننى الله منه».

(وفى حديث أبى الدرداء)، رضى الله تعالى عنه، **(عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، الذى رواه البيهقى، عن عبد الرحمن بن حبيش، وأبو الدرداء هو عويمر، واختلف فى اسم أبيه على أقوال، فقيل: عامر، وقيل: مالك، وقيل: قيس، وقيل: ثعلبة، وهو أنصارى خزرجى، أسلم عقب بدر، وتوفى سنة اثنين وثلاثين، وأخرج له أحمد والستة، وله مناقب مشهورة، **(إن عدو الله إبليس)** لعنه الله، **(جاءنى بشهاب)**، أى شعلة، **(من نار ليجعله فى وجهى)**، أى يلقيه عليه ليقطع صلاته، **(والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الصلاة)**، جملة حالية أو معترضة من كلام أبى الدرداء، **(وذكر)** أبو الدرداء **(تعوذه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بالله منه)**، أى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «أعوذ بالله منك»، **(ولعنه له)**، وقوله: **(ثم أردت أخذه)**، مصدر مفعول لأردت، وفى نسخة: آخذه، مضارع بتقدير أن كما فى بعض النسخ.

(وذكر نحوه)، أى نحو قول أبى الدرداء، كهممت أن أوثقه، وفاعل ذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (و) كذا **(قال: وفيه تقدير)**، أى لو أوثقته **(لأصبح موثقًا)**، أى مربوطًا **(يتلاعب به ولدان أهل المدينة)**، ولدان بكسر الواو، جمع وليد، وهو الصبى الصغير، وهذا الحديث فى مسلم، وفيه مسائل فقهية، منها أن الدعاء على غيره بالخطاب لا يبطل الصلاة؛ لقوله فيه: «لعنك الله»، إن لم نقل أنه مخصوص به صلى الله تعالى عليه

---

(١) أخرجه البخارى (٤/١٥٣، ٨/٦٨)، ومسلم (٢٢/٢٣٩٦)، وأحمد (١/١٧١)، وابن سعد (٨/١٣١).

وسلم، أو قبل تحريم الكلام، وأن الجن ترى بخلقتها الأصلية، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ**﴾ [الأعراف: ٢٧] أغلبى، وقد قيل: إنه مخصوص بالأنبياء، كرؤية الملك.

قال الشافعى: ومن زعم أنه يراهم، ردت شهادته وعزر لمخالفته القرآن، وكان النووى أخذ منه قوله: من منع التفضيل بين الأنبياء عزر لمخالفته القرآن، وحمل بعضهم كلام الشافعى على زاعم رؤية صورهم التى خلقوا عليها، واستشكل ما ذكر شيخنا ابن قاسم بأن غاية ما فى الآية إثبات حالة مخصوصة، وهى تمكنهم من رؤيتنا فى حالة لا نراهم فيها، وليس فيها عموم ولا حصر، وذلك لا ينافى أن لنا حالة أخرى نراهم فيها خصوصًا، وقد وردت الأدلة برؤيتهم.

(**وكذلك**)، أى مثل حديث أبى الدرداء، ما روى (**فى حديثه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، الوارد (**فى الإسراء، وطلب عفريت له**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، وطلبه هنا بمعنى توجهه نحوه ليرميه، (**بشعلة من نار، فعلمه جبريل**)، عليهما الصلاة والسلام ، (**ما يتعوذ به منه**)، بأن قال له: قل: أعوذ بالله منك، فإنه حرز له، (**وذكره**)، أى أمر الشيطان معه فى الإسراء، وتعليم جبريل له، الإمام مالك، رحمه الله، (**فى الموطأ**)، وهذا كان قبل صعوده، صلى الله تعالى عليه وسلم، للإسراء، وكونه قصد تعليم جبريل له، لا معنى له.

والعفريت: الشديد الخبث المتمرد من الجن، وإطلاقه على غيرهم مجاوز، والكلام على اشتقاقه وغيره مبسوط فى كتب اللغة، وما علمه له جبريل، هو قوله: «أعوذ بوجه الله الكريم، وكلمات الله التامات، التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر، من شر ما ينزل من السماء، وشر ما يعرج فيها، وشر ما ذرأ فى الأرض، وشر ما يخرج منها، وشر فتن الليل والنهار، وشر طوارق الليل، إلا طارقًا يطرق بخير»(١)، وقال له: إن قلتهن أطفأت ناره.

(**ولما لم يقدر**) الشيطان (**على أذاه**)، إذ لم يصل إليه، ولم يسلط عليه؛ لعصمة الله تعالى له، (**بمباشرته**)، أى بالقرب منه جدًا؛ لأنها فى الأصل ملامسة البشرة، وهى ظاهر البدن، (**تسبب بالتوسط إلى عداه**)، بكسر العين وضمها، اسم جمع عدو، أى لما لم يصل إليه ابتداء، وكان متمكنًا فى الوصل لأعدائه وهم الكفرة، جعلهم واسطة وسببًا لإيصال

---

(١) أخرجه البخارى (٦/٧١، ٩/١٢٥)، وأحمد (٣/٣٠٩)، وأبو نعيم فى دلائل النبوة (١/٦٠)، وابن أبى عاصم فى السنة (١/١٢٩)، والحميدى (١٢٥٩)، وابن جرير فى تفسيره (٧/١٤٣).

الأذى إليه؛ بإغوائهم وتحريضهم على أذيتهم وإغرائهم عليـه، **(كقصته)**، أى الشيطان، **(مع قريش)** بعد موت أبى طالب، لما جد، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى دعوتهم وإنذارهم، **(فى الائتمار)**، هو افتعال من الأمر، ومعناه المشاورة فى المهم، **(بقتل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وهو رأيهم الذى استقروا عليه.

(وتصوره)، أى ظهور إبليس، لعنه الله، **(فى صورة الشيخ النجدى)**، نسبة لنجد، وهى أرض فوق تهامة، وإنما تصور بصورة شيخ؛ لما يعلمونه من تجربة الشيوخ وحسن رأيهم، وكانت صورته صورة نجدى؛ لأنهم لما اجتمعوا بدار الندوة، قالوا: لا تدخلن عليكم ومعكم فى الشورى أحدًا من أهل تهامة؛ لأن هواهم مع محمد، ولما ورد فى الحديث: إنها محل الفتن، ومنها نجم قرن الشيطان، وكان وقف بباب دار الندوة، وهى دار قصى التى كانوا يجتمعون فيها لما يهمهم، كما مر، فقالوا له: من أنت؟ قال: شيخ من نجد، رأيت اجتماعكم للشورى، ولن تعدموا منى رأيًا ونصحًا، فقال أبو البخترى: أرى أن تحبسوه فى دار تسدوا منافذها، غير كوة تعطوه منها طعامه وشرابه، فقال الشيخ: بئس الرأى، يأتيكم من يقاتلكم ويخرجه منها، فقال الأسود بن ربيعة: أرى أن تخرجوه من أرضكم، فلا يضركم ما يصنع، فقال الشيخ: بئس الرأى، إذا أخرجتموه يفسد قومًا غيركم ويقاتلكم بهم.

فقال أبو جهل: أرى أن تأخذوا من كل بطن غلامًا معه سيف فيضربونه ضربة واحدة، فيتفرق دمه فى القبائل، فلا تقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم فتعقله، أى فيرضوا منا بالدية، فقال الشيخ: صدق الغلام، فتفرقوا على رأيه، فأخبره جبريل، عليه الصلاة والسلام، بذلك ونزل عليه: (﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ**﴾ [الأنفال: ٣٠] **الآية**)، وأمر بالهجرة، فكان ما فصل فى السير.

(و) تصور الشيطان **(مرة أخرى فى غزوة يوم بدر)**، فى حديث رواه ابن أبى حاتم، عن ابن عباس، كما قاله السيوطى، رحمه الله تعالى، ولم يورد الحديث، **(فى صورة سراقة بن مالك)** الذى قدمنا ترجمته، **(وهو قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾** [الأنفال: ٤٨] **الآية)**، وكان من أمره ما رواه البيهقى، رحمه الله تعالى، فى دلائله: أن الشيطان تمثل لكفار قريش ببدر فى سورة سراقة بن مالك بن جعشم الكنانى، وكانت قريش تخاف من بنى بكر أن يأتوا لهم من خلفهم؛ لأنهم كانوا قتلوا رجلاً منهم، فقال لهم: ما أخبر الله به من إلقاء الشيطان لهم أنهم لا ينهزمون، وهم يقاتلون عن دين آبائهم، وكان تمثل مع جنده لهم بصورة قوم من بنى مدلج فيهم سراقة أتوا لإمدادهم، فقال الشيطان لهم: ﴿**لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ**﴾ [الأنفال: ٤٨]، فأمدهم الله

بجنود من الملائكة، فلما رآهم إبليس ولى عنهم، فقالوا له: إنك جار لنا، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال: ٤٨]، أى إهلاكه لى ولجندى، وهو أحد الوجوه فى الآية، وإليه أشار المصنف، رحمه الله تعالى، وقيل: المراد وسوسته لهم مما ذكر.

(و) تصور الشيطان أيضًا **(مرة)** أخرى **(ينذر)** قريشًا ويخوفهم **(بشأنه)**، أى بأمره، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(عند بيعة العقبة)**، وهى منى السفلى التى بايعه الأنصار عندها قبل الهجرة مرات، كما فصل فى السير، والمراد البيعة الثالثة، وكان الأنصار بايعوه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بها بمحل فيه الأن مسجد يسمى مسجد البيعة، فلما رأى ذلك الشيطان صرخ بأعلى صوته: هذا محمد ومعه الصباه قد أجمعوا على حربكم، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما سمعه: «هذا أزب العقبة»[1]، أى شيطانها، وأصله الأزب بهمزة وزاى معجمة مفتوحتين، الكثير الشعر، سمى به الشيطان وتفصيله فى السير أيضًا.

(وكل هذا) المذكور من أمر الشيطان الذى تعرض فيه لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما ذكر، **(فقد كفاه الله أمره)**، الفاء زائدة فى الخبر، أو هو بتقدير أما أو توهمها، وعلى ما فى بعض النسخ، وقد بالواو الخبر مقدر، أى وقع حفظه فيه، **(وعصمه ضره)**، بفتح الضاد، أى ضرره، وضمها غير مناسب هنا، والضمير لكل أو للشيطان، **(وشره)**، كما كفى فى سائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، إذ عصمهم منه.

(وقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم:) فى حديث رواه الشيخان، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، **(إن عيسى)**، نبى الله **(عليه السلام، كفى)**، بالبناء للمجهول، أى كفاه الله، وحفظه **(من لمسه)**، أى من أن يلمسه، أو يمسه، كما يأتى بيانه، والضمير للشيطان؛ للعلم به من السياق، **(فجاء)** الشيطان لعيسى، عليه السلام، حين ولادته؛ **(ليطعن)**، أى لينخسه ويمسه **(بيده فى خاصرته)**، بخاء معجمة، وصاد مهملة، هى جانبه مما فوق أضلاعه، وهى الشاكلة أيضًا، **(حين ولد، فطعن فى الحجاب)**، أى فى شىء حجبه عن الوصول للمس جسده، قيل: هو المشيمة، وقيل: ما لف فيه، وقيل: إنه أمر حجبه الله عنه، أو حجبته أمه مريم عنه، والفاء سببية، أى بسبب كفاية الله تعالى له وقع طعنه فى الحجاب.

والحديث: «كل بنى آدم يطعنه الشيطان فى جنبه بإصبعه حين يولد، غير عيسى،

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤٤٨)، والطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٦/٤٥).

عليه الصلاة والسلام، ذهب ليطعنه، فطعن فى الحجاب»[١]، وفى رواية: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد ويستهل صارخًا من مس الشيطان، إلا مريم وابنها»، وهو المذكور فى آية: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]، وليس هذا مخصوصًا بعيسى كما قد يتوهم من ظاهره.

وفى شرح مسلم عموم عدم طعن إبليس ونخسه، لم يقم عليه دليل غير عصمة الأنبياء، ولا يلزم منها أن لا يمس، إنما يلزمها عدم الإغواء والأذية لهم، ولا يلزم من اختصاص عيسى بهذه المنقبة تفضيله على نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، وذكر أمه معه مما يدل عليه دلالة ظاهرة، فقد يخص الله بعض عباده بأمر لم يكن لأفضل منه، نعم حديث مولده، صلى الله تعالى عليه وسلم، الدال على أنه لم يستهل صارخًا، فاختصاص عيسى وأمه إنما هو بالنسبة لمن تمكن الشيطان من القرب منه، لا لمن امتلأت الأرض بالملائكة الحافين به، فتدبر.

ولما ساق مسلم حديث: «ما من مولود يولد، إلا نخسه الشيطان، فيستهل صارخًا من نخسه»[٢]، قال القرطبى فى شرحه: أى فى أول وقت الولادة، يسلط عليه بنخسه، إلا مريم وابنها، عليهما الصلاة والسلام، لدعوة أمها، يعنى قولها: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ [آل عمران: ٣٦] الآية، وأمها امرأة عمران، وهى حنة بنت فاقوذا، وهو عام شامل للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، والأولياء، ومع ذلك عصمهم الله تعالى منه؛ لقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، ولكل قرين من الشياطين، وقد خص الله تعالى نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأن قرينه أسلم، فلا يأمر إلا بخير، وهذه لم يؤتها غيره. انتهى.

وقد تقدم ما فى ذلك، ثم قال: وقول مسلم: صياح المولود نزغة من الشيطان، روى بنون وزاء وغين معجمتين، وروى: فرعة، بفاء وعين مهملة، وللزمخشرى فى تأويل الحديث تخيل يأباه الحق الصريح، فإن أردته فانظر إلى الكشاف وشروحه.

(**وقال، صلى الله تعالى عليه وسلم حين لد**)، بالبناء للمجهول، من اللدود بفتح اللام ودالين مهملتين بينهما واو، دواء بمائع من ماء وأجزاء حارة يوضع فى أحد شقى الفم يتغرغر به، ثم يشربه، وأسماء الأدوية بهذه الزنة كالسعوط، ولما لدوه، صلى الله تعالى

---

(١) أخرجه أحمد (٥٢٣/٢)، والطبرى فى تفسيره (١٦٠/٣، ١٦١).

(٢) أخرجه البخارى (٤٢/٦)، ومسلم (٢٣٦٦/١٤٦)، وأحمد (٢٣٣/٢)، وابن أبى شيبة (٣٨٥/١١).

عليه وسلم، قال: «لا يبقى أحد فى البيت إلا لد»[(١)]، عقوبة لهم لما تألم **(فى مرضه)** الذى مات فيه الإضافة فيه للعهد.

(وقيل له)، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(خشينا)**، أى خفنا عليك **(أن يكون بك)**، أى وقع بك وأصابك، **(ذات الجنب)**، وهو اسم لمرض يكون فى باطن الجنب، كالدمل يتفجر فى الداخل، وذو الجنب من يشتكى منه، ويقال: الدبيلة، ولذا أنث، وهو مخوف، قل من يسلم منه، فهو مؤنث باعتبار أنه سمى دبيلة، لا لأنه لا يصدر إلا مرة واحدة كما قيل، إلا أنه أمر تبع فيه الشراح بعضهم بعضًا، وهو مخالف لما قرره الأطباء، فإن الدبيلة مرض فى الكبد، وذكر بعض الأطباء أنه قد يكون فى المعدة وذات الجنب فى الخاصرة، واسمها معرب عن معناها.

(فقال) صلى الله تعالى عليه وسلم: **(إنها)**، أى ذات الجنب **(من الشيطان)**، أى وهى وخز يصيب الناس من الشيطان كالطاعون، لا أنه لسبب وسوسة كما قيل، وليست أيضًا من طعنة المولود حين يولد، **(ولم يكن الله)** لعصمته له **(ليسلطه علىّ)**، تعظيمًا له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن اللطائف لما قلته مما جنا لبعض الإخوان وقد تزوج بعجوزة:

يا خليلى قد اصطفيت عجوزا ... هى داء من الممات أشد
قال ذات الجنب ابتليت بها ... مالى لدود بها وخصمى ألد

وهذا الحديث رواه فى الموطأ. وقال السهيلى: وذات الجنب تسمى الخاصرة، وهى من سيىء الأسقام الذى استعاذ منه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكانت تصيبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيظنها عرق الكلية، وهو مرض آخر، ومن هنا علم خطأ من قال: إنها لا تصيبه إلا مرة كما تقدم، ولما أرادوا أن يلدوه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أشار إليهم بالمنع منه، فظنوه لكراهة المريض الدواء، فلما أفاق قال: لم يبق أحد فى البيت إلا لد كما مر.

وكونها من الشيطان ومن طعنه، ورد فى أحاديث أخر، وإليه يومىء قوله: **(فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] الآية)**، فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، فإن أصل معنى النزغ لغة إدخال شىء مفسد كالطعن، كما ذكره الراغب، فاتصال السؤال بما قبله ومما عقد له الفصل فى غاية الظهور، وإن أطال فيه بعضهم بغير طائل يفيده، وحاصله أن الله تعالى عصمه، صلى الله

(١) تقدم تخريجه.

تعالى عليه وسلم، من تسلط الشيطان عليه بأذية أو وسوسة، وفى الآية ما يوهم خلافه، وإن كانت إن شرطية لا تقتضى الوقوع ولو سلم، فالمراد أمته لجعل ما يصيبهم، وأسند النزغ للمصدر مجازًا، كقوله: جد جده، وأصل النزغ الطعن، ثم شاع فى كل مفسد كما علم.

(**فقد قال بعض المفسرين**)، فى تفسير هذه الآية: (**إنها**)، أى هذه الآية، (**راجعة إلى قوله**) تعالى قبل: (﴿**وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٩٩]، **ثم قال**) الله (﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ**﴾، **أى يستخفنك غضب**)، أى لا تكاف السفهاء الذين خفت أحلامهم إذا غضبوك بمثل أفعالهم، وأغض عنهم، ولذا قيل: إن هذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق، ولذا قال له جبريل، لما سأله النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، عنها: إن الله أمرك أن تصل من قطعك، وتعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، (**يحملك على ترك الإعراض عنهم**)؛ لجزائه لهم مثل فعلهم.

(**فاستعذ بالله**)، أى قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ولا تطعه وتفعل بنزغه، وهذا من مكارم الأخلاق، لا من أمر يشينه، فإن الغضب على السفيه، وجزاؤه بمثل فعله تأديبًا له، لا تعد من الأمور الشيطانية، والاستعاذة عند الغضب مشروعة، وعلى هذا ليست الآية منسوخة بآية القتال كما قيل.

(**وقيل: النزغ هنا**)، أى فى هذه الآية (**الفساد**) من النزغ، بمعنى الطعن والنخس، (**كما قال تعالى**)، حكاية عن يوسف، عليه السلام، ﴿**مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ**﴾ [يوسف: ١٠٠]، أى أفسد ما بينى وبينهم بما حملهم عليه فى قصته معهم، فالمراد هنا فساده بوسوسته له فى حال غضبه وحمله على ما لا يليق به، فإذا خطر بباله يستعيذ بالله طلبًا للنجاة من كيده.

(**وقيل:**) معنى ينزغنك (**يغرينك**)، من الإغراء، بغين معجمة وراء مهملة، وهو الحث والتحريض على أمر ما، (**ويحركنك**) بإزعاجك للانتقام ممن أغضبه، (**والنزغ أدنى الوسوسة**)، أى أقلها، كحديث النفس والتفكر، وأصل معنى الوسوسة الصوت الخفى، ومنه قيل لصوت الحلى وسوسة، كما قيل:

قالوا كلامك وسواس فقلت لهم   وقد يقال لصوت الحلى وسواس

وهذا تقول له العامة: وشوشة، بالإعجام، (**فأمره الله**) فى هذه الآية (**أنه متى تحرك**)، أى طرأ (**عليه**) وعرض له (**غضب على عدوه**) لسوء ما صدر منه، (**أو رام الشيطان من إغرائه به**)، وإيقاع به كحثه على قتله، فهو بغين معجمة وراء مهملة، وفى نسخة:

أعوانه، بعين مهملة ونون، وما فى بعض النسخ من إغزائه، بغين وزاء معجمتين، فهو تحريف من النساخ، والصواب الأول، **(وخواطر أدنى)**، بمعنى أقل **(وساوسه)** جمع وسواس، **(مما لم يجعل سبيل إليه)**، أى حماه من التلبس بمثله لعصمته منه، **(أن يستعيذ منه)**، لقبول أمره؛ لأن مجرد الوسوسة والخطور بالبال لا يضره فى عصمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإن كان أمرًا ممنوعًا، وهذه الآية فى سورة الأعراف، وهى المذكورة هنا، ووقعت فى سورة فصلت مسبوقة بقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، وهما متماثلان معنى وسياقا.

(فيكفى)، بالبناء للمجهول، أى يكفى الله ورسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا استعاذ به والتجأ إليه **(أمره)**، أى أمر الشيطان بوسوسته لصرفها عنه، **(ويكون)** ذلك **(سبب تمام عصمته)**؛ لعصمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، من مجرد الخواطر، وهو نهاية الحفظ والعصمة، **(إذ لم يسلط)** الشيطان **(عليه بأكثر من التعرض له)**، فضلاً عن التمكن منه وإيصال أذيته له، **(ولم يجعل له قدرة عليه)**، فيرجع خائبًا خاسرًا، **(وقد قيل فى هذه الآية غير هذا)** من التفاسير التى اقتصر منها على ما يناسب غرضه فيما عقد له هذا الفصل.

(وكذلك)، أى مثل ما ذكر من حفظ الله له عن تسلط الشيطان عليه، **(لا يصح أن يتصور له الشيطان فى صورة الملك)**، بأن يتمثل بمثاله، ويقول له: أنا أرسلنى الله تعالى إليك؛ لحفظ الله تعالى له عنه، ومنعه من أن يأتيه بهذه الصورة، وهذه شبهة أوردها منكرو النبوة، بأنه من أين يعلم أن الآتى له ملك بلغه الوحى عن الله تعالى، لم لا يجوز أن يكون جنيًا، **(ويلبس عليه)** أمره، فيلبس الوحى بغيره، **(لا)** يقع ذلك **(فى أول الرسالة)**، أى أول أمره بدعوة الخلق إلى الله تعالى، **(ولا بعدها)** الظاهر بعده، أى بعد الأول فى أثنائه، **(والاعتماد)**، أى اعتماده، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حقية ما آتاه وعدم احتماله لغيره، **(فى ذلك)**، أى فى عدم تلبيس الشيطان عليه وتصوره بصورة الملك، **(دليل المعجزة)**، أى قوة يقينه، دليل على أنه معجزة له، أو هو يعتمد فى أنه أمر إلهى على ما ظهر له من المعجزة، كتسليم الحجر عليه، وإظلال الغمام له، فمعنى قوله: لا يصح، أن لا يجوز عقلاً ذلك، والقول بأنه لا مدخل للعقل فيه، وأنه أمر علم من الشرع، ومعنى لا يصح أنه ممنوع من جانب الشرع كلام باطل، **(بل لا يشك النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن ما يأتيه من الله الملك)**، هذا هو الخبر، أو خبر بعد خبر، **(ورسوله)** الذى أرسله الله إليه من رسل الملائكة، **(حقيقة)** لا تمويهًا ولا تلبيسًا عليه من غير شك فيه.

(**إما بعلم ضرورى يخلقه الله له**)، بديهى غير محتاج لدليل لعدم تردده فيه، (**أو برهان**)، ودليل قطعى، (**يظهره لديه**) مما يشاهده من معجزاته كنطق الحجر وتسليم الشجر، وكل ذلك (**لتتم كلمة ربك**)، فتبلغ الغاية أحكامه وأخباره ومواعيده، (**صدقًا**) فى خبره له ووعيده، (**وعدلاً**) ما حكم به من أحكامه التى بلغها، وهما تمييزان محولان عن الفاعل أو حالان، (**لا مبدل لكلماته**)، أى لا يمكن تغييرها ولا تنسخ بعدما بلغت غاية لا تقبل الزيادة عليها، ولذا كانت شريعته، صلى الله تعالى عليه وسلم، آخر الشرائع، وهذا التعليل بما ذكره من حفظه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من أن يتصور له الشيطان بصورة ملك، فيكون ما يلقيه أمر مخلط قابل للتبديل والتغيير، ولذا عقبه بقوله: (**فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾** [الحج: ٥٢] **الآية**)، **﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾** [الحج: ٥٢].

التمنى هنا بمعنى التلاوة، والأمنية الكلام المتلو؛ لأن التمنى ما يتصوره الإنسان فى نفسه، والمتلو كذلك، فحاصل السؤال المذكور أنك قلت: إن الشيطان لا يتسلط على الأنبياء، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، بوسوسته، وهذه الآية تدل على أن الشيطان، لعنه الله، يخلط عليهم فيما يوحى إليهم عند تلاوته، وهذه الآية تدل على أن بين النبى والرسول فرق، وقد اختلفوا فى الفرق بينهما بعد الاتفاق على أنهما من ينزل عليه الملك بالوحى، والمشهور أن الرسول أخص من النبى، وهو من يكون مأمورًا بالتبليغ، وله شرع جديد، واشترط بعضهم أن يكون معه كتاب، ويستعمل كل منهما بمعنى الآخر، وقد مر جميع ذلك.

فأجاب بقوله: (**فاعلم أن للناس**)، أى العلماء؛ لأنهم هم الناس، (**فى معنى هذه الآية أقاويل**)، هو جمع أقوال، فهو جمع الجمع، (**منها**)، أى من جملة هذه الأقاويل (**السهل والوعث**)، أى ما هو ظاهر سهل فهمه، ومنها ما هو خفى يعسر فهمه، وهو مستعار من المكان السهل والمنبسط الذى يسهل المشى فيه، والوعث المكان الكثير الرمل الذى يشق المشى فيه، ومنه أرض وعثاء، ثم استعمل مجازًا أو استعارة لمعنى المشاق، ومنه ما ورد فى الحديث: «اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر»(١)، أى مشقته، فلهذه الكلمة هنا موقع ليس للمشقة، فالمعنى منها ما هو ظاهر تسلكه الأفهام بسهولة، ومنها ما هو

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤٣/٤٢٦)، وأحمد (١٥٠/٢، ٤٣٣، ٨٢/٥، ٨٣)، والنسائى (٢٧٢/٨)، وابن ماجه (٣٨٨٨)، وأبو نعيم فى الحلية (١٢٢/٣)، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة (٤٨٦، ٤٨٧، ٤٩٢).

صعب يشق على إقدام الأفهام، وهو بفتح الواو وسكون العين المهملة والمثلثة، **(والسمين)** مستعار من السمن، وهو الممتلىء من اللحم والشحم، **(والغث)**، بفتح الغين المعجمة وتشديد المثلثة ضده، وهو الناقة المهزولة، استعير لما فيه من فوائد جليلة، ولما خلا عنها، يعنى ما جمع بين حسن العبارة وجزالة المعنى.

(وأولى ما يقال فيها)، أى يقال فى تفسيرها، وأولى بمعنى أحق بالقبول، أو بمعنى أقرب، كما فى قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث الميراث: «فلأولى رجل ذكر»، أى أقرب من الميت، وهو العصبة، **(ما عليه الجمهور)**، أى ما استقر عليه رأى الجمهور، أى الأكثر، **(من المفسرين، أن التمنى)** معناه **(هنا)**، أى فى هذه الآية **(التلاوة)**؛ لأنه تفعل من منى قدر، كما قال الشاعر:

لا تأمنن وإن أمسيت فى حرم   حتى تلاقى ما يمنى لك المانى

أى ما قدره لك المقدر، والتمنى أمر يقدره المرء فى نفسه، وهو بمعنى تلا، قال:

تمنى كتاب الله أول ليله   تمنى داود الزبور على رسل(١)

(وإلقاء الشيطان فيها) فى قوله: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، أى متلوه، **(شغله)**، مصدر بوزن ضرب مضاف لفاعله، أى شغل الشيطان للتالى، **(بخواطر)**، أى أمور دنيوية تخطر على قلبه فتشغله عما تلاه، **(وإذكار)**، جمع ذكر، أى حديث نفس يذكره فيلهيه، **(من أمور الدنيا)** بيان لهما **(للتالى)**، صفة لخواطر وأذكار، أى كائنة وعارضة له، **(حتى)** علة لشغله **(يدخل)** مضارع أدخل، وفاعله ضمير الشأن، ومفعوله الوهم فى قوله: **(عليه)**، أى على التالى **(الوهم)**، أى الغلط أو مضارع دخل، والوهم فاعله، **(والنسيان فيما تلاه، أو يدخل)** عليه **(غير ذلك)**، أى غير الوهم والنسيان، **(على أفهام السامعين)**، وبين ما يدخل على أفهام السامعين بقوله: **(من التحريف)**، لما تلاه عليهم.

(وسوء التأويل) الناشىء عن تحريف ما سمعوه، **(ما يزيله الله)**، مفعول ألقى، **(وينسخه)**، أى يحوله من الباطل إلى الحق، **(ويكشف لبسه)**، أى يزيله ويبينه ويظهره، **(ويحكم آياته)**، أى يحققها ويبينها، **(وسيأتى الكلام على هذه الآية)** مفصلاً **(بعد بأشبع من هذا إن شاء الله تعالى)**، أى بأكثر منه تفصيلاً، وهو استعارة من الشبع ضد الجوع؛ لأن العلم غذاء الأرواح، وهذا التفسير المنقول عن السلف، وهو أحسن ما قيل فيها،

---

(١) البيت من الطويل، وهو بلا نسبة فى لسان العرب (١٥/٢٩٤)، تاج العروس (منا)، وفيه: آخر ليله بدلاً من: أول ليله.

كما قاله النحاس، وهو المنقول عن ابن عباس، كما سيأتى.

وتفسير التمنى بالتلاوة مشهورة فى اللغة والتفسير كما علم، وذكر الكسائى والفراء أنه يقال: تمنى، إذا حدث نفسه. قال القرطبى: وهو المعروف فى اللغة، ومن قال: إنه لم يجده فى كتب اللغة، والذى فيها أعم منه فقد قصر، فإنه قد صرح به الراغب فى مفرداته، فليت شعرى ما هذه الكتب التى رآها وفتشها، وليس هذا منافيًا لما ذكره أولاً من عصمة الأنبياء عن الوساوس؛ لأن الذى عصم منه الأنبياء الخواطر القارة، وأما مجرد الخواطر، فلا تضرهم ولا يقروا عليها، وبه صرح الثعلبى فى تفسيره.

(**وقد حكى**) الإمام أبو الليث الحنفى (**السمرقندى**)، وقد تقدمت ترجمته فى تفسيره، (**إنكار قول من قال بتسليط الشيطان على ملك سليمان وغلبته عليه**)، وهو جنى أخذ خاتمه الذى يتصرف فى ملكه به بأمر الله تعالى، فهرب سليمان، عليه الصلاة والسلام، إلى أن رد الله تعالى عليه الخاتم، وأن ذلك الشيطان كان يسمى ضخرًا، إلى آخر ما ذكره القصاص من الخرافات فى قصته.

(و) قد رده أيضًا (**بأن مثل هذا لا يصح، وقد ذكرنا قصة سليمان مبينة بعد هذا، و**) كذا ذكرنا قول (**من قال**) فى هذه القصة: (**إن الجسد**) الذى ذكره الله تعالى فى قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ [ص: ٣٤]، (**هو الولد الذى ولد له**)، حيث قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «لأطوفن على نسائى هذه الليلة، وتحمل كل واحدة منهن بذكر يجاهد فى سبيل الله»، ولم يقل إن شاء الله تعالى، وكان له تسعون امرأة، ولم تحمل منهن غير واحدة لشق رجل، وأهل القصص ذكروا فيه غير ذلك كما سيأتى إن شاء الله تعالى، وما ذكره السمرقندى هو المعتمد عند المفسرين.

(**وقد حكى أبو محمد مكى**)، وقد قدمنا ترجمته، (**فى قصة أيوب**) نبى الله، عليه الصلاة والسلام، وهو كما قال ابن إسحاق: أيوب بن أموص بن رازح بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم، وقيل غير ذلك، وكان فى زمن يعقوب، وتحته ابنته، وأبوه آمن بإبراهيم، وأمه بنت لوط، وقد فصل أحواله صاحب مرآة الزمان، وذكرنا منها طرفًا فى غير هذا المحل، وقيل: إنه بعد سليمان، (**وقوله**: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾) [ص: ٤١]، أى ألم ومشقة عظيمة، ونصب بمعنى تعب، يعنى ما أصابه فى بدنه، وقرئ بضم وسكون، وفيه قراءات أخر.

(**أنه**) بالكسر مقول القول، (**لا يجوز لأحد أن يتأول**)، أى يفسر ما ذكر فى هذه الآية برأيه، فيقول: (**إن الشيطان هو الذى أمرضه وألقى الضر**)، بالضم، وهو المرض، (**فى**

بدنه)؛ لأن الله تعالى عصم الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، من أذيته وتسلطه عليهم، (**ولا يكون**)، أى لا يقع ولا يصح (**ذلك**)، أى كون الشيطان أمرضه، (**إلا**) استثناء منقطع، أى لكن كل ما يصيبهم (**بفعل الله تعالى وأمره**)، أى تقديره.

(**ليبتليهم**)، أى يوقع بهم بلاء من مرض وغيره، (**ويثيبهم**)، أى يعطيهم ثوابًا جزيلاً على ما ابتلاهم، وفى نسخة: ويثبتهم، من الثبات، بمثلثة وموحدة ومثناة، أى يصبرهم حتى يكون منهم ثبات على شكره والرضا بقضائه، وهذا إشارة لما ذكر فى القصص، وبيان لرده، وإن ذكره بعض المفسرين لما فى ظاهر الآية من إسناد ما مسه للشيطان، وهو إسناد مجازى تأدبًا مع ربه فى عدم إضافة الشر له؛ لأن كل ما صدر عنه خير من حيث صدوره عنه، والذى قالوه: إن الشيطان، لعنه الله، حسده لما رآه من نعم الله عليه وكثرة تصدقه، وكان إبليس إذ ذاك لا يحجب عن السماء، فقال: يا رب، لو سلطتنى عليه لكفرك، فقال: اذهب فقد سلطتك على ماله وأهله وجسده، وكانت زوجته رحمة بنت لوط، عليه الصلاة والسلام، وقيل: بنت أفرائيم بن يوسف، فأصابه قروح عمت بدنه، وأهلك ماله وولده ودوره، وكان نفخ فى بدنه، فتقرح كله وقعد الملعون فى الطريق يتطبب، فقالت له زوجة أيوب: إن هنا عبدًا مبتلى، فهل لك أن تداويه؟ فقال: نعم، إن قال لى: أنت شفيتنى، فأخبرته زوجته بذلك، فقال: ويلك، هو الشيطان، إن عافانى الله لأجلدنك مائة جلدة، فكان ما كان من أمر الضغث، ثم أتاه جبريل، عليه الصلاة والسلام، وركض برجله، فنبعت عين ماء اغتسل به، فرد الله عليه صحته وجماله، وكان مدة بلائه سبع سنين وزيادة، وقد ذكر ابن العربى هذه القصة، وبين ما لم يثبت فيها.

(**قال مكى: وقد قيل: إن الذى أصابه من الشيطان ما وسوس به إلى أهله**)، أراد بأهله زوجته رحمة، ويصح أن يراد به ظاهره، فهو على هذا لم يصب بشىء فى نفسه، وإنما أضاف ما أصاب أهله إليه مجازًا، وقد قدمنا ما وسوس به لأهله، (**فإن قلب، فما معنى قوله تعالى عن يوشع**)، نبى الله، عليه الصلاة والسلام، وهو يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب، كان فى زمن موسى، عليه الصلاة والسلام، وهو الذى أقام لبنى إسرائيل أحكام التوراة بعده، وقسم الشام بين بنى إسرائيل، وقاتل الجبارين، وردت له الشمس كما مر، وتفصيل أحواله معلوم من التواريخ، وهو فتى موسى المذكور فى القرآن، ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣]، ووجه السؤال أنه نبى، وقد سلط عليه الشيطان حتى أنساه ذكره، وسيأتى جوابه، وأن أذكره بدل من مفعول أنسانيه.

(**و**) مثله (**قوله تعالى عن يوسف**)، عليه الصلاة والسلام: (﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ

ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢]، و)، كذا **(قول نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، حين نام عن الصلاة)**، أى صلاة الصبح، فنام حتى فاته وقتها، فقضاها بعد طلوع الشمس، **(يوم الوادى)**، أى فيه متعلق بنام أو بالصلاة، وهو واد بقرب مكة، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما نزل أمر بلالا أن ينبهه إذا طلع الفجر، فغفل عنه فنام، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى أدركه حر الشمس، كما فى الموطأ، وفى البخارى، عن عمران بن حصين: كنا فى سفر مع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى كنا فى آخر الليل رقدنا رقدة لا رقدة أحلى منها عند المسافر، فما أيقظنا إلا حر الشمس، فكبر عمر حتى استيقظ رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكانوا قالوا له: لو عرست بنا يا رسول الله، فقال: «أخاف أن تناموا عن الصلاة»، فقال بلال: أنا أوقظكم، فاضطجعوا وأسند بلال ظهره لراحلته فغلبته عيناه، فنام حتى طلعت الشمس، وقال: ما ألقيت علىّ نومة مثلها قط، فأمرهم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالارتحال عن الوادى، ثم نزل وتوضأ وصلى بهم[(١)].

وفى مصنف عبد الرزاق، عن عطاء بن يسار، أنه كان ببطن تبوك، ونحوه فى دلائل البيهقى، وقيل: إنه كان بغزوة مؤتة، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما انتبه: **(إن هذا واد به شيطان)**، وفى هذا الحديث أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «ليأخذ كل رجل برأس راحلته، فإن هذا منزل حضرنا فيه شيطان»[(٢)]، وأخر الصلاة حتى خرجوا من ذلك الوادى كما مر، إذ لم يكن تركها قصدًا، وإنما تحول عن الوادى كراهة ما أصابه فيه من الغفلة، ولأنه يخشى فيه من أعداء المسلمين، لا لأن الوقت وقت كراهة.

فإن قلت: كيف هذا مع قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «تنام عيناى ولا ينام قلبى»؟[(٣)].

قلت: أجاب عنه المصنف، رحمه الله تعالى، فيما يأتى، وتبعه النووى بأن القلب لا يدرك ما تدركه الحواس الظاهرة كالعين والأذن، وأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان له حالان فى أحدهما، وهو الأكثر أن قلبه لا ينام، وفى بعض الأحيان ينام عينه وقلبه لعارض كتعب سفر ونحوه، وفيه تشريع للقضاء وتأخيره، ولو كان قلبه الشريف يقظان

---

(١) أخرجه البخارى (١٥٤/١)، والبغوى فى شرح السنة (٣٠٧/٢).

(٢) أخرجه مسلم (٦٨٠/٣١٠)، وأحمد (٤٢٩/٢)، والبيهقى (٢١٨/٢، ٤٨٤)، وابن أبى شيبة (٦٤/٢).

(٣) أخرجه البخارى (٢٣٢/٤)، وأبو داود (٢٠٢)، وابن حبان (٢١٢٤)، وعبد الرزاق (٣٨٦٤)، وابن خزيمة (٤٨).

لم يعذر، صلى الله تعالى عليه وسلم، من تأخير الصلاة، والجواب الثانى هو الأولى، وهذا الحديث له أصل أيضًا فى مسلم، عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، وله طرق أخرى.

وقال القرطبى: أخذ بعض العلماء بظاهره، فقال: من انتبه من نومه عن صلاة، فأتته فى سفر، فليتحول عن موضعه، وقيل: إنما يستحب فى ذلك الوادى بعينه، كما فى قصة آبار ثمود، وقيل: إنه مخصوص به، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن مثل ذلك لا يطلع عليه غيره، ولا بأس بالقول باستحبابه مطلقًا، وهو مناف لحديث البخارى: «من فاتته صلاة، فليصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك»، وسيأتى ما فيه عند ذكر الجواب عنه.

(و) ما معنى **(قول موسى)** نبى الله، **(صلى الله تعالى عليه وسلم، فى وكزه)**، وفى نسخة: وكزته، ومعناهما واحد، والوكز الضرب والدفع بجمع الكف، ووكزه المراد به وكز القبطى المذكور فى القرآن، (﴿هَٰذَا﴾) الوكز (﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾) [القصص: ١٥]، وهو مقول القول، وهو معصوم، فكيف وقع منه ما وقع من قتل من لم يؤمر بقتله؟ فلذا سماه ظلمًا، واستغفر منه، ووجه السؤال ظاهر، وكان موسى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قبل النبوة يركب مع فرعون فى مواكبه، إلا أنه لم يكن على دينه، فلحقه مرة فى وقت القائلة، أو بين العشائين، فدخل مدينة منف فى وقت غفلة، فوجد رجلين يقتتلان، أحدهما قبطى، والآخر من بنى إسرائيل من قوم موسى، فأراد القبطى أن يسخره، بحمل متاع له، فاستغاث بموسى لينصره عليه، ونصرة المظلوم واجبة فى سائر الملل، فوكزه بيده، أو بعصا؛ ليدفعه فقلته، ولم يكن هذا ظلمًا منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنما جعله من عمل الشيطان، استعطافًا لتركه الأولى، ولم يضفه إلى الله تأدبًا منه.

(فاعلم) جواب الشرط فى قوله: فإن قلت، **(أن هذا الكلام)** المذكور عن الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، فى السؤال **(قد يرد)** فى القرآن والحديث ما هو أعم منه أو بمعناه، **(فى جميع هذا)** المحكى عنهم، **(على مورد مستمر)**، بالإضافة لكلام، أى طريق معروف فى استعمال **(كلام العرب)**، أو هو فاعل يرد، أى دأبهم فى كلامهم ومعتادهم فيه، والأول هو الظاهر، وفاعل يرد ضمير الكلام، **(فى وصفهم كل قبيح من شخص أو فعل)**، بيان لكل قبيح لقبيح الشخص فى منظره، والأفعال القبيحة الصادرة من الناس، فيقولون للقبيح: هو شيطان، ويضيفون الأفعال القبيحة له.

وقوله: **(للشيطان)** متعلق بوصفهم، **(أو فعله)** مجرور معطوف على الشيطان، فإذا رأوا

شخصًا قبيحًا، قالوا: هذا شيطان، بالتشبيه البليغ، وإذا رأوا فعلاً قبيحًا، قالوا: هذا فعل شيطان، (**كما قال تعالى**) في شجرة الزقوم التي في جهنم: ﴿**طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ**﴾ [الصافات: ٦٥]، ما فيها مما يشبه طلع النخل، فشبه ما يطلع منها تشبيهًا تخييليًا بذلك، لما استمر عندهم من تشبيه كل قبيح بها، وإن لم يروها، وهذا كقول امرئ القيس[(١)]:

ومسنونة زرق كأنياب أغوال

كما بين في كتب المعاني، وقيل: الشياطين حيات كبيرة هائلة.

(**وقال صلى الله تعالى عليه وسلم**) في حديث رواه الشيخان، رحمهما الله تعالى، في المار بين يدي المصلي (**فليقاتله، فإنما هو شيطان**)، والحديث رواه مسلم، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله تعالى عنه، وفيه: «إذا صلى أحدكم إلى شيء يستره، فأراد أحد أن يجتاز بين يديه، فليدفع في نحره، فإن أبى فليقاتله، فإنما هو شيطان»[(٢)]، والأمر للندب لا للوجوب، فإنما يندب إذا كان بين يديه سترة، وإنما يفعل ذلك إذا لم يرتد بأسهل الوجوه، وذكر المقاتلة مبالغة في شدة الدفع، وإلا فالمقاتلة أفعال كثيرة لا تجوز في غير صلاة الخوف، وقوله: «هو شيطان»، استعارة تصريحية شبهه بالشيطان في صدور الأفعال القبيحة منه، وقيل: إنه مجاز مرسل؛ لأن الشيطان سبب لما فعله، وأما كونه حقيقة لقول: ﴿**شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ**﴾ [الأنعام: ١١٢]، فليس بشيء؛ لأنه مجاز أيضًا، وإنما كره ذلك؛ لأنه شغله عن خدمة ربه وتوجهه إليه.

(**وأيضًا**) من آمن إذا رجع، أي يرجع إلى الجواب عما مر في السؤال، (**فإن قول يوشع**)، عليه الصلاة والسلام: ﴿**وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ**﴾ [الكهف: ٦٣]، أن أذكره، الذي حكاه الله تعالى عنه (**لا يلزمنا الجواب عنه**)؛ لعدم وروده على ما قررناه من عصمة الأنبياء عن تسلط الشيطان عليهم، (**إذ لم يثبت له في ذلك الوقت**)، أي وقت صدور هذا

---

(١) عجز بيت وصدره:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي

والبيت من الطويل، وهو لامرئ القيس في ديوانه (ص٣٣)، لسان العرب (٥٠٨/١١)، تهذيب اللغة (١٩٣/٨)، جمهرة اللغة (ص٩٦١)، تاج العروس (٣٩٥/٢٥)، وبلا نسبة في المخصص (١١١/٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦/١)، ومسلم (٥٠٥/٢٥٩)، وأبو داود (٦٩٥، ٧٠٠)، والنسائي (٦٢/٢)، وأحمد (٦٣/٣)، وابن حبان (٤٠٩)، وابن خزيمة (٨١٧)، والبيهقي (٢٦٧/٢، ٢٧٢).

القول عنه، وهو فى خدمة موسى، عليه الصلاة والسلام، (**نبوة**)، أى أنه كان نبيًا حال كونه (**مع موسى**) مصاحبًا له فى سفره، وهو خادمه، ويدل على ذلك قوله تعالى، وفى نسخة: قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: ٦٠] إلى آخره، والفتى فى الأصل معناه الشاب، فاستعمل بمعنى العبد والخادم؛ لأن الغالب استخدام الشاب وتوقير الكبار، وهو من الآداب الشرعية.

وفى الحديث أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «لا يقل أحدكم: عبدى وأمتى، ولكن يقول: فتاى وفتاتى»[1]، وإنما سمى يوشع فتى موسى؛ لأنه كان يلازمه فيقوم مقام العبد، ويقال: إنه ابن أخته، وهو يوشع بن نون كما فى صحيح البخارى.

(**والمروى**) عن العلماء الثقات (**أنه إنما نبئ**)، أى جعله الله نبيًا وأوحى إليه (**بعد موت موسى، وقيل:**) إنه نبئ (**قبل موته**)، أى موت موسى، عليه الصلاة والسلام، وفى بعض النسخ: قبيل، بالتصغير، إشارة لقلة زمن نبوته فى حياته، وسيأتى فيه كلام أيضًا، وقد قيل: إنه نبئ فى حياته، فكان إذا سأله عما أوحى إليه يقول: صحبتك كذا وكذا ولم أسألك عما أوحى إليك، فلما رأى ذلك كره الحياة، فسأل ربه أن يقبضه إليه، وقيل: الأصح أنه إنما نبئ بعد موسى.

(**وقول موسى**)، عليه الصلاة والسلام، فى وكز القبطى: إنه ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القصص: ١٥]، (**كان قبل نبوته**)، فلا يرد السؤال به؛ لأن الكلام فى عصمة الأنبياء عن تسلط الشيطان عليهم (**بدليل القرآن**)، فإنه قص فيه القصة بما يدل على أنه إنما نبئ بعد ذلك كما يعرفه من عرف الآية وتفسيرها فى سورة القصص، فإنها قبل خروجه لمدين واستئجار شعيب له ومكثه عنده، فإنه صرح فى الآية بأنه نبئ بعد ذلك، وقوله فى الشرح الجديد: إن المراد بقول موسى ما قاله ليوشع، وأن ما فى القرآن ذكره بأنه فتاه دون أن يقول: نبى الله، مع مخالفته للشروح لا وجه له.

(**وقصة يوسف**)، وما فيها مما عقد له الفصل الجواب عنها، أنه (**قد ذكر**)، بالبناء للمجهول، أى ذكر علماء التفسير وغيرهم، (**أنها كانت قبل نبوته**)، أى قبل نبوة يوسف، عليه الصلاة والسلام، فلا يمتنع قبلها أن يخطر عليه خاطر ينسى ذكر ربه المشار إليه بقوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢]، وهذا أحد قولين فيه، وقيل: إنه نبئ فى الجب، وهو على حجر مرتفع فيه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ

(١) أخرجه البخارى (١٩٧/٣)، ومسلم (٢٢٤٩/١٥)، وأحمد (٣١٦/٢)، وعبد الرزاق (٢٠٩٩٢).

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ﴾ [يوسف: ١٥]، وهو قبل مجيئه لمصر، وهو قول الحسن، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وهو ابن ثمان عشر سنة، ومن الأنبياء من نبئ صغيرًا قبل الأربعين، فعلى هذا يجاب بأنه إنما كان استعان بمخلوق، ومثله جائز، وإن لم يلق بمنصب النبوة، فأضاف ما هو خلاف الأولى إلى الشيطان تأدبًا، ولا ضير فيه، وهذا بناء على أن ضمير الشأن راجع ليوسف.

(**وقد قال**) أكثر العلماء و(**المفسرون فى قوله تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يوسف: ٤٢] قولين**) آخرين (**أحدهما: أن الذى أنساه الشيطان ذكر ربه**)، ليس المراد به يوسف، عليه الصلاة والسلام، والرب بمعنى السيد، أى الملك، وإنما المراد (**أحد صاحبى السجن**)، وليس المراد بصاحب السجن مالكه، بل من طال حبسه فيه، فالإضافة لأدنى ملابسة، كقوله: يا سارق الليلة أهل الدار، (**وربه**) المراد به فى الآية على هذا سيده، وهو (**الملك، أى**) الشيطان (**أنساه**) أنسى الشرابى المسجون (**أن يذكر**) بزنة يقتل، وفى بعض النسخ، بضم الياء وكسر الكاف المشددة، والأول هو الصواب؛ لأنه الموافق لقوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] (**للملك شأن يوسف**)، عليه الصلاة والسلام، فى السجن، والورطة التى وقع فيها.

وكان دخل معه فتيان من عبيد الملك، أحدهما: شرابيه الذى يسقيه الشراب، وكان الملك عمر فيهم طويلاً، فدسوا فى شرابه سمًا، فلما أخبر به الملك حبسهما، وألفيا يوسف وهو مسجون معهما، ورأى كل منهما رؤيا قصها على يوسف وبينه له، ثم قال لمن رآه ناج منهما، وهو الشرابى: إذا خلصت ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، يعنى الملك، فتسلط عليه حتى أنساه أن يذكر للملك قصة يوسف، فعلى هذا لم يتسلط الشيطان على يوسف حتى يرد السؤال، وإلى ذلك أشار المصنف، رحمه الله تعالى.

(**وأيضًا**)، أى مثل ما ذكر فى جواب الشبهة عن قصة يوسف ويوشع، (**فإن مثل هذا**) النسيان المذكور (**من قبل الشيطان**)، بكسر القاف وفتح الباء الموحدة، بمعنى عند وجانب، يقال: لفلان قبل فلان كذا، أى عنده، قال تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ [المعارج: ٣٦]، وفى بعض النسخ: من فعل الشيطان، والجار والمجرور حال من اسم الإشارة يفيد أنها منه، والخبر قوله: و(**ليس فيه تسليط على يوسف ويوشع**)، أو هو خبر بعد خبر.

(**بوسواس**) متعلق بتسليط (**ونزغ**)، بنون وزاى ساكنة وغين معجمتين، وقد تقدم معناه؛ لعصمة الله تعالى لهما عن أن يكون له سلطان عليهما وعلى غيرهما من الأنبياء،

(وإنما هو) الضمير لمثل **(بشغل خواطرهما)** بمعجمتين من الثلاثى، ويجوز كونه من المزيد على لغة غير فصيحة كما تقدم، أى شغل ليس بطريق الوسوسة والتسليط، بل **(بأمر آخر)** مما يرد على الخاطر، ولا يضر ولا يستمر، **(و)** هو **(تذكيرهما)**، أى يوسف ويوشع **(من أمرهما ما ينسيهما)**، بالتشديد للمهملة والتخفيف **(ما نسيا)**، أى يذكران أمرًا نسياه من أحوالهما السالفة، كاستعانة يوسف بمخلوق، وشأن الحوت الذى نسيه يوشع، ونسباه للشيطان تأدبًا كما مر، ومثله لا محذور فيه.

(وأما قوله)، أى قول نبينا، **(صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى الحديث الذى تقدم بيانه وروايته عن مسلم: **(إن هذا واد به شيطان)**، وقد تقدم بيان الوادى ومكانه، **(فليس فيه)**، أى فى هذا الحديث ما يقتضى **(ذكر تسلطه)**، أى الشيطان، **(عليه ولا وسوسته له)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعصمته ونزاهته عن مثله، فهو لا يقدر على أن يقرب من سرادق حمايته، **(بل إن كان)**، أى ذكر فى الحديث ما يوهم تسلطه عليه، **(بمقتضى ظاهره)** قبل التأمل فيه.

(فقد بين)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيه **(أمر ذلك الشيطان)** فى هذه الواقعة **(بقوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى رواية مالك، والبيهقى، عن زيد بن أسلم: **(إن الشيطان أتى بلالاً)**، بعدما أمره رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن ينتظر طلوع الفجر ويوقظه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من نومه، **(فلم يزل)** الشيطان **(يهدئه كما يهدأ الصبى)** الصغير فى مهده **(حتى نام)** بلال، فلم يستيقظ حتى أصابه، صلى الله تعالى عليه وسلم، حر الشمس، فاستيقظ وقال: «ما هذا يا بلال؟»، فقال: أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك يا رسول الله...[1] الحديث. وقوله: يهدئه، بضم المثناة التحتية، وسكون الهاء، ودال مهملة مكسورة مخففة، وآخره ياء ساكنة أو همزة مضمومة، أو هو بفتح أوله، وسكون ثانيه، وفتح داله، وبعده همزة أو ألف، وداله مشددة، إلا أن رسمه بالياء فى النسخ، وكذا يهدى فى قوله: «كما يهدى...» إلى آخره.

قال الجوهرى: هدأ هدأ وهدوا، إذا سكن، وأهدأت الصبى، إذا أسكته وأمررت يدك عليه لينام، وكذا فى القاموس، وقال ابن القطاع وغيره ومثله: هدأه بالتشديد مهموزًا ومعتلاً، وهدنه بنون، وهدهده كله بمعنى تحريك الصبى، أو مهده حين ينام، والحديث فى الصحيحين.

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٣٢٢/١، ٣٢٣، ٣٢٥، ١٩٢/١٠)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٣٤٧/١).

(فاعلم أن تسلط الشيطان في ذلك الوادي) الذي نزل به رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأصحابه وغلبهم النوم حتى فاتتهم صلاة الفجر به، وقد رجعوا من الغزاة، **(إنما كان)** تسلطه **(على بلال)**، رضي الله عنه، لا على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى يرد السؤال **(الموكل)** بفتح الكاف المشددة، اسم مفعول، أي المعتمد عليه في الحفظ عن خروج الوقت **(بكلاءة الفجر)**، بكسر الكاف كالحراسة وزنًا ومعنى، فهو ممدود مهموز، وقد تبدل همزته ياء كما في النهاية، يقال: كلأه يكلؤه، إذا حرسه وضمن معنى المراقبة، أي مراقبة طلوع الفجر ليوقظهم، وقيل: المراد كلاءة صلاة الفجر بتقدير مضاف، وله وجه وجيه.

(هذا)، أي ما ذكر من أن تسلط الشيطان إنما كان على بلال، **(إن جعلنا قوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، في هذا الحديث **(إن هذا واد به شيطان، تنبيهًا)** مفعول له، **(على سبب النوم عن الصلاة)**، بناء على أن المراد أن الشيطان تسلط على من غفل عن الصلاة حتى فات وقتها بطريق من الطرق، لكن ليس المسلط عليه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بل بلال، وأن الشيطان تحيل عليه في غلبة النوم كما تتحيل الأم والداية على طفلها يستغرق في نومه، **(وأما إن جعلناه تنبيهًا على سبب الرحيل عن الوادي)**، فإنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما استيقظ من نومه أمرهم بالرحيل عن ذلك الوادي، وقال: «إنه واد به شيطان»، كما مر.

(وعلة لترك الصلاة فيه)؛ لأن الأفضل في قضاء الصلاة الفائتة بعذر أن يبادر بقضائها في أول تذكرها، فلما ترك ذلك وارتحل، وقال: «إن هذا واد به شيطان»[1]، دل مساق كلامه علي أن كونه لم يصل به لذلك، فليس فيه ما يقتضي أن للشيطان تسلط على بلال فضلاً عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وهو)**، أي ما ذكره من أنه علة لارتحاله وترك الصلاة **(دليل)** فعيل، بمعنى مفعول، أي مدلول **(مساق)**، بفتح الميم مصدر بمعنى سياق، **(حديث زيد بن أسلم)**، والسياق ما يفهم من ذكر شيء مع شيء، وزيد تقدم بيانه، وهو هذا الحديث المذكور، ولكنه من طرق أخر رواه مالك في الموطأ، والبيهقي عن زيد بن أسلم، وعلى الرواية التي يفيد سياقها ما ذكر.

(فلا اعتراض به)، أي بهذا الحديث **(في هذا الباب)**، الذي عقد؛ لأن الشياطين لا تسلط لهم على الأنبياء، عليهم السلام، بوسوسة ونحوها **(لبيانه)**، أي بيان حديث زيد، لما ذكر ووضوح دلالته عليه، **(وارتفاع إشكاله)**، أي زواله بالكلية، حتى استغنى عن

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١٤)، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/٢٧٣).

الجواب؛ لعدم احتماله لما يخالفه.

* * *

(فصل) فى عصمة النبى فى أقواله وأفعاله

(وأما أقواله، صلى الله تعالى عليه وسلم) لما كان هذا الباب معقودًا لعصمة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فى عقائدهم وأحوال قلوبهم وأقوالهم وأفعالهم، قدم الكلام على الأول؛ لأنه الأهم والأساس، وعقبه بالثاني، وهو ما يتعلق بأقوالهم، فقال: **(فـ)** قد **(قامت الدلائل)**، أى صحت وثبتت، فصارت كالعماد والسناد الذى يقوم به غيره، والدلائل جمع دليل.

وقد قال ابن مالك فى شرح كافيته: إنه لم يأت فعائل جمعًا لفعيل اسم جنس، وإن جاز بطريق القياس، وفى الآيات البينات أنه يحتمل أن يكون جمع دلالة بمعنى دليل، وفعالة يجمع على فعائل قياسًا مطردًا، وقد قال إمام الحرمين: إن الدليل يسمى دلالة، والظاهر أنه مجاز. انتهى.

وقد تقدم التنبيه على هذا أيضًا. **(الواضحة)**، الظاهرة القاطعة العقلية والنقلية من الآيات والبراهين، **(بصحة المعجزة)**، أى المعتضدة بصحة معجزاته، والباء تجريدية كما فى قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، على أحد القولين، وهذا أحسن، **(على صدقه)**، أى أنه صادق فيما أخبر به، ووجه الدلالة مقررة فى الأصول، والأصح أنها دلالة عقلية أظهر من الشمس.

(وأجمعت الأمة) على صدقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وصدق أخباره **(فيما كان طريقه البلاغ)**، وهو مصدر أو اسم مصدر بمعنى التبليغ عن ربه ما أوحى إليه؛ لأنه لازم لرسالته، **(أنه معصوم فيه)**، أى فيما أمر بتبليغه للخلق من ربه **(من الإخبار)**، متعلق بمعصوم، **(عن شىء منها)**، أى مما طريقه البلاغ ملتبسًا **(بخلاف ما هو به)**، الباء معنى على أو للملابسة، أى يخالف شىء من أخباره الواقع، **(لا قصدًا)**؛ لخلافه حتى يكون كذبًا، وقوله: **(ولا عمدًا)**، إن فسر بالقصد فهو عطف تفسير كما قاله الراغب، وإن قيل: القصد ما كان لسبب، والعمد ما كان بلا سبب، كما قاله التلمسانى، فهو تأسيس، وهو الأولى، **(ولا سهوًا أو غلطًا)**، الأول ما كان بغير قصد، والثانى ما قصده خطأ لظنه واقعًا، وفى نسخة: وغلطًا، بالواو، وأو أولى هنا.

(أما تعمد الخلف فى ذلك)، أى فى الإخبار عما طريقه البلاغ، **(فمنتف عنه)**؛ لأنه غير لائق بمقامه، والخلف قيل: بضم الخاء بمعنى الكذب فى إخباره عن أمر مستقبل،

والكذب يكون عن الماضى، وقيل: إنه بفتحها وسكون اللام، بمعنى الباطل، وأصل معناه القبيح الردىء، ومنه المثل: سكت ألفًا ونطق خلفًا، وتفسيره بالمخالفة غير متجه، إلا أن يريد مخالفة الواقع، فيرجع لما قبله، وقوله: (**بدليل المعجزة**)، متعلق بمنتف، (**القائمة مقام قول الله**) تعالى لمن بعث إليهم الرسول: (**صدق رسولى**) ونبيى (**فيما قال**) لكم وبلغكم عنى، بدليل معجزته التى هى برهان قاطع على صدق مدعاه، (**اتفاقًا وبإطباق أهل الملة**)، أى اتفاقهم على ذلك، وأصل معنى الإطباق جعل الشىء مطابقًا لآخر، أى موافقًا له (**إجماعًا**)، منصوب بنزع الخافض، أى إطباقهم ثابت بالإجماع منهم.

وقوله: أهل الملة، إشارة إلى بطلان قول البراهمة والصابئة باستحالة ثبوت النبوات، كما تبين فى علم الكلام، ثم اختلفوا بعد ذلك، فذهبت المعتزلة وبعض الشيعة إلى أنها واجبة عقلاً من جهة اللطف، وذهب الأشعرى وأهل السنة إلى القول بجوازها عقلاً ووقوعها عيانًا، وأدلتهم مفصلة فى كتب الكلام، ولما كان كل خبر محتملاً للصدق والكذب من حيث هو، قالوا: الدليل على صدقه صلى الله تعالى عليه وسلم معجزته، ولا يرد عليه قول المنكرين أنها فعل، والفعل من حيث هو لا يدل على الاختصاص بشخص معين إلا باقترانه لدعوا، وللاقتران أسباب أخر، كما أن لخرق العادة أحوالاً مختلفة، وإذا احتملت الوجوه عقلاً، لم تثبت الدلالة؛ لأن القرينة والتحدى دالان على بطلان هذه الاحتمالات، وسبيل تعريف الله عباده صدق الرسالة بالآيات الخارقة للعادة، كسبيل تعريفهم إلاهيته بالآيات الدالة عليها، والتعريف يكون بالقول تارة وبالفعل أخرى، فالتعريف بالقول كقول الله تعالى: ﴿لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وبالفعل كتعجيزهم عن معارضة ما علمه من الأسماء، وتعجيز الخلق عن معارضة القرآن المنزل على نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، ودلالة المعجزة على صدقه دلالة عقلية، وهذا معنى ما قاله المصنف، كما تقرر فى علم الكلام.

(**وأما وقوعه**)، أى وقوع خبره على خلاف ما هو عليه فيما طريقه البلاغ، (**على جهة الغلط فى ذلك**)، من غير تعمد وقصد منه، بل بسهو ونحوه، (**فهذه السبيل**)، أى طريق انتفائه كطريق انتفاء العمد فيه عنه، فإن الدليل الدال عليه دال على انتفاء هذا أيضًا، إلا أن الأول متفق عليه، وهذا مختلف فيه؛ لكونهما على نهج واحد، (**عند الأستاذ**)، بضم الهمزة وسين مهملة ساكنة، ومثناة فوقية، وألف وذال معجمة، وهى كلمة معربة، معناه الرئيس فى علم أو صناعة، وتفصيله فى كتابنا شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل، (**أبى إسحاق الإسفرائينى**)، وهو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ابن مهران، واسفرائن بكسر الهمزة وفتح الفاء، بلدة بخراسان، وهو إمام جليل متبحر فى

علوم الدين كلامًا وفروعًا وأصولاً، توفى بنيسابور يوم عاشوراء سنة ثمان عشرة وأربعمائة.

(ومن قال بقوله)، واتبعه فى هذه المسألة، يعنى أن المعجزة تدل على صدقه صلى الله تعالى عليه وسلم فيما قاله، وأنه لا يصدر عنه ما يخالف الواقع لا قصدًا ولا غلطًا ولا سهوًا بطريق من الطرق، فمعجزته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما دلت على نبوته دلت على صدقه، وهذا القول ارتضاه المصنف، رحمه الله تعالى، **(ومن جهة الإجماع)**، الدال على أنه لم يصدر عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الكذب لا قصدًا ولا سهوًا، وهو معطوف على قوله بهذا السبيل، **(فقط)**، أى الدال على ذلك، إنما هو المعجزة والإجماع لا دليل عقلى غيرهما، **(وورد الشرع بانتفاء ذلك)**، أى أنه ورد فى الآيات المتواترة والأحاديث الصحيحة على ما يدل على ما ذكر من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم على هدى، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وغيره مما يدل عليه صريحًا وتلويحًا.

(و) مما يدل على ذلك أيضًا، **(عصمة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وهى ملكة نفسانية تمنع من النقائص والمعاصى، والكلام بما يخالف الواقع نقيضة تأباها العصمة، وفى دلالة ذلك على عدم صدور السهو منه نظر، **(لا من مقتضى المعجزة)**، اسم مفعول، أى ليس مما يدل عليه دلالة التزامية عقلية، كدلالة: أعتق عبدك عنى، على بعه لى، وقوله: **(نفسها)**، إشارة إلى أن للمعجزة دخلاً ما فى ذلك **(عند القاضى أبى بكر الباقلانى)**، بتشديد اللام، المالكى كما تقدم، **(ومن وافقه)** على مذهبه، وهذا مرتبط بقوله: ومن جهة الإجمال إلى هنا، والحاصل أنه صادق فيما طريقه البلاغ، والدال على صدقه معجزة عند الإسفرائنى وعند الباقلانى ورود الشرع بذلك وإجماع الأمة على عصمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وسبب الاختلاف، ونتيجته ما أشار إليه بقوله: **(لاختلاف)** وقع **(بينهم)**، أى بين الإسفرائنى وأتباعه، وبين الباقلانى ومن وافقه، **(فى مقتضى دليل المعجزة)**، أى فى دلالتها على صدقه، وإنها بمنزلة قول الله: إنه صادق أم لا، **(لا نطول بذكره)**، فإنه بحث طويل صعب المدرك، **(فنخرج عن غرض)** هذا **(الكتاب)** الذى وضع لبيان شرف قدر المصطفى، صلى الله تعالى عليه وسلم، من غير تطويل وإطناب يميل من غير تعرض للمباحث الكلامية.

(فلنعتمد) ما هو أصل مقصود كان فيما قصدناه **(على ما وقع عليه إجماع المسلمين)**، من غير تعرض للأدلة العقلية، وما أجمعوا عليه هو **(أنه لا يجوز)**، بتخفيف الواو وتشديدها **(عليه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(خلف فى القول)**، أى ما يخالف الحق

الواقع، (**فى إبلاغ الشريعة**)، أى فيما طريقه ذلك مما أمر بتبليغه، (**والإعلام بما أخبر به عن ربه تعالى، وبما أوحاه إليه من وحيه**) الذى نزل عليه الملك به بوجه من الوجوه، وفى حال من الأحوال، (**لا على وجه العمد بأن يتعمد**) الإخبار بخلاف الواقع، (**ولا على غير عمد**) من خطأ ونسيان كما تقدم.

(**ولا فى حالى الرضى والسخط**)، بفتحتين أو بضم فسكون، وهى كراهة ذلك الأمر المخبر به، أو فى حال رضاه عمن خاطبه وسخط عليه، والرضا يقابله، كما فى حديث: «اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك»[1]، ويكون فى مقابلة الجبر والإكراه كما فعله برضاه، أى اختياره وإرادته، لا قهرًا ولا جبرًا، وعلى الوجهين يدور أن الله يرضى بالكفر لعباده أم لا، كما وقع بين الماتريدية والأشعرية، وفى تفسير قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، هل المراد جميع عباده أو خلصهم؟ والإضافة تشريفية كما فصل فى محله.

(**والصحة والمرض**)، أى لا يقع ذلك منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى صحته ولا فى حال مرضه، واختلاف مزاجه الذى قد يشوش الفكر مما يؤدى لمثله.

ثم ذكر دليلاً على ما قاله من السنة، فقال: (**وفى حديث عبد الله بن عمرو**) بن العاص بن وائل السهمى الصحابى المشهور، رضى الله تعالى عنهما، وهذا الحديث رواه عنه الإمام أحمد، وأبو داود، والحاكم، وصححوه، وفيه: (**قلت: يا رسول الله، أأكتب كلما أسمع منك؟ قال: نعم**)، أى أكتب كلما سمعته منى، (**قلت: فى الرضا والغضب؟**)، أى فى حالتيك هاتين، (**قال: نعم**)، أى اكتب ما تسمعه فى حال رضائى وغضبى، (**فإنى لا أقول فى ذلك**) المذكور (**كله**) من حالتى الرضى والغضب (**إلا حقًا**)، فلا يصدر عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما يخالف الواقع لا عمدًا ولا غيره؛ لعصمة الله تعالى له فى أقواله وأفعاله كلها، وأشار بذلك ليقظته أو لرفعة محله فى الصدق، وفيه رد على من منع كتابة الحديث ونقله عن بعض الصحابة والتابعين، وقال: إنهم كرهوه لحديث: «لا تكتبوا عنى شيئًا غير القرآن، ومن كتب عنى غيره فليمحه»[2]، كما رواه البخارى ومسلم فى قصة أبى شاه عام الفتح، وقد أجيب عنه بأنه منسوخ، أو أنه مخصوص

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٣٣)، والترمذى (٣٥٦٦)، والنسائى (٣/٢٤٩)، وابن ماجه (١١٧٩)، وأحمد (١/٩٦، ٦/٢١٠)، وابن حبان (٥٤١)، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة (١٢٤، ٥٠٩)، وابن خزيمة (٦٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (٧٢/٣٠٠٤)، وأحمد (٣/٢١، ٣٩)، والدارمى (١/١١٩)، والحاكم (١/١٢٧)، والبغوى فى شرح السنة (١/٢٩٤).

بعصره فى حياته، صلى الله تعالى عليه وسلم، أما بعده، فصارت واجبة، أو المراد النهى عن كتابة الحديث مع القرآن مختلطًا به، أو المراد لا تكتبوا عنى شيئًا كنت قلته، ثم جاء القرآن بما يخالفه، وأول ما دونت كتب الحديث فى زمن عمر بن عبد العزيز، رحمه الله تعالى، كما ذكره الطبرى فى مناقبه.

(**ولنزد**) بالمعجمة، من الزيادة، وفى نسخة: ولنرد، (**فيما أشرنا إليه**) مما مضى قريبًا، (**من دليل المعجزة عليه**)، أى دلالتها على ما ذكر (**بيانًا**) مفعول نزد، وهو توضيح وتأييد لما قاله الإسفرائنى، (**فنقول:**) تفصيل لهذه الزيادة (**إذا قامت المعجزة**)، من إقامة الدليل، أى دلت (**على صدقه، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، فى كل ما أخبر به عن الله تعالى، (**وأنه لا يقول إلا حقًا**) وصدقًا لنزاهته عما سواه، وعصمة الله تعالى له عما عداه، فقوله: (**ولا يبلغ عن الله تعالى إلا صدقًا**)، تأكيدًا لما قبله، (**وأن المعجزة قائمة مقام قول الله له: صدقت**) فى كل ما قلت؛ لدلالتها على ذلك بطريق الاقتضاء والاستلزام، فصارت عبارة عنه بطريق الكناية.

وفى نسخة: صدق عبدى (**فيما تذكره**)، وتخبر به (**عنى وهو يقول أنى رسول الله**) الذى أرسله (**إليكم لأبلغكم ما أرسلت به إليكم**) مما أوحاه الله إلىّ وأمرنى بتبليغه، (**وأبين لكم ما أنزله الله عليكم**)، وفى نسخة: إليكم، وتنزيله عليهم بواسطته صلى الله تعالى عليه وسلم، والمراد بنزوله عليهم، وصوله إليهم ونزوله على نبى بين أظهرهم، والنزول فى القرآن تارة ينسب إلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وحده، فيقال: نزل وتارة إلى الأمة، فالمراد بالأول مشافهة ملك الوحى له، وبالثانى مطلق الوصول والبلاغ، أو هو من قبيل بنو فلان قتلوا قتيلاً، والقاتل واحد منهم، ودلالة المعجزة على صدقه تقدم بيانها وظهورها على يد الكاذب ممتنع عقلاً وعادة.

وقال الشهرستانى فى نهاية الإقدام: من اصطفاه الله لرسالته واجتباه لدعوته، كساه ثوب جمال فى ألفاظه وأخلاقه وأحواله، فتعجز الخلائق عن معارضة شىء من ذلك، فتصير جميع حركاته معجزة لما دونهم من الحيوانات، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]، أى لا يصدر عنه أمر بمجرد هوى نفسه وتشهيه، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] إليه، وقد تقدم بيانه وبيان أنها لا تدل على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لا يجوز له الاجتهاد، و﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠]، فلا يصدر عنه صلى الله تعالى عليه وسلم ما يخالف الواقع، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، أى تمسكوا به، (﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾) [الحشر: ٧] عنه ولا تقربوه؛ لأنه إنما يأمركم بما أمر الله تعالى، وإنما ينهاكم عما نهى الله تعالى عنه، فإن فسرت بما أعطاكم

من الفىء فخذوه، وما نهيكم عنه من الفىء فلا تأخذوه، فإنه إنما يعطى ويمنع بأمر الله تعالى، دل على ما ذكر أيضًا بطريق الفحوى والقياس، فلا يقال: إن الآية لا تدل على المراد على هذا التفسير، **(فلا يصح أن يوجد منه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وفى هذا الباب)، وهو ما طريقه البلاغ عن الله تعالى **(خبر)** سمع منه، أو صح عنه، **(بخلاف مخبره)**، بضم أوله وسكون ثانيه وفتح ثالثه وتخفيفه، أى لا يصدر عنه خبر غير مطابق للواقع، **(على أى وجه كان)**، خبره الصادر عنه، **(فلو جوزنا عليه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(الغلط والسهو)** فيما بلغه عن الله تعالى، وقد حماه الله عنه، **(لما تميز لنا من غيره)**، أى ما تميز صوابه الواجب اتباعه من غيره، أو خبره عن خبر غيره، **(ولاختلط الحق بالباطل)**، ولم يتميز أحدهما عن الآخر.

(فالمعجزة) الخارقة للعادة المتحدى بها كما تقدم، **(مشتملة على تصديقه)**، أى ثبوت صدقه فيما أخبر به عن ربه، **(جملة واحدة)**، أى فى جميع ما جاء به من جميع أخباره، وما يبلغه عن الله تعالى **(من غير خصوص)**، أى تخصيص لأمر دون أمر، بدليل يقوم على التخصيص.

(فتنزيه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم) وتبرئة ساحته فيما يبلغه عن ربه **(عن ذلك كله)**، أى عن أن يقع منه إخبار بما يخالف الواقع قصدًا، أو غلطًا، أو سهوًا، **(واجب)** وقوعه واعتقاده، **(برهانًا)**، أى بطريق البرهان القطعى العقلى المعلوم من المعجزة والتحدى بها كما تقدم. **(وإجماعًا)** من جميع أهل الملل الإسلامية وعلماء الدين، **(كما قاله أبو إسحاق)** الإسفرائنى، رحمه الله تعالى، بدليل المعجزة القائمة مقام قول الله تعالى: صدق رسولى فيما قاله، كما قاله الباقلانى من أنه بورود الشرع والإجماع، لا بالبرهان العقلى كما عرفت تفصيله.

* * *

(فصل) متمم لما قبله

(وقد توجهت)، أى صدرت ووقعت فى جهة من قولهم: وجهه، إذا أرسله فى جهة فتوجه، ويكون توجه بمعنى أقبل، وليس بمراد، **(هاهنا)**، أى فى هذا المبحث، **(لبعض الطاعنين)**، من الطعن، وهو الضرب برمح ونحوه، فاستعير للدخل والاعتراض، كما قال الله تعالى: ﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢]، **(سؤالات)**، جمع سؤال، وهو طلب أمر من الأمور، فقد يكون لتعلم ونحوه مما يحمد، وقد يكون تعنتًا منهيًا عنه، وطلبًا لأمر منهى عنه، كما قال الله تعالى: ﴿تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].

(منها ما روى، من أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)، كما رواه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، عن سعيد بن جبير بسند فيه ما سيأتى، **(لما قرأ)** فى صلاته **(سورة** ﴿وَالنَّجْمِ﴾ [النجم: ١]، **وقال:)**، أى بلغ فى قراءته إلى قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّٰتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]، واللات صنم كان لقريش أو لثقيف، والعزى تأنيث الأعز، وهى سمرة كانت لغطفان تعبدها، ومناة صخرة كانت خزاعة وهذيل تعبدانها، والثالثة الأخرى بمعنى المتأخرة، لصفة مقدارها صفتان لمناة، وأمر هذه مبين فى التفاسير غنى عن البيان.

(قال:) قائل سمع ما قاله عند تلاوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما سنبينه **(تلك)** المذكورة من اللات وما بعدها، **(الغرانيق العلا)**، جمع غرنوق، بضم الغين المعجمة والنون وبكسرها وفتح النون، أو غرنيق بضمها وفتح النون، وهو طير من طيور الماء، كبير، طويل العنق، أبيض، وأصله الشاب الناعم، استعير للأصنام، والعلا تجريد لزعمهم أنها ترفع للسماء، **(وإن شفاعتها)** لهم **(لترتجى)**، أى تؤمل وتنتظر، **(ويروى: لترتضى)**، أى تقبل عند الله بزعمهم الفارغ، **(وفى رواية: إن شفاعتها لترتجى، وإنها لمع الغرانيق العلا)**، يعنون الملائكة.

(وفى) رواية **(أخرى: والغرانقة العلا تلك للشفاعة ترتجى)**، ومعانيها متقاربة، **(فلما ختم)**، أى أتم، صلى الله تعالى عليه وسلم، قراءة هذه السورة **(سجد)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وسجد معه المسلمون)**، ممن كان حاضرًا عنده من الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، **(والكفار)** الحاضرون عنده أيضًا، **(لما سمعوه أثنى على آلهتهم)** بقوله المتقدم: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهم لترتجى، **(وما وقع فى بعض الروايات)**، لهذه القصة **(أن الشيطان ألقاها)**، أى هذه الكلمات، **(على لسانه)**، فسبق لسانه بها سهوًا منه، ثم تنبه ونبهه جبريل، عليهما الصلاة والسلام، لها، وكان ذلك ابتلاء من الله تعالى؛ ليعلم من ثبت على ذلك، أو تزلزل.

(وأن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان) لحرصه على إيمان قومه، **(تمنى أن لو نزل عليه شىء)**، مما يوحى إليه، **(يقارب بينه وبين قومه)**، أى يقربهم من الإسلام حتى تركوا عنادهم.

(وفى رواية أخرى) لهذه القصة أنه، عليه السلام، كان تمنى **(أن لا ينزل عليه شىء ينفرهم عنه)**، أى عن الطعن فيهم وفى آلهتهم، ولم يزل كذلك حتى نزلت عليه سورة النجم، وهذه الرواية والتى قبلها بمعنى، فإن عدم التنفير عنه والقرب بينه وبين قومه متساويان.

(وذكر) صاحب هذه الرواية وناقلها، **(هذه القصة)**، أى قراءته، صلى الله تعالى عليه وسلم، سورة النجم وسجوده وسجود المسلمين والكفار معه، **(وأن جبريل، عليه السلام، جاءه)** صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحى، **(فعرض عليه)**، أى قرأ عليه هذه **(السورة)**، وفاعل عرض ضمير النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فلما بلغ)**، أى وصل فى قراءته هاتين **(الكلمتين)**، يعنى: الغرانيق العلا... إلى آخره، **(قال له)**، أى قال جبريل له صلى الله تعالى عليه وسلم: **(ما جئتك)** من الله **(بـ)** وحى فيه **(هاتين)** الكلمتين، يعنى: تلك الغرانيق العلا، وفى نسخة الآيتين، **(فحزن)**، أى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لذلك)**، وفى نسخة: فحزن لذلك النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى لما قال جبريل له، **(فأنزل الله تعالى)**، لما رأى حزنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(تسلية له)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، والتسلية إذهاب حزنه بتطييب خاطره، قوله: (﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ**﴾ [الحج: ٥٢] **الآية)**، تقدم فى تفسير هذه الآية ما فيه كفاية.

وفى رواية: أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، تمنى أن يوحى إليه ما يقرب قريشًا منه ويستعطفهم، فلما نزلت هذه السورة، وقرأها إلى قوله: ﴿**وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ**﴾ [النجم: ٢٠]، ألقى الشيطان عليه: تلك الغرانيق العلا... إلى آخره، فتكلم بها، ثم مضى فى قراءتها، حتى ختمها، وسجد فسجد معه من سمعها من المسلمين والمشركين، رضا بما قاله؛ لظنهم أنه رضى بآلهتهم، فلما أمسى أتاه جبريل، عليهما الصلاة والسلام، فعرضها عليه حتى بلغ قوله: تلك الغرانيق العلا، فقال له: ما جئتك بهذا، وهذا لم يقله الله، فما زال، صلى الله تعالى عليه وسلم، مغمومًا حتى نزل عليه قوله تعالى: (﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ**﴾ [الحج: ٥٢] **الآية)**، فطابت نفسه لتسلية الله له فيها، بإخباره أن كل نبى ورسول وقع له مثل ذلك، من إلقاء الشيطان فى الوحى، وتلاوته فى أثنائه، ثم بين له ونسخه الله، فكأنه قال له: لك أسوة بمن سبقك من الرسل والأنبياء.

(و) أنزل عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، تسلية له أيضًا، قوله: (﴿**وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ**﴾ [الإسراء: ٧٣] **الآية)**، إلى قوله: ﴿**عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا**﴾ [الإسراء: ٧٣، ٧٤]، وأن مخففة من الثقيلة، أى قاربوا أن يخدعوك عما أوحيناه إليك حتى تقول ما لم نقله مما أرادته قريش، وحتى تركن إلى بعض الكفرة لتستميل قلوبهم للإسلام، فبين الله لك ذلك وثبتك على الحق، وأغناك عن المداراة، كما فصله المفسرون،

وبين فى أسباب النزول.

إذا عرفت ما ذكر وأردت كشف غطائه عنك، (**فاعلم أكرمك الله**)، بما علمك وهداك لدفعه، (**أن لنا فى الكلام على مشكل هذا الحديث**) الذى أورده عليه بعض الطاعنين كما تقدم، (**مأخذين**)، أى طريقين فى الأخذ على الكلام فيه نقلاً وعقلاً، من أخذ عليه إذا منعه عما يريد فعله، حتى كأنه مسكه من تشبث به واعتمد عليه من رواه، (**أحدهما فى توهين أصله**)، أى تضعيف روايته ونقله، من الوهن وهو الضعف، وجعل ثبوته أصلاً للسؤال والجواب المبنى عليه وأصل الوهن ضعف الخلقة، كقوله: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ [مريم: ٤]، (**والثانى**) مبنى (**على تسليمه**) وصحة روايته تنزلاً وإرخاء للعنان لمن أورده.

(**أما المأخذ الأول**) فى الكلام على صحة روايته، (**فيكفيك**) فى تضعيف روايته، (**أن هذا حديث لم يخرجه**)، بالتشديد والتخفيف، أى لم يروه بسنده، (**أحد من**) العلماء بالحديث، (**أهل الصحة**)، ممن يعتمد على روايته، وأتى باسم الإشارة مكان الضمير؛ لتمييزه أكمل تمييز لقرب العهد به، (**ولا رواه ثقة**)، ممن يوثق بنقله، (**بسند سليم**)، أى سالم من الطعن والعلة والجرح من نقاد السلف، (**متصل**) إلى قائله ومن نقل منه، (**وإنما أولع به**)، بضم الهمزة وكسر اللام وعين مهملة، يقال: أولع بكذا فهو مولع، بالفتح إذا لهج وأكثر من ذكره، ويكون بمعنى الكذب، وعبر به لإيهام ذلك.

(**وبمثله**) من الأحاديث الموهمة مما لا يليق بالرسل، عليهم الصلاة والسلام، (**المفسرون**)، فإنهم يوردون كثيرًا من الأحاديث الضعيفة، الموهمة لما لا يليق بمقام النبوة، (**والمؤرخون**)، بالهمزة، وقد تبدل واوًا، وأهل التاريخ نقلة الأخبار، واختلف فى لفظ التاريخ، فقيل: إنه من الأرخ، وهو الفتى من البقر، وقيل: إنه معرب ماه روز، أى حساب الشهور والأيام، وأول من أرخ الكتب، عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، كما فصلناه فى غير هذا المحل.

(**المولعون**)، أى المفسرون، جمع مولع، بفتح اللام، وهو المكثر من الشىء، (**بكل غريب**) من الأخبار والقصص التى لم تشتهر وتعرف، (**المتلقفون**)، بالمثناة الفوقية بعدها لام وقاف وفاء، وفى نسخة: المتلقون، بحذف الفاء، يقال: تلقفه، إذا تناوله بسرعة، وتلقها إذا أخذه من غيره، والتلقى تفعل من اللقاء، وهو المقابلة، (**من الصحف كل صحيح**)، لفظه ومعناه، (**وسقيم**) لفظه، كالمحرف لفظه، ومعناه كالمفسر بغير المراد، والصحف جمع صحيفة، والأخذ من الصحف غير مقبول عند السلف؛ لأنه قد يتحرف

لفظه ويخفى معناه، أو يفهم منه غير المراد، والقبول التلقى من أفواه الرجال.

واعلم أن ابن سيد الناس قال: بلغنى عن الحافظ المنذرى، أنه كان يرد هـذا الحديث من جهة الرواية بالكلية، وأن الحافظ الدمياطى خالفه فيـه، ولا وجـه لتصحيحـه، إلا أن يكتب: بسند لا يطعن فيه، ولا سبيل لذلك. انتهى.

وفى سيرة مغلطاى: أن الشيطان ألقاه فى أمنيته، كما ذكره الكلبي، عن بـاذان، عـن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، وقد قالوا: إنـه بـاطل نقـلاً وعقـلاً، وسيأتى مـا فـى سنده.

(و) لقد (**صدق القاضى أبو بكر بن العلاء المالكى**)، وفى نسـخ حـذف أو وتقدمـت ترجمته، وهو المشهور بابن العربى، رحمه الله تعالى، (**حيث قال: لقد بلى النـاس**)، بالبنـاء للمجهول، من الابتلاء، وهو الامتحـان، أى صـار لهـم بليـة ومحنـة، أى أصيـب النـاس، (**ببعض**)، بعين مهملة، وضاد معجمة، مقابل كل، وهو ما صحح فى بعض النسخ، وفى بعضها: ببغض، بغين معجمة، ثم ضاد معجمة، وفى نسخة: بتقصى، بباء جارة، ومثنـاة فوقية، وقاف مفتوحة، فصاد مهملة مشددة مكسورة، ومثنـاة مخففـة، مـن تقصيتـه، إذا تأملته تأملاً تامًا، كما قال أبو تمام:

يـــا صاحبـــى تقصيـــا نظريكمـــا

كأنه بلغ أقصاه، وأصله تقصص تفعل من قص عليه الخبر، فأبدل مـن أحـد حـروف التضعيف حرف علة، كما قالوا: تمطى فى تمطط ونظائره.

(**أهل الأهواء**) بالمد، أى أصحاب الآراء الفاسدة، والمذاهب الباطلة، (**والتفسير**)، أى بعض المفسرين الذين يذكرون فى تفاسيرهم قصصًا لا أصل لهـا يبنـون عليـها تـأويلات بعيدة وأمورًا غريبة، (**وتعلق بذلك**)، أى بما ذكر من كلام أهل الأهواء وبدع التفاسـير، لا بحديث سورة النجم بخصوصه كما قيل.

(**الملحدون**)، جمع ملحد من اللحد، وهو العدول عن الاستقامة، فيطلق على كل من لم تكن عقيدته حقًا.

(**مع ضعف بعض نقلته**)، بفتحات، جمع ناقل، كفاسق وفسقة، يعنى به رواته أو مـن ذكره فى كتاب له، فيكون إشارة لمن ابتلى به من أهـل الأهـواء السـابقين ونحوهـم مـن المفسرين والقصاص.

(**واضطراب رواياته**)، الاضطراب فى اصطلاح المحدثين أن يقع من الـراوى اختـلاف فى روايته، فيرويه تارة على وجه، وأخرى على وجه آخـر وهكـذا، أو يرويـه راو علـى

وجوه مختلفة، بشرط أن لا يكون بعض طرقه أرجح من بعض، فإن العمل حينئذ بالراجح، فلا يعد مضطربًا عندهم، ومن فسر الاضطراب بعدم عزوه إلى مأمون، لم يصب.

(**وانقطاع إسناده**)، الإسناد يكون بمعنى المسند، وهم رواة الحديث، وبمعنى مصدرى، وهو ذكر السند وانقطاعه، وهو أن يسقط منه واحد فأكثر غير الصحابى، وضده الاتصال.

وقوله: (**واختلاف كلماته**)، هو قريب من الاضطراب، ثم بين ذلك بقوله: (**فقائل يقول: إنه**)، أى ما ذكر وقع (**فى الصلاة**)، أو الضمير له، صلى الله تعالى عليه وسلم، والتقدير: قرأها فى الصلاة، (**وآخر يقول:**) إنه (**قالها فى نادى قومه حين أنزلت عليه السورة**)، أى سورة النجم، والنادى والندى مجلس يجتمع فيه القوم للمشاورة، وفصل الأمور المهمة، ولذا سميت دار الندوة كما مر، (**وآخر يقول:**) إنه (**قالها**)، أى الكلمات المذكورة (**وقد أصابته سنة**)، أى وقد عرض له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أوائل النوم من غير قصد منه، فالسنة بكسر السين، أول النوم وهو النعاس، وقيل: السنة ثقل فى الرأس، والنعاس فى العين، والنوم فى القلب، فهو غشية ثقيلة تقع على القلب تمنع الإدراك.

(**وآخر يقول: بل حدث**) بتشديد الدال (**نفسه**) فى سنة، فخطرت بباله، وحديث النفس ما يجرى على فكره من غير تلفظ به حتى كأنه يحادثها، (**فسها**)، أى حصل له سهو حتى تكلم فى أثناء قراءته سورة النجم، (**وآخر يقول: إن الشيطان قالها**)، يعنى الكلمات المذكورة، (**على لسانه صلى الله تعالى عليه وسلم**)، أى تكلم بها الشيطان وهو لا يرى فظنها وحيًا ألقى إليه وسمعها من كان عنده، فتوهم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم نطق بها عن قصد وأنها من القرآن حقيقة، (**وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما عرضها**) وقرأها (**على جبريل**)، عليه الصلاة والسلام، (**قال**) له: (**ما هكذا أقرأتك**)، فحزن لذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كما مر.

(**وآخر يقول:**) إن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يقرأها، (**بل أعلمهم الشيطان أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قرأها**)، أى قرأ الكلمات المذكورة فى أثناء تلاوة سورة النجم وعرضها على جبريل، (**فلما بلغ النبى**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**ذلك**)، أى وصل لقراءة هذه الكلمات التى أعلمهم الشيطان بها، (**قال**) جبريل، عليه الصلاة والسلام: (**والله ما هكذا أنزلت**) هذه السورة، (**إلى غير ذلك**) من الأقوال المؤذنة بأن

الشيطان له دخل فى ذلك، مع أنه ليس له سلطان على الذين آمنوا، وهذا كله صدر **(من اختلاف الرواة ومن حكيت هذه الحكاية عنه)**، كابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، **(من المفسرين والتابعين)**، كالزهرى، وأبى بكر بن عبد الرحمن بن هشام، وسعيد ابن جبير، **(لم يسندها أحد منهم)**، أى لم يذكر لها سندًا مرضيًا أحد ممن حكيت عنه، **(ولا رفعها إلى صاحب)**، أى إلى صحابى من أصحاب الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، قالها، وقيل: المعنى لم يعزها لصاحب لها قد قالها.

(وأكثر الطرق)، التى رويت منها **(عنهم فيها)**، أى فى هذه القصة **(واهية)** ساقطة **(ضعيفة)** غير مرضية لا يعول عليها، **(والمرفوع فيه)**، أى ما وقع فيه ذكر من روى هذه القصة، وفى نسخة: منه، **(حديث شعبة)** بن الجراح الذى رواه، **(عن أبى بشر)**، بكسر الباء الموحدة وسكون الشين المعجمة، وهو جعفر بن أبى وحشية إياس، التابعى، الثقة، توفى سنة خمس وعشرين ومائة، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، وله ترجمة فى الميزان.

(عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس)، رضى الله تعالى عنهما، **(قال: فيما أحسب)**، أى أظن، ومثله يستعمل للشك فيما قارنه، ثم بين المصنف، رحمه الله تعالى، ما وقع فيه من الشك من الراوى بقوله: فيما أحسب، فقال: **(الشك)** المذكور **(فى الحديث)**، أى فى متنه وأصله، لا فى سنده، والحديث هو حديث شعبة المذكور، **(أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان بمكة)**، وأن المفتوحة وما بعدها بدل من الحديث.

(وذكر) شعبة **(القصة)** المذكورة فى هذا الحديث بتمامها، وأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، تمنى أن ينزل عليه ما يطيب نفوس قومه، عسى أن يؤمنوا، فنزل عليه سورة النجم، فقرأها حتى بلغ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ﴾ [النجم: ١٩] الآية، فقال: تلك الغرانيق العلا... إلى آخر السورة، وسجد فسجد معه المسلمون والمشركون، وفرح الكفار.

(قال أبو بكر البزار:)، بتقديم الزاء المعجمة على الراء المهملة، نسبة لعمل بزر الكتان بلغة البغداديين، وهو الحافظ المشهور كما تقدم، **(هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بإسناد متصل)** إلى أحد من الصحابة الذين حضروا عنده أو إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يجوز ذكره)**؛ لصحة نقله والاعتماد عليه، **(إلا هذا)** الحديث المسند إلى ابن عباس، **(ولم يسنده)**، أى لم ينقله مسندًا، **(عن شعبة، إلا أمية بن خالد)**، وهو ثقة أخرج له مسلم وغيره، وتوفى سنة إحدى وثمانين، وترجمته فى الميزان، **(وغيره)**، أى غير أمية بن خالد ممن روى هذا الحديث **(يرسله)**، أى يرويه مرسلاً،

والمرسل ما سقط من سنده الصحابى، فهو يرويه، **(عن سعيد بن جبير)**، عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، من غير ذكر ابن عباس.

وظاهر كلام المصنف، رحمه الله تعالى، أن السند بتمامه مذكور غير الصحابى، فإن أراد لم يعزه لغير ابن جبير، وأسقط رجاله كلهم، فهو معضل، والمحدثون يعبرون عنه بأنه أرسل أو يرسل، بصيغة الفعل، ويفرقون بينه وبين المرسل بالاسم، وتفصيله فى كتاب ابن الصلاح وغيره.

(وإنما يعرف) هذا الحديث وروايته **(عن الكلبى)**، نسبة لكلب، قبيلة معروفة، وهو أبو النصر المفسر النسابة الإخبارى، الراوى المشهور، وسيأتى كلام المصنف، رحمه الله تعالى، فيه، والكلبى يرويه **(عن أبى صالح)**، وهو «باذان»، بنون، أو «بادام»، بميم، وهو يروى عن مولاته أم هانىء، وعلى، كرم الله وجهه، وروى عنه السدى وغيره، أخرج له أصحاب السنن الأربعة، وقال أبو حاتم: إنه لا يحتج به، **(عن ابن عباس)**، وهو لم يسمع منه، فالحديث منقطع.

(فقد بين لك) أيها الواقف على هذا الحديث **(أبو بكر)** البزار المذكور **(أنه)**، أى هذا الحديث **(لا يعرف)** روايته **(من طريق يجوز ذكره)**، أى يصح ويعتمد عليه، **(سوى هذا)** الطريق الذى رواه شعبة منه بسند ليعتمد عليه فى الجملة، **(وفيه)**، أى حديث شعبة أيضًا **(من الضعف ما نبه عليه)** البزار وغيره من أنه لا يعرف من طريق غيره، مع اختلاف كلماته واضطراب رواياته وانقطاع سنده أو إرساله، والاختلاف فى مواطن قراءته وكيفيته، أكان فى الصلاة، أو فى نادى قومه، أو فى سنته، أو حدث به نفسه فسها وذكره أو قاله الشيطان على لسانه، أو أعلمهم به، وإنكار جبريل له عند عرضه عليه كما مر، **(مع وقوع الشك فيه)** الذى أشار إليه بقوله المار: فيما أحسب، **(كما ذكرناه)** فيما تقدم **(الذى لا يوثق به)** صفة الشك، كقوله: **(ولا حقيقة معه)**، أى تحقق وتيقن مع ما فيه من تشكيكه فى أصله كما أشار إليه البزار.

(وأما حديث الكلبى)، أى روايته لهذا الحديث وغيره، **(فمما لا يجوز)** شرعًا، ولا يصح نقلاً **(الرواية عنه ولا ذكره)**، هذا بحسب الظاهر غير منتظم، إذ الظاهر أن يقول: أما حديثه، فمما لا يجوز ذكره، أو الكلبى لا تجوز الرواية عنه، وإما أن يقول: هو لف ونشر تقديرى، وأصله: وأما الكلبى وحديثه، كقولهم: راكب الناقة طليحان، أى الناقة وراكبها، أو هو من قبيل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، على قول الفراء، وأطلق ما فيه على من يعقل، وكذا قوله: **(لقوة ضعفه وكذبه)**،

أى كثرة كذبه، وفى قوله: لقوة ضعفه، طباق بديع جدًا.

(كما أشار إليه البزار)، فإنه وغيره من المحدثين قالوا: إنه كذاب وضاع لا يوثق به، وإن كان إمامًا فى اللغة والتفسير، وقد قال الجرجانى وابن معين وغيرهما: إنه يضع الأحاديث وكذاب لا يحتج به، وروى عن أبى صالح، عن ابن عباس، وأبو صالح لم يرو عن ابن عباس.

وقال ابن حبان: إنه فى الدين غير مبين، وكذبه أظهر من أن يذكر، ولم يسمع من أبى صالح أيضًا، **(والذى)** صح وثبت **(منه)**، أى من هذا الحديث، **(فى الصحيح)**، أى فى الحديث الصحيح، أو فى صحيح البخارى على ما يأتى، **(أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قرأ)** سورة (**﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ وهو بمكة**) قبل الهجرة، **(فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس)**.

قال الكرمانى: هى أول سورة نزلت فيها سجدة، وإنما سجد المشركون لآلهتهم، معارضة للمسلمين، أو وقع ذلك منهم بلا قصد، أو خافوا من مخالفتهم فى ذلك المجلس. وقال ابن حجر: فيه نظر؛ لمخالفته لما قاله ابن مسعود، من أنهم أخذوا حصى ووضعوا على جباههم، ولأن خوف المشركين لا يظهر له وجه، بل الظاهر العكس.

ثم قال الكرمانى أيضًا: ما قيل من أن سبب ذلك إلقاء الشيطان فى أثناء قراءته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وذكر آلهتهم لا يتجه عقلاً ونقلاً، وأما سجود الجن المروى عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، فكأنه استند فيه إلى سماع منه، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه لم يحضر القصة؛ لصغر سنه، ومثله لا يطلع عليه، وكشف ذلك له بعيد، والصحيح أن الشيطان ألقى ما ألقاه فى أسماع المشركين، فتوهموا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قاله مدحًا لآلهتهم وارتضاء لها، فسجدوا معه، وهو لا ينافى عصمة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم.

ولا يخفى أن هذا الحديث أخرجه الشيخان، ففى البخارى مسندًا: أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قرأ سورة النجم بمكة، فسجد وسجد من معه، غير شيخ أخذ حصى وترابًا وضعه على جبهته، فقتل كافرًا. وفيه عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، سجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس، والشيخ الذى وضع الحصى على جبهته أمية بن خلف، وفى سيرة ابن إسحاق أنه الوليد بن المغيرة، وفيه نظر؛ لأنه مات حتف أنفه، وقيل: إنه سعيد بن العاص. وقال أبو حيان النحوى: إنه أبو لهب، ولم يسنده.

وفى مصنف ابن أبى شيبة: إلا رجلين من قريش، وقيل: إنه المطلب بن المطلب بن أبى وداعة، ولم يكن أسلم، وما قاله الطبرانى: من أن أهل مكة، لما أظهر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم دينه، أسلموا وكانوا يسجدون معه، وبعضهم لا يسجد من الزحام، فلما سمع ذلك رؤساء قريش، كالوليد وأبى جهل وغيرهما، قالوا لهم: أتتركون دين آبائكم، فارتدوا، غريب.

(هذا)، أى الأمر هذا، أو هذا هو ما قاله، فهو خبر مبتدأ مقدر، أو مبتدأ خبره ما بعده، أو هو منصوب بتقدير: خذ هذا فاعلمه ونحوه، وأما كون ها اسم فعل بمعنى خذ وذا مفعوله، وإن جاز فيأباه رسمه متصلاً بدون ألف، **(توهينه)**، أى بيان وجه ضعفه **(من)** جهة **(طريق النقل)**، ومنه الواهنة، وهى ضربان عرق يتألم منه فيرقى، وقد قال الحافظ ابن حجر: قول أبى بكر بن العربى: إن طرق هذا الحديث كلها باطلة، وقول عياض فى الشفاء: إنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة، وليس له سند متصل، مع ضعف نقلته واضطراب رواياته، وأن من نقله من المفسرين وغيرهم لم يسنده أحد منهم، ولا يرفعه لصاحب، لا وجه له، فإن له طرقًا متعددة كثيرة متتابعة المخارج، وكل ذلك يدل على أن له أصلاً، وقد ذكرنا له ثلاث أسانيد منها ما هو على شرط الصحيح، وهى وإن كانت مراسيل يحتج بها من يحتج بالمرسل كمالك، ومن لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض، فتبين بهذا أن مبالغة المصنف، رحمه الله تعالى، فى رد نقله غير مرضية.

(فأما) توهينه **(من جهة المعنى، فقد قامت الحجة)**، أى الدليل الواضح على ضعفه، **(واجتمعت الأمة على عصمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ونزاهته)** عما لا يليق بجنابه **(عن مثل هذه الرذيلة)**، أى الخصلة القبيحة الدنية من الرذالة، وهى الدناءة، والقول على الله بما لم يقله، ولا شىء أعظم من الافتراء، لاسيما على الله عز وجل ونحوه، ثم بين ما فيه من القبائح، فقال: **(إما من تمنيه)**، بكسر الهمزة وتشديد الميم ما نقل كما مر، **(أن ينزل)**، بالتخفيف والتشديد فى الزاء المعجمة، **(مثل هذا)** المذكور **(من مدح آلهة غير الله)** بقوله: تلك الغرانيق العلا... إلى آخره، **(وهو كفر)**؛ لأن الرضا بالكفر كفر، **(أو أن يتسور)**، أى يتسلط **(عليه الشيطان)**، وأصل التسور التسلق والصعود من حائط السور، فكنى به عن الترفع، وأريد به هنا التسلط كما علم، **(ويشبه عليه القرآن)**، أى يلبسه ويخلط فيه ما ليس منه، **(حتى يجعل فيه ما ليس منه)**، وهى الكلمات المذكورة، **(ويعتقد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن من القرآن ما)**، أى شىء **(ليس منه)**، ويستمر على اعتقاده، **(حتى ينبهه)**، أى يوقظه من غفلته عما شبه عليه، **(جبريل، عليه الصلاة والسلام)**، بقوله له: ليس هذا من الوحى الذى أتيت به لك، **(وذلك كله ممتنع فى حقه،**

عليه الصلاة والسلام)؛ لنزاهته عن مثله وحفظ الله له.

(**أو يقول ذلك النبى**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**من قبل**)، بكسر القاف وفتح الباء، أى من عند (**نفسه عمدًا**)، من غير إلقاء الشيطان عليه، وهو لا ينطق عن الهوى، (**وذلك**)، أى ما يقول من عنده (**كفر**)؛ لأنه افتراء عليه وتبديل لكلام الله تعالى بالزيادة فيه، (**أو سهوًا**) حفظه الله تعالى منه، (**وهو معصوم عن هذا كله**) بالإجماع كما تقدم، (**وقد قررنا**) فيما تقدم (**بالبرهان**) والدليل القاطع (**والإجماع**) من أمة الإجابة (**عصمته، عليه الصلاة والسلام، من جريان الكفر**)، أى طرئانه ووقوعه منه (**على قلبه**) باعتقاده، (**أو لسانه**) بالنطق به، (**لا عمدًا ولا سهوًا**)، فضلاً عن استقراره، فإن الجريان عبارة عن صدوره منه من غير ثبات، كأنه ماء جار، فهو استعارة لما ذكر.

(**أو أن يتشبه**)، أى يختلط ويلتبس (**عليه ما يلقيه الملك**) من وحى الله تعالى إليه (**بما يلقيه الشيطان**) على لسانه محاكيًا نطقه به، (**أو يكون للشيطان عليه سبيل**)، أى طريق يصل إليه منه مما حماه الله عنه، (**أو أن يتقول على الله**)، أى يفترى عليه عمدًا ما لم يوحيه إليه ويقول: إنه أوحى إلىَّ، (**لا عمدًا ولا سهوًا**)، تأكيد لما أفاده ما قبله من نفى التقول على الله، (**ما لم ينزل عليه**)، مفعول مطلق؛ لقوله: يتقول؛ لأنه لا ينصب المفردات إلا إذا أريد بها لفظها، وليس بمعنى الظن؛ لعدم ذكر مفعوليه.

(**وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾** [الحاقة: ٤٤] **الآية**)، تقول تكلف من نفسه قولاً لم يقله، كتشجع إذا أظهر الشجاعة وهو جبان، فكنى به عن الافتراء والكذب، والأقاويل جمع أقوال، فهو جمع الجمع، أو جمع أقوولة أفعولة، وهو يستعمل للحقير كالأضاحيك الأول، وهو الذى صرح به سيبويه، رحمه الله تعالى، فمن اختار الثانى فقد رجح المرجوح وتمامها: (﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾) [الحاقة: ٤٥، ٤٦]، أى لأمسكناه وأهلكناه كما نفعل بمن افترى علينا، والوتين عرق فى العنق إذا قطع مات صاحبه، وهو الوريد، وقطعه عبارة عن الذبح، وفيه دليل على أن الكذب على الله كفر، وأنه لا يقول على الله ما لم يقله.

(**وقال تعالى:**) **﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾** [الإسراء: ٧٤] (**﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾** [الإسراء: ٧٥] **الآية**)، أى لو قربت من الميل إلى الكفرة، وضعف صفة لمقدر، أى لأوصلنا لك عذابًا مضاعفًا فى مماتك، يعنى به عذاب القبر، وفى حياتك بعد البعث فى الآخرة، والآية دليل على عدم تمنيه السابق، وأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، معصوم من مقاربة شىء من ذلك، والآية نزلت فى

ثقيف، لما قالوا له، صلى الله تعالى عليه وسلم: لا نتبعك حتى تخصنا بخصال نفخر بها على العرب، لا ننشر، ولا نحشر، ولا ننحنى فى صلاتنا، وتضع عنا الزنا، وتمتعنا باللات سنة، وتحرم وادينا كمكة، وتقول للعرب: إن الله تعالى أمرنى بهذا، فأنزل الله عليه هذه الآية.

(**ووجه ثان**) فى توهين ما ذكر من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذكر قوله: تلك الغرانيق... إلى آخره، فى أثناء قراءة هذه السورة، (**وهو**)، أى الوجه الثانى، (**استحالة هذه القصة**)، أى عدها من المحال عقلاً، أو مما لا يستقيم؛ لأن أصل معناه لغة ما لا يستقيم مما اعوج، ومن لم يعرف اللغة يعترض على المتنبى قوله:

كأنك مستقيم فى محال

كما مر، والمراد بالقصة: صدور ما ذكر منه بتسليط الشيطان عليه، (**نظرًا**)، أى من وجهة النظر والفكر الصادر عن عقل مستقيم، فى عصمة رسل الله، عليهم الصلاة والسلام، فيما طريقها البلاغ، (**و**) استحالتها (**عرفًا**)، أى من جهة ما عرف من أحواله وأحوال غيره من الأنبياء، أى أمرًا متعارفًا، ومن فسر العرف بتأليف كلامه، وتناسب ألفاظه، فقد ارتكب شططًا، وكأنه نظر لقوله عقبه: (**وذلك أن هذا الكلام**)، الذى تلاه، عليه الصلاة والسلام، مع ما ألقى فيه، من قوله: تلك الغرانيق العلا... إلى آخره.

(**لو كان كما روى، لكان**) ما روى (**بعيد الالتئام**)، بهمزة بعد المثناة الفوقية، وقد تبدل ياء تحتية، والمراد به أن مناسبته لما وقع، فيه من كلام الله الذى هو فى أعلى طبقات البلاغة، فى غاية البعد، وهو مع كونه وقع فى كلام رب العزة، (**متناقض الأقسام**) متنافر النظم، لما فيه من التضاد، من حيث أنه يصير (**ممتزج المدح**) لآلهتهم، بجعلها علية مرجوة الشفاعة، (**بالذم**) لها الذى دل عليه سياقه فى قوله: ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ**﴾ [النجم: ٢٣]، وأنها ليس لها عند الله شأن ولا منزلة، وهذا يناقض علو منزلتها، ورجاء شفاعتها، ويصير الكلام القرآنى بذكرها فى أثنائه، (**متخاذل التأليف**)، أى متنافر النظم، غير متلائم، فكان بعضه يخذل بعضًا ويكر عليه هدمًا ونقضًا، (**والنظم**) معناه فى الأصل إدخال الدرر ونحوها فى سلك متناسب الوضع والمقدار، فاستعير لتأليف الكلمات متناسبة المعانى متناسقة الدلالة، ثم صار حقيقة فيه، وغلب استعماله فى التراكيب القرآنية، حتى انصرف إليه عند الإطلاق.

(**ولما**)، بكسر اللام، وتخفيف الميم، وقيل: إنه بفتح اللام، وما موصولة، (**كان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا من بحضرته**)، معطوف على النبى، (**من المسلمين**)، بيان

لمن الموصولة، والحضرة مصدر بمعنى الحضور، مثلث الحاء، ويطلق على كل كبير يحضر عنده الناس، فيقال: الحضرة العالية، وهو اصطلاح أصحاب الترسل، ويصح إرادة كل منهما هنا، والأول أولى، **(وصناديد المشركين)**، جمع صنديد، وهو كصندد، بزنة زبرج السيد الشجاع، والحليم، والجواد، والشريف، والمراد خواص رؤسائهم، وكبرائهم، **(لمن يخفى عليه ذلك)**؛ لكونهم بلغاء أصحاب سليقة مستقيمة، والسنة فصيحة بليغة.

(وهذا) المذكور أمر **(لا يخفى على أدنى متأمل)** يتأمل ألفاظ القرآن التى هى فى أعلى طبقات البلاغة، وما أدرج فيه مما بينه وبينه بون بعيد، **(فكيف بمن رجح حلمه)**، بضم الحاء المهملة وسكون اللام، بمعنى لبه وعقله ورجحانه زيادته وقوته، وكيف يستعار لاستبعاد خفاء مثله على مثله، كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]، كما تقرر فى كتب العربية، يقال: حلم يحلم حلما وحلما، **(واتسع)**، أى عظم وكثر **(فى باب البيان)**، أى فى نوع المنطق الفصيح المعرب عما فى الضمير، **(و)** فى **(معرفة فصيح الكلام علمه)**؛ لقوة فهمه وذكائه واستقامة سليقته، مع فطرة وقادة وبصيرة نقادة.

(ووجه ثالث) لبيان توهينه وضعفه **(أنه)** الضمير ضمير شأن، **(قد علم)**، بالبناء للمجهول، **(من عادة المنافقين)** الذين لم يظهروا كفرهم **(ومعاند المشركين)**، أى المشركين المعاندين، فهو من إضافة الصفة للموصوف، **(وضعفة القلوب)**، بفتحات، جمع ضعيف، أى الذين قلوبهم ضعيفة عن إدراك الحق؛ لأنهم بله لا إذعان لهم، **(و)** المراد بهم الكفار غير المعاندين، ممن أشرك اتباعًا لغيره، أو المراد بهم **(الجهلة من المسلمين)**، فهو عطف تفسير عليه، **(نفورهم)**، نائب فاعل علم، **(لأول وهلة)**، أى عند أول شىء يقع فى آذانهم وأذهانهم، يقال: لقيته لأول وهلة، بوزن ضربة، ويجوز فتح هائه، أى أول شىء، كما فى القاموس، أى قبل التفكير والتأمل فيما قرع سمعه حتى يهتدى؛ لأنه ليس متسقًا منتظمًا مع ما وقع فى أثنائه من نظم القرآن.

(وتخليط العدو) من الكفرة والمنافقين **(على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، بإدخالهم فى كلامه ما لم يقله، **(لأقل فتنة)** يفتتن بها المسلمون؛ لإدخالهم الشبهة عليهم فى دينهم، **(وتعييرهم)**، بعين مهملة وتحتيتين، أى إلحاق ما هو عار عليهم باتباع **(المسلمين)** الهوى ومدح آلهة غير الله، **(والشمات بهم)**، بضم الشين المعجمة وتشديد الميم، جمع شامت كفجار، وكفار من الشماتة، وهى فرح العدو بما يصيب عدوه من نوائب الدهر، وفى نسخة: والشماتة بهم.

(الفينة بعد الفينة)، بفتح الفاء وسكون المثناة التحتية ونون تليها هاء التأنيث، أى حينًا

بعد حين، مما امتحنهم الله تعالى من المصائب؛ تعظيمًا لأجرهم بما امتحنهم به من ذلك. قال فى القاموس: الفينة الساعة والحين، وقد تحذف اللام، فيقال: لقيته فينة، يعنى أنه استعمل علمًا وغير علم، كشعوب للمنية، **(وارتداد من فى قلبه مرض)**، أى من ضعف إيمانه، أو من نافق وسمع ما ذكر يرجع عن الإسلام إلى الكفر، **(ممن أظهر الإسلام)** بلسانه ولم يذق حلاوته، فيرتد **(لأدنى شبهة)** ترد عليه لضعف إيمانه وإيقانه.

(ولم يحك أحد)، أى لم يقل أحد من المحدثين، أو أحد ممن عاداه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى هذه القصة)**، أى قصة تلك الغرانيق، **(شيئًا سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل)**، رواية ودراية لركاكتها وتناقضها كما تقدم، **(فلو كان)**، أى وقع وصح **(ذلك)** الذى ذكره بعضهم، **(لوجدت قريش)**، أى كفارهم، **(بها)**، أى بسبب هذه القصة **(على المسلمين الصولة)**، أى الاستطالة والقهر، وتسلقوا بذلك على ترويج أمرهم وما هم عليه، **(ولأقامت اليهود عليهم الحجة)**، أى على المسلمين بأنه مدح آلهتهم واعترف بأنها وسيلة إلى الله، **(كما فعلوا)**، أى كفار قريش **(مكابرة)** وعنادًا، **(فى قصة الإسراء)** حين قصها عليهم كما تقدم، **(حتى كانت فى ذلك لبعض الضعفاء)**، أى من ضعف إيمانه لقرب عهده، **(ردة)** ورجوع عن الإسلام، لإنكاره واستبعاده لها.

(وكذلك)، أى مثل ما ذكر، أو مثل قصة الإسراء **(ما ورد فى قصة القضية)**، بقاف وضاد معجمة وياء مشددة، وهى مصدر بمعنى القضاء أو التقاضى أو اسم للواقعة التى وقع فيها القضاء بينهم بما وقع فى صلح الحديبية، لما رأى، عليه السلام، أنه دخل هو وأصحابه مكة، فسار إليها، ثم رجع إلى المدينة فى الواقعة التى قصها الله تعالى فى قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، كما تقدم، وهذه القضية مذكورة فى الصحيحين، وقد وقع بسببها فتنة للمسلمين لما صدوهم عن دخول مكة وصالحهم، صلى الله تعالى عليه وسلم، على أن يرجع ويأتى من العام القابل، وكتب لهم بذلك كتابًا شرط فيه شروطًا فيها شطط على المسلمين، حتى قال عمر، رضى الله تعالى عنه: يا رسول الله، ألست رسول الله حقًا؟ قال: «بلى»، قال: ألست على الحق وهم على الباطل؟ قال: «بلى»، قال: فلم نعط الدنية فى ديننا؟ وإنما قاله رضى الله تعالى عنه؛ ليقف على الحكمة فى ذلك، لا لشك فيه كما توهمه بعضهم، والكلام عليه مفصل فى السير وشروح البخارى.

(ولا فتنة أعظم من هذه البلية)، التى وقعت بسبب ما ذكر، **(لو وجدت)**، أى لو وقعت وصحت، لما ترتب على ذلك من صولة الكفرة وشماتتهم، وغيره مما مر آنفًا، **(ولا تشغيب)**، بشين وغين معجمتين، ومثناة تحتية وباء موحدة، من الشغب، وهو تهييج

الشر والفتنة، **(للمعادى حينئذ أشد من هـذه الحادثة)**، المعلومـة ممـا مـر، **(لـو أمكنـت)**، وقوعًا.

فإن قلت: لم قال فى الفتنة: لو وجدت، وفى الحادثة: لو أمكنت، ومجرد الإمكـان لا يقتضى شر أو فتنة؟.

قلت: الأول ظاهر لترتب الفتنة علـى وجـود مـا ذكـر، وأمـا الثـانى فعـبر بالإمكـان مبالغة؛ لأن نفيه أبلغ من نفى الوجود؛ لعدم وقوعه محالاً لما علم من الكلام فـى عصمتـه من عدم تسلط الشيطان عليه.

(فما روى عن معاند) من الكفرة **(فيها كلمة)** تليق أن يلقـى إليـها السـمع، **(ولا عـن مسلم بسببها بنت شفة)**، بنت الشفة هى الكلمة شبه إخراجها من الشفة بإخراج المولود من بطن أمه، ففيه استعارة مصرحة أو مكنية، **(فدل)** ما ذكر من أنها لم ترو، ولم يتكلم بها أحد **(على بطلها)**، بضم الباء الموحـدة وسكون الطـاء المهملـة ولام مصـدر، بمعنـى البطلان، كما فى القاموس، **(واجتثاث أصلها)**، بجيم ومثناة فوقية ومثلثتـين بينـهما ألـف مصدر بمعنى قلعها من أصلها كما تقلع الشجرة بنزع عروقها.

(ولا شـك فـى إدخـال بعـض شـياطين الإنـس والجـن)، إشـارة إلى مـا قدمنـاه، **(هـذا الحديث)**، يعنى ما قيل فى أثناء تلاوة هـذه السـورة أو الحديـث الـذى روى فيـه ذلـك، **(على بعض مغفلى المحدثين)** الذيـن لا خـبرة لهـم بالروايـة **(ليلبس)**، أى يوقـع فـى لبـس واشتباه، **(على ضعفاء المسلمين)** الذين لم يقفوا على ما يناسب مقام النبوة وقدرها. وقد قال القرافى فى شرح الأربعين للإمام الرازى: إن الجواب السديد فيه على تسليم صحتـه مع أن الله تعالى أمره بترتيل القرآن، وكان يفعل ذلك، فتمكن من ترصده من الشـياطين فى حال سكوته بين الآيات من دس ما اختلقه من هذه الكلمات محاكيًا صوته صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد سجد من دنا من الكفار معه، فظنوها من كلامه، عليـه السـلام، وأشاعوها، فلم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظهم السورة علـى مـا أنزلـت قبـل ذلـك، ومعرفتهم من حاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما علم من ذم الأوثان وإهانتها، وحزن صلى الله تعالى عليه وسلم من هذه الإشاعة وإلقاء الشبهة.

وهو معنـى قولـه تعـالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ [الحج: ٥٢]، إلى قولـه: ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، وقولـه: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الحـج: ٥٢]، أى يذهبه ويزيله، وقيل: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما قرأ السورة إلى قولـه: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ﴾ [النجم: ١٩] إلى آخره، خاف الكفار أن يأتى بشىء مـن ذم آلهتـهم،

فشغبوا عليه على عادتهم فى قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] إلى آخره، وسبب هذ أن الشيطان حملهم عليه وأشاعوا ذلك ونسبوه له، فحزن، صلى الله تعالى عليه وسلم، لذلك. انتهى، وسيأتى تلخيص الجوابين فى كلام المصنف، رحمه الله تعالى.

وقدمنا لك أن هذه القصة لها أصل ثابت فى الجملة، لكنها ليس فيها ما ينقص مقامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإبطالها بالكلية كما قاله المصنف، رحمه الله تعالى، لا ينبغى كما قاله ابن حجر، وقد تقدم ما يغنى عن إعادته هنا، فتذكره.

(ووجه رابع)، لتضعيف ذلك ما **(ذكر الرواة لهذه القصة)** المذكورة التى عقد لها هذا الفصل، **(أن فيها)**، أى بسببها، **(نزلت وإن كادوا)**، أى قربوا مما لم يقع **(ليفتنونك)**، أى يوقعونك فى الفتنة ويصدونك عن الذى أوحينا إليك، **(الآيتين)**، أى اذكر الآيتين المتقدم بيانهما، **(وهما)**، أى الآيتان المذكورتان، وفى نسخة وهاتان الآيتان **(تردان الخبر الذى رووه)**؛ لمنافاتهما له، إلا أنه قيل: إن الآيتين لم ينزلا فى هذه القصة، وإنما الذى نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢]، وهاتان الآيتان نزلتا فى ثقيف كما تقدم.

ثم بين وجه منافاتهما له بقوله: **(لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه، حتى يفترى)** على الله بخلطه فى القرآن ما لم يوح إليه، **(وأنه)**، أى الشأن أو الله، **(لولا أن ثبته)** الله على الحق ببيان جبريل، عليه السلام، له **(لكاد يركن)**، أى قارب الميل، **(إليهم)** بمدح آلهتهم واتباع هواهم، ولكنه لم يفعل شيئًا من ذلك، **(فمضمون هذا)**، أى ما تضمنه المذكور فى الآيتين **(ومفهومه)** الذى دل عليه وفهم منه، **(أن الله عصمه من أن يفترى)** عليه ما لم يقله؛ لأن يفعل ما أرادوه منه من أن يبدل الوعد وعيدًا وعكسه كما قيل، **(وثبته حتى لم يركن إليهم قليلاً، فكيف)** يركن إليهم ركونًا، **(كثيرًا)**، وهذا تقرير لمعنى الآيتين بناء على ما ادعاه من سبب النزول، وقد علمت أنه لم يثبت نقله.

وقوله: حتى لم يركن، بيان لحاصل المعنى؛ لأن نفى القرب من الركون يدل على نفيه بالطريق الأولى، فلا يرد عليه أن المنصوص عليه نفى القرب من الركون القليل، لا نفس الركون كما زعمه المصنف، رحمه الله تعالى؛ لأن الجواب: لقد كدت، يعنى أنا أدركناك بعصمتنا عن الميل لهم، وما أرادوه بعد ما كادوا يخدعونك بمكرهم وشدة تخيلهم.

(وهم)، أى رواة الحديث مع ذكر الآيتين، **(يروون فى أخبارهم الواهية)**، أى الشديدة

الضعف، **(أنه)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(زاد على الركون)** الذى هو مجرد الميل، بل القرب من الميل الذى هو أبلغ فى نزاهته صلى الله تعالى عليه وسلم وعصمته، **(والافتراء)**، أى الكذب على الله بجعل ما ليس من الوحى منه، **(مدح آلهتهم)**، يعنى قولهم: تلك الغرانيق العلا... إلى آخره، وحاشاه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من ذلك حماه الله تعالى، **(وأنه قال، عليه الصلاة والسلام)**، حين قال له جبريل: ما جئتك بهذا، حين عرض عليه السورة كما تقدم، فقال فى جوابه له: **(افتريت على الله تعالى وقلت ما لم يقل)**، عطف تفسير.

(وهذا) الذى رووه فى أخبارهم الواهية عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ضد مفهوم الآية)** التى ذكر، وأن هذه القصة سبب نزولها؛ لأن عدم ركونه إليهم قليلاً ينافى تصريحه بمدح آلهتهم، **(وهى)**، أى الآية بصريح مفهومها، **(تضعف الحديث)**، أى تدل على شدة ضعفه، **(لو صح)** نقله وروايته، **(فكيف و)** الحال أنه **(لا صحة له)** عند المصنف، كما تقدم بيانه وما فيه، فإذا ورد فى الحديث ما ينافى القرآن و لم يمكن تأويله ولا الجمع بينه وبينه، حكم بضعفه، وقد علمت أن الحديث رواه مسلم، وأنهم أجابوا عنه كما بيناه.

(وهذا) المذكور فى هذه الآية مما دل عليه مفهومها، **(مثل)** ما دل عليه **(قوله تعالى فى الآية الأخرى)**، وهى قوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ [النساء: ١١٣]، بعصمته لك وصرفه عنك ما هموا به من خداعك والمكر بك، ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ [النساء: ١١٣]، ويصرفوك عن الحق وطريق العدول، مع علمه بأنك ثابت على ذلك، ولا يمكن زلة قدمك عنه بوجه من الوجوه، وقيل: إنها نزلت فى بنى ظفر، ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: ١١٣]، أى لا يقع ما أرادوه بك إلا بهم، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ [النساء: ١١٣]، وإنما يضرون أنفسهم، وتفصيل معنى الآية مذكور فى كتب التفاسير، وإنما المقصود بذكرها التنظير بها لما ذكر قبلها ولنزول هذه الآية سبب ذكره الترمذى، والمصنف استشهد بها استشهادا معنويًا لما هو بصدده، وليس لنا حاجة بتفصيل ما ذكر فيها.

(وقد روى) بالبناء للمجهول والراوى له ابن أبى حاتم وغيره من المحدثين **(عن ابن عباس)**، رضى الله تعالى عنهما، أنه قال: **(كل ما)** وقع **(فى القرآن)** من لفظ **(كاد)** وما تصرف منه من مضارع وغيره يدل على أن ما بعده **(لا يكون)** وفى نسخة: فهو ما لا يكون، أى لا يقع ويوجد، وإنما يدل على أنه قاربه، و لم يقع.

(قال الله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾) [النور: ٤٣]، السنا بالقصر، الضوء والنور،

وبالمد العلو والشرف، ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾، أى يذهب بصر الناظر إليه، **(ولم تذهب)** بالتاء الفوقية والبناء للفاعل، وفاعله ضمير الإبصار المستتر، ويجوز بناؤه للمجهول مع التحتية ونائب فاعله، ضمير السنا، وفى نسخة: ولم يذهبها، وهما بمعنى، والمقصود أنها أشرف على الذهاب ولم تذهب.

(و) قال الله تعالى فى أمر الساعة: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]، إن كان المراد بإخفائها أنه لا يقول أنها آتية، فهو كما قال ابن عباس، وإن كان المراد أنها لا يعين زمان وقوعها، فكاد بمعناها المشهور، وكلامه هنا مبنى على الأول، وإليه أشار بقوله: **(ولم يفعل)**، وأشار المصنفون إلى هذين المعنيين وخفاء الشيء ستره وعدم إظهاره، ويقال: خفيته وأخفيته، إذا أزلت خفاه، ولا تنافى بين المعنيين؛ لأن الله تعالى أخفاها على الناس وأطلع عليها بعض خلص أنبيائه.

(قال القشيرى القاضى)، وقدمنا الكلام عليه، رحمه الله تعالى: **(ولقد طالبته قريش)** قومه، أى سألته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وطلبت منه، وسبب تسميتهم بذلك مشهور، وقد قدمناه.

(و) طالبته أيضًا **(ثقيف)**، قبيلة مشهورة بالطائف، **(إذ مر)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بآلهتهم)**، أى أنصابهم وأصنامهم التى كانوا يعبدونها، **(أن يقبل بوجهه)** الشريف ويتوجه **(إليها)**، وفى نسخة: عليها، **(ووعدوه الإيمان به إن فعل)** ما سألوه من الإقبال عليها معظمًا لها، **(فما فعل)** ذلك، **(وما كان ليفعل)**، مع حرصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، على إيمان العرب وطاعتهم، فلم يكترث، صلى الله تعالى عليه وسلم، بهم ولم يلتفت لمقالتهم، مع أنهم من أشد الناس شكيمة وعصبية، وهذا أمر متعلق بقوله: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٧٤]، دال على ما قاله أولاً.

(وقال ابن الأنبارى:)، هو الإمام فى العربية وسائر العلوم الأدبية، أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، النحوى، الحافظ، المفسر، المحدث، نادرة الدهر، وفريد العصر، ولد سنة إحدى وتسعين ومائتين، وتوفى ليلة عيد النحر ببغداد سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، وله تصانيف جليلة مفيدة مشهورة، **(ما قارب الرسول)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى لم يقرب من شىء مما كان عليه الكفرة وأهل الجاهلية، **(ولا ركن)**، أى ما مال إلى شىء من أمورهم وما كانوا عليه، فضلاً عن التلبس بها، وما ذكره فى كاد هو المشهور، والتحقيق فيها ما قاله الجرجانى فى دلائل الإعجاز من أن نفيها يدل على نفى ما فى حيزها على أبلغ وجه، لا نفى القرب من الشىء الدال على

انتفائه؛ لأنه بطريق برهانى، وقد يكون لوقوع الشىء بعسرة نحو ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١].

(وقد ذكر)، بالبناء للمجهول، وفى نسخة: ذكرت، بتاء التأنيث، **(فى معنى الآية)**، يعنى قوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣، ٧٤]، **(تفاسير أخر)**، تركها لكونها غير مرضية عنده، **(ما ذكرناه)**، ما اسم موصول مبتدأ بينه بقوله: **(من نص الله تعالى على عصمة رسوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما تقدم، وخبره قوله: **(يرد سفسافها)**، أى التفاسير الحقيرة الردية فيها، وأصل معنى السفساف ما يطير من غبار الدقيق إذا نخل، وكل غبار دقيق كالهباء سفساف، ثم عبر به عن كل حقير جدًا، فلذا قوبل فى الحديث بمعالى الأمور تارة، وبمكارم الأخلاق أخرى، كما قاله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن الله يحب معالى الأمور ويبغض سفسافها»(١)، وفى حديث آخر: «إن الله رضى لكم مكارم الأخلاق وكره سفسافها»(٢).

(فلم يبق فى الآية)، يعنى قوله: (﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٣] إلخ)، أى لم يبق فيها تفسير يرتضى، **(إلا أن الله امتن على رسوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى هذه الآية، أى من عليه أو أنعم، والمن تعداد نعم سابقة، وهو محمود من الله تعالى دون غيره، وتكون بمعنى النعمة نفسها، **(بعصمته)**، أى حفظه عن أن يصدر منه أمر لا يرضاه، فضلاً عما ذكر من مدح أوثانهم، **(وتثبيته)** على ما هو عليه من ذم آلهتهم وما هم عليه، **(مما كاد به الكفار)** من خداعهم وطلبهم منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، موافقته لهم فى بعض أمورهم التى لا تليق به، **(وراموا من فتنته)**، أى إيقاعه فى بلية ومحنة، وأصل معناها الاختيار، ثم عبر بها عما ذكر.

(ومرادنا من ذلك) الذى ذكرناه **(تنزيهه)**، أى تبرئته وصيانته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأصل معنى النزاهة البعد، أى بعده عما لا يليق بمقام النبوة، **(وعصمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو)**، أى ما أراده **(مفهوم الآية)** لا ما ذكروه من سفساف التفاسير.

(وأما المأخذ)، أى محل الأخذ والطريق فى بيان ما ذكروا تأويله، وهو الوجه **(الثانى)** فى الكلام على مشكل هذا الحديث الذى هو فيه أنه ذكر قوله: تلك الغرانيق... إلخ،

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٤٢/٣)، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٢٢٤/٢)، والخرائطى فى مكارم الأخلاق (٣)، وابن عدى فى الكامل (٨٧٩/٣).

(٢) أورده الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين (٩٣/٧، ٩٤).

فى أثناء قراءة سورة النجم كما تقدم، **(فهو)**، أى تأويله والجواب عنه **(مبنى على تسليم)** رواية هذا **(الحديث لو صح)** نقله من طريق يعتد بها، **(وقد أعاذنا الله تعالى)**، بعين مهملة وذال معجمة، أى حمانا وحفظنا، **(من صحته)**، أى وقوع اعتقاد ما فى صحة وقوعه منا، فضلاً عنه، وأصل معنى العوذ الالتجاء والتعلق، فأريد به ما يتسبب عنه؛ لأن من التجأ إلى الله تعالى حماه وكفاه وحفظه مما لا يرضاه، **(ولكن على)** تقدير صحة **(ذلك من حال، فقد أجاب عن ذلك)** المذكور من مدحه، صلى الله تعالى عليه وسلم، آلهتهم **(أئمة المسلمين)** بالهمزة والياء، جمع إمام، وعبر به دون العلماء ونحوه إشارة إلى أن مقتضى الإسلام تنزيهه عن مثله، **(بأجوبة منها الغث)**، بغين معجمة ومثلثة أى الضعيف الركيك، **(والسمين)**، أى القوى المقبول، وأصل معنى الغث المهزول لمقابلته بالسمين، فاستعير لما ذكر كما تقدم.

(فمنها)، أى الأجوبة المذكورة، **(ما روى قتادة)**، مشهور تقدمت ترجمته، **(ومقاتل)** ابن حيان الخراسانى العابد المفسر الثقة، روى عنه أصحاب السنن وغيرهم، وتوفى قبل خمسين ومائة، ولهم مقاتل آخر، وهو مقاتل بن سليمان، وهو محدث مفسر، إلا أنه اتهم بالكذب، والظاهر أنه الأول، **(أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أصابته)**، أى عرضت له **(سنة)**، وهى فتور مع أوائل النوم قبل الاستغراق فيه المانع عن الحس والإدراك، وهى قريبة من النعاس كما تقدم بيانه، وليسا بمعنى وإن قيل به، وقوله[1]:

وسنان أقصده النعاس فرنقت فى عينه سنة وليس بنائم

لا دليل فيه، **(عند قراءته هذه السورة)**، يعنى سورة النجم، **(فجرى هذا الكلام)**، أى قوله: تلك الغرانيق، **(على لسانه)**، ونطق به من غير قصد، بل **(بحكم النوم)**، وغلبته حتى يتكلم بما لا يقصده، **(وهذا)** المذكور **(لا يصح)** صدوره منه، **(إذ لا يجوز على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** أن يقع منه **(مثله فى حالة من أحواله)**، لا فى يقظة ولا فى منام؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإن نامت عيناه لا ينام قلبه.

(ولا يخلقه الله تعالى)، أى لا يوجد جريانه **(على لسانه)**، كما قاله بعضهم؛ لحفظه له فى سائر أحواله، **(ولا يستولى الشيطان)**، أى يتسلط، **(عليه)**؛ لحفظ الله له **(فى نوم ولا يقظة)**، بفتحات ثلاثة، ضد النوم، وتسكين قافه خطأ، إلا فى ضرورة الشعر، كقول التهامى:

(١) البيت من الكامل، وهو لعدى بن الرقاع فى ديوانه (ص١٠٠)، لسان العرب (٢٣٣/٦) (نعس)، (١٢٨/١٠) (رونق)، تاج العروس (٥٥٧/١٦) (نعس)، (٣٧٠/٢٥) (رنق)، تهذيب اللغة (١٠٥/٢ – ٧٨/١٣)، وبلا نسبة فى جمهرة اللغة (ص٨٦٣).

فالعيــش نــوم والمنيــة يقظــة والمرء بينهما خيــال ســارى[1]

(لعصمته فى هذا الباب)، الذى طريقه البلاغ مما أوحى إليه، **(من جميع العمد)**، الذى تقول عليه ما لم يقله، **(والسهو)** فى شىء منه.

(وفى قول الكلبى) فى الجواب عنه، **(أن النبى)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(حدث نفسه)**، أى فكر فيما ذكر وخطر بباله من غير نطق به، **(فقال ذلك الشيطان على لسانه)**، أى نطق به محاكيًا لصوته ونطقه به فى أثناء قراءته، وهو لا يدرى، فتوهموا أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قاله، وأنه أوحى به إليه كما تقدم.

(و) كذا ما وقع، **(فى رواية ابن شهاب)** الزهرى، وقد تقدمت ترجمته، **(عن أبى بكر ابن عبد الرحمن)**، وفى نسخة: أبو عبد الرحمن، وكلاهما صحيح، وهو أبو بكر بن عبد الرحمن بن هشام بن المغيرة المخزومى، القرشى، التابعى، الإمام، أحد الفقهاء السبعة على قول، وهو من سادات قريش، ويسمى الراهب لزهده، قيل: اسمه أبو بكر، وكنيته أبو عبد الرحمن، وقال النووى: اسمه محمد، وكنيته أبو عبد الرحمن، والصحيح أن اسمه كنيته، وتوفى سنة أربع وتسعين، وقيل غير ذلك، **(قال)** ابن شهاب أو أبو بكر: **(وسها)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى نطقه بذلك، **(فلما أحس)**، وفى نسخة: أخبر، **(بذلك)**، أى عرف سهوه فيما نطق به.

(قال: إنما ذلك)، الذى جرى على لسانه أو سمع **(من الشيطان كل هذا)**، المذكور من القول آنفًا، **(لا يصح)** رواية ودراية، **(أن يقوله النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا سهوًا ولا قصدًا)**؛ لحفظ الله تعالى عن مثله، **(ولا)** يصح أيضًا **(أن يتقوله الشيطان)**، بالتشديد، أى يعتريه، **(على لسانه)**، أى ينطق به محاكيًا لقوله ونطقه، فيلبس الوحى بغيره؛ لمنع الله تعالى له عن تسلطه عليه بمثله، فقوله: على لسانه، صريح فيما أراد، فما قيل: إن فيه نظرًا؛ لأنه لا مانع من أن يتقول الشيطان عليه ما لم يقله من غير أن يصدر عنه، فكثيرًا ما كذب عليه، وهذا لا ينافى عصمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، غفلة عما عناه المصنف، فلا وجه له.

(وقيل) فى الجواب عما ذكر: **(لعل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قاله فى أثناء تلاوته)**، وقراءته لسورة النجم، فذكره فى خلال آياته، ولعل للترجى من عادة المصنفين استعماله كناية عن ضعف من معه، وأثناء جمع ثنى بمعنى مثنى، أى ملفوف بعضه على بعض، فشبه ما هو فيه ببرد مطوى فى داخله شىء اشتمل عليه، **(على تقدير التقرير)**،

---

(١) البيت من الكامل، وهو للتهامى فى تاج العروس (٢٠/٢٩٤) (يقظ).

أى حملهم على الإقرار، (**والتوبيخ للكفار**)، أى توبيخهم بعد إقرارهم بعبادة الأصنام فوصفها بالعلو، ورجاء شفاعتها على هذا تهكم واستهزاء، وقيل: المراد حملهم على الإقرار بأن المدح بهذه الكلمات إنما يليق بمن يضر وينفع توبيخًا وتبكيتًا تنبيهًا على خطأهم إيذانًا بأنها لا تصلح أن تكون آلهة، والتوبيخ على أمر باطل وقع منهم، فما قيل: إنه حرى أن يسمى إنكارًا إبطاليًا تعنت لا داعى له، ثم إنه قال: ليس فى الكلام ما يفيد ذلك، فلابد من تقدير أداة الاستفهام معه، كقوله[1]:

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ولا لعبا منى وذو الشيب يلعب

أو ذلك معلوم من المقام؛ لأن من ذكر أمرًا علم أن غيره يكرهه ويصرح بذمه، اشتهر منه ذلك، فإذا مدحه بما مدحه به أعداؤه، علم أنه تهكم واستهزاء أو إرخاء لعنان الخصم حتى يقع فى هوة الضلال، ولك أن تقول: إنه عند هذا القائل مفهوم من قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾، وأن ما ذكر مقدر مفعول ثان لرأيت، وهو الاستفهام، وهو إن كان غير مستقيم، لكن هذا مما يؤيد توهينه، فتدبر.

(**كقول إبراهيم**) الخليل، صلى الله عليه وسلم، ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]، للكواكب التى كان يعبدها قومه، فوصفها بالربوبية، إنما هو توبيخ لهم؛ لأنه برىء من مثله كما لا يخفى، (**على أحد التأويلات**) التى ذكرها المفسرون، فهو على هذا مقدر معه أداة الاستفهام كالآية التى قبله، وفيه أقوال أخر مذكورة فى التفاسير لا حاجة للتطويل بذكرها.

(**وقوله**)، أى الخليل، عليه الصلاة والسلام، فى حق الأصنام: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، والضمير للأصنام، وكانوا يجتمعون فى عيد لهم، ثم يرجون للسجود لها، فتخلف إبراهيم، عليه السلام، عنهم ودخل عليها فكسرها، إلا صنمًا هو أكبرها، فلما رأوه قالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]، قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾، كما قصه الله تعالى عنه فى هذه الآية، وحاصله أنه من معاريض الكلام الذى قصد به إقامة الحجة عليهم، وأن ما عبدوه لا يصلح للعبادة، (**بعد السكت**)، أى الوقفة الخفيفة بين آيات سورة النجم، والحاصل أنه لما فرغ، صلى الله تعالى عليه وسلم، من ذم الأصنام بما أوحى إليه سكت وذكر كلامًا وبخهم به كما فعل إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، (**والتوبيخ**) لهم بذم آلهتهم.

(١) البيت من الطويل، وهو للكميت فى جواهر الأدب (ص٣٩)، خزانة الأدب (٣١٣/٤)، الدرر (٨١/٣)، شرح شواهد المغنى (ص٣٤)، المحتسب (٥٠/١ - ٢٠٥/٢)، مغنى اللبيب (ص١٤)، المقاصد النحوية (١٢/٣).

(و) بعد (**بيان الفصل بين الكلامين**)، أى كلام الله فى ذم الأصنام وكلامه الذى وبخهم به، ثم رجع إلى تلاوته لبقية السورة، وهذا ممكن مع بيان الفصل، (**وقرينة تدل على المراد، وأنه**)، أى ما ذكره توبيخًا وتقريرًا، (**ليس**) من كلام الله، (**المتلو**) لفصله بينه وبينه بالسكت، (**وهو**)، أى ما قيل: أنه قاله فى أثناء قراءته لما ذكر من التوبيخ والتقرير، (**أحدها**)، أى الأقوال، (**ذكره القاضى أبو بكر**) الباقلانى، أو ابن العربى، وهما مالكيان تقدم ذكرهما.

(**ولا يعترض على هذا**) القول الذى قاله القاضى، (**بما روى**)، بالبناء للمجهول فيهما، (**أنه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو هذا الكلام، (**كان فى الصلاة**)، وهو كلام ليس بقرآن ولا ذكر، فيبطلها، (**فقد كان**) فى صدر الإسلام وقبل الهجرة، (**الكلام فيها**)، أى فى الصلاة، (**قبل**)، مبنى على الضم، أى قبل النهى عنه، (**غير ممنوع**) فى الشرع، وغير مبطل للصلاة، وكان الكلام غير محرم لما فرضت الصلاة، ثم حرم عليهم قبل الهجرة بثلاث سنين.

(**والذى يظهر ويترجح فى تأويله**)، أى تأويل هذا الحديث، وهذا ما اختاره القرافى كما نقلناه أولاً، (**عنده**)، أى عند القاضى أبى بكر، (**وعند غيره من المحققين**)، أى أهل الكلام والتفسير والحديث، (**على**) فرض (**تسليمه**)، أى تسليم وقوعه منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنه نطق بذلك، (**أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلاً**)؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، والترتيل القراءة، بتؤدة من غير استعجال، وهو فى الأصل مستعار من قولهم: ثغر مرتل، أى مفلج كالأقحوان وأوراقه، ومن لطائف بعض المتأخرين:

أفدى الذى جبينه وثغره   طرة صبح تحت أذيال الدجا
ما لى به مع قرب دارى ملتقى   فهل رأيت ثغره المفلجا

(**ويفصل الآى**)، جمع آية بالمد فيهما، (**تفصيلاً**)، يفصل بعضها بعضًا، (**فى قراءته**)، وفى نسخة: فى تلاوته، مع سكت خفيف بينهما، (**كما رواه الثقات عنه**)، كما قالت عائشة، رضى الله تعالى عنها، وقد سُئلت عن قراءته، عليه الصلاة والسلام: لو أراد سامع أن يعد حروفه عدها لتأنيه فيها وتجويد حروفها وبيان حركاتها ومدها، (**فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات**)، بالنون أو التاء المثناة الفوقية، وترصده ترقبه، وانتظاره، أى يترقب وقفه وسكتته بين الآيات فى ترتيله القراءة، (**ودسه**) بمهملتين مصدر معطوف على ترصد، أى إدخاله فيما بين سكتاته خفية، يقال: دسه دسًا، إذا أدخله. قال

الراغب: الدس إدخال الشىء فى الشىء بضرب من الإكراه، وأصل الدس الإخفاء، ومنه العرق دساس، **(فيها)**، فى القراءة، **(ما اختلقه)**، أى كذبه وافتراه، وما موصولة مفعول دسه، **(من تلك الكلمات)**، بيان لما، **(محاكيًا نغمة النبى)** صلى الله تعالى عليه وسلم.

فى القاموس: النغم محركة وتسكن الكلام الخفى، والوحدة بهاء، ونغم فى الغناء كضرب وبصر وسمع. انتهى. والنغمة هنا بمعنى الكلام الخفى، وتكون بمعنى الغناء، وليس بمراد هنا، وهو المعروف عرفًا، كقوله:

الشـرب بغيـر نغـم غـم وبغيـر دسـم سـم

والظاهر أنه أريد به هنا الصوت مطلقًا، **(بحيث يسمعه)**، أى بمكان قريب منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيسمعه **(من دنا)**، أى قرب **(إليه من الكفار)** الحاضرين عنده يسمعون تلاوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، لسورة النجم، **(فظنوها)**، أى ظنوا تلك الكلمات التى قالها الشيطان ودسها فى تلاوته محاكيًا لصوته، وهو لا يرى **(من قوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى مما تلاه من القرآن وجعلها قوله لنطقه بها، أو بناء على اعتقادهم الفاسد، **(وأشاعوها)**، أى أظهروها، وقال: إنه مدح آلهتنا ووافق.

(ولم يقدح ذلك)، أى ما دسه الشيطان، وأشاعوا أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قاله **(عند المسلمين)**، فلم يغير اعتقادهم، ولم يلتبس عليهم القرآن بغيره مما أدخل فيه، **(لحفظ)** المسلمين **(السورة)**، أى سورة النجم، فالمصدر مضاف لمفعوله، **(قبل ذلك)**، أى قبل اختلاق الشيطان ودسه فيها ما دسه، **(على ما أنزل الله)**، متعلق بحفظ، فعلموا أن ما أشاعوه ليس من الوحى فى شىء من عدم مناسبته له لفظًا ومعنى، **(وتحققهم)**، أى المسلمين **(من حال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى ذم الأوثان وعيبها على ما عرف منه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو من حاله؛ لأنه يذكر ويؤنث، وهذا بيان للقرينة القائمة على أنه ليس من قوله: ولا مما أوحى إليه، فاندفع ما قيل من أنه ليس للشيطان سبيل حتى يتمكن أن يدخل فى كلامه وما تلاه ما ليس منه، وقد بينا لك أنه اختاره القرافى لصحة الرواية عنده.

(وقد حكى)، أى روى **(موسى بن عقبة)**، كذا فى جل النسخ، وفى بعضها: محمد ابن عقبة، **(فى مغازيه)**، أى كتابه الذى ألفه فى مغازى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فالإضافة لما بينهما من الملابسة، ورجحوا النسخة الأولى، وصححوها فى الحواشى، وضربوا على النسخة الثانية. قال الحافظ الحلبى: إنه مما لا شك فيه، وهو موسى بن عقبة بن أبى عباس، مولى آل الزبير، وقيل: مولى أم خالد، روى عن خلق

كثير، وهو ثبت ثقة، توفى سنة إحدى أو اثنين وأربعين ومائة، وأخرج له الستة، ومغازيه من أصح المغازى كما قاله مالك، ومحمد بن عقبة أخو موسى، ولعقبة أولاد كلهم فقهاء محدثون، لكل واحد منهم حلقة فى مسجد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتراجمهم مشهورة، (**نحوه**)، وفى نسخة: نحو هذا، أى نحو ما نقله من المحققين مما هو بمعناه، وفيه ميل ما إليه لنقله عن المحققين وكثرة من تابعهم عليه، وإن قيل: إنه لم يرض.

(**وقال**)، أى موسى بن عقبة: (**إن المسلمين لم يسمعوها**)، أى مقالة الشيطان التى دسها، (**وإنما ألقى الشيطان ذلك**) القول الذى شاع، (**فى سماع المشركين**)، بدليل أنهم هم الذين أشاعوه، ولم يشع عن غيرهم حتى خفى على كثير منهم وأنكروه، ولا مانع من ذلك، فما قيل من أنها دعوى بلا دليل، إذ لا قدرة للشيطان، لعنه الله تعالى، على إلقائه للمشركين فقط، وهم مختلطون معهم فى محل واحد غير مسلم، وفى نسخة: (**وملأهم**)، وهو كما قاله الراغب: جماعة مجتمعون على رأى، فيملأون العيون رواء والقلوب جلالة وبهاء، ومنه قيل: فلان يملأ العيون، (**وقلوبهم**) بأن يفقهوه ويقبلوه، (**ويكون ما روى**)، أى رواية ما نقل (**من حزن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**) بيان لاسم كان، وقوله: (**لهذه الإشاعة**)، خبرها، أى إنما حزنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كائن لمجرد إشاعة ذلك، (**والشبهة**) الحاصلة من تلك الإشاعة؛ لأنه كما قيل فى المثل: من يسمع يخل، أى من أجل الإشاعة ومن أجل الشبهة الناشئة منها.

(**و**) من (**سبب هذه الفتنة**) الحادثة من شيوع ما هو برىء منه، عليه السلام، وهذا جواب عن سؤال مقدر تقديره: إذا كان المسلمون لم يسمعوا هذه المقالة، فلم حزن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم؟ وليس الجواب عن هذه الشبهة أن الشيطان ألجأه لهذه المقالة، ولا أنه سمعها منهم، فعلقت بذهنه، ثم سها صلى الله تعالى عليه وسلم فقالها كما توهم، إذ لا مناسبة لهذا هنا، (**وقد قال الله تعالى**) فى هذه القصة، وهذا من تتمة الكلام عليها وليس متعلقًا بما قبله: (﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ**﴾ [الحج: ٥٢] **الآية**)، الفرق بين الرسول والنبى مشهور، والكلام عليهما أشهر من أن يذكر، والثانى أعم؛ لأنه كل من أوحى الله إليه، والرسول أوحى إليه وأمر بالتبليغ، وقيل غير ذلك.

وقوله: الآية، أى ﴿**إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [الحج: ٥٢]، ثم أشار إلى تفسير هذه الآية، فقال: (**فمعنى تمنى تلا**)؛ لأن أصل معناه يفعل من المنى، بمعنى القدر، ومنه قوله

تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة : ٣٧]، أى تقدر، ومنه المنية، ويراد به تقدير شىء فى النفس وتصويره، ولكون النفس تتصور أمورًا لا حقيقة لها سمى به الكذب؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، أى كذبًا، كما قاله مجاهد، وقال غيره: تلاوة بلا معرفة للمعنى، فأجراه مجرى التمنى لما لا وجود له؛ لأن التمنى كذلك فى الأكثر، ثم استعمل لمطلق التلاوة، وإليه أشار بقوله: فمعنى تمنى تلا، كما قال الشاعر(١):

تمنى كتاب الله أول ليلة   تمنى داود الزبور على رسل

(قال الله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ ، أى تلاوة)، وقد عرفت وجهه، والمراد بالكتاب التوراة والاستثناء منقطع؛ لأن التلاوة ليست من العلم، وقيل: إنه مصدر بمعنى الكتابة؛ لقوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، وهى فى حق اليهود.

(وقوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ، أى يذهبه)؛ لأن النسخ لغة كما قاله الراغب إزالة شىء بشىء يعقبه، كنسخ الشمس الظل، وما يلقيه الشيطان على هذا ما يدسه كما تقدم، **(ويزيل اللبس)** الحاصل **(به)** وبسببه، **(ويحكم آياته)**، أى يتقنها حتى لا تشتبه بغيرها.

(وقيل: معنى) هذه **(الآية)**، أى قوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ، **(هو ما يقع للنبى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(من السهو إذا قرأ فينتبه لذلك)**، السهو الصادر عنه بمقتضى البشرية بأدنى تنبيه، **(ويرجع عنه)**، أى عما تركه سهوًا.

(وهذا) المذكور هنا، **(نحو قول الكلبى فى الآية)**، أى آية النجم كما نقل عنه أولاً من **(أنه حدث نفسه)** بأن خطر بباله قولهم: تلك الغرانيق العلا، **(وقال)** الكلبى أيضًا: معنى **(﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ ، أى حدث نفسه، وفى رواية أبى بكر بن عبد الرحمن)** الذى تقدمت ترجمته، **(نحوه)**، أى نحو ما ذكر مما هو بمعناه، **(وهذا السهو)** المذكور كائنًا **(فى القراءة إنما يصح)** وقوعه منه، **(فيما ليس طريقه)** الواقع عليها والآتى فيها **(تغيير المعانى)**، فلا يقع ما يغير معانى الوحى ويخالفها، **(وتبديل الألفاظ)** بألفاظ غيرها **(وزيادة ما ليس من القرآن)** فيه **(بل)** الجائز عليه **(السهو)** الناشئ **(عن إسقاط آية منه، أو)** إسقاط **(كلمة)** منه، **(ولكنه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا سها **(لا يقر)**، بالبناء للمفعول أو الفاعل **(على ذلك السهو، بل ينبه عليه ويذكر به للحين)**، أى يبادر به فى وقت سهوه لإيقاظه لسهوه من غير إمهال له، فتعريف حين الحضور، واللام بمعنى فى، وقيل: بمعنى وقت،

---

(١) تقدم الاستشهاد به.

كقوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١].

وهذا مبنى (**على ما سنذكره**) مفصلاً (**فى حكم ما يجوز عليه من السهو، وما لا يجوز، ومما يظهر فى تأويله**)، أى تأويله ما ذكر فى سورة النجم، وما دس فيها (**أيضًا**)، كما ظهر فى بعض التأويلات السالفة المتبادرة إلى الأفهام، (**أن مجاهدًا**)، رحمه الله تعالى، (**روى هذه القصة**)، أى قصة سورة النجم السابقة، (**والغرانقة العلا**)، بالعطف على اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وحينئذ فلا إشكال يرد على ما تقدم.

(**فإن سلمنا**) وقوع هذه (**القصة**) وصحة روايتها، (**قلنا:**) على هذا التقدير (**لا يبعد أن هذا**) المذكور فى هذه الرواية، وهو قوله: والغرانقة العلا، (**كان قرآنًا**) نزل عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم نسخت تلاوته، (**والمراد**) على هذه الرواية على تقدير أنها قراءة منسوخة (**بالغرانقة العلا، و**) المراد بـ (**أن شفاعتهن ترتجى**)، إشارة إلى أنه على هذه القراءة بفتح همزة أن من قوله: وإن شفاعتهن ترتجى، (**الملائكة على هذه الرواية**) التى فيها الواو العاطفة، وهى جمع غرنوق، كزنبور وقنديل وقرطاس، وفسرت بالأصنام أيضًا، وهى فى الأصل طير من طيور الماء والشاب الجميل، فاستعيرت لما ذكر، واستعارة الطير للملك أظهر.

(**وبهذا فسر الكلبى الغرانقة أنها الملائكة**)، أنها بالفتح بدل من هذا، (**وذلك**) يعنى أن الباعث على تفسيرها بما ذكر، (**أن الكفار**)، أى عبدة الأصنام من قريش وغيرهم، (**كانوا يعتقدون أن الأوثان والملائكة بنات الله سبحانه**)، أى تنزيها له عز وجل عما قالوا بجهلهم، (**كما حكى الله عنهم**) ذلك فى القرآن فى آيات كقوله: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقوله: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ [الصافات: ١٥٣]، وقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: ١٩] الآية، فجعلوها لاحتجابها مخدرات، وهو فى الملائكة مشهور.

وأما فى الأصنام، فبناء على ما نقله الحليمى فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]، أى مشركى العرب زعمت فى اللات والعزى ومناة أنها بنات الله تقربهم له، لما كانوا يسمعون تكلمها، وإنما كان يكلمهم شياطين الجن من أجوافها.

(**ورد الله عليهم**) ما قالوه (**فى هذه السورة**)، يعنى سورة النجم، (**بقوله**) تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١]، أى اختار لكم الذكور دون الإناث؛ لأنهم كانوا يقتلونها وهى الموؤدة، واعتقدوا أن له بنات لم يرتضوها لأنفسهم، وهى الملائكة

والأصنام كما مر، ولذا قال: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ﴾ **ضيزى** [النجم: ٢٢]، أى جائرة، (**فأنكر الله كل هذا**) الذى ادعوه (**من قولهم**)، إشارة إلى أن الاستفهام فيه إنكارى تكذيبًا لهم فيما قالوا بجهالتهم مما كادت تخر له الجبال هدًا، فالاستفهام منصب على الجميع، وبهذا يرتفع الإشكال على هذه القراءة.

(**ورجاء الشفاعة من الملائكة**)، فى قوله: وإن شفاعتهن لترتجى، (**صحيح**) على هذه القراءة، ولا حاجة لهذا، فإنه منكر؛ لانصباب الاستفهام الإنكارى عليه كما قررنا لك بناء على فتح همزة أن فيه، ولذا قيل: هذا التأويل وإن كان صحيحًا فى نفسه مباين للمقام، ناء عن سياق الكلام، فتدبر.

(**فلما تأوله**)، أى تأول هذا الكلام بصرفه عن ظاهره، (**المشركون**) حسب أغراضهم الفاسدة، (**على أن المراد بهذا الذكر**)، أى المذكور، وهو قوله: تلك الغرانيق العلا.. إلى آخره، (**آلهتهم**)، أى أصنامهم التى عبدوها، (**ولبس الشيطان عليهم ذلك**) بوسوسته لهم وتزيينه لأفكارهم، (**وزينه فى قلوبهم**) بتحسينه وتزويره، (**وألقاه إليهم**)، أى ألقى ذلك المعنى الذى فهموه لما سمعوه منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، حقيقة على هذا الوجه الذى استظهره، (**نسخ الله**) من كلامه ما تلى كما تقدم.

وقوله: (**ما ألقاه الشيطان**)، المراد به اللفظ، أولوه بما ألقاه الشيطان فى قلوبهم، حتى يلتئم هذا بما قالوه أولاً، (**وأحكم آياته**) الباقية بعدما نسخه منها، (**ورفع تلاوة تلك اللفظتين**)، أى الجملتين، يعنى قوله: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، وقوله: تلك، بالإفراد لجعلهم كشىء واحد، فلا وجه لما قيل صوابه تينك، (**اللتين وجد الشيطان بهما سبيلا للإلباس**)، أى طريقًا لتلبيسه عليهم بهما إذا تليا فى هذه السورة، ووقع فى بعض النسخ: التى وجد الشيطان بها، بالإفراد فيهما، والصواب ما ذكر.

(**كما نسخ**)، بالبناء للمعلوم أو للمجهول، (**كثيرًا**) يجوز رفعه ونصبه، وكذا قوله: (**ورفع تلاوته**)، مع بقاء حكمه أو بدونه، (**وكان فى إنزال الله لذلك**) الذى نسخه بعد ذلك، (**حكمة**) هى كما يعلم مما بعده تبين من ضل ممن اهتدى، (**وفى نسخه**) برفع تلاوته (**حكمة**) من خير أو شر، ثم بين تلك الحكمة بنص القرآن فى قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦](١)، أى الخارجين عن طاعته بارتكاب المعاصى.

---

(١) وردت فى الأصل: «ليضل من يشاء ويهدى من يشاء وما يضل به إلا الفاسقين»، وما أثبتناه هو الصواب من المصحف.

(و) فى قوله: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً﴾ [الحج: ٥٣]، أى بمنزلة الاختبار لإظهاره للناس ما خفى عليهم، فكأنه اختبار ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أى شك أو نفاق، فاستعار لذلك اسم المرض، ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ من المشركين الذين لم يدخل الإيمان فى قلوبهم؛ لشدة قسوتها، فشبه قلوبهم بالحجارة الصلبة التى لا تتغير عما هى عليه، ولا تلين لقبول الحق، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحج: ٥٣]، أى الكافرين، و﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وأقام الظاهر مقام المضمر تسجيلاً عليهم بظلمهم وكفرهم، ﴿لَفِى شِقَاقٍ﴾، أى عداوة ومباينة للمؤمنين، فهو فى شق وهم فى شق ﴿بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٣]، عن الحق وقبوله.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ **[الحج: ٥٤]**، أى الذين آتاهم الله العلم من المؤمنين ﴿أَنَّهُ﴾ ما أنزله الله ثم نسخه وأزاله لحكمة، وليس رجوع الضمير لتمكين الشيطان من الإلقاء، ثم إزالته بمناسب هنا، ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾؛ لعدم اشتباهه عليهم، وتمكن الشيطان بتلبيسه عليهم، ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾، أى يصدقوا ويذعنوا لما نزل وأن نسخ، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾، أى تنقاد وتذعن وتخضع مطمئنة من غير شك وتزلزل، وأصل معنى الخبت ما اطمأن من الأرض، وهو السهل ضد الحزن، فاستعير لما ذكر من الانقياد بخضوع وخشوع، **(الآية)**، أى ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

ثم ذكر وجهًا آخر فى هذه القصة أشار إلى ضعفه، بقوله: **(وقيل: إن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما قرأ هذه السورة)**، أى شرع فى قراءة سورة النجم، **(وبلغ)**، أى وصل فى حال قراءته **(ذكر** ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾**)** [النجم: ١٩، ٢٠]، وصفها بالثالثة والأخرى؛ للتأكيد كطائر يطير بجناحيه، أو الأخرى المتأخرة فى الرتبة، والأحسن ما قيل: إن اللات والعزى كثيرًا ما يذكرونهما معًا إذا حلفوا، فيقولون: واللات والعزى، فوصف مناة بالثالثة؛ ليعلم أن مناة ثانية، وليست واحدة، وأكد ذلك بالأخرى، إشارة لتأخر رتبتها ومغايرة ما قبلها، فهى تأنيث أخر أفعل تفضيل، فتأمل.

(خاف الكفار)، لما سمعوا ذكرها منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أن يأتى بشىء من ذمها)**، وتنقيصها كما هو كان عادته إذا ذكرها، **(فسبقوا إلى مدحها بتلك الكلمتين)**، أى تلك الغرانيق... إلى آخره، **(ليخلطوا فى تلاوته)**، ذكرها بمدحها الصادر منهم، **(ويشغبوا عليه)**، بشين وغين مشددة معجمتين، من الشغب، بالفتح ويجوز تسكينه، وهو تهييج الشر مع الصياح به، وفى نسخة: ويشنعوا، بنون وعين مهملة من الشناعة، **(على**

عادتهم) إذا حضروا قراءته، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنهم يرفعون أصواتهم عنده حتى يلهوه، (و) يشغلوا خاطره ويمنعوا من سماعه كما حكى الله تعالى عنهم من (**قولهم:** ﴿**لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ**﴾) إذا قرأه، ﴿**وَالْغَوْا فِيهِ**﴾ ، أى أظهروا اللغو برفع الأصوات تخليطًا وتشويشًا عليه، بما يشغل الخواطر عنه، ﴿**لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾ [فصلت: ٢٦] بأصوات لغوكم على قراءته من قولهم: هذا غالب على هذا، إذا كان زائدًا عليه، فكانوا يوصون بذلك من يحضره منهم، كما قال أبو جهل، لعنه الله: إذا قرأ محمد فصيحوا حتى لا يدرى ما يقول، وقيل: كان ذلك بالصياح والتصفيق، وأنهم فعلوا ذلك لما ظهر عجزهم عن معارضته.

(**ونسب هذا الفعل**)، أى الإلقاء (**للشيطان**)، فى قوله: ﴿**مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ**﴾ [الحج: ٥٢]، بطريق المجاز المرسل، والنسبة للسبب ما للمسبب، (**لحمله لهم عليه**)، أى لأن الشيطان هو الذى تسبب فيه حتى فعلوه، وهو الباعث عليه، والحمل حقيقته جعل شىء فوق شىء، ثم تجوز به عما ذكر، وصار حقيقة عرفية فيه، (**وأشاعوا ذلك**) المذكور، (**وأذاعوه**) فى الكفرة، والإشاعة والإذاعة، بمعجمتين بمعنى، وهو جعله مشهورًا منتشرًا، (**وأن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قاله**)، بفتح همزة أن؛ لعطفه على المفعول، فهو قاله على هذا الوجه وعلى غيره، وهو افتراء عليه وبهتان منهم، كما يعلم مما تقدم، (**فحزن لذلك**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو جواب عن سؤال تقديره: إذا لم يصدر عنه ذلك أو صدر بمعنى آخر، فلم حزن، صلى الله تعالى عليه وسلم؟.

وقوله: (**من كذبهم وافترائهم عليه**) بيان لذلك؛ لتعصبهم لآلهتهم، إذا ضلتهم، (**فسلاه الله تعالى**)، التسلية إذهاب الحزن بوجه ما، أى أزال غمه بما ذكر (**بقوله تعالى:** ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ**﴾ **الآية**)، يعنى ﴿**مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ**﴾ [الحج: ٥٢] إلى آخرها، أى أن ما وقع لك فى هذه القصة سبق مثله لمن قبلك من الرسل، فاصبر كما صبروا ولا تحزن، وقد تقدم من تفسير هذه الآية ما يغنى عن إعادته.

(**وبين**) الله تعالى فى كتابه (**للناس الحق من ذلك**)، أى من الوحى الذى أنزل على لسانه، (**من الباطل**) الذى ألقاه الشيطان فيما تلاه، ومن الثانية متعلقة بقوله: بين، والأولى ظرف مستقر، فلا يرد عليه أن الفعل لا يتعدى بحرفين بمعنى واحد، (**وحفظ**) الله عز وجل (**القرآن**) من التبديل والتغيير بزيادة أو نقص، (**وأحكم**) الله (**آياته**)، أى أتقنها، فلا يأتى الباطل من بين يديها ولا من خلفها، (**ودفع ما لبس به العدو**) من الكفرة والشياطين، (**كما ضمنه**)، بفتح الميم المشددة وتخفيفها مكسورة، فتقديره على الأول أنه

ضمن القرآن، أى جعل فى ضمنه ما فهم، **(من قوله تعالى)** إلى آخره.

وعلى الثانى أنه تعهد بحفظه، إذ قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾، أى القرآن؛ لأنه من أسمائه، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] من التبديل وأن يزاد فيه أو ينقص، فلم يكل ذلك إلى غيره، حيث أسنده إلى نفسه بضمير العظمة، بخلاف غيره من كتب الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، إذ فوض حفظها لأحبارهم كما قال: بما استحفظهما من كتاب الله، ولذا وقع فيها التحريف والتغيير حكمة بالغة، وأتى فى ذلك بتأكيدات، وقدم معمول حافظون للحصر.

(ومن ذلك)، أى من جملة أسئلة الطاعنين على الرسل، عليهم الصلاة والسلام، **(ما)** وقع فيما **(روى من قصة يونس)** نبى الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو يونس بن متى، وقد اختلف فى متى، هل هو اسم أمه أو اسم أبيه؟ فقيل: إنه اسم أمه، وأنه لم ينسب أحد إلى أمه غير يونس وعيسى، عليهما الصلاة والسلام، ورد بما فى صحيح البخارى، عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «لا ينبغى لا أحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»[(١)]، ونسبه لأبيه، فإنه يقتضى أن متى اسم أبيه خلافًا لمن قال: إنه اسم أمه، وهو مروى عن وهب بن منبه، وذكره الطبرى وابن الأثير فى الكامل.

وأول قول ابن عباس: أنه كان فى روايته يونس ابن فلان، فمراده أن الراوى كنى عن اسم أبيه فلان، ولم يصرح به، وهو السبب فى نسبته لأمه، وقد قيل: إن الصحيح الأول، وأن ما ذكر من التأويل بعيد، وكان من أهل قرية بالموصل يسمى نينوى، كان بتعبد فى جبل عندها، ثم بعثه الله بالتوحيد لقوم يعبدون الأصنام، وكان فيه حدة، فلم يصبر على الناس فتركهم ولحق بالجبل، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، وكان كداود، عليه الصلاة والسلام، فى حسن الصوت، إذا قرأ وقفت الوحوش عنده تسمع قراءته، وتقدمت ترجمته بأبسط من هذا.

(إذ وعد قومه بالعذاب)، مخبرًا لهم به **(عن ربه)** بمجىء العذاب لهم، **(فلما تابوا)** ورجعوا عما كانوا عليه، وكانت توبتهم فى يوم عاشوراء أو يوم الجمعة، **(كشف)**، بالبناء للمجهول، أى كشف الله **(عنهم)** ما وعدوا به، **(فقال)** يونس، عليه الصلاة والسلام، لما رأى تخلف الوعيد، **(لا أرجع إليهم)**، أى إلى قومه حال كونه **(كذابًا أبدًا، فذهب مغاضبًا)**، مفاعلة من الغضب، وهو ثوران دم القلب لإرادة الانتقاد والمفاعلة

---

(١) تقدم تخريجه.

ظاهرة إن أريد أنه مغاضب لقومه، وإن أريد أنه غضب لأجل ربه، فهو مثل ﴿**يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ**﴾ [البقرة: ٩]، وكان أقام فى قومه ثلاثين سنة يدعوهم للإيمان، فلم يؤمن منهم إلا رجل، فدعا عليهم، فقيل له: ما أسرع ما فعلت، ارجع إليهم وادعهم أربعين ليلة، فإن لم يجيبوا حل بهم العذاب، فدعاهم سبعًا وثلاثين ليلة، وقام بهم خطيبًا، وقال: إن لم ترجعوا إلى ثلاثة أيام حل بكم العذاب، وعلامته تغير ألوانكم، فلما رأوا التغير، وعلم يونس بالعذاب خرج من بينهم وطلبوه، فلم يجدوه، وألهمهم الله تعالى التوبة، فخرجوا إلى الصحراء بأهليهم وأولادهم ودوابهم، وضجوا إلى الله تعالى، وقالوا: آمنا بيونس، فقبل الله تعالى توبتهم، وكشف عنهم العذاب بعدما عاينوه فى سحابة على رءوسهم، كما قال تعالى: ﴿**إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ**﴾ [يونس: ٩٨] الآية.

وإلى ذلك أشار بقوله: (**فاعلم أكرمك الله**) بما أعلمك من براءة ساحة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، مما توهمه الطاعنون فيهم بمثل هذا السؤال، بأنه كيف أخبر وهو نبى معصوم بما لم يقع واعترف به، (**أن ليس فى خبر من الأخبار الواردة**) فى كتاب، ولا فى سنة صحيحة، (**فى هذا الباب**)، المتعلق بقصص الأنبياء، وقصة يونس، عليه وعليهم الصلاة والسلام، (**أن يونس قال لهم:**) مخبرًا عن ربه، (**إن الله مهلككم**)، حتى يتأتى أن يقال: إنه صدر منه الكذب.

(**وإنما**) الذى ورد (**فيه**) من الأخبار الصحيحة، (**أنه دعا، عليهم بالهلاك**)، أى بأن الله تعالى يهلكهم لعدم إطاعتهم له، (**والدعاء ليس بخبر**)، أى كلام خبرى بل إنشاء وطلب من الله، (**يعلم صدقه من كذبه**)، أى يحتمل الصدق والكذب والضمير أن للخبر لا ليونس كما قيل: لو كان خبرًا أيضًا لم يكن كذبًا كما توهمه السائلون؛ لأنه على تقدير شرط هو إن لم يؤمنوا كما يعلم من قوله: ﴿**إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ**﴾ [يونس: ٩٨] الآية، ولا ينافيه قوله: لا أرجع إليهم كذابًا أبدًا؛ لعدم صحته عند المصنف، رحمه الله تعالى، كما تقدم، ويأتى.

أو وصفه بالكذب؛ لتضمن كلامه خبرًا يحتمل الصدق والكذب، وهو أن من لم يجب دعوة الرسل يحل به العذاب، (**لكنه**)، أى الشأن أو يونس، عليه الصلاة والسلام، (**قال لهم:**)، أى لقومه لما وعظهم، (**إن العذاب مصبحكم**)، أى يأتيكم فى وقت الصباح، (**وقت كذا وكذا**)، أى عند تمام المدة التى بينها لهم كما تقدم، (**فكان ذلك**)، أى وقع وتحقق مجيئه لهم فى الوقت المعين، فإنهم لما رأوا سحابة دنت منهم نحو ميل فيها عذاب ودخان أسود، فأخلصوا التوبة وآمنوا ولبسوا المسوح وتضرعوا إلى الله، فقبل توبتهم.

(ثم رفع عنهم العذاب)، الذى تيقنوه، حتى كأنه نزل بهم، **(وتداركهم)**، أى أنعم عليهم بالخلاص مما خافوه، والتدارك بمعنى الإعانة والنعمة، كما قاله الراغب، أى تداركهم الله برحمته لما تابوا، ومتعهم بالحياة إلى حين كما **(قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾)** [يونس: ٩٨]، والاستثناء منقطع من قوله تعالى: **﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾** [يونس: ٩٨] إلى آخره.

إذ المعنى: لولا كانت قرية من القرى التى أهلكناها آمنت، إلا قوم يونس، ويحتمل الاتصال؛ لأنه فى معنى ما نجينا قرية، أى أهلها الذين عاينوا العذاب إلا هؤلاء كما تقرر فى التفاسير، وفى كلامه خلل لا يخفى، فإن محصله جوابان، أحدهما: المنع وأنه ليس بخبر وارد، والثانى: أنه خبر عن وقوع العذاب، وقد وقع لأنهم عاينوه، لكن الله تعالى رفعه عنهم، فالاستدراك ليس فى محله؛ لمباينته لما قبله، ومقصوده هذا، لكنه تسمح فى العبارة، وأيضًا العذاب لم يحل بهم، ولكنه لمعاينته كما تقدم، جعل كأنه وقع، ولذا عبر بالرفع دون الدفع، وهو من خصائص قوم يونس؛ لأنه إيمان يأس، وهو لا يقبل.

(وروى فى الأخبار أنهم)، أى بعد أن أمهلهم أربعين ليلة، فلما مضت خمسة أو سبعة وثلاثون كما مر، **(رأوا دلائل العذاب)** فى سحابة دنت منهم كما تقدم، **(ومخايله)**، بالخاء المعجمة، أى علاماته، جمع مخيلة، وهى المظنة من خاله بمعنى ظنه، وهى فى الأصل موضع النخيل، ثم استعير للأمارات، كقوله: الولد مبخلة ومجنبة.

(قال ابن مسعود:)، رضى الله تعالى عنه، رواه عنه ابن مردويه مرفوعًا، وابن أبى حاتم موقوفًا، **(وقال سعيد بن جبير: غشاهم العذاب، كما يغشى الثوب القبر)**، يعنى أن السحابة قربت منهم، فكانت عليهم كثوب يغطى به قبر، وفى التعبير بالقبر إشارة إلى أنهم كالأموات، ولذا عبر فى الآية بالكشف، وفى نسخة: كما يغشى النوء القمر، والنوء بواو ساكنة، وهمزة، أو بواو مشددة، بمعنى النجم الطالع أو الساقط، وأراد به هنا السحاب؛ لأنه لا يخلو من سحاب ومطر معه، وأنواء العرب مشهورة، والقمر معروف.

ثم أورد شيئًا مما يتعلق بالأسئلة والطاعن، فقال: **(فإن قلت:)** أيها السائل عما يوهم ما لا يليق بمقام النبوة، **(فما معنى ما روى)**، رواه ابن جبير، عن عكرمة مولى ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، **(من أن عبد الله بن أبى سرح)**، بفتح السين وسكون الراء وبالحاء المهملات، وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح بن الحارث العامرى القرشى الصحابى،

كاتب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أسلم قبل الفتح وهاجر، ثم ارتد وأسلم بعد ذلك وحسن إسلامه كما تقدم، وولى فى خلافة عثمان، فلما قتل اعتزل الناس والتزم العبادة، ودعا الله تعالى أن يتوفاه بعد الصلاة، فمات بعد تسليمه من صلاة الصبح كما ذكره السهيلى، وأشار إلى ما ذكر بقوله: (**وكان يكتب لرسول الله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما ينزل عليه من الوحى، (**ثم ارتد مشركًا**)، أى عاد لما كان عليه من الشرك، (**وصار إلى قريش**)، أى رجع إليهم بمكة ولحق بهم، ووافق على شركهم.

(**وقال لهم:**) بعد عوده لهم (**إنى كنت**) وأنا أكتب الوحى، (**أصرف محمدًا**)، من التصريف، وهو التغيير والتبديل، كما قال تعالى: ﴿**وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ**﴾ [البقرة: ١٦٤]، أى أبدل ما يمليه علىّ وهو يسمعه، فيوافقنى على ما أختاره (**حيث أريد**)، أى فى كل شىء أريده، (**كان يملى علىّ** ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾) فى خواتم الآيات، (**فأقول**) له، صلى الله تعالى عليه وسلم: (**أو عليم حكيم**)، أى أكتب هذا بدل ذاك، (**فيقول**) لى (**نعم**)، أى اكتب ما قلته بدل ما أمليته، (**كل صواب**)، أى ما أمليته وما قلته أنت من عندك، وسيأتى ما فيه.

(**وفى حديث آخر**)، أى فى رواية أخرى لهذا الحديث، رواها السدى: (**فيقول له النبى**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو بين يديه: (**اكتب كذا**)، كناية عما يأمره بكتابته، (**فيقول**)، أى ابن أبى سرح، (**له**) صلى الله تعالى عليه وسلم: (**اكتب كذا؟ فيقول**) النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: (**اكتب كيف شئت**)، يحتمل الخبر والاستفهام، والظاهر الأول، (**يقول:**)، النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (**اكتب عليمًا حكيمًا، فيقول**)، أى ابن أبى سرح، (**اكتب**) بدل هذا (**سميعًا بصيرًا، فيقول**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**له**)، أى لابن أبى سرح، (**اكتب كيف شئت**)، وأردت كتابته، وسيأتى ما فيه وتأويله على تقدير صحته.

(**وفى الصحيح**)، أى فى الحديث الذى رواه البخارى، وتقدم أن الصحيح إذا أطلق يراد به كتابه وحديثه، هذا مروى (**عن أنس**)، رضى الله عنه، (**أن نصرانيًا**)، قال البرهان: لا أعرفه باسمه، وفى مسلم: أنه رجل من بنى النجار، (**كان يكتب للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعدما يوحى إليه بعد ما أسلم، ثم ارتد**)، عن الإسلام إلى الكفر، (**وكان يقول:**) بعدما ارتد (**ما يدرى محمد إلا ما كتبته له**)، يعنى أنه كان يكتب من نفسه ويزعم أن ما يقرؤه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كلامه، ولم يزل، لعنه الله، على ردته حتى مات، فدفنوه فلفظته الأرض، فقالوا: هذا من فعل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأصحابه، فحفروا وأعمقوا ودفنوه، فلفظته الأرض ثانيًا، فقالوا مثل ذلك،

ثم وقع ذلك مرة ثالثة، فعلموا أنه فعل الله، فتركوه كما فضحه الله.

(واعلم) أيها المريد للوقوف على الحق وظهوره، **(ثبتنا الله وإياك على الحق)**، فى هذه القصة وغيرها، أى جعلنا ممن علم الحق وعرفه، ولم يتغير عما هو عليه، وفى هذا الدعاء مناسبة لما قبلها، فإن فيه ذكر من ارتد بعد إسلامه ممن لم يثبت على الحق بعدما عاينه، **(ولا جعل للشيطان ولا)** جعل **(لتلبيسه)**، أى خلطه، **(الحق بالباطل إلينا)**، أى لوصوله إلينا، **(سبيلاً)** وطريقًا يصل منه لنا، أى بعده الله عن ساحتنا ولا سلطه علينا، **(أن مثل هذه الحكاية)**، أى حكايته ابن أبى سرح، والكاتب النصرانى، **(أولاً)**، أى قبل النظر فى معناها والبحث عن صحتها وأحوال رواتها، **(لا توقع فى قلب مؤمن ريبًا)**، أى شكًا وترددًا فى حقيقة ما أوحى إلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأن الشيطان لا يتسلط عليه، **(إذ هى حكاية عمن ارتد وكفر)** بعد إيمانه، يعنى ابن أبى سرح، والكاتب النصرانى كما مر، **(ونحن)** معاشر علماء الدين أو علماء الحديث، **(لا نقبل خبر المسلم المتهم)**، أى الذى جرح وطعن فيه المحدثون مما بينوه فى باب الجرح والتعديل، مع إسلامه وعلمه لا يقبل خبره؛ لعدم عدالته، **(فكيف بكافر قد افترى هو ومثله)** من الكفرة الفجرة، أى اتصف بأنه كاذب مفتر **(على الله)** بادعاء شريك وولد ونحوه، **(ورسله)**، عليهم السلام، بنسبتهم بما لا يليق بمقامهم، **(ما هو أعظم من هذا)** المذكور عنهما، وكيف هنا للاستفهام الإنكارى التعجبى، نحو ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]، والمصنفون يستعملونه للترقى من أمر لأعظم منه كما هنا.

(وأتعجب لسليم العقل)، أى أنه يتعجب ممن سلم عقله من الآفات والحماقة، وشوائب الشك والالتباس، **(يشغل بمثل هذه الحكاية)**، يعنى حكاية الكاتبين، **(سره)**، السر هو الأمر الخفى، وأريد به هنا فكره أو قلبه ويشغل بزنة يعلم، أى يجعله مشغولاً، وهذه جملة مستأنفة لبيان وجه التعجب، **(وقد صدرت من عدو كافر مبغض للدين)** مبغض بوزن مصلح من البغض ضد المحبة، ورى بتشديد الغين المعجمة، وروى بنون وقاف وصاد مهملة من النقص ضد الزيادة، **(مفتر على الله ورسوله)**؛ لأنه قال: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقرأ قوله، وأن الله لم يوحه إليه، وكل منهما كذب على كل منهما، **(ولم يرد عن أحد من المسلمين)** أنه روى ما ذكر عن ابن أبى سرح، والكاتب النصرانى، ولم يصحح أحد منهم ما قالاه، ولم يثبت قولهما له صلى الله تعالى عليه وسلم ما ذكر، **(ولا ذكر أحد من الصحابة أنه شاهد ما قاله)** رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لهما، أو قاله كل واحد منهما له، **(وافتراه على نبى الله)** صلى الله تعالى عليه وسلم.

هذا يؤيد الثاني، **(وإنما يفترى الكذب من لا يؤمن بآيات الله)**، وفى نسخة: ﴿**ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ**﴾ [النحل: ١٠٥] حقيقة، لعد كذبهم بالنسبة للكذب على الله ورسوله كالعدم، فالفاحشة عنده أبو ذر، فكم من كذب يغتفر، وحاصله أن مثله مما يشهد العقل بكذبه مما لا ينبغى ذكره، فإنه مما يسود وجوه القراطيس بلا فائدة، وإنما ذكره لإزالة الشبهة عن العقول القاصرة، وتبيين حاله، فلا وجه للإنكار على المصنف وإيراده له بعدما بين مراده، **(وما وقع من ذكرها)**، أى ذكر هذه القصة، فأفرد لاستواء مقالتيهما، حتى صارتا أمرًا واحدًا **(فى حديث أنس)** المروى عنه، **(و)** ما وقع من **(ظاهر حكايته لها)** بنقلها، **(فليس فيه)**، أى فى الحديث ونقله لغيره، **(ما يدل على أنه شاهدها)**، أى أبصرها وحضرها، والشاهد عندهم ما يدل على صحة الحديث من روايته من طرق أخر تقويه كالمتابعة، والفرق بينه وبين المتابعة مذكور فى مصطلح الحديث، **(ولعله)**، أى أنس، رضى الله تعالى عنه، **(حكى ما سمع)**، من غير جزم به، ولا قول بصحته، وفى قوله: ولعله، إشارة إلى أنه متردد فيه أيضًا.

(وقد علل البزار حديثه)، أى حديث أنس، رضى الله تعالى عنه، **(ذلك)** المذكور، فأشار إلى أن علة قادحة فى صحته، **(وقال)** فى بيان ذلك: إنه **(رواه ثابت عنه)**، أى عن أنس، **(ولم يتابع عليه)**، أى لم يرو من طريق آخر يعضده غير طريق ثابت عنه، **(ورواه حميد)**، بالتصغير، **(عن أنس)**، رضى الله تعالى عنه، **(قال)**، أى البزار: **(وأظن حميدًا إنما سمعه من ثابت)**، لا من طريق آخر، فلا يكون متابعة، وحميد هذا هو حميد بن عبد الرحمن، وقيل غير ذلك، وهو يروى عن أنس وغيره، أو كان له طول فى يديه، توفى وهو قائم يصلى سنة اثنين وأربعين ومائة، ووثقوه، وقيل: إنه مدلس، وأخرج له الستة، ولا يخفى أن حديثه الذى رواه المصنف أخرجه البخارى، فقال: إنه كان رجل نصرانى أسلم، وقرأ البقرة وآل عمران، وكان يكتب لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم ارتد فانطلق هاربًا حتى لحق بأهل الكتاب، فعجبوا به... الحديث، وهو حديث صحيح، فرد المصنف له غير صحيح، والذى ينبغى له أن يقول: إن من قاله كذب افترى، ولا يقدح فى أصل القصة وصحتها، فإنها مروية فى الصحيحين كما تقدم.

(قال القاضى أبو الفضل) عياض المؤلف، رحمه الله تعالى: **(ولهذا)**، أى لما ذكر مما سمعته آنفًا من أنه لا شاهد له ولا متابعة، **(لم يخرج أهل الصحيح حديث ثابت ولا حميد، والصحيح حديث عبد العزيز بن رفيع)**، وهو مما رواه البخارى ومسلم كما تقدم، وأخرجه البخارى فى علامات النبوة، عن أبى معمر، عن عبد الوارث بن سعيد، عن عبد العزيز بن رفيع، **(عن أنس)**، وعبد العزيز هذا توفى سنة ثلاثمائة.

وقوله: (**الذى خرجه أهل الصحة**)، صفة حديث أهل الصحة الذين يروون الأحاديث الصحيحة، كالبخارى ومسلم، (**وذكرناه وليس فيه**)، أى فى الحديث المذكور فى هذه الرواية، (**عن أنس قول شىء من ذلك**)، الذى ذكره السائل من الطاعن، (**من قبل نفسه**)، بكسر القاف وفتح الموحدة، أى لم يرو فيه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قاله من قبل نفسه لم يوح به إليه، (**إلا من حكايته عن المرتد النصرانى**)، وهو مفتر على الله ورسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأما ما قاله ابن أبى سرح، فسيأتى بيانه.

(**ولو كانت**) القصة (**صحيحة**) من جهة الرواية، (**لما كان فيها**)، أى فى هذه الحكاية التى افتراها النصرانى عدو الله المرتد، (**قدح**)، أى عيب ونقص فى مقام النبوة، من قدح، كمنع إذا طعن فيه، (**ولا توهيم**)، أى نسبته إلى الوهم، بفتح الهاء، وهو الغلط، وبسكونها ذهاب الوهم لشىء، كما فى الصحاح، وفى بعض النسخ: توهين، بالنون من الوهن وهو الضعف، أى نسبته لما يوهن جانبه بما لا يرضى له، (**للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما أوحى إليه**) من ربه، وليس مثله مما يعتريه، (**ولا جواز للنسيان والغلط عليه**)، فيما طريقه البلاغ من الوحى كما توهمه السائل، (**والتحريف**) تفعيل من الانحراف، وهو الميل عن الحق، والمراد به التغيير والتبديل، (**فيما بلغه**) عن الله تعالى، (**ولا طعن فى نظم القرآن**)، بأن يقال: إنه أثبت فيه ما ليس منه من كلام الكاتب الكاذب.

(**و**) لا طعن فى (**أنه من عند الله**)، وأنه فيه ما ليس منه بتبديل ألفاظه بغيرها، (**إذ ليس فيه**)، أى فيما قاله الكاتب (**لو صح**) ما قاله (**أكثر من أن الكاتب**) المذكور (**قال له**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**عليم حكيم**) مثلاً، (**أو كتبه**)، أى ما ذكره ونحوه وهو يملى ويكتب ما يلقيه، لفهم خاتمة الكلام من ابتدائه على طريقة الإرصاد البديعى، وهو أن يورد نظمًا أو نثرًا يفهم آخره من أوله قبل تمامه، (**فقال له النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: كذلك هو**)، أى لفظ القرآن مثل ما قلت، وما تبادر لفهمك لذكائك الذى دلك على مقطع الكلام الدال عليه أوله، (**فسبقه لسانه أو قلمه**)، أى سبق النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لسان الكاتب أو قلمه، لما سيمليه عليه وتوارد معه، (**لكلمة**) واحدة مثل عليم أو حكيم، (**أو كلمتين**)، كغفور رحيم، لانتقاله من سياق الكلام لذلك (**مما نزل على الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم**) بالوحى الذى أملاه عليه (**قبل إظهار الرسول لها**)، أى لخاتمة الكلام من كلمة أو كلمتين، أو الضمير للكلمة، ويعلم منه الكلمتان، وما قدمناه أولى (**إذا كان ما تقدم مما أملاه الرسول**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، بيان لما (**يدل عليها**)، أى على الخاتمة أو الكلمة.

(**ويقتضى وقوعها**) فى آخره وخاتمته، (**بقوة قدرة الكاتب على الكلام**)، بيان لسبب

سبقه، وأنه لكونه من صميم العرب الناشئين فى حجر البلاغة، المرتضعين لثديها، **(ومعرفته به)**، أى بتبليغ الكلام نظمًا ونثرًا، وصياغته وصبه فى قالبه، **(وجودة حسه)** المدرك له، **(وفطنته)**، أى سرعة انتقاله له قبل إتمامه، **(كما يتفق ذلك)** الانتقال **(للعارف)** بأساليب الكلام، **(إذا سمع البيت)** من الشعر، إذا أنشد **(أن يسبق)** فهمه لقوة إدراكه **(إلى قافيته)**، أى آخر كلمة منه، قبل الوصول إليها، **(أو)** إذا سمع **(مبتدأ الكلام)**، وأوله **(الحسن)**، أى الفصيح المنسجم، وقيده به؛ لأنه هو يرتبط بعضه ببعض، وتتحاب كلماته، فتتعانق وتتلازم، بخلاف المتنافر كلماته، **(إلى ما يتم به)** من خواتمه، **(ولا يتفق)**، أى يقع اتفاقًا **(ذلك)**، أى سبق الفهم من أول كلام إلى آخره، **(فى جملة الكلام)**، أى لا يقع ذلك فى الكلام بتمامه، بأن يسبق فهمه إلى خطبة أو قصيدة بتمامها، فإن التوارد فى مثله بعيد جدًا، كما وقع للصدر بن الوكيل مع ابن إسرائيل، لما ادعى قصيدة له، وتحاكما فيها عند ابن الفارض، فحكم بها للصدر، فقال قائل: إنه من وقع الحافز على الحافز، فقال: وقع الحافز على الحافز من الأول إلى الآخر، فى القصة المشهورة، وقيل: مراده بجملة الكلام أنه ليس كل كلام تدل فاتحته على خاتمته، والظاهر الأول؛ لقوله: **(كما لا يتفق ذلك فى آية ولا سورة)** بتمامها من الآيات والسور.

ثم شرع فى الجواب عن قصة ابن أبى سرح بعدما أجاب عن قصة النصرانى، وقدمها لصحتها وظهور جوابها، فقال: **(وكذلك)**، أى مثل هذه القصة، **(قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** فيما تقدم فى قصة ابن أبى سرح، لما قال بعد ردته: كنت أصرف محمدًا حيث أريد، كان يملى علىّ: عزيز حكيم، فأقول: أو عليم حكيم، **(إن صح)** أنه كان يقول ذلك، **(كل صواب)** مما أمليته وقلته أنت، **(فقد يكون هذا)** الذى وقع له مع ابن أبى سرح **(فيما كان فيه من مقاطع الآى)**، جمع آية، وفى نسخة: الآيات، وضمير فيه لما أوحى إليه من القرآن، والمقاطع جمع مقطع، وهو آخر الكلام وفواصله.

(وجهان وقراءتان)، علمهما النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالوحى، فأملى عليه إحديهما، وذكر الكاتب الأخرى، فلذا قال له، صلى الله تعالى عليه وسلم: «كل صواب»؛ لأنهما **(أنزلتا جميعًا على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأملى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(إحديهما)** على ذلك الكاتب، **(وتوصل الكاتب)** المذكور لما ذكره **(بفطنته ومعرفته)**، بأساليب البلاغة، **(بمقتضى الكلام)**، أى بما يقتضيه مقامه، ويدل عليه سياقه، **(إلى)** القراءة **(الأخرى)** التى ذكرها الكاتب ظانًا أنه ابتكرها، **(فذكرها للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى القراءة الأخرى ذكرها كاتبه تواردًا من حيث القرينة على نظم القرآن النازل على أساليب كلامهم فتوهم أن الرسول، صلى الله تعالى عليه

وسلم، قرأ كلامه.

وقوله: (**قبل ذكر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لها**)، أى تلك الكلمة أو الكلمتين، (**فصوبها له**)، أى قال له: إنها صواب، لموافقته لما أوحى إليه، وهى مقدار لا إعجاز فيه، (**ثم أحكم الله من ذلك**) الذى أنزله على رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فأملاه عليه، (**ما أحكم**)، أى أثبته وأتقنه، (**ونسخ ما نسخ**)، أى ما أراد نسخه لفظًا ومعنى لا معنى وعكسه كما فصل فى كتاب الناسخ والمنسوخ، وحاصله أن ما قاله ابن أبى سرح لا ضير فيه، فإنه سبق النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لكلمات وافق فيها لفظ القرآن، فصوبه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأقره عليها، فلما ارتد وأضله الله ما قال، ثم أسلم عام الفتح وحسن بإسلامه حاله بعد ذلك، ومحا الله تعالى عنه، ما افتراه حال ردته سواء، كان ما قاله موافقًا لما أملاه عليه، أو مخالفًا له على أنه قراءة أخرى، وقد تتخالف القراءات لفظًا أو معنى، وإنما الممنوع فيها التناقض.

(**كما قد وجد ذلك**)، أى تخالف القراءات، (**فى بعض مقاطع الآى**)، وهى فواصلها وأواخرها التى هى فى النثر كالقول فى الشعر، (**مثل قوله تعالى**)، حكاية عن عيسى، عليه الصلاة والسلام، ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ**﴾، تفعل بهم ما تريد، ﴿**وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ**﴾ ذنوبهم وعصيانهم، ﴿**فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ**﴾ القوى القادر على الثواب والعقاب، ﴿**ٱلْحَكِيمُ**﴾ [المائدة: ١١٨]، أى الواقع جميع أفعاله على مقتضى الحكمة، لا يُسئل عما يفعله بحكمته البالغة، وإن لم يظهر لنا وجهه.

(**وهذه**) القراءة (**قراءة الجمهور**)، أى أكثر القراء، وهى القراءة المتواترة، وقد يتوهم فى بادئ النظر أن المناسب للمغفرة الغفور الرحيم بدل العزيز الحكيم، (**وقد قرأ جماعة**) من الصحابة فى الشواذ، (**فإنك أنت الغفور الرحيم**)، بدل قوله: ﴿**فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ**﴾ القراءة المتواترة، (**وليست هذه**) القراءة الشاذة (**فى المصحف**) العثمانى المسمى بالإمام المجمع على القراءة بما فيه، وترك ما عداه وظن بعضهم أن القراءة الشاذة هى المناسبة هنا، وليس لهذا وجه لمن له معرفة بدقائق البلاغة، فإن المعنى إنك إن غفرت ذنوبهم، فليس ذلك عن عجز، لأنك عزيز غالب على كل من سواك ولا قبح فى فعلك، لأنك حكيم، ولو قال: إنك أنت الغفور الرحيم، أوهم الدعاء بالمغفرة لمن مات مشركًا، وهو غير مستقيم، أى إن تبقهم على كفرهم حتى يموتوا وتعذبهم فإنهم عبادك، وإن هديتهم لطاعتك وتغفر لهم، فأنت العزيز الذى لا يمنع عما أراد، والحكيم فى أفعاله، فيضل من يشاء ويهدى من يشاء، فلا وجه للطعن فيها بعدم المناسبة.

وقال ابن الأنبارى: هـذا هـو المناسـب؛ لأن الغفـور الرحيـم ينفـرد بالشـرط الثانى، والعزيز الحكيم يتعلق بالشرطين، أى إن تعذبهم أو تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم فى الأمرين التعذيب والمغفرة، فهو أليق، فتدبر.

(وكذلك) وقع فى القرآن **(كلمات جاءت على وجهين)** متواترين **(فى غير المقاطع)** والآواخر كما جاء فى المقاطع، **(قرأ بهما الجمهور)** من القراء العشرة المتفق على قراءتهم، **(وثبتا)**، أى القراءة بالوجهين **(فى المصحف)** العثمانى المعمول برسمه، **(مثل)** قوله تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، جمع عظم، أى عظم الحمار أو عظم الموتى التى عجب من إحيائها، **(كيف ننشرها)** براء مهملة من النشر، أى نحييها، وبه قرأ أبو عمرو وغيره، **(و﴿نُنشِزُهَا﴾)**، بزاء معجمة بقراءة نافع وغيره، أى نحركها ونرفع بعضها على بعض من النشز، بمعنى المرتفع.

(و) مثل قوله تعالى: ﴿يَقْضِى بِالْحَقِّ﴾ [غافر: ٢٠]، بضاد معجمة وتحتية فى قراءة أبى عمرو وغيره، أى يقضى القضاء الحق فى كل ما يقضيه، **(ويقص)**، بصاد مهملة مشددة فى قراءة نافع وغيره، أى يتبع الحق فيما يحكم به ويقدره، **(وكل هذا)** المذكور فى هذا الفصل **(لا يوجب)**، أى لا يستلزم ولا يقتضى **(ريبًا)**، أى شبهة، **(ولا يسبب)**، بصيغة المضارع، أى يكون سببًا، **(له، صلى الله تعالى عليه وسلم، غلطًا)**، ينسب إليه فيما طريقه البلاغ، **(ولا وهمًا)**، بسكون الهاء، بمعنى الغلط، فهو عطف تفسير، وقيل: إنه بفتحها من وهم يهم إذا ذهب وهمه إليه، وفيه نظر.

(وقد قيل: إن هذا)، الذى وقع فى قصة الكاتبين، **(يحتمل أن يكون فيما يكتبه عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى مكاتبته **(إلى الناس)** يدعوهم إلى الإسلام ملوكًا وغيرهم، **(غير القرآن، فـ)** له فيه أن **(يصف الله تعالى عز وجل)**، هو أو يأذن لكاتبه ذلك، **(ويسميه فى ذلك)** الكاتب الذى يكتبه؛ لأنه ليس قرآنًا يجب اتباع نظمه، **(كيف ما شاء)**، بأى لفظ كان مما يليق به كما مر، ولذا قال، صلى الله تعالى عليه وسلم، له: اكتب كيف شئت، وكل صواب.

* * *

(فصل) [فيما يتصل بأمور الدنيا وأحوال نفسه]

(هذا القول) المذكور فى هذا الفصل الذى قبل هذا من الوحى عن ربه واقع، **(فيما طريقه البلاغ)**، أى تبليغ الناس ما مر بتبليغه عن ربه بالوحى، **(وأما ما ليس سبيله البلاغ)** مما أمر ببيانه، **(من الأخبار)**، بيان لما الثانية، وهو بفتح الهمزة، جمع خبر، **(التى لا**

مستند)، أى استناد **(لها إلى الأحكام)** الشرعية التى يتعبد بها، **(ولا)** مستند لها **(إلى أخبار المعاد)**، بفتح الميم، أى أحوال القيامة والآخرة التى لا تعلم إلا بالوحى، **(ولا تضاف)**، أى تسند وتنسب، **(إلى وحى)**، أى أمر أوحى به إليه من ربه، كإخباره عن بعض المغيبات ونحوها مما يقول أنه أوحى به إليه، **(بل)** إضراب انتقالى لبيان ما ليس طريقه البلاغ، وليس من الأحكام وأخبار المعاد والوحى مما وقع ذكره، **(فى أحوال الدنيا)**، وفى نسخة: أمور الدنيا.

(وأحوال نفسه)، صلى الله تعالى عليه وسلم، المتعلقة بأمور نفسه، **(فالذى يجب)** شرعًا علينا **(اعتقاده)** والجزم به، **(تنزيهه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتبرئته **(عن أن يقع خبره)** الذى أخبر به **(فى شىء من ذلك)**، المذكور من أحوال الدنيا وأحوال نفسه وذاته ملتبسًا، **(بخلاف مخبره)**، بضم الميم وفتح الباء اسم مفعول، أى غير مطابق لما أخبر عنه بوجه ما **(لا عمداً)**؛ لأنه يكون كذبًا لا يليق بمقامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ولا سهوًا ولا غلطًا)**؛ لا عتقاد ما ليس بواقع واقعًا، **(وأنه)**، بفتح الهمزة معطوف على تنزيهه، **(معصوم من ذلك)**، حفظه الله عن صدوره منه فى جميع أحواله، **(فى حال رضاه)**، أى كونه غير غضبان، ولا مكروه على إخباره، **(وفى حال سخطه)**، بفتحتين أو بضم فسكون، أى كراهته وعدم رضاه، **(وجده)**، بكسر الجيم وهو ضد الهزل والمزح الذى أشار إليه بقوله: **(ومزحه)**، أى مزاحه وهزله، فإنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يمزح أحيانًا ولا يقول إلا حقًا.

(و) فى حال **(صحته)**، أى صحة مزاجه وسلامته من الأمراض، **(ومرضه)**، أى عروض بعض الأمراض البشرية عليه، **(ودليل ذلك)** المذكور من عصمته فى جميع أخباره وجميع أحواله، **(اتفاق السلف)**، أى من تقدم عصره من هذه الأمة، **(وإجماعهم عليه)**، أى على أنه لا يصدر عنه خبر بخلاف مخبره أصلاً، **(وذلك أنا نعلم)** يقينًا **(من دين الصحابة)**، رضى الله تعالى عنهم، والدين إما بمعنى الديانة، أو بمعنى العادة بقوله: **(وعادتهم)**، عطف تفسير، أى دأبهم الذى استمروا عليه، أو الدين بمعنى الطاعة والانقياد له، **(مبادرتهم)**، أى إسراعهم من غير توقف وتردد، وفى نسخة مبادرين، فهو حال مما قبله، أى مسارعين، **(إلى تصديقه، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، بقبول ما يقوله **(فى جميع أحواله)** السابقة من جده وما بعده.

(والثقة)، أى الوثوق والاعتماد لتصديقهم **(بجميع أخباره فى أى باب)**، أى نوع من الأنواع، **(كانت)** أخباره **(وأى شىء)**، وفى نسخة: وعن أى شىء **(وقعت)**، وصدرت منه، وبأى سبب فى أى حال من أحواله، **(وأنه)**، أى الأمر والشأن، **(لم يكن لهم**

توقف)، تفعل من الوقوف أريد به الشك والريبة، **(ولا تردد)** هو أيضًا حقيقة عرفية فى الشك وعدم الوثوق، **(فى شىء منها)**، أى من إخباره، بل بمجرد السماع يجزمون بتحقق خبره، كأنهم عاينوه، فيتلقوه بالقبول وانشراح الصدر، **(ولا استثبات عن حاله)**، أى حال خبره، أو عن أحواله صلى الله تعالى عليه وسلم فى إخباره، والاستثبات بسين مهملة ومثناة فوقية ومثلثة وموحدة ومثناة مجرورة، وهو طلب الثبوت بسؤال ونحوه.

(عند ذلك)، أى فى زمان إخباره، فلا يخطر ببالهم ولا يقولون: **(هل وقع فيها سهو أم لا؟)**، أى هل صدر إخباره سهوًا منه أم عمدًا وغيره، وهذا بيان لاستثباتهم، وهذا دليل على أنه لم يقع منه ذلك، وأما عدم جوازه عليه وإن كنا نعتقده أيضًا، فليس بمراد، فلا وجه لما قيل من أنه إنما يدل على عدم الوقوع لا على عدم الجواز، فللقائل به أن يطلب الدليل على امتناعه، **(ولما احتج)**، أى تمسك.

واستدل **(ابن أبى الحقيق)**، بصيغة التصغير علم لهذا الشخص، **(اليهودى)**، وبنو الحقيق طائفة من يهود خيبر، له بها حصن، منهم كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق، زوج صفية بنت حيى بن أخطب أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، وله قصة فى السير، وليس هو هذا؛ لأنه قتل فى زمنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأما هذا فلم يذكروا اسمه، وهذا الحديث رواه البخارى فى حديث إجلاء يهود خيبر، **(على عمر)** بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، متعلق باحتج، ويحتمل أن يريد بابن أبى الحقيق جماعتهم كابن آدم للناس؛ لقوله: **(حين أجلاهم من خيبر)**، أى أخرجهم وطردهم فى زمن خلافته، رضى الله تعالى عنه، وهى بلاد بقرب المدينة لليهود، علم ممنوع من الصرف، والجار متعلق بإجلائهم، **(بإقرار)**، أى جعلهم قارين فيها ساكنين من غير إخراج لهم من **(رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لهم)**، أى لبنى الحقيق، متعلق بإقرار، فجعل فعله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حجة على عمر، رضى الله تعالى عنه.

(واحتج عليه عمر، رضى الله عنه)، أى أقام الحجة عليه، ردًا لما احتج به، **(بقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** لذلك اليهودى من بنى الحقيق: **(فكيف بك إذا أخرجت من بلادك؟)**، أى فى أى حال تكون إذا وقع بك ما يصيبك، واجتليت من بلادك، ونفيت منها، فهذا يدل على عدم دوام إقراره لهم كما ظن، فهو متضمن لخبر صادق منه، **(فقال له)**، أى لعمر، رضى الله عنه، **(اليهودى)**، المذكور ردًا لما احتج به: **(كانت)** مقالته، صلى الله تعالى عليه وسلم: «كيف بك...» إلى آخره، **(هزيلة)**، تصغير هزلة، وهى المرة من الهزل ضد الجد، كما فى النهاية، **(من أبى القاسم)**، هى كنيته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كأبى إبراهيم، أى إنما قال هذا على طريق الهزل والمزح، فلا دليل فيه.

(فقال) عمر، رضى الله تعالى عنه، مجيبًا **(له: كذبت يا عدو الله)**، أى لم يقل، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك هزلاً، ولو كان مزحًا أيضًا، فهو لا يمزح إلا بحق، وذلك العدو معتقد خلاف ذلك عنادًا منه وجهلاً بمقام النبوة، وتحقيرًا له، لعنه الله تعالى، والصحابة لا يقولون بشىء من ذلك، وهذا الحديث رواه الشيخان، عن ابن عمر مفصلاً فى خطبة لعمر، رضى الله تعالى عنه، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، أقرهم بها على أن يكون ثمارها بينه وبينهم، ثم أقرهم أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، على ما أقرهم عليه، رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم أقرهم عمر، رضى الله تعالى عنه، فى أول خلافته على ذلك، ثم لما ظهر له غدرهم بابن عمر أجلاهم منها وأعطاهم قيمة ما لهم من الثمار والأموال، وأخرجهم لتيماء وإريحاء من جانب الشام، لحديث: «لا يجتمع بجزيرة العرب دينان»[1]، كما فصل فى السير والبخارى وشروحه، وكانت محاجة اليهودى له عند ذلك كما تقرر.

(وأيضًا)، أى مثل، ما ذكر فى الدلالة على عصمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى جميع أخباره، **(فإن أخباره)** المروية عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وآثاره)**، جمع أثر، بمعنى خبر يؤثر وينقل عنه، **(وسيره)**، جمع سيرة، وهى الصفة الحميدة، **(وشمائله)**، جمع شمال، بكسر الشين، وهى صفاته الذاتية الحسنة، **(معتنى بها)**، نقلاً وحفظًا، اسم مفعول من العناية، بمعنى الاشتغال والاهتمام، **(مستقصى)**، أى مستوفاة متتمة من أولها إلى آخرها وأقصاها، **(بتفاصيلها)**، أى مفصلة مبينة كلها، **(ولم يرد)** عنه **(فى شىء منها)**، أى من الأخبار، والآثار، والسير، **(استدراكه)**، أى تداركه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالرجوع عما فرط منه للصواب فيه، **(لغلط فى قول قاله)**، فيما ذكر من الأخبار وغيرها، **(أو اعترافه)** وإقراره **(بوهم)**، أى غلط **(فى شىء أخبر به)** أحدًا من أصحابه.

(ولو كان)، أى وقع منه شىء من **(ذلك لنقل)** إلينا **(كما نقل)** فيما رواه مسلم، عن طلحة وأنس وغيرهما، **(فى قصة رجوعه، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى تحوله عن رأيه لغيره، **(عما أشار به على الأنصار فى تلقيح النخل)**، التلقيح والتأبير جعل شىء من طلع الذكر فى الأنثى؛ لتحصيل ثمرها وبلحها، وهو بمنزلة النطفة للحمل، جرت العادة لحكمة إلهية أنها لا تثمر بدونه، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، مر بهم وهم يفعلون ذلك، فسألهم عنه فأخبروه، فقال لهم: «دعوه»، فتركوه امتثالاً له، صلى الله تعالى عليه وسلم،

(١) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٩/٢٠٨)، وعبد الرزاق (٩٩٨٤، ٩٩٠، ١٩٣٥٩، ١٩٣٦٧، ١٩٣٦٩)، وابن عبد البر فى التمهيد (١/١٧٠).

فلم يثمر نخلهم فى ذلك العام، فلما أخبروه بذلك، قال لهم: «أنتم أعرف بدنياكم»[(١)]، فعدم معرفته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأمر من هذه الأمور لا ينافى عصمته، وأنه لا يخبر بما يخالف الواقع؛ لأن جل همته، صلى الله تعالى عليه وسلم، أمور الآخرة والشرائع وقوانينهما وغيره إنما جل قصده العلم بظاهر من الحياة الدنيا، وهذه القصة رواها مسلم كما علمت بسند صحيح، وفيه أن ثمرها خرج شيصًا، وهو البسر الذى لا نوى له.

وقال المصنف: هو ردىء البسر الذى إذا يبس صار حشفًا، **(وكان ذلك)** الأمر الذى أشار عليهم به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله: «لو لم تفعلوا كان خيرًا»[(٢)]، **(رأيًا)** أشار به عليهم بناء على دأبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى ترك الأسباب الظاهرة والنظر لمسببها، كما هو دأب الكمل، ولو كان اعتقادهم واعتمادهم على الله مثله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يتخلف ذلك، ولذا فوض لهم، صلى الله تعالى عليه وسلم، أمر دنياهم نظرًا لقلوبهم، **(لا خبرًا)** أخبرهم به يكون وقوع خلافه كذبًا، حماه الله منه، ولا غلط فيه؛ لأنه اجتهاد تغير بحسب الظاهر، فلا نقص ولا يطعن به عليه، وفيه أنشدوا:

إن الرسول لسان الحق للبشر … بالأمر والنهى والإعلام والخير
هم أذكياء ولكن لا يصدقهم … ذاك الذكاء لما فيه من الضرر
ألا تراهم لتأبير النخيل وما … قد كان فيه على ما فيه من ضرر
هم سالمون من الأفكار إن شرعوا … حكمًا بحل وتحريم على البشر

(وغير ذلك) مما صدر منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(من الأمور التى ليست من هذا الباب)**، مما ينزه عن الأخبار فيه بما يخالف مخبره من أمر الشرع والمعاد، **(كقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى حديث رواه الشيخان، عن أبى موسى الأشعرى، رضى الله تعالى عنه، فى غزوة تبوك لما سأله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعض الصحابة أن يحملهم، فقال: «والله ما عندى ما أحملكم عليه»[(٣)]، فأتى بعد ذلك بإبل فأعطاها السائل، وقال: «ما أنا حملتكم، ولكن الله تعالى حملكم».

ثم قال: **(والله إنى لا أحلف)**، أى أقسم، **(على يمين)**، المراد باليمين المستعمل بمعنى القسم هنا، والمراد المقسم عليه، من فعل أو ترك. قال الزمخشرى: سمى المحلوف عليه يمينًا؛

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٤/٣٣٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢١٠٧)، والطبرانى فى الكبير (٨/١٥٨)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٥/٣٢٨).

لتلبسه به، وأصله العقد بنية وعزم، وأكده إشارة إلى أنه ليس لغوًا لا ينعقد، وأصل اليمين اليد اليمنى، فسمى به؛ لأنهم كانوا يتماسكون بها إذا حلفوا، **(فأرى غيرها)**، أى أعلم غير اليمين المحلوف عليها، واليمين مؤنث بجميع معانيه، فكنى بضميرها عن المحلوف عليه، أعنى تركه، صلى الله تعالى عليه وسلم، حملانهم؛ لأنه سببها **(خيرًا منها)**، أى أحسن من فعلها، **(إلا فعلت الذى حلفت عليه)**، أى الأمر الذى أقسم على أن لا يفعله كترك حملانهم هنا، **(وكفرت عن يمينى)** بكفارته المعروفة شرعًا، وليس هذا بغلط فيما طريقه البلاغ ولا خبر؛ لأنه إنشاء قسم.

قال أبو موسى، رضى الله تعالى عنه: وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما حلف أن لا يحملنا، ثم أرسل إلينا وحملنا، فقلنا: نسى ما أقسم عليه، والله لئن فعلنا ما فيه حنث له، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا نفلح فلنذكره، فرجعنا وذكرنا ذلك، فقال: «انطلقوا إنما حملكم الله»، ثم قال: «والله لا أحلف على يمين...» إلى آخره، وبه استدل على أن الحنث بما هو خير يستحب، وليس فيه أنه حنث فى هذه اليمين وكفر؛ لأنه يحتمل أنه لم يكن عنده ما يحملهم عليه لما أقسم، ويحتمل أنه قال: إن شاء الله.

(و) من هذا القبيل **(قوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الشيخان، عن أم سلمة، رضى الله تعالى عنها: **(إنكم)** معاشر الأمة **(لتختصمون)**، أى تأتون لفصل الخصومة **(إلىَّ)**، أى عندى أقرأ **(الحديث)** إلى آخره، وتمامه: «ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض»، أى أفصح، «فأقضى له على نحو ما أسمع منه، فمن اقتطعت له من أخيه شيئًا، أى ليس حقه، فلا يأخذه، فكأنما اقتطع له قطعة من النار، فليحملها أو يذرها، وفيه تنبيه على بشريته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنه لا يعلم الغيب، وإنما يحكم بالظاهر، وقد كان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، الحكم بالباطن لاطلاع الله له عليه، كما ذكر السيوطى، ولكن هذا أغلب أحواله، صلى الله تعالى عليه وسلم، تعليمًا لأمته حتى يقتدوا به.

(وقوله)، صلى الله تعالى عليه وسلم، للزبير، رضى الله تعالى عنه، فى حديث روى فى الكتب الستة من أمره، صلى الله تعالى عليه وسلم، للزبير أن يسقى نخله ولا يستوعب الماء، ثم يرسله لجار له من الأنصار، فقال له الأنصارى: إن كان ابن عمتك، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(اسق يا زبير حتى يبلغ الماء الجدر)**، أسق بهمزة وصل، أمر من سقى، وقيل: بهمزة قطع من أسقاه، والجدر بفتح الجيم وسكون الدال المهملة، وقيل: بمعجمة يليها راء مهملة، وروى بضم الجيم، جمع جدار، ومعنى الأول ما رفع كالجدار، لحبس ماء السقى، أو هو لغة فى الجدار، وقيل: أصل الجدار، وعلى الإعجام

تمام الشرب، من جذر الحساب، ويجوز كسر جيمه ومعناه الأصل، وقيل: هو أصل الحائط، وحاصل ما يأتى فى ذلك أنه كان رجل أنصارى خاصم الزبير ابن عمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى شراج الحرة فى الماء الذى يسقى به النخل، وقال له: ارسل الماء إلىّ، فترافعا له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال له: «اسق يا زبير، ثم أرسل لجارك»، فقال: إن كان ابن عمتك، فتلون وجهه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: «اسق يا زبير، واحبس الماء حتى يبلغ الجدر»(١)، وفيه نزل: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾ [النساء: ٦٥].

وأن الرجل المخاصم قيل: هو حاطب بن بلتعة، ولا يصح؛ لأنه ليس أنصاريًا، وقيل: ثابت بن قيس، وقيل: ثعلبة بن حاطب، وقيل: حميد، وقيل: إنه بدرى، ونقل ابن الملقن، رحمه الله تعالى، أنه منافق من الأنصار، وسيأتى نقله عن الزجاج، (**كما سنبين كل ما فى هذا الحديث**) وما معه قريب آخر الكتاب، (**من مشكل ما فى هذا الباب، و**) الباب (**الذى بعده**)، وأتى بقوله: (**إن شاء الله للتبرك**) امتثالاً لقوله: ﴿**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ**﴾ [الكهف: ٢٣] الآية، (**مع أشباهها**)، أى أشباه وأمثال ما فى الباب، وأنث باعتبار المعنى، أى أشباه هذه المشكلات.

(**وأيضًا**)، أى مثل ما ذكر من الجواب، (**فإن الكذب متى عرف من أحد فى شىء من الأخبار بخلاف ما هو**) عليه فى الواقع، والأولى ترك هذا؛ لأن الكذب لا يكون إلا كذلك، وقد أطنب المصنف، رحمه الله تعالى، وطول مما لا فائدة فيه، وكان يمكن اختصار هذا فى كلمات قليلة، (**على أى وجه كان**)، سواء كان هزلاً أو جدًا، كالحكوية الذين ينقلون الحكايات الباطلة مع علمهم بها للتلهى بها كما هو معروف الآن، (**استريب بخبره**)، أى وقع الناس فى ريبة وشك فيما يخبر به حتى لو صدق لم يصدق، (**واتهم فى حديثه**) الذى يحدث به الناس، (**ولم يقع قوله فى النفوس موقعًا**)، أى لم يقبل ويلتفت إليه، (**ولهذا**)، أى لكون الكذب يوقع فى ذلك (**ما ترك المحدثون**)، ما زائدة، وفى نسخة حذفها، وهى أولى، (**والعلماء**) من عطف العام على الخاص، أى علماء الحديث والفقهاء وغيرهم من أهل العلم، (**الحديث**)، مفعول ترك، (**من عرف بالوهم**)، بفتح الهاء بمعنى الغلط، وهو بسكونها بمعنى الوقوع فى القوة الواهمة، وفيه تفصيل فى كتب اللغة.

(**والغفلة**)، أى الذهول وعدم معرفة الأمور، (**وسوء الحفظ وكثرة الغلط**)، عطف

(١) أخرجه البخارى (١٤٥/٣، ١٤٦)، وأبو داود (٣٦٣٧)، والترمذى (١٣٦٣، ٣٠٢٧)، والنسائى (٢٣٨/٨)، وابن ماجه (٢٤٨٠)، وأحمد (٥/٤)، والبيهقى (١٤٥/٦، ١٥٣).

تفسير على سوء الحفظ، أى كون حفظه سيئًا غير قوى، **(مع ثقته)**، أى كونه ممن يوثق به لديانته، وعدم تعمده الكذب فيما يحدث به، ومع ذلك يتركون رواية الحديث عنه؛ لأنه قد يقع فيه ما لا أصل له؛ لغفلته وقلة حفظه، وإذا كان هذا لمخالفته الواقع غير مقبول، فما بالك بالكذب ممن عرف به، ولا يرد على المصنف، رحمه الله تعالى، أنه إذا حدث من أصل صحيح عنده تقبل روايته منه، لا عن ظهر قلبه وحفظه، وأنه لا يشترط فى هذه الأعصار ذلك إبقاء لسلسلة الحديث؛ لأنه إذا حدث عن أصل كان الاعتماد عليه لا على حفظه، وما ذكره هو الذى عليه علماء الحديث المعتمد عليهم.

(وأيضًا)، أى مثل ما ذكر فى عدم الاعتماد على من يكذب، **(فإن تعمد الكذب)** قصدًا، والفاء فى جواب شرط مقدر نحو إن أحطت بما ذكر خبرًا وعلمته، **(فى أمور الدنيا)**، فضلاً عن الحديث والأمور الشرعية، **(معصية)**، وذنب يذم به عاجلاً ويعاقب عليه آجلاً إن لم يغفر الله، **(والإكثار منه كبيرة بإجماع)** من أئمة الدين، وهى كما قالوا مختلف فى تعريفها، وهل هى محصورة أم لا كما تقرر فى كتب الأصول، وستأتى الإشارة إلى شىء من ذلك، **(مسقط للمروة)**، أى يذهب عدالته والمروءة بهمزة أو واو مشددة مصدر من المرء، كالرجولية والإنسانية، **(وكل هذا)** المذكور من الكذب وقبائحه، **(مما ينزه)**، ويبعد عن مقامه ويبرأ **(عنه منصب النبوة)**، المراد بمنصبها مقامها، وهو فى اللغة بمعنى الحسب كما فى قول ابن أبى تمام:

ومنصب نماء ووالد سما به

وأما استعماله بمعنى الولاية السلطانية، فمولد، كقول ابن الوردى[1]:

نصب المنصب أوهى جلدى   وعناى من مداراة السفل

كما تقدم، **(والمرة الواحدة منه)**، أى من الكذب وفى نسخة منها، أى من هذه المعصية، **(فيما يستبشع)**، أى يستقبح من البشاعة بموحدة وشين معجمة، **(ويشاع)**، أى يشيعه الناس لشناعته، وقوله فيما يتعلق بمقدرى، أى معدود فيما إلى آخره، وفى نسخة: يستشنع بنون من الشناعة، وهما بمعنى، وفيها أيضًا ويشيع بدل ويشاع، **(مما يخل)**، من الخلل بعرضه ودينه، **(بصاحبه)** المتصف به، **(ويزرى)**، أى يعيب وينقص ويحقر، **(بقائله)**، أى يجعله متصفًا بالخلل والنقص من أزريت عليه إزراء، إذا عيبته، وفى نسخة: صاحبها، وقائلها كما تقدم، وقوله: والمرة مبتدأ خبره قوله: **(لاحقة بذلك)**، أى بما لا يليق بمنصب النبوة، أو خبره مما وهى حال.

(١) البيت من الرمل، وهو لابن الوردى فى ديوانه (ص٤٣٨)، تاج العروس (٤/٢٨١).

(وأما) الكذب **(فيما لا يقع هذا الموقع)**، أى لا يعد مما يستبشع، **(فإن عددناها)**، أى جعلناها، **(من الصغائر)**، دون الكبائر التى يترتب عليها حد أو وعيد على الخلاف فيها، **(فهل يجرى على حكمها)**، أى يوافق حكمها حكمها، ويتحد **(فى الخلاف فيها)**، أى وقع الخلاف فيما قبلها، هل يجوز صدوره من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قبل البعثة أم لا؟ فذلك الخلاف، هل وقع من أئمة الدين فى هذه أم لا؟ **(مختلف فيه)**، أى وقع خلاف من أئمة الأصول، فمنهم من قال: اختلف فيها أيضًا، ومنهم من قال: لا خلاف فى عدم وقوعه منهم؛ لأنه مما ينفر القلوب عنهم، والكذب حرام منه ما هو صغيرة، وما هو كبيرة، وقد يقترن به ما يصيره كفرًا، وقد يقترن بالصغيرة ما يصيرها كبيرة، لكونها تؤدى إلى القتل أو القتال، كما قاله الجوينى، وليس هذا محل تفصيله.

(والصواب) من هذه الأقوال **(تنزيه)** النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومقام **(النبوة عن قليله وكثيره)**، لإخلاله بعظيم قدرها وشرفها، **(سهوه)** لعصمة الله تعالى له عنه، **(وعمده)** لعلو طبعه عنه، **(إذ عمدة النبوة)**، بضم العين ما يعتمد عليه، والمراد به المقصود منها بالذات، **(البلاغ والإعلام)**، لمن أرسل إليهم ما أوحاه الله تعالى إليه، **(والتبيين)** لهم ما شرعه الله، **(وتصديق)** من أرسل له فى **(ما جاء به النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** من التوحيد والشرائع التى جاء بها عن ربه، **(وتجويز شىء من هذا)** بأنواعه على أنبياء الله، **(قادح فى ذلك)** العمدة المقصود من بعثته وبلاغه وإعلامه ووجود تصديقه؛ لأن من يجوز عليه الكذب فى شىء ما لا يجوز عليه فيما بلغه الله، وأتى بالإشارة للتقريب فى الكذب تحقيرًا له، وبإشارة البعيد فيما بعده تعظيمًا له، وهو ظاهر.

(و) تجويزه أيضًا **(مشكك فيه)**، أى فيما جاء به؛ لالتباس صدقه الواجب اتباعه بكذبه لو وقع منه ولو سهوًا، **(مناقض للمعجزة)**، لإيجابها تصديقه، ولذا قرنت بها الدعوة، **(فليقطع)** أمر للغائب، أى يعتقد قطعًا **(بأنه)**، أى الأمر والشأن، أو الكذب بإقامة الظاهر فى قوله: **(لا يجوز)**، بسكون الواو وتشديدها، **(على الأنبياء)** كلهم، عليهم الصلاة والسلام، **(خلف)** بضم الخاء وفتحها، أى كذب **(فى القول)** الصادر عنهم، وفى نسخة: فى قوله: **(بوجه من الوجوه)**، وفى نسخة: فى وجه، أى فى أى شىء كان، سواء كان من قبيل البلاغ أم لا، **(لا بقصد ولا بغيره)** كالسهور، **(ولا يتسامح)**، أى لا يتساهل ويتهاون، **(مع من تسامح)** متبعًا لمن تساهل فى حقهم، **(فى تجويز ذلك)** الخلف فى أقوالهم، فجوزه، **(عليهم حالة السهو فيما ليس طريقه البلاغ)** عن الله تعالى؛ لعصمة الله تعالى لهم عن وصمته، ومنهم بعض الشراح القائل بأنه لا دليل على عدم وقوعه منهم نادرًا.

(**نعم**) جواب سؤال تقديره، هل هذا شامل لما قبل النبوة، فأجاب بأنا نقطع بأنه **لا يجوز** بعد النبوة، (**وبأنه لا يجوز عليهم الكذب**) مطلقًا (**قبل**) إظهار (**النبوة ولا الاتسام**)، أى الاتصاف من السمة، (**به**)، أى الكذب، (**فى أمورهم**) الخاصة بأنفسهم، (**وأحوال دنياهم**)، أى الأحوال المتعلقة بالدنيا لهم أو لأممهم؛ (**لأن ذلك**)، أى الخلف فى القول (**كان يزرى**)، أى يعيب وينقص كما مر، (**ويريب**)، أى يوقع فى ريب وتهمة، (**بهم**)، فيوقع الشك والتحقير فى القلوب، وهو مما ينزه عنه مقام النبوة، (**وينفر القلوب**)، أى قلوب الناس، (**عن تصديقهم**) مما يبغونه لهم (**بعد**)، مبنى على الضم، أى بعد إرسالهم وتبليغهم، أو بعد العلم باتصافهم بالكذب.

ثم أيد ذلك بقوله: (**وانظر**)، أمر لكل من له نظر ومعرفة، (**أحوال أهل عصر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، أى من عاصره فى مدة حياته، (**من قريش وغيرها**) من العرب أنثه باعتبار القبيلة وغيرهم، (**من الأمم**)، كالروم والعجم والحبش، (**وسؤالهم**) تفتيشًا (**عن حاله**) فى أموره وسيرته بعد دعوتهم وقبلها لما شاع صيته فى الآفاق، (**فى صدق لسانه**)، أى صدق كلامه، فإن اللسان يطلق على الجارحة والكلام، وقوله: فى صدق... إلى آخره، بيان لحاله، أى حاله الكائن فى صدقه، (**وما عرفوا به من ذلك**)، بتشديد الراء والبناء للمفعول، ويجوز تخفيفها والبناء للفاعل، (**واعترفوا به مما عرف**)، هو أيضًا كالأول.

(**واتفق**) أهل (**النقل على عصمة نبينا محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، منه**)، أى من جميع ما ذكر عمدًا وسهوًا، (**قبل وبعد**)، مبنيان على الضم، أى قبل البعثة وبعدها، والمراد نقل علماء الملة أو نقل الناس بعضهم عن بعض عصرًا بعد عصر، ثم لم يزالوا ينقلون خلفًا عن سلف أنه لم يقع منه ذلك، وعدم وقوعه يدل على عدم جوازه عليه، فالتوقف فيه لا يجوز، وتحقيقه كما قال العلامة العلائى فى تأليف أفرده لشرح هذا الحديث، ومن خطه نقلت وعبارته: اتفق جميع أهل الملل والشرائع على وجوب عصمة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، عن تعمد الكذب فيما دلت عليه المعجزة القاطعة على صدقهم فيه، وذلك فيما طريقه البلاغ عن الله من دعوى الرسالة وما ينزل عليهم من الكتب الإلهية، إذ لو جاز ذلك أدى إلى إبطال دلالة المعجزة، وهو محال.

وأما السهو والنسيان، فقال الآمدى: اختلف الناس فيه، فذهب أبو إسحاق الإسفرائنى وكثير من الأئمة إلى امتناعه، وذهب القاضى أبو بكر إلى جوازه، وادعى الفخر الرازى فى بعض كتبه الإجماع على امتناعه، ونقل الخلاف فيه فى بعضها، وحاصل الخلاف يرجع إلى أن ذلك داخل تحت دلالة المعجزة على التصديق، فمن جعله

غير داخل فيها جوزه لعدم انتقاض الدلالة، وفى كلام إمام الحرمين: أن ذلك فيما يتعلق ببيان الشرائع، سواء كان قولاً أو فعلاً نازلاً منزلة قوله فى اقتضاء البيان، وميل كلامه إلى جواز السهو فيه، واحتج بقصة ذى اليدين.

وقال شيخنا الزملكانى: إن الذى يظهر أن ما طريقه البلاغ يقطع بدخوله تحت دلالة المعجزة على الصدق، فهذا لا نزاع فى أنه لا يجوز فيه التحريف ولا الكذب ولا السهو، وما لا يكون كذلك، وهو ما طريقه التبليغ وبيان الشرائع، فهل يجوز فيه النسيان؟ وهذا محل الخلاف ويحمل إطلاق الفخر الإجماع فيه على الأول، وذكره الخلاف على الثانى، وكذا كلام الآمدى محمول على هذا التفصيل.

وقال الباقلانى فى كتاب الانتصار: المعجزة تدل على صدق النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما يفكر فيه وهو عامد له، وذهول النفس وطرئان النسيان وبوادر اللسان لا يدخل تحت الصدق الذى هو مدلول المعجزة، ومن زعم أنه فى تجويز ذلك القدح فى الثقة بتبليغ الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فليس بشىء فإنما يكون ذلك لجواز تقريرهم عليه، وهو ممتنع. وأما القاضى عياض، فإنه نقل الإجماع على عدم جواز السهو والنسيان فى الأقوال البلاغية، وخص الخلاف بالأفعال، وهو يرجع إلى اندراجه تحت دلالة المعجزة، كما ذكرنا. انتهى.

ثم أشار إلى ما يؤيد هذا مما قدمه بقوله: (**وقد ذكرنا... إلخ**)، وأورد سؤالاً وجوابًا عما يرد على كلامه، فقال:

* * *

(فصل)

(**فإن قلت: فما معنى قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث السهو**)، أى الحديث الذى روى فيه سهوه فى صلاته، والفاء الأولى فى جواب شرط مقدر، أى إذا علمت تنزهه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن الخلف عمدًا وسهوًا فى أقواله، فقد تعرض لك شبهة وسؤال عما خالفه من هذا الحديث، فنقول: إلى آخره، والثانية فى جواب الشرط المذكور ومقول القول بعضه مقدر، أى إن قلت: إنك قررت عصمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن السهو، فما معنى قوله: إلى آخره.

واعلم أن الراغب قال: النسيان ترك الإنسان ضبط ما استودع، إما عن غفلة، وإما لضعف قلب، وإما عن قصد حتى يذهب عن القلب، وكل نسيان ذمه الله فهو ما كان عن تعمد نحو: ﴿**فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا**﴾ [السجدة: ١٤]، وخلافه

مرفوع عنه كما فى حديث: «رفع عن أمتى...» إلى آخره، وما نسب إلى الله تعالى نحو قوله: (﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾) [السجدة: ١٤]، بمعنى الترك كما قاله الزجاج وغيره؛ لأنه من لوازمه، وأصله عدم الحفظ والله منزه عنه.

وأما السهو، فقد حكى المصنف، رحمه الله تعالى، فيما يأتى الفرق بينه وبين النسيان معنى، وقال: إن السهو فى الصلاة جائز على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، بخلاف النسيان؛ لأنه غفلة وآفة، والسهو إنما هو شغل بال، فكان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يسهو فى الصلاة ولا يغفل عنها، وكان يشغله عن حركات الصلاة ما فى الصلاة شغلا بها لا غفلة عنها، ويأتى شرحه عند ذكره له.

وقال الحافظ العلائى: إنه ضعيف لغة ومعنى، أما الأول، فلما فى الصحيحين من قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون»، أى كما سيأتى بما فيه، وأما الثانى، فقد قال الأزهرى: السهو الغفلة عن الشىء وذهاب القلب عنه، وسها فى صلاته غفل، وكذا فى الصحاح والمحكم وقال الراغب: السهو خطأ عن غفلة، وقسمه لقسمين، وفى النهاية: السهو فى الشىء تركه عن غير علم، والسهو عنه تركه مع العلم، وهو قريب مما قاله الراغب وسيأتى تتمته قريبًا.

وهذا الحديث رواه الشيخان ومالك والترمذى وغيرهم، ولم يروه المصنف، رحمه الله، من طريق الصحيحين، بل من طريق غيرهما لما يأتى، فقال: (**الذى حدثنا به الفقيه أبو إسحاق بن جعفر**)، الذى تقدمت ترجمته، قال: (**حدثنا القاضى أبو الأصبغ بن سهل**)، قال: (**حدثنا حاتم بن محمد**)، قال: (**حدثنا أبو عبد الله بن الفخار**) بن عمر بن يوسف المالكى القرطبى، عالم الأندلس وزاهدها، وكان رحمه الله تعالى مجاب الدعوة، توفى سنة سبع عشرة وأربعمائة، قال: (**حدثنا أبو عيسى**) يحيى بن يحيى الليثى كما تقدم، قال: (**حدثنا عبيد الله**)، قال: (**حدثنا يحيى**)، تقدم أيضًا، (**عن مالك**) إمام دار الهجرة المشهور، رحمه الله تعالى.

(**عن داود بن الحصين**)، بحاء مضمومة وصاد مفتوحة مهملتين وياء تصغير ونون، وهو مولى عمرو بن عثمان مدنى ثقة، يحتج بحديثه، وإن كان يرى رأى الخوارج؛ لأنه لم يكن داعية، وروى هو عن عكرمة ونافع وغيرهما، وروى عنه مالك وغيره، وتوفى سنة خمس وثلاثين ومائة، (**عن أبى سفيان مولى ابن أحمد**)، اسمه وهب، وقيل: قزمان، وهو ثقة يروى عن أبى هريرة وغيره، وأخرج له الستة، (**أنه قال: سمعت أبا هريرة**)، رضى الله تعالى عنه، تقدم بيانه، واختلف فى اسمه واسم أبيه على ثلاثين قولاً، أشهرها

أنه عبد الرحمن بن صخر الدوسى، نسبة لدوس، قبيلة سميت باسم جدها دوس بن ثابت، وكنى بأبى هريرة لأنه أتى بهرة وحشية لقومه، وقيل: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، هو الذى كناه بذلك، وقد قدمنا أنه ممنوع من الصرف، كما صرح به سيبويه، ولنحاة العرب فيه كلام بينا خطأه فى كتاب السوانح.

(يقول)، أى يحدث قائلاً: **(صلى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، صلاة العصر)** فى جماعة، هذه رواية الإمام مالك فى موطأه، واختارها المصنف، رحمه الله تعالى، على رواية مسلم وغيره؛ لعلو سنده من طريقه ولترجيح أهل المغرب له، **(فسلم فى ركعتين)**، أى بعدما فرغ منهما ومن التشهد، وهذه رواية الموطأ، وقيل: من ثلاث، وله طرق مشهورة أشهرها رواية أبى هريرة، وقال ابن عبد البر: ليس فى أخبار الآحاد أكثر طرقًا من حديث ذى اليدين، وفى طرقه اختلاف فى تلك الطرق، وفى سلامه هل هو من ركعتين أو ثلاث؟ وهل الصلاة العصر أو غيرها، ومن وقعت معه القصة، هل هو ذو اليدين أو ذو الشمالين؟ وتفصيله أنه رواية مالك، عن السختيانى، عن ابن سيرين، عن أبى هريرة.

وأخرجه البخارى، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، ورواه الزهرى من طرق خالف فيها فى تسمية ذى اليدين ذا الشمالين، ويأتى ما فيه، وفى أنه لم يسجد للسهو، وفى مسلم أنه سجد سجدتين بعد السلام، وفى البخارى، عن أبى سلمة، أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، صلى الظهر أو العصر، وسلم على رأس ركعتين، وفى رواية على ثلاث، وفى رواية أنها كانت صلاة المغرب، وقد رواها مفصلة الحافظ العلائى بأسانيدها ومتابعاتها، وليس هذا مما يلزم إيراده هنا.

(فقام ذو اليدين) من صلاته، وسمى ذا اليدين؛ لطول يديه، وكان يصلى خلفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى رواية: ذو الشمالين، قيل: وهما اسم رجل واحد. وقال العلائى: إنه غيره على الصحيح، وثبت من طرق أن أبا هريرة، رضى الله تعالى عنه، كان حاضرًا فى هذه القصة كما صرح به فى رواية المصنف، رحمه الله تعالى، بقوله: سمعت أبا هريرة يقول: صلى بنا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم... إلى آخره، وفى رواية لمسلم: صلى بنا صلاة الظهر، وفى أخرى: الظهر أو العصر، وفى رواية: إحدى صلاتى العشاء، من طرق صحيحة كلها تدل على أن أبا هريرة كان حاضرًا بها.

قال العلائى: ولا خلاف فى أن إسلام أبى هريرة كان سنة سبع، أيام خيبر، ولا خلاف بين أهل السير، أن ذا الشمالين استشهد ببدر، سنة اثنتين. قال ابن إسحاق: هو

عمرو بن عبد عمرو بن نضلة بن عمرو بن عتبان بن سليم بن مالك بن قصى بن خزاعة حليف بنى زهرة. وقال مسدد بن ميسر: هذا الذى قتل ببدر ذو الشمالين بن عبد عمرو حليف بنى زهرة، وذو اليدين رجل من العرب بالبادية، كان يجىء فيصلى مع النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأيد قول مسدد ابن عبد البر، وقال: إنه الذى عليه أصحاب السير والفقهاء، ولذا روى عن أبى هريرة أنه قال: فقام رجل من بنى سليم، وقيل: إن ذا اليدين عمر إلى خلافة معاوية، وتوفى بذى حشب. وقول الزهرى: إنه ذو الشمالين بن عبد عمرو، غلط فيه، وروايته فيها اضطراب، وقيل: إنه لم ينفرد بتسميته ذو الشمالين.

ورد المصنف، رحمه الله تعالى، فى الإكمال، قول من غلط الزهرى، واختلفوا أيضًا فى تسميته ذى اليدين، فقيل: الخرباق، واختاره المصنف، والنووى، وابن الأثير، وقال أبو حاتم بن حبان: إن الخرباق غير ذى اليدين. وقال ابن عبد البر والقرطبى: يحتمل أنه غيره، وقد جمع بين الروايتين بتعدد الواقعة، فأحدها قبل بدر، والمتكلم فيها ذو الشمالين، و لم يشهدها أبو هريرة، بل أرسل روايتها، والثانية حضرها، والمتكلم فيها ذو اليدين كما حكاه المصنف، رحمه الله تعالى، فى الإكمال، واختاره لما فيه من الجمع بين الروايات، ونفى الغلط عن مثل الزهرى. قال العلائى: وفيه نظر؛ لأن فيها ما لا يمكن الجمع فيه، ولا شك أن ذا اليدين غير ذى الشمالين. وقال بعضهم: إن القصص ثلاث، والكلام فيه طويل لا يسعه هذا المقام، فاعرفه.

(فقال: يا رسول الله، أقصرت الصلاة)، روى كما قال الحافظ العلائى، بضم القاف وكسر الصاد، بالبناء للمفعول، وهى المشهورة، وروى بفتح القاف وضم الصاد، وهذا الفعل سمع لازمًا بضم عينه وفتحها، وهو متعد كقصرها بالتشديد وأقصرها على السواء كما حكاه الأزهرى، ولا يقال: إن قصر إذا كان مخففًا لا يتعدى إلا بحرف الجر، كقوله تعالى: ﴿**أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ**﴾ [النساء: ١٠١]؛ لأنا نقول: تعديه بنفسه ثابت حكاه الجوهرى وغيره، ومن زائدة عند الأخفش وعند سيبويه تقديره شيئًا من الصلاة، ومعناه يرجع إلى الاختصار والكف، ومنه قصر طرفه على كذا.

(أم نسيت)، تقدم أن النسيان ترك ما لابد منه، إما لغفلة ولضعف قلب حتى يزول بذكره، وإنه يذم منه ما كان عمدًا، ويعذر فيما لم يكن سببه منه، كقوله: «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان»(١)، وأنه نسب إلى الله تعالى، فمعناه الترك كما قال الزجاج وابن

---

(١) تقدم تخريجه.

سيدة، وإما متصلة، ولابد أن يتقدمها استفهام لفظًا أو تقديرًا مع تساوى ما دخلا عليه، سواء كانا اسمين أم لا، ويكون بمعنى أى الأمرين، ويكون للسؤال عن أحد الأمرين ليعين كما هنا، والكلام عليه مفصل فى كتب العربية.

(فقال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم) جوابًا لذى اليدين: **(كل ذلك لم يكن)**، لما سلم، صلى الله تعالى عليه وسلم، واقتصر على ركعتين أو ثلاث، دار الأمر عند ذى اليدين بين أمرين النسخ أو السهو، فسأل عن تعيين أحدهما، فحق الجواب تعيين أحدهما، لكنه أجاب بنفى كل منهما معينًا، ونفس الأمر لا ينفك عن وجود أحدهما، وما ذكره، صلى الله تعالى عليه وسلم، بحسب ظنه؛ لأنه لا يقع الخلف فى إخباره، وذو اليدين تحقق عدم النسخ، فتعين وقوع السهو كما سيأتى، والسؤال المقترن بأم لطلب التعيين بعد الاستثبات يجاب بالتعيين؛ لجوابه، صلى الله تعالى عليه وسلم، على حسب ظنه كما علم، ونظيره قول ذى الرمة[(١)]:

تقول عجوز مدرجى متروحا ... على بابها من عند أهلى وغاديا

أذو زوجة فى المصرام ذو خصومة ... أراك لها بالبصرة العام ثاويا

فقلت لها لا إن أهلى حيرة ... لا كثبة الدهنا جميعا وماليا

فالجواب بأحدهما إنما هو إذا كان فيها أحدهما، وإلا فيجاب بنفيهما، وقد يرد بذكر ثالث فيهما، وإن لم يسأل عنه، وهذا مما لا شبهة فيه.

فإن قلت: كيف جوابه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بنفيهما وأحدهما محقق، فيلزم الخلف فى أقواله وخبره، وهو لا يجوز عليه؟.

قلت: قد أجيب عنه كما فى شرح مسلم بوجوه:

أحدها: أنه نفى الجميع، أى لم يكن لا هذا ولا هذا معًا، وهو لا ينافى وجود أحدهما، وقد رد هذا بأن تصريحه بقوله: لم أنس يأباه، فإنه مذكور فى الحديث فى بعض الروايات، وكونه مصروفًا إلى السلام كما قيل، لا وجه له، أى كما يأتى فى كلام المصنف.

الثانى: أنه مبنى على الفرق بين السهو والنسيان، أى سهوت ولم أنس، وهو بعيد؛ لأنه وإن كان بينهما فرق، يستعمل كل منهما بمعنى الآخر.

---

(١) الأبيات من الطويل، وهو لذى الرمة فى ديوانه (ص١٣١١ - ١٣١٢)، أمالى الزجاجى (ص٨٩)، مغنى اللبيب (٤٢/١)، المحتسب (٢٦٦/٢)، شرح شواهد المغنى (١٣٩/١)، لسان العرب (١٦٣/١٣)، المزهر فى علوم اللغة (٣٧٦/٢)، وبلا نسبة فى رصف المبانى (ص٩٤).

الثالث: أنه نفى إضافة النسيان إليه، وكره إضافته له كما ورد لا يقل أحدكم نسيت، فإنه إنما نسى أى خلق الله فيه النسيان، وليس فعلاً له، وهذا مما قال المصنف، رحمه الله تعالى: إنه اخترعه، وهو ضعيف، فإنه فعله بلا شبهة، وإن كان بخلق الله.

الرابع: أنه إخبار عما فى ظنه واعتقاده، وكأنه قال: كل ذلك لم يكن فى ظنى، ولو قال ذلك، لم يكن فيه خلف وكذب، والمنوى والمقدر كالمذكور كما لو حلف على شيء يعتقده وهو غير واقع، يكون يمينه لاغية كما ذهب إليه بعض الفقهاء، وأنه ليس مما كسبت القلوب، وهذا ليس مبنيًا على أن الصدق والكذب باعتبار مطابقة الواقع وعدمها مما يخالف مذهب الجمهور، فإن ظنه ذلك واقع والنفى منصب على القيد، فكل ذلك لم يكن لنفى القصر والعلم بالنسيان، وهو صحيح واقع، وكل ذلك روى كما قاله التلمسانى بالرفع والنصب، وعليه بنى أنه لشمول النفى، أو لنفى الشمول كما فصله أهل المعانى فى قوله:

قد أصبحت أم الخيار تدعى ... على ذنبًا كله لم أصنع

وهذا المبحث مع طوله شهرته تغنى عن ذكره، فإن أردته فانظر إلى المطول وحواشيه.

(**وفى الرواية الأخرى**) لهذا الحديث (**ما قصرت**)، أى الصلاة، بالبناء للمفعول، (**وما نسيت... الحديث بقصته**)، وفى رواية: لم أنس ولم تقصر، (**فأخبره**)، أى أخبر، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذا اليدين السائل له، (**بنفى الحالتين**)، يعنى النسيان والقصر فى الروايات كلها، (**وأنها**)، أى كل حالة منهما، (**لم تكن**) واقعة منه، فأفرد الضمير المؤنث لتأويله باسم الإشارة، وفى نسخة: وإنهما لم يكونا، (و) الحال أنه (**قد كان أحد ذلك**) المذكور، وفى اسم الإشارة تنبيه على ما قلناه، (**كما قال له**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذو اليدين، (**قد كان بعض ذلك يا رسول الله**)، وهذا بيان لمحل الشبهة لوقوع الخلف فى قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «كل ذلك لم يكن»، كما بيناه آنفًا.

وفى قوله: بعض ذلك إشارة إلى نقيض القضية الأولى التى هى سالبة كلية بالموجبة الجزئية، وليس هذا محله كالكلام على تقدم كل على النفى، وتأخرها عنه، كقول المتنبى:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

وقد أطال الكلام فيه فى الشرح الجديد، وقد تركنا الإطالة خوف الملالة.

(**فاعلم وفقنا الله وإياك**)، جملة دعائية معترضة، (**أن للعلماء**) من المحدثين والفقهاء، (**فى ذلك**) السهو الذى وقع له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى هذه القضية، (**أجوبة**

بعضها بصدد الإنصاف)، الصدد معناه القرب هنا، أى قريب من الإنصاف، يقال: داره صدد دارى، أى فى مقابلتها ومقاربتها، فهو ظرف متصرف، والباء بمعنى فى، والإنصاف العدل والاستقامة فى الأمور، **(ومنها)**، أى بعض الأجوبة، **(ما هو بينة التعسف والاعتساف)**، روى بنون وتحتية مشددة، وهى تكون بمعنى القصد، وعقد القلب، وبمعنى الجهة التى يذهب فيها، وبمعنى البعد كالنوى كما فى القاموس وغيره من كتب اللغة، وهما شائعان فى الاستعمال، وروى بمثناة فوقية من تاه يتيه، إذا ضل عن الطريق، ويكون بمعنى الأرض الواسعة التى يضل سالكها كتيه بنى إسرائيل.

والتعسف والاعتساف، السير على غير الطريق والجور والظلم، هذا حقيقته لغة، فعلى الأول يصح أنه أريد به أنه قصد الجور والتقدير على من خالف من العلماء، والتعسف بمعنى أنه فى حاله ومقاله غير مستقيم، والاعتساف بمعنى حمل غيره على ذلك، فهو ضال مضل، فلا تكرار فيه لأجل السجع كما قيل، والأحسن أن يقال: إنه استعارة تمثيلية بتشبيه مسلكه فيما قاله بمن دخل مسافة ضل فيها لكونها حزنًا بعيد لم يهتد لطريقه، وكذا على الثانى التيه بمعنى القفر الواسع، أو الضلال، وتفسيره بالتكبر بعيد بمراحل عن مقصده، فتأمل.

(وها أنا أقول)، شروع فى بسط ما يرتضيه عدولها عن طريق من تعسف، وها للتنبيه وما بعده مبتدأ وخبر، والفصيح أن تدخل ها على اسم الإشارة أو على ضمير خبره اسم إشارة، نحو هذا وها أنا ذا، وهذا أيضًا مسموع كما فى شرح التسهيل، **(أما على القول بتجويز الوهم)**، تقدم أنه بفتح الهاء، وجوزنا سكونها مع تفسيره بما مر، **(والغلط)**، أى الخطأ عمدًا؛ لعدم علمه بالصواب، ويقال فى الحساب: غلت، بمثناة، وقيل: إنها لغة، والفرق بينه وبين النسيان والسهو ظاهر، **(فيما ليس طريقه)**، معناه معروف مستعار هنا لنوعه وجنسه، **(من القول)**، لا من قبيل الأفعال، فإنها ليست محل الخلاف هنا، ومن بيانية مقدمة من تأخير، **(البلاغ)**، خبر ليس، أى لا يتعلق به حكم أو وحى أو خبر عن أمر المعاد، **(وهو)**، أى هذا القول **(الذى زيفناه)**، أى رددناه ولم نرضه مستعار من النقد الزائف المغشوش الذى أبطل السلطان التعامل به، **(من القولين)** المذكورين سابقًا، وهذا اعتراض بين.

أما وجوبها تذكيرًا بما تقدم، **(فلا أعترض)** على ما تقرر فى عصمة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(بهذا الحديث)** المذكور فى قصة ذى اليدين، **(وشبهه)** مما روى فيه عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيه سهو ونسيان ونحوه؛ لتجويزه على الأنبياء عند صاحب هذا القول الذى يقول: إنه لا يمنع فيما ليس طريقه البلاغ.

(وأما على مذهب من يمنع السهو والنسيان فى أفعاله) دون أقواله كغيره من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(جملة)**، أى جميعًا، وقد استعمله بهذا المعنى كثيرًا، وهذا القول ذهب إليه كثير من مشايخ الصوفية، وبعض المتكلمين، وخصه بعضهم بنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ويرى)**، أى يعتقده رأيًا، **(أنه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى مثل هذا عامد)**، وقاصد لكل ما يفعله **(لصورة النسيان)**، فيأتى به على وجه العمد ذاكرًا له موهما لغيره أنه ناس، **(ليسن)**، أى ليعلم الناس سنته فى السهو، كالسجود له ونحوه من الأحكام، وكان حقه أن يذكره لهم ليعلمهم، لكن البيان بالفعل أظهر.

وفى شرح مسلم شذت طائفة من الباطنية وأرباب القلوب، فقالوا: لا يجوز النسيان عليه، وإنما نسى قصدًا، أى أتى بما هو فى صورة النسيان ليبين حكمه. وقال المحقق أبو إسحاق الإسفرائنى: هذا منحنى غير سديد، وجمع الضد مع الضد مستحيل، والأول هو الصحيح، فإن السهو فى الأفعال غير مناقض للنبوة، ولا قادح فيها بخلاف الأقوال فى البلاغ. انتهى.

(فهو) على هذا القول **(صادق فى خبره)**، أى قوله: لم أنس ولم تقصر ونحوه؛ **(لأنه لم ينس ولا قصرت)** الصلاة، **(ولكنه على هذا القول)** بقصده لصورة النسيان ذاكرًا له، **(تعمد هذا الفعل)**، أى سلامه مقتصرًا على ركعتين، **(فى هذه الصورة)**، أى صورة الناسى، **(ليسنه)**، أى يجعله سنة، **(لمن اعتراه)**، أى عرض له ووقع منه، **(مثله)**، أى مثل هذا الفعل تأسيًا من أمته ليقتدوا بأفعاله، **(وهو قول مرغوب عنه)**، أى متروك؛ لبعده وضعفه عنده، وفى الحواشى التلمسانية عن ابن سيدى الحسن، قال: سمعت أبى رحمه الله تعالى يقول عن شيوخه: السهو فى الصلاة يكون عن معصية سبقت منه، ولذا صين عنه نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد بين وجه كونه مرغوبًا عنه كما أشار إليه بقوله: **(نذكره فى موضعه)** من هذا الكتاب.

وقد قال العلامة العلائى: إن هذا القول خطأ؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أخبر عن نفسه بوقوع النسيان منه فى حديث ابن مسعود المتفق عليه: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون»[1]، وأيضًا لو كان هذا عمدًا أبطل الصلاة، ولا يعلم العمد فى صورة النسيان، إلا إذا بينه بالقول، ولم ينقل عنه ذلك.

(وأما على) القول بـ **(إحالة السهو عليه فى الأقوال)** الصادرة عنه، والمراد بالإحالة المنع، كما يدل عليه مقابلته بالتجويز فى قوله: **(وتجويز السهو عليه فيما ليس طريقه**

(١) تقدم تخريجه.

القول) من الأعمال، كسهوه فى الصلاة، **(كما سنذكره، ففيه أجوبة، منها)**، أى من الأجوبة عن قول القائل على هذا القول، أنك قلت: إنه لا يقع منه صلى الله تعالى عليه وسلم سهو فى الأقوال، وقد وقع منه ذلك فى قوله: «كل ذلك لم يكن»، مع أنه كان بعضه كما تقدم، فأجاب عنه بقوله: **(أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أخبر)** بقوله: «كل ذلك لم يكن»، **(عن اعتقاده وضميره)**، أى ما أضمره فى نفسه، وقدره فى كلامه من هذا القيد.

(أما إنكاره)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(القصر)**، أى أن الصلاة الرباعية نسخ كونها رباعية فى الحضر، فصارت ركعتين، ولذا سلم منهما، **(فحق وصدق)**، لا شك فيه ولا شبهة، **(ظاهرًا وباطنًا)**، أى إنكاره، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك وقع منه ظاهرًا؛ لتصريحه به وباطنًا؛ لاعتقاده له، إذ لم يوح إليه خلافه. ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ**﴾ [النجم: ٣].

(وأما النسيان)، أى إنكاره صدوره منه فى فعله، مع وقوعه منه، ولا يخبر بخلاف الواقع عمدًا، **(فأخبر، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن اعتقاده)**، ظنًا منه لذلك، والاعتقاد يطلق على اليقين، والظن الراجح عنده، فقوله له: لم أنس، المراد به **(وأنه لم ينس فى ظنه، فكأنه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قصد الخبر بهذا عن ظنه، وإن لم ينطق به)**، ولم يقل: فى اعتقادى وظنى، لكنه لإرادته وتقديره فى كلامه وإضماره فى نفسه، كأنه كالملفوظ به المذكور صريحًا؛ لأن المقدر كالصريح به، فيكون كلامه هذا حقًا، **(وهذا صدق)** مطابق للواقع؛ لأنه فى نفس الأمر لم يظن أنه نسى، ولم يخطر ذلك بباله، **(أيضًا)**، أى كما أن القصر كذلك، أو كما أن المنطوق به صدق، فلا يتوهم أن كونه صدقًا، مبنى على أن الخبر الصادق ما طابق الاعتقاد، والجمهور على خلافه.

فإن قلت: فما بال ذى اليدين رد هذا بقوله: بل كان بعض ذلك، وهو لم يكن فى ظنه واعتقاده؟.

قلت: لم يرد ذو اليدين تكذيبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنما أراد تنبيهه على أن ظنه غير مطابق للواقع؛ لأنه أمر شرعى لا تسامح فيه، فلما قال له ذلك، شك، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى أمره، وسأل من عنده من الصحابة، فصدقوا ذا اليدين على ما قاله، فكأنهم لم يسبقوا ذا اليدين بذلك مهابة له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولذا شك فى أمره؛ لأنهم سكتوا عن أمر لا يخفى عليهم، وفيهم مثل أبى بكر، وعمر، رضى الله تعالى عنهما، والظاهر أن القول الأول مبنى على عدم وقوعه فى الأقوال البلاغة والأفعال

أيضًا، وخص الثانى بالذكر؛ لأنه محل الخلاف، وقد وقع لبعضهم هنا خبط أعرضنا عنه لركاكته.

(ووجه ثان) فى الجواب عما ذكر على هذا القول، وهو **(أن قوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى هذا الحديث على إحدى الروايات كما تقدم، **(ولم أنس، راجع إلى السلام)** من الصلاة والاقتصار على ركعتين أو ثلاث منها، **(أى إنى سلمت قصدًا)** لنفس السلام، فليس سبق لسان منى، **(وسهوت عن العدد)**، أى عدد الركعات، فتوهمت أنى أتممتها، **(أى لم أسه فى نفس السلام)**، لظنى أنى أكملتها أربعًا، والمقصود من هذا دفع الخلف عما قاله.

(وهذا) التأويل **(محتمل)** بصيغة المفعول، أى يجوز حمل الحديث عليه لما ذكرناه، **(و)** لكنه **(فيه بعد)**؛ لأنه خلاف الظاهر، وقول ذى اليدين له: بلى نسيت، كما تقدم فى بعض الروايات مبعد له لا مناف ولا حاجة لأن يقال: إن ذا اليدين لم يفهم مراده، وكذا قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، للصحابة: أحق ما يقوله ذو اليدين، وقد قيل: إنه يأباه قرينة الحال والمقال، وهو الذى عناه المصنف، رحمه الله تعالى.

(ووجه ثالث، وهو أبعدها)، أى الأجوبة، **(ما ذهب إليه بعضهم، وإن احتمله اللفظ)**، أى لفظ الحديث، وبينه بقوله: **(من قوله: كل ذلك لم يكن، أى لم يجتمع القصر والنسيان)**، فى الانتفاء بأن ينتفيا معًا، **(بل كان أحدهما)**، وهو النسيان؛ لأن النفى قد يكون لنفى المجموع، وقد يكون لنفى واحد لا على التعيين، **(ومفهوم اللفظ خلافه)**، أى مخالف لهذا الجواب، ويؤيده ما فى بعض الروايات، كما أشار إليه بقوله: **(مع الرواية الأخرى الصحيحة)**، فى هذا الحديث، **(وهو قوله: ما قصرت الصلاة وما نسيت)**، فإن عادة النفى تقتضى أن كل واحد منهما منفى لا أحدهما فقط، يعنى أن محصل هذا الجواب أن كل محمولة على الكل المجموعى نحو كل الرجال، يحمل هذه الصخرة العظيمة، وهذا وإن كان صحيحًا، لكنه خلاف المتبادر، لاسيما فى النفى، وسياق الحديث يأباه، وكذا قول ذى اليدين، بل كان بعض ذلك، فإن الموجبة الجزئية إنما تنافى السالبة كما فصلوه فى كتب المعانى والأصول، وكذا ينافيه ما فى الرواية التى ذكرها.

(هذا) المذكور من الأجوبة هو **(ما رأيت فيه)**، أى فى الحديث الذى تقدم بيانه رأيته مذكورًا **(لأئمتنا)**، أى المحدثين والفقهاء، **(وكل من هذه الوجوه)** التى ذكرها **(محتمل للفظ)**، يعنى لفظ الحديث **(على بعد بعضها)** فى الواقع، وسياق الحديث، **(وتعسف الآخر منها)**، بفتح الخاء، أى تكلفه وبعده عن الطريق المستقيم.

(قال القاضى أبو الفضل) عياض مصنف هذا الكتاب، رحمه الله تعالى: **(والذى أقول)** فى الجواب عنه، **(ويظهر لى أنه أقرب)** إلى الصواب، **(من هذه الوجوه)** المذكورة، **(كلها أن قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: لم أنس)** فى الحديث، **(إنكار للفظ الذى نفاه عن نفسه)** بقوله: لم أنس، بصيغة المتكلم، **(وأنكره على غيره)**، يعنى كل أحد من أمته، **(بقوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بئس ما لأحدكم)** معاشر الملة والمسلمين، أى ليس يستقيم لكل أحد من المسلمين، **(أن يقول: نسيت آية كذا وكذا)**، كناية عن بعض الآيات القرآنية، **(ولكنه نسى)**، مبنى للمجهول مشددة السين، أى أنساه الله؛ لأنه فعل الله لا فعله، فلا ينبغى إضافته له مع ما فيه من الأشعار بتهاونه بالقرآن بمباشرة أسبابه المقتضية لذلك.

وقيل: معنى نسى أنه نسخت تلاوته لحكمه، فيكون مخصوصًا بزمانه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فنهاهم عن ذلك؛ لئلا يتوهم الضياع لحكم القرآن، وبئس من أفعال الذم أصلها، بئس بمعنى أصابه البؤس، ثم نقلت بغير لفظها ومعناها، وفى ما الواقعة بعدها أقوال، **فقيل:** إنها تامة، **وقيل:** موصولة، **وقيل:** نكرة فى محل نصب تميز كما فصله النحاة، ونسى مشدد كما مر، وروى بالتخفيف فى مسلم.

وقال المصنف: كان الوقشى لا يجيز فيه إلا التخفيف، والتقيل هو الذى وقع فى جميع روايات البخارى، وكذا هو مروى، وعليه أبو عبيدة، وفى النهاية أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كره نسبة النسيان إلى النفس؛ لأن الله تعالى هو الفاعل الحقيقى، ولأن النسيان معناه الترك فكره أن يقول الإنسان تركت القرآن لإشعاره بالتهاون به، وعلى رواية بالتخفيف معنها أنه ترك وحرم الخير، انتهى.

فأراد إرشادهم إلى نسبة الأفعال لخالقها وإقرارهم بالعبودية والاستسلام، وهو أدب أولوى لا يمنع نسبتها لمكتسبها، كما قال موسى ويوشع، عليهما الصلاة والسلام: نسيت الحوت، وقد ينسب للشيطان؛ لأنه بوسوسته نحو ما أنسانيه إلا الشيطان، ونسيان القرآن غير محمود؛ لأنه غفلة عنه وتفريط فيه لا ينبغى، قيل: ويحتمل أن يكون فاعل نسيت، النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، والمعنى لا يقل أحد عنى أنى نسيت آية كذا، فإنه تعالى نسخها لحكمة كما مر.

وهذا الحديث رواه الشيخان وغيرهما، وبما ذكرناه سقط ما قيل: إن هذا الجواب الذى ارتضاه يرده قوله تعالى: (﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]؛ **لأنه لو كان أدبًا)**، علمه الله تعالى له؛ لأنه هنا اللائق وإضافته له لنكتة لم يتفطن بها، وقيل: إنه

مخصوص بالقرآن؛ لأنه هو الذى علمه له، فيكون هو الذى أنساه أيضًا، فتأمل.

(**وبقوله فى بعض روايات الأحاديث**)، كما فى موطأ مالك: (**لست أنسى**) بصيغة المتكلم المعلوم المخفف، (**ولكنى أنسى**)، بالمجهول المشددة، أى ينسينى الله لحكمة كالتشريع وتعليم الأمة، (**فلما قال له السائل**)، أى ذو اليدين: (**أقصرت الصلاة أم نسيت**) يا رسول الله، (**أنكر قصرها كما كان**)، أى تحقق فى الواقع حقيقة.

(**و**) أنكر أيضًا (**نسيانه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، لبعضها والمنكر من نسيانه، (**هو**) ما كان (**من قبيل نفسه**)، وفى نسخة: قبل، أى أنه فعل ذلك بكسبه وتعاطى أسبابه من غير إيجاد الله تعالى له فيه، وخلقه لما لم يكن فى جبلته كغيره، (**وأنه إن كان جرى شىء من ذلك**) النسيان (**فقد نسى**)، بالمجهول وتشديد السين، أى أوجده الله تعالى فيه من غير تعاط لأسبابه، (**حتى سأل**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**غيره**) من الصحابة الحاضرين عنده، (**عنه**) بقوله: أحق ما يقوله ذو اليدين؟ فقالوا: نعم، وهذا غاية بأنه لم يعلم نسيانه لأنه لم يقصر فى ذكر الله وطاعته، فلهذا استبعد صدور مثله عنه.

فإن قلت: إذا نساه الله تعالى، فلابد أن ينسى؛ لأنه يطاوعه الذى لا ينفك عنه، ولازمه الذى لا يفارقه.

قلت: اللازم وقوع نسيان أوجده الله تعالى فيه لحكمة لا ما صدر بتعاطى أسبابه وتقصيره كغيره.

(**فتحقق أنه نسى**) بزنة علم، أى أنساه الله، فنسى لحكمة (**وأجرى**) الله (**عليه ذلك**) النسيان (**ليسن**)، أى ليعلم أمته أحكام السهو كالسجود ونحوه، (**فقوله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**على هذا:**) التوجيه الذى استظهره، (**لم أنس ولم تقصر، و**) قوله فى رواية أخرى: (**كل ذلك لم يكن حق**)، مطابق للواقع محقق، (**وصدق**) لا ظن فيه كما توهم ومعناه، (**لم تقصر**) الصلاة حقيقة فى نفس الأمر، (**ولم أنس حقيقة**)، أى نسيانًا صدر منى صدورًا حقيقيًا، وأنا الفاعل له صورة، وإنما الفاعل له حقيقة هو الله، وأنا آلة له نسبته إلىّ كنسبة القطع للسكين، كما هو مذهب الأشعرى فى أفعال العباد المضافة لهم، وهذا لا ينافى كونه حقيقة لغوية كمات زيد، (**ولكنه نسى**)، بالبناء للمجهول والتشديد.

(**ووجه آخر**) فى الجواب عما فى هذا الحديث، (**استثرته**)، بسين مهملة ومثناة فوقية ومثلثة وراء مهملة، وأصله استثورته، ومنه: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ [العاديات: ٤]، وهو من ثار الغبار يثور، إذا انتشر وعلا، فشبهه لخفائه بشىء مدفون نبش التراب عنه حتى ظهر له، أى استخرجته بفهمى وولدته، (**من كلام بعض المشايخ**)، وإن لم يصرحوا به،

وينصوا عليه، وهو مبنى على الفرق بين السهو والنسيان.

(**وذلك**) الوجه المستخرج (**أنه**)، أى بعض المشايخ، (**قال: إن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يسهو ولا ينسى**)؛ لأن السهو ما يقع بأدنى غفلة ويتنبه له بأدنى تنبيه، والنسيان ما يزول عن الحافظة بالكلية حتى يحتاج لتذكير كثير، (**ولذلك نفى عن نفسه النسيان**)، إذ قال: لم أنس، (**قال: لأن النسيان غفلة وآفة**)، أى كالمرض الذى يعرض له، ولذا عده الأطباء من الأمراض الدماغية المحتاجة للعلاج، (**والسهو إنما هو شغل بال**)، أى يحصل عندما يعرض من شغل البال بأموره والنظر لغيره، بحيث يتنبه له سريعًا.

(**قال: فكان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يسهو فى صلاته**)، كما وقع له مرارًا؛ لمراقبته لربه وتوجهه له، (**ولا يغفل**)، بضم الفاء، (**عنها**)، أى عن صلاته؛ لتنزيهه عن أن يستولى على قلبه الشريف ما يلهيه عن عبادته، (**وإنما كان يشغله عن حركات الصلاة**) فى السجود والركوع، (**ما فى الصلاة**) من قرة عينه بمشاهدة تجليات ربه وتدبر آياته، (**شغلاً بها لا غفلة عنها**) بغيرها، فلذا كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يسهو ولا ينسى.

فهذا المذكور (**إن تحقق**) وتصور حقيقة، (**على هذا**) الوجه و(**المعنى**) الذى قرره، (**لم يكن فى قوله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**ما قصرت الصلاة وما نسيت**) فى الحديث، (**خلف فى قول**) صدر منه حين سُئل عنه، وقد تقدم أن هذا مخالف لما روى من قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنى أنسى كما تنسون»، وإن الفرق بينهما لغة فيه شىء يعلم مما تقدم.

(**ووجه آخر**)، وفى نسخة: وعندى أن فى الجواب وجه آخر، وهو (**أن قوله**)، عليه الصلاة والسلام: (**ما قصرت الصلاة وما نسيت، بمعنى الترك، وهو أحد وجهى النسيان**)، أى أحد معنييه الواردين فى كلام الله وغيره كما إذا أسند إلى الله تعالى، وهو مجاز مشهور ملحق بالحقيقة، (**أراد**)، وفى نسخة: أراد والله أعلم، على هذا التقدير، (**إنى لم أسلم من ركعتين تاركًا كمال الصلاة**) عن قصد، (**ولكنى نسيت**)، أى سهوت عن إتمامها، والمنفى فى كلامه الترك عمدًا، وهو لا ينافى السهو والنسيان.

(**ولم يكن ذلك**)، أى ترك الإتمام (**من تلقاء نفسى**)، أى من عند نفسه وقصدها له، (**والدليل على**) صحة (**ذلك قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الحديث**) الآخر (**الصحيح: إنى لا أنسى**)، أى أترك قصدًا، (**أو أنسى**) من غير قصد، بل بإرادة الله تعالى وإيجاده فى ذلك لحكمة أشار إليها بقوله: (**لأسن**)، تقدم تفسيره، وهذا مبنى على أحد التفسيرين فى هذا الحديث، وقد تقدم فيه وجه آخر هو أقرب من هذا، والمراد به أسهو

بما تعاطيت أسبابه من الأشغال أو بدونه؛ لحكمة ربانية.

وبقى فى هذا الحديث أمور أخر مما يتعلق بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقع منه أفعال وكلام فى أثناء صلاته قبل إتمامها، ومثله يبطل الصلاة، والكلام فيه طويل الذيل أفرده الحافظ العلائى بتأليف نفيس، ولما لم يتعرض المصنف، رحمه الله تعالى، لذكر الحديث بتمامه أضربنا عنه صفحًا، فإن أردته فخذه من معدنه، ولصعوبة الكلام فى هذا المقام ختمه فى بعض النسخ بقوله: **(والله الموفق للصواب)**، أى المقدر على إدراكه والقيام به، وهو الحكم المطابق للواقع، فيرزقنى موافقة ما هو الواقع من ذلك، والتوفيق خلق القدرة على الطاعة المقارنة لها، وتقدم الكلام عليه فى الخطبة.

(وأما قصة كلمات إبراهيم) الخليل، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، الواردة على ما قدمه من أن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام لا يصدر عنهم خلف فى أقوالهم، وينافيه ما فى هذه القصة عن أجل الأنبياء بعد نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(الواردة)**، وفى نسخة: المذكورة، **(فى الحديث)** الصحيح الذى رواه الشيخان، عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «إنه لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات...»(١) إلى آخره.

وإليه أشار المصنف، رحمه الله تعالى بقوله: **(المذكورة أنها كذباته)**، بفتح الهمزة بدل من قصة أو معمولة للمذكورة، وكذباته بفتح الكاف والذال المعجمة، جمع كذبة بسكونها؛ لأن عين فعلة اسمًا تحرك فى الجمع، كتمرة وتمرات، وركعة وركعات، إلا إذا كانت صفة أو مضاعفة أو معتلة العين، كضخمات وجوزات، كما فى المغرب، وقيل: إنه يقال بكسرها فى المفرد والجمع، فهى جمع كذبة، اسم جامد.

(الثلاث المنصوصة)، أى المذكورة صريحًا **(فى القرآن، منها)**، أى من تلك الكذبات، **(اثنتان فى قوله تعالى)** فى سورة الصافات: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٨، ٨٩]، كما سيأتى بيانه، **(و)** قوله تعالى فى سورة الأنبياء: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٢، ٦٣]، **(وقوله)** فى قصة إبراهيم، وهذه هى الثالثة الواردة فى الحديث **(للملك)**، بكسر اللام، أى سلطان زمانه، لما سأل إبراهيم، عليه السلام، وفى اسم هذا الملك اختلاف، فقيل: سنان، وقيل: عمرو، وقيل: صادون،

---

(١) أخرجه البخارى (٤/١٧١، ٧/٧)، ومسلم (٤/١٥٤/٢٣٧١)، وأحمد (٢/٤٠٣)، والترمذى (٣١٦٦)، والطبرى فى تفسيره (٢٣/٤٥).

وقيل: عمرو بن امرئ القيس ملك مصر، (**عن زوجته**) سارة، رضى الله عنها، حين أخذها لما وصف له جمالها وسأله عنها، فقال: (**إنها أختى**)، قاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، تقية خشية أن يقتله لو قال: إنها زوجتى، فنجاه الله منه كما سيأتى تفصيله.

ولما كان هذا واردًا على ما قرره من عصمة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، عن الكذب عمدًا وسهوًا، وأورده على سبيل السؤال، ثم أورد الجواب عنه مما سيأتى مفصلاً، وأورد على الحصر الوارد فى الحديث بقوله: «ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات»، أن ثمة رابع هو قوله فى الكوكب: هذا ربى.

وقد تعرض لهذا الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى، ولم يجب عنه بما يشفى الغليل، والذى يدفعه أن تقديره: أهذا ربى، على طريق الاستفهام التوبيخى، لإلزامهم بالحجة كما قرره المفسرون، وحاصل قصة سارة: أن جبارًا من الجبابرة قيل له: إن هنا رجلاً معه امرأة من أحسن النساء، فأرسل إليه وسأله عنها، فقال: هى أختى، ثم قال، صلى الله تعالى عليه وسلم، لها: إنه ليس على الأرض مؤمن غيرى وغيرك الآن، يعنى أنها أخوة الإسلام لا النسب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، كما يأتى بيان ذلك، فلما أتى بها له تناولها بيده، فشلت يده، فقال لها: ادعى الله لى ولا أضرك، فدعت له فأطلق، ثم فعل مثل ذلك ثانية وثالثة، فقال لهم: ما أتيتمونى إلا بشيطان.

وقوله: إنه سقيم؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان لا يأتى معهم فى أعيادهم لأصنامهم، فينظر لنجم طالع، فقال: هذا يطلع لسقمى، كما يأتى، وكانوا أهل فلاحة وزراعة ينظرون فى النجوم وأحكامها، وكان ذلك مما أوحاه الله لهم، فلما حبست الشمس ليوشع، عليه الصلاة والسلام، أبطله الله تعالى. وقال الضحاك: إنه بقى لزمن عيسى، عليه الصلاة والسلام، فدعى الله برفعه فرفع وحرم النظر فيه شرعًا، وفيه بحث، وكان إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، حاج عبدة الأصنام، فلما عجز عنهم كسرها وجعل فأسه فى عنق صنم أكبرها لم يكسره؛ ليلزمهم الحجة كما قصه الله تعالى فى كتابه الحجة وبينه المفسرون.

وقد علمت أن قوله: أختى، المراد به أخوة الإسلام، وأنه إنما قاله ليمتنع الملك من أخذها، أو لئلا يقتله؛ لأنهم كانوا لا يأخذون منكوحة الغير، أو كانوا يقتلونه، أو قال ذلك ليعلمه غيرته عليها، أو أراد أنها ليست جارية له فى ملك يمينه، فيطلب منه بيعها له، وقد علم أن الله طهر حرم الأنبياء عن الفواحش، فنزههم عما يأباه مقامهم، وقوله:

كلمات إبراهيم، دون كذبات، فيه أدب لطيف، وصرح به بعده اتباعًا للحديث وبيانًا لنشر السؤال.

(**فاعلم أكرمك الله**)، دعاء له بالإكرام؛ لإكرامه الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، بمعرفة علو مقاماتهم عما فيه شين لهم، (**أن هذه**) إشارة إلى كلمات إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، (**كلها خارجة عن الكذب**)؛ لأن الله تعالى عصمه عنه قبل النبوة وبعدها، (**لا فى القصد ولا فى غيره**) من السهو والنسيان لما مر، (**وهى**) أى الكلمات المذكورة، (**داخلة فى باب المعاريض**) جمع معراض، ويقال: معرض بكسر الميم وجمعه معارض، وهو من التعرض، وهو خلاف التصريح والتلويح نوع من الكتابة كالتورية بأن يتكلم بما يوهم خلاف مراده، كقوله: أختى، لمعنيين كما تقدم.

فإن قلت: قوله: أختى، أدعى لأخذ الملك لها بأن يقول له: زوجنيها، فلا وجه للعدول عن الظاهر.

قلت: نقل البرهان عن ابن الجوزى، رحمه الله تعالى، أنه عليه الصلاة والسلام، علم أنهم على دين المجوس، ومن دينهم أن الأخت إذا تزوجها أخوها كان أحق بها من غيره، فالتجأ لما يعتقده فى دينه، فإذا هو جبار لا يراعى دينه، وقد ارتضى هذا الجواب غيره، واعترض بأن المجوسية دين زرادشت، وهو بعد إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، وأجيب بأنه دين قديم، وإنما زرادشت أظهره، وزار فيه خرافات، فتأمل.

(**التى فيها مندوحة**)، أى فى المعاريض سعة يتخلص بها من الكذب، من ندح بمعنى توسع، ومندوحة بفتح الميم وضمها لحن. وفى كتاب لحن العوام للزبيدى: يقال له: عن هذا الأمر مندوحة ومنتدح، والمنتدح المكان الواسع، وهو الندح أيضًا، من انتدحت الغنم فى مراحها. وقال أبو عبيدة: المندوحة الفسحة والسعة، ومنه انداح بطنه، إذا انتفخ، واندحى لغة فيه، وهو غلط من أبى عبيدة؛ لأن نونه أصلية، وانداح انفعال نونه زائدة، واشتقاقه من الدوح وهو السعة. انتهى. أقول: تبعه فيه الجوهرى، وخطأه فيه صاحب القاموس.

(**عن الكذب**)، أى فى سعة القول ما يغنى عن تعمد الكذب، فهو صدق لا كذب فيه، وقد علمت أنه ضمنه معنى التخلص، ولذا عداه بعن، وفى الحديث: «إن فى معاريض الكلام مندوحة عن الكذب»، رواه البخارى فى الأدب المفرد مسندًا موقوفًا على عمران بن حصين، رضى الله عنه، وأخرجه الطبرانى والبيهقى من طريق آخر عن قتادة مرفوعًا، وحسنه العراقى، فلا عبرة بقول الصاغانى: إنه موضوع.

وإلى بيان هذا الحديث أشار المصنف، رحمه الله تعالى، بقوله: (**أما قوله**)، أى إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، فيما حكاه الله تعالى عنه، (﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، **فقال الحسن**)، أى الحسن البصرى الذى تقدمت ترجمته (**وغيره**) من العلماء فى الجواب عنه: (**معناه**) أنى (**سأسقم**) فى المستقبل، (**أى أن كل مخلوق معرض**)، اسم مفعول مشدد الراء، (**لذلك**)، أى للسقم والمرض، (**فاعتذر لقومه من الخروج معهم إلى**) محل (**عيدهم**)، أى ذكر عذرًا لهم فى عدم خروجه معهم لمحل اجتماعهم فى أعيادهم عند أصنامهم لما أرادوا خروجه معهم إليها، وفعيل بمعنى فاعل حقيقة فى الحال، ويجوز أن يراد به الاتصاف فى المستقبل مجازًا، والقرينة إنما يشترط لفهم المخاطب لا للخروج عن الكذب، إذا نواه، فإنه مصدق فيه شرعًا كما قيل.

وفيه بحث؛ لأن الفرق بين الكذب والمجاز إنما هو بالقرينة وعدمها، فما قاله يعود عليه بالضرر، والذى ينبغى أن يقال: إن سقيم ومريض ملحق بالأسماء الجوامد، كمؤمن وكافر، فلا يختص بزمان، فهو حقيقة فيما ذكر، وهو ظاهر كلام الكشاف، فإنه قال: من فى عنقه الموت سقيم، وفى المثل: كفى بالسلامة داء، وقال لبيد[1]:

ودعوت ربى بالسلامة جاهدًا   ليصحنى فإذا السلامة داء

ومات رجل فجأة، فقالوا: مات وهو صحيح، فقال أعرابى: أصحيح من الموت فى عنقه، ومنه أخذ المتنبى قوله:

قد استشفيت من داء بداء   فاقتل ما أعلك ما شفاكا

فلا يرد عليه ما قيل: إنه مجاز، والأصل الحقيقة، والذى غره قوله: معناه سأسقم.

(**هذا**)، أى الجواب أو الأمر هذا كما تقدم، وفى نسخة: بهذا، فهو متعلق باعتذر، (**وقيل**)، أى وقد قيل، فالجملة حالية بتقدير: قد بل، (**سقيم بما قدر على من الموت**)، يعنى أنه أراد بسقيم أنه حزين مشغول الفكر بعلمه من أنه لابد من الموت، والغم مرض من الأمراض القلبية، ومن كان كذلك لا يليق به أن يفرح بالأعياد، ولا يكون فى محال اللهو واللعب، ولذا ورد كما تقدم أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان متواصل الأحزان، وفى الحديث: «لو تعلم البهائم من الموت ما تعلمون، ما أكلتم منها سمينًا»، فورى عليه الصلاة والسلام، عما أراد بهذا.

---

(١) البيت من الكامل، وهو للنمر بن تولب فى ملحق ديوانه (ص٤٠٠)، وللبيد بن ربيعة فى نهاية الأرب (٣/٧٠)، ولعمرو بن قميئة فى ملحق ديوانه (ص٢٠٤)، زهر الآداب (١/٢٢٣)، ولبعض شعراء الجاهلية فى الكامل (١/٢٨٤).

(وقيل:) معناه **(إنى سقيم القلب)**، أى قلبى متألم، **(بما شاهدته)**، وفى نسخة: أشاهده، **(من كفركم وعنادكم)** فى الباطل وعدم قبول الحق، **(وقيل: بل كانت الحمى تأخذه)**، أى تعرض له، عليه الصلاة والسلام، وتستولى عليه حتى كأنها أخذته وأسرته، **(عند طلوع نجم معلوم)** له أو لهم، ولذا قال: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٨، ٨٩]، **(فلما رآه)**، أى رأى ذلك النجم طالعًا، **(اعتذر)** لهم بعدم حضور أعيادهم معهم، **(بعادته)** من السقم الذى يعرض له إذا طلع ذلك النجم، وهذا الجواب ذكره النووى أيضًا.

وقال ابن حجر: إنه بعيد؛ لأنه يكون حقيقة، وليس من المعاريض والتورية فى شىء، ورد بأن المعاريض أن يذكر ما يدل على معنى قريب ومعنى بعيد، فيراد البعيد ويوهم مخاطبه أنه أراد القريب، وهذا كذلك؛ لأن ظاهره أنه سقيم بالفعل حالاً، والمراد أنه فى زمان مرض وسقم لم يكن، والفرق بين هذا وبين الجواب الأول ظاهر لمن تدبر.

(وكل هذا) على ما ذكر من التأويل الذى صرفه عن ظاهره، **(ليس فيه كذب)** كما يتوهم من ظاهره، **(بل هو خبر صحيح صدق)**، أى صادق مطابق للواقع، وإنما سماه كذبًا فى الحديث، باعتبار ما يتبادر لذهن السامع من ظاهره لا حقيقة، فلا اعتراض عليه به.

(وقيل) فى الجواب: **(بل عرض)**، أى قاله بطريق التعريض والتورية، وراؤه مشددة من التعريض، **(بسقم حجته)**، أى ضعف دليله الذى أقامه **(عليهم)**، متعلق بحجته، بمعنى احتجاجه عليهم فى عبادة غير الله، **(وضعف ما أراد بيانه لهم)** من توحيد الله ونفى الشريك، بدليل عقلى أراد إقامته عليهم **(من جهة النجوم)**، لما رأى كوكبًا، فقال: هذا ربى، كما قصه الله تعالى عنه، **(التى كانوا يشتغلون بها)**، أى بعبادتها وتعظيمها وإسناد الأمور إليها، **(وأنه)**، أى إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، **(أثناء نظره فى ذلك)**، أى فى خلال نظره، وتقدم أنه جمع ثنى بمعنى مثنى، والنظر بمعنى التفكر والتأمل فيما يناظرهم به، **(وقبل استقامة حجته عليهم)**، أى إقامة دليل ملزم لهم، **(فى حال سقم ومرض حال)**، خبر أنه، فجعل سقم حجته لعدم فائدتها بمنزلة مرض نفسه وبدنه، يعنى أنهم كانوا ينسبون التأثيرات للنجوم ويعظمونها ويشتغلون بها؛ لعلمهم بالنجوم وأرصادها، فأراد إبطال اعتقادهم فيها، وأن حججهم واهية، فلم يقل ذلك لهم ابتداء، بل نسبه لنفسه تعريضًا بهم كما قال:

إياك أعنى فاسمعى يا جارة

وهذا أحسن فى إلزام الخصم وتعريفه على وجه لا يغضبه وهيج حميته لجاهليته، **(مع**

أنه)، أى الخليل، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لم يشك هو)**، أى لم يقع منه شك فى ربه، **(ولا ضعف إيمانه)** حتى يحتاج إلى الأدلة الضعيفة، **(ولكنه ضعف)** حاله **(فى استدلاله عليهم)**؛ لإبطال عبادتهم للنجوم والأوثان تبكيتًا لهم وزجرًا، **(وسقم نظره)**، أى ما ناظرهم به حتى لم تتم حجته التى أقامها عليهم، ثم بين صحة اتصاف الدليل بما ذكر لغة، فقال: **(يقال: حجة سقيمة)**، فتوصف بذلك مجازًا، **(ونظر)**، أى فكر ودليل **(معلول)**، أى ضعيف مدخول، وقيل: إن هذه العبارة ملحونة، وإن وقعت فى عبارة المحدثين، والصواب معل، والمعلول إنما هو من العلل، وهو الشرب مرة بعد أخرى، كقوله[1]:

كأنه منهل بالراح معلول

ورد بأنهم استغنوا بمفعول عن مفعل، كما قالوا: أحمد الله تعالى، فهو محمود، وقد صرح به سيبويه، وذكره فى المحكم، فقول ابن الصلاح والنووى إنه لحن مردود، وإن تبعهما بعض الشراح هنا، **(حتى ألهمه الله)**، وألقى فى نفسه ومن عليه، **(باستدلاله)** الباء سببية، **(وصحة حجته عليهم)**، أى احتجاجه **(بالكواكب والقمر والشمس)**، متعلق باستدلاله، **(ما نصه الله)**، مفعول ألهم، **(وقدمنا بيانه)**، وإيضاحه فى هذا الكتاب. والحاصل أنه لا يلزم من ضعف الدليل ضعف الإيمان، بل قد يثلج صدر ذى العقل السليم بيقين لا شبهة فيه عنده، وهو لا يقدر على إقامة دليل عليه.

(وأما قوله)، أى الخليل، عليه السلام، فى الأصنام التى كسرها وترك أكبرها وقد علق الفأس فى عنقه كما مر، وقال: ما فعلته (﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] **الآية)**، والحال أنه أى أن كبير الأصنام لم يفعل، ولا قدرة له على الفعل، فهو مخالف للواقع من جهتين، مع أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، معصوم فى أقواله، **(فإنه علق خبره)** الذى ذكره **(بشرط نطقه)**، فى قوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، فهو **(كأنه قال: إن كان ينطق فهو فعله)**، وإنما قاله مع علمه بعدم نطقه لغرضه، **(على طريق التبكيت لقومه)** عبدة الأصنام، فوبخهم بأنكم كيف تعبدون جمادًا لا ينطق ولا يقدر على شىء، فلو قدروا دفعوا عن أنفسهم، ففيه تجهيل لهم واستهزاء بهم؛

---

(١) عجز بيت وصدره:

تجلو غوارب ذى ظلم إذا ابتسمت

والبيت من البسيط، وهو لكعب بن زهير فى ديوانه (ص٢٢)، لسان العرب (٧/١٨٠) (عرض)، (١١/٤٦٨) (علل)، (١٢/٣٧٩) (ظلم)، تهذيب اللغة (١/٤٦٧)، أساس البلاغة (ظلم)، تاج العروس (١٨/٣٨٨).

لتعظيمهم ما لا يضر ولا ينفع، وذكر الكواكب هنا لا وجه له.

(**وهذا صدق**)، أى خبر صادق، (**أيضًا**)، كمل صدق ما قدمه، (**ولا خلف فيه**)، بضم الخاء وفتحها؛ لأن صدق الشرطية بمقدمها ومؤخرها على سبيل الفرض، وهو فرض محال بالإضافة، صحيح لا فرض محال بالتوصيف، وليس هذا مبنيًا على أن جملة الجواب جملة خبرية مقيدة بالشرط، والجملة المقيدة بقيد صدقها وكذبها بتحقق القيد وعدمه، كما هو مسلك أهل العربية وأهل الميزان على خلافه؛ لأن الشرطية بمجموعها قضية فى قوة الحملية، والخبر عند مجموع الشرط وجوابه كما قيل، فإن هذا بناء على ما قاله السيد فى حواشى المطول وغيره، فإن الحق ما قاله السيد، وإنه لا خلاف بين النحاة والمنطقيين فى هذه المسألة، فإن مآلهما واحد كما حققه المدقق فتح الله فى حواشى التهذيب، وليس هذا محله، إلا أنه يقتضى أن قوله: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾، جواب الشرط أو دال عليه، فهو فى معناه، وقوله: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾، جملة معترضة مصدرة بالفاء كما فى قوله(1):

واعلم فعلم المرء ينفعه أن سوف يأتى كل ما قُدِرَا

وقد يقال: إنه بيان لما يفيده الكلام من غير نظر لما ذكر، وهو الظاهر، يعنى أن قصده بنسبة الفعل الصادر منه لكبيرهم الاستهزاء والتهكم بهم لتبليغ ما قصده من إلزامهم الحجة برجوعهم إلى أنفسهم ونظرهم لما هم عليه من الباطل الذى لا يقبله عقل سقيم، فضلاً عن عقل سليم، وفى الآية وجوه هذا أولاها وأحسنها، ولذا اقتصر عليه المصنف، رحمه الله تعالى، فإن أردت الوقوف عليها فانظر فى الكشاف وشروحه.

(**وأما قوله**)، أى الخليل، عليه السلام، للجبار الذى أراد أخذ زوجته حين سأله عنها، فقال: هذه (**أختى**)، لإرادة أن يخلصها منه، وليس هذا بكذب، (**فقد بين**)، بالبناء للمفعول (**فى الحديث**) الذى رواه الشيخان، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أنه لا كذب فيه، (**وقال: فإنك أختى فى الإسلام**)، والدين الحق الذى كانا عليه، (**فهو**)، على هذا (**صدق**)، أى كلام صادق حق، والإخوة تطلق على المشاركة فى الصفات مجازًا مرسلاً أو استعارة من المشاركة فى النسب.

(**والله تعالى يقول**) فى القرآن: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠]، وهذا يدل

---

(١) البيت من الكامل، وهو بلا نسبة فى الدرر (٤/٣٠)، شرح شواهد المغنى (٢/٨٢٨)، شرح ابن عقيل (ص١٩٥)، معاهد التنصيص (١/٣٧٧)، مغنى اللبيب (٢/٣٩٨)، المقاصد النحوية (٢/٣١٣)، همع الهوامع (١/٢٤٨).

على صحة إطلاقه وحسنه، أى إخوة فى الدين، وفى الحديث: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله»، وهو قد شاع، حتى قيل: إنه حقيقة عرفية، وقد تقدم تتمة لهذا.

(فإن قلت:) إنه على هذا ليس فيه شىء من الكذب، **(فهذا النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قد سماها)**، أى أطلق عليها أنها، **(كذبات، وقال: لم يكذب إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، إلا ثلاث كذبات)**، وفى مسلم: «اثنتين فى ذات الله، وواحدة فى شأن سارة...» الحديث. قال القرطبى: ذات الله، وجوده المنزه عما يليق به، وفيه دليل على جواز إطلاق الذات على وجوده المقدس، فلا يلتفت لمن أنكره من المتقدمين فتأمله. ثم قال: وروى أنها أربع، والرابعة قوله للكواكب: هذا ربى، وإنما لم يعدها؛ لأنه كان فى حال الطفولية وعدم التكليف. انتهى. وتقدم الكلام فيه، وهذا ينافى ما قررته وبينته.

(وقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى حديث الشفاعة)** للناس يوم القيامة، **(ويذكر كذباته)**، هو مقول القول يشير إلى ما فى حديث الصحيحين، عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، أنهم يأتون إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، ويقولون له: أنت نبى الله وخليله، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله ولا بعده مثله، وإنى قد كنت كذبت بثلاث كذبات، ويذكرهن، اذهبوا إلى غيرى... الحديث، فقد صرح الخليل نفسه، عليه الصلاة والسلام، بأن هذا وقع كذبًا منه، فيدل على خلاف ما قلته سابقًا.

وجواب الشرط قوله: **(فمعناه)**، أى معنى قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، **(إنه لم يتكلم بكلام صورته صورة الكذب، وإن كان حقًا فى الباطن)**، المراد به ما أخفاه وأضمره فى نفسه، أو المراد به ما خفى مما هو خلاف الظاهر، **(إلا هذه الكلمات)** المذكورة، وهى الثلاث المتقدمة، ثم أشار إلى الجواب عما وقع فى حديث الشفاعة، بقوله: **(ولما كان مفهوم ظاهرها)**، أى ظاهر الكلمات المذكورة قبل النظر لما قصد منها، **(خلاف باطنها)**، المقصود منها فإنه صدق، كما بيناه سابقًا، **(أشفق)**، أى خاف، **(إبراهيم)** صلوات الله وسلامه عليه، **(من مؤاخذته بها)**، وفى نسخة: بمؤاخذته بها، أى المعاتبة أو المعاقبة عليها أورد شفاعته بسببها؛ لأنه كان عليه أن يصدع بالحق صريحًا من غير تورية وتعريض، يقال: أشفق وشفق، إذا خاف.

والحاصل أنه لم يصدر عنه كذب، وإنما سمى كذبًا باعتبار ظاهر العبارة قبل التأمل فيها من سامعها، وإنما خاف إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، ذلك لجلالة قدره، لا لأنها معصية صدرت منه، وكان ذلك فى أول أمره وشدة خوفه فى حالة يجوز فيها الكذب، فضلاً عن التعريض الذى هو من حسنات الأبرار.

(**وكذلك**)، أى مثل ما صدر عن الخليل ما وقع لنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو (**الحديث**) الذى رواه الشيخان، عن كعب بن مالك، رضى الله تعالى عنه، وفى نسخ: وأما الحديث، فهو أنه (**كان، صلى الله تعالى عليه وسلم**) عادته (**إذا أراد غزوة**)، أى سفرًا لغزوة معينة، (**ورى بغيرها**) عنها، والتورية أن يقول ما يظهر منه خلاف مراده، ويحتمله احتمالاً بعيدًا، فكأنه جعل ما قصده وراء ما أبداه، فكان يسأل عن طريق وناحية ويذهب لغيرها، (**فليس فيه**)، أى فيما فعله وقاله، (**خلف فى القول**)، أى ليس فى قوله ذلك كذب فى قوله، (**إنما هو ستر**) وإخفاء (**لمقصده**)، أى لما قصده وتوجه إليه، (**لئلا يأخذ عدوه حذره**)، أى لئلا يتأهب لدفع ما يحذره بأن يستعد له ويحضر له ما يهمه.

وأخذ الحذر عبارة عما ذكر، كما بين فى قوله تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، وفيه من البلاغة ما لا يخفى، (**وكتم وجه ذهابه**)، أى جهة مقصده، وهو عطف على قوله: ورى، وبين التورية والكتم بقوله: (**بذكر السؤال عن موضع آخر**)، غير الذى قصده، (**والبحث عن أخباره**)، أى أخبار الموضع الآخر، بالسؤال عن طريقه وحاله.

(**والتعريض بذكره**) له دون غيره، ليستر قصده به؛ لقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «استعينوا على قضاء الحوائج، أو حوائجكم، بالكتمان»، (**لا أنه يقول**) لأصحابه: (**تجهزوا إلى غزوة كذا**)، تصريحًا بالواقع أو بخلافه، وهو مراد له، (**أو**) يقول: (**وجهتنا إلى موضع كذا**)، أى توجهنا وقصدنا له، (**خلاف مقصده**)، بيان لكذا، (**فهذا**) القول كله (**لم يكن**)، أى لم يقع منه صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنما وقع منه التورية والتعريض دون تصريح به.

(**والأول**)، أى سؤاله عن غير مقصده، (**ليس فيه خبر**) بتوجهه له، ولا أمر لغيره بالتجهز له، (**يدخله الخلف**)، أى يعرض له كذب؛ لعدم مطابقته للواقع، وإنما هو تعريض وإبهام لغير مقصده، لا ضير فيه، والتجهيز التأهب، بإحضار جهازه ولوازمه، وقيل: معناه احتالوا، وهذا هو الأغلب من أحواله، وقد يقتضى الحال خلافه، كما ورد فى الصحيحين: لم يكن، صلى الله تعالى عليه وسلم، يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت غزوة تبوك فى حر شديد، إلى مكان بعيد، وعدو كثير، فجلا للمسلمين أمرها؛ ليتأهبوا بها، فأخبرهم بوجه الذى يريد، كما فى حديث طويل فيه خبر الثلاثة الذين تخلفوا، فهو باعتبار الأكثر فى أول أمره قبل قوة شوكة المسلمين، ولذا أخبرهم، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه سائر لمكة فى غزوة الفتح، فلا يرد الاعتراض على حديث:

«كان لا يريد غزوة إلا ورى بغيرها»، كما قيل، وقوله: «تجهزوا»، وإن كان إنشاء لا يتأتى فيه الخلف كما توهم؛ لأنه يتأتى فيه ذلك باعتبار ما تضمنه من الخبر؛ لأن قوله: تجهزوا لأرض كذا، معناه المراد منه أني سأغزو أهلها، وهو ظاهر.

ثم أورد سؤالاً على عصمة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، عن الكذب سهوًا وعمدًا، فقال: (**فإن قلت**) أيها السائل عما يتوهم عن شبهة ترد على ما قرره: (**فما معنى قول موسى**) الكليم صلى الله تعالى عليه وسلم، (**وقد سُئل**) أي سأله جماعة من أمته: (**أي الناس أعلم**) على وجه الأرض في هذا العصر، وهذا الحديث مروي في الصحيح، عن أبي سفيان، رضي الله تعالى عنه.

(**فقال**) موسى، عليه الصلاة والسلام، لمن سأله: (**أنا أعلم**) ممن على وجه الأرض جميعًا؛ لعلمه بأنه ليس عليها من الرسل، عليهم الصلاة والسلام، من هو مثله، وفي البخاري بلفظ: هل في الأرض أعلم منك؟ وفي رواية ابن إسحاق، فقال موسى: ما أعلم في الأرض خيرًا مني، قيل: وبين الروايتين فرق؛ لأن في رواية أبي سفيان الجزم بأنه أعلم، وتلك تنفي الأعلمية عن غيره، فبقي احتمال المساواة، يعني بحسب الظاهر، وإلا فقد علمت أنه يفيد نفي المساواة كما مر، فتدبر.

وأما ما رواه نوف البكالي، عن كعب الأحبار، أن موسى المذكور في هذه القصة ليس هو الكليم الذي هو من أولي العزم، بل موسى بن ميشا بن أفرائيم بن يوسف، فقد قيل: إن ابن عباس، رضي الله عنهما، رده وقال لما سمعه: كذب عدو الله، ويأتي فيه كلام عن الكشاف وغيره، وإنما قال ذلك؛ لأن كعبًا تلقاه عن أهل الكتاب، وهم أعداء الله؛ لكفرهم، أو هو استعارة؛ لأنه كذب كقولهم: قاتله الله، (**فعتب الله عليه**)، ولامه بسبب (**ذلك**)، أي قوله: أنا أعلم، (**إذ لم يرد العلم**) لذلك، أعني أعلم الناس حينئذ، (**إليه**)، أي إلى الله تعالى بأن يقول: الله أعلم بذلك ونحوه.

(**الحديث**)، أي أذكر الحديث الذي رواه الشيخان بتمامه، (**وفيه**)، أي في هذا الحديث: (**فقال**)، أي الله عز وجل لموسى، عليه الصلاة والسلام: (**بلى**)، أي فيها من هو أعلم، عبدنا خضر، وفي رواية: (**عبد لنا**)، ووصفه بالعبودية تشريفًا له كما في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، وقوله:

لا تدعني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

وللمصنف، رحمه الله:

ومما زادني شرفا وتيها ... وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولى تحـت قولـك يـا عبـادى وجعلـك خيـر خلقـك لى نبيـا

(**بمجمع للبحرين أعلم منك**) يـا موسى، ومجمع اسم مكـان، والبحـران كمـا قالـه السهيلى: بحر الأردن وبحر القلزم، وقيـل: بحر المغرب وبحر الزقاق، وقيـل بحر الروم وفارس، وعن ابن عباس، رضى الله عنهما: اجتمع بحرًا علم فى مجمـع بحريـن حقيقيين، والعلمان علم الظاهر من الشرعيات، وعلم الباطن اللدنى.

(**وهذا**)، أى قول موسى، عليه السـلام: أنـا أعلـم، (**خبر**) صـدر مـن موسى، عليـه السلام، (**قـد أنبأنـا الله**)، أى أخبرنـا كمـا ورد فـى هـذا الحديـث الصحيـح: (**إنـه ليـس كذلك**)، كما سمعته كذلك، فيكون خلفًا منه، وهو معصـوم عـن مثلـه، فـيرد علـى مـا قرره، وسيأتى الجواب عنه.

والعتب بمثناة فوقية كالمعاتبة، وهو اللـوم علـى ارتكـاب مـا لا يليـق، وضمنـه معنـى العيب بالتحتيـة، ولـذا عـداه بنفسـه دون علـم، ورد العلـم إلى الله تعـالى، تقـدم معنـاه، وتفسير ابن بطال بترك الجواب لا ينبغى، وكذا لو قال: أنا والله أعلم، كان أولى، وهـذا هو الأليق الأولى بمقام أدب النبوة إذ مراده فيما أظن: واعلم، ولا لائمة فيـه، وقصتـه فـى حمل الحوت فى مكتل مفصلة فى التفاسير، وقد علمت أن مجمع اسم مكان.

ثم شرع فى الجواب بقوله: (**فاعلم أنه وقع فى هذا الحديث الصحيـح**) المـروى (**عـن ابن عباس**) ما يدفع السؤال، وهو: (**هل تعلم أحدًا أعلم منك؟**)، فالسؤال عما يعلمـه لا عما فى الواقع، ومن القواعد المقرره أن السؤال معاد فى الجواب، (**فإذا**) يجوز أن يكـون إذن بنون مرسومة وبألف، (**كان جوابه**) صدر منه (**على**) حسب (**علمه**)، فكأنه قال: لا أعلم أنا أحدًا أعلم منى، (**فهو**)، أى كلام موسى، عليه الصلاة والسلام، وجوابـه (**خـبر حق وصدق**) مطابق للواقع باعتبار تقييده بأنه علـى حسـب علمـه واعتقـاده، (**لا خلـف فيه**)؛ لمخالفته للواقع، (**ولا شبهة**)، أى لا يشتبه على أحد صدقه فيما قاله، وفى الحديث روايات مختلفة يرجع بعضها إلى بعض كما ستسمعه قريبًا، ومر بعضها، وهذا تأكيد لمـا قبله.

(**وعلى الطريق الآخر**) التى فيها إطلاق أعلميته من غير تقييـد بعلمـه واعتقـاده المفيـد لنفى الأعلمية والمساواة فيها كما تقدم على العموم، فإنه روى من طرق مختلفـة بألفـاظ مختلفة، وقد أشرنا إليه قبل هذا، (**فيحمله على**) غلبة (**ظنه ومعتقده**)، مصدر ميمى بمعنى اعتقاده، أى نجعله مقيدًا بهذا تقديرًا لأنه صرح به فى روايـة أخـرى، والروايـات تفسـر بعضها بعضا كالقرآن، والمقدر فى حكم المذكور عندهم، كما أشار إليه بقوله: (**كما لو**

صرح به)، بالبناء للمفعول أو الفاعل، أى صرح به موسى، عليه الصلاة والسلام، كأنه قال: أنا أعلم فى ظنى أو معتقدى، ونحوه لا فى نفس الأمر، ويحمله بلفظ المضارع، وفى نسخة: فحمله باسم مبتدأ، وعلى هذا لا يرد عليه شىء.

ثم بين وجه قول موسى على هذا بقوله: **(لأن حاله)**، أى حال موسى، عليه الصلاة والسلام، كغيره من الرسل أصحاب الشرائع فى عصرهم، **(فى النبوة والاصطفاء)**، أى اختار الله له دون غيره من خلقه، **(يقتضى ذلك)**، أى إنما اختاره؛ لأنه أعلم أهل عصره، إذ لو لم يكن كذلك، لم يختره لتبليغ رسالته وسياسة خلقه ورجوعهم إليه فى كل أمورهم، وهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، كليمه وأمين وحيه، ومثله لا يكون دون غيره أو مساويًا له فى العلم، ويحتمل أن معناه أن نبوته واصطفاءه، صلى الله عليه وسلم، يقتضيان، أى يستلزمان أن لا يقول مقالة غير مطابق للواقع، فيحمل كلامه على ما يطابقه، وإن لم يكن فيه ما يدل عليه، وهو ظاهر قوله: **(فيكون إخباره بذلك)**، أى بقوله: أنا أعلم.

(أيضًا)، أى كما فى الرواية المصرح فيها بذلك القيد، **(عن اعتقاده وحسبانه)**، بضم الحاء المهملة وكسرها، بمعنى ظنه **(صدقًا)** خبر يكون، وقوله: **(لا خلف فيه)** مفسر له أو مؤكد، أى لا شبهة فيه عند سامعه، **(وقد يريد)** موسى على نبينا وعليه السلام، **(بقوله: أنا أعلم)**، أنه أعلم **(بما تقتضيه)**، أى تستلزمه، **(وظائف النبوة)**، جمع وظيفة، بالظاء المشالة، وهى الأحوال التى اقتضاها ذلك المقام من شروطها، ولابد منها لكل نبى رسول، **(من علوم التوحيد)** بيان لعلومه من معرفة الله تعالى وصفاته، وأنه منفرد فى ذاته وصفاته واستحقاقه للعبادة، **(وأمور الشريعة)** التى أمره الله تعالى بتبليغها، **(وسياسة الأمة)**، أى أمته، والسياسة ضبط الخلق وإجراء أحكام الشرع عليهم بالسلطنة، **(ويكون الخضر)**، عليه الصلاة والسلام، وفيه لغات، فتح الخاء وكسر الضاد المعجمتين وبسكونها، مع الفتح والكسر وسيأتى بيانه.

(أعلم منه)، أى من موسى، عليه الصلاة والسلام، **(بأمور أخر)** غير الشريعة والسياسة والحكومات الظاهرة فيما بين الناس، يعنى أنه صادق فيها؛ لأنه عام مخصوص بما هو المتبادر من علوم أكثر الأنبياء، وهو العلم بالأمور الشرعية والحكم بين الناس، كما هو شأن الرسل، وعلم الخضر بأمور باطنية كشفية، فلا تنافى بينهما، واعلم أنه تقدم أن الخضر إنما سمى خضرًا؛ لأنه كان إذا جلس على أرض نباتها هشم اخضر، وقيل: لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله، وأن اسمه إيليا، وقيل غير ذلك، ويكنى أبا العباس، واختلف فيه كما يأتى، هل هو ولى، أو نبى، أو ملك حى إلى الآن أم لا؟ وقد

أفرد أحواله الحافظ الخيضرى، [بتأليف] سماه الروض النضر فى أحوال الخضر.

وقال الثعلبى: إنه معمر محجوب عن الأبصار، وهذا وجه ما قيل إنه ملك، وإن كان قولاً ضعيفًا، وروى فى اجتماع النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، به حديث ضعيف، وتقدم الكلام على تعزيته لأهل البيت، (**مما لا يعلمه أحد إلا بإعلام الله من علوم غيبه تعالى، كالقصص المذكورة فى خبرهما**)، الذى قصه الله تعالى فى سورة الكهف، (**فكان موسى**)، عليه الصلاة والسلام، (**أعلم**) من أهل عصره مطلقًا بالشريعة والتوحيد والسياسة، (**على الجملة**)، أى بجميع العلوم المذكورة (**مما تقدم**) بيانه.

(**وهذا**)، أى الخضر، عليه الصلاة والسلام، (**أعلم**) منه (**على الخصوص**)، أى بعلم لدنى يختص به من الأمور الغيبية الكشفية التى يكلف غيره بعلمها، (**ويدل عليه**)، أى على أنه أعلم بعلم اختص به، (**قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾**) [الكهف: ٦٥]، أى من علم الغيب الذى لا يعلمه إلا الله تعالى، ومن أراد ممن ارتضاه للعلم به، (**وعتب الله ذلك عليه**)، عتب مصدر مبتدأ، وقوله: ذلك، مفعول، وهو جواب سؤال تقديره: إذا كان أعلم من وجه، وهو صادق فى قوله هذا، فلم عاتبه الله عليه ودله على عبد له أعلم منه؟.

(**فيما قاله العلماء**)، أى بينوه ووضحوه بما يدفع إشكاله، (**إنكار هذا القول عليه**)، أى قوله: أنا أعلم؛ (**لأنه**)، أى موسى، عليه الصلاة والسلام، فيما قاله وهو خبر المبتدأ، (**لم يرد العلم إليه**)، أى إلى الله تعالى تأدبًا معه، (**كما قالت الملائكة**) لله تعالى لما قال لهم: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: ٣١]، فقالوا: (﴿عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢]، **أو**) عتبه وإنكاره؛ (**لأنه لم يرض قوله**) أنا أعلم، أى لم يرضه الله منه ولم يستحسنه (**شرعًا**)؛ لتركه الأولى، وإن كان صادقًا فى مقاله هذا.

(**وذلك**)، أى عدم رضاه بقوله هذا، (**والله أعلم**) بوجه هذا، ولقد أجاد فى الرد تحقق هذه العلة إلى علم الله؛ (**لئلا يقتدى به فيه**)، أى فى ادعاء الأعلمية جزمًا من غير رد إلى الله، (**من لم يبلغ كماله**)، أى من لم يصل إلى مرتبته فى الكمال فى العلم فى غير الأنبياء، (**فى تزكية نفسه**)، أى مدحها بجعلها زكية مبراة زائدة على غيرها، فإن مدح المرء نفسه غير محمود، فإن حسن أحيانًا لمقتض له كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

والتزكية التطهير من الأخلاق الردية التى من جملتها العجب، (**وعلو درجته**)، بالنصب عطف على كماله، ويجوز جره، (**من أمته**)، متعلق بقوله: يقتدى، حال من

ضمير يبلغ، **(فيهلك)**، أى من يقتدى به من أمته فى قولـه: أنـا أعلـم؛ **(لما تضمنه)**، أى قوله: أنا أعلم، **(من مدح الإنسان نفسه)**، وهو أمر مذموم، **(ويورثه)**، أى يكسبه ويعقبه ما يتصف به شبه ذلك بالميراث.

(ذلك القول)، أى قوله: أنا أعلم، **(من الكبر والعجب)**، بضم فسكون، قال الراغب: يقال لمن تروق نفسه: فلان معجب بنفسه، أى يستحسن أفعاله وأموره، **(والتعاطى)**، أى الأخذ فى تزكية نفسه، **(والدعوى)** الباطلة، أى لئلا يروقه اقتداءه به فى قوله: أنا أعلـم، ما ذكر من الرذائل.

(وإن نـزه)، بالبنـاء للمفعـول، أى برأهـم الله وعصمـهم، **(عـن هـذه الرذائــل)**، أى الصفات الذميمة من الكبر والعجب والتعاطى والدعوى، **(الأنبياء)**، عليهم الصلاة والسلام؛ لشرفهم وعلو مقامهم، **(فغيرهم)**، أى غير الأنبياء، **(بمدرجة سبيلها)**، أى غير الأنبياء يتصف بها، ولا ينزه عنها لاستعداده لها، وقبول طبعه لها، والسبيل الطريق، والمدرجة اسم مكان بمعنى المدخل والمسلك من درج إذا مشى، يقال: هو قاعد على طريق كذا، إذا كان مستعدًا له، فهو استعارة.

وقيل: المدرجة الثنية التى يمشى فيها وتسيل منها السيول، أى فى موضع الرذائل المشبهة بالسيل المهلكة من اتصف بها، كالسيل المغرق لما يمر به، وفيه تكلف لا يخفى، **(ودرك ليلها)**، بسكون الراء ويجوز فتحها، بمعنى إدراك الليل مقابل النهار، فشبه ما يعارض له من الصفات الذميمة بظلمة الليل التى تغشاه، والمراد ما لابد من إثار تلك الصفات كما قال النابغة(١):

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

(إلا من عصمه الله)، أى حفظه عن الاتصاف بها، **(فالتحفظ)**، أى الاحتراز **(منها)**، أى من هذه الصفات، **(أولى لنفسه)** وأليق، فإذا عاتبه على تركه الأولى، **(وليقتدى به)** فى التحفظ والسلامة منها، **(ولذا)**، أى لكون التحفظ أولى لمن يقتدى به.

(قال، عليه الصلاة والسلام، تحفظًا من مثل هذا) العجب: **(أنا سيد ولد آدم)**، أشرفهم وأعلاهم رتبة، وتحفظ عن العجب فى مقاله بقوله: **(ولا فخر)**، أى لم أقل هذا افتخارًا أو عجبًا، وإنما هو تحدث بما أنعم الله به عليه، أو أنا لا أفخر بهذا، فإن الله أنعم علىّ بما

---

(١) البيت من الطويل، وهو للنابغة الذبيانى فى ديوانه (ص٣٨)، لسان العرب (٤/٥٠٧) (طور)، (١٥/٣٠٠) (نأى)، كتاب العين (٨/٣٩٣)، تاج العروس (نأى)، وبلا نسبة فى مقاييس اللغة (٥/٣٧٨)، مجمل اللغة (٤/٣٦٨).

هو أجل منه. وفى رواية الصحيحين: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»[1]، والسيد يطلق عليه وعلى غيره، وعلى الله كما تقدم، وهو من يفوق غيره كرمًا وحلمًا، ويطلق على المالك والشريف والكريم والحليم.

(وهذا الحديث) المروى فى قصة موسى والخضر الذى تقدم، **(إحدى حجج القائلين بنبوة الخضر)**، عليه الصلاة والسلام، وهو أحد الأقوال فيه؛ **(لقوله فيه)**، أى فى هذا الحديث: إنه **(أعلم من موسى)**، كما تقدم، **(ولا يكون الولى أعلم من النبى)**، ولا مساويًا له فى علمه، **(وأما الأنبياء)**، عليهم الصلاة والسلام، **(فيتفاضلون فى المعارف)**، أى يكون بعضهم أفضل من بعض، ولا محذور فيه.

(و) استدل على نبوته أيضًا **(بقوله)**، أى الخضر، عليه الصلاة والسلام، فيما حكاه الله عنه فى قصته، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ﴾، أى المذكور من الأمور الثلاثة، ﴿عَنْ أَمْرِىۚ﴾ [الكهف: ٨٢]، أى بما أمرته نفسى، فليس برأيى واجتهادى، **(فدل)** ما ذكر **(أنه بوحى)** من الله تعالى، والوحى لا يكون لغير الأنبياء، وفيه أنه يجوز أن يكون بإلهام، والإلهام وإن لم يفد العلم اليقين للغير عند أهل السنة حتى لا يجوز الاستدلال به، لكنه قد يقوى فى نفسه ويعمل به الملهم دون غيره كما حقق فى علم الأصول وفصلوه فى محله.

(ومن قال: إنه ليس بنبى)، بل ولى من أولياء الله تعالى، **(قال)** مجيبًا عما ذكر من الدليل الثانى: **(يحتمل أن يكون فعله بأمر نبى آخر)** أوحى إليه به فى زمانه، **(وهذا)** الجواب **(يضعف)**، أى يحكم بضعفه.

(لأنه) أى الأمر والشأن، **(ما علمنا أنه كان فى زمن موسى، عليه الصلاة والسلام، نبى غيره إلا أخاه هارون)**، ولم ينقل ملاقاة هارون للخضر، عليهما الصلاة والسلام، إلا أنه قيل: إن يوشع كان نبيًا نبئ قبل موت موسى، وسيأتى عن الشيخ ما يؤيده، فتدبر.

(وما نقل أحد من أهل الأخبار) المعتمد على نقلهم، **(فى ذلك)**، أى وجود نبى غير موسى وأخيه، عليهما الصلاة والسلام، **(ما يعول عليه)**؛ لصحة نقله.

(وإذ)، وفى نسخة: وإذا، **(جعلنا)** قول الله لموسى، عليه الصلاة والسلام: إن لى عبدًا **(أعلم منك، ليس على العموم، وإنما هو على الخصوص)**، فتخصيصه بما ليس من الشرائع والعقائد، **(وفى قضايا معينة)** كما تقدم بيانه، **(لم يحتج إلى إثبات نبوة خضر)**؛ لأن علمه، عليه الصلاة والسلام، كان بأمور معينة غير الشرائع والعقائد، وهذا يقتضى أنه يجوز الوحى بها لغير الأنبياء، وإنه إذا أطلق عليه نبى بالمعنى اللغوى، لا ينافيه كما فى قصة

---

(١) تقدم تخريجه.

خالد بن سنان، كما أشار إليه بعض العارفين.

(ولهذا)، أى لكونه علمًا مخصوصًا، لا ينافى غيره، **(قال بعض الشيوخ: كان موسى أعلم من الخضر فيما أخذ عن الله)**، من الشرائع والأحكام، وما فى حكمها، **(والخضر أعلم من موسى فيما رفع إليه)**، بالبناء للمفعول، براء مهملة، أو بدال مهملة، وفاء وعين مهملة، أى فيما جعله الله تعالى منوطًا به منتهيًا إليه علمه مما غيب علمه عن غيره.

(وقيل: إنما ألجأ موسى، عليه الصلاة والسلام)، أى اضطره الله وألزمه أن يذهب **(إلى الخضر للتأديب)**، أى ليؤدبه الله تعالى، حتى لا ينسب لنفسه الأعلمية، وإن كان صادقًا فى مقاله ومناسبًا لمقامه، **(لا للتعليم)** لما لم يعلمه مما يلزمه علمه، فإنه أكمل أهل زمانه، ولذا قيل: إن هذه القصة تقتضى أن الخضر نبى رسول؛ لئلا يكون العالى أعلم من الأعلى.

وفى الكشاف: أن القصة لا تقتضى أن موسى هذا هو ابن ميشا كما قاله أهل الكتاب؛ لأنه لا غضاضة فى أخذ النبى العلم عن نبى مثله، إذ يمتنع أخذه ممن هو دونه. وفى فتح البارى: أن فى كلامه نظرًا؛ لأن المتكلمين اشترطوا فى النبى أن يكون أعلم أهل زمانه على العموم، ولو لزم هذا لزم أن لا يجمع الله بين نبيين فى عصر واحد، وقد كان مع موسى هارون وشعيب، ثم يوشع، والحق أن اللازم كونه أعلم ممن أرسل إليه، وأنه أعلم بالعلم المخصوص به، ولذا قال له الخضر، عليه الصلاة والسلام: إنى على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، ولم يكن موسى مرسلاً إلى الخضر، فلا ضير فى كونه أعلم منه بعلم لدنى خصه الله تعالى به.

وقال الإمام القرطبى: ولننبه هنا على مغلطتين:

الأولى: أن بعضهم قال: إن الخضر أعلم من موسى تمسكًا بهذه القصة، وهذا إنما يضر من قصر نظره على هذه القصة، ولم ينظر ما خص الله به موسى من توراته التى فيها علم كل شىء، وكلامه ودخول أنبياء بنى إسرائيل تحت نبوته ودعوته كما قال تعالى له: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤]، والخضر وإن كان نبيًا ليس برسول بالاتفاق، والرسول أفضل من النبى الذى ليس برسول، فإن قلنا إنه ولى، فلا إشكال.

الثانية: أن بعض الزنادقة قال قولاً يهدم الشريعة، وهو أن قصة الخضر تدل على أن أحكام الشرع تختص بالعامة، وأن خواص الأولياء إنما يراد منهم ما يقع فى قلوبهم وخواطرهم؛ لصفاء قلوبهم عن الأكدار والأغيار، فتتجلى لهم علوم إلهية يقفون بها على

أسرار الكليات والجزئيات، فيستغنون عن أحكام الشريعة، كما فى حديث: «استفت قلبك»، وهذا كله زندقة وكفر وإنكار، لما علم من الدين بالضرورة من أن الأحكام إنما تؤخذ عن الله بواسطة رسله وسفرائه بينه وبين خلقه، فمن ادعى خلافه كفر، فيقتل ولا يستتاب، وكل هذا كفر صريح.

والامتحان لموسى، إذا أراه الخضر أن قتل الغلام كقتله للقبطى، وإقامته الجدار كإلقاء أمه التابوت فى اليم، وإقامته الجدار بغير أجرة كسقيه لبنات شعيب قبل استئجاره له، وهذا لا يقتضى الإنكار على بعض الأولياء فى الأمور الكشفية، ولا يساء الظن بهم فيما صدر عنهم من بعض المقالات، وهاهنا بحث مهم، وهو أن النبى معناه لغة المخبر أو المخبر مطلقًا، وهو فى العرف العام المخبر عن الله بوحى مطلقًا، وفى عرف الشرع المخبر عن الله بشريعة خاصة به، أو أمر بتبليغها غيره، فعلى هذا لا يكون الخضر نبيًا؛ لأنه إنما أوحى إليه ببعض الأمور الغيبية.

إذا علمت هذا، فخالد بن سنان إذا كان بين نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، وبين عيسى، عليه الصلاة والسلام، كما ورد فى الحديث، لا ينافى ما فى الحديث الصحيح من قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: (**لا نبى بينى وبين عيسى**)، كما قاله ابن حجر، وقال: أو الأول لا يقاوم حديث البخارى، فهو مردود رواية؛ لأن خالدًا إنما أوحى إليه بكشف أمور البرزخ؛ تأييدًا لخبر غيره من الأنبياء؛ تمهيدًا لما يأتى بعده بما يستخبر به نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه لم يوح إليه بشرع ولا بأمر يجب العلم بتفصيله، فليس نبيًا بحسب عرف الشرع، فتسميته بنبى إنما هو باعتبار المعنى العرفى أو اللغوى، فلا منافاة بينه وبين الحديث مع أنه لم يكشف ما أرسل به كما فى الحديث الآتى أنه أضاعه قومه، وهو تحقيق حقيق بالقبول، وإليه أشار فى الفصوص.

* * *

(فصل وأما ما يتعلق بالجوارح)

للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، جمع جارحة، وهى الأعضاء التى يكسب بها الإنسان ويعمل ما يريد، يقال: جرح واجترح بمعنى عمل واكتسب، قال الله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، أى ما يتعلق بعصمتهم فى أفعالهم، (**من الأعمال**)، بيان لما، أى الأعمال الصادرة بواسطتها، (**فلا يخرج من جملتها القول باللسان**)؛ لأنه من الأعضاء، (**فيما عدا الخبر**)، أى الإخبار بما سبيله البلاغ وغيره، (**الذى وقع الكلام فيه**) قبل هذا كما تقدم.

(و) لا يخرج من جملتها أيضًا، (**الاعتقاد بالقلب**)؛ لأنه من جملة الاعتقاد، ولـه أفعـال تصدر عنه، وهذا بحسب العرف واللغة، وأما كون العلم من مقول الكيف أو الانفعال لا من الفعل والعمل، فمما يحققه الحكماء، ولا ينظر له علماء الشريعة، (**فيما عدا التوحيد**) والإيمان، وما يتعلق بالوحى كما تقدم، (**وما قدمناه من معارفـه المختصـه بـه**)، صلـى الله تعالى عليه وسلم، من إطلاقه على أحوال الملكوت مما لا ينكشف لغيره لما تقدم.

(**فأجمع المسلمون**) جواب أما، (**على عصمة الأنبياء**) جميعًا فيها، (**من الفواحـش**)، أى المعاصى الصغائر والكبائر القبيحة، والفاحش كل أمر اشتد قبحه من الأقـوال والأفعـال، وقد تختص الفاحشة بالزنا. وقال ابن عرفة: هى كل ما نهى الله تعـالى عنـه، (**والكبـائر**) هى معروفة (**الموبقات**)، أى المهلكات، يقال: أوبقه إذا أهلكه، وإهلاكـها بإيقاعـها فـى العذاب فى الدنيا بالقتل، وفى الآخرة بالعذاب الأليـم، وحاصلـه عصمتـهم فـى أقوالهـم وأفعالهم واعتقاداتهم قبل النبوة وبعدها من الكبائر المتوعد عليها.

(**ومستندهم**)، أى دليلهم الـذى اعتمـدوا عليـه (**فـى ذلـك**)، أى فـى عصمتـهم مـن الكبائر، (**الإجماع الذى ذكرناه**) عن المسلمين، فالدليل شـرعى، وهـو الإجمـاعى، (**وهـو مذهب القاضى أبى بكر**) الباقلانى الأصولى المالكى، (**ومنعـها**)، أى الكبـائر (**غـيره**) مـن الأئمة، (**بدليل العقل**)، فضمير منعها للكبائر الصادرة عنهم، وقيل: إنه راجع لعصمتهم، أى منع عصمتهم من الكبائر؛ لعدم استحالتها عقلاً، وهو وهـم؛ لأنـه يأبـاه قولـه: (**مع الإجماع**)؛ لأن الإجماع لم يقم على عدم عصمتهم من الكبائر، مع أن كلامه نفسه بعـده ينافيه، (**وهو قول الكافة**)، أى جميع العلماء، وقد تقدم أن بعضـهم قـال: إن كافـة يلـزم التنكير والنصب على الحالية، وقد بينا فى شرح الدرة أنه غير صحيح.

(**واختاره الأستاذ أبو إسحاق**) الإسفرائنى الشافعى؛ لعلـو مقامـهم عـن صـدور مثله منهم، فمذهب الجمهور أن عصمتهم عن الكبائر بدليـل سمعـى، وذهـب طائفـة إلى أنـه بدليل سمعى وعقلى، والمشهور عن الأشـاعرة أن العصمـة فيمـا وراء التبليـغ غـير واجبـة عقلاً؛ لدلالة المعجزة عليه، وأما ما طريقه التبليغ ودعـوى الرسـالة، فـالمعجزة دالـة علـى عصمتهم فيه.

وذهب المعتزلة إلى وجوب عصمتهم عن الكبائر عقلاً بناء على قاعدتهم فـى الحسـن والقبح العقليين، ووجوب رعاية الأصلح، والدليل العقلى من وجـوه فصلـت فـى كتـب الأصول، منها أنا أمرنا باتباعهم، فلو صدر عنهم ذلك وجب اتباعهم فيما فعلوه، فيلـزم اجتماع الحرمة والوجوب، وأيضًا لو صدر عنهم ذلك كانوا معذبين أشد العـذاب؛ لأن

عليهم وزرهم ووزر من اقتدى بهم، وكانت شهادتهم غير مقبولة، وقد جعلهم الله شهداء على غيرهم إلى غير ذلك مما فصلوه.

(وكذلك)، أى كما أنهم معصومون مما مر، **(لا خلاف فى أنهم معصومون عن كتم الرسالة)**، أى معصومون عن إخفاء رسالتهم عمن أرسلوا إليهم؛ لأنهم مأمورون بالتبليغ، وفى أكثر النسخ: كتمان الرسالة؛ لقوله: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ**﴾ [المائدة: ٦٧]، ومخالفة الأمر معصية كبيرة، **(و)** معصومون عن **(التقصير فى التبليغ)** بترك شىء منه؛ **(لأن كل ذلك)** المذكور من العصمة عن الكتمان والتقصير فيه، **(يقتضى العصمة منه)**، مفعول يقتضى.

وقوله: **(المعجزة)**، فاعل، أى تدل المعجزة على لزومه، **(مع)** قيام **(الإجماع على ذلك)**، أى على أن الله عصمهم عنه، **(من الكافة)**، أى جميع الناس. واعلم أن الحريرى قال فى الدرة: إن كافة يلزمها التنكير والنصب على الحالية، إلا أنه غير مسلم، فإنه سمع غير كافة شاذة، وفى توقف مثله على السماع نظر، وقد ذكرناه مفصلاً فى شرح الدرة لنا.

(والجمهور)، أى أكثر الناس ومعظمهم على أنهم لا يكتمون شيئًا من الوحى الذى أمروا بتبليغه، وهذا ورد فى حديث رواه مسلم، عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: من حدثكم أن محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم كتم شيئًا من الوحى فقد كذب، والله يقول: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ**﴾ [المائدة: ٦٧]، ولو كان كاتمًا شيئًا من الوحى لكتم قوله: ﴿**وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ**﴾ [الأحزاب: ٣٧] الآية، **(قائل منهم)**، أى منهم من قال: **(بأنهم معصومون من ذلك)** الكتمان والتقصير، **(من قبل الله)**، أى خلق فى جبلتهم العصمة فيهم، **(معتصمون)**، أى متمسكون **(باختيارهم)** فى تركه **(وكسبهم)** لا أنهم مضطرون لعدم قدرتهم على خلافه.

(إلا حسنًا النجار)، بفتح النون، والجيم المشددة، وألف وراء مهملة، وهو حسن بن محمد النجار، الذى تنسب له الطائفة النجارية، وهم فرق من المبتدعة الضللة، وافقوا أهل السنة فى بعض أصولهم، ووافقوا القدرية فى نفى الرؤية، ووافقوا المعتزلة فى بعض المسائل، ولهم مقالات كفروا بها، والمشهور منهم ثلاث فرق: البرغوثية، والزعفرانية، والمستدركة، **(فإنه)**، أى النجار، **(قال: لا قدرة لهم على المعاصى أصلاً)**، كالعنين الذى لا يزنى، فإنه قال: إن الله تعالى يوجد الأفعال كلها من غير اختيار وكسب، بل بإيجاب الطبع.

(وأما الصغائر، فجوزها) على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(جماعة من السلف)** المتقدمين، **(وغيرهم)** من المتأخرين، **(على الأنبياء، وهو مذهب أبى جعفر الطبرى)** محمد ابن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبرى البغدادى، صاحب التصانيف الجليلة المشهورة، ولد سنة أربع وعشرين ومائتين، وتوفى سنة عشر وثلاثمائة، عن ست وثمانين، **(وغيره من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين، وسنورد)**، أى نذكر، **(بعد هذا ما احتجوا به)** من أدلتهم وما يتعلق بها.

(وذهبت طائفة) منهم **(إلى الوقف)**، أى التوقف وعدم الجزم، **(وقالوا)** لعدم جزمهم بجوازها وامتناعها عليهم: إن **(العقل)** إذا خلى ونفسه **(لا يحيل وقوعها منهم)**، أى لا يعده محالاً، **(ولم يأت فى الشرع قاطع)**، أى نفى صريح ودليل قطعى، **(بأحد الوجهين)** من الجواز وعدمه فى صدور الصغائر منهم.

(وذهبت طائفة أخرى من المحققين من الفقهاء والمتكلمين) فى أصول الدين **(إلى عصمتهم من الصغائر كعصمتهم من الكبائر، وقالوا)**، أى قال الذاهبون بعصمتهم من جميع المعاصى صغائرها وكبائرها: إن ذلك **(لاختلاف الناس فى الصغائر)**، فى تعريفها بما يميز إحديهما عن الأخرى، **(وتعيينها)**، هو كالتمييز وزنًا ومعنى، **(من الكبائر)**، هل هى معدودة أو هى ما توعد عليه بحد ونحوه؟ أو هى أمر نسبى يتميز بما فوقه وتحته، **(وإشكال ذلك)** عليهم، حتى عسر تميز أحدهما عن الآخر.

(وقول ابن عباس وغيره) من السلف: **(إن كل ما عصى الله فهو كبيرة)**، نظرًا لجلال الله وعظمته، فإن من يخالف أمر السلطان ليس كمن يخالف أمر أحد من رعيته، **(وأنه)**، أى الذنب، **(إنما سمى منها بالصغيرة)**، أى أطلق عليه صغيرة، **(بإضافة)**، أى نسبة وقياس، وفى نسخة: بالإضافة، **(إلى ما هو أكبر منه)**، لا بالنظر له فى نفسه، ولا نظرًا لمن عصاه، **(ومخالفة البارى)**، عز وجل، **(فى أى أمر كان)**، كبيرًا أو صغيرًا، **(يجب كونه كبيرة)** فى نفسه، وهذا نظر من لم يشاهد شيئًا إلا شاهد الله معه أو قبله، ولذا تفاوتت الذنوب بتفاوت أصحابها، فتدبر.

(قال القاضى أبو محمد عبد الوهاب)، المالكى، البغدادى، الأديب، العلامة، وهو من شعراء اليتيمة، وقصيدته الميمية التى منها:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما

وله تصانيف فى مذهبه جليلة، كالتلقين، والمعونة، وارتحل إلى مصر وتوفى بها، ودفن بالقرافة قريبًا من الإمام الشافعى سنة اثنين وأربعمائة، رابع عشر صفر: **(لا يمكن**

أن يقال: إن في معاصي الله) أنها **(صغيرة، إلا أنها تغفر باجتناب الكبائر، ولا يكون لها حكم)**، أي لا يعتد بها ويؤاخذ فاعلها بعقابه عليها كما هو حكم الكبيرة التي حكم الله به، **(بخلاف الكبائر إذا لم يتب)** فاعلها **(منها)**، بالبناء للفاعل أو المفعول، والتوبة معناها معروف، **(فلا يحبطها شيء)**، أي يمحوها ويذهب حكمها مما يحبط غيرها من أعمال العبد الصالحة، **(والمشيئة في العفو عنها)** موكول **(إلى)** فضل **(الله)** وسعة رحمته، كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ [النساء: ٤٨].

(وهو قول القاضي أبي بكر) بن الطيب الباقلاني، **(وجماعة أئمة الأشعرية، وكثير من أئمة الفقهاء)**؛ لأن الحديث والنص دل عليه دلالة ظاهرة، كقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «الصلوات الخمس مكفرة لما بينهن، ما اجتنبت الكبائر»(١)، أي مادام اجتنابه لها، وقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ**﴾ إلى آخره، والحديث مبين للآية، فلا يرد عليهم أن الوعيد شامل لها، فلا تغفر بمجرد اجتناب الكبائر، وهو الحق، فإن الحق خلافه؛ لقوله تعالى: ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ [النساء: ٣١].

(قال القاضي أبو الفضل) عياض مصنف هذا الكتاب، رحمه الله تعالى: **(قال بعض أئمتنا)**، يعني المالكية: **(ولا يجب على القولين)** في العصمة عن الصغائر وعدمها، **(أن يختلف)** في **(أنهم معصومون عن تكرار الصغائر وكثرتها)**، وكان الظاهر أن يقول: لا يجوز؛ لأن أحدًا لم يقل بوجوب الاختلاف، ففي عبارته تسمح، **(إذ يلحقها ذلك)** المذكور من الكثرة والتكرار **(بالكبائر)**، لما فيه من عدم المبالاة بالمعاصي. وفي الإحياء: الصغيرة تصير بالإصرار كبيرة، كما أن المباح يصير بذلك صغيرة.

قال السبكي: أما الأول فظاهر، وأما الثاني، فلا نعرفه، وفيه نظر سيأتي. وقيل: إن المختار المفتى به أن من أكثر من فعل الصغائر، سواء كانت من نوع واحد أو من أنواع لا يكون فاسقًا ولا مرتكبًا لكبيرة إن غلبت طاعاته على معاصيه، إلا أن يريد بالإكثار الأكثرية بحيث يغلب على الطاعات، وفيه أن ما ذكره في حق غير الأنبياء، فلا نسلم مساواتهم لغيرهم فيه، وهم المقتدى بهم، فتدبر.

(ولا) ينبغي أن يتخلف **(في صغيرة أدت إلى إزالة الحشمة)**، أي الحياء من الناس؛ لأنها مما يسترذل وتنقبض النفوس منه، وقد ورد بهذا المعنى في الحديث كقوله: ناد

---

(١) أخرجه أحمد (١/٦٦)، والطبراني في الكبير (٦/٤٦)، وابن المبارك (٣١٧)، وأبو نعيم في الحلية (٩/٢٥٠).

جهارًا ولا تحتشم، وفى قول عنترة:

فأرى مغانم لو أشاء حويتها فيصير لى عنها كثير يحتشم

وقد رد بهذا قوله فى أدب الكاتب: إن الناس يضعون الحشمة موضع الاستحياء، وليس كذلك، إنما هى الغضب، ومنه أنه يحتشمنى، وليس كما قال، وقد قال حسان، رضى الله تعالى عنه:

أرسلت نفسى على سجيتها وقلت ما شئت غير محتشم

ومنه قولهم للمهيب: محتشم، وقد صرح به السهيلى والبطليوسى، **(وأسقطت المروءة)**، هى كمال الرجولية، وفسرها المصنف، رحمه الله، بقوله: **(وأوجبت الإزراء)**، أى النقص **(والخساسة)**، أى الدناءة، وكونه مزدرا خسيسًا فى أعين الناس، يقال: ازدراه، إذا تهاون به وعابه لحقارته عنده، كسرقة لقمة، وشىء تافه.

(وهذا أيضًا) كغيره **(مما يعصم منه الأنبياء إجماعًا)**؛ لعلو قدرهم وشرف أنفسهم وهممهم العلية؛ **(لأن)** ارتكاب مثل **(هذا يحط منصب)** أى مقام، **(المتسم به)**، أى الموصوف به، أى يجعله سافلاً، **(ويزرى بصاحبه)**، أى يحقره وينقصه، **(وينفر القلوب عنه)**، فينافى مقام الدعوة واتباع الخلق له، **(والأنبياء منزهون)**، أى مبرءون **(عن ذلك)** كله؛ لأنه لا يليق بعلى مقامهم، **(بل يلحق بهذا)** المذكور من الصغائر التى عصمهم الله تعالى منها، **(ما كان من قبيل المباح، فأدى إلى مثله)**، ضمير مثله يحتمل أن يعود إلى ما ينزهون عنه، فيكون من قبيل سد الذرائع الذى ذهب إليه مالك فإن عنده أن ما أدى إلى منهى عنه، وإن كان مباحًا فى نفسه. ويحتمل أن يعود إلى الإزراء والخساسة، كالأكل فى السوق لمن ليس من أهله من غير ضرورة، والصنائع الرذيلة كالحجامة، وليس منها رعاية الغنم الذى فعله الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فإنه ليس بمعيب فى الزمن القديم، وكلبس ما لا يليق به من الملبوس كما قلت:

نصيحة لطيفة قالت بها الأكياس
كل ما اشتهيت والبس ما يشتهيه الناس

وكإدامة الشافعى لعب الشطرنج، **(لخروجه بما أدى إليه عن اسم المباح إلى الحظر)**، أى المنع منه، يعنى الحرمة، وهذا صريح فى الإشارة إلى سد الذريعة، وهذه المسألة مما نقل على الإطلاق عن الإمام مالك، رحمه الله تعالى، لكنها مشكلة.

وقد قال القرافى كما تقدم: إنها ليست على إطلاقها، ولعلماء المالكية فيها كلام طويل لم يحضرنى الآن تفصيله، وفى الشرح الجديد أن مراده أنه يؤدى إلى الإزراء

بمرتكبه والإزراء بالأنبياء كفر ففعله يؤدى إلى أن يزرى بهم، فيحرم عليهم لاحتمال أن يراهم من يجهل مقامهم، فيزدرى بهم فيقع فى الشقاء الأبدى، فتأمله، وفى الكبيرة والصغيرة وتعريفهما كلام فى الأصلين لا حاجة للإطالة بذكره.

(**وقد ذهب بعضهم إلى عصمتهم**)، أى الأنبياء، عليهم السلام، (**من موافقة المكروه**)، أى الوقوع فيه بأن يفعله، (**قصدًا**)، أما سهوًا فلا بأس به، والمكروه يكون كراهة تحريم وهو نوع من الحرام، لكن الفقهاء يطلقون عليه مكروهًا إذا لم يكن فيه نص اجتنابًا من القطع بالحكم به، وكراهة تنزيه كترك بعض المندوبات، والمراد هذا؛ لأن الأول داخل فيما تقدم مما جزموا بامتناعه عليهم، والأول شامل بخلاف الأولى، وهو مما نهى عنه فى الجملة؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مأمور باتباعه، فلو فعل مكروهًا اتبع فيه إلا أن يكون لبيان الجواز والتشريع، فإنه يكون فى حقه أفضل كغسله أعضاء الوضوء مرة أو مرتين، فتركه التثليث لبيان الجواز.

(**وقد استدل بعض الأئمة على عصمتهم من الصغائر بالمصير إلى امتثال أفعالهم**)، أى فعل مثلها اقتداء بهم، فلو صدر ذلك منهم أو جاز فعله الناس وظنوه مشروعًا، فلذا منعوه منهم، وإن كان صغيرة؛ لأن ذنب العظيم عظيم، وإن قل (**واتباع آثارهم وسيرهم مطلقًا**)، أى سواء كانت ضرورية أو جبلية كالقيام أو القعود والأكل والشرب، فإننا نتأسى بهم فيه، وإن كان مباحًا؛ لأن الأصل فى أفعالهم أنها حسنة شرعية، فينبغى اتباعهم فى كل ما يصدر منهم؛ لأن الأصل أرجح من الظاهر، وقد اختلف الشافعية فى تباعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما علمنا أنه ليس تشريعًا، هل يستحب أم لا، كنومه واضطجاعه بين سنة الفجر وفرضه.

(**وجمهور الفقهاء على ذلك**)، استحباب اتباع آثارهم مطلقًا، إن لم نعلم أنه خصوصية لهم، (**من أصحاب مالك والشافعى وأبى حنيفة**)، وأصحابه كبار أهل مذهبه، (**من غير التزام**) قيام (**قرينة**) تدل على أنه فعله للتشريع والاقتداء به فيه، (**بل**) يقتدى بفعله (**مطلقًا**) من غير التزام قرينة المشروعية، (**عند بعضهم وإن اختلفوا**) بعد القول باتباعه، (**فى حكم ذلك**)، فذهب الغزالى إلى أنه يستحب اتباعه فى الأمور الجبلية كغيرها، وذهب إليه كثير من الفقهاء والمحدثين، وقال غيرهم: إنه مباح أحسن من غيره، وفى قول ضعيف: إنه واجب.

(**وحكى ابن خويز منداذ**) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله، وقيل: أبو بكر تلميذ الأبهرى من أئمة المالكية والأصول، وله تصانيف فى مذهبه وعلم الخلاف، إلا أن

أقواله مرجوحة عندهم، كقوله: إن العبيد لا يدخلون فى الخطاب، وإن خبر الواحد يوجب العلم، وخويز منداذ بضم الخاء المعجمة وفتح الواو المخففة وسكون الياء المثناة التحتية وزاء معجمة ساكنة ومكسورة وميم مفتوحة أو مكسورة، وروى بباء موحدة بدلها، ثم نون ساكنة فذالين معجمتين بينهما ألف، وقيل: الأولى مهملة توفى فى حدود الأربعمائة، وهو من أهل البصرة كما فى التمهيد لابن عبد البر.

(وأبو الفرج) عمر بن محمد بن عمر الليثى المالكى صاحب كتاب الحاوى فى فقه مالك، توفى سنة ثلاثين أو إحدى وثلاثين وثلاثمائة، **(عن)** الإمام **(مالك التزام ذلك)**، أى اتباع أفعاله وآثاره، **(وجوبًا)**، أى قال: إنه يجب اتباعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى كل ما يفعله إذا لم يكن أمرًا جبليًا كالأكل والشرب، ولم يعلم أنه من خصوصياته إذا لم يعلم حاله من وجوب أو ندب أو إباحة؛ لأن أفعاله منحصرة فيها؛ لأنه لا يصدر عنه محرم ولا مكروه كما تقدم.

(وهو قول الأبهرى)، بفتح الهمزة وسكون الموحدة وفتح الهاء وراء مهملة وياء، نسبة لبلدة عظيمة بين قزوين وزنجان، ولهم أخرى بأصبهان، وهو معرب أبهر بمعنى ما أرجى، والأبهرى من علماء المالكية اثنان أبو بكر محمد بن عبد الله بن صالح، والآخر أبو سعيد عبد الرحمن بن يزيد بن عبد السلام، وليس ابن عبد السلام هذا هو الشافعى، وهذا أيضًا مشهور عندهم، فمحمد الأبهرى من علماء المالكية من أهل طليطلة، ويلقب بأبى تمام، وهو المراد هنا.

(وابن القصار) الإمام فى فقه مالك، **(وأكبر أصحابنا)** من المالكية، **(وقول أكثر أهل العراق)** من فقهاء المذاهب، **(وابن سريج)**، بضم السين وفتح الراء المهملتين ومثناة تحتية ساكنة وجيم، وهو أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج البغدادى الشافعى، حامل لواء المذهب صاحب التصانيف الجليلة، كانوا يفضلونه على جميع أصحاب الشافعى، ويلقب بالباز الأشهب، تولى قضاء شيراز، وتوفى فى جمادى الأولى سنة ست وثلاثمائة، **(والأصطخرى)**، بكسر الهمزة وفتحها وصاد مهملة ساكنة وطاء مهملة مفتوحة وخاء معجمة ساكنة وراء مهملة يليها ياء للنسبة، نسبة لأصطخر بلدة عظيمة، وهو أبو سعيد الحسن بن أحمد بن زيد بن عيسى، الإمام المشهور عند الشافعية، وكذاتصانيفه، توفى سنة أربع وثمانين وثلاثمائة على أحد الأقوال، وترجمته مفصلة فى الطبقات والميزان وغيرهما.

(وابن خيران من الشافعية)، راجع للثلاثة، وهو علم لمثنى خير، وهو أبو الحسين بن

صالح بن خيران البغدادى، الإمام، الزاهد، الجليل قدره، صاحب التصانيف المفيدة فى فقه الشافعى، طلبه الوزير ابن الفرات ليوليه القضاء، فلم يجبه، فسمر بابه عليه أيامًا، فلم يجب، فأفرج عنه، ثم قال: إنما فعلت ذلك به ليعلم أن ما فى بلدنا مثله، توفى رحمه الله تعالى سنة عشرين وثلاثمائة، لعشر بقين من ذى الحجة.

(**وأكثر الشافعية على أن ذلك**)، أى الاتباع له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما لم يعلم حاله، (**ندب**)، أى مستحب لا واجب ولا مباح كما مر، وهو المشهور، وبالغ أبو شامة، رحمه الله تعالى، فى نصرته، (**وذهبت طائفة**) من العلماء (**إلى الإباحة**)، أى أنه مباح، وطائفة إلى الوقف، (**وقيد بعضهم الاتباع**)، أى اتباعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى أفعاله وجوبًا أو ندبًا.

(**فيما كان من الأمور الدينية**)؛ ليخرج الأمور الجبلية كالأكل والنوم، (**وعلم به مقصد القربة**)، مصدر ميمى بمعنى القصد، أى التقرب إلى الله تعالى بالعبادة، وهذا مختار الآمدى وابن الحاجب وأبى شامة، (**ومن قال**) بأن الأصل فيما لم يعلم من أفعاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**الإباحة لم يقيد**) بما قيد به من قال بالندب أو الوجوب بقيد الدينية، وقصد القرابة؛ لأن التقييد به ينافى الإباحة، إذ كل ما قصد به القربة من الديانة طاعة، فهو لا يخلو من الوجوب أو الندب، قيل: هذا حكم ما فعله فى نفسه، وبالنسبة إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأما بالنسبة لأمته، فحكمهم مرتب على حكمه إلا فيما استثنى، فتدبر.

(**قال**) المستدل على عصمتهم، عليهم الصلاة والسلام، من الصغائر بما مر، (**فلو جوزنا عليهم**) فعل (**الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم فى أفعالهم**) مطلقًا كما أمرنا به، (**إذ ليس كل فعل من أفعاله**) كغيره منهم، (**يتميز مقصده به**)، أى ما قصده (**من القربة**) بأن يكون واجبًا أو مندوبًا، (**أو**) من (**الإباحة**) مما لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب أو مدح أو ذم، (**أو**) من (**الحظر**) بالظاء المعجمة، أى المنع شرعًا؛ لكونه محرمًا أو مكروهًا أو خلاف الأولى، (**أو المعصية**) الظاهر عطفه بالواو عطف تفسير، وعلى هذه النسخة ينبغى أن يفسر الحظر بخلاف الأولى والمكروه، وهذا بالحرام.

(**ولا يصح**) على تقدير جواز الصغائر عليهم، (**أن يؤمر المرء بامتثال أمر**) من الأمور،فعله النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وصدر منه (**لعله معصية**) وقد أمرنا باتباعه لقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ونحوه، فيلزم أن نتبعه فى معصية صدرت منه، وهو باطل، ولما ورد عليه أن الملازمة غير مسلمة؛ لجواز أن تصدر

عنه معصية صغيرة، ولا يتبع فيها؛ لأنه قال لنا: إنها محرمة علينا، إلا أنه يبقى ما لم يصرح بتحريمه ملتبسًا علينا، أو يقال: هذا إنما يتم لو قلنا: القول مقدم على الفعل، وليس بمسلم.

كما أشار إليه بقوله: **(لاسيما)**، تقدم الكلام عليها، وعلى قول: إنها للاستثناء، مع إفادتها أولوية ما بعدها بالحكم، وسى بمعنى مثل، وما موصولة أو زائدة، كما بينه النحاة، وقد قدمناه، **(على)** قول **(من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا)**، وجهل المتأخر منها لدلالته على الجواز المستمر مع كونه أقوى فى البيان من حيث أنه يبين به، وقوله: **(من الأصوليين)**، أى علماء أصول الفقه، وهو بيان لمن بان يفعل فعلاً، قال: إنه حرام و لم يعلم المتأخر منهما حتى يكون ناسخًا له، وقد اختلف فيه فمنهم من قدم الفعل؛ لأنه لا احتمال فيه، وقيل: يعمل بالقول لقوته بالصيغة، وأنه حجة فى نفسه، وهو قول الجمهور، وقيل: لا يرجح أحدهما على الآخر إلا بدليل، وعلى الأول يقتدى بأفعالهم مطلقًا، والمعارضة بمعنى المخالفة ومنافاة أحدهما للآخر، وعلى هذا تكون الحجة أقوى.

(ونزيد هذا) الدليل الذى استدل به بعضهم على عصمتهم من الصغائر وعدم جوازها عليهم، ونزيد بنون المضارعة، **(حجة)**، أى نزيد هذا الدليل بما يزيل الشبهة فى حجيته وقوة برهانه، **(بأن نقول: من جوز)** على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وقوع **(الصغائر ومن نفاها)**، أى قال بعدم جوازها، **(عن نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، مجمعون)** ومتفقون فى حقه كغيره من الأنبياء، **(على أنه)**، أى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لا يقر)**، بكسر القاف والبناء للفاعل وفاعله ضمير النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى لا يقر غيره إذا رآه، **(على)** أمر **(منكر من قول أو فعل)**؛ لأن تقريراته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بمنزلة قوله له: ما فعلته جائز، كما قيل: إن السفيه إذا لم ينه مأمور.

(وأنه)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(متى رأى شيئًا)** منهيًا عنه يفعل أو يقال، **(فسكت)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(عنه، دل على جوازه)**، والسكوت رضى وتقدير لوجوب الثناء عليه، **(فكيف)** تعجب وإنكار شديد، **(يكون هذا حاله فى حق غيره)** ممن رآه أو سمعه، **(ثم يجوز وقوعه منه فى نفسه)** بأن يرضى لنفسه مع شرفها وعصمتها ما لا يرضاه لغيره من أتباعه، ولذا عدوا تقريراته، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الحديث، كقوله وفعله، ومثل ما رآه وسمعه ما علمه فى عصره و لم ينكره، فإنه يدل على جوازه، أى إباحته كما قرره الأصوليون، إلا أنهم شرطوا فيه شروطًا، منها أن لا يكون بين منعه قبل ذلك، كما لو رأى ذميًا من أهل الجزية فى كنيسة على ما يفعله أهل ملته، وأن

يقدر على إزالة ذلك المنكر، وفيه نظر؛ لأنه مأمور بالأمر وإن خاف مكروهًا وقتالاً، وأن يعلم أن إنكاره يفيد كما قاله بعض المعتزلة، وهذا كما كان يقر بعض المنافقين على نفاقهم أحيانًا.

(**وعلى هذا المأخذ**) الدال على أنهم لا يقرون غيرهم على المعاصى، فضلاً عن أنفسهم، (**يجب عصمتهم عن موافقة المكروه كما قيل**)، وقد تقدم قريبًا؛ لأنه مما نهى الرسول عنه غيره، كيف يتنزل للاتصاف به، كما قيل:

لا تنه عن خلق وتأتى مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

ثم أردفه بدليل عن عدم فعله المكروه بقوله: (**وإذا الحظر**)، بظاء مشالة بمعنى المنع تحريمًا ومكروهًا، وإذ للزمان الماضى أريد بها التعليل هنا، وهو معطوف على قوله: وعلى هذا المأخذ، وفى نسخة: الحض، بحاء مهملة وضاد معجمة. وقال البرهان: إنه تحريف، وفيه نظر.

(**أو الندب**)، أى الطلب غير الإيجابى، وضمنه معنى الحث، (**على الاقتداء بفعله**) كما أمر الله تعالى باتباعه فى آيات كثيرة معلومة، (**ينافى الزجر**)، أى زجره غيره إذا رآه ارتكب ما لا يرضاه، (**والنهى**) للغير (**عن فعل**) الأمر (**المكروه**)، وفى كلامه هذا حزازة، وتوضيحه مما يشفى الغليل أنه يجب عصمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن المكروه؛ لما مر من أنه لا يرضاه لغيره، فكيف يتصف به هو من غير مقتض؟ وهذا معنى قوله: وعلى هذا المأخذ... إلى آخره.

ثم بين وجهه بوجه آخر أشار إليه بقوله: وإذا الحظر، أو الحض كما فى بعض النسخ، هى صحيحة أيضًا كما علمت، أى إذا رأينا النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فعل فعلاً لم ندر حكمه، فقيل: تمتنع مخالفته، وقيل: يندب اتباعه، وإلى الأول أشار بالحظر، وإلى الثانى بالندب، وعلى كل منهما لا يفعل مكروهًا فاعله مزجور، فتدبر.

(**وأيضًا**)، أى مما يدل على عصمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن مواقعة المكروه، (**فقد علم من دين الصحابة**)، أى من عادتهم؛ لأن الدين يكون بمعنى العادة، ولو خلى على ظاهره صح. وقوله: (**قطعًا**)، أى علمًا لا شك فيه، (**الاقتداء بأفعال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كيف توجهت**)، أى فى أى جهة من جهات الأفعال المختلفة، (**وفى كل فن**)، أى فى أى نوع كانت من أمور معاشه وحركاته وتكلمه، وغير ذلك، (**كالاقتداء بأقواله**) فى أوامره ونواهيه، فلا يفرقون بين قوله وفعله فى الاتباع، فلو فعل مكروهًا لزم اتباعه، وهو لا يصح.

ثم ذكر أمورًا تدل على أن فعله كقوله: فقال: **(فقد نبذوا)**، بمعجمة، أى رموا وطرحوا، والضمير للصحابة الذين كانوا تختموا، وهو إشارة لحديث رواه الشيخان، عن ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، **(خواتيمهم)**، جمع خاتم على لغة، فإن بعضهم يشبع الكسرة كما ورد: الأعمال بخواتيمها، جمع خاتمة، بمعنى آخرها، وهو مطرد عند الكوفيين، وعند غيرهم سماعى، أو جمع خاتام، وهى لغة فيه من عشر لغات فيه، وهذا إشارة إلى حديث هو أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما كتب إلى الملوك يدعوهم للإسلام، قيل له: إنهم لا يقرءون كتابًا غير مختوم، فاتخذ له خاتمًا من ذهب للختم نقشه: «محمد رسول الله»، ثم أوحى إليه بتحريم خواتم الذهب للرجال دون النساء، فطرحه وهو على المنبر، واتخذ آخر من فضة، **(حين نبذ خاتمه)**، فهذا منهم اقتداء بفعله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما ذكره، وقيل: إن خاتمه الذهب أهداه له النجاشى، رضى الله تعالى عنه، ومنه علم تحريم التختم بالذهب، وحله بالفضة خلافًا لابن حزم فى حلهما، وما روى من أن الخاتم الذى نبذه كان من فضة، طعن فى رواته كما فصل فى شروح الصحيحين.

وفى شرح مسلم للقرطبى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، نهى أن ينقش أحد خاتمه كنقش خاتمه، وأن ينقش أحد على خاتمه اسم محمد، وأن تتختم النساء بالفضة، ورواه النووى.

(و) من اقتدائهم بأفعاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنهم **(خلعوا)**، أى الصحابة، **(نعالهم)** فى الصلاة، **(حين خلع)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(نعله)** وهو يصلى، رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله تعالى عنه، قال: بينا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يصلى بأصحابه، إذ خلع نعليه ووضعهما عن يساره، فلما رأوه ألقوا نعالهم، فلما قضى صلاته، قال: «ما حملكم على هذا؟»، قالوا: رأيناك فعلته، فقال: «إن جبريل أخبرنى أن بها قذرًا»، ومنه علم أن الصلاة بالنعل إذا علم طهارتها لا تكره، أما حديث: «خالفوا اليهود، فإنهم لا يصلون فى نعالهم وخفافهم»[1]، فلا يدل على استحبابه، إلا إذا قصد مخالفة اليهود، فتأمل.

(و) مما يدل على استحباب الاقتداء بأفعاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(احتجاجهم)**، أى استدلال الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، الوارد فى حديث رواه الشيخان، عن ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، استدلوا به على أنه، يجوزاستقبال القبلة

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٤٥١)، وأبو داود (٦٥٢)، والحاكم (١/٢٦٠)، والبيهقى (٢/٤٣٢)، وعبد الرزاق (٢٠٦٩٩)، وابن أبى شيبة (٧/٣٩٠).

واستدبارها بالبول والغائط، أشار إليه بقوله: (**برؤية ابن عمر**)، رضى الله تعالى عنهما، (**إياه**)، أى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**جالسًا لقضاء حاجته**)، أى للبراز، وهو يكنى عنه بقضاء الحاجة تأدبًا، (**مستقبلاً بيت المقدس**)، وهو قبلة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قال: رقيت يومًا على بيت حفصة، فرأيته، صلى الله تعالى عليه وسلم... إلخ، واستدل بفعله هذا على جوازه، ويلزمه لمن كان بالمدينة استدبار الكعبة أيضًا.

وهذا مناف لحديث أبى أيوب عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إذا أتيتم الخلاء، فلا تستقبلوا القبلة ببول ولا غائط، ولكن شرقوا أو غربوا»، فقيل: إنه منسوخ، وجمع بينهما بأنه يكره فى الخلاء بلا ساتر دون العمران، ولا يكره فى البيوت المعدة لذلك، واختلفوا فى علته، فقيل: تعظيمها، أى القبلة، وقيل: لأن الصحراء لا تخلو من مصل، فيراه، والصحيح الأول.

(**واحتج غير واحد منهم**)، أى ناس كثيرون من الصحابة، (**فى غير شىء**)، أى فى أشياء كثيرة، (**مما بابه**)، أى نوعه (**العبادة**)، أى مما يتعبد به، (**أو العادة**)، أى ما اعتادوا عليه، (**بقوله:**)، أى ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، (**رأيت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يفعله**)، ومثله كثير، كما قيل لابن عمر: رأيناك تلبس النعال السبتية وتصبغ بالصفر، فقال: رأيت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يفعله.

(**و**) قوله: (**قال**)، صلى الله تعالى عليه وسلم: (**هلا أخبرتيها أنى أقبل وأنا صائم**)، إشارة إلى حديث فى الموطأ، عن عطاء بن يسار، أن رجلاً قبل امرأته وهو صائم فى رمضان، فخاف وأرسل امرأته تسأل أمهات المؤمنين، فسألت أم سلمة، فقالت: إن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فعله، فأتته فأخبرته بما قالت، فقال: لسنا كرسول الله، فأتتها وأخبرتها بما قال زوجها، فوجدت عندها رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: «ما لهذه المرأة؟»، فأخبرته أم سلمة، فقال رسول الله: «ألا أخبرتيها أنى أفعل ذلك؟»، فقالت أم سلمة: قد أخبرتها، فذهبت إلى زوجها، فأخبرته، فزاده ذلك بشرًا... إلى آخره، فقال: «إنى لأتقاكم لله وأعلمكم بحدوده»[1].

(**فقالت عائشة**)، رضى الله عنها، لما سُئلت، عن تقبيل الصائم زوجته (**محتجة**)؛ لجواز وعدم إفساده الصوم: (**كنت أفعله**)، أى تقبيل الصائم، (**أنا ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وغضب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على**) الرجل الصحابى (**الذى أخبر بمثل هذا عنه**)، أى أخبرته زوجته بما أفتته به بعض أمهات المؤمنين، كما تقدم فى

(١) أخرجه البخارى (١٨٣/٤)، ومالك فى الموطأ (٢٩١)، وابن عبد البر فى التمهيد (١٠٧/٥).

حديث الموطأ، **(فقال)** الصحابى المخبر بذلك: **(يحل الله لرسوله ما يشاء)**، فيجوز أن يكون هذا من خصائصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا يقاس أمر غيره عليه، وإنما غضب لعلمه بأنه أجيب عن هذا، ولو كان هذا من خواصه لم يرضه، **(فقال: والله إنى لأخشاكم لله)**، أى أعظم منكم خوفًا لله، **(وأعلمكم بحدوده)**، أى بما حده الله ومنعه من أمور الدين المحرمة عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى أمته، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقبلة الصائم لا تبطل صومه، وفيها خلاف، فقيل: مكروهة، وقيل: مباحة، وقيل: يفرق بين الشاب الذى لا يملك شهوته، والشيخ الذى يملكها، كما فصله الفقهاء، وهذا كله يدل على اقتدائهم بأفعاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فكيف يفعل مكروهًا كما تقدم.

(والآثار) المروية **(فى هذا)**، أى فى اقتداء الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، بأفعاله **(أعظم)**، أى أكثر **(من أن نحيط بها)**، أى أكثر من أن تعد وتحصى، **(لكنه)** مع كثرتها وشهرتها، **(يعلم من مجموعها على القطع اتباعهم أفعاله واقتداؤهم بها)**، أى بأفعاله، عليه الصلاة والسلام، **(ولو جوزوا عليه المخالفة)** لما هو مشروع واجبًا ومستحبًا، **(فى شىء منها)**، أى فى بعض منها، بمواقعة أمر مكروه ونحوه، **(لما اتسق)**، أى انتظم واطرد، **(هذا)** أى اتباعهم أفعاله كلها لجواز كون بعضها منهيًا عنه لا يقتدى به، ولما بفتح اللام والميم المخففة، أى لو قلنا بجواز مخالفة أمر الله فى شىء من أفعاله مما اعتاد الصحابة اتباعه فيها.

(ولنقل عنهم)، أى نقل عن الصحابة مخالفة أفعاله أحيانًا، **(وظهر بحثهم عن ذلك)**، أى فتشوا أفعاله ليقتدوا ببعضها ويتركوا بعضًا منها أحيانًا، **(ولما)**، بالتخفيف **(أنكر)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(على الآخر قوله:)** يحل الله لرسوله ما يشاء كما تقدم، وأن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، غضب لقوله: وقال: «أنا أخشاكم لله وأعلمكم بحدوده»، **(واعتذاره بما ذكرناه)**، فهذا كله يدل على أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يفعل مكروهًا.

(وأما) صدور **(المباحات)** من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، والمباح ما يجوز فعله وتركه من غير ترجيح لجانب؛ لتوسعهم فيه، مأخوذ من باحة الدار، أى عرصتها، وهو حكم شرعى على الأصح، **(فجائز وقوعها منهم)**، أى من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(إذ ليس فيها قدح)**، أى نقص وذم حتى تمتنع عليهم، **(بل هى مأذون فيها)**.

أى لهم إذ لا ضير فيها، **(وأيديهم كأيدى غيرهم مسلطة عليها)**، أى هم كغيرهم من المكلفين لهم فعلها والاتصاف بها من غير حرج عليهم فى فعلها، والتصرف فيها، فاليد مجاز عن الكسب والتصرف، لأنها آلة الفعل غالبًا؛ لقوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، أى له وبقبضته التصرف فيها.

(إلا أنهم بما خصوا به من رفيع المنزلة، وبما شرحت له) بالبناء للمفعول، أى بسبب أن الله تعالى شرح، **(صدورهم من أنوار المعرفة)**، وفى نسخة: أنواع، **(واصطفوا به)**، أى من اختيار الله تعالى وتقريبه، **(من تعلق الهمم بالله)**، أى هممهم وعزمهم الصادق تعلقه بالله، **(و)** بأمور **(الدار الآخرة)**، أى بما هو وسيلة لها، **(لا يأخذون)**، أى لا يتناولون **(من المباحات إلا الضرورات)**، أى ما يضطرون إليه من ضرورة البشرية، كل ما به قوام البدن من الأكل والشرب، **(بما يتقوون به على سلوك طريقهم)**، من تبليغ أمانة ربهم، وما ينفع فى المعاش والمعاد، **(وصلاح دينهم)** مما يعين على العبادة، ويصلح أمورها، كلباس المصلى الساتر له، **(وضرورة دنياهم)** مما لابد منه.

(وما أخذ على هذه السبيل) من كل أمر ضرورى، وما موصولة مبتدأ خبره **(التحق طاعة)** منصوب بنزع الخافض، **(وصار قربة)**، أى أمرًا يتقرب به إلى الله تعالى، أى الأمور المباحة كالمأكل والمشرب والملبس إذا أخذ منه مقدار الكفاية وما لابد منه للتقوى على السلوك للآخرة صار عبادة يثاب عليها، وهو ظاهر، فالمباح بالنظر لذاته، ومن حيث هو لا ثواب فيه ولا عقاب إما بالنظر لما يقارنه فإنه يصير عبادة والأعمال بالنيات، وقد يحصل بالمباح ترك محرم فيصير واجبًا.

وما نقل عن بعض المعتزلة من أن كل مباح واجب؛ لأنه ترك محرم، رده الإمام وهو ظاهر البطلان، **(كما بينا منه)**، أى من المباح الذى يصير قربة، **(أول الكتاب طرفًا)** مقدارًا قليلاً، **(فى خصال نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم)** كما تقدم، **(فبان لك)** مما ذكر من أنهم إنما يأتون من المباح بمقدار الضرورة، وأنه بالنسبة لقصدهم يصير عبادة يثاب عليها، **(عظيم فضل الله على نبينا وعلى سائر الأنبياء)**، عليهم الصلاة والسلام، بإنعامه عليهم بما وهبهم من الصفات الحميدة كالقناعة فى أمور الدنيا، وعدم الشره والتنزل لتعاطيها من غير حاجة، ثم توفيقهم؛ لأن ينوون بها التقوى على عبادة الله، فجميع أمورهم عبادة وطاعة، فقوله: على نبينا... إلخ، متعلق بفضل.

ثم بين وجه ذلك بقوله: **(بأن جعل أفعالهم)** كلها **(قربات وطاعات)**، إذا قصد منها التقوى على العبادة كما بيناه، **(بعيدة)** بسبب ما ذكر، **(عن وجه المخالفة)**، وجه بمعنى

الجهة والجانب، أى بعدت بما ذكر عن مخالفة الطاعة أو مخالفة أمر الله بمواقعة مكروه، **(ورسم المعصية)**، بالراء المهملة، أى علامتها وأثرها، أو بالواو بمعنى السمة والعلامة أيضًا، والكل ظاهر، وما تقدم إلى هنا مطلق من غير تقييد، ومقيد بما بعد النبوة لقوله.

* * *

(فصل وقد اختلف فى عصمتهم من المعاصى قبل النبوة)

وبجيء الوحى لهم، عليهم الصلاة والسلام، **(فمنعها قوم وجوزها آخرون، والصحيح إن شاء الله)** أتى به للتبرك، **(تنزيههم من كل عيب وعصمتهم من كل ما يوجب الريب)**، وهو فى الأصل الشك والشبهة، وهو غير مناسب هنا، فكأنه أريد به ما يحط مقدارهم؛ لأن شأن النبوة الشرف والعلو، فإذا ظهر خلافه ارتاب من عرفهم فى نبوتهم وحصلت له شبهة فيهم، **(فكيف)**، إنكار وتعجب، أى لا يتأتى ما ذكر.

(والمسألة)، أى وقوع الذنب منهم قبل النبوة، **(تصورها كالممتنع، فإن المعاصى والنواهى إنما تكون بعد تقرر الشرع)**، يعنى أن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قبل النبوة معصومون، إذا قلنا: أنهم غير مكلفين بشرع من قبلهم، وقلنا: إن العقل لا حكم له فى تحسين أمر ولا تقبيحه كما هو الحق عند الأشاعرة وأهل السنة، خلافًا للمعتزلة القائلين بأنه يجب الإيمان بالله قبل الشرع، ولبعض الماتريدية القائلين بأن الإيمان بالله وتوحيده واجب عقلاً دون غيره؛ لئلا يلزم الدور كما تقرر فى أصول الدين.

وما قاله المصنف جار على المذهبين؛ لأن مراده بالمعاصى غير الكفر، ولما كان الله لم يرسل إلى خلقه إلا من هو أعقل أهل زمانه، وأقواهم فطرة، وأحسنهم خَلقًا وخُلقًا، كانوا معصومين قبل النبوة وبعدها، و لم يقع ذلك منهم أصلاً، وإن اختلف فى جوازه عقلاً، فعلى منعه لا يبقى شيء، وعند من جوزه قبل البعثة كالباقلانى، وإن لم يقل بوقوعه كذلك، فالكل متفقون على أن الله لم يبعث فاسقًا، ولا معروفًا بالظلم والفجور وعدم الإنصاف، ولم يبعث إلا تقيًا، ذكيًا، محبوبًا للقلوب، مهيبًا فى عيونهم، له وقع عند كل أحد، وهذا بالنسبة للمعاصى التى حدثت بعد نبوتهم وتشريعهم معلوم ضرورة، وإنما الكلام فيما تقرر قبل ذلك.

(وقد اختلف الناس فى حال نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، قبل أن يوحى إليه، هل كان متبعًا لشرع قبله أم لا؟)، قيل: صوابه أو لا؛ لأن أم لا تعادل هل، وفيه نظر، **(فقال جماعة: لم يكن متبعًا لشيء)** من الشرائع، **(وهذا قول الجمهور، فالمعاصى على هذا القول)** القائل بأنه لم يتبع شرع من قبله **(غير موجودة)**، فلم تصدر منه، بل لم تجوز عليه، **(ولا**

معتبرة فى حقه)، أى لم يكلف بها، ولم يؤخذ بها **(حينئذ)** إذا قلنا: إنه لم يتبعها ولم يكلف بها، **(إذ الأحكام الشرعية إنما تتعلق بالأوامر)**، تقدم الكلام عليها مرارًا، وأنها جمع أمر أو أمور أو آمرة، **(والنواهى)** من حيث الوجوب والحرمة والكراهة والندب ونحو ذلك، **(وتقرر الشريعة)**، أى تحققها وظهورها، ولم تكن بعد وجوده وقبل بعثته شريعة مقررة فى زمن الفترة حتى يتبعها، **(ثم اختلف حجج القائلين بهذه المقالة)**، الذين ارتضوها مذهبًا لهم، **(عليها)** متعلق بحجج باعتبار ما فيه من معنى الاستدلال.

(فذهب سيف السنة)، أى عالمها الذى يقيم الأدلة لنصرة طريقتهم استعار له السيف؛ لأنه يقطع الجدال كما يقطع السيف الأبطال، والسنة ما ثبت عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ومقتدى فرق الأمة)** تعريفها للعهد، أى أمة محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى نسخة: الأئمة **(القاضى أبو بكر)** محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلانى، صاحب التآليف الجليلة وحامل لواء أهل السنة، الثقة الذى يضرب المثل بسعة علمه وشدة ذكائه، وانتهى له النظر فى الأصلين على أصل الأشعرى، وأرسل إلى ملك الروم، وناظر أحبارهم فى قصة غريبة له، وتوفى فى ذى القعدة سنة ثلاث وأربعمائة، وكانت له جنازة لم ير مثلها، وإنما مدحه، وإن كان حقيقًا بذلك إشارة إلى ترجيح هذا المذهب، وأنه لا ينبغى العدول عنه، وهو أيضًا على مذهبه؛ لأنه مالكى لا شافعى، كما قد يتوهم من أشعريته، **(إلى أن طريق العلم بذلك)**، أى اتباعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لشرع نبى قبل نبوته، **(النقل)**؛ لأنه لا يعلم بالعقل، **(وموارد الخبر من طريق السمع)**، أى يعلم من خبر يرد ونقل يصل من طريق السمع، **(وحجته أنه لو كان ذلك لنقل)** إلينا تعبده به، **(ولما أمكن كتمه وستره)** فى العادة التى جرت بين الناس فى مثله من أن من تعبد بشرع يظهره وينقله من اطلع عليه نقلاً مستفيضًا لا يخفى، **(إذ كان)** نقله وعدم كتمانه **(من مهم أمره)**، أى تعبده بشرع غيره مهم عظيم عند أهل ذلك الدين.

(وأولى)، أى أحق **(ما اهتبل به)**، بهاء وتاء مثناة فوقية وموحدة، مبنى للمجهول، من الاهتبال، وهو شدة الاعتناء، فهو عندهم **(من سيرته)** وصفاته المأثورة، **(والفخر به أهل تلك الشريعة)**؛ لأن هذا النبى العظيم كان من أهل ملتهم، وفيه شرف لهم، **(ولاحتجوا به عليه)**، أى استدل أهل تلك الشريعة بكونه، عليه الصلاة والسلام، كان على شريعتهم، إذ كان قبل نبوته تابعًا لشرعهم ودينهم، فيقولون إذ دعاهم لاتباعه: أما كنت على ديننا؟ فلم تنهانا عنه الآن وتأمرنا بترك ما كنت توافقنا فيه؟ **(ولم يؤثر)**، أى لم ينقل، **(شىء من ذلك)**، أى احتجاجهم عليه، ولا نقل أحد أنه، صلى الله تعالى عليه

وسلم، كان متعبدًا بشرع أحد ممن كان قبله.

(جملة)، أى بالكلية أصلاً، وكثيرًا ما يستعمله بمعنى كافة وعامة، وكما اختلفوا فى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قبل البعثة هل كان على شريعة من قبله أم لا؟ اختلفوا بعد البعثة هل كان يتبع شرع من قبله فيما لم يوح إليه فيه شىء و لم ينسخ وقد قيل أن هذا معلوم بالطريق الأولى كما فصل فى كتب الأصول.

(وذهبت طائفة إلى امتناع ذلك)، أى تعبده بشرع من قبله، **(عقلاً)**، أى بدليل عقلى لا دخل للنقل فيه، **(قالوا:)**، أى المدعون للامتناع العقلى **(لأنه يبعد أن يكون متبوعًا)** مقتدى به فيما شرعه الله له وأمره بدعوة الناس له، **(من)** كان قبل صيرورته متبوعًا مبعوثًا لغيره، **(عرف تابعًا)** لشرع غيره متعبدًا به قبل بعثه على هذا القول.

(وهذا) القول بامتناعه عقلاً مبنى **(على التحسين والتقبيح)**، وفى نسخة: وبنوا... إلخ، أى على القول بأن حسن الشىء وقبحه يعرف ويثبت به، وهو قول المعتزلة، فالتحسين والتقبيح العقليان عبارة عن تعلق المدح والذم عاجلاً والثواب والعقاب آجلاً، وهو محل النزاع فى هذه المسألة المشهورة فى الأصلين، وأهل السنة يقولون: لا يعرف حسن أمرًا وقبحه إلا من جهة الشرع ولا دخل للعقل فيه، **(وهى طريقة)**، أى مذهب **(غير سديدة)**، أى غير صحيحة، **(واستناد ذلك)**، أى الاستدلال عليه **(إلى النقل)** عن الآثار، وعن أهل الشرع، **(كما تقدم للقاضى أبى بكر)** الباقلانى قريبًا، **(أولى وأظهر)**، وهو القول الصحيح المعول عليه.

(وقالت) طائفة **(أخرى بالوقف)**، أى بالتوقيف من غير تعيين لطرف، **(فى أمره، عليه الصلاة والسلام)**، فقالوا: لا نعلم حاله قبل البعث، هل كان على شريعة من الشرائع السابقة أم لا؟ **(وترك قطع الحكم عليه بشىء فى ذلك)**، الحال المتعلق بعبادته، وما كان عليه قبل بعثته، **(إذ لم يحل أحد الوجهين منها العقل)**، أى لم يعده محالاً لتساويهما عنده فى الإمكان، **(ولا استبان)** وظهر واتضح، **(فى أحدهما)**، أى أحد الوجهين، **(طريق النقل)**، بأن ينقل ما يعينه عمن يوثق به، **(وهو مذهب أبى المعالى)** عبد الملك الجوينى المعروف بإمام الحرمين شيخ الإمام الغزالى، وعليه عهدة مذهب الإمام الشافعى، وهو أظهر من أن يخفى.

(وقالت فرقة ثالثة: إنه)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(كان عاملاً)** فى أموره وعبادته، **(بشرع من قبله)** من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(ثم اختلفوا)**، بعد القول بأنه على شريعة منها، **(هل يتعين ذلك الشرع)** بتعيين صاحبه وأحكامه، **(أم لا؟)**، فيقال: كان

على شرع لم يعلمه، **(فوقف بعضهم عن تعيينه وأحجم)**، بحاء مهملة وجيم، بمعنى تأخر ونكص فهمه، ولم يجسر عليه؛ لعدم دليل قام عنده على تعيينه، **(وجسر بعضهم)**، أى تجرأ وأقدم، **(على التعيين وصمم)**، أى جزم وأقدم بلا تردد فيه.

(ثم اختلفت هذه) الفرقة **(المعينة فيمن كان يتبع)** شريعته من الرسل، عليهم الصلاة والسلام، الذين تقدموه، **(فقيل:)** هو **(نوح)**؛ لأنه أول الرسل أصحاب الدعوة العامة فى الجملة، كما فى البخارى، **(وقيل: إبراهيم)**؛ لأنه أفضل الرسل غيره بالاتفاق وأبو الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(وقيل: موسى)**؛ لأن كتابه أجل الكتب قبل القرآن، **(وقيل: عيسى)**؛ لأنه أقرب الرسل زمانًا إليه، عليه الصلاة والسلام، **(فهذه جملة المذاهب)** المنقولة **(فى هذه المسألة، والأظهر)**، الأقوى دليلاً، **(فيها ما ذهب إليه القاضى أبو بكر)** الباقلانى، وهو القول الأول لما تقدم.

(وأبعدها مذاهب المعينين)، كما تقدم؛ لأنه لم ينقل، ومثله لا يخفى، **(إذ لو كان شىء من ذلك)**، أى اتباعه بشرع معين، **(لنقل، كما قدمناه)**، لكنه لم ينقل، فدل على عدمه، **(ولم يخف جملة)**، أى لم يستتر عن أحد من جميع الناس، **(ولا حجة لهم فى أن عيسى)**، عليه الصلاة والسلام، **(آخر الأنبياء)**، فهو أقربهم إليه، ولا نبى بينهما، فهو أولى الرسل به كما ذهب إليه بعضهم، **(فلزمت شريعته من جاء بعدها)**؛ لأنه المتبادر بحسب بادئ الرأى قبل التأمل فيه، فإذا تأمل عرف أن شريعته لا تلزم من جاء بعده؛ لأنه إنما يلزم ذلك لو عمت دعوته غير بنى إسرائيل من العرب.

(إذ لم يثبت عموم دعوة عيسى) صلى الله تعالى عليه وسلم **(بل الصحيح أنه لم يكن لنبى)** من الأنبياء **(دعوة عامة)**؛ لجميع بنى آدم، **(إلا لنبينا)** محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنها عمت جميع بنى آدم، بل جميع المخلوقات من الجن والإنس كما تقدم، ومن قبله أخذ عليهم الميثاق أن من أدركه يؤمن به، وقوله: بل الصحيح، إشارة إلى أنه قيل بعموم بعض من قبله، كآدم ونوح، عليهما الصلاة والسلام؛ لقوله: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، إذ لو لم يرسل لهم ما استحقوا الهلاك بمخالفته، وهذا إن سلم، فهو عموم نسبى لا حقيقى كما لنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(ولا حجة أيضًا) كما لا حجة لما قبله **(للآخرين)** القائلين باتباعه لشريعة إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، **(فى قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾)** [النحل: ١٢٣]، أى مستقيمًا، والملة الشريعة والدين، وكانت العرب تقول لمن اتبع إبراهيم أنه حنيفى، وإنما لم يكن فيه حجة؛ لأن هذا الأمر بعدما أوحى إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم،

والكلام فيما قبل البعثة، وإنما أمر باتباعه فى التوحيد وإقامة الحجة برفق على من خالفه، لا فى شريعته المتعلقة بالعبادة، وهذا لا يدل على مدعاه ولا على تفضيل إبراهيم؛ لأن الأفضل قد يتبع الفاضل فيما عرف من هديه وخلقه.

(ولا) حجة **(للآخرين)** القائلين بأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان على شريعة نوح، عليه الصلاة والسلام، **(فى قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾)** [الشورى: ١٣] الآية، فلا حجة فيها؛ لأنه فسره بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟﴾ [الشورى: ١٣]، فهذا أمر مخصوص بإقامة أمر دينهم باتفاق كلمتهم لها بتفاصيل شرع عملى.

ثم أشار لوجه آخر بقوله: **(فحمل)** بصيغة المصدر، وفى بعض النسخ، فمحمل بميم، وفى أخرى، فيحمل مضارع، **(هذه الآية)** التى احتجوا بها، إنما هو **(على اتباعهم فى التوحيد)**، أى الإيمان بالله وحده وما يتعلق بالعقائد الحقة مما يشترك فيه جميع الأنبياء، وليس الكلام فى هذا، إنما الكلام فيما تعبد به، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الأعمال الصالحة، فليس المراد بالاتباع التقليد فيما ذكر، وهو محل الخلاف الذى نحن فيه، **(كقوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾)** [الأنعام: ٩٠]، فالمراد بهداهم ما اتفقوا عليه من التوحيد دون فروع الشرائع، فإنه لا يضاف للكل.

وقد قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، فلا دليل فيما ذكر يثبت مدعاهم، **(وقد سمى الله فيهم)**، أى ذكر الله فى جملة الأنبياء المذكورين فى هذه الآية فى سورة الأنعام المشار إليهم بقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ إلخ، **(من لم يبعث)**، أى نبيًا لم يرسل بشريعة مخصوصة وأمر بدعوة الناس لها، **(ولم يكن له شريعة)** جديدة، **(تخصه، كيوسف بن يعقوب على قول من يقول: إنه)** نبى، لكنه **(ليس برسول)** له شريعة أمر بتبليغها ودعوة الخلق إليها، فاتفق العلماء على أن يوسف نبى، والجمهور أيضًا على أنه رسول؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ [غافر: ٣٤]، وأنه يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم.

قال ابن جريج: بعثه الله رسولاً إلى القبط، وقيل: إنه لم يكن رسولاً له شرع، وإنما كان على شريعة أبيه يعقوب أو على ملة إبراهيم، ويوسف المذكور فى الآية هو غير يوسف بن يعقوب بن إبراهيم، وهو نبى آخر أرسل لبنىإسرائيل، فأقام فيهم اثنى عشر سنة يدعوهم، وفرعون يوسف، قيل: إنه فرعون موسى، أطال الله عمره حتى ملك فى زمن موسى، عليه الصلاة والسلام.

(**وقد سمى الله جماعة منهم**)، أى من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، (**فى هذه الآية**)، بسرد أسمائهم على التوالى، ثم أمره، صلى الله تعالى عليه وسلم، باتباعهم، بقوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، (**وشرائعهم مختلفة لا يمكن الجمع بينها**)، حتى يؤمر باتباعهم جميعًا فى فروع الشرائع العملية التعبدية، فلا يصح الاستدلال بها على ذلك، (**فدل**) اختلاف أحكام تلك الشرائع المأمور بالاقتداء بها، على (**أن المراد ما اجتمعوا عليه من التوحيد وعبادة الله تعالى**) القلبية، التى لم يقع فيها اختلاف ونحوه من أصول الدين.

(**وبعد هذا**)، القول بأن المراد ما اتفقوا عليه من العقائد، (**فهل يلزم من قال بمنع الاتباع**)، أى اتباع نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، لشرع من الشرائع من قبله، (**هذا القول**)، أى من يقول بهذا القول، أى منع اتباع شريعة من الشرائع السالفة، (**فى سائر الأنبياء غير نبينا**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيقول: يمتنع اتباعهم لشرع غيرهم كما امتنع ذلك فى حق نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**أو يخالفون بينهم**)، أى بين نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، وبين غيره من الأنبياء، عليهم السلام، فيقول: إن نبينا لشرف قدره لا يتبع فى عبادته شريعة غيره، وغيره يتبع من قبله.

(**أما من منع الاتباع عقلاً**)، أى قال: إنه أمر اقتضاه الدليل العقلى، (**فيطرد أصله**)، أى دليله أو أمره الذى قرره، ودليله يطرد (**فى كل رسول**)؛ لأن الإحالة التى اقتضاها العقل من حيث هو لا يختلف فى رسول دون غيره، (**بلا مرية**)، بكسر الميم وضمها، بمعنى شك وشبهة؛ لأن الأمر العقلى لا يختلف باعتبار الأديان والأعصار، ومرية براء مهملة، وفى نسخة: مزية بزاء معجمة، أى تفاضل بينهم والمآل واحد.

(**وأما من مال إلى**) الاستدلال، والقول بظاهر (**النقل**)، أى قال: إنه لم ينقل لنا أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، تعبد بشرع من قبله، ولو نقل صح؛ لأنه أمر سماعى لا عقلى صرف، كما ذهب إليه الباقلانى، رحمه الله، (**فأيتما**) بمثناة فوقية بعد التحتية، ولو قرئ بالنون صح أيضًا، (**تصور له وتقرر**)، بالبناء للفاعل أو للمفعول، أى حيث أنه لا مقتضى للعقل، ولا دخل فيه، فأى شىء نقل من منع أو جواز، (**اتبعه**)، ولم يخالفه، ولا داعى للخلاف فيه، (**ومن قال بالوقف**)، من غير جزم بتعيين أحد الطرفين، (**فعلى أصله**)، أى على مذهبه فى عدم التعيين فى غيرهما؛ لتساويهما فيما ذكر، إذ لا فارق.

(**ومن قال بوجوب الاتباع**) لغيره؛ لأنه أمر دينى لا دخل للرأى فيه، (**لمن قبله**) من الرسل، عليهم الصلاة والسلام، (**يلتزمه**)، أى القول بالوجوب على غيره لازم له أيضًا،

(بمساق حجته)، أى بسبب ما اقتضاه مساق حجته، ودليله وإجرائه **(فى كل شىء)** لاطراده وصدقه عليه، قيل: وهذا فى غير النبى الذى بعث تحت دعوة كهارون وموسى، عليهما الصلاة والسلام، فتدبر، وقد وقع لبعضهم هنا كلام تركه خير منه، والله تعالى أعلم.

* * *

(فصل)

(هذا) أى ما تقدم من العصمة قبل **(حكم ما تكون المخالفة فيه من الأعمال عن قصد)**، أى تعمد، والمراد مخالفة الشرع، **(وهو)**، أى العمل الذى خولف به عن قصد، **(ما يسمى)**، عرفًا وشرعًا، **(معصية)**؛ لأنه عصى الله به، **(ويدخل تحت التكليف)**، أى ما خولف فيه الشارع قصدًا هو من جنس ما كلف الله به عباده بحكم والحكم هو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين من الأحكام الخمسة، وفى عبارته تسمح؛ لأن المندرج تحت التكليف ليس هو المعصية، بل تركها.

(وأما ما يكون) من الأعمال المخالفة لأمر الشرع، **(بغير قصد وتعمد، كالسهو)**، وهو الذهول وغيبة ما عمله عن القوة الحافظة، بحيث يتنبه بأدنى تنبه لبقائه فى المدركة، **(والنسيان)**، وهو ذهول عما لم يبق صورته فى القوة المدركة والحافظة، ويحتاج فى حصوله لسبب جديد، وهذا هو الفرق بين السهو والنسيان على ما قيل، وقد تقدم طرف منه، **(فى الوظائف الشرعية)**، الوظائف: جمع وظيفة، وهو ما وظف وعين من الأعمال الموقتة، كالصلاة، والصوم، والحج، ونحوه من العبادات، بخلاف السهو والنسيان.

(مما تقرر الشرع بعدم تعلق الخطاب به)، وفسر عدم تعلق الخطاب به بقوله: **(وترك المؤاخذة عليه)**، المؤاخذة بالهمزة وبالواو، مفاعلة من الأخذ، والمراد به العقاب أو العتاب، وغير المكلف أنواع، وهو: المجنون، والمغمى عليه، والنائم، والساهى، والناسى، ومن لم يبلغه الخطاب من الجهلة والمخطئ[1]، وقد تقدم الكلام على السهو والنسيان، والغفلة قريبة من السهو، وقد يرد السهو والنسيان بمعنى، ومنه السكران، وإن جرى عليه حكم العمد تغليظًا عليه، كما قاله النووى وكذا المكره والملجأ، وفى الحديث: «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[2].

---

(١) كذا بالأصل، ولعلها المخطئين.

(٢) تقدم تخريجه.

(فأحوال الأنبياء فى ترك المؤاخذة به وكونه ليس بمعصية لهم مع أممهم سواء)، أى هم وأممهم مستوون فى عدم المؤاخذة به؛ لأنهم لم يكلفوا به لا قبل الشرع ولا بعده، **(ثم ذلك)** الذى لم يؤاخذ به من السهو والنسيان، **(على نوعين)**، أحدهما: **(ما طريقه البلاغ)**، أى نوع منهما وقع فيما أمر بتبليغه لمن أرسل إليه.

(وتقرير الشرع)، أى ما يقرره الشارع ليعمل به، **(وتعلق الأحكام)** به أمرًا ونهيًا، **(وتعليم الأمة بالفعل)**، أى ما علمته الرسل، عليهم الصلاة والسلام، لأممهم من الأفعال الشرعية، **(وأخذهم)**، أى تكليفهم ومؤاخذتهم، **(باتباعهم فيه)**، أى بسبب الاتباع وعدمه، **(وما هو خارج عن هذا)**، أى ما خرج عن طريقة البلاغ لعدم صدقه عليه واندراجه تحت كلمته، **(بما يختص بنفسه)**، دون أمته مما يجب أو يمتنع ونحوه مما يختص بالرسل أنفسهم.

(أما) النوع **(الأول)**، وهو ما طريقه البلاغ ونحوه، **(فحكمه عند جماعة من العلماء حكم السهو فى القول فى هذا الباب)**، أى باب العصمة وحكمها، **(وقد ذكرنا)** قبل هذا **(الاتفاق على امتناع ذلك)**، أى امتناع المخالفة فى القول، **(فى حق النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعصمته)** بحفظه **(من جوازه عليه)** فضلاً عن وقوعه منه، **(قصدًا أو سهوًا)** ونسيانًا لعلمه بالطريق الأولى، **(فكذلك)**، أى كما قالوا فى الأقوال البلاغية.

(قالوا فى الأفعال فى هذا الباب) المذكور: **(لا يجوز طروء)** بتشديد الواو، أو بالهمزة بعد واو ساكنة، كما مر كحدوث لفظًا، أى وزنًا ومعنى، وفى نسخة: طرد بدال مهملة، بزنة ضرب، أى اطراد، **(المخالفة فيها لا عمدًا ولا سهوًا؛ لأنها)**، أى الأفعال، **(بمعنى القول من جهة التبليغ والأداء، وطروء)**، ضبطه كالذى قبله، **(هذه العوارض عليها)**، أى على أفعاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يوجب التشكيك)**، أى يستلزم وقوع الشك فى بقية أفعاله، هل فعلها بوحى من الله، أو مخالفة للوحى، أو سهوًا؟.

(و) يوجب أيضًا **(تسبب المطاعن)**، الطعن القدح بما يورث نقصًا فى أفعاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولما ورد عليه أن وقوع السهو منه فى أفعاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، مما ثبت فى أحاديث صحيحة، لا يمكن إنكارها، فكيف يسوى بينهما فى الانتفاء؟ أشار إلى الجواب عنه بقوله: **(واعتذروا عن أحاديث السهو)** الثابتة فى صلاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بتوجيهات يذكرها بعد هذا)**، كما سيأتى عن قريب.

(وإلى هذا) المذهب فى امتناع المخالفة ووقوعها عمدًا أو سهوًا، **(مال)** الإمام **(أبو إسحاق)** الإسفرائنى، أى رجحه على خلافه وذهب إلى اعتقاده، **(وذهب الأكثر من**

الفقهاء والمتكلمين إلى أن المخالفة فى الأفعال البلاغية) التى أمروا بتبليغها لأممهم، **(والأحكام الشرعية)** علمية وعملية، **(سهوًا وعن غير قصد منه)**، أى من النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، نسيانًا أو غلطًا، فهو من عطف العام على الخاص وسهوًا تمييز أو حال، **(جائز عليه)**، أى على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه أمر معفو عنه غير مؤاخذ به، **(كما تقرر فى أحاديث السهو فى الصلاة)** الثابت فى الصحيحين وغيرهما كما مر آنفًا.

(وفرقوا) بالتشديد والتخفيف، أى ذكروا فرقًا **(بين)** جواز وقوع **(ذلك)** فى الأفعال **(وبين الأقوال البلاغية)**، إذ منعوا المخالفة فيها عمدًا وسهوًا، **(لقيام المعجزة)**، أى لدلالة معجزة كل نبى من الأنبياء التى تحدى بها، **(على الصدق)**، أى صدقه، **(فى القول)**، أى فيما يقوله ويبلغه عن ربه، **(ومخالفة ذلك)**، أى مخالفة الصدق فى القول سهوًا من غير قصد، **(تناقضها)**، أى تناقض معجزته وتنافيها، فلا تجتمع المعجزة وعدم صدقه فيما يبلغه عن ربه لأمته؛ لأن إجراء الله المعجزة على يده فى قوة قوله: إنه صادق فيما يبلغكم عنى ودلالتها على ذلك دلالة التزامية فى قوة المطابقة، كما تقرر فى علم الكلام، فلا فرق مثل الصبح ظاهر.

(وأما السهو فى الأفعال فغير مناقض لها)، أى للمعجزة، **(ولا قادح فى النبوة)**، أى لا يضرها بوجه من الوجوه لعدم منافاته لها، **(بل غلطات الفعل)**، أى وقوع الغلط فى الأفعال، **(وغفلات القلب)**، عما يفعله حتى يصدر عنه ما لم يرده، **(من سمات البشر)**، أى من صفاتهم اللازمة لهم حتى لا يخلو عنها إنسان كما قيل:

وإنما سمى إنسانًا لنسيانه ... وأول ناس أول الناس

(كما قال، صلى الله تعالى عليه وسلم) فى حديث رواه الشيخان، عن ابن مسعود: **(إنما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكرونى)**، جملة أنسى مستأنفة أو خبر بعد خبر؛ لأنا أوصفة بشر وضمير المتكلم يربطه، وأما كونه يقبح كما فى قوله:

أنا الذى سمتنى أمى حيدرة

عند المازنى، فلأنه ليس محل الالتفات، لا لأنه لا يكون رابطًا، فلو صح هذا لم يجز كونه خبرًا أيضًا، وظاهر الحديث يدل على أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يجوز عليه النسيان والسهو مطلقًا، وحاصل ما أشار إليه أولاً وآخر، أن ما أفاده ظاهر الحديث قد منعه بعضهم وجوزه آخرون بشرط أن لا يقر عليه وينبه عليه كما يأتى.

واختلف هل يجوز تأخير تنبيهه أم لا، وضعفوا جواز السهو عليه فيما هو فعل من

الأمور البلاغية، وأجابوا عما ورد من مثله وصححوا الأول، وهو الجواز؛ لأنه لا ينافى النبوة، بل فيه فضيلة البيان وتقرير الأحكام، واختلفوا فيما ليس طريقه البلاغ من أفعاله، فجوزه الجمهور، وأما فى الأقوال البلاغية، فمجمع على منعه كما أجمعوا على منع تعمده، وأن السهو فى الأقوال المتعلقة بأمور الدنيا فيما ليس طريقه البلاغ، ولا من الأحكام وأخبار المعاد.

وما لا يضاف لوحى، فجوزه بعضهم إذ لا مفسدة فيه، وصحح المصنف، رحمه الله تعالى، منعه على الأنبياء فى كل خبر عمدًا وسهوًا، لا فى صحة ولا فى مرض ولا رضى أو غضب و لم يزل الناس يتداولون أخباره، صلى الله تعالى عليه وسلم، عصرًا بعد عصر من غير استدراك أحد لغلط فيها أو وهم فى شيء منها، ولو كان لنقل كما نقل فى الصلاة ونومه عنها، واستدراك رأيه فى تلقيح النخل وسهوه فى أمور الدنيا غير ممتنع.

وهذا الحديث رواه الشيخان فى باب السهو فى الصلاة، وأنه قاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد صلى الظهر خمسًا، ثم سجد سجدتين وأقبل بوجهه على الصحابة، وقال: «لو حدث شيء فى الصلاة أنبأتكم به، ولكن إنما أنا بشر...»[1] إلى آخره، **(نعم)** العرب كثيرًا ما تزيد نعم فى كلامهم إذا ألقى المصغ له، وكأنه جواب سؤال مقدر كقول جحدر

نعم وأرى الهلاك كما تراه

(بل فى حالة السهو والنسيان هنا)، أى فى حالة البلاغية **(فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، سبب إفادة علم)** تستفيده منه أمته، **(وتقرير شرع)**، أى تحقيقه وتبيينه، **(كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى حديث رواه فى الموطأ: **(إنى لأنسى، أو أنسى)**، بالهمزة المضمومة والتشديد، مبنى للمجهول للعلم بفاعله، أى ينسينى الله ويوجد النسيان فى **(لأسن)**، أى لا حدث لكم أمرًا شرعيًا كتعليم سجود السهو ونحوه.

(بل قد روى) هذا الحديث بوجه آخر، وهو: **(لست أنسى، ولكنى أنسى لأسن)**، الأول بفعل المتكلم المعلوم المخفف، والثانى بمجهول مشدد، ويأتى أنه لا تنافى بين نسبة النسيان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الرواية الأولى ونفيه عنه فى الحديث الآخر؛ لأن نسبته إليه باعتبار حقيقة اللغة ونفيه عنه باعتبار أنه ليس موجدًا له حقيقة، والموجد الحقيقى هو الله، كما يقال: مات زيد، وأماته الله، وفرق بين الفاعل الحقيقى بحسب عرف اللغة والفاعل الحقيقى فى نفس الأمر، كما قرره الأصوليون، وتحقيقه فى شرح

---

(١) تقدم تخريجه.

العضد للأبهرى، فحيث أثبت له النسيان أراد قيام صفة النسيان به ونفيه باعتبار أنه ليس بإيجاده، ومن مقتضى طبعه والموجد له هو الله.

وقوله فى حديث آخر: «لا يقولن أحدكم نسيت آية كذا، بل هو نسى»(١)، فكره نسبة النسيان لغير الموجد الحقيقى المقدر لكل شىء، أو لأن أصل النسيان الترك، فكره أن يقال: ترك القرآن، لإشعاره بالتهاون اختيارًا، وقوله: نعم... إلخ، استدراك عما قد يسئل عنه بأن نسيانه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليس كنسيان غيره لما يترتب عليه من الفوائد الجليلة وتسويته بهم فى الحديث باعتبار ظاهر الحال.

وإليه أشار بقوله: (**وهذه الحالة**)، أى ما يعرض له، صلى الله تعالى عليه وسلم، من النسيان ليسن، (**زيادة له**) مخصوصة به، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**فى التبليغ**) للناس، ولما يحصل لهم من تعلم ما يفعله الساهى فى العبادة من أمته، (**وتمام عليه فى النعمة**) بتتميم نعمة الرسالة والبلاغ ببيان حال الساهين فيما بلغه لهم من العبادة، فهى (**بعيدة عن سمات النقص**)؛ لأن النسيان نقص فى الجملة ولذا عده الأطباء من الأمراض الدماغية، وهى فى حقه باعتبار ما فيها من عبارة الإرشاد للعباد، ولذا قال بعض مشايخنا من الحنفية: إن هذه السجدة سجدة سهو للأمة وسجدة شكر له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومدح وإن لم يمدح بها سواه ككونه أميًا وتربى يتيمًا كما قال البوصيرى، رحمه الله تعالى(٢):

كفاك بالعلم فى الأمى معجزة   وبالنزاهة والتأديب فى اليتم

(و) بعيدة عن (**اعتراض الطعن**)، أى ولا يتعرض ولا يطعن فيه بما يعرض له من النسيان وعلله بقوله: (**فإن القائلين بتجويز ذلك**)، أى السهو والنسيان على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فى الأفعال البلاغية، (**يشترطون**) فى جوازه عليهم (**أن الرسل لا تقر على السهو والغلط، بل ينبهون عليه**)، إذا عرض لهم (**ويعرفون**) بالتشديد والبناء للمجهول فيه وفى ينبهون، (**حكمه**) كان الظاهر يعرفونه؛ لأنه أخصر وأظهر، فكأنه أقحمه إشارة إلى أنه كما يعرف بصدوره عنه يعرف بحكمه كالسجود، فالمعرف هو الله.

(**بالفور**)، أى ملتبسًا بالفور، وهو عدم التمهل والبطء، (**على قول بعضهم، وهو**

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٠/٢٣٩)، وأورده الزبيدى فى الإتحاف (٧/٥٧٧).

(٢) البيت من البسيط، وهو فى ديوان البوصيرى (ص١٧٢)، وفيه: «فى الجاهلية» بدلاً من: «وبالنزاهة».

الصحيح)، عند أئمة الأصول، **(وقبل انقراضهم)**، أى يمهلون مدة الحياة، فإنه يلزم التنبيه قبل الموت، وهو معنى الانقراض، **(على قول الآخرين)** الذين لا يشترطون الفورية.

(وأما ما ليس طريقه البلاغ)؛ لأمته **(ولا بيان الأحكام)** الشرعية **(من أفعاله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وهو بيان لما **(وما يختص به من أمور دينه وأذكار قلبه)**، كتسبيحه وتحميده لربه، وتفكره فى معرفته **(مما لم يفعله ليتبع فيه)**، مبنى للمجهول ومشدد التاء، **(فالأكثر من طبقات علماء الأمة)**، الطبقة علماء كل عصر، فهم طبقة بعد طبقة، **(على جواز السهو والغلط عليه فيها)**، إذ لا يلحقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، به شيء أصلاً، **(ولحوق الفترات)**، أى عروضها، جمع فترة، وهى كما قال الراغب: سكون بعد حدة، ولين بعد شدة، وضعف بعد قوة. انتهى. **(والغفلات بقلبه)**، بأن يغفل عما هو فيه، كما هو مقتضى البشرية.

(وذلك)، أى لحوق ما ذكر من الفترة والغفلة لا ضير فيه، **(بما كلفه من مقاساة الخلق)** بنظره، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى أحوالهم وتدبير أمورهم، **(وسياسات الأمة)**، بتدبير أمورهم والنظر فى عواقبهم، **(ومعاناة الأهل)**، من العناية أو العناء بهم، ومعناه الاشتغال بهم، **(وملاحظة الأعداء)** بغزوهم والحذر منهم والتجسس عن أخبارهم.

ثم استدرك، فقال: **(ولكن ليس)** نسيانه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(على سبيل التكرار)**، بكثرة وقوعه منه، **(ولا الاتصال)** باستمرار؛ ذلك لأن مثله غير محمود عند الطباع السليمة، **(بل)** وقوعه منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(على سبيل الندور)** وقلة الوقوع، والنادر لا حكم له، وقلما يخلو منه أحد.

(كما قال، صلى الله تعالى عليه وسلم) فى حديث تقدم: **(إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله)**، تقدم طرف من الكلام على هذا الحديث، وأن الغين بمعجمة، غيم رقيق، وأن المراد به ما يعرض له، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الخواطر التى تشغله عما يهمه من أمور الآخرة، وهو عبادة أيضًا؛ لأنه تفكره فى أمور أمته وتدبير أحوالهم، وإنما استغفر منه؛ لأنه شغله عن الأهم عنده، فهو بالنسبة لعظيم مقامه كأنه ذنب؛ لأنه اشتغال بالعالى عن الأعلى، فهو حالة كمال لا نقص.

(وليس فى هذا) السهو الصادر منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(شيء يحط)**، أى ينزل قدره الأعلى، **(من رتبته)** وعظمة مقامه، **(ويناقض معجزته)** الدالة على صدقه، عليه الصلاة والسلام، **(وذهبت طائفة)** من العلماء، أى جعلوا هذا مذهبًا، أى معتقدًا لهم،

وليس هذا من الذهاب ضد الرجوع، وإن كان أصل معناه المنقول منه، (**إلى منع**) صدور (**السهو والنسيان والغفلات والفترات فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، جملة**)، أى كلها لا يستثنى منها شىء أصلاً.

(**وهو مذهب جماعة المتصوفة**)، أى أهل التصوف، (**وأصحاب علم القلوب**)، هو عطف تفسير له، وهم الذين صفوا قلوبهم بالمجاهدة، لا متكلفو طريقة التصوف؛ لأن هذه الصيغة قد يراد بها المبالغة، كالمتوحد فى صفات الله تعالى، (**والمقامات**)، أى المراتب التى يعرفها مشايخهم ويقطعونها فى سيرهم إلى الله، وتقدم الكلام عليهم مبسوطًا، (**وهم**)، أى العلماء (**فى هذه الأحاديث**) المروية فى السهو والنسيان، (**مذاهب**)، أى أقوال يعتقدونها، (**نذكرها بعد هذا إن شاء الله تعالى**).

* * *

(فصل فى الكلام على الأحاديث المذكور فيها السهو)

الواقع (**منه، عليه الصلاة والسلام**) فى أفعاله، (**وقد قدمنا فى الفصول**) السابقة (**قبل هذا**) الفصل (**ما يجوز فيه عليه السهو، وما يمتنع، وأحلناه**)، أى جعلناه محالاً فيما طريقه البلاغ (**فى الأخبار**)، وما هو من قبيل الأقوال (**جملة**) من غير استثناء لشىء منها، (**وفى الأقوال الدينية**)، أى التى ذكر فيها الأحكام الشرعية (**قطعًا**) من غير تردد، (**وأجزنا وقوعه فى الأفعال الدينية على الوجه الذى رتبناه**) متصلاً قبل هذا، من أنه غير مناقض للمعجزة، وعدم قدحه فى النبوة مع ندرته، وما يترتب عليه من إفادة علم وتقرير حكم.

(**وأشرنا إلى ما ورد فى ذلك، ونحن نبسط القول فيه**) فى هذا الفصل، (**والصحيح من الأحاديث الواردة فى سهوه**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**فى الصلاة ثلاثة أحاديث**)، فمنها، وهو (**أولها: حديث ذى اليدين فى السلام**) قطعًا لصلاته (**من اثنتين**)، أى ركعتين فى الظهر أو العصر، وما قاله ذو اليدين هو المقدم كما تقدم. وقال المصنف فى الإكمال: أحاديث السهو كثيرة، الصحيح منها خمسة... إلخ، وقد قدمنا الكلام على حديث ذى اليدين.

(**الثانى: حديث ابن بحينة فى القيام من اثنين**)، بحينة، بباء موحدة مضمومة، وحاء مهملة، وبعدها مثناة تحتية، ونون بصيغة التصغير، وهو عبد الله بن بحينة، وبحينة أمه، وهى بحينة زوجة مالك والد عبد الله الأزدى، وعبد الله هذا حليف بنى المطلب، أسلم هو وأبوه، ولهما صحبة، وأنكر الحافظ الدمياطى صحبة مالك والد عبد الله، وأن يكون له رواية وإسلام، وإنما ذلك لعبد الله.

وفى تجريد الذهبى: مالك بن بحينة أبو عبد الله، روى عنه حديث، وصوابه عبد الله الأزدى، وأمه بحينة، قريشية، وبحينة أم عبد الله زوج مالك لا أم مالك، وفى أطراف المزى من مسند مالك بن بحينة حديث: «أيصلى الصبح أربعًا»، وحديث السهو فى الصلاة فى مسند مالك بن بحينة. وفى الكاشف: مالك بن بحينة الصحابى، له فى السهو، وروى عنه ابن حبان. وقال النسائى: هذا خطأ، وصوابه عبد الله بن مالك.

(**الثالث: حديث ابن مسعود**) الذى رواه الشيخان عنه مسندًا، وهو (**أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، صلى الظهر خمسًا**)، فقيل له: أزيد فى الصلاة؟ فقال: «وما ذاك؟»، قالوا: صليت خمسًا، فسجد بعدما سلم، وليس قوله: بعدما سلم فى رواية البخارى، وأخرج مسلم من حديث الأعمش ومنصور بن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: صلى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال إبراهيم: زاد أو نقص، الشك منى، فلما سلم قيل له: يا رسول الله، أحدث فى الصلاة شىء؟ قالوا: صليت كذا وكذا، فثنى رجليه واستقبل القبلة، فسجد سجدتين، ثم سلم وأقبل علينا بوجهه، فقال: «إنه لو حدث فى الصلاة شىء أنبأتكم به، ولكن إنما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكرونى، وإذا شك أحدهم، فليتحر الصواب وليتم، ثم ليسجد سجدتين»[1].

وفى الحديث دليل على تداخل سجود السهو، وأما كونه بعد السلام أو قبله، فقد وقع فيه اختلاف بين الفقهاء كما اختلفت الرواية فيه، وقيل: سجود النقص قبل السلام، وسجود الزيادة بعده، وهو معنى ما قيل: القاف بالقاف والدال بالدال.

(**وهذه الأحاديث**) التى ذكرها المصنف، (**مبنية على السهو فى الفعل**)، أى أن ما طرأ فيها وقع فى فعله لا فى قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**الذى قررناه**) فيما مر قريبًا، (**وحكمة الله فيه**)، أى أوجده الله فيه لحكمة، ولو شاء صانه عنه، وهى أنه إنما أوجده (**ليستن**)، أى ليبين للأمة حكمة شرعًا، (**به**)، أى بسبب فعله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فالسنة هنا بمعنى الطريقة.

ثم أشار إلى جواب سؤال تقديره: إن هذه الحكمة تحصل ببيانه بالقول بأن يقول: من سها فى صلاته فليفعل كذا من غير وقوع سهو فى فعله، فقال: (**إذ البلاغ بالفعل أجلى**)، بالجيم أفعل تفضيل، أى أظهر (**منه بالقول**)، وأظهريته لمشاهدة فعله، وكيفيته فى زمن قليل، ولو قرره بكلامه احتاج لتفصيل، ولا وجه لما قيل أن فيه خللاً فى صلاته

---

(١) تقدم تخريجه.

بزيادة أو نقص، بخلاف وجوده بالقول، إذ عصمه الله عنه، فالحكمة إنما هى لبيان أن هذا السهو إنما هو من صفات البشر، فإذا وقع من مثله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فغيره أقبل له، كما قال: ﴿**لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى**﴾ [طه: ٥٢]، وكقولهم: سبحان من لا ينسى ولا يغفل، وهذا مما استأثر به الله.

(وأرفع للاحتمال)؛ لأنه لو قال: من سها فليسجد سجدتين فى آخر صلاته، احتمل أن يكون أراد من سها فى أمر من أموره، سواء كان سهوًا فى نفس الصلاة أو فى غيرها، **(وشرطه)**، أى شرط جواز السهو على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فى أفعالهم البلاغية، **(أن لا يقر)**، بالبناء للمفعول، **(على هذا السهو)**، أى لا يجعله الله قارًا عليه من غير إعلامه بما صدر منه من زيادة أو نقص، **(بل يشعر به)**، مجهول، أى يعلمه الله به بواسطة المنبه له؛ **(ليرتفع الالتباس)**، أى الالتباس الحاصل لمن يراه، هل هو سهو أو نسخ لما كان؟.

(وتظهر فائدة الحكمة فيه) ببيان ما يلزم من سها، **(كما قدمناه)** قريبًا، **(فإن السهو والنسيان فى الفعل فى حقه)**، أى بالنسبة إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا صدر وتحقق منه، **(غير مضاد)**، أى ليس ضدًا منافيًا، **(للمعجزة)** المثبتة لنبوته، وأما السهو فى القول البلاغى، فينافيها؛ لأنها فى قوة قول الله: إنه صادق فى كل ما يخبركم به عن ربه، فينافيها إخباره بما يخالف الواقع، ودلالة المعجزة على صدقه فى مقاله دون أفعاله، وفى إثبات ذلك كلام فى علم الكلام، وشبه لمنكرى النبوات أجيب عنها بما لا يسعه هذا المقام.

(ولا قادح فى التصديق)، أى تصديق من آمن به، صلى الله تعالى عليه وسلم، من أمته، والأول بالنظر للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، نفسه، وهذا بالنظر لمن بلغه النبوة، **(وقد قال، صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى الحديث الذى تقدم بيانه: **(إنما أنا بشر، أنسى كما تنسون، فإن أنسيت فذكرونى)**، أى نبهونى على سهوى أو نسيانى، وقد تقدم بيانه مفصلاً، فتذكره.

(و) قد **(قال، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، فى حديث رواه الشيخان، عن عائشة، رضى الله تعالى عنها: **(رحم الله فلانًا)**، وهو كناية عن علم لم يرد التصريح به، وهذا الرجل هو عباد بن بشر الصحابى، وقيل: هو عبد الله بن يزيد الأنصارى، رضى الله تعالى عنه، قالت عائشة: سمع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، صوت قارئ يقرأ، فقال: «من هذا؟»، قالوا: عبد الله بن يزيد، فقال: «رحمه الله، **(لقد أذكرنى كذا وكذا**

آية كنت أسقطتهن)، أى تركت تلاوتهن سهوًا منى، **(ويروى أنسيتهن)**، وهذا تفسير للرواية الأولى؛ ولذا ذكرهما المصنف، رحمه الله تعالى، ولم يعين إحدى الآيات التى نسيها، ولا عددها ولا سورتها؛ لأن كذا وكذا فيه خلاف للفقهاء فى باب الإقرار فيما لو قال له: علىّ كذا وكذا درهمًا، معطوفًا، فقيل: يلزمه أحد وعشرون، وقيل: درهمان، وليس هذا محله.

(و) قد **(قال، صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى الحديث الذى رواه فى الموطأ كما تقدم: **(إنى لأنسى)**، بزنة ألقى، مخفف معلوم، **(أو أنسى)**، بالتشديد وبناء المجهول، أى ينسينى الله **(لأسن)**، وتقدم بيانه. **(قيل: هذا اللفظ)** المذكور هنا معطوفًا بأو الفاصلة، **(شك من الراوى)** لا من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وغير الشك من معانى أو غير مراد هنا، **(وقد روى)** الحديث: **(إنى لا أنسى)**، بلا النافية بعد لام التأكيد، **(ولكن أنسى)**، بصيغة المجهول المشدد، **(لأسن)**، قيل: نسبة النسيان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما كان بسبب منه، ونسبته إلى الله فيما لا دخل له فيه، وهذا لا ينافى كون النسيان غفلة لا فعل من أفعاله كما توهم.

(وذهب ابن نافع)، بنون، وفاء بعد الألف، وعين مهملة، وهو عبد الله ابن الصائغ المالكى، وليس هو قانع، بقاف، ونون، وهو تحريف من الناسخ ظنه بعضهم رواية، وهو مع أشهب، يقال لهما: القرينان، كما يقال لمطرف وابن الماجشون: الأخوان، كما قاله ابن مرزوق، **(وعيسى بن دينار)**، الفقيه، الزاهد، العابد، الطليطلى، الذى تفقه به أهل الأندلس، وأخذ الفقه عن ابن القاسم، وتوفى بطليطلة سنة اثنتى عشرة ومائتين، **(إلى أنه ليس بشك)** من الراوى، **(فإن معناه التقسيم، أى أنسى أو ينسينى الله)**، ليس معناه أنه بحسب الظاهر منسوب له، وفى الحقيقة فعل الله، بل المراد أنه قد يكون بسبب تعاطاه أو بدونه؛ لحكمة أرادها الله كما تقدم.

(قال القاضى أبو الوليد الباجى:)، بموحدة وجيم كما تقدم، **(يحتمل)**، لفظ الحديث، **(ما قالاه)**، أى ابن دينار، (و) احتمالاً آخر، وهو **(أن يريد: إنى أنسى فى اليقظة)**، بفتحتين وتسكينه لحن فى غير الضرورة كما مر ضد النوم، وهذا معنى النسيان المنسوب إليه بصيغة المضارع المخفف المبنى للمعلوم، **(وأنسى)**، بصيغة المجهول المشدد، **(فى النوم)** الذى هو حالة تمنع الحس والفعل الاختيارى، فأطلق على عدم الإدراك فى النوم نسيانًا؛ لاشتراكهما فى عدم الإدراك، ولا يخفى بعده وركاكته، وأما كونه صلى الله تعالى عليه وسلم كان إذا نام لا ينام قلبه، وأن نومه ويقظته سواء، فلا يأباه كما توهمه بعضهم.

(أو) المراد بقوله: (**أنسى**)، بالمعلوم ما هو، (**على سبيل عادة البشر**)، المجبول عليها طبائعهم، (**من الذهول عن الشيء**)، إذا غفل عنه، (**والسهو**) عما هو بصدده؛ لعروض ما يشغل باله عنه، (**أو أنسى**)، بالمجهول المشدد، معناه ذهوله عنه، (**مع إقبالى عليه**) بمشاهدته أو تلبسه به، (**وتفرغى له**)، بإعراضه عن غيره، لكن ينسيه الله ما هو فيه، بتخليه له عن الشاغل عن ما سواه، ثم وضحه وفصله بقوله: (**فأضاف أحد النسيانين**)، بقوله: «أنسى»، المعلوم، (**إلى نفسه**)؛ لأن تقديره: أنسى أنا، (**إذا كان له بعض التسبب فيه**) بمباشرة ما هو، كالسبب المفضى إليه، (**ونفى الآخر عن نفسه**)، إذا لم يسنده له، (**إذ هو فيه**)، أى فى حال التلبس به، (**كالمضطر**)، الملجأ لفعل ما، ولما كانت التنسية نسيانًا، جعلهما نسيانين، وقيل: إنه تغليب، ولا حاجة له مع وجود المعنى الحقيقى.

(**وذهبت طائفة من أصحاب المعانى**)، الذين تقيدوا ببيان معانى الحديث وشرحه، كالبغوى والخطابى، فقوله: (**والكلام على الحديث**)، عطف تفسير لما قبله، (**إلى أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يسهو فى الصلاة ولا ينسى**)، بناء على الفرق بين السهو والنسيان، فإن منهم من قال: إنهما بمعنى، ومنهم من فرق بينهما كما قاله الحافظ العلائى كما مر، وقال: السهو جائز فى الصلاة على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، بخلاف النسيان؛ لأن النسيان غفلة وآفة، والسهو إنما هو شغل بال، فكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يسهو فى الصلاة ولا يغفل عنها، فكان يشغله عن حركات الصلاة ما فى الصلاة كما تقدم، ويأتى بيانه.

قال: وهو ضعيف من جهة المعنى واللغة، فالأول ما ثبت فى الصحيحين من قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون»[(١)]، والثانى تسوية أئمة اللغة بينهما، إذ فسروهما بالغفلة وذهاب القلب عنهما، كما فى التهذيب والصحاح، والمحكم.

وقال الراغب: السهو خطأ عن غفلة، وهو على ضربين، ما لا يكون الإنسان فيه منسوبًا لتقصير، إذ لم يتعاط ما يولده، والثانى ما يتعاطى ما يولده، كما لو سكر وفعل منكرًا بلا قصد، وهذا هو المذموم، وفى النهاية السهو فى الشيء تركه عن غير علم، والسهو عنه تركه مع العلم، وهو فرق حسن يرجع لما قاله الراغب، وبه يظهر الفرق بين السهو فى الصلاة الذى وقع منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، غير مرة، والسهو عنه الذى ذم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥] انتهى.

---

(١) تقدم تخريجه.

وقد تبعه بعض الشراح، وأنا أقول: أما الفرق بينهما، فلا شبهة، فإن السهو غفلة يسيرة عما هو فى القوة الحافظة يتنبه له بأدنى تنبيه، والنسيان زواله عنها بالكلية، ولذا عده الأطباء من الأمراض دونه، إلا أنهم يستعملونهما بمعنى تسامحا منهم، وأهل اللغة لا يدققون النظر فى التعاريف اللفظية والإسمية؛ **(لأن النسيان)**، كما تقدم، **(ذهول)**، أى عدم علم وإدراك، **(وغفلة)**، أى أن يذهب عن فكره وإدراكه بالكلية، **(وآفة)**، أى مرض يصيب القوة المدركة بنقص فيها وفى صاحبها.

(قال:) الفارق بينهما، وأنه يسهو ولا ينسى، وفى نسخة: قالوا: **(والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، منزه عنها)**؛ لأنه نقص يخلقه الله تعالى، والأنبياء منزهون عنه، **(والسهو شغل)** بأمر يمنعه عن ملاحظة ما هو فاعله، وهو غير مذموم، بل قد يمدح كاشتغال المصلى بتجليات ربانية، **(فكان)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يسهو فى صلاته)** ولا ينساها، ويذهل عنها لاشتغاله بغيرها من أمور الدنيا، **(و)** إنما **(يشغله عن حركات الصلاة)**، لا عنها، **(ما فى الصلاة)** مما فيه قرة عينه، **(شغلاً بها)**، أى بسبب ما فيها من تجليات نورانية **(لا غفلة عنها)** بالكلية، ولذا أقحم حركات أولاً.

(واحتج) من منع النسيان عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بقوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى الرواية الأخرى)** لهذا الحديث: **(إنى لا أنسى)**، ولكن أنسى؛ لنفيه النسيان عنه وقد سهى، ومن سوى بينهما، يقول: إنما نفى النسيان إيماء إلى أن الفاعل الحقيقى هو الله تعالى، أو المراد: لا أنسى كما تنسون، كما تقدمت الإشارة إليه.

(وذهبت طائفة)، هم مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العلية، كما صرح به فى آخر الفصل الذى قبل هذا، **(إلى منع هذا كله)**، أى السهو والنسيان **(عنه)**، أى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لتنزهه عنه، **(وقالوا: إن سهوه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(كان)** صدوره منه **(عمدًا وقصدًا)**، لا غفلة وسهوًا ونسيانًا، وإنما قصده؛ **(ليسن)** كما تقدم.

(وهذا) القول بأنه عن قصد دون غفلة، **(قول مرغوب عنه)**، لا فيه؛ لأنه **(متناقض المقاصد)**؛ لأنه لو فعل فى صلاته ما فعل عمدًا بطلت وفسدت صلاته، فكيف يسن مما لا يجوز، وقيل: لمناقضة السهو العمد، واستحالة كونه عمدًا، **(لا يحلى منه بطائل)**، أى ليس فيه فائدة وكبير أمر، حتى يرتكب أموره المتخالفة المتناقضة له، ويحلى بفتح المثناة التحتية، وسكون الحاء المهملة، ولام مفتوحة، وألف. وقول البرهان: إنه بضم أوله وبالحاء المهملة، وهم منه؛ لأنه فى كتب اللغة كالأساس وأفعال السرقسطى وغيره أنه

يقال: ما حليت وما حلوت منه بطائل، أى ظفرت، ففعله ثلاثى ورد ماضيه كعلم وضرب، وكذا هو فى شروح التسهيل فى الخطبة، والطائل بمعنى الفائدة، يقال: هذا لا طائل تحته، أى لا فائدة يعتد بها، وهذا الفعل، أعنى حلى، قيل: إنه يختص بالنفى، وهو المشهور.

وصرح ابن السيد بخلافه، ثم بين تناقضه بقوله: (**لأنه كيف يكون**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**متعمدًا ساهيًا فى حال**) واحدة؛ لأن بينهما من التضاد ما يمنع اجتماعهما، (**ولا حجة لهم فى قولهم: إنه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**أمِر**)، أى أمره الله، (**بتعمد صورة النسيان**)، وليس بناس؛ (**ليسن**) لهم ما يترتب عليه؛ (**لقوله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الحديث الذى تقدم قريبًا: (**إنى لا أنسى أو أنسى لأسن، فقد**)، وفى نسخة: وقد، بالواو الحالية، (**أثبت**) فى هذا الحديث له، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**أحد الوصفين**)، يعنى النسيان والسهو الذى نفاها هؤلاء القائلون بما ذكر، وقيل: المراد بالوصفين النسيان من قبل نفسه أو من قبل ربه، (**ونفى مناقضته**) بإضافته للضمير، (**التعمد والقصد**)، مفعول نفى، ونفيه يفهم من إثبات ضده الذى لا يجتمع معه.

(**وقال: إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكرونى**)، ويجوز أن يكون النفى يفهم من الحصر بإنما قيل: ما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، من إبطال هذا القول فى غاية الظهور، وأنه لا يتخيله إلا معذور، وكيف يتعمد ما صورته تخل بعبادته مع إمكان البيان بالقول. انتهى.

أقول: هو كما قال، لكن ما تقدم عن السادة الصوفية يمكن توجيهه، (**وقد مال إلى هذا**) القول بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أمِر بتعمد النسيان، (**عظيم**)، أى كبير، فإن العظيم يكون بمعنى الزيادة فى القدر والكم كالكثير، والمراد الأول، (**من المحققين من أئمتنا**)، أى الأشعرية، لا الفقهاء المالكية كما قيل، فإن هذا العظيم الذى ذكره، (**وهو أبو المظفر الإسفرائنى**)، شافعى، كذا فى الشرح الجديد، بناء على أن أبا المظفر هو أبو إسحاق إبراهيم، وأن المصنف، رحمه الله تعالى، كناه بذلك بغير كنيته المشهورة، والذى يظهر أن الأول هو الصوات، وهذه مجازفة من قائلها.

(**ولم يرتضه غيره منهم**)، أى لم يقل بهذا القول أحد غير أبى المظفر؛ لأنه كيف يؤمر بتعمد ما يبطل الصلاة من غير ضرورة، (**ولا أرتضيه**)؛ لأنه بعيد عن الصواب بمراحل، (**ولا حجة لهاتين الطائفتين**) القائلين بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يسهو ولا ينسى، وبأن سهوه عمد وقصد، (**فى قوله**) فى الحديث: (**إنى لا أنسى**)، بالنفى فى إحدى

الروايتين، كما تقدم تفصيله، (**ولكن أنسى**)، بالتشديد كما بيناه، (**إذ ليس فيه**)، أى فى الحديث على هذه الرواية، (**نفى حكم النسيان بالجملة**)، أى جميعه بأن لا يصدر منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، نسيان أصلاً، وكأنه أراد بحكمه معناه بقرينة قوله: (**وإنما فيه نفى لفظه**)، بإطلاق إسناده له، وما قيل: المراد النسيان الذى هو حكم بمعنى مدلول لفظه، والإضافة بيانية تعسف.

(**وكراهة لقبه**)، هو بمعنى اسمه ولفظه المستعمل فيه، وليس المراد به أحد أقسام العلم، وهذا على مصطلح الأصوليين، (**كقوله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث مشهور: (**بئس ما لأحدكم**)، وبئس من أفعال الذم، فاعله ضمير مستتر مفسرة ما، وقوله: (**أن يقول: نسيت آية كذا**)، هو المخصوص بالذم، ونسيت مخفف مسند لضمير المتكلم، (**ولكنه نسى**)، مجهول مشدد، ورواه مسلم: نسى، مخففًا مع ضم النون، وكذا روى من طرق، فقد روى بتشديد السين وتخفيفها مع البناء للمفعول فيهما، فعلى التثقيل أنه تعالى خلق فيه النسيان، وعلى التخفيف معناه أن ناسى القرآن نسيه الله، أى تركه لا يلتفت له، كقوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]، فأشار إلى أنه لا ينبغى أن ينسب فعلاً لنفسه وينسبه لخالقه تأدبًا، وإن جار؛ لأنه كسبه فالذم لهذا، فهو عام فى كل فعل، أو هو لما فيه من عدم الاعتناء بالقرآن؛ لأن نسيانه لتركه تعهد تلاوته، فهو مخصوص بالقرآن، واختاره القرطبى.

وقيل: النسيان المذموم هنا بمعنى الترك، وقيل: فاعل نسيت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى لا يقل أحد عنى أنى نسيت آية، فإن الله هو الذى أنسانى ما نسخه ليس بصنعى. وقال الخطابى: إنه مخصوص بعصر النبوة، فإنهم إنما ينسيهم الله ما قدر نسخه.

(**أو نفى**)، مصدر معطوف على نفى لفظه، أى إنما فيه نفى، (**الغفلة وقلة الاهتمام**)، بجره معطوفًا على الغفلة، (**بأمر الصلاة**)، فأريد به نفى لازمه، (**عن قلبه**)، متعلق بنفى: فلا أنسى، بمعنى لا يغفل قلبى عن عبادة ربى وتوجهى إليه، (**لكن شغل بها**)، أى بالصلاة وما فيها من التجليات، (**عنها**)، أى عن بعض أعمالها، وعدد ركعاتها، (**ونسى بعضها**)، من أركانها الظاهرة، (**ببعضها**) مما يشاهده فيها، وتدبر ما يتلوه فيها، وما قيل: أن هذه مرتبة لا تليق بأرباب التمكين الذين لا تعوقهم أمورهم الباطنة عن أدب الظاهر، كان عليه أن يتأدب بتركه، ومثله من زخرف الاصطلاحات، لا يجرى فى مقامات النبوة.

(**كما ترك**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**الصلاة**) الثابت فى حديث الصحيحين (**يوم**

الخندق حتى خرج وقتها)، أى وقت الصلاة المعين لها فى كتب الفقه، وهذا نظير لما هو فيه لا مثال له كما بينه بقوله الآتى، فشغل بطاعة عن طاعة، وهذه تسمى غزوة الخندق وغزوة الأحزاب؛ لأنه صنع فيها خندق برأى سلمان الفارسى، رضى الله تعالى عنه، وتجمع فيه طوائف كثيرة كما هو مشهور فى السير، والخندق معرب كندة، بمعنى حفير، كانت سنة أربع، وقيل: سنة خمس على ما بينوه، واختلفوا فى سبب الاختلاف فيه على أقوال، منها أنهم لما أرخوا من الهجرة، وجعلوا رأس السنة المحرم، جعله بعضهم محرم سنة الهجرة، وبعضهم المحرم الذى بعده، فتفاوت ذلك بسنة.

(وشغل بالتحرز من العدو عنها)، أى عن الصلاة التى دخل وقتها حتى خرج؛ لأنه يخشى من هجوم العدو عليهم، وهم فى الصلاة غير مستعدين للحرب، ولم تكن صلاة الخوف شرعت لهم حينئذ، **(فشغل بطاعة)**، وهى حفظ المدينة، وأرواح المؤمنين من بغتة العدو، **(عن طاعة)**، وهى أداء الصلاة فى الوقت، وتلك أهم باعتبار حقوق العباد، إذ لو فاتت، لم يكن تداركها بخلاف هذه، وهذا تنظير لشغل عبادة عن عبادة، وإن لم تكن منها لا للسهو، والمنهى عنه اشتغاله عن العبادة حتى ينساها، فلا يرد عليه أنه يلزمه وقوع سهوه فى أفعال العباد، وهذه واقعة حال قدم فيها الأهم، ولم يكن ناسيًا، وإنما بدأ بدرء المفسدة، الذى هو أهم من جلب المصلحة، وكان هذا عذرًا فى تأخير الصلاة قبل مشروعية صلاة الخوف، على أنه قيل: إنه سهو أيضًا، فعلى هذا، لا يتجه عليه شىء.

(وقيل:) القائل له ابن مسعود، كما رواه الترمذى، والنسائى، **(إن الذى ترك)**، بالبناء للفاعل أو المفعول، أى تركه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يوم الخندق أربع صلوات)**، خبر أن **(الظهر والعصر والمغرب والعشاء)**، بدل منه، وما قيل من أنه يجوز نصب أربع، لترك على مذهب سيبويه لا وجه له هنا، والصحيح ما فى الصحيحين من أنها صلاة العصر، وفى الموطأ أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فاتته صلاتين، الظهر والعصر. وقال النووى: يجمع بين الروايات بالخندق كانت فى أيام، وتعدد تركه للصلاة فيها، وقيل: إن تأخيرها كان نسيانًا.

واستدل رواة أحمد أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، صلى المغرب يوم الأحزاب، فلما سلم، قال: «هل علم رجل مسلم أنى صليت العصر؟»، قالوا: لا، فصلاه، ثم صلى المغرب[1]، إلا أنه ضعف روايته، وهذا كان قبل نزول صلاة الخوف كما مر، والحديث

(١) أخرجه أحمد (٤/١٠٦)، وابن عبد البر فى التمهيد (٦/٤٠٨، ٤٠٩)، وفى الاستذكار (١/١١٦).

مروى عن على، رضى الله تعالى عنه: لما كان يوم الأحزاب، قال النبى: «ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارًا كما حبسونا وشغلونا عن الصلاة الوسطى، حتى غابت الشمس»(١)، وبه استدل على أن الصلاة الوسطى صلاة العصر، وفيه اختلاف، وقد أفرد ذلك الحافظ بتأليف نفيس أوصل الأقوال فيه إلى نحو عشرة.

(وبه)، أى بتركه، صلى الله تعالى عليه وسلم، هذه الصلوات **(احتج من ذهب إلى جواز تأخير الصلاة فى الخوف، إذا لم يتمكن من أدائها)** فى وقتها **(إلى وقت الأمن)** من خوف العدو، **(وهو مذهب الشاميين)**، أى بعض علماء الشام وفقهائها المجتهدين والمحدثين، منهم الذين يرون أن صلاة الخوف كانت مشروعة قبل ذلك، **(والصحيح أن حكم صلاة الخوف)**، أى فرضيتها، **(كان بعد هذا)**، أى بعد غزوة الخندق، **(فهو ناسخ له)**، أى لجواز تأخير الصلاة عند الخوف، وهو مذهب أبى حنيفة والجمهور، وصلاة الخوف على طرقها التى ذكرها الفقهاء مختلف فيها، هل كانت مخصوصة بعصره، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو نسخت فى حياته، فلا تجوز الآن، أو حكمها باق إلى الآن؟ وهل تختص بالجماعة أم لا؟، والكلام عليه وعلى أدلته مفصل فى كتاب الآثار وشرحه للعينى، وليس مما يهمنا تفصيله هنا.

ثم استطرد لما يناسب ما هو فيه من تأخير الصلاة عن وقتها لعذر شرعى، وأورد عليه سؤالاً، فقال: **(فإن قلت: فما تقول فى نومه، صلى الله تعالى عليه وسلم؟)**، عن صلاته حتى خرج وقتها، كما أشار إليه بقوله: **(عن الصلاة يوم الوادى)**، كما رواه البخارى وغيره، والصلاة هى الصبح، والوادى بطريق مكة، وقيل: ببطن تبوك، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، عرس فيه، ووكل بلالاً بأن يقوم عنده ليوقظه إذا طلع الفجر، فأسند ظهره لراحلته فغلبه النوم ولم يوقظ رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى طلع الشمس، وكان أول من استيقظ أبو بكر، ثم عمر، رضى الله تعالى عنهما، فكبر حتى استيقظ رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم.

ولفظ البخارى، عن أبى قتادة، رضى الله تعالى عنه، قال: سرنا مع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليلة، فقال بعض القوم: لو عرست بنا يا رسول الله، فقال: «أخاف أن تناموا عن الصلاة»، فقال بلال: أنا أوقظكم، فاضطجعوا وأسند بلال ظهره لراحلته، فغلبته عيناه، فاستيقظ النبى وقد طلع حاجب الشمس، فقال: «يا بلال، أين ما

(١) أخرجه مسلم (٦٢٧/٢٠٢)، وأحمد (١١٣/١، ١٢٢)، وابن خزيمة (١٣٣٧)، وأبو عوانة (٣٥٥/١)، وعبد الرزاق (٢١٩٢)، وابن أبى شيبة (٥٠٣/٢)، والطبرانى (٣٨٤/١١)، والبيهقى (٤٦٠/١).

قلت؟»، قال: ما ألقيت علىّ نومة مثلها قط، فقال: «إن الله قبض أرواحكم حين شاء، وردها حين شاء، يا بلال، قم فأذن الناس بالصلاة»[1]، فتوضأ، فلما ارتفعت الشمس وابيضت، قام النبى فصلى، ومثله فى مسلم، وتقدم أيضًا لفظ البخارى فى رواية عمران ابن حصين.

(و) استشكل الحديث بأنه كيف يتأتى هذا والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قد قال)** فى حديث آخر: **(إن عينى تنامان ولا ينام قلبى)**، فكيف نام عن هذه الصلاة حتى قضاها؟ وهذا الحديث فى الصحيحين بطوله، وفيه أن عائشة، رضى الله تعالى عنها، قالت: تنام يا رسول الله قبل أن توتر؟ فقال: «تنام عينى ولا ينام قلبى»[2]، وكذا سائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، كما ورد أيضًا، ولذا ذهب كثير من أئمة الشافعية إلى أن نومه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا ينقض وضوءه، وسيأتى الكلام فيه، وقيل: إنه من خصائصه، ونقل عن النووى.

وأجاب عن تعارضهما بقوله: **(فاعلم أن للعلماء عن ذلك)** التعارض **(أجوبة، منها أن المراد بأن هذا)**، أى تيقظ قلبه فى نومه، **(حكم قلبه)**، أى حاله وصفته، **(عند نومه وغيبته)** عن الإدراك فى الجملة **(فى غالب الأوقات)**، أى فى أكثر أوقات نومه وغيبته بغين معجمة ضد الحضور. قال البرهان: وبينته مع ظهوره؛ لئلا يتصحف بعينيه تثنية عين باصرة، ورد بأنه معنى صحيح لا تحريف فيه، فإنه حينئذ معطوف على قلبه، أى هذا حكم قلبه، وحكم عينيه غالبًا، وهو متجه.

(وقد يندر)، أى يقل، والندرة أخص من القلة؛ لأنها القلة المفرطة جدًا، **(منه غير ذلك)**، بأن ينام عينه وقلبه، كنوم سائر الناس، **(كما يندر من غيره)**، أى يقل من غير النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(خلاف عادته)**، يحتمل أنه يريد خلافه لما يعتاده من أموره مطلقًا، ويحتمل خلاف عادته فى نومه بيقظة قلبه كالأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لكنه لا حكم له لندرته وعدم انضباطه.

(ويصحح هذا التأويل)، أى جعله مقيدًا بغالب أمره وما اعتاده، **(قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الحديث)** المذكور أولاً فى قصة الوادى، لا حديث: «إن عينى تنامان»، كما توهم كما تقدم فى الحديث الذى نقلناه، **(نفسه)**، أكده به؛ لئلا يتوهم إرادة جنس الحديث، **(إن الله قبض أرواحنا)**، قبض الأرواح غيبوبتها عن الحس؛ لأن الروح تفارق

---

(١) أخرجه البخارى (١/١٥٤)، والنسائى (٢/١٠٦)، والبيهقى (١/٤٠٤).

(٢) تقدم تخريجه.

البدن كما فى الموت، ولذا كان النوم أخا الموت.

(وقول بلال فيه)، أى فى الحديث المذكور كما مر من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أمره أن يوقظه، فغلبه نومه و لم يوقظه، فلما قال له: «أين ما قلت يا بلال؟»[(١)]، قال: **(ما ألقيت عليّ نومة مثلها قط)**، أى لم ينم نومًا ثقيلاً مثل نومته هذه، فهذا كله يدل على أنه استغرق فى نومه على خلاف معتاده؛ لأن قبض الروح يدل على عدم يقظة القلب، وما وقع لبلال أيضًا مخالف لمعتاده، والشاهد فيما قبله أو فيه أيضًا، فتأمله.

والحاصل أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان لنومه حالتان، والأغلب الأول، ثم بين وجه حاله المخالف لعادته بقوله: **(ولكن مثل هذا)** المخالف لمعتاده، **(إنما يكون منه)**، أى يقع له بإيجاد الله وخلقه، **(لأمر يريده الله)** مما يرضاه ويقدره، **(من إثبات حكم)** شرعى يبينه لمن طرأ عليه، وهو قضاء الصلاة، ووجوبه فورًا أو بدونه.

(وتأسيس سنة)، أى طريق من طرق الشرع يقتدى بها، ويستمر سلوكها، **(وإظهار شرع)**، وفى بعض النسخ: شرح، وهو تصحيف، **(كما قال)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى الحديث الآخر)** الوارد فى النوم عن الصلاة، **(لو شاء الله)** عز وجل **(لأيقظنا)** من منامنا قبل خروج الوقت، **(ولكن أراد الله)** بعدم إيقاظنا **(أن تكون)**، بتاء التأنيث والضمير للسنة المفهومة من السياق أن تكون سنة، **(لمن بعدكم)** من هذه الأمة، يقتدون بها فيقضون ما فاتهم من الصلاة، وهذه حكمة أن الله قوى النوم عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ونام قلبه على خلاف عادته لتظهر هذه السنة البديعة.

(الثانى) من الأجوبة عن هذا السؤال، أن معنى قوله: «لا ينام قلبى»، **(أن قلبه لا يستغرقه النوم)**، أى لا يستولى عليه، ولا يغطيه عن الإدراك، بحيث يغيب بالكلية عن إحساسه كالغريق والاستغراق فى كل شيء بلوغ نهايته، **(حتى يكون منه)**، أى من صاحب القلب **(الحدث فيه)** الضمير للنوم، أى يقع منه لشدة نومه حدث لا يشعر به من خروج شيء من أحد السبيلين بنقض وضوئه، **(لما روى أنه)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(كان محروسًا)**، أى محفوظًا فى نومه من أن يصدر عنه مثله، **(وأنه)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(كان ينام حتى ينفخ)** إذ النفخ بخاء معجمة، خروج النفس بشدة لها صوت يسمع، **(وحتى يسمع غطيطه)**، بالبناء للمجهول، والغطيط بغين معجمة كالخطيط بخاء معجمة، ترديد النائم صوتًا متواليًا مع نفسه، وهو معروف.

(ثم يصلى ولا يتوضأ)، أى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، محروس فى نومه عن

---

(١) تقدم تخريجه.

الحدث الناقض للوضوء، إقامة للمظنة فيه مقام المتنبه، ولولا ذلك لزمه الوضوء فيه كغيره من الناس، فعدم نوم قلبه عبارة عن عدم استغراقه فى نومه حتى لا يشعر بالحدث، فليس يقظة حقيقية كما فى الجواب الأول، فلا ينافى أنه لا يشعر بخروج الوقت لإفراط نومه، **(وحديث ابن عباس)**، رضى الله تعالى عنهما، المروى فى الصحيحين **(المذكور فيه وضوءه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(عند قيامه من النوم)** ليلاً مروى **(فيه نومه مع أهله)**، أى إحدى زوجاته، وهى فى هذا الحديث أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث خالة ابن عباس، رضى الله تعالى عنهم، وأهل أصل معناه الأقارب والأتباع، ثم أطلق على الزوجة إطلاقًا صار به حقيقة عرفية.

(فلا يمكن الاحتجاج به)، أى بحديث ابن عباس المذكور **(على وضوئه بمجرد النوم)**، أى بسبب النوم وحده؛ لكونه مع أهله، **(إذ لعل ذلك)** الوضوء لنقض وضوئه الأول، **(لملامسة الأهل)**، أى مسها من غير حائل، **(أم لحدث آخر)**، مما هو عند الشافعى من نواقض الوضوء، **(فكيف)** يظن أن حديث ابن عباس هذا يناقض ما تقدم من أن وضوءه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا ينقض بمجرد نومه ليقظة قلبه، **(وفى آخر)** هذا **(الحديث نفسه)** الذى رواه ابن عباس: **(ثم نام حتى سمعت غطيطه)**، تقدم بيانه وأنه يقال: خطيطه بمعناه، **(ثم أقيمت الصلاة، فصلى ولم يتوضأ)**، وهو صريح فى عدم نقض النوم للوضوء وحده، قيل: ولا حاجة لهذا أيضًا، فإن فى هذا الحديث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قام من نومه لقضاء حاجته، فوضوءه لانتقاضه بقضاء الحاجة لا لمجرد النوم، فالسؤال ساقط من وجوه عدة.

(وقيل:) فى الجواب أيضًا أن معناه **(لا ينام قلبه من أجل أنه يوحى إليه فى النوم)**، فإنه وسائر الأنبياء، عليه وعليهم الصلاة والسلام، رؤياهم وحى بلا شبهة، فمعنى قوله: «لا ينام قلبى»، أنه لا ينقطع عنه بنومه الوحى وأمر النبوة، وهذا لا ينافى استغراقه فى نومه وخروجه عن هذا العالم، ثم أشار لجواب آخر، فقال: **(وليس فى قصة الوادى)** ونومه فيه عن صلاته، **(إلا نوم عينيه)** بانطباق جفنيه، **(عن رؤية الشمس)**، وذلك إنما يدرك بحاسة البصر، وهى نائمة محجوبة عن الحس الظاهر، **(وليس هذا)**، أى رؤية الشمس **(من فعل القلب)**؛ لأنه إنما يدرك المعقولات دون المحسوسات، فلا منافاة بينهما كما مر، ولا حاجة إلى أن يقال: لعل، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان تحت خيمة تمنع الرؤية.

(وقد قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: إن الله قبض أرواحنا)، أى فى منامها كما تقدم، **(ولو شاء لردها إلينا)** بإيقاظنا من نومنا الذى كان قبل، **(فى حين غير هذا)**، أى فى وقت لم يوح إليه فيه شىء، ولم ير رؤياه التى هى وحى، وقوله: «فى حين...» إلخ

متعلق بقال لا من مقول القول كما توهم، وقد تقدم أن الروح تقبض فى المنام والممات، لكنها ترد فى الأول كما قال تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

قال على، كرم الله وجهه: فما رأته نفس النائم وهى فى السماء هى الرؤيا الصادقة دون غيرها، وفى الحديث: سُئل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: أينام أهل الجنة؟ فقال: «لا، النوم أخو الموت»[(١)]، (**فإن قيل: فلولا**) أنه كان (**عادته من استغراق النوم**) باستيلائه على حواسه وقلبه كغيره، (**لما قال**)، عليه الصلاة والسلام، (**لبلال**) كما ذكرناه فى أول الحديث الذى فى نومه بالوادى، (**اكلأ**)، بهمزة وصل فى أوله، وهمزة ساكنة فى آخره، أمر من الكلاءة، وهى المراقبة والحفظ (**لنا**)، أى النائمين منهم، (**الصبح**)، أى وقت طلوعه؛ لتوقظنا للصلاة، فلا تفوتنا كما سمعته قبل هذا، فهذا لا ينافى ما قاله من أنه لا يستغرق فى نومه لحد لا يشعر بما يحدث منه فيه من نواقض الوضوء.

(**فقيل فى الجواب:**) عن هذا السؤال (**إنه كان من شأنه**)، أى عادته، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**التغليس بالصبح**)، أى التبكير فيه، فيصليه بغلس، وهو ظلمة تخالط أفول ضوء الفجر فى آخر الليل، (**ومراعاة أول الفجر**)، أى مراقبته للنظر له فى أوله قبل انتشار الضوء بقرب الشمس من الأفق المرئى، (**لا تصح**) ولا تتيسر (**ممن نامت عيناه**)، سواء استغرق أم لا، ولو كان قلبه لا ينام، (**إذ هو**) أمر (**ظاهر يدرك بالجوارح الظاهرة**)، ولا دخل للقلب والحواس الباطنة فيه، (**فوكل**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**بلالاً**)، رضى الله تعالى عنه، أى أمره بأن لا ينام ويتقيد، (**بمراعاة أوله**)، أى مراقبته والنظر إليه، (**ليعلمه بذلك**)، أى بطلوع الفجر، (**كما لو شغل بشغل غير النوم**) فى يقظته (**عن مراعاته**)، أى مراعاة الفجر.

وقد قيل: إن هذا كله مبنى على أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان لا ينام نوم غيبة أصلاً، وهذا مما لا ينبغى، وفى هذا المقام أجوبة كثيرة عن تعارض الحديثين فى شروح الصحيحين تركناها خوف الإطالة المورثة الملالة.

(**فإن قيل: فما معنى نهيه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**عن قول: نسيت**) فى حديث: «لا يقولن أحدكم نسيت آية كذا»، وتقدم هذا الحديث بتمامه، والكلام فى معناه.

---

(١) أخرجه العقيلى فى الضعفاء (٣٠١/٢)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٤٤٩/٢)، وابن عدى فى الكامل (١٥٣٣/٤)، وابن أبى حاتم فى العلل (٢١٤٧)، وأبو نعيم فى الحلية (٩٠/٧).

(**وقد قال، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، وهى جملة حالية مبينة للسؤال فى تعارض نهيه عن قول: «نسيت»، مع قوله: (**إنى أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكرونى، وقال:**) فى حديث آخر قد تقدم، وفيه رحم الله فلانًا، (**لقد أذكرنى كذا وكذا آية كنت أنسيتها**)، بضم الهمزة، مبنى للمجهول من الأفعال، أى أنسانيها الله، وتقدم الكلام على هذا الحديث مفصلاً.

(**فاعلم أكرمك الله أنه لا تعارض فى هذه الألفاظ**) الواردة فى النهى عن ذلك، وغيره (**إنما نهيه عن أن يقال: نسيت آية كذا**)، فليس على ظاهره، إذ هو كلام صادق لا مانع منه شرعًا، (**فهو محمول على ما نسخ حفظه**)، أى لفظه وتلاوته، (**من القرآن**)، وفى نسخة نقله بنون وقاف بدل حفظه، والمعنى واحد، وعلى هذا فمعنى «لا يقل أحدكم نسيت»، تقديره: إنى نسيت، والمسند إليه ضميره، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى إذا سمعتمونى تركت فى القرآن شيئًا، لا تقولوا: النبى نسى آية كذا، (**أى أن الغفلة فى هذا لم تكن**)، أى توجد، فكان تامة (**منه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يقع ذلك اختيارًا، (**ولكن الله اضطره إليها**)، أى أن الله عز وجل ألجأه للغفلة، (**ليمحو ما يشاء**)، أى ينسخ ما أراد نسخه، فينسيه له، (**ويثبت**) ما لم يرد نسخه، فلا ينساه، فعلى هذا هو مخصوص بالرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، وببعض آيات نسخها الله تعالى بإذهابها لا بكل ما نسيه.

ولذا قال: (**وما كان**) تركه (**من سهو أو غفلة من قبله**)، بكسر القاف وفتح الباء الموحدة ولام، أى من جانب نفسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بمقتضى الجبلة البشرية من غير إلجاء من الله له، (**تذكرها**)، صفة غفلة، أى خطرت بباله بعد نسيانها، (**صلح**)، أى جاز (**أن يقال فيه: أنسى**)، بضم الهمزة، مجهول مخفف، فإنما يمتنع نسبة النسيان له فيما كان من القسم الأول، فليس النهى على إطلاقه حتى يعارض الحديث الآخر، وهذا النهى خاص بزمنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، حيث كان يقع النسخ، فلو قيل فيه ذلك، ربما يتوهم أنه أهمل من القرآن شيئًا حتى ضاع، وصلح بفتح اللام وضمها، والأول أفصح.

(**وقد قيل:**) فى الجواب عما تعارض هنا، (**أن هذا**)، يعنى نهيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن أن يقول: نسيت، (**منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، على طريق الاستحباب**)، أى تعليمًا وإرشادًا لما هو مستحب، والنهى ليس نهى تحريم، بل للكراهة، (**أن يضيف الفعل إلى خالقه**) عز وجل، ولا يضيفه لنفسه، فإنه الفاعل الحقيقى وغيره آلة، وهذا على مذهب أهل السنة.

(والآخر)، أى الحديث الآخر الذى أضيف فيه النسيان للعبد، وقوله: نسيت، كذا ورد **(على طريق الجواز)**، وخلاف الأولى من غير النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومنه للتشريع، فهو غير مكروه منه، وجواز إضافته له، **(لاكتساب العبد فيه)**، ضمنه معنى دخل، أى لدخل العبد فيه باكتسابه، فهو كالآلة والموجد الحقيقى هو الله عند الأشعرى وأهل السنة خلافًا للمعتزلة، وبهذا جزم ابن بطال، فقال: إنه بالنهى أراد أن يجرى على ألسنة العباد نسبة الأفعال لخالقها؛ لما فيه من الإقرار بالعبودية والاستسلام للقدرة، وهو أولى من نسبتها لمكتسبها مع أنه جائز أيضًا.

(وإسقاطه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما أسقط من هذه الآيات)، التى قال فيها: «أنسيت آية كذا وكذا»، **(جائز عليه)** سهوًا **(بعد بلاغ ما أمر ببلاغه وتوصيله إلى عباده)**، أما فى حال تبليغه الأول، فلا يجوز سهوه فيه وبعده يجوز، **(ثم يستذكرها)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(من أمته أو من قبل نفسه)**؛ لأنه لا يقر على نسيانه **(إلا ما قضى الله نسخه ومحوه من القلوب)**، فينسيه الله له ولا ينبه عليه، فيعلم بذلك أنه نسخ لفظه وتلاوته، سواء نسخ معناه أم لا، **(وترك استذكاره)**، بصيغة المصدر أو الفعل الماضى المجهول، ولما فيه من البعد.

قال: **(وقد يجوز أن ينسى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما هذا سبيله)** من القرآن بما يراد نسخه، **(كرة)**، أى حينًا ما **(ويجوز)** أيضًا **(أن ينسيه منه)**، أى الله ينسيه من القرآن، **(قبل البلاغ)**؛ لأنه يجوز النسخ قبل البلاغ كفرض الصلاة خمسين فى ليلة المعراج، وهذا منه **(ما لا يغير نظمًا)**، أى نظم القرآن ترتيب كلماته متناسقة على مقتضاها، **(ولا يخلط حكمًا)** بآخر كحل بحرمة، **(مما لا يدخل خللاً فى الخبر)** حتى لا يدرى ما يراد به، وهو بيان؛ لقوله: ما لا يغير... إلخ.

(ثم يذكره إياه)، أى يذكر الله نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ما أنساه مما لا يغير ولا يخلط، **(ويستحيل دوام نسيانه له)**؛ لمنافاته للغرض المقصود منه؛ **(لحفظ الله تعالى كتابه)**؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] كما تقدم، **(وتكليفه بلاغه)**، مجرور معطوف على حفظ الله، أى كلف الله رسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يبلغ كتابه من أرسل إليهم، ودوام نسيانه ينافيه أشد المنافاة.

* * *

(فصل فى الرد على من أجاز عليهم الصغائر)

أى على الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، **(والكلام)**، بالجر عطف على

الرد، (**على ما احتجوا به فى ذلك**)، أى جواز الصغائر عليهم، والصغيرة ما عدا الكبيرة، والكبيرة منهم من عينها بالعد، ومنهم من عينها بالحد، فقيل: هى ما ورد فيه وعيد بنحو غضب الله ولعنته ودخول النار، فى كتاب أو سنة صحيحة، وقيل: ما فيه حد وعقوبة معينة، والصغائر كالكبائر فى توقف العفو عنها على مشيئة الله، وكون اجتناب الكبائر مكفرًا لها لا ينافى التوقف عليها وجوازها عليهم مطلقًا أو سهوًا مشروط بأن لا يكون مشعرة بخسة ورذالة منفرة للطباع.

(**اعلم أن المجوزين للصغائر على الأنبياء**)، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، (**من الفقهاء والمحدثين ومن شايعهم**)، أى تابعهم ووافقهم على اعتقاد ذلك، (**من المتكلمين**)، أى علماء الكلام، وهو العلم الباحث عن العقائد الدينية، وسمى علم الكلام، إما لأن مسألة الكلام من أجل مباحثه أو لكثرة دوران الكلام فيه بين السلف والمشايعة، من الشيعة، وهى فرقة من الناس تتبع غيرها، وشيعة الرجل، أتباعه وأنصاره، ولو واحد، وخص فى العرف بالمفضلين لعلى، رضى الله عنه، وهذه المسألة من علم الكلام، وذكرها فى كتب الفقه والحديث استطرادى، وقيل: إنها من مسائل هذه الفنون بحيثيات متغايرة، فالفقيه يبحث عنها من حيث أنه يجوز اعتقادها أو يحرم، أو يكره، والمحدث من حيث أنه هل صح رواية صدورها منهم أم لا؟ والمتكلم من حيث إقامة الدليل على عصمتهم وامتناعها وعدمه، وليس فى قوله: شايعهم، ما يخالفه، وإنما عبر به؛ لأنه ليس من كتابة المسائل الكلامية.

(**احتجوا على ذلك**)، أى تجويزها عليهم، (**بظواهر كثيرة من القرآن والحديث**)، أقحم لفظ ظواهر، إشارة إلى أنها ليست بحجة فى الباطن، (**إن التزموا ظواهرها**)، أن قالوا: يلزم اعتقاد الظاهر منها، (**أفضت بهم**)، أى أوصلتهم (**إلى تجويز الكبائر**) عليهم، وأصل معنى الإفضاء الإدخال فى فضاء واسع، ثم شاع فيما ذكر، (**وخرق الإجماع**)، أى مخالفة ما أجمع الناس عليه، وهو من قولهم: خرق المفازة، إذا قطعها، فأريد به لازمه، وهو المجاوزة، (**وما لا يقول به مسلم**)، أى أفضت به إلى رأى لم يقله أحد من المسلمين، وهو تجويز الكبائر عليهم عمدًا، فإنه لم يقله إلا الحشوية وإما سهوًا، فجوزه بعضهم، واختلفوا فى امتناعه، هل هو سمعى أو عقلى كما تقدم.

(**فكيف**) استبعاد تجويز الكبائر عليهم، (**وكل ما احتجوا به**) من الظواهر، (**مما اختلف المفسرون فى معناه**)، هل يحمل على ظاهره، أو يأول، (**وتقابلت الاحتمالات**)، أى تخالفت وتعارضت الوجوه المحتملة، (**فى مقتضاه**)، أى مقتضى ما احتجوا به من تجويز وقوع ما خرج به عن صلاحية الاحتجاج، (**وجاءت أقاويل**)، أى نقل وورد وجوه،

قالوا بها على خلاف ما التزموه واحتجوا به، وأقاويل جمع أقوال، جمع قول، فهو جمع الجمع، (**فيها للسلف بخلاف ما التزموه من ذلك**)، الذى استدلوا به، (**فإذا لم يكن مذهبهم**) فى تجويزها عليهم (**إجماعًا**)، أى مجمعًا عليه؛ لكثرة من خالفهم فيه، (**وكان الخلاف فيما احتجوا به قديمًا**)، لا حادثًا بعد انعقاد الإجماع، حتى يكون خلافًا لا يعتد به.

(**وقامت الدلائل على خطأ قولهم**) فى تجويزها عليهم، (**وصحة غيره**) فى عدم الجواز، (**وجب تركه**)، جواب إذا، (**والمصير إلى ما صح**) من عدم التجويز، (**وها نحن نأخذ**)، أى نشرع؛ لأنها من أفعال المقاربة، وها حرف تنبيه زائد على المبتدأ إذا كان الخبر اسم إشارة، فإن لم يكن كذلك جاء نادرًا كما هنا، (**فى النظر فيها**)، أى فى أدلتهم التى احتجوا بظاهرها على تجويزها عليهم، (**إن شاء الله تعالى، فمن ذلك**) الذى احتجوا به على تجويزها عليهم، (**قوله تعالى لنبينا محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾**) [الفتح: ٢]، وجه تمسك من جوز عليهم الصغائر بهذه الآية نسبة ذنب إليه مغفور لم يسمه، فالظاهر أنه صغيرة، واللام للتعليل، والمعلل الفتح، أى فتح مكة فى قوله: (﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ**﴾) [الفتح: ١] إلى آخره، أى يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك لنجمع لك عز الدارين فى العاجل والآجل، وتحقيقه فى التفاسير.

قال ابن عبد السلام، رحمه الله تعالى: لم يخبر الله أحدًا من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، بالمغفرة، ولذا قالوا فى الموقف: نفسى نفسى، اذهبوا إلى محمد، فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذا من خصائصه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

قلت: وفيه نكتة، إذ سوى المتقدم بالمتأخر، إيماء إلى أنه مثله فى عدم الوقوف، وإنما هو خلاف الأولى مما عده بالنسبة إليه ذنبًا، وسيأتى تفصيله.

(**وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾**) [محمد: ١٩]، أعاد الجار إشارة لتغايرهما؛ لأن الأول ليس بذنب حقيقى، كذا قيل، و لم يقل: ولذنب المؤمنين، إشارة لكثرة ذنوبهم، حتى كان دأبهم عنده الذنب، ووجه الاستدلال ما مر.

(و) مما استدلوا به أيضًا (**قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾**) [الشرح: ٢، ٣]، الوضع الحط، وهو بالعفو والوزر والحمل والثقل، فاستعير للذنب استعارة مرشحة، وأنقض بمعنى أثقل، جعله نقضًا، وهو ما أتعب الجمل حتى نقض لحمه. وقال الأزهرى: هو من نقيض الزجل وهو صوته لما وضع عليه والكلام عليه كالذى قبله.

(وقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾)، كناية عن خطأه فى الإذن، فإن العفو من روادفه، (﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾) [التوبة: ٤٣]، بيان لما كنى عنه بالعفو ومعاتبة عليه، والمعنى: لأى شيء أذنت لهم فى القعود حين استأذنوك واعتلوا بأكاذيب؟ وهلا توقفت؟ وذلك فى غزوة تبوك سنة تسع، وقد استأذنه من تخلف عنه، فأذن لهم؛ لبعد المشقة وشدة الزمان، ولذا صرح، صلى الله تعالى عليه وسلم، بمقصده و لم يور كما مر، فأذن لقوم منافقين اعتذروا له بأعذار سمجة، وهو على خلاف الأولى، لا ذنب حقيقى، بل قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾، ملاطفة له، ورعاية لخاطره، وقدمه على ما صدر منه، حتى لا يبدأه بما يوهمه مؤاخذة ما، ولذا حطوا على الزمخشرى فيما فسره به، من قوله: أخطأت وبئس ما صنعت، لما فيه من تفسيره بغير المراد منه من سوء الأدب، وخطابه بما لم يخاطبه به رب العزة، وجعله كناية عن الجناية والجانى، وقد مر الكلام فى ذلك مبسوطًا صدر الكتاب.

(و) لما استدلوا به أيضًا (قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾) [الأنفال: ٦٨]، وهذه نزلت فى غزوة بدر، وقد أسر، صلى الله تعالى عليه وسلم، من قريش سبعين رجلاً، منهم العباس عمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعقيل، فاستشار، صلى الله تعالى عليه وسلم، أصحابه فى ذلك، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء قومك، لعل الله يهديهم بك، خذ منهم فدية تتقوى بها، وقال عمر: اضرب رقابهم واخمد نارهم، فرضى رسول الله ما قال أبو بكر، فنزل عليه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] الآية، فجلس رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يبكى وأبو بكر، وقال: «عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة»[1]، والكتاب السابق يأتى بيانه، ومنه ما قيل: هو إحلال الغنائم لهم دون الأمم السابقة، أو إنه لا يعذبهم ورسول الله فيهم، أو ما وعدهم به من مغفرة ذنوبهم، وأنه لا يعاقب المخطئ فى اجتهاده.

(وقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ { [عبس: ١] الآية)، عبس أى قطب وجهه، وتولى أعرض، والأعمى هو ابن أم مكتوم، رضى الله تعالى عنه، مؤذنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، واسمه عبد الله، أو عمر على ما يأتى، واسم أبيه زائد على ما قاله بعضهم، وهو ابن خال خديجة أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، وسبب نزولها أنه أتاه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعنده صناديد قريش، الوليد بن المغيرة، وعتبة، وأمية بن خلف، وأبو جهل، لعنهم الله، وقال له: أرشدنى، وهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحادثهم استمالة لهم،

(١) تقدم تخريجه.

فأعرض عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يجبه؛ لاشتغاله بهم رجاء استمالتهم للإسلام واستمالة من ورائهم، قيل: وهو باطل من قائله وجهل؛ لأن أمية والوليد كانا بمكة وماتا كافرين، وابن أم مكتوم كان بالمدينة ولم يحضر معهم، فالأولى أن لا يذكر هؤلاء، ويقتصر على ابن أم مكتوم وقوم من كفار مكة.

وتبعه بعض الشراح وارتضاه، وقد رده خاتمة المحدثين الشيخ محمد الشامى فى سيرته، وقال: إنه كلام صدر من غير روية وتدبر، فإن ابن أم مكتوم خال خديجة كما ذكر، وإسلامه قديم، وهو من المهاجرين الأولين، هاجر قبل هجرة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: بعده، وصحح الأول، وسورة عبس مكية بلا خلاف، وقد نقل ما ذكر عن جماعة من الصحابة والتابعين، فأى مانع منه، والعجب من صاحب الزهر، إذ لم يناقش القرطبى ومن تبعه فى هذا، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد ذلك إذا أتاه ابن أم مكتوم يبسط له رداءه، ويقول له: «مرحبًا بمن عاتبنى الله فيه»(١)، ولذا كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، استخلفه على المدينة مرارًا؛ لقدم هجرته ولإظهار توقيره، وما قيل من ضمير ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ للكافرين، فى غاية الضعف كما يأتى، وهذا مما استدلوا به على مدعاهم فى حق نبينا محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(و) أما فى حق غيره، فـ (**ما قص**) فى القرآن (**من قصص غيره من الأنبياء، كقوله تعالى**) فى حق آدم، صلى الله تعالى عليه وسلم: (﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾) [طه: ١٢١]، فجعل مخالفة ما حذره عنه من أكل الشجرة ضلالاً وغواية، فهى ذنب صدر عنه، ففيه دليل ظاهر لهم، والقصة مع جوابها مشروحة فى التفاسير، (**وقوله تعالى**) فى حق آدم مع حواء: (﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠] **الآية**)، ضمير آتاهما لآدم، عليه الصلاة والسلام، وحواء المتقدم فى قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، أى آتاهما ولدًا صالحًا سويًا، أشركا فيما آتاهما غير الله، فسموا عبد العزى، وعبد مناف.

وحكى الزجاج، رحمه الله تعالى، أن إبليس، لعنه الله، جاء لحواء، فقال: أتدرى ما فى بطنك؟ قالت: لا، قال: لعله بهيمة، وإن دعوت الله أن يجعله إنسانًا، أفتسميه عبد الحارث؟ وإبليس لعنه الله اسمه عبد الحارث، وقيل: كان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبد الحارث، فسمته به فعاش، وهذا من إلقاء الشيطان. وقال: إن الضمير لآل قصى من قريش، وأن القصة فى حقه لا فى حق آدم، والكلام عليه فى التفاسير مشهور.

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٢١٣/١٩).

(وقوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] **الآية**)، أى من الدلائل التى استدل بها من جوز الصغائر على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ما حكاه الله فى الآية عن آدم، عليه الصلاة والسلام، وحواء من اعترافهما بصدور الذنب منهما، واتصافهما بما كان سببًا لخروجهما من الجنة، وفيه دليل على أنه يجوز المعاقبة على الصغائر، وإن لم تغفر خلافًا للمعتزلة.

(و) مما استدلوا به أيضًا (**قوله تعالى فى قصة يونس، عليه الصلاة والسلام**: ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾) [الأنبياء: ٨٧]، لما ذهب مغاضبًا قومه، إذ لم يطيعوه، فاعترف بأنه ارتكب ظلمًا ومعصية، وما قصه الله تعالى من قصته فى قوله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] وكان قد ضاق صدره فى حمل أعباء النبوة والمغاضبة لقومه، إذ لم يصبر ولم ينتظر توبتهم، فخرج من حينه، وأظلهم العذاب الذى أخبرهم به، فتضرعوا إلى الله تعالى وتابوا، فرفعه الله تعالى عنهم، ويونس، عليه الصلاة والسلام، لم يعلم برفعه عنهم، وكان حقه أن لا يذهب إلا بإذن مجدد من الله تعالى عز وجل.

(و) هذا (**ما ذكر من قصته، و**) ما ذكره من (**قصة داود**)، عليه الصلاة والسلام، (**وقوله**: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩﴾ [ص: ٢٤] **الآية**)، وذلك أنه رأى ما قصه الله من فضائل الأنبياء قبله، فسأل ربه ذلك، فقال: إنهم ابتلوا فصبروا، فقال: إن ابتليت صبرت، فتمثل الشيطان له فى صورة حمامة من ذهب عجيبة، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى محرابه مختليًا بصلاته، فأراد أخذها، فطارت، فذهب خلفها وتبعها حتى أشرف على دار فيها امرأة تغتسل لم ير مثلها، فافتتن بها وسأل عنها، فإذا هى امرأة أوريا، وكان أرسله مع عسكر له، فأرسل يقول لرئيسهم ويعلمه أن يقدمه فى الحرب، وكان سيفًا من سيوف الله تعالى، فاستشهد وتزوج داود، عليه الصلاة والسلام، امرأته، فأرسل الله تعالى له ملكين فى صورة خصمين كما قصه الله تعالى فى كتابه، وعاتبه عليها، وهذا مما عده هؤلاء ذنبًا؛ نظرًا لظاهر الحال، فتاب منه ولم يزل يبكى على ما صدر منه حتى نبت العشب من دموعه.

(و) من أدلتهم (**قوله تعالى**) فى حق يوسف، عليه الصلاة والسلام: (﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ **وما قص**)، بالبناء للمعلوم أو المجهول، (**من قصته**)، أى يوسف، (**مع أخوته**)، وهم أنبياء أيضًا على اختلاف سيأتى بيانه، وقصته معروفة، والشاهد فى قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]، بناء على ما اشتهر من أنه جلس مجلس العاجز، وأراد ما يريده أهل الأهواء، أو فيه مبالغة وأمور يذكرها عنه القصاص، وهو، صلى الله تعالى

عليه وسلم، برىء منها، وإنما يتوهم ما يتوهم إن لم يجعل ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ جواب ﴿لَوْلَآ﴾ بحسب المعنى، وإلا فلا يتوهم شىء من ذلك، فإن دليل الجواب جواب معنى، فيقتضى أنه لم يصدر منه فضلاً عما هو أعظم منه مع أن هم النفس له مراتب منها ما هو مقتضى الجبلة البشرية، ومثله معفو مغفور.

(و) من أدلتهم أيضًا (**قوله تعالى**) حكاية (**عن موسى**) صلى الله عليه وسلم، (﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾) [القصص: ١٥]، ضمير وكزه للقبطى الذى وجده موسى، عليه الصلاة والسلام، يخاصم رجلاً من بنى إسرائيل، وكان دخل مختفيًا نصف النهار، فوجد قبطيًا من جند فرعون يسخر بعض بنى إسرائيل لحمل حطب ونحوه، وكان موسى، عليه الصلاة والسلام، جسيمًا ذا قوة شديدة، فدفعه عنه وضربه فقتله، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ [القصص: ١٦]، فهذا اعتراف بصدور ذنب منه، وهو المراد هنا، ومعنى وكزه ضربه بجمع كفه، وقيل: ضربه فى صدره، وقيل: دفعه، وقوله: ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، أى هو شر من جنس أعمالهم.

ثم ذكر بعض ما استدلوا به من الحديث، فقال: (**وقول النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى دعائه**) المأثور عنه: (**اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت**)، وهو من دعاء طويل رواه الشيخان، كان يقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا قام يتهجد، وطلب المغفرة من الذنوب المذكورة، يدل على صدورها منه فى الجملة، وهو مدعاهم، (**ونحوه من أدعيته**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، المأثورة، وقد أفردت بالتأليف كالحصن الحصين وغيره.

(و) مما استدلوا به أيضًا (**ذكر الأنبياء**) عليهم الصلاة والسلام، (**فى الموقف**) يوم القيامة، (**ذنوبهم فى حديث**) طلب الناس منهم (**الشفاعة**)، واستغاثتهم بهم من هوله وطوله، وحديث الشفاعة مشهور طويل، رواه مسلم، عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، فلا نطول به، ومحل الشاهد فيه أن الناس إذا اشتد عليهم هول الوقوف وكربه، قالوا: نذهب للرسل فيشفعون لنا فى الخلاص، فيذهبون إليهم فردًا فردًا، وكل يقول: لست لها لى ذنب عظيم أخاف منه، ودلالته على ما ادعوه غنية عن البيان.

(و) مما استدلوا به أيضًا (**قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم**) فى الحديث الذى تقدم شرحه: (**إنه ليغان على قلبى، فأستغفر الله، وفى حديث أبى هريرة**)، رضى الله تعالى عنه: (**إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة**)، وروى: «مائة مرة»، فالسبعين ليست على ظاهرها، والمراد بها التكثير، وهى فيه كثير حتى قال بعضهم: سبع

لك الأجر، أى كثره، فهذا يدل على أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يصدر منه بعض الذنوب، وإلا لم يكن لاستغفاره وجه.

(وقوله تعالى) حكاية: (عن نوح، عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ﴾ [هود: ٤٧] الآية)، فطلبه المغفرة يقتضى سبق ذنب منه، فهو حجة لمن جوز عليهم الصغائر، وذلك أن الله تعالى نهاه عن أن يشفع فى أحد من أهله غير من أذن له فى دخول السفينة معه له، فقال له الله تعالى عز وجل: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧]، أى قضى الله تعالى بذلك عليهم، فشفع فى ابنه كنعان، وهو ممن قضى بهلاكه؛ لظنه أنه داخل فى أهله، فلما قيل له: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ [هود: ٤٦]، ندم على عدم استفصاله واستغفر لتركه الأولى لا لذنب ارتكبه، وإليه أشار بقوله: (وقد كان قال الله عز وجل له: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي﴾)، أى لا تدع ولا تشفع، (﴿فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾)، أى كفروا: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣]، (﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾)، أى لأنهم قضى عليهم وحكم بهلاكهم لكفرهم الذى قطع رحمهم وقرابتهم.

(و) من أدلتهم أيضًا أنه تعالى (قال) حاكيًا (عن إبراهيم)، عليه الصلاة والسلام: (﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾) [الشعراء: ٨٢]، يعنى يوم القيامة، يوم الجزاء، فهذا يقتضى صدور ذنب منه، وهو ما تقدم من قوله: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وما معه مما تقدم هو الجواب عنه.

(وقوله تعالى) حكاية (عن موسى)، عليه الصلاة والسلام: (﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾) [الأحقاف: ١٥]، قاله بعدما طلب الرؤية من الله تعالى عيانًا، فلما تجلى له ربه للجبل، جعله دكًا، وخر موسى صعقًا، فلما أفاق قال: سبحانك تبت إليك، وليس هذا بذنب، ولكنه سأله بعدما قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولو ترك ذلك كان أولى، والكلام على الرؤية وجوازها مفصل فى علم الكلام، وكذا هذه الآية.

(و) مما استدلوا به أيضًا على جواز الصغائر عليهم، (قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ﴾) إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤]، أى تاب، فإنه يقتضى صدور ذنب منه، وكان الله فتنه، أى ابتلاه بأمر اختلفوا فيه، فقيل: إنه احتجب عن الناس، فعاتبه الله تعالى على ذلك، وقيل: إنه سبا بنت ملك فى غاية الجمال تسمى جرادة فأحبها، وكان عندها صنم تعبده خفية، فاطلع عليه فأحرقه، وقد ذكروا فى قصته أمورًا لا تليق بمقام الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام. (إلى ما أشبه هذه الظواهر)، أى ما ذكرته من الأمور التى يدل ظاهرها على ما قالوه، وله أشباه ونظائر كثيرة تركت.

ثم شرع فى سرد الجواب عما ذكره من أدلة المجوزين للصغائر عليهم، فقال: **(قال القاضى)** عياض المصنف، رحمه الله، فى الجواب عما قالوه وتمسكوا بظاهره قبل تحقيق النظر فيه: **(فأما احتجاجهم)** لتجويز الصغائر عليهم **(بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ﴾)** [الفتح: ٢] إلى آخره، **(فهذا قد اختلف المفسرون فيه)** وفى تأويله.

(فقيل: المراد) بما تقدم **(ما كان قبل النبوة، و)** بما تأخر **(ما بعدها)**، أى بعد النبوة، وهو عبارة كنى بها عن أنه لم يصدر منه ذنب؛ لأنه لا تكليف قبل النبوة أصلاً، والعقل لا يستقل بذلك، وقوله: ما بعدها، ذكر للتعميم، كقولك: اعط من تراه ومن لم تره.

(وقيل:) معنى **﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ (ما وقع لك من ذنب، و)** معنى **﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (ما لم يقع أعلمه)** بما حاصله **(إنه غفور له)**، غير مؤاخذ به لو وقع منه، كلنه لم يقع منه ذنب كغيره، وإنما يصدر عنه نادرًا خلاف الأولى.

(وقيل: المتقدم) معنى **﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ (ما كان قبل النبوة)** مما لا يؤاخذ به؛ لأنه لا شريعة يلتزم أحكامها، **(و)** المراد بـ **(المتأخر، عصمتك بعدها)**، فمغفرته تجوز بها عن العصمة، ووجه الشبه بينهما عدم اعتبار الذنب فيهما، فمن قال: ليس هذا من مقتضيات اللفظ، مع أنه معلوم قبل النبوة، لم يفهم مراده، **(حكاه)**، أى هذا الوجه **(أحمد بن نصر)** الخزاعى الزاهد الشهيد، قتله الواثق فى محنة خلق القرآن سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

(وقيل: المراد بذلك) المذكور فى المغفرة **(أمته)**، أى يغفر الله لأمتك ما صدر، ويصدر منها، فالمراد بخطابه خطاب أمته، فإضافة الذنب له، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأدنى ملابسة؛ لأنه يسوءه ما يسوءهم، وهو الشفيع لهم، والمراد أن رحمة الله لهذه الأمة أكثر، فلا يرد عليه أن مغفرة ما تأخر له شروط، كأن لا يكون حق عبد ونحوه.

(وقيل: المراد) بما تقدم **(ما وقع)** منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(عن سهو وغفلة، و)**، المراد بما تأخر ما كان صادرًا عن **(تأويل)**، أى بيان لمعنى يحتمله النص، فيحمل عليه باجتهاد منه، ثم تبين له أن الصواب أو الأولى غيره؛ لأن التأويل بيان ما يؤل إليه، فيناسب ما تأخر، فلا يرد عليه شيء، والمراد أنه لم يتم له الاستدلال بالآية، **(حكاه الطبرى)** محمد بن جرير كما تقدم، **(واختاره القشيرى)** عبد الكريم شيخ الصوفية وغيره كما تقدم فى ترجمته.

(وقيل:) المراد بما تقدم **(ما تقدم لأبيك آدم)**، عليه الصلاة والسلام، **(و)** المراد **(بما تأخر من ذنوب أمتك)**، فاللام للتعليل، أى غفر لأجلك ذنوب أبيك آدم لما توسل بك إلى الله، ويغفر لأمتك؛ لأنك رحمة لهم، **(حكاه السمرقندى)**، وقد قدمنا ترجمته،

(والسلمى)، بضم السين المهملة، وفتح اللام، وهو الإمام أبو عبد الرحمن الصوفى كما تقدم، **(عن ابن عطاء)**، شيخ الطريقة كما تقدم، وهو مما لا يقال بالرأى، وقد نقله مثله هؤلاء، وإن كان خلاف الظاهر.

(وبمثله)، أى بمثل هذا التأويل **(والذى قبله يتأول قوله)** تعالى خطابًا لنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، فيقال: المراد: استغفر لذنب أبيك آدم ولذنوب أمتك، أو استغفر عما صدر منك سهوًا وغفلة، أو بتأويل منك، وهذا لقوله: ﴿لِذَنۢبِكَ﴾ فقط، لا لقوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

(قال مكى:) تقدمت ترجمته، **(مخاطبة النبى)**، أى خطاب الله للنبى، **(صلى الله تعالى عليه وسلم، هاهنا هى مخاطبته لأمته)**، أى فى قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ﴾ [الفتح: ٢]، وإنما وجه له، صلى الله تعالى عليه وسلم، لتمكنه لكونه بالطريق الأولى والأحرى.

(وقيل: إن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما أمر أن يقول:) ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩]، وهو بتقدير: قل: فلذا قال: أمر، **(سر بذلك الكفار)**، أى فرحوا وقالوا: واللات والعزى ما أمرنا وأمر محمد عند الله إلا واحد وماله علينا مزية، ولولا أنه ابتدع ما يقول من ذات نفسه لا خبره الذى بعثه بما يفعل به، **(فأنزل الله)** تعالى ردًا عليهم: (﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] **الآية)**.

فقال الصحابة، رضى الله تعالى عنهم: هنيئًا لك يا رسول الله، قد علمنا ما يفعل الله بك، فما يفعل بنا؟ فأنزل الله تعالى (و) أخبر **(بما للمؤمنين)**، أى بما يؤول إليه أمرهم فى الآخرة، **(فى الآية الأخرى بعدها)**، أى ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [الفتح: ٥] الآية ، فأنزل الله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب: ٤٧]، فبين ما يفعل الله به، صلى الله تعالى عليه وسلم، وبهم، وهذا قول قتادة، والحسن، وغيرهما، وعزاه المصنف، رحمه الله تعالى، لابن عباس، **(قاله ابن عباس)**، رضى الله تعالى عنهما، وإنما قاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أولاً قبل أن يعلمه الله بعصمته وعموم مغفرته، وهو فى عام الحديبية، ثم بين محصل جوابه عن استدلالهم.

(فمقصد الآية)، أى محصل ما قصد بها، **(إنك مغفور لك غير مؤاخذ)**، بالهمزة المفتوحة، أو الواو المبدلة منها، وفتح الخاء المعجمة، اسم مفعول، **(بذنب، أن لو كان)**، أى وجد، فهى تامة، وأن بفتح فسكون زائدة، ومثله كثير، فهو أمر جاء على طريق الفرض تطمينًا له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا يقوم بها حجة؛ لتجويز الذنوب عليهم.

وقريب منه ما (**قال بعضهم**) المراد ما ذكر من (**المغفرة هاهنا**)، أى فى آية: ﴿**لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ**﴾ ونحوه، (**تبرئة من العيوب**) بموحدة بعد التاء الفوقية وراء مهملة قبل الهمزة، ولو قرئ بنون وزاء معجمة وياء تحتية ساكنة قبلها جاز، والمعنى والرسم متقارب بمعنى لا دليل فيها لهم؛ لأنه قد قيل: إن المراد منها تنزيه الله له وتبعيده من العيوب، أى الذنوب أو ما يؤدى لها، فالمغفرة كناية أو مجاز عما ذكر.

(**وأما**) الجواب عما تقدم من استدلالهم بالآية المتقدمة، وهى: (**قوله تعالى**: ﴿**وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ**﴾) [الشرح: ٢، ٣] كما تقدم، (**فقيل**:) معناه (**ما سلف**)، وتقدم (**من ذنبك قبل النبوة**)، أى مما هو فى صورة تفريط، وإن لم يكن قبل النبوة شرع مخالفته معصية، وقد عصمه الله تعالى عما كان عليه الجاهلية من العقائد ونحوها من الديانات، (**وهو قول ابن زيد**)، هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، المفسر، الزاهد، المتقن، توفى سنة اثنين وثمانين ومائة، (**والحسن**) البصرى، رحمه الله تعالى، وقد تقدمت ترجمته، (**و**) هو أيضًا (**معنى قول قتادة**)، أى معنى ما نقله عنه المفسرون فى تفسير هذه الآية من أنه صدر منه بعض أمور قبل النبوة، وإن لم يكن ذنبًا حقيقة.

(**وقيل: معناه**)، أى معنى وضع وزره عنه، (**أنه حفظ قبل نبوته منها وعصم**)، أى حفظه الله تعالى عن الاتصاف به رأسًا وابتداء، وهو وجه حسن يتحمله اللفظ، بلا تكلف، (**ولولا ذلك**)، أى رفعنا عنه، (**لأثقلت ظهرك**)، وفى نسخة: ظهره، والظاهر أنه حقيقة، ويجوز أن يكون استعارة كما قدمناه، وفيه على هذا تقرير، أى لولا أنا حفظناك عنها أثقلت ظهرك وهدت قواك، (**حكى معناه السمرقندى**)، فى تفسيره.

(**وقيل**:) فى تفسيرها مما لا ينفى فيها حجة لهؤلاء، (**المراد بذلك**) المذكور، من وضع الوزر إلى آخره، (**ما أثقل ظهره**)، أى أتعبه وأعياه، (**من أعباء الرسالة**)، جمع عبء، كحمل لفظًا ومعنى كما تقدم، (**حتى بلغها**)، غاية لثقل المتحمل حتى يبلغه، ويؤدى أمانته، فإنه ما عليه إلا البلاغ، (**حكاه**) أبو الحسن (**الماوردى**) الشافعى، وتقدم بيانه (**والسلمى، وقيل**:) معناه (**حططنا عنك ثقل أيام الجاهلية، حكاه مكى**)، لأن أيام الجاهلية كانت خالية عن الدين، والأمن أيام هرج ومرج، فلما بعثه الله، صلى الله تعالى عليه وسلم،بالدين القويم هو ومن تبعه، وشرح الله تعالى صدورهم بالإسلام، وصفاهم من الآثام، فخفت ظهورهم وسددت أمورهم.

(**وقيل**:) معناه (**ثقل شغل سرك**)، أى قلبه أو خواطر قلبه، (**وحيرتك**)، أى تحيرك فى ابتداء أمرك، (**وطلب شريعتك**)، أى طلبك من الله شريعة تعمل بها، (**حتى شرعنا ذلك**

لك)، بما أوحاه، فاطمأن قلبه وذهبت حيرته، (**حكى معناه القشيرى**) فى تفسيره. (**وقيل: معناه**)، أى معنى ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾، (**خففنا عنك ما حملت**)، أى كلفت حمل أثقاله من دعوة الخلق وتبليغ أمانة الرسالة التى لم تطق حملها الجبال، (**بحفظنا لما استحفظت**)، يقال: استحفظه، إذا استرعاه وأعطاه أمانة، أى نحن حفظنا ما أمرناك بحفظنا، (**فحفظ**) بحفظه (**عليك**) مما عسر عليك القيام به، وجعلنا لك جدًا وصبرًا صير أثقاله خفيفة عليك.

(و) لما ورد حينئذ أنه إذا خففتها عنه لم يكن أنقض ظهره، أشار لدفعه بقوله: و(**معنى أنقض ظهره**) على هذا، (**أى كاد**)، أى قرب من أنه (**ينقضه**)، أى يعيبه ويثقله، ولم ينقضه بالفعل، ويجوز على هذا إبقاؤه على ظاهره، وأن إنقاضه بالفعل، لكنه خفف عنه، أى خففنا عنك ما كان أنقض، وهو راجع لما قاله المصنف، رحمه الله تعالى، لا وجه آخر كما قيل.

ثم بين وجه دفع ما ذكره لما تمسكوا به تفصيلاً، فقال: (**فيكون المعنى**)، أى معنى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ﴾ إلى آخره، (**على**) قول: (**من جعل ذلك**) الوضع مصروفًا، (**لما قبل النبوة اهتمام النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، وهو خبر يكون، (**بأمور فعلها قبل نبوته**)، ونزول وحى فيها، أى اعتناؤه ببيان الله لحكمها، حتى لا يكون عنده هم وغم، ولكنها (**حرمت عليه بعد النبوة**)، ولم يكن مكلفًا بها قبلها، (**فعدها أوزارًا**) بعدما حرمت عليه، وخشى المؤاخذة بها قبل ذلك، فإطلاق الوزر عليه باعتبار ما بعد النبوة والتشريع

(**وثقلت عليه وأشفق**)، أى خاف (**منها**) ومن المؤاخذة بها؛ لشدة مراقبته لله وخشيته له، فمعنى وضعها على هذا بيان أنه غير مؤاخذ بها، وأنها لم تكن وزرًا عليه يخافه، (**أو يكون الوضع عصمة الله له وكفايته من ذنوب لو كانت**)، أى لو وجدت وصدرت عنه، (**لأنقضت ظهره**)، فهو أمر على سبيل الفرض والتقدير لا التحقيق والتقرير كما توهموه، ولا يبعده قوله: أنقض مع هذا كما قيل، والوزر مجاز بمعنى الذنب، وعلى ما قبله بمعنى الثقل، كما فى قوله: (**أو يكون من ثقل**) أمور (**الرسالة**) عليه، وما فى تبليغها من المشقة بجعل المعقول كالمحسوس، (**أو**) معنى الوزر (**ما ثقل عليه**) وشق (**وشغل قلبه من أمور الجاهلية**) كما نقله آنفًا، عن مكى، رحمه الله تعالى، (**وإعلام الله تعالى له بحفظ ما استحفظه من وحيه**)، واسترعاه عليه من أمانته كما تقدم.

ثم أخذ فى دفع شبهة أخرى تمسك بها المجوزون للصغائر، فقال: (**وأما قوله: ﴿عَفَا**

﴿ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾) [التوبة: ٤٣]، فى التخلف عنه، فالعفو كالمغفرة، يقتضى ثبوت ذنب كما قالوه، وليس كذلك، **(فـ)** إن ما ذكر **(أمر لم يتقدم للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الله فيه نهى، فيعده)**، أى يجعله ويعتقده، **(معصية)** منه بمخالفة ما نهى عنه، **(ولا عده)** وصيره **(الله عليه معصية)**، يستحق اللوم عليها، **(بل لم يعده أهل العلم)**، أى أحد منهم **(معاتبة)** بفعل خلاف الأولى مما ليس بمعصية.

(وغلطوا من ذهب إلى ذلك)، أى عدوا قول من قال من المفسرين غلطًا، وهو قول منقول عن قتادة، وعتب الله على نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى بعض ما لا يليق، وإن جاز كما فى قصة ابن أم مكتوم، وقوله: «مرحبًا بمن عاتبنى الله فيه»، ليس بمراد هنا، وإن كان لا محذور فيه، فلا اعتراض على المصنف، رحمه الله تعالى كما قيل.

(قال نفطويه:)، تقدم الكلام عليه وعلى ضبط اسمه ومعناه، **(وقد حاشاه الله تعالى)**، أى برأه الله تعالى ونزهه، وأصل معناه جعله الله فى حشا، أى جانب، **(من ذلك)**، أى فعل ما يستحق عليه العتاب، فضلاً عن أن يجازيه بمعصية ارتكبها، **(بل كان مخيرًا)**، أى خيره الله تعالى **(فى أمرين)**، وهما أنه إن شاء أذن لهم فى التخلف، وإن شاء لم يأذن قط.

(قالوا:)، أى العلماء من السلف، **(وقد كان له)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما علم من تتبع أحواله، **(أن يفعل ما شاء)** مما يرى أنه مناسب؛ لأنه أذن له فى الاجتهاد كما تقرر فى الأصول، **(فيما لم ينزل عليه فيه شىء)**، من وحى يبين حكمه، **(فكيف)** إنكاره؛ لأنه معاتب وإن لم يخبر فى أمور شتى منها ما نحن فيه، ولا يمكن إنكاره، **(وقد قال الله تعالى له)** فى هذه القصة: **﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾** [النور: ٦٢]، وهذا الأمر وتعلقه بالمشيئة صريح فى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مخير، **(فلما أذن لهم)** كما أمره الله تعالى، **(أعلمه الله بما لم يطلع عليه من سرهم)**، أى مما خفى عليه من أمرهم أو بما أسروه واستتر من ضمائرهم، وهو **(أنه لو لم يأذن لهم)** فى القعود والتخلف عنه، **(لقعدوا)** لجزمهم بالقعود، ولو أمروا بخلافه.

(و) أعلمه بما أوحاه إليه فى هذه الآية من **(إنه لا حرج)**، لا وزر ولا إثم، **(عليه فيما فعل)** من الإذن لهم كما توهم من ظاهر قوله: عفا؛ لأنها اشتهرت بمعنى غفر الذنب، وأشار إلى ذلك بقوله: **(وليس عفا هاهنا)** فى هذه الآية **(بمعنى غفر)**، أى ستر وترك المؤاخذة والمعاتبة كما هو معناه المشهور، **(بل)** لها معان أخر منها ما ورد فى الحديث، **(كما قال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، فى حديث رواه أبو داود والترمذى

والنسائى، عن على، كرم الله وجهه ورضى الله تعالى عنه، أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: (**عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق**)، فهاتوا صدقة... الحديث، إلا أن الذى رواه هؤلاء: «قد عفوت لكم زكاة الخيل والرقيق»، والمصنف، رحمه الله، رواه بلفظ آخر وقف عليه ومثله لا يقرع له العصا، فاندفع قول من قال: لم أقف على هذه الرواية.

(**ولم تجب عليهم قط**)؛ لأن زكاة الخيل والرقيق لم تجب على مسلم قط، حتى يكون العفو معناه إسقاط الوجوب كما أنه ترك عقوبة لازمة هنا، (**أى**) فالمعنى أنه (**لم يلزمكم ذلك**)، أى زكاة الخيل والرقيق، (**ونحوه**) معزو (**للقشيرى**)، رحمه الله تعالى، (**قال:**)، أى القشيرى، (**وإنما يقول: العفو لا يكون إلا عن ذنب**)، كما هو مشهور متعارف، (**من لا يعرف كلام العرب**)، فيقف على معانيه الواردة فى كلامهم كعدم اللزوم، والذى سمعته فى الحديث الوارد فى كلام أفصح العرب، وأصل معنى العفو الترك، وعليه تدور معانيه، فيستقيم فى كل مقام ما يناسبه، فعفو الذنب ترك العقاب عليه، وعدم الزكاة ترك لها. (**قال: ومعنى** ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾) [التوبة: ٤٣]، فى هذه الآية، (**أى لم يلزمك ذنبًا**) فيما فعلته من الإذن.

(**قال الداودى**)، رحمه الله تعالى، من أئمة الحديث، وتقدم ترجمته، (**روى أنها**)، أى قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ (**كانت تكرمة**) من الله فى خطاب نبيه، عليه الصلاة والسلام، أى تعظيمًا وتكريمًا يبدأ به الكلام.

(و) نحوه ما (**قال مكى: هو استفتاح كلام**) يوقعونه فى أول خطابهم، (**مثل: أصلحك الله وأعزك**)، هى جملة دعائية يبدأون بها الكلام إكرامًا لمن يخاطبونه، وهو عادة أهل الترسل فى مكاتباتهم، وهو قريب مما قبله، بل معناهما واحد، وهو ملاطفة فى المحاورة تدعو لاستماعه، حتى كأنه باستماعه مستحق للدعاء له، والقرآن جاء على أساليب كلام العرب، فهى جملة دعائية قصد بها إكرام المخاطب.

(**وحكى السمرقندى أن معناه: عافاك الله**)، قيل: أخره لضعفه؛ لبعد أحدهما عن الآخر لفظًا ومعنى، وكأنه غلط فى المادة، وهو من سوء الفهم؛ لأن الراغب قال: عفوت عنك، قصد به إزالة ذنب وصرفه عنه، ومفعوله متروك؛ لأنه متعد فى الأصل، يقال: عفاه واعتفاه، وقولهم فى الدعاء: أسألك العفو والعاقبة، أى ترك العقوبة والسلامة، وعفا النبت والشعر زاد. انتهى.

فهذه الجملة إذا قصد بها الدعاء إكرامًا، كان معناه: قواك الله حتى تبالى بمن تخلف

عنك للدعاء بمعنى قواك الله؛ لأن القوى لا يكون مريضًا.

وقال الجوهرى: عافاه الله وعفاه بمعنى، وهو دفاع الله عن العبد ما يكره، فسقط ما قيل أنه لا يساعده اللغة، وكيف يعترض على هذا ولا يعترض على تفسيره بأصلحك الله وأعزك، فتدبر.

(وأما قوله)، أى قول الله تعالى الذى استدل به من جوز الصغائر عليهم **(فى أسارى بدر)**، أى فى حقهم، وأسارى جمع أسير، وهو معروف، وبدر اسم محل وقعت فيه تلك الغزوة المشهورة، سميت ببدر ابن قريش، وهو الذى احتفر بها بئرًا، ثم سمى بها مكانها، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، أسر من كبار قريش نحو سبعين رجلاً كالعباس وعقيل كما فصل فى السير، فاستشار رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيهم الصحابة، فأشار عمر، رضى الله تعالى عنه، بقتلهم كما مر، فإنه قلما يظفر بمثلهم، فتضعف شوكة المسلمين، وقال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: نأخذ منهم فدية نتقوى بها وتمن بإطلاقهم، لعل الله يهديهم بعد ذلك، فأعجب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، رأيه وعمل به، فأنزل الله فيهم: (﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ [الأنفال: ٦٧] **الآيتين)**.

والأسير فعيل بمعنى مفعول من الأسر، وأصله سير يشد به الأسير، ولذا يقال: أخذه بأسره إذا أخذه جملة، ومعنى ﴿يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]، يكثر القتلى، وقيل: معناه يتمكن فى الأرض، وما كان نفى الكون، وجاء بمعنى لا يليق، ولا ينبغى كما يأتى، وبه فسره المستدل بهذه الآية على أن أخذ الفدية قبل قتل كثير من أعدائه ذنب عاتبه الله عليه، وهذه القضية مشهورة فى السير والتفاسير، فلا حاجة للتطويل بإيرادها.

(فليس فيه)، أى فيما ذكر فى الآيتين **(إلزام ذنب له)** صلى الله تعالى عليه وسلم ومعصية صدرت منه باختيار الفدية التى لم تجز له كما فهمه المستدل بها، **(بل)** ما ذكر **(فيه بيان ما خص به)**، أى جعله الله تعالى من خصائصه تكريمًا له، **(وفضل)** به **(من بين سائر الأنبياء)** وبقيتهم، **(فكأنه)** عز وجل **(قال)** لنبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(ما كان لنبى غيرك)**، أى لم يقع هذا الذى خصصت به من أجل أخذك الفدية ممن أسرته لنبى من الأنبياء السالفة غيرك، فإنه أحل لك وخيرك الله فيه بين الفداء والقتل.

(و) نظيره من خصائصه التى لم تكن لنبى قبله ما بينه بقوله: **(كما قال، صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى الحديث الصحيح، **(أحلت لى الغنائم)**، وروى: المغانم، **(ولم تحل لنبى**

قبلى)، والمستدل به يقول: معناه ما كانلنبى أصلاً لا أنت ولا غيرك أخذ الفداء قبل كثرة قتل أعداء دينه، ففيه مخالفة لما شرعه الله، والمصنف، رحمه الله تعالى، قال: ليس معناه هذا حتى يتم الدليل.

وقال الخطابى: من كان قبله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الأنبياء على ضربين، منهم من لم يأذن له فى الجهاد، فلم يكن له غنائم، ومنهم من أذن له فيه، ولم يحل له الأكل من الغنائم، فكانت تنزل عليه من السماء نار تحرقه، وكان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، التصرفات فيها، وفى الصدقات كيف شاء، إلا أنه قيل: ليس فى الآية ما يدل على ما قاله المصنف، رحمه الله، بخلاف الحديث، وهو مروى فى الصحيحين، عن جابر، رضى الله تعالى عنه، أن تقول: إن الفداء فى معنى الغنائم؛ لأنه مال مأخوذ من الكفرة، فذكره فى الحديث إشارة إلى أنه مؤيد لهذا التأويل.

وفى المسائل الأربعين للرازى: العتاب وقع هنا على تركه الأولى؛ لأن الأفضل فى ذلك الوقت الإثخان وترك الفداء قطعًا للأطماع، ولولا أنه من باب الأولى ما فوضه صلى الله تعالى عليه وسلم لأصحابه. وقال العراقى فى حاشيته عليه المسماة بالتقييد: إنه وقع فى الحديث أن عمر، رضى الله تعالى عنه، دخل عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو وأبو بكر يبكيان، فقال: ما يبكيكما؟ فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «عرض علىَّ عذاب قومك أدنى من هذه الشجرة»(١)، والأولى لا عذاب فى تركه ولتفويضه للصحابة؛ لأن الاجتهاد كما يقع فى الأولى يقع فى الواجب، بل لو استدل بهذا على أنه أعلى مراتب الوجوب لم يبعد؛ لأنه لم يكشف فيه باجتهاد نفسه، فالصواب أنه فوض له الاجتهاد فى أمر الأسارى، ففوضه لأصحابه، فأفتى عمر، رضى الله عنه، بالقتل، وكان هو المصلحة، وهو من إحدى موافقاته، واجتهد الصحابة بما لم يؤد للمصلحة، فخلص عمر ولم يؤاخذ النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لبذل جهده فى اجتهاده، فله أجر، ولذا قال فيما مر: عذاب قومك دون عذابى؛ لخروجه من موجب العقاب ببذل جهده، وإلى هذا ذهب فحول العلم وجمع بين ظاهر الآية وما يجب لمقامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من العصمة. انتهى. وهو حسن جدًا، أو أحسن مما اختاره المصنف.

(فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنفال: ٦٧]؟ **الآية)**، سؤال وارد على ما اختاره من أنه أمر اختص به، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأنه لو كان

(١) تقدم تخريجه.

كذلك ما عوتب عليه بما ذكر من أنهم رجحوا أخذ الفداء، وهو مال غاد ورائح وعرض، فإن لا ينبغى النظر إليه.

(قيل) فى الجواب عنه: **(المعنى)**، بكسر النون، وتشديد الياء، أى المقصود، **(بالخطاب)**، فى قوله: ﴿**تُرِيدُونَ**﴾، **(لمن أراد ذلك)**، أى عرض الدنيا، **(منهم)**، من الصحابة الحاضرين الواقعة **(وتجرد)**، أى خلص وتمحض، **(غرضه)** بمعجمتين، أى قصده، **(لعرض الدنيا)**، بمهملتين وبينه وبين العرض تجنيس، **(وحده)**، أى منفردًا عن قصد ثواب الآخرة، وهو مؤكد لما قبله، **(والاستكثار منها)** بأخذ ما يناله، **(وليس المراد بهذا)** الخطاب **(النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**؛ لشرف نفسه عن النظر لها، **(ولا علية)**، بكسر العين ولام ساكنة بعدها ياء تحتية، جمع على كفتية، جمع فتى وصبى وصبية، وقيل: إنه اسم جمع **(أصحابه)**، أى كبار الصحابة، كأبى بكر وعمر وغيرهما ممن حضر الوقعة، وقد علمت مما قرره القرافى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليس معاتبًا ولا مخاطبًا هنا أصلاً، وأنه هو التحقيق.

ثم أيد كون الخطاب ليس لهؤلاء بما روى فى سبب نزوله، فقال: **(بل)** إضراب انتقالى **(قد روى عن الضحاك أنها)**، أى آية ﴿**تُرِيدُونَ**﴾ إلخ، **(نزلت)** فى أمر آخر غير الفداء، فلا يرد السؤال رأسًا، وذلك **(حين انهزم المشركون يوم بدر، فاشتغل الناس)**، أى بعض منهم، **(بالسلب)**، بسين مهملة ولام مفتوحة، ما يستلب، أى يؤخذ من القتيل من لباسه وما معه، وقد بينه الفقهاء، واختلفوا فيمن يستحقه ممن له حق فى الغنيمة أو القاتل مطلقًا، أو أن شرطه له الإمام كما فصلوه، والسلب أيضًا شجرة يتخذ منه حبال، ولذا سميت العامة الحبال سلبًا كما فى بعض كتب اللغة.

(وجمع الغنائم عن القتال)، متعلق باشتغل، **(حتى خشى عمر)**، رضى الله تعالى عنه، أى خاف على المسلمين **(أن يعطف)**، أى يرجع كارًا **(عليهم)**، أى على المشغولين بما ذكر **(العدو)** الذين انهزموا، والعدو يقع على الواحد وغيره، وكثيرًا ما يقع فى العساكر ضرر عظيم بمثل هذا، وعمر، رضى الله تعالى عنه، أدرى بذلك، **(ثم قال الله تعالى)** فى هذه الآية والقصة: (﴿**لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ**﴾) [الأنفال: ٦٨]، تقدم على هذه القضية، وتقدم بيان المراد بالكتاب هنا وسيأتى أيضًا.

(واختلف المفسرون فى معنى) هذه **(الآية)** والمراد منها:

(فقيل: معناها)، كما نقله الطبرى ما قاله محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، **(لولا أنه سبق منى)**، أى من الله تعالى فيما أوحاه لنبيه، صلى الله تعالى عليه

وسلم، (**إنى لا أعذب أحدًا إلا بعد النهى**)، وتحريم أخذ فداء، (**لعذبتكم**) على ما فعلتم من أخذ الفداء؛ لأنه لو كان منهيًا عنه محرمًا، استحق بمخالفته العذاب، فالمراد بالكتاب حكم الله الذى كتبه وقدره، (**فهذا**) التفسير (**ينفى**) ويمنع (**أن يكون أمر الأسرى**)، أى فديتهم (**معصية**)؛ لأنه لم ينه عنه و لم يحرم، فلا دليل فى الآية لما مر، وعلى هذا التفسير تكون هذه الآية مخصصة لنحو اقتلوا المشركين، فلا وجه للاعتراض على ما ذكره المصنف.

(**وقيل: المعنى**)، المراد من هذه الآية، (**لولا إيمانكم بالقرآن، وهو**) المراد بـ (**الكتاب السابق**)، فى قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال: ٦٨]، وقدر الإيمان فى النظم؛ لأن ذات الكتاب لا تمنع العذاب إلا بالإيمان بما تضمنه من هذه الأحكام، (**فاستوجبتم**)، أى استخفيتم (**به الصفح**)، أى العفو وعدم المؤاخذة، (**لعوقبتم على**) أخذكم (**الغنائم**)، وما هو فى حكمها من الفدية، وهذا حكاه ابن عطية فى تفسيره، وليس فيه تحصيل الحاصل كما توهم لما سيأتى.

(**ويزاد**) بزاء معجمة، فعل مجهول من الزيادة، (**هذا القول تفسيرًا وبيانًا**) وإيضاحًا، (**بأن يقال**) فى تقريره المعنى (**لولا ما كنتم مؤمنين بالقرآن**)، بحقيقته وحقيقة ما فيه من الأحكام، وما مصدرية، وقوله: (**وكنتم ممن أحلت لهم الغنائم**)، معطوف على ما قبله، (**لعوقبتم كما عوقب من تعدى**)، بفتح التاء الفوقية والعين والدال المهملتين المشددة داله قبل الألف، فعل ماض، والكتاب على هذا بمعنى القرآن، وسبقه لقدمه فى الأزل أو لتقدم ما نزل أو حكم الله الذى كتبه وقدره، وحاصله أنه لولا أن الله أنزل القرآن وما فيه من الأحكام، وأحل لكم فيه الغنائم لمسكم العذاب وأحل بكم العقاب، كما عوقب من قبلكم من الأمم لما تجاوزوا الحدود وتعدوا ما نهاهم الله تعالى عنه، وهو إما تشريع وامتنان عليهم بما أحله لهم، و لم يضيق عليهم كما ضيق على الأمم السابقة، أو هو ردع لمن اشتغل بالغنائم والسلب.

وقد روى أبو داود، عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، أنه لما كان يوم بدر، تعجل الناس إلى الغنائم، فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن الغنيمة لا تحل لأحد سود الوجوه غيركم»[1]، وكان النبى وأصحابه إذا غنموا الغنيمة جمعوها، فنزلت نار من السماء فأكلتها، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ الآيتين، وأخرجه الترمذى، وقال: صحيح حسن، ووقع فى الشرح الجديد هنا مؤاخذة على ما فى

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٥٢)، والترمذى (٣٠٨٥)، وابن حبان (١٦٦٨)، وسعيد بن منصور (١٩٠٦).

الكشاف هنا مع ما فيها لا مساس لها بالمقام ناشئة من عدم التدبر.

(وقيل:) معناه **(لولا أنه سبق فى)** الأزل فى **(اللوح المحفوظ)** الذى كتب فيه كل ما هو كائن إلى يوم القيامة، **(أنها)**، أى الغنائم **(حلال لكم)** الانتفاع بها والتصرف فيها، **(لعوتبتم)** على أخذها.

(فهذا) المذكور فى التفاسير كله **(ينفى الذنب والمعصية)**، فيما فعله بأسرى بدر؛ **(لأن من فعل ما أحل له)** على ما وجهه به، **(لم يعص)** الله تعالى ولم يعد ما صدر منه معصية حتى يستدل بما ذكر فيها على تجويز الصغائر عليهم، ومما هو صريح فى حله ما أشار إليه بقوله: **(قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾)**، أى من غنائمكم (﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾) [الأنفال: ٦٩]، فكلوا بمعنى انتفعوا به، وليس المراد خصوص الأكل وذكره لكثرته وغلبته على غيره من الانتفاع.

واستدل بهذا على أن الأمر الوارد بعد الحظر للإباحة وعليه الأكثر، والقائل بأن الأصل فيه الوجوب، يجب عليه كما فصل فى الأصول وفى الكشاف وتبعه القاضى فى قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾، إلى آخره. قيل: لولا ما شاء الله من أن يحل لكم الفدية واعترض عليه بأنه يقتضى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يعلم بحل الغنائم له حين ذهب لبدر، والظاهر أنه إنما أقدم على ذلك ورغب فيه بعد علمه بحله، ولم يخرج لبدر إلا طالبًا للغنيمة، ولولا ذلك لم يأخذ عير قريش، وهو وهم منه، فإنه لا يلزم من علمه بحل الغنيمة علمه بحل الفدية، وإن كانت فى حكمها، وقد أورده على قوله: لولا أنه سبق فى اللوح المحفوظ... إلخ، وهو غير وارد؛ لأن المعنى لو لم تحل لكم الغنيمة، وهو يقتضى حل الفدية، فتأمل.

(وقيل: بل كان)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قد خير فى ذلك)**، أى فى أخذ الفدية من الأسرى وفى قتلهم، فلما أخذها قيل له: كان الأولى خلافه، لكن بكاؤهما السابق ورؤيته، صلى الله تعالى عليه وسلم، دنو العذاب منهم يأباه كما تقدم.

(و) يدل على أنه مخير فى ذلك، أنه **(قد روى عن على)**، رضى الله تعالى عنه، أنه **(قال: جاء جبريل)**، عليه الصلاة والسلام، **(إلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يوم بدر، فقال: خير أصحابك فى الأسارى)** ببدر، **(إن شاؤا القتل، وإن شاؤا الفداء)**، أى أخذ الفدية والمال منهم، **(على أن يقتل منهم فى العام المقبل)**، والسنة التى تلى هذه السنة، أى أن الله قدر عليهم إن أخذوا الفدية يقتل من الصحابة، **(مثلهم)**، أى بعددهم، **(فقالوا:)** نختار **(الفداء ويقتل منا)** مثلهم، رغبة فى الشهادة.

(**وهذا**) المذكور كله (**دليل على صحة ما قلنا، وأنهم لم يفعلوا**) فى وقعة بدر من أخذ الفدية، (**إلا ما أذن لهم فيه**)، أى جوزه لهم، فلا ذنب ولا معصية، (**لكن بعضهم**)، أى بعض الصحابة الذين استشارهم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى ذلك، (**مال إلى أضعف الوجهين**) من الفدية دون القتل باجتهاد منه، والاجتهاد يجوز من الصحابة بحضرته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما صححه أهل الأصول، (**مما كان الأصلح**) للإسلام والمسلمين، (**غيره**)، وهو القتل، وبينه بقوله: (**من الإثخان والقتل**)، الذى هو أعز الوجهين، فاختار الأذل لما خيروا.

(**فعوتبوا على ذلك**)، من اختيار غير الأصلح، (**وبين لهم ضعف اختيارهم**) الفدية، (**وصوب اختيار غيرهم**)، وهو ما اختاره الفاروق، رضى الله تعالى عنه، (**وكلهم غير عصاة ولا مذنبين**)؛ لأن كلا منهم قال ما أداه إليه اجتهاده، ظانًا أن الخير فيه، (**وإلى نحو هذا أشار الطبرى**)، رحمه الله تعالى، وإنما وبخوا وخوفوا وقوع العذاب بهم؛ لأن المخوف منهم من بجرد نظره للكمال فى العاجل مثل الصديق، رضى الله تعالى عنه، ممن فعله شفقة على قومه، ورجاء أن الله يهديهم للإسلام، ويعز بهم الدين فى الآجل، وقد حقق الله رجاءه، فلا اعتراض على هذا بأنه لو كان كذلك ما وقع توبيخ شديد، ومن طالع السير وما وقع فى هذه الغزوة علم هذا وتحققه.

(**وقوله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**فى هذه القصة: لو نزل من السماء عذاب، ما نجا منه إلا عمر**)، جواب عن سؤال ورد على ما قرره من أنهم غير عصاة ولا مذنبين، وهو أنه (**إشارة إلى هذا**) المذكور (**من تصويب رأيه**)، أى رأى عمر، رضى الله تعالى عنه، (**ورأى من أخذ بمأخذه**)، أى وافقه فيما قاله، (**فى إعزاز الدين**)، وغيظ الكفرة، بإيقاع القتل برءوسهم وإرهاب قلوبهم فى أول واقعة وقعت بينهم، (**وإظهار كلمته**)، بأن تكون كلمة الله ورسوله هى العليا، وتكون ظاهرة شائعة، (**وإبادة عدوه**)، أى إهلاكه وإفناؤه؛ لأن الأسراء كانوا عظماء أئمة الكفر، فلو قتلوا لم يكن لهم عمود بعده.

(**وأن هذه القضية**)، أى قضية أسرى بدر، وأخذ الفدية منهم وإطلاقهم، (**لو استوجت عذابًا**)، أى اقتضت وقوع العذاب بمن فعلها لمخالفتها لا من الله تعالى، (**نجا منه**)، أى من العذاب الذى اقتضته، (**عمر**)؛ لأنه رضى الله تعالى عنه، لم يرض به و لم يره رأيًا صحيحًا، (**ومثله**)، أى ونجا منه مثله ممن كان على رأيه، وهو سعد بن معاذ، رضى الله تعالى عنه، كما ورد فى الحديث، (**وعين عمر**)، أى خصه بالذكر، مع أن جماعة منهم كانوا على رأيه؛ (**لأنه أول من أشار بقتلهم**)، جوابًا لقول النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، له كما فى صحيح مسلم: «ما ترى يا ابن الخطاب؟»، فقال: ما أرى رأى

أبى بكر، ولكن أرى أن تختار ضرب أعناقهم...» الحديث.

(**لكن الله لم يقدر عليهم فى ذلك عذابًا**) فى مقابلة رأيهم بالفدية؛ (**لحله لهم**)، أى لأن الله أحله لهم وخيرهم، (**فيما سبق**) هذه الواقعة، (**وقال الداودى:**) تقدمت ترجمته، (**والخبر بهذا لم يثبت**)، أى لم يثبت المنع من أخذ الفدية، لا الحديث الذى فيه ما رآه عمر وغيره، (**ولو ثبت لما جاز أن يظن أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، حكم بما لا نص فيه**) بوحى نازل عليه، (**ولا دليل**) يدل على ما حكم به مستنبط (**من نص**) سبق باجتهاده، (**ولا جعل الأمر فيه**) من الله مفوض (**إليه**)، فإنه وقع التفويض إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى أمور أذن له بالحكم فيها بها كما صرحوا به، (**وقد نزهه الله عن ذلك**) بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]، والاجتهاد والتفويض بوحى يوحى.

(**وقال القاضى بكر بن العلاء:**) إمام مذهب مالك كما تقدم، (**أخبر الله نبيه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**فى هذه الآية**) النازلة فى أسرى بدر، (**أن تأويله**) الذى قبله من أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، فى اختيار عدم القتل، (**وافق ما كتب له**)، أى حكم به وجوزه بقوله: ولولا كتاب من الله سبق فى علمه وحكمه، (**من إحلال الغنائم**) لهم (و) إحلاله لهم أخذ (**الفداء**، و) كيف لا تكون الفدية أحلت لهم قبل هذا؟.

و(**قد كان**) النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأصحابه (**قبل هذا**)، أى قبل غزوة بدر، (**فادوا**)، أى أخذوا الفداء من المشركين (**فى سرية عبد الله بن جحش، التى قتل فيها ابن الحضرمى**)، لما مرت عير لقريش بتجارة من الطائف، ومع العير عمرو بن عبد الله الحضرمى، والحكم بن كيسان، وعثمان بن عبد الله، ونوفل بن عبد الله، والسرية فعلية من السرى، وهم ناس مرسلون للعدو من خمسة إلى ثلاثمائة، ولم يعين أبو حنيفة عددًا لأقله، وقال أبو يوسف: سبعة فصاعدًا، وقال الماوردى: يطلق على الواحد سرية، والظاهر أنه مجاز، فلابد من عدد له منعة.

وعبد الله بن جحش هو ابن رباب بن معمر الأسدى، وأمه أميمة بنت عبد المطلب عمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، أسلم قبل دخول النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، دار الأرقم، وهو من المهاجرين الأولين، واستشهد بأُحُد، ودفن عند حمزة، رضى الله عنه، وسريته كانت فى رجب فى السنة الثانية، أو فى جمادى الآخرة، ومعه ثمانية من المهاجرين، أو اثنى عشر هو أميرهم، ومن ثمة سمى أمير المؤمنين، ويعرف بالمجدع فى الله؛ لجدع أنفه وأذنيه بأُحُد، وكان دعا الله تعالى بذلك، وكانت السرية قبل بدر بشهر أو

أكثر كما سيأتى.

وبعث ليترصد عير قريش، فساروا حتى نزلوا ببطن نخلة، بين مكة والطائف، فرمى واقد بن عبد الله الصحابى عمرو بن الحضرمى فقتله، فكان أول قتيل من المشركين، واستأسروا الحكم وعثمان، وكانا أول أسير فى الإسلام، وأفلت نوفل، فقدموا المدينة بالعير والأسيرين، فأسلم الحكم، وافتدى صاحبه عثمان بن عبد الله، ورجع لمكة، فمات بها كافرًا، وقد فدى نفسه.

(بالحكم بن كيسان وصاحبه) عثمان بن عبد الله، والباء متعلقة بقوله: فادوا، لا بقوله: قتل؛ لأن المذكور هنا أن الحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة المخزومى أسر فى هذه السرية، أسره المقداد بعد قتل ابن الحضرمى، فأراد عبد الله بن جحش ضرب عنقه، فقال المقداد: دعه يقدم به على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلما قدم به أسلم وحسن إسلامه، وقتل ببئر معونة، وسيأتى تفصيله.

(فما عتب الله ذلك عليهم)، أى على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، والصحابة فى أخذ الفدية، ولو كانت ممتنعة وبخهم الله تعالى على ذلك، والمراد بالعتب التوبيخ والإنكار مجازًا عن لازم معناه إذ معناه لا يليق به تعالى؛ لأنه يستعمل فيما بين الأقران، وإنما عبر به ليشمل خلاف الأولى، **(فذلك)**، أى ما وقع من الفداء فى تلك السرية، **(كان قبل بدر)**، أى قبل وقعتها، **(بأزيد من عام)**، كذا فى النسخ، وهو سهو؛ لأن بدرًا الأولى وقعت فى ربيع الأول بعد ثلاثة عشر شهرًا من الهجرة، فتكون هذه الوقعة فى سنة اثنين من الهجرة، ثم فى رجب بعث رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، هذه السرية، ثم فى رمضان من هذه السنة، وقعت غزوة بدر الكبرى، فبين هذه السرية وغزوة بدر نحو ثلاثة أشهر، فكان المصنف، رحمه الله تعالى، توهم أن هذه السنة سنة ثانية، وليس كذلك.

وحاصل قصة هذه السرية أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعث عبد الله بن جحش ومعه ثمانية رهط من المهاجرين، وكتب له كتابًا، وأمره أن لا يقرأه حتى يسير يومين، وأن لا يستكره من أصحابه أحدًا، ففتحه بعد يومين، فإذا فيه: «إذا نظرت كتابى، فامض حتى تنزل بنخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشًا وتعلم خبرهم»، فلما قرأه قال: سمعًا وطاعة، وأعلمهم بما فى كتابه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلم يخالفوه، وسلك إلى الحجاز، فلما كان بنجران، أضل سعد بن أبى وقاص، وعتبة بن غزوان، بعيرًا لهما، فتخلفا فى طلبه، فمضى ابن جحش وأصحابه حتى نزلوا بنخلة، فمر بهم عير

لقريش فيها عمرو بن الحضرمى، وعثمان بن المغيرة، وأخوه نوفل، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة، فلما رآهم القوم هابوهم ونزلوا قريبًا منهم، فأشرف عليهم عكاشة بن محصن، وقد حلق رأسه، فقالوا عمار: لا بأس عليكم منهم، وذلك فى آخر يوم من رجب.

ثم شاوروا، فقالوا: إن تركتموهم الليلة دخلوا الحرم فامتنعوا به، وإن قتلتموهم قتلتوهم فى الشهر الحرام، ثم اجتمعوا على قتل من قدروا عليه وأخذ مغنهم، فرمى واقد ابن عبد الله التميمى ابن الحضرمى بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله، والحكم ابن كيسان، وأعجزهم نوفل بن عبد الله، وأقبل ابن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: إن ابن جحش قال لأصحابه: إن لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، مما غنمنا الخمس، وذلك قبل أن يفرضه الله، فقسم ذلك بين الصحابة.

وقال ابن إسحاق: إنهم لما قدموا عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «أأمرتكم بقتال فى الشهر الحرام»، ووقف أمر العير والأسيرين، و لم يأخذ من ذلك شيئًا، فندم المسلمون على ما فعلوا، وقالت قريش: استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام بسفك الدم وأخذ المال والأسر، فقال المسلمون بمكة: إنما وقع ذلك فى شعبان، فلما كثر القيل والقال، أنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ففرح المسلمون بذلك، وقبض رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، العير والأسيرين، وبعثت قريش فى فداء عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا نفدى حتى يقدم صاحباى»، يعنى ابن أبى وقاص وعتبة بن غزوان؛ لخشيته أن يقتلهما قريش بمن قتل منهم، فلما قدما فداهما، فأما الحكم بن كيسان، فأسلم وحسن إسلامه حتى استشهد ببئر معونة، وأما عثمان، فلحق بمكة ومات كافرًا كما مر.

(وهذا) المذكور **(كله يدل على أن فعل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى شأن الأسرى)**، من الفداء وما وقع معه، **(كان على تأويل)** باجتهاد منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن الصحابة، **(وبصيرة)** بالنظر الصحيح فى أنه فيه إعانة ورجاء؛ لأن الله يهديهم فى الآجل إلى الإسلام، وكان كذلك، **(و)** هو جار **(على ما قد تقدم قبل)**، أى قبل بدر، **(مثله)** من وقوع الفدية فى سرية ابن جحش، و لم يعاتبوا عليه، **(فلم ينكره الله تعالى عليهم)**، كما بيناه آنفًا.

(لكن الله تعالى أراد) بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ [الأنفال:

٦٧]؛ **(لعظم أمر بدر)**، وإنها مما كسر شوكة المشركين وأرعب قلوبهم، فلو زادوا ذلك بقتل من أسروه كان أتم، **(وكثرة أسراها)** الواقعة فيها بما أداه اجتهادهم إليه، **(إظهار نعمته)**، مفعول أراد، أى ظهورها على المسلمين أنهم ولو تركوا الفدية أغناهم الله تعالى عنها، **(وتأكيد منته)**، أى نعمتهم عليهم، **(بتعريفهم ما كتبه)** وقدره **(فى اللوح المحفوظ)**، بقوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال: ٦٨]، على أحد الوجوه المتقدمة، واللوح المحفوظ مبين فى كتب الحديث والتفسير.

(من حل ذلك لهم)، أى كونه حلالاً مأذونًا فيه لهم، **(لا على وجه عتاب)**، أى لم يذكره للومهم، بل لبيان شكره ونعمته، **(وإنكار)** عليهم فى اختيار الفدية، **(أو تذنيب)**، أى نسبتهم لذنب ارتكبوه بما فعلوه، **(هذا معنى كلامه)**، أى كلام القاضى بكر بن العلاء، وهذا الذى اختاره المصنف خلافًا لمن قال: إن الحق أنه عتاب من الله، وارتضاه بعض الشراح هنا. وقال: إن ما ذكره تكلف لا ينبغى ارتكابه.

(وأما قوله تعالى: ﴿عَبَسَ﴾)، أى كلح وجهه، ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ ى [عبس: ١]، أعرض عنه بوجهه **(الآية)**، أى ما يشعر به ظاهرها من أنه صدر عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما استحق عليه العتاب، واستدلال بعضهم بهذه الآية والقصة على تجويز الصغائر عليهم كما تقدم، **(فليس فيها إثبات ذنب له)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا تجويزه عليه كما توهم من استدل بها على ذلك، **(بل إعلام له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن ذلك المتصدى)**، أى بصيغة اسم المفعول ونائب فاعله قوله: **(له)**، أى أقبل عليه وتوجه له، وأصله مقابلة الشىء كما يقابله الصدى، وهو الصوت الراجع إليه من جبل ونحوه كما قاله الراغب فى التعبير به نكتة، وهى أن كلام هؤلاء لا عبرة به كما قال المتنبى:

أنا الطائر المحكى وغيره هو الصدى

(ممن لا يتزكى)، أى لا يسلم، فيطهره الله من دنس الشرك، **(وأن الصواب والأولى)** والأليق به، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ما لو كشفت لك حال الرجلين)**، أى ابن أم مكتوم ومن كان عنده من المشركين، واقتصر على الأقل، وإلا فالكفرة كانوا جماعة كما تسمعه، **(الإقبال على الأعمى)** دون غيره، والأعمى هو عبد الله بن شريح، ويقال: عمرو بن أم مكتوم، واسم أم مكتوم عاتكة بنت عامر بن مخزوم، وعمرو هذا هو ابن قيس بن زيد بن الأصم.

والذى تصدى له جماعات من كبار المشركين بمكة، اختلفوا فيهم، فقال مجاهد: **كانوا ثلاثة**، عتبة، وشيبة ابنا ربيعة، وأبى بن خلف، وزاد بعضهم: أبا جهل، **والعباس**،

وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يرجو إسلامهم وإسلام غيرهم، وقد قدمنا عن القرطبى أن هذا باطل وجهل ممن قاله؛ لأن أمية بن خلف والوليد كانا بمكة، وابن أم مكتوم كان بالمدينة لم يحضر معهم، وماتا كافرين، أحدهما مات بمكة، والآخر ببدر، ولم يأتيا المدينة، وتقدم أنه شنع على القرطبى فيما قاله، فإن سورة عبس مكية، وابن أم مكتوم أسلم قديمًا بمكة قبل الهجرة، وكان مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة والمدينة، وهاجر قبل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، مع مصعب بن عمير، رضى الله تعالى عنهما، فكيف يجهل من نقل هذه القصة من كبار المفسرين؟.

ثم أشار إلى أن ما فعله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليس ذنبًا، بل فعلاً حسنًا؛ لأنه تبليغ للرسالة، ولطف فى الدعوة بالإقبال على من كان من أهل العناد والكبر، فأعلمه بحال الفريقين، فقال: (**وفعل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما فعل**) من التصدى وما معه الذى أشار إليه بقوله: (**وتصديه لذلك الكافر**)، تقدم وجه إفراده، (**كان طاعة لله وتبليغًا عنه**)، فما فعله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان أمرًا لازمًا له، (**وائتلافًا له**)، أى استمالة للكافر وتأليفًا له؛ رجاء لإسلامه، (**كما شرعه الله له**)، وفرضه عليه بأمره بالتبليغ ولين الجانب لمن يدعوه، (**لا معصية**) كما زعمه من تقدم، (**ومخالفة له**)، أى لما شرعه الله.

(**وما قصه الله عليه**) فى هذه السورة، (**إعلام بحالة الرجلين**) المذكورين (**وتوهين أمر الكافر عنده**)، أى تضعيفه وبيان لحاله؛ لأنه لا مقدار له يعتد به، (**وإشارة إلى الإعراض عنه بقوله:** ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾) [عبس: ٧]؛ لأن معناه لا بأس عليك من أمره، فلا تلتفت إليه، والضمير فى قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٣] لابن أم مكتوم، وقيل: ضمير لعله للكافر، يعنى إنك إذا طمعت فى أن يتزكى بالإسلام، ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [عبس: ٤]، إلى قبول الحق، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، أى ما طمعت فى أن يتزكى بالإسلام كائن، والأول هو الأولى؛ لأن ما فى القرآن من يدريك، فهو مما أعلمه الله به، وما فيه من إدراك لم يعلمه به.

وأيضًا فالكافر لم يسبق له ذكر صريحًا ولا ضمنًا، وقوله: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٧]، يريد أنه لا بأس عليك بعدم إسلامه، فحرصك على إسلامه، الحامل لك على الإعراض عن غيره، تطييبًا لخاطره، الأولى تركه؛ لأن ما عليك إلا البلاغ، وقد فعلت، وقد تقدم تتمة لهذا، فتذكره.

(وقيل: المراد بـ) قوله: (﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ **الكافر الذي كان مع النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم)** في ذلك المجلس، **(قاله)**، أي هذا القول، **(أبو تمام)** الشاعر، صاحب كتاب الحماسة على ما يأتي، وهو قول في غاية الضعف بعيد من السياق، والذي عليه المفسرون أنه النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفي إلقاء الكلام له بدون الخطاب إكرام له، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن أن يواجه بالعتب لا مبالغة في العتب؛ لأن فيه بعض إعراض كما قاله ابن عطية، رحمه الله تعالى.

(وأما قصة آدم)، عليه الصلاة والسلام، والاستدلال بها على تجويز الصغائر على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(وقوله: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾)** [طه: ١٢١]، أي من الشجرة، **(بعد قوله)** له ولزوجته حواء: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩]، المخالفين لأمر الله ونهيه، **(وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾)** [الأعراف: ٢٢]، شجرة الكرم أو التين أو غيرهما كما بينه المفسرون.

(وتصريحه تعالى)، بالحاء المهملة، وضمنه معنى النداء، وعداه بعلى في قوله: **(عليه بالمعصية بقوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾)** [طه: ١٢١]، أي ضل عما بينه له، وقيل: معناه: **(جهل، وقيل: أخطأ، فإن الله تعالى قد أخبر بعذره)**، جواب أما، وهو جواب عما استدلوا به؛ لأنه ارتكب معصية وذنبًا، **(بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾)**، أي أخذنا عليه وبينا له ما يلزمه فتركه، ﴿مِن قَبْلُ﴾، أي قبل أكله الشجرة، ﴿فَنَسِيَ﴾ العهد المتقدم، (﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾) [طه: ١١٥] ثابتًا على ما عهد إليه؛ لأن العزم توطين النفس على فعل أو ترك، وقريب منه تفسيره بالصبر الآتي.

وعلى هذا، فالذي نسيه هو نهي الله تعالى له عن الأكل من الشجرة، وفعله ناسيًا لا يكون ذنبًا؛ لعدم المؤاخذة به، وفيه أنه لو كان كذلك، ما جازاه الله تعالى بإخراجه من الجنة ونزع لباسه، وقيل: إنه ذكر تسلية للنبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن عصيان قومه؛ لأن مثل آدم إذا عصى ربه، فما بالك بغيره. وقال ابن عطية: إنه ضعيف؛ لأن جعل آدم مثلاً للكفار لا ينبغي، والذي أراه أنه ابتداء قصص، أو أنه لما عهد له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن لا يعجل بالقرآن، فنسي سلاه بأنه سبق مثله لآدم، فعفى عنه، فلا لوم عليه.

ثم ذكر وجهًا آخر، فقال: **(قال ابن زيد:)**، هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كما تقدم في ترجمته، **(نسي عداوة إبليس له)**؛ لحسده على جعله تعالى خليفته، قيل: وكان **النسيان يؤاخذ به المكلف**، ثم عفا الله عنه، كما يأتي، وبهذا علم الجواب عما تقدم،

(و) نسى (**ما عهد الله إليه من ذلك**)، أى من كون إبليس عدوًا له ولزوجته وولده، (**بقوله:** ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧] **الآية**)، وحذره منه كما قصه فى قصته وبينه المفسرون، (**قيل: نسى ذلك**) المذكور من عداوته، (**بما أظهر لهما**)، أى لآدم وزوجه من المخادعة، فدلاهما بغرور.

(**وقال ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: إنما سمى الإنسان إنسانًا؛ لأنه عهد إليه فنسى**)، وأصله إنسيان، وزنه إفعلان، قلبت ياؤه ألفًا لتحركها وانفتاح ما قبلها، وحذفت الألف لالتقاء الساكنين، فالهمزة زائدة ولامه محذوفة، وقيل: إنه من أنس، ووزنه فعلان، وإنما ذكر هذا توجيهًا للقولين المذكورين، فلا وجه لما قيل أنه لم يقع موقعه؛ لعدم مناسبته لما قبله، ويدل لقول ابن عباس أن تصغيره إنيسان، ولذا قيل كما تقدم:

وإن أول ناس أول الناس

وقلت:

ومن لم يكن ينسى الضغائن والذى تقدم من حقد فليس بناسى

(**وقيل:**) فى توجيه ما صدر من آدم، عليه الصلاة والسلام، أنه (**لم يقصد المخالفة**) لما نهاه عنه، (**استحلالاً لها**)، أى لعدها حلالاً حتى لا يكون ذلك معصية، (**ولكنهما**)، أى آدم وزوجته، (**اغترا بحلف إبليس لهما**)، أى قسمه، وقوله: والله ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] فى تحسين الأكل لهما من الشجرة، (**وتوهما أن أحدًا لا يحلف بالله حانثًا**)، مخالفًا للواقع.

(**وقد روى عذر آدم**)، أى اعتذاره عما صدر منه، (**بمثل هذا**) المذكور من ظنه صدقه؛ لإقسامه لهما، (**فى بعض الآثار**) المروية عن السلف أو الأحاديث، وذلك أن إبليس رآهما فى الجنة ونعيمها فبكى، فقالا له: ما يبكيك؟ قال: رحمة لكما لزوال هذا النعيم عنكما، فقالا له: فماذا يكون مانعًا عن زواله، فزلهما بتأويله النهى وقسمه على ما قاله، قالوا: وهو أول من وقع منه الحسد والكذب فى اليمين.

(**وقال ابن جبير: حلف بالله لهما حتى غرهما**) وخدعهما بأن الأكل ليس فيه مخالفة لما نهى الله تعالى عنه، (**والمؤمن يخدع**)، مبنى للمفعول، أى من شأنه أن ينخدع بتصديق من غره؛ لسلامة صدره وظنه أن أحدًا لا ينافق ولا يكذب، وليس هذا لقلة إذعانه، بل لأنه لكونه لا يفعل ذلك يعتقد أن غيره مثله، ولذا قيل:

إن الكريم إذا خادعته انخدعا

(وقد قيل:) فى توجيه ذلك أيضًا **(أنه نسى ولم ينو المخالفة)** للعهد الذى عهده الله له، والنسيان مغتفر، وفى تفسير الثعلبى: أن النسيان كان مؤاخذًا به؛ لنشأته عن أسباب اختيارية، ثم نسخ ذلك، **(فلذلك قال)** الله تعالى: (﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ﴾)، أى لآدم، عليه الصلاة والسلام، (﴿عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، **أى قصدًا للمخالفة)** لله فيما نهاه، فإن العزم التصميم على فعل أو ترك، وهو يستلزم ما ذكر، وتقدم فيه تفاسير أخر، **(وأكثر المفسرين على أن العزم)** معناه المراد منه **(هنا الحزم)**، وهو الأخذ بما فيه سداد بعد النظر التام فيه، **(والصبر)**، حتى يتيسر له مراده من غير قلق واضطراب.

(وقيل: كان عند أكله سكران)، فلم يخالف قصدًا، والسكر لم يكن حرامًا إذ ذاك، والجنة ليست دار تكليف أيضًا، إلا أنه ورد أن خمر الجنة ليس له سكر ولا خبال كخمور الدنيا، ولا يخفى أن هذا الوجه فى غاية الضعف، والأولى تركه، إلا أنه قول سعيد بن المسيبكما نقله البغوى، وأما ما ذكره غير مسلم، لاسيما إن قلنا: إن الجنة ليست هى دار الخلد كما هو أحد أقوال المفسرين فيها، ولذا قال المصنف، رحمه الله تعالى: **(وهذا)** القول **(ضعيف؛ لأنه تعالى وصف خمر الجنة بأنها لا تسكر)**، فينافى هذا الجواب، وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]، فإنه فسر بأنها لا تذهب عقولهم، من نزف عقله، إذا ذهب، والكلام عليه مفصل فى التفاسير.

(فإذا كان) آدم، عليه الصلاة والسلام، **(ناسيًا)** على أحد الوجوه السابقة، **(لم يكن)** ما فعله آدم **(معصية)**، فلا يصح الاستدلال حينئذ بالآية، **(وكذلك إذا كان ملبسًا عليه)**، يعنى تلبيس إبليس الذى غره به، وقسمه له بأنه ناصح له، وأنه يريد خلوده فى الجنة، وعدم زوال نعمته عنه، وأن نهى الله ليس بتحريمى مؤاخذ به مما يأتى، **(غالطًا)**، أى وقع من آدم، عليه الصلاة والسلام، الغلط بقبوله تلبيسه وتقريره له بأنه لا إثم عليه فى أكله.

(إذ الاتفاق) من أئمة الدين **(على خروج الناسى والساهى من حكم التكليف)**، يعنى أنه ليس مكلفًا بنص القرآن والحديث، فلا يكتب عليه ذنب، وأيضًا أنه كان فى جنة الخلد، وليست دار تكليف، إلا أنه قيل: إن السهو والنسيان كان مؤاخذًا به شرعًا، ثم نسخ كما تقدم عن الثعلبى.

وأيضًا قيل: إن الجنة إنما تصير دار إباحة دون تكليف بعد الحشر، وأما قبل فلا، على أنه فيه بحث، إذ المراد به أنه ليس فيها تكاليف الدنيا، كالصلوات الخمس والزكاة ونحوه مما علم من الأحكام الشرعية، أما إذا قال الله تعالى لأهل الجنة: أمرتكم بكذا، أو نهيتكم

عنه، فإنه لا يجوز مخالفته بلا شبهة، وهذا مما لا ينبغى الغفلة عنه.

(**وقال الشيخ أبو بكر بن فورك**)، وهو أبو محمد بن الحسين الأصبهانى، إمام أهل السنة والكلام، وكان فى عصره أجل من تصدر للوعظ، والتدريس، والتأليف، وله مصنفات جليلة، ومناظرات عجيبة، وله رحلة للهند وغيره، ولما رجع إلى نيسابور، مات فى الطريق سنة ست وأربعمائة، فنقل لنيسابور ودفن بها، وقبره يزار، ويستجاب عنده الدعاء، كما ذكره المؤرخون، كابن خلكان، وفورك بضم الفاء، وسكون الواو، وفتح الراء، وكاف، وتقدم فى صدر الكتاب التردد فى أنه مصروف أو ممنوع من الصرف.

(**وغيره:**) من العلماء (**إنه يمكن أن يكون ذلك قبل النبوة**)، وفى عصمتهم من الصغائر قبلها خلاف، وقد جوزه كثير، (**ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾**)، أى اختاره لنبوته، (**﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾**)، مما صدر منه قبل النبوة، (**﴿وَهَدَىٰ﴾**) [طه: ١٢١، ١٢٢]، أى هداه إلى علمه.

(**فذكر أن الاجتباء والهدى**)، مصدر بمعنى الهداية، وليس على هذا الوزن مصدر إلا الهدى والسرى والتقى على كلام فيه فى شرح سيبويه، (**كانا بعد العصيان**)؛ لعطفه بثم كما لا يخفى، فالمعنى أن الله ارتضاه لنبوته، وأنه لم يصدر عنه ذنب بعد ما نبئ، والاجتباء الاختيار، من جبيت الماء فى الحوض، إذا جمعته، فالاجتباء للمعارف والعلوم اللدنية، وقد قيل عليه: إنه فى غاية البعد؛ لأن ظاهر الحال من سجود الملائكة لآدم وإظهار فضله عليهم ومخاطبته فى حضرته، تمنع هذا الاحتمال، إذ لا معنى للنبوة غير هذا، فالاستدلال به على نبوته أولى مما استدل به المصنف، رحمه الله تعالى.

(**وقيل:**) فى الجواب عما استدل به على تجويز الصغائر على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، (**بل أكلها متأولاً**) لحل أكله، وأنه لا يصدر عنه به معصية، وأشار لتأويله بقوله: (**وهو لا يعلم أنها الشجرة التى نهى عنها**)، بالبناء للمفعول، أى التى نهاه الله عنها فى الآية؛ (**لأنه تأول نهى الله تعالى له**) بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: ١٩]، أى لا تأكلا من هذه الشجرة بأنه إنما نهى (**عن شجرة مخصوصة**)؛ لقوله: ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾؛ لأن اسم الإشارة موضوع لفرد معين مشاهد، (**لا على الجنس**)، أى أنه نهى عن جنس هذه الشجرة الشامل لجميع أفرادها، وبعضهم قال: إن اسم الإشارة قد يشار به إلى الجنس مجازًا، وبه صرح النحاة كما فى أول شرح الكتاب، والمراد بالجنس الكلى مطلقًا، فيشمل الجنس والنوع وغيره، ولبعض الشراح هنا كلام لا محصل له.

(**ولذا**)، أى ولأجل أنه تأول بما ذكر، (**قيل: إنما كانت التوبة من ترك التحفظ**). قال

الراغب: التحفظ قلة الغفلة، وحقيقته تكلف الحفظ؛ لضعف القوة الحافظة. انتهى. والمراد ترك التيقظ والتنبه.

(**وقيل:**) فى الجواب وبيان تأويله، (**أنه تأول أن الله تعالى لم ينهه عنها نهى تحريم**)، وإنما هو نهى تنزيه، عن خلاف الأولى، وكونه لا يناسب قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩] كما قيل، سيأتى ما يدفعه فى كلام المصنف.

(**فإن قيل: فعلى كل حال**) مما ذكرته فى توجيه ما صدر من آدم، عليه الصلاة والسلام، كيف يكون لا معصية فيه وهو مشكل؟ (**فقد قال تعالى:**)، فى هذه القصة، ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: ١٢١]، فأثبت له المعصية بما فعله، وأنت قررت خلافه، (**وقال:** ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾) [طه: ١٢٢]، والتوبة إنما تكون عن ذنب، (**وقوله**)، أى قول آدم المحكى عنه (**فى حديث الشفاعة**) فى المحشر للخلق كما تقدم، (**ويذكر ذنبه**)، لما طلب الخلق منه أن يشفع لهم فى الخلاص من هول الموقف، فقال لهم: «اذهبوا لغيرى من الأنبياء»، فيذكر ذنبه، وأنه يستحى من ربه، (**وقال: إنى نهيت عن أكل الشجرة**)، أى عن الأكل من شىء منها، (**فعصيت**) بفعلى ما نهى الله تعالى عنه، فهذا كله يقتضى أنه صدر منه ذنب ومعصية، فينافى ما وجهته به.

(**فسيأتى الجواب عنه وعن أشباهه**)، مما يقتضى ارتكاب الذنوب (**مجملاً**) مختصرًا فى (**آخر**) هذا (**الفصل إن شاء الله تعالى، وأما قصة يونس**) بن متى، عليه الصلاة والسلام، (**فقد سبق**)، أى مضى (**الكلام على بعض منها آنفًا**)، أى قريبًا، من قولهم: استأنفت الشىء، إذا ابتدأته، وآنف اسم فاعل منه صار بمعنى قريب، (**وليس فى قصة يونس**) المذكور فى القرآن (**نص على ذنب**) صدر منه حتى يستمسك بها من جوزه عليهم.

(**وإنما**) ذكر (**فيها**)، أى قصته: أنه (**أبق**)، أى فر وهرب، وقد يفرق بين الإباق والهرب بعد تخصيصه بالعبد، فيخص الإباق بما كان بلا خوف كما فى القاموس وغيره، ولذا عبر به لما فيه من المزايا هنا، بخلاف الهرب، وكان يونس، عليه الصلاة والسلام، كما تقدم دعا قومه فلم يطيعوه، فوعدهم العذاب، فلما تأخر عن موعده وخرج من بينهم، (**وذهب مغاضبًا**)، أى غضبان، فمغاضب هنا كمسافر، ليست كغيرها من المفاعلة، وغضبه على قومه لا على ربه، وإن قيل به وأول، وقيل: إنه خشى القتل، وقد تقدم تفصيله كما أشار إليه بقوله: (**وقد تكلمنا عليه**)، أى تقدم منا الكلام فى يونس وقصته.

(**وقيل: إنما نقم الله عليه**)، أى عاب فعله ولامه عليه وكرهه، ونقم بكسر القاف وقد

تفتح، **(خروجه عن قومه فارًا من نزول العذاب)** بهم وهو بين أظهرهم، فكان ينبغى له الثبات اعتمادًا على أن الله ينجيه كما نجى نوحًا وغيره من الأنبياء، حتى يوحى إليه ما يريد.

(وقيل: بل لما وعدهم)، أى قوم يونس، **(العذاب)**، استعمل الوعد مع العذاب، مع أنه يختص بالخير تهكمًا؛ لقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، فلا وجه لما قيل: إنه عام بحسب الوضع الأصلى، **(ثم عفا الله عنهم)**؛ لأنه لما وعدهم العذاب لثلاث ورأوا مقدماته، ضجوا إلى الله، ولبسوا المسوح، وفرقوا بين الأمهات والأولاد، وتابوا، وقالوا: آمنا بيونس، فعفا الله عنهم، وهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يعلم بذلك، **(قال: والله لا ألقاهم بوجه كذاب أبدًا)**؛ لعدم علمه بما عاينوه، وخصهم الله تعالى بقبول توبة اليأس، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: ٩٨] الآية.

(وقيل: بل كانوا)، أى كان من عادتهم أنهم **(يقتلون من كذب، فخاف ذلك)**، أى القتل؛ لتخلف ما وعدهم به، **(وقيل:)**، قائله وهب، **(ضعف عن حمل أعباء الرسالة)**، أعباء بالهمزة، جمع عبء كحمل، وهو الحمل الثقيل كما تقدم، وكان كما قال وهب فى خلقه ضيق، ولذا أخرجه الله عن أولى العزم بقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨].

(وقد تقدم الكلام على أنه لم يكذبهم)، فإن ما وعدهم به من العذاب نزل بهم، حتى رأوا غمامة فيها دخان أظلتهم، لكنهم لما تضرعوا إلى الله، كشفه عنهم، **(وهذا)**، المذكور فى قصته، **(كله ليس فيه نص على معصية)** صدرت منه حتى يستدل به على ما ادعوه كما تقدم، **(إلا على قول مرغوب عنه)**، أى متروك لضعفه، وهو أنه خرج من غير إذن من الله له فى الخروج، وترك القيام حتى يأذن الله له.

(وقوله) تعالى: (﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصافات: ١٤٠]، **قال المفسرون: تباعد)**، والفلك يكون مفردًا وجمعًا، ومعناه السفينة، والمشحون بمعنى المملوء، وتفسير أبق بتباعد، مذهب المبرد، فأشار به إلى أن تفسيره بهذا يقتضى أنه لم يعص الله، ولم يخرج بغير إذنه كالعبد الآبق من سيده، ولذا ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، تأييدًا لما قبله، ومن لم يقف على مراده قال: ليس فى ذكره هنا كبير فائدة، فإن كان آبق متباعد من سيده، وإنما محل الاستدلال قوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقد تقدم الكلام عليه.

(وأما قوله) عز وجل: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فإنه يقتضى

أنه صدر منه ذنب، كما أشار إليه بقوله: **(فالظلم)** حقيقة معناه **(وضع الشىء فى غير موضعه)** مطلقًا، فيشمل الذنب وغيره، ومن ظلم السقاء، إذا شربه قبل أن يرويه، **(فهذا)**، أى جعله من الظالمين، **(اعتراف منه عند بعضهم بذنبه)**؛ لتبادره من الظلم عرفًا وشرعًا لا لغة كما تقدم.

(فإما أن يكون) ذنبه **(لخروجه عن قومه بغير إذن ربه)** فى الخروج له من بينهم على عادة الأنبياء إذا أرادوا الهجرة، كما وقع لنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما هاجر إلى المدينة، وهو مفصل فى الصحيحين، **(أو)** ذنبه **(لضعفه عما حمله)** من أعباء الرسالة؛ لضيق صدره كما تقدم، **(أو لدعائه بالعذاب على قومه)**، وهو توجيه ضعيف؛ لأن الدعاء على الغير إذا رأى منه ما يسوءه لا يعد ذنبًا، وإلى هذا أشار بقوله: **(وقد دعا نوح)**، عليه الصلاة والسلام، **(على قومه بالهلاك، فلم يؤاخذ)**، أى لم ينقمه الله تعالى، ولم يعاقبه عليه، وذلك قوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، فدل هذا على أن عده ذنبًا لا يتجه.

(وقال الواسطى)، رحمه الله تعالى، تقدمت ترجمته، **(فى معناه: نزه ربه تعالى عن الظلم)**، بقوله: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، ولم يقل: سبحانك علا شأنك عن صدور ظلم منك، **(وأضاف)**، أى نسب **(الظلم إلى نفسه اعترافًا)** ببراءة الله من مثله، أو لقصور البشرية، حتى يجوز ذلك عليه، ولا يبرئ نفسه، **(واستحقاقًا)** لذلك، وإن لم يقع بالفعل، فالحاصل أنه ذكره هضمًا وبيانًا لاستعداد البشر لمثله، وإنما يحفظهم الله بلطفه.

(ومثل هذا) فى تنزيه الله وبيان قصور نفسه، **(قول آدم وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾)** [الأعراف: ٢٣]، مع ما تقدم من بيان العذر فيما صدر منهما، وإنما أضافا الظلم إليهما، **(إذ كانا)**، آدم وحواء، **(السبب فى وضعهما غير الموضع الذى أنزلا فيه)**، أى أنزلهما الله فيه قبل الأكل من الشجرة فى الجنة، **(وإخراجهما من الجنة)**، أى جنة الخلد التى وعدها المؤمنون، وقيل: إنها جنة وبستان آخر فى الدنيا على خلاف مشهور فيه للمفسرين، **(وإنزالهما)** من الجنة التى هى فوق السماء **(إلى الأرض)** الدنيا، وقوله: وضعهما... إلى آخره، إشارة إلى أن الظلم فيه بمعناه اللغوى، وهو وضع الشىء فى غير موضعه مطلقًا كما تقدم آنفًا.

فإن قلت: إذا كان دعاء نوح، عليه الصلاة والسلام، ليس بذنب، فلم قال إذا طلب أهل المحشر منه الشفاعة: إنى دعوت على قومى، فخشى أن لا تقبل شفاعته؟.

قلت: قد أجابوا عنه بأنه ليس بذنب؛ بل لأن لكل نبى دعوة عظيمة مستجابة، فهو قدمها فى الدنيا لما دعا عليهم، لا لأنه ذنب، وقيل غير ذلك، وعاتب الله يونس دون نوح، عليهما الصلاة والسلام؛ لأن يونس لم يصبر وعجل الدعاء، ونوح دعاهم ألف سنة، حتى مل عن دعوتهم ويئس منهم.

(**وأما قصة داود، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا يجب**)؛ لأن الظاهر أن يقول: لا يجوز، أو لا يصح، (**أن يلتفت إلى ما سطره فيها**)، أى كتبه فى كتبهم، (**الإخباريون**)، أى أصحاب القصص، ونسب إلى الجمع على خلاف القياس؛ لأنه أراد به قومًا معينين كأنصارى، فأشبه العلم كأنمارى، وعدم الالتفات كناية عن عدم الاعتبار بذكر ذلك واعتقاده، فإنه لا يليق ببعض الصالحين، فضلاً عن الأنبياء، لكنه أراد بعدم الوجوب الامتناع، وعدل عن الظاهر لنكتة، وقوله: (**عن**) فجار (**أهل الكتاب**)، متعلق بسطر؛ لتضمنه معنى نقل، (**الذين بدلوا**)، أى حرفوا كتبهم (**وغيروا**) ما فيها، وإدخالهم ما لا أصل له، وهو علة لعدم جواز النقل كما رووه.

(**ونقله بعض المفسرين**) فى تفاسيرهم، وكان ينبغى لهم أن لا ينقلوه، وذلك قولهم: إن داود، صلى الله عليه وسلم، كتب إلى أيوب قائد جيشه: أن ابعث أورياء، أى زوج المرأة الحسناء التى رآها داود وهو يصلى فى محرابه، فتعلق قلبه بها كما مر، إلى وجه العدو قبل التابوت، وكان من يتقدم مع التابوت لا يجوز له أن يرجع حتى يفتح على يديه أو يستشهد، فقدمه ففتح على يديه، فكتب له ثانيًا: ابعثه لموضع كذا، مرة بعد مرة حتى قُتل فتزوج امرأته.

(**ولم ينص الله تعالى**) فى قصته فى القرآن (**على شىء من ذلك**) الذى ذكروه فى قصصهم، (**ولا ورد**) عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**فى حديث صحيح**) يعتمد على روايته، والمراد بالصحيح هنا ما يشمل الحسن، فإنه كثيرًا ما يستعمله الفقهاء بهذا المعنى، (**والذى نص الله عليه**) فى القرآن (**قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾، إلى قوله: ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾**) [ص: ٢٤، ٢٥]، فهذا هو الصحيح نصًا، ثم أنه لما ورد عليه أن فى هذا النص ما يقتضى أيضًا صدور ذنب وفتنة، تاب منها، فما المراد منها، وما الجواب عنها؟.

قال: (**وقوله فيه:**)، أى فى هذا النص، ﴿**أَوَّابٌ**﴾ [ص: ٣٠]، أى كثير الرجوع عما صدر منه إلى الله تعالى بالتوبة، فهو مثل تواب فى إيهام صدور ذنب منه، (**فمعنى: ﴿فَتَنَّاهُ﴾** [ص: ٢٤]) فى هذه الآية، (**اختبرناه**)، أى جربناه وامتحناه، والمراد فعلنا به

فعل الممتحن؛ ليظهر حاله للناس، من فتنت الذهب، إذا صفيته من غشه، وهذا حقيقته، فليست الفتنة هنا بإيقاعه فيما يضره من الآثام، كما هو المعنى المتداول فى عرف اللغة. (و) معنى ﴿أَوَّابٌ﴾ هنا كما (**قال قتادة:**) فى تفسيره (**مطيع**)؛ لكثرة رجوعه لأمره، (**وهذا التفسير أولى**) من تفسيره بتواب عن الذنوب، وهذا التفسير نقله البغوى عن ابن عباس أيضًا.

(**وقال ابن عباس وابن مسعود:**)، رضى الله تعالى عنهما، فى تفسيره لفتنته، (**ما زاد داود على أن قال للرجل:**)، يعنى أورياء زوج المرأة الحسناء التى رآها، (**انزل لى عن امرأتك**)، أى افرغ عنها وطلقها لأتزوجها، لا أنه أرسله لما يغزو حتى قُتل، (**واكفلنيها**)، أى ضمها إلىّ بالدخول تحت نكاحى، ومنه الكفالة؛ لأنه ضم ذمة إلى ذمة، كما قصه الله تعالى فى مرافعة الملكين له، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ إلى قوله: ﴿أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣، ٢٤] مما ضربه الله مثلاً لما صدر منه، (**فعاتبه الله على ذلك**) الفعل الذى صدر منه، (**ونبهه عليه**)، على ما فيه من خلاف الأولى اللائق بمقامه عنده، (**وأنكر عليه شغله بالدنيا**) وما فيها من النكاح ونحوه.

(**وهذا**) الذى قاله ابن عباس وابن مسعود، هو (**الذى ينبغى أن يعول عليه**)، أى يعتمد عليه، فيروى ويعتقد، (**من أمره**) وأمر أمثاله من رسل الله، عليهم الصلاة والسلام، لا ما نقل عن أهل الكتاب، (**وقد قيل:**) إنه إنما (**خطبها**)، أى طلب تزوجها، (**على خطبته**)، بكسر الخاء، وهى طلب الزوجة، وهى من الخطابة بالضم، وكان داود، عليه الصلاة والسلام، لم يعلم بخطبته، فلا ذنب أصلاً.

(**وقيل: بل**) الذى عتب الله عليه أنه (**أحب بقلبه أن يستشهد**)؛ ليتزوج بامرأته، لا أنه صرح به وباشر أسبابه كما مر، وهو ميل قلبى لا يؤاخذ به؛ لأنه خطر بقلبه أنه لو استشهد تزوجها؛ لأنها أعجبته، وعلى هذه الوجوه لا معصية فيه، أما طلب النزول عن زوجته، فكان جائزًا عندهم كما كان فى أول الهجرة بين الأنصار والمهاجرين، وأما الخطبة على الخطبة، فإنها وإن كانت حرامًا عندنا بغير رضى وفراغ، فلعله جائز عندهم، أو لم يعلم بما أعلمه الله به، فلا حرج عليه، وأما خطرات القلوب، فلا يؤاخذ بها، وما عداه لا يجوز نسبته لهم ولا التحدث به، ولذا قال على، رضى الله تعالى عنه: من حدث بقصة داود، عليه الصلاة والسلام، جلدته مائة وستين، وهو حد الفرية على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

وهذه القصة نظير قصة نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، مع زيد، رضى الله عنه، فى

زوجته أم المؤمنين زينب بنت جحش كما يأتى ذلك لما رآهـا، إلا أنـه، صلـى الله تعـالى عليـه وسـلم، لم يطلـب مـن زوجــها فراقــها، بـل قـال لــه: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، حتى زوجها الله تعالى له، وفيه منقبة عظيمة له. وقد ابتلـى الله تعـالى بالنساء ثلاثة من الأنبياء: نبينا، وداود، ويوسف، عليهم الصلاة والســلام، ابتـلاء لحكـم خفية منه، وبقية الكلام على هذه القصة مفصل فى التفاسير وكتب الحديث، فلا حاجـة للتطويل بها هنا وكثرة القيل والقال كما فعل فى الشرح الجديد.

(**وحكى السمرقندى**) فى تفسيره، وقد قدمنا ترجمته، وأنه أبو الليث الإمام المشـهور، (**أن ذنبه الذى استغفر منه**)، أى طلب من الله مغفرتـه والعفـو عنـه، لم يكـن ذنبًـا كمـا توهموه، وإنما هو (**قوله لأحد الخصمين:**)، أى الملكـين اللذيـن أتيـاه فـى صـورة رجلـين متخاصمين له، (**لقد ظلمك**) بسؤال نعجتك إلى نعاجـه، (**فظلمـه**)، بتشـديد الـلام، أى نسبه للظلم، (**بقول خصمه**)، أى بمجرد قوله، من غير كشف لحال خصمـه وتثبـت فـى أمره، وهو خلاف الأولى.

وقد قال ابن العربى: إنه لا يجوز فى مالة من الملـل، فمـا قالـه السـمرقندى لا يجـدى هنا، وأجيب عنه بأنه إنما قاله؛ لأنه رأى خصمه سلم لـه مقالتـه، ولم ينكـر عليـه، فظنـه رضى بما قاله، وكلام الله مبنى على الإيجاز، فكأنه قال: تمهل، وعلم بسكوته رضـاه، أو هو بتقدير: إن كـان كمـا تقـول فقـد ظلمـك. وقـال الحليمـى: إنـه سمـع قـول المتظلـم فاستعجل، ولم يسأل عن ظلمه، ولذا عاتبه ولم يرض فعله، والأحسن ما قدمناه.

(**وإلى نفى ما أضيف من الأخبار**)، أى ما نسب فـى الأخبـار السـابقة، (**إلى داود مـن ذلك**) الذى رووه، (**ذهب أحمد بن نصر**)، وقد تقدمت ترجمته، (**وأبو تمام**)، قال البرهان: هو حبيب بن أوس الطائى، ونسبه معروف، وأنـه الشـاعر المشـهور، صـاحب الديـوان، وترجمته معروفة، وبلاغته ورتبته معروفة فى معرفته باللغة والعربية، وهو فى الطبقة العلية من المولدين، متقدم العصر والرتبة على المتنبى، لكن لم نر من عـده مـن علمـاء الحديـث والتفسير، فهو غلط من اشتراك الاسم، وقـد نقـل المصنـف، رحمـه الله تعـالى، فـى هـذا الكتاب كثيرًا عن محمد الأبهرى، من علماء المالكية، من أهل طليطلة، وهو ملقب بـأبى تمام، وهو المراد هنا، وما قاله الشراح هنا وأصحاب الحواشى من أنـه أبـو تمـام الشـاعر، خطأ، فإنا لم نسمع من نقل عن الشاعر شيئًا ممـا يتعلـق بـالأمور الشـرعية، وإنمـا غرهـم الاشتراك اللفظى.

وهذا مما لا شبهة فيه، ويؤيده قوله: (**وغيرهما من المحققين**)، فإن عد أبى تمام الشـاعر

محققًا مما لا يعرف، فهو مؤيد للوهم فيه.

(وقال الداودى:)، تقدم الكلام عليه وعلى ترجمته، **(ليس فى قصة داود، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأورياء خبر)** رواه المحدثون فى كتبهم المعتمدة، **(ثبت)**، بفتح المثلثة، وسكون الموحدة، وتاء مثناة فوقية، أى متلبسًا بثبوت النقل فيه، وأورياء هو ابن زوج المرأة التى تزوجها داود بعده كما تقدم، وهى أم سليمان نبى الله، عليه الصلاة والسلام، وأورياء، قال الأنطاكى فى حواشيه: إنه بضم الهمزة، وسكون الواو، وكسر الراء المهملة، ومثناة تحتية، ومدة تليها همزة، وضبطه غيرهم بفتح الهمزة الأولى، وقال البرهان: لا أعلم فيه نقلاً.

(فلا يظن بنبى محبة قتل مسلم)، كما قالوه، ولا ينافيه ما قدمه من قوله: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أحب بقلبه أن يستشهد، كما قيل، فإن المصنف، رحمه الله تعالى، لم يرتضه، بل مرضه بقوله: وقيل... إلى آخر ما مر، وما قيل من أن كلام الداودى طعن فى الروايات من غير دليل، ليس بشىء، فإن ما رووه فيه ما لا يليق بمقام الأنبياء، والإقدام عليه من غير رواية صحيحة لا يليق، والنافى لا يطلب منه دليل.

(وقيل: إن الخصمين اللذين اختصما إليه)، بأن ادعى أحدهما على الآخر، **(رجلان)** حقيقة لا ملكان فى صورة رجلين، وهما جبرائيل وميكائيل، **(فى نعاج)**، جمع نعجة، وفى نسخة: نتاج، **(غنم على ظاهر الآية)**، من غير تأويل بأنهما ملكان أتياه فى صورة رجلين ينبهاه على ما صدر منه من خلاف الأولى، لا كما قاله أصحاب القصص، وهذا وقع فى بعض النسخ، وليس فى الأم، والحاصل أن ما اشتهر بين القصاص وأهل الكتاب، واغتر به الحشوية، لم يثبت، والذى قصه الله تعالى عنه ليس فيه ما يأباه مقام النبوة.

(وأما قصة يوسف)، عليه الصلاة والسلام، وما نقله أهل القصص فيها مما يقتضى صدور ذنب منه، كما تمسك به من جوز مثله على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، مما لا أصل له فى نص من القرآن، ولا من الأحاديث الصحيحة، **(وإخوته)**، أبناء يعقوب، اثنى عشر، من زوجتين له، راحيل أم يوسف، عليه الصلاة والسلام، وبنيامين، تزوجها بعد أختها ليا، وأسماء أخوته مذكورة فى التفاسير والتواريخ، مع اختلاف فى ضبط أسمائهم، وأكبرهم اسمه روبيل.

(فليس على يوسف فيها)، أى فى تلك القصة **(تعقب)**، أى اعتراض، مما يدل على طعن فيه أو نقص ينسب إليه مما لا يناسب مقامه، عليه الصلاة والسلام، وهو الكريم ابن

الكريم، وأصل العقب أن يمشى على أثره كأنه يطأ عقبه، ثم استعمله المصنفون بمعنى الاعتراض، فيقال: تعقب كلامه، إذا أورد عليه إيرادًا ما، فلا اعتراض على يوسف، عليه السلام، نفسه فيما حكاه عنه، كما حكاه المفسرون.

(وأما إخوته)، والاعتراض على ما صدر منهم من إلقاء يوسف فى الجب، وكذبهم على أبيهم، عليه الصلاة والسلام، وعقوقهم له، **(فلم تثبت نبوتهم)**، حتى ينافى ما فعلوه؛ لأنهم غير معصومين.

وقال السيوطى فى رسالة سماها رفع التعسف عن إخوة يوسف: لم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين نبوتهم، ونقل عن ابن زيد أنه قال بنبوتهم، وأنكره آخرون، والمفسرون منهم من قال: إنهم أنبياء، ومنهم من رده، كالقرطبى، والرازى، وابن كثير، ومنهم من حكى القولين بلا ترجيح، كابن الجوزى، ومنهم من لم يتعرض له، وفسر الأسباط بأولاد يعقوب، فحسبوه قال بنبوتهم، وسيأتى بيانه.

(فيلزم)، بالنصب فى جواب النفى، **(الكلام)**، فاعله، **(على أفعالهم)**، وتوجيهها، **(و)** قوله: **(ذكر الأسباط وعدهم فى القرآن عند ذكر الأنبياء)** يوهم أنهم أنبياء، وإنما أراد ذرية يعقوب لا أولاد صلبه، وهم من ولدهم بغير واسطة؛ لحصوله من ماء يخرج من صلب ظهره، كما أشار إليه المصنف، رحمه الله تعالى، بقوله: **(قال المفسرون: يريد من نبئ)**، ببناء المجهول، أى صار نبيًا، **(من أبناء الأسباط)**، لا أولاده لصلبه كما تقدم.

وقال ابن كثير: لم يقم دليل على نبوتهم، وظاهر القرآن يخالفه، ومنهم من زعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿**وَٱلۡأَسۡبَاطِ**﴾ [البقرة: ١٣٦]، ولا دليل فيه؛ لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم: أسباط، كالقبائل فى العرب، والشعوب فى العجم، فلا يدل على أنه أوحى إليهم بأعيانهم، بل على أن ذرية يعقوب أنبياء، ولا وجه لتفسير الأسباط بأولاد يعقوب لصلبه، كما قاله ابن تيمية، وأصل السبط الشجرة الملتفة الأغصان، ثم أطلق على أولاد يعقوب لكثرتهم، والسبط الحافد أيضًا، كما قيل للحسن والحسين: سبطا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقوله: اثنى عشر أسباطًا، إنما صريح فى أن الأسباط الجماعات الكثيرة مطلقًا، فتخصيصه بأولاد الصلب خطأ، ولم يكن فيهم نبى قبل موسى، عليه السلام، غير يوسف، وفى الحديث: «أكرم الناس يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، نبى ابن نبى ابن نبى ابن نبى»(١)، فلو كان إخوته أنبياء شاركوه فى ذلك، وما فى قصتهم من

(١) أخرجه البخارى (٤/١٧٩، ١٨٢، ٦/٩٥)، والبغوى فى شرح السنة (١٣/١٢٥).

العقوق والكذب صريح فى عدم نبوتهم، وإنما نشأ الغلط من لفظ الأسباط كما قاله ابن تيمية فى رسالة له فى ذلك.

(**وقد قيل:**)، وهو أحد الأقوال الثلاثة كما فصلناه، (**أنهم كانوا حين فعلوا بيوسف ما فعلوا**)، مما حكاه الله تعالى عنهم فى سورة يوسف، (**صغار الأسنان**)، جمع سن، وهو زمان العمر، أى أطفال غير مكلفين، (**ولهذا لم يميزوا يوسف حين اجتمعوا به**) بمصر بَعد بُعد العهد به، أى لم يعرفوه؛ لأنهم فارقوه وهم غير مميزين، وفى عبارته لطيفة هنا، (**ولهذا**)، أى لكونهم حين صدر عنهم ما صدر، (**قالوا**) لأبيهم: (**أرسله معنا غدًا نرتع**)، أى نتجارى ونتسابق، (**ونلعب**)، واللعب لا يليق بالرجال.

(**وإن ثبتت لهم نبوة، فبعد هذا الفعل**)، على أحد الأقوال المتقدمة، (**والله أعلم**) بحقيقة حالهم، وهذه الدلالة بحسب الظاهر المتبادر، فإن الكبار قد يلعبون ويتسابقون، وهو قراءة: «نرتع ونلعب»، بالنون، وعلى القراءة الأخرى: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢]، بالياء المثناة، هو بضمير الغيبة ليوسف دونهم، لا دليل فيه، وكذا عدم معرفتهم له، إنما يدل على صغرهم وبُعد عهدهم به؛ لأن مدة مفارقتهم أربعون سنة أو ثمانون بحسب الظاهر، إذ لا يجوز أن لا يعرفوه لتغيير زيه وكونه بهيئة الملوك ذوى الهيبة، ولعدم قربهم من مجلسه، ومثله من الأمارات الظنية يكتفى فيه بهذا القدر.

(**وأما**) ما استدلوا به من وقوع الذنب والمعصية منه، وهو (**قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾) [يوسف: ٢٤]، ضمير همت لامرأة العزيز، وضمير هم ليوسف، عليه الصلاة والسلام، والهم يكون بمعنى العزم المصمم على أمر، وبمعنى ميل طبيعى غير اختيارى، وهمها بالمعنى الأول، وهو إرادتها الفاحشة، وهمه بالمعنى الثانى، وهو غير مذموم إذا كف عنه، بل ممدوح يؤجر عليه لو سلم، فإن قلنا بعدم وقوعه؛ لأنه فى المعنى جواب ﴿لَوْلَآ أَن﴾ جوز تقديمه عليها على ما يأتى، أو قائم مقامه، أى لولا رؤية البرهان هم، فيدل حينئذ على أنه لم يهم بها، وما وقع فى القصص من حل السراويل وما بعده، كذب لا أصل له.

﴿بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾، قيل: إنه رأى يعقوب، عليه الصلاة والسلام، عاضًا على أصبعه، وهو يقول: أتفعل فعل السفهاء وأنت مكتوب من الأنبياء؟ بأن تصورت له صورته، أو رآه حقيقة، وفرج له السقف، وقيل: ضرب صدره بيده فنزعت منه شهوته، وقيل: نودى بصوت من وراء الحجاب، فقام هاربًا، ومضت خلفه، وقيل: إنما تمثل له جبريل، عليه الصلاة والسلام، فصده.

(فعلى طريق جماعة من الفقهاء والمحدثين، أن هم النفس لا يؤاخذ به) مطلقًا؛ لأنه أمر اضطرارى، وفسره بقوله: **(وليس سيئة)**، أى خطيئة ومعصية؛ **(لقوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، نقلاً **(عن ربه)**، يعنى فى الحديث القدسى الذى رواه مسلم فى صحيحه، وهو حديث طويل: **(إذا هم عبدى بسيئة)**، أى عزم عليها وقصدها، **(فلم يعملها)**، بأن تركها خوفًا من ربه، **(كتبت له حسنة)**؛ لمجاهدته نفسه، فصرفها عما تريده، **(فلا معصية فى هذا)**، أى فى هم يوسف، عليه الصلاة والسلام، **(إذن)** على هذا القول والتقدير.

(وأما على مذهب المحققين من الفقهاء والمتكلمين)، كأبى بكر الباقلانى، الذين رأوا تعارض النصوص، فدققوا النظر فى التوفيق بينها، فإنهم فصلوا فى ذلك تفصيلاً، **(فإن الهم)** الذى يخطر بالبال، **(إذا وطنت عليه النفس)**، عازمة على الفعل، أى صممت وجزمت عليه، وأصل معناه اتخذه وطنًا، ثم نقل لما ذكر بعدما كان مجازًا لعلاقة ظاهره، يقال: وطنت نفسى وأوطنتها، إذا حملتها على أمر فاستمرت، **(سيئة)**، تكتب عليه، فهو مرفوع خبر إن، ونصبه خبر كان مقدرة بعيد.

(وأما ما لم توطن)، بالبناء للمفعول، **(عليه النفس من همومها)**، جمع هم، بمعنى نية وعزم، **(وخواطرها)**، عطف تفسير، **(فهو المعفو عنه)**، لا ما قبله، **(وهذا هو الحق، فيكون إن شاء الله هم يوسف من هذا)** القبيل المعفو عنه، فلا يتم الاستدلال بهذه القصة على تجويز الصغائر.

والحاصل أنه ذهب كثير من العلماء إلى أن هم المرء وخاطر نفسه لا يؤاخذ به، فلا معصية فى ذلك على هذا، وذهب بعض الفقهاء والمحدثين إلى أن الهم إذا لم توطن عليه النفس معفو عنه، وإذا وطنت عليه وصممت، كتبت سيئة، والنصوص فيه مخالفة، فما تقدم فى حديث مسلم وأحاديث أخر فى معناه يدل على أنه لا يؤاخذ به، وقوله تعالى: (﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾) [البقرة: ٢٨٤]، وقوله: ﴿يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] ونحوه يدل على خلافه.

والتوفيق بينهما ما قاله الغزالى من أن: **أول ما** يرد على القلب كرؤية امرأة على الطريق مالت لها النفس، ويسمى حديث النفس وخاطرًا، **والثانى**: ما يتوله منه من الرغبة وإعادة النظر، وهو الميل الطبيعى، **والثالث**: حكم القلب بأنه ينبغى أن يفعل وينبغى إعادة النظر، **والرابع**: التصميم على ذلك وترك الصوارف عنه كالحياء، والأول لا يؤاخذ به؛ لأنه لا يدخل تحت الاختيار، وكذا هيجان النفس والميل والشهوة؛ لأنها ليست اختيارية، وهو المراد بقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «عفى عن أمتى ما حدثت به

نفوسها»، وهى الخواطر التى لا يتبعها هم وعزم.

وأما الاعتقاد وحكم النفس بأنه ينبغى أن يفعل، فيكون اضطراريًا، ولا يؤاخذ به، واختياريًا فيؤاخذ به، والرابع يؤاخذ به، فإن لم يفعل نظر فيه، فإن تركه خوفًا من الله وندمًا على همه، كتبت له حسنة؛ لمجاهدته لنفسه، وإن تركه لعائق وعذر غير خوف من الله، كتبت عليه، وفى الحديث ما يدل على هذا التفصيل، وهو كلام حسن. وهم يوسف، عليه الصلاة والسلام، كان عزمًا وتصميمًا، منعه منه خوف ربه، فهو حسنة لا معصية.

ثم أشار إلى الجواب عن سؤال مقدر بقوله: **(ويكون)** على تقدير أنه معفو عنه، **(قوله: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾** [يوسف: ٥٣] **الآية)**، معناه وتفسيره الذى بينه بقوله: **(أى ما أبرئها من هذا الهم)**، يعنى ما أنزهها عنها؛ لأنه أمر جبلى لا محذور فيه، **(أو يكون ذلك)**، أى قوله: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ صدر **(منه على طريق التواضع)**، بإظهار أنه غير منزه عما يشين؛ لأن الكمال لله، لا أنه صدر منه مثله حتى يتمسك به، **(والاعتراف بمخالفة النفس)**، أى ما أبرئها من الهم بالمعاصى، وقد فعلت، ولكنى خالفتها وصرفتها عن همها، وهو أمر حسن منه.

(لما)، بكسر اللام وتخفيف الميم، **(زكى قبل وبرىء)** منه فى الآيات السابقة، وهذا بناء على أن قوله: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ من كلام يوسف، عليه الصلاة والسلام، وقد قيل: إنه من كلام امرأة العزيز، متصل بقولها: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يوسف: ٥٢]، والوجهان مذكوران فى التفاسير، وعلى هذا لا يرد السؤال أصلاً، **(فكيف)**، تأييد لما هو بصدده من أنه الاعتراف بصدور ذنب منه فى كلامه.

(وقد حكى أبو حاتم)، قيل: ولعله ابن أبى حاتم فى تفسيره، **(عن أبى عبيدة)** معمر ابن المثنى، وقد تقدمت ترجمته، وأبو حاتم الرازى هو الإمام الحافظ الجليل محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلى، أحد الأعلام فى التفسير والحديث، ولد سنة خمس وتسعين ومائة، وتوفى فى شعبان سنة سبع وسبعين ومائتين، **(أن يوسف)**، عليه الصلاة والسلام، **(لم يهم)**، أى لم يقع منه هم يعد معصية، **(وأن الكلام)**، أى النظم القرآنى الذى نحن فيه، **(فيه تقديم وتأخير، أى)**، وبيانه، **(لقد همت)** امرأة العزيز **(به)**، أى بيوسف وتكليفه بما أرادته، **(ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها)**.

قال الشريف المرتضى فى كتابه «الدرر والغرر»: إنه على هذا يجرى مجرى قولهم: قد كنت هلكت، لولا أنى تداركت، أى لولا تداركى هلكت، وإن لم يقع هلاك،

واستشهد له بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ [النساء: ١١٣]، والهم لم يقع، واستبعد قوم تقديم جواب لولا عليها، وهو أولى من حذفه، وذكر شواهد استشهد بها على جواز تقديمه، رد بها على من قال: إنه لا يجوز. انتهى.

فما قيل: إن جواب لولا محذوف؛ لعدم جواز تقديمه غير مرضى، وهذا مذهب الزمخشرى والزجاج، لكن المرتضى علم من الأئمة فى العربية وغيرها، فلذا اختير قوله، ويقدر بلفظ ما قبله أو لواقع المعصية، وامرأة العزيز اسمها راعيل، وقيل: زليخا كاريحا، بفتح أوله وضمه خطأ.

(**وقد قال تعالى**) حكاية (**عن المرأة**) المذكورة آنفًا: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]، واسم زوجها العزيز قطفير، والمراودة الطلب من راد يرود، إذا جاء وذهب، أى طلبت منه أن يضاجعها، ومعنى استعصم امتنع لعصمة الله تعالى له، وفيه دليل على أنه لم يقع منه هم بالمعنى الذى قالوه، (**و**) مما يؤيده أنه (**قد قال تعالى**) فى حقه ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أى عصمناه؛ ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤]، أى لئلا تميل نفسه لما أريد منه من معصية الله، والجار والمجرور فى محل نصب أو رفع بيناه تبيينًا كذلك، أو أمره كذلك، والسوء الزنا، أو الذكر القبيح، أو عقوبة الملك، والفحشاء مواقعة المرأة ونحوها مما يقبح.

(**وقال**) تعالى فى هذه القصة: ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾، معطوف على قوله: ﴿وَرَاوَدَتْهُ﴾، وغلق الباب قفله، والتفعيل للتكثير، وقفلها لتخلو به لما أرادته، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]، هيت اسم فعل مبنى على الفتح، فاللام للتبيين كما فى سقيا لك. وقال الراغب: هيت قريب من هلم، وقرئ: «هئت لك»، أى تهيأت لك، ويقال: هئت به، إذا قلت له: هيت لك. انتهى.

(﴿**قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ**﴾ [يوسف: ٢٣] **الآية**)، أى قال، صلى الله تعالى عليه وسلم، حين رادوته: معاذ الله، أى أعوذ بالله منك ومما أردت، ألتجئ إلى الله فى دفع ما هممت به، وهو منصوب على المصدرية، والمثوى بمعنى المقام من ثوى بالمكان، إذا أقام به.

(**وقيل فى**) معنى (﴿**رَبِّي**﴾) هنا: إنه (**الله تعالى، وقيل: الملك**)، بكسر اللام، وهو زوج زليخا، وضمير إنه للشأن، خبر ﴿رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، فالرب يطلق على الله وعلى غيره، ومعناه المالك، والسيد، والمربى، والمنعم، وفى إطلاقه على غير الله تفصيل

فى التفاسير مشهور، وتقدم مرارًا، والنهى على إطلاقه على غير الله تنزيهى، ومعنى ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ ، أنه أحسن القيام لى وتعهدنى بإكرامه لى وإنعامه.

(وقيل:) معنى (﴿وَهَمَّ بِهَا﴾) أنه هم، **(أى بزجرها)**؛ ليمنعها عن مراودته، **(ووعظها)** بتخويفها من الله ولحوق العار بها. وقال المفسرون كابن عطية: إنه وجه ضعيف لمخالفته للظاهر.

(وقيل:) معنى (﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ ، **أى غمها امتناعه عنها)**، أى عن معاملتها بما أرادته، فهو من الهم بمعنى الغم، والباء للتعدية بمعنى أهمها إذا أوقعها فى هم وحزن، وهو بعيد، وإن كان فيه مشاكلة وتجنيس للتعقيد المعنوى فيه، وقيل: إنه بعيد من اللغة؛ لأنه بهذا المعنى متعد بنفسه، يقال: همه الأمر، إذا أحزنه.

(وقيل:) معنى (﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ **نظر إليها)**، وهو فى غاية البُعد.

(وقيل:) معناه **(هم بضربها ودفعها)** حين أمسكته، وهذا كله بتقدير مضاف، والحاصل بمعناه، والحامل على هذه التأويلات صرفه عما لا يليق بمقام النبوة.

(وقيل: هذا كله كان قبل نبوته)، بناء على عدم العصمة قبلها، وقد تقدم بيانه.

(وقد ذكر بعضهم) أنه **(ما زال النساء يملن إلى يوسف، عليه الصلاة والسلام، ميل الشهوة)**، لما جبلت عليه طبائعهن، **(حتى نبأه الله تعالى)**، أى جعله نبيًا، **(فألقى عليه هيبة النبوة، فشغلت هيبته كل من يراه عن)** الاشتغال بالنظر إلى **(حسنه)** وجماله، ومهابة الأنبياء أمر معلوم كما نشاهده فى بعض العباد، فضلاً عن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

(وأما خبر موسى، صلى الله تعالى عليه وسلم)، الذى استدل به على جواز صدور الذنب من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وما جرى له، **(مع قتيله الذى وكزه)**، وهو رجل كافر، كان طباخ فرعون، لعنه الله تعالى، وكان يسخر الناس لحمل الحطب لمطبخ فرعون، فسخر رجلاً من بنى إسرائيل فاستغاث منه بموسى، عليه الصلاة والسلام، لما كبر، وكان موسى قويًا فى جسمه، فنهاه عن تسخيره، فلم ينته فضربه بيده لدفع ظلمه فمات، والوكز واللكز بمعنى، وهو الدفع، ومنهم من فرق بينهما، بأن الأول فى الصدر، والثانى فى الظهر، وقيل: بأطراف الأصابع، وقيل غير ذلك، وهو أمر سهل، **(فقد نص الله تعالى)** فى القرآن، **(على أنه من عدوه)**، أى كان كافرًا من كفرة القبط، وموسى موحد، قيل: من بنى إسرائيل، أى من قوم بينهم وبين بنى إسرائيل عداوة ومحاربة فلا يمتنع عليه قتله؛ لدفع ضرره مع أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يقصد بضربه قتله،

وإنما قصد دفعه ودفع ظلمه، ومثله لا يحرم، وأشار إلى ذلك بقوله: (**وقيل: كان من القبط الذين على دين فرعون**) أى كان كافرًا على ملة أمره بها من عبادته أو غير ذلك، والقبط نبط مصر وقوم فرعون، وهم جيل من الناس معروفون.

(**ودليل السورة**)، أى السورة تدل بمنطوقها، (**فى هذا كله**) أى فيما قصه الله تعالى من هذه السورة، (**أنه قبل نبوة موسى**)، عليه الصلاة والسلام، فإنه لما قتله فر خائفًا، فكان ما كان له مع شعيب، عليه الصلاة والسلام، أى جرى له معه ما جرى، وتزوج ابنته، ثم تنبأ لما فارقه، كما قصه الله تعالى، وقبل النبوة لم يكن معصومًا من الخطأ، فصدر عنه مثل هذا، وإن لم يكن معصية؛ لأنه لم يضربه بآلة جارحة، فهو خطأ شبه عمد، ولم يكن ثمه سرع.

ولذا قال: (**وقال قتادة: وكزه بعصا**)، وليست جارحة، بل مثقل (**ولم يتعمد**) بضربه ويقصد (**قتله فعلى هذا لا معصية فى ذلك**) أى فيما فعله موسى، عليه الصلاة والسلام، فى هذه القصة حتى يستدل بها على ما ادعوه.

(**وقوله**): أى قول موسى المحكى عنه، ومما يقتضى أنه ما صدر عنه معصية (**هذا من عمل الشيطان**) أى هذا الذنب مما ألقاه الشيطان (**وقوله: ظلمت نفسى**) بعمل ما قالوا: إنه معصية ولذا قال: (**فاغفر لى**) ما صدر منى، فلولا أنه ذنب لم يطلب مغفرة الله تعالى.

(**قال ابن جريج**): بصيغة المصغر، وهو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، أبو الوليد، أو أبو خالد القرشى، مولاهم أحد الأعلام الفقهاء، (**قال**): موسى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**ذلك**) المذكور من نسبة عمله للشيطان وطلب مغفرته، (**من أجل أنه لا ينبغى**) أى لا يصح ولا يليق (**لنبى أن يقتل**) أحدًا (**حتى يؤمر**) بالبناء للمفعول، أى يأمره الله أو من له الأمر، ولذا كان صلى الله تعالى عليه وسلم فى أول أمره لم يؤذن له فى القتال، ثم أذن له فى ذلك بعد ما هاجر المسلمون الهجرتين، فموسى، عليه الصلاة والسلام، إذا لم يؤذن له فى ذلك، فهو غير جائز.

(**وقال النقاش**) فى تفسيره: (**لم يقتله**) موسى، عليه السلام، (**عن عمد**) حال كونه (**مريدًا للقتل**) والمقصود بالنفى الحال (**وإنما وكزه وكزة**) مفعول مطلق مؤكد (**يريد بها دفع ظلمه**) للناس وعدم تسخيرهم (**وقد قيل: إن هذا كان قبل النبوة**) إذ لم يكن مأمورًا بشرع (**وهو مقتضى التلاوة**) أى ما يدل عليه نص القرآن المتلو (**وقوله تعالى فى قصته**) أى فى قصة موسى التى قصها الله تعالى فى القرآن، ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠].

قال الراغب: أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته ويستعمل فى

إدخال الإنسان النار، قال الله تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٤]، أى عذابكم وتارة يستعمل فيما يحصل منه العذاب، كقوله تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ [التوبة: ٤٩]، وتارة فى الاختبار نحو: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ وجعلت الفتنة كالبلاء، فى أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء، وهو فى الشدة أظهر وأكثر استعمالاً، انتهى.

وإليه أشار بقوله: **(أى ابتليناك ابتلاء بعد ابتلاء)**، إشارة إلى أن الفتنة هنا بمعنى الابتلاء، أى الاختبار، وأنه يكون بالخير والشر والشدة، وأن الفتون جمع فتن، أو فتنة، على تقدير عدم التاء والاعتداد بها، فيدل على التكرار، فلذا قال: ابتلاء بعد ابتلاء، ويجوز أن يكون مصدره كالقعود، فالتكرير غير مراد أو يؤخذ ذلك من السياق.

(قيل:) ذلك الابتلاء، **(فى هذه القصة)**، يعنى قتل القبطى، **(وما جرى)**، أى وقع واتفق **(له)**، أى لموسى، عليه الصلاة والسلام، **(مع فرعون)**، وذلك أن فرعون، لعنه الله تعالى، رأى رؤيا هالته، فعبرها المعبرون والكهان بمولود من بنى إسرائيل يكون على يديه زوال ملكه ودينه، فأمر القوابل بأن كل ذكر ولد منهم يأتونه به ويذبحونه، ففعلوا ذلك حتى وقع فى بنى إسرائيل موتان عظيم، فقال له القبط: نخشى فناء بنى إسرائيل، فلا يبقى لنا خدم، فنحتاج إلى استخدامنا، فأمر أن يقتل الذكور منهم سنة ويتركون سنة، فولد هارون فى سنة العفو، ثم ولد موسى فى سنة الذبح، فخافت عليه أمه، فأوحى إليها وحى إلهام، وقيل: وحيًا جاءها فيه جبريل، عليه الصلاة والسلام، وإن لم تكن نبية؛ لأن الملك كان يراه غير الأنبياء كمريم، ثم ارتفع ذلك بعد مجىء النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فألقته أمه فى صندوق وألقته فى النيل، فدخل بيت فرعون فالتقطته آله، واستوهبته امرأته آسية، وكان له معه ما اشتهر من ذلك، وهو المراد بالفتون، أى ما وقع له فيه من الشدائد حتى نبأه الله واتخذه كليمًا وصفيًا، وسمته آسية حين اتخذته وليدًا موسى، ومعناه ماء وشجر بالقبطية؛ لأنه وجد فى صندوق ملقى فى الماء.

(وقيل): معنى الفتون على هذا، **(إلقاؤه فى التابوت)** أى الصندوق الذى اتخذته له أمه من خشب، والذى صنعه لها حزقيل، وهو مؤمن آل فرعون **(واليم)** وهو البحر، والمراد به النيل، **(وغير ذلك)** مما جرى له معه كما تقدم.

(وقيل معناه):أى معنى الفتون فى هذه الآية: **(أخلصناه إخلاصًا)**، أى ابتليناه بأمور شاهدتها قدرة الله تعالى، ولطفه حتى صار صفوة له خالصًا من كل أمر لا يليق برسله، عليهم الصلاة والسلام، فقربه واصطفاه؛ لأن الفتنة أصل معناها أن يذاب الذهب حتى

يصفى فتجوز به عما ذكر كما (**قاله ابن جبير ومجاهد**) فى تفسيره هذه الآية، وعلى هذا فهو مستعار (**من قولهم: فتنت الفضة فى النار إذا**) أذبتها و(**خلصتها**) من الغش فاستعير لخلاصه من الكدورات البشرية والأخلاق الردية حتى اجتباه (**وأصل الفتنة**) أى حقيقتها التى وضعت لها.

(**الاختبار**) أى امتحان الأشياء وتجربتها بما يعلم به حالها (**وإظهار ما بطن**) أى خفى عن العيان فى المحسوسات كالذهب والفضة (**إلا أنه استعمل فى عرف الشرع**) وهو ما عرف فى تخاطب أهله ومعاملتهم (**فى اختيار يؤدى**) أى يوصل ويثمر ويفضى (**إلى ما يكره**) المخبر بزنة المفعول، وإن كان عامًا فى أصله خص بما ذكر، كما فصله الراغب، وقد سمعته آنفًا، وعلم مما ذكره أن الفتنة هنا ليس فيها ما يقتضى أن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، يجوز عليهم المعاصى لما عرفته من التأويل المذكور.

(**وكذلك**) مثل ما ذكر فى تمسك بعضهم بما لا يسلم تمسكهم به (**ما روى فى الخبر الصحيح**) الذى رواه الشيخان عن أبى هريرة، رضى الله عنه، كما قاله السيوطى، رحمه الله تعالى، (**من أن ملك الموت**) الموكل بقبض الأرواح، واسمه عزرائيل، كما ورد فى بعض الأحاديث.

(**جاءه**) أى موسى، عليه الصلاة والسلام، كما يأتى غيره إذا أمر به، (**فلطم عينه**) أى ضرب وجهه بيده ووقعت ضربته على عينه، (**ففقأها**) أى أخرج حدقته التى بها يبصر بلطمته، وهو مهموز، وقول العامة: مفقوع العين خطأ فى العين (**الحديث**) بالنصب، أى اقرأ الحديث ألخ؛ لأنه اقتصر على محل الشاهد منه الدال على أن موسى، عليه الصلاة والسلام، لم يطع الملك الذى أرسله الله إليه، ومثله بحسب الظاهر معصية، وأجاب عنه المصنف بقوله: (**ليس فيه**) أى فى الحديث المذكور كما قالوه.

(**ما يحكم على موسى**) عليه الصلاة والسلام، (**بالتعدى**) على الملك ومخالفته فيما أمر الله به (**وفعل ما لا يجب له**) بالرفع أو الجر عطفًا على ما أو على التعدى، وكان الظاهر ما لا يجوز له وعبر به لنكتة، كما مر مثله.

ثم بين علة ما ذكره بقوله: (**إذ هو ظاهر الأمر**) أى لا خفاء فيه (**بين الوجه**) أى توجيهه واضح (**جائز الفعل**) أى فعله جائز من مثله (**لأن موسى**) عليه الصلاة والسلام، (**دافع**) اسم فاعل مرفوع أو فعل ماض من المدافعة (**عن نفسه من أتاه لإتلافها**) فهو من قبيل دفع الصائل المتعدى عليه، ومثله جائز شرعًا.

(**وقد تصور**) له الملك وظهر (**له فى صورة آدمى**) لأن الملائكة، عليهم الصلاة

والسلام، أجسام لطيفة مجردة تتصور فى أى صورة أرادت لإقدار الله لهم على ذلك كما قال تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، وكما كان جبريل، عليه الصلاة والسلام، يأتى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى صورة دحية الكلبى، رضى الله تعالى عنه، وفى تطور الملائكة والجن فى صور مختلفة كلام لأهل الأصول والحكماء، وتعرض له المحدثون، فإن صورتهم عظيمة جدًا، فإذا برزوا بصورة أقل منها، فهى صورهم تضامت وتصاغرت كالقطن المنفوش إذا تضام وتضاغط من غير ذهاب شىء منه، وهو الظاهر وللإمام الشهرستانى فيه تحقيق فى بعض كتبه إذا أفضت إليه النوبة أتينا به مفصلاً.

(ولا يمكن أنه) أى موسى، عليه الصلاة والسلام، **(علم حينئذ)** أى فى وقت ضربه له **(أنه ملك الموت)** لظنه أنه آدمى نظرًا لظاهر حاله، وعبر بعدم الإمكان مبالغة فى نفى العلم بملكيته ومراده أنه لم يعلم بذلك، فلا يرد عليه ما قيل من أين له عدم الإمكان غايته أنه ظاهر فيه مع احتمال غيره، كما كانوا يتصورون للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(فدافعه عن نفسه مدافعة أدت إلى ذهاب عين تلك الصورة التى تصور له)**، أى لموسى، عليه الصلاة والسلام، **(فيها الملك امتحانًا من الله له)** مفعول لأجله تعليل لتصوره بغير صورته، أى اختبارًا لموسى حتى يصدر منه ما يقتضى أمورًا فيها حكم خفية.

(فلما جاءه بعد) أى بعد ما جاءه أولاً ولطمه **(وأعلمه الله)** أى علم الله موسى، عليه الصلاة والسلام، حين جاءه ثانيًا، **(أنه)** أى ملك الموت **(رسوله)** أى رسول الله من ملائكته أرسله الله **(إليه)** لأمر أمره به **(استسلم)** جواب لما، أى انقاد له وسلم له فيما أراده بعد ما كان دفعه عنه أشد دفع، وهو استفعال من السلم وإلقاء قياده لغيره كالإسلام، قال تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ [المائدة: ٤٤]، أى انقادوا للحق.

(وللمتقدمين والمتأخرين على هذا الحديث أجوبة، هذا) الجواب الذى قرره من أنه، عليه الصلاة والسلام، لم يعلم أنه ملك الموت امتحانًا من الله تعالى له، **(أسدها عندى)** أفعل تفضيل من السداد، وهو القوة فيما أريد به، كما قال الشاعر(1):

أعلمه الرماية كل يوم فلما استد ساعده رمانى

(١) البيت من الوافر، وهو لمعن بن أوس فى ديوانه (ص٣٤)، وله أو لمالك بن فهم أو لعقيل بن علفة فى لسان العرب (٢٠٨/٣)، التنبيه والإيضاح (٢٧/٢)، تاج العروس (١٧٨/٨)، وبلا نسبة فى لسان العرب (٨٣/١٠)، تاج العروس (٢٤٢/٢٥)، كتاب العين (١٨٣/٧).

على رواية استد، بسين مهملة، أى قوى، ورواية اشتد بالمعجمة غير مقبولة عندهم كما بيناه فى شرح الدرة.

(**وهو تأويل شيخنا الإمام أبى عبد الله المازرى**) وهو الإمام الرحلة الفقيه، المحدث، البارع فى سائر العلوم، وهو مالكى المذهب واسمه: أبو عبد الله محمد بن على بن عمر التميمى، شارح المحصول، وله شرح مسلم الذى بنى عليه المصنف، رحمه الله تعالى شرحه المسمى بالإكمال، وله تآليف كثيرة مفيدة جليلة، وهو منسوب إلى مازر بفتح الزاء المعجمة وكسرها، وهى بلدة بجزيرة صقلية توفى فى ثامن ربيع الأول من سنة ست وثلاثين وخمسمائة، وعمره ثلاث وثمانون سنة، رحمه الله تعالى.

(**وقد تأوله**) أى حمله (**قديمًا**) أى قبل شيخه المذكور (**ابن عائشة وغيره**) فهو مما ارتضاه علماء السلف (**على صكه ولطمه بالحجة وفقئ عين حجته**) أصل الصك واللطم الضرب بالراحة أو بشىء عريض، وجاء بمعنى مطلق الضرب، لكنه كما قال النووى فى غاية البعد، وإن ساعده اللغة.

وابن عائشة هو: عبيد الله محمد بن حفص بن عمر بن موسى بن عبد الله بن معمر القرشى التميمى البصرى المعروف بالعيشى نسبة لعيشة، وهى لغة فى عائشة، أو من تغييرات النسب؛ لأنه من ولد عائشة بنت طلحة بن عبد الله، وهو أحد العلماء الأشراف المحدثين المحتشمين، وهو ثقة، روى عنه البغوى وخلق كثير توفى سنة مائتين وثمان وعشرين، فهو متقدم على المازرى بزمان كثير، فلذا قال المصنف، رحمه الله تعالى قديمًا.

(**وهو كلام مستعمل فى هذا الباب**) المراد به، إلزام الخصم الحجة بعد إبطال حجة الخصم وما ارتضاه من الحجج (**فى اللغة**) أى لغة العرب (**معروف**) فى كلامهم مشهور يقولون: لطمه وصكه إذا غلبه فى المحاجة وفقأ عينه وعورها إذا فضحه بحجته، وألزمه إلزامًا يمكنه الجواب عنه بوجه من الوجوه، لكن صريح الحديث يأباه، فإن فيه ما يقتضى أنه على ظاهره، فإن البخارى، رحمه الله تعالى، روى عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «أرسل الله ملك الموت إلى موسى، فلما جاءه صكه، ففقأ عينه فرجع إلى ربه، وقال: يا رب أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت فرد الله عليه عينه، وقال له: ارجع، وقل له يضع يده على متن ثور، وله بكل ما غطت يده من الشعر بكل شعرة سنة، فقال له ذلك، فقال موسى: ثم ماذا؟ قال: الموت، فقال: الآن وسأل ربه أن يدنيه من الأرض المقدسة مقدار رمية حجر، فقال، صلى الله تعالى عليه

وسلم: لو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر»[1]، ونحوه فى مسلم، وهو ينافى هذا التأويل وكون العين متخيلة لأفقاءها يقتضى أن ما يراه الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، من صورة الملائكة لا حقيقة له، وهو مذهب السالمية، كما قاله القرطبى مع أنه لا يجدى نفعًا.

وارتضى القرطبى الجواب بأن الله تعالى أخبره بأنه لا يموت حتى يخبره الله، ويخبره بين الموت والحياة، فلما أتاه الملك بغتة، ودخل عليه من غير استئذان شق عليه ذلك، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، سريع الغضب، ولذا لما رجع إليه وخيره بين الحياة والموت انقاد له واستسلم، قال: وهو أصح الوجوه.

(وأما قصة سليمان، عليه الصلاة والسلام، وما حكى فيها أهل التفسير من ذنبه) أى مما تمسك به القائلون بتجويز صدور الذنوب من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(وقوله)** عز وجل: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ [ص: ٣٤]، فليس من الفتنة المنهى عنها، وإنما هى بمعناها اللغوى كما تقدم.

(فمعناه ابتليناه) أى عاملناه معاملة من يختبر حتى يظهر مما خفى أمره على الناس **(وابتلاؤه)** المراد منه **(ما حكى عن النبى)** يعنى به سليمان، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أنه)** أى سليمان **(قال: لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين)** امرأة كن فى نكاحه، وكان ذلك جائزًا فى شريعته.

وقال التلمسانى: يقال: أطوفن، وأطيفن، ثلاثيًا ورباعيًا من الطواف حول شىء، انتهى، وهو كناية عن مجامعتهن، بدليل قوله: **(كلهن يأتينى)**، أى تأتى كل واحدة منهن بحمل تحمله، ثم تضعه **(بفارس)**، أى راكب فرس، **(يجاهد فى سبيل الله)**، أى فى طريقه التى يسلكها لقتال أعداء دينه، وهو حديث صحيح، روى فى الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث، وقوله: «الليلة»، منصوب على الظرفية، ووقع اختلاف فى عدة النساء، ففى البخارى مثل ما ذكره المصنف من أنهن مائة أو تسع وتسعون على الشك، وفى رواية غيره: سبعون بالموحدة، وفى رواية: تسعون فقط، بالمثناة الفوقية، وفى رواية للبخارى: ستون، وفى رواية لوهب بن منبه: كان لسليمان، عليه الصلاة والسلام، ألف امرأة ثلاثمائة ممهورة وغيرهن سرارى، وجمع بين الروايات بأنه عد فى بعضها الممهورات وألغى السريات.

---

(١) أخرجه البخارى (٢/١١٣، ٤/١٩٢)، ومسلم (٢٣٧٢/١٥٧)، وأحمد (٢/٢٦٩)، والنسائى (٤/١١٩).

وفى بعضها عد الكل وعلى القول بأنه لا مفهوم للعدد لا ينافى الأقل الأكثر، وإن ضعف هذا القول **(فقال له صاحبه)** أى ملك كان معه، أو قرينه، أو رجل كان يصحبه وقيل: هو خاطره وهو بعيد، وقيل: هو آصف بن برخيا بفتح الموحدة وسكون الراء المهملة وكسر الخاء المعجمة ومثناة تحتية تليها ألف، **(قل: إن شاء الله)** فلا تجزم بما قلته فوضه إلى مشيئة الله تعالى تبركًا وتيمنًا حتى يتم، **(فلم يقل)** ذلك لما وقع.

وفى رواية: أنه نسى و لم يقله بلسانه اكتفاء بما فى قلبه أو جزم به؛ لأنه من قوة رجائه واعتماده على كرم ربه، فنبه على أنه ينبغى تعريض التمنى كغيره إلى الله فليس فى تركه المشيئة ذنب يعد عليه كما توهم، لاسيما وهو ليس بخبر، **(فلم تحمل منهن)** أى ممن أطاف بهن **(إلا امرأة واحدة)** دون باقيهن والتى حملت منهن **(جاءت بشق رجل)** أى بولد غير كامل كما سيأتى، والشق بمعنى النصف أو البعض.

(قال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)، عندما ذكر هذا، **(والذى نفسى)** أى روحى وحياتى **(بيده)** أى بقبضة قدرته وتصرفه، إن شاء أحياها وأوجدها، وإن شاء أماتها وأحياها، وهو قسم كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، كثيرًا ما يقسم به، **(لو قال)** سليمان، عليه الصلاة والسلام، **(إن شاء الله)** جاؤا فرسانًا **(لجاهدوا فى سبيل الله)** كما طلب، وفى رواية: فرسان أجمعون، وقول: إن شاء الله، لا يستلزم الوقوع، فقد لا يقع ما قرن به، كقول موسى للخضر، عليهما الصلاة والسلام، ستجدنى إن شاء الله صابرًا وهو مستحب ويتحلل به مع اليمين، وفى الحديث ما يدل على قوة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وقدرتهم على الجماع لكمال بنيتهم ورجوليتهم، كما كان لنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، فكان يطوف على جميع نسائه فى الليلة الواحدة كما تقدم.

(قال أصحاب المعانى): المراد بهم الذين يفسرون الأحاديث ويقفون على معانيها المرادة بها، **(الشق هو الجسد الذى ألقى على كرسيه)** الذى كان يجلس عليه لإجراء أحكام الملك فيه **(حين عرض عليه)** أى حين إذ عرضته قابلته عليه ثم ألقته على كرسيه، **(وهى)** أى هذه القصة المذكورة **(عقوبته ومحنته)** بنون بعد الحاء المهملة المعبر عنها بالفتنة **(وقيل: بل مات ولده فألقى على كرسيه ميتًا)** وهو الشق المذكور، وقيل: ولد له ولد تام، فاجتمعت الشياطين، وقالوا: إن عاش له ولد لم ننفك من البلاء والسخرة، فقالوا: نقتل ولده أو نخبله، فعلم بذلك سليمان، فأمر الريح أن تحمله على السحاب خوفًا من الشياطين فعاتبه الله تعالى، بأن ألقاه على كرسيه ميتًا لخوفه من غير الله، وهو معنى قوله تعالى، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ [ص: ٣٤].

(**وقيل: ذنبه حرصه على ذلك وتمنيه**) على أن يرزقه الله مائة ولد يجاهدون فى سبيل الله، وليس مثله ذنبًا حقيقيًا كما توهموه.

(**وقيل**): عد تمنيه ذنبًا (**لأنه لم يستثن**) أى لم يقل: إن شاء الله فى كلامه، ومثله يسمى استثناء فى اللغة؛ لأن حقيقته كما قاله الراغب إيراد لفظ، يقتضى رفع ما يوجبه عموم لفظ متقدم أو رفع حكمه؛ لأنه من الثنيا وهى الرجوع ومما يقتضى رفع ما يوجبه اللفظ قولك: لأفعلن كذا إن شاء الله تعالى، انتهى، فليس هذا مجازًا ولا يختص بما قاله النحاة، فإنه اصطلاح حادث خلافًا لما يوهمه كلام بعض شراح الكتاب.

(**لما استغرقه من الحرص**) هو استفعال من الغرق وهو الرسوب فى الماء، وشاع فى الشمول وعموم الأوقات (**وغلب عليه من التمنى**) للأولاد المجاهدين وهو إشارة إلى الاعتذار عن فعله وبيان؛ لأنه ليس ذنبًا حقيقيًا كما قيل، وإنما هو ترك للأولى.

(**وقيل: عقوبته من سلب ملكه**)؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، غزا جزيرة، وأخذ بنتًا لملكها كانت فى غاية الجمال فأحبها ورآها حزينة، فسألها عن سبب حزنها فأخبرته بأنه لمفارقة أبيها، فسألته أن يصوره لها الشياطين فصوروا لها صورته، فألبستها لباسه وعممتها، فكانت تذهب له تعبده مع جواريها، فأخبره آصف بذلك فكسر صورته وندم على ما جوزه لها ففرش رمادًا يسجد عليه ويتضرع إلى الله تعالى، وكان له امرأة من نسائه يضع خاتم ملكه عندها إذا دخل الخلاء، أو أراد الغسل من الجنابة حتى يلبسه على طهارة كاملة، وكان ملكه فى خاتمه فتمثل لها شيطان يسمى صخرًا بصورته وأخذ الخاتم منها، وجلس بهيئته على الكرسى أربعين يومًا عدد ما عبد الصنم فى بيته وتغيرت هيئته حتى أنكره الناس، ثم وقع الخاتم فى البحر فابتلعته سمكة فاصطادها سليمان، عليه الصلاة والسلام، فوجد الخاتم فيها فتختم به، وعاد له ملكه وحبس صخرًا، وألقاه فى البحر فهو محبوس إلى الآن فى صندوق من حديد.

(**وذنبه أنه أحب أن يكون الحق لإختانه على خصمهم**)، جمع ختن بزنة جبل، وهو الصهر، أو كل ما يكون من قبل المرأة كالأب، والأخ، وذلك كما قيل: إنه كانت له امرأة يقال لها: جرادة، وكان مغرمًا بحبها، فقالت له: إن فلانًا من أهلى له حق عند آخر وأنا أحب أن تحكم له إذا جاءك، فأجابها، صلى الله تعالى عليه وسلم، لذلك ولكنه لم يفعل فعاقبه الله تعالى على مجرد الميل، فكان ما كان من وضع خاتمه عندها، وأخذ الشيطان له كما سمعته آنفًا.

(**وقيل أوخذ بذنب قارفه بعض نسائه**) هو ما تقدم من تصويرها لصورة أبيها واتخاذها

له صنمًا تعبده فى داره وهو صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يعلمه حتى أخبره بـه آصـف كما تقدم، فليس ذنبًا له فى الحقيقة وأصل معنى الأخذ حوز الشىء، كما مر.

فتجوز به عـن المحـاذاة، وهـو المـراد هنـا كمـا قـال الله تعـالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ [النحل: ٦١]، فيقال: أخذه، وآخذه، وواخذه، لغة فصيحة ولـذا وجـد فـى بعـض النسـخ أخـذ، وأوخـذ، ووخـذ، وقارفـه بمعنـى اكتسبه، وفعلـه فـأصل القـرف والاقتراف، قشر اللحاء عن الشجرة والجلدة عن الجرح، فاستعير لما ذكر.

(**ولا يصح**) بحسب الرواية (**مـا قـال الإخبـاريون**) أى أصحـاب القصـص والتواريـخ، وتقدم أن النسبة للجمع على خلاف القياس، أو هو كالأنصارى كما تقدم، لاختصاصه ببعض أنواعه (**من تشبه الشيطان به**) أى تمثله بصورته حتى أخذ خاتم ملكه مـن امرأتـه، وجلس على كرسى ملكه يحكم وأنكروا سليمان لتغير هيئته كما مر.

وفى بعض النسخ من خرافاتهم على فعله من تشبه إلخ، وهـو بضـم الخـاء المعجمـة، وفتح الراء المخففة، وفى كشف الكشاف عن الزمخشرى أنه سمع فيه خرافات بالتشـديد وجمع على خراريف، ولم يسمعه من غيره فالعهدة عليه.

(**وتسلطه على ملكه**) وسلطنته (**بالتصرف فى أمته بالجور فى حكمـه**) وظلمـهم، قـال السيوطى، رحمه الله، ما قال المصنف: إنه من خرافات الإخباريين، أخرجه ابن أبى حـاتم بسند صحيح عن ابن عباس موقوفًا، لكنه مأخوذ من الإسرائيليات كما بينه فى التفسير، انتهى.

وفيه نظر؛ لأن أول كلامه ينافى آخره، وخرافات جمع خرافة، وهى الكذب كما فى القاموس، وأصله اسم رجل من عذرة خطفته الجن، فلما تخلص منهم كان يحدث عنـهم بعجائب رآها منهم، ثم قيل لكل مستملح، وأمر غريـب خرافـة، وضربـه ابـن الزبعـرى مثلاً للبعث فقال:

حيـاة ثـم مـوت ثـم نشـر   حديـث خرافـة يـا أم عمـرو

وقوله: (**لأن الشياطين لا يسلطون على هذا**) أى لا يقدرهم الله عليـه لعصمتـه تعـالى لأنبيائه منهم كما قال، (**فقد عصم الأنبيـاء**) صونًـا لهـم (**عـن مثلـه**) ولأنـه منـاف لأمـر الرسالة (**وإن سأل**) أى سأله أحد من الناس لإشكاله عليـه، فقـال: (**لم لم يقـل سـليمان**)، عليه الصلاة والسلام، (**فى القصة المذكورة**) حين تمنى الأولاد المجاهدين (**إن شاء الله فعنه**) للعلماء، (**أجوبة**) جمع جواب كغراب وأغربه، وفـى المصباح يقـال فـى جمـع الجـواب: أجوبة وجوابات، إلا أن ابن الجوزى نقل فى غلط العوام عن العسكرى، أن العامة تقول

فى جمع الجواب: جوابات وأجوبة وهو خطأ مثل الذهاب مصدر.

وقال سيبويه: قولهم جوابات وأجوبة مولد، انتهى، فليحرر فإن صاحب المصباح ثقة، فلعله سمع نادرًا و لم يقف عليه سيبويه، رحمه الله تعالى، وفى نسخة جوابان: أحدهما إلخ وهو الصواب؛ لأنه لم يذكر غير جوابين، كما أشار لذلك بقوله: (**أحدها ما روى فى الحديث الصحيح أنه نسى أن يقولها وذلك**) لحكمة أرادها الله تعالى، وأنه نسى (**لينفذ أمر الله تعالى**)، وفى نسخة مراد الله فى إرادته لعدم وقوع ما تمناه امتحانًا له لينبهه على الأولى به، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(و) الجواب (**الثانى أنه لم يسمع صاحبه**) الذى قال له: قل: إن شاء الله تعالى، (**وشغل عنه**) بأمر شغله أو لشدة توجهه إلى الله تعالى وقوة رجائه فيه إلا أنه قيل عليه: إن ترك المشيئة ليست معصية حتى يحتاج لمثل هذا، فكأن المصنف ذهب إلى أن النهى فى: ﴿**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ**﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]، نهى تحريم، انتهى.

و لم نر من ذهب لهذا حتى يتبعه المصنف ولا حاجة له، فإنه خلاف الظاهر لاسيما للأنبياء الذين تقتضى مقاماتهم تفويض جميع أمورهم لله تعالى، ولذا تأخر الوحى، عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذ لم يقله.

(**وقوله**): أى سليمان، عليه الصلاة والسلام، ﴿**وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ**﴾ [ص: ٣٥]، قيل: إنه جواب سؤال تقديره: أنك قلت: إن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، معصومون من سائر الذنوب، ومنهم سليمان، عليه الصلاة والسلام، فكيف هذا مع ما سأله من الله أن يؤتيه ملكًا لا يكون لغيره، وهذا يقضى حبه للدنيا ولتفرده بملك عظيم لا يتيسر لغيره، وفيه حرص حينئذ لا يليق بزهد الأنبياء فى الدنيا، وعدم رغبتهم فيها فأجاب عنه بأنه (**لم يفعل سليمان هذا**) أى طلب لما ذكر (**غيرة**) بفتح الغين المعجمة وتكسر فى لغية والغيرة محبة أمر يأبى أن يكون لغيره، (**على الدنيا**) أى على أمور الدنيا كالمال والملك، (**ولا نفاسة بها**) أى عدها نفيسة عظيمة يضن بها عن الغير هذا مراده.

قال الراغب: المنافسة مجاهدة النفس للتشبيه بالأفاضل واللحوق بهم من غير إدخال ضر على غيره، قال الله تعالى: ﴿**وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ**﴾ [المطففين: ٢٦]، انتهى.

وهو هنا من نفس بكذا إذا رغب فيه وبخل به على غيره لا ما ذكره الراغب، (**ولكن مقصده فى ذلك**) أى فى سؤال ما ذكر (**على ما ذكره المفسرون**) أى فى معنى هذه الآية

(أن لا يسلط عليه) بالبناء للمجهول، وقوله: **(أحد)** نائب الفاعل أى أن لا يسلطه الله تعالى عليه وتسليطه عليه، بأن يمكنه من غلبته عليه **(كما سلط عليه الشيطان)** وهو صخر كما بيناه.

(الذى سلبه إياه) أى ملكه وعاد عليه لتقدم ذكره **(مدة امتحانه)** أى فى مدة ابتلاء الله تعالى له بتسليط الشيطان لما أخذ خاتمه، عليه الصلاة والسلام، من زوجته وظهر بصورته وتصرف فى ملكه حتى أنكر الناس سليمان، عليه الصلاة والسلام، إلى أن وجد خاتمه فى بطن سمكة اصطادها كما مر.

إلا أن الله تعالى لم يسلطه على زوجاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما حكوه تطهيرًا لحرمه **(على)** قول **(من قال ذلك)**، من أهل القصص والسير، وقد علمت أنهم أخذوه من الإسرائيليات المنقولة عن أهل الكتاب وفى صحتها كلام للمحدثين.

(وقيل) فى توجيه ما طلب سليمان: **(بل أراد)** بقوله: هب لى ملكًا إلى آخره **(أن يكون من الله فضيلة)** يفضل بها على أهل زمانه **(وخاصية يختص بها)** من دون سائر رسل الله تعالى وأنبيائه، ويؤيده ما روى عن نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، من أنه جاءه شيطان وهو يصلى أراد أن يقطع صلاته فأراد صلى الله تعالى عليه وسلم أن يمسكه ويربطه بسارية من سوارى المسجد حتى يصبح ويراه الناس، ثم تركه وقال: ذكرت قول أخى سليمان: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ [ص: ٣٥]، إلى آخره، فهذا يقتضى أنه خاصية له خصه الله تعالى بها، ولذا قال بعض الشراح هنا: لا ينبغى للمصنف، رحمه الله تعالى، أن يمرض هذا ويحكيه بقيل، **(كاختصاص غيره من أنبياء الله تعالى ورسله)**، عليهم السلام، **(بخواص منه)** أى من الله تعالى، خصه الله بها دون غيره، وهذا لا ينافى الأفضلية؛ لأنه قد يكون فى المفضول ما ليس فى الفاضل.

(وقيل): إنما طلب هذا **(ليكون دليلاً وحجة على نبوته)** لا رغبة له فى الدنيا ومنافسة فيها **(كإلانة الحديد لأبيه)**، عليه الصلاة والسلام، أى جعله لينًا كالعجين، يصنع منه الزرد ليستعين به على الجهاد **(وإحياء الموتى لعيسى)**، ابن مريم، عليه الصلاة والسلام، **(واختصاص محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالشفاعة)** يوم القيامة كما تقدم.

(ونحو هذا) من خصائص أنبياء الله ورسله التى أكرمهم الله تعالى بها، وجعلها معجزة دالة على نبوتهم، وقد تقرر أنه لم يكن لنبى من الأنبياء معجزة وخاصة إلا ولنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم مثلها وأعظم منها كما فصله فى الخصائص، وقد أفردت بالتدوين وأجل ما ألف فيها خصائص الإمام الخيضرى.

وفى شرح المواقف: طلب سليمان، عليه السلام، لملك لا يتيسر لغيره لم يكن حسدًا منه وضنة بالملك، بل لأن لكل نبى كان له ما يفتخر به أهل زمانه وكانوا جبابرة يفتخرون بالملك وكثرة الجند والمال وقوة الأعيان، فأراد صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكون له من ذلك ما لا يقدر عليه غيره، فملكه الله تعالى ملكًا عظيمًا، و لم يجعله شاغلاً له عن زهده وعبادته ليعلم الناس أن زخارف الدنيا لا تلهى خلص عباده عن خدمته ولذا قدم الاستغفار على طلبه فقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ [ص: ٣٥]، إلى آخره، وليكون أدعى للإجابة.

(**وأما قصة نوح، عليه الصلاة والسلام**)، وفيها مما يقتضى أنه شك فى وعد الله بقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ [العنكبوت: ٣٣]، أو على ما يأتى ومثله بحسب الظاهر معصية و لم يذكر قصص الأنبياء مرتبة بحسب زمان الوقوع؛ لأنه راعى فيها ما هو أظهر حجة لمن جوز على أنبياء الله تعالى، وقوع الذنب منهم، فلا يرد عليه ما قيل: إنه كان الأحسن أن يذكرها مرتبة فيبدأ بقصة آدم، ثم نوح، ثم وثم إلى آخر القصص (**وظاهره**) أى ظاهر كلامه وما حكاه الله تعالى عنه.

وذكر الضمير لتأويله بما ذكر (**العذر**)، أى الاعتذار عن سؤال ما ليس له به علم، لا الشك فى وعد من لا يخلف الميعاد، كما يأتى، (**وأنه أخذ**)، أى تمسك (**فيها**)، أى فى قصته (**بالتأويل**)، أى تأويل ما وعده به، بأن يريد الله بأهله ما يشمل ابنه، (**وظاهر اللفظ**)، بالجر عطفًا على التأويل، أى أخذ بظاهر تلفظه، (**بقوله: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾**) [العنكبوت: ٣٣]، متعلق باللفظ، إلا أنه قيل عليه: إنه سهو؛ لأن ما ذكره وقع فى قصة لوط فى سورة العنكبوت، والذى فى قصة نوح قوله: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [هود: ٤٠] وكونه حكاية بالمعنى يأباه أنه متمسك بلفظه، وإن ساواه فى لفظ الأهل، ولذا رأيته ضرب عليه فى بعض النسخ (**فطلب مقتضى هذا اللفظ**) أى لفظ الأهل من غير نظر لحقيقته، وقال: ﴿إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: ٤٥].

(**وأراد**) بطلبه ذلك (**علم ما طوى عنه**) أى أخفى عن علمه، فهو استعارة من الشىء المطوى عليه لفافة تخفيه، قبل أن يظهر ما فى داخلها (**من ذلك**) الأمر، أى أمر ابنه ومخالفته فى ركوب السفينة لا ينافيه كما توهم (**لا أنه**) أى نوح، عليه الصلاة والسلام، (**شك فى وعد الله**) له بنجاة أهله (**فبين الله تعالى عليه**) بين لا يتعدى بعلى، فكأنه ضمنه معنى نبه أو بنى أو هو تحريف من الناسخ (**أنه ليس من أهله الذين وعده الله تعالى بنجاتهم**) فيه ما تقدم فتذكره (**لكفره وعمله الذى هو غير صالح**) فإن مثله قاطع للقرابة

القريبة، ولذا منع الإرث بالكفر واختلاف الملل، وقيل: «سليمان منا أهل البيت».

(وقد أعلمه الله أنه مغرق الذين ظلموا) بقوله: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧]، والظلم أطلق على الكفر فى القرآن كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، **(ونهاه عن مخاطبته فيهم)** أى شفاعته لهم وتكليمه فى شأنهم بالآية المذكورة، وهو إشارة إلى أن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لا يسألون من الله شيئًا بغير إذن لهم فى الكلام **(فأخذوا بهذا التأويل)** أى جازاهم الله وأخذهم بتأويلهم الأهل الموعود بنجاتهم كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ [النحل: ٦١].

(وعتب عليه) أى عاتبه الله تعالى على مخاطبته له بقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، فنسبه للجهل زجرًا له، ولله أن يخاطب خلص عباده بما أراد؛ لأنه حين وعده بنجاة أهله استثنى من سبق عليه القول من الناجين لاسيما، وابنه كان بمعزل منه، ففى دلالة الحال ما يغنى عن السؤال **(وأشفق هو)** أى خاف نوح، عليه الصلاة والسلام، **(من إقدامه على ربه بسؤاله)** من ربه **(ما لم يؤذن له فى السؤال فيه)** حيث لا يتكلم إلا من أذن له، ثم بين عذره بقوله **(وكان نوح)** عليه الصلاة والسلام، **(فيما حكاه النقاش)** فى تفسيره، وهو محمد بن الحسن الموصلى، كما تقدم فى ترجمته.

(لا يعلم بكفر ابنه)، ولو علم ذلك لم يرج من الله نجاته، وقطع رحمه منه، **(وقيل فى الآية غير هذا)**، التوجيه بما يقتضى تبرئة مقام النبوة مما لا يليق بها، وقيل: إنه لم يكن ابنه، وإنما كان ابن امرأته، وقد قرئ فى الشواذ، ونادى نوح ابنها، والقول بأنه ولد على فراشه، ولم يكن ابنه، وكان لغير رشده، مردود بأن فراش الأنبياء منزه عن مثله.

وأما قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، فالمراد منه خيانة الأذية والميل لأعدائه، وإلا فلا يجوز أن تنسب زوجات الأنبياء لشىء من ذلك بالاتفاق، **(وكل هذا)** المذكور فى قصة نوح، عليه الصلاة والسلام، والآية المتلوة فيها **(لا يقضى)** أى لا يحكم ويلزم الحكم **(على نوح، عليه السلام، بمعصية)** صدرت منه **(سوى ما ذكرناه)** هو استثناء منقطع إذ ليس فيما يعده معصية ومعرة تلحقه وتشين مقامه، **(من تأويله)** لما وعد به **(وإقدامه بالسؤال فيما لم يؤذن له)** فى السؤال **(فيه ولا نهى عنه)** صريحًا؛ لأنه لم يتحقق دخوله فى الذين ظلموا إذ لو كان كذلك كان معصية.

(وما ورد فى الصحيح) كما رواه الشيخان، عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، **(أن نبيًا قرصته)** أى عضته **(نملة)**، وفى رواية البخارى: لدغته بدال مهملة، وغين معجمة،

والقرص مخصوص ببعض صغار الحشرات كالنمل، والبرغوث، ولذا قالوا: قولهم: أكلونى البراغيث مجاز، ولذا عبر عنه بضمير العقلاء، وهذا النبى قال الطبرى، والحكيم الترمذى: إنه موسى، عليه الصلاة والسلام.

وقال المنذرى: إنه عزير، وقال البرهان: إن فى أبى داود مرفوعًا: «لا أدرى أعزير نبى أم لا؟»[1]، وصححه الحاكم فى مستدركه، عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، ولكن ثبت أنه نبى، فكان الله أطلعه بعد ذلك على نبوته.

(فحرق قرية النمل)، القرية محل يجتمع فيه بيوت الناس، ولا يطلق على مقر غيره من الدواب، وغيره قرية إلا مجتمع النمل؛ لأن أصله الاجتماع مطلقًا، من قرى الماء فى الحوض، إذا جمعه فهو حقيقة لغوية، أو مجاز مشهور، وفى كتب اللغة تفرقه بين المساكين، فقالوا: يقال لمقر الإنسان: وطن، وبلد، ومقر الإبل: عطن، وللأسد: عرين، وغابة، وللظباء: كناس، وللذئب والضبع: وجار، وللطائر والزنبور: عش، ووكر، ولليربوع، والنمل: قرية، فهو على هذا حقيقة.

(فأوحى الله إليه أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم) الأمة طائفة، وجماعة من جنس واحد من المخلوقات ففيه إشارة إلى أن هذا النبى صدرت منه معصية، ففيه دليل لمن جوز على الأنبياء صدور المعاصى منهم لمعاتبة الله له فى ذلك.

وقوله: **(تسبح)** بيان لسبب النهى عما فعله؛ لأنه ما من شىء إلا يسبح بحمده، وفى قتله قطع لعبادته وأيضًا، فإنه لا يجوز الإحراق للحيوان، لما ورد من أنه لا يعذب بالنار إلا خالقها، وقيل: إنما عاتبه الله؛ لأنه أهلك من أذاه وغيره لما فى بعض الروايات، هلا نملة واحدة.

وسبب هذه القصة إن موسى، عليه الصلاة والسلام، مر على قرية أهلك الله أهلها بذنب لهم، فقال: يا رب أهلكتهم وفيهم صبيان ودواب لم تذنب، وفيهم الطائع فأراد الله تعالى أن ينبهه على ما خطر بباله فاشتد عليه الحر، ونزل تحت شجرة فنام فى ظلها فسلط الله عليه نملة كبيرة من النمل الذى يقال له: نمل سليمان، وغيره يسمى ذرًا، ففعل بها ما فعل، فأوحى الله تعالى إليه بما ظاهره العتاب إرشادًا له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد قالوا: إنه كان جائزًا فى شرعه، وقد قالوا أيضًا: يجوز قتل كل مؤذ من ذوى الأرواح أما بالنار، فلا يجوز إلا قصاصًا لمن أحرق بها إنسانًا على ما فيه، فليس فيما فعله، عليه الصلاة والسلام، معصية.

(١) أورده العجلونى فى كشف الخفا (٢/٤٨٣).

ولذا قال المصنف، رحمه الله تعالى: **(فليس فى هذا الحديث ما يقتضى)**، ويدل على **(أنه أتى بمعصية)**، وفى نسخة: على أن هذا الذى أتى معصية، ومعصية خبر إن، وعائد الذى محذوف، أى الذى أتاه معصية، **(بل فعل ما رآه)**، أى علمه واعتقده، **(صوابًا بقتل من يؤذى جنسه)**، أى بنى آدم، وقد قال الفقهاء: إن قتل النمل جائز لأذيته، وعبر بمن بصدور فعل منه يشبه فعل العقلاء، كقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، **(ويمنع المنفعة)**، أى الانتفاع **(بما أباح الله تعالى)**، كالاستظلال بهذه الشجرة، وإفساد ما ادخر من الأطعمة، وأوضحه بقوله: **(ألا ترى)** أى تعلم، أو تتحقق، ما هو كالمرئى المشاهد، **(أن هذا النبى)** المتقدم، وصحح القرطبى أنه موسى كما تقدم.

(كان نازلاً تحت الشجرة) لينتفع بظلها والنوم فيه، **(فلما آذته النملة)** بقرصها، والتاء للوحدة فيشمل المذكر والمؤنث **(تحول برحله)** من تحت تلك الشجرة، **(عنها)** أى عن الشجرة، ورحل الرجل متاعه الذى يأوى إليه، وما يوضع على ظهر الدابة ليحملا عليه **(مخافة تكرار الأذى عليه)** من جنسها **(وليس فيما أوحى الله إليه ما يوجب)** أى يقتضى ويستلزم، **(عليه معصية)** صدرت منه، **(بل ندبه إلى احتمال الصبر)** على ما يؤذى، أى حثه وتحريضه من قولهم: ندبه إلى كذا إذا دعاه إليه.

(وترك التشفى) تفعل من الشفاء، وهو الانتقام بما يشفى غيظه، ويبرد صدره، **(كما قال تعالى)** فى مدح الصبر، وأنه يجب بما عليه ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، نزل فى غزوة أحد، وقتل حمزة، رضى الله تعالى عنه، وقد مثل به وحزن لذلك رسول الله، صلى الله تعالىعليه وسلم، كما فصل فى السير **(إذ ظاهر فعله)** أى هذا النبى **(إنما كان لأجل أنها)** أى النملة **(آذته هو فى خاصته)** دون غيره ممن نزل معه **(فكان)** فعله هذا **(انتقامًا لنفسه)** دون غيره **(وقطع مضرة يتوقعها)** فى المستقبل **(من بقية النمل هناك)** بيان لوجه إحراق جميع النمل غير المؤذية له **(ولم يأت)** أى لم يفعل ذلك النبى **(فى كل هذا أمرًا)** مفعوله ولو رفع جاز **(نهى عنه)** بل جائزًا كما مر.

وقوله: **(فيعصى به)** بالنصب فى جواب النفى **(ولا نص فيما أوحى الله إليه بذلك)** أى بأنه أتى بمعصية **(ولا بالتوبة)** من ذنب أتاه **(ولا استغفار منه)** أى طلب مغفرته لذنب أتاه، قيل: إنما قال: إذ ظاهر فعله؛ لأنه فى الحقيقة، إنما وقع له ذلك لومًا على ما قاله فى القرية التى أهلكها الله تعالى.

أقول: هذا على تقدير تسليمه لا ينافى المقصود من أنه لا معصية فى هذه القصة وما حكاه أيضًا لا ذنب فيه؛ لأنه إنما سأل الله عن ذلك ليبين له حكمة ما فعله.

(فإن قيل فما معنى قوله)، صلى الله تعالىعليه وسلم، فى حديث: (**«ما من أحد إلا ألم بذنب أو كاد إلا يحيى بن زكريا»**)، وهذا لحديث رواه الإمام أحمد، عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، مرفوعًا بلفظ: «ما من أحدًا إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة»، وسنده ضعيف، وأخرجه البزار عن ابن عمر مرفوعًا، كما قاله السيوطى فى مناهل الصفا، أقول: ومتابعته تقويه فى الجملة، فلا عبرة بمن أنكره.

وروى الثعالبى أيضًا، عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، قال: سمعت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقول: «كل بنى آدم يلقى الله عز وجل، بذنبه فيعذبه أو يرحمه، إلا يحيى بن زكريا[1]، فإنه كان ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، ثم أهوى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى قذاة من الأرض أخذها بيده، وقال: «كان ذكره مثل هذه»، وقال قتادة وغيره: إن الله تعالى أحيى قلبه بالطاعة والنبوة، حتى لم يعص، ولم يهم بمعصية، وهو غير مناف لما رواه الثعالبى، وحاصل ما هنا إن هذا الحديث يخالف ما مر من عصمة الأنبياء، ويلائم ما استدل به المخالفون فى ذلك، ومعنى ألم: أنه وقع منه ذلك قليلاً، وكاد بمعنى قرب منه، فهو بمعنى هم فى الرواية الأخرى.

وقوله: (**أو كما قال النبى، صلى الله تعالىعليه وسلم**)، إشارة إلى أنه وقع فيه روايات مختلفة، كما أشرنا إليه (**فالجواب عنه**) أى عما وقع فى هذا الحديث (**كما تقدم من ذنوب الأنبياء التى وقعت من غير قصد**) منهم، (**وعن سهو و**) عن (**غفلة منهم**) ومثله لا يؤاخذ به، ولا يلزم منه تفضيله على من عداه من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وهذا ما وقع فى بعض النسخ وسقط من بعضها.

* * *

(فصل) معقود لدفع شبه نشأت مما قدمه

(فإن قلت: فإذا نفيت عنهم) أى عن الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، **(الذنوب والمعاصى)** عطف تفسير أو هو من عطف السبب على مسببه؛ لأن الذنب الإثم المترتب على المعصية بمخالفة أمر الله تعالى، **(بما ذكرته)** فى الفصل الذى قبل هذا، **(من اختلاف المفسرين)** فى توجيه ما صدر عنهم.

(وتأويل المحققين) لما هو معصية بحسب الظاهر، **(فما معنى قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾**) [طه: ١٢١]، وضل بسبب معصيته، **(وما)** معنى ما **(تكرر)** فى قصص

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى العلل (١٨٣٥)، وابن عدى فى الكامل (٢/٦٥١).

الأنبياء الواردة **(فى القرآن، والحديث من اعتراف الأنبياء بذنوبهم)** كما تقدم من نحو قولهم: ربنا ظلمنا أنفسنا، **(وتوبتهم واستغفارهم)** كقول موسى، صلى الله تعالى عليه وسلم: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]، **(وبكائهم على ما سلف منهم)** كما روى عن داود، عليه الصلاة والسلام، أنه بكى حتى بلت دموعه الأرض، **(وإشفاقهم)** أى خوفهم من الله تعالى.

(وهل يشفق) ويخاف **(ويتاب)** ببناء المجهول **(ويستغفر من لا شىء)** أى من غير شىء صدر يخشى منه حتى يفعل ما ذكر.

(فاعلم) أيها السائل، **(وفقنا الله وإياك)** جملة دعائية معترضة، **(أن درجة الأنبياء)**، عليهم الصلاة والسلام، والدرجة فى الأصل ما يصعد به لمكان عال، ويراد به المنزلة الرفيعة نفسها، وهو المراد هنا، **(فى الرفعة)** أى علو مقاماتهم حسًا ومعنى، **(والعلو)** عطف تفسير **(والمعرفة بالله)** تعالى، فإنهم أعرف به من غيرهم.

(وسنته فى عبادة) مجرور معطوف على ما قبله، أى معرفتهم بعادة الله فى معاملة عباده فى سخطه ورضاه، **(وعظيم سلطانه)** أى علو شأنه، وأنه القاهر فوق عباده، **(وقوة بطشه)**، أى أخذه القوى الشديد إذا أخذ، ﴿كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩]،**(مما يحملهم)** أى يلجئهم بما يقتضيه اقتضاء تامًا، **(على الخوف منه)** فإن من كان أعرف بالله كان أشد خوفًا منه، **(جل جلاله)** هذا فى موقعه مناسب غاية المناسبة، أى عظمت عظمته، وهو مبالغة فى وصفه بالعظمة فى ذاته وصفاته والجليل من أسمائه تعالى، أبلغ من الكبير والعظيم؛ لأنه كمال الذات والصفات وإسناده مجازى كجد جده، وفيه مبالغة قررت فى المعانى.

(والإشفاق) أى الخوف **(من المؤاخذة بما لا يؤاخذ به غيرهم)**، فإنهم لعلو مقامهم عند الله ورفعة شأنهم لا يسامحهم بما يسامح به غيرهم؛ لأنهم أجل من أن يتهاونوا فى شىء من الأشياء، ويفرطوا فيه، فخوفهم من الله تعالى أقوى من خوف غيرهم؛ لأنه خوف إجلال، **(وأنهم فى تصرفهم)**، بأفعالهم الصادرة منهم، **(بأمور لم ينهوا عنها ولا أمروا بها)**؛ لأنها أمور مباحة جائزة، **(ثم أوخذوا عليها)**، أى لامهم الله عليها مع أنها مباحة جائزة، **(وعوتبوا بسببها وحذروا)**، أى خوفوا **(من المؤاخذة بها)** أى أن يجازيهم الله عليها كأخذه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الفدية من أسرى بدر، وإذنه لمن تخلف عن الغزو كما تقدم، وهو أمر جائز، لكنه ترك فيه الأولى نظرًا لما فيه من الفائدة العائدة للمسلمين والتيسير على الأمة.

(وأتوها) أى فعلوها **(على وجه التأويل)** لما ورد فيه من نص قبل حمل على محمل غير ما أريد به لأمر اقتضاه، ومثله يعذر فيه ولا يعد ذنبًا، **(أو السهو)** أى أو فعلوها على وجه وقع منهم السهو منهم، ومثله معفو عنه غير مؤاخذ به غيرهم، كما تقدم بيانه.

(أو تزيد) أى زيادة **(من أمور الدنيا المباحة)** لهم ولغيرهم كطلب سليمان، عليه الصلاة والسلام، أن تحمل جميع نسائه بفرسان تجاهد فى سبيل الله، كما تقدم، فهو طلب زيادة مباحة ولا ضرر فيه، **(خائفون وجلون)** هو خبر إن فى قوله: إنهم فى تصرفهم، وما بينهما اعتراض والوجل الخوف، والأحسن تفسيره هنا بمضطرين ليكون أفيد.

(وهى) أى الأمور المباحة المذكورة **(ذنوب بالإضافة إلى عَلِىِّ منصبهم)**، أى بالنسبة لهم، وإن كانت مباحة فى أصلها فالمراد بالمنصب مقامهم، وليس المنصب هنا بمعناه المتعارف، وقد تقدم بيانه.

(ومعاص بالنسبة إلى كمال طاعتهم)، لربهم ومراقبتهم له **(لا أنها)** ذنوب حقيقة **(كذنوب غيرهم ومعاصيهم)** من أمتهم، ثم بين مناسبة إطلاقها بحسب الإشفاق، فقال: **(فإن الذنب)** فى أصله ووضع مادته **(مأخوذ من الشىء الدنى)** أى الخسيس **(الرذل)** أى الردى المحقر والأخذ الاشتقاق البعيد، وهو معنى قولهم: دائرة الأخذ أوسع من دائرة الاشتقاق، **(ومنه ذنب كل شىء آخره)** الذنب بفتحتين معروف **(وأذناب الناس رذالهم)** بضم الراء، وهو جمع على فعال جاءت فى كلمات معدودة، أى أراذلهم، ومنه أرذل العمر لآخره، **(فكأن هذه أدنى أفعالهم)**، أى أحقرها وأخسها، وكأن للتشبيه.

وفى نسخة: وكانت هذه أى الأمور التى تصرفوا فيها، **(وأسوأ ما يجرى)** ويقع **(من أحوالهم)** لجلالة قدرهم ونزاهة خلقهم وعصمتهم عن سفساف الأمور، وإن حماهم الله عن كل سوء فى ذواتهم وصفاتهم، **(لتطهيرهم وتنزيههم)** عما لا يليق بهم، **(وعمارة بواطنهم وظواهرهم بالعمل الصالح)** فى السر والعلانية **(والكلم الطيب)** أى الذى شغل به ألسنتهم وجميع أقوالهم من التكلم بالخير والتسبيح والتهليل وحمد الله.

(والذكر الظاهر) أى ذكر الله جهرًا، **(والخفى)** بذكره سرًا وجعله دائمًا مراقبًا ملاحظًا فى قلوبهم، **(والخشية)** هى الخوف مع الإجلال والتعظيم **(لله تعالى وإعظامه)** حق تعظيمه وقدره حق قدره **(فى السر والعلانية)** بالتخفيف مصدر كصلاحية، وهو مقابل السر بمعنى الخفى من الإعلان، فمن كان هذا حاله إذا اشتغل بما لا يعينه من المباحات كان سيئة بالنسبة لمقامه وما طبع عليه.

(و) أما (**غيرهم**) من غير الخواص فهو إنما (**يتلوث**)أى يتدنس يقال: تلوث الدم إذا تلطخ به، ويقال: به لوثة من جنون، قال[1]:

وإنى على ما فى عنجهيتى ... ولوثة أعرابيتى لا ديب

(**من الكبائر**)، أى كبائر الذنوب وقد تقدم بيانها، (**والقبائح**) أى ما يقبح شرعًا من الذنوب كبائرها وصغائرها، (**والفواحش**) وهو ما ازداد قبحه، وقد يراد بالفاحشة الزنا ونحوه، وهو إطناب هنا؛ لأنه بمعنى الكبائر، (**ما تكون بالإضافة**) أى بالنسبة والقياس (**إليه**) وفى نسخة إلى (**هذه**) الأمور التى صدرت من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وما هذه موصولة وقعت بدلاً من مجرور من أى غير الأنبياء، متلوث من أمور هى بالإضافة لما عد ذنبًا منهم كالحسنة لغيرهم، كما قال المتنبى:

إنا لفى زمن ترك القبيح به ... من أكثر الناس إحسان وإجمال

فلا وجه لما قيل: إن حقه أن يقول: بما يكون بالباء الجارة كما وقع فى بعض النسخ، أو يقول: يلوث بإسقاط التاء حتى يتعدى بنفسه.

(**الهنات**) جمع هنة، وهى خصلة السوء، (**فى حقه**) أى إذا وصف بها غير النبى وقيلت فى حقه، (**كالحسنات**) بالنسبة لقبائحه، وقال: كالحسنات؛ لأن منها مباح ومكروه كراهة تنزيه، وجعلها حسنة لا خفاء فيه، وما قيل: أنه لم يعهد أن يكون شىء واحد ذنبًا فى حق شخص وغير ذنب فى حق آخر فى شريعتنا ليس بشىء، بل مثله كثير، فكم من شىء وجب على الأنبياء وعلى الخلفاء والحكام، وهو لا يجب على غيرهم، وأجاد فى التعبير بالهنات؛ لأنها بفتح الهاء والنون وألف وتاء والهنة فى الأصل مطلق الخصلة، ثم خصت بخصلة السوء، قال: فى الأساس يقال: هناه، وهنوات، وهنات خصال سوء، قال لبيد:

أكرمت عرضى أن ينال بنحوه ... أن البرىء من الهنات سعيد

وما فى بعض النسخ من الهيئات جمع هيئة، بياء ساكنة، وهمزة تحريف من الناسخ، (**كما قيل: حسنات الأبرار**)، أتقياء الأمة (**سيئات المقربين**) إلى الله وهم الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وخلص الأولياء، وليس هذا بحديث، وإنما هو من كلام أبى سعيد الخراز من كبار مشايخ الصوفية، (**أى يرونها**) ويعتقدونها، (**بالإضافة إلى علىّ أحوالهم كالسيئات**) وإن لم تكن سيئة حقيقية فجعلها سيئات وحسنات مبالغة ومجاز، (**وكذلك**)، أى مثل ما ذكر فى معنى الذنب وكونه يكون بالسيئة لمن اتصف به، (**العصيان**) الذى

(١) البيت من الطويل، وهو بلا نسبة فى أساس البلاغة (ص٤١٦).

اتصف به بعض المقربين كما فى قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، معناه فى اللغة (**الترك والمخالفة**) لأمر ما، سواء كان واجبًا أم لا.

(**فعلى مقتضى**) هذه (**اللفظة**) بحسب معناها التى وضعت له (**كيف ما كانت**) أى على أى حالة وقعت (**من سهو أو تأويل**) للأمر الذى أمر به (**فهى**)تسمى (**مخالفة وترك**)، وإن لم تكن معصية شرعية مذمومة عقلاً وشرعًا؛ لأنها معفوة مغفورة غير مؤاخذ بها كل أحد، فليس كل عاص آثم وترك الطاعة أعم من فعل المعصية، وهو سؤال تقديره، إن قلتم بعصمة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وقد وصف الله تعالى، بعضهم بأنهم عصاة وجوابه ظاهر قيل: هذا مبنى على أن فعل الساهى حرام، ومعصية لكنها مغفورة، وهو مذهب لبعضهم، وقيل: فعله لا يوصف بشىء من الأحكام كفعل المكروه والكلام عليه مفصل فى كتب الأصول.

(**وقوله تعالى**) فى حق آدم، عليه الصلاة والسلام، (**غوى**) والغى الضلال والمعصية فإطلاقه يقتضى خلاف ما قررته من عصمة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، (**أى جهل أن تلك الشجرة**) التى أكل منها (**هى التى نهى عنها والغى**) معناه فى اللغة (**الجهل**) فهذا معناه حقيقة، ولغة، ولو قال: لم يعرف كان أحسن وأليق بالأدب.

(**وقيل**): معناه (**أخطأ ما طلب من الخلود**) بدوام البقاء كما ذكر فى الآية، (**إذ أكلها وخابت أمنيته**) بضم الهمزة وتشديد الياء إذ لم يصل لما أراده، وهى ما يتمناه وجمعها أمانى بالتشديد والتخفيف، وفسره أهل اللغة بالضلال والجهل والخطأ معنى آخر إذ هو تفسير بلازم معناه.

وقال ابن الأعرابى: معنى غوى فسد عيشه بتغير حاله، وقد قيل عليه: إن ترتيبه بالفاء بقوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، ينافى تفسيره بالخطأ والجهل إلا أن يكون كان فى شريعته غير معفو عنه، ثم نسخ وفيه نظر؛ لأنه إذا فسر بمعناه اللغوى، كما قرره المصنف، رحمه الله تعالى، لا يرد عليه ما ذكر على أنه قصد به التهديد والتشديد باعتبار أسبابه الناشىء عنها، ثم استشهد لما قاله بقصة يوسف، عليه الصلاة والسلام.

فقال: (**وهذا يوسف**) جعله كأنه مشاهد لاشتهار قصته (**قد أوخذ**) أى عوتب وجوزى (**بقوله لصاحب السجن**) أى لصاحبه فى السجن الذى ظن أنه ناج فإضافته لأدنى ملابسة، وفى نسخة لأحد صاحبى السجن، ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، أى صف له قصتى، وأخبره بحالى فيخلصنى من هذه الورطة، والمراد بربه الملك والقضية غنية عن البيان، ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف:

٤٢]، المصدر مضاف لمفعوله الثانى، أى أنساه ذكره يوسف لسيده ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾، البضع ما فوق الثلاث إلى السبع أو التسع أو العشرة، وقيل: معناه إن الشيطان أنسى يوسف، عليه الصلاة والسلام، أن يذكر الله تعالى فابتغى الفرج من غيره تعالى غفلة منه.

وأشار إلى ذلك بقوله: **(قيل: أنسى يوسف ذكر الله تعالى)** والمراد بربه الله والضمير ليوسف، عليه الصلاة والسلام، **(وقيل: أنسى صاحبه)** الذى كان معه فى السجن وقال له: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ﴾، **(أن يذكره لسيده)** وهو **(الملك)** أى أنسى الشيطان الشرابى أن يذكر يوسف للملك، **(قال النبى، صلى الله تعالىعليه وسلم)**، فى حديث رواه ابن جرير، والطبرانى، عن ابن عباس، وابن مردويه، عن أبى هريرة، وأبو الشيخ، عن الحسن مرسلاً، وكذا عن عكرمة فهو حديث صحيح.

(لولا كلمة يوسف) أى قوله لصاحبه فى السجن: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ﴾، وطلبه من غير الله للفرج **(ما لبث)** أى مكث وما نافية **(فى السجن ما لبث)** أى مدة لبثه فما مصدرية زمانية، **(وقال)** مالك **(ابن دينار)** أبو يحيى البصرى أحد الأعلام الزاهد الثقة، أخرج له الأربعة، والبخارىتعليقًا، وتوفى سنة مائة واثنين وثلاثين، واسمه محمد بن إبراهيم، وله ترجمة فى الميزان، وهذا رواه الإمام البغوى عنه فى تفسيره، وأخرجه ابن أبى حاتم، عن أنس مرفوعًا **(لما قال ذلك يوسف)** أى قوله: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ﴾، **(قيل له)**، أى قال الله تعالى له بوحيه، كما يأتى، **(اتخذت من دونى)** أى غيرى من عبيدى، **(وكيلا)** أى من تكل إليه أمرك وتعتمد عليه فى خلاصك **(لأطيلن حبسك)** أى مدة مكثك فى الحبس، **(وقال: يا رب أنسى قلبى كثرة البلوى)**، والمصائب من حين ألقيت فى الجب إلى أن دخلت السجن.

فهذا ذنب عد عليه وعوقب به مع أنه ليس بمعصية شرعية، لكن على مقامه يقتضى أن لا يذكر فى الشدة غير الله ولا يعول على مخلوق، وقد قال الخليل، عليه الصلاة والسلام، لجبريل حين ألقى فى النار، وقال له: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا حسبى من سؤالى علمه بحالى، وقد رووا أن جبريل، عليه الصلاة والسلام، أتاه فى الحبس وبلغه ذلك فى حديث طويل نقلوه.

(وقال بعضهم: تؤاخذ الأنبياء) لومًا لهم **(بمثاقيل الذر)** جمع مثقال، وهو وزن كل شىء ومقداره والذر جمع ذرة، وهى أصغر النمل ويقال للهباء الذى يرى فى شعاع الشمس ولا زنة له أصلاً، فهو مبالغة فى الخفة والمثقال فى العرف الدينار وليس بمراد

هنا؛ **(لمكانتهم)** أو لقربهم ورفعتهم **(عند ربهم)** ومن يحب أحدًا ويعتنى به لا يسامحه فى أدنى شىء يتعلق به، ولذا قيل: ضرب الحبيب أوجع.

(ويتجاوز عن سائر الخلق) أى غيرهم وباقيهم **(لقلة مبالاته بهم)** قال ابن فارس: اشتبه علىّ اشتقاق لا أبالى حتى رأيت قول ليلى الأخيلية[1]:

تبالى رواياهم هبالة بعدما   وردن وحول الماء بالجم ترتمى

وقد قالوا فيه: التبالى المبادرة للاستقاء عند قلة الماء فيستقى أحدهم وينتظره غيره، فمعنى ذلك لا أبادر له ولا انتظره لعدم اعتدادى به، انتهى.

(فى إضعاف ما أتوا به) فى إتيانهم بما يزيد على ما أتى به المقربون بمثله وأمثاله وضعف الشىء ما يزيد عليه بمثله، أو بأكثر كما فصله فى الكشاف تابعًا للأزهرى فى تهذيبه، **(من سوء الأدب)** أى فى حق خالقهم المتفضل عليهم بالنعم الجليلة التى حقها أن تقابل بطاعته وشكره فعصوه وارتكبوا ما لا ينبغى من المعاصى.

(وقد قال المحتج) أى الذى أقام الحجة والدليل، **(للفرقة الأولى)**، القائلة بأن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، معصومون من جميع الذنوب، وأن السهو والنسيان لا يؤاخذون به كغيرهم ماشيًا فى حالهم **(على سياق ما قلناه)** أى ما قررناه فى بيان أمرهم فأشكل عليهم ما قلته آنفًا من أنهم يؤاخذون بما لا يؤاخذ به غيرهم لعدم المبالاة بهم، **(إذا كان الأنبياء يؤاخذون بهذا)** المذكور من مثاقيل الذر **(مما لا يؤاخذ)** فلا يعاقب ولا يعاتب **(غيرهم)**أى غير الأنبياء من أممهم **(من السهو والنسيان و)** نحوه من **(ما ذكرته)** من الأمور المباحة لهم.

(وحالهم) أى حال الأنبياء المؤاخذين بما ذكر **(أرفع)** عند ربهم، وهذه جملة حالية وما فى بعض النسخ فحالهم بالفاء من تحريف الكتبة، **(فحالهم)**أى حال الأنبياء **(إذن)** أى إذا أوخذوا بها **(أشق)** حالاً فى هذا **(من غيرهم)** عند الله تعالى لكثرة مآخذهم به وتشديده عليهم فيما لم يشدد به على غيرهم مع أنهم ليسوا كذلك، وهذا سوء الفهم لتوهم قائله أن الأعظم عند ربه لا يؤاخذ لترك الأولى، وليس كذلك، فإن ذلك لحكمة وإلى جواب هذه الشبهة وبيان الحكمة فيها أشار بقوله.

(فاعلم) أيها السائل **(أكرمك الله تعالى)** بهدايتك لوجه ما ذكر **(أنا لا نثبت لك المؤاخذ)**أى مؤاخذة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(فى هذا)** الذى آخذهم به دون غيرهم، **(على حد مؤاخذة)**أى على مقدار مؤاخذة **(غيرهم)** أى مؤاخذة غير الأنبياء بما

(١) البيت من الطويل، وهو لليلى الأخيلية فى ديوانها (ص١١٧)، مجمل اللغة (٣٠٩/١).

ارتكبوه من الذنوب بمعاقبتهم عليها فى الدنيا والآخرة، **(بل نقول)** فى الفرق بين مؤاخذتهم ومؤاخذة غيرهم، وهو إضراب انتقالى من نفى مؤاخذتهم كغيرهم **(أنهم)** أى الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، والمقربين رتبة **(يؤاخذون بذلك)** المذكور من مثاقيل الذر **(فى الدنيا)** بما يبتليهم به فيها، **(ليكون ذلك)** المؤاخذ به.

(زيادة فى درجاتهم) أى فى علو مقاماتهم العلية، وجعله فى عين الزيادة وهو سببها مبالغة، **(ويبتلون بذلك)** أى بالمؤاخذة به فى الدنيا على قدر مراتبهم عنده، كما ورد أشد الناس بلاء الأمثل فالأمثل؛ **(ليكون استشعارهم)** الاستشعار طلب الشعور، والمراد به مقاساته أو هو من الشعار، وهو اللباس الملاصق للبدن، **(سببًا لمنماة)** مصدر ميمى، يعنى النمو، وهو الزيادة، أى لزيادة **(رتبهم)** أى علو مقاماتهم عند الله تعالى، ثم استدل لما ذكره بقوله تعالى، فقال **(كما قال)** عز وجل: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ [طه: ١٢٢]، أى اصطفاه وقربه بإعلاء رتبته عنده من جبى يجبى إذا جمع، فإنه جمع من الصفات الحميدة، ما كان سببًا لاصطفائه وقربه، ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾، أى قبل توبته وأرشده إلى الاعتذار عما صدر منه والاستغفار، فقال تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فالاجتباء بزيادة الرفعة بعد النبوة وعطفه بثم، إشارة لمزيد ترقيه حتى كأنه متراخ عنه.

(وقال) تعالى **(لداود، عليه السلام:** ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾**)** [ص: ٢٥]، أى ما صدر منه فى خطبة امرأة أورياء كما تقدم ذكره **(الآية)** منصوب، أى فاذكر الآية إلخ من قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾، وهى صريحة فيما ذكره.

(وقال) عز وجل، **(بعد قول موسى)**، عليه السلام: سبحانك **(تبت إليك)** من سؤال رؤيتك فى الدنيا، وأنا أول المؤمنين بعظمتك وجلالك، فقال: يا موسى ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، أى اخترتك وقدمتك على أهل زمانك برسالاتى وبكلامى لك بغير واسطة وكيفية بكلام تسمعه من سائر الجهات.

(وقال) الله تعالى: **(بعد ذكر فتنة سليمان)** فى إلقاء الجسد على كرسيه كما تقدم، **(وإنابته)** أى رجوعه إلى الله تعالى وتوبته: ﴿لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً﴾ [ص: ٣٦] الآية، **(إلى قوله:** ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾**)**، فترتيبه على ذلك ما عدده من النعم يقتضى أن الفتنة التى أناب منها ليست معصية؛ لأنها لو كانت كذلك لم يترتب عليها ذلك، وقوله: ﴿زلفى﴾ أى قرب من الله تعالى، ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ **[الرعد: ٢٩]** بمرجعه للجنة، وهذا كله زيادة فى درجاته ومنماة لرتبته عند ربه كما لا يخفى.

(وقال بعض المتكلمين): ما يؤيد ما قرره وارتضاه **(زلات الأنبياء)** جمع زلة من زل إذا سقط وتجوز بها عن الذنب، أى ما عد زلة وذنبًا وإن لم يكن كذلك، **(فى الظاهر)** أى ظاهر ما تدل عليه العبارة **(زلات وهى فى الحقيقة)** أى فى نفس الأمر وعند التحقيق إنما هى **(كرامات)** أكرمهم الله تعالى بها؛ لأنه ابتلاهم بها ليثيبهم عليها.

(وزلف) بضم وفتح جمع زلفة، أى قرب من الله تعالى بإعلاء مقاماتهم عنده، **(وأشار إلى نحو مما قدمناه)** مما يترتب على ابتلائهم بها من إنعام الله تعالى عليهم بنعم لا تحصى، وهذا بخصوصه لا يأبى كونه مما خصهم الله تعالى به؛ لأن مثل هذه النعم الجليلة لا تكون لغيرهم فلا يرد عليه، أن المؤمنين مصابون بمصائب الدنيا إذا صبروا عليها، ورضوا ونقول: إنه أشار لعدم اختصاصهم بذلك بقوله، **(وأيضًا)** أى مثل ما ذكر من أنه فى الظاهر زلة، وهو فى الحقيقة نعمة **(فلينبه غيرهم من البشر)** أى يوقظه ويعلمه، **(منهم)** أى الأنبياء المذكورين.

(أو ممن ليس فى درجتهم) من الأتقياء الذين ليسوا بأنبياء **(بمؤاخذتهم بذلك)** الباء سببية متعلقة بيتنبه، أو هى بمعنى على لأن نبه يتعدى بعلى أو يضمن معنى يشعر ويعلم، وذلك إشارة لما امتحنوا به مما صدر عنهم من خلاف الأولى وليس بذنب **(فيستشعروا الحذر)** أى يستشعرون بالحذر، وهو الخوف من الشعور أو الشعار، كما مر آنفًا، وليس من قولهم ليت شعرى، فإنه تكلف لا داعى له.

(ويعتقدوا المحاسبة) على ذلك؛ لأن مؤاخذة غير الأنبياء تقتضى مؤاخذتهم بالطريق الأولى، وإن كان ما ارتكبوه مباحًا لكنه خلاف الأولى، **(ليلتزموا الشكر على النعم)** المترتبة على ما ابتلوا به كما تقدم، أو على كونهم لم يمتحنوا بذلك مع امتحان من هو أعظم منهم.

(ويعدوا) بضم الياء التحتية، وكسر العين وتشديد الدال، أى يحضروا ويتهيؤا **(الصبر)** ليستعينوا به **(على المحن)** جمع محنة، وهى البلية التى يمتحن الله تعالى بها صبره ورضاه، كما قيل:

لله در النائبات فإنها   صدأ اللئام وصيقل الأحرار

ويتذكر ما فى الصبر من الثواب، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، والمحنة كالفتنة تصفية المعادن من غشها، فنقلت لما ذكر وصارت فيه حقيقة **(ويلاحظ ما وقع)** من مثل ما وقع وفى نسخة بملاحظة، **(بأهل هذا النصاب)** أى المقام **(الرفيع)** من الأنبياء والنصاب، بمعنى الأصل والحسب، يقال: فلان كريم المنصب

والنصاب كما فى الأساس، ومنه نصاب السكين، (**المعصوم**) المحفوظ من الذنوب، (**فكيف بمن سواهم**) أى غير الأنبياء، فإذا وقع اللوم لهم فيه فغيرهم بالطريق الأولى، لكنه من خلص عباد الله الذين يعتد بهم كما تقدم.

(**ولهذا**) أى لما ذكر من الحكمة فى مؤاخذة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، بما لم يؤاخذ به غيرهم.

(**قال صالح**) بن بشير: وهو علم منقول من البشير مقابل النذير والواعظ الزاهد، توفى سنة اثنين وسبعين ومائة، كما قال ابن ماكولا (**المرى**) بضم الميم وتشديد الراء المهملة نسبة إلى مرة قبيلة، (**ذكر داود**) نبى الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وذكر إن كان مصدرًا فهو مبتدأ فقوله: (**بسطة للتوابين**) خبره، أى توسعة لمن يتوب ويكثر التوبة والاستغفار لينبهوا على فضلها، وإن كان فعلاً مبنيًا للمعلوم، أو المجهول أى ذكره الله فقوله: بسطة منصوب مفعول له.

(**قال ابن عطاء**) أبو العباس محمد بن سهل بن عطاء الأربلى، شيخ الصوفية وله فى فهم القرآن لسان اختص به توفى سنة تسع أو إحدى عشرة وأربعمائة، (**لم يكن ما نص الله تعالى عليه**) فى القرآن (**من قصة صاحب الحوت**) يونس بن متى نبى الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**نقصًا له**)، أى تنقيصًا له بكونه ولى مغاضبًا ولم يصبر حتى يأذن الله تعالى فيما أراد، (**ولكن**) ذكره وقصته (**استزادة من نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، أى طلب منه أن يزيد صبره على قومه، وقيل: المراد أنه زيادة فى علمه بما جرى للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، طلبها من ربه والصحيح الأول؛ لأنه المناسب لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ﴾ [القلم: ٤٨]، أى فى ضجره وفراق قومه حتى كان ما ذكره الله تعالى فى قصته.

(**وأيضًا فيقال لهم**) فى الجواب: عما ادعوه من تجويز الصغائر على الأنبياء لا إلزامًا لمن سأل عن معنى قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: ١٢١]، ونحوه كما قيل: (**إنكم ومن وافقكم**) على هذا القول (**تقولون بغفران الصغائر**) وإن لم يتب منها (**باجتناب الكبائر**) أى بسبب تركها كما ذهب إليه كثير من أهل السنة تمسكًا بظاهر قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، وذهب كثيرون إلى أنها مقيدة بالمشيئة كغيرها لقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، والكلام فيه مشهور فى كتب الأصول.

(**ولا خلاف**) بين من يعتد به (**فى عصمة الأنبياء من الكبائر فما جوزتم من وقوع**

الصغائر عليهم) متعلق بجوزتم **(هى مغفورة على هذا)** القول والجملة خبر قوله: ما وهو بمعنى الوقوع لأنه بينه بناء على مذهب الفراء فى الاكتفاء بضمير ما يلابس المبتدأ عن ضميره، كما قرروه فى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، الآية، أو تجعل ما بمعنى الصغائر **(فما معنى المؤاخذه)** لأنبياء الله تعالى، عليهم الصلاة والسلام، **(بها)** أى بالصغائر **(إذن)** أى مع اجتناب الكبائر **(عندكم)** أيها القائلون بهذا الرأى.

(و) ما معنى **(خوف الأنبياء وتوبتهم منها)** أى من الصغائر، **(وهى مغفورة)** بدون توبة منها **(لو كانت)** أى وجدت منهم **(فما أجابوا به)** عن هذا **(فهو جوابنا عن المؤاخذة بأفعال السهو)** أى بما فعلوه سهوًا ونسيانًا، **(والتأويل)** أى ما فعلوه لتأويلهم الأوامر والنواهى الواردة فيه كما تقدم، وهو جواب إلزامى والقول بانفصالهم عن هذا تقدم بعد القول بذلك فى حق الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام؛ لأنه فى حق غيرهم، وأنه عليه أن يصحح النقل عنهم بالتزامه فى حق الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، يأباه أنه يعلم فى حقهم بالطريق الأولى؛ لأنه جواب جدلى، فتأمله.

(و) قد تقدم أن التوبة لا يلزم أن تكون عن ذنب فتذكره، وأشار إليه المصنف، رحمه الله تعالى، هنا بقوله: **(قد قيل: إن كثرة استغفار النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، حيث استغفر الله سبعين مرة، كما مر.

(وتوبته)، أى قوله: أستغفر الله العظيم وأتوب إليه، **(وغيره من الأنبياء)**، عليهم الصلاة والسلام، وإن كانوا معصومين من سائر الذنوب فذلك إنما هو **(على وجه)** أى على طريق ولأجل **(ملازمة الخشوع)** أى التذلل بإظهار أنه مذنب **(والعبودية والاعتراف بالتقصير)** فى أداء حق مولاه **(شكرًا لله على نعمه)** جمع نعمة، ونعم الله تعالى لا تحصى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، فمن عرف نعم الله عليه، وأظهر العجز عن شكرها فقد شكره تعالى شكرًا عظيمًا، فإن الشكر كما يكون باللسان يكون بالأركان كما تقرر عندهم.

وقد ورد أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يقول فى كل مجلس: «أستغفر الله وأتوب إليه أكثر من مائة»(١)، مع ما هو عليه من العصمة والعبادة فلا معنى لما قيل: إنه لا يصح إيراد ما ذكر هنا على وجه الدليل فى محل النزاع، **(كما قال، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، فى الحديث المشهور المتقدم الذى فيه: «أنه أكثر من قيام الليل حتى

---

(١) تقدم تخريجه.

تورمت قدماه، فقيل له: أتفعل هذا يا رسول الله، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟، فقال: أفلا أكون عبدًا شكورًا»[١]، وقد ذكره شاهدًا لإظهاره العبودية شكرًا لله.

(وقد آمن) بضم الهمزة وكسر الميم المشددة، مبنى لما لم يسم فاعله، قال البرهان فى الصحاح: آمنت فلانًا، فأنا آمن وآمنت غيرى من الأمن والأمان فعلى هذا ينبغى أن يقول: أومن، انتهى، يعنى أن آمن بالتشديد لا يصح أن يكون من الأمن والأمان، وإنما هو بمعنى قال: آمين وليس كما قال، فإنه يقال: آمنه بهذا المعنى أيضًا، وهذه الجملة حالية والمؤمن له هو الله تعالى أو الصحابة الذين قالوا له: إن الله غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

(من المؤاخذة بما تقدم وما تأخر) مما صدر منه من ترك خلاف الأولى، ونحوه الذى هو كالذنب بالنسبة لمقامه، أو لو وقع وإن لم يقع فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»، أى كثير الشكر مبالغًا فيه لعظم نعمه وكثرتها علىَّ، والاستفهام لإنكار من ظن أن كثرة عبادته خوفًا من الذنوب وطلبًا لمغفرتها، فقال: وإن كان الله عمنى برحمته ومغفرته، فإن اللائق فىَّ شكر الله تعالى على ما أولانى، والحديث المذكور فى الصحيحين عن المغيرة بن شعبة.

(وقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه البخارى كما تقدم، **(إنى لأخشاكم لله)** أى أعظمكم له خشية والخشية الخوف مع المهابة للعظمة، **(وأعلمكم بما اتقى)**، وروى: «إنى لأتقاكم لله وأخشاكم له»[٢]، ومن علم ما يتقى وجزاءه وعظمة من يخشاه كان أبعد منه وأحذر.

(وقال الحارث بن أسد): هو العالم الربانى الذى فاق أهل عصره فى علم الظاهر والباطن، وهو المشهور بالمحاسبى لكثرة ما كان يحاسب نفسه، ولزهده لما مات أبوه وخلف له مالاً عظيمًا لم يأخذ منه شيئًا مع احتياجه؛ لأن أباه كان قدريًا، وقال: «لا يتوارث أهل ملتين»، وترجمته مفصلة فى الميزان، توفى سنة ثلاث وأربعين ومائتين، **(خوف الملائكة)** من الله **(والأنبياء)**، عليه الصلاة والسلام، **(خوف إعظام)** أى إجلالاً وتعظيمًا لله **(وتعبد لله)** أى يقصدون به العبادة؛ **(لأنهم آمنون)** من الله لإخباره لهم برضاه عنهم، وأنه يعطيهم فى الدنيا والآخرة من نعمه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(**وقد فعلوا ذلك**)، أى الاستغفار والتوبة، (**ليقتدى بهم**) بالبناء للفاعل على التنازع فى الفاعل أو هو مبنى للمجهول (**وتستن بهم أممهم**) أى يتخذوه سنة وعادة، وقد قدم المصنف، رحمه الله تعالى، أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان شديد الخوف من ربه؛ لأنه أعلم به وهو مناسب لما هنا، وهو يشهد لما قاله إمام أهل السنة أبو الحسن الأشعرى، رحمه الله تعالى، فى كتاب الإيجاز من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يخاف الله بلا خلاف إلا أنه عند أهل الحق كان قبل، ما أمنه الله تعالى من عقابه خائفًا من عقابه وبعده من عتابه ولومه فى الدنيا كما فى قصة ابن أم مكتوم، وبعد تأمينه لا يجوز أن يخاف عقابه مع إخباره بتأمينه، خلافًا للرافضة والقدرية حيث زعموا أنه هو وسائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ما داموا مكلفين فى الدنيا لابد أن يخافوا عقابه سواء أمنهم أم لا، لنا أنه لا يجوز أن يخاف من شىء إلا بعد تجويز وقوعه ومع القطع بعدمه لا يجوز ذلك من عاقل؛ لأنه يؤدى إلى الشك فى خبره هل هو صادق أم لا، وهو باطل بالاتفاق، انتهى.

أقول: فى فتاوى شيخ مشايخنا ابن حجر الهيتمى ما ينافيه كما مر، فإنه سئل عن الأنبياء والملائكة والعشرة المبشرة بالجنة، هل كانوا يخافون مكر الله تعالى وعقابه بعد إخبار الله لهم بخلافه؟ فأجاب: بأن نفى خوف العقاب عن هؤلاء مطلقًا باطل مصادم للنصوص بوجوه، منها: أن حقيقة الخوف كما فى الإحياء ألم القلب لتوقع مكروه، وهو إما خوف ضعف القوة عن الوفاء بحقوق الله على ما ينبغى، وهذا محقق فى جميع الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ويلزمه عدم الأمن من مكر الله، ولا يأمن من هذا أحد، والمأمون منه الانسلاخ من النبوة والملكية والإيمان فى العشرة، وإن جوز وقوعه، والرجاء والخوف متلازمان.

فإن قلت: يلزمه الشك فيما ذكر، **قلت**: حقيقة الخوف ما مر، والكل على يقين من خبره تعالى، لكنهم لشعورهم بقدرة الله واستغنائهم عن خلقه، وأن لا يسئل عما يفعل ولا يجب عليه شىء، وخبره تعالى يجوز أن يكون مشروطًا بما انطوى عنا علمه، وهذا مما يوجب، وقد سئل زيد بن أسلم الشافعى، أتدخل الملائكة فى أنهم لا يأمنون مكر الله؟ فقال: نعم، لما رواه ابن أبى حاتم، أنه تعالى قال للملائكة: ما هذا الخوف الذى بلغ بكم هذا، وقد أنزلتكم منزلة لم ينزلها غيركم، قالوا: ربنا لا يأمن مكرك إلا القوم الخاسرون، وقد ذكر ذلك فى الملائكة والأنبياء.

وقد روى أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وجبريل بكيا، فقال الله تعالى لهما: لم تبكيان، وقد أمنتكما، فقالا: نخشى أن يكون تأمينك مكرًا بنا، وهذا هو الذى قطع

قلوب العارفين، ويدل لهذا قوله تعالى: (﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡ﴾ [الأحقاف: ٩] إلخ)، وقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى دعائه: «اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك»[١]، وفى أدعيته مثله كثير ولو كان تشريعًا، قال: قولوا: «اللهم إنى» المراد بتأمينه الذى فى الحديث الذى مر أن فيه: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»[٢]، خوفه من أمور الدنيا واستئصال أمته، وأما من الله فلا، انتهى ملخصًا.

أقول: هذا مما يشكل على ما قاله المصنف، رحمه الله تعالى، ومشايخ الصوفية فيما نقله، وعلى الأشعرى لكنه موافق لما قاله أئمتنا الحنفية والشافعية، كما نقل فى كتب الأصول والفروع من أن الأمن من مكر الله واليأس من رحمته كبيرة أو كفر على ما تقرر عندهم، فأنا لو قلنا بما نقل عن الأشعرى من أن الملائكة والأنبياء، والعشرة المبشرة آمنون من المكر، والمراد به العقاب كان ما قرره الفقهاء غير صحيح على الإطلاق لكون الأمن من المكر أمرًا محققًا بل واجبًا فى حق هؤلاء، ولو ادعى بعض خلص المتقين الزاهدين أنه أشبه هؤلاء فى أمنه لم يكن به بأس فضلاً عن أن يكون كبيرة أو كفرًا، إلا أنه يقتضى على كل حال أن القول بأنه كفر غير صحيح، وأيضًا استدلالهم بقوله عز وجل: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩]، إلى آخره، و ﴿لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧] إلى آخره غير صحيح؛ لأن معناه أنه من صفات الكفار والخاسرين؛ لأن من اتصف به كافر أو خاسر، ومثله يعرفه من يعرف كلام العرب.

وفى كلام ابن حجر، قصور يدركه من له ذوق وفكر سليم، وهذا بحث نفيس لم أر من حرره ومن لم يحم حول الحمى هنا، قال ما قال، مما لا محصل له، فعض بالنواجذ على ما سمعته .

(كما قال)، صلى الله تعالى عليه وسلم: (**«لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا»**)، فمن علم أن الموت مورده، والقيامة موعده والوقوف بين يدى الله مشهده فحقه أن يطول حزنه ويبكى على نفسه، وهذا من حديث أخرجه الشيخان، وقد تقدم وفيه من أنوع البديع الطباق والموازنة، **(وأيضًا)** أى مثل ما تقدم فى توجيه استغفار الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وتوبتهم مع عصمتهم، **(فإن فى التوبة والاستغفار)** الصادرين من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وممن اقتدى من خلص عباده، **(معنى آخر لطيفًا)** فى غاية الحسن.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(أشار إليه بعض العلماء وهو استدعاء محبة الله) أى طلب أن يريد الله رضاه عنهم ومحبته لهم، لما ورد فى الحديث أن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن والفرح فى حقه، بمعنى الرضا عنه، وإنعامه عليه وتوبة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، مما صدر منهم من ترك الأولى ولما يخطر بقلوبهم من أنهم لم يؤدوا عبادته تعالى حقها، فإذا فعلوا ذلك مع ما هم عليه من المجاهدة زادت نعمه تعالى عليهم، فلا يتوهم أنه كيف يتوب من لا ذنب له، وكيف يثيبهم الله تعالى على ما أبدوه من خلاف الواقع، وقول بعضهم: إنه كلام فى محل النزاع من غير دليل كلام ركيك تركه خير منه.

(قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾) [البقرة: ٢٢٢]، أى المكثرين من قول: أتوب إليك، وإن لم يكن له ذنب هضمًا لنفسه لتوهمه قصوره ، ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ، هو أما على ظاهره، أو المراد به المحترزين من دنس المعاصى وساقها المصنف، رحمه الله تعالى، لتكون دليلاً على ما قاله قبله، **(وإحداث الرسل والأنبياء)** أى تجديد إيجاد **(الاستغفار والتوبة والإنابة والأوبة)**، أى إرجاع أمورهم إلى الله تعالى، وهى ألفاظ مترادفة ذكرها للتأكيد وللإشارة إلى أنها وقعت منهم كثيرًا بعبارات مختلفة تفننا **(فى كل حين)** أى فى غالب أوقاتهم وأكثرها كما تقدم.

(استدعاء) أى طلبًا وأصل معناه: طلب الدعوة أو الدعاء فاستعمل مجازًا مرسلاً فى مطلق الدعوة ويجوز أن يكون استعارة، **(لمحبة الله)** لهم **(والاستغفار فيه معنى التوبة)**؛ لأنه طلب المغفرة، وهى الغفر وهو الستر، أى يستر ذنوبهم بعفوها وبينهما عموم من وجه، فمن أقلع عن الذنب نادمًا عازمًا على عدم العود إليه من غير دعاء بالمغفرة، وتضرع تائب غير مستغفر، ومن استغفر ربه من ذنبه مع عدم إقلاعه مستغفر غير تائب، ومن جمع بينهما مستغفر تائب.

(وقد قال الله) فى القرآن **(لنبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد أن غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)** كما تقدم تفسيره وتأويله، (﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧] **الآية)**، وكررها، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]؛ لأن التوبة أولى عن إذنه لمن تخلف من المنافقين فى غزوة تبوك، والثانية عن أن قلوبهم كادت تزيغ لما قاسوه فى غزوة العسرة، أو ذكر الأولى تفضلاً منه، والثانية عن الذنب المذكور.

(وقال) عز وجل أيضًا: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ٣]، **فأمره** باستغفاره وتسبيحه بحمده، وقد ذكر أنه كان عظيم التوبة، عليه السلام،

والكلام على هذا وأنه نعى له نفسه معلوم فى كتب التفسير والحديث، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يجتهد فى العبادة بعد نزول هذه السورة ويقول كثيرًا فى ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى ويقول: بهذا أمرت»(١).

* * *

(فصل)

(قد استبان لك) أى تبين لك فيما قبل هذا والسين هنا للتأكيد وليست للطلب هنا؛ لأن ما سلب من شأنه أن يناقش فيه، وقيل: إنها للإطالة كما قيل لعمار: لو تنفست، أى أطلت لأن من تنفس يستأنف القول ويسهل عليه الإطالة، وفيه ما لا يخفى **(أيها الناظر ما قررناه)** ما فى محل نصب مفعول ناظر، وفى نسخة بما قررناه بالباء السببية، فإذا تأملت بان لك، **(ما هو الحق)** وما هذه فاعل استبان بمعنى بان لك وظهر الحق والأمر المتحقق المقرر مما فصله، **(من عصمته، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، بحفظه وخلقه مبرأ من النقائص لاسيما **(من الجهل بـ)** معرفة ذات **(الله وصفاته)** كسائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فإن فطرتهم على التوحيد والعلم به وبصفاته والإقرار بذلك.

(أو) تبين لك عصمته من **(كونه)**، أى وجوده وخلقه كسائر الأنبياء **(على حالة تنافى العلم بشىء من ذلك)** أى من ذاته وصفاته **(كله جملة)** فهو لا يجهل شيئًا من ذلك أصلاً سيما **(بعد النبوة)** ونزول الوحى عليه لقضائه بحيازته جميع الشرف والكمال؛ لأنه تعالى لا يصطفى إلا من هو كذلك **(إجماعًا)** من كل المسلمين **(وعقلاً)** لاقتضاء العقل السليم له، **(وقبلها)** أى النبوة **(سمعًا ونقلاً)** لوروده فى الأحاديث الصحيحة ولاتفاق أئمة الدين على عصمته من ذلك قبلها، ولو قال من عصمتهم كان أحسن لعدم احتياجه للتقدير والمنصوبان تمييز وسمعًا مؤكد لقوله نقلاً لحديث البخارى: (**«كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»**)، وهو معنى قوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، كما تقرر فى التفاسير وشروح الحديث.

وفى المواقف: عصمة الأنبياء لاسيما نبينا، عليه وعليهم السلام، من الجهل بالله وصفاته قبل النبوة وبعدها إجماع عقلى؛ لأنه كفر والكفر لا يجوز على الأنبياء قبل البعثة وبعدها عقلاً وإجماعًا، وما وقع لإبراهيم، عليه الصلاة والسلام، لإلزام الحجة وليطمئن

---

(١) أخرجه البخارى (١/٢٠١، ٢٠٧، ٥/١٨٩)، ومسلم (٢١٧/٤٨٤)، وأبو داود (٨٧٧)، والنسائى (٢/١٣٢، ١٩٢)، وابن ماجه (٨٨٥)، وأحمد (١/٢٨٨، ٢/٤٩٤، ٦/٤٩، ١٩٠)، وابن خزيمة (٦٠٥، ٨٤٧)، وعبد الرزاق (٢٨٧٨).

قلبه لا لشك منه كما تقدم، وكذا كل ما يضاهيه من قصص الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(ولا بشىء)** معطوف على قوله بشىء قبله، أى ولا كونه على حالة تنافى العلم بشىء **(مما قرره من أمور الشرع)**، الذى أوحى إليه بتبليغه، **(وأداه)** أى أوصله وبلغه، **(من ربه الوحى)** المأمور بتبليغه لأمته **(قطعًا)** أى مقطوعًا به متيقنا بلا خلاف.

(عقلاً وشرعًا) لأنه مناف لإرساله به، وأمره بتبليغه فكيف يجوز عليه جهل شىء منه؛ لأن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، معصومون من ذلك لدلالة المعجزة على علمهم وصدقهم فيما بلغوه عن الله؛ لأنه لو لم يكن كذلك كان افتراء على الله وهو باطل عقلاً وشرعًا وظاهره أنه لا يقع ذلك منهم سهوًا ونسيانًا أيضًا، وهو مذهب أبى إسحاق الأسفرائنى، وجوزه القاضى أبو بكر لعدم منافاته للمعجزة، فإنهم لا يقرون عليه، وكلام المصنف، رحمه الله تعالى، على خلافه، **(وعصمته عن الكذب)** معطوف على عصمته فى أول الفصل لما علمته من منافاة المعجزة له.

(وخلف القول) أى إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، معصوم مما يخالف الواقع من قوله لئلا يتهم فى تبليغه، **(منذ نبأه الله تعالى وأرسله)**، فلم يصدر عنه شىء منه، وهو مستحيل **(قصدًا وغير قصد واستحالة ذلك)** أى الكذب والخلف، **(عليه شرعًا وإجماعًا)** من أئمة الدين **(ونظرًا وبرهانًا)**، أى استحالة شرعًا وإجماعًا مما دل عليه النظر والدليل العقلى، فهو متحقق عقلاً ونقلاً، وسقطت الواو العاطفة فى بعض النسخ قبل قوله: نظرًا، وهو أحسن من ثبوتها فى بعضها.

(وتنزيهه) أى تبرئته **(عنه)** أى عن الكذب **(قبل النبوة قطعًا)** لتواتره، فكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، عندهم يسمى الأمين، كما مر؛ لأنه مأمون فى أقواله وأفعاله، **(وتنزيهه عن الكبائر إجماعًا)** لرفعة قدره عنها ولا ينافيه تجويز الحشوية له كما قيل لعدم الاعتداد بخلافهم، وقوله: إجماعًا إشارة لرد قول المعتزلة: إنه عقلاً لابتنائه على الحسن والقبح العقليين.

(وعن الصغائر تحقيقًا) أى أمرًا محققًا ولتجويز بعضهم لها، لم يقل: إجماعًا ويجوز أن يريد بقوله تحقيقًا قصدًا بقرينة قوله: **(وعن استدامة السهو والغفلة)** عطف تفسير للسهو لبعد ساحة التبليغ عنها، فإن وقع نبه عليه بسرعة كما مر، وقد قيل:

يا سائلى عن رسول الله كيف سهى   والسهو من كل قلب غافل لاهى
قد غاب عن كل شىء سره فسها   عما سوى الله فى التعظيم لله

وتقدم كلامهم فيه وما فيه.

(و) عن **(استمرار الغلط والنسيان عليه)** حفظًا له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بإيقاظ قلبه وتنبهه **(فيما شرعه للأمة)**؛ لأن استمراره مناف لتشريعه له **(وعصمته)** بالجر ويجوز رفعه **(فى كل حالاته من رضى وغضب وجد)** بكسر الجيم ضد الهزل، **(ومزح)** لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما ورد كان يمزح ولا يقول إلا حقًا، كقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لامرأةٍ: «لا تدخل الجنة عجوز»(١) لأنهن يعدن لسن الشبوبية، **(فيجب عليك)** أيها الناظر؛ لأنه خطاب له بغرضه **(أن تتلقاه)**، أى تأخذه وتعلمه **(باليمين)** أى بالقبول واليمن والبركة؛ لأنهم يأخذون بها ما يعتنون به فإنها جهة يسهل العمل بها عادة، والعرب تقول لما تتمدح به أخذه بيمينه، ولذا قال الشماخ(٢):

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

(وتشد عليه) أى على ما ذكر من تنزيهه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عما ذكر **(يد الضنين)**، بضاد معجمة ونونين كالبخيل وزنًا ومعنى من الضنة، وهى شدة البخل، وهو استعارة تمثيلية بليغة كقول المتنبى:

وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمة

أى يحرص على حفظ ما ذكر من تنزيه قدره عما ذكر، كحرص البخيل على ما فى يده لشدة بخله به وخوفه من ذهابه منه، وفيه مع اليمين مراعاة النظير، وقد فسر اليمين بالقوة وهو غير مناسب هنا لما عرفته، **(وتقدر)** بسكون القاف وكسر الدال من القدر وهو المنزلة الرفيعة كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]، **(هذه الفصول)** المعقودة لبيان ما يجب اعتقاده فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(حق قدرها)**، أى تعظمها حق تعظيمها اللائق بها.

(وتعلم عظيم فائدتها)؛ لأنها مما يجب اعتقاده وينال به عند الله مثوبة عظمى، **(وخطرها)** أى شرفها ومزيتها، وأصله ما يعطى عند الرهان لمن سبق فاستعير لما ذكر، **(فإن من يجهل ما يجب)** اعتقاده **(للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو يجوز له)** مما يصح فى اعتقاده **(أو يستحيل عليه)** أى يمتنع فى حقه شرعًا وعقلاً وعادة، **(ولا يعرف صور أحكامه)** أى الحكم المتصور فى حقه من الوجوب والجواز والحرمة، **(لا يأمن أن يعتقد**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) البيت من الوافر، وهو للشماخ فى ديوانه (ص٣٣٦)، لسان العرب (٥٩٣/١)، (عرب)، (٤٦١/١٣) (يمن)، تهذيب اللغة (٢٢١/٨)، جمهرة اللغة (ص٣١٩، ٩٩٤)، تاج العروس (٣٥٢/٣)، مقاييس اللغة (١٥٨/٦).

فى بعضها) أى بعض الصور أو الأحكام، **(خلاف ما هى عليه)** فيعتقد فى حقه ما لا يجوز اعتقاده **(ولا ينزهه عما لا يجوز)** فى حقه وفى بعض النسخ عما لا يجب أى لا يجوز كذا فسره به بعضهم وفيه نظر، **(أن يضاف إليه)** أى ينسب إليه ويوصف به.

(فيهلك) أى يقع فى أمر يكون سببًا لهلاكه فى الدنيا والآخرة، **(من حيث لا يدرى)** لعدم علمه بحقه، وما يجب وما يجوز عليه، **(ويسقط فى هوة)** بضم الهاء وتشديد الواو، هو العميق كالبئر.

(الدرك) بفتحتين وقد تسكن الراء وهو ما ينزل به إلى **(الأسفل)** من دركات المنازل، **(من النار)** التعريف فى النار للعهد والمراد نار جهنم التى فى الآخرة، وهى هنا مجاز عن محلها، وهى تستعمل كثيرًا بهذا المعنى، وهو عبارة عن عقابه أشد العقاب فى الآخرة لسبب ما ذكر ولذا علله بقوله: **(إذ ظن)** هو مصدر مبتدأ مضافًا لقوله، **(الباطل به)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى ظن ما ليس صحيحًا فى حقه **(واعتقاده)** على طريق الجزم به.

(مالا يجوز) شرعًا وعقلاً، **(عليه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يحل)** بضم الياء وكسر الحاء المهملة، وتشديد اللام، وفاعله ضمير ما ذكر من الظن والاعتقاد أى يحل **(صاحبه)** أى صاحب ذلك الاعتقاد، **(دار البوار)** أى يجعله حالاً فى دار البوار يعنى جهنم والبوار بفتح الموحدة، هو الهلاك، وهو من أسمائها وضبط البرهان، يحل بفتح أوله وضم ثانيه وصاحبه فاعله على هذا وهو جائز أيضًا ولا يتعين إلا بروايته كذلك.

(ولهذا) المذكور كله من عظيم قدره وخطره، ووجوب اعتقاد تنزيه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، عما ذكر وإن اعتقاد خلافه يهلك صاحبه ويخلده فى الدرك الأسفل لما يؤدى إليه من الكفران أراد تنقيصه بما ذكر.

(احتاط عليه الصلاة والسلام)، وفى بعض النسخ ما احتاط وما زائدة كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، والاحتياط افتعال من حاطه إذا اتخذ عليه حائطًا، ثم استعمل للمبالغة فى الصيانة والحفظ، وفى الأساس احتاط واستحاط فى أمره بالغ فى الاحتياط، وتفسيره بالتحرى فى طلب الخير خشية على من ذكر غير لائق هنا.

(على الرجلين اللذين رأياه ليلاً) أى فى ظلمة الليل **(وهو معتكف فى المسجد)** يعنى مسجده بالمدينة، **(مع صفية)** أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، وكانت جالسة تتحدث معه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم قامت فقام معها يشيعها لبيتها، فمرا به وأبصراه فأسرعا، وقوله فى المسجد، قيل: إنه متعلق برأياه لا بمعتكف، ومع صفية حال من فاعل

رأى، أى رأياه حال كونه مع صفية فى بعض أزقة المدينة، وقد جاءته تزوره لا فاعل معتكف كما قيل.

والحديث فى الصحيحين عن صفية بنت حيى بن الأخطب بن سعية، بسين مهملة مفتوحة وعين مهملة ساكنة بعدها مثناة تحتية وهاء أو نون، وكانت تحت ابن أبى الحقيق اليهودى، فلما قتله النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأسلمت تزوجها، وقصتها فى السيرة، (**فقال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم لهما: إنها**) أى التى رأيتماها تتحدث معى (**صفية**) زوجتى لا أجنبية، وفى الحديث أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال لهما لما أسرعا: على رسلكما، أى تمهلا، إنها صفية فقالا: سبحان الله، فتعجبا من قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما ذكر لظنه به ما لا يليق بمقامه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقد قال الحفاظ: إنهما لم يعرفا ولم ينسبا فى شيء من كتب الحديث، إلا أن ابن العطار تلميذ النووى قال فى شرح العمدة: زعم بعضهم أنهما أسيد بن حضير، وعباد ابن بشير، ووقع فى رواية سفيان فى البخارى، فأبصره رجل من الأنصار بالإفراد، وفى أخرى: وهما من الأنصار فيحتمل تعدد القصة، وقال ابن حجر: الأصل عدم التعدد فهو محمول على أن أحدهما كان تابعًا للآخر، فاختص أحدهما بخطاب المشافهة.

(**ثم قال**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**لهما**) بعد ما قالاه: («**إن الشيطان يجرى من ابن آدم**) بوسوسته له فى باطنه (**مجرى الدم**) وهو داخل فى عروقه»، وفى رواية: إنى خفت أن تظنا بى ظنًا إن الشيطان إلى آخره، والمراد بابن آدم الجنس، فيشمل النساء وجريانه مجرى الدم، قيل: إنه على ظاهره، وأنه أقدره الله تعالى على الدخول فى عروق الناس، ويتصل بقلوبهم، وقيل: تمثيل لشدة اتصاله به ولزومه له.

(**وإنى خشيت**) عليكما (**أن يقذف**)، أى يلقى ويوقع الشيطان (**فى قلوبكما شيئًا**) من الظن السيىء (**فتهلكا**)، أى فتقعا فى إثم يهلككما الله به بما يحل بكما من العقوبة على ذلك الذنب، فخشى، صلى الله تعالى عليه وسلم، عليهما أن يغويهما الشيطان فيلقى فى قلوبهم سوء الظن به، وأنه يتكلم مع أجنبية فيؤديهما ذلك إلى تنقيصه، عليه الصلاة والسلام، وهو كفر يستحقان به دخول النار فيهلكا، فبادر لإعلامهما بما ينقذهما من الهلاك، والحديث فى البخارى وغيره، كما مر.

وفيه جواز خروج المعتكف من المسجد لحاجة والإرشاد للاحتراز من محل التهم، وأنه ينبغى للعالم أن يرشد غيره لما فيه خير له إلى ذلك من الفوائد التى لا تحصى.

(قال القاضى) عياض المؤلف، رحمه الله تعالى، **(هذه)** أى معرفة ما يجب اعتقاده فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من عصمته من سائر الذنوب لئلا يهلك إذا اعتقد خلافه **(أكرمك الله)** أى جعلك الله مكرمًا بما هداك له مما يجب عليك معرفته، **(إحدى فوائد ما تكلمنا عليه)** هو خبر هذه والمبتدأ وما بينهما من الجملة الدعائية اعتراض، **(فى هذه الفصول)** بصاد مهملة جمع فصل، أى السابقة فى بيان عصمة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وما يجب لهم علينا.

(ولعل جاهلاً لا يعلم بجهله)؛ لأنه هو الذى يخشى عليه من هذا التوهم، ولعل هنا للإشفاق عليه وخوفه من هلاكه، **(إذا سمع شيئًا منها)**، أى من الفصول المعقودة لتنزيه الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، عن النقائص، **(يرى)** ويعتقد **(أن الكلام فيها جملة)** أى جميعًا فهو منصوب على الحال **(من فضول العلم)** خبر أن جمع فضل غلب على الأمر الذى يعد عبثًا، ومنه الفضولى، ولذا نسب للجمع فيه، وهو بضاد معجمة بمعنى زيادته، **(وأن السكوت)** عن ذكرها **(أولى)** من ذكرها، وهو جهل عظيم منه؛ لأنها من أهم الأمور.

(وقد بان لك) مما قررناه **(أنه)** أمر **(متعين)** واجب ذكره واعتقاده **(للفائدة التى ذكرناها)** وهى أن فيها النجاة من الهلاك كما يرشدك إليه حديث صفية الذى ذكره.

(و) فيه **(فائدة ثانية)** غير الذى قدمه **(يضطر)** بالبناء للمجهول، أى يحتاج **(إليها)** احتياجًا شديدًا؛ لأنها من ضروريات الدين **(فى أصول الفقه)**، أى فى القواعد الفقهية فى علم أصول الفقه **(وينبنى عليها)**، أى يترتب ويتفرع عليها **(مسائل لا تنعد من الفقه)** أى مسائل الدين الشرعية وفروعه، أى لا تعد لكثرتها إلا أن انفعال من العد قليل فى الاستعمال إلا أنه كما قيل: لغة ردية لا تكاد تعد.

(ويتخلص بها) أى يخرج من عهدتها ويسلم، **(من تشغيب)** تفعيل من الشغب بفتح الغين المعجمة وسكونها، وهو تهييج الشر والصياح فى الخصومة، **(مختلفى الفقهاء)** أى أقوال الفقهاء المختلفة **(فى عدة منها)** أى فى عدة مسائل تتعلق بالاعتقاد فيما يجوز على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ويجب لهم، **(وهى)** أى الفائدة المضطر إليها **(الحكم فى أقوال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأفعاله)** التى هى معظم سنته الواردة فى حديثه؛ لأنها صفاته وأقواله وأفعاله وتقريراته، فى جميع أحواله من الغضب والرضى والصحة والمرض وغير ذلك، مما قاله المصنف.

ولأبى شامة، رحمه الله تعالى، كتاب مستقل فى أفعاله، صلى الله تعالى عليه وسلم،

وما يجب الاقتداء به، ويستحب فإن منها ما هو تعبد وضرورة وأمور عادية وجبلية، اختلفوا فى لزوم الاقتداء به فيها واستحبابه فيما لم يعلم أنه قصد به التشريع، فذهب الباقلانى والغزالى إلى أنه يندب التأسى به فى الأمور الجبلية، ولأبى إسحاق فيها وجهان، ففيها أقوال ثلاثة، بالندب، والإباحة، والامتناع، كذهابه للعيد من طريق ورجوعه من أخرى، وهذا كله فيما لم يعلم حكمه بنص منه، أو من الصحابة رضى الله تعالى عنهم، و لم يعلم أنه من خصوصياته، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وهو باب عظيم)** شأنه.

(وأصل كبير من أصول الفقه) وقواعده المهمة لابتناء كثير من أحكام الشرع عليه، **(ولابد من بنائه)** أى جعله مبنيًا على أساس وقاعدة يرجع إليها وهى أنه متفرع **(على صدقه صلى الله تعالى عليه وسلم فى إخباره وبلاغه)** أى ما يبلغه لأمته ومن بعث لهدايته وإرشاده.

(وأنه لا يجوز عليه السهو فيه) أى فيما بلغه عن ربه لعصمة الله له عنه لمنافاته، لكونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أرسل مشرعًا مبينًا لأمر ربه.

(و) على **(عصمته من المخالفة فى أفعاله)** الصادرة عنه **(عمدًا)** فلا يتوهم جوازه عليه ولا اعتقاده **(وبحسب)** بسكون السين **(اختلافهم)** على مقداره **(فى وقوع الصغائر)** من الأنبياء كلهم، عليهم الصلاة والسلام، لا سيما منه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وقع خلاف) بين الفقهاء، وفى نسخة اختلاف، **(فى امتثال الفعل)** أى اتباعه بمجرد صدوره منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعليه أكثر فقهاء المذاهب، وقد **(بسط)** أى نقل وبين، وذكر **(بيانه فى كتب ذلك العلم)** يعنى الفقه وأصوله **(فلا نطول به)** الكلام فى هذا الكتاب؛ لأنهم، جزاهم الله خيرًا، كفونا مؤنته فلا حاجة لإعادته هنا.

(وفائدة ثالثة يحتاج إليها الحاكم) أى القاضى وغيره، **(والمفتى)** المجيب السائل عن الأمور الشرعية من علماء الشرع وأحكامه، **(فيمن أضاف)** بنسبته ووصفه **(للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، شيئًا من هذه الأمور)** التى تجوز أو تجب أو يمتنع عليه، **(ووصفه بها)** صريحًا أو ضمنًا كلا أو بعضًا، **(فمن لم يعرف ما يجوز وما يمتنع عليه)** من الأوصاف.

(و) لم يعرف **(ما وقع الإجماع فيه)** نفيًا وإثباتًا، (و) لم يعرف ما وقع **(الخوف)** فيه جوازًا ونفيًا **(كيف يصمم)**، أى يجزم أو يعزم عليه **(فى الفتيا فى ذلك)**، أى فى أمر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، منعًا وجوازًا.

وفى نسخة الفتوى، وفى القاموس: أفتى فى الأمر أبانه، والفتيا، والفتوى، وتفتح ما

أفتى به الفقيه، انتهى، وتفصيله فى المصباح كغيره، **(ومن أين يدرى)** ويعلم بالعقل والنقل، **(هل ما قاله)** فى حق الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فى فتواه أو حكمه **(فيه نقص)** لهم **(أو مدح)** لهم حتى يقدم عليه حكمًا وإفتاء.

(فإما أن يجترئ) إما بكسر الهمزة ومعناها، مقرر فى كتب العربية والاجتراء افتعال من الجراءة، وهى الإقدام على الشىء من غير مبالاة بما فيه من الضر، وبينه وبين الشجاعة عموم وخصوص كما بين ذلك فى كتب الأخلاق **(على سفك دم مسلم حرام)** بأن يحكم أو يفتى بكفره، وقتله وهو غير مستحق لذلك، والسفح والسفك بمعنى الإراقة والصب.

(تنبيه): قال فى العقائد العضدية: لا نكفر أحدًا من أهل القبلة إلا بما فيه نفى الصانع المختار أو بما فيه شرك وإنكار النبوة، وإنكار ما علم من الدين بالضرورة، أو إنكار مجمع عليه قطعًا أو استحلال محرم، وأما غير ذلك فالقائل به مبتدع وليس بكافر، انتهى، وسيأتى بين ذلك.

واعلم: أن شيخ والدى الشهاب ابن حجر الهيتمى، قال فى شرح المنهاج نقلاً عن الزركشى: إن ما وقع فى كتب الحنفية وفتاواهم من التكفير بألفاظ كثيرة، كالمتورعون من متأخريهم ينكرون أكثرها لمخالفتها لأصول أبى حنيفة وعقائدهم، فليسوا من أهل الاجتهاد فليحذرها من يراها منا ومنهم؛ لأنه يخاف على قائلها أن يدخل فى قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «من كفر مسلمًا بغير حق، فقد كفر»، انتهى.

وفى الفتاوى البزازية: حكى عن بعض السلف أنه قال: ما فى الفتاوى من التكفير بكذا وكذا فذلك للتخويف والتهويل، وهو كلام باطل وحاشا أن يلعب أمناء الله تعالى على الأحكام من الحلال والحرام، ويكفر أهل الإسلام، بل لا يقولون إلا الحق الثابت عن سيد الأنام، وما أدى إليه اجتهاد الإمام أخذ من نص كلام الملك العلام أو حديث سيد الرسل العظام، انتهى.

وهذا يحتمل أن يكون تأييدًا لما قاله اعتناء بأنهم لا يقولون إلا ما نص عليه إمام مذهبهم مستندًا إلى دليل من القرآن، أو الحديث الصحيح، أو هو اعتراض على الجواب بأن المقصود به، التخويف والتهديد بأنه لا يصح مثله من التأويل إلا فى الحديث والتنزيل، أما فى كتب الفقه الموضوعة لبيان الحلال والحرام، وتعليم الناس حتى العوام، فلا يصح فيها مثله لما فيه من اللبس، **(أو يسقط حقًا)** من حقوق النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بما يوهم نقصًا فيه.

(**أو يضيع حرمة للنبي، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، أي أمرًا محترمًا مراعى له، صلى الله تعالى عليه وسلم، كتجويز المعاصي عليه ونحوه، مما لا يليق به، فلا يجوز لمسلم أن ينسب لنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، وغيره من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أمرًا ينافي عصمتهم عمدًا وسهوًا قبل النبوة وبعدها، وهو الذي ارتضاه كثير من أئمة الدين، وأهل الأصول، كما مر.

ثم إن المصنف، رحمه الله تعالى، شرع في بيان عصمة الملائكة، عليهم الصلاة والسلام، كما وردت به النصوص فقال: (**وبسبيل هذا**) الباء بمعنى في، أي مما جرى في طريق هذا، وفي نسخة وسبيل هذا بدون باء، وهذا إشارة لما ذكر من عصمة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، (**ما قد اختلف أرباب**)، أي أصحاب (**الأصول**)، أي علماء أصول الدين في العقائد، (**وأئمة العلماء**)، أي أكابر علماء الشرع المقتدى بهم، (**والمحققين**)، أي أهل التحقيق من أعلامهم (**في عصمة الملائكة**)، عليهم الصلاة والسلام؛ لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ولا يفعلون إلا ما يؤمرون فهم مثلهم في جريان الخلاف فيما هو لازم لهم والصحيح والصواب فيه.

* * *

تم بحمد الله الجزء الخامس من كتاب نسيم الرياض لشهاب الدين الخفاجي رحمه الله في شرح الشفاء للقاضي عياض

ويليه الجزء السادس والأخير، وأوله:

«(فصل) في تحرير (القول في عصمة الملائكة)»

* * *

فهـرس محتويـات

الجزء الخامس

مـن

نسيم الرياض

في شرح شفاء القاضي عياض

المحتويات

نسيم الرياض

في شرح شفاء القاضي عياض

تأليف

شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر

الخفاجي المصري

المتوفى سنة ١٠٦٩هـ

ضبطه وقدم له وعلق عليه

محمد عبد القادر عطا

الجزء السادس

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م

دار الكتب العلميـة
بيروت ـ لبنان
رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد: ١١ - ٩٤٢٤ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3209-1



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(فصل) فى تحرير (القول فى عصمة الملائكة)

جمع ملك، والتاء لتأنيث الجمع، وفى اشتقاق الملك خلاف لأهل اللغة المشهورين من أنه من الألوكة وهى الرسالة؛ لأنهم رسل الله يرسلهم لما يرى وأصله مألك، ثم قلبت بدليل جمعه على ملائكة، واختلفوا فى حقيقتهم، والصحيح أنهم أجسام لطيفة قادرة على التشكل، وفى تشكلهم كلام ليس هذا محله، وليس الجن منهم على الصحيح خلافًا لمن ذهب إلى أنهم جنس واحد، وقد بيناه فى حواشى التفسير وتقدم الكلام فى معنى العصمة.

قال الجلال الدوانى: العصمة عندنا أن لا يخلق الله تعالى فيهم ذنبًا، وعند الفلاسفة ملكة تمنع الفجور، انتهى.

(اتفق المسلمون)، وفى نسخة أجمع المسلمون **(على أن الملائكة مؤمنون)** بالله ورسله وشرائعه كما وصفهم الله تعالى فى القرآن **(فضلاء)** أى ذو قدر معظم مبجل **(واتفق أئمة المسلمين)** من علماء الملة الإسلامية، **(على أن حكم المرسلين منهم حكم النبيين)** من البشر فهم، **(سواء)** أى مساوون لهم **(فى العصمة)** وتنزيههم عما ينزهون عنه لشرف قدرهم، **(بما ذكرنا عصمتهم منه)** من الكبائر والصغائر، كما تقدم تفصيله، والجار والمجرور متعلق بالعصمة.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [الحج: ٧٥]، قال الواحدى: الملائكة منهم رسل كجبرائيل، وإسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل، ومنهم غير رسل، وقال بعضهم: كلهم رسل أرسل بعضهم لبعض منهم وبعضهم إلى الناس كجبريل والحفظة، والمصنف تبع فيما قاله الواحدى، وهو المشهور، وفى كلامه إشارة

إلى أن من أنكر الملائكة، ليس بمسلم كالفلاسفة، فإنهم ذهبوا إلى أنها أرواح الفلكيات وعقولها لقولهم: إنها حية فعالة، لا عقول روحانية، كما فصل فى كتب الحكمة ومطولات الكلام والنصوص القرآنية شاهدة بخلافه.

(وأنهم) أى رسل الملائكة، **(فى حقوق الأنبياء)**، عليهم الصلاة والسلام، من حيث الواسطة بين الله تعالى وبينهم، **(والتبليغ إليهم)** فيما أمرهم الله تعالى أن يبلغوه إليهم من الوحى، فحالهم معهم، **(كالأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، مع الأمم)** فى تبليغ الأحكام إليهم، وبيان المصالح لهم حسبما أمرهم الله تعالى به، والمراد بعصمتهم أنهم لا يخالفون أمر ربهم، فلا ينافى أن الله تعالى لم يخلق لهم شهوة ودواعى كما فى الطباع البشرية، وهو ظاهر غنى عن البيان خلافًا لمن تصدى للجواب عنه، **(واختلفوا فى غير المرسلين منهم)** أى من الملائكة هل هم مساوون لهم فى العصمة، مما تقدم وعدمها؟.

(فذهبت طائفة) من أئمة الدين **(إلى عصمة جميعهم)** من الرسل وغيرهم، **(من المعاصى)** جميعها؛ لأن الله تعالى لم يخلق فيهم شهوة ولا داعية لها، **(واحتجوا)** لعصمتهم من جميعها، وفى نسخة: احتجت، أى الفرقة والأولى أولى **(بـ)** آيات كـ**(قوله: ﴿لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾)** منصوب على نزع الخافض، أى فيما أمرهم أو بدل اشتمال من اسم الله تعالى، أى أمره ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩﴾ [النحل: ٥٠]، به أى يبادرون بفعله من غير تنقيص ولا تأخير فعلى هذا هو تأسيس، وإن حمل على ظاهره فهو تأكيد والعطف بالواو يبعده، قيل: ولا دليل فى هذه الآية لمدعاه من العموم؛ لأنه عائد على خزنة النار قبله فى قوله: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦]، وهم التسعة عشر، وبه فسر فى الكشاف، فكأنه لاحظ عدم الفرق بينهم وبين غيرهم ولا يخفى ما فيه.

(وبقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾) [الصافات: ١٦٤]، لا يتعداه لغيره حسبما أمروا وفيه حذف الموصوف، أى ما أحد منا أو معشر، أو فريق ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥]، أى الواقفون صفوفا كصفوف الصلاة فى المقام المعين لنا، ولما أمرنا به، وتفسيره بالصافين أقدامنا فى الصلاة لا وجه له هنا، كما قيل: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٦]، أى الملازمون لتقديس الله تعالى وتنزيهه عما لا يليق بشأنه وقيل: معناه المصلون العابدون، كما ورد فى الحديث: «إن لهم صفوفا كصفوفنا».

(وبقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾) أى الملائكة المقربون مكانة لا مكانا؛ لتنزه الله تعالى عنه، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾، أى يتذللون ويخضعون لعظمة الله تعالى، ﴿وَلَا

يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩] الآية، أى لا يتعبون ويملون من العبادة التى أمروا بها.

(**وبقوله:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] **الآية**)، لتلذذهم بعبادته، (**وقوله:** ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾) [عبس: ١٦]، صفة سفرة جمع سافر، وهو الكاتب وهم الكرام الكاتبون من الملائكة والبررة جمع بار، وهو المطيع المتقى ربه، وأما البر فجمعه أبرار.

(**وقوله:** ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾) [الواقعة: ٧٩]، هذا على أن المراد به لا يمس القرآن فى اللوح المحفوظ أو فى غيره إلا الملائكة المطهرون من الكدورات الجسمانية والعلائق البشرية، وقد فسر بأنه لا يجوز أن يمسه من الناس إلا من تطهر من الحدث، أو لا يمسه الكفرة لنجاسة كفرهم، فهو نفى بمعنى النهى، ولا شاهد فيه على هذا كما أنه لا شاهد فى قوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، إذ فسر بأنه ما من أحد من المسلمين إلا له مقام فى الآخرة أو يوم القيامة، وقد قيل أيضا: إنه لا شاهد فيه على رسل الملائكة إذ لا مخصص فيه، وقد أشار إلى عمومه فى الكشاف، (**ونحوه**) **مما** هو بمعناه.

(**من السمعيات**) أى النصوص القرآنية الواردة فى حق الملائكة كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، أو ما هو مسموع من الشارع من كتاب أو سنة، (**وذهبت طائفة**) من العلماء (**إلى أن هذا**) أى ما ذكر من أمر العصمة (**خصوص**) أى مخصوص كما وقع فى بعض النسخ (**للمرسلين والمقربين منهم**) أى من الملائكة دون غيرهم، والمقربون هم الكروبيون بتشديد الراء وتخفيفها وأنشد أبو على:

كروبية منهم ركوع وسجد[1]

وكافه مبدلة من القاف أو أصله عن كرب بمعنى دنا، يقال: هو كرب الخلق، أى قويه سموا به لقوتهم أو لصبرهم على العبادة، أو هو من الكرب لشدة خوفهم من الله تعالى، (**واحتجوا بأشياء ذكرها أهل الأخبار والتفاسير نحن نذكرها إن شاء الله تعالى**).

وفى نسخة (**بعد**) بالبناء على الضم (**ونبين الوجه فيها**) أى القول الموجه المرضى مستعار من الوجه المعروف (**والصواب عصمة جميعهم وتنزيه نصابهم**) أى كمال مقامهم

---

(١) عجز بيت، وصدره: «ملائكة لا يفترون عبادة». والبيت من الطويل، وهو لأمية بن أبى الصلت فى ديوانه (ص٢٨)، ولسان العرب (٧١٤/١)، وتاج العروس (١٣٩/٤)، وتهذيب اللغة (٢٠٧/١٠)، وأساس البلاغة (٣٠١/٢) (كرب).

(الرفيع) العالى منزلته عند الله **(عن جميع ما يحط)**، أى ينقص أو ينزل من حط الحمل، إذا نزل من مكان عال إلى أسفل منه **(من رتبتهم ومنزلتهم)** هو مقامهم، **(عن جليل مقدارهم)**، أى قدرهم الجليل، فهم معصومون عن جميع الذنوب كبيرها وصغيرها، ولا يجوز ذلك عليهم ولا يقدرون عليه.

(ورأيت بعض شيوخنا أشار)، أى قال: والإشارة تطلق بهذا المعنى كثيرا **(إلى أن)** بفتح الهمزة مخففة من الثقيلة أى أنه **(لا حاجة بالفقيه)** قيل: الباء، بمعنى اللام، أى لا حاجة له **(إلى الكلام فى عصمتهم)** قيل: اكتفاء بما ورد واشتهر فى حقهم ومدحهم من النصوص فى القرآن والحديث، وقيل: إنه لكونهم غير مرئيين لنا، ولم نؤمر بالاقتداء بهم بخلاف الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فأنا متبعون لأقوالهم وأفعالهم مقتدون بهم، فلابد من معرفة عصمتهم واعتقادها للوثوق بهم حتى يجب امتثال أوامرهم ونواهيهم للأمم، وقيل: إنما أراد إنه يجب الكف عن الكلام فى جميعهم؛ لأنه أمر مشكل لا يتكلم فيه إلا بدليل قطعى لا أنه لا فائدة فيه.

(وأنا أقول: إن الكلام فى ذلك) أى فى عصمة الملائكة لازم **(كالكلام فى عصمة الأنبياء)**، عليهم السلام، وفى نسخة: إن للكلام فى ذلك ما للكلام فى عصمة الأنبياء، **(من الفوائد)** الثلاثة **(التى ذكرناها)** فإنهم وسائط بين الله ورسله ونسبتهم للرسل كنسبة الرسل لأممهم، فلو لم يكونوا معصومين لم يحصل الوثوق للرسل بما بلغوه ويسرى ذلك لنا، فلا فرق إذن **(سوى فائدة الكلام فى الأقوال والأفعال)**، أى الفائدة التى ذكرها فى أقوال الرسل وأفعالهم.

(فهى ساقط هنا) أى فى حق الملائكة، عليهم الصلاة والسلام، لعدم اطلاعنا على أقوالهم وأفعالهم، ولسنا مكلفين باتباعهم فيها كالأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فلا داعى لعصمتهم فيها عمدا ولا سهوا لعدم طرؤ ما لا يليق، **(فمما احتج به من لم يثبت عصمة جميعهم)** وقال بوجوب عصمة الرسل منهم فقط، **(قصة هاروت وماروت)** هما علمان لملكين ببابل ممنوعان من الصرف للعلمية والعجمة، ولو كانا عربيين من الهرت والمرت صرفا.

(وما ذكر فيها) أى القصة **(أهل الأخبار)** وعلماء التاريخ **(ونقلة)** جمع ناقل مثل كاتب وكتبة مضاف لقوله: **(المفسرين)** أى من اعتمد على النقل من المصحف دون تحقيق، وفى نسخة ونقله المفسرون بفعل ماض وفاعل.

(وما روى عن على وابن عباس فى خبرهما وابتلائهما) بمحبة المرأة وعقابهما على ما

فعلا كما ستسمعه قريبا مع ما فيه ردا وقبولا، وما وقع من السحر فتنة للناس، وإن السحر من اعتقده وعمل به، فقد كفر كما يأتى، وأما من تعلمه ليتوقاه ويتداوى منه فلا كما قيل:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه فمن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

وللفقهاء فيه وفى قتل الساحر كلام طويل الذيل ليس هذا محل تفصيله.

(**فاعلم**) خطاب عام لكل واقف على هذا الكلام طالب للعلم به، (**أكرمك الله**) بهدايتك للحق (**أن هذه الأخبار**) المذكورة فى قصة هاروت وماروت (**لم يرو منها شىء**) عمن يعتد به من المحدثين (**لا سقيم**) أى ضعيف (**ولا صحيح**) ثابت (**عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وليس هو**) ، أى ما تضمنه قصتهما (**شيئا يؤخذ**) أى يستنبط (**بقياس**) وفى نسخة بالقياس، أى ليس مما يجرى فيه القياس على غيره، مما ورد من الآيات والأحاديث الصحيحة، فلا ينبغى الخوض فيه نفيا وإثباتا، وهذا الذى ذكره من أنه لم يرد فيه حديث ضعيف، ولا صحيح، ردوه كما نقله السيوطى فى مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفا، بأنه ورد من طرق كثيرة منها ما فى مسند أحمد، عن ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، مرفوعا.

ورواه ابن حبان، والبيهقى، وابن جرير، وابن حميد فى مسنده، وابن أبى الدنيا وغيرهم من طرق عديدة، وقال ابن حجر فى شرح البخارى: إن له طرقا تفيد العلم بصحته، وكذا فى حواشى البرهان الحلبى، وذكره مسندا، عن ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، أنه سمعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقول: «لما أهبط الله تعالى، آدم إلى الأرض، قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، الآية، وقالوا: ربنا نحن أطوع لك من بنى آدم، فقال الله تعالى: هلما بملكين يهبطان الأرض، قالوا: ربنا هاروت وماروت فأهبطا، فتمثلت لهما الزهرة امرأة حسنة من البشر، فراوداها عن نفسها، فقالت: لا والله، حتى تتكلما بهذه الكلمة من الشرك فأبيا فذهبت وأتت بابن جار لها تحمله فراوداها، فقالت: لا، حتى تقتلا هذا الصبى، فقالا: لا، ثم راوداها مرة أخرى، فأتت بقدح خمر، فقالت: لا، حتى تشرباه، فشرباه وسكرا، فتكلما بكلمة الكفر وقتلا الصبى فخيرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا، فعلقا بين السماء والأرض»، والزهرة بضم الزاء، وفتح الهاء وتسكينها لحن ولا مانع منه تخفيفا ويقال لها بالفارسية: أناهيد، وتخفف، ويقال: ناهيد.

وفى رواية ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، أنزلهما يحكمان بين الناس وأن الزهرة

قالت لهما: أخبرانى بما تصعدان به إلى السماء، قالا: باسم الله الأعظم وعلماها إياه فطارت إلى السماء فمسخت كوكبًا، وقد جمع الجلال السيوطى طرق هذا الحديث فى تأليف مستقل فبلغت نيفًا وعشرين طريقًا.

(و) قوله و(**الذى منه**) أى من ذكر هذه القصة (**فى القرآن**) جواب سؤال تقديره أنك قلت: إن هذه لم تثبت عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فما تقول فى ذكرها فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ**﴾ [البقرة: ١٠٢] الآية، فأجاب بقوله: (**اختلف المفسرون فى معناه**) أى معنى ما ذكر فى هذه الآية (**فأنكر ما قال بعضهم فيه**) أى فى معناه (**كثير من السلف كما سنذكره**) فلا حاجة لذكره هنا (**وهذه الأخبار**) التى ذكرها بعض المفسرين منقولة (**من كتب اليهود**) فى الإسرائيليات (**وافترائهم**)، أى كذبهم على أنبياء الله تعالى، وملائكته عليهم الصلاة والسلام.

(**كما قصه الله**) أى حكاه (**فى أول الآيات من افترائهم بذلك على سليمان وتكفيرهم إياه**)، أى نسبته إلى الكفر الذى رده الله تعالى بقوله: ﴿**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ**﴾ إلخ، (**وقد انطوت**)، أى اشتملت واحتوت هذه (**القصة على شنع عظيمة**) بضم الشين المعجمة وفتح النون وعين مهملة، جمع شنعة، أى قبيحة شائعة من شنع عليه إذا أشاع قبائحه، وذلك كما يأتى بيانه أنهم كتبوا سحرًا ونيرنجيات على لسان آصف بن برخيا، وزير سليمان، عليه الصلاة والسلام، ودفنوها تحت مصلى سليمان فنزع ملكه، ثم لما مات استخرجوها، وقالوا: إنما ملككم بهذه، فأنكرها صلحاؤهم وأقبل عليها السفلة ورفضوا كتب أنبيائهم، ونسبوا سليمان، عليه الصلاة والسلام، للكفر فبرأه الله تعالى منه.

(**وها نحن نحبر**) أى نحرر تحريرًا حسنًا، من حبره بمهملتين بينهما موحدة، إذا حسنه وزينه وفيه تورية؛ لأنه يقال: حبره إذا كتب بالحبر ففيه إيهام لمعنى نكتبه لنبينه (**فى ذلك**) المذكور فى قصة هاروت وماروت (**ما يكشف غطاء هذه الإشكالات**)، أى ما يزيل لبسه وإشكاله ببيان الحق فيه، وفيه استعارة مكنية وتخييلية، أو مصرحتان باستعارة الكشف للإزالة والغطاء للبس، (**إن شاء الله**) أى إن أراده بيمنه وبركته.

(**فاختلف أولاً فى هاروت وماروت**)، أى فى حقيقتهما وجنسهما؛ لأن بيان الحقيقة ينبغى تقديمه على بيان أحوالهما (**هل هما ملكان**) بفتح اللام، أى فى جواب هذا السؤال وهو تفسير لاختلاف وجهته (**أو إنسيان**) نسبة إلى الإنس خلاف الجن، أى من بنى آدم (**وهل هما المراد بالملكين**) فى قوله: ﴿**وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ**﴾ [البقرة: ١٠٢]، فى

الآية، بأن يكونا بدلاً منه، **(أم لا؟ وهل القراءة ملكين)** بفتح اللام، وهى قراءة السبعة **(أو ملكين)** بكسرها، وهى قراءة شاذة منقولة عن الحسن البصرى وغيره، كما يأتى.

(وهل ما فى قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ **و)** فى قوله: (﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ **نافية أو موجبة)**، أى غير نافية من الإيجاب ضد النفى، فهى على هذا موصولة أو موصوفة، وهو ظاهر، وكونهما ملكين بالفتح مذهب الجمهور، وقراءته متواترة، وعلى قراءة الكسر يلزم كونهما إنسيين تصورا بصورتهما الأصلية؛ لأنه المتبادر، وكونهما من الملائكة أمرهما الله تعالى بالهبوط للأرض، والحكم بين الناس كما تقدم فى الحديث، فتصورا بصورة البشر؛ لقدرتهما على التشكل بعيد من دلالة اللفظ والاحتمال البعيد، لا معول عليه، وإيراده هنا غير متجه، والقائل بأنهما ملكين بالكسر، استدل بظاهر حديث روته عائشة، رضى الله تعالى عنها: «أن امرأة قالت لها: إنها رأتهما رجلين معلقين برجليهما»، وفيه الاحتمال السابق أيضًا، فالاحتجاج به غير تام، فإن كانت ما فى ما أنزل نافية كان معطوفًا على ما كفر سليمان، أى لم يكفر ولم ينزل على الملكين شىء من السحر، وهاروت وماروت، بدل من الشياطين بدل بعض، وما بينهما اعتراض، وهو رد على اليهود لعنهم الله تعالى، فيما افتروه على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، والملائكة وإلا فهى موصولة أو موصوفة وقوله: من أحد يأبى كونها غير نافية، ولذا قال بعض الشراح: إنه لم يذكره أحد من المفسرين، وإن المعنى عليه غير ظاهر والكلام فى ذلك مفصل فى التفاسير.

(فأكثر المفسرين)، يقول: **(إن الله تعالى امتحن الناس بالملكين)**، أى ابتلاهم وعاملهم معاملة المحبة لأمرهم حتى يظهر حالهم، والملكين تثنية ملك بفتح اللام، فأنزلهما **(لتعليم السحر)** لهما **(وتبيينه وأن علمه كفر)** وفى نسخة: عمله بتقديم الميم على اللام، وجعله كفرًا مبالغة؛ لأنه سببه فهو مجاز كرعينا الغيث والمطر، **(فمن تعلمه)** ويعمل به معتقدًا حله، **(كفر)** لاعتقاد ما هو حرام إجماعًا حلالاً، **(ومن تركه آمن)** أى دام وهو مؤمن على إيمانه إذ الكافر بمجرد تركه السحر لا يصير مؤمنًا، وهذا مذهب مالك، وعزاه المصنف فى شرح مسلم إلى سيدنا أحمد بن حنبل، فهو عندهما كافر يقتل، ولا يستتاب كالزنديق عنده، وهو عند الشافعى كبيرة، إن لم يكن فيه ما يقتضى الكفر، فلا يقتل وتقبل توبته، فإن قتل بسحره قتل قصاصًا عنده، وقيل: تلزمه الدية والكفارة، وعند غير الشافعية فيه خلاف.

ودليل مالك ما **(قال الله)** عز وجل: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، **فإن قولهما** له على طريق النصح، حتى روى أن تكرره سبع مرات يقتضى أنه كفر، وما

روى من أنه لا دليل فيه لاحتمال أن الله تعالى يعاقبه بسلب الإيمان منه، أى لا تفعله، فإنه سبب لسوء الخاتمة خلاف الظاهر.

(وتعليمها الناس تعليم إنذار) مبتدأ وخبر، والناس مفعول المصدر الأول، وهو جواب عما استدلوا به، أى إنما علموه لهم ليعرفوه ويحذروا منه، فهو إنذار وتخويف لهم من وباله، ثم وضحه بقوله، **(أى يقولان)**، يعنى الملكين، **(لمن جاء يطلب تعلمه)** منهما **(لا تفعل)** أى لا تتعلمه، وفى نسخة: لا تفعلوا.

(فإنه يفرق بين المرء وزوجه)، أى هو سبب لذلك بما يلقيه فى قلبهما من البغض الموجب لمفارقة أحدهما الآخر: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أى بتقديره وإرادته، والسحر له تأثيرات غير ذلك، وإنما خصه لكثرته، والجمهور على أن السحر له حقيقة تحدث عند نطقه ببعض الكلام، أو فعل بعض الأشياء بخاصة أوجدها الله تعالى عنده، وقيل: إنه تخيل باطل، وأنه لا أثر له غير تفريق الزوجين، والأول هو الصحيح كما قاله المازرى.

(ولا تتحيلوا بكذا) تفعل من الحيلة بالحاء المهملة، أى لا تباشروا حيل السحرة التى يفعلونها من التمويه والنفث فى العقد ونحوه، وروى لا تتخيلوا بالخاء المعجمة من التخيل، وهو ظن الشىء على خلاف ما هو عليه، وأكثرهم على الأول، ويؤيده تعديه بالباء، أو هى سببية **(فإنه سحر)**، أى أمر غير محمود ولا جائز **(فلا تكفروا)** بفعل هذا؛ لأنه كفر أو مؤد إليه، كما بيناه.

(فعلى هذا)، أى أن تبيينه وتعليمه لإنذار الناس من الوقوع فيه، **(فعل الملكين)** فى السحر نهيهما عنه، وبيان ضرره وكفر فاعله **(طاعة)** لما فيه من النهى عن المنكر **(وتصرفهما فيما أمرا به)**، أى أمرهما الله تعالى بإظهاره، وبيان حاله **(ليس بمعصية)** يستدل بها على عدم عصمة بعض الملائكة، وهو جواب عن سؤال تقديره، إنما فعلا ما هو غير جائز فى نفسه بأنه فى حقهما جائز، كالمفتى والواعظ الذى يتكلم بكلمات الكفر ليجتنب، وهو مأمور بذلك فهو فى حقه غير ممنوع، **(وهى لغيرهما فتنة)** بلية تهلكه بعقاب الله تعالى له.

(وروى ابن وهب) هو الإمام عبد الله بن وهب المصرى، وقد تقدمت ترجمته، **(عن خالد بن أبى عمران)** التجيبى التونسى، قاضى أفريقية ومحدثها، توفى سنة مائة وتسعة وثلاثين، وأخرج له أصحاب السنن ووثقوه، وهو مستجاب الدعوة وله تفسير **(أنه ذكر عنده هاروت وماروت)** ذكر ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، من يطلب تعلمه منهما.

(فقال: نحن ننزههما عن هذا)، أى تعليم السحر **(فقرأ بعضهم)** ردًا لما قاله، بأنه مخالف لظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، الآية، احتج بها بناء على الظاهر من أن ما موصولة، وعلى قراءة الجمهور بفتح اللام، **(فقال خالد)**: مجيبًا له **(لم ينزل عليهما)** بالبناؤ للفاعل أو المفعول، وهو إنكار لما قاله، وأنه ليس ما فهمه مرادًا لله، وإن لها معنى غير ما يظهر منها لتأويلها، وسيأتى إن شاء الله تعالى.

(فهذا خالد على جلالته)، أى عظم قدره وجعله لشهرته كأنه حاضر مشاهد عنده، **(وعلمه)** بالتفسير والحديث **(نزههما)** أى الملكين **(عن تعليم السحر الذى قد ذكر غيره، أنهما مأذون لهما فى تعليمه)**؛ لأن الله تعالى أمرهما بتعليمه إنذارًا للناس، وليس معصية فى حقهما كما سمعته آنفًا **(بشريطة)** بمعنى شرط كما وقع فى بعض النسخ أيضًا.

(أن يبينا أنه كفر) فيعلماه بما فيه من المحذور، **(وأنه امتحان من الله تعالى وابتلاء)** عطف تفسير فغير خالد جعل ما موصولة إيجابية مثبتة، لإنزال السحر عليهما، وهى عنده نافية كما يأتى، ولكنه أمر بتعليمه لإنذارهم وتحذيرهم من مضاره، وبيان أنه ابتلاء من الله تعالى.

(فكيف لا ينزههما) هو مضارع مسند إلى خالد أوله مثناة تحتية، وقيل: إنه مبدوء بالنون مسند للمتكلم وغيره، أى كيف لا ننزه نحن الملكين، **(عن الكبائر)** كشرب الخمر، وقتل النفس، والزنا، **(والكفر)** بالتكلم بكلمة الكفر ونحوه.

(المذكورة فى تلك الأخبار) التى رووها كما سمعته، وفصلناه قريبًا، فتنزيههما من هذا يعلم من تنزيه خالد لهما عن السحر، وتعليمه بالشرط المذكور بالطريق الأولى، **(وقول خالد)** الذى نقله المصنف، رحمه الله تعالى عنه، **(لم ينزل عليهما)** وبالتشديد والتخفيف مبنيًا للمجهول الذى دل عليه قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، إلخ.

(يريد) بقوله ذلك **(إن ما)** فى هذه الآية **(نافية وهو قول ابن عباس)**، رضى الله تعالى عنهما، وبه اقتدى خالد، وهو يقول كما فى بعض الشروح: إن المراد بالملكين جبريل، وميكائيل، وهاروت، وماروت بدل من الشياطين بدل بعض، وغيره لم يذهب لهذا كما تقدم، وهذا القول لم يقل به جمهور المفسرين والمحدثين كما عرفته.

(قال مكى) فى تفسيره، وقد تقدمت ترجمته: **(وتقدير الكلام)** عند ابن عباس، وخالد إذا كانت ما نافية، وأنه معطوف على قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ [البقرة: ١٠٢]، نبى الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يريد بالسحر الذى افتعلته الشياطين عليه)** أى

افترته، وكذبت فى نسبته إليه، قال فى الأساس: مفتعل، مختلق مصنوع، يعنى لا أصل له، قال ذو الرمة(١):

غرائب قد عرفن بكل أفق

من الآفاق تفتعل افتعالا، **(فاتبعهم فى ذلك اليهود)** كما قيل: إن الشياطين دفنت كتب السحر تحت كرسيه، فلما مات، وذهب علماء ملته، قالوا: إن تحت كرسيه كذا فحفروا ما تحته، فوجدوا الكتب، فقالوا: إن سليمان كان ساحرا، فلما نزل القرآن بذكره، قالت اليهود: إنه ساحر، فنزلت الآية بتكذيبهم، أى تكذيبا لهم كما رواه الطبرى، عن ابن جبير بسند صحيح، لكن فيه إن الشياطين هى التى كتبت كتب السحر ودفنتها، فلما مات استخرجتها، وقالوا: هذا هو العلم الذى كتمه عن الناس، وزاد ابن إسحاق: إنهم نقشوا خاتما كخاتم سليمان وختموا به الكتاب، وعنونوا به، فقالوا: هذا ما كتبه آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم، الذى أنزله الله تعالى على سليمان، فأخفاه عنا، ثم قرأوا كتب السحر والكفر على الناس.

(و) قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ أى شىء من السحر وهذا بيان؛ لأنها نافية، وهو قول ضعيف، **(قال مكى: هما)** أى الملكان **(جبريل وميكائيل)** كما تقدم.

(ادعى اليهود عليهما المجىء به)، أى أنهما نزلا بالسحر، وتعليمه افتراء عليهما، **(كما ادعوا على سليمان، عليه الصلاة والسلام)**، أنه ساحر اعتقد السحر وعمل به، افتراء عليه، **(فأكذبهم الله)** أى بين كذبهم **(فى ذلك)** كله مما نسبوه لجبرائيل وميكائيل وسليمان، **(بقوله: ولكن الشياطين)** إضراب إبطالى.

(كفروا) بكذبهم على الله وملائكته ورسله وعملهم السحر وتدوينه وهم الذين: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وبابل علم أرض ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، سميت بها لتبلبل الألسنة واللغات بها بعد الطوفان، وهى بالعراق.

وما قيل: إنها بالمغرب، فهو قول ضعيف جدا، **(وقيل هما)** أى هاروت وماروت **(رجلان)** لا ملكان **(تعلماه)** أى تعلما السحر، وهو قول: مردود وبابل مضاف لهما على هذا.

---

(١) صدر بيت، وعجزه: «من الآفاق تفتعل افتعالا». والبيت من الوافر، وهو لذى الرمة فى ديوانه (ص١٥٣٣)، ولسان العرب (٥٢٩/١١)، وتهذيب اللغة (٤٠٥/٢)، وتاج العروس **(فعل)**، وأساس البلاغة (٢٠٧/٢) **(فعل)**.

(وقال الحسن): هو الحسن البصرى، وقد تقدم بيانه، **(هاروت وماروت علجان من أهل بابل)** تثنية علج، وهو الغليظ من كفار العجم، أى ما عدا العرب، ويطلق على كل شديد من الكفارمطلقا من قولهم: هو مستعلج الوجه، أى غليظه واعتلجوا اضطربوا، **(وقرأ الحسن وما أنزل على الملكين بكسر اللام)**، كما تقدم.

(وتكون ما إيجابا)، أى موصولة لا نافية، **(على هذا)** القول والقراءة، والمعنى الذى أنزل على هذين الرجلين، **(وكذلك)**، أى كما قرأ الحسن **(قرأ عبد الرحمن بن أبزى بكسر اللام)** وبه قرأ فى الشواذ، ابن عباس، والضحاك، وعبد الرحمن هذا صحابى، كما جزم به، النووى، والذهبى، واختلف فى أبيه، فقيل: إنه صحابى أدرك النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وصلى خلفه.

وقيل: إنه تابعى لم يدركه وأبزى بفتح الهمزة، وسكون الموحدة، وزاء معجمة، وألف مقصورة، يقال: أبزى إذا أوسع خطوه، وقد أخرج له الستة وغيرهم كأحمد فى مسنده وهو خزاعى، **(ولكنه قال الملكان: هنا)**، أى فى هذه الآية، المراد بهما، **(داود وسليمان، عليهما الصلاة والسلام، وتكون ما نفيا على ما تقدم)** ولا شك أنهما معصومان، فلا تكون ما موصولة.

(وقيل: كانا ملكين) على أنه بكسر اللام فى هذه القراءة **(من بنى إسرائيل)**، هو لقب يعقوب، ومعناه صفوة الله، وإليه ينسب بنو إسرائيل **(فمسخهما الله)** بما وقع منهما **(حكاه السمرقندى)** قيل: إنه بسكون الراء، والنون وتقدم بيانه.

(والقراءة بكسر اللام شاذة) كما مر، والشاذ ما فوق العشرة على الصحيح، وقيل: ما فوق السبعة والكلام عليه في الأصول، وعلم القراءات مشهور، **(فمحمل)** بفتح الميم الأولى، وكسر الثانية أى ما يحمل عليه ويفسر به، **(الآية)** يعنى قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾، إلى آخره **(على تقدير أبى محمد مكى)** بجعل ما نافية معطوف على: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾، **(حسن)** على القول بأنهما لم يؤمرا بتعليمه ابتلاء وامتحانا كما تقدم.

وحسنه لأنه **(ينزه الملائكة)** عن المعاصى **(ويذهب الرجس)**، أى الإثم وجزاه **(عنهم ويطهرهم تطهيرا)** أى يبرئهم عن المعاصى وأوساخها، وهو اقتباس استعير فيه الرجس للمعاصى والتطهير للعصمة منها وتحقيقه فى الكشاف وشروحه.

(وقد وصفهم الله)، أى وصف الملائكة فى القرآن **(بأنهم مطهرون)** من الأدناس والعيوب، كالمعاصى، وهذا بناء على أحد التفاسير فيها كما تقدم، **(ولا يعصون الله ما**

أمرهم) ويفعلون ما يؤمرون وقد تقدم بيانه.

واعلم: أن ما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى فى قصة هاروت وماروت: من أنها لا أصل لها بحسب الرواية، ولا من جهة الدراية على ما هو الأصح من ملكيتهم؛ لأنهم معصومون والملك المعصوم لا يليق أن ينسب إليه ما ذكر من المعاصى، ونحوها مما مر، مردود أما الأول، فلما عرفته فيما مر، من أنه ورد فى حديث من طرق كثيرة بأسانيد صحيحة، كما قاله الحافظ ابن حجر، والسيوطى، قال: وجمعت طرقه فى جزء مستقل إلى آخر ما مر فالتردد فيه لا ينبغى، وأما ما أنكره من أنه نسب للملائكة ما لا يليق بهم ولا يصح نسبته لهم، فتحقيق الوجه أن الله تعالى لما جعل آدم، عليه الصلاة والسلام، خليفة والخلافة فى أولاده، وقالت الملائكة سؤال استفسار: أتجعلهم خلفاء يفسدون فى الأرض، فقال: «لو جعلت فيكم ما فيهم من الشهوة كنتم مثلهم»، فتعجبوا من ذلك، فأمرهم باختيار من يحكمه فى الأرض، فاختاروا هذين الملكين، فأودع فيهما جبلة شهوة بشرية وتمثلا بصورتهم، فلما أهبطهما ورأيا الزهرة فتنابها، وكان ما كان مما قصصناه عليك، فإذا عرفت هذا سقط هذا الاعتراض؛ لأنهما لما حولا عن الملكية، وأودع فيهما شهوة البشر، لا ينكر مثله منهما؛ لأن المعصوم الملك ما دام على أصل ملكيته، فإذا خرج عنها التحق بالبشر، فلا ينكر أن يصدر منهما ما يصدر منهم، وهذا هو الحق الحقيق.

(ومما يذكرونه) فى الاستدلال على ما ادعوه من أن الملائكة غير معصومين والمعصوم منهم الرسل فقط.

(قصة إبليس) لما عصى الله تعالى، وأبى السجود لآدم، عليه الصلاة والسلام، على القول بأنه كان من الملائكة، وفيه خلاف مشهور، كما أشار إليه بقوله: **(وإنه كان من الملائكة ورئيسا فيهم ومن خزان الجنة إلى آخر ما حكوه)** من أحواله، وخزان بضم ففتح وتشديد جمع خازن كخزنة من الخزن، وهو حفظ الخزائن، والمراد به حفظتها وحراسها، **(وأنه استثناه الله من الملائكة بقوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾)** [الكهف: ٥٠]، والأصل فى الاستثناء الاتصال المقتضى؛ لأنه منهم ولو لم يكن منهم داخلا فى أمرهم بالسجود لم يكن مستحقا للطرد وغيره.

(وهذا أيضا لم يتفق عليه) مبنى للمجهول، أى لم يتفق عليه العلماء، حتى يتم الاستدلال به مع معارضته لقوله فى آية أخرى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، وإن أوله الذاهبون إلى الأول، وهو منقول عن ابن عباس والكلام فيه مشهور غنى عن البيان.

(بل الأكثر) منهم **(ينفون ذلك و)** يقولون: **(إنه أبو الجن)** وهو المسمى بالجان أيضا، ومنهم من قال: إنه أبو الشياطين، وأن الجن جنس غيرهم الجان أبوهم، وأن الشياطين لا يسلمون ولا يموتون إلا معه، والجن منهم مسلم وكافر ويموتون كالبشر ويحشرون ويدخلون النار والجنة، **(كما أن آدم أبو الإنس وهو)** أى هذا القول **(قول الحسن، وقتادة، وابن زيد)** وهو عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، وتقدمت تراجم هؤلاء كلهم.

(وقال شهر بن حوشب): شهر بمعجمة بزنة ضرب، وحوشب بفتح الحاء المهملة وسكون الواو وفتح الشين المعجمة وموحدة، وهو ممن رووا عنه، ووثقوه وضعفه بعضهم، وتوفى سنة إحدى عشرة ومائة، وقيل فى تاريخ موته غير ذلك، وله ترجمة فى الميزان.

(كان من الجن الذين طردتهم الملائكة فى الأرض حين أفسدوا) فيها **(والاستثناء من غير الجنس)** وهو الاستثناء المنقطع **(شائع)** من شاع الخبر إذا اشتهر بين الناس، **(فى كلام العرب سائغ)** بسين مهملة وغين معجمة آخره، ومعناه جائز من ساغ الشراب إذا سهل شربه، وطاب استعير لما ذكر يعنى: إنه مسموع من أهل اللسان غير ممتنع بحسب العقل والفهم، ثم استدل بقوله تعالى: **(وقال الله تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ﴾)**، أى بالذين اختلفوا فى قتل عيسى، عليه الصلاة والسلام، (﴿مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧]) والظن ليس من العلم، وكذا اتباعه، وقد أخرج منه، وليس من جنسه، أى لكنهم اتبعوا الظن فيما زعموه، وتأويله مما تسكن إليه النفس يصححه ولا يجعله متصلا كما قيل.

وأما كون إبليس ملكا أو جنيا، أو أن الجن والملك نوع واحد من عنصر واحد، والجن من نار مخالط لدخانه، والملك من صافى نوره، كما قرره البيضاوى، والكلام على هذه الأقوال الثلاثة، وعلى حقيقة الجن، والملك، فلا يسعه هذا المقام.

(ومما رووه من الأخبار) كما رواه ابن جرير، عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، وابن أبى حاتم، عن يحيى بن كثير **(أن خلقا)**، أى طائفة **(من الملائكة عصوا الله)** فيما أمرهم به، وهذا بناء على عدم عصمة جميعهم، **(فحرفوا)** ضبطه بعضهم بالفاء من التحريف، أى طردوا وصرفوا عن مقامهم، وفى بعض الشروح: إنه بالقاف من تحريق النار، والراء المهملة مشددة فيهما مع بناء المجهول لكن قوله: **(وأمروا أن يسجدوا لآدم فأبوا)**، السجود له يأباه؛ لأنه بعد تحريفهم وفنائهم كيف يؤمرون بالسجود، إلا أن يقدر وآخرون أمروا بالسجود، **(فحرفوا)** هو كالذى قبله، ولو ضبط الأول بالفاء، والثانى بالقاف جاز على أنه قصد التجنيس فليحرر، **(وآخرون كذلك)**، أى أمروا بالسجود لآدم، فأبوا فحرفوا **(حتى سجد له من ذكر الله)**.

فى قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠]، (**إلا إبليس فى أخبار**)، أى ما ذكره الله تعالى فى القرآن مع إخبار آخر فى معنى الآية، (**لا أصل لها**) أى لا يعتمد عليها، يقال لكل ما لا يصح هذا لا أصل له، فيكنى بنفى الأصل عن نفيها.

(**يردها صحيح الأخبار**) المنافية لها لدلالتها على عصمة الملائكة كما فى الآيات المتقدمة (**فلا يشتغل بها، والله أعلم**).

* * *

(الباب الثاني: فيما يخصهم من الأمور الدنيوية)

التى تختص بالأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، من الصفات والسمات التى تكون لهم فى الدنيا سواء كانت واجبة، أو مندوبة، أو مباحة أولاً.

(و) فيما (**يطرأ**)، أى يحدث ويوجد وهو مهموز الآخر، وقد تبدل همزته بحرف علة، يقال: طرأ عليه كذا إذا عرض له، فلذا فسره وبينه بقوله: (**من العوارض**) جمع عارض، وأصل معناه ما يبدو عرضه، ثم استعمل فيما يعرض ويحدث من سقم وغيره، وقوله: (**البشرية**) تخصيص له؛ لأن العوارض تعرض للبشر من بنى آدم وغيرهم.

ولما ذكر فى الفصول التى قبل هذا مما يتعلق بالأنبياء من عصمتهم من الكبائر والصغائر، وألحقه ببيان عصمة الملائكة مما يتعلق بالأمور الأخروية، شرع فيما يتعلق بهم من الأمور الدنيوية، لما بينهما من التقابل فقال: (**قد قدمنا**) فى هذا الكتاب.

(**أنه**)، أى نبينا (**صلى الله تعالى عليه وسلم وسائر الأنبياء والرسل**)، أى بقيتهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين (**من البشر**)، أى أفراد كاملة من هذا النوع، فيجرى عليهم ما يجرى على غيرهم من لوازم البشرية، (**وأن جسمه وظاهره**) الضمير للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وللجسم والأول أولى (**خالص للبشر**) يعنى به أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما يتعلق ببنيته متمحض للبشر لا يخالف غيره فى شىء منها، فلذا قال: (**يجوز عليه**)، أى يجوز أن يطرأ عليه (**من الآفات**) جمع آفة، كعاهة وزنا ومعنى، وهو ما يفسد ما أصابه ويضره، قال السرقسطى فى أفعاله: آف القوم، أوفًا، إذا دخلت عليهم مشقة، وقد مر.

(**والتغيرات**)، أى الانتقال من حال إلى حال كالمرض والصحة، (**والآلام**) بالمد جمع ألم، وهو كما قال الراغب: الوجع الشديد، ومنه عذاب أليم، أى مؤلم، (**والأسقام**) جمع سقم، بفتحتين، وسقم بضم فسكون، وهو المرض المختص بالبدن؛ لأن منها ما هو نفسانى ومشترك.

(**وتجرع كأس الحمام**)، التجرع الشرب تدريجًا جرعة بعد جرعة، وكأس بهمزة، وتبدل ألفا قدح الشراب مادام فيه وإلا فهو زجاجة، وقدح، والحمام بكسر الحاء المهملة الموت من حم الأمر إذا قضى وقدر لأنه بقضائه وقدره، وفيه استعارة مكنية مرشحة شبه بالمسكر، كما فى الحديث: «إن للموت سكرات»[1]؛ لإزالته العقل،

(١) أخرجه البخارى (٦/٨، ١٦).

فأثبت له الكأس تخييلاً وأثبت التجرع ترشيحًا، وكون إضافة الكأس كإضافة لجين الماء ركيك، وتأخيره عن الأسقام والآلام واقع موقعه، **(ما يجوز على)** غيره من **(البشر)**؛ لأن المساواة فى الجسمية تقتضى المساواة فى قبول الأعراض كما تقرر فى الحكمة وعلم الكلام، وما موصولة فاعل ليجوز الأول، **(وهذا كله)**، أى ما جوز عليه، وعلى سائر الأنبياء من جواز أن يطرأ عليهم كغيرهم العوارض البشرية من الآلام، وغيرها.

(ليس بنقيصة فيه)؛ لأنه أمور طبيعية غير كسبية لا يعد مثله نقصًا إلا عند بعض العقول القاصرة، كما قالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام، ويمشى فى الأسواق **(لأن الشىء إنما يسمى ناقصًا بالإضافة)**، أى بالنسبة **(إلى ما هو أتم منه وأكمل من نوعه)** كما يتفاوت بعض أفراد الناس ويفوق بعضهم بعضًا بالفضائل، والأخلاق الحميدة.

(وقد كتب الله)، أى قضى وقدر فى الأزل قضاء مبرمًا **(على أهل هذه الدار)** يعنى دار الدنيا أنهم: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]، إلى البرزخ، ثم إلى منازلهم فى الآخرة، وهذا وقع فى القرآن خطابًا لآدم وحواء، والمراد عمومه لهم ولغيرهم ومنه اقتبس المصنف.

(وخلق جميع البشر بمدرجة الغير) مدرجة بفتح الميم اسم مكان بمعنى الطريق، قال الراغب: يقال لقارعة الطريق: مدرجة، وفلان يتدرج، أى يتصعد درجة درجة، ودرج مشى، فهى محال المشى، والغير بكسر الغين المعجمة، وفتح المثناة التحتية، وراء مهملة يقال: غير الدهر حوادثه المتغيرة من حال إلى حال، وهو مفرد بزنة عنب، أو جمع غيرة، وهى الأمر المتعسر، وباء بمدرجة بمعنى فى أو للملابسة وهذه فقرة بليغة؛ لأنه جعل دارهم الدنيا على طريق يمر عليها حوادث الدهر، والمراد أنهم مستعدون لها لا محالة، وفيه إشارة إلى أن الدنيا دار ممر لا مقر، وفيه استعارة مكنية شبه حوادث الدهر بقوم سالكون فى طريق هؤلاء ساكنون، فهو فى غاية الحسن.

(فقد مرض صلى الله تعالى عليه وسلم)، وهذا يحتمل أنه إشارة إلى ما كان يطرأ عليه من الأمراض مطلقًا كما رواه البخارى، إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يتوعك وعكًا شديدًا، وذلك ليزداد أجره، ويحتمل أنه إشارة إلى ما وقع له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى مرض موته والكلام عليه مفصل فى كتب الحديث والسير، فلا حاجة للتطويل بذكره كما فعله بعضهم هنا.

وقوله: **(واشتكى)** بمعنى مرض أيضًا، قيل: وإنما ذكره إشارة إلى أنه ورد فى الحديث تارة التعبير عنه، بأنه مرض، وتارة بأنه اشتكى، وليس المراد به معناه المشهور لما يؤثر من

صبره، صلى الله تعالى عليه وسلم، والرضى بما يفعله الله به، وروى أن جبريل كان يرقيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى مرضه فيقول: «بسم الله أرقيك من كل شىء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك»، **(وأصابه الحر والقر)** والحر بفتح الحاء المهملة، وتشديد الراء المهملة، وهو شدة سخونة الهواء فى الصيف وضده القر، بضم القاف وتشديد الراء، وهو شدة البرد، ويجوز فتح قافه للازدواج.

(وأدركه الجوع والعطش) وهو من الله تعالى ليزداد أجره بصبره ومجاهدته تعليمًا لأمته، ولو أراد خلافه ملأ الله له الدنيا رزقًا ونعمًا، وفى ذلك أيضًا رياضة يتصفى بها الذهن، وتخف الروح، لكنه يظهره فى صورة العجز تأدبًا مع الله تعالى، ومخالفة لأهل الملل فى ذلك؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «لا رهبانية فى الدين» (١)، وهذا فى بعض الأحيان، وإن كان يواصل الصوم ويقول: «إنى لست كأحدكم، إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى» (٢)، فإن لكل مقام حال يخصه، وقد حققه المحدثون، وابن سينا فى مقامات العارفين فى آخر الإشارات.

(ولحقه) فعل ماض بلام وحاء مهملة وقاف، **(الغضب)** وهو ثوران النفس لإرادة الانتقام، وكان غضبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لله إذا وقع من غيره ما لا يرضاه، **(والضجر)** بضاد معجمة وجيم وراء مهملة بمعنى القلق، وقيل: إنه الملل والسآمة من إلحاح بعض الناس من الأعراب، والمؤلفة قلوبهم، وهذا كله ورد فى الأحاديث الصحيحة.

(وناله) أى حصل له، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(الإعياء والتعب)** وهو عطف تفسير للإعياء، فإنهما بمعنى واحد، فكان يعرض له هذا كله، كما يعرض لغيره من البشر، **(ومسه الضعف)** فى بدنه فى آخر عمره، **(والكبر)** المراد به: هرم الشيخوخة، وهذه كلها أمور جبلية تحدث لنوع الإنسان لا يسلم منها أحد، لا نبى ولا غيره، ولا يعد ذلك نقصًا، فكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يصلى قاعدًا فى تهجده كما رواه مسلم، ولو قصد السجع، فجعلها فقرات رائية قدم الضعف والكبر.

(وسقط)، أى وقع، صلى الله تعالى عليه وسلم، من فوق فرسه **(فجحش)** بضم الجيم، وكسر الحاء المهملة، وشين معجمة مبنى لما لم يسم فاعله، أى خدش والخدش، والجحش جرح فى الجلد، وقال الخليل: وهو كالخدش أو أكثر.

---

(١) أورده العجلونى فى كشف الخفا (٥٢٨/٢)، والقيسرانى فى تذكرة الموضوعات (٩٨٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢١/٢، ٢٣، ٢٣٧، ٢٤٤، ٣٠/٣، ١٧٠، ٢٤٥)، والترمذى (٧٧٨)، والحميدى (١٠٠٩)، وأبو نعيم فى الحلية (٢٥٩/٧).

(**شقه**) بكسر الشين المعجمة وتشديد القاف، أى جانبه الأيمن، وهو فى حديث من أحاديث الصحيحين، وكان ذلك فى ذى الحجة سنة خمس.

وفى البخارى، عن أنس، رضى الله تعالى عنه، أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، سقط عن فرسه، فجحشت ساقه أو كتفه، (**وشجه الكفار**) فى وجهه فأدموه والشج فى الأصل أن يضرب الرأس فيشق، ثم استعمل فى غيره من الأعضاء، والذى شجه ابن قمئة، فأسند ما وقع من البعض للكل كقولهم: بنو فلان قتلوا قتيلاً، كما تقدم.

(**وكسروا رباعيته**) بتخفيف الياء بزنة ثمانية، وهى السن التى بين الثنية والناب، وتجمع على رباعيات، وفى التعبير بالكسر إشارة إلى أنها ذهبت منها فلقة و لم تسقط من أصلها، وكان هذا فى وقعة أحد، فشج وجهه الشريف، وكسرت رباعيته السفلى، وجحشت ركبته وسال الدم على وجهه، وهشمت الخوذة التى على رأسه الشريف، كما فصل فى السير، وهو لا ينافى كون الله عصمه من الناس، إن قلنا: إن آية العصمة نزلت قبل، وإلا فالعصمة إنما هى عن القتل كما مر، وقد فصله الإمام الخيضرى فى خصائصه.

(**وسقى**) بالبناء للمجهول (**السم**) بسين مثلثة، وذلك إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد فتح خيبر أهدت له زينب بنت الحارث اليهودية شاة مشوية، وكانت سألت أى أعضاء الشاة أحب إليه، فقالوا: الذراع فأكثرت من السم فيه، وقدمت إليه، فلما مضغه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يسغه، وأكل منه بشر بن البراء، فمات بعد ذلك.

وقال، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأصحابه: «امسكوا، فإنها مسمومة، وقال لها: «ما حملك على هذا؟»، قالت: إن كنت نبيًا سلمت منه، فأعلم بك، وإلا أراح الله الناس منك، فاحتجم، صلى الله تعالى عليه وسلم، على كاهله(١)، كما يأتى.

وروى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يعاقبها، وفى رواية: إنه قتلها، قال الواقدى، رحمه الله تعالى، وهو أنسب وجمع بينهما، بأنه تركها أولاً، ثم لما مات بشر ابن البراء قتلها، وقيل: إنها أخت مرحب اليهودى، ولذا ترك قتلها أول الأمر وتفصيله فى السير.

(**وسحر**) بالبناء للمجهول والساحر له، لبيد بن الأعصم، كما مر، ترك ذكره لشهرته أو لخسته أو لعدم تعلق الغرض به، وهو يهودى من بنى زريق، وقيل: إنه منافق أسلم ظاهرًا، وارتضاه ابن الجوزى، وكان ذلك فى مرجعه من الحديبية فى ذى الحجة،

---

(١) أخرجه الحاكم (٢١٩/٣)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٢٦٠/٤).

ودخل المحرم سنة سبع، وقيل: إنه كان حليفًا فى بنى زريق يحسن السحر، فجعل له اليهود جعلاً على أن يسحره، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأثر فيه سحره أربعين ليلة، وقيل: ستة أشهر، وقيل: إنه مكث سنة، ويأتى فى رواية يحيى بن يعمر، ما يؤيد هذا الأخير، وأن السهيلى، قال: إنه المعتمد.

(وتداوى)، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما يتداوى غيره، فهو من جملة ما يلحقه من العوارض البشرية، فتداوى من لدغة عقرب بماء وملح لما لدغته فى أصبعه، وهو يصلى كما فى مسند ابن أبى شيبة، عن ابن مسعود، فأتى بماء وملح، وجعل فيه أصبعه الشريف.

(واحتجم) على كتفه لما مضغ من الشاة المسمومة، كما تقدم، وبالحجامة يخرج السم مع الدم، أو يضعف الدم، فلا يوصل السم إلى القلب، إلا أنه لم يزل به، صلى الله تعالى عليه وسلم، أثره حتى مات لأجل أن يرزقه الله الشهادة، وفضلها كما روى فى كتب الحديث.

(وانتشر) انفعال من النشر بنون وشين معجمة، وراء مهملة، وفى نسخة تنشر والنشرة بمعنى الرقية والتعوذ، والتحقيق أن النشرة بالضم أو الفتح ما يقرأ عليه أدعية وتعاويذ، ثم يغسل بها من به مرض ونحوه، سميت نشرة لنشر الماء فيها، **(وتعوذ)** بذال معجمة من العوذة، وهى الرقية بأعوذ بالله ونحوه، ثم عمت، ورقيته، صلى الله تعالى عليه وسلم، لنفسه ورقية جبريل له، صلى الله تعالى عليه وسلم، مروية من طرق كقوله: «أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»، وغيره.

(ثم) بعد هذا كله ﴿قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، كغيره، وقضاء النحب كناية عن الموت، وأصل معنى النحب النذر الواجب، فيقال ذلك كأنه لتحتمه كان نذرًا فى ذمته يقضيه بموته، لا يقال: قضى أجله واستوفاه، وقيل: النحب الموت من النحيب، وهو البكاء والتحقيق ما قدمناه.

(فتوفى، صلى الله تعالى عليه وسلم)، أى توفاه الله **(ولحق بالرفيق الأعلى)**، وهم الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، والرفيق بمعنى المرافق يقع على الواحد وغيره، قال تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وقيل: الرفيق، المراد به: الله لرفقه لعباده أو لأنه معهم، أينما كانوا، وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها، أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قال عند موته: «بل الرفيق الأعلى»[١]، وذلك أنه خير بين بقائه فى الدنيا

(١) تقدم تخريجه.

وبين ما عند الله فاختار ما عنده.

(وتخلص) بوفاته **(من)** الدنيا التى هى **(دار المحن)** وفى نسخة الامتحان **(والبلوى)** لما كان يقاسيه من أعداء الدين وتبليغ أمانة الله **(وهذه)** الأمور المذكورة التى كانت تصيبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من **(سمات البشر)** أى من صفاتهم وعلاماتهم المختصة بهم من السمة، وهى الوسم والعلامة **(التى لا محيص عنها)**، أى لا يتخلص منها أحد من الخلق نبيًا كان أو غيره.

قال الراغب: يقال من محيص: وما لنا من محيص من حيص بيص، أو من حاص بمعنى حاد عما فيه شدة فهو مكروه، **(وأصاب غيره من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ما هو أعظم منها)** أى من الأمور التى أصابت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فقتلوا قتيلاً)** بغير حق كما وقع ليحيى بن زكريا، والقتل وقع لبعض الأنبياء كما قال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١]، ولبعض رسل الله إلا أن الله تعالى عصمهم من القتل حين الدعوى وفى مقاتلة الكفار المأمورين بها، كما ذكره علماء التفسير والأخبار، ولقتل يحيى وانتقام الله ممن قتله، بأن سلط عليهم بخت نصر فقتل منهم سبعين ألفًا كما فصله المؤرخون.

وفى نسخة: قتلوا قتيلاً والمصدر محقق لتأكيد القتل، **(ورموا فى النار)** كإبراهيم الخليل، صلى الله تعالى عليه وسلم، رماه فيها نمرود بمنجنيق من بناء عال، فصارت النار عليه بردًا وسلامًا، وكذا جرجيس كما فى قصص الأنبياء للثعالبى.

(ونشروا بالمناشير) جمع منشار ويقال: ميشار بياء بدل النون ويهمز، وهى آلة من حديد معروفة يشق به الخشب، وهو مشتق من النشر لتفريقه المنشور قطعًا، وفى المنشار لغات نشره، ووشره، وفى جمعه مناشير، ومواشير، فيصح ضبط ما هنا بالياء.

وقول ابن قتيبة: إن مياشير عامية، كما نقل عنه لا أدرى ما وجهه، والذى نشر هو زكريا، عليه الصلاة والسلام، لما قتل الملك يحيى، فوقع به ما وقع من قتل بنيه إذ سلط الله تعالى عليه عدوا، فهرب زكريا من الملك، فأرسل خلفه من يطلبه وأدركه الطلب، فانشقت له شجرة، فدخل فيها فأمسك الشيطان هدب إزاره خارجًا من الشجرة، فدلهم الشيطان عليه، فنشروا الشجرة، وزكريا، وقيل: سبب هربه أنهم اتهموه بمريم.

(ومنهم) أى الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(من وقاه الله)** أى صانه **(ذلك)** أى القتل والحرق، والنشر، ووقى بمعنى حفظ وستر، يتعدى لمفعولين، وفى الحديث: يقى بالصدقة وجهه النار، **(فى بعض الأوقات)** كما وقع فى يوسف، عليه الصلاة والسلام،

من إحراق النار، **(ومنهم من عصمه)**، وحفظ من القتل، وإن وقع له بعض ما يؤذيه **(كما عصم بعد)** مبنى على الضم أى بعد ما يسلط عليه الأعداء **(نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الناس)** كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، كما تقدم.

(فلئن لم يكف) من كفه يكف بالتشديد، ويجوز تخفيفه بجزمه بحذف آخره كيرمى، وهو الظاهر على النسخة الأولى، **(نبينا)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو مفعول مقدم و**(ربه)** فاعل مؤخر، وفى نسخة عن نبينا: **(يد ابن قمئة)** مفعول، وقمئة بالهمز بزنة فعلة من قمى، بمعنى صغر وذل، وهو عبد الله بن قمئة، الذى جرح وجهه الشريف، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما رماه، وقال له خذها، وأنا ابن قمئة، فقال له رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أقماك الله»، أى أذلك فرماه الله من شاهق جبل معروف لما انصرف فتقطع قطعًا(١)، وقصته فى السير.

(يوم أحد) اليوم بمعناه الحقيقى، أو المراد به غزوتها كقولهم أيام العرب لوقائعهم، وهو بهذا المعنى مشهور، ومنه وذكرهم بأيام الله، **(ولا حجبه عن عيون عداه)** بكسر العين مقصور، جمع عدو وفيه كلام فى كتب اللغة والنحو **(عند دعوته)** للإسلام **(أهل الطائف)** هى بلاد ثقيف بقرب مكة سميت بها؛ لأنها طافت على الماء فى الطوفان، أو لأن جبريل، عليه الصلاة والسلام، اقتطعها من الشام، وطاف بها البيت وقيل: لأنه بنى عليها طوف، أى حائط وهذا كان سنة عشر من النبوة بعد موت أبى طالب، وقد نالت منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قريش ما نالها، فخرج إلى الطائف وحده أو معه زيد ابن حارثة يلتمس نصرة ثقيف له، فقام على ناس من أشرافهم ودعاهم للإسلام فأبوا وأغروا به سفهاءهم، فأطالوا عليه وحصبوه حتى أدموا ساقيه، وهو ذاهب، ثم كفهم الله تعالى عنه، وحجبهم عنه، فجلس عند حائط كرم، وكان ما فصل فى السير من عرضه نفسه على قبائل العرب.

(فلقد أخذ) الله عز وجل، أى غطى وحجب **(على عيون قريش)** يقال: أخذ على عينه، وعلى يده إذا كفه ومنعه، فالعيون جمع عين بمعنى الباصرة، أو بمعنى الرئية والجاسوس وكان ذلك **(عند خروجه)** من مكة.

(إلى غار) بجبل **(ثور)** هذا هو الصحيح، وفى نسخة أبى ثور، وهى غلط لأنه إنما يعرف بثور وهو جبل معروف على يمين مكة لما تشاوروا فى أمره، صلى الله تعالى عليه

(١) انظر: فتح البارى (٣٧٣/٧)، وإتحاف السادة المتقين (٩٣/٧).

وسلم، بدار الندوة، ثم أجمعوا على قتله، فأمر عليًا كرم الله وجهه، بالنوم على فراشه، فخرج، صلى الله تعالى عليه وسلم، عليهم وهم عند داره، وقد أخذ الله تعالى على عيونهم ونثر على رءوسهم ترابًا، وسمى ثورًا لنزول ثور بن عبد مناف عنده، وثور اسم جبل أيضًا بالمدينة كما فى القاموس وغيره، وأهل المدينة يعرفه فلا عبرة بمن أنكره كابن عبد السلام، **(وأمسك الله عنه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(سيف غورث) بن الحارث الأعرابى، كما فى البخارى، وغورث بغين معجمة على الصحيح، وقيل: مهملة وواو وراء مهملة وثاء مثلثة، وروى مصغرًا، وهو بزنة جعفر وهو عند الخطيب بكاف بدل المثلثة، وقيل: اسمه دعثور بن الحارث، والظاهر أنه غيره فى قصة أخرى، وكان فى بعض غزواته أدركتهم القائلة فنزلوا بواد كثير الغضا، فأنزل، صلى الله تعالى عليه وسلم، بظل شجرة علق بها سيفه وتفرقوا عنه وناموا، فبعد حين دعاهم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأتوا فإذا أعرابى جالس عنده، فقال: إن هذا أتانى وأنا نائم فاخترط سيفى، فاستيقظت وهو فى يده مصلتا، فقال: من يمنعك منى قلت: الله، وها هو جالس، ولم يعاقبه، وهو من المشركين، والغزوة ذات الرقاع، وهو من غطفان ومحارب، وكان قال لقومه: أنا أقتل لكم محمدًا، وروى أن جبريل، عليه الصلاة والسلام، دفع صدره فسقط السيف من يده، وأسلم هو وذهب لقومه فدعاهم للإسلام[1]، وفى هذه نزل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ﴾ [المائدة: ١١]، إلى آخره كما تقدم ذلك كله.

(و) أمسك الله عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(حجر أبى جهل)** بن هشام، لعنه الله تعالى، إذ أراد أن يرميه، صلى الله تعالى عليه وسلم به، وكان قال لقريش: لأرضخنه غدًا بحجر أحمله لا أكاد أطيق حمله، فامنعونى من بنى عبد مناف، فارتقبه غداة يومه حتى أتى المسجد يصلى، فأخذ الحجر ومضى له، فلما أراد رميه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يبست عليه يده، ثم عاد متغير اللون فسألوا، فقال: عرض دونه فحل لم أر مثله عظمًا هم أن يأكلنى، فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «ذاك جبريل، لو دنى لأخذه».

(و) أمسك الله عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فرس سراقة)**، هو سراقة بن مالك ابن جعشم الكنانى، كان جعل له قريش دية من أخذ من أبى بكر، ورسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما خرج مستخفيًا للهجرة، وهو من مدلج القافه، وقصته فى ذهابه

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٣١١)، والبيهقى فى السنن الكبرى (٦/٣١٩)، وفى دلائل النبوة (٣/٣٧٣)، والبغوى فى تفسيره (٢/٧٥).

خلفهما، فلما أدركهما ساخت قوائم فرسه فى الأرض وكادت تبتلعه، فطلب الأمان فأمنه ونجا وعاد إلى آخر القصة المشهورة، وهو شاعر جيد أسلم، وحسن إسلامه، ومات سنة أربع وعشرين فى خلافة عثمان، رضى الله تعالى عنه.

قلت: ولما كف يده عنهما شرفه الله تعالى بالإسلام، وألبسه سوارى كسرى كما مر بيانه، (**ولئن لم يقه من سحر ابن الأعصم**) لبيد اليهودى كما تقدم.

(**فلقد وقاه ما هو أعظم**) خطرًا من سحره (**من سم اليهودية**) فى قصتها التى تقدمت قريبًا وسيأتى الكلام على سحره، وهذا جواب عن سؤال تقديره: إنك قررت أن الله تعالى ميزه عن سائر الأنبياء بوقايته، وجعله فى حصن صيانته، فلم لم يعصمه من ابن الأعصم، فأجاب بأنه ابتلاه به تكثيرًا لثوابه ونعمه ما صرف عنه من مصابه وقد وقاه بما هو أعظم منه، وهو السم القاتل فلا وجه لما قيل: من أنه لا فائدة فيه، وسيأتى بيان فائدته مع أنه توطئة لقوله: (**وهكذا سائر أنبيائه**) أى عادة الله مع سائر أنبيائه، أى بقية أنبياء الله تعالى منهم.

(**مبتلى**) بالمصائب تكثيرًا لأجورهم، (**و**) منهم (**معافى**) تكريمًا لهم وحفظًا (**وذلك**)، أى ابتلاؤهم أو كون أحوالهم مختلفة (**من تمام حكمته**) الجارية فى مخلوقاته (**ليظهر**) بابتلائهم مع صبرهم ورضاهم فى السراء والضراء، (**شرفهم فى هذه المقامات**)، أى أحوالهم المتفاوتة (**ويتبين أمرهم**) بصبرهم على ما لا يطيقه غيرهم.

(**وتتم كلمته فيهم**)، يعنى أمره لهم بالصبر على الأذى حتى تكون لهم العاقبة الحسنى، (**وليحقق بامتحانهم**) بما ابتلاهم به، (**بشريتهم**)، أى أنهم من جنس البشر الذين فى دار المصائب، (**ويرتفع**) وفى نسخة يرفع، أى يزيل (**الالتباس**) فى أمور الدنيا (**عن أهل الضعف**)، أى من ضعف عقله من العوام.

(**فيهم**) أى فى أنبياء الله تعالى لتوهمهم لضعف عقولهم، أنهم ليسوا كغيرهم ممن يغشاه البلاء، ويعرض له الموت والفناء، ولذا ارتد بعض جهلة الأعراب لما توفى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فابتلاهم ليعرف الناس إنهم كغيرهم فى العوارض البشرية، (**لئلا يضلوا**)، بفساد اعتقادهم فيهم (**بما يظهر من العجائب**)، أى خوارق العادات وبدائع المعجزات التى تظهر (**على أيديهم**) وتصدر منهم بأمر الله تعالى تأييدًا، كانشقاق القمر وإحياء الموتى ونحوه، فيقولون: من يقدر على هذا؟ كيف يمرض أو يسحر ويعرض له ما يعرض لضعفاء الخلق.

(**ضلال**) أى ضلالاً كضلال (**النصارى بعيسى**) ابن مريم، عليه الصلاة والسلام، لما

رأوا معجزته جعلوه إلها، وقالوا ما قالوا لجهلهم، وعدم دقة نظرهم، والنصارى على فرق يطول الكلام فى بيان اعتقاداتهم الباطلة وتزييف ما قالوه، وقد ألف فى ذلك عدة كتب أجلها كتاب ابن تيمية والقرطبى، ومقامنا يضيق عن الكلام عليها إذ المراد شرح ما قاله المصنف، رحمه الله تعالى، حتى يسهل فهمه على المبتدئين.

(**وليكون فى محنتهم**) مما ابتلاهم به الله تعالى (**تسلية لأممهم**) فيقتدوا بهذا إذا نزلت بهم المصائب ويصبروا كما صبروا (**ووفور أجورهم**) الوفور الكثرة والزيادة، (**عند ربهم**) إذا رجعوا إليه، وجازاهم بما صبروا عليه ليعرفوا نعمة السلامة والعاقبة، (**تمامًا**)، أى يتم ذلك بإنعامه (**على الذى أحسن إليهم**) أولاً بنعمة الوجود والصحة وغيرهما من النعم الدنيوية، فيزيدها بأعظم منها من النعم الأخروية التى لا يعادلها شىء مجازاة لصبرهم وشكرهم.

(**قال بعض المحققين: وهذه الطوارئ**) جمع طارئ بالهمزة وتبدل ياء وهى ما يطرأ، أى يحدث ويتجدد، (**والتغيرات**)، أى تغير أحوالهم من صحة لسقم وسعة لضيق ونحوه (**المذكورة، إنما تختص بأجسامهم البشرية**) دون أرواحهم ونفوسهم القدسية، (**المقصود بها**) والفائدة فى إيجادها لهم فى أجسادهم.

(**مقاومة البشر**)، أى أن يكونوا بطباعهم مساوون لأممهم فيها حتى يقدروا على القيام بأمورهم، (**ومعاناة بنى آدم**) بمباشرتهم ومخالطتهم (**لمشاكلة الجنس**)، أى لمشابهتهم لهم فى الخَلق والخُلق، ولذا كانت الرسل من البشر دون الملائكة، ولو جعل خلقهم ملكيًا لم يطيقوا شيئًا مما ذكر، كما ترى بعض الناس لا يقدر على عشرة العوام وينفر منهم لمنافرة الطباع.

(**وأما بواطنهم**)، أى أمورهم التى لا تحس من عقولهم وقواهم الروحانية، وقلوبهم، وحواسهم الباطنة، وهو جمع باطن خلاف الظاهر (**فمنزهة**) أى سالمة مبرأة (**عن ذلك غالبًا**)، وقد يعرض لها شىء منه معفو عنه، لكنها فى غالب أحوالها.

(**معصومة منه**) مطهرة عما يشينها كتغير العقل، وقد يعرض له أحيانًا ما لا يضره كالإغماء الذى وقع له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى مرض موته فبواطنهم (**متعلقة بالملأ الأعلى**)، وفى نسخة بالرفيق الأعلى، وقد تقدم أن الرفيق بمعنى فاعل يستوى فيه الواحد وغيره، وهم أرواح الأنبياء الساكنين فى عليين.

(**والملائكة**) فهو عطف تفسير على هذا (**لأخذها**)، أى لأخذ البواطن وتلقيها وإرجاع ضمير أخذها لأخبار السماء وغيرها بعيد (**عنهم**)، أى الملائكة، (**وتلقيها**

الوحى) النازل عليهم لتبليغه ما أرسل به **(منهم)** أى من الملائكة، وما قيل عليه من أن حذف قوله غالبًا أحسن بل واجب لا وجه له لما بينا من بيان مراده به.

(قال) القائل: بعض المحققين المحكى عنه ما ذكره إلى هنا، وهو دليل لما قاله، **(وقد قال، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، فى حديث تقدم بسنده، **(أن عينى)** بتشديد الياء مثنى عين مضافة لياء المتكلم، **(تنامان)**، أى يعرض لهما النوم حتى لا يحسان إحساسًا ظاهرًا متعارفًا **(ولا ينام قلبى)**، أى لا ينقطع شعوره وإدراكه بالكلية، وهذا باعتبار الغالب من أحواله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذ قد ينام نومًا ينقطع به شعور عينه، وقلبه كما تقدم فى حديث الوادى الذى نام فيه حتى فاتته الصلاة، وبهذا علمت أن قوله غالبًا فى محله كما مر، وفيه دليل على أن ظاهره كغيره.

(وقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(إنى لست كهيئتكم)**، أى ليس حالى كحالكم وتقدم المراد بالهيئة هنا، **(إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى)** بضم ياء يطعم وفتح ياء يسقينى ويجوز ضمها، يقال: سقاه وأسقاه، بمعنى وهو فى صومه صوم الوصال على حقيقته أو مأول بما تقوى به روحه من المعارف الإلهية التى تقوم مقام الطعام والشراب فى تقوية الروح التى يسرى للبدن وفيه كلام مشهور تقدم طرف منه.

(وقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث آخر: **(إنى لست أنسى ولكن أنسى ليستن بى)** تقدم فيه ما يغنى عن الإعادة، **(فأخبر)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى هذه الأحاديث **(أن سره)**، أى ما خفى من أمره **(وباطنه)** عطف تفسير لسره، **(وروحه)** التى بها الحياة وقيام البدن، وهذا حقيقتها ولها معان أخر **(بخلاف جسمه وظاهره)**، أى مخالفة لها فيما يعتريها من التغيرات والآلام كغيره من سائر البشر، كما قرره فى أول هذا الفصل.

(وأن الآفات) جمع آفة وتقدم بيانها، **(التى تحل ظاهره)**، أى ما يشاهد من جسده الشريف فقط وبينه بقوله: **(من ضعف)** بانحطاط القوى لمرض أو كبر، **(وجوع)** لفقد الغذاء، وما به قوام البدن من بدل ما يتحلل منه.

(وسهر) بفقد النوم الذى به راحة البدن واستراحة الحواس، **(ونوم)** يستريح به بدنه وقواه، وقال المعرى:

وفضيلة النوم الخروج بأهله عن عالم هو بالأذى مجبول

(لا يحل) بضم الحاء المهملة من الحلول، **(منها)**، أى هذه المذكورات كلها من التغيرات **(شىء باطنه)**، أى حواسه الباطنة **(بخلاف غيره من البشر)** فإنه يعرض له تغيرات

فى الظاهر والباطن مما يعد بعضه نقصًا فيه (**فى حكم الباطن**) إشارة إلى محل المخالفة لتساويهما فى الظاهر كما تقدم.

ثم وضحه بقوله؛ (**لأن غيره**) من البشر بل سائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، و لم يصرح به لعلمه مما قدمه (**إذا نام استغرق النوم**) بالرفع فاعل استغرق (**جسمه وقلبه**) مفعوله، أى شغلهما وأثر فيهما تأثيرًا تامًا يعطل حواسه الظاهرة والباطنة بخلاف الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فإنه يشغل ظاهرهم دون باطنهم، فالأول كالميت، كما قال ابن عربى، رحمه الله تعالى:

فيا نائم الليل هنيته   فقبل الممات سكنت القبورا

ولذا قيل النوم أخو الموت (**وهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى نومه حاضر القلب**) لعدم استغراقه فى نومه وحضور القلب مجاز عن إدراكه وشعوره وغيره، كأن قلبه فارقه أو أريد به لازمه، فهو استعارة أو مجاز مرسل ومثله كثير فى استعمالهم، فحاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى نومه (**كما هو فى يقظته**) بفتح القاف، وقد تسكن فى الشعر كما مر، وهى ضد النوم، أى حاضر الحواس والمشاعر فيهما كما ذكرناه سابقًا.

وتقدم أنه باعتبار غالب أحواله (**حتى قد جاء**) أى روى (**فى بعض الآثار**)، أى الأحاديث والأثر، ورد بهذا المعنى، وقد يخص بغيره من الأخبار، (**أنه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**كان محروسًا**) أى مصونًا محفوظًا، وأصل الحرس ملازمة من يحفظه من الناس، فتجوز به عما ذكر (**من الحدث**) هو ما ينقض الوضوء وطهارته كما هو معروف فى الاستعمال.

(**فى**) حالة (**نومه**)؛ لأنه إنما يحدث لعدم الشعور به، كما قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «العينان وكاء السه» (١)، (**لكون قلبه يقظان كما ذكرناه**) والحدث إنما يعرض لعدم شعور القلب والحواس الباطنة، وقد ذهب الفقهاء إلى أن نومه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان لا ينقض وضوءه، وعدوه من خصائصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأما نوم غيره فينقض وضوءه ما لم يكن جالسًا متمكنًا بشرطه على الصحيح، ومن قال خلافه فليس معتمدًا عليه كما بينه الفقهاء فى كتبهم.

وقد روى المحدثون بأسانيد صحيحة، كما تقدم أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان ينام حتى يسمع خطيطه، ثم يقوم فيصلى من غير تجديد وضوئه، وما قيل من أن فيه بحثًا؛ لأنه إذا كان حاضر القلب، فهو يقظان، وهو حينئذ ليس مظنة الحدث، ونقض

---

(١) تقدم تخريجه.

الوضوء حتى يجعل غاية، لكونه محروسًا ويستشهد له بالآثار ليس بشىء؛ لأنه إذا نامت حواسه الظاهرة يقتضى ذلك؛ لأن الأحكام منوطة بالظاهر دون الباطن.

(**وكذلك**)، أى كما أن نوم غيره، ليس كنومه لكونه غير محروس من الحدث (**غيره**)، أى غير النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**إذا جاع**) بترك غدائه أكثر من معتاده (**ضعف لذلك**) أى لجوعه تضعف بنيته و(**جسمه وخارت قوته**) بخاء معجمة وراء مهملة، أى ارتخت وضعفت من الخور، وهو اللين والضعف، وقيل: معنى خارت ذهبت أو انكسرت (**فتعطلت بالكلية جملته**)، أى جميعه ظاهره وباطنه مخالفًا للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، الذين تتعطل ظواهرهم دون بواطنهم.

(**وهو**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**قد أخبر أنه لا يعتريه**) أى يعرض له (**ذلك**)، أى تعطل جملته لقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «ولا ينام قلبى»، (**وأنه**) أى حاله (**بخلافهم**) أى يخالف حال غيره من البشر (**لقوله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه البخارى فى وصاله الصوم، ونهى غيره عنه، وقولهم له: إنك تواصل صومك، فقال لهم: («**إنى لست كهيئتكم إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى**»)، تقدم بيانه.

قال المصنف، رحمه الله تعالى: (**وكذلك**)، أى كما قال بعض المحققين: أن التغيرات الطارئة على البشر تختص بظواهر الأنبياء دون بواطنهم، (**أقول إنه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**فى هذه الأحوال**) البشرية (**كلها من وصب**) بيان للأحوال والوصب الألم الدائم، وقد جاء بمعنى التعب، وهو أولى هنا لئلا يتكرر مع قوله، (**ومرض**) وإن صح جعله عطف تفسير أو مؤكدًا.

(**وضجر**) هو قلق واضطراب من بعض الأمور (**وغضب**) تقدم بيانه، وأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يغضب لنفسه بل لله إذا خولف أمره، (**لم يجر**) بالجيم مضارع بمعنى وقع وحدث (**على باطنه ما يخل**) أى يوقع خللاً وتشويشًا (**به**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو الضمير لباطنه، أى لم يسر له من ظاهره ما يخل به.

(**ولا فاض منه**) بفاء وضاد معجمة، أى ظهر من فاض الإناء بالماء، إذا امتلأ منه، حتى تدفق من جوانبه (**على لسانه وجوارحه**)، أى أعضائه الظاهرة، جمع جارحة بمعنى عضو، كما يقع لبعض الناس فى ألمه وغضبه أنه يتكلم، ويتحرك بحركات مختلفة؛ لأنه لا يملك نفسه فى بعض أحواله.

(**ما لا يليق به**) أى لا يناسب علو مقامه، كهذيان بعض المرضى وخرافاتهم وشتم من غضب عليه، (**كما يعترى**) أى يعرض (**لغيره من البشر**) إذا ابتلى بشىء من ذلك (**مما**

نأخذ)، أى نشرع (**بعد**) بالبناء على الضم (**فى بيانه**)، أى ما نحن فيه.

* * *

(فصل)

(**فإن قلت: قد جاءت الأخبار الصحيحة**) كما فى حديث رواه البخارى، (**أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، سحر**) كما تقدم، وهذا مما طعن به بعض الملحدين فى عصمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الناس (**كما حدثنا**) به (**الشيخ أبو محمد الغسانى بقراءتى عليه**) نسبة لغسان قبيلة باليمن، وهو فى الأصل اسم ماء نزلوا عليه فسموا به.

قال: (**حدثنا حاتم بن محمد**) بن عبد الرحمن بن حاتم كما تقدم، قال: (**حدثنا أبو الحسن على بن خلف**)، هو على بن محمد بن خلف الغافرى القروى، وهو الحافظ القابسى، كما تقدم.

قال: (**حدثنا محمد بن أحمد**) هو أبو زيد المروزى كما تقدم، قال: (**حدثنا محمد بن يوسف**) هو الفربرى، وقد تقدم، قال: حدثنا البخارى صاحب الصحيح المشهور، وهو غنى عن البيان قال: (**حدثنا عبيد الله بن إسماعيل**) الهبارى توفى سنة مائتين وخمسين، قال: (**حدثنا أبو أسامة**) حماد بن أسامة الكوفى توفى سنة إحدى ومائتين وعمره ثمانون، وأخرج له الستة، وترجمته فى الميزان.

(**عن هشام بن عروة عن أبيه**) تقدم الكلام عليهما، (**عن عائشة**) أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها، (**قالت: سحر رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم**) ببناء المجهول وتقدم أن الذى سحره لبيد الأعصم، وهو يهودى، أو منافق كان حليفا لليهود، وجمع بينهما بأنه كان يخفى اليهودية ويظهر النفاق، وكان فى سنة سبع، واختلف فى مدة سحره فقيل: أربعين يوما، وقيل: ستة أشهر، وقيل: سنة، كما تقدم واعتمده السهيلى وجمع بينهما، بأن ذلك باعتبار ظهوره وشده تأثيره (**حتى أنه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**ليخيل إليه**) أى يقع فى خياله توهم مالا أصل له، وليس بمعنى يظن، لأنه لايتعدى بإلى (**أنه فعل الشىء وما فعله**) لما وقع به من ألم السحر (**وفى رواية أخرى**) لهذا الحديث (**حتى كان يخيل له أنه يأتى النساء، وما يأتيهن**)، أى يتوهم أنه جامعهن، وهو لم يجامعهن، وهو المراد بالشىء فى تلك الرواية، لكنه لم يصرح به تأدبًا لاسيما ورواية عائشة، فاستحيت من ذكره.

(**الحديث**)، أى اقرأ الحديث، واذكره بتمامه وتمامه كما هو فى الصحيحين، عن عائشة كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذات يوم أو ذات ليلة، وهو عندى دعا، ثم

قال: «أشعرت أن الله أفتانى فيما استفتيته فيه، أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجعه؟ قال: مطبوب، أى مسحور، قال: من طبه؟.

قال: لبيد بن الأعصم فى مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر فى بئر ذروان، فأتاها رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى ناس من أصحابه، فدفنت و لم يستخرجها[1]. والكلام عليه مشهور تقدم بعضه.

(وإذا كان هذا) الأمر المذكور **(من التباس الأمر على المسحور)** يتخيل فعل ما لم يفعله **(فكيف حال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى ذلك)** الالتباس، وعلى أى حال وقع له، **(وكيف جاز عليه)** ذلك الأمر الذى جاز على غيره من تأثير السحر فيه، **(وهو معصوم)** جملة حالية هى محل إنكار السائل الذى توهم أن مثله ينافى عصمته، عليه الصلاة والسلام، فالاستفهام هنا إنكارى؛ لاعتقاده عدم طروء التغيرات الباطنة عليه، وهذا مناف له فأجاب عنه بقوله:

(فاعلم) أيها السائل عن سحره **(وفقنا الله وإياك)** للوقوف على الحق وتحقيقه، وهى جملة اعتراضية دعائية إشارة إلى أن قصده فى كتابه هذا إرشاد طالبى الحق له، **(أن هذا الحديث صحيح متفق عليه)**، أى مما اتفق على صحته أهل الحديث، أو اتفق على روايته الشيخان.

(وقد طعنت فيه الملحدة) الطعن الضرب برمح ونحوه، استعير لإسناد ما لا يليق من النقائص، والملحدة الطائفة من أصحاب العقائد الفاسدة من ألحد، بمعنى حاد عن الطريق، وفى للسببية، أى طعنوا بسببه فى مقام النبوة **(وتذرعت به)** بذال معجمة وراء مشددة وعين مهملتين من الذريعة كالوسيلة، وزنًا ومعنى، وأصلها شرك الصائد استعير لما ذكر ووجه الشبه ظاهر، والباء سببية.

وقال البرهان فى المتفق: إنه بدال مهملة، أى ليست درعًا، أى تقوت به وظنته دليلاً ينفعهم، **(لسخف عقولها)** بضم السين المهملة بمعنى رقتها وضعفها **(وتلبيسها على أمثالها)** ممن ضعف عقله فرجع عليهم **(إلى التشكيك فى الشرع)**، أو يوقع بعضهم بعضًا فى شك من أحكام الشريعة، بتوهم أنه يخيل عليه فيها وإلى متعلقة بتذرع، وهو يعين أنه بذال معجمة **(وقد نزه الله الشرع)** طهره عما يشينه.

(١) أخرجه البخارى (٤/١٤٨، ٧/٣٧٧)، ومسلم (٤٣، ٢١٨٩)، وأحمد (٦/٦٣)، والبيهقى (٨/١٣٥)، والبغوى فى شرح السنة (١٢/١٨٥).

(والنبى)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(عما يدخل)** بضم أوله **(فى أمره)**، أى دينه وما يتعلق به، **(لبسًا)** أى شيئًا يصير أمره متلبسًا بغيره مما لا يليق به، **(وإنما السحر مرض من الأمراض)** جعله مرضًا مبالغة؛ لأنه سبب لتغير المزاج وانفعاله فينشأ عنه أمور غير طبيعية كالنسيان، وهو معدود من الأمراض والأمور الروحانية يسرى للبدن نفعًا وضرًا والأطباء يعترفون بذلك.

(وعارض من العلل) جمع علة والعارض هنا، بمعنى العرض وهو عند الأطباء ما يزول بسرعة من الأمراض، وهو عند المتكلمين والحكماء ما لا يقوم بنفسه **(يجوز عليه)** تخصيص له لإخراج ما لا يجوز عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، منها كالجنون و**(كأنواع الأمراض)** التى جوزوها عليه **(مما لا ينكر)** عروضه له، عليه السلام، وعلى سائر الأنبياء، **(ولا يقدح)**، أى لا يعد نقصًا وعيبًا قادحًا **(فى نبوته)** عليه السلام، من الأمراض كالجذام والبرص، وغيره مما صان الله أنبياءه، لخلقه لهم على أكمل خلق وأتمه ومزاجه صلى الله تعالى عليه وسلم أعدل الأمزجة، وهذا مبنى على أن السحر له حقيقة مؤثرة ينشأ عنه تغيرات، وأمراض، وهو مذهب الجمهور، ويشهد له القرآن والسنة خلافًا لمن قال: إنه تخيل لا حقيقة له، وإليه ذهب ابن حزم وغيره، والسحر عند الجمهور على أنواع، منه ما لا حقيقة له، وهو شعبذة ومنه ما له حقيقة بمعاونة الشاطين وخوض بعض الأمور كما تقدم، ويأتى أيضًا عن الراغب.

(وأما ما ورد) فى الحديث السابق **(أنه كان يخيل إليه أنه فعل الشىء و)** هو **(لا يفعله)** كما تقدم بيانه.

(فليس فى هذا ما) أى أمر **(يدخل)** بضم أوله مضارع أدخل **(عليه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(داخلة)** أى نقيصة وعيبًا وفسادًا، كما يقال: أمر مدخول، أى معيب، **(فى شىء من تبليغه أو شريعته)** قال الراغب: الدخول يقتضى الخروج والدخل كناية عن الفساد والعداوة، كالدغل ودعوة النسب بفتح الخاء، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ [النحل: ٩٤]، **(أو يقدح)** أى يعيب **(فى صدقه)** فيما بلغه وشرعه كما توهمه الطاعنون به؛ لأنه يسرى إلى أن يقال: إن جبريل، عليه الصلاة والسلام، والملائكة التى كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يراها أمورًا متخيلة وحاشاه من ذلك **(لقيام الدليل)** المؤيد بمعجزاته.

(والإجماع) من المسلمين وأئمة الدين **(على عصمته)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(من هذا)**، أى مما يدخل عليه داخلة فى شرعه وتبليغه عن ربه، وهذا برمته من كلام المازرى فى المعلم، قال: أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث، وزعم أنه يحط من منصب

النبوة، وقالوا: كل ما أدى إلى ذلك، فهو باطل وتجويزه بعد الثقة بما شرعوه من الشرائع إذ يحتمل على هذا أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يرى جبريل، وليس هو، وأنه يوحى إليه شيء، ولم يوح إليه وهو مردود؛ لأن الدليل قام على صدقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما بلغه عن الله عز وجل، وعلى عصمته فى التبليغ والمعجزات شاهدة بصدقه فتجويز ما قام الدليل على خلافه باطل، انتهى.

(وإنما هذا) أى إنه يخيل إليه فعل شيء لم يفعله ليس عامًا، بل فى أمور مخصوصة هى **(فيما يجوز طروءه)** بالهمزة وتركه، أى عروضه **(عليه فى أمور دنياه التى لم يبعث بسببها)** من التوحيد والأحكام المشروعة، وفى نسخة أمر مفرد، وفى أخرى من أمور، أى لا ما يتعلق بشريعته وتبليغه **(ولا فضل)** بتشديد المعجمة وبناء المجهول **(من أجلها)**، أى من أجل أموره الدنيوية، وإنما هو برفعه وزيادة أجره **(وهو)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فيها)**، أى فى أمور الدنيا **(عرضة)** بضم فسكون، أى معرض يحدث له فيه مستعد **(للآفات)**، أى التغيرات التى تلحقه.

(كسائر البشر) يعرض له ما يعرض لهم لحكمة تقدمت **(فغير بعيد)**، أى إذا كان عرضة لها فلا يبعد **(أن يخيل إليه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(من أمورها)**، أى أمور الدنيا التى لا تتعلق بالتشريع، فالفاء فصيحة فى جواب شرط مقدر **(ما لا حقيقة له)** مما يتوهم أنه فعله ولم يفعله.

(ثم ينجلى عنه)، أى يزول وينكشف، فشبهه بغمام أو صدأ، ففيه مكنية وتخييلية أو هو حقيقة عرفية فيه **(كما كان)** متعلق بينجلى، أى حاله كما كان عليه قبل ما عرض له، أو المراد كما كان حاله وهو مسحور **(وأيضًا)** أى كما وقع ما توهموه بما ذكر يبين بوجه آخر.

(فقد فسر هذا الفصل) يعنى قوله: يخيل إليه الشيء **(الحديث الآخر)** هو فاعل فسر، أى بين المراد به روايته الثانية **(من قوله)** بيان لمفسره وهو **(حتى يخيل إليه أنه يأتى أهله)** يعنى زوجاته، والأهل ورد بمعنى الزوجة كثيرًا.

(و) الحال أنه **(لا يأتيهن)** بمعنى يتوهم أنه جامعهن، وهو لم يجامعهن كقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، فهو تصريح بأنه من الأمور الدنيوية لا الشرعية، فلا ضير فيه، **(وقد قال سفيان)**، أى ابن عيينة، كما صرح به فى سنده فى البخارى، **(وهذا)** التخيل **(أشد ما يكون من السحر)** أى غاية ما يؤثره تخييل أنه فعل ما لم يفعله، ولذا قالت عائشة، رضى الله تعالى عنها: حتى كان يخيل إلى آخره، فإن حتى

للغاية فلا يبلغ أكثر من ذلك كقلب الأعيان ونحوه، من تغيير الماهيات، وهذا مبنى على أن السحر تخييلات لا حقيقة لها كالشعبذة والمحققون على خلافه كما مر.

وقد قال الراغب: إنه على أنواع، منها هذا وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، وقوله: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦].

والثانى: استجلاب أمور بمعاونة الشياطين وإليه يشير قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

والثالث: فعل بقوته تتغير الصور والطبائع، فيجعل الإنسان حمارًا ولا حقيقة له عند المحصلين، انتهى، وقد تقدم، أن الأول من جنس الأمراض، ولذا قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «شفانى الله منه»، فإنه المتبادر من الشفاء، ولبعضهم هنا كلام لا طائل فيه، **(ولم يأت)** عن أحد من المحققين **(فى خبر منها)**، أى من الأخبار المروية عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(أنه)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(نقل عنه فى ذلك)** أى فى قصة سحره **(قول بخلاف ما كان أخبر به)** من **(أنه)** قال: **(فعله ولم يفعله)**، أى لم ينقل عنه فى حال سحره قول صدر عنه غير هذا الذى فسر فى الحديث، **(وإنما كانت)** الأمور المنقولة عنه **(خواطر وتخيلات)** من قبيل الوسوسة التى تعرض للعقلاء كثيرًا من غير تأثير فى عقولهم وعلمهم بمهمات أمورهم، فلا اعتراض عليه فى شىء كما توهم.

(وقد قيل) فى الجواب عما استشكلوه **(أن المراد بالحديث)** المذكور فى سحره **(أنه كان يتخيل)** له ويقع فى خاطره **(الشىء أنه فعله وما فعله)** بمجرد خطوره بباله **(لكنه تخييل لا يعتقد صحته)** ليقظة قلبه وسلامة ذهنه التى لا يؤثر فيها مثل هذه التخيلات، وهى سحابة صيف عن قريب تقشع، **(فتكون اعتقاداته)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(كلها على السداد)** بفتح السين بمعنى الاستقامة، وأموره كلها مستقيمة كاملة، وإدراكه كذلك لمعرفته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأن ما عرض له تخيل لا يعتد به، وأما بكسر السين، فهو ما يسد به اسم آلة كحزام وركاب، وفيه بيان فى شرحنا لدرة الغواص.

(وأقواله) كلها جارية **(على الصحة)** فهى كلها صحيحة صادقة إذ لم يقع اللف فى شىء من أقواله، وقول عائشة السابق يخيل له فعل ما لم يفعله لا ينافى ما قرره؛ لأن التخيل بمعنى التوهم، وكون الخيال قوة باطنية مدركة مما اصطلح عليه الحكماء، فهو وما يبتنى عليه لا وجه لإيراده هنا كما توهم **(هذا)** المذكور فى جواب ما وقع فى

الحديث **(ما وقفت عليه لأئمتنا)** المحدثين أو الأشعرية أو الفقهاء المالكية.

(فى هذا الحديث) الذى روته عائشة، رضى الله تعالى عنها، عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى نسخة عن هذا وفى أخرى على هذا، وهو ظاهر **(مع ما أوضحناه من معنى كلامهم)** فى تفسيره **(وزدناه بيانًا)** زاد هنا متعد لمفعولين **(من تلويحاتهم)** أى من إشاراتهم له من غير تصريح به، **(وكل وجه منها)**، أى من الوجوه التى ذكرها الأئمة **(مقنع)** اسم فاعل بوزن مكرم، أى كاف ومغن عن غيره، لمن كان له قناعة تغنيه عن الوجوه الضعيفة، والأقوال الواهية، والتكلفات الباردة، ويجوز فتح ميمه ونونه مصدر ميمى، يقال: هو مقنع فى الأمر بزنة جعفر والأول هو الصواب من غير تكلف، **(لكنه)** الضمير للشأن الأمر **(قد ظهر لى فى)** هذا **(الحديث)** المتقدم فى السحر **(تأويل)** وتفسير له **(أجلى)**، أى أظهر من غيره من التأويلات التى ذكروها وتقدم بعض منها، **(وأبعد من مطاعن ذوى الأضاليل)**، أى أكثر تبعيدًا لمن له عقل عما طعن به أهل الضلال، مما تقدم بيانه، فالأضاليل جمع لا واحد له كالمذاكيرًا، وجمع لمفرد مقدر أو موجود فقيل: جمع ضليل بكسرتين مشدد اللام صيغة مبالغة كشريب، ولذا قيل لامرء القيس: الملك الضليل، وقيل: جمع أضلولة بالضم، وهو ما يضل به مرتكبه، ولو قيل: إنه جمع أضلال على خلاف القياس لم يبعد.

(يستفاد) ويؤخذ ذلك التأويل الأجلى **(من نفس الحديث)**، أى حديث السحر، **(وهو أن عبدالرزاق)** بن همام الصنعانى، **(قد روى هذا الحديث)** أى رواه فى مصنفه عن الزهرى، **(عن ابن المسيب)**، واسمه سعيد، كما تقدمْ.

(و) عن **(عروة بن الزبير)** تقدم أيضًا، **(وقال فيه)** أى فى الحديث الذى رواه **(عنهما)** أى عن سعيد وعروة **(سحر يهود بنى زريق)** بالإضافة وبنو زريق بتقديم الزاء المعجمة والتصغير طائفة منهم، **(رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، مفعول سحر وفاعله يهود، وهو بلا ياء، علم لهم وقد يذكر وتدخله اللام، **(فجعلوه)**، أى السحر **(فى بئر)**، أى بئر ذروان كما تقدم.

(حتى كاد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)، أى قرب من **(أن ينكر بصره)** أى ما أبصره أو ينكر نفس رؤيته لتأثير السحر فيه، **(ثم دله الله على ما صنعوا)** بأخبار الملك به، وبالمحل الذى وضع فيه **(فاستخرجه من البئر)** على رواية، وقيل: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أمر بدفنه ولم يخرجه من البئر، وكانوا أمروا غلامًا من اليهود كان يدخل بيته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأخذ شعرات من شعر رأسه الشريف، وسنا من أسنان مشطه، فعقدوا فيه عقدًا ودفنوه فى تلك البئر، فلما أنزل الله تعالى عليه، المعوذتين،

واستخرج السحر وحلت عقده شفاه الله تعالى، والكلام عليه طويل فى شروح الصحيحين فلا نطيل به.

(وذكر عن عطاء الخراسانى عن يحيى بن يعمر) كما رواه عبد الرزاق آنفًا، ويعمر بفتح الياء التحتية، وبالميم المفتوحة وتضم وهو ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل، ويحيى هو قاضى مرو، وهو أول من نقط المصحف، وتوفى سنة تسعين، قال فيه، أى فى مصنف عبد الرزاق **(حبس رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، ببناء المجهول أى منع **(عن عائشة)**، أى عن جماعها، رضى الله تعالى عنها، **(سنة)** هى مدة السحر، كما تقدم عن السهيلى.

(فبينا هو نائم) حقيقة أو مضطجع بين النوم واليقظة، كما فى رواية، وبينا للمفاجأة كبينما وتضاف وتحتاج لجواب كما بينه النحاة، **(أتاه ملكان)** هما جبريل وميكائيل **(فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه الحديث)**، أى أذكره أو أقرأه إلى آخره كما تقدم.

(وقال عبد الرزاق: حبس رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)، أى منع عن الجماع **(عن عائشة خاصة سنة)** على أحد الأقوال السابقة، وخص منعه عنها دون غيرها؛ لأنها كانت أحب أزواجه إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(حتى أنكر بصره)** يعنى تغيرت قوته الباصرة عما كانت عليه قبل أن يسحر، لا أنه فقده بالكلية لما فى بعض روايات الحديث السابقة، حتى كاد ينكر بصره، أى قارب فقده ولم يفقده، من قولهم نكرته فتنكر إذا غيرته فتغير كما فى الأساس ولم يعده مجازًا.

(وروى البيهقى) صاحب السنن بسند ضعيف **(عن محمد بن سعد)** هو كاتب الواقدى وصاحب الطبقات، كما تقدم، **(عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، مرض رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وحبس)** أى منع **(عن النساء)** إن أريد به الجنس لم يخالف الرواية التى قبله وإلا خالفها **(والطعام والشراب)** فكان لا يشتهى ولا يتناول شيئًا منهما لتغير مزاجه كسائر المرضى، **(فهبط)**، أى نزل من السماء، **(عليه ملكان)** هما جبرائيل وميكائيل.

(وذكر القصة) بتمامها وتقدم أن القصة: أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال لعائشة، رضى الله تعالى عنها: «إن الله أخبرنى بدائى»، ثم بعث عليًا والزبير، وعمار بن ياسر، رضى الله تعالى عنهم، فنزحوا ماء البئر، فإذا هو مثل نقاعة الحناء، ثم رفعوا الراعوثة، وهى صخرة فى قعر البئر، فأخرجوا جفا، ومشاطة، وهو شعر رأسه الشريف،

وأسنان مشط ووتر معقود فيه إحدى عشر عقدة، وتمثال صورته من شمع غرز فيه إبر، فنزل جبريل، عليه الصلاة والسلام، بالمعوذتين، فكان كلما قرأ آية منهما، انحلت عقدة، وكلما نزع أبرة، وجد لها ألمًا ثم تعقبه راحة، فاعترف لبيد بأنه وضعه فعفا عنه.

(فقد استبان لك) أى تبين وظهر **(من مضمون هذه الروايات)** أى ما تضمنته واشتملت عليه **(أن السحر)** الذى سحر به رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(إنما تسلط)** من السلاطة، وهى التمكن ممن يريد قهره والمراد تأثره **(على ظاهره)** أى ظاهر بدنه الشريف **(وجوارحه)** وأعضائه دون باطنه **(لا على قلبه واعتقاده وعقله)** إذ لم ير فيه نقص أصلاً، **(وأنه)** أى السحر **(إنما أثر فى بصره)** بتغير ما حتى كاد ينكره كما تقدم.

(وحبسه عن وطء نسائه و) عن **(طعامه فأضعف جسمه فأمرضه)** فهو كسائر الأمراض لا ينكر عرضه للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(ويكون معنى قوله: يخيل إليه أنه يأتى أهله، ولا يأتيهن، أى يظهر له من نشاطه)** هذا جواب سؤال تقديره: إذا قلت: إن السحر لم يؤثر إلا فى ظاهر بدنه، يرد عليك أن تخيل ما لم يقع واقعًا يقتضى خللاً فى الذهن والإدراك فهو مناف لما قلته، وقوله: معنى اسم كان وخبره مقدر يدل عليه ما بعده، إذ لا يصح اقتران الخبر بأى المفسرة ومثله كثير فى كلام المصنفين، وفى الأساس رجل نشيط طيب النفس للعمل.

(ومتقدم عادته) أى ما اعتاده، صلى الله تعالى عليه وسلم، قبل السحر **(القدرة على النساء)** فاعل يظهر، أى قدرته وقوته على جماعهن، **(فإذا دنى منهن)** أى قرب منهن ليجامعهن **(أصابته أخذة السحر)** بضم الهمزة وسكون الخاء وذال معجمة، وهى أمر يتخذه السحرة يحبس المرء عن انتشار آلة الجماع تسمية العامة رابطًا، وهو نوع من السحر، ويقال: به أخذة من الجن أيضًا، كأنها أخذت قوته.

(فلم يقدر على إتيانهن كما يعترى)، أى يعرض ويغشى **(من أخذ)** قيل: هو بضم الهمزة، وتشديد الخاء المعجمة، وذال معجمة من التأخيذ، وفى نسخة: وخذ بالواو، أى منع من الجماع، كما قيل، والظاهر عليهما أن يفسر بمن صنع له أخذة السحر السابقة، **(واعترض)** ببناء المجهول، أى عرض له عارض من مرض ونحوه، والظاهر أنه من العارض المعروف بين السحرة الذين يدعون الجن، وهو المناسب للأخذة.

(ولعله) الضمير للشأن، وفى نسخة حذفه **(لمثل هذا أشار سفيان)** بن عيينة فيما نقله عنه سابقًا **(بقوله، وهذا أشد ما يكون من السحر)** أى أعظم أنواعه أن يخيل له فعل ما لم يفعله، وقد تقدم ما فيه **(ويكون قول عائشة فى الرواية الأخرى)** من إحدى الروايتين فى

الحديث أعنى قولها: (**إنه يخيل له أنه فعل الشىء و**) هو (**ما فعله**) والشىء مبهم فى روايتها دون الأخرى فيحتمل إنه (**من باب ما اختل من بصره**) أى قوة نظره لا نفس عينه وهو ما أنكره.

(**كما ذكر فى الحديث**) من أنه كان يخيل إليه إلى آخره وبينه بقوله: (**فيظن أنه رأى شخصًا من بعض أزواجه أو شاهد فعلاً من غيره**) أنه فعله وصدر منه على وجه مخصوص (**ولم يكن**) صدر منه (**على ما يخيل إليه**) وذلك (**لما أصابه فى بصره وضعف نظره**) من ألم السحر، (**لا شىء طرأ عليه فى ميزه**) بفتح الميم وسكون الياء المثناة التحتية بمعنى تميزه، والمراد به قوة عقله المميز، يقال: مازه يميزه ميزًا، كسار يسير سيرًا، بمعنى ميز وبين (**وإذا كان هذا**) أى ما ذكر من حاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، على ما قرره (**لم يكن فيما ذكر من إصابة السحر له**) فى هذه المرتبة من غير زيادة فيه.

(**وتأثيره فيه**) بمجرد ضعف بصر غير قار (**ما يدخل لبسًا**) عليه بأن يؤثر فى عقله وتمييزه أى يسرى لباطنه (**ولا يجد به الملحد**) الزائغ عن الحق بطعنه فى الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، (**المعترض**) به على إنه يلزم من تأثير السحر فيه تخيل ما لا حقيقة له يورث شكًا فى ما يراه من الملائكة كما تقدم.

(**أنسًا**) أى أمرًا يستأنس به أوهامه الفاسدة، أى يحدث عنده علمًا ينقص به مقام النبوة من قولهم: آنست منه كذا إذا علمته أو أبصرته.

* * *

(فصل)

(**هذه**) الأمور المذكورة فى الفصل المتقدم، (**حاله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**فى جسمه**) الشريف ظاهرًا وباطنًا (**وأما أحواله فى أمور الدنيا**) أى الأمور المتعلقة بها (**فنحن نسبرها**) بفتح النون وضمها، وسكون السين المهملة، وضم الباء الموحدة وكسرها، وراء مهملة، والضمير راجع لأمور الدنيا يقال: سبره وأسبره إذا اختبره كما فى الصحاح، وأصل معناه أن يدس فى الجرح مرودًا ليعلم عمقه، ثم شاع ما ذكر، وهو عند أهل الأصول استقصاء إفراد أمر كلى، وأقسامه والمراد هنا تبيينها (**على أسلوبنا**)، أى نوردها على طريقتنا (**المتقدم**) فى هذا الكتاب والأسلوب بضم الهمزة الفن والطريقة، يقال: أساليب الكلام لفنون (**بالعقد**)، أى الاعتقاد متعلق بنسبر، (**والقول والفعل**)، أى نستوفى أقسامها النظرية واللفظية والعلمية.

(**أما العقد منها**) أى ما يتعلق من أحواله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى أمور الدنيا

بالعلم بها والاعتقاد، **(فقد يعتقد)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(الشىء)** من أمور الدنيا **(على وجه)**، أى وقوعه على وجه من الوجوه فى بادئ الرأى، **(ويظهر خلافه)**، أى يظهر له إنه على خلافه فى الواقع ونفس الأمر **(أو يكون له منه)**، أى من الشىء الذى هو من أمور الدنيا **(على شك)** فيه.

(أو) يكون منه **(على ظن)** بأن يترجح عنده أحد طرفى الوقوع وعدمه **(بخلاف أمور الشرع)**، فإنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يتردد فيها لأنه معصوم عن الخطأ، وإن قلنا: بجواز اجتهاده فيها؛ لأنه مستند للوحى أيضًا، ثم أورد شاهدًا؛ لأنه قد يعتقد شيئًا من أمور الدنيا على خلاف ما هو عليه، وهو حديث رواه مسلم، تقدمت الإشارة إليه مرارًا فقال: **(كما حدثناه أبو بكر سفيان بن العاص)**، تقدم بيانه.

(وغير واحد قراءة وسماعًا) إشارة إلى أنه رواه من طرق **(قالوا: حدثنا أبو العباس أحمد ابن عمر)** قال: **(حدثنا أبو العباس الرازى)**، قال: **(حدثنا أبو أحمد بن عمرويه)** الكلام فيه كالكلام فى سيبويه فى بنائه على الكسر، وإعرابه إعراب ما لا ينصرف، وأن المحدثين يضمون ما قبل الياء ويفتحونها كما اشتهر عنهم.

قال: **(حدثنا ابن سفيان)** إبراهيم بن محمد بن سفيان راوى صحيح مسلم عنه، قال: **(حدثنا مسلم)** بن الحجاج صاحب الصحيح المشهور، قال: **(حدثنا عبد الله بن الرومى)** ابن محمد أو ابن عمر نزيل بغداد ثقة، حافظ، توفى سنة مائتين وست وثلاثين، ولم يخرج له من أصحاب الكتب غير مسلم.

(وعباس العنبرى) بن عبد الله بن إسماعيل بن نوبة، أبو الفضل العنبرى، البصرى، الحافظ، توفى سنة مائتين وست وأربعين **(وأحمد المعقرى)**، هو أحمد بن جعفر، والمعقرى، بفتح الميم وسكون العين المهملة وكسر القاف وراء مهملة وياء نسبة، وقيل: بكسر الميم، وسكون العين، وفتح القاف، وقيل: بضم الميم، وفتح العين، وكسر القاف المشددة نسبة لمعقر ناحية باليمن.

(قالوا: حدثنا النضر بن محمد) الحرشى اليمنى، وله ترجمة فى الميزان، **(قال: حدثنى عكرمة)** بن عمار، وقد تقدم قال: **(حدثنا أبو النجاشى)** عطاء بن صهيب الثقة، قال: **(حدثنا رافع بن خديج)** بفتح الخاء المعجمة، وكسر الدال المهملة ومثناة تحتية ساكنة، وجيم، توفى سنة أربع وتسعين من الهجرة، وأخرج له الستة وهو أنصارى شهد أحدًا، **(قال: قدم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، المدينة)** لما هاجر من مكة **(وهم يأبرون النخل)** بضم الباء الموحدة بعد الهمزة الساكنة والجملة حالية، وتأبيرها أن يؤخذ من طلع

النخلة الذكر ما يوضع في طلع غيرها، حين ينشق فتلقح، يقال: أبرتها وأبرتها بالتشديد، وروى هنا يؤبرون مشددًا وإلقاحها أن يخرج ثمرتها صالحة لا شيصًا، **(فقال)** لهم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد رآهم على رءوس الشجر وهم يأبرون كما في مسلم.

(ما تصنعون) استفهام تقريري **(قالوا)**: شيء **(كنا نصنعه)** وهو التأبير ليثمر ثمرًا حسنًا **(فقال)** لهم: **(لو لم تفعلوا كان خيرًا)** أي لو تركتم التأبير للنخل كان خيرًا من تأبيرها، وروى: «ما أظن ذلك يغني شيئًا»، فأخبروا بذلك، **(فتركوه)** أي التأبير **(فنقصت)** بنون وقاف وصحف بعضهم بنون وفاء، قاله ابن قرقول، أي ثمرتها أو تغيرت فصارت شيصًا غير مستوية **(فذكروا ذلك)**، أي نقصها **(له)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فقال: إنما أنا بشر)** أصيب وأخطئ في أمور الدنيا التي لم يوح إليّ فيها شيء، ولكن **(إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به)**، أي تمسكوا به، ولا تخالفوني فيه، **(وإذا أمرتكم بشيء من رأيي)**، أي يكون رأيًا في أمور الدنيا الصرفة **(فإنما أنا بشر)** مثلكم قد أرى رأيًا، والأمر بخلافه في أمور الدنيا فلا يجب اتباعه.

(وفي رواية) لمسلم **(عن أنس)** رضي الله تعالى عنه، **(أنتم أعلم بأمور دنياكم)** أي بجميع أحوالها وأضاف الدنيا لهم؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يريد شيئًا منها ولا يلتفت إليه، **(وفي حديث آخر)** رواه مسلم، عن طلحة، رضي الله تعالى عنه، في هذه القصة **(إنما ظننت)** بما قلته لكم **(ظنًا)** مني أنه لا يلزم ما فعلتموه **(فلا تؤاخذوني بالظن)** أي لا تجدوا عليَّ في أنفسكم كدرًا فيما ظننته خيرًا لكم، فتبين خلافه.

قال ابن رشد في كتاب التحصيل والبيان: هذا الحديث روى بألفاظ مختلفة متقاربة معنى، كقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «ما أنا بزارع ولا صاحب نخل» ولا منافاة إذ كل حكى ما سمع، وإنما نفى الظن بأنه لا يلزم لاختصاصه بالحيوان، ولم يكن ذلك، عن وحي كما قاله الطحاوي.

وقال أبو الوليد: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بين أنه لا تأثير في الصلاح والإفساد لغير الله تعالى، إلا أن الله قد يجري العادة بأسباب لذلك تعلم بالتجربة كالتأبير، وهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يسبق له تجربة فيه، وقيل عليه: إن عدم علمه به بعيد، فالأولى أن يقال: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، نبههم على توكل الخواص بترك الأسباب الذي هو من مقامات الأنبياء دون غيرهم، وقوله: «لا تؤاخذوني» إلى آخره، المراد أنه ظنهم من أهل المقام، فلما أخبروه بحالهم ردهم لها، وقال

لهم: «أنتم أعلم بحالكم»(١)، واستدل بهذا على أن الإجماع فى أمور الدنيا لا يعتد به لرجوعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لقوله كما رجع لهم: فى منزل بدر، ويأتى فى كلامه قريبًا كما فى التلويح.

وقال ابن أبى شريف: إنه ممنوع، وقول الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم حجة فى الأمور الدنيوية وغيرها؛ لأنه إما بوحى أو باجتهاد لا يقر على الخطأ فيه، ومراجعته كانت قبل استقرار اجتهاده، والتلقيح من ربط المسبب بالسبب ولو شاء الله صلحت الثمرة بدونه، وهو اعتقادنا، وقوله: «أنتم أعلم»، لا ينافيه وفيه بحث فتدبر.

(وفى حديث ابن عباس) رضى الله تعالى عنهما، الذى رواه البزار بسند حسن **(فى قصة الخرص)** بفتح الخاء المعجمة، وسكون الراء، وصاد مهملتين، وهو الحرز والتخمين لما على النخل والكرم من الرطب والعنب وتفسيره، كما قال الترمذى: أن الثمار إذا أدركت من الرطب والعنب، ووجبت الزكاة، وبعث السلطان من يجنيها فخمنها وقال: يخرج منها كذا وكذا، فيبين قدره ومقدار عشره فيثبته عليهم، [فإذا] جاء وقت الجذاذ أخذه وفائدته التوسعة على أرباب الثمار فيتناولوا منه ما أرادوا، وهذا كان على عهده، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى عهد الخلفاء، ولذا جوزه بعضهم ومنعه بعضهم؛ لأنه تخمين وفيه غرر، وأما الخرص بكسر الخاء، فاسم للمخروص **(فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: إنما أنا بشر)**، أى أنا مقصور على الصفة البشرية التى تجوز عليها الإصابة وعدمها، وقيل: هو قصر قلب خلافًا لمن يعتقد أو يظن أن الخطأ فى الأمور الدينية لا يجوز عليه، فعكس اعتقادهم فيما لا تعلق له بالشرع والوحى.

(فما حدثتكم عن الله فهو حق) لا يجوز الخلف فيه **(وما قلت فيه)** من أمور الدنيا **(من قبل نفسى)** برأيى لأمر خطر على نفسى، **(فإنما أنا بشر أخطئ)** تارة **(وأصيب)** أخرى، قيل: هذا مما يستدل به على جواز خطأه فى اجتهاده، وقيل: لا دليل فيه؛ لأنه لم يقله باجتهاده، وإنما هو ظن سنح له، وقد تقدم ما فيه قريبًا.

(وهذا على ما قررناه) من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قد يرى شيئًا من أمور الدنيا على وجه يظهر خلافه كما أشار إليه بقوله، **(فيما قاله من قبل نفسه فى أمور الدنيا وظنه من أحوالها، لا ما قاله من قبل نفسه واجتهاده، وفى شرع شرعه)** بالتخفيف والتشديد، أى أظهره وبينه **(وسنة سنها)** وهذا كله مبنى على أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يجتهد فى بعض الأحيان وهو الصحيح كما تقرر فى الأصول، وإذا اجتهد

(١) تقدم تخريجه.

لا يخطئ، ولا يقر على الخطأ، وقد وقع له ذلك ولا حجة لمن منعه فى قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]، ونحوه؛ لأنه إذا أذن له فيه كان وحيًا مع إنه إلهام، وإلهام الأنبياء قسم من الوحى، والمراد بالسنة الطريقة المحمدية من أقواله وأفعاله، وسنها بمعنى جعلها أمرًا متبعًا وطريقًا مهيعًا لا ما يقابل الفرض، فهى بالمعنى اللغوى، وقوله فيما قاله من قبل نفسه تخصيص مفروغ عنه مقرر فى مبحث الاجتهاد من كتب أصول الفقه، فمن قال: إنه تخصيص من غير مخصص مع ما أطال فيه من الزوائد، وضرب فى حديد بارد غنى عن الرد.

(وكما حكى) محمد **(بن إسحاق)** رحمه الله تعالى، فى كتاب المغازى مما يشابه ما قبله من أمور الدنيا **(أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما نزل)** فى غزوة بدر، وبدر اسم ذلك المكان وبئر فيه سميت باسم صاحبها كما مر.

(بأدنى مياه بدر) أى أبعدها وأقلها ماء، وليس محل النزول، ونزلت قريش بالعدوة القصوى من الوادى، والمسلمون بكثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام، وسبقهم المشركون إلى الماء، وأحرزوه وحفروا لهم قليبًا، وأصبح المسلمون وبعضهم على غير طهارة، محتاج للماء، وأصابهم الظمأ، ولم يصلوا للماء، ووسوس الشيطان لبعضهم فى ذلك، الفرار عنه، فأرسل الله عليهم مطرًا سال منه الوادى فشربوا واستقوا وتطهروا وثبتت الأقدام وزالت وساوس الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ [الأنفال: ١١]، الآية، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما نزل بأدنى مياهها.

(قال له الحباب) بضم الحاء المهملة، وموحدتين علم منقول من اسم الثعبان **(ابن المنذر، رضى الله تعالى عنه)**، ابن جموح بن زيد بن جز بن حرام بن غنم بن كعب بن سلمة الخزرجى، الأنصارى، الصحابى، الذى يقال له: ذو الرأى، توفى كهلاً فى خلافة عمر، رضى الله تعالى عنه، **(أهذا)** المحل الذى أنزلتنا فيه يا رسول الله **(منزل أنزلكه الله)**، عز وجل، أى أمرك بالنزول فيه **(ليس لنا أن نتقدمه)** وننزل فيما هو أولى منه؛ لأنا لا نخالف أمر الله بوحيه، **(أم هو الرأى)** أى رأى منك بلا أمر من الله يجب اتباعه، وليس تعريفه للاستغراق العرفى إلى أنه هو الرأى الكامل، كما قيل؛ لأنه لا يناسب هنا، **(والحرب)** أى أم هو محل مناسب لمحاربة الأعداء، والنصرة، فهو مجاز بذكر المسبب وإرادة السبب.

(والمكيدة) أى الكيد والمكر؛ لأن الحرب خدعة والمكيدة مصدر ميمى بمعنى الكيد، وهو الحيلة لإيقاع ما يريده من السوء، ويسمى الحرب كيدًا كقوله فى الحديث: «لم يلق كيدًا»، أى حربًا.

(قال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(مجيبًا له)** رضى الله تعالى عنه، **(لا)**، أى لم يأمرنى الله بنزوله **(بل هو الرأى والحرب والمكيدة)**، أى نزلته برأيى فيه لما ذكر **(فقال)** له الحباب، **(ليس)** هذا المحل **(بمنزل)** مناسب لما ذكر لبعده عن الماء وكثرة رمله **(انهض)**، أى قم من هنا، وانتقل **(حتى تأتى أدنى)** أى أقرب **(ماء من القوم)** وهم قريش **(فننزله)** أى ننزل فيه **(ثم نغور ما وراءه)** أى نسده ونطمه حتى يذهب ماؤه الذى ينتفع به الأعداء، وقوله: ما وراءه، ما موصولة بالظرف مقصورة، وروى ماء بالمد ما بعده صفته **(من القلب)** بضم القاف واللام، وقد تسكن، وهو جمع قليب وهو البئر الذى لم تطو، أى لم تبن أطرافها بالحجارة ونغور بضم النون، وتشديد الواو بينهما غين معجمة أو مهملة كما قال فى المقتفى.

وقال السهيلى: إنه بضم العين المهملة وسكون الواو، وفى حواشى السيرة لأبى ذر الخشنى: من رواه بغين معجمة معناه نذهبه وندفنه، ومن رواه بمهملة معناه نفسده، انتهى.

وفى إهماله مناسبة للعين لا تخفى **(فنشرب)**، أى المسلمون منه **(ولا يشربون)** أى الكفار **(فقال)** رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، للحباب: **(أشرت بالرأى)**، أى بالرأى الصواب الحسن **(وفعل)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ما قاله الحباب)** بن المنذر له، فنزل على الماء وبنى حوضًا يشربون منه إلى آخر ما ذكره ابن إسحاق فى سيرته.

وروى ابن سعد أن جبريل، نزل عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال له: الرأى ما أشار به الحباب، ثم ذكر ما دعاه للمشاورة فقال: **(وقد قال الله تعالى له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾** [آل عمران: ١٥٩]**)** الأمر للندب لا للوجوب، وإنما أمره بذلك تطييبًا لخاطرهم وقلوبهم ورفعًا لمقدارهم؛ لأن كبراء العرب كانوا إذا لم يشاوروا شق ذلك على نفوسهم فأمره بذلك، رعاية لهم وتشريعًا لمن بعدهم، وإن كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، أكمل الناس عقلاً وأشدهم رأيًا، واختلف فى ذلك، فقيل: كان فيما لم ينزل فيه وحى، ليجتهد فيه ويجتهدوا معه، فإن الاجتهاد بحضرته جائز أيضًا، كما تقرر فى الأصول، وقيل: إنه مخصوص بأمور الدنيا، ومصالح الحرب فإنهم جربوها، وقاسوا شدائدها.

وكلام المصنف، رحمه الله تعالى يومئ لهذا، ولذا قال: **(وأراد)**، أى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(مصالحة بعض عدوه على ثلث تمر المدينة)** الحاصل من نخلها، وكان ذلك فى غزوة الخندق لما بعث رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى عيينة بن حصين، وإلى الحارث بن عوف المرى، وهما قائدا غطفان بأن يعطيهما ما ذكر.

(فاستشار الأنصار)، رضى الله تعالى عنهم، أى شاورهم ليرى رأيهم، والمستشار منهم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، رضى الله تعالى عنهما، **(فلما أخبروه برأيهم)** فى ذلك، وهو ما قال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمره إلا قرى، أو بيعًا، فحين أكرمنا الله تعالى بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه نعطهم أموالنا؟ مالنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، **(رجع عنه)**، أى عن رأيه فى إعطائهم، وقال لسعد: أنت وذاك كما ذكره ابن إسحاق فى مغازيه، وساق القصة بتمامها، وذلك لما اشتد الأمر على المسلمين، وظهر من المنافقين ما ظهر بعث رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إليهما بذلك، وأراد أن يكتب به صحيفة، فلما استشار فيه السعدين، وقال له ابن معاذ: أمرك الله بهذا، قال: لا، ولكن أردت دفعهم، فقال له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما ذكرناه آنفًا، وتناول الصحيفة ومحاها وجرى ما جرى حتى هزم الله الأحزاب وحده وأعز جنده(١).

(فمثل هذا) المذكور من قصة الحباب والأنصار وغيره، **(وأشباهه)** مما يضاهيه **(من أمور الدنيا التى)** لا اعتناء له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بها و**(لا مدخل فيها لعلم ديانة)**، أى أمور متعلقة بالشرع والدين، وأحكامه، **(ولا اعتقادها ولا تعليمها)** بالجر عطف على قوله: ديانة، أى ليس مما أمر، صلى الله تعالى عليه وسلم، باعتقاده وتبليغه لأمته وتعليمه لهم.

(يجوز عليه فيه ما ذكرناه) من أن يعتقده على وجه، فيظهر له خلافه؛ لأنه ليس من مهمات الدين، والجملة خبر قوله: هذا **(إذ ليس فى هذا كله نقيصة)** له صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه ليس مهمًا عنده **(ولا محطة)** بحاء وطاء مهملتين من الحط، وهو التنزيل لأسفل، أى لا يحط على مقامه ولا يعيبه.

(وإنما هى أمور اعتيادية)، أى جارية على عادة الناس فيها لا من العلم والأحكام **(يعرفها من جربها)**، واعتنى بها، وهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يعتنى بها، ولا يخالطها فضلاً عن تجربتها **(وجعلها همه)**، أى أمرًا يهتم به، ويتقيد، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم لا يلتفت لها.

(وشغل نفسه بها)، أى بأمور الدنيا وغناها وزوالها، **(والنبى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(مشحون القلب)** أى قلبه مملوء **(بمعرفة الربوبية)**، وما يتعلق بها من إجلال

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤٥١/١)، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٣٤٦/٢).

وتكريم وتنزيه وتعظيم، أى لم يبق فيه محل فارغ لغيرها حتى يخطر بباله، كما قيل:

تملك بعض حبك كل قلبى   فإن ترد الزيادة هات قلبًا

وقد تقدم، ومشحون بمعنى مملوء غير خال منها، يقال: شحن السفينة إذا ملأها، **(ملآن الجوانح)** جمع جانحة، وهى الضلوع التى تلى الصدر، وجعل معرفة الله وصفاته ملأ قلبه، إشارة إلى إنها أول ما علمه، وإنها اعتقادات حقه، وهى أول ما يجب، كما قيل:

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

وجعل ما علمه بعده فيما يتعلق **(بعلوم الشريعة)** ملأ صدره لوروده عليه بعدها، وهو فى غاية الحسن والإتقان، وقيل: كنى بالجوع عن نفسه مجازًا مرسلاً من إطلاق الجزء على الكل ولا يخفى ما فيه، **(مقيد البال بمصالح الأمة الدنيوية والأخروية)** والبال هنا، بمعنى الخاطر الذى يخطر على النفس لا بمعنى القلب، وإن ورد بهذا المعنى؛ لأنه أراد أن أفكاره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وخواطره بعد معرفة الله تعالى، وتلقى ما أوحى إليه لا يشتغل إلا بمصالح الأمة المذكورة، والمراد أمورهم التى بها صلاح دينهم بتعليمهم ما يجب لهم وعليهم من الطاعات والاعتقادات، والمراد بالدنيوية ما يتعلق بدنياهم فى معاملاتهم ونحوها من الأمور الشرعية ولله دره، فيما أتى به مرتبًا مع التفنن فى العبارة حيث ذكر ما يتعلق به، صلى الله تعالى عليه وسلم، أولاً من معرفة ربه ملأ قلبه، ثم ما يتعلق به من تلقى الوحى ملأ صدره، ثم جعل ما يتعلق بأمته وتبليغهم وتعليمهم خواطر وأفكارًا فاعرفه، **(ولكن هذا)** أى ما يعتقده ويظهر خلافه.

(إنما يكون)، أى يقع له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويتفق **(فى بعض الأمور)** الدنيوية العادية التى تعرف بالتجربة وكثرة المزاولة.

(و) مع أنه أيضًا إنما **(يجوز)** صدوره منه بخلاف ما هو عليه **(فى النادر)** أيضًا، وإلا فسلامة عقله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشدة حذقه تقتضى أنه أعلم الناس بأمور دنياهم أيضًا؛ لأنه أوفر الناس عقلاً، وقد أطلعه الله تعالى على أسرار الوجود من مذموم ومحمود، وقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»، إنما أراد به تطييب قلوبهم كما مر، وأن لا يزكى نفسه الشريفة تواضعًا منه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(و) ما ندر منه وقوعه كان **(فيما سبيله)**، أى طريق العلم به **(التدقيق)**، أى تدقيق النظر فيه بتكريره وصرفه **(فى حراسة الدنيا)**، أى حفظ أمور الدنيا وصونها

(واستثمارها)، أى طلب زيادتها، ونمو ثمرتها، وهو أمر ناشئ عن محبتها والحرص على تحصيلها، وهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يريد حرث الدنيا ولا يشغل بها خاطره، ومع ذلك ما وقع منه عدم العلم بها إلا نادرًا **(لا فى كثير)** من أمورها.

(المؤذن) الذى يعلم كثرته من اطلع عليه أنه صدر **(بـ)** سبب **(البله والغفلة)** البله والبلاهة نقص فى العقل، وهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، أكمل الناس وأرجحهم عقلاً والغفلة دون البله، وهو كونه لعدم حذقه يغفل عن بعض الأمور، وما ورد فى الحديث من أن أكثر أهل الجنة البله، فالمراد بهم كما فى النهاية الغافلون عن الشر؛ لأنهم مطبوعون على الخير وحسن الظن بالناس؛ لأن نقص العقل لا يمدح به، ولبعضهم فى بعض الحمقى، وقد بنى له دارًا حسنة:

دارك يا هذا غدت جنة وإن أهل الجنة البله

(وقد تواتر النقل) تواترًا معنويًا كتواتر كرم حاتم وشجاعة على، كرم الله وجهه، عمن لا يمكن تواطئهم على الكذب فى الجميع لا فى مادة بخصوصها، **(عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، متعلق بتواتر **(من المعرفة بأمور الدنيا)** وأحوالها تفصيلاً من غير الأمور المشروعة.

(و) معرفة **(دقائق)**، أى الأمور الدقيقة التى تخفى على كثير منهم **(مصالحها)** أى حاجاتهم التى بها صلاح العالم فى المعاش **(وسياسة فرق أهلها)** عربًا وعجمًا على اختلاف عقولهم وطبائعهم وعاداتهم وألسنتهم، والسياسة حكم الناس وضبط أمورهم الجارية بينهم حتى لا يتعدى بعضهم على بعض، يقال: ساسه يسوسه، إذا حكم عليه بما يجعله منقادًا.

(ما هو) ما موصولة أو موصوفة فاعل تواتر **(معجز فى البشر)** أى أمور يعجز البشر عن مثلها، والبشر بنو آدم سموا به لظهور بشرتهم، أى ظاهر جلدهم من غير استتار بشعر ووبر كالحيوانات.

(كما قد نبهنا عليه فى باب معجزاته من هذا الكتاب) كما تقدم تفصيله، فلا حاجة لإعادته هنا؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما فوض الله تعالى له الأمانة العظمى على جميع الخلق، والحكم بينهم ودعوتهم لطاعته لزمه أن يعلم جميع أحوال الناس دنيوية ودينية ليتم أمره، ويتأتى له ما أمر به، فلا يخفى عليه إلا أمور قليلة لا يضره عدم العلم بها، ولذا كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحكم بالسلطنة، والقضاء، والفتوى، كما فصلوه وسبق الفرق بين أحكامه فيها.

* * *

(فصل)

قال المصنف، رحمه الله تعالى: **(وأما ما يعتقده)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى أمور أحكام البشر)**، أى ما يحكم به عليهم فى أمورهم التى ترفع إليه من الأمور **(الجارية على يديه)**، أى الواقعة عنده، فاستعار الجرى على يديه لهذا **(قضاياهم)**، أى أمورهم التى ترفع إليه صلى الله تعالى عليه وسلم ليقضى فيها بما أراه الله تعالى.

(ومعرفة المحق من المبطل) ضمن المعرفة معنى التمييز فعداه بمن، والمحق والمبطل اسما فاعل، بمعنى من هو على الحق أو الباطل، وكونه اسم مفعول كما قيل ركيك من غير داع له.

(وعلم المصلح من المفسد) أى أهل الصلاح والفساد **(فبهذه السبيل)** الباء ظرفية، أى جاء فى هذه الطريقة السابقة فى أمور الدنيا التى قد يظهر له منها ما الأمر بخلافه أحيانًا ولا يضره لما سيأتى، وهو وإن كان لا يخفى الله تعالى عنه علمه أصلاً، كما قاله بعض العارفين، يظهره الله منه لئلا يضل به بعض أمته؛ لتوهمه إنه يعلم الغيب، فيقعون فيما وقع فيه النصارى، فلذا كان يستره، كما قال البوصيرى، رحمه الله تعالى[1]:

لم يمتحنا بما تعى العقول به حرصًا علينا فلم نرتب ولم نهم

(لقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم)، فى حديث رواه الشيخان مسندًا، وأبو داود وعنه رواه المصنف، رحمه الله تعالى، لعلو سنده فيه كما مر، وتقدمت الإشارة إليه مرارًا.

(إنما أنا بشر) لا أعلم الغيب **(وإنكم تختصمون إلىّ)** فى أمور عندى وتردون حكمهما إلىّ **(ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض)**، أى أعرف بقيام الحجة وأفصح فى بيانها ممن يخاصمه، وأصل معنى اللحن الميل عن الاستقامة، ومنه اللحن فى الإعراب لميله عن الصواب، واللحن الطرب ومنه ألحان القراءة، وفى الأساس: لحن بحجته فطن لها فيصرفها لما يشاء، وفلان ألحن بحجته من صاحبه، انتهى، أى أفصح منه، وأقدر على إقامة الحجة.

(فأقضى له) وأحكم **(على نحو)** بالتنوين، أى على نوع وضرب **(مما أسمع)** من كلامه بحسب الظاهر منه **(فمن قضيت له من حق أخيه بشىء)** ولو قليلاً، أى حكمت له بشىء ليس له حق فيه، وإنما هو حق لخصمه، ويعبر بالأخ عن الخصم كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ**﴾ [ص: ٢٣]، للاستعطاف والحث على عدم الحيف، **(فلا يأخذ**

---

(١) البيت من البسيط، وهو فى ديوان البوصيرى (ص١٦٨).

منه شيئًا) ليس حقه، **(فإنما أقطع له)** بما أعطيه من حق غيره، **(قطعة من النار)** فجعل ما يأخذه بغير حق قطعة من نار جهنم مبالغة فى حرمته عليه واستحقاقه للعذاب، نزله منزلة عذابه حقيقة كما فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا**﴾ [النساء: ١٠]، وحاصله أن حكم الحاكم بحسب الظاهر صحيح نافذ، ولكنه إن خالف الواقع لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالاً؛ لأنا نحكم بالظاهر، وعند الله تعالى علم السرائر، وهذا فى الأموال والدماء وغيرهما، فالحكم ينفذ بحسب الظاهر ويبقى الباطن فى الآخرة، وقد وقع الخلاف بين الفقهاء فى بعض أحكام الفروع، كما شهد شاهدا زور على رجل أنه طلق امرأته، وحكم الحاكم بالفرقة بينهما، وهو لم يقع منه طلاق فى نفس الأمر، فهل يجوز له أن ينكحها بعد [حكم] الحاكم المذكور أم لا؟ فيه قولان كما فى كتب الفروع.

(حدثنا الفقيه أبو الوليد)، رحمه الله تعالى، تقدم بيانه قال: **(حدثنا الحسين بن محمد)** هو الحافظ أبو على الغسانى، وقد تقدم، قال: **(حدثنا أبو عمر)** هو ابن عبد البر، وقد تقدم، قال: **(حدثنا أبو محمد)** عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن القرطبى، كان ممن لقى ابن داسة، وأخذ عنه وترجمه الذهبى، قال: **(حدثنا أبو بكر)** هو ابن داسة راوى سنن أبو داود كما تقدم.

قال: **(حدثنا أبو داود)** الإمام المشهور صاحب السنن، وقد تقدم، قالوا: **(حدثنا محمد ابن كثير)** بكاف مفتوحة، ومثلثة مكسورة وتحتية ساكنة، وهو ابن كثير العبدى البصرى، الإمام المشهور، أخرج له الستة، توفى سنة مائتين وثلاث وعشرين وعمره تسعون سنة، وترجمته فى الميزان.

قال: **(حدثنا)** وفى نسخة: أخبرنا **(سفيان)** أى الثورى لا ابن عيينة؛ لأنه الذى يروى عنه ابن كثير، وبه صرح عبد الغنى فيحمل المطلق عليه **(عن هشام بن عروة، عن أبيه)** عروة، وقد تقدم الكلام عليهما **(عن زينب بنت أم سلمة)**، أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، وزينب هذه بنت أبى سلمة، ربيبة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهى صحابية تزوجها عبد الله بن زمعة، توفيت بنت ثلاث وسبعين.

(عن أم سلمة) أم المؤمنين المذكورة، واسمها هند، وقيل: رملة كما تقدم، **(قالت: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، الحديث)**، المذكور، يعنى: «إنما أنا بشر» إلى آخره، وقدم المتن على السند هنا، وهو جائز؛ لأنه مبين لما عقد له الفصل كالترجمة له، وعدل فيه عن رواية الصحيحين لعلو سنده فى سنن أبى داود، أو لأنه ضمه لما هو مشهور معلوم تقوية له.

(وفى رواية الزهرى) بن شهاب الإمام المشهور، **(عن عروة)** تقدمت ترجمته **(فلعل بعضكم)** وقع فى هذه الرواية بالفاء التفريعية، وفيه **(أبلغ من بعض)** مكان ألحن، فهو من البلاغة ليوافق معنى الرواية الأخرى، وما قيل من أنه من البلوغ، وهو الوصول، أى أسرع وصولاً للحجة مع أنه غير مناسب مخالف للظاهر، فلا حاجة لتكلفه، وقيل: إنه من المبالغة والزيادة فى اجتهاده بترويج حجته **(فأحسب إنه صادق)** فيما ادعاه بحسب الظاهر، وإن وما بعده ساد مسد مفعولى أحسب، **(فأقضى له)** أى أحكم له بما أظنه حقه.

(و) هو، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(تجرى)** بمثناة فوقية **(أحكامه)** مرفوع نائب مناب فاعله أو بتحتية مضمومة، وأحكامه منصوبة مفعوله **(على الظاهر)** من الأمر وما يقتضيه **(و)** يجرى على **(موجب)** بضم الميم، وفتح الجيم، أى ما يقتضيه **(غلبات الظن)**، أى ما يغلب تحقيقه فى ظنه بحسب ظاهر الحال، وجمع غلبات باعتبار تعدد الخصومات، ثم بين سبب غلبة ظنه بما قضى به، فقال: **(بشهادة الشاهدين)** أى بسبب ذلك **(ويمين الحالف)** إذا حلف، فإنه يغلب على الظن صدقه، والمراد اليمين الذى يقتضيه الشرع فى محله، ولذا قال: الحالف من غير تعيين، فلا وجه لصرفه للعان من غير ما يشعر به فى العبارة، وظن بعضهم إن يمين الحالف، المراد بها: اليمين مع شاهد واحد، الذى حكم به بعض الأئمة، ولا حاجة تدعو له **(ومراعاة الأشبه)**، أى ما هو أكثر شبهًا بالحق بما فيه من القرائن، وظن بعضهم أن الأشبه المراد به، شبه الولد فى الملاعنة.

(و) مما حكم فيه بالظاهر اللقطة، وما فيها من **(معرفة العفاص)**، وهو بكسر العين المهملة، وفاء مفتوحة مخففة قبل الألف وصاد مهملة، وهو وعاء من جلد ونحوه يوجد فيه ما التقط.

(والوكاء) بكسر الواو ما يربط به، فإذا عرفها، وجاء طالبها يسأل عن أماراتها، فإذا بينها تدفع له لغلبة الظن بأنه صاحبها، وهو إشارة لما ورد فى الحديث الصحيح: «وعرفها سنة، ثم احفظ عفاصها ووكاءها، وإن جاء أحد يخبرك بها وإلا فأنفقها»(١)، **(مع مقتضى حكمة الله تعالى فى ذلك)** أى له اقتضت حكمة الله تعالى لنبيه، عليه الصلاة والسلام، أن يحكم لظاهر ليقتدى به من بعده من حكام أمته، ولو أراد أن يطلعه الله تعالى فى كل قصة على حقيقتها فعل، ولكنه لا يتيسر لمن بعده اتباعه فى أحكامه،

---

(١) أخرجه البخارى (١٦٢/٣، ١٦٣)، ومسلم (١٧٢٢/٥)، وأبو داود (١٧٠١، ١٧٠٢)، والترمذى (١٣٧٤)، وابن ماجه (٢٥٠٦)، وأحمد (١٨٠/٢، ٢٠٧، ١٢٦/٥، ١٢٧، ١٤٣)، والبيهقى (١٨٦/٦، ١٩٣، ١٩٤).

وهذه الأحكام وإن خالفت الواقع لا خطأ فيها؛ لأنه مأمور بالحكم به وليس من قبيل اجتهاده حتى يقال: إنه لا يخطئ فيه ولا يقر على الخطأ فينافى ما تقدم، وهو ظاهر جدًا.

(**فإنه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**لو شاء لأطلعه الله تعالى على أسرار عباده**) أى ما خفى منها، فأراد الله تعالى أن لا يطلعه، وأنه إذا أطلعه لا يظهر لهذه الحكمة (**ومخبآت ضمائر أمته**)، أى ما أضمروه وأخفوه من أنفسهم مما لا يطلع عليه إلا الله تعالى عالم الغيب، وهى جمع مخبأة اسم مفعول مشدد الباء، أى مكنونة غير ظاهرة وخبايا الأرض فى الحديث الزرع لاستتاره إذا بذر وفى الحديث: «ابتغوا الرزق فى خبايا الأرض» وقال الشاعر(١):

تتبع خبايا الأرض وادع مليكها لعلك يومًا أن تجاب وترزقا

(**فتولى الحكم بينهم بمجرد يقينه وعلمه**) يعنى لو أطلعه الله على السرائر ليحكم بها كان يحكم بعلمه فيها (**دون حاجة**) له فى حكمه (**إلى اعتراف**)، أى إقرار من الخصم (**أو بينة**) تشهد عليه (**أو يمين**) تتوجه على المنكر (**أو شبهة**)، أى مشابهة فى الأمر للحق كما تقدم والأمر بخلافه، (**ولكن لما أمر الله تعالى أمته فى اتباعه**) فى أحكامه التى شرعها لهم، (**والاقتداء به فى أفعاله**) المشروعة، (**وأحواله وقضاياه**)، أى أحكامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى غزواته وغيرها.

(**فكأن هذا**) الأمر الذى أمر باتباعه (**لو كان مما يختص**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**بعلمه**) أى أعلمه الله تعالى به مما خفى على غيره (**ويؤثره الله تعالى به**)، أى يخصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، به دون أمته؛ لأنه وحى أو إلهام له (**لم يكن للأمة سبيل**)، أى طريق لهم (**للاقتداء به فى شىء من ذلك**) لعدم علمهم به؛ لأنه آثره الله تعالى به، (**ولا قامت حجة**) بعده، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**بقضية من قضاياه**)، فى أمر من الأمور الدينية (**لأحد**) من أحكام أمته وخلفائه.

(**فى شريعته**) وأحكامه (**لأنا لا نعلم ما اطلع عليه**) باطلاع الله تعالى له على ما خفى منه (**هو فى تلك القضية لحكمه، هو إذن فى ذلك بالمكنون**) أى الخفى (**من إعلام الله تعالى له بما أطلعه الله تعالى عليه من سرائرهم**) التى أخفاها عن غيره من الأمة (**وهذا مما لا يعلمه الأمة**)؛ لأنه تعالى لا يظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول (**فأجرى الله تعالى أحكامه**) الشرعية (**على ظواهرهم التى يستوى فيها هو**) صلى الله تعالى عليه وسلم

---

(١) البيت من الطويل، وهو بلا نسبة فى لسان العرب (٦٢/١) (خبأ).

(وغيره من البشر) من أمته فى زمنه وبعده وهذا باعتبار أكثر أحواله، وإلا فمن خصائصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه يجوز له أن يحكم بعلمه، وقد أطلعه الله تعالى على كثير من السرائر والمضمرات، لكنه لم يؤمر بالحكم بها للحكمة المذكورة.

وقد أمر بعض الأنبياء بالحكم بالأمور الباطنة، كالخضر على القول بنبوته، وهو الأصح كما مر، لكنه لم يكن له أمة تقتدى به، وكذا أنكر عليه موسى، عليه الصلاة والسلام، قبل اطلاعه على أنه أذن له فيه، فلما علمه سلمه له، وللسيوطى رسالة فى أن نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان له الحكم بالباطن أيضًا، إذا لم يخش من التهم وساقوا منها قضايا لا نطيل بها هنا، وحكمه على الظاهر كان تارة بالقضايا، وتارة بالسياسة والسلطنة، أى الإمامة العظمى، وتارة بالفتوى كما فصله ابن السبكى فى قواعده مع الفرق بينهما، فارجع إليه إن أردته.

(ليتم اقتداء أمته به فى تعيين قضاياه) التى وقعت فى أحكامه بين الناس، ويتم بضم التحتية وفاعله ضمير يعود إلى الله تعالى عز وجل، واقتداء أمته بالنصب مفعوله، ويجوز فتحها ورفع اقتداء على الفاعلية **(وتنزيل أحكامه)** على قواعد شرعه وإجرائها فى جزئياتها.

(ويأتوا ما أتوا) بقصر الهمزة، أى يفعلوا ما فعلوا **(من ذلك)** أى من قضاياه وتنزيل أحكامه **(على علم ويقين من سنته)**، أى طريقته فى شريعته التى بينها لأمته **(إذ البيان بالفعل)** الذى فعله فى أحكامه **(أوقع)** فى النفوس وأثبت طمأنينة **(ومنه)** أى من البيان **(بالقول وأرفع لاحتمال اللفظ)** للتأويل والتجوز.

(وتأويل المتأول) بخلاف الفعل، فإنه لا يجرى مثله مع توافقه للظاهر فلا خفاء فيه، **(فكان حكمه)** أى الفعل لا النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما قيل، **(على الظاهر أجلى)** بالجيم أفعل تفضيل، أى أظهر **(وأوضح)** عطف تفسير **(فى البيان)** لكل أحد يشاهده.

(فى وجوه الأحكام) جمع وجه وهو ما يتوجه منه، ويحمل عليه كما يقال فى هذا وجهان، أى توجيهان، وجعله من قبيل لجين الماء أو الاستعارة المكنية والتخييلية، كما قيل صرف له عن الظاهر من غير داع له.

(وأكثر فائدة لموجبات) بفتح الجيم، أى ما يقتضيه **(التشاجر و)** هو بضم الجيم مصدر بمعنى **(الخصام)** الواقع فى المنازعات والدعاوى من شجر بينهم كذا إذا وقع وجرى، وفى الحديث: «إياكم وما شجر بين أصحابى»، أى وقع بينهم من أمور اقتضاها

الاجتهاد، وإنما كان الفعل أظهر؛ لأنه مشاهد محسوس، وفى الحديث: «ليس الخبر كالمعاينة»[(١)]، فإن الله أخبر موسى بما فعل قومه بعده، فلم يلق الألواح، فلما عاين ذلك، ألقاها. رواه الطبرانى، رحمه الله تعالى، وغيره، وهو حديث صحيح، وزعم بعضهم أن القول أقوى؛ لأن الفعل قد يطول فيتأخر البيان، ورد بأن القول قد يطول أيضًا.

(**وليقتدى بذلك**) الفعل الصادر عنه (**حكام أمته**) بعده (**ويستوثق**)، أى يتمسك (**بما يؤثر عنه**) أى بما روى أو ينتظم وينضبط على القواعد الشرعية، وفيه روايتان:

إحداهما: أنه مبنى للمعلوم بسين مهملة بمعنى انتظم، وهو استفعال من الاتساق، قال الله تعالى: ﴿**وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ**﴾ [الانشقاق: ١٨].

والثانية: أنه روى بمثلثة بعد الواو مبنى للمجهول، أى يتمسك بما يؤثر عنه، أى ينقل نقلاً صحيحًا شائعًا.

وفى بعض الحواشى إنه تصحيف، وليس كما قال؛ لأن المستعمل من الأول الاتساق دون الاستفعال، فكلاهما صحيح خلافًا لمن رد الثانى.

(**وينضبط قانون شريعته**) وهى القضايا الكلية المنطبقة على جزئياتها، فيتعرف منها أحكامها حلا وحرمة وغيرهما، ثم أجاب عن سؤال مقدر، فقال: (**وطى ذلك عنه**)، أى إخفاؤه مستعار من طوى المتاع فى صوان له، وفيه إشارة لجلالته ونفاسته، وإنما أخفاه لأنه (**من علم الغيب**) المغيب عن غيره (**الذى استأثر**)، أى تفرد واختص (**به عالم الغيب**) عز وجل، ﴿**فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا**﴾ [الجن: ٢٦]) من خلقه (﴿**إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ**﴾ [الجن: ٢٧]) لعلمه ﴿**مِن رَّسُولٍ**﴾ بيان للمرتضى (**فيعلمه منه**)، أى يطلعه على بعضه (**بما شاء**) بوحى أو إلهام أو فراسة، ليكون معجزة له أو كرامة أكرمه الله تعالى بها.

(**ويستأثر**) أى يختص (**بما شاء**) مما طوى علمه عن غيره، فإنه لا يعلم جميع المغيبات إلا الله، والرسول فى الآية من البشر، أو رسل الملائكة، وفيه كلام ذكرناه فى حواشى القاضى، وقد أطلع الله رسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، على كثير من المغيبات، وحديث حذيفة بن اليمان فى الفتن التى تحدث فى آخر الزمان حديث طويل مشهور، وخطبته، صلى الله تعالى عليه وسلم، التى ذكر فيها ما سيقع لأمته مذكورة فى بعض كتب الحديث، وقد فصله ابن كثير فى كتاب الفتن.

---

(١) أخرجه أحمد (١/٢٧)، وابن حبان (٢٠٨٧)، والسهمى فى أخبار جرجان (٧٣، ٥٠٥)، والخطيب فى تاريخه (٣/٣٦٠)، وابن عدى (١/٢٠٣، ٤/١٥٨٠).

(ولا يقدح هذا)، أى عدم اطلاعه على بعض المغيبات **(فى نبوته)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكونه مرتضى للرسالة **(ولا يفصم)** بالفاء والصاد المهملة، قالوا: هو الكسر من غير إبانة، وفسر بالكسر والحل.

والثانى أنسب بقوله: **(عروة من عصمته)** والعروة ما يدخل فيه الزر وما يعقد به شبه عصمته وحفظه بلباس ساتر له عرى وأزرار تمسكه، بطريق الاستعارة المكنية المخيلة؛ لأن للعصمة جهات يتمسك بها، وهو دفع لشبهة وردت، وهى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا حكم بظاهر يخالف الواقع توهم إنه مخالف لعصمته، وليس كذلك لأنه مأمور به لحكمة تقدمت.

* * *

(فصل)

(وأما أقواله) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(الدنيوية)**، أى المتعلقة بأمور الدنيا التى لا تعلق لها بالشرع **(من أخباره عن أحواله)** التى لها تعلق به، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى نفسه وسائر أموره.

(و) أخباره عن **(أحوال غيره)** الدنيوية **(وما يفعله)** هو فى المستقبل **(أو فعله)** فيما مضى مما صدر منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فقد قدمنا أن الخلف)** هو بضم الخاء وسكون اللام أعم من الكذب؛ لأنه يكون فى الأمور التى يعبر عنها بجملة إنشائية **(فيها ممتنع عليه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا يصدر عنه أمر يخالف ما فى نفس الأمر؛ لأنه معصوم فى أقواله وأفعاله.

(فى كل حال) من أحوال البشرية **(وعلى أى وجه)** من وجوه أحواله التى يقع عليها وبينه بقوله: **(من عمد أو سهو، وصحة أو مرض، أو رضى، أو غضب فإنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، معصوم منه)** أى محفوظ من الله تعالى عن أن يصدر عنه خلف فى شىء من أخباره **(هذا)** الأمر الذى عصم فيه من أقواله **(فيما طريقه الخبر المحض)** أى طريقه التى ورد فيها قوله وخبره، إذ كان من الخبر المحض، أى الصريح الذى ليس من قبيل المعاريض التى يراد بها التورية، **(مما يدخله الصدق والكذب)** يعنى الخبر، فإنه ما يحتمل الصدق والكذب فى حد ذاته بقطع النظر عن عوارضه، **(فأما المعاريض)** جمع معراض من التعريض خلاف الصريح، وهو النص الذى لا يحتمل التأويل من القول، يقال: عرفته فى معراض كلامه، ومعرضه بغير ألف، وفى الحديث: «إن المعاريض لمندوحة عن الكذب».

(الموهم ظاهرها) وهو صريح لفظها الموضوع له **(خلاف باطنها)** أى ما خفى منها ما يؤول به لقصد التورية **(فجائز ورودها)** بالتلفظ بها، ويقصد غير ظاهرها **(منه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى الأمور الدنيوية)** دون الأمور الشرعية **(لاسيما)** تقدم الكلام عليها، وإنها استثناء عند النحاة يكون ما بعدها أولى بالحكم مما قبلها.

(لقصد المصلحة) أى إذا كان فى إخفاء المعاريض مصلحة ومنفعة **(كتوريته، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن وجه مغازيه)** أى جهته، صلى الله تعالى عليه وسلم، التى يتوجه إليها فى غزواته، فإن فيها مصلحة والتورية عندهم، أن يكون اللفظ له معنيان قريب وبعيد فيقصد البعيد، وهى تفعلة من الوراء، كأنه وراه لستر المراد منه بإيهام غيره.

(لئلا يأخذ)، أى يتأهب **(العدو)** الذى قصد غزوه **(حذره)** بكسر الحاء المهملة وسكون الذال المعجمة قبل راء مهملة، أى يتيقظ لما يحذره ويخافه فلا يفرط فيه، وفى البخارى: «لم يكن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يريد غزوة إلا ورى بغيرها»، وفى قوله: يأخذ حذره دون يحذر كلام فى الكشاف وشروحه.

(وكما) أى مثل توريته ومعاريضه فى غزواته ما **(روى)** عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(من ممازحته)** المزاح معروف ويسمى أحماضًا **(ودعابته)** بضم الدال وبالعين المهملة وموحدة، وهى بمعنى الممازحة، وذكرها لورودها فى الحديث: «كان فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، دعابة»، وقيل فى على، كرم الله وجهه، أيضًا: «لولا دعابة فيه»، وإنما كان يفعله أحيانًا؛ **(لبسط أمته)**، أى ليسرهم، ويشرح صدورهم، وقد ورد البسط بهذا فى اللغة على طريق التجوز؛ لأن المعبس يعقد أسارير وجهه، وعند الفرح يبسطها فيتسع، وفى أمثال العامة البسط صدف، وهو البشاشة وطلاقة الوجه.

(وتطييب قلوب المؤمنين من أصحابه)، رضى الله تعالى عنهم، وفى نسخة: «من صحابته»، من بيانية أو تبعيضية، أى جعلها طيبة مسرورة **(وتأكيدًا فى محبتهم)**، وفى نسخة تحبيبهم؛ لأن المرء إنما يمازح من يحبه بطرح التكلف بينه وبينه.

(ومسرة نفوسهم كقوله)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه أبو داود، والترمذى، عن أنس، رضى الله تعالى عنه، وصححاه **(لأحملنك على ابن الناقة)**، وروى عن أبى هريرة، أيضًا، وهو أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال له رجل كان فيه بله: يا رسول الله، احملنى، فباسطه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بما عساه أن يكون، ثم قال له: «أنا أحملك على ابن الناقة»، فسبق لخاطره من لفظ النبوة استصغاره، فقال: يا رسول الله ما يغنى عنى ابن الناقة، فقال له، صلى الله تعالى عليه وسلم: «ويلك وهل يلد الجمل

إلا الناقة»، وإنما كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يفعل ذلك معهم إذهابًا لوحشتهم، ولما يعلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من مهابته فى نفوسهم فيأنسهم بذلك، وليعلم الناس حسن الخلق فى المعاشرة، وما ورد من النهى عن المزح، إنما هو عن كثرته المفرطة واستعماله مع كل أحد فى غير محله، فكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يلاعب الأطفال ويمج الماء فى وجوههم وأفواههم، والأخبار فى هذا الباب مبسوطة فى كتب الحديث، وأموره، صلى الله تعالى عليه وسلم، مع البدوى الذى كان يسمى زهيرًا مشهورة.

(**وقوله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه ابن أبى حاتم وغيره (**للمرأة التى سألته عن زوجها**) كما أخرجه ابن أبى الدنيا، عن زيد بن أسلم، أن امرأة يقال لها: أم أيمن جاءت إلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقالت له: زوجى يدعوك، فقال لها: من هو؟ (**أهو الذى بعينه بياض**) فقالت له: والله ما بعينه بياض، فقال لها، صلى الله تعالى عليه وسلم: «ما من أحد إلا بعينه بياض»، يعنى به البياض المحيط بالحدقة، وهى توهمته غشاوة على حدقته مضرة بالبصر، واللفظ يحتملهما والاستفهام تقريرى، ثم أشار إلى بيان ذلك بقوله: (**وهذا**) الذى قال له، صلى الله تعالى عليه وسلم، مداعبة: («**كله صدق لأن كل جمل ابن ناقة**») لصدق الابن على الصغير والكبير، وإن تبادر منه صغره عرفًا: («**وكل إنسان بعينه بياض**») يحيط بحدقته (**وقد قال، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، فى حديث رواه أحمد، والترمذى، والطبرانى، عن ابن عمر، وأبى هريرة، رضى الله تعالى عنهم، بسند حسن: («**إنى لأمزح ولا أقول إلا حقًا**») ولفظ الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله إنك تداعبنا، فقال: «إنى إذا داعبتكم لا أقول إلا حقًا»، فالنهى عنه، فى قوله: «لا تمار أخاك ولا تمازحه». وفى قول عمر، رضى الله تعالى عنه: من مزح استخف به، وقول ابن العاص: يا بنى لا تمازح الشريف فيحقد عليك، ولا الدنى فيجترئ عليك. محمول على الكثرة منه فى غير محله، وعلى غير سنته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فمثله مذموم منهى عنه.

(**هذا كله**) أى ما صدر من ممازحته على وجه الحقية وغيره، (**فيما بابه**) أى نوعه الوارد فيه (**الخبر**)، أى الأخبار بماله نسبة خارجية كما مر.

(**فأما ما بابه غير الخبر**) من الإنشاءات (**مما صورته صورة الأمر والنهى**) المعروفين عند أهل العربية (**فى الأمور الدنيوية فلا يصح منه أيضًا**) القول بصدوره منه لعصمته (**ولا يجوز عليه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**أن يأمر أحدًا بشىء أو ينهى أحدًا عن شىء وهو**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**يبطن خلافه**) جملة حالية لبراءته من الأمر والنهى **بخلاف ما عنده**.

(وقد قال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ما كان لنبى أن تكون له خائنة الأعين فكيف أن تكون له خائنة قلب)** أن يكون فاعل فعل، أى ينبغى أن يكون إلى آخره، وهذا هو الظاهر، وكونه مبتدأ تكلف لا داعى له، وخائنة مصدر بمعنى خيانة كالعافية، وخائنة الأعين، أن يضمر فى نفسه خلاف ما يظهره، فإذا أراد إظهاره أومأ بعينه ولظهوره من العين نسب لها، قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩]، أى ما تخون فيه بمسارقة النظر والغمز، وخائنة القلب خيانته، وإذا لم يجز له أن يشير بطرفه لخلاف ما فى قلبه، فكيف بهذا؟ قالوا: وهذا من خصائص الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أنهم لا يجوز لهم هذا لما فيه من ارتكاب ما لا يليق بهم، وهذا من حديث رواه الحاكم، والنسائى، وأبو داود، وهو أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما فتح مكة أمرهم أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم إلا نفرًا سماهم، وأمر بقتلهم، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، منهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى، وكان ممن أسلم وهاجر وصار كاتب الوحى، ثم ارتد وذهب لقريش، وقال: ما بلغه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من أنه كان يكتب فى الوحى بعض كلام له كما مر، وكان أخًا لعثمان من الرضاع، فعينه ثم أتى به رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعدما أطمأن الناس، فاستأمنه من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فسكت طويلاً، ثم قال: نعم، فلما انصرف، قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «ما مسكت إلا ليقوم أحد ليضرب عنقه»، فقال رجل من الأنصار: هلا أومأت إلينا يا رسول الله، فقال: «ما كان لنبى...» إلى آخره. ثم حسن إسلامه، وهو أحد النجباء الكرماء العقلاء.

(فإن قلت: فما معنى قوله تعالى، فى قصة زيد) بن حارثة بن شرحبيل الكلبى، كانت خديجة، رضى الله تعالى عنها، اشترته ووهبته لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قبل النبوة بمكة، وهو أسن من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعشر أو عشرين سنة فتبناه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى كان يقال له: ابن محمد حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، وكان قدم أبوه وعمه لفدائه، فقالوا لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: يا ابن عبد المطلب أنتم أهل حرم الله وجيرانه، وقد جئناك فى ابن لنا عندك، فقال: «من هو؟»، قالا: زيد، قال: «فهلا غير ذلك»، قالوا: ما هو؟ قال: «أخيره، فإن اختاركم، فهو لكم، وإن اختارنى فهو لله»، فدعاه وخيره، فاختار رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال: أنت مكان الأب والعم، فقالوا: ويحك تختار العبودية على الفدية والحرية، قال: نعم، قد رأيت منه ما لا اختار عليه أحدًا غيره، فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لمن حضره:

«اشهدوا أنه ابنى يرثنى وأرثه...»(١) إلى آخر ما ذكر فى السير.

﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾ الآية، وهذا السؤال وارد على قوله: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يأمر بخلاف ما فى نفسه، ولم يصدر عنه خائنة قلب؛ لأن قوله: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، مناف له بحسب الظاهر، وإنعام الله عليه بهدايته للإسلام، وما وسع عليه فى الدارين، وإنعام الرسول عليه بأعتقاه وتقريبه ومحبته له، وكانت زوجته زينب بنت عمته، عليه الصلاة والسلام، أميمة بنت عبد المطلب، وكانت من أجمل النساء وأشرفهن، فأتى، صلى الله تعالى عليه وسلم، زيدًا لحاجة، فلم يجده فوقع نظره عليها، فأعجبه حسنها ووقعت فى قلبه أعظم موقع، فقال: «سبحان مقلب القلوب»(٢) وانصرف، فلما جاءها زيد أخبرته بذلك ففطن زيد لوقوعها فى قلبه، وألقى الله تعالى فى نفسه كراهتها، فقال: يا رسول الله، إنى أريد مفارقة زوجتى، فقال له: «ما رابك منها»؟ قال: ما رابنى منها شيء، وما رابنى منها إلا خيرًا، ولكنها تتعظم علىّ وتؤذينى بلسانها، فقال له، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أمسك عليك زوجك، واتق الله فى أمرها» فأبى وطلقها، فأجاب عنه المصنف، رحمه الله تعالى بقوله:

(فاعلم) أيها السائل عن هذه القصة **(أكرمك الله عز وجل)** كما أكرمت مقام النبوة ونزهته عما لا يليق به **(ولا تسترب)** أى لا تقع فى ريبة وشك فى شيء من أموره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأصل الريب قلق النفس واضطرابها، ثم نقل للشك، وفى الحديث: «الشك ريبة والصدق طمأنينة»، أى لا يشك، **(فى تنزيه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن هذا الظاهر)** من الآية، أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أخفى فى نفسه أمرًا لخشية طعن الناس فيه بحبها وإرادة طلاقها، وأمره بإمساكها، وهو يريد خلافه كما قال.

(وأن يأمر زيدًا بإمساكها) فى عقد نكاحه ولا يفارقها **(وهو)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يحب تطليقه إياها)** ليتزوجها **(كما ذكره جماعة من المفسرين)** بأنه أظهر خلاف ما فى نفسه، وأمره بما لم يرده، وأنه خشى مقالة الناس فيه، كما نقل بعضهم عن قتادة، وابن عباس، رضى الله عنهما، وهو غير لائق بمقامه صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وأصح ما)** قيل **(فى هذا)** الأمر المذكور فى هذه الآية، **(ما حكاه بعض أهل التفسير)** وفى

---

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣/١/٢٨)، والطبرى فى تفسيره (٣/٢٠٧)، والطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٦/١١٦، ١٠/٩٦).

(٢) أخرجه ابن الجوزى فى زاد المسير (٦/٢٩٦).

نسخة: رواه أهل التفسير **(عن)** زين العابدين **(على بن حسين)** بن على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنهم، وقيل: المراد بعلى بن الحسين بن طلحة بن أبى طالب أحد السبعة، **(إن الله كان)** قبل وقوع هذه القصة.

(أعلم نبيه)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أن زينب)** بنت جحش **(ستكون من أزواجه)** أمهات المؤمنين بعد ما تزوجها زيد، وهى تحت نكاحه، **(فلما شكاها إليه زيد)**، بأنها تتعظم عليه لشرفها، وهو من الموالى **(قال له: أمسك عليك زوجك)**؛ لأنه فهم من شكايته أنه يستأذنه فى طلاقها، **(واتق الله)** فلا تؤذها بوصفها بالتكبر وطلاقها بلا سبب **(وأخفى منه)**، أى من زيد **(فى نفسه)** لم يصرح له به حياء منه، أن يطلع الناس على أنه سيتزوجها، وإن لم يكن فيه أمر مستقبح، وإنما كتم سره و**(ما أعلمه الله تعالى به من أنه سيتزوجها)** وفى نسخة سيزوجها الله له **(مما الله تعالى مبديه ومظهره)** بإبرازه فى الخارج **(بتمام التزويج وطلاق زيد لها)** كما قال الله تعالى: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، الآية.

قال ابن العربى: **فإن قلت:** فلم قال له: أمسك عليك بعدما أخبره الله تعالى بأنه سيزوجها له؟ **قلت:** ليعلمه ما لم يعلمه من كراهة زيد لها ورغبته فى طلاقها، حتى لا يبقى فى نفسه شىء منها، وعلى هذا التفسير لم يبق فى القصة إشكال أصلاً.

(وروى نحوه عن عمرو بن فائد) بفاء وألف وهمزة ودال مهملة، وفى الإكمال: إنه بالفاء والقاف، وذكره الذهبى، فقال: عمرو بن فائد الأسوارى، وقال الدارقطنى، وغيره: إنه ضعيف متروك الحديث معتزلى، قدرى، لا يقيم الحديث، وهو بصرى، يكنى أبا على. قال البرهان: وهو فى النسخ التى وقفت عليها بالقاف وفيه نظر، **(عن الزهرى)** ابن شهاب، كما تقدم.

(قال: نزل جبريل على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يعلمه) مضارع من الإعلام **(أن الله يزوجه زينب بنت جحش)**، رضى الله عنها، وقيدها ببنت جحش ليخرج غيرها، فإن من أمهات المؤمنين زينب أخرى، هى بنت خزيمة أم المساكين، **(فذلك)** هو الأمر **(الذى أخفى فى نفسه)** لاستحيائه من إظهاره **(ويصحح هذا)** الذى رواه الزهرى **(قول المفسرين فى قوله تعالى بعد هذا)** فى آخر الآية، ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، لإفادته أنه أمر أراده قبل ذلك، ونفى عنه الحرج فى تزويج منكوحة من تبناه؛ لأنه ليس كالولد الحقيقى، **(أى لابد لك أن تتزوجها)**؛ لأنه قدره أولاً، وإنما تزوجها لحكمة رتب عليها أحكامًا شرعية.

(ويوضح هذا) الأمر الذى قرره المفسرون: **(أن الله لم يبد)** أى لم يظهر **(من أمره)**، أى شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه القصة **(معها)**، أى مع زينب، رضى الله تعالى عنها، **(غير زواجه لها)** أى تزويجه إياها، **(فدل)** ما أبداه الله تعالى من أمره على **(أنه)** أى تزويجها له بأمر الله هو **(الذى أخفاه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى نفسه لا أنه أخفى فى نفسه غير ما أمره الله به، وإنما الذى أخفاه شىء، **(مما أعلمه الله به)** لا غيره مما توهموه، فإنه تعالى لم يبد شيئًا غير زواجه بها، فدل على أنه هو الذى أخفاه كما تقرر، ولو كان أمرًا آخر أبداه، وما فى الكشاف من قوله، **فإن قلت**: فماذا أراد الله تعالى منه أن يقول حين قال له زيد: أريدأن أفارقها، وكان من الهجنة أن يقول له: افعل فإنى أريد نكاحها. **قلت**: الذى أراده الله تعالى منه، أن يصمت أو يقول له: أنت اعلم بشأنك، انتهى. نزعة اعتزالية فى تخلف الإرادة فاحذرها.

(وقوله تعالى فى القصة)، أى قصة زينب المذكورة، ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٍ﴾ [الأحزاب: ٣٨]، الآية، ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾، والحرج فى الأصل الضيق، وأريد به الإثم، أى لا إثم عليك فيما قدره لك ووسع عليك فى أمر النكاح، وسنة الله منصوب على الإغراء، أو هو مصدر لفعل علم، من السياق، أى سن ذلك سنة وطريق شرعية كانت لمن قبلك من الأنبياء، فى تزوج من تريد أو فى تعدد المنكوحات وكثرتها، كما وقع لداود وسليمان وغيرهما من الرسل، عليهم الصلاة والسلام، وفرض الله بمعنى قضى وقدر لا من الفرض مقابل السنة، ففى ذكره مع السنة تورية وطباق بليغ فيه من اللطف ما لا يخفى حسنه.

(فدل) ما ذكر فى قوله: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٍ﴾، على **(أنه لم يكن عليه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(حرج)**، أى تضييق ولا إثم يقتضى العتاب عليه، **(فى الأمر)** الذى فعله، وقد قدره الله تعالى له، وأعلمه به.

(وقال الطبرى) محمد بن جرير ، وقد تقدمت ترجمته: **(ما كان الله)** أى ما فعل وقدر **(أن يؤثم نبيه، عليه الصلاة والسلام)**، أى يوقعه فى إثم وذنب **(فيما أحل له مثال فعله)** أى أحل مثله **(لمن قبله من الرسل)** عليهم الصلاة والسلام، يعنى أن الآية، دالة على أن ما فعله لا إثم فيه؛ لأنه **(قال الله تعالى:** ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ﴾ [الأحزاب: ٦٢]، أى مضوا وتقدموا.

(أى) من قبلك **(من النبيين فيما أحل لهم)** كما قال: إن ما فعلته من سنن الأنبياء الذين قبلك دل على أنه أمر مشروع لا إثم فيه، فدلت الآية على بطلان غير ما قيل لدلالة الآية عليه تصريحًا ظاهرًا، **(ولو كان)** الأمر على خلاف ما ذكر وتفسير ما أخفاه

بما ذهب إليه غيره، **(على ما روى فى حديث)** عبد بن حميد، عن **(قتادة)** وقوله فيما نقل عنه **(من وقوعها)**، أى زينب، رضى الله تعالى عنها، **(فى قلب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى إنه لما رآها وقعت فى قلبه موقعًا عظيمًا لشغفه بها **(عندما أعجبته)** بحسنها الذى رآه.

(و) من **(محبته طلاق زيد لها)** أى ليتزوجها لتعلق قلبه بمحبتها **(لكان فيه أعظم الحرج)**، أى الإثم غير اللائق به، والتضييق على زيد بإرادته مفارقة منكوحته وحاشاه صلى الله تعالى عليه وسلم من مثله.

(و) لكان أيضًا فيه **(ما لا يليق به)**، أى لا يحسن صدوره منه، ولا ينبغى له **(من مد عينيه إلى ما نهى عنه)** أى عن طلبه وتمنيه ومد العين إطالة النظر، حتى لا يرده لاستحسانه له، فهو بتقدير مضاف أو تجوز فى العين، وهو كناية عن تطلب الأمر، وإرادته إرادة قوية، وبين المنهى عنه بقوله: **(من زهرة الحياة الدنيا)**، أى زينتها وزخرفها، وبهجتها، وهذا إشارة إلى أن ما وقع فى القرآن العظيم تمثل به؛ لأنه نزل لما وردت سبع قوافل من بصرى فيها طيب وأمتعة نفيسة، فقال المسلمون: لو كان لنا هذا تقوينا به، وأنفقناه فى سبيل الله تعالى، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ [الحجر: ٨٧]، الآية، أى هذه خير لكم من القوافل السبع فلا تمدوا أعينكم نحوها، وكل هذا لا يليق بمقامه عليه الصلاة والسلام، وزهده فى الدنيا، فما قيل من أن مجرد وقوعها فى قلبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من غير أن يبدو منه شىء لا إثم فيه، وكذا محبته وميله لطلاقها غير تكلم فيه، لا إثم فيه فكيف أعظم الحرج فيه نظر.

(ولكان هذا)، أى لو كان ما أخفاه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى نفسه بعدما أعجبته زينب، وأراد أن يطلقها، أو لو صح هذا كان **(من الحسد المذموم)**؛ لأن الزوجة الحسناء نعمة من الله تعالى بها، فهو بذلك يريد زوالها عنه، وقيد بالمذموم؛ لأن الغبطة حسد غير مذموم؛ لأنه معناها، أن يتمنى أن يكون له نعمة كنعمة غيره من غير تمنى زوالها، وهذا فى أمور الدنيا لا فى الدين، وأقبح الحسد تمنى زوال نعمة لغيره لا تحصل له **(الذى لا يرضاه)** صفة للحسد **(ولا يتسم به)**، أى لا يتصف به من الوسم، وهى العلامة وأصلها أن يكون بكى ونحوه كما مر.

(الأنبياء) تنازعه يرضى ويتسم **(فكيف بسيد الأنبياء)** الذى هو أعظمهم وأشرفهم نفسًا، صلى الله تعالى عليه وسلم، والاستفهام تعجبى إنكارى، والمراد به استبعاد صدور الحسد منه، ومنهم، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(قال القشيرى) عبد الكريم بن هوازن صاحب الرسالة الإمام المفسر الزاهد شيخ الصوفية، ورأس الشافعية المشهور: **(هذا)** المنقول عن قتادة من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، رآها فأعجبته وأراد طلاقها **(إقدام عظيم من قائله)** أولاً دون حاكيه عنه، أى جرأة على مقام النبوة **(وقلة معرفة)** بل عدم معرفة **(بحق النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، الذى يجب أن يعتقد فيه **(وبفضله)**، أى زيادته على غيره فى الشرف وعلو المرتبة من أمور الدنيا، **(وكيف يقال)**: أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(رآها فأعجبته)** مما يقتضى أنه لم يرها قبل ولا يعرفها، **(وهى بنت عمته)** عليه الصلاة والسلام؛ لأنها بنت أميمة بنت عبد المطلب كما مر.

(ولم يزل يراها منذ ولدت) إلى أن بلغت فهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، يعرفها ويعرف جمالها **(و)** كيف لايعرفها و**(لا كان النساء)**، ولو أجنبيات **(يحتجبن منه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، لمعرفتهن بعفته وعصمته **(وهو)** الذى **(زوجها لزيد)** مولاه، رضى الله تعالى عنه، **(وإنما جعل الله طلاق زيد لها)**، أى لزينب بعد ما زوجها له.

(وتزويج النبى)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(إياها)** بما قدره وأمره به كما تقدم؛ لحكمة ولهذا لم يتزوجها قبل زيد، ليعلمهم حكمًا شرعيًا، وهو ما أشار إليه بقوله **(لإزالة حرمة التبنى)**، أى اتخاذ ابن غيره ابنًا لئلا يظن الناس إنه يحرم تزوج حليلة من تبناه، كما يحرم بين الأب، وابنه الحقيقى حليلة كل على الآخر.

(وإبطال سنته) أى الطريقة الجارية بين الناس فى جعل التبنى ابنًا حقيقة، يحرم منه ما يحرم منه، كما كان فى الجاهلية، وما قيل: من أن القول الذى رده المصنف، رحمه الله تعالى، ثابت بالنقول الصحيحة، ثم فسره بما ارتضاه المصنف، رحمه الله تعالى، تخليط لا حاجة للإطالة به، إلا أن الأئمة الشافعية قالوا: إنه من خصائصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه يجوز له النكاح بغير الرضى، وأنه إذا رغب فى نكاح امراة لزم إجابته، وحرم على غيره خطبتها، فإن كانت تحت زوج وجب عليه طلاقها؛ لأنه يجب على كل أحد أن يكون رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أحب إليه من نفسه، وأهله، وولده، كما قاله العراقى.

وقال ابن حجر فى شرح البخارى: الذى صح بالأدلة القوية أن من خصائصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، جواز الخلوة بالأجنبية والنظر إليها، كما كان يدخل على أم حرام وينام عندها ويغسل رأسه، وهى أجنبية منه وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، زوج زيدًا زينب كما مر، وساق مهرها من عنده وكانت هى وأخوها يأبيان ذلك؛ لشرف النسب، وقرابة الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكانت لها، رضى الله تعالى عنها، حدة وشهامة.

(**كما قال تعالى**): فى بيان هذه القصة وما فيها من الحكم ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ**﴾ [الأحزاب: ٤٠]، أى ليس أبا حقيقيا لأحد منهم فإنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يعش له ولد ذكر، وابنه إبراهيم مات صغيرًا لم يبلغ سن الرجولية ومن جوز أن يقال له: أب المؤمنين كما يقال: لنسائه أمهات المؤمنين، فإنما هى أبوة شفقة وتعظيم وكان زيد، رضى الله عنه، يقال له: ابن محمد فلما نزلت الآية لم يقل له ذلك، فعوضه الله عنه بذكر اسمه فى القرآن المتلو فى المحاريب، ولم يقع هذا لغيره من الأمة، وأما الحسن والحسين، رضى الله عنهما، فليست بنوتهما حقيقية كما لا يخفى فلا يثبت لأحد حكم البنوة الحقيقية منه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(و) لذا (**قال**) الله عز وجل فى هذه الآية ﴿**لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ**﴾ [الأحزاب: ٣٧]، أى تضييق فى أمر النكاح وهو تعليل لقوله: ﴿**زَوَّجْنَاكَهَا**﴾، أى شرعنا لك ذلك توسيعا على الأمة لا خاصية لك ﴿**فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ**﴾، جمع دعى بمعنى مدعو وهو من يلصق نسبه بنسب غيره، وليس بينهما بنوة حقيقية، وقوله: ﴿**إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا**﴾، بالتزويج والنكاح (**ونحوه**)، أى مثل ما ذكره، وبمعناه معزو (**لابن فورك**) تقدمت ترجمته.

(**وقال أبو الليث السمرقندى**): تقدم بيانه أيضًا، (**فإن قيل**): إذا كان الله قدر له، صلى الله تعالى عليه وسلم، تزوجها ورضيه له (**فما فائدة أمر النبى**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**زيدًا بإمساكها**) بقوله: أمسك عليك زوجك (**فهو أن الله تعالى، أعلم نبيه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**أنها زوجته**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**فنهاه**) أى نهى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، زيدًا (**عن طلاقها**) وإخراجها من زوجيته (**إذ لم يكن بينهما**)، أى بين زينب، وزيد، وهو تعليل لنهيه.

(**ألفة**)، أى محبة؛ لأنها لم ترض نكاحه لشرفها، وكانت تطيل لسانها عليه، فألقى الله فى قلبه كراهتها، حتى أحب فراقها ليقض الله أمرًا كان مفعولاً، (**وأخفى فى نفسه ما أعلمه الله به**) من أنه قدر لها نكاحها له وأمره به، (**فلما طلقها زيد خشى**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**قول الناس**) باعتبار ما اعتادوه فى الجاهلية أنه (**يتزوج امرأة ابنه**) لتوهمهم أن التبنى كالبنوة الحقيقية، وإنما خشيه، وهو لا إثم فيه، كراهة القيل لمن لا يعرف حقيقة الحال كما هو حقيقة حال الأشراف، (**فأمره بزواجها**) إزالة لما يخشاه (**ليباح ذلك لأمته**) اقتداء به، صلى الله تعالى عليه وسلم، توسعة عليهم، (**كما قال تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾**) [الأحزاب: ٣٧]، فنفى عنهم الحرج لينفيه عنه بالطريق الأولى تطييبًا لنفسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإزالة لطعن

الجهلة، وحاصله تأويل ما وقع فى هذه القصة مما يخالف ظاهره ما يقتضيه مقامه لأمره بما يريد خلافه، ومحبته لها، وهى تحت نكاح غيره، فأشار إلى الجواب عما ذكر.

(**وقد قيل: كان أمره**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**لزيد بإمساكها قمعًا للشهوة**)، أى منعًا لها وزجرًا لها، يقال: قمعه فانقمع إذا كفه وذلله، والشهوة ميل النفس لما تستلذه، (**وردًا للنفس عن هواها**)، أى عما تهواه من الصور الجميلة، وحكاه بقيل، إشارة إلى أنه غير مرضى عنده، فلا وجه لاستحسانه؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يكن فى نفسه هوى وحاشاه من مثله.

(**وهذا إذا جوزنا عليه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**أنه رآها فجأة واستحسنها**) لاسيما، وقد مر، أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان رآها قبل، وكان يعرفها ويعرف جمالها، إلا أنه ليس بمنكر ولذا قال: (**ومثل هذا**) القيل على ما فيه (**لا نكرة فيه**) أى لا ينكر صحته فى الجملة، والنكرة ضد المعرفة فى اصطلاح النحاة، وأصلها كل ما لا يعرف فنقل وخص.

(**لما طبع عليه ابن آدم من استحسانه الحسن**) من الصور وغيرها مما يشاهد وغيره، (**ونظرة الفجأة**)، أى النظر الذى وقع بغتة من غير قصد، والفجأة بضم الفاء، والمد يجوز قصره بضم وسكون، والفجأة بالفتح المرة منه، (**معفو عنها**)، أى لا حرج فيها، ولا إثم؛ لأنها لم تقصد، وهو جواب عن سؤال تقديره: كيف نظر، صلى الله تعالى عليه وسلم، لغير محرم مشتهى؟.

(**ثم قمع نفسه عنها**) بصيغة الماضى، ويجوز أن يكون مصدرًا، وكذا فى قوله: (**وأمر زيدًا بإمساكها**) فى نكاحه وتقوى الله فيها بعدم ذكر ما يعيبها، (**وإنما ينكر تلك الزيادات التى**) ذكرها بعض المفسرين (**فى القصة**)، من أنه تعلق قلبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بها وأراد أن يطلقها، وأخفى ذلك فى نفسه ونحوه مما لا يليق بنزاهته، (**والتعويل**) أى المعول عليه المعتمد فى هذه القصة على ما ذكرناه، وهو القول الذى ارتضاه، والقول بأنه لا بأس فيما قالوه، لا وجه له.

(**و**) هو (**الأولى**) وإن جاز غيره، لكنه لا يناسب مقامه، وإن كان جائزًا فتنبه، (**ما ذكرناه عن على بن الحسين**) وهو الإمام زين العابدين كما تقدم.

(**وحكاه السمرقندى**) فى تفسيره كما تقدم، (**وهو قول ابن عطاء**)، رحمه الله وتقدمت ترجمته، (**وصححه**)، أى جزم بأنه القول الصحيح (**واستحسنه القاضى القشيرى**) لما فيه من صيانة مقام النبوة عما لا يليق واعتمده (**وعليه عول أبو بكر بن**

فورك) تقدم ضبطه فى ترجمته مع ما فيه.

(وقال: إنه) أى هذا القول الذى اعتمده **(معنى ذلك)** أى المذكور فى هذه الآية والقصة، **(عند المحققين من أهل التفسير، قال)** ابن فورك، رحمه الله تعالى: **(والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، منزه عن استعمال النفاق فى ذلك)**، أى عن أن يظهر أمرًا فى نفسه خلافه، وإن كان أمرًا جائزًا له، والنفاق فى الأصل معناه الإخفاء مأخوذ من نافقاء اليربوع، وهو مخرجه الذى يخفيه، ثم نقل فى الشرع لإخفاء الكفر، وإظهار الإسلام، واستعمل بعد ذلك استعمالاً شائعًا لإخفاء كل أمر لا يرتضى، ومنه الحديث: «ثلاث من كن فيه، فهو منافق»(1)، وعد منها الكذب، وغيره كما صرحوا به، فلذا قال: **(وإظهار خلاف ما فى نفسه)** فهو عطف تفسير موضح لما أراده، فلا وجه لما قيل: إنها عبارة مستبشعة إلى آخر ما أطال فيه من غير طائل، نعم لو تركها، كان أحسن لكنه حكاها عن غيره، فلا عهدة عليه فيها، ومراد ابن فورك التغليظ على قائل هذه العبارة وتغليظه، بأن من يجوز عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مثل هذا مثل من جوز عليه الكفر والنفاق والمعترض لم يقف على مراده.

(وقد نزهه الله عز وجل عن ذلك) الذى قاله بعض المفسرين **(بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾)** [الأحزاب: ٣٨]، أى قضى وقدر من تزويجه، صلى الله تعالى عليه وسلم، زينب، فهذا صريح فى رد ما قاله بعض المفسرين، وصريح فيما ارتضاه.

(قال) ابن فورك: **(ومن ظن ذلك بالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى إنه وقع فى قلبه محبتها وإرادته أن زيدًا يفارقها وأخفى ذلك فى نفسه، **(فقد أخطأ)** خطأ فاحشًا، فلذا جعل نسبته له كنسبة النفاق له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فالتعبير به للتشنيع على قائله، وبعد تنزيهه عنه كيف يعترض عليه كما قال:

وما آفة الأخبار إلا رواتها

(قال) ابن فورك: **(وليس معنى الخشية هنا)** يعنى فى قوله: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، **(الخوف بل معناه)** المقصود هنا، وفى نسخة معناها، أى الخشية، وعلى الأولى الضمير للفظ المذكور، **(الاستحياء أى يستحيى منهم)**، أى من الناس **(أن يقولوا: تزوج زوجة ابنه)**، أى من تبناه، وهو زيد وهذا أعنى قوله: وعليه

---

(1) أخرجه أحمد (٢/٥٣٦)، وابن أبى شيبة (٨/٤٠٦)، وابن المبارك (٣١)، والبيهقى (٦/٢٨٨)، والطبرى فى تفسيره (١٠/١٣٣)، والفريابى (٦٦، ٦٧)، وأبو نعيم فى الحلية (٦/٢٥٥).

عول ابن فورك إلى هنا سقط من بعض النسخ، واستحياؤه لشرفه المقتضى أن لا يسمع مقالة من أحد، وإن لم يضره شرعًا ويدنس عرضه.

(وأن خشيته)، أى استحياؤه **(صلى الله تعالى عليه وسلم، إنما كان من إرجاف المنافقين واليهود)** أى إشاعة ما هو مكروه بزعمهم، وأصل الرجف الاضطراب وإيقاعه إما بالفعل، وإما بالقول ويقال: الأراجيف ملاقيح الفتن، كما قلت:

ألسن الناس إذا ما انطلقت فهو بذر للبلايا والمحن
فاحذر الألسن مهما انطلقت فالأراجيف ملاقيح الفتن

(وتشغيبهم) من الشغب بغين معجمة ساكنة ومفتوحة، وهو ما يؤدى إلى الشر من الأكاذيب **(على المسلمين)** بذكر ما ينقص نبيهم، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن ما يسوءه يسوءهم **(بقوله: تزوج زوجة ابنه)** لزعمهم إنه غير جائز، كالابن الصلبى جهلاً منهم وتعصبًا **(بعد نهيه)**، أى تحريمًا **(عن نكاح حلائل الأبناء)** جمع حليلة، وهى الزوجة المنكوحة تلبيسًا منهم بجعل المتبنى كالابن الحقيقى، وقد قال تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣]، **(كما كان)**، أى وقع من أراجيفهم وتشغيبهم.

(فعاتبه الله على هذا) عتب محبة وتسلية لعدم قبحه، **(ونزهه عن الالتفات إليهم)** والاعتداد بمقالتهم **(فيما أحله له)** وقدره من هذا النكاح من غير حرج فيه، وهذا العتاب **(كما عتبه على مراعاة رضا أزواجه)** النازل ذلك العتب **(فى سورة التحريم بقوله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾) [التحريم: ١] الآية، ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ، **(كذلك قوله: هنا** ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾) [الأحزاب: ٣٧]، فيما أخفيته مما الله مبديه ومجوزه لك بلا حرج، أى أنه مثله فى أنه عتب ملاطفة وتسلية على ما استحيى منه؛ لشرف مقامه صلى الله تعالى عليه وسلم عن أن يصل إليه غبار الأوهام.

(وقد روى عن الحسن) البصرى، رضى الله تعالى عنه، أى رواه الترمذى وصححه وقدمه على قوله، **(وعائشة)**، رضى الله تعالى عنها؛ لأنه هو الذى رواه عنها، فقدمه على عادة الأسانيد، فلا يقال: كان ينبغى تقديمها عليه، **(لو كتم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، شيئًا)**، مما أوحى بمعاتبته، **(لكتم هذه الآية)**، أى آية التحريم لا آية زيد، وزينب، رضى الله تعالى عنهما، كما قيل، **(لما فيها)** علة للكتم **(من عتبه)** صريحًا **(وإبداء)**، أى إظهار **(ما أخفاه)** مما جرى بينه وبين أزواجه فيها، وهذا الحديث فيه أنه

صلى الله تعالى عليه وسلم كان يحب العسل، والحلوى، فدخل على حفصة، رضى الله عنها، ومكث عندها أكثر من عادته، فسألن عنه، عليه السلام، فقيل: أهدى لها عكة عسل فسقته منه فاتفقن على أن يقلن له: نجد منك رائحة المغافير، وهو شىء كريه الرائحة، إذا رعته النحل أثر فى عسلها، فقال: «لا أعود له بعد هذا»، والقصة مفصلة فى كتب التفسير والحديث.

* * *

(فصل)

فيما وقع له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى مرض موته مخالفًا لما قدمه، **(فإن قلت)** سائلاً عما يخالف ما قررته **(قد تقررت عصمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى أقواله فى جميع أحواله)** وأوقاته **(وأنه لا يقع منه فيها)**، أى فى أقواله **(خلف)**، أى مخالف للواقع **(ولا اضطراب)**، أى اختلاف وتناف فهى كلها متساوية لا تختلف **(فى عمد)**، وقصد **(ولا سهو)** ونسيان، **(ولا صحة)** فى بدنه، **(ولا مرض)** بتغير مزاجه الشريف، **(ولا جد)** هو ضد الهزل، **(ولا مزح)** كما تقدم.

(ولا رضى) على غيره، **(ولا غضب)**؛ لوقوع ما لا يرضاه الله، **(فما معنى الحديث)** الذى روى عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الصحيحين **(فى وصيته)** لأصحابه، رضى الله تعالى عنهم، فى مرض موته **(الذى حدثنا به الشهيد أبو على)** بن سكرة، كما تقدم.

قال: **(حدثنا القاضى أبو الوليد)** الباجى، تقدمت ترجمته أيضًا، قال: **(حدثنا أبو ذر)** الهروى، وقد تقدم أيضًا، قال: **(حدثنا أبو محمد)** بن حمويه السرخسى، **(وأبو الهيثم)** الكشميهنى كما تقدم أيضًا.

(وأبو إسحاق) المستملى، وقد تقدم، **(قالوا: حدثنا محمد بن يوسف)** هو الفربرى، وقد تقدم قال: **(حدثنا محمد بن إسماعيل)** هو الإمام البخارى، قال: **(حدثنا على بن عبد الله)** أبو الحسن على بن عبد الله بن جعفر بن نجيح بن المدينى الحافظ، الإمام العظيم، روى عنه أصحاب السنن وغيرهم، وتوفى سنة أربع وثلاثين ومائتين، وعمره ثلاث وسبعون، والمدينى بالياء نسبة لمدينة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم.

قال ابن الأثير: وهو فى الأكثر يقال: مدنى والنسبة لمدائن أخر، نحو سبعة، وفى الصحاح المدنى نسبة لمدينة الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، والمدينى نسبة للمدينة التى بناها المنصور، وقال ابن الصلاح فى المسلسل: المدينى نسبة إلى مدينة أصبهان

المسماة بجى، انتهى. وقد تقدم الكلام فيه أيضًا، والمدينى هذا له ترجمة فى الميزان كما قاله البرهان.

قال: (**حدثنا عبد الرزاق بن همام**) الحافظ، وقد تقدم، (**عن معمر**) بن راشد بفتحالميمين كما تقدم، وهذا هو الصواب، وما فى بعض النسخ من قوله: عبدالرزاق، عن همام خطأ؛ لأن عبد الرزاق لا يروى عن همام، واسم أبيه همام، ويروى عن معمر، (**عن الزهرى**) محمد بن شهاب كما تقدم.

(**عن عبيد الله بن عبد الله**) بحر العلم ابن عتبة الأعمى، أحد الفقهاء السبعة مشهور توفى سنة ثمان ومائة، (**عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، قال: لما احتضر رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، احتضر بالبناء للمفعول بمعنى حضره الموت، وظهور علاماته، وهو محتضر اسم مفعول بمعنى دنى موته، وهو المراد ويقال لمن به مس من الجن: وكان هذا يوم الخميس قبل وفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأيام والحديث صحيح رواه البخارى، وغيره، واحتضر يكون متعديا ولازمًا، فيقال: احتضره بمعنى حضره، وفى نسخة: حضر، والصحيح الأول.

(**وفى البيت**) يعنى بيته، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**رجال**) من كبار الصحابة وقرابته، رضى الله تعالى عنهم، (**فقال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: هلموا**)، أى أقبلوا علىَّ، وأصل معناه تعالوا، وهذا على لغة من يلحق به الضمائر من تميم، وأهل الحجاز يستعملونه مفردًا مبنيًا على الفتح للواحد المذكر وغيره، قال الله تعالى: ﴿**وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا**﴾ [الأحزاب: ١٨]، (**أكتب لكم كتابًا**) لبيان ما يهمكم فى دينكم ودنياكم حتى لا يقع بينهم اختلاف بعده، والمراد أمر بكتابته وجوز بعضهم حمله على ظاهره، وأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يكتب بيده، وذلك معجزة له، وتقدم ما فيه مرارًا (**لئلا تضلوا**)، أى لا يقع منكم أمر تضلون به (**بعده**)، أى بعد كتابته، والعلم بما فيه والعمل به.

(**فقال بعضهم**): هو عمر، رضى الله تعالى عنه، كما سيأتى (**إن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قد غلبه**)، أى اشتد وقوى عليه (**الوجع**)، أى ألم مرضه، وهذا هو محل الشبهة، والسؤال؛ لأنه يقتضى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حال مرضه، قد يصدر عنه ما يخالف الواقع، وقد تقدم أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، معصوم فى مرضه وصحته، وسائر أحواله.

(**الحديث، وفى رواية**) أخرى لهذا الحديث (**آتونى**)، أى احضروا ما يكتب فيه،

(**أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا**) وهذه آكد من الأولى لقوله فيها: لن وأبدًا (**فتنازعوا**)، أي وقع بينهم نزاع، واختلاف في مجلسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، هل يكتبون أم لا؟، (**فقالوا**) كما في البخاري: (**ما له أهجر**) من الهجر، بالضم وسيأتي بيانه، قيل: إنه ظهر لعمر، رضي الله تعالى عنه، أن ما أراد كتابته ما فيه إرشادهم للأصلح، وما لم يجب؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يترك مما يجب تبليغه شيئًا، وقد قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقيل: إنه أراد كتابة أمور شرعية، على وجه يرفع الخلاف بينهم.

وقال سفيان: أراد أن يبين أمر الخلافة بعده حتى لا يختلفوا فيها، ويأتي في كلام المصنف، رحمه الله تعالى، حكايته غير منسوب ويؤيده، ما رواه مسلم أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال في أول مرضه لعائشة: «ادعي لي أباك وأخاك، أكتب كتابًا، فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل: ويأبى الله عز وجل، والمؤمنون إلا أبا بكر»، وأيد الأول بقول عمر، رضي الله تعالى عنه، حسبنا كتاب الله وهو شاهد لهذا أيضًا، وقال الخطابي: إنما ذهب عمر إلى أنه لو مضى على شيء، أو أشياء بطلت أقوال العلماء، والاجتهاد، ورده ابن الجوزي بأنه: لا يلزم ما ذكر؛ لأن الحوادث لا تنحصر، وقال: إنما أراد عمر، رضي الله تعالى عنه، أن ما يكتب في المرض ربما يجد المنافقون سبيلاً للكلام فيه، وما قيل من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أوتي جوامع الكلم، فيجوز أن يكتب ما يشمل جميع الأحكام، ويستخرج منه بسهولة حتى لا يحتاج لاجتهاد مجتهد، وتخريج عالم، وهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، معصوم من أن يقول في مرضه ما يطعن فيه طاعن لاستقامة ذهنه في سائر أحواله، لا وجه له، ولفظ الحديث كما في البخاري: لما احتضر رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفي البيت رجال، فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «هلموا، أكتب لكم كتابًا لا تضلون بعده»[(١)].

فقال بعضهم: إن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قد غلبه المرض، وعندنا القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت، واختصموا فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول غير ذلك، فلما كثر اللغو، والاختلاف قال: «قوموا»، وكان ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما، يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وبين أن يكتب لاختلافهم، ولغطهم.

وقال الشهرستاني: إنه أول اختلاف وقع في الإسلام، (**استفهموه**)، أي قولهم:

---

(١) تقدم تخريجه.

أهجر بهمزة الاستفهام الإنكارى الهجر، بضم الهاء استفهموا من توقف فى امتثال أمره بالكتابة، أى أيصدر عنه هجر، وهو الهذيان، وما يقبح من القول، وهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، معصوم منزه عن مثله فى سائر أحواله.

وقال الراغب: يقال: هجر وأهجر، إذا تكلم من غير قصد، وقيل: المراد استخبروه عما أراد أتركه أولى أم لا؟ **(فقال)**، صلى الله تعالى عليه وسلم: («**دعونى**»)، أى اتركوا النزاع عندى واللغط، فإنه لا ينبغى أن يقع مثله عند نبى من أمته **(فإن الذى أنا فيه)** من مراقبة الله والتأهب للقائه، وانتظار رسله الداعين لى للرفيق الأعلى **(خير)** من الاشتغال بأموركم، واستماع كلامكم ولغطكم **(وفى بعض طرقه)**، أى طرق هذا الحديث المروية عنه، فقال عمر: **(إن النبى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يهجر)** بفتح أوله وضم ثالثه أى يأتى بهجر من القول، وهو على تقدير الاستفهام الإنكارى، وليس من الهجر بمعنى ترك الكتابة والإعراض عنها، كما قيل، وهذه رواية الإسماعيلى من طريق ابن خلاد عن سفيان.

(وفى رواية) كما فى البخارى **(هجر)** ماض بدون استفهام، **(ويروى أهجر)** بالاستفهام، والمصدر المرفوع، **(ويروى أهجرًا)** بالاستفهام، ونصب المصدر، أى أيهجر هجرًا، بضم الهاء، والروايات كلها تدل على أنه استفهام ملفوظ، أو مقدر لكنهم، اختلفوا فى هائه أهى مضمومة، أو مفتوحة، والأول هو المشهور، ولابن قرقول فيه كلام، وقد أفرد بعضهم هذا بتأليف مستقل، وفى بعض الحواشى ما يدل على أنه يجوز فى هاء الهجر، الضم أو الفتح، وليس ببعيد إن ساعدته الرواية، وفى كلام المصنف ما يوافقه.

(وفيه) أى فى هذا الحديث، **(فقال عمر)**، رضى الله تعالى عنه: **(إن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قد اشتد به الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا)** بالبناء على الضم، أى كافينا عن غيره، مصدر، بمعنى اسم الفاعل، أى بحسيب، وكاف لنا، وفى نسخة: حسبنا، أى هو كافينا.

(وكثر اللغط) وهو ارتفاع الأصوات، واختلاطها حتى لا تكاد تفهم، **(فقال)** رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قوموا)** وابعدوا **(عنى)** أراد ذهابهم من مجلسه حتى لا يشتغل بهم عما هو فيه.

(وفى رواية) فى الصحيح أيضًا: **(واختلف أهل البيت)**، أى من كان فى بيته، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، إذ ذاك أو أقرباؤه منهم، كابن عباس، رضى الله عنهما، **(واختصموا)**، أى نازع بعضهم بعضًا، **(فمنهم من**

يقول: قربوا) الكاتب أو الكتاب **(يكتب لكم)** بالرفع والجزم، **(رسول الله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(كتابًا)** تمسكوا به فتهتدوا، أى بأمر الكتابة.

(ومنهم من يقول ما قال عمر)، رضى الله تعالى عنه، من قوله: حسبنا كتاب الله شفقة، ولحكمة علمها ولذا ينكر عليه، قوله كما سيأتى.

(قال أئمتنا) المالكية أو الأشعرية، أو أئمة الحديث بقرينة المقام، **(فى هذا الحديث)** الذى روى عن ابن عباس، **(أن النبى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(غير معصوم من الأمراض)** التى تطرأ عليه فى ظاهر جسمه دون باطنه، إذا لم تكن منفرة، **(وما يكون من عوارضها)**، أى ما يعرض معها من الآلام والتغيرات **(من شدة وجع)** يؤلمه، **(وغشى)** أى إغماء خفيف، **(ونحوه مما يعرض على جسمه)**، وهو **(معصوم من أن يكون)**، أى يوجد **(منه من القول أثناء ذلك)**، أى فى خلاله ويتخلل منه، وهو جمع ثنى كما تقدم.

(ما يطعن فى معجزته)، أى يقدح فيها من مخالفتها للواقع، **(ويؤدى إلى فساد فى شريعته)** لتطرقه للشك فى أخباره وأحكامه **(من هذيان)**، أى كلام غير مفيد **(أو اختلال فى كلام)** كتناقضه ومخالفته الواقع والعقل لنزاهته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعصمته وكماله فى جميع حالاته كما شوهد منه فى مرضه إلى أن سلم روحه الشريفة إلى مالكها.

(وعلى هذا) الأمر الذى قرره من عصمته فى أقواله ونزاهته، **(لا يصح رواية من روى هجر)** بدون استفهام من الهجر بالضم والفتح **(إذ معناه هذى)** تكلم بكلام كثير لا فائدة فيه، ولا انتظام فقائله، ممن لا يعرف قدره، عليه الصلاة والسلام، لخلل فى دينه أو عقله أو لقرب عهده بالإسلام، فتوهم إنه يعرض له، صلى الله تعالى عليه وسلم، من المرض ما يعرض لغيره من تخليطه فى كلامه لخلل فى عقله، وحاشاه من مثله، **(يقال: هجر يهجر)**، كنصر ينصر، **(هجرًا)** بفتح أوله وسكون ثانيه كما فى بعض الشروح وسيأتى ما فيه، **(إذا هذى)** بالذال المعجمة من الهذيان، **(وأهجر)** مزيد كأكرم **(هجرًا)** بضم أوله بوزن فُعل، وهو اسم مصدر ومصدره الإهجار، **(إذا أفحش)**، أى تكلم بكلام قبيح عن قصد، والأول بغير قصد.

(وأهجر) بفتح الهمزة، مزيد هجر، كأكرم، وما فى بعض الشروح، أنه بضم أوله وسكون ثانيه، سهو من الناسخ، وصوابه بفتح أوله، **(وتعدية هجر)**، أى ثلاثيه معدى بالهمزة، وقد قيل عليه: إن هجر وأهجر، لازمان، وصوابه: هجر وأهجر، بمعنى سواء إلا أن يريد بتعديه تعديه عن الحد فيه، وتجاوزه، وهو بعيد، انتهى.

وما ذكره، هو الذى يقتضيه كلام أهل اللغة، **(وإنما الأصح)** إشارة إلى رد ما قبله، وقد قيل عليه: إنه غير مسلم؛ لأنه إن أراد رده بحسب الرواية، فهو غير صحيح؛ لأنه ثابت فى صحيح البخارى، وإن أراد بحسب المعنى، فكذلك؛ لأنه يقدر فيه همزة الاستفهام، وحذفها كثير فى كلامهم كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ [الشعراء: ٢٢]، أى أو تلك نعمة إلى آخره، وقول الشاعر(١):

فوالله ما أدرى وإن كنت داريًا بسبع رمين الجمر أم بثمان

ولك أن تجيب عنه، بأن مراده إنه غير صحيح، إن لم تقدر الهمزة.

وقوله: **(والأولى)**، أى إن قدرت؛ لأن الأصلى خلافه،ولولا هذا لم يصادف، قوله الأصح، والأولى محزه **(أهجر)** يعنى بهمزة الاستفهام الإنكارى حتى لا ينسب له ما لا يليق بمقامه، وقائله قاله **(على طريق الإنكار على من قال: لا نكتب)** ما أمرنا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بكتابته؛ لأنه لا تجوز مخالفته كما تقدم، فى كلام ابن عباس ردًا على من أباه، وعلله بشدة وجعه، وهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، معصوم فى مرضه وصحته، والقائل لا نكتب عمر، رضى الله تعالى عنه، والراد عليه، بقوله: أهجر بعض الصحابة، ووجه ما قاله عمر ما تقدم وسيأتى تتمته.

(وهكذا روايتنا فى صحيح البخارى) أى ثبت عنده روايته بهمزة الاستفهام ملفوظة عن مشايخه ثابتة **(من جميع الرواة فى حديث الزهرى المتقدم)** ذكره قبل **(وفى حديث محمد بن سلام)** هو الإمام الحافظ الذى روى عنه البخارى وغيره، وتوفى سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وسلام بتخفيف اللام، عند الأكثر كما قاله الذهبى والمزى وغيرهما.

وجوز بعضهم: تشديدها أيضًا، وعن بعضهم إنهما اثنان فالكبير منهما بالتخفيف والصغير بالتشديد، وهو محمد بن سلام بن السكن البيكندى، وعلى كل حال فالأصح فى هذا عندهم التخفيف.

(عن ابن عيينة)، يعنى به سفيان؛ لأن أولاد عيينة عشرة منهم خمسة اشتهروا بالعلم والحديث وخمسة لم يشتهروا بذلك، ولذا قال ابن الصلاح: إنهم خمسة وأكبرهم

(١) البيت من الطويل، وهو لعمر بن أبى ربيعة فى ديوانه (ص٢٦٦)، والأزهية (ص١٢٧)، والدرر (١٠٠/٦)، وشرح المفصل (١٥٤/٨)، والكتاب (١٧٥/٣)، ومغنى اللبيب (١٤/١)، والمقاصد النحوية (١٤٢/٤)، وشرح أبيات سيبويه (١٥١/٢)، وشرح شواهد المغنى (٣١/١)، وخزانة الأدب (١٢٢/١١، ١٢٤، ١٣٢)، وبلا نسبة فى جواهر الأدب (ص٣٥)، والجنى الدانى (ص٣٥)، ورصف المبانى (ص٤٥)، والمحتسب (٥٠/١)، والمقتضب (٢٩٤/٣)، وهمع الهوامع (١٣٢/٢)، وعندهم: لعمرك ما أدرى.

وأشهرهم سفيان، **(وكذا ضبطه الأصيلى)** بهمزة وفتحات **(بخطه فى كتابه)** يعنى به، صحيح البخارى الذى رواه وضبطه بقلمه، كما ذكر والأصيلى، تقدم بيانه، وأصيل بلد بالأندلس.

(و) كذا ضبطه بخطه **(غيره)** أى غير الأصيلى، ممن روى البخارى وكتبه ممن يعتمد عليه **(من هذه الطرق)**، أى طريق الزهرى وغيره **(وكذا رويناه عن مسلم)** كما رواه البخارى **(فى حديث سفيان)** بن عيينة، يعنى فى روايته.

(و) رويناه أيضًا **(عن غيره)**، أى غير مسلم فصح عنده من طرق بثبوت الهمزة فيه ردًا وإنكارًا على من أبى الكتابة، أى أنجعله كغيره ممن يصدر عنه، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم معصوم منزه عنه، وقول عمر، رضى الله تعالى عنه: إنما هو رد على من نازعه لا ردًا على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما يعلم مما يأتى.

(وقد يحمل عليه)، أى على هذه بجعله بمعناه، **(رواية من رواه هجر)** بدون همزة فيجعل **(على حذف ألف الاستفهام)** يعنى الهمزة؛ لأنه يطلق عليها ألف كما فى المعنى، وغيره، **(والتقدير)** على هذا **(أهجر)** وحذفها وتقديرها جائز، كما تقدم، والقرينة على حذفها عقلية للعلم بعدم اتصافه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بمعناه.

(أو أن يحمل) ويوجه **(قول القائل هجر)** بغير استفهام **(أو أهجر)** بالهمزة والاستفهام عما لا يتوهم فيه، فإذا ثبتت هذه الروايات، فإنما صدرت منه **(دهشة)**، أى حيرة تذهل من أمر عظيم يبغته، **(من قائل ذلك)**، أى قول: هجر ونحوه.

(وحيرة) تشغله عما يقوله **(لعظيم ما شاهد من حال الرسول)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، مما يشق عليه، فيذهله عما يقول: **(وشدة وجعه)** وألمه المؤثر فى قلوب محبيه، **(وهول المقام الذى اختلف فيه عليه)**، أى شق عليه، أى مخالفتهم له فيما أمر به.

(و) هول **(الأمر الذى هم)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بالكتابة فيه)**، أى هم بأن يكتب فى شأنه، فإنه إنما يهم فى حال ألمه بكتابة أمر، ألا وهو أمر عظيم لم يظهر إلى الآن، فربما شق عليهم أو خشى منه، ومن عواقبه كما مر الخلافة مثلاً.

(حتى) أن القائل لشدة دهشته **(لم يضبط لفظه)** بالتحرى ومراعاة حسن تعبيره، فى نسخة: حتى لم يضبط هذا القائل لفظه، وأجرى إلى آخره بدليل قوله.

(أو) يحمل قوله على أنه **(أجرى الهجر)** بضم الهاء **(مجرى)** بضم الميم ويجوز فتحها، ولا يتعين الأول كما توهم **(شدة الوجع)**، أى استعمله مجازًا فى لازم معناه، و لم يرد حقيقته؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما ورد فى الحديث كان يوعك كما يوعك

الرجلان، وزيادة ألمه للطف بنيته وكثرة ثوابه.

(**لا أنه**)، أي القائل (**اعتقد أنه يجوز عليه الهجر**) بالضم أي الهذيان (**كما حملهم**)، أي دعاهم وحركهم (**الإشفاق**)، أي الخوف عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لشفقتهم ومحبتهم له (**على حراسته**) حذرًا عليه من أن يصيبه مكروه، أو عدو (**والله يقول**): جملة حالية ﴿**وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ**﴾ فمع هذا لا حاجة لحراستهم له لكن شدة محبتهم دعتهم لذلك، كما قيل: إن المحب بسوء ظن مولع (**ونحو هذا**) مما فعلوه احتراسًا من غير حاجة له، (**وأما على رواية أهجرًا**) بهمزة الاستفهام وضم الهاء منصوبًا منونًا، ويجوز فتحها، وقيل: إنه الصواب وفيه نظر.

(**وهي رواية أبي إسحاق المستملي في الصحيح**)، أي صحيح البخاري؛ لأنه أحد رواته، وفي نسخة السلمي، ولم يبينوه، والمعروف إنما هو الأول، والظاهر إنه تحريف من النساخ (**في حديث ابن جبير، عن ابن عباس**) رضي الله تعالى عنهما، (**من رواية قتيبة فقد يكون هذا**) أي الوصف بالهجر، (**راجعًا إلى المختلفين عنده**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**ومخاطبة لهم من بعضهم**) فيكون بعض الصحابة قاله لبعض منهم، لما وقع بينهم نزاع بعد طلبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من يكتب فهو على هذا مفعول فعل مقدر وتقديره، (**أي جئتم باختلافكم**)، أي بسبب الاختلاف واللغط، (**على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، متعلق باختلاف (**وبين يديه**) أي في حضوره (**هجرًا**) بضم فسكون (**ومنكرًا من القول**) عطف تفسير وضحه بقوله، (**والهجر بالضم الفحش في المنطق**)، أي التكلم بما يقبح ولا يليق بحضرة الرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(**وقد اختلف العلماء في هذا الحديث**)، أي في معناه المراد به، (**وكيف اختلفوا بعد أمره**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**لهم أن يأتوا بالكتاب**) ليكتب فيه ما لا يضلون بعده (**فقال بعضهم**)، أي بعض المختلفين في بيانه وتأويله: (**أوامر النبي**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتقدم إنه جمع أمر أو أمور، فهو جمع الجمع، وما فيه (**يفهم إيجابها**)، أي ما أريد به الإيجاب منها (**من ندبها**)، أي مندوبها (**من إباحتها**)، أي مباحها، والعاطف فيه محذوف (**بقرائن قوية**)، أي بالقرائن اللائحة من سياقه، وإن كان أصله الإيجاب، وليس هذا مبنيًا على أن الأمر مشترك بين هذه المعاني الثلاثة ولا يتعين لأحدها بدون قرينة، كما هو قول لبعض أهل الأصول مع ما فيه وما عليه فلا نطول به.

(**فلعله قد ظهر من قرائن قوله**)، عليه السلام، (**لبعضهم**) حين سمعه منه (**ما فهموا**) (**من ظاهره**) وهو فاعل ظهر، (**أنه**)، أي أمره عليه السلام، بقوله: «هلموا»، (**لم يكن**) (**ذلك الأمر**) (**منه عزمة**)، أي أمر عزم عليه عزمًا مصممًا فيجب امتثالاً، (**بل**) هو (**مرره**)

إلى اختيارهم) فهو مشاورة مخيرًا فيه، ولذا اختلفوا فيه وراجعوه **(وبعضهم)**، أى بعض الصحابة **(لم يفهم ذلك)** فظنه واجبًا لا تجوز مخالفته فأنكر على من خالف فيه.

(فقال: استفهموه)، أى استخبروه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عما أراده بأمره، **(فلما اختلفوا)** فيما بينهم **(كف عنه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: «قوموا عنى»، أو كف القائل عن طلب الاستفهام منه **(إذ لم يكن)** بالياء والتاء، أى يوجد أو هى ناقصة، **(عزمة)** واجبة الامتثال بالرفع والنصب **(ولما رأى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو الكاف، ولما بكسر اللام، وتخفيف الميم، ولا يجوز الفتح والتشديد، وفى نسخة، ولما رأوه **(من صواب رأى عمر)**، رضى الله تعالى عنه، فى تركه لما عرفوه من شدة رأيه وموافقاته، رضى الله تعالى عنه.

(ثم هؤلاء) القائلون بهذا الوجه، **(قالوا و)** على هذا **(يكون امتناع عمر)**، رضى الله تعالى عنه، من كتابة ذلك الكتاب **(إشفاقًا)** وحذرًا **(على النبى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(من تكليفه فى تلك الحال)**، أى حال وجعه وألمه **(إملاء الكتاب أو)** إشفاقه من **(أن يدخل عليه مشقة من ذلك)** الإملاء **(كما)** يشهد له إنه **(قال: إن النبى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(اشتد به الوجع)**، فهذا صريح فى شفقته عليه من انعب وتألمه مع علمه، بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يدع شيئًا إلا أعلمهم به بكتاب الله وسنته، ولم يكن، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليؤخر بيان أمر من مهمات الدين، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

(وقيل: خشى عمر)، رضى الله تعالى عنه، وخاف **(أن يكتب أمورًا يعجزون عنها)** ولا يوفونها حقها، **(فيحصلون)**، أى يقعون **(فى الحرج)**، أى ما يضيق عليهم من الآثام **(بالمخالفة)** لما أمرهم به **(ورأى عمر)**، رضى الله تعالى عنه، برأيه هذا أيضًا، **(أن الأوفق بالأمة)**، أى الأسهل والأكثر رفقًا بهم **(فى تلك الأمور)** التى أراد كتابتها لهم **(سعة الاجتهاد)** أى ما يتوسعون فيه باجتهادهم، واستنباطهم من النصوص المتألفة.

(وحكم النظر)، أى نظر من يجتهد فى المقدمات التى يريد الاستنباط منها نظرًا صحيحًا مقرونًا بشرائطه، **(وطلب الصواب)** بالنظر فى الأدلة والنصوص، ومقتضياتها وموانعها، **(فيكون)** المجتهد **(المصيب و)** المجتهد **(المخطئ)** فى الحكم الشرعى **(مأجورًا)** مثابًا، أما الأول، فله أجران: أجر اجتهاده وأصابته الحق، والثانى له: أجر اجتهاده فقط، لبذله جهده فى طلب الصواب والحق، وهذا بناء على أن المصيب واحد منهما، والقول: بأن كل مجتهد مصيب ليس مرضيًا كما بين فى كتب الأصول، وأجر المخطئ، إنما هو على سعيه وطلبه للحق لا على خطأه، لكنه لا إثم عليه فى اجتهاده إذا كان من أهله

على الصحيح وتفصيله فى كتب الأصول.

(**وقد علم عمر**)، رضى الله تعالى عنه، (**تقرر الشريعة**)، أى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قررها لهم وبينها قبل مرضه، ولم يترك شيئًا مما يحتاجون إليه، (**وتأسيس الملة**)، أى أحكام قواعدها، وما ينبنى عليه أحكامها التى لم يهمل منها شىء.

(و) علم (**أن الله تعالى قال**) فى آخر ما أنزله (**اليوم**) المراد به: الوقت الحاضر، فى آخر عمره، صلى الله تعالى عليه وسلم، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فلم يترك شيئًا مما يحتاجون إليه لم يبينه لهم صريحًا أو ضمنًا، ولم يرشدهم لطريق استنباطه، فلذا ترك ما أيد كتابته لحكمة هداه الله تعالى لها، وهذه الآية، نزلت يوم جمعة أو ليلتها بعرفة فى الحج الأكبر، ولما قرأها، صلى الله تعالى عليه وسلم، بكى عمر، رضى الله تعالى عنه؛ لأن التمام يدل على انقضاء أمر الوحى.

(و) أعلم عمر أيضًا، (**قوله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم: (**«أوصيكم**) بالتمسك (**«بكتاب الله»**) بامتثال أوامره ونواهيه والتأدب بآدابه، وما فيه من مكارم الأخلاق، (**وعترتى**) بكسر العين ومثناتين فوقيتين أولاهما ساكنة بينهما راء مهملة مفتوحة وهم أهل بيته صلى الله تعالى عليه وسلم الذين تحرم عليهم الزكاة من بنى هاشم، وبنى عبد المطلب، وهذا الحديث صحيح، رواه مسلم، فى خطبة خطبها، صلى الله تعالى عليه وسلم، وسماهما فيه ثقلين كما يأتى تعظيمًا لشأنهما، فقال: «إنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وأهل بيتى لن يفترقا حتى يردا على الحوض»(١)، وفى النهاية: عترة الرجل أخص أقاربه وعترته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بنو عبد المطلب، وقيل: أهل بيته الأقربون، وهم أولاد على، رضى الله تعالى عنه، وقيل: عترته الأقربون والأبعدون من قريش، والمشهور: أنهم أهل بيته الذين تحرم عليهم الزكاة، انتهى.

وما قيل: من أن هذا يقتضى أن ما أمر به النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا فائدة فيه، وهو بعيد وغير لائق ليس بشىء لما علمته فتنبه، (**وقول عمر**)، رضى الله تعالى عنه: (**حسبنا كتاب الله**) تعالى لكفايته عما عداه (**رد على من نازعه**)، أى نازع النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو عمر فى أمر الكتاب، (**لا**) رد من عمر، رضى الله تعالى عنه، (**على أمر رسول الله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم،: أن يأتوا بمن يكتب لهم كتابًا، وقد استبعد هذا من السياق جدًا، فالحق ما سيأتى، وليس فيه شين لعمر، وشبهة تحتاج للرفع

(١) أخرجه أحمد (١٧/٣)، وابن خزيمة (٢٣٥٧)، والدارمى (٣٤٢/٢)، والحاكم (١٤٨/٣)، والطبرانى فى الكبير (١٩٠/٥)، وفى الصغير (١٣١/١، ١٣٥)، والبيهقى (١٤٨/٢)، والعقيلى (٣٦٣/٤).

بهذا.

(وقد قيل) فى الجواب، عن قول عمر لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، على تقدير تسليمه إنه إنما **(خشى عمر)** رضى الله تعالى عنه، من **(تطرق المنافقين)**، أى وصولهم من طريق نفاقهم.

(و) من وصول **(من فى قلبه مرض)** لحقده على الإسلام، وأهلة كاليهود **(لما كتب فى ذلك)**، أى بسبب **(الكتاب فى الخلوة وإن يتقولوا فى ذلك الأقاويل)**، أى أن يكذبوا بإسنادهم ماليس فيه له، وأصل معنى التقول تكلف القول، وفسر بما ذكر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: ٤٤]، وجمع الأقاويل تحقيرًا لما يقولونه، أو أنه خشى أن يتأولوا ما يكتب فيه بتأويلات باطلة كما وقع من بعض الزنادقة **(كادعاء الرافضة الوصية)** أى أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أوصى لعلى، كرم الله وجهه، وتسميتهم له الوصى لذلك وأن بعض الصحابة كتب ذلك، **(وغير ذلك)** مما افتراه الرافضة على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد ادعوا أن الكتاب الذى أراد النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كتابته كان فيه الوصية بخلافة على، فلذا منع منه عمر وهو كذب منهم عليه، وسموا رافضة من الرفض، وهو الترك لرفضهم زيد بن على لأمور فصلوها، وقيل غير ذلك، وهم فرق يطول ذكرهم.

(وقيل) فى توجيهه: **(إنه)**، أى أمره **(كان من النبى)** صلى الله تعالى عليه وسلم أمر **(عليه على طريق المشورة)** والتخيير تطييبًا لقلوبهم لا أمر إيجاب لا تجوز مخالفته والمشورة، بفتح الميم وضم الشين وسكون الواو بزنة مثوبة فى الأفصح، ويجوز سكون الشين وفتح الواو.

وقول الحريرى، فى الدرة: إنه خطأ منه كما فصلناه فى شرحها، وهى أى المشورة من شرت العسل، إذا اجتنيته، **(والاختيار)**، أى التخيير لا الإيجاب **(و)** لينظر **(هل يختلفون على ذلك)** الأمر الذى أراد أن يكتب **(أم يتفقون)** عليه، **(فلما اختلفوا)** فيه، وتنازعوا **(تركه)** وكف عنهم لا أنهم عصوا وفرطوا فى أمر لابد منه.

(وقالت طائفة أخرى) فى معنى الحديث: **(أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان مجيبًا لما طلب منه)**، أى كانوا سألوه أن يعهد إليهم بما يكتبونه عنه، فأجابهم بقوله: «هلموا»، إلى آخره، **(لا أنه ابتدأ بالأمر به)** حتى يقال: لا ينبغى مخالفة فيه **(بل اقتضاه)**، أى طلبه **(منه بعض أصحابه)** ممن كان عنده **(فأجاب رغبتهم)**، أى ما رغبوه منه **(وكره ذلك غيرهم) أى غير من طلبه** كعمر، رضى الله تعالى عنه، **لثقله**، صلى الله تعالى عليه

وسلم، في مرضه شفقة منه **(للعل التى ذكرناها)** سابقًا.

(واستدل) بالبناء للمجهول، أى على صحة هذا التأويل **(فى مثل هذه القصة)** أى قصة الكتاب المذكور **(بقول العباس)**، رضى الله تعالى عنه، فى حديث رواه البخارى، **(لعلى)** بن أبى طالب، كرم الله وجهه، **(انطلق بنا إلى رسول الله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، نسأله عن الخلافة بعده، **(فإن كان الأمر)**، أى الخلافة بعده، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فينا)** أهل البيت.

(علمناه) فلا ينازع فيه أحد، وإن كان لغيرنا لم نطلبه و لم نرجه، **(وكراهة على، رضى الله تعالى عنه، هذا)**، أى ما قاله العباس، رضى الله تعالى عنه، له **(وقوله)** لعمه العباس: **(والله لا أفعل)**، أى لا انطلق ولا أسأل.

(الحديث)، رواه البخارى مسندًا، وفيه: أن عليًا خرج من عند رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى مرضه الذى توفى فيه، فقال له العباس: كيف أصبح رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئًا، فأخذ بيده، وقال له: أنت بعد ثلاث عبد العصا، وإنى والله أراه متوفيًا فى مرضه هذا، وإنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إليه نسأله فيمن هذا الأمر بعده، فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان فى غيرنا أوصاه بنا، فقال: أنا والله لا أسأله ولو كان فينا أعطيناه للناس بعده.

(و) استدل أيضًا لما ذكر من أنه كان مخيرًا لا آمرًا فخالفوا أمره **(بقوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى هذا الحديث: **(«دعونى فإن الذى أنا فيه خير»)** من أن يكتب الكتاب، فإنه لو كان آمرًا فيه بواجب لم يقل: إن تركه خير منه، **(«أى الذى أنا فيه خير من إرسال الأمر»)**، أى إهماله وتركه.

(و) خير من **(تركهم)**، أى تركى لكم أو ترككم كتاب الوصية، ومن بيان لما هو فيه، **(وكتاب الله)** بالنصب مفعول معه، أى مصاحبين بكتاب الله والتمسك به، فإنه حسبكم، فإياكم أن تختلفوا فيه فتهلكوا كمن قبلكم من الأمم وتفشلوا إن تنازعتم فيه، وقد قيل: إنه كان مراده، صلى الله تعالى عليه وسلم، كتابة هذا شفقة عليهم، **(«وإن تدعونى»)** إن شرطية، والجملة معطوفة على جملة دعونى، **(مما طلبتم)**، أى من كتابة الكتاب الذى طلبتموه، فأجبتكم، والجواب مقدر: أى فهو خير لكم ويجوز فتحها.

(وذكر) ببناء المجهول **(إن الذى طلب كتابته)** لهم **(أمر الخلافة بعده وتعيين ذلك)**، أى تعيين من يكون خليفة بعده.

واعلم أن هذا هو الصواب، كما قاله ابن تيمية فى كتاب الرد على الروافض، وأنه ورد مفسرًا به فى الحديث المروى فى الصحيحين كما مر، فى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم لعائشة: «ادع لى أباك وأخاك»، ولا يجوز غيره؛ لأنه لا يخلو من أن يكون أمرًا واجبًا، أوحى إليه به قبل مرضه، أو أوحى إليه به فى مرضه.

والأول: لا يصح؛ لأن فيه تأخير البيان عن وقت الحاجة، وهو غير جائز.

والثانى: لو كان بلغه من غير طلب كتاب ونحوه وحينئذ، فإنما قال عمر، رضى الله تعالى عنه، ما قاله: لأنه علمه وعلمه غيره، كعائشة، رضى الله تعالى عنها، وغيرها من كبار الصحابة، ولو ذكره لذكر بعده عمر، فربما اشمأزت منه بعض النفوس القاصرة.

وقد علم: أن الله منجزه، وإن اخفاءه فى حياته أولى، وما سوى هذا القول لا وجه له، فلذا ختم به هذا الفصل، وكرر ذكره فيه، والقول بأنه بعيد لا وجه له أيضًا.

* * *

(فصل)

فى ذكر شبهة أخرى، فيما قرره من عصمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى رضاه وغضبه، **(فإن قيل: فما وجه حديثه)** الذى رواه مسلم، أى توجيهه بما يوافق ما قرره، ورواه المصنف من طريقه مسندًا، **(أيضًا)**، أى المماثل للحديث الذى قدمه **(الذى حدثناه الفقيه أبو محمد الخشنى بقراءتى عليه)**.

قال: **(حدثنا أبو على الطبرى)**، قال: **(حدثنا عبد الغافر الفارسى)**، قال: **(حدثنا أبو أحمد الجلودى)**.

قال: **(حدثنا إبراهيم بن سفيان)** تقدم بيان رجال هذا السند كلهم، قال: **(حدثنا مسلم بن الحجاج)** صاحب الصحيح المشهور. قال: **(حدثنا قتيبة)** بن سعيد، كما تقدم.

قال: **(حدثنا ليث، عن سعيد)** هو المقبرى وقدم تقدم، **(ابن أبى سعيد)** اسمه كيسان، كما تقدم، **(عن سالم مولى النصريين)** بنون وصاد مهملة، وهو ابن عبد الله النصرى، روى له أصحاب الكتب الأربعة نسبة لجماعة نسبوا لنصر، كما بين فى أسماء الرجال.

(قال: سمعت أبا هريرة، رضى الله تعالى عنه، يقول): تقدم الكلام على أبى هريرة، وعلى هذا التركيب من جهة العربية، **(سمعت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقول: «اللهم إنما محمد بشر»)** الحصر فيه إضافى ادعائى، أى ليست أحوالى إلا من جنس أحوال البشر الذى يطرأ عليه ما يطرأ عليهم من العوارض البشرية، وليس مبرأ منها، فهو **(يغضب)** أحيانًا لله لا لنفسه **(كما يغضب البشر)** وعدل عن التكلم إلى الغيبة

بذكر اسمه تواضعًا منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لربه ففيه التفات على رأى، **(وإن اتخذت)** افتعال من الأخذ فتاؤه مبدلة لا أصلية كما تبين فى العربية **(عندك عهدًا)** يعنى: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عاهد الله عهدًا فيما بينه وبينه.

(لن تخلفنيه) يعنى: وأنك وعدتنى بإنجاز عهدى، وإنك لا تخلف الميعاد، وفى قوله: اتخذت التفات من الغيبة للتكلم لبيان أنه متلذذ بمناجاته مترقبًا لإجابته، ثم فسر العهد الذى عهده بقوله: (**«فأيما مؤمن آذيته»**) أى فعلت معه شيئًا يؤذيه، وهو مستحق له كحد وتعزير اقتضاه، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم على خلق عظيم لا يؤذى أحدًا لا يستحق الأذية كما لا يخفى، **(أو سببته أو جلدته)** هذا من جملة الأذية، فينبغى تخصيصها بغير ما ذكر؛ لأن الخاص لا يعطف على العام بأو **(فأجعلها)** أنثه باعتبار المذكورات، والفاء فى جواب أيما، لتضمنها معنى الشرط.

(كفارة له)، أى مكفرة لذنوبه، وفيه إشارة أن ما فعله فى مقابلة ذنب صدر منه لا لحظ نفسه، وهو صيغة مبالغة ملحقة بأسماء الأجناس.

(وقربة)، أى فعله مقربة له **(تقربه بها إليك)**، أى تثيبه بها ثوابًا ترفعه بها منزلة عندك؛ لأنه تعالى منزه عن الجهة والقرب المكانى؛ لأنه من صفة الأجسام **(يوم القيامة)** حين تعرض الأعمال، ويحاسب العباد.

(وفى رواية) أى لهذا الحديث: **(فأيما أحد)** بالجر وما مزيدة ويجوز رفعه، **(دعوت عليه دعوة)** فى حال الغضب عليه، قال فى المقتفى: وفيه نظر؛ لأن هذا ليس من حديث أبى هريرة، وإنما هو حديث آخر، عن أنس، رضى الله تعالى عنه، فمقتضى الظاهر أن يقول: وفى رواية أنس ونحوه، يعنى: أن سياقه يقتضى أنه من رواية أبى هريرة التى مرت وليس كذلك.

قلت: الأمر فيه سهل، وذكر الرواية وتنكيرها يقتضى مخالفتها لما قبلها سندًا ومتنًا، وهو ظاهر فلا وجه لما قاله.

(وفى رواية) أخرى **(ليس)**، أى المدعو عليه أو المذكور **(لها بأهل)**، أى مستحق لها، أى لهذه الفعلة، وهذا هو المشكل؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يفعل فعلاً بأحدًا لا يستحقه وسيأتى توجيهه.

(وفى رواية) أخرى: **(فأيما رجل من المسلمين سببته)** وشتمته **(أو لعنته)**، أى دعوت عليه دعوة باللعنة، وأصل معناها الطرد والإبعاد مطلقًا، **(أو جلدته فاجعلها)**، أى المذكورات له **(زكاة)**، أى طهارة من ذنوبه، أو زيادة فى حسناته؛ لأن الزكاة تكون

بمعنى الطهارة والنماء، فاستعيرت لما ذكر.

(وصلاة ورحمة) عطف تفسير، أو تفسير الصلاة بالعطف، والرأفة فيتغايرا، وهو مفصل فى تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ [البقرة: ١٥٧]، ثم بين وجه الشبهة والسؤال بقوله: **(وكيف تصح)** ويجوز الاستفهام إنكارى، **(أن يلعن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، من لا يستحق اللعن)** فعلى أى حال يصح صدور مثله عنه، **(ويسب من لا يستحق السب)** لقوله فى رواية: «ليس لها بأهل»، **(ويجلد من لا يستحق الجلد)**.

وقوله: (أو) بسكون الواو وفتحها، وهمزة الاستفهام **(يفعل مثل ذلك)** الأمر المذكور **(عند الغضب)**، أى فى حال غضبه **(وهو)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(معصوم)** فى جميع أحواله كما تقدم، والجملة حالية، **(من هذا كله)** فى جميع أحواله.

(فاعلم شرح الله صدرك)، أى فسح فيه، ووسعه لقبول الحق فيما نحن فيه، ونوره بمعرفته، أو الجملة دعائية معترضة لتعرف الحق فى هذا **(أن قوله صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى بعض الروايات، **(أولاً)** فيما تقدم.

(ليس لها بأهل)، أى ليس مستحقًا لما فعله به **(أى عندك يا رب)**، أى فى علمك مما هو **(باطن أمره)**، أى حقيقته التى تخفى على غيره، وعند الله فى القرآن تكون تارة بمعنى علمه، وتارة بمعنى حكمه، والمراد هنا، الأول كما بيناه فى حواشى القاضى البيضاوى، **(فإن حكمه)** صلى الله تعالى عليه وسلم بين أمته كما تقدم.

(على مظاهر) من الحال غالبًا **(كما قال)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، من أنه إنما يحكم بالظاهر كما تقدم به، **(وللحكمة التى ذكرناها)** من أنه لتقتدى به أمته، ولو أوحى إليه ما فى نفس الأمر، وحكم به لم يمكن أمته الاقتداء به فى أحكامه بعده.

(فحكم)، صلى الله تعالى عليه وسلم، بمقتضى الظاهر **(بجلده أو أدبه بسبه أو لعنه)**، أى دعا عليه باللعنة أو طرده **(بما اقتضاه عنده)** أى فى حضوره أو فى علمه **(حال ظاهره)** الذى ظهر له ولغيره، والدعاء باللعن شرعًا، إنما يجوز على من كان غير معين كافرًا كان أو غير كافر، كلعنة الله على الظالم أو على معين مات على كفره، وأما على معين كافرًا، كان أولاً، فلا يجوز لجواز أن يسلم، فلا يكون ملعونًا، أى مطرودًا عن رحمة الله إلا أنه قيل: إنه كان جائزًا للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولو على غير الكافرين، فهو إما من خصائصه، أو منسوخ.

(ثم دعاءه)، صلى الله تعالى عليه وسلم، لمن دعا عليه، بقوله: «اللهم اجعله كفارة

له»، (**لشفقته على أمته ورأفته ورحمته للمؤمنين التى وصفه الله بها**) بقوله تعالى: ﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ونحوه.

(**وحذره**) بالجر عطف على شفقته، أى خوفه (**أن يتقبل**) الله تعالى، (**فيمن دعا عليه دعوته**) بقوله: «اللهم اجعل»، إلخ (**أن يجعل**) الله هو مفعول دعا (**دعاءه**) عليه (**ولعنه له رحمة**) لمن دعا عليه (**فهو معنى قوله: ليس لها**)، أى المدعو عليه ليس فى علم الله، (**أهلا**)، أى مستحقًا لما دعا به عليه (**لا أنه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**يحمله الغضب**) لله بمقتضى البشرية، أى يدعوه ويبعثه (**ويستفزه الضجر**)، أى القلق وضيق الصدر ممن عصى الله وخالفه، أو يحركه بسرعة.

(**لأن يفعل مثل هذا**) الدعاء من السب وأخوته (**بمن لا يستحقه**) فى الباطن، وإن استحقه بحسب الظاهر (**من مسلم**) صدر منه ذلك، (**وهذا معنى**) فسر به الحديث، وهو (**صحيح**) مستقيم مقبول لا يمنعه شىء.

(**ولا يفهم من قوله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى هذا الحديث: (**أغضب كما يغضب البشر أن الغضب حمله**) وبعثه (**على ما لا يجب فعله**) إذ هو، صلى الله تعالى عليه وسلم، منزه عن مثله (**بل يجوز أن يكون المراد بـ**)قوله: (**هذا أن الغضب**) لله هو الذى (**حمله على معاقبته بلعنه أو سبه**)، كما ورد فى الحديث إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى، فينتقم لله.

(**أو**) يجاب بجواب آخر هو (**أنه**) أى الذنب الذى عاقبه عليه، وفى نسخ وإنه بالواو (**كان مما يحتمل ويجوز**) عطف تفسير ليحتمل (**عفوه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**عنه**) وترك المعاقبة عليه بالسب ونحوه.

(**أو كان**) ذلك الذنب (**مما خير**) بالبناء للمجهول، أى خيره الله تعالى (**بين المعاقبة فيه والعفو عنه**)، وفى نسخة: أو العفو، والصواب عطفه بالواو، ولاقتضاء التخيير لشيئين ولا حاجة لجعل أو بمعنى الواو، وهذا الجواب قريب مما قبله.

(**وقد يحمل**) الدعاء الوارد فى هذا الحديث ، (**على أنه خرج مخرج الإشفاق**) والخوف منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، على أمته (**وتعليم أمته الخوف**) من الله تعالى ومعاصيه من الصغائر، (**والحذر من تعدى**) وتجاوز (**حدود الله**)، أى ما حده الله تعالى، مما لا يجوز الخروج عنه.

(**وقد يحمل ما ورد من دعائه هنا و**) ما ورد (**من دعواته على غير واحد**)، أى على

كثير من الناس (**فى غير موطن**)، أى فى مواطن ومحال كثيرة، صدر فيها الدعاء عليهم (**على**) ما صدر من (**غير العقد**)، أى العزم وتصميم القلب.

(**والقصد**) منه للدعاء عليهم، (**بل**) دعوات صدرت منه (**بما جرت به عادة العرب**) فى محاوراتهم يدعون على مخاطبهم بنحو قاتله الله، وويل أمه ولا أب له لمن قصد مدحه، وتحسين فعله، وهو مشهور فى غير لسان العرب أيضًا.

(**وليس المراد بها**)، أى بهذه الدعوات (**الإجابة**)، أى دعاء عليه يطلبون استجابته فيهم بوقوع ما دعوا به، (**كقوله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الشيخان: («**تربت يمينك**»).

قال فى النهاية: «ترب الرجل، إذا افتقر كأنه التصق بالتراب»[1] وأترب، إذا استغنى أما على همزة السلب، أو على معنى صار ماله كالتراب كثرة، وقد ورد كل منهما بمعنى الآخر.

وروى: يدك ويداك، ونسب لليد؛ لأن بها الكسب، وليس المراد به الدعاء عليه، وقد صدر هذا منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مرارًا، فمرة لأم المؤمنين، أم سلمة، رضى الله تعالى عنها، كما رواه البخارى، أنها قالت لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: إن الله لا يستحيى من الحق، هل على المرأة من غسل إذا هى احتلمت؟ فقال: «نعم، إذا رأت الماء، فغطت وجهها»، وقالت: أو تحتلم المرأة!، قال: «نعم: تربت يمينك، فبم يشبهها ولدها».

(**و**) وقع فى أحاديث أخر أيضًا، كقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه مسلم عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: «لا أشبع الله بطنك»[2]، قاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لمعاوية، رضى الله تعالى عنه.

ولكن الذى رواه مسلم: «لا أشبع الله بطنه»، قال البيهقى: فما شبع بعدها أبدًا، وكان رضى الله تعالى عنه، مشهورًا بالبطنة، حتى قالوا للأكول: كان فى أمعائه معاوية، والحديث قد علمت أنه عن ابن عباس، ولفظه، قال: «كنت مع الصبيان، فجاء رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فتواريت خلف الباب، فقال: اذهب، فادع لى معاوية، قال: فجئته، وقلت: هو يأكل، فقال ثانيًا: اذهب فادعه، فجئته، وقلت: هو يأكل

(١) أخرجه البخارى (١/٧٨، ٤/١٦٠، ٨/٢٩)، والترمذى (١٢٢)، والنسائى (١/١١٢)، وابن ماجه (٦٠٠)، وأحمد (٦/٢٩٢، ٣٠٢)، وعبد الرزاق (١٠٩٤)، والبيهقى (١/١٦٨).
(٢) أخرجه مسلم فى البر والصلة (٩٥)، والبيهقى فى الدلائل (٦/٢٤٣).

فأمرنى، فجئته، وقلت: هو يأكل، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا أشبع الله بطنه»[(١)]، فحينئذ فى ما قاله المصنف، شيء ؛ لأن الله تعالى استجاب دعاءه فيه، فليس هذا من الباب الذى به العادة من غير قصد.

(و) قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لصفية، فى حديث رواه مسلم، عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، **(عقرى حلقى)**، وهذا قاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لصفية بنت حيى أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، فى حجة الوداع، وهو فى البخارى بسنده عن عائشة، قالت: خرجنا مع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، للحج، فلما كانت ليلة النفر حاضت صفية، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «ما أراها إلا حابستكم»[(٢)] إلى آخره، وهذا يقال للتعجب بدون قصد الدعاء، وأصله صفة للمرأة المؤذية المشؤمة، واختلف فى لفظه ومعناه.

فقيل: معنى حلقى أصابها وجع فى حلقها، وقيل: معناه تحلقهم، أى تستأصلهم كما يستأصل الحالق الشعر، وعقرى: من العقر، وهو عرقبة الدواب، أو من العقرة، وهو رفع الصوت، ويجوز تنوينهما، وعدمه على أن ألفه للتأنيث كسكرى، وعلى جعلها للتأنيث، فكل منهما صواب ومحلهما رفع خبر أو نصب على المصدرية، والمحدثون يروونه غير منون والمعروف عند اللغويين تنوينه.

(وغيرها)، أى غير الدعوات المذكورة، **(من)** المروى من **(دعواته)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، التى لم يرد بها الدعاء على خاطبه، وإنما يراد المدح أو التعجب على عادة العرب فى مخاطباتهم، ووجهه كما قالوه فى نحو قاتله الله، أنه يقصد به دفع العين عنه بجعله كالمذموم المدعو عليه، فهو من قبيل الذم الذى يراد به المدح.

(وقد ورد فى صفته)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى غير حديث)**، أى فى أحاديث كثيرة تقدم بعضها، منها ما رواه، وهو فى صحيح البخارى وغيره، **(أنه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لم يكن فحاشًا)** صيغة مبالغة من الفحش، وهو القبح والوقاحة فى كلامه ومخاطباته، وقد كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يكنى عن كل ما يستحيى منه.

(وقال أنس)، رضى الله تعالى عنه، فيما رواه عنه البخارى أيضًا، **(لم يكن)**، صلى الله تعالى علبه وسلم، **(سبابًا)**، أى لا يقول ما هو سب وشتم، **(ولا فحاشًا)**، أى لا يتكلم بما يقبح التصريح به، **(ولا لعانًا)**، لا يقول اللعنة لأحد.

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (١/٣٣٥).

(٢) أخرجه البخارى (٢/٢٢٣)، والبيهقى (٥/٦).

(وكان) عادته، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه **(يقول لأحدنا عند المعتبة)** مصدر ميمى من العتاب، وهو بالتاء المثناة من فوق مفتوحة، ومكسورة من عتب عليه عند الغضب إذا لامه **(ماله)**، أى: أى شىء اقتضى ما فعله **(ترب جبينه)** الجبين واحد الجبينين، وهما جانبا الجبهة.

وفى نسخة: تربت يمينه بالتأنيث؛ لأنه عضو مثنى، أو المراد به الجبهة؛ لأنه ورد بمعناها فى قول زهير(١):

يقينى بالجبين ومنكبيه وأنصره بمطرد الكعوب

كما فى شرح ديوانه، فلا وجه لتخطئة المتنبى فى استعماله بهذا المعنى، وترب دعاء فى الأصل بمعنى كبه الله تعالى على وجهه، ولم يرد به الدعاء كقولهم: تربت يداه.

(فيكون حمل الحديث) برفع حمل، والمراد بالحديث ما ذكره أولاً أو هذا **(على هذا المعنى)**، أى أنه جاء على عادة العرب فى ملاطفاتهم، وقيل: معنى تربت جبينه كثرة سجوده، فلا يكون دعاء عليه، وهذا يقتضى أن المراد به الجهة.

(ثم أشفق)، أى خاف، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(من موافقة أمثالها)**، أى الدعوات الصادرة، **(إجابة)**، أى أن يستجاب دعاؤه عليه بحسب ظاهره كما قال بعضهم: ترب نحرك، فقتل شهيدًا، فخاف من مثله.

(فعاهد ربه، كما قال فى الحديث) السابق ذكره: «اللهم من دعوت عليه»، **(أن يجعل ذلك للمقول له)** ما مر، من سب ونحوه، فهو بمعنى القول أو الشخص، **(زكاة ورحمة وقربة)** كما تقدم بيانه مفصلاً.

(وقد يكون ذلك) المذكور من دعائه لمن سبه **(إشفاقًا على المدعو)**، أى شفقة ورحمة بجعل دعائه **(عليه)** رحمة له **(وتأنيسًا له)**، أى تأليفًا له ليطمئن قلبه **(لئلا يلحقه)** بما يقع فى قلبه **(من استشعار الخوف)** الشعور بإدراكه.

(والحذر)، أى الوقوع فيما يحذره **(من لعن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** له.

(و) من **(تقبل دعائه)**، أى يخاف قبول دعائه عليه بلعنه وإبعاده من رحمة الله تعالى، **(ما يحمله على اليأس والقنوط)** من رحمة الله، وهما بمعنى جمع بينهما تأكيدًا، وقيل: القنوط شدة اليأس، واليأس من رحمة الله كبيرة، وقيل: إنه كفر، وفيه كلام فى الأصول كما فصلناه فى رسائلها وتقدمت الإشارة إلى شىء منه، وهذا تأويل رابع فى غاية الحسن.

(١) البيت من الوافر، وهو لزهير فى تاج العروس (جبن)، وليس فى ديوانه.

(وقد يكون ذلك منه)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(سؤالاً لربه)** عز وجل، أى قوله: «اللهم اجعله رحمة» إلخ، **(لمن جلده أو سبه)** متعلق بسؤال **(على حق وبوجه صحيح)**؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يفعل شيئًا بغير وجه شرعى.

(أن يجعل ذلك)، أى دعاءه عليه **(له كفارة لما أصابه)**، أى فعله من الذنوب التى استحق بها السبب **(وتمحية)** مصدر محى بالتشديد يمحيه من محاه إذا أزاله.

(لما اجترمه)، أى فعله واكتسبه، **(وأن يكون له عقوبة فى الدنيا)**، خبر يكون قوله: **(سبب العفو والغفران)**؛ لأنه تعزير له بالقول الذى يسوء **(كما جاء فى الحديث الآخر)** الذى رواه الشيخان، عن عبادة بن الصامت، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليلة العقبة للأنصار: «بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصونى فى معروف، فمن وفى بذلك، فأجره على الله»(١).

(ومن أصاب من ذلك شيئًا، فعوقب به فى الدنيا، فهو كفارة له)، «ومن أصاب من ذلك شيئًا، فستره الله عليه، فهو إلى الله إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه»، وذلك فى الحديث إشارة إلى ما سبق فى الحديث من الذنوب التى بايعهم على تركها، مما بعد الشرك، أو هو عام مخصوص، وهذا يدل على أن الحدود كفارة، فهو بعد قوله فى حديث آخر، لا أدرى الحدود كفارة لأهلها أو لا، فهذا كان قبل أن يعلمه الله بأنها مكفرة، وفيه كلام فى شروح الصحيحين.

ولا يلزمه أن يكون قوله فى الدعاء هنا، بأن يجعلها كفارة تحصيلاً للحاصل أيضًا، كما توهم، ثم أورد شبهة أخرى على ما قرره ودفعها فقال: **(فإن قلت: فما معنى حديث الزبير)** بن العوام الصحابى المشهور، وحديثه هذا، رواه البخارى.

(وقول النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، له حين تخاصمه)، وتنازعه **(مع الأنصارى)** الآتى ذكره وحين مضافة لمصدر تخاصم، وتخاصمه كان مع بعض الأنصار الذين شهدوا بدرًا كما فى بعض الحديث.

فقال ابن بشكوال: إنه حاطب بن أبى بلتعة، وقيل: ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى، إلا أنه لا شاهد عليه.

وقال النووى: هو حاطب، وقيل: ثعلبة بن حاطب، وقيل: حميد، والقول بأنه

(١) أخرجه البخارى (١/١١، ٥/٧٠، ٨/١٩٨)، والنسائى (٧/١٧١)، والدارمى (٢/٢٢٠)، والحاكم (٢/٣١٨)، والطبرانى (١٨/٧٠)، والبيهقى (٨/١٨، ٣٢٨).

حاطب بن أبى بلتعة لا يصح؛ لأنه ليس أنصاريًا، وقد ثبت فى البخارى، أنه أنصارى بدرى وكذا ثابت؛ لأنه ليس بدريًا.

وقال الزجاج: الخصم من قبيلة الأنصارى منافق ليس من المؤمنين منهم، وفيه نظر؛ لأنه بدرى، وقد شهد، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأهل بدر بالجنة، وثعلبة بن حاطب ليس بمعروف فى الصحابة.

وقوله: **(فى شراج الحرة)** هو المتخاصم فيه، والشراج بكسر الشين المعجمة، وراء مهملة وألف بعدها جيم مسيل صغير فى السهل أو إلى السهل كما فى النهاية للماء كالقناة، جمع شرجة أو شرج، والحرة بفتح الحاء وتشديد الراء المهملتين أرض صلبة تعلوها حجارة سود، وهى مكان معروف بطيبة كان فيها وقعة يزيد المشهورة **(اسق يا زبير)**، أى بستانك من هذا الماء.

وقول المصنف، رحمه الله تعالى هنا: **(حتى يبلغ)** الماء السائل **(الكعبين)** سهو منه، كما قيل؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يقله ابتداء، وإنما قاله بعد غضبه من كلام الأنصارى، وكان قال له أولاً لما ترافعا له: «أسق يا زبير» فقط فأمره بمقدار من السقى من غير استيفاء لحقه بتمامه كما صرح به البخارى وقاله، فأمر بالمعروف، وكان أراد الأنصارى، أن يرسل الماء لأرضه من غير حبس له أصلاً مع أنه يمر على أرضه أولاً، وله فيه حق شرب تام، فأبى الأنصارى، فأمره، صلى الله تعالى عليه وسلم، بمجرد السقى، وقال: اسق فقط، أى أفعل السقى من غير استيفاء لحقك، ثم أرسل الماء لجارك، وأمره بالمعروف بمعنى الجميل من الإحسان، أو العادة المعروفة ورعاية الجار، أو المراد به الوسط المعتدل.

(فقال له)، أى قال لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(الأنصارى)** الذى ذكرناه لما قال: أسق إلى آخره، **(أن كان ابن عمتك يا رسول الله)** بفتح الهمزة، أى حكمت له؛ لأنه ابن عمتك؛ لأنه ابن صفية بنت عبد المطلب؛ لأن أن المخففة يطرد معها تقدير حرف الجر، ولو فى صدر الكلام كما يطرد مع المشددة كقوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ [القلم: ١٤].

وحكى الكرمانى فيه كسر الهمزة على أنها شرطية مقدرة الجواب، وفى فتح البارى، أنه غير معروف فى الرواية، لكنه يؤيده ما فى رواية ابن إسحاق، وإن كان ابن عمتك وهمزة الاستفهام على هذا مقدرة وتمد الهمزة، إن ذكرت كما ذكره المصنف والقرطبى، إن كان ابن عمتك نحو قوله: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يونس: ٥٩]، وهى

رواية عندهما من غير هذه الطريق.

وفى رواية ابن معمر: أنه ابن عمتك، فقال ابن مالك، فى توضيحه: يجوز فى هذه الرواية فتح همزة أنه وكسرها، فإذا فتحت قدرت قبلها لام جارة، وإذا كسرت قدرت قبلها ألف استفهام؛ لأنها وقعت بعد كلام معلل بمضمون ما بعدها، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقد روى بهما.

(فتلون وجه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)، أى عرض له لون غير لونه الذى كان له من حمرة الغضب لقول الأنصارى المذكور، وعلم أنه ساءه وقيل: إنه كناية عن الغضب، وإنما سامحه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى مقاله هذا ولو صدر من غيره الآن وجب قتله؛ لأنه كان من المنافقين المؤلفة قلوبهم، وكان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يعفو عن مثله كما قال، لئلا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، وهو خاص به وبعده يقتل قائله كما قاله النووى.

(ثم قال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد ما غضب من قوله، وكونه لم يرض بما هو أكثر من حقه، وقد حكم له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالعدل والحق، فلم يرض بحكمه طمعًا وبغيًا منه **(اسق يا زبير)** حديقة نخلك.

(ثم احبس) الماء بسد مجراه، **(حتى يبلغ)** الماء الذى حبسته **(الجدر الحديث)**، أى إلى آخره، المروى فى البخارى، والموطأ وغيرهما، وهذه رواية، وفى الرواية الأخرى هنا حتى يبلغ الكعبين، وهما بمعنى وتقديم المصنف، رحمه الله تعالى، لها ليس فى محله، كما تقدم.

وفى رواية الموطأ: حتى يرفع إلى الجدر، وهو بفتح الجيم، وسكون الدال وبالراء المهملتين بمعنى الجدار، وروى بضم الجيم جمع جدار، وروى بفتح الجيم وكسرها، وذال معجمة من جذر الحساب وجذر كل شىء أصله، والمراد به: الحائط، ولما كان ذلك مختلفًا قدروه، بما يبلغ الكعبين وبه قضى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى غير هذه القصة.

وقيل: المراد به ما يجعل من التراب حول الزرع، وهو الظاهر، والمعنى واحد، كما تقدم، وحاصل السؤال أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، حكم أولاً بحكم، ثم رجع عنه، وهو ينافى العصمة فى أقواله الذى قررتموه، ولذا قيل: إنه يدل على أن الحاكم يجوز له نقض حكمه ولا دليل فيه لما سيأتى.

(فالجواب) عما ذكر **(أنه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(منزه)**، أى مبعد ومبرأ من

(أن يقع بنفس مسلم)، أى فكره وذهنه **(منه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى هذه القصة)** التى قضى فيها، وحكم بها على غيره، **(أمر يريب)**، أى يوقع سامعه فى ريب وشك فى أقواله ويظن أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يصدر منه قول من غير تأمل، وتثبيت، ثم يرجع عنه.

(لكنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ندب الزبير) أى دعاه وطلب منه **(أولاً)** حين قال له: أسق **(إلى الاقتصار على بعض حقه على طريق التوسط)**، أى الاعتدال على غير إفراط ولا تفريط.

(و) على وجه **(الصلح)** بينه وبين الأنصارى، لا أنه كان مستحقًا لغير ذلك، **(فلما لم يرض بذلك)** أى بما قاله رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأعطاه فوق حقه، **(الآخر)**، أى الرجل الآخر المخاصم، وهو الأنصارى **(ولج)**، أى أبدى اللجاج عنادًا منه فى خصومته للزبير، رضى الله تعالى عنه.

(وقال: ما لا يجب) إن كان هذا بضم المثناة التحتية، وكسر الحاء المهملة وتشديد الباء الموحدة من المحبة، فهو ظاهر، وأن بفتحها وكسر الجيم، فالحق، أن يقول ما لا يجوز، لكن مثله كثير فى عباراتهم، وقد سبق مثله، فالمراد به، ما لا يجوز أيضًا؛ لأن غير الواجب يصدق على الحرام، والمباح، والمندوب، فأريد به بعض أفراده إيماء إلى أنه يقتصر فى حقه على الواجب له، فما بالك بحرام يقتضى الردة، وما قيل: من أن الوجوب، بمعناه اللغوى، وهو السقوط كقوله تعالى: ﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ [الحج: ٣٦]، أى ما لا يسقط عن قائله حرمته حتى يجدد إسلامه ويتوب عنه تكلف لا تؤديه العبارة بلا قرينة.

(استوفى)، أى وفى وكمل، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(للزبير حقه)** من الشرب من غير مسامحة.

(ولهذا ترجم البخارى) رحمه الله تعالى، **(على هذا الحديث)** المذكور فى هذه القضية، والترجمة فى الأصل ، كما تقدم تفسير لغة بأخرى، فيكون بمعنى إيصال الكلام لمن لم يسمعه كما فى قوله(١):

إن الثمانين وبُلِّغْتَها قد أحوجت سمعى إلى تَرْجُمَانْ

(١) البيت من السريع، وهو لعوف بن محلم فى الدرر (٣١/٤)، وشرح شواهد المغنى (٨٢١/٢)، وطبقات الشعراء (ص١٨٧)، ومعاهد التنصيص (٣٦٩/١)، وبلا نسبة فى شرح شذور الذهب (ص٥٩)، ومغنى اللبيب (٣٨٨/٢، ٣٩٦)، وهمع الهوامع (٢٤٨/١).

وفى عرف المصنفين، رحمهم الله تعالى عنوان الكلام، بذكره إجمالاً مع لفظ الباب ونحوه، وهو المراد هنا بقوله، رحمه الله تعالى، (**بابٌ**) بالتنوين (**إذا أشار الإمام بالصلح**) بين خصمين (**فأبى**)، أى امتنع أحدهما مما أشار به، (**حكم**) الحاكم (**عليه**)، أى على من أبى الحكم (**بالحكم**) الحق الذى أتانا هو أكثر من حقه فالألف واللام فى الحكم للعهد، وهو الحكم البين، فلا يقال: إنه سقط منه لفظ البين المروى فيه كما قيل.

(**وذكر**) البخارى (**فى آخر هذا الحديث**) المذكور (**فاستوعى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حينئذ حقه للزبير**)، أى استكمله، وأصل معناه جعله فى الوعاء، فتجوز به عن لازم معناه، والضمير للحكم أو للرسول لأدنى ملابسة أو للأنصارى على زعمه تهكمًا به، ولو رجع للزبير فى عبارته لزم عوده على متأخر.

وروى أنهما لما خرجا من عنده، صلى الله تعالى عليه وسلم، مرا على المقداد، فقال: لمن كان القضاء؟ قال الأنصارى: لابن عمته، ولوى شدقيه، ففطن له يهودى كان مع المقداد، فقال: قاتل الله هؤلاء يشهدون إنه رسول الله، ثم يتهمونه فى قضاء يقضى به بينهم، وأيم الله لقد أذنبنا ذنبًا مرة فى حياة موسى، عليه الصلاة والسلام، فدعانا إلى التوبة، فقال: اقتلوا أنفسكم، فبلغ قتلانا سبعين ألفًا فى طاعة ربنا حتى رضى عنا، فقال ثابت بن قيس بن شماس: إن الله يعلم منى الصدق، ولو أمرنى محمد أن أقتل نفسى لفعلت.

(**وقد جعل المسلمون**) المراد بهم العلماء الفقهاء، وعبر بهذا لأن المسلمين فى العصر الأول أكثرهم علماء مجتهدون (**هذا الحديث أصلاً**)، أى قضية كلية وقاعدة مضبوطة (**فى قضيته**)، أى قضية الزبير فى منازعته مع الأنصارى، والمراد بالأصل المأخوذ من هذه القضية أنه يسقى حائطه حتى يبلغ الماء فيه الكعبين من القائم، ثم يرسله كله لمن يليه أو يرسل ما زاد على حاجته له كما فى التمهيد لابن عبد البر.

وقيل: المراد إنه إذا تحاكم خصمان، فللحاكم أن يصالحهما على أمر فيه رفق وتوسعة، فإن انتفيا أو أحدهما أمضى حكم الله عليهما.

(**وفيه**)، أى فى هذا الحديث ما يؤخذ منه ويستنبط (**الاقتداء به، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى كل ما فعله**) ما لم يعلم إنه من خصائصه (**فى حال غضبه ورضاه**) أما الرضا، فظاهر، وأما الغضب فلعصمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولأنه لم يكن يغضب لنفسه، وإنما يغضب لانتهاك حرمات الله تعالى كما فى هذه القضية.

(**وأنه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**وإن نهى**) فى حديث رواه الشيخان، (**أن يقضى**

القاضى، وهو غضبان)؛ لأنه غير معصوم فربما حمله الغضب على أمر لا يرضى، والجملة حالية بخلاف النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، والنهى فيه محمول على الكراهية كما صرحوا به.

(فإنه فى حكمه فى حال الغضب والرضا سواء لكونه فيهما)، أى فى الغضب والرضا **(معصومًا)** حفظه الله تعالى عن أن يصدر منه فيهما ما يخالف أمر ربه، **(وغضب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذا)** الأمر الذى صدر من الأنصارى **(إنما كان لله تعالى)** لنسبة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، للهوى الذى حماه منه بما يقتضى الردة والقتل، ولكنه عفا عنه لما مر.

(لا لنفسه)، فإنه لا يتبعها **(كما جاء فى الحديث الصحيح)** الذى قدمنا ذكره من أنه إنما كان يغضب لله، وانتهاك حرماته، ومثل الغضب فى كراهة حكم الحاكم فيه كل ما يشوش الفكر من جوع ومرض.

وذهب بعضهم: إلى أن من غضب لله لا يمتنع من الحكم أيضًا؛ لأنه متق فلا يرتكب أمرًا يخالف أمر ربه قياسًا عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وظاهر الحديث يقتضيه، والمفتى قيل: إنه مثل القاضى أيضًا، وقد يفرق بينهما.

(وكذلك)، أى مثل ما ذكر ما رواه أبو نعيم فى الحلية، وهو **(الحديث فى أقادته عكاشة)** الأقادة أفعال من القود للدابة مقابل السوق، ثم استعمل فى الاقتصاص بالنفس وغيرها؛ لأن الجانى يقاد ليستوفى منه غالبًا، فأريد به لازم معناه، وصار حقيقة فيه، والمصدر مضاف لفاعله، وعكاشة معروف من الصحابة وعينه مضمومة، وكافه مخففة ومشددة وهو علم منقول، وأصله العنكبوت، وفى كتاب ليس لابن خالويه: عكاشة صاحب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأهل الحديث يخففونه، وإنما هو مشدد وعكاشة اسم موضع، انتهى.

(من نفسه) الشريفة، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى قصة وقعت قُبيل وفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما نزل عليه: ﴿**إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ**﴾ [النصر: ١]، إلى آخره، قال لجبريل: قد نعيت، فقال له: الآخرة خير لك من الأولى ﴿**وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ**﴾ [الضحى: ٥]، فأمر بلالاً أن ينادى الصلاة جامعة، فاجتمع الصحابة فى مسجده، صلى الله تعالى عليه وسلم، فصلى بالناس وصعد المنبر، وخطب خطبة وجلت منها القلوب، فقال: «أيها الناس أى نبى كنت لكم؟ فقالوا: جزاك الله عنا خيرًا، فلقد كنت لنا كالأب الرحيم، والأخ الشفيق، أديت رسالة الله وبلغت وحيه، فجزاك الله عنا

أفضل ما جزى نبيًا، فقال: «معاشر المسلمين، أنشدكم بالله عز وجل، من كانت له علىّ مظلمة، فليقم فليقتص منى»، وكرره فقام شيخ، يقال له: عكاشة فتخطى المسلمين حتى وقف بين يديه صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: لولا أمرك ما كنت لأقدم على شىء، لما انصرفنا من الفتح حاذت ناقتى ناقتك، فرفعت القضيب، فضربت خاصرتى، ولا أدرى أعمدًا كان ذلك أم لا؟ فطلب، صلى الله تعالى عليه وسلم، قضيبه ودفعه لعكاشة، وقال له: اضرب إن كنت ضاربًا، فقال: ضربتنى، وأنا حاسر عن بطنى، فكشف له، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن بطنه فقبله، وقال له: فداك أبى وأمى من يطيق أن يقتص منك، فقال له: أما تضرب أو تعفو فقال: قد عفوت رجاء أن يعفو الله عنى فى القيامة، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «من سره أن ينظر إلى رفيق فى الجنة، فلينظر لهذا، فجعلوا يقبلون بين عينيه ويهنونه بذلك»(١)، وهو حديث طويل ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات.

وقال السيوطى: إنه أخرجه أبو نعيم فى الحلية، ولم يقل: إنه موضوع فهو تعقب له، وعلى هذا اعتمد المصنف، رحمه الله تعالى، **(لم يكن)** ما صدر منه صلى الله تعالى عليه وسلم فى ضرب عكاشة **(لتعمد)**، أى عن عمد منه **(حمله الغضب عليه)** أى على فعله بغير حق **(بل وقع فى هذا الحديث نفسه)** لا فى حديث آخر **(أن عكاشة قال له)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، حين أراد القود منه، وكان تعلق بزمام ناقته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فنهاه ثلاث مرات.

(وضربتنى بالقضيب) وهو عصا كان فى يده الشريفة، **(فلا أدرى أ)** ضربك هذا كان **(عمدًا)** تعمدًا منك لضربى **(أم)** إصابته لى خطأ وقد **(أردت)** غيره، وهو إنك **(ضربت الناقة)** فأصابنى ذلك **(فقال له النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: أعيذك بالله)**، أى أجعلك فى حفظه، **(يا عكاشة أن يتعمدك رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، بضرب لم تستحقه، وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة وأصله أن أتعمدك، فأتى باسمه الظاهر إشارة لعصمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، مما قاله عكاشة؛ لأن من هو رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يصدر منه مثله، وعكاشة هذا هو ابن محصن صحابى بدرى، وهو الذى قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين ذكر أن سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب، ادع الله لى أن يجعلنى منهم، فقال: «أنت منهم»، فقال آخر مثله، فقال له: «سبقك بها عكاشة»(٢)، فضرب مثلاً كما فى الإصابة.

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٣/٥٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(وكذلك)، أى مثل ما وقع لعكاشة ما وقع **(فى حديثه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(الآخر مع الأعرابى)** وهذا الحديث لا يعرف من رواه، ويحتمل أنه حديث عكاشة بعينه **(حين طلب الاقتصاص منه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، لضربه له، فلما قال له: اقتص منى ومكنه من نفسه.

(فقال الأعرابى: قد عفوت عنك)، أى تركت ذلك برضى منى **(وكان)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قد ضربه بالسوط لتعلقه بزمام ناقته مرة بعد أخرى)** ففيه ترك أدب يستحق به الضرب تعزيرًا، فلم يكن ذلك إلا بحق فلا يستحق به، الاقتصاص، ولكنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فعله كرمًا منه، وتطييبًا لقلبه من غير حق له مضى، فكان تأديبًا وتشريعًا مستحقًا للحمد لا للعفو.

(والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ينهاه) عن تعلقه بزمام الناقة، وسوء أدبه، وعبر بالمضارع حكاية للحال السابقة استحضارًا لصورتها كما فى قوله: **(ويقول له)**، أى للأعرابى: **(تدرك حاجتك)**، أى أقضيها لك وتصل إليها فدع الزمام، **(وهو يأبى)** من إرسال زمام ناقته إلحاحًا منه **(فضربه بعد)** نهيه **(ثلاث مرات)** حلمًا منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتحملاً لإبرامه عليه، ثم بين الوجه فى هذا، وأنه غير مناف لما قرره من عصمته فى غضبه ورضاه، فقال: **(وهذا)** الذى وقع **(منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لمن لم يقف عند نهيه)** لعدم امتثاله، فجعل امتثاله كالوقوف، ففيه استعارة، وكذا فى قوله عند نهيه، فهى مكنية تخييلية، **(صواب)** لا جور وخطأ يستحق به القود.

(وموضع أدب) فى الحضور عنده يستحق من لم يتأدب فيه التأديب والحكم فيه مفوض له، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لكنه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أشفق)**، أى رحم من ترك الأدب عنده بعد ضربه بحق **(إذ كان حق نفسه)** علة لإشفاقه مع استحقاقه للتأديب **(من الأمر)** أى من الحال الذى وقعت فيه هذه القصة، **(حتى عفا عنه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإن كان ما فعله من ضربه تأديبًا له وزجرًا عما فعله من سوء الأدب بعد تكرار نهيه له كما تقدم، فلم يقع منه لغضبه أمر يخالف عصمته، ومراد المصنف، رحمه الله تعالى، بقوله: حق نفسه إنه أمر يتعلق به، صلى الله تعالى عليه وسلم، وبذاته لعدم امتثاله نهيه اللازم له شرعًا، وليس المراد إنما فعله انتقامًا لحظ نفسه وهواها.

واعلم أن العلامة ابن القيم، قال فى كتاب المعالم: إن الشافعية، والحنفية، والمالكية، والحنابلة، قالوا: إن الضربة واللطمة، لا قصاص فيها شرعًا، وإنما فيها التعزير، وادعى بعضهم فيه الإجماع، إلا أن لبعضهم فيه خلافًا جرى فيه على خلاف القياس إلا أنه مقتضى للنصوص، وعليه عمل الصحابة، رضى الله تعالى عنهم.

لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ولا ريب أن لطمة بلطمة، وضربة بضربة، أقرب إلى المماثلة من التعزير بغير جنس اعتدائه، وهو هدى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، والخلفاء الراشدين حتى عقد له المحدثون بابًا ترجموه بباب القصاص فى الضربة واللطمة رووا فيه آثارًا، انتهى.

أقول: الظاهر ما عليه الفقهاء، وهو مقتضى القياس؛ لأنه لا يمكن ضبطه، وقد يوجد فيه تفاوت فاحش كمن ضرب شخصًا على عينه، ولم يضره بصره، فربما تخرج عينه ضربة القصاص، وإنما فعله الصحابة، رضى الله تعالى عنه، لوثوقهم بعدم تجاوز أفعالهم، فلا نقيس أنفسنا عليهم، فلا وجه لما قاله ابن القيم، رحمه الله تعالى.

(وأما حديث سواد بن عمرو)، رضى الله تعالى عنه، عن عطية الأنصارى الذى رواه أبو القاسم فى معجم الصحابة، وابن سعد، وعبد الرزاق فى جامعه، عن الحسن، وسواد بن عمرو هذا أنصارى صحابى، وليس هو سواد بن غزية، إلا إنه وقع نقل مثل هذه القصة عنه، وأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، طعنه بالعصا فى خاصرته، لكن لا على هذا الوجه، كما يأتى.

وما وقع فى بعض النسخ عمرو بن سواد غلط من الناسخ، وقال ابن الملقن فى شرح البخارى، بعدما نقل ما فى الشفاء: هذا لم يدرك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم؛ فإنه صاحب ابن وهب، فإن ثبت هذا فلعله صحابى آخر وافق اسمه واسم أبيه، لكن القصة معروفة بسواد بن عمرو، والظاهر أنه انقلب عليه، انتهى.

وذكر ابن عبد البر، رحمه الله تعالى، أنه سوادة بزيادة الهاء، قال سواد: **(أتيت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنا متخلق)**، أى متضمخ بالخلوق، وهو نوع من الطيب يخلط بالزعفران، ولونه بين الحمرة والصفرة.

وقد ورد فى بعض الأحاديث النهى عنه، وفى بعضها: إباحته، والنهى، قيل: إنه متأخر ناسخ لإباحته؛ لأنه معتاد فى النساء والتشبه بهن غير جائز، لذا ذهب شيخ والدى الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمى، إلى حرمة الحناء على الرجال لغير التداوى، يعنى فى غير اللحية.

(فقال: ورس ورس، حط حط) الورس نبت أصفر باليمن يصبغ به ويتعطر، فهو منهى عنه، كالخلوق، والحناء، وحكمه حكمه، وهو حرام للنهى عنه فى الحديث، وذكر وكرر للإنكار عليه وورس بوزن ضرب وحط، أمر له كرر تأكيدًا أيضًا، وتقديره: **أعليك ورس**، فيجوز رفعه على أنه مبتدأ أو خبر مبتدأ مقدر وسكون السين للوقف،

وطاء حط ساكنة، أو مفتوحة كما يجوز فى كل أمر مشدد الآخر، كرد وأصله أردد، وأحطط، ويجوز أن لا يقدر فيه شيء، ويقصد به ما مر، أيضًا فتدبر، وهو من طيب النساء أيضًا.

(وغشيني) بمعجمتين بمعنى ضربني، وهو استعارة معروفة كما يقال: جلله وقنعه بالسوط، ومثله قوله تعالى: ﴿**فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ**﴾ [الفجر: ١٣].

(بقضيب)، أى عصا كان عادته صلى الله تعالى عليه وسلم حمله **(فى يده فى بطنى)**، أى عليها وجعله لتمكنه منه كأنه فيها، **(وأوجعنى)** ضربه أو هو بضربه.

(فقلت: القصاص يا رسول الله) أى أسألك أو أطلبه منك، **(فكشف لى عن بطنه)** لأضربه اقتصاصًا كما فعل بى.

و**(إنما ضربه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لمنكر رآه عليه)** وهو تطييه لما فيه تشبه بالنساء يستحق التعزير عليه، وقيل: إنه كان محرمًا فيمتنع عليه الطيب، فما فعله صلى الله تعالى عليه وسلم به أمر مشروع له زجرًا لفاعله بالفعل بعد القول، ولكنه أجابه للقود تواضعًا ولطفًا ورحمة منه كما تقدم، وقد كان المضروب يعلم أنه منهى عنه.

(ولعله) صلى الله تعالى عليه وسلم **(لم يرد بضربه إلا تنبيهه)** على ما رآه منه مما لا يليق، فأراد الإشارة إليه بقضيب فى يده لينزعه، ولم يرد ضربه أولاً، فمسه بشدة ولم يقصد ضربه.

(فلما كان)، أى وجد **(منه إيجاع)** مؤلم له وهو **(لم يقصده)** بضربه إياه **(طلب التحلل منه)** بالقود حتى لا يبقى له عليه حق، فدفع الشبهة بوجهين:

أحدهما: أنه تعزير مشروع، لكنه تكرم بإجابته لما علم أنه لم يقصد قوده، وإنما قصد تقبيل جسده الشريف.

والثانى: أنه خطأ معفو عنه وفعله، صلى الله تعالى عليه وسلم، تعليمًا لأمته وهذا جار **(على ما قدمناه)** فى قصة عكاشة، رضى الله تعالى عنه.

وذكر ابن إسحاق أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفى يده قدح يعدل به، فمر بسواد بن غزية متنصلاً من الصف، فطعنه فى بطنه بالقدح، وقال له: «استو يا سواد»، فقال له: أوجعتنى يا رسول الله، وقد بعثك الله بالعدل، فأقدنى فكشف له عن بطنه، وقال له: «استقد»، فقبل بطنه، واعتنقه، فقال له، صلى الله تعالى عليه وسلم: «ما حملك على هذا»، قال: حضر ما ترى فأردت أن يكون

آخر العهد بمس جلدك، فدعا له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشرف وكرم بخير(١).

* * *

(فصل) [وأما أفعاله ﷺ الدنيوية]

قال القاضى، رحمه الله تعالى: (**وأما أفعاله صلى الله تعالى عليه وسلم الدنيوية**)، أى المتعلقة بأمور دنياه لا بالعبادة والعقائد، (**فحكمه فيها من توقى المعاصى**)، أى اجتناب المحرمات شرعًا، (**والمكروهات**) كراهة تنزيه بقرينة مقابلة المعاصى، (**ما قدمناه**) خبر قوله، حكمه المبتدأ، أى إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، معصوم منها، فإن وقع منه مكروه لبيان الجواز كشربه قائمًا، فهو لتعليم أمته، فلا يكون مكروهًا فى حقه، وما قيل هنا: من أنه غير منهى عنه، فلا حاجة لذكره لغو من الكلام لا حاجة للإطالة بمثله.

(**ومن جواز السهو والغلط فى بعضها ما ذكرناه**) فإنه جوزه فى العبادات، فيعلم جوازه فى هذا بالطريق الأولى، (**وكله**)، أى كل ما ذكر من السهو وما بعده (**غير قادح**) وغير ضار (**فى النبوة**) بل حسن منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما فيه من التشريع (**بل إن هذا**) مع أنه غير مذموم صدوره (**فيها**)، أى فى أفعاله (**على الندور**)، أى قليل جدًا، والنادر ما قل وقوعه ولا حكم له.

(**إذ عامة أفعاله**)، أى أكثرها واقع (**على السداد**) بفتح السين المهملة، أى الاعتدال، والقصد، ويجوز أن يريد بالعامة الكل بجعل غيرها كالعدم، (**والصواب**) وعدم الخطأ (**بل أكثرها**)، أى أفعاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**أو كلها جارية مجرى العبادات والقرب**) بضم وفتح جمع قربة، وهى العمل الصالح الذى يتقرب به إلى الله تعالى، (**على ما بينا**) فيما تقدم، أما أن أكثرها كذلك فلأن منها مباحات، كالأكل والشرب ونحوه، وأما كون كلها عبادة، فلأنه محتو على تعليم الإباحة وتقوية الجسد للطاعة ونحوه مما يجعل العادة عبادة.

(**إذ كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يأخذ منها**) أى من الدنيا وأفعالها (**إلا ضرورته**)، أى مقدار ما يضطر إليه، ويحتاج له (**وما يقيم رمق جسمه**)، أى ما به قوام حياته، أى بقيته وقوته والرمق معناه بقية الروح، والحياة والقليل من العيش الذى يسد الرمق.

(**وفيه مصلحة ذاته**)، أى ما يصلحها كما يدفع الحر والبرد، ويدخل فيه طعامه ودوابه وخدمه ونساؤه ومؤنتهم، (**التى بها يعبد ربه ويقيم شريعته ويسوس أمته**)، أى

---

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/٢٧١).

يضبطهم ويحكم عليهم؛ لأنه معنى السياسية لغة، قال:

وكنا نسوس الناس والأمر أمرنا

وهذا بيان لجهة العبادة المقصودة بما قبله، يقال: ساس الرعية إذا حفظها، وأقام أمرها.

(و) أما **(ما كان بينه وبين الناس من ذلك)**، أى أموره الدنيوية الجارية منه فى معاملة أمته وصحبتهم، **(فبين معروف)**، أى أمر جميل حسن؛ لأن المعروف يراد به هذا، وبين هنا للتقسيم كما يقال: أمرى بين كذا وكذا، **(يصنعه)**، أى يوصله ويفعله لهم من إحسانه وتكرمه عليهم، **(أو بر)** أى مبرة وعطاء **(يوسعه)** عليهم بإعطاء ما يغنيهم **(أو كلام حسن يقوله)** لهم مما يلطف به، ويلين قلوبهم ويعظهم ونحوه، **(أو يسمعه)** بفتح أوله وثالثه، أى يسمعه من غيره ويصغى له، أو بضم أوله وكسر ثالثه، كما قيل، وما قبله أولى؛ لأنه حينئذ لا فرق بينه وبين ما قبله إلا بتكلف **(أو تألف شارد)**، أى نافر عن طاعة الله ورسوله كجفاة الأعراب المؤلفة قلوبهم بالعطاء، وجهات البر واللطف حتى يذيقه الله حلاوة الإيمان ويهديه الله له.

(أو قهر معاند) فيردعه ويزجره حتى يرجع قهرًا عليه لما يريد، **(أو مداراة حاسد)** بملاطفته، وتحمل أذاه والإغضاء عن قبائحه كما كان يفعله، صلى الله تعالى عليه وسلم، مع المنافقين، وأهل الكتاب، وقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «رأس العقل بعد الإيمان مداراة الناس».

(وكل هذا) الأمر الذى كان بينه وبين الناس **(لاحق بصالح أعماله)**، أى ملحق بعبادته ومعدود منها، ويثاب عليه لما فيه من المنافع والمزايا الدينية **(منتظم فى زاكى وظائف عباداته)**، أى معدود من عباداته الموظفة اللازمة كالصلاة، فهذا لشدة حسن منافعه كأنه من نفائسها المعدودة منها، وفى سلكها ففيه استعارة مخيلة وزاكى بمعنى نامى.

(وقد كان)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يخالف فى أفعاله الدنيوية)**، أى يخالف غيره فيما يخصه منها **(بحسب اختلاف الأحوال)** التى تعرض له فتقتضى المخالفة لحال آخر له **(ويعد)** بضم أوله وكسر ثانيه وتشديد داله، أى يهيىء ويقدم بتدارك منه **(للأمور)** التى تستقبل **(أشباهها)** أى ما يناسبها ويشابهها، **(فيركب فى تصرفه)**، أى حركته من مكان لآخر **(لما قرب)**، أى لمكان آخر قريب حال إقامته **(الحمار)** بسهولة ركوبه مع ما فيه من عدم التكبر، وكان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، **حمار** يسمى يعفور مذكور فى السير.

(و) يركب **(فى أسفاره)** البعيدة، **(الراحلة)**، وهو من الإبل ما يقوى على الحمل ذكرًا كان أو أنثى، وهاؤه للمبالغة لتحمله الرحيل، فركوبه فى السفر مشابه لتلك الحال لقوته وصبره، وكان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، عدة إبل مذكورة فى السير.

(وقد يركب)، صلى الله تعالى عليه وسلم، أحيانًا قليلة **(البغلة فى معارك الحرب)**، أى فى مواضع أو أوقات وقع فيها المعاركة والمقاتلة فى حروبه، وذلك لقوة قلبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشدة بأسه وعدم خوفه من عدوه، وكان ذلك بحنين، وقد اشتد البأس، وبغلته التى ركبها هى دلدل، وكانت شهباء ذكرًا، أهداها له المقوقس، وله بغلة أخرى، والكلام عليه فى السير **(دليلاً على الثبات)** وأنه لا يمكنه أن يفر ولا يريده إذ لو أراده ركب الخيل، ونصب دليلاً على أنه مفعول له أو حال، ولا يرد على الأول شىء لاتحاد فاعل العلة والمعلل؛ لأنه الراكب والدال، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما مر، أشجع الناس، وقال على، كرم الله تعالى وجهه: «كنا إذا اشتد البأس أتقينا برسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم»، فيوم حنين لما رأى شدة العدو وأن من أصحابه من يفر ركب بغلته قصدًا منه، حتى لا يقال: فر ويشجع غيره؛ لأن البغل لا يصلح للكر والفر، فانظر هذا ففيه معجزات له تعلم مما فى السير.

(و) كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يركب الخيل)** أيضًا، **(ويعدها)**، أى يهيؤها **(ليوم الفزع)** أصل معنى الفزع، الخوف، ثم كنى به عن خروج الناس بسرعة لدفع عدو ونحوه إذا جاءهم بغتة، وصار حقيقة فيه كما فى كامل المبرد، فليس هو استعارة كما قيل، **(وإغاثة الصارخ)** هو المصوت للإعلام بأمر يطلب من يغيثه، فهو معطوف على يوم أو الفزع، وفيه إشارة لما وقع له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالمدينة من سماعه صراخًا ظنه عدوًا هجم على المدينة، فركب فرسًا لأبى طلحة كان قطوفًا، أى غير سريع المشى، وذهب وحده فلم ير عدوًا ورجع، فلقى من خرج خلفه راجعًا، فقال لهم: لن تراعوا، أى لا تخافوا، فقيل له: كيف وجدت الفرس؟ فقال: وجدته بحرًا، أى واسع الخطو، فلم يسبقه فرس بعد قوله ذلك، ويقال للفرس الواسع الخطو: بحر؛ لأن أصل معنى البحر السعة.

(وكذلك)، أى كما أن ما بينه وبين الناس كان على أحسن نظام كان حاله **(فى لباسه)**، أى ملبوسه **(وسائر أحواله وأفعاله)** كلها متناسبة من غير تكلف فيها وتصنع، فكان يضع كل شىء فى محله، وهو معنى قوله السابق: يعد للأمور أشباهها، كما قيل:

فأقسم لكل محل ما يليق به   فإن للرجل حليًا ليس للعنق

(بحسب اعتبار مصالحه) الخاصة به فى نفسه **(ومصالح أمته وكذلك)** كان **(يفعل الفعل من أمور الدنيا)** وإن لم يكن له فيه رغبة **(مساعدة)**، أى معاونة **(لأمته)** فهو منصوب مفعول له، **(وسياسة)**، أى قد يفعله لأجل سياستهم، أى حفظهم **(وكراهية خلافها)** بتخفيف الياء مصدر والضمير للأمة، أى يفعل ما لم يرده أحيانًا جبرًا لقلوبهم وتأنيسًا بعدم مخالفتهم فيما يجوز.

(وأنه كان قد يرى غيره) كتركه أو فعل أمر يخالفه **(خيرًا منه)** لأنه أحب إليه **(كما يترك الفعل لهذا، وقد يرى فعله خيرًا منه، وقد يفعل هذا)** أى ما يرى تركه خيرًا من فعله **(فى الأمور الدينية)** كما تقدم فى أمور الدنيا، **(مما)** كان **(له الخيرة)** بكسر الخاء وفتح المثناة التحتية، كما فى المقتفى، وقال غيره: إنه بكسر الخاء، وسكون المثناة اسم من خار الله فى كذا، وما قيل: إنه بفتحها ليس بوجه. **أقول:** لا وجه لهذا، فإن فعلة بكسر ففتح، مما ثبت فى المصادر كخيرة وطيرة، وفى الأسماء كحبرة كما صرح به النحاة.

(فى أحد وجهيه) دون الآخر، أى مما خيره الله تعالى فى فعله وتركه، ولولا ذلك لم يجز مثله فى الأمور الدينية، ثم مثل له بقوله، **(كخروجه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأصحابه **(من المدينة لأحد)** اسم لجبل معروف كانت عنده الوقعة المذكورة فى السير، فخرج لمحاربة أبى سفيان وقريش.

(وكان) إذ ذاك **(مذهبه)**، أى رأيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، المختار عنده، والمذهب يطلق على هذا المعنى كما قال أبو نواس:

ومن مذهبى حب الديار لأهلها وللناس فيما يعشقون مذاهب

(التحصن بها)، أى عدم الخروج منها، وذلك لأن بعض الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، الذين لم يحضروا غزوة بدر أحبوا خروجه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من المدينة للقتال، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، رأى رؤيا تدل على قتل أصحابه، وأمور أخر فقصها عليهم، وأولها لهم كما فى السير، وأراد ترك الخروج فرغبوه فيه، فدخل منزله، فلبس درعه ولامة حربه، فندموا على مخالفته، وقالوا له لما خرج: الرأى لك، فقال: «ما كان لنبى إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه»(١)، ومضى فكان ما كان من جراحته وقتل حمزة وغيره، فهذه قصة دينية ترك فيها ما أحبه لما رآه أصحابه، وكلاهما أمر جائز.

(و) من ذلك **(تركه قتل المنافقين)**، وهم المظهرون للإسلام مع إخفاء الكفر، وهو

---

(١) تقدم تخريجه.

لفظ إسلامى لا تعرفه العرب قديمًا مأخوذ من نافقاء اليربوع، وهو مخرج بستره فى جحره، ليخرج منه إذا حس بصائده، ويطلق على كل من خالف ظاهره باطنه كما تقدم بيان ذلك كله.

(وهو)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(على يقين من أمرهم)** بإخبار الله تعالى له به، وبما يظهر من أحوالهم من إيذائه وما يبلغه عنهم بما لو ظهر الآن اقتضى كفرهم وزندقتهم وقتلهم، ولكنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، حكم بظاهر حالهم، **(مؤلفة لغيرهم)** ممن يرجى إسلامه أو خلوص إيمان من قرب عهده بالإسلام، **(ورعاية للمؤمنين من قرابتهم)** اسم جمع بمعنى الأقرباء كالصحابة، كما قاله ابن مالك، ولا يحتاج لتأويل أو تقدير كما وهم، وبذلك يسرون وتطمئن قلوبهم، وهما مفعولان له، **(وكراهة لأن يقول الناس)** من أعدائه قدحًا على زعمهم **(أن محمدًا يقتل أصحابه)** يصدون به من يريد الإسلام عنه.

(كما جاء فى الحديث) الذى رواه البخارى فى عبد الله بن أبى بن سلول، لما قال فى غزوة بنى قينقاع: ليخرجن الأعز منها الأذل، وبلغه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك فقال بعض الصحابة: نقتله لنفاقه، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «فكيف إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»[1]، والحديث مشهور.

(و) مما كان يرتكب فيه أحد الجائزين تطييبًا للخواطر **(تركه بناء الكعبة على قواعد إبراهيم)** حين بناها مع إسماعيل، عليه الصلاة والسلام، وكان مقدار أذرع من الحجر ستة أو سبعة، أو خمسة داخل فيها ولها بابان ملصقان بالأرض، فلما بنتها قريش قبل البعثة لم تف نفقتهم ببناءها كذلك، فأخرجوا بعض الحجر منها، وجعلوا لها بابًا واحدًا مرتفعًا، والكلام على ذلك، وكم بنيت وامتناعه، وجوازه مفصل فى محله، وللسيد السمهودى فيه تأليف مستقل نفيس **(مراعاة لقلوب قريش)** مفعول لأجله، فإنها لا ترضى بذلك وتعده تغييرًا لما آثرهم للتفرد بفخره عنهم.

(وتعظيمهم لتغييرها) عما بنته آباؤهم ولخوفهم من هدمها **(وحذرًا من نفار قلوبهم)** عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لمن لم يقو إيمانه، ومن به بقية من الجاهلية، **(و)** تركه حذرًا من **(تحريك متقدم عداوتهم للدين)**، أى دين الإسلام، **(وأهله فقال)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لعائشة فى الحديث الصحيح)** الذى رواه الشيخان وغيرهما.

(لولا حدثان قومك) بكسر فسكون مصدر، بمعنى الحدوث ضد القدم، أى تجدده

(١) تقدم تخريجه.

وعدم رسوخه، والمراد به هنا: القرب، أى لولا قرب عهدهم **(بالكفر)** والشرك **(لأتممت البيت)**، أى لبنيته على تمامه وكماله **(على قواعد إبراهيم)** التى كان بناه عليها وعلى هيئته الأولى بإدخال بعض الحجر الخارج منه فيه، وإلصاق بابيه بالأرض وجعل ارتفاعه على ما كان عليه.

(و) من تركه أحد الجائزين ما يقاربه ويشبهه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(كان يفعل الفعل)** الذى صدر منه **(ثم يتركه لكون غيره خيرا منه)**، وإن كانا جائزين له **(كانتقاله من أدنى)** آبار **(مياه بدر)**، وهى أرض معروفة، أى قيامه برحله فى منزله عنده، وقد أشار عليه الحباب بن المنذر به كما تقدم.

(إلى أقربها للعدو) وذلك العدو **(من)** كفار **(قريش)** الذين وقعت معهم غزوتها وتغويره ما استغنى عنه من العين تضييقا عليهم لعتوهم وكفرهم، وكان نزل أولا على غير الماء فقال له الحباب بن المنذر:أبوحى هذا أم رأى؟ قال: رأى، فأشار عليه بما ذكر ونزل عليه جبريل، وقال: الرأى ما أشار به الحباب، كما تقدم.

(وكقوله)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حجة الوداع، كما رواه الشيخان، **(لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى)** إلى آخر الحديث، والهدى بفتح فسكون وياء مخففة، ويجوز كسر ثانيه، وتشديد الياء وبهما قرئ، وهو ما يساق من الإبل لينحر فىالحرم ويتصدق بلحمه، وهو أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أحرم بالحج مفردا وساق معه هديا، فلم يحل له أن يلبس ويحل من إحرامه حتى يبلغ الهدى محله يوم النحر، وكان أصحابه، رضى الله تعالى عنهم، تمتعوا بالعمرة وفكوا إحرامهم، فلما علموا أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يتمتع كرهوا تمتعهم بلباسهم ونسائهم خلاف رسول الله، فقال لهم، صلى الله تعالى عليه وسلم: «لو استقبلت» إلخ، أى وددت أنى مثلكم أتمتع لو لم يمنعنى سوق الهدى وعقد النية، وهذان أمران جائزان، فعل أحدهما والآخر، أحب إليه بيانا للجواز، واختلف أيهما أفضل كما ذكر فى كتب الفقه، وقوله: «استقبلت من أمرى»، المراد من أمر إحرامه، ومعناه لو لم يصدر منى ما صدر مما يمنع موافقتكم، وهو سوق الهدى واستقباله كناية عن عدم وقوعه وتقدمه، واستدباره كناية عن وقوعه؛ لأن ما وقع ومضى، كأنه خلفك، وما لم تفعله قدامك موجود، ولو للتمنى، أى وددت أن ما صدر منى من سوق الهدى كأنه لم يكن حتى أوافقكم والشاهد فيه لما ذكره ظاهر.

(و) كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يبسط وجهه للكافر والعدو)** ممن هو من أعدائه **(رجاء استئلافه)**، أى أن يؤلف بينه وبين المسلمين بهدايته للإسلام، وعدم نفرته

لما يراه من لطف الله تعالى به، وإظهاره له ما يحبه، وتقدم أن بسط الوجه عبارة عن البشاشة، وإظهار المسرة؛ لأن غيره يقطب وجهه ويجعد أسارير جبهته.

(و) كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يصبر للجاهل)** المراد به هنا غير متعارفهم، فإنه فى كلامهم بمعنى ذى العتو والغلظة والتكبر الحامل على تجاوزه، كقوله[1]:

ونجهل فوق جهل الجاهلينا

أى يصغى، **(ويقول)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا بدا من مثله ما لا يريده، وسئل عنه كما ورد فى حديث رواه الشيخان عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، («**إن من شر الناس**») شر مخفف أشر، اسم تفضيل، أى أخبثهم وأكثرهم شرًا **(من اتقاه الناس)** أى توقوا منه، وتجنبوه وسالموه وراعوه خوفًا منه، **(لشره)**، أى من أجله، فإن مثله يخشى منه، **(ويبذل)** بموحدة وذال معجمة، أى يعطى **(له الرغائب)** جمع رغيبة، وهى ما يرغب فيه كالعطايا الكثيرة، ونحوها، **(ليحبب إليه شريعته)**، فإن الجاهل ميله للدنيا، فإذا رآها منه أحبه وأطاعه فيما يأمره به من الشرع.

(ودين ربه) من دانه إذا ساسه وقهره، والفرق بين الدين والشريعة مشهور، **(ويتولى)** أى كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يباشر ويفعل بنفسه **(فى منزله)** أى داخل بيته مع أهله **(ما يتولاه)** ويفعله **(الخادم)** تواضعًا منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(من مهنته)** الضمير للمنزل أو له، وهى بفتح الميم وسكون الهاء، وبالنون قبل تاء التأنيث، والضمير وهى بمعنى الخدمة، وأصلها الابتذال، والمسموع فيها الفتح والكسر خطأ، وإن كان هو القياس كالخدمة والجلسة، كما نقله الزمخشرى، عن الأصمعى، وفى القاموس: المهنة بالكسر، والفتح وككلمة الخدمة، والعمل، وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها: «كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل فى بيته كما يعمل أحدكم فى بيته ويقم بيته ويحلب شاته، ويأكل مع الخادم ويعجن، ويحمل حاجته من السوق»[2]، كله للتواضع وتعليمه للأمة، وهو من سنن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

(ويتسمت) بفتح الياء المضارعة تفعل من السمت، وهو التلبس بالهيئة الحسنة، والسمت بسين مهملة، وهو القصد الحسن، وقيل: الهيئة، والمنظر الحسن فى نفسه ولباسه، وفى القاموس: السمت الطريق وهيئة أهل الخير والسير على الطريق، والقصد، انتهى.

---

(١) تقدم الاستشهاد به.

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/٣٢٨)، وعبد الرزاق (٢٠٤٩٢).

وأهل المعقول يستعملونه بمعنى المقابل للشيء، والجهة، وهو قريب منه، **(فى ملأه)** فى بعض النسخ بفتح الميم واللام، وكسر الهمزة، قبل الضمير، وعليه اقتصر الشارح الجديد، وهو أنسب بما قبله من قوله فى منزله، أى كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى منزله على نهج الخادم فى خدمته وغيرها، فإذا برز للملأ من أصحابه وجلسائه من الأشراف برز على هيئة حسنة مستترًا بإزاره لشدة حيائه وآدابه.

وقال البرهان وغيره: إنه فى ملائه بضم الميم، والمد جمع ملاءة، وهى الملحفة، وفى المطالع لابن قرقول: إنه مقصور مهموز، ونقله النووى عن المشارق للمصنف، قال: وهو غلط من الناسخ بلا شك، والملأ جماعة يملأون العيون مهابة وجلالة، والأول أنسب أيضًا، بقوله: وحتى... إلخ.

وقال التلمسانى: إنهما روايتان أعنى ملأه وملآئه، **(حتى لا يبدو)**، أى لا يظهر **(منه شىء)** بكشفه **(من أطرافه)** أى أطراف بدنه كساقه وأقدامه كما هو عادة الأشراف المحتشمين فى الخلوة والنادى، **(وحتى كأن على رءوس جلسائه الطير)** أى لمهابته ونهاية ذلك لا يرفع أحد رأسه ولا يطيل نظره إليه توقيرًا له، وتكريمًا لرزانة عقولهم؛ لأن الطير لا يقع إلا على ساكن من جذع وحائط ونحوه، فشبهوا بذلك، ووجه الشبه ظاهر كما قلت فى مقصورتى فى مدحه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشرف وكرم:

كما نما الطير على رؤوسهم   من كل غصن فى ربا المجد نما

(ويتحدث مع جلسائه بحديث أولهم) أى بما كان لمن قبله من أوائلهم بحكاية ما كان قبل الإسلام من حروبهم كيوم بعاث وغيرها، كحلف الفضول، وقيل: المراد إنه يتكلم بحديث أول متكلم منهم، أى بما يناسبه لا أنه يعيده لهم، **(ويتعجب مما يتعجبون منه)** لخفاء سببه، ولا يعارضهم ولا ينكر عليهم تأنيسًا لهم وجبرًا لخواطرهم لكمال خلقه ولطفه **(ويضحك)** معهم **(مما يضحكون منه)** مما يقتضيه حديثهم فلا يعبس كالجبابرة، إلا أن ضحكه، صلى الله تعالى عليه وسلم، على عادة التبسم بلا قهقهة، وبلا إبداء داخل الفم، فلا ينافى قول عائشة، رضى الله تعالى عنها: «ما رأيت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، مستجمعًا ضاحكًا»(١)، أى ضاحكًا بجميع فمه، حتى تبدو لهواته.

(قد وسع الناس) أى عم جميع من عنده **(بشره)**، أى طلاقة وجهه وبشاشته فى وجوههم، **(و)** وسعهم **(عدله)** وتسويته بين جلسائه ولا يحيف ويجور أحدًا عنده، أو على أحد من الخلق أصلاً، **(لا يستفزه)**، أى لا يقلقه **(الغضب)** أى إذا صدر من أحد ما

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٢/٤٥٦).

يغضبه لوقاره وشدة صبره على الأذى من بعض المنافقين، وجفاة الأعراب الواردين عليه، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ [الإسراء: ٦٤]، أى أزعجه، وهو من الفز بمعنى الخفة.

(و) مع حلمه (**لا يقصر عن الحق**) فيوفيه حقه ولا يترك منه شيئًا، (**ولا يبطن**)، أى لا يخفى فى باطن أمره (**على جلسائه**) ممن هم عنده شيئًا مما يريده، (**ويقول**) لإعلامهم بأنه لا يخفى عليهم أمرًا (**ما كان**)، أى لا ينبغى ولا يليق ولا يصح، وما كان جاءت لهذه المعانى (**لنبى أن تكون له خائنة الأعين**)، أى ليس له أن يغمز ويشير بطرف عينيه لأحد أن يفعل شيئًا أخفاه، و لم يتكلم به، وقد تقدم ذلك فى حديث الفتح، وإرادته، صلى الله تعالى عليه وسلم، قتل ابن أبى سرح، لما توقف عن مبايعته ليقوم له من يضرب عنقه؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان أهدر دمه، فلما بايعه ومضى، قال: هلا قام إليه من يضرب عنقه، فقيل له: هلا أومأت إلينا يا رسول الله، فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ [الأنفال: ٦٧] إلخ، وحرمة ذلك عليه عدت من خصائص الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، كما مر.

وفى النهاية: ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩]، أن يضمر فى نفسه ما لا يظهره بلسانه فيومئ له بعينه، وهو خيانة، والخائنة مصدر، بمعنى الخيانة، أو أصله الأعين الخائنة، وقد تقدم.

(**فإن قلت: فما معنى قوله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**لعائشة**) رضى الله تعالى عنها، فى حيث رواه الشيخان وغيرهما عنها، (**فى الداخل عليها**) وهو عيينة بن حصن الفزارى، وقيل: هو مخرمة بن نوفل القرشى، وقيل: إنهما واقعتان تعددتا، (**بئس ابن العشيرة هو**) والعشيرة بنو الأب الأدنون أو القبيلة، (**فلما دخل ألان له القول**)، أى تلطف بعد ما قاله فى حقه.

(**وضحك معه**) لمقاله الدال على حمقه، (**فلما سألته**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**عائشة عن ذلك**) الذى فعله معه بعد ما قاله (**قال: إن من شر الناس من اتقاه الناس لشره**) تقدم تفسيره قريبًا، (**وكيف جاز**) منه صلى الله تعالى عليه وسلم (**أن يظهر له خلاف ما يبطن**)، أى يخفيه عنه أو مطلقًا (**ويقول فى ظهره**)، أى فى غيبته بعد ما ذهب وولى ظهره، (**ما قال**) فى حقه: بئس ابن العشيرة بعد إلانة القول له وضحكه فى وجهه، وقد مر أن عيينة هذا من المؤلفة قلوبهم، وكان قبل إسلامه دخل بغير إذن على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعنده عائشة، فقال له: بلا إذن فقال: ما استأذنت على أحد من مضر، أى لأنه كان رئيسًا فى قومه، ثم قال له: ما هذه

الحميراء، فقال: أم المؤمنين، فقال: ألا أنزل لك عن أجمل منها؟ فقالت: يا رسول الله من هذا؟ قال: هو الأحمق المطاع فى قومه، وهو على ما يرى سيد قومه، ثم أسلم وله ترجمة فيها بعض أموره، قيل: وفى الحديث دليل على غيبة الكافر، والفاسق المجاهر ويأتى ما فيه، وما فعله رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، مدارة لا مداهنة والفرق بينهما مشهور، ويأتى عن قريب، وقد قيل: لو ذكر المصنف هذا فى الفصل الذى قبله كان أولى.

(فالجواب) عما ذكر، **(أن فعله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، لما ذكر **(كان استئلافًا لمثله)** من أجلاف العرب، وأشرارهم رجاء لإسلامهم ودفعهم بالتى هى أحسن حتى يلين قلبه، ويحسن إسلامه، وقد وقع، وكان معه من قومه أكثر من عشرة آلاف، أو المراد بمثله من هو سيد مطاع كثير الأتباع، وهو أنسب بما بعده.

وقول القرطبى، رحمه الله تعالى: إن هذا الحديث يدل على أن عيينة كان له سوء الخاتمة لجعله فى الحديث شر الناس لا وجه له؛ لأن الحديث عام غير مخصوص بالمذكور حتى يدل على ما قاله، فهو شامل لكل متصف بهذه الصفة، **(وتطييبًا لنفسه)** حتى يذعن للإسلام فيهديه الله تعالى له حتى يشاهد معجزاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويشرق عليه من نوره ما ينشرح به صدره **(ليتمكن إيمانه)**، أى يقر ويثبت فى قلبه بحيث لا يقبل الزوال **(ويدخل بسببه)**؛ لأنه كان رئيسًا كثير الأتباع كما مر.

(فى الإسلام أتباعه) لانقيادهم له وكونه معهم كظل لا يفارقه، **(ويراه)** إذا أسلم وأطاع **(مثله)** من سادات العرب والجبابرة منهم **(فينجذب)**، أى ينقاد مذعنًا **(إلى الإسلام)** لما يراه من اتباع غيره له من الرؤساء **(ومثل هذا)**، أى من قوله لأحد من الناس فى وجهه شيئًا، وذكره خلافه بعد ذهابه **(على هذا الوجه)** يخرج فيقال: إنه فى حق من تحل غيبته، وأنه لتأليف القلوب لما ذكر من الفوائد.

(قد خرج) لهذا **(عن حد مداراة الدنيا)**، أى عن المداراة التى هى لأجل أمور الدنيا **(إلى السياسة الدينية)**، أى التدبير بتأليف القلوب الداعى لدخول الناس فى الإسلام من غير ضرر وتعب، فهو من جملة مصالح الدين ومهماته.

(وقد كان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يستأنفهم)، أى يطلب تألف قلوبهم للإسلام، **(ببذل أموال الله)** من الغنائم **(العريضة)**، أى الكثيرة جدًا والعرض مقابل الطول يستعار لما ذكر كثيرًا، فيقال: له مال وغنى عريض، ووجه الشبه ظاهر واختياره على الطول أدخل فى المبالغة؛ لأنه إذا عظم عرضه علم عظمة طوله إلتزامًا كما لا

يخفى، وهذا نحو ما وقع له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه أعطى بعضهم واديًا مملوا بالغنم، فأسلم وأسلم قومه لما قال لهم: يا قوم إنه يعطى عطاء من لا يخاف الفقر **(فكيف)** لا يتألفهم مع تألفهم بالأموال العريضة **(بالكلمة اللينة)** فإنه يعلم بالطريق الأولى ويبعد عدمه جدًا، والاستفهام إنكارى يفيد الاستبعاد كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة:٢٨]، وعطاياه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكثرتها للمؤلفة قلوبهم لا تحصى، وهو مداراة حسنة وقربة عظيمة، والفرق بينها وبين المداهنة أن المداهنة ما فيه رضى بأمر غير مشروع لغرض فاسد، والمداراة ما فيه لطف بأمر مشروع محمود لمصلحة محمودة.

(قال صفوان) بن أمية بن وهب الجمحى الصحابى، أحد الأشراف الفصحاء الأجواد، أسلم بعد حنين، وتوفى سنة اثنين وأربعين، رضى الله تعالى عنه، وأخرج له أصحاب السنن، وفى الصحابة من اسمه صفوان غيره ستة عشر: **(لقد أعطانى)** رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وهو أبغض الخلق إلىّ)** لما كان فى قلبه من عداوته له، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فما زال يعطينى)** من مواهبه الجزيلة من غير سؤال **(حتى صار أحب الخلق إلىّ)** لما رآه من إحسانه له من غير امتنان وعطف على ما كان منه فى الكفر، والعدوان، ثم أشار إلى جواب سؤال تقديره، أنت قلت: إن قوله: بئس ابن العشيرة، لم يقله فى وجهه والذى خالفه قاله ليؤلفه، وهذا غيبة محرمة شرعًا، فكيف صدر منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما حرمه الله تعالى بقوله

(وقوله)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فيه)**، أى فى حق عيينة بن حصن الداخل عليه بغير إذن كما مر، **(بئس ابن العشيرة هو)** فى حقه **(غير غيبة)** منهى عنها **(بل هو تعريف ما علمه منه)** من خصاله القبيحة المذمومة **(لمن لم يعلم)** حاله فعرفه ذلك، **(ليحذر حاله ويحترز منه)** باجتنابه ليسلم من شره.

(ولا يوثق بجانبه)، أى بما يكون من جهته من قول وفعل **(كل الثقة)**، أى وثوقًا كليا لما علم من حمقه وجاهليته **(لاسيما وقد كان مطاعًا)**، أى سيدًا مهابًا بين العرب يطاع أمره **(متبوعًا)**، أى له أتباع كثيرة من العرب إذا أمرهم أطاعوه فيخشى من شره، **(ومثل هذا)** الذى صدر منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من ذمه له مع لين قوله له، **(إذا كان لضرورة)** اقتضاها الحال من دفع شره، بلا ضرر عاجل منه للمسلمين يشق دفعه **(ودفع مضرة)**، أى إزالة ضرره.

(لم يكن) ذلك **(بغيبة)** منهى عنها شرعًا حتى يعترض ويقال: كيف يصدر مثله منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو معصوم، ثم انتقل على طريق الترقى فى تنزيه مقام

النبوة، فقال: **(بل كان جائزًا)** منه لتعريف حاله من غير قصد ذمه، **(بل)** كان **(واجبًا)** عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يبين بعض عيوب أمته، إذا خشى من لا يعرفها **(فى بعض الأحيان)** جمع حين، والمراد: زمان توقع الضرر، فلا يجوز تأخير بيانه عن وقت الحاجة إليه، **(كعادة المحدثين)**، أى علماء الحديث النبوى **(فى تجريح الرواة)** بذكر عيوبهم لئلا يعمل بما رووه كفلان كذاب، أو غير ثقة، أو اختل عقله، أو دينه، والجرح معروف استعير لذكر العيوب كقوله(١):

ولا يلتام ما جرح اللسان

وصار حقيقة فيه، **(و)** كعادة **(المزكين فى)** تجريحهم، **(الشهود)** إذا سألهم الحاكم عنهم ليقبل شهادتهم أولاً، فيجب عليهم ذكر ما يعلمون من حالهم خيرًا وشرًا، وسمى مزكيًا، وأصله من تطهر بدفع المعايب ونفيها، إشارة إلى أن حق الإنسان أن يتصف بالخير، وشاع فى المعنى العام، وكان هذا واجبًا لما فيه من دفع الفساد عن الأحكام الشرعية، وصيانة حقوق الناس، وقد استثنوا من الغيبة مع ما ذكر أمورًا أخر فى صور ستة ذكرناها فى غير هذا المحل، وجمعها بعضهم أيضًا فى قوله:

القدح ليس بغيبة فى ستة متظلم ومعرف ومحذر
ولمظهر فسقًا ومستفت ومن طلب الإعانة فى إزالة منكر

فقول المصنف: إنها ليست بغيبة يجوز بقاؤه على ظاهره، إن قلنا هذه لا تعد غيبة شرعًا لجوازها أيضًا، أو وجوبها، فإن قلنا: إنها ذكر المرء بما يكره فى غيبته مطلقًا نقيده بقيد مقدر، أى ليست بغيبة يأثم قائلها، وتمتنع عليه شرعًا فلا يرد عليه شىء.

(فإن قيل، فما معنى المعضل) اسم فاعل من أعضل الأمر إذا أشكل وأعيى، وكان هذا مشكلاً لما سيأتى.

وليس المراد بالمعضل هنا مصطلح أهل الحديث، وأصل الإعضال عسر الولادة، فأريد به ما ذكر، ووقع فى نسخة الفصل بفاء وصاد مهملة، **(الوارد فى حديث بريرة، رضى الله تعالى عنها)**، الذى رواه الشيخان وبريرة فعيلة، بمعنى فاعلة أو مفعولة، وكانت مملوكة لبعض الأنصار أو بنى هلال أو لهما، وقيل: كانت لعتبة بن أبى لهب، وقيل لبعض بنى كاهل: وكانت تخدم، عائشة، رضى الله تعالى عنها، قبل عتقها وتوفيت فى زمن معاوية، رضى الله تعالى عنه، واختلف فى جنس بريرة، فقيل: كانت قبطية غير

(١) عجز بيت، وصدره: «جراحات السنان لها التئام». والبيت من الوافر، وهو بلا نسبة فى تاج العروس (كلم).

سوداء، وقيل: حبشية سوداء، **(من قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، بيان للحديث المعضل، **(لعائشة)** رضى الله تعالى عنها.

(وقد أخبرته أن موالى بريرة) أى المالكين لها **(أبوا بيعها)**، أى امتنعوا من بيعها، واختلف فى المخبر له، صلى الله تعالى عليه وسلم، هل هو عائشة، أو بريرة أو غيرهما كما وقع فى روايات الحديث، **(إلا أن يكون لهم الولاء)** ، أى ولاء العتاقة، وهو معروف فى كتب الفقه، فإنهم كانوا كاتبوها فعجزت واستعانت بعائشة، رضى الله تعالى عنها، فقالت لها: إن أراد أهلك دفعت لهم ثمنك وأعتقتك، ويكون ولاؤك لى فأبوا ذلك، وكانوا كاتبوها على تسعة أواق فى كل سنة، وللفقهاء اختلاف فى صحة بيع المكاتب مطلقًا أوْ إذا عجز كما بينوه.

(فقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لها)** أى عائشة، لما أخبرته بقولهم **(اشتريها)** منهم **(واشترطى لهم الولاء)** كما أرادوا **(ففعلت)**، أى اشترتها بشرط أن الولاء لهم، إذا أعتقتها، والولاء عصوبة شرعية معروفة لحديث: «الولاء لحمة كلحمة النسب».

(ثم قام) صلى الله تعالى عليه وسلم على منبره **(خطيبًا)** على عادته فيما إذا أراد بيان أمر للناس **(فقال صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى خطبته **(ما بال أقوام)**، أى ما شأنهم وحالهم، وكان عادته عليه الصلاة والسلام، إبهام من صدر عنه ما لا يرضاه، فلم يقل ما بال فلان، والاستفهام إنكارى **(يشترطون شروطًا)** غير جائزة **(ليست فى كتاب الله)** ولم يشرعها لهم من أمور الجاهلية **(كل شرط ليس فى كتاب الله)** ولا فى حديث نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الذى هو حكمه **(فهو باطل)** كشرط الولاء هنا لهم، والشرط على أقسام جائز وممتنع ولغو باطل، وتفصيله فى كتب الفقه لا حاجة للتطويل به هنا، ثم بين وجه الإشكال فى الحديث بقوله:

(والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قد أمرها)، أى عائشة، رضى الله تعالى عنها، بشرائها **(بالشرط لهم)**، أى بشرط الولاء لهم إذا أعتقتها، **(وعليه باعوها)**، أى على هذا الشرط وقع بيعهم لها، **(ولولاه)**، أى شرط الولاء بضمير متصل، وهو جائز والأفصح انفصاله، نحو لولا أنتم، وبيانه فى كتب النحو.

(والله أعلم) جملة معترضة بتفويض علمه لله تعالى تأدبًا **(ما باعوها من عائشة)** رضى الله تعالى عنها؛ لأنهم أبوا البيع بدونه، كما تقدم.

(كما أنهم لم يبيعوها قبل) مبنى على الضم، أى قبل شرط الولاء لهم، **(حتى شرطوا ذلك)**، أى كون الولاء لهم، **(ثم أبطله)** صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وهو)** أى والحال

أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قد حرم الغش)**، أى التلبيس وإخفاء ما يضر مقابل النصح **(والخديعة)** فقال: «من غشنا فليس منا ولا خلابة»(١)، أى لا خداع فى المعاملة فكيف أمر صلى الله تعالى عليه وسلم عائشة بقول ما لا يجوز ولولاه ما باعوها ففيه غش وخديعة فدفعه بقوله:

(فاعلم أكرمك الله) كما أكرمت مقام النبوة بتنزيهه عما لا يليق به، والجملة دعائية معترضة لدفع الاعتراض **(أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم منزه)**، أى مبرأ ومبعد **(عما يقع فى بال الجاهل)** بالحديث ومقام النبوة، أى فى فكره أو قلبه أو خاطره لا شأنه وحاله **(من هذا الأمر)** الذى يتوهم إنه غش وخديعة **(ول)** أجل **(تنزيه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن ذلك)** الذى يتوهمه جاهل بما ذكر **(ما قد أنكر قوم هذه الزيادة قوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو بدل من الزيادة **(اشترطى لهم الولاء)**، وإنما أنكروها.

(إذ ليست فى أكثر طرق الحديث) هذا ما ذهب إليه الخطابى، وقيل: إن الشافعى ذكره فى الأم، وأنه وقع فى طريق لم يتابع عليها، وهو مردود، وقد علمت أن الواقع فى النسخ تنزيه بصيغة المصدر فما زائدة، وهو ظاهر ورواه بعضهم ينزهه مضارع فأعرب فاعلاً له، والظاهر أنه من تحريف الناسخ وعدم تثبت القائل **(ومع ثباتها)** وصحة روايتها، وهو الذى عليه الأكثر ورواه الثقات من طرق متعددة صحيحة فلا وجه لإنكارها، لكنه اختلف فى توجيهه بوجوه تأتى وحينئذ.

(فلا اعتراض بها) على هذا التقدير؛ لأن ثبوت هذه الرواية هو الذى ذكره الجمهور، وقالوا: إنه ورد من طرق صحت، وما قيل: إنها لم ترد إلا من طريق واحد لم يتابع عليه مردود، كما فى شروح الصحيحين، والحامل عليه ما ذكر من الإشكال، وهو مدفوع بوجوه منها ما أشار إليه بقوله: **(إذ يقع)** لفظ **(لهم بمعنى عليهم)** على أن اللام بمعنى على فى كلام العرب كعكسه والشاهد عليه ما **(قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾)** [الرعد: ٢٥]، أى عليهم، **(وقال تعالى: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾)** [الإسراء: ٧]، أى فعليها كقوله: ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢]، **(فعلى هذا)** التأويل بجعل اللام بمعنى على كما فى الآيتين يكون معنى الحديث: **(فاشترطى عليهم الولاء لك)** يا عائشة، فإن الولاء لمن أعتق لا لمن باع.

(ويكون) على هذا التقدير **(قيام النبى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، على منبره

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان (١٦٤)، وأحمد (٣/٤٩٨)، والدارمى (٢/٢٤٨)، والحاكم (٢/٩)، والطبرانى (١٠/١٦٩)، وابن حبان (١١٠٧)، والبيهقى (٥/٢٥٥).

(ووعظه) بقوله: ما بال قوم، إلى آخره إنكارًا أو زجرًا، **(لما سلف منهم)**، أى لما تقدم من مواليها **(من شرط الولاء لأنفسهم)** على بريرة بنت صفوان، **(قبل ذلك)**، أى قبل وعظه تأديبًا لهم، وإرشادًا لمن خالف كتاب الله وشريعته، وهذا التوجيه منقول عن المزنى وأسنده البيهقى إلى الشافعى، رضى الله تعالى عنه، وجزم به الخطابى، وصححه، وأنكره غيره.

وقال النووى: إنه ضعيف لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنكر اشتراطهم ذلك، ولو كانت اللام، بمعنى على لم ينكره، وكون إنكاره لإرادتهم الاشتراط لهم أولاً يأباه سياق الحديث.

وقال ابن دقيق العيد، رحمه الله تعالى: اللام تدل على اختصاص أمر ما ضارًا كان أو نافعًا كما تقول العقاب لزيد، فلا حاجة لجعلها بمعنى على، حيث لا لبس، وعلى كل حال فضعف هذا الجواب ظاهر.

(ووجه ثان) عما استشكلوه فى هذا الحديث بعد ثبوت روايته هكذا، **(أن قوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى هذه الرواية لعائشة: **(اشترطى لهم الولاء ليس)** صادرًا منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(على معنى الأمر)** فإن صيغة الأمر ترد لمعان كثيرة، نحو قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، كما بين فى الأصول، وإن كان حقيقته المتبادرة منه الأمر الطلبى، ثم استدرك ببيان المراد به على هذا فقال: **(لكن)** إنما ورد منه أمر اشترطى **(على معنى التسوية)**، أى تسوية الاشتراط وعدمه، وأصله اشترطى أو لا تشترطى كما يأتى.

وهذا المعنى يرجع إلى الإباحة والتسوية من معانى أو، وقد يضاف للأمر أيضًا، وجمع بينهما بأنه يفهم من قرينة السياق نسبته لكل منهما، ويؤيده هذا، وإن قيل: إنه ضعيف جدًا، أنه ورد فى بعض طرق اشترطى، أو لا تشترطى، فإنما الولاء لمن أعتق، ولما كان هذا يتوقف على أن الموالى كانوا يعلمون أن هذا الشرط شرعًا غير معتبر، أشار إلى ذلك بقوله: **(والإعلام)** بالجر عطف على التسوية **(بأن شرطه لهم)**، أى شرط الولاء للموالى المذكورين **(لا ينفعهم)** ولا يفيدهم شيئًا منه لعدم ورود ما يجوزه **(بعد بيان النبى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قبل)** مبنى على الضم، أى قبل وقوع هذه القصة، **(أن الولاء)** إنما هو **(لمن أعتق فكأنه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، على هذا التقدير.

(قال لها) أى لعائشة، رضى الله تعالى عنها: **(اشترطى أو لا تشترطى)** فالاشتراط وعدمه سواء، ويؤيده، إنه روى هكذا كما مر.

وإنما استوى هو وعدمه **(فإنه شرط غير نافع)**؛ لأنه لغو لا يفيدهم انتقال الولاء لهم **(وإلى هذا)** التوجيه **(ذهب الداودى)** وهو الإمام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر بن داود، المعروف بالداودى كما تقدم فى ترجمته.

(وغيره) من العلماء **(وتوبيخ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لهم)**، أى تعبيرهم بتقبيح فعلهم على منبره، **(وتقريعهم)** بلومهم بين الناس **(على ذلك)** أى على امتناعهم بدون اشتراط الولاء لهم، **(يدل على علمهم به)**، أى بعدم نفع اشتراطهم **(قبل هذا)**، أى قبل ما قاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لهم؛ لأنهم يكونون معذورين بجهلهم لهذا غير مستحقين للتقريع، والتوبيخ فسقط ما قيل: إنه مخالف للظاهر متوقف على ثبوت علمهم بهذا الحكم قبل خطبته، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(الوجه الثالث) فى الجواب عن هذا الإشكال **(أن معنى قوله: اشترطى لهم الولاء)** خبر أن مقدر تقديره صحيح، ونحوه، إذ لا يصح اقتران الخبر بأى فى قوله **(أى أظهرى لهم حكمه)** من أنه لمن أعتق لا يتخطاه لغيره وإن شرطه له، **(وبينى لهم)** عندهم **(سنته)**، أى طريقته وما شرعه، فهى بالمعنى اللغوى لا مقابل الفرض، **(إن الولاء إنما هو لمن أعتق)** بفتح الهمزة والتشديد بدل من قوله: سنته.

(ثم بعد هذا) الذى ذكره من عدم فائدة الشرط، **(قام هو صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى خطبته **(مبينًا ذلك)** الحكم **(وموبخًا)** لهم **(على مخالفة ما تقدم منه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، من أن هذا الشرط لا يجدى نفعًا، وفيه إشارة لما قدمه من أن لهم علمًا بهذا الحكم قبل خطبته، **(فيه)** أى الولاء، أو فى أمر بريرة، ولا يخفى ما فى هذا الوجه من الإغلاق، فإن أراد قائله أن أمر اشترطى ليس على ظاهره، وإنما هو مجاز عن معنى أظهرى لهم حكم الاشتراط، وبينى لهم حكم الله فيه، وطريق النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشريعته فى أنه إنما هو لمن أعتق، فوجه المجاز فيه وعلاقته غير بينة، وقد قيل فى بيانه: إن هذا الأمر للتهديد لهم كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٥]؛ لأنه سبق بيانه، وكان أمرًا معلومًا لهم ولغيرهم، فطلبهم له بعد ذلك أمر منكر مستحق للتوبيخ.

وقال الشافعى فى الأم: إنهم لما عصوا الله باشتراط ما قضى بخلافه، أمرها أن تشترط لهم بحسب الظاهر حتى يزجرهم ويردعهم؛ لأن توبيخ من ارتكب المعصية بعد ارتكابها أقوى من زجره قبله، وأعظم فى النهى عنه فقال لها: اشترطيه ليتأتى ردعه.

وقال بعضهم: هذا الأمر لترك المخالفة والنزاع، والأمر مجاز عن التخلية بينهم وبين

ما أرادوا إظهارًا لعدم امتثالهم للنهى السابق، وهو أبلغ زجر لا إباحة، وهذا ما قرره المفسرون فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ**﴾ [البقرة: ١٠٢]، فعبر عن التخلية بينهم وبين الأضرار مجازًا.

وقال النووى: إنه حكم خاص بعائشة، رضى الله عنها، وفيه نظر، ثم استطرد ببعض ما وقع لغيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الأنبياء مخالفًا لما قرره من براءتهم عما تقدم، فقال: (**فإن قيل: فمعنى فعل يوسف**) بن يعقوب نبى الله، عليهما السلام، (**بأخيه**) شقيقه بنيامين (**إذ جعل السقاية**) هى إناء من فضة أو ذهب مرصع أو زبرجد، وفيه أقوال أخر، كان يشرب أولاً منه، ثم جعل صاعًا يكال به ولها قيمة عظيمة فدسها يوسف أو أمر بإخفائها (**فى رحله**) بين أمتعة أخيه، ليأخذه بها، وكان من شرعهم أخذ من سرق والرحل رحل البعير، وأمتعة المسافر التى تحمل عليه.

(**وأخذه**)، أى أخذ يوسف أخاه (**باسم سرقته**)، أى بسبب نسبته لسرقة الصاع، وأقحم اسم إشارة إلى أنها تهمة لا أصل لها، كما يقولون: ما لفلان من الأمر إلا اسمه (**ما جرى على إخوته فى ذلك**)، أى ما كان بينهم فى تلك القصة كما بينه المفسرون والمؤرخون.

(**وقوله**) أى يوسف، صلى الله تعالى عليه وسلم، (﴿**إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ**﴾ [يوسف: ٧٠] **ولم يسرقوا**) فكيف يقول: ما لا أصل له، وهو نبى معصوم ففيه إشكال يشبه ما فى قصة بريرة.

(**فاعلم**) علما يزيل عنك الشبه (**أكرمك الله**) بما من الله به عليك من العلم (**أن الآية**) التى فى قصة يوسف، عليه والسلام، (**تدل**) بظاهر النظم (**على أن فعل يوسف**) مع إخوته (**كان عن أمر الله تعالى**) له بوحى يقول فيه: قل لهم كذا، وافعل معهم كذا، فلا يرد عليه اعتراض؛ لأنه بأمر الله وبحكمه (**لقوله تعالى:** ﴿**كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ**﴾ [يوسف: ٧٦] **الآية، فإذا كان كذلك**)، أى ما فعله بأمر الله تعالى وتعليمه وإذنه له فيه.

(**فلا اعتراض به**) عليه فيما قاله، وفعله وبما وقع من تكلمه بخلاف الواقع؛ لأنه يجب عليه امتثال أمر ربه، ولو كان ما أمر به مخالفًا لشريعته، فإنه لا يسأل عما يفعل، وقد يأمر بعض أنبيائه أن يحكم بالباطن لحكمة كما فى قصة الخضر مع موسى، عليهما الصلاة والسلام، وبه استدل من ذهب من الأئمة إلى جواز الحيل كأبى حنيفة وأصحابه خلافًا للشافعية، فإن لهم فيها خلافًا، فمعنى كدنا ليوسف علمناه، ما يكيد به إخوته

حتى يأخذ أخاه منهم، والكيد قريب من المكر، وهو إظهار ما يخالف الباطن للتخيل على أمر يريده، ودين الملك بمعنى طاعته بإبقائه بمصرًا، وما كان من دينه من أخذ من سرق، وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، يدل على أن فعله بإرادته ورضاه وبهذا سقطت الشبهة المذكورة.

(**وإن كان فيه ما فيه**)، أى وإن وقع فيه ما ذكر مما يخالف ظاهر الواقع ويقتضى الخديعة، بما يليق بمقام النبوة، (**وأيضًا**) مما يجاب به عن هذه الشبهة، (**فإن يوسف كان أعلم أخاه**) بنيامين حين أخذه من إخوته بكيده وتدبيره، فقال له سرًا: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣]، ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ [يوسف: ٦٩]، أى لا تحزن فيكون عندك بؤس وشدة حين أسند لك السرقة، وأخذك عندى وأمره أن لا يعلمهم بما قاله له فرضى، وقال: إذن لا أفارقك، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، مما يقولون ويخافون (**وكان ما جرى عليه**) أى على أخى يوسف (**بعد هذا**)، أى بعد إعلامه بما ذكر (**من وفقه**) بفاء وقاف، أى من اتفاق جرى بينهما سرًا.

(**ورغبته**) فى الإقامة معه، وإنه لا عقوق فيه لأبيه (**وعلى يقين من عقبى الخير له به**)، أى لتيقنه أن هذه القصة يعقبها خير لهم ولأبيهم لاجتماع شملهم ويعفو عما سلف منهم عاجلاً (**وإزاحة**)، أى إزالة (**السوء والمضرة عنه**)، أى عن أخيه (**بذلك**)، أى بما علمه مما سيكون بعد رغبته فى إقامته عنده، وإن لم يعلم إخوته به.

(**وأما قوله**) عز وجل فى حكاية القصة: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾، أى أصحاب هذه الدواب، والإبل الحاملة لكم من عار، بمعنى ذهب وجاء، ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]، للصاع وهم لم يسرقوا حقيقة، فهو افتراء غير لائق (**فليس من قول يوسف**) عليه الصلاة والسلام، وإنما قاله غيره ممن لم يقف على حقيقة الحال.

(**فيلزم**) هو مرتب على النفى فهو منفى أيضًا، أى فلا يلزم، (**عليه جواب لحل شبهة**) ترد عليه؛ لأنه كذب حقيقة، وقوله: لحل، بلام جارة، وفى نسخة: بالباء، وفى أخرى مضارع، والكل صحيح متقارب معنى، إلا إنه قيل عليه إنه محتاج للجواب عن إقرار يوسف قائله على أمر قبيح، والإقرار على القبيح كفعله، فإن كان يوسف لم يسمعه لم يحتج لذلك.

(**ولعل قائله**) الذى هو غير يوسف (**إن حسن**) ببناء المجهول من التحسين (**له التأويل**)، أى تأويل إسناد السرقة لهم (**كائنًا من كان**) غير يوسف لعدم عصمته ونزاهته بخلافه هو (**ظن على صورة الحال ذلك**)، أى رأى ظاهر حالهم كحال السارق لوجود ما

ليس لهم بين أمتعتهم، فظن سرقتهم له، وإن جاز أن يكون غفلة وسهوًا، أو وضعه فيها غيرهم.

(وقد قيل) فى الجواب أيضًا: إن كان القائل يوسف فهو **(قال ذلك)** نظرًا لفعلتهم قبل، أى قيل: هذه الحالة الواقعة **(بيوسف وبيعهم له)** من السيارة، فإنه فى معنى السرقة، وهذا بناء على أنهم باعوه بأنفسهم لا من أخرجه من البئر، أو لأنهم لم يسرقوه، وإنما ذهبوا به بإذن أبيهم، ولم يبيعوه، وإنما ألقوه فى الجب، لكنهم فى فعلهم هذا، وما كان سببًا له كمن سرق سرًا وباعه، فلا يرد عليه اعتراض بما ذكر.

(ولا يلزم) لنا **(أن نقول)** بضم النون للمتكلم مع غيره وفتح القاف وتشديد الواو المكسورة وفاعله نحن مستتر ومفعوله **(الأنبياء ما)**، أى نسند لهم قولاً **(لم يأت)** أى لم يرو وهو غير لائق بمقامهم **(أنهم قالوه)** مع أنه يجوز أن يكون القائل غيرهم كما ذكره آنفًا **(حتى يطلب الخلاص منه)** بتأويله وصرفه عن ظاهره **(ولا يلزم)** أحدًا من العلماء **(الاعتذار عن زلات غيرهم)** أى غير الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لعدم عصمتهم وجواز صدور مثله منهم.

* * *

(فصل)

فى بيان حكمة ابتلاء بعض الأنبياء بالأمراض، ذكره بعد ما قرر عصمتهم، ونزاهة ذواتهم وصفاتهم وأقوالهم وأفعالهم عن كل نقص؛ لأنه ربما يتوهم جاهل أن الابتلاء بمثله غير لائق بهم أيضًا.

فقال: **(فإن قيل)** مقولة مقدر تقديره هم معصومون عن النقائص **(فما الحكمة)** جواب الشرط **(فى إجراء)** الله **(الأمراض)** والأسقام المؤلمة لأبدانهم اللطيفة **(وشدتها عليه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وعلى غيره من الأنبياء)** صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وكانت أمراضه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أشد من غيره كما سيأتى، وسئل عنه، فقال: «إنا كذلك يشدد علينا ويضاعف لنا الأجر»(١)، وهو حديث صحيح، رواه ابن ماجه، ويأتى عن عائشة، رضى الله تعالى عنها: «ما رأيت أحدًا كان أشد عليه الوجع من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم»، وأيضًا بدنه الشريف ألطف من غيره، واللطيف يتأثر أكثر من تأثر الكثيف.

(وما الوجه فيما ابتلاهم الله) أى الأنبياء **(به من البلاء)** بيان للضمير والوجه يكون

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (١٢/٢/٢)، وأورده المنذرى فى الترغيب (٢٨١/٤).

بمعنى السبب الذى يوجه به، يقال: ما وجه، أى ما حكمته وسببه **(وامتحانهم بما امتحنوا)** أى معاملتهم به معاملة المحنة ليظهر صبرهم ورضاهم، والمراد بالمحن غير الأمراض من المصائب كما سيأتى.

(كأيوب)، عليه الصلاة والسلام، إذ ابتلاه بأمراض شديدة **(ويعقوب)**، عليه الصلاة والسلام، فى حزنه وشدة بكائه حتى ضعف بصره **(ويحيى)**، عليه الصلاة والسلام، هذا مثال المحن لقتله **(زكريا)**، عليه الصلاة والسلام، ابتلى بالقتل أيضًا كما مر **(وعيسى)**، عليه الصلاة والسلام، ابتلاه باليهود وكيدهم **(وإبراهيم)**، عليه الصلاة والسلام، ابتلى بإلقاء نمروده بالنار **(ويوسف)**، عليه الصلاة والسلام، ابتلى بفراق أبيه له، وإلقائه فى السجن والجب.

(ودانيال)، عليه الصلاة والسلام، ويقال: دانال أيضًا، وهو اسم أعجمى غير مصروف، بدال مهملة، وما فى بعض الكتب من أنه يجوز إعجامها لا أصل له، وقيل: معناه الحكم لله، وهو نبى غير مرسل كان فى زمن بخت نصر، وكان من أعز الناس عنده فوشوا به له، فألقاه وأصحابه فى الأخدود، وهذا ما ابتلى به، وقصصهم مفصلة يطول ذكرها.

(وغيرهم) من الأنبياء كنوح، وغيره من ذكر الله تعالى فى القرآن وبينه المفسرون **(وهم خيرته من خلقه)** حال مبينة لوجه ورود السؤال والخيرة المختار المجتبى بسكون الياء، وقد تحرك والأول اسم، والثانى مصدر، وقيل الوجهان فيهما، وقيل بالعكس، والأول: هو المعروف.

(وأحباؤه وأصفياؤه) أى الذين يحبهم ويحبونه، وهم الذين اصطفاهم الله تعالى واختارهم لرسالته وقربه، **(فاعلم وفقنا الله وإياك)**، للوقوف على الحكمة فى أفعاله **(أن أفعال الله تعالى كلها عدل)** فلا يظلم أحد من خلقه، وإن كان لا يجب عليه شىء، وله أن يعذب كل من أراد؛ لأنه ملكه يتصرف فيه كما يشاء كما فصل فى الكلام، **(وكلماته)** أى أخباره ووعده **(صدق)**، أى صادقة كلها ﴿**لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ**﴾، أى لا يمكن أحدًا أن يغير شيئًا مما أخبر به، وهذا اقتباس من قوله تعالى: ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [الأنعام: ١١٥]، فله أن **(يبتلى عباده كما قال)** عز وجل، **(لهم)** ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾ [يونس: ١٤]، أى ليظهر للناس أعمالكم فيعلموا اسحقاقكم لما أنعم به عليكم ويجازيكم عليه أعظم جزاء.

(و) قال لهم أيضًا: ﴿**ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾ [الملك: ٢]، أى أودع فيكم، إذ أحياكم بالعقل والإحساس الذى صح فيه تكليف الأحكام، وأن يعاملكم معاملة المختبر فيجازيكم بما تستحقونه ولتضمين يبلو، بمعنى يختبر العلم علق عن جملة أيكم إلى آخره، وفيه تقدير يعلم كما فصله المفسرون، وفيه كلام مشهور فى المغنى وشروح الكشاف.

(و) قال لهم أيضًا: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ**﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ﴿**وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ**﴾، نفى العلم، والمراد نفى المعلوم الذى هو الجهاد، ولما نافية جازمة بمعنى لم مع زيادة توقع المنفى فى الماضى فيما يستقبل، ﴿**وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٢]، منصوب بأن مقدرة وقرئ بالرفع.

(و) قال لهم أيضًا: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ**﴾، بالجهاد والتكاليف ﴿**حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ**﴾ [محمد: ٣١]، على هذه المشاق، **(ونبلو أخباركم)**، أى ما يخبر به من أعمالكم وأحوالكم، ساق المصنف هذه الآيات لبيان حكمة الابتلاء، وقوله: لنعلم ولننظر، وما فى معناه مع تقدم علمه القديم، وأفعاله تعالى لا تعلل بالأغراض عند بعضهم لبيان ما تعلق به علمه، وأنه لحكم تترتب عليه كالأغراض الباعثة على الأفعال والآيات دالة على أنه تعالى يبتلى بعض عباده؛ ليظهر صبره فيجازيهم أعظم جزاء، ففيه تسلية لهم، وحث على الرضى بما قدره لهم.

(وامتحانه) عز وجل **(لهم)**، أى لأنبيائه، عليهم الصلاة والسلام، والمذكورون فى هذه الآيات، **(بضروب)** وأنواع **(من المحن)** والمصائب التى ابتلاهم بها **(زيادة)** بالنصب مفعول لأجله **(فى مكانتهم)**، أى منزلتهم العالية بالشرف عنده، وكذا قوله **(ورفعة فى درجاتهم)**، أى مراتبهم العالية حسًا ومعنى.

(و) لأجل أن يكون **(أسبابًا لاستخراج)**، أى لإظهار **(حالات الصبر)** المركوزة فى طبائعهم من القوة إلى الفعل حتى يعلمها الناس، وفى نسخة: رفع أسباب وما عطف عليه على أنه خبر مبتدأ مقدر، أى وهى أسباب إلى آخره **(والرضا)** فى السراء والضراء بما قدره الله تعالى.

(والشكر) على كل حال لما يترتب عليه من الثواب الجزيل، **(والتسليم)** بقبول كل ما فعل **(والتوكل)** على الله تعالى **(والتفويض)** بجعل أمرهم مفوضًا إليه، **(والدعاء والتضرع منهم)**، أى إظهار التذلل والخضوع لله تعالى على كل حال **(وتأكيدًا)** بالنصب والرفع.

وفى نسخة: توكيدًا، وهى لغة فيه **(لبصائرهم)** جمع بصيرة، وهى القوة المدركة للمعانى كالباصرة فى المحسوسات فهم على بصيرة، فيما ذكر ولكن الابتلاء لينبههم لما ذكر مقو ومؤكد، ومبين لبصائرهم **(فى رحمة الممتحنين)** اسم مفعول، وهم من حلت بهم المحن والبلايا وغيرهم، **(والشفقة على المبتلين)**، بفتح اللام جمع مبتلى، اسم مفعول، وهو من حلت به مثل بليتهم، فإنه لا يعرف الخطب إلا من يقاسيه.

(وتذكرة لغيرهم وموعظة لسواهم) إذ السعيد من بغيره اتعظ، فإنهم مع جلالة قدرهم، إذا لم يسلموا منها، فكيف غيرهم ممن هم دونهم **(ليتأسوا)**، أى يقتدوا بهم، ويكون لهم بهم إسوة، **(فى البلاء)**، الذى نزل **(بهم ويتسلوا)**، أى يكون لهم سلوة تذهب حزنهم **(فى المحن)** والمصائب **(بما جرى عليهم)** ووقع بهم **(ويقتدوا بهم فى الصبر)** على ما أصابهم فيقولون: إذا كانت أنبياء الله وأحباؤه ابتلوا بمثل هذا، فما بالنا نحن.

(و) من جملة الحكم فى ابتلائهم **(محو لهنات)** جمع الهنة، وهى الهفوة اليسيرة، ويكنى بها عن القبائح كهن، ويأتى ما فى هذه اللغة فالمعنى أنها كفارة للصغائر، وما يصدر عنهم سهوًا، وأمور تعد سيئات بالنسبة لهم إذا **(فرطت منهم)**، أى وقعت بسبب تفريط يسير منهم تطهيرًا لهم ورفعًا لهم عن مثلها، وإن كانت جائزة **(أو غفلات)** بفتحات جمع غفلة وغفلتهم لاشتغال قلوبهم بأمور أممهم **(سلفت لهم)** وتقدمت منهم وقد غفرت، **(ليلقوا الله)**، بعد ابتلائهم وجعل مصائبهم مكفرة لما صدر عنه.

(طيبين) مبرئين من خبائث الذنوب ودنسها **(مهذبين)**، أى مخلصين مما يشينهم من التهذيب، وأصله تنقية الأشجار بقطع الأطراف التى تزيدها نموًا **(وليكون أجرهم)** أعظم عند الله و**(أكمل)** فإن ما يصيب المؤمن حتى الشوكة يؤجر عليه كما سيأتى.

(ثوابهم أوفر)، أى أكثر **(وأجزل)**، أى أعظم فيزيد كما وكيفا والأجر والثواب، بمعنى، وقد يفرق بينهما بأن الأجر ما كان فى مقابلة العمل كالأجرة، والثواب ما كان تفضلاً وإحسانًا من الله تعالى، ويستعمل كل منهما بمعنى الآخر، ثم إن المصنف، رحمه الله تعالى، استشهد على كونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أشد الناس بلاء بحديث، رواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، والحاكم، فقال: **(حدثنا القاضى أبو على الحافظ)** هو شيخه ابن سكرة، كما تقدم.

(قال: حدثنا) وفى نسخة أخبرنا **(أبو الحسين)** مصغرًا، وما فى بعض النسخ مكبرًا غير صواب، **(الصيرفى)** وقد تقدمت ترجمته، **(وأبو الفضل بن خيرون)** تقدم أيضًا.

(قالا: حدثنا أبو يعلى البغدادى) المعروف بزوج الحرة، كما تقدم، قال: **(حدثنا أبو على السنجى)** تقدم بيان نسبته، قال: **(حدثنا محمد بن محبوب)** راوى سنن الترمذى، كما تقدم.

قال: **(حدثنا أبو عيسى الترمذى)** صاحب السنن المشهورة، قال: **(حدثنا قتيبة)** بن سعيد كما تقدم، قال: **(حدثنا حماد بن زيد)** تقدم، وفى بعض نسخ الترمذى شريك بدل حماد، **(عن عاصم بن بهدلة)**، هو عاصم بن أبى النجود بن بهدلة مولى بنى أسيد، أحد القراء السبعة، قال الذهبى: هو ثقة فى الحديث والقراءات، توفى سنة ثمان وعشرين ومائة، وله ترجمة فى الميزان، وبهدلة بفتح الباء الموحدة، وسكون الهاء، وفتح الدال المهملة واللام، وبعدها هاء ساكنة اسم أمه، فيرسم بالألف ومعناه الخفة، وإسراع المشى، وعوام مصر تستعمله بمعنى الإهانة، فكأنه مجاز للزومه للخفة والنجود، بفتح النون، وضم الجيم، وسكون الواو وبعدها دال، وهى الحمارة الوحشية، التى لا تحمل ويقال هى: المشرفة، قيل: وكل عاصم فى المحدثين ردئ الحفظ، هذا استقراء من الذهبى، عن ابن القطان.

(عن معصب بن سعد، عن أبيه) هو سعد بن أبى وقاص مالك بن أهيب أحد العشرة المبشرة بالجنة، وهو ثقة، نزل بالكوفة، وتوفى سنة ثلاث عشر ومائة، وأخرج له الستة، **(قال)** سعد **(قلت: يا رسول الله، أى الناس أشد بلاء)** بأمراض وغيرها.

(قال الأنبياء) عليهم الصلاة والسلام، أشد الناس بلاء، **(ثم)** يليهم فى شدة البلاء، **(الأمثل فالأمثل)** الفاء للترتيب فى الشدة والأمثلية، بمعنى الأفضلية يقال: هو أمثل بنى فلان وأماثل القوم رؤساؤهم من المثالة، وهى الفضيلة قال العباس:

أبلغ لغير بنى شهاب كلهم   وذوى المثالة من بنى عتاب

وقال الراغب: الأمثل يعبر به عن الأشبه بالأفضل، والأقرب إلى الخير، وأماثل القوم خيارهم، قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ [طه: ١٠٤]، وطريقة مثلى حسنة، **(يبتلى الرجل على حسب دينه)** الدين هنا، بمعنى الطاعة، أى بقدر طاعته وتقواه قوة وضعفًا تكون بليته، فالأتقى أشد وأكثر بلاء.

(فما يبرح البلاء)، أى لا يزال نازلاً **(بالعبد)** المؤمن **(حتى يتركه يمشى على الأرض)** وهو كناية عن وجوده أو صحته، أى يصيره كذلك، فإن ترك يكون بمعناه كتركه جزرًا للسباع، وهو حقيقة أو مجاز من تركه بمعنى أبقاه كذلك.

(وما عليه خطيئة) ظاهره أن نفس الأمراض والمصائب تكفر السيئات، وأنها تكفر

الصغائر والكبائر لإطلاق هذا الحديث، وما جاء بمعناه، وقيل: إنما يكفر الصغائر ونفسها لا تكفر، وإنما يكفر الصبر عليها واحتسابها، وإليه ذهب ابن عبد السلام، وسيأتى بيانه.

(**وكما قال تعالى**)، كما يدل على ما دل عليه الحديث، (﴿**وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ**﴾ [آل عمران: ١٤٦] **الآيات**)، يعنى: ﴿**فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨]، ففى هذه الآيات ما يدل على ابتلاء الأنبياء وصبرهم وكثرة ثوابهم عليه، وكأين بمعنى كم، كما بينه النحاة، ومن نبى تمييز لها، والربيون جمع ربى منسوب إلى الرب، وفيه تغيير كتغييرات النسب وواحده ربى بكسر الراء، وقيل: إنه نسبة للربة بمعنى: الجماعة الكثيرة، ويجوز إسناد قتل للنبى.

وقال الحسن البصرى، وابن جبير: لم يقتل نبى فى حرب أصلاً، ووهنوا بمعنى فروا واستكانوا بمعنى ضعفوا، وأصله استكنوا واستكونوا من الكون، وهذا تعريض لما أصابهم من الإرجاف بقتل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأُحد وأنه لو كان حيا كان مثل ما وقع لغيرهم، وإنهم مع شدة جهادهم وصبرهم مذعنون بمغفرة ربهم، وإن لم يصدر منهم ذنب تواضعًا وخشية.

(**وعن أبى هريرة**)، رضى الله تعالى عنه، فى حديث رواه الترمذى وصححه (**ما زال البلاء**) واقعًا (**بالمؤمن فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله**) إذا مات أو حشر، (**وما عليه خطيئة**)؛ لأن ما أصابه يكفر سيئاته كبيرة كانت أو صغيرة كما تقدم.

(**وعن أنس**) بن مالك، رضى الله تعالى عنه (**عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم**) فى حديث رواه الترمذى أيضًا، وحسنه، وإسناد هذا للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يشعر بأن ما قبله موقوف إلا أن له حكم الرفع؛ لأن مثله لا يقال بالرأى (**إذا أراد الله بعبده الخير**) فى آخرته (**عجل له العقوبة فى الدنيا**) بما يبتليه به فيها مما يمحو عنه الذنوب (**وإذا أراد بعبده الشر**) فى عقباه (**أمسك عنه**) مصائب الدنيا استدراجًا له، فلا يعاقبه ويبتليه بل يتركه (**بذنبه**) والباء للملابسة ومفعول أمسك مقدر، أى البلايا بدفعها عنه (**حتى يوافى**) ربه ويلقاه (**به**) أى بذنبه (**يوم القيامة**) فيجازيه عليه إن لم يرد العفو عنه، ويوافى بفاء مكسورة مبنى للفاعل ومن فتحها وبناه للمجهول فقد تعسف.

(**وفى حديث آخر**) رواه الديلمى عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، (**إذا أحب الله**

عبده ابتلاه ليسمع تضرعه)، أي دعاءه متذللا له لمحبته لكلامه، ومراجعته والتضرع بمعنى الدعاء، ورد كثيرًا، وبه فسر؛ لأنه لازم فمن فسره بالتذلل والخضوع، وفسر يسمع بمعنى يعلم؛ لأنه غير مسموع لم يصب.

(وحكى السمرقندى) رحمه الله تعالى، **(أن كل من كان أكرم على الله)** وأحب إليه **(كان بلاؤه)** فى الدنيا **(أشد)** وأقوى من بلاء غيره فيها **(كى يتبين فضله)** فى الآخرة أو فى الدنيا لمن لم يصبره **(ويستوجب الثواب)** أى يستحقه تفضلا من الله لوعده به **(كما روى عن لقمان)** الحكيم **(أنه قال)** لابنه إذ وصاه **(يا بنى الذهب والفضة يختبران)** ببناء المجهول أى يعلم خلوصهما وعدمه إذا أذيبا **(بالنار)** علم هل فيهما خبث أم لا **(والمؤمن يختبر)** إيمانه وقوته **(بالبلاء)**، أى باصابته وصبره عليه وتضجره منه.

(وقد حكى أن ابتلاء يعقوب) بمفارقة **(بيوسف)** عليهما الصلاة والسلام وحزنه عليه **(كان سببه التفاته إليه)**، أى إلى يوسف **(فى صلاته ويوسف نائم)** عنده والتفاته **(محبة له)** منصوب أى لأجل محبته له، فلما قطع التوجه لله قطعه الله تعالى عنه بفرقته، وهذا رواه القرطبى فى تفسيره غير مسند **(وقيل بل)** سببه أن يعقوب **(اجتمع يوما هو وابنه يوسف على أكل حمل)**، بفتح الحاء المهملة، والميم، وهو الصغير من الضأن لسنة أو أقل **(مشوى وهما يضحكان)** جملة حالية.

(وكان لهم جار) صغير **(يتيم فشم ريحه)** أى رائحة الحمل المشوى **(واشتهاه)** أى أحب الأكل منه **(وبكى)** على عادة الأطفال إذا أرادوا ما ليس عندهم **(وبكت جدة له عجوز)** رحمة **(لبكائه وبينهما)**، أى بين يعقوب واليتيم **(جدار)** حائل بينهما **(ولا علم عند يعقوب وابنه)** يوسف، عليهما الصلاة والسلام، للحائل المانع عنه.

(فعوقب يعقوب) بسبب بكاء اليتيم والعجوز **(بالبكاء أسفًا)** تأسفًا وحزنًا **(على يوسف)** عليه الصلاة والسلام، لفقده **(إلى أن سالت)** خرجت **(حدقتاه)** الحدقة سواد العين وبياضها **(وابيضت عيناه من الحزن، فلما علم)** يعقوب ببكاء اليتيم وجدته **(كان بقية حياته)** منصوب على الظرفية، أى عمره كله بعد ذلك **(يأمر مناديًا ينادى)** بأعلى صوته **(على سطحه)** والنداء على المكان المرتفع يصل إلى بعيد منه ويقول فى ندائه:

(ألا من كان) من الناس كلهم **(مفطرًا)** غير صائم، **(فليتغد)** بدال مهملة مشددة من الغداء، وروى بمعجمة أيضًا **(عند آل يعقوب)**، أى أهل بيته وآل مقحم، أى عنده، وفى هذا الخبر، ومن كان صائمًا فليفطر عندهم **(وعوقب يوسف بالمحنة)**، أى البلية **(التى قص الله علينا)** فى القرآن من السجن وغيره، وحكى هذا عن المصنف الدميرى، رحمه الله

تعالى، فى حياة الحيوان، وقال: لا ينبغى له ذكره، فإنه لا صحة له، وإن رواه الطبرانى، عن أنس، عن شيخه ابن جهم الباهلى، وهو ضعيف الرواية جدًا، ورواه البيهقى فى الشعب، ومما يدل على عدم صحته، أن قوله: سالت حدقتاه لا أصل له، وأنه مع قوله: لا علم لهما كيف يصح أن يعاقبا على ما لم يعلما، كما أن قوله: ابيضت عيناه بعد قوله: سالت حدقتاه، كلام متناقض وجعله تفسيرًا للسيلان تعسف بارد، والصحيح إنه لم يعم، فإن العمى لا يجوز على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وفى الشرح الجديد هنا كلام طويل بغير طائل.

(**وروى عن الليث**) بن سعد الإمام، وقدتقدم، (**أن سبب بلاء أيوب**) عليه الصلاة والسلام، (**أنه دخل مع أهل قريته على ملكهم، فكلموه فى ظلمه**)، أى سببه (**فأغلظوا عليه**) بشدة لومهم له موعظة (**إلا أيوب**) عليه الصلاة والسلام، (**فإنه**) لم يغلظ عليه لأنه (**رفق به**)، أى كلمه برفق ولين رجاء أن يثمر كلامه لتجبره، كما قال تعالى لموسى، عليه السلام ﴿**فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا**﴾ [طه: ٤٤]، إلى آخره.

(**مخافة على زرعه**) الذى فى مملكته (**فعاقبه الله ببلائه**) الذى ابتلاه به من الأمراض، وهذا لا ينبغى أن يقال فى حق الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فليت المصنف، رحمه الله تعالى تركه (**ومحنة سليمان عليه الصلاة والسلام، لما ذكرناه**) فيما مر، وأن المحنة كالمصيبة، كما تقدم.

(**من نيته من كون الحق فى جنبة أصهاره**) بفتح الجيم، والنون وبسكونها أيضًا، وموحدة بمعنى الجانب والناحية، وفى نسخة: جهة، وفى أخرى حنة بنقطة فوق، وهو تحريف من الناسخ كما فى المقتفى.

قال الراغب: الصهر الختن، وأهل بيت المرأة يقال لهم: أصهار، كما قاله الخليل وكل محرم.

(أو) بليته إنما كانت (**للعمل بالمعصية فى داره ولا علم عنده**) بما صدر منهم من المعاصى بما افتراته اليهود من إنه عليه الصلاة والسلام، قتل ملكًا له بنت جميلة، تسمى جرادة، فكانت عنده وأسلمت، ثم كانت تبكى على أبيها، فأمر الشياطين أن يمثلوا لها صورة أبيها ففعلوا فكسته، وأعدت له بيتًا، فكانت تذهب إليه وتسجد لصورته، وهو لا يعلم واستمر ذلك مدة أربعين يومًا، فسلبه الله تعالى ملكه وابتلاه بما ابتلاه به.

وهو ما أشار إليه بالجواب الثانى، وقوله من كون الحق جواب آخر، وهو أن جرادة بنت صيدون الملك التى تزوجها سليمان، عليه الصلاة والسلام، وأحبها تخاصم عنده

ناس مع آخرين من أقارب امرأته، فحكم بالحق لغيرهم، وتمنى أن يكون الحق لهم، وهو وإن لم يكن حرامًا فى شرعنا وغيره، لكنه بالنسبة لمقامه يعد ذنبًا، وفى كتب القصص أسباب أخر لا ينبغى ذكرها.

(وهذه) الأمور المذكورة التى ابتلى بها الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ليزداد ثوابهم وغيره مما مر.

(فائدة شدة المرض والوجع) النازل **(بالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، فكان يوعك كما يوعك الرجلان كما **(قالت عائشة)** رضى الله تعالى عنها، فى حديث رواه الشيخان عنها: **(ما رأيت الوجع)** فى الأمراض **(على أحد)** من الناس **(أشد منه على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)** لما تقدم من حكمته **(وعن عبد الله)**، أى ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، لا ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، كما قيل: **(رأيت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى مرضه)** الذى كان يعرض له **(وهو)**، أى والحال إنه **(يوعك)** بضم أوله وفتح عينه المهملة المخففة.

(وعكا) بفتح العين وسكونها **(شديدًا)**، أى أشد ألمًا من غيره إذا أصابه مثله **(فقلت له)**: يا رسول له **(إنك لتوعك وعكًا شديدًا قال: أجل)** بفتحتين بمعنى: نعم، فهو جواب له، **(إنى أوعك كما يوعك)**، أى أحم كما يحم **(رجلان منكم)** أيها المسلمون أو الصحابة، أو الناس.

قال عبد الله بن مسعود: **(قلت ذلك)**، أى شدة وجعك، وكونه كوجع رجلين، **(أن)** بفتح وتشديد، أى لأن لك **(أجرك)** وفى نسخة الأجر **(مرتين)**، أى ليضاعف لك الثواب.

وفى رواية: أن لك أجرين **(قال: أجل)** نعم **(ذلك)** التضاعف **(كذلك)**، أى هو كما قلت، أمر محقق وجهه وحكمته كما مر، وأصل معنى الوعك الحر الشديد، ويراد به: الحمى وألمها وحرارتها، وقد يراد به المرض الخفيفة، والمراد الأول هنا، كما تقرر، وما ذكر لا ينافى ما مر من قول الملكين: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لو وزن بأهل الأرض رجح عليهم كما توهم؛ لأن ذلك فى الفضل والكمال وهذا فى العلة والمرض، فخروج زيادته عن الحد غير مناسب، فلا حاجة لما ارتكب فى الجواب عنه من التعسف الذى لا داعى له.

(وفى حديث) رواه ابن ماجه والحاكم عن **(أبى سعيد)** بن مالك بن سنان الخدرى، وقد تقدم، **(أن رجلاً وضع يده على)** جسد **(النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، كما

يفعله العواد للمريض ليعلموا حرارة جسده أشديدة هى أم لا؟ **(فقال: والله ما أطيق)**، أى ما أقدر ولا أستطيع مبالغة فى شدة حرارته **(أضع يدى عليك)** وأمس جسدك **(من شدة حماك)** بضم الحاء المهملة، وفتح الميم المشددة، أى حرارتها ويقال: حمى وحمة، والأفصح الأول.

(فقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، له: **(«إنا معشر الأنبياء»)** بنصب معشر على الاختصاص والمدح، كما بينه النحاة فى بابه، **(يضاعف لنا البلاء)**، أى يزاد وضعف الشيء مثله أو مثلاه على كلام فيه فى كتب اللغة **(إن كان النبى)** من الأنبياء المتقدمين بكسر الهمزة من أن المخففة من الثقيلة بشهادة اللام فى خبرها فى قوله: **(ليبتلى)** واسمها ضمير شأن مقدر **(بالقمل)** بفتح فسكون أو بضم فتشديد، وهو معروف **(حتى يقتله)**، أى يموت من شدة ألمه.

وفى سنن ابن ماجه: إن الرجل الذى وضع يده على جسد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو ابن سعيد أيضًا، والمصنف رحمه الله، رواه من طريق آخر لم يصرح فيها باسمه، فلا وجه للقول بأنه سبق من قلم الناسخ.

(وإن كان النبى) من الأنبياء **(ليبتلى بالفقر)** الشديد، وهو بحسب ظاهر حالهم، وإنما تركهم الدنيا زهدًا منهم، **(وإن كانوا)**، أى الأنبياء، وإن هذه كالتى قبلها، أى عادتهم وجبلتهم **(ليفرحون بالبلاء)**، أى يسرون بمصائب الدنيا لما يعلمون من أنها رفعة لقدرهم، وزيادة لأجرهم كما تقدم، فالبلاء بمعنى ما ابتلوا به فى الدنيا من الأمراض وغيرها.

(كما يفرحون) بالتحتية أو بتاء الخطاب **(بالرخاء)**، وهو سعة المعيشة، وحسن الحال والمراد به مقابل البلاء، وذلك لشدة يقينهم بربهم وعلمهم بما ادخره لهم فى مقابلة ما نزل بهم، وهذا بعد وقوعه فلا ينافى الدعاء بالعفو والعافية المعينة لهم على الطاعة والقيام بما أمروا به، ولكل مقام مقال، فلا تعارض بينهما، فإن الأمور بمقاصدها ولا ينافيه أيضًا ما مر، من إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان متواصل الأحزان كما تقدم.

(وعن أنس) بن مالك، رضى الله تعالى عنه، فى حديث رواه الترمذى وحسنه، **(إن عظم الجزاء)** أى الثواب **(مع عظم البلاء)** أى لا ينفك عنه مضاعفة، كما مر، وعظم بضم العين المهملة، وإسكان الظاء المعجمة أو بكسر ففتح، أى من كان بلاؤه أعظم كان جزاؤه أعظم عند ربه، **(وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم فمن رضى)** من الله عز وجل

بما ابتلاه الله تعالى به، **(فله الرضى)** من الله تعالى عنه بجزيل ثوابه.

(ومن سخط) أى كره قضاء الله ولم يرض به **(فله سخط)**، أى غضب الله تعالى عليه، وعقابه له، فإذا صبر ولم يجزع بما أصابه رضاء بقضائه كان ذلك له مثوبة وأجرًا، فلا يتوهم إنه ليس أمرًا اختياريًا له، فإن ما ذكر من الصبر وعدم الشكوى أمر اختيارى، أما حزنه من غير جزع ولا ضجر، فلا يضره كما فى الحديث: «إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع»(١).

(وقد قال المفسرون فى قوله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾) [النساء: ١٢٣]، عاجلاً وذلك **(إن المسلم يجزى بمصائب الدنيا فتكون كفارة له)** أى لذنوبه، إن كانت وزيادة فى ثواب غير المذنب.

(و) هذا التفسير يروى، عن أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، قال المصنف: إنه **(روى مثل هذا عن عائشة)** رضى الله تعالى عنها، وهو الذى رواه الحاكم **(و)** عن **(أبى و)** عن **(مجاهد)** أيضًا، **(وقال أبو هريرة)** رضى الله تعالى عنه، فى حديث رواه البخارى، **(عنه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**«من يرد الله به خيرًا يصب منه»**) روى ببناء الفاعل والمفعول، أى ينزل به مكروهًا ومصيبة فى الدنيا يثاب عليها.

واختلف فى أى الروايتين أرجح، فقال ابن الجوزى: الثانى، وقال ابن حجر: الأول، ولكل وجهة؛ لأن الأول فيه أدب لعدم إسناد المصائب لله، والثانى فيه تسليم بجعل كل شىء منه، وإليه وما ذكر فى الآية هو أحد وجهين فيها، فيكون فى حق المؤمنين وثوابهم على مصائبهم كما ورد فى الحديث، وقيل: إنها فى حق الكفار، ومعناها كمعنى قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧]، وهو مروى عن الحسن ويؤيده قوله بعدها، ﴿وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٢٣]، وتتمته فى كتب التفسير وشروح البخارى.

(وقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الشيخان، **(فى رواية عائشة)** رضى الله تعالى عنها، فيه **(ما من مصيبة تصيب المسلم)**، أى مصيبة كانت قليلة أو كثيرة، وفيه التجانس المغاير، إذ إحدى كلمتى المادة اسم والأخرى فعل، ومثله: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧] **(إلا يكفر الله بها عنه)** أى من ذنوبه أو يزيد بها فى حسناته.

(حتى الشوكة يشاكها) فى بدنه، فإنها مع قتلها يكفر بها عنه تفضلاً منه، والمصيبة

---

(١) أخرجه البخارى (٢/١٠٥)، وابن ماجه (٣٥٠٧)، وابن حبان (١٤٢٤)، والحاكم (٣/٤١٢)، والطبرانى (٧/١٨١).

واحدة المصائب كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر، وخصها العرف بالثانى، وقيل: الأول من صوب المطر، والثانى من إصابة السهم، وأجمعت العرب على همزة المصائب، وأصله الواو، وكأنهم شبهوا الأصلى بالزائد ويجمع على مصاوب وهو الأصل.

وقوله: «حتى الشوكة» يجوز جرها بحتى بمعنى إلى ورفعها على إنها ابتدائية، وجوز نصبها بمقدر، أى حتى تجد الشوكة وهو بعيد، ويشاكها بضم أوله، أى تدخل فى جلده بنفسها أو بإدخال الغير، أى يشوك غيره بها، ففيه وصل الفعل؛ لأن الأصل يشاك بها، وجوز بعضهم فتح ياء يشاك التحتية ونسب للجوهرى، ولا وجه له؛ لأنه مضارع شاك الرجل إذا كان له شوكة وقوة، وهو معنى آخر والشوكة معروفة، وهى فى غاية القلة وكونها بمعنى الجنب، وهو غاية فى الشدة تعسف، وروى: «إلا حط الله بها عنه خطيئة أو كتب له بها حسنة أو رفع له بها درجة».

واعلم: إن العز بن عبد السلام، قال: ظن بعض الجهلة أن المرء يؤجر على نفس المصائب، وليس كذلك، فإن الثواب، إنما يكون على ما يفعله باختياره، ولا دخل له فى ذلك، فثوابه إنما هو على صبره ورضائه بما قدره الله تعالى، وعدم شكايته.

ورده السخاوى: بأنه مخالف للنصوص من غير بيان لوجهه، وقال القرافى: لا يجوز أن يقال للمصاب جعل الله ذلك كفارة لك؛ لأن الشارع جعله كفارة فهو تحصيل للحاصل وسوء أدب.

وأنا أقول: ما قاله العز لا وجه له، ولا يليق منه، فإنه تعالى له أن يثيبه ابتداء، وأن يجعل ما اتفق له بغير فعله سببًا، لذلك، ومثله من خطاب الوضع، ألا ترى أن من قتل قتيلاً واستحق وارثه الدية حصل له نفع دنيوى بغير فعله، فهذا أيضًا مما جعله الله سببًا لثواب عبده المؤمن، رحمة له وتحنن عليه، كما ترى بعض كرام الناس إذا أذى أحدًا ينعم عليه جبرًا لخاطره، فكيف ينكر مثله من الله عز وجل، ويزيد فى ثوابه إذا صبر ورضى.

وفى كلام شيخ والدى ابن حجر الهيتمى نص الشافعى فى الأم بما يصرح بأن نفس المصيبة يثاب عليها، لتصريحه بأن كلاً من المجنون والمريض المغلوب على عقله مأجور مثاب يكفر عنه بالمرض، فحكم بالأجر مع انتفاء العقل المستلزم لانتفاء الصبر، وحمل النص على مريض صبر عند ابتداء مرضه، ثم استمر صبره إلى زوال عقله يرده أنه سوى بين المريض والمجنون فى الثواب، ومثل ذلك لا يتصور فى المجنون فالحمل المذكور غلط منشأه الغفلة عما ذكروه فى المجنون.

والحاصل: أن من أصيب وصبر حصل له ثوابان غير التكفير لنفس المصيبة وللصبر

عليها، ومثله كتابة مثل ما كان يعمله من الخير وغير ذلك مما ورد فى السنة، وأن من انتفى صبره، فإن كان لعذر كجنون، فهو كذلك، أو لنحو جزع لم يحصل من ذينك الثوابين شىء. انتهى ملخصًا.

وما قاله القرافى ليس بشىء أيضًا، فإنه قد تقصد الدعاء بما هو حاصل لزيادته أو تنبيه سامعه وغيره، ولو قيل بمثله لم تجز الصلاة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، والدعاء له بالوسيلة والدرجات العالية، وهى محققة له، وقد أمرنا بالدعاء بها كما تقرر فى محله.

(وقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الشيخان **(فى رواية أبى سعيد)** الخدرى، رضى الله عنه، **(ما يصيب المؤمن من نصب)** بفتحتين، أى تعب يناله من سعيه فى بعض أموره الجائزة له **(ولا وصب)** أى وجع أو لزومه أو فتور فى بدنه، وقد فسر بهذه فى اللغة **(ولا هم)** بفتح الهاء وتشديد الميم، وهو قريب من الغم معنى، وقد يفرق بينهما بأن الهم يكون لما لم يقع، والغم على ما وقع كما مر.

(ولا حزن) بفتحتين وبضم فسكون، وهما من أمراض الباطن، ولذلك ساغ عطفهما على الوصب **(ولا أذى)** يلحقه من تعدى الغير عليه **(ولا غم)** وأصله ما يمنع خروج النفس وأريد به ما ذكر **(حتى الشوكة يشاكها)** تقدم بيانه **(إلا كفر الله بها من خطاياه)** من زائدة أو تبعيضية، لأن بعضها لا يكفر بها كحقوق العباد **(وفى حديث ابن مسعود)**، رضى الله تعالى عنه الذى رواه الشيخان **(ما من مسلم يصيبه أذى)** أى أمر يؤذيه فى بدنه أو نفسه.

(إلا حات الله عنه خطاياه) بالحاء المهملة المفتوحة بعدها ألف وتاء مشددة، وأصله حاتت فأدغم وحات وحت، بمعنى أزال، يقال: حت المنى من الثوب إذا فركه ليزيله والورق تحات إذا تناثر وتساقط منه **(كما تحات)** وفى نسخة كما تحت **(ورق الشجر)** هو كناية عن إذهاب الخطايا فشبه سقوط ذنوبه بعفوها بتناثر أوراق الشجر منها.

وفى حديث عائشة، رضى الله تعالى عنها، عند الطبرانى فى الأوسط بسند جيد من وجه آخر: «ما ضرب على امرئ عرق إلا حط الله به عنه خطاياه وكتب له به حسنة، ورفع له درجة»[1].

وفى حديثها عند الإمام أحمد: أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، طرقه وجع

---

(١) أخرجه الحاكم (١/٣٤٧)، والدولابى فى الكنى (٢/١٦٧)، وابن أبى حاتم فى العلل (٢٠٦١).

فجعل يتقلب على فراشه ويشتكى، فقالت له: لو صنع هذا بعضنا لوجدت عليه؟ فقال: «إن الصالحين يشدد عليهم»(١)، الحديث.

وفى هذه الأحاديث بشرى عظيمة لكل مؤمن؛ لأن الأمى لا ينفك غالبًا من ألم بسبب مرض أو هم أو نحو ذلك.

(فائدة) الصبر يكون على ثلاثة أقسام، صبر على المعصية فلا يرتكبها، وصبر على الطاعة حتى يؤديها، وصبر على البلية فلا يشكو ربه فيها، وعن على، رضى الله تعالى عنه، من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك لغيره، وقيل: ذهبت عين الأحنف منذ أربعين سنة ما ذكرها، وقال شقيق البلخى: من شكى ما نزل به لغير الله لم يجد لطاعة الله فى قلبه حلاوة، وما أحسن قول ابن عطاء:

سأصبر كى ترضى وأتلف حسرة   وحسبى أن ترضى ويتلفنى صبرى

وسئل على، رضى الله تعالى عنه، أى خصال المؤمن خير؟ فقال: ما عانى امرؤ شيئًا أعظم من الصبر والرضى والتسليم للقضاء، فذلك خير دنيا وأخرى، وسئل أيضًا ما رأس العلم والعمل؟ فقال: الحلم والتواضع فمن تركهما كان علمه وبالا عليه، وأرشد من أنشد:

فو حقه لأسلمن لأمره   فى كل ضائقة وشد خناق
موسى وإبراهيم لما سلما   سلما من الإغراق والإحراق

(وحكمة أخرى) فى ابتلاء الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ونحوهم بالأمراض والمصائب **(أودعها الله تعالى)** أى جعلها لهم كالوديعة **(فى الأمراض)** المصيبة **(لأجسامهم)** دون بواطنهم وحواسهم **(وتعاقب الأوجاع عليها)** أى على أجسامهم بتكرارها ومجئ بعضها عقب بعض **(وشدتها)** عليهم كما مر.

(عند مماتهم) أى يبتليهم الله بذلك إذا قرب موتهم **(لتضعف قوى نفوسهم)** الروحانية بكثرة أمراضهم وشدتها، وإذا وقع هذا **(فيسهل خروجها)** أى خروج أرواحهم ومفارقتها لأبدانهم.

(عند قبضهم) أى قبض أرواحهم ووفاتهم، فإن ضعف البدن وقواه يعجز عن إمساكها فيسهل ذلك عليهم **(وتخف عليه مؤنة النزع)** أى إخراج الروح من البدن ومؤنة بميم مفتوحة وهمزة مضمومة قبل واو ونون.

(وشدة السكرات) يعنى سكرات الموت وغمرات شدائده، وما يلحق الميت من

---

(١) أخرجه أحمد (٦/١٦٠)، والحاكم (٤/٣١٩، ٣٣٠)، وابن حبان (٧٠٢).

الغشى الشبيه بالسكر فى غيبة الحس **(بتقدم المرض)** على الموت والاحتضار **(وضعف الجسم والنفس بذلك)** أى بسبب ذلك المذكور، ولو وقيت شق عليها وصعب، فكان أشد عليه **(بخلاف موت الفجأة)** بضم الفاء والمد وبفتحها والقصر، وهو الموت بغتة من غير مرض، يقال: فجأه الأمر يفجأ، إذا أتاه على غفلة منه.

(وأخذه) له دفعة من غير انتظار لأجل، فهو أشد عليه لشدة قواه المانعة عن تسليم الروح بسهولة، ولذا كرهه بعض العلماء كما يأتى قريبًا، وقال: إنه مذموم، وفى الحديث: «موت الفجأة أخذة أسف»[1]، أى غضب وقهر من الله، كما يأتى، وروى «آسف» بالمد اسم فاعل لكنهم قالوا: إنما يكره لعدم التأهب له بالوصية ونحوها، فمن لم يحتج لذلك يكون فى حقه رحمة، وهو الصحيح لحديث: «موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر»[2]، وبه جمع بينهما.

(كما يشاهد من اختلاف أحوال الموتى فى الشدة واللين والصعوبة والسهولة) عطف تفسير لما قبله، فبعضهم يعسر عليه ويشدد عليه وبعضهم يسهل عليه حالة النزع.

فإن قلت: إذا كان توالى الأمراض لتخفيف الموت وسكراته فكيف قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن للموت سكرات»[3] حتى ذكروا له حكمة، وكيف يكون موت الفجأة لبعض الكفرة والفجرة.

قلت: تألمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بسكرات موته لا ينافى أنها أخف من سكرات غيره، وموت الفجأة وإن لم يكن فيه سكرات أشد من غيره لكونه ككبر شجرة قوية كما تقرر بعد مع ما فيه من الموت على غضب.

(وقد قال، صلى الله تعالى عليه وسلم)، فى حديث رواه الشيخان عن كعب بن مالك وجابر، رضى الله تعالى عنهما **(: مثل المؤمن)** أى حاله وصفته العجيبة **(مثل خامة الزرع)** الخامة بخاء معجمة وميم العود اللين الذى ليس بغليظ والقصبة الطرية.

وقال الخليل: هى أول ما ينبت على ساق واحد وألفها منقلبة عن واو، ونقل عن الفراء إنها بحاء مهملة وفاء وفسرها بطاقة الزرع، وعن أحمد: «مثل المؤمن مثل السنبلة تستقيم مرة، وتنحنى أخرى»، وروى: «يحمر مرة، ويصفر أخرى».

(تفيئها الريح) بضم التاء الفوقية وكسر الفاء تليها مثناة تحتية ساكنة، ثم همزة،

(١) أخرجه أحمد (٤٢٤/٣، ٢١٩/٤)، وابن عدى (٦٤٩/٢).
(٢) أخرجه عبد الرزاق (٦٧٨١)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٤١٢/٢)، والبيهقى (٣٧٨/٣).
(٣) تقدم تخريجه.

والمشهور تشديد الياء التحتية، وروى بياء تحتية فى أوله، أى تميلها **(هكذا وهكذا)** أى للينها تميل يمينا وشمالاً ولا تنكسر، كما قال ابن خفاجة:

إنى وإن كنت هضبة جلدًا   اهتز للحسن قامة غصنا
كأننى غصن بانة خضل   تعطفه الريح هاهنا وهنا

(وفى) صحيح مسلم من **(رواية أبى هريرة)**، رضى الله تعالى عنه، **(من حيث)** أى من أى جانب **(أتتها الريح تكفاها)** بفتح أوله وثالثه وسكون ثانيه وهمزة، أى تصلها والمراد تمليها أيضًا **(فإذا سكنت)** الريح ولم تهب **(تعدلت)** أى انتصبت لأنها لا تنكسر للينها، وعدم غلظها، وفى نسخة: «اعتدلت».

(وكذلك المؤمن يكفأ) بضم فسكون وفتح وهمزة أى ينقلب من صحته لمرضه كثيرًا ثم يبرأ، فلاعتياده الأمراض لا تغنيه ويهلك **(بالبلاء)** من حيث أتاه وجه الشبه ظاهر، وفيه من البلاغة واللطف ما لا يخفى.

(ومثل الكافر) والفاجر العتل الغليظ **(كمثل الأرزة)** لا تزال قائمة حتى تتقصف، أى تنقصف من أصلها، والأرزة بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وزاء معجمة، وروى فتحها، وهو شجر الأرز المعروف، وقيل: هو الصنوبر، وقيل: إنه أرزة بالمد بزنة فاعلة وأنكره أبو عبيدة، رحمه الله تعالى، **(صماء)** أى صعبة شديدة اليبس والقوة **(معتدلة)** أى قائمة منتصبة لا تميل لغلظها ويبسها.

(حتى يقصمه الله) بقاف وصاد مهملة قبل الميم، أى يأخذه بغتة من غير تقدم بلاء والقصم بالقاف الكسر مع الإبانة، والفصم بفاء بدونها، وفى العقد لابن عبد ربه، قالت الحكماء: من تعرض للسلطان إزدراه، ومن تطامن له تخطاه وشبهوه فى ذلك بالريح العاصفة التى لا تضر مالان من الشجر، ومال معها من الحشيش، وأما ما استهدف لها من الدوح العظيم فقصفته، ولأبى تمام:

إن الرياح إذا ما أعصفت قصمت   عيدان نجد ولم يعبأن بالرتم
بنات نعش ونعش لا كسوف لها   والشمس والبدر منه الدهر فى الرقم

وفى كليلة ودمنة:

الريح لا تقلع عودًا نابتًا   وتقلع الدوح العظيم الثابتا

(معناه) أى هذا الحديث: **(أن المؤمن مرزأ)** بالتشديد والهمز، أى لا يزال تصيبه الرزايا، وهو من رزأ الشىء إذا نقصه **(مصاب بالبلاء)** بالمد أى تنزل به المصائب

(والأمراض راض بتصريفه) أى بتغيير أحواله، وقيل: بتصريف الله فيه وله، وتقلبه **(بين أقدار الله)** التى قدرها الله عليه من صحة ومرض وغيره.

(منطاع لذلك) أى منقاد مذعن مطيع مسلم، وأتى بصيغة الانفعال بالنون للدلالة على أنه مطاوع **(لين الجانب برضاه)** أى لين جانبه يقبل كل ما يرضاه الله كالشىء اللين الذى ينطبع بكل ما يختم به كما قيل:

إن المحب لمن يحب مطيع

ووقع هنا فى بعض الشروح برمضاه بميم بعد الراء من رمض النار وحرارتها، أى ما يصيبه من آلام يزيده لينا، لكن قوله بعده: **(وقلة سخطه)** يقتضى الأول ويأباه، وأظنه من تحريف الناسخ **(كطاعة خامة الزرع وانقيادها للرياح)** عطف تفسير **(وتمايلها)** من غير أن تنكسر **(لهبوبها وترنحها)** براء وحاء مهملتين بينهما نون من ترنح السكران إذا تمايل، وفيه كلام فى شرح مقامات الزمخشرى.

(من حيث ما أتتها) أى من أى جهة كانت جنوبًا وشمالاً للينها **(فإذا أزاح الله)** عز وجل بزاء معجمة، أى أزال **(عن المؤمن رياح البلايا)** استعارة مفسرة لما فى الحديث كأنه لما شبهه بالخامة شبه ما يطؤ عليه بالرياح المعتورة عليه تميله هنا وهنا **(فاعتدل)** أى برأ من مرض ونحوه شبه صحته باعتدال الخامة إذا سكنت الريح، وإليه أشار بقوله: **(صحيحًا)** وهو حال أو تمييز.

(كما اعتدلت خامة الزرع عند سكون رياح الجو) بفتح الجيم وتشديد الواو، وهو ما بين السماء والأرض من مهب الرياح، وأصل معناه الداخل من كل شىء، ومنه الجوانى مقابل البرانى **(رجع)** أى المؤمن **(إلى شكر ربه)** على ما أنعم به عليه من السلامة **(ومعرفة نعمه)** إذا أنعم **(عليه)** بالخلاص مما يكره ويخشى.

(برفع بلائه) عنه ونجاته عنه **(منتظرًا رحمته)** له راجيًا إحسانه **(وثوابه عليه)** أى على ما ابتلاه ووفقه لشكره وصبره لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

(فإذا كان) المؤمن **(بهذه السبيل)** أى على هذه الحالة من إصابته بالبلايا والأمراض **(ولم يصعب)** ويشق **(عليه مرض الموت)** أى المرض الذى كان سبب موته منه لائتلافه بالأمراض المتوالية عليه **(ولا نزوله)** أى حلول الموت به **(ولا اشتدت عليه سكراته ولنزعه)** أى نزع الروح منه عند الموت لضعف قوة نفسه الدافعة له، وهذا لا ينافى ما

تقدم فى حق الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، من أنهم أشد الناس بلاء لأنه فى حالة أخرى، وهى نزول المصائب بهم قبل حضور الموت.

(لعادته) أى اعتياده **(بما تقدمه من الآلام)** ومقاساتها **(ومعرفة ما له فيها)** أى المصائب التى تصيبه قبل موته **(من الأجر)** والثواب فإنه لعلمه بذلك تهون **(وتوطينه نفسه على المصائب إذا أصابته)** أى اطمئنان نفسه لها لعلمه بأنه لابد له منها، فيرضى ولا ينزعج ويقلق، فالتوطين أصله اتخاذ الوطن، ثم تجوز به عن عدم القلق والضجر، قال(١):

ولا خير فيمن لا يوطن نفسه   على نائبات الدهر حين تنوب

(و) على **(رقتها وضعفها)** الضمير للنفس والرقة براء مهملة وقاف مشددة المراد بها الضعف، فهو عطف تفسير ويجوز عود الضمائر للمصائب أيضًا **(بتوالى المرض)** أى دوامه أو تكرره **(أو شدته)** أى قوته وألمه فهذا حال المؤمن فى حياته **(والكافر)** حاله **(بخلاف هذا)** الحال الذى اعتاده المؤمن فهو **(معافا)** من الأمراض والبلايا.

(فى غالب حاله) أى فى حاله الغالب عليه، وأكثر أوقاته **(ممتع)** أى منتفع ومنعم عليه ظاهرًا **(بصحة جسمه)** لعدم ابتلائه بالأمراض استدراجًا له حتى يغفل عن آخرته **(كالأرزة الصماء)** أى القوية التى هى غير مجوفة ولا يزال كذلك **(حتى إذا أراد الله هلاكه)** بحضور أجله وانقراض عمره **(قصمه)** أى كسره **(لحينه)** أى لوقته الذى حضر فيه أجله **(على غرة)** بكسر أوله، وهو الغين المعجمة، وراء مهملة مشددة وتاء تأنيث، أى على غفلة، وفى الأساس لم يزل يطلب غرته حتى أصابها، أى يترقب غفلته ليهجم عليه، ويتمكن منه.

(وأخذه بغتة) وفجأة **(من غير لطف ولا رفق)** به بل بشدة وعنف تضربه الملائكة، **(فكان موته أشد عليه حسرة)** تمييز وذلك لعدم تأهبه له **(ومقاساة نزعه)**، أى نزع روحه منه وقبضها **(مع قوة نفسه وصحة جسمه)** لعدم ما يعتريه من الأسقام والآلام **(أشد ألمًا وعذابًا)** له فى الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ﴾ [طه: ١٢٧]، عليه مما قاساه فى الدنيا فى حال نزعه **(كانجعاف الأرزة)** هو انفعال من الجعف بجيم وعين مهملة وفاء، وهو القلع بشدة، وفى نسخة بتقديم العين على الجيم.

(وكما قال الله تعالى) فى حق الكفار ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥]، أى غافلون لاشتغالهم بأمور دنياهم وعدم ما ينبههم على عاقبتهم **(وكذلك عادة**

---

(١) البيت من الطويل، وهو لضابئ البرجمى فى الأصمعيات (ص١٨٤)، ولسان العرب (١٢٥/٥)، وبلا نسبة فى أساس البلاغة (٥١٥/٢).

الله فى أعدائه) من القوم الكفرة جارية على أخذهم بغتة.

(كما قال) الله عز وجل ﴿**فَكُلًّا**﴾ من القوم الكفرة ﴿**أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا**﴾ [العنكبوت: ٤٠]، أى أنزلنا ﴿**عَلَيْهِ حَاصِبًا**﴾ وهم قوم لوط، عليه الصلاة والسلام، والحاصب ريح تأتى بالحصباء، وهى حجارة، كما قال تعالى: ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ**﴾ [هود: ٨٢]، وخسف أرضهم كما بينه المفسرون.

﴿**وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ**﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وهو قوم صالح، وشعيب، عليهما الصلاة والسلام، أتتهم صيحة وأصوات هائلة وصواعق فأهلكتهم، **(الآية)** ﴿**وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا**﴾ **(ففجأ جميعهم)** ماض بمعنى: آتاهم فجأة **(بالموت على حال عتو)** بضم العين المهملة ومثناة فوقية وواو مشددة، أى تكبر وتمرد وتجبر منهم، **(وغفلة)** عما حل بهم **(وصبحهم)** أى أتاهم فى الصباح **(به)** أى بالهلاك **(على غير استعداد)** أى تهيؤ لما سيحل بهم لاستدراجهم.

(بغتة ولهذا) للأمر الذى يأتى غفلة وكونه من شأن الكفرة **(ذكر عن السلف)** من العلماء والصالحين **(أنهم كانوا يكرهون موت الفجأة)** لمجيئه على غير استعداد له بوصية ونحوها من المرض المكفر للذنوب، وفى نسخة: ولهذا ما كره السلف موت الفجأة ومما يؤيد صحة الأولى:

قوله: **(ومنه)** أى مما ذكر عن السلف ما روى **(فى حديث إبراهيم)** وهو النخعى كما فى النهاية، وقد تقدمت ترجمته **(كانوا يكرهون أخذة كأخذة الأسف أى الغضب)** لأن من غضب على أحد يأخذه بغتة بعنف وموت الفجأة يشبهه **(يريد)** بأخذة الأسف **(موت الفجأة)** كما تقدم، وتقدم أنه ليس على إطلاقه، وأنه قد يكون راحة للمؤمن **(وحكمة ثالثة)** من مصائب الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، والصالحين **(أن الأمراض نذير الموت)** بنون وذال معجمة، أى منذرة به ومنبهة لمن يحل به، وفى نسخة: نذير الممات، وفى أخرى: بريد بموحدة وراء ودال مهملتين بينهما مثناة تحتية ساكنة، أى رسول يجىء من الموت يخبر بأنه سيقدم، وهو استعارة حسنة، والبريد فارسى معرب بريده دم، أى بغلى مقطوع الذنب، كان يعد فى المنازل لرسل الملوك، وما قيل: من أنه لو قال: ينذر بالموت كان أحسن ليس بشىء.

(وبقدر شدتها)، أى شدة الأمراض **(شدة الخوف من نزول الموت)** لإنذارها بما هو أشد منها **(فيستعد من أصابته)** الأمراض أى يتهيأ بالأعمال الصالحة، وزهده فى الدنيا الفانية، **(وعلم تعاهدها له)** أى مجيئها مرة بعد أخرى، يقال: صديقى من يتعاهدنى

بسؤاله عنى وبره لى، كأنه يذكر عهدًا بينه وبينه، وفيه استعارة لطيفة، كما قال بعض العرب:

إذا الرجال كبرت أولادها وجعلت أمراضها تعتادها
فتلك زرع قد دنا حصادها

(**للقاء ربه**) عز وجل ولقاء الله تعالى كناية عن الانتقال للدار الآخرة والموت، (**ويعرض عن دار الدنيا**) بترك أمورها (**الكثيرة الأنكاد**) جمع نكد وهو ما يغم المرء ويسوءه، وهو من شأنها ولا راحة لمؤمن فيها، وفى القاموس: النكد الضيق والشدة.

(**ويكون قلبه**) أى فكره (**معلقًا**)، أى مشغولاً مهتمًا (**بالمعاد**)، أى الآخرة وما بعد الموت وتعلق القلب عبارة عن كثرة الشغل والتقييد (**فيتنصل**) بنون وصاد مهملة، أى يخرج (**عن كل ما يخشى**) ويخاف (**تباعته**) بكسر التاء الفوقية، والذى فى الصحاح فتحها، وهو التبعة، وما يترتب على الأمر ويعقبه من المؤاخذات والضرر (**من قبل الله**) أى حقوقه التى هى من جانبه.

(و) من (**قبل العباد**) أى حقوقهم، فيخرج عن عهدتها بأدائها لئلا يعاقب عليها (**ويؤدى الحقوق**) التى فى ذمته (**إلى أهلها**)، أى أصحابها بإيصالها لهم وإيتاء كل ذى حق حقه، (**وينظر**)، أى يتفكر ويتدبر (**فيما يحتاج إليه من وصية، فيمن خلفه**) فعل ماض أو ظرف بسكون اللام، أى ما بقى بعده من مال وولد ونحوه، وفى نسخة: فيمن يخلفه (**أو**) ينظر فى (**أمر يعهده**) أى يعرفه فيوصى به كالدين، أو يعاهد ورثته عليه، وهذا قلما يخلو منه أحد، وما قيل: من أنه إنما يليق بأهل الدنيا الغافلين، وأما الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فهم غير محتاجين لمثله ليس بشىء، ولو سلم فهو بالنسبة لبعض المؤمنين ويؤيد الأول، قوله: (**وهذا نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**) إشارة لما فى أول سورة الفتح، أى لو كان منك ذنب سابق، أو يكون فهو مغفور لا تؤاخذ به، أو ما يعد ذنبًا من مثلك مغفور لك، وفى الآية كلام فى كتب التفسير مشهور، ومر أنها نزلت عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى مرجعه من الحديبية بعد بيعة الشجرة وما وقع فيها.

(**قد طلب التنصل**) أى التخلص والخروج من عهدة ما فى ذمته (**فى مرضه**)، أى مرض موته وعده فى مرضه لقربه؛ ثم لأنه كما تقدم وقع فى خطبة خطبها قبل مرضه بأيام قليلة (**ممن كان له عليه مال أو حق فى بدن**) كضرب وقع منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لبعض أصحابه نحو عكاشة والأعرابى، وتقدمت قصتهما (**وأقاد من نفسه وماله**)

أى مكن من له حق فى بدنه من القود منه يفعل مثل ما فعل **(وأمكن من القصاص منه)**، وإن لم يكن عليه حق فى نفس الأمر كما بيناه.

(على ما ورد فى حديث) مروى عن **(الفضل)** بن العباس، رضى الله تعالى عنهما، عمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ضرب أعرابيًا بقضيبه، فلما خطب الناس، وقال: «من كان له علىَّ حق، فليطلبه»(١)، فقام الأعرابى: وقال: يا رسول الله القصاص، فلما كشف له بطنه الشريف ألتزمه، وقبله، وقال: إنما أردت هذا.

(و) كما ورد فى السير **(فى حديث الوفاة)**، أى وفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنهم رووا فيه: أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قبيله استحل الناس فيما لهم عليه من الحقوق كما مر.

وما قيل من أن هذا ليس فى موقعه؛ لأن التنصل من الحقوق مطلوب من أدنى المؤمنين، فكيف بأعلاهم عند وفاته ناشئ من عدم الفهم؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يكن لأمته عليه ما يجب عليه التنصل منه، ولو كان فهو مغفور، ومع ذلك تنصل منه رعاية لظاهر الحال، ورعاية للمؤمنين وهذه أعلى المراتب **(وأوصى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى مرض موته **(بالثقلين بعده)** وقوله: **(كتاب الله وعترته)** بدل من الثقلين، أو عطف بيان مبين للمراد بهما، والثقلين تثنية ثقل، وهو ما يثقل من الثقل ضد الخفة وهما الإنس والجن، فسماهما ثقلين تعظيمًا، وإن عمارة الدنيا بهما كما تعمر بالإنس والجن ولرجحان قدرهما؛ لأن الرجحان فى الميزان يثقل ما فيها، أو لأنه يثقل رعاية حقوقهما، والعترة بمثناة فوقية الأقارب الأدنون وأهل البيت، واختلف فى المراد بهم، فقيل: من تحرم عليه الزكاة، وقيل: بنو عبد المطلب وقيل غير ذلك، وحديث الوصية، رواه مسلم وفيه: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، خطبهم، وقال: «أيها الناس، إنما أنا بشر مثلكم يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيبه، وإنى تارك فيكم الثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فتمسكوا به، وحث على ذلك، ثم قال: وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ثلاثًا»(٢)، والكلام عليه مستوفى فى شروحه.

(و) أوصى **(بالأنصار عيبته)** والعيبة بعين مهملة مفتوحة وياء ساكنة وموحدة ما يجعل المرء فيه نفيس متاعه، وفى حديث البخارى: «الأنصار كرشى وعيبتى»، ولما كان الكرش مقرًا للغذاء من الحيوان كالمعدة للإنسان تجوز به عن موضع أسراره التى تخفى

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وعبر بالعيبة مقر ما يظهر من مهماته، وهو أبلغ كلام وأوجزه الذى يسبق إليه كما قاله ابن دريد، وقد تقدم الكلام عليه مبسوطًا وهذا أيضًا، مما قاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى خطبته التى لم يخطب بعدها وبقيته: «وقد قضوا الذى عليهم وبقى الذى لهم فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا من مسيئهم».

(**ودعا**) أى طلب، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الصحابة فى مرض موته (**إلى كتب كتاب لئلا تضل أمته بعده**) كما تقدم بيانه وما فيه وأنه (**إما فى النص على الخلافة**) لمن هى بعده، وهو الأصح كما مر.

(**أو ما الله أعلم بمراده**) الذى أراد أن يكتب (**ثم رأى**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، رأيًا جزم به، وهو (**الإمساك عنه**) وتركه (**أفضل وخيرًا**) من كتابته لا أنهم خالفوه وامتنعوا عما أراده كما تقدم تفصيله.

(**وهكذا**)، أى مثل ما وقع له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى آخر عمره من التنصل والوصية (**سيرة عباد الله المؤمنين وأوليائه المتقين**) أى دأبهم وطريقتهم أن يتنصلوا من الحقوق ويوصوا عند الموت تأسيًا به، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**وهذا**) المذكور (**كله**) مما يفعل عند حلول الأجل (**يحرمه غالبًا الكفار**) وقد يقع لبعضهم ولا يفيدهم شيئًا، وإنما حرموا هذا (**لإملاء الله**) أى إمهاله (**لهم**) حتى تنصرم أعمارهم، وإنما أملى لهم.

(**ليزدادوا إثمًا**) بكفرهم ومعاصيهم وغفلتهم عن حقوق الله وحقوق عباده، (**واستدراجهم**)، أى تقريبهم من الهلاك درجة بعد درجة، ﴿مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]، لغفلتهم بما هم مشغولون به من أمور الدنيا، منهمكين فى غيهم متقلبين فى نعم الله الدنيوية التى توهموا استحقاقها، وإنما هى لقطع معذرتهم ومزيد عذابهم بالكفر، وكفران النعم حتى يأخذهم بغتة على غرة كما (**قال الله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ الآية**) [يس: ٤٩]، ﴿وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [يس: ٤٩، ٥٠].

والمراد بالصيحة: النفخة فى الصور الأولى، والأخذ الإهلاك بغتة ﴿وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾، يعنى يختصمون فى معاملاتهم، وقد ورد أن الساعة تقوم على الناس وهم فى الأسواق وهم يتعاملون، ويخصمون بفتح الخاء المعجمة، وفيه كلام طويل فى كتب القراءات والعربية.

(**ولذلك**) أى لكون عادة الأتقياء التنصل من الحقوق والوصية عند الموت، (**قال، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، فى حديث تقدم.

وروى عن أنس، رضى الله تعالى عنه، **(فى رجل مات فجأة سبحان الله)** المقصود منها التعجب كما تقدم بيانه، والتعجب من موته فجأة، **(كأنه)** مات **(على غضب)** من الله تعالى، ثم أشار إلى أن المراد بالغضب عليه أنه محروم من الثواب، ولطف العزيز الوهاب فقال: **(المحروم من حرم وصيته)**، فإنها مستحبة، وذهب بعضهم إلى وجوبها وقيل: إنها كانت واجبة أولا لقوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ**﴾ [البقرة: ١٨٠]، إلى آخرها، ثم نسخت.

(وقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث صحيح رواه أحمد عن عائشة، رضى الله عنها، **(موت الفجأة راحة للمؤمن)** الذى ليس عليه تبعة يحتاج الوصية بها لراحته من سكرات الموت **(وأخذة أسف)** بغير مد بمعنى غضب وبه بمعنى غضبان، ومنه ﴿**فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ**﴾ [الزخرف: ٥٥] **(للكافر أو الفاجر)** أى المنهمك فى المعاصى وأو للشك من الراوى وجوز بعضهم كونها من الحديث، والمراد بالفاجر المنافق فتأمل.

(وذلك)، أى كون موت الفجأة كذلك **(لأن الموت يأتى المؤمن وهو غالبًا)** أى فى أكثر أحواله وأوقاته أو غالب المؤمنين يأتيه الموت كونه **(مستعدٌ له)**، أى متهيئًا لأعماله الصالحة ووصيته وتنصله **(منتظرٌ لحلوله)** به غير غافل عنه.

وفى نسخة: برفعهما **(فهان أمره)**، أى الموت **(عليه كيف ما جاءه)**، أى فى حال حل به **(وأفضى)** أى أوصل **(إلى راحته من نصب)** وتعب **(الدنيا)**، ولو ترك واو وأفضى كان أوضح، **(وأذاها)**من أنكادها وأكدارها قيل:

خلقت على كدر وأنت تريدها صفوا من الأقذاء والأكدار

(كما قال عليه الصلاة والسلام)، فى حديث رواه الشيخان عن أبى قتادة، رضى الله تعالى عنه، فى جنازة مرت به، فقال تقسيمًا للموتى عند موتهم أن منهم **(مستريح)**، من أذى الدنيا وتعبها إذ لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه.

(و) منهم من هو **(مستراح منه)** أى يستريح من ظلمه وأذاه العباد والبلاد والشجر، والدواب، وقد ورد تفسير النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، له بهذا أو بشآمته، قد يمنع القطر ويحل البلاء، **(وتأتى الكافر والفاجر منيته على غير استعداد)** لها والمنية الموت من منى، بمعنى قدر؛ لأنها مقدرة فى وقت مخصوص **(ولا أهبة)** بضم الهمزة بمعنى التأهب والاستعداد.

(ولا مقدمات) بفتح الدال وكسرها من قدم بمعنى تقدم، أو من المتعدى وهو قدمه، أى ما تقدمه من أمراض ونحوها، **(منذرة)** من الإنذار وهو الإعلام بما يخاف منه

(مزعجة)، أى محركة على تدارك ما يلزمه ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ [الأنبياء: ٤٠]، وفجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾، أى تدهشهم وتذهب عقولهم لحيرتهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ بدفعها ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، أى لا يمهلون بعد مجيئها ولا يؤخرون ساعة بعد إمهالهم الأول، وهو اقتباس من الآية.

(فكان الموت أشدشيء عليه) لذلك **(وفراق الدنيا أفظع)** بظاء معجمة وعين مهملة، أى أشق وأكره وأشنع، **(أمر صدمه)** أصابه بشدة وهو غافل عنه **(وأكره شيء له)**؛ لأنه كما ورد أيضًا: أن المؤمن إذا مات كان كالغائب يقدم على أهله يسرهم قدومه وغيره كالعبد الآبق يرد على سيده، **(وإلى هذا المعنى)** المذكور.

(أشار) صلى الله تعالى عليه وسلم **(بقوله)** فى حديث رواه الشيخان، عن عبادة بن الصامت، رضى الله تعالى عنه، **(من أحب لقاء الله)** بقدومه عليه عند موته **(أحب الله لقاءه)** بإكرامه له فى جواره للملأ الأعلى **(ومن كره لقاء الله)** بسخطه وعدم رضاه بقبض روحه **(كره الله لقاءه)**؛ لأنه كفر نعمته وعصاه، ومن فيه شرطية أو موصولة ويؤيده رواية: «إذا أحب الله» إلى آخره، واحتمال الظرفية خلاف الظاهر، وعلى الشرطية.

قال الكرمانى: يحتاج للتأويل؛ لأن الشرط ليس سببًا للجزاء، فالمعنى أخبر، وأعلم بمحبة لقائه إذ محبة الله قديمة سابقة، فالمراد ظهورها لنا، وهو كلام حسن لا يرد عليه شيء، مما قاله ابن حجر، وأقام الظاهر مقام الضمير تنويهًا لشأنه ومشاكلة.

(تتمة) اعلم أن العز بن عبد السلام، قال فى كتاب فوائد المصائب: إن لها فوائد تختلف باختلاف الناس كمعرفة الربوبية وقهرها، ومعرفة العبودية وذلها، وإليه أشار بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٦]، إلى آخرها، أى اعترفوا بأنهم عبيده وملكه ومرجعهم لحكمه وقضائه لا محيد لهم عنه، ومنها الإخلاص لله إذا لا يكشفها إلا هو كما قال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٧]، إلا هو والتضرع، والدعاء، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا﴾ [يونس: ١٢]، ويبين الصبر والحلم، والعفو عمن جناها والفرح بها لاعتياد الثواب والشكر على العافية، ومحو السيئات بها ورحمة المصاب بها غيره، ومعرفة قدر النعمة الزائلة عنه، وترقب منافع خفية بها كما قيل: نعمة مطوية كدفين أثناء المصائب ومنعها من التكبر والخيلاء، والرضى، بما قدره الله، فلذا كان أشد الناس بلاء الأمثل فالأمثل إلى آخر ما فصله.

* * *

(القسم الرابع)

[فى تصريف وجوه الأحكام فيمن تنقصه أو سبه]

من هذا الكتاب (**فى تصريف وجوه الأحكام**) وفى نسخة: تصرف، والمراد بيان وجوهها وسبب الاختلاف فيها الذى أوجب تغييرها من قول إلى آخر، (**فيمن تنقصه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، بذكر ما فيه تحقير له وغض من على مقامه (**أو سبه**) أى بذكر ما فيه سب وشتم له صلى الله تعالى عليه وسلم (**قال القاضى أبو الفضل**) عياض المصنف، رحمه الله (**قد تقدم**) فى هذا الكتاب (**من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ما يجب من الحقوق للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم**)، أى التى يستحقها لذاته (**وما يتعين له**) على أمته بل الناس كافة، (**من بر**)، أى إحسان قول وفعل يتعلق به صلى الله تعالى عليه وسلم.

(**وتوقير**) أى تعظيم وتبجيل (**وتعظيم وإكرام**) لاحترام مقامه (**بحسب هذا**) بفتح السين، أى بمقدار اعتبار ما يجب ويتعين له (**حرم الله أذاه فى كتابه**) كما سيأتى بيانه، وهذه قرينتها، (**وأجمعت الأمة على قتل متنقصه وسابه من المسلمين**) وقيده بالمسلمين لاختلافهم فى الفاعل لذلك من الكفار هل يقتل أو ينتقض عهده، ويبلغ مأمنه، ويأتى ذلك مبسوطًا فى فصل معقود له، وقد قيل: إن فى دعواه الإجماع فى المسلم نظر؛ لأن مذهب الشافعى أن من تنقصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بغير قذف من المسلمين، وكذا سائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، يستتاب، فإن تاب لم يقتل، ومن قذفه فيه خلاف أيضًا، فقيل: يقتل؛ لأن حد قاذف الأنبياء القتل، فلا يستتاب، وقيل: إن تاب فورًا وأسلم بعد الردة، فيحد حد القذف، ولا يقتل كما حكى عن كثير منهم، فلا ينبغى دعوى الإجماع فيه إلا أن يريد إجماع أهل مذهبه من المالكية، أو عدم الاعتداد بالمخالف فيه، وأقول: إن مراده الإجماع على وجود موجب القتل فيه لكفره، وردته، فإن تاب وقبلت توبته خرج عما استوجبه الإجماع، ولو صرح به كان أظهر، إلا أن هذه العبارة عبر بها السلف كلهم، كما نقله السبكى فى كتابه السيف المسلول على من سب الرسول.

وأشار إلى أن الإجماع على كفره، وردته الموجبة لقتله إجماعًا، وإن عرض ما يمنعه بعده، وقال: إنه لم يخالفه فيه أحد إلا ابن حزم، القائل بعدم كفر من استخف به، صلى

الله تعالى عليه وسلم، ولم يتبعه أحد عليه، ولا عبرة به، فالمعترض لم يقف على مراد القاضى، رحمه الله تعالى، ولم يفرق بين الوجوب والوقوع، وسيأتى إن شاء الله تعالى بيانه، ثم ذكر ما يؤيد ما قاله من الآيات فقال: (**قال الله تعالى:** ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا**﴾) [الأحزاب: ٥٧]، وفيه استئناس لما ذكره؛ لأن من لعن فى الدنيا والآخرة، وأعد له العذاب، لا يكون إلا كافرًا وقرن أذيته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأذيته تعالى؛ للدلالة على أن من آذى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقد آذى الله، فما قيل من أنه لا يدل على مدعاه من الإجماع كلام ناشئ من عدم العلم بمراده.

(**وقال تعالى:** ﴿**وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾) [التوبة: ٦١]، يعنى فى الدنيا بالقتل، وفى الآخرة بخلود العذاب، (**وقال تعالى:** ﴿**وَمَا كَانَ لَكُمْ**﴾)، أى لا يجوز، ولا يصح كما مر، ﴿**تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ**﴾ [الأحزاب: ٥٣]، بكل ما يكرهه قولاً وفعلاً.

﴿**وَلَآ**﴾ كان لكم ﴿**أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ**﴾ [الأحزاب: ٥٣]، أى بعد موته ﴿**أَبَدًا**﴾ فحرمتهن عليهم مؤبدة لأنهن أمهات المؤمنين، ﴿**إِنَّ ذَٰلِكُمْ**﴾، المذكور من الأذية والنكاح، ﴿**كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٥٣]، لقبحه ومنعه شرعًا واستحقاق فاعله الخزى فى الدنيا والآخرة.

(**وقال تعالى فى تحريم التعريض له، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، بما يؤذيه من غير تصريح به، ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟**﴾ [البقرة: ١٠٤]، الآية، وذكر ما يدل على المنع عن التعريض بعد ما يكون صريحًا ترتيب حسن، فالنهى عن أذيته صلى الله تعالى عليه وسلم صريحًا وتعريضًا فيه دلالة على ما ادعاه بالطريق الأولى، والأقوى فالاعتراض بأنه غير دال على ما ادعاه لا وجه له غير قلة التدبر.

وأراد المصنف، رحمه الله تعالى، بالتعريض الإبهام والتورية بما يوهم ذلك، وذلك أن المؤمنين كانوا يقولون لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا كلمهم بما لا يدرون راعنا جانبنا، وتمهل علينا حتى نفهم ما تقول، فلما سمعهم اليهود يقولون ذلك انتهزوا الفرصة فى تنقيص مقام النبوة، فكانوا يقولون له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك بقصد سبه: أما لأنها كلمة سب بلغتهم بالعبرانية أو يقصدون بها وصفه بالرعونة، وهى الحمق فتفطن لذلك بعض الصحابة فقال لهم: لئن لم تنتهوا عن مخاطبته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بهذا لأخبرنه بما قصدتم فقالوا: ألستم تقولونها، فأنزل الله هذه الآية، نهيًا

للمؤمنين أن يقولوا ما يتوصل به اليهود لسبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما أشار إليه المصنف، رحمه الله تعالى، بقوله: **(وذلك)** المذكور من التعريض وجهه، **(أن اليهود)**، لعنهم الله تعالى، **(كانوا يقولون)**، لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(راعنا يا محمد أى ارعنا سمعك)** أى أرع جانبنا بتوجهك إلينا، وألق سمعك نحونا.

(واسمع منا) ما نتكلم به عندك **(ويعرضون بالكلمة)** بقصدهم معنى غير ظاهرها **(يريدون الرعونة)**، أى يقصدون بها اسم فاعل من الرعونة، وهى خفة العقل فينصبونه بمقدر نحو: كن أو صرت راعنا، أى ذا رعونة.

(فنهى الله المؤمنين) فى هذه الآية **(عن التشبه بهم)** بقول مثل مقالتهم له، صلى الله تعالى عليه وسلم، والمراد بالتشبه فعل ما يشبهه من غير قصد، وأمروا أن يقولوا ما يؤدى معناها من غير إبهام، وهو انظرنا واسمع منا، أى انتظر فهمنا **(وقطع الذريعة بنهى المؤمنين عنها)**، أى عن هذه الكلمة الموهمة، أو الضمير للذريعة، وقطع مصدر، أو فعل ماض، أى قطع الله تعالى الذريعة، وسد بابها بهذا النهى، والذريعة هى الوسيلة الموصلة لأمر غير محمود، وسد باب الذريعة قاعدة عند الإمام مالك مشهورة تقدم الكلام عليها **(لئلا يتوصل بها الكافر والمنافق إلى سبه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(والاستهزاء به)**، فإنهم كانوا يقولونها ويتغامزون.

(وقيل: بل) نهى المؤمنون عنها **(لما فيها من مشاركة اللفظ)**، أى كونه مشتركًا بين معنيين **(لأنها)**، أى هذه الكلمة **(عند اليهود)** فى لغتهم **(بمعنى أسمع لا سمعت)** دعاء عليه.

قال الراغب: كان ذلك قولاً يقولونه للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، على سبيل التهكم يقصدون به وصفه بالرعونة، ويوهمون أنهم يقولون: راعنا، أى احفظنا، انتهى، ومعناه: الدعاء عليه كأسمع غير مسمع، وهى عبرانية كانوا يتسابون بها وأصلها: «راعنا وانظرنا»، بمعنى انظر إلينا بالحذف والإيصال، أو انتظرنا وتأن حتى نفهم ما تقول.

(وقيل: بل) نهوا عنها **(لما فيها من قلة الأدب وعدم توقير النبى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وتعظيمه؛ لأنها فى لغة الأنصار بمعنى ارعنا نرعك)** أى إن راعيتنا راعيناك؛ لأنها صيغة مفاعلة من الجانبين وسوء الأدب فيها ظاهر.

(فنهوا عن ذلك) لما فيه من ترك الأدب معه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(إذ مضمونها)**، أى مدلولها عندهم، **(أنهم)**، أى القائلين **(لا يرعونه)** ويحفظون حقه **(إلا برعايته)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لهم)** وهذا النهى مخصوص بزمان النبوة، كما قاله

الواحدى فى الوسيط، **(وهو)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(واجب الرعاية)** على كل أحد **(بكل حال)**، أى فى كل حال سواء راعى غيره أم لا، والجواب الثانى: قريب من الأول، إلا أنه قيل: إن الثالث فيه نسبة ما لا يليق بالصحابة، رضى الله تعالى عنهم، لهم فإنهم أعرف بمقام النبوة وأجل عن وقوع تقصير منهم فى التأدب معه.

(وهو)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قد نهى)** الناس فى الحديث المشهور **(عن التكنى بكنيته)** الشريفة، وهى أبو القاسم كنى باسم بعض أولاده، وتقدم أن القاسم أكبر أولاده ولذا كنى به، واختلف هل مات قبل البعثة أو بعدها؟ والكنية ما صدرت بأب أو أم، واللقب ما أشعر بمدح أو ذم، والعلم أعم منهما، واختلفوا فيها هل تتداخلأم لا؟ **(فقال: تسموا باسمى)** أراد به محمدًا؛ لأنه أشهر أسمائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأشرفها، والتسمية به مستحبة متيمنة، ورد فيها أحاديث كثيرة مشهورة وبركتها معروفة **(ولا تكنوا بكنيتى)** بفتح التاء الفوقية والكاف وتشديد النون، وأصله تتكنوا، فحذف إحدى التائين تخفيفًا قياسيًا وقيل: أصله تتكانوا، حذفت ألفه لالتقاء الساكنين، وهو تكلف من غير داع له، وقيل: إنه روى تكنوا مخففًا مسكن الكاف، والأول أشهر وأظهر، وروى لا تكتنوا أيضًا.

(صيانة لنفسه) عن أن يشاركه غيره فى كنيته المنوهة برفعة قدره، وهو وما بعده مفعول له منصوب، **(وحماية)**، أى حفظًا **(عن أذاه)**، أى أن يؤذيه غيره، ثم بين علة المنع وتأذيه بذلك، بما وقع فى الحديث الذى رواه البخارى، ومسلم بقوله: **(إذا كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، استجاب)** أى أجاب والتفت **(لرجل نادى: يا أبا القاسم)** من خلفه وهو فى السوق **(فقال)** له الرجل الذى نادى: **(لم أعنك)** أى لم أقصدك بندائى هذا **(إنما دعوت هذا)** يشير لرجل ثمة، وأبوالقاسم المذكور، قيل: إنه رجل من الأنصار.

(فنهى)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(حينئذ)**، أى حين إذ وقعت هذه القصة **(عن التكنى بكنيته)** بضم الكاف، وقد تكسر من كنيته وكنوته، أصل الكناية الستر، **(لئلا يتأذى بإجابة دعوة غيره)** الصادرة **(ممن لم يدعه)** إذ ظنه دعاه والتفت نحوه.

(ويجد بذلك المنافقون والمستهزؤن) من الكفرة **(ذريعة)**، أى وسيلة وطريقًا **(إلى أذاه)** بنداء غيره، إبهامًا لندائه وإسماعًا له **(والإزراء به)** أى الاستخفاف تحقيرًا به **(فينادونه بكنيته، فإذا التفت)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، لمن ينادى **(قالوا)** له حين أجابهم: **(إنما أردنا هذا)** مشيرين لغيره قصدًا **(لسواه ممن تكنى)** بكنيته **(تعنيتًا له)**، أى إيقاعًا له فى العنت، وهو الأمر الشاق، فهو بعين مهملة ونون ومثناة فوقية **(واستخفافًا بحقه)**، أى تهاونًا وتحقيرًا بالعدول عن توقيره **(على عادة المجان)** والمجان بضم الميم، وتشديد الجيم،

قبل ألف ونون جمع ماجن من المجون، والهزل والسخرية.

(**والمستهزئين، فحمى، صلى الله تعالى عليه وسلم، حمى أذاه**)، أى منع منه منعًا تامًا، فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، (**بكل وجه**) يفضى إليه، فلذا منع من المشاركة فى كنيته، فيعلم منه المنع مما يوهم معنى قبيحًا بالطريق الأولى كقولهم: راعنا ونحوه، ثم شرع فى بيان حكم التكنى بكنيته شرعًا فقال: (**فحمل محققو العلماء نهيه**)، أى حملوا حكمه فى المنع ونهيه، (**عن هذا**) المذكور ثم التكنى بكنيته (**على مدة حياته**)؛ لأن علة تأذيه بسماعه، إنما تتصور فى حياته (**وأجازوه بعد وفاته لارتفاع العلة**) المذكورة بموته، صلى الله تعالى عليه وسلم، والشىء قد يرتفع بارتفاع ما علل به، وينتهى بانتهائه، فلا يقال: إن عموم لفظه يأباه.

(**وللناس**) من العلماء (**فى هذا الحديث**) يعنى حديث: «تسموا باسمى، ولا تكنوا بكنيتى»، (**مذاهب ليس هذا موضعها**) الذى تذكر فيه مفصلة لطولها، (**وما ذكرناه**) من تخصيصه بحياته لما تقدم، (**هو مذهب الجمهور**) أى أكثر الفقهاء والمحدثين.

(**و**) هو (**الصواب إن شاء الله**) من الأقوال، وهى كثيرة:

أحدها: المنع مطلقًا، سواء كان اسمه محمدًا أم لا، وروى عن الشافعى، رضى الله عنه. **والثانى:** الجواز مطلقًا.

والثالث: لا يجوز لمن اسمه محمد، ويجوز لغيره، وعليه عمل السلف، وصححه الرافعى وبالغ بعضهم، فقال: لا يجوز أن يسمى أحد ابنه القاسم، لئلا يكنى بأبى القاسم.

والرابع: منع التسمية بمحمد مطلقًا، والتكنى بأبى القاسم مطلقًا، واستدل بما يأتى قريبًا، أن عمر، رضى الله عنه، غير أسماء جماعة سموا بمحمد من أولاد الصحابة، ونهى أيضًا عن التسمية بأسماء الأنبياء إعظامًا لهم عن أن يسبوا، فيسرى لسبهم، لكنه صح كما يأتى أنه رجع عن هذا، لما بلغه أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، سمى به بعض من ولد فى حياته.

والخامس: المنع مطلقًا فى حياته والتفصيل بعده بين من اسمه محمدًا ، وأحمد فيمنع أو يجوز فى غيره.

والسادس: أنه يجوز فى حياته لمن سماه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكناه لما يأتى من أنه روى عن على، كرم الله وجهه، ورضى الله تعالى عنه، أنه قال له: يا رسول الله إن ولد لى ولد أسميه باسمك، وأكنيه بكنيتك، قال: نعم، وهو محمد بن الحنفية المكنى بأبى القاسم، ولذا قيل: الأصح أن النهى مخصوص بحياته، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلا

من أذن له النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيه والظاهر ما قاله المصنف، رحمه الله تعالى، لدلالة الحديث عليه دلالة ظاهرة، ولبعضهم فى بعض ذلك:

فى كنية بقاسم خلف وقع فالشافعى مطلقًا لها منع
ومالك جوز والنهى حمل على الحياة والنواوى جعل
هذا هو الأقرب أما الرافعى يمنع من سمى محمدًا فع

(وأن ذلك) المنع إنما جاء فى حياته بكنيته فقط؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان لا ينادى باسمه تأدبًا **(على طريق توقيره وتعظيمه)** فى عدم المشاركة فى كنيته؛ ولأن القاسم من يقسم أرزاق الناس ونحوه مما لا يليق بغيره.

(و) أنه أيضًا إنما منع **(على سبيل الندب والاستحباب)** الندب آكد من الاستحباب؛ لأنه الأولى **(لا على التحريم)**؛ لأنه لا يلزمه التأذى به حين يقال: كيف لا يحرم ما فيه أذية له، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(ولذلك)، أى كونه ندبًا لا وجوبًا **(لم ينه عن)** التسمية بـ**(اسمه)** مع وجود العلة فيه، لكنه دفع ذلك المحذور بقوله: **(لأنه قد كان الله منع عن ندائه به)** وحده لما فيه من ترك الأدب **(بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾)** [النور: ٦٣]، أى كما ينادى أحدكم غيره، باسمه فهو مصدر مضاف للمفعول أو الفاعل، أى كما كان يدعوكم بأسمائكم، فإنه جائز له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويجب إجابته مطلقًا، حتى ذهب بعض الشافعية إلى أنه يجب إجابته فى الصلاة كسائر الأنبياء، ولا تبطل بها الصلاة بالنسبة له، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(إنما كان المسلمون يدعونه)** أى ينادونه ويخاطبونه بقولهم: **(يا رسول الله ويا نبى الله)** ولا يقولون: يا محمد وكذا يقولون: يا أبا القاسم لما فى الكنية من التعظيم، وتوقف فيه صاحب الإمتاع كما قدمناه، وليس محل توقف ولذا قال المصنف، رحمه الله تعالى: **(وقد يدعوه)** بياء الغيبة لإسناده للظاهر، وفى نسخة: يدعونه فالظاهر بدل منه **(بكنيته)** يعنى **(أبا القاسم)** لما فيها من الأدب وشعار التعظيم.

(بعضهم) فاعل أو بدل بعض كما تقرر **(فى بعض الأحوال)**، وهو لا ينافى النهى عن التكنى بها كما توهم، بل يناسبه أتم مناسبة إلا أنه نقل عن الشافعى، أنه حرم نداؤه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بكنيته كما حرم نداؤه باسمه فسوى بينهما لدخولهما تحت قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]؛ لأنهم كانوا يتداعون بينهم بالكنى، وقد يفرق بينهما، فكان هذا هو الداعى لتوقف

صاحب الإمتاع، وفى الشرح لم أقف على أن أحدًا ناداه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بكنيته بعد هذا النهى إلا أن يكون حديث عهد بالإسلام.

(وقد روى) فى حديث رواه الحاكم، والبزار، وأبو يعلى، وحسنه **(عن أنس)** رضى الله تعالى عنه، **(عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما يدل على كراهة التسمى باسمه)**، العلم وهو محمد أو ما يشمله غيره، **(وتنزيهه)**، أى تبعيد اسمه **(عن ذلك)** أى عن تسمية غيره به تكريمًا له، والكراهة تنزيه لا تحريم **(إذا لم يوقر)** اسمه، أو المسمى به، أى يعظم **(فقال: تسمون أولادكم محمدًا، ثم تلعنونهم)** وأصله أتسمون بالاستفهام الإنكارى الدال على كراهته لمن اعتاد سب أولاده بأسمائهم.

وقال الحافظ ابن حجر: إنه حديث ضعيف، ولا دليل فيه للكراهة مطلقًا.

(و) قد **(روى عن عمر، رضى الله تعالى عنه، أنه كتب إلى أهل الكوفة لا يسمى)** بالبناء للمفعول أو الفاعل، **(أحد باسم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** توقيرًا له وخوفًا أن يسب بما يوهم سب مسماه مطلقًا.

(حكاه) عنه **(أبو جعفر)** محمد بن جرير **(الطبرى)** إلا أنه رجع عنه لما روى له ما يأتى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، سمى ابن أبى طلحة محمدًا، وغيره، فقال: لا سبيل إليكم يعنى فى المنع.

وروى سعيد بن المسيب: أحب الأسماء إلى الله تعالى أسماء الأنبياء، قال: وإنما كرهه عمر، رضى الله تعالى عنه، لئلا يسب المسمى به فيسرى لذلك.

(وحكى عن محمد بن سعد) الواقدى الإمام المشهور، وقد تقدمت ترجمته، **(أنه)** أى عمر، رضى الله تعالى عنه، **(نظر إلى رجل)** هو ابن أخيه أبو عبد الله الحميد بن زيد بن الخطاب **(اسمه محمد، ورجل يسبه)** ويشتمه **(ويقول: فعل الله بك يا محمد وصنع)**، هو كناية عما شتمه به، كما يقال: فلان الفاعل الصانع.

(فقال عمر) لما سمع شتمه باسمه **(لابن أخيه محمد بن زيد بن الخطاب لا أرى محمدًا)**، عليه الصلاة والسلام، **(يسب بك)** أى يسب بسبب اسمك لما فيه من الإيهام، وألا كلمة تنبيه مركبة من همزة الاستفهام الإنكارى ولا النافية، إلا أن الاستفهام الإنكارى أزال النفى وحقق ما بعدها، ولذا تتلقى بما يتلقى به القسم كان **(والله لا تدعى)** أى لا تسمى أنت **(محمدًا ما دمت)** أنا **(حيا)** أى فى مدة حياتى توقيرًا له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتعظيمًا لاسمه أن يقترن بسب أسمعه فغير اسمه محمدًا.

(وسماه)، أى سمى عمر، رضى الله تعالى عنه، ابن أخيه الذى هو محمد **(عبد الرحمن)**

فهو عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب العدوى، وأمه بنت أبى لبابة، ولد فى عهد النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وسمى محمدًا فغير عمر اسمه، **(وأراد)** عمر، رضى الله تعالى عنه، فى زمن خلافته **(أن يمنع الناس أن يسمى أحد بأسماء الأنبياء)**، صلى الله تعالى وسلم عليهم أجمعين، **(إكرامًا لهم)**، أى للأنبياء **(بذلك)** أى بمنع التسمية بأسمائهم لئلا يسبوا بما يوهم ذلك **(وغير أسماء جماعة تسموا بأسماء الأنبياء ثم أمسك)**، أى كف ورجع عن منع التسمية لما مر، وسيأتى.

(والصواب جواز هذا كله) أى التسمية باسمه مع الكنية، وبدونها وكذا التسمية بأسماء الأنبياء، والملائكة كما مر، خلافًا لمن منعه أو كرهه **(بعده)**، أى بعد حياته، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن وجهه التأذى بندائه، وهو غير متصور بعده، **(بدليل إطباق الصحابة)** رضى الله تعالى عنهم، **(على ذلك)** أى على التسمية بما ذكر وجوازه.

(وقد سمى جماعة منهم) أى من الصحابة **(ابنه محمدًا وكناه بأبى القاسم)** فجمع بين الاسم والكنية، ولم ينكره أحد منهم مع كثرة الصحابة، إذ ذاك فهذا كله يدل على أنه غير ممتنع شرعًا، والإطباق بمعنى الإجماع هنا من المطابقة، وهى الموافقة مستعار من الإطباق بمعنى جعل شىء فوق شىء بقدره، ومنه طابقت النعل، ثم شاع وصار حقيقة عرفية، وإنما جاز هذا لقصد التبرك المستلزم للتعظيم، ولما ورد فى حديث رواه ابن وهب: «تسموا بأسماء الأنبياء، وأحب الأسماء إلى الله عبد الرحمن»[(١)]، وسمى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ابنه إبراهيم.

(وروى) فى حديث رواه أبو داود، والترمذى، عن على، رضى الله تعالى عنه **(أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أذن لعلى)** بن أبى طالب **(فى ذلك)**، أى فى الجمع بين الاسم والكنية، وذلك أنه قال له: يا رسول الله، إن ولد لى ولد بعدك أسميه باسمك، وأكنيه بكنيتك، فقال له: نعم، فهذا دليل على أن المنع مخصوص بزمانه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا الحديث رواه أصحاب السنن، وصححوه كما قاله البرهان إلا أنه قال: حفظته عن مشايخى، أنه روى أنه عليه الصلاة والسلام، قال لعلى رضى الله عنه: «سيولد لك ولد بعدى، وقد نحلته اسمى وكنيتى، ولا يحل لأحد من أمتى بعده». انتهى.

فعلى هذا لا شاهد فيه إلا أن كبار الصحابة كأبى بكر، وابن عوف فعلوا ذلك وناهيك به حجة، وذلك الموعود به كما مر، هو محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب المشهور، **(وقد أخبر، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، فى حديث روى عنه **(أن ذلك)** أى

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥٠)، وأحمد (٣٤٥/٥)، والبغوى فى شرح السنة (٣٣٤/١٢).

محمد، وأبو القاسم، **(اسم المهدى وكنيته)** الذى يظهر فى آخر الزمان بعد ما يظهر الفساد والجور، فيملأ الأرض عدلاً، وهذا ورد فى حديث رواه أبو سعيد الخدرى، رضى الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «يصيب هذه الأمة بلاء حتى لا يجد الرجل ملجأ يلجأ إليه من الظلم فيبعث الله رجلاً من عترتى».

وفى رواية: «من أهل بيتى من يوافق اسمه اسمى واسم أبى وكنيته كنيتى، فيملأ الأرض عدلاً وقسطًا ويكثر المطر والنبات ويعيش سبع سنين أو ثمان أو تسع»، وفيها أحاديث كثيرة أفردت بالتأليف ليس هذا محلها، وقيل: إنه من ولد العباس، رضى الله تعالى عنه، وقيل غير ذلك، والشاهد فيما ذكر أنه لو لم يكن جائزًا بعده لما أخبر به الرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتسمى به من هو أصلح الناس وأعلمهم وأعدلهم فى عصره.

(و) مما يدل على جواز التسمية باسمه أنه **(قد سمى به النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، جماعة منهم **(محمد بن طلحة)** التيمى جىء به له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فمسح رأسه وسماه باسمه وكناه بكنيته، وهو المعروف بالسجاد، قتل فى وقعة الجمل **(ومحمد بن عمرو بن حزم)** بن زيد بن لوذان الأنصارى، ولد سنة عشر وقتل فى وقعة الحرة سنة ثلاث وستين، وهو من الفقهاء، وروى عنه أحاديث فى السنن.

(ومحمد بن ثابت بن قيس) بن شماس الخزرجى أتى به أبوه للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فحنكه، وسماه محمدًا، وهو ممن قتل بالحرة أيضًا، وروى عنه أحاديث فى السنن **(وغير واحد)**، أى كثيرون سماهم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، باسمه من أولاد الصحابة، وكانوا إذا ولد لهم ولد يأتون به للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، تبركًا به فيمسح رأسه، ويسميه وقد يحنكه بتمر، وقد ذكر منهم جماعة الحافظ الذهبى، ونقلهم البرهان.

(وقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأصحابه: **(«ما ضر أحدكم أن يكون فى بيته»)** من أولاده الذكور **(محمد ومحمدان)**، اثنان.

(و) فى نسخة و**(ثلاثة)** وأراد بنفى الضرر النفع، ولكنه لم يصرح به احترازًا من التمدح ومثل هذه العبارة يكنى بها عن كثرة النفع كثيرًا، **(وقد فصلنا الكلام فى هذا القسم)** الرابع **(على بابين كما قدمناه)** فى بيان التراجم أول الكتاب.

* * *

(الباب الأول فى بيان ما هو)
[فى حقه ﷺ سب أو نقص من تعريض أو نص]

إذا قيل **(فى حقه ﷺ)**، أى بالنسبة إليه **(سب)** وشتم **(أو نقص)** مما لا يليق به وإن لم يكن سبا **(من تعريض)** بطريق الكناية والإيماء **(أو نص)** أى صريح لا يحتمل التأويل **(قال القاضى أبو الفضل)** عياض المؤلف، رحمه الله تعالى: **(اعلم وفقنا الله وإياك)** لمعرفة حق النبوة وما يجب له، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أن جميع من سب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** بشتمه **(أو عابه)** هو أعم من السب فإن من قال: فلان أعلم منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقد عابه ونقصه و لم يسبه **(أو ألحق به نقصًا فى نفسه)** وذا مما يتعلق بخلقه وخلقته **(أو نسبه)** كأن يفضل أحدًا على قومه وأصوله وكأن يقول إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يكن قرشيًا فإنه كفر كما صرح به الفقهاء ويأتى أيضًا فى محله وليس من تنقيص النسب ما وقع من الاختلاف فى إسلام أبويه كما هو ظاهر.

(ودينه) أى نقص شريعته أو نسبه لقصوره، فيما يجب منها **(أو خصلة من خصاله)** وصفة من صفاته كشجاعته وكرمه **(أو عرض به)** أى قال فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما لا يليق به تعريضًا لا تصريحًا **(أو شبه بشىء)** غير حسن **(على طريق السب له)** بتنقيصه كما سيأتى.

(أو الإزراء عليه)، أى التنقيص له، وإن لم يكن قصد السب **(أو التصغير بشأنه)**، أى تحقيره كتصغير اسمه، أو صفة من صفاته **(أو الغض منه)** بمعنى أقل تنقيص، وهو بغين وضاد معجمتين، وأصل الغض نقص فى الصوت أو الطرف، كما قاله الراغب، فأريد به مطلق النقص القليل، **(أو العيب له فهو ساب)**، أى كالساب معنى، وفى نسخة: والعيب بالواو **(والحكم فيه حكم الساب)** الآتى من غير فرق بينهما من أنه **(يقتل كما نبينه ولا نستثنى)** بنون المضارعة أى لا نخرج منه، **(فصلاً)** أى قسمًا وصور كما يقال المسألة على فصول لفصل بعضها من بعض **(من فصول هذا الباب على هذا المقصد)** بجميع أقسامه **(ولا نمترى)** بنون أيضًا، أى لا نشك ولا نتردد **(فيه تصريحًا كان)** السب، **(أو تلويحًا)**، أى كناية وتعريضًا.

(وكذلك من لعنه) والعياذ بالله **(أو دعا عليه أو تمنى مضرة له أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه)**، أى بأصله وحسبه، وهذا هو حقيقة المنصب كما قدمناه لا ما اشتهر بين العوام، **(على طريق الذم)** له حاشاه منه **(أو عبث)** أى ما قاله على طريق الهزل والمجون

(فى جهته العزيزة)، أى بشىء له تعلق بجانبه الشريف **(بسخف من الكلام)**، أى أمر سخيف رذل **(وهجر)** بضم الهاء وفتحها، وهو الفحش والقبح، **(ومنكر من القول وزور)** بالكذب عليه بما ليس لائقًا بجنابه الشريف **(أو عيره بشىء)** بعين مهملة وياء تحتية مشددة، أى نسب له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما فيه عار عليه، **(مما جرى من البلاء والمحنة عليه)** لذكر ما اتفق له، صلى الله تعالى عليه وسلم، مع العرب فى ابتداء دعوتهم كما فصل فى السير.

(أو غمصه) بغين معجمة وميم وصاد مهملة، أى نقص من قدره، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ببعض العوارض البشرية الجائزة)** عليه كالأمراض ونحوها، مما تقدم **(والمعهودة لديه)** أى المعتادة بينه وبين سائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(وهذا كله)** غير جائز موجب للعقاب فى الدارين **(إجماع من العلماء وأئمة الفتوى)** من فقهاء المذاهب معروف متواتر بينهم **(من لدن)** عصر **(الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم، إلى هلم جرا)**، أى إلى آخر الزمان وانقضاء الدوران عصرًا بعد عصر وقرنًا بعد قرن بلا خلاف فيه، وحكاية ابن حزم الخلاف فيه لا يعول عليها كما يأتى.

وقد تقدم بيان الإجماع فيه، وأن من اعترض على المصنف لم يفهم مراده، وأن هذه العبارة منقولة عن الأئمة كلهم كما فى السيف المسلول على من سب الرسول للسبكى، وفى نسخة من الصحابة وأصحابه، وهو سهو من الناسخ حمل بعض المحشين على التكلف فى توجيهها.

وقوله: هجر، بمعنى هذيان وتخليط لا يرد عليه ما مر من قول عمر، رضى الله تعالى عنه، فى مرض موته صلى الله تعالى عليه وسلم هجر، فإنه استفهام إنكارى على الأصح، فهو لم يصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بذلك حتى يقال: كيف يعد كفرًا، وقد صدر من مثله ولا حاجة إلى الجواب، بأنه لم يقصد تنقيصه به، ومثله ممنوع حتى قال الزركشى كالسبكى، أنه لا يجوز أن يقال له، صلى الله تعالى عليه وسلم، : فقير أو مسكين، وهو أغنى الناس بالله لاسيما بعد قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨]، وقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «اللهم أحينى مسكينًا»(١)، أراد به المسكنة القلبية بالخشوع والفقر، فحرى باطل لا أصل له كما قال الحافظ ابن حجر العسقلانى، وقوله: وزور قد علمت أن المراد به الكذب عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بتعمد وصفه بما لا يليق به، وأما الكذب عليه بنقل ما لم يقله، فليس داخلاً فيه؛ لأنه معصية لا كفر.

---

(١) تقدم تخريجه.

وقول الجوينى، رحمه الله تعالى من الشافعية: إن تعمد الكذب عليه مطلقًا كفر؛ لأنه قد يؤدى إلى استحلال الحرام، وهو كفر قول شاذ مردود، وما علل به واه جدًا وقوله: إلى هلم جرا، هلم كلمة مركبة من هاء التنبيه، و لم فعل ماض، ثم جعلت بمعنى أقبل وفيها لغتان:

أحدهما: أن تكون اسم فعل يستوى فيه الواحد المذكر، وغيره.

والثانية: أن تستعمل استعمال الأفعال باتصال الضمائر.

وقد تتعدى باللام وجرا منصوب على الحال أو التمييز أو المصدرية، أى وجر جرًا، وأصلها أن يرسل الإبل للرعى، وهى سائرة، ثم جعلت كالمثل، فصارت بمعنى استدامة الأمر واتصاله، فيقال: كذا فى عام كذا، وهلم جرا إلى اليوم، وأصل معناه سيروا على هينتكم من غير استعجال وحث، لكن فى كلامه شىء لم ينبهوا عليه، وهى إدخال إلى على هلم جرا مقابلة لمن الإبتدائية الداخلة على لدن، وهوغير مسموع بل غير صحيح؛ لأنها فعل فى الحال أو الأصل على اللغتين، فكأنه حذف مجرورها وأصله إلى وقتنا هذا، وهلم جرا، وهو أيضًا غير جار على وفق كلامهم.

(وقال أبو بكر بن المنذر) تقدمت ترجمته، وأنه محمد بن إبراهيم النيسابورى **(أجمع عوام أهل العلم)** هو جمع عامة، بمعنى جماعة كثيرة، والمتقدمون كالشافعى، رضى الله تعالى عنه، يعبرون بهذه العبارة للعموم، وليس المراد العامى، فإنه غير صحيح إذ لا عبرة بهم وبإجماعهم، وأهل العلم مناد عليه؛ لأن العامى، لا يكون أهل علم **(على أن من سب النبى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يقتل)** مطلقًا **(وممن قال ذلك)**، أى حكم بقتله مطلقًا.

(مالك بن أنس والليث بن سعد) المصرى الإمام المجتهد المشهور **(وأحمد)** بن حنبل **(وإسحاق)** بن إبراهيم بن راهويه المشهور **(وهو مذهب)** الإمام **(الشافعى)** المنقول عنه فى الأشهر **(قال القاضى أبو الفضل)** عياض، المصنف رحمه الله تعالى، ورضى عنه **(وهو مقتضى قول أبى بكر الصديق)**، رضى الله تعالى عنه، و لم يقل وهو قول الصديق مع أنه أظهر وأخصر تلذذًا بذكره وعبر بالمقتضى؛ لأنه نقل عنه ما يدل عليه فى عهد خلافته وسيأتى ما يوضحه.

(ولا تقبل توبته عند هؤلاء) القائلين بوجوب قتله مطلقًا صونًا لمقام النبوة كما قال المتنبى:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يراق على جوانبه الدم

(وبمثله) أى بمثل قول هؤلاء بوجوب القتل وعدم قبول التوبة.

(قال أبو حنيفة وأصحابه) محمد، وأبو يوسف، وزفر، وأهل مذهبه، **(والثورى)** سفيان بن سعيد الكوفى الفقيه سيد أهل عصره، وأمير المؤمنين فى الحديث والتقوى لم ير أحفظ منه، ولا أجل، و لم ير هو أيضًا مثل نفسه، وهو منسوب لثور، وهى قبيلة توفى سنة إحدى وستين ومائة، **(وأهل الكوفة)** من عطف العام على الخاص؛ لأن الثورى، وأبا حنيفة كوفيان، **(والأوزاعى)** عبد الرحمن بن عمرو، الإمام الجليل فى الحديث، والفقه، والترسل، والزهد، والعبادة خير هذه الأمة، توفى فى جمادى سنة سبع وخمسين ومائة ونسبته للأوزاع، لقب لأبى بطن من حمدان **(فى المسلم)** خاصة دون الكافر، وفى نسخة: المسلمين.

(ولكنهم قالوا: هى ردة) أى يرتد صاحبها ويكفر بسببه وأنث الضمير لتأنيث الخبر على القاعدة، وعلى هذا يستتاب كالمرتد، وقيل: إنه يمهل ثلاثة أيام، ونقل هذا عن عمر، رضى الله تعالى عنه، وإذا قتل يضرب.

وقال الماوردى: يضرب بالخشب ولا يحرق ولا يدفن فى مقابر المسلمين ولا المشركين.

(وروى مثله الوليد بن مسلم) أبو العباس الدمشقى مولى بنى أمية عالم أهل الشام، كما تقدم، وأنه ولد سنة عشر ومائة، وتوفى سنة خمس أو أربع وتسعين ومائة فى المحرم، ويقال له: ابن أبى مسلم، كما فى نسخ، والأول أصح.

(عن مالك) فى إحدى الروايتين عنه، **(وحكى الطبرى)** محمد بن جرير، وقد تقدم **(مثله عن أبى حنيفة وأصحابه فيمن تنقصه)** أى نسب له، صلى الله تعالى عليه وسلم، نقصًا دون السب **(أو برى منه أو كذبه)** فهو مرتد يجرى فيه ما تقدم من حكم المرتد وقبول توبته.

(وقال سحنون): هذا ممنوع من الصرف للعلمية، وشبه العجمة كما قاله المعرى فى كتاب ذكرى حبيب، وقال ابن حجر فى لسان الميزان: هو عبد السلام بن عبد السلام بن سعيد بن حبيب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة التنوخى، أبو سعيد، الفقيه المالكى، غلب عليه لقبه، وسمع من ابن وهب، وابن القاسم، وأشهب وغيرهم، وقول أبى يعلى: لم يرض أهل الحديث حفظه خالفوه فيه، فقالوا: إنه انتشرت إمامته وسلم له أهل عصره وأجمعوا على فضله وتقدمه، وأنه اجتمع فيه خصال لم تجتمع فى غيره من العفة والورع والزهد والسماحة، ولد فى رمضان سنة ستين أو إحدى وستين ومائة

توفى سنة أربعين ومائتين لتسع خلون من رجب وهو ابن ثمانين سنة.

(فيمن سبه ذلك) أى سبه **(ردة)** له حكمها **(كالزندقة)** مصدر تزندق، وهو مأخوذ من الزنديق، وهو لفظ معرب فى أصله اختلاف وهو يطلق على معان فيقال: على الثنوى، القائل بالنور والظلمة كالمانوية وعلى من لا يؤمن بالآخرة أو الربوبية، وهو أشهر معانيه، وعلى من يبطن الكفر ويظهر الإيمان، والفرق بينه وبين المنافق مشكل، وعلى من لا ينتحل دينًا، وهو مشهور أيضًا، والفرق بين هذا القول وبين القول بأنه ردة عند أبى حنيفة، أنه يؤخذ منه الجزية؛ لأنه يقبل توبته قبل الأخذ كما قاله قاضيخان؛ لأنهم باطنية يخفون خلاف ما يظهرون، وعند الشافعى فيه قولان، فقيل: تقبل توبته، وقيل: لا تقبل وتفصيله مع أدلته فى كتب الفروع، وليس هذا محل تفصيله، وتأتى الإشارة إلى شىء منه.

(و) بناء **(على هذا)** المذكور من قول سحنون وغيره، أنه **(وقع الخلاف فى استتابته)** هل هى لازمة أم لا؟ **(وتكفيره)** أى فى الحكم بكفره، يقال: كفره وأكفره على الصحيح خلافًا لمن جعل الأول من الكفارة وهو غلط مشهور.

(و) وقع الخلاف أيضًا فى قتله **(هل قتله حد)**؛ لأنه من قذف الأنبياء وسبهم جزاء عليه كسائر الحدود **(أم)** هو **(كفر)**؛ لأنه كقتل المرتد بردته **(كما سنبينه فى الباب الثانى)** من القسم الرابع ونحن إن شاء الله نبين ما فيه تفصيلاً مع الفرق بينهما، وما فيه ولا نتلقى الركبان هنا.

(ولا نعلم خلافًا) بين علماء الإسلام، **(فى استباحة دمه)** أى إنه هدر لاستحقاقه القتل بسبه صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بين علماء الأمصار)** أى البلاد العظيمة كمكة والمدينة وبغداد ومصر وعلماؤها، أعظم وأعلم من غيرهم، **(وسلف الأمة)** المتقدمين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان.

(وقد ذكر غير واحد) هو كناية عن الكثرة عندهم **(الإجماع على قتله وتكفيره)**، أى عده كافرًا مستحقًا للقتل **(وأشار بعض الظاهرية)** وهم قوم على مذهب داود الظاهرى الذى كان يرى وجوب الأخذ بظاهر الحديث، والنصوص من غير تأويل، **(وهو)** أى هذا البعض **(أبو محمد على بن أحمد الفارسى)** وهو الإمام العالم العلامة المتبحر الحافظ، المعروف بابن حزم بن غالب، ويتصل نسبه بأبى سفيان بن حرب، رضى الله عنه، فهو فارسى أموى الأصل قرطبى ظاهرى، كتابه فى مذهب داود المسمى بالمحلى كبير، وقفت عليه فى مجلدات ضخمة ولد بقرطبة، سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، وترجمته

وتصانيفه مفصلة فى التاريخ وقيل: لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان (**إلى الخلاف فى تكفير المستخف به**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، بتصغير شأنه أو بشىء متعلق به من غير سب صريح، وهو قول مردود عليه.

(**والمعروف ما قدمناه**) من تكفيره، وفيه إشارة إلى عدم الاعتداد بأقوال الظاهرية النافين للقياس، وفيه خلاف هل يجوز العمل بقولهم أم لا؟ والصحيح عدم الجواز، وما ذهب إليه ابن حزم دليله أنه وقع ذلك فى عهده، صلى الله تعالى عليه وسلم، لكثير من الأعراب ومن غيرهم كالحكم، ولم يقتلهم، صلى الله تعالى عليه وسلم، وجوابه ظاهر، ولا يقاس حالنا اليوم عليه؛ لأنه فى بدء الإسلام كان يتألف القلوب ويسامح أما اليوم فلا.

(**وقال محمد بن**) الإمام (**سحنون**) الذى سبق بيانه قريبًا، وابنه هذا أيضًا من أجلة المالكية والمحدثين، وله مصنفات عدة وتفقه على أبيه، وكان مفتى القيروان بعده، وهو عظيم القدر قوى المناظرة (**أجمع العلماء**) على (**أن شاتم، النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، المتنقص له**) لو عطفه كان أحسن (**كافر**) مرتد بسببه (**والوعيد**) الذى مر فى الآيات (**جار عليه**) لشموله له (**بعذاب الله له**) لقوله تعالى: ﴿**لهم عذاب أليم**﴾ [التوبة: ٦١]، فى الآية (**وحكمه عند الأمة**) أى أمة الإجابة (**القتل ومن شك فى كفره وعذابه كفر**)؛ لأن الرضى بالكفر كفر ولتكذيبه للقرآن فى قوله تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [التوبة: ٦١].

قال ابن حجر: وما صرح به من كفر الساب والشاك فى كفره، وهو ما عليه أئمتنا وغيرهم، لكنه عندنا كالمرتد فيستتاب وجوبًا فورًا، فإن أصر قتل ولو امرأة، فإن أسلم صح إسلامه وترك ويأتى ذلك فى محله، قيل: وفى جزمه بكفره بعد نقل الخلاف فيه نظر وكيف يصح قوله من شك فى كفره وعذابه كفر مع ذكر الخلاف فيه أولاً، فليتأمل.

(**واحتج إبراهيم بن حسين بن خالد الفقيه فى مثل هذا**) وفى نسخة على مثل هذا (**بقتل خالد بن الوليد**) رضى الله تعالى عنه، (**مالك بن نويرة**) علم من تصغير نار (**لقوله عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، صاحبكم**) يعنى به النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيه تنقيص له بتعبيره عنه بصاحبكم دون رسول الله ونحوه، وإضافته لهم دونه المشعر ذلك بالتبرى من صحبته، صلى الله تعالى عليه وسلم، واتباعه واستنكافه وهو فى غاية الظهور، ومالك بن نويرة هذا كان له وفادة على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان شجاعًا شاعرًا سيدًا مطاعًا فى قومه بنى تميم، فولاه رسول الله، صلى الله

تعالى عليه وسلم، عليهم وعلى أخذ زكاتهم فمنعوها بعده، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأرسل أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، خالد بن الوليد لطلبها، فقال له مالك بن نويرة: أنا آتى الصلاة دون الزكاة، فقال له: لا تقبل إحديهما بدون الأخرى، فقال: قد كان صاحبكم يقول ذلك فقال خالد: أما تراه صاحبًا لك، لقد هممت بضرب عنقك، فقال مالك: أبذلك أمر صاحبك، فقال له: أهذه بعد تلك ينكر عليه خالد تكرير، قول صاحبكم بعد ما وعده عليه، ثم أمر ضرار بن الأزور، فضرب عنقه لإنكاره قوله: صاحبكم مرتين استصغارًا له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو الذى رثاه أخوه متمم بالقصيدة العينية التى منها[1]:

فلما تفرقنا كأنى ومالكًا   لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وهى قصيدة بليغة مشهورة، وفيما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، إشارة إلى رد ما قيل: إن مالكًا لما قدم للقتل، قال لزوجته: ما قتلنى إلا هذه، يعنى أن خالدًا أعجبه حسنها فقتله ليتزوجها، ولما قتله جعل رأسه أثفية قدره، ثم بعد ذلك تزوج بها خالد، رضى الله عنه، فقال أبو حبة السعدى فيه شعرًا منه:

قضى خالد بغيًا عليه لعرسه

وكان له فيها هوى قبل ذلك، ولما أنكروا عليه ذلك عند أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، وقالوا له: اعزله، قال: إنه تأول فى ذلك، وما كنت لأغمد سيفًا سله الله عليهم، أى فهو مذهب صحابى وممن شدد النكير عليه، رضى الله تعالى عنه، وودى القتيل من بيت المال، ورأى أن قتله غير صواب لكن خالدًا، رضى الله تعالى عنه، لما رأى جاهليته وإنكاره فرض الزكاة، وقد قال له: لا تقل هذا، فإنك إن قلته قتلتك، فلم ينته وأعاد مقالته حكم بقتله، وأبو بكر، رضى الله تعالى عنه، اقتدى برسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما فعله؛ لأنه وقع له مثله فى قصة بنى جذيمة لما قتلهم خالد مع إسلامهم كما هو مذكور فى السير فسقط، ما قيل: إنه لا دليل فى هذه القصة لما نحن بصدده؛ لأنها أمر منكر يحتاج للتأويل.

(وقال أبو سليمان الخطابى): هو حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب، وله نسب،

(١) البيت من الطويل، وهو لمتمم بن نويرة فى ديوانه (ص١٢٢)، وأدب الكاتب (ص٥١٩)، والأغانى (١٥/٢٣٨)، والأزهية (ص٢٨٩)، وجمهرة اللغة (ص١٣١٦)، والدرر (٤/١٦٦)، وخزانة الأدب (٨/٢٧٢)، والشعر والشعراء (١/٣٤٥)، وشرح شواهد المغنى (٢/٥٦٥)، وشرح اختيارات المفضل (ص١١٧٧)، وبلا نسبة فى الجنى الدانى (ص١٠٢)، ورصف المبانى (ص٢٢٣)، وشرح الأشمونى (٢/٢١٩)، وشرح التصريح (٢/٤٨)، ومغنى اللبيب (١/٢١٢).

وقيل: إنه من نسل زيد بن الخطاب، أخو عمر، رضى الله تعالى عنه، وهو بستى وبها توفى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة، وهو إمام جليل له تصانيف جليلة كمعالم السنن وغيره.

(لا أعلم أحدًا من المسلمين اختلف فى وجوب قتله إذا كان مسلمًا) وإنما الخلاف فى الكافر كما تقدم، وقد قيل: إنه مقيد بعدم التوبة، فإنه محل الإجماع، وأنه لا يخلو من نظر، وقد قدمنا لك ما يعلم منه الجواب عنه.

(وقال ابن القاسم): الإمام عبد الرحمن المصرى، صاحب الإمام مالك، رحمه الله تعالى، **(عن مالك فى كتاب)** محمد **(بن سحنون)** الذى تقدم ترجمته قريبًا، **(والمبسوط والعتبية)** تقدم أنهما من أجل الكتب وبيانهما.

(وحكاه) عبد الله **(بن مطرف)** وهو ابن أخت الإمام مالك كما قدمنا فى ترجمته **(فى كتاب ابن حبيب)** الذى تقدم بيانه أيضًا **(من سب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، من المسلمين قتل)** حدًا **(ولم يستتب)** ولا تقبل توبته.

(وقال ابن القاسم فى العتبية) تقدم إنها اسم كتاب منسوب لمحمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عتبة الأموى القرطبى الفقيه، أحد أعلام أئمة الأندلس **(من سبه أو شتمه)** معطوف على سبه، والمراد بالسب ذكر ما فيه تحقير له من الأمور الذميمة وشتمه بنسبة ما لا يليق به، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى ذاته مما لا يحقره ككونه جبارًا قهارًا ونحوهما؛ لأن المترادفين يعطف أحدهما على الآخر كما مر، أو هى للتقسيم هنا.

(أو عابه أو تنقصه)، أى نسب له نقصًا، وإن لم يكن شتمًا كقوله: غيره أعلم منه، أو أعقل كما مر.

(فإنه يقتل) حدًا **(وحكمه عند الأمة)** أى فى اعتقاد جميع المسلمين **(القتل)** وجوبًا بلا تردد **(كالزنديق)** أى كما يقتل الزنديق كما تقدم.

(وقد فرض الله) على كل أحد **(توقيره)**، أى تعظيمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وبره)** برعاية حقه الواجب على أمته، فمن خالف ما فرض الله تعالى، مما علم من الدين بالضرورة كان زنديقًا يجب قتله، ولا تقبل توبته.

(وفى المبسوط) وفى نسخة المبسوطة **(عن عثمان بن كنانة)** بكسر الكاف ونونين بينهما ألف وهاء تأنيث، وهو أبو عمر اسم رجل من أئمة المالكية له كتاب اسمه المبسوطة، لم يشتهر توفى سنة ست وثمانين ومائة بعد مالك بسنتين، وقيل: ثلاث وستين، وهو أحد الرواة عن مالك، **(من شتم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، من المسلمين قتل أو صلب حيًا)**، على جذع إلى أن يموت تشهيرًا له **(ولم يستتب)** أى لم تقبل

توبته **(والإمام مخير في صلبه حيًا أو قتله)** بضرب عنقه.

(وفي رواية أبي المصعب) عن مالك ومصعب بزنة اسم المفعول، وهو أحمد بن أبي بكر، أبو مصعب الزهري العوفي، قاضي المدينة وعالمها الثقة المحدث، روى عن مالك وغيره توفي سنة اثنين وأربعين ومائتين وله ترجمة في الميزان، **(وابن أبي أويس)** إسماعيل بن عبد الله بن أبي أويس ابن أخت مالك كما تقدم.

(سمعنا مالكًا يقول: من سب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)، بأي نوع كان **(أو شتمه أو عابه أو تنقصه)** بنسبة نقص ما له حماه الله تعالى منه، **(قُتل مسلمًا كان)** القائل **(أو كافرًا ولا يستتاب)**؛ لأنه حد لا يسقط بالتوبة عنده، قيل: قوله: ولا يستتاب قيد للمسلم أما الكافر إذا تاب وتوبته إسلامه، فتقبل توبته ولا يقتل لأن الإسلام يجب ما قبله، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وسيأتي ما فيه.

(وفي كتاب محمد) بن إبراهيم المعروف بابن المواز من أئمة المالكية المشهورين **(أخبرنا أصحاب مالك)** رحمهم الله تعالى، **(أنه قال: من سب النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو غيره من الأنبياء من مسلم أو كافر قتل ولم يستتب وقال أصبغ)** بن الفرج الطائي الأندلسي المالكي، مفتي قرطبة الإمام المعروف، توفي سنة سبع وتسعين وثلاثمائة كما تقدم.

(يقتل على كل حال) كما بينه بقوله: **(أسر ذلك)** أي أخفاه عن بعض الناس **(أو أظهره)** وجهر به **(ولا يستتاب لأن توبته لا تعرف)** هل هي كائنة بإخلاص أو هي تقية لخوف القتل **(وقال عبد الله بن الحكم)** بفتحتين ابن أعين الفقيه المصري ثقة، يروي عن مالك والليث وغيرهما، توفي سنة أربع عشرة ومائتين، **(من سب النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، من مسلم أو كافر قتل، ولم يستتب، وحكى الطبري)** الإمام المشهور محمد بن جرير **(مثله عن أشهب عن مالك)** رحمه الله تعالى، وأشهب هذا هو عبد العزيز بن داود بن إبراهيم، أبو عمرو العبسي العامري المصري، الفقيه قيل: اسمه مسكين وأشهب، لقبه روى عن مالك والليث وغيرهما، وهو ثقة توفي سنة أربع ومائتين وعمره أربع وستون سنة.

(وروى ابن وهب عن مالك) رحمه الله تعالى، وابن وهب هو أبو محمد بن وهب بن مسلم الفهري المصري، أحد الأعلام، روى عن مالك والليث والسفيانين، وعن كثير وطلب للقضاء فاختفى وانقطع في بيته، وكان من الزهد والعبادة وكثرة حفظ الحديث

بمرتبة لم يبلغها غيره، حتى بلغ حديثه ثمانين ألف حديث، وله تصانيف كثيرة جليلة توفى سنة سبع ومائة فى شعبان وولد سنة خمس وعشرين ومائة.

(من قال: إن رداء النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويروى زر النبى)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وسخ)** الوسخ والدنس معروفان **(أراد به عيبه)** أى قصد تنقيصه والإزراء به **(قتل)**، فإن لم يقصد ذلك لم يقتل، كما قال بعضهم: رأيت عصابته صلى الله تعالى عليه وسلم دسمة أى مسودة من دنس العرق؛ لأنه يريد بذلك عدم مبالاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بلباسه وزينته، والمراد يعلم من سياق الكلام كما قيل[1]:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل

إلا أنه لا ينبغى ذكر مثله، وروايته عند العوام، ولذا أفتى بعض علماء العصر، فيمن قال: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يدهن حتى كأن ثيابه ثياب زيات مع إنه مروى فى الشمائل، وكذا كل أذية بأنه لا تكون كفرًا إلا إذا قصد بها الأذية له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولذا لم يكفر الخائضون فى الإفك مع أنه أذية له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بنص القرآن كما صرح به السبكى فى السيف المسلول، وسيأتى تفصيله.

قال ابن حجر الهيتمى: بعد سياقه كلام المصنف، ويؤخذ منه أنه لو أطلق ذلك، أو قصد الإخبار عن تواضعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يكفر، وهو ظاهر فى إرادة التواضع ومحتمل عند الإطلاق؛ لأنه ليس صريحًا فى النقص، وإذا قلنا: بعدم الكفر، فظاهر إنه يعزر البليغ لذكره ما يوهم نقصًا، واختلفوا فيما لو قال كان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، طويل الظفر، والذى يظهر إنه لو قال ذلك احتقارًا له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو استهزاء به أو على جهة نسبة النقص إليه كفر، وإلا فلا، بل يعزر التعزير الشديد، انتهى ملخصًا.

(وقال بعض علمائنا) يعنى المالكية، **(أجمع العلماء)** تقدم الكلام فى الإجماع فى هذه المسألة **(على أن من دعا على نبى من الأنبياء بالويل)** فقال: ويلاً له، وهى كلمة يدعى بها، ومعناها الهلاك أو البلاء والمصيبة والعذاب والمشقة.

(أو) دعا عليه **(بشىء من المكروه)** مما يكرهه الناس ويشق عليهم **(أنه يقتل بلا استتابة)** أى لا تطلب توبته ولا تقبل.

---

(١) البيت من الطويل، وهو للسموأل فى ديوانه (ص٩٠)، ومغنى اللبيب (١٩٦/١)، وشرح شواهد المغنى (٥٣١/٢)، وله أو لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى فى شرح ديوان الحماسة للمرزوقى (ص١١٠)، والمقاصد النحوية (٧٦/٢).

وقال ابن حجر الهيتمى فى فتاويه: من خصائصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن من زنا بحضرته كفر، ونظر فيه فى الروضة، وأجيب: بأنه ظاهر فى الاستخفاف، فكان كفرًا، فيؤخذ منه أن غيره من الأنبياء كذلك، **(وأفتى القابسى)** أبو الحسن على بن محمد ابن خلف المغافرى القيروانى شيخ الحديث وفقه مالك، الضرير الزاهد العابد، صاحب التصانيف الجليلة فى الفقه والأصول، عديم النظير، توفى سنة ثلاث وأربعمائة **(فيمن قال فى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، الحمال)** بفتح الحاء المهملة وتشديد الميم قبل ألف ولام، وذلك لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان إذا اشترى شيئًا من السوق حمله بنفسه، فإذا لقيه من أراد أن يحمله قال: «رب المتاع أولى بحمله»، كما روى فى كتب الحديث.

(يتيم أبى طالب)؛ لأنه رباه بعد موت أبيه، وجده عبد المطلب **(بالقتل)** لما فيه من الاستخفاف والتحقير، وقصد قائله ذلك لقيام قرينة عليه كما سيأتى.

قال ابن حجر: والظاهر أن مذهبنا لا يأبى ذلك لما فى عبارته من الدلالة على الإزراء، فإن ذكر يتيم أبى طالب فقط، لم يكن صريحًا فى ذلك فيما يظهر، نعم إن كان السياق يدل على الإزراء كان كما لو جمع بين اللفظين.

(وأفتى) الشيخ **(أبو محمد بن أبى زيد)** عبد الله القيروانى المالكى الذى انتهت إليه رياسة مذهب مالك بالمغرب، ورحل إليه من الأقطار وكثر الآخذون عنه.

وقال المصنف، رحمه الله تعالى، فى حقه: أنه حاز رياسة الدين والدنيا حتى سمى مالك الأصغر، توفى فى نصف شعبان سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، **(بقتل رجل سمع قومًا يتذاكرون)** أى يتحدثون ويذكر بعضهم لبعض **(صفة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** يعنى حليته الشريفة التى مر الكلام عليها، **(إذ مر عليهم)** أى فى حال تحدثهم **(رجل قبيح الوجه واللحية)** على غير هيئة مستحسنة **(فقال لهم)**، أى هؤلاء الجماعة الذى يتحدثون **(تريدون تعرفون صفته)** صلى الله تعالى عليه وسلم وخلقته فقالوا له: نعم، فقال: **(هى فى)** مثل **(صفة هذا المار فى خلقه)** بفتح فسكون.

(و) هيئة **(لحيته)** وكانت هيئة ذلك المار مستقبحة كما تقرر **(قال: ولا تقبل توبته)** لكفره وعظم جرمه، قال ابن حجر: ومذهبنا قاض بذلك **(وقد كذب)** هذا الرجل فى مقالته هذه **(لعنه الله)** وأخزاه وقبح وجهه **(وليس يخرج)** ما قاله هذا الملعون **(من قلب سليم الإيمان)** بل عديم العقل والإيمان.

(وقال أحمد بن أبى سليمان) هو من علماء المالكية المعروفين عندهم **(صاحب سحنون**

من قال: إن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)، كان لون وجهه وظاهر بدنه **(أسود يقتل)**؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان من الحسن وبياض الوجه بصفة لا يخفى كما مر، فهذا القائل قد كذب وافترى، ووصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بما فيه إشعار بالتحقير لعنه الله وسود وجهه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، وهذا مما صرح به الفقهاء، وعللوه بأنه قصد الكذب استخفافًا، فهو كما لو قال: لم يكن صلى الله تعالى عليه وسلم قرشيًا.

(وقال) ابن أبى سليمان أيضًا، **(فى رجل قيل له)** وقد تكلم بشىء لجماعة لم يقبلوه، **(لا)** ردًا لما قاله **(وحق رسول الله)** أى عظمته وجلالة قدره عند الله، وهو قسم مؤكد لما قبله، ومثل هذا اليمين المؤكد به والاستعطافى ليس يمينًا شرعيًا، وإنما جاء على عرف التخاطب، فالبحث عنه هنا لا وجه له.

(فقال) الرجل المخاطب بعد ما ذكر **(فعل الله برسول الله كذا وكذا)** كناية عن كلام قبيح، وصف به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تركه لاستهجانه كما ذكره بقوله، **(وذكر كلامًا قبيحًا)** لا يليق ذكره **(فقيل له)** إنكارًا لمقالته **(ما تقول: يا عدو الله)** جعله عدو الله لتحقيره رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فقال له)**: أى لمن أنكر كلامه كلامًا فى قبحه **(أشد من كلامه الأول)** الذى سبق منه.

(ثم قال) يوجه كلامه القبيح ويأوله **(إنما أردت)** بقولى **(برسول الله)** الذى وصفته بصفات أنكرتموها **(الصعق)**؛ لأن الله هو الذى أرسلها وساقها كما فى قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ [الرعد: ١٣]، وهذا حقيقة معنى الإرسال، وهذا مما لا شك فى معناه، وإنكاره مكابرة لكنه لا يقبل من قائله، وادعاؤه أنه مراده لأن رسول الله صار فى كلامهم لا يراد به إلا الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ولا يخطر غيره ببال أحد، فلذا لم يقبل تأويله.

قال ابن حجر، رحمه الله تعالى: ومذهبنا لا يأبى ذلك، **(فقال ابن أبى سليمان للذى سأله)** مستفتيًا عنه **(اشهد عليه)** أمر له بأن يشهد به عند حاكم يجرى عليه ما يستحقه، **(وأنا شريكك)** معطوف على مقدر تقديره، فإذا قتل فلك أجر عظيم، **(يريد فى قتله وثواب ذلك)**، فهو ما وقع فيه الشركة **(قال حبيب بن الربيع)**: هو يحيى بن حبيب، وقد تقدم موجهًا لقول ابن أبى سليمان وفتواه بقتله؛ **(لأن ادعاءه التأويل)** بصرف اللفظ عن ظاهره وما دل عليه **(فى لفظ صراح)** بمهملات مضموم الأول، وهو بمعنى صريح وأبلغ منه، فالتأويل **(لا يقبل)** لبعده غاية البعد وصرف اللفظ عن ظاهره لا يقبل كما لو قال: أنت طالق، وقال: أردت محلولة غير مربوطة لا يلتفت لمثله ويعد هذيانًا؛ **(لأنه امتهان)**،

أى ابتذال وتحقير من المهنة، وهى الذلة، أى فيه تحقير لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بحسب صريحه ومدلوله المعروف.

(وهو)، أى قائله **(غير معزر لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)** بزاء معجمة فى أوله وراء مهملة فى آخره أو معجمة، أى غير معظم **(ولا موقر له)** لعدم تأدبه **(فوجب)** بسبب هذا **(إباحة دمه)** بجعله هدر الوجوب قتله وتأويله لا يسمع منه **(وأفتى أبو عبد الله بن عتاب)** من فقهاء المالكية **(فى عشار)** بالتشديد، وهو من يأخذ العشر، وهو المكاس **(قال لرجل)** طلب منه المكس، فامتنع، وقال له: إنه ظلم لا يرضى به رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال له المكاس: **(أد)** بفتح الهمزة وتشديد الدال المهملة أمر بمعنى أعط ما طلب منك.

(واشك إلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم) منى ومن ظلمى لك، ومثله تحقير للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، والشريعة كأنه يقول: لا قدرة له على دفعه لو كان حيًا موجودًا الآن، فلذا أفتى فيه بوجوب القتل واشك أمر من الشكاية، وكان المتضرر بأخذ المكس، قال له: أشكوك للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وقال)** أى العشار لذلك الرجل، ويحتمل أن القائل ابن عتاب، فهو فتوى أخرى، فيمن قال: **(إن سألت)** بضم التاء، **(أو جهلت)** أنا أمرًا أسأل عنه.

(فقد جهل) النبى بعض الأمور؛ لأن علم جميع الأمور إنما هو لله **(وسأل)** عما لم يعلمه **(النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، فأفتى فى هذا أيضًا، **(بالقتل)** لما فيه من الاستخفاف برسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لتسويته بينه وبينه وإسناد السؤال والجهل له، فهذا مع ما قبله كلام واحد، أو كلامان كما أشرنا إليه.

قال ابن حجر: ومذهبنا قاض بذلك أيضًا، بل الذى يظهر أن مجرد قوله: أد واشك إلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بقصد عدم المبالاة كفر أيضًا، **(وأفتى فقهاء الأندلس)** بفتح الهمزة والدال المهملة، وضم اللام، كما مر، علم أرض بالمغرب كان بها من كبار العلماء ما لا يحصى، وهو الآن بيد النصارى، وفى دخول ال عليها كلام، وهى معربة **(بقتل ابن حاتم المتفقه)** أى الذى يدعى علمه بالفقه والتبحر فيه، وهو رجل من أهل الأندلس، لم أقف على ترجمته **(الطليطلى)** بضم الطاء المهملة وفتح لام قبل مثناة تحتية ساكنة وطاء مهملة مكسورة ولام وياء نسبة لطليطلة، وهى مدينة مشهورة بالأندلس **(وصلبه)** على جذع مرتفع إلى أن يموت أو ينزل فيقتل تشهيرًا له، وتخويفًا للعامة من الجرأة على مثله **(بما شهد)** ببناء المجهول **(عليه به من استخفافه بحق النبى)** أى بتكلمه بكلام يشعر بتحقيره، أى برفعة قدره الذى هو حق ثابت على كل أحد من أمته.

(وتسميته إياه) أى تسمية ذلك الملعون **(أثناء مناظرته)** النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(باليتيم)** أى قوله: إنه يتيم أبى طالب كما كان يقوله الكفرة استخفافًا به وإزراء، ومثل هذا إذا سبق مشعرًا بتحقير كان كفرًا، فإن لم يشعر به جاز كما فى قول البوصيرى، رحمه الله تعالى فى البردة(١):

كفاك بالعلم فى الأمى معجــزة فى الجاهلية والتأديب فــى اليتــم

واليتيم من الآدمى ولد صغير لا أب له، ومن الحيوان ما لا أم له، ومن الطير مـا لا أم له، ولا أب وقيل لبعضهم: لم كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يتيمًا؟ فقال: لئلا يكون لمخلوق عليه منة وحكمة أخرى ظهرت فى هذا البيت؛ لأن اليتيم من شأنه عدم الأدب وعزة النفس، وقد تربى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يتيمًا مع ما فيه من الآداب وعزة النفس التى لا يصل إليها أحد من البشر، ولذا قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»، كما رواه السمعانى، ومر أنه مات أبوه، وهو حمل على الأصح، وقيل: ابن شهرين، وقيل: ابن سبعة، وقيل: ثمانية، وقيل: ثمانية وعشرين شهرًا، فكان فى كفالة عمه أبى طالب بعد جده، وهو فى البيت مدح كما فى قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: ٦]، فيما قيل: إنه كان على الناظم أن يجتنبه لا وجه له وتأويله بأنه مفرد كالدرة اليتيمة مع عدم الحاجة إليه لا ينافى البيت، وليس بمراد له.

(وختن حيدرة)، أى قال الطليطلى: إنه ختن حيدرة، أى أبو زوجته، يعنى فاطمة الزهراء، فعبر به عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، استخفافًا به، فحكموا بقتله، وقتل وهو من أهل الأندلس أيضًا، والختن كل قريب لامرأة رجل، كأب، وأخ، والعامة تطلقه على زوج البنت كما فى الصحاح، وحيدرة معناه الأسد، وهو هنا اسم رجل أندلسى، وهو لقب على، رضى الله تعالى عنه، لشدة خلقه وكانت أمه سمته أسدًا لغيبة أبيه، لما ولد باسم أبيها؛ لأنها فاطمة بنت أسد، فلما قدم أبوه من سفره سماه عليًا، ولذا قال:

أنا الذى سمتنى أمى حيدرة

(وزعمه) بتثليث الزاء المعجمة، بمعنى الظن وغلب استعماله فى الباطل كما هنا، ولذا قيل: زعم مطية الكذب، والضمير للطليطلى، **(أن زهده)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، بترك الدنيا **(لم يكن قصدًا)** منه واختيارًا بل عجزًا واضطرارًا.

(و) قال: **(لو قدر على الطيبات أكلها)** وضم ما قاله من الهذيان **(إلى أشباه هذا)** أى

(١) تقدم الاستشهاد به.

كلمات أخر تشبهها فى السخافة والقبح الذى كفر به، وهذا جهل منه بالله تعالى وقدرته، وبالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعزته، ولو أراد، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن تكون جبال مكة ذهبًا كانت، وقد عرض عليه ذلك، فأباه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما قال البوصيرى، رحمه الله تعالى(١):

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من   لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

وهو غنى عن البيان.

قال ابن حجر: ومذهبنا لا ينافى ذلك، بل زعمه ما ذكر فى الزهد ينبغى أن يكون كافيًا فى كفره، وهو ظاهر لنسبة النقص إليه صلى الله تعالى عليه وسلم **(وأفتى فقهاء القيروان)** كابن أبى زيد صاحب الرسالة، والقيروان مدينة عظيمة بالأندلس، وهو لفظ معرب كأربان، بمعنى القافلة العظيمة لا الجيش كما توهم وراءها تضم وتفتح، وينسب إليه قيروانى وقروى على خلاف القياس.

(و) كذا أفتى **(أصحاب سحنون بقتل إبراهيم الفزارى)** نسبة لفزارة قبيلة مشهورة، **(وكان شاعرًا)** جيد الشعر فصيحًا **(متفننا)**، أى ذو فنون فى كثير **(من العلوم)** الفلسفية وغيرها، ولكن من يضلل الله فلا هادى له، فعلومه رأس مال لجهله بما يجب العلم به.

(وكان ممن يحضر مجلس القاضى أبى العباس بن طالب للمناظرة)، أى للمباحثة فى العلوم، وهى مفاعلة من النظر بمعنى الفكر فى إقامة الأدلة، **(فرفعت)**، أى نقلت عنه، كما يقال: حديث مرفوع وضمنه معنى شنع فعداه بعلى بقوله: **(عليه أمور منكرة)** ينكرها عليه علماء الشريعة، وأهل الدين **(من هذا الباب)**، أى من نوع الكفر القبيح **(فى الاستهزاء بالله تعالى وأنبيائه ونبينا، عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، فأحضر له)** بمجلس الحكم **(القاضى يحيى بن عمر)**، وهو قاضى القيروان وعالمها **(وغيره من الفقهاء)** المالكية فى عصره، **(وأمر بقتله)** بعد ما حكم بكفره بما ثبت عليه فى ملأ الناس **(وصلبه فطعن بالسكين)** ليقتل **(وصلب)** على جذع **(منكسًا)** رجلاه أعلى ورأسه أسفل تحقيرًا له وتشهيرًا.

(ثم أنزل) من جذعه المصلوب عليه **(وأحرق بالنار)** بعد موته، وهذا مما أجازه العلماء كما ذكره السبكى فى كتابه السيف المسلول على من سب الرسول.

(وحكى بعض المؤرخين)، أى العلماء بعلم التاريخ وأخبار من سلف **(أنه)** أى إبراهيم الفزارى المصلوب **(لما رفعت خشبته)** التى صلب عليها **(وزالت عنها الأيدى)** التى

---

(١) البيت من البسيط، وهو فى ديوان البوصيرى (ص١٦٧).

رفعتها، وذكره ليعلم أن ذلك الأمر ليس لفعلهم، وإنما هو أمر إلهى، (**استدارت**) لجانب آخر غير ما كان موجهًا له، (**وحولته عن القبلة**) بعد ما كان موجهًا لها بيانًا؛ لأنه غير مسلم، وليس من أهل القبلة، (**فكان ذلك**) أى تحوله عن القبلة.

(**آية**)، أى علامة وعبرة (**للجميع**) أى جميع من حضر أو جميع من كان على نهجه فى الزندقة (**وكبر الناس**) أى صاحوا الله أكبر تعجبًا مما شاهدوه، (**وجاء كلب فولغ فى دمه**) الذى جرى منه حين طعن بالسكين، يقال: ولغ الكلب والسبع، إذا لعق مائعًا بلسانه، ولا يقال: ولغ لغير ذلك.

(**فقال يحيى بن عمر**) القاضى: حين رأى ولوغ الكلب فى دمه (**صدق رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، و**) بين ما صدقه بأن (**ذكر حديثًا عنه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثبت عنده، (**أنه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**قال: لا يلغ**) بفتح اللام وكسرها، والثانى: هو القياس، (**الكلب فى دم مسلم**) تكريمًا له إلا أنه قيل: لا يعرفه الحفاظ، فالظاهر أنه لا أصل له؛ لأنه لم ينقله الثقات.

ونقل عن ابن حجر أيضًا، أنه قال: لا أصل له، ونقل المصنف له عن القاضى المذكور لعدم وقوفه عليه فى كلام غيره.

(**وقال القاضى أبو عبد الرحمن بن المرابط**): هو من يقيم بالثغور الإسلامية لحراستها وله فضائل عظيمة مذكورة، فى كتاب الجهاد، وابن المرابط هذا هو أبو مصعب، ويقال: المصعب كما مر ابن محمد بن خلف بن سعيد بن وهب، توفى بعد ثمانين وأربعمائة، وهو من أجل أئمة المالكية بالمغرب (**من قال: إن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، هزم، يستتاب**)، أى يطلب منه أن يتوب مما قاله ويرجع عنه، وهزم بزاء معجمة مبنى للمجهول من الهزيمة، وهى الفرار من الزحف، وهى كبيرة إلا متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلى فئة كما فى الآية، وبيانه فى التفسير وكتب الفقه، فمن قال: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فر من عدو خوفًا وجبنا فى وقعة هوازن بحنين فقد كذب ونسب إليه، ما هو نقص وعار، قال ابن حجر: وقضية مذهبنا، أنه لا يكفر بذلك إلا إن قاله على قصد التنقيص؛ لأنه ليس صريحًا فيه؛ لأن الهزيمة قد تكون من الجبلات البشرية، فإن لم يقصد ذلك لم يكفر، بل يعذر التعزير الشديد، انتهى.

ولو قيل: إن الفرار مما لا يطاق من سنن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، كما فر موسى حين هم به القبط لم يبعد، (**فإن تاب**) قبلت توبته، (**وإلا**) أى وإن لم يتب (**قتل لأنه تنقيص**)؛ له، صلى الله تعالى عليه وسلم، واستهانة به، وهو كفر، وهذا مخالف لما

قدمه من أن متنقصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقتل ولا يستتاب، فإما أن يكون ابن المرابط خالف مذهبه فى هذا أو يقول: إنه ظنه كثير من الناس، فإن تاب اندرأ عنه الحد؛ لما فيه من الشبهة، وأنه لا تنقيص فيه مع كثرة العدو وقوته.

وقوله: (**إذ لا يجوز ذلك**) أى هزيمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**عليه فى خاصته**)، أى فى الهزيمة منه ممتنعة لأمر خصه الله تعالى به، وجبله عليه لإلقاء الرعب منه فى قلوب أعدائه، وتثبيت الله تعالى له بقوة قلبه، (**إذ هو**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، طبعه الله (**على بصيرة**) من أمره يعرف بهذا أن أحدًا لا يقدر على إصابته بسوء (**ويقين من عصمته**) أى عصمة الله له بحفظه لقوله تعالى: ﴿**وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ**﴾ [المائدة: ٦٧]، ومر ما فيه من الكلام، فلو انهزم كان شاكًا فيما أخبره الله به، ومر أنه كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حرب هوازن، وقد حمى الوطيس على بغلته البيضاء، وكان أبو سفيان بن الحارث آخذًا بزمامها وهو يقول:

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

كما فى البخارى، فركب البغلة، وهى لا تصلح للكر والفر، ونادى باسمه إعلامًا لأعدائه بمكانه ليقصد، فأى ثبات وشجاعة أقوى من هذا، وقد فر كثير من الصحابة لما نضحوهم بالسهام.

(**وقال حبيب بن ربيع**): من أئمة مذهب مالك كما تقدم، (**القروى**) منسوب لقرية أو للقيروان على خلاف القياس، كما تقدم.

(**مذهب مالك وأصحابه أن من قال فيه**) أى فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**ما فيه نقص**) لمقامه العظيم (**قتل دون استتابة**) هذا تعقيب على ما قاله ابن المرابط لمخالفته لمذهبه وقد عرفت ما فيه.

(**وقال ابن عتاب**) من المالكية أيضًا: (**نص الكتاب والسنة**) من الأحاديث الصحيحة وطريقة السلف (**موجبان أن من قصد النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأذى**)، أى بما يؤذيه ويسوءه (**أو نقص**)، أى ما فيه تنقيص له وتحقير سواء كان (**معرضًا أو مصرحًا وإن قل**) فقليله وكثيره سواء، والتعريض الإتيان بما يوهم ذلك والتصريح بخلافه، (**فقتله واجب**) على كل حاكم رفع إليه أمره؛ لأن من آذاه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقد آذى الله، وقد وقع وعيده فى آيات عديدة مشهورة مر بعضها ويأتى بعضها أيضًا.

(**فهذا كله**)، أى كل ما ذكر فى هذا الباب مما فيه أذية أو تنقيص له صلى الله تعالى عليه وسلم (**مما عده العلماء سبًا أو تنقصًا يجب قتل قائله لم يختلف فى ذلك متقدمهم ولا**

متأخرهم، وإن اختلفوا فى حكم قتله على ما أشرنا إليه) فيما تقدم من هذا الكتاب، **(ونبينه)** تفصيلاً **(بعد)** أى بعد هذا، فهو مبنى على الضم.

(وكذلك) أى مثل ما تقدم عن أئمة الدين **(أقول حكم من غمصه)** بغين معجمة وميم وصاد مهملة، أى حقره وعابه بما لا يليق به **(أو عيره)** بتشديد الياء التحتية، أى نسبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما فيه عار، وهو متعد بنفسه فى الفصيح، وقد يتعدى بالباء وإنكار الحريرى له فى درة الغواص لا وجه له كما فصلناه فى شرحها مع شواهده.

ومنه قوله: **(برعاية الغنم)** قال السيوطى فى كتابه، تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء: وهو كتاب جليل ينبغى الوقوف عليه، أن رجلاً سب آخر بأنه راعى، فقال له: ما من نبى إلا رعى الغنم. بمجمع من العامة.

فقال قاضى القضاة المالكى: لو رفع لى هذا ضربته بالسياط، فلما سُئلت عنه أجبت بأنه يعذر أبلغ تعزير؛ لأنه لا ينبغى ضرب آحاد الناس مثلاً لنفسه بالأنبياء، والمستدل بمثله، قد يكون فى مقام التدريس والإفتاء والتصنيف، وبيان العلم لأهله لا ينكر عليه، إما فى مقام الخصام والتبرى، عن معرة نقص نسب له، أو لغيره فهو محل الإنكار والتأديب لاسيما بحضرة العوام، وفى الأسواق، فهو سب وقذف، ولكل مقام مقال يناسبه.

وسُئل الحافظ ابن حجر: عما يقع فى الموالد من الوعاظ بين العوام من ذكر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، بما يخل بالتعظيم، حتى يحصل لسامعه رقة وحزن، كقولهم: إن المراضع لم تأخذه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعدم ماله حتى أخذته حليمة شفقة عليه، ويقولون: إنه كان يرعى غنمًا وينشدون فى ذلك:

بأغنامه سار الحبيب لكى يرعى   فيا حبذا راع فؤادى له يرعى

فأجاب بأنه ينبغى أن يحذف من الخير ما يوهم نقصًا، وإن لم يضره بل يجب ذلك، انتهى.

(أو) وصفه **(بالسهو أو النسيان أو السحر)** أما الأخير؛ فلأنه لا شبهة فى امتناعه واستحقاق قائله، ما مر وأما إلا ولأن فمما صدر عنه صلى الله تعالى عليه وسلم نادرًا كما تقدم؛ لكنه لا يجوز وصفه فى سياق يوهم تنقيصًا لمقامه؛ لأنه يصدر منه نادرًا للتشريع.

(أو) أى ولا يجوز أيضًا ذكر **(ما أصابه من حرج)** بالحاء والراء المهملتين المفتوحتين

والجيم مؤخرة، أى ضيق وشدة من أعدائه أحيانًا كما وقع له صلى الله تعالى عليه وسلم بأحد من كسر رباعيته وجرحه.

وفى بعض النسخ: أو جرح بالجيم المضمومة مقدمة، وسكون الراء، **(أو هزيمة لبعض جيوشه)** فلا يجوز ذكره، وإن لم يكن فى ذاته كما تقدم؛ لأن إهانة أصحابه إهانة له، وذكرها يؤذيه.

(أو أذى من عدوه) له أو لجنده **(أو شدة من زمنه)** تصيبه أو تصيب أصحابه كقلة المعيشة وضيق الحال، وخوف العدو.

(أو) وصفه **(بالميل إلى نسائه)** فلا يجوز، وإن كان جائزًا عليه لما فيه من النقص بالنسبة لجليل قدره **(فحكم هذا)** المذكور **(كله)** وإن كان فيه ما هو جائز عليه كالسهو **(لمن قصد به له نقصه القتل)**، فإن لم يقصده لم يمتنع كما تقدم فى كلام السيوطى وغيره.

قال ابن حجر: وما ذكره المصنف ظاهر لقصده النقص، وهو كفر كما مر.

(وقد مضى) فى هذا الكتاب **(من مذاهب العلماء فى ذلك ويأتى ما يدل عليه)** ويبينه وما موصولة أو موصوفة تنازعها مضى، ويأتى.

قال السبكى، رحمه الله تعالى، بعد ما ذكر هنا فى هذا الفصل: إن كان هذا عن سوء عقيدة فلا إشكال فيه، أما إذا صدر عن مؤمن، وقلنا: الإيمان هو التصديق فقط، والكفر الجحود فكيف يكون هذا كافرًا؟ وأجاب نقلاً عن إمام الحرمين أن المسلمين أجمعوا على تكفيره، فكأنه لأنه تعالى قضى بأنه لا يصدر مثله إلا ممن قضى الله تعالى بانتزاع معرفة الله تعالى من قلبه، والعمل، وإن لم يكن ركن الإيمان فالإقرار والانقياد والإذعان بترك الاستكبار عن امتثال أوامره لابد منه، ولذا كفر إبليس بالاستكبار.

والحاصل: أن الإيمان، بمعنى التصديق لابد أن يقترن به أمر آخر هو: طمأنينة القلب لقبول الأوامر والنواهى، والانقياد لها بقلبه، وهو معنى الطمأنينة، فمن استخف واستهان به ضاد ذلك، فانتفى تصديقه الموجود صورة بانتفاء أثره، فصار ذلك كالعدم، فالكفر كفران، كفر جهل وجحود ككفر النصارى، وكفر مع التصديق والمعرفة لوجود ما يعارضه ويصيره كالعدم ككفر إبليس، واليهود، فإذا نفى عنه التصديق فهو نفى للمعتد به منه، وكفر الساب والمنتقص من هذا القبيل فهو كفر جهل استحل أم لا، فمن توقف فى التكفير من الفقهاء لمن لم يستحل خفى عليه مأخذه، انتهى، وهو نفيس جدًا ينبغى التنبيه له فى تكفير الفقهاء لبعض الناس فتدبر.

* * *

(فصل فى الحجة) [فى إيجاب قتل من سبه أو عابه ﷺ]

أى فى بيان الدليل (**فى إيجاب قتل من سبه، أو عابه، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، بذكر ما فيه تنقيص له، (**فمن**) آيات (**القرآن لعنه تعالى لمؤذيه فى الدنيا والآخرة**) كما مر، ولا يطرد فى الدارين عن رحمته تعالى إلا الكافر المستحق للقتل (**وقرآنه تعالى أذاه بأذاه**) بجعل ما يؤذى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يؤذيه.

(**و**) وجه الدلالة أنه (**لا خلاف فى قتل من سب الله تعالى**)، فإنه كفر بالاتفاق كما يأتى، (**و**) لا خلاف فى (**أن اللعن**)، أى الطرد من رحمة الله تعالى، فى الدارين (**إنما يستوجبه**)، أى يستحقه وجوبًا (**من هو كافر**) وهذه مقدمة من برهان منطقى على الحكم بقتله.

(**و**) المقدمة الأخرى (**حكم الكافر القتل**)؛ لأنه غير معصوم الدم بالذات، وإن عرض له ما يمنع من قتله، ومن كفر بسببه أشد من الكافر الأصلى كما سمعته آنفًا، (**وقال الله تعالى**: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ**﴾) [الأحزاب: ٥٧]، وأذية الله تعالى لا تمكن؛ لأنها إيصال مكروه له، وهو لا يتصور فى حقه، فذكره تهويلاً لأذية الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن من يؤذيه كمن يؤذى الله واللعن الطرد من رحمة الله تعالى، وهو إنما يكون فى الدارين للكافر كما تقرر.

(**وقال**) الله تعالى فى القرآن (**فى قاتل المؤمن**) عمدًا بغير حق (**مثل ذلك**)، أى مثل ما قال فى حق من يؤذى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فوصفه باللعنة، (**فمن لعنته فى الدنيا القتل**) أى لعنة القاتل فى الدنيا بقتله قصاصًا، والذى يدل على أن اللعنة فى الدنيا القتل ما (**قال الله تعالى**) ﴿**۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ [الأحزاب: ٦٠]، ﴿**مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ**﴾ [الأحزاب: ٦١]، نصب ملعونين على الشتم أو الحال، أى لا يجاورونك فى المدينة إلا ملعونين وثقفوا، بمعنى وجدوا وقد ظفرتم بهم.

﴿**أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا**﴾ [الأحزاب: ٦١]، والآية تدل على أن معنى، لعنة الدنيا: هى القتل، فتدل على قتل من آذاه؛ لأن الله تعالى لعنه فى الدنيا والآخرة.

(**وقال**) الله عز وجل، (**فى المحاربين**): أى الذين حاربوا الله ورسوله ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادًا**﴾ [المائدة: ٣٣]، إذ المراد بهم قطاع الطريق، جعل محاربتهم للمسلمين محاربة لله ولرسوله لخروجهم عن أمرهما، وحكمهم مذكور فى كتب الفقه، وإنما ذكر المصنف هذا دليلاً عن أن اللعنة جاءت، بمعنى القتل.

وقوله: (**وذكر عقوبتهم**) يعني في الدنيا بقوله تعالى: ﴿**أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ**﴾ [المائدة: ٣٣]، والجملة حالية، أو معترضة ومقول، قال: ﴿**ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾، وذلك إشارة للقتل وما بعده، والخزى الذل والفضيحة، وهو استدلال معنوى؛ لأن الخزى فى الدنيا بمعنى اللعنة، فما قيل من أنه قليل الجدوى هنا ناشئ من عدم التدبر، وقد ذكر هنا كلامًا طويلاً بغير طائل، (**وقد يقع**) فى القرآن.

(**القتل بمعنى اللعن**) عكس ما تقدم فوقوع كل منهما فى موقع الآخر يدل على أن المراد بهما معنى واحد (**قال الله تعالى:** ﴿**قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ**﴾) [الذاريات: ١٠]، أى الكذابون الذين يقولون ما لا يصح تخمينًا وتقديرًا من أنفسهم، فالقتل بمعنى الإهلاك جرى مجرى اللعن والقبح فى الدعاء وغيره.

(**وقاتلهم الله**) فى الدعاء كلعنهم الله تعالى، وقد يرد هذا للتعجب ممن فعل فعلاً قريبًا، ولو فى مقام المدح، وقد يرد على ظاهره كقوله تعالى: ﴿**قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ**﴾ [التوبة: ٣٠]، أى يصرفون عن الحق، (**أى لعنهم الله**) فوقع موقعه فى الدعاء، والمعنى المجازى كالحقيقى؛ (**ولأنه لا فرق بين أذاهما**)، أى أذية الله تعالى، وأذية رسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**وأذى المؤمنين**)؛ لأن أذاهم يسوء رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويؤذيه فى أمته وأذيته أذية الله كما تقدم، وعدم الفرق فى مطلق الأذى، وإن كان بين أذاهما وأذى المؤمنين فرق بحسب الجزاء، وإليه أشار بقوله: (**وفى أذى المؤمنين ما دون القتل**)، أى أقل منه (**من الضرب**) حدًا وتعزيرًا (**والنكال**)، أى العقوبة بغير قتل كقطع يد ونحوه.

قال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا**﴾ [الأحزاب: ٥٨]، (**فكان حكم مؤذى الله تعالى، ونبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أشد من ذلك**)، أى من جزاء أذية المؤمنين التى تكون بضرب ونحوه، وقوله: (**وهو القتل**) راجع لحكم الأشد وحاصله الاستدلال على أن من سبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقتل.

(و) الدليل عليه أيضًا أنه (**قال تعالى:** ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ**﴾) [النساء: ٦٥]، أى فوربك ﴿**لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ**﴾، أى وقع بينهم من الاختلاف، والمخاصمة وحتى غاية متعلقة بقوله: لا يؤمنون، أى ينتفى عنهم الإيمان إلى هذه الغاية، وهى تحكيمك وعدم وجدانهم الحرج وتسليمهم لأمرك، (**الآية**) يعنى قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا**﴾، وتقدم أن سبب نزول هذه

الآية كما فى البخارى أن الزبير بن العوام، رضى الله تعالى عنه، خاصم رجلاً من الأنصار بدريًا فى أمر الماء الذى يشرج الحرة، فأغضب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما تقدم فنزلت هذه الآية، ولا مزيدة لا لتأكيد النفى فى جواب القسم لا لظاهر لا فى قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢]؛ لأنها تزاد أيضًا فى الإثبات كقوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ١].

وقيل: إن لا الثانية زائدة، والقسم معترض بين حرفى النفى، والمنفى وكان التقدير، فلا لا يؤمنون، وربك، فنفى الإيمان عمن لم يرض حكمه لما فيه من الأذية له، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما أشار إليه بقوله: **(فسلب)** الله تعالى ونفى **(اسم الإيمان عمن وجد فى صدره)**، أى قلبه الذى فيه ونفسه، واسم على ظاهره، أى لا تسمه مؤمنًا، أو هو مقحم مزيد للمبالغة فى نفيه عنه.

(حرجًا)، أى ضيقًا عن قبول حكمه أو قلقًا إشارة لقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء: ٦٥]، **(من قضائه)** وحكمه **(ولم يسلم له)**، أى لم ينقد، ولم يذعن لحكمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، إشارة لقوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾، وأورد على هذا بعض الشراح كلامًا طويلاً.

وزعم أن المفسرين لم يعبروا به، وحاصله: أنها إن كانت فى اليهود والمنافقين ممن ليس بمؤمن، فلا يجعل سلب إيمانهم غاية لعدم الرضى بحكمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإن كانت فى الزبير، رضى الله تعالى عنه، فهو مؤمن قبل الحكم وبعده، فإن كانت عامة فالحرج كاف، فلا حاجة لقوله: ﴿يُحَكِّمُوكَ﴾، إلخ، وهو يقتضى أن مجرد الرضى بحكمه يكفى فى ثبوت الإيمان ولا قائل به إلى آخر ما ذكره مما يدل على ضيق العطن، بل قلة الفطن؛ لأن المراد من لم يرض بحكمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم ينقد لنهيه وأمره شاك فى دينه غير متحل بيقينه، ومثله مؤذ له مغضب له، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما مر فى سبب النزول، وأذيته كفر حقيقة أو مؤذية إليه، ففيها حث على اجتناب ما يكره والخوف من عاقبته، فأى حاجه لدندنته بما لا محصل له، ولولا خوف الإطالة أوردناه وبينا ما فيه.

(ومن تنقصه)، أى صدر عنه ما فيه نقص له، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فقد ناقض هذا)** المذكور فى هذه الآية من الحرج وعدم التسليم مما يجر إلى نفى الإيمان.

(وقال) الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجرات: ٢]، إلى قوله ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾، ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ

لِبَعۡضٍ﴾ ، فنهى الله المؤمنين عن رفع الصوت فى مخاطبته، وأن يتأدبوا معه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بخفض أصواتهم تعظيمًا له وتأدبًا، وحبوط الأعمال سقوطها حتى لا يثاب عليها من حبطت الدابة إذا أكثرت أكلها حتى انتفخت وماتت.

(**ولا يحبط الأعمال**) بسقوطها عن أن يعتد بها ورفع ثوابها (**إلا الكفر**)؛ لأن الأعمال إنما تتقبل من المؤمن؛ لأن العمل المقبول ثمرة الإيمان، وهذا مذهب أهل السنة من أن المحبط كفر أصلى، أو طار بردة والمعتزلة يقولون: يحبط بالكبائر، والخلاف مشهور فى الأصول، (**والكافر يقتل**) أى يستحق القتل شرعًا بما أوجبه، والمراد النهى عن المؤذى، ورفع الصوت فوق صوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيه أذية له وهذا مخصوص بمن قصد إهانته وتحقيره،، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن لم يقصده كان خلاف الأولى، فالقول بأن إطلاقها، لا يوافق مدعاه غير ظاهر لعدوله عن الظاهر، وكان الصحابة بعد نزول هذه الآية، لا يكلمونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلا كأخى السرار كما مر.

وقال ابن العربى، رحمه الله تعالى: هذا كما هو فى حياته، صلى الله تعالى عليه وسلم، متحتم بعد مماته، حتى لا ينبغى رفع الصوت عند قبره الشريف ولا عند قراءة حديثه، ولا عند أحد من العلماء الذين ورثوا مقامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فهذا كله مكروه أشد كراهة، ومع قصد الإهانة حرام، وقد علم هذا كما مر.

(**وقال**) الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [المجادلة: ٨]، يعنى اليهود والمنافقين، لما كانوا يقولون: السام عليك، يعنون الدعاء بالموت ويحرفون تحية الله التى هى السلام، ويقولون فى أنفسهم: ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

(**ثم قال**) عز وجل، قولهم هذا: ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ، أى يكفى فى جزائهم، ما أعد الله لهم من عذاب الآخرة الذى يصير لهم، وقد علمت أن ضمير جاءوك لليهود والمنافقين الذى يتناجون ويتغامزون حتى شكاهم الأنصار لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فنهاهم فلم ينتهوا، فنزلت فيهم هذه الآية، وقيل: نزلت فى اليهود، لما كانوا إذا جاؤه قالوا: السام عليك، ثم يقولون: لو كان نبيًا ما أمهلنا الله تعالى مع استخفافنا، فإذا نهوا عن هذا، وجاء وعيدهم به، فالسب يعلم بالطريق الأولى.

(**وقال تعالى: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ﴾**) [التوبة: ٦١]، أى يسمع كل ما يقال له، ويقبله من كل أحد، فجعل ذاته كلها أذنًا تسمية للكل باسم جزئه كما سمى الرئية عينًا، فهو مجاز مرسل، والقائلون هم المنافقون، قالوا: نقول له ما نريد، ثم نأتيه فننكر ونحلف، فيصدقنا ظنوه غفلة منه، وإنما هو حلم منه، صلى الله تعالى

عليه وسلم، عليهم فرد الله عليهم مقالهم بقوله: **(قل)** هو ﴿**أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ**﴾، أى نعم، هو أذن، ولكنه أذن خير، وصلاح لعفوه وصفحه، وهو مع ذلك ﴿**يُؤْمِنُ بِاللَّهِ**﴾ بتصديقه لما جاء به.

﴿**وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ يصدقهم ويجعلهم فى أمان بقبوله من محسنهم، وتجاوزه عن مسيئهم وعداه باللام لتضمنه معنى يستمع قولهم مصدقًا له، وفيه تعريض لهم؛ بأنه لا يقبل قولهم، وإنما يستر كذبهم بحلمه عليهم كما قال: ﴿**وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ**﴾، أى أظهروا الإيمان ولذا عبر بالفعل، وسمى غيرهم بالمؤمنين.

(وقد قال) وفى نسخة، ثم قال: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾، أى مؤلم وفيه مجاز عقلى، **(وقال)** الله تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ**﴾ [التوبة: ٦٥]، أى المنافقين الذين قالوا وهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذاهب لتبوك: انظروا لهذا الرجل يريد فتح حصون الشام هيهات، فأعلمه الله بذلك، فلما أخبرهم بما قالوه، قالوا كما أخبر الله تعالى عنهم، بقوله: ﴿**لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ**﴾، أى نتحدث لنقطع السفر بالتلهى بالحديث ﴿**وَنَلْعَبُ**﴾ تلهيًا منا، ﴿**قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ**﴾، استفهام تقريرى، لتنزيلهم منزلة المعترفين توبيخًا وتفضيحًا لهم ﴿**لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم**﴾ باستهزاءكم ﴿**بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ**﴾ بحسب الظاهر، أى لا تعتذروا بعذر غير مقبول لكذبكم، والقائل ذلك، وديعة بن ثابت لا ابن سلول كما قاله النقاش؛ لأنه لم يشهد تبوك، فهو خطأ، وقوله: ﴿**إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً**﴾ [التوبة: ٦٦]، كانوا ثلاثة تكلم اثنان وضحك الثالث، وهو المعفو عنه، واختلف هل هو مخشى بفتح الميم، وسكون الخاء المعجمة وشين معجمة مكسورة وياء بنقطتين من تحت مشددة، أو ابن مخشى أو خاس بن حمير بحاء مهملة مضمومة وميم مفتوحة وياء مشددة وراء مهملة تصغير حمار الأشجعى، وهو مسلم، وقيل: منافق لكنه تاب وحسن إسلامه، وسأل الله تعالى الشهادة، فقتل باليمامة، وطلبه الشهادة لندامته على ضحكه، رحمه الله تعالى، ورضى عنه.

(قال أهل التفسير) فى تفسير هذه الآية، معنى **(كفرتم بقولكم فى رسول الله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، هو أذن فهو دليل على أن أذيته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كفر، وهذا قول المفسرين فى كفره.

(وأما الإجماع) على كفره **(فقد ذكرناه)** فيما تقدم، وقد بيناه أتم تبيين، **(وأما الآثار)** أى الأحاديث المسندة المروية فيه، فمنها ما ذكره المصنف، ورواه الطبرانى، والدارقطنى، عن على، رضى الله تعالى عنه، وقدم الإجماع؛ لأنه أقوى فى الدلالة على ما أراده

لاحتمال الأحاديث التأويل والتهويل بقوله.

(فحدثنا الشيخ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن غلبون) الخولانى القرطبى الإشبيلى الزاهد العلامة فى جميع الفنون، الثقة العابد، توفى سنة ثمان وخمسمائة وله تسعون سنة **(عن الشيخ أبى ذر الهروى)** وهو عبد الله بن محمد بن عبد الله الأنصارى الهروى الحافظ الفقيه المالكى نزيل مكة، وله معجم كبير وعاش سبعًا وأربعين سنة، وهو ثقة عابد حافظ عارف بالفقه، وأخذ الأصول عن الباقلانى، وتوفى سنة أربع وثلاثين وأربعمائة.

(إجازة) تقدم معناها، والإجازة لغة فيها كلام فى ابن الصلاح وحواشيه **(قال: حدثنا أبو الحسن الدارقطنى)** على بن عمر بن أحمد البغدادى الحافظ المشهور، صاحب التصانيف الجليلة يروى عن البغوى، وطبقته كما قاله الحاكم، وكان أوحد عصره فى الحفظ والفهم والورع، وانتهت معرفة الحديث، والعلل له، وكذا أسماء الرجال مع الصدق، وصحة الاعتقاد والاطلاع على علوم كثيرة، غير الحديث كالقراءات، والفقه والأدب والشعر، وهو لم ير مثل نفسه، وقيل: إنه كان أمير المؤمنين فى الحديث توفى سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، وسنه ثمانون، وهو منسوب لدار القطن محلة ببغداد.

(وأبو عمر بن حيوية) الإمام الحجة محمد بن العباس بن محمد بن زكريا البغدادى، وهو إمام ثقة توفى سنة اثنين وثلاثمائة عن سبع وثمانين سنة، وحيوية بفتح الحاء المهملة، وسكون الياء المثناة التحتية، وفتح الواو وبعدها ياء مشددة نسبه لحياة، وهو علم خلاف القياس؛ لأن مقتضاه قلب الواو ياء وإدغامها، لكن الأعلام ارتكبوا فيها خلاف القياس أحيانًا كما ذكره النحاة.

(قالا: حدثنا محمد بن نوح، قال: حدثنا عبد العزيز بن محمد بن الحسن بن زبالة) بفتح الزاء المعجمة، وتخفيف الموحدة ولام قبلها، وهو من أئمة الحديث المشهورين وله فيه كتاب متداول، إلا أن فيه أمورًا توقف فيها المحدثون قال: **(حدثنا عبد الله بن موسى بن جعفر)** هو عبد الله بن موسى الهاشمى، وفيه كلام فقيل: ضعيف، وقيل: ثقة توفى سنة أربع وسبعين وثلاثمائة.

(عن على بن موسى) المعروف بالرضى العلوى، وهو فى الأكثر يروى **(عن أبيه)**، موسى الكاظم بن جعفر الصادق، توفى بطوس سنة ثلاث ومائتين، وله خمسون سنة، قال: ويسند له أمور لا أصل لها كما يروى عن جعفر الصادق ولايتهما، وإنما الكلام فيمن نقل عنهما.

(عن جده) جعفر الصادق **(عن محمد بن على بن الحسين، عن أبيه)** وهو أبو جعفر

الباقر، وأبوه زين العابدين، **(عن الحسين بن على)** بن أبى طالب **(عن أبيه)** على بن أبى طالب، كرم الله وجهه، ورضى الله تعالى عنه، **(أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: من سب نبيًا، فاقتلوه، ومن سب أصحابى فاضربوه)**، أى حد القذف، وهذا الحديث تقدم من رواه، لكنهم قالوا: إن سنده ضعيف، ولم يروه أصحاب الكتب، لكنه اعتضد بالإجماع.

وقال ابن الصلاح: إن حديثه لا يعرف مردود عليه بروايته مسندًا، **(فى الحديث الصحيح)** الذى رواه البخارى وغيره مسندًا **(أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقتل كعب بن الأشرف)**، وهو يهودى من يهود خيبر مشهور.

(وقوله)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى هذا الحديث **(من لكعب بن الأشرف)** جملة اسمية معطوفة على جملة أمر الفعلية، أى قوله: هذا ثابت ومن استفهامية، أى من يقوم له ليقتله، وهو حث وحض على الأنصار بالانتقام، كما تقول: من لى بفلان فى الاستغاثة وطلب الإعانة، ثم علل الطلب بقوله: **(فإنه)** يعنى كعبًا لعنه الله **(آذى الله ورسوله)** وروى يؤذى إلى آخره؛ لأنه أعلن بسب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهجاه ورثى قتل المشركين ببدر، وذهب لمكة ليحرض أهلها على حربه، وأخذ الثأر، فلما رجع، وبلغ رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما فعله قال: «من لى بابن الأشرف...» إلخ.

وروى ابن حجر، عن ابن إسحاق: بسند ضعيف، أن كعبًا صنع وليمة جمع فيها اليهود، ودعا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيها وقال لليهود: إذا حضر، فاقتلوه، فلما أتاه لدعوته نزل عليه جبريل، صلى الله تعالى عليه وسلم، فستره بجناحه، وخرج وهم لا يرونه، فلما فقدوه تفرقوا، وكعب هذا كان من بنى بنهان بطن من طى، وكان شاعرًا فصيحًا، وكان أبوه أصاب دمًا فى الجاهلية، فأتى بنى النضير، وتزوج منهم عقيلة بنت الحقيق، فولدت له كعبًا، وكان وجيهًا جسيمًا فرأس فيهم، ثم اشتد أذاه وهجوه على المسلمين، ورسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يأمرهم بالصبر فأشار سعد بن معاذ بقتله فى السنة الثالثة فى ربيع الأول، كما فصلت قصته فى السير.

(و) ذلك إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وجه إليه)** أى إلى كعب، أى أرسل له، وأصله الإرسال لجهة **(من قتله غيلة)** بكسر الغين المعجمة، وسكون المثناة التحتية ولام وهاء، أى خفية من غير شعور أحد من الاغتيال، وهو الخداع والاختفاء للقتل **(دون دعوة)** للإسلام والرجوع عن الكفر **(بخلاف غيره من المشركين)** من مطلق الكفرة، فإنه إنما يقتل بعد الدعوة والإنذار **(وعلل)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قتله)** أى بين علة

قتله **(بأذاه له)** كما مر بقوله فى الحديث فإنه يؤذى الله ورسوله **(فدل)** تعليله على **(أن قتله إياه)** إنما كان **(لغير الإشراك)** أى مطلق الكفر؛ لأنه من أهل الكتاب والإشراك ورد بهذا المعنى أيضًا **(بل)** كان قتله **(للأذى)** لله ورسوله، فدلت هذه القصة على أن من سب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وآذاه من الكفار يقتل.

واعلم أن محصل قصة كعب، كما مر، أنه لما آذى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهجاه وحث أعداءه عليه وقال له سعد بن معاذ: الرأى فيه أن يقتل، فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «من يقوم لقتله»، فقام من الأنصار لذلك خمسة رجال فيهم محمد بن مسلمة رضى الله تعالى عنه، فقال: أنا لك به يا رسول الله فسكت ثم قال له: أفعل وشاور سعد بن معاذ فشاوره، فأشار عليه برأى سديد فقال ابن مسلمة: إنى سأقول له شيئًا فيك يا رسول الله، فقال: قل ما تريد، يريد أنه يقول فى صورة الذم ما يخدعه به فتوجه إليه وكان بينهما صداقه وشكى إليه الحاجة وطلب منه أن يقرضه وسقًا أو وسقين من الطعام لعياله، ومعه أبو نائلة وكان أخاه من الرضاع وشكيا له من النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقالا له: إنه عنانا بأخذ الصدقة منا وصار بلاء علينا فقال: فما تريا فيه؟ فقالا: إنا نريد أن نخذله ولكنا نتربص حتى نرى ما يؤل إليه أمره، فقال: قد سررتنى بهذا، ألم يأن لكم أن تعرفوا ما أنتم عليه من الباطل؟ ثم طلب رهنًا منه فقال: ما نرهن؟ قال: نساءكم، قال: إنك رجل جميل الوجه تشرب الشراب نخشى من فتنة النساء بك، قال: أولادكم، قال: نخشى العار فيهم بأن يقال: هذا رهن وسق أو وسقين ولكن نرهنك السلاح واللأمة يعنى الدروع، فقبل وواعدهما فقالا: نأتى ليلا سرًا حتى لا يدرى أحد، وكان رأيًا لئلا يرتاب إذا رآهم مسلحين، فلما خرجوا إليه شيعهم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لبقيع الغرقد وقال: انطلقوا على اسم الله اللهم أعنهم عليه فلما أتوه نادوه وهو مع امرأته فى حصنه، فقالت له: لا تخرج فى مثل هذه الساعة إنى لأسمع صوتا يقطر منه الدم، وهى فراسة عجيبة منها، فقال: إنما هما صديقى وأخى والكريم إذا دعى ولو إلى الطعن ليلا أجاب، وهو بلاء موكل بمنطقة ثم نزلت فوجدهما فى نفر من الأوس وهو يفوح منه الطيب، فقال لهم ابن مسلمة: إنى سأشم طيب رأسه، فإذا رأيتمونى أمسكت رأسه فاضربوه، فلما أتاهم متوشحًا، قال له ابن مسلمة: ما رأيت كاليوم طيبا فقال: عندى أطيب العرب، وأجملهم، فقال: أتأذن لى أن أشم؟ فقال: نعم، فشم هو وأصحابه، ثم قال له: ايذن لى فى الشم ثانيًا فقال: نعم فأمسك رأسه ثم قال: اضربوه وقتل، لعنه الله تعالى، وأصابه طرف سيف الحارث بن أوس فجرح، فلما جاء إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه

وسلم تفل على جرحه وألصقه فالتحم لوقته، ولما ضرب اللعين صاح، فذهب لهم اليهود فى طريق آخر فلم يجدوهم فأتوا النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو يصلى فكبروا فقال لهم: أفلحت الوجوه فقالوا: أفلح وجهك يا رسول الله، ورموا رأسه بين يديه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلما أصبح اليهود أتوه وقالوا: قتلت سيدنا غيلة، فقال: أما علمتم صنيعه، وأذيته للمسلمين؟ فلم ينطقوا بحرف خوفًا منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فدل هذا على جواز قتل الكافر المعاهد إذا سب الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، خلافًا لأبى حنيفة، رحمه الله تعالى، ولذا قال السبكى: إن هذه القصة تشكل على مذهب أبى حنيفة، إلا أن البخارى ترجم لهذه القصة بقتل أهل الحرب، فكأنه يشير إلى أن إعلانه به وتحريك الفتنة نقض للعهد يصير به فى حكم المحارب فلا إشكال، وفى هذه القصة إشكالان:

أحدهما: هذا، والثانى: هو ما أورده ابن المنير، رحمه الله تعالى، من أن الطعن فى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بلا إكراه كفر، فكيف رخص لهم فيه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم ينقمه عليهم، وهو إشكال قوى، وقد أجاب عنه ابن القيم: بأنه لما اشتد أذاه وتحريضه على قتالهم المؤدى للقتل وفى قتله خلاص منه، كان كالإكراه والإلجاء على النطق بما ذكر للظفر به وهو غير قوى، إلا أن ابن السبكى ارتضاه فى قواعده، وقال: لبس زى الكفار والتكلم بالكفر من غير إكراه كفرًا إلا لمصلحة مهمة، فإذا اشتدت الحاجة له صار كالإكراه، وقد اتفق للسلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى، أنه لما اشتد عليه أمر ملك صيدا أمر اثنين من المسلمين أن يلبسا لبس الرهبان ويتكلما بكلامهم ليغراه ففعلا ولم ينكر العلماء عليه، والذى ارتضاه الإمام محمد فى كتاب السير وتبعه كثيرون على جواز ذلك.

وقال السرخسى فى شرحه: يعنى أن كلامهم إنما كان تعريضًا وتورية، ومثله لا يعد كفرًا إذا قصد غير ظاهره، وفى رواية: أنه لما قال ابن مسلمة: أنا لك به، مكث أياما لا يأكل ولا يشرب، فدعاه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال له: لم تركت الطعام والشراب فقال: لقول قلته لا أدرى أفى به أم لا، فقال: إنما عليك الجهد، وهكذا ينبغى لمن عزم على شىء ثم قالوا: يا رسول الله نحن نقتله، فأذن لنا أن نقول فيك ما لابد منه، أى لنخدعه بالمعاريض بإظهار التخلى منك فأذن، فخرج إليه أبو نائلة فتحدث معه وتناشدوا الأشعار ثم قال: كان قدوم هذا الرجل يعنى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، علينا من البلاء وأراد به النعمة فإنه ما يبتلى به من نعمة أو نقمة، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩] أى النجاة من آل فرعون، ثم قال: حاربتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة وتقطعت السبل عنا حتى جهدت الأبدان،

وضاعت العيال، وأخذنا بالصدقة ونحن لا نجد ما نأكله، فقال كعب: قد كنت أحدثك بهذا وأن الأمر سيصير له، فقال: معى رجال من أصحابى على رأيى سآتيك بهم لتبتاع لهم الطعام، أو التمر، ثم ذكر شيئًا مما تقدم بمعناه، وقيل: إن ذلك حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فله أن يرخص فيه **(وكذلك)** أى مثل قصة كعب وقتلة غيلة.

ما رواه البخارى: من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قتل أبا رافع)**، وفى نسخة بالإضافة لأبى **(قال البراء:)** بن عازب، رضى الله عنه، **(وكان)** أبو رافع من يهود المدينة **(يؤذى)** أيضًا **(رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، بسببه **(ويعين عليه)** أعداءه بتحريضهم على قتاله، وأبو رافع اسمه عبد الله، أو سلام، بن أبى الحقيق، وكان الأوس والخزرج يتناظران فى الفخر، فلما قتل الأوس كعبًا، قالوا: نقتل رجلاً ممن يعادى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لئلا تفضلنا الأوس، فذكروا ابن أبى الحقيق بخيبر، وكان ذلك فى سنة ست فى رمضان، وقيل: فى ذى الحجة سنة خمس، أو أربع، أو فى رجب سنة ثلاث، بعث له رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الخزرج عبد الله بن عتيك، وعبد الله بن عتبة، ومسعود بن سنان، وعبد الله بن أنيس، وأبو قتادة، وابن الأسود، وكان أبو رافع يعين بالمال مشركى العرب، وكان له حصن، فلما دنوا منه، وقد غربت الشمس، وراح الناس بسرحهم، وقال ابن عتيك لأصحابه: امكثوا لأنطلق وأتلطف بالبواب، فأتى الباب وتقنع بثوبه كأنه يقضى حاجة والناس داخلون، فقال له البواب: يا عبد الله إن كنت داخلاً فادخل فإنى أغلق الباب، فدخلت وأغلقت المغاليق، فقمت وأخذت المفاتيح وكان أبو رافع يسمر فى علالى له، فلما ذهب عنه سماره صعدت وجعلت كلما فتحت بابًا أغلقته على من به حتى لا يلحقنى أحد منهم بعد قتله، فانتهيت إليه وهو فى بيت مظلم مع أهله لا يدرى من هو، وأين هو ، فقلت: يا أبا رافع فقال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت وأنا دهش وضربته فما أصبت شيئًا فخرجت ثم عدت، وقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع فقال: لأمك الويل إن رجلاً ضربنى بسيف فأهويت نحوه فضربته حتى أثخنته ولم أقتله، ثم أتيت إليه فوضعت السيف فى بطنه حتى نفذ من ظهره فقتلته، ثم فتحت الأبواب بابًا بابًا، ونزلت حتى انتهيت إلى درجة ظننتها الأرض فإذا هى ليست كذلك، فوقعت وانكسر ساقى فوقفت عند الباب لأتحقق الخبر وأنه مات فلما صاح الديك قام ناع على السور ينادى أنعى أبا رافع تاجر الحجاز، فانطلقت لأصحابى، وقلت: النجاة النجاة، وقتل الله أبا رافع، ثم انتهيت لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وحدثته الحديث، فقال: امدد رجلك فمددتها، فمسحها بيده الشريفة فكأنى لم أشكها قط.

(وكذلك) أى مثل أمره، صلى الله تعالى عليه وسلم، بقتل من ذكر من الكفرة **(أمره)** بقتل بعضهم **(يوم الفتح)** أى يوم فتح مكة كأمره **(بقتل ابن خطل)** فإنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما فتح مكة أمن الناس إلا أربعة رجال وامرأتين أمر بقتلهم ولو دخلوا تحت أستار الكعبة مستجيرين بها؛ لأنهم كانوا أظهروا عداوته وأكثروا من ذمه وهجوه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان لابن خطل قينتان يغنيان بهجوه، كما ذكره المصنف، وهو فى السير كما فى الصحيحين بأسانيد، وابن خطل بفتح الخاء المعجمة والطاء المهملة اختلفوا فى اسمه وقاتله، فقيل: اسمه عبد الله، وقيل: هلال، وقيل: عبد العزيز، وقيل: غالب، وخطل بن عبد مناف بن أسعد بن جابر بن كثير بن تميم بن غالب قاله ابن الكلبى، وقتله سعيد بن حريث المخزومى، وقيل: ابن حريث، وأبو برزة الأسلمى، وقيل: ابن الزبير، وفى مناسك الطبرى: أنه عبد العزى بن زيد، فيحتمل أنهم اشتركوا فى قتله والأقوال فى قاتله خمسة **(و)** أمر، صلى الله تعالى عليه وسلم، يوم الفتح أيضًا بقتل **(جاريتيه)** أى جاريتى ابن خطل، وهما المرأتان اللتان أمر بقتلهما **(اللتين كانتا)** بمكة **(تغنيان بسبه)** وهجوه، صلى الله تعالى عليه وسلم، واسمهما فرتنا وقريبة، قال ابن سيد الناس: قتلت إحداهما.

وقال السهيلى: اسمهما سارة، وفرتنا، وأسلمت الأخرى، فآمنت فعاشت إلى زمن عمر، رضى الله تعالى عنه، حتى وطئتها فرس، فماتت، وفرتنا بفاء مفتوحة وراء مهملة ساكنة ومثناة فوقية ونون وألف، وقريبة بضم القاف كمصغر قربة بالموحدة، وقيل: بفتح القاف بزنة فعلية، وكان ابن خطل أسلم أولاً، فبعثه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، مصدقًا ومعه رجل من الأنصار ومولى مسلمًا يخدمه، فنزلوا منزلاً، فأمر الخادم أن يذبح له ويصنع طعامًا، فنام ولم يصنع شيئًا فقتله ثم ارتد مشركًا، فكانت قينتان تغنيان له بهجو النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وفى حديث آخر) لايعرف من رواه **(أن رجلا كان يسبه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فقال)**، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(من يكفينى)** فى قتل **(عدوى)** الذى أظهر عداوته بسبه له، أى من يكون كافيًا فى قتله **(فقال خالد)** بن الوليد رضى الله تعالى عنه: **(أنا)** أكفيك ما أهمك من قتله **(فبعثه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم،)** له **(فقتله)** بإعانة الله له عليه.

(وكذلك) أى مثل ماذكر فى قتل من سبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لم يقل)** من الإقالة وهى الترك، يقال: أقال عثرته إذا عفا عنه، فهو بضم أوله وكسر ثانيه أو فتحه إن بنى للمفعول وفاعله ضمير النبى و**(جماعة)** مفعوله، أو مرفوع نائب الفاعل **(ممن كان**

يؤذيه)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(من الكفار ويسبه)** فدل هذا على أنه لافرق بين المسلم والكافر فى وجوب قتله بالسب، خلافًا لما روى عن أبى حنيفة وغيره من عدم قتل الكافر؛ لأن كفره أشد منه كما يأتى **(كالنضر بن الحارث)** بفتح النون وسكون الضاد المعجمة وراء مهملة، وهو النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة القرشى من بنى عبد الدار، وكان شديد العداوة والإيذاء لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ببدر وهو الذى قالت أخته للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد قتله له أبياتًا فيه منها:

ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق[1]

وذكر بعض المحدثين كابن منده، وأبى نعيم عن ابن إسحاق، رحمهم الله تعالى، أن النضر هذا له صحبه وشهد حنينا، وكان من المؤلفة قلوبهم، وهو غلط فاحش باتفاق الحفاظ، والذى له صحبة إنما هو علقمة بن كلدة كما ذكره الزبير، وابن الكلبى وغيرهما فغلطا لاشتراك كل منهما فى أنه ابن كلدة، والظاهر أنه قال: النضير بالتصغير، وهو أخو النضر بن الحارث المذكور، وهو ممن أسلم وهاجر، وقيل: إنه من مسلمة الفتح فالغلط بسببه وهو سهل.

(وعقبة بن أبى معيط) بعين وطاء مهملتين بصيغة التصغير، وكان أسر ببدر، فقتله النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، منصرفه من بدر بمحل يقال له: عرق الطيبة فقال: يا عاصم اضرب عنقه فضرب عنقه، ولما قدم للقتل الآتى فى كلام المصنف، رحمه الله، قال: لم تقتلنى يامحمد؟ فقال: بعداوتك لله ولرسوله، فقال: من للصبية؟ قال: النار، فلما ضربت عنقه قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: الحمد لله الذى قتلك، وأقر عينى منك، أى لأنه كان أشد عداوة وأذى لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وعهد)، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى وصى الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، عند قدومه للفتح **(بقتل جماعة منهم)** أى من الكفار الذين كانوا يؤذونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويحضون على مقاتلته **(قبل الفتح)** أى قبل فتح مكة، وهو قادم له **(وبعده)** حين قدم لشدة عداوتهم له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلمه بأنهم لا ينتهون ولا يرجى خيرهم وإسلامهم **(فقتلوا)** وأراح الله تعالى منهم المسلمين **(إلا من بادر)** أى أسرع

---

(١) البيت من الكامل، وهو لقتيلة بنت النضر فى الأغانى (١/٣٠)، والجنى الدانى (ص٢٨٨)، وخزانة الأدب (١١/١٣٩)، والدرر (١/٢٥٠)، وشرح الأشمونى (٣/٥٩٨)، وشرح التصريح (٢/٢٥٤)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقى (ص٩٦٦)، وشرح شواهد المغنى (٢/٦٤٨)، ولسان العرب (٧/٤٥٠)، والمقاصد النحوية (٤/٤٧١)، وبلا نسبة فى أوضح المسالك (٤/٢٢٣)، وتذكرة النحاة (ص٣٨)، ومغنى اللبيب (١/٢٦٥)، وهمع الهوامع (١/٨١).

وتقدم (**بإسلامه قبل القدرة عليه**) بأخذه وأسره كابن أبى سرح، وكعب بن زهير رضى الله تعالى عنهما.

(**وقد روى البزار**) من أئمة الحديث كما تقدم، لكن رواه بسند فيه ضعف (**عن ابن عباس**) رضى الله تعالى عنهما، (**أن عقبة بن أبى معيط**) لما تقدم ليقتل (**نادى**) رافعًا صوته (**يا معشر**) وفى نسخة: يا معاشر، وهو جمع معشر، وهم الجماعة الذين لهم عشرة، واختلاط (**قريش**) هم القبيلة المعروفة من ولد النضر بن كنانة، وإنما ذكرها بيانًا لحجته فى عدم الفرق بينه وبين غيره، أو ليعطف عليه المسلمون منهم (**مالى أقتل من بينكم**) استفهام إنكارى أى دون غيرى منكم ومثله يستعمل للاختصاص، كما يقال: أعطاه من بين أهله (**صبرًا**) الصبر أصل معناه: الحبس ويقال لمن قتل فى غير حرب ودون غفلة منه بأن يقدم ليقتل: قتل فلان صبرًا.

(**فقال له النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**): تقتل صبرًا (**بكفرك وافترائك**) أى تعمدك الكذب (**على رسول الله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو أحد المستهزئين، وهو الذى ألقى سلاء الجزور عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو يصلى فدعا عليهم، فألقوا بلعنة الله فى قليب بدر كما هو مشهور فى السير، وهو من بنى أمية بن عبد شمس.

(**وذكر عبد الرزاق**) بن همام الحافظ أبو بكر الصنعانى صاحب التصانيف الجليلة وقد تقدمت ترجمته فى جامعه (**أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، سبه رجل**) من أجلاف العرب (**فقال: من يكفينى عدوى**) الذى أظهر عداوته بسبه له (**فقال الزبير**) بن العوام (**أنا**) أكفيك بقتله (**فبادره فقتله**) الزبير، والمبادرة أن يخرج رجل من طائفتين تقابلتا وينادى من يبرز لى من الصف ليقاتله، فيعلم أينا أقوى وأشجع، وأينا القاتل والمقتول وهذا إنما يفعله من زادت قوة قلبه وشجاعته.

(**وروى**) عبد الرزاق فى جامعه عن عكرمة (**أيضًا**) كما روى ما قبله (**أن امرأة**) مشركة (**كانت تسبه عليه الصلاة والسلام فقال: من يكفينى عدوتى**) بقتلها (**فخرج إليها خالد بن الوليد**) رضى الله تعالى عنه، (**فقتلها**) ووقع بتونس أن رجلا قال لآخر أنا عدوك وعدو نبيك، فعقد له مجلس فأفتى بعض أئمة المالكية: بأنه مرتد يستتاب وأخذ كفره من قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ٩٨]، الآية، وأفتى بعضهم بأن كفره كفر تنقيص فلا يستتاب، وأخذ ذلك من كلام المصنف، رحمه الله، هنا فى هذه المرأة السابة، ومن قضية خالد بن الوليد، رضى الله تعالى عنه، السابقة، ومن إفتاء ابن عياب، رحمه الله، السابق واعترضه بعض أئمتهم ممن مال إلى الأول بأنه نص فى أن كل

ساب عدو ولاشك فيه، وإنما الكلام فى عكس هذه القضية وهى لاتنعكس كنفسها، بل قوله: أنا عدوك وعدو نبيك ربما أشعر بترفع المقول له ذلك؛ لأنا نجد الوضعاء يجعلون لأنفسهم منزلة بذلك، يقول الواحد منهم: أنا عدو الأمير والأمير عدو لى، وقصده به رفع نفسه؛ لأنه فى نسبة من يعادى الأمير، وبأن قتل خالد، رضى الله تعالى عنه، المرأة المذكورة مذهب صحابى وإفتاء ابن عتاب، رحمه الله، إنما هو لأن ماذكر فى قصته صريح فى التنقيص، فالمتحقق أن قائل مامر مرتد لا منقص، هذا كله على قواعدهم من التفرقة بينهما، أما على قواعدنا فالذى يظهر أنه ردة قاله ابن حجر فى الإعلام ملخصًا.

(ويروى) رواه عبد الرزاق فى جامعه أيضًا عن سعيد بن جبير، رضى الله تعالى عنه، **(أن رجلا كذب على النبى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، والمراد أنه أسند أقاويل فيها تنقيص له، وإلا فمجرد الكذب عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لايوجب القتل كمن روى حديثًا وضعه **(فبعث عليًا والزبير إليه ليقتلاه)** لم يقل قتلاه، لأنه إشارة لما رواه البيهقى عن ابن جبير: أن رجلا أتى قرية من قرى الأنصار فقال: إن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أرسلنى وأمر أن تزوجونى فلانة، فبلغ ذلك النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأرسل عليًا والزبير فقال: اذهبا إلى فلان فإن أدركتماه فاقتلاه ولا أراكما تدركانه، فوجداه قد لدغته حية فقتلته، ورواه متصلا من وجه آخر، وسمى الرجل الذى كذلك جد جد الجندعى، فإن كان المصنف أراد هذا، فهو مشكل؛ لأن مجرد الكذب عليه عليه الصلاة والسلام، ليس موجبًا للقتل والكفر، وإنما هو إذا نسب إليه افتراء فيه نقص له ككونه ساحرًا ونحوه، وشذ الجوينى كمامر فذهب إلى: أن كل كذب عليه ولم يقله غيره ولعله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان علم منه أمرًا آخر افتراه، كما علم قتل الحية له، أو لعله مخصوص به لما فيه فى جنايته من إفساد أمر الدين.

وأما قول الكرامية: إنه يجوز وضع الحديث عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لمصلحة دينية فهو قول باطل، ورده الخطابى بعد ما أطال بذكر أدلتهم، ككونه كذبًا له لا عليه وهو غنى عن الرد لظهور فساده.

(وروى ابن قانع) هو الإمام الحافظ عبد الباقى بن قانع بن مرزوق بن واثق أبو الحسين الأموى كما تقدم، وقانع منقول من اسم فاعل القنع بقاف ونون **(أن رجلا)** من الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، **(جاء إلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إنى سمعت أبى يقول فيك قولاً قبيحًا)** لما فيه من ذمه والطعن فيه **(فقتلته فلم يشق ذلك على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم،)** أى لم يصعب عليه لكراهته له ولو لم

يكن قتله مشروعًا كان أكبر كبيرة بعد الكفر لما فيه من القتل والعقوق، قيل: وهذا الرجل هو أبو عبيدة بن الجراح ولست على ثقة منه، فإن الحافظ الحلبى قال: لا أعرفه، كالمرأة التى تقدم أن خالد بن الوليد قتلها، وسيأتى ما يشبه قصتها.

(و) فى أثر رواه ابن سعد، وابن عساكر فيه أنه **(بلغ المهاجر بن أبى أمية)** المهاجر بزنة اسم الفاعل اسمه حذيفة على الصحيح وقيل: سهيل، وقيل: هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، كان اسمه الوليد، فكرهه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وسماه المهاجر، فالتسمية به مكروهة؛ لأنه اسم فرعون مصر، وهو أخو أم المؤمنين أم سلمة، رضى الله تعالى عنها، أرسله رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى اليمن إلى الحارث بن عبد كلال الحميرى واستعمله على الصدقات، ثم بعثه أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، فى خلافته إلى قتال المرتدين باليمن ففتح الفتوح، وله آثار عظيمة باليمن فكان، رضى الله تعالى عنه، **(أمير اليمن)** منصوب **(لأبى بكر)** إقرار له على ما فعله رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أن امرأة هناك)** أى باليمن **(فى الردة)** أى فى زمن ردة بعض أهل اليمن فى خلافة الصديق **(غنت بسب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم،)** وهجوه أى بشعر فيه ذلك **(فقطع)** مهاجر **(يدها ونزع ثنيتها)** هى السن المتقدمة **(فبلغ أبا بكر ذلك)** أى قطعه يدها ونزع ثنيتها.

(فقال) أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: **(لولا ما فعلت)** بالمرأة **(لأمرتك بقتلها لأن حد)** قذف **(الأنبياء ليس يشبه الحدود)** وهذا مبنى على أنه لا يجب قتل الساب من الكفرة، وإنما هو مفوض إلى الإمام فله أن يغلظ ويزيد فيه بتنكيل أو قتل، فلما سبق من مهاجر تنكيله بها لم ير أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، أن يجمع فيه بين حدين، وهذا مذهب نقله ابن تيمية فى السيف المسلول؛ لأن أبا بكر، رضى الله تعالى عنه، كره ما فعله لما فيه من زيادة التعذيب؛ لأنه ليس أشد من القتل.

قال ابن تيمية: هذا هو الذى تسميه الفقهاء سياسة، وهو الحد الذى رخص للإمام فى تغليظه إذا اقتضاه الحال ومن لم يقف على هذا، قال: إنه مشكل؛ لأن المثلة منهى عنها وهى إما أن تكون ثابتة وقلنا: بقبول توبة الساب أولاً، فأما أن تترك أو تقتل، وما قاله أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، يقتضى الاجتهاد فى الحدود، وقوله: لأن حد الأنبياء... إلخ، لا يلتئم معه وأطال فيه من غير طائل.

(وعن ابن عباس) رضى الله تعالى عنهما، أنه **(قال: هجت امرأة من خطمة)** بكسر الخاء المعجمة وفتح الطاء المهملة وميم وهاء اسم قبيلة، وفى القاموس فى طى خطمة وخطيمة كجهينة ابنا سعد بن ثعلبة، وخطمة من الأنصار بنو عبد الله بن مالك بن أوس.

(النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(من لى بها)** أى من يقوم لأجل حقى عليه بقتلها **(فقال رجل: من قومها)** أى من قبيلتها **(أنـا)** أقتلـها **(يـا رسول الله فنهض)** أى قام بسرعة بعد مقاله فأتاها **(فقتلها، فأخبر النبـى، صلـى الله تعـالى عليه وسلم، بذلك)** أى بقتلها **(فقال: لا ينتطح فيها عنزان)** أى ذهب دمها هدرًا من غير مبالاة أحد به، وهو مثل ضربه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، للأمـر الـذى يقـع مـن غير خلف فيه ولا نزاع؛ لأن العنزين لا ينتطحـان، وإنمـا يتشـاما ويفترقـا، والنطـاح إنمـا يكون بين التيوس والكباش، وأول من تكلم به، صلى الله تعالى عليه وسلم، كمـا تقـدم وهذه المرأة عصماء بنت مروان من بنى أمية بن زيـد زوجـة يزيـد بـن حصـين الخطمـى وكانت شاعرة تؤذى المسلمين وتهجو رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتحـرض عليه، والذى قتلها عمير بن عدى بن خراشة بن أمية الخطمى، فلما سمع قولها وهو ببـدر معه، صلى الله تعالى عليه وسلم، نذر إن رجع إلى المدينة ليقتلها.

وقال ابن عبد البر، رحمه الله تعالى: إنها أخته، وقيل:أمه وكان أعمى وهو إمام قومـه وقارئهم، فدخل عليها فى جوف الليل وهى ترضع ولدها فنحاه عنها، ووضع سيفه فى بطنها حتى نفذ من ظهرها، ثم خرج وصلى الصبح خلف رسـول الله، صلـى الله تعـالى عليه وسلم، فنظر له وقال: أقتلت بنت مروان؟ قال: نعم، ثم خشى أن يكون عليه شىء فقال: يا رسول الله، أعلىَّ شىء؟ فقال له: «لا ينتطح...» إلخ، ثم قال، صلـى الله تعـالى عليه وسلم: «إن أردتم النظر إلى رجل نصر الله ورسوله، فانظروا لعمير»، وسماه البصـير، والقصة بطولها فى السير، ومن فقهها أنه يستحب أن يقال للضرير: البصير وهـذه المـرأة قيل: إنها كانت يهودية، وهو الظاهر مـن سبها فعصمـاء غـير معصومـة الـدم لكفرهـا وإظهار سبها ولبعضهم هنا كلام لا فائدة فيه مع كثرة خبطه فيه.

(وعن ابن عباس) رضى الله تعالى عنـهما، فيمـا رواه أبـو داود، والحـاكم، والبيـهقى وصححه **(أن)** شخصًا **(أعمى كانت له أم ولد)** لم تسلم وكانت **(تسب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيزجرها)** أى يمنعها وينهاها بزجره منه **(فلا تنزجر)** ولا ترجع عما هى فيه لشقاوتها، وكان له منها ابنان مثل اللؤلؤتين **(فلما كـان ذات ليلـة)** يجـوز رفـع ذات ونصبه على الظرفية وكذا ضبط أى ساعة من ليلة كـذات يـوم، وهـو مبـين فـى النحـو وقيل: معناه ليلة من الليالى **(جعلت)** أى شـرعـت واستمرت **(تقـع فـى النبـى، صلـى الله تعالى عليه وسلم، وتسبه)** وفى نسخة تشتمه وهو عطف تفسير لتقع؛ لأنه يقال: وقع إذا ذمه وهو مجاز مشهور **(فقتلها)** سيدها، وفى رواية فما صبر أن قام إلى معول فوضعه فى بطنها، ثم اتكأ عليه حتى أنفذه **(وأعلم النبى، صلـى الله تعـالى عليـه وسـلم، بذلـك)** أى بقتلها.

وفى رواية عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: فلما أصبح قيل ذلك للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقام الأعمى فقال: يا رسول الله أنا صاحبها كانت تشتمك وتقع فيك فأنهاها فلا تنتهى، وأزجرها فلا تنزجر، ولى منها ابنان مثل اللؤلؤتين وكانت رفيقة بى، فلما كانت البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك فقتلتها **(فأهدر)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(دمها)** أى قال له: إنه هدر لا إثم فيه، ولا عقوبة، ولا شىء يخشى منه فى الرواية السابقة، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «ألا أشهدوا أن دمها هدر»[1]، وقوله: أم ولد صريح فى أنها جارية مملوكة له لا منكوحة، يقال: إنها مشركة وكيف حلت له وهو مسلم ونحوه مما لا حاجة فى ذكره من غير داع له.

(وفى حديث أبى برزة الأسلمى) نسبة لأسلم قبيلة، وهو نضلة بن عبيد بن الحارث أسلم قديمًا، وشهد مع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، المشاهد وتوفى بالبصرة سنةأربع وستين، وهذا الأثر رواه أبو داود، والحاكم، والبيهقى وصححوه **(قال: كنت يومًا جالسًا عند أبى بكر الصديق فى زمن خلافته فغضب)** أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، **(على رجل من المسلمين)** صدر عنه ما أغضبه، ثم بين هذا بقوله: **(وحكى القاضى إسماعيل)** بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد البغدادى الحافظ، وقد تقدمت ترجمته، **(وغير واحد)** هو كناية عن الكثرة **(من الأئمة فى هذا الحديث)** المراد بالحديث أثر الصحابى، لأن له حكم المرفوع هنا **(أنه سب أبا بكر)** رضى الله تعالى عنه، سبًا فاحشًا **(ورواه)** أيضًا **(النسائى)** أبو عبد الرحمن شعيب الحافظ أحد الأئمة الستة كما تقدم، ولفظه عن أبى برزة قال: **(أتيت أبا بكر وقد أغلظ لرجل)** أى شدد نكيره عليه لغضبه منه **(فرد عليه)** كلامه بغلظة منه.

(قال) أبو برزة: **(فقلت: يا خليفة رسول الله دعنى)** أى اتركنى ولا تمنعنى من أن **(أضرب عنقه)** لسوء أدبه على أعظم الخلفاء **(بسبه إياك)** وقام لضرب عنقه **(فقال)** له أبو بكر: **(اجلس)** ولا تفعل **(فليس ذلك)** أى قتل من سب أحدًا **(لأحد إلا لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم،)** أى إلا لمن سبه كما تقدم.

(قال القاضى أبو محمد بن نصر) هو القاضى عبد الوهاب المالكى البغدادى الأديب وهو من شعراء اليتيمة، له الأشعار الفائقة والفضائل الباهرة، وقد ذكره الثعالبى وأثنى عليه وذكر من أشعاره جملة **(ولم يخالف عليه أحد)** أى أن أبا بكر، رضى الله تعالى عنه، لما ذكر هذا بمحضر من الصحابة لم يخالفه فيه أحد منهم، فدل على أن قتل من سب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، اتفقت عليه الصحابة كما تقدم، **(فاستدل الأئمة بهذا**

(١) أخرجه النسائى (١٠٨/٧)، والدارقطنى (٢١٦/٤).

الحديث) الذى قاله أبو بكر، و لم ينكره أحد من الصحابة الحاضرين عنده **(على قتل من أغضب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بكل ما أغضبه)** من قول أو فعل قل أو كثر، **(أو آذاه أو سبه)** بما فيه تنقيص لقدره وتشنيع ما صدر منه كما تقدم لا مطلقًا.

(ومن ذلك) القبيل والمعنى الذى أفاده كلام أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، **(كتاب عمر بن عبد العزيز)** بن مروان الخليفة العادل **(إلى عامله بالكوفة)** وهو عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب **(وقد استشاره)** ليهديه للحكم **(فى قتل رجل سب عمر)** ابن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، **(فكتب إليه عمر)** بن عبد العزيز جوابًا لعامله **(أنه لا يحل قتل امرئ مسلم بسب أحد من الناس)** من حيث هو سب له، فإن اقتضى كفرًا فلأمر آخر **(إلا رجلا سب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فمن سبه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فقد حل دمه)** أى حل إراقة دمه، وهو كناية عن قتله، وكذا حكم سائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، كما يأتى.

(وسأل) هارون **(الرشيد)** الخليفة العباسى المشهور **(مالكًا)** إمام دار الهجرة، وكان الرشيد أخذ عنه الحديث وأجله بما هو حقه **(فى رجل شتم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وذكر له)** أى الرشيد لمالك حين سؤاله عما ذكر.

(أن فقهاء العراق) استفتاهم فـ **(أفتوه بجلده)** حد القذف **(فغضب مالك)** على من نقل عنه ذلك حمية وصيانة لمقام النبوة **(وقال: يا أمير المؤمنين ما بقاء الأمة بعد شتم نبيها)** أى إن شتم نبيها مفن لها ومهلك، فلا يحل لأحد سمعه إلا قتل قائله وبذل روحه فى جهاده، ثم بين مالك له الحكم فيه فقال: **(من شتم الأنبياء قتل)** لأن ذلك حد شاتمهم **(ومن شتم أصحاب النبى جلد)** حد القذف، وهذا مذهبه من غير فرق بين كافر ومسلم، وبين التائب وغيره **(قال القاضى أبو الفضل)** عياض المصنف، رحمه الله تعالى، **(كذا وقع فى هذه الحكاية)** الواقعة بين الرشيد والإمام مالك.

(رواها غير واحد ممن ذكر مناقب) الإمام **(مالك)** وفى نسخة: من أصحاب مناقب مالك، أى ممن اعتنوا بمناقبه ودونوها **(ومؤلفى أخباره وغيرهم)** من أصحاب التواريخ **(ولا أدرى من هؤلاء الفقهاء بالعراق الذين أفتوا الرشيد بما ذكر)** من جلده وحده كحد غيره مما لم يذهب إليه أحد من أصحاب المذاهب، لاسيما إذا حمل على ظاهر إطلاقه **(وقد ذكرنا)** فيما تقدم **(مذاهب عراقيين)** وقولهم **(بقتله ولعلهم ممن لم يشتهر بعلم)** للأحكام الشرعية، وأتى بلعل لبعد استفتاء الخليفة من مثله **(أو ممن لا يوثق بفتواه)**، ممن علم عنده **(أو يميل به هواه)** الباطل ممن هو من أصحاب البدع والزندقة والهوى ما يجىء من غير تحقيق ونظر، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣] وضبطه بعضهم

مهواه بميم فى أوله، وقال: هو مفعل من الهوى وهو الغى والضلال، ولذا قالوا: إذا كان فى المسألة قولان، يجوز للمفتى أن يفتى العامة بالتشديد والخاصة بالتخفيف، **فإنه** خيانة للشريعة **(أو يكون ما قاله)** مفتى العراقيين **(يحمل على غير السب)** الموجب للقتل بذكر أمر ما من غير عمد فى حقه أو يمكن حمله على وجه سديد.

(فيكون الخلاف) الواقع فيه بين المفتيين محصله ومآله **(هل هو سب)** لتنقيصه له **(أم غير سب)** لعدم تنقيصه له **(أو يكون)** المستفتى فيه **(رجع وتاب عن سبه)** وهؤلاء يقولون: توبة مثله مقبولة فى مذهبهم فيصح كلامهم فى الجملة **(فلم يقله)** أى لم ينقله الرشيد **(لمالك)** حين سأله عنه **(على أصله)** أى على الوجه الذى ورد ووقع عليه واستفتى فيه فأجيب بما قالوه **(وإلا)** أى وإن لم يكن شيء من هذه الإحتمالات لايصح ما نقله الرشيد **(فالإجماع)** منعقد **(على قتل من سبه كما قدمناه)** مفصلاً فى أول هذا المبحث، فكيف يفتى بخلاف ما أجمع عليه، وقوله: رجع وتاب بناء على أن من تاب لا يقتل، فلا ينافى ما تقدم، وما قدمه يدل على قول السلف والإجماع على قتله.

(ويدل) أيضًا **(على قتله من جهة النظر)** أى التفكر فيما يدل عليه عقلاً **(والاعتبار)** أى التأمل فى موجبات القتل شرعًا، ليعلم من تتبعها أن النظر والعقل السليم يدل عليه، والمراد به هنا القياس، أردف به ما تقدم من الآيات، والأحاديث، وإجماع الأمة ليفيد أنه ثابت بجميع الأدلة، والقياس يسمى اعتبارًا فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿**فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ**﴾ [الحشر: ٢]، فإن الأصوليين أثبتوه بهذه الآية وإليها نظر المصنف، رحمة الله تعالى، من طرف خفى **(أن من سبه أو تنقصه، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، عمدًا وكذا سائر الأنبياء كما مر **(فقد ظهرت علامة مرض قلبه)** أى سوء عقيدته وكفره المضمر؛ لأن المؤمن يحبه ويجله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فخلاف ذلك يدل على عدمه كما عرفته فيما نقلناه عن السبكى.

(و) ظهر من تنقيصه أيضًا **(برهان)** ودليل محقق على **(سوء طويته)** أى ما أخفاه فى نفسه وأضمره فى قلبه، والطوية يعبر بها عما خفى، كأنه شيء طوى ولف عليه ما يستره فهو استعارة شاعت وصارت حقيقة فيما ذكر، وفيه ترق من العلامة وهى ظنية إلى البرهان القطعى، فلا يرد عليه أن حقيقة الإيمان التصديق القلبى عند الجمهور، وهذا لا ينافيه كما قيل **(وكفره)** لأنه ردة عندهم **(ولهذا)** المذكور من دلالته على ما أسره فى نفسه **(ما حكم له)** أى على الساب والمنقص وما زائدة واللام بمعنى على أو موصوفة واللام تعليلية، أى حكم لأجله **(كثير من العلماء بالردة)** وهى الخروج من الإسلام بقول أو فعل أو اعتقاد قام عليه دليل، وهذا إذا كان مسلمًا لا كافرًا أصليًا كما لا يخفى

(وهى رواية الشاميين) أى علماء الشام الآخذين **(عن مالك)**، فإن لمذهبه طرقًا متعددة.

(و) هى أيضًا رواية الشاميين عن **(الأوزاعى)** عبد الرحمن أبو عمرو، وهو صاحب مذهب كما تقدم فى ترجمته **(وبه)** أى بهذا القول فى ردته وقتله **(قال الثورى)** سليمان بن سعيد كما تقدم.

(وأبو حنيفة) فإنه ذهب إليه فى المسلم فقط **(والكوفيون)** من عطف العام على الخاص **(والقول الآخر)** فى رواية عن هؤلاء **(أنه)** أى السب والتنقيص **(دليل على الكفر)** المضمن فليس نفسه كفرًا يرتد به، وإنما هو علامة عليه **(فيقتل)** على هذا **(حدًا)** لأنه حد من قذف الأنبياء كما ورد فى الحديث المتقدم **(وإن لم يحكم له)** أى عليه **(بالكفر)** حقيقة **(إلا أن يكون)** الساب **(متماديًا)** أى مستمرًا فى مدى ومدة طويلة **(على قوله)** الذى سب به **(غير منكر)** لما قاله **(ولا مقلع)** أى راجع **(عنه فهذا كفر)** محقق منه مستوجب لقتله كفرًا، فإن زجر وأعلم بأنه كفر و لم ينزجر كان راضيًا به ومقرًا بكفره، وهو كفر بلا شبهة، وهذا مستثنى من قوله: لم يحكم له بالكفر، فمعناه أنه حينئذ يحكم بكفره، ثم فصل قوله المطلق فقال: **(وقوله)** الصادر منه **(إما صريح كفر كالتكذيب)** له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بإنكار نبوته أو إنكار ما جاء به للافتراء عليه.

(ونحوه) مما هو فى معنى التكذيب الصريح **(أو من كلمات الاستهزاء)** به تحقيرًا له **(والذم)** بسب أو هجو له **(فاعترافه بها)** أى بكلمات الاستهزاء **(وترك توبته)** برجوعه **(عنها دليل استحلاله)** أى عده حلالا **(لذلك)** الاستهزاء والذم **(وهو)** أى الاستحلال من حيث هو استحلال لما لا يحل **(كفر أيضًا)** كما أن ما قاله كفر **(فهذا)** القائل المستحل معنى **(كافر بلا خلاف)** بين المسلمين وأئمة الدين فى كفره، وهذا بناء على أنه فرق بين قتل المرتد وقتل الحد المذكور، وقد قال السبكى فى السيف المسلول على من سب الرسول: المرتد يقتل بالنص والإجماع، وتوبته مقبولة عند الأكثر إن لم يكن زنديقًا وليس قتله كقتل الكافر الأصلى كما فصله الفقهاء، فعلم من هذا أن علة قتله ليس مطلق الكفر بل خصوص مطلق الردة، ولذا جعلها الغزالى من الجنايات الموجبة للعقوبة كالبغى والسرقة، وحكوه عن غيره وقالوا: قتل المرتد حد يسقط بإسلامه، وهو التحقيق ومن ظن أن من سماه حدًا فهو عنده لا يسقط بالإسلام فهو مخطئ والحد هو العقوبة المقدرة من جهه الشارع، وهل المعاقب عليه فى الردة خصوص الكفر بعد الإسلام أو قطع الإسلام بالكفر، وهو معنى غير الأول، فالساب المسلم مرتد فقتله حد، وكذا الكافر فالخلاف فى قتله هل هو حد أو كفر لفظى لم يظهر له فائدة؟ انتهى ما قاله ملخصًا.

(قال الله تعالى فى مثله) أى مثل المعترف بالاستهزاء والذم **(يحلفون)** أى المنافقون **(بالله ما قالوا)** الاستهزاء الذى قالوه فى غزوة تبوك من أن من يزعم أنه سيفتح قصور الشام وحصونه شر من الحمير هيهات هيهات **(ولقد قالوا كلمة الكفر)** وهى هذه الكلمة المذكورة **(وكفروا)** أى أظهروا كفرهم **(بعد إسلامهم)** الذى أظهروه، ولبعض من هذا أشار بقوله **(قال أهل التفسير)** فى هذه الآية **(إن كان ما يقول محمد)** من فتح حصون الشام **(حقًا)** محقق الوقوع **(لنحن شر من الحمير)** أى أجن منها لحمقنا وبلادتنا، فإن الحمير توصف بذلك، وكان القائل ذلك الجلاس بن سويد أو وديعة بن ثابت، فقال له عامر بن قيس الأنصارى: أجل والله إن محمدًا لصادق مصدق وأنت شر من الحمير، فبلغ ذلك رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وجاء الجلاس فحلف بالله عند منبر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه ما قال، وأن عامرًا لكاذب وحلف عامر لقد قال وقال: اللهم أنزل على نبيك الصادق شيئًا يصدقنى، فنزلت الآية فتاب الجلاس وحسنت توبته، وفى الذى سمعه أقوال أخرى فقيل: حذيفة، وقيل: عاصم بن عدى، وقيل: ولد امرأته عمير بن سعد وأنه هم بقتله كما فصل فى التفسير والسير وهذا تمثيل لما هو فيه؛ لأن من ذكر ليس معترفًا مصرًا، فلا يرد عليه ما قيل: بأنه ليس مناسبًا هنا **(وقيل بل)** إنما هذه الآية فى **(قول بعضهم)** وهو رئيس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول **(ما مثلنا)** أى حالنا وصفتنا **(ومثل محمد)** أى حاله **(إلا)** كحال من وقع فيه **(قول القائل)** فى مثل قديم يضرب لمن يحسن لأحد فيسيء إليه **(سمن كلبك يأكلك)** لأن الكلب إذا شبع واستغنى عن صاحبه قد يتجرأ عليه كالأسد الضارى **(ولئن رجعنا)** من سفرنا هذا إلى المدينة **(ليخرجن الأعز)** يعنى نفسه الخبيثة **(منها)** أى من المدينة **(الأذل)** يعنى المؤمنين كلهم، وكان هذا فى بعض غزواته، عليه الصلاة والسلام، تبوك أو بنى المصطلق، واختلف فيمن بلغ رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، هذه المقالة، والمشهور أنه زيد بن أرقم، وكان سبب هذه المقالة أن رجلاً من المهاجرين ورجلاً من الأنصار جرى بينهما أمر، فصاح الأنصارى: ياللأنصار، والمهاجرى: ياللمهاجرين، فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: دعوها، فإنها جاهلية مستقذرة، فقال: ابن أبى أو فعلوها، ثم قال لقومه: ماذا فعلتم بأنفسكم أنزلتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم وطعامكم، أما والله لو أمسكتم عنهم لم يركبوا رقابكم وأوشكوا أن يتحولوا عن محمد، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا عنه، إلى آخر ما حكاه الله، فلما بلغ زيد، رضى الله تعالى عنه، رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، مقاله أنكر وحلف لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فصدقه وحزن زيد حتى نزل القرآن بتصديقه فقال عمر، رضى الله تعالى عنه: دعنى

أضرب عنقه، فأبى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتكرم بكفه عنه لأجل ولده، فلما أراد دخول المدينة منعه ابنه، رضى الله تعالى عنه، وقال: لا تدخلها حتى تقول: إنك الأذل ويأذن لك رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإلا ضربت عنقك فقال: ويحك أفاعل أنت؟ قال: نعم، فلما رأى الجد منه قال: أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فقال له رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرًا **(وقد قيل: إن قائل هذا)** الذى قاله ابن أبى وغيره **(إن كان مستترًا به)** عن المسلمين بحيث لم يظهره لهم ويسمعوه منه، وفى رواية: مستترًا استفعال من السر، أى مختفيًا حين قاله عن المسلمين والسر خلاف العلانية **(أن حكمه حكم الزنديق)** وهو أنه **(يقتل)**؛ لأنه مثله فى إخفائه الكفر وإظهاره الإيمان بفيه فيقتل لذلك **(ولأنه قد غير دينه)** بما قاله فصار كالمرتد.

(وقد قال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(من غير دينه)** بإظهار ما يخالفه **(فاضربوا عنقه)** إن لم يتب، وقيل: بقبول توبته برجوعه لدينه، واستدل بهذا الحديث على قتل الزنديق من غير استتابة، وقال الشافعى: تقبل توبته مطلقًا كالمرتد، وعن أبى حنيفة فيه روايتان، وقيل: كمالك، واستدل القائل بقبول توبة من أخفى كفره بحديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما، فى الصحيح الآتى فى كلام المصنف، مع أن الكلام عليه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»(١)، يعنى فيما يستسرون به، ففيه دليل على أن من ظاهر حاله الإسلام لا يتعرض له وتقبل توبته، قالوا: وعليه أكثر العلماء إلا مالك وأحمد بن حنبل فإنهما لم يقبلا توبته، وهذا هو الزنديق على القول بأنه من يظهر الإسلام ويبطن الكفر لا من ينتحل دينًا، فقد اختلفوا فيه كما مر، على أقوال منها ما ذكر ونقله قاضى خان كما تقدم، والكلام عليه مفصل فى الفقه.

(ولأن لحكم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الحرمة) أى احترامه وتوقيره وصيانة جانبه **(مزية)** بفتح الميم وكسر الزاء المعجمة وتشديد الياء التحتية، وهى زيادة الفضيلة.

وقال العلامة: لا يبنى منه فعل، لكن تقدم عن الأساس: تميز عليه زاد **(على أمته)** فلا يسوى بينه وبينهم فيما يخصه، فيزاد فى جزاء من سبه على حد غيره لرفعة محله **(وساب الحر)** لا العبد **(من أمته يحد)** حد قذف بشروطه إن استحقه وإلا يعزر، وأطلقه لظهوره

(١) تقدم تخريجه.

أو تسمح فأدخل التعزير فى الحد، وفى نسخة: يجد، بجيم، ولا أدرى ما معناه، والظاهر أنه تحريف من النساخ (**فكانت العقوبة لمن سبه، صلى الله تعالى عليه وسلم،**) أو سب غيره من الأنبياء عليهم السلام (**القتل**) رعاية (**لعظيم قدره**) فبعظمه يعظم الذنب فيه (**وشفوف منزلته على غيره**) بشين معجمة وفائين أى زيادتها، يقال: شف عليه إذا زاد قال ابن القطاع: وهو بمعنى النقص أيضًا من الأضداد، والقرينة مانعة منه هنا، أى لزيادة مرتبته العالية بشرفة، صلى الله تعالى عليه وسلم، تسليمًا وزاده تشريفًا وتعظيمًا وهذا أعظم الجزاء لأعظم الخلق، واحتمال أن يزاد بدون القتل لا يرد عليه كما قيل.

* * *

(فصل)

فى دفع الشبهة الواردة على ما قدمه فى هذا الفصل (**فإن قلت**) إذا كان سبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتنقيصه مقتضيًا للقتل (**فلم لم يقتل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، اليهودى الذى قال له: السام عليكم وهذا دعاء عليه**) وأذية له و لم يعاقب قائله، فيرد على ما قرره أولاً، والسام بمعنى الموت فيوهمون أنهم قالوا: السلام، وإنما أرادوا الدعاء عليه بموته ومثله مما يؤذيه، وهذا رواه البخارى وغيره، وقالوا: إن عائشة، رضى الله تعالى عنها، تفطنت له فكانوا إذا قالوا: السام عليك يا أبا القاسم قالت: عليكم السام والذام واللعنة، ولذا قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم»(١)، ردًا لمقالتهم عليهم، إلا أن الخطابى قال: إنه روى بالواو ورواه ابن عيينة بدونها وهو الصواب لإيذان الواو التى لمطلق الجمع بالاشتراك بينهما.

قلت: لا محذور فيه؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قصد الاشتراك فى معنى غير الذى قصدوه، أى الموت مقدر علينا وعليكم كما يأتى بيانه، فيكون من القول بالموجب البديعى كقوله:

وقالت أنت عندى مثل عينى ... فقلت نعم ولكن فى السقام

ولذا ذهب كثير إلى جواز إثبات الواو وحذفها، وأن الخطابى رجع عما قاله، والسام معتل بمعنى الموت، ويجوز أن يكون مهموزًا من السآمة، والذام بالمعجمة بمعنى الذم والعيب، ويجوز إهمالها من الدوام، والقائل جماعة من اليهود، وقيل: واحد منهم اسمه ثعلبة بن الحارث، وجمع بين الروايتين بتعدد القصة، أو بأن الداخل جماعة، والقائل منهم واحد.

---

(١) أخرجه البخارى (٧١/٨)، والترمذى (٣٣٠١)، وابن ماجه (٣٦٩٧)، وأحمد (٩/٢)، وابن حبان (١٩٤١)، وابن أبى شيبة (٤٤٢/٨).

(ولا قتل) الرجل **(الآخر)** وهو ذو الخويصرة، الذى سبق ذكره ويأتى، وأنه **(الذى قال له)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى قسمة قسمها من مال الغنائم **(إن هذه القسمة)** التى قسمتها بين الغزاة، وفى نسخة أن هذه لقسمة **(ما أريد بها وجه الله)** أى خالصة لله جارية على العدل كما فرضه الله تعالى، وهذا فى حديث رواه البخارى أيضًا، فلم يقتله، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(و) الحال أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قد تأذى من ذلك)** أى قوله الذى قاله ونسبه فيه إلى الجور، وهو أذية مسلم له وافتراء عليه فيقتضى قتله فلم لم يأمر بقتله؟ وقال الحافظ الذهبى: هذا الآخر لا أعرفه، وفى الصحيح أنه من الأنصار، وقال: إنه مغيث بن بشير والذى قال له: أعدل ذو الخويصرة التميمى الخارجى الذى قتل يوم النهروان، ويقال له: حرقوص، وكانت هذه القسمة يوم حنين زاد فيها بعضهم لمصلحة، وهو تأليفهم.

(و) مع ذلك فلم يقتلهم، صلى الله تعالى عليه وسلم، حين آذوه بل **(قال: قد أوذى موسى)** من قومه **(بأكثر من هذا)** الذى أوذيته، **(فصبر)** على أذيتهم، ولم يقتل أحدًا ممن آذوه فلى به أسوة، وأذية موسى أنهم رموه بالبرص والأدرة واتهموه بقتل أخيه هارون، وخالفوه فى أمور كثيرة قصها الله تعالى فى القرآن عنهم.

(ولا قتل المنافقين الذين كانوا يؤذونه فى أكثر الأحيان) وروى فى كل الأحيان والأولى أظهر وأشهر وأذية المنافقين له تقدم بعضها قريبًا، فهذا كله يدل على أن من أذاه أو ذمه أو ذم غيره من الأنبياء، عليه وعليهم الصلاة والسلام، ليستحق القتل، فكيف هذا مع ما تقدم من الأدلة، والإجماع الذى حكاه، ثم شرع المصنف، رحمه الله، فى الجواب عن هذا الإشكال بقوله: **(فاعلم)** أيها السائل مما أشكل عليك **(وفقنا الله تعالى وإياك)** لعلم ما لم نعلم وهى جملة دعائية معترضة **(أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان أول الإسلام)** أول منصوب على الظرفية أى فى ابتدائه **(يتألف عليه الناس)** أى يطلب ألفتهم، وتأنيسهم لقرب عهدهم بالإسلام، وفيهم الأعراب الجفاة حتى يثبتهم على الإسلام فيداوى أمراض قلوبهم بعفوه وكرمه، ولم يقل: أول الهجرة؛ لأن هذا كان بالمدينة بعد هجرته؛ لأن ابتداء التأليف ببعض أنواعه كان قبلها، واستمر ذلك إلى الهجرة كما يومئ إليه قوله: كان الدالة على الاستمرار، فلا غبار عليه كما قيل: لو قال: أول الهجرة كان أولى، وفى نسخة فيه يستألف بسين مهملة ساكنة بين الياء والتاء **(و)** أشار لبيان ذلك بقوله **(يميل قلوبهم إليه)** أى إلى الإسلام وخلوص الإيمان بمحبته والإذعان له وياؤه الثانية مخففة مضارع أمال ويجوز تشديدها والأول أولى.

(ويحبب إليهم الإيمان) ليتمكن فى نفوسهم **(ويزينه فى قلوبهم)** أى يحسنه بترغيبهم فيه **(ويدارئهم)** بموحدة قبل الهاء أى يعاملهم بملاطفته لهم ورفقه بهم **(ويقول لأصحابه)** أى خلصهم الذين سبق إيمانهم وعلم إخلاصهم **(إنما بعثتم)** فيه تغليب، أى إنما بعثت معكم، أو هو مجاز عن أمرتم وعلمتم، أو هو بمعناه اللغوى: أى جئتم لدار الهجرة وأرسلتم لها لتكونوا **(ميسرين)** بسين وراء مهملتين أى مسهلين مسامحين لا معسرين مشددين على من قرب عهده بالإسلام.

(ولم تبعثوا) وترسلوا **(منفرين)** للناس عن الإسلام، أى بشدة وغلظة تحمل الناس على نفورهم عنكم بمفارقتهم وتشتتهم عنكم، وكان الظاهر أن تقول: معسرين ليطابق قوله: ميسرين، لكنه عدل للمطابقة الخفية لأنها أبلغ، لأن التيسير يقتضى تألفهم وعدم نفرتهم عنهم فأتى بلازم المقابل، لأنه أبلغ وأكثر كما فى قول المتنبى:

كأنك مستقيم فى محال

إذ لم يقل فى اعوجاج، وليس هذا لأجل القافية كما قيل، ونحوه: لا يرون فيها شمسًا ولا زمهريرًا (و) كان صلى الله تعالى عليه وسلم **(يقول)** لأصحابه أيضًا: **(بشروا)** الناس بكل خير **(ولا تعسروا)** أى لا تشددوا وتغلظوا عليهم **(وسكنوا)**، أى أقروا الناس على ما هم عليه، ولا تكلفوهم بما لم يألفوه **(ولا تنفروا)** الناس عنكم فينفروا ويفروا، أى لا تثقلوا عليهم وتلحوا فيملوا منكم، وهذا فيما لم يجب عليهم وإلا فمثله لا يسامح فيه.

(و) كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يقول)** لأصحابه كما مر، فى قصة أبى بن سلول والمنافقين لما بلغه ما قالوه، فقالوا له: دعنا نضرب عنقه فأبى **(لا يتحدث الناس)** فيما بينهم فيقولوا: **(إن محمدًا يقتل أصحابه)** وهذا إذا شاع عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، منع بعض الكفرة من الدخول فى الإسلام وجعله المشركون وأعداء الدين وسيلة للطعن فيهم، ومثله مما ينبغى الاحتراز عنه لما فيه من الفوائد، وهذا قاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعمر، رضى الله تعالى عنه، لما قال فى قصة أبى ابن سلول: دعنى أضرب عنقه كما تقدم مفصلاً.

(وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يدارى الكفار والمنافقين) بتلطفه بهم وإحسانه وعفوه عنهم، والفرق بين المداراة والمداهنة مشهور تقدم مرارًا أيضًا، فالمداراة اللطف ولين القول لدفع الضرر وجلب النفع له، أو لمن داراه كأمره بنصح ورفق وبيان ما فى حاله من محذور وسوء عاقبة، والمداهنة تحسين القبيح، وقوله له: ما هو باطل وكذب مما يغره ويحثه على ارتكاب الفواحش، والأول: محمود شرعًا، والثانى: مذموم غير جائز

(ويجمل صحبتهم) بضم المثناة التحتية وسكون الجيم وكسر الميم ثم لام من الجميل الحسن قولاً وفعلاً، وقيل: يحمل بمعنى يجمع بعد تفرقه وهو بعيد ركيك **(ويغضى عنهم)** الإغضاء العفو والتجاوز والسكوت وغض البصر عما لا يليق، وحمله على تغضى البصر أو راعى ما فيه من العفو فعداه بعن، وهو متعد بعلى، وفى المصباح: أغضى الرجل قارب بين جفنيه ثم استعمل فى الحلم.

(ويحتمل من أذاهم) أى يتحمله ويعفو عنه، قال فى المصباح: حمل الشيء واحتمله بمعنى عفا عنه، وهو فى اصطلاح الفقهاء يستعمل بمعنى الوهم والجواز، فيكون لازمًا وبمعنى الإغضاء والتمنى فيتعدى ومن زائدة أو تبعيضية، وسيأتى ما فيه **(ويصبر على جفائهم)** أى غلظة طباعهم المقتضية لعدم الأدب فى الأقوال والأفعال، ويقال لأهل البادية: أهل الجفاء، **(ما لا يجوز لنا اليوم الصبر عليه)** ما موصولة مفعول يحتمل، فمن بيانية مقدمة على المبين، وقد جوزه النحاة، والمراد باليوم ما بعد عصره عليه السلام، وابتداء الإسلام، وقواعد الإسلام لم تكن على ما هى عليه الآن من القوة التى لا يتسامح فيها لأحد ما كان يتسامح فيه الرسول، عليه السلام، لمصلحة تمت بذهاب أسبابها، فما فعله عليه السلام، من عدم قتل البعض لا يجوز لنا الآن المسامحة فيه أصلا، كما يأتى فى قوله: فلما استقر... إلخ، وهذا هو الجواب عن السؤال مع أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يجوز له العفو عنه؛ لأنه يمتنع علينا الإغضاء عن إهانته، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(و) كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يرفقهم)** أى يصلهم وينفعهم **(بالعطاء)** تكرمًا عليهم **(والإحسان)** إليهم لكرمه ولين قوله ليؤلف قلوبهم ومحبتهم، لأن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها، فيرفق بزنة يقصد مضارع رفق، أو بوزن يكرم مضارع أرفق، وفى الصحاح الرفق ضد العنف وقد رفق به يرفق، وحكى أبو زيد رفقت به وارتفقت بمعنى ترفقت به ويقال: أرفقته بمعنى نفعته.

وقال ابن القطاع: رفقته رفقا وأرفقته نفعته ومن الرفق كذلك، فهو ثلاثى ورباعى **(وبذلك)** المذكور من مداراتهم وعطائهم ورفقه بهم.

(أمره الله تعالى فقال: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾) [المائدة: ١٣]، أى على طائفة خائنة أو خيانة تصدر منهم فى حقك كما صدر من أسلافهم مع رسلهم، فلا يحزنك إساءتهم لك، أو المراد فعلة خائنة أو نفس خائنة، ويقال فى المبالغة: رجل خائنة كراوية وقرئ على خيانة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣]، لم يخن ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]، الذين يجزون السيئة بالحسنة،

ويتجاوزون عما سلف، وهذه الآية نزلت فى اليهود الذين كانوا فى زمن نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم بيانًا؛ لأنهم من شأنهم الخيانة، وأنه موروث آبائهم وأمره بالعفو عنهم بشرط المعاهدة أو نحوها أو هذه الآية منسوخة، والقليل المستثنى من آمن به صلى الله تعالى عليه وسلم منهم كابن سلام.

(وقال) الله تعالى آمرًا نبيه عليه السلام بما مر ﴿**ٱدْفَعْ**﴾ ماتراه من السيئات ﴿**بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ**﴾ [فصلت: ٣٤]، وهى الإحسان لمن أساءوا اللطف به ﴿**فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ**﴾ من الكفار ﴿**كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ**﴾ [فصلت: ٣٤]، أى لا يزال إحسانك إليه حتى يصيره كالصديق الذى بينك وبينه مصافاة وموالاة، والولى من يوالى ويتابع، والحميم الصديق المصافى، نزلت فيمن كان يعادى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كأبى سفيان، وقيل: المراد بالتى هى أحسن المسامحة والمصافحة وهى مستحبة، وقيل: هذه نسخت بآية السيف.

(وذلك) أى ما ذكر من مداراته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان منه **(لحاجة الناس للتألف)** لقلوبهم وجلبها له فى **(أول الإسلام)** ومبادى الهجرة **(و)** الحاجة فى أول الأمر إلى **(جمع الكلمة)** باتفاق رأيهم معه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعدم مخالفتهم له فإنه يحصل بالملاطفه والملائمة ما لا يحصل بغيرها **(فلما استقر)** فيه ضمير مستتر للإسلام أى لما قوى وثبت **(وأظهره)** أى أظهر الله دين الإسلام، أى أعلاه ورفعه **(على الدين كله)** أى على كل دين وملة بحيث غلب أهله وقهرهم، والدين فى الأصل مصدر يستوى فيه الواحد وغيره **(قتل من قدر عليه)** ممن أظهر عداوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وطعن فيه وفى دينه إذ لم تبق حاجة المداراة التى كانت لمصلحة أتمها الله **(واشتهر أمره كفعله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بابن خطل)** يوم الفتح حين أمر بقتله يوم فتح مكة ولو وجد متعلقًا بأستار الكعبة.

(و) قتل أيضًا بأمره بذلك **(من عهد)** أى أوصى المسلمين **(بقتله يوم الفتح)** يوم فتح مكة كما تقدم مفصلا.

(و) قتل أيضًا **(من أمكنه قتله غيلة)** بكسر الغين المعجمة وهو القتل خفية ومخادعة كابن الأشرف وابن أبى الحقيق **(من يهود)** هو اسم للطائفة المعلومة **(وغيرهم)** أى غير اليهود من الكفرة **(أو غلبة)** أى وقتل أيضًا من أمكنة قتله من غير إخفاء، أى بطريق الغلبة والقهر كأبى عزة الجمحى كما مر.

(ممن لم ينظمه قبل) أى لم يدخل قبل قتله **(سلك صحبته)**، صلى الله تعالى عليه

وسلم، بإسلامه ومتابعته له، صلى الله تعالى عليه وسلم، والسلك خيط ينظم فيه اللؤلؤ ونحوه، والنظم إدخاله فيه فاستعير للجمع وجعل محل الجمع أو ما يقتضيه، بمنزلة السلك وسلك صحبته كلجين الماء، أو هو استعارة أيضًا **(والانخراط فى جملة مظهرى الإيمان به)** من الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين، وقد فسر الانخراط بالدخول يقال: انخراط فى السلك إذا انتظم، وقد وقع ذلك فى كلام الفصحاء الثقات كالسكاكى، والزمخشرى، وفسر بما ذكر إلا أنى لم أجده فى كلام العرب قديمًا، ولا فى كتب اللغة بهذا المعنى الموجود خلافه، كخرط القتاد واخترط السيف سله، وفتشت عنه فلم أظفر به، وغاية ما يمكن فى توجيهه أنه من اخترطه إذا جعله فى الخريطة وهى الكيس فتجوز به عن جعله فى العقد، وقال ابن عباد فى محيط اللغة: الخريطة مثل الكيس يشرج من أدم أو حزق ويقال: أخرطت الخريطة إخراطًا انتهى. وتقدم التنبيه على ذلك أيضًا وقوله **(ممن كان يؤذيه)** من الكفرة بيان لمن تقدم **(كابن الأشرف وأبى رافع)** تقدم بيانهما مفصلاً **(والنضر)** بن الحارث الذى تقدم بيانه **(وعقبة)** بن أبى معيط، وتقدم أيضًا، وهذا تمثيل لمن قتله، صلى الله تعالى عليه وسلم، مطلقًا غيلة وغلبة، فلا وجه لما قيل إن ذكر ابن الأشرف مع من قتله غلبة نظرًا لقتله غيلة **(وكذلك)** أى مثل قصة من ذكر ممن قتله **(نذر دم جماعة)** من الكفار **(سواهم)** أى سوى من ذكر من كعب وأضرابه، ونذر بنون وذال معجمة وراء مهملة، أى أوجب قتله على من عنده من أصحابه، قال فى الأساس: نذر رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كذا أوجبه على نفسه وهو من كلام أهل الحجاز انتهى. فقول بعض الشراح: إنه بدال مهملة بمعنى أسقط وأهدر ليس بشىء **(ككعب بن زهير)** بن أبى سلمى بضم السين وسكون اللام، ربيعة بن رياح بكسر الراء وبالمثناة التحتية، ابن قرط المزنى وهو وأخوه شاعران مجيدان غير مكثرين وأخوه أسلم قبله وكان كعب قال بعد إسلام أخيه شعرًا يعرض فيه بالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فكتب إليه أخوه كتابًا يقول فيه: إن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أهدر دماء قوم كهبيرة بن أبى وهب، وابن الزبعرى، فإن كان لك حاجة فى نفسك فطر إليه فإنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقبل من أتاه تائبًا فضاقت الأرض عليه، وأرجف الناس بأنه مقتول، فأتى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو يصلى الصبح، فلما فرغ جلس بين يديه ووضع يده فى يده، وقال: يا رسول الله إن كعبًا جاء تائبًا مسلمًا أتقبله؟ قال: نعم وهو لا يعرفه، فقال: أنا كعب فوثب عليه رجل من الأنصار وقال: يا رسول الله دعنى أضرب عنقه، فقال: دعه فإنه جاء تائبًا، فغضب كعب على الأنصارى؛ لأنه لم يقل فيه أحد من المهاجرين إلا خيرًا، وأنشده، صلى الله

تعالى عليه وسلم، قصيدته المشهورة وألبسه بردته التى يتوارثها الخلفاء بعده، وكان معاوية، رضى الله تعالى عنه، طلبها منه فقال: ما كنت لأوثر أحدًا بثوب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلما مات أخذها من أولاده بعشرين أو بثلاثين ألف درهم فضة، وفقه هذا القصة أن من سنة الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، العفو عمن سبه من الكفرة وإن أجارة الشعراء مسنونة من أكارم الأخلاق، كما قال الغزى:

جحود فضيلة الشعراء غى ... وتحسين المديح من الرشاد
محت بانت سعاد ذنوب كعب ... وأعلت كعبه فى كل ناد
وما احتاج النبى إلى مديح ... وتشبيب بشىء من سعاد
ولكن سن إسداء الأيادى ... وكان إلى المكارم خير هاد

(وابن الزبعرى) هو عبد الله بن الزبعرى بن سعيد بن سهم القرشى، وهو بكسر الزاء المعجمة أو فتحها، وكسر الباء الموحدة، وسكون العين المهملة مقصور علم منقول من سيء الخلق أو كثيف الشعر، وكان شاعرًا مجيدًا شجاعًا من أشد الناس على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بطول لسانه وسفهه، ولا عقب له، أسلم بعد الفتح وحسن إسلامه، وكان فر هو وزوجته أم هانئ بنت أبى طالب إلى نجران، فقالوا له: ما وراءك؟ فقال: إن محمدًا قتل قريشًا، وفتح مكة وأراه سائرًا لكم، فأصلح بنى الحارث، وكعب منهم هارب من حصنهم، وجمع ماشيته، فأرسل له حسان، رضى الله تعالى عنه، شعرًا يقول فيه[1]:

غضب الإله على الزبعرى وابنه ... وعذاب سوء فى الحياة مقيم

فلما بلغه فقال: مالى وبنى الحارث وترك دارى وقومى، ثم أتى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى أصحابه فلما رآه قال: هذا ابن الزبعرى فى وجهه نور الإسلام فوقف عنده وقال: السلام عليكم، إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبد الله ورسوله والحمد لله الذى هدانا للإسلام، وقد أجلبت على عداوتك حتى هربت إلى نجران، وأنا أريد أن لا أقرب الإسلام أبدًا، ثم أراد الله بى خيرًا، فألقاه فى قلبى وحببه إلىّ وكره ماكنت فيه من الضلالة واتباع ما لاينفع ولايعقل من حجر يعبد، ويذبح له، فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «الحمد لله الذى هداك للإسلام، إن الإسلام يجب ما قبله»[2]، وقلت فى ذلك:

---

(١) البيت من الكامل، وهو فى ديوان حسان بن ثابت (ص٢١٢).

(٢) أخرجه الحاكم (٤٩٣/٣)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٢٠٦/٥)، وأبو نعيم فى الدلائل (١٣٤)، وابن سعد (٢٥/٢/٤).

رأيت إسلام قوم يجب ما كان قبله وكم حصر أراه بالكفر فى شر ملة

(وغيرهما) أى غير كعب وابن الزبعرى **(ممن آذاه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهجاه وسبه نثرًا ونظمًا، ثم تاب بإسلامه فقبلت توبته وعفا عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما فى السير **(حتى ألقوا بأيديهم)** أى انقادوا له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وسلموا، وهو مجاز عما ذكر، وأصله وضع يده فى يد غيره ممن يمسكها لانقياده أتم انقياد وقبض يد غيره عنه **(ولقوه)** عليه الصلاة والسلام **(مسلمين)** فعفا عنهم وأمنهم وأحسن إليهم.

(و) أما من نافقه فـ**(بواطن المنافقين)** وما فيها من الكفر **(مستترة)** غيرمعلومة لغيرهم **(وحكمه، صلى الله تعالى عليه وسلم)** إنما كان **(على الظاهر)** وهو الإسلام المانع من قتلهم وهذا لأجل التشريع لأمته بعده، وإن أطلعه الله على سرائرهم **(و)** مع ذلك **(أكثر تلك الكلمات)** التى قصد المنافقون بها تنقصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وذمه، **(إنما كان يقولها القائل منهم)**، أى من المنافقين **(خفية مع أمثاله)** من المنافقين، ولا يقف عليها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، والمسلمون وخفية بضم أوله وكسره.

وفى نسخة: زيادة واو قبل مع **(ويحلفون عليها)**، أى يحلفون إنهم ما قالوا ما نسب إليهم، وهذا مما يعلم مما سيأتى، وقد مر هذا فى قصة ابن أبى وابن سويد من المنافقين، **(إذا نميت)** إليهم، أى نقلت وبلغت لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عنهم من نمى الحديث بالتخفيف والتشديد، والمشهور ما قاله أبو عبيدة من أنه بالتخفيف ما نقل على وجه الإصلاح والتشديد ما كان على وجه الإفساد، وهو النميمة، وكذا قاله ابن قتيبة وغيره، لكن رواية أكثر المحدثين بالتخفيف هنا تدل على خلافه.

(وينكرونها) أى هذه المقالة، **(ويحلفون بالله ما قالوا)** ما نقل عنهم، **(ولقد قالوا: كلمة الكفر)**، أى الكلمة التى يكفر بها قائلها والتى إنما تصدر عن الكفرة وأعداء الدين مما نقلناه سابقًا.

(و) كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(مع هذا)**، أى ما قالوه من كلمة الكفر **(يطمع فى فئتهم)** بكسر الفاء وفتح الهمزة قبل التاء الفوقية، أى جماعتهم، وروى فيئهم بفتح الفاء قبل ياء ساكنة قبل الهمزة، من فاء إليه إذا رجع ومنه الفيء لظل بعد الزوال، **(ورجوعهم إلى الإسلام)** عطف تفسير، أى دخولهم فيه فهم مجاز مرسل من إطلاق المقيد على المطلق كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، **(وتوبتهم)** من نفاقهم وكفرهم الخفى **(فيصبر صلى الله تعالى عليه وسلم، على)** أذيتهم ونفاقهم وذمهم الذى

علمه منهم، وبلغه عنهم، وعلى (**هناتهم**) بفتح الهاء والنون الخفيفة، وفى المصباح: الهن، خفيف النون كناية عن كل اسم جنس والأنثى هنة بالتخفيف، ولامها محذوفة، ففى لغة هى هاء فتصغيرها هنيهة، ومنه مكث هنيهة، أى ساعة لطيفة، وفى لغة: هى واو فتصغيرها فى المؤنث على هنية بتشديد الياء، والهمز خطأ إذ لا وجه له، وجمعها: هنوات، وربما جمعت على هنات، مثل: حمات، والمذكر هنا، وبه سمى وكنى به عن الفرج، انتهى، وهو أحد الأسماء أخوات، أب، أخ، وكنى به هنا أيضًا عن قبائحهم.

(و) كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يصبر أيضًا على (**جفوتهم**)، أى ما صدر عنهم من الأقوال والأفعال القبيحة لغلظ طباعهم وسوء أدبهم، (**كما صبر أولوا العزم من الرسل**)، وهم الذين كانوا ذوى عزيمة قوية وثبات فى دعوة الناس إلى الدين، ومر أنه قد اختلف فيهم، فمنهم من قال: هم خمسة نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقيل: هم المذكورون على التوالى فى الشعراء والأعراف، وهم نوح، وهود، وصالح، وسليمان، ولوط، وموسى، لصبرهم على أذى قومهم وما ابتلوا به، ومنهم من عد منهم: إسماعيل، ويعقوب، وأيوب، وقيل: كل من أمر بالجهاد والقتال، وقيل: ثمانية عشر ذكروا فى الأنعام وعقبهم الله بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقيل: كل الرسل، وقيل: إلا يونس، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، فهؤلاء صبروا على أذى الناس ومواجهتهم بما يكرهون، وقد أمر صلى الله تعالى عليه وسلم بالاقتداء بهم فى الصبر على الأذى والعفو، فلم يزل يفعله فى ابتداء الهجرة (**حتى فاء كثير منهم باطنًا**) أى رجع عن نفاقه، فخلص إيمانه فى قلبه (**كما فاء ظاهرًا**) أى كما كان ظاهره فى الرجوع إلى الإيمان بعد الكفر.

(**وأخلص**) إيمانه بالله ورسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**سرًا**) فيما أسره وأخفاه فى قلبه وبينه وبين قومه (**كما أخلص جهرًا**) أى فيما جاهرهم به من مقاله، فتواطأ باطنه وظاهره وسره وجهره (**ونفع الله بعد بكثير منهم**) أى نفع بهم بعد إخلاصهم وهداية الله لهم.

(**وقام منهم**)، أى من هؤلاء الذين تألفهم وعفا عنهم (**للدين**) وأهله (**وزراء وأعوان**) عطف تفسير؛ لأن الوزير من الوزر، وهو المعاونة والنصرة فتقوى وتعاضد بهم أهل الإسلام، (**وحماة وأنصار**) فهم حامون للدين وناصرون لأهله (**كما جاءت به الأخبار**) الثابتة فكم من منافق وكافر حبب الله له الإيمان وأعزه الله به، وهو مذكور فى كتب الحديث غنى عن البيان، (**وبهذا**) الجواب المذكور (**أجاب بعض أئمتنا**) المالكية، رحمهم الله تعالى.

(عن هذا السؤال) السابق عن قول اليهود: السام عليكم، وعنه أجوبة أربعة ذكرها فى السيف المسلول بعد ما ذكر فى حقهم: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨]، فأخبر الله عنهم بأنهم كانوا يحيونه بتحية منكرة ويقولون: لو كان نبيًا عذبنا الله بقولنا له: السام عليكم، وأشار إلى أنه لا حاجة لعذابهم فى الدنيا؛ لأنه يكفى من لم يتب منهم عذابه فى الآخرة، فأجاب عن السؤال الذى تقدم من أنه لم يقتلهم، ونهى عائشة، رضى الله عنها، عن قولها: بل عليكم السام والذام، واللعنة كما مر.

فقال لها: مهلاً، فإن الله يحب الرفق فى الأمر كله، وحاصله: أنه كان لحكمة، وهو أنه وقع والإسلام لم يقو القوة البالغة، فصبر لعل الله يهديهم، ويقوى بهم الدين، وقد وقع ذلك لكثير منهم، وكان الصبر عليهم، والعفو عنهم جائز له، صلى الله تعالى عليه وسلم.

والجواب الثانى عنه: أنهم كانوا يخفونه ويتكلمون بعجلة وخفض صوت، ولا يطلع الناس عليه، والعقاب على الكفر إنما يكون على الظاهر دون الخفى.

(وقال) بعض الأئمة: المجيب بهذا، وفى نسخة وقيل: **(لعله)**، أى قولهم: السام للدعاء عليه **(لم يثبت عنده، صلى الله تعالى عليه وسلم، من أقوالهم)**، أى اليهود **(ما رفع)** بالبناء للمجهول من رفع الكلام بمعنى أوصله وبلغه، **(وإنما نقله)** له، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(الواحد)** الذى لم يتم به نصاب الشهادة، **(ومن لم يصل)** أى لم يبلغ **(رتبة)** قبول **(الشهادة فى هذا الباب)** أى النوع المقتضى للقتل **(من صبى)** صغير لا تسمع شهادته شرعًا.

(أو عبد) مملوك **(أو امرأة)** شهادتها غير مسموعة فى مثله مما يندرئ، ويدفع بالشبهات، وهو الحدود **(والدماء لا تستباح إلا)** بعد الثبوت **(بعدلين)** ذكرين حرين، وإعلام الله تعالى له بعد حكمه بالظاهر، ونفوذ حكمه لا يخالفه، فما قيل من أنه عجيب من المصنف، رحمه الله تعالى، مع تكذيب الله هؤلاء وإعلامه بحالهم فى القرآن ليس بشىء لاسيما، وهو ناقل ثقة وما على الرسول إلا البلاغ، **(وعلى هذا)** الذى ذكره بعضهم فى الجواب **(يحمل أمر اليهود)**.

وفى نسخة اليهودى: **(فى السلام)**، وفى نسخة: فى السام، وهما بمعنى؛ لأن المراد بالسلام سلام اليهودى، وهو قولهم: السام، **(وإنهم لووا به)** بواوين مخففتين، والتشديد، وإن صح غير متأت هنا؛ لأنه للمبالغة، ولم تقصد هنا، واللى فتل الألسنة، ولفتها بسرعة

حتى يخفى، ويظن أنهم قالوا السلام، **(ألسنتهم)** جمع لسان، وهو الجارحة المعروفة **(ولم يبينوه)**، أى سلامهم، وهو تفسير للمراد بلى الألسنة.

(ألا ترى) ما يحقق ما قيل ويوضحه **(كيف نبهت عليه)** أى على قولهم هذا، **(عائشة)** رضى الله تعالى عنها، حيث ردته عليهم بقولها المتقدم عليكم السام، والذام، واللعنة، ونهاها رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأمرها بالرفق، وقال: إنى أرد عليهم فيستجاب لى ولا يستجاب لهم، لكن قال ابن تيمية: إن قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب، فقولوا: وعليكم»(١)، أى ردوا الذى يقولونه لكم عليهم، وتقرير الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، له بعده يدل على عدم اختصاصه بأول الأمر، وبدء السلام، وأنه لم يخف عليه، فتأمل **(ولو كان)** اليهودى الذى قال للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: السام عليك، **(صرح بذلك)** من غير إخفاء ولى السنة **(لم تنفرد)** بتاء فوقية، أى عائشة، رضى الله تعالى عنها، **(بعلمه)**، دونه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(ولهذا)، أى لكونهم لم يصرحوا بما يعلمه كل أحد، أو لكون اليهودى لم يصرح بالسام، بل أضمره جبنا ولامة **(نبه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أصحابه على فعلهم)**، أى فعل اليهود القبيح الذى أتوا به بقولهم: السام عليك، **(وقلة صدقهم)** فى كلامهم، وجعل قولهم: السام، موهمين، أنهم قالوا: السلام كذبًا لجعلهم ما ليس بتحية تحية، فهو باعتبار خبر تضمنه كذب مخالف للواقع.

(وخيانتهم فى ذلك) لله ولرسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ليا بألسنتهم)** بتحريف مقالتهم وكذبهم وعدولهم عن سنن الصواب، **(وطعنا فى الدين)** أى دين الإسلام، وأهله، وفيه إشارة إلى الآية، أعنى قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ٥١]، الآية، وهى نزلت فى حق اليهود، وقولهم: راعنا واسمع، لكن لما كانا من قبيل واحد فى التحريف والعدول عن الظاهر اقتبسها المصنف هنا، وإنما كان هذا طعنًا فى الدين؛ لأنهم قالوا: لو كان نبيًا علم بمقالتنا وعذبنا الله عليها، كما مر.

فلا يتوهم أنه كيف يكون هذا طعنًا فى الدين بمجرد ذكر السام بمعنى السلام، **(فقال)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأصحابه منبهًا لهم **(إن اليهود إذا سلم أحدهم، فإنما يقول: السام عليكم فقولوا)** فى رد سلامهم: **(عليكم)**.

---

(١) تقدم تخريجه.

وفى رواية: وعليكم، بالواو وقد تقدم الكلام عليه مفصلا، وقد قال الفقهاء: لا يبدؤ بالسلام الكفرة، وإنما يرد سلامهم بقول: وعليكم.

وفى رواية عن الشافعى: جوازه، **(وكذلك قال بعض أصحابنا البغداديين)** كالقاضى عبد الوهاب البغدادى المالكى، وقد تقدم بيانه، **(وأن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يقتل المنافقين بعلمه فيهم)** وبما فى نفوسهم مع أنه عالم بهم، وأطلعه الله تعالى على سريرة نفاقهم، وإن كان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يقضى بعلمه، بل اختلف الفقهاء فى القاضى، هل له أن يقضى بعلمه فى زمان قضائه، أو فى مجلس حكمه؟، وإنما المانع عنه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أمر بالعمل بالظاهر فى أكثر أحواله تشريعًا لأمته، وكان ذلك فى ابتداء الإسلام تأليفًا للقلوب حتى يهديهم الله، ولا تنفر قلوب من يريد الدخول فى الإسلام، وتكف ألسنة الطاعنين بقولهم: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقتل أصحابه، والحكم يتعاضد والمصالح لا تتزاحم، فلا تعارض بين الأحاديث كما توهم.

(ولم يأت)، أى لم ينقل فى الأحاديث **(أنه قامت بينة)** عنده، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(على نفاقهم فلهذا)** أى لكونه لم تقم عنده بينة على نفاقهم، وهو مأمور فى أكثر الأحكام أن يحكم بالظاهر وبالصبر كما صبر إخوانه، أولوا العزم، **(تركهم)** من غير أن يقتلهم، و لم يحكم بعلمه وإن أعلمه الله به فى سورة المنافقين، وسورة براءة إجمالاً من غير ذكر لهم بأعيانهم، فمن قال: كفاك ما فيهما من تفضيحهم بينة لم يصب، وهذا مبنى على أن الحاكم لا يجوز له أن يحكم بعلمه مطلقًا، أو فى الحدود، أو فى حقوق الله، وفيه كلام للفقهاء ليس هذا محله وإقامة البينة على النفاق تتصور بأن يشهد على إقراره، وإلا فما فى قلبه لا يمكن الاطلاع عليه لغير علام الغيوب.

(وأيضًا) مما يقتضى عدم قتلهم، **(فإن الأمر)** أى نفاقهم **(كان سرًا وباطنًا)** خفى على الناس فكيف تقوم عليهم بينة، **(وظاهرهم الإسلام والإيمان)** هما بمعنى، وقد يفرق بينهما بحسب المفهوم، وإن اتحدا فيما صدقا عليه والأمر فيه معلوم.

(وإن كان) المذكور الذى لم يحكم بقتله **(من أهل الذمة)** بكسر الذال المعجمة، هى العهد والأمان هنا، قال فى المصباح: الذمة تفسر بالعهد والأمان، وسمى المعاهد ذميًا نسبة إلى الذمة بمعنى العهد، وقولهم: ذمتى كذا، معناه فى ضمانى، انتهى، كما أشار إليه بقوله: **(بالعهد)** وهو الميثاق بأن لا يغدر به.

(والجوار) بكسرا الجيم وتضم، وهو الأمان من جاره يجيره إذا أمنه بعهد بينهما،

والأمان يكون لمعين وغيره كأهل بلدة وأقليم، فإن كان بغاية معينة فهى الهدنة، وإن لم يكن فهو الجزية، وهم أهل ذمة أى أمان، وهذان يختصمان بالأمان بخلاف مطلق الأمان لزمن قريب، فلا يختص به لحديث: «المسلمون يسعى بذمتهم أدناهم».

(والناس قريب عهدهم بالإسلام) أى دخولهم فى الإسلام، كان قريبًا فى ابتداء الإسلام والهجرة، **(لم يتميز بعد)** بالضم أى بعد قرب عهدهم **(الخبيث من الطيب)** منهم أى لم يعلم من أخلص إسلامه فطابت سريرته، أو لم يخلص إيمانه ففيه بقية من خبث الكفر لم تظهر لغيره.

(وقد شاع)، أى سمع واشتهر بين الناس **(عن المذكورين)**، أى من كان منافقًا يظهر إسلامه، **(فى العرب)** المجاورين لهم المشاهدين لهم **(كون من يتهم بالنفاق)**، أى يتهمه خلص المؤمنين المهاجرين الذين نور الله بصائرهم **(من جملة المؤمنين)**، أى عده منهم بالنظر لظاهر حالهم ومن متعلقة بشاع **(وصحابة)** بفتح الصاد اسم جمع لصاحب، وهو فى الأصل مصدر كالقرابة **(سيد المرسلين)** لكونهم بعده تابعين له، عليه السلام.

(و) شاع أيضًا إنهم من جملة **(أنصار الدين)** الذين نصروا رسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، على أعدائه ظاهرًا، وهذا إنما هو **(بحكم ظاهرهم)** أى ما يظهر من حالهم؛ لأنا لا نطلع على سرائرهم فلأجل هذا لم يقتلهم، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال لعمر وغيره ممن قال فى بعضهم دعنى أضرب عنقه: لئلا يتحدث الناس، بأن محمدًا يقتل أصحابه، كما تقدم، فعدوا من أصحابه نظرًا لظاهر حالهم.

(فلو قتلهم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)، لما علمه من حالهم و**(لنفاقهم)** الذى أطلعه الله تعالى عليه دون غيره، **(وما يبدر منهم)** بفتح المثناة التحتية وسكون الباء الموحدة، وضم الدال والراء المهملتين، بمعنى يسرع ويخرج منهم بعجلة.

وفى نسخة: يبدو، بالواو بدل الراء، وفى نسخة يندر بالنون مع الراء، وهى صحيحة أيضًا، وإن خالفت رواية الشراح، قال فى المصباح: ندر من قومه إذا خرج، ومنه النادر لخروجه عن أمثاله، فتسميته نادرًا لمخالفته ظاهر حالهم، وهو الأكثر منها فلا بعد فيه.

(وعلمه) مجرور معطوف على نفاقهم، أى علم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بما أسروا)** أى أخفوا من الكفر **(فى نفوسهم)** من النفاق **(لوجد المنفر)** جواب لو، أى لوجد الذى يقصد تنفير الناس وصدهم عن الدخول فى الإسلام من المشركين وأعداء الدين، **(ما يقول)**، أى أمرًا يقوله لمن يريد الدخول فى الإسلام بأن يقول له: إنه سفاك يقتل أصحابه، إذا خالفوه والمرء لا يخلو من زلة.

(ولارتاب الشارد)، أى وقع فى ريبة لخوفه من القتل من كان شاردًا عن الدين ضالاً من الجاهلية، والأعراب أباة الضيم من شرد البعير، إذا نفر، وذهب فى الأرض، وفى الحديث: «لتدخلن الجنة إلا من شرد على الله»(١)، أى خرج عن طاعته تعالى، وفارق الجماعة، وهو فى الأصل استعارة.

(وأرجف المعاند) أى أتى بالأقوال الكاذبة التى يقصد بها التشنيع على الإسلام من كفر عنادًا، كبعض المشركين الذى كانوا يحبون إشاعة مثله، **(وارتاع)** أى خاف من يسمع الأراجيف وعلم بالقتل من الروع وهو الخوف **(من صحبة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، و)** ارتاع أيضًا من **(الدخول فى الإسلام)** خوفًا من أن يقتل كمن قتله **(غير واحد)** أى كثير ممن يريد الإسلام ممن ضعف قلبه، و لم ينظر ببصيرة صادقة ممن أضله الله **(ولزعم الزاعم)** أى وجد وصلة لكذبه من أراد الافتراء على الله ورسوله **(وظن العدو)** للإسلام وأهله.

(الظالم) لنفسه وغيره من صده عن سبيل الله وسعادة الدارين، وهذا بناء على أنه بعين مهملة من العداوة.

وقال البرهان: إنه فى الأصل الفذ بفاء، وذال معجمة مشددة بمعنى المنفرد والأول صحح فى الهامش، انتهى، والمعنى: أن هذا إنما هو فرد من الناس أو ظالم **(أن القتل)** الذى أوقعه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأهل النفاق والشقاق المقتولين بالاستحقاق **(إنما كان للعداوة)** من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لمن قتله، **(وطلب أخذ الترة)** أى أخذ ثأر له عند من قتله من العرب، وهو بكسر المثناة الفوقية، وفتح الراء المهملة، والهاء كالعدة، والهاء عوض عن الفاء المحذوفة من الوتر، وهى تبعة وأمر كان أولاً انتقم منه، والوتر قتل من له عنده دم، فهو قتل القاتل، وأما الثأر بمثلثة، وهمزة يخفف بيدله الفاء، فهو بمعناه أيضًا، وإن كان من مادة أخرى، وقولهم: بثأرات، فلان حثًا على طلب الدم، ممن هو عنده، فهو بمثلثة ومثناة أيضًا، والمعنى واحد، فلا معارضة بين ما فى القاموس. والنهاية الأثيرية كما توهم، وكم من لفظ من مادتين بمعنى مثله فلا حاجة للتطويل بمثله.

(وقد رأيت معنى ما حررته) أى هذبته من أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ترك قتل المنافقين الذين علم نفاقهم لحكمه بالظاهر تشريعًا لأمته، ولهذه المصالح من تأليف القلوب، ودفع طعن الطاعنين ليدخل الناس فى دين الله أفواجًا.

---

(١) أخرجه الحاكم (١/٥٥، ٤/٢٤٧).

(منسوبًا إلى مالك بن أنس) إمام دار الهجرة، رحمه الله تعالى، **(ولهذا)** المعنى الذى ذكره وحرره **(قال، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، فى الحديث الذى تقدم لمن قال: دعنى أضرب عنقه، كما مر.

(لا يتحدث الناس) فى مجالسهم ويشيعون **(أن محمدًا)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، وذكره باسمه حكاية لما يقولونه **(يقتل أصحابه)** لغرض آخر من ترة وأمر سابق لاتفاقهم يقصدون بذلك، إفساد الناس وصدهم عنه كما كان عادة المشركين.

(وقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث آخر لم يخرجوه، **(أولئك)** المنافقون **(الذين)** لم أقتلهم مع العلم بنفاقهم **(نهانى الله عن قتلهم)** لحكمة علمها، وفائدة عظيمة من مصالح الدين، والحديث الذى قبل هذا فى الصحيحين كما علم، مما مر.

(وهذا) المذكور من عدم القتل بالنفاق المضمر **(بخلاف إجراء الأحكام الظاهرة عليهم)** أى المنافقين أو الناس، **(من)** بيانية لما بعدها **(حدود الزنا)** جمعها لتعدد من زنا أو تعدها برجم، وجلد، وتغريب، والزنا يمد ويقصر، بمعنى وهما لغتان، وقيل: الممدود فعل اثنين والمقصور من واحد، وقيل: إنه حقيقة فى الرجل؛ لأنه فعل صدر منه دون المرأة قاله المعرى، والقصر أفصح.

(والقتل) قصاصًا ونحوه، **(وشبهه)** كحد القذف وشرب الخمر والسرقة، **(لظهورها)** بالشهادة الشرعية **(واستواء الناس فى علمها)**؛ لأنها من الأمور الباطنة.

(وقال محمد بن المواز) بفتح الميم وتشديد الواو وألف وزاء معجمة، وهو مشهور من أئمة المالكية كما تقدم.

(لو أظهر المنافقون نفاقهم لقتلهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم) هذا توضيح لما قبله، فلا يرد عليه ما قيل: إنهم إذا أظهروه يكون كفرًا وردة لا نفاقًا وفيه نظر، **(وقاله)** أيضًا **(القاضى أبو الحسن بن القصار)** المالكى الذى تقدمت ترجمته، **(وقال قتادة فى تفسير قوله)** عز وجل: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، من النفاق المعروف، وهو لفظ حدث فى الإسلام من نافقاء الضب، وهى خرق يخفيه إذا أريد صيده خرج منه، وفر، وقيل: إنه مأخوذ من النفق وهو السرب، ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أى فساد حقية سماه مرضًا استعارة ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾، من الإرجاف، وهو إشاعة الافتراء والكذب بالافتراء وإغراء الأعداء ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾، أى نأمرك بقتلهم ونكالهم من الإغراء، وهو الحث والتحريض على سبيل الاستعجال.

﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾، أى لا يتيسر لهم الإقامة بها لقتلهم أو طردهم، وهو

عطف على نغرينك الجواب للقسم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، أى زمانًا قليلاً لوقوع ما أغرينا بهم من القتل أو الإجلاء ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ [الأحزاب: ٦١]، نصب على الشتم أو الحال، أى مطرودين ومبعدين عن رحمة الله تعالى فى الدنيا ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ۝٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦١، ٦٢]، فى مواضع (الآية) مصدر مؤكد أى ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ ممن كان قبلهم ينافق الأنبياء أن يقتلوا أينما وجدوا فظفر بهم ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، بل هى جارية على سنن واحد فى جميع الأمم.

(قال) أى قتادة **(معناه)** أى معنى ما ذكر من الآية، **(إذا أظهروا النفاق)**؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم أمر بجهاد المنافقين، وهو إنما يكون إذا أظهروه؛ لأنهم قبل إظهاره مسلمين دماؤهم معصومة، ومعنى ثقفوا: أخذوا، وتمكن منهم إذا وجدوا، والذين فى قلوبهم مرض هم المنافقون، والمرض ما يعرض للبدن، فيخرجه عن الاعتدال، ويوجب اختلال أفعاله، فتجوز به عن الأغراض النفسانية المانعة لكماله، كالجهل وسوء العقيدة، والمرجفون: هم المنافقون؛ لأنهم كانوا يشيعون أخبارًا تسوء المؤمنين، كقوة عدوهم وإصابة بعض سراياهم.

وقال ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: إشاعة الكذب التماسًا للفتن، وهو من الرجفان، وهو الاضطراب بزلزلة ونحوها، فاستعير لما ذكر، وقيل: ما قاله قتادة مخالف للظاهر، وإنما المراد: نهيهم عن أذية رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، والمؤمنين، يعنى أن جهادهم لا يظهر لما مر.

ولذا قال الثعلبى فى تفسيره: إن ابن مسعود، قال: جهاد المنافقين الإنكار عليهم والتعبيس فى وجوههم، وترك الرفق بهم، وقيل: إنها نسخت العفو عنهم، ولذا قال: **(وحكى محمد بن مسلمة)** تقدمت ترجمته **(فى المبسوط)** اسم كتاب له **(عن زيد بن أسلم)** تقدم بيانه أيضًا.

(أن معنى قوله تعالى: ﴿يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين﴾ [التوبة: ٧٣]، **نسخ ما كان قبلها)** أى قبل نزولها من العفو والصفح عن أذيتهم له صلى الله تعالى عليه وسلم الذى كان قبل فى قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٨١]، فإنه نهى أولاً عن قتل المنافقين، فنسخ بهذه الآية كما قاله الواحدى، فى سورة النساء، ومجاهدة المنافقين عند الحسن وقتادة إقامة الحدود عليهم، وعن مجاهد بالوعيد، وإفشاء أسرارهم، ومن ذكر هذا، وقال: لا نسلم إنها منسوخة لم يصب؛ لأنه منع للنقل، وهو خطأ ويؤيد الجهاد فى الآية، قوله: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، أى أشدد وعيدهم،

وأنهم أجمعوا على أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يقتل أحدًا من المنافقين إلى أن توفاه الله تعالى.

(وقال بعض مشايخنا) من الفقهاء المالكية، وقيل: من متكلمى الأشعرية **(لعل القائل)** لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد قسم بعض الغنائم، **(هذه قسمة ما أريد بها وجه الله)** أى لم تقع على وجه العدل بين الغزاة، يعنى: إنها قسمة جائرة.

(و) لعل **(القائل له: أعدل)** أى سو بين المسلمين فى القسمة، قال البرهان الحلبى: ظاهره أن قائلهما واحد، وليس كذلك وكان ينبغى أن يقول: وقول الآخر، والأول: هو ذو الخويصرة، كما فى مسلم، ويقال له: حرقوص، بضم الحاء المهملة، وبراء وصاد مهملتين أيضًا بينهما قاف مضمومة كما تقدم، وهو ذو الثدية رأس الخوارج، ولهم ذو الخويصرة التميمى، وهو البائل فى المسجد ولهم ثالث أيضًا.

(لم يفهم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، منه) أى من قوله هذا **(الطعن عليه)** فى قسمته، أى لم يقصد به ذمه وتنقيصه، (و) لا **(التهمة له)** فيها أى لم يظن به سوء، قال فى المصباح: التهمة بسكون الهاء وفتحها الشك، والريبة، وأصلها الواو؛ لأنها من الوهم، انتهى.

(وإنما رآها)، أى فهم من كلمته هذه أنها صدرت **(من وجه الغلطة)**، أى صدرت منه لغلظة طبعه، وعدم أدبه، كما هو عادة الأعراب، وفى نسخة الغلط **(فى الرأى)** الذى يراه جفاة العرب، كما هو رأى أمثالهم **(فى أمور الدنيا)** لحرصهم عليها، **(والاجتهاد فى مصالح أهلها)** الذين يرون أن تغليظ المقال يحصلها كما يقال: الإبرام يحصل المرام ويعدون الوقاحة سلاحًا لهم، **(فلم ير ذلك)** الكلام الذى واجهه به، **(سبا)** وتنقيصًا له، فهو بسين مهملة وباء موحدة مشددة، وروى بشين معجمة، ومثناة تحتية مشددة أو خفيفة بعدها همزة، قال البرهان: والأول أصوب، وعلى الثانى لم يره شيئًا يعتد به أو ينقصه، قيل: ويبعد هذا أنه تغير وجهه الشريف، وقال: «يرحم الله أخى موسى، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر»[1]، كما تقدم.

(فلذلك لم يعاقبه)، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى نسخ ذكر هذا بعد قوله الآتى والصبر عليه، وقيل: إنه إنما لم يعاقبه لئلا يقول الناس أنه يقتل أصحابه كما صرح به الحديث المار، ولما قيل أنه حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، له العفو عنه وإليه أشار بقوله **(ورأى أنه من الأذى)** هو الشر القليل كما فسره به السبكى فيما يأتى.

---

(١) تقدم تخريجه.

(الذى له العفو عنه) لقلته أو لأنه حقه وهو لاينتقم لنفسه **(والصبر عليه)** تأليفا لقلوب الناس، وقد عد ابن تيمية هذا جوابا آخر فى كتابه السيف المسلول **(وكذلك)** أى كما قيل فى الجواب عما ذكر **(يقال فى اليهود إذ قالوا)** له فى الحديث السابق **(السام عليكم)** للدعاء عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى أصحابه.

(وليس فيه صريح سب) يوجب عقابهم عليه **(ولا دعاء)** عليه بما لايصح من أحد بشىء من الأشياء **(إلا بما)** أى بأمر **(لابد منه)** أى لايسلم منه أحد **(من الموت الذى)** كتبه الله على العباد وقدره و**(لابد من لحاقه جميع البشر)** لأن ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فالسام على هذا معناه الموت؛ فهو معتل العين كما مر.

(وقيل: بل المراد) والمعنى الذى قصدوه **(أنكم تسأمون دينكم)** أى تضجرون من مشاقه فتملونه وتتركونه، فهو إما دعاء بهذا أو دخل وطعن فى الدين لا اعتذار، عنهم أى عن اليهود أيضًا فى قولهم السام عليكم كما توهم، ثم بين وجهه بحسب اللغة بقوله **(والسأم)** بفتح السين والهمزة **(والسآمة)** بمد الهمزة بزنة القباحة **(الملال)** وهو الضجر والقلق المؤدى للترك؛ فهو على هذا مهموز العين أبدلت همزته ألفا؛ لأنه من سئم مهموزًا فما قيل الرواية بلا همزة لاختلاف صيغتهما واوًا وهمزة ليس بشىء.

(وهذا) أى هذا القول **(دعاء على سآمة الدين)** سآمة بالمد مصدرًا، أو بدونه جمع سائم نحو كتبة جمع كاتب ولعل هذا أنسب بقوله **(ليس فيه صريح سب)** له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلذا لم يعاقب قائله **(ولهذا)** أى لأجل كونه ليس بسب صريح **(ترجم البخارى)** فى صحيحه **(على هذا الحديث)** بقوله **(باب)** بالتنوين وتركه.

(إذا عرض) أى ذكر بطريق التعريض دون التصريح؛ فهو مشدد الراء **(الذمى أو غيره)** من المسلمين والمستأمنين من أهل الحرب **(بسب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** والترجمة الباب والعنوان فى اصطلاح المصنفين، وأصله ذكر لفظ بلغة أخرى أو إبلاغ كلام الغير لمن لم يسمعه كما فى قوله[1]:

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

فتجوز به عما ذكر؛ لأنه إجمال يفيد ما بعده كما تقدم، وقد قيل: إن السام غير عربى، وهو على هذا تعريض بالنقص لا بالسب، وقد تقدم أن التعريض له حكم الصريح ولذا عقبه بقوله **(قال بعض علمائنا)** المالكية **(وليس هذا)** الذى قاله اليهود **(بتعريض بالسب)** لأنه الذم بصفات النقص التى لاتليق **(وإنما هو تعريض بالأذى)** أى بما

---

(١) تقدم الاستشهاد به.

يؤذى ويؤلم.

وقال السبكي: الأذى الشر الخفيف؛ فإن زاد فهو ضرر كما قاله الخطابى وغيره، انتهى.

لأن الموت والملل من لوازم البشرية لاتنقيص، لكن ذكره ممن لايقصد به حقيقته يؤذى ويؤلم (**قال القاضى أبو الفضل**) عياض المصنف، رحمه الله تعالى: (**قد قدمنا**) فى هذا الباب (**أن الأذى والسب فى حقه**) ووصفه (**صلى الله تعالى عليه وسلم**) بشىء منهما (**سواء**) فى الحكم من قتل ونحوه (**و**) قد (**قال القاضى أبو محمد بن نصر**) الذى قد قدمنا ترجمته.

(**مجيبا عن هذا الحديث**) فى قصة سلام اليهودى عليه (**ببعض ما تقدم**) من الأجوبة (**ثم قال**) ابن نصر (**ولم يذكر فى الحديث**) المذكور (**هل كان هذا اليهودى**) الذى صدر عنه ما ذكر (**من أهل العهد**) أى ممن وقع بينه وبين النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، عهد وهو الهدنة كما تقدم.

(**والذمة**) هى أمان كما تقدم (**أو الحرب**) أى من المحاربين وأعداء الدين الذين لاعهد ولاذمة لهم فينتقض عهده أو يهدر دمه (**ولايترك موجب الأدلة**) الدالة على تعين قتل من سب مطلقا (**للأمر**) الذى علم من قصة هؤلاء اليهود.

(**المحتمل**) الذى لم يعلم منه أنهم معاهدون أو محاربون، والأمر الذى فيه احتمال لايتم به الاستدلال وتعارض الأدلة اليقينية (**والأولى**) فى الجواب عن تركه صلى الله تعالى عليه وسلم قتل من سبه وأذاه مع أنه لازم (**فى ذلك كله**) أى توجيه ما ورد مما يخالفه كله (**والأظهر من هذه الوجوه**) التى وجه بها ما ذكر مما أشكل على الأئمة (**مقصد الاستئلاف**) أى لأجل أنه قصد الاستئلاف لهم أى قصد تأنيسهم، وتأليف قلوبهم (**والمداراة على الدين لعلهم**) أى أنه باستمالتهم بالعفو عنهم يرجو أنهم (**يؤمنون به**) صلى الله تعالى عليه وسلم، ويدخلون فى دينه.

(**لذلك**) أى لبيان ذلك وأنه إنما فعله للمداراة لا؛ لأنه غير جائز (**ترجم البخارى**) أى جعل الإمام البخارى فى صحيحه عنوان الباب الذى ذكر فيه هذا منبها (**على حديث القسمة**) أى الحديث الذى ذكر فيه قسمة الغنائم، وقد قال له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعض المنافقين: أعدل ما هذه قسمة أريد بها وجه الله كما تقدم (**و**) الحديث الذى فيه ذكر (**الخوارج**) كذى الخويصرة وأصحابه فجعل ترجمته (**باب من ترك قتل الخوارج للتأليف**) أى لأجل أن يؤلفهم ليثبتوا على الإسلام.

(ولئلا ينفر الناس عنه) إذا رأوه يقتل من أذاه (و) ترك قتلهم أيضًا **(لما)** بكسر اللام وتخفيف الميم **(ذكرنا معناه عن)** الإمام **(مالك)** من أنه تركه لئلا يرجف الناس ويرتاعوا ولئلا يجد الطاعن فى الدين طريقًا لطعنه فيه **(وقررناه قبل)** أى قبل هذا كما سمعته آنفا، وقبل مبنى على الضم، والخوارج: جمع خارج، على خلاف القياس أو خارجة بمعنى طائفة خارجة، سموا بذلك لأنهم خرجوا على عليٍّ، كرم الله وجهه، وقصتهم معه بعد وقعة الجمل مشهورة.

وليس المراد بهم الذين خرجوا على عثمان، رضى الله تعالى عنه، حتى قتل كما ذكره الرافعى فى شرح الوجيز، ولم يكن خروجهم فى حياته، صلى الله تعالى عليه وسلم، لكن المذكورون فى حديث القسمة، ذو الثدية، كان رئيسهم، وأشار، صلى الله تعالى عليه وسلم، لقصته فى هذا فهو من معجزاته فى إخباره بالمغيبات، وقصة الخوارج مفصلة فى التواريخ ولهم عقائد باطلة، وكان المعترض على قسمة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، هو ذو الثدية.

ولما قال ما قاله، قال عمر، رضى الله تعالى عنه: دعنى أضرب عنقه؛ فقال: دعه، فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين، كما يمرق السهم من الرمية، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة:٥٨]، الآية.

(وقد صبر، صلى الله تعالى عليه وسلم) على أعظم من السب والأذى فصبر **(لهم على سحره)** الذى فعله اليهود كما مر **(وسمه)** أى سم المرأة اليهودية له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى ذراع شاة أكل منها وقصة السحر والسم تقدمت، وهى لشهرتها غنية عن البيان.

(وهو) أى ما صبر عليه مما ذكر **(أعظم)** فى الأذية له **(من سبه)** أى سب اليهود له تعريضا كما مر **(حتى نصره الله عليهم وأذن)** الله **(له)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد ما أمره بالعفو والصفح عنهم **(فى مقتل من عينه منهم)** أى ممن سبه وأذاه من المنافقين واليهود، وعينه بفتح العين المهملة وتشديد الياء المثناة التحتية ونون وهاء الضمير أى بين عينه وشخصه مثل كعب بن الأشرف، وفى نسخة حينه بحاء مهملة مكان العين أى قتله وأهلكه من الحين بفتح الحاء وهو الهلاك، وفى أخرى خيبة بخاء معجمة وموحدة مكان النون، أى أظهر أنه خائب خاسر بافتضاحه ونكاله فى الدارين.

(وأنزلهم من صياصيهم) أى أخرجهم من حصونهم، وقلاعهم، ومساكنهم العالية،

بها وكل ما يتحصن به من الأعداء يسمى صيصية بصادين مهملتين مكسورتين ومثناتين تحتيتين أوليهما ساكنة، والثانية مفتوحة خفيفة، ويقال لقرن البقر وشوكة الديك، كما قاله الراغب والذين أنزلهم من حصونهم بنو قريظة كانوا عاهدوه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن لايقاتلوه ولايعينوا عليه عدوا، فلما تجمعت الأحزاب نقضوا العهد.

وكان ابن أحطب من بنى النضير أتى كعب بن أسعد القرظى رئيس قريظة الذى عاهد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلما أتاه ابن أحطب قفل باب حصنه فناداه افتح؛ فقال: اذهب فإنك مشؤم وقد عاهدت محمدًا عهدًا لا أنقضه، وإنه يفى بعهده فلم يزل يحتال عليه حتى أدخله حصنه، ولم يزل يفتل فى الذروة، والغارب حتى نقض عهده؛ فلما بلغ ذلك رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعث السعدين مع جماعة لينظروا أهل نقضوا عهدهم أم لا، فلما أتوهم، وقالوا لهم: نبذتم عهد رسول الله، قالوا: من رسول الله، وشاتموهم فأتوه، عليه الصلاة والسلام؛ فأخبروه بخبرهم وأنهم ظاهروا أبا سفيان فأتاه جبريل، عليهما الصلاة والسلام، وقال له: انهض لبنى قريظة فإني تركتهم فى زلزال وبلبال فأتاهم ونازلهم وناداهم، يا إخوة القردة والخنازير كما يأتى، فقالوا: يا أبا القاسم ما كنت فحاشا، ثم نزلوا عن حكم سعد بن معاذ، رضى الله تعالى عنه، لحلف كان بينه وبينهم؛ فظنوه يتلطف بهم فحكم فيهم بقتل المقاتلة منهم وسبى الذرية وأن يعطى عقارهم المهاجرين دون الأنصار؛ لأنهم لا عقار لهم إذ ذاك؛ فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: قضى فيهم بحكم الله، فأتى بهم سوق المدينة وضرب أعناقهم وهم قريب من تسعمائة **(وقذف فى قلوبهم الرعب)** أى ألقى الله فى قلوبهم الخوف من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأنه مما نصره الله تعالى به فقال: «نصرت بالرعب».

(وكتب) أى قدر الله **(على من شاء منهم الجلاء)** بفتح الجيم ممدودًا أى خروجهم من بلادهم، وأصله بمعنى الكشف الظاهر يقال: جليت القوم من منازلهم، فجلوا أى أبزرتهم ونفيتهم؛ فقوله **(وأخرجهم من ديارهم)** عطف تفسير والذين أجلاهم بنو النضير لما نقضوا العهد بهمهم أن يلقوا على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حجرًا؛ فأخبره جبريل بذلك؛ فقام من عندهم كما مر، ثم رجع لهم وحاصرهم أيامًا ثم ألقى الله تعالى فى قلوبهم الرعب فسألوه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يجليهم ويبيح لهم مقدار ما يحملوه معهم فأجابهم، وفيهم نزلت سورة الحشر؛ فكان أحدهم يخرب بيته بيده كما قال: **(وخرب بيوتهم)** التى سكنوها ﴿بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر:٢]، بهدمها وقطع أشجارها، وهدم حصونهم حتى لم يبق منهم بأطراف المدينة دار ولاديار،

وهذا كله من الآيات النازلة فى حق يهود خيبر ومن قرب منهم.

(وكاشفهم) أى واجههم **(بالسب)** أى بسب صريح تذليلاً لهم، وكذا اللعن الوارد بالقرآن والحديث تذليلا لهم أيضًا **(فقال لهم: يا إخوة القردة والخنازير)** أى المشابهين لها فى الخسة وقبح المنظر وأن منهم من مسخ قردًا وخنزيرًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠].

(وحكم فيهم) بالتشديد مجازًا بمعنى سلط عليهم **(سيوف المسلمين)** أى سلط المسلمين بسيوفهم على من قتل من بنى قريظة **(وأجلاهم)** أى أخرجهم، والجلاء إخراج جماعة مع أهلهم كما علم مما مر **(من جوارهم)** لأن أرضهم كانت مجاورة للمدينة الشريفة **(وأورثهم)** أى المسلمين **(أرضهم)** من مزارعهم، وحدائقهم أى ملكها لهم كما مر.

(وديارهم) أى مساكنهم وأوطانهم **(وأموالهم)** أى أمتعتهم ودوابهم وكل منقول معهم **(لتكون كلمة الله)** أى دينه وأمره فيما تصرف فيه **(هى العليا)** أى نافذة **(وكلمة الذين كفروا السفلى)** أى ملغاة مهملة فكأنها مرمية على الأرض **(فإن قلت)** كيف يقتل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من أذاه **(فقد جاء فى الحديث الصحيح)** الذى رواه البخارى وغيره **(عن عائشة)** أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، أنها قالت فيه: **(أنه عليه الصلاة والسلام ما انتقم)** من أحد **(لنفسه)** أى لأجل حق له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى نفسه **(فى شىء يؤتى إليه)** مبنى للمجهول أى يأتى إليه أحد، ويفعله ويواجهه به فلم يعاقب أحدًا على مكروه فعله **(قط إلا أن)** يكون ما فعلوه وأتوه أمرًا **(تنتهك)** فيه **(حرمة الله)** هى ما يحترم ويراعى من حدوده وأحكامه أى تهان ويفعل منها مالا يجوز، وفى المصباح: نهك الشىء نهكًا بالغ فيه ونهكه السلطان عقوبة أى بالغ فيها وأنهكه لغة فيه وانتهك الحرمة تناولها بما لا يحل انتهى.

فإن وقع من أحد تعدى حدود الله **(فينتقم)** منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لله)** أى لأجل الله لا لنفسه؛ فهذا الحديث يقتضى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لاينتقم ممن آذاه أوسبه وهو مناف لما تقدم.

(فاعلم) أيها السائل **(أن هذا)** المذكور فى الحديث من أنه لا ينتقم لنفسه **(لا يقتضى)** أى لايدل دلالة لازمة **(أنه لاينتقم ممن سبه أو آذاه أو كذبه)** أى نسبه للكذب وقد قدمنا بيانه مفصلاً، وما المراد بالكذب فيه **(فإن هذه)** الأمور المذكورة من سبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأذيته وتكذيبه **(من حرمات الله)** لأن أذية رسول الله، صلى الله تعالى عليه

وسلم، أذية لله بمعنى أنه لا يحبها كما أن طاعته طاعة لله ومحبته محبة لله بالنص فهو حق مشترك بين الله ورسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم.

وانتقام رسول الله تارة، رعاية لحق الله، وعفوه تارة رعاية لحق نفسه، وهكذا الحقوق الشرعية منها ماهو حق العبد، ومنها ما هو حق الله، ومنها ما هو مشترك وهو على قسمين ما الأرجح فيه حق العبد وما الأرجح فيه حق الله، وربما يتساويان ولكل أحكام ليس هذا محل تفصيلها، فالمراد بقوله: إن هذه من حرمات الله أنه مما راعى فيه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حق الله دون حق نفسه، فلا يرد عليه أنه مشترك كما قيل ولايرد عليه النصوص الناهية عن أذيته، صلى الله تعالى عليه وسلم.

كما أشار إليه بقوله **(التى انتقم لها)** ممن صدرت منه، لأنه رأى رعاية حق الله تعالى فيها أرجح عنده كما فى قصة كعب بن الأشرف، ونحوه.

(وإنما يكون ما) أى الأمر الذى **(لاينتقم له فيما تعلق بسوء أدب أو)** سوء **(معاملة)** معه؛ لأنه حقه فله العفو عنه وبينه بقوله **(من القول)** الذى يخاطب به **(أو الفعل)** الذى يفعلونه مما يتعلق به ويكون **(فى النفس)** أى فى نفسه وذاته الشريفة **(والمال)** الذى يعطيه لهم من الغنائم كما تقدم فى القسمة **(مما لم يقصد فاعله)** وقائله **(به)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو بالفعل **(أذاه)** وأدخل القول فى الفعل اختصارًا؛ لأنه فعل اللسان.

(لكن) صدوره عنه لجهل منه وغلظة طبع **(مما جبلت)** وطبعت **(عليه الأعراب)** سكان البوادى الذين لا أدب لهم **(من الجفاء)** أى غلظة الطباع **(والجهل)** بحقوق الله وحقوق رسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعدم معرفتهم بآداب الصحبة **(أو جبل عليه البشر)** كلهم **(من الغفلة)** عما يجب عليهم، فإن الناس قلما يخلو عنها وفى نسخة من السفه **(كجبذ الأعرابى بردائه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى نسخة بإزاره والمعنى واحد، وجبذ وجذب بمعنى، وقيل: جبذ مقلوب من جذب، وقيل: الصواب رواية ردائه، وهو ما يكون على العاتق، والظاهر والإزار ما يكون تحته فى وسطه الأسفل وجذبه يفضى لكشف العورة، وصحة هذه الرواية يقتضى أنه مجاز مرسل بمعنى الرداء ومطلق اللباس فالتخطئة خطأ من قائله.

وقوله: **(حتى أثر)** جذبه **(فى عنقه)** الشريف قرينة ظاهرة عليه، وقد ورد أيضًا بهذا المعنى فى كتب اللغة، وكان بردًا نجرانيا غليظًا وروى أنه انشق من شدة جذبه **(وكرفع صوت)** الأعرابى **(الآخر عنده)** حين ناداه أو حين كان يكلمه، وهو ثابت بن قيس بن شماس كان جهير الصوت كما تقدم.

فلما نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجرات:٢]، لزم منزله فافتقده، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ فقال سعد بن معاذ: أنا أعلم علته وهو خوفه من الله لذلك، وقيل: إنما هى فى وفد بنى تميم لما نادوه من وراء حجراته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: هو الأقرع بن حابس، وقيل: غير ذلك.

(وكجحد الأعرابى) أى إنكاره **(شراه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(منه)** أى من الأعرابى **(فرسه التى شهد فيها)** له أنه اشتراها **(خزيمة)** والأعرابى هو سود بن قيس المحاربى كما قاله الذهبى، وقال الخطيب: أنه سواد بن الحارث، وفى السير أن تلك الفرس فرسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، البيضاء واسمها المرتجز أو الظرف أو النجيب فأمضى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، شهادة خزيمة وحده وجعلها بشهادتين كما مر.

وليس هذا قضاء بعلمه لعصمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأن قوله فى الحديث: «من شهد له خزيمة فهو حسبه»(١) يبعده وهو من خصائصه وخزيمة هو ابن ثابت الأنصارى ابن عمارة، وهذا الحديث رواه البخارى وغيره وفيه أنه تبعه ليقضيه، وجعل الناس يساومونه؛ فقال: إن كنت مبتاعا فاشتر وإلا بعته؛ فقال له، صلى الله تعالى عليه وسلم: أوليس قد ابتعته منك؛ فقال: هلم بشاهد؛ فقال: خزيمة أنا أشهد؛ فقال: بم تشهد؟ قال: بتصديقك يا رسول الله؛ فجعل شهادته بشهادة رجلين، وتمسك به بعض المبتدعة فى قبول شهادة من عرف صدقه مطلقا كما بينه الخطابى ورده، وهؤلاء هم الخطابية فرقة من الرافضة.

(وكما كان من تظاهر زوجيه عليه)، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهما عائشة وحفصة أو غيرهما كما تقدم، والتظاهر الاتفاق على معاونة كل منهما الأخرى بتصديقها فيما تقوله، وهو من الظهر لاستناد كل منهما للأخرى، وكان مكثه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عند زينب بنت جحش فسقته عسلاً فاتفقتا على أنه إذا جاء، قالت له: أجد منك ريح مغافير وهو بقل أو صمغ كريه الرائحة، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، لايحب الرائحة الكريهة للقائه للملك فلما سمعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: لا أعود كما فصل فى التفسير والسير **(وأشباه هذا)** المذكور **(مما يحسن الصفح عنه)** أى العفو وأصله أن يميل صفحة وجهه لجانب آخر، فكنى به عما ذكر؛ لأنه أمر معفو عنه و لم ينشأ عن تهاون، وقصد تنقيص له وإنما كان لأمر آخر.

---

(١) أخرجه البخارى فتح البارى (٥١٩/٨)، والحاكم (١٨/٢)، والطبرانى فى الكبير (١٠١/٤).

(**وقد قال بعض علمائنا**) أى المالكية أو أهل العلم مطلقًا (**إن أذى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، حرام لا يجوز بفعل مباح ولاغيره، وأما غيره فيجوز بفعل مباح مالا يجوز للإنسان فعله، وإن تأذى به غيره واحتج بعموم قوله تعالى**) كما تقدم الكلام عليه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧]، استدل بإطلاق ما يؤذى ولعنة فاعله فى الدارين، على أنه كبيرة، ومثل للمباح بقول بعض زوجاته له، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما مر.

وقد كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، من هم بالإهداء فى بيت غيرها؛ فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا تؤذونى فى عائشة؛ فإن الوحى مانزل علىَّ فى لحاف امرأة غيرها»(١)، فلما علمن تأذيه تركن ذلك فهو مقيد بمن لم يعلم تأذيه بالمباح، فإن علم فهو حرام كغيره وهو ظاهر، ثم ذكر المصنف هنا فى بعض النسخ حديث البخارى لما أراد علىّ، رضى الله تعالى عنه، أن يتزوج بنت أبى جهل على فاطمة الزهراء، رضى الله تعالى عنها، فصعد، صلى الله تعالى عليه وسلم، المنبر وذكر ما يأتى بقوله (**وبقوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث فاطمة أنها بضعة منى**) بكسر الباء أى قطعة لحم منى أى كقطعة من بدنى (**يؤذينى ما يؤذيها**) هذا مرشح للاستعارة؛ لأن البدن كله يتألم بما يؤلم بعضه، وفى نسخة: ما آذاها (**ألا وإنى لا أحرم ما أحل الله، ولكن لاتجتمع ابنة رسول الله وابنة عدو الله**) وهى بنت أبى جهل واسمها جويرية، وقيل غير ذلك.

(**عند رجل أبدا**) فلا ينبغى نكاحها على بنت حبيب الله، والحديث يدل على أن أذية غيره إذا آذته تحرم أيضًا كأذية فاطمة، رضى الله تعالى عنها، وكذا أذية أحد من أولادها والكلام عليه مفصل فى شروح البخارى وفضائل أهل البيت، رضى الله تعالى عنهم، (**أو يكون هذا**) المذكور وإن قصد به الأذى (**مما آذاه به كافر رجا**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، بصيغة الماضى أو مصدر منصوب، وفى نسخة: وجاء وسيأتى مافيها (**بعد ذلك**) الذى صدر منه من الأذية.

(**إسلامه**) فيعفو عنه استمالة له حتى يدخل فى دين الإسلام فإذا علم ذلك جاز له، صلى الله تعالى عليه وسلم، العفو عنه (**كعفوه عن اليهودى الذى سحره**) فى قصته التى تقدم تفصيلها وأنه لبيد بن الأعصم فكان يرجو إسلامه (**وعن الأعرابى الذى أراد قتله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو نازل تحت شجرة فى بعض أسفاره كما تقدم.

---

(١) أخرجه البخارى (٥/٣٧)، وأحمد (٦/٢٩٣)، والبيهقى (٦/٣٧٠)، وابن سعد (٨/١١٧).

وتقدم أنه أسلم (و) كعفوه (**عن اليهودية التى سمته**) إلا أنه اختلف فى قتلها (**وقد قيل: أنه قتلها**) ببشر بن البراء الذى مات من سمها (**ومثل هذا**) المذكور مما أوذى به (**مما بلغه**) وفى نسخة يبلغه (**من أذية أهل الكتاب**) من اليهود (**المنافقين**) الذين جاوروه بالمدينة كابن سلول (**فصفح عنهم**) وعفا تكرما منه (**رجاء استئلافهم**) باستمالتهم للإسلام (**واستئلاف غيرهم**) أى بسبب ما يبلغه من كرمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعفوه.

(**كما قررناه قبل**) أى قبل هذا فيما سبق فى هذا الكتاب (**وبالله التوفيق**) هذا إما دعاء لنفسه فى ختم كلامه كما هو عادة المصنفين أو هو تتمة لما قبله، أى وما توفيق هؤلاء للإيمان، واستئلافهم إلا بقدرة الله تعالى ولطفه أو هما مرادان معًا.

واعلم أنه وقع فى بعض النسخ بدل قوله رجا إسلامه وجاء بواو عاطفة بعدها جاء فعل ماضى من المجىء؛ فقال البرهان وتبعه بعض الشراح: إن ظاهر عبارته تقتضى أن هؤلاء الثلاثة أسلموا أما الذى سحره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو لبيد بن الأعصم فلا استحضر خلافًا فى أنه لم يسلم و لم يعلم من قال إلا ما هنا، وأما الأعرابى الذى أراد قتله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فهو غورث بن الحارث، ولم يذكره أحد فى الصحابة، وقد قيل: إنه دعثور، وقد تقدم ما فيه.

وأما اليهودية التى سمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فهى زينب بنت الحارث و لم يذكرها أحد فى الصحابة وذكر شيخى الحافظ أبو جعفر الأنصارى أن معمر بن راشد، قال فى جامعه عن الزهرى أنه قال: إنها أسلمت فتركها رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال معمر: كذا، قال الزهرى، والناس يقولون: إنه قتلها و لم تسلم، لكن رأيت فى بعض النسخ رجا بعد ذلك إسلامه بالراء وهو الصواب والتى تقدمت تصحيف انتهى.

* * *

(فصل)

قال القاضى أبو الفضل عياض المصنف، رحمه الله تعالى: (**تقدم الكلام فى قتل القاصد لسبه**)، أى فى حكمه وأذيته، فلا يحتاج لإعادته (**والازدراء به**) بتنقيصه (**وغمصه**)، بغين معجمة مفتوحة، وسكون الميم، وصاد مهملة يليه ضميره، صلى الله تعالى عليه وسلم، والازدراء افتعال من ازدرى به إذا احتقره وعابه، فأبدلت تاؤه دالاً؛ لمجاورتها الزاء المعجمة، كما بين فى علم التصريف.

وقيل: الازدراء العيب القليل، وأكثر أهل اللغة فسروه بالعيب مطلقًا، **(بأى وجه كان)**، وبأى طريق وقع فى حقه، **(من ممكن)** وجوده، **(أو محال)** ممتنع عادة، أو عقلاً وشرعًا، والأول كبعض العوارض البشرية، والثانى كنسبة الكذب ونحوه مما يمتنع شرعًا بدلالة المعجز على صدقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فهذا)** المذكور **(وجه بين)** مما قدمه، و**(لا إشكال فيه)**، ولا حكمة من قتل متعاطيه.

(الوجه الثانى) فى أمور تتعلق بما هو فيه **(لا حق به)**، أى بما فى الوجه الأول؛ لكونه قريبًا منه؛ لمشابهته له **(فى البيان)**، أى الظهور **(والجلاء)**، بكسر الجيم وفتحها، أى الوضوح، **(وهو أن يكون القائل لما قال)** ما فيه نقص ما **(فى جهته، عليه الصلاة والسلام)**، أراد فى حقه، وعبر بالجهة إشارة لنزاهته عن الاتصال به، فلله دره، **(غير قاصد)** بما قاله **(للسب والازدراء)**، أى الانتقاص والاستخفاف، **(ولا مفتقد له)** ولصحته.

(ولكنه تكلم فى جهته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بكلمة الكفر) التى يكفر بها **(من لعنه أو سبه أوتكذيبه)** فى شىء مما جاء به، **(أو إضافة ما لا يجوز عليه)** من نحو ما ذكر، **(أو نفى ما يجب له)** على أمته من حقوقه، وذلك كله **(مما هو فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، نقيصة مثل ألا ينسب إليه إتيان كبيرة)**، وقد عصمه الله تعالى عنها وعن سائر النقائص، **(أو مداهنة)**، أى مداراة للكفرة **(فى تبليغ الرسالة أو)** مداهنة للناس، وهو **(فى حكم بين الناس أو بغض)**، بغين وضاد مشددة معجمتين، أى ينقص نقصًا قليلاً **(من مرتبته)**، أى شريف مقامه ﷺ **(أو)** يغض ويطعن فى شىء من **(شرف نسبه)**، وهو كما قيل:

لنسب كان عليه من شمس الضحى   نورًا ومن فلق الصباح عمودًا

(أو) يغض من **(وفور علمه)**، أى كثرته وزيادته، **(أو من زهده)** فى الدنيا وأمورها، **(أو يكذب بما اشتهر من أمور أخبر بها)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وتواتر الخبر بها عنه)**، بحيث يحصل اليقين بها، فتكلم بخلافها **(عن قصد لرد خبره)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، المتواتر، قال ابن حجر: وقوله: وتواتر الخبر بها عنه، أى لفظًا، وهو موجود خلافًا لمن زعم نفيه أو معنى، ولا ينظر فى ذلك خلافًا لمن زعمه.

(أو يأتى بسفه) أى خفة عقل وسوء أدب **(من القول أو قبيح من الكلام ونوع من السب فى جهته)** أى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وإن ظهر)** لمن سمعه **(بدليل)** ظاهر **(حال أنه لم يعتمد)** أى لم يقصد **(ذمه)** بما قاله **(ولم يقصد سبه)** ولما كان مخالفة

الظاهر غير ظاهرة، قال: **(أما الجهالة)** أى لشدة جهل قائله.

(حملته) أى جهالته لما صدر منه ما لا يعرفه لقرب عهده بالإسلام ونحوه **(أو لضجر)** أو قلق وضيق صدر حمله على مقالته **(أو سكر اضطره إليه)** وغيبة عقل فلا يعرف هذيانه **(أو قلة مراقبة)** لله لكونه من أهل الخلاعة والفجور المعتاد لبذاءة اللسان **(و)** عدم **(ضبط للسانه)** إذا تكلم فجرى على عادته به وسبقه لسانه لما قاله.

(وعجرفة) أى مجازفة وتكلم من غير تأمل كما نشاهده من كثير من الجهلة **(وتهور فى كلامه)** التهور الخروج عن الاعتدال بحدة لغضب ونحوه، وكل شىء له مراتب ثلاثة المحمود منها، أوسطها المشهور وهو الاعتدال وما نقص منه تفريط وما زاد تهور أصله هدم البناء حتى ينهار ويقع.

(فحكم هذا الوجه) الذى يلزم شرعًا **(حكم الوجه الأول)** وحكمه كما تقدم **(القتل دون)** أى من غير **(تلعثم)** بمثناة فى أوله ولام مفتوحتين وعين مهملة ساكنة ومثلثة مضمومة وميم، أى توقف وتردد فى وجوب قتله شرعا، يقال: تلعثم فى الأمر إذا مكث وتراخى، وقد يقال: تلعذم بذال معجمة بدلا أو أصلاً أى يتبادر له بلا تأمل فيه **(إذ لا يعذر أحد فى الكفر بالجهالة)** فإنه يجب عليه علم أمور دينه وتعلمها **(ولا)** يعذر أيضًا **(بدعوى زلل اللسان)** وخطيئة فى مقاله **(ولا)** يعذر **(بشىء مما ذكرناه)** من الضجر والتهور والسكر ونحوه كما سمعته آنفًا.

(إذا كان عقله فى فطرته) أى ابتداء خلقه، وجبلته التى ولد عليها **(سليما)** من الآفات وعنده من العلم ما يمنعه من الوقوع فى الكفر، فلذا لم يعذر **(إلا من أكره)** على الكفر فنطق به **(وقلبه مطمئن بالإيمان)** أى قادر عليه، مذعن منقاد مصدق يقينًا من غير ريبة فيه وتردد، والإكراه حمل الغير على ما لا يريد، وهو ملجئ وغير ملجئ، والكلام عليه مفصل فى كتب الفقه والأصول، فإذا تكلم بكلمة كفر مكرهًا لم يكفر، وهذه رخصة من الله تعالى من بها على عباده المؤمنين.

وقوله: إذ لا يعذر بالجهالة مقيد بمن نشأ مسلمًا فى دار الإسلام؛ فلو كان قريب عهد به، أو نشأ ببادية لم يخالط غيره عذر؛ لأنه يخفى عليه علم ذلك، ولذا قال ابن حجر بعد سياق كلام المصنف: وما ذكره ظاهر موافق لقواعد مذهبنا، إذ المدار فى الحكم بالكفر على الظواهر، ولا نظر للمقصود والنيات، ولا نظر لقرائن حاله، نعم يعذر مدعى الجهل إن عذر لقرب عهده بالإسلام، أو بعده عن العلماء، كما يعلم من كلام الروضة انتهى.

وأقحم لفظ: دعوى، فى قوله: دعوى زلل اللسان؛ لأن مراده أنه إذا تكلم بذلك وشهد ظاهر حاله على قصده، ثم قال: إنما قلته زللا، لا يقبل منه قوله، فلا يرد عليه، أنه رفع عن هذه الأمة الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، كما فى الآية والحديث الصحيح، وكذا يقيد إنكار ما تواتر بأن يكون مما يعلم ضرورة من الدين كإنكار وجوب الصلاة بخلاف ما لو جحد إحدى زوجاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ونحوه.

(وبهذا أفتى) من العلماء المالكية **(الأندلسيون)** نسبة إلى الأندلس بفتح الهمزة والدال وضمها، إقليم معروف تقدم بيانه **(على ابن حاتم)** مفعول أفتى، وتقدم بيان حاله **(فى نفيه الزهد عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** وأفتوا بقتل قائله **(الذى قدمناه)** فى هذا الباب.

(وقال محمد بن سحنون) تقدم بيانه وبيان أبيه أيضًا **(فى المأسور)** الذى أسره الكفار بدار الحرب **(يسب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى حال أسره **(فى أيدى العدو)** الكفار أى وفى دارهم وتصرفهم (**: يقتل)** هذا مقول ابن سحنون، ولا يعذر بكونه أسيرًا.

(إلا أن يعلم تنصره) بنون وصاد مهملة، أى أنه ارتد ودخل دين النصارى **(أو إكراهه)** أى يعلم أنهم أكرهوا على السب، فقوله: يقتل، أى من غير أن يستتاب، فإن ارتد، ثم سب لا يقتل البتة، بل يستتاب؛ فإن تاب ترك، وإلا قتل، وكذا لو علم إكراهه لم يقتل أيضًا، فإن لم يعلم ذلك، وقال: كنت مكرها، ففيه خلاف.

(تنبيه) قال البرهان، رحمه الله تعالى، فى قوله: إلا أن يعلم تنصره إلخ: هذا كلام ينبغى أن يسئل عنه المالكية، وينص عليه ليسئل وهو مما لا خفاء فيه، وسببه أنه وقع عنده تبصره بالباء الموحدة، فظن أن معناه يعرف بالبصارة، فلا يحوم حول الحمى المنيع بأمر شنيع، وإنما هو بالنون؛ فإنه عند المالكية أن الأسير إذا ارتد وسب وقذف، ثم رجع للإسلام فهو فى حكم المرتد كما بيناه، ولو قيل: إنما مراده أن تفصيل هذه المسألة لم يحضره، وحسن الظن به، وكان أليق إلا أن يقال: إن له رواية فيه وهو بعيد.

(وعن أبى محمد بن أبى زيد) صاحب الرسالة الإمام المالكى المشهور **(لايعذر أحد بدعوى زلل اللسان)** بكفر نطق به كما تقدم بيانه آنفًا **(فى مثل هذا)** أى قذف النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد يعذر فى غيره.

وقال ابن حجر بعد ما مر عنه: ويعذر أيضًا فيما يظهر بدعوى سبق اللسان بالنسبة لدرء القتل عنه، وإن لم يعذر فيه بالنسبة لوقوع طلاقه وعتقه، والفرق أن ذلك حق الله

تعالى، وهو مبنى على المساحة بخلاف هذين.

(**وأفتى أبو الحسن القابسى**) تقدم بيانه (**فيمن شتم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى سكره**) وغيبة عقله بأنه (**يقتل؛ لأنه يظن به أنه يعتقد هذا ويفعله فى**) حال (**صحوه**) الصحو عبارة عن حضور العقل وعدم غيبته بسكر وغيره، وصحو السماء خلوها من الغيم المانع لظهور الشمس والكواكب، وهذا مثله لستر السكر بالأبخرة المتصاعدة للرأس بإثارة الحرارة لها عقله، والمراد إذا سكر غاب فلا يستر ما يضمره ويخفيه عن غيره من خير أو شر كما قيل:

الـراح كالريح إن مرت على عطـر   طابت وتخبث إن مرت على الجيـف

وإلى هذا إشارة المصنف بقوله (**وأيضًا فإنه حد لا يسقطه السكر**)؛ لأنـه متعد بسببه فلا يعذر به (**كالقتل والقـذف وسائر الحدود**) لا تسقط بالسكر كما هو مقرر فى الفروع (**لأنه أدخله على نفسه**) أى هو الذى شرب باختياره فسكر سكرًا أوجبه فلا يعذر، كمن أغمى عليه أو جن فهذا؛ لأنه لم يصبه باختياره فيؤاخذ بـه (**لأن من شرب الخمر على علم**) أى تيقن ذلك حتى كأنه مستقل عليه ففيه استعارة تبعية كقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ [البقرة: ٥].

(**من زوال عقله**) بسبب سكره (**بها**) أى بالخمر فإنها مؤنثة سماعا (**وإتيان ما ينكر منه**) من الأفعال القبيحة (**فهو كالعامد**) القاصد لفعله بعد سكره لتعمده الشرب الذى يعلم أنه سببه وتعمد السبب لتعمد مسببه (**لما يكون بسببه**) من كل جناية وأمر منكر فلذا يؤاخذ به شرعًا (**وعلى هذا**) أى ولأجل هذا المذكور أو على هذا القول (**ألزمناه الطلاق**) فيقع طلاق السكران (**والعتاق**) أى عتقه فى سكره (**والقصاص**) إذا قتل فى سكره (**و**) ألزمناه سائر (**الحدود**) كحد القذف، والزنا، والسرقة، قيل عليه: إن ظاهره أن غير الحدود ساقط عنه وليس كذلك، فإنه مؤاخذ بجميع أقواله وأفعاله وليس كما قال، فإن بعض تصرفاته غير صحيحة، ولا يلزم من مؤاخذته أن يكون مكلفا.

وإن نقل عن الشافعى فيه خلاف فإن الصحيح كما قرره ابن الحاجب فى أصوله أنه غير مكلف ولا يرد على قوله تعالى: ﴿تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء:٤٣]، أنه مكلف بالصلاة ومنهى عنها فإن نهيه إنما هو عن سكره، وهو أمر بإزالة ما يمنعه منها كما يؤمر من عليه نجاسة أو حدث بها لاستلزامه إزالة مانعها فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وهذا ليس خطاب تكليف وإنما هو خطاب وضع كما قاله ابن الحاجب فلا إشكال فيه أصلا.

ولا حاجة لما قيل عليه **(ولا يعترض على هذا)** المذكور من أن السكران يؤاخذ بما صدر عنه حال سكره لتعديه بتعاطى سببه **(بـ)** ما رواه البخارىُ ومسلم وغيرهما من **(حديث حمزة)** ابن عبد المطلب عم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وسيد الشهداء **(وقوله)** أى حمزة، رضى الله تعالى عنه، وهو سكران **(للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** وقد جلس يشرب، وعند داره ناقتان لعلىٍّ يريد أن يحمل عليهما إذخر الحاجة له وعنده قينة تغنيه:

ألا يـا حمـز بالشرف النـواء(١)

فخرج ونحرهما وجب سنامهما ليأكلوه على شرابهم، فأخبر علىّ رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بذلك فجاءه فلما رآه حمزة، رضى الله تعالى عنه، صعد نظره إليه، وقال له **(هل أنتم)** معاشر قريش **(إلا عبيد لأبى)** فكل مالكم يحل لى وهذا فيه ماينكر فى حق النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قال: فعرف النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه)** أى حمزة **(ثمل)** بفتح الثاء المثلثة وميم مكسورة قبل لام أى سكران زائل العقل ولذا فعل ما فعل، وقال ما قال **(فانصرف)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، عنه ولم يؤاخذه بما قاله فى سكره وهذا لا ينافى ماقدمه **(لأن الخمر كانت حينئذ)** أى حين شربها حمزة **(غير محرمة)** على المسلمين حتى نزلت الآية فيها **(فلم يكن فى جنايتها)** أى فيما يجنيه شاربها **(إثم)** لعدم تعديه بتعاطى سبب محرم.

(وكان حكم ما يحدث عنها) أى عن شربها والسكر منها **(معفوًا عنه)** لحل سببه **(كما يحدث)** من بعض الجنايات الحادثة **(من النوم)** أى بسبب النوم **(وشرب الدواء)** المزيل للعقل وما يحدث عنه من الجنايات **(المأمون)** أى الذى يأمن شاربه من ضرره وإزالة عقله إذا أزال عقله من غير علم بأنه يزيله، فإنه إذا أزاله فوقع منه أمر من الأمور لم يترتب عليه مالم يكلف بالنهي عنه بخطاب الوضع، فلا فرق بينه وبين النائم فى أنه غير مكلف بضمان وجناية أصلاً وقيده بالمأمون؛ لأن ما يعلم ضرره لا يجوز تناوله، فإن غاب به عقله فحكمه حكم السكران أصلاً، وقد قيل عليه إن كلامه يقتضى أن علة عدم المؤاخذة كونه غير محرم دون غيبوبة العقل الذى هو مناط التكليف، وكونه من خطاب الوضع لابد له من دليل وهو كلام لا طائل تحته كما يعرفه من له أدنى تأمل، وما قيل من أن الخمر وإن لم تحرم حينئذ فالسكر حرام، فقد قيل: إنه لم يصح نقله وإن

(١) صدر بيت، وعجزه: «فهن معقلات بالفناء». والبيت من الوافر، وهو بلا نسبة فى لسان العرب (١٧٣/٩) (شرف)، (٣٤٩/١٥) (نوى)، وتاج العروس (٤٩٨/٢٣) (شرف)، والتنبيه والإيضاح (٧/٢).

اشتهر فيه تأمل وكون حمزة، رضى الله تعالى عنه، ضمن ثمن ناقتيه أو لم يضمن لا يهمنا هنا والقصة مفصلة فى الشروح.

* * *

(فصل الوجه الثالث)

فيما وقع من سبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو أذيته وتنقيصه **(أن يقصد)** أحد من الناس **(إلى تكذيبه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يتعمد نسبته إلى الكذب **(فيما قاله)** وقصد يتعدى بنفسه وباللام، وإلى كما فى القاموس **(أو)** يقصد تكذيبه **(فيما آتى به)** أى أوحى إليه وأمر بتبليغه للناس **(أو ينفى نبوته)** أى يقول: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليس بنبى **(أو)** ينفى **(رسالته)** بأن يقول ليس برسول من الله **(أو وجوده)** فى زمن من الأزمنة **(أو يكفر به)** سواء **(انتقل بقوله ذلك)** الذى كفر به **(إلى دين آخر)** بأن تهود أو تنصر**(غير ملته أم لا)** أى لم ينتقل لملة أخرى **(فهذا كافر بإجماع)** من المسلمين وأصحاب المذاهب.

(يجب قتله) من غير خلاف وإنما الكلام فى توبته فلذا قال: **(ثم ينظر)** فى حاله ومقاله **(فإن كان مصرحًا بذلك)** الأمر الذى كفر به **(كان حكمه)** الجارى عليه شرعا **(أشبه بحكم المرتد)** وإنما جعله أشبه بالمرتد؛ لأنه لم يتعين أمره.

(وقوى الخلاف فى استتابته) أى فى أنه هل يستتاب وتقبل توبته أم لا كما تقدم **(وعلى القول الآخر)** القائل بأنه يستتاب **(لايسقط القتل عنه بتوبته)**؛ لأنه حد لا يسقط بالتوبة كالقذف والسرقة، لكنه يثبت له حكم المسلمين فى ميراثه ودفنه فى مقابر المسلمين **(لحق النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**؛ لأن حق العبد لا يسقط بالتوبة وإنما يسقط بها حق الله تعالى **(إن كان ذكره بنقيصة)** أى بنسبته لأمر فيه نقص له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو أكمل الخلق وأعظم **(فيما قاله)** هذا المذكور **(من كذب أو غيره)** مما نسبه له.

(وإن كان مستترًا بذلك) أى بما قاله من تنقيصه أى مخفيًا لما قاله، فهو افتعال من الستر وفى نسخة مستسرًا افتعال من السر، والإسرار المقابل للإعلان كما هو مقابل هنا للتصريح فى كلامه، ومن فسره بالسرور أى ذا سرور فقد حرف وأخطأ **(فحكمه حكم الزنديق)** الذى يظهر الإسلام ويبطن الكفر بخلاف المرتد **(لا يسقط قتله التوبة عندنا)** أى فى مذهب مالك، رحمه الله تعالى **(كما سنبينه)** ونوضحه تفصيلاً لأحكامه، وهذا مذهب مالك، وفيه خلاف لغيره مفصل فى كتب الفقه.

(وقال أبو حنيفة وأصحابه) كالإمام محمد، وأبى يوسف وغيرهما **(من برئ)** بزنة علم مهموز من التبرى أى من تبرأ **(من محمد)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأن قال: أنا بزىء منه أى تارك له ولدينه غير معترف به ولا متبع ولا ممتثل لأمره ونهيه **(أو كذبه)** أى قال: إنه كاذب فيما ادعاه وفى نسخ أوكذب به **(فهو مرتد)** عن دينه بمقالته هذه **(حلال الدم)** أى دمه هدر حلال إراقته.

وهو عبارة عن لزوم قتله شرعًا **(إلا أن يرجع)** عما قاله فيتوب ويعترف بخلاف ما كان قاله أولاً، فهو عنده حكمه حكم المرتد فتقبل توبته لقوله تعالى: ﴿**إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ**﴾ [الأنفال:٣٨]، ولحديث: «إذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم» الآتى، وأحكام المرتد عندنا مفصلة فى كتب الفقة غنية عن البيان.

(وقال ابن القاسم) عبد الرحمن المصرى الإمام المشهور صاحب مالك **(فى المسلم)** أى فى حق الرجل المسلم **(إذا قال إن محمدًا)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ليس بنبى أولم يرسل)** من الله للناس كافة **(أولم ينزل عليه قرآن)** ووحى من الله **(وإنما هو شىء تقوله)** أى شىء وأمر افتراه على الله تعالى، وهو ﷺ حماه الله منه وما ينطق عن الهوى وقد أتى بملته البيضاء النقية فمن قال مثل هذا يستحق أن **(يقتل)** ويلعن فى الدارين.

(قال) أى ابن القاسم **(ومن كفر برسول الله)** بإنكار نبوته ورسالته، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وأنكره من المسلمين)** بأن أنكر وجوده كما تقدم وأما الكفار؛ فحكمهم سيأتى وقيد به لقوله **(فهو)** فى أحكامه **(بمنزلة المرتد)** يقتل إن لم يتب **(وكذلك)** الحكم فى **(من أعلن بتكذيبه)** أى أظهره جهرًا **(فهو كالمرتد يستتاب)** أى تقبل توبته فإن لم يتب قتل.

(وكذلك قال) ابن القاسم **(فيمن تنبأ وزعم أنه)** نبى **(يوحى إليه)** أى يقتل إن لم يتب، ومحل ذلك إذا زعم أنه يوحى إليه بنزول الملك عليه، وإلا فالذى ينبغى أنه لا يكفر كما قاله ابن حجر **(وقاله)** أى ذهب إلى مثله من أئمة المالكية **(سحنون)** تقدم بيانه، وأن المشهور فيه ضم أوله، وقد قيل: إنها تفتح وتكسر فهو مثلث فعلون أو فعلول من السحنة وهى بشرة الوجه ولونه وهيئته، وأنه ممنوع من الصرف للعلمية وشبه العجمة كما قاله أبو العلاء المعرى فى شرح ديوان البحترى.

(وقال ابن القاسم) فيمن تنبأ أنه كالمرتد سواء كان **(دعا إلى ذلك)** أى إلى متابعة نبوته **(سرًا)** كان **(أو جهرًا)** كمسيلمة لعنه الله **(وقال أصبغ)** بن الفرج **(هو)** أى من زعم أنه نبى يوحى إليه **(كالمرتد)** فى أحكامه **(لأنه قد كفر بكتاب الله)**؛ لأنه كذبه،

صلى الله تعالى عليه وسلم، فى قوله: إنه خاتم النبيين ولا نبى بعده.

(**مع الفرية على الله**) بكسر الفاء أى الكذب عليه بقوله إن الله أوحى إلىّ وأرسلنى (**وقال أشهب فى**) حق (**يهودى تنبأ**) أى زعم أنه نبى (**وزعم أنه أرسل**) من الله (**إلى الناس**) ليبلغهم عن الله (**أو قال**) وزعم (**أن بعد نبيكم نبى**) سيأتى من الله بشريعة؛ فقال: إنه (**يستتاب**) كالمرتد (**إن كان معلنًا بذلك**) أى مظهرًا له لا إذا أخفاه (**فإن تاب**) ورجع عما قاله (**وإلا قتل**) إن لم يتب.

(**وذلك**) أى قتله (**لأنه مكذب للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى قوله**) الذى نقله عنه الثقات (**لانبى بعدى**) أى لا ينبأ أحد بعد نبوتى (**مفتر**) متعمد للكذب فيما زعمه (**على الله فى دعواه الرسالة والنبوة**)؛ لأنه بقوله إن الله أوحى إليه دخل فى قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا**﴾ [الأنعام:٢١]، وهذا الحديث، رواه البخارى، رحمه الله تعالى.

وقد قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعلىٍّ لما استخلفه على المدينة فى غزوة تبوك، وقال له: اتتركنى فى النساء والصبيان «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى»، أما عيسى ابن مريم، عليه السلام، فلم ينبأ بعده وإنما يجيء تابعًا له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومؤيدًا لدينه حاكمًا بشرعه فى آخر الزمان أربعين سنة.

فإن قلت: ما تقول فى قول الغزالى فى كتاب الانتصار: إن بعضهم أول قوله خاتم النبيين بأن معناه خاتم أولى العزم منهم ويكفى نقل القرطبى له.

قلت: قالوا فى الجواب عنه إن كتابه هذا عقده لبيان أقوال الملحدين فذكر هذا لينبه على فساده وأنه مما لا يلتفت له، نعم تركه أولى من ذكره؛ فإن تعبيره بالنبيين دون المرسلين مناف له.

(**وقال محمد بن سحنون**) تقدم بيانه (**من شك فى حرف مما جاء به النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن الله**) أى فى شيء مما أوحى به إليه وعبر بالحرف مبالغة (**فهو كافر جاحد**) لشكه فى الوحى المتواتر والجحد الإنكار لما يعلمه عنادًا وعتوًا، ولا يرد على هذا من أنكر البسملة فى أول السورة فإنه لا ينكر قرآنيتها، أو المراد إنكار مالم يختلف فيه، وأما ما ينقل عن ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، من أن المعوذتين ليستا من القرآن فهو غير صحيح بالاتفاق، وإنما غلطوا فيه لعدم كتابتهما فى مصحفه اعتمادًا على شهرتهما.

فإن قلت: فهل هناك جواب على تقدير الصحة؟.

قلت: الجواب عنه أنه لم يستقر الإجماع عند إنكاره على كونهما قرآنا، وأما الآن فقد استقر وصارت قرآنيتهما معلومة من الدين بالضرورة، فكفر نافيهما عاميًا كان أو مخالطًا للمسلمين، وسيأتى آخر الكتاب عن محمد بن سحنون هذا فيمن قال المعوذتان ليستا من كتاب الله إنه يضرب عنقه إلا أن يتوب مع الكلام عليه بأبسط مما سنا.

(**وقال**) أى ابن سحنون (**من كَذَّبَ النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**) أى نسبه للكذب أو أنكرشيئًا مما جاء به (**كان حكمه عند الأمة القتل، وقال أحمد بن أبى سليمان صاحب سحنون**) الذى تقدمت ترجمته (**من قال: إن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**) كان لونه (**أسود قتل**) لكذبه على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولون السواد يزرى ففيه تحقير وإهانة له أيضًا (**إذ لم يكن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أسود**) وإنما كان أزهر اللون موردًا كما تقدم فى حديث الحلية الطويل.

وقال بعض المتأخرين: كلامه يوهم أن مجرد الكذب عليه فى صفة من صفاته كفر يوجب القتل، وليس كذلك بل لابد من ضميمة ما يشعر بنقص فى ذلك كما فى مسألتنا هذه؛ لأن الأسود لون مفضول. انتهى.

وقد علمت أنه لا فرق؛ لأن إثبات صفة له، صلى الله تعالى عليه وسلم، غير صفته لا تكون إلا مشعرة بنقص؛ لأن صفاته لا يتصور أكمل منها، بل كل ما أثبت له غيرها كان نقصًا بالنسبة لها، فالاعتراض حينئذ ليس فى محله (**وقال نحوه**) أى مثل هذا (**أبو عثمان الحداد**) كان أولا مالكيا، ثم صار شافعيًا، وهذا لقبه واسمه سعيد (**قال: لو قال**) أحد (**أنه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**مات قبل أن يلتحى**) صغيرًا (**أو أنه كان**) مقره ومسكنه (**بتاهرت**) الباء جارة بعدها مثناة فوقية مفتوحة وألف وهاء مضمومة أو مفتوحة وراء مهملة ساكنة وتاء مثناة فوقية أخرى، وهو اسم فلاة أو مدينة بنواحى تلمسان، منها بكر بن حماد التاهرتى، وهى بالمغرب بها قوم من العرب نزلوها، كما ذكره المسعودى فى أخبار الزمان وقيل: إنها نهاية المعمور من المغرب (**و**) قال إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**لم يكن بتهامة**) بكسر التاء اسم لكل ما نزل عن نجد من بلاد الحجاز.

وقال ابن قرقول: إنها مأخوذة من التهم بفتح التاء والهاء وهو شدة الحر وركود الريح، أو بمعنى التغير من تهم الدهن إذا تغير ريحه سميت بذلك لتغير هوائها (**قتل**) من قال إنه مات قبل أن يلتحى أو لم يكن بتهامة من الحجاز (**لأن هذا**) المذكور وإن لم يتعين أنه سب لكن هو (**نفى**) لوجود النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لنفيه صفته المعروفة.

قال ابن حجر: وما قاله متجه لكن محله كما يعلم من آخر كلامه فيمن طالت صحبته للمسلمين حتى ظن به علم ذلك، وبه يعلم رد ما نقله العز بن عبد السلام، عن أبى حنيفة وأقره من أن من قال: أؤمن بالنبى وأشك فى أنه المدفون بالمدينة أو الذى نشأ بمكة لا يكفر؛ لأنه وإن كان معلومًا بالضرورة إلا أنه ليس من الدين؛ لأنا لم نتعبد به فيكون جاحده كجاحد بغداد ومصر انتهى.

ووجه رده أن الشك فى ذلك من المخالط للمسلمين يستلزم تضليل الأمة وغير ذلك من العظائم فى الدين (**وقال حبيب بن ربيع**) من أئمة المالكية (**تبديل صفته**) المشهورة كوصفه بلون غير لونه (**ومواضعه**) التى كان مقره بها كتهامة ومكة والمدينة (**كفر**) قال ابن حجر: وهذا يشمل إنكار الهجرة وكونه كان أولا بمكة وآخرًا بالمدينة، وغير ذلك مما يشاكله وهو متجه (**والمظهر له كافر**) لعله إذا قصده من لم يعذر فى جهله به (**وفيه**) أى فى الكفر بما ذكر (**الاستتابة**) أى أنه تقبل توبته (**والمسر له**) أى لا يظهره لغيره (**زنديق**) أى حكمه كالزنديق (**يقتل دون استتابة**)؛ لأنه بإخفائه يدل على قصده نفى وجوده بنفى صفاته المعلومة تواترًا لكل أحد.

* * *

(فصل) [الوجه الرابع]

معقود لذكر بعض أنواع مانحن بصدده (**الوجه الرابع**) من أقسام هذه المسألة (**أن يأتى**) من تكلم به (**من الكلام بمجمل**) اسم مفعول من الإجمال وهو فى اللغة مقابل للتفصيل، ومنه جملة العدد، وفى اصطلاح أهل الأصول ما لم تتضح دلالته على مراد من تكلم به، وهو المراد هنا والمناسب لقوله (**و**) أن يأتى (**بلفظ من القول مشكل**) وفى نسخة: ويلفظ من القول بمشكل والمشكل فى الأصل ماله إشكال أى أشباه ونظائر، وهو أيضًا ما لا يظهر معناه، قال الراغب: المشاكلة فى الهيئة والصورة والند فى الجنسية والشبه فى الكيفية، والشىء إذا كان له إشكال يلتبس فالمراد ما فيه التباس بغيره (**يمكن حمله**) بما يفهم منه (**على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى غيره**).

ممن يمكن حمله عليه (**أو يتردد**) أى يشك (**فى المراد به**) أى ما قصده المتكلم به (**من سلامته من المكروه أو**) سلامته من (**شره**) الذى لا يليق به، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو معطوف على سلامته (**فههنا**) أى فى المقام الذى يورد فيه ما يحتمل قصده وعدمه (**متردد النظر**) بزنة المفعول اسم مكان أى محل التردد فى حكمه أى نظر الحاكم فيه (**وحيرة العبر**) بزنة عنب بعين مهملة وموحدة جمع عبرة وهو ما يعتبر ليستدل به على غيره.

(ومظنة) بكسر الظاء المشالة أى محل الظن الذى يظن فيه أمرًا يقتضى **(اختلاف المجتهدين)** فى حكمه لاحتمال أنه فى حقه، فيجرى عليه حكم من ينقصه أو فى حق غيره فلا يكون مقتضيا لقتل قائله فهو محل تأمل ونظر **(ووقفة)** معطوف على متردد **(استبراء)** بالمد أى طلب براءة **(المقلدين)** لهؤلاء المجتهدين، يعنى أن المجتهدين يعملون النظر فى استخراج حكمه ويتحيرون فيه لإشكاله عليهم، والمقلد لهم يقف حتى يعلم حال من قلده فيتبعه ويبرأ من عهدته **(ليهلك من هلك عن بينة)** أى ليكون من حكم بكفره بمقاله قتله بدليل واضح؛ لأن إراقة الدماء لا يجازف فيها.

(ويحيى من حى) أصله حيى فأدغم **(عن بينة)** أى يكون حياة من لم يقتل بدليل ظاهر؛ لأنه لا ينبغى المسامحة فيما يتعلق بمقام النبوة وحمايتها من طعن الطاعنين فيها، وهو اقتباس لبيان علة التردد والتوقف فى أمور المشكلة **(فمنهم)** من المجتهدين فى مثل هذا **(من غلب حرمة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى احترامه وصيانته **(وحمى حمى عرضه)** أى صان عرضه وحمى الأول ماض كدعا، والثانى: بكسر الحاء اسم وهو ما يجب حمايته ورعايته، والعرض كل ما يلزم رعايته من الصفات ويولم ضده ويكون بمعنى الجانب والذات أيضًا، وفيه كلام لأهل اللغة طويل لا حاجة لنا به هنا، أى منع أن يهجم أحد على مقام النبوة ولو بالاحتمال، فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه **(فجسر)** أى أقدم من غير مبالاة **(على القتل)** أى الحكم بقتله وإن احتمل كلامه **(ومنهم من عظم حرمة الدم)** فلم يجسر على القتل **(ودرأ)** بدال وراء مهملتين مفتوحتين وهمزة كدفع وزنا ومعنى **(الحد)** وهو هنا القتل **(بالشبهة)** فيما قاله لاحتمال عدم قصده لما يوجبه، وهو إشارة لقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «ادرءوا الحدود بالشبهات»(١) وهو حديث ورد بمعناه، كحديث ابن ماجه «ادفعوا الحدود ما استطعتم»(٢). وكذا هو فى الترمذى وغيره.

وأما هذا اللفظ بعينه ففيه كلام فى تخريج أحاديث الهداية لابن حجر، وبين الشبهة بقوله **(لاحتمال القول)** الصادر منه لأمرين؛ أحدهما: يقتضيه، والآخر: يمنعه، فعمل بالثانى احتياطًا والشبهة على أنواع ذكرت فى كتب الفقه والأصول وفى بعض النسخ.

(وقتل) الرجل **(المؤمن من الموبقات)** أى المهلكات للقاتل فى الدنيا والآخرة لما ورد فى الحديث الصحيح أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق».

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(وقد اختلف أئمتنا) يعنى الفقهاء المالكية **(فى رجل أغضبه غريمه)** يعنى من له عليه حق طالبه به **(فقال له)** غريمه فى حال غضبه ومخاصمته له **(صل)** أمر بالصلاة **(على محمد)** يريد به دفع غضبه بذكره، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فقال له)** أى لغريمه الذى أمره بالصلاة على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(الطالب)** من غريمه حقه الذى خاصمه لأجله **(لا صلى الله على من صلى عليه)** لتهوره وعدم تدبره **(فقيل لسحنون)** أى استفتى فى هذا القائل **(هل هو كمن شتم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** صريحًا فى غير حال الغضب لنفيه، رحمة الله تعالى، وصلاته عمن صلى عليه.

(أو شتم الملائكة الذين يصلون عليه؟) لدخولهم فى قوله من صلى عليه **(قال)** سحنون لمن سأله **(لا)** أى ليس هو كمن شتم هؤلاء **(إذا كان)** هذا القائل كائنا **(على ما وصفت)** أى ما ذكرته وحكيته عنه وتاء وصفت مفتوحة ضميرًا لمخاطب **(من الغضب)** الذى أغضبه به غريمه؛ لأن الحدة تحمل المرء على أن يصدر منه ما لا يرضاه **(لأنه لم يكن مضمرًا)** أى ناويا ومريدًا **(للسب)** وفى نسخة: الشتم، لأحد مما ذكر وإنما سبق لسانه له من غير فكر، وقد جرت عادة الناس أنهم يقولون عند الغضب صل على النبى ونحوه.

(وقال أبو إسحاق البرقى) بالموحدة المفتوحة وسكون الراء المهملة والقاف إبراهيم ابن عبد الرحمن بن عمرة بن أبى الفياض، وتوفى سنة خمس وأربعين ومائة **(وأصبغ بن الفرج)** تقدم بيانه **(لايقتل)** هذا القائل **(لأنه إنما شتم الناس)** لا النبى، ولا الملائكة؛ لأن من وإن عم يخص باعتبار متعارف الناس فى قصد جنسهم دون غيرهم ممن لا يخطر بباله فى عرف التخاطب، وليس ثمة قرينة تصرف الشتم له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا إلى الملائكة الذين يصلون عليه كما يأتى.

وقد يقال: إن المتبادر من قوله: من صلى عليه الآمر له أو نفسه إن صلى عليه لتسكين غضبه فكأنه، قال: إن صليت أنا وأنت لدفع الغضب فلا صلى الله عليك أو علىَّ، وهو فى غاية الظهور **(وهذا)** الذى أجاب به البرقى وأصبغ **(نحو قول سحنون)** الذى ذكره يعنى مرادهما واحد **(لأنه)** أى سحنون فى قوله: إذا كان إلخ.

(لم يعذره بالغضب) أى بسببه **(فى شتم النبى ﷺ)** فإنه لا عذر فيه لأحد **(ولكنه لما احتمل الكلام)** المذكور **(عنده)** أى عند سحنون فى اعتقاده لشتم الناس وما يوهمه من خلافه **(ولم يكن معه قرينة)** فيما قاله وفى حاله **(تدل على شتم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو شتم الملائكة)** يدخولهم تحت من **(ولا مقدمة)** أى أمر مقدم على كلامه **(يحمل عليها كلامه)** أى قرينة وأمر بأنه قصد النبى أو الملائكة **(بل القرينة)** الحالية فى خصامه

(تدل على أن مراده الناس) الذى خصامه كلامه معهم.

كما تقول العامة: ابن الملائكة والحدادين **(غير هؤلاء)** أى الملائكة ونحوهم **(لأجل قول الآخر)** وأمره **(له صل على النبى)** فرد عليه بما يفيد أن قصده بقوله: لا صلى الله على من صلى عليه، أى عليك أو عليَّ أو على من عندى ممن يعارضنى ويريد دفع غضبى من غير استيفاء حقى منه **(فحل قوله وسبه لمن يصلى عليه الآن لأجل أمر الآخر له بهذا عند غضبه)** فمن أين يخطر بباله عند المنصف النبى أو الملائكة وهو فى غاية الظهور فى عرف الناس.

(هذا) التأويل **(معنى قول سحنون)** الذى تقدم **(وهو موافق)** بحسب المعنى **(لقول صاحبيه)** البرقى وأصبغ **(وذهب الحارث بن مسكين القاضى)** هو أبو عمرو المصرى مولى مروان الثقة الحجة المحدث المالكى، أخرج له أصحاب السنن، وحمل لبغداد فى محنة خلق القرآن؛ فحبس إلى أن تولى المتوكل فأطلقه وولاه مصر، فلم يزل قاضيا بها إلى أن توفى سنة مائتين وخمسين وعمره يزيد على تسعين سنة.

(و) كذا ذهب **(غيره فى مثل هذا)** القائل لا صلى الله إلخ **(إلى القتل)** لشموله من ذكر من النبى والملائكة، قال ابن حجر: واللائق بقواعدنا الأول؛ لأن اللفظ ليس صريحا فى شتم الملائكة ولا الذات المقدسة، وإنما هو ظاهر فى شتم نفسه إن صلى أو غيره من الناس، ومع عدم التكفير يعزر التعزير البليغ.

(وتوقف أبو الحسن القابسى فى قتل رجل، قال: كل صاحب فندق) بضم الفاء، وتفتح وهو لفظ معرب معناه الخان الذى ينزله أبناء السبيل، والتجار والغرباء والنون زائدة أو أصلية.

وفى عباب الصاغانى: فندق حمل شجر كالبندق، وهو أيضًا بلغة أهل الشام خان من هذه الخانات التى ينزلها الناس ويبنيه أصحاب الدول من أهل الخيرات **(قرنان)** بفتح أوله وزنه فعلان أو فعالة، وهو ذم بمعنى الديوث وهو الذى يجمع الرجال مع زوجته أو بعض محارمه كأخته وبنته ونحوهن.

وقال الزبيدى: هو الذى يدخل الرجال على امرأته، وقال الجوهرى: هو الذى لا غيرة له وهى متقاربة، والقواد من يجمع بين الرجال والنساء مطلقًا، جمعا حرامًا، وكذا من يجمع بينهم وبين المرد والقرطبان، ويقال قلتبان الذى يعرف من يجتمع بزوجته ويسكت، وفى معناها محارمه ونحوهن، وصاحب الفندق أى الخان كل من يجمع المال سواء كان له خان أم لا.

(ولو كان) أى كل صاحب فندق **(نبيًا مرسلاً فأمر بشده بالقيود والتضييق عليه)** ليمسك ويحبس **(حتى)** ينظر أمره و**(يستفهم البينة)** أى يسألهم عما قاله **(عن جملة ألفاظه)** أى بجميعها ليفهم منه مراده **(وما يدل على مقصده)** وما أراده **(هل أراد أصحاب الفنادق الآن)** أى الموجودين فى زمنه **(فمعلوم أنه ليس فيهم نبى مرسل)** الآن **(فيكون أمره أخف)** من أن يقصد عمومه للموجودين وغيرهم ممن تقدمه.

(قال) القابسى **(ولكن)** إرادة الموجودين الآن بعيد؛ لأن **(ظاهر لفظه العموم)**؛ لأن لفظ كل يقتضيه فهو عام **(لكل صاحب فندق من المتقدمين والمتأخرين)** من الموجودين ومن بعدهم ونوره بقوله **(وقد كان فيمن تقدم من الأنبياء والرسل)**، صلى الله تعالى عليهم أجمعين، **(من اكتسب المال)** وقد علمت أن صاحب الفندق كناية عمن له مال كثير اكتسبه؛ لأنه لا يبنيه ويملكه إلا من هو كذلك، فهو كقولهم طويل النجاد بمعنى طويل القامة.

(قال) القابسى **(ودم المسلم)** المعصوم **(لايقدم عليه إلا بأمر بين)** فكيف بالأنبياء عليهم، الصلاة والسلام، وكيف يتجرأ على الحكم بالقتل **(وما ترد إليه التأويلات)** أى تأويل ما يخالف الظاهر **(لابد من إمعان النظر فيه)** وفى نسخة إنعام وهما بمعنى، والمراد تدقيق النظر وإطالة التدبر والتفكر، يقال: أمعن النظر وأنعمه وأصله من أمعن فى الطريق إذا أبعد وسار سيرًا طويلاً.

(هذا معنى كلامه) فى هذه المسألة رواه بمعناه دون لفظه وكأنه يريد بهذا أنه غير ظاهر؛ لأنه أحال علمه على إرادته وهو أمر لا يطلع عليه، وتفصيله بين إرادة العموم وإرادة أهل زمانه فيه ما لا يخفى ولذا، قال ابن حجر بعده: والظاهر أن لفظه ليس صريحا فى ذم الأنبياء ولا سبهم فلا يكفر بمجرد هذا اللفظ بل يعزر التعزير الشديد.

(وحكى عن) الشيخ **(أبى محمد بن أبى زيد)** القيروانى وقد تقدم مرارًا **(فيمن قال لعن الله العرب ولعن الله بنى إسرائيل ولعن الله بنى آدم)** من غير تعيين لأحد منهم وإسرائيل لقب يعقوب عليه السلام معناه عبد الله أو صفوة الله **(وذكر أنه لم يرد الأنبياء)** منهم، وقال لما أنكر ذلك عليه:

(وإنما أردت الظالمين منهم) دون الصالحين والأنبياء والرسل منهم؛ فقال ابن أبى زيد: إنه يحكم بـ**(أن عليه الأدب)** أى التعزير والزجر لما فى كلامه من الإيهام **(بقدر اجتهاد السلطان)** أى بقدر مايؤدى إليه اجتهاده من ضرب وغيره دون القتل، وهذا مبنى على قاعدة هى أن العام إذا ذكر من غير قرينة على الخصوص هل يصدق فى قوله أردت

الخصوص، فقيل: يصدق إذا غلب على الظن أنه لم يرده، وفيه كلام فى الأصول ليس هذا محله.

(وكذلك أفتى) ابن أبى زيد، أى كما أفتى فى المسألة السابقة أفتى أيضًا **(فيمن قال لعن الله من حرم المسكر)** وهذا بظاهره يقتضى الكفر والقتل؛ لأن الذى حرمه هو الشارع، وهو النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وقال: لم أعلم من حرمه)** وسيأتى حكمه مع مابعده وهو قوله.

(و) أفتى ابن أبى زيد **(فيمن لعن حديث لا يبع)** نهى **(حاضر)** معناه المقيم وهو يكون مفردًا واسم جمع كالسامر **(لباد)** وهو من يأتى من البادية كالبدوى، ولعن الحديث لا معنى له إلا لعن قائله أو راويه **(ولعن من جاء به)** أى بالنهى عن بيعه والذى جاء به قائله أولا أو راويه وهذا مما اختلف فيه، فقيل: إنه حرام لتغرير صاحبه فإنه يأخذه منه بثمن قليل ثم يبيعه تدريجا بأكثر، وقيل: إنه نسخ، وقيل: الكراهة تنزيهية.

ومن ذهب إلى حرمته كبعض الشافعية شرط فيه شروطًا، من علمه بالنهى، وكون المتاع مما تعم الحاجة إليه وإن لم يكن مأكولا، والمعنى فى التحريم التضييق على الناس والحديث فى الصحيحين وغيرهما مع اختلاف فى بعض ألفاظه، ففى رواية: «لايبيع حاضر لباد وإن كان أخاه أو أباه دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض» **(أنه إن كان يعذر بالجهل)** لقرب عهده بالإسلام. وقد علمت أنه شرط عند القائل بحرمته.

(وعدم معرفة السنن) جمع سنة أى الأحاديث المأثورة عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فعليه الأدب الوجيع)** الأدب بمعنى التأديب وهو التعزير، والوجيع بمعنى الموجع وإسناده مجاز عقلى **(وذلك أن هذا لم يقصد بظاهر حاله)** أى بسبب ظاهر حاله وما يظهر من كلامه وفحواه **(سب الله)**؛ لأنه هو الذى حكم به وأوحاه **(ولا سب رسوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه الذى جاء به وبلغه للناس.

(وإنما لعن من حرمه من الناس) أى العلماء المجتهدين الذين أفتوا بحرمته لما صح عندهم من الحديث فهو **(على نحو فتوى سحنون وأصحابه)** من المالكية **(فى المسألة المتقدمة)** فى قول القائل: لا صلى الله على من صلى عليه كما مر آنفًا.

قال ابن حجر بعد كلام المصنف: وهو ظاهر ولابد من تقييد لا عن محرم المسكر، بأن يكون ممن يجهل ذلك أيضًا ويعذر بالجهل به، بأن يكون قريب عهد بالإسلام و لم يكن مخالطًا للمسلمين، وإلا فتحريمه معلوم من الدين بالضرورة، ولو كان لعنه من جاء بالحديث المذكور بعد قول أحد له هذا قاله النبى ﷺ ونحو ذلك كان ذلك كفرًا، ولا

يقبل قوله ما أردته؛ لأن لفظه ظاهر فى تكذيبه فليتب وإلا فيقتل.

(ومثل هذا) المذكور فى حكم هذه المسألة **(ما يجرى)** أى يصدر ويقع **(فى كلام سفهاء الناس)** ممن لا تدبر عنده فى أموره **(من قول بعضهم)** فى مخاطبته **(لبعض)** فيما يقع فى مخاصماتهم **(يا ابن ألف خنزير)** وأراد بالخنزير من تقدم من أبائه وأجداده بطريق الاستعارة **(ويا ابن مائة كلب)** أى رجل خسيس دنى كالكلب **(وشبهه)** مما يصدر عن سفهاء العوام **(من هجر القول)** بضم فسكون معناه الفحش فى المنطق والقبح كما تقدم، ومراده بالألف والمائة التكثير دون العدد **(فلاشك أنه يدخل فى مثل هذين العددين)** أى الألف والمائة وفى نسخة العدد **(من آبائه وأجداده جماعة من الأنبياء)** كنوح وإسماعيل ويعقوب، عليهم الصلاة والسلام، **(ولعل بعض هذا العدد)** المذكور وهو الألف والمائة **(منقطع إلى آدم)** الظاهر أن معنى منقطع منتهى، قال فى المصباح: منقطع الشيء بصيغة البناء للمفعول حيث ينتهى إليه طرفه، نحو منقطع الوادى والرمل والطريق، والمنقطع بالكسر الشيء نفسه فهو اسم عين والمفتوح اسم معنى. انتهى.

فقول بعضهم: أنه بمعنى متصل من انقطع إليه ولم يركن إلى غيره، ومن ثمة عداه بإلى وليس بمعنى منفصل، إذ لو كان بمعناه عداه بعن. انتهى.

تكلف لا تساعده اللغة والحامل له عليه مارواه من عدم صحة معناه بحسب الظاهر والصواب ماسمعته أولا **(فينبغى)** لما ذكر من احتمال دخول بعض الأنبياء فيه وأن الحامل على ذكره سفاهة قائله **(الزجر عنه)** وهو المنع بعنف ولوم **(وتبيين ما جهله قائله منه)** ليزول عذره؛ فيقال له: إنه يدخل فى كلامك بعض الأنبياء، عليهم السلام، فتب عنه ولا تعد لمثله.

(وشدة الأدب فيه) أى تأديب قائله بلومه وتقريعه أو تعزيره **(ولو علم)** بالبناء للمفعول أى علم الحاكم **(أنه)** أى القائل **(قصد سب من فى آبائه)** فى سلسلة نسبه **(من الأنبياء على علم)** أى علم قائله بأن فيهم أنبياء قصد دخولهم فى عموم كلامه **(لقتل)** لردته أو حد كما هو حكم ساب الأنبياء، واللام داخلة فى جواب لو وحاصل ما ذكره أنه لا يكفر بهذا اللفظ، فإن شمل جماعة من الأنبياء مالم يعلم أنه قصد سبهم وما ذكره فيه ظاهر؛ لأن ظاهر هذا اللفظ المبالغة فى سب المخاطب دون غيره لكن يعزر ويبالغ فى تعزيره كمامر.

(وقد يضيق القول فى نحو هذا) أى يزاد فى التشديد على قائله فيما **(لو قال)** أحد من الناس **(لرجل هاشمى)** أى من بنى هاشم بن عبد مناف بن قصى جد النبى، صلى الله

تعالى عليه وسلم، لقب به واسمه عمرو لهشمه رجلاً، أو لأنه كان يهشم الثريد لإطعام قومه كما فصل فى السير (**لعن الله بنى هاشم**) ضيق فيه لدخول النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بيته فيه دخولا متبادرًا صريحا، فليس كالذى قبله ولذا شدد على قائله (**وقال: أردت الظالمين منهم**) والكفرة كأبى لهب وأبى جهل ولا قرينة منه على تخصيصه بعد الإطلاق، ولا قرينة تشهد له فى دعوى الخصوص، فلو ظهرت القرينة ككون المخاطب من ظلمتهم درئ عنه الحد بالشبهة، فلا يقال: إنه مناف لما تقدم.

(**أو قال لرجل من ذرية النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو من نسله**) أى من ولد له من فاطمة، رضى الله عنها، (**أو ولده**) من السادة الأشراف وينبغى تخصيص الولد بمن قرب نسبه منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كالحسن والحسين والنسل بمن بعدهم، فإن عطف المترادفين بأو غير صحيح خلافًا لابن مالك فى تجويزه كقوله، عز وجل: ﴿**وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا**﴾ [النساء:١١٢].

ووقع فى بعض النسخ وولده بالواو ولا إشكال فيه (**على علم منه**) أى وهو يعلم ويتحقق (**أنه من ذرية النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم تكن قرينة**) قائمة (**فى المسلمين**) أى مسألة بنى هاشم ومسألة الذرية (**تقتضى تخصيص بعض آبائه**) مما ذكره من السب (**وإخراج النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ممن سبه منهم**) بلفظه يخصه أو نحوه من توجيه خطابه.

قال ابن حجر: وظاهر كلامه أنه لا يقبل تخصيصه بإرادة غير النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، من غير قرينة وهو محتمل لعموم لفظه، لكن الأقرب إلى قواعدنا قبوله مطلقا؛ لأن اللفظ بوضعه لا ينافى تلك الإرادة لكن يبالغ فى التعزير (**وقد رأيت لأبى موسى عيسى بن مناس**) بفتح الميم والنون المخففة وألف وسين مهملة وما فى بعض النسخ من كسر ميمه لم يثبت، وهو من أصحاب سحنون ومن أهل قيروان، ويقال: مياس بمثناة تحتية (**فيمن قال لرجل**) يخاصمه ويشاتمه (**لعنك الله**) وآباءك (**إلى آدم إنه إن ثبت عليه ذلك**) القول (**قتل**) لدخول بعض الأنبياء كنوح، عليه السلام.

قيل: الظاهر أنه يؤدب ولا يقتل، لاحتمال أن يريد أن اللعنة تستمر عليه إلى أن يلقى آدم، لاسيما ودخول الغاية غير متعين فتدبر، وقال ابن حجر، بعد كلام المصنف، رحمه الله: وقضية قواعدنا خلافه لما قدمته من أن لفظه ليس صريحا فى سب نبى لاحتماله، إلى أن يلقى آدم فى القيامة، بل لو قال لعن الله آبائه إلى آدم كان عدم التكفير أقرب أيضًا إن ادعى إرادة غير الأنبياء منهم، لاحتمال ما ادعاه وعدم صريح يدل على خلافه، ولا يقال كلامه يتناول آدم للخلاف المشهور فى دخول الغاية. انتهى.

(قال القاضى أبو الفضل) عياض المؤلف، رحمه الله تعالى، **(وقد كان اختلف شيوخنا)** من علماء المغرب المالكية **(فيمن قال لشاهد شهد عليه بشىء)** من الحقوق ادعى به عليه **(ثم قال)** ذلك الشاهد **(له)** أى للمدعى عليه وقد اتهمه فى شهادته **(تتهمنى)** بحذف همزة الاستفهام أى أتتهمنى، أى تنسب لى سوءًا وأمرًا يقتضى عدم قبول شهادتى والتهمة سوء ظن كما تقدم.

(فقال له الآخر) المشهود عليه بحق **(الأنبياء يتهمون)** ببناء المجهول أى يسند لهم التهمات وهذا مقول القول **(فكيف أنت)** أى أنت أولى بأن تتهم لبعد مقامك عنهم وكيف استفهام إنكارى استبعادى نحو ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]، **(فكان شيخنا)** الإمام **(أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر)** تقدمت ترجمته **(يرى قتله)** أى يعتقد وجوبه **(لبشاعة ظاهر اللفظ)** أى قباحته بحسب الظاهر المقتضى؛ لأنهم وقع منهم مايقتضى سوء الظن بهم وبشاعة بموحدة وشين معجمة، وروى شناعة بمعجمة ونون وهما متقاربان، قيل: وتعبيره بالمضارع فى يتهمون الدال على الاستمرار التجددى هو المستبشع، ولو عبر بالماضى لم يكن فيه كبير استبشاع؛ لأنه قد وقع اتهامهم من جهلة الكفرة والفجرة وإن احتمل أنه حكاية الحال الماضية من اتهامهم بالكذب والسحر وغيره.

(وكان القاضى أبو محمد بن منصور) اسمه عبد الله بن محمد بن منصور، ومنصور جده عبد الله بن محمد بن منصور بن إبراهيم بن قاسم بن منصور اللخمى، ولد سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وتوفى فى شعبان سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وهو إمام محدث مالكى المذهب **(يتوقف)** أى يتردد **(عن القتل)** فلا يقدم على الحكم به **(لاحتمال اللفظ)** المذكور **(عنده أن يكون خبرًا عمن اتهمهم من الكفار)** الذين اتهموهم بما لا يليق بهم كمن كذبوهم، وهذا مما وقع وقائله لا يعتقد ما قالوه، قال ابن حجر: وهذا الثانى هو الأوجه.

(وأفتى فيها) أى فى هذه المسألة المتقدمة **(قاضى قرطبة أبو عبد الله بن الحجاج بنحو هذا)** الذى أفتى به ابن منصور، من التوقف فيه وهو محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبى المالكى العلامة المحدث الشهيد، ولد سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وقتل وهو ساجد بجامع قرطبة قتله رجل مجنون، يقال: إنه ضربه بسكين فى خاصرته فقتله، وقتله العامة فى الموضع الذى قتله فيه سادس عشرين من شهر رمضان، ودفن بعد العصر فى مشهد عظيم وليس ابن الحاج هذا صاحب المدخل **(وشدد القاضى أبو محمد)** ابن منصور المذكور آنفًا **(تصفيده)** أى جعله فى صفد وهو القيد يقال: صفدته، وصفدته

بالتشديد إذا قيدته، وأصفده إذا أعطاه ففرق بين المعنيين، وقيل: الصفد فى العطية مأخوذ من القيد كما قيل:

ومن وجد الإحسان قيدًا تقيدا

وفيه كلام فصلناه فى حواشى البيضاوى **(وأطال سجنه)** بفتح السين مصدر ويجوز كسرها بتقدير مدة سجنه **(ثم استحلفه بعد)** بالضم أى بعد تصفيده وسجنه حلفه يمينا **(على تكذيب ماشهد به عليه)** أى أمره أن يحلف على أنه ما قال ما نسب إليه **(إذا دخل فى شهادة بعض من شهد عليه)** بصدور هذا القول منه **(وهن)** أى ضعف فيحلفه وهذا احتياط فى حق النبوة، وإلا فكونه إخبارًا بما وقع من الكفرة من غير اعتقاد لما قالوه وهو أمر واقع يكفى فى عدم استحقاقه للقتل، **(ثم أطلقه)** لحكمه ببراءته مما نسب إليه.

(وشاهدت شيخنا) أى عاينت وأنا حاضر عنده **(أبا عبد الله محمد بن عيسى)** بن حسن التميمى ولد سنة تسع وعشرين وأربعمائة توفى سنة خمسين وخمسمائة صبيحة يوم السبت لعشر بقين من جمادى الآخرة كما تقدم.

(أيام قضائه أتى برجل) ادعى عليه عنده **(هاتر)** وفى نسخة: تهاتر، والمهاترة السفاهة فى القول، يقال: تهاتر الفتيان إذا تفاحشا فى القول من الهتر بفتح الهاء وكسرها وهو الباطل والسقط من الكلام، وهاتر وهتر إذا لم يبال ما صنع، وما قال، وقيل: هو بالفتح تمزيق العرض وبالكسر السقط من الكلام، والتهاتر نوع من الحمق والجهل، وهو أيضًا العجب والداهية **(رجلاً اسمه محمد)** والمراد أنه خاصمه **(ثم قصد)** أى توجه **(إلى كلب)** كان قريبًا منه؛ **(فضربه برجله، وقال له: قم يا محمد)** وقصد بذلك تحقير خصمه المسمى بهذا الاسم لكن لمشاركته له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الاسم لا ينبغى ذكره لإيهامه ما لا يليق **(فأنكر أن يكون قال ذلك)** الذى نقل عنه.

(وشهد عليه) بإثبات ما أنكره **(لفيف من الناس)** أى جماعة اجتمعوا ليشهدوا عليه بما وقع منه، قال تعالى: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء:١٠٤]، أى منضمًا بعضكم إلى بعض من لفه إذا طواه **(فأمر)** القاضى أن يمضى **(به إلى السجن)** ليحبس فيه **(وتقصى)** بفتح التاء الفوقية والقاف والصاد المهملة المشددة قبل ألف أى سأل **(عن حاله)** فى دينه والتقصى هو البحث والتفتيش الشديد كأنه بلغ أقصاه، قال أبو تمام:

يا صاحبى تقصيا نظريكما

(و) أنه **(هل يصحب)** أحدًا من **(من يستراب بدينه)** أى من للناس ريبة وشك فى دينه ممن يتهم بالإلحاد؛ فإن المرء على دين خليله؛ فإن كان كذلك يعلم أنه قصد بكلامه

حقيقة؛ فأكثر السؤال عنه وعمن يخالطه (**فلما لم يجد ما يقوى الريبة**) من حاله وحال أصحابه ممن يتهم (**باعتقاده ضربه بالسوط**) تعزيرًا له وزجرًا عن العود لمثله (**وأطلقه**).

قال ابن حجر: وما دل عليه كلامه من عدم كفره بذلك هو الصواب.

* * *

(فصل الوجه الخامس)

من أقسام ما نحن بصدده (**أن لا يقصد**) بكلامه الذى أتى به (**نقصًا**) أى ما يدل على أمر ينقصه (**ولايذكر عيبا**) أى أمرًا معيبًا قبيحًا (**ولاسبًا**) أى ما يسب به (**ولكنه ينزع**) أى يميل ويلمح من قوله: نزع إلى وطنه، يقال: نازعته نفسه إلى كذا، أى مالت له ميلا شديدًا. كما قاله الراغب وغيره.

(**بذكر بعض أوصافه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**أو يستشهد ببعض أحواله**) التى كانت له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى أن يأتى بها شاهدًا أى نظيرًا لأمر وقع له (**الجائزة عليه فى الدنيا**) قيده به؛ لأن ما لا يجوز عليه نقص له (**على طريق ضرب المثل**) بحاله وتمثيله به ليقاس عليه غيره (**أو الحجة لنفسه أو لغيره**) ليتأسى به لقوله تعالى: ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ [الأحزاب:٢١].

(**أو على**) طريق (**التشبه به**)، صلى الله تعالى عليه وسلم،

إن التشبه بالكرام فلاح

(**أو عند هضيمة**) وفى نسخة عظيمة، أى واقعة عظيمة، والهضيمة من الهضم، وأصله كما، قال الراغب: شدخ ما فيه رخاوة ثم استعير للظلم والجور، قال تعالى: ﴿**فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا**﴾ [طه:١١٢]، أى مظلمة (**نالته**) أى أصابته (**أو غضاضة لحقته**) أى تنقيص، يقال: غض منه إذا نقصه (**ليس على سبيل**) طريق (**التأسى**) أى الاقتداء به فى مثله.

(**و**) لا على (**طريق التحقيق**) لاتصاف النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، به (**على مقصد الترفيع**) أى التعظيم (**لنفسه**) إن كان ذلك وقع له (**أو لغيره**) ممن وقع له (**أو**) يذكره على (**سبيل التمثيل**) به وجعله مثله فيما، اتفق له (**وعدم التوقير لنبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم**) لتشبيه نفسه به وأين الثريا؟ وأين الثرى؟ (**أو على قصد الهزل**)، واللعب سفاهة منه (**والتندير بقوله**) بمثناة فوقية ونون فدال وراء مهملتين، أى الإتيان بأمر نادر شاذ وقوعه فيذكره على سبيل الشذوذ لا التشهير والترفيع، وقيل: معناه الإسقاط، أى إسقاط حرمة مقامه، وقيل: إنه بمعجمة بمعنى التكلم بما فيه تعيب وتشهير

وفيه نظر، والظاهر أنه بباء موحدة ودال معجمة تجوز به عن السفاهة والتلفظ بما يليق به.

(كقول القائل إن قيل فى السوء فقد قيل فى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم) وفيه سوء أدب لا يخفى **(أو إن كذبت)** أى نسب لى الكذب **(فقد كذب الأنبياء)** وهذا فيه تسوية لنفسه بهم **(إن أذنبت)** أى وقع منى ذنب وخطيئة **(فقد أذنبوا)** وهذا سوء أدب منهم؛ فإنهم، عليهم الصلاة والسلام، معصومون ولو قيل بتجويزه على غير الصحيح فذنوبهم حسنات بالنسبة لغيرهم فهذا جهل من قائله.

(أو أنا أسلم من ألسنة الناس) أى من طعن ألسنتهم وغيبتهم **(ولم تسلم منهم أنبياء الله ورسله)** فكيف بغيرهم **(أوقد صبرت)** على ما ابتليت به (﴿ **كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ** ﴾) [الأحقاف: ٣٥]، تقدم بيانهم قريبًا وأنا حقيق بالصبر **(أو)** إنى صبرت **(كصبر أيوب)**، عليه الصلاة والسلام، وقد تقدم بيان ما صبر عليه **(أو قد صبر نبى الله على عداه)** بكسر العين جمع عدو **(وحلم)** بزنة علم من الحلم، أى عاملهم مع ما وقع منهم بالحلم والعفو عنهم **(على أكثر مما صبرت)** أنا عليه ففى كل هذا من ترك الأدب ما لا يخفى.

قال ابن حجر: فميل كلامه بل صريحه عدم الكفر فى هذه المسائل، وهل يحرم ذلك الذى يظهر أنه إن قصد به الترفع وأنه شاركهم فى أصل هذه الفضائل كان حرامًا شديد التحريم، وإن قصد هضم نفسه على طريق المبالغة بمعنى أنه لا نسبة لى باتباعهم، وقد وقع لهم ذلك، فوقوعه لى أولى، لم يكن حرامًا، وعلى هذا يحمل ما وقع لبعض الأكابر من استشهادهم على ما حصل لهم بنحو هذه الكلمات فى خطب كتبهم وغيرها، نعم قوله: إن أذنبت فقد أذنبوا شديد التحريم لا يجوز الاستشهاد به بحال، وقال بعض المالكية: من قال إن كان فى حقى أو حق فلان، أو إن جرى له كذا فقد قيل فى حق الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أو جرى لهم حرم عليه إطلاق ذلك؛ لأن ما انتقص به يضيفه للأنبياء فيؤدب، وفهم بعضهم من كلام المصنف، رحمه الله تعالى، هنا أنه يكفر بذلك وليس كما فهم، وليس فى مذهبنا ما يوافق القول بالتكفير لا تصريحًا ولا تلويحًا، وليس لمن قال به دليل، وتعليله بأن القصد التشبيه والانتقاص فاسد، إذ لا يقصد ذلك من فى قلبه إسلام، بل المراد كيف لا يتكلم فى حقير مثلى، وقد تكلم فى الأكابر، قال بعض المتأخرين: بل إطلاق التحريم فى ذلك بحسب مذهبنا منظور فيه. انتهى.

والوجه عدم التحريم حيث كان المراد ما ذكر أو أطلق انتهى ملخصا. ثم استطرد بما وقع من هذا القبيل لبعض الشعراء؛ فقال: **(وكقول المتنبى)** أبو الطيب أحمد بن الحسين

الشاعر المشهور، وشهرته تغنى عن ذكره، وترجمته مستوفاة فى التواريخ:

(أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود)

الأمة أقوام فى أزمان نبى بعث إليهم، ويكون بمعنى الجماعة مطلقا ومعنى تداركها الله بلطفه أوبهلاكه فهو دعاء لهم أو عليهم، وصالح نبى الله، وثمود أمته والغربة الخروج عن الأهل والوطن فاستعارها لعدم المناسبة والألفة، كما يقال: الكريم غريب بين أهله وهو على طريقة الشعراء فى الادعاء.

قال ابن حجر: وكلامه محتمل لقصده تشبيه حاله فى الغربة بحال صالح، عليه السلام، فيكون من قصد الترفع أو تشبيه حال من هو فيهم بحال ثمود من المشاقة وعدم الطواعية له، فيكون مستلزمًا للترفع وصريحًا فى سبهم، وعلى كل فهو غير كافر والبيت من قصيدة له، وقيل: إنه لقب بالمتنبى لهذا البيت وفيه أقوال أخر.

(ونحوه) أى قول المتنبى هذا وما فى معناه مما وقع **(فى أشعار المتعجرفين فى القول)** الذى يقولونه والعجرفة تجاوز الحد، والخروج عنه، وهى أيضًا ارتكاب ما لا يليق من غير مبالاة به، وروى فى النوك بدل القول بضم النون، ثم واو وكاف أى الحماقة **(المتساهلين فى الكلام)** يقال: تساهل وتسامح إذا لم يتدبر ويتأمل ما فيه ضرر لدينه أو عرضه كأنه يعد الصعب سهلاً.

(كقول) أبى العلاء **(المعرى)** نسبة لمعرة النعمان البلدة المشهورة، وهو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى الشاعر المشهور، وهو، عفا الله عنه، كان أعمى من بيت علم وعرافة ومرتبته فى الذكاء وسعة العلم بالعربية وغيرها، وفصاحته فى النظم والنثر أشهر من قفا نبك، إلا أنه ممن أضله الله على علم كان متهمًا بالزندقة، وكلامه فى ديوانه لزوم ما لا يلزم شاهد عليه لا يتردد فيه، فكما أعمى الله بصره أعمى بصيرته، ولولا خوف الإطالة أوردت لك من كلامه دررًا وغررًا:

(كنت موسى وافته بنت شعيب غير أن ليس فيكما من فقير)

وهو من قصيدة له فى سقط الزند أولها:

ابق فى نعمة بقاء الدهور نافذ الأمر فى جميع الأمور

يشير لقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤]، وتوفى سنة أربع وأربعمائة، ومما ينسب له يسلى به نفسه عن العمى:

لو أبصرت عيناك هذا الورى لم ير إنسانك إنسانا

والأنبياء، عليهم السلام، لا يوصفون بالفقر، ولا يجوز أن يقال لنبينا، صلى الله تعالى

عليه وسلم، فقير وقولهم عنه:

الفقـــــــــر فخـــــــــرى

لا أصل له كما تقدم (**على أن آخر**) هـذا (**البيت شديد**) فـى جراءته (**عند تدبره وداخل فى باب الإزراء والتحقير**)؛ لأنه لم يرض لممدوحه أن يكون مثل نبى الله إذ مراده لولا هذا شبهتك به (**وتفضيل حال غيره عليه**) كما يعرفه من له إلمام بالأدب.

قال ابن حجر: ولا يستنكر قوله هذا الدال على الإزراء والتحقـير لموسـى، صلـى الله وسلم على نبينا وعليه، فإنه كان زنديقا كافرًا وقـد أتـى فـى كثير مـن شعره بصرائح الكفر وقد نحا نحوه فى زيادة القبح والتصريح بالكفر فى شعره ابن هانيء الأندلسى كما يأتى (**وكذلك قوله**) أى المعرى الذى ليس صريحا فى الكفر فى قصيدة أخرى:

(لـولا انقطـاع الوحى بعد محمد قلنـا محمـد مـن أبيـه بديـل)

وهو من قصيدة له فى سقط الزند مدح بها علويا اسمه محمد أولها:

ليـس التحمـل مـن دراك حلـول والسير عـن حلـب لـدى رحيـل

ومنع صرف محمد الثانى للضرورة، وقال: صدر الأفاضل إنه على مذهـب الكوفيـين فى تجويز منع الصرف بالعلمية وحدها كقوله:

يفوقـــان مـــرداس فـــى مجمـــع

(**هو مثله فى الفضل إلا أنه، لم يأته برسالة جبريل**) وفيه مـن تـرك الأدب مـا لا يخفـى (**فصدر البيت الثانى**) وهو نصفه الأول (**من هذا الفصـل شـديد لتشـبيهه غير النبـى فـى فضله بالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**) وحاشاه من أن يرضى به من له إسـلام أو ذوق فإنه كفر بغير لذة (**والعجز محتمل**)؛ لأنه أخـف مـن صـدره (**لوجـهين أحدهمـا أن هـذه الفضيلة**) أى إتيان جبريل له بالوحى (**نقصت الممدوح**) عن درجة المشبه به فكأنـه قـال: لولا هذا قلت له أنه مثله.

(و) الوجه (**الآخر استغناؤه عنها**) هذا إن قصد أنه مثله وإن كـان كذبـا؛ فـإن قصـد هذا (**فهذه أشد**) فى كفره وعجرفته، وما كان أغناه عـن مثـل هـذا الهذيـان ولحـن ابـن حجر؛ فقال: وإنما لم يكن كفرًا؛ لأن ظاهر قولـه: إلا أنـه إلخ أن الممـدوح نقـص لفقـد ذلك؛ فإن أراد أنه استغنى عن ذلك فلا يحتاج إليه فى المماثلة كان أقرب إلى الكفـر بـل كفرًا (**ونحو منه**) أى مثل ما ذكر (**قول الآخر**) فى الكفر:

(وإذا مـــا رفعـــت راياتـــه خفقـت بـين جناحـى جبريـن)

هو من قصيدة للأديب زيد بن عبد الرحمن بن معانا الأسيوفى المغربى من شعراء الذخيرة، قال: هو من شعراء غربنا المشاهير ينبيء عن أدب غزير تصرف فيه تصرف المطبوعين المجندين فى عنفوان شبابه وابتداء حاله، ثم تراجع طبعه عند كماله، وهو من قصيدة له فى ابن حمودة تداولها القوالون لعذوبة ألفاظها وسلاستها:

البرق لائح من اندرين ذرفت عيناك بالدمع المعين
ولصوت الرعد زجر وحنين ولقلبى زفرات وأنين
ملك ذو هيبة لكنه خاشع لله رب العالمين
وإذا ما رفعت راياته خفقت بين جناحى جبرين
وإذا أشكل خطب معضل صدع الشك بمفتاح اليقين

والنون فيه ساكنة؛ لأنه لا يلزم اختلاف حركات الروى لوقوع بعضها مرفوعًا ومنصوبًا ومجرورًا، ولولا ذلك جاز تحريكها؛ لأنه أحد ضروبه؛ وقوله: خفقت أى تحركت واضطربت؛ وهكذا رواه ابن بسام، وفى نسخة مصححة ضعفت فهر رواية أخرى حسنة، وفيه أنه ليس فيه ذكر له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وما قيل من أنه فيه اجتراء على ملك معظم، فيه أيضًا أنه إن قصد أنها رايات رفعت للجهاد ونصرة للدين فصحبة جبرائيل لها ليس فيه تحقير له، وجبرين لغة فى جبريل وفيه لغات منها هذه.

ومن العجب ما قيل إنه إن أراد تثنية جبريل ففيه ما لا يخفى، وإن أراد إفراده فهو فى غالب النسخ بيائين انتهى.

وهو خلط وخبط عجيب منه **(وقول الآخر من)** شعراء **(أهل العصر:**

فر من الخلد واستجار بنا فصبر الله قلب رضوان)

فيه عجرفة لجعله رضوان وهو من الملائكة المقربين كأنه يهوى هذا الحورى بحيث لا يقدر على فراقه ومثله، قول ابن النبيه:

ساق سها رضوان عن حفظه ففر من جملة حور الجنان

وقوله:

فى حسن يوسف إلا أنه ملك فلا يباع بنجس النقد معدود

والمراد المبالغة فى وصفهم بالحسن؛ لأنه، يقال لمن وصف بالحسن: إنه حورى وملك ومنه، قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

(وكقول حسان المصيصى) بصادين مخففتين مهملتين نسبة لمصيصة بلدة بالأندلس وقيل: يجوز فيه فتح الميم وكسرها وتشديد الصاد وتخفيفها، وأنها مصيص ثغر من

الثغور الشامية، قال ابن بسام فى الذخيرة: هو الوزير الكاتب أبو الوليد حسان بن المصيصى رفيق الوزير ابن عمار من عظماء الدولة العبادية، وله أشعار بديعة أكثر قصائده فى مدائح المعتمد وله تصانيف جليلة ومعان رائقة كقوله:

إذا المرء لم يزهد وقد صبغت له بعصفرة الدنيا فليس بزاهد

(من شعراء الأندلس) تقدم أنه إقليم وضبط لفظه **(فى محمد بن عباد المعروف بالمعتمد على الله)** على عادة الخلفاء فى الألقاب، وقد تولى الخلافة بعد أن كان قاضيا، قال فى الذخيرة: القاضى ابن عباد هو القاسم بن محمد ابن ذى الوزارتين ابن الوليد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن عمرو بن عطاف بن نعيم، وعطاف هو الداخل إلى الأندلس وكان من أهل حمص.

وكان عباد يلقب بالمعتضد وابنه يلقب بالمعتمد وحده ثم تغلب، وتولى بعد ذلك الخلافة وله وقائع وأمور غريبة **(وفى وزيره أبى بكر بن زيدون، وابن زيدون)** هو ذو الوزارتين والشاعر البليغ، وكان مع ابن عمار فرسى رهان **(كان أبا بكر، أبو بكر الرضا، وحسان حسان وأنت محمد)** أى كان وزيرك أيها الممدوح أبوبكر بن زيدون أبابكر الصديق، وكان شاعرك حسان المصيصى حسان بن ثابت شاعر رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا من جهله بمقام النبوة ومجازفته، وإن كان المشبه دون المشبه به كما قيل:

ظلمناك فى تشبيه صدغيك بالمسك فمن عادة التشبيه نقصان ما يحكى

لكن لا وجه للتشبيه بمن ليس له شبيه، وللشراح هنا كلام تركه خير من ذكره فلذا ضربنا عنه صفحا **(إلى أمثال هذا)** المذكور من الكلام **(وإنما أكثرنا)** أى أتينا بكثير منها **(بشاهدها)** المراد ما يشهد لما ادعاه من أن الناس يتساهلون فى أمثالها بما لا ينبغى.

وأما كون الشاهد ما يذكر لإثبات حكم، والمثال ما يذكر إيضاحه فكان عليه أن يقول بمثالها، فأمر اصطلح عليه أهل العربية وليس مرادًا هنا فليس ما ذكره شيئًا **(مع استثقالنا حكايتها)** أى عده ثقيلا لما فيه من ذكر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، بما لا يليق بهم أى روايتها وذكرها **(لتعريف)** الناس **(أمثلتها)** أى أمثالها مما يقع من أمثالهم **(وتساهل كثير من الناس)** فى التكلم بمثله فذكرها، رحمه الله، ليحذر الناس من مثلها كما، قيل:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لم يعرف الشر من الناس يقع فيه

(فى ولوج) أى دخول **(هذا الباب الضنك)** أى الضيق الذى لا ينبغى دخوله لمن له

دين **(واستخفافهم فادح هذا العبء)** أى عدهم له ثقيلا، والفادح بفاء ودال وحاء مهملتين هو الثقيل، والعبء بوزن الحمل ومعناه مهموز الآخر **(وقلة علمهم بعظيم ما فيه من الوزر)** أى الإثم والخطيئة والمراد بالقلة العدم، **(وكلامهم)** بالجر معطوف على تساهل أى تكلمهم **(فيه)** أى فى هذا الباب **(فيما ليس لهم به علم)** من حقوق الرسل والملائكة، عليهم الصلاة والسلام، ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ سهلاً عند الله ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]؛ لأنه من الكبائر وهو اقتباس من قصة الإفك وقد أكثر الناس منه **(لاسيما الشعراء)** فإنهم ظنوه مبالغة فى مدائحهم وتغزلاتهم وهو قبيح جدًا.

(وأشدهم فيه تصريحًا) أى الإتيان به صريحا لرقة دينه **(وللسانه تسريحا)** أى إطلاقا وإرسالا، قال تعالى: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة:٢٢٩]، أى طلقوهن ومنه تسريح الشعر بالمشط، ولذا قال ابن نباتة فيمن يسرح لحيته:

فليس يمسك إمساكا بمعرفة ولايسرح تسريحا بإحسان

وفى التسريح والتصريح تجنيس **(ابن هانىء)** بزنة فاعل مهموز **(الأندلسى)** وصفه به؛ لأن أبا نواس، يقال له: ابن هانىء أيضًا، وهو أبو الحسن أو أبو القاسم محمد بن هانىء الأندلسى الإشبيلى، ولد بمدينة إشبيلية ونشأ بها واشتغل بعلوم الأدب والعربية ففاق فيها أهل عصره، إلا أنه يميل لمذهب الفلاسفة، ومن هنا وقع له ما وقع حتى طعن فيه، وديوانه مشهور فى غاية البلاغة لكنه لا يخلو من تكلف كالمعرى.

وقد كتب عليه التيفاشى كتابا سماه: الديباج الخسروانى فى شعر ابن هانىء، وارتحل لمصر ثم عاد منها، فلما نزل ببرقة وجد ميتا لم يعرف من قتله، وكان ذلك فى يوم الأربعاء لسبع بقين من رجب، سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة أوسنة اثنين وأربعين أوست وثلاثين وهانىء جده من أهل إفريقية من نسل أبى صفرة الأزدى.

(و) أبو العلا **(ابن سليمان المعرى)** الذى تقدم قريبًا بيانه وسليمان جده وهم ينسبون إلى الجد إذا اشتهر كقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنا ابن عبد المطلب **(بل قد خرج من كلامهما إلى حد الاستخفاف والنقص)** أى تنقيص من هو كامل والاستخفاف يتجوز به عن التحقير.

(وصريح الكفر) لخوضهم فى حق الأنبياء ونحوهم **(وقد أجبنا عنه)** كما بينه فيما تقدم **(وغرضنا)**، أى قصدنا **(الكلام فى هذا الفصل)** فيما وقع للشعراء ونحوهم **(الذى سقنا أمثلته)** قريبًا بضم شىء منه له **(فإن هذه)** الأمثلة **(كلها وإن لم تتضمن سبا ولا أضافت إلى الملائكة والأنبياء نقصا)** أى ما ينقص مقامهم **(ولست أعنى)** بكلامى هذا

(عجزى بيتى المعرى) فقط بل جميع ما ذكر من الأمثلة.

(ولا قصد) ماض معطوف على قوله أضافت **(قائلها إزراء)**، أى ازدراء **(و)** لا **(غضا)**، أى نقصا؛ لأنه إنما ضرب به المثل لأمور ذكرها قبل هذا **(فما وقر)** بالقاف أى عظم **(النبوة ولا عظم الرسالة)** أى مقدارهما ومقامهما ووصف النبوة بالتوقير والرسالة بالتعظيم تفننا وإشارة إلى أن مقام الرسالة لظهوره لهم أليق بالتعظيم **(ولاغزر حرمة الاصطفاء)**، غزر بمعجمتين وراء مهملة، بمعنى: كثر وقوى حرمتها واحترامها والاصطفاء اختيار الله لهم لرسالته وأداء أمانته.

(ولا عزز حظوة الكرامة) بمهملة ومعجمتين أى جعلها عزيزة محترمة والحظوة بضم الحاء المهملة وكسرها وسكون الظاء المعجمة بمعنى القرب، أى قربهم من الله بسبب كونهم مكرمين عنده بالرسالة.

(حتى شبه من شبه) أى شبه أحد الشعراء من شبهه بالممدوحين له **(فى كرامة)** أى بسبب كرامة **(نالها)** أى أمر وصل له مما يكرمه عند مادحه **(أو)** شبه بسبب **(معرة)** أى أمر يشق عليه ويكرهه **(قصد الانتفاء منها)** صفة معرة، أى أراد التخلص والتبرى منها **(أو)** شبه ممدوحه بما لا يليق به بـ**(ضرب مثل)** ببعض الأنبياء أو الملائكة **(لتطييب مجلسه)** أى لتطييب المجلس أو المجالسة والمجاورة معه.

(أو) يقصد بما شبه **(إغلاء)** بالمعجمة، أى غلو ومبالغة **(فى وصفه)** لممدوحه أو لغيره ويريد بغلوه أنه وسيله **(بتحسين كلامه بمن عظم الله خطره)** بفتح الخاء المعجمة وطاء وراء مهملتين وهو القدر والمنزلة **(وشرف قدره)** كأنبيائه وملائكته وهو عطف تفسير **(وألزم)** أى أوجب **(توقيره)** أى تعظيمه والتأدب معه، **(وبره)** أى صلته بزيارة قبره والدعاء له، ورعاية من نسب له ونحوه.

(ونهى) من رآه **(عن جهر القول له)** بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات:٢]، **(ورفع الصوت عنده)** أى إعلاءه لما فيه من قلة الأدب وعدم المهابة.

(فحق هذا) القائل من غير قصد لسب وتنقيص لقدره بل لأمر مما ذكر **(أن درئ)** بضم الدال وكسر الراء المهملتين قبل همزة مبنى للمفعول أى دفع **(عنه القتل)** فلم يقتل **(الأدب)** أى التأديب بضرب أو لوم وزجر **(والسجن)** أى الحبس مدة بفتح السين وكسرها **(وقوة تعزيره بحسب)** بفتح السين أى بمقدار **(شنعة مقاله)** أى قباحته **(ومقتضى قبح ما نطق به)** أى بقدر قباحة لفظه الذى قاله فيقدر بقدره برأى الحاكم فيه **(ومألوف**

عادته لمثله) أى إن ألفه واعتاده بتكرر صدوره منه كأبى العلاء المعرى **(أو ندوره)** أى وقوعه نادرًا قليلا فكثرته تدل على سوء اعتقاده وعدم مبالاته به، وقلته تدل على أنه خطأ وغفلة من غير اعتقاد له **(أو قرينة كلامه)** القائمة على قصده لاستخفاف ونحوه أولا.

(أو ندمه) الذى يظهره **(على ما سبق منه)** فى كلامه من غير قصد لتحقير واستخفاف **(ولم يزل المتقدمون)** من السلف وكبار الأمة **(ينكرون مثل هذا)** الكلام **(ممن جاء به)** وقاله عندهم فليحذر الشاعر وغيره من ارتكاب هذه القبائح الشديدة الوزر العظيمة الإثم، فإنها ربما جرت إلى الكفر نعوذ بالله من ذلك **(وقد أنكر الرشيد)** هارون ابن المهدى محمد بن منصور بن عبد الله بن عباس الخليفة المشهور **(على أبى نواس)** الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن الصباح الحكمى، الشاعر المشهور بالفصاحة والخلاعة، ولد بالبصرة ونشأ بها، ثم ارتحل لبغداد واتصل بالخلفاء ومدحهم، وتوفى بعد تسعين ومائة سنة وخمس، وقيل: ست أوثمان ووقائعه وأحواله أعرف من أن توصف ونواس بضم النون وفتح الواو ولا يهمز؛ لأنه يسمى به؛ لأنه كانت له ذؤابتان تنوسان على رأسه، أى تتحركان **(فى قوله)** فى قصيدة مدح الرشيد بها ومنها[(١)]:

فإن يك باقى سحر فرعون فيكم   فإن عصى موسى بكف خصيب

هذا بيت من قصيدة له فى المديح أولها، وخصيب عبد للرشيد وولاه مصر، وقيل فى سبب توليته لها أنه قرأ يومًا ما حكاه الله تعالى عن فرعون ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف:٥١] الآية؛ فقال: ما افتخر به فرعون لأعطينه عبدًا من عبيدى فولاه مصر، وكان لأبى نواس فيه مدائح كقصيدته هذه وقصائد أخر منها قصيدة أولها[(٢)]:

أنت الحصيب وهذه مصر   فتدفقا فكلاكما بحر

وفى هذا البيت حكاية لولاة ذكرها فى قلائد العقيان، والخصيب بخاء معجمة وصاد مهملة من الخصب بكسر الخاء ضد الجدب لقب به، وهو معروف مشهور، ومعنى البيت أنه خاطب أهل مصر لما تولى عليهم؛ فقال: يا أهل مصر إن كان عندكم بقية من سحر فرعون فقد ولى عليكم أمير المؤمنين من يبطله، فاستعار سحر فرعون لكيدهم وتجبرهم على حكامهم، وعصا موسى لسياسة حاكمهم وقمع ظلمتهم، ففيه استعارة وتشبيه تمثيل بديع لكن فيه سوء أدب لما فيه من جعل العصا التى هى معجزة لرسول

(١) البيت من الطويل، وهو فى ديوان أبى نواس (ص٧٣).
(٢) البيت من الكامل، وهو فى ديوان أبى نواس (ص٢٧٠).

بكف عبد من عبيد الخلفاء.

وجعل ذلك العبد كرسول من أولى العزم، ومما يتعجب منه قول من لم يعرف معنى البيت و لم يقف على كتب الأدباء ودواوينهم، أن المراد بخصيب رجل كثير الخير وأنه هنا عبارة عن الرشيد نفسه، وقال: معناه أن أعداء أمير المؤمنين الكفرة الذين عندهم بقية قليلة من سحر فرعون سحروا بها جيش أمير المؤمنين الجواد الكثير خيره، سيتلقف جنوده وما صنعوا ويلقى كيدهم فى نحورهم، ثم أطال بذكر عصا موسى، وما كان فيها من معجزاته فخبط بها هشيم معان لا وجه لها، وزاد فى الطنبور نغمة من قال كف منون وخصيب صفته وترك تنوينه لكثرة الاستعمال وتشبيه النون بحرف العلة وأنه روى خضيب بمعجمتين وأعجب منه، قول القائل إنه بخاء وضاد معجمتين، والكف الخضيب اسم نجم، وكذا عصا موسى وهذا كله مما يقضى منه العجب، ومثله فى كلام البرهان أيضًا، ولولا أن من السكوت ماهو بلاغة لذكرنا كلامهم وكررنا عليه بالإبطال لكنى خشيت من السآمة والملال.

(وقاله له) أى الرشيد لأبى نواس لما أنشده البيت **(يا ابن اللخنا)** هذا مما تشتم به العرب، واللخنا هنا أمه من اللخن وهو المتن، فاستعير للفاحشة أو للمرأة التى لم تختن أى يا دنى الأصل ولئيم الأم.

(أتستهزىء بعصا موسى) بجعلها فى كف عبد من العبيد وهى معجزة نبى عظيم **(وأمر بإخراجه)** وطرده **(من عسكره من ليلته)** التى أنشده فيها قصيدته، أى أمره بالمبادرة من غير إمهاله إلى الصباح صونًا لمقام النبوة، ولكن أبو نواس لم يقصد بما ذكر سبًا وتنقيصًا واتبع الناس فى قولهم لكل فرعون موسى.

(قال القتيبى) يعنى عبد الله بن مسلم بن قتيبة وقد قدمنا ترجمته **(إن مما أخذ)** أى ذكر وعد **(عليه)** على أبى نواس **(وكفر فيه)** أى نسب فيه إلى الكفر **(أو قارب)** أى قرب من الكفر وإن لم يكن كفر الشدة قبحه **(قوله فى)** قصيدة فى مدح **(محمد الأمين)** أى ابن هارون الرشيد الذى استخلف بعد موت أبيه سنة ثلاث وتسعين ومائة، وقصته مفصلة فى التواريخ وكذا قصة خلعه.

(وتشبيهه إياه) أى تشبيه أبى نواس الأمين، **(بالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، فى قوله فى قصيدة طويلة مدحه بها وفيها:

(تنازع الأحمدان الشبه فاشتبها — خَلقا وخُلقا كما قد الشراكان)

شبه تشابههما فى الخلقة والأخلاق ببرد أو متاع تنازعاه، أى جذبه كل واحد منهما

أو طلبه، وهو عبارة عن شدة الشبه بينهما والأحمدان مثنى أحمد بمعنى كثير الحمد، وهما بزعمه الفاسد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، والأمين وأراد أن يقول المحمدين فلم يساعده النظم.

وقيل: إنه تغليب ولا وجه له، ثم أكد شدة تشابههما بقوله: كما قد الشراكان فجعلهما كشراكين، أى سيرين قطعا من جلد أديم واحد بمقدار واحد، فهما كشىء واحد لا يتميز أحدهما عن الآخر، وهذا كقولهم هما كركبتى البعير وكالحلقة المفرغة، وفيه من سوء الآدب ما يخفى لتشبيهه رجلاً فاسقا سخيف العقل بأكمل الخلق وأجملهم، عليه الصلاة والسلام، وفى جعلهما كالشراكين وهما يوضعان فى النعال كفر على كفر وشبه بكسر فسكون بمعنى شبه بفتحتين.

قال ابن حجر: وهو وإن كان فى غاية القبح إلا أنه لا يكون كفرًا على قضية مذهبنا إلا إن قصد المشابهة المطلقة **(وقد أنكروا عليه أيضًا)** أى على أبى نواس كما أنكروا ما قبله **(قوله)** فى قصيدة أخرى هى من غرر قصائده أولها[(١)]:

أيها المنتاب عن عفره لست من ليلى ولا سمره

ومنها:

(كيف لا يدنيك من أمل من رسول الله من نفره)

خاطب نفسه على طريق التجريد أى كيف لا يقربك بما ترجيه وتأمله كريم منسوب إلى أكرم الخلق، وهو معنى حسن إلا أنه أساء فى العبارة **(لأن حق الرسول)** أى رسول الله، عليه السلام، على من يذكر أمته **(وموجب تعظيمه)** بفتح الجيم ويجوز كسرها، أى ما يوجب الترغيب فى تعظيمه **(وإنافة منزلته)** أى رفعها على غيرها **(أن يضاف)** غيره **(إليه)** فيقال: هو من نفر رسول الله **(ولايضاف هو لغيره)** كما فعل أبو نواس.

قال ابن عبد ربه فى العقد: قالوا: من حق رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يضاف إليه ولا يضاف هو لغيره، ولو اتسع متسع لكان له مجاز حسن، وذلك لأنه كقول القائل من بنى هاشم لغيره من أبناء قريش: منا رسول الله، يريد أنه من القبيلة التى نحن منها، كقول حسان، رضى الله تعالى عنه[(٢)]:

ومازال فى الإسلام من آل هاشم دعائم عز لا ترام ومفخر
بهاليل منهم جعفر وابن أمه علـى ومنهم أحمد المتخير

(١) البيت من المديد، وهو فى ديوان أبى نواس (ص٢٥٥).

(٢) البيتان من الطويل، وهما فى ديوان حسان بن ثابت (ص١٠٩).

فقال: من آل هاشم، كما قال هذا من نفره انتهى.

أقول: يعنى أن اللوم إنما جاءه من قوله من نفره لنفرة السمع عنها، لكن من عرف نهج أبى نواس فى إلباس كلامه ديباج كلام غيره من القدماء، عرف أنه لا فرق بينه وبين قول حسان المذكور، وإنما نفروا من نفره؛ لأنه بمعنى التابع والخادم، وهو فى كلام القدماء من يفتخر به من المنافرة وهى المفاخرة، والعرب تفتخر بالأباء والقبائل وافتخارهم أمدح عندهم، فهو لم يقصد ما نحوا نحوه لكنه كما قيل:

أساء سمعا فأساء [ما] جاء به

وقال أبو هلال فى كتاب الصناعتين: تبع قول حسان، رضى الله عنه[1]:

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم   إذا تفرقت الأهواء والشيع

(تنبيه) قال السهيلى فى الروض الأنف: فى رسالة المهلهل ابن المزرع، قال على بن الأصفر، وكان من رواة أبى نواس: لما عمل أبو نواس هذه القصيدة وأتى بهذا البيت وقع لى أنه كلام مستهجن، إذ حق رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يضاف إليه ولا يضاف الى أحد، فقلت له، أعرفت هذا البيت؟ فقال: ما يعيبه إلا جاهل بكلام العرب إنما أردت أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من القبيل الذى هذا الممدوح منه أما سمعت قول حسان أكرم إلخ.

وليس هذا بعيب؛ لأنها إضافة تشريف لا تعريف بخلاف قول أبى نواس؛ لأنه ذكر واحدًا وأضاف إليه انتهى. وقد عرفت ما فيه.

وقيل: إنه أراد بنفره منافرته وفخره، وروى ذو نفرة والأولى ترك مثله **(فالحكم فى)** مثل **(هذا)** أى فى قائله وفى نسخة فى أمثال هذا **(مابسطناه)**، أى بيناه مفصلاً مبسوطًا **(فى طريق الفتيا)**، أى يفتى فيه بما يستحقه على قدر شناعة قوله قال فى المصباح: الفتوى بالواو بفتح الفاء وبالياء فتضم اسم من أفتى إذا بين الحكم واستفتيته سألته بيانه وهو من الفتى وهو الشاب القوى، وجمعه فتاوى بكسر الواو على الأصل ويجوز فتحها للتخفيف.

(وعلى هذا المنهج)، أى المسلك الذى سلكه **(جاءت فتيا إمام مذهبنا مالك بن أنس)** **(من رواية ابن أبى مريم)** هو أبوبكر سعيد بن الحكم بن أبى مريم الجمحى البصرى الحافظ الثقة، روى عنه البخارى والستة توفى سنة أربع وعشرين ومائتين **(عنه)**، أى رواية عن مالك **(فى رجل عير)**، أى عاب ونسب للعار **(رجلاً بالفقر؛ فقال)**: الرجل

---

(١) البيت من البسيط، وهو فى ديوان حسان بن ثابت (ص١٥٣).

(تعيرنى بالفقر) بحذف الهمزة، أى أتعيرنى بهذا **(وقد رعى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، الغنم)** بأجرة لاحتياجه؛ **(فقال مالك)**، رحمه الله تعالى، مجيبا لمن سأله **(قد عرض)**، أى نقص تعريضا **(بذكر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى غير موضوعه)** لتمثيله له بحال عير بها **(أرى أن يؤدب)**، أى يعزر لينزجر غيره عن مثله.

(قال) مالك **(ولا ينبغى لأهل الذنوب)**، أى من صدر منهم ذنب **(إذا عوقبوا)** على ذنوبهم بمقدارها **(أن يقولوا)** اعتذارًا عما صدر منهم **(قد أخطأت الأنبياء قبلنا)** فشبه نفسه بالأنبياء ونسب الأنبياء لصدور الذنوب منهم، وكلاهما مما لا يليق التكلم به، وقد يؤدى إلى القتل؛ لأنه ردة وهم معصومون من الذنوب كبائرها وصغائرها كما مر.

وما نسب إليهم حسنات لغيرهم ولو سلم فهو مغفور، فكيف يجعل ذنوب غيرهم كذنوبهم فمثله لا يصدر ممن يعرف مقامهم **(وقال عمر بن عبد العزيز)** الخليفة الأموى العادل الذى تقدمت ترجمته **(لرجل انظر لى كاتبًا يكون أبوه عربيا)** انظر هنا بمعنى ايتنى به، وعلى هذا جرى الاستعمال فهو مجاز أو كناية، ومراده كاتب يكتب فى الديوان وشرط أن يكون عربيًا ليكتب كتابة صحيحة ويعرف أحوال الناس.

(فقال له كاتب له: قد كان أبو النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كافرًا) إنما أجابه بهذا وهو لم يقل له مسلمًا؛ لأن الكتبة فى العصر الأول كانوا من الروم والعجم نصارى وصابئة لمعرفتهم بالحساب؛ لأنهم أهل كتاب **(فقال)** عمر **(له)**، أى للكاتب الذى أجابه بهذا **(جعلت هذا)** الذى قلته **(مثلاً)**، أى جعلت كفر أبى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، مثلاً وشاهدًا لك على أنه لا يشترط فى الكاتب العربية والإسلام، وتحقير أبى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولو سلم كفره فما فيه تعريض بأذية النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فسقط ماقيل أنه حماقة وجهالة، إذ لا مناسبة بين عربية الكاتب وكفر أبى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فعزله)** من كتابته **(وقال: لا تكتب لى أبدًا)** وهذا تأديب له وتعزير حتى ينزجر أمثاله عن أمثال هذه المقالة.

وفى ذلك إشارة إلى إسلام أبويه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال ابن حجر: وهذا هو الحق، بل فى حديث صححه غير واحد من الحفاظ ولم يلتفتوا لمن طعن فيه أن الله تعالى أحياهما له فأمنا به خصوصية لهما وكرامة له، صلى الله تعالى عليه وسلم.

فقول ابن دحية يرده القرآن والإجماع ليس فى محله؛ لأن ذلك ممكن شرعًا وعقلاً على جهة الكرامة والخصوصية، فلا يرده قرآن ولا إجماع، وكون الإيمان به لا ينفع بعد الموت محله فى غير الخصوصية والكرامة، وما أحسن قول بعض المتوقفين فى هذه المسألة

الحذر الحذر من ذكرهما بنقص، فإن ذلك قد يؤذيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لحديث الطبرانى: «لاتؤذوا الأحياء بسب الأموات». انتهى.

وحديث مسلم، قال رجل: يا رسول الله أين أبى؟ قال: فى النار؛ فلما مضى وولى دعاه؛ فقال: إن أبى وأباك فى النار. يتعين تأويله وأظهر تأويله له عندى أنه أراد بأبيه عمه أبا طالب؛ لأن العرب تسمى العم أبا فإنه عمه الذى كفله بعد موت جده عبد المطلب وأنه ﷺ إنما قصد بذلك أن يطيب خاطر ذلك الرجل خشية أن يرتد لو قرع سمعه أولا أن أباه فى النار، بدليل أنه قال له ذلك بعد أن ولى أو كان ذلك قبل أن ينزل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

كما وقع له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه سئل عن أطفال المشركين؛ فقال: «هم مع آبائهم»[١]، ثم سئل عنهم فذكر أنهم فى الجنة. انتهى ملخصًا.

(وقد كره سحنون) تقدم أنه فقيه مذهب الإمام مالك عبد السلام التنوخى الإمام الزاهد المحدث تلميذ ابن وهب وأشهب، وأنه توفى لتسع خلون من رجب سنة أربعين ومائتين وهو ابن ثمان وثمانين سنة **(أن يصلى على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، عند التعجب)** من أمر مستحسن تعجب منه كما هو عادة العوام **(إلا على طريق)** أن يقصد بصلاته عليه **(الثواب والاحتساب)**، أى أن يقوله امتثالا لأمر الله بقوله تعالى: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٥٦]، فيفعله **(توقيرًا له)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وتعظيمًا كما أمرنا الله تعالى)** لا لقصد التعجب ولا لدفع العين عما تعجب منه، فإنه ليس محلا لذلك وقد تقدم الكلام عليه وأن فيه كلامًا للفقهاء.

(وسئل القابسى) تقدم بيانه **(عن رجل قال لرجل قبيح الوجه كأنه)**، أى كأن وجهه **(وجه نكير)**، أى نكير ومنكر الملكان المعروفان اللذان يسئلان الميت فى قبره حين يدفن عن اعتقاده.

(و) سئل عن رجل قال **(لرجل عبوس)** تقدم أن العبوس أن يقطب الرجل وجهه ولا يبدى بشاشته **(كأنه)**، أى كأن وجهه **(وجه مالك الغضبان)** مالك اسم مالك خازن النار، ويوصف بالغضب؛ لأنه موكل بمن غضب الله تعالى عليه، فيتلقاهم بصورة الغضب **(فقال)** القابسى فى جوابه **(أى: شىء أراد)** القائل **(بهذا)** الكلام الذى قاله.

(ونكير) اسم **(أحد فتانى القبر وهما ملكان)** خلقهما الله تعالى، للسؤال فالفتانان هما ملكا السؤال، سميا فتانين فى الحديث من الفتنة وأصل معناها الامتحان والاختبار؛

---

(١) أخرجه أحمد (٨٤/٦)، والطبرانى فى الكبير (١٠٣/٨)، وابن الجوزى فى العلل (٤٤٣/٢).

لأنهما يختبران ما فى قلب الميت من عقيدته وإيمانه **(فما الذى أراد)** القائل بكلامه **(أروع)**، أى خوف وفزع **(دخل عليه)**، أى وقع فى قلبه **(حين رآه)** لشدة قبحه **(من وجهه)** متعلق بدخل أو بروع، أى من رؤية وجهه.

(أم عاف النظر إليه) بعين مهملة وفاء، أى كرهه واستقذر منظره فكره النظر إليه **(لدمامة)** بدل مهملة وميمين بينهما ألف بوزن قباحه، ومعناها وهو المراد والذمامة بالمعجمة من الذم وذكر المعايب، وهو جائز هنا أيضًا يقال: رجل دميم وذميم بمعنى: قبيح ومذموم **(خلقه)** بفتح فسكون، أى خلقته **(فإن كان هذا)** المذكور من أنه عافه وكرهه **(فهو شديد)** فى القبح مما قبله **(لأنه جرى مجرى التحقير والتهوير)** بمثناة فوقية وهاء واو ومثناة تحتية ساكنة وراء مهملة الوقوع فى أمر بغير مبالاة به، وفى نسخة بنون بدال الراء وهى غير مناسبة؛ لأنه حينئذ يكون من الإهانة لكن فى ورود التهوير بهذا المعنى نظر فهو مجاز.

وفى نسخة التوهين بتقديم الواو على الهاء ومعناه التضعيف من الوهن وعلى كل حال فيه ركاكة لا تخفى **(فهو أشد عقوبة)** ممن أراد أنه حصل له فزع منه لما فيه من تحقير ملك من الملائكة **(وليس فيه تصريح بالسب للملك)** وإنما شبهه به فى أنه كرهه ولا شك أن كل أحد يكره الموت ومامعه بالطبع فى أكثر العوام وليس فى مثل هذه الكراهة تحقير.

(وإنما السب واقع على) الرجل **(المخاطب)** بهذا الكلام لا على الملك، وليس فى قوله كان وجهه مواجهة بالخطاب فأما أن يكون قال له كأنه وجهك فحكى القابسى معناه أو المصنف تجوز به عن الكلام الملقى فى حق غيره مطلقا ممن يصلح للخطاب.

(وفى الأدب)، أى التأديب بمعنى التعزير **(بالسوط)**، أى الضرب به **(والسجن)** بفتح السين وكسرها كما مر، أى الحبس **(نكال السفهاء)** فهو على أنواع مفوضة للحاكم والنكال العقوبة، والسفهاء جمع سفيه من السفه وهو الخفة ممن عقله سخيف.

(قال) القابسى: **(وأما ذاكر مالك خازن النار)** بما تقدم وذاكر اسم فاعل من الذكر بمعنى قائل ما تقدم من تشبيه المعبس وجهه به **(فقد جفا)**، أى غلظ طبعه وقل أدبه أو هو من جفأت القدر إذا رمت زبدها ووسخها، أى رمى الملك **(الذى ذكره)** بما قاله من أن وجهه كوجه مالك الغضبان **(عندما أنكر حاله من عبوس)** الرجل **(الآخر)** المقول له مامر.

(إلا أن يكون) الرجل **(المعبس له يد)**، أى قدرة وتسلط بالقهر كالسلطان **(فيرهب)**

بالبناء للفاعل أو المفعول (**بعبسته**) وفى نسخة بعبوسه، أى يخاف منه إذا عبس (**فيشبهه**) القائل كأن وجهه وفى نسخة فشبهه (**على طريق الذم لهذا**) الذى له يد أو لهذا الأمر؛ لأن شر الناس من يخاف الناس شره.

(**فى الناس فعله ولزومه فى ظلمه**) وفى نسخة فى صفته والظاهر أنها هى الصواب؛ لأن الظلم لا يناسب قوله أنه أثنى عليه (**صفة مالك الملك**) خازن النار (**المطيع لربه فى فعله**)؛ لأن الملائكة كلهم لا يعصون الله تعالى، ولا يفعلون إلا ما يؤمرون.

(**فيقول**): إذا عصاه أحد (**كأنه لله يغضب غضب مالك**)، أى كغضب مالك فإنه لا يغضب إلا على من غضب الله عليه وأراد عقابه (**فيكون**) إذا قصد هذا ما قاله (**أخف**) وأقل وزرًا من غيره، ولما استشعر أنه إذا أراد أن يغضب لله لا قبح فيه أصلا أجاب بقوله (**وما كان ينبغى له التعرض لمثل هذا**) وفى نسخة التعريض لمثل هذا والذى ينبغى ترك التشبيه بالملائكة لآحاد الناس.

(**ولو كان هذا**) القائل (**أثنى على العبوس**) بفتح العين صيغة مبالغة كجهول بعبسه (**واحتج بصفة مالك**) وهى عبوسه (**كان**) قوله هذا (**أشد**) مما قبله (**ويعاقب عليه المعاقبة الشديدة**) لجرمه الشديد (**وليس فى هذا**) الكلام مطلقا أو فيما أثنى به احتجاجات بصفة الملك (**ذم للملك**) وقصده ذم من خاطبه لا غيره (**ولو قصد ذمه**)، أى ذم الملك (**لقتل**) هذا مذهب مالك وعند غيره يؤدب ويستتاب فإن تاب وإلا قتل ولا يخفى ما فى كلام المصنف، رحمه الله تعالى، هنا وأنه كلام مشوش محتاج للتنقيح والتهذيب بأن يقول.

وعن القابسى فيمن قال لقبيح كأنه وجه نكير، ولعبوس كأنه وجه مالك الغضبان، أنه لا يكفر إذ لا تصريح فيه بسب الملك وإنما السب فيه للمخاطب، بل يعاقب العقاب الشديد فإن قصد ذم الملك قتل وما ذكره ظاهر، ويؤخذ من كلامه هنا أن ذم بعض الملائكة وتنقيصه كذم الأنبياء وتنقيصهم وهو ظاهر وصرح به آخر الكتاب.

(**وقال أبو الحسن**) القابسى (**أيضًا**) كما قال فى المسألة المذكورة (**فى شاب معروف بالخير**)، أى الصلاح والدين وصفه بهذا بيانًا للواقع وأنه لم يقصد تحقير النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بقوله الآتى (**قال لرجل شيئًا**) يتعلق بالعلم والدين (**فقال له الرجل اسكت**) زجرًا له عن قوله فيما لا يعلمه إلا العلماء (**فإنك أمى**) بضم الهمزة وقد تكسر وتقدم أنه هو الذى لا يكتب ولا يقرأ الخط نسبة إلى أمة العرب لاشتهارهم بذلك أو إلى الأم كأنه خرج من بطن أمه.

(فقال الشاب: أليس كان النبى ﷺ أميًا) وهو أعلم الناس والاستفهام فيه تقريرى **(فشنع)** ببناء المعلوم وفاعله ضمير الرجل أو الناس على التنازع أو المجهول، أى قبح وذم **(عليه مقاله)** أنه أمى **(وكفره الناس)** بمقاله هذا جهلاً منهم بما أطلقوه **(وأشفق الشاب)**، أى خاف على نفسه ودينه؛ لأنه كان صالحًا دينًا **(مما قاله وأظهر الندم عليه)**، أى على صدور هذا المقال منه خوفًا مما يترتب عليه فى الدنيا والآخرة **(فقال أبو الحسن)** القابسى لما سئل عنه **(أما إطلاق)** القول بـ**(الكفر عليه فخطأ)**؛ لأن الله وصفه ﷺ به فى قوله ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ [الأعراف:١٥٧] الآية، وهو لم يقصد بذلك ذمًا ولا تنقيصًا.

(لكنه مخطئ فى استشهاده)، أى إتيانه بشاهد، أى نظير لحاله **(بصفة النبى ﷺ)**، وهو كونه أميا مثله فى صفته وبينهما من الفرق ما بين السماء والأرض، فلذا قال: **(وكون النبى ﷺ أميا آية له)**، أى معجزة باهرة وفضيلة ظاهرة **(وكون هذا)** الشاب المذكور **(أميا نقيصة فيه)**، أى صفة نقيصة بجهله **(وجهالة)** لعدم علمه وقراءته ويأتى بيانه مبسوطًا، ولو كان كاملاً فاضلاً قرأ وكتب فكيف شبه صفته الناقصة بصفة النبى ﷺ الكاملة **(ومن جهالته)** الظاهرة استشهاده وتمثيله و**(احتجاجه)** على حسن أميته وعدم منافاتها للخوض فى العلوم **(بصفة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** وكيف تستوى أميته بأمية غيره، وقد أتى بعلوم لا تحصى وأخبر عما سلف من أحوال الأمم وعما هو آت، وهو فى أمة أمية ولم يخرج من بينهم ولا تعلم من أحد، ولذا كان ذلك من أعظم معجزاته ﷺ كما قال البوصيرى[(١)]:

كفاك بالعلم فى الأمى معجزة   فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

وتقدم ما فيه فاستشهاده بذلك لجهله فهو معذور لا يكفر بقوله هذا **(لكنه إذا استغفر)** الله لعلمه بأنه مذنب **(وتاب)** بندمه وعزمه على أن [لا] يعود لمثله **(واعترف)** بذنبه وأنه مخطئ **(ولجأ)**، أى استند ورجع **(إلى الله)** هاربا وفارًا للحق **(فيترك)** ولا يؤاخذ ولا يعاقب ويزجر **(لأن قوله)** هذا أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان أميا من غير قصد تنقيص **(لاينتهى)** ويصل **(إلى حد)** العقوبة بـ**(القتل وما طريقه الأدب)**، أى ما يستحق فاعله التأديب دون القتل.

(فطوع)، أى يتطوع **(فاعله بالندم عليه)** مبادرًا معترفًا بخطأه والتوبة والندامة **(يوجب الكف عنه)** وتركه من غير معاقبة له **(ونزلت)**، أى وقعت والنوازل الحوادث التى تطرأ

---

(١) تقدم الاستشهاد به.

(أيضًا) كهذه **(مسألة استفتى فيها بعض قضاة الأندلس شيخنا القاضى أبا محمد ابن منصور)** الذى تقدمت ترجمته **(فى رجل تنقصه آخر بشىء)**، أى عابه وذمه به.

(فقال له: إنما تريد نقصى بذلك) الذى قلته **(وأنا بشر وجميع البشر يلحقهم النقص حتى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** فإنه بشر يلحقه ما يلحقهم والكمال المنزه عن النقص إنما هو لله، عز وجل، **(فأفتاه)**، أى أفتى فى هذا القائل **(بإطالة)** حبسه فى **(سجنه)** زجرًا له ولأمثاله **(وإيجاع أدبه)** إضافة الإيجاع وهو الإيلام بضربه تعزيزًا له إلى أدبه بمعنى تأديبه من إضافة المصدر لفاعله، أو هو من إضافة الخاص للعام **(إذ لم يقصد)** بما قاله **(السب)** لكنه أخطأ فى استشهاده كما مر، **(وكان بعض فقهاء الأندلس أفتى بقتله)** فخالفه ورد فتواه.

* * *

(فصل الوجه السادس)

من وجوه ذكر ما فيه تنقيص له ﷺ **(أن يقول القائل ذلك حاكيا)** له **(عن غيره وآثرًا)** بمد الهمزة ومثلثة مكسورة وراء مهملة، أى ناقلاً له **(عن سواه)** من قولهم آثرت الحديث إذا رويته ونقلته **(فهذا)** الحاكى الناقل **(ينظر فى صورة حكايته)** الظاهرة من سياقه **(وقرينة مقالته)** القائمة على قصده عند نقله **(ويختلف الحكم)** الذى يحكم به **(باختلاف ذلك)** باختلاف الصور والقرائن **(على أربعة وجوه)** من الأحكام **(الوجوب والندب والكراهة والتحريم)** وهو بدل مما قبله بدل بعض أو كل، ويجوز رفعه ونصبه وهذا إجمال فصله بقوله: **(فإن كان)** هذا الناقل **(أخبر به على وجه الشهادة)** إثباتًا أو نفيًا **(والتعريف به)** حال **(قائله)** وصفته **(والإنكار)** عليه فيما قاله **(والإعلام بقوله)** ليحكم عليه بما يقتضيه **(والتنفير منه)** حتى يجتنب ويطرد **(والتجريح له)** بالطعن فيه وبيان عيوبه، وروى التحريج بتقديم الحاء المهملة على الجيم أى التضييق والتأثيم **(فهذا)**، أى النقل على هذه الوجوه المذكورة **(مما ينبغى امتثاله)**، أى الانقياد له وقبول نقله **(ويحمد فاعله)**، أى يعد ممدوحًا محمودًا فى فعله.

(وكذلك) حكمه **(إن حكاه فى كتاب)** ألفه أو أرسله لغيره **(أو)** حكاه **(فى مجلس)** بمحضر من الناس **(على جهة الرد له)** ببيان أنه مخطئ فيه قائل لما لا ينبغى **(والنقض على قائله)** بضاد معجمة، أى الإبطال لمقاله بالحجج.

(أو) ذكره **(للفتيا بما يلزمه)** بيانه شرعًا **(وهذا)** المذكور للرد والنقض والإفتاء بما يلزمه بيانه **(منه ما يجب)** ذكره وبيان حكمه **(ومنه ما يستحب)** بيانه **(بحسب)** بفتح السين، أى على قدر **(حالات الحاكى لذلك)** فيما يحكيه **(والمحكى عنه)** بحسب ما يعلم

من حاله وقرائن مقاله، وهذا إلى هنا إجمال للحالات الأربعة وهى معلومة منه، وما قيل من أنه لا يعلم منه الوجوب صريحًا، وقوله حكاه فى كتاب أو مجلس لا يساعده كلام واه غنى عن الرد ثم فصله بقوله: **(فإن كان القائل)** ممن حكاه أو حكى عنه وفسره بعضهم بالحاكى وآخر بالمحكى عنه والأولى تعميمه لهما كما يقتضيه ما بعده.

(لذلك) القول المذكور **(ممن تصدى)**، أى انتصب وتقيد **(لأن يؤخذ عنه العلم)**؛ لأنه من أهله الذين يتلقى عنهم لكونه شيخًا أو مفتيًا **(أو رواية الحديث)** عنه لأخذه له عن أهله **(أو يقطع بحكمه)**؛ لأنه حاكم مفوض إليه الحكومة **(أو شهادته)** لشهرة عدالته.

(أو فتياه فى الحقوق) لفقاهته وتصدره للإفتاء بحق **(وجب على سامعه)** إذا سمع مقاله حكما أو إفتاء **(الإشادة بما سمعه منه)** برفع ذكره، والإشادة بكسر الهمزة وشين معجمة ودال مهملة، أى الاشتهار بذكره وتسبيحه بين الناس، وأصل الإشادة رفع البناء ثم استعير لرفع الصوت، وتوسع فيه فأريد به الشهرة مطلقا فسقط ما قيل من أنه ينبغى أن يقول الإعلام الذى هو أعم من الإشادة **(وتنفير الناس عنه)** تحذيرًا منه **(والشهادة عليه بما قاله)** ليجتنب أويجرى عليه أحكامه.

(ووجب على من بلغه ذلك) الذى سمعه منه **(من أئمة المسلمين إنكاره وبيان كفره)** بسبب مقاله **(وفساد قوله)** لبطلانه وينقل هذا ويشاع **(لقطع ضرره عن المسلمين)** بزجره وغيره مما يستحقه **(وقيامًا بحق سيد المرسلين)** للانتصار له والانتقام ممن قصر فى حقه.

(وكذلك) يجب ما ذكر **(إن كان)** قائله ومبلغه **(ممن يعظ العامة)** ويذكرهم بنصحه لهم **(أو يؤدب الصبيان)** بتعليمهم القرآن ونحوه **(فإن من هذه)** الخصلة التى تتعرض بها **(سريرته)**، أى مما يضمره فى نفسه فيرشح بها كلماته، وكل إناء بالذى فيه يرشح **(لايؤمن على إلقاء)** مثل **(ذلك فى قلوبهم)**، أى قلوب من ذكر من العامة أو الصبيان الذين يقبلون ما يلقى إليهم لعدم معرفتهم ونقد بصيرتهم، فإذا كان من صدر عنه هذا حاله.

(فيتأكد من هؤلاء الإيجاب)، أى إيجاب إنكاره وإشاعة فساده **(لحق النبى ﷺ)** على كل أحد لاسيما الحكام **(ولحق شريعته)** التى يجب الذب عنها وحمايتها ما أمكن **(وإن لم يكن القائل بهذه السبيل)**، أى لم يكن ممن يؤخذ عنه العلم والحديث والفتوى **(فالقيام بحق النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، واجب)** ذبًا عن مقام النبوة وعظيم منزلتها **(وحماية عرضه)** الشريف **(متعين)** لا يتهاون فيه مسلم **(ونصرته)** ضمنه معنى حمايته، فلذا قال: **(عن الأذى)**، أى مايؤذيه **(حيًا وميتًا)**، أى فى حال حياته وموته **(مستحق)** بصيغة

المفعول، أى واجب (**على كل مؤمن**) فهو فرض على كل من بلغه خلافه.

(**لكن إذا قام بهذا**) المذكور من الحماية والذب عنه (**من ظهر به الحق**) بقدرته على إجراء حكمه فيه (**وفصلت به القضية**)، أى وقع له حكم فاصل بين الحق والباطل بقوته (**وبان به الأمر**)، أى ظهر ما يستحقه وأقيم عليه ما يستوجبه (**سقط عن الباقى**)، أى عن بقية الناس (**الفرض**) الذى وجب عليهم؛ لأنه فرض كفاية لا فرض عين (**وبقى الاستحباب فى تكثير الشهادة عليه**) على من صدر عنه مثله مما لا يليق (**وعضد**) بسكون الضاد المعجمة من عضده إذا قواه ونصره.

(**التحذير منه**)، أى من قائله وقوله، وهذا أحد الأقوال فى فرض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن غيره وسقط عنه الوجوب، وهل يبقى استحبابه وندبه أو إباحته وجوازه؟ ففيه خلاف، وهذا مبنى على أنه هل يجب على الجميع ابتداء أو على بعض غير معين والكلام فيه مقرر فى كتب أصول الفقه وليس هذا محل تفصيله (**وقد أجمع السلف**) المتقدمون من العلماء المحدثين (**على بيان حال المتهم**) بالكذب (**فى الحديث**) النبوى من رواته (**فكيف بمثل هذا**) المتهم بالغض عن مقام النبوة وتنقيصها فالاعتناء بذاته الشريفة ﷺ ألزم منه بحديثه.

(**وقد سئل**) الشيخ (**أبو محمد بن أبى زيد**) تقدمت ترجمته (**عن الشاهد**)، أى من تقبل شهادته (**يسمع مثل هذا**) الكلام الذى يستحق قائله ما مر (**فى حق الله تعالى أيسعه**)، أى أيحل له ويجوز فهو مجاز بتشبيه، قوله: (**أن لا يؤدى شهادته**) بمحل ذا سعة، أى أن لا يقيم الشاهد عليه عند حاكم يقضى عليه بما يستحقه (**قال**) ابن أبى زيد (**إن رجا**)، أى ظن ظنًا راجحًا أو علم (**نفاذ الحكم**)، أى أن يمضى الحاكم (**بشهادته**) عليه (**فليشهد**)، أى يلزمه الشهادة بما سمعه.

(**وكذلك**) يلزمه الشهادة (**إن علم أن الحاكم**) الذى تقام عنده الشهادة (**لايرى القتل بما شهد به**)، أى مذهبه أن القائل لا يستحق القتل عنده (**ويرى**) أنه إنما يستحق (**الاستتابة**)، أى طلب التوبة منه (**والأدب**)، أى التعزير دون القتل، وقوله: (**فليشهد ويلزمه ذلك**) تأكيد لما فهم من قوله كذلك وهذا مذهب الإمام مالك، ومذهب غيره أنه يلزمه الشهادة مطلقا وإن لم يكن يدعى عليه؛ لأنه لا يلزم طلب الشهادة فى حقوق الله، وما ورد من الذم فى حق من شهد ولم يستشهد محمول على حقوق العباد.

(**وأما الإباحة لحكاية قوله**) الذى فيه سب وتحقير للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أى جوازها وحلها (**لغير هذين المقصدين**) من الإنكار والتنفير عنه، والتجريح والنقض

والإفتاء كما تقدم (**فلا أرى**) وأعتقد (**لها مدخلا فى الباب**) الذى يجب به صيانة مقام النبوة (**فليس التفكه**)، أى التحدث على طريق التلهى به وإجراء المصاحبة مستعار من تناول الفاكهة، ولا يأباه وروده بمعنى التعجب والتندم وإن سلم عدم ثبوته بهذا المعنى فلا وجه لما قيل إنه ينبغى أن يقول الفكاهة بالضم لا بالفتح كما فى المصباح (**بعرض النبى ﷺ**) والعرض ما ينبغى صيانته من كل أحد.

(**والتمضمض**)، أى إجراؤه على فمه ولسانه مستعار من تمضمض بالماء إذا غسل به داخل فمه، فشبه الكلام بالماء وإدارته فى فمه بالمضمضة وهو أحسن من قول العرب تمضمضت عنه بالنعاس كما فى الأساس (**بسوء ذكره**)، أى بما فيه سوء (**لأحد**) متعلق بمقدر، أى جائزًا لأحد؛ لأنه يجب تعظيمه واحترام مقامه حماه الله عن كل سوء (**لا ذاكرًا**) له بلفظه (**ولا آثرًا**)، أى ناقلاً وراويا له عن غيره (**لغير غرض شرعى**) كالرد والتنفير ونحوه مما تقدم (**بمباح**) وجائز وهو متعلق بذاكر، والخبر لأحد أو هو خبر والباء زائدة لتأكيد النفى وهذا أولى (**وأما**) ذكره (**للأغراض المتقدمة**) من الشهادة عليه عند الحاكم والإنكار ونحوه مما تقدم بيانه.

(**فمتردد**)، أى دائر ومنقسم (**بين**) أمرين (**الإيجاب**)، أى كونه واجبًا عليه (**والاستحباب**)، أى كونه مستحبا لعدم قصد قائله أو قيام غيره به، ودخل فيه الكراهة؛ لأنها تعلم من الإباحة بالطريق الأولى، فلا يتوهم أنه لم يستوف الأقسام الأربعة التى ذكرها، ثم استدل على ما ذكره؛ فقال: (**وقد حكى الله تعالى مقالات المفترين**) الذين كذبوا (**عليه وعلى رسله فى كتابه**) الكريم فى مواطن كثيرة (**على وجه الإنكار لقولهم**) الذى اختلقوه.

(**و**) على وجه (**التحذير من كفرهم**) منه ومن مثله (**و**) على وجه (**الوعيد عليه**) بعقابهم فى الدارين (**و**) على وجه (**الرد عليهم**) بإبطاله ونقضه (**بما تلاه**) أى ذكره (**سبحانه**) تنزيها ولا يخفى موقعه هنا (**علينا فى محكم كتابه**)، أى كتابه المحكم الذى لا يقبل التغيير والتحريف، وذكره هنا؛ لأنه لا يقبل النسخ كالقصص (**وكذلك**)، أى كما وقع فى القرآن (**وقع من أمثاله**) وفى نسخة فى أمثاله (**فى أحاديث النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، الصحيحة**) إسنادًا ومتنا (**على الوجوه المتقدمة**) من الإنكار والتحذير ونحوه أو الوجوب وأخواته.

(**وأجمع السلف والخلف من أئمة الهدى**) الذين هدوا واهتدوا (**على حكايات مقالات الكفرة والملحدين**) المائلين عن الحق من الزنادقة والمنافقين (**فى كتبهم**)، أى كتب الأئمة التى صنفوها (**ومجالسهم**)، أى مجالس وعظهم ومحادثتهم (**ليبينوها**) حتى يعلموا ما فيها

من الفساد فيجتنبوها **(وينقضوا)**، أى يبطلوا **(شبهها)** جمع شبهة ويردوها **(عليهم وإن كان ورد)**، أى نقل ما يخالفه **(ل)** لإمام **(أحمد بن حنبل أيضًا)**، أى كما نقل عن غيره **(إنكار لبعض هذا)**، أى إنكار حكاية هذا المذكور عن الكفر وأمثالهم مطلقًا مما أجازه غيره **(على الحارث بن أسد)** وهو المعروف بالمحاسبى صاحب التآليف المشهورة وقد قدمنا ترجمته.

(فقد صنع) الإمام **(أحمد مثله)** أى ذكر مثل ما صنع المحاسبى من ذكر مقالات هؤلاء فى كتاب الرعاية له **(فى رده)**، أى الإمام أحمد **(على الجهمية)** وهو الجهم بن صفوان وأصحابه من المبتدعة وأصحاب المذاهب الباطلة والعقائد الفاسدة، وجهم هذا هلك فى آخر عصر التابعين.

قال الذهبى فى الميزان: ما علمته روى شيئًا لكنه زرع شرًا عظيمًا، وجهم يلقب بابى محرز وهو سمرقندى وكان جبريًا يرى أن الإنسان لا يقدر على شىء ولا استطاعة له ولا اختيار، وأفعاله يخلقها فيه وتنسب إليه مجازًا ويقول إن الجنة والنار يفنيان **(و)** على **(القائلين بالخلق)** وفى نسخة بأن القرآن مخلوق من المعتزلة وفى كثير من النسخ وبالمخلوق.

وذكر فيها التلمسانى احتمالات منها مخلوقية القرآن، ومنها إن يراد أن المخلوق قديم وهو قول الفلاسفة، والظاهر أن المراد خلق أفعال العباد من غير كسب وهو الجبر **(و)** ما ذكره المحاسبى فى **(هذه الوجوه السائغة)** بسين مهملة وغين معجمة، أى الجائزة **(الحكاية عنها)** هو مرفوع فاعل السائغة كمقالات الكفرة، ولا وجه لإنكار هذه الحكاية **(فأما ذكرها)**، أى الأقوال السائغة **(على غير هذا)** الوجه من الرد والإبطال ونحوه مما مر **(من حكاية سبه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، ممن وقع منه **(والإزراء)**، أى الاحتقار **(بمنصبه العلى)** ومقامه الرفيع **(على وجه الحكايات)**، أى القصص التى يقصها عوام الناس **(والأسمار)**، أى التلهى بها جمع سمر، وهو الحديث ليلاً للمنادمة والمحاورة وأصله ظل القمر؛ لأنهم كانوا يتحدثون فيه، وجوز بعضهم كسر همزته مصدرًا؛ لأنه يقال: سمر وأسمر بمعنى.

(والطرف) بطاء وراء مهملتين وفاء بوزن غرف جمع طرفة وهى الأمر المستظرف، أى المستحسن المستجاد وهو حقيقة فى الكلام مجاز فى غيره، كالمال المستفاد مما لم يسبق مثله، وقيل: إنه بفتحتين بمعنى طلاقة اللسان وهو تحريف **(وأحاديث الناس)** جمع أحدوثة وهو ما تحدث على طريق ويكون جمع حديث على خلاف القياس والمناسب هنا الأول، **(ومقالاتهم فى الغث والسمين)**، أى فى المعتد به وغيره وأصل الغث بفتح

الغين المعجمة وتشديد المثلثة معناه المهزول ضد السمين، فاستعير لما ذكر، وفى كلام ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، غثك خير من سمين غيرك قاله لابنه حين قال له اذهب لابن عمك عبد الملك، وهو الكلام الجامع لاختلاف الدلالات حسنًا وقبحًا إذ الغث الهزيل كما مر.

(**ومضاحك المجان**) جمع ماجن وهو الذى يعتاد الهزل والسخرية من غير مبالاة وأصل المجون غلظ الوجه، ومضاحك جمع مضحكة وهو ما يضحك منه (**ونوادر السخفاء**) جمع نادرة أو نادر وهو الأمر المستغرب لقلة وقوعه، والسخفاء بخاء معجمة وفاء جمع سخيف وهو الرقيق العقل والدين (**والخوض فى قيل وقال**) وفسره، بقوله: (**وما لا يعنى**) بفتح أوله، أى ما لا يهم ويعتنى به، وفى الحديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، قال فى النهاية: فى الحديث نهى عن قيل، وقال، أى عما يتحدث به فيقال: قال كذا، وقيل: كذا منقولان من فعلين ماضيين، فيحكى على أنه فعل مع الضمير ويعرب فتدخل عليه الألف واللام، ومعناه كثرة الحديث بما لا يعنى، وقيل: قال الابتداء وقيل الجواب، والمعنى ما لا يعلم ولا حقيقة له، وقيل: هما مصدران يقال: قال قولا وقيل: بمعنى فهما اسمان وفيه كلام فى المطالع، فيجوز فتحهما وجرهما منونين والخوض أصله دخول الماء فاستعير بمعنى مطلق الدخول.

(**فكل هذا**) المحكى من السب وما بعده (**ممنوع**) غير جائز شرعًا (**وبعضه أشد فى المنع والعقوبة من بعض**) باعتبار شدة قباحته بتفاوت مقاماته (**فما كان من قائله الحاكى له**) عن غيره (**على غير قصد**) به للسب (**و**) غير (**معرفة بمقدار ما حكاه**) فى قباحته شدية وأشدية (**أولم تكن عادته**) حكايته وإنما وقع منه نادرًا (**أولم يكن الكلام**) الذى حكاه (**من البشاعة**) بباء موحدة، أى القبح (**حيث هو**) حيث هنا مضافة لجملة خبرها محذوف، أى هو كريه ومستقبح، وحيث ظرف مكان ولا يضاف إلى الجملة من ظروف المكان غيره، أى يكون فى مقام لا يقتضى بشاعته للعلم بأنه لم يقصد به إزراء وإن كان ظاهره كذلك.

(**ولم يظهر على حاكيه استحسانه**) وإنما ذكر لإنكاره والتنفير عنه (**واستصوابه**)، أى عده صوابا يعتقده فإذا كان كذلك (**زجر**) ووبخ حاكيه (**عن ذلك**)، أى حكايته له (**ونهى عن العود إليه**) وأن لا يتلفظ به مرة أخرى صونًا لمقام النبوة (**وإن قوم**) مشدد الواو مبنى للمجهول، أى أرشد للاستقامة فيما يحكيه (**ببعض الأدب**)، أى بتعزير خفيف يليق به غير الزجر (**فهو مستوجب**)، أى مستحق (**له**)، أى للتأديب لتكلمه بما لا يليق بمنصب النبوة وإن كان حاكيا عن غيره.

(وإن كان لفظه من البشاعة حيث هو كان الأدب أشد، وقد حكى أن رجلاً سأل مالكا) رحمه الله تعالى **(عمن يقول القرآن مخلوق)** وهو بمعنى الألفاظ المتلوة عند الأشعرى كذلك، لكنه يوهم أنه من الاختلاف بمعنى الافتراء **(فقال الإمام مالك)** قائله **(كافر فاقتلوه)** وقد نهى عن هذا السلف؛ لأن ظاهره أنه ليس بكلام الله ففيه تعريض بتكذيب النبى ﷺ والكلام فى هذه المسألة لشهرته غنى عن البيان، ويأتى الكلام عليه أيضًا فى الباب الثالث عند ذكر النص لكلام مالك جازمًا به.

(فقال) ذلك القائل **(إنما حكيته عن غيرى)** وحاكى الكفر ليس بكافر **(فقال مالك إنما سمعناه منك)** فأنت متلبس بالحكاية لما لا يليق يحتمل أنك تظهر به سريرة لك **(وهذا)** المذكور **(من مالك، رحمه الله تعالى، على طريق الزجر والتغليظ)**، أى التشديد فى الإنكار عليه **(بدليل أنه لم ينفذ)** بالمعجمة **(قتله)**، أى لم يحكم به حكما قطعيًا، فإن المذهب أنه لا يقتل مثله وإنما يقتل من أنكر أمرًا معلوما من الدين بالضرورة، وما روى من حديث: «من قال القرآن مخلوق فهو كافر». لم يثبت مع أنه لو ثبت فهو مأول عندهم.

(وإن اتهم هذا الحاكى فيما حكاه بأنه اختلقه)، أى اخترعه و لم يقله غيره فيحكى عنه وهو يعتقده **(ونسبه إلى غيره)** بحكايته عنه خوفًا من المؤاخذة به **(أو كانت تلك عادة له)** بأن يكثر من ذكره ويزعم أنه حاك له **(أو ظهر)** حال نقله **(استحسانه لذلك)** وأنه لا محظور فيه **(أو كان مولعًا بمثله)** بفتح اللام اسم مفعول، الولع بالشىء الإكثار منه مع إظهار الميل له وأنه يحبه **(والاستخفاف له)**، أى عده هينًا عنده لا محذور فيه.

(أو التحفظ)، أى حفظه كثيرًا **(لمثله)** مما هو قبيح كريه **(أو طلبه)** ممن يعرفه حرصًا عليه **(و)** كثرة **(رواية أشعار هجوه، صلى الله تعالى عليه وسلم)** الذى هجاه به المشركون مما ذكره أهل السير **(وسبه)** المنقول عن المشركين **(فحكم هذا)** الحاكى **(حكم الساب)** من غير حكاية له **(نفسه)** لا حكم الحاكى وحكمه أنه **(يؤاخذ بقوله)** مما يستحقه الساب **(ولاتنفعه نسبته)** لقوله ما حكاه **(فيبادر بقتله)** كالساب، قال ابن حجر: وما ذكره من المبادرة بقتله، أى إن لم يتب.

(ويعجل إلى الهاوية)، أى يعجل بدخوله النار، والهاوية من أسماء جهنم، ويقال: هوت أمه فى الدعاء بالهلاك وقوله **(أمه)** فيها أقوال؛ فقيل: معناه مأواه؛ لأنها كالأم التى يأوى إليها أو رأسها؛ لأنها أم دماغه، وهمزته مضمومة وتكسر وهو نائب الفاعل مرفوع أو مجرور بدل من الهاوية **(وقد قال أبو عبيد القاسم بن سلام)** بتشديد اللام وقد تقدمت ترجمته **(من حفظ شطر بيت)**، أى نصفه **(مما هجى به النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فهو كفر)**، أى هجوه كفر؛ فالضمير راجع لما علم من هجى أو كفر بمعنى كافر

مبالغة، وماذكره من الكفر ظاهر عند الرضى بذلك أو استحسانه لا إن قصد به غير ذلك قاله ابن حجر.

(**وقد ذكر بعض من ألف فى الإجماع**)، أى ألف مؤلفًا جمع فيه ما وقع عليه الإجماع من المجتهدين وأئمة الدين (**إجماع المسلمين على تحريم رواية ما هجى به النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكتابته وقراءته**) وحده أو مع غيره.

(**وتركه متى وجد**) معطوف على رواية، أى تحرم أن لا تمحى فيترك (**دون محو**)، أى إزالته مما كتب بمحو ونحوه كإحراقه، وما ذكر من الإجماع محله فى روايته لغير غرض مسوغ بذلك (**ورحم الله أسلافنا المتقين المتحرزين**)، أى الذين يحذرون مثله خوفًا منه فهم صائنون (**لدينهم**)، أى يحفظونه (**فقد أسقطوا من أحاديث المغازى والسير ما كان هذا سبيله**)، أى الأشعار التى وردت على هذا الطريق، أى متضمنة لهجوه كما فى سيرة ابن إسحاق وغيره من المتقدمين.

(**وتركوا روايته**) صونًا لألسنتهم من النطق بمثله وكتابته (**إلا أشياء ذكروها يسيرة**)، أى قليلة (**وغير مستبشعة**)، أى لا قبح فيها ولا سب ولا هضمًا لمقامه كما فى سيرة ابن هشام، وفى نسخة مستشنعة بنون بعد الشين المعجمة (**على نحو الوجوه الأول**)، أى ذكرت حتى ينفر ويحذر من قائلها كما تقدم أولا.

(**ليروا نقمة الله تعالى**) بضم الياء التحتية والراء، أى ليظهروا بما ذكر معها انتقام الله (**من قائلها**) كأصحاب القليب وغيرهم (**وأخذه**)، أى أخذ الله بهلاكه (**المفترى عليه**) كما فى هجائه (**بذنبه**) وهو هجوه وذكره بما لا يليق، قال بعض المتأخرين: فخرج من كلامه أن ذكر الأحوال المدخولة حكاية كانت أو استشهادًا غير ممتنع إذا اقترن بالذكر قصد جميل، كالتأسى والتحقيق فى استشهاد، والرد وتبيين ما لله، عز وجل، فى ذلك من الحكمة. انتهى.

(**وهذا أبو عبيد القاسم بن سلام**) جعله كالحاضر لشهرة كتبه فأشار إليه بقوله: (**قد تحرى**) بالحاء المهملة، أى تثبت (**فيما اضطر إلى الاستشهاد به**)، أى التجأ إليه للضرورة المقتضية لذكره لتوقف أمر عليه فيما يقصه (**من أهاجى**) جمع أهجية وهو ما هجى به من القصائد (**أشعار العرب فى كتبه**) التى ألفها والمراد غير هجو النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**فكنى عن اسم المهجو**) ليس المراد بالكناية هنا مصطلح أهل المعانى ولا التورية عنه كما توهم، بل عادتهم كما فى شعر المتنبى وغيره أنه يعبر عمن عتبه مثلاً بفعله الذى هو ميزانه التصريفى، وهو كثير فى الشعر يعرفه من له إلمام بالأدب فالكناية بمعناها

اللغوى وقد ذكره الرضى فى باب الضمائر فلهذا قال: (**بوزن اسمه**) كقول المتنبى:

كــأن فعلــة لـــم تمــلأ مواكبها ديــار بكـر ولـم تخلـع ولـم تهب

أراد بفعلة خولة (**استبراء لدينه**)، أى طلبًا؛ لأن يكــون دينه بريئًـا مـن تنقيـص أحـد والخوض فى عرضه بالتعيين (**وتحفظًا**)، أى حفظًا وصيانــةً لنفسـه (**من المشـاركة فـى ذم أحد**) ممن هجا (**بروايته**) لما هجا به (**أو نشره**)، أى إشاعة ذكـره وهـذا فـى حـق آحـاد الناس (**فكيف بما يتطرق إلى عرض سيد البشر**) المبرأ من دنـس النقـائص (**صلى الله تعـالى عليه وسلم**) وشرف وكرم، وهذا كما يقال: سبك من بلغك، والحاكى أحد الشاتمين.

* * *

(فصل الوجه السابع أن يذكر ما يجوز على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)

بما ليس فيه نقص له (**أو**) ما (**يختلف فى جوازه عليـه**) مـن بعـض العـوارض البشـرية كما قال (**وهو ما يطرأ**)، أى يحدث عروضه له (**من الأمور البشرية بـه ويمكـن إضافتـه**)، أى وصفه ونسبته (**إليه**) على وجه يليق به وفى نسخة إضافتها (**أو بذكر ما امتحن بـه**)، أى ابتلى به من أمور الدنيا زيادة لأجره (**وصبر فى ذات الله**)، أى لأجل الله ابتغاء لرضاه لا عجزًا منه ولا لغرض آخر، هذا معنى اللفظ والمراد به هنا وتحقيقه أن ذات فـى أصـل وضعه مؤنث ذو بمعنى صاحب، ثم توسع فصحـاء العـرب فيـه قديمًـا فاستعملوه بمعنى الجهة والجانب الذى يقصد ويتوجه إليه، صاحب القصد لتعلقه به ثم شاع فـى كـل مـا يتعلق بشىء ما.

ومنه الحديث الوارد فى حق إبراهيـم الخليـل المتقـدم: «لم يكـذب إبراهيـم إلا ثـلاث كذبات فى ذات الله»[١]، أى فيما يتعلق بالرب، جل وعـلا، ولأجلـه فجاءهـا مـن هنـا معنى التعليل. ومنه قول خبيب، رضى الله تعالى عنه، الذى رواه البخارى فــى صحيحـه وغيره، رحمهم الله تعالى:

ولسـت أبـالى حـين أقتـل مسـلمًا علـى أى شـق كـان لله مصرعــى
وذلـك فـى ذات الإلـه وإن يشــأ يبـارك علـى أوصـال شلو ممزعى

كذا حققه ابن السيد وغيره من أئمة اللغــة، وهـو المعـول عليـه، وأمـا استعماله فـى النفس والحقيقة فلم يصح عن العرب، ولذا قيل: إنه غير صحيح وإطلاقه على الله مع أنه مؤنث غير جائز، وقولهم فى النسبة إليه ذاتى لحن كقولهـم صفـاتى وهـو مـن اصطـلاح

(١) تقدم تخريجه.

المتكلمين وغلطهم وقول ثعلب فى قوله تعالى: ﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١]، معناه عند الكوفيين حالة بينكم، وقال الزجاج: حقيقة وصلكم لا دليل فيه لما استعمله المتكلمون فلا يصلح للرد على من خطأهم فيه كما توهم، وتفسيره به هنا غير مستقيم، ومن فسره بطاعة الله وانقياده لما يريده لم يبعد عن الصواب **(على شدته من مقاساة أعدائه)**، أى صبر على شدائد قاسية من أعداء الدين **(وأذاهم له)**، أى شدة أذيتهم له، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ومعرفة ابتداء حاله)** حين بعث ودعا الناس إلى الله **(وسيرته وما لقيه من بؤس زمانه)**، أى شدائده.

(ومر عليه من معاناة)، أى عناه وتعبه فى **(معيشته)** أو معاناته بمعنى ملابسته ومباشرته، والمعيشة ما يعاش به يعنى وصبره على لأوائها وضيقها **(كل ذلك)**، أى فيذكر هذا **(على طريق الرواية ومذاكرة العلم)** ليقتدى به ويعلم شرف نفسه **(ومعرفة ما)**، أى أمر **(صحت منه العصمة للأنبياء)** لحفظ الله لهم عن كل سوء وتبرئتهم من كل نقص، والعصمة تقدم أنها خلق ما يمنعه عن المعصية باختياره لا بإلجائه.

ولذا قال الماتريدى: إنها لا تزيل المحنة، أى الابتلاء فإنها مجرد لطف من الله كما فصل فى علم الكلام **(وما يجوز عليهم)** فيذكر لمعرفته لا للإزراء به عليهم **(فهذا)** المذكور هنا **(فمن خارج عن هذه الفنون الستة)** التى ذكرت قبله والفن بمعنى النوع **(إذ ليس فيه غمص ولا نقص)** تفسير للغمص بغين معجمة وميم ساكنة وصاد مهملة، أى شين وعيب **(ولا إزراء ولا استخفاف)**، أى إهانة وتحقير **(لا فى ظاهر اللفظ)** الذى قاله **(ولافى مقصد اللافظ)** به على الوجه الذى بينه.

(لكن يجب أن يكون الكلام فيه)، أى فى ذكر ما قاساه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الشدة والبؤس فى ابتداء أمره **(مع أهل العلم)** الراسخين فيه بحيث لا تزلزلهم الشبه **(وفهماء طلبة الدين)** بزنة علماء جمع فهم أوفهيم، أى شديد الفهم الذى يعرف حكمه ذلك وأنه لا ضير عليهم لعلمهم بمقاصد الدين القويم **(ممن يفهم مقاصده)** مما قصد منه من الحكم **(ويحقق فوائده)**، أى يتحققها؛ لأنه على بصيرة فى مقامات الأنبياء وجلالة قدرهم **(ويجنب)** ببناء المفعول، أى يبعده ويقصيه عن ذكر **(ذلك)** الذى من أحوال الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(من عساه لا يفهمه)** أقحم عسى لاستبعاد فهمه ومن موصولة **(أو يخشى به)**، أى بذكره له **(فتنته)** بوقوعه فيما لا يرضى فى حق رسل الله، عليهم السلام.

قال ابن حجر: وما اقتضاه كلامه من حرمة ذكر ما مر للعوام ظاهر إن ظن بقرينة حالهم تولد فتنة لهم منه، أو استخفاف أو نحوهما، وإلا فالذى ينبغى الكراهة ثم وضحه

بقوله: **(فقد كره بعض السلف تعليم النساء سورة يوسف لما انطوت)**، أى اشتملت **(عليه من تلك القصص)** جمع قصة، أى ما فيها من ذكر شغف النساء بالصور الجميلة ومراودتهن والتحيل منهن للمواصلة لمن يحب **(لضعف معرفتهن)** بالأمور وما يترتب عليها.

(ونقص عقولهن وإدراكهن)، أى وصولهن للمدركات، وقد ورد فى الحديث أنهن ناقصات عقل ودين، ثم بين جواز ذكره لغير العوام؛ فقال: **(فقد قال، صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى حديث صحيح سيأتى **(مخبرًا عن نفسه)** حال من فاعل قال **(باستئجاره)**، أى إيجاره نفسه لقريش فى صغره **(لرعاية الغنم)**، أى أخذها لتسرح فى المرعى **(فى ابتداء حاله)**، أى صغر سنه.

(وقال) ﷺ فى حديث رواه الشيخان **(مامن نبى إلا وقد رعى الغنم)** فذكر هذا لأصحابه العارفين بنور الإيمان الحكم فيما ذكر وعلمهم بمقدرة شرفه دليل لما قدمه، وبقية الحديث: فقال له أصحابه: أنت يا رسول الله؛ فقال: «نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة» وقراريط جمع قيراط جزء من الدراهم وقيل: اسم مكان وتقدم ما فى ذلك وتفصيله فى شروح الصحيحين.

(وأخبرنا الله) فى القرآن **(بذلك)**، أى رعى الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، للغنم **(عن موسى، عليه الصلاة والسلام)** فى رعية لشعيب، عليه الصلاة والسلام، فى قوله: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾ [القصص: ٢٧] الآية، وقصته مفصلة فى كتب التفسير **(وهذا لا غضاضة فيه)**، أى فيما ذكر من الرعاية للغنم وهى بمعجمات مفتوحات بمعنى النقص وهو مستعار من غض البصر وكفه مطرقا، فكنى به عما ذكر؛ لأنه إنما يكون مما يستحى منه صاحبه **(جملة واحدة)**، أى ليس فى شىء منه أصلا غضاضة **(لمن ذكره على وجهه)** من مذاكرة أهل العلم لما مر **(بخلاف من قصد به الغضاضة والتحقير)** هو عطف تفسير **(بل كانت)** رعاية الغنم **(عادة جميع العرب)** حتى أولاد أشرافهم وقد نشأ، صلى الله تعالى عليه وسلم، بينهم غير مخالف لأحوالهم المباحة تواضعا منه وتأسيا بأخلاقهم فيما لا يضير، ثم استشعر سؤالا مقدرًا، كأنه قيل: ما حكمة وقوع ذلك وتقدير الله له فأجاب **(نعم فى ذلك للأنبياء حكمة بالغة)** عظيمة قوية ظاهرة، فنعم جواب السؤال المقدر وكثيرًا ما تقحمه العرب لتأكيد الكلام فى ابتدائه كقول جحدر:

أليس الله يجمع أم عمرو   وإيانا وذاك بنا تدانى

نعم وأرى الهلال كما تراه ويعلوها النهار كما علانى

والبلوغ الوصوله إلى أقصى الأمر ومنتهاه، وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ﴾ [القلم:٣٩]، أى فى غاية التوكيد قاله الراغب، فكأنها بلغت غاية الصواب ومنتهاه **(وتدريج لله تعالى لهم إلى كرامته)**، أى إكرامهم بالنبوة والرسالة، وهو وما بعده تفصيل للحكمة ولذا عطفه كأنه يغايرها **(وتدريب)** بمهملتين، أى تعويد له فيكون له دربة وخبرة **(برعايتها لسياسية أممهم)**، أى ضبط أمورهم وحفظها **(من خليقته)** فيسوس الأمم كما يسوس الغنم **(بما سبق لهم)**، أى للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(من الكرامة)** باصطفائهم للرسالة **(فى الأزل ومتقدم العلم)**، أى علم الله تعالى، فإنه أعلم بمن يجتبيه كما فى الآية ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

قال ابن حجر، رحمه الله تعالى، فى شرح البخارى: حصل لهم، عليهم الصلاة والسلام، التمرن برعيها على ما يكلف به من القيام بأمر الأمة والشفقة عليهم، كما يصبر الراعى على سوق غنمه وجمعها إذا تفرقت، وحفظها عن سبع وذئب وسارق وسوقها لما فيه نفعها فى مرعاه، وتفرده بأمورها منقطعا عن الناس غير مشارك فى أمره ولا متوان فيقيس أمور الناس بعد الرسالة على هذا المنوال، ولذا قال: «كلكم راع ومسئول عن رعيته»(١) مع ما فيه تواضعه وكسبه فهذا مثل فعلى ضربه له.

(وكذلك)، أى مثل ما ذكر الله تعالى، عن موسى الرعاية من غير تنقيص فيه **(قد ذكر الله)** عز وجل، **(يتمه)**، أى كونه تربى بغير أبوين صغيرًا ومرت حكمته **(وعَيْلَتَهُ)**، أى كونه فى القيام على أهله وعائلته فى قلة معيشة قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى:٦] الآية.

(على طريق المنة عليه)، أى تعداد النعمة عليه لا تحقيرًا له، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(والتعريف)** للناس **(بكرامته له)**، أى بإكرامه وتشريفه، واليتيم فى أصله بمعنى الانفراد وهو فى الآدمى من لا أب له، وفى الحيوان من لا أم له، وفى الطير من لا أم ولا أب له كما مر، ووجهه ظاهر، ومر أن أب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، مات وهو جنين أو فى المهد وأن أمه ماتت وهو ابن ثمان وقيل: اليتيم بمعنى منفرد لا نظير له كالدرة اليتيمة، والعائل الذى لا مال له، يقال: عال يعيل عيلة إذا افتقر، قال أحيحة:

فما يدر الفقير متى غناه وما يدرى الغنى متى يعيل

أى: يفتقر والعيلة الفقر **(فذكر الذاكر لها)**، أى لما مر من أحوال نبينا وكذلك

---

(١) تقدم تخريجه.

الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، الجائزة عليهم **(على وجه)** وطريق **(تعريف حاله)** فى ابتداء أمره **(والخبر عن مبتدأه)** بالمذاكرة به للعلماء **(والتعجب من منح الله تعالى)** جمع منحة وهى العطية **(قبله)** بكسر وفتح، أى عليه وفى جانبه **(وعظيم منته عنده)** مما أفاضه عليه بعد ما كان عليه **(ليس فيه)** على هذا الوجه **(غضاضة)** نقص من مقامه وتنقيص له وإهانة لعدم قصده لذلك **(بل فيه دلالة على نبوته وصحة دعوته)** لما أكرمه الله به بعد عدمه وكسبه له **(إذ أظهره الله تعالى)** فقواه ونشر ذكره **(بعد هذا)** الذى كان عليه فى ابتداء أمره **(على صناديد العرب)** جمع صنديد وهو السيد الشريف فى قومه الجامع بين الشجاعة والحماسة والجود الغالب لمن عاداه وعارضه.

(ومن ناوأه)، أى عاداه وأصله الهمز من النوء وهو النهوض **(من أشرافهم شيئًا فشيئًا)**، أى بطريق التدريج حتى أظفره الله بهم وذللهم وأباد من أصر على عداوته وفتح ديارهم ومن عليهم كما وقع له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى فتح مكة وهو متعلق بقوله أظهره الله **(ونمى)**، أى زاد واشتهر **(أمره)**، أى شأن نبوته **(حتى قهرهم)** وأذلهم فانقادوا خاضعين له **(وتمكن)**، أى وصل **(من ملك مقاليدهم)** جمع مقلاد بكسر الميم وهو المفتاح، وملكها كناية عن حيازة ممالكهم والتصرف فيها كما يريد **(واستباحة ممالك كثير من الأمم غيرهم)**، أى غير العرب كالروم والعجم جمع مملكة وهى الأقاليم المملوكة، أى جعلها مباحة مفوضة له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولأصحابه جميع مافيها **(بإظهار الله تعالى له)** وإعلاء كلمته ودينه **(وتأييده)** وتقويته **(بنصره)** وما النصر إلا من عند الله تعالى، **(وبالمؤمنين)** الذين اتبعوه وجاهدوا فى سبيله **(وألف بين قلوبهم)** بمحبة بعضهم لبعض وزوال ماكان بينهم فى الجاهلية من التباغض والعصبية، ولا يقدر على تأليف القلوب غير الله كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٠٣].

(وإمداده)، أى إرساله مددًا يوم بدر وغيره **(بالملائكة المسومين)**، أى الذين لهم سمة وعلامة تميزهم عن غيرهم، وذلك كان بعمائم صفر مرخية بين أكتافهم وفى نواصى خيلهم وأذنابها صوفًا أبيض، وهو بكسر الواو وفتحها؛ لأن لهم سمة وقد سوموا خيولهم بما مر وغيره.

(ولو كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، ابن ملك) بكسر اللام، أى سلطان **(أو ذا أشياع)**، أى صاحب جنودًا وأتباع جمع شيعة وهى الفرقة العظيمة من الناس **(متقدمين)** على زمن ظهوره بأن كانوا أتباعه من أبيه وجده **(لحسب)**، أى ظن **(كثير من الجهال)** ومن لا بصيرة لهم **(إن ذلك)**، أى ملك أبيه وأشياعه **(سبب ظهوره)** على غيره

(ومقتضى) اسم فاعل، أى موجب **(علوه)** فى شأنه وقدره كغيره.

(ولهذا)، أى لأجل ما ذكر من أنه لو كان كذلك ظن الجهلة فيه ما تقدم **(قال هرقل)** ملك الروم لما سأل عنه لما بلغه خبره، وهو بكسر أوله وفتح ثانيه وسكون ثالثه كدمشق، ويجوز إسكان ثانيه كخندق والأول أظهر هو المشهور، ومثانى حكاه الجوهرى وغيره، ولقبه قيصر وهو أول من ضرب الدنانير وملك الروم إحدى وثلاثين سنة وفى ملكه توفى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(حين سأل أبا سفيان)**، رضى الله تعالى عنه، ومر أنه بتثليث السين يكنى أبا حنظلة وأن اسمه صخر بالمهملة ثم المعجمة ابن حرب بالمهملة المفتوحة والراء الساكنة ثم الموحدة ابن أمية، ولد قبل الفيل بعشر سنين وأسلم ليلة الفتح وشهد الطائف وحنينا، وفقئت إحدى عينيه فى الأولى والأخرى يوم اليرموك، وتوفى بالمدينة سنة إحدى أو أربع وثلاثين وهو ابن ثمان وثمانين سنة، وصلى عليه عثمان، رضى الله تعالى عنهما.

(عنه)، صلى الله تعالى عليه وسلم، بإيلياء، وقال له **(هل)** كان **(فى آبائه من ملك)** بمن الجارة لملك بكسر اللام صفة مشبهة فى الأصل أو من موصولة وملك ماض بفتحها صلتها.

(ثم قال) هرقل له بعد جوابه **(ولو كان فى آباءه ملك قلنا رجل يطلب)** بظهوره علوه **(ملك أبيه)** كعادة أبناء الملوك، وقال أبيه دون آبائه ليكون أعذر فى طلب الملك أو المراد بالأب ماهو أعم من حقيقته ومجازه، والحديث فى الصحيحين وهو مشهور **(وإذ اليتم)** بضم أوله وسكون ثانيه وتقدم تفسيره **(من صفته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الكتب المتقدمة)** كالتوراة والإنجيل **(وأخبار الأمم السالفة)** المتقدمة التى تلقوها عن أنبيائهم كما فى قصة تبع.

(وكذا) وصفه باليتم **(وقع ذكره)** بهذه الصفة **(فى كتاب أرميا)** بن حلقيا نبى الله وكان له صحف إلهية وهو من بنى إسرائيل ذكره مفصل فى التواريخ، وهو بفتح الهمزة وجوز كسرها وسكون الراء المهملة ومثناة تحتية وألف مقصورة كذا فى الحواشى، وفى مرآة الزمان: إن أرميا بضم الهمزة كما قرأته على شيخى أبو منصور اللغوى يعنى الجواليقى، وقال: إن أرميا كان من أبناء الملوك، وأنه أوحى إليه فلما أنذر قومه حبسوه فسلط الله تعالى عليهم بخت نصر وساق قصة طويلة له.

(وبهذا)، أى اليتم **(وصفه ابن ذى يزن)** ملك اليمن ويزن ممنوع من الصرف وفيه كلام للصاغانى فى الذيل والصلة **(لعبد المطلب)** جده حين ذهب إليه مع أشراف قريش

ليهنوه بأخذ ملكه من الحبشة، فاختلى به وبشره بقدوم نبى عظيم وأنه لا أب لـه، وإنما يكفله جده وعمه، وقد تقدم طرف من قصته معه، وإكرامه له.

(و) كذا وصفه (**بحيرا**) الراهب (**لأبى طالب**) حين ذهب معه للشام كما تقدم، وفـى كلامه يموت أبوه وأمه ويكفله جده، وبحيرا بفتح الموحدة وكسر الحاء المهملة ويمد ويقصر، ويقال: بحير بلا ألف، وفى خبره أن الراهب سأله عنه لما رأى السحاب تظله؛ فقال له: إنه ابنى؛ فقال: إنه لا ينبغى أن يكون له أب كما نجده فى كتبنا، فأخبره بموت أبيه فصدقه.

(**وكذلك**)، أى كوصفه باليتم وصفه (**إذا وصف بأنه أمى**) لا يقرأ ولا يكتب (**كما وصفه الله تعالى به**) فـى قولـه: ﴿**فَآمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ**﴾ [الأعـراف:١٥٨] الآية، (**فهو مدحة له وفضيلة ثابتة فيه**) لما سيأتى (**وقاعدة معجزته**)، أى مثبتة ومقوية كالأساس للبنيان (**إذ معجزته العظمى**) الفائقة لسائر المعجزات (**من القرآن العظيم**) وإعجازه (**إنما هى متعلقة بطريق المعارف والعلوم**) التى وصلت إليه مما لم يتفق ولا يمكن لغيره (**مع ما منح**)، أى أعطى (**صلى الله تعالى عليه وسلم، وفضل به**) علـى سائر الخلق (**من ذلك**)، أى من علومه ومعارفه التى لا تصل إليها عقول البشر.

(**كما قدمناه فى القسم الأول، ووجود مثل ذلك من رجل لم يقرأ**) الخط (**ولم يكتب**) فى عمره حرفًا (**ولم يدارس**)، أى لم يقارن أحدًا يدرس عنده ما يتعلمه مـن الأفواه (**ولا لقن**)، أى لم يلق عليه أحد شيئًا منه (**مقتضى العجب**)، أى موجب لـه (**ومنتهى العبر**)، أى غاية ما فيه عبرة لمن يقف عليه (**ومعجزة البشر**) التى أعجزتهم عن مثلـه، وإذا كـان كذلك (**فليس فى ذلك**)، أى كونه أميًا (**نقيصة**) له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بل فيـه من الشرف والفخر ما يعجز عنه الوصف.

(**إذ المطلوب**) المقصود (**من**) تعلم (**الكتابة والقراءة المعرفة**) بما يحتاج إليـه مـن العلوم والمعارف فليست مقصودة لذاتـها (**وإنما هى**)، أى القراءة والكتابة (**آلة لها وواسطة موصلة إليها غير مـرادة فى نفسها**) إذ لا فائدة لها فى نفسها (**فإذا حصلت الثمرة والمطلوب**) بالذات والثمرة فاكهة أشجار تجوز بها عن كل فائدة مترتبة على أمر من الأمور.

(**استغنى عن الواسطة والسبب**) الذى لا يراد لأجلها فهى فيه كمال وفضيلة (**والأمية فى غيره**) ممن لم يصل إلى العلوم (**نقيصة**) معيبة فيه (**لأنها**) حينئذ (**سبب الجهالة**) بالعلوم والمعارف (**وعنوان**)، أى دليل ظاهر على (**الغباوة**) بغين معجمة وموحدة وهى عدم

الفطنة والذكاء كالبلادة والحماقة، والعنوان ما يكتب على ظهر الكتاب ليعلم لمن هو وما هو، فأريد به كل ما يدل على فعل خفى، وعينه تضم وتكسر؛ لأنه يعلم من أميته أنه لبلادته لم يقدر على التعلم، وقد علم مما قبله أنه مخصوص بمن يظهر علمه فلا حاجة إلى أن يقول إلا من خصه الله بعلم دونها كما قيل، وفى العنوان لغات يقال عنوان وعلوان وفيه كلام فى شرح الفصيح.

(فسبحان من باين أمره، صلى الله تعالى عليه وسلم)، أى فصله وميزه وبعده **(من أمر غيره)** من الناس فجعله فى أعلى مراتب من الكمال لا يحتاج لوسائط وآلات، وجعله ما به يمدح فى غيره يعاب وينقص، وهذا أمر عجيب فلذا، قال: سبحان، وهى تنزيه لله تستعمل للتعجب كثيرًا كأن هذا الأمر العجيب لا يقدر عليه سواه **(وجعل شرفه)**، أى علو مقامه وقدره **(فيما فيه محطة سواه)** الحط تنزيل شىء من علو لسفل، ومحط مصدر ميمى والمراد أن بعض ما زاد به شرفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيه نقص وتنزيل لغيره، وهو إشارة لما قدمه من يتمه الذى بين به أن ربه أدبه فأحسن تأديبه ورباه من غير منة لمخلوق عليه فكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، بهذا مباينًا لغيره ممن تربى يتيمًا وجعله ذا عيلة، ليعلم أنه غنى بالله، وأنه لم يتبعه لأمر دنيوى، وجعله أميًا ليعلم أن علمه لدنى وهذا غاية الشرف وهو فى غيره نقص وشين.

(و) جعل **(حياته فيما فيه هلاك من عداه)** هذا أقوى مما قبله؛ لأنه قد يتيسر لبعض الخواص وأما **(هذا)** وهو **(شق قلبه)** فإن الحكماء متفقون على أن القلب به قوام الحياة والإدراك، وهو رئيس الأعضاء ولا يحتمل جراحة ولا خروجًا من محله، فكيف يعيش من يخرج قلبه ويشق وقد وقع له، صلى الله تعالى عليه وسلم، مرارًا أولها وهو صغير عند مرضعته كما تقدم بيانه.

(وإخراج حشوته) بضم الحاء المهملة وكسرها وسكون الشين المعجمة، والمراد ما فى داخله من العلقة السوداء كما تقدم وبيان حكمته، وأصل الحشوة: الأمعاء، والكرش، والمراد به هنا ما ذكرناه تجوزًا فـ**(كان)** ما فيه هلاك غيره.

(تمام حياته)؛ لأنه أخرج منه ما يتعلق به وسوسة الشيطان، وملىء علمًا وحكمة ففيه تمام الخلقة الحقيقية بإزالة منشىء السوداء والمعنوية بالعلم الذى بمنزلة الروح **(وغاية قوة نفسه)**؛ لأن قلبه نظف وأودع ماقواه على تلقى الوحى، ورؤية الملائكة وشدة الإذعان والفطنة **(وثبات روعه)** بضم الراء المهملة قبل واو ساكنة وعين مهملة وهو القلب والإدراك، فأريد بشقه أن يجعل فيه ما يثبته على تلقى الوحى وملاقاة الملائكة، كما ورد فى الحديث: «إن روح القدس نفث فى روعى»، أى قلبى وخلدى وبه فسر **(وهو)**، أى

شق القلب إذا وقع **(فيمن سواه)** من الناس كان **(منتهى)**، أى غاية قصوى ومن أقوى أسباب **(هلاكه)** بإخراج روحه سريعًا.

(وحتم) بفتح الحاء المهملة وسكون المثناة الفوقية وميم، أى وجوبه بحسب اللغة بمعنى معينة قطعًا **(موته)**، أى ذهاب حياته **(وفنائه)** بذهاب روحه وما يتبعه، وحديث الشق وتعدده رواه الشيخان وغيرهما وتفصيله فى شروحهما **(وهلم جرا)** تقدم الكلام عليها مبسوطًا، أى وغير ذلك مما خالف فيه غيره مما يضاف **(إلى سائر ما روى من أخباره وسيره)** فى كتب الحديث مما يباين حاله غيره **(وتقلله من)** أمور **(الدنيا)** فى جميع أحواله كما تقدم.

(ومن الملبس والمطعم والمركب) تفصيل لأمور الدنيا التى تصنع فيها **(وتواضعه)** للخلق مع علو قدره وشرفه **(ومهنته)** بفتح الميم وكسرها وذهب الزمخشرى تبعا للأصمعى أنها لا تكسر كما مر، وهو مصدر بمعنى الابتذال والخدمة.

وقوله: **(نفسه)** مفعول **(فى أموره)** الدنيوية كخصف نعله **(وخدمة بيته)** بنفسه وإنما كان ذلك منه **(زهدًا)** فى أمور الدنيا بتركها **(ورغبة عن الدنيا)** لا فيها **(وتسوية بين حقيرها وخطيرها)**، أى عظيمها عند غيره لشرف نفسه عنها **(لسرعة فناء أمورها)** وعدم بقائها.

(وتقلب أحوالها) من حال إلى حال بحيث لا تدوم على حال أبدًا **(وكل هذا)** المذكور **(من فضائله)** التى فضله الله بها على غيره **(ومآثره)** جمع مأثرة بالضم وهى ما استأثر به، أى اختص به من الشرف والمكارم مما يؤثر عنه **(وشرفه كما ذكرناه)** فيما تقدم من هذا الكتاب **(فمن أورد)**، أى ذكر **(شيئًا منها مورده)**، أى فى محله الذى ينبغى، وأصله من ورد الماء إذا ذهب ليستقى منه فاستعير لما ذكر **(وقصد بها مقصده)** الذى يليق بقدره وشرفه **(كان حسنًا)** يمدح به ويثاب عليه عند الله **(ومن أورد ذلك على غير وجهه)** اللائق به لإيهامه تحقيرًا وتنقيصًا له.

(وعلم منه بذلك) الإيراد له على غير وجهه **(سوء قصده)** بتنقيص وشين **(لحق بالفصول)** الستة المتقدمة جمع فصل بصاد مهملة **(التى قدمناها)** فى هذا الباب **(وكذلك)**، أى مثل هذا مما ورد على غير وجهه **(ما ورد من أخباره)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وأخبار سائر الأنبياء)** صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين **(فى الأحاديث)** التى يرويها القصاص **(مما ظاهره إشكال)**، أى مشكل لمخالفته لما تقرر من أحوال عصمتهم عنها.

(**مما يقتضى أمورًا**) منقصة لهم و(**لاتليق بهم بحال**) من الأحوال (**ويحتاج إلى تأويل**) لها بصرفها عن ظاهرها (**وتردد احتمال**)، أى تردد سامعها لاحتمالها لوجوه أخر (**فلا يجب**)، أى لا يجوز كما مر (**أن يتحدث منها**) بنقلها وروايتها (**إلا بالصحيح**) رواية عن الثقات (**ولايروى منها إلا المعلوم**) معناه (**الثابت**) نقله عن الأئمة (**ورحم الله**) عز وجل، (**مالكا**) إمام دار الهجرة (**فلقد كره التحدث بمثل ذلك**) الذى فيه إشكال يحوج لتأويله (**من الأحاديث الموهمة**)، أى الموقعة فى فهم سامعها ووهمه (**للتشبيه**)، أى تشبيه الله بغيره وهو ما يذكره المجسمة كحديث: «إن الله خلق آدم على صورته».

(**والمشكلة المعنى**) كحديث: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا فى الثلث الأخير» ونحوه مما ذكره الإمام ابن فورك فى كتاب المشكل له الآتى بيانه وهو كتاب جليل.

(**وقال**) الإمام مالك (**مايدعو الناس**)، أى ما يقتضى نقل مثله (**إلى التحدث بمثل هذا**) الموهم المشكل معناه (**فقيل له: إن ابن عجلان يحدث بها**) ويرويها للناس وهو الإمام الثقة المحدث أبو عبد الله محمد بن عجلان الفقيه المدنى أخرج له مسلم وغيره، روى عن أبيه، وعن أنس وغيرهما لكن إخراج مسلم له إنما هو فى الشواهد وتوفى سنة ثمان وأربعين ومائة، وقيل: إن أمه حملت به ثلاثة أعوام فشق بطنها وأخرج، وقد نبتت أسنانه وله ترجمة فى الميزان.

وكان مالك لا يرى التكلم فى المتشابهات، وهذا محمول على نقلها عند العوام الذين لا يعرفون مثلها، فلا وجه للإشكال بأنه كيف يجوز أن يكتم ماصح عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من غير نهى عن نقله، ولو كان مما يجب تركه لم يحدث به أصحابه إلى آخر ما أطال فيه بغير طائل.

(**فقال**) مالك (**لم يكن**) ابن عجلان (**من الفقهاء**) الذين يعرفون ما فى الحديث من الأحكام والدقائق وكان يحدث الناس بحديث: «إن الله خلق آدم على صورته» وهو من المتشابه المشكل وفيه تأويلات، فقيل: إن الضمير لمن ضرب على وجهه لا لله، وقيل: إن الصورة لها معان كالحقيقة والصفة كما يقال: صورة المسألة كذا وفيه كلام لهم مشهور (**وليت الناس وافقوه**)، أى وافقوا الإمام مالكا (**على ترك الحديث**)، أى ترك التحدث (**بها**)، أى بالمتشابهات المشكلة.

(**وساعدوه**) المساعدة المعاونة والمراد بها هنا الموافقة (**على طيها**)، أى على رأيه فى تركها وعدم ذكرها رأسا (**فأكثرها**)، أى الأحاديث المتشابهة المشكلة (**ليس تحتها عمل**)، أى ليس مدلولها جعلها تحت الألفاظ لخفائها، كما يقال: ليس تحت هذا الأمر

فائدة؛ لأنها ليس فيها أحكام شرعية، وقد علمت أن هذا مذهب لمالك فى كراهة الكلام على متشابه الحديث كما ذهب إليه بعضهم فى متشابه القرآن، وقد قيل: إنه لم يوافقه عليه أحد فإنه لو كان كذلك لم يحدث بها النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أصحابه و لم يقل بلغوا عنى، وإنما هو ابتلاء الراسخين فى العلم ليتبعوا أفكارهم ويعملوا أنظارهم فيها حتى يطبقونها على الحكم، وقد فعلوا جزاهم الله كل خير.

(**وقد حكى عن جماعة من السلف**) المتقدمين من الصحابة والتابعين (**بل**) حكى (**عنهم**)، أى السلف (**على الجملة**)، أى جميعهم (**أنهم كانوا يكرهون**) كراهة تنزيه (**الكلام على ماليس تحته عمل**) مما لا يشتمل على الأحكام الشرعية، ثم أشار إلى جواب سؤال مقدر؛ فقال: (**والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أوردها**)، أى حدث بها موردًا لها (**على قوم**) من الصحابة فهو جواب عما أشرنا إليه من أنها لو كانت كذلك ما حدث بها (**عرب**) بوزن قفل وحجر، أى من صميم العرب وأهل اللسان فهم (**يفهمون كلام العرب**) يعنى ومن جملة ذلك كلامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**على وجهه**) الذى أريد به من غير التباس (**وتصرفاتهم**) بالجر والنصب (**فى حقيقته**) وما وضع له (**ومجازه**) الذى تجوزوا به عنه مجازًا لغويا أو عقليا (**واستعارته**) من عطف الخاص على العام؛ لأنه مجاز علاقته المشابهة (**وبليغه**)، أى ما يورد من فصيحه على مقتضى الحال والمقام.

(**وإيجازه**)، أى إيراد معانيه الكثيرة بألفاظ قليلة (**فلم تكن**) تلك الأحاديث (**فى حقهم مشكلة**)؛ لأنها لا تخفى عليهم مقاصدهم (**ثم جاء بعدهم**) من هذه الأمة (**من غلبت عليه العجمة**) لمخالطته العجم ودخول غير لسان العرب، فقل ما تجد عربيًا فصيحًا بين أظهرهم، والعجمة عدم الفصاحة (**وداخلته الأمية**) أى الجهل بلسان العرب فليس المراد به الأمى بالمعنى المشهور.

(**فلا يكاد يفهم من مقاصد العرب**) فى كلامهم العربى (**إلا نصها و**) يعنى به (**صريحها**) دون دقائق رموزها فهو عطف تفسير (**ولا يتحقق إشارتها**)، أى لا يفهم دقائقها وتلويحاتها (**إلى غرض الإيجاز**) المقصود منه ومن عدم بسطه (**ووحيها**) بحاء مهملة وأصل معناه الرمز قال:

وحى الملاحظ خيفة الرقباء

(و) غرض (**تبليغها**) لسامعها بلا تصريح (**وتلويحها**) التلويح: هو التعريض والإشارة (**فتفرقوا فى تأويلها**)، أى صاروا فرقا مختلفة لما ذكر فى خفاء المراد منها، فذهبت طائفة

إلى بيانها وتأويلها بما يتضح به معناها **(أو حملها على ظاهرها)** من غير تأويل لها **(شذر مذر)** اسمان ركبا وبنيا على الفتح كخمسة عشر، بشين وذال معجمتين ورائين مع فتح أولهما وكسرهما وإبدال ميمه باء، وقيل: هو الأصل من التبذير وهو التفريق ومعناه مبددة متفرقة، أى ذهبوا فى المتشابه إلى مذاهب وجهات فمن قائل نأوله، ومن قائل نبقيه على ظاهره، ومن قائل نؤمن به من غير تعرض لمعناه وكشف قناع وجهه.

(فمنهم)، أى ممن تفرق شذر مذر **(من آمن به)**، أى صدق به وبأنه حق ونزهه عن أن يراد به ظاهره، ويفوض معناه إلى الله تعالى فيقف على قوله إلا الله وهم كثير من السلف وهوأسلم، ومنهم من أوله بما يليق به وهو أعلم، كحديث: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن» **(ومنهم من كفر)** بسببه للخوض فيه بما لا يصح ابتغاء للفتنة وإضلال الناس وفيه لف ونشر، فمن آمن راجع للتأويل ومن كفر للحمل على الظاهر ونفى مذهب الوقف وهو معلوم مما تقدم.

واعلم أن الكلام على المتشابه من الكتاب والسنة وقع هنا استطراديًا، إذ ليس مما نحن فيه؛ لأنه بصدد وصف النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بما يجوز، وليس من المتشابه فى شىء لكنه يشبهه فى تأويل بعضه ومنع الخوض فيه لبعضهم **(فاما ما لا يصح)** لعدم صحة سنده **(من هذه الأحاديث)** المشكلة **(فواجب أن يذكر منها شىء)** لعدم صحتها وعدم صحة معانيها سواء كانت فى حقة تعالى أو فى حق أنبيائه كما قال: **(فى حق الله تعالى ولا فى حق أنبيائه ولا يتحدث بها)** رواية ونقلا؛ لأنها إما كذب فيحرم نقله إلا لبيان أنه كذب وموضوع **(ولا يتكلف)** بعد نقلها **(اللام على معانيها)** بتفسيرها وتوجيه تأويلها **(والصواب طرحها)**، أى تركها **(وترك الشغل بها)**، أى الاشتغال بذكرها وتأويلها والشغل بفتح الشين وضمها وسكون غينه وضمها اتباعا **(إلا أن يذكر على وجه التعريف)** والتبيين لمن لا يعرفها **(بانها ضعيفة المقاد)** بفتح الميم والقاف وألف ودال مهملة من قدت الدابة فى سيرها، وهو اسم مكان منه استعير لطريق روايته وفى نسخة: المقالة **(واهية الإسناد)**، أى إسنادها شديد الضعف ساقط عن درجة الاعتبار، من وهى بمعنى وهن وضعف، وقيل: إنه من وهى الثوب إذا تخرق.

(وقد أنكر الأشياخ) جمع شيخ بمعنى العالم المفيد **(على)** الإمام **(أبى بكر بن فورك)** وهو الإمام محمد بن الحسن بن فورك الشافعى المحدث الأصولى، وفورك بضم الفاء وراء مهملة واختلف فى صرفه وعدمه كما تقدم، توفى سنة ست وأربعمائة ودفن بنيسابور **(تكلفه)** مفعول أنكر **(فى مشكله)**، أى فى كتابه الذى سماه مشكل الحديث فى المتشابه، **(الكلام)** مفعول تكلفه، أى التكلم **(على أحاديث ضعيفة موضوعة)** الظاهر أو

موضوعة **(لا أصل لها)**، أى لا نقل لها ولا سند صحيح، يقال: كلام لا أصل له، أى كذب.

(أو منقولة عن أهل الكتاب)، أى اليهود والنصارى كبعض قصص الأنبياء **(الذين يلبسون)** بتخفيف الباء الموحدة وتشديدها، أى يخلطون **(الحق بالباطل)** الذى اختلقوه وافتروه **(كان يكفيه طرحها)**، أى ترك ذكرها **(ويغنيه عن الكلام عليها)** بتأويلها وتوجيهها **(التنبيه على ضعفها)** وأن رواتها لم تنقل عمن يعتد به **(إذ المقصود من الكلام على مشكل ما فيها)** مما يخالف ظاهره الصواب **(إزالة اللبس بها)**، أى التباسها على من لا علم عنده **(واجتثاثها)**، أى قلعها وقطعها بجيم ومثناة فوقية وثائين مثلثين، وأصلها قطع أصول الشجر فاستعير لما ذكر.

وقوله **(من أصلها)** ترشيح فيه تورية **(وطرحها)**، أى تركها رأسا **(اكشف)**، أى أظهر وأبين **(للبس)** من ذكرها وتأويلها **(وأشفى للنفس)**، أى أكثر شفاء من تأويلها وهذا تحامل منه فإنها بعد شيوعها لابد من بيانها حتى لا يغتر بها الجهلة، وفى كتاب ابن فورك فوائد جليلة ومعان بديعة يعرفها من وقف عليه مع أن فى كتابه أحاديث منها ماهو صحيح، كحديث نزول الرحمن، ومنها ماهو ضعيف نبه على ضعفه كما ذكره فى كتابه.

* * *

(فصل: ومما يجب على المتكلم على ما يجوز على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وما لا يجوز)

عليه كما تقدم بيانه **(والذاكر من حالاته ما قدمناه فى الفصل)** الذى ذكر **(قبل هذا على طريق المذاكرة)** مع أقرانه **(والتعليم)** لمن هو دونه من طلبة العلم **(أن يلتزم)** فاعل يجب، أى يلازم من غير ترك **(فى كلامه عند ذكره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وذكر تلك الأحوال)** التى وقعت له **(الواجب من توقيره وتعظيمه)** بما يليق به **(ويراقب)** المتكلم فى كلامه الصادر منه **(حال لسانه)** بتعبيره بعبارة حسنة **(ولا يهمله)**، أى لا يترك توقيره **(ويظهر)** بتحتية مضمومة أو فوقية مفتوحة **(علامات الأدب)** يجوز نصب علامات ورفعها **(عند ذكره)** حالاً ومقالاً.

(فإذا ذكر ما قاساه من الشدائد) كما وقع له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى ابتداء دعوته وأذية المشركين له **(ظهر عليه الإشفاق)** عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بإظهار شفقته عليه مما أصابه **(والارتماض)**، أى احتراقه ولوعته وهو بالضاد المعجمة ويقال:

ارتمض الرجل من كذا إذا اشتد عليه وأقلقه **(والغيظ على عدوه)** بإظهار غضبه وعداوته لعدوه.

(و) ظهر عليه **(مودة)**، أى تمنى **(الفداء للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لو قدر عليه)**، أى على أن يكون فدية له بنفسه وأهله وماله من جميع المكاره، أى أن يسلم ويحل به ما حل به عوضًا عنه، والفداء إذا كسر مد وقصر وقد ينون إذ جاورته اللام نحو فدا لك. كما فى الصحاح فإذا فتح قصر وينصب ويرفع، وهو دعاء له ومن الله تعظيم وتوقير لتنزهه عن معناه **(والنصرة له)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لو أمكنه)** نصره وكان معه **(وإذا أخذ)**، أى شرع فى التكلم **(فى أبواب العصمة)**، أى أنواع ما عصمه الله منه وصانه **(وتكلم على مجارى)**، أى ما جرى من **(أعماله)** الصادرة عنه.

(وأقواله) المأثورة عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(تحرى)** بمهملتين، أى قصد **(أحسن اللفظ وآدب)** بهمزة ممدودة قبل دال مهملة وموحدة أفعل تفضيل **(العبارة)** التى يعبر بها، أى أكثرها أدبا وتوقيرًا **(ما أمكنه)**، أى بقدر إمكانه فى بذل جهده وقدرته **(واجتنب)**، أى ترك فى جانبه **(بشيع ذلك)** بباء موحدة وشين معجمة، أى ما فيه بشاعة وقباحة يمجها السمع **(وهجر)**، أى ترك **(من العبارة ما يقبح كلفظة الجهل والكذب والمعصية)** فلا يتكلم بمثلها ولو حكاية صونًا لمقامه المصون، ثم وضح هذا وبينه بقوله: **(فإذا تكلم فى الأقوال)**، أى فيما يتعلق بأقواله، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(قال: هل يجوز عليه)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(الخلف فى القول والإخبار)** بكسر الهمزة مصدر أخبر **(بخلاف ماوقع سهوًا أو غلطا)** سبق به لسانه **(ونحوه من العبارة)** من غير تعمد وقصد؛ لأنه لا يؤاخذ به وتقدم أن الخلف المخالفة فى الوعد قال تعالى: ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ [طه:٨٧]، المراد به تخلف القول مطلقا.

(و) لا يقول هل يجوز عليه الكذب بل **(يتجنب لفظ الكذب جملة واحدة)**، أى بجميع ألفاظه من مصدر وفعل واسم فاعل وكذا مرادفه كمين **(وإذا تكلم على العلم)** وما يتعلق به فى وصفه به نفيًا وإثباتًا.

(قال) فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(هل يجوز عليه أن لا يعلم إلا ما علم)** بالتشديد وبناء المجهول، أى ما علمه الله، عز وجل، **(وهل يمكن أن يكون عنده)**، أى فى نفسه وعلمه كقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور:١٣].

(علم ببعض الأشياء) التى يمكن علمها **(حتى يوحى إليه)** بها **(ولا يقول)** فى التعبير عن هذا **(بجهل)** وإن كان الجهل عدم العلم **(لقبح)** هذا **(اللفظ وبشاعته)**، أى استهجانه فى السمع.

قال الباقلانى: يجوز عقلاً كون النبى غير عالم ببعض شرائع من قبله، وبعض المسائل التى يفرعها الفقهاء والمتكلمون إذا لم يخل بمعرفة التوحيد، وكونه غير عالم بلغات غير قومه وبعض أمور الدنيا كالحرف والصنائع.

وقيده ابن الهمام مما لم تخطر ببالهم، فإن خطرت ببالهم فلابد من علمهم بها ولو اجتهادًا، بناء على أن لهم الاجتهاد وأنهم لا يقرون على خطأ فيه فتأمل.

(**وإذا تكلم فى**) أمر (**الأفعال**)، أى أفعاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**هل يجوز فى بعض الأوامر**) التى أمره الله بها (**والنواهى**) التى نهاه الله عنها (**وموافقة**)، أى وقوع (**بعض الصغائر**) منه (**فهو أولى وآدب**) بالمد أى أكثر أدبا (**من قوله هل يجوز أن يعصى أو يذنب أو يفعل كذا وكذا**) كناية تأدبًا عما يكون (**من أنواع المعاصى فهذا**)، أى ترك الألفاظ القبيحة والتعبير بغيرها (**من توقيره**) ﷺ وتعظيمه (**وما يجب له من تعزير**) بزاء معجمة وراء مهملة أى تعظيم فى نفسه.

(**وإعظام**) عند غيره زاده الله شرفًا وتعظيمًا، وفى قوله: من توقيره إشارة إلى أن كل تعظيمه لا يمكن أن تحيط به العبارة، قيل: وليته أتى به فى تسمية كتابه؛ فقال: الشفا فى بعض حقوق المصطفى وفيه نظر (**وقد رأيت بعض العلماء لم يتحفظ من هذا**)، أى لم يتركه (**فقبح**) بالتشديد ويجوز تخفيفه (**ولم أستصوب عبارته فيه**) مما يتحفظ منه، أى لم أعده صوابا.

(**ورأيت بعض الجائرين**) بالجيم، أى المائلين عن الإنصاف وجوز بعضهم إهماله من الحيرة.

(**قوله**) بتشديد الواو من التقول وهو تكلف القول والافتراء عليه (**لأجل ترك التحفظ فى العبارة**) بإتيانه بعبارة قبيحة (**ما لم يقله**) مصدر لقوله من معناه، أى قولاً لم يقله (**وشنع**) ذلك البعض (**عليه**)، أى على من لم يتحفظ (**بما يأباه**)، أى بمنعه فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**ويكفر قائله**)، أى ينسبه للكفر جورًا منه عليه (**وإذا كان مثل هذا**) من رعاية الأدب جاريا (**بين الناس**) فى محاوراتهم ومصاحبتهم (**مستعمل فى آدابهم**) فى مخاطباتهم ومكافحاتهم (**وحسن معاشرتهم**)، أى اختلاط بعضهم ببعض كالعشائر.

(**وخطابهم**) الجارى بينهم (**فاستعماله فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أوجب**)، أى أحق وأولى وحمله بعضهم على ظاهره؛ فقال: إنه فرض ثم ذكر هنا الخلاف بين الشافعية والحنفية فى الفرق بين الفرض والواجب والقول بترادفهما وليس هذا محله، وما

ذكره ينافي ظاهر كلام المصنف، رحمه الله تعالى، فى عده من الآداب **(والتزامه آكد)** بالمد أفعل تفضيل من التوكيد أو التأكيد بإبدال همزته ألفا **(فجودة العبارة)** بفتح الجيم مصدر جاد الشيء فهو جيد كأنه لم يدخر شيئًا من حسنه إلا أبداه **(تقبح الشيء)**، أى تجعل الحسن قبيحًا بحسن العبارة **(أو تحسنه)**، أى تجعله حسنا وإن اتحد معناهما، وهذا مما ذكره أهل المعانى والبلاغة كما قيل فى العسل:

تقول هذا مجاج الشهد تمدحه وإن تعبه تقل قيء الزنابير

ويسمه أهل المنطق المعانى الشعرية، والشعر عندهم الأمر المبنى على التخيل نحو الخمر جوهرة مذابة كما بينه أبو هلال فى كتاب الصناعتين **(وتحريرها)**، أى جعل العبارة محررة منقحة **(وتهذيبها)**، أى تخليصها مما لا يحسن قوله **(يعظم الأمر)**، أى يصيره عظيما وإن كان هينًا **(أو يهونه)**، أى يجعله هينًا وإن كان عظيما فى نفسه، كمدح الموت أو القتل الواقع فى كلام شجعان العرب، فكم حمل الجبان على الإلقاء فى التهلكة وأبذل المال للشحيح عليه.

وللثعالبى والجاحظ كتاب فى مدح كل شيء وذمه، وهو معروف بين أهل الأدب **(ولهذا)**، أى لأجل أن جودة العبارة تحسن القبيح وتقبح الحسن **(قال، صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى الحديث الصحيح **(إن من البيان لسحرا)** البيان بمعنى الفصاحة واللسن ممن له ذكاء وفطنة، وقيل: هو الكلام المنقح القريب إلى الأفهام المبين له أحسن تبيين وأقربه، والسحر كما قال الراغب: يطلق على معان أحدها خداع وتخيلات لا حقيقة لها كالشعبذة، قال الله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦].

ومنها ما يكون بمعاونة الشيطان، وما قيل من أنه يغير الصور والطبائع لا أصل له وقيل: إنه ثابت، وأما فى الحديث فهو استعارة، أى كالسحر فى الدقة وصرف العقول والأسماء، ولذا قيل فيه هنا: إنه يحتمل المدح والذم؛ فقال ابن قرقول: إنه أورده مورد الذم لشبهه بعمل السحر فى قلب القلوب وجلب الأفئدة وتحسين القبيح وتقبيح الحسن.

وأصله فى كلام العرب الصرف، يقال: سحره إذا صرفه وصيره كمن سحر له ويشهد له، قوله فى الحديث: «لعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض فيكسب به من الإثم ما يكسبه الساحر بعمله»(١)، فهو ذم»، وقيل: إنه ورد مورد المدح، أى يميل به القلوب ويرضى به الساخط ويستذل به الصعب، ولذا قيل له: السحر الحلال، ويشهد له قوله: «إن من الشعر لحكمة» وقد أدخل مالك الحديث فى باب ما يكره من الكلام

---

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند (٢/٣٠٧، ٣٣٢، ٦/٣٢٠)، وابن حبان (١١٩٧).

والظاهر أنه فى الحديث محتمل للأمرين وبه يحسن سياق المصنف، رحمه الله تعالى، ويقع فى محزه.

واعلم أن ما ذكره المصنف باب عظيم من أبواب البلاغة، وهو أن الكلام المتحد المعنى باختلاف العبارة، كما حكى عن الرشيد أنه رأى فى منامه أن أسنانه كلها وقعت وتعبيره ذهاب الأعوان والأنصار، فطلب معبرًا يعبر رؤياه فأتى برجل عابر؛ قال: يموت أولادك وأحباؤك وترى مصيبتهم فأمر بقلع أسنانه كلها، ثم أتى بآخر؛ فقال: عمرك أطول من عمر أهلك وحواشيك وأحبائك فأمر أن يحشى فوه درًا، وله نظائر كثيرة فى كتب البلاغة، ولكل لفظ موقع لا يقع فيه مرادفه كما بينه الثعالبى فى كتاب فقه اللغة.

(فأما ما أورده)، أى المتكلم فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مما لا يجوز عليه **(على جهة النفى عنه)**، أى أن يكون منفيًا عنه **(والتنزيه له)** بنفيه عنه **(فلا حرج)**، أى لا ضرر ولا تضييق فيه مع نفيه **(فى تسريح العبارة)**، أى إطلاقها من غير احتراز **(وتصريحها فيه كقوله لا يجوز عليه الكذب جملة)**، أى فى جميع أحواله وأقواله فذكر الكذب مع النفى لا منع فيه.

(ولا إتيان الكبائر بوجه) من وجوهها فذكر الكبائر مع النفى لا ينافى الأدب **(ولا)** يصدر عنه **(الجور فى الحكم على حال)** من الأحوال كالرضى والغضب **(ولكن مع هذا)**، أى تجويز مثله **(يجب ظهور توقيره وتعظيمه وتعزيره عند)** ذكر مثل هذا الكلام فى النفى، وقد وجب توقيره **(مع ذكره مجردًا)** من صفات لا تليق به فكيف بهذا؟.

فيعلم بالطريق الأولى **(وقد كان السلف يظهر منهم حالات شديدة عند مجرد ذكره)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، من بكاء ورعدة لمهابته وتغير لون وتواجد **(كما قدمناه فى القسم الثانى وكان بعضهم يلتزم مثل ذلك)** التوقير والتعظيم **(عند تلاوة آى)** بالمد جمع آية **(من القرآن حكى الله فيها مقال عداه)** الضمير لله تعالى فهو تنظير لا تمثل ويحتمل عوده للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى ما ذكر فيه أعداء رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ووقائعه فهو تمثيل لما نحن بصدده.

(و) ذكر **(من كفر بآياته)**، أى آيات الله تعالى، عز وجل، أو معجزات رسله فالضمير له أيضًا **(وافترى عليه الكذب)**، أى اخترعه واختلقه **(فكان يخفض بها صوته)** فى الآيات التى حكى فيها ذلك كأنه خائف من إظهاره **(إعظامًا لربه وإجلالاً له)** بتوقيره **(وإشفاقا)**، أى خوفًا على نفسه وحذرًا **(من التشبه بمن كفر به)** فى إجراء ما ذكر على لسانه أو تلبسه بما تلبسوا به.

وفى نسخة: (**سبحانه لا إله إلا هو العلى العظيم**) المتعالى عما يقوله الجاحدون علوًا كبيرًا، وخفض الصوت المذكور محكى عن إبراهيم النخعى، رحمه الله تعالى، كما فى التبيان، وما قيل من أن سلب العيب يقتضى قابليته وأنه من شأنه مما لا ينبغى ذكره كما لا يخفى.

* * *

(الباب الثانى) من هذا القسم الرابع (فى حكم سابه) [ومؤذيه وعقوبته وذكر استتابته ووراثته]

شرعًا (**وشانئه**)، أى مبغضه والمراد من يعيبه لبغضه وعداوته له (**ومتنقصه**)، أى ذاكر ما فيه نقص له، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**ومؤذيه و**) فى ذكر (**عقوبته**) التى يستحقها (**وذكر استتابته**)، أى هل تقبل توبته أم لا (**ووراثته**) فهل تورث أمواله أم لا؟

(**قال القاضى أبو الفضل**) عياض المؤلف، رضى الله عنه، (**قد قدمنا**) فى هذا الكتاب (**ماهو سب وأذى فى حقه، عليه السلام، وذكرنا**) فيما تقدم أيضًا (**إجماع العلماء على قتل فاعل ذلك**) المذكور من السب والأذية، وتقدم أيضًا الكلام على هذا الإجماع (**وقائله**)، أى من يقوله ويتكلم به (**وتخيير الإمام فى قتله**) بالسيف (**أو صلبه**) تشهيرًا له بين الناس (**على**) منوال (**ما ذكرناه**) مفصلاً (**وقررنا**)، أى ذكرنا (**الحجج**)، أى الأدلة من الكتاب والسنة القائمة (**عليه وبعد**) مبنى على الضم، أى بعد ماذكرناه.

(**فاعلم**) أيها المخاطب بما ذكرناه من كل من يقف عليه (**أن المشهور من مذهب**) الإمام (**مالك وأصحابه**) من أهل مذهبه (**وقول السلف**) من الصحابة والتابعين (**وجمهور العلماء**)، أى أكثرهم (**قتله**) خبر أن وهى وما بعدها سادة مسد مفعولى اعلم (**حدًا**)؛ لأنه حد قذف مخصوص بالأنبياء كما تقدم (**لا كفرًا**)، أى لا يقتل بسبب كفره؛ لأنه ردة (**إن أظهر التوبة منه**)، أى مما قاله؛ لأنه إن أصر عليه يكون كافرًا.

(**ولهذا**) أى لكون قتله حدًا (**لا تقبل توبته عندهم**)؛ لأن الحدود لا تسقط بالتوبة وإنما تنفعه توبته فى الآخرة إن أخلص فيها و لم تكن تقية (**ولاتنفعه استقالته**)، أى طلبه الإقالة من ذنبه، وما قاله وهى فى معنى التوبة (**ولا فيئته**) بالفاء والهمزة المفتوحتين بينهما ياء ساكنة وتاء التأنيث، أى رجوعه عما صدر منه (**كما قدمناه قبل**)، أى قبل هذا (**وحكمه**) شرعًا (**حكم الزنديق و**) هو مظهر الإسلام و(**مسر الكفر**)، أى مبطنه ومخفيه فى سره وباطنه (**فى هذا القول**) الذى قاله من السب، وقيل: المراد به القول المشهور عن مالك وأصحابه ومن وافقهم عليه، وغيرهم يقول: تقبل توبته ولا يقتل.

(**وسواء كانت توبته على هذا**) القول المشهور عن مالك بقتله حدًا (**بعد القدرة عليه**) بأخذه من جانب الحاكم (**والشهادة**) عنده (**على**) ثبوت (**قوله**) الذى استحق به القتل (**أو جاء تائبًا من قبل نفسه**) بدون أخذ له، وقبل بكسر القاف وفتح الباء الموحدة بمعنى جهة (**لأنه حد وجب عليه**) شرعًا بسبب قذفه والحد (**لاتسقطه التوبة كسائر الحدود**)

مثل حد الزنا والسرقة، وكون الحدود لا تسقط بالتوبة ليس على إطلاقه متفقًا عليه وإنما هو فيما كان محض حق الآدمى أما ما هو حق الله ففيه خلاف وسيأتى تفصيل هذا الحكم إن شاء الله تعالى.

(قال الشيخ أبو الحسن القابسى) الذى قدمنا ترجمته **(إذا أقر بالسب)** له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو لغيره من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(وتاب منه)** برجوعه عنه وندمه **(وأظهر التوبة)** وقبلت منه **(قتل بالسب)** أو بسببه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا بالكفر **(إذ هو حده)**، أى حد هذا السب المخصوص بالأنبياء.

(وقال) الشيخ **(أبو محمد بن أبى زيد)**، رحمه الله تعالى، القيروانى المالكى شيخ المذهب كما تقدم فى ترجمته **(مثله)**، أى مثل قول القابسى **(وأما ما بينه وبين الله تعالى)** فى الآخرة إذا أخلص فى توبته **(فتوبته تنفعه)** عند الله تفضلا منه فإنه يقبل التوبة من عباده.

(وقال ابن سحنون) تقدم بيانه أيضًا **(من شتم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** بذكر ما فيه نقص لمقامه الشريف **(من الموحدين)** المراد بهم المسلمون فيخرج أهل الكتاب **(ثم تاب عن ذلك)** ورجع عنه **(لم تزل)** بضم أوله مضارع أزال **(التوبة عنه)**، أى عن فاعله **(القتل)**؛ لأنه حده كما تقدم.

(وكذلك)، أى كما اختلف فيمن سب **(قد اختلف فى الزنديق إذا جاء تائبًا)** من نفسه قبل الأخذ **(فحكى القاضى أبو الحسن بن القصار)** تقدمت ترجمته **(فى ذلك)** الذى جاء تائبًا **(قولين)** فى مذهب مالك **(قال)** ابن القصار **(من شيوخنا)** وفى نسخة منهم، أى من أصحاب مالك **(من قال أقتله)** وجوبا **(بإقراره)** بسببه أو بأنه زنديق **(لأنه)** قبل إقراره **(كان يقدر على ستر نفسه)** بإخفاء حاله ومقاله **(فلما اعترف خفنا أنه خشى الظهور عليه)** بالاطلاع على حاله **(فبادر)**، أى أسرع قبل أخذه **(لذلك)** الاعتراف تقية لا رجوعًا وندمًا على ما صدر منه.

(ومنهم)، أى من مشايخنا من أئمة المالكية **(من قال أقبل توبته لأنى أستدل)** حكاية للفظ هؤلاء **(على صحتها)**، أى توبته **(بمجيئه)** بنفسه من غير طلب **(فكأننا وقفنا)** بظاهر حاله **(على باطنه)** وما أسره فى قلبه **(بخلاف من أسرته البينة)**، أى شهدت عليه وألزمته حتى كأنه أسير شد فى وثاق.

(قال القاضى أبو الفضل) عياض المؤلف، رحمه الله تعالى، **(وهذا)** القول الثانى **(قول أصبغ)** من المالكية **(ومسألة ساب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أقوى)** فى حكم

القتل من مسألة الزنديق؛ لأنه حق الله، وهـذا ترجيح منه للقول الثانى لتسوية الأول بينهما (**لايتصور فيها الخلاف**) الذى فى الزنديق (**على الأصل**) والقاعدة الفقهية من الماشحة حقوق الآدمى (**المتقدم**) بيانه (**لأنه**)، أى سب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**حق متعلق للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، و**) حق (**لأمته بسببه**)؛ لأنهم كورثته فى إرث حقوقه (**لاتسقطه التوبة كسائر حقوق الآدميين**) التى لا تسقط إلا برضى الخصم.

(**والزنديق**) حكمه (**إذا تاب بعد القدرة عليه**) بأخذه بعد العلم بأنه زنديق (**فعند مالك والليث**) بن سعد (**وإسحاق**) بن راهويه (**وأحمد**) بن حنبل (**لاتقبل توبته**) ولا يسقطها قتله (**وعند الشافعى تقبل**) توبته وما نقله المصنف عن الشافعى هو الصحيح من أقوال خمسة مفصلة فى كتب الفقه.

(**واختلف**)، أى اختلف النقل (**فيه عن أبى حنيفة، وأبى يوسف**) من أصحابه وترجمته مشهورة لا حاجة للتطويل بها (**وحكى**) أبو بكر (**ابن المنذر**) الإمام الحافظ المشهور كما تقدم (**عن على بن أبى طالب**)، كرم الله وجهه، (**أنه**)، أى الزنديق (**يستتاب**)، أى تقبل توبته إن تاب بعد القدرة عليه وإلا قتل (**وقال محمد بن سحنون ولم يزل**) بفتح أوله وضم ثانيه مبنيا للفاعل مضارع من الزوال، أى لم يذهب ويسقط (**القتل عن المسلم**) الذى سب النبى ﷺ (**بالتوبة**) والرجوع (**من سبه**) بعد صدوره منه (**لأنه لم ينتقل من دين**) هو حق (**إلى غيره**) هو دين باطل فليس مرتدًا وإنما هو على دين الإسلام، لكنه صدر عنه ما يوجب الحد عليه (**وإنما فعل شيئًا**) وهو السب الموجب للحد و(**حده عندنا القتل**) والحدود لا تسقط بالتوبة كما تقدم.

(**لا عفو فيه لأحد**)؛ لأن حدود الله لا يسامح فيها فهو من هذا الوجه (**كالزنديق**) المظهر للإسلام (**لأنه**)، أى الزنديق (**لم ينتقل من ظاهر**) فى الحقيقة (**إلى ظاهر**) فى الباطلية غيره لبقاء ظاهر إسلامه على حاله، قيل فى تعليله، هذا نظر؛ لأنه إن أراد أنه لم ينتقل لدين نبى آخر كموسى وعيسى، عليهما السلام، يرد عليه أنه لو صار مشركا تقبل توبته، وظاهره أن من لم ينتقل لدين لا تقبل توبته وفيه نظر، وحكم الزنديق مفصل فى الفروع والمصنف لم يفصل فى السب بين القذف وغيره.

والشافعية لهم فيه تفصيل وفرقوا بينهما، إلا أن المصنف نقل ما فى مذهبه وهو ثقة فيه لا يعترض عليه بمذهب غيره، وسنفصله فى آخر هذا الباب بما يشفى الصدور.

(**وقال القاضى أبو محمد بن نصر**) تقدم بيانه (**محتجا لسقوط اعتبار توبته**)، أى توبة من سب النبى ﷺ فإنه تقبل توبته (**والفرق بينه وبين من سب الله تعالى**) وكان الظاهر

خلافه؛ لأنه أشد والله تعالى أجل وأعظم.

وقد ذهب الأكثر إلى قبول توبة من سبه **(على مشهور القول باستتابته)** وقبول توبته والفرق على هذا **(أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بشر والبشر جنس)** من شأنه فى الجملة أنهم **(يلحقه المعرة)** وهى النقيصة التى يلحق صاحبها عار، قال فى المصباح: المعرة المساءة والإثم، من قولهم: عره بالشر يعره من باب قتل كطبخه، أو هو من العر بمعنى الحرب فاستعير لما ذكر، فهذا يجوز أن يلحق بعض البشر **(إلا من أكرمه الله بنبوته)** فإنه وإن كان من البشر لكن الله عصمه وحفظه عن أن تلحقه معرة ونقص كغيره من البشر.

(والبارى) بمعنى الخالق وهو الله **(تعالى منزه)** ومبرأ **(عن جميع المعايب قطعا)**، أى بدليل عقلى لا يتردد فيه عاقل **(وليس من جنس)**، أى ليس له جنس يكون منه؛ لأنه واحد أحد فى ذاته وصفاته ليس كمثله شيء، ولا ماهية له ولا يحد فلا يكون من جنس **(تلحق المعرة جنسه)** بلحوق بعض أفراده المعرة فيتوهم نسبة نقص له فلكونه معلوم الانتفاء لم ينظر إليه، وجاز قبول توبة من سبه بخلاف البشر، وليس هذا لكون سب الله أهون من سب غيره، وهو مناف لقوله فى نسبة الولد له: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ [مريم: ٩٠] كما توهم، بل لأنه لظهوره بقدسه وتنزهه لا يلحقه بكلام بعض من لا عقل له نقص ولو عند العقول القاصرة، فلا يبالى بمثله وهو ضرب من الهذيان، وهذا مكابرة فيما قرره الفقهاء ناشئ من عدم الإذعان، وهو أن هذا حق الله أكرم الأكرمين وحقوق الله تقبل العفو **(وليس سبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كالارتداد المقبول فيه التوبة)** وسبه لا تقبل فيه التوبة على قول كما تقدم.

(لأن الارتداد) بخروجه عن دينه **(معنى ينفرد به المرتد)**، أى يختص به فى نفسه **(لاحق فيه لغيره من الآدميين)** يتوقف قبوله على رضاه **(فقبلت توبته)**، أى المرتد لهذا **(ومن سب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، تعلق فيه)**، أى بسبب سبه **(حق لآدمى)** وهو النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فكان)** من سب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(كالمرتد يقتل)** ببناء الفاعل، أى يقتل المرتد رجلاً آخر **(حين ارتداده)** وفى نسخة: حال ارتداده، فحينئذ يتعين قتله لحق الآدمى الذى قتله قصاصا **(أو يقذف)**، أى المرتد الذى يقذف حال ردته، فلابد من إقامة الحد عليه لتعلق حق الآدمى به حينئذ **(فإن توبته)**، أى توبة المرتد الذى قتل أو قذف حين ردته **(لاتسقط)** توبته **(عنه حد القتل والقذف)**؛ لأنه حق آدمى غيره وهذا هو الأصح فى المرتد أنه لابد فى استتابته والكلام عليه مفصل فى الفروع وفيه خلاف لبعضهم.

(وأيضًا) مما يدل على الفرق بين المرتد والساب **(فإن توبة المرتد إذا قبلت)** فأسقطت قتله من حيث هو مرتد **(لاتسقط توبته ذنوبه)** من غير الردة **(من زنا أو سرقة أو غيرها)** من حقوق الآدمين وإنما تثبت إسلامه **(ولم يقتل ساب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لكفره)**، أى فيكون ردة كما قيل **(لكن لمعنى يرجع)** ويعود **(إلى تعظيم حرمته)** وحفظ مقامه باحترامه وتوقيره.

(و) يرجع إلى **(زوال المعرة)** والنقص اللاحق **(به وذلك لا تسقطه التوبة)**؛ لأنه متعلق بعرضه فهو حق له كحقوق الآدميين، وهذا هو القول الصحيح عند أبى حنيفة والشافعى وغيرهما.

وفى قول أنها تسقط أيضًا لقوله فى الزنا ﴿فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ﴾ [النساء: ١٦]، وفى السرقة ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾ [المائدة: ٣٩]، ولا خلاف فى سقوطها فيما بينه وبين الله بعدم مؤاخذته بها وعليه يحمل ما ذكر، وقال النووى فى الروضة: سقوط الحدود بالتوبة قول ضعيف.

(قال القاضى أبو الفضل) عياض المصنف، رحمه الله، تقييدًا لما تقدم من أن سبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليس بكفر **(يريد والله أعلم؛ لأن سبه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لم يكن بكلمة تقتضى الكفر)** كإنكار نبوته ونحوه، فهذا ليس محل الخلاف وعليه يحمل ما ورد من الحكم بكفره وأما قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه»(١)، فمعناه لا يكمل إسلامه كغيره من النصوص فمن توهم منافاته لما ذكره المصنف، رحمه الله، فقد قصر، فالسب له مراتب تختلف بها أحكامه.

(ولكن) المراد بالسب المذكور ما يكون **(بمعنى الإزراء والاستخفاف)**، أى يذكر فيه تنقيص لمقداره وأذية غير شديدة **(أو لأن)** من صدر عنه ذلك القول بأنه كفر **(بتوبته)** ورجوعه عما قاله **(وإنابته)**، أى رجوعه إلى الحق **(ارتفع عنه اسم الكفر)** كالمرتد إذا أسلم لا يسمى كافرًا **(ظاهرًا)** ونحن إنما نحكم بالظاهر **(والله تعالى أعلم بسريرته)** فإن الله تعالى، عز وجل، هو العالم بالسرائر **(وبقى حكم السب عليه)** لم يرتفع فيقتل حدًا فلو أصر فهو كافر، وفى قوله إزراء واستخفاف نظر؛ لأن الإزراء به، صلى الله تعالى عليه وسلم، والاستخفاف به كفر، بل من أعظم الكفر، فاستداركه ليس فى محله، ثم إنه إذا كان حدًا كيف يترك والحدود لا يتسامح فيها كما تقدم.

---

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند (٣/١٧٧، ٢٠٧، ٢٧٥، ٢٧٨، ٤/٣٣٦).

وقد ترك النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، قتل بعض من سبه وآذاه إلا أن يقال أنه من خصائصه جواز تركه إذا كان له فيه حق، إلا أن هذا يعود على الدليل بالنقض فلا يتم الجواب به، ولا يلزم أن يكون مقتولاً بالكفر الباطن وهؤلاء يحكم به كما قيل.

(وقال أبو عمران القابسى) وفى نسخة الفاسى وقد تقدم بيانه **(من سب النبى، عليه السلام، ثم ارتد عن الإسلام)**، بإظهار خروجه منه **(قتل ولم يستتب)**، أى لم تطلب توبته ولم تقبل **(لأن السب من حقوق الآدميين التى لا تسقط عن المرتد)** وإن تاب لكن توبته إن أظهرها وأخلص فيها نفعته فى الآخرة.

(وكلام شيوخنا) المالكية **(وهؤلاء)** المنقول عنهم آنفًا وغيرهم **(مبنى على القول بقتله)** أى الساب **(حدًا)** فى قذف الأنبياء **(لا كفرًا)** بردته إلا أن مجرد هذا لا يكفى فى تحقيق ما قالوه **(وهو يحتاج إلى تفصيل)** أكثر مما قالوه وهذا مبنى على عدم كفره والفرق بين القتل حدًا وكفرًا وكلاهما مشكل.

وقال السبكى فى السيف المسلول: إن قتل المرتد عقوبة خاصة رتبها الشرع على خصوص الردة كالرجم على الزنا، فقتل المرتد حد وسقوطه بالتوبة لا ينافيه، فإن الرجم حد بالإتفاق مع الاختلاف فى سقوطه بالتوبة، ومن ظن أن من سماه حدًا لا يسقط بالإسلام فهو غالط، فالساب المسلم مرتد والكلام فيه كالكلام فى المرتد وإن قتل كقتله حدًا. انتهى.

ومنه يعلم ما فى فى كلام المصنف فى هذا الفصل، وأنه فرق بين الحد وقتل الكفر وهو غير مسلم أيضًا، وأما استشكاله بأنه كيف يكون حدًا مع أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ترك قتل بعض الناس ممن سبه، والحدود لا يمكن تركها فغير مسلم على إطلاقه، فإن ما لا يعفى عنه منها ما هو حق الغير وأما حق نفسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فليس كذلك كما مر.

(وأما على رواية الوليد بن مسلم) الذى قدمنا ترجمته **(عن مالك ومن وافقه على ذلك)** ضمير وافقه لمالك أو للوليد **(ممن ذكرناه)** فيما تقدم **(وقال به من أهل العلم فقد صرحوا أنه)**، أى سب الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ردة)** وكفر **(قالوا ويستتاب منها)** فتقبل توبته كغيره ممن ارتد **(فإن تاب نكل)** ببناء المجهول مشددًا، أى عوقب بتعزيره وضربه ونحوه.

(وإن أبى) التوبة فلم يتب **(قتل فحكم له بحكم المرتد مطلقا)**، أى بأى وجه كانت الردة فحكمها ما ذكر **(فى هذا الوجه)** على هذا القول الذى رواه الوليد عن مالك.

(والوجه الأول) من أنه يقتل حدًا لا كفرًا **(أشهر وأظهر لما قدمناه فى توجيهه ونحن نبسط الكلام)**، أى نفصله ونوضحه **(فيه)**، أى فى سبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فنقول من لم يره)**، أى من لم يعتقد ويذهب إلى أنه **(ردة)** وكفر **(فهو يوجب القتل فيه حدًا)** لا كفرًا **(وإنما يقول ذلك مع فصلين)**، أى فى وجهين وصورتين مخصوصتين نفصله ونميزه عن غيره **(أما مع إنكاره مما يشهد به عليه)** من سبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولأجل إنكاره لم يحكم بكفره لكن قامت البينة العادلة عليه **(أو)** مع **(إظهاره الإقلاع)** إفعال من القلع وهو النزع أريد به الترك بالكلية والرجوع عنه **(والتوبة)** عنه هو عطف تفسير **(فنقتله حدًا)** كما تقدم **(لثبات كلمة الكفر عليه)** بشهادة أمضاها الحاكم عليه **(فى حق النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** بسبه له فيحد حد قاذف الأنبياء وهو القتل.

(وتحقيره ما عظم الله من حقه) الذى أوجبه على عباده **(وأجرينا حكمه)**، أى حكم الساب المنكر ذلك **(فى ميراثه)** فورثنا ورثته منه لظاهر إسلامه **(وغير ذلك)** من حقوق المسلمين **(حكم الزنديق إذا أظهر عليه وأنكر أو تاب)** ثم استشعر سؤالاً بأنه كيف لا يحكم بكفره بعد ثبوت تكلمه بكلمة الكفر، وأجاب عنه بقوله: **(فإن قيل: كيف تثبتون عليه الكفر ويشهد)** ببناء المفعول، أى يشهد الشهود وفى نسخة ويشهدون **(عليه)** بماقاله من تلفظه **(بكلمة الكفر)** فى سبه للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ولايحكمون بحكمه)**، أى بحكم الكافر المرتد **(من الاستتابة وتوابعها)** من ترك قتله إذا تاب ونحوه.

(قلنا) فى الجواب عن هذا السؤال **(نحن وإن أثبتنا له حكم الكافر فى القتل)**، أى فى قتله كالمرتد **(فلا نقطع)**، أى نجزم بالحكم **(عليه بذلك)**، أى بكفره **(لإقراره بالتوحيد وإتيانه بكلمته)** **(و)** إقراره بـ**(النبوة)**، أى بأن محمدًا نبى الله ورسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وإنكاره ما شهد به عليه)** من السب والتحقير **(أو زعمه)** بتثليث أوله أى ادعائه **(أن ذلك)** الذى صدر منه **(كان منهوهلا)**، أى خطأ وذهولا منه وهو بفتحتين من واهل إلى الشيء يهل بالكسر كيعد إذا ذهب وهمه إليه، أو من وهل بالكسر يوهل إذا غلط وسهى **(معصية)**، أى زعمه أنه معصية لما سبق إليه وهمه من غير تعمد منه.

(وأنه مقلع عن ذلك)، أى راجع عنه **(نادم عليه)**، أى على ما صدر عنه وأجاب عن سؤال تقديره فكيف يثبت له أحكام الكفر مع إسلامه بقوله **(ولايمتنع)** شرعًا **(إثبات بعض أحكام الكفر)** كالقتل **(على بعض الأشخاص وإن لم تثبت له خصائصه)**، أى ما يختص بالكفر فى ميراثه وغيره **(كقتل تارك الصلاة)** عند القائل به كالشافعى، رضى الله تعالى عنه، وهذا إذا تركها كسلاً وتهاونًا لا جحدًا لها فإنه كفر بالاتفاق وعلى ما تقرر

من مذهب الشافعى، قال السبكى فى طبقاته: للمزنى فيه إشكال صعب فإن هذا لا يتصور؛ لأنه إما أن يكون على ترك صلاة مضت أو لم تأت والأول باطل؛ لأن المقضية لا يقتل تاركها.

والثانى كذلك؛ لأن له التأخير ما لم يخرج الوقت فعلى م يقتل تاركها وقد أجيب عنه بوجوه:

الأول: أنه وارد فى التعزير والضرب فالجواب الجواب وهو جدلى.

الثانى: أنه على الماضية؛ لأنه تركها بلا عذر، ورد بأن القضاء لا يجب على الفور وبأن الشافعى لا يقتل بالمقضية مطلقا، ومذهب أصحابه أنه لا يقتل بالامتناع عن القضاء.

الثالث: أنه يقتل بالمؤداة فى آخر وقتها، ويلزمه أن المبادرة الى القتل لتارك الصلاة أحق منها إلى المرتد إذ يستتاب وهذا لا يمهل إذ لو أمهل صارت مقضية وقد مر ما فيه. انتهى.

أقول: قد يقال: مراده من اعتاد ذلك بقطع النظر عن كونها أداء أو قضاء، لما فيه من تهاونه لما هو عماد الإسلام والمعترض فرضها فى صلاة واحدة معينة فتدبر **(وأما من علم أنه سبه)** ﷺ **(متعقدًا استحلاله)**، أى هو يعتقد أن سبه يحل له مع حرمته إجماعا **(فلايشك فى كفره بذلك)**، أى باعتقاده حل ما حرمه الله وما ذكره من أن سبه إنما يكون كفرًا استحله صحح بعضهم خلافه.

وقال: الصحيح أنه يكفر مطلقًا، وهو أظهر **(وكذلك)** لا يشك فى كفره **(إن كان سبه فى نفسه كفرًا)**، أى ما سبه به فإن أنواع السب متفاوتة **(كتكذيبه)**، أى ادعاء كذبه فى ما بلغه عن ربه **(أو تكفيره)**، أى قوله إنه صدر منه كفر **(ونحوه)** فإنه متضمن لعدم الإيمان به، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو عين الكفر **(فهذا مما لا إشكال فيه)**، أى فى الحكم بكفره لما عرفته **(ويقتل)** إن لم يتب بل **(وإن تاب منه)** لكن قتله مع عدم توبته لردته به **(لأنا لا نقبل توبته)** فهو لا يدفع عنه القتل **(ونقتله بعد التوبة حدا)** لا كفرًا لرجوعه عنه وإنما نقتله **(لقوله)** الذى صدر منه **(ومتقدم كفره)** قبل توبته صيانة لمقام النبوة:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وهذا أحد المذهبين فيه عند الشافعى، والآخر أنه إذا قبلت توبته وإقلاعه لا يقتل وهذا حكمه فى الدنيا **(وأمره بعده)**، أى بعد قبول توبته فى الآخرة مفوض **(إلى الله**

المطلع على صحة إقلاعه) وإخلاص طويته فى توبته **(العالم بسره)** وما أضمره فى قلبه من عقيدته.

(وكذلك من) سبه و**(لم يظهر التوبة واعترف بما شهد به عليه وصمم)**، أى بقى ثابتًا ملازمًا لقوله **(عليه فهذا كافر)** بلا خلاف فى كفره وقتله **(بقوله)** الصادر عنه **(واستحلاله هتك حرمة الله وحرمة نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم)** والحرمة ما يجب احترامه وتوقيره وهتكها بتركها وإظهار ما يخالفها **(يقتل كافرًا بلا خلاف)** فى كفره وقتله **(فعلى هذه التفصيلات)** المذكورة **(خذ كلام العلماء)**، أى اعلم واعتقد ما نقل عن علماء الأمة من أصحاب المذاهب على الأصح عندهم فهو وما بعده أمر بخاء وذال معجمتين من الأخذ.

وقيل: إنه بحاء مضمومة ودال مهملتين مشددة، أى اعتبر حدودهم **(ونَزِّل)**، أى احمل **(مختلف عباراتهم)** المنقول عنهم فى كتبهم **(فى الاحتجاج عليها)** فعدم القتل ينزل على بعض الصور ووجوبه ينزل على بعض آخر مما فصله **(وأجر اختلافهم)** المنقول عنهم **(فى الموازنة)**، أى تعيين أحكامها وتطبيق بعضها على بعض كما تعلم المقادير بوزنها وفى نسخة فى الوزان.

(وغيرها) بمخالفة البعض لغيره **(على ترتيبها)**، أى ترتيب التفصيلات المتقدمة **(يتضح لك مقاصدهم)** نفيًا وإثباتًا بالتوفيق بينهما **(إن شاء الله)** تعالى.

* * *

(فصل إذا قلنا بالاستتابة)

لمن سب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وسائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(حيث تصح)**، أى فى محل حكم بصحتها فيه الفقهاء **(فالاختلاف فيها)**، أى الاستتابة **(على الاختلاف فى توبة المرتد)** لاشتراكهما فى الكفر بعد الإسلام **(لافرق بينهما)** عند مالك وأصحابه.

ولو قال استتابة المرتد كان أحسن؛ لأنه إذا جاء تائبًا من نفسه لم يجر فيه هذا الخلاف **(وقد اختلف السلف فى وجوبها وصورتها)**، أى كيفية الاستتابة، على أى وجه تكون **(ومدتها)** التى يمهل فيها **(فذهب جمهور العلماء)**، أى أكثرهم **(إلى أن المرتد يستتاب)**، أى يطلب منه التوبة عند ردته **(وحكى ابن القصار)** من أئمة المالكية، وقد تقدمت ترجمته.

(أنه إجماع من الصحابة) فى زمنهم، رضى الله تعالى عنهم أجمعين، ثم بين الإجماع

بأنهم اتفقوا (**على تصويب قول عمر**) بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه (**فى الاستتابة**) حين حكم بها (**ولم ينكره واحد منهم**) و لم يخالفه فيه أحد (**وهو قول عثمان**) بن عفان، رضى الله تعالى عنه، (**وعلى**) بن أبى طالب، كرم الله وجهه، (**وابن مسعود**) من الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

ثم ذكر من تابع الصحابة عليه من كبار التابعين ولذا غير أسلوبه؛ فقال: (**وبه قال**)، أى أفتى واعتقد (**عطاء بن أبى رباح**) كما تقدم (**و**) إبراهيم (**النخعى**) بفتح الخاء المعجمة وسكنها بعضهم تخفيفا (**و**) سفيان (**الثورى ومالك وأصحابه والأوزاعى**) نسبة للأوزاع قبيلة كما تقدم.

(**والشافعى وأحمد بن حنبل وإسحاق**) بن إبراهيم بن راهويه (**وأصحاب الرأى**)، قال النووى: المراد بأصحاب الرأى فى عرف أهل خراسان من الشافعية: أبو حنيفة وأصحابه، وهى: عبارة غير لائقة إن قصدوا بها أنهم يتبعون آراءهم ولا يتقيدون بنصوص الأحاديث، فإن أريد بها شدة ذكائهم فى استنباط الأحكام كما قال المتنبى:

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى

فلا بأس به (**وذهب طاوس**) بن كيسان اليمنى (**ومحمد بن الحسن وعبيد بن عمير**) ابن قتادة بن سعد الليثى وهو ثقة أخرج له الستة، وتوفى سنة أربع وتسعين ومائة (**والحسن فى إحدى الروايتين عنه**) والأخرى موافقة الجمهور فيه (**إلى أنه لا يستتاب**) فيقتل (**وقاله عبد العزيز بن أبى سلمة**) بفتحتين وهو المعروف بالماجشون كما تقدم وهو إمام معظم مشهور توفى سنة أربع وعشرين ومائة، وليس هو عبد العزيز بن أبى سلمة العمرى.

(**وذكره عن معاذ**) بن جبل الأنصارى الصحابى، أى رواه عنه (**وأنكره سحنون عن معاذ**)، أى أنكر روايته عنه (**وحكاه الطحاوى عن أبى يوسف وهو قول أهل الظاهر**)، أى من مذهبهم الأخذ بظاهر الأدلة وهو مذهب داود بن محمد الظاهرى ومن تبعه كابن حزم (**قالوا و**) إن لم يستتب (**تنفعه توبته عند الله**) فى الآخرة؛ لأنه ليس بكافر.

(**ولكن**) توبته (**لاتدرئ**)، أى تدفع وترفع (**عنه القتل**) عند الحاكمين بقتله حدًا (**لقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم**) فى حديث رواه الشيخان عن ابن عباس (**من بدل دينه فاقتلوه**)[1] وظاهره يقتضى المبادرة لقتله من غير استتابة، والقائل بخلافه يقول إن لم يتب

---

(١) أخرجه البخارى (٣٠١٧)، وأبو داود (٤٣٥١)، والترمذى (١٤٥٨)، والنسائى (٤٠٥٩)، وابن ماجه (٢٥٣٥)، وأحمد (٢١٧/١، ٢٨٢، ٢٨٣).

لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]، الى غير ذلك من الأدلة.

(وحكى أيضًا عن عطاء) ابن أبى رباح **(أنه إن كان)** المرتد والساب **(ممن ولد فى الإسلام)** بأن ولد مسلمًا وكان بين أظهر المسلمين **(لم يستتب)**؛ لأنه غير معذور فى مثله **(ويستتاب الإسلامى)**، أى من ولد كافرًا ثم طرأ عليه الإسلام لقيام شبهة عنده لما كان فى طبعه من الكفر فيعذر ويتألف **(وجمهور العلماء على أن المرتد و)** المرأة **(المرتدة فى ذلك)**، أى فى القتل بالردة **(سواء)** لا فرق بينهما **(وروى عن على)**، رضى الله تعالى عنه، موقوفا عليه وهو مذهبه **(لاتقتل المرتدة وتسترق)** أو تحبس لما ورد فى الحديث عن النهى من قتل النساء.

(وقاله عطاء وقتادة وروى عن ابن عباس: لا تقتل النساء فى الردة)[1]، أى بسببها ولأجلها **(وبه)**، أى بهذا المذهب **(قال أبو حنيفة وروى عن مالك)** أيضًا القول به وفى نسخة، وقال مالك، رحمه الله تعالى، وقد علمت أن مذهب أبى حنيفة أنها لا تقتل بل تحبس، ودليله ما ورد فى الحديث من النهى عن قتل النساء وغيره حمله على الكافرة الأصلية؛ لأن قتل الكافر لدفع ضرره ونكايته والمرأة لا تخشى نكايتها وغيره. يقول العلة الكفر

(والحر والعبد والذكر والأنثى فى ذلك) الحكم **(سواء)** فيقتلون جميعا **(وأما مدتها)**، أى مدة الاستتابة عند القائلين بها **(فمذهب الجمهور)** من العلماء فيها **(وروى عن عمر)** بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، فى تقدير المدة **(أنه يستتاب ثلاثة أيام ويحبس فيها)**[2] فإن تاب أطلق وإلا قتل **(وقد اختلف فيه)**، أى فى هذا المذهب المروى **(عن عمر)** فى المدة المذكورة **(وهو أحد قولى الشافعى)** والقول الآخر أنه يستتاب فى الحال فإن تاب وإلا قتل.

(و) هو **(قول أحمد)** بن حنبل **(وإسحاق)** ابن راهويه أيضًا **(واستحسنه)** الإمام **(مالك)** بن أنس **(وقال)** مالك فى استحسانه لرجحانه عنده **(لايأتى الاستظهار)**، أى الاحتياط بالتأخير والتثبت حتى يظهر الأولى **(إلا بخير)**، أى التأنى وعدم العجلة خير فى مثل هذا **(وليس عليه)**، أى على هذا القول بالتأخير والتأنى **(جماعة الناس)**، أى فالجمهور على خلاف هذا القول **(قال الشيخ أبو محمد بن أبى زيد)** من المالكية وقد قدمنا ترجمته.

---

(١) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (١٦٨٦٩).

(٢) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (١٦٨٨٧)، وفى معرفة السنن (٥٠٣٢).

(يريد فى الاستيناء)، أى التأخير وهو استفعال من التأنى والآناء وأصله من الآن وهو الزمان كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحديد:١٦]، **(ثلاثا)** من الأيام كما تقدم.

(وقال مالك أيضًا: الذى آخذ به)، أى عمل به واتخذه مذهبا **(فى)** حكم **(المرتد قول عمر)**، رضى الله تعالى عنه، وهو أنه **(يحبس ثلاثة أيام ويعرض عليه كل يوم)** التوبة والرجوع بوعظه ونصيحته **(فإن تاب)** أطلق **(وإلا قتل، وقال أبو الحسن بن القصار)** من المالكية كما تقدم **(فى تأخيره ثلاثا روايتان عن مالك هل ذلك)** التأخير **(واجب)** على الحاكم فلا تجوز المبادرة لقتله **(أو مستحب)** فيجوز قتله قبلها **(واستحسن الاستتابة والاستيناء)** بالمد، أى التأخير **(ثلاثا أهل الرأى)**، أى القياس والمراد أبو حنيفة وأصحابه كما مر ما فيه.

(وروى عن أبى بكر الصديق)، رضى الله تعالى عنه، **(أنه استتاب امرأة)**، أى طلب توبة امرأة ارتدت واسمها أم قرفة، وهى من بنى فزارة **(فلم تتب فقتلها)**(١) فإنه لا فرق عنده بين الذكر والأنثى.

(وقال الشافعى مرة)، أى يستتاب مرة واحدة **(فقال: إن لم يتب قتل مكانه)**، أى فى محله الذى عرض عليه التوبة فيه **(واستحسنه المزنى)** من أئمة الشافعية وهو القول الأصح فى مذهبهم.

(وقال) الإمام أبو بكر محمد بن مسلم بن شهاب **(الزهرى يدعى الى الإسلام ثلاث مرات)** فى وقت واحد أو فى يوم واحد ويحتمل أنه فى ثلاثة أيام وهو خلاف الظاهر **(فإن أبى)** التوبة **(قتل، وروى عن على أنه يستتاب شهرين)** فإن أبى قتل **(وقال النخعى يستتاب أبدًا)** المراد به زمنًا طويلاً **(وبه أخذ)** سفيان **(الثورى)** إلا أنه قال زيادة **(ما رجيت توبته)** فزاد قيدًا فسر به كلام النخعى بأن المراد بالأبد ما دامت التوبة ترتجى منه وربما يكون كلام ابن وهب الآتى عن مالك مفسرًا لهذا.

(وحكى ابن القصار عن أبى حنيفة أنه يستتاب ثلاث مرات فى ثلاثة أيام أو ثلاث جمع) جمع جمعة **(فى كل يوم أو)** فى كل **(جمعة مرة)** هذا إما تخيير من أبى حنيفة أو شك من ابن القصار أو من المصنف **(وفى كتاب محمد)** المعروف بابن المواز من المالكية **(عن أبى القاسم)** واسمه عبد الرحمن كما تقدم.

(يدعى المرتد إلى الإسلام ثلاث مرات) فى ثلاثة أيام كما هو مذهب مالك **(فإن أبى)**

---

(١) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (١٦٨٧٣).

الرجوع (**ضربت عنقه**) بعد دعوته (**واختلف على هذا**) باستتابته وتأخير قتله (**هل يهدد**) بزجره ووعيده بالقتل ونحوه (**أو يشدد عليه**) بتضييق حبسه ووضعه فى الأغلال ونحوه فى مدة (**أيام الاستتابة ليتوب**) بسبب تهديده والتشديد عليه (**أم لا**) فيكتفى بحبسه (**فقال مالك: ما علمت أن فى**) زمن (**الاستتابة تجويعا**) بعدم إيصال الطعام (**ولاتعطيشا**) بترك سقية الماء (**ويؤتى من الطعام بما لا يضره**) فلا يؤتى ما هو شديد المرارة أو مستقذرًا يكرهه.

(**وقال أصبغ: يخوف أيام الاستتابة بالقتل**) ليرجع (**ويعرض عليه الإسلام**) فيقال له أسلم تسلم (**وفى كتاب أبى الحسن الطابثى**) بفتح الطاء المهملة وألف بعدها باء موحدة ثم ثاء مثلثة وياء نسبة لطابث وهى قرية قريبة من البصرة، وهذا من جملة العلماء المشهورين، وفى نسخة أبى الحسين أنه (**يوعظ فى تلك الأيام**) التى أمهل بها (**ويذكر بالجنة**) ودخولها إذا تاب (**ويخوف بالنار**) وعذابها إن لم يتب ويرجع عما هو عليه.

(**وقال أصبغ: وأى المواضع حبس فيها من السجون مع الناس**) المحبوسين فيها بسبب ما (**أو**) حبس (**وحده**) فى سجن مخصوص به (**إذا استوثق منه**) وفى نسخة إذا أوثق، أى حفظ حتى لا يفر، إذ المقصود حفظه حتى يتبين حاله فكل سجن فى حقه (**سواء**) لحصول المر به (**ويوقف مع ذلك ماله**)، أى كل شىء يملكه يجعل محفوظًا بيد غيره ويجوز جعله بما الموصولة وله جار ومجرور صلة لها.

(**خيفة**) بالنصب مفعول له وفى نسخة إذا خيف (**أن يتلفه على المسلمين**)، أى لئلا يتلفه عليهم، وهذه علة لا يلزم إطرادها فلا وجه للاعتراض بأنه يقتضى أنه لا يوقف إن لم يخش إتلافه؛ لأن وقفه لأجل أنه فىء لردته (**ويطعم منه**)، أى من ماله (**ويسقى**)، أى ينفق عليه مدة حبسه من ماله، يعنى أن ماله موقوف و لم يزل ملكه عنه، فإن أسلم تبين أنه باق على ملكه وإلا كان فيئا كغيره من أموال الكفرة فيوضع فى بيت المال والكلام عليه مفصل فى كتب الفقه.

(**وكذلك**)، أى مثل ماتقدم من المدة تفصيلا (**يستتاب كلما رجع وارتد**) لردته ثم تاب، أى إذا تكررت ردته (**أبدًا**) ثم استدل بقوله (**وقد استتاب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، نبهان**) بفتح النون وسكون الباء الموحدة وهاء وهو فعلان من بنه بينه، وفى الصحابة من اسمه نبهان ثلاثة؛ أحدهم نبهان التمار وكنيته أبو مقبل وسمى تمارًا؛ لأن امرأة جميلة ابتاعته تمرًا فقال: فى بيتى أجود منه، فذهبت معه فضمها وقبلها فقالت له: اتق الله فتركها ثم ندم، وأخبر بذلك رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فنزل فيه ﴿**وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً**﴾ [آل عمران:١٣٥] الآية.

وقال البرهان: فى الصحابة ثلاثة اسم كل منهم نبهان لا أعلم (**الذى ارتد**) منهم (**أربع مرات أو خمسا**) أهو أبو مقبل التمار الذى روى عنه مقاتل وغيره، أو نبهان الذى ذكره ابن شاهين وروى عنه ابنه، والثالث نبهان الأنصارى، قال الذهبى: ولعله أحد هذين.

وذكر البيهقى من ارتد وأن اسمه نبهان و لم يعينه، و لم يذكر ابن الجوزى من اسمه نبهان من الصحابة غير الأول (**وقال ابن وهب**) المصرى المالكى وقد تقدم (**عن مالك يستتاب أبدًا كلما رجع**) إلى ردته وتكررت منه (**وهو قول الشافعى وأحمد**) بن حنبل (**وقاله ابن القاسم وقال إسحاق**) بن راهويه (**يقتل فى**) الردة (**الرابعة**) دون استتابة؛ لأنه علم بها عدم ثباته على الإسلام.

(**وقال أصحاب الرأى**) يعنى الحنفية (**إن لم يتب فى**) الردة (**الرابعة**) من نفسه من غير استتابة (**قتل دون استتابة**)، أى لا تطلب توبته منه ولا عرضها عليه (**وإن تاب**) بنفسه فى الرابعة (**ضرب ضربًا وجيعًا**) شديدًا مؤلما زجرًا له على تكرر ردته (**ولم يخرج من السجن حتى يظهر عليه خشوع التوبة**) بانكساره وندمه وتذلله وهذا لا يخالف، قوله تعالى: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ**﴾ [الأنفال:٣٨]؛ لأنه فى حق الكافر الأصلى مع أنه لا ينافى مغفرة الله أصلا.

(**قال**) أبو بكر محمد (**ابن المنذر**) الذى تقدمت ترجمته (**ولا نعلم أحدًا**) ممن يعتد به من العلماء (**أوجب على المرتد فى المرة الأولى**) من ردته المتكررة (**إذنا**)، أى تأديبا بضرب وسجن (**إذا رجع**) عنها بنفسه إلى الإسلام (**وهو مذهب مالك والشافعى و**) أبى حنيفة (**الكوفى**) نسبة إلى الكوفة مدينة معروفة، وفى تقييده بالأولى إشارة إلى أن فى غيرها خلافًا كالثالثة.

* * *

(فصل)

قال القاضى أبو الفضل عياض المصنف، رحمه الله تعالى: (**هذا**) المذكور كله (**حكم من ثبت عليه ذلك**) الذى قدمه من السب والردة (**بما يجب**) ويتحقق (**ثبوته**) شرعًا (**من إقرار**) واعتراف بما صدر منه (**أو عدول**)، أى شهادة شهود عدول (**لم يدفع فيهم**) ببناء المجهول، أى لم يطعن بتهمة فى عدالتهم (**فأما من لم يتم الشهادة عليه**)، أى نصابها و لم تقبل (**بما شهد عليه الواحد**) فقط (**أو اللفيف**)، أى الجماعة والطائفة الملتفين (**من الناس**) الذين لم تقبل شهادتهم، وقيل: المراد باللفيف أشخاص مختلفة لهم عليه حمية وعصبية أو أهل التزوير (**أو ثبت قوله**) الصادر عنه (**لكن احتمل**) معنى آخر لا يقتضى الكفر (**ولم**

يكن صريحًا) فى السب أو الكفر.

(وكذلك)، أى مثل ما لم يتم من الشهادة **(إن تاب)** ورجع بنفسه **(على القول بقبول توبته)** كما تقدم نقله **(فهذا يدرأ)**، أى يدفع ويمنع **(عنه القتل ويتسلط)**، أى يمضى **(عليه اجتهاد الإمام)** فيفعل ما يقتضيه رأيه من زجر وضرب ونحوه **(بقدر شهرة حاله)** قبل ذلك بشهرة ديانته وحفظ لسانه ونحوه مما علم منه.

(وقوة الشهادة عليه) ككونهم غير معروفين بالكذب والغفلة ونحوها **(وضعفها)** بكونهم على خلاف ذلك **(وكثرة السماع عنه)** بكثرة ما عزى إليه **(وصورة حاله)**، أى ظاهره **(من التهمة فى الدين)**، أى كونه متهما فى دينه معروفا بالفسق والتهاون **(والنبز)** بفتح النون وسكون الباء الموحدة وزاء معجمة، أى وصفه بين الناس وشهرة ذكره **(بالسفه)**، أى الخفة فى العقل والدين وكثرة لغطه بما لا يعنى **(والمجون)**، أى سخريته وهزله وعدم مبالاته بما يتكلم به، وأصل النبز اللقب المذموم، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ**﴾ [الحجرات:١١]، يقال: نبز ونزب إذا دعى غيره بسوء فأريد به هنا شهرة اتصافه به، حتى كأنه صار علمًا، والسفه أصله لغة الخفة كما علم والمجون غلظ الوجه فأريد به ما مر.

ولايرد على هذا أنه إذا لم يتم انتفى حكمه فكيف يتسلط عليه حكم الحاكم؛ لأنه أمر يرجع لاجتهاد الحاكم صيانة لأمر الدين **(فمن قوى أمره)** بظهور مانسب إليه مما يقتضى الكفر لكونه معروفا بقلة دينه وكثرة صدور ما يشتهيه منه **(أذاقه)**، أى فعل به الحاكم ما يقتضيه حاله **(من شديد النكال)**، أى العقوبة الشديدة المانعة له عما فعله والإذاقة فى الطعام استعيرت لمس الآلام كما تقرر عندهم **(من التضييق)** عليه بحبس **(فى السجن)** ونحوه وهو بيان للنكال **(والشد)**، أى الربط **(فى القيود إلى الغاية)** والنهاية **(التى هى منتهى طاقته)**، أى ما يطيقه ولا ينكله بشىء **(مما)**، أى من أمور من أنواع الشد والتضييق بحيث **(لايمنعه القيام لضرورته)**، أى فعل أموره الضرورية التى لابد له منها فى وجوده **(ولا يقعده عن صلاته)**، أى يعوقه عنها أو عن أداء أركانها على التمام، فليس القعود عنها ضد القيام بل العوق عنها مجازًا، وفيه إيهام وتورية لجواز إرادة أن يصلى قاعدًا لكنه غير مراد **(وهو)**، أى النكال المذكور.

(حكم كل من وجب عليه القتل) بوجه من الوجوه **(لكن وقف)** ببناء المجهول، أى يوقف الحاكم **(عن قتله)** بعدم المبادرة له **(لمعنى)**، أى سبب عن قصد **(أوجبه)**، أى التوقف فى قتله **(وتربص به)** ببناء المجهول، أى أخر وانتظر فى أمره **(لإشكال)**، أى لأمر أوجب التردد فيه **(وعائق)**، أى أمر عاق عنه **(اقتضاه)**، أى اقتضى التربص والتأخير

(أمره)، أى حاله وشأنه **(وحالات الشدة عليه فى نكاله)** وعقابه **(تختلف)** شدة وضعفا **(بحسب اختلاف حاله)** فى الظهور والقوة وعدمها **(وقد روى الوليد)** بن مسلم كما تقدم.

(عن مالك والأوزاعى أنها)، أى مقالته غير الصريحة **(ردة فإذا تاب)** ورجع عنها **(نكل)** ببناء المجهول والتشديد، أى عوقب **(ولمالك فى العتبية)** اسم كتاب كما تقدم **(وكتاب محمد)** بن المواز كما تقدم **(من رواية أشهب)** عن الإمام مالك **(إذا تاب المرتد فلا عقوبة عليه)** بقتل وغيره. **(وقاله سحنون)** رحمه الله تعالى.

(وأفتى أبو عبد الله بن عتاب) من المالكية **(فيمن سب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فشهد عليه شاهدان)** بأنه سب لكن **(عدل أحدهما)** دون الآخر **(بالأدب)**، أى أفتى بتأديبه فهو متعلق بأفتى وما بينهما اعتراض **(الموجع)** المؤلم **(والتنكيل)** بعقوبته **(والسجن الطويل)** زمانه **(حتى يظهر)** عليه **(توبته)**، أى علاماتها.

(وقال القابسى مثل هذا) الذى قال ابن عتاب بعينه **(ومن كان أقصى)**، أى غاية **(أمره)** فى الحكم عليه **(القتل فعاق عائق)** عن قتله كما مر **(أشكل)** صفة عائق **(فى القتل)** متعلق بهما على التنازع، وقوله: **(لم ينبغ)** لم يضبطه أحد ممن تكلم عليه هنا، إلا أنه وقع فى النسخ بنون بعدها موحدة وغين معجمة وهو بكسر الغين مجزوم وأصله ينبغى، ولو قيل إنه بسكون الغين صح لكنه بعيد من نبغ، وهو إذا أسند لغير العقلاء كان بمعنى ظهر، يقال: نبغ الأمر إذا ظهر فهو ظاهر هنا وإن لم يؤلف استعماله، ويقال: نبغ فلان إذا قال الشعر وبه سمى النابغة **(أن يطلق من السجن)**، أى لا يظهر إطلاقه منه بل يبقى فيه مدة.

(و) لكن **(يستطال سجنه)** وفى نسخة: ولا يستطال سجنه، وينبغى أن يعطف على يطلق، أى لا ينبغى أن لا يستطال سجنه ليتفق معناهما **(ولو كان فيه)**، أى فى السجن **(من المدة)** الطويلة **(ماعسى أن يقيم)** فى السجن، أى ولو طال جدًا **(ويحمل عليه من القيد ما يطيق)**، أى غاية ما يطيقه ولا يكلف فوق طاعته وتحمله وكل هذا تعزير له برأى الحاكم لتهمته وإن لم يثبت عليه ذلك، ومثله كثير فى الأحكام الشرعية فلا وجه لإنكاره والقول بأنه لا يلزم من عدم ثبوت ما يوجب القتل ثبوت ما يوجب التعزير لاسيما على مذهب مالك فى سد الذرائع لا وجه له، فالدندنة بمثله والإطالة فيه من ضيق العطن وقلة الفطن، قد كرره وحسبه شيئًا منه تفرد به.

(وقال) القابسى **(فى مثله من أشكل أمره)** ولم يظهر حاله **(يشد فى القيود شدًا)**

وثيقا **(ويضيق عليه فى السجن)**، أى ضيق عليه بسجنه أو يضيق سجنه **(حتى ينظر)**، أى يعلم أمره **(فيما يجب عليه)** من تنكيل أو قتل أو إطلاق.

(وقال) القابسى **(فى مسألة أخرى مثلها)** مشابهة لها **(ولاتـهراق الدمـاء)**، أى تصب من الإراقة والهاء مزيدة فيه، وفيه كلام مفصل فى كتب العربية واللغة ليس هذا محله **(إلا بالأمر الواضح)** الذى لا إشكال فيه؛ لأن الدماء مصونة شرعًا حتى يظهر ما يقتضيها **(وفى الأدب)** أى التأديب بالضرب **(بالسوط)** الأدب **(بالسجن نكال للسفهاء)** رادع لهم عن التكلم بما لا يليق مغن عن إراقة الدماء والجرأة على الحدود المدرأة بالشبهات.

(ويعاقب عقوبة شديدة) تردعه عما جناه مقاله **(فأما إن لم يشهد عليه سوى شاهدين)** لانحصار الشهادة فيهما **(فأثبت)** المشهود عليه **(من عداوتهما)**، أى أثبت أن بينه وبينهما عداوة تقتضى أن لا يقبل قولهما فى حقه، والمراد بالعداوة العداوة الظاهرة الدنيوية بحيث يسره ما يسوءه ويتمنى له المكروه، ويعلم أنه لو قدر على إيصال ضرر له كما بين فى كتب الفقه.

(أوجرحتهما)، أى بيان الجرح **(مـا أسـقطهما)**، أى أسقط شهادتهما وعدم قبولها كفسق وزور عرفا عند الناس فأسقط قبول شهادتهما **(عنه ولم يسمع ذلك)** الأمر الذى شهدا به **(من غيرهما)** من تقبل شهادتهما **(فأمره أخف)** فى المسامحة فى أمره وترك قتله **(لسقوط الحكم عنه)** بعدم قبول الشهادة عليه شرعا **(وكأنه لم يشهد عليه)** شاهد أصلا؛ لأن الشاهد إذا سقطت شهادته كالعدم **(إلا أن يكون)** المشهود عليه **(ممن يليق به ذلك)** الأمر الذى نسبه الشهود إليه؛ لأنه معروف بعدم الديانة والاستخفاف بالدين فيكون مظنة لما شهدوا به.

(ويكون الشاهدان) عليه اللذان أثبت عداوتهما وجرحتهما **(من أهل التبريز)** من برز إذا فاق أقرانه، أى يكونان معروفين بالعدالة والصدق و لم يعهد لهما إهانة أحد من الناس ولو كان عدوًا لهما **(فأسقطهما)**، أى أسقط شهادتهما بالطعن **(بعداوة)** معروفة بينهما قبل **(فهو)**، أى المشهود عليه أو الأمر والشأن **(وإن لم ينفذ الحكم عليه)** بموجب ما شهدا به من سب ونحوه مما يوجب القتل **(بشهادتهما)** لثبوت العداوة المانعة لقبول الشهادة **(فلا يدفع الظن)** القوى **(بصدقهما)** فيما شهدا عليه لظهور عدالتهما، والجملة الجزائية فى قوله: فلا يدفع لكونها منفية يجوز دخول الفاء عليها وهى فعلية، وقيل: إنها بتقدير مبتدأ، أى فهو لا يدفع إلخ، كقوله له: ومن عاد فينتقم الله منه وفيه نظر.

(وللحاكم هنا) فى هذه المسألة الجارية على هذا المنوال **(فى تنكيله)**، أى عقوبته بغير

القتل من التعزير الشديد (**موضع اجتهاد والله ولى الإرشاد**) فيفعل به ما يقتضيه اجتهاده من غير إبطال للحكم بالكلية، قيل: إنه شبه تنكيله بمكان له رحب فاستعاره له وفيه نظر، والتعزير ومراتبه مشهورة فى كتب الفروع فلا حاجة للإطالة بها هنا ولا غبار على عبارة المصنف، رحمه الله، كما توهم فاعرفه.

ولما فرغ من بيان حال من سب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، من المسلمين شرع فى بيان حال غيره فقال:

* * *

(فصل)

قال القاضى أبو الفضل عياض المصنف، رحمه الله تعالى: (**هذا**) المذكور قبل (**حكم المسلم**) إذا سب الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، (**فأما الذمى**)، أى الكافر الذى ليس حربيًا، والذمة هى الاحترام؛ لأن دمه وولده وماله محرم لأدائه الجزية (**إذا صرح بسبه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**أو عرض**)، أى قاله بطريق التعريض والإيهام بلا تصريح به (**أو استخف**)، أى أهان وحقر (**بقدره**) الرفيع العلى (**أو وصفه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**بـ**) أمر (**غير الوجه الذى كفر به**)، أى غير الذى كان كافرًا بسببه، كإنكار بعثته أو عموم دعوته بأن وصفه بشىء مما مر.

(**فلا خلاف عندنا**)، أى عند المالكية (**فى قتله إن لم يسلم**) فإذا أسلم لا يقتل عند الإمام مالك؛ لأن الإسلام يجب ما قبله (**لأنا**) معاشر المسلمين (**لم نعطه الذمة**) مراده بالذمة العقد الذى عقد عليه فى دار الإسلام، وضرب عليه صونا لدمه وأهله وماله، فالذمة، أى احترام ما ذكر، (**والعهد**) الذى عوهد عليه حين عقد له الذمة، يشير إلى ماوقع من عمر، رضى الله تعالى عنه، من الشروط التى شرطها على أهل الذمة وهى مشهورة وسنذكرها إن شاء الله تعالى، وفى نسخة: أو العهد، بأو الفاصلة والأولى أولى، ويحتمل أن المراد به المستأمن المعاهد إن قلنا حكمه حكم الذمى، أو هى للتقسيم أو بمعنى الواو.

(**على هذا**)، أى لم نرخص له حين عاهدناه فى سب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو الاستخفاف به (**وهو قوله: عامة العلماء**)، أى جميعهم أو أكثرهم (**إلا أبا حنيفة**) النعمان بن ثابت (**والثورى**) سفيان بن سعيد وهو صاحب مذهب مجتهد (**وأتباعهما**) يعنى من قلدهما واتبع مذهبهما (**من أهل الكوفة فإنهم قالوا: لا يقتل**) بسبب ماذكر؛ لأن (**ما هو عليه**) مرتكب له (**من الشرك**) المراد به مطلق الكفر فإنه استعمل بهذا المعنى أيضًا (**أعظم**) مما صدر منه من السب.

(و) قالوا (**لكن يعزر ويؤدب**) تعزيرا دون الحد حتى ينزجر ولا يعود لمثل ما صدر منه، وما ذكره من مذهب أبى حنيفة هو المشهور، وقد خالفه بعض المتأخرين منه.

وقال ابن تيمية فى كتابه السيف المسلول على من سب الرسول: قال أبو حنيفة وأصحابه: لا ينقض العهد بالسب، ولا يقتل الذمى به، لكن يعزر، وحكاه الطحاوى، عن الثورى، ومن أصولهم أن ما لا قتل فيه عندهم للإمام أن يقتل فاعله، ويزيد على الحد المقدر إذا رأى المصلحة فى ذلك، ويحملون ما جاء عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأصحابه من القتل فى مثله على ذلك، ويسمون هذا القتل سياسة كتغليظ الحد فى الجرائم إذا تكررت وشرعوا القتل من جنسها.

وبهذا أفتى أكثرهم، فقالوا: يقتل من سب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، سياسة وهو متجه على أصولهم. انتهى. وهو كلام حسن.

(**واستدل بعض شيوخنا**) من أئمة المالكية (**على قتله**) أى الذمى إذا سب (**لقوله تعالى:** ﴿**وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ**﴾ [التوبة:١٢])، أى نقضوا ما عاهدناهم عليه ﴿**وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ**﴾ أى وعابوه وذموه، ﴿**فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ**﴾ أى كبار الكفرة ورؤساءهم (**الآية**) ﴿**إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ**﴾ [التوبة:١٢]، وفى الاستدلال بهذه الآية بحث؛ لأنه معلق بنقض العهد، وأبو حنيفة على قوله المشهور عنه لا يرى السب نقضا للعهد، لاسيما والآية نزلت فى كفار قريش لما نقضوا ما عاهدهم عليه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عام الحديبية فى القصة المشهورة، وفى هذه الآية كلام طويل الذيل، وتخصيص المقاتلة بأئمة الكفر ناظر لهذا، والقول بأن غيرهم يعلم بالطريق الأولى محل تأمل فليحرر.

(**ويستدل أيضًا**)، أى كما استدل بالآية (**عليه**)، أى على قتل من سب يستدل (**بقتل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لابن الأشرف**) اليهودى وقد تقدمت قصته مفصلة (**وأشباهه**) من الكفرة المعاهدين اللذين قتلهم، صلى الله تعالى عليه وسلم، بسببهم له وفى الاستدلال بهذه القضية نظر؛ لأن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، صالحه وغيره من اليهود فنقض ابن الأشرف عهده ومضى لكفار مكة وحثهم على قتال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهجا النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وآذى المسلمين أشد الأذى فليس قتله بمجرد سبه (**ولأنا لم نعاهدهم**)، أى أهل الذمة وأشباههم (**ولم نعطهم الذمة**)، أى العقود والعهود (**على هذا**)، أى سب الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلم نرخص لهم فى مثله.

(ولا يجوز لنا) معاشر المسلمين **(أن نفعل ذلك)**، أى المذكور من المعاهدة على ترك المؤاخذة بمثله **(معهم)** فيما بيننا وبينهم **(فإذا أتوا)**، أى فعلوا **(مالم يعطوا عليه العهد ولا الذمة)** بفعل ما ينافيهما **(فقضوا ذمتهم)** وأبطلوا عهدهم **(وصاروا أهل حرب)**، أى مثلهم فى أنهم **(يقتلون بكفرهم وأيضًا فإن ذمتهم)** وعدهم وإن لم ينتقض **(لاتسقط حدود الإسلام عنهم)**، أى الحدود الشرعية، وهذا حد قذف الأنبياء وهو القتل فلا يسقط كسائر الحدود.

(من القطع فى سرقة أموالهم)، أى أموال المسلمين **(والقتل لمن قتلوه منهم وإن كان ذلك حلالاً عندهم)**، أى فى اعتقادهم الباطل بإباحة أموال المسلمين ودمائهم؛ لأنا مأمورون بإجراء أحكام شرعنا عليهم **(فكذلك سبهم للنبى ﷺ يقتلون به)** حدًا لا كفرًا، وهذا جواب عن قولهم ما هم عليه من الكفر أعظم، فإن كونه أعظم لا ينافى إجراء حكم غيره عليهم.

(ووردت)، أى نقلت **(لأصحابنا)** من المالكية **(ظواهر)**، أى أمور تدل بحسب الظاهر على ما **(تقتضى الخلاف)** فى قتل الذمى بسبه للنبى ﷺ **(إذا ذكره الذمى بالوجه الذى كفر به)** كإنكار بعثته ونبوته **(ستقف عليها)** فى هذا الكتاب فتعرفها **(من كلام ابن القاسم وابن سحنون بعد)**، أى بعد هذا فيما سيأتى.

(وحكى أبو المصعب) الزهرى أحمد بن أبى بكر القاسم بن الحارث بن زرارة بن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف، المدنى الفقيه قاضى المدينة كما تقدم **(الخلاف فيها)**، أى فى مسألة القتل بما كفر به **(عن أصحابة)** من أهل مذهبه المالكية **(المدنيين)**، أى فقهاء المدينة **(واختلفوا)** فى الذمى **(إذا سبه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ثم أسلم فقيل يسقط)** بضم أوله، أى يمنع **(إسلامه قتله؛ لأن الإسلام يجب ما)** وقع **(قبله)**، أى يقطع ويبطل حكم ماقبله من سائر المعاصى وهذا ورد عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث صحيح تقدم **(بخلاف المسلم إذا سبه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ثم تاب)** فإن توبته لا تمنع قتله كإسلام الكافر كما تقدم، والخلاف مبنى على أن قتله حد أو لنقض العهد، وفى سقوط بعض الحدود بالإسلام كالزنا خلاف لبعض الشافعية، وجب الإسلام ما قبله إنما هو فى حقوق الله خاصة كما مر.

وإنما منع الإسلام قتله **(لأنا نعلم باطنة الكافر)** الذى فى قلبه كفره **(فى بغضه)** وعداوته الدينية **(له)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وتنقصه)** له **(بقلبه)**؛ لأنه شأن كل كافر كما قيل:

كل العداوة قد ترجى مودتها إلا عداوة من عاداك فى الدين

(**لكنا منعناه من إظهاره**)، أى إظهار ما فى قلبه لكونه مقهور أمة للأبين أظهرنا (**فلم يزدنا ما أظهره**) من كفره بسب ونحوه علمًا بحاله (**إلا مخالفة للأمر**)، أى لأمر ناله حقيقة أو حكما بكتم كفره.

(**و**) لم يزدنا علمًا إلا (**نقضا للعهد**) الذى عقد عليه عقد الذمة (**فإذا رجع**) بإسلامه (**عن دينه الأول**) وهو الكفر وفى نسخة ذنبه بمعجمة ونون وموحدة (**إلى الإسلام سقط ما قبله**) من الكفر وحكمه (**قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]**) أمره الله تعالى أن يقول لهم هذه المقالة بهذا اللفظ أو بغيره فالغيبة؛ لأنهم ليسوا مخاطبين فيما أمره به، ويجوز الخطاب على حكاية ما يقوله لهم لذلك وقرأ ابن مسعود بالخطاب وما قد سلف الكفر وما وقع معه من المعاصى.

(**والمسلم**) حاله (**بخلافه**)، أى بخلاف حال الكافر (**إذ كان ظننا بباطنه**) ومافى قلبه أمر مطابق (**حكم ظاهره**) وهو الإسلام ظاهرًا وباطنًا (**وخلاف مابدا**) بالألف، أى ظهر أو بالهمزة بمعنى حدث وابتدأ (**منه**) بما صدر عنه مما يقتضى كفره ومخالفة باطنه لظاهره (**الآن**) حين ظهر حاله (**فلم نقبل بعد رجوعه**) ما ظهر من توبته وبعد مضمومة ورجوعه مرفوع نائب الفاعل ويجوز الفتح والإضافة.

(**ولا استنمنا**) بسين مهملة ساكنة بعد الهمزة ومثناة فوقية، قبل نون ساكنة قبل ميم مفتوحة ونون مشددة، أى اطمأننا فهو استفعال من النوم، أى لم نطمئن ونأنس ونركن (**إلى باطنه**) فالسين والتاء زائدتان أو هو من السنام، أى أشرفنا وعلونا عليه لنقف على حاله، وروى استأمنا، أى طلبنا الأمن منه لسوء الظن به، (**إذ قد بدت سرائره**) بظهور ما أخفاه فى قلبه على خلاف ظننا فيه.

(**وما ثبت عليه**)، أى على المسلم (**من الأحكام**) اللازمة شرعا (**باقية**) أنثه باعتبار معنى ما (**عليه لا يسقطها شىء**) لتعديه بما يخالف إسلامه بانتهاك حرمة النبوة، وحاصله الفرق بين المسلم والكافر وهو ظاهر (**وقيل لا يسقط إسلام الذمى الساب**) له ﷺ (**قتله؛ لأنه حق للنبى ﷺ**) فهو من حقوق الآدميين وهى لا تسقط بالإسلام كما تقدم كما أنه لا يسقط بتوبة المسلم (**وجب عليه**)؛ لأنه حد من حدود الله (**لانتهاكه**)، أى الساب (**حرمته**) ومعناه تناوله بما لا يحل بحال (**وقصده إلحاق النقيصة**) قصده بالجر ويجوز رفعه ورفع إلحاق والجملة حالية، وفى نسخة: إلحاقه النقيصة، بنصب النقيصة (**والمعرة به**)، أى المذمة والعيب به، صلى الله تعالى عليه وسلم، وحاشاه منها (**فلم يكن رجوعه إلى**

الإسلام بالذى يسقطه) عنه لجرائته كما وجب عليه **(من حقوق المسلمين قبل إسلامه من قتل وقذف)** بيان لما وجب فلا يسقط بإسلامه القصاص وحد القذف.

وقوله كما إلخ خبر مبتدأ مقدر، أى وهو كما إلخ؛ فلا وجه لاستشكاله **(وإذا كنا لا نقبل توبة المسلم)** إذا سبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فإن لا نقبل توبة الكافر أولى)** إلا أن ما قاله غير متجه؛ لأن الإسلام يجب ما قبله بنص الحديث المار، فالفرق بينه وبين توبة المسلم فى غاية الظهور عن البيان، بل قالوا: إنه يثاب على كل ما فعله من الحسنات حال كفره إذا أسلم وسبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيه حق لله وللآدمى فيغلب الأول إذا اعتضد بإسلامه، وفى نسخة: وإذن كنا... إلخ.

وإذن هذه قيل: إنها الشرطية حذفت الجملة المضافة إليها وعوض عنها التنوين، وهذه وإن لم تشتهر فإن الزركشى نقلها فى البرهان، وقد رأيت غيره صرح بها أيضًا.

(قال مالك) فيما نقل عنه **(فى كتاب ابن حبيب)** وهو أحد من روى عنه وكتابه يسمى الواضحة **(والمبسوط)** اسم كتاب فى الفقه **(و)** قال عبد الرحمن **(ابن القاسم)** أحد أصحاب مالك كما تقدم.

(وابن الماجشون) عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة الماجشون التميمى الفقيه صاحب مالك، توفى سنة اثنين أو أربع عشرة ومائتين، وأخرج له الستة والماجشون معناه الأبيض المشرب بحمرة وهو معرب ماه كون، ومعناه لون القمر، وله تفصيل فى كتب أسماء الرجال واسمه ميمون أويعقوب وهو مدنى.

(وابن عبد الحكم) وهو محمد بن عبد الله بن عبد الحكم بن عبد الله بن عثمان أو أعين بن الليث، توفى فى ذى القعدة سنة ثمان أو تسع وستين ومائتين، وهو إمام جليل وله أخوة ثلاثة من العلماء **(وأصبغ)** بن الفرج كما تقدم **(فيمن شتم نبينا)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(من أهل الذمة أو أحدًا من الأنبياء)** غيره، عليهم الصلاة والسلام، **(قتل إلا أن يسلم)** فلا يقتل لما مر.

(وقاله)، أى قال قول مالك هذا **(ابن القاسم فى العتبية)** الكتاب المشهور فى فقه مالك **(وعند محمد)** بن المواز **(وابن سحنون، وقال سحنون، وأصبغ: لا يقال له أسلم ولا لا تسلم)** المراد أنه لا يكلف بشىء يتعلق بالإسلام إذ لا يقال له لا تسلم **(ولكن إن أسلم)** من قبل نفسه بلاتكلف له **(فذلك)**، أى إسلامه يكون **(له توبة)** مقبولة تدرأ الحد عنه، وقد قيل هنا: إن ما وقع من مخالفة أصحاب مالك له مع أنهم مقلدون له بناء على اعتبار المصالح المرسلة عنده على ما تقرر فى علم الأصول، فإن المصلحة إذا اقتصت أمرا

يرجع إليه وفيه تفصيل لا حاجة لنا بالإطالة به هنا، فإن أردته فارجع الى ما فى كتاب ابن الحاجب وشروحه.

(وفى كتاب محمد) بن المواز المالكى **(أخبرنا أصحاب مالك أنه قال: من سب رسول الله ﷺ أو غيره من النبيين من مسلم، أو كافر قتل ولم يستتب)**، أى لم تطلب منه توبة ولم تقبل لو تاب هذا مراده فلا وجه للتردد فيه، وقوله: من مسلم أو كافر، أما المسلم فعدم قبول توبته هو الصحيح وأما الكافر فالصحيح قبول توبته بإسلامه ويدل له قوله: **(وروى بالبناء للمجهول لنا عن مالك إلا أن يسلم الكافر)** فلا يقتل على الصحيح وصحح بعضهم أن المسلم تقبل توبته وقد تقدم.

(وقد روى ابن وهب) واسمه عبد الله كما تقدم **(عن ابن عمر)**، رضى الله تعالى عنهما، **(أن راهبا)** وهو العابد المنقطع عن الناس من النصارى **(تناول النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** وتقدم أن التناول معناه الأخذ باليد تجوز به عن الكلام فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بما لا يليق فهو استعارة **(فقال ابن عمر: فهلا)** حرف معناه التندم على فوت ما يحض عليه **(قتلتموه)** ولم يذكر فيه استتابته.

(وروى عيسى) بن إبراهيم الغافقى الإمام الفقيه المحدث، توفى سنة إحدى وستين ومائتين **(عن ابن القاسم)** عبد الرحمن المصرى الفقيه كما تقدم **(فى ذمى قال: إن محمدًا)** ﷺ **(لم يرسل إلينا)** يعنى أهل الكتاب **(إنما أرسل إليكم)** أراد العرب فأنكر عموم رسالته، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وإنما نبينا)** الذى يجب علينا اتباعه **(موسى أو عيسى)** عليهما الصلاة والسلام، **(ونحو هذا)** من إنكار عموم الرسالة **(لا شىء عليه)** من قتل وغيره، وفى نسخة: لا شىء عليهم ويوافقه قوله: **(لأن الله تعالى أقرهم على مثله)** من الكفر بضرب الجزية إذا لم يحاربوا كما هو مذكور فى سورة براءة.

(وأما إن سبه فقال) تفسير لسبه هذا **(ليس بنبى أو لم يرسل)** إلىَ أحد وهو تكذيب له **(أو لم ينزل عليه قرآن)** ووحى **(وإنما هو)**، أى القرآن **(شىء تقوله)** من عنده ويخترعه **(أو نحو هذا)** من عموم الإنكار بجحده لما جاء به، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فيقتل)**؛ لأن هذا الملعون كذب الله ورسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وقال ابن القاسم: وإذا قال النصرانى ديننا خير من دينكم وإنما دينكم دين الحمير) عنى بذلك قاتله الله ولعنه، أنه إنما يتبعه أحمق لا عقل له **(أو نحو هذا من)** الكلام **(القبيح أو سمع المؤذن يقول أشهد أن محمدًا رسول الله فقال كذلك يعطيكم الله)** استهزاء منه بما من الله علينا به فى أن جعله رسولاً لنا، صلى الله تعالى عليه وسلم، يعنى أنه مناسب

لمثلكم **(ففى هذا)** الكلام وما يشبهه عند ابن القاسم يستحق قائله **(الأدب)**، أى التأديب بالضرب **(الموجع)** وفى نسخة الوجيع **(والسجن الطويل)** مدته زجرًا له ولأمثاله؛ لأنه ليس صريحا فى الشتم.

(قال: وأما إن شتم) ذمى **(النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، شتما يعرف)** أنه شتم صريح **(فإنه يقتل إلا أن يسلم قاله مالك غيره مرة)**، أى مرارًا عديدة و لم ينقل عنه فيه غيره **(ولم يقل يستتاب)** بل أطلقه فيحتمل أنه إن تاب لم يقتل ولذا **(قال ابن القاسم ومحمل قوله)**، أى مالك **(عندى إن أسلم)** بنفسه **(طائعا)** من غير إكراه له وهو مخالف لما تقدم فى غير هذه الرواية، وهذا بناء على أنه لا يصح إكراهه على الإسلام، وعند الشافعى يصح إكراه الحربى عليه دون الذمى، وفى قول يصح إكراه الذمى هنا؛ لأنه بشتمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، نقض العهد فيصير حربيا، والكلام عليه مفصل فى كتب الفقه.

(وقال ابن سحنون فى) جواب **(سؤالات سليمان بن سالم فى اليهودى)** وفى نسخة حذف فى فهو مبتدأ خبره قوله **(يقول للمؤذن إذا تشهد)**، أى قال فى أذانه أشهد أن محمدًا رسول الله **(كذبت)** إنكارًا للرسالة **(يعاقب العقوبة الوجيعة)** بالضرب الشديد **(والسجن الطويل)** ولا يقتل؛ لأنه مما كفر به **(وفى النوادر)** اسم كتاب لابن أبى زيد صاحب الرسالة المالكى **(من رواية سحنون عنه)**، أى عن مالك **(من شتم الأنبياء)** عليهم الصلاة والسلام **(من اليهود والنصارى بغير الوجه الذى به كفروا ضربت عنقه)** كما مر.

(إلا أن يسلم) فلا يقتل؛ لأن إسلامه توبة مقبولة والإسلام يجب ما قبله **(قال محمد بن سحنون، فإن قيل: لم قتلته)**، أى الذمى **(فى سب النبى)**، أى بسبب سبه له، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ومن دينه)**، أى اعتقاده وعادته **(سبه وتكذيبه)** بإنكار بعثته ﷺ وهذا مما كفر به **(قيل)** فى جوابه **(لأنا لم نعطهم العهد على ذلك)** إذا ضربت عليهم الجزية بشروط، منها أن لا يطعنوا فى ديننا فهو نقض عهد منه **(ولا)**، أى لم نعطهم العهد **(على قتلنا)**، أى قتل أحد منا **(و)** لم نعطهم العهد على **(أخذ أموالنا فإذا قتل واحدًا منا قتلناه وإن كان من دينه استحلاله)**، أى استحلال قتلنا وأخذ أموالنا **(فكذلك)** بنقض عهده **(إظهاره لسب نبينا)** ﷺ فإنا شرطنا عليهم أن لا يطعنوا فى الدين وإلا لا يظهروا كفرهم لما فيه من نكاية أهل الإسلام، وإن كان ذلك من اعتقادهم الباطل.

(قال سحنون) حال هذا فى الحكم **(كما لو بذل لنا أهل الحرب)**، أى أعطونا بعد امتناعهم ومحاربتهم لنا **(الجزية على)** شرط **(إقرارهم على سبه)**، أى على أن نقرهم ولا نمنعهم من سبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لم يجز لنا ذلك)**، أى أخذ الجزية وتقريرهم

على سبه **(فى قول قائل)**، أى لم يقل بهذا أحد من المسلمين وأئمة الدين وإن كانوا يستحلونه، لكنا لا نقرهم على إظهاره.

وهذا مما يوضح أنا لم نعطهم العهد على إظهار مثله **(كذلك)**، أى كما أنه لا يجوز مصالحة الحربى وإقراره على السب **(ينتقض عهد من سب منهم)**، أى من أهل الذمة **(ويحل لنا دمه)**، أى قتله؛ لأنه لانتقاض عهده صار حربيا مباح الدم **(وكما لم يحصن)**، أى يصون ويحفظ **(الإسلام من سبه)** من المسلمين **(من القتل كذلك لا تحصنه الذمة)** فكيف يقر على مثله الكافر، وسمى الحصن حصنا لصيانته لمن فيه، وفى هذه المقدمة أمر لا يخفى، فإن الإسلام يعدم بالسب؛ لأنه مخالف لدينه وكفر منه، وأما الذمى الكافر وإن خالفه إظهاره السب عقد الذمة وعهدها فهو موافق لاعتقاده، فالقياس مع الفرق الجلى غير ظاهر فكأنه أمر إقناعى ومقدمة جدلية على طريق التمثيل وفيه ما فيه، وكونه أولى غير مسلم.

(قال القاضى أبو الفضل) عياض المؤلف، رحمه الله تعالى، **(ما ذكره ابن سحنون عن نفسه وعن أبيه)** سحنون من أنه يقتل بمثل ما ذكر مما كفر به واستحله فى دينه **(مخالف لقول ابن القاسم)** الذى تقدم نقله عنه **(فيما خفف عقوبتهم فيه)**، أى أفتى فيه بعقوبة خفيفة غير القتل **(مما به)**، أى بسببه **(كفروا)**، أى ثبت كفرهم به عندنا وعلمنا به حين ضربنا عليهم الجزية ودرء عنه الحد.

(فتأمل) وجه التأمل الذى أمر به على عادة المصنفين فى ذكره فيما يمكن توجيهه، أنا إنما أقررناهم على كفرهم بشرط عدم إظهار ما فيه طعن فى الدين، وكيد للمسلمين بمواجهتهم بإهانة نبينا سيد المرسلين، والمخالفة بينهما أن ابن القاسم فيما نقله المصنف، رحمه الله تعالى، عنه يقول: إن من سب أحدًا من الأنبياء يقتل إلا أن يسلم، ولم يفرق بين ماكفر به وغيره، وسحنون فى جواب سليمان ألزمه العقوبة والسجن؛ لأنه مما كفر به.

وقيل: المخالفة بينهما فى قول ابن القاسم أنه قال: فيمن قال: دينكم دين الحمير، أنه يؤدب بالموجع والسجن الطويل تخفيف فى العقوبة، وسحنون وابنه قال فى تكذيب اليهودى للمؤذن أنه يعاقب وهو بالعقوبة الموجعة والسجن الطويل وليس بشىء.

(ويدل أنه)، أى ما قاله سحنون وابنه، وقيل: الضمير راجع لقول ابن القاسم والصواب الأول وهو الذى عليه الشراح **(خلاف ما روى عن المدنيين)**، أى أصحاب مالك من أهل المدينة وهم أعرف بمذهبه **(فى ذلك)** المذكور مما اختلفوا فى قتله وعدمه،

وقيل: المراد بالمدنيين علماء المدينة وأهلها مطلقًا، وهو ما قاله مالك من احتجاجه بعمل أهل المدينة؛ لأنها قبة الإسلام ومهبط الوحى ومستقر الدين، وفى هذه المسألة كلام لأهل الأصول ولابن حزم فى كتاب الأحكام كلام لا يسعه هذا المقام.

(فحكى أبو المصعب الزهرى) ابن أحمد بن أبى بكر القاسم بن الحارث بن زرارة بن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى المدنى الفقيه قاضى المدينة كما تقدم.

وفى نسخة ما حكى بدل قوله فحكى وهو الصواب كما نبه عليه التلمسانى **(قال)** أبو مصعب **(أتيت)** بضم الهمزة وبناء المجهول **(بنصرانى قال والذى اصطفى)**، أى اختار وفضل **(عيسى على محمد)** عليهما الصلاة والسلام، **(فاختلف)** ببناء المجهول **(على فيه)**، أى اختلف كلام الناس فيه، أو اختلف رأيى فيه واضطرب ثم ظهر فى أمره وحكمه **(فضربته حتى قتلته)** بشدة الضرب من حينه **(أو عاش يومًا وليلة)** بعد ضربه ومات **(وأمرت من جر)**، أى جره وسحبه **(برجله)** من محله الذى مات فيه **(وطرح)** ببناء المجهول **(على مزبلة)**، أى محل بفناء البلدة يطرح فيه الزبل والقاذورات، ومزبلة بفتح الميم لا كسرها كما قيل، وباؤه مثلث اسم للمكان المذكور **(فأكلته الكلاب)**؛ لأنه لم يدفن حتى أكلته كما تأكل سائر الجيف، وهذا مما كفر به فهو مخالف لما تقدم.

وعدم دفن من قتل من الكفرة مما لا يشرع، فكأن هذا كله مما أدى إليه اجتهاده وتشدده فى دينه **(وسئل أبو المصعب)** السابق ذكره **(عن نصرانى قال عيسى خلق محمدًا)** لزعمه الفاسد فى ادعاء ألوهيته **(فقال)** مجيبا للسائل أنه **(يقتل)** لاختلاقه الكذب على الله وجعله عيسى، عليه الصلاة والصلام، أفضل من نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقصده تنقيصه وليس مما كفر به **(وقال ابن القاسم)** من أصحاب مالك كما مر.

(سألنا مالكا عن نصرانى بمصر شهد عليه أنه قال: مسكين محمد) أراد بذلك تحقيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإهانته لا تحننًا ورأفة عليه، وميم مسكين مكسورة وقد تفتح فى غير الفصيح، وهل ميمه أصلية أو زائدة؟ فيه كلام فى التصريف **(يخبركم أنه فى الجنة)**، أى يقول: إنه سيدخل الجنة وأنه يتحقق له دخولها **(ماله لم ينفع نفسه)** هو كناية عن أنه لا يقدر على نفع نفسه فى الدنيا **(إذ كانت الكلاب تأكل ساقيه لوقتلوه استراح منه الناس)** هذا بناء على اعتقاده الفاسد قاتله الله، أى حصل لهم منه بزعمه الباطل أنه أتعبهم بكثرة أعدائه الذى اتبعوا المسلمين بقتالهم، وأنه أتعب الكفرة بقتالهم لهم.

وقوله: لو قتلوه متعلق بما بعده، معنى ويجوز تعلقه بما قبله وما بعده، ويسميه أهل البديع التجاذب، وقد أشبعنا الكلام عليه فى السوانح **(قال مالك: أرى أن تضرب عنقه)**

وترمى جيفته حتى تأكله الكلاب جزاء له بما قاله.

(قال) مالك **(ولقد كدت)**، أى قاربت **(أن لا أتكلم فيها)**، أى قربت من ترك الكلام فى هذه المسألة التى سئل عنها **(ثم رأيت)**، أى بدا لى رأى اقتضاه الدليل **(أنه لا يسعنى)**، أى لا يجوز لى ولا يحل **(الصمت)** السكوت عن هذه المسألة وعدم التكلم فيها بالحق الذى يستحقه هذا الخبيث، فشبه الصمت بمكان فيه سعة تضيق على من صمت فكان لا يدخله لما وجب عليه من إظهار الحق، فسكت من المشبه به ودل عليه بروادفه تخييلاً، ففيه تخييلية ومكنية وإنما كان مالك، رحمه الله، أراد السكوت عن هذا؛ لأنه كذب لا يروج على أحد فى حق من عصمه الله، وحماه عن أن تصل إليه يد أحد ممن يؤذيه وكأنه تلميح لما وقع له، صلى الله تعالى عليه وسلم، حين عرض نفسه على القبائل فرجموه حتى أدموا ساقيه، وكان ذلك من أولاد عبد ياليل كما فصل فى السير، أو لما وقع له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأحد وهو مشهور أيضًا.

(قال ابن كنانة) تقدمت ترجمته **(فى المبسوط)** اسم كتاب كما تقدم **(من شتم النبى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، بسبه صريحًا **(من اليهود والنصارى)** بيان لمن **(فأرى)**، أى اعتقد وأفتى **(للإمام)**، أى للسلطان؛ لأنه أحد معانيه وكذا المنصوب من جانبه ممن له تنفيذ الأحكام **(أن يحرقه بالنار)**، أى يلقيه فيها وهو حى، وهذا ما لم يجزه علماء الشرع لما ورد فى الحديث: أنه لا يعذب بالنار إلا الله أو خالقها[1]، ولذا قال **(وإن شاء)**، أى الإمام **(قتله)** بضرب عنقه **(ثم حرقت)** بالتشديد وفى نسخة: حرق بحذف التاء **(جثته)**، أى إحراق بدنه بتمامه بعد موته **(وإن شاء)** الإمام **(أحرقهم بالنار أحياء)**.

وفى نسخة: وإن شاء أحرقه بالنار حيًا، وهذا مذهب مالك فى جواز إحراق من استحق القتل، وغيره من العلماء يأباه وهو مثلة، ومذهب الشافعى أنه لا يجوز إلا قصاصًا لحديث: «من حرق حرقناه، ومن غرق غرقناه»[2]، واستدل مالك لما قاله بأن عليا، كرم الله وجهه، فعله وبقوله، عليه السلام، فى حق من ارتد: «إن وجدتموه فاحرقوه»، وغيره يقول: إنه منسوخ كما نسخت المثلة لقوله تعالى: ﴿**فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ**﴾ [النحل:١٢٦]، وهو مذهب أبى حنيفة **(إذا تهافتوا فى سبه)**، أى وقعوا فيه، والمراد أنهم أكثروا منه علنا وأصل التهافت السقوط شيئًا فشيئًا، ثم استعير لما ذكر

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٢٦٧٥)، عن عبد الله بلفظ: «إنه لا ينبغى أن يعذب بالنار إلا رب النار»، والبغوى فى شرح السنة (١٢/١٩٨).

(٢) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (١٥٩٩٣)، وقال ابن حجر فى التلخيص: فى الإسناد بعض من يجهل. انظر: التلخيص (١٨٨٣).

وهو لا يستعمل إلا فى الشر القبيح، وفيه إشارة إلى أنه مثلة لشدة ردعهم، يقال: تهافت فى كذا إذا انهمك فيه وبالغ.

(و) قال ابن كنانة و**(لقد كتب)** ببناء المجهول **(إلى مالك من مصر)** يستفتونه **(وذكر)** ابن كنانة **(مسألة ابن القاسم المتقدمة)** آنفًا التى سئل عنها فى نصرانى شهد عليه أنه، قال: مسكين محمد إلخ، كما مر.

(قال) ابن القاسم **(فأمر مالك فكتبت إليه بأن يقتل و)** أن **(تضرب عنقه)** ضرب العنق كرمى الرأس عبارة عن قتل مخصوص، والأولى فى التعبير أن يقول فأمرنى مالك أن أكتب بدليل قوله: **(فكتبت)** ما قاله مالك لإرساله للسائل **(ثم قلت له)**، أى مالك **(يا أبا عبد الله)** هى كنيته **(وأكتب)** بعد ما قلته **(ثم يحرق)** بعد قتله **(بالنار فقال)** مالك **(إنه لحقيق بذلك)**، أى إحراقه بالنار عنوان لخلوده فيها **(وما أولاه)** أفعل تفضيل بمعنى أحق **(به)**، أى بالإحراق **(فكتبته)**، أى ذلك الذى قلته **(بيدى)** تأكيد لرفع توهم التجوز به **(بين يديه)**، أى عنده فى مجلسه وهو كناية عن ذلك.

(فما أنكره)، أى ما قلته من إحراقه بعد قتله **(ولا عابه)** عليه؛ لأنه ارتضاه **(ونفذت)** ببناء المجهول والتشديد والذال المعجمة، أى أرسلت **(الصحيفة)** وهى: الورقة التى كتب فيها جواب السائل **(بذلك)** الذى قاله مالك **(فقتل وحرق)** عملا بما قاله الإمام مالك، رضى الله تعالى عنه.

(وأفتى) من أئمة المالكية **(عبيد الله)** بالتصغير يحيى **(بن يحيى)** المكنى بأبى مروان الليثى فقيه ثقة عمدة فى مذهب مالك، وهذا يحيى بن يحيى الذى روى عنه الموطأ كما تقدم.

(وابن لبابة) بضم اللام وبائين موحدتين مخففتين بينهما ألف، وهو محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة القرطى، ولد سنة خمس وعشرين ومائتين، ومات ليلة الاثنين لأربع بقين من شعبان سنة أربع عشر وثلاثمائة، ولهم أيضًا ابن لبابة آخر وهو محمد بن يحيى بن لبابة أبو عبد الله، وآخر وهو أحمد بن محمد بن عمر بن لبابة أبو محمد القرطى، توفى نصف صفر سنة خمس وعشرين، والمراد هنا الأول **(فى جماعة سلف أصحابنا)** يعنى المالكية وفى هنا بمعنى مع استعارة تبعية لتمكنه بينهم **(والأندلسيين)** تقدم ضبطه واتفاقهم فى المذهب دون الزمان فأفتى هؤلاء كلهم **(بقتل)** امرأة **(نصرانية استهلت)**، أى صرخت رافعة صوتها، من قولهم: استهل المولود، إذا صرخ، والمراد أنها أعلنت وأظهرت **(بنفى الربوبية)** بضم الراء مصدر كالخصوصية وياء النسبة للتأكيد.

(وبنوة عيسى لله) تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وبنوة بتقديم الباء الموحدة على النون مصدر أيضًا، أى أعلنت بنفى بنوة عيسى، أى أنه ليس ابنًا لله بل هو معطوف على نفى، أى نفت الربوبية، وقالت: إن عيسى ابن الله، فالمراد بنفى الربوبية نفى الوحدة والانفراد بها، وحرف بعضهم البنوة بالنبوة بتقديم النون على الموحدة وقال: فيه قلاقة؛ لأن نفى الربوبية يقتضى نفى فروعها من النبوة والرسالة، ثم إن النبوة والولادة تستلزم نفى الربوبية وهو خبط عجيب منه وأوله ينافى آخره.

(و) استهلت أيضًا **(بتكذيب محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى)** دعواه **(النبوة و)** أفتى أيضًا **(بقبول إسلامها)** إذا أسلمت بعد قولها هذا **(ودرأ القتل عنها به)**، أى بالإسلام؛ لأنه يجب ما قبله **(وبه قال غير واحد من)** فقهاء المالكية **(المتأخرين منهم القابسى)** وتقدمت ترجمته **(وابن الكاتب)** أبو القاسم عبد الرحمن بن على بن محمد الإمام المالكى الجليل، عرف بابن الكاتب، وفى نسخة: وبقبول... إلخ، بدل قال غير واحد.

(وقال أبو القاسم ابن الجلاب) بفتح الجيم وتشديد اللام وباء موحدة بعد ألف، وهو إمام جليل اشتهر بكنيته وفى اسمه أقوال، أذكر منها قولين، وهو صاحب القاضى أبى بكر الأبهرى، وله تآليف جليلة، وتوفى سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة، وهو عبد الله أو عبد الرحمن بن الحسين البصرى **(فى كتابه)** الذى صنفه فى فقه مالك، رحمه الله تعالى.

(من سب الله تعالى أو) سب **(رسوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(من مسلم أو كافر)** بيان لمن وتعميم **(قتل ولا يستتاب)**، أى لا تطلب منه توبة ولا تقبل وهو على أحد الأقوال فى الكافر.

(وحكى القاضى أبو محمد) المعروف بابن نصر وهو عبد الوهاب كما تقدم **(فى الذمى يسب ثم يسلم روايتين)** عن مالك **(فى درء)**، أى دفع **(القتل عنه بإسلامه)** إذا أسلم وهو توبته فيقبل إسلامه ولا يقتل، وفى أخرى عنه يقتل حدًا وإليه أشار بقوله: **(وقال ابن سحنون)** فى وجه قتله أنه حد **(وحد القذف وشبهه)** من الحدود كحد السرقة والزنا **(من حقوق العباد لا يسقط عن الذمى بإسلامه)** وفى نسخة لا يسقط عن الذمى إسلامه.

(وإنما يسقط عنه بإسلامه حدود الله تعالى)؛ لأنها مبنية على المسامحة لكرم الله وعفوه بحلمه **(فأما حد القذف فحق للعباد)** لا يسقط بالتوبة سواء **(كان ذلك لنبى أو غيره)** ممن يحترم بصيانة عرضه **(فأوجب)** الله، عز وجل، أو ابن سحنون **(على الذمى إذا قذف النبى**

ﷺ **ثم أسلم)** بعد قذفه **(حد القذف)** و لم تسقطه عنه توبته وإسلامه وقذف الأنبياء حده القتل كما تقدم.

ومن غفل عن هذا قال: حد القذف ثابت بالكتاب و لم يجعل الله فيه القتل إلى آخر ما قاله مما لا فائدة فيه، وكيف يخفى عليه هذا مع قول المصنف، رحمه الله تعالى، **(ولكن انظر)** أمر لكل من يأتى منه النظر والفكر فى المسائل الشرعية **(ماذا يجب عليه)**، أى على من قذف الأنبياء **(هل حد القذف فى حق النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** خاصة **(وهو القتل)** لا الجلد كحد غيره **(لزيادة حرمة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى احترامه وتوقيره **(على غيره)** من أمته لا غيره من الأنبياء، وإليه ذهب بعض الشافعية، فإن الحدود قد تتفاوت كما قال تعالى، فى أمهات المؤمنين ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٠]، **(أم هل يسقط القتل)** عنه **(بإسلامه ويحد ثمانين)** حد القذف.

(فتأمله) أمر بالتأمل لما فيه من الشبهة وقوة الخلاف فيه، فمذهبه كمذهب الشافعية، قال إمام الحرمين: قذف النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كفر بالاتفاق، وقال أبو بكر الفارسى: لو تاب لا يسقط عنه القتل؛ لأنه حد قذف النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وحد القذف له لا يسقط بالتوبة، وحكى فيه الإجماع وخالفه الصيدلانى وغيره.

وقال: يحد ثمانين إذا أسلم وذكر فيه الإمام مباحث طويلة وقال: إن ما قاله الفارسى مع بعده حسن وهذا ما جنح إليه المصنف، رحمه الله تعالى، ومن لم يقف عليه قال ما قال لعدم وقوفه على حقيقة الحال.

* * *

(فصل فى) [ميراث من قتل بسب النبى ﷺ وغسله والصلاة عليه]

حكم **(ميراث من قتل بسب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** وغيره من الأنبياء **(وغسله والصلاة عليه)** كغيره **(اختلف العلماء)** من أئمة الدين **(فى ميراث من قتل بـ)** سبب **(سب النبى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فذهب سحنون)** من المالكية **(إلى أنه)**، أى ميراثه فئ حق **(لجماعة المسلمين)** يوضع فى بيت المال كالفىء **(من قبل)** بكسر القاف وفتح الباء الموحدة تعليل، أى من جهة **(أن شتم النبى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(كفر شبه كفر الزنديق)** لظاهر إسلامه، وخفى كفره الذى دل عليه شتمه فميراثه كميراث الزنديق عنده، وشبه بوزن مثل ومعناه، وفى نسخة يشبه مضارع وليس بزنديق حقيقة لما مر من معنى الزنديق وإنما هو يشبهه فحكمه كحكمه عنده.

(وقال) من أئمة المالكية **(أصبغ)** بن الفرج كما تقدم **(ميراثه)** حق **(لورثته من المسلمين)** كغيره **(إن كان مستسرًا)**، أى مخفيا من السر وهو الخفى، وفى نسخة: مستترًا، **(بذلك)** المقال الذى قاله بأن لم يظهره علنا **(وإن كان مظهرًا له)**، أى لسبه وشتمه **(ومستهلا)**، أى معلنا **(به)** لا يكتمه، وأصل معنى الاستهلال الصراخ كما مر بيانه.

(فميراثه للمسلمين) كالفىء كما تقدم **(ويقتل على كل حال)** أى سواء تاب أم لا **(ولايستتاب)**، أى لا تطلب منه توبة ولا تقبل، وليس المراد بالسر أن يخفيه فى قلبه؛ لأنه لا يطلع عليه، وإنما المراد أنه يقوله فى خلوته لمن لا يفشى سره لعامة الناس حتى لا يطلع عليه الحاكم، وهذا كله فى المسلم، فمن توهمه عامًا له وللكفرة فقد غفل.

(وقال أبو الحسن القابسى) تقدمت ترجمته، **(إن قتل وهو منكر للشهادة عليه)**، أى لما شهدوا به عليه من السب **(فالحكم فى ميراثه)** شرعًا **(على ما أظهر من إقراره يعنى أنه)**، أى ميراثه **(لورثته)** المسلمين؛ لأن إنكاره لما شهدوا به عليه إقرار بأنه مسلم معظم لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا تلغى الشهادة ولا الإقرار **(والقتل)** إنما هو **(حد)**، أى لقذف الأنبياء لا لكفره وردته **(ثبت عليه)** الحد وحكمه **(فليس من الميراث فى شىء)** فلا يمنعه.

(وكذلك)، أى مثل ما قاله القابسى فى هذه المسألة **(لو أقر بالسب)**، أى سبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وأظهر التوبة لقتل)** جواب لو **(إذ هو)**، أى القتل **(حده)**، أى حد سب الأنبياء كما تقدم.

(وحكمه)، أى المقتول حدًا لا ردة وكفرًا **(فى ميراثه)** فيعطى لورثته **(و)** فى **(أسبابه و)** فى **(سائر أحكامه)** من غسله والصلاة عليه **(حكم الإسلام)**؛ لأنه مسلم كسائر المسلمين **(ولو أقر بالسب)** للنبى ﷺ **(وتمادى عليه)**، أى استمر فى مدى بعيد فهو استعارة، وبهذا خالف ما قبله **(وأبى التوبة)**، أى امتنع أن يتوب **(منه)**، أى من السب **(فقتل على ذلك)** المذكور من السب الذى استمر عليه **(كان)** المستمر على سبه **(كافرًا)** مرتدًا **(وميراثه)** كالفىء حق **(للمسلمين)** لا لورثته؛ لأن الكفر من موانع الإرث **(ولا يغسل ولا يصلى عليه ولا يكفن)** كفنًا تامًا كالمسلمين.

(و) إنما **(تستر عورته ويوارى)**، أى يدفن ويستر جثته بالتراب **(كما يفعل بالكفار)**، أى بغيره من الكفار الأصليين فلا يدفن فى مقابر المسلمين، وجوز الشافعية غسله وتكفينه، كما روى أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أمر عليًا لما مات أبو

طالب أن يغسله ويكفنه ويدفنه. وقد ضعفه البيهقى، ويصلى عليه إجماعًا، وأما صلاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، على ابن سلول فلأنه منافق مع أنه نهى عن ذلك بعده بقوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤].

(وقول الشيخ أبو الحسن) القابسى **(فى المجاهر)**، أى المعلن المظهر للسب **(المتمادى)**، أى المستمر على إظهاره من قبله وكون ميراثه فيئا **(بين)**، أى ظاهر **(لا يمكن الخلاف فيه)** ولا شبهة **(لأنه كافر مرتد غير تائب ولا مقلع)**، أى غير راجع عن كفره وردته **(وهو مثل قول أصبغ)** ابن الفرج فى المظهر المستهل المتمادى كما تقدم.

(كذلك) أى قول أصبغ هذا وقع **(فى كتاب ابن سحنون)** الذى قاله **(فى الزنديق)** الذى **(يتمادى)** ويستمر **(على قوله)** الصادر عنه مما كفر به **(ومثله)**، أى مثل قول أصبغ وابن سحنون قول **(لابن القاسم فى العتبية)** الكتاب المشهور.

(و) كذا هو قول **(الجماعة من أصحاب مالك)** يعنى من علماء المالكية **(فى كتاب)** عبد الملك **(ابن حبيب فيمن أعلن كفره)**، أى أظهره **(مثله)**، أى ما ذكر **(وقال ابن القاسم)** فى المذكور **(حكمه حكم المرتد)** فى أنه **(لا ترثه ورثته من المسلمين)**؛ لأنه كافر **(ولا)** ترثه أيضًا ورثته **(من أهل الدين الذى ارتد)** عن الإسلام **(إليه)**، أى إلى دين آخر كاليهودية والنصرانية؛ لأنه فارقهم للدين الحق فتعلق به حق أهله فلا يعود إليهم بعوده؛ لأنه لا يقر عليه وماله صار فيئا يستحقه المسلمون **(ولاتجوز وصاياه)**؛ لأن ماله خرج من ملكه بردته وصار موقوفا **(ولا)** ينفذ **(عتقه)** أيضًا لما ذكر وكذا سائر تصرفاته، كبيع وهبة ووقف وغيره، فإنه محجور عليه لما ذكر، وهذا كله مذهب الإمام مالك.

وأما مذهب غيره فالكلام عليه مفصل فى كتب الفقه وليس هذا محل تفصيله **(وقاله)**، أى قال ما قاله ابن القاسم **(أصبغ)** بن الفرج من أن حكمه حكم المرتد لا يورث سواء **(قتل على ذلك أو مات عليه)**، أى على إعلانه الكفر.

(وقال) الشيخ **(أبو محمد بن زيد)** صاحب الرسالة المالكى الإمام المشهور **(وإنما يختلف فى ميراث الزنديق)** الذى يبطن الكفر ويظهر الإسلام وفيه كلام تقدم **(الذى يستهل بالتوبة)**، أى يظهرها وأصل معناها الصياح كما تقدم، فكنى به عما ذكر **(فلا تقبل منه)** توبته؛ لأن توبته لخوف القتل وهذا مذهب مالك، وذهب غيره إلى قبول توبته وأنه تجرى عليه أحكام الإسلام فى الميراث وغيره.

(فأما المتمادى)، أى المستمر على زندقته واعتقاده الباطل **(فلا خلاف)** فى **(أنه لا يورث)** عنده **(وقال أبو محمد)** هو ابن أبى زيد، رحمه الله، المذكور آنفًا **(فيمن سب الله**

تعالى ثم مات ولم تعدل) ببناء المجهول وتشديد الدال المهملة، أى لم تقم **(عليه بينة)** زكيت وعدلت **(أولم تقبل)**، أى أو أقيمت عليه بينة و لم تقبل، أو ثبتت زندقته بإقراره لكنه لم يقبل **(أنه يصلى عليه)** ويرثه المسلمون ويدفن فى مقابرهم فتجرى عليه أحكام المسلمين؛ لأنه لم يحكم بكفره.

(وروى أصبغ عن أبى القاسم فى كتاب ابن حبيب فيمن كذب برسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)، أى نسبه إلى الكذب فى شيء مما أوحى إليه وهو من المسلمين؛ لأن الكلام فيهم، وفى نسخة: فيمن كذب برسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أو أعلن)**، أى أظهر **(دينا)**، أى اعتقادًا ونحلة **(مما يفارق به الإسلام)** لكفره به، والذى فى نسختنا: مما، بما الموصولة، ونسخة الشرح الجديد: ممن يفارق به، بمن الموصولة، فقال: إنه أوقع من على ما لا يعقل من غير تجوز وتغليب ولا يجوزه أهل العربية غير قطرب وهو قول ضعيف، وكأنه تبعه فيه ولك أن تقول إن صحت هذه الرواية فالمعنى مندرجا ومتلقيا لدينه ممن يفارق الإسلام **(أن ميراثه)**، أى ما يورث من ماله وغيره فىء يوضع فى بيت المال ويصرف **(للمسلمين وقال بقول مالك)**، أى وافقه فى قوله **(أن ميراث المرتد)** فىء يصرف **(للمسلمين ولا ترثه ورثته)** من أهل الإسلام **(ربيعة)** بن أبى عبد الرحمن بن فرج فقيه المدينة ومحدثها الذى روى عنه مالك والليث وغيرهما، وأخرج له الستة ووثقه أحمد وغيره، توفى سنة ست وثلاثين ومائة.

(و) قال بقوله أيضًا الإمام **(الشافعى وأبو ثور)** إبراهيم بن خالد الكلبى البغدادى أحد المجتهدين الثقة المحدث، روى عنه خلق كثير وأخرج له أصحاب السنن، وتوفى فى صفر سنة أربعين ومائتين **(وابن أبى ليلى)** وهو القاضى أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى الأنصارى أحد أعلام الدين فى الفقة والحديث، وأخرج عنه أربعة من أصحاب السنن، ووثقوه، وقال بعضهم: إنه سيء الحفظ، توفى سنة ثمان وأربعين ومائة وله ترجمة فى الميزان، واسمه يساب، بمثناة تحتية، والمراد أنه وافق اجتهادهم اجتهاده؛ لا أنهم قلدوه إذا المجتهد لا يقلد غيره، وهذا معنى قولهم فى أمثاله كالشافعى فى الفرائض مع زيد **(واختلف فيه)**، أى القول به الرواية **(عن أحمد)** بن حنبل، فقيل: قال به، وقيل: لم يقل به.

(و) أما مذهب الصحابة فيه فـ**(قال على بن أبى طالب، وابن مسعود)** مذهب غيرهم من أهل العصر الأول مثل سعيد **(ابن المسيب والشعبى والحسن)** البصرى **(وعمر بن عبدالعزيز)** بن مروان بن الحكم الأموى الإمام المشهور **(والحكم)** بفتحتين ابن عتيبة مصغر عتبة بمثناة فوقية الكندى فقيه الكوفة، الإمام العابد الزاهد، توفى سنة خمس عشرة

ومائة، وأخرج له الستة، ويوافقة فى اسمه واسم أبيه دون جده الحكم قاضى الكوفة، وليس من رواة الحديث، ووهم البخارى فى تاريخه فجعلهما واحدًا كما ذكره الحلبى **(والأوزاعى والليث)** بن سعد **(وإسحاق)** بن راهويه **(وأبو حنيفة)** النعمان **(ترثه ورثته من المسلمين)** لتعلق حقهم به قبل موته.

(وقيل): مذهب أبى حنيفة فى **(ذلك)** الميراث التفصيل فترثه ورثته منهم **(فيما كسبه قبل ارتداده)** لتعلق حقهم به **(وما يكسبه فى الارتداد)**، أى فى زمن ارتداده **(فىء للمسلمين)**؛ لأنه مال كافر والكلام عليه وعلى أدلته مفصل فى شروح الهداية وغيرها.

(قال القاضى أبو الفضل) عياض المصنف، رحمه الله **(وتفصيل أبى الحسن)** القابسى فى هذه المسألة **(فى باقى جوابه)** كما مر آنفًا **(حسن بين)** ظاهر واضح، وهو قوله: إن قتل وهو منكر للشهادة فالحكم فى ميراثه على ما ظهر من إقراره إلخ.

(وهو على رأى أصبغ) فى أن ميراثه للمسلمين إن كان مسرًا، فإن أعلن فهو فىء **(وخلاف قول سحنون)** بأنه للمسلمين كالزنديق **(واختلافهما)**، أى أصبغ وسحنون مبنى **(على قول مالك فى ميراث الزنديق)** هل ينظر لظاهر حاله أو لباطنه؟ لأن الله رداه برداء سريرته **(فمرة ورثه ورثته من المسلمين)** سواء **(قامت عليه بذلك)** المقال الذى قاله **(بينة فأنكرها أو اعترف بذلك)** مع البينة أو بدونها **(وأظهر التوبة)** عما صدر منه.

(وقاله أصبغ) بن الفرج المصرى **(ومحمد بن مسلمة)** قد قدمنا ترجمته **(وغير واحد من أصحابه)**، أى كثير من أصحاب الإمام مالك ودليله ماقاله بقوله **(لأنه مظهر للإسلام بإنكاره أوتوبته)** بعد اعترافه ونحن إنما نحكم بالظاهر **(وحكمه حكم المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ)**، أى فى زمنه أو المراد أنهم على ما عاهدوه عليه من الإسلام، فالعهد على الأول بمعنى الزمان المعهود المعلوم فإنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يعامل المنافقين معاملة المسلمين فى ميراثهم وغيره تأليفا لقلوبهم وقلوب من قرب عهده بالإسلام؛ لئلا يقول الأعداء أنه يقتل أصحابه، حتى أعلمه الله بذلك فكان لا يصلى على بعضهم؛ لأن صلاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، شفاعة لهم، واشتهر لحذيفة أمرهم فكان عمر، رضى الله تعالى عنه، يصلى على من مات منهم إذا صلى عليه حذيفة وإجراء أحكام الإسلام عليهم نظرًا لظاهر حالهم.

(وروى ابن نافع عنه فى العتبية) الكتاب المشهور وهو عبدالله بن نافع الصائغ المدنى المحدث مولى بنى مخزوم وهو ثقة وقيل فى حفظه شىء، ووثقه ابن معين وهو صاحبه الذى كان يلازمه وروى عنه كثيرًا، وأخرج له أصحاب السنن، وترجمته فى الميزان،

وتوفى سنة ست ومائتين **(وكتاب محمد)** ابن المواز **(أن ميراثه)** فىء يصرف **(لجماعة المسلمين؛ لأن ماله تبع لدمه)** ودمه هدر فماله غنيمة وفىء **(وقال به)**، أى بهذا القول **(جماعة من أصحابه)**، أى أصحاب مالك **(وقاله)** من أتباعه أيضًا **(أشهب والمغيرة)** بضم ميمه وكسرها اتباعًا، وهو المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن عياش بمثناة تحتية وشين معجمة، توفى يوم الأربعاء سنة ثمان وثمانين ومائة، وولد سنة أربع وعشرين.

(وعبد الملك) بن حبيب أو المعروف بابن الماجشون **(ومحمد)** بن المواز **(وسحنون وذهب ابن القاسم فى العتبية إلى أنه)**، أى المرتد أو الزنديق **(إن اعترف بما شهد به عليه وتاب)** ولم تقبل توبته **(فقتل فلا يورث)**؛ لأنه حكم بكفره وقتل فلا تبقى لتوبته حكم فى الدنيا، فلا وجه لما قيل أنه عجيب كيف لا يورث وقد تاب؟ ولا وجه لما قيل: إنه كيف لا يعمل بمقتضى الشهادة **(وإن لم يقر)** وقد شهد عليه **(حتى قتل أو مات)** حتف أنفه **(ورث)** ورثته المسلمون وهو مخفف أو مشدد؛ لأن الأصل بقاؤه على الإسلام.

(قال) ابن القاسم **(وكذلك)**، أى مثل من لم يقر حتى قتل أو مات **(كل من أسر)**، أى أخفى **(كفرًا)** بأى وجه يكون ولم يظهره حتى مات **(فإنهم يتوارثون بوراثة الإسلام)** فتجرى عليهم أحكام الإسلام نظرًا لظاهر حالهم **(وسئل أبو القاسم بن الكاتب)** تقدم بيانه **(عن النصرانى يسب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيقتل)** بذلك **(هل يرثه أهل دينه)** النصارى **(أم المسلمون فأجاب بأنه)**، أى ميراثه فىء يصرف **(للمسلمين)**؛ لأنه طعن فى الدين ونقض للعهد فماله كمال الحربى عنده و**(ليس)** ما أخذ المسلمون **(على جهة الميراث؛ لأنه)** لا توارث بين مسلم وكافر إذ **(لا توارث بين أهل ملتين)** كما ورد فى الحديث الصحيح.

(ولكن لأنه)، أى ماله **(من فيئهم)** الذى أفاءه الله عليهم **(لنقضه العهد)** بسببه له، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه طعن فى الدين وليس مما كفر به و**(هذا معنى قوله)**، أى قول ابن الكاتب **(واختصاره)**، أى إيراده بعبارة أخصر من عبارته، ولذا لم ينقل لفظه بعينه، وحكمه وحكم تصرفاته مفصل فى كتب الفقه.

* * *

(الباب الثالث) من هذا القسم (فى حكم من سب الله تعالى) [و ملائكته وأنبياءه وكتبه وآل النبى ﷺ وأزواجه وصحبه]

بذكر ما هو، عز وجل، منزه عنه (و) حكم من سب (**ملائكته وأنبياءه**)، عليهم الصلاة والسلام، (**وكتبه**) المنزلة على رسله، عليهم الصلاة والسلام (**و**) سب (**آل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأزواجه وصحبه**)، رضى الله تعالى عنهم أجمعين، أما الملائكة؛ فجمع ملك وأصله مألك من الألوكة، وهى: الرسالة فقلب وخفف كما مر، وحقيقتهم عند المتكلمين أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، والفلاسفة وأوائل المعتزلة لا ينكرونها؛ لكنهم أثبتوا جواهر روحانية غير جسمانية سموها عقولاً، وأهل الشرع سموها ملائكة، وأثبتوا لها تصرفا فى العالم، ومثلها الجن، وأنكر الفلاسفة وبعض المعتزلة الملائكة والجن بالمعنى الذى فسرهما به المتكلمون من أنها أجسام من النور أو الريح قادرة على التشكل، كما قاله الإمام فى المحصل؛ لأنها إن كانت لطيفة كالهواء لم تقدر على الأفعال القوية، وإن كان كثيفة لزم أن تشاهد، وإلا لزم أن يجوز وجود جبال شاهقة عندنا لا نشاهدها، وقالوا: الجن الأرواح البشرية الشريرة المفارقة لأبدانها فهم لا ينكرونها أصلاً ورأسا كما يتوهمه بعض الناس فيقول: إنه مخالف لنص القرآن والحديث.

وأجيب عما قالوه كما ذكره الكاتبى فى شرح المحصل: بأن اللطيف له معنيان ما لا لون له كالبلور، وماهو رقيق القوام كالريح، فجاز إرادة الأول فيقوى على الأعمال الشاقة ولا يرى أو الثانى ولا يرى؛ لأنها شفافة لا يرى، أو لأن للرؤية شروطًا وموانع، أو لأن الله لم يخلق رؤيتها لغيرها.

وقيل: الجن والملائكة جنس واحد والكلام على هذا مفصل فى كتب الحكمة، وقد تقدم الكلام على الآل وهم الأقارب والصحب اسم جمع لصاحب وهو معروف.

(**قال القاضى أبو الفضل**) عياض المؤلف، رحمه الله تعالى، (**لاخلاف**) فى (**أن ساب الله تعالى كافر حلال الدم**)، أى مستحق للقتل شرعًا، فهو كناية عما ذكر بقرينة أن الحل والحرمة من صفات الأفعال دون الذات، والمراد: إذا سبه بما لم يكفر به كإثبات الولد والشريك، فإنه لا يقتل به إلا إذا أظهره فإنه نقض للعهد، والظاهر أن المراد بالسب ماهو سب عندهم فيـ[illegible]ـج هذا عنه فلا حاجة للجواب كما قيل: (**واختلف فى استتابته**)، أى طلب التوبة منه وقبولها (**فقال: ابن القاسم**) رحمه الله تعالى، (**فى**) كتابه

الذى سماه (**المبسوط وفى كتاب ابن سحنون ومحمد**) بن المواز (**ورواه ابن القاسم عن مالك فى كتاب إسحاق بن يحيى: من سب الله تعالى من المسلمين قتل ولم يستتب**)، أى لا تقبل توبته ولعظم جرمه لا تطلب منه توبة؛ لأنه يتوب فيتردد فى قتله (**إلا أن يكون**) سبه (**افتراء على الله بارتداده إلى دين**) غير الإسلام (**دان به**)، أى اتخذه دينًا أطاعه (**وأظهره**) ولم يخفه (**فيستتاب**)، أى يؤمر بالتوبة ورجوعه للإسلام (**وإن**) ارتد لدين (**لم يظهره لم يستتب**) وقتل؛ لأنه زنديق لا يوثق بتوبته والافتراء الكذب عمدًا، وسمى فعله هذا افتراء مجازًا أو لاستلزامه له (**وقال فى المبسوطة: مطرف**) مشدد بزنة الفاعل وهو ابن أخت الإمام مالك كما تقدم.

(**وعبد الملك**) بن حبيب أو ابن الماجشون (**مثله**) بالنصب، أى مثل ما مر (**وقال المخزومى ومحمد بن سلمة**) تقدم بيانه (**وابن أبى حازم**) بحاء مهملة وزاء معجمة وهو عبدالعزيز بن سلمة بن دينار بن أبى حازم، توفى سنة أربع أو خمس أو ست وثمانين ومائة وهو ساجد فى مسجد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**لايقتل المسلم بالسب**)، أى سب الله الذى كفر به (**حتى يستتاب**) فإن تاب وإلا قتل، وإليه ذهب الشافعى وغيره.

(**وكذلك اليهودى والنصرانى**) إذا سب الله تعالى واحد منهما لا يقتل حتى يستتاب (**فإن تابوا قبل منهم**) الإتيان بالتوبة (**وإن لم يتوبوا قتلوا، ولابد من الاستتابة**) قبل قتلهم وهذا حكمهم الآن إذ قويت شوكة الإسلام بخلاف زمنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذ لم يقتل اليهود الذين قالوا يد الله مغلولة لما نزل ﴿**وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**﴾ [المائدة: ١٣]، فلم يستنبهم دفعا للفتنة.

(**وذلك**)، أى ما تقدم من سب الله (**كله كالردة**) فى حكم الاستتابة (**وهو**)، أى حكمه المذكور (**الذى حكاه القاضى ابن نصر**) تقدمت ترجمته (**عن المذهب**)، أى مذهب الإمام مالك لبعض الشراح هنا كلام طويل بلا طائل، وكيف يسوغ له البحث فى مسائل الفقه التى ينقلها مثل المصنف، رحمه الله تعالى، عن مذهبه.

(**وأفتى**) الشيخ (**أبو محمد بن أبى زيد**) إمام مذهب مالك المشهور (**فيما حكى**) ببناء المجهول (**عنه فى رجل لعن رجلاً**)، أى دعا عليه باللعنة (**ولعن الله تعالى**)، عز وجل، (**فقال**) معتذرًا عما قاله (**إنما أردت أن ألعن الشيطان فزل لسانى**) سبق خطأ لما قلته.

(**فقال**) ابن أبى زيد، رحمه الله تعالى، فى فتواه (**يقتل بظاهر كفره**) بما قاله (**ولا يقبل عذره**) لمخالفته للظاهر (**وأما**) حاله فى الآخرة (**فيما بينه وبين الله فمعذور**) أن صدق

وترك هذا القيد لظهوره فلا اعـتراض عليـه، وبـهذا أفتـى الشـافعية؛ لأن مخالفـة الظـاهر الصريح لا تعتبر بدون قرينة، وهى قاعدة مقررة عند الفقهاء، هذا وفى كلام ابن حجـر بعد قول المصنف، رحمه الله تعالى، ويقبل عذره وقضية مذهبنا قبوله **(وأفتى فقهاء قرطبة)** مدينة بالأندلس معروفة بضم القاف والطاء المهملة وموحدة **(فى مسألة هارون بن حبيب أخى عبدالملك الفقيه)** الذى تقدمت ترجمته وأخوه هـارون لا يعـد مـن العلمـاء بـل مـن الأمراء **(وكان ضيق الصدر)**، أى فى نفسه ضيق ومزق **(كثير التبرم)**، أى الضجر والقلق مما يصيبه كما فسر به فى الصحاح.

(وكان) هارون **(قد شهد)** ببناء المجهول **(عليه بشـهادات)** فـى أمـور تقتضـى تكفـيره **(منها أنه قال فى استقلاله)**، أى فى زمـن إفاقتـه وقيامـه **(مـن مـرض)** أصابـه مـن قولهـم استقل إذا ارتفع، والمراد أنه برىء منه فقال [لما] برىء منه **(لقيت فـى مرضـى هـذا مـا)**، أى أمرًا **(لو)** كنت **(قلت أبا بكر وعمر)**، رضى الله تعالى عنهما، وفى نسخة: ما قد لـو قتلت... إلخ.

(ما استوجبت)، أى استحقيت **(هذا)** الذى لقيته **(كله فـأفتى إبراهيـم بـن حسـين بـن خالد)** من أجلاء فقهاء المالكية بقرطبـة توفـى سـنة ثمـان وخمسـين ومـائتين **(بقتلـه؛ لأن مضمن قوله)** هو بالتشديد بزنة اسـم المفعـول، أى مـا تضمنـه، **(تجويـر الله)**، بجيـم وراء مهملة، أى نسبته للجور **(والتظلم منه)**، أى القول بأنه ظلمه بما فعلـه **(والتعريـض فيـه)**، أى فى نسبة الله تعالى لمـا لا يليـق بـه **(كـالتصريح)**، أى كحكمـه فـى التكفـير وإيجـاب القتل، ومعنى التعريض مايقابل التصريح وهو من الكناية وليـس هـذا محـل بيانـه، وقـول المصنف، رحمه الله تعالى، التعريض كـالتصريح وهـو نقـل عـن أئمـة مذهبـه، فـلا وجـه للاعتراض عليه بأن الفقهاء قالوا فى كتب الفقه ليس حكمه حكم الصريح.

ونقله عن الشافعية **(وأفتى أخوه عبد الملك بن حبيب)** الذى تقدمت ترجمته **(وإبراهيم ابن الحسن بن عاصم)** وصحح فى بعض النسخ حسين بالتصغير بدله، وهو الفقيه الجليل القرطبى، توفى فى رمضان سنة سبع ومائتين **(وسعيد بن سـليمان القـاضى بطـرح القتـل عنه)**، أى دفعه، وأصل معنى الطرح الرمى للمحقرات، ففى التعبير بـه إيمـاء إلى أن قتلـه جائز ولكنه درء عنه **(إلا أن القـاضى رأى عليـه التثقيـل)** بوضـع القيـود والأغـلال **(فى الحبس والشدة)**، أى التشديد **(فى الأدب)** والنكال **(لاحتمال كلامه)** لما ذكر مـن نسبة الله تعالى للجور والظلم **(وصرفه إلى التشكى)** من المـرض لتألمـه بـه لا الشـكاية مـن الله، ولهذا الاحتمال دفع عنه القتل.

وذكر النووى القولين فى الروضة من غير ترجيح، وقـال شـيخ الإسـلام زكريـا فـى

شرح الروض: الذى رجحه المحب الطبرى إنه لا يكفر.

قال ابن حجر: والذى عندى أن يفصل فيقال: إن أراد بذلك أن الله شدد عليه ذلك لذنوب سبقت له أو نحو ذلك لم يكفر، وإن أراد أنه لم يفعل معه الأصلح فى حقه فإن كان مع اعتقاد أن ما فعله معه جور كفر أو أنه تعالى لا يجب عليه الأصلح أو أطلق لم يكفر. انتهى.

وليس ما ذكر مبنى على مسألة وجوب الأصلح على الله وعدم وجوبه على الخلاف المذكور فى الأصل كما توهم.

واعلم أن ابن مفلح قال فى كتاب الآداب الشرعية: إن ابن عقيل، رحمه الله، قال: الرضا بقضاء الله فى الأمراض ونحوها من المصائب واجب.

وقال الشيخ تقى الدين: إنه ليس بواجب على الأصح، وإنما الواجب الصبر وفيه كلام أطال فيه، والحاصل أن المصائب والأمراض ليست بذنب سبق من العبد، وإنما هى ابتلاء من الله يثيب عبده عليه كما ورد فى الأحاديث، وقد تقدم شىء منه فيما يصيب الأنبياء وقول هذا القائل يقتضى أنه يعتقد أنها تصيبه بذنوب سلفت منه وهذا جهل منه **(فوجه)** قول **(من قال فى ساب الله بالاستتابة)**، أى أنه يطلب منه التوبة، فإن تاب وإلا قتل **(أنه)**، أى السب **(كفر وردة محضة)**، أى خالصة ظاهرة **(لم يتعلق بها حق لغير الله تعالى)** من عباده وحق الله تعالى لكرمه وغناه مبنى علىالمسامحة.

(فأشبه) السب **(قصد الكفر بغير سب الله)** فى أن كلا منهما ردة **(و)** أشبه **(إظهار الانتقال)** عن دين الإسلام **(إلى دين آخر من الأديان)** كالنصرانية **(المخالفة للإسلام)** سواء أظهره أم لا **(ووجه)** قول **(من قال بترك استتابته)** كما تقدم، نقله عن بعض أئمة المالكية وفى نسخة، ووجه ترك استتابته **(أنه لما ظهر منه ذلك)** السب المقتضى للكفر **(بعد إظهار الإسلام قبل)** غاية مبنى على الضم، أى سب الذى صدر منه **(اتهمناه)** جواب لما، أى صار له تهمة فى الكفر **(وظننا أن لسانه لم ينطق به إلا وهو معتقد له)** مصمم عليه بقلبه لفساد عقيدته **(إذ لا يتساهل)**، أى يعده سهلاً هنا يتكلم به من غير تدبر **(فى هذا)**، أى سب الله تعالى شأنه **(أحد)** له عقل ودين **(فحكم له بحكم الزنديق)**؛ لأن ظاهره الإسلام وباطنه مضمر لخلافه بدليل ما صدر منه، والزنديق لا يستتاب، فلما أشبهه حكم له بحكمه، وهذا لا يقتضى أن سب الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليس ردة محضة حتى يشكل جريان الخلاف فيه كما قيل، بل لأن حق الله له حكم يخصه كما تقرر عند الفقهاء.

(ولم تقبل توبته) لإخفائه الكفر، فالظاهر استمراره عليه، وأن توبته إنما هى ليخلص من القتل، وهذا ظاهر فى أن معنى الزنديق من يظهر الإسلام ويخفى الكفر كالمنافق، وقيل: هو من لا ينتحل دينا كما تقدم.

(وإذا انتقل من دين إلى دين آخر وأظهر السب بمعنى الارتداد)، أى بمعنى يقتضى أنه صار مرتدًا **(فهذا)** المنتقل من دين لآخر بسبب ردته **(قد علم)** بفعله هذا **(أنه خلع ربقة الإسلام من عنقه)**، أى خرج من الإسلام خروجًا ظاهرًا إلى الكفر، وهو استعارة؛ لأن الربقة عروة فى حبل تربط بها البهائم وتشد فإذا خلعتها، أى رمتها من عنقها شردت وذهبت نافرة، فجعل أحكام الدين وحدوده المانعة بالتزامها من المعاصى والكفر كالحبل الذى يربط به، وفيه إشارة إلى أنه ملحق بالحيوانات العجم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤]، وهو مقتبس من الحديث الآتى: «من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»(١)، والجماعة أهل السنة والربقة بكسر فسكون وجمعه رباق **(بخلاف الأول المتمسك به)**، أى بالإسلام فإنه بمجرد سبه لله تعالى شأنه لم يعلم أنه خلع ربقة الإسلام لتمسكه به ظاهرًا، فأشبه من قصد الكفر بغير سب.

(وحكم هذا) الذى انتقل من دين إلى آخر وأظهر السب **(حكم المرتد)** الذى خلع ربقة الإسلام من عنقه **(يستتاب)** فإن تاب قبلت توبته وإلا قتل **(على مشهور مذهب أكثر أهل العلم)** من أكثر علماء الحنفية والشافعية والحنبلية **(وهو مذهب مالك وأصحابه)** فى كتبهم **(على ما بيناه قبل)** فى الباب الأول **(وذكرنا الخلاف)** مفصلاً **(فى فصوله)** الآتيه بعد.

* * *

(فصل وأما من أضاف إلى الله تعالى) [ما لا يليق به]

أى: نسب إليه **(ما لا يليق به)** أى لا ينبغى أن يعتقده أحد فى حقه **(ليس على طريق السب)**، أى لم يذكر قائله بقصد السب، فجعل ما قصد به أمر، كمن جلس فى طريق يمر به ذلك الأمر، فهو مجاز أو كناية عما ذكر **(ولا الردة)**، أى ليس ذكره له على طريق الردة، أى على وجه يقتضيها **(وقصد الكفر)**، أى قصد ما يعد كفرًا.

(ولكن) كان ذكره لما لا يليق **(على طريق التأويل)**، أى قصد غير ما يظهر منه **(والاجتهاد)**، أى يقوله اجتهادًا برأيه فيه **(والخطأ)** فى اجتهاده **(المفضى)** بفاء وضاد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٥/١٨٠)، وأبو داود (٤٧٥٨)، والترمذى (٢٨٦٣)، وابن حبان (٦٢٠٠)، والحاكم (١/١١٧).

معجمة **(إلى الهوى)**، أى قوله المؤدى إلى أمر من هوى نفسه من غير نظر للحق وتحقيق له **(والبدعة)**، أى اختراع أمر لم يسبق إليه و لم يرد فى الشرع، والمراد البدعة التى هى ضلالة، فإن البدعة قد تستحسن لعدم مخالفتها الشرع، وقد تكون واجبة كما فصل فى محله.

ومقصوده بهذا الفصل بيان حكم من خالف أهل السنة من الفرق الذين لهم مذاهب مذكورة فى الأصول، كالمعتزلة ومن ضاهاهم **(من تشبيه)**، أى تشبيه الله تعالى بغيره كإثبات يد له وجسم، وهذا بيان لما لا يليق **(أو نعت)**، أى وصف الله سبحانه وتعالى **(بجارحة)**، أى بإثبات جارحة له، والجارحة العضو من اجترح وجرح، بمعنى اكتسب، قال الله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم﴾ [الأنعام:٦٠]، كاليد والعين ونحوه مما ورد فى القرآن والأحاديث.

و لم يقصد ظاهره كالاستواء على العرش مما هو مصروف عن ظاهره كما سيأتى بيانه **(أو نفى صفة كمال)** كنفى المعتزلة للصفات فرارًا من تعدد القدماء، والمحذور إنما هو فى إثبات ذوات قدماء لا ذات وصفات، واحترز بقوله: كمال عن الصفات السلبية، فلا وجه لما قيل: إنه لم يحترز به عن شىء؛ لأن صفاته كلها كمال **(فهذا)** المضاف إليه تعالى مع تأويله **(مما اختلف السلف)** المتقدمون **(والخلف)** المتأخرون **(فى تكفير قائله ومعتقده)**، **أى** جعله، كافرًا فذهب الأشعرى إلى عدم تكفير أهل الأهواء والمذاهب المردودة، وعلى ذلك أكثر الفقهاء من الحنفية والشافعية، وليس على إطلاقه كما ستراه.

(واختلف قول مالك وأصحابه فى ذلك)، أى فى تكفير أهل الأهواء **(ولم يختلفوا فى قتالهم إذا تحيزوا فئة)**، أى فارقوا أهل السنة وانفردوا لمكان مختص بهم؛ لإظهارهم المخالفة وخشية إضلال العامة والخروج إذا قويت شوكتهم **(و)** لم يختلفوا أيضًا فى **(أنهم يستتابون)**، أى تطلب توبتهم ورجوعهم عما قالوه واعتقدوه **(فإن تابوا)** ورجعوا عما هم عليه قبلت توبتهم **(وإلا قتلوا)** دفعًا لشرهم وإضلالهم لغيرهم **(وإنما اختلفوا)**، أى مالك وأصحابه **(فى المنفرد)** الذى ليس معه جماعة يتحيز بها عن غيره **(منهم)**، أى ممن نسب لله ما ذكر **(فأكثر قول مالك وأصحابه ترك القول بتكفيرهم)** للنهى عن تكفير أهل القبلة **(وترك قتالهم)** لتأويلهم ولرجاء توبتهم ورجوعهم ولعدم ضررهم لغير أنفسهم، وفى نسخة: وترك قتلهم **(والمبالغة فى عقوبتهم)**، أى تشديد عقوبتهم.

(وإطالة سجنهم) بفتح السين، أى حبسهم مدة طويلة **(حتى يظهر إقلاعهم)**، أى رجوعهم عما هم فيه من القلع بمعنى النزع والإزالة، أريد به ما ذكر **(وتستبين)**، أى

تظهر **(توبتهم)** ورجوعهم للحق **(كما فعل عمر)** بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، **(بصبيغ)** بفتح الصاد المهملة وكسر الباء الموحدة وسكون المثناة التحتية وغين معجمة وهو رجل من بنى يربوع اسمه صبيغ بن شريك بن عسل، بكسر العين وسكون السين المهملتين، قال ابن ماكولا: كان يتتبع مشكل القرآن ومتشابهه، فأمر عمر، رضى الله تعالى عنه، بضربه ومنع الناس من مجالسته **(وهذا قول محمد بن المواز فى الخوارج وعبد الملك بن الماجشون)** وهم جماعة كانوا مع علّى، كرم الله وجهه، فى صفين ثم خالفوه وخرجوا عليه لإنكارهم التحكيم، وقولهم: لا حكم إلا لله، ولهم عقائد مخالفة للسنة كتكفير مرتكب الكبيرة، ووجوب الخروج على الإمام إذا خالف السنة، ومع ذلك كان لهم من العبادة والشجاعة والتصلب فيما يعتقدونه أمورًا عجيبة، وقد أخبر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بهم قبل ظهورهم، وقصتهم مع علىٍّ، رضى الله تعالى عنه، وقتالهم له مشهور فى التواريخ.

(و) هو أيضًا **(قول سحنون فى جميع أهل الأهواء)** من الفرق الضالة المضلة المفصلة فى محلها فنشدد عقوبتهم ولا نقتلهم، بل نطيل سجنهم حتى يتوبوا **(وبه)**، أى بما ذكر **(فسر قول مالك فى الموطأ)** كتابه المشهور، وفسر قول مالك بقوله **(وما رواه)** مالك وفى نسخة ما رواه بدون واو بدل من قول مالك، أى فسر بعض أصحابه ما قاله رواية **(عن عمر بن العزيز عن جده)** مروان بن الحكم **(وعمه)** عبد الملك بن مروان **(من قولهم)** بيان لما **(فى القدرية يستتابون فإن تابوا)** تركوا **(وإلا قتلوا)** لكفرهم بما مر وهؤلاء قالوا بنفى القدر، وإن الأمر أنف لم يسبق تقديره، فنسبتهم للقدر للملابسة السلبية وقد ورد فى الحديث أنهم مجوس هذه الأمة شبههم بهم لإضافتهم الأمر لغير الله من النور والظلمة، والكلام عليهم وعلى عقائدهم مفصل فى كتب الأصول، وهم أصحاب واصل بن عطاء الغزال، وهم يقولون: يقع فى ملكه ما لا يريده تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

(وقال عيسى) بن إبراهيم كما تقدم وقيل هو أبو موسى الغافقى **(عن ابن القاسم)** تقدم بيانه **(فى أهل الأهواء)**، أى الآراء الفاسدة الذين اتبعوا فيها أهواءهم الفاسدة **(من الأباضية)** بكسر الهمزة وبالباء الموحدة والضاد المعجمة جماعة من الخوارج أصحاب عبد الله بن أباض، ظهروا فى خلافة مروان بن محمد آخر بنى أمية، زعموا أن من خالفهم كافر غير مشرك يجوز مناكحته.

(أو القدرية وشبههم) فى عقائدهم الباطلة **(ممن خالف الجماعة)**، أى أهل السنة، فإن الجماعة عند الإطلاق ينصرف لهم لاجتماعهم على الحق **(من أهل البدع)**، أى الضلالة

كالنصيرية والإسماعيلية وغيرهم، ممن فصل فى كتاب الملل والنحل (**والتحريف لتأويل كتاب الله تعالى**) بتفسيره وتأويله بالتأويلات الباطلة (**يستتابون**)، أى تطلب منهم توبتهم ورجوعهم عن اعتقاداتهم الفاسدة سواء (**أظهروا ذلك**) الاعتقاد حتى أطلعنا عليه (**أو أسروه**)، أى أخفوه بحيث لا يطلع عليه إلا من هو منهم.

(**فإن تابوا**) قبلت توبتهم وعفى عنهم (**وإلا**)، أى إن لم يتوبوا (**قتلوا وميراثهم لورثتهم**) من المسلمين؛ لأنهم يقولون أنهم على الإسلام، ويتأولون النصوص الدالة على خلافهم، وإنما قتلوا لإصرارهم على البدع المخالفة للحق، كما يقتل تارك الصلاة لا للحكم بكفرهم، فلا يرد عليه ما قيل: إنهم إذا قتلوا لكفرهم كيف يرثهم المسلمون مع ما فيهم من مانع الإرث؟ ولا فرق بينه وبين المرتد والفرق مثل الصبح ظاهر.

(**وقال مثله**)، أى مثل قول عيسى (**أيضًا**) تأكيد لمثله (**ابن القاسم فى كتاب محمد**) ابن المواز (**فى أهل القدر وغيرهم**) من أهل البدع المخالفين فى العقائد لأهل السنة (**قال**)، أى ابن القاسم أو محمد (**واستتابتهم**) معناها (**أن يقال لهم اتركوا ما أنتم عليه**) من العقائد الباطلة، فإن لم يتركوا قتلوا أو ورثهم ورثتهم كما تقدم.

(**ومثله**)، أى مثل قول ابن القاسم فى كتاب محمد المنسوب (**له فى**) كتاب (**المبسوط فى**) حق (**الأباضية والقدرية**) الذين بيناهم (**وسائر أهل البدع**) من الفرق الضالة فيستتابوا وإلا قتلوا (**قال**) ابن القاسم (**وهم مسلمون**) لإظهارهم الإسلام وشعائره (**وإنما قتلوا**) جواب سؤال مقدر تقديره فلم قتلوا مع كونهم مسلمين؟ فقال فى جوابه (**لرأيهم**)، أى ما رواه من العقيدة (**السوء**) بفتح فسكون، أى السيئ المخالف لجماعة السنة وأهل الحق.

(**وبهذا**)، أى بما يوافق ما قاله ابن القاسم (**عمل**) الخليفة الراشد (**عمر بن عبد العزيز**) بن مروان بن الحكم، أى عمل به وحكم فى زمان خلافته به، وقد استشكل بعض الشراح كلام المصنف فيما نقله عن ابن القاسم بأن القدرية أطلقوا تارة على من ينفى القدر ويقول إن الأمور أنفة، أى مستأنفة ليس فيها لله قدرة ولا علم بها، وهؤلاء كفرة كما فى الحديث المار أنهم مجوس هذه الأمة، وهذه الطائفة كانت فى آخر الدولة الأموية وانقرضوا، فإن فسروا بهم فلا يصح قوله وهم مسلمون، وتارة على المعتزلة القائلين بأن الشر ليس بإرادة الله تعالى وتقديره وهؤلاء لا يحكم بكفرهم.

قلت: إذا حمل على هذا فلا إشكال فيما قاله ابن القاسم، وإن كان هو لم يبين مراده؛ لأنهم لكونهم انقرضوا كان كلامه منصرفًا إليهم بقرينة خارجية.

(وقال ابن القاسم: من قال: إن الله تعالى لم يكلم موسى تكليما) مصدر مؤكد لنفى احتمال التجوز فيه (**استتيب**) بطلب توبته ورجوعه عما اعتقده **(فإن تاب)** ورجع عن إنكاره لكلام الله تعالى قبلت توبته **(وإلا قتل)** لإنكاره لما أخبر الله به فى كلامه الكريم المتواتر، فإن أراد ابن القاسم أنه يكفر لإنكاره القرآن وتكذيبه لما قاله أصدق القائلين من غير تفصيل فيه فله وجه، وإن أراد ما ذهب إليه المعتزلة من أن ما سمعه موسى، عليه الصلاة والسلام، خلقه الله تعالى فى الشجرة؛ لا أنه صوت وحروف حادثة صدرت منه؛ لأن ذاته لا تقوم بها الحوادث والكلام النفسى لا يسمع عندهم، فتكفيرهم بهذا غير مسلم والكلام على مسألة الكلام مفصل فى كتب الأصول لا يسع تفصيله هذا المقام، وقد أفردوه بالتأليف.

(وابن حبيب وغيره من أصحابنا) المالكية فمعنى صحبته موافقتهم مذهبًا لا صحبة حقيقة **(يرى)**، أى يعتقد **(تكفيرهم)**، أى أنهم كفروا بمقالتهم هذه **(و)** يرى **(تكفير أمثالهم)** من أهل البدع والعقائد الفاسدة **(من الخوارج)** بيان لأمثالهم وقد تقدم بيان الخوارج **(والقدرية)** الذين تقدم ذكرهم **(والمرجئة)** مهموز بزنة اسم فاعل من الإرجاء وهو التأخير والإمهال، وهم فرق خمس ذهبوا إلى أنه لا تضر معصية مع الإيمان، كما لا تنفع طاعة مع الكفر، وتكفيرهم لإنكارهم النصوص المتواترة وما علم من الدين بالضرورة، قيل: كان ينبغى أن يسموا المتركة لدلالته على أنه لا عذاب أصلاً مع موافقته لقولهم الغفلة التركة، وهو كلام فى غاية الركاكة واللغة لا تعلل، والتأخير يراد به الترك كثيرًا، وقد علمت أن المرجئة بالهمزة وتبدل ياء، والقدرية بفتح الدال ويجوز تسكينها.

(وقد روى أيضًا عن سحنون مثله)، أى مثل قول ابن حبيب فى التكفير **(فيمن قال ليس لله كلام أنه كافر)** لإنكاره ما ثبت بالتواتر وما يلزمه من تكذيب الله ورسله فتكفيره بناء على ظاهر كرمه وإطلاقه صيانة للشرع، لئلا يخرق السياج، فلو قال: أردت بذلك أنه ليس له كلام بحروف وأصوات حادثة كالبشر، لتنزهه عن قيام الحوادث به عند غير الكرامية وهم من الفرق الضالة، فهذا مما ذهب إليه كثير من أهل السنة كالأشعرى المثبت للكلام النفسى فلا يكفر قائله، وإن ذهب إلى قدم الألفاظ كثير من السلف كالحنابلة، وأول الشهرستانى كلام الأشعرى فى رسالة له لخصها الشريف فى شرح المواقف، والكلام فيه مشهور بين العلماء وفيه تأليف مستقل **(واختلفت الروايات عن مالك)** فى أهل البدع والأهواء.

(فأطلق) القول بتكفيرهم عن مالك **(فى رواية الشاميين)**، أى من اتبع مذهب مالك من أهل الشام **(أبى مسهر)** بزنة اسم فاعل بسين ساكنة وراء مهملتين بينهما هاء

مكسورة بدل من الشاميين، وهو عبد الله بن مسهر الغسانى المالكى كما تقدم **(ومروان ابن محمد الطاطرى)** الدمشقى والطاطرى بطائين مهملتين مفتوحتين وراء مهملة نسبة إلى ثياب بيض كان يبيعها، وهى تعرف بالطاطرية فى مصر والشام، وهو إمام محدث ثقة أخرج له مسلم وغيره، وله ترجمة فى الميزان، وهو من زهاد العلماء، توفى سنة ست عشر ومائتين **(الكفر عليهم)**، أى قال بكفرهم مطلقًا أو سماهم كفرة، وأطلق اسم الكفر عليهم.

(وقد شوور) ببناء المجهول، أى شاور مالكا واستشاره بعض الناس **(فى تزويج القدرى)**، أى: عقد النكاح له من نساء أهل السنة **(فقال لا)** أجيز أن **(تزوجه)**؛ لأنه كافر عنده ومثله لا يحل تزويجه بمسلمة وقد **(قال الله تعالى: ﴿وَلَعَبۡدٌ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٌ مِّن مُّشۡرِكٍ﴾)** [البقرة: ٢٢١] ولو أعجبكم، أى العبد المؤمن وإن كان فقيرًا خير من المشرك وإن كان غنيا، وفيه ترغيب وترهيب، وفى الآية كلام فى كتب التفسير.

(وروى عنه)، أى عن مالك **(أيضًا)**، أى كما روى عنه فيما مر أنه قال: **(أهل الأهواء)**، أى البدع والعقائد المخالفة لأهل السنة **(كلهم كفار)** لعقائدهم الباطلة **(وقال)** مالك أيضًا **(من وصف شيئًا من ذات الله)** إطلاق الذات بمعنى النفس على الله مشهور وفيه كلام تقدم.

(وأشار) حال وصفه له **(إلى شىء من)** أعضاء **(جسده يد)** بدل من جسده بدل بعض من كل **(أو سمع أو بصر)** أو نحوه **(قطع ذلك)** العضو **(منه)** الذى أشار له حال وصفه وإشارته، كناية عن أن ما ذكر من الأعضاء حقيقى كالمحسوس المشار إليه، وإنما عوقب بذلك **(لأنه شبه)** بشين معجمة من التشبيه فهو بإشارته شبه **(الله بنفسه)** فى إثبات الأعضاء والتجسيم له ومثله من المتشابه، وللسلف فيه خلاف، فبعضهم نهى عن الخوض فيه وتأويله؛ لأنه مما يستحيل فى حقه، وذهب بعضهم إلى تأويله بما يصح فى حقه كتفسير اليد بالقدرة والتصرف ونحوه.

ومنهم من قال: إنها صفات له لا يعلم حقائقها، وسماها الصفات السمعية، وعلى كل حال فالتشبيه غير صحيح ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وقيل: إن مالكا قصد بكلامه هذا الزجر الشديد لا القطع حقيقة؛ لأنه عقوبة لم ترد فى الشرع، أو أراد الدعاء عليه بذلك، فإنه أجل من أن يقول مثله حقيقة. انتهى.

ولا يخفى أن ما قاله خلاف الظاهر، وإن كان عنده هذا كفرًا، وهو مستحق، فأى

مانع من عقوبته بمثل ما ذكر وما وجه استبعاده.

(وقال) مالك **(فيمن قال: القرآن مخلوق: هو كافر فاقتلوه)**، اعلم أن هذه المسألة مما ابتلى بها السلف، حتى اختار بعضهم السجن والضرب، ولم يرضوا بأن يقولوا ذلك ومن ألغز، وورى فى كلامه، فقال: لفظى بالقرآن مخلوق، وقال بعضهم: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وعدها بأصابعه، وقال: هذه الأربعة مخلوقة إلى غير ذلك، والقرآن يطلق على الكلام النفسى، والصفة المعنوية القائمة بذات الله تعالى، وعلى الكلام القائم بذاته عند من قال بقدم الألفاظ، كالحنابلة، والشهرستانى، وعلى ما يقرأه الناس ويكتبونه، والأولان قديمان، والثالث محدث مخلوق، لكنه منه من قوله تأدبًا وتنزيلاً للصورة منزلة ذيها؛ ولئلا يوهم معنى الاختلاف الذى هو بمعنى الافتراء، والكذب.

قال ابن طلحة فى كتاب «آداب حملة القرآن»: أول من قاله الوليد بن المغيرة، وقد فسر قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، بغير مخلوق، وورد فى الحديث: «القرآن كلام الله ليس بمخلوق»[(١)]، وعليه انعقد الإجماع قبل ظهور المعتزلة، وحكم من قاله: أنه يؤدب، ثم يستفصل، فإن قال: أردت الحروف والأصوات، ترك ولا يقتل، وإن قال: أردت المعنى القائم بالذات، قتل مطلقًا، أو إن لم يتب، قولان، وهل يعذر لجهله أم لا؟ فيه خلاف، وموسى سمع كلام الله من غير صوت ولا حرف، كما نرى الله فى الجنة من غير جهة وتجسم، ولا تجوز التورية عنه، كما مر إلا اضطرارًا. انتهى.

وهذه الرواية عن مالك بناء على أنه يجوز التعزير بالقتل، وهو الذى يسميه بعض الفقهاء: سياسة، لا ما يفهمه الناس من أنه ما أمر بفعله الإمام على خلاف الشرع، وبه صرح ابن تيمية فى السيف المسلول كما مر، وعليه حمل ما مر من قتل أهل الأهواء، فلا إشكال فيه كما قيل.

(وقال أيضًا) الإمام مالك **(فى رواية ابن نافع)**، عن مالك: إنه **(يجلد ويوجع ضربًا، ويحبس حتى يتوب)**، وهذا هو الصحيح، وابن نافع تقدمت ترجمته، **(وفى رواية بشر)** عن مالك، وهو بكسر الموحدة، وسكون الشين المعجمة، وراء مهملة **(ابن بكر التنيسى)**، بكسر التاء المثناة الفوقية، وتشديد النون المكسورة، ومثناة تحتية، وسين مهملة، وتنيس قرية، كانت بقرب دمياط ينسج فيها ثياب مشهورة بغاية الجودة، وهى فى جزيرة صغيرة تسمى تونة أكلها البحر، وتاؤها مكسورة على الصحيح، وجوز

(١) أخرجه ابن الجوزى فى الموضوعات (١٠٨/١)، والخطيب فى تاريخ بغداد (٣٦/١)، وأورده السيوطى فى اللآلى المصنوعة (٣/١)، والعجلونى فى كشف الخفا (١٤٠/٢).

بعضهم فتحها، وبشر بن بكر هذا إمام، محدث، جليل، ثقة، أخرج له أصحاب السنن، وتوفى سنة خمس ومائتين، وله ترجمة فى الميزان.

(عنه) أى عن مالك **(أنه يقتل ولا تقبل توبته)** والصحيح ما تقدم **(وقال القاضى أبو عبد الله البرنكانى)** بزنة الزعفرانى بباء موحدة وراء مهملة ومثناة فوقية وكاف ونون بعد الألف وياء، نسبة إلى نوع من الأكسية، **(والقاضى أبو عبد الله التسترى)** من أصحاب مالك نسبة لتستر بتائين مثنتين فوقيتين كما تقدم **(من أئمة)** المالكية **(العراقيين)** نسبة لعراق العجم أقليم معروف **(جوابه)** أى جواب مالك فى هذه المسألة **(مختلف)** وروايته عنه فى القتل وعدمه.

(يقتل المستنصر) هو بسين ساكنة وصاد وراء مهملات قبلهما مثناة ونون، أى من له أعوان ينصرونه، وقيل: إنه بباء موحدة، أى من له بصيرة فى إقامة الأدلة على مراده، كذا فى الشروح، والأول أنسب بقوله: **(الداعية)** بدال وعين مهملتين الذى يدعو الناس لمذهبه، ويطلب ظهوره والتاء للمبالغة لا للتأنيث كعلامة، فهذا أشد فتنة فلذا رأى مالك قتله دفعًا لغائلته بخلاف غيره.

(و) بناء **(على هذا الخلاف)** فى الرواية عن مالك على أنه كان داعية أم لا أنه **(اختلف قوله)** أى مالك **(فى إعادة الصلاة)** إذا صليت **(خلفهم)** اقتداء بإمامهم فتارة، قال: يعيد، وتارة قال: لا يعيد، وهو مبنى على أن الإمام داعية أم لا؟ أى المبنى علم التفكير وعدمه، ومذهب أبى حنيفة والشافعى صحة الاقتداء بأهل البدع والأهواء مطلقًا، والأدلة مفصلة فى كتب الفقه.

(وحكى) أبو بكر **(ابن المنذر)** هو إمام جليل ادعى الاجتهاد، وعد فى أصحاب الشافعى، وهو حافظ ثقة كما تقدم رواية **(عن الشافعى)**، رضى الله تعالى عنه، **(لا يستتاب القدرى)** لكفرهم ونفيهم تقدير الله كما مر **(وأكثر أقوال السلف تكفيرهم)** أى جاءت بالحكم بتكفيرهم، وفيه خلاف **(وممن قال به)** أى اعتقد كفرهم **(الليث، وابن عيينة، وابن لهيعة)** بفتح فكسر، وهؤلاء كلهم تقدمت تراجمهم.

و**(روى عنهم)** أى عمن ذكر من السلف **(ذلك)** أى تكفيرهم كما روى عنهم **(فيمن قال بخلق القرآن)** وقد سمعت ما فيه **(وقال ابن المبارك)** اسمه عبد الله كما تقدم **(والأودى)** بفتح الهمزة وسكون الواو وكسر الدال المهملة منسوب للأود قبيلة، وهو عثمان بن الحكم **(ووكيع)** أبو سفيان بن الجراح الرواسى كما تقدم **(وحفص بن غياث)** بكسر الغين المعجمة، وفتح الياء التحتية المخففة وألف تليها مثلثة أبو عمرو النخعى

قاضى الكوفة الإمام الحافظ أخرج له الستة، وترجمته فى الميزان، توفى سنة أربع عشر ومائة.

(وأبو إسحاق الفزارى) إبراهيم بن الحارث بن أسماء بن خارجة الفزارى أحد العلماء الأعلام، أخرج له أيضًا الستة، وتوفى سنة ست أو ثمان وثمانين ومائة **(وهشيم)** بن بشر السلمى الواسطى الحافظ الثقة، توفى سنة ثلاث وثمانين ومائة، وأخرج له الستة، وترجمته فى الميزان **(وعلى بن عاصم)** بن صهيب الواسطى أحد الأئمة الأعلام الذى أخرج له أصحاب السنن كما فى ترجمته فى الميزان، وتوفى سنة إحدى ومائة وعمره سبع وتسعون **(فى آخرين)** من الأئمة الذاهبين لهذا **(وهو)** أى ما قاله هؤلاء **(من قول أكثر المحدثين)** أى أئمة علم الحديث **(والفقهاء والمتكلمين فيهم)** متعلق بقول، أى فى المبتدعة.

(وفى الخوارج والقدرية وأهل الأهواء) أى المتبعين لهوى أنفسهم فى العقائد الفاسدة **(المضلة)** بزنة اسم الفاعل، ويجوز كونه اسم مفعول أيضًا **(وأصحاب البدع المتأولين)** للنصوص بتأويلات باطلة **(وهو قول أحمد بن حنبل)** فى هؤلاء **(وكذلك)** أى مثل هذا القول **(قالوا)** أى قال الأئمة الذاهبين للتكفير **(فى)** الفرقة **(الواقفة)** بالقاف والفاء وفى نسخة الواقفية بياء النسبة **(و)** فى الفرقة **(الشاكة فى هذه الأصول)** متعلق بالواقفة والشاكة على التنازع، أو التجاذب، والمراد بالواقفة قوم توقفوا فى اتباع البدعة، أو السنة لجهلهم، أو لتعارض الأدلة عليهم، فلم يقولوا: القرآن مخلوق، أو غير مخلوق، وكذا الشاكة فرقة شكوا فى ذلك.

وقال بعض الشراح: ليس المراد بهم كل من توقف أو شك، بل هم طائفة من الإمامية لهم اعتقادات فاسدة، وتوقفوا فى كثير من أحكام الدين، وأخرجوها عن أصوله، وأقوالهم فى الإمامة وإنها لأولاد على، وقالوا: بالرجعة بعد الموت فى الدنيا، وغيبة الإمام فى جبل رضوى، ويجوز إرادة كل من شك، و لم يتبع الحق، و لم ينظر فى أصول أهل السنة عنادًا منه وإلحادًا.

(وممن روى) ببناء المجهول **(عنه معنى القول الآخر)** المخالف لهذا القول **(بترك تكفيرهم)** أى تكفير أهل البدع والأهواء من الفرق المذكورة **(على)** بن أبى طالب **(و)** عبد الله **(ابن عمر)** بن الخطاب **(والحسن البصرى، وهو)** أى القول بترك تكفيرهم **(رأى جماعة الفقهاء)** كالشافعى لقوله، رضى الله تعالى عنه: لا أكفر أحدًا من أهل القبلة إلا الخطابية، كما حكاه النووى فى الروضة **(النظار)** جمع ناظر ككفار جمع كافر، أى أصحاب النظر والمعرفة بالأدلة والقادرين على المناظرة **(والمتكلمين)** من علماء أصول

الذين **(واحتجوا)** أى استدلوا على عدم التكفير.

(بتوريث الصحابة والتابعين) أى بحكمهم بتوريث **(ورثة أهل حروراء)** من آبائهم وأقاربهم بفتح الحاء المهملة وراء مهملة مضمومة قبل واو، وأخرى مهملة بعدها ألف ممدودة وهمزة، ويجوز قصره علم، قرية على ميلين من الكوفة اجتمع فيها الخوارج الذين اجتمعوا على حرب على، رضى الله تعالى عنه، وتعاقدوا على آرائهم الفاسدة، وعلى قتاله، فنسبوا لمحلهم وآراؤهم واعتقاداتهم مفصلة فى المبسوطات **(و)** ورثوا **(من عرف بالقدر)** وكان من القدرية ورثته **(ممن مات منهم)** أى من الخوارج القدرية **(ودفنهم فى مقابر المسلمين)** لعدم كفرهم **(وجرى)** مصدر مجرور مضاف لقوله: **(أحكام الإسلام عليهم)** بصيانة دمائهم وأموالهم وغير ذلك.

(قال إسماعيل القاضى) هو إسماعيل بن إسحاق الحافظ كما تقدم فى ترجمته **(وإنما قال مالك فى القدرية وسائر أهل البدع)** جواب عن مخالفة قول مالك لمذهب هؤلاء مع قوته، وذهاب السلف إليه من الصحابة والتابعين، وعلماء الدين وأهل الأصول فقول مالك إنهم: **(يستتابون)** أى تطلب منهم التوبة **(فإن تابوا)** قبلت توبتهم **(وإلا)** أى إن لم يتوبوا **(قتلوا)** فحكمه بقتلهم ليس لكفرهم بل:

(لأنه) أى اعتقادهم الباطل **(من الفساد فى الأرض)** وهو مما يجب دفعه، فإن لم يندفع إلا بالمقاتلة والقتل قتلوا لما يلزمه من إضلال للناس وإفساد عقائدهم **(كما قال)** مالك **(فى المحارب)** من البغاة الخارجين على السلطان وعقائدهم غير باطلة **(إن رأى الإمام قتله)** مصلحة لدفع فساده **(وإن لم يقتل)** ذلك المحارب أحدًا **(قتله)** وليس قتله لكفره بل لدفع فساده **(وفساد المحارب إنما هو فى الأموال)** التى يأخذها أو يفسدها **(ومصالح الدنيا)** التى يعود نفعها بتغلبه على البلاد وأهلها لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣] الآية، فالساعى بالفساد يستحق القتل، فليس كل قتل للكفر، فمذهب مالك يخالف قول غيره فى قتل أهل البدع؛ لأنه يوافقهم فى عدم تكفيرهم.

وفى شرح المواقف: اعلم أن عدم تكفير أهل القبلة موافق لكلام الأشعرى والفقهاء لكن إذا فتشنا عقائدهم وجدنا فيها ما يوجب الكفر قطعًا مما يقدح فى الألوهية أو النبوة. انتهى. قيل: فعلى هذا لا ينبغى إطلاق القول بالتكفير وعدمه، وفيه بحث وما قيل: من أن ما قاله القاضى غير مستقيم؛ لأنه إن قيد بالكفر فى حكمه كفر، وإلا فلا حاجة للإلحاق مع أنه يقتضى استحقاق كل من ظهر فساده للقتل كلام لا وجه له لمن له أدنى تأمل.

وقول المصنف، رحمه الله تعالى: **(وإن كان)** إفساد الساعى بالفساد **(قد يدخل أيضًا)** أى كما يفسد الدنيا، معناه أنه قد يؤول فساده للدخول **(فى أمر الدين)** أى قد يؤل فساد الدنيا إلى الإفساد فى الدين، فلذا منعه مالك بناء على قواعده فى الذريعة وسدها وبين ذلك بقوله: **(من سبيل الحج والجهاد)** أى بفساده يفسد سبيل الحج والجهاد بما يمنعه، فلهذا أجاز قتله لئلا يسرى فساده للدين.

(وفساد أهل البدع معظمه) أى أكثره وجودًا راجع وعائد **(على الدين)** لعقائدهم الفاسدة التى يضلون بها الناس **(وقد يدخل فى أمور الدنيا)** فحالهم عكس حال المحارب الذى معظم فساده فى الدنيا، وقد يدخل فى أمور الدين، فيعلم جواز قتله بالطريق الأولى، وبين دخوله فى الدنيا بقوله: **(بما يلقون)** بضم أوله مضارع ألقى، بمعنى رمى وطرح، وهو كناية عن ظهوره **(بين المسلمين من العداوة)** الدينية التى تسرى لدنياهم بالمقاتلة والمحاربة ونهب الأموال وتخريب الديار **(والله الموفق للصواب)** من اتباع الحق، وترك الباطل وكسر شوكته، وهذا بناء على عدم تكفير الخوارج، وفيه خلاف مشهور سيأتى بيانه، والبغاة أمرهم مفصل فى كتب الفقه، والله أعلم.

* * *

(فصل) ذيل به ما قبله
(فى تحقيق القول فى إكفار المتأولين)

من أصحاب البدع والأهواء الذين أولوا عقائدهم الباطلة بما يجعلها صحيحة، وأولوا بعض النصوص المشكل ظاهرها **(قد ذكرنا)** فى الفصل الذى قبل هذا **(مذاهب السلف)** من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم من المتقدمين **(فى إكفار أصحاب البدع والأهواء)** من الفرق الضالة **(المتأولين)** لمقالاتهم الباطلة حتى لا يقتلوا **(ممن قال قولا يؤديه)** بضم التحتية، وفتح الهمزة، وتشديد الدال المهملة، أى يوصل ويفضى.

(مساقه) مصدر ميمى، أى سوقه وسوق الكلام وسياقه، ما يدل عليه بواسطة ما ذكر معه **(إلى كفر)** متعلق بيؤديه، أى يؤدى إليه كقول المعتزلة أنه لا يفعل القبيح، ولا يريده، وإنه يؤدى إلى ما لا يليق من عدم القدرة ونحوه، وهم يأولونه بأنه بتمكينه وخلق القدرة ويقولون: فعل القبيح قبيح، والكلام عليه مفصل فى كتب الأصول **(وهو)** أى القائل **(إذا وقف عليه)** أى على ما يؤدى إليه كلامه **(لا يقول)** أى لا يعقد اعتقادًا جازمًا **(بما يؤديه قوله إليه)** من الكفر ومقدماته، وقوله: وقف عليه كناية عن الاطلاع عليه والعلم به، وليس تعديه بعلى لهذا كما قيل، فإنه يتعدى بها كما يقال: وقف على الأرض.

(و) بناء (**على اختلافهم**) أى السلف (**اختلف الفقهاء والمتكلمون فى ذلك**) أى فى تكفيرهم وعدمه بناء على مسألة أصولية، وهى أن لازم المذهب هل هو مذهب أم لا؟ (**فمنهم**) أى الفقهاء والمتكلمين (**من صوب**) بتشديد الواو، أى عده صوابًا صحيحًا، والتصويب ضد التخطئة (**التكفير**) أى القول بكفرهم (**الذى قال به الجمهور من السلف**) أى أكثرهم نظرًا لما يؤدى إليه صونًا لخطائر القدس، وحماية لجانب الربوبية، والتكفير والكفار بمعنى، ومن قال: الأول إنما هو من الكفارة فقد أخطأ كما فى المغرب وغيره من كتب اللغة.

(**ومنهم من أباه**) أى منع تكفيرهم بمثله (**ولم ير إخراجهم**) أى إخراج هؤلاء القائلين بما ذكر (**من سواد المسلمين**) وفى نسخ: «المؤمنين» صونًا لأهل القبلة للأحاديث الواردة فى النهى عنه كالحديث الآتى قريبًا: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دمائهم وأموالهم»، ونحوه من الأحاديث الصحيحة، والسواد هنا بمعنى الجماعة قال فى الأساس: سواد المدينة ما حولها، والسواد الأعظم جماعة المسلمين، ويقال: كثرت سواد القوم بسوادى، أى جماعتهم بشخصى، وقلت لما تغلب سواد الخصيان على أرض مصر فى الدولة الإبراهيمية النمروذية:

سواد وجوه الملك سود عبيده ... بتسويده دون البرية سودها
فقد غلط الدهر الدنى بفعله ... فظن سواد المسلمين عبيدها

وورد سواد الناس بمعنى عامتهم، وليس بمراد هنا وإن جاز على بعد (**وهو قول أكثر الفقهاء والمتكلمين**) وقد علمت أنه بناء على الظاهر والأكثر، وليس على إطلاقه وذلك؛ لأنه بتعلقه بذلك من مسائل الكلام من وجه ومسائل الفقه من وجه (**وقالوا هم**) أى أهل البدع (**فساق**) ككفار جمع فاسق (**عصاة**) لارتكابهم كبائر من فساد العقائد والأعمال (**ضلال**) بضم الضاد المعجمة، وتشديد اللام جمع ضال.

(**ونوارثهم**) مضارع بنون العظمة والجماعة (**من المسلمين**) أقاربهم، أى نحكم بإرث المسلمين لهم ومنهم (**ونحكم لهم بأحكامهم**) فيما لهم وعليهم لعدم تكفيرهم (**ولهذا**) القول (**قال سحنون: لا إعادة**) للصلاة (**على من صلى خلفهم**) لصحة الاقتداء بهم وصحة صلاتهم، وفى بعض النسخ: (**فى وقت**) واحد (**ولا فى أكثر**) أى أوقات، وذكره دفعًا لتوهم أنه قد تسقط الإعادة فى الأوقات الكثيرة دون غيرها للمشقة فيها.

(**قال**) سحنون (: **وهو**) أى هذا القول، أو عدم إعادة الصلاة (**قول جميع أصحاب مالك كلهم**) وفى نسخة (**منهم المغيرة وابن كنانة وأشهب**) وقد تقدمت تراجمهم (**قال**)

سحنون (: **لأنه**) أى المبتدع (**مسلم وذنبه**) الذى ارتكبه من بدعته (**لم يخرجه من الإسلام**) لتصديقه بالله ورسوله، والتزام أحكام الدين فى ظاهر حاله (**واضطراب**) أى تردد وشك (**آخرون فى ذلك**) الحكم من تكفيرهم وعدمه (**ووقفوا**) عن أحد الطرفين، فلم يحكموا بإسلامهم ولا بعدمه.

(**عن القول بالتكفير وضده**) وهو الإسلام وقول رابع، وهو التفصيل كما تقدم (**واختلف قول مالك فى ذلك**) فله قول بتكفيرهم، وقول بخلافه، فلذا اضطرب بعضهم وتوقف آخرون فيهم، وفى نسخة: واختلاف قولى مالك (**وتوقفه عن إعادة الصلاة خلفهم منه**) أى من هذا القبيل الذى اختلف فيه قوله: فتارة قال: يعيد، وتارة قال: لا يعيد (**وإلى نحو من هذا**) التوقف المنقول عن مالك.

(**ذهب القاضى أبو بكر**) الباقلانى من أئمة أهل الأصول (**إمام أهل التحقيق والحق**) ومقتداهم فى الأصول والفروع، ولا يلزم من توقفهم إثبات منزلة بين المنزلتين كالمعتزلة كما توهم، وقيل: إنه أشكل لتعطيل كثير من الأحكام، فإن أمرهم فى الآخرة إلى الله، وقد قيل: من قال لا أدرى، فقد أفتى، وكم توقف المجتهدون فى مسائل من أمور الدين لم تضرهم ولا غيرهم، والقاضى أبو بكر الباقلانى اشتهر أنه شافعى، وقيل: إنه مالكى، وصححه بعضهم وسيصرح به المصنف، رحمه الله تعالى، فهو الأصح.

(**وقال**) القاضى أبو بكر المذكور (: **إنها**) أى هذه المسألة (**من المسائل المعوصات**) أى الصعبة المشكلة لقوة الآراء المتعارضة فيها، وهو بضم وسكون العين المهملة وكسر الواو المخففة وصاد مهملة، وضبطه بعضهم بفتح العين وتشديد الواو، وهو من قولهم اعتاص إذا التوى، والعويص ما لا يفهم من الشعر وغيره ويصعب استخراجه (**إذا القوم**) ممن ارتكب البدعة (**لم يصرحوا بالكفر**) فى شىء مما قالوه (**وإنما قالوا ما يؤدى إليه**) أى ما يلزمه الكفر، وظن بعضهم أن القوم هم علماء السلف، والمراد أنهم لم يطلقوا عليهم اسم الكفر وما بعده يأباه.

(**واضطرب قوله**) أى قول القاضى (**فى المسألة**) فهو مختلف (**على نحو اضطراب قول إمامه مالك بن أنس**) وهذا صريح فى أنه مالكى المذهب، وبه صرح الزناتى فى طبقاته، فقال: أبو بكر محمد بن الطيب المعروف بابن الباقلانى الأصولى الأشعرى المالكى مجدد الدين على رأس المائة الرابعة على الصحيح. انتهى. إلا أنه يحتمل أن يراد به أبو بكر ابن العربى المالكى، إلا أن فى العبارة ما يأباه ظاهرًا فتدبر، تدر.

(**حتى قال**) القاضى أبو بكر (**فى بعض كلامه: إنهم على رأى من كفرهم بالتأويل**)

في أقوالهم **(لا تحل مناكحتهم)** أي تزويجهم المسلمات **(ولا أكل ذبائحهم)** كالمشركين **(ولا الصلاة على ميتهم)**؛ لأنهم كفرة عنده **(ويختلف في مواريثهم على الخلاف)** المتقدم **(في ميراث المرتد وقال)** القاضي **(أيضًا: إنما يورث)** بالتشديد والتخفيف **(ميتهم)** أي نعطي ميراث من مات منهم **(ورثتهم من المسلمين)** تقديمًا على بيت المال لعلاقة الإسلام السابقة **(ولا نورثهم)** أي لا نعطيهم ميراث من مات من أقاربهم **(من المسلمين)** لانقطاع علاقة الإرث بينهم عند استحقاق الإرث.

(وأكثر ميله) أي القاضي **(إلى ترك التكفير)** لأهل البدع **(بالمآل)** أي بما يؤول إليه كلامهم؛ لأن لازم المذهب ليس بمذهب عندهم **(وكذلك)** أي مثل ما اضطرب قول القاضي **(اضطرب فيه قول شيخه أبي الحسن الأشعري)** وهو شيخه في الأصول وقدوته، وهو لم يره، وإنما روى عنه بواسطة كذا قيل **(وأكثر قوله)** أي ما نقل عنه **(ترك التكفير)** لهم **(وأن الكفر)** إنما يلزم **(خصلة)** أي صفة **(واحدة وهو)** ذكره نظرًا لمعنى الوصف.

(الجهل بوجود الباري)، تقدس وتعالى، لقوله في الحديث: «حتى يقولوا: لا إله إلا الله»، كما تقدم بأن لا يعرف الله، ولا يقر به، ولا بوحدانيته **(وقال)** الأشعري، والقاضي **(مرة من اعتقد أن الله تعالى جسم)** كالمجسمة والنصارى **(أو المسيح)** بالرفع، أي قال: إن الله هو المسيح عينه، أو حل فيه **(أو)** قال: إن الله **(بعض من يلقاه في الطريق، فليس بعارف به)** أي جاهل بالله، لا يعرفه، لقوله لمن ليس بإله: هو الله، وهو أعظم جهل به **(وهو)** بسبب ما قاله **(كافر)**؛ لأن كل من لم يعرف الله كافر، كما قدمه **(ولمثل هذا)** القول الذي قاله الأشعري **(ذهب أبو المعالي)** عبد الملك بن يوسف إمام الحرمين كما تقدم.

(في أجوبته لأبي محمد عبد الحق) لما سأله عنه قال الحافظ الحلبي: هو الحافظ عبد الحق الإشبيلي صاحب كتاب الأحكام وغيره؛ لأنه من أهل المائة الخامسة، وإمام الحرمين من أهل الرابعة، فليس من أهل عصره، وفي بعض النسخ: ذهب أبو الوليد سليمان في أجوبته لأبي محمد عبد الحق، وهو لا يصح أيضًا لاختلاف عصريهما، وقال التلمساني: هو عبد الحق بن محمد بن هارون السهمي، توفي سنة ست وتسعين وأربعمائة، ومن العجب ما قيل: إن عبد الحق هذا هو الإشبيلي والسهمي، واللام في قوله لأبي محمد ليست متعلقة بأجوبته، فإنه هو السائل بل المراد في أجوبته الكائنة لأبي محمد، أي الذي جمعها وصنفها، كما يقال: أجوبة مالك لابن سحنون، والجار والمجرور ليس لغوًا، وهو تعسف لا معنى له، ولا يخطر ببال.

(وكان) أبو محمد بن عبد الحق **(سأله عن المسألة)** المذكورة في أهل البدع **(فاعتذر**

له) عن ترك الجواب له **(بأن الغلط فيها)** أى فى هذه المسألة **(يصعب)** ويشكل على من خاف أن يقول فى الشرع ما ليس منه **(لأن إدخال كافر فى الملة)** أى ملة الإسلام، وهو ليس من أهله لكفره **(أو إخراج مسلم منها)** أى من ملة الإسلام أمر مشكل **(عظيم فى الدين)** لما فيه من خطر الجانبين، فلذا لم يجبه فى هذه المسألة لخوفه من الله تعالى.

واعلم أن الأشعرية قالوا: إن المجسمة منهم من قال: إنه جسم بلا كيف، أى ليس جسمًا كالأجسام فى المادة، وهذا مذهب الحنابلة، وبه صرح ابن سمعة. وقال: معنى قولنا جسم أنه ليس بعرض، وهذا هو البلكفة، وهؤلاء ليسوا بكفار عندهم، بل هم مبتدعون، ومنهم من أثبت له الجسمية بلوازمها، وهؤلاء كفار كما صرح به الرافعى فى الشرح، وقيل: ليسوا بكفار مطلقًا، والأصح الأول، ومن لقى رجلاً فى الطريق فقال: هو الله، هم بعض الجهلة من الحلولية، وليس منهم مشايخ الصوفية كابن عربى، وابن الفارض نفعنا الله ببركاتهم وصانهم عما نسب إليهم، فلا يغتر بمن تعصب عليهم من ظاهرية الفقهاء.

(وقال غيرهما) أى غير الأشعرى وأبى المعالى **(من المحققين: الذى يجب)** الموصول مبتدأ خبره **(الاحتزاز)** أى الحذر والوقوع **(من التكفير فى)** أهل القبلة من **(أهل التأويل)** الذين أولوا مقالاتهم بما يوافق الشرع، وإن لم يقبل تأويلهم **(فإن استباحة دماء المسلمين)** وفى نسخة بدله: «المصلين» **(الموحدين خطر)** أى أمر عظيم يخشى منه غضب الله **(والخطأ فى ترك)** قتل **(ألف كافر أهون)** أى أخف، وأقل عند الله **(من الخطأ فى سفك)** أى إراقة **(محجمة)** بكسر الميم اسم آلة يؤخذ فيها دم الحجامة المعروفة.

(من دم مسلم واحد) بحسب الظاهر لم يحكم بكفره وحاله عند الله، وفيه مبالغة؛ لأنه كناية عن قلة القتل، وتوهم أن نفس إراقة دم محجمة واحدة بالحجامة لا القتل أهون من قتل ألف كافر وليس بمراد **(وقد قال، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، فى حديث صحيح رواه البخارى وغيره: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة».

(فإذا قالوها يعنى)، صلى الله تعالى عليه وسلم **(كلمة الشهادة)** بوحدانية الله وبرسالة رسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يقل وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة؛ لأن من قالها التزم أحكام الإسلام، فدل عليه بالالتزام، ولذا أدخله بعضهم فيه، ولأنه لا يقاتل، وإن جاز قتله غالبًا **(عصموا)** أى حفظوا وصانوا **(منى دمائهم)** جمع دم، أى لم يقتلوا **(وأموالهم)** عن أخذها منهم كالفئ والغنيمة **(إلا بحقها)** استثناء مفرغ، أى بكل سبب إلا بسبب حق يقتل قتلا، أو أخذ مال كقتل أو غصب **(وحسابهم)** عما عملوه فى الآخرة.

(على الله) أى حسابهم مفوض إلى الله تعالى المطلع على أعمالهم وسرائرهم، وما فى قلوبهم من كفر ونفاق وغيره، وأما النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنما أمر أن يحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، فعلى ليست تدل على الإيجاب؛ لأنها بمعنى إلى خلافًا للمعتزلة القائلين بوجوب الأصلح على الله، أو نقول: هى على ظاهرها على طريق تنزيله منزلة الواجب عليه لعدم تخلف ما سبق فى علمه وتقديره، أو لأنه وعد منه، وهو لا يخلف الميعاد فصار كما لواجب شرعًا، ولا معنى للإيجاب على الله عند تدقيق النظر إلا هذا كما ذكره الجلال الدوانى فى شرح العقائد العضدية، وظاهر الخبر يقتضى أن التلفظ بكلمتى الشهادة لا يتحقق الإيمان بدونه كما ذهب إليه بعض أهل السنة.

وذهب الأشعرى وبعض الماتريدية إلى أنه إنما هو لازم لإجراء أحكام الشرع عليه فى الدنيا، وكف القتل عنه، فمن آمن بقلبه و لم يلفظ بهما فهو مؤمن عندهم بدليل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢] ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، ونحوه، والخلاف فيمن لم يأب اللفظ بهما، وهو قادر لكن العاجز مؤمن إجماعًا والقادر الآبى المُصر على الترك كافر إجماعًا لدلالة ذلك على عدم خلوص سريرته.

(فالعصمة) للدماء والأموال **(مقطوع بها مع)** الإتيان بـ**(الشهادة)** بتلفظه بإنه لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وهذا عام مخصوص بغير أهل الذمة، والمعاهد والمستأمن بما نطق به من الآيات والأحاديث، وهل هو ناسخ للعموم أو مقيد خلاف لفظى مذكور فى أصول الفقه **(ولا ترفع)** العصمة أى تزول **(ويستباح خلافها)** من دم أو مال **(إلا بـ)** دليل **(قاطع)** يرفع ما قطع به **(ولا قاطع)** فى حق المبتدعة **(من شرع)** ورد به فى كتاب أو سنة **(ولا قياس)** جلى **(عليه)** أى على القاطع الشرعى.

(وألفاظ الأحاديث الواردة فى) هذا **(الباب)** الدالة على تكفير أهل البدع والأهواء الذى تمسك بها من ذهب لتكفيرهم جواب عن سؤال تقديره: كيف لا تقول بتكفيرهم، وأنه لم يقم عليه دليل، ولا قياس وقد رووا ما يدل على خلافه؟ فقال: إنها **(معرضة)** بزنة اسم المفعول مشددة الراء وفى نسخة: «عرضة»، أى أنها قابلة **(للتأويل)** فلا تعارض الأدلة القاطعة بخلافه، فشبهها بهدف يوضع لإصابة سهام التأويل، ففيه استعارة مكنية مخيلة وذلك لعدم صراحتها **(فما جاء منها)** أى من الأحاديث الدالة على كفرهم **(فى التصريح بكفر القدرية)** وأنهم مجوس هذه الأمة، كما تقدم.

(وقوله)، صلى الله تعالى عليه وسلم **(: لا سهم لهم)** أى القدرية **(فى الإسلام)** والسهم إما أن يراد به ما هو من سهام الغنائم؛ لأنه إنما هو للمسلمين، أو بمعنى

النصيب، والمعنى لا إسلام لهم كقول ابن الفارض[(١)]:

على نفسه فليبك من ضاع عمره ليس له منها نصيب ولا سهم

(وتسميته) الضمير له، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(الرافضة بالمشرك)** أى إطلاقه عليهم أنهم مشركون، قيل: وهذا لا تعرف روايته وسيأتى رده قريبًا **(وإطلاق العنة)** أى الطرد والبعد من رحمة الله **(عليهم)** أى على الرافضة بقوله: إنهم ملعونون، وإنما يلعن الكافر.

(وكذلك) ما ورد **(فى)** حق **(الخوارج)** الذين خرجوا على علىّ، رضى الله عنه، **(وغيرهم من أهل الأهواء)** أى الآراء الفاسدة كالشيعة **(فقد يحتج بها)** أى بهذه الأحاديث **(من يقول بالتكفير)** لهؤلاء بناء على ظاهرها **(وقد يجيب)** عنها **(الآخر)** الذاهب لعدم تكفيرهم، فلذا قال: إنها قابلة للتأويل **(بأنه)** متعلق بيجيب والضمير للشأن **(وقد ورد)** عنهم ورودًا شائعًا متعارفًا فيما بينهم لا ينكره إلا جاهل، بل قد ورد **(فى الأحاديث مثل هذه الألفاظ)** المذكور فيها الكفر واللعنة.

(فى) حق **(غير الكفرة)** من عصاة المسلمين مع القطع بعدم كفرهم إجماعًا **(على طريق التغليظ)** أى المبالغة والتشديد فى الزجر تخويفًا لهم، فهو مجاز أوكناية بإنهم مستحقون لعذاب الكفرة ومتصفون بصفات تليق بالكفرة، ومثله كثير فى الآيات والأحاديث **(وكفر دون كفر)** أى أهون منه **(وإشراك دون إشراك)** أخف منه وأهون لتفاوت مراتبه، وبعض الشر أهون من بعض، وظلم دون ظلم كما فى الأثر يعنى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما سمى الطاعات إيمانًا سمى بعض المعاصى كفرًا وشركًا.

وسمى الله الكفر فى القرآن ظلمًا، كقوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] وقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وخلص المؤمنين يرون التوحيد، أى لا يرى فى الوجود غير الله، ولا يرى لغير الله شيئًا من الأمر ويعدون غير هذا شركًا خفيًا بل ظاهرًا، كما قال ابن عطاء الله: كلك شرك خفى، وكما قال بعض مهنئًا بعيد:

عيدى شهودى وعيد أنت يا عينى والعيد عندى دوام المحو عن عينى
إثبات غيرك شرك فى عقيدتنا ترك السوى ديننا يا قرة العين

وصاحب اليرقان يرى الدنيا كلها صفراء، وهذا مقام شهود وكشف يعرفه من ذاق حلاوة الإيمان، ومنكره مريض القلب الذى يتوهم العسل مرًا لعدم صحة ذوقه، اللهم

(١) البيت من الطويل، وهو فى ديوان ابن الفارض (ص١٨٥).

ارزقنا من الشوق للقائك، ما يحلو به الصبر على مر بلائك.

واعلم أن البيهقى روى فى الدلائل عن على، رضى الله تعالى عنه، وكرم الله وجهه، عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أنه يكون فى أمتى قوم فى آخر الزمان يسمون الرافضة يرفضون الإسلام»(١). ورواه من طرق عدة وقوله: «فى أمتى» فيه إيماء للتأويل، وأنه حمل على أنهم فى عدادهم وبينهم، أو المراد بالأمة أمة الدعوة، وأما الأحاديث فى الخوارج فصحيحة فى مسلم وغيره وفيه معجزة له، صلى الله تعالى عليه وسلم، لإخباره بالغيب، وسيأتى فى كلام المصنف الإشارة لها، وسنذكره هناك، فمن قال حديث الرافضة لا يعلم من رواه فقد قصر.

(وقد ورد مثله) أى مثل الحديث الوارد فى تكفير الرافضة وغيرهم من أهل البدع **(فى الرياء)** براء مهملة وياء مثناة تحتية ممدود، وهو فعل العبادة ونحوها لأجل الناس، هكذا ضبطه الحافظ الحلبى والأحاديث فى الرياء مشهورة، وكذا إطلاق الشرك عليه فإنه يقال له: الشرك الخفى، وهو أنسب بقوله السابق: شرك دون شرك، وفى الشرح الجديد أن الربا بالقصر وباء موحدة ويكتب بألف وواو وياء، وهو فضل أحد المتجانسين على الآخر بالمعيار الشرعى من كيل ووزن ونحوه، والكلام فيه معروف غنى عن البيان، وهو إشارة لما فى حديث مسلم لعن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «آكل الربا وموكله، وكاتبه، وشاهده»(٢). وفى نسخة: «الزنا» بزاء معجمة ونون، فهو إشارة لقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا يزنى حين يزنى وهو مؤمن»(٣)، وعليه بعض الشراح والكل صحيح.

(وعقوق الوالدين) الأب والأم وإن عليا، وهو من الكبائر أيضًا والعقوق من عقه، بمعنى قطع وشق وهو فعل كل ما يؤذيهما ويسوءهما ويترك صلتهما وضده البر، وقد جمعه الله تعالى بأبلغ لفظ من قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وما أحسن قول السراج الوراق فى بر ولده له:

بنى اقتدى بالكتاب العزيز ... فزدت سرورًا وزاد ابتهاجا
وما قال لى أف فى عمره ... لكونى أبا ولكونى سراجا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (١٠٣/١)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٥٤٧/٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٥٩٧/١٠٥)، وأبو داود (٣٣٣٣)، والترمذى (١٢٠٦)، والنسائى (١٤٧/٨)، وابن ماجه (٢٢٧٧).

(٣) أخرجه البخارى (٥٥٧٨)، ومسلم (٥٧/١٠٠)، وأبو داود (٤٦٨٩)، والترمذى (٢٦٢٥)، والنسائى (٦٤/٨، ٦٥)، وابن ماجه (٣٩٣٦)، والإمام أحمد (٣٧٦/٢).

وفى العقوق أحاديث كثيرة تدل على ما قاله المصنف **(والزوج)** أى ومخالفة المرأة زوجها، وفى الحديث: «من بات زوجها ساخطًا عليها لم ترح رائحة الجنة»، وهذا من صفة الكفار، وفى بعض النسخ: «والزور» أى شهادة الزور، أى الكذب سمى به لميله عن الحق، ومنه: ﴿**تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ**﴾ [الكهف: ١٧]، **(وغير معصية)** واحدة، أى جاء فى حق معاص كثيرة وصفها فى الحديث بأنها كفر وشرك مع علم كل أحد بأن فاعلها لا يكفر، فدل هذا على أن المراد تغليظ زجر لا أنه كفر حقيقة، فما ورد من تكفير المبتدعة أهل الأهواء مثله **(وإذا كان)** أى ما ورد فى حقهم من الكفر.

(محتملاً للأمرين) أى كونه على ظاهره وكونه مبالغة فى زجرهم تخويفًا لهم **(فلا يقطع على أحدهما)** أى أحد الأمرين الكفر وعدمه **(إلا بدليل قاطع)** لصعوبة إخراج أحد من الإسلام وإدخاله فى الكفر كما تقدم، وعدى بقطع نعلى لتضمينه معنى يقول ويعتمد؛ لأنه يتعدى بالباء يقال: قطع به إذا جزم.

(وقوله ﷺ فى الخوارج: «هم شر البرية») أى الخلق من برأ بمعنى خلق فخفف وشر أفعل تفضيل مخفف أشر كما سمع نادرًا، وبه قرئ فى قراءة شاذة لأبى قلابة، وكذا خير، والخوارج جمع خارج أو خارجى كما مر **(وهذه)** الصفة وهى شر البرية **(صفة الكفار)** وصفهم الله بها فى القرآن فى قوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ**﴾ إلى قوله: ﴿**أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ**﴾ [البينة: ٦]، فوصفهم بصفتهم يقتضى كفرهم إذا لم نقل المراد دوام هذه الصفة، وإنها لا تليق بمسلم، وهذه العبارة فى حديث فى الصحيحين وغيرهما، ورواه أحمد عن عائشة بلفظ: «الخوارج شرار أمتى يقتلهم خيار أمتى» وفى مسلم: «أبغض الخلق»، ونحوه.

(وقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الخوارج فى الحديث: **(«شر قبيل»)**، بفتح القاف، وباء موحدة، ومثناة تحتية ولام، وهم الجماعة، والقبيلة جماعة لأب واحد، وبعضهم ضبطه بمثناة فوقية **(تحت أديم السماء)** الأديم الجلد، والنطع منه، وهو تشبيه لها بجلد ممدود، أى تحت السماء، وهو يستعار للأرض أيضًا، وفى الأساس: أديم السماء ما تحتها، ومن العجب ما قيل إنه مشكل؛ لأن أديم السماء الأرض، وقال الجوهرى: سمى وجه الأرض أديمًا، فظاهره أنه تحت الأرض، وما آفة الأخبار إلا رواتها.

(طوبى لمن قتلهم أو قتلوه) أى طوبى لمن قتلوه؛ لأنه شهيد، وهى كلمة مدح، وقد يقصد بها التبشير بالجنة والسعادة؛ لأنها اسم الجنة، أو شجرة فيها، ويقال: طوبى له فى طوباه، وهى فعلى من الطيب، وفى الحديث: «طوبى لأهل الشام؛ لأن الملائكة باسطة

أجنحتها عليها»(١). وفى الحديث: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، وطوبى للغرباء»(٢)، وقد قتلهم علىّ، كرم الله وجهه، يوم النهروان.

(وقال، صلى الله تعالى عليه وسلم)، وفى حديث رواه الشيخان عن أبى سعيد الخدرى **(فإذا وجدتموهم فاقتلوهم قتل عاد)** وفى رواية ثمود وهم كفرة كما فى القرآن **(فظاهر هذا)** الحديث **(الكفر)** أى كفر الخوارج، ولذا ذهب إليه أكثر العلماء كالطبرى والسبكى **(لاسيما)** أى أنه يدل على الكفر دلالة واضحة **(مع تشبيههم بعاد)** إشارة إلى أن فى الكلام معنى التشبيه، إذ المعنى اقتلوهم قتلا كقتل عاد، والمراد تشبيههم بهم فى أفنانهم واستئصالهم بحيث لا يبقى لهم أثر، ومن هذا الوجه دل على المبالغة فلا يرد عليه ما قيل: إن عادًا أهلكوا بريح صرصر، لا بسيف ونحوه، ففى التشبيه إشكال فإنه ناشئ من قلة التدبر.

(فيحتج به) أى بالحديث أو بالتشبيه **(من يرى تكفيرهم)** لأمره، صلى الله تعالى عليه وسلم، بقتلهم وتشبيههم بالكفرة **(فيقول له الآخر)** الذى لا يرى تكفيرهم مجيبًا له **(إنما ذلك)** المذكور فى الحديث **(من قتلهم لخروجهم على المسلمين وبغيهم عليهم)** أى جورهم وتعديهم على المسلمين كالبغاة، ومن فى قوله: من قتلهم قيل: إنها تعليلية، أى من أجل قتلهم؛ لأنهم قتلوا المسلمين لما خرجوا على ما فى القصة المشهورة ويتمسك **(بدليله)** وفى نسخة دليله الذى استدل به.

(من الحديث نفسه) من غير حاجة لدليل آخر كقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيه: **(«يقتلون أهل الإسلام»)** فإنه يدل على أنهم إنما قتلوا لقتلهم لا لكفرهم كما قال **(فقتلهم)** أى الخوارج **(هاهنا حد)** وقصاص دفعًا لشرهم **(لا كفر)** كما فهمه القائل به، ثم استشعر سؤالا بأنه حينئذ لم يشبههم بعاد؟ فقال: **(وذكر)** وفى نسخة: «وقتل» **(عاد تشبيه للقتل وحله)** أى القتل **(لا للمقتول)** بخصوصه من الخوارج، وقوم عاد، ثم وضحه بقوله: **(وليس كل من حكم بقتله)** شرعًا **(حكم بكفره)** كالقاتل وتارك الصلاة عند الشافعى، وقطاع الطريق، وقتل علىّ، كرم الله وجهه، للخوارج ذهب كثير إلى أنه؛ لأنهم بغاة، كما ذهب بعضهم إلى أنه لكفرهم.

(ويعارضه بقول خالد) ابن الوليد، رضى الله تعالى عنه، والمعارضة إقامة دليل يدل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٥/١٨٤، ١٨٥)، والترمذى (٣٩٥٤)، وابن حبان (٢٣٨١)، والطبرانى فى الكبير (٥/١٧٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٢/١٤٥)، والترمذى (١٦٢٩)، وابن ماجه (٣٩٨٨)، وأحمد (١/٣١٨)، والدارمى (٢/٣١٢).

على خلاف ما قاله، ويبين أرجحيته على ما قاله **(فى الحديث)** الذى رواه الشيخان عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله تعالى عنه، فى حق رجل أخبر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأنه سيصدر عنه شىء من أمر الخوارج **(دعنى)** أى اتركنى، وهو كناية على الأذن له فيما ذكر.

(اضرب عنقه) أى أقتله، وهو مجزوم فى جواب الأمر **(يا رسول الله، فقال)** رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم (: **لعله يصلى)** فجعل الصلاة، وإظهار شعائر الإسلام مانعة من التكفير والقتل لسببه، ولعل للتعليل، أو للترجى، وهو فى كلام الله ورسوله للتحقيق، ووقع فى رواية أن القائل فى هذه القصة عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، وجمع بينهما بأن القول وقع منهما، والرجل الذى أريد قتله ذو الخويصرة.

(فإن احتجوا) أى القائلون بكفرهم **(بقوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الحديث الذى رواه البخارى فى حق الخوارج، وقوله فيه: إنهم (**«يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم»**)، أى لا يتعداها ويذهب منها جمع حنجره، وجمع رأس الحلق الخارج منه الكلام، وهى الحلقوم ومجرى النفس وطرف المرئ مما يليه، والمراد أنه لا يصل لقلوبهم لعدم العمل والعلم بما فيه من الإيمان والعقائد، ويفسره رواية مسلم: «لا يجاوز حلاقيمهم»، فهم مؤمنون باللسان دون القلب.

ولهذا عقبه بقوله: **(فأخبر أن الإيمان لم يدخل قلوبهم وكذلك قوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم **(يمرقون)** أى يخرجون **(من الدين)** فالمروق والخروج بسرعة مروقًا مثل: «مروق السهم من الرمية»، قيل: هى فعيلة بمعنى مفعولة، أى ما يرمى من صيد ونحوه كذا فسره هنا كلهم.

والظاهر أن المراد به القوس، أو الوتر، وما يرمى به لقوله بعده: **(ثم لا يعودون إليه)** أى إلى الدين **(حتى يعود السهم إلى فوقه)** بضم الفاء وواو ساكنة وقاف، وهو موضع السهم من الوتر، فإن الظاهر أنه شبه خروجهم السهم من قوس راميه الذى لا يمكن رجوعه حين يرميه إليه، وهكذا هو فى أمثال الناس يقولون: لما لا يعود سهمى، ويؤيده تأنيثه إلا أنى لم أره، اللهم إلا أن يقال: السهم الذى يخرج مما رمى به لا يعود لقوسه أيضًا، فهو أبلغ فى المعنى المراد، وهذا هو المراد كما سيأتى.

والحديث كما فى البخارى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «يخرج ناس من قبل المشرق يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ثم لا يعودون إليه، حتى يعود السهم إلى الرمية»، إلى آخره. وفيه أن سيماهم

أنهم يحلقون رؤوسهم؛ لأن حلق شعر الرأس فى عهده، صلى الله تعالى عليه وسلم، إنما كانوا يفعلونه لنسك أو حاجة، أما الآن فصار عادة لا تكره، وهذا من معجزاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما فيه من الإخبار عن المغيبات.

(و) كذلك يحتجون بـ**(قوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث رواه الشيخان، وفى نسخة: «وكذلك قوله» **(سبق)** أى السهم بخروجه سريعًا **(الفرث والدم)** قال الراغب: الفرث ما فى الكرش، ويقال: فرث كبده، أى فتتها وأفرث فلان أصحابه أوقعهم فى بلية جارية مجرى الفرث، انتهى، يعنى أنه لا تعلق لهم بالإسلام إيماء لسرعة خروجهم منه، كما أن السهم النافذ من حيوان رمى به يخرج قبل ما فى باطنه من الفرث والدم، فإنه يخرج بعده.

(وهذا) المذكور فى الحديث **(يدل على أنه)** أى الخارجى **(لم يتعلق من الإسلام بشىء)** كالسهم السريع النفوذ. وقوله: **(أجابه)** جواب قوله: فإن احتجوا إلى آخره، أى فإن عارضوهم به أجابهم **(الآخرون)** القائلون بعدم كفرهم **(بأن معنى)** قوله فى الحديث: («**لا يجاوز حناجرهم**») الذين تمسكوا به أنهم **(لا يفهمون معانيه بقلوبهم)** فلا يمتثلون أوامره ونواهيه، فهم عصاة لا كفار **(ولا تنشرح صدورهم)** كغيرهم من المتقين **(ولا تعمل به جوارحهم)** أى أعضاءهم الظاهرة، فهم لا يتدبرون القرآن، وإن واظبوا على تلاوته وحسنوا به أصواتهم وبالغوا فى عبادتهم.

(وعارضوهم) معطوف على أجابه **(بقوله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(ويتمارى)** أى يتردد السهم فى موضعه من الوتر **(فى الفوق)** بضبطه السابق **(فهذا)** التشبيه **(يقتضى التشكك فى حاله)** وأنه لا يحكم بكفره وفيه كلام فى شرح البخارى **(وإن احتجوا)** أى المكفرون **(بقول أبى سعيد الخدرى)**، رضى الله تعالى عنه، **(فى هذا الحديث)** ومقوله قوله: («**سمعت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقول: يخرج**) أى يظهر **(فى هذه الأمة»)** فجعلهم فيها لا منهم **(ولم يقل)** يخرج **(من هذه الأمة)** فإنه يقتضى أنهم منهم لا مفارقتهم بمخالفة دينهم.

ورجحوا هذه الرواية بقوله: **(وتحرير أبى سعد)** أى تهذيبه وتنقيحه **(الرواية وإتقانه اللفظ)** بقوله: فى دون من، وهو يدل على دقة نظره، رضى الله تعالى عنه، وهذا بحسب الظاهر إذ يجوز إرجاع كل منهما إلى الآخر؛ لأن حروف الجر يقوم بعضها مقام بعض، والأمة تحتمل أمة الدعوى والإجابة كما مر، وأشار إلى الجواب بقوله: **(أجابهم الآخرون)** الذين لا يرون تكفيرهم.

(بأن العبارة) أى التعبير **(بفى لا تقتضى)** وتستلزم **(تصريحا بكونهم من غير الأمة)**؛ لأن بعضهم فيهم، وإن كان خلاف الظاهر لتخصيص الأمة وتأويلها **(بخلاف لفظة من التى هى للتبعيض)** المصرحة **(وبكونهم من الأمة)** ولا يخفى ما فيه **(مع أنه قد روى عن أبي ذر، وعلي، وأبى أمامة وغيرهم)** ممن رواه **(فى هذا الحديث: «يخرج من أمتى، وسيكون من أمتى»)** بلفظ من، وهو صريح فى أنهم منهم وأن الروايتين متوافقتين معنى.

(وحروف المعانى) كحروف الجر لا المبانى **(مشتركة)** أى لها معان متعددة وضعت لها، ويجوز نيابة بعضها عن بعض بتضمين ونحوه، وإذا كان كذلك **(فلا تعويل)** أى لا اعتماد **(على إخراجهم من الأمة)** بتكفيرهم **(بفى)** أى بسبب قوله: فى، **(ولا على إدخالهم فيها)** لأجل تعبيره **(بمن)** لاحتمال غيره **(لكن)** بالتشديد **(أبا سعيد)** الخدرى، رضى الله تعالى عنه، فى روايته هذه **(أجاد ما شاء)** أى جودة عظيمة **(فى التنبيه الذى نبه عليه)** بإتيانه بفى الدالة على إخراجهم، وهذه العبارة معروفة فى المبالغة كأنه يقدر على الجودة فى كل ما يريد، وما مصدرية أو موصولة.

(وهذا) أى تحرير العبارة وجودتها رعاية للمعانى المرادة **(مما يدل على سعة فقه الصحابة)**، رضى الله تعالى عنهم أجمعين، أى شدة فهمهم لمقاصد الكلام، ودقة نظرهم **(وتحقيقهم المعانى)** بما يناسبها من حسن لباسها **(واستنباطها)** أى استخراجها **(من الألفاظ)** الدالة عليها وضعًا **(وتحريرهم لها)** بتهذيبها **(وتوقيهم)** أى احترازهم واجتنابهم **(فى الرواية)** عما لا يليق ورواية من وفى، كلاهما فى الصحيحين **(هذه المذاهب المعروفة)** فى هذه المسألة.

(لأهل السنة) وأما ما **(لغيرهم من الفرق)** كالمعتزلة والشيعة فورد عنهما **(فيها مقالات)** أى أقوال **(مضطربة)** متعارضة غير محررة **(سخيفة)** أى ركيكة صعبة لا يعول عليها و**(أقربها)** أى أقرب أقوال أهل السنة **(قول جهم)** بن صفوان من المعتزلة **(ومحمد ابن شبيب)** هو من المعتزلة أيضًا، وقيل: مرجئ قدرى.

(أن الكفر بالله) معناه **(الجهل به)** بأن لا يعلم الله ووجوده وسيأتى بسط هذا مع رده عن القاضى أبى بكر الباقلانى **(ولا يكفر أحد بغير ذلك)** أى بغير الجهل بالله، وهذا قول غير صحيح إن حمل على ظاهره؛ لأنه يقتضى أن من عرف الله ووحده وأنكر نبوة محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو أنكر شريعته وكتابه المنزل عليه لا يكفر، فإن أراد الجهل بالله، وما يستلزمه لم يكن مخالفًا لغيره، وكأن مراد القائل أنه يلزمه تكفير سائر الفرق الضالة، فإن لم يرد هذا فلا وجه له.

(وقال أبو الهذيل) ابن أحمد بن العلاف شيخ المعتزلة أخذ عن عثمان بن خالد الطويل، عن واصل بن عطاء رئيس المعتزلة، وهو القائل بفناء مقدورات الله تعالى، وأن الجنة والنار يفنيان؛ لأنهما حادثان، وما ليس له آخر قديم عنده، كما أن ما ليس له أول قديم أيضًا، توفى سنة ست وعشرين ومائتين، وقد أربى على المائة، وهو بصرى **(أن كل متأول)** بتشديد الواو المكسورة اسم فاعل، ولا وجه لفتحها كما صحح فى بعض النسخ: لأنه يأباه ما بعده.

(كان تأويله تشبيهًا لله بخلقه) بأن يثبت له جسمًا وصورة وجهة، ونحوه مما هو من صفات الخلق المحدث، فإن أراد هذا، فهو صحيح لكن الفقهاء لهم خلاف فيه فى تكفيرهم وعدم صحة الصلاة خلفهم كما تقدم، وما قيل: من أن مراده من قال بتأويل المتشابهات من أهل السنة غير ظاهر من هذه العبارات، وإن طال فيه بغير طائل.

(وتجويرًا له) تفعيل من الجور بجيم وراء مهملة ضد العدل، وأصله الميل عن الاستقامة، وضمير له لله، أى نسبة الله إلى الجور فى تأويله، وقد قيل: مراده أيضًا الرد على أهل السنة فى قولهم: إن الله يريد الخير والشر والمعاصى؛ لأن إرادته المعاصى وعقاب فاعلها جور عندهم تعالى سبحانه عنه، ورده والكلام عليه مفصل فى محله، وعندهم الرضا والإرادة بمعنى **(وتكذيبًا لخبره)** أراد قوله تعالى: ﴿**وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ**﴾ [غافر: ٣١]، وقد نسبه للجور كما سمعته آنفًا، فيلزمه تكذيبه فى قوله هذا **(فهو كافر)** بالتشبيه ونسبته للجور، وتكذيب خبره، وهذا حق أريد به باطل فأقربيته بحسب ظاهره، فتأمل.

(وقال) أبو الهذيل (: **كل من أثبت شيئًا قديمًا لا يقال له: الله فهو كافر)** وهو رد أيضًا على أهل السنة فى قولهم بقدم الصفات فرارا من عدمها وقيام الحوادث بذاته، وهم ينفون الصفات هربًا من تعدد القدماء، وعندنا الممنوع تعدد ذوات قدماء لا ذات وصفات كما بين فى الأصول، وليس هذا محل تفصيله **(وقول بعض المتكلمين إن كان)** المتأول **(بمن عرف الأصل وبنى عليه)** أى علم أصول الدين وفرع عليه تأويله الذى يقتضى ما تقدم من التشبيه وما بعده.

(وكان) تأويله **(فيما هو من أوصاف الله)** التى لا تليق به **(فهو كافر)**؛ لأنه قال ما قاله عن علم به **(وإن لم يكن من هذا الباب)** أى لم يكن ما أوله من أوصاف الله **(و) هو (فاسق)** غير طائع لله لارتكابه كبيرة باعتقاد ما ليس بحق **(إلا أن يكون ممن لم يعرف الأصل)** أى الأصول الدينية، وإنما قال ما قاله لجهله **(فهو مخطئ غير كافر)** أى غير مصيب للحق لذهابه لغير الحق من غير بناء له على أصل من أصول الدين، وهذا كله

من كلام المعتزلة ودسائسهم مما يوهم ظاهره الخير، وهو شر محض.

(وذهب عبيد الله) بالتصغير **(بن الحسن العنبرى)** منسوب لبنى العنبر قوم من تميم، ويقال لهم فى غير النسب بلعنبر، وهو عبيد الله بن الحسن بن الحسين بن مالك بن الخشخاش بمعجمات، ومالك والخشخاش صحابيان، وللخشخاش رواية دون مالك، وعبيد الله فقيه بصرى تولى قضاء البصرة بعد سوار بن عبد الله، وكان عالمًا ثقة، روى عنه غير واحد، وأخرج له مسلم، توفى سنة ثمان وستين ومائة، وكان يرى جواز التقليد فى العقائد والعقليات، وخالف فى ذلك العلماء.

وذهب **(إلى تصويب أقوال المجتهدين)** أى القول بأنها صواب **(فى أصول الدين)** مما يتعلق بالاعتقاد كالاجتهاد فى الفروع **(فيما كان عرضة)** أى قابلا **(للتأويل)** وفى الأساس: فرس عرضة للسباق، أى قوية عليه مطيقة له، انتهى.

كأنه لقابلتيه تعرض له **(وفارق)** أى خالف العنبرى **(فى ذلك)** القول الذى قاله فى تجويزه الاجتهاد فى أصول الدين وفارق **(فرق الأمة)** من علماء الشرع والسنة والمتكلمين، فإنها أمور سمعية لابد فيها من نقل صحيح **(إذ أجمعوا)** أى علماء الأمة **(سواه)** أى غير العنبرى **(على أن الحق فى أصول الدين)** والعقائد **(فى واحد)** لا يقبل التعدد لبراهينه القطعية فليس كالفروع التى هى محل الاجتهاد، وذهب بعضهم إلى أن كل مجتهد فيها مصيب، وفى نسخة فى الواحد.

(والمخطئ فيه) الذى لم يصادف الحق الواحد **(آثم عاص فاسق)** لعدوله عن الحق برأيه، **(وإنما الخلاف فى تكفيره)** باجتهاده المخطئ فيهما ليس محل الاجتهاد، وإنما محله الفروع العملية، فهو مثاب فى اجتهاده، سواء قلنا: المصيب واحد، أم لا؟ على ما اشتهر فى الأصول، أما فى أصول الدين، فالمصيب واحد قطعًا، فلا وجه للاجتهاد فيها، وإن بذل وسعه وجهده، وذهب الجاحظ كما يأتى، والعنبرى إلى جواز الاجتهاد فيها، وأنه إذا أخطأ لا يأثم، لكنه مقيد بالإسلام، على الصحيح، قالوا: لأن قصدهم تعظيم الله وتنزيهه، ولذا لم يبحث الصحابة عن الألفاظ الموهمة للتشبيه، وهو كله واه غير سديد.

(وقد حكى القاضى أبو بكر) بن الطيب المالكى **(الباقلانى مثل قول عبيد الله)** العنبرى فى جواز الاجتهاد فى الأصول **(عن داود الأصبهانى)** يقال: بالباء والفاء اسم بلدة مشهورة، وهو فارسى معرب، وداود هذا هو ابن على بن خلف أبو سليمان الأصفهانى البغدادى وطنا صاحب مذهب الظاهرية، ولد سنة مائتين، أو اثنتين ومائتين، وتوفى سنة سبعين، وكان إمامًا جليلاً زاهدًا ورعًا، قلد الشافعى، رضى الله تعالى عنه، أولاً ثم صار

صاحب مذهب مستقل، وكان صدرًا رحلة فى عصره حتى رجح على بعض المجتهدين، واختلفوا فى أنه هل يعتد بخلافه أم لا، على أقوال فى الأصول، ومن أجل أتباعه ابن حزم.

(قال: وحكى قوم عنهما) أى عن أبى داود والعنبرى **(أنهما قالا ذلك)** أى جواز الاجتهاد فى الأصول الدينية **(فى كل من)** أى رجل **(علم الله من حاله)** وما يظهر من أمره **(استفراغ الوسع)** بضم فسكون، أى بذل قدر جهده وطاقته، وهو فى الأصل استعارة بتشبيه قريحته ببئر وما يستخرج بفكره بما ينزح منها، ثم صار حقيقة عرفية فيما ذكر **(فى طلب الحق)** الذى قصده، وإن أخطأ فى الواقع **(من أهل ملتنا)** المسلمين **(أو من غيرهم)** من الكفرة.

(وقال نحو هذا القول الجاحظ) عمرو بن بحر بن محبوب أبو عثمان الكنانى الليثى البصرى العالم المشهور، صاحب التصانيف الجليلة، وجامع العلوم الغريبة، وهو معتزلى صاحب مذهب فى أصول الدين، ومن أجل تصانيفه كتاب «البيان» وكتاب «الحيوان»، لقب بالجاحظ لجحوظ عينيه، أى لنتوءهما، وأصابه فى آخر عمره وقد ناهز التسعين فالج وحصر بول، ومنه توفى سنة خمس وخمسين ومائتين بالبصرة **(وثمامة)** بضم المثلثة بوزن كناسة، وهو ثمامة بن أشرس بن معن النميرى كان من كبار المعتزلة ورؤس الضلالة كما قال الذهبى، وله نوادر وملح، واتصل بالرشيد والمأمون، ومن مذهبه أن المقلدين من أهل الكتاب وعباد الأصنام لا يدخلون النار، وأنهم يصيرون ترابًا، وأن الأطفال كذلك يصيرون، وهو أحد الأقوال العشرة فى أطفال المشركين.

(فى أن كثيرًا من العامة) أى عوام الناس وجهلتهم **(والنساء)** ذكرهن؛ لأن أكثرهن يغلب عليها الجهل **(والبله)** بضم فسكون جمع أبله، المراد به من قل فهمه وغلب عليه الغفلة، وقلة العلم، وما فى الحديث من أن أكثر أهل الجنة البله، فالمراد بهم من غلب عليه سلامة الصدر، وحسن الظن للناس، فأغفلوا أمر دنياهم وأقبلوا على آخرتهم، وقريب منه قول الزبرقان: خير أولادنا الأبله العقول، أراد أنه مع عقله لشدة حيائه كالأبله.

(ومقلدة النصارى واليهود) الذين كفروا تقليدًا من غير معرفة دليل وحجة **(وغيرهم)** من جهلة الكفرة المقلدين لرؤسائهم **(لا حجة لله عليهم)**؛ لأنه عندهم لم يؤتهم نظرًا فى الحجة والأدلة مما إذا خالفوه بعد العلم به عنادًا، كانوا أهل ضلال كفارًا يستحقون العقاب **(إذ لم تكن لهم)** وفى نسخة: «إذا» أى لم توجد بخلق الله فيهم **(طباع)** بزنة رجال مفرد بمعنى طبيعة، أو جمع طبع، وهما قولان لأهل اللغة فهو مؤنث، وقيل: إنه

اسم مؤنث على وزن مثال لا جمع طبع وهو مصدر، وهو كلام متناقض والتحقيق ما ذكرناه كما فى شرح أدب الكاتب (**يمكن**) لهم (**معها**) أى مع وجودها فيهم.

(**الاستدلال**) أى إقامة دليل وحجة توصلهم لمطلوبهم، فإذن هم معذورون، ولا حجة لله عليهم يعاقبهم بها، وهو قول باطل؛ لأنهم مكلفون عقلاً لاسيما من نشأ بدار الإسلام، وعلى كل حال فهم متمكنون من النظر ومعرفة الأدلة والتفكر فى خلق السموات والأرض، وقد قرع أسماعهم ما تواتر من إرسال الله رسله، وما ظهر من المعجزات الباهرة الظاهرة ظهور الشمس لمن له عينان، فأى عذر لهم تدحض به حجة الله عليهم.

(**وقد نحى الغزالى**) رحمه الله تعالى (**قريبًا من هذا المنحى**) نحى وانتحى بمعنى ذهب وقصد، أى قال قولاً قريبًا بحسب المعنى من هذا القول، وهو الإمام العلامة الزاهد العابد أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالى الطوسى صاحب المؤلفات الجليلة، الذى على كاهله فقه الشافعى والأصلان، ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة، واشتغل بها ثم جال فى البلاد لأخذ العلم ودخل بغداد، فصار مدرسًا بالنظامية وأقام بدمشق بجامعها بالمنارة الغربية عشر سنين بعدما أخذ العلم عن إمام الحرمين، وأخذ عن الشيخ نصر المقدسى بزاويته المعروفة بالعزالية، ثم انتقل لمصر والإسكندرية، ثم رجع لبغداد وعقد بها مجلس وعظ، وتوفى يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة عن خمس وخمسين سنة، ودفن بطوس، وقيل: بقصبة طائران، وقال ابن تيمية: بضاعته فى الحديث مزجاة، ولذا أكثر من إيراد الموضوعات فى كتبه، وأكثر فى كتبه من مقالات الفلاسفة حتى قال صاحبه أبو بكر بن العربى مع شدة تعظيمه له: شيخنا أبو حامد دخل فى بطن الفلسفة، ثم أراد أن يخرج منها فما قدر.

قلت: كتاب التهافت والإحياء يناديان على خلافه، وهو بتشديد الزاء المعجمة فى المشهور، وأصله الغزال بغير نسبة فزادوا فيه ياء النسبة تأكيدًا كالعصارى على عادة أهل جرجان وخوارزم، وقيل: نسب لغزالة بنت كعب الأحبار جدته، وقيل: إنه بتخفيف الزاء نسبة لغزالة قرية من قرى طوس كما ذكره النووى فى التبيان، وأنكر ابن الأثير تخفيفه، قال ابن العربى: لقيته فى الطواف وعليه مرقعة، فقلت له: أولى لك من هذا غير هذا.

فأنت صدر بك يقتدى وبنورك إلى معالم المعارف يهتدى

فقال: هيهات لما طلع قمر السعادة، فى تلك الإرادة، أشرقت شموس الأفول، على

مصابيح الأصول، فتبين الخالق لأرباب الألباب والبصائر، إذ كل لما طبع عليه راجع وصائر، وأنشد يقول:

تركت هوى ليلى وإنى بمعزل وصرت إلى مصحوب أول منزل
ونادتنى الأكوان حتى أجبتها ألا أيها السارى رويدك فانزل
فعرست فى دار الندى بعزيمة قلوب ذوى التعريف عنها بمعزل
غزلت لهم غزلا رقيقًا فلم أجد لغزلى نساجًا فكسرت مغزل

وإذا سمعت هذا فكيف يظن به اتباع خرافات الفلاسفة، وقد رأى بعض المشايخ الغزالى بين يدى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يشكو من شخص طعن فيه، فأمر رسول الله ، صلى الله تعالى عليه وسلم، بضربه بالسياط، فانتبه وبه أثر الضرب وألمه.

(فى كتاب التفرقة) اسم كتاب له فى الأصول. قال ابن حجر: وما نسبه المصنف، رحمه الله تعالى، للغزالى صرح الغزالى فى كتابه الاقتصاد بما يريده وعبارته التى أشار إليها المصنف، رحمه الله تعالى، على تقدير كونها عبارته، وإلا فقد دس عليه فى كتبه عبارات حسدًا لا تفيد ما فهمه المصنف، رحمه الله تعالى، ولا تقرب مما ذكره وعبارته وصنف بلغهم اسم محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يبلغهم مبعثه ولا صفته، بل سمعوا أن كذابًا يقال له فلان ادعى النبوة، فهؤلاء عندى من الصنف الأول، أى من الذين لم يسمعوا اسمه أصلاً، فإنهم لم يسمعوا ما يحرك داعية النظر. انتهى.

فانظر كلامه تجده إنما عذرهم لعدم بلوغ دعوته ، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا لا ينحو منحى ما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، وقد قال ابن السبكى وغيره: ولا يبغض الغزالى إلا حاسد أو زنديق. انتهى.

وفى الشرح الجديد بعد ما ذكر المصنف، رحمه الله تعالى، هذا كلام غير سديد الغزالى برىء من مثله، والذى فى كتاب التفرقة خلافه، فإنه قال فيه: من لم يبلغه اسم محمد معذور، وكذا إن سمع ضد أوصافه، وفى معناه مدعى النبوة كذبًا فإسماع مثله يمنع دواعى النظر والطلب، وكذا من قرع سمعه ببعثته ومعجزاته المتواترة وأدركه الموت قبل التحقيق، فهو مغفور له تشمله الرحمة الواسعة.

وقال فى المستصفى: ذهب الجاحظ إلى أن مخالف ملة الإسلام من اليهود وغيرهم وذريتهم إن كان معاندًا فيما يخالف اعتقاده، فهو آثم، وإن نظر فعجز عن درك الحق، فهو معذور غير آثم، وأن لم ينظر لكونه يعرف وجوب النظر، فهو معذور غير آثم،

وإنما الآثم المعذب المعاند فقط، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وهؤلاء عجزوا عن درك الحق فلازموا عقائدهم خوفًا من الله إذ لا ينسد عليهم طرق المعرفة، وما ذكره ليس بمحال عقلاً، لورود الشرع به، فهو جائز لورود التعبد بذلك لكن الواقع خلافه، وما ذكره العنبرى باطل بأدلة سمعية ضرورية، فإنا كما نعلم أمره ﷺ بالصلاة ونحوها ضرورة نعلم أمر اليهود وغيرهم بالإيمان واتباعه، وذمهم وقتالهم وقتلهم وتعذيبهم، ونعلم قطعًا أن المعاند تقليدًا لآبائه مع الآيات التى لا تحصى الدالة على خلافه، وفى القرآن التصريح به. وقول العنبرى كلفهم ما لا يطيقون لضرورة قائمة، على أنه أقدرهم بما رزقهم من العقل ونصب لهم من الأدلة، وبعث الرسل المؤيدة بالمعجزات حتى لم يبق لهم حجة عليه.

وقوله: كل مجتهد فى العقليات مصيب كالفروع باطل؛ لأن الحرمة والحل تختلف بخلاف العقائد، وقد أنكره أصحابه، وقالوا: إنه أقبح من مذهب الجاحظ إلى آخر ما فصله فيه وزيف به مذهب هؤلاء، فكيف مع هذا يقول المصنف: إنه نحى نحوهم وحاشاه منه، وإنما أوهمه ذلك قوله: إنه جائز عقلاً، ولا يلزم من مجرد الجواز العقلى قبل النظر فى الأدلة واستماع ما قاله الله ورسوله أنه يجوز شرعًا، فكم من جائز عقلاً ممتنع شرعًا ونقلاً، وأى محذور فى مثله، وإنما ذكره بيانًا لمنشأ غلطهم الذى أضل عقولهم فى بوادى الجهالة، وهو كلام حق لا يرتاب فيه عاقل فضلاً عن فاضل.

(وقائل هذا كله كافر بالإجماع على كفر) متعلق بالإجماع **(من لم يكفر أحدًا من النصارى واليهود)** كما ذكره الجاحظ **(و)** لم يكفر **(كل من فارق دين المسلمين)** كأرباب الملل من المجوس وغيرهم، ومفارقته مخالفته لهم قولاً وفعلاً **(أو وقف فى تكفيرهم)** أى أحجم عنه وتركه نفيًا وإثباتًا، **(أو شك)** فيه، فجوز وجوده وعدمه، وفى نسخة: توقف، وقيل: الوقوف والتوقف كالتردد، بحيث لا يرجح أحد الجانبين، والشك أن يجوزه تجويزًا مرجوحًا، وكلاهما كفر؛ لأنه يقتضى التردد فى دين الإسلام، وهو كفر بلا شك.

(قال القاضى أبو بكر) الباقلانى فى بيان كونه كفرًا: **(لأن التوقيف)** فى كفرهم، **(و)** الحال أن **(الإجماع)** منعقد **(على كفرهم)**، فيه خبر مقدر تقديره لا يصح، بدليل قوله: **(فمن وقف فى ذلك)**، أى فى كفر اليهود وأمثالهم، **(فقد كذب النص)** الوارد من الله ورسوله بكفرهم من الآيات الناطقة به، وقيل: إن قوله: على كفرهم، ظرف مستقر خبر إن، لا لغو متعلق بالإجماع، **(و)** كذب **(التوقيف أو شك فيه)**، وهو ظاهر، **(والتكذيب)** لما ذكر **(أو الشك فيه لا يقع إلا من كافر)**؛ لأنه أمر مشهور معلوم من

الدين بالضرورة، فلا يرد عليه أنه ليس كل توقف فيما جاء به نص يقتضى الكفر، وفى عبارته ركاكة وإغلاق يندفع بالتأمل.

* * *

(فصل فى بيان ما هو من المقالات كفر)

جمع مقالة، بمعنى قول، مصدر ميمى، **(وما يتوقف)** فى كونه كفرًا أم لا، **(أو يختلف فيه)** أقوال العلماء، **(وما ليس بكفر)**، من غير توقف واختلاف.

(اعلم) أيها الواقف على ما سيأتى من كل من يصلح للخطاب، **(أن تحقيق هذا الفصل)**، أى الوقوف على ما هو الحق فيه، **(وكشف اللبس فيه)**، أى إزالة ما يلتبس على سامعه شبهه بغطاء يكشف، **(مورده الشرع)**، أى ما يطلب ويعلم منه إنما هو الشرع، والشرع ما شرعه الله تعالى لعباده وبينه من الاعتقاد والعمل، والمورد محل الورود، وهو أخذ الماء ليشرب فشبهه بما يشفى الظمأ، وشبه ما يفيده بموضعه استعارة مكنية مخيلة، **(ولا مجال)**، أى سعة وأصله محل الجولان والحركة، **(للعقل فيه)**، أى العقل بانفراده لا يكفى فيه، بل لابد من تلقيه من الشارع.

(والفصل)، أى الفاصل المميز له عن غيره، **(البين)**، أى الظاهر الذى لا إشكال فيه ولا مجال لرده، **(فى هذا)** الأمر الذى نحن بصدده، **(أن كل مقالة)**، أى قول صدر عن أحد، **(صرحت بنفى الربوبية)**، أى دلت دلالة ظاهرة على ذلك، وأن الله غير موجود، **(أو)** صرحت بنفى **(الوحدانية)**، هى توحده وانفراده من غير شريك فى ألوهيته وصفاته، وهو على خلاف القياس، وقد أثبتها فى الأساس، وفى الحديث: «من شرار أمتى الوحدانى»، أى المفارق للجماعة.

(أو) صرحت **(بعبادة أحد غير الله تعالى)** وحده، **(أو)** صرحت بعبادة أحد كعيسى والكواكب، **(مع الله، فهى)**، أى هذه المقالة، **(كفر)**، أى يقتضى كفر من قالها، **(كمقالة الدهرية)**، بفتح الدال، نسبة للدهر، وهو الزمان، كما يشير إليه قوله(١):

إن دهرًا يلف شملى بسعدى لزمان يهم بالإحسان

ويقال للمسن أو الحاذق أو الحسن: دهرى، بضم الدال، على خلاف القياس، وكثيرًا ما يقع التغيير فى النسب، كما ذكره النحاة، والدهرية طائفة من الملحدين

---

(١) البيت من الخفيف، وهو بلا نسبة فى لسان العرب (٢٩٣/٤)، وتهذيب اللغة (١٩٢/٦)، وديوان الأدب (١٠٧/١)، وتاج العروس (٣٤٦/١١)، وصدره عندهم: «إن دهرًا يلف حبلى بجمل».

المعطلين ينسبون الأمور للدهر، كالطبائعة، وفى العرب منهم كثيرون، فلذا تراهم فى أشعارهم كثيرًا ما يشكون منه ويذمونه، ولذا قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا تسبوا الدهر، فإن الدهر هو الله»(١)، وروى: «فإن الله هو الدهر»، أى لا تسبوا الصانع، فإنه هو الله الجالب للخير والشر.

وقال الشهرستانى فى كتاب الملل والنحل: لست أرى أن صاحب هذه المقالة ينكر الصانع، وإنما هو تخيل سبب وجود العالم على الاتفاق احترازًا عن التعليل، وكذا لم أقم برهانًا على بطلان مقالته؛ لأن الفطرة السليمة شاهدة بوجود صانعها.

(وسائر فرق أصحاب الاثنين)، أى القائلين بإلهين اثنين كالمانوية القائلين بالنور والظلمة، وأن خالق الخير غير خالق الشر، وكالفلاسفة القائلين بأن الواحد بالذات لا يصدر عنه إلا الواحد، ونحوهم من الفرق الضالة، فالظاهر أن المراد بالاثنين مطلق التعدد، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤]، **(والديصانية)**، بكسر الدال المهملة ومثناة تحتية ساكنة وصاد مهملة بعدها ألف ونون وياء نسبة، اسم رجل من المجوس نسب له هذا المذهب من القول بالنور والظلمة وخالق الخير والشر، إلا أنه يقول: إن الظلمة ميت والنور حى.

(و) هم قوم من **(المانوية)**، وهم أصحاب مانى الحكيم الذى ظهر فى زمن شابور بن أردشير بعد عيسى، عليه السلام، وقبله بهرام بن هرمز، زعم أن موجد العالم اثنان، النور خالق الخير والظلمة خالق الشر، وأنهما أزليان حيان دراكان ونحوه من الخرافات، وفى نسخة: المانية، والصحيح الأول، قال المتنبى:

وكم لظلام الليل عندى من يد   تخبر أن المانوية تكذب

(وأشباهم) من أصحاب الملل الباطنة، **(من الصابئين)**، وفى نسخة: الصابئة، وهو من صبأ، مهموز الآخر، والصابئى كل من خرج من دين إلى آخر، ثم خص بطائفة عبدوا الملائكة، أو عبدوا الكواكب، وهو المراد هنا، **(و)** تطلق على فرقة من **(النصارى)**، وهم أتباع المسيح، ودينهم معروف، والكلام على فرقهم وأتباعهم واعتقادهم مشهور، وقد أفرده ابن تيمية بكتاب ضخم، فيه فوائد جليلة، وكذا الإمام القرطبى له كتاب فى بيان فرقهم والرد عليهم، فلا حاجة لنا هنا بإيراد ما قيل فيهم.

(والمجوس) عبدة النار، أو القائلون بإلهين، يزدان واهرمن، أى النور والظلمة الخالقين

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٤٦/٥)، وأحمد (٣٩٥/٢، ٤٩١، ٤٩٩، ٢٩٩/٥، ٣١١)، والبيهقى فى السنن الكبرى (٣٦٥/٣)، وأبو نعيم فى الحلية (٢٥٨/٨).

للخير والشر، **(والذين أشركوا)**، أى أثبتوا لله شريكًا، **(بعبادة الأوثان)**، جمع وثن، وهو الصنم وحجارة تعبد، وهو من قولهم: وثنته، إذا أجزلت عطيته، وقيل: الفرق بينهما أن الوثن ما له جثة من جنس الأرض، أو من خشب، أو من حجارة بصورة الآدمى، بخلاف الصنم، ومنهم من لم يفرق بينهما، وأول من أتى بها لمكة عمرو بن لحى، فصارت العرب فى ذلك أصنافًا.

(أو الملائكة)، جمع ملك، وقد تقدم الكلام عليهم، وقد عبدها قوم من أوائل العرب، وسموها بنات الله، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، **(أو الشياطين)**، وهم مردة الجن، جمع شيطان، وهم قوم عبدوها حقيقة، أو عبدوا الأصنام التى حل بها الشياطين، أو هم سولوا لهم عبادتها، فكأنهم عبدوها، كما قال الخليل، عليه الصلاة والسلام: (﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾) [مريم: ٤٤] الآية، فهم وإن عبدوا الأصنام ظاهرًا عبادتهم إنما هى للشياطين، **(أو الشمس، أو القمر، أو النجوم)**، عبدها قوم من الأوائل، وأثبتوا لها عقولاً وأرواحًا، وجعلوا لها هياكل عندهم، زعموا أنها تقربهم لها كما فى الملل والنحل.

(أو النار)، وهم طائفة من المجوس ببلاد الهند؛ لاعتقادهم أن النور سلطان الله الأعظم، وأن ذاته نور ليس كالأنوار، فكل نار شرارة من نوره، وقد بنوا لها كنائس عظيمة بالهند يحجون إليها، حتى أن بعضهم يختار إحراقه بالنار؛ ليصل لربه، وهى عقول أضلها بارئها، **(أو)** من أشرك بعبادة **(أحد)**، أى مخلوق اتخذه معبودًا، **(غير الله من مشركى العرب)**، جمع مشرك، سقطت نونه للإضافة، وهو من إضافة الصفة للموصوف، وهم عبدة الأصنام منهم.

(وأهل الهند والصين)، وهما إقليمان مشهوران أكثر أهل الأقاليم، وفيهم ملل مختلفة كالبراهمة وغيرهم، **(والسودان)**، جمع أسود، وهم قوم وأجناس لا يحصون من أولاد يافث بن نوح، عليه الصلاة والسلام، يغلب عليهم الكفر والجهل، ومنهم من يعبد الشجر، ومنهم من يعبد الماء، ومنهم قوم مسلمون، **(وغيرهم)**، أى غير من ذكر من أهل الملل، **(ممن لا يرجع إلى كتاب)**، هو كناية عن الدين الباطل؛ لأن من له دين حق، لابد له من شرع وكتاب يعمل به، فهو يرجع برأيه إلى أحكامه.

(وكذلك)، أى مثل من مقالتهم كفر، **(القرامطة)**، وهم الإسماعيلية المثبتون لإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، وغرضهم إبطال الشرع؛ لأنهم فى الأصل يهود أو مجوس، لما ظهر الإسلام اشتد عليهم ذلك، وضعفوا عن دفعه، فذهبوا إلى تأويلات روجوها على ضعفاء العقول، فأرادوا بها هدم قواعد الإسلام، ورأسهم حمدان بن قرمط، من

قرية من قرى واسط، فلذا سموا قرامطة، فزينوا لهم دعاة يدعون لخرافات زينوها، وكان ظهوره فى سنة سبعين ومائتين بقرية من سواد الكوفة، وكان أحمر البشرة والعينين، فسمى كرمية بالكاف العجمية، ومعناه بالفارسية السفلة فخففوه وحرفوه، وقالوا: قرمط.

وقيل: إنه عربى من قرمط البعير، إذا تقارب خطوه، فزعم أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بشر به، وأظهر زهدًا وصلاحًا، فاجتمع عليه خلق كثير، وقال: إنه الإمام المنتظر، فابتدع مقالات فى كتابه، فقال: إنه الكلمة والمهدى، وجعل الصلاة ركعتين فى الصبح وركعتين فى المغرب، والصوم يومان، يوم المهرجان والنور، ورد القبلة لبيت المقدس، وبعث دعاة وخلقًا، فكان لهم حروب عظيمة مذكورة فى التواريخ، فظهر منهم سليمان بن الحسن فى البلاد، حتى أتى مكة يوم التروية، فأخذ كسوة الكعبة وقلع بابها، وقتل الحجاج ورماهم بزمزم، وذلك فى سنة سبع عشرة وثلاثمائة فى خلافة المقتدر، وأخذ الحجر الأسود، فبقى عندهم اثنان وعشرون سنة، فبذل لهم خمسون ألف دينار ليردوه فأبوا، ثم ردوه مكسورًا، فوضع فى مكانه، وتغلبوا على مصر والشام، وكانت مدة دولتهم نيفًا وثمانين سنة، ثم أبادهم الله وأهلكهم.

(وأصحاب الحلول)، من النصارى والباطنية وبعض جهلة المتصوفة، يقولون: إن الله حل فى بعض الأجسام، وهو أمر لا يعقل، **(والتناسخ)**، وهم القائلون بأن الأرواح إذا فارقت الأبدان تحل فى غيرها، وهو مذهب بعض الحكماء، والكلام عليه وعلى بطلانه مفصل فى كتب الحكمة، **(من الباطنية)**، هم قوم من الملاحدة ذهبوا إلى أن القرآن له ظاهر وباطن هو المراد منه، وأن للشريعة مقاصد غير ما فهمه الناس، **(والطيارة من الروافض)**، وفى نسخة: الطيارية، بياء النسبة.

(و) منهم كما فى بعض النسخ **(الجناحية)**، وهم قوم من الغلاة نسبوا لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الطيار ذى الجناحين، لقب بذلك؛ لأنه لما أخذ الراية بمؤتة قطعت يداه واستشهد، فلما بلغ ذلك رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «إن الله أبدله بهما جناحين يطير بهما فى الجنة»، **(والبيانية)** نسبة لبيان بن سمعان اليمنى، يقولون: روح الله حلت فى على، كرم الله وجهه، ثم فى ابنه محمد بن الحنفية، ثم فى ابنه هاشم، ثم فى بيان، وكذا الطيارة والجناحية يقولون: روح الله حلت فى الأنبياء نبيًا بعد نبى، ولم تزل تنتقل حتى وصلت لعلى وأولاده، رضى الله تعالى عنهم.

(والغرابية)، قوم يقولون: إن جبريل، عليه الصلاة والسلام نزل بالرسالة من عند الله لعلى، فأعطاها لمحمد غلطًا منه؛ لأنه يشبهه كما يشبه الغراب الغراب، كما ذكره

المصنف، رحمه الله تعالى، فيما يأتى، وفى التبصرة لأبى المظفر: أنهم قوم يقال لهم: المفوضة، قالوا: فوض خلق العالم لمحمد، وهم شر النصارى، والفرق كثيرة أفردت بالتأليف، ولا حاجة لنا بإيراد خرافاتهم.

(وكذلك)، أى مثل هؤلاء الذين حكم بكفرهم، **(كل من اعترف بإلهية الله تعالى ووحدانيته)**، أى قال: إنه إله متوحد فى ذاته وصفاته، **(ولكنه اعتقد أنه)** عز وجل **(غير حى)**، الحياة فى غير الله الاعتدال المزاجى، أو قوة توجب الحس والحركة، وفى حقه تعالى صفة توجب صحة العلم والقدرة، وهى ثابتة له بالإجماع عقلاً ونقلاً، فمن نفاها فقد كفر، **(أو غير قديم)**، القديم هو الذى لا أول لوجوده ولا آخر؛ لوجوب وجوده وسرمديته، ووجوده ذاتى لا يقبل العدم إجماعًا، وخلافه كفر، وهذه المقالة لعمر بن عباد السلمى، نقل عنه أنه أنكر القول بأنه تعالى قديم؛ لأنه بمعنى التقادم، وهو يشعر بتقدم زمانى، والله منزه عنه، كذا قيل.

وعلى هذا لا كفر فيه؛ لأنه إنما يتحاشى عن إطلاق هذا اللفظ؛ لإيهامه الحدوث كالعرجون القديم، ولذا قال الراغب، رحمه الله تعالى: ورد فى وصف الله: يا قديم الإحسان، ولم يرد فى القرآن والآثار الصحيحة القديم فى وصف الله تعالى، والمتكلمون يستعملونه ويصفونه به، وأكثر ما يستعمل القديم، باعتبار الزمان. انتهى.

(وأنه محدث)، بصيغة المفعول، تفسير لقوله: غير قديم، وإنما ذكره؛ لأنه لو لم يقصد هذا، لم يكن كفرًا، كما بيناه، وليس تنبيهًا على مذهب الفلاسفة فى القدماء كما قيل، **(أو مصور)**، اسم مفعول، أى جسم ذو صورة، كما ذهب إليه الهشامية، أصحاب هاشم، الذين ذهبوا إلى أن له طولاً، وعرضًا، وأعضاء على صورة إنسان، إلا أنه مصمت لا لحم له، ولا دم، تعالى وتقدس سبحانه عما قالوه، **(أو ادعى له ولدًا أو صاحبة)**، أى زوجة كالنصارى، **(أو والدًا)**، هذا لم يقله بشر، **(أو أنه متولد من شىء، أو كائن عنه)**، عطف تفسير؛ لأن التولد هنا ليس بمعنى الولادة، وإنما هو بمعنى التكون من شىء إلى آخر، كتولد الطبائع الناشىء عنها، وهو كفر بلا شك، إلا أن هذه المقالة لا يعرف لها قائل، ويقرب منه قول بعض النصارى: إن عيسى إله، انقلبت الكلمة فيه لحمًا ودمًا.

(أو) ادعى **(أن معه فى الأزل شيئًا قديمًا غيره)**، أى غير ذاته وصفاته، إشارة إلى ما ذهب إليه الفلاسفة من قدم العالم والعقول، والأزل القدم، وإنه لم يزل، **(أو أن ثمة)**، بفتح وتشديد، أى فى الوجود **(صانعًا للعالم سواه)**، كالمشركين وبعض الثنوية القائلين بالنور والظلمة، والفلاسفة الذين يقولون بأن الواحد بالذات لا يصدر عنه إلا واحد

كما هو مقرر فى كتاب التهافت، **(أو مدبرًا غيره)**، سبحانه وتعالى، والتدبير إصلاح الأمور مع العلم بها، والمراد بها هنا خلق ما يصلحها لا مجرد إيصاله والإرشاد له، فإنه لا مانع من ثبوته لغيره كالملائكة، قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥].

(فذلك) المذكور أو المدعى، **(كله كفر)**، ومعتقده كافر لما مر، **(بإجماع المسلمين، كقول الإلهيين من الفلاسفة)**، الفلسفة لفظة يونانية معناها محبة الحكمة والقائمة به هو الفيلسوف، والحكمة عندهم أقسام: إلهى، وطبيعى، ورياضى، فالإلهى ما يبحث فيه عن المجردات، وذات واجب الوجود على ما بين واشتهر عندهم، **(والمنجمين)** الباحثين عن النجوم وأحكامها، القائلين: بإنها مؤثرة فى الكون، أما القائلون: بإنها علامات إلهية، جعلها الله بحكمته وبينها لبعض خليقته، والمؤثر هو الله، فلا محذور فيه عند أهل الشرع كما صرحوا به، وقد قال الغزالى: إنها علمت بوحى من الله لبعض أنبيائه، عليهم الصلاة والسلام، **(والطبائعيين)** القائلين: بأن الطبيعة هى المؤثرة فى الإيجاد والتدبير.

(وكذلك من ادعى مجالسة الله)، فإنه مجسم مجازف، وهذا لم يذهب إليه أحد، **(أو العروج إليه)**، أى الصعود والذهاب للعلو وفوق، **(ومكالمته)** فى الدنيا ممن لا يليق به، (أو) ادعى **(حلوله فى أحد الأشخاص، كقول بعض المتصوفة، والباطنية، والنصارى، والقرامطة)**، يعنى هؤلاء كلهم ذهبوا إلى أن الله يحل فى غيره، أما النصارى والقرامطة، فقوم ملحدون ادعوا الحلول، وأولوا القرآن بتأويلات فاسدة لا حاجة لذكرها. وأما المتصوفة، فقد نسب لبعضهم أمورًا وعبارات تقتضى فى بادى النظر ذلك، وهى مأولة بما يوافق الحق، وأجلة مشايخهم بريئون مما نسب إليهم، فإن ما هم عليه من الزهد والعبادة وما يظهر منهم من الكرامات يقتضى أنهم على قدم النبوة، فما نقل عنهم إما دسيسة من بعض الملاحدة، أو كلام على اصطلاحتهم يعرفه أهله، وهذا هو الذى نعتقده فيهم، نفعنا الله ببركاتهم، وكفاك ما فى قصة الخضر شاهدًا له، فلذا أعرضنا عما فى الشروح هنا.

(وكذلك نقطع بكفر)، وفى بعض النسخ: على كفر، بتضمينه معنى يتفق أو يعزم ونحوه مما يتعدى بعلى، **(من قال بقدم العالم)** من الحكماء، والمراد الزمانى بمعنى عدم سبق العدم لا القدم الذاتى، فإنه مخصوص بالله، **(أو بقائه)**، بمعنى أنه باق أبدًا لا يقبل الفناء، والمراد قدم نوعه وبقاؤه لما يشاهد فيه من تغير بعض أجزائه وعدمها، **(أو شك فى ذلك)**، أى البقاء والقدم، **(على مذهب بعض الفلاسفة)**، ومنهم من ذهب لغيره وأدلتهم مع الجواب عنها مذكورة فى كتب الكلام والحكمة، وقد كفرهم أهل الشرع بهذا لما فيه من تكذيب الله ورسله وكتبه.

(والدهرية)، الذين أسندوا الحوادث كلها للدهر، وقالوا ما يهلكنا إلا الدهر وهم كفرة لإنكارهم الحشر والنشر والآخرة، **(أو قال بتناسخ الأرواح وانتقالها أبد الآباد فى الأشخاص)**، أى تخرج من بدن لآخر من جنسه أو غيره؛ لأن النسخ معناه الإزالة والنقل. قال الراغب: الأبد مدة الزمان الممتد الذى لا يتجزى، ويقال: أبد آبد وأبيد، أى دائم، وحقه أن لا يثنى ولا يجمع، ولكنه جمع هنا؛ لأنه أريد به بعض ما يتناول، وقيل: آباد مولد ليس من كلام العرب.

(و) زعم هؤلاء المتناسخة أن **(تعذيبها أو تنعيمها فيها)**، أى فى الأشخاص التى تنتقل إليها، **(بحسب)**، أى مقدار **(زكائها)**، أى طيبها وطهارتها، **(وخبثها)**، أى كونها خبيثة غير طيبة مزكاة، يعنى أنها إن كانت طيبة تنتقل لصورة حسنة مجملة منعمة، وإن كانت خبيثة تنتقل لصور كريهة معذبة كصورة كلب أو حمار أو ثور حراثة، هذا كله فى الدنيا.

(وكذلك) يكفر **(من اعترف بالإلهية والوحدانية)**، فأقر بأن له إله منفرد عما سواه فى ذاته وصفاته، **(ولكنه جحد النبوة)**، أى نفاها وأنكرها، **(من أصلها)**، أى لم يقل بوجودها **(عمومًا)**، فلم يقل بنبوة نبى من الأنبياء **(أو)**، قال بها ولكنه أنكر، **(نبوة نبينا)** محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(خصوصًا)**، مع قوله بنبوة غيره كأهل الكتاب، **(و)**، أنكر نبوة **(أحد من الأنبياء)**، أى نبى كان، كإنكار اليهود نبوة عيسى، عليه الصلاة والسلام، **(الذين قص الله عليهم)**، فى كتابه الكريم، كأولى العزم، فمن أنكر واحدًا منهم كان مكذبًا الله ولرسوله، **(بعد علمه بذلك، فهو كافر بلا ريب)**.

أما إذا لم يعلمه، فهو معذور بجهله، **(كالبراهمة)**، هم قوم من الكفرة ذهبوا إلى إبطال وجود النبوات عقلاً؛ لعدم عقلهم، قالوا: لأن ما يجيء به النبى، إما أن يقبله العقل أو لا، والأول النقل يدل عليه، فما الحاجة لغيره، والثانى مردود باطل، وهو المدعى، ورد بأنه وإن كان يقبله العقل، لكنه قد يخفى، فيحتاج إلى مرشد، فإن ظهر تأيد به وسلم عما ينافيه، وغيرهم من العقلاء النقل يدل على أنها لابد منها، والبراهمة نسبة إلى رجل يقال له: برهام، وهو مؤسس فسادهم ومذهبهم لا إلى إبراهيم النبى، عليه السلام، كما قيل لإنكارهم النبوات، إلا أن يقال: إن منهم طائفة تنكر غير نبوة إبراهيم، عليه السلام، ثم سموا به مطلقًا.

(ومعظم اليهود)، أى أكثرهم؛ لأن منهم من قال بنبوة محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، لكنه خصه بالعرب، **(والأروسية)**، بفتح الهمزة، وراء مهملة مضمومة، وواو وسين مهملة، وياء نسبة، وهاء قوم، **(من النصارى)**، قيل: هم رهط هرقل، وقيل:

منسبون لرجل اسمه أريس، فغير أو اروس، ومعناه ملك أو عشار أو صاحب الزراعة، أو أصله أرنوس، فعرب وغير، وهو صاحب مذهب فى النصرانية؛ لأنهم على فرق مختلفة، قيل: إنه زعم أن الله روحًا أكبر من سائر الأرواح، وواسطة بين الأب والابن، تؤدى الوحى، وأن المسيح ابتدئ جوهرًا لطيفًا روحانيًا خالصًا غير مركب ولا ممزوج بالطبائع.

(و) قوله: (**الغرابية من الروافض**)، تقدم بيانه، وإليه أشار بقوله: (**الزاعمين أن عليًّا**)، كرم الله وجهه، (**كان**)، هو (**المبعوث إليه جبريل**)، عليه الصلاة والسلام، أرسله الله إليه برسالته، فغلط فبلغها محمدًا، صلى الله تعالى عليه وسلم، لشبهه بعلى شبه الغراب بالغراب، (**وكالمعطلة**) الذين جحدوا الإلوهية والرسالة والأحكام (**والقرامطة**)، تقدم بيانهم أيضًا، وأنهم سعوا فى إبطال الشريعة، فحللوا المحرمات وأباحوا الفروج والخمور، (**والإسماعيلية**)، هم قوم من الملاحدة المعطلة، وهم باطنية يؤولون النصوص ويقولون: لها معنى غير ظاهرها.

(**والعنبرية من الرافضة**)، وهم أتباع عبد الله بن الحسين العنبرى، منسوب لبنى العنبر قبيلة، (**و**)، فى نسخة: (**العبيدية**)، تصغير عبد وهم، أتباع عبيد الله المعروف من بنى عبيد ابن بنت القداح، الذين ملكوا مصر، والكلام فى نسبتهم معروف فى نسب الفاطميين، (**من الشيعة**)، الذين فضلوا عليًّا، وهم بحسب الظاهر شيعة، وفى الباطن باطنية، (**وإن كان بعض هؤلاء**)، الطوائف المذكورة (**قد اشتركوا**)، وفى نسخة: قد أشركوا، ببناء المجهول، (**فى كفر آخر مع من قبلهم**)، من الطوائف المذكورة.

(**وكذلك**)، أى مثل من ذكر فى تكفيرهم، (**من دان**)، أى اعتقد واتخذ دينًا، وقيل: من أقر وخضع، (**بالوحدانية**)، أى بالله الواحد الأحد، (**وصحة النبوة**)، أى بوجودها وحقيقتها، (**و**)، أقر أيضًا (**بـ**) صحة (**نبوة نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولكن جوز على الأنبياء**) كلهم (**الكذب فيما أتوا به**)، أى فيما بلغوه عن الله، سواء (**ادعى فى ذلك**)، أى فى الكذب الذى صدر عنهم، (**المصلحة بزعمه**)، أى زعمه أن كذبهم كان لمصلحة اقتضته، (**أو لم يدعها**)، أى لم يدع أن فى ذلك الكذب مصلحة، (**فهو كافر**)، بنسبته الكذب لرسل الله، عليهم الصلاة والسلام، وهم منزهون عن مثله، (**بإجماع**) من علماء الدين المعتد بهم، وإن قيل فيه مصلحة بزعمه، (**كالمتفلسفين**)، أى أصحاب علم الفلسفة.

(**وبعض الباطنية**)، الذين زعموا أن لنصوص الشريعة باطن غير ظاهرها، (**والروافض**)، وهم طائفة رفضوا أهل السنة، فسموا رافضة، وهم فرق مختلفة مذكورة

فى المفصلات، **(وغلاة المتصوفة)**، الذين لهم غلو فى اعتقادات لهم، **(وأصحاب الإباحة)**، أى الذين ذهبوا لإباحة المحرمات، وأن من كمل نفسه وصل لمرتبة لا تضره المعاصى.

ثم بين مراده بالكذب الذى جوزه هؤلاء، فإنه ليس المقصود به ظاهره، فقال: **(فإن هؤلاء)**، الفرق المذكورة، **(زعموا أن ظواهر الشرع)**، أى ما يدل عليه صريح نصوصهم مما يتعلق بالمعاد وغيره، **(وأكثر ما جاءت به الرسل)**، مما أوحى به إليهم، **(من الإخبار عما كان)**، فى الأمم السالفة والأزمان الماضية، **(وما يكون)**، فى المستقبل، **(من أمور الآخرة)**، المبينة بقوله: **(و)** من **(الحشر)**، أى جمع الناس بعد إخراجهم من القبور، **(والقيامة)**، أى قيام من حشر ليقضى بينهم ويحاسبون، **(والجنة والنار)**، أى دار النعيم والعذاب، فذكر الحال وأريد المحل.

(وليس منها شىء على مقتضى)، ظاهر من **(لفظها)**، الذى بلغه الرسل، عليهم الصلاة والسلام، لأممهم، **(ومفهوم خطابها)**، أى ما يدل عليه من معناها المتبادر منها، وليس المراد بالمفهوم وما اصطلح عليه أهل الأصول، **(وإنما خاطبوا)**، أى خاطب الرسل أممهم بما أتوا به، **(بها)**، أى بالأمور التى أتوا بها عن الله **(الخلق)**، الذين أرسلوا إليهم، **(على جهة المصلحة لهم)**، ليتبعوهم ويكفوا عما لا يليق بهم مما يكمل أنفسهم البشرية، **(إذ لم يمكنهم)**، أى رسل الله، **(التصريح)**، بكشف حقيقة الحال لهم؛ **(لقصور أفهامهم)**، أى قصور أفهام الخلق عن إدراك حقيقة ما يريدونه، وهذا الذى ادعاه هؤلاء الفلاسفة باطل.

(فمضمن)، بضم الميم الأولى، وفتح الضاد المعجمة، وفتح الميم الثانية المشددة، اسم مفعول، أى ما دل عليه مضمون **(مقالاتهم)**، هذه التى زعموا أنهم لم يريدوا بكلامهم ظاهره الدال عليه صراحة، **(إبطال الشرائع)**، التى جاء بها رسل الله، عليهم الصلاة والسلام؛ لأن ظاهرها غير مراد لهم، **(وتعطيل الأوامر والنواهى)**، أى جعل أمرهم ونهيهم معطلاً غير لازم امتثاله.

قال القرافى فى شرح المحصول: فمن كلام الأصوليين أن الأمر بمعنى القول المخصوص، يجمع على أوامر، وبمعنى الفعل والبيان، يجمع على أمور، ولم يوافقهم عليه من أهل اللغة أحد إلا الجوهرى، وأما الأزهرى، فقال: الأمر ضد النهى، يجمع على أمور، وكذا قال ابن سيدة فى المحكم، ولم يذكر النحاة أن فعلاً يجمع على فواعل.

وفى شرح البرهان: أن قول الجوهرى غير معروف، وأن الأوامر إما جمع آمر بزنة اسم الفاعل بمعنى الأمر مجازًا، أو جمع على فواعل؛ لأنه اسم أو صفة لما لا يعقل، ويأباه

قولهم: إنه جمع آمر أو جمع آمرة مجازًا عن الصيغة؛ لأن الآمر الشخص نفسه، أو مصدر كالعافية، أو هو جمع الجمع، فجمع على أفعال كأكلب، ثم على فواعل، ورد بأنه ليس فاعل بل فواعل. وقال الأصفهانى: إنه لا يتم فى النواهى؛ لأن كونه جمع ناهية مجاز ومشاكلة تكلف، إذ لم يسمع ناهية، وقد تقدم هذا مرارًا.

(و)، مآله (**تكذيب الرسل**)، أى تكذيب رسل الله، صلوات الله وسلامه عليهم؛ لأن ما أتوا به لا يطابق الواقع؛ لأنهم لم يريدوا ظاهره، وليس بكذب حقيقى؛ لتأوله عندهم، (**والارتياب**)، أى الشك والتردد،(**فيما أتوا به**)، هل المراد به ظاهر ما أتوا به، أم لا؟ لتأويله بغير ظاهره.

(**وكذلك**)، أى مثل ما ذكروا فى أنه كفر، (**من أضاف**)، أى نسب (**إلى نبينا**) محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**تعمد الكذب**)، أى قصده وذكره عن قصد منه، (**فيما بلغه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن الله من وحيه، (**وأخبر به**) عن ربه، (**أو شك فى صدقه**)، للإجماع على أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، معصوم عن الكذب فيما طريقه البلاغ، وكذا سائر الأنبياء، (**أو سبه**)، فإنه يكفر وذكره هنا وإن تقدم؛ لأن تكذيبه سب له.

(**أو قال: إنه لم يبلغ**) ما أوحى إليه وكتمه، وحذف المفعول اختصارًا للعلم به؛ لأنه افتراء عليه؛ لقوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ**﴾ [المائدة: ٦٧]، وقد تقدم الكلام عليه، وأن عائشة، رضى الله تعالى عنها، قالت: لو كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كاتمًا شيئًا مما أوحى إليه، لكتم قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ**﴾ [الأحزاب: ٣٧] الآية النازلة فى قصة زيد، (**أو استخف به**)، أى استهزأ به، وذكر ما فيه إزراء بقدره الشريف، (**أو**) بقدر (**أحد من الأنبياء**) غيره، صلى الله تعالى عليه وسلم وعليهم أجمعين، (**أو أزرى عليهم**)، الإزراء الاحتقار، أى ذكر ما فيه تحقير وإهانة لهم، (**أو آذاهم**)، أى ذكر ما فيه أذية لهم فى حياتهم ومماتهم، كأذية بعض ذريته وأقاربه، صلى الله تعالى عليه وسلم:

ولأجل عين ألف عين تكرم

(**أو قتل نبيًا**)، من الأنبياء كما وقع لبنى إسرائيل، (**أو حاربه**)، بارزه بحرب ومقاتلة، كما وقع لقريش وغيرهم، (**فهو كافر بإجماع**) من المسلمين، بل من علماء الملل كلهم، وليس من هذا وقع من بعض الصحابة فى بعض معارضتهم له، صلى الله تعالى عليه

وسلم، فى بعض الأمور، كما وقع فى إمارة أسامة، وفى قصة الحديبية، وكتابة الكتاب الذى أراد أن يكتبه فى مرض موته كما مر، فإنما ذلك لخلوص قلوبهم ومحبتهم لله ورسوله، كما قيل:

ما ناصحتك خبايا الود من رجل ما لم يرعك بمكروه من العذل

(**وكذلك**)، أى مثل ما تقدم فى تكفير من ذكر، (**تكفير من ذهب مذهب بعض القدماء**)، من الفلاسفة والحكماء الخارجين عن ملة الإسلام فيما اعتقدوه وذهبوا إليه، من (**أن فى كل جنس من الحيوانات**)، غير بنى آدم، (**نذيرًا**)، أى رسلا أرسلت إليهم من نوعهم لإنذارهم، (**أو نبيًا**)، أرسله الله إليهم ونوعه أمته، (**من القردة والخنازير والدواب**)، جمع دابة، وهى كل ذى روح دب، أى تحرك باختياره، ثم خص فى العرف، أى عرف فى اللغة، بذوات الأربع، (**والدود وغير ذلك**)، مما يمشى على بطنه ويزحف من دواب البر والبحر.

(**ويحتج**)، أى يستدل هذا القائل بأن فى كل جنس نبيًا، (**بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا﴾**)، أى مضى وتقدم (﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾) [فاطر: ٢٤]، أى رسول من جنسها ينذرها، والأمة الجماعة، فحملها على العموم لسائر الحيوانات، كقوله: الأمم أمثالكم، وجعلها أمة دعوة. وقال الراغب: الأمة كل جماعة يجمعها أمر واحد، إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان الأمر الجامع تسخيرًا واختيارًا، فإن كل نوع منها على طريقة قد سخرها عليهم بالطبع، فهى بين ناسجة كالعنكبوت، وبانية كالسرفة، ومدخرة كالنمل، ومعتمدة على قوت وقت كالعصفور والحمام، إلى غير ذلك من الطبائع التى يختص بها نوع نوع. انتهى.

(**إذ ذلك**)، أى القول بأن للحيوان رسلاً وأنبياء، (**يؤدى**)، أى يستلزم، وأصل معناه يوصل، (**إلى أن توصف أنبياء هذه الأجناس**)، من الحيوانات، وفى نسخة: الأشياء، (**بصفاتهم المذمومة**)، أى القبيحة من الصور والأفعال المستكرهة، وهو ظاهر، ولم يقل بصفاتها لوصفهم بما حقه أن يصدر عن العقلاء، كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

(**وفيه**)، أى فيما ذكره من صفاتهم القبيحة، (**من الإزراء**)، أى التحقير والإهانة، (**على هذا المنصب**)، أى المقام (**المنيف**)، أى العالى الشريف، وهو مقام النبوة والمنصب تقدم بيانه، (**ما فيه**)، أى أمر ظاهر فيه من التحقير والإهانة، فما موصوفة أو موصولة لنسبة أمور غير لائقة بالأنبياء لمن زعموا أنهم أنبياء، (**مع إجماع المسلمين**)، بل العقلاء،

(على خلافه)، أى خلاف ما ادعوه.

(وتكذيب قائله)، الذاهب إليه، فإن كل أحد يعلم أنه لا فائدة فى تكليف غير العقلاء، وأما الجن فعقلاء مكلفون، ولكن اختلف، هل بعث لهم منهم رسول أم لا؟ وفى الإيجاز لأبى الحسن الأشعرى مسألة فرائض الله إنما تجب على العقلاء، خلافًا لأهل التناسخ، حيث قالوا: إن فرائضه تجب على جميع الحيوانات، فإن جميع الحيوانات مكلفون بفرائضه، وأنه بعث لكل جنس رسولاً منهم، وخلافًا لمن قال منهم: إن جميع ما خلق الله من الأجسام حتى الجماد مكلف بالفرائض، وقد حكى إجماع الصحابة والتابعين وغيرهم قبل أن يظهر المخالف على أن البهائم والجماد غير مكلفين. انتهى. ومنه يعلم أن هذا المذهب مبنى على التناسخ، وأن أرواح المكلفين لما انتقلت لغيرهم بقيت على تكليفها.

واعلم أن الشيخ الشعراوى قال فى كتابه إرشاد الطالبين: إن بعض أهل الكشف ذهب إلى أن لجميع الحيوانات تكليفًا إلهيًا برسول منهم لا يشعر به إلا بعض الأولياء، فإنه تعالى له الحجة على جميع خلقه، فلا يعذب أحدًا إلا لجزائه وتطهيره، وهذا من الأسرار، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وكل جنس موجود أمة، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، وورد فى الحديث: «الكلاب والنمل أمة»، فعمت الرسالة الإلهية جميع الأمم، ودخلوا تحت الخطاب على لسان نذير بعث لها حتى الدود.

قلت: الجمهور على خلافه، وأنه يكفر من زعمه.

واعلم أن فى الملل والنحل لابن حزم: أن صاحب هذا المذهب أحمد بن حائط البصرى تلميذ النظام، وأحمد بن مانوس وأتباعه يقال لهم: الحابطية، ومذهبه كفر، لما فيه من الطعن فى النبوة، وله آراء واهية، واستدل بما ذكر من الآيتين السابقتين، ولا دليل فى ذلك؛ لأن الأمة القبيلة والجماعة من الناس، وأما تسبيح الحصى وكلام الحجارة للنبى ﷺ فلا دليل فيه؛ لأنه من المعجزات الخارقة للعادة، كحنين الجذع، وكلام الهدهد والنملة.

وقوله: (**﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ الآية**)، معناها أنها بما فيها من بديع الصنعة تدل على صانع قدير قديم، ولذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ﴾ [الإسراء: ٤٤]، دون تسمعون، ومن الغريب أن ما ذهب إليه ابن خويز منداد من المالكية أن من الحجارة ما له إدراك وتمييز، ومما قلته فى ابن حابط هذا وأتباعه:

قل لابن حابط الحمار ومن غدا أشقى الورى إن صح ما يتقول
اخشى الإله فكم نبى مرسل من قمل فى كل حين يقتل
والشبه منجذب لما هو شبهه فلذلك الحشرات أنت تفضل

(**وكذلك**)، أى مثل تكفير من تقدم، (**نكفر من اعترف من الأصول الصحيحة**)، بيان لقوله: (**بما تقدم**)، أى اعترف بالإلوهية والوحدانية، (**و**) اعترف (**بنبوة نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولكن قال**) فى وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وخلقته: إنه (**كان أسود**) اللون، والمتواتر من حليته أنه كان أبيض مشربًا بحمرة كما تقدم، (**أو مات**) صغيرًا (**قبل أن يلتحى**)، أى قبل أن تنبت له لحيه.

(**أو**) قال: إن نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**ليس الذى كان بمكة**)، أى نشأ بها قبل هجرته إلى المدينة، (**و**) ليس الذى كان بـ (**الحجاز**)، هو أرض معروفة من الحجز، وهو المنع والفصل، سمى به لكونه حاجزًا بين نجد وتهامة، (**أو**) قال: (**ليس بقرشى**)، أى ليس من قريش، وهم ولد النضر بن كنانة، وفى وجه تسميتهم بذلك وجوه مشهورة تقدمت، فكل هذا كفر؛ (**لأن وصفه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**بغير صفاته المعلومة**)، سلبًا وإثباتًا، (**نفى له**)، أى لوجوده لا لوصفه، (**وتكذيب به**)، أى تكذيب لمن أثبته وعلم وجوده.

(**وكذلك**) نكفر (**من ادعى نبوة أحد مع نبينا ﷺ**)، أى فى زمنه كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسى، (**أو**) ادعى نبوة أحد (**بعده**)، فإنه خاتم النبيين بنص القرآن والحديث، فهذا تكذيب لله ورسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**كالعيسوية**)، وهم طائفة (**من اليهود**)، نسبوا لعيسى بن إسحاق بن يعقوب الأصبهانى اليهودى، وقيل فى اسمه غير ذلك، وكان فى زمن بنى مروان، وادعى النبوة فى زمن مروان الحمار، وتبعه كثير من اليهود، وكان من مذهبه تجويز حدوث النبوة بعد نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولولا ذلك ما ادعاها، (**القائلين بتخصيص رسالته**)، أى رسالة نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**إلى العرب**)، فهو مع تجويزه نبوة نبينا بعده منكر لعموم رسالته وخالف دين موسى، عليه الصلاة والسلام، فى أمور كثيرة، وادعى أتباعه له معجزات، ثم أنه قتل فى أول الدولة العباسية، وقيل: مات حتف أنفه.

(**وكالجرمية**)، اختلفوا فى ضبط لفظ هذه الكلمة، فقيل: إنه بجيم مفتوحة وراء مهملة وميم وياء نسبة، وهم قوم من أهل الكفر، (**القائلين بتواتر الرسل**)، أى تتابعها وتكررها، وأنها لا تنقطع، وأنه يحدث فى كل زمان رسول يوحى إليه، وهذا الضبط لم يرتضه البرهان الحلبى، وارتضى أنهم الخرمية، بضم الخاء المعجمة، وفتح الراء المهملة

المشددة وميم، نسبة لرأس ضلالهم، ومعناه بالفارسية الفرح والسرور، وهم على فرق مزدكية وبابكية وماذيارية، وكلهم يستحلون المحرمات ويبيحون الفروج، وظهروا فى دولة بنى العباس بنواحى أذربيجان نحو عشرين سنة، فى جموع وعساكر كثيرة جدًا، حتى أسر بابك وصلب بسامرا فى أيام المعتصم.

وقيل: إنه الحرمية، بحاء مكسورة، وراء ساكنة مهملتين، وهم قوم من القرامطة، سموا به؛ لأنهم أباحوا المحرمات وزعموا أن النبوة تدرك بالرياضية، وتصفية الباطن، وترك الشهوات المعبر عنه باكتساب النبوة الآتى، وأن النور القدسى انتقل من آدم للأنبياء، إلى أن وصل لمحمد وعلى وأولاده، ثم تم النور المحمدى فيهم وانتقلت شريعته لغيره.

وقال التلمسانى: إنه يقال لهم: الخرمانية، بضم الخاء المعجمة، وسكون الراء وفتحها مشددة، والخرمان الكذب، يخفف ويشدد، **(وكأكثر الرافضة القائلين بمشاركة على فى الرسالة للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وبعده كذلك)**، يقولون ويعتقدون، **(كل إمام)**، أى خليفة قرشى، **(عند هؤلاء)**، الفرقة من الرافضة، **(يقوم مقامه فى النبوة)**، فتنتقل النبوة بعده لغيره عند هؤلاء، **(و)** فى **(الحجة)** على الخلق بتبليغ الأحكام، وهؤلاء من غلاة الرافضة، ولهم مقالات فى الكفر والضلال، ولا حاجة لذكرها كما فى المثل: يكفيك من الشر سماعه والحق أبلج.

(وكالبزيغية والبيانية منهم القائلين بنبوة بزيغ وبيان)، هؤلاء طائفتان من غلاة الرافضة يزعمون أن النبوة، بل الإلهية تحل فى بعض أئمتهم وتنتقل إليهم، وهم أكفر من النصارى، وأشد ضررًا؛ لأنهم بحسب الصورة مسلمون ويلتبس أمرهم على العوام، لكن فى ضبط أسمائهم اختلاف، فقال البرهان الحلبى: إن بزيغ بموحدة مفتوحة، وزاء معجمة مكسورة، ومثناة تحتية، وغين معجمة، علم شخص، نسبوا إليه، وقيل: إنه بموحدة، وزاء معجمة، ومثناة، وعين مهملة، وقيل فيه غير ذلك، وبيان بموحدة مفتوحة، وتحتية مثناة وألف ونون، وقيل: إنما هو بنونين، وهو بيان بن إسماعيل النهدى، وهو يزعم أن الله عز وجل حل فى على وأولاده، ويقولون بنبوة بعض أئمتهم، وقيل: إن الثانى غلط، والصواب أنه بيان بن سمعان النهدى، وقيل غير ذلك.

(وأشباه هؤلاء) من أهل الضلال، **(أو من ادعى النبوة لنفسه)**، بعد نبينا ﷺ كالمختار ابن أبى عبيد الثقفى، وغيره. قال ابن حجر: ويظهر كفر كل من طلب منه معجزة؛ لأنه يطلبه منه مجوز لصدقه مع استحالته المعلومة من الدين بالضرورة، نعم إن أراد بذلك تسفيهه وبيان كذبه، فلا كفر به. انتهى.

(أو جوز اكتسابها)، ممن يقول: إن النبوة صفة تكتسب بالرياضة، والزهد، وتصفية الباطن، وأهل الحق يقولون: إنها وهبية لمن اصطفاه الله من عباده، كما قال تعالى: ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، **(والبلوغ بصفاء القلب)**، أى تصفيته من الكدورات البشرية بالرياضة، **(إلى مرتبتها كالفلاسفة)**، وقدماء الحكماء، **(وغلاة المتصوفة)**، جمع غال، وهو المبالغ المتجاوز للحد، لكن لم نر من ذهب إلى هذا من الصوفية، والذى نقل فيه إنما هو عن الفلاسفة وقدماء الحكماء كما علم.

(وكذلك من ادعى منهم)، أى الفلاسفة والغلاة، **(أنه يوحى إليه)**، أى يأتيه الملك من الله تعالى ببعض الأوامر الإلهية مما تزينه له الشياطين، **(وإن لم يدع النبوة)**، فلا يقول مع ذلك: أنا نبى، **(أو)** ادعى **(أنه يصعد إلى السماء ويدخل الجنة)**، بجسده يقظة وهو حى، **(ويأكل من ثمارها ويعانق الحور العين)**، التى فى الجنة معدة للمؤمنين فيها.

قال ابن حجر: الظاهر أن زعمه دخول الجنة ماضيًا أو حالاً أو مستقبلاً قبل موته مرة أو أكثر، سواء ضم إلى ذلك الأكل والمعانقة المذكورين أم لا، يكون كفرًا، وإن كان ربما يتوهم من كلام المصنف خلاف ذلك.

وفى الأنوار: ويكفر من قال: إنه يرى الله عيانًا فى الدنيا ويكلمه شفاهًا، والله يحل فى الصور الحسان، أو قال: إن الحق يطعمه ويسقيه، وأسقط عنه التمييز بين الحلال والحرام، وأنه يأكل من الغيب، ويأخذ منه، أو قال: دع الصلاة، والزكاة، والصوم، والقرآن، وأن سماع الغناء من الدين، فإنه أنفع للقلوب من القرآن.

قال ابن حجر: ولا يشترط فى كفر من زعم أنه يرى الله عيانًا فى الدنيا ويكلمه شفاهًا، اجتماع هذين خلافًا لمن توهمه عبارة الأنوار، بل يكفر زاعم أحدهما، ثم رأيت الكواشى صرح فى تفسيره بكفر معتقد الرؤية بالعين، وهو صريح فيما ذكرت، لكن عندى فى إطلاق ذلك نظر، والذى يتجه حمله على رؤية أو كلام متضمن للإحاطة بذاته تعالى لما مر أن الأصح أن لا نكفر الجهمية ولا المجسمة، إلا أن صرحوا باعتقادهم للوازم قولهم، كالحدوث، أو ما هو نص فيه، كاللون والتركيب والاحتياج.

ثم قال ابن حجر: وكذا يكفر زاعم إسقاط التمييز عنه بين الحلال والحرام، وأن الله يطعمه أو يسقيه، أو أنه يأكل من الغيب، ويأخذ منه، ولا يشترط اجتماع هذه الثلاثة خلافًا لما يوهمه كلام الأنوار أيضًا، وكذا يقال فى بقية كلامه.

(فهؤلاء) المذكورون **(كلهم كفار)**، محكوم بكفرهم؛ لأنهم **(مكذبون للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، لادعائهم خلاف ما قاله؛ **(لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أخبر أنه**

خاتم النبيين)، كما أعلمه الله به فيما أوحاه إليه، **(و)** أخبر أيضًا أنه **(لا نبى بعده)**، وما روى عنه فى ذلك من الأحاديث الصحيحة ذكر ما يخالفها تكذيب له معنى.

وأما ما روى عنه من أنه قال: لا نبى بعده، إلا ما شاء الله، فقال ابن الجوزى فى كشف المشكل: إن هذه الزيادة لا أصل لها، ورد على ابن عبد البر فى قوله: إن المراد بها الرؤياء الصالحة؛ لأنها جزء من النبوة، وأنكر عليه ذلك كما فصله، فلا يغرنك من ذكره لعدم وقوفه عليه ومر أنه لا يرد عليه عيسى، عليه الصلاة والسلام، حين ينزل؛ لأنه لم ينبأ بعده ولأنه يكون من أمته وعلى شريعته، ولا الخضر أيضًا مع أنه اختلف فى نبوته كما تقدم.

(وأخبر)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(عن الله أنه خاتم النبيين)** فى قوله تعالى: ﴿**وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ**﴾ [الأحزاب:٤٠] **(و)** أخبر أيضًا عن الله **(وأنه أرسل)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(كافة للناس)**، أى إلى الناس كلهم، بل وإلى الملائكة كلهم، بل وإلى الجن وهذا مما خصه الله به، ولا يرد عليه آدم ونوح كما تقدم، قال الله تعالى: ﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ**﴾ [سبأ:٢٨]، أى لرسالة عامة محيطة بهم تكف عن أن يخرج منها أحد.

وقال الزجاج: معناه جامعًا للناس فى الإنذار والإبلاغ، فجعله حالاً من الكاف وتاؤه للمبالغة كعلامة لا حالا من المجرور لامتناع تقدمه عليه، وفيه تفصيل فى العربية، وخص الناس؛ لأنهم محل النزاع، وقيل: إن الناس يطلق على جميع من ذكر كما ذهب إليه بعضهم فى الكلام على المعوذتين وارتضاه السبكى **(وأجمعت الأمة)**، أى أمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(على أن هذا الكلام)** المذكور من الآية والحديث وأنه أرسل لجميع الناس **(على ظاهره)** من نفى النبوة بعده وعموم الرسالة **(وأن مفهومه)**، أى مدلوله الذى فهم منه **(المراد منه)** صفة مفهومة **(دون تأويل)**، أى لم يأول بما يصرفه عن ظاهره **(ولا تخصيص)** لبعض أفراده **(فلا شك)** عند من يعتد به من الأمة **(فى كفر هؤلاء الطوائف كلها)** الذاهبين لما يخالف إجماع المسلمين **(قطعا)**، أى جزما من غير تردد فيه **(إجماعا)**، أى بالإجماع.

(وسمعا) من الله ورسوله وكتابه وسنته، فلا عبرة بمن خالفه من الفرق الضالة ولا بمن نازع فى حجية الإجماع كما سيأتى **(وكذلك وقع الإجماع)** من علماء الدين **(على تكفير كل من دافع نص الكتاب)**، أى منع ونازع فيما جاء صريحا فى القرآن كبعض الباطنية الذين يدعون لها معان أخر غير ظاهرها وكبعض جهلة الصوفية.

وأما ما يروى عن بعض كبار المشايخ فليس تفسيرًا له، وإنما هو إشارة لبعض نكت يلوح لها لا أنها معناه وضعًا كما قاله العز بن عبد السلام **(أو خص حديثا)** عاما منطوقه **(مجمعًا على نقله)** عن ثقات الرواة **(مقطوعا به)** فى دلالته على صريحه **(مجمعا)** من العلماء والفقهاء **(على حمله على ظاهره)** من غير تأويل ولا تخصيص ولا نسخ فإنه تلاعب مؤد للفساد و**(كتكفير الخوارج)** تقدم بيانهم **(بإبطال الرجم)** للزانى والزانية المحصنين فإنه مجمع عليه صار معلومًا من الدين بالضرورة.

(ولهذا)، أى للقول بكفر من خالف ظاهر النصوص والمجمع عليه **(نكفر من لم يكفر من دان بغير ملة الإسلام)**، أى اتخذه دينا **(من)** أهل **(الملل)** جمع ملة وهى الدين وبينهما فرق بحسب المفهوم **(أو وقف فيهم)**، أى توقف وتردد فى تكفيرهم **(أوشك)** فى كفرهم **(أو صحح مذهبهم)**، أى اعتقد صحته كما تقدم عن بعضهم أن الإيمان إنما هو عدم جحد وحدانية الله وقد تقدم بيانه وإبطاله، والفرق بين التوقف والشك أن التوقف أن لا يميل إلى شيء من الطرفين، والشك الميل مع الترجيح للمخالف **(وإن أظهر الإسلام)** باعتقاده والتزام أحكامه **(واعتقده)** بقلبه **(واعتقد إبطال كل مذهب سواه)**، أى غير الإسلام بأن يقول إنه منسوخ باطل فى الواقع غير مقبول عند الله، ولكن يزعم أن من أقر بالإلوهية والتوحيد غير كافر كما تقدم من مذهب الجاحظ.

وقيل: قول المصنف وإن أظهر إلخ لابد له من تأويل لتضمنه الإقلاع عن الصحيح ظاهرًا وباطنًا، فما معنى الحكم عليه بالكفر مع إظهاره الصحيح ويكون مع ذلك إظهاره الإسلام واعتقاده إبطال ما سواه رجوعًا، وإلا يلزم أن لا يكون مقبول الإسلام بعد الكفر وهو قول من لم يصل إلى العنقود **(فهو)**، أى من لم يكفر وما بعده **(كافر بإظهار ما أظهر من خلاف ذلك)**، أى ما يخالف الإسلام؛ لأنه طعن فى الدين وتكذيب لما ورد عنه من خلافه.

(وكذلك)، أى كتكفير هؤلاء **(يقطع)** ويجزم **(بتكفير كل من قال قولا)** صدر عنه **(يتوصل به إلى تضليل الأمة)**، أى كونهم فى ضلال عن الدين والصراط المستقيم **(و)** يؤدى إلى **(تكفير جميع الصحابة كقول)** الطائفة **(الكميلية)** سيأتى بيانهم وأنهم قوم **(من)** غلاة **(الرافضة بتكفير جميع الأمة بعد موت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**؛ لأنهم قالوا بالتناسخ والحلول، وأن النبوة نور ينتقل من رجل لآخر، وأنه حق علىٍّ، كرم الله وجهه، وأن الصحابة كفروا لما بايعوا أبا بكر.

وعلىٌّ كفر لما ترك حقه و لم يقاتل، والنبى كذلك لما نص على إمامة على وقد كفر بعده. ومثله من الخرافات ولا شك فى كفرهم، إلا أنه قيل الصواب أن يقول المصنف

الكاملية؛ لأنهم نسبوا لأبى كامل رئيسهم المؤسس لكفرهم، كما نص عليه الإمام الرازى ووفق بينهما بأنهم صغروا كاملا على كميل، ونسب إليه على خلاف القياس تصغير تحقير، فهو بضم أوله، وقيل: إنه بفتحها نسبة لكميل بزنة قبيل بمعنى كامل وهو بعيد.

ثم بين مقالتهم وسبب كفرهم وتكفيرهم للصحابة بقوله **(إذ لم تقدم)** بتاء فوقية، أى الأمة وفى نسخة إذ لم يقدموا **(عليا)**، أى يجعلوه خليفة **(وكفرت)** هذه الطائفة **(عليًّا)** أيضًا **(إذ لم يتقدم)** بنفسه على أبى بكر، رضى الله عنهما **(ويطلب حقه)** من الأمة **(فى التقديم)** على أبى بكر **(فهؤلاء)** الطائفة الكميلية **(قد كفروا من وجه؛ لأنهم)** بما قالوه **(أبطلوا الشريعة)**، أى شريعة الإسلام **(بأسرها)**، أى جميع أحكامها **(إذ)** لزم من قولهم بكفر الصحابة أنه **(قد انقطع نقلها)**؛ لأنه لم ينقلها إلا الصحابة، رضى الله عنهم، وهم عندهم بزعمهم كفرة والكافر لا يقبل نقله **(ونقل القرآن)**؛ لأنه لم ينقله إلا الصحابة **(إذ ناقلوه)** وهم الصحابة **(كفرة على زعمهم)** الفاسد والزعم مثلث الزاء القول الباطل كما مر، والكافر لا يقبل قوله.

(وإلى هذا) القول بتكفير هؤلاء وأمثالهم **(والله أعلم)** بما أراد **(أشار)**، أى الإمام **(مالك فى أحد قوليه)** المرويين عنه **(يقتل من كفر الصحابة)**، أى كلهم أو واحدًا منهم؛ لأن من كفر مسلمًا بغير حق فقد كفر، فما بالك بالصحابة وهم، رضى الله عنهم، أساس الإسلام وعماده **(ثم كفروا)**، أى هؤلاء أصحاب هذه المقالة الشنيعة.

(من وجه آخر) غير المتقدم بما لزم مقالتهم هذه **(بسبهم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، على مقتضى قولهم وزعمهم)**، أى ما يسلتزمه قولهم هذا **(أنه عهد إلى علىٍّ، رضى الله عنه)**، أى أوصى له بالخلافة بعده على زعمهم **(وهو يعلم أنه يكفر بعده)** بترك طلب حقه، والكافر لا يكون خليفة فيكون ما عهده كذب، وهذا سب يكفر من قاله **(على قولهم)** بالعهد وكفره وهو مقالة متناقضة باطلة وكفر من وجوه **(لعنة الله عليهم أجمعين)** إلى يوم الدين **(وصلى الله تعالى وسلم على رسوله، وعلى آله وصحبه)** وشرفهم وكرمهم عما يقول الكافرون.

(كذلك)، أى كما كفرنا هؤلاء **(نكفر)** بنون الجماعة وبناء المفعول، أو بالتحتية وبناء المجهول **(بكل فعل)** فعله شخص مسلم **(أجمع المسلمين على أنه)**، أى ذلك الفعل **(لايصدر إلا من كافر)** حقيقة؛ لأنه من جنس أفعالهم **(وإن كان صاحبه)**، أى من صدر منه مسلمًا **(مصرحا بالإسلام)** حقيقة أو حكما بشهادة ظاهر حاله **(مع فعله ذلك الفعل)** الذى هو من أفعال الكفرة **(كالسجود للصنم)** وهو الوثن وهو ما يتخذ إلها يعبد

أو الصنم المجسم والوثن الصورة كما تقدم الكلام عليه.

(و) كالسجود **(للشمس والقمر)** باتخاذهما كالمعبود حقيقة **(والصليب)** وأصله الخشبة التى يصلب عليها ثم نقل إلى ما يجعله النصارى لعنهم الله على صورة الخشبة، والمصلوب بعود معترض على آخر لزعمهم أنه هيئة ما صلب عليه عيسى، عليه الصلاة والسلام، فيعظمونه بالسجود له.

(و) كالسجود **(للنار)** التى يسجد لها المجوس، سواء كان فى دار الحرب أم دار الإسلام، بشرط أن تقوم قرينة على عدم استهزائه أو عذره، وما فى الحلية عن القاضى عن النص أن المسلم لو سجد للصنم فى دار الحرب لم يحكم بردته ضعيف، وواضح أن الكلام فى المختار، واستشكل الفرق بين السجود للصنم وبين مالو سجد الولد لوالده على جهة التعظيم، حيث لا يكفر مع أنه كما يقصد به التقرب إلى الله قد يقصد بالسجود للصنم، ولا يمكن أن يقال أن الله تعالى شرع ذلك للعلماء والأباء دون الأصنام، بأن الوالد وردت الشريعة بتعظيمة، بل ورد شرع غيرنا بالسجود، فهذا الجنس ثبت له السجود ولو فى زمن من الأزمان وشريعة من الشرائع فكان شبهة دارئة الكفر فاعلة، بخلاف السجود لنحو الصنم أو الشمس، فإنه لم يرد هو ولا ما يشابهه فى التعظيم فى شريعة من الشرائع، فلم يكن لفاعل ذلك شبهة لا ضعيفة ولا قوية فكان كافرًا، ولا نظر لقصد التقرب فيما لم ترد الشريعة بتعظيمه بخلاف من وردت بتعظيمه.

وما تقرر من أن العلماء كالوالد فى ذلك هو ما دل عليه كلام النووى فى الروضة آخر سجود التلاوة، وعبارته: وسواء فى هذا الخلاف وفى تحريم السجود ما يفعل بعد صلاة وغيرها، وليس من هذا ما يفعله كثير من الجهلة من السجود بين يدى المشايخ، فإن ذلك حرام قطعا بكل حال، سواء كان للقبلة أو لغيرها، وسواء قصد السجود لله أو غفل وفى بعض صوره ما يقتضى الكفر عافانا الله من ذلك انتهى.

فافهم أنه قد يكون كفرًا بأن قصد به عبادة مخلوق أو التقرب إليه، وقد يكون حرامًا بأن قصد به تعظيمه أو أطلق، وكذا يقال فى الوالد لا يقال ما ذكر فى الوالد لا يأتى فى العلماء؛ لأنه لم ينقل صورة السجود لهم؛ لأنا نقول: بل يأتى فيهم؛ لأن تعظيمهم ورد به الشرع على أنه ثبت لجنسهم السجود فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البقرة:٣٤]، وآدم، عليه الصلاة والسلام، كان بالنسبة للملائكة هو العالم الأكبر فثبت لجنس العلماء السجود فكان شبهة.

(وكالسعى)، أى الذهاب **(إلى الكنائس)** جمع كنيسة **(والبيع)** بكسر الباء الموحدة

وفتح المثناة التحتية قبل عين مهملة جمع بيعة بكسر فسكون **(مع أهلها)** متعلق بالسعى، أى يمشى معهم لمعابدهم، وهو يقتضى موافقتهم فى كفرهم، وهو كالتصريح بالكفر فهو كفر، وقيده بقوله: مع أهلها؛ لأن المراد به أنه يذهب معهم فى وقت ذهابهم للعبادة فيها كما يسعى المسلمون للصلاة فى المساجد إذا نودى للصلاة على هيئة تدل على موافقة لهم، وإلا فمجرد الذهاب للكنيسة والدخول لها ليس بكفر، وإنما هو مكروه إن كان لغير غرض صحيح، وقيل: لا يجوز إذا كان ثمة صور ونحوه مما لا يقرون على إظهاره، والكنيسة والبيعة يقالان لمعبد اليهود والنصارى.

وقيل: الأول عام والثانى مخصوص بالنصارى وهو المشهور، وهما معربان، وقيل: الثانى عربى، قال الراغب: فإن كان عربيًا فى الأصل فهو كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة:١١١]، أى كأنهم يبيعون أنفسهم لمعبودهم **(والتزيى بزيهم)** وفى نسخة: والزى بزيهم وهو بكسر الزاء المعجمة وياء مثناة تحتية مشددة، أى التحلى بحليتهم والتلبس بها، وهو من زوى بمعنى جمع فى الأصل، وفى الأساس أنه يأتى والزى الهيئة الظاهرة بلباس ونحوه.

وفى نسخة بهيئتهم وبينه بقوله **(من شد)**، أى ربط **(الزنانير)** جمع زنار أو زنارة بضم أوله وهو حزام للنصارى يشدونه فى أوساطهم، وقيل: إنه بكسر أوله والمعروف الأول وهو كالغيار كما ذكره الفقهاء، وهو أمر يختص بهم ويشترط عليهم ليتميزوا به عن المسلمين.

وقد كان ذلك معروفا فى الصدر الأول، فحيث لبس زى الكفار سواء دخل دار الحرب أو لا بنية الرضا بينهم، أو الميل إليه، أو تهاونا بالإسلام كفر وإلا فلا، واعترض ما ذكر فى مسألة زى الكفار بما نقل عن الشافعى، رضى الله عنه، أنه لو سجد لصنم فى دار الحرب لم يحكم بردته، وإن لبس زى الكفار فى دار الإسلام حكم بردته، وأجيب بحمل هذا الإطلاق على التفصيل المذكور، واختلفوا فيمن وضع قلنسوة المجوس على رأسه والصحيح أنه يكفر.

ولو شد على وسطه حبلا فسئل عنه، فقال: هذا زنار مثلاً، فالأكثرون على أنه يكفر، ولو شد على وسطه زنارًا ودخل دار الحرب للتجارة كفر وإن دخل لتخليص الأسرى لم يكفر، قال الأذرعى: واعلم أن أكثر العامة يسمون ما يشد به الإنسان وسطه من حبل ونحوه زنارًا ولا يتخيل فى إطلاق هذا منهم كفرًا انتهى.

(وفحص رءوسهم) بفتح الفاء وحاء مهملة ساكنة قبل صاد مهملة من فحص

الأرض إذا كشفها، أى حلق أوساطها وتركها كمفاحص القطا هيئتها، وهو من شعارهم المعروف فى ذلك الزمان، وفى الخبر: ستلقون أقوامًا فى رءوسهم مفاحص فألقوها بالسيوف، أى طيروها، وهو عبارة عن ذلك، وفيه مبالغة وبلاغة عظيمة وتلميح لقول العرب فرخ الشيطان وعشش فى قلبه، وهو زى عبادهم فالتشبيه بهم قصدًا كفر، وهى رهبانية ابتدعوها كما حكاه الله عنهم.

(**فقد أجمع المسلمون**) قاطبة (**على أن هذا الفعل**) وهو متلبس بهيئة مخصوصة بالكفرة (**لا يوجد**) ويصدر فعله (**إلا من كافر**) حقيقة أو حكما (**وأن هذه الأفعال علامة على الكفر**) المضمر فى قلوبهم (**وإن صرح فاعلها بالإسلام**) لأنه تلاعب بالدين لكنه إن كان مخلصا بقلبه نفعه ذلك فيما بينه وبين الله، فمن صدق ماجاء به النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومع ذلك سجد للشمس كان غير مؤمن بالإجماع؛ لأن سجوده لها يدل بظاهره على أنه ليس بمصدق ونحن نحكم بالظاهر، فلذلك حكمنا بعدم إيمانه؛ لأن عدم السجود لغير الله داخل فى حقيقة الإيمان حتى لو علم أنه لم يسجد لها على سبيل التعظيم واعتقاد الإلوهيه، بل سجد لها وقلبه مطمئن بالتصديق لم يحكم بكفره فيما بينه وبين الله، وإن أجرى عليه حكم الكافر فى الظاهر.

(**وكذلك**)، أى كما حكم بكفر هؤلاء (**قد أجمع المسلمون على تكفير كل من استحل القتل**)، أى قال إنه حلال له أو لغيره لمسلم ظلما (أو) استحل (**شرب الخمر أو الزنا**) بزاء معجمة ونون ونحوه (**مما حرم الله**) ولابد أن يكون استحلاله له (**بعد علمه بتحريمه**)، أى بأن الله حرمه شرعًا (**كأصحاب الإباحة من القرامطة**) الذين تقدم بيانهم من الإباحية يعتقدون حل ما حرم الله (**وبعض غلاة المتصوفة**) الذين يزعمون أن الواصل إلى الله يرفع عنه التكليف و لم يؤاخذه بما يرتكبه من المحرمات.

ثم ما ذكر فى استحلال الخمر استبعده إمام الحرمين، بأنا لا نكفر من رد أصل الإجماع ثم أول ما ذكروه بما إذا صدق المجمعين على أن التحريم ثابت فى الشرع ثم حلله، فإنه يكون ردًا للشرع قال الرافعى: وهذا إن صح فليجر مثله فى سائر ما حصل على افتراضه أو تحريمه فنفاه، وأجاب عنه أبو القاسم الزنجانى بأن ملحظ التكفير ليس مخالفة الإجماع بل استباحة ما علم تحريمه من الدين ضرورة، وسيأتى لهذا تتمة عند ذكر المصنف له.

(**وكذلك يقطع**) جزمًا بلا تردد (**بتكفير كل من كذب**) بآيات الله أو سنة رسوله المعلومة (**وأنكر قاعدة من قواعد الشريعة**) وفى نسخة: الشرع، والمراد بالقواعد مابنى عليه الإسلام كإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج، فليس المرتد بالقاعدة

مصطلح أصحاب المعقول، فلذا فسره بقوله (**وما عرف يقينا بالنقل المتواتر**) الذى يمتنع كذب قائله (**من فعل الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم**) أو كان مشهورًا عنه كحل البيع مثلاً، قيل: إن المصنف أطلق هذا وهو مقيد، بأن يكون مجمعًا عليه معلومًا من الدين بالضروة؛ لأنه يصير كأنه جاحد مكذب للرسول ﷺ ومعنى علمه بالضرورة استوى العامة والخاصة فى معرفته حتى يصير كالضرورى، والمشهور فى حكمه على الصحيح عندهم، فلو كان لا يعلمه كل أحد ككون بنت الابن سهمها كذا، فيعذر منكره.

واحترز بقوله يقينا عن حكم الإجماع الظنى، وقد يقال: إن قوله (**ووقع الإجماع**) إلخ. مقيد له فلا حاجة لما ذكر، وقوله (**المتصل**)، أى الذى لم يتخلله عدم إجماع يقطعه وقوله (**عليه**) متعلق بالإجماع (**كمن أنكر وجوب الصلوات الخمس**) من حيث هى (**أو**) أنكر (**عدد ركعاتها وسجداتها**) فيكفر بإنكار ما أجمعوا عليه يقينا (**يقول**) فى وجه إنكاره (**وإنما أوجب الله علينا فى كتابه**) القرآن (**الصلاة على الجملة**)، أى إجمالاً من غير بيان عدد، وقوله ذلك حكاية لصورة الحال الماضية لاستغراقها (**وكونها خمسًا وعلى هذه الصفات والشروط لا أعلمه**) وعلل قوله المذكور بقوله (**إذ لم يرد به فى القرآن نص جلى**)، أى مفصل فى غاية الظهور والجلاء، وإنما ورد مجملاً كقوله: ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣١] وغيرها من الآيات، وأراد بالنص الجلى ضد الخفى وهو المتواتر، ولما كان هذا مبينا بالسنة. أشار لدفعه بقوله (**والخبر به**)، أى الحديث الوارد (**عن الرسول**)، أى رسول الله محمد (**صلى الله تعالى عليه وسلم، به**) أى ببيان إجماله بإظهاره وجلائه، (**خبر واحد**) لا متواتر، فلا يفيد القطع واليقين، وقد أجيب عنه أنه متواتر معنى، وقد أوجب علينا العمل به؛ لقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، وقوله: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾ [النور: ٦٣] الآية، وفى الأنوار أنه لو أنكر السنن الراتبة أو صلاة العيدين كفر.

قال ابن حجر: والذى يتجه كفر من أنكر سنة راتبة مجمعًا عليها معلومة من الدين بالضرورة، كما يدل عليه قوله: أو صلاة العيدين، لكن إنكار أحدهما كذلك خلافًا لما يوهمه قوله: السنن الراتبة، وقوله: العيدين، بل يكفى فى الكفر إنكار سنة واحدة بالشروط المذكورة.

(**وكذلك أجمع**)، أى أجمع المسلمون (**على كفر من قال من الخوارج: إن الصلاة**) الواجبة (**طرفى النهار**) فقط، والمراد بطرفى النهار أوله وآخره، فكانوا يجمعون الصلاة فى وقتين من غير عذر، وهذا لا يجوز عند أحد من فقهاء المذاهب الأربعة، وفى صحيح

مسلم وسنن أبى داود، عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، أنه قال: جمع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء بغير عذر ولا مطر بالمدينة فى غير خوف، وقال ابن عباس: أراد أن لا يحرج أمته، وحمله بعضهم على المرض وأخذه من نفى الحرج، وعلى كل حال ففيه نظر، قال بعضهم: ومن قال الكفر خير مما يفعل، إن أراد به أن فى الكفر خيرًا ولو بوجه كان كافرًا وإلا فلا، ومن قال: أطيب الحلال ألا أصلى، الظاهر أنه يكفر به؛ لأنه جعل ترك الصلاة من حيث هى من الحلال بل أطيبه، وهذا كفر بلا نزاع؛ لأن فيه إنكار وجوب الصلاة الشاملة للخمس وذلك كفر.

(و) أجمعوا أيضًا (**على تكفير الباطنية**) وهم الإسماعيلية والقرامطة بأن للنصوص باطنًا غير ظاهرها الذى يفهمه الناس، وهو معنى قوله (**فى قولهم إن الفرائض**) كالصلاة وغيرها مما جاءت به النصوص القطعية (**أسماء رجال أمروا بولايتهم**) بكسر الواو وفتحها مصدر كالدلالة، والدلالة، أى نصرتهم واتباعهم فيقولون الصلاة الرسول والوضوء موالاة الإمام ونحوه من الخرافات التى فصلها النويرى فى تاريخه.

(و) فسروا (**الخبائث والمحارم**) جمع محرمة ومحرمة وهى الحرمة، فالمراد بها المحرمات (**أسماء رجال أمروا بالبراءة منهم**)، أى بالتبرى منهم والبعد عنهم بعداوتهم ومخالفتهم (**وقول بعض**) الملاحدة من (**المتصوفة**) الذين يظهرون الزهد والصلاح (**إن العبادة**) كالصوم والصلاة (**وطول المجاهدة**)، أى مخالفة وملازمة الطاعة فإنه الجهاد الأكبر (**إذا صفت**) بتشديد الفاء (**نفوسهم**)، أى نفوس أصحابها، أى خلصت من الكدورات الشهوانية (**أفضت بهم**)، أى أوصلت نفوسهم وأصله الإدخال فى فضاء واسع (**إلى إسقاطها**) أى إسقاط الفرائض والتكاليف عنهم (**وإباحة كل شىء**) من المحرمات (**لهم ورفع عهدة الشرائع عنهم**)، أى ما عهده الله من التكاليف وإنما ذهب إلى هذا بعض الزنادقة.

وقال: إنه روى: «إذا أحب الله عبدًا لم يضره الذنب»[(١)] وهذا لم يقله أحد، ولو صح فهو مؤول بأن يحفظه عن ارتكاب الذنوب، فمعنى لا يضره الذنب أنه لا يفعل ذنبًا، حتى يضره كما أن معنى قول بعضهم: رفع عنه التكاليف أنه يلتذ بها حتى لا يعدها تكليفًا، أو أنه يغلب عليه محبة الله حتى يخرج عن العقل فيصير مجنونا غير مكلف، فهو من عقلاء المجانين كما يشاهد فى بعض المجاذيب، فإن ادعى رفع التكليف عمن لمن

(١) انظر: إتحاف السادة المتقين (٢/٢٨٤، ٨/٥٠٦، ٩/٦٠٩)، والدر المنثور (١/٢٦١)، وعزاه للقشيرى فى الرسالة، وابن النجار.

يخرج من دائرة العقل فهو كافر بالاتفاق.

(وكذلك) يحكم بكفره **(إن أنكر مكة أو البيت)** وهو الكعبة والبنية المعروفة **(أو المسجد الحرام)** وهو مسجد مكة **(أو)** أنكر **(صفة الحج)** التى ذكرها الفقهاء من واجباته وأركانه ونحوها **(أو قال: الحج واجب فى القرآن)** بقوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**﴾ [آل عمران:٩٧]، ونحوه.

(واستقبال القبلة كذلك)، أى واجب فى القرآن بقوله ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ**﴾ [البقرة:١٤٤] الآية، **(ولكن كونه)**، أى المذكوز من الحج والاستقبال **(على هذه الهيئة المتعارفة)** شرعًا عند سائر الناس **(وإن تلك البقعة)** المعروفة **(هى مكة والبيت والمسجد الحرام لا أدرى)** واعلم **(هل هى تلك أو)** بقعة وأرض **(غيرها و)** قال أيضًا: **(لعل الناقلين أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فسرها)** وبينها للناس **(بهذه التفاسير)** المعلومة **(غلطوا)** فى نقلها **(ووهموا)**، أى وقع فى أوهامهم ما ليس كذلك **(فهذا)** القائل ما ذكر **(ومثله)** ممن يشكك فى معانى النصوص المتواترة **(لا مرية)** بكسر الميم وقد تضم، أى لا شك **(فى تكفيره)**، أى الحكم بكفره لإنكاره ما علم من الدين بالضرورة وإبطاله الشرع وتكذيبه لله ورسوله **(إن كان ممن يظن به علم ذلك)** وذكر الظن؛ لأن العلم يعلم بالطريق الأولى.

(و) كان **(ممن يخالط المسلمين)** فى دار الإسلام **(وامتدت صحبته لهم)**، أى للمسلمين بين أظهرهم فى ديارهم **(إلا أن يكون)** ذلك القائل **(حديث عهد)**، أى قريب جديد تلبسه **(بإسلام)** بأن أسلم بعد كفره فى غير دار الإسلام، فهو معذور لجهله بما ذكر، كمن نشأ فى بادية أو جزيرة و لم يسمع أحكام الإسلام **(فيقال)** تعليما **(له)** إرشادك و**(سبيلك)**، أى طريقتك الذى يجب عليك سلوكها **(أن تسأل)** من الناس **(عن هذا الذى لم تعلمه)** مما ذكر كله **(بعد)** ظرف مبنى على الضم، أى بعدما كنت إلى الآن **(كافة المسلمين)** مفعول تسأل، أى جميعهم **(فلا تجد بينهم خلافا)**، أى لا يجد منهم، من يخالف فى تحقير ما ذكر لعلمه له بمشاهدة أو تواتر **(كافة عن كافة)**، أى يعرفه جميع أهل عصر بلغوه عن جميع أهل عصر قبلهم، بحيث لا يخفى ذلك أحد منهم وفى دخول الجار على كافة مع قول النحاة أنها تلزم النصب على الحالية تفصيل بيناه فى شرح الدرة، وعن بمعنى بعد كما يقال: كابرًا عن كابر، أى جميع القرون قرنًا بعد قرن حتى ينتهى **(إلى معاصر الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى من كان فى عصره وزمنه **(أن هذه الأمور)** التى سألتهم عنها **(كما قيل لك)**، أى على هذه الهيئة التى ذكروها لك وعلموها لك.

(و) هو (**أن تلك البقعة**) المعينة بسماتها (**هى مكة**) بلد الله الأمين (**والبيت الذى هو**) مبنى (**فيها هو الكعبة**) سميت بها لعلوها وارتفاعها، أو لكونها مكعبة، أى مربعة (**والقبلة**) التى يستقبلها الناس بوجوههم.

كأنما هو مغناطيس أنفسنا فحيثما كان دارت نحوه الصور

(**التى صلى إليها النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، و**) صلى إليها (**المسلمون**) كلهم بعد ما حولت القبلة عن بيت المقدس من سائر نواحى الأرض (**وحجوا إليها**)، أى قصدوها من كل فج عميق (**وطافوا بها**) تعبدًا كما أمرهم الله (**وأن الأفعال**) التى تفعلها الحجاج من الإحرام والطواف والسعى والحلق ورمى الجمار وغيره (**هى صفات عبادة الحج**) المأمور بها (**و**) أنها هى أيضًا (**المراد به**) فى النصوص المنقولة لنا.

(**وهى**)، أى تلك الأفعال المذكورة (**التى فعلها النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، و**) فعلها، (**المسلمون**) بعده قرنا بعد قرن (**وإن صفات الصلاة المذكورة**) المشهورة المنصوص عليها فى القرآن (**هى التى فعل**) ها (**النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشرح مراد الله بذلك**)، أى بين المراد منها بفعله ليقتدى به (**وأبان حدودها**)، أى عرفنا حقيقتها وأوقاتها المؤقتة لأدائها (**فيقع لك**) بسؤالك عما لم تعلمه (**العلم**) بما ذكر وصفته (**كما وقع لهم**) العلم بذلك (**ولا ترتاب بذلك**)، أى لا يقع لك فيها شك وتردد (**بعد**) بالبناء على الضم، أى بعد ما علمته بسؤالك منهم، وهذا حال من يعذر بجهله (**والمرتاب فى ذلك**) المعلوم من الدين بالضرورة.

(**والمنكر**) لذلك (**بعد البحث**) عنه ومعرفته بالسؤال عنه (**وصحبة المسلمين كافر با**) لا(**تفاق ولا يعذر بقوله لا أدرى**) المراد بذلك (**ولا يصدق فيه**)، أى فى قوله: لا أدرى (**بل ظاهره التستر**) بإظهار جهله (**عن التكذيب**) لله ورسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما نقل عنه (**إذ لا يمكن أنه لا يدرى**) ذلك مع تواتره وثبوت صفاته، وقد قيل عليه أن ظاهره متناقض؛ لأنه قال أولا: إن القائل ما ذكر كافر إلا أن يكون قريب عهد بإسلام، وقال هنا: إنه لا يعذر وليس بشىء؛ لأنه لا يكفر إذا كان حديث عهد قبل تعلمه وهنا أنه يكفر بعد التعليم كما يكفر غيره.

(**وأيضًا فإنه**)، أى المنكر (**إذا جوز على جميع الأمة الوهم والغلط فيما تقوله**) عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**من ذلك**) المذكور من أمور الحج والصلاة (**وأجمعوا**) على (**أنه قول الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم**) المروى عنه برواية صحيحه (**وفعله**) الذى فعله ليقتدى به (**وتفسيره**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما جاءه عن الله،

أى وأجمعوا أيضًا على أن فعله لهذا تفسير وبيان **(مراد الله تعالى به)**، أى بما دل عليه ما أجمعوا على أنه قول الرسول الذى بلغه عن ربه، من الصلاة والحج، فبين بفعله صفة أدائه ووجوبه وغير ذلك مما مر.

فقوله هذا مع علمه أو بعد تعلمه **(أدخل الاسترابة)** استفعال من الريبة وهى الشك وهو جواب إذا، أى أوقعها **(فى جميع)** أحكام **(الشريعة)**؛ لأنها إنما تعلم بنقل الأمة، فإذا طعن فيهم فى بعضها سرى ذلك لجميعها **(إذ هم الناقلون لها وللقرآن)** بروايتها عن رسول الله ﷺ **(و)** إذ وقعت ريبة فى نقلهم **(انحلت عرى الدين)** جمع عروة وهو ما يتمسك به من الحبل، وقد استعير الحبل للدين والقرآن، فإنه يتوصل به إلى الله، فعروته الأدلة التى فيه فانحلالها سقوط الاستدلال بها، فهو استعارة أخرى تصريحية أو تخييلية والعروة فى الأصل ماله أصل ثابت من الكلأ والدواب ترعاه إذا لم تجد غيره، فاستعمل لكل ما يعتصم به.

وقوله: **(كره)** هى فى الأصل مصدر من الكر وهو العطف على الشىء بالذات أو بالفعل، ويقال للحبل المفتول: كر، كما قاله الراغب، أى دفعة واحدة وجملة **(ومن)** موصول مبتدأ صلته **(قال هذا)**، أى إنكار ما أجمعوا عليه **(كافر)** بإنكاره المجمع عليه **(وكذلك)**، أى كما كفرنا هذا نكفر **(من أنكر القرآن)** كله (أو) أنكر **(حرفًا منه)** أو كلمة **(أو غير شيئًا منه)** بإبدال أو زيادة أو نقص فيه **(أو زاد فيه)** كلامًا ليس منه والمراد أن ما زاد أو نقص، ولم يكن برواية صحيحه ونقل معتمد، فلا تدخل القراءات كقراءة ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة:١٠٠]، مع قراءة ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ [البقرة:٢٥]، وكالبسملة فى الفاتحة عند الشافعى وغيره.

ولظهوره لم يقيد المصنف، رحمه الله تعالى، كلامه هنا فلا معنى للاعتراض به فإن سياقه صريح فيه لمن عنده أدنى بصيرة **(كفعل الباطنية والإسماعيلية)** هم فرقة واحدة سموا تارة باطنية لزعمهم أن للنصوص ظاهرًا هو تكليف ومشقة وباطن بخلافه فهو رحمة والأول قشر لأنام. والثانى لب لخواص الأنام وفسروا به قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد:١٣]، وسموا إسماعيلية لانتسابهم لإسماعيل بن جعفر بن محمد الباقر، وقالوا هو الإمام المعصوم المنصوص على إمامته بعد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولهم خرافات ومجازفات قصدهم بها إبطال الشريعة لإلحادهم لا حاجة لنا بها، فإن بطلانها غير محتاج لدليل، ومنهم القرامطة كما مر.

(وزعم أنه)، أى القرآن **(ليس بحجة)**، أى لا يحتج به لما فيه من الإحكام؛ لأن ظاهره

غير مراد منه فلا حجة فيه (**للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو**) زعم أنه (**ليس فيه حجة**) لإثبات حكم أو نفيه (**ولا**) هو أيضًا (**معجزة**) دالة على نبوته، صلى الله تعالى عليه وسلم،؛ لأنه ينكر إعجاز القرآن ويزعم أن البشر لهم قدرة على مثله، وإليه ذهب بعض غلاة الرافضة كالمرادرية وهو مكابرة تكفل الحس بإبطالها.

وقال ابن حجر بعد كلام المصنف، رحمه الله تعالى: يحتمل أن يريد به ما يشمل ما ليس بمعجز بذاته، فمن قال ليس بمعجز بذاته وإنما هو لكون الله صرف القوى عن معارضته كفر، والتصريح بكفره مشى عليه الحنابلة، وكلام المصنف،رحمه الله تعالى، هذا الذى أقره عليه النووى قد يؤيده، والذى يظهر لى عدم كفره؛ لأن هذا لا يترتب عليه طعن فى الدين ولا تكذيب لضرورى من ضرورياته بخلاف منكر الإعجاز من أصله؛ ثم رأيت بعض المتكلمين علىالشفاء حكى ذلك قولا فى معنى الإعجاز، وحينئذ فتكفير قائل ذلك بعيد وجزم ابن عقيل بأن من امتهن القرآن، أو غمصه، أو طلب أن يناقضه، أو ادعى أنه مختلف فيه، أو مختلق، أو مقدور على مثله، ولكن الله منع قدرتهم كفر، بل هو معجز بنفسه والعجز شمل الخلق انتهى.

(**كقول هشام الفوطى**) قال فى التبصرة: هشام ابن عمرو الفوطى من القدرية، وزاد فى مذهبهم أمورًا باطلة، وقال: لجهله أنه لا يسمى الله الوكيل، ولم يعرف أنه بمعنى الكافى والحفيظ وأنكر المعجزات، وهو بضم الفاء، وقيل: الباء الموحدة وسكون الواو وطاء مهملة قبل ياء النسبة (**ومعمر**) بميمين مفتوحتين بينهما عين مهملة ساكنة وهو من المعتزلة (**الصيمرى**) بفتح الصاد المهملة ومثناة تحتية ساكنة وفتح الميم وراء مهملة منسوب لصيمر موضع أو بلدة، وفى نسخة: الضمرى بفتح الضاد المعجمة منسوب لضمرة قبيلة، كما قال التلمسانى.

وفى التبصرة معمر بن عباد تنسب له المعمرية، ونسبت له خرافات يملها السمع (**أنه**)، أى القرآن (**لا يدل على الله**) وإنما كفر بذلك؛ لأنه أنكر الكلام وإثباته لله، وقال بعدم إعجاز القرآن (**ولاحجة فيه لرسوله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، لإنكاره إعجاز القرآن (**ولايدل على ثواب ولا عقاب**) ولا حلال ولا حرام؛ لأنه يقول: إنه ليس لله كلام ولا أمر ولا نهى كما فى التبصرة (**ولا حكم**) فيه لله (**ولا محالة فى كفرهما**)، أى لابد من تكفيرهما (**بذلك القول**) الذى قالاه كما سمعته آنفًا (**وكذلك نكفرهما بإنكارهما أن يكون فى سائر معجزات النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، حجة له**)، أى معجزة تصدقه فى دعواه.

(**أو**) بإنكارهما أن يكون (**فى خلق السموات والأرض دليل على الله**) لدلالة

مصنوعاته سبحانه وتعالى عليه من غير شك، وفى كل شىء له آية، تدل على أنه واحد؛ لأنه كما فى التبصرة، قال: إن الله لم يخلق شيئًا من الأعراض، وأن الأجسام تفعلها بطبائعها إلى غير ذلك مما ينبغى تطهير الألسنة عن مثله (**لمخالفتهم الإجماع والنقل المتواتر عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، باحتجاجه**) متعلق بالمتواتر والضمير له، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**بهذا كله**)، أى القرآن والمعجزات وخلق السموات والأرض دليل على وجود صانعها على رسالته، فإنها حجج قاطعة (**وتصريح القرآن به**)، أى بكون ما ذكر حجة ومعجزة كقوله تعالى: ﴿**فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ**﴾ [البقرة:٢٣]، وكقوله تعالى: ﴿**ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ**﴾ [القمر:١]، ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ**﴾ [لقمان:٢٥]، ﴿**إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ**﴾ [الأنعام:١٩]. ونحوه.

(**وكذلك**) نحكم بكفر (**من أنكر شيئًا مما نص القرآن فيه**) كالقيامة، وفى نسخة: مما نص فى القرآن (**بعد علمه أنه من القرآن**) حتى لا يعذر بجهله (**الذى فى أيدى الناس ومصاحف المسلمين**) يقرأ فى كل زمان (**ولم يكن جاهلا به**) تأكيد لما قبله (**ولاقريب عهد بالإسلام**) حتى يجهل ذلك (**واحتج لإنكاره**) شيئًا من القرآن (**إما**) أن يحتج (**بأنه لم يصح النقل**)، أى نقل القرآن إلينا (**عنده**)، أى فى اعتقاده (**ولابلغه**)، أى وصل إليه (**العلم به أو**) إما (**لتجويزه الوهم**)، أى الخطأ (**على ناقليه فنكفر**) بالتخفيف وبناء الفاعل أو بالتشديد وبناء المجهول، أى نحكم بكفر هذا القائل لما ذكر (**بالطريقين المتقدمين**)، أى مخالفة الإجماع والنقل الصحيح عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**لأنه مكذب للقرآن**) بإنكاره أو إنكار ما نص عليه فيه (**مكذب للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**) بإنكار معجزاته التى جاء بها (**لكنه تستر بدعواه**) التى لا يعذر بها.

(**وكذلك نكفر من أنكر الجنة والنار**) نفسهما أو محلهما وهو جهنم مثلاً، أى أنكر إيجادهما يوم القيامة، وأما من أنكر وجودهما الآن كبعض المعتزلة فإنه خطأ أيضًا، لكنه قيل: إنه لا يكفر به لإقراره بهما وإن كانت النصوص دالة على بطلان ما قال، كما بين فى كتب الأصول (**أو البعث**) وكذلك نكفر من أنكر البعث، أى إحياء الله الموتى وبعثهم، أى إخراجهم من قبورهم.

(**أو**) أنكر (**الحساب**)، أى كون الله يحاسب عباده ويسألهم عن أعمالهم يوم القيامة لإقامة الحجة عليهم وإظهار حالهم وإن كان الله عالمًا بذلك، (**أو**) أنكر (**القيامة**)، أى قيامهم فى الحشر بين يديه سبحانه وتعالى بعد إحيائهم وإخراجهم من القبور (**فهو كافر بإجماع للنص عليه**) فى القرآن كقوله تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ**

رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥١]، ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم:٨٥،٨٦]، ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧] ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١]. وغيره من النصوص وحديث الشفاعة العظمى شاهد له.

(**وإجماع الأمة**)، أى أمة الإجابة المسلمين (**على صحة نقله**)، أى النص به (**متواترًا**) بحيث لا يمكن النزاع فيه (**كذلك**) نكفر (**من اعترف بذلك**)، أى الجنة والنار والبعث والحساب والقيامة (**ولكنه قال: إن المراد بالجنة والنار والحشر**)، أى جمع الناس فى الموقف (**والنشر**) أى خروجهم من القبور منتشرين (**و**) المراد (**بالثواب والعقاب**) المذكور فى القرآن والنصوص (**معنى غير ظاهره**) المتبادر منها (**وإنها**)، أى الأمور المذكورة كلها (**لذات**) وآلام ففيه اكتفاء (**روحانية**) بضم الراء وفتحها نسبة إلى الروح وهو ما به الحياة ويزاد الألف والنون فيه سماعا على خلاف القياس، وتطلق الروحانيون على الملائكة، والمراد هنا أمر يتعلق بالروح من اللذة والألم، والروحانى يكون بمعنى الطيب.

(**ومعانى**) تدرك بالعقل دون الحس (**باطنة**) غير محسوسة (**كقول النصارى والفلاسفة والباطنية وبعض المتصوفة**) الزاهدين إلى أن الحشر غير جسمانى بل روحانى (**وزعمهم**) الفاسد فى تأويلهم النصوص فقالوا (**إن معنى القيامة الموت**) الذى هو ضد الحياة (**أو فناء محض**)، أى عدم محض خالص (**وانتقاض**) بضاد معجمة، أى تغيير (**هيئة الأفلاك**) التى هى عليها الآن (**وتحليل العالم**) بمثناة فوقية وحاء مهملة، أى حل تركيب وإبانة بعضه من بعض (**كقول بعض الفلاسفة**) المنكرين للقيامة والبعث، وما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، عن بعض المتصوفة مراده بهم الزنادقة الملحدون المتسمون بسمتهم.

وأما مشايخ الصوفية فحاشاهم من مثله، ولا ينبغى تسميتهم متصوفة، بل هم صوفية حقيقة (**وكذلك**) كما كفرنا هؤلاء (**نقطع بتكفير غلاة الرافضة**) جمع غال وهو المتجاوز حده فى الغلو والمبالغة فى أمره (**فى قولهم: إن الأئمة**) هم عندهم على وأولاده، رضى الله تعالى عنهم، الذين يقولون بأن الإمامة حقهم (**أفضل من الأنبياء**) كما قدمناه فى هذا الباب، وهؤلاء الطائفة تسمى نصيرية يبالغون فى أئمتهم بزعمهم الباطل حتى ادعى بعضهم أنهم آلهة، وهؤلاء أشد كفرًا من النصارى.

(**فأما من أنكر**) من هؤلاء (**ما عرف بالتواتر من الأخبار**) جمع خبر المنقولة عن الصحابة (**والسير**) بزنة عنب جمع سيرة، وهو ما يتعلق بغزواتهم وأسفارهم (**و**) إنكار (**البلاد البعيدة كخراسان**) والعراق (**التى لا يرجع**) إنكارها (**إلى إبطال شريعة**) مما شرعه

الله لعباده (**ولايفضى**)، أى يوصل (**إلى إنكار قاعدة من**) قواعد (**الدين**) لعدم تعلقه به (**كإنكار غزوة تبوك أو**) غزوة (**مؤتة**).

أما تبوك فاسم عين ماء وسمى به موضعها، وهو من أرض الشام بقرب مدين، وهى مأخوذة من باك الحمار الإناث إذا نزى عليها، أو من باكت الناقة إذا سمنت، وسميت بها؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، غزاها فى رجب سنة تسع، فصالح أهلها على الجزية من غير قتال، فأشبهت الناقة السمينة فى خيرها، وقيل: لأن رجلين سبقا لها وماؤها يبض لقلته فجعلا يدخلان فيها سهمًا ليكثر ماؤها؛ فقال لهما، صلى الله تعالى عليه وسلم: «مازلتما تبوكانها منذ اليوم»(١).

ومؤتة: بضم الميم وهمزة ساكنة وتبدل واوًا أو تاء مثناة فوقية، قرية من أرض البلقاء بطرف الشام قريبة من الكرك على مرحلتين من القدس، كان بها تلك الغزوة؛ لأنهم قتلوا رسولا أرسله رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فجهز إليهم جيشا فى سنة ثمان، وقيل: سبع فقتل بها جماعة من المسلمين، ثم فتحها خالد بن الوليد وقصتها مفصلة فى السير، وتقدم فى ذلك ما فيه الكفاية، وإنما لم يكفر لمنكرهما؛ لأنه لا يترتب على إنكاره أمر دينى.

(**أو**) كما لا نكفر من أنكر (**وجود أبى بكر**) الصديق، رضى الله تعالى عنه، (**أو**) وجود (**عمر**) بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، (**أو**) أنكر (**قتل عثمان**) رضى الله تعالى عنه، فى قصة الدار المتواترة.

(**أو**) أنكر (**خلافة على**) بن أبى طالب، كرم الله وجهه، ونحوه (**مما علم**) وجوده (**بالنقل ضرورة**)؛ لأن التواتر يحصل به علم ضرورى يقينى لا نشك فيه (**وليس فى إنكاره**) لذلك (**حجة شرعية**)، أى لا أمر شرعى متعلق بالدين (**فلا سبيل إلى تكفيره**)، أى المنكر لما ذكر (**بجحد ذلك**) ونفى وجوده (**وإنكاره وقوع العلم له**)، أى أن يكون عنده علم به (**إذ ليس فى ذلك**) الإنكار والجحد أمر يقبح (**أكثر من المباهتة**) هى مفاعلة من البهتان وهو الافتراء والكذب، ومثله لا يعد كفرًا، وهى المفاجأة بالتكذيب حتى يبهته ويحيره، قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨]، أى سكت لحيرته.

وهذا كله ظاهر، فما قيل من أنه يلزمه تكذيب نقلة الحديث فى الغزوات لا وجه له؛ لأنه لا يعد كفرًا، أو كذا ما قيل من أن إنكار وجود أبى بكر فيه تكذيب للقرآن فى قوله تعالى: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ [التوبة:٤٠] الآية؛ لأن إنكار ذاته

(١) انظر: فتح البارى (٨/١١١).

ليس بكفر من حيث هو، فإن عرفه وأنكر صحبته التى فى القرآن فهو كفر، وأما إنكار صحبة غيره فصريح كلامهم أنه لا يكون كفرًا، لكن اختار بعضهم أن إنكار صحبة غيره المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة كفر، ويجاب بأن شرط إنكار المجمع عليه الضرورى أن يرجع إلى تكذيب أمر يتعلق بالشرع، بخلاف ما لا يتعلق بذلك، وإنكار صحبة غير أبى بكر لا يتعلق به ذلك بخلاف إنكار صحبته؛ لأن فيها تكذيب القرآن فتدبر.

(**كإنكار هشام**) الفوطى الذى تقدم أنه من غلاة الرافضة (**وعباد**) الصيمرى الذى تقدم أيضًا (**وقعة الجمل**) التى كانت بالبصرة بين على ومعاوية، رضى الله تعالى عنهما، فخرجت عائشة أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، على جمل لها لتصلح بين الفئتين فكان ما كان من ذلك الحرب العظيم، ولذا سميت وقعة الجمل، ونسبة إنكار هذه الوقعة لابن حزم، كما قاله مغلطاى غلط، وكانت الوقعة سنة ست وثلاثين ووقعة صفين سنة تسع وثلاثين، وكانت عائشة على جمل يسمى عسكر، وفيها قتل جماعة من الصحابة والقصة مشهورة فى التواريخ.

(و) إنكار (**محاربة علىٍّ**) رضى الله تعالى عنه، (**من خالفه**) من الخوارج الذين كانوا بايعوه أولاً، ثم لما جرى أمر التحكيم أنكروه وقالوا لا حكم إلا لله، وهى كلمة حق أريد بها باطل، وتفرقوا فرقا ولهم اعتقادات مخالفة لأهل السنة، وكانت بينهم حروب عظيمة قد اشتهرت حتى أفردت بالتآليف، وفرقهم واعتقاداتهم مفصلة فى كتاب التبصرة لا يهمنا ذكره هنا (**فأما إن ضعف**) المنكر لما ذكر مع تواتره، وضعف مشدد مبنى للفاعل أو للمفعول (**ذلك**) المتواتر من أجل الأخبار التى لا تعود لأمر شرعى (**من أجل تهمة الناقلين**)، أى لأجل إتهامهم بالكذب (**ووهم**) ماض مشدد معطوف على ضعف أومصدر بزنة ضرب معطوف على تهمته (**المسلمين أجمع**)، أى قال: إن جميع المسلمين مخطئون فى نقلهم.

(**فنكفره بذلك**) الذى أخطأه من خطأ جميع المسلمين واتفاقهم على الكذب (**لسريانه**)، أى إفضائه وتعديه (**إلى إبطال الشريعة**) المحمدية؛ لأنها إنما تعلم بنقل المسلمين فإذا جوز اتفاقهم على الكذب لم يوثق بنقلهم فى شىء أصلا، وتكفيره لإنكاره إجماع المسلمين وهو كفر (**فأما من أنكر الإجماع**)، أى إجماع المسلمين (**المجرد**) وفسر المجرد بقوله (**الذى ليس طريقه**)، أى ما يستند إليه (**النقل المتواتر عن الشارع**) المراد بالمتواتر مامن شأنه التواتر، وقيل: المراد بالمجرد ما تجرد عن القرائن التى تجعله قطعيا.

(**فأكثر المتكلمين**) المراد هنا العلماء ولذا بينهم بقوله (**من الفقهاء والنظار**) جمع ناظر

(في هذا الباب)، أي في هذه المسائل المتعلقة بالتكفير **(قالوا)**، أي اعتقدوا أو جزموا **(بتكفير كل من خالف الإجماع الصحيح)**، أي المستجمع لشروطه المذكورة في كتب الأصول كما بينه بقوله **(الجامع لشروط الإجماع المتفق عليه عموما)** في كل إجماع.

واعلم أن حقيقة الإجماع العزم، قال تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ [يونس:٧١]، ثم شاع في الاتفاق وهو من الجمع، وهو حقيقة في الاجتماع مجاز مشهور في المعاني، ومعناه اتفاق مجتهدي هذه الأمة.

وقال البغوي: هو نوعان عام: كإجماع الأمة على الصلاة وعدد ركعاتها مما يعرفه العامة والخاصة فإنكاره كفر، إلا أن يكون منكره حديث عهد بإسلام. وخاص: وهو ما يعرفه الخاصة كبطلان نكاح المتعة ولا يكفر جاحده وإنما يحكم بخطأه وكذا كل إجماع لا يعرفه إلا العلماء، كحرمة نكاح المرأة على عمتها، والإجماع واقع ويمكن الإطلاع عليه على الصحيح، وحجة واختلفوا في حجيته هل هي قطعية أو ظنية عقلية أو سمعية أو مركبة منهما، ولم يخالف في حجيته إلا من لا يعتد به كالنظام وبعض الشيعة كما يأتي.

(وحجتهم) التي استدلوا بها **(قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء:١١٥])**، أي يخالفه ويعاديه فيكون في شق والرسول في شق آخر (**﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾** [النساء:١١٥] **الآية)**، وتمامها **﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾** [النساء:١١٥]، وسبيل المؤمنين طريقهم التي اتفقوا عليها فوعيده عليه يقتضي أنه دخل طريقًا غير طريق المسلمين وهو الكفر **(و)** حجتهم من السنة **(قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** كما رواه أبو داود في سننه وصححه:

(من فارق الجماعة) أي المسلمين وأهل الحق، وروى: «من فارق الجماعة بترك السنة وأداء الحقوق واتباع البدعة والبغاة والمحاربين» **(قيد شبر)** بكسر القاف وسكون المثناة التحتية ودال مهملة، والقيد والقاد بمعنى القدر، وشبر بكسر الشين المعجمة وسكون الموحدة وراء مهملة ما بين طرف الخنصر والإبهام مفرجا إذا قيس به، وهو كناية عن القلة **(فقد خلع ربقة)** بكسر الراء المهملة وسكون الموحدة وقاف، وهي حبل يقاد به وقد تقدم، أي نزع عقد **(الإسلام من عنقه)** فهو كناية عن مفارقة الإسلام وتركه بالكلية تشبيهًا له بحيوان يقاد بحبل فترك الحبل وهرب من قائده، وفيه إشارة إلى أنه كالأنعام بل هم أضل.

والربقة فى الأصل عروة تجعل فى يد البهيمة أو عنقها تمسك بها، فشبه الإسلام بمنع المجاوزة لما لا ينبغى بها، وإضافتها إليه على طريق التشبيه المؤكد، أى خلع الإسلام المانع له كالعروة المانعة لها من الضياع، أو شبه ما يلزمه من أحكام حدوده وأوامره ونواهيه المانعة له بالربقة المانعة لها على طريق الاستعارة التحقيقية، وأثبت لها الخلع ترشيحًا **(وحكوا)**، أى الفقهاء والنظار فى ذلك **(الإجماع على تكفير من خالف الإجماع)** لما فى الآية المذكورة من الوعيد لمن لم يتبع سبيل المؤمنين، وهو الإجماع ومثله يكون للكفرة.

وحكاية المصنف، رحمه الله تعالى، فى تكفير من جحد الإجماع مناف لما ذكره بعده من التوقف فيه بقوله: **(وذهب آخرون)** من أهل الأصول **(إلى الوقوف)**، أى التوقف فيه من غير قطع بتكفير وعدمه، وقد وقع فى نسخة التوقف **(عن القطع)**، أى الجزم **(بتكفير من خالف الإجماع الذى يختص بنقله العلماء)** فلم يقطعوا بتكفير ولا عدمه، وقيده بهذا ليخرج الإجماع فيما يتعلق بالصنائع، لكنه يدخل فيه إجماع أهل العربية وفيه كلام فى شرح المغنى، ظاهره أنه معتد به ومثله فى خصائص ابن جنى، ولنا فيه بحث ذكرناه فى السوانح.

(وذهب) قوم **(آخرون)** من العلماء **(إلى التوقف)**، أى عدم الجزم **(فى تكفير من خالف الإجماع الكائن عن نظر)** كالقياس الحاصل باجتهاد لابد له من مستند **(كتكفير النظام)** بفتح النون وتشديد الظاء المعجمة، وهو إبراهيم بن شيار أو ابن شيبان بمعجمة وموحدة بعد الياء المثناة التحتية وألف ونون، أبو إسحاق مولى بنى الحارث بن قيس بن ثعلبة أحد فرسان المتكلمين من المعتزلة، وله إحاطة بالفنون العقلية، وله شعر دقيق كان فى دولة المعتصم **(بإنكاره الإجماع)** كما أنكر القياس وحجتهما **(لأنه بقوله هذا مخالف إجماع السلف على احتجاجهم به)**، أى بالإجماع **(خارق للإجماع)**، أى مخالف للإجماع منهم ومن غيرهم.

والخرق كما قال الراغب القطع على سبيل الفساد من غير تدبر، وهو ضد الخلق الذى هو فعل بتقدير ورفق، وباعتبار القطع، قيل: خرق الثوب وخرق المفازة، ومنه الخرق والمخرقة كما فصله فى مفرداته، فعبر فى الإجماع بالخرق؛ لأنه قطع له من غير تدبر وحكم بخلافه، قال تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

(تنبيه) قال شيخ والدى، رحمه الله تعالى، الشيخ أحمد بن حجر الهيتمى فى الفتاوى والإعلام: قال ابن دقيق العيد: مسائل الإجماع إن صحبها التواتر كالصلاة كفر منكرها لمخالفة المتواتر، لا لمخالفة الإجماع وإن لم يصحبها التواتر، فلا يكفر نافيها، وفرق الزركشى بين تكفير منكر المجمع عليه وعدم تكفير منكر أصل الإجماع، بأن منكر

الحكم موافق على كون الإجماع حجة، ثم أنكر أثره المترتب عليه فكفرناه، بخلاف منكر الأصل فإنه لم يوافق على شيء ألبتة، وفى فرقه نظر لاقتضائه أن منكر الحكم لابد أن يسبق منه اعتراف بحجية الاجتماع وهو مخالف لإطلاقهم، فالذى يتجه أن ملحظ التكفير إنكار الضرورى سواء سبق اعترافه بحجية الإجماع أم لا.

فإن قلت: هل بقى فرق بين إنكار أصل الإجماع حيث لم يكن كفرًا، وإنكار الحكم المجمع عليه الضرورى حيث كان كفرًا؟.

قلت: نعم، وتقدم قبله مقدمة، وهى أن النظام وغيره إنما أنكروا كون الإجماع حجة زعمًا منهم أنه لا يستحيل الخطأ على أهل الإجماع، وأنه لا دليل على عصمتهم قطعا، إذ ما استدل به على ذلك يحتمل التأويل، فالإجماع الذى أنكروه هو تطابق العلماء مع تفرقتهم وكثرتهم على رأى نظرى، وهذا ليس كإنكار الضرورى الذى هو تطابقهم على الأخبار عن محسوس على نقل التواتر، وذلك قطعى لحصول العلم الضرورى به، والقطع فيه يسرى إلى إبطال الشريعة من أصلها.

فتطابق العلماء على رأى واحد نظرى لا يوجب العلم القطعى إلا من جهة الشرع، فلم يكن إنكار كونه من أصله حجة، ولا إنكار إفادته القطع مع الاعتراف بحجته مكفرًا على الأصح بخلاف إنكار الضرورى فإنه يجر إلى إبطال الشريعة، بل الشرائع كلها، فمن ثمة كان كفرًا كما تقرر، فاتضح الفرق بين إنكار أصل الإجماع أو كونه حجة قطعية، وبين إنكار الضرورية، وبما قررته يعلم رد تنظير الغزالى فى كفر جاحد المجمع عليه، بأن النظام أنكر كون الإجماع حجة فيصير مختلفا فيه، ووجه رده أن النظام لا ينكر الحكم كما مر.

وعلى التنزل فهو بهذا إنكار مبتدع ضال فلا نظر لإنكاره ولا لخلافه.

فإن قلت: نافى حكم الإجماع أخف حالا من المجمع عليه؛ لأن الأول ليس معه اعتقاد مخالف بخلاف الثانى، فإن الجحد يقتضى سبق الاعتراف والاعتقاد.

قلت: إذا تأملت ما سبق من التقرير علمت أن الملحظ فى التكفير إنما هو إنكار الضرورى المستلزم لإنكار الإجماع، بخلاف إنكار الإجماع من أصله، أو حجبته، أو المجمع عليه الغير الضرورى، فإنه لا يكون كفرًا خلافا لما يوهمه كلام بعض المتأخرين، فإذا تدبرت هذا الذى قررته واستحضرت قواعدهم، ظهر لك أنه أحق بالاعتماد والتصويب مما ذكره بعض المتأخرين هنا، انتهى ملخصا.

(قال القاضى أبو بكر) الباقلانى **(القول)** المعتمد **(عندى أن الكفر بالله تعالى)** حقيقة

معناه شرعا (**الجهل بوجوده**) عز وجل، (**وأن الإيمان**) الذى هو ضد الكفر (**بالله تعالى**) معناه (**العلم بوجوده وأنه**)، أى الشأن (**لايكفر أحد بقول**) يقوله (**ولا رأى**) يعتقده (**إلا أن يكون**) ذلك المذكور من قول أو رأى (**هو الجهل بالله تعالى**) فنكفره بعدم العلم به وإنكار وجوده، وهذا القول نقله عنه فى سراج العقول وتقدم أيضًا، وذلك إما حقيقة الجهل أو ما يستلزمه.

كما أشار إليه بقوله: (**فإن عصى**) الله ورسوله (**بقول أو فعل نص الله تعالى ورسوله**)، أى ذكره صريحا فى كتاب أو سنة (**أو أجمع المسلمون**) على (**أنه لا يوجد**) بالجيم، أى لا يصدر ولا يقع (**إلا من كافر**) كإنكار الشرع أو رسالة محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**أو يقوم دليل على ذلك**)، أى على أنه لا يوجد إلا من كافر (**فقد كفر وليس**) كفره والحكم به (**لأجل قوله أو فعله**) الذى لا يصدر إلا من كافر.

(**لكن**) يكفر (**لما**) علم مما (**يقارنه**) باستلزامه له (**من الكفر**) بالجهل بالله ثم فصله بقوة (**فالكفر بالله تعالى لا يكون**)، أى يوجد ويتحقق (**إلا بثلاثة أمور أحدها**)، أى الأمور الثلاثة (**الجهل بالله تعالى**) ووجوده (**الثانى أن يأتى**) ويفعل (**فعلا**) يصدر عنه (**أو يقول قولا يخبر الله و**) يخبر (**رسوله**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى أخبر وعبر بالمضارع لحكاية الحال الماضية.

(**أو يجمع المسلمون**) على (**أن ذلك لا يكون إلا من كافر**) وقد تنازع فى قوله إن ذلك يخبر ويجمع (**كالسجود للصنم والمشى إلى الكنائس**)، أى معابد النصارى واليهود كما تقدم؛ فالمشى الذهاب معهم على هيئاتهم (**بالتزام الزنار**) وهو ما يشد بالوسط على هيئة مخصوصة بالكفرة (**مع أصحابها**)، أى أصحاب الكنائس والزنانير (**فى أعيادهم**) المعروفة بينهم وهما حالان متداخلان (**أو يكون ذلك القول**) الذى قاله (**أو الفعل**) الذى فعله (**لايمكن معه**)، أى مع ذلك القول أو الفعل.

(**العلم بالله تعالى قال**)، أى أبو بكر الباقلانى (**فهذان الضربان**)، أى الجهل بالله وإتيان فعل أو قول لا يكون إلا من كافر (**وإن لم يكونا جهلا بالله تعالى**)، أى إن لم يقتض قوله وفعله المذكوران جهلاً بالله تعالى (**فهما علم**) بفتحتين، أى علامة وأمارة (**على أن فاعلهما كافر منسلخ**) خارج (**من الإيمان**) بالله تعالى؛ لأن الإيمان عند الأشاعرة تصديق النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما علم مجيئه به ضرورة، ومما جاءه به الإقرار بالله ورسله وكتبه، فالكفر حينئذ جحد ذلك.

وقد جعل الشرع بعض الأمور علامة على ذلك، وأما سجود الملائكة لآدم، عليه

السلام، وسجود إخوة يوسف له فليس على طريق العبادة؛ لأنه كان تحية جائزة عندهم ثم نسخ ذلك وأبدل بالسلام فإنه تحية الإسلام.

وقال ابن الهمام: الإيمان نقل شرعا من معناه اللغوى وهو التصديق إلى مجموع أمور اعتبرت فى وضعه شرعا، والتصديق جزء منها، وهو عند الباقلانى ثلاثة، ثم فصلها كما فصل المصنف، رحمه الله تعالى، ثم قال: **(فأما من نفى صفة من صفات الله تعالى الذاتية)** القديمة الثبوتية، بأن قال إنه لا يتصف بها **(أو جحدها)**، أى أنكرها مع العلم بها والنفى المراد به أن يعتقد عدم ثبوتها له، فهو مغاير للجحود، ولذا عطفه بأو **(مستبصرًا)**، أى على بصيرة **(فى ذلك)** دون سهوًا وسبق لسان، فهو قيد للنفى والجحود لا للجحود فقط.

وتفسيره حينئذ بمتيقنًا غير متوجه، وكذا تفسيره الجحد بمطلق الإنكار لا وجه له مع عطفه بأو كما قيل **(كقوله ليس بعالم ولا قادر ولا مريد ولا متكلم وشبه ذلك)** نحو ليس سميعًا ولا بصيرًا ونحوه **(من صفات الكمال الواجبة له)** عز وجل.

(فقد نص أئمتنا)، أى صرح به علماء المالكية **(على الإجماع)**، أى اتفاق المالكية **(على كفر من نفى عنه تعالى الوصف بها وأعراه)**، أى جعل ذاته عارية عنه غير متصفة به **(عنها)**، أى عن الصفات الذاتية، وهذا مذهب بعض الفلاسفة، ولا يدخل فى هذا المعتزلة الذين قالوا لا صفات له زائدة على ذاته، وإنما هو عين ذاته، ولا يدخل فيه أيضًا بعض الصفات التى فيها اختلاف بين الأشاعرة والماتريدية.

(وعلى هذا) القول المذكور **(حمل قول سحنون من قال: ليس لله تعالى كلام فهو كافر)** لإنكاره صفة ثابتة بالنص كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، ونحوه.

(وهو)، أى سحنون **(لا يكفر المتأولين)**، أى الذين يتأولون النصوص ومن جملتهم المعتزلة النافون للكلام، فإنهم يقولون معنى كلم الله موسى أنه خلق كلامًا فى الشجرة أسمعه موسى؛ لأن الكلام أصوات وحروف حادثة لا تقوم بذاته، فخالف كلامه هنا قاعدته **(كما قدمناه)** فى عدم تكفيره لمن يأول **(فأما من جهل صفة من هذه الصفات)** الذاتية كالعلم والقدرة ولم ينفها مستبصرًا، أى مستندًا لدليل ولا جحدها عنادًا **(فاختلف العلماء هاهنا)**، أى فى تكفيره وعدمه لعذره بجهله **(فكفره بعضهم)** ولم يجعل الجهل عذرًا له لوجوب النظر عليه.

(وحكى ذلك)، أى تكفيره **(عن أبى جعفر)** محمد بن جرير **(الطبرى)** العلامة المفسر كما تقدم فى ترجمته **(وغيره)** من العلماء **(وقال به)**، أى ذهب إلى مثل رأيه فى التكفير

(أبو الحسن الأشعرى) إمام أهل السنة، وقوله **(مرة)** إشارة إلى أنه أحد قولين له فى هذه المسألة **(وذهبت طائفة)** من أهل السنة **(إلى أن هذا)**، أى جهله بصفه من صفاته تعالى الذاتية **(لايخرجه من اسم الإيمان)** يعنى أنه مؤمن غير كافر، فيطلق عليه اسم مأخوذ من الإيمان أو اسم مقحم هنا كقوله:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما

(وإليه)، أى إلى هذا القول بعدم تكفيره **(رجع الأشعرى)** عن قوله الأول لترجحه عنده وقيام الدليل عليه **(قال)** الأشعرى إنما لم نكفره **(لأنه)**، أى النافى لصفة جهلها **(لم يعتقد ذلك)**، أى انتفاء تلك الصفة الذاتية **(اعتقادًا يقطع بصوابه)** لقيام دليل عنده كالفلاسفة وإنما قاله لجهله فهو معذور.

(ويراه دينا وشرعا)، أى يعتقده برأيه كذلك، وإنما قاله توهمًا وجهلاً **(وإنما يكفر من اعتقد أن مقاله)** وفى نسخة ما قاله، أى قوله **(حق)** صواب موافق للبرهان ومطابق للواقع **(واحتج هؤلاء)** الذاهبون لعدم تكفيره **(بحديث)** المرأة والجارية **(السوداء)** الذى رواه أبو داود فى سننه، وهو: أن رجلاً ظاهر من زوجته ولزمه عتق رقبة، فأتى بجارية نوبية، وقال: يا رسول الله أعتق هذه؛ فقال: لا تجزيك إلا أن تكون مؤمنة؛ فقال: سلها يا رسول الله؛ فقال لها: أين الله؟ فأشارت إلى السماء، وقال: من أنا؛ فقالت: رسول الله؛ فقال له: أعتقها فإنها مؤمنة. وكون هذا العتق كفارة ظهار قاله التلمسانى، والذى فى سنن أبى داود أن معاوية بن الحكم السلمى، قال: يا رسول الله لى جارية صككتها، فعظم ذلك على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقلت له: أفلا أعتقها، قال: ائتنى بها فجئت بها؛ فقال لها: أين الله[1] إلخ، فعتقها إنما هو كفارة لضربها.

وأما كون الكفارة لا تجزى فيها إلا رقبة مؤمنة فمختلف فيه، فعند الشافعى ومالك والأوزاعى اشتراط الإيمان فيها، وعند أبى حنيفة أنه تجزيه غير المؤمنة إلا فى كفارة القتل قيل: وفيه إشكال لقوله: أين الله وإقرار الرسول لقولها فى السماء وإشارتها وليس كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤]، ولم يجب عنه، وقد أجاب عنه ابن فورك فى كتاب كشف المشكل؛ فقال: أين موضوعة للسؤال عن المكان، وتوسعوا فيها فقالوا أين فلان ابن فلان لبعد الرتبة المعنوية، فقوله لها أين الله استعلام عن منزلته فى قلبها، فأشارت إلى السماء، أى هو رفيع الشأن عظيم المقدار، كما يقال هو فى السماء لعلى الرتبة وكانت خرساء فلذا اكتفى بإشارتها، ومن أصحابنا من قال: إن

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧/٣٣)، وأبو داود (٣٢٨٢)، وأحمد (٤٤٧/٥).

قول القائل الله فى السماء يريد أنه فوق السماء من طريق الصفة لا من طريق الجهة على حد قوله ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، ينكر عليه ذلك، وأما قوله: إنها مؤمنة فيحتمل إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، علمه بوحى، وجعل إشارتها علامة إيمانها، أو سماها مؤمنة نظرًا لظاهر حالها؛ لأنه يكفى فى المطلوب.

وقال ابن اللبان فى كتاب المتشابه: كلاثته تعالى بأسمائه وصفاته محيطة بدواوين السموات والأرض، وفى تصرفها وسائط سفلية وعلوية، هى مظاهر تجلياته، فتقرير الجارية أنه السماء ووصفها بالإيمان لم يعتبر فيه ظاهر، لفظها فإنه لا يفيد التوحيد مع القول بالجهة وعدمة، أما الثانى: فظاهر، وأما الأول: فلأنهم موافقون على عبادة الملائكة والكواكب، وليس فى اللفظ مايخرجها فيقتضى الإيمان، فالأقرب أن الجارية أشرق عليها نور التوحيد فى الآفاق السماوية لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ﴾ [فصلت:٥٣]، فقولها فى السماء، أى ظهور نور توحيده فيها؛ فقال: إنها مؤمنة دون مسلمة؛ لأن الإيمان من القلب انتهى.

وقال الشيخ الأكبر فى الفتوحات: ثبت فى لسان الشارع إطلاق الأينية على الله ولا يتعدى ما ورد منها ولا يقاس عليه، كما فى حديث السوداء فى قبول إشارتها، وقوله: إنها مؤمنة وأعتقها، والسائل بالأينيه أعلم الناس، وتأويل ذلك وقبوله منها بأنه لكون الآلهة المعبودة فى الأرض وهو تأويل جاهل، فإن من العرب من عبد الشعرى انتهى.

(وأن النبى ﷺ إنما طلب منها) أى من السوداء النوبية **(التوحيد)** فاكتفى بإشارتها الدالة على معرفة ذات الله، ولم يكلفها بشىء من الصفات، فدل على أن الجهل بالصفات لا ينافى الإيمان لعذرها بالخرس والجهل، وكونها خرساء وقع فى بعض الروايات ما يخالفه وقوله **(لاغير)** مبنى على الضم لحذف المضاف وتقديره.

وقال ابن هشام تبعا للسيرافى: غير تلزم الإضافة وتقطع عنها، وتبنى إن تقدمت عليها كلمة ليس، وقولهم لا غير لحن ورد بأنه سمع من كلام العرب فى قوله(١):

جوابا به تنجو اعتمد فَوَرَبِّنا لعن عمل أسلفت لا غير تُسْأَلُ

وقد استعمله المصنف، رحمه الله تعالى، فى مواضع عديدة وفيه كلام فى شروح الكتاب **(وحديث القائل)** الذى رواه الشيخان عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، وهذا القائل كان نباشا؛ إلا أنه لم يذكر اسمه.

---

(١) البيت من الطويل، وهو بلا نسبة فى الدرر (١١٦/٣)، وشرح الأشمونى (٣٢١/٢)، وشرح التصريح (٥٠/٢)، وهمع الهوامع (١٢٠/١).

وكان أوصى لبنيه؛ فقال: أحرقونى وانظروا يومًا شديد الريح فذرونى فيه فوالله **(لئن قدر الله على)** بتخفيف الدال من القدرة وتشديدها بمعنى ضيق علىَّ فى الحساب والعقاب على ما يأتى **(وفى رواية)** رواها ابن أبى حاتم عن الشعبى فى تفسيره **(لعلى أضل الله)** مضارع بفتح أوله وكسر ثانيه، من قولهم: ضلنى فلان فلم أقدر عليه، أى لم أجده وخفى علىَّ لذهابه عنى، وفى النهاية: لعلىِّ أضل الله، أى أفوته ويخفى عليه مكانى وقيل: معناه لعلى أغيب عن عذابه، يقال: أضللت الشىء وضللته إذا لم تدر فى، أى مكان هو، وأضللته إذا ضيعته، وضل الناس للشىء إذا غاب حفظه.

ويقال: أضللته إذا وجدته ضالا، كأحمدته إذا وجدته محمودًا، وفيه كلام لابن قرقول وهذا مؤذن بنفى القدرة عليه، وهو محل الشاهد؛ لأنه صفة من صفات الله والحديث عن حذيفة بن اليمان، قال سمعت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقول: «إن رجلاً حضره الموت، فلما يئس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فأجمعوا لى حطبا كثيرًا وأوقدوا فيه نارًا، حتى إذا كلت لحمى وخلصت إلى عظمى، فامتحشت فخذوها فاطحنوها، ثم انظروا يومًا راحا فذروها فى اليم، ففعلوا فجمعه الله، عز وجل، وقال له لم فعلت ذلك؛ فقال من خشيتك»، **(ثم قال: فغفر الله عز وجل له)** وروى من طريق آخر فيها اختلاف، وهذا إنما قاله على سبيل الجزع وشدة الخوف، وإلا فالله لا يخفى عليه شىء، قيل: وهذا يدل على أن القائل كان مسلمًا وفيه ما لا يخفى، وفى الشرح الجديد قال ابن عقيل الحنبلى: هذا إخبار عما سيقع له يوم القيامة، لا أنه خاطب روحه؛ لأنه لا يناسب قوله فى الحديث: فجمعه الله بعد ما تفرق، فإنه إنما هو فى الجسد، والرجل المذكور غلب على طبعه الأمور العادية بمقتضى طبعه، وصار شعارًا له مع أنه مؤمن بأن الله قادر على كل شىء، فظن أنه يعجز الله عنه.

وما ذكره ابن عقيل من أنه إخبار عما سيقع له يوم القيامة عدول عن الظاهر من غير مانع عنه فى الدنيا، فانظره فإنه كلام يحتاج إلى التنقيح، وأى الرجال المهذب **(قالوا)**، أى أئمة الدين **(ولو بوحث)** مجهول باحث بموحدة وحاء مهملة ومثلثة، أى فتش **(أكثر الناس)** المسلمين عما يعلمون ويعتقدون أى **(عن)** معرفتهم **(الصفات)**، أى صفات الله **(وكوشفوا عنها)**، أى طلب كشف ما فى قلوبهم بإظهاره، فإنه قبل إظهاره كالشىء المستور، فإن القلوب صناديق مقفلة **(لما وجد)** جواب لو **(من يعلمها إلا القليل)** وفى نسخة الأقل وهم الخواص وغيرهم من الجهلة المقلدين غافلون عنها.

(وقد أجاب) الفريق **(الآخر)** الذاهب إلى تكفير من نفى صفة من صفات الله، ولو جاهلاً **(عن هذا الحديث)**، أى حديث القائل لئن قدره الله علىَّ إلى آخره **(بوجوه منها**

أن قدر) بالتخفيف فى رواية **(بمعنى قدر)** بالتشديد من تقدير الله لا من القدرة **(ولايكون شكه فى القدرة على إحيائه)** ليجازيه على عمله، أى على هذا التقدير لا يشك فى قدرة الله **(بل فى نفس البعث)**، أى إحياء الموتى وحشرهم.

(الذى لا يعلم) كغيره من أمور الآخرة التى لا تعلم **(إلا بشرع)** يوحيه الله لرسله **(ولعله)**، أى البعث لم يرد فى زمن الرجل القائل لذلك؛ لأن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أخبر به عن أحوال الأمم السالفة بوحى من الله فـ**(لم يكن ورد عندهم به شرع يقطع)** به **(عليه)**، أى يقتضى علمًا يقينيًا قطعيًا **(فيكون الشك فيه)**، أى فى البعث **(حينئذ)**، أى قبل ورود الشرع لهم به **(كفرًا)**، أى يقتضى كفر الشاك فيه **(فأما مالم يرد به شرع فهو)**، أى البعث **(من مجوزات)** بضم الميم وفتح الجيم والواو المشددة، أى ما هو جائز عقلاً من غير سماع له من صاحب شريعة يجب اتباعه، بل هو مما تجوزه **(العقول)** جمع عقل، وهو القوة المدركة، وهذا بناء على ما يأتى أنه من أهل الفترة، أو هو من قوم لم تبلغهم دعوة النبى، بناء على ما عليه المحققون من أنهم غير مكلفين لقوله عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، والكلام فيه مفصل فى محله من التفاسير والأصلين.

(أو يكون قدر) مخففا **(بمعنى ضيق)** كقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق:٧]، **(ويكون ما فعله)** هذا الرجل **(بنفسه)** من توصية بنيه بإحراقه وأمرهم بتذريته فى الهواء إذا صار رمادًا **(إزراء عليها)**، أى تنقيصًا وتحقيرًا أو إهانة لها **(وغضبا)** على نفسه العاصية لله **(لعصيانها)** بكثرة الفسق والمعاصى شكا فى قدرة الله على إعادة ما تفرق من أجزائه، فلا يحكم بكفره لذلك.

(وقيل) فى الجواب أيضًا أنه **(إنما قال ما قاله)** مما أوصى به بنيه **(وهو غير عاقل لكلامه)**، أى وقد اختبل عقله فهو غير مكلف **(ولاضابط للفظه)**، أى لا يعرف ما يلفظ به؛ لأنه هذيان منه، ككلام النائم والساهى **(مما استولى)**، أى غلب **(عليه من الجزع)** من الموت على هذه الحالة **(والخشية)**، أى شدة الخوف من الله وعقابه **(التى أذهلت لبه)**، أى عقله **(فلم يؤاخذ به)**؛ لأنه غير مكلف.

(وقيل: كان هذا) الصادر عنه هذا القول **(فى زمن الفترة)**، أى انقطاع الوحى وطول الزمان الذى اندرست فيه الشرائع **(وحيث ينفع)** فى الآخرة بنجاة صاحبه من النار **(مجرد التوحيد)**، أى معرفة ذات الله دون غيرها من أمور الشرائع، فإنهم معذورون بجهلهم، وهذا يقتضى أن الجواب الذى سبق بتقدير أنهم ليسوا من أهل الفترة فيشكل حينئذ فتدبر، وهذا يقتضى أن أهل الفترة كانوا مكلفين بالتوحيد وهى مسألة أصولية.

قال الإمام الرازى فى المحصول: وجوب النظر سمعى خلافًا للمعتزلة وبعض الفقهاء من الشافعية والحنفية، لنا قوله تعالى: (﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ [الإسراء:١٥]، **الآية**)، ولأن فائدة الوجوب الثواب والعقاب و لم يقبح منه تعالى شىء من أفعاله، فلا يمكن القطع بالثواب والعقاب من جهة العقل بالوجوب، احتجوا بأنه لو لم يثبت الوجوب الذى لا يعلم صحته إلا بالنظر، فللمخاطب أن يقول لا أنظر حتى أعرف كون السمع صدقا.

وذلك حتى يقتضى إفحام الأنبياء الجواب هذا لازم أيضًا؛ لأن وجوب النظر وإن كان عندكم عقليًا لكنه غير معلوم بضرورة العقل، لما أن العلم بوجوب النظر عند المعتزلة يتوقف على العلم بوجوب معرفة الله، والنظر طريق إليها لا طريق لها سواه، وما لا يتم الواجب إلا بواجب، وكل هذه المقدمات نظرية، والوقوف على النظرى نظرى فكان العلم بالوجوب عندهم نظرى، فللمخاطب أن يقول: لا أنظر حتى أعرف وجوب النظر ثم الجواب لا يتوقف على العلم بالوجوب وإلا لزم الدور، بل يكفى الإمكان وهو حاصل فى الجملة انتهى.

والكلام عليه مفصل فى شروحه وإنما أوردناه ليعلم أن توقف بعض الشراح هنا فى كلام المصنف، رحمه الله تعالى، لا وجه له، **(وقيل)** ليست هذه الأجوبة بمرضية **(بل هذا)**، أى قوله لئن قدر الله علىَّ **(من مجاز كلام العرب)** المراد بالمجاز هنا ليس معناه الاصطلاحى، بل المراد أنه من طرقهم فى الكلام التى يتوسعون فيها، ويجوز إرادة حقيقته عند أهل المعانى، ويناسبه ظاهر قوله **(الذى صورته الشك)** هو عبارة عما يظهر من فحواه **(ومعناه التحقيق)**، أى أمر آخر محقق عنده.

(وهو)، أى هذا النوع من الكلام **(يسمى)** عند أهل المعانى **(تجاهل العارف)** وهو نوع من البديع يساق فيه المعلوم مساق المجهول لنكتة كقوله(١):

أيا شجر الخابور مالك مورقًا كأنك لم تجزع على ابن طريف

وكره بعضهم تسميته بهذا وسماه مساق المعلوم مساق غيره؛ لأنه وقع فى كلام الله عز وجل، ولا يليق أن يقال فى حقه التجاهل، والمصنف، رحمه الله تعالى، جرى على متعارفهم فيه، وتسميته به إنما هو فى كلام الناس، وإليه أشار بعضهم بقوله، وقد يسمى فإن قد سور الجزئية **(وله أمثلة فى كلامهم)** فإذا وقع فى كلام الله **(كقوله)** عز وجل:

(١) البيت من الطويل، وهو لليلى بنت طريف فى الأغانى (٨٥/١٢)، والدرر (١٦٣/٢)، والحماسة الشجرية (٣٢٨/١)، وشرح شواهد المغنى (ص١٤٨)، ولليلى أو لمحمد بن بجرة فى سمط اللآلى (ص٩١٣)، وللخارجية فى الأشباه والنظائر (٣١٠/٥)، وبلا نسبة فى لسان العرب (٢٩٩/٤)، ومغنى اللبيب (٤٧/١)، وهمع الهوامع (١٣٣/١).

(﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طـــه:٤٤]، وقولـــه: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤])

وتعريفه بأنه إن يسأل عارف عما يعلمه فيه قصور؛ لعدم صدقه على الآيتين، فالصواب أن يعرف بما قدمناه، وله فى كل مقام نكتة يدركها من ذاق حلاوة المعانى، فالنكتة فى البيت إظهار شدة الحزن بالمصاب الذى ينبغى أن يجزع منه كل شىء حتى الجماد، وفى الآية إن قلنا: إن لعل للترجى من الله لا للتعليل، ولا للترجى من موسى وهارون مع علم الله بأن فرعون لا يتذكر ولا يخشى، ولكنه أراد إلقامه حجر الملامة بعدم معذرته وعلى الوجهين الآخرين ليس مما نحن فيه، فمن مشى عليه لم يأت بشىء.

وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ إلخ، أبهم فيه الفريق المهتدى مع أنه علم من سياق الآية أن المؤمنين هم المهتدون فإن قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢]. ثم قال: ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٤]، يعلم منه أن خالق هذه المخلوقات العظيمة الرازق لمن فيهما هو الحقيق بالعبادة والوحدانية، وإن من يعبده هو المهتدى، فإبهامه إنما هو لإقامة الحجة عليهم، وهو كقول حسان، رضى الله تعالى عنه(١):

أتهجوه ولست له بكفءٍ فشركما لخيركما الفداء

فليس فى كلامه تهاون بالأدب كما توهم (**فأما من أثبت الوصف**)، أى وصف الله بصفاته الذاتية (**ونفى الصفة**) القائمة بذاته وهم المعتزلة، وبعض الفلاسفة القائلين بأن صفاته عين ذاته لئلا يلزم تعدد القدماء أو قيام الحادث بذاته.

وأهل السنة أثبتوها وقالوا: لا محذور فى ذلك؛ لأنه إنما يمتنع تعدد ذوات قدماء لا ذات وصفات كما تقدم، والكلام مفروغ منه فى علم الكلام، وأشهر من قفا نبك، والفرق بين الوصف والصفة أن الوصف معنى مصدرى قائم بالواصف، والصفة معنى قائم بالموصوف كالكسر والانكسار وهما فى الأصل بمعنى واحد، وقد يستعمل كل منهما استعمال الآخر.

(**فقال: أقول**) إن الله، عز وجل، (**عالم**) بكل شىء من الكليات والجزئيات (**ولكن لا**

---

(١) البيت من الوافر، وهو لحسان بن ثابت فى ديوانه (ص٢٠)، وخزانة الأدب (٢٣٢/٩)، وشرح الأشمونى (٣٨٨/٣)، ولسان العرب (٤٢٠/٣).

علم له) زائد على ذاته كعلم البشر، فعلمه عين ذاته لما تقدم **(ومتكلم)** بكلام نفسى أو بكلام حقيقى **(ولكن لا كلام له)** خارج عن ذاته **(وهكذا)** يقول المعتزلى ومن وافقه على هذا القول **(فى سائر الصفات)** **فيقول:** مريد بلا إرادة، وقادر بلا قدرة زائدة على ذاته فهو عنده عين ذاته **(على مذهب المعتزلة)** فى نفيهم الصفات دون الوصف بها ولذا لم يكفروا؛ لأنهم مثبتون لها فى الجملة وهذا إذا نظرنا لظاهر كلامهم.

(فمن قال) من أهل السنة **(بالمآل)**، أى بما يؤل ويرجع إليه كلام المعتزلة، والمراد لازم مذهبهم وكلامهم الذى قالوه **(لما يؤديه إليه قوله)** أنه عالم بغير علم، وقادر بغير قدرة ومتكلم بغير كلام **(ويسوقه إليه مذهبه)** من أنه يلزم من نفى الوصف بطريق برهانى قطعى عنده **(كفره)**، أى كفر القائل بهذا المقال لما يلزمه، وهذا مبنى على أن لازم المذهب مذهب وفيه خلاف فى كتب أصول الفقه **(لأنه إذا انتفى العلم)**، أى صفة العلم الزائدة على الذات **(انتفى)** بحسب الظاهر **(وصف عالم)**؛ لأن معنى عالم من قام به صفة العلم وهم ينفونها **(إذ لا يوصف بـ)** لفظ **(عالم إلا من)** ثبت **(له علم)**، أى صفة غير ذاته هى العلم للزوم نفى الوصف المسبوق بانتفاء المشتق منه، إذ لا معنى له حقيقة غير ثبوته له **(فكأنهم)**، أى المعتزلة النافين للصفة المستلزمة لنفى الوصف بعالم ونحوه.

(صرحوا عنده)، أى عند المكفر لهم **(بما أدى)**، أى أوصل للزومه له بما أدى **(إليه قولهم وهكذا عند هذا)** المكفر؛ لأن لازم المذهب عنده مذهب فيكفر **(سائر فرق أهل التأويل من المشبهة)** المثبتين لله صفات تشبه صفات عباده كما تقدم.

(والقدرية) بالمعنى الذى بيناه **(وغيرهم)** من الفرق الضالة المبتدعة **(ومن لم ير)**، أى لم يعتقد **(أخذهم)**، أى مؤاخذتهم **(بمآل قولهم)** ولازم مذهبهم، وفى نسخة: ومن لم يؤاخذهم إلخ.

(ولا إلزامهم موجب مذهبهم) الدال عليه فحوى ما ذهبوا إليه مما لا يليق برب العزة **(لم ير إكفارهم)** ولم يحكم بكفرهم لشمول معنى الإيمان لهم بحسب الظاهر و**(قال: لأنهم)**، أى أصحاب هذا المقال **(إذا وقفوا على هذا)**، أى اطلعوا على مالزم مذهبهم فوقفوا مبنى للمعلوم مخفف، أو مبنى للمجهول مشدد، أى أطلعهم من كفرهم على ما كفرهم به، وفى نسخة: إذا ووقوا بواوين **(قالوا)** مجيبين له نحن **(لانقول)** لله إنه **(ليس بعالم)** يريد به ما فهموه من السلب المعطل لله عن العلم، بل هو عالم بعلم هو عين ذاته وهكذا سائر الصفات عند أبى الهذيل العلاف **(ونحن)** معاشر المعتزلة **(وأنتم)** أهل السنة **(ننتفى)** افتعال من النفى ضمن معنى نتبرأ، ولذا أسنده للعقلاء والانتفاء صفة المعنى **(من القول بالمآل الذى ألزمتموه لنا)** معاشر المعتزلة والفلاسفة.

(ونعتقد نحن وأنتم أنه كفر) إن حمل على ظاهره ومايفهم من فحواه من نفى العلم عنه، عز وجل، **(بل نقول)** قولاً أسلم من هذا **(أن قولنا)** الذى اشتهر عن مقالتنا هذه **(لا يؤول إليه)**، أى إلى ماقلتم إن كلامنا يؤدى إليه **(على ما أصلناه)** بتشديد الصاد المهملة، أى اتخذناه أصلا وقاعدة بنينا عليها النفى فإنه لا محذور فيه، إذ المحذور فى القول بأنه لا علم له ونحن لا نقول به، بل نقول يعلم بعلم هو عين ذاته وهكذا سائر الصفات والمشبهة عندنا هم المجسمة الذين يأخذون بظواهر النصوص المتشابهة، وغيرهم من أهل السنة يقولون نؤمن بظاهرها ونفوض علم باطنها إلى الله تعالى إذ لم يكلف بمعرفتها والمعتزلة يقولون لأهل السنة مشبهة، كما قال الزمخشرى عفى الله تعالى عنه:

وجماعة سموا هواهم سنة ... فهم لعمرى كالحمير الموكفة
قد شبهوه بخلقه وتخوفوا ... شنع الورى فتستروا بالبلكفة

وهما فرقتان كما تقدم **(فعلى هذين المأخذين)** من النظر لمآل كلامهم والنظر لما أصلوه من تأويلهم **(اختلف الناس)** من علماء الملة وأهل السنة **(فى إكفار أهل التأويل)** بلازم مذهبهم وعدمه بالنظر لمرادهم **(وإذا فهمته)**، أى فهمت المذكور من منشأ الخلاف فى تكفيرهم وعدمه **(اتضح)** وظهر **(لك الموجب)** اسم الفاعل بمعنى المقتضى **(لاختلاف الناس فى ذلك)** التكفير وعدمه.

(والصواب) عند المحققين من الفقهاء وأهل الكلام **(ترك إكفارهم)**، أى ترك الحكم بكفرهم **(والإعراض عن الحتم)** بحاء مهملة ومثناة فوقية بمعنى القطع والجزم **(عليهم بالخسران)**، أى بأنهم خسروا بسبب كفرهم، فإنه هو الخسران العظيم **(وإجراء حكم الإسلام عليهم)** فى الدنيا لاعتقادنا أنهم مسلمون لهم ما لنا وعليهم ما علينا **(فى قصاصهم)**، أى القصاص لهم ومنهم كسائر المسلمين **(ووراثاتهم ومناكحاتهم ودياتهم والصلاة عليهم، ودفنهم فى مقابر المسلمين وسائر معاملاتهم)** من المبايعة وأكل ذبائحهم وغير ذلك التى بينها بقوله ووراثاتهم وما بعده من غير فرق بيننا، وبينهم لصدق اسم الإيمان والإسلام عليهم **(لكنهم يغلظ عليهم)** بزجرهم وتعزيرهم **(بوجيع الأدب)** من القيد والضرب والحبس **(وشديد الزجر)** بنهرهم وقهرهم **(والهجر)**، أى ترك مجالستهم ومعاشرتهم ونحوه، مما يشق عليهم من أنواع الإهانة.

(حتى يرجعوا) أو يتركوا متباعدين **(عن بدعهم)** المخالفة لأهل السنة، ويتفاوت ذلك ضعفا وقوة نظرًا لحالهم مما هم عليه، وهذا ليس على إطلاقه كما يعلم مما تقدم؛ فإن فيهم من حكموا بكفره وليس الكلام فيه **(وهذه)** الأمور المذكورة **(كانت سيرة)**، أى الطريقة التى كان عليها **(الصدر الأول)** المراد بهم أهل العصر الأول من الصحابة

والتابعين ومن قرب منهم، وهو مستعار من صدر الشيء بمعنى أعلاه وأوله (**فيهم**)، أى فى معاملتهم والحكم عليهم بما ذكر.

(**فقد كان نشأ**)، أى وجد وظهر (**على زمان الصحابة وبعدهم فى التابعين**) على بمعنى فى (**من قال بهذه الأقوال**) المذكورة (**من القدر**)، أى الاعتزال كواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ومعبد الجهنى وأضرابهم (**ورأى الخوارج**) الذين خرجوا على علىٍّ، وجرى بينه وبينهم ما جرى، وهم فرق مختلفة لهم اعتقادات باطلة وأحوالهم ومذاهبهم مفصلة فى المطولات.

(**و**) أصحاب (**الاعتزال**) ومذاهبهم مذكورة فى كتب الكلام (**فما أزاحوا**) بزاء معجمة وحاء مهملة، أى أزالوا (**لهم قبرا**) فى الصدر الأول (**ولاقطعوا**)، أى منعوا (**لأحد منهم ميراثا**) يرثونه من غيرهم أويرثه غيرهم منهم كسائر مواريث المسلمين (**لكنهم هجروهم**) بترك مخالطتهم (**وأدبوهم بالضرب والنفى**) تعزيرًا لهم بإخراجهم من ديارهم (**والقتل**) هذا على رأى من يجوز التعزير بالقتل برأى الإمام، لا قتل من استحق القتل منهم بسبب آخر كما قيل فإنه لا يناسب قوله: (**على قدر أحوالهم**) الموجبة لتأديبهم (**لأنهم**) بسبب بدعهم (**فساق**) كغيرهم من الفسقة غير الكفرة (**ضلال**) أهل ضلال وبدع (**عصاة أصحاب كبائر**) عطف بيان مفسر لما قبله (**عند المحققين**) الذين لا يكفرون أحدًا من أهل القبلة (**وأهل السنة**) عطف تفسير (**ممن لم يحكم بكفرهم منهم**)، أى لم يحكم بكفر أصحاب الآراء الباطلة لتأويلهم.

(**خلافا لمن رأى غير ذلك**) من تكفيرهم و لم يكتف بتأديبهم بما تقدم، وبما ذكرناه علم أن من قال المراد بالقتل التأديب لا إزهاق الروح لم يصب، وكذا قول من قال إنه يدخل فى كلامه القرامطة ونحوهم ممن حكم بكفره، فالأحسن أن يعبر بأهل القبلة.

وفى كلام المصنف، رحمه الله تعالى، لف ونشر، فإن مذهب القدرية والخوارج كان فى زمن الصحابة والاعتراف، إنما فشى فى زمن التابعين وذكر من التأديب أنواعًا منها الهجر، وقد ورد فى الحديث النهى عن هجر المسلم فوق ثلاث، إلا أنه محمول على غير المبتدع والمتجاهر بالظلم أو الفسق أو المحذور يعذبه شرعًا، وعليه يحمل ما رواه ابن الصلاح من أن سعد بن أبى وقاص، رضى الله تعالى عنه، هجر عمار بن ياسر حتى مات، وكذا عائشة هجرت حفصة، وعثمان بن عفان، رضى الله عنه، هجر عبد الرحمن بن عوف وكذا ما وقع لغيرهم.

وأما الضرب فهو مفصل فى باب التعزير من كتب الفقه، والنفى تعزير عندنا ويكون

حدًا عند الشافعي فى الزنا على كلام، وهل يكون دون الجول أو هو مفوض لرأى الإمام فيه خلاف، وأما القتل فيكون تعزيرًا عند مالك دون غيره.

وقال ابن تيمية: إنه ذهب له غيره أيضًا وسموه سياسة، قيل: وفى بعض النسخ: الفتل بفاء ومثناة فوقية فتأمله (**والله الموفق للصواب**) ضد الخطأ.

(**قال القاضى أبو بكر**) الباقلانى (**وأما مسائل الوعد والوعيد**) وأنه لا يجوز تخلفه عند المعتزلة لقولهم بأنه يجب على الله تعذيب العاصى وإثابة الطائع، على ما قرروه فى قواعدهم، ومن فسر الوعد والوعيد بسؤال القبر وعذابه لم يصب (**والرؤية**)، أى إنكار المعتزلة لرؤية الله فى الآخرة (**والمخلوق**)، أى قول المعتزلة إن العبد يخلق أفعاله لا قول المفوضة أن الله فوض خلق الناس لمحمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما قيل، فإنه كفر ليس موافقا لما بعده (**وخلق الأفعال**)، أى قول المعتزلة إن أفعال العباد مخلوقة لهم، كما ذهب إليه الجبائى وأتباعه فهو كالتفسير لما قبله.

(**وبقاء الأعراض**) وهى جمع عرض بفتحتين وهو ما لا يقوم بنفسه كالألوان، وهذا على مذهب الأشعرى من أن الأعراض لا تبقى، وهو مما ذهب إلى خلافه كثير من أهل السنة حتى قال السعد فى شرح المقاصد: إنه مكابرة فى المحسوس، وأغرب منه الشيخ الأكبر فى الفصوص من الأجسام لا تبقى زمانين أيضًا، وفسر به قوله تعالى: ﴿**بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ [ق:١٥]. وهو مما خفى على كثير من المحققين، وقد أفردت بيانه بتعليقه وتحقيقه، أنَّا نقول إن ما سوى الله وصفاته فان حالاً عند أرباب الكشف، وهو معنى قوله: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾ [القصص: ٨٨].

كما أشار إليه البيضاوى فى تفسيره؛ لأنها من ابتداء خلقها إلى ظهور فنائها فى تبدل وتغير إلا أنه لنقصه فى غاية لا يدركه الحس إلا إذا اجتمع منه مقدار يدرك، ألا ترى إلى الشمعة التى تذهب أجزاؤها لا يحس نقصها فى كل آن، حتى يفنى مقدار منها له قدر كثير، وهو أمر محسوس إلا أنه كان على المصنف، رحمه اله تعالى، أن لا يذكره لخفائه (**والتولد**) الذى ذهب إليه المعتزلة والحكماء كتولد العلم من الدليل وحصوله عقبه كحركة المفتاح بحركة اليد، هذا أيضًا مما ينبغى تركه هنا.

(**وشبهها من الدقائق**) الفلسفية التى أدخلها المعتزلة فى الكلام (**فالمنع فى إكفار المتأولين فيها أوضح**) من القول بإكفارهم؛ لأنها لا يترتب عليها أمر دينى (**إذ ليس فى الجهل بشىء منها جهل بالله**) حتى يكفر الذاهب إليها (**ولا أجمع المسلمون على إكفار من جهل شيئًا منها**) كما تقدم فى تفسير الكفر عنده (**وقد قدمنا فى الفصل**) الذى ذكر

(قبله من الكلام وصورة الخلاف) ومعناه الذى قرره **(فى هذا)** النوع **(ما أغنى عن إعادته)** لظهوره وقرب العهد به **(بحول الله تعالى)** وحمايته عن مخالفة الحق فيه وفى غيره وبقية اعتقادات المعتزلة مذكورة فى الكلام، فلا حاجة لتكثير السواد بها هنا كما فى بعض الشروح.

* * *

(فصل هذا) إشارة لما ذكره سابقًا

(حكم المسلم الساب لله تعالى)

وما يعد سبًا وغيره مما فصله قبل هذا وسمى ما قدمه من ألفاظ الكفر سبًا، إما لأنها فى ذكر ما لا يليق بجلال الله، أو لأنها تستلزم تكذيبه، وهو سب، وتسمية الساب مسلمًا باعتبار ظاهر حاله، وما كان عليه، فلا إشكال فيه **(وأما الذمى)** الكافر الذى له ذمة وأمان **(فروى عن عبد الله بن عمر)** رضى الله تعالى عنهما، ولم يذكر أحد هنا من رواه عنه **(فى ذمى تناول من حرمة الله تعالى)**، أى تكلم فى حق الله بما لا يجوز، وأصل التناول الأخذ باليد، فتجوز به عما ذكر والحرمة ما يجب احترامه وترك الخوض فيه **(غير ماهو عليه)**، أى ما استقر عليه بما كفر **(من دينه)**، أى بما اعتاده أو اعتقد أنه دين له، فإنه يسمى دينًا كما قال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

(وحاج فيه) وجادل فيه وخاصم، أو أقام ماهو حجة بزعمه **(فخرج ابن عمر)** رضى الله تعالى عنهما، من داخل بيته **(عليه بالسيف)** يريد قتله، فكان سمعه يتكلم خارج بيته **(فطلبه)**، أى قصده ليضربه بسيفه **(فهرب)** منه لخوفه على نفسه.

(قال مالك) فيما روى عنه **(فى كتاب ابن حبيب)** اسمه عبد الملك كما تقدم **(و)** فى **(المبسوطة)** اسم كتاب **(وابن القاسم فى المبسوط)** كتاب أيضًا **(وكتاب محمد بن سحنون)** رحمه الله، فى فقه مذهب مالك **(من شتم الله تعالى)** عز وجل، **(من اليهود والنصارى بغير الوجه الذى به كفروا)** كادعاء الولد والشريك كما يأتى **(قتل ولم يستتب)**، أى لم يكلف التوبة ولم تطلب منه.

(وقال ابن القاسم) إنه يقتل من غير استتابة **(إلا أن يسلم، قال فى المبسوطة: طوعًا)** باختياره من غير إكراه، فإن إسلام المكره غير مقبول وفى صحته خلاف للفقهاء، وفرق بعض الشافعية بين الحربى والذمى فيصح من الأول دون الثانى **(قال أصبغ)** تقدم أنه ابن الفرج **(لأن الوجه)**، أى الأمر من قول أو فعل **(الذى به)**، أى بسببه **(كفروا، هو دينهم)**، أى عادتهم ومعتقدهم، ولعلمه منهم ومشاهدته سمى وجهًا **(وعليه عوهدوا)**،

أى أخذت عليهم العهود مع استقرارهم عليه؛ لا أنهم أخذ عليهم العهد به فى نفسه فإنا لا نرضاه، أو هو مضمن معنى الإقرار؛ فاندفع ما قيل من أنه كان ينبغى له أن يقول تركوا عليه لقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، اتركوهم ومايدينون؛ لأن العهد يكون على ما شرط عليهم.

وقوله: أكره أن أقول أقررناهم، وإنما أقول تركناهم غير مسلم **(من دعوى الصاحبة والشريك والولد)** بيان لما كفروا به **(وأما غير هذا من الفرية)**، أى الكذب والاختلاف على الله فى غير ما كفروا به **(والشتم)** كما قال تعالى: ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨]، **(فلم يعاهدوا عليه)**، أى لا يقروا عليه **(فهو نقض للعهد)** الذى عاهد الإمام عليه أهل الذمة ومن انتقض عهده منهم يخير فيه الإمام بين القتل والرق والمن عليه وعند بعضهم يتعين القتل.

(قال ابن القاسم فى كتاب محمد) بن سحنون: وقيل: هو محمد بن إبراهيم بن المواز قيل: إنه نسبة للموز وهو ولد فى رجب سنة ثمانين ومائة ومات سنة إحدى وثمانين ومائتين، وقيل: سبع ومائتين بدمشق، واختلف فى لقائه لابن القاسم والصحيح أنه روى عنه بواسطة **(ومن شتم الله تعالى من غير أهل الأديان)**، أى غير المسلمين بدليل قوله بعده **(بغير الوجه الذى ذكر فى كتابه)** فإنه صريح فى أنه من أهل الكتاب ولابد أن يراد بقوله فى كتابه، كتابه الذى حرف، فإن الكتب الإلهية ليس فيها كفر فهو على زعمهم، أو المراد كتب أحكامهم التى وضعوها باتفاقهم، كما وقع لهم فى زمن قسطنطين من اجتماعهم على آراء دونوها كما فصل فى الملل والنحل، وهذا بناء على أن الكفر ليس ملة واحدة ولذا جمع الأديان، أو المراد بالكتاب ماكتبوه من عند أنفسهم، أو اتفقوا عليه تسمحا فعلم الجواب عما قيل إن فى عبارته تناقضًا وأن قوله من غير أهل الأديان يقتضى أنه لا كتاب.

وقوله: فى كتابه يخالفه، والكفر كله ملة واحدة **(قتل إلا أن يسلم)** فلا يقتل فإن الإسلام يجب ما قبله، وهذا كله مذهب مالك، رحمه الله تعالى، ومذهب الشافعى والحنفية فيه ما يخالفه **(وقال المخزومى فى المبسوطة، ومحمد بن مسلمة، وابن أبى حازم لا يقتل)** من سب الله **(حتى يستتاب)**، أى تعرض عليه التوبة **(مسلمًا كان)** الذى سب **(أو كافرًا فإن تاب)** ورجع عما صدر منه فذاك **(وإلا قتل)** لنقض عهده **(وقال مطرف)** بن عبد الله كما تقدم.

(وعبد الملك) هو ابن الماجشون **(مثل قول مالك وقال)** الشيخ **(أبو محمد ابن أبى زيد)** صاحب الرسالة وقد تقدم، ولا يخفى أن هذا خلاف ما تقدم عنه فهو قول آخر **(من**

سب الله تعالى بغير الوجه الذى به كفر، قتل إلا أن يسلم وقد ذكرنا قول ابن الجلاب قبل)، أى قبل هذا، وقد تقدم أن ابن الجلاب البغدادى الضرير وأنه بفتح الجيم واللام المشدد وآخره موحدة **(وذكرنا قول عبيد الله)** بن يحيى **(وابن لبابة)** بضم اللام كما تقدم **(وشيوخ الأندلسيين)** من علماء المالكية **(فى)** المرأة **(النصرانية وفتياهم بقتلها بسبها بالوجه الذى كفرت به)** لتصريحها بما لا نقر على مثله **(لله)** متعلق بسبها إلا أن تسلم، ونبه عليه إشارة إلى أن فى المسألة غير الذى ذكره.

(و) فتياهم بقتل الساب **(للنبى)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وإجماعهم)**، أى فقهاء الأندلس **(على ذلك)**، أى قتل من سب بما كفر به **(وهو)**، أى هذا القول الذى أجمعوا عليه **(نحو القول الآخر)** فى هذه المسألة **(فيمن سب منهم)**، أى من أهل الذمة **(النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالوجه الذى كفر به)** كإنكار نبوته، فيقتل إلا أن يسلم طوعًا **(ولافرق فى ذلك)**، أى قتله بما كفر به **(بين سب الله)** سبحانه وتعالى **(وسب نبيه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لأنا عاهدناهم)** حين عقدت لهم الذمة **(على أن لا يظهروا لنا شيئًا من كفرهم)** وتركناهم على ماهم عليه فيما بينهم **(وأن لا يسمعونا شيئًا من ذلك)** الكفر الذى كفروا به بأى طريق كان **(فمتى فعلوا شيئًا منه)** من ذلك **(فهو نقض منهم لعهدهم)** لمخالفته لعهدهم وهذا كله إشارة إلى مافى العهود العمرية التى وقعت حين فتح المسلمون لبلادهم، فكل ماشرط الإمام مخالفته نقض عهد موجب للقتل.

(واختلف العلماء) من السلف **(فى الذمى إذا تزندق)** لظهور علامات تدل على أنه مبطن لما يخالف دينه ويخالف دين الإسلام، فلم يبق على دين أصلاً **(فقال مالك ومطرف وابن عبد الحكم وأصبغ: لا يقتل؛ لأنه خرج من كفر إلى كفر)** يعنى الزندقة **(وقال عبد الملك بن الماجشون: يقتل؛ لأنه دين لا يقر عليه أحد)** يعنى من المسلمين، فإذا قتل به المسلم فغيره بالطريق الأولى، وتسميته دينا تسامح، فإنه لا دين له **(ولا يؤخذ عليه جزية)** كمن انتقل من اليهودية للنصرانية مثلاً، وقد شذ فى قوله هذا.

كما **(قال ابن حبيب ولا أعلم من قاله غيره)** إذ لم يقله أحد من المالكية ودليله فى غاية الضعف، وعند الشافعى أنه لا يقر عليه، والصحيح عنده أنه لا يقبل منه إلا الإسلام وقيل: يقبل منه كل دين يساوى دينه، وإذا انتقل الذمى لدين آخر فيه خلاف عنده مبنى على أن الكفر ملة واحدة أو ملل متعددة.

* * *

(فصل هذا) المذكور فى الفصل الذى قدمه

(حكم من صرح بسبه)

عز وجل، **(وإضافة)**، أى نسبه إليه **(ما لا يليق بجلاله)**، أى عظمته **(وإلهيته)**، أى كونه إلها والإضافة ضم شىء إلى شىء **(فأما مفترى الكذب عليه تبارك وتعالى)** الافتراء تعمد الكذب فهو أخص منه **(بادعاء الإلهية)**، أى أنه إله كفرعون لعنه الله **(أو الرسالة)** كمسيلمة الكذاب **(أو النافى أن يكون الله خالقه أو)** نفى أن يكون الله **(به)** بل رب غيره **(أو قال ليس لى رب)** بإنكار أنه خلقه، وهو فى معنى ما تقدم لكنه أراد تعديد ألفاظ الكفر **(أو المتكلم بما لا يعقل)** بالبناء للمجهول.

(من ذلك) من ادعاء الإلوهية والرسالة أو نفى الخالقية أو الربوبية **(فى)** حال **(سكره)** وغيبة عقله **(أو غمرة جنونه)**، أى شدة أذهبت عقله وهى بفتح الغين المعجمة وسكون الميم قبل راء مهملة من غمره الماء إذا غطاه، ثم استعير لكل شدة فيقال: غمرة الموت وغمرة الفتنة **(فلا خلاف فى كفر قائل ذلك)**، أى شىء منه **(ومدعيه)**، أى الذى يقول ويدعى حقيقته **(مع سلامة عقله)** لافترائه الكذب على الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١٠٥]، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر:٦٠]، وسيأتى حكم من زال عقله **(كما قدمناه)**، أى القول بكفره وبيان وجهه.

(لكنه تقبل توبته على) القول **(المشهور وتنفعه إنابته)**، أى رجوعه إلى الله وهى عبارة عن التوبة وعبر بها تفننا **(وتنجيه)** من النجاة مضارع بضم أوله، أى تخلصه **(من القتل فيئته)** بفتح فاء قبل ياء مثناة ساكنة وهمزة مفتوحة وتاء مثناة، مصدر فاء بمعنى رجع وكله تفنن، وذكر هذه الفقرات إشارة إلى أنه بعد إنابتها لا يبقى عليه عهدة فى الدنيا ولا فى الآخرة، لا للاعتناء به ولذا قال **(لكنه لا يسلم)** فى الدنيا **(من عظيم النكال)**، أى العقوبة من النكل وهو القيد.

(ولايرفه)، أى ينفس عنه ويخفف وهو بضم أوله وتشديد فائه **(عن شديد العقاب ليكون ذلك)** النكال والعقاب **(زجرًا)**، أى ردعًا مانعًا **(لمثله)** ممن يتوقع منه قول مثل قوله **(عن قوله)**، أى مثل قول ذلك المفترى على الله **(و)** زجرًا **(له)**، أى لذلك القائل أولا **(عن العودة)** لما تاب عنه **(لكفره)** بما قاله افتراء على الله تعالى مع علمه بما فيه من المحذور **(أو جهله)** بسفاهة منه لتوهمه أنه أمر واقع **(إلا من تكرر)**، أى وقع **(ذلك)** الافتراء **(منه)** مرارًا **(وعرف استهانته)**، أى عده هينًا وإهانته لعدم مبالاته به **(بما أتى به)**

بما كفر به **(فهو دليل على سوء طويته)**، أى ما أخفاه من سوء الاعتقاد، وسمى المضمر طوية تشبيهًا بما طوى فى داخل غطاء يغطيه.

(و) دليل على **(كذب توبته)** وأنه إنما تاب خوفًا من العقوبة **(وصار)** بما ذكر **(كالزنديق)** الذى يظهر الإسلامويخفى الكفر **(الذى لا نأمن)** مع ما ذكر **(باطنه)** مما أخفاه من كفره فقد يضمر فيه شيئًا من ذلك **(ولانقبل رجوعه)** لما علم من سوء عقيدته وما أخفاه مما إذا وجد فرصة عاد إليه.

(وحكم السكران) فى عقوبته وتكفيره **(حكم الصاحى)** فى مؤاخذته بما صدر منه لتعديه بسكره فيغلظ عليه، والسكر غيبة العقل بما تعاطاه من الخمر، وللفقهاء فيه حدود كلها ترجع للعرف والعادة، وهو بديهى غير محتاج لتعريف، وللسكر حالات فأوله نشوة وفرح، وأوسطه فوق ذلك فهو تراخ فى الأعضاء وآخره زوال العقل وسقوط الحركة، ولذا اختلفوا فيه هل هو مكلف أم لا؟ على أقوال ثلاثة ثالثها أن تعدى بسكره يجرى عليه أحكام التكليف من طلاقه وضمانه وكفره وإسلامه، فإن لم يتعد كأن أكره أو شرب لتداو، أو اضطرار لإساغة لقمة، أو شدة عطش لم يكلف وينزل عليه قول المصنف، رحمه الله تعالى، حكمه حكم الصاحى.

(وأما المجنون) وهو الذى زال عقله بالكلية وهو معلوم **(والمعتوه)** من العته وهو اختلال فى العقل دون الجنون بحيث يكثر ذهوله ونسيانه، ويختلط كلامه أحيانا حتى يشبه المجنون، لكن يتنبه بتنبيه غيره له وتختل أفعال معاشه **(فما علم أنه قاله من ذلك)** السب ونحوه.

(فى حال غمرته) بغين معجمة مفتوحة وميم ساكنة، أى ذهاب عقله بالكلية وقد سمعت تحقيق معنى الغمرة قريبًا **(وذهاب ميزه)** بفتح الميم وسكون المثناة التحتية وزاء معجمة، أى تميزه وإدراكه **(بالكلية)** بحيث لا يعقل أصلاً ولا يفهم شيئًا **(فلا ينظر فيه)**، أى لا يتعرض له ولا يحكم عليه بكفر ولا غيره؛ لأنه مكلف فلا يؤاخذ بما يصدر عنه **(وما فعله من ذلك)** السب ونحوه.

(فى حال ميزه)، أى تميزه لما يصدر عنه وهو من جنونه متقطع غير منطبق، وقوله: **(وإن لم يكن معه عقله)** إما أن يريد به أنه لم يكن عقله مستمرًا لتقطع جنونه، أو يريد عقله الكامل بأن يدرك أمرًا دون أمر وإلا يتناقض كلامه؛ لأن من لا عقل له لا ميز له **(وسقط تكليفه)** لجنونه وإن كان له تميز ما **(أدب)** مبنى للمجهول، أى بضرب ونحوه.

(على ذلك) القول **(وزجر عنه)**، أى منع بنهره وتخويفه، كما ترى بعض المجانين

يخاف من الضرب والزجر، وفى نسخة لينزجر عنه (**كما يؤدب على قبائح الأفعال**) غير ذلك إذا صدر عنه (**ويوالى**) مبنى للمجهول أى يكرر (**أدبه**) مرارًا؛ لأن التكرار له شدة تأثير حتى فى البهائم وغيرها كما قال:

أما ترى الحبل بتكراره   فى الصخرة الصماء قد أثرا

(**كما تؤدب البهيمة**) التى لا تعقل كالفرس والحمار (**على سوء الخلق**) كحران ورفس وغير ذلك.

(**حتى تراض**)، أى تنقاد وتستقيم أفعالها من الرياضة فى الأمور (**وقد أحرق على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنه، من ادعى الإلهية له**) بأن قال له أنت إله، أى أحرقه بالنار لكفره، وهو كما فى تاريخ الصفدى نصير مولى على، رضى الله عنه، لما قال له أنت إله فحرقه بالنار، فقال وهو يحترق: لو لم تكن إلها لم تعذب بالنار، وإليه تنسب الفرقة النصيرية، وهم فرق منهم ادعوا أن فى على جزأ وأولاده جزأ من الإلهية، وقالوا: ظهور الروحانى بالجسمانى أمر معقول كظهور جبريل فى صورة البشر إلى آخر ماحكاه عنهم.

وقول الدلجى وهو عبد الله بن سيار وأتباعه، قالوا له: أنت إله حقا فنفاه إلى المدائن كلام متناقض، إلا أن يريد نفى أتباعه، ولا قرينة تدل على هذا فهو سبق قلم، ثم إن التحريق بالنار لا يجوز لحديث ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه لا يعذب بالنار إلا خالقها، وكان أمر بتحريق ناس ثم نهى عنه فهو منسوخ.

فإن كان قتلهم ثم أحرقهم تمثيلا بهم فهو مذهب له؛ لأن الصحابة مجتهدون، ومن أحرق رجلاً ففى القصاص بمثل فعله، عن مالك روايتان، وما روى عن بعض الصحابة من التحريق فيه كلام ليس هذا محله فالصحيح المنع منه (**وقد قتل عبد الملك بن مروان**) هو أحد الملوك من بنى مروان وترجمته معروفة مشهورة فى التواريخ (**الحارث المتنبى وصلبه**)، أى الذى ادعى النبوة وهو الحارث بن سعيد الكذاب، وله ترجمة فى الميزان وتاريخ الذهبى، وعبد الملك ليس يستدل بأقواله وأفعاله فلعله استأنس به؛ لأنه فى عصر السلف و لم ينكروا عليه ذلك كما يشير إليه قوله (**وفعل غير ذلك واحد من الخلفاء والملوك بأشباههم**) ممن قال مثل قولهم (**وأجمع علماء وقتهم على صواب فعلهم**)، أى تصويبه أو هو من إضافة الصفة للموصوف، وذلك لكذبهم على الله بأنه نبأهم وتكذيب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى أنه خاتم الرسل وأنه لا نبى بعده.

(و) أجمعوا أيضًا على أن **(المخالف فى ذلك)**، أى تكفيرهم بما ادعوه **(من كفرهم)** هو مفعول المخالف، أى من مكفرهم فى تكفيرهم؛ فقال: لا يكفرون **(كافر)**؛ لأنه رضى بكفرهم وتكذيبهم لله ورسوله **(وأجمع فقهاء بغداد أيام المقتدر)** بالله أبو الفضل جعفر ابن المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد الخليفة العباسى **(من المالكية وقاضى قضاتها أبو عمر المالكى)** محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد بن زيد **(على قتل الحلاج)** الحسين بن منصور المشهور وتأتى ترجمته، وسمى حلاجًا؛ لأنه جلس يومًا على حانوت حلاج واستقضاه، فقال له الحلاج أنا مشتغل بالحلج؛ فقال له: اقض لى حاجتى حتى أحلج لك، فمضى الحلاج فى حاجته، فلما عاد وجد قطنه كله محلوجًا، وكان لا يحلجه عشرة رجال فى أيام متعددة فمن ثمة قيل له الحلاج.

(وصلبه)، أى صلب الحلاج بعد قتله لينزجر أمثاله وأتباعه **(لدعواه الإلهية)**، أى قوله أنا الله كما هو مشهور عنه **(ودعواه الحلول)**، أى إن الله يحل فى بعض الناس ويظهر بصورته كما ظهر جبريل، عليه الصلاة والسلام، بصورة دحية، رضى الله تعالى عنه، أو يسرى فيه سريان الماء فى العود الأخضر، كما قال بعض الملحدين وهو أمر باطل زينه لهم الشيطان، وليس هذا وحدة الوجود التى ذهب إليها الصوفية كما بينه السيد الشريف فى شرح التجريد.

(وقوله)، أى الحلاج **(أنا الحق)** يريد أنا الله؛ لأن الحق من أسمائه تعالى **(مع تمسكه فى الظاهر)** من أحواله وأموره **(بالشريعة ولم يقبلوا توبته)** لتكرر ذلك منه.

واعلم أن الحارث المتقدم، قيل: إنه ابن عبد الرحمن مولى أبى الجلاس العبدرى نزل دمشق وأظهر الزهد والعبادة، ثم خلى به، وزين له الشيطان أعمالاً أضل الناس بها؛ فكان يأتى المسجد وينقر رخامة به؛ فتسبح أبلغ تسبيح، حتى يصيح الحاضرون؛ فيأخذ عليهم العهود، وأن يكتموا أمره، ويطعم أصحابه فى الشتاء فاكهة الصيف، وفى الصيف فاكهة الشتاء، ويرى الناس أشباحًا على خيول، ويقول: هم الملائكة، وادعى النبوة، وكثر أتباعه، وشاع أمره؛ فطلبه عبد الملك فاختفى، وذهب إلى القدس؛ فركب إليه الخليفة، وأتى برجل ممن يجتمع به؛ فأعلمه أين هو؛ فأرسل معه طائفة من الجند، وكتب لنائبه بالقدس، أن يطع أمره وأخذ معه جماعة معهم شموع، وقال: إذا أمرتكم أوقدوها فى الطرق، ثم أتى داره ليلا، وقال لبوابه: استأذن لى على نبى الله؛ فقال: ليس هذا وقت إذن؛ فصاح على من معه حتى أوقدوا شموعهم، وصار الليل كالنهار فهجم عليه فنزل سردابًا أعدوه واختفى فيه، فقال أصحابه: رفع للسماء فهيهات أن تصلوا

إليه؛ فدخل سردابه وأخرجه وسلمه للجند؛ فأخذوه وقيدوه وشدوه فى سلاسل، فكانت تسقط وهو يقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]، فلما أتوا به عبد الملك صلبه، ومثل هذه القصة قصة المقنع وغيره مما ظهر فى صدر الإسلام.

وأما المقتدر بالله فهو كما علمت أبو الفضل جعفر بن المعتضد العباسى توفى مقتولا فى شوال سنة عشرين وثلثمائة.

وأما أبو عمر قاضى القضاة فى زمن المقتدر، فهو محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل كما مر الأزدى البغدادى، كان من خيار القضاة جلالة وعلمًا وعقلاً وذكاء وصلاحًا، وروى عنه وهو من الثقات توفى سنة عشرين وثلاثمائة فى رمضان.

وأما الحلاج فهو كما علمت الحسين بن منصور، قيل: كان أبوه من مجوس فارس والحلاج فى أول أمره صحب الجنيد والسرى والمشايخ مع الزهد ولزوم العبادة التامة ببغداد، واختلف فى أمره، ومن خرافات بعض الناس أنه ذهب فى سياحته للهند وخراسان وتعلم السحر وأظهره فى صورة الكرامات وأضل به الناس، وسكن بغداد وبنى بها دارًا واتخذ بها أملاكًا كثيرة، وصار يدعو الناس حتى شاع أمره وذاع، فوقع بينه وبين الشبلى وداود الظاهرى والوزير على بن عيسى، لما شاع عنه من الإخبار بالمغيبات وإظهار الأمور الخارقة، فقيل: إنه ساحر ذو شعبذة ومخرفة، وله معرفة بالطب والكيمياء وغير ذلك من علوم الحكماء، فقيل: إنه ادعى الإلوهية وأظهر الزندقة وكتب عليه محضر بذلك فقتل وأحرقت جثته فى يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذى القعدة سنة سبع وثلاثمائة بأمر المقتدر بالله.

وحكى عنه أنه طلع المؤذن يؤذن فسمعه فقال للمؤذن كذبت، فاستفتى عليه فقالوا يرمى عنقه ويحرق، فقال لأخته: إذا أنا رمى عنقى وصلبت فخذينى بعد الحرق فألقى من رمادى على الدجلة ببغداد، ثم أنها فعلت ما قال لها، فأشرفت بغداد على الغرق، ولما أن رمى عنقه صارت رأسه تنط وتقول الله الله، والناس ينظرون إليها وقيل: إنه قبل ذلك وضع بالسجن فصور فى حائط المحبس صورة مركب، وقال للمحبوسين: قوموا بذكر الله تعالى، ثم إنهم فعلوا ذلك حتى غابوا عن الحس، فإذا هو وهم دخلوا فى المركب المصورة ونجوا جميعًا، وقيل: إنه حفر حفرة وأوقد فيها بالنار ووضع فيها هاون، ثم إنه بقى كالجمر، وقال لأهل المدينة وللأولياء: كل من كان صادقًا بالله فيتقدم ويقف على الهاون داخل النار فلم يقدر أحد، ثم إنه تقدم ووقف عليه فذاب تحت أقدامه حتى صار كالماء، وذهب كثير من المشايخ إلى أنه من أولياء الله منهم الغزالى، واعتذر عما صدر منه فى كتاب مشكاة الأنوار، وأفرد ابن الجوزى ترجمته بتأليف

مستقل، وصح عن الشبلى أنه قال: كنت أنا والحلاج شيئًا واحدًا إلا أنه أظهر وكتمت وقد شهد بولايته كثير من كبار المشايخ، وقالوا: إنه عالم ربانى منهم الشيخ عبد القادر الجيلانى، وقال: عثر الحلاج ولم يكن له من يأخذ بيده، ولو أدركت زمانه لأخذت بيده، وقال: إن قوله: أنا الحق، إنما قاله لما غلب عليه شوقه وسكر من كأس محبته حتى عاين قدرته فى كل شىء:

فكل شىء رآه ظنه قدحا وكل شخص رآه ظنه الساقى

وهو مقام الجمع عندهم، لكن أهل الشرع حفظوا حمى الشريعة ولذا سكت عن حاله بعضهم، وقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ١٣٤]، والاعتقاد خير من الانتقاد والكف أسلم.

قال الشاذلى: اضطجعت فى المسجد الأقصى وفى وسط الحرم، فدخل خلق كثير أفواجًا، فقلت: ما هذا الجمع؟ قالوا: جمع الأنبياء والرسل، قد حضروا ليشفعوا فى حسين الحلاج عند محمد، عليه الصلاة والسلام، فى إساءة أدب وقعت منه، فنظرت إلى التخت فإذا نبينا، عليه الصلاة والسلام، جالس عليه بانفراده وجميع الأنبياء على الأرض جالسون مثل إبراهيم وموسى وعيسى ونوح، فوقفت أنظر وأسمع كلامهم؛ فخاطب موسى محمدًا، عليهما الصلاة والسلام؛ فقال له: إنك قلت علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل، فأرنى منهم واحدًا، فقال: هذا وأشار إلى الغزالى؛ فسأله موسى سؤالاً فأجابه بعشرة أجوبة، فاعترض عليه موسى بأن السؤال ينبغى أن يطابق الجواب، والسؤال واحد والجواب عشرة؛ فقال له الغزالى: هذا الاعتراض وارد عليك أيضًا حين سئلت: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، وكان الجواب: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ [طه: ١٧، ١٨]، فعددت لها صفات كثيرة، قال: فبينما أنا متفكر فى جلالة قدر محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكونه جالسًا على التخت بانفراده والبقية على الأرض، إذ زقنى شخص برجله زقة مزعجة، فانتبهت فإذا بقيم يشعل قناديل الأقصى، فقال: لا تعجب، فإن الكل خلقوا من نوره، فخررت مغشيًا فلما أقاموا الصلاة أفقت وطلبت القيم فلم أجده إلى يومى هذا. ومن هنا، قال صاحب البردة(١):

فانسب إلى ذاته ما شئت من شرف وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

كذا فى المحاضرات (**وكذلك**)، أى كما حكموا فى الحلاج (**حكموا فى ابن أبى الغراقيد**) هو فى بعض النسخ بغين معجمة وراء مهملة وألف بعدها قاف وياء مثناة

---

(١) البيت من البسيط، وهو فى ديوان البوصيرى (ص١٦٧).

تحتية ودال مهملة، وروى بزاء معجمة بدل الراء وبياء مثناة وبدونها، وقيل: إنه أصوب.

وقال البرهان: إنه قيل إن صوابه ابن أبى العراقب، والصواب الأول وأنه جمع غرقدة أو غرقد، ومنه بقيع الغرقد وهى مقبرة المدينة، والغرقد شجر معروف، والمذكور هو محمد بن على بن أبى الغراقيد، وكان شاع أمره ببغداد وادعى الإلوهية، وأنه يحيى الموتى، وادعى التناسخ والحلول فشاع وكثر أتباعه، وضل به ناس كثير فطلبه الراضى فهرب وغاب سنين، ثم عاد فهجم عليه ابن مقلة وأمسكه، فأثبت كفره وكتب عليه القضاة وأفتوا بقتله فقتل وأحرقت جثته فى سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة، وتبعه على حاله المذكور ابن أبى عون صاحب كتاب التنبيه فقتل معه.

(**وكان**) ابن أبى الغراقيد (**على نحو مذهب الحلاج**) فيما ادعا مما نسب إليه وقد علمت ما فيه (**بعد هذا**)، أى قتل الحلاج وصلبه (**أيام الراضى بالله**) بن المقتدر بالله، وله ترجمة تقدم بعض منها قريبًا (**وقضاة بغداد إذ ذاك**) يومئذ (**أبو الحسين بن أبى عمر المالكى**) بن يوسف بن يعقوب الأزدى الذى تقدم ذكره قريبًا.

(**وقال**) محمد بن عبد الله (**بن عبد الحكم فى المبسوط من تنبأ**) بهمزة تبدل ألفا فى الأكثر أى ادعى النبوة (**قتل**) لما تقدم كما تقدم (**وقال أبو حنيفة وأصحابه: من جحد**)، أى تعمد الكذب ونفى (**إن الله خالقه أو ربه أو قال ليس لى رب**) خلقنى (**فهو مرتد**) فله حكم المرتد المشهور فى كتب الفقه (**وقال ابن القاسم فى كتاب ابن حبيب**) المعروف عند المالكية (**و**) فى كتاب (**محمد و**) فى (**العتبية**) وهو محمد بن سحنون أو ابن المولد (**فيمن تنبأ**) وادعى النبوة (**يستتاب**) تطلب توبته سواء (**أسر ذلك**)، أى أخفاه (**أو أعلنه**)، أى أظهره (**وهو كالمرتد**) فى أحكامه.

(**وقاله سحنون وغيره وقاله أشهب فى**) حق رجل (**يهودى تنبأ وادعى أنه رسول**) من الله أرسله (**إلينا إن كان معلنا بذلك**)، أى مظهرًا لما قاله (**استتيب فإن تاب**) فذاك (**وإلا قتل**)؛ لأنه أظهر أمرًا غير ما كفر به (**وقال**) الشيخ (**أبو محمد بن أبى زيد**) صاحب الرسالة المشهورة (**فيمن لعن بارئه**) بهمزة تبدل ياء من برأ الخلق إذا أوجدهم بغير مثال (**وادعى أن لسانه زل**)، أى أخطأ ولم يرد أن يقوم ذلك (**وإنما أراد**) أن يقول (**لعن الشيطان**) فلا يصدق بل (**يقتل بكفره ولا يقبل عذره**) بقوله إن لسانى زل خطأ لما علم من كذب اليهود وحيلهم.

(**وهذا على القول الآخر**) من أحد القولين فى مذهب مالك (**من أنه لا تقبل توبته**) **وفيما** ذكره عن ابن أبى زيد من أن الخطأ وسبق اللسان لا يقبل، نظر لما فى مسلم أن

رجلاً أراد أن يقول: اللهم أنت ربى وأنا عبدك؛ فقال: أنت عبدى وأنا ربك لدهشته وسبق لسانه إليه و لم يؤاخذ به، ولا شك أن مثله معفو، فلعله لم يقم قرينة على مدعاه ولظهوره لم يصرحوا به، فلا يرد عليه اعتراض كما توهم، فإنه أجل من أن يخفى عليه مثله.

وقد تقدمت هذه المسألة فى كلامه ولذا خص القائل بأنه يهودى إذ المسلم لا يؤاخذ بمثله (**وقال أبو حسن القابسى**) الذى تقدمت ترجمته (**فى سكران قال**) فى حال سكره (**أنا الله أنا الله**) فتكراره يدل على تعمده فيما قاله (**إن تاب**) عن مقاله وادعى عدم قصده (**أدب**) ببناء المجهول بضربه وزجره ونحوه مما يراه ولسكره وغيبة عقله، ومبادرته لم يقتل فلا وجه لما قيل: إنه مخالف لما قيل فى الحلاج وأضرابه كما لا يخفى (**فإن عاد إلى مثل قوله**) أنا الله مكررًا (**طولب مطالبة الزنديق**)؛ لأنا لا نأمن باطنه وخبث طويته (**لأن هذا**) لعوده وتكرره (**كفر**) ككفر (**المتلاعبين**) بالدين المستخفين المتهاونين كما هو دأب الزناديق الذين لا يدينون بدين أصلاً، وهذا بناء على ما تقدم من أنه يعامل معاملة الصاحى كما تقدم، وهذا مذهب مالك وعند غيره فيه خلاف مبسوط فى كتب الفقه.

* * *

(فصل وأما من تكلم) بشىء (من سقط القول)

السقط بفتحتين الخطأ والأمر الذى لا يعتد به حتى يستحق أن يسقط ويطرح، وبمعنى الفضيحة والوهم فى الكلام (**وسخف اللفظ**) السخف بضم فسكون بسين مهملة وخاء معجمة وفاء قلة العقل، والمراد به ما ينشأ منه من الألفاظ السخيفة الركيكة (**ممن لم يضبط كلامه وأهمل لسانه**)، أى أطلقه فى الكلام فيتكلم من غير تدبر وفكر، فشبهه بدابة تهمل ولا تربط، والأصل فى الضبط أنه بمعنى الإمساك باليد والمراد أنه لم يصن و لم يحفظ لسانه، فهو من الكناية (**بما يقتضى الاستخفاف**)، أى الإهانة والتحقير من غير مبالاة، وأصله عد الشىء خفيفًا، فعبر به عما ذكر وهو متعلق بتكلم أو بأهمل بمعنى أطلق (**بعظمة ربه**) والشىء العظيم لا يكون خفيفًا، فهو هنا فى موضع حسن، أى ما قدر الله حق قدره وحيث استخف بمن هو أعظم من كل عظيم فهو سخف وحماقة.

(**وجلالة مولاه**)، أى سيده، والعبد الذليل إذا استخف بسيده الجليل حقيق بكل تذليل (**أو يمثل**) مضارع مثل المشدد (**بعض**) مفعوله، وفى نسخة تمثيل بمثناة ماض (**الأشياء**)، أى الأمور غير ذات الله وصفاته (**ببعض ما عظم الله من ملكوته**) تقدم أن الملكوت مبالغة فى الملك ويراد به عالم الأمر، وهو ما كان مغيبًا عنا من الملائكة

والسموات والعرش ونحوه، أى جعله مثله كأن يشبه ممدوحًا له بجبريل، أو عدوًا له بملك الموت ونحوه مما يدل على سخافة عقله ودينه، أو يقول: قصر الملك كعبة يطوف بها **(أو نزع)** بنون وزاء معجمة مفتوحة وعين مهملة، أى أخذ وذهب فى وصفه **(من الكلام لمخلوق بما لايليق)**، أى لا يحق ويناسب **(إلا فى حق خالقه)** كأن يقول: يا ذا الجلال والإكرام ونحوه، كعز وجل.

(غير قاصد) بما قاله **(للكفر والاستخفاف)**، أى الإهانة **(ولا عامد)**، أى متعمد **(للإلحاد)**، أى الميل عن الحق أو الشرك بالله فإنه أحد معانيه كما فى الغريبين وأصل معناه الميل، فإنما صدر عنه لجهالته وسخافة عقله **(فإن تكرر هذا)** القول **(منه وعرف به)**، أى اشتهر بين الناس قوله لمثله **(دل)** تكرر صدوره منه **(على تلاعبه بدينه)**، أى عدم مبالاته به كاللعب واللهو، فإن من تقيد بدينه لا يقدم مثله **(واستخفافه بحرمة ربه)**، أى ما يلزم احترامه وصيانته **(و)** دل أيضًا على **(جهله بعظيم عزته وكبريائه)** هو بالمد بمعنى غاية العظمة فى شأنه **(سبحانه وتعالى)**، أى تنزه وعلا جناب عزته عن مخلوقاته.

(وهذا) المذكور **(كفر لا مرية فيه)**، أى لا شك فى كونه كفرًا، وتقدم أن ميمه مكسورة وتضم **(وكذلك)** يكفر **(إن كان ما أورده)** مما صدر عنه **(ويوجب)** وفى نسخة: يقتضى، **(الاستخفاف)** والإهانة وتجرئه، أى جسارته على عظيم عزته **(والتنقص لربه)**، أى التنقيص لكماله بإهانته **(وقد أفتى)** عبد الملك **(ابن حبيب)** وقد تقدمت ترجمته.

(وأصبغ بن خليل) أبو القاسم **(من فقهاء قرطبة)**، ذكره الذهبى فى الميزان، وقال: إنه كان يتهم بالكذب، توفى سنة ثلاث وسبعين، وقيل: سنة ست وخمسين ومائتين **(بقتل)** الرجل **(المعروف بابن أخى)** ويروى أخت **(عجب)** بفتحتين علم زوجة عبد الرحمن الأموى أمير قرطبة، ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث المعنوى وهى عمة الرجل المذكور كما يأتى.

(وكان) هذا الرجل **(خرج يومًا)** من منزله **(فأخذه المطر)**، أى وقع عليه بشدة حتى كأنه أخذه وعاقه عن مقصده **(فقال: بدأ)** بهمزة آخره، أى شرع وابتدأ **(الخراز)** بفتح الخاء المعجمة وتشديد الراء المهملة وألف وزاء معجمة، من الخرز وهو ثقب الجلود للخياطة كالخفاف والقرب وهى تبل ويرش عليها الماء عند خرزها لتلين **(يرش جلوده)** جمع جلد، وهو معروف ويرش مضارع غائب من رشه يرشه إذا بله بالماء، ويروى برش بباء الجر فشبه أديم السماء بجلد واه يخاط حتى يمسك، فكأن المطر نزل عليه من قربة بالية ترفع وفيه سخافة لا تخفى، فأراد بالخراز قيوم السموات أو ملائكته، وعلى كل

حال فهو تلاعب.

(**وكان بعض الفقهاء بها**)، أى بقرطبة فى ذلك الزمن (**أبو زيد صاحب الثمانية**) بوزن العدد المعروف، وقيل: إنه ضبط بضم المثلثة وميم وألف ونون مكسورة بعدها ياء مشددة و لم يفسروه (**وعبد الأعلى بن وهب وأبان بن عيسى قد توقفوا**)، أى لم يحكموا وأحجموا (**عن سفك دمه**)، أى قتله لعدم ما يقتضيه؛ لأنه لم يصرح باسم الله وإنما شبه السحاب بشن بال ومثله لا يعد كفر (**وأشاروا**)، أى قالوا برأيهم فيه (**إلى أنه**)، أى ما قاله (**عبث من القول**)، أى كلام لا معنى له يعتد به كهزل من اعتاد الهزل والعبث بما لا يفيد.

(**يكفى فيه الأدب**)، أى التأديب والتعزير دون القتل (**وأفتى بمثله**)، أى أنه عبث يؤدب قائله (**القاضى حينئذ**)، أى حين إذ وقعت هذه القصة وهو (**موسى بن زياد**) قاضى قرطبة (**فقال ابن حبيب دمه فى عنقى**)، أى أحكم بقتله وإراقة دمه، فإن كان فيه وزر قتلته، وعلى وزره وجزاؤه فى الدنيا والآخرة والعنق عضو معروف، ويقال: إثم كذا فى عنقه إذا لزمه كما قال تعالى: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء:١٣]، فهو كناية أو استعارة (**أيشتم**) ببناء المجهول (**رب**) نائب فاعله وجعله شتمًا بناء على أنه أراد بالخراز الله عز وجل (**عبدناه**) كناية عن عظمته وأنه أهل للعبادة والخضوع فكيف يشتم (**ثم لا ننتصر له**)، أى نغار لما يخالف حقه وما يجب له (**أنا أذن**)، أى إذا لم ننصره (**لعبيد سوء**) إذا لم يقوموا بحق سيدهم وربهم (**وما نحن له بعابدين**) له حق عبادته لرضانا بما قيل فيه (**وبكى**) لغيرته وخوفه من الله (**ورفع المجلس**)، أى ذكر وأعلم بهذه الواقعة، أى خبره وما وقع فيه فأطلق عليه كقوله:

واستب بعدك بأكليب المجلس

(**إلى الأمير بها**) بالأندلس وحاكمها (**عبد الرحمن بن الحكم الأموى**) بضم الهمزة وفتحها نسبة لأمية، وهو عبد الرحمن بن الحكم بن هشام صاحب الأندلس، وكان عادلاً، متقيًا، مجاهدًا، توفى سنة ثمان وثلاثين ومائتين وعمره ستون، وذكروا أن عبد الملك مفتى الأندلس وعالمها صاحب الواضحة فى مذهب مالك توفى تلك السنة أيضًا.

وكان أخذ عن أصحاب مالك (**وكانت عجب**)، أى المرأة المذكورة (**عمة هذا**) الرجل (**المطلوب**) بما قاله وقيل خالته (**من حظاياه**)، أى من زوجات عبد الرحمن أمير الأندلس، جمع حظية كهيئة، وهى المرأة التى تحظى عند زوجها، أى تقرب وتكرم لشدة محبته لها، وذكره إشارة إلى شدة دين الأمير وزوجته إذ لم يسامح الأقرباء والتابع لها مع

شدة محبته لها وقرب الرجل منها.

(وأعلم) الأمير وهو مبنى للمجهول **(باختلاف الفقهاء)** فى قتله **(فخرج الإذن من عنده)** لشرطته ونوابه **(بالأخذ بقول ابن حبيب)** فى قتله **(وصاحبه أصبغ بن خليل وأمر بقتله فقتل وصلب بحضرة الفقيهين)** ابن حبيب وأصبغ بن خليل **(وعزل القاضى)** موسى بن زياد الذى قال يؤدب **(لتهمته بالمداهنة فى هذه القصة)** المذكورة، أى المسامحة فى حدود الله لقرب الرجل من حظية الأمير مع أنه قول، وتقدم أنه يستتاب فى قول آخر رجحه بعض الشراح هنا، ومر الفرق بين المداهنة والمداراة، فإن الأولى مذمومة والثانية ممدوحة؛ لأن المداهنة استحسان ما لا يجوز لغرض فاسد، والمداراة معاملة بعض الناس بلين ورفق حتى يدفع به الضرر، أو يحصل به نفع دينى باعتبار، وإن كان الظاهر يخالفه **(ووبخ بقية الفقهاء وسبهم)** لعدم حكمهم بقتله وهذا حكم من عرف بذلك وتكرر وقوعه منه **(وأما من صدرت عنه من ذلك)** القول الدال على الاستخفاف، أى وجدت ووقعت منه **(الهنة الواحدة)**، أى قباحة وقعت منه نادرًا يقال فيه هنة وهناة وهنوات خصال سوء قال لبيد(١):

أكرمت عرضى أن ينال بنجوه إن البرىء من الهناة سعيد

كذا فى الأساس وفيه كلام فى كتب اللغة والنحو، وقد تقدم الكلام على شىء منه فى أول الباب الأول من القسم الرابع.

(والفلتة) من الأمر الذى يقع بغتة من غير تدبر وفاؤه تضم وتفتح، والثانى أعلى وأصح **(الشاردة)** مر شردت البهيمة إذا ندت من صاحبها فاستعارها للزلة الصادرة بغتة أو النادرة المنفردة التى لا تستقر، فكأنها شاردة وليس معناها السائرة من قولهم قافلة شاردة، أى سائرة فى البلاد؛ لأنها إذا سارت اشتهرت وانتشرت **(مالم تكن تنقصًا وإزراء)**، أى إهانة وتنقيصًا **(فيعاقب عليها ويؤدب)** بزجر وتعزير دون قتل **(بقدر مقتضاها)**، أى بحسب ماتقتضيه **(وشنعة)**، أى قباحة **(معناها وصورة حال قائلها)** بحسب ما يليق بحاله.

(وشرح سببها) فإن بمعرفة سببها الباعث عليها يعلم مراد من صدرت عنه **(ومقارنها)** من أحوال قائلها المؤذنة بأنه يستحق مقدار من توبيخ، أو ضرب وجيع، أو حبس مديد؛ لأنه تعزير تتفاوت مراتبه بحسب صاحبه بخلاف الحدود كما بينه الفقهاء **(وقد سئل ابن القاسم)** رحمه الله تعالى، **(عن رجل نادى رجلاً باسمه)** يا زيد ويا عمرو **(فأجابه)** بقوله:

(١) البيت فى أساس البلاغة (٢/٥٥٤) (هنو).

(لبيك اللهم لبيك) فقوله: اللهم بمعنى يا أللهُ فى جواب من ناداه باسمه لبيك المثنى إجابة بعد إجابة من لب، واللب بمعنى أقام بمكان وتفصيله مشهور غنى عن ذكره هنا.

(فقال) ابن القاسم **(إن كان جاهلاً)** بمعناه **(أو قاله على وجه سفه)**، أى خفة وطيش من غير تأمل وفكر **(فلا شىء عليه، قال القاضى أبو الفضل)** عياض المؤلف فى تفسيره **(وشرح قوله)** لا شىء عليه معناه **(أنه لا قتل)** يترتب **(عليه)** فيما صدر منه ثم بين ما يستحقه إذا لم يقتل، فقال: **(والجاهل يزجر)** حتى ينتهى عما قاله **(ويعلم)** ماجهله **(والسفيه)** الذى لا يضبط لسانه لخفته **(يؤدب)** بضرب وحبس ونحوه.

واعلم أن المراد بالسفيه هنا من فى عقله خفة ونقص لا الذى عرفه الفقهاء بالمبذر **(ولو قالها)**، أى قال لبيك اللهم لبيك لمن ناداه باسمه **(على اعتقاد إنزاله)**، أى مناديه **(منزلة ربه تعالى)** بجعله إلها **(لكفر)** ووجهه ظاهر **(هذا)** الذى فصله **(مقتضى قوله)**، أى قول ابن القاسم فى هذه المسألة، وهذا هو الحكم فيما ذكر عند المالكية، وغيرهم خالفهم فيها، وقال: لا يعذر إلا قريب عهد بإسلام أو مجنون كذا قيل.

وقد ينزل عليه كلام المصنف، رحمه الله تعالى، فتدبر **(وقد أسرف كثير)**، أى تجاوز الحد فى قباحته وترك أدبه، وهو مستعار هنا من إسراف المال لإسراف المقال **(من سخفاء الشعراء)**، أى من سخف عقله وقل دينه، كالمعرى فى ديوانه الكبير كما يعرفه من رآه **(متهميهم)** جمع متهم وهو من اتهم بالزندقة والإلحاد كابن عون **(فى هذا الباب)**، أى ذكر رب العزة بما لا يليق به **(واستخفوا عظيم هذه الحرمة)**، أى احترام الله وإجلاله، أى عدوه خفيفًا هينًا لا يبالى به **(فأتوا)** فى إشعارهم **(من ذلك)** النوع **(بما ننزه)**، أى نصون **(كتابنا)** هذا فإنه داء لا شفاء له.

(ولسانا وأقلامنا عن ذكره) وكتابته فيه اكتفاء وذلك لقبحه فلا يسود به وجه قرطاس، ثم أجاب عن ذكره لبعض الألفاظ التى فيها سب لله ولرسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما تقدم فقال: **(ولولا أنا قصدنا نص مسائل حكيناها)** عن الأئمة فى كتبهم ونص بالنون، وفى نسخة: قص، بالقاف والأولى أحسن **(لما)** حكينا و**(ذكرنا شيئًا مما يثقل)** بالمثلثة **(ذكره علينا)**، أى يعد ثقيلاً لشدة قباحته لما فيه من الإزراء بمقام الربوبية والنبوة **(مما حكيناه فى هذه الفصول)** التى تقدمت.

(فأما ما ورد فى مثل هذا) الأمر الثقيل **(من أهل الجهالة)**، أى جهلة الأعراب وأهل البادية الذين لا يعرفون الله ورسوله حق معرفته، ولا يعرفون أمر الدين والشريعة لعدم مخالطة أهل الإسلام لجفاهم وغلظ طباعهم **(وأغاليط اللسان)**، أى الذين اعتادت

أنفسهم الغلط فى وصفهم لله ورسوله، وهو جمع أغلوطة كأعجوبة وهو الغلط الفاحش الذى ينفر عنه الطباع السليمة **(كقول بعض الأعراب)** جمع أعرابى وهو من يسكن البادية من العرب، وكان قاله فى سنة مجدبة:

(رب العباد ما لنا ومالكا   قد كنت تسقينا فما بدا لكا

أنزل علينا الغيث لا أبا لكا)

(فى أشباه لهذا من كلام الجهال) رب العباد منادى مضاف منصوب، أى يارب العباد وحرف النداء محذوف، وهو جائز كثير، والعباد جمع عبد كالعبيد، وقيل: إن الأول فى القرآن للمؤمنين، والثانى للكفار بالاستقراء، والعباد دائما لله، والعبيد له ولغيره ولا يختص بغيره كما قيل، وقوله: مالنا ومالكًا استفهام وألف لكا إطلاق يزاد زيادة مطردة فى الشعر، أى أى شىء كان لك، وأى شأن من شئونك اقتضى منع ما عودتنا من إحسانك، وبين هذا بقوله قد كنت تسقينا إلخ.

أى: عودتنا بإنعامك وإنزال المطر فما سبب تغير الحال، وتسقينا بفتح تاء المضارعة وضمها يقال سقاه وأسقاه بمعنى، وقيل: سقاه أعطاه الماء وأسقاه دل عليه، وقوله: فما بدا لك بمعنى ما ظهر لك منا حتى غضبت علينا ومنعت عوائد فضلك، يقال هذا فى السؤال، ثم جعل عبارة عن تغير الرأى والرجوع عنه والندامة عليه كقوله:

ولو أننى أضمرت فى القلب توبة   وأبصرت هذا فى المنام بدا ليا

ومنه البداء الذى قاله اليهود وهو لا يجوز على الله، فإن كان قصد هذا وكان الاستفهام فيه وفيما قبله إنكاريا فهو جهل منه، والسؤال من أصله منكر، فإنه تعالى لا يسئل عما يفعل، ومالى ومالك تستعمله الناس فى التبرى، وبقوله القوى للضعيف وأنزل أمر، والمراد به الدعاء، والغيث المطر إلا أن الأول يختص بالخير لأنه يغاث به الناس، وقوله: لا أبا لك جاء فى كلامهم كثيرًا للمدح والذم، وأصله دعاء، وهو على خلاف القياس لإعرابه بالحرف وشرطه وقياسه لا أباك.

وقد سمع فيه لا أبا لك ولا أبك أيضًا، وخرج الأول على أن اللام أقحمت بين المضاف والمضاف إليه، فإذا مدح به فمعناه أنت شريف بنفسك من غير حاجة لانتساب وقد روى أن سليمان بن عبد الملك لما سمع هذا حمله على محمل حسن؛ فقال: أشهد أن الله لا أب له ولا صاحبة ولا والد ولا ولد، وهذا الذى قاله الأعرابى على عادتهم فى مخاطباتهم ولم يقصد ظاهره إن كان مسلمًا، فإنه لم يعرف حاله، وقريب منه قول ابن رواحة، رضى الله عنه:

فاغفـــر فـــداء لـك مـا اقتفينا

فإن الفداء لا يتصور فى حق الله أو الكلام تم عند الغيث، وهذا خطاب لمن معه كما قيل فى كلام ابن رواحة، ويقال: لا أبا لك للتعجب، كما يقال للمدح والذم وفيه كلام فى كتب النحو، وقيل: إنه مبنى على الفتح وألفه إشباع إجراء للوصل مجرى الوقف وليس هذا محل تفصيله، والحاصل أنه خاطب الله بما لا يليق به مما هو بحسب ظاهره كفر لكنه ناشئ عن غلظ طبعه وجاهليته إن كان مسلمًا، فإن كان كافرًا فحاله معلوم وجهال جمع جاهل **(و)** من كلام **(من لم يقومه)**، أى يجعله مستقيمًا **(ثقاف)** بكسر المثلثة وقاف وألف وفاء، والثقاف فى الأصل تقويم الرماح والخشب المعوج بالنار ونحوها، يقال: رمح مثقف ثم استعمل فى غيره مجازًا كقوله:

غمرت من الليالى صعدة لم   يقوم ذوها غصن الثقاف

فاستعير لما يؤثر هنا ولما يقيم الإنسان **(تأديب الشريعة والعلم)**، أى تأديبه بتعليمه وإرشاده لما يجب عليه، ومنه قول عائشة فى أبيها، رضى الله تعالى عنهما، أقام أوده ثقافة، أى أصلح أمور المسلمين تدبيره **(فى هذا الباب)**، أى باب السخافة والتهاون والأمور المتعلقة بالله والأول أنسب بقوله **(فقل ما يصدر)** هذا الكلام السخيف **(إلا من جاهل)** بمقامالربوبية، وقوله قل ما إلخ، ما فيها كافة ولذا دخلت على الفعل، وهى على أصلها أو بمعنى النفى، وفيه كلام مشهور فيعذر بجهله لقرب عهده بالإسلام، وكونه من أهل البوادى الذين لم يخالطوا المسلمين فـ**(يجب تعليمه)** ما يجب عليه **(وزجره والإغلاظ له)** بتوبيخه أشد توبيخ **(عن العود لمثله)**، أى لينتهى عنه فإن لم ينته بعد التعليم قتل **(قال أبو سليمان الخطابى وهذا)** الكلام الصادر عن السخفاء **(تهور من القول)** التهور مجاوزة الحد بالوقوع من غير مبالاة فى منكر عظيم، من قولهم: هار البناء إذا سقط وانهار، قال تعالى: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة:١٠٩].

(والله) جل جلاله **(منزه عن هذه الأمور)** السخيفة التى تقدم ذكرها **(وقد روينا عن عون بن عبد الله بن عتبة الهذلى)** الكوفى الزاهد الفقيه المحدث التابعى، توفى فى حدود العشرين ومائة **(أنه قال: ليعظم)** بلام الأمر المكسورة **(أحدكم ربه)** فينزهه عن **(أن يذكر اسمه فى كل شىء)** يذكره مقترنًا به **(حتى يقول أخزى الله الكلب وفعل به)**، أى بالكلب **(كذا وكذا)** من قتل ونحوه.

فإن اقتران الاسم بهذه المحقرات لا يليق، وإن كان ذلك بحسب المعنى صحيحًا، وكذا اسم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كقول العامة ذلك فى بيع أمور حقيرة

كما نبه عليه بعض الفقهاء (**قال: وكان**) عادة (**بعض من أدركنا من مشايخنا**) المالكية بالمغرب (**قلما يذكر اسم الله تعالى**) فى شىء من الأشياء التى لم يذكرها (**إلا فيما يتصل بطاعته**) من أمور الدين والشريعة والعبادة، ولذا لم يضيفوا له الشر والقبائح وخلق المحقرات تأدبًا، وإن كان خالقًا وفاعلاً لكل أمر، فلا يقال خالق الكلاب والقاذورات كما صرحوا به وكان الشبلى، رضى الله تعالى عنه، يشدد إذا سئل عن هذا وينشد:

ويقبح من سواك الفعل عندى وتفعله فيحسن منك ذاكا

(**وكان**) بعض مشايخه (**يقول للإنسان**) إذا دعا له (**جزيت**) ببناء المجهول (**خيرًا**) دون جزاك الله خيرًا، صونًا لاسم الله عن الابتذال كما بين ذلك بقوله (**وقلما يقول جزاك الله خيرًا**) مصرحًا باسم الله تعالى (**إعظاما لاسمه تعالى**) عن ذكره فى غير طاعة كالصلاة والأوراد والذكر (**أن يمتهن**) افتعال من المهانة وهى الابتذال والحقارة، وعد كثرة ذكره حقارة (**فى غير قربة**)، أى فى غير أمر يتقرب به إلى الله من عبادة كما تقدم، والدعاء للمسلمين، وإن كان عبادة لكنه ليس من الطاعات التى فيها تعظيم لله وتعظيم لذكره، ونية اسمه المقدر فى الدعاء يكفى فى وجوده، وكونه عبادة فلا يرد عليه ما قيل: إن الدعاء للمؤمن على خير فعله طاعة مندوبة لقوله تعالى: ﴿**هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ**﴾ [الرحمن: ٦٠].

والقربة أخص من الطاعة، فذكر الله فى الدعاء وإن كان فيه تعظيم له أيضًا إلا أن ذكره فى الصلاة ونحوها أكثر تعظيمًا، إلا أنه لا يخلو من شىء، ولذا قيل: إنه مخالف للسنة المأثورة من التصريح باسمه تعالى فى الدعاء وفى الإيمان، وقوله فى الشروع فى الأفعال وعقب الطعام والشراب الحمد لله؛ فكيف يستدل بفعل بعض مشايخه على ما يخالف السنة فتدبر (**وحدثنا الثقة**)، أى الموثوق به وهذا توثيق لمجهول فلا فائدة فيه.

وقيل: إن تعريفه للعهد، وانظر للإمام أبى بكر بن العربى وسيبويه فى كتابه يقول: قال لى الثقة، يعنى أبا زيد، وما ذكر عمن يأتى ليس حديثًا نبويًا يقدح فيه جهل راويه، وتقدم فى استعمال لفظ الثقة تفصيل للشافعى، رضى الله تعالى عنه، (**أن الإمام أبا بكر الشاشى**) هو وحيد دهره الإمام أبو بكر محمد بن على بن إسماعيل القفال الشاشى، نسبة لشاش مدينة فيما وراء النهر، وهو إمام عظيم له تأليفات جليلة وهو عمدة فى مذهبه.

واختلف فى وفاته، فقيل: سنة ست وستين وثلاثمائة، وقيل: سنة ست وثلاثين، وقيل: إنه كان فى أول أمره معتزليا ثم رجع عن الاعتزال (**كان يعيب على أهل الكلام**) وهو علم أصول الدين (**كثرة خوضهم فيه تعالى**)، أى فى البحث عن ذات الله تعالى، أى

يعده عيبًا، أى ينهى عنه، ومر أن أصل معنى الخوض الشروع فى دخول الماء، ثم استعير للشروع فى الأمور، ويقال: تخاوضوا فى الحديث إذا تفاوضوا فيه، وأكثر ما ورد فى القرآن فيما يذم شرعًا **(وفى ذكر صفاته)**، أى ذكر حقيقة صفات الله تعالى والبحث عنها **(إجلالاً لاسمه تعالى ويقول هؤلاء)** الباحثون عن ذات الله وصفاته **(يتمندلون بالله عز وجل)** تفعل من المنديل وهو خرقة يمسح بها الأيدى وجمعه مناديل، ومنه اشتق فعل فيقال تمدلت وتمندلت وأنكر بعضهم الثانية.

وقال: إنها مولدة غير فصيحة، وهو هنا استعارة للابتذال والامتهان، وقد يقال: إن مراده ذكر ما لا حاجة إليه من المباحث الكلامية، وإلا فكيف ينكر علم الكلام، وقد قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «ستفترق أمتى ثلاثا وسبعين فرقة»، فهذه الفرق الضالة لها اعتقادات باطلة قد يظهرونها ويذكرون لها أدلة فمقابلتهم وإبطال أدلتهم واجب، فكيف يمنع منه مطلقًا فكلام المصنف، رحمه الله تعالى، ليس على إطلاقه، وقد يقال: إن فى قوله يتمندلون التقيد له فافهمه.

(وينزل الكلام فى هذا الباب) الذى وقع فيه مثل ما تقدم فى حق الله، عز وجل، **(تنزيله فى باب ساب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** فيجعل أحكام هذا كأحكامه **(على الوجوه)** السابقة فى المسائل **(التى فصلناها)** فى هذا الكتاب كما تقدم **(والله الموفق)** للصواب.

* * *

(فصل وحكم من سب سائر أنبياء الله تعالى) عز وجل، (وملائكته واستخف بهم)

أى ذكر ما فيه تحقير وإهانة لهم **(أو كذبهم)**، أى نسبهم إلى الكذب **(فيما أتوا به)** عن الله من وحيه **(أو أنكرهم)**، أى اعتقد عدم وجودهم، أو أنكر وجود النبوة والرسالة **(وجحدهم)**، أى أنكر وجودهم عنادًا مع علمه به لبعض اليهود والنصارى **(حكم)** من سب **(نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم)** وقد تقدم تفصيله، وحكم الأول مبتدأ وهذا خبره **(على مساق)**، أى على الحكم الذى سقناه على تفصيل **(ما قدمناه)** عن أئمة الدين فى هذا الكتاب كما سمعته، ثم استدل على أن حكم سائر الأنبياء كحكم نبينا، فقال: **(قال الله تعالى)** عز وجل، فى كتابه الكريم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء: ١٥٠]، من رسل البشر، ورسل الملائكة ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء: ١٥٠]، إيمانًا وكفرًا لقوله ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ﴾ منهم ﴿وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ كاليهود كفروا بعيسى ومحمد، عليهما السلام، والإنجيل

والقرآن، والنصارى كفروا بمحمد، عليه الصلاة والسلام، والقرآن **(الآية)**، أى اذكر الآية أو اقرأها إلى آخرها يعنى ﴿**وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ**﴾ [النساء:١٥٠،١٥١]، فهذه الآية وما بعدها تدل على أن الإيمان لا يكون إيمانًا مخلصًا من الخلود فى النار إلا إذا آمنوا بالله، عز وجل، وبجميع رسله وكتبه وما جاءهم من الوحى من عند الله فمن، آمن ببعض وكفر ببعض كمن لم يؤمن بشىء أصلاً.

(وقال تعالى) عز وجل: ﴿**قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا**﴾ [البقرة:١٣٦] من القرآن وغيره من الأحكام ﴿**وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ**﴾ من الصحف وغيرها **(الآية)** من قوله: ﴿**وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ**﴾ [البقرة:١٣٦]، **(وقال:** ﴿**كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ**﴾) [البقرة:٢٨٥]، فهذه الآية صريحة فيما قاله **(قال مالك فى كتاب)** عبد الملك **(ابن حبيب ومحمد)** بن سحنون **(وقاله ابن القاسم وابن الماجشون وابن عبد الحكم وأصبغ وسحنون)** تقدمت تراجم هؤلاء **(فيمن شتم الأنبياء أو أحدًا منهم)**، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

(أو انتقصه)، أى نسب أحدًا منهم لشىء من النقص بما لا يليق به **(قتل ولم يستتب)** فإن تاب لم تنفعه توبته لأن حده القتل **(ومن سبهم)**، أى الأنبياء أو أحدًا منهم **(من أهل الذمة)** كاليهود والنصارى **(قتل إلا أن يسلم)** فلا يقتل؛ لأن الإسلام يجب ما قبله وفيه تألف لغيره **(وروى سحنون عن ابن القاسم: من سب الأنبياء)** صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، **(من اليهود والنصارى بغير الوجه الذى به كفر)** ككون المسيح ابن الله والعزير ابن الله **(ضربت عنقه)** ولا يستتاب لأنه لم يعاهد عليه **(إلا أن يسلم)** طوعًا منه كما قيد به فى المبسوطة **(وقد تقدم الخلاف)** بين أئمة الدين **(فى هذا الأصل)**، أى من سب الله بغير الوجه الذى به كفر يستتاب أم لا.

(وقال القاضى بقرطبة سعيد بن سليمان فى بعض أجوبته) عن هذه المسألة **(من سب الله تعالى)** عز وجل، **(وملائكته قتل)** لجرأته على الله وملائكته **(وقال سحنون: من شتم ملكًا من الملائكة فعليه القتل)** لأنهم عباد مكرمون بررة مبرءون من النقائص **(وفى** كتاب **(النوادر)** لابن أبى زيد ، رحمه الله تعالى، **(عن مالك)** بن أنس **(فيمن قال: إن جبريل)**، عليه الصلاة والسلام، **(أخطأ بالوحى)** الذى أتى به لمحمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، فوضعه فى غير محله وقال **(وإنما النبى)** الذى أمر جبريل، عليه الصلاة والسلام، بإنزال الوحى عليه **(على بن أبى طالب)** كرم الله وجهه، لا محمد، صلى الله تعالى عليه

وسلم، (**استتيب**)، أى عرضت عليه التوبة عما قاله (**فإن تاب**) لم يقتل (**وإلا**)، أى إن لم يتب (**قتل**) لكذبه على جبريل ونسبته للخطأ، وهو لا يفعل إلا ما يؤمر به.

(**ونحوه عن سحنون**)، أى مثل مافى النوادر روى عن سحنون (**وهذا**)، أى نسبة الخطأ لجبريل (**قول الغرابية**) هم طائفة من الرافضة قالوا: علىّ أشبه بمحمد من الغراب بالغراب كما بينه بقوله (**من الروافض سموا بذلك**)، أى بالغرابية (**لقولهم كان النبى**) ﷺ (**أشبه بعلىّ**)، أى أشد شبهًا (**من الغراب بالغراب**) والذباب بالذباب، فلذا غلط جبريل، عليه السلام، فى تبليغ الرسالة لعلى إلى محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويسمون جبريل ذا الريش، قيل: وهذا مقيد بغير اليهود، فإنهم صرحوا بعداوة جبريل كما رواه الترمذى عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، «أن اليهود قالوا له: لكل نبى من الأنبياء ملك يأتيه برسالة ربه فمن صاحبك حتى نتبعك، قال: جبريل؛ فقالوا: هو ينزل بالحروب والقتال وهو عدونا فلو قلت ميكائيل الذى يأتى بالقطر والرحمة اتبعناك؛ فأنزل الله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ [البقرة:٩٧]، الآية.

(**وقال أبو حنيفة وأصحابه**) ممن هو على مذهبه كمحمد وغيره بناء (**على أصلهم**) أى قاعدة مذهبهم، (**من كذب بأحد من الأنبياء**)، أى قال: بأنه كذب لا أصل له وجحده، (**أو تنقص أحدًا منهم**)، أى نسب له ما فيه نقص له، (**أو برئ منه**)، أى من محبته والإيمان به، (**أو شك فى شىء من ذلك**) فقال: لا أتحققه، (**فهو مرتد**) فحكمه حكم المرتد فى مذهبه، وقد تقدم.

(**وقال أبو الحسن القابسى**) الذى قدمنا ترجمته (**فى**) الرجل (**الذى قال لآخر**) ممن يكرهه (**كأنه**)، أى كأن وجهه (**وجه مالك**) خازن النار (**الغضبان**) الذى يظهر الغضب والعبوس، وإنما تشبيهه به فى لزوم الغضب، وهذا تخيل فاسد، وإلا فهو منشرح للقيام بما أمره الله به، وقيل: إنه أطلق اسم البعض على الكل مبالغة، (**لو عرف**) من حال القائل (**أنه قصد ذم الملك قتل**)، فإن لم يعلم ذلك لم يقتل، لتصوره أن غضبه امتثالاً لأمر ربه فى معاملة أهل جهنم بذلك، كالسجان المشدد على من فى سجنه بأمر الملك، وهذا مذهب مالك وأبو حنيفة، وأما عند الشافعى ففيه خلاف فى كتبهم.

(**قال القاضى أبو الفضل**) عياض مصنف هذا الكتاب، رحمه الله تعالى، (**وهذا كله**)، أى ما ذكر فى هذه المسائل (**فيمن تكلم فيهم**)، أى فى الأنبياء والملائكة (**بما قلناه**) فيما تقدم (**على جملة الملائكة والنبيين**)، أى بمجموعهم لا جميعهم، (**أو**) تكلم بما قلناه (**على**) واحد (**معين**) منهم (**ممن حققنا**)، أى بيناه وأثبتنا فيما تقدم (**كونه من الملائكة والنبيين ممن نص الله عليه فى كتابه**) بذكر اسمه صريحًا فى القرآن (**أو حققنا علمه**) بأنه منهم (**بالخبر**

المتواتر) الذى لا يقبل الكذب **(والإجماع القاطع)** بوجوده (و) الخبر **(المشتهر المتفق عليه)** ممن يعتد به من رواة الحديث وعلماء الدين، وفى نسخة: المشهور، وهو ما رواه جمع كثير لم يبلغوا حد التواتر **(كجبريل وميكائيل)** هما من رسل الملائكة وأيل اسم من أسماء الله تعالى بالعبرانية، ومعنى جبريل عبد الله فجبريل موكل بالوحى وتبليغ أسرار الملكوت، ومكائيل موكل بالأمطار والأرزاق كما مر.

وأحوال الملائكة فصلها السيوطى فى كتاب مستقل سماه «الحبائك فى أخبار الملائك» وهو كتاب جليل **(ومالك)** اسم الملك الموكل بالنار وهو ثابت بالتواتر **(وخزنة الجنة)** جمع خازن كحافظ وحفظة وزنًا ومعنى، وهو الملائكة الموكلون بحفظ الجنة وأهلها (و) خزنة **(جهنم والزبانية وحملة العرش)** وهذا مما علم بنص القرآن والتواتر، أما جبريل وميكائيل فملكان عظيمان مشهوران، وفى حديث رواه الحاكم: «وزيراى من أهل السماء جبريل وميكائيل، ومن أهل الأرض أبو بكر وعمر»(١) ومالك خازن النار ذكره الله فى قوله: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧]، وخزنة الجنة ورد ذكرهم فى أحاديث كثيرة، وخزنة جهنم ذكرهم الله تعالى فى قوله: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا﴾ [التحريم:٦]، وهم تسعة عشر، قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المدثر:٣٠،٣١].

وقال القرطبى: التسعة عشر رؤساؤهم، وعدة الخزنة لا يعلمها إلا الله، وجهنم علم لدار العذاب ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، والزبانية ملائكة العذاب ورد فى الحديث «رأس أحدهم فى السماء ورجله فى الأرض» وهم أعظم من الناس خلقا وأشدهم من زبنه إذا دفعه؛ لأنهم يدفعون الكفار بأيديهم وأرجلهم، وواحده زبنيت كعفريت، أو زبنى كجنى، وقال قتادة: هم الشرط فى كلام العرب، وحملة العرش جمع حامل كخزنة وهم ثمانية قال الله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧].

وورد فى صفتهم وتسبيحهم أحاديث كثيرة، ولم يسم منهم غير إسرافيل **(المذكورين)** بأسمائهم **(فى القرآن من الملائكة)** الذين تقدم ذكرهم وذكر الآيات التى فيها أسماء الملائكة، وفيه ملائكة كثيرة ذكروا بصفاتهم دون إعلامهم **(ومن سمى فيه)**، أى فى القرآن **(من الأنبياء)** كآدم ونوح وإبراهيم وغيرهم **(وكعزرائيل)** وهو ملك الموت ولم يذكر فى القرآن باسمه وذكر فيه ملك الموت **(وإسرافيل)** لم يصرح باسمه فى

(١) رواه الحاكم فى المستدرك (٢٦٥/٢)، وأورده السيوطى فى الحبائك (٢٤)، والدر المنثور (٩٤/١).

القرآن وذكر بصفته.

(ورضوان) بكسر الراء وضمها وبهما قرئ فى القرآن، ومنه نقل علم خازن الجنة سمي به لأنه خازن محل الرضوان، وروى ابن عساكر وغيره فى أسباب النزول: أن المشركين لما عيروا النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالفاقة ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان:٧] الآية، حزن لذلك فنزل عليه جبريل وقال ربك يقرؤك السلام، ويقول لك: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٢٠].

فبينما هو معه رآه ذاب من خوفه؛ فقال: فتح باب من أبواب السماء لم يفتح قبل ثم عاد لحاله؛ فقال له: أبشر هذا رضوان خازن الجنان فسلم رضوان عليه ومعه سفط من نور يتلألأ؛ فقال: يا محمد ربك يقرؤك السلام، ويقول لك: هذه مفاتيح خزائن الدنيا إن شئت خذها ولا ينقص لك منها مقدار جناح بعوضة، فنظر لجبريل كالمستشير له؛ فقال له: تواضع لله، فقال: يا رضوان لا حاجة لى بها؛ فقال له: أصبت أصاب الله بك[1]، ويروى أن رضوان نزل بهذه الآية ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾ [الفرقان:١٠]، وفيه أن من الآيات ما نزل به غير جبريل من الملائكة وهى فائدة غريبة.

(والحفظة) بزنة كتبة جمع حافظ وهم الكرام الكاتبون، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠ - ١٢]، وآيات أخر وهما ملكان أحدهما يكتب الحسنات والآخر يكتب السيئات.

وروى أنه وكل بالإنسان خمسة؛ ملكان بالليل وملكان بالنهار وآخر لا يفارقه ويجتمعون فى صلاة الفجر والعصر، فيسألهم الله: كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: تركناهم يصلون. وأخرج الطبرى من طريق كنانة العدوى أن عثمان، رضى الله تعالى عنه، سأل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن عدد الملائكة الموكلين بالآدمى؛ فقال: «لكل آدمى عشرة بالليل وعشرة بالنهار واحد عن يمينه وآخر عن شماله واثنان من بين يديه ومن خلفه واثنان على جبينه وآخر قابض على ناصيته فإن تواضع رفعه وإن تكبر وضعه، واثنان على شفتيه ليس يحفظان عليه إلا الصلاة على محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، والعاشر يحرسه من الحية أن تدخل فاه» يعنى إذا نام، والأحاديث فى ذلك كثيرة، استوفاها الجلال السيوطى فى كتبه فجزاه الله خيرًا.

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦٣)، والقرطبى فى تفسيره (١٣/٧).

(ومنكر) بضم الميم وفتح الكاف وكسرها خطأ **(ونكير)** بفتح النون وكسر الكاف وهما ملكا السؤال اللذان يأتيان الميت ليسألاه فى قبره كما ورد فى الصحيحين، وقال السيوطى: إن حديث ملكى السؤال متواتر، وذكر من رواه وطرقه. وذكر بعضهم: أن اللذان يأتيان المؤمن يسميان مبشرًا وبشيرًا.

وذكر القرطبى أنه روى أن السائل ملك، وأن السؤال قبل انصراف الناس، وهو معارض لما روى أنهما ملكان، وسؤالهم بعد انصراف الناس، وجمع بينهما بأنهما باعتبار الأشخاص، فمنهم من يأتيه اثنان، ومنهم من يأتيه واحد، ومنهم من يسئل الناس عند قبره حتى لا يستوحش، ومنهم من هو بخلافه، أو اثنان والسائل له أحدهما.

قال السيوطى: وهو الصواب فإن ذكر الملكين هو الوارد فى غالب الأحاديث، وله فى هذين الملكين تأليف مستقل فيه فوائد جمة لا يستغنى عنها طالب علم ذلك **(من الملائكة المتفق)** بين المحدثين **(على قبول الخبر بهما)** مما ورد فى كتب الستة المعتمد عليها **(فأما من لم يثبت الإخبار بتعيينه)** باسمه معينًا **(ولا وقع الإجماع)** من الأمة **(على كونه من الملائكة أو)** لم يقع الإجماع على كونه من **(الأنبياء)**والمرسلين **(كهاروت وماروت فى الملائكة)** وهما علمان أعجميان، وقيل: إنهما مشتقان من الهرت والمرت وهو المفازة والأول أصح لمنع الصرف.

واختلف هل هما ملكان بفتح اللام أو بكسرها؟ سميا ملكين لحسن صورتهما وسيرتهما أو صورتهما، فلا تنافى بين القرائتين والجمع بغيره أقرب وفى الحديث: «أشرفت الملائكة على الأرض فرأوا بنى آدم يعصون؛ فقالوا: ما أجهل هؤلاء بعظمتك يارب؛ فقال الله لهم: لو كنتم مثلهم عصيتم فقالوا: كيف هذا ونحن لا نفتر عن عبادتك، فقال: اختاروا ملكين فاختاروا هاروت وماروت، فركب فيهما شهوة بنى آدم وأهبطهما إلى الأرض ومثلت لهما الزهرة امرأة حسناء فعشقاها و لم يزالا حتى واقعاها، فخيرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختاروا عذاب الدنيا لانقطاعه»[(١)] وهما المذكوران وأنكر بعضهم هذا الحديث لعصمة الملائكة.

وقال الحافظ ابن حجر، والسيوطى كما تقدم: إنه روى من طرق أكثر من عشرين فبلغ الحديث مرتبة الحسن، وقد أفردوه بالتأليف فلا وجه لإنكاره، وتبعهما ابن حجر الهيتمى؛ فقال فى الإعلام بعد سياق كلام المصنف برمته: وهو ظاهر جلى، وبه يعلم خطأ من قال إن ما يحكيه المفسرون فى قصة هاروت وماروت فى آيتهما فى سورة

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان، كما فى الدر المنثور (٩٧/١).

البقرة كفر وليس كما زعم، ولقد وقع بذلك فى ورطة عظيمة وإن كان جليلا، فقد حكى هذه القصة أكابر المفسرين كابن جرير الطبرى، والإمام البغوى وغيرهما، ومن ثمة انتصر لهم بعض المتأخرين من المحدثين، وخروج هذه القصة بأسانيد صحيحه ورد على من خالف فى ذلك، فجزاه الله على ذلك خيرًا انتهى.

وأما عصمة الملائكة فذهب بعض أهل الأصول كما مر إلى أن المعصوم إنما هو رسلهم لا غيرهم كرسل البشر، وعليه حمل قوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، ولك أن تقول: إنه لا يرد، ولو قلنا بعصمة الجميع؛ لأنه بتركيب الشهوة فيهم انسلخوا من الملائكة إلى البشرية، فصار حكمهم حكمهم فى التكليف وغلبة الشهوة البشرية، ولا مانع فى قدرة الله تعالى، أن يصير نوعًا لنوع آخر.

(و) فى الأنبياء **(كالخضر)** تقدم الكلام عليه مفصلاً **(ولقمان)** الحكيم لا لقمان بن عاد، وهو من أهل أيلة، ولد بعد عشر خلت من ملك داود، وفى اسم أبيه خلاف، فقيل: باعور، وقيل: عفار وكان أسود اللون نزع له عرق من أمهاته و لم يكن عبدًا، وقيل: كان عبدًا حبشيًا أو نوبيًا لرجل قصار من بنى إسرائيل اشتراه، وقيل: كان تاجرًا، واختلفوا هل كان نبيًا أورجلاً صالحًا غير نبى.

وقال سعيد بن المسيب: كان نبيًا خياطًا، والأكثر على خلافه، وقال حذيفة بن اليمان: منَّ الله عليه بالحكمة وخزن عنه النبوة، وله كلمات كثيرة فى الحكمة ذكرها فى مرآة الزمان.

(وذى القرنين) كان فى زمن الخليل، عليه الصلاة والسلام، من ولد يافث ابن نوح، وقيل: من ولد مسلم بن سام ولقى الخليل ﷺ فأوصاه بوصايا، واختلفوا فى اسمه على أقوال، فقيل: عبد الله، وقيل: اسكندر، وقيل: وهب، وقيل: الصعب.

واختلف فيه: هل كان نبيًا أم لا؟ والأكثر أنه رجل صالح على دين إبراهيم، وفى تسميته بذى القرنين عشرة أقوال، **فقيل**: لأنه ضربه قومه على جانبى رأسه وهما يسميان قرنين فهلك، **وقيل**: لأنه سار لقرنى الأرض وهما المغرب والمشرق، **وقيل**: لأن جانبى رأسه كالنحاس، **وقيل**: لأنه رأى فى منامه أنه أخذ بقرنى الشمس، فقصه على قومه فسموه به، **وقيل**: لأنه كانت له ضفيرتا شعر فى رأسه والضفيرة تسمى قرنا، وقيل غير ذلك، وقصته مفصلة فى مرآة الزمان، **وقيل**: إنه ملك بفتح اللام والأصح أنه رجل صالح.

(ومريم) ابنت عمران التى قص الله قصتها فى القرآن، واختلف فى نبوتها، والمشهور

أن النبى لا يكون إلا رجلاً ذكرًا ورجح بعض علماء المغاربة أنها كانت نبية وإن الذكورة، إنما تشترط فى الرسول دون النبى؛ لأنه قد لا يؤمر بالتبليغ، ورجحه القرطبى وابن السيد البطليوسى، وليس ببعيد والذى ذهب لنبوتها استدل بكلام الملائكة لها وهو غير مسلم، ومريم علم عبرانى، وقيل: إنه عربى واختلف فى وزنه هل هو فعيل أو فعال؟ **(وآسية)** بالمد قبل سين مهملة ومثناة تحتية وهى امرأة فرعون، وكانت امرأة مؤمنة صالحة، ولم تكن نبية على الصحيح **(وخالد بن سنان المذكور)** فى التواريخ وبعض التفاسير **(أنه نبى أهل الرس)** كان هو وقومه يسكنون عدن، فخرجت بها نار عظيمة أهلكت الضرع والزرع، فالتجأ إليه قومه فى دفعها، فأخذ عصاه وطردها حتى أدخلها مغارة وأطفالها وأمر قومه أن يدعوه ثلاثة أيام بالمغارة، فإنهم إن نادوه قبلها يخرج إليهم ويموت، وإن تركوه خرج إليهم وكشف لهم أحوال البرزخ.

وكان أوحى إليه أنه سيطلعه عليها إن مكث بالمغارة ثلاثة أيام، فاستزلهم الشيطان حتى نادوه قبلها، وصاحوا فخرج إليهم ورأسه متألمة من صياحهم، وقال لهم: أضعتمونى إذ لم تعملوا بوصيتى، وأخبرهم بموته وأمرهم أن يتركوه أربعين يومًا حتى يروا قطيع غنم يؤمها حمار أبتر الذنب، أى مقطوعه، فإذا رأوا ذلك نبشوا قبره ليخرج إليهم ويخبرهم بأحوال البرزخ، فلما تم ميقاته رأوا القطيع فأرادوا نبش قبره ليخبر بالبرزخ، فأبى أولاده نبش قبره مخافة أن تعيرهم العرب بذلك وتسميهم أولاد المنبوش، فضيعوا وصيته لغيرة جاهلية منهم؛ فلما بعث رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، جاءته ابنته وأخبرته بأنها ابنته، فقال لها: «مرحبا بابنة نبى ضيعه قومه»، وهو من بنى عبس.

وقد اختلف فى قصته هذه، فذكرها الراغب وابن عربى فى فصوصه وغير واحد من المحدثين، وقيل: إنه لا أصل لها، واستدل بما رواه البخارى فى صحيحه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم، والأنبياء أولاد علات، ولا نبى بينى وبينه»[1]. فهذا الحديث الصحيح ينافيه، وهو أرجح منه إلا أن ابن حجر، قال: إن حديث خالد رواه الحاكم فى مستدركه وله طرق أخر تقتضى أنه غير موضوع كما قيل، وجمع بينهما بأن قوله: «لا نبى بينى وبينه»، المراد به نبى صاحب شريعة، وأقرب منه أن يقال: إنه كان وعد بالنبوة لو تم أمره الذى وصى به قومه ولم يتم فلم يكن نبيًا كما يشير إليه، قوله فى الحديث: «ضيعه قومه».

---

(١) أخرجه البخارى (٣٤٤٢، ٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥/١٤٣)، وأبو داود (٤٦٧٥)، وأحمد (٣١٩/٢، ٤٣٧)، والحاكم (٥٩٢/٢).

فإن قلت: فما فائدة هذا الوعد حينئذ؟

قلت: فائدته إعلامهم بحقيقة أمر البرزخ والإرهاص ببعثة نبينا الذى كشف بعض أحواله، والرس براء مفتوحة وسين مشددة مهملتين، وهى بئر لم تطو، أى لم تبن بالحجارة، وعن كعب الأحبار أن نبى أهل الرس هو المذكور فى سورة يس القائل ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧]، وأن قومه قتلوه وطرحوه فى بئر يقال لها الرس بأنطاكية، وهو حبيب النجار على القول بنبوته.

وعن على، كرم الله وجهه، أنهم قوم كانوا يعبدون شجرة صنوبر فدعا عليهم نبيهم، وكان من أولاد يهوذا فيبست الشجرة فقتلوه ودسوه فى بئر، فأظلتهم سحابة سوداء أحرقتهم، وقيل: إنه كان بأذربيجان، وفى أصحاب الرس أقوال أخر فى التفاسير، ومثل الكلام فى خالد بن سنان الكلام فى حنظلة بن صفوان **(وزرادشت الذى تدعى المجوس ويذكر المؤرخون نبوته)**.

قال البرهان: زرادشت بزاء معجمة مفتوحة وراء مهملة، وألف ودال مهملة مفتوحة، وشين معجمة ساكنة وتاء مثناة فوقية، هو صاحب كتاب المجوس هذا هو المحفوظ، وقيل: الزاء المعجمة فى أوله مضمومة انتهى، وقيل: داله مضمومة، وقيل: إنها معجمة، وقيل: إنه كان نبيًا حرفوا شريعته والمجوس تزعم أنه نبى، وهم قوم من الكفار الذين قالوا بالنور والظلمة، ومنهم المانوية ولهم أصول فاسدة، وكان زرادشت حكيمًا ظهر فى زمن مستأسف بن مهران، واختلف فى المجوس هل لهم شريعة، وكتاب أم لا؟ والكلام فيهم، وفى أخذ الجزية منهم مفصل فى كتب الفقه.

تنبيه: قال نجم الدين الطوفى الحنبلى فى تفسيره بعد ما ذكر كلام المصنف، رحمه الله تعالى: زرادشت متفق على نبوته، وهو من طبقة مانى ومرذل فلا شىء فى سبه ولعنه فهذا إما وهم من القاضى أو رأى غريب جدًا. انتهى.

أقول: قال الشهرستانى فى الملل والنحل: زرادشت حكيم مجوسى ظهر فى زمن موسى عليه الصلاة والسلام من أذربيجان، وهو كما تزعم الصابئة نبى مرسل دينه عبادة الله، والكفر بالشيطان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والخبائث، وقال: النور والظلمة أصلان متضادان كيزدان، وأهرمن وهما مبدأ موجودات العالم حدثت التراكيب من امتزاجهما، والنارى خلق النور والظلمة، وإنما حدثت الشرور والخبائث من امتزاجهما، وهو أى مزجهما لحكمة، وهو واحد لا شريك له، وله كتاب سماه

زندرستا صنفه، وقيل: إنه نزل عليه انتهى.

ومنه تعلم أنه من قوم من الصابئة لكنه أقرب إلى الحق من بقيتهم، وترك سبه أولى؛ لأنه موحد، ولعل المجوس حرفوا ما نقلوه عنه، وفى كلام المصنف، رحمه الله تعالى، إيماء لهذا، ثم رأيت ما ذكره القاضى فى كتب ساداتنا الشافعية، وأنه كان أنزل عليه كتاب ثم رفع ومنه يعلم صحة ما فى الشفاء، وإن ما قاله الطوفى غير مسلم، وما كل داء يعالجه الطبيب فاعرفه **(فليس الحكم فى سابهم)** أى من سب هؤلاء المختلف فى نبوتهم وملكيتهم **(والكافر بهم)**، أى من أنكرهم أو أنكر نبوتهم وملكيتهم.

(كالحكم فيمن قدمناه) ممن اتفق على أنه نبى أو ملك **(إذ لم يثبت لهم)** أى لهؤلاء المختلف فيهم **(تلك الحرمة)** أى الاحترام لرفعة مقامهم ووجوب تعظيمهم وتوقيرهم **(ولكن يزجر)** أى يمنع بزجر وتغليظ المقال له **(من تنقصهم)** أى من ذكر ما فيه ذم ونقص لهم **(وآذاهم)** أى ذكر ما فيه أذية لهم **(ويؤدب)** أى يعزر بما يليق به من ضرب وحبس ونحوه من أنواع الإهانة **(بقدر حال المقول فيهم)** على قدر مراتبهم فى الشرف يكون مقدار الزجر، والتأديب مفوضًا لرأى الحاكم **(لاسيما)** أى أحق بذلك وأولى من تكلم فى حق **(من عرفت صديقيته)**.

والكلام على سيما تقدم وشهرته تغنى عن إعادته، والصديقية بكسر الصاد، وتشديد الدال المهملتين وياء تحتية ساكنة، وقاف تليها ياء نسبة، وهى صيغة مبالغة من الصدق ضد الكذب، وهو معروف.

قال الراغب: الصديق من كثر منه الصدق، وقيل: هو من صدق بقوله واعتقاده، وحقق صدقه بفعله، قال تعالى فى حق إبراهيم، عليه الصلاة والسلام: ﴿**إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا**﴾ [مريم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿**فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ**﴾ [النساء: ٦٩] فهم قوم دون الأنبياء فى الفضيلة انتهى.

أى من عرف معظم تصديقه بالله وآياته وشرائعه، **(و)** من عرف **(فضله منهم)**، أى ممن ذكر آنفًا، **(وإن لم تثبت نبوته)**، أى كونه نبيًا بنص معلوم، لكنه علم فضله وصديقيته، فإنها كافية فى لزوم توقيره، كمريم وآسية، **(وأما إنكار نبوته)**، أى نبوة من لم يتفقوا على أنه نبى، **(أو)** إنكار **(كون الآخر من الملائكة)**، المتفق على ملكيتهم، كجبريل مثلاً، وفى هذا تفصيل، **(فإن كان المتكلم فى ذلك)** المقول فى حقهم ما تقدم من تنقيص، أو إنكار **(من أهل العلم)** العالمين بما قاله علماء السلف الثقات.

(فلا حرج)، أى لا إثم عليه ولا تضييق عليه لعلمه بما يقوله نقلا عنهم **(لاختلاف**

العلماء) المجتهدين والمؤلفين المعول عليهم **(فى ذلك)** المذكور من كونهم أنبياء أو ملائكة أو لا **(وإن كان)** الذى ذكرهم بما تقدم من إنكار ونحوه **(من عوام الناس)** الذين لم يعلموا ذلك و لم يتلقوه عن أهله **(زجر)** وردع بمنعه **(عن الخوض فى مثل هذا)** أى التكلم والمحادثة به، وأصله المشى فى الماء غير العميق فاستعير للتلبس بالأمر والتصرف فيه، أى نهى ومنع عنه، وعن المجادلة فيه، والتكلم فيما لا يعنيه، وهو الأمر الذى فيه خلاف من غير علم به، لأنه ليس إهلاله فقد يقع فى ورطة تجره لما يصعب عليه الخلاص منه، ولذا استعار له الخوض الذى هو المشى فى الماء على سبيل الكناية والتخييل فيه، الخائض فى الماء لا يرى ما يمشى عليه من الأرض، فربما صادف ماء عميقًا بغتة فيغرق، ولذا خصت هذه الاستعارة بما لا يحمد من الكلام كما مر.

(فإن عاد) للتكلم و لم ينته بالزجر **(أدب)** بضرب ونحوه؛ لأن إصراره على التكلم فى مثله دليل على أنه متهاون بمن لا يليق به إلا تعظيمه، ويكون تأديبه بحسب المقول فيه كما مر **(إذ ليس لهم)** أى للعوام **(الكلام فى مثل هذا)** لعدم أهليتهم واحتياج الناس لكلامهم **(وقد كره السلف)** أى من تقدم من أئمة الدين الأعلام **(الكلام فى مثل هذا)** الأمر الذى اختلف فيه **(بما ليس تحته)** أى فى معناه وما يدل عليه، فكأنه أمر يجب ستره **(عمل)** من أعمال العبادة والطاعة فتركه لا يفوت به شيء، وذكره لا يترتب عليه أمر من الطاعة **(لأهل العلم)** متعلق بقوله كره **(فكيف بالعامة)** الذين لا علم عندهم فهم أحق بالكراهة والمنع من الخوض فى مثله، والتكلم فيه فـ «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»(١).

ولذا قال، صلى الله تعالى عليه وسلم لمعاذ: «من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله صادقًا حرمه الله على النار»، فقال معاذ: أبشر الناس بهذا، فقال: «لا، إذن يتكلوا»(٢)، أى يتركوا العمل والعبادة لأمنهم من العذاب فليس للوعاظ، والعلماء الإكثار من الترغيبات فى العفو ومنه الحكمة المسكوت عنها التى ذكرها المشايخ.

* * *

(فصل)

(اعلم أن من استخف بالقرآن) أى تهاون بتعظيمه وتوقيره **(أو المصحف)** بضم الميم، وكسرها ونقل فيه التثليث وهو مجمع الصحف، من أصحف إذا جمع وهو

(١) أخرجه أحمد (١/٢٠١)، والترمذى (٢٣١٨)، وعبد الرزاق (٢٠٦١٧)، وأبو نعيم فى حلية الأولياء (١٠/١٧١)، والبغوى فى شرح السنة (١٤/٣٢٠).
(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٤/٤١١).

مخصوص بالقرآن (**أو**) استخف (**بشيء منه**) كبعض أجزائه، قال ابن حجر: ومن الاستخفاف به إلقاؤه فى القاذورات لغير عذر ولا قرينة تدل على عدم الاستهزاء وإن ضعفت، والمراد بها النجاسات مطلقًا، بل والقذر الطاهر أيضًا كما صرح به بعضهم، وكإلقاء المصحف بالقذر ونحوه تلطيخ الكعبة، وغيرها من المساجد بنجس، ولو قيل: إن تلطيخ الكعبة بالقذر الطاهر كذلك لم يبعد إلا أن كلامهم ربما يأباه، وإلقاء المصحف فى المكان القذر، كإلقائه فى القاذورات. انتهى ملخصًا.

(**أو سبهما**) أى سب القرآن أو شيئًا منه، والمراد به ألفاظه، والمراد بالمصحف صور ألفاظه المرسومة، وما كتبت فيه (**أو كذب به**)، أى كذب بالقرآن بتكذيب ما فيه (**أو جحده**) أى أنكره بغيًا، وعنادًا، والفرق بين التكذيب والجحد أن الأول مطلق الإنكار، والثانى الإنكار لما يعلم حقيقته عنادًا (**أو جزأ منه**) أى كذب أو جحد جزأ من القرآن كإنكار سورة منه.

(**أو آية**)، أى أنكر آية منه ومر أنه لا ترد الزيادة أو النقص الواقع فى القراءات، فإنه وقع زيادة بعض حروف وكلمات فيها، بل آيات كالبسملة فى الفاتحة، فإنه ليس زيادة ونقصًا من القارئ لتواتره، فإن ما بين دفتى المصحف متواتر (**أو كذب به**) أى بجزء منه ملفوظ أو مكتوب (**أو**) كذب (**بشيء منه**) أى مما تضمنه من الأحكام وغيرها أو كذب بشيء مما صرح به كبعض الرسل المصرح بهم (**فيه من حكم**) من أحكامه الشرعية كالصلاة والزكاة، والحج، والعمرة (**أو خبر**) مما أخبر به كإباء إبليس السجود لآدم، عليه الصلاة والسلام، وغيره.

(**أو أثبت ما نفاه**) القرآن (**أو نفى ما أثبته**) كنفى بعض الخوارج سورة يوسف، وقولهم: إنها ليست قرآنا (**على علم منه بذلك**) المذكور من النفى والإثبات بخلاف ما أثبته أو نفاه على غير علم (**أو شك في شيء من ذلك**) المذكور كله (**فهو كافر**) بسبب ما صدر منه (**عند أهل العلم بإجماع**) من أهل العلم المعتد بهم، ثم استدل على ما ذكر فقال: (**قال الله تعالى ﴿وَإِنَّهُ﴾**)، أى القرآن المذكور فى قوله: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ**﴾ [فصلت: ٤١].

﴿**لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ**﴾ [فصلت: ٤١]، أى منيع محمى بحماية الله كما قال: ﴿**إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩]، ﴿**لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ**﴾ [فصلت: ٤٢]، هو مثل ضربه الله لنفى تعلق الإبطال، وأنه لا يتوصل إليه فلا يجد طعن طاعن إليه سبيلا، لأنه فى غاية الإحكام والرصانة فلا يتطرق الباطل له من جهة من الجهات، فقوله: ﴿**مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ**﴾، كناية عن سائر

الجهات، كما فى الكشاف وتحقيقه فى شروحه، والباطل فسرها بالشيطان والسحر.

(**ثنا**) اختصار حدثنا، وقد يكتفى برسم نا كما بين فى مصطلح الحديث وهو أشهر من أن يذكر (**الفقيه أبو الوليد هشام بن أحمد**) تقدم بيانه، قال: (**حدثنا أبو على**) الحافظ الغسانى الثقة، وقد تقدم، قال: (**حدثنا ابن عبد البر**) النمرى الحافظ إمام أهل المغرب بل الدنيا. كما تقدم.

(**قال: حدثنا ابن عبد المؤمن**) هو عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن القرطبى وله ترجمة مفصلة فى الميزان، قال: (**حدثنا ابن داسة**) بمهملتين مفتوحتين الإمام أبو بكر راوى سنن أبى داود عنه كما تقدم تفصيله، قال: (**حدثنا أبو داود**) سليمان بن الأشعث السجستانى صاحب السنن وقد قدمنا ترجمته، قال: (**حدثنا أحمد بن حنبل**) إمام أهل السنة كما تقدم، قال: (**حدثنا يزيد بن هارون**) أبو خالد السلمى الواسطى أحد الأعلام كما تقدم، قال: (**حدثنا محمد بن عمرو**) بن علقمة بن أبى وقاص الليثى، أخرج له الشيخان وغيرهما توفى سنة مائة وأربعة وأربعين (**عن أبى سلمة**) أحد الفقهاء السبعة عند بعضهم، وفى اسمه اختلاف تقدم فى ترجمته.

(**عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**) فى حديث صحيح رواه أبو داود وأحمد فى مسنده.

(**قال**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**المراء**) بكسر الميم وراء مهملة قبل مد مصدر ما رآه يماريه مراء من المرية، قال الراغب: هى التردد فى الأمر وهى أخص من الشك، قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ [السجدة:٢٣]، والامتراء والمماراة المحاجة فيما فيه مرية، قال تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢]، وأصله من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها للحلب انتهى.

(**فى القرآن كفر**) وفى رواية أبى داود: «لا تمار فى القرآن، فإن المراء فيه كفر»(١)، (**تأول**) بضم المثناة الفوقية والهمزة وبواو مشددة ولام مجهول، تأوله، أى فسره بعضهم (**بمعنى الشك و**) فسره آخرون (**بمعنى الجدال**) الشك معلوم والجدال من الجدل، وهو النزاع والمغالبة من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله كأن كل واحد يفتل صاحبه عن رأيه، أى يصرفه، وقيل: أصله الصراع لإسقاط كل إنسان صاحبه على الجدالة وهى الأرض

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٠٠)، وأبو داود (٤٦٠٣)، وابن حبان (٥٩،١٧٧٩)، وأبو نعيم فى الحلية، (٨/٣١٣)، والطبرانى فى الكبير (٥/١٦٩).

الصلبة، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود:٣٢] ونحوه.

قال الراغب: وفى نهاية ابن الأثير تبعًا للهروى: المراء الجدال والتمارى، والمماراة المجادلة على مذهب الشك والمرية، ويقال للمناظرة: مماراة؛ لأن كل واحد يستخرج ما عند صاحبه ويمتريه كما يمترى الحالب اللبن من الضرع.

وقال أبو عبيد: ليس وجه الحديث عندنا على الاختلاف فى التأويل، بل على الاختلاف فى اللفظ، وهو أن يقرأ شخص على حرف فيقول الآخر ليس هو هكذا لكنه على خلافه، وكلاهما منزل مقروء به، فإذا جحد كل واحد قراءة صاحبه لم يؤمن أن يكون ذلك أخرجه إلى الكفر؛ لأنه نفى حرفًا أنزله الله على نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى تنكير لفظ مراء فى رواية أبى داود إيذانا بأن شيئًا ما منه كفر فضلاً عما زاد عليه، وقيل: إنما جاء هذا فى الجدال والمراء فى الآيات التى فيها ذكر القدر ونحوه مما هو على مذهب أهل الكلام والأهواء والآراء دون ما تضمن الأحكام من الحلال والحرام؛ فإنه مما جرى بين الصحابة والعلماء من بعدهم، والغرض الباعث عليه ظهور الحق ليتبع دون الغلبة والتعجيز انتهى.

وقيل: الأظهر أن المراد بالمراء الاختلاف فى القراءات المتواترة كما فى البخارى ولا يخفى أنه القول الأول بعينه فلا وجه لعده وجهًا آخر **(وعن ابن عباس)** رضى الله تعالى عنهما، فى حديث رواه ابن ماجه **(عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** أنه قال: **(من جحد)**، أى أنكر **(آية من كتاب الله من المسلمين)** الذين لم يقرب عهد إسلامهم **(فقد حل ضرب عنقه)**، أى قتله لتكذيبه لله ورسوله.

(وكذلك)، أى مثل من جحد آية من القرآن فأوجب ذلك قتله **(إن جحد التوراة والإنجيل و)** سائر **(كتب الله المنزلة)** بجملتها إجمالا **(أو كفر بها)** بإنكار نزول الوحى على الرسل **(أو لعنها أو سبها)** بكل ما ينقصها **(أو استخف بها)**، أى أهانها وحقرها **(فهو كافر)** لأنها كلها كلام الله تعالى، سواء قلنا بالكلام النفسى أو بقدم الألفاظ على مذهب السلف، والشهرستانى صاحب الملل والنحل على ما نقله عنه فى المواقف، وارتضاه المحققون.

(وقد أجمع المسلمون على أن القرآن المتلو)، أى المقروء بألسنتنا **(فى جميع أقطار الأرض)**، أى نواحيها وجهاتها المعمورة جمع قطر بضم فسكون بمعنى ناحية وجانب **(المكتوب فى المصحف)** وفى نسخة: فى المصاحف **(بأيدى المسلمين مما جمعه الدفتان)** مثنى دفة بفتح الدال المهملة وضمها، وهو جانب الشىء الذى يقيه من جلد وخشب

ونحوه، ومنه دفة السفينة لسكانها وروى فيه الدفات بالجمع مكان التثنية.

(من أول الحمد لله رب العالمين إلى آخر قل أعوذ برب الناس)، أى من أول هذه السورة فإنه علم لها بالغلبة، يقال: قراءة الحمد لله، أى هذه السورة فهو شامل لمن قال: إن البسملة آية منها ولمن قال بخلافه على الخلاف المشهور فيها، وهذا كما قيل فى حديث: «كانوا يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين»، أنه اسم من أسماء سورة الفاتحة، أى كانوا يفتتحون السورة المسماة بالحمد لله آه فلا حجة فيه على أن البسملة ليست آية منها ومثله عبارة المصنف، فلا وجه لما قيل من أنه بناء على مذهب مالك من أن البسملة ليست آية منها؛ فإن العبارة جارية على المذهبين، ويجوز فى قوله الحمد لله رب الجر، والرفع على الحكاية.

وكذا النصب على حكاية قراءة شاذة فيه، قيل: ويجوز كون كسر الدال اتباعًا للام **(أنه كلام الله تعالى ووحيه المنزل)** به جبريل، عليه الصلاة والسلام، **(على نبيه محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأن جميع ما فيه حق)**، أى ثابت لا ريب فيه لفظا ومعنى من أمر ونهى وخبر ومواعظ **(وأن من نقص منه حرفًا قاصدًا لذلك)** فإن لم يقصده لنسيان ونحوه، فلا حرج فيه **(أو بدله بحرف آخر مكانه)** هو كناية عن أنه أسقط ذلك وأثبت هذا **(أو زاد فيه حرفًا)** لم يقرأ به **(مما لم يشتمل عليه المصحف)** العثمانى المسمى بالإمام **(الذى وقع الإجماع)** من الصحابة **(عليه وأجمع)** ببناء المجهول، وقيل: أجمع مبنى للفاعل بمعنى قصد وعزم **(على أنه ليس من القرآن)**، أى مازاد فيه ولو حرفًا **(عامدًا)** بالقصد **(لكل هذا أنه كافر)**.

فإن قلت: ما بين الدفتين يشمل البسملة فى أول كل سورة فإنها ثابتة فى المصحف العثمانى، وبها قرأ بعض القراء السبعة فصلاً ووصلاً فيلزم تكفير من قال: إنها ليست قرآنًا فى أوائل السور.

قلت: المراد بما بين الدفتين ما أثبت فيه متفقا على قرآنيته وهذا ليس كذلك، فهو كأسماء السور، وهذا معلوم من قوله الذى وقع الإجماع عليه فخرج ما ذكر، والمراد بتبديل القرآن بغيره تبديله مع اعتقاد أنه قرآن فلا يدخل فيه من يترجم القرآن بالفارسية ويصلى به لعجزه عن التكلم بالعربية، كما فى رواية عن أبى حنيفة، فإن المترجم لا يقول أن كلامه قرآن وكلام الله تعالى، وهذا مع ظهوره خفى على بعض الشراح حتى أجاب بأن أبا حنيفة رجع عن هذا القول وهو مما يقتضى منه العجب.

ولو كان كذلك كان حكمًا بكفر قائله قبل الرجوع فتدبر **(ولهذا)**، أى لأجل أن

جميع ما فى المصحف حق، وأن من زاد فيه أو نقص كافر (**رأى**) الإمام (**مالك قتل من سب عائشة**) أم المؤمنين، رضى الله عنها، (**بالفرية**) بكسر الفاء مصدر، أى الافتراء والكذب عليها بما قاله المنافقون فى قصة الإفك المشهورة وتعريف الفرية للعهد، (**لأنه خالف القرآن**)، الذى أثبت فيه براءتها من تلك الفرية، (**ومن خالف القرآن**) عمدًا (**قتل، أى لأنه كذب بما فيه**) فكذب الله ورسوله مع إثبات ما ينقص مقام النبوة كما لا يخفى.

وقد اعترض على هذا المنقول عن مالك فى حق عائشة، فإنه لا يعم مدعى ودليلا بأنه إن أراد بتكذيب القرآن فيه أنه كذبه حيث قذف عائشة فلا نص فيه على ذلك؛ لأن خصوص السبب غير معتبر فى تخصيص الحكم، وإن أراد أن مخالفة القرآن بارتكاب ما صرح به فيه من النهى فيلزم تكفير كل من ارتكب كبيرة ورد فى القرآن النهى عنها وليس كذلك، إلا أن يستحل ما ارتكبه بعد العلم به مع أنه قد صرح فى الآية بأنه يخلد على أنه لو سلم أنه كفر، يكون حكمه حكم المرتد، فإن أسلم لا يقتل، وجوابه أن هذا مخصوص بعائشة عند مالك.

قال القرطبى: من سب عائشة، رضى الله تعالى عنها، مطلقا كفر لقوله، عز وجل: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧]، لأن فيه أذية لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بهتك عرض زوجاته فهو كفر.

قال هشام بن عمار: سمعت هذا من مالك، وقال أبو بكر بن العربى: قال أصحاب الشافعى: من سب عائشة أدب كسائر المؤمنات، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، لا يقتضى كونه كفرًا حقيقة، كحديث: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن»[1]، ولنا أن أهل الإفك رموا عائشة المطهرة بفاحشة برأها الله منها، ومن سب من برأه الله بما برأه منه فقد كذبه، ومن كذب الله فهو كافر وهذا طريق قول مالك.

وقيل عليه: إن ما نقله ابن العربى عن الشافعية ليس كذلك فإنه صرح فى شرح الروض بخلافه، وأن مذهبهم كمذهب مالك فى خصوص عائشة، وقال فى الكافى أيضًا ولو قذف عائشة بالزنا صار كافرا بخلاف غيرها من الزوجات؛ لأن القرآن العظيم نزل ببراءتها، وسيأتى أيضًا حكم قذف غيرها فى كلام المصنف، رحمه الله تعالى، نقلاً عن ابن شعبان.

(**وقال ابن القاسم**) من أئمة المالكية (**من قال: إن الله تعالى لم يكلم موسى تكليمًا**

---

(١) تقدم تخريجه.

يقتل)؛ لأنه كذب الله في قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، وأتى بالمصدر المؤكد تلميحًا للآية وإيماء إلى أنه نص فيه بما يمنع عن تأويله، وحمله على التجوز فيه، وهذه المسألة تقدمت في نفي صفات الله تعالى، فلا تكرار في كلامه.

(وقاله)، أي ما ذكر من نفي تكليم الله لموسى **(عبد الرحمن بن مهدى)** ابن حسان أبو سعيد البصرى اللؤلؤى الحافظ، أحد الأعلام في الحديث، قال ابن المديني: كان أعلم الناس بالحديث، ولد في سنة خمس وثلاثين ومائة، وتوفي سنة ثمان وتسعين ومائة، وأخرج له الستة.

(وقال محمد بن سحنون فيمن قال المعوذتان) بكسر الواو المشددة وهما سورة، ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١] سميتا بأولهما **(ليستا)**، أي السورتان **(من كتاب الله)**، أي القرآن **(يضرب عنقه)**، أي يقتل **(إلا أن يتوب)** فيرجع عما قاله، وهذا إشارة إلى ما اشتهر عن ابن مسعود من أن المعوذتين ليستا من القرآن وإنهما دعاءان كان يتعوذ بهما النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، كقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أعوذ بكلمات الله التامة من كل هامة ولامة»(١).

وقد قال ابن حزم: إنه افتراء عليه، وكيف يتوهم في مثله من أهل اللسان من عدم الفرق بين الكلام المعجز وغيره، وسبب الغلط أنه لم يكتبهما في مصحفه اكتفاء بحفظه وأنه كتب مصحفه قبل نزولهما، وكان لكل أحد من كبار الصحابة مصحف يخصه، فلما كتب المصحف العثماني بمعرفة الصحابة تركت تلك المصاحف كلها، وفي الأنوار من كتب الشافعية: وأنه لو قال: ليست المعوذتان من القرآن اختلف في كفره.

وقال بعضهم: إن كان عاميًا كفر، أو عالمًا فلا، قال ابن حجر في الإعلام: والوجه كفر منكر المعوذتين إذا كان مخالطا للمسلمين؛ لأن ذلك لا يخفى على أحد منهم، وقال في فتاويه: وكذا يكفر من أنكر آية أو حرفًا من القرآن مجمع عليه كالمعوذتين بخلاف البسملة.

فإن قلت: قد أنكر ابن مسعود كون المعوذتين قرآنا.

قلت: قال النووى: يشبه أنه كذب عليه.

فإن قلت: هل من جواب على تقدير الصحة التي انتصر لها شيخ الإسلام ابن حجر وبين أنه جاء من طرق صحيحة.

قلت: الجواب عنه أنه لم يستقر الإجماع عند إنكاره على كونهما قرآنا، أما الأن

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٩٩)، والترمذى (٣٤٣٧)، وابن ماجه (٣٥١٨)، وأحمد (٥/٤٣٠).

فقرآنيتهما معلومة من الدين بالضرورة يكفر منكرهما، على أن ما روى من إنكاره إنما هو إنكار رسمهما فى مصحفه لا لكونهما قرآنا كما قاله الباقلانى وغيره؛ لأنه لم يثبت فى المصحف الذى عنده إلا ما أمر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بإثباته، وهو لم يجده مكتوبًا عنده ولا سمع أمره به (**وكذلك كل من كذب بحرف منه**)، أى يضرب عنقه إلا أن يتوب.

(**قال**) سحنون (**وكذلك**)، أى يقتل إن لم يتب (**إن شهد شاهد عدل على من قال: إن الله تعالى لم يكلم موسى تكليما**) كما مر (**وشهد آخر عليه**)، أى على من قال ذلك القول (**أنه قال**) أيضًا (**إن الله تعالى لم يتخذ إبراهيم خليلا**) يقتل لأنه ينفى ما أثبته الله فهو تكذيب لله ورسوله (**لأنهما**) بما شهدا به عليه (**اجتمعا على أنه كذب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**) فيما جاءه من الوحى من ورود تكليمه واتخاذه خليلا فى القرآن مصرحًا به، وفى هذا إشارة إلى مسألة ذكرها الفقهاء، وهى تلفيق الشهادة بأن يشهد كل منهما على شيء غير ما شهد عليه الآخر بحسب العبارة، لكن المعنى المقصود منهما واحد، فهل ينظر للأول فلا تقبل الشهادة أو للثانى فتقبل؟ كأن شهد شاهد على أنه وكله فى أموره وشهد آخر على أنه جعله وصيًا له فى حياته، أو وكله فى بيع هذه الجارية وآخر أنه وكله فى بيعها وبيع عبد آخر معها، ويسمى تلفيقًا وتواردًا عند الفقهاء، وله نظائر كثيرة، وللفقهاء فيه خلاف مفصل فى كتب الفقه.

(**وقال أبو عثمان بن الحداد**) القاضى المصرى الشافعى الكنانى صاحب التآليف البديعية والآثار العجبية، توفى سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وترجمته فى التواريخ غنية عن الإعادة، كذا فى بعض الشروح ولست على ثقة منه (**جميع من ينتحل التوحيد**)، أى ادعاه وانتسب إليه، ويستعمل كثيرًا بمعنى الزعم، والنحلة العطية والهبة أيضًا، وهو بحاء مهملة كناية هنا عن أهل الإسلام الموحدين، وما قيل من أنه عبر به هنا لأنه تصديق وكيفية نفسانية يخلقها الله، عز وجل، من غير دخل للعبد فيها، وإنما هو يدعيها لنفسه وهو يتشبث بها تكلف ركيك (**متفقون على أن الجحد لحرف من التنزيل**)، أى القرآن المنزل على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**كفر**) وعداه بالياء، وهو متعد بنفسه لواحد أو لاثنين، أو باللام كما وقع فى بعض النسخ للتقوية لتضمنه للكفر لقوله بعده كفر.

(**وكان أبو العالية**) تقدم فى ترجمته أن أبا العالية متعدد ولا ندرى المراد به هنا منهما (**إذا قرأ عنده رجل**) بقراءة غير التى قرأ بها (**لم يقل له**)، أى لمن قرأ عنده أنه (**ليس كما قرأت**) لئلا ينكر شيئًا من القرآن.

(ويقول) للقارئ **(أما أنا فأقرأ كذا)** تفاديا عن الإنكار صريحًا **(فبلغ ذلك)**، أى قول أبى العالية **(إبراهيم)** الظاهر أنه النخعى لشهرته كما تقدم فى ترجمته، ويحتمل أنه التيمى **(فقال)** إبراهيم **(أراه)** بضم الهمزة أى أظنه ويجوز فتحها **(سمع أنه من)** بدل من الضمير، أى إن من **(كفر بحرف منه فقد كفر بكله)**، أى القرآن.

(وقال عبد الله بن مسعود)، رضى الله عنه، فيما رواه عبد الرزاق عنه **(من كفر بآية من القرآن فقد كفر به كله)** لأنه تكذيب لقائلها، عز وجل.

(وقال أصبغ بن الفرج) بالجيم المصرى **(من كذب)** بالتشديد **(ببعض القرآن فقد كذب به كله، ومن كذب به)** كله **(فقد كفر به، ومن كفر به فقد كفر بالله سبحانه وقد سئل)** أبو الحسن **(القابسى)** الحافظ وقدمنا ترجمته **(عمن خاصم يهوديًا فحلف)** اليهودى **(له بالتوراة فقال له الآخر)** الذى خاصمه **(لعن الله التوراة فشهد عليه شاهد)** واحد **(بذلك)** الذى قاله **(ثم شهد آخر أنه سأله عن القضية)** التى جرت بينهما.

(فقال) اللاعن **(إنما لعنت توراة اليهود)** المحرفة التى يقرؤنها بينهم **(فقال أبو الحسن)** القابسى المسؤل منه **(الشاهد الواحد لا يوجب القتل)** لعدم تمام نصاب الشهادة عليه **(و)** الشاهد **(الثانى علق الأمر)** الذى شهد به **(بصفة)** هى توراة اليهود التى يتدارسونها بينهم، وتلك الصفة التى **(تحتمل التأويل)** فى كلام اللاعن لأن توراة اليهود تحتمل التى نزلت على نبيهم، وتحتمل التى حرفوها، وإنها توراتهم لا توراة نبيهم وكلام الله **(إذ لعله)**، أى القائل لعن الله التوراة.

(لايرى)، أى لا يعتقد أن **(اليهود متمسكين بشيء من عند الله)** مما أوحى لموسى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لتبديلهم وتحريفهم)** التوراة التى أتى بها موسى، عليه الصلاة والسلام، بتبديل بعض ألفاظها وتأويل بعض بما لم يرده الله **(ولو اتفق الشاهدان)** فى شهادتهما **(على لعن التوراة)** لعنًا **(مجردًا)** عما قاله ثانيا من تعليقه بأمر وتقييده بصفة تحتمل إضافتهما لليهود **(لضاق التأويل)** عن صرفه عن ظاهره لأمر آخر.

ونقل ابن حزم أن بعضهم أنكر تحريف التوراة، وقال: إنها وصلت إليهم تواترا وإنما أخطأوا فى تفسيرها، وهذا لا ينبغى لمسلم أن يعتقده بعد قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١]، والقرآن والأحاديث شاهدة بخلافه فلا حاجة لنا بالاشتغال بمثله وعمل التأويل، فتعريف التوراة فى كلامه للعهد، أى نسخها المحرفة المبدلة.

(وقد اتفق فقهاء بغداد) المدينة المعروفة وهى فارسية معربة وفيها لغات، فدالها تهمل

وتعجم وتبدل الأخيرة نونا **(على استتابة ابن شنبوذ)**، أى على أنه طلب منه التوبة عما صدر منه مما سيأتى **(المقرئ)** اسم فاعل بزنة مكرم مهموز الآخر، وهو العالم بعلم القراءات، ووجوهها من كيفية الأداء المعروفة، وابن شنبوذ هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن أيوب ابن صلت بن شنبوذ، بفتح الشين المعجمة وسكون النون وضم الباء الموحدة وواو ساكنة وذال معجمة، علم أعجمى ممنوع من الصرف.

وقول التلمسانى: إنه يجرى ولا يجرى، أى يصرف ويمنع من الصرف لا وجه وهو **(أحد أئمة المقرئين المتصدرين)** للإقراء **(بها)**، أى ببغداد **(مع ابن مجاهد)** أحمد بن موسى ابن العباس بن مجاهد التميمى الأستاذ أبو بكر البغدادى، رئيس القراء، وهو أول من جمع القراءات ولد سنة خمس وأربعين ومائتين، وابن شنبوذ من مشاهير علماء القراءات من أقران ابن مجاهد وكان بينهما منافسة ومخاصمة، وكان من أعيان العلماء الرؤساء مع غفلة فيه، ولما تصدر للإقراء فى القراءات أنكروها عليه فعقد له مجلس وأثبت عليه ذلك وأغلظ عليه القول، فضرب بالسياط وخشى من غلو الناس عليه فأخرج للمدائن أو للبصرة، ثم عاد لبغداد وكتب عليه محضر بعد استتابته أن لا يقرئ بما كان يقرأ به فى الصلاة وغيرها من الشواذ.

كما قال المصنف، رحمه الله تعالى، **(لقراءته وإقرائه بشواذ)** جمع شاذ وهو ما لم يتواتر **(من الحروف)** جمع حرف بمعنى الوجه واللغة وهو أحد الوجوه فى حديث: «أنزل القرآن على سبعه أحرف كلها كاف شاف»(١)، والمصدران تنازعا قوله بشواذ **(مما ليس فى المصحف)** تعريفه للعهد والمراد به مصحف عثمان بن عفان المسمى بالإمام والذى ذكره ابن الأنبارى فى طبقات النحاة أنه كان يرى القراءة بالرأى فيما وافق العربية، وإليه يميل كلام الزمخشرى والرضى، والذى شدد عليه التنكير الوزير ابن مقلة الآتى ذكره، فدعا عليه ابن شنبوذ أن يقطع الله يده ويشتت شمله، فاستجاب الله دعاءه فيه، وتوفى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة يوم الاثنين لثلاث خلون من صفر، وكان مجاب الدعوة، وفى القاموس أنه أحمد بن أحمد بن شنبوذ، وهو مخالف لما فى التواريخ.

(وعقدوا عليه) العقد أصل معناه الربط مقابل الحل، والمراد به ما يعين من غير متردد فيه والعهد أيضًا **(بالرجوع عنه)**، أى عما كان يذهب إليه من الإقراء بما ليس فى المصحف العثمانى مما تقدم.

(والتوبة منه) باعترافه بخطأه وندمه مع العزم على عدم الرجوع إليه **(سجلا)** بكسر

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٣٢)، والنسائى (٩١٤)، وابن حبان (١٧٧٩،١٧٨٠،١٧٨١)، والطبرانى فى الكبير (٣/١٨٥).

السين والجيم وتشديد اللام، وهى فى الأصل اسم لما يكتب فيه، قال تعالى: ﴿ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، أى كطيه لما كتب فيه حفظًا له، ثم اختص فى العرف بما يكتب فيه حجة شرعية ووثيقة وهو المراد هنا (**أشهد فيه**) ببناء الفاعل أى، رضى الله شهادة من حضر (**أى**) برجوعه وتوبته (**على نفسه فى مجلس الوزير أبى على ابن مقلة سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة**) من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، والوزير الكاتب المشهور استوزره الخليفة المقتدر بالله سنة عشرة وثلاثمائة، ثم قبض عليه سنة ثمان عشرة وصادره ونفاه لفارس، ثم استوزره القاهر بالله واتهمه بأمر فاستعفاه من الوزارة، فلما تولى الراضى بالله سنة اثنين وعشرين استوزره ثم غضب عليه وقطع يده وسجنه، فقال وهو مسجون:

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى
إذا جاءنا السجان يومًا لحاجة فرحنا وقلنا جاء هذا من الدنيا
ونفرح بالرؤيا فجل حديثنا إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا

ومن الحكمة: السجن قبر الأحياء، والوزير وكيل السلطان فى تصرفاته، واختلف فى اشتقاقه هل من الوزر بالسكون أو التحريك، أو من الأرز بالهمزة لكونه يشد أزره، أو يتحمل ثقله وأوزاره أشار الغزى بقوله:

هو الوزير ولا أزر يشد به مثل العروض له بحر بلا ماء

(**وكان فيمن أفتى عليه بذلك**)، أى بما لزمه (**أبو بكر الأبهرى**) المالكى أحد فقهاء بغداد المشهورين بها، وأبهر بفتح الهمزة والباء الموحدة وسكون الهاء قبل راء مهملة مدينة مشهورة، وقيل باؤه ساكنة وهاؤه مفتوحة.

(و) كذا (**غيره**) من العلماء بها (**وأفتى**) الشيخ (**أبو محمد بن أبى زيد**) القيروانى وقد قدمنا ترجمته (**بالأدب**)، أى بالتأديب والتعزير بما يليق به (**فيمن قال لصبى**) يتعلم القرآن (**لعن الله معلمك**)، أى الذى علمك القرآن وأقرأكه (**وما علمك**)، أى ولعن ما علمك، وهذا هو الذى يخشى عليه منه؛ لأن الذى علمه معلوم لا يجوز الاستخفاف به فضلا عن لعنه، فهو بحسب الظاهر منكر جدًا.

فإن أوله (**وقال**) اللاعن (**أردت**) بما المذكورة الصادقة على المقرئ وصفته التى وقع عليها وهو (**سوء الأدب**) فى حال قراءته وعدم تعظيم ما قرأه، ووقوعه على حال غير مستحسنة، فإن للقارئ آدابًا ذكروها من خالفها ساء أدبه (**ولم أرد**) بما فى كلامى (**القرآن**) الذى تعلمه (**قال أبو محمد**) بن أبى زيد (**وأما من لعن المصحف**) وفى نسخة

من لعن القرآن **(فإنه يقتل)** لجرأته على الله تعالى وعلى كلامه ولعنته عائدة عليه، والمراد أنه يكفر ويستحق القتل.

* * *

(فصل وسب آل بيته وأزواجه)

أمهات المؤمنين (وأصحابه) [وتنقصهم حرام ملعون فاعله]

صلى الله تعالى عليه وسلم، وعليهم أجمعين، السب الشتم كما مر، وآل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، للفقهاء فيهم اختلاف مذكور فى كتب الفروع، فذهب الشافعى إلى أنهم على وفاطمة وولديهما والعباس وجعفر وعقيل وآلهم، وهم من لا تحل لهم الزكاة من بنى المطلب لحديث: «نحن وبنو المطلب شىء واحد لم نفترق فى جاهلية ولا إسلام»، وشبك بين أصابعه، وبقية الكلام عليه مفصل فى محله، وأزواجه جمع زوج أو زوجة وهى المنكوحة، وأصحاب جمع صاحب وهو من لقيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مسلمًا.

(وتنقصهم حرام) شرعًا لكرامتهم عند ربهم وثناء الله عليهم فى كتابه العزيز فى آيات عديدة **(ملعون)** مطرود مبعد من رحمة الله **(فاعله)** ومن يصدر منه قصدًا، ثم أوضحه بحديث صحيح رواه الترمذى فقال: **(حدثنا القاضى الشهيد أبو على)** هو الحسين بن محمد بن قرة الصدفى المعروف بابن سكرة كما تقدم، قال: **(حدثنا أبو الحسين الصيرفى)** تقدم أيضًا.

(وأبو الفضل العدل) هو أحمد بن حسين بن حيرون الحافظ كما تقدم **(قالا حدثنا أبو يعلى)** أحمد بن عبد الواحد المعروف بزوج الحرة كما تقدم، قال: **(حدثنا أبو على السنجى)** أحمد بن محمد المروزى كما تقدم.

قال: **(حدثنا ابن محبوب)** قال: **(حدثنا الترمذى)** صاحب السنن وقد تقدمت ترجمته قال: **(حدثنا محمد بن يحيى)** بن عبد الله بن خالد بن فارس أبو عبد الله الذهلى، توفى سنة خمسة وخمسين ومائتين، قال: **(حدثنا يعقوب بن إبراهيم)** بن سعد الزهرى توفى سنة مائتين وثمان، وأخرج له الستة كما تقدم، قال: **(حدثنا عبيدة بن أبى رابطة)** بفتح العين المهملة تليها موحدة مكسورة عند الحفاظ كما قاله ابن ماكولا والذهبى، وضم عينه كما فى بعض النسخ خطأ من الناسخ كما قاله السبكى وتبعه البرهان الحلبى، وهو ثقة أخرج له أصحاب السنن **(عن عبد الرحمن بن زياد)** أخو عبيد الله بن زياد، وهو غير معروف **(عن عبد الله بن مغفل)** بزنة اسم المفعول مفتوح الغين المعجمة مشدد الفاء.

(قال) ابن مغفل، رضى الله عنه، **(قال رسول الله ﷺ الله الله)** بنصبها تحذيرًا وكرره ووضع الظاهر موضع الضمير مبالغة فى التحذير، وتأكيدًا فى تفخيم أمرهم وشأنهم، أى اتقوا الله **(فى)** حق **(أصحابى لا تتخذوهم غرضًا بعدى)** أى بعد موتى لأنهم فى حياته ﷺ لم يصبهم ما يخصهم من ضرر، وفيه إخبار بالغيب فإنهم بعد موته ﷺ حل بهم أمور عظيمة كقصة الدار، وصفين، وقتل الفاروق، وتقدم أن الغرض هو الهدف الذى ينصب ليرمى بالسهام، وشبه به من يذم ويطعن فيه، ويلزمه تشبيه كلامه بالسهام التى ترمى كقوله:

سهم أصاب وراميه بذى سلم من بالعراق لقد أبعدت مرماك

وعليه قول العارف ابن الفارض نفعنا الله به(١):

عرضت نفسك للبلا فاستهدف

وهو هنا استعارة، وقيل: إنه تشبيه بليغ وليس هذا محل تفصيله، والعامل هنا مقدر يجوز إظهاره، وقيل: لا يجوز إظهاره إذا تكرر؛ لأن الثانى قائم مقام العامل، وقيل: إظهاره أيضًا جائز مع فتحه كما تقدم عن الجزولى، والكلام عليه مفصل فى كتب النحو، قال ابن حجر فى الزواجر: أكد التحذير من ذلك بقوله: الله الله، أى احذروا الله على حد قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] كما تقول لمن تراه مشرفا على وقوعه فى نار عظيمة النار النار **(فمن أحبهم فبحبى)**، أى بسبب حبى لهم على مراتبهم عندى.

(أحبهم) لا لغرض آخر من أمور الدنيا **(ومن أبغضهم فببغضى)**، أى بسبب عداوتى كعداوة المشركين **(أبغضهم)** لا لشىء آخر، قال ابن حجر بعد ما تقدم: فتأمل عظيم فضائلهم ومناقبهم التى نوه بها، حيث جعل محبتهم محبة له وبغضهم بغضًا له، وناهيك بذلك جلالاً وشرفًا، فحبهم وبغضهم عنوان محبته وبغضه، ومن ثمة كان حب الأنصار من الإيمان وبغضهم من النفاق ببذلهم الأموال والأنفس فى محبته ونصرته.

(ومن آذاهم فقد آذانى) لأن المحب المخلص يسوءه ما يسوء حبيبه ويسره ما يسره وتأخير الأذية عن البغضاء فى محزه لترتبها عليها **(ومن آذانى)** حقيقة بعمل ما يسوء فى نفسه وأتباعه **(فقد آذى الله)** تقدم أن الأذية إيصال الضرر فهى مجاز عن مخالفة أمره

(١) عجز بيت وصدره: «ولقد أقول لمن تحرش بالهوى». والبيت من الكامل، وهو فى ديوان ابن الفارض (ص١٤٥).

ونهيه، إذ لا تتصور الأذية فى حقه، عز وجل (**ومن آذى الله**)، أى عصاه (**يوشك**) بزنة يكرم، أى يقرب من (**أن يأخذه**)، أى يهلكه، يقال: وشك وأوشك أن يخرج، أى قرب إسراعه للخروج، قال(١):

وصار على الأذنين كلا وأوشكت   صِلاتُ ذوى القربى له أن تنكرا

والأخذ كما قال الراغب حوز الشيء وتحصيله ونحو ذلك، فتارة يكون بالتناول نحو ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف:٧٩] وتارة بالقهر كقوله تعالى: ﴿تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والمؤاخذة المجازاة انتهى.

وقد تقدم هذا أيضًا، فيأخذ هنا إما بمعنى يقهره أو يجازيه على أذيته، وفى هذا الحديث إشارة إلى شدة قربهم منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتنزيلهم منزلة نفسه حتى كأن أذيتهم أذية له واقعة عليه، ثم أظهر ذلك على وجه أكده بقوله: «فقد آذى الله» إذ لا يضر الله شيء فهو إيماء لشدة قربه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الله، فهو مجاز بهذا الاعتبار المجازى أيضًا (**وقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا تسبوا أصحابى فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**) تأكيد للعموم (**لايقبل الله منه صرفا**)، أى توبة أو طاعة تصرف وجهه لجانب الله (**ولا عدلا**)، أى فدية أو فريضة، وقد تقدم الكلام على هذا الحديث فتذكره.

(**وقال، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا تسبوا أصحابى فإنه يجيء قوم**)، أى ناس من المسلمين وضمير أنه ضمير شأن (**فى آخر الزمان يسبونهم**)، أى يسبون الأصحاب (**فلا تصلوا عليهم**) بعد موتهم (**ولا تصلوا معهم**)، أى لا تقدوا بهم والنهى كما قيل: تنزيهى لجواز الاقتداء بالمبتدع، والصلاة خلف كل بر وفاجر (**ولاتناكحوهم**)، أى لا تزوجوهم ولا تتزوجوا منهم (**ولا تجالسوهم**)، أى لا تعاشروهم ولا تخالطوهم (**وإن مرضوا**)، أى انقطعوا فى بيوتهم لمرض أصابهم.

(**فلا تعودوهم**)، أى لا تذهبوا لعيادتهم وهو مبالغة فى إهانتهم وتركهم بالكلية زجرًا لهم بإظهار عداوتهم، وهذا كله مما خرج التغليظ عليهم، وقيل: إنه يحتمل أنه كشف له، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن سرائرهم وإنهم كفرة باطنًا لا يخفى أنه غير صحيح، فإنه فى قوم غير معينين، والحكم بالأمر الباطنى لا يجوز لأمته كما تقدم، فكيف يأمر به غيره، وظاهر هذا الحديث أن سب الصحابة كفر مطلقا وليس كذلك، فإن فيه تفصيلاً يأتى، فإما أن يحمل على المبالغة والتغليظ فى الزجر، أو يقال: إنه من معجزاته، صلى الله

(١) البيت من الطويل، وهو بلا نسبة فى كتاب العين (٥/٣٩٠)، وأساس البلاغة (٢/٥٠٩).

تعالى عليه وسلم، بأن يكون من الإخبار عن المغيبات؛ فأخبر عن بعض من وقع منه ما هو كفر.

كبعض الرافضة كما ورد التصريح به فى بعض الأحاديث، كالحديث الذى رواه البيهقى فى دلائل النبوة بسند حسن عنه ﷺ أنه قال: «يخرج قبل قيام الساعة قوم يقال لهم الرافضة يرفضون الإسلام فاقتلوهم فإنهم مشركون»(١) ولذلك أشار الصرصرى فى قصيدته النونية فى قوله:

وكذاك أخبر أن سب صحابه ... ما للمصر عليه من غفران

علما بقوم يجهرون بسبهم ... من كل غمر فاحش لعان

وقد قيل: من أبغض الصحابة من حيث هم صحابة فقد أبغضه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأذاه، وأيضًا منهم قوم صرحوا بما هو كفر وهم كفرة تستروا بالرفض وحب أهل البيت، فما فى الحديث صريح فى كفرهم من ترك الصلاة عليهم ومناكحتهم ومجالستهم وهم يرون ترك الجمعة والجماعة وغير ذلك مما هو كفر **(وعنه، صلى الله تعالى عليه وسلم)** فى حديث آخر: **(من سب أصحابى فاضربوه)** تعزيرًا له وإهانة ليرتدع هو وأمثاله، وفى الحديث أيضًا: «من سب أصحابى فاجلدوه» كما يأتى **(وقد أعلم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن سبهم وأذاهم)** من عطف العام على الخاص **(يؤذيه، وإيذاء النبى، ﷺ حرام)** بالاتفاق، وإيذاء مصدر آذاء، وقوله فى القاموس: لا تقل إيذاء غلط فإنه مصدر قياسى وقد سمع أيضًا وقد مر التنبيه على ذلك أيضًا، وفى نسخة وأذى.

(فقال: لا تؤذونى فى أصحابى ومن آذاهم فقد آذانى) وقد تقدم ما فيه، وفى الأنوار: لو استحل إيذاء أحد من الصحابة كفر، وفى الإعلام: واستحلال إيذاء غير الصحابة مكفر أيضًا كما هو ظاهر، ومحل تكفير المستحل إيذاء صحابى ما لم يكن عن تأويل ولو خطأ؛ لأنه ظنى فله شبهة ما تمنع الكفر.

(تنبيه) الحديث الذى تقدم ورواه الترمذى، وقال: إنه صحيح حسن: «لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه» فيه سؤال مشهور، وهو أن المخاطب به الصحابة، والحديث هنا يقتضى خلافة، وأجيب بأن مراده بأصحابى من أسلم قبل الفتح من السابقين الأولين، والمخاطب من أسلم بعده ويشير إليه، قوله: «مثل أحد» لقوله تعالى: ﴿**لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ**

---

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقى (٥٤٨/٦).

ٱلْفَتْحِ﴾ [الحديد: ١٠]، الآية؛ فالمراد بالخطاب غيرهم وإن شملت الصحبة الجميع، قاله السبكى.

وقال: سمعت ابن عطاء الله يقول فى وعظه: للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، تجليات يرى فيها من بعده ويخاطبه، ومنه خطابه هذا، وهو منزع صوفى، وعليه فالحديث شامل لجميع الصحابة، وعلى غيره مخصوص بالمتقدمين، ويدخل من بعدهم فى حكمهم، وعليها الحرمة ثابتة للجميع، والكلام فى سب بعضهم معينًا أو غير معين أما سب الجميع فقيل: إنه كفر بلا شك كسب الصحابى من حيث أنه صحابى، فإنه تعريض بسب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعليه حمل قول الطحاوى: بغضهم كفر، فإن سب صحابيًا، لا من حيث كونه صحابيًا، وكان ممن تحققت فضيلته بأن كان ممن أسلم قبل الفتح، كالروافض الذين يسبون الشيخين وهما السمع والبصر منه، صلى الله تعالى عليه وسلم. كما ورد فى الحديث.

ففيه وجهان، فإنه قد يكون لأمر آخر دنيوى غير الصحبة وليس بكفر؛ لأنه لتقديم على واعتقادهم لجهلهم أنهما ظلماه وهما بريئان من ذلك، وفى كتب الحنفية أن سبهما وإنكار إمامتهما كفر، وفى صحة الصلاة خلفهم خلاف مبنى على هذا، هذا زبدة ما قاله السبكى فى فتاويه.

ونقلت من خط البقاعى. وقد سئل عن هذا الحديث، فأجاب بأنه جاء فى الحديث أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «يأتى على الناس زمان للعامل فيه أجر خمسين» فقال: الصحابة، رضى الله تعالى عنهم أجمعين، منهم؛ فقال: بل منكم، فيحمل الأول على الاتفاق خاصة والثانى على كلمة الحق الآن لدلالته على كمال الإيمان لتوقع الضرر بقتل ونحوه لغلبة أهل الفساد والطغيان وعدم الأنصار والأعوان وهاهنا دقيقة وهى أن قوله تعالى: **﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُمْ﴾** [الحديد: ١٠]، الآية. نص فى أن أبا بكر، رضى الله عنه، أفضل من جميع الصحابة، فالخلاقة حقه بلا شبهة، وفى الأنوار: من أنكر خلافة الصديق، رضى الله عنه، مبتدع لا كافر، ومن سب الصحابة أو عائشة من غير استحلال فاسق، واختلفوا فى من سب أبا بكر وعمر، قال غيره: وفى كفر من سب الختنين وجهان (**وقال**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حديث آخر (**لاتؤذونى فى عائشة**) الظاهر أنه مخصوص بها، رضى الله تعالى عنها، ويحتمل أنه شامل لجميع أمهات المؤمنين، رضى الله تعالى عنهن، ويدل للظاهر الأول ماروى عن ابن عباس أنها قالت: أعطيت عشر خصال لم يعطهن ذات خمار قبلى؛ صورت لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قبل أن أصور فى رحم أمى، ولم يتزوج بكرًا غيرى، وكان ينزل عليه

الوحي وكان بين سحرى ونحرى، وتوفى بين سحرى ونحرى، ونزلت براءتى من السماء فى سبع آيات، وكنت أحب النساء إليه، وأبى أحب الرجال إليه وخيرهم، وخير رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو بين حاقنتي وذاقنتى، وتوفى فى يومى، ودفن فى بيتى.

قال ابن المنير: ومن خصائص عائشة أنها ولدت مسلمة بإسلام أبيها قبل ولادتها، قال: وهذا لازم لأهل السير والتواريخ فيما نقلوه، ولم أر أحدًا انتزعه قبل ذلك وفضائلها لا تحصى.

(وقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى)** حق **(فاطمة)** الزهراء، رضى الله تعالى عنها، هى **(بضعة منى)** قال فى مختصر النهاية: البضعة بالفتح القطعة من اللحم وقد تكسر، وفاطمة بضعة منى، أى جزء منى، كما أن البضعة قطعة من اللحم انتهى. والكسر فيها أشهر على الألسنة، لأنها متكونة من مائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الذى هو جزء منه، وفيه فضيلة لها لا يساويها غيرها، وبهذا الاعتبار يجوز تفضيلها على غير من سواها؛ لأن التفضيل قد يكون من وجه وهو لا ينافى تفضيل غيره عليه من وجه فلا تعارض فى مثله لمن له بصيرة.

(يؤذينى ما آذاها) فيه من أحكام البلاغة مرتبة علية فإن الجسد كله يتألم بما يتألم به بعضه، فمن ضربت يده تألم بألمها البدن كله، فكونها بضعة علة لما بعده فتدبر، وحديث فاطمة فى الصحيحين **(وقد اختلفت العلماء فى هذا)**، أى فيما يستحقه من صدر عنه مثله **(فمشهور مذهب مالك فى ذلك)** النكال الذى يستحقه **(الاجتهاد)** للحاكم فيفوض لرأيه وما يقتضيه **(والأدب الموجع)** بضرب ونحوه.

(قال مالك) رحمه الله تعالى، **(من شتم النبى ﷺ قتل)** حدًا أو كفرًا كما تقدم **(ومن شتم أصحابه أدب)** بما يستحقه عن تعزير وقذف كغيره.

(قال أيضًا) مالك، رحمه الله **(من شتم أحدًا من أصحاب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أبا بكر أو عمر أو عثمان أو عليا أو معاوية أو عمرو بن العاص)** ابن وائل السهمى **(فإن قال: كانوا على ضلال وكفر قتل)** ولم يأوله بأن قال: أردت قبل إسلامهم، فإن فيه تكذيبًا لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولجميع الأمة وهذا مذهب مالك ولم يذكر استتابته هنا **(وإن شتمهم)**، أى شتم الصحابة **(بغير هذا)** المذكور من الضلال والكفر بل شتمهم بما هو **(من)** جنس **(مشاتمة الناس)** بعضهم لبعض **فيما يجرى بينهم (نكل)**، أى عوقب **(نكالاً شديدًا)** بما يوجعه من ضرب مؤلم ونحوه.

(وقال ابن حبيب) المالكى **(من غلا)**، أى بالغ فى غلوه **(من الشيعة)** المفرطين فى محبة على واعتقاد أفضليته وأن الخلافة حقه وهم فرق مشهورة ولهم مذاهب وانتهى فى غلوه **(إلى)** بغض **(عثمان)** بن عفان، رضى الله تعالى عنه، بالوقوع فى حقه **(والبراءة منه)** وأنه لم يكن خليفة بحق وعلى حق **(أدب أدبًا شديدًا)** حتى ينزجر هو وأمثاله بضرب ونحوه.

(ومن زاد فى ذلك)، أى فى غلوه فى حق الصحابة، رضى الله عنهم، **(إلى بغض أبى بكر وعمر، رضى الله تعالى عنهما، فالعقوبة عليه أشد)** لزيادة حرمتهما **(ويكرر ضربه ويطال سجنه)** بفتح السين ويجوز كسرها كما مر **(حتى يموت)** فى السجن ليتعظ به غيره **(ولايبلغ به)** فى عقوبته **(القتل إلا فى سب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال سحنون: من كفر أحدًا من أصحاب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، عليا أو عثمان أو غيرهما)** من الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، **(يوجع ضربًا)** وهذا المذكور عن مذهب مالك مخالف لما تقدم عن مالك، من أن من قال إنهم كانوا على ضلال وكفر قتل ولذا عقبه بقوله:

(وحكى) الشيخ **(أبو محمد بن أبى زيد عن سحنون فيمن قال فى أبى بكر وعمر وعثمان وعلى)** رضى الله تعالى عنهم، **(إنهم كانوا على ضلال وكفر قتل)** كما تقدم عن مالك، وذكره لما فيه من رد قوله **(ومن شتم غيرهم من الصحابة بمثل هذا)** بنسبتهم للضلال والكفر **(نكل)**، أى عوقب **(النكال الشديد)** بلا قتل للفرق بين كبار الصحابة وغيرهم.

(وروى عن مالك) فى قول آخر له **(من سب أبا بكر جلد)** تعزيرًا له ونكالاً **(ومن سب عائشة)** رضى الله تعالى عنها، **(قتل قيل له)**، أى سئل مالك عن وجه الفرق فيما قاله فقيل له: **(لم)** قلت هذا **(قال من رماها)**، أى سبها وافترى عليها بما برأها الله منه، والرمى يستعار لما ذكر تشبيهًا له بالرجم قال(١):

رمانى بأمر كنت منه ووالدى بريئًا ومن أجل الطوى رمانى

(فقد خالف القرآن) لأن الله برأها فيه من كل عيب فى قصة الإفك، **(وقال ابن شعبان)** تقدمت ترجمته **(عنه)**، أى عن مالك فى رواية عنه **(لأن الله يقول)** فى القائلين

---

(١) البيت من الطويل، وهو لعمرو بن أحمر فى ديوانه (ص١٨٧)، والدرر (٦٢/٢)، وشرح أبيات سيبويه (٢٤٩/١)، والكتاب (٧٥/١)، وله أو للأزرق بن طرفة بن العمرد فى لسان العرب (١٣٢/١١).

فى حق عائشة، رضى الله تعالى عنها، ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور:١٧] **(فمن عاد لمثله فقد كفر)** لقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فمن عاد ليس بمؤمن كما يدل على ذلك المفهوم لتذكيره لهم بما يخلو به الإيمان المانع لهم من العود عما صدر عنهم من القبائح تهييجا لغيرتهم الحاملة لهم على الاتعاظ.

وقد قيل على ذلك: إن فيه بحثًا؛ لأن السب أعم من الرمى، ومطلق مخالفة القرآن لا تقتضى الكفر كما تقدم، إلا أنه ضم إلى المخالفة مفهوم الشرط فى قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧] إلخ، كما بينه ابن شعبان وخطاب المشافهة فى الآية مختص بأصحاب الإفك، وحكم غيرهم استفيد مما تقدم، وقوله: أن تعودوا لمثله، يعنى فى عائشة بعينها أو هى ومن فى مرتبتها من أمهات المؤمنين لما فيه من أذية النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى عرضه وأهله، وقوله: روى ببناء المجهول، رواية هشام بن عمار: فإنه نقل عنه أنه قال: سمعت مالكا . . . إلخ وساق ماذكر برمته، انتهى، وليس بشىء

أما قوله السب عام فمسلم ولكنه مخصوص هنا بقرينة المقام، وقوله مخالفة القرآن لا تقتضى الكفر هو كذلك لو بقى على إطلاقه، أما إذا انضم إليه أنه تكذيب لله ورسوله فهو كفر كما بينه ابن شعبان، وتقدم عن ابن العربى المالكى قريبًا، أنه قال: إن أصحاب الشافعى، قالوا: إن من سب عائشة أدب كما فى سائر المؤمنين وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧]. لايقتضى أنه كفر؛ لأنه تغليظ فى الزجر، كقوله: «لا يزنى الزانى حين يزنى، وهو مؤمن» وأنه أجاب بأن مالكًا سئل عمن رمى عائشة بالإفك؛ فقال: ليس هو كرمى غيرها؛ لأن الله برأها مما قالوه فراميها مكذب لله، فيما أخبر به من براءتها، وهو ملحظ آخر لا تعلق له بمفهوم الشرط، وتقدم ما فيه، ويؤيده قول ابن عباس: من أذنب ثم تاب قبلت توبته إلا من خاض فى الإفك، وفى كون النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، حد أصحاب الإفك أم لا؟ روايتان ذكرهما الماوردى، والكلام عليه مذكور فى التفاسير والسير، والكلام السابق فى سب أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، مقيد بغير إنكار صحبته، أما هو فإنه كفر عند الشافعية وبعض الفقهاء لأنه ثابت بالنص ومجمع عليه كمامر بسطه.

(وحكى أبو الحسن الصقلى) نسبة إلى صقلية بفتح الصاد المهملة وفتح القاف وكسر اللام المشددة، وهى جزيرة من جزائر المغرب معروفة، هذا هو المشهور على الألسنة، قال بعض شعرائها[١]:

---

(١) البيت من المتقارب، وهو لابن حمديس فى تاج العروس (صقل)، ومعجم البلدان (٣/٤١٧).

ذكـــرت صقليـــة والأســـى فشبهـــت دمعـــى بأنهارهـــا

وذكر البرهان الحلبى أن صادها مكسورة، وقيل صادها وقافها، وكذا رأيته فى نسخة المجمع للصاغانى، إلا أنه ضبط قلم لا يعول عليه (**أن القاضى أبا بكر بن الطيب**) هو الإمام الباقلانى كما تقدم فى ترجمته (**قال: إن الله تعالى إذا ذكر فى القرآن ما نسبه إليه المشركون سبح**)، أى نزه وبرأ (**نفسه**)، أى ذاته المقدسة (**بنفسه**)، أى قاله ابتداء من غير إسناده لغيره (**كقوله تعالى:** ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾) [الأنبياء: ٢٦]، نزلت فى خزاعة إذ قالوا الملائكة، عليهم الصلاة والسلام: بنات الله (**فى آى**) بالمد جمع آية أو اسم جنس جمعى كتمر وتمرة، أى هذا مذكور فى آيات أخر (**كثيرة**) كقوله: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

(**وذكر تعالى**) فى القرآن (**ما نسبه المنافقون إلى عائشة**) رضى الله تعالى عنها، فى قصة الإفك (**فقال:** ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا﴾ [النور: ١٦])، أى لا يجوز ولا يصح؛ لأن ما يكون ولا ينبغى ورد فى القرآن لمعان منها هذا كما مر، ولولا بمعنى هلا وقدم الظرف لأنه هو الأهم بالإنكار على سماع مثله (﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ [النور: ١٦])، أى نتلفظ به فضلا عن إشاعته واعتقاده ﴿سُبْحَانَكَ﴾ منصوب على المصدرية والأصل فيه التعجب من صنعه، ثم شاع فى مطلق التعجب وهو مصدر كالغفران، وتقدم الكلام عليه مفصلا.

﴿هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ ، أى افتراء عظيم لا يليق بعاقل التكلم به؛ لأنه كيف تكون زوجته، صلى الله تعالى عليه وسلم، منسوبة لمثله، والبهتان فى الأصل كذب، وبهتان يبهت سامعه تحيرا من افتراء مثله، فكأنه قال: تعجبوا أيها السامعون منه، ويجوز أن يكون على أصله بأن نزه الله بأن يوجد مثل هذا السوء ويقر عليه أكرم خلقه، عليه الصلاة السلام، وإليه أشار بقوله (**سبح نفسه**)، أى برأها ونزهها مبالغة (**فى تنزيهها**)، أى تنزيه عائشة وفى نسخة تبرئتها (**من السوء**)، أى الأمر السيىء القبيح (**كما سبح نفسه فى تنزيهه**)، أى تنزيه الله تعالى لذاته وفى نسخة لتبرئته (**من السوء**) وضع الظاهر موضع الضمير تقبيحا لشأنه وتلويحا لوجوب التنزيه منه وفيه تنويه بقدرها ورفعة مقامها حيث جعل ما لا يليق بالله لايليق بها، رضى الله تعالى عنها، وهو فى غاية الظهور.

(**وهذا**) الذى ذكره الباقلانى من تنزيهها عما نزه الله عنه ذاته (**يشهد**)، أى يدل دلالة ظاهرة كأنها مشاهدة (**لقول مالك**) المذكور آنفا (**فى قتل من سب عائشة**) رضى **الله تعالى عنها، لتهويله وجعله كسب الله بطريق التلويح**، وإشارة النص المعلومة لمن

عرف الاستعمالات القرآنية، فلا وجه لما أورد عليه من أنها وردت لمطلق التعجب كما وقع فى الحديث: «سبحان الله إن المؤمن لا ينجس»(١). وإليه أشار فى الكشاف، وإنما نشأ هذا من عدم التنبه لما أراده ولذا وضحه بقوله (**ومعنى هذا**) الذى قاله الباقلانى وقيل الإشارة لقول مالك أنه يقتل من سبها (**أن الله تعالى لما عظم سبها**)، أى جعله عظيما فى قبحه.

(**كما عظم سبه**) باستعماله فيه ما استعمله فى حق نفسه من التنزيه تنويهًا بقدرها كما تقدم (**وكان سبها**) بما نسب لها (**سبًا لنبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم**) لأن نسبة أهله لمثل ذلك يشين عرضه ويؤذيه كما لا يخفى (**و**) الله عز وجل، (**قرن سب نبيه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**وأذاه بأذاه تعالى**)، أى أذى الله فى نفسه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

(**وكان حكم مؤذيه تعالى**) شرعًا (**القتل كان حكم مؤذى نبيه**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**كذلك**)، أى القتل لتسويته بينهما وجعلهما فى قرن واحد (**كما قدمنا**) فى هذا الكتاب مرارا فى حكم سب الله، وأورد عليه أنه على ما قاله ليس قتله لسب عائشة، رضى الله عنها، بل للازمه من سبه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأيضًا لو سلم هذا لزم قتل أصحاب الإفك، ولم يقع.

وأيضًا قد تقدم الفرق بين من سب الله وسب رسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، على أقوال تقدمت، وأيضًا يلزمه ذلك فى سب الصحابة مطلقًا؛ لأنه يؤذيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وليس بشىء لما علمته من أن المراد به أذية عظيمة لما فيه من الشين الذى لا يرضاه أحد فى نسبة أهله للزنا والرضا به، وأما عدم قتل أهل الإفك المنافقين فى حياته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلحكمة اقتضته من إثارة الفتن وصد من ضعف إسلامه عنه بإشاعة أنه يقتل أصحابه كما تقدم.

(**وشتم رجل عائشة كرمها الله بالكوفة**) هذا الرجل غير معروف، وقوله: كرمها الله، أى جعلها مكرمة منزهة عن النقائص فقد صادف محزه، والكوفة أحد المصرين المعروفين بأنها محط الرجال الفضلاء، ويقال لها: كوفة الجند، أى مجتمعهم سميت بذلك لأن سعدًا، رضى الله تعالى عنه، لما أراد أن يبنيها قال لهم: تكوفوا بهذا المكان، أى اجتمعوا فيه فسميت كوفة لذلك، ولزمته اللام أو الإضافة لأنه علم بالغلبة. وقيل: كان اسمها قديما كوفان.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٣١)، والبغوى فى شرح السنة (٢٩/٢)، والطحاوى فى شرح معانى الآثار (١٣/١).

(فقدم إلى موسى بن عيسى العباسى) منسوب إلى عباس بن عبد المطلب عم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، والذى فى التواريخ أنه عيسى ابن موسى بن على بن عبد الله بن العباس، وأول من ولى الخلافة من بنى العباس السفاح، وجعل ولى العهد بعده أخاه المنصور وبعده عيسى بن موسى حين خلع نفسه كرها، وقيل: عوضه عشرة آلاف درهم وجعل ابنه المهدى بعده وبعده، عيسى بن موسى؛ فمات قبل المهدى سنة ثمان وستين ومائة ومات المهدى بعده بسنة.

(فقال) عيسى بن موسى لما ادعى عليه بما صدر منه **(من حضر هذا)** الرجل لما قال ذلك الشتم أو من سمع هذا الكلام منه، **(فقال ابن أبى ليلى أنا)** كنت حاضرًا سامعًا لمقاله، وابن أبى ليلى هو محمد بن عبد الرحمن الأنصارى الفقيه المشهور، كان صاحب قرآن، وعنه أخذ حمزة أحد القراء السبعة، وكان أفقه أهل عصره وأعلمهم بالسنة حتى وصل لمرتبة الاجتهاد، والشتم المراد به هنا القذف، وكأنه يذكر قصة الإفك بدليل قوله: **(فجلد ثمانين)** لأنه حد القذف، ولعله شهد معه شهود أخر، واقتصر على ذكر ابن أبى ليلى لجلالة قدره، ولو كان الرجل أقر لم يحتج للسؤال عمن سمع منه ذلك.

(وحلق رأسه) لأن هذا كان تعزيرًا فى العصر الأول؛ لأن العرب كانت لا تحلق الرءوس إلا فى نسك، وكان الأسير إذا حلق رأسه عدوه عارًا عليه، وورد فى الحديث أن الخوارج شعارهم حلق رووسهم، وجمع له بين الحد والتعزير؛ لأنه لا يجوز الجمع بينهما عند الشافعى فى مسائل ذكروها، وللإمام أو نائبه استيفاء حد القذف عن ميت لا وارث له معروف، وعائشة، رضى الله تعالى عنها، لم يكن لها وارث حاضرًا فى هذه القضية، ويحتمل أن لها وارثًا ثمة، والمصنف، رحمه الله تعالى، اقتصر من القضية على محل الشاهد منها فلا إشكال فى كلام المصنف، رحمه الله تعالى كما قيل.

(وأسلمه للحجامين) تسليمه لهم إما لحبس عندهم، أو ليخرجوا منه دما يضعفه، أو ليكون معهم فى خطتهم فهو نفى له، أو هو إهانة له يسقط قبول شهادته برذالة صنعته وهذا أظهر **(وروى أبو ذر)** الغفارى المشهور، رضى الله عنه، وهذا مما نقله الخطيب وابن عساكر فى التاريخ **(عن عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، أنه نذر قطع لسان عبيد الله)** بضم العين **(بن عمر إذ شتم المقداد بن الأسود)** الصحابى المشهور، رضى الله عنه، والمراد بالنذر هنا إلزام نفسه جزمًا بفعله لا النذر الشرعى، أو هو نذر شرعى لأنه علق على شىء لقصد المنع، ويسميه الفقهاء نذر اللجاج والغضب وهو مخير فيه بين الفعل وكفارة اليمين، والنذر على أقسام ذكرها الفقهاء.

(فكلم) بالبناء للمجهول **(فى ذلك)**، أى كلمه الناس بالشفاعة فيه والعفو عنه **(فقال)**

عمر، رضى الله تعالى عنه، لمن كلمه فى شأنه **(دعونى أقطع لسانه)**، أى اتركونى أفعل ذلك ولا تمنعونى منه **(حتى لا يشتم أحد)** من الناس **(بعد)** مبنى على الضم، أى بعد هذا **(أصحاب)** النبى **(محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم)** وعبيد الله بن عمر بن الخطاب بالتصغير كما علمت، وله أخ من أبويه اسمه زيد الأصغر، وأمهما ملكية بنت جرول، وتكنى أم كلثوم وهى بنت لعلى بن أبى طالب من فاطمة، رضى الله تعالى عنهما، مات هو وأمه فى وقت واحد فلم يورث أحدهما من الآخر.

وقيل: رمى بحجر فى حرب بين حيين فمات، والمقداد رباه يتيمًا الأسود وهو عبد حبشى وتبناه فنسب له، وأبوه عمرو بفتح العين ابن ثعلبة النهرواتى أو الحضرمى، ولذلك قال بعضهم: إن ابن هنا وأمثاله يكتب بالألف؛ لأنه ليس واقعًا بين علمين، ورد بأن القاعدة أنه إذا وصف العلم بابن متصل كفى فى حذف الألف من ابن خطأ، سواء كان العلم الذى أضيف إليه ابن علمًا لأبى الأول حقيقة أم لا كما اقتضاه إطلاقهم، وكون الأبوة حقيقة لم يتعرضوا لاشتراطه، إلا أنه قد يقال الأب حقيقة فى أب الولادة.

فيحمل إطلاقهم عليه لأنه الأصل والتبنى لا يدفع صورة الواقع من كون الابن وقع بين علمين، وشهد المقداد بدرًا لما قدم مسلمًا وما بعدها ومات ببلده فحمل للمدينة ودفن بها وصلى عليه عثمان سنة ثلاث وثلاثين وهو ابن سبعين، وقطع اللسان من المذكور تعزير له لا حد فإنه لا تجوز الشفاعة فيه بخلاف التعزير، وللإمام أن يغلظ فى الحد بما أراد، فلا يقال أن قطع اللسان لم يرد فى الشرع، ثم أن التعزير فيه حق لله للإمام أن يستوفيه بغير لب والمقداد من كبار الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، فلذا أغضب ذلك عمر، رضى الله تعالى عنه.

(وروى أبو ذر الهروى) هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الله الهروى الحافظ كما تقدم، **(أن عمر بن الخطاب أتى بأعرابى يهجو الأنصار، فقال: لولا أن له صحبة)**، أى لو لم يكن من أصحاب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لكفيتكموه)** الخطاب لمن عنده من الأنصار أو لمن حضره، أى لقتلته وكفيتكم شره وهجوه، ولكن لشرف صحبته عفى عنه، وهذا لم يكن بلغ مرتبته حد القذف، ومر أن هذا بناء على أن الإمام له أن يبلغ باجتهاده فى التعزير القتل، وهو الذى يسميه الفقهاء سياسة، وهذا رواه ابن قدامة عن أبى سعيد الخدرى بسند رجاله ثقات.

(قال) الإمام **(مالك)** وفى نسخة: وقال مالك فى رواية عنه **(من انتقص أحدًا من أصحاب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى ذكرهم بما فيه نقص لهم **(فليس له فى هذا الفيء حق)** وسهم منه، أى لا نصيب له فى مال يؤخذ فيئا من الكفار، واستدل

عليه بقوله: (**قد قسم الله الفيء في ثلاثة أصناف**) من المسلمين (**فقال**) فى قسم منه ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ من المسلمين ﴿الْمُهَاجِرِينَ﴾ الآية، أى ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، أى الذين هاجروا من ديارهم للمدينة لنصرة نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وابتغاء فضل الله ورضوانه.

(**ثم قال**) فى القسم الثانى ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الحشر: ٩] الآية، ﴿مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]. (**وهؤلاء هم الأنصار**) الذين آووا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ونصروه (**ثم قال**) فى القسم الثالث ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾ للإسلام من غير المهاجرين والأنصار ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ الآية، ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، فهؤلاء يدعون لهم، ويستغفرون لهم، ويعظمونهم بسبقهم للسعادة فى الدارين.

(**فمن تنقصهم فلا حق له في فيء المسلمين**) لخروجهم عن الأصناف الثلاثة وهذا بناء على أن قوله للفقراء . . . إلخ، بدل من قوله لذى القربى ومابعده، والمبدل منه فى حكم الطرح لا متعلقا بمحذوف، أى أعجبوا لهم فى تركهم أموالهم وأهلهم وديارهم لرجاء فضل الله ونصرة دينه، ومدح الله لهم بالصدق فى ذلك ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ وإيثارهم على أنفسهم ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾ داعين للسابقين وهو على مذهبه من أن الفيء لا يخمس كالغنيمة وعند بعضهم يخمس والكلام فيه مفصل فى كتب الفقه والتفسير والفيء ما أخذ من الكفار من غير قتال، فيدخل فيه الخراج والعشر والغنيمة، وفيه خلاف هل يخمس أم لا؟ والخمس الذى كان لرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، يصرفه فى مصالحه اختلف فيه بعد موته على ما فصله الفقهاء.

(**وفي كتاب ابن شعبان: من قال في واحد منهم**)، أى الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، (**أنه ابن زانية وأمه مسلمة حد عند بعض أصحابنا**) حد القذف (**حدين حدًا له وحدًا لأمه**) قيل: فيه تغليب، والمراد أنه يحد لأمه؛ لأن الحد حق لها وعزر له وفيه نظر؛ لأن قوله: (**ولا أجعله كقاذف الجماعة في كلمة**) يأباه (**لفضل هذا على غيره**)، أى لزيادة جرمه فالفضل بمعناه اللغوى، ومن قذف جماعة بكلمة واحدة حد حدًا واحدا عند الأكثر وللشافعى فيه خلاف، ولقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «من سب أصحابى فاجلدوه».

(قال) ابن شعبان **(ومن قذف أم واحد منهم وهى كافرة حد حد الفرية)** أى الكذب لا القذف بناء على أنه يشترط فى وجوبه الإسلام **(لأنه سب له، فإن كان أحد من ولد هذا الصحابى)** الذى سبه **(حيًا)** وقد مات أبوه **(قام)** مقام أبيه **(بما يجب له)**، أى يطلب حقه الواجب لسبه؛ لأنه وارثه فى ماله وحقوقه فليس لغيره حق فى هذه الدعوى **(وإلا)**، أى وإن لم يكن له ولد حى **(فمن قام به)**، أى بطلب حقه ودعواه **(من المسلمين)** لأن لهم طلب مثله، **(كان)** واجبًا **(على الإمام)** أو نائبه **(قبول قيامه)** باستماع دعواه والحكم بمقتضاه معاونة ونصرة له.

(قال) ابن شعبان **(وليس هذا)**، أى استحقاق غير الولد من المسلمين للدعوى بالحد والتعزير **(كحقوق غير الصحابة)** فإنه لا يستحقها غير الوارث **(لحرمة هؤلاء)**، أى الصحابة **(بنبيهم، صلى الله تعالى عليه وسلم)** ففيه حق من حقوق الله يستحقه كل أحد من هذه الأمة **(ولو سمعه)**، أى سمع قوله **(الإمام)** أو نائبه **(وأشهد عليه كان)** الإمام أو نائبه **(ولى القيام به)**، أى كان يتولى الحد واستيفاءه **(قال ومن سب غير عائشة من أزواج النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ففيه قولان أحدهما يقتل)** كما يقتل من سب عائشة **(لأنه)** بسب زوجه أم المؤمنين **(سب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** لتعدى عارهن له **(لسبه حليلته)**، أى زوجته وهى من الحلال لحلها له أو من الحلول لأنها تحل حيث حل.

(و) القول **(الآخر)** فى غير عائشة **(أنه)**، أى سب غيرها **(كسائر الصحابة)** فيلزمه أن **(يجلد جلد المفترى)** بناء على أن سبهم فيه ذلك، وقيل: ساب عائشة لتكذيبه لله ورسوله للقرآن كما مر.

(قال) ابن شعبان **(وبـ)** القول **(الأول)** وهو القتل **(أقول)** لاختياره له وقوة دليله عنده **(وروى أبومصعب)** أحمد بن أبى بكر القاسم بن الحارث بن زرارة بن مصعب بن عبد الرحمن الزهرى المدنى القاضى قاضى المدينة كما تقدم **(عن مالك فى)** حق **(من انتسب إلى بيت النبى ﷺ)** بقرابة أو ولاء، قيل: أو صحبة **(يضرب ضربًا وجيعًا)** نكالاً له وردعًا لأمثاله منهم **(ويشهر)** بالتخفيف، أى يطاف فى الأسواق ليعلم الناس حاله ويشتهر ضلاله لئلا يقتدى به غيره **(ويحبس)** حبسًا **(طويلاً)** مدته **(حتى تظهر توبته)**.

فإذا ظهرت أطلق **(لأنه)**، أى ما فعله **(استخفاف بحق الرسول ﷺ)** فيحسب عقوبته لذلك وحاصل قوله: من انتسب إلى هنا أن من ادعى أنه من أهل البيت وهو ليس منهم وأثبت له انتسابا لهم يستحق النكال والتشهير، وقد ورد فى الحديث أنه ﷺ قال: «أيما

رجل دعى إلى غير أبيه فقد كفر»[١] وهذا يدل على عظيم هذا وأنه يشدد فيه، وقد كثر هذا فى زماننا هذا، وتساهل الناس فيه ودخلوا فى هذا النسب الطاهر وادعاه كثير من الأشرار، وتسارع القضاة بذلك إلى إثبات الأنساب وجعلوا له علامة كما قيل:

جعلوا لأبناء الرسول علامة   أن العلامة شأن من لم يشهر
نور النبوة فى كريم وجوههم   يغنى الشريف عن الطراز الأخضر

(**وأفتى أبو المطرف**) بضم الميم وفتح الطاء وكسر الراء المشددة المهملتين وفاء (**الشعبى**) بفتح الشين المعجمة وسكون العين المهملة، وباء موحدة وياء نسبة مشددة (**فقيه مالقة**) بزنة فاعلة اسم فاعل بلدة مشهورة بالمغرب بيد النصارى الآن أعادها الله للإسلام (**فى رجل أنكر**) على بعض القضاة (**تحليف امرأة**) مخدرة ادعى عليها بحق شرعى فأمرها أن تحلف عنده (**بالليل**) سترًا لها.

(**وقال**) من أنكر تحليفها ليلا (**لو كانت**) المرأة أبكر (**بنت أبى الصديق**) رضى الله تعالى عنه، (**ما حلف إلا بالنهار**) حتى يسوى بينها وبين غيرها (**وصوب**) ماض مشدد الواو أى عد (**قوله**) هذا صوابًا وهو إنكاره تحليف النساء المخدرات ليلا (**بعض المتسمين**)، أى المتصفين بمعرفة (**بالفقه فقال أبو المطرف**) فقيه مالقة:

(**ذكر هذا**) المنكر تحليف النساء ليلا (**لابنة أبى بكر**) الصديق، رضى الله تعالى عنهما، (**فى مثل هذا**) الأمر الذى سوى بها غيرها من النساء (**يوجب عليه**) شرعًا التعزير البليغ و(**الضرب الشديد والسجن الطويل**) لجرأته على بنت خليفة رسول الله ﷺ وأم المؤمنين، فإن المتبادر منها عند الإطلاق عائشة، رضى الله تعالى عنها، وإن كان له غيرها (**والفقيه الذى صوب قوله**) فى الإنكار المذكور.

(**هو أحق**) وأولى (**باسم الفسق**)، أى وصفه بأنه فاسق وجعل فقهه الذى ادعاه فسقا أحق بالقبول (**من**) إطلاق (**اسم الفقه**) عليه (**فيتقدم إليه**)، أى يبرز لمخالفته وتفسيقه بما قاله (**فى ذلك**) المقال الذى قاله (**ويزجر**) ويوبخ على ما قاله (**ولاتقبل فتواه**) التى أفتى بها (**ولاشهادته**) بتصويب ماقاله ذلك الفاسق الذى ظنوا فسقه فقها.

(**وهى**)، أى فتواه لتصويبه لمقالته هذه (**جرحة**) فعلة بالضم من الجرح المقابل للتعديل، أى قوله هذا جارح له مسقط له من العدالة فلا يقبل ما قاله (**ثابتة فيه**) مسجلة عليه الجرح وعدم العدالة (**ويبغض**) مضارع بزنة يكرم المجهول بغين وضاد معجمتين معطوف على قوله يتقدم، أى يظهر بغضه وعداوته (**فى الله تعالى**) عز وجل، إهانة له وتركا

(١) أخرجه أحمد فى المسند (١/٣١٨)، والدارمى (٢/٣٤٤).

لمقاله، وهذا آخر كلام أبى المطرف كما نقله عنه السبكى فى فتاويه، وقال: الغرض من هذا كله أنه فاسق مرتكب لكبيرة عظيمة لا مخلص له منها بسبيل إلى العدالة.

ومن كان بهذه الصفة لا تقبل شهادته قطعًا ومن تخيل أن لقبول ساب الصحابة وجهًا وتأويلاً فليعلم أن هذا وإن كان فاسدًا فالشيخان خارجان عن ذلك، إذ تأويلهم إنما هو فيمن خامر الفتن ولابس قتل عثمان وقاتل عليا والشيخان بريئان من ذلك قطعا، ولذلك جرى الخلاف فى تكفير سابهما وساب عثمان وعلى دون غيرهم من الصحابة انتهى.

وإذا عرفت أن ما ذكره المصنف، رحمه الله تعالى، عبارة أبى المطرف، فالمقصود منه أن السلف كانوا يحافظون على مقام الصحابة ويمنعون الجرأة عليهم، ولذا نقله السبكى و لم يتعقبه، فما قيل عليه من أنه غير مسلم لأن إنكاره التحليف ليلا له وجه، لأن اليمين قد يقصد تغليظها، ومن تغليظها إظهارهما بين الناس حتى قيل قد تحلف بعد عصر الجمعة فالإخفاء لم يعهد شرعا.

وأيضًا قوله: لو كانت بنت أبى بكر ليس فيه ذكر لعائشة، فله بنت أخرى وهى أسماء ولو سلم تبادرها فليس فيه تحقير لها، بل هو تعظيم لها لادعاء إنها فى أعظم مراتب الشرف حتى لوكانت هذه بمرتبتها لم تحلف والعرف قاض بهذا، وبه أفتى بعض الفقهاء كالسبكى وابن أبى شريف؛ فقال السبكى، وغيره: لو قال لو جاءنى لهذا الأمر جبريل أو رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما فعلته، أنه تغليظ فيه تعظيم للمشبه به، وأن له مرتبة لا يصل إليها أحد، ولو وصل لها هذا حكم عليه أيضًا؛ لأن الأحكام لا تختلف بشريف ولا وضيع، ومثله ما ورد فى الحديث: «لو سرقت فاطمة بنت محمد قطعتها»[1].

وقد علمت الجواب عنه وكون مثله للتعظيم يعلم من السياق، وإذا كان كذلك فقد يؤخذ من السياق غيره، ولذا قال المصنف **(وقال أبو عمران فى رجل، قال: لو شهد علىّ أبو بكر)** حذف الجواب لظهوره وعدم القصد له هنا **(أنه)**، أى الشأن أو القول المذكور **(إن كان)** مراده أن شهادته **(فى مثل هذا لا تجوز)** ولا تكفى وحدها **(بهذا الشاهد الْوَاحد)** لأن شهادة رجل واحد لا تقبل مطلقًا وما فى قصة خزيمة مأول كما تقدم **(فلا شىء عليه)** من تعزير وغيره؛ لأنه لا يشعر بإهانة ولا تنقيص.

(وإن أراد غير هذا) مما يقتضى الإهانة بقرينة سوق الكلام **(فيضرب ضربًا)** بليغًا

---

(١) أخرجه البخارى (٣٤٧٥)، ومسلم (٨/١٦٨٨)، والنسائى (٤٨٩٧).

(يبلغ به حد الموت)، أى يوصله ذلك الضرب إلى مرتبة الموت لذكره من هو أفضل الخلق بعد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى مقام لا يليق به، فهذا يشعر بأن مثل هذه العبارة قد يكون فيها نوع من الإهانة والحقارة **(وذكروها رواية)** وكون الشاهد الواحد لا يقبل ليس على إطلاقه، فقد ذكر الفقهاء مسائل تقبل فيها شهادة واحد ليس محل تفصيلها هنا، كما وقع فى بعض الشروح فإنه تكثير للسواد ليس فى محله.

(تنبيه) فى الخصائص الكبرى للسيوطى: أخرج الطبرانى عن أبى أمامة أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «أربعة يؤتون أجرهم مرتين أزواجه أمهات المؤمنين»[١]؛ فقيل: فى الأخرة وقيل: أحدهما فى الدنيا والآخر فى الآخرة، واختلف فى مضاعفة عذابهن فقيل عقاب فى الدنيا وعقاب فى الآخرة، وغيرهن إذا عوقب فى الدنيا لا يعاقب فى الآخرة؛ لأن الحدود كفارات، وقال مقاتل: هذان فى الدنيا.

وقال ابن جبير: وكذا عذاب من قذفهن يضاعف فى الدنيا فيجلد مائة وستين، وفى الشفاء أنه خاص بغير عائشة؛ لأنه بسببها يقتل، وقيل: يقتل من قذف واحدة من سائرهن، وقال فى التلخيص: قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥]، وعمل غيره إنما يحبط بالموت على الكفر انتهى، وقد تقدم الكلام عليه وعلى ما فى كلام أبى عمران.

وكذا يعطى أجره مرتين من توضأ مرتين، ومن قرأ القرآن، وهو عليه شاق، والمجتهد إذا أصاب، والمتصدق على قريبه والمرأة على زوجها، ومن عمر جانب المسجد الأيسر لقلة أهله، والغنى الشاكر، ومن سن سنة حسنة، ومن صلى بالتيمم ثم وجد الماء فأعاد، والجبان، ومن اشترى أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها، وكتابى آمن بنبيه ثم بمحمد ﷺ، ومن صلى فى الصف الثانى أو الثالث مخافة أن يؤذى مسلمًا، والإمام والمؤذن، ومن طلب علمًا فأدركه الموت، ومن أسبغ الوضوء فى البرد الشديد، ومن دنى من الخطيب فاستمع وأنصت، ومن غسل يوم الجمعة واغتسل، ومن قتله أهل الكتاب، وشهيد البحر، ومن حافظ على صلاة العصر، ومن استمع لقراءة القرآن، وسرية خرجت للغزو فرجعت، وقد أخفقت، أى رجعت ولم تغنم ومن قتله سلاحه، ومن توضأ بعد الطعام، ومن يعمل العمل سرًا فإذا اطلع عليه أعجبه.

قال الترمذى: فسره بعض أهل العلم بأن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير لقوله، صلى

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٨/٢٥٢)، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤/٢٦٠): وفيه على بن يزيد الألهانى، وهو ضعيف.

الله تعالى عليه وسلم: «أنتم شهداء الله فى الأرض»[1] لا للإكرام والتعظيم، وقال بعضهم: إذا اطلع عليه فأعجبه رجاء أن يعمل بعمله فيكون له مثل أجورهم، ومن كان موفقا فى وقت الفساد، ومن تصدق فى يوم الجمعة، ومن عمل فيه خيرًا مطلقًا، ومن أتى إلى الجمعة ماشيًا، ومن تبع الجنازة ماشيًا، ومن صلى على جنازة وتبعها حياء من أهلها؛ فيحصل له أجر صلاته على أخيه، وأجر صلاته للحى، ومن قرأ فى المصحف، ومن قرأ القرآن فأعربه، والمراد بإعرابه معرفة معانى ألفاظه، وليس المراد بذلك المصطلح عليه فى النحو وهو ما يقابل اللحن؛ لأن القراءة مع فقده ليست قراءة ولا ثواب فيها، ومن سارع إلى خير ماشيًا حافيًا.

ثم ختم المصنف رحمه الله كتابه بقوله: **(قال القاضى أبو الفضل)** عياض مصنف هذا الكتاب، رحمه الله تعالى، **(هنا انتهى)**، أى تم وبلغ نهايته **(القول بنا)**، أى القول المتعلق بنا فيما قصدناه من هذا التأليف **(فيما حررناه)**، أى كتبناه محررًا مهذبًا من الباعث على هذا التأليف.

(وأنجزنا)، أى تممنا من إنجاز الوعد الذى وعد بإتمامه فى أول الكتاب، وفى نسخة: انتجزنا افتعال من النجاز وهو التمام **(الغرض)** بمعجمتين، أى المطلوب **(الذى انتحيناه)** بحاء مهملة، أى قصدناه فى تأليفنا هذا فى ذكر حقوق المصطفى كما تقدم فى التراجم وأتى بصيغة التفعل لزيادة قصده والغرض أصله كما تقدم الذى يرمى له السهام، ثم عبر به عن كل مقصود، وبينه وبين الفائدة عموم وخصوص مطلق وصوب بعضهم أنه وجهى فتنفرد الفائدة فى ثمرات أفعال الله بناء على أنها لا تسمى غرضًا، وينفرد الغرض فيما لو قصد بأمر ما لا يترتب عليه خطأ واجتماعهما ظاهر غنى عن البيان **(واستوفى)**، أى كمله وأتى به وافيًا **(الشرط الذى شرطناه)** فيما بينه أول الكتاب، واستوفى مبنى للفاعل وجوز كونه للمفعول والضمائر لما **(مما أرجو)**، أى أؤمل من الرجاء بمعنى الأمل، ويكون فى غير هذا المحل بمعنى الخوف أيضًا مع النفى، كقوله: ﴿لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

(أن يكون فى كل قسم منه)، أى مما حرره **(للمريد)** الطالب لهذه المقاصد **(مقنع)** مفعل بالفتح من القناعة، أى كفاية وهواسم مكان أو مصدر ميمى، والمراد بالمريد من يطلب الوقوف على معرفة مقدار النبوة وحقوقها، وعبر بالمقنع إشارة إلى أنه لا يمكن الوصول إلى حقيقتها المغنية وإلا فالطالب يقنع بمقدار منها فلله دره.

(١) أخرجه أحمد (٣/٢٨١)، والنسائى (١٩٣٣)، والبيهقى فى السنن الكبرى (٤/٧٥)، والطبرانى فى المعجم الكبير (٧/٢٥).

(وفى كل باب) من أبوابه، أى كل جملة ونوع من أنواعه، وهو فى العرف جملة من المسائل يرتبط بعضها ببعض بحيث تعد أمرًا واحدًا **(منهج)** هو كالمنهاج الطريق الواضح **(إلى بغيته)** بكسر الباء وضمها وغين معجمة وهى المطلوب **(ومنزع)** بفتح الميم والزاء المعجمة بينهما نون ساكنة النزع أو النزاع، فهو إما بمعنى مخرج إليه، أو محل أحبابه الذى يشتاق إليه من نزع إلى أهله ووطنه إذا اشتاقه، أو من نزع السهم إذا جذبه ليرميه فالمقصود أنه يجد ما يهمه طلبه فيه.

(وقد سفرت فيه)، أى كشفت وبينت فى هذا الكتاب مما حررته وجمعته فيه، وأزلت الحجاب **(عن نكت)** جمع نكتة وهى الأمر الدقيق المستخرج بالفكر **(تستغرب)**، أى تعد غريبة نادرة **(وتستبدع)**، أى تعد بديعة غير مسبوقة بالمثل فى جنسها، ولو اقتصر على قوله: تستغرب ربما يتوهم أن غرابتها لعدم ألف الطباع لها، إذ ليس كل مستغرب مستبدع فلله دره.

(وكرعت)، أى احتوت بدخولها ووصولها **(فى مشارب)**، أى مطالب ومقاصد **(من التحقيق)**، أى بيان الحق المتيقن المتقن الثابت **(لم يورد)** بنباء المجهول، أى يذكر **(لها قبل)**، أى قبل هذا الكتاب **(فى أكثر التصانيف)** التى صنفت فى هذا الباب **(مشرع)**، أى محل يستفاد منه مثلها، هذا هو المراد، وتحقيقه أن الكرع فى الأصل شرب الدواب بفيها من الماء؛ لأنها تدخل أكارعها فيه والورود الذهاب للشرب ضد الصدر، والمشرع محل الماء المورود كالمنهل، والمورد والشريعة النهر ونحوه، فالكل هنا إما استعارة تمثيلية بتشبيه المسائل المطلوبة بما ينتفع به العطاش، وتشبيههم ثانيًا بسيل لهم حاجة له، وتشبيه الصحف بموارد أنهار يحط عندها الرحال، وهذا أبلغ من جعلها استعارات تصريحية أو مكنية مخيلة مرشحة ولكل وجهة فلله دره.

(وأودعته)، أى جعلته فيه كأنه وديعة **(غير ما فصل)**، أى فصولاً كثيرة وما مزيدة لتأكيد الكثيرة **(وددت)**، أى تمنيت من الود وهو المحبة والصداقة، ثم استعير للتمنى وهو المراد كقوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢]، **(لو وجدت من بسط)**، أى بين وشرح من غير اختصار فيه **(قبلى الكلام فيه)**، أى فى بيانه مستوفى **(أو)** وجدت **(مقتدى)**، أى أحدًا من أئمة العلماء المتقدمين، وفى نسخة مفيدًا بالفاء من الفائدة **(يفيدنيه)**، أى أستفيده منه.

أما **(عن كتابه)** الذى صنفه فى هذا الغرض **(أو فيه)**، أى أسمعه من تقريره لى بفيه **(لأكتفى بما أرويه عما أرويه)** أرويه الأول مضارع بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وكسر الواو المخففة ثم ياء مثناة تحتية وفاعله ضمير مستتر للمتكلم، والثانى بضم الهمزة

وكسر الواو المشددة بعد راء مهملة مفتوحة، أى أروى ما سمعته من فيه أو آخذ من كتابه، ومعنى الثانى: أحمل غيرى على روايته عنى، أى أكتفى بالأول عن الثانى وفيه تجنيس بديع.

وقوله: يفيدنية باتصال الضميرين جوازًا، وظاهر كلام سيبويه أن الاتصال فى مثله لازم، واختار ابن مالك الأول كما بين فى كتب النحو، يعنى أن بيان حق المصطفى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وما يجب له أمر واجب لم أر من وفاه حقه، فوجب على بيانه ولله دره رحمه الله، فإنه قام بأمر عظيم لم يقم به غيره، وفسر بعضهم أرويه المشدد بأفكر فيه وأعمل برويتى فيه من رويت فى كذا، وترويت إذا أعملت النظر والفكر فيه وما ذكرناه هو المروى، وجوز بعضهم فى أرويه الثانى ضم الهمزة وسكون الراء المهملة من أرواه المزيد وهو بمعنى حمله على الرواية أيضًا.

(وإلى الله تعالى) وحده لا إلى غيره كما يفيده تقديم الجار على متعلقه **(جزيل الضراعة)** الضراعة بمعنى التذلل والخضوع، والجزيل الكثير القوى، وهو صفة معنى الضراعة الجزيلة وهو دعاء **(فى المنة)**، أى الإنعام والإحسان **(بقبول ما)** حصل **(منه)** بفضله وكرمه **(لوجهه)** الكريم، أى ما فعله خالصًا لله لا رياء للناس كما أشار إليه بقوله: **(والعفو)** معطوف على المنة، أى وفى العفو **(عما تخلله)**، أى وقع فى خلال كلامه وبين أجزائه فى أثناء فصوله التى ذكرها فى كتابه هذا **(من تزين)**، أى إظهار مافيه زينة وحلية **(وتصنع)**، أى تكلف صنعة فى كلامه كالسجع، والألفاظ التى قصد تحسينها مما يخشى أن يكون ذلك رياء منه بقصد التبجح بقدرته على الكلام البليغ.

(لغيره)، أى لغير الله بل لأجل من يمدحه من الناس، وهو دعاء طلب به من الله أن يرزقه الإخلاص فى تأليف هذا الكتاب، وأن يصونه عن الرياء فيما حسنه من كلامه وزينه من عباراته **(وأن يهب لنا ذلك)**، أى ما وقع فيه التزين والتصنع مما فيه شائبة رياء، وهبته مجاز عن التجاوز عن المؤاخذة به لئلا يحبط ما صانه **(بجميل كرمه وعفوه)** عنه إن وقع رياء لغيره **(لما أودعناه)**، أى عفوه عما ذكر لأجل ما أورده فى كتابه هذا.

(من شرف مصطفاه)، أى رسوله الذى اختاره لرسالته وتبليغ أمانته **(وأمين وحيه)** الذى أئتمنه على تبليغه لخلقه، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وحاصله أنه خشى من أن يخالط عمله رياء يحبطه فرجا من الله أن يعفو عنه إن كان.

والرياء إذا خالط العمل هل يحبطه أم لا؟ فيه خلاف، وصحح بعضهم أنه ينظر فيه للباعث عليه والأغلب فيه، فإن غلب إخلاصه، وكان هو الباعث له لم يحبط من عمله

وإلا حبط، وهذا هو الذى عليه المحققون، وله تفصيل فى كتب القرافى والعز بن عبد السلام هذا محصله.

(و) أن يغفر لنا ذلك لأجل ما قاسيناه فى تحصيله وتأليفه و**(أسهرنا به)**، أى تركنا النوم والراحة فلم نغمض **(جفوننا)** جمع جفن وهو غطاء العين أضاف له السهر لتوقفه عليه **(لتتبع فضائله)** التتبع هو التنقية أريد به التفتيش والبحث عن فضائل المصطفى، صلى الله تعالى عليه وسلم، من كتب القوم وإعمال الفكر فيها **(وأعملنا)**، أى شغلنا وأتعبنا **(فيه خواطرنا)** جمع خاطر وهو كما فى الأساس ما يتحرك فى القلب من رأى أو معنى يقال خطر على بالى وببالى.

(من إبراز)، أى إظهار **(خصائصه)**، أى ما خصه الله به دون غيره مما يجب أويباح أويحرم **(ووسائله)**، أى ما يتوسل به إلى الله مما قربه إليه أوما أكرمه به يوم القيامة كالشفاعة العظمى، والحوض، ولواء الحمد وغيره مماتقدم تفصيله والكلام عليه **(ويحمى)**، أى يصون **(أعراضنا)** جمع عرض وهو بكسر فسكون وضاد معجمة، والمراد به أبداننا فإن العرض يطلق على هذا وعلى ما يصونه ويحميه من صفاته، وادعى بعض أهل اللغة أنه حقيقة فى الأول دون الثانى، وفيه كلام فى كتب اللغة **(عن ناره الموقدة)** التى يعاقب بها من عصاه **(بحمايتنا)**، أى صيانتنا **(كريم عرضه)**، أى عرضه الكريم، أى المكرم المحترم عند كل مسلم، والعرض هنا بمعناه المعروف.

(ويجعلنا ممن لا يذاد) بضم المثناة التحتية وذال معجمة وألف بعدها دال مهملة، أى يطرد **(إذا ذيد)** مبنى للمجهول بذال معجمة مكسورة ودال مهملة بينهما تحتية ساكنة، أى طرد وصد **(المبدل)**، أى الذى بدل دينه بردة ونحوها **(عن حوضه)** المورود يوم القيامة يوم الحسرة والندامة، وهو تلميح وإشارة لما ورد فى الحديث من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ينادى بعض العطاش فى القيامة من القتامة فيمنعون عنه، فيقول: ما بالهم طردوا، فيقال له: إنك لا تدرى ما فعلوا بعدك، إنهم بدلوا دينهم، وبه استدل بعض الرافضة على تكفيرهم لبعض الصحابة، فطلب من الله أن يحميه عما يبدل دينه حتى لا يكون من المطرودين عن الحوض.

وهذا الحديث فى صحيح مسلم وغيره، ولفظ الذى فىمسلم أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسمًا؛ فقال: «أنزل علىَّ الليلة سورة وقرأ ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، إلخ، وقال: هل تدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: نهر أعطانيه ربى عليه خير كثير، ترده أمتى يوم القيامة تختلج العبد منهم، أى تجذبه الملائكة وتدفعه، فأقول: يا رب إنه من أمتى، فيقال: إنك لا تدرى ما

أحدث بعدك»[١]، وفى رواية: «ما زالوا بعدك مرتدين على أعقابهم».

قال القرطبى، رحمه الله تعالى: قالوا: كل من ارتد أو أحدث ما لا يرضاه الله فهو من المطرودين عن الحوض وأشدهم طردًا من خالف جماعة المسلمين كالخوارج والظلمة وأهل الجور، فهذا صريح فى أن طردهم عن الحوض على ظاهره.

وقول ابن حجر، رحمه الله تعالى، أنهم طردوا ليرشد كل أحد إلى حوض نبيه يأباه ما صرح به فى الروايات الأخرى، وهذا غير مناف لما ورد من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، تعرض عليه أعمال أمته فى البرزخ؛ لأنه قد ينسى أو يراد إظهار ما عملوه على رؤس الأشهاد ونحو ذلك.

(**ويجعله لنا**) يعنى نفسه ومن أخذ عنه (**ولمن تهمم**)، أى اعتنى وتقيد (**باكتتابه**)، أى كتابته (**واكتسابه**)، أى تحصيله بأى طريق كان (**سببًا**)، أى وسيلة موصلة (**يصلنا بأسبابه**)، أى طريقًا موصلاً للأمور الموصولة لقرب الله ورضاه (**وذخيرة**)، أى أمر اندخر وعدة.

(**نجدها** ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا**﴾ [آل عمران: ٣٠])، أى تجد أعمالها حاضرة عندها، وهو تجوز عن حضور صحفها أو ظهورها بشهادة الأعضاء ونحوها؛ لأن الأعمال أعراض لا تعاد وتحضر، وذهب بعضهم إلى أن الأعمال تتجسم حتى تشاهد، وإليه ذهب بعض العلماء، وللجلال السيوطى فيه رسالة أقام فيها أدلة على ذلك والله على كل شىء قدير، وعبر باسم المفعول؛ لأن الفاعل معلوم إذ لا يحصرها إلا الله (**نحوز بها**)، أى نحصل بالأعمال الصالحة إذا أحضرت (**رضاه وجزيل ثوابه**) كما وعد به من لا يخلف الميعاد.

(**ويخصنا**)، أى يميزنا بما عملناه من العمل الصالح (**بخصيصى زمرة نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، وجماعته**)، أى أتباعه من أمته، وخص يتعدى بالباء وتدخل على المأخوذ كما هنا وعلى المتروك والكلام فيه مشهور، والزمرة والجماعة متقاربان، وخصيصى بكسر الخاء المعجمة وكسر الصاد المهملة المشددة ثم مثناة تحتية وصاد مهملة وألف مقصورة، وتمد كما فى القاموس وغيره، وهو مصدر بمعنى الاختصاص، وهو الذى جزم به السيوطى، وقيل: إنه مثنى خصيص بوزن صديق، وإليه ذهب السخاوى وغيره وفسره بأبى بكر وعمر، رضى الله تعالى عنهما، ولما قرأه بالتثنية الشيخ برهان الدين النعمانى فى الدرس بين يدى المحبى الكافيجى بالشيخونية والجلال حاضر رده، وقال: إنه خطأ

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣/٤٠٠)، وأبو داود (٧٨٤).

فلم يقبله، وقال: إنه هو الصواب، فكتب إليه بعد ذلك ما صورته بعد البسملة: الحمد لله الذى محن العلماء والأشراف بمعاندة الجهال والأطراف والصلاة والسلام، على سيدنا محمد وآله وصحبه أولى الفضل والإنصاف، وبعد فقد قرأ بعض العوام فى آخر كتاب الشفاء قوله: ويخصنا بخصيصى... إلخ، بسكون الياء بصيغة التثنية المحذوفة النون فقلنا له: إنما هى خصيصى بألف التأنيث المقصورة وأقمنا له العذر فى ذلك بكونه رآها مرسومة بالياء فظن أنها ياء وادعى أنها رواية، وكذب فى ذلك، وادعى أن ذلك هو الصواب، وأن المراد بالخصيصين أبوبكر وعمر، رضى الله تعالى عنهما، وأقول: ما ادعاه باطل رواية ولغة ومعنى، أما الرواية فإن الذى تلقيناه من المعتبرين وضبطه من يرجع إليه فى النقل أنه بألف لا غير، كما نبه عليه البرهان الحافظ الحلبى فى شرحه للشفاء، وشيخنا الإمام تقى الدين الشمنى فى حاشيته عليه.

وكذلك قرأناه عليه وسمعناه من غيره، وأما لغة، فقال الجوهرى فى الصحاح والقاموس والمجمل: خصه بالشىء خصًا وخصوصًا وخصوصية بالفتح، وخصيصى ويمد فهؤلاء أئمة اللغة قالوا: خصيصى بالألف المقصورة مصدر خصه، ولم يقل أحد منهم أن خصيص سمع مصدرًا ولا صفة، وأصرح منه ما فى ديوان الأدب للفارابى فى باب فعيل أنه سمع خمسة ألفاظ شرير صاحب شر جدًا، وقسيس، ورجل ضليل ضال جدًا وتنين ضرب من الحيات ورجل عنين.

ثم ذكر خصيصى وأخواته ولم يذكر خصيص وبابه سماعى لا يقاس عليه كما هو مقرر عند أهل العربية.

وأما بطلانه معنى فلان المقصود من الكلام المصدر لا الوصف، والمراد أن يخصنا بهذه الخصوصية، وهو أن يكون من جملة الجماعة المنسوبين إلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، والزمرة الداخلين تحت لوائه، وليس المراد الاختصاص بالذوات، وهذا مما لا يخفى إلا على جاهل بليد، وأيضًا لو كان خصيصى مثنى مضافًا وجب أن يضاف إلى اثنين متغايرين وليس بعده إلا زمرة، وهى جماعة بمعنى واحد وما فسر به كلامه غلط صراح يضحك منه السامع، ويفرح به العدو، ويغتم الصديق، وأى معنى لقوله: ويخصنا بأبى بكر وعمر والاختصاص منه إنما يكون بالمعنى لا بالذوات، فليتأمل المنصف هذا الكلام فإنه لا يساوى مثقال ذرة، والله أعلم، انتهى، ما قاله السيوطى ملخصًا وأرسله لعلماء عصره واستفتاهم وطلب منهم بيان الصواب.

فقال السخاوى فى فتاويه فى الحديث: إن ممن استفتاه العلامة الأمينى الأقصرى، فكتب بتصويب ما قاله البرهان، وقال: إن إنكاره بغير موجب، ومعناه صحيح فلا وجه

لإنكاره وكتب الشمس اليامي: إن الذى سمعناه من مشايخنا قديمًا وحديثًا وقرئ عليهم، أن هذه اللفظة مثناة والمعنى عليها فلا يحل لأحد إنكارها، فمن أنكرها وصوب غيرها فى الحقيقة مسيئ على القاضى عياض فيؤدب على إساءته عن العلماء، وكتب الفخرى عثمان الديمى مثله، وكذا الشيخ قاسم الحنفى، وقال: إن التثنية لا تمتنع رواية ودراية، أما الرواية فلأنها الثابتة فى الأصل المعتمد المقابل مع الحافظ الذى صححه عبد المجيد اليمنى فى حاشيته عليه، قرئ ذلك على ابن حجر، وناهيك به فمن نسب قائله إلى الكذب فهو كذاب يستحق التأديب كذا قال السخاوى فى فتاويه، ثم قال: إنه سئل عنه مرة أخرى فأجاب بأن التثنية ثبتت دون غيرها، كما قاله التاج اليمنى وشهد له تاج الدين السبكى، بأنه الذى يروى فيروى كل ظمآن، ويبدى فوائد شجرة الإيمان، وهو الثابت فى الأصول المعتمد عليها، ومما يتعجب منه أنه استدل بما فى ديوان الأدب لاقتصاره فى فعيل على خمسة ألفاظ مع وجود ألفاظ غيرها.

وإذا تقرر هذا فالتثنية فى كلام القاضى بالنظر لشيئين، وهما الزمرة الشاملة لجميع من اتبع النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الصحابة وغيرهم إلى يوم القيامة، والجماعة الذين هم الصحابة خصهم بعد دخولهم فى العموم لشرفهم، فكأنه سأل الله أن يخصه باقتفاء طريق الخواص من أصحاب نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن سائر أمته، وهو كقول القائل: هب لنا ما وهبته لأوليائك وأحبابك، ويجوز أن يكون سأل أن يخص بخصيصى هذه الأمة وهما أبو بكر وعمر، رضى الله عنهما، حسبما ورد فى حديث ضعيف رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «إن لكل نبى خاصة من أصحابه وإن خاصتى أبو بكر وعمر، رضى الله عنهما»[1]، أخرجه البيهقى، رحمه الله تعالى، فى الفضائل.

ولا يكون من خواصهما إلا بسلوك طريقهما واقتفاء سنتهما، وعلى تقدير التنزل فى كون الزمرة والجماعة واحدة، فليس يمتنع الإتيان بلفظ التثنية مع إضافة لفظ الواحد، بل يقال: زيد وعمرو عالما البلد، انتهى باختصار لما أطال به مكررًا، فحذفنا منه ما لا حاجة لنا به.

وأنا أقول: إن السخاوى، رحمه الله تعالى، أطال لسانه على السيوطى، رحمه الله تعالى، وادعى أن علماء عصره كلهم وافقوه وكتبوا خطوطهم بنصرته، ولم أر ما قاله فى كتاب غير فتواه والحق أحق بالقبول، فإن الذى يقبله الطبع، ما قاله السيوطى، وهو

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٩٤/١٠)، وقال الهيثمى: فيه عبد الرحيم بن حماد الثقفى، وهو ضعيف.

أن خصيصى مصدر، فإن النقل والعقل شاهدان له، أما الأول فإن الموجود فى كتب اللغة كلها ذكر خصيصى.

وقول السخاوى أنه لا حصر فى كلامهم مسلم، لكنه لا يفيد إثبات كلمة لم يذكرها أهل اللغة، ولم تسمع فى كلام أحد من العرب، وأما الثانى فإن معناه فى غاية الظهور وكونه مثنى مرادًا به العمرين لم يدل عليه سياق ولا سباق، إلا أن قول الجلال أنه لا يضاف إلا إلى اثنين لا وجه له كما قاله السخاوى.

(ويحشرنا)، أى يجمعنا فى الحشر **(فى الرعيل الأول)** الرعيل والرعل القطعة من الخيل وجماعة منها، والرعيل الأول السابقون من الفرسان، ثم كنى به عن كل سابق للخير، والفعل الحسن يتمدح به كما قال حسان، رضى الله تعالى عنه[1]:

شتم الأنوف من الرعيل الأول

فالمراد به هنا من يبادر لفعل الخير ممن يكرمه الله بدخول الجنة قبل غيره، وهم بعد الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، العلماء العاملون **(وأهل الباب الأيمن)**، أى أصحاب اليمين النيرات وجوهم ممن يؤتى كتابه بيمينه **(من أهل شفاعته)** وتقدم الكلام على ذلك **(ونحمده تعالى على ما هدى إليه من جمعه)**، أى جمع ما فيه مما يتعلق بغرضه **(وألهم)** الإلهام إلقاء الخبر فى القلب **(وفتح البصيرة)**، أى قوة النفس المدركة فى الباطن بمنزلة البصر فى الظاهر وجعلها كالعين تخييلا.

قال: **(لدرك)** بفتح فسكون، أى إدراك **(حقائق ما أودعناه وفهم ونستعيذه)**، أى نلجأ إليه **(جل اسمه)** وعز ذاته **(من دعاء لا يسمع)**، أى لا يجاب ولا يقبل، كقوله: سمع الله لمن حمده **(وعلم لا ينفع)** لعدم العمل به والإخلاص فيه **(وعمل لا يرفع)**، أى لا يقبل ولا يعتد به، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]، **(فهو الجواد)** بتخفيف الواو، بمعنى الكريم الكثير الجود، أى العطاء وهو من أسماء الله تعالى، كما ذكره ابن حجر.

وقد ثبت فى حديث صحيح ذكره النووى كالترمذى فى جامعه، والبيهقى فى الأسماء والصفات، واعتضد بمسند، وبالإجماع، خلافًا لمن أنكره **(الذى لا يخيب من أمله)** يخيب بوزن يزيد، أى لا يحرم من قصده، ويجوز تشديده فإن الكريم لا يخيب من قصده

---

(١) عجز بيت وصدره: «بيض الوجوه كريمة أحسابهم». والبيت من الكامل، وهو فى ديوان حسان بن ثابت (ص١٨٤)، ولسان العرب (٣٦٨/٥)، وتهذيب اللغة (١٧٨/١٣)، ومقاييس اللغة (٤٤٦/٣)،، وتاج العروس (١٩٧/١٥)، وبلا نسبة فى جمهرة اللغة (ص٧٠٤).

(ولا ينتصر من خذله) الخذلان ضد النصرة، ومن خذله الله لا يقدر أحد أن ينصره، ولا هادى لمن أضله **(ولا يرد دعوة القاصدين)** لسؤاله الراغبين لما عنده. وفى الحديث: «إن الله يستحى أن يرد يد عبده صفرا» إذا رفعها **(ولا يصلح عمل المفسدين)** فيمحقه ويبطله **(وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا)** ولما تم بفضل الله تعالى وتوفيقه هذا الشرح المبارك، **قلت:** مؤرخا له وراجيا قبوله وعود بركته علىَّ وعلى أحبابى وجميع المسلمين آمين آمين:

بجاه النبى الكريم الأجل ... ومن قد كسى المجد أسنى الحال
توسلت لله ربى الذى ... به لا يخيب من قد سأل
فإن الشفاء وما فيه من ... مناقبه للأمانى كفل
وقد تم شرح به أرتجى ... بأن يشرح الله صدرًا للعمل
ببرء السقام ومحو الذى ... جناه الصبا من عظيم الزلل
فيا سيد الرسل يا من ترى ... مواطئه إثمد للمقل
تقبل هديته إنها ... هدية عبد لمولى أجل
فآمال فالى قد أرختته ... تم الشفاء وصح الأمل
فصل وسلم ربى على ... مقام به نوره ما أفل
فلا زال مطلع شمس الهدى ... وروضته قيلة للقبل

(قال مؤلفه: وتم يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الثانى سنة ثمان وخمسين بعد الألف)

(على يد أضعف العباد أحمد شهاب الدين الخفاجى المصرى).

* * *

المحتويات